

تفسير ابن عطية
المحرر الوجيز
في
تفسير الكتاب العزيز

لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي
ولد سنة ٤٨١ وتوفي سنة ٥٤١
رحمة الله تعالى

دار ابن حزم



ابن عطية الأندلسي وكتابه المحرر الوجيز^(١)

٤٨٠ — ٥٤١

بقلم: مَجْد مكي

الحمد لله حقَّ حمده، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على مَنْ لا نبيَّ بعده، وآله وصحبه، وبعد:

فإنَّ القرن السادس الهجري من أخصب القرون وأكثرها عطاءً في مجال تفسير القرآن العظيم، ففي النصف الأول من هذا القرن ظهر أربعة من كبار المفسرين: اثنان من المشاركة، وهما: الزمخشري (ت ٥٣٨)، والبغوي (ت ٥١٦). واثنان من المغاربة، وهما: ابن عطية (ت ٥٤١)، وابن العربي (ت ٥٤٣)، ولكل واحد من هؤلاء المفسرين منهجٌ متميزٌ في تفسيره.

ويبرز من هؤلاء المفسرين الكبار في القرن السادس: الإمام القاضي أبو محمد عبدالحق بن غالب بن عطية الأندلسي رحمه الله تعالى.

أسرة ابن عطية العلمية وأثرها في نبوغه العلمي: ينحدر بنو عطية من سلالة عربية، ويتنمون إلى أصل عريق، فجدُّهم الذي انتسبوا إليه هو: عطية بن خالد بن خِفاف المُحاربي، أحد الجنود الذين قدموا لفتح الأندلس، ونزل قشتالة، وهي قرية تابعة لغرناطة. ووالده هو الإمام الحافظ أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب الأندلسي الغرناطي المالكي (٤٤١ - ٥١٨)، سمع من علماء الأندلس في عصره، وارتحل إلى المشرق، فحجَّ بيت الله الحرام. قال عنه تلميذه ابن بشكَّوَال في «الصلة» (٢: ٤٥٨): «كان حافظاً للحديث وطُرَّقه وعِلَّله، عارفاً بأسماء رجاله وتَقْلِيته، منسوباً إلى فهمه، ذاكرراً لمتونه ومعانيه، وقرأت بخط بعض أصحابنا أنه سمعه يذكر أنه كرَّر البخاري سبع مئة مرة». قال: «وكان أديباً شاعراً لغوياً، ديناً فاضلاً، أكثر الثَّابَس عنه، وكفَّ بصره في آخر عمره». وورث عبدالحق عن

(١) مصادر ترجمته: الصلة ٢: ٣٨٦ - ٣٨٧، بغية الملتبس: ٣٧٦، معجم ابن الأبار: ٢٦٩ - ٢٧٣، صلة الصلة، لابن الزبير: ٢، سير أعلام النبلاء: ١٩: ٥٨٧، الدبج المذهب ٢: ٥٧ - ٥٨، بغية الوعاة ٢: ٧٣ - ٧٤، طبقات المفسرين، للسيوطي: ١٦ - ١٧، طبقات المفسرين للدوادوي: ١: ٢٦٠ - ٢٦١، نفع الطيب ١: ٦٧٩، كشف الظنون ٤٣٩ و ١٦١٣، شجرة النور الزكية ١: ١٢٩، ومن الدراسات المعاصرة: منهج ابن عطية في تفسير القرآن الكريم لأستاذنا الدكتور عبد الوهاب فايد، نشر مجمع البحوث الإسلامية بالقاهرة ١٣٩٣، وجُل ما كتبه هنا استفدته منه، ومقدمة المحققين لطبعة قطر ١: ٢٠، ومقدمة فهرس ابن عطية ص ٩ - ٣٧ وذكر المحققان أنَّ للأستاذ صالح باجية دراسة عن ابن عطية وتفسيره أعدها لنيل الدكتوراة بإشراف الدكتور علي الشامي، ونوقشت بالكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين سنة ١٤٠١.

هذه الأسرة ما كان لها من مواهب علمية، فَلَا حَتْ عَلَيْهِ إِمَارَات النُبُوغ، ومخايل الذكاء منذ نعومة أظفاره.

ولادته وعصره: ولد سنة ٤٨١ بعد عامين من معركة الزلاقة التي انتصر فيها المرابطون بقيادة يوسف بن تاشفين على الجيوش النصرانية. وعاش في عصر المرابطين الذين قضوا على الخطر الصليبي الذي كان يُهدد المسلمين، وقضوا على حكم ملوك الطوائف في الأندلس.

عاصر ابن عطية العهد المرابطي منذ دخوله الأندلس إلى نهايته، وقد انتعشت الحركة العلمية في عصرهم، وانتشرت المدارس، وقد حفلت كتب التراجم والطبقات بتراجم كثير من المفسرين والمحدثين والفقهاء والنحاة واللغويين والمؤرخين الذين نبغوا في هذا العصر المرابطي.

شيوخه: تتلمذ ابن عطية على كثير من شيوخ عصره، تكوّنت على أيديهم شخصيته العلمية، ونمت ملكاته ومواهبه^(١). وفي مقدمة شيوخه والده الحافظ أبو بكر غالب بن عبدالرحمن (٤٤١ - ٥١٨)، والحافظ الناقد أبو علي العسائي (٤٢٧ - ٤٩٨)، والحافظ أبو علي الصّدفي (ت ٥١٤)، والإمام المقرئ ابن البادش (٤٤٤ - ٥٢٨)، والفقهاء أبو محمد عبدالرحمن بن محمد بن عتاب القرطبي (٤٣٣ - ٥٢٠).

نشأة ابن عطية العلمية: نشأ ابن عطية أول ما نشأ في مدينة غرناطة، وكانت حافلة بمدارس العلم، وأقبل على طلب العلم بجدّ ونشاط، بفضل رعاية والده وحسن توجيهه، وقد استمرت هذه الرعاية إلى الوقت الذي قام فيه عبدالحقّ بكتابة تفسيره.

ذكر الضبي في «بغية الملتمس» (ص ٤٢٧): أن والده كان ربما أيقظ ابنه في الليل مرّتين، يقول له: «قم يا بني، اكتب كذا وكذا في موضع كذا من تفسيرك». وقرأ على والده كتب الحديث والتفسير والفقه واللغة، كما أنه استجاز له بعض الإجازات العلمية. وسعى عبدالحقّ للقاء العلماء واستجازتهم، ومنهم محمد بن أبي غالب القيرواني استجازه عند دخوله غرناطة سنة ٤٩٤ ولم يتجاوز عمره ثلاثة عشر عاماً، ولقي أبا علي العسائي واستجازه سنة ٤٩٥، وكان يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً. ولم يقنع بالإجازة العلمية، فارتحل إلى عواصم الأندلس وحواضرها لقراءة الكتب على الشيوخ، هذا ولم يبلغ ابن عطية من العمر عشرين عاماً حتى كان قد أتصل بأعظم علماء الأندلس، فرحل إلى قرطبة، وإشبيلية، ومرسية، وبلنسية، وحيّان.

مكانته العلمية: أجمع الذين ترجموا له على سعة معرفته وتفننه في العلوم. قال ابن بشكوال في «الصلة»: «كان واسع المعرفة، قويّ الأدب، متفنناً في العلوم». وقال ابن فرحون في «الديباج المذهب» (ص ١٧٤): «كان القاضي أبو محمد عبدالحق، فقيهاً عالمياً بالتفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو واللغة والأدب». وقال الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (١٩: ٥٨٧): «الإمام العلامة، شيخ المفسرين. . . وكان إماماً في الفقه، وفي التفسير، وفي العربية، قويّ المشاركة، ذكياً فطناً مُدركاً، من أوعية العلم».

آثاره العلمية: وأكبر دليل على تبحره في العلم، وتفننه فيه، ما أنتجه هذا الإمام، وما تركه من آثار علمية وأدبية، تشهد له بالإمامة. وقد تجلّت هذه الآثار في مجالات ثلاثة: مجال التأليف، ومجال الشعر والأدب، ومجال

(١) وقد ترجم لشيخه في «فهرسه» وقال في مقدمته: «هذه تسمية من لقيته من الشيوخ حَمَلَة العلم، وذكر ما روته عنهم، ومن أجازني» وبلغ عددهم ٣٠ شيخاً. وقال في خاتمة «فهرسه»: هذا ذكر من لقيته من الشيوخ الذين رَوَيْت عنهم - أسأل الله أن ينفعي بصحتهم - وذكر من حدثني ممن لم ألقه» وقد صدر «فهرسه» بتحقيق الأستاذين محمد أبو الأجناف ومحمد الزاهي، وصدرت الطبعة الأولى عن دار الغرب الإسلامي ١٩٨٠.

التلمذة عليه. ففي مجال التأليف وضع كتابه العظيم في تفسير القرآن الكريم - وسيأتي الحديث عنه -، وألف «فهرسة» ضمّنها مروياته وأسماء شيوخه. وأما مجال الشعر والأدب، فقد كان ابن عطية شاعراً كبيراً. ومن شعره يصف الزمان وأهله:

داء يعمزُّ له العلاج
ودأ كما سَطَعَ السُّراج
في من قنناتهم اعوجاج
مرأى ومطعمهم أجاج
فإذا اختبرت فهُم زجاج

داء الزمان وأهلِهِ
أطلعت في ظلمائه
لصحابة أعياننا
أخلاقهم ماء صفا
كالدُرِّ ما لم تَخْتبر
وله يتخلق بأخلاق الشيب ويندب الشباب:

ربعانه وليالي العيش أسحارُ
ورونقُ العمر غُضْرُ والهوى جازُ

سقياً لعهد شباب ظلّلت أُمّرح في
أيامِ روضِ الضِّبالم تذو أغصنُهُ

وأما مجال التلاميذ، فقد رحلوا إليه من كلِّ مكان، وانتفع به خلقٌ كثير، وأذكر من هؤلاء على سبيل المثال^(١): الإمام الحافظ أبو بكر محمد بن خير الإشبيلي (ت ٥٧٥)، والإمام الحافظ أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد المعروف بابن حبيش (٥٠٤ - ٥٨٤)، وقد قرأ ابن حبيش على ابن عطية جميع تفسيره بالمرية، والإمام الفقيه أبو بكر محمد بن أحمد بن عبدالملك بن أبي جمرة المرسي (٥١٨ - ٥٩٩)، والإمام النحوي أبو جعفر أحمد بن عبدالرحمن بن مضاء اللخمي القرطبي (ت ٥٩٣).

ولايته القضاء: وولي خطة القضاء في مدينة (المُرّيّة) سنة ٥٢٩ في آخر دولة المرابطين. قال ابن فرحون في «الديباج المذهب» (ص ١٢٥): «ولما وليّ - يعني قضاء المرية - توخّى الحق، وعدل في الحكم، وأعزّ الخطة». وظلّ في هذا المنصب أكثر من عشر سنوات. قال النباهي في «تاريخ قضاة الأندلس» (ص ١٠٩): «قصد (مرسية)، مولى قضاءها، فصدّ عن دخولها، وصرف منها إلى (لورقة) اعتداءً عليه، فتوفي بها رحمه الله تعالى». **وفاته:** تُوفي بحصن لورقة في منتصف رمضان سنة ٥٤١ عن ستين عاماً.

تفسير ابن عطية

تاريخ تأليفه: بدأ ابن عطية في وضع هذا التفسير في وقت مبكر من حياته، فقد سبق في نشأته أن والده الفقيه أبا بكر غالب بن عبدالرحمن كان ربما أيقظ ابنه أبا محمد عبدالحق في الليلة مرتين، يقول له: قم يا بني اكتب كذا وكذا في موضع كذا من تفسيرك. وهذا يدلُّ على أن أباه المتوفى سنة ٥١٨ كان يحثُّه على كتابة هذا التفسير، ويشجِّعه على الاستمرار فيه، ويوقظه بالليل كثيراً، يأمره بأن يضع في تفسيره بعض المعاني التي تجول في خاطره. فابن عطية بدأ في تفسيره قبل وفاة أبيه، وقد كان في ذلك الوقت في عتفوان شبابه، إذ كان في حدود الثلاثين، وقد مكث في تأليفه مدة طويلة، ولقي الكثير من المتاعب والمشاق، ويشير إلى ذلك في مقدمة تفسيره حيث يقول: «وأنا

(١) يُنظر مقدمة تحقيق فهرس ابن عطية، فقد عرف بعشرين تلميذاً من تلاميذ ابن عطية ص ١٥ - ١٩.

وإن كُنْتُ من المقصّرين فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيراً من علم التفسير، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير، وعمرت به زمني، واستفرغت فيه مِنِّي، إذ كتاب الله عزَّ وجلَّ لا يفسَّر إلا بتعريف جميع العلوم فيه، وجعلته ثمرة وجودي، ونخبة مجهودي».

الباعث على تأليفه: ويذكر ابن عطية في مقدمة تفسيره الباعث له على تأليف هذا التفسير، فقال: أنه أراد أن يختار لنفسه، وينظر في علم يعدُّ أنواره لظلم رُئسِه، فعلم أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم، ووَجِد أن علم كتاب الله هو أمتنُ العلوم جبالاً، وأرسخها جبالاً، وأجملها آثاراً، وأسطعها أنواراً، وأيقن أنه أعظم العلوم تقريباً إلى الله تعالى، وتخليصاً للنبئات، ونهياً عن الباطل، وحصاً على الصالحات، ورجا من وراء اشتغاله بهذا العلم أن الله تعالى يُحرِّم على النار فكراً عَمَرْتُهُ أكثر عُمره معانيه، ولساناً مَرَّن على آياته ومثانيه، ونفساً مَيَّزت براعة رُضِفِه ومبانيه، وجالت في ميادينه ومعانيه، ومن أجل ذلك كله، نثني إلى هذا العلم عِنان النظر، وأقطعها جانب الفكر، وجعله فائدة العمر، ثم فرغ إلى كتابة هذا التفسير.

مقدمة تفسيره: وقد مضى ابن عطية في تفسيره بنفس طويل، بعد أن قدَّم بين يدي تفسيره بمقدِّمات تعطي القارئ بيانات هامة، وتمدُّه بأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم^(١).

وتشمل هذه المقدمات ما يلي:

ما ورد عن النبي ﷺ وعن الصحابة، وعن نبيه العلماء في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به:

فضل تفسير القرآن والكلام على لفته، والنظر في إعرابه ودقائق معانيه.

ما قيل في الكلام في تفسير القرآن، والجرأة عليه، ومراتب المفسرين.

معنى قول النبي ﷺ: «إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فاقرؤوا ما تيسر منه».

ذكر جَمْع القرآن وشكَّله ونَقَطه وتحزيبه وتُعشيره.

ذكر الألفاظ التي في كتاب الله وللغات العجم بها تعلق.

نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن.

الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها في تفسير كتاب الله تعالى.

تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية.

مصادر ابن عطية في تفسيره: مصادر ابن عطية في تفسيره كثيرة متنوعّة، في التفسير، والقراءات، والحديث، واللغة والنحو.

مصادره من كتب التفسير: من أهم كتب التفسير المشرقية التي تأثر بها ابن عطية وأفاد منها تفسير ابن جرير الطبري (ت ٣١٠) المسمّى «جامع البيان»، وأفاد منه في عناية بالمأثور، إلا أنه حذف الأسانيد، كما تأثر به في كثير من الآراء. ولم يكن موقفه الناقل الموافق، بل كان كثيراً ما يخالف الطبري، ويناقش أقواله، كما في مناقشته في قصة شك إبراهيم في إحياء الموتى [البقرة].

ومن كتب التفسير التي استقى منها: تفسير النقّاش المسمّى «شفاء الصدور» ومؤلفه هو: أبو بكر محمد بن الحسن بن زياد الموصلي (ت ٣٥١) وهو متهم بالكذب في الحديث. كما تأثر في تفسيره بمصادر مغربية كتفسير

(١) طبع مقدمة ابن عطية مع مقدمة تفسيرية أخرى المستشرق الأسترالي (آرثر جفري) الذي كان أستاذاً في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، وقد نشر هاتين المقدمتين تحت عنوان: «مقدمتان في علوم القرآن» في القاهرة سنة ١٩٥٤. وفي نشرته الكثير من التحريف والخطأ.

المهدوي، وأندلسية كتفسير مكي بن أبي طالب القيسي. أما تفسير المهدوي، فهو المسمى «التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل» ومؤلفه هو: أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي (ت ٤٤٠). وأما تفسير مكي فهو كتاب «الهداية إلى بلوغ النهاية في علم معاني القرآن وتفسيره وأحكامه وجمل من فنون علومه» ومؤلفه: أبو محمد مكي بن أبي طالب القيسي (ت ٤٣٧).

مصادره من كتب القراءات: مصادر ابن عطية في كتب القراءات كثيرة من أبرزها: كتاب «الحجّة في علل القراءات السبع» لأبي علي الحسن بن أحمد الفارسي (ت ٣٧٧)، وقد اعتمد عليه اعتماداً كبيراً، واستشهد بكثير من نصوصه وعباراته، كما ناقش أقواله، وانتقد بعض آرائه.

ومن مصادره: «المُختَسَب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها» لأبي الفتح عثمان بن جني (ت ٣٩٢)، وكتب أبي عمرو الداني (ت ٤٤٤) مثل: «التيسير» و«جامع البيان في القراءات».

مصادره من كتب الحديث: ذكر ابن عطية في مقام الاستشهاد في تفسيره كثيراً من الأحاديث النبوية، واعتمد على مصنفات الحديث المشهورة، مثل: «الجامع الصحيح» للبخاري، و«المسند الصحيح» لمسلم، و«السنن» لأبي داود، والترمذي، والنسائي.

مصادره من كتب اللغة والنحو: استمدّ ابن عطية المادة اللغوية والنحوية في تفسيره من مصادر كثيرة، مثل: «معاني القرآن» للفراء (ت ٢٠٧)، وللزجاج (ت ٣١١)، و«مجاز القرآن» لأبي عبيدة مَعْمَر بن المشني (ت ٢٠٩)، وكتاب «الأغفال» للفارسي (ت ٣٧٧)، و«العين» للخليل بن أحمد (ت ١٧٥)، و«إصلاح المنطق» لابن السكيت (ت ٢٩١)، و«المجمل» لابن فارس (ت ٣٩٥)، و«الكتاب» لسيبويه (ت ١٨٨)، و«المُقتَضِب» للمبرد (ت ٢٨٥).

مصادره من كتب الفقه: كان ابن عطية مالكي المذهب، ولقد استمدّ المادة الفقهية في تفسيره من أمّهات كتب المذهب المالكي، مثل «المدوّنة» لسحنون بن سعيد (ت ٢٤٠)، و«الواضحة» لعبدالمكّ بن حبيب (ت ٢٣٨)، و«التفريح» لأبي القاسم بن الجلاب (ت ٣٧٨)، كما اعتمد ابن عطية في مسائل الخلاف بين أصحاب المذاهب الفقهية على كتاب «الإشراف على مذاهب أهل العلم في الاجتماع والاختلاف» لأبي بكر محمد بن إبراهيم بن المنذر النيسابوري (ت ٣٠٩).

مصادره من كتب التوحيد: انتفع ابن عطية في مجال التوحيد بكتب الإمام أبي الحسن الأشعري (ت ٣٣٤)، وكتب القاضي أبي بكر الباقلاني ك «التمهيد» وغيره، وكتب أبي المعالي الجويني إمام الحرمين (ت ٤٧٨) ك «الإرشاد» وغيره.

منهج ابن عطية في التفسير

يقوم منهج ابن عطية في تفسيره على عدة أسس، نبرزها فيما يلي:

جمعه بين المأثور والرأي:

جمع ابن عطية في تفسيره بين المأثور والرأي الذي يقوم على قوانين العلم والنظر السديد. وقد تجلّت عناية ابن عطية بالمأثور فيما ذكره في تفسيره من الأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين. ولكنه لا يلتزم بتخريج الأحاديث

النبوية، ونسبتها إلى مصادرها، في بعض الأحيان. ومما ينبه عليه أنه أورد في تفسيره أحاديث ضعيفة في غاية الضعف، بل موضوعة، وهو أمر يُؤخذ عليه، ويُنتقد تفسيره بسببه. كالحديث الذي أوردته في فضل آية الكرسي، أنه وقع في نفس موسى: هل ينام الله عز وجل؟ وهو حديث منكر. قال ابن كثير في «تفسيره»: «هذا حديث غريب جداً، والأظهر أنه إسرائيلي لا مرفوع». وكذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُعْمِلُونَ الصَّالِحَاتِ وَيَتَّقُونَ الزُّكُوتَ وَهُمْ ذَكَرُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]، وذكر حديث تصدق عليّ بخاتمه وهو راجع. وهو حديث موضوع.

موقفه من الإسرائيليات: قلل ابن عطية في تفسيره من ذكر الروايات الإسرائيلية، ونعى على المفسرين إكثارهم منها، وتناول في تفسيره كثيراً من هذه الروايات بالنقد والتحصيص. وذكر في مقدمة تفسيره أنه لا يذكر من القصص الإسرائيلية إلا ما لا تنفك الآية إلا به. ولذلك نجده يختصر من ذكر الروايات الإسرائيلية. قال ابن عطية بعد أن أورد شيئاً مما قاله المفسرون في قصة الملكين هاروت وماروت: «وهذا القصص يزيد في بعض الروايات وينقص في بعض، ولا نقطع منه بشيء، فلذلك اختصرته» [البقرة: ١٠٢]. كما أنه عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ...﴾ [البقرة: ٢٤٨]. يذكر اختلاف المتأولين في كيفية إتيان التابوت، وكيف كان بدء أمره، ثم يعقب على ذلك فيقول: «وكثر الرواة في قصص التابوت، وصورة حملته، بما لم أر لإثباته وجهاً، للين إسناده». ولم يستطع ابن عطية أن يتخلص من رواية الإسرائيليات، وقد ذكر طرفاً منها دون أن يعقب عليها، متأثراً بالطابع العام الذي طغى على كتب التفسير في عصره.

اتجاهه في تفسيره إلى اللغة والنحو: أقام ابن عطية تفسيره على أساس من اللغة والنحو، في بيان معاني المفردات وإعراب الكلمات، وتصريف المشتقات^(١). فعني عناية تامة بتحديد معنى الكلمات، وشرح مدلولات المفردات. ولذلك يقول في مقدمة تفسيره: «وقصّدت تتبع الألفاظ حتى لا يقع طفرٌ كما في كثير من كتب المفسرين» والطفر: الثوب والقفز، ويعني به هنا: تخطّي وجه الصواب إلى الخطأ في معاني الألفاظ القرآنية. ويكثر في تفسيره من الشواهد الشعرية على معاني القرآن، كما يكثر من ذكر الوجوه الإعرابية في الآية، وبيان المذاهب النحوية^(٢)، كما يرجع بعض الآراء النحوية، ويرد على الآراء الضعيفة.

إقلاله من الأسرار البلاغية في تفسيره: لم يُغنِ ابن عطية كثيراً في تفسيره بالأسرار البيانية، والنكات البلاغية، ووجوه الإعجاز البياني، مع أنه يرى أن وجه إعجاز القرآن هو نظمه، وصحة معانيه، وفصاحة ألفاظه. والسُرُّ في ذلك - كما يبيّن الدكتور عبدالوهاب فايد - أن ابن عطية كغيره من الأندلسيين والمغاربة لم يشغل نفسه كثيراً في علوم البلاغة والبيان، ولم يعكف على دراستها والتعمق في مسائلها. يضاف إلى ذلك أن ابن عطية ضيق دائرة المجاز في القرآن، حيث أنه كان يرى أنه لا مجاز فيما تتأتى فيه الحقيقة. ومن المعلوم أن المجاز بأقسامه هو أهم الفصول في الدراسات البلاغية. على أن تفسير ابن عطية لم يخل من صور بيانية وبلاغية ذكرها، ككلامه عن التشبيه، والاستعارة، والمجاز، والإيجاز، وأبرز بعض الأسرار البلاغية في التعبير القرآني.

توجيه القراءات المستعملة والشاذة: أورد ابن عطية في تفسيره القراءات المستعملة والشاذة، وبين ما تحتمله هذه القراءات من المعاني. قال في مقدمة تفسيره: «وقصّدت إيراد جميع القراءات، مستعملها وشاذها، واعتمدت تبيين المعاني وجميع محتملات الألفاظ». وقام بتوجيه هذه القراءات، وكان له نظرات صادقة وآراء سديدة،

(١) انظر مثلاً: كلامه حول اشتقاق لفظ الملائكة عند تفسيره الآية ٣٠ من سورة البقرة.

(٢) انظر مثلاً: ذكره لمذاهب النحاة البصريين والكوفيين في إعراب كلمة (بسم) في مقدمة تفسيره.

وجهود موفقة^(١)، كما ينتقد الوجوه الضعيفة التي ذكرها بعض العلماء^(٢).

منهجه في عرض الأحكام الفقهية: كان ابن عطية إماماً من أئمة المالكية، وفقهياً من كبار فقهاءهم. وذكر في تفسيره أقوال علماء المالكية في المسائل الفقهية وذكر إلى جانب ذلك اجتهادات الفقهاء الأخرى. ونجده يفضل القول في المسألة الواحدة، فيذكر ما قاله علماء المالكية، وما دونوه في كتبهم^(٣). وابن عطية - وهو يعرض للمذاهب الفقهية في تفسيره - لا يرتضي مذهب داود الظاهري، ومتابعة ابن حزم الأندلسي له^(٤). كما يرد بعض الأقوال الضعيفة التي تنقل في بعض المذاهب الفقهية.

تهمة الاعتزال في تفسير ابن عطية: لقد وُجِّهت تهمة الاعتزال إلى تفسير ابن عطية من عالمين كبيرين: أحدهما: هو شيخ الإسلام ابن تيمية (ت ٧٢٨). قال في مقدمة «أصول التفسير»: «... وتفسيرُ ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة، وأسلم من البدعة من تفسير «الكشاف»... ثم إنه يدَّع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين، وإنما يعني بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم، وإن كانوا أقرب إلى السنة من المعتزلة، لكن ينبغي أن يُعطى كل ذي حقَّ حقه، ويُعرف أن هذا من جملة التفسير على المذهب». وقال ابن تيمية في «الفتاوى»: «وتفسير ابن عطية خيرٌ من تفسير الزمخشري، وأصحُّ نقلاً، وأبعد عن البدع - وإن اشتمل على بعضها - بل هو خيرٌ منه بكثير، بل لعلَّه أرجح هذه التفاسير». وكذلك اتَّهم الإمام ابن حجر الهيثمي (ت ٩٧٣) ابن عطية بالاعتزال، ونقل في «الفتاوى الحديشية» (ص ١٧٢) عن ابن عرفة المالكي أن تفسير ابن عطية - في نظره - أخطر من تفسير «الكشاف»؛ لأن الزمخشري اشتهر بين الناس أمره بالاعتزال، فكانوا في تفسيره على حذر، أما ابن عطية فعُرف أنه سنيٌّ، ولكنه يدسُّ الاعتزال في تفسيره... وقد قام بمناقشة هذه التهمة أستاذنا الدكتور عبدالوهاب فايد في كتابه «منهج ابن عطية في تفسير القرآن» (ص ٢٢١ - ٢٦٢) ويبيِّن أنها لا تعتمد على أساس صحيح، وأثبت أن ابن عطية كان يتمسُّ في تفسيره مع مذهب أهل السنة، ولا يحيد عنه، وأنه كان يقوم بالرد على آراء المعتزلة، وانتهى بعد دراسة طويلة متأنية إلى أن تهمة الاعتزال التي نسبت إلى ابن عطية مرفوضة شكلاً وموضوعاً.

القيمة العلمية لتفسير ابن عطية: لقد أجمع العلماء الذين ترجموا لابن عطية أن تفسيره له شأن عظيم. وإليك طائفة من أقوالهم:

قال ابن عميرة الضبي (ت ٥٩٩) في «بغية الملتبس في رجال الأندلس» (ص ٣٧٦): «ألف - يعني ابن عطية - في التفسير كتاباً ضخماً أربى فيه على كلِّ من تقدَّم...».

وقال ابن الأبار (ت ٦٥٨) في «المعجم في أصحاب أبي علي الصِّدفي» (ص ٢٦١): «وتأليفه في التفسير جليل الفائدة، كتبه الناس كثيراً، وسمعوا منه، وأخذوه عنه».

(١) انظر مثلاً: توجيهه لقراءة (ننشزها) في قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ الظُّلُمَاتِ كَيْفَ تُنِيرُهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، وتوجيهه لقراءة ﴿يَخْلُوتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّكَ مِنَ الَّذِينَ يَخْلُوتُ أَنْتُمْ اللَّهُ عَلَيْهِمَا﴾ [المائدة: ٢٣].

(٢) كما في قراءة ﴿وَالصَّيُوتُ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ قَادُوا وَالصَّيُوتُ وَالصَّيُوتُ﴾ [المائدة: ٦٩]، وقراءة ﴿يَسْهَرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُسْهَرُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

(٣) انظر مثلاً: كلامه عن الهيئات التي تؤدى عليها الصلاة حالة الغدر عند تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا...﴾ [آل عمران: ١٩١]. وتفصيله في دخول المرافق في الوضوء أم لا، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ إِلَىٰ الْمَرَاقِقِ﴾ [النساء: ١٠٣].

(٤) انظر مثلاً: رده عليه في المريض الذي يجوز له التيمم في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرِيضِينَ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ...﴾ [النساء: ٤٣]، وكذلك تضعيفه مذهب أهل الظاهر.

وقال علي بن سعيد (ت ٦٨٥) كما في «نفع الطيب» (٣: ١٧٩): «ولأبي محمد بن عطية الغرناطي في تفسير القرآن الكتاب الكبير الذي اشتهر وطار في الغرب والشرق، وصاحبه من فضلاء المائة السادسة».

وقال أبو الحسن النباهي (ت قبل سنة ٨٠٠) في «تاريخ قضاة الأندلس» (ص ١٠٩): «وَأَلَّفَ كتابه المسمى بالوجيز في التفسير، فجاء من أحسن تأليف، وأبدع تصنيف».

وقال الإمام المفسر محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي الغرناطي (ت ٧٤١) في مقدمة تفسيره «التسهيل لعلوم التنزيل» (١: ١٠): «وأما ابن عطية، فكتابه في التفسير أحسن التأليف وأعدلها، فإنه أطلع على تأليف مَنْ كان قبله، فهذبها ولخّصها، وهو - مع ذلك - حسن العبارة، مُسَدِّد النظر، محافظ على الستة».

وقال الإمام المفسر أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥) في مقدمة تفسيره «البحر المحيط» (١: ٩): «مثنياً على تفسيرَي الزمخشري وابن عطية: «إنهما أجلُّ مَنْ صنَّف في علم التفسير، وأفضل مَنْ تعرض للتفكيح والتحرير» كما يقول عن كتابيهما: «إنهما أنجدا وأغارا، وأشرفا في سماء هذا العلم يَدْرِيْن وأَنارا، وتنزلاً من الكتب التفسيرية منزلة الإنسان من العيمن، والذهب الإبريز من العيمن، وبيتمة الدهر من اللآلي، وليلة القدر من الليالي».

وقال ابن خلدون في «مقدمته» (٣: ٩٩٨): «فلما رجع الناس إلى التحقيق والمتمحيص، وجاء أبو محمد بن عطية من المتأخرين بالمغرب، فلخّص تلك التفاسير كلها، وتحزّى ما هو أقرب إلى الصحة منها، ووضع ذلك في كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس، حسن المَنْحَى».

وقال الإمام المفسر المحدث السيوطي (ت ٩١١) في «بغية الوعاة» (ص ٢٩٥): «وَأَلَّفَ تفسير القرآن الكريم، وهو أصدق شاهد له بإمامته في العربية وغيرها».

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور في المقدمة الأولى من مقدمات تفسيره «التحرير والتنوير» (١: ١٤): «مقارناً بين تفسير ابن عطية والزمخشري: «كلاهما يغوص على معاني الآيات، ويأتي بشواهدا من كلام العرب. ويذكر كلام المفسرين، إلا أن منحى البلاغة والعربية بالزمخشري أحض، ومنحى الشريعة على ابن عطية أغلب، وكلاهما عضدتا الباب، ومرجع مَنْ بعدهما من أولي الألباب».

تأثر المفسرين المغاربة بتفسير ابن عطية

كان لتفسير ابن عطية أثر كبير فيمن جاء بعده من المفسرين المغاربة، وقد ظهر هذا الأثر واضحاً جلياً في أربعة من كتب التفسير، وهذه الكتب هي:

- ١ - الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله محمد بن أحمد القرطبي (ت ٦٧١).
- ٢ - التسهيل لعلوم التنزيل، لأبي القاسم محمد بن أحمد بن جُزي الكلبي الغرناطي (ت شهيداً ٧٤١).
- ٣ - البحر المحيط، لأبي حيان محمد بن يوسف الغرناطي (ت ٧٤٥).
- ٤ - الجواهر الحسان في تفسير القرآن، لأبي زيد عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي الجزائري (ت ٨٧٦).

تأثر القرطبي بتفسير ابن عطية في كتابه «الجامع لأحكام القرآن»: لقد تأثر القرطبي بتفسير ابن عطية منهجاً وموضوعاً، ونقل الكثير من نصوصه في تفسيره، ونسب هذه النصوص إليه، وأغفل ذلك في بعض الأحيان. وتناول القرطبي الكثير من كلام ابن عطية بالشرح والتعليق، وطوراً بالنقد والتعقيب^(١). ومما تميّز به

القرطبي في «تفسيره» تخريج الأحاديث النبوية التي أوردها في تفسيره، إلا أنه تابع ابن عطية في إيراد بعض الأحاديث الضعيفة والموضوعة^(١).

تأثر ابن جزي بتفسير ابن عطية في كتابه «التسهيل»: يعدُّ تفسير ابن عطية مصدراً أساسياً وهاماً لكتاب «التسهيل»، وقد اعتبره «أحسن التأليف وأعدلها» كما في مقدمة تفسيره. ومن مظاهر تأثر ابن جزي بابن عطية: وضُّه لمقدمة في علوم القرآن قَدَّم بها لتفسيره، وهي تشبه إلى حد كبير مقدمة ابن عطية، وتردَّد اسم ابن عطية في تفسير ابن جزي، ويقتبس منه في بعض الأحيان دون أن يشير إليه، ويقلده في اختياراته لبعض الأقوال أو نقده وتضعيفه لها. كما يناقشه في بعض المواضع^(٢).

تأثر أبي حيَّان بتفسير ابن عطية في كتابه «البحر المحيط»: لقد نوَّه أبو حيَّان في مقدمة تفسيره بابن عطية، وكان تفسير ابن عطية في مقدمة التفاسير التي أفاد منها أبو حيَّان فائدة عظيمة، وانتفع بها انتفاعاً كبيراً، وتأثر بها تأثراً بالغاً. وقد عُني في تفسيره بالمدلول اللغوي، والإعراب النحوي، وجمع القراءات المستعملة وتوجيهها، ونقل في كتابه كثيراً من نصوص هذا التفسير، ونسب النقول إليه بدقة، وتناول كلامه بالشرح والتحليل تارة، وبالتنقد والمناقشة تارة أخرى. ولا تكاد تخلو صفحة من صفحات تفسيره إلا وله فيها رد على ابن عطية أو مناقشة له، وتعقيباته - في أغلب الأحيان - ترجع إلى النحو والقراءات. ونظراً لكثرة ما أثاره أبو حيَّان في كتابه «البحر» مع ابن عطية من الانتقادات والتعقيبات النحوية قام أحد تلاميذه، وهو تاج الدين أحمد بن عبدالقادر بن مكتوم (ت ٧٤٩هـ) فجمع تعقيبات أبي حيَّان على ابن عطية، وتعقيباته كذلك على الزمخشري في كتاب أسماه: «الدر اللقيط من البحر المحيط»، وهو مطبوع على حاشية «البحر المحيط». كما قام أحد العلماء، وهو يحيى بن محمد الشادي (ت ١٠٩٦هـ) بتأليف كتاب في هذا الموضوع باسم: «المحاكمات بين أبي حيَّان وابن عطية والزمخشري» ناقش فيه أبا حيَّان في ردوده ومناقشاته.

اختصار الثعالبي لتفسير ابن عطية في كتابه «الجواهر الحسان»: لقد قام الإمام عبدالرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي في تفسيره «الجواهر الحسان في تفسير القرآن» باختصار تفسير ابن عطية، ثم أضاف إليه بعض الفوائد التي أخذها من كتب المفسرين السابقين وغيرهم. يقول في مقدمة تفسيره (١: ٣): «فإني جمعت لنفسي ولك في هذا المختصر ما أرجو أن يُقرَّ الله به عيني وعينك في الدارين، فقد ضُمَّنته - بحمد الله - المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية، وزدته فوائد جمة من غيره من كتب الأئمة، وثقات أعلام هذه الأمة. . ولم أنقل شيئاً من ذلك بالمعنى، خوف الوقوع في الزلل، وإنما هي عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه». وقد حذف الثعالبي في «تفسيره» الشواهد الشعرية، والوجوه النحوية، وأقلَّ من ذكر القراءات. ولم تنحصر مهمته في النقل من تفسير ابن عطية، بل كان له جهود في التعليق على «تفسيره»، والتعقيب عليه، ومن ذلك: تخريج الأحاديث التي أوردها ابن عطية من غير تخريج، وتعليقه على كلام ابن عطية بما يزيده وضوحاً وبياناً^(٣). هذا، وقد أُلِّف

(١) انظر أمثلة على تساهل القرطبي رحمه الله تعالى في إيراد بعض الأحاديث المنكرة والموضوعة في مواضع من «تفسيره»، وخالف عاداته في إيراد الأحاديث معزوة إلى مصادرها ومخرجيها في «التعليقات الحافلة» لشيخنا العلامة عبدالفتاح أبو غدة رحمه الله تعالى على «الأجوبة الفاضلة للأسئلة العشرة الكاملة» ص ١٣٦ - ١٣٩.

(٢) انظر: كتاب ابن جزي ومنهجه في التفسير للأستاذ الشيخ علي محمد الزبير رحمه الله تعالى ١: ٢٨١ - ٢٨٦، وقد أغفل أستاذنا الدكتور عبدالوهاب في مبحث تأثر المغاربة بتفسير ابن عطية في رسالته القيمة «منهج ابن عطية» تأثر ابن جزي به.

(٣) منهج ابن عطية في تفسير القرآن ص ٢٩٤ - ٢٩٩.

عبدالعزیز بن بزیرة التیمی التونسی تفسیراً جمع فیہ بین ابن عطیة والزمرخسری، وتوفی ابن بزیرة سنة ٦٦٢. ومن كبار المفسرين المغاربة الذين تأثروا بابن عطية من المعاصرين العلامة الإمام المفسر محمد الطاهر بن عاشور في كتابه «التحرير والتنوير». ومع عناية المغاربة بتفسير ابن عطية، فقد ذاع صيته حتى عند علماء المشاركة. قال ابن فرحون في «الديباج» (١: ٤٥٥) في ترجمة عمه العلامة أبي محمد عبدالله بن فرحون اليعمری المدني المولد والمنشأ المتوفى سنة ٧٦٩: «سمعته يقول: لازمت تفسير ابن عطية حتى كدت أحفظه»^(١).

طباعات هذا التفسير: بقي هذا التفسير حبيس الخزائن والمخطوطات الدفينة، ولم تتوجه الهمم إلى طباعته مع النهضة العلمية التي توجهت لطباعة أمهات كتب التفسير، إلى أن قامت وزارة الأوقاف المغربية بخدمة الكتاب وطباعته، بتحقيق المجلس العلمي للقرويين بفاس معتمدة في نشره على عدة نسخ منها نسخة من خزانة القرويين، والخزانة الناصرية، ومن سوس ومراكش وغيرها. وصدر سنة ١٣٩٥ في ستة عشر مجلداً، ثم طبع ثانية بقطر سنة ١٣٩٨ على نفقة أمير قطر الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني وصدر في ثلاثة عشر مجلداً، بتحقيق وتعليق الرحالي الفاروقي، وعبدالله الأنصاري، والسيد عبد العال السيد إبراهيم، ومحمد الشافعي صادق العناني، واعتمدوا في تحقيقه على ست نسخ مخطوطة، وعنوا بتصحيحه وإخراجه بالمستوى اللائق. كما صدر جزءان من التفسير إلى الآية ٩٣ من سورة آل عمران عن المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بوزارة الأوقاف بمصر، بتحقيق الأستاذ أحمد صادق الملاح. وعن طبعة قطر المحققة تقوم «دار ابن حزم» ببيروت بتقديم الكتاب للقراء في مجلد واحد، وقد اجتهدت في مقابلته وتصحيحه. ونحن الآن في عصر تيسير المعلومات وتقديمها لطلابها في أقل وقت وأصغر حجم.. ولذلك فقد اجتهدت «دار ابن حزم» في تقديم كتب التراث الضخمة في حجم صغير، أشبه ما يكون بالمعجم الذي يسهل مراجعته، ويخف حمله، ويحقق للقارئ طلبته في وقت قصير.. ولم يعد مع انتشار الكتب وطباعتها بالكم الهائل، يتيسر للقارئ التمسك متابعتها، ولا شراؤها، ولا يتسع لها المكان ولا الزمان ولا المال.

وقد أصدرت «دار ابن حزم» في سبيل تقريب المصادر وأمهات الكتب إلى القراء عدة من التفسير، في مجلدة واحدة، منها: «تفسير ابن كثير»، و«فتح القدير» للشوكاني، و«زاد المسير» لابن الجوزي، ومنها في الستة: «صحيح البخاري»، و«صحيح مسلم»، و«سنن أبي داود»، و«الترمذي»، و«النسائي»، و«ابن ماجه»، و«نيل الأوطار» للشوكاني، وفي السيرة والتاريخ: «زاد المعاد» لابن القيم، و«البداية والنهاية» لابن كثير. وتتابع جهودها في هذا الميدان متوخية تيسير هذه المراجع لتكون في متناول طلاب العلم، يسهل عليهم اقتناؤها، ومراجعتها، والاستفادة منها. على أن ذلك لا يغني الباحث المتطلع - رغم الجهود المبذولة في التصحيح والمقابلة - عن مراجعة الأصول، والتحقق من سلامة النص وصحته، سائلاً المولى سبحانه أن يرزقنا حُسن القُصد، وأمانة العلم، ودقة الفهم، وراشد العمل وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً.

قاله وكتبه:

مجد مكي

جدة الجمعة ٢٢ / محرم / ١٤٢٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فاتحة الكتاب ومقدمته

وهي تشتملُ على أنواعٍ من علوم القرآن: كالقول في فضائله، وتأويل آياته، وجمعه وإعجازه وعربيته، وكتفسير الأحرف السبعة الواردة في شأنه.

«تفسير ابن عطية خير من الزمخشري، وأصح نقلاً وبحثاً، وأبعد عن البدع... بل هو خير منه بكثير، بل لعله أرجح هذه التفاسير».

(ابن تيمية)

«لَمَّا رَجَعَ النَّاسُ إِلَى التَّحْقِيقِ وَالتَّمْحِصِ، وَجَاءَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدِ الْحَقِّ ابْنُ عَطِيَّةٍ مِنَ الْمَتَأَخِّرِينَ بِالْمَغْرِبِ، فَلَخَّصَ تِلْكَ التَّفَاسِيرَ كُلَّهَا، وَتَحَرَّى مَا هُوَ أَقْرَبُ إِلَى الصَّحَّةِ مِنْهَا».

(ابن خلدون)



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ

الحمد لله الذي بَرَأَ النَّسَمَ، وَأَفَاضَ النَّعْمَ، وَمَنَحَ الْقِسْمَ، وَسَوَّىٰ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَعِبَادَتِهِ الْعِصْمَ؛ ذِي الْعِزَّةِ الْقَاهِرَةِ، وَالْقُدْرَةِ الْبَاهِرَةِ، وَالْأَلَاءِ الْمَتَظَاهِرَةِ، الَّذِي أَوْجَدَنَا بَعْدَ الْعَدَمِ، وَجَعَلَنَا الْخِيَارَ الْوَسْطَ مِنَ الْأُمَمِ، وَخَوَّلَنَا عَوَارِفَ لَا تُخْصَى، وَهَدَانَا شِرْعَةً رَمَتْ بِنَا مِنْ رِضْوَانِهِ إِلَى الْغُرُضِ الْأَقْصَى.

أَنْزَلَ إِلَيْنَا الْقُرْآنَ الْعَزِيزَ، وَعَدَّ فِيهِ وَبَشَّرَ، وَأَوْعَدَ وَحَدَّرَ، وَنَهَى وَأَمَرَ، وَأَكْمَلَ فِيهِ الدِّينَ، وَجَعَلَهُ الْوَسِيلَةَ النَّاجِعَةَ، وَالْحَبْلَ الْمَتِينِ، وَيَسَّرَهُ لِلذِّكْرِ، وَخَلَّدَهُ غَابِرَ الدَّهْرِ، عِصْمَةً لِلْمُعْتَصِمِينَ، وَنُورًا سَاطِعًا فِي مَشْكَلَاتِ الْمُخْتَصِمِينَ، وَحُجَّةً قَائِمَةً عَلَى الْعَالَمِ، وَدَعْوَةً شَامِلَةً لِفِرْقِ بَنِي آدَمَ. كَلَامُهُ الَّذِي أَعْجَزَ الْفُصْحَاءَ، وَأَخْرَسَ الْبُلْغَاءَ، وَشَرَّفَ الْعُلَمَاءَ. لَهُ الْحَمْدُ دَائِبًا، وَالشُّكْرُ وَاصِبًا، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ.

- وَأَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالتَّسْلِيمِ عَلَى رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ الْكَرِيمِ، صِفْوَتِهِ مِنَ الْعِبَادِ، وَشَفِيعِ الْخَلَائِقِ فِي الْمَعَادِ، صَاحِبِ الْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، وَالْحَوْضِ الْمُرُودِ، النَّاهِضِ بِأَعْيَابِ الرِّسَالَةِ وَالتَّبْلِيغِ الْأَعْظَمِ، وَالْمَخْصُوصِ بِشَرَفِ السَّعَايَةِ فِي الصَّلَاحِ الْأَعْظَمِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ صَلَاةً مُسْتَمِرَّةً الدَّوَامِ، جَدِيدَةً عَلَى مَرِّ اللَّيَالِي وَالْأَيَّامِ.

وبعد - أَرشَدَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكَ - فَإِنِّي لَمَّا رَأَيْتَ الْعُلُومَ فَنُونًا، وَحَدِيثَ الْمَعَارِفِ شُجُونًا، وَسَلَكْتُ فَإِذَا هِيَ أَوْدِيَةٌ، وَفِي كُلِّ لِسَلَفٍ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وَأَنْدِيَةٌ، رَأَيْتُ أَنَّ الْوَجْهَ لِمَنْ تَشَوَّقَ لِلتَّحْصِيلِ، وَعَزَمَ عَلَى الْوُصُولِ؛ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ كُلِّ طَرَفٍ خِيَارًا، وَلَنْ يَذُوقَ النَّوْمَ - مَعَ ذَلِكَ - إِلَّا غِرَارًا، وَلَنْ يَرْتَقِيَ هَذَا النَّجْدَ، وَيَبْلُغَ هَذَا الْمَجْدَ، حَتَّى يُنْضِيَ مَطَايَا الْجَاهِدِ، وَيَصِلَ التَّأْوِيبَ بِالْإِسَادِ، وَيَطْعَمَ الصَّبْرَ وَيَكْتَحِلَ بِالسُّهَادِ، فَجَرَيْتُ فِي هَذَا الْمَضْمَارِ صَدْرَ الْعُمُرِ طَلْقًا، وَذَهَبْتُ حَتَّى تَفَسَّخْتُ أَيْتًا، وَتَصَبَّبْتُ عَرْقًا، إِلَى أَنْ انْتَهَجَ بِفَضْلِ اللَّهِ عَمَلِي، وَخُزْتُ مِنْ ذَلِكَ مَا قَسِمَ لِي، ثُمَّ رَأَيْتُ أَنَّ مِنَ الْوَاجِبِ عَلَى مَنْ اخْتَبَى، وَتَخَيَّرَ مِنَ الْعُلُومِ وَاجْتَبَى، أَنْ يَعْتَمِدَ عَلَى عِلْمٍ مِنْ عُلُومِ الشَّرْعِ، يَسْتَنْفِذُ فِيهِ غَايَةَ الْوُسْعِ، يَجُوبُ آفَاقَهُ، وَيَتَنَبَّحُ أَعْمَاقَهُ، وَيَضْبِطُ أَصُولَهُ، وَيُخَكِّمُ فُصُولَهُ، وَيُلْخِصُ مَا هُوَ مِنْهُ، أَوْ يُؤَوِّلُ إِلَيْهِ،

وفي بدفع الاعتراضات عليه، حتى يكون لأهل العلم كالحصن المشيد، والدُخْر العتيد، يستندون إليه في أقواله، ويختدُّون على مثاله.

فلما أردتُ أن أختارَ لنفسي، وأنظرَ في علم أعدِّ أنوارَه لِظلمِ رمسي؛ سبَرْتُها بالتَّنويع والتقسيم، وعلمتُ أن شرف العلم على قدر شرف المعلوم، فوجدت أمتنها جبالاً، وأرسخها جبالاً، وأجمَلها آثاراً، وأسطعها أنواراً: عِلْمُ كتابِ الله جَلَّتْ قدرته، وتقدَّستُ أسماؤه، الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ الذي استقلَّ بالسُّنة والفرض، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض، هو العلم الذي جعل للشرع قواماً، واستعمل سائر المعارف خُدَماً، منه تُؤخذ مبادئها، وبه تعتبر نواشئها، فما وافقه منها نَصَّع، وما خالفه رُفِض ودُفِع، فهو عُصْرها المنير، وسراجها الوهاج، وقمرها المنير. وأيقنتُ أنه أعظمُ العلوم تقريباً إلى الله تعالى، وتخليصاً للنيات، ونهياً عن الباطل، وحصناً على الصالحات، إذ ليس من علوم الدنيا فيخْتَلُ حامله من منازلها صيداً، ويمشي في التلطف لها رويداً. ورجوتُ أن الله تعالى يُحَرِّمَ عَلَيَّ النارَ فِكراً عَمَرْتُهُ - أكثرَ عُمره - معانيه، ولساناً مرَّ على آياته ومثانيه، ونفساً ميَّزَتْ براعةَ رُضْفِهِ ومبانيه، وجالت صوامها في ميادينه ومغانيه. فتننيتُ إليه عِنانَ النظر، وأقَطَعْتُهُ جانبَ الفِكر، وجعلته فائدة العُمر. وما ونيت - عِلِمَ الله - إلا عن ضرورةٍ بِحَسَبِ ما يُلِمُّ في هذه الدار من شغوب، ويمس من لُغُوب. أو بِحَسَبِ تعهُدِ نصيب من سائر المعارف. فلما سلكتُ سبيله بفضلِ الله دُلَّلاً، وبلغتُ فيه من اطِّرادِ الفهم أَملاً، رأيتُ أن نُكَّتَهُ وفوائده تغلبُ قوةَ الحفظ وتَفدِّح، وتسنَّحُ لمن يرومُ تقييدها في فِكْرِهِ وتبرح، وأنها قد أخذت بحظها من الثقل، فهي تتفصَّى من الصِّدرِ تفصِّي الإبلِ مِنَ العَقْلِ. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا سَلَقْنَا عَنَّاكَ قَوْلًا نَفِيلاً﴾ قال المفسرون: أي عِلِمَ معانيه والعمل بها، وقد قال النبي ﷺ: «قِيدُوا الْعِلْمَ بِالْكِتَابِ».

ففرغتُ إلى تعليق ما يَتَنَحَّلُ لي في المناظرة من علم التفسير، وترتيب المعاني، وقصدتُ أن يكون جامعاً وجيزاً محرراً، لا أذكر من القصص إلا ما لا تنفك الآية إلا به، وأثبتُ أقوال العلماء في المعاني منسوبة إليهم، على ما تلقى السلف الصالح رضوان الله عليهم كتاب الله تعالى من مقاصده العربية السليمة من إلحاد أهل القول بالرموز واللغز، وأهل القول بعلم الباطن، وغيرهم، فمتى وقع لأحد من العلماء الذين قد حازوا حُسنَ الظَّنِّ بهم لفظٌ ينحو إلى شيءٍ من أغراض الملحدين تنهتُ عليه.

وسردتُ التفسير في هذا التعليق بحسب رُتبة ألفاظ الآية: من حكم، أو نحو، أو لغة، أو معنى، أو قراءة، وقصدتُ تَتَبُّعَ الألفاظ حتى لا يقع طفر كما في كثير من كتب المفسرين.

ورأيتُ أن تصنيف التفسير كما صنع المهدي رحمه الله مُفَرَّقٌ للنظر، مشعَّبٌ للفكر، وقصدتُ إيراد جميع القراءات مستعملها وشاذها، واعتمدت تبين المعاني وجميع محتملات الألفاظ، كل ذلك بحسب جهدي، وما انتهى إليه علمي، وعلى غاية من الإيجاز وحذف فضول القول. وأنا أسألُ الله جَلَّتْ قدرته أن يجعل ذلك كله لوجهه، وأن يُبارك فيه، وينفع به، وأنا وإن

كنت من المقصرين فقد ذكرت في هذا الكتاب كثيراً من علم التفسير، وحملت خواطري فيه على التعب الخطير، وعَمَزْتُ به زماني، واستفرغْتُ فيه مَنِّي. إذ كتاب الله تعالى لا يتفسَّر إلا بتصريف جميع العلوم فيه، وجعلته ثمرة وجودي، ونُخْبَةً مجهودي. فليُسْتَضَوِّبْ للمرء اجتهاده، وليُعَدِّزْ في تقصيره وخطئه، وحسبنا الله ونعم الوكيل.

ولنقدّم بين يدي القول في التفسير أشياء قد قدّم أكثرها المفسرون، وأشياء ينبغي أن تكون راسخة في حفظ الناظر في هذا العلم، مجتمعة لذهنه.



باب

ما ورد عن النبي ﷺ وعن الصحابة ونبهاء العلماء رضي الله عنهم في فضل القرآن المجيد وصورة الاعتصام به

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّهُ سَتَكُونُ فِتْنٌ كَقِطْعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ». قيل: فَمَا النَّجَاءُ مِنْهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «كِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى، فِيهِ: نَبَأٌ مَنْ قَبْلَكُمْ، وَخَيْرٌ مَا بَعْدَكُمْ، وَحُكْمٌ مَا بَيْنَكُمْ، وَهُوَ فَضْلٌ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ تَجَبَّرَ قِصَمَهُ اللَّهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللَّهُ، وَهُوَ حَبْلُ اللَّهِ الْمَتِينِ، وَثَوْرُهُ الْمُبِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، هُوَ الَّذِي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَنْشَعِبُ مَعَهُ الْأَرَاءُ، وَلَا يَشْبَعُ مِنْهُ الْعُلَمَاءُ، وَلَا يَمْلَهُ الْأَنْبِيَاءُ، مَنْ عَلِمَ عِلْمَهُ سَبَقَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أُجِرَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ اعْتَصَمَ بِهِ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ»، وقال أنس في تفسير قوله تعالى: ﴿فَقَدْ اسْتَمَسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى﴾ قال: هي القرآن.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَرَادَ عِلْمَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ فَلْيَتَوَرَّ الْقُرْآنَ».

وقال رسول الله ﷺ: «اتْلُوا هَذَا الْقُرْآنَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْجُرُكُمْ بِالْحَرْفِ مِنْ عَشْرٍ حَسَنَاتٍ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ أَلَمْ حَرْفٌ، وَلَكِنْ الْأَلْفَ حَرْفٌ، وَاللَّامَ حَرْفٌ، وَالْمِيمَ حَرْفٌ». وروى عنه ﷺ أنه قال في آخر خطبة خطبها وهو مريض: «أيها الناس: إني تارك فيكم الثقلين، إنه لن تغمي أبصاركم، ولن تضلُّ قلوبكم، ولن تنزل أقدامكم، ولن تقصر أيديكم، كتاب الله سبب بينكم وبينه، طرّفه بيده، وطرّفه بأيديكم، فاعملوا بمُحْكَمِهِ، وَأَمِنُوا بِمُتَشَابِهِهِ، وَأَجَلُّوا حَلَالَهُ، وَحَرَّمُوا حَرَامَهُ، أَلَا وَعِثْرَتِي وَأَهْلِي بَيْتِي هُوَ الثَّقَلُ الْآخِرُ، فَلَا تَسْبِعُوهُمْ فَتَهْلِكُوا».

وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لِمَ صَارَ الشَّعْرُ وَالْحُطْبُ يُمَلُّ مَا أُعِيدَ مِنْهَا وَالْقُرْآنُ لَا يُمَلُّ؟ فقال: «لأن القرآن حُجَّةٌ على أهل الدهر الثاني، كما أنه حجة على أهل الدهر الأول، فكلُّ طائفة تتلقاه غَضًّا جديداً، ولأن كلَّ امرئٍ في نفسه متى أعاده وفكر فيه، تلقى منه في كل مرة علوماً

غضة، وليس هذا كله في الشعر والخطب».

وقيل لمحمد بن سعيد: ما هذا التزديد للقصص في القرآن؟ فقال: ليكون لمن قرأ ما تيسر منه حظاً في الاعتبار.

وروي عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قرأ القرآن فرأى أَنَّ أحداً أوتي أفضل مما أوتي فقد استَضَمَّرَ ما عَظَّمَ اللهُ».

وقال ﷺ: «ما مِنْ شَفِيعٍ أَفْضَلَ عِنْدَ اللهِ تَعَالَى مِنَ الْقُرْآنِ، لا نَبِيٍّ ولا مَلِكٍ».

وقال ﷺ: «أَفْضَلُ عِبَادَةٍ أُمْتِي الْقُرْآنُ».

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: «مَنْ قرأ القرآن فقد أدرجت النبوة بين جنبيه، إلا أنه لا يوحى إليه».

وحدَّث أنس بن مالك عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ مائة آية كتب من القانتين، ومن قرأ مائتي آية لم يكتب من الغافلين، ومن قرأ ثلاثمائة آية لم يحاجه القرآن».

وروى ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «أشرف أمتي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ».

وروي عن عُمَرَ بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ إلى آخر الآية، فقال: سابقكم سابق، ومقتصدكم ناج، وظالمكم مغفور له.

وقال رسول الله ﷺ: «ألا إِنَّ أَضْفَرَ البيوت بَيْنَتْ صَفِيرٍ مِنْ كِتَابِ اللهِ». وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «القرآن شافع مُشَفَّعٌ، وما حِلُّ مُصَدَّقٌ، مَنْ شَفَعَ له القرآن نجا، ومن محل به القرآن يوم القيامة كَبَّه اللهُ لَوَجْهِهِ في النار، وأحقُّ مَنْ شَفَعَ له القرآن أهله وحملته، وأولى مَنْ محل به مَنْ عدل عنه وَضِيَعَهُ».

وقال ﷺ: «إِنَّ الذي يتعاهد القرآن ويشتدُّ عليه، له أجران، والذي يقرأ القرآن وهو خفيف عليه، مع السَّفَرَةِ، الكرام البرَّة».

وقال ابن مسعود: ملَّ أصحاب رسول الله ﷺ مَلَّةً، فقالوا: يا رسول الله حدثنا، فأنزل الله تعالى ﴿اللهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَابًا نَفَسِرُهُ مِنْهُ جُلُودٌ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، ثم ملُّوا مَلَّةً أخرى، فقالوا: يا رسول الله فُصِّ عَلَيْنَا، فأنزل الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.

وروي عثمان بن عفان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه».

وقال عبدالله بن مسعود: إن كل مؤدب يجب أن يؤتي أدبه، وإن أدب الله القرآن.

ومرَّ أعرابيٌّ على عبد الله بن مسعود، وعنده قوم يقرؤون القرآن، فقال: ما يصنع هؤلاء؟ فقال له ابن مسعود: يقتسمون ميراث محمد ﷺ.

ومرَّت امرأةٌ على عيسى ابن مريم عليه السلام فقالت: «طوبى لبطن حَمَلِك، ولثديين رَضَعْتَهُمَا». فقال عيسى: «طوبى لمن قرأ كتاب الله، وأتبع ما فيه». وقال محمد بن كعب القرظي في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ﴾ قال: هو القرآن.

وقال بعض العلماء في تفسير قوله تعالى ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتِهِ﴾ قال: الإسلام والقرآن. وقيل لعبد الله بن مسعود: إنك لتقل الصوم. فقال: إنه ينعني عن قراءة القرآن، وقراءته أحب إليَّ منه.

وقال قوم من الأنصار لرسول الله ﷺ: ألم تر يا رسول الله ثابت بن قيس، لم تزل داره البارحة تزهر فيها وحولها أمثال المصاييح؟ فقال لهم: «فلعلَّه قرأ سورة البقرة»، فسئل ثابت ابن قيس، فقال: نعم، قرأت سورة البقرة. وفي هذا المعنى حديث صحيح، عن أسيد بن حضير، في تنزل الملائكة في الظلَّة لصوته بقراءة البقرة.

وذكر أبو عمرو الداني عن عليِّ الأثرم قال: كنت أتكلم في الكِسائي، وأقع فيه، فرأيت في المنام وعليه ثياب بيض، ووجهه كالقمر، فقلت: يا أبا الحسن، ما فعل الله بك؟ فقال: «غفر لي بالقرآن».

وقال عُقبة بن عامر: عهد إلينا رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال: «عليكم بالقرآن». وقال عبد الله بن عمرو بن العاص: إن من أشراط الساعة أن يبسط القول، ويخزن الفعل، ويرفع الأشرار، ويوضع الأخيار، وأن تُقرأ المثنأة على رؤوس الناس لا تُعَيَّر، قيل: وما المثنأة؟ قال: ما استكثبت من غير كتاب الله، قيل له: فكيف بما جاء من حديث رسول الله ﷺ؟ قال: ما أخذتموه عمَّن تأمنونه على نفسه ودينه فاغقلوه، وعليكم بالقرآن فتعلموه، وعلموه أبناءكم، فإنكم عنه تُسألون، وبه تُجزون، وكفى به واعظاً لمن عقل.

وقال رجل لأبي الدرداء: إن إخواناً لك من أهل الكوفة يُفريثونك السلام، ويأمرونك أن توصيهم. فقال: أفرئهم السلام، ومزهم فليعطوا القرآن خزائمهم، فإنه يحملهم على القصد والسهولة، ويحببهم الجور والحزونة.

وقال رجل لعبد الله بن مسعود: أوصني. فقال: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ فأزعها سمعك، فإنه خيرٌ يأمر به، أو شرٌّ ينهى عنه.

وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن أحسن الناس قراءةً، أو صوتاً بالقراءة؟ فقال: «هو الذي إذا سمعته رأيتَه يخشى الله تعالى».

وقال ﷺ: «اقرأوا القرآن قبل أن يجيء قوم يقبمونه كما يقام القدح، ويضيعون معانيه، يتعجلون أجره ولا يتأجلونه».

وَيُرَوَّى أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ لَمَّا قَدَمُوا أَيَّامَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، سَمِعُوا الْقُرْآنَ، فَجَعَلُوا يَبْكُونَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هَكَذَا كُنَّا، ثُمَّ قَسَتِ الْقُلُوبُ.

رُوِيَ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَرَأَ ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوْفِعٌ ﴿٧﴾ مَا لَكُمْ مِنْ دَافِعٍ ﴿٨﴾﴾ فَأَنَّ أَتَمَّ عِيدٍ مِنْهَا عَشْرِينَ يَوْمًا.

وقال الحسن بن أبي الحسن البصري: إنكم أتخذتم القرآن مراحل، وجعلتم الليل جملاً تركبونه فتقطعون به المراحل، وإن من كان قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربهم، فكانوا يتدبرونها بالليل، ويتفقدونها بالنهار.

وكان ابن مسعود رضي الله عنه يقول: أنزل عليكم القرآن لتعملوا به، فأخذتم درسه عملاً، إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً، وقد أسقط العمل به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٧﴾﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴿٥٦﴾﴾ أي علم معانيه، والعمل به، والقيام بحقوقه ثقیلاً، فمال الناس إلى المُيسِّر، وتركوا الثقیل، وهو المطلوب منهم.

وقيل ليوسف بن أسباط: بأي شيء تدعو إذا ختمت القرآن؟ فقال: أستغفر الله من تلاوتي، لأنني إذا ختمته، ثم تذكرت ما فيه من الأعمال، خشيت الممّت، فأعدت إلى الاستغفار والتسبيح.

وقرأ رجل القرآن على بعض العلماء، قال: فلما ختمته أردت الرجوع إلى أوله، فقال لي: اتخذت القراءة عليّ عملاً؟ اذهب فاقرأه على الله تعالى في ليلك، وانظر ماذا يفهمك منه فاعمل به.



باب

في فضل تفسير القرآن والكلام على

لغته والنظر في إعرابه ودقائق معانيه

وروى ابن عباس: أن رجلاً سأل النبي ﷺ فقال: أي علم القرآن أفضل؟ فقال النبي ﷺ: «عَرَبِيَّتُهُ، فَالْتَمَسُوها فِي الشُّعْرِ». وقال أيضاً ﷺ: «أَعْرَبُوا الْقُرْآنَ، وَالْتَمَسُوا غَرَائِبَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يُعْرَبَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إعراب القرآن أصل في الشريعة، لأن ذلك تقوم معانيه التي هي الشرع.

وقال أبو العالية في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ قال: الحكمة: الفهم في القرآن. وقال قتادة: الحكمة: القرآن والفقه فيه. وقال غيره: الحكمة تفسير القرآن.

وذكر علي بن أبي طالب رضي الله عنه جابر بن عبد الله، فوصفه بالعلم، قال له رجل: جَعِلْتُ فداك، تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟ قال: إنه كان يعرف تفسير قول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْنَا مَعًا﴾.

وقال الشعبي: رَحَلَ مسروق إلى البصرة في تفسير آية، فقيل له: إن الذي يُفسرها رَحَلَ إلى الشام، فتجهَّز ورحل إليه حتى علم تفسيرها.

وقال إياس بن معاوية: مَثَلُ الذين يقرؤون القرآن ولا يعرفون تفسيره، كمثَل قوم جاءهم كتاب من ملكهم ليلاً، وليس عندهم مصباح، فَنَدَاخَلْتَهُمْ رَوْعَةً لا يدرون ما في الكتاب، ومَثَلُ الذي يَغْرِفُ التفسير، كمثَل رجل جاءهم بمصباح، فقرأوا ما في الكتاب.

وقال ابن عباس: الذي يقرأ ولا يُفسر، كالأعرابي الذي يهتد الشَّعْرَ.

وقال مجاهد: أَحَبُّ الخلق إلى الله أَعْلَمُهُمْ بما أنزل.

وقال الحسن: والله ما أنزل الله آية إلا أَحَبَّ أن يُعَلِّمَ فيمن أنزلت، وما يَعْنِي بها.

وقال النبي ﷺ: «لا يَفْقَهُ الرجلُ كُلَّ الفقه حتى يرى للقرآن وجوهاً كثيرة».

وقال الحسن: أهلكتهم العُجْمَةُ، يقرأ أحدهم الآية فيعيا بوجوها حتى يفترى على الله فيها.

وكان ابن عباس يبدأ في مجلسه بالقرآن، ثم بالتفسير، ثم بالحديث.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما من شيء إلا وَعِلْمُهُ في القرآن، ولكن رأي الرجل يَغْجُرُ عنه.



باب

ما قيل في الكلام في تفسير القرآن والجرأة عليه

ومراتب المفسرين

رُوي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (ما كان رسول الله ﷺ يُفسر من كتاب الله إلا آياً بعدد، عِلْمُهُ إِيَاهُنَّ جبريل).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا الحديث: في مُعَيَّبات القرآن، وتفسير مجمله، ونحوهما، مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى، ومن جملة مُعَيَّباته ما لم يُعَلِّمَ الله به، كوقت قيام الساعة ونحوه، ومنها ما يُستقرأ من ألفاظه كعدد النفخات في الصُّور، وكرتبه خلق السموات والأرض.

ورُوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من تكلم في القرآن برأيه، فأصاب فقد أخطأ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا، أن يُسأل الرجل عن معنى في كتاب الله، فيتسور عليه برأيه، دون نظر فيما قال العلماء، واقتضته قوانين العلوم، كالنحو والأصول. وليس يدخل في هذا الحديث أن يفسر اللغويون لغته، والنحاة نحوّه، والفقهاء معانيه، ويقول كل واحد باجتهاده المبني على قوانين علمٍ ونظر، فإن القائل على هذه الصفة ليس قائلاً بمجرد رأيه.

وكان جِلَّةً من السلف، كسعيد بن المسيّب، وعامر الشعبي، وغيرهما، يعظّمون تفسير القرآن، ويتوقفون عنه تورعاً واحتياطاً لأنفسهم، مع إدراكهم وتقدمهم. وكان جِلَّةً من السلف، كثير عدوهم، يفسرونه وهم أبقوا على المسلمين في ذلك، رضي الله عنهم.

فأما صدرُ المفسرين، والمؤيّد فيهم، فعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبتلوه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وهو تجرّد للأمر وكملّه وتتبّعه، وتبّعهُ العلماء عليه، كمجاهد، وسعيد بن جبّير، وغيرهما.

والمحفوظ عنه في ذلك أكثر من المحفوظ عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وقال ابن عباس: ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب، وكان علي بن أبي طالب يُثني على تفسير ابن عباس، ويحضّ على الأخذ عنه، وكان عبدالله بن مسعود يقول: نِعَمَ تُرْجَمَانِ الْقُرْآنِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ فَفِّهْهُ فِي الدِّينِ»، وحسبك بهذه الدعوة. وقال عنه علي بن أبي طالب: ابنُ عباس كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق.

ويُتلوه عبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وكل ما أخذ عن الصحابة فَحَسَنَ مُتَقَدِّمٌ. ومن المبرزين في التابعين: الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وسعيد بن جبّير، وعلقمة. قرأ مجاهد على ابن عباس قراءةً تفهّم ووقوف عند كل آية. ويتلوهم عكرمة، والضحاك بن مزاحم، وإن كان لم يلق ابن عباس، وإنما أخذ عن ابن جبّير، وأما السدي رحمه الله فكان عامر الشعبي يطعن عليه، وعلى أبي صالح، لأنه كان يراهما مُقَصِّرَيْنِ فِي النَّظَرِ. ثم حَمَلَ تَفْسِيرَ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى عُدُولُ كُلِّ خَلْفٍ. وألّف الناسُ فيه: كعبدالرزاق، والمفضل، وعلي بن أبي طلحة، والبخاري، وغيرهم.

ثم إن محمد بن جرير الطبري رحمه الله، جمع على الناس أشتات التفسير، وقرب البعيد، وشفا في الإسناد. ومن المبرزين في المتأخرين أبو إسحق الزجاج، وأبو علي الفارسي، فإن كلامهما منخول.

وأما أبو بكر النقاش، وأبو جعفر النحاس، فكثيراً ما استدرك الناس عليهما، وعلى سننهما مكي بن أبي طالب، وأبو العباس المهدي، متقن التأليف، وكلهم مجتهد مأجور، رحمهم الله، ونصّر وجوههم.

باب

معنى قول النبي ﷺ: «إن هذا القرآن»

أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسر منه»

اختلف الناس في معنى هذا الحديث اختلافاً شديداً، فذهب فريق من العلماء إلى أن تلك الحروف السبعة، هي فيما يتفق أن يقال على سبعة أوجه فما دونها، كتعال، وأقبل، وإلي، ونحوي، وقضدي، وأقرب، وجيء. وكاللغات التي في (أف). وكالحروف التي في كتاب الله فيها قراءات كثيرة، وهذا قول ضعيف.

قال ابن شهاب في كتاب مسلم: بلغني أن تلك السبعة الأحرف إنما هي في الأمر الذي يكون واحداً لا يختلف في حلال ولا حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كلام محتمل.

وقال فريق من العلماء: إن المراد بالسبعة أحرف معاني كتاب الله تعالى، وهي: أمر ونهي، ووعد ووعيد، وقصص ومجادلة، وأمثال، وهذا أيضاً ضعيف، لأن هذه لا تسمى أحرفاً، وأيضاً فالإجماع أن التوسعة لم تقع في تحريم حلال، ولا تحليل حرام، ولا في تغيير شيء من المعاني المذكورة.

وحكى صاحب (الدلائل) عن بعض العلماء - وقد حكى نحوه القاضي أبو بكر ابن الطيب - قال: تدبرث وجوه الاختلاف في القراءة، فوجدتها سبعة، منها ما تتغير حركته، ولا يزول معناه ولا صورته، مثل: ﴿هَنَّ أَطَهَّرَ﴾ و ﴿أَطَهَّرَ﴾، ومنها: ما لا تتغير صورته ويتغير معناه، مثل: ﴿رَبَّنَا بَعْدَ﴾ و ﴿بَاعَدَ﴾، ومنها: ما تبقى صورته، ويتغير معناه باختلاف الحروف، مثل: ﴿كُنْشِرْهَا﴾ و ﴿نَشْرُهَا﴾، ومنها: ما تتغير صورته ويبقى معناه، كقوله: ﴿كَالْمُهِنِ الْمَنُوشِ﴾، و ﴿كَالصُوفِ الْمَنُوشِ﴾، ومنها: ما تتغير صورته ومعناه. مثل: ﴿وَطَلِحَ مَنُوشٍ﴾، و ﴿وَطَلَعَ مَنُوشٍ﴾، ومنها: بالتقديم والتأخير، كقوله: ﴿وَبَعَّاتٍ سَكْرَةَ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ﴾، و ﴿سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ﴾، ومنها: بالزيادة والنقصان، كقوله: ﴿يَسَّعَ وَسَعُونَ نَجْمَةً﴾، و ﴿أَنْتَى﴾.

وذكر القاضي أبو بكر الطيب في معنى هذه السبعة الأحرف حديثاً عن النبي ﷺ قال: «إن هذا القرآن من سبعة أبواب، على سبعة أحرف: نهي وأمر، وحلال وحرام، ومُخَكَّمٌ ومُتَشَابِهٌ، وأمثال، فأجلوا حلاله، وحرّموا حرامه، واثمروا بأوامره، وانتهوا بنواهي، واعتبروا بمُخَكَّمِهِ، وآمنوا بمتشابهه». قال القاضي: فهذا تفسير منه ﷺ للأحرف السبعة، ولكن ليست هذه التي أجاز لهم القراءة بها على اختلافها، وإنما الحرف في هذه بمعنى الجهة والطريقة، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّنَ الْآتِينَ مَن بَعُدَ اللَّهُ عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ أي على وجه وطريقة، هي ريب وشك، فكذلك معنى هذا الحديث على سبع طرائق من تحليل وتحريم وغير ذلك.

وذكر القاضي أيضاً أن أبتاً رضي الله عنه روى عن النبي ﷺ أنه قال: «يا أباي: إني أفرثت القرآن على حرفٍ أو حرفين، ثم زادني الملكُ حتى بلغ سبعة أحرف، ليس منها إلا شافٍ كافٍ، إن قلتُ: غفورٌ رحيم، سميعٌ عليم، أو عليمٌ حكيم، ما لم تُختمْ عذاباً برحمة، أو رحمةً بعذاب». وقد أَسْنَدَ ثابت بن قاسم نحو هذا الحديث، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ، وذكر من كلام ابن مسعود نحوه.

قال القاضي ابن الطيب: وهذا أيضاً سبعة، غير السبعة التي هو وجوه وطرائق، وغير السبعة التي هي قراءات ووُسْع فيها، وإنما هي سبعة أوجه من أسماء الله تعالى، وإذا ثبتت هذه الرواية حُمِلَ على أن هذا كان مطلقاً ثم نسخ، فلا يجوز للناس أن يُبدلوا اسماً لله في موضع غيره، مما يوافق معناه أو يخالفه.

قال القاضي: وزعم قوم: أن كل كلمة تختلف القراءة فيها فإنها على سبعة أوجه، وإلا بطل معنى الحديث. قالوا: وتُعرف بعض الوجوه بمجيء الخبر به، ولا يُعرف بعضها إذا لم يأت به خبر.

قال: وقال قوم: ظاهر الحديث يوجب أن يوجد في القرآن كلمة أو كلمتان تُقرآن على سبعة أوجه، فإذا حصل ذلك تم معنى الحديث. قال القاضي أبو بكر ابن الطيب: وقد زعم قوم أن معنى الحديث أنه أنزل على سبع لغات مختلفة، وهذا باطل، إلا أن يريد الوجوه المختلفة التي تُستعمل في القصة الواحدة، والدليل على ذلك: أن لغة عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب، وهشام بن حكيم، وابن مسعود: واحدة، وقراءتهم مختلفة، وخرجوا فيها إلى المناكرة، فأما الأحرف السبعة التي صوّب رسولُ الله ﷺ القراءةَ بجمعها، وهي التي راجع فيها فزاده، وسهل عليه لعلمه تعالى بما هم عليه، من اختلافهم في اللغات؛ فإنها سبعة أوجه، وسبع قراءات مختلفة وطرائق يُقرأ بها على اختلافها في جميع القرآن أو معظمه، حسبما تقتضيه العبارة في قوله: (أنزل القرآن)، وإنما يريد به الجميع، أو، المعظم، فجائز أن يُقرأ بهذه الوجوه على اختلافها. ويدل على ذلك قول الناس: حَرَفُ أَبِي، وحرف ابن مسعود. ونقول في الجملة: إن القرآن منزل على سبعة أحرف من اللغات، والإعراب، وتغيير الأسماء والصور، وإن ذلك مفترق في كتاب الله، ليس بموجود في حرف واحد وسورة واحدة، يقطع على اجتماع ذلك فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: انتهى ما جمعتُ من كلام القاضي أبي بكر رضي الله عنه، وإطلاقه البطلان على القول الذي حكاه: فيه نظر، لأن المذهب الصحيح الذي قرره آخراً من قوله: «ونقول في الجملة» - إنما صحَّ وترتب من جهة اختلاف لغات العرب الذين نزل القرآن بلسانهم، وهو اختلاف ليس بشديد التباين حتى يجهل بعضهم ما عند بعض في الأكثر، وإنما هو أن قريشاً استعملت في عباراتها شيئاً، واستعملت هذيل شيئاً غيره في ذلك المعنى، وسعد بن بكر غيره، والجميع كلامهم في الجملة ولغتهم، واستدلال القاضي رضي الله عنه بأن لغة عمر، وأبي، وهشام، وابن مسعود واحدة، فيه نظر، لأن ما استعملته قريش ومنهم عمر وهشام، وما استعملته الأنصار ومنهم أبي، وما استعملته هذيل ومنهم ابن مسعود قد يختلف، ومن ذلك النحو من الاختلاف هو الاختلاف في

كتاب الله سبحانه، فليست لغتهم واحدة في كل شيء، وأيضاً فلو كانت لغتهم واحدة بأن نفرضهم جميعاً من قبيلة واحدة، لما كان اختلافهم حجة على من قال: إن القرآن أنزل على سبع لغات؛ لأن منكرتهم لم تكن لأن المنكر سمع ما ليس في لغته فأنكره، وإنما كانت لأنه سمع خلاف ما أقره النبي ﷺ، وعساه قد أقره ما ليس من لغته واستعمال قبيلته، فكأن القاضي رحمه الله إنما أبطل أن يكون النبي ﷺ قصد في قوله: «على سبعة أحرف» عد اللغات التي تختلف بجملتها، وأن تكون سبعا متباينة، لسبع قبائل تقرأ كل قبيلة القرآن كله بحرفها، ولا تدخل عليها لغة غيرها. بل قصد النبي ﷺ عنده عد الوجوه والطرائق المختلفة في كتاب الله، مرة من جهة لغة، ومرة من جهة إعراب، وغير ذلك، ولا مزية أن هذه الوجوه والطرائق إنما اختلفت لاختلاف في العبارات بين الجملة التي نزل القرآن بلسانها، وذلك يقال فيه اختلاف لغات، وصحيح أن يقصد عليه السلام عد الأنحاء والوجوه التي اختلفت في القرآن بسبب اختلاف عبارات اللغات، وصحيح أن يقصد عد الجماهير والرؤوس من الجملة التي نزل القرآن بلسانها، وهي قبائل مضر فجعلها سبعة، وهذا القول أكثر توسعه للنبي عليه السلام، لأن الأنحاء تبقى غير محصورة، فعسى أن الملك قد أقره بأكثر من سبعة طرائق ووجوه. قال القاضي في كلامه المتقدم: فجاؤز أن يقرأ بهذه الوجوه على اختلافها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والشرط الذي يصح به هذا القول هو أن تروى عن النبي عليه السلام، ومال كثير من أهل العلم كأبي عبيد وغيره، إلى أن معنى الحديث المذكور أنه أنزل على سبع لغات لسبع قبائل أثبت فيه من كل لغة منها، وهذا القول هو المتقرر من كلام القاضي رضي الله عنه، وقد ذكر بعضهم قبائل من العرب رؤماً منهم أن يعينوا السبع التي يحسن أن تكون مرادها عليه السلام، نظروا في ذلك بحسب القطر، ومن جاؤز منشأ النبي عليه السلام، واختلفوا في التسمية وأكثروا، وأنا ألخص الغرض جهدي بحول الله، فأصل ذلك وقاعدته: قريش، ثم بنو سعد بن بكر، لأن النبي عليه السلام قرشي، واسترضع في بني سعد، ونشأ فيهم، ثم ترعرع وعقت توائمه، وهو يخالط في اللسان كنانة، وهذيل، وثقيف، وخزاعة، وأسداً، وضبة، وألفافها لقربهم من مكة وتكرارهم عليها، ثم بعد هذه تميماً وقيساً ومن انضاف إليهم وسط جزيرة العرب، فلما بعثه الله تعالى، ويسر عليه أمر الأحرف، أنزل عليه القرآن بلغة هذه الجملة المذكورة، وهي التي قسّمها على سبعة لها السبعة الأحرف، وهي اختلافاتها في العبارات حسبما تقدم.

قال ثابت بن قاسم: لو قلنا: من هذه الأحرف لقريش، ومنها لكنانة، ومنها لأسد، ومنها لهذيل، ومنها لتيميم، ومنها لضبة وألفافها، ومنها لقيس، لكان قد أتى على قبائل مضر في مراتب سبعة تستوفي اللغات التي نزل بها القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو ما ذكرناه، وهذه الجملة هي التي انتهت إليها الفصاحة، وسليمت لغاتها من الدخل، ويسرها الله لذلك ليظهر آية نبيه بعجزها عن معارضة ما أنزل عليه، وسبب سلامتها أنها في وسط جزيرة العرب، في الحجاز، ونجد، وتهامة، فلم تطرفها الأمم،

فأما اليمن وهو جنوبي الجزيرة، فأفسدت كلامَ عربيه خلطةُ الحبشة والهنود، على أن أبا عبيد القاسم بن سلام وأبا العباس المبرد، قد ذكرا أن عرب اليمن من القبائل التي نزل القرآن بلسانها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك عندي إنما هو فيما استعملته عربُ الحجاز من لغة اليمن، كالعِرمِ والفتّاح، فأما ما انفردوا به (كالزُخَيْخِ والقُلُوبِ) ونحوه، فليس في كتاب الله منه شيء، وأما ما والى العراق من جزيرة العرب، وهي بلادُ ربيعة وشرقي الجزيرة فأفسدت لغتها مخالطةُ الفرس والنبط ونصارى الحيرة وغير ذلك.

وأما الذي يلي الشام، وهو شمال الجزيرة، وهي بلاد آل جَفَنَةَ وابن الرافلة وغيرهم، فأفسدتها مخالطةُ الروم وكثير من بني إسرائيل، وأما غربي الجزيرة فهي جبال تسكن بعضها هُدَيْل وغيرهم، وأكثرها غير معمر، فبقيت القبائل المذكورة سليمة اللغات، لم تكذُرْ صَفْوُ كلامها أمة العجم، ويُقَوِّي هذا المنزَعُ أنه لما اتسع نطاق الإسلام، وداخَلَتِ الأُمَمُ العرب، وتجرّد أهل المُصرين: البصرة والكوفة، لِجَفَظِ لسان العرب وكتَبَ لغتها، لم يأخذوا إلا عن هذه القبائل الوسيطة المذكورة ومن كان معها، وتجنّبوا اليمن والعراق والشام، فلم يُكْتَبَ عنهم حرف واحد، وكذلك تجنبوا حواضر الحجاز: مكة والمدينة والطائف، لأن السبي والتجار من الأمم كثُرُوا فيها فأفسدوا اللغة، وكانت هذه الحواضر في مدة النبي ﷺ سليمة، لقلة المخالطة، فمعنى قول النبي ﷺ: «أنزل القرآن على سبعة أحرف» أي فيه عبارات سبع قبائل، بلغة جُمَلَتِهَا نَزَلَ، فيعبر عن المعنى فيه بعبارة قريش، ومرة بعبارة هذيل، ومرة بغير ذلك، بحَسَبِ الأَفْصَحِ والأَوْجِزِ في اللفظة، ألا ترى أن (فَطَرَ) معناها عند غير قريش (ابتدأ خلق الشيء وعمّله) فجاءت في القرآن، فلم تتجه لابن عباس حتى اختصم إليه أعرابيان في بئر، فقال أحدهما: أنا فَطَرْتُهَا، قال ابن عباس: ففهمت حينئذ معنى قوله تعالى: ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال أيضاً: ما كنت أدري معنى قوله: ﴿رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ﴾ حتى سمعتُ بنتَ ذي يَزَنَ تقول لزوجها: تعال أفاتخك أي أحاكمك، وكذلك قال عمر بن الخطاب وكان لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ فوقف به فتى، فقال: إن أبي يتخوفني حقي. فقال عمر: الله أكبر، أو يأخذهم على تخوف، أي على تَقْصُصِ لهم. وكذلك اتفق لقطبة بن مالك إذ سمع النبي ﷺ يقرأ في الصلاة: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ﴾، ذكره مسلم في باب القراءة في صلاة الفجر، إلى غير هذا من الأمثلة، فأباح الله تعالى لنبيه هذه الحروف السبعة - وعارضه بها جبريل في عرضاته على الوجه الذي فيه الإعجاز، وجَوَدَةُ الرِّضْفِ، ولم تقع الإباحة في قوله عليه السلام: «فاقرؤوا ما تيسر منه»، بأن يكون كل واحد من الصحابة إذا أراد أن يُبَدِّلَ اللفظة من بعض هذه اللغات جعلها من تلقاء نفسه، ولو كان هذا لذهب إعجاز القرآن، وكان معرضاً أن يُبَدِّلَ هذا وهذا، حتى يكون غير الذي نزل من عند الله، وإنما وقعت الإباحة في الحروف السبعة للنبي عليه السلام ليوسّع بها على أمته، فقرأ مرة لأبي بما عارضه به جبريل صلوات الله عليهما، ومرة لابن مسعود بما عارضه به أيضاً، وفي صحيح البخاري عن النبي ﷺ، قال: «أقرأني جبريل على حرف فراجعته، فلم أزل أستزيده ويزيدني

حتى انتهى إلى سبعة أحرف». وعلى هذا تجيء قراءة عمر بن الخطاب لسورة الفرقان، وقراءة هشام بن حكيم لها، وإلا فكيف يستقيم أن يقول النبي ﷺ في كل قراءة منهما، وقد اختلفنا: «هكذا أقراني جبريل؟» هل ذلك إلا لأنه أقرأه بهذه مرة وبهذه مرة؟ وعلى هذا يحمل قول أنس بن مالك حين قرأ: ﴿إِنْ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ.. وَأَصُوبٌ قِيلاً﴾، فقيل له: إنما نقرأ (وأقوم)، فقال أنس: (أصوبٌ وأقومٌ وأهياً) واحد، فإنما معنى هذا أنها مزوية عن النبي ﷺ، وإلا فلو كان هذا لأحد من الناس أن يضعه لبطل معنى قول الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦﴾﴾.

ثم إن هذه الروايات الكثيرة لما انتشرت عن رسول الله ﷺ، وافترق الصحابة في البلدان، وجاء الخلف، وقرأ القرآن كثير من غير العرب، ووقع بين أهل الشام والعراق ما ذكره حذيفة بن اليمان رضي الله عنه، وذلك أنهم اجتمعوا في غزوة أزمينية فقرأت كل طائفة بما روي لها، فاختلوا، وتنازعا، حتى قال بعضهم لبعض: أنا كافر بما تقرأ به، فأشفق حذيفة مما رأى منهم، فلما قدم حذيفة المدينة فيما ذكر البخاري وغيره، دخل إلى عثمان بن عفان قبل أن يدخل بيته فقال: أذكر هذه الأمة قبل أن تهلك، قال فيما ذا؟ قال: في كتاب الله، إني حضرت هذه الغزوة، وجمعت ناساً من العراق، ومن الشام، ومن الحجاز، فوصف له ما تقدم، وقال: إني أخشى عليهم أن يختلفوا في كتابهم كما اختلفت اليهود والنصارى. قال عثمان رضي الله عنه: أفعل. فتجرد للأمر، واستتاب الكفاة العلماء الفصحاء في أن يكتبوا القرآن، ويجعلوا ما اختلفت القراءة فيه على أشهر الروايات عن رسول الله ﷺ، وأفصح اللغات، وقال: إذا اختلفتم في شيء فاكتبوه بلغة قريش، فمعنى هذا: إذا اختلفتم فيما روي، وإلا فمحال أن يحيلهم على اختلاف من قبلهم، لأنه وضع قرآن. فكتبوا في القرآن من كل اللغات السبع، مرة من هذه، ومرة من هذه، وذلك مقيد بأن الجميع مما روي عن النبي ﷺ وقرئ عليه، واستمر الناس على هذا المصحف المتخير، وترك ما خرج عنه مما كان كتيب سداً للذريعة، وتغليبا لمصلحة الألفة، وهي المصحف التي أمر عثمان بن عفان رضي الله عنه أن تحرق أو تحرق، فأما ابن مسعود فأبى أن يزال مصحفه فترك، ولكن أبي العلماء قراءته سداً للذريعة، ولأنه روي أنه كتب فيه أشياء على جهة التفسير، فظنها قوم من التلاوة فتخلط الأمر فيها، ولم يسقط فيما ترك معنى من معاني القرآن لأن المعنى جزء من الشريعة، وإنما تركت ألفاظ معانيها موجودة في الذي أثبت.

ثم إن القرأة في الأمصار تتبعوا ما روي لهم من اختلافات، لا سيما فيما وافق خط المصحف، فقرؤوا بذلك حسب اجتهاداتهم، فلذلك ترتب أمر القراء السبعة وغيرهم، رحمهم الله، ومضت الأعصار والأمصار على قراءة السبعة، وبها يصلح، لأنها ثبتت بالإجماع، وأما شأد القراءات فلا يصلح به، وذلك لأنه لم يجمع الناس عليه. أما أن المروي منه عن الصحابة رضي الله عنهم، وعن علماء التابعين لا يعتقد فيه إلا أنهم روه، وأما ما يؤثر عن أبي السمال ومن قاربه فلا يوثق به، وإنما أذكره في هذا الكتاب لئلا يجهل، والله المستعان.

وكان المصحف غير مشكول، ولا منقوط، وقد وقع لبعض الناس خلاف في بعض ما ذكرته في هذا الباب، ومنازعات، اختصرت ذلك كراهة التطويل، وعولت على الأسلوب الواضح الصحيح، والله المرشد للصواب برحمته.



باب ذِكْرُ جَمْعِ الْقُرْآنِ وَشَكْلِهِ وَنَقْطِهِ وَتَخْزِيْبِهِ وَتَفْسِيْرِهِ

كان القرآن في مُدَّةِ النَّبِيِّ ﷺ متفرقاً في صدور الرجال، وقد كتب الناس منه في صحف وفي جريد وطرر، وفي لخاف، وفي خزف، وغير ذلك، فلما استحرَّ القتل بالقراء يوم اليمامة، أشار عمر بن الخطاب على أبي بكر الصديق رضي الله عنهما بجمع القرآن، مخافة أن يموت أشياخ القراءة، كأبي، وزيد، وابن مسعود، فيذهب، فندبا إلى ذلك زيد بن ثابت فجمعه غير مرتب السور بعد تعب شديد منه، رضي الله عنه، وروي أن في هذا الجمع سقطت الآية من آخر براءة، حتى وجدها عند خزيمة بن ثابت، وحكى الطبري: أنه إنما سقطت له في الجمع الأخير، والأول أصح، وهو الذي حكى البخاري، إلا أنه قال فيه: مع أبي خزيمة الأنصاري، وقال: إن في الجمع الثاني فقد زيد آية من سورة الأحزاب ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ﴾ فوجدها مع خزيمة بن ثابت، وبقيت الصحف عند أبي بكر، ثم عند عمر بن الخطاب بعده، ثم عند حفصة بنته في خلافة عثمان، وانتشرت في خلال ذلك صُحُفٌ في الآفاق كُتِبَتْ عن الصحابة، كمصحف ابن مسعود، وما كتب عن الصحابة بالشام، ومصحف أبي، وغير ذلك، وكان في ذلك اختلاف حسب السبعة الأحرف التي أنزل القرآن عليها، فلما قدم حذيفة من غزوة أرمينية، حسبما قد ذكرنا، انتدب عثمان لجمع المصحف، وأمر زيد بن ثابت بجمعه، وقرن بزيد فيما ذكر البخاري ثلاثة من قریش: سعيد بن العاص، وعبدالرحمن بن الحارث بن هشام، وعبدالله بن الزبير. وكذلك ذكر الترمذي، وغيرهما، وقال الطبري فيما روى: إنه قرن بزيد أبان بن سعيد بن العاص وحده، وهذا ضعيف، وقال الطبري أيضاً: إن الصحف التي كانت عند حفصة جعلت إماماً في هذا الجمع الأخير، وروي أن عثمان رضي الله عنه قال لهم: إذا اختلفتم في شيء فاجعلوه بلغة قریش، فاختلفوا في التابوه والتابوت، قرأه زيد بن ثابت بالهاء، والقرشيون بالتاء، فأثبتته بالتاء، وكتب المصحف على ما هو عليه غابر الدهر، ونسخ عثمان منه نسخاً، ووجه بها إلى الآفاق، وأمر بما سواها من المصاحف أن تحرق أو تخرق، تروى بالحاء غير منقوطة، وتروى بالحاء على معنى ثم تدفن، ورواية الحاء غير منقوطة أحسن.

قال القاضي أبو بكر بن الطيب: وترتيب السور اليوم هو من تلقاء زيدٍ ومن كان معه، مع مشاركة من عثمان رضي الله عنه في ذلك، وقد ذكر ذلك مكِّي رحمه الله في تفسير سورة براءة، وذكر أن ترتيب الآيات في السور، ووضع البسملة في الأوائل هو من النبي ﷺ، ولما لم يأمر بذلك في أول براءة تُركت بلا بسملة. هذا أحد ما قيل في براءة، وذلك مُستقصى في موضعه مؤقَّتاً إن شاء الله تعالى.

وظاهر الآثار أن السبع الطُول، والحواميم. والمفضل كان مرتباً في زمن النبي ﷺ، وكان في السور ما لم يُرتب، فذلك هو الذي رُتب وقت الكُتُب.

وأما شكل المصحف ونقطه، فَرَوِي أن عبد الملك بن مروان أمر به وعمله، فتجرّد لذلك الحجاج بواسط، وجدّ فيه وزاد تحزيبه، وأمر وهو والي العراق الحسن ويحيى بن يَعْمَر بذلك، وألف إثر ذلك كتاباً في القراءات، جمع فيه ما رُوِي من اختلاف الناس فيما وافق الخط، ومشى الناس على ذلك زمناً طويلاً إلى أن ألف ابن مجاهد كتابه في القراءات.

وأَسند الزبيدي في «الطبقات» إلى المبرد أن أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي، وذكر أيضاً أن ابن سيرين كان له مصحف نَقَطَهُ له يحيى بن يَعْمَر، وذكر أبو الفرج أن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود بنقط المصحف.

وذكر الجاحظ في كتاب «الأمصار» أن نصر بن عاصم أول من نقط المصاحف، وكان يقال له: نصر الحروف.

وأما وضع الأعشار فيه، فمرَّبِّي في بعض التواريخ أن المأمون العباسي أمر بذلك، وقيل: إن الحجاج فعل ذلك، وذكر أبو عمرو الداني عن قتادة أنه قال: بدووا فنقطوا، ثم خمسوا، ثم عشروا، وهذا كالإنكار.



باب

في ذكر الألفاظ التي في كتاب الله

وللغات العجم بها تعلق

اختلف الناس في هذه المسألة، فقال أبو عبيدة وغيره: إن في كتاب الله تعالى من كل لغة. وذهب الطبري وغيره إلى أن القرآن ليس فيه لفظة إلا وهي عربية صريحة، وأن الأمثلة والحروف التي تنسب إلى سائر اللغات إنما اتفق فيها أن تواردت اللغتان، فتكلمت بها العرب والفرس أو الحبشة بلفظ واحد، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ﴾، قال ابن عباس: نشأ ببلغة الحبشة: قام من الليل.

ومنه قوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كَلِمَاتٍ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾، قال أبو موسى الأشعري: كفلان: ضعفان من الأجر بلسان الحبشة. وكذلك قال ابن عباس في القسورة: إنه الأسد بلغة الحبشة، إلى غير هذا من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقوله: إن القاعدة والعقيدة هي أن القرآن نزل بلسان عربي مبين، فليس فيه لفظة تخرج عن كلام العرب فلا تفهما إلا من لسان آخر، فأما هذه الألفاظ وما جرى مجراها، فإنه كان للعرب العاربة التي نزل القرآن بلسانها بعض مخالطة لسائر الألسنة بتجارات وبرحلتى قريش، كسفر مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، إلى الشام، وكسفر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وكسفر عمرو بن العاص، وعمارة بن الوليد إلى أرض الحبشة، وكسفر الأعشى إلى الحيرة، وصحبته لنصاراها مع كونه حجة في اللغة، فعلمت العرب بهذا كله ألفاظاً أعجمية، غيرت بعضها بالنقص من حروفها، وجرت إلى تخفيف ثقل العجمة، واستعملتها في أشعارها ومحاواراتها، حتى جرت مجرى العربي الصريح، ووقع بها البيان، وعلى هذا الحد نزل بها القرآن، فإن جهلها عربي ما فكجهله الصريح ما في لغة غيره، كما لم يعرف ابن عباس معنى فاطر، إلى غير ذلك. فحقيقة العبارة عن هذه الألفاظ، أنها في الأصل أعجمية، لكن استعملتها العرب وعربتها، فهي عربية بهذا الوجه، وما ذهب إليه الطبري من أن اللغتين اتفقتا في لفظة لفظة فذلك بعيد، بل إحداهما أصل والأخرى فرع في الأكثر، لأننا لا ندفع أيضاً جواز الاتفاق قليلاً شاذاً.

نبذة مما قال العلماء في إعجاز القرآن

اختلف الناس في إعجاز القرآن، بم هو؟ فقال قوم: إن التحدي وقع بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، وإن العرب كلفت في ذلك ما لا يُطاق، وفيه وقع عجزها. وقال قوم: إن التحدي وقع بما في كتاب الله تعالى من الأنبياء الصادقة، والغيوب المسرودة، وهذان القولان إنما يرى العجز فيهما من قد تقررت الشريعة ونبوته محمد ﷺ في نفسه. وأما من هو في ظلمة كفره، فإنما يتحدى فيما يتبين له - بينه وبين نفسه - عجزه عنه، وأن البشر لا يأتي بمثله، ويتحقق مجيئه من قبل المتحدي.

فكفاز العرب لم يمكنهم قط أن ينكروا أن رصف القرآن ونظمه وفصاحته متلقى من قبل محمد ﷺ، فإذا تُحدت بمثل ذلك وعجزت فيه، علم كل فصيح ضرورة أن هذا نبي يأتي بما ليس في قدرة البشر الإتيان به، إلا أن يخص الله تعالى من يشاء من عباده، وهذا هو القول الذي عليه الجمهور والحدائق، وهو الصحيح في نفسه، وإن التحدي إنما وقع بنظمه، وصحة معانيه، وتوالي فصاحة ألفاظه، ووجه إعجازه: أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كله علماً، فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى، وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول، ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً. فبهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة، وبهذا النظر يبطل قول

من قال: إن العرب كان في قدرتها أن تأتي بمثل القرآن، فلما جاء محمد ﷺ صُرفوا عن ذلك، وعجزوا عنه.

والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن لم يكن قط في قدرة واحد من المخلوقين، ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يصنع خطبة أو قصيدة، يستفرغ فيها جهده، ثم لا يزال يُتقحها حولاً كاملاً، ثم تُعطى لآخر نظيره، فيأخذها بقريحة جامعة فيبدل فيها وينقح، ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله لو نُزعت منه لفظة ثم أُدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن نبيّن لنا البراعة في أكثره، ويخفى علينا وجهها في مواضع، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ، في سلامة الذوق، وجودة القريحة، وميز الكلام، ألا ترى ميز الجارية نفس الأعشى وميز الفرزدق نفس جرير من نفس ذي الرمة، ونظر الأعرابي في قوله: (عز فحكّم فقطع). إلى كثير من الأمثلة اكتفيت بالإشارة إليها اختصاراً.

فصور قيام الحجّة بالقرآن على العرب: أنه لما جاء محمد ﷺ وقال: ﴿قَاتُوا سُبُورَةَ مِن مِّثْلِهِ﴾، قال كل فصيح في نفسه: وما بال هذا الكلام حتى لا آتي بمثله؟ فلما تأمله وتدبره ميز منه ما ميز الوليد بن المغيرة حين قال: « والله ما هو بالشعر، ولا هو بالكهانة، ولا بالجنون ». وعرف كل فصيح بينه وبين نفسه أنه لا يقدر بشر على مثله، فصحّ عنده أنه من عند الله، فمنهم من آمن وأذعن، ومنهم من حسد كأبي جهل وغيره، ففر إلى القتال، ورضي بسفك الدم عجزاً عن المعارضة، حتى أظهر الله دينه، ودخل جميعهم فيه، ولم يمّت رسول الله ﷺ وفي الأرض قبيل من العرب يُعلن كفره، وقامت الحجّة على العالم بالعرب، إذ كانوا أرباب الفصاحة، ومظنة المعارضة، كما قامت الحجّة - في معجزة عيسى بالأطباء، وفي معجزة موسى بالسحرة، فإن الله تعالى إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبرع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره، فكان السحر في مدة موسى قد انتهى إلى غايته، وكذلك الطب في زمن عيسى، والفصاحة في مدة محمد عليهم الصلاة والسلام.



باب

في الألفاظ التي يقتضي الإيجاز استعمالها

في تفسير كتاب الله تعالى

اعلم أن القصد إلى إيجاز العبارة قد يسوق المتكلم في التفسير إلى أن يقول: حَاطَبَ اللهُ بهذه الآية المؤمنين، وشرف الله بالذكر الرجل المؤمن من آل فرعون، وحكى الله تعالى عن أم موسى أنها قالت: ﴿قُصِيَّتْ﴾، ووقف الله ذرية آدم على زُبُوبِيَّتِهِ بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾؟ ونحو هذا من إسناد أفعال إلى الله تعالى لم يأت إسنادها بتوقيف من الشرع، وقد استعمل هذه الطريقة المفسرون

والمُحَدِّثُونَ والْفُقَهَاءُ، واستعملها أبو المعالي في «الإرشاد»، وذكر بعض الأصوليين أنه لا يجوز أن يُقال: «حكى الله» ولا ما جرى مجراه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على تقرير هذه الصفة له، وثبوتها مستعملة كسائر أوصافه تبارك وتعالى، وأما إذا استعمل ذلك في سياق الكلام، والمراد منه: حكى الآية أو اللفظ، فذلك استعمال عربي شائع، وعليه مشى الناس، وأنا أتخفظ منه في هذا التعليق جهدي، لكنني قدّمتُ هذا الباب لِمَا عسى أن أقع فيه نادراً، واعتذاراً عما وقع فيه المفسرون من ذلك.

وقد استعملت العربُ أشياءً في ذكر الله تعالى تُحْمَلُ على مجاز كلامها، فمن ذلك قول عامر يرتجز بالنبي ﷺ:

فَاغْفِرْ فِدَاءَ لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا
وقول أم سلمة: (فعزم الله لي) في الحديث في موت أبي سلمة، وإبدال الله لها منه رسول الله، ومن ذلك قولهم: الله يدري كذا وكذا، والدراية إنما هي التأني للعلم بالشيء حتى يتيسر ذلك، قال أبو علي: واحتج بعض أهل النظر على هذا الإطلاق بقول الشاعر:

لَأَهْمٌ لَأَأَدْرِي وَأَنْتَ الدَّارِي
قال أبو علي: وهذا لا ثبت فيه، لأنه يجوز أن يكون من غلط الأعراب.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك أقول: إن الطريقة كلها عربية، لا يثبت للنظر المنحول شيء منها. وقد أنشد بعض البغداديين:

لَأَهْمٌ إِنْ كُنْتَ الَّذِي بَعْدِي
وقد قال العجاج:
فَأَزْأَحَ رَبِّي وَأَرَادَ رَحْمَتِي
وقال آخر:

قَدْ يُضِيحُ اللهُ أَمَامَ السَّارِي
وقال الآخر:

يَا فَعْمَسِي لِمَ أَكَلْتَهُ؟ لِمَهُ؟
وقال أوس:

أَبْنِي لُبَيْنِي لَأَجِبُكُمْ
وقال الآخر:

وَإِنَّ اللهَ ذَاقَ عُقُولَ تَنِيمِ
ومن هذا الاستعمال الذي يَبْنِي البابُ عليه قول سعد بن معاذ: «عرق الله وجهك في النار».

يقول هذا للرامي الذي رماه. وقال: «خذها وأنا ابن العرقة».

وفي هذه الأمثلة كفاية فيما نحونا، إذ التَّظْيِيرُ لذلك كثيرٌ موجود. وإن خرج شيء من هذا على

حذف مضاف، فذلك مُتَوَجِّهٌ في الاستعمال الذي قصدنا الاعتذار عنه، والله المستعان.



باب

في تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية

هو القرآن، وهو الكتاب، وهو الفرقان، وهو الذكر.

فالقرآن مصدر من قولك: قرأ الرجل إذا تلا، يقرأ قرآنًا وقراءة، وحكى أبو زيد الأنصاري: وقَرَأَ، وقال قتادة: القرآن معناه التأليف، قرأ الرجل إذا جَمَعَ وألَّفَ قولاً، وبهذا فسر قتادة قول الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (٧) أي تأليفه، وهذا نحو قول الشاعر:

ذِرَاعِي بِكَرَّةِ أَدْمَاءٍ بِكُرٍ هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا
أي: لم تجمع في بطنها ولداً، فهو أقره لها، والقول الأول أقوى، أي: القرآن مصدر من قرأ إذا تلا.
ومنه قول حسان بن ثابت يرثي عثمان بن عفان رضي الله عنه:

ضَحُّوْا بِأَشْمَطِ عُنْوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنَا
أي قراءة.

وأما الكتاب فهو مصدر من كَتَبَ إذا جَمَعَ، ومنه قيل: كتيبة لاجتماعها، ومنه قول الشاعر:

.....
..... واكْتُنِبَهَا بِأَسْيَارِ

أي اجمعها.

وأما الفرقان فهو مصدر، لأنه فَرَّقَ بين الحق والباطل، والمؤمن والكافر، فرقاً وفرقاناً.

وأما الذُّكْرُ فسمي به لأنه ذُكِّرَ به الناس آخرتهم، وإلهتهم، وما كانوا في غفلة عنه، فهو ذُكْرٌ لهم، وقيل: سمي بذلك لأن فيه ذُكْرُ الأُمم الماضية، والأنبياء، وقيل: سُمِّيَ بذلك لأنه ذُكِّرَ وشَرَفُ لمحمد، وقومه، وسائر العلماء به.

وأما السورة فإن قريشاً كلُّها ومن جاورها من قبائل العرب: كهذيل، وسعد بن بكر، وكنانة يقولون: سُورَةٌ بغير همز، وتميم كلها وغيرهم أيضاً يهمزون، فيقولون: سُورَةٌ.

فأما من همز فهي عنده كالبقية من الشيء، والقطعة منه التي هي سُورٌ - وسُورَةٌ من أسأر إذا أبقي، ومنه سُورُ الشراب، ومنه قول الأعشى وهو ميمون بن قيس:

فَبَائَتْ وَقَدْ أَسْأَرَتْ فِي الْفُؤَا دِ صَدْعاً عَلَى نَأْيِهَا مُسْتَطِيرَاً

أي أبقت فيه، وأما من لا يهمز، فمنهم من يراها من المعنى المتقدم إلا أنها سُهِلَتْ همزتها، ومنهم من يراها مشبهة بسورة البناء، أي القطعة منه، لأن كلُّ بناءٍ يبنى قطعة بعد قطعة، وكل قطعة منها سورة، وجمع سورة القرآن: سُورٌ بفتح الواو، وجمع سورة البناء: سُورٌ بسكونها.

قال أبو عبيدة: إنما اختلفا في هذا، فكأن سُورَ القرآن هي قطعة بعد قطعة حتى كمل منها القرآن، ويقال أيضاً للرتبة الرفيعة من المجد والملك: سورة، ومنه قول النابغة الذبياني للنعمان بن المنذر:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَغْطَاكَ سُورَةَ تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَذِبُ
فكأن الرتبة أثبتت حتى كملت.

وأما الآية فهي العلامة في كلام العرب، ومنه قول الأسير الموصلي إلى قومه باللغز: (بآية ما أكلت معكم حيناً). فلما كانت الجملة التامة من القرآن علامة على صدق الآتي بها، وعلى عجز المتحدّي بها سُميت آية، هذا قول بعضهم، وقيل: سميت آية لما كانت جملة وجماعة كلام، كما تقول العرب: جننا بآيتنا، أي بجماعتنا، وقيل: لما كانت علامة للفصل بين ما قبلها وما بعدها سميت آية، ووزن آية عند سيبويه فَعْلَةٌ بفتح العين، أصلها (أَيِّتَةٌ)، تحركت الياء الأولى وما قبلها مفتوح فجاءت آية، وقال الكسائي: أصل آية (أَيِّتَةٌ) على وزن فاعلة، حذفت الياء الأولى مخافة أن يلتزم فيها من الإدغام ما لزم في دابة. وقال مكّي في تعليل هذا الوجه: سُكُنَتِ الْأَوَّلَى وَأُدْغِمَتِ فَجَاءَتْ آيَةٌ عَلَى وَزْنِ ذَابَةِ، ثم سهلت الياء المثقلة، وقيل: أصلها (أَيُّتَةٌ) على وزن فَعْلَةٌ بسكون العين، أبدلت الياء الساكنة ألفاً استثقلاً للتضعيف، قاله الفراء، وحكاه أبو علي عن سيبويه في ترجمة ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيِّ﴾، وقال بعض الكوفيين: أصلها (أَيِّتَةٌ) على وزن فَعْلَةٌ بكسر العين، أبدلت الياء الأولى ألفاً لثقل الكسر عليها وانفتاح ما قبلها.



باب

القول في الاستعاذة

قال الله عز وجل: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ معناه: إذا أردت أن تقرأ، وشرعت، فأوقع الماضي موقع المستقبل لثبوتها، وأجمع العلماء على أن قول القارئ: (أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم) ليس بآية من كتاب الله، وأجمعوا على استحسان ذلك والتزامه في كل قراءة في غير صلاة، واختلفوا في التعوذ في الصلاة، فابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وقوم: يتعوذون في الصلاة في كل ركعة، ويمثلون أمر الله بالاستعاذة على العموم في كل قراءة. وأبو حنيفة، والشافعي: يتعوذان في الركعة الأولى من الصلاة، ويريان أن قراءة الصلاة كلها قراءة واحدة. ومالك رحمه الله: لا يرى التعوذ في الصلاة المفروضة، ويراه في قيام رمضان، ولم يحفظ عن النبي ﷺ أنه تعوذ في صلاة.

وحكى الزهراوي عن الحسن أنه قال: نزلت الآية في الصلاة، وتُديننا إلى الاستعاذة في غير الصلاة، وليس بفرض. قال غيره: كانت فرضاً على النبي ﷺ وحده، ثم تأسبنا به. وأما لفظ الاستعاذة؛ فالذي عليه جمهور الناس هو لفظ كتاب الله تعالى: (أعوذُ بالله من الشيطان الرجيم). وزُوي عن ابن عباس أنه قال: (أول ما نزل جبريل على محمد ﷺ قال له: قل يا

محمد: أستعِذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم. ثم قال: قل: بسم الله الرحمن الرحيم).
وروى سليمان بن سالم عن ابن القاسم رحمه الله: أن الاستعاذة «أعوذ بالله العظيم من الشيطان
الرجيم، إن الله هو السميع العليم، بسم الله الرحمن الرحيم».
وأما المقرئون فأكثرُوا في هذا من تبديل الصفة في اسم الله تعالى، وفي الجهة الأخرى كقول
بعضهم: أعوذ بالله المجيد من الشيطان المريد، ونحو هذا مما لا أقول فيه: نعمت البدعة، ولا
أقول: إنه لا يجوز.

ومعنى الاستعاذة: الاستجارة والتخيز إلى الشيء، على معنى الامتناع به من المكروه، والكلام
على المكتوبة يجيء في (بسم الله)، فذلك الموضع أولى به.

وأما (الشيطان): فاختلف الناس في اشتقاقه، فقال الحُدَّاق: هو فيَعَال من شَطَنَ إِذَا بَعُدَ، لأنه
بَعُدَ عن الخير ورحمة الله، ومن اللفظة قولهم: نَوَى شَطُون، أي: بعيدة، قال الأعشى:

نَأَتْ بِسُعَادٍ عَنكَ نَوَى شَطُونٌ

ومنه قيل للحبل: شَطَنٌ لِيُبْعَدَ طَرْفِيهِ وَامْتِدَادِهِ، وقال قوم: إن (شيطانا) مأخوذ من شاط يشيط
إذا هاج وأخرق ونحوه، إذ هذه أفعاله فهو فَعْلَان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَيَزِدُّ عَلَى هَذِهِ الْفِرْقَةُ أَنَّ سَبِيْبِيَه حَكَى أَنَّ الْعَرَبَ تَقُولُ:
تَشَيِّطَنَّ فُلَانٌ إِذَا فَعَلَ أَفَاعِيلَ الشَّيْطَانِيْنَ، فَهَذَا يُبَيِّنُ أَنَّهُ تَفَيَّعَلٌ مِنْ شَطَنَ، وَلَوْ كَانَ مِنْ شَاطٍ لَقَالُوا:
تَشَيِّطُ، وَيَزِدُّ أَيْضًا عَلَيْهِمْ بَيْتُ أُمِيَّةِ ابْنِ أَبِي الصَّلْتِ:

أَيُّمَا شَاطِنٍ عَصَاهُ عَكَاهُ

فَهَذَا شَاطِنٌ مِنْ شَطَنَ لَا شَكَّ فِيهِ.

وأما (الرجيم) فهو فَعِيلٌ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، كَقَتِيلٍ، وَجَرِيحٍ، وَنَحْوِهِ، وَمَعْنَاهُ: أَنَّهُ رُجِمَ بِاللَّعْنَةِ
وَالْمَقْتِ وَعَدِمَ الرَّحْمَةَ.

قال المَهْدُوِيُّ رحمه الله: أَجْمَعَ الْقَرَاءُ عَلَى إِظْهَارِ الْاِسْتِعَاذَةِ فِي أَوَّلِ قِرَاءَةِ سُورَةِ الْحَمْدِ، إِلَّا
حَمْزَةً فَإِنَّهُ أَسْرَهَا، وَرَوَى الْمُسَيَّبِيُّ عَنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ: أَنَّهُمْ كَانُوا يَفْتَتِحُونَ الْقِرَاءَةَ بِالْبِسْمَلَةِ.



القول في تفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

رُوي عن جعفر بن محمد الصادق رضي الله عنه، أنه قال: البَسْمَلَةُ تيجان السور. ورُوي أن رجلاً قال بحضرة النبي ﷺ: تَعَسَ الشيطان، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تَقُلْ ذَلِكَ، فَإِنَّهُ يَتَعَاظَمُ عِنْدَهُ، وَلَكِنْ قُلْ: بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، فَإِنَّهُ يَصْفُرُ حَتَّى يَصِيرَ أَقْلٌ مِنْ ذُبَابٍ».

وقال علي بن الحسين رضي الله عنه في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوُا عَلَيَّ أَذْبَرْتَهُمْ نُفُورًا﴾ قال معناه: إذا قلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾.

ورُوي عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ قال له: «كيف تفتح الصلاة يا جابر؟» قالت: قلت: بالحمد لله رب العالمين. قال: «قل: بسم الله الرحمن الرحيم».

ورُوي أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «أتاني جبريل، فعلمني الصلاة، فقرأ: بسم الله الرحمن الرحيم، - يجهر بها -».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان الحديثان يقتضيان أنها آية من الحمد، ويرد ذلك حديث أبي بن كعب الصحيح، إذ قال له النبي ﷺ: «هل لك ألا تخرج من المسجد حتى تعلم سورة، ما أنزل في التوراة، ولا في الإنجيل، ولا في الفرقان مثلها؟» قال: فجعلت أبطيء في المشي رجاء ذلك، فقال لي: «كيف تقرأ إذا افتتحت الصلاة؟» قال: فقرأت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، حتى أتيت على آخرها. ويردُّه الحديث الصحيح: «يقول الله تعالى: قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين، يقول العبد: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾». ويردُّه أنه لم يحفظ عن النبي ﷺ، ولا عن أبي بكر، ولا عن عمر، ولا عن عثمان، رضي الله عنهم أنهم قرؤوا في صلاتهم ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. ويردُّه عدد آيات السورة، لأن الإجماع أنها سبع آيات إلا ما رُوي عن حسين الجعفي أنها ست آيات، وهذا شاذ لا يعول عليه، وكذلك رُوي عن عمرو بن عبيد أنه جعل ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ آية، فهي على عدِّ ثمان آيات، وهذا أيضاً شاذ. وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِ﴾ هو الفصل في ذلك.

والشافعي رحمه الله يعدُّ ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ آية من الحمد، وكثيرٌ من قراء مكة والكوفة، ولا يعدُّون ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾. ومالك رحمه الله، وأبو حنيفة، وجمهور الفقهاء والقراء لا يعدون البسمة آية.

والذي يحتمله عندي حديث جابر، وأبي هريرة - إذا صحَّ - أن النبي ﷺ رأى قراءة جابر وحكايته أمر الصلاة قراءةً في غير الصلاة على جهة التعلم، فأمره بالبسمة لهذا، لا لأنها آية، وكذلك في حديث أبي هريرة رآها قراءة تعليم، ولم يفعل ذلك مع أبي؛ لأنه قصد تخصيص السورة، ووَسَمَهَا من الفضل بما لها، فلم يدخل معها ما ليس منها، وليس هذا القصد في حديث جابر وأبي هريرة، والله أعلم.

وقال ابن المبارك: إن البسمة آية في أول كل سورة، وهذا قول شاذ ردَّ الناس عليه.

وروى الشَّعْبِيُّ، والأعمش، أن رسول الله ﷺ كان يكتب: (باسمك اللهم) حتى أمر أن يكتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، فلما نزلت: ﴿قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ كتب ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فلما نزلت: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ شَيْئِنَ وَإِنَّهُمْ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، كتبها. وروى عمرو بن شرحبيل أن جبريل أول ما جاء النبي عليه السلام قال له: قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، وروى عن ابن عباس أن أول ما نزل به جبريل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾. وفي بعض طرق حديث خديجة، وحملها رسول الله ﷺ إلى ورقة، أن جبريل قال للنبي ﷺ: قل: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فقالها، فقال: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ» الحديث.

والبسمة تسعة عشرة حرفاً، فقال بعض الناس: إن رواية بلغتهم أن ملائكة النار الذين قال الله فيهم: ﴿عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ إنما ترتب عددهم على حروف ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، لكل حرف ملك، وهم يقولون في كل أفعالهم: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، فمن هنالك هي قوتهم، وباسم الله استضعفوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه من مَلَحِ التفسير، وليست من متين العلم، وهي نظير قولهم في ليلة القدر: إنها ليلة سبع وعشرين، مراعاة للفظه هي في كلمات سورة «إنا أنزلناه»، ونظير قولهم في عدد الملائكة الذين ابتدروا قول القائل: «ربنا ولك الحمد حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه»، فإنها بضعة وثلاثون حرفاً، قالوا: فلذلك قال النبي ﷺ: «لقد رأيت بضعة وثلاثين ملكاً يبتدرونها، أيهم يكتبها أول».

و «الباء» في ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ متعلقة عند نحاة البصرة باسم تقديره: ابتدائي مستقر أو ثابت ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾. وعند نحاة الكوفة بفعل تقديره: ابتدأت ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾، فـ ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ في موضع رفع على مذهب البصريين، وفي موضع نصب على مذهب

الكوفيّين، كذا أطلق القول قوم، والظاهر من مذهب سيويه: أن الباء متعلقة باسم كما تقدم. و ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ في موضع نصب متعلقة بثابت أو مستقر بمنزلة «في الدار» من قولك: «زيد في الدار»، وكسرت باء الجر ليناسب لفظها عملها، أو لكونها لا تدخل إلا على الأسماء، فخصت بالخفض الذي لا يكون إلا في الأسماء، وليفرق بينها وبين ما قد يكون من الحروف اسماً، نحو (الكاف) في قول الأعشى:

أَتَنَّتْهُونَ، وَلَا يَنْهَى دَوِي شَطَطِ
 كَالطَّغْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الزَّيْتُ وَالْفُتْلُ
 وحذفت الألف من «بسم الله» في الخط اختصاراً وتخفيفاً لكثرة الاستعمال. واختلف النحاة إذا كتب «باسم الرحمن، وباسم القاهر»، فقال الكسائي، وسعيد الأخرس: تُحذف الألف، وقال يحيى بن زياد: لا تحذف إلا مع ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ فقط، لأن الاستعمال إنما كثر فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما في غير اسم الله تعالى فلا خلاف في ثبوت الألف [واسم] أصله «سيمو» بكسر السين أو «سمو» بضمها، وهو عند البصريين مشتق من السمّ، يقال: سمّا يسمو، فعلى هذا تضم السين في قولك: سمو، ويقال: سمى يسمى فعلى هذا تكسر، وحذفت الواو من سمو، وكسرت السن من «سيم» كما قال الشاعر:

بِسْمِ الَّذِي فِي كُلِّ سُورَةٍ سِمُهُ
 وسكنت السين من [بسم] اعتلالاً على غير قياس، وإنما استدل على هذا الأصل الذي ذكرناه بقولهم في التصغير: «سَمِيٌّ»، وفي الجمع: «أسماء»، وفي جمع الجمع: «أسامي». وقال الكوفيون: أصل اسم وأسم من (السمة) وهي العلامة، لأن الاسم علامة لمن وضع له، وحذفت فاؤه اعتلالاً على غير قياس، والتصغير والجمع المذكوران يردان هذا المذهب الكوفي، وأما المعنى فيه فجيد، لولا ما يلزمهم من أن يقال في التصغير «وسيم»، وفي الجمع «أوسام»، لأن التصغير والجمع يردان الأشياء إلى أصولها.

وقد ذكر بعض المفسرين في هذا الموضع «الاسم والمسمى»، هل هما واحد؟ فقال الطبري رحمه الله: إنه ليس بموضع للمسألة، وأنه في خطبته على المتكلمين في هذه المسألة ونحوها، ولكن بحسب ما قد تُدوول القول فيها، فلنقل: إن الاسم «كزيد، وأسد، وفرس» قد يرد في الكلام، يراد به الذات، كقولك: «زيد قائم» و «الأسد شجاع»، وقد يرد، ويراد به التسمية ذاتها، كقولك: «أسد ثلاثة أحرف»، ففي الأول يقال: الاسم هو المسمى، بمعنى «يراد به المسمى»، وفي الثاني: لا يراد به المسمى، ومن ورود الأول قولك: «يا رحمن اغفر لي» وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَخْتَلِفُ عَلَيْهِمُ الْكَلِمَاتُ وَأُوتُوا الْحِكْمَ وَاللَّيْلَةَ وَالنَّهَارَ﴾، ومن الورد الثاني قولك: «الرحمن وصف الله تعالى»، وأما «اسم» الذي هو «ألف، وسين، وميم»، فقد يجري في لغة العرب مجرى الذات، يقال: «ذات، ونفس، واسم، وعين»، بمعنى، وعلى هذا حمل أكثر أهل العلم قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾، وقوله: ﴿بَنَّاكَ أَتَمَّ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾، وقوله: ﴿مَا تَقْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاءُكُمْ﴾، وعضدوا ذلك بقول لبيد:

إِلَى الْحَوْلِ ثُمَّ اسْمُ السَّلَامِ عَلَيْكُمْمَا وَمَنْ يَبْنِكِ حَوْلًا كَامِلًا فَقَدْ اغْتَدَزَ وَقَالُوا: إِنَّ لِبَيْدَا أَرَادَ التَّحِيَةَ.

وقد يجري «اسم» في اللغة مجرى ذات العبارة، وهو الأكثر من استعماله، فمنه قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾، على أشهر التأويلات فيه، ومنه قول النبي عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ». وعلى هذا النحو استعمل النحويون الاسم في تصريف أقوالهم، فالذي يُتَنَخَّلُ من هذا أن الأسماء قد تجيء يراد بها ذوات المسميات، وفي هذا يقال: الاسم هو المسمى، وقد تجيء يراد بها ذواتها نفسها لا مسمياتها، ومَرَّ بِي أَنَّ مَالِكًا رَحِمَهُ اللَّهُ سئِلَ عَنِ الْاسْمِ: أَهُوَ الْمَسْمِيُّ؟ فَقَالَ: «لَيْسَ بِهِ، وَلَا هُوَ غَيْرُهُ»، يريد دائماً في كل موضع، وهذا موافق لما قلناه.

والمكتوبة التي لفظها ﴿اللَّهُ﴾ أَبْهَرُ أَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَكْثَرُهَا اسْتِعْمَالًا، وَهُوَ الْمَتَقَدِّمُ لِسَائِرِهَا فِي الْأَغْلَبِ، وَإِنَّمَا تَجِيءُ الْأَخْرَ أَوْصَافًا.

واختلف الناس في اشتقاقه: فقالت فرقة من أهل العلم: هو اسم مرتجل، لا اشتقاق له من فعل، وإنما هو اسم موضوع له تبارك وتعالى، والألف واللام لازمة له، لا لتعريف ولا لغيره، بل هكذا وضع الاسم. وذهب كثير من أهل العلم إلى أنه مشتق من أله الرجل إذا عبد، وتأله إذا تَسَكَّ، ومن ذلك قول رؤبة بن العجاج:

لِأَنَّ دُرَّ الْغَانِيَاتِ الْمُدَّةَ سَبَّخْنَ وَاسْتَرْجَعْنَ مِنْ تَأَلَّهِی وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرِكْ وَهَ الْهَتَكْ﴾ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، فَإِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ وَغَيْرَهُ قَالَ: وَعِبَادَتِكَ، قَالُوا: فَاسْمُ اللَّهِ مُشْتَقٌّ مِنْ هَذَا الْفِعْلِ لِأَنَّهُ الَّذِي يَأَلَّهُ كُلُّ مَخْلُوقٍ وَيَعْبُدُهُ، حَكَاهُ النِّقَاشُ فِي صَدْرِ سُورَةِ آلِ عِمْرَانَ. فَإِلَهُ فِعَالٌ مِنْ هَذَا.

واختلف: كَيْفَ تَعَلَّلَ (إِلَهُ) حَتَّى جَاءَ (اللَّهُ)؟ فَقِيلَ: حَذَفَتِ الْهَمْزَةُ حَذْفًا عَلَى غَيْرِ قِيَاسٍ، وَدَخَلَتِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ لِلتَّعْظِيمِ عَلَى (لَاهِ)، وَقِيلَ: بَلْ دَخَلْنَا عَلَى (إِلَهُ) ثُمَّ نَقَلْنَا حَرَكَةَ الْهَمْزَةِ إِلَى اللَّامِ فَجَاءَ (أَلِيلَاهُ)، ثُمَّ أَدْغَمَتِ اللَّامُ فِي اللَّامِ، وَقِيلَ: إِنَّ أَصْلَ الْكَلِمَةِ (لَاهِ)، وَعَلَيْهِ دَخَلَتِ الْأَلْفُ وَاللَّامُ، وَالْأَوَّلُ أَقْوَى.

وزوي عن الخليل أن أصل إله (ولاه). وأن الهمزة مبدلة من واو كما هي في إشاح وإشاح، وإسادة وإوسدة، وقيل: إن أصل الكلمة (ولاه) كما قال الخليل، إلا أنها مأخوذة من (وله) الرجل إذا تحيّر، لأنه تعالى تتحيّر الألباب في حقائق صفاته، والفكر في المعرفة به، وحذفت الألف الأخيرة من الله لثلاثي يشكل بخط اللات، وقيل: طرحت تخفيفاً، وقيل: هي لغة، فاستعملت في الخط، ومنها قول الشاعر:

أَقْبَلَ سَيْئِلٌ جَاءَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ يَخْرِدُ حَزْدَ الْجِنَّةِ الْمُغْلَّةِ

[وَالرُّحْمَنُ] صفة مبالغة من الرحمة، ومعناها أنه انتهى إلى غاية الرحمة، كما يدل على الانتهاء سكران وغضبان، وهي صفة تختص بالله، ولا تطلق على البشر. وهي أبلغ من فعيل، وفعيل أبلغ من فاعل، لأن راحماً يقال لمن رحم ولو مرة واحدة، ورحيماً يقال لمن كثر منه ذلك، والرحمن النهاية في الرحمة، وقال بعض الناس: الرحمن والرحيم بمعنى واحد، كالندمان والنديم، نعم إنهما من فعل واحد، ولكن أحدهما أبلغ من الآخر. وأما المفسرون فعبروا عن ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ بعبارات فمنها:

أَنْ الْعَزَمِيَّ قَالَ: معناه الرحمن بجميع خلقه في الأمطار، ونعم الحواس، والنعم العامة، الرحيم بالمؤمنين، بالهداية لهم، واللطف بهم. ومنها: أَنْ أبا سعيد الخدري، وابن مسعود رويَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الرَّحْمَنُ رَحْمَنُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَالرَّحِيمُ رَحِيمُ الْآخِرَةِ». وقال أبو علي الفارسي: الرحمن اسم عام في جميع أنواع الرحمة يختص به الله، والرحيم: إنما هو من جهة المؤمنين كما قال: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها أقوال تتعاضد، وقال عطاء الخراساني: كان الرحمن، فلما اختزل، وسُمِّي به مسيلمة الكذاب قال الله لنفسه: ﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾، فهذا الاقتران بين الصفتين ليس لأحد إلا لله تعالى، وهذا قول ضعيف، لأن ﴿يَسْمُرُ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ ① كان قبل أن ينجم أمر مسيلمة، وأيضاً فَتَسْمِي مسيلمة بهذا لم يكن مما تأصل وثبت. وقال قوم: إن العرب كانت لا تعرف لفظة الرحمن، ولا كانت في لغتها، واستدلوا على ذلك بقول العرب: ﴿وَمَا الرَّحْمَنُ أَنْسَجِدُ لِمَا تَأْمُرُنَا﴾، وهذا القول ضعيف، وإنما وقفت العرب على تعيين الإله الذي أمروا بالسجود له لا على نفس اللفظ.

واختلف في وصل الرحيم بالحمد، فروي عن أم سلمة عن النبي ﷺ: «الرَّحِيمِ الْحَمْدُ» تُسَكَّن الميم، ويوقف عليها، وابتدأ بالألف مقطوعة، وقرأ به قوم من الكوفيين، وقرأ جمهور الناس (الرَّحِيمِ الْحَمْدُ) يعرب الرحيم بالخفض، وتوصل الألف من الحمد، ومن يشأ أن يقدر أنه أسكن الميم، ثم لما وصل الألف حركتها للالتقاء، ولم يعتد بالألف الوصل، فذلك سائغ، والأول أخصر، وحكى الكسائي عن بعض العرب أنها تُقْرَأُ (الرَّحِيمِ الْحَمْدُ) بفتح الميم وصلة الألف، كأنها سكنت الميم وقطعت الألف، ثم أُلْقِيَتْ حركتها على الميم وحذفت، ولم ترو هذه قراءة عن أحد فيما علمت، وهذا هو نظر يحيى بن زياد في قول الله تعالى: ﴿الْمَلَأَهُ﴾.



تفسير فاتحة الكتاب

بحول الله تعالى

قال ابن عباس، وموسى بن جعفر، عن أبيه، وعلي بن الحسين، وقتادة، وأبو العالية، ومحمد بن يحيى بن حبان: إنها مكية، ويؤيد هذا أن في سورة الحجر: ﴿وَلَقَدْ مَأْيَسْنَاكَ سَمَاءَ مِنَ النَّارِ﴾ والحجر مكية بإجماع.

وفي حديث أبي بن كعب: «إنها السُّبْحُ المثنائي، والسُّبْحُ الطُّولُ» نزلت بعد الحجر بمُدَدٍ، ولا خلاف أن فرض الصلاة كان بمكة، وما حفظ أنه كانت قط في الإسلام صلاة بغير ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، ورؤي عن عطاء بن يسار، وسوادة بن زياد، والزهري ومحمد بن مسلم، وعبيد بن عمير أن سورة الحمد مدنية.

وأما أسماؤها - فلا خلاف أنها يقال لها: فاتحة الكتاب؛ لأن موضعها يعطي ذلك، واختلف - هل يقال لها: أم الكتاب؟ ففكره الحسن ابن أبي الحسن ذلك، فقال: أم الكتاب الحلال والحرام. قال الله تعالى: ﴿بِإِذْنِ مَوْلَانَا هُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ وَأُخْرُ مَشِيئَتِ﴾ وقال ابن عباس وغيره: يقال لها: أم الكتاب. وقال البخاري: سميت أم الكتاب لأنه يبدأ بكتابتها في المصحف، ويقراءها في الصلاة.

وفي تسميتها بأُم الكتاب حديث رواه أبو هريرة. واختلف - هل يقال لها أم القرآن؟ ففكره ذلك ابن

سيرين، وجوزّه جمهور العلماء، قال يحيى بن يعمر: أم القرى مكة، وأم خراسان مرو، وأم القرآن سورة الحمد، وقال الحسن بن أبي الحسن: اسمها أم القرآن. وأما المثنائي فقيل: سميت بذلك لأنها تنثى في كل ركعة، وقيل: سميت بذلك لأنها استنثيت لهذه الأمة فلم تنزل على أحد قبلها ذخراً لها.

وأما فضل هذه السورة فقد قال رسول الله ﷺ في حديث أبي بن كعب: «إنها لم ينزل في التوراة،

ولا في الإنجيل، ولا في الفرقان مثلها» ويروى أنها تعدل ثلثي القرآن، وهذا العدل إما أن يكون في المعاني، وإما أن يكون تفضيلاً من الله تعالى لا يعلل، وكذلك يجيء عدل ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وعدل ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ﴾ وغيرها، وروى أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: «للحمد لله رب العالمين فضل ثلاثين حسنة، على سائر الكلام»، وورد حديث آخر أن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ كُتِبَ لَهُ عَشْرُونَ حسنة، ومن قال: الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ كُتِبَ لَهُ ثَلَاثُونَ حسنة» وهذا الحديث هو في الذي يقوله من المؤمنين مؤتجراً طالب ثواباً، لأن قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ فسي ضمنها التوحيد الذي هو معنى لا إله إلا الله، ففي قوله: توحيد وحمد،

وفي قول: ﴿لَا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ﴾ توحيد فقط، فأما إذا أخذ بموضعهما من شرع الملة، ومحلهما من دفع الكفر والإشراك، ف (لا إله إلا الله) أفضل، والحاكم بذلك قول النبي ﷺ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِن قَبْلِي: لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ».

﴿الْحَمْدُ﴾ معناه: الشناء الكامل، والألف واللام فيه لاستغراق الجنس من المحامد، وهو أعم من الشكر، لأن الشكر إنما يكون على فعل جميل يسدى إلى الشاكر، وشكره حمداً ما، والحمد المجرّد هو ثناء بصفات المحمود من غير أن يسدي شيئاً، فالحامد من الناس قسمان: الشاكر والمثنى بالصفات، وذهب الطبري إلى أن الشكر والحمد بمعنى واحد، وذلك غير مرضي. وحكى عن بعض الناس

أنه قال: الشكر ثناء على الله بأفضاله وإنعامه، والحمد ثناء بأوصافه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أصح معنى من أنهما بمعنى واحد، واستدل الطبري على أنهما بمعنى، بصحة قولك: الحمد لله شكراً، وهو في الحقيقة دليل على خلاف ما ذهب إليه، لأن قولك: شكراً؛ إنما خصصت به الحمد أنه على نعمة من النعم.

وأجمع السبعة، وجمهور الناس على رفع الدال من ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وروى عن سفيان بن عيينة، وروية بن العجاج: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بفتح الدال، وهذا على إضمار فعل، وروى عن الحسن بن أبي الحسن، وزيد بن علي ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بكسر الدال على إتياع الأول الثاني، وروى عن ابن أبي عبله ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ بضم الدال واللام على إتياع الثاني الأول. قال الطبري: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ ثناء أتى به على نفسه، وفي ضمنه أمر عباده أن يشنوا به عليه، فكأنه قال: قالوا الحمد لله، وعلى هذا يجيء قولوا إياك. قال: وهذا من حذف العرب ما يدل ظاهر الكلام عليه، كما قال الشاعر:

وأعلم أنني سأكون رَمْساً
إذا سار السَّوَاعِجُ لا يسيُرُ
فقال السائلون: لِمَنْ حفرتم؟
فقال المخبرون لهم: وزيُرُ
المعنى: «المحفور له وزير»،
فحذف للدلالة ظاهر الكلام عليه،
وهذا كثير.

وقرأت طائفة (رَبِّ) بالنصب، فقال

بعضهم: هو نصب على المدح، وقال بعضهم: هو على النداء، وعليه يجيء إياك.

و (الرَّبِّ) في اللغة المعبود، والسيد المالك، والقائم بالأمر، المصلح لما يفسد منها، والملك، تأتي اللفظة لهذه المعاني.

فمما جاء بمعنى «المعبود» قول الشاعر في صنم:

أَرْبُ يَبُولُ الشُّغْلَبَانَ بِرَأْسِهِ
لَقَدْ هَانَ مَنْ بَالَتْ عَلَيْهِ الشُّعَالُ
ومما جاء بمعنى «السيد المالك» قولهم: رب العبيد والمماليك.

ومما جاء بمعنى «القائم بالأمر الرئيس فيها» قول لبيد:

وأهلكن يوماً رب كِنْدَةَ وإبْنَهُ
ورب معدب بين خَبْتٍ وَعَزْزَعِرٍ
ومما جاء بمعنى «الملك» قول النابغة:

تَحَبُّ إِلَى الثُّعْمَانَ حَتَّى تَنَالَهُ
فَدَى لَكَ مِنْ رَبِّ طَرِيفِي وَتَالِدِي
ومن معنى «الإصلاح» قولهم: أديم مربوط. أي مُصْلِحٌ قال الشاعر:

كانوا كَسَالِثَةٍ حَمَقَاءَ إِذْ حَقَّنَتْ
سِيْلَهُمَا فِي أَدِيمٍ غَيْرِ مَرْبُوبٍ
ومن معنى «الملك» قول صفوان بن أمية لأخيه يوم حنين:

«لَأَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ قَرِيشٍ خَيْرٌ مِنْ
أَنْ يَرُبَّنِي رَجُلٌ مِنْ هَوَازِنَ»، ومنه قول ابن عباس في شأن عبد الله بن الزبير، وعبد الملك بن مروان: «وإن

كان لا بد، لأن يرُبَّنِي رجل من بني عمي أحب إلي من أن يَرُبَّنِي غيرهم». ذكره البخاري في سورة براءة، ومن ذلك قول الشاعر:

وكنت امرأة أفضت إليك ربابتي
وقبلك ربثني ففضت رُبُوبُ
وهذه الاستعمالات قد تتداخل، فالرَّبُّ على الإطلاق الذي هو رب الأرباب على كل جهة هو الله تعالى.

و ﴿الْعَالَمِينَ﴾ جمع عالم، وهو كل موجود سوى الله تعالى، يقال لجملة: عالم، ولأجزائه من الإنس والجن وغير ذلك: عالم عالم، وبحسب ذلك يجمع على العالمين، ومن حيث عالم الزمان متبدل في زمان آخر حسن جمعها. ولفظة (العالم) جمع لا واحد له من لفظه، وهو مأخوذ من العلم والعلامة لأنه يدل على مُوجِدِهِ، كذا قال الزُّجَاجُ.

وقد تقدم القول في ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾.

واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ فقرأ عاصم، والكسائي: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾. قال الفارسي: وكذلك قرأها قتادة، والأعمش. قال مكي: وروى الزهري أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك بالألف، وكذلك قرأها أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن مسعود، وأبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وطلحة، والزبير رضي الله عنهم.

وقرأ بقية السبعة ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾ وأبو عمرو منهم يُسَكِّنُ اللام فيقرأ: ﴿مَلِكٍ يَوْمَ الدِّينِ﴾، هذه رواية عبدالوارث عنه. وروى عن نافع إشباع الكسرة من الكاف في (ملك) فيقرأ: مَلِكِي، وهي لغة للعرب

ذكرها المهدي، وقرأ أبو حنيفة (مَلِكٌ) بفتح الكاف وكسر اللام، وقرأ ابن السمين، وعمر بن عبدالعزيز، والأعمش، وأبو صالح السمان، وأبو عبدالمالك الشامي (مالك) بفتح الكاف، وهذان على النداء ليكون ذلك توطئة لقوله: (إِيَّاكَ)، ورد الطبري على هذا وقال: إن معنى السورة قولوا: الحمد لله، وعلى ذلك يجيء (إياك). و (اهدنا)، وذكر أيضاً أن من فصيح كلام العرب الخروج من الغيبة إلى الخطاب، وبالعكس، كقول أبي كبير الهذلي:

يا وَيْحَ نَفْسِي كَانَ جَدُّهُ خَالِدٌ
وَبِإِيَّاسٍ وَجْهَكَ لِلشَّرَابِ الْأَعْفَرِ
وكما قال لبيد:

بَاتَتْ تَشْكُو إِلَيَّ النَّفْسُ مُجْهِشَةً
وَقَدْ حَمَلْتُكَ سَبْعاً بَعْدَ سَبْعِينَ
وكقول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا
كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَّيْتُمْ يَوْمًا﴾. وقرأ
يحيى بن يعمر، والحسن بن أبي
الحسن، وعلي بن أبي طالب: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ على أنه فعل
ماضٍ، وقرأ أبو هريرة (مليك) بالياء
وكسر الكاف، وقال أبو
علي: «وَلَمْ يَمَلْ أَحَدٌ مِنَ الْقُرَاءِ
أَلْفَ (مَالِكٍ)، وذلك جائز إلا أنه
لا يقرأ بما يجوز إلا أن يأتي
بذلك أثر مستفيض».

و (المَلِكُ والمَلِكُ) بضم الميم
وكسرها، وما تصرف منهما راجع
كله إلى (مَلِكٌ) بمعنى شَدٌّ وضبط،
ثم يختص كل تصريف من اللفظة
بنوع من المعنى. يدلك على الأصل
في (ملك) قول الشاعر:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِي فَأَنْهَزْتُ فَنَقَهَا

وهذا يصف طعنة فأراد (شَدَّدْتُ).
ومن ذلك قول أوس بن حجر:

فَمَلَكْتُ بِاللَّيْطِ الَّذِي تَحْتِ قَشْرِهَا

كَغَيْرِي بِيَضِّ كُنْهُ الْقَيْضِ مِنْ عِلِّ
أراد (شَدَّدْتُ)، وهذا يصف صانع
قوس ترك من قشرها ما يحفظ قلب
القوس، و «الذي» مفعول، وليس
بصفة للبيط، ومن ذلك قولهم:
«إملاك المرأة، وإملاك فلان» إنما
هو ربط النكاح، كما قالوا: عَقْدَةُ
النكاح، إذ النكاح موضع شدِّ ورَبِط،
فالمالك للشيء شادٌّ عليه، ضابط
له، وكذلك المَلِكُ.

واحتج من قرأ (مَلِكٌ) بأن لفظه
(مَلِكٌ) أعمُّ من لفظه (مالك)، إذ كل
مَلِكٌ مالكٌ، وليس كل مالكٍ ملكاً،
والملك الذي يدبّر المالك في ملكه
حتى لا يتصرف إلا عن تدبير
الملك، وتتابع المفسرون على سرد
هذه الحجة، وهي عندي غير لازمة،
لأنهم أخذوا اللفظتين مطلقتين،
لا بنسبة إلى ما هو المملوك وفيه
الملك، فأما إذا كانت نسبة الملك
هي نسبة المالك فالمالك أبلغ - مثال
ذلك: أن نقدر مدينة أهلة عظيمة،
ثم نقدر لها رجلاً يملكها أجمع، أو
رجلاً هو ملكها فقط، إنما يملك
التدبير والأحكام، فلا شك أن
المالك أبلغ تصرفاً وأعظم، إذ إليه
إجراء قوانين الشرع فيها، كما لكل
أحد في ملكه، ثم عنده زيادة
التملك، وملك الله تعالى يوم الدين
هو على هذا الحد، فهو مالكة
ومَلِكُهُ، والقراءتان حستان.

وحكى أبو علي في حجة من قرأ:
﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ أن أول
من قرأ ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ مروان بن
الحكم، وأنه قد يدخل في المَلِكُ ما
لا يدخل في المَلِكُ، فيقال: مالك
الدينار والدرهم والطير والبهائم،
ولا يقال: مَلِكُهَا، و (مالك) في
صفة الله تعالى يعم ملك أعيان
الأشياء، وملك الحكم فيها. وقد
قال الله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ
الْأَشْيَاءِ﴾ قال أبو بكر: الأخبار الواردة
تبطل أن أول من قرأ: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ
الدِّينِ﴾ مروان بن الحكم، بل
القراءة بذلك أوسع، ولعل قائل ذلك
أراد أنه أول من قرأ في ذلك العصر،
أو البلد ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي الترمذي أن النبي ﷺ، وأبا
بكر، وعمر، رضي الله عنهما
قرؤوا: ﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾ بغير
ألف، وفيه أيضاً أنهم قرؤوا ﴿مَلِكٌ
يَوْمَ الدِّينِ﴾ بألف.

قال أبو بكر: والاختيار عندي
﴿مَلِكٌ يَوْمَ الدِّينِ﴾، لأن المَلِكُ
والمَلِكُ يجمعهما، معنى واحد،
وهو الشدُّ والربط، كما قالوا
ملكيت العجين أي شددته، إلى
غير ذلك من الأمثلة، والمَلِكُ
أفخم وأدخل في المدح، والآية
إنما نزلت بالثناء والمدح لله
سبحانه، فالمعنى أنه ملك المملوك
في ذلك اليوم، لا ملك لغيره،
قال: والوجه لمن قرأ (مالك) أن
يقول: إن المعنى أن الله تعالى
يملك ذلك اليوم أن يأتي به، كما
يملك سائر الأيام، لكن خصصه

بالذكر لعظمه في جمعه وحوادثه قال أبو الحسن الأخفش: «يقال مَلِكٌ بَيْنَ الْمَلِكِ بِضَمِّ الْمِيمِ، وَمَالِكٌ بَيْنَ الْمَلِكِ وَالْمَلِكِ بِفَتْحِ الْمِيمِ وَكسرها»، وزعموا أن ضم الميم لغة في هذا المعنى. وروى بعض البغداديين: «لي في هذا الوادي يَمَلِكُ وَمَلِكٌ وَمَلِكٌ» بمعنى واحد.

قال أبو علي: حكى أبو بكر بن السراج، عن بعض من اختار القراءة بِمَلِكٍ، أن الله سبحانه قد وصف نفسه بأنه مالك كل شيء بقوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، فلا فائدة في قراءة من قرأ (مالك) لأنها تكرير. قال أبو علي: ولا حجة في هذا، لأن في التنزيل أشياء على هذه الصورة، تقدم العام ثم ذكر الخاص كقوله تعالى: ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ﴾. فالخالق يعم، وذكر المصور لما في ذلك من التنبيه على الصنعة ووجوه الحكمة. وكما قال تعالى: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ بعد قوله: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ﴾ والغيب يعم الآخرة وغيرها. ولكن ذكرها لعظمتها، والتنبيه على وجوب اعتقادها، والرد على الكفرة الجاحدين لها. وكما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِالْحَيْرِ﴾ فذكر الرحمن الذي هو عام، وذكر الرحيم بعده لتخصيص المؤمنين به في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأيضاً فإن الرب يتصرف في كلام العرب بمعنى المَلِكِ كقوله: (ومن قبل ربّثني فضغت زئوب).

وغير ذلك من الشواهد، فتنعكس الحجة على من قرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

والجر في (ملك) أو (مالك) على كلتا القراءتين هو على الصفة للاسم المجرور قبله، والصفات تجري على موصوفها إذا لم تقطع عنهم لذم أو مدح، والإضافة إلى (يوم الدين) في كلتا القراءتين من باب (يا سارق الليلة أهل الدار)، اتسع في الظرف فنصب نصب المفعول به، ثم وقعت الإضافة إليه على هذا الحد، وليس هذا كإضافة قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، لأن الساعة مفعول بها على الحقيقة، أي أنه يعلم الساعة وحقيقتها، فليس أمرها على ما الكفار عليه من إنكارها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما على المعنى الذي قاله ابن السراج، من أن معنى ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أنه يملك مجيئه ووقوعه، فإن الإضافة إلى اليوم كإضافة المصدر إلى الساعة، لأن اليوم على قوله مفعول به على الحقيقة، وليس ظرفاً اتسع فيه.

قال أبو علي: ومن قرأ ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، فأضاف اسم الفاعل إلى الظرف المتسع فيه، فإنه حذف المفعول من الكلام للدلالة عليه تقديره: مالك يوم الدين الأحكام. ومثل هذه الآية في حذف المفعول به مع الظرف قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ فنصب الشهر على أنه ظرف، والتقدير: فمن شهد منكم المضّر في الشهر، ولو كان الشهر مفعولاً للزم

الصوم للمسافر، لأن شهادته للشهر كشهادة المقيم، وشهد يتعدى إلى مفعول، يدل على ذلك قول الشاعر:

وَيَوْمًا شَهِدْنَا سُلَيْمًا وَعَامرًا

و (الدّين) لفظ يجيء في كلام العرب على أنحاء: منها «الملة»، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾. إلى كثير من الشواهد في هذا المعنى. وسمي حظ الرجل منها في أقواله وأعماله واعتقاداته «ديناً» فيقال: «فلاّن حسن الدين». ومنه قول النبي ﷺ في رؤياه في قميص عمر الذي رآه يجره، (قيل: فما أولئك يا رسول الله؟ قال: «الدين»). وقال علي بن أبي طالب: «مَحَبَّةُ العلماء دين يُدان به».

ومن أنحاء اللفظة الدّينُ بمعنى: «العادة».

فمنه قول العرب في الريح: «عَادَتْ هَيْفَ لِأَدْيَانِهَا».

ومنه قول امرئ القيس: كِيدِينِكَ مِنْ أُمَّ الْحَوِيثِ قَبْلَهَا

ومنه قول الشاعر:

أَهْدَأُ دِينُهُ أَبْدَأُ وَدِينِي؟

إلى غير ذلك من الشواهد، يقال: دين ودينة أي عادة.

ومن أنحاء اللفظة الدين «سيرة الملك وملكته»، ومنه قول زهير:

لَشَنْ حَلَلْتِ بِجَوْ فِي بَنِي أَسَدٍ
فِي دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَذُكُ
أَرَادَ فِي مَوْضِعِ طَاعَةِ عَمْرٍو

وسيرته، وهذه أنحاء الثلاثة لا يفسر بها قوله: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾.

ومن أنحاء اللفظة؛ الدين: «الجزاء»، فمن ذلك قول الفند الزماني:

وَلَمْ يَنْبَقْ سِوَى الْعُذْوَا
نِ دِنَاهُمْ كَمَا ذَانُوا
أَي جازيناهم.

ومنه قول كعب بن جعيل:
إِذَا مَارَمَوْنَا رَمَيْنَاهُمْ
وَدِنَاهُمْ مِثْلَ مَا يَقْرِضُونَ
ومنه قول الآخر:

وَاعْلَمْ يَقِينَا أَنَّ مُلْكَكَ زَائِلٌ
وَاعْلَمْ بِأَنَّ كَمَا تَدِينُ تُدَانُ

وهذا النحو من المعنى هو الذي يصلح لتفسير قوله تعالى: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾، أي يوم الجزاء على الأعمال والحساب بها، كذلك قال ابن عباس، وابن مسعود، وابن جريج، وقتادة، وغيرهم. قال أبو علي: ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَحْزِي كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، ﴿الْيَوْمَ نَحْزُونَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

وحكى أهل اللغة: «دِنْتُهُ بفعله دِينًا» بفتح الدال، و «دِينًا» بكسرها: جزيته، وقيل: الدَيْنُ: المصدر، والدَيْنُ بكسر الدال الاسم. وقال مجاهد: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ أي يوم الحساب مدينين محاسبين، وهذا عندي يرجع إلى معنى الجزاء.

ومن أنحاء اللفظة؛ الدين: «الذل»، والمدين: العبد، والمدينة: الأمة، ومنه قول الأخطل:

رَبِّتْ وَرَبًّا فِي حَجْرِهَا ابْنُ مَدِينَةٍ
تَرَاهُ عَلَيَّ مِنْحَاتِهِ يَتَرَكُلُ
أي ابن أمة، وقيل: بل أراد ابن مدينة من المُدُن، الميم أصلية، ونسبه إليها، كما يقال: ابن ماء وغيره، وهذا البيت في صفة كرمه، فأراد أن أهل المدن أعلم بفلاحة الكرم من أهل بادية العرب.

ومن أنحاء اللفظة، الدين: «السياسة»، والدِيَانُ «السُّنَن»، ومنه قول ذي الإصبع:

لَا إِبْنَ عَمَلِكٍ لَا أَفْضَلَتْ فِي حَسَبٍ
يَوْمًا وَلَا أَنْتَ دِيَانِي فَتَحْزُونِي

ومن أنحاء اللفظة، الدين: «الحال»، قال النضر بن شميل: سألت أعرابياً عن شيء فقال لي: «لو لقيتني على دين غير هذه لأخبرتك». ومن أنحاء اللفظة، الدين: «الداء» عن اللحياني وأشد:

يَا دِينَ قَلْبِكَ مَنْ سَلَمَى وَقَدْ دِينَا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما هذا الشاهد فقد يتأول على غير هذا النحو، فلم يبق إلا قول اللحياني.

وقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ نطق المؤمن به إقرار بالربوبية، وتذلل، وتحقيق لعبادة الله، إذ سائر الناس يعبدون سواه من أصنام وغير ذلك، وقدم المفعول على الفعل اهتماماً، وشأن العرب تقديم الأهم. ويذكر أن أعرابياً سب آخر، فأعرض المسيب عنه، فقال له الساب: إياك أعني، فقال الآخر: وعنك أعرض، فقدّم الأهم.

وقرأ الفضل الرقاشي (إِيَّاكَ) بفتح الهمزة، وهي لغة مشهورة. وقرأ عمرو بن فائد: (إِيَّاكَ) بكسر الهمزة وتخفيف الياء، وذلك أنه كره تضعيف الياء لِثِقَلِهَا، وكون الكسرة قبلها، وهذا كتخفيف (رب) و (إن). وقرأ أبو السوار الغنوي (هَيَّاكَ) نَعْبُدُ، وَهَيَّاكَ نَسْتَعِينُ) بالهاء وهي لغة.

واختلف النحويون في (إِيَّاكَ)، قال الخليل: (إِيَّا) اسم مضمّر، أُضِيفَ إِلَى مَا بَعْدَهُ لِلبَيَانِ لَا لِلتَّعْرِيفِ، وحكى عن العرب: «إذا بلغ الرجل الستين فإياه وإيا الشّواب»، وقال المبرد: (إِيَا) اسم مبهم، أُضِيفَ لِلتَّخْصِيسِ لَا لِلتَّعْرِيفِ. وحكى ابن كيسان عن بعض الكوفيين: أن (إِيَّاكَ) بكماله اسم مضمّر، ولا يعرف اسم مضمّر يتغير آخره غيره. وحكى عن بعضهم أنه قال: الكاف والهاء والياء هي الاسم المضمّر، لكنها لا تقوم بأنفسها، ولا تكون إلا متصلات، فإذا تقدمت الأفعال جعل (إِيَا) عماداً لها، فيقال: (إِيَاكَ، وإياه، وإياي). وإذا تأخرت اتصلت بالأفعال واستغني عن (إِيَا). وحكى عن بعضهم: أن (إِيَا) اسم مبهم يكتنى به عن المنصب، وزيدت الكاف والهاء تفرقة بين المخاطب والغائب والمتكلم، ولا موضع لها من الإعراب، فهي كالکاف في ذلك، وفي أرائك زيدا ما فعل.

و (نعبدُ) معناه: نُتَمِيعُ الشَّرْعَ والأوامر مع تذلل واستكانة، والطريق المذللُ يقال له: مُتَعَبِدٌ، وكذلك البعير، وقال طرفة:

تُبَارِي عِشَاقًا نَاجِيَاتٍ وَأَتَّبِعَتْ
وَزَيْفًا وَزَيْفًا فَوْقَ مَوْرٍ مُعَبَّدٍ
وتكررت (إياك) بحسب اختلاف
الفاعلين، فاحتاج كل واحد منهما إلى
تأكيد واهتمام.

و (نستعين)، معناه نطلب العون
منك في جميع أمورنا، وهذا كله
تبر من الأصنام، وقرأ الأعمش،
وابن وثاب، والنخعي: (نستعين)
بكسر النون، وهي لغة لبعض قريش
في السنون والثناء والهمزة، ولا
يقولونها في ياء الغائب، وإنما ذلك
في كل فعل سمي فاعله فيه زوائد،
أو فيما يأتي من الثلاثي على فِعَلٍ
يَفْعَلُ بكسر العين في الماضي،
وفتحها في المستقبل، نحو عِلِمَ
وشرب، وكذلك فيما جاء معتل
العين نحو خال يخال، فإنهم
يقولون: يخال وإخال. و (نستعين)
أصله نَسْتَعِينُ. نقلت حركة الواو
إلى العين، وقلبت ياء لانكسار ما
قبلها، والمصدر: (استعانة)، أصله
(استعوان)، نُقلت حركة الواو إلى
العين، فلما انفتح ما قبلها وهي في
نية الحركة انقلبت ألفاً، فوجب
حذف أحد الألفين الساكنين، فقيل:
حذفت الأولى لأن الثانية مجلوبة
لمعنى، فهي أولى بالبقاء، وقيل:
حذفت الثانية؛ لأن الأولى أصلية
فهي أولى بالبقاء، ثم لزمته الهاء
عوضاً من المحذوف.

﴿وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَهْدِنَا سَبِيلَكَ﴾ رَغْبَةً،
لأنها من المربوب إلى الرب، وهكذا
صيغة الأمر كلها، فإذا كانت من
الأعلى فهي أمر.

والهداية في اللغة: الإرشاد، لكنها

تتصرف على وجوه يعبر عنها
المفسرون بغير لفظ الإرشاد، وكلها
إذا تأملت رجعت إلى الإرشاد.

فألهدى يجيء بمعنى: «خلق
الإيمان في القلب»، ومنه قوله
تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ عَلَى هُدًى مِّن
رَّبِّهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا
إِلَىٰ دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ
مُّسْتَقِيمٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا
تَهْدِي مَن أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي
مَن يَشَاءُ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَمَن
يُرِدْ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ
لِلْإِسْلَامِ﴾. قال أبو المعالي: فهذه
آيات لا يتجه حملها إلا على خلق
الإيمان في القلب، وهو محض
الإرشاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد جاء الهدى بمعنى «الدعاء».
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ
هَادٍ﴾، أي داع، وقوله تعالى:
﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾
وهذا يبين فيه الإرشاد، لأنه ابتداء
إرشاد، أجاب المدعو أو لم يجب.

وقد جاء الهدى بمعنى «الإلهام»،
من ذلك قوله تعالى: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ
حَلْفَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾، قال المفسرون:
معناه: ألهم الحيوانات كلها إلى
منافعها. وهذا أيضاً يبين فيه معنى
الإرشاد.

وقد جاء الهدى بمعنى «البيان».
من ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ
فَهَدَيْنَاهُمْ﴾، قال المفسرون: معناه:
بيّنا لهم، قال أبو المعالي: معناه:
دعوناهم. ومن ذلك قوله تعالى:
﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾ أي علينا أن
نبين، وفي هذا كله معنى الإرشاد.

قال أبو المعالي: وقد ترد الهداية
والمراد بها «إرشاد المؤمنين إلى
مسالك الجنان، والطرق المفضية
إليها». من ذلك قوله تعالى في صفة
المجاهدين: ﴿قَدْ يُبَيِّنُ أَعْيُنَهُمْ
سَبِيلَهُمْ وَيُضَلِّحُ بَالَهُمْ﴾، ومنه قوله
تعالى: ﴿فَأَهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَنَّةِ﴾،
معناه: فاسلكوهم إليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه الهداية بعينها هي التي تقال في
طرق الدنيا، وهي ضد الضلال،
وهي الواقعة في قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا
الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. على
صحيح التأويلات، وذلك بين من
لفظ الصراط، و (الهدى) لفظ
مؤنث، وقال اللحياني: هو مذكر،
قال ابن سيده: و (الهدى) اسم من
أسماء النهار، قال ابن مقبل:

حَتَّى اسْتَبْنَتْ الْهُدَى وَالْبَيْدَ هَاجِمَةً
يَخْشَعْنَ فِي الْآلِ غُلْفًا أَوْ يُضَلِّبُنَا
و (الصُّرَاطُ) في اللغة الطريق
الواضح، فمن ذلك قول جرير:

أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى صِرَاطٍ
- إِذَا أَعْرَجَ الْمَوَارِدُ - مُسْتَقِيمٍ
ومنه قول الآخر:

فَصَدَّ عَن نَّهْجِ الصُّرَاطِ الْوَاضِحِ
وحكى النقاش: الصراط: الطريق
بلغة الروم، وهذا ضعيف جداً.

واختلف القراء في الصراط:
فقرأ ابن كثير، وجماعة من
العلماء: (السرائط) بالسين، وهذا هو
أصل اللفظة. قال الفارسي: ورؤيت
عن ابن كثير بالصاد، وقرأ باقي
السبعة - غير حمزة - بصاد خالصة،
وهذا بدل للسين بالصاد، لتناسبها مع

الطاء في الإطباق، فيحسنان في السمع، وحكاها سيبويه لغة. قال أبو علي: روي عن أبي عمرو «السين والصاد»، والمضارعة بين الصاد والزاي، رواه عنه العريان بن أبي سفيان، وروى الأصمعي عن أبي عمرو أنه قرأها بزاي خالصة. قال بعض اللغويين: ما حكاها الأصمعي في هذه القراءة خطأ منه، إنما سمع أبا عمرو يقرأ بالمضارعة فتوهمها زايًا، ولم يكن الأصمعي نحوياً فيؤمّن على هذا، وحكى هذا الكلام أبو علي عن أبي بكر بن مجاهد، وقرأ حمزة بين «الصاد والزاي»، وروى أيضاً عنه أنه إنما يلتزم ذلك في المعرفة دون النكرة. قال ابن مجاهد: وهذه القراءة تكلف حرف بين حرفين، وذلك أصعب على اللسان، وليس بحرف يبنى عليه الكلام، ولا هو من حروف المعجم، ولست أدفع أنه كلام فصحاء العرب، إلا أن الصاد أفصح وأوسع.

وقرأ الحسن والضحاك: «اهدنا صراطاً مستقيماً» دون تعريف، وقرأ جعفر بن محمد الصادق: «اهدنا صراط المستقيم» بالإضافة، وقرأ ثابت البناني «بصرتنا الصراط».

واختلف المفسرون في المعنى الذي استعير له الصراط في هذا الموضع، وما المراد به؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الصراط المستقيم هنا القرآن. وقال جابر: هو الإسلام، يعني الحنيفية، وقال: سعته ما بين السماء والأرض. وقال محمد بن الحنفية:

هو دين الله الذي لا يقبل من العباد غيره. وقال أبو العالية: هو رسول الله ﷺ، وصاحبه: أبو بكر وعمر، وذكر ذلك للحسن بن أبي الحسن فقال: صدق أبو العالية ونصح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجتمع من هذه الأقوال كلها أن الدعوة إنما هي في أن يكون الداعي على سنن المُنتم عليهم من النبيين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين، في معتقداته، وفي التزامه لأحكام شرعه، وذلك هو مقتضى القرآن والإسلام، وهو حال رسول الله ﷺ وصاحبيه. وهذا الدعاء إنما أمر به المؤمنون وعندهم المعتقدات، وعند كل واحد بعض الأعمال، فمعنى قوله:

«اهدنا» فيما هو حاصل عندهم: طلب التثبيت والدوام، وفيما ليس بحاصل إما من جهة الجهل به، أو التقصير في المحافظة عليه: طلب الإرشاد إليه. وأقول: إن كل داع به فإنما يريد الصراط بكماله في أقواله، وأفعاله، ومعتقداته، فيحسن على هذا أن يدعو في الصراط على الكمال من عنده بعضه، ولا يتجه أن يراد باهدنا في هذه الآية: اخلق الإيمان في قلوبنا. لأنها هداية مفيدة إلى صراط، ولا أن يراد بها ادعنا، وسائر وجوه الهداية يتجه.

و (الصراط) نصب على المفعول الثاني، و (المستقيم): الذي لا اعوجاج فيه، ولا انحراف، والمراد أنه استقام على الحق، وإلى غاية الفلاح ودخول الجنة، وإعلال

(مستقيم) أن أصله (مُسْتَقِيمٌ)، نقلت الحركة إلى القاف، وانقلبت الواو ياء لانكسار ما قبلها.

﴿٧﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ﴾ بدل من الأول. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن الزبير: ﴿صِرَاطَ مَنْ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، و﴿الَّذِينَ﴾ جمع الذي، وأصله (لِذِّ)، حذفت منه الياء للتونين، كما تحذف من عم وقاض، فلما دخلته الألف واللام ثبتت الياء، والذي اسم مبهم ناقص محتاج إلى صلة وعائد، وهو مبني في إفراده وجمعه، معرب في تثنيته، ومن العرب من يعرب جمعه فيقول في الرفع: (اللذون)، وكتب الذي بلام واحدة في الإفراد والجمع تخفيفاً لكثرة الاستعمال.

واختلف الناس في المشار إليهم بأنه أنعم عليهم، فقال ابن عباس، وجمهور المفسرين: إنه أراد صراط النبيين، والصدّيقين، والشهداء، والصالحين. وانتزعوا ذلك من قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ حَرَكًا حَرَكًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَبِيئًا﴾ وَإِذَا لَأَتَيْنَهُمْ مِن لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٠﴾ وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١١﴾ وَمَن يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيعًا ﴿١٢﴾ فالآية تقتضي أن هؤلاء على صراط مستقيم، وهو المطلوب في آية الحمد. وقال ابن عباس أيضاً: وقال المُنتم عليهم هم المؤمنون. وقال الحسن بن أبي الحسن: المُنتم عليهم أصحاب محمد ﷺ. وحكى

مكي وغيره عن فرقة من المفسرين: أن المُتَعَمَّ عليهم مؤمن بني إسرائيل، بدليل قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْ بِرُؤْيُكَ أَذْكَرُوا يَتَّبِعِي آلِيَّ أَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ وقال ابن عباس: المُتَعَمَّ عليهم أصحاب موسى قبل أن يبذلوا، وهذا والذي قبله سواء، وقال قتادة ابن دعامة: المُتَعَمَّ عليهم الأنبياء خاصة. وحكى مكي عن أبي العالية أنه قال: المنعم عليهم: محمد ﷺ، وأبو بكر، وعمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم ما حكاه عنه الطبري من أنه فسر الصراط المستقيم بذلك، وعلى ما حكى مكي ينتقض الأول، ويكون الصراط المستقيم طريق محمد ﷺ، وأبي بكر، وعمر رضي الله عنهما، وهذا أقوم في المعنى؛ لأن تسمية أشخاصهم طريقاً تجوز.

واختلف القراء في (الهَاء) من (عليهم) فقرأ حمزة ﴿عليهم﴾ بضم الهاء وإسكان الميم، وكذلك ﴿لديهم﴾ و ﴿إلئهم﴾، وقرأ الباقون في جميعها بكسر الهاء، واختلفوا في (الميم)، فروي عن نافع: التخيير بين ضمها وسكونها، وروي عنه أنه كان لا يعيب ضمَّ الميم، فدل ذلك على أن قراءته كانت بالإسكان، وكان عبدالله بن كثير يصل الميم بواو انضمت الهاء قبلها أو انكسرت فيقرأ: (عليهمو وقلوبهمو، وسمعهمو، وأبصارهمو). وقرأ ورش الهاء مكسورة والميم موقوفة، إلا أن تلقى الميم ألفاً أصلية فيلحق في اللفظ واواً مثل قوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ﴾، وكان أبو عمرو،

وعاصم، وابن عامر، والكسائي، يكسرون ويسكنون (الميم)، فإذا لقي الميم حرف ساكن اختلفوا، فكان عاصم، وابن كثير، ونافع يَمُضُونَ على كسر الهاء وضم الميم مثل قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾ و ﴿مِنْ دُونِهِمْ أَمْرَاتَيْنِ﴾ وما أشبه ذلك، وكان أبو عمرو يكسر الهاء والميم فيقول: ﴿عليهم الذَّلَّةُ﴾ و ﴿إليهم اثنتين﴾، وما أشبه ذلك وكان الكسائي يضم الهاء والميم معاً ﴿عليهمُ الذلَّةُ﴾، ومن ﴿دونهمُ امرأتين﴾ قال أبو بكر أحمد بن موسى: وكل هذا الاختلاف في كسر الهاء وضمها إنما هو في الهاء التي قبلها كسرة أو ياء ساكنة، فإذا جاوزت هذين لم يكن في الهاء إلا الضم، فإذا لم يكن قبل الميم هاء قبلها كسرة أو ياء ساكنة لم يجز في الميم إلا الضم أو التسكين في مثل قوله: منكم وأنتم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى صاحب الدلائل قال: قرأ بعضهم ﴿عليهمو﴾ بواو وضممتين، وبعضهم بضممتين وألقى الواو، وبعضهم بكسرتين وألقى الياء، وبعضهم بكسرتين وألقى الياء، وبعضهم بكسر الهاء وضم الميم، قال: وذلك مروى عن الأئمة ورؤساء اللغة. قال ابن جني: حكى أحمد بن موسى ﴿عليهمو وعليهم﴾ بضم الميم من غير إشباع إلى الواو، و ﴿عليهم﴾ بسكون الميم، وقرأ الحسن، وعمرو بن فائد ﴿عليهمي﴾، وقرأ ﴿عليهم﴾ بكسر الميم من غير إشباع إلى الياء، وقرأ الأعرج ﴿عليهم﴾

بكسر الهاء وضم الميم من غير إشباع. وهذه القراءات كلها بضم الهاء إلا الأخيرة، وبإزاء كل واحدة منها قراءة بكسر الهاء فيجيء في الجميع عشر قراءات.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾. اختلف القراء في الراء من (غير)، فقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: بخفض الراء. وقرأ ابن كثير ﴿غير﴾ بالنصب، ورؤي عنه الخفض.

قال أبو علي: والخفض على ضربين: على البدل من ﴿الذين﴾ أو على الصفة للنكرة، كما تقول: مررت برجل غيرك، وإنما وقع هنا صفة للذين؛ لأن الذين هنا ليس بمقصود قصدهم، فالكلام بمنزلة قولك: إني لأمر بالرجل مثلك فأكرمه، قال: والنصب في الراء على ضربين: على الحال كأنك قلت: أنعمت عليهم لا مغضوباً عليهم، أو على الاستثناء كأنك قلت: إلا المغضوب عليهم، ويجوز النصب على: أعني، وحكي نحو هذا عن الخليل.

ومما يحتج به لمن ينصب - أن (غير) نكرة، فكره أن يوصف بها المعرفة. والاختيار الذي لا خفاء به الكسر، وقد روي عن ابن كثير، فأولى القراءتين ما لم يخرج عن إجماع قراء الأمصار. قال أبو بكر بن السراج: «والذي عندي أن (غير) في هذا الموضع مع ما أضيف إليه معرفة». وهذا شيء فيه نظر ولبس، فليفهم عني ما أقول: اعلم

أن حكم كل مضاف إلى معرفة أن يكون معرفة، وإنما تنكرت (غير) و (مثل) مع إضافتهما إلى المعارف من أجل معنهما، وذلك إذا قلت: «رأيتُ غيرك»، فكل شيء سوى المخاطب فهو غيره، وكذلك إذا قلت: «رأيتُ مثلك» فما هو مثله لا يحصى، لكثرة وجوه المماثلة، فإنما صارا نكرتين من أجل المعنى، فأما إذا كان شيء معرفة له ضد واحد، وأردت إثباته، ونفي ضده، وعلم ذلك السامع فوصفته بغير وأضفت (غير) إلى ضده فهو معرفة، كقولك: «عليك بالحركة غير السكون»، وكذلك قوله: «غير المفضوب»، لأن من أنعم عليه لا يعاقبه إلا من غضب عليه، ومن لم يغضب عليه فهو الذي أنعم عليه، فمتى كانت (غير) على هذه الصفة وقصد بها هذا المقصد فهي معرفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أبقى أبو بكر (الذين) على حد التعريف، وجوز نعتها بغير لما بيئه من تعزف (غير) في هذا الموضع، وغير أبي بكر وقف مع تنكر (غير)، وذهب إلى تقريب (الذين) من النكرة، إذ هو اسم شائع لا يختص به معين، وعلى هذا جوز نعتها بالنكرة.

و «الْمَفْضُوبِ عَلَيْهِمْ»: اليهود، و (الضالون) النصراني، هكذا قال ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والسدي، وابن زيد، وروى ذلك عدي بن حاتم عن رسول الله ﷺ، وذلك بين من كتاب الله تعالى، لأن ذكر

غضب الله على اليهود متكرر فيه كقوله: «وَبَاؤُوا بِفَسْخَرٍ مِنَّ اللَّهِ» وكقوله تعالى: «قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِمَّنْ ذَلِكُمْ مَثُوبٌ عِنْدَ اللَّهِ مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَمَلَ مِنْهُمْ الْفِرْدَوْسَ وَالنَّازِرِينَ» فهو لا في اليهود بدلالة قوله تعالى: «وَلَقَدْ عَلَّمْتُمُ الَّذِينَ اعتَدُوا مِنْكُمْ فِي آسَافٍ فَقُلْنَا لَكُمْ كُفُورًا فِرْدَوْسٍ خَيْرِينَ»، والغضب عليهم هو من الله تعالى، وغضب الله تعالى عبارة عن إظهاره عليهم محناً، وعقوبات، وذلك، ونحو ذلك. مما يدل على أنه قد أبعدهم، عن رحمته بعداً مؤكداً مبالغاً فيه. والنصارى كان محققوهم على شرعة قبل ورود شرع محمد ﷺ، فلما ورد ضلوا، وأما غير محققهم فضلالهم متقرر منذ تفرقت أقوالهم في عيسى عليه السلام، وقد قال الله تعالى فيهم: «وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ». قال مكسي رحمه الله حكاية: دخلت (لا) في قوله: (ولا الضالين) لثلاث يتوهم أن الضالين عطف على الذين، قال: وقيل: هي مؤكدة بمعنى غير. وحكى الطبري أن (لا) زائدة، وقال: هي هنا على نحو ما هي عليه في قول الراجز:

فَمَا أَلُومَ الْبِضِّ أَلَا تَسْخَرَا
.....

أراد: أن تَسْخَرَ. وفي قول الأحرص:

وَيَلْحِينِي فِي اللَّهْوِ أَلَا حَبِيه
وَاللَّهُوَذَاعِ دَائِبٌ غَيْرُ غَائِلِ

قال الطبري: يريد ويلحيني في اللهو أن أحبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبيت الأحرص إنما معناه: إرادة ألا أحبه، ف (لا) فيه متمكنة. قال الطبري: ومنه قوله تعالى: «مَا تَنَكَّ أَلَا تَسْبُدْ»، وإنما جاز أن تكون (لا) بمعنى الحذف، لأنها تقدمها الجحد في صدر الكلام، فسيق الكلام الأخير مناسباً للأول، كما قال الشاعر:

مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولَ اللَّهِ فِعْلَهُمْ
وَالطَّيِّبَانَ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عَمْرُ
وقرأ عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب: «غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَغَيْرِ الضَّالِّينَ»، وروى عنهما في (الراء) النصب والخفض في الحرفين. قال الطبري: فإن قال قائل: أليس الضلال من صفة اليهود كما أن النصراني عليهم غضب؟ فليَمْ حُصَّ كُلُّ فَرِيقٍ بِذِكْرِ شَيْءٍ مُفْرَدٍ؟ قيل: هم كذلك، ولكن وَسَمَّ اللهُ لعباده كُلُّ فَرِيقٍ بما قد تكررت العبارة عنه، وفهم به أمره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير شاف، والقول في ذلك أن أفاعيل اليهود من اعتدائهم، وتعننتهم، وكفرهم، مع رؤيتهم الآيات، وقتلهم الأنبياء - أمورٌ توجب الغضب في عرفنا، فسُمِّيَ تعالى ما أحاط بهم غضباً، والنصارى لم يقع لهم شيء من ذلك، إنما ضلوا من أول كفرهم، دون أن يقع منهم ما يُوجب غضباً خاصاً بأفاعيلهم، بل هو الذي يعم كل كافر وإن اجتهد،

فلهذا تقررت العبارة على الطائفتين بما ذكر.

وليس في العبارة بالضالين تعلق للقدرة في أنهم أضلوا أنفسهم، لأن هذا إنما هو كقولهم: تهدم الجدار، وتحركت الشجرة، والهادم والمحرك غيرهما، وكذلك النصارى، خلق الله الضلال فيهم فضلوا بتكسبهم.

وقرأ أيوب السخستاني: ﴿الضالين﴾ بهمزة غير ممدودة، كأنه قرأ من التقاء الساكنين، وهي لغة. وحكى أبو زيد قال: سمعت عمرو بن عبيد يقرأ ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌ﴾، فظننته قد لحن حتى سمعت من العرب دأبه وشأبه. قال أبو الفتح: وعلى هذه اللغة قول كثير:

.....
إِذَا مَا الْعَوَالِي بِالْعَبِيْطِ اخْمَازَتْ
وقول الآخر:

وللأرض أما سودها فتجَلَّتْ
بياضاً، وأما بيضها فاذهأت
وأجمع الناس على أن عدد آي
سورة الحمد سبع آيات: العالمين:
آية - الرحيم: آية - الدين: آية -
نستعين: آية - المستقيم: آية - أنعمت
عليهم: آية - ولا الضالين: آية.

وقد ذكرنا في تفسير ﴿يَسْمِعُ اللَّهُ
الْمَكْرَهَاتِ﴾ ما ورد من
خلاف ضعيف في ذلك.

القول في آمين

رَوَى أَبُو هُرَيْرَةَ وَغَيْرُهُ عَنْ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا قَالَ

الإمام: وَلَا الضَّالِّينَ، فَقُولُوا: آمِينَ،
فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ فِي السَّمَاءِ تَقُولُ:
آمِينَ، فَمَنْ وَاَفَّقَ قَوْلَهُ قَوْلَ الْمَلَائِكَةِ
عُفِّرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ. وَرَوَى (أَنَّ)
جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا عَلَّمَ النَّبِيَّ
عَلَيْهِ السَّلَامُ فَاتِحَةَ الْكِتَابِ وَقَتَّ
نُزُولَهَا فَقَرَأَهَا قَالَ لَهُ: قُلْ آمِينَ».
وقال علي ابن ابي طالب
رضي الله عنه: (أمين) خاتم رب
العالمين، يختم به دعاء عبده
المؤمن. وَرَوَى (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ سَمِعَ
رَجُلًا يَدْعُو فَقَالَ: أَوْجِبْ إِنْ خَتَمَ،
فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ: بِأَيِّ شَيْءٍ يَخْتِمُ يَا
رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «بِآمِينَ»).

ومعنى آمين عند أكثر أهل العلم:
اللهم استجب، أو أجب يا رب.
ونحو هذا، قاله الحسن بن أبي
الحسن وغيره، ونص عليه أحمد ابن
يحيى ثعلب وغيره، قال قوم: هو
اسم من أسماء الله تعالى. رَوَى ذَلِكَ
عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَمِجَاهِدٍ،
وَهَلَالِ بْنِ يَسَافٍ. وَقَدْ رَوَى أَنَّ آمِينَ
اسم خاتم يطبع به كتب أهل الجنة
التي تؤخذ بالإيمان.

فمقتضى هذه الآثار أن كل
داع ينبغي له في آخر دعائه أن
يقول: آمين. وكذلك كل قارئ
للحمد في غير صلاة، لكن ليس
بِجَهْرٍ الترتيل، وأما في الصلاة
فقال بعض العلماء: يقولها كل
مصلٍّ من إمام وَفَدٍّ ومأموم قرأها
أو سمعها، وقال مالك في
المَدُونَةِ: لا يقول الإمام: آمين،
ولكن يقولها مَنْ خَلْفَهُ ويخفون،
ويقولها الفَدُّ. وقد رَوَى عَنْ مَالِكٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ الْإِمَامَ يَقُولُهَا

أَسْرًا أَمْ جَهْرًا، وَرَوَى عَنْهُ أَنَّ
الْإِمَامَ لَا يُؤْمِنُ فِي الْجَهْرِ، وَقَالَ
ابْنُ حَبِيبٍ: يُؤْمِنُ، وَقَالَ ابْنُ
بَكْرِ: هُوَ مَخْيَرٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فهذا الخلاف إنما هو في الإمام،
ولم يُختلف في الفد، ولا في
المأموم.

إلا أن ابن نافع قال في كتاب ابن
حارث: لا يقولها المأموم إلا إن
سمع الإمام يقول: «ولا الضالين»،
وإذا كان بعيد لا يسمعه فلا يقول،
وقال ابن عبدوس: يتحرى قدر
القراءة ويقول: آمين.

وهي لفظة مبنية على الفتح لالتقاء
الساكنين، وكان الفتح مع الباء أخف
من سائر الحركات، ومن العرب من
يقول: آمين فيمُدُّ، ومنه قول
الشاعر:

آمِينَ آمِينَ لَا أَرْضَى بِوَاحِدَةٍ
حَتَّى أَبْلُغَهَا أَلْفَيْنِ آمِينَا
ومن العرب من يقول بالقصر، ومنه
قول الشاعر:

تَبَاعَدَ مِنِّي فَطَحُلُ إِذْ سَأَلْتُهُ
آمِينَ فَرَادَ اللَّهُ مَا بَيْنَنَا بُعْدًا
واختلف الناس في معنى قول
النبي ﷺ: «فَمَنْ وَاَفَّقَ تَأْمِينَهُ تَأْمِينَ
المَلَائِكَةِ» فقيل: في الإجابة، وقيل:
في خلوص النيَّة، وقيل: في
الوقت، والذي يترجح أن المعنى
فمن وافق في الوقت مع خلوص
النية والإقبال على الرغبة إلى الله
بقلب سليم، والإجابة تتبع حينئذ
لأن مَنْ هَذِهِ حَالُهُ فَهُوَ عَلَى الصِّرَاطِ
المستقيم.

(٢) تفسير سورة البقرة بحول الله تعالى ومعونته

أَوْ كَأَنَّهُمَا ظِلَّةٌ مِنْ طَيْرٍ
صَوَافٍ، تُجَادِلَانِ عَنْ
صَاحِبَيْهِمَا، وَفِي الْبَخَارِيِّ
أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «مَنْ
قَرَأَ بِالْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ
الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةٍ كَفَّتَا».

وروى أبو هريرة عنه رضي الله عنه
أنه قال: «الْبَيْتُ الَّذِي تُقْرَأُ
فِيهِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ لَا يَدْخُلُهُ
الشَّيْطَانُ»، وروى عنه
عليه السلام أنه قال:
«لِكُلِّ شَيْءٍ سَنَامٌ، وَسَنَامُ
الْقُرْآنِ سُورَةُ الْبَقَرَةِ، فِيهَا
آيَةٌ هِيَ سَيِّدَةُ آيِ الْقُرْآنِ،
وَهِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ».

وعدد آي سورة البقرة
مائتان وخمس وثمانون
آية، وقيل: وست وثمانون آية،
وقيل: سبع وثمانون.

① تفسير قوله تعالى: ﴿الْعَرَبِ﴾.

اختلف في الحروف التي في أوائل
السور على قولين: قال الشعبي
عامر بن شراحيل، وسفيان الثوري،
وجماعة من المحدثين: هي:
سَرَّ اللهُ فِي الْقُرْآنِ، وهي من المشابهة
الذي انفرد الله بعلمه، ولا يجب أن
يُتَكَلَّمُ فِيهَا، ولكن نؤمنُ بِهَا، وتَمَرُّ
كما جاءت.

وقال الجمهور من العلماء: بل
يجب أن يتكلم فيها، وتُلْتَمَسُ
الفوائد التي تحتها، والمعاني التي
تتخرج عليها، واختلفوا في ذلك
على اثني عشر قولاً.

فقال علي بن أبي طالب، وابن
عباس رضي الله عنهما: الحروف
المقطعة في القرآن هي اسم الله

هذه السورة مدنية، نزلت في مدد
شئى، وفيها آخر آية نزلت على
رسول الله ﷺ: «وَأَتَقُوا يَوْمًا
تُجْعَلُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ
مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ»، ويقال
لسورة البقرة: (فسطاط القرآن)
لعظمتها وبهائتها، وما تضمنت من
الأحكام والمواعظ، وتعلمها
عبدالله بن عمر رضي الله عنهما
بفقهها وجميع ما تحتوي عليه من
العلوم في ثمانية أعوام، وفيها
خمسائة حكم، وخمسة عشر مثلاً،
وروى الحسن بن أبي الحسن أن
رسول الله ﷺ قال: «أَيُّ الْقُرْآنِ
أَفْضَلُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ،
قَالَ: «سُورَةُ الْبَقَرَةِ»، ثُمَّ قَالَ: «وَأَيُّهَا
أَفْضَلُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.
قَالَ: آيَةُ الْكُرْسِيِّ»، ويقال: إنا آيات
الرحمة والرجاء والعذاب تنتهي فيها.
معانيها إلى ثلاثمائة وستين معنى.

وروى أن رسول الله ﷺ قال:
«أَعْطَيْتُ سُورَةَ الْبَقَرَةِ مِنَ الذِّكْرِ
الْأَوَّلِ، وَأَعْطَيْتُ طَهَ وَالطَّوَّاسِينَ مِنَ
الْوَاحِ مُوسَى، وَأَعْطَيْتُ فَاتِحَةَ
الْكِتَابِ وَخَوَاتِمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنَ
تَحْتِ الْعَرْشِ».

وفي الحديث الصحيح عن
النبي ﷺ أنه قال: «تَجِيءُ الْبَقَرَةُ وَأَكَلُ
عِمْرَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَأَنَّهُمَا كَأَنَّهُمَا حَيَاتَانِ
بَيْنَهُمَا شَرْقٌ، أَوْ عَمَامَتَانِ سُودَاوَانِ،



الأعظم، إلا أنا لا نعرف تأليفها منها.
وقال ابن عباس أيضاً: هي
أسماء الله أقسم بها.

وقال زيد بن أسلم: هي أسماء
السور.

وقال قتادة: هي أسماء للقرآن
كالفرقان، والذكر.

وقال مجاهد: هي فواتح للسور.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كما يقولون في أول الإنشاد لشهر
القصاصد: «بل ولا بل»، نحنا هذا
النحو أبو عبيدة والأخفش.

وقال قوم: هي حساب «أبي جاد»،
لتدل على مدة ملة محمد ﷺ، كما
ورد حديث حبي بن أخطب، وهو
قول أبي العالية زُفَيْع، وغيره.

وقال قطرب وغيره: هي إشارة إلى
حروف المعجم، كأنه يقول للعرب:
إنما تحديتكم بظن من هذه الحروف

التي عرفتم، فقولوه: ﴿الَّـمَّ﴾
بمنزلة قولك: (أ - ب - ت - ث) لتدل
بها على التسعة والعشرين حرفاً.

وقال قوم: هي أمارة قد كان الله
جعلها لأهل الكتاب أنه سَيُنزَّلُ على
محمد كتاباً في أول سور منه حروف
مقطعة.

وقال ابن عباس: هي حروف تدل
على «أنا الله أعلم»، «أنا الله أرى»،
«أنا الله أقصّل».

وقال ابن جبير، عن ابن عباس:
هي حروف كل واحد منها: إما أن
يكون من اسم من أسماء الله، وإما
من نعمة من نعمه، وإما من اسم
ملك من ملائكته، أو نبي من أنبيائه.

وقال قوم: هي تنبيه كيا في التداء.
وقال قوم: روي أن المشركين لما
أعرضوا عن سماع القرآن بمكة نزلت
ليستغربوها، فيفتحوا لها أسماعهم،
فيسمعون القرآن بعدها، فتجب
عليهم الحجة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والصواب ما قاله الجمهور - أن تفسر
هذه الحروف، وتُلتَمَسَ لها التأويل،
لأننا نجد العرب قد تكلمت بالحروف
المقطعة نظماً لها ووضعاً، بدل
الكلمات التي الحروف منها، كقول
الشاعر:

قُلْنَا لَهَا قَفِي فَقَالَتْ: قَاف
.....
أراد - قالت: وَقَفْتُ. وكقول
القائل:

بِالْحَيْبِ حَيْبَاتٍ وَإِنْ شَرَّأَ قَا
وَلَا أَرِيدُ الشُّرَّ إِلَّا أَنْ تَا
أراد: وَإِنْ شَرَّأَ فشر، وأراد: إِلَّا أَنْ
تشاء، والشواهد في هذا كثيرة،

فليس كونها في القرآن مما تنكره
العرب في لغتها، فينبغي إذا كان من
معهود كلام العرب أن يُطلب تأويله
ويُلتَمَسَ وجهه.

والوقف على هذه الحروف على
السكون لنقصانها، إلا إذا أُخْبِرَتْ
عنها، أو عَطَفَتْهَا فَإِنَّكَ تُعربها.
وموضع (الَّـمَّ) من الإعراب: رفع
على أنه خبر ابتداء مُضْمَر، أو على
أنه ابتداء، أو نصب بإضمار فعل،
أو خفض بالقسم، وهذا الإعراب
يتجه الرفع منه في بعض الأقوال
المتقدمة في الحروف، والنصب في
بعض، والخفض في قول ابن عباس
رضي الله عنهما: إنها أسماء الله
أقسم بها.

تفسير قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾
الاسم من [ذلك] الذال والألف،
وقيل: الذال وحدها، والألف
تقوية، واللام لبعده المشار إليه،
وللتأكيد، والكاف للخطاب،
وموضع (ذلك) رفع كأنه خبر ابتداء،
أو ابتداء وخبره بعده.

واختلف في (ذلك) هنا، فقيل: هو
بمعنى هذا، وتكون الإشارة إلى هذه
الحروف من القرآن، وذلك أنه قد
يشار بذلك إلى حاضر تعلق به بعض
الغيبة، وبهذا إلى غائب هو من
الثبوت والحضور بمنزلة وقرب.

وقيل: هو على بابه إشارة إلى
غائب، واختلف في ذلك الغائب
فقيل: ما قد كان نزل من القرآن،
وقيل: التوراة والإنجيل، وقيل:
اللوح المحفوظ، أي الكتاب الذي
هو القدر، وقيل: إن الله قد كان
وعد نبيه أن ينزل عليه كتاباً لا يمحوه

الماء، فأشار إلى ذلك الوعد. وقال
الكسائي: (ذلك) إشارة إلى القرآن
الذي في السماء لم ينزل بعد،
وقيل: إن الله قد كان وعد أهل
الكتاب أن ينزل على محمد كتاباً،
فالإشارة إلى ذلك الوعد، وقيل: إن
الإشارة إلى حروف المعجم في قول
من قال: ﴿الَّـمَّ﴾ حروف
المعجم التي تحديتكم بالنظم فيها.

ولفظ (الكتاب) مأخوذ من كتبت
الشيء إذا جمعته وضممت بعضه إلى
بعض، ككُتِبَ الحُرُز - بضم الكاف
وفتح الناء - وكُتِبَ الناقه.

ورُفِعَ (الكتاب) يتوجه على البدل،
أو على خبر الابتداء، أو على عطف
البيان.

ولا ﴿رَيْبٌ فِيهِ﴾ معناه: لا شك فيه،
ولا ارتياب به، والمعنى: أنه في ذاته
لا ريب فيه، وإن وَقَعَ رَيْبٌ للكفار.

وقال قوم: لفظ قوله: ﴿لَا رَيْبٌ
فِيهِ﴾ لفظ الخبر، ومعناه النهي:

وقال قوم: هو عموم يُراد به
الخصوص، أي عند المؤمنين، وهذا
ضعيف. وقرأ الزهري، وابن
محيصن، ومسلم بن جندب، وعبيد
ابن عمير: (فيه) بضم الهاء، وكذلك
إليه وعليه، وبه، ونصله، ونوله.
وما أشبه ذلك حيث وقع على
الأصل، وقرأ ابن اسحق: ﴿فِيهِوُ﴾
بضم الهاء ووصلها بواو.

و﴿هُدًى﴾ معناه: رشاد وبيان،
وموضعه من الإعراب: رفع على أنه
خبر (ذلك). أو خبر ابتداء مضمَر، أو
ابتداء وخبره في المجرور قبله، ويصح
أن يكون موضعه نصباً على الحال من
(ذلك)، أو مِنْ (الكتاب)، ويكون

العامل فيه معنى الإشارة، أو من (الضمير) في (فيه)، والعامل فيه معنى الاستقرار، وفي هذا القول ضعف.

وقوله: ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾: اللفظ مأخوذ من وقى، وفعله اتقى على وزن افتعل، وأصله «لِلْمُتَّقِيَيْنِ»، استقلت الكسرة على الياء، فسكنت وحذفت للالتقاء، وأبدلت الواو تاء على أصلهم في اجتماع الواو والتاء، وأدغمت التاء في التاء فصار «لِلْمُتَّقِيَيْنِ». والمعنى: للذين يتقون الله تعالى بامتنال أوامره، واجتناب معاصيه، كان ذلك وقاية بينهم وبين عذاب الله.

﴿تفسير قوله عز وجل:

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: يُصَدِّقُونَ، ويتعدى بالياء، وقد يتعدى باللام كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾، وكما قال: ﴿فَمَا بَاءَ لِمُؤْمِنِي﴾، وبين التثنيتين فرق، وذلك أن التعدية باللام في ضمنها تعد بالياء يفهم من المعنى.

واختلف القراءة في همز ﴿يُؤْمِنُونَ﴾: فكان ابن كثير، وناقع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي يهزمون ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وما أشبهه مثل: يأكلون، ويأمرون، ويؤتون، وكذلك مع تحرك الهمزة مثل: يؤخركم، ويؤده، إلا أن حمزة كان يستحب ترك الهمز إذا وقف، والباقون يقفون بالهمز، وروى وُزْش عن نافع ترك الهمز في جميع ذلك. وقد روي عن عاصم أنه لم يكن يهزم الهمزة الساكنة، وكان أبو عمرو إذا أذرج القراءة، أو قرأ في الصلاة لم يهزم كل همزة ساكنة، إلا أنه

كان يهزم حروفاً من السواكن بأعيانها سَدَّكَرُ في مواضعها إن شاء الله .

وإذا كان سكون الهمزة علامة للجزم لم يترك همزها مثل: (تَنَسَّأَهَا)، و (هَيَّيْنَا لَنَا) وما أشبهه.

وقوله ﴿بِالْغَيْبِ﴾ - قالت طائفة: معناه يصدقون إذا غابوا وخلوا، لا كالمنافقين الذين يُؤْمِنُونَ إذا حضروا، ويكفرون إذا غابوا. وقال آخرون: يُصَدِّقُونَ بما غاب عنهم مما أخبرت به الشرائع. واختلفت عبارة المفسرين في تمثيل ذلك فقالت فرقة: الغيب في هذه الآية: الله عز وجل، وقال آخرون: القضاء والقدر. وقال آخرون: القرآن وما فيه من الغيوب. وقال آخرون: الحشر والصراف والميزان والجنة والنار. وهذه الأقوال لا تتعارض، بل يقع الغيب على جميعها.

والغيب في اللغة: ما غاب عنك من أمر، ومن مطمئن الأرض الذي يغيب فيه داخله.

وقوله: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: يظهرونها ويثبتونها كما يقال: أقيمت السوق. هذا تشبيه بالقيام من حالة خفاءٍ قعود أو غيره، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا يُقَالُ: أَتَيْتُمُ لَمْ يَبْرَحُوا
حَتَّى تُقِيمَ الْخَيْلُ سَوْقَ طِعَانٍ

ومنه قول الشاعر:

أَقَمْنَا لِأَهْلِ الْعِرَاقِيْنَ سَوْقَ الـ
ضُرَابِ فَخَاسُوا وَوَلُّوا جَمِيعاً
وَأَصْلُ (يُقِيمُونَ) يَقُومُونَ، نقلت حركة الواو إلى القاف فانقلبت ياء لكون الكسرة قبلها. و (الضلالة) مأخوذة من صَلَّى يُصَلِّي إِذَا دَعَا. كما قال الشاعر:

عليك مثل الذي صلَّيت فاغتمضي
نوماً، فَإِنَّ لِحْنِبَ الْمَرْءِ مُضْطَبَّجَا
ومنه قول الآخر:

لَهَا حَارِمْ لَا يَبْرُحُ الذُّهْرُ بَيْتَهَا
وَإِنْ ذُبِحَتْ صَلَّى عَلَيْهَا وَزَمَرَا
فلما كانت الصلاة في الشرع دعاء انضاف إليه هيأت وقراءة، سُمِّيَ جميع ذلك باسم الدعاء. وقال عرق هي مأخوذة من الصَّلا، وهو عرق في وسط الظهر، ويفترق عند العُجْب فيكتنفه، ومنه أخذ المُصَلِّي في سبق الخيل، لأنه يأتي مع صَلْوَى السابق، فاشْتَقَّت الصلاة منه، إما لأنها جاءت ثانية للإيمان فُسِّبَتْ بالمُصَلِّي من الخيل، وإما لأن الراكع والساجد يُتَشَّى صَلَواً.

والقول إنها من الدعاء أحسن. وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ كتبت (مما) متصلة، و (ما) بمعنى الذي فحُفِّها أن تكون منفصلة، إلا أن الجار والمجرور كشيء واحد، وأيضاً فلما خفيت نون (من) في اللفظ حذفت في الخط، و (الرزق) عند أهل السنة ما صح الانتفاع به حلالاً كان أو حراماً، بخلاف قول المعتزلة: إن الحرام ليس برزق، و (يُنْفِقُونَ) معناه هنا: يؤتون ما ألزمهم الشرع من زكاة، وما نديهم إليه من غير ذلك.

قال ابن عباس: ينفقون: يؤتون الزكاة احتساباً لها. قال غيره: الآية في النفقة في الجهاد.

قال الضحاك: هي نفقة كانوا يتقربون بها إلى الله عز وجل على قدر يسرهم. قال ابن مسعود، وابن عباس أيضاً: هي نفقة الرجل على

وَالْفَلْحُ: الظفر بالبغية، وإدراك الأمل، ومنه قول لبيد:
واعقلي - إن كنت لماً تعقلني -
ولقد أفلح من كان عقلن
وقد وردت للعرب أشعاراً فيها
الفلاح بمعنى البقاء كقوله:

وَنَزَجُوا الْفَلَاحَ بَعْدَ عَادٍ وَجَمِيرٍ
وكقول الأصبط:

لكل هم من الهموم سعة
والصنح والمسنى لا فلاح معه
والبقاء يعقبه إدراك الأمل، والظفر
بالبغية، إذ هو رأس ذلك وملاكه،
وحكى الخليل الفلاح على المعنيين.
وقيل: بالنشأة الآخرة.

و «بُوقُونَ» معناه:
يعلمون علماً متمكناً في
نفوسهم، واليقين أعلى درجات
العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله
شك بوجه.

وقول مالك رحمه الله: «فيحلف
على يقينه، ثم يخرج الأمر على
خلاف ذلك»، تجوز في العبارة على
عُرف تجوز العرب، ولم يقصد
تحريف الكلام في اليقين.

وقوله تعالى: «أُولَئِكَ» إشارة إلى
المذكورين و (أولاء) جمع (ذا)، وهو
مبني على الكسر، لأنه ضعف لإبهامه
على قوة الأسماء، وكان أصل البناء
السكون، فحرك لالتقاء الساكنين، و
(الكاف) للخطاب، و(الهدى) هنا:
الإرشاد، و «أُولَئِكَ» الثاني ابتداءً، و
«الْمُفْلِحُونَ» خبره، و (هم) فضل،
لأنه وقع بين معرفتين، ويصح أن
يكون (هُم) ابتداءً و (الْمُفْلِحُونَ)
خبره، والجملة خبر (أُولَئِكَ).

وقوله: «بِأَنَّكُمْ كَفَرْتُمْ سَوَاءً عَلَيْهِمْ أُنذَرْتُمْ أَمْ لَمْ تُنذَرْتُمْ لَا يَتُوبُونَ»
ختم الله على قلوبهم وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَبَثَ
بَصَرَهُمْ غَشَوَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا بِالْحَرَمِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ أَلاَّ أَنْفُسُهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الْأَشْهَاءُ
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْأَشْهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لُعِنُوا
الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ أُشْرُوا وَالتُّكْلَةَ
بِالْهُدَىٰ فَمَا رَاحَتِ يَدُهُمْ وَلَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

أهل. والآية تعم الجميع، وهذه
الأقوال تمثيل لا خلاف.
تفسير قوله عز وجل:
اختلف المتأولون فيمن المراد بهذه
الآية، وبالتالي قبلها، فقال قوم: الآياتان
جميعاً في جميع المؤمنين، وقال
آخرون: هما في مؤمني أهل الكتاب،
وقال آخرون: الآية الأولى في مؤمني
العرب، والثانية في مؤمني أهل
الكتاب، كعبدالله بن سلام، وفيه نزلت.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه الأقوال لا تتعارض، فمن
جعل الآيتين في صنف واحد،
فإعراب (والذين) خفض على
العطف، ويصح أن يكون رفعاً على
الاستئناف أي وهم الذين، ومن
جعل الآيتين في صنفين فإعراب
(الذين) رفع على الابتداء، وخبره
«أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى» ويحتمل

الخفض عطفاً.

وقوله: «بِأَنَّكُمْ كَفَرْتُمْ سَوَاءً عَلَيْهِمْ أُنذَرْتُمْ أَمْ لَمْ تُنذَرْتُمْ لَا يَتُوبُونَ»
ختم الله على قلوبهم وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَبَثَ
بَصَرَهُمْ غَشَوَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا بِالْحَرَمِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ أَلاَّ أَنْفُسُهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الْأَشْهَاءُ
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْأَشْهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لُعِنُوا
الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ أُشْرُوا وَالتُّكْلَةَ
بِالْهُدَىٰ فَمَا رَاحَتِ يَدُهُمْ وَلَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

وقيل: بالدار الآخرة،
وقيل: بالنشأة الآخرة.

و «بُوقُونَ» معناه:
يعلمون علماً متمكناً في
نفوسهم، واليقين أعلى درجات
العلم، وهو الذي لا يمكن أن يدخله
شك بوجه.

وقوله تعالى: «أُولَئِكَ» إشارة إلى
المذكورين و (أولاء) جمع (ذا)، وهو
مبني على الكسر، لأنه ضعف لإبهامه
على قوة الأسماء، وكان أصل البناء
السكون، فحرك لالتقاء الساكنين، و
(الكاف) للخطاب، و(الهدى) هنا:
الإرشاد، و «أُولَئِكَ» الثاني ابتداءً، و
«الْمُفْلِحُونَ» خبره، و (هم) فضل،
لأنه وقع بين معرفتين، ويصح أن
يكون (هُم) ابتداءً و (الْمُفْلِحُونَ)
خبره، والجملة خبر (أُولَئِكَ).

وقوله: «بِأَنَّكُمْ كَفَرْتُمْ سَوَاءً عَلَيْهِمْ أُنذَرْتُمْ أَمْ لَمْ تُنذَرْتُمْ لَا يَتُوبُونَ»
ختم الله على قلوبهم وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَبَثَ
بَصَرَهُمْ غَشَوَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٧) وَمِنَ النَّاسِ
مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَيَأْتُوا بِالْحَرَمِ وَمَاهُمْ بِمُؤْمِنِينَ (٨)
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ اللَّهَ أَلاَّ أَنْفُسُهُمْ
وَمَا يَشْعُرُونَ (٩) فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا
وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (١٠) وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ
لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ (١١)
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ (١٢) وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ الْأَشْهَاءُ
أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْأَشْهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣) وَإِذَا لُعِنُوا
الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنُوا وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيطَانِهِمْ قَالُوا إِنَّا
مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ (١٤) اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدِّهُمْ
فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ (١٥) أُولَئِكَ الَّذِينَ أُشْرُوا وَالتُّكْلَةَ
بِالْهُدَىٰ فَمَا رَاحَتِ يَدُهُمْ وَلَا كَانُوا مُهْتَدِينَ (١٦)

وهذان في الاستفهام، وعدم علم أحدهما بعينه، فلما عمّتهما التسوية جرى على هذا الخبر لفظ الاستفهام لمشاركته إياه في الإبهام، وكل استفهام تسوية، وإن لم تكن كل تسوية استفهاماً.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّمَ اللَّهُ﴾ مأخوذاً من الختم وهو الطبع، والخاتم الطابع، وذهبت طائفة من المتأولين إلى أن ذلك على الحقيقة، وأن القلب على هيئة الكف ينقبض مع زيادة الضلال والإعراض إضبعاً إضبعاً، وقال آخرون: ذلك على المجاز، وأن ما خلق الله في قلوبهم من الكفر والضلال والإعراض عن الإيمان سماه ختماً. وقال آخرون ممن حمله على المجاز: الختم هنا أشد إلى الله تعالى لما كفر الكافرون به، وأعرضوا عن عبادته وتوحيده، كما يقال: أهلك المال فلاناً، وإنما أهلكه سوء تصرفه فيه، وقرأ الجمهور ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، وقرأ ابن أبي عبله ﴿وَعَلَىٰ أَسْمَاعِهِمْ﴾، وهو في قراءة الجمهور مصدر يقع للقليل والكثير، وأيضاً فلما أضيف إلى ضمير جماعة دل المضاف إليه على المراد، ويحتمل أن يريد على مواضع سمعهم، فحذف المضاف، وأقسام المضاف إليه مقامه. والغشاة: الغطاء المغشي الساتر، ومنه قول النابغة:

هلا سألت بني ذبياناً ما حسبي
إذا الدخان تَغَشَى الْأَسْمَطَ الْبَرِيماً
وقال الآخر:

تَبَغَشْتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيْهَا غِشَاوَةٌ
فَلَمَّا أَنْجَلْتُ قَطَعْتُ نَفْسِي أَلْوَمَهَا

خفف، غير أن مدّ أبي عمرو أطول من مدّ ابن كثير؛ لأنه يدخل بين الهمزتين ألفاً، وابن كثير لا يفعل ذلك، وروى قالون، وإسماعيل ابن جعفر، عن نافع إدخال الألف بين الهمزتين مع تخفيف الثانية. وروى عنه ورش تخفيف الثانية بين بين دون إدخال ألف بين الهمزتين، فأما عاصم وحمزة والكسائي - إذا حقق - وابن عامر، فبالهمزتين ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾، وما كان مثله في كل القرآن، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحق بتحقيق الهمزتين، وإدخال ألف بينهما. وقرأ الزهري، وابن محيصن ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ بحذف الهمزة الأولى، وتدل (أم) على الألف المحذوفة.

وكثر مكثي في هذه الآية بذكر جائزات لم يُقرأ بها، وحكاية مثل ذلك في كتب التفسير عناية.

والإنذار: إعلامٌ بتخويف، هذا حذو، وأنذرت فعل يتعدى إلى مفعولين، قال الله عز وجل ﴿فَقُلْ أَنْذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ وقال: ﴿إِنَّا أَنْذَرْنَاكُمْ عَذَابًا قَرِيبًا﴾ وأحد المفعولين في هذه الآية محذوف لدلالة المعنى عليه.

وقوله تعالى: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ لفظه لفظ الاستفهام، ومعناه الخبر، وإنما جرى عليه لفظ الاستفهام لأن فيه التسوية التي هي في الاستفهام، ألا ترى أنك إذا قلت مخبراً: سواء عليّ أعدت أم ذهبت، وإذا قلت مستفهماً: أخرج زيد أم قام؟ فقد استوى الأمران عندك، هذان في الخبر،

الناس من هذه حالة دون أن يُعيّن أحد. وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية في حُيَيِّ ابن أخطب، وأبي ياسر بن أخطب، وكعب بن الأشرف ونظرائهم، وقال الربيع بن أنس: نزلت في قادة الأحزاب وهم أهل القليب بيدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا حُكي هذا القول، وهو خطأ، لأن قادة الأحزاب قد أسلم كثير منهم، وإنما ترتبت الآية في أصحاب القليب، والقول الأول مما حكيناه هو المعتمد عليه، وكل من عيّن أحداً فإنما مثل بمن كشف الغيب - بموته على الكفر - أنه في ضمن الآية.

وقوله: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾، معناه: معتدل عندهم، ومنه قول الشاعر:

ولنيل يقول من ظلمتاه
سواء صحیحات العيون وعوؤها

قال أبو علي: في اللفظة أربع لغات: سوي «بكسر السين»، وسواء «بفتحة والمد»، وهاتان لغتان معروفتان، ومن العرب من يكسر السين ويمد، ومنهم من يضم أوله ويقصره، وهاتان اللغتان أقل من تينك، ويقال: سبيي بمعنى سواء كما قالوا: فيي وقواء.

و (سواء) رُفِعَ على خبر إن، أو رفع على الابتداء وخبره فيما بعده، والجملة خبر إن، ويصح أن يكون خبر إن (لا يؤمنون). وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ بهمزة مطولة، وكذلك ما أشبه ذلك في جميع القرآن، وكذلك كانت قراءة الكسائي إذا

واللام، وقال آخرون: ناس اسم من أسماء الجموع دون هذا التعليل دخلت عليه الألف واللام. وقال آخرون: أصل ناس أناس، دخلت الألف واللام في الأناس حذفتم الهمزة فجاء الناس، أدغمت اللام في النون لقرب المخارج.

وهذه الآية نزلت في المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ رجع من لفظ الواحد إلى لفظ الجمع بحسب لفظ (من) ومعناها، وحسن ذلك، لأن الواحد قبل الجمع في الرتبة، ولا يجوز أن يرجع متكلم من لفظ جمع إلى توحيد، لو قلت: «ومن الناس من يقومون ويتكلم» لم يجز. وسمى الله تعالى يوم القيامة اليوم الآخر لأنه لا ليل بعده، ولا يقال يوم إلا إما تَقَدَّمَهُ ليل، ثم نفى تعالى الإيمان عن المنافقين، وفي ذلك رد على الكَرَامِيَةِ في قولهم: «إن الإيمان قول باللسان وإن لم يُعْتَقَدْ بالقلب».

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ﴾، فقال الحسن ابن أبي الحسن: المَعْنَى يخادعون رسول الله، فأضاف الأمر إلى الله تجوزاً لتعلق رسوله به، ومخادعتهم هي تحيلهم في أن يُفْشِي رسول الله والمؤمنون لهم أسرارهم فيحفظون بما يكرهونه، ويتنبهون من ضرر المؤمنين على ما يحبونه. وقال جماعة من المتأولين: بل يخادعون الله والمؤمنين، وذلك بأن يظهروا من الإيمان خلاف ما أبطنوا من الكفر، ليحققوا دماءهم، ويحرزوا أموالهم، ويظنون أنهم قد

الختم على الجميع، والغشاوة هي الخاتم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ذكرنا اعتراض أبي علي على هذا القول.

وقرأ أبو حنيفة ﴿غَشَاوَةٌ﴾ بفتح الغين والرفع، وهي قراءة الأعمش، وقال الثوري: كان أصحاب عبد الله يقرؤونها ﴿غَشِيَّةٌ﴾ بفتح الغين والياء والرفع، وقرأ الحسن ﴿غَشَاوَةٌ﴾ بضم الغين، وقرئت ﴿غَشَاوَةٌ﴾ بفتح الغين، وأصوب هذه القراءات المقروء بها ما عليه السبعة من كسر الغين على وزن (عِمَامَةٌ)، والأشياء التي هي أبدأ مشتملة هكذا يجيء وزنها كالضِمَامَةِ والعِمَامَةِ والكِتَابَةِ والعصاة والريابة وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ معناه: بمخالفتك يا محمد، وكفرهم بالله، استوجبوا ذلك، و (عظيم) معناه بالإضافة إلى عذاب دونه يتخلله فتور، وبهذا التخلل المتصور يصح أن يتفاضل العرضان كسوادين: أحدهما أشيع من الآخر إذ قد تخلل الآخر ما ليس بسواد.

٨ - ٩ تفسير قوله عز وجل: كان أصل النون أن تكسر للالتقاء، لكنها تفتح مع الألف واللام، ومن قال: استثقلت كسرتان تتوالى في كلمة على حرفين فمعرض بقولهم: من ابنك، ومن اسمك وما أشبهه، واختلف النحويون في لفظة (الناس) فقال قوم: هي من نسي، فأصل ناس نسي قلب فجاء نيس، تحركت الياء وانفتح ما قبلها، فانقلبت ألفاً فقيل: ناس، ثم دخلت الألف

ورفع (غِشَاوَةٌ) على الابتداء، وما قبله خبر، وقرأ عاصم فيما روى المفضل الضبي عنه ﴿غَشَاوَةٌ﴾ بالنصب على تقدير: وجعل على أبصارهم غشاوة، والختم - على هذا التقدير - في القلوب والأسماع، والغشاوة على الأبصار، والوقف على قوله: ﴿وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾، وقرأ الباقون (غشاوة) بالرفع، قال أبو علي: وقراءة الرفع أولى، لأن النصب: إما أن تحمله على ختم الظاهر، فيعترض في ذلك أنك حلت بين حرف العطف والمعطوف به، وهذا عندنا إنما يجوز في الشعر، وإما أن تحمله على فعل يدل عليه ختم تقديره: وجعل على أبصارهم، فيجئ الكلام من باب:

مستقلداً سيفاً وزمحا
وقول الآخر:

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِدًا
ولا تكاد تجد هذا الاستعمال في خال سعة واختيار، فقراءة الرفع أحسن، وتكون الواو عاطفة جملة على جملة، قال: ولم أسمع من الغشاوة فعلاً مصرفاً بالواو، فإذا لم يوجد ذلك وكان معناها معنى ما اللام منه الياء من غشي يغشى بدلالة قولهم: الغشيان، فالغشاوة من غشى كالجباوة من جبيت في أن الواو كأنها بدل من الياء إذ لم يصرف منه فعل كما لم يصرف من الجباوة.

وقال بعض المفسرين: الغشاوة على الأسماع والأبصار - والوقف في قوله: ﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وقال آخرون:

نجوا وخذعوا وفازوا، وإنما خدعوا أنفسهم، لحصولهم في العذاب، وما شعروا لذلك.

واختلف القراء في «يُخَدَعُونَ» الثاني، فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «يُخَادِعُونَ»، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي «وما يَخْدَعُونَ»، وقرأ أبو طالوت عبدالسلام بن شداد، والجارود ابن أبي سبرة «يُخَدَعُونَ» بضم الياء، وقرأ قتادة، ومُورِق العجلي «يُخَدَعُونَ» بضم الياء وفتح الخاء وكسر الدال وشدها. فوجه قراءة ابن كثير ومن ذكر إحراز تناسُب اللفظ، وأن يُسَمَّى الفعل الثاني باسم الفعل الأول المسبب له، ويجيء ذلك كما قال الشاعر:

ألا لا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَتَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِيْنَا
فجعل انتصاره جهلاً، ويؤيد هذا المنزع في هذه الآية أن (فاعل) قد يجيء من واحد، كما قبئت اللص وطارت النعل. وتجه أيضاً هذه القراءة بأن يُنْزَل ما يخطر ببالهم، ويهجم في خواطرم، من الدخول في الدين، والنفاق فيه، والفكر في الأمر وضده في هذا المعنى - بمنزلة محاوراة أجنبيين، فيكون الفعل كأنه من اثنين، وقد قال الشاعر:

تَذَكَّرَ مَنْ أُنِيَ وَمِنْ أَيْنَ شُرْبُهُ
يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ كَذِي الْهَجْمَةِ الْإِبِلُ
وأشد ابن الأعرابي:

لَمْ تَذَرِ مَا . لا . وَلَسْتَ قَائِلَهَا
عُمَرُكَ مَا عَشْتَ آخِرَ الْأَجِيدِ
وَلَمْ تُؤَامِرْ نَفْسِيكَ مُتَقَرِّباً
فيها وفي أختها ولم تكذب

وقال الآخر:

يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ فِي الْعَيْشِ فُسْحَةً
أَيْسْتَرْجِعُ الذُّوبَانَ أَمْ لَا يَطْوِرُهَا؟

وأشد ثعلب عن ابن الأعرابي:
وَكُنْتُ كَذَاتِ الضُّيْءِ لَمْ تَذَرِ إِذْ بَعَثْتُ
تُؤَامِرُ نَفْسِيهَا أَتَسْرِقُ أَمْ تَزْنِي؟
ووجه قراءة عاصم ومن ذكر: أن ذلك الفعل هو خدع لأنفسهم يمضي عليها تقول: خادعت الرجل بمعنى أعملت التحيل عليه فخدعته بمعنى: تمت عليه الحيلة، ونفذ فيه المراد، والمصدر خدع بكسر الخاء وخذيعه، حكى ذلك أبو زيد، فمعنى الآية: وما ينفذون السوء إلا على أنفسهم وفيها.

ووجه قراءة أبي طالوت أحد أمرين: إما أن يُقَدَّر الكلام وما يُخَدَعُونَ إلا عن أنفسهم، فحذف حرف الجر ووصل الفعل. كما قال تعالى: ﴿وَأَخَذَ مَوْثِقَ قَوْمِهِ﴾ أي من قومه، وإما أن يكون (يُخَدَعُونَ) أعمل عمل ينتقضون لما كان المعنى: وما ينتقضون ويستلبون إلا أنفسهم، ونحوه قول الله تعالى: ﴿لَيْلَةَ الْبَيْتِ الْأَرْقُ إِلَى سَائِكِكُمْ﴾ ولا تقول: رفئت إلى المرأة، ولكن لما كان بمعنى الإفضاء ساغ ذلك. ومنه قوله تعالى: ﴿هَلْ لَكَ إِلَّا أَنْ تَزْنَ﴾ وإنما يقال: هل لك في كذا، ولكن لما كان المعنى: أجدبك إلى أن تزكى ساغ ذلك وحسن، وهو باب سني من فصاحة الكلام. ومنه قول الفرزدق:

كَيْفَ تَرَانِي قَالِباً مَجْنِي
قَدْ قَتَلَ اللَّهُ زِياداً عَنِّي
لما كانت قتل قد دخلها معنى

صرف، ومنه قول الآخر:

إِذَا رَضَيْتَ عَلَيَّ بِشَوْ قُشَيْرِ
لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رِضَاها
لما كانت رضيت قد تضمنت معنى أقبلت علي. وأما الكسائي فقال في هذا البيت: وَصَلَ رَضِي بِوَصْلِ نَقِيضِهِ وَهُوَ سَخِطٌ، وقد تجري أمور في اللسان مجرى نقائضها.

ووجه قراءة قتادة المبالغة في الخدع، إذ هو مصير إلى عذاب الله.

قال الخليل: يُقال: خَادَع من واحد لأن في المخادعة مهلة، كما يقال: عاجت المريض لمكان المهلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا من دقيق نظره، وكأنه يريد فاعل إلى اثنين ولا بد من حيث ما فيه مهلة ومدافعة ومماثلة، فكأنه يقاوم في المعنى الذي تجيء فيه فاعل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْعُرُونَ﴾ معناه: وما يعلمون علم تفتن وتهذ، وهي لفظ مأخوذة من الشعار كأن الشيء المتفتن له شعار للنفس، والشعار: الشوب الذي يلي جسد الإنسان، وهو مأخوذ من الشعر، والشاعر المتفتن لغريب المعاني، وقولهم ليت شعري معناه: ليت فطنتي تُدرك، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

عَقُّوا بِسَهْمٍ فَلَمْ يَشْعُرْ بِهِ أَحَدٌ
ثُمَّ اسْتَفَاءُوا وَقَالُوا: حَبِذَا الْوَضْحُ
وَاخْتَلَفَ: ما الذي نفى الله عنهم أن يشعروا له؟ فقالت طائفة: وما يشعرون أن ضرر تلك المخادعة راجع عليهم لخلودهم في النار، وقال آخرون: وما يشعرون أن الله

يكشف لك سرهم ومخادعتهم في قولهم: آمنا.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المرضُ عبارة مُستَعَارَةٌ للفساد الذي في عقائد هؤلاء المنافقين، وذلك إما أن يكون شكاً، وإما جحداً بسبب حسدهم، مع علمهم بصحة ما ينجدون، وينحو هذا فسر المتأولون. وقال قوم: المرض غمهم بظهور أمر رسول الله ﷺ.

وقرأ الأصمعي على أبي عمرو: ﴿مَرَضٌ﴾ بسكون الراء، وهي لغة في المصدر. قال أبو الفتح: وليس بتخفيف. واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿فَرَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ فقيل: هو دعاء عليهم، وقيل: هو خير أن الله قد فعل بهم ذلك، وهذه الزيادة هي بما ينزل من الوحي، ويظهر من البراهين، فهي على هؤلاء المنافقين عمى، وكلما كذبوا زاد المرض، وقرأ حمزة ﴿فَرَادَهُمُ﴾ بكسر الزاي وكذلك ابن عامر، وكان نافع يشم الزاي إلى الكسر، وفتح الباقون. و﴿أَلِيمٌ﴾ معناه مؤلِّمٌ، كما قال الشاعر وهو عمرو ابن معدي كرب:

أَمِنْ رِنْحَانَةِ الدَّاعِي السَّمِيعِ

.....

بمعنى مُسْمِعِ.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر ﴿يَكْذِبُونَ﴾ بضم الياء وتشديد الذال، وقرأ الباقون بفتح الياء وتخفيف الذال، فالقراءة بالتثنية يؤيدها قوله تعالى قبل: ﴿وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ﴾ فهذا إخبار بأنهم يكذبون،

والقراءة بالتخفيف يؤيدها أن سياق الآيات إنما هي إخبارٌ بكذبهم، والتوعد بالعذاب الأليم متوجه على التكذيب، وعلى الكذب في مثل هذه النازلة إذ هو مُنْطَوٌّ على الكفر، وقراءة التثنية أرجح.

و﴿إِذَا﴾ ظرف زمان. وحكي عن المبرد أنها في قولك في المفاجأة: «خرجت فإذا زيد» ظرف مكان لأنها تضمنت جثة، وهذا مردود، لأن المعنى: خرجت فإذا حضور زيد، فإنما تضمنت المصدر كما يقتضيه سائر ظروف الزمان، ومنه قولهم: «الْيَوْمَ حَمَرٌ، وَعَدَا أَمْرٌ» فمعناه: وجود خمر، ووقوع أمر، والعامل في ﴿إِذَا﴾ في هذه الآية: قالوا. وأصل ﴿قِيلَ﴾ قولٌ، نُقِلَتْ حركة الواو إلى القاف فقلبت ياء لانكسار ما قبلها، وقرأ الكسائي: قِيلَ وَغِيضٌ وَسِيءٌ وَسِيئٌ وَحِيلٌ وَسِيْقٌ وَجِيءٌ بضم أوائل ذلك كله، وروى ذلك عن ابن عامر، وروى عنه أنه كسر غِيضٌ وَقِيلٌ وَجِيءٌ، الغين والقاف والجيم، حيث وقع من القرآن، وضمٌ نافع من ذلك كله حرفين سِيءٌ وَسِيئٌ، وكسر ما بقي. وكان ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، يكسرون أوائل هذه الحروف كلها.

والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائد إلى المنافقين المشار إليهم قبل. وقال بعض الناس: الإشارة هنا هي إلى منافقي اليهود. وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: لم يجيء هؤلاء بعد، ومعنى قوله:

لم ينقضوا، بل هم يجيئون في كل زمان.

و﴿لَا تُقْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: بالكفر وموالة الكفرة، و﴿تَحْنُ﴾ اسم من ضمائر الرفع منبهي على الضم إذ كان اسماً قوياً يقع للواحد المعظم، والاثنين، والجماعة، فأعطي أسنى الحركات، وأيضاً فلما كان في الأغلب ضمير جماعة، وضمير الجماعة في الأسماء الظاهرة الواو أعطي الضمة إذ هي أخت الواو.

ولقول المنافقين ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْلِمُونَ﴾ ثلاث تأويلات: أحدها: جحد أنهم يفسدون، وهذا استمرار منهم على النفاق. والثاني: أن يقرؤا بموالة الكفار، ويدعون أنها صلاح من حيث أنهم قرابة توصل، والثالث: أنهم مصلحون بين الكفار والمؤمنين، فلذلك يداخلون الكفار.

و﴿الآءِ﴾ استفتاح كلام، و﴿إِنْ﴾ بكسر الألف استئناف، و﴿هَمْ﴾ الثاني رفع بالابتداء، و﴿الْمُفْسِدُونَ﴾ خبره، والجملة خبر إن، ويحتمل أن يكون فصلاً، ويسميه الكوفيون العماد، ويكون المفسدون خبر إن. فعلى هذا لا موضع لـ ﴿هَمْ﴾ من الإعراب، ويحتمل أن يكون تأكيداً للضمير في (إنهم)، فموضعه نصب.

ودخلت الألف واللام في قوله: ﴿الْمُفْسِدُونَ﴾ لما تقدم ذكر اللفظة في قوله: ﴿لَا تُقْسِدُوا﴾ فكأنه ضرب من العهد، ولو جاء الخبر عنهم ولم يتقدم من اللفظة ذكر لكان ﴿ألا إنهم مفسدون﴾ قاله الجرجاني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الألف واللام تتضمن المبالغة كما تقول: «زيد هو الرجل»، أي حق الرجل، فقد تستغني عن مقدمة تقتضي عهداً.

و ﴿لَكِنَّ﴾ بجملته حرف استدراك، ويحتمل أن يراد هنا: ﴿لَا يَسْعُرُونَ﴾ أنهم مفسدون، ويحتمل أن يراد: ﴿لَا يَسْعُرُونَ﴾ أن الله يفضحهم، وهذا مع أن يكون قولهم ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْلِمُونَ﴾ جحداً محضاً للإفساد، والاحتمال الأول هو بأن يكون قولهم: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُسْلِمُونَ﴾ اعتقاداً منهم أنه صلاح في صلة القرابة، أو إصلاح بين المؤمنين والكافرين.

١٣ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: صدقوا بمحمد ﷺ وشرعه، مثل ما صدق المهاجرون والمحققون من أهل يثرب، قالوا: أنكون كالذين خفت عقولهم؟ و [السُّفَهَاءُ]: الخفة والركة الداعية إلى الخفة، يقال: «ثوب سفیه» إذا كان رقيقاً هلهل النسج، ومنه قول ذي الرمة:

مَشِينٌ كَمَا اهْتَرَّتْ رِمَاحٌ تَسْفُهُتْ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ السُّوَامِ
وهذا القول إنما كانوا يقولونه في الخفاء، فأطلع الله عليه نبيه والمؤمنين، وقرر أن السفه ورقة الحلوم وفساد البصائر إنما هو في حيزهم وصفة لهم، وأخبر أنهم لا يعلمون أنهم هم السفهاء للزئير الذي على قلوبهم.

وقال قوم: الآية نزلت في منافقي اليهود، والمراد بالناس: عبدالله

ابن سلام ومن أسلم من بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تخصيص لا دليل عليه. و ﴿لَقُوا﴾ أصله لقيوا استثقلت الضمة على الياء فسكنت، فاجتمع الساكنان فحذفت الياء.

وقرأ ابن السمين: ﴿لَا قُوا الَّذِينَ﴾.

وهذه كانت حال المنافقين: إظهار الإيمان للمؤمنين، وإظهار الكفر في خلواتهم بعضهم مع بعض، وكان المؤمنون يلبسونهم على ذلك لموضع القرابة، فلم تلتصم عليهم الشهادات، ولا تقررت عليهم في النفاق تقرراً يوجب لوضوحه الحكم بقتلهم، وكان ما يظهرونه من الإيمان يحقن دماءهم، وكان رسول الله ﷺ يعرض عنهم، ويدعهم في غمرة الاشتباه، مخافة أن يتحدت عنه أنه يقتل أصحابه، فينفر الناس، حسب ما قاله عليه السلام لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين قال له في وقت قول عبدالله بن أبي ابن سلول: [لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ] القصة، دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال: «دعه، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه» فهذه طريقة أصحاب مالك رضي الله عنه في معنى كف رسول الله ﷺ عن قتل المنافقين، مع علمه بكفرهم في الجملة، نص على هذا محمد بن الجهم، وإسماعيل القاضي، والأبهرى، وابن الماجشون، واحتج بقوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ السَّافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي

قلوبهم مرضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُحَارِرُونَ فِيهَا إِلَّا أَجْلاً ﴿١٣﴾ مَلْمُؤِينَ أَلَمَّا تَقَفُوا مِنْ أَدْبَارِهِمْ وَقَفُوا نَفْسِيلاً ﴿١٤﴾.

قال قتادة: معناه: إذا هم أعلنوا النفاق.

وقال مالك رحمه الله: النفاق في عهد رسول الله ﷺ هو: الزندقة فينا اليوم، فيقتل الزنديق إذا شهد عليه بها دون استتابة، لأنه لا يظهر ما يُستتاب منه، وإنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليس لأمة أن الحاكم لا يحكم بعلمه إذا لم يُشهد على المنافقين. قال القاضي إسماعيل: لم يشهد على عبدالله بن أبي إلا زيد بن أرقم وحده، ولا على الجلاس بن سويد إلا عمير بن سعد ربيبه وحده، ولو شهد على أحد منهم رجلان بكفره ونفاقه لقتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أقوى من انفراد زيد وغيره أن اللفظ ليس بصريح كُفر، وإنما يفهم من قُوْبِهِ الكُفر. قال الشافعي رحمه الله: السنة فيمن شهد عليه بالزندقة، فجدد وأعلن الإيمان، وتبرأ من كل دين سوي الإسلام، أن ذلك يمنع من إراقة دمه، وبه قال أصحاب الرأي والطبري وغيرهم. قال الشافعي وأصحابه: وإنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين، ما كانوا يُظهرونه من الإسلام بألسنتهم مع العلم بنفاقهم، لأن ما يُظهرونه يجب ما قبله، فمن قال: إن عقوبة الزندقة أشد من عقوبة الكفار فقد خالف معنى الكتاب والسنة، وجعل

شهادة الشهود على الزنديق فوق شهادة الله على المنافقين، قال الله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ قال الشافعي: وأبو حنيفة، وابن حنبل، وأهل الحديث: فالمعنى المُوَجِّب لكف رسول الله ﷺ عن قتل المنافقين مع العلم بهم أن الله تعالى نهاه عن قتلهم إذا أظهروا الإيمان، وصلوا، فكذلك هو الزنديق. واحتج ابن حنبل بحديث عبيد الله بن عدي بن الخيار عن رجل من الأنصار في الذي شهد عليه عند رسول الله ﷺ بالنفاق فقال: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله؟» قالوا: بلى، ولا شهادة له. قال: «أليس يصلي؟» قالوا: بلى، ولا صلاة له. قال: «أولئك الذين نهاني الله عنهم»، وذكر أيضاً أهل الحديث ما روي عن رسول الله ﷺ أنه قال فيهم: «لَعَلَّ اللَّهُ سَيَخْرِجُ مِنْ أَضْلَابِهِمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ، وَيُصَدِّقُ الْمُرْسَلِينَ، وَيُخْلِصُ الْعِبَادَةَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ» قال أبو جعفر الطبري في كتاب «اللطيف» في باب «المرتد»: إن الله قد جعل الأحكام بين عباده على الظاهر، وتولى الحكم في سرائرهم دون أحد من خلقه، فليس لأحد أن يحكم بخلاف ما ظهر، لأنه حكم بالظنون، ولو كان ذلك لأحد كان أولى الناس به رسول الله ﷺ، وقد حكم للمنافقين بحكم المسلمين، بما أظهروا، ووكّل سرائرهم إلى الله، وقد كذب الله ظاهرهم في قوله

تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ينفصل المالكيون عما أُرْمَوْه من هذه الآية بأنها لم تعين أشخاصهم، وإنما جاء فيها توبيخ لكل مغموص عليه بالنفاق، وبقي لكل واحد منهم أن يقول: لم أَرُدْ بها، وما أنا إلا مؤمن، ولو عَيَّنَ أَحَدٌ لَمَّا جَبَّ كَذِبَهُ شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَى شَيَاطِينِهِمْ﴾ وصلت ﴿خَلَوْا﴾ بالي، وعرفها أن توصل بالياء فتقول: خلوتُ بفلان، من حيث نُزِلَتْ خلوا في هذا الموضع منزلة، ذهبوا وانصرفوا، إذ هو فعل معادلٌ لقوله: ﴿لَعَلَّوْا﴾.

وهذا مثل ما تقدم من قول الفرزدق:

قد قَتَلَ اللهُ زِيَاداً عَنِّي.

لما أنزلها منزلة صَرَفَ ورد، وقال مكي: يقال: خلوت بفلان، بمعنى سخرت به، فجاءت إلى في الآية زوالاً عن الاشتراك في الباء، وقال قوم: [إلى] بمعنى (مع) وفي هذا ضعف، ويأتي بيانه إن شاء الله في تفسير قوله تعالى: ﴿مَنْ أَمْسَكَ إِلَى اللَّهِ﴾ وقال قوم: (إلى) بمعنى (الباء)، إذ حروف المعاني يبدل بعضها من بعض، وهذا ضعيف يأباه الخليل وسيويه، وغيرهما.

واختلف المفسرون في المراد بالشياطين. فقال ابن عباس رضي الله عنه: هم رؤساء الكفر،

وقال ابن الكلبي وغيره: هم شياطين الجن، وهذا في هذا الموضع بعيد، وقال جمع من المفسرين: هم الكهان. ولفظ «الشَيْطَانَةُ» الذي معناه: البعد عن الإيمان والخير، يعم جميع من ذكر والمنافقين، حتى يقدر كل واحد شيطان غيره، فمنهم الخالون ومنهم الشياطين. و «مُسْتَهْزِئُونَ» معناه تتخذ هؤلاء الذين نصانهم بإظهار الإيمان هُزُؤاً، ونستخف بهم، ومذهب سيبويه رحمه الله: أن تكون الهمزة مضمومة على الواو في [مُسْتَهْزِئُونَ]، وحكى عنه أبو علي أنها تخفف بين بين، ومذهب أبي الحسن الأبخش: أن تُقَلَّبَ الهمزة ياء قلباً صحيحاً، فيقرأ «مُسْتَهْزِئُونَ». قال ابن جني: حمل الياء الضمة تذكراً لحال الهمزة مضمومة، والعرب تعاف ياء مضمومة قبلها كسرة، وأكثر القراء على ما ذهب إليه سيبويه، ويقال: هزىء واستهزأ بمعنى، فهو كعجب واستعجب، ومنه قول الشاعر:

مُسْتَعْجِبٌ مِمَّا يَرَى مِنْ أَنَاتِنَا
وَلَوْ زَيْتُنَةُ الْحَرْبِ لَمْ يَتَرْتَمِرْ
- (١٦) - تفسير قوله عز وجل:

اختلف المفسرون في هذا الاستهزاء؛ فقال جمهور العلماء: هي تسمية العقوبة باسم الذنب، والعرب تستعمل ذلك كثيراً، ومنه قول الشاعر:

ألا لا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا

هذان يحركان بالكسر. وقرأ أبو السمال، قعنّب العدوي، بفتح الواو في: ﴿أَشْرَوْا الصَّلَاةَ﴾، وقرأها يحيى بن يعمر بكسر الواو، و ﴿الصَّلَاةَ﴾ والضلال: التلف، نقيض الهدى، الذي هو الرشاد إلى المقصد.

واختلفت عبارة المفسرين في معنى قوله: ﴿أَشْرَوْا الصَّلَاةَ بِالْهَدَى﴾ فقال قوم: أخذوا الضلالة، وتركوا الهدى، وقال آخرون: استحبوا الضلالة، وتجنبوا الهدى، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْتَحِبُّوا أَلْمَمَ عَلَى الْمَدَى﴾. وقال آخرون: الشراء هنا استعارة وتشبيه، لما تركوا الهدى، وهو معرض لهم، ووقعوا بدله في الضلالة، واختاروها، شَبَّهُوا بمن اشتروا فكأنهم دفعوا في الضلالة هداهم، إذ كان لهم أخذه، وبهذا المعنى تعلق مالك رحمه الله في منع أن يشتري الرجل على أن يتخير في كل ما تختلف آحاد جنسه، ولا يجوز فيه التفاضل.

وقال قوم: الآية فيمن كان آمن من المنافقين، ثم ارتد في باطنه وعقده، ويقرب الشراء من الحقيقة على هذا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا رِيحَتْ يَحْرَتُهُمْ﴾ ختم للمثل بما يشبه مبدأه في لفظة الشراء، وأسند الريح إلى التجارة كما قالوا: «ليل قائم، ونهار صائم»، والمعنى: فما ربحوا في تجارتهم. وقرأ إبراهيم بن أبي عجلة: ﴿فَمَا رِيحَتْ تِجَارَتُهُمْ﴾ بالجمع.

وأخَصَرَ، ومددنا القوم: صرنا لهم أنصاراً، وأمددناهم بغيرنا، وحكى اللحياني أيضاً: أمد الأمير جنده بالخیل، وفي التنزيل: ﴿وَأَمَدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾.

قال بعض اللغويين: ﴿وَيَسْتَدْمُ فِي طُفَيْتِهِمْ﴾ أي يمهلهم ويلجهم، فتحتمل اللفظة أن تكون من المد الذي هو المَطْل والتطويل، كما فسر في ﴿عَمِدٌ مُدَدٌ﴾، ويحتمل أن تكون هي معنى الزيادة في نفس الطغيان، و ﴿الطغيان﴾: الغلو وتعدي الحد، كما يقال: طغى الماء، وطغت النار، وروي عن الكسائي إمالة طغيانهم - و ﴿يَمْعُونَ﴾: يترددون حيرة. والعَمَةُ الحيرة من جهة النظر، والعامة الذي كأنه لا يبصر من التحير في ظلام، أو فلاة، أو هم.

وقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى المتقدم ذكرهم، وهو رفع بالابتداء، و ﴿الذَّيْبُ﴾ خبیره، و ﴿أَشْرَوْا﴾ صلة للذنين، وأصله اشتريوا، تحركت الياء وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً، فحذفت لالتقاء الساكنين، وقيل: استثقلت الضمة على الياء فسكنت، وحذفت للالتقاء، وحركت الواو بعد ذلك للالتقاء بالساكن بعدها، وخصت بالضم لوجوه، منها: أن الضمة أخت الواو وأخف الحركات عليها. ومنها: أنه لما كانت واو جماعة ضمت كما فعل بالنون في نحن. ومنها: أنها ضمت إتياعاً لحركة الياء المحذوفة قبلها. قال أبو علي: صار الضم فيها أولى، ليفصل بينها وبين واو أو، ولو، إذ

وقال قوم: إن الله تعالى يفعل بهم أفعالاً هي في تأمل البشر هزؤ، حسب ما يُروى: ﴿إِنَّ النَّارَ تَجْمَدُ كَمَا تَجْمَدُ الْإِهَالَةَ فَيَمْشُونَ عَلَيْهَا، وَيظنونها منجاة فتخسف بهم﴾. وما يروى: ﴿إِنَّ أَبْوَابَ النَّارِ تَفْتَحُ لَهُمْ فَيَذْهَبُونَ إِلَى الْخُرُوجِ﴾، نحا هذا المنحى ابن عباس، والحسن.

وقال قوم: استهزاؤه بهم، هو استدراجهم من حيث لا يعلمون، وذلك أنهم، بذور ناعم الله الدنيوية عليهم يظنون أنه راض عنهم، وهو تعالى قد حثم عذابهم، فهذا على تأمل البشر كأنه استهزاء.

و ﴿وَيَسْتَدْمُ﴾ معناه: يزيدهم في الطغيان، وقال مجاهد: «معناه: يُغْلِي لَهُمْ». قال يونس بن حبيب: يقال «مد في الشر، وأمد في الخير». وقال غيره: «مد الشيء». ومدّه ما كان مثله ومن جنسه، وأمدّه ما كان مغايراً له، تقول: مدّ النهر، ومدّه نهر آخر، ويقال: أمدّه، قال اللحياني: يقال لكل شيء دخل فيه مثله فكثّره: «مدّه يمدّه مدّاً»، وفي التنزيل: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾. ومادة الشيء ما يمدّه، دخلت فيه الهاء للمبالغة. قال ابن قتيبة وغيره: مددّت الدواة وأمددتها بمعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن يكون مددتها جعلت إلى مدادها آخر، وأمددتها جعلتها ذات مداد، مثل قَبَّرَ وأقْبَر، وحصّر

أو من جماعة، وقال النحويون: الذي اسم مبهم يقع للواحد والجمع، و ﴿أَسْتَوْذَقُ﴾ قيل: معناه أوقد، فذلك بمنزلة عجب واستعجب بمعنى. قال أبو علي: وبمنزلة هزىء واستهزأ، وسخر واستسخر، قرء واستقر، وعلا قرنه واستعلاه، وقد جاء استفعل بمعنى أعل: أجاب واستجاب، ومنه قول الشاعر:

وداع دعا يا من يجيب إلى الثدى
قلتم يستجيبه عند ذلك مجيب
وأخلف لأهله واستخلف إذا جلب
لهم الماء، ومنه قول الشاعر:

ومستخلفات من يلاؤن ثنوفة
لمضفرة الأصداق حمر الحواصل
ومنه قول الآخر:

.....
سقاها فرواها من الماء مخلف
ومنه: أوقد واستوقد، قاله أبو زيد، وقيل: استوقد: يراد به طلب من غيره أن يوقد له على المشهور من باب استفعل، وذلك يقتضي حاجته إلى النار، فانطفأها مع حاجته إليها أنكى له، واخْتَلَفَ فِي ﴿أَسَاءَتْ﴾ فقيل: يتعدى، لأنه يُقِيلُ بالهمزة من ضاء، ومنه قول العباس بن عبدالمطلب في النبي ﷺ:

وأنت لنا ولذت أشرقت الأز
ض وضاءت بنورك الأفتق
وعلى هذا فما في قوله ﴿مَا حَوْلَهُ﴾ مفعولة، وقيل: أضاءت لا تتعدى، لأنه يقال: ضاء وأضاء بمعنى، فما زائدة، وحوله ظرف.

كَيْلِهِ شَيْءٌ، لأن ما يتحصل للعقل من وحدانية وأزلية، ونفي ما لا يجوز عليه ليس يماثله في شيء، وذلك المتحصل هو المثل الأعلى الذي في قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ وقد جاء في تفسيره: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، ففسر بجهة الوحداية.

وقوله: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ رفع بالابتداء، والخبر في الكاف، وهي على هذا اسم، كما هي في قول الأعشى:

أنتهون ولن ينهى ذوي شطط
كالطعن يذهب فيه الزيت والمثقل
ويجوز أن يكون الخبر محذوفاً، تقديره: مثلهم مستقر كمثل، فالكاف على هذا حرف، ولا يجوز ذلك في بيت الأعشى، لأن المحذوف فاعل تقديره شيء كالطعن، والفاعل لا يجوز حذفه عند جمهور البصريين، ويجوز حذف خبر الابتداء إذا كان الكلام دالاً عليه، وجوز أبو الحسن الأخفش حذف الفاعل، وأن تكون الكاف في بيت الأعشى حرفاً.

ووحّد ﴿الَّذِي﴾ لأنه لم يقصد تشبيه الجماعة بالجماعة، وإنما المقصد أن كل واحد من المنافقين فعله كفعل المستوقد، و (الذي) أيضاً ليس بإشارة إلى واحد ولا بد، بل إلى هذا الفعل: وقع من واحد،

مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْذَقْنَا رَأً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ
ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلْمَةٍ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ
بَكَمُ عَمِّي قَهُمْ لَا يَزْعُمُونَ ﴿١٨﴾ وَأَوْصَيْبُ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ
ظَلْمٌ وَرَعْدٌ وَبُرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْبَعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ
حَذَرًا لِمَوْتٍ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَكْطِفُ
أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَتْ لَهُمْ مَشْأَفِيهِ وَإِذَا ظَلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَرَهُمْ إِنَّا اللَّهُ عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ لَمَّا عَابَدُوا رَبَّهُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ
وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ
الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ
بِهِ مِنَ الشَّجَرَاتِ زَيْتًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لَهُ أندَادًا وَأَنْتُمْ
تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا
فَأْتُوا بِنُورٍ مِمَّنْ يَمْثَلِيهِ وَأَدْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ
إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ إِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا
النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا
مُهْتَدِينَ﴾، قيل: المعنى في
شراهم هذا، وقيل: على الإطلاق،
وقيل: في سابق علم الله، وكل هذا
يحتمله اللفظ.

﴿١٧﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

المَثَلُ والمِثْلُ والمَثِيلُ واحد،
معناه: الشبه. هكذا نص أهل
اللغة، والمتماثلان: المتشابهان،
وقد يكون مثل الشيء جرمًا مثله،
وقد يكون ما تُعْقَلُ النفس وتوهمه
من الشيء مثلاً له، فبقوله تعالى:
﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ﴾، معناه: أن الذي
يتحصل في نفس الناظر في أمرهم
كمثل الذي يتحصل في نفس
الناظر في أمر المستوقد، وبهذا
يزول الإشكال الذي في تفسير
قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾،
وفي تفسير قوله تعالى: ﴿لَيْسَ

واختلف المتأولون في فعل المنافقين الذي يشبه فعل الذي استوقد ناراً، فقالت طائفة: هي فيمن كان آمن ثم كفر بالنفاق، فإيمانه بمنزلة النار أضاءت، وكفراه بعد بمنزلة انطفائها وذهاب النور. وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: إن ما يظهر المنافق في الدنيا من الإيمان فيحتم به دمه، ويحز ماله، وينكح ويخالط، كالنار التي أضاءت ما حوله، فإذا مات صار إلى العذاب الأليم، فذلك بمنزلة انطفائها وبقائه في الظلمات، وقالت فرقة: إن إقبال المنافقين إلى المسلمين وكلامهم معهم كالنار، وانصرافهم إلى مردتهم، وارتكاسهم عندهم كذهابها. وقال فرقة: إن المنافقين كانوا عند رسول الله ﷺ والمؤمنين في منزلة بما أظهروه، فلما فضحهم الله، وأعلم بنفاقهم، سقطت المنزلة، فكان ذلك كله بمنزلة النار وانطفائها. وقالت فرقة منهم قتادة: نُظِّفَهُمْ بِلا إِلَهَ إِلا اللهُ وَالقرآن كإضاءة النار، واعتقادهم الكفر بقلوبهم كانطفائها، قال جمهور النحاة: جواب (لما) ذهب، ويعود الضمير من نورهم في هذا القول على (الذي)، ويصح شبه الآية بقول الشاعر:

وإن الذي حانت بقلج دماؤهم
هم القوم كل القوم يا أم خالد
وعلى هذا القول يتم تمثيل المنافق بالمستوقد، لأن بقاء المستوقد في ظلمات لا يبصر، كبقاء المنافق، على الاختلاف المتقدم. وقال قوم: جواب (لما) مضمر، وهو: طفئت،

والضمير في نورهم على هذا للمنافق،. والإخبار بهذا هو عن حال تكون في الآخرة، وهو قوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ يَتِيمَ يُسْرَ لَهُ يَأْتِي﴾ وهذا القول غير قوي.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو السمال: ﴿في ظُلُمَاتٍ يسكون اللام، وقرأ قوم: ﴿ظُلُمَاتٍ بفتح اللام.

قال أبو الفتح: في ظلمات وكسرات ثلاث لغات: إتباع الضم بالضم، والكسر الكسر، أو التخفيف بأن يعدل إلى الفتح في الثاني، أو التخفيف بأن يسكن الثاني، وكل ذلك جائز حسن، فأما فَعَلَةٌ بالفتح فلا بد فيه من التثقيب إتياعاً، فنقول تَمَرَةٌ وَتَمَرَاتٍ. وذهب قوم في (ظلمات) بفتح اللام إلى أنه جمع ظلم فهو جمع جمع.

و (الأصم): الذي لا يسمع، و (الأبكم): الذي لا ينطق ولا يفهم، فإذا فهم فهو الأخرس، وقيل: الأبكم والأخرس واحد، ووصفهم بهذه الصفات إذ أعمالهم من الخطأ وقلة الإجابة كأعمال من هذه صفته، و ﴿صُمٌّ﴾ رفع على خبر الابتداء، فإما أن يكون ذلك على تقدير تكرار أولئك، وإما على إضمار (هم). وقرأ عبدالله بن مسعود، وحفصة أم المؤمنين رضي الله عنهما: ﴿صمًا، يكما، عميًا﴾ بالنصب، ونصبه على الحال من الضمير في ﴿مُهَيَّبِينَ﴾، وقيل: هو نصب على الذم، وفيه ضعف، وأما من جعل الضمير في ﴿نُورِهِمْ﴾ للمنافقين لا للمستوقدين، فنصب هذه الصفات على الحال من

الضمير في (تركهم). قال بعض المفسرين: قوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ إخبار منه تعالى أنهم لا يؤمنون بوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما كان يصح هذا أن لو كانت الآية في معينين. وقال غيره: معناه فهم لا يرجعون ما داموا على الحال التي وصفهم بها، وهذا هو الصحيح، لأن الآية لم تعين، وكلهم معرض للرجوع، مدعو إليه.

﴿أَوَّ﴾، للتخيير، معناه: مثلوهم بهذا، أو بهذا، لا على الانتصار على أحد الأمرين. وقوله: ﴿أَوَّ كَصَيِّبٍ﴾ معطوف على ﴿كَثَلِ الَّذِينَ﴾ وقال الطبري: (أو) بمعنى (الوار).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عَجْمَةٌ و (الصَّيْبُ) المطر، من صاب يصب إذا انْحَطَّ من عَلُوٍّ إلى سفلى، ومنه قول علقمة بن عبدة:

كأنهم صابث عليهم سحابة
صواعقها لطيرهن دبيب
وقول الآخر:

فَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَأِكِ
تَنْزَلُ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ
وأصل (صَيِّبٍ) صَيَّبَ، اجتمعت الواو والياء، وسبقت إحداهما بالسكون فقلبت الواو ياءً وأدغمت كما فعل في سيد وميت. وقال بعض الكوفيين: أصل (صَيِّبٍ) صَوَّيْبٌ على مثال فَعْلِيلٌ، وكان يلزمه ألا يُعْلَى كما لم يُعْلَى طويل، فبهذا يضعف هذا القول. وقوله تعالى: ﴿ظَلَمْتُمْ﴾

بالجمع إشارة إلى ظُلْمَةِ الليل، وظُلْمَةِ الدُّجْنِ، ومن حيث تتراكم وتزايد جُمِعَتْ، وَكَوْنُ الدُّجْنِ مظلماً هول وغم للنفس، بخلاف السحاب والمطر إذا انجلى دَجَّتْ فإنه ساوٌ جميل. ومنه قول قيس بن الخطيم:

فَمَارُوضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْقَطَا
كَأَنَّ الْمَصَابِيحَ حَوْدَانُهَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا، وَلَا مُزْنَةَ
دَلُوحٌ تَكْشِفُ أَدْجَانُهَا

واختلف العلماء في (الرُّغْدِ)، فقال ابن عباس، ومجاهد، وشهر بن حوشب، وغيرهم: هو مَلَكٌ يَزْجُرُ السحاب بهذا الصوت المسموع، كلما خالفت سحابة صاح بها، فإذا اشتد غضبه طارت النار من فيه فهي الصواعق، واسم هذا المَلَكِ: الرعد، وقيل: الرعد مَلَكٌ وهذا الصوت تسميحه، وقيل: الرعد اسم الصوت المسموع، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، هذا هو المعلوم في لغة العرب، وقد قال ليبيد في جاهليته:

فَجَعَنِي الرعدُ والصواعقُ بِأَلْفَا
رِسَ يَوْمَ الْكِرِيهَةِ الشُّجْدِ
وَرُوِيَّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّهُ قَالَ:
الرعد ريح تختنق بين السحاب فتصوت ذلك الصوت، وقيل: الرعد اصطكاك أجرام السحاب، وأكثر العلماء على أن الرعد مَلَكٌ، وذلك صوته يسبح ويزجر السحاب.

واختلفوا في (البرق)، فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هو مخراق حديد بيد المَلَكِ يسوق به السحاب. وقال ابن عباس: هو سوط نور بيد الملك يزجي به

السحاب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه: أن البرق مَلَكٌ يتراءى وقال قوم: البرق ماء، وهذا قول ضعيف.

والصاعقة: قال الخليل: هي الواقعة الشديدة من صوت الرعد، يكون معها أحياناً قطعة نار، يقال: إنها من المخراق الذي بيد المَلَكِ، وقيل في قطعة النار: إنها ما يخرج من فم الملك عند غضبه.

وحكى الخليل عن قوم من العرب: الصاعقة بالسين. وقال النقاش: يقال: صاعقة وصعقة وصاعقة بمعنى واحد، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿مَنْ الصَّوْاقِعُ﴾ بتقديم القاف. قال أبو عمرو: وهي لغة تميم. وقرأ الضحّاك بن مزاحم: ﴿جَدَارَ المَوْتِ﴾ بكسر الحاء وبألّف.

واختلف المتأولون في المقصد بهذا المثل، وكيف تترتب أحوال المنافقين الموازنة لِمَا في المثل من الظلمات، والرعد، والبرق، والصواعق. فقال جمهور المفسرين: مثل الله تعالى القرآن بالصَّيْبِ لما فيه من الإشكال عليهم، والعمى: هو الظلمات وما فيه من الوعيد، والزجر: هو الرعد، وما فيه من النور، والهجج الباهرة التي تكاد أن تبهرهم هو البرق، وتخوفهم وروعهم وحذرهم هو جعل أصابعهم في آذانهم، وفضح نفاقهم واشتجار كفرهم وتكاليف الشرع التي يكرهونها من الجهاد والزكاة ونحوه هي الصواعق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله صحيح يَبِينُ، وروي عن ابن مسعود أنه قال: إن رجلين من

المنافقين هربا من النبي ﷺ إلى المشركين فأصابهما هذا المطر الذي ذكر الله، وأيقنا بالهلك فقالا: ليتنا أصبحنا فنأتي محمداً، ونضع أيدينا في يده، فأصبحا وأتياه، وحسُنَ إسلامهما، فضرب الله ما نزل بهما مثلاً للمنافقين. وقال أيضاً ابن مسعود: إن المنافقين في مجلس رسول الله ﷺ كانوا يجعلون أصابعهم في آذانهم لئلا يسمعوا القرآن، فضرب الله المثل لهم، وهذا وفاق لقول الجمهور الذي ذكرناه.

وقال قوم: الرعد والبرق هما بمثابة زجر القرآن ووعيده.

و ﴿يُحِطُّ بِالكَثِيرِينَ﴾ معناه: يعقابه وأخذه، يقال: أحاط السلطان بفلان إذا أخذه أخذاً حاصراً من كل جهة. ومنه قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَرِّهِ﴾، ففي الكلام حذف مضاف. و ﴿يَكَاذِبُ﴾ فعلٌ ينفي المعنى مع إيجابه، ويوجبه مع النفي، فهنا لم يخطف البرق الأبصار، والخطف: الاتزاع بسرعة، واختلفت القراءة في هذه اللفظة، فقرأ جمهور الناس: ﴿يَخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ بفتح الياء والطاء وسكون الخاء على قولهم في الماضي خَطَفَ بكسر الطاء، وهي أفصح لغات العرب، وهي قرشية. وقرأ علي بن الحسين، ويحيى بن وثاب: ﴿يَخْطِفُ﴾ بفتح الياء وسكون الخاء وكسر الطاء على قول بعض العرب في الماضي خَطَفَ بفتح الطاء. ونسب المهدي هذه القراءة إلى الحسن وأبي رجاء، وذلك وهم. وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وعاصم الجحدري، وقتادة: ﴿يَخْطِفُ﴾ بفتح الياء وكسر الخاء

والطاء وتشديد الطاء، وهذه أصلها يختطف أدغمت التاء في الطاء وكسرت الخاء للالتقاء الساكنين. وحكى ابن مجاهد قراءة لم ينسبها إلى أحد **يَخْطَفُ** بفتح الياء والحاء وتشديد الطاء المكسورة، قال أبو الفتح: أصلها يختطف، نقلت حركة التاء إلى الخاء، وأدغمت التاء في الطاء. وحكى أبو عمر الداني عن الحسن أيضاً أنه قرأ: **يَخْطَفُ** بفتح الياء والحاء والطاء وشدها، وروي أيضاً عن الحسن والأعمش بكسر الثلاثة وشد الطاء منها، وهذه أيضاً أصلها يختطف. أدغم وكسرت الخاء للالتقاء، وكسرت الياء إنباعاً. وقال عبدالوارث: رأيته في مصحف أبي بن كعب: **يَخْطَفُ** بالتاء بين الياء والحاء، وقال الفراء: قرأ بعض أهل المدينة **يَخْطَفُ** بفتح الياء وسكون الخاء وشد الطاء مكسورة، قال أبو الفتح: إنما هو اختلاس وإخفاء فيلطف عندهم فيرون أنه إدغام، وذلك لا يجوز؛ لأنه جمع بين ساكنين دون عذر، وحكى الفراء قراءة عن بعض الناس **يَخْطَفُ** بضم الياء وفتح الخاء وشد الطاء مكسورة كأنه تشديد مبالغة لا تشديد تعدية. ومعنى **يَكَاذِبُ** يَخْطَفُ **أَبْصَارَهُمْ**: تكاد حجج القرآن وبراهينه وآياته الساطعة تبههم. ومن جعل البرق في المثل الزجر والوعيد، قال: يكاد ذلك يصيبهم، و**كَلَّمَ** ظَرَفٌ والعامل فيه **مَسَّوَأُ**، وهو أيضاً جواب **كَلَّمَ**، و**أَصَاةٌ** صِلَةٌ (ما)، ومن جعل (أصاء) يتعدى قدر له مفعولاً، ومن جعله بمنزلة

(ضاء) استغنى عن ذلك، وقرأ ابن أبي عمير: **أَصَا لَهُمْ** بغير همز، وهي لغة. وفي مصحف أبي بن كعب: **مَزُوا فِيهِ**، وفي قراءة ابن مسعود: **مَضُوا فِيهِ**، وقرأ الضحاك: **وَإِذَا أَظْلِمُ** بضم الهمز وكسر اللام. و**قَاتِلُوا** معناه: ثبتوا لأنهم كانوا قياماً، ومنه قول الأعرابي: وقد أقام الدُفْرُ صِعْرِي بعد أن أقننت صِعْرَه يريد أثبت الدهر.

ومعنى الآية فيما روي عن ابن عباس وغيره: كلما سمع المنافقون القرآن، وظهرت لهم الحجج، أتسوا ومشوا معه، فإذا نزل من القرآن ما يعمون فيه ويضلون به أو يكلفونه، قاموا أي ثبتوا على نفاقهم. وروي عن ابن مسعود أن معنى الآية: كلما صلحت أحوالهم في زروعهم ومواشيهم، وتوالت عليهم النعم قالوا: دين محمد دين مبارك، وإذا نزلت بهم مصيبة، أو أصابتهم شدة سخطوا وثبتوا في نفاقهم.

وقال قوم: معنى الآية: كلما خفي عليكم نفاقهم، وظهر لكم منهم الإيمان مشوا فيه، فإذا افتضحوا عندكم قاموا. ووجد السمع لأنه مصدر، يقع للواحد والجمع. وحكى النقاش أن من العلماء من قرأ: **بِأَسْمَاعِهِمْ**. وقرأ إبراهيم بن أبي عمير: **ولو شاء الله لأذهب أَسْمَاعَهُمْ** وأبصارهم، وخص الأسماع والأبصار لتقدم ذكرها في الآية، ويشبه هذا المعنى في حال المنافقين أن الله لو شاء لأوقع بهم ما يتخوفونه من الزجر والوعيد، أو لَفَضَهُمْ عند

المؤمنين، وسلط المؤمنين عليهم، وبكل مذهب من هذين قال قوم. وقوله تعالى: **كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ** لفظه العموم، ومعناه عند المتكلمين: على كل شيء يجوز وصفه تعالى بالقدرة عليه، و**قَدِيرٌ** بمعنى قادر، وفيه مبالغة، وخص هنا صفته التي هي القدرة بالذكر لأنه قد تقدم ذكر فعل مضمته الوعيد والإخافة، فكان ذكر القدرة مناسباً لذلك.

﴿٢١﴾ ﴿٢٢﴾

[يا] حرف نداء، وفيه تنبيه، و[أي] هو المنادى، قال أبو علي: اجتلبت (أي) بعد حرف النداء فيما فيه الألف واللام؛ لأن في حرف النداء تعريفاً، فكان يجتمع تعريفاً، و[ها] تنبيه وإشارة إلى المقصود، وهي بمنزلة ذا في الواحد. و**الَّذِينَ** نعت لازم لأي. وقال مجاهد: **يَتَأَيَّمُوا النَّاسَ** حيث وقع في القرآن مكى، و**يَتَأَيَّمُوا** الَّذِينَ **آمَنُوا** مدني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قد تقدم في أول السورة أنها كلها مدنية، وقد يجيء في المدني **يَتَأَيَّمُوا النَّاسَ**، وأما قوله في **يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا** فصحيح.

وقوله تعالى: **فَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ** معناه: وخذوه وخصوه بالعبادة، وذكر تعالى خلقه لهم من بين سائر صفاته. إذ كانت العرب مقرة بأن الله خلقها، فذكر ذلك حجة عليهم. و**كَلَّمَ** في هذه الآية قال فيها كثير من المفسرين: هي بمعنى إيجاب التقوى، وليست من الله تعالى بمعنى تَرْجُحٌ وتوقع. وقال سيبويه، ورؤساء اللسان: هي على بابها، والترجي

والتوقع إنما هو في حيز البشر، أي إذا تأملت حالكم مع عبادة ربكم رجوتم لأنفسكم التقوى. و ﴿لَتَكُنَّكُمْ﴾ متعلقة بقوله: ﴿أَعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾، ويتجه تعلقها بخلقكم، أي لما ولد كل مولود على الفطرة فهو إن تأمله متأمل توقع له ورجا أن يكون متقياً. و ﴿تَتَّقُونَ﴾ مأخوذ من الوقاية، وأصله تَوَقَّيُونَ، نقلت حركة الياء إلى القاف وحذفت للالتقاء مع الواو الساكنة، وأدغمت الواو الأولى في التاء.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ﴾ نصب على إتباع ﴿الَّذِي﴾ المتقدم، ويصح أن يكون مرفوعاً على القطع، وما ذكر مكي: من إضمار أعني، أو مفعول بتقون ضعيف. و ﴿جَعَلَ﴾ بمعنى صبر في هذه الآية، لتعديها إلى مفعولين، و ﴿زُرَّاشًا﴾ معناه: تفترشونها، وتستقرون عليها، وما في الأرض مما ليس بفراش كالجبال والبحار فهو من مصالح ما يفترش منها، لأن الجبال كالأوتاد، والبحار يركب فيها إلى سائر منافعها.

و ﴿السَّمَاءِ﴾ قيل: اسم مفرد، جمعه سموات، وقيل: هو جمع واحدة سماوة. وكل ما ارتفع عليك في الهواء فهو سماء، والهواء نفسه عَلُوًّا يقال له: سماء، ومنه الحديث ﴿خَلَقَ اللهُ أَدَمَ طُولَهُ فِي السَّمَاءِ سِتُونَ ذِرَاعًا﴾. واللفظ من السمو وتصاريفه.

وقوله تعالى: ﴿بِنَاءٍ﴾ تشبيه بما يفهم، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْتٍ﴾، وقال بعض الصحابة: بناها على الأرض كالقبة.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يريد السحاب، سمي بذلك تجوزاً لما كان

يلي السماء ويقاربها، وقد سماوا المطر سماءً للمجاورة، ومنه قول الشاعر: إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَسُومِ زَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا فتجوز أيضاً في رعيته، فيتوسط المطر جعل السماء عشياً. وأصل (ماء) موه يدل على ذلك قولهم في الجمع: مياه وأمواه، وفي التصغير: مَوِيَّةٌ، وانطلق اسم الرزق على ما يخرج من الثمرات قبل التملك أي هي مُعَدَّةٌ أن يصح الانتفاع بها فهي رزق، وَرَدَّ بهذه الآية بعض الناس قول المعتزلة: إن الرزق ما يصح تملكه، وليس الحرام برزق.

وواحد الأنداد: نِدٌّ. وهو المقاوم والمضاهي كان مثلاً أو خلافاً أو ضدّاً، ومن حيث قاوم وضاهى فقد حصلت مماثلة ما، وقال أبو عبيدة معمر، والمفضل: الضد: الند، وهذا التخصيص منهما تمثيل لا حصر.

واختلف المتأولون: مَنْ المخاطبُ بهذه الآية؟ فقالت جماعة من المفسرين: المخاطب جميع المشركين، فقوله على هذا ﴿وَأَنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ يريد العلم الخاص بأنه تعالى خلق وأنزل الماء، وأخرج الرزق، ولم تُنفِ الآية الجهالة عن الكفار. وقيل: المراد كفار بني إسرائيل، فالمعنى: تعلمون من الكتب التي عندهم، أن الله لا يذو له، وقال ابن فورك: يحتمل أن تتناول الآية المؤمنين، فالمعنى لا تردوا أيها المؤمنون وتجعلوا الله أنداداً بعد علمكم - الذي هو نفي الجهل - بأن الله واحد.

وهذه الآية تعطي أن الله تعالى

أغنى الإنسان بنعمه هذه عن كل مخلوق، فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا، فقد أخذ بطرف من جعل لله نداً. عصمنا الله تعالى بفضلته، وقصّر آمالنا عليه بِمَنَّةٍ وَطَوْلِهِ، لا رب غيره.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

[الرَّيْبِ] الشك، وهذه الآية أن الخطاب المتقدم إنما هو لجماعة المشركين الذين تُحَدِّثُوا، وتقدم تفسير لفظ [سُوْرَة] في صدر هذا التعليق.

وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ بألف، واختلف المتأولون على من يعود الضمير في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، فقال جمهور العلماء: هو عائد على القرآن، ثم اختلفوا، فقال الأكثر: من مثل نظمه ورضفه وفصاحة معانيه التي يعرفونها، ولا يُعجزهم إلا التأليف الذي حُصِّ به القرآن، وبه وقع الإعجاز على قول حُدَّاق أهل النظر، وقال بعضهم: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ في غيوبه، وصدقه، وقديمه، فالتحدي عند هؤلاء وقع بالقدم، والأول أبين، و ﴿بَيْنَ﴾ على هذا القول زائدة، أو لبيان الجنس، وعلى القول الأول هي للتبعية، أو لبيان الجنس. وقالت فرقة: الضمير في قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ عائد على محمد ﷺ، ثم اختلفوا، فقالت طائفة: من أمِّي صادق مثله، وقالت طائفة: من ساجر، أو كاهن، أو شاعر مثله على زعمكم أيها المشركون. وقالت طائفة: الضمير في مثله عائد على الكتب القديمة: التوراة، والإنجيل، والزبور.

وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٠﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥١﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٢﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٣﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٤﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٧﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾
 وَيَسِّرَ اللَّهُ لِيَأْتِيَهُمْ وَاللَّهُ يَسِّرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعِزُّ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٠﴾

أيضاً من الغيوب التي أخبر بها القرآن قبل وقوعها.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ﴾ أمر بالإيمان وطاعة الله، خرج في هذه الألفاظ المحذرة. وقرأ الجمهور ﴿وَقُودُهَا﴾ بفتح الواو. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وطلحة بن مصرف، وأبو حنيفة: ﴿وَقُودُهَا﴾ بضم الواو في كل القرآن، إلا أن طلحة استثنى الحرف الذي في البروج. و«بفتح الواو» هو الحطب، و«بضمها» هو المصدر، وقد حكيا

وقوله تعالى: ﴿وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ﴾ معناه: دعاء استصراخ، والشهداء من شهدهم وحضرهم من عون ونصير، قاله ابن عباس: وقيل عن مجاهد: إن المعنى دعاء استحضار. والشهداء جمع شاهد، أي من يشهد لكم أنكم عارضتم، وهذا قول ضعيف. وقال الفراء: شُهِدَاؤُهُمْ، يراد بهم ألفتهم. وقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، أي فيما قلت من الرب. هذا قول بعض المفسرين، وقال غيره: فيما قلت من أنكم تقدرين على المعارضة، ويؤيد هذا القول أنه قد حُكي عنهم في آية أخرى ﴿وَإِذْ نَسْنَا لِقَاتَنَا مِثْلَ هَذَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن لَّمْ تَقْعَلُوا﴾ دخلت ﴿إِن﴾ على ﴿لَمْ﴾ لأن ﴿لَمْ تَقْعَلُوا﴾ معناه تركتم الفعل، فإن لا تؤثر، كما لا تؤثر في الماضي من الأفعال، و﴿تَقْعَلُوا﴾ جزم بلم، وجزمت ﴿لَمْ﴾ لأنها أشبهت (لا) في التبرئة في أنهما ينفيان، فكما تحذف (لا) تنوين الاسم، كذلك تحذف (لَمْ) الحركة أو العلامة من الفعل.

وقوله: ﴿وَإِن تَقْعَلُوا﴾ نُصِبَتْ بِـ (لن)، ومن العرب من يجزم بها. ذكره أبو عبيدة.

ومنه بيت النابغة على بعض الروايات:

فَلَنْ أَعْرَضَ - آيَتِ اللَّعْنِ - بِالصَّفْدِ

وفي الحديث في منامة عبدالله بن عمر «فقبل لي: لَنْ تَرَعُ» هذا على تلك اللغة، وفي قوله: ﴿وَإِن تَقْعَلُوا﴾ إشارة ليهيمهم، وتحريك لنفوسهم؛ ليكون عجزهم بعد ذلك أبدع، وهو

جميعاً في الحطب، وقد حكيا في المصدر. قال ابن جني: من قرأ بضم الواو، فهو على حذف مضاف، تقديره: ذو وقودها، لأن الوقود بالضم مصدر وليس بالناس. وقد جاء عنهم ﴿الوقود﴾ بالفتح في المصدر، ومثله: «ولعت به ولوعاً» بفتح الواو، وكله شاذ، والباب هو الضم.

وقوله: ﴿النَّارِ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن سبق عليه القضاء بدخولها. وروى عن ابن مسعود في الحجارة: أنها حجارة الكبريت، وخصت بذلك؛ لأنها تزيد على جميع الأحجار بخمسة أنواع من العذاب: سرعة الاتقاد، وتتن الرائحة، وكثرة الدخان، وشدة الالتصاق بالأبدان، وقوة حرها إذا حُميت.

وفي قوله تعالى: ﴿أَعَدَّتْ﴾ رد على من قال: إن النار لم تخلق حتى الآن

وهو القول الذي سقط فيه منذر بن سعيد.

وذهب بعض المتأولين: إلى أن هذه النار المخصصة بالحجارة هي نار الكافرين خاصة، وأن غيرها هي للعصاة. وقال الجمهور: بل الإشارة إلى جميع النار، لا إلى نار مخصوصة، وإنما ذكّر الكافرين ليحصل المخاطبون في الوعيد، إذ فعلهم كفر، فكأنه قال: أعدت لمن فعل فعلكم، وليس يقتضي ذلك أنه لا يدخلها غيرهم، وقرأ ابن أبي عمير: ﴿أَعَدَّهَا اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ﴾.

تفسير قوله عز وجل:

﴿يَسِّرَ﴾ مأخوذ من البَسْرَةِ، لأن ما يَسِيرُ به الإنسان من خير أو شر يظهر عليه أثره في بَسْرَةِ الوجه، والأغلب استعمال البشارة في الخير، وقد تستعمل في الشر مقيدة به، منصوصاً

وقرأ هارون الأعور: ﴿وَأَتُوا﴾ بفتح الهمزة والتاء، والفاعل على هذه القراءة: الولدان والخدام، و ﴿أَتُوا﴾ على قراءة الجماعة أصله أَتَيُوا - نقلت حركة الياء إلى التاء، ثم حذفت الياء للالتقاء.

وقوله تعالى: ﴿مُتَّشِبِهًا﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وغيرهم، معناه: يشبه بعضه بعضاً في المنظر، ويختلف في الطعم، وقال عكرمة: معناه يشبه ثمر الدنيا في المنظر، ويُبَايَنه في جل الصفات، وقال قتادة: متشابهاً: معناه خياراً لا رذل فيه، كقوله تعالى: ﴿كُنُوبًا مُتَّشِبِهًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه يريد متناسباً في أن كل صنف هو أعلى جنسه، فهذا تشابه ما، وقيل ﴿مُتَّشِبِهًا﴾ أي مع ثمر الدنيا في الأسماء، لا في غير ذلك من هيئة وطعم. و ﴿أَزْوَجٌ﴾ جمع زَوْج، والمرأة زَوْج الرجل، والرجل زَوْج المرأة، ويقال في المرأة: زوجة، ومنه قول الفرزدق:

وإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجِي
كَسَاعٍ إِلَى أَسَدِ الشَّرَى يَسْتَبِيلُهَا
وقال عمار بن ياسر في شأن عائشة رضي الله عنها: (والله إني لأعلم إنها زوجته في الدنيا والآخرة، ولكن الله ابتلاكم). ذكر البخاري وغيره الحديث بطوله. و ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ أبلغ من طاهرة، ومعنى هذه: الطهارة من الحيض والبزاق، وسائر أقدار الآدميات، وقيل: من الآثام، و (الخُلُود): الدوام في الحياة، أو الملك ونحوه، وخلد بالمكان إذا

أخاديد، إنما تجري على سطح أرض الجنة منضبطة.

وقوله ﴿كُنُوبًا﴾: ظرف يقتضي الحصر.

وفي هذه الآية رد على من يقول: إن الرزق من شروطه التملك، ذكّر هذا بعض الأصوليين، وليس عندي بَيِّن.

وقولهم [هَذَا] إشارة إلى الجنس، أي هذا من الجنس الذي رزقنا منه من قبل، والكلام يحتمل أن يكون تعجباً، وهو قول ابن عباس، ويحتمل أن يكون خبراً من بعضهم لبعض، قاله جماعة من المفسرين. وقال الحسن، ومجاهد: يرزقون الشمرة، ثم يرزقون بعدها مثل صورتها. والطعم مختلف، فهم يتعجبون لذلك، ويخبر بعضهم بعضاً، وقال ابن عباس: ليس في الجنة شيء مما في الدنيا سوى الأسماء، وأما الذوات فمتباينة، وقال بعض المتأولين: المعنى أنهم يرون الثمر فيمَيِّزُون أجناسه، حين أشبه منظره ما كان في الدنيا، فيقولون: هذا الذي رزقنا من قبل في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول ابن عباس الذي قبل هذا يردُّ على هذا القول بعض الرد. وقال بعض المفسرين: المعنى هذا الذي وَعَدْنَا به في الدنيا، فكأنهم قد رَزَقُوهُ في الدنيا إذ وَعَدَ اللهُ منتجز. وقال قوم: إن ثمر الجنة إذا قُطِفَ منه شيء خرج في الحين في موضعه مثله، فهذا إشارة إلى الخارج في موضع المجني، وقرأ جمهور الناس ﴿وَأَتُوا﴾ بضم الهمز، وضم التاء،

على الشر المبشر به، كما قال تعالى: ﴿فَبَيَّرْتُمُوهُ بِكَذَا يَا أَيُّهَا﴾، ومتى أطلق لفظ البشارة فإنما يُحْمَل على الخير.

وفي قوله تعالى: ﴿وَعَكَلُوا الصَّلَاةَ﴾ رُدُّ على من يقول إن لفظة الإيمان بمجرد ما تقتضي الطاعات، لأنه لو كان ذلك ما أعادها، ولأنَّ في موضع نصب بيشْر، وقيل: في موضع خفض على تقدير بَاءِ الجر. و ﴿جَنَّاتٍ﴾ جمع جَنَّة، وهي بستان الشجر والنخيل، وبستان الكرم يقال له: الفردوس، وسميت جنة؛ لأنها تجنُّ من دخلها أي تستره، ومنه المِجَنِّ والجَنِّنِ وجَنُّ الليل.

و ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ معناه: من تحت الأشجار التي يتضمنها ذكر الجنة، وقيل: قوله ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ معناه: بإزائها كما تقول: داري تحت دار فلان. وهذا ضعيف. و ﴿الْأَنْهَارُ﴾ المياه في مجاريها المتطاوله الواسعة، لأنها لفظة مأخوذة من أَنهَزْتُ أي وَسَعْتُ، ومنه قول قيس بن الخطيم:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَزْتُ فَتَقَّهَا
يَرِي قَائِمٌ مِنْ دُونَهَا مَا وَرَاءَهَا
ومنه قول النبي ﷺ: «ما أنهز الدم، وذكر اسم الله عليه فكلوه». معناه: ما وَسَعَ الذبْح حتى جرى الدم كالنهر، ونسب الجاري إلى النهر وإنما يجري الماء وحده تجوُّزاً، كما قال: «واسأل القرية»، وكما قال الشاعر:

نُبِّشْتُ أَنْ الشَّارَ بَعْدَكَ أَوْقَدْتُ
وَأَسْتَبُّ بَعْدَكَ يَا كَلْبِيَّ الْمَجْلِسُ
وزوي أن أنهار الجنة ليست في

استمرت إقامته فيه، وقد يستعمل الخلود مجازاً فيما يطول، وأما هذا الذي في الآية فهو أبدي حقيقة.

﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر المفسرون أنه لما ضَرَبَ الله تعالى الْمُتَلَيِّنِ الْمُتَقَدِّمِينَ في هذه السورة قال الكفار: ما هذه الأمثال؟ الله أَجَلُ مِنْ أَنْ يَضْرِبَ هذه أمثالاً، فنزلت الآية.

وقال ابن قتيبة: إنما نزلت؛ لأن الكفار أنكروا ضرب المثل في غير هذه السورة بالذباب والعنكبوت، وقال قوم: هذه الآية مُثَلٌّ للدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيفٌ بأباه رصف الكلام واتساق المعنى.

و ﴿يَسْتَحْيِي﴾ أصله يَسْتَحْيِي. عينه ولامه حرفا علة، أُعِلَّت اللام منه بأن استثقلت الضمة على الياء فسكنت. وقرأ ابن كثير في بعض الطرق عنه، وابن مُحَيِّصِن، وغيرهما: ﴿يَسْتَحْيِي﴾ بكسر الحاء، وهي لغةٌ لتيميم، نقلت فيها حركة الياء الأولى إلى الحاء فسكنت، ثم استثقلت الضمة على الياء الثانية فسكنت، فحذفت إحداهما للالتقاء.

واختلف المتأولون في معنى ﴿يَسْتَحْيِي﴾ في هذه الآية: فرجح الطبري أن معناه: يَخْشَى، وقال غيره: معناه يترك، وهذا هو الأولى، ومن قال: يمتنع أو يمنعه الحياء فهو يترك، أو قريب منه.

ولما كان الجليل القدر في الشاهد لا يمنعه من الخوض في نازل القول إلا الحياء من ذلك، رد الله بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي﴾ على القائلين:

كيف يضرب الله مثلاً بالذباب ونحوه؟ أي أن هذه الأشياء ليست من نازل القول، إذ هي من الفصح في المعنى المبلغ أغراض المتكلم إلى نفس السامع، فليست مما يستحي منه. حكى المهدي أن الاستحياء في هذه الآية راجع إلى الناس، وهذا غير مرضي.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَضْرِبَ﴾: (أَنْ) مع الفعل في موضع نصب كأنها مصدر في موضع المفعول، ومعنى ﴿يَضْرِبُ مَثَلًا﴾: يبين ضرباً من الأمثال، أي نوعاً، كما تقول هذا من ضرب هذا، والضرب المثل، ويحتمل أن يكون مثل ضرب البعث، وضرب الذلة، فيجيء المعنى أن يلزم الحجة بمثل.

و ﴿مَثَلًا﴾ مفعول، فقيل: هو الأول، وقيل: هو الثاني قُدِّم وهو في نية التأخير، لأن ضرب في هذا المعنى يتعدى إلى مفعولين.

واختلفوا في قوله: ﴿مَا بَعُوضَةً﴾ فقال قوم: ﴿مَثَلٌ﴾ صلة زائدة لا تفيد إلا شيئاً من تأكيد، وقيل: [ما] نكرة في موضع نصب على السبيل لإبهامها. حكى المهدي هذا القول عن الفراء، والزجاج، وثعلب، وقيل غير هذا مما هو تخليط دعا إليه الظن أن ﴿يَضْرِبُ﴾ إنما يتعدى إلى مفعول واحد، وقال بعض الكوفيين: نصب ﴿بَعُوضَةً﴾ على تقدير إسقاط حرف الجر، والمعنى: أن يضرب مثلاً ما بين بعوضة. وحكى عن العرب (له عشرون ما ناقة فجملًا)، وأنكر أبو العباس هذا الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يترجح أن ﴿مَا﴾ صفة مُخَصَّصَةٌ، كما تقول: جتتك في أمر ما فتفيد النكرة تخصيصاً وتقريباً، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

سَلَعُ مَا وَمَثَلُهُ عَشْرُ مَا
عَائِلُ مَا وَعَالَتِ الْبَيْقُورَا
و ﴿بَعُوضَةً﴾ على هذا مفعول ثان، وقال قوم: [ما] نكرة، كأنه قال شيئاً، والآية في هذا يشبهها قول حسان بن ثابت:

فَكَفَى بِنَا فَضْلًا عَلَى مَنْ غَيْرِنَا
حُبَّ النَّسِيِّ مُحَمَّدٍ إِنَّا نَا
وقد تقدم نظير هذا القول، والشبه بالبيت غير صحيح عندي.

والبعوضة فَعُولَةٌ، من بَعَضَ: إذا قَطَعَ اللحم، يقال بَضَعُ ويَبْضَعُ بمعنى، وعلى هذا جملوا قول الشاعر:

لَنَيْعَمَ الْبَيْتِ بَيْتُ أَبِي دِنَارٍ
إِذَا مَا خَافَ بَعْضُ الْقَوْمِ بَعْضَا
وقرأ الضحاک، وإبراهيم بن أبي عبلة، وروية بن العجاج ﴿بَعُوضَةً﴾ بالرفع. قال أبو الفتح: وجه ذلك أن [ما] اسم بمنزلة الذي، أي لا يستحي أن يضرب الذي هو بعوضة مثلاً. فحذف العائد على الموصول، وهو مبتدأ، ومثله قراءة بعضهم: [تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ]، أي على الذي هو أَحْسَنُ. وحكى سيبويه: ما أنا بالذي قاتل لك شيئاً، أي هو قاتل.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَوْفَاهُ﴾ مَنْ جَعَلَ [ما] الأولى صلة زائدة، فما الثانية عطف على ﴿بَعُوضَةً﴾، ومن جعل [ما] إسمًا فما الثانية عطف عليها.

وقال الكسائي، وأبو عبيدة، وغيرهما: المعنى فما فوقها في الصغر وقال قتادة، وابن جريج، وغيرهما: المعنى في الكبير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والكل مُحْتَمَلٌ، والضمير في [أَنَّهُ] عائد على المثل.

واختلف النحويون في [مَاذَا] فقيل: هي بمنزلة اسم واحد بمعنى أي شيء أراد الله؟ وقيل: [مَا] اسمٌ و [ذَا] اسم آخر بمعنى الذي، فما في موضع رفع بالابتداء، وذا خبره، ومعنى كلامهم هذا: الإنكار بلفظ الاستفهام، وقوله: ﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز، وقيل: على الحال من [ذَا] في [يَهْدِي]، والعامل فيه الإشارة والتنبية.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ فقيل: هو من قول الكافر - أي: ما مراد الله بهذا المثل الذي يفرق به الناس إلى ضلالة، وإلى هدى؟ وقيل: بل هو خبر من الله تعالى أنه يضل بالمثل الكفار الذين يعمون به، ويهدي به المؤمنين الذين يعلمون أنه الحق، وفي هذا رد على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يخلق الضلال.

ولا خلاف أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ - من قول الله تعالى، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ إلى آخر الآية رذاً من الله تعالى على قول الكفار: ﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا﴾. والفِسْقُ: الخروج عن الشيء، يقال: فَسَقَتِ الْفَارَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ

جُحْرهَا، والرُّطْبَةُ إِذَا خَرَجَتْ مِنْ قَشْرهَا، والفِسْقُ فِي عَرَفِ الاسْتِعْمَالِ الشَّرْعِيِّ: الْخُرُوجُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَقَدْ يَقَعُ عَلَيَّ مِنْ خُرُجِ بَكْفَرٍ، وَعَلَى مِنْ خُرُجِ بَعْصِيَانٍ، وَقِرَاءَةُ جَمْهُورِ الْأُمَّةِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿يُضِلُّ﴾ بِضَمِّ الْبَاءِ فِيهِمَا، وَرَوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَبِي عِبِلَةَ أَنَّهُ قَرَأَ ﴿يُضِلُّ﴾ بِفَتْحِ الْبَاءِ ﴿كَثِيرًا﴾ بِالرَّفْعِ ﴿وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ بِالرَّفْعِ.

قال أبو عمرو الداني: هذه قراءة القدرية، وابن أبي عبيدة من ثقات الشاميين، ومن أهل السنة، ولا تصح هذه القراءة عنه مع أنها مخالفة خط المصحف، وروي عن ابن مسعود أنه قرأ في الأولى ﴿يُضِلُّ﴾ بِضَمِّ الْبَاءِ، وَفِي الثَّانِيَةِ ﴿وَمَا يُضِلُّ﴾ بِفَتْحِ الْبَاءِ ﴿بِهِ إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾، وهذه قراءة مجاهد، وهي قراءة متجهة لولا مخالفتها خط المصحف المجمع عليه.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

التَّقْضُ: رُدُّ مَا أُبْرِمَ عَلَى أَوْلِهِ غَيْرِ مُبْتَرَمٍ. وَالْعَهْدُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: التَّقَدُّمُ فِي الشَّيْءِ وَالْوَصَاةُ بِهِ.

واخْتَلَفَ فِي تَفْسِيرِ هَذَا الْعَهْدِ، فَقَالَ بَعْضُ الْمُتَأَوَّلِينَ: هُوَ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى بَنِي آدَمَ حِينَ اسْتَخْرَجَهُمْ مِنْ ظَهْرِ أَبِيهِمْ آدَمَ كَالذَّرِّ، وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ نَصَبَ الْأَدْلَةَ عَلَى وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ بِالسَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَسَائِرِ الصَّنَعَةِ - هُوَ بِمَنْزِلَةِ الْعَهْدِ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هَذَا الْعَهْدُ هُوَ الَّذِي أَخَذَهُ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ بَوْسَاطَةِ رَسَلِهِ: أَنْ يُوْحِدُوهُ، وَأَلَّا يَعْبُدُوا غَيْرَهُ. وَقَالَ آخَرُونَ: بَلْ هَذَا

العهد هو الذي أخذه الله تعالى على أتباع الرسل والكتب المنزلة: أن يؤمنوا بمحمد ﷺ، وألا يكتموا أمره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالآية على هذا في أهل الكتاب، وظاهر ما قبل وبعد أنها في جميع الكفار. وقال قتادة: هذه الآية هي فيمن كان آمن بالنبي عليه السلام ثم كفر به فنقض العهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لم ينسب الطبري شيئاً من هذه الأقوال.

وكل عهد جائز بين المسلمين فنقضه لا يجعل بهذه الآية. والضمير في ﴿يَسْتَفِيدُ﴾ يحتمل العودة على (العهد)، أو على (اسم الله تعالى)، و(ميثاق) مفعول من الوثيقة، وهي الشد في العقد والرُّبْط ونحوه، وهو في هذه الآية اسم في موضع المصدر، كما قال عمرو بن شبيب:

أَكْفُرًا بَعْدَ رَدِّ الْمَوْتِ عَنِّي
وَبَعْدَ عَطَائِكَ الْمَائَةِ الرُّتَاعَا؟

أراد بعد إعطائك. وقوله تعالى: ﴿مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُؤْتَلَ﴾. [مَا] في موضع نصب يقطعون، واختلف ما الشيء الذي أمر بوصله؟ فقال قتادة: الأرحام عامة في الناس، وقال غيره: خاصة فيمن آمن بمحمد، كأن الكفار يقطعون أرحامهم. وقال جمهور أهل العلم: الإشارة في هذه الآية إلى دين الله وعبادته في الأرض، وإقامة شرائعه، وحفظ حدوده، وهذا هو الحق، والرحم جزء من هذا، و[أَنْ] في موضع نصب بدل من [مَا]، أو

مفعول من أجله، وقيل: [أَنْ] في موضع خفض بدل من الضمير في (به)، وهذا مُتَّجِهٌ.

و﴿يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ يعبدون غير الله، ويجورون في الأفعال إذ هي بحسب شهوراتهم، و (الْحَايِرُ): الذي نقص نفسه حظها من الفلاح والفوز. والخُسْرَانُ: النقص كان في ميزان أو غيره.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ لفظه لفظ الاستفهام، وليس به، بل هو تقريرٌ وتوبيخ. أي: كيف تكفرون ونعمتكم عليكم وَقَدَّرْتُهُ هذه؟ و (كَيْفَ) في موضع نصب على الحال، والعامل فيها ﴿تَكْفُرُونَ﴾، وتقديرها: أجاكدين تكفرون؟ أمكبرين تكفرون؟ و ﴿كَيْفَ﴾ مبنية، وخُصَّتْ بالفتح لخصته. ومن قال: إن ﴿كَيْفَ﴾ تقرير وتعجب، فمعناه: أن هذا الأمر إن عَنَّ فحقه أن يَتَّعَبَّجَ منه لغرابته وبعده عن المألوف من شكر المنعم، و (الْوَاوُ) في قوله: ﴿وَكُنْتُمْ﴾ واو الحال.

واختلف في ترتيب هاتين الموتيتين والحياتين، فقال ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد: فالمعنى كنتم أمواتاً معدومين قبل أن تُخْلَقُوا دارسين، كما يُقال للشيء الدارس: مَيِّتٌ. ثم خُلِقْتُمْ وأخرجتُمْ إلى الدنيا فأحياكم، ثم أماتكم الموت المعهود، ثم يُحييكم للبعث يوم القيامة.

وقال آخرون: كنتم أمواتاً بكون آدم من طين ميتاً قبل أن يُحيا، ثم نُفِخَ فيه الروح فأحياكم بحياة آدم، ثم يُميتكم، ثم يُحييكم على ما تقدم. وقال قتادة: كنتم أمواتاً في أصلاب

آبائكم، فأخرجتكم إلى الدنيا، فأحياكم، ثم كما تقدم. وقال غيره: كنتم أمواتاً في الأرحام قبل نفخ الأرواح، ثم أحياكم بالخروج إلى الدنيا، ثم كما تقدم.

وقال ابن زيد: إن الله تعالى أخرج نسمة بني آدم أمثال الذرِّ، ثم أماتهم بعد ذلك فهو قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾. ثم أحياهم بالإخراج إلى الدنيا، ثم كما تقدم. وقال ابن عباس، وأبو صالح: كنتم أمواتاً بالموت المعهود، ثم أحياكم للسؤال في القبور، ثم أماتكم فيها، ثم أحياكم للبعث، وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: وكنتم أمواتاً بالخمول، فأحياكم بأن ذكرتم وشرفتم بهذا الدين والنبي الذي جاءكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول هو أولى هذه الأقوال، لأنه الذي لا محيد للكفار عن الإقرار به في أول ترتيبه. ثم إن قوله أولاً: ﴿وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا﴾ وإسناده آخرأ الإمامة إليه تبارك وتعالى مما يقوي ذلك القول، وإذا أذعنت نفوس الكفار لكونهم أمواتاً معدومين، ثم للإحياء في الدنيا، ثم للإماتة فيها قَوِيَّ عليهم لزوم الإحياء الآخر، وجاء جملهم له دعوى لا حجة عليها.

والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على الله تعالى، أي إلى ثوابه أو عقابه، وقيل: هو عائد على الإحياء، والأول أظهر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَرْجَعُونَ﴾ بضم التاء وفتح الجيم، وقرأ ابن أبي إسحاق، وابن محيصن، وابن يعمر، وسلام، والقيصاص بن عَزْوَانَ، ويعقوب الحضرمي: (يَرْجِعُونَ)

وترجعون) بفتح الياء والتاء حيث وقع. و﴿خَلَقَ﴾ معناه: اخترع وأوجد بعد العدم، وقد يقال في الإنسان: خلق عند إنشائه شيئاً، ومنه قول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَتَغْضُ
الْقَوْمَ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَسْفِرِي
ومنه قوله الآخر:

مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقُو

لُ فَجِيلَتِي فِيهِ قَلِيلَةٌ

و ﴿لَكُمْ﴾ معناه: للاعتبار، وبدل

على ذلك ما قبله وما بعده من نصب

العبر: الإحياء، والإماتة، والخلق،

والاستواء إلى السماء، وتسويتها.

وقال قوم: بل معنى ﴿لَكُمْ﴾ إباحة

الأشياء وتمليكها، وهذا قول من

يقول: إن الأشياء قبل ورود السمع

على الإباحة يَبْتَنُّه هذه الآية، وخالفهم

في هذا التأويل القائلون بالخطر،

والقائلون بالوقف. وأكثر القائلين

بالخطر استثنوا أشياء اقتضت حالها

مع وجود الإنسان الإباحة كالتنفس،

والحركة، ويرد على القائلين

بالخطر: كل حظر في القرآن، وعلى

القائلين بالإباحة: كل تحليل في

القرآن وإباحة. ويترجح الوقف إذا

قدرنا نازلة لا يوجد فيها سمع، ولا

تعلق به، ومعنى الوقف: أنه استفاد

جهد الناظر فيما يحزب من النوازل.

وحكى ابن فورك عن بن الصائغ أنه

قال: لم يخل العقل قط من السمع،

ولا نازلة إلا وفيها سمع، أو لها به

تعلق، أو لها حال تستصحب، قال:

فيتبغي أن يعتمد على هذا، ويغني عن النظر في حظر وإباحة ووقف. و﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال.

مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ﴿٣٠﴾ الآية يقتضي أن يكون التقدير: وابتداء خلقكم إذ قال ربك للملائكة. وإضافة ﴿رب﴾ إلى محمد ﷺ، ومخاطبته بالكاف تشريف منه له، وإظهار اختصاصه به. والملائكة واحدها ملك، أصله: ملاك على وزن مفعّل، من لأك إذا أرسل، وجمعه ملائكة على وزن مفاعلة. وقال قوم: أصل ملك مألّك من ألك إذا أرسل، ومنه قول عدي بن زيد:

أبلغ السّعمان عني مألّكاً
أنه قد طال حبسي وانتظاري
واللغتان مسموعتان، لأك، وألك، فليّت فيه الهمزة بعد اللام فجاء وزنه مفعّل وجمعه ملائكة، وزنه مفاعلة. وقال ابن كيسان: هو من ملك يملك والهمزة فيه زائدة كما زيدت في شَمَالٍ من شَمَل فوزنه فعّال، ووزن جمعه فعائل، وقد يأتي في الشعر على أصله كما قال:

فَلَسْتُ لِإِنْسِي وَلَكِنْ لِمَلَأَكِ
تَنْزَلَ مِنْ جَوِّ السَّمَاءِ يَصُوبُ
وأما في الكلام فسهلت الهمزة وألقيت حركتها على اللام أو على العين - في قول ابن كيسان - فقيل: ملك، والهاء في (ملائكة) لتأنيث الجموع غير حقيقي، وقيل: هي للمبالغة كعلامة ونسابة، والأول أبين، وقال أبو عبيدة: الهمزة في (ملائكة) مجتلية؛ لأن واحدها ملك. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا الذي نحا إليه ابن كيسان.

و ﴿جَاعِلٌ﴾ في هذه الآية بمعنى خالق، ذكره الطبري عن أبي رزق، ويقضي بذلك تعديها إلى مفعول

وهذا إنما يجيء في قوله تعالى: ﴿عَلَّ الْأَرْضَ﴾ استوى والقاعدة في هذه الآية ونحوها منع النقلة وحلول الحوادث، ويبقى استواء القدرة والسلطان.

و ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾، قيل: المعنى جعلهن سواء، وقيل: سوى سطوحها بالإملاص و ﴿سَخَّعَ﴾ نُصِبَ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ الضمير، أو على المفعول بسوى بتقدير حذف الجار من الضمير، كأنه قال: فسوى منهنّ سبعا. وقيل: نصب على الحال، وقال: ﴿فَسَوَّيْنَهُنَّ﴾ إمّا على أن

السماء جمع، وإمّا على أنه مفرد اسم جنس، فهو دال على الجمع. وقوله تعالى: ﴿وَوَفَوْ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمٌ﴾ معناه: بالموجودات، وتحقق علمه بالمعدومات من آيات أخر.

وهذه الآية تقتضي أن الأرض وما فيها خلق قبل السماء، وذلك صحيح، ثم دُحِيتِ الْأَرْضُ بعد خلق السماء، وبهذا تتفق معاني الآيات هذه والتي في سورة (المؤمن) وفي (الأنعام).

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال معمر بن المنثري: [إذ] زائدة، والتقدير: وقال ربك. قال أبو إسحق الزجاج: هذا اجترأ من أبي عبيدة، وكذلك رد عليه جميع المفسرين، وقال الجمهور: ليست زائدة وإنما هي معلقة بفعل مُقَدَّرٌ تقديره: واذكر إذ قال. وأيضاً فقوله: ﴿خَلَقَ لَكُمْ

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَا قَوْمِ أُوذِيَ اللَّهُ بِأَسْمَاءِ بَنِي آدَمَ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٤﴾ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى الْحِينِ ﴿٣٦﴾ فَلَقِيَ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَذَبَتْ قَنَابٌ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ الْوَاوِي الرَّجِيمُ ﴿٣٧﴾

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى﴾ ثم هنا: هي لترتيب الأخبار، لا لترتيب الأمر في نفسه، و ﴿اسْتَوَى﴾: قال قوم معناه: علا دون تكييف ولا تحديد، هذا اختيار الطبري، والتقدير: علا أمره وقدرته وسلطانه، وقال ابن كيسان: معناه قصد إلى السماء، أي بخلقه واختراعه، وقيل: معناه كمل صنعه فيها، كما تقول: استوى الأمر. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلت.

وحكى الطبري عن قوم: أن المعنى أقبل، وضعفه.

وحكى عن قوم: أن المستوي هو الدخان، وهذا أيضاً ياباه رصف الكلام. وقيل المعنى: استولى، كما قال الشاعر:

قَدِ اسْتَوَى بِشَرِّ عَلِيٍّ الْعِرَاقِ
مِنْ غَيْرِ سَيْفٍ وَدَمٍ مُهْرَاقِ

واحد. وقال الحسن وقتادة: ﴿جَاعِلٌ﴾ بمعنى فاعل. وقال ابن سابط عن النبي ﷺ أنه قال: إن ﴿الْأَرْضِ﴾ هنا يعني بها مكة، لأن الأرض دحيت من تحتها، ولأنها مقر من هلك قومه من الأنبياء، وأن قبر نوح وهود وصالح بين المقام والركن.

و ﴿خَلِيفَةً﴾ معناه: من يخلف، قال ابن عباس: كانت الجن قبل بني آدم في الأرض فأفسدوا، وسفكوا الدماء، فبعث الله إليهم قبلاً من الملائكة قتلهم، وألحق قُلُوبَهُمْ بجزائر البحار، ورؤوس الجبال، وجعل آدم وذريته خليفة. وقال الحسن: إنما سمي الله بني آدم خليفة لأن كل قرن منهم يخلف الذي قبله، الجيل بعد الجيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ففي هذا القول يحتمل أن تكون بمعنى خالفة وبمعنى مخلوقة. وقال ابن مسعود: إنما معناه: خليفة مني في الحكم بين عبادي بالحق وبأوامري، يعني بذلك آدم عليه السلام ومن قام مقامه بعده من ذريته، وقرأ زيد بن علي (خَلِيفَةً) بالقاف.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَتَجْمَلُ فِيهَا﴾ الآية، قد علمنا قطعاً أن الملائكة لا تعلم الغيب، ولا تسبق بالقول، وذلك عام في جميع الملائكة، لأن قوله: ﴿لَا يَسْئُرُونَ بِالْقَوْلِ﴾ خرج على جهة المدح لهم. قال القاضي أبو بكر بن الطيب: «فهذه قرينة العموم، فلا يصح مع هذين الشرطين إلا أن يكون عندهم من

إفساد الخليقة في الأرض نبأً ومقدمة»، قال ابن زيد وغيره: «إن الله تعالى أعلمهم أن الخليقة سيكون من ذريته قوم يفسدون ويسفكون الدماء، فقالوا لذلك هذه المقالة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا إما على طريق التعجب من استخلاف الله من يعصيه، أو من عصيان من يستخلفه الله في أرضه وينعم عليه بذلك، وإما على طريق الاستعظام والإكبار للفصلين جميعاً: الاستخلاف والعصيان وقال أحمد بن يحيى ثعلب وغيره: إنما كانت الملائكة قد رأت وعلمت ما كان من إفساد الجن وسفكهم الدماء في الأرض، فجاء قولهم ﴿أَتَجْمَلُ فِيهَا﴾ الآية على جهة الاستفهام المحض، هل هذا الخليفة على طريقة من تقدم من الجن أم لا؟ وقال آخرون: كان الله تعالى قد أعلم الملائكة أنه يخلق في الأرض خلقاً يفسدون، ويسفكون الدماء، فلما قال لهم بعد ذلك: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ ﴿قَالُوا أَتَجْمَلُ فِيهَا﴾ الآية على جهة الاسترشاد والاستعلام. هل هذا الخليفة هو الذي كان أعلمهم به قبل أو غيره؟

و (السَّفْكَ) صبُّ الدَّم، هذا عرفه، وقد يقال: سَفَكَ كلامه في كذا إذا سَرَدَهُ، وقراءة الجمهور بكسر الفاء، وقرأ أبو حنيفة وابن أبي عبيدة و ﴿يَسْفُكُ﴾ بضم الفاء، وقرأ ابن هرمز ﴿وَيَسْفُكُ﴾ بالنصب بوار الصرف، كأنه قال: من يجمع أن يفسد وأن يسفك. وقال المهدي:

هو نصب في جواب الاستفهام. والأول أحسن.

وقولهم: ﴿وَتَحْنُ سَخِجٌ بِحَدِّكَ﴾ قال بعض المتأولين: هو على جهة الاستفهام كأنهم أرادوا: ونحن نسبح بحمدك الآية أم نتغير عن هذه الحال؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحسن مع القول بالاستفهام المحض في قولهم: ﴿أَتَجْمَلُ﴾.

وقال آخرون: معناه التمدح ووُصِف حالهم، وذلك جائز لهم، كما قال يوسف عليه السلام: ﴿إِنِّي حَفِيطٌ عَلِيمٌ﴾، وهذا يحسن مع التعجب والاستعظام لأن يستخلف الله من يعصيه في قولهم: ﴿أَتَجْمَلُ﴾؟

وعلى هذا أدبهم بقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

وقال قوم: معنى الآية: ونحن لو جعلنا في الأرض واستخلفنا نسبح بحمدك، وهذا أيضاً حسن مع التعجب والاستعظام في قولهم: ﴿أَتَجْمَلُ﴾؟ ومعنى ﴿سَخِجٌ بِحَدِّكَ﴾: ننزهك عما لا يليق بك وبصفاتك. وقال ابن عباس، وابن مسعود: تسبيح الملائكة صلاتهم لله، وقال قتادة: تسبيح الملائكة قولهم: سبحان الله، على عرفه في اللغة.

و ﴿بِحَدِّكَ﴾ معناه: نخبط التسبيح بالحمد، ونصله به، ويحتمل أن يكون قوله ﴿بِحَدِّكَ﴾ اعتراضاً بين الكلامين، كأنهم قالوا: (ونحن نسبح ونقدس)، ثم اعتراضوا على جهة التسليم، أي: وأنت المحمود في الهداية إلى ذلك.

و ﴿وَتَقَدَّسُ لَكَ﴾، قال الضحاك، وغيره: معناه: نظهر أنفسنا لك ابتغاء مرضاتك، والتقديس التطهير بلا خلاف، ومنه الأرض المقدسة أي المطهرة، ومنه بيت المقدس، ومنه القُدس الذي يُتطهر به. وقال آخرون: ﴿وَتَقَدَّسُ لَكَ﴾ معناه: ونقدسك أي نعظمك، ونظهر ذكرك عما لا يليق به. قاله مجاهد، وأبو صالح، وغيرهما، وقال قوم: ﴿وَتَقَدَّسُ لَكَ﴾ معناه: نصلي لك، وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، الأظهر أن ﴿أَعْلَمُ﴾ فعل مستقبل، و ﴿مَا﴾ في موضع نصب به، وقيل: ﴿أَعْلَمُ﴾ اسم، و ﴿مَا﴾ في موضع خفض بالإضافة، ولا يصح الصرف فيه بإجماع من النحاة، وإنما الخلاف في أفعل إذا سمي به وكان نكرة، فسيبويه والخليل لا يصرّفانه، والأخفش يصرّفه.

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله تعالى: ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ فقال ابن عباس: كان إبليس - لعنه الله - قد أعجب، ودخله الكبر لما جعله الله خازن السماء الدنيا، وشرفه وقيل: بل لما بعثه الله إلى قتل الجن الذين كانوا أنسدوا في الأرض فهزيمهم وقتلهم بجنده، قال ابن عباس أيضاً: واعتقد أن ذلك لمزية له، واستخف الكفر والمعصية في جانب آدم عليه السلام، قال: فلما قالت الملائكة ﴿وَنَحْنُ سَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾، وهي لا تعلم أن في نفس إبليس خلاف ذلك، قال الله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا

تَعْلَمُونَ﴾، يعني ما في نفس إبليس، وقال قتادة: لما قالت الملائكة: ﴿أَتَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا﴾، وقد علم الله تعالى أن فيمن يستخلف في الأرض أنبياء وفضلاء وأهل طاعة قال لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، يعني: أفعال الفضلاء من بني آدم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ﴾ معناه: عرف، وتعليم آدم هنا عند قوم إلهام علمه ضرورة، وقال قوم: بل تعليم بقول، فيما بواسطة ملك، أو بتكليم قبل هبوطه الأرض، فلا يشارك موسى عليه السلام في خاصته، وقرأ اليماني ﴿وَعَلَّمَ﴾ بضم العين على بناء الفعل للمفعول ﴿آدَمَ﴾ مرفوعاً. وقال أبو الفتح: وهي قراءة يزيد البربري، و (آدم) أفعل مشتق من الأدمة وهي حُمْرة تميل إلى السواد، وجمعه آدم، وأوادم، كحمر وأحمر، ولا ينصرف بوجه، وقيل: آدم وزنه فاعل مشتق من أديم الأرض كأن الملك آدمها وجمعه آدمون وأوادم، ويلزم قائل هذه المقالة صرفه، وقال الطبري: (آدم) فعل رباعي سُمِّيَ به.

وَرُوِيَ عن النبي ﷺ أنه قال: «خلق الله آدم من أديم الأرض كلها، فخرجت ذريته على نحوها، منهم الأبيض والأسود والأسمر، والسهل والحزن، والطيب والخبيث».

واختلف المتأولون في قوله: ﴿الْأَسْمَاءُ﴾، فقال جمهور الأمة: علمه التسميات، وقال قوم: عرض عليه الأشخاص، والأول أبين، ولفظة ﴿عَلَّمَ﴾ تعطي ذلك. ثم اختلف الجمهور في أي الأسماء

علمه، فقال ابن عباس، وقاتدة، ومجاهد: علمه اسم كل شيء من جميع المخلوقات، دقيقها وجليلها، وقال حميد الشامي: علمه أسماء النجوم فقط، وقال الربيع بن خثيم: علمه أسماء الملائكة فقط، وقال عبد الرحمن بن زيد: علمه أسماء ذريته فقط، وقال الطبري: علمه أسماء ذريته والملائكة، واختار هذا ورجحه بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ وَحَكَى النَّفَاسَ، عن ابن عباس: أنه تعالى علمه كلمة واحدة عرف منها جميع الأسماء، وقال آخرون: علمه أسماء الأجناس كالجبال، والخيول، والأودية، ونحو ذلك، دون أن يعين ما سمته ذريته منها. وقال ابن قتيبة: علمه أسماء ما خلق في الأرض، وقال قوم: علمه الأسماء بلغة واحدة، ثم وقع الاصطلاح من ذريته فيما سواها، وقال بعضهم: بل علمه الأسماء بكل لغة تكلمت بها ذريته، وقد غلا قوم في هذا المعنى حتى حكى ابن جني عن أبي علي الفارسي أنه قال: علم الله تعالى آدم كل شيء حتى أنه كان يحسن من النحو مثل ما أحسن سيبويه، ونحو هذا من القول الذي هو بين الخطأ من جهات.

وقال أكثر العلماء: علمه تعالى منافع كل شيء ولما يصلح. وقال قوم: عرض عليه الأشخاص عند التعليم، وقال قوم: بل وصفها له دون عرض أشخاص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها احتمالات، قال الناس بها.

وقرأ أُبَيُّ بن كعب: ﴿ثُمَّ عَرَضَهَا﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿ثُمَّ عَرَضَهُنَّ﴾.

واختلف المتأولون: هل عرض على الملائكة أشخاص الأسماء أو الأسماء دون الأشخاص؟ فقال ابن مسعود، وغيره: عرض الأشخاص، وقال ابن عباس، وغيره: عرض الأسماء، فمن قال في الأسماء بعموم كل شيء قال: عرضهم أمة، ونوعاً نوعاً، ومن قال في الأسماء إنها التسميات استقام على قراءة أبي: ﴿عَرَضَهَا﴾، ونقول في قراءة من قرأ ﴿عَرَضَهُنَّ﴾ إن لفظ الأسماء يدل على الأشخاص، فلذلك ساغ أن يقول للأسماء ﴿عَرَضَهُنَّ﴾.

و ﴿أَلْيُونِي﴾ معناه: أخبروني، والنبأ: الخبر، ومنه النبيء، وقال قوم: يخرج من هذا الأمر بالإنباء تكليف ما لا يطاق، ويتقرر جوازه، لأنه تعالى علم أنهم لا يعلمون، وقال المحققون من أهل التأويل: ليس هذا على جهة التكليف، وإنما هو على جهة التقرير والتوقيف.

وقوله تعالى: ﴿هُؤُلَاءِ﴾ ظاهره حضور أشخاص، وذلك عند العرض على الملائكة، وليس في هذه الآية ما يوجب أن الاسم أريد به المسمى، كما ذهب إليه مكِّي والمهدوي، فمن قال: إنه تعالى عرض على الملائكة أشخاصاً استقام له مع لفظ ﴿هُؤُلَاءِ﴾، ومن قال: إنه إنما عرض أسماء فقط جعل الإشارة بهؤلاء إلى أشخاص الأسماء وهي غائبة، إذ قد حضر ما هو منها

بسبب، وذلك أسماؤها، وكأنه قال لهم في كل اسم لأي شخص هذا؟ قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر أن الله تعالى علم آدم الأسماء، وعرض مع ذلك عليه الأجناس أشخاصاً، ثم عرض تلك على الملائكة، وسألهم عن تسمياتها التي قد تعلمها آدم. ثم إن آدم قال لهم: هذا اسمه كذا، وهذا اسمه كذا، و ﴿هُؤُلَاءِ﴾ لفظ مبني على الكسر، والقصر فيه لغة تميم وبعض قيس وأسد، قال الأعشى:

هؤلاءم هؤلاء كلاً أعطي

تبعاً محذوة بنعمال
و ﴿كُنْتُمْ﴾ في موضع الجزم بالشرط، والجواب عند سيبويه فيما قبله، وعند المبرد محذوف والتقدير: إن كنتم صادقين فأنبؤني، وقال ابن مسعود: وابن عباس، وناس من أصحاب النبي عليه السلام: معنى الآية: إن كنتم صادقين في أن الخليفة يفسد وينفك. وقال آخرون: صادقين في أي إن استخلفتكم سيختم بحمدي، وقدسنتم لي، وقال الحسن، و قتادة: روي أن الملائكة قالت حين خلق الله آدم: ليخلق ربنا ما شاء، فلن يخلق خلقاً أعلم منا، ولا أكرم عليه، فأراد الله تعالى أن يريهم من علم آدم وكرامته خلاف ما ظنوا. فالمعنى: إن كنتم صادقين في دعواكم العلم، وقال قوم: معنى الآية: إن كنتم صادقين في جواب السؤال، عالمين بالأسماء. قالوا: ولذلك لم يسغ للملائكة الاجتهاد، وقالوا: سبحانك. حكاه النقاش،

قال: ولو لم يشترط عليه الصدق في الإنباء لجاز لهم الاجتهاد، كما جاز للذي أماته الله مائة عام، حين قال له: ﴿كَمْ لَيْتٌ﴾، ولم يشترط عليه الإصابة، فقال ولم يصب، فلم يُعْتَفَ، وهذا كله محتمل، وحكى الطبري أن بعض المفسرين قال: معنى ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾: إذ كنتم، قال الطبري: وهذا خطأ.

وإن قال قائل: ما الحكمة في قول الله تعالى للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ﴾ الآية؟ قيل: هذا امتحان لهم واختبار، ليَقَعَّ منهم ما وقع، ويؤدبهم تعالى من تعليم آدم وتكريمه بما أَدَّب. و ﴿سُبْحَانَكَ﴾ نصب على المصدر، قال الكسائي: نصبه على أنه منادى مضاف.

قال الزهراوي: موضع ﴿مَا﴾ من قولهم: ﴿مَا عَلَّمْنَا﴾ نصب بعلمتنا، وخبر التبرئة في ﴿لَنَا﴾. ويحتمل أن يكون موضع ﴿مَا﴾ رفعاً على أنه يدل من خبر التبرئة، كما تقول: لا إله إلا الله، أي لا إله في الوجود إلا الله. و ﴿أَنْتَ﴾ في موضع نصب تأكيد للضمير في ﴿إِنَّكَ﴾ أو في موضع رفع على الابتداء، و ﴿أَلْعَلِيمِ﴾ خبره، والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، أو فاصلة، لا موضع لها من الإعراب، و ﴿أَلْعَلِيمِ﴾ معناه العالم، ويزيد عليه معنى من المبالغة والتكثير من المعلومات في حق الله عز وجل. و ﴿أَلْحَكِيمِ﴾ معناه: الحاكم وبينهما مزية المبالغة، وقيل: معناه المحكِّم، كما قال عمرو بن معدي كرب:

أمن ربحانة الداعي السميع.

أي: المُسمع، ويجيء الكلام على هذا من صفات الفعل، وقال قوم: الحكيم المانع من الفساد، ومنه: حَكَمَةُ الفرس مانعته: ومنه قول جرير:

أَبْنِي حَنِيفَةَ أَحْكِمُوا سَفَهَاءَ كُنْمِ
إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ أَغْضَبَا
(٣٣) - (٣٤) تفسير قوله عز وجل:

﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ معناه: أخبرهم، وهو فعل يتعدى إلى مفعولين، أحدهما بحرف الجر، وقد يحذف حرف الجر أحياناً، تقول: نُبِّئْتُ زَيْدًا، قال سيبويه: معناه نُبِّئْتُ عن زيد، والضمير في ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ عائد على الملائكة بإجماع، والضمير في ﴿أَسْمَائِهِمْ﴾ مُخْتَلَفٌ فيه، حسب الاختلاف في الأسماء التي عَلَّمَهَا آدم، قال أبو علي: كلهم قرأ ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ بالهمز وضمّ الهاء إلا ما روي عن ابن عامر ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ بالهمز وكسر الهاء، وكذلك روى بعض المكيين عن ابن كثير، وذلك على إبتاع كسرة الهاء لكسرة الباء، وإن حَجَزَ الساكن فحجزه لا يعتد به. قال أبو عمرو الداني: وقرأ الحسن، والأعرج: ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ بغير همز، قال ابن جني: وقرأ الحسن ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ على وزن أَعْطَيْهِمْ، وقد رُوِيَ عنه ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ بغير همز. قال أبو عمرو: وقد روي مثل ذلك عن ابن كثير من طريق القواس.

قال أبو الفتح: أما قراءة الحسن ﴿أَنْبِئْهُمْ﴾ كأَعْطَيْهِمْ فعلى إبدال الهمزة ياء، على أنك تقول أَتَيْتُ كَأَعْطَيْتُ، وهذا ضعيف في اللغة، لأنه بدل لا تخفيف، والبدل عندنا لا يجوز إلا

في ضرورة شعر. قال بعض العلماء: إن في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ﴾ نبوة لآدم عليه السلام إذ أمره الله أن ينبيء الملائكة بما ليس عندهم من علم الله عز وجل.

ويجوز فتح الياء من ﴿إِنِّي﴾ وتسكينها، وقال الكسائي: رأيت العرب إذا لقيت عندهم الياء همزة فتحوها. قال أبو علي: كان أبو عمرو يفتح ياء الإضافة المكسور ما قبلها عند الهمزة المفتوحة والمكسورة إذا كانت متصلة باسم أو بفعل، ما لم يطل الحرف، فإنه يقلب فتحها، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتَبِئِ الْآيَةَ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَذْكُرِي أَذْكَرَكُمُ﴾. والذي يخيف: ﴿إِنِّي أَرَى﴾، و﴿أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه ما غاب عنكم، لأن الله تعالى لا يغيب عنه شيء، الكل معلوم له، و﴿مَلَكٌ﴾ في موضع نصب بأعلم. قال المهدي: ويجوز أن يكون قوله ﴿أَعْلَمُ﴾ اسماً بمعنى التفضيل في العلم فتكون ﴿مَلَكٌ﴾ في موضع خفض بالإضافة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإذا قدر الأول اسماً فلا بد بعده من إضمار فعل ينصب ﴿غَيْبٌ﴾ تقديره: إني أعلم من كل أعلم غيب، وكونها في الموضوعين فعلاً مضارعاً أخصر وأبلغ.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿مَا بُدُّونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾. فقالت طائفة: ذلك على معنى العموم في معرفة أسرارهم وظواهرهم وبواطنهم أجمع.

وحكى مكي أن المراد بقوله: ﴿مَا بُدُّونَ﴾ قولهم: ﴿أَتَحْمَلُ فِيهَا﴾ الآية. وحكى المهدي أن ﴿مَا بُدُّونَ﴾ قولهم: «ليخلق ربنا ما شاء فلن يخلق أعلم منا ولا أكرم عليه»، فجعل هذا مما أبدوه لما قالوه. وقال الزهراوي: ما أبدوه هو يدارهم بالسجود لآدم.

واختلف في المكتوم، فقال ابن عباس، وابن مسعود: المراد ما كتبه إبليس في نفسه من الكبر والكفر، ويتوجه قوله: ﴿تَكْتُمُونَ﴾ للجماعة والكاتم واحد في هذا القول على تجوز العرب واتساعها، كما يقال لقوم قد جنى سفيه منهم: أنتم فعلتم كذا، أي منكم فاعله، وهذا مع قصد تعنيف، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَادُونَكَ مِنَ الَّذِينَ أَكْفَرُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾. وإنما ناداه منهم غَيْبُهُ، وقيل الأقرع، وقال قتادة: المكتوم هو ما أسره بعضهم إلى بعض من قولهم: «ليخلق ربنا ما شاء»، فجعل هذا مما كتموه لِمَا أسره، و﴿إِذْ﴾ من قوله: ﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾ معطوف على ﴿إِذْ﴾ المتقدمة.

وقول الله تعالى، وخطابه للملائكة متقرر قديم في الأزل بشرط وجودهم وفهمهم، وهذا هو الباب كله في أوامر الله سبحانه ونواهيه ومخاطباته، و﴿قُلْنَا﴾ كناية العظيم عن نفسه بلفظ الجمع.

وقوله: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ﴾ عمومٌ فيهم، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا﴾، برفع التاء العلامة إبتاعاً لضممة ثالث المستقبل. قال أبو علي: وهذا خطأ، وقال الزجاج:

أبو جعفر من رؤساء القراءة، ولكنه غلط في هذا، قال أبو الفتح: لأن [الملائكة] في موضع جر فالتاء مكسورة كسرة إعراب، وهذا الذي ذهب إليه أبو جعفر إنما يجوز إذا كان ما قبل الهمزة حرفاً ساكناً صحيحاً، نحو قوله تعالى: ﴿وَقَالِ أَخْرِجْ عَالِيْنَ﴾ والسجود في كلام العرب الخشوع والتذلل، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
وغيته وضع الوجه بالأرض.

والجمهور على أن سجود الملائكة لآدم إيماء وخضوع. ذكره النقاش وغيره، ولا تدفع الآية أن يكونوا بلغوا غاية السجود، وقوله تعالى: ﴿فَقَعُوا لَهُ سَجْدًا﴾ لا دليل فيه لأن الجائي على ركبته واقع.

واختلف في حال السجود لآدم، فقال ابن عباس: تعبدتهم الله بالسجود لآدم. والعبادة في ذلك لله. وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وابن عباس: إنما كان سجود تحية، كسجود أبيي يوسف عليه السلام، لا سجود عبادة. وقال الشعبي: إنما كان آدم كالقبلة ومعنى ﴿لَادَمَ﴾: إلى آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه الوجوه كلها كرامة آدم عليه السلام، وحكى النقاش عن مقاتل أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه، قال: والقرآن يرد على هذا القول، وقال قوم: سجود الملائكة كان مرتين، والإجماع يرد هذا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، نصب على الاستثناء المتصل، لأنه من الملائكة على قول الجمهور، وهو ظاهر الآية، وكان خازناً وملكاً على سماء الدنيا والأرض، واسمه عزازيل، قاله ابن عباس. وقال ابن زيد، والحسن، هو أبو الجن، كما أن آدم أبو البشر، ولم يكن قط ملكاً، وقد روي نحوه عن ابن عباس أيضاً، قال: واسمه الحارث. وقال شهر بن حوشب: كان من الجن الذين كانوا في الأرض وقتلتهم الملائكة، فسبوه صغيراً، وتعبده وخطب معها حكاه الطبري عن ابن مسعود، والاستثناء على هذه الأقوال منقطع، واحتج بعض أصحاب هذا القول بأن الله تعالى قال صفة للملائكة: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ورجح الطبري قول من قال: إن إبليس كان من الملائكة، وقال: ليس في خلقه من نار، ولا في تركيب الشهوة والنسل فيه حين غضب عليه، ما يدفع أنه كان من الملائكة. وقوله عز وجل: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ يتخرج على أنه عمل عملهم فكان منهم في هذا، أو على أن الملائكة قد تسمى جنّاً لاستنارها. قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ آلِهَتِهِمْ سَبًّا﴾ وقال الأعشى في ذكر سليمان عليه السلام:

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ الْمَلَائِكِ تِسْعَةَ
قِيَامًا لَدَيْهِ يَتَمَلَّوْنَ بِهَا أَجْرَ
أَوْ عَلَى أَنْ يَكُونَ نَسْبُهُ إِلَى الْجِنَّةِ
كما ينسب إلى البصرة بصري، لما كان خازناً عليها.

وإبليس لا ينصرف، لأنه اسم أعجمي معرف. قال الزجاج: وزنه فغليل، وقال ابن عباس، والسدي، وأبو عبيدة، وغيرهم: هو مشتق من أبلس إذا أبعده عن الخير، ووزنه على هذا إفعيل، ولم تصرفه هذه الفرقة لشذوذه، وأجروه مجرى إسحق من أسحقه الله، وأيوب من آب يثوب، مثل قيوم، من قام يقوم، ولما لم تصرف هذه ولها وزن من الاشتقاق، كذلك لم يصرف هذا وإن توجه اشتقاقه، لقلته وشذوذه، ومن هذا المعنى قول الشاعر العجاج:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسًا؟
قَالَ: نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسًا
أَيُّ: تَغْيِيرٌ وَيُعَدُّ عَنِ الْعِمَارَةِ وَالْأَسْبَهِ، ومثله قول الآخر:

وَفِي السُّجُودِ صُفْرَةٌ وَإِنْسَاسٌ
ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا هُمْ
مُتَّبِعُونَ﴾، أي يائسون من الخير، متبعون منه فيما يزورون.

و ﴿أَبَى﴾ معناه: امتنع من فعل ما أمر به، و ﴿اسْتَكْبَرَ﴾ دخل في الكبرياء. والإباية مقدمة على الاستكبار في ظهورهما عليه، والاستكبار والأنفة مقدمة في معتقده. وروى ابن القاسم، عن مالك أنه قال: بلغني أن أول معصية كانت الحسد والكبر والشح. حسد إبليس آدم، وتكبر، وشح آدم في أكله من شجرة قد نُهي عن قربها.

حكى المهدي عن فرقة أن معنى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ وصار من الكافرين، وقال ابن فورك: وهذا خطأ ترده الأصول، وقالت فرقة: قد

من أنت؟ قالت: امرأة خلقت من ضلعك لتسكن إلي.

وحذفت النون من ﴿كَلَّا﴾ للأمر، والألف الأولى لحركة الكاف، حين حذفت الثانية لاجتماع المثلين، وهو حذف شاذ. ولفظ هذا الأمر بـ ﴿كَلَّا﴾ معناه الإباحة، بقرينة قوله: ﴿حَيْثُ شِئْتُمَا﴾، والضمير في ﴿وَيْتَا﴾ عائد على الجنة، وقرأ ابن وثاب والنخعي ﴿وَرَعْدًا﴾ بسكون الغين، والجمهور على فتحها، و ﴿الرَّعْدُ﴾ العيش الدارُ الهَيُّ الذي لا عناء فيه، ومنه قول امرئ القيس:

بَيْنَمَا الْمَرْءُ تَرَاهُ نَاعِمًا
يَأْمَنُ الْأَحْدَاثَ فِي عَيْشِ رَعْدٍ
و ﴿رَعْدًا﴾ منصوب على الصفة لمصدر محذوف، وقيل: هو نصب على المصدر في موضع الحال، و ﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم، ومن العرب من يبينها على الفتح، ومن العرب من يُغربها حسب موضعها بالرفع والنصب والخفض، كقوله: ﴿سَسَلْتَهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَسْلَوْنَ﴾ ومن العرب من يقول: (حوث).

و ﴿شِئْتُمَا﴾ أصله شِئْتُمَا حول إلى فعلتُمَا، تحركت ياؤه وانفتح ما قبلها جاء (شَأْتُمَا) حذفت الألف الساكنة الممدودة للالتقاء، وكسرت الشين لتدل على الياء، فجاء (شِئْتُمَا)، هذا تعليل المبرد، فأما سيبويه فالأصل عنده (شِئْتُمَا) بكسر الياء، نقلت حركة الياء إلى الشين، وحذفت الياء بعد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ﴾ معناه: لا تقرباها بأكل، لأن الإباحة فيه وقعت. قال بعض

إبليس عند كفره، وأبعده عن الجنة، وبعد إخراجه قال لآدم ﴿أَسْكَنْ﴾.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَسْكَنْ﴾ معناه: لازم الإقامة، ولفظه لفظ الأمر، ومعناه الإذن، و ﴿أَنْتَ﴾ تأكيد للضمير الذي في ﴿أَسْكَنْ﴾، و ﴿رَوْحَكَ﴾ عطف عليه، والزوج امرأة الرجل، وهذا أشهر من زوجة، وقد تقدم. و ﴿الْجَنَّةِ﴾ البستان عليه حظيرة.

واختلف في الجنة التي أسكنها آدم: هل هي جنة الخلد أو جنة أعدت لهما؟ وذهب من لم يجعلها جنة الخلد إلى أن من دخل الجنة الخلد لا يخرج منها. وهذا لا يمتنع. إلا أن السمع ورد أن من دخلها مؤبأ لا يخرج منها وأما من دخلها ابتداء كآدم فغير مستحيل، ولا ورد سمع بأنه لا يخرج منها.

واختلف متى خلقت حواء من ضلع آدم عليه السلام؟ فقال ابن عباس: حين أنبأ الملائكة بالأسماء وأسجدوا له أَلْوِيَّتْ عليه السُّنَّةُ وَخُلِقَتْ حَوَاءُ، فاستيقظ وهي إلى جانبه، فقال - فيما يزعمون: لحمي ودمي، وسكن إليها، فذهبت الملائكة لتجرب علمه، فقالوا له: يا آدم ما اسمها؟ قال: حواء، قالوا: ولم؟ قال: لأنها خلقت من شيء حي، ثم قال الله له: ﴿أَسْكَنْ أَنْتَ وَرَوْحَكَ الْجَنَّةَ﴾.

وقال ابن مسعود، وابن عباس أيضاً: لما أسكن آدم الجنة مشى فيها مستوحشاً، فلما نام خلقت حواء من ضلعه القصيري ليسكن إليها، ويتأس بها، فلما انتبه رآها فقال:

كان تقدم قبل من الجن من كفر فشببه الله بهم، وجعله منهم لَمَا فعل من الكفر فعلهم. وذكر الطبري عن أبي العالية أنه كان يقول: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ﴾ معناه: من العصاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتلك معصية كُفْرٌ، لأنها عن معتقد فاسد صدرت.

وروي أن الله تعالى خلق خلقاً، وأمرهم بالسجود لآدم فعصوا، فأحرقهم بالنار، ثم خلق آخرين، وأمرهم بذلك فعصوا فأحرقهم، ثم خلق الملائكة فأمرهم بذلك فسجدوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والإسناد في مثل هذا غير وثيق. وقال جمهور المتأولين: معنى ﴿وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ﴾ أي في علم الله أنه سيكفر، لأن الكافر حقيقة، والمؤمن حقيقة هو الذي قد علم الله منه الموافاة.

وذهب الطبري إلى أن الله أراد بقصة إبليس تقرع أشباهه من بني آدم، وهم اليهود الذين كفروا بمحمد ﷺ، مع علمهم بنبوته، ومع تقدم نعم الله عليهم وعلى أسلافهم. واختلف هل كُفْرٌ إبليس جهلاً أو عناداً؟ على قولين بين أهل السنة، ولا خلاف أنه كان عالماً بالله قبل كفره، فمن قال إنه كفر جهلاً قال: إنه سلب العلم عند كفره. ومن قال كُفْرٌ عناداً قال: كفر ومعه علمه، والكفر عناداً مع بقاء العلم مستبعد، إلا أنه عندي جائز لا يستحيل مع خذل الله لمن شاء.

ولا خلاف أن الله تعالى أخرج

الحذاق: إن الله لما أراد النهي عن أكل الشجرة نهى عنه بلفظ يقتضي الأكل وما يدعو إليه، وهو القرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال بين في سد الذرائع، وقرأ ابن محيصن: ﴿هَذِي﴾ على الأصل، والهاء في هذه بدل من الياء. وليس في الكلام هاء تأنيث مكسور ما قبلها غير هذه، وتحتمل هذه الإشارة أن تكون إلى شجرة معينة واحدة، أو إلى جنس. وحكى هارون الأعمور عن بعض العلماء قراءة ﴿الشَّجَرَةَ﴾ بكسر الشين. والشجر كل ما قام من النبات على ساق.

واختلف في هذه الشجرة التي نهى عنها ما هي؟ فقال ابن مسعود، وابن عباس: هي الكرم، ولذلك حُرِّمَتْ علينا الخمر، وقال ابن جريج عن بعض الصحابة: هي شجرة التين، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو مالك، وعطية، وقتادة: هي السنبل، وجها ككلى البقر، أحلى من العسل، وألين من الزبد. وزوي عن ابن عباس أيضاً أنها شجرة العلم فيها ثمر كل شيء، وهذا ضعيف لا يصح عن ابن عباس. وحكى الطبري عن يعقوب بن عتبة أنها الشجرة التي كانت الملائكة تحنك بها للخلد، وهذا أيضاً ضعيف، قال: واليهود تزعم أنها الحنظلة، وتقول: كانت حلوة ومرت من حينئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس في شيء من هذا التعيين ما يعضده خبر، وإنما الصواب أن يُعتقد أن الله تعالى نهى آدم عن

شجرة فخالف هو إليها وعصى في الأكل منها.

وفي حظره تعالى على آدم الشجرة ما يدل على أن مكانه في الجنة لا يدوم لأن المخلد لا يحظر عليه شيء، ولا يؤمر ولا ينهى، وقيل: إن هذه الشجرة كانت خصت بأن تُخَوِّجَ أكلها إلى التبرز، فلذلك نهى عنها، فلما ولم تكن الجنة موضع تبرز أهبط إلى الأرض.

وقوله: ﴿فَنَكَرْنَا﴾ في موضع جزم على العطف على (لا تقربا)، ويجوز فيه النصب على الجواب، والناصب عند الخليل وسيبويه (أن) المضمرة، وعند الجرمي الفاء.

والظالم في اللغة الذي يضع الشيء غير موضعه، ومنه قولهم: (من أشبه أباه فما ظلم). ومنه المظلومة الجلد لأن المطر لم يأتها في وقته، ومنه قول عمرو بن قميئة:

ظَلَمَ البِطَّاحُ بها انْهَالُ حَرِيصَةٍ
فَصَفَا النُّطَافُ له بُعَيْدَ المُنْقَلَعِ
والظلم في أحكام الشرع على مراتب: أعلاها الشرك، ثم ظلم المعاصي وهي مراتب.

وهو في هذه الآية يدل على أن قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبَا﴾ على جهة الوجوب لا على الندب، لأن من ترك المنسوب لا يُسمى ظالماً، فاقتضت لفظة الظلم قوة النهي.

و (أزلهما) مأخوذ من الزل، وهو في الآية مجاز، لأنه في الرأي والنظر، وإنما حقيقة الزلل في القدم. قال أبو علي: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ يحتمل تأويلين - أحدهما: كسبهما الزلّة - والآخر أن يكون من زل إذا

عشر، وقرأ حمزة: ﴿فَأَزَلَّهُمَا﴾ مأخوذ من الزوال، كأنه المزيل لما كان إغواؤه مؤدياً إلى الزوال، وهي قراءة الحسن وأبي رجاء.

ولا خلاف بين العلماء أن إبليس اللعين هو متولي إغواء آدم.

واختلف في الكيفية: فقال ابن عباس، وابن مسعود، وجمهور العلماء: أغواهما مشافهة، ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَاَسَمَهُمَا﴾، والمُقاسمة ظاهرها المشافهة، وقال بعضهم: إن إبليس لما دخل إلى آدم كلمه في حاله، فقال: يا آدم - ما أحسن هذا لو أن خلداً كان، فوجد إبليس السبيل إلى إغوائه. فقال: هل

أدلك على شجرة الخلد، وقال بعضهم: دخل الجنة في فم الحية، وهي ذات أربع كالبختية بعد أن عرض نفسه على كثير من الحيوان فلم تدخله إلا الحية، فخرج إلى حواء وأخذ شيئاً من الشجرة، وقال: انظري - ما أحسن هذا، فأغواها حتى أكلت، ثم أغوى آدم، وقالت له حواء: كل، فإني قد أكلت فلم يضرني، فأكل فبدت لهما سوء أتهما، وحصلا في حكم الذنب، ولعننت الحية، وُردت قوائمها في جوفها، وجعلت العداوة بينها وبين بني آدم.

وقيل لحواء: كما آدميت الشجرة، فكَذلك يصيبك الدم في كل شهر، وكذلك تحمليين كرهاً، وتضعين كرهاً، تشرفين به على الموت مراراً، زاد الطبري والنقاش: وتكونين سفية، وقد كنت حليلة.

وقالت طائفة: إن إبليس لم يدخل الجنة إلى آدم بعد أن أخرج منها،

هنا، فقالت فرقة: إلى الموت، وهذا قول من يقول: **المُسْتَقَرُّ** هو المقام في الدنيا، وقالت فرقة: إلى حين: إلى يوم القيامة، وهذا قول من يقول: **المُسْتَقَرُّ** هو في القبور، ويترتب أيضاً على أن **المُسْتَقَرُّ** في الدنيا أن يراد بقوله **﴿وَلَكَّرَ﴾** أي لأنواعكم في الدنيا استقرار ومتاع قرناً بعد قرن إلى يوم القيامة، والحين: المدة الطويلة من الدهر أقصرها في الإيمان والالتزامات سنة، قال الله تعالى: **﴿تَوَتَّىٰ أُنكُهَا كُلَّ يَمِينٍ يَازِينَ رَيْبَها﴾**، وقد قيل: أقصرها ستة أشهر، لأن من النخل ما يثمر في كل ستة أشهر، وقد يستعمل الحين في المحاورات في القليل من الزمن. وفي قوله تعالى: **﴿إِلَىٰ يَمِينٍ﴾** فائدة لآدم عليه السلام ليعلم أنه غير باق فيها، ومنقول إلى الجنة التي وُعد بالرجوع إليها، وهي لغير آدم دالة على المعاد.

وزوي أن آدم نزل على جبل من جبال سرنديب وأن حواء نزلت بجدة، وأن الحية نزلت بأصبهان، وقيل بميسان، وأن إبليس نزل على الأبله.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فقال الكلمات، فتاب الله عليه عند ذلك، و **﴿ءَادَمَ﴾** رفع به (تلقى) **﴿كَلِمَاتٍ﴾** نصب بها، والتلقي من آدم هو الإقبال عليها، والقبول لها، والفهم، وحكي مكي قولاً أنه ألهمها فانتفع بها، وقرأ ابن كثير: **﴿آدَمَ﴾** بالنصب **﴿مِنْ رِزْقِهِ كَلِمَاتٍ﴾** بالرفع، فالتلقي من الكلمات هو نيل آدم بسببها رحمه الله وتوبته.

وقيل: من نعمة الجنة إلى شقاء الدنيا، وقيل: من رفعة المنزلة إلى سفلى مكانة الذنب، وهذا كله يتقارب. وقرأ أبو حيوه **﴿اهبطوا﴾** بضم الباء، ويفعل كثير في غير المتعدي وهبط غير متعد، والهبوط النزول من علو إلى أسفل. واختلف: من المخاطب بالهبوط؟ فقال السدي وغيره: آدم وحواء وإبليس والحية. وقال الحسن: آدم وحواء والسوسه. وقال غيره: والحية، لأن إبليس قد كان أهبط قبل عند معصيته.

و **﴿بَصَّكُم بِلَيْعِ عَدُوِّ﴾** جملة في موضع الحال، وأفرد لفظ عدو من حيث لفظه بعض، وبعض وكل تجري مجرى الواحد، ومن حيث لفظه عدو تقع للواحد والجميع، قال الله تعالى: **﴿هُرُّ الْكُدُوِّ فَاحْذَرُوهُ﴾**. و **﴿وَلَكَّرَ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرًّا﴾** أي موضع استقرار، قاله أبو العالية، وابن زيد، وقال السدي: المراد الاستقرار في القبور.

والمتاع: ما يُستمع به: من أكل ولبس وحية وحديث وأنس، وغير ذلك، وأنشد سليمان بن عبد الملك حين وقف على قبر ابنه أيوب إثر دفنه:

وَقَفْتُ عَلَى قَبْرِ غَرِيبٍ بِعَفْرَةٍ
مَتَاعٌ قَلِيلٌ مِنْ حَبِيبٍ مُفَارِقٍ
واختلف المتأولون في الحين ها

فَلَمَّا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ هُدَىٰ فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٨﴾ يَذَرِي لِإِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ الْكَلِمَةَ عَلَى الْخَلْقِ فَأَصْبَحَ سَاكِنًا فِي عِصْيَانِ الْأَوْلِيَائِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْعِزَّةِ وَلَا يُدْعَوْنَ إِلَى الْإِسْلَامِ وَلَا يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فَلَا يَمِيزُ بَيْنَهُمَا قَلِيلًا وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٣٨﴾ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ لَتَكُنُونَ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣٩﴾ وَأَسْمِعُوا بِالنَّاصِرِ وَالصَّلَاةِ وَالنَّهْيِ الْكَبِيرِ وَالْحَقِّ الْخَاشِعِينَ ﴿٣٧﴾ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ أَنَّهُم مُّلتَمَعُوا بِهِمْ وَهُمْ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ يَذَرِي لِإِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ الْكَلِمَةَ عَلَى الْخَلْقِ فَأَصْبَحَ سَاكِنًا فِي عِصْيَانِ الْأَوْلِيَائِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْعِزَّةِ وَلَا يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٣٩﴾ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُوا بِالْحَقِّ وَالْحَقُّ وَالْبَاطِلُ فَلَا يَمِيزُ بَيْنَهُمَا قَلِيلًا وَإِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٨﴾

وإنما أغوى آدم بشيطانه وسلطانه ووساوسه التي أعطاه الله تعالى، كما قال **﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرِي مِنَ ابْنِ آدَمَ مَجْرَىٰ الدَّمِ﴾**، والضمير في **﴿عَنهَا﴾** عائد على الشجرة في قراءة من قرأ **﴿أَزْلَمَهَا﴾**، ويحتمل أن يعود على الجنة، فأما من قرأ **﴿أَزْلَمَهَا﴾**، فإنه يعود على الجنة فقط، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر تقديره **﴿فَأَكَلَا مِنَ الشَّجَرَةِ﴾**، وقال قوم: أكلا من غير التي أشير إليها فلم يتأولا النهي واقعاً على جميع جنسها، وقال آخرون: تأولوا النهي على الذنب.

وقال ابن المسيب: إنما أكل آدم بعد أن سقته حواء الخمر، فكان في غير عقله.

وقوله تعالى: **﴿فَأَخْرَجَهَا مِنْهَا كَانًا فِيهَا﴾** يحتمل وجوهاً، فقيل: أخرجها من الطاعة إلى المعصية،

واختلف المتأولون في الكلمات، فقال الحسن بن أبي الحسن: هي قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ الآية، وقال مجاهد: هي أن آدم، قال: «سبحانك اللهم لا إله إلا أنت، ظلمت نفسي فاغفر لي إنك أنت التواب الرحيم».

وقال ابن عباس: هي أن آدم قال: أي رب. ألم تخلقني بيدك؟ قال: بلى. قال: أي رب. ألم تنفخ في من روحيك؟ قال: بلى، قال: أي رب، ألم تُسكنني جنتك؟ قال: بلى، قال: أرأيت إن ثبت وأطعت أراجمي أنت إلى الجنة؟ قال: نعم. قال عبيد ابن عمير: إن آدم قال: أي رب، أرأيت ما عصيتك فيه شيء كتبته علي أم شيء ابتدئته؟ قال: بل شيء كتبته عليك، قال: أي رب. كما كتبته علي فاغفر لي. وقال قتادة: الكلمات هي أن آدم قال: أي رب. أرأيت إن أنا ثبت وأصلحت؟ قال: إذا أدخلك الجنة. وقالت طائفة: إن آدم رأى مكتوباً على ساق العرش «محمد رسول الله»، فتشفع بذلك فيه الكلمات. وقالت طائفة: إن المراد بالكلمات ندمه واستغفاره وحزنه، وسماها كلمات مجازاً لما هي في خلقها، صادرة عن كلمات، وهي كن في كل واحدة منهن، وهذا قول يقتضي أن آدم لم يقل شيئاً إلا الاستغفار المعهود.

وسئل بعض سلف المسلمين عما ينبغي أن يقوله المذنب فقال يقول ما قال أبواه: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ وما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾، وما قال يونس: ﴿لَا

إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾.

و ﴿قَاتِبَ عَلَيْهِ﴾ معناه: رجع به، والتوبة من الله تعالى: الرجوع على عبده بالرحمة والتوفيق، والتوبة من العبد: الرجوع عن المعصية، والندم على الذنب مع تركه فيما يستأنف وإنما خص الله تعالى آدم بالذكر هنا في التلقي والتوبة، وحواء مشاركة له في ذلك بإجماع لأنه المخاطب في أول القصة بقوله: ﴿أَسْكَنْتُ أَنْتَ رَزَقْتُكَ الْجَنَّةَ﴾، فلذلك كملت القصة بذكره وحده، وأيضاً فلأن المرأة حرمة ومستورة، فأراد الله الاستر لها، ولذلك لم يذكرها في المعصية في قوله: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى﴾. وروي أن الله تعالى تاب على آدم في يوم عاشوراء.

وكنية آدم أبو محمد، وقيل: أبو البشر، وقرأ الجمهور ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الألف على القطع، وقرأ ابن أبي عقرب ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الهزرة على معنى لأنه. وبنية ﴿الذَّوَابِّ﴾ للمبالغة والتكثير.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ الذَّوَابُّ الرَّحِيمُ﴾، تأكيد - فائدته أن التوبة على العبد إنما هي نعمة من الله لا من العبد وحده، لئلا يعجب التائب، بل الواجب عليه شكر الله تعالى في توبته عليه.

وكرر الأمر بالهبوط لما علق بكل أمر منهما حكماً غير حكم الآخر، فعلق بالأول العداوة، وعلى بالثاني إتيان الهدى، وقيل: كرر الأمر بالهبوط على جهة تغليظ الأمر وتأكيده، كما تقول لرجل: قم قم.

وحكى النقاش أن الهبوط الثاني إنما هو من الجنة إلى السماء، والأول في ترتيب الآية إنما هو إلى الأرض وهو الآخر في الوقوع، فليس في الأمر تكرار على هذا.

و ﴿جَنِينًا﴾ حال من الضمير في ﴿أَهْبَطُوا﴾، وليس بمصدر، ولا اسم فاعل، ولكنه عوض منهما، دال عليهما، كأنه قال: هبوطاً جميعاً، أو هابطين جميعاً.

واختلف في المقصود بهذا الخطاب، فقيل: آدم وحواء وإبليس وذريتهم، وقيل: ظاهره العموم، ومعناه الخصوص في آدم وحواء، لأن إبليس لا يأتيه هدى، وحوطها بلفظ الجمع تشريفاً لهما، والأول أصح لأن إبليس مخاطب بالإيمان بإجماع. وإن في قوله: ﴿فَأَمَّا﴾ هي للشرط، دخلت (ما) عليها مؤكدة ليصح دخول النون المشددة، فهي بمثابة لام القسم التي تجي لتجيء النون، وفي قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُنِي﴾ إشارة إلى أن أفعال العباد خلق الله تعالى، واختلف في معنى قوله ﴿هُدًى﴾ فقيل: بيان وإرشاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أن يقال: بيان ودعاء، وقالت فرقة: الهدى الرسل، وهي إلى آدم من الملائكة، وإلى بنيه من البشر هو فتمن بعده.

وقول تعالى: ﴿فَمَنْ يَتَّبِعْ هُدَايَ﴾، شرط جوابه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ قال سيويه: الشرط الثاني وجوابه هما جواب الأول في قوله: ﴿فَأَمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ وحكي عن الكسائي أن

قوله: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، جواب الشرطين جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حكى هذا، وفيه نظر، ولا يتوجه أن يخالف سيبويه هنا، وإنما الخلاف في نحو قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ ﴿فَرَجَّحَ وَرَبَّحَانَ﴾، فيقول سيبويه: جواب الشرطين محذوف لدلالة قوله: ﴿فَرَجَّحَ﴾ عليه. ويقول الكوفيون: ﴿فَرَجَّحَ﴾ جواب الشرطين. وأما في هذه الآية فالمعنى يمنع أن يكون ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ جواباً للشرطين، وقرأ الجحدري، وابن أبي إسحق ﴿هُدًى﴾، وهي لغة هذيل، قال أبو ذؤيب يريثي بنه:

سَبَقُوا هَوِيَّ وَعَسَقُوا لِهَوَاهُمُ
فَتَجَرَّمُوا وَلِكُلِّ جَنَّبٍ مَضْرَعٌ
وكذلك يقولون: عَصِيَّ وما أشبهه، وعلّة هذه اللغة أن ياء الإضافة من شأنها أن يكسر ما قبلها، فلما لم يصح في هذا الوزن كَسَرَ الألف الساكنة أبدلت ياءً وأدغمت، وقرأ الزهري، ويعقوب، وعيسى الثقفي: ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ نصب بالتبرئة. ووجهه أنه أعم وأبلغ في رفع الخوف، ووجه الرفع أنه أعدل في اللفظ لينعطف المرفوع من قوله: ﴿هُمْ يَخْرُتُونَ﴾ على مرفوع. و (لا)

في قراءة الرفع عاملة عمل ليس، وقرأ ابن مُحَيِّصَنَ باختلاف عنه: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بالرفع وترك التنوين، وهي على أن تعمل (لا) عمل ليس، لكنه حذف التنوين تخفيفاً لكثرة الاستعمال، ويحتمل قوله تعالى: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، أي فيما بين أيديهم من الدنيا ﴿وَلَا هُمْ يَخْرُتُونَ﴾

على ما فاتهم منها، ويحتمل أن لا خوف عليهم يوم القيامة ولا هم يحزنون فيه، ويحتمل أن يريد: أنه يُدخلهم الجنة حيث لا خوف ولا حزن.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، عطف جملة مرفوعة على جملة مرفوعة، وقال: ﴿وَكَذَّبُوا﴾ وكان في الكفر كفاية، لأن لفظة ﴿كَفَرُوا﴾ يشترك فيها كفر النعم، وكفر المعاصي، ولا يجب بهذا خلوه، فبين أن الكفر هنا هو الشرك بقوله: ﴿وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، والآية هنا يحتمل أن يريد المتلوّة، ويحتمل أن يريد العلامة المنصوبة، وقد تقدم في صدر هذا الكتاب القول على لفظ آية، و ﴿أُولَئِكَ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿أَنْحَبُ﴾ خبره، والصحة الاقتران بالشيء في حالة ما في زمن ما، فإن كانت الملازمة والخلطة فهو كمال الصُحبة، وهكذا هي صحبة أهل النار لها، وبهذا القول ينفك الخلاف في تسمية الصحابة رضي الله عنهم، لأن مراتبهم متباينة، أقلها الاقتران في الإسلام والزمن، وأكثرها الخلطة والملازمة، و ﴿هُمْ ذِبْهَا خَلِيدُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

[يا] حرف نداء مضمن معنى التنبيه، قال الخليل: والعامل في المنادى فعل مضمّر كأنه يقول: أريد أو أدعو، وقال أبو علي الفارسي: العامل حرف نداء عصب به معنى الفعل المضمّر، فقوي فعمل، وبدل على ذلك أنه ليس في حروف المعاني ما يلتزم بانفراده مع الأسماء

غير حرف النداء، و ﴿بَيْتٍ﴾ منادى مضاف، و ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ هو: يعقوب ابن إسحق بن إبراهيم عليهم، وهو اسم أعجمي، يقال فيه: إسرائيل، وإسرائيل، وتميم تقول: اسرائين، وإسرائيل هو بالعبرانية عبد، و [إسرائيل] اسم الله تعالى، فمعناه: عبد الله، وحكى المهدوي أن (إسرا) مأخوذ من الشد في الأسر، كأنه الذي شدّ الله أسره، وقوى خلقه، وزوي عن نافع، والحسن، والزهري، وابن أبي إسحق، ترك همز (إسرائيل).

والذكر في كلام العرب على أنحاء، وهذا منها، ذكر القلب الذي هو ضد النسيان. والنعمة هنا اسم الجنس، فهي مفردة بمعنى الجمع، وتحركت الياء من ﴿يَسْتَبِي﴾ لأنها لقيت الألف واللام، ويجوز تسكينها، وإذا سكنت حذفت للالتقاء، وفتحها أحسن لزيادة حرف في كتاب الله تعالى، وخصص بعض العلماء النعمة في هذه الآية، فقال الطبري: بعثة الرسل منهم، وإنزال المن والسلوى، وإنقاذهم من تعذيب آل فرعون، وتفجير الحجر. وقال غيره: النعمة هنا، أن أدركهم مدة محمد ﷺ. وقال آخرون: هي أن منحهم علم التوراة، وجعلهم أهله وحملته، وهذه أقوال على جهة المثال، والعموم في اللفظة هو الحسن. وحكى مكي أن المخاطب من بني إسرائيل بهذا الخطاب هم المؤمنون بمحمد ﷺ. لأن الكافر لا نعمة لله عليه.

وقال ابن عباس: وجمهور العلماء: الخطاب لجميع بني

إسرائيل في مدة النبي عليه السلام، مؤمنهم وكافرهم.

والضمير في ﴿عَلَيْكُمْ﴾ يراد به على آبائكم، كما تقول العرب: ألم نهزمكم يوم كذا، لوقعة كانت بين الآباء والأجداد؟ ومن قال: إنما خوطب المؤمنون بمحمد ﷺ استقام الضمير في عليكم، ويجيء كل ما توالى من الأوامر على جهة الاستدامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ أَوْفِ بِعَهْدِكُمْ﴾. أمر وجوابه، فقال الخليل: جزم الجواب ما في الأمر من معنى الشرط، والوفاء بالعهد هو التزام ما تضمن من فعل. وقرأ الزهري: ﴿أَوْفُ﴾ بفتح الواو وشد الفاء للتكثير.

واختلف المتأولون في هذا العهد إليهم، فقال الجمهور: ذلك عام في جميع أوامره ونواهيه ووصاياه، فيدخل في ذلك ذكر محمد ﷺ الذي في التوراة، وقيل: العهد قوله تعالى: ﴿حُدُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقَوْلِهِ﴾.

الآية: وقال ابن جزيج: العهد قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية، وَعَهْدُهُمْ: هو أن يُدْخِلَهُم الجنة. ووفاءهم بعهد الله أمانة لوفاء الله تعالى لهم بعهدهم، لا علة له، لأن العلة لا تتقدم المعلول.

وقوله: ﴿وَلَيْتَ كَانَتْهُنَّ إِسَاءًا﴾، والياء ضمير ككاف المخاطب، وقيل: ﴿إِسَاءًا﴾ بجملته هو الاسم، وهو منصوب بإضمار فعل مؤخر تقديره: وإسائي ارهبوا فارهبون، وامتنع أن يُقَدَّرَ مقدماً لأن

الفعل إذا تقدم لم يحسن أن يتصل به إلا ضمير خفيف فكان يجيء، وارهبون.

والرغبة يتضمن الأمر بها معنى التهديد، وسقطت الياء بعد النون لأنها رأس آية. وقرأ ابن أبي إسحق بالياء.

و ﴿ءَامِنُوا﴾ معناه: صدقوا، و ﴿مُصَدِّقًا﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿أَنْزَلْتُ﴾ وقيل: من (مَا)، والعامل فيه ﴿ءَامِنُوا﴾، وما أنزلت كناية عن القرآن، و ﴿لِنَا مَعَكُمْ﴾ يعني من التوراة.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ يَدْعَى﴾ هذا من مفهوم الخطاب الذي المذكور فيه والمسكوت عنه حكمهما واحد، فالأول والثاني وغيرهما داخل في النهي، ولكن حُدِّثُوا البدار إلى الكفر به، إذ على الأول كُفُلٌ مِنْ فِعْلِ الْمُقْتَدِرِي بِهِ، ونصب ﴿أَوَّلَ﴾ على خبر كان.

قال سيبويه: أول [أَفْعَلٌ] لا فعل له لاعتلال فائه وعينه. قال غير سيبويه: هو أوَّل من وأل إذا نَجَا خُفِضَتِ الهمزة وأبدلت واوًا وأدغمت، وقيل: إنه من آل فهو [أَوَّل] قلب فجاء وزنه [أَفْعَلٌ] وَسَهَّلٌ وأبدل وأدغم.

ووحده ﴿كَافِرٍ﴾ وهو بيئة الجمع، لأن أفعل إذا أضيف إلى اسم متصرف من فعل جاز إفراد الاسم، والمراد به الجماعة، قال الشاعر:

وَإِذَا هُمْ طَعِمُوا فَأَلَامَ طَاعِمٍ
وَإِذَا هُمْ جَاعُوا فَسُرُّ جِيَاعٍ
وسيبويه يرى أنها نكرة مختصرة من

معرفة كأنه قال: (ولا تكونوا أول كافرين به). وقيل: معناه «ولا تكونوا أول فريق كافر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد كان كفر قبلهم كفار قريش فإنما معناه: من أهل الكتاب، إذ هم منظور إليهم في مثل هذا، لأنهم حجة مظنون بهم علم.

واختلف في الضمير في ﴿يَدْعَى﴾ على من يعود؟ فقيل: على محمد عليه السلام، وقيل: على التوراة إذا تضمنها قوله: ﴿لِنَا مَعَكُمْ﴾، وعلى هذا القول يجيء ﴿أَوَّلَ كَافِرٍ يَدْعَى﴾ مستقيماً على ظاهره في الأولية، وقيل: الضمير في ﴿يَدْعَى﴾ عائد على القرآن، إذ تضمنه قوله: ﴿يَسَاءَ أَنْزَلْتُ﴾.

واختلف المتأولون في الثمن الذي نُهوا أن يشتروه بالآيات، فقالت طائفة: إن الأحبار كانوا يعلمون دينهم بالأجرة فنُهوا عن ذلك، وفي كتبهم: «علم مجاناً كما علمت مجاناً، أي باطلاً بغير أجره». وقال قوم: كانت للأحبار مأكلة يأكلونها على العلم كالراتب، فنُهوا عن ذلك، وقال قوم: إن الأحبار أخذوا رشاً على تغيير قصة محمد عليه السلام في التوراة، ففي ذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمناً قليلاً﴾ وقال قوم: معنى الآية: ولا تشتروا بأوامري ونواهي وآياتي ثمناً قليلاً، يعني الدنيا ومدتها، والعيش الذي هو نزر لا خطر له، وقد تقدم نظير قوله: ﴿وَلَيْتَ كَانَتْهُنَّ إِسَاءًا﴾ وبين (اتقون) و (ازهبون) فرق أن الرهبة مقرون بها وعيد بالغ.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ولا تخلطوا، يقال: لبست الأمر - بفتح الباء - ألبسه إذا خلطته، ومزجت بيته بمشكيله وحقه بباطله، وأما قول الشاعر:

وَكَيْبِبَةَ لَبَسْتَهَا بَكْتَيْبِبَةَ

فالتظاهر أنه من هذا المعنى، ويحتمل أن يكون من اللباس.

واختلف أهل التأويل في المراد بقوله: ﴿الْحَقُّ بِالْبَطْلِ﴾، فقال أبو العالية: قالت اليهود: محمد نبي مبعوث، ولكن إلى غيرنا، فإقرارهم ببعثه حق، وجحدهم أنه بعث إليهم باطل. وقال الطبري: كان من اليهود منافقون، فما أظهروا من الإيمان حق، وما أبطنوا من الكفر باطل. وقال مجاهد: معناه لا تخلطوا اليهودية والنصرانية بالإسلام. وقال ابن زيد: المراد بالحق التوراة، والباطل ما بدلوا فيها من ذكر محمد عليه السلام. و ﴿تَلْبَسُوا﴾ جزم بالنهي، و ﴿تَكْتُمُوا﴾ عطف عليه في موضع جزم، ويجوز أن يكون في موضع نصب بإضمار أن، وإذا قدرت أن كانت مع تكتموا بتأويل المصدر، وكانت الواو عاطفة على مصدر مقدر من تلبسوا، كأن الكلام: «ولا يكن لبسكم الحق بالباطل، وكنتمكم الحق»، وقال الكوفيون: تكتموا نصب بواو الصرف. و ﴿الْحَقُّ﴾ بعني به أمر محمد ﷺ.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، جملة في موضع الحال، ولم يشهد لهم تعالى بعلم، وإنما نهاهم عن كتمان

ما علموا، ويحتمل أن تكون شهادة عليهم بعلم حق مخصوص، في أمر محمد عليه السلام، ولم يشهد لهم بالعلم على الإطلاق، ولا تكون الجملة على هذا في موضع الحال، وفي هذه الألفاظ دليل على تغليب الذنب على من واقعه على علم وأنه أعصى من الجاهل.

و ﴿أَتَيْبُوا الصَّلَاةَ﴾ معناه: أظهروا هيئتها وأديموها بشروطها، وذلك تشبيه بإقامة القاعد إلى حال ظهور، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا يُقَالُ أَتَيْبْتُمْ لَمْ يَبْرَحُوا
حَتَّى تُقَيِّمَ الْخَيْلُ سَوْقَ طِعَانٍ
وقد تقدم القول في (الصلوة).

و ﴿الزَّكَاةَ﴾ في هذه الآية هي المفروضة، بقرينة إجماع الأمة على وجوب الأمر بها، والزكاة مأخوذة من زكا الشيء إذا نما وزاد، وسمي الإخراج من المال زكاة وهو نقص منه من حيث ينمو بالبركة، أو بالأجر الذي يشيب الله به المرزقي. وقيل: الزكاة مأخوذة من التطهير، كما يقال: زكا فلان أي طهر من دنس الجرحرة والإغفال، فكأن الخارج من المال يطهره من تبعة الحق الذي جعل الله فيه للمساكين، ألا ترى النبي عليه الصلاة والسلام سمي ما يخرج في الزكاة أوساخ الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا مَعَ الرِّكْبَيْنِ﴾ قال قوم: جعل الركوع - لما كان من أركان الصلاة - عبارة عن الصلاة كلها، وقال قوم: إنما خص الركوع بالذكر، لأن بني إسرائيل لم يكن في صلاتهم ركوع، وقالت فرقة: إنما

قال ﴿حج﴾ لأن الأمر بالصلاة أولاً لم يقتض شهود الجماعة، فأمرهم بقوله ﴿حج﴾ بشهود الجماعة، والركوع في اللغة: الانحناء بالشخص. قال لبيد:

أَخْبِرُ أَخْبَارَ الْقُرُونِ الَّتِي مَضَتْ
أَدُبُ كَأَنِّي كُلَّمَا قُمْتُ زَاكِعُ
ويستعار أيضاً في الانحطاط في المنزلة، قال الأصبغ بن قريع:

وَلَا تُعَادِ الضَّعِيفَ عَمَّا أَنْ
تَرْكَعُ يَوْمًا وَالدَّهْرُ قَدْ رَفَعَهُ
وقوله تعالى: ﴿فَأَمْرُونَ النَّاسِ﴾ خرج مخرج الاستفهام، ومعناه التوبيخ، والبر يجمع وجوه الخير والطاعات، ويقع على كل واحد منها اسم بر، و ﴿تَسْتَوُونَ﴾ معناه: تتركون كما قال الله تعالى: ﴿سُؤًا اللَّهُ فَتَسْتَوُونَ﴾. واختلف المتأولون في المقصود بهذه الآية، فقال ابن عباس: كان الأخبار يأمرون أتباعهم، ومقلديهم باتباع التوراة، وكانوا هم يخالفونها في جحدهم منها صفة محمد ﷺ. وقالت فرقة: كان الأخبار إذا استرشدتهم أحد من العرب في اتباع محمد ﷺ دلوه على ذلك، وهم لا يفعلونه. وقال ابن جريح: كان الأخبار يحضون الناس على طاعة الله، وكانوا هم يواقعون المعاصي، وقالت فرقة: كانوا يحضون على الصدقة ويخلون.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ﴾ معناه: تدرسون وتقرءون، ويحتمل أن يكون المعنى تتبعون أي في الاقتداء به ﴿وَالْكِتَابِ﴾: التوراة، وهي تنهاهم عما هم عليه من هذه الصفة الذميمة.

وقوله: ﴿أَفَلَا تَمَتَّلُونَ﴾ معناه: أفلا تمتعون أنفسكم من موافقة هذه الحال المُرذية لكم؟ والعقل: الإدراك المانع من الخطيأ، مأخوذ منه عقال البعير الذي يمنعه من التصرف، ومنه: المعقل أي موضع الامتناع.

وقوله: ﴿وَأَسْتَيْبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

قال مقاتل معناه: على طلب الآخرة. وقال غيره: المعنى استعينوا بالصبر على الطاعات وعن الشهوات على نيل رضوان الله، وبالصلاة على نيل الرضوان وحط الذنوب، وعلى مصائب الدهر أيضاً، ومنه الحديث، كان رسول الله ﷺ إذا كَرِهَ أمر فزع إلى الصلاة، ومنه ما روي أن عبداً بن عباس نُعي إليه أخوه (قثم) وهو في سفر، فاسترجع، وتنحى عن الطريق، وصلى، ثم انصرف إلى راحلته وهو يقرأ: ﴿وَأَسْتَيْبُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾.

وقال مجاهد: الصبر في هذه الآية: الصوم، ومنه قيل لرمضان شهر الصبر، وخص الصوم والصلاة على هذا القول بالذكر لتناسبهما في أن الصيام يمنح الشهوات، ويزهد في الدنيا. والصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر وتخضع، ويُقرأ فيها القرآن الذي يُذكر بالآخرة. وقال قوم: الصبر على بابه، والصلاة الدعاء، وتجيء هذه الآية على هذا القول مشبهة لقوله تعالى: ﴿إِذَا لَيْسَ

فِيكَ فَاثْبُتُوا وَادْكُرُوا اللَّهَ﴾ لأن الثبات هو الصبر، وذكر الله هو الدعاء.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَأَيُّهَا لَكِبْرَةٌ﴾ على أي شيء يعود الضمير، فقيل: على الصلاة وقيل: على الاستعانة التي يقتضيها قوله: ﴿أَسْتَيْبُوا﴾، وقيل: على العبادة التي يتضمنها بالمعنى ذكر الصبر والصلاة. وقالت فرقة: على إجابة محمد ﷺ، وفي هذا ضعف لأنه لا دليل له من الآية عليه، وقيل: يعود الضمير على الكعبة، لأن الأمر بالصلاة إنما هو إليها، وهذا أضعف من الذي قبله. وكبيرة معناه: ثقيلة شاقة.

والخاشعون: المتواضعون المخشون، والخشوع: هيئة في النفس، يظهر منها على الجوارح سكون وتواضع.

و ﴿يُظُنُّونَ﴾ في هذه الآية، قال الجمهور: معناه يوقنون، وحكى المهدي، وغيره: أن الظن هنا يصح أن يكون على بابه، ويضم في الكلام بذنوبهم، فكأنهم يتوقعون لقاء مذنبين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تعسف، والظن في كلام العرب قاعدته الشك مع ميل إلى أحد معتقديه، وقد يوقع الظن موقع اليقين في الأمور المتحقة، لكنه لا يوقع فيما قد خرج إلى الحس، لا تقول العرب في رجل مرئي حاضر: أظن هذا إنساناً، وإنما تجد الاستعمال فيما لم يخرج إلى الحس بعد كهذه

الآية، وكقوله تعالى: ﴿فَلْتَوَأْتِيهِمْ مَّرَاتِمُهَا﴾، وكقول دريد بن الصمة:

فَقُلْتُ لَهُمْ: ظَلُّوا بِاللَّيْلِ مُدْجِجَ سَرَائِهِمْ بِالْفَارِسِيِّ الْمُسَرِّدِ
وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ مَلْفُؤُوا رَبِّهِمْ﴾ أن وجملتها تسد مسد مفعولي الظن، والملافة هي للعقاب حذف الشواب. ففي الكلام حذف المضاف. ويصح أن يكون الملافة هنا بالرؤية التي عليها أهل السنة، وورد بها متواتر الحديث. وحكى المهدي أن الملافة هنا مفاعلة من واحد مثل: عافاك الله، وهذا ضعيف، لأن لقي يتضمن معنى لاقى وليست كذلك الأفعال كلها، بل فَعَلَ خلاف فَاعَلَ في المعنى، وملاقوا أصله ملاقون لأنه بمعنى الاستقبال، فحذفت النون تخفيفاً، فلما حذفت تمكنت الإضافة بمناسبتها للأسماء، وهي إضافة غير محضة لأنها لا تُعْرَفُ.

وقال الكوفيون: ما في اسم الفاعل الذي هو بمعنى المجيء من معنى الفعل يقتضي إثبات النون وإعماله، وكونه وما بعده اسمين يقتضي حذف النون والإضافة.

و ﴿رَجَعُونَ﴾ قيل: معناه بالموت، وقيل: بالحشر والخروج إلى الحساب والعرض ويُقَوَّى هذا القول الآية المتقدمة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُبَيِّتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائد على الرب تعالى، وقيل: على اللقاء الذي يتضمنه ﴿مَلْفُؤُوا﴾.

والمشفوع له شفع، وكذلك الشفيع فيما لم يقسم.

وسبب هذه الآية: أن بني إسرائيل قالوا: نحن أبناء الله وأبناء أنبيائه، وسيشفع لنا آباؤنا، فأعلمهم الله تعالى عن يوم القيامة أنه لا تقبل فيه الشفاعة، ولا تجزي نفس عن نفس، وهذا إنما هو في الكافرين - للإجماع - وتواتر الحديث بالشفاعة في المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْتَدُ مِنْهَا عَذْلٌ﴾ قال أبو العالية: العدل الفدية. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَعَذْلُ الشَّيْءِ هُوَ الَّذِي يَسَاوِيهِ قِيَمَةٌ وَقَدْرًا، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي جَنْسِهِ وَالْعَدْلُ بِكسر العين هو الذي يساوي في جنسه الشيء من جنسه وفي جرمه. وحكى الطبري أن من العرب من يكسر العين من معنى الفدية، فأما واحد الأعدال فبالكسر لا غير.

والضمير في قوله: ﴿وَلَا هُمْ﴾، عائد على الكافرين الذين اقتضتهم الآية، ويحتمل أن يعود على النفسين المتقدم ذكرهما، لأن اثنين جمع، أو النفس للجنس، وهو جمع.

وحصرت هذه الآية المعاني التي اعتادها بنو آدم في الدنيا، فإن الواقع في شدة مع آدمي لا يتخلص إلا بأن يشفع له، أو ينصر، أو يفندي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِنَ آءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ أي خَلَصْنَاكُمْ، (وَأَل) أصله أهل، قلبت الهاء ألفاً كما عمل في ماء، ولذلك ردها التصغير إلى الأصل فقيل: أَهْلِيلٌ وَمُؤَيَّةٌ، وقد قيل في (آل): إنه اسم غير أهل، أصله أول، وتصغيره أوئيل، وإنما نسب

والتقدير: «عذاب يوم» أو: «هول يوم» ثم حذف ذلك، وأقام اليوم مقامه، ويصح أن يكون نصبه على الظرف لا للتعقير لأن يوم القيامة ليس بيوم عمل، ولكن معناه: «جئنا متقين يوماً».

و ﴿لَا تَجْزِي﴾ معناه لا تُغني. وقال السدي: معناه لا تقضي. ويُقْوِيهِ قوله ﴿شَيْئًا﴾، وقيل: المعنى لا تكافيء، ويقال جزى وأجزأ بمعنى واحد.

وقد فرق بينهما قوم فقالوا: جزء بمعنى قضى

وكافأ. وأجزأ بمعنى أغنى وكفى. وقرأ أبو السمال ﴿تُجْزِيءُ﴾ بضم التاء والهمز، وفي الكلام حذف قال البصريون: التقدير: «لا تجزي فيه»، ثم حذف «فيه»، وقال غيرهم: حذف ضمير متصل بتجزئته: «لا تجزيه»، على أنه يقبح حذف هذا الضمير في الخبر، وإنما يحسن في الصلة. وقال بعض البصريين: التقدير: «لا تجزي فيه»، فحذف حرف الجر واتصل الضمير، ثم حذف الضمير بتدرج.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَقْمَةٌ﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو بالتاء، وقرأ الباقون بالياء من تحت على المعنى، إذ تأنيث الشفاعة ليس بحقيقي، والشفاعة مأخوذة من الشفع وهما الاثنان، لأن الشافع

وَإِذْ جَعَلْنَاكُمْ مِنَ آءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُؤُونَكُمْ مِمَّا آءَلْدَابُ يُدْعُونَ أَنبَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَءَلِكُمْ بَءَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٤٧﴾ وَإِذْ فَرَقْنَا بَءَالَكُمْ الْبَحْرَ فَأَجْمَعْنَاكُمْ وَآخَرَقْنَا آءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَشْرَقْنَا نَظْرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَءِيلَةً ثُمَّ آءَخَذْنَا الْعَجَلَ مِنَ بَءَدِهِ وَأَنْتُمْ ظَءَلِمُونَ ﴿٤٩﴾ ثُمَّ عَفَوْنَا عَنْكُمْ مِّن بَءَدِ ذَءَلِكَ لَمَلَكْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ آءَاتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَءَبَ وَالْفُرْقَانَ لَمَلَكْتُمْ نَهَدُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ آءَلْعَمَلْتُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ أَخَذْتُمْ الْعَءِجَلَ فَمَا أَتَوْا بِالْبَءَارِكِمْ فَآءَقُولُوا أَنفُسَكُمْ ذَءَلِكُمْ حَبْرٌ لَّكُمْ عِنْدَ بَءَارِكِمْ فَءَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّءَابُ الرَّءِيمُ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ آءَللهُ جَهْرَةً فَأَخَذْنَا مِمَّا بَءَصَفْتُمْ أَنشَرْنَا نَظْرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ بَءَثْنَاكَ مِنَ بَءَدِ مَوْتِكَ لَمَلَكْتُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٤﴾ وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمْ الْقَمَءَامَ وَآءَرَلْنَا عَلَيْكُمْ آءَلْمَنَ وَالسَّلَءْوَىٰ كُلَّ أَمِنٍ طَءَبْتِ مَا رَزَقْنَكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَءَاؤَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٥﴾

٥٧ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل:

قد تكرر هذا النداء، والتذكير بالنعمة، وفائدة ذلك أن الخطاب الأول يصح أن يكون للمؤمنين، ويصح أن يكون للكافرين منهم. وهذا المتكرر إنما هو للكافرين بدلالة ما بعده، وأيضاً فإن فيه تقوية التوقيف، وتأکید الحض على ذكر أيادي الله، وحسن خطابهم بقوله: ﴿فَضَلَّكُمْ عَلَى الْآءَلْمَءِينِ﴾، لأن تفضيل آبائهم وأسلافهم تفضيل لهم، وفي الكلام اتساع، قال قتادة، وابن زيد، وابن جريج، وغيرهم: المعنى على عالم زمانهم الذي كانت فيه النبوة المتكررة والمُلك، لأن الله تعالى يقول لأمة محمد ﷺ: ﴿كُنْتُمْ خَءِيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿وَآءَتَقُوا يَوْمًا﴾ نصب (يومًا) باتقوا على السعة

الفعل إلى آل فرعون وهم إنما كانوا يفعلونه بأمره وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم، وقال الطبري رحمه الله: ويقضي هذا أَنَّ مَنْ أَمَرَهُ ظَالِمٌ بِقَتْلِ أَحَدٍ فَقَتَلَهُ الْمَأْمُورُ فَهُوَ الْمَأْخُوذُ بِهِ.

وآل الرجل: قرابته وشيعته وأتباعه، ومنه قول أراكه الثقيفي:

فَلَا تَبْكُ مَيْتًا بَعْدَ مَيْتٍ أَجْتُهُ
عَلِيٌّ وَعَبَّاسٌ وَآلُ أَبِي بَكْرٍ
يعني المؤمنين الذين قبروا
رسول الله ﷺ.

والأشهر في (آل) أن يضاف إلى الأسماء لا إلى البقاع والبلاد، وقد يقال: آل مكة، وآل المدينة، (وفرعون) اسم لكل من ملَّك من العمالقة مصر، وفرعون موسى قيل: اسمه مصعب بن الريان، وقال ابن إسحق: اسمه الوليد بن مصعب، وروي أنه كان من أهل اصطخر، ورد مصر فاتفق له فيها الملك، وكان أصل كون بني إسرائيل بمصر نزول إسرائيل بها زمن ابنه يوسف عليهما السلام.

و ﴿يَسْؤُمُونَكَ﴾ معناه: يأخذونكم به، ويلزمونكم إياه، ومنه المساومة بالسَّلعة، وسامه خِطَّةٌ خَسْفٌ، ويسومونكم إعرابه رفع على الاستثناف، والجملة في موضع نصب على الحال، أي سائمين لكم سوء العذاب، ويجوز ألا تقدر فيه الحال، ويكون وصف حال ماضية، وسوء العذاب أشده، وأصعبه قال السدي: كان يصرفهم في الأعمال القذرة، ويذبح الأبناء، ويستحي النساء. وقال غيره: صرفهم على الأعمال: الحرث، والزراعة،

والبناء، وغير ذلك، وكان قومه جنداً ملوكاً.

وقرأ الجمهور: ﴿يَذْبُحُونَ﴾ بشد الباء المكسورة على المبالغة، وقرأ ابن محيصن ﴿يَذْبُحُونَ﴾ بالتخفيف، والأول أرجح، إذ الذبح متكرر.

وكان فرعون على ما روي قد رأى في منامه ناراً خرجت من بيت المقدس فأحرقت بيوت مصر، فأولت له رؤياه: أَنَّ مولوداً من بني إسرائيل ينشأ فيخرب ملك فرعون على يديه، وقال ابن إسحق، وابن عباس، وغيرهما: إن الكهنة والمنجمين قالوا لفرعون: قد أظلك زمن مولود من بني إسرائيل يخرب ملكك، وقال ابن عباس أيضاً: إن فرعون وقومه تذاكروا وعد الله لإبراهيم أن يجعل في ذريته أنبياء وملوكاً، فأمر عند ذلك بذبح الذكور من المولودين في بني إسرائيل، ووكّل بكل عشر نساء رجلاً يحفظ من يحمل منهن، وقيل: وكل بذلك القوابل.

وقالت طائفة: معنى يذبحون أبناءكم: يذبحون الرجال، ويسمون أبناء لَمَّا كانوا كذلك، واستدل هذا القائل بقوله تعالى: ﴿يَسَاءَ كُفْرًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح من التأويل أن الأبناء هم: الأطفال الذكور، والنساء هم: الأطفال الإناث. وعبر عنهم باسم النساء بالمآل وليذكرهن بالاسم الذي في وقته، يُسْتَحْيَيْنَ وَيُمْتَهَنَ، ونفس الاستحياء ليس بعذاب، ولكن العذاب بسببه وقع الاستحياء، و﴿يَذْبُحُونَ﴾ بدل من ﴿يسومون﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفِي ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خير، فهو كمفرد حاضر، و (بلاء) معناه: امتحان واختبار، ويكون البلاء في الخير والشر، وقال قوم: الإشارة بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى التنجية، فيكون البلاء على هذا في الخير، أي وفي تجيبتكم نعمة من الله عليكم، وقال جمهور الناس: الإشارة إلى الذبح ونحوه، والبلاء هنا في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان.

وحكى الطبري وغيره في كيفية نجاتهم: أن موسى عليه السلام أوحى إليه أن يسري من مصر ببني إسرائيل، فأمرهم موسى أن يستعبروا الحلبي والمتاع من القبط، وأحل الله ذلك لبني إسرائيل، فسرى بهم موسى من أول الليل، فأعلم فرعون فقال: لا يتبعهم أحد حتى تصيح الديكة، فلم يصح تلك الليلة بمصر ديك حتى أصبح، وأمات الله - تلك الليلة - كثيراً من أبناء القبط، فاشتغلوا في الدفن، وخرجوا في الاتباع مُشْرِقِينَ، وذهب موسى إلى ناحية البحر حتى بلغه، وكانت عدة بني إسرائيل نيفاً على ستمائة ألف، وكانت عدة فرعون ألف ألف ومائتي ألف. وحكى غير هذا مما اختصرته لقلّة ثبوته، فلما لحق فرعون موسى ظن بنو إسرائيل أنهم غير ناجين، فقال يوشع ابن نون لموسى: أين أمّرت؟ فقال: هكذا، وأشار إلى البحر، فركض يوشع فرسه فيه حتى بلغ الغمر ثم رجع، فقال لموسى: أين أمّرت فوالله ما كذبت ولا

سأ، فلما وُجد (موسى) في التابوت عند ماءٍ وشجرٍ سُمي موسى .

قال ابن إسحق: هو موسى، بن عمران، بن يصر، بن قاهت، ابن لاوي، بن يعقوب، بن إسحق، بن إبراهيم الخليل .

ونصب ﴿أَرْبَعِينَ﴾ على المفعول الثاني، ولا يجوز نصبها على الظرف في هذا الموضع، وهي فيما روي ذو القعدة وعشر ذي الحجة، وخصَّ الليالي بالذكر دون الأيام إذا الليلة أقدم من اليوم، وقبله في الرتبة ولذلك وقع بها التاريخ .

قال النقاش: وفي ذلك إشارة إلى صلة الصوم، لأنه لو ذكر الأيام لأمكن أن يُعتقد أنه كان يفطر بالليل، فلما نص على الليالي اقتضت قوة الكلام أنه عليه السلام واصل أربعين ليلةً بأيامها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حدثني أبي رضي الله عنه، قال: سمعت الشيخ الزاهد الإمام الواعظ أبا الفضل الجوهري رحمه الله يعظ الناس بهذا المعنى في الخلوة بالله، والذنوب منه في الصلاة ونحوه، وأن ذلك يشغل عن كل طعام وشراب، ويقول: أين حال موسى في القرب من الله، ووصال ثمانين من الدهر من قوله - حين سار إلى الخضر - لفتاه في بعض يوم: ﴿إِنَّا عَدَاءُكَ؟﴾

وكُلُّ المفسرين على أن الأربعين كُلُّها ميعاد . وقال بعض البصريين: وعده رأس الأربعين ليلة، وهذا ضعيف . وقوله: ﴿ثُمَّ أَغْتَدَّمُ﴾، قرأ أكثر السبعة بالإدغام، وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص عنه بإظهار

إسرائيل ويقول لآل فرعون: مهلاً حتى يلحق آخركم أولكم، فلما وصل فرعون إلى البحر أراد الدخول فنفر فرسه، فتعرض له جبريل بالرُمكة فاتبعها الفرس، ودخل آل فرعون وميكائيل في ساقته على الضفة وحده انطبق البحر عليهم ففرقوا .

و ﴿نُظُرِينَ﴾ قيل: معناه بأبصاركم لِقُرْبِ بعضهم من بعض، وقيل: معناه ببصائرهم للاعتبار، لأنهم كانوا في شغل عن الوقوف، والنظر بالأبصار، وقيل: إن آل فرعون طَفَّوا على الماء فنظروا إليهم، وقيل: المعنى وأنتم بخاله من ينظر لو نظر، كما تقول: هذا الأمر منك بمزأى ومَسْمَع، أي بحال تراه وتسمعه إن شئت .

قال الطبري رحمه الله: وفي إخبار القرآن على لسان محمد ﷺ بهذه المغيبات التي لم تكن من علم العرب، ولا وقعت إلا في خفي على بني إسرائيل دليل واضح عند بني إسرائيل، وقائم عليهم بثبوت محمد ﷺ . وقرأ الجمهور: ﴿وَأَعَدْنَا﴾، وقرأ أبو عمرو ﴿وَعَدْنَا﴾، ورجحه أبو عبيد، وقال: إن المواعدة لا تكون إلا من البشر .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بصحيح لأن قول موسى لوعده الله والتزامه وارتقابه يشبه المواعدة .

و [مُوسَى] اسم أعجمي لا ينصرف للعجمة والتعريف، والقَيْطُ على ما يُزوى يقولون للماء: مُو، وللشجر:

كُنُذِبَتْ؟ فأشار إلى البحر، وأوحى الله تعالى إليه أن اضرب بعصاك البحر، وأوحى إلى البحر أن انفرق لموسى إذا ضربك، فبات البحر تلك الليلة يضطرب، فحين أصبح ضرب موسى البحر وكناه أبا خالد، فانفرك، وكان ذلك في يوم عاشوراء .

﴿فَرَقْنَا﴾ معناه: جعلناه فرقاً، وقرأ الزهري: ﴿فَرَقْنَا﴾ بتشديد الراء، ومعنى ﴿بِكُمْ﴾ بسببكم، وقيل: لما كانوا بين الفِرَقِ وقت جوازهم فكأنه بهم فُرِق، وقيل: معناه لكم، والباء عوض اللام، وهذا ضعيف .

و ﴿الْبَحْرُ﴾ هو بحر القلزم، ولم يفرق البحر عرضاً جزعاً من ضفة إلى ضفة، وإنما فرق من موضع إلى موضع آخر في ضفة واحدة، وكان ذلك الفرق بقرب موضع النجاة، ولا يلحق في البر إلا في أيام كثيرة بسبب جبال وأوعار حائلة . وذكر العامري أن موضع خروجهم من البحر كان قريباً من برية فلسطين وهي كانت طريقهم .

وقيل: انفلق البحر عرضاً، وانفرك البحر على اثني عشر طريقاً، طريق لكل سبط، فلما دخلوها قالت كل طائفة: غرق أصحابنا، وجزعوا، فقال موسى: اللهم أعني على أخلاقهم السيئة، فأوحى الله إليه أن أدر عصاك على البحر، فأدارها فصار في الماء فتوح كالطاق يرى بعضهم بعضاً وجازوا، وجبريل ﷺ في ساقته على ما ذبناه بحث بني

في موضعه من القرآن إن شاء الله، ثم أوحى الله إليه أنه لن يتوب على بني إسرائيل حتى يقتلوا أنفسهم، ففعلت بنو إسرائيل ذلك.

فَرُوي أنهم لبسوا السلاح، من عبَدَ منهم ومن لم يعبُدْ، وألقى الله عليهم الظلام فَقتَلَ بعضهم بعضاً، يقتل الأب ابنه والأخ أخاه، فلما استحر فيهم القتل وبلغ سبعين ألفاً عفا الله عنهم، وجعل من مات منهم شهيداً، وتاب على البقية، فذلك قوله ﴿لَمَّ عَقَوْنَا عَنكُم﴾.

وقال بعض المفسرين: وقف الذين عبدوا العجل صفًا، ودخل الذين لم يعبدوه عليهم بالسلاح فقتلوهم. وقالت طائفة: جلس الذين عبدوا بالأفنية، وخرج يوشع بن نون ينادي: ملعون من حل حبوته وجعل الذين لم يعبدوا يقتلونهم، وموسى في خلال ذلك يدعو لقومه، ويرغب في العفو عنهم، وإنما عوقب الذين لم يعبدوا بقتل أنفسهم على أحد الأقوال، أو بقتل قرابتهم على الأقوال الأخر لأنهم لم يغيروا المنكر حين عبَدَ العجل، وإنما اعتزلوا، وكان الواجب عليهم أن يقاتلوا من عبَدَه.

﴿وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾، مبتدأ وخبر في موضع الحال، وقد تقدم تفسير الظلم.

والعفو تغطية الأثر، وإذهاب الحال الأولى من الذنب أو غيره، ولا يستعمل العفو بمعنى الصفح إلا في الذنب، وعفا عنهم عز وجل، أي عسَّن بقي منهم لم يقتل. و﴿لَمَّكُم﴾، ترَجَّ لهم في حقهم،

يُسَمَّى موسى بن ظفر، وقيل: لم يكن من بني إسرائيل، كان غريباً فيهم، وكان قد عرف جبريل عليه السلام وقت عبورهم البحر، فقالت طائفة: أنكر هيئته فعرف أنه ملك. وقالت طائفة: كانت أم السامري ولدته عام الذبح فجعلته في غار وأطبقت عليه، فكان جبريل ﷺ يغذوه بأصابع نفسه، فيجد في إصبع لبناً، وفي إصبع عسلاً، وفي إصبع سمناً، فلما رآه وقت جواز البحر عرفه فأخذ من تحت حافر فرسه قبضة تراب وألقى في روعه أنه لن يُلقبها على شيء ويقول له: كن إلا كان، فلما خرج موسى لميعاده، قال هارون لبني إسرائيل: إن ذلك الخلي والمتاع الذي استعرتم من القبط لا يحل لكم، فجيئوا به حتى تأكله النار التي كانت العادة أن تنزل على القرايين، وقيل: بل أوقد لهم ناراً، وأمرهم بطرح جميع ذلك فيها، فجعلوا يطرحون، وقيل: بل أمرهم أن يضعوه في حفرة دون نار حتى يجيء موسى، وجاء السامري فطرح القبضة وقال: كن عاجلاً.

وقيل: إن السامري كان في أصله من قوم يعبدون البقر، وكان يعجبه ذلك، وقيل: بل كانت بنو إسرائيل قد مرّت مع موسى على قوم يعبدون البقر، فقالوا يا موسى: اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة، فوعاها السامري، وعلم أن من تلك الجهة يُفتنون، ففتنت بنو إسرائيل بالعجل، وظلت منهم طائفة يعبدونه، فاعتزلهم هارون بمن تبعه، فجاء موسى من ميعاده فغضب حسباً يأتي قصصه

الذال. وثُمَّ للمهلة، ولتدل على أن الاتخاذ بعد المواعدة. واتَّخَذَ وزُنُهُ افتعل من الأخذ، قال أبو علي: هو من [تَخَذَ] لا من [أَخَذَ]، وأنشد المزمق:

وَقَدْ تَخَذْتَ رَجُلِي لَدَى جَنْبِ عَزْرَهَا
نَسِيفاً كَأَفْحُوصِ الْقَطَاةِ الْمُطْرُقِ
وَنُصِيبُ ﴿الْبَيْخُ﴾ بِاتَّخَذْتُمْ،
والمفعول الثاني محذوف: اتخذتم العجل إلهاً، واتخذ قد يتعدى إلى مفعول واحد، كقوله تعالى: ﴿يَلْتَمِزْ أَتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَيْبًا﴾، وقد يتعدى إلى مفعولين أحدهما هو الآخر في المعنى، كقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَأْتِنَهُمْ جُنُودٌ﴾، وهذه الآية وغيرها، والضمير في ﴿بَعْدَهُ﴾ يعود على موسى، وقيل: على انطلاقه للتكليم، إذ المواعدة تقتضيه، وقيل: على الوعد.

وقصص هذه الآية: أن موسى ﷺ لما خرج ببني إسرائيل من مصر قال لهم: إن الله تعالى سَيُنْجِيكُمْ من آل فرعون، وَيُنِيلِكُمْ حلِيهم ومتاعهم الذي كان أمرهم باستعارته، وروي أنهم استعاروه برأيهم، فنفلهم الله ذلك بعد خروجهم، وقال لهم موسى عن الله تعالى: إنه ينزل عليّ كتاباً فيه التحليل والتحريم والهدى لكم، فلما جاوزوا البحر طالبوا موسى بما قال لهم من أمر الكتاب، فخرج لميعاده ربه وحده، وقد أعلمهم بالأربعين ليلة، فعدوا عشرين يوماً بعشرين ليلة، ثم قالوا: هذه أربعون من الدهر، وقد أخلفنا الموعد، وبدأ تعنتهم وخلافهم، وكان السامري رجلاً من بني إسرائيل

وتوقع منهم، لا في حق الله عز وجل، لأنه كان يعلم ما يكون منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى﴾ الآية، ﴿إِذْ﴾ عطف على ما ذكر من النعم، و﴿الْكِتَابُ﴾ هو التوراة بإجماع من المتأولين، واختلف في ﴿الْفُرْقَانَ﴾ هنا - فقال الزجاج وغيره: هو التوراة كرر المعنى لاختلاف اللفظ، ولأنه زاد معنى التفرقة بين الحق والباطل، ولفظة الكتاب لا تعطي ذلك. وقال آخرون: الكتاب التوراة، والفرقان سائر الآيات التي أوتي موسى ﷺ، لأنها فرقت بين الحق والباطل. وقال آخرون: الفرقان النصر الذي فرق بين حالهم وحال آل فرعون بالنجاة والغرق، وقال ابن زيد: الفرقان انفراق البحر له، حتى صار فرقاً، وقال الفراء وقطرب: معنى هذه الآية آتينا موسى الكتاب، ومحمداً الفرقان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

و﴿لَمَلِكُمْ تَهَدُونَ﴾ تَرَجَّحَ وَتَوَقَّعَ مِثْلَ الْأُولِ.

٥٥ - ٥٤ تفسير قوله عز وجل:

هَذَا الْقَوْلُ مِنْ مُوسَى ﷺ كَانَ بِأَمْرِ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى، وَحَذَفَ الْيَاءَ فِي (يَا قَوْمِي) لِأَنَّ السَّنَاءَ مَوْضِعَ حَذْفٍ وَتَخْفِيفٍ، وَالضَّمِيرُ فِي «اتَّخَذَكُمْ» فِي مَوْضِعِ خَفْضٍ عَلَى اللَّفْظِ، وَفِي مَوْضِعٍ رَفَعٍ بِالْمَعْنَى، وَ«الْيَتْلُ» لَفْظَةٌ عَرَبِيَّةٌ اسْمُ لَوْلَدِ الْبَقْرَةِ، وَقَالَ قَوْمٌ: سُمِّيَ عَجْلاً لِأَنَّهُ اسْتَعْجَلَ قَبْلَ مَجِيءِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَيْسَ هَذَا الْقَوْلُ بِشَيْءٍ، وَاخْتَلَفَ هَلْ بَقِيَ

العجل من ذهب؟ فقال ذلك الجمهور، وقال الحسن ابن أبي الحسن: صار لخمأً ودمأً، والأول أصح. وتوبوا: معناه: ارجعوا عن المعصية إلى الطاعة. وقرأ الجمهور ﴿بَارِئِكُمْ﴾ بإظهار الهمزة وكسرهما، وقرأ أبو عمرو ﴿بَارِفُكُمْ﴾ بإسكان الهمزة. وروى عن سيبويه اختلاس الحركة وهو أحسن، وهذا التسكين يحسن في توالي الحركات، وقال المبرد: لا يجوز التسكين مع توالي الحركات في حرف الإعراب، وقرأه أبي عمرو ﴿بَارِنُكُمْ﴾ لحن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد روي عن العرب التسكين في حرف الإعراب، قال الشاعر:

إِذَا اغْوَجَجْنِ قُلْتَ صَاحِبِ قَوْمِ

وقال امرؤ القيس:

فَالْيَوْمَ أَشْرَبَ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ
إِنَّمَا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاعِثِ

وقال آخر:

قالت سليمة: اشتر لنا سويقاً

وقال الآخر:

وَقَدْ بَدَا هُنْكَ مِنْ الْمِسْثُورِ
وقال جرير:

وَنَهْرٌ يَبْرُزُ وَمَا تَعْرِفُكُمْ الْعَرَبُ
وقال وضاح اليمن:

إِنَّمَا شِئْرِي شَهْدٌ
قَدْ خَلِطَ بِجُلْجُلَانِ
ومن أنكر التسكين في حرف الإعراب فحجته أن ذلك لا يجوز

من حيث كان علماً للإعراب. قال أبو علي: وأما حركة البناء فلم يختلف النحاة في جواز تسكينها مع توالي الحركات.

وقرأ الزهري: باريكهم بكسر الياء من غير همز ورويت عن نافع، وقرأ قتادة: ﴿فَأَقْبِلُوا أُنْفُسَكُمْ﴾، وقال: هي من الاستقالة. قال أبو الفتح: اقتال هذه افتعل، يحتمل أن يكون عينها واواً كافتاد، ويحتمل أن يكون ياءً كافتاس.

والتصريف يضعف أن يكون من الاستقالة، ولكن قتادة رحمه الله ينبغي أن يحسن الظن به في أنه لم يورد ذلك إلا بحجة عنده.

وقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ عَلَيْكُمْ﴾، قبله محذوف تقديره: ففعلتم، وقوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، معناه: على الباقيين، وجعل الله تعالى القتل لمن قُتِلَ شهادة، وتاب على الباقيين، وعفا عنهم. قال بعض الناس ﴿فَأَقْبِلُوا﴾ في هذه الآية معناه بالتوبة، وإماتة عوارض النفوس من شهوة وتعتت وغضب، واحتج بقوله عليه السلام في الثوم والبصل: ﴿فَلْتَيْتِمَاهُمَا طَبْخًا﴾. ويقول حسان:

قَتَلْتُ قَتَلْتُ قَتَلْتُ قَهَاتِهَا لَمْ تُقْتَلِ
وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِمُوسَى﴾، يريد السبعين الذين اختارهم موسى، واختلف في وقت اختيارهم، فحكى أكثر المفسرين أن ذلك بعد عبادة العجل، اختارهم ليستغفروا لبني إسرائيل. وحكى النقاش وغيره أنه اختارهم حين خرج من البحر، وطلب بالمعاد، والأول أصح.

وقصة السبعين أن موسى ﷺ لما رجع من تكليم الله، ووجد العجل قد عبد، قالت له طائفة ممن لم يعبد العجل: نحن لم نكفر، ونحن أصحابك، ولكن أسمعنا كلام ربك، فأوحى الله إليه أن اختر منه سبعين شيخاً، فلم يجد إلا ستين، فأوحى الله إليه أن اختر من الشباب عشرة، ففعل، فأصبحوا شيوخاً، وكان قد اختار ستة من كل سبط، فزادوا اثنين على السبعين، فتشاحوا فيمن يتأخر، فأوحى الله إليه أن من تأخر له أجر مثل من مضى، فتأخر يوشع بن نون، وطالوت بن يوفنا، وذهب موسى عليه السلام بالسبعين بعد أن أمرهم أن يتجنبوا النساء ثلاثاً ويغتسلوا في اليوم الثالث، واستخلف هارون على قومه، ومضى حتى أتى الجبل فألقى عليهم الغمام. قال النقاش وغيره: غشيتهم سحابة، وحيل بينهم وبين بالنور فوقوا سجوداً، قال السدي وغيره: وسمعوا كلام الله يأمر وينهى فلم يطبقوا سماعه، واختلطت أذهانهم، ورجبوا أن يكون موسى يسمع ويعبر لهم ففعل، فلما فرغ وخرجوا بدلت منهم طائفة ما سمعت من كلام الله، فذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ كَانَ قَرِيْبٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يَحِجُّوْنَ عَنْهُ﴾.

واضطرب إيمانهم، وامتنحهم الله بذلك، فقالوا: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ﴾ ولم يطلبوا من الرؤية محالاً، أما إنه عند أهل السنة ممتنع في الدنيا من طريق السمع - فأخذتهم حينئذ الصاعقة فاحترقوا وماتوا موت هُمُودٍ يَغْتَبِرُ بِهِ الْغَيْرُ. وقال قتادة:

ماتوا وذهبت أرواحهم، ثم رُدُّوا لاستيفاء آجالهم، فحين حصلوا في ذلك الهُمود جعل موسى يناشد ربه فيهم، ويقول: أي رب. كيف أرجع إلى بني إسرائيل دونهم فيهلكون ولا يؤمنون بي أبداً، وقد خرجوا معي وهم الأخيار؟ قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني: وهم بحال الخير وقت الخروج وقال قوم: بل ظن موسى عليه السلام أن السبعين إنما عوقبوا بسبب عبادة العجل، فذلك قوله:

﴿أَتَلْبَثْكَ﴾، يعني السبعين ﴿وَمَا فَكَّرَ السُّفَهَاءُ بَيْتًا﴾؟ يعني عبدة العجل وقال ابن فورك: يحتمل أن تكون معاقبة السبعين لإخراجهم طلب الرؤية عن طريقه بقولهم لموسى: أرنا، وليس ذلك من مقدور موسى ﷺ.

و ﴿جَهَنَّمَ﴾ مصدر في موضع الحال، والأظهر أنها من الضمير في ﴿رَبِّي﴾، وقيل: من الضمير في ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، وقيل: من الضمير في ﴿تَلْبَثْكُمْ﴾. والجهرة: العلانية ومنه: الجهر ضد السر، وجهر الرجل الأمر كشفه.

وقرأ سهل بن شعيب، وحميد بن قيس: ﴿جَهَنَّمَ﴾ بفتح الهاء، وهي لغة مسموعة عند البصريين فيما فيه حرف الحلق ساكناً قد انفتح ما قبله، والكوفيون يجيزون فيه الفتح، وإن لم يسمعه، ويحتمل أن يكون [جهرة]

وَأَذَلْنَا أَنذَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ فَكَلَّمُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَعَدًا وَأَذَلْنَا الْأَبَابَ سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةً نَّمُوزَ لَكُمُ حَطَّابَتِكُمْ وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾ بَدَلُ الْأَبَابِ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رَجْرَجًا مِنَ السَّمَاءِ يَمَسُّ مَا كَانُوا يَمْسُقُونَ ﴿٥٩﴾ وَإِذْ أَسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ نَضِيبًا فَأَقْدَعَهُ كُلُّ أَنَاثٍ مِّنْهُ يَهْمُ كَلُوا وَأَشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْمُرُوا فِي الْأَرْضِ مُغْتَبِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قُلْتُمْ لِمُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامِ وَرَجْدِ فَادَعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُثْمِرُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُؤُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلِهَا قَالَ آتَيْنَا لُؤْلُؤًا الَّذِي هُوَ أَدْقُ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا بِمِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالسَّكَكَةُ وَبَاءَ وَبَضْبِرْتِ اللَّهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾

جمع جاهر، أي حتى نرى الله كاشفين هذا الأمر، وقرأ عمر، وعلي رضي الله عنهما: ﴿فَأَخَذْنَاكُمْ الصُّعْقَةَ﴾، ومضى في صدر السورة معنى الصاعقة، والصعقة ما يحدث بالإنسان عن الصاعقة. و ﴿نَظْرُونَ﴾ معناه: إلى حالكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حتى أحالهم العذاب وأزال نظرهم.

﴿٥٨﴾ - ﴿٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

أجاب الله تعالى فيهم رغبة موسى عليه السلام، وأحياهم من ذلك الهمود أو الموت ليستوفوا آجالهم، وتاب عليهم، والبعث هنا الإثارة، كما قال: ﴿مَنْ بَعَثْنَا مِنْ مَّرْقَدَاتٍ﴾ وقال قوم: إنهم لما أحيوا وأنعم عليهم بالتوبة سألوا موسى عليه السلام أن يجعلهم الله أنبياء، فذلك قوله: ﴿هَمَّ بَعَثْنَاكُمْ نَبِيًّا بَدَلًا مِّنْكُمْ﴾، أي أنبياء

﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾، أي على هذه النعمة. والترجي إنما هو في حق البشر. ونزلت الألواح بالتوراة على موسى في تلك المدة، وهذا قول جماعة. وقال آخرون: إن الألواح نزلت في ذهابه الأول وحده.

وذكر المفسرون في تظليل الغمام، أن بني إسرائيل لما كان من أمرهم ما كان من القتل، وبقي منهم من بقي حصلوا في فحوص التيه بين مصر والشام، فأمروا بقتال الجبارين فعصوا، وقالوا: ﴿فَأَذَهَبَ آتَ وَرَبِّكَ فَغَنَى﴾ فعدا موسى عليهم فموقبوا بالبقاء في ذلك الفحص أربعين سنة يتيهون في مقدار خمسة فراسخ أو ستة. زوي أنهم كانوا يمشون النهار كله وينزلون للمبيت فيصبحون حيث كانوا بكرة أمس، فندم موسى عليه السلام على دعائه عليهم، فقبل له: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ الْفَيْفِيكَ﴾ وروي أنهم ماتوا بأجمعهم في فحوص التيه، ونشأ بنوهم على خير طاعة، فهم الذين خرجوا من فحوص التيه، وقاتلوا الجبارين. وإذ كان جميع في التيه قالوا لموسى: من لنا بالطعام؟ قال: الله. فأنزل الله عليهم المن والسلوى، قالوا: من لنا من حر الشمس؟ فظلل عليهم الغمام. قالوا: بم نستصبح بالليل؟ فضرب لهم عمود نور في وسط محلثهم. وذكر مكى عمود نار. قالوا: من لنا بالماء؟ فأمر موسى بضرب الحجر، قالوا: من لنا باللباس؟ فأعطوا ألابلى لهم ثوب، ولا يخلق ولا يدردن، وأن تنمو صغارها حسب نمو الصبيان.

ومعنى ﴿وَلَلَّنَا﴾ جعلناه ظللاً. و

﴿الغمام﴾ السحاب، لأنه يغم وجه السماء أي يستره. وقال مجاهد: هو أبرد من السحاب وأرق وأصفى، وهو الذي يأتي الله فيه يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يأتي أمره وسلطانه وقضاؤه، وقيل: الغمام ما أبيض من السحاب، والمن صمغة حلوة، هذا قول فرقة، وقيل: هو: عسل. وقيل: شراب حلو، وقيل: الذي ينزل اليوم على الشجر.

وقيل: المن خبز الرقاق مثل الثقي، وقيل: هو الزنجبين، وقيل: الزنجبيل، وفي بعض هذه الأقوال بُعد. وقيل: المن مصدر يعنى به جميع ما من الله به مخلصاً. وقال النبي ﷺ في كتاب مسلم: «الكمأة ممًا من الله به على بني إسرائيل، وماؤها شفاء للعين»، فقيل: أراد عليه السلام أن الكمأة نفسها ممًا أنزل نوعها على بني إسرائيل، وقيل: أراد أنه لا تعب في الكمأة ولا جذاذ ولا حصاد فهي مئة دون تكلف من جنس من بني إسرائيل في أنه كان دون تكلف.

وروي أن المن كان ينزل عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس كالثلج فيأخذ منه الرجل ما يكفيه ليومه، فإن ادخر فسد عليه إلا في يوم الجمعة فإنهم كانوا يدخرون ليوم السبت فلا يفسد عليهم، لأن يوم السبت يوم عبادة. والمن هنا اسم جمع لا واحد له من لفظه.

والسلوى طير بإجماع من المفسرين قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والربيع بن أنس، وغيرهم، قيل: هو السماني بعينه، وقيل: طائر يعيل

إلى الخمرة مثل السماني، وقيل: طائر مثل الحمام تحشره عليهم الجنوب. قال الأخفش: السلوى جنمته وواحدته بلفظ واحد، قال الخليل: جمع واحدته سلواة قال الكسائي: السلوى واحدة جمعها سلواي، والسلوى اسم مقصور لا يظهر فيه الإعراب لأن آخره ألف، والألف حرف هوائي أشبه الحركة فاستحالت حركته، ولو حرك لرجع حرفاً آخر، وقد غلط الهذلي فقال:

وَقَاتَمَهَا بِاللَّهِ عَهْدًا لِأَنْتُمْ
أَلَّذِي مِنَ السَّلْوَى إِذَا مَا نَشُورَهَا
ظن السلوى العسل.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا﴾ الآية معناه: وقلنا: كلوا، فحذف اختصاراً لدلالة الظاهر عليه، و﴿الطَّبِيخُ﴾ هنا قد جمعت الحلال واللذيذ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ يُقَدَّر قبله فَعَصَوْا، ولم يقابلوا النعم بالشكر، والمعنى: وما وضعوا فيلهم، في موضع مضرة لنا، ولكن وضعوه في موضع مضرة لهم حيث لا يجب. وقال بعض المفسرين: ما ظلمونا ما نقصونا، والمعنى يرجع إلى ما لخصناه.

و (الْقَرْيَةَ) المدينة، تُسمى بذلك لأنها تقربت، أي اجتمعت، ومنه قرية الماء في الحوض: أي جمعت، والإشارة بهذه إلى بيت المقدس في قول الجمهور، وقيل: إلى أريحا، وهي قريب من بيت المقدس. قال عمر بن شبة: كانت قاعدة ومسكن ملوك. ولما خرج ذرية بني إسرائيل من التيه أمروا بدخول القرية المشار إليها وأما

الشيخ فماتوا فيه. وزوي أن موسى ﷺ مات في التيه، وكذلك هارون عليه السلام، وحكى الزجاج عن بعضهم أن موسى وهارون، لم يكونا في التيه لأنه عذاب، والأول أكثر. و﴿كُلُّوا﴾ إباحة، وقد تقدم معنى الرُّغْد - وهي أرض مباركة عظيمة العُلَّة، فلذلك قال: رَغْدًا.

و﴿آتَاكَ﴾ قال مجاهد: هو باب من مدينة بيت المقدس يعرف إلى اليوم بباب حطة، وقيل: هو باب القبة التي كان يصلى إليها موسى ﷺ، وزوي عن مجاهد أيضاً أنه باب في الجبل الذي كلم عليه موسى كالفرضة. و﴿سُجِّدَا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه معناه: ركوعاً وقيل متواضعين خضوعاً لا على هيئة معينة، والسجود يعم هذا كله لأنه التواضع، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجِّدًا لِلْحَوَافِرِ
وَزَوِي أَن الْبَابِ خَفَضَ لَهُمْ لِيَقْصُرَ
وَيَدْخُلُوا عَلَيْهِ مَتَوَاضِعِينَ.

و﴿حِطَّةٌ﴾ فِعْلَةٌ مِنْ حَطَّ يَحْطُ وَرَفَعَهُ عَلَى خَيْرِ ابْتِدَاءٍ كَأَنَّهُمْ قَالُوا: سَأَلْنَا حِطَّةً لَدُنُونَا، هَذَا تَقْدِيرُ الْحَسَنِ بْنِ أَبِي الْحَسَنِ. وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: التَّقْدِيرُ دَخَلْنَا الْبَابَ كَمَا أَمَرْنَا حِطَّةً، وَقِيلَ: أَمَرُوا أَنْ يَقُولُوا مَرْفُوعَةً عَلَى هَذَا اللَّفْظِ. وَقَالَ عِكْرَمَةُ وَغَيْرُهُ: أَمَرُوا أَنْ يَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَتَحِطَّ بِهَا ذُنُوبُهُمْ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قِيلَ لَهُمْ: اسْتَغْفِرُوا، وَقَالُوا: مَا يَحِطُّ ذُنُوبَكُمْ. وَقَالَ آخَرُونَ: قِيلَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا هَذَا الْأَمْرَ حَقًّا، كَمَا أَعْلَمْنَا، وَهَذِهِ الْأَقْوَالُ الثَّلَاثَةُ تَقْتَضِي النَّصْبَ، وَقُرَأَ

إبراهيم بن أبي عبلة ﴿حِطَّةٌ﴾ بالنصب.

وحكى عن ابن مسعود وغيره أنهم أمروا بالسجود وأن يقولوا حِطَّةً، فدخلوا يزحفون على أستاهِهِمْ ويقولون: حنطة حبة حمراء في شعرة، ويروي غير هذا من الألفاظ. وقرأ نافع ﴿يَغْفِرُ﴾ بالياء من تحت مضمومة، وقرأ ابن عامر ﴿تَغْفِرُ﴾ بالياء من فوق مضمومة، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿ويَغْفِرُ﴾ بفتح الياء على معنى يغفر الله، وقرأ الباقون ﴿تَغْفِرُ﴾ بالنون، وقرأت طائفة ﴿تغفر﴾ كأن الحطة تكون سبب الغفران.

والقراءة السبعة على ﴿حَطَّائِيكُمْ﴾، غير أن الكسائي كَانَ يُعْمِلُهَا، وَقُرَأَ الْجَحْدَرِيُّ: ﴿تَغْفِرُ لَكُمْ خَطِيئَتَكُمْ﴾ بضم التاء من فوق ورفع الخطيئة وقرأ الأعمش ﴿يَغْفِرُ﴾ بالياء من أسفل مفتوحة ﴿حَطَّيْتَكُمْ﴾ نصباً، وقرأ قتادة مثل الجحدري، وروي عنه أنه قرأ بالياء من أسفل مضمومة ﴿حَطَّيْتَكُمْ﴾ رفعاً، وقرأ الحسن البصري: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ خَطِيئَاتِكُمْ﴾ أي يخفر الله، وقرأ أبو حيوة: ﴿تَغْفِرُ﴾ بالتاء من فوق مرفوعة ﴿حَطَّيْتَاتِكُمْ﴾ بالجمع ورفع التاء، وحكى الأهوازي أنه قرىء ﴿حَطَّائِيكُمْ﴾ بهمز الألف الأولى وسكون الآخرة، وحكى أيضاً أنه قرىء بسكون الأولى وهمز الآخرة. قال الفراء: خطايا جمع خطية، بلا همز كهديئة وهدايا، وركية وركايا.

وقال الخليل: هو جمع خطيئة بالهمز، وأصله ﴿حِطَّائِيَّةٌ﴾ قدمت الهمزة على الياء فجاء (خطائي)،

أبدلت الياء ألفاً بدلاً لا زماً فانفتحت الهمزة التي قبلها فجاء (خطاء) همزة بين ألفين، وهي من قبيلهما فكأنها ثلاث ألفات فقلبت الهمزة ياء فجاء خطايا. قال سيبويه: أصله [خطاييَّة] همزت الياء كما فعل في مدائن وكتائب فاجتمعت همزتان فقلبت الثانية ياء ثم أعلت على ما تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾ عدة المعنى إذا غفرت الخطايا بدخولكم وقولكم: زيد بعد ذلك لمن أحسن، وكان من بني إسرائيل من دخل كما أمر وقال: لا إله إلا الله، فقبل: هم المراد بالمحسنين هُنَا.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل: رُوي أنهم لما جاءوا الباب دخلوا من قبل أدبارهم القهقري وفي الحديث أنهم دخلوا يزحفون على أستاهِهِمْ، وبدلوا فقالوا حبة في شعرة، وقيل: قالوا: حنطة حبة حمراء فيها شعرة، وقيل: شعيرة، وحكى الطبري أنهم قالوا: «هطي شمقائا أزية»، وتفسيره ما تقدم.

والرَّجْزُ: العذاب. وقال ابن زيد، ومقاتل، وغيرهما: إن الله تعالى بعث على الذين بدلوا ودخلوا على غير ما أمروا الطاعون فأذهب منهم سبعين ألفاً. وقال ابن عباس: أمات الله منهم في ساعة واحدة نيفاً على عشرين ألفاً، وقرأ ابن محيصن ﴿رُجْزًا﴾ بضم الراء وهي لغة في العذاب والرجز أيضاً اسم صنم مشهور، والباء في قوله ﴿بِمَا﴾ متعلقة بأنزلنا، وهي باء السبب.

و﴿يَسْفُونَ﴾ معناه يخرجون عن طاعة الله، وقرأ النخعي، وابن

وثَاب، ﴿يَفْسِقُونَ﴾ بكسر السين، يقال: فسق يفسق ويفسق بضم السين وكسرها، و﴿إِذْ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: «اذكر»، و﴿أَسْتَسْقَى﴾ معناه: طلب السقيا، وعرف استفعل طلب الشيء، وقد جاء في غير ذلك كقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَقَى اللَّهَ﴾، بمعنى غَنِي، وقولهم: استعجب بمعنى عجب، ومثل بعض الناس في هذا بقولهم: «اسْتَسْقَرَ الْبُغَاةُ»، و«اسْتَسْقَى الْجَمَلُ» إذ هي بمعنى انتقل من حال إلى حال. وكان هذا الاستسقاء في فحص التيه فأمره الله تعالى بضرب الحجر آية منه، وكان الحجر من جبل الطور على قدر رأس الشاة يُلقى في كسر جُوالِقٍ ويُزحل به، فإذا نزلوا وُضع في وسط مجلتهم، وضربه موسى.

وذكر أنهم لم يكونوا يحملون الحجر لكنهم كانوا يجدونه في كل مرحلة في منزلته من المرحلة الأولى، وهذا أعظم في الآية.

ولا خلاف أنه كان حجراً منفصلاً مربعاً تطرد من كل جهة ثلاث عيون إذا ضربه موسى ﷺ، وإذا استسقنوا عن الماء ورحلوا جفت العيون.

وفي الكلام حذف تقديره: فضربه فانفجرت، والانفجار: انصداع شيء عن شيء، ومنه الفجر، والانبجاس في الماء أقل من الانفجار.

و﴿أَنْتَنَ﴾ مُعْرَبَةٌ دون أخواتها لصحة معنى التثنية، وإنما بينى واحد مع واحد، وهذه إنما هي اثنان مع واحد، فلو بُيِّنَت لرد ثلاثة واحداً، وجاز اجتماع علامتي التأنيث في قوله: ﴿أَنْتَنَا عَشْرَةً﴾ لبعد العلامة من

العلامة، ولأنهما في شيئين، وإنما مُنِع ذلك في شيء واحد نحو مسلمتات وغيره. وقرأ ابن وثاب، وابن أبي ليلي، وغيرهما: ﴿عَشْرَةٌ﴾ بكسر الشين، رُوي ذلك عن أبي عمرو، والأشهر عنه الإسكان، وهي لغة تميم، وهو نادر لأنهم يُخَفِّفُونَ كثيراً وتَقَلُّوا في هذه. وقرأ الأعمش ﴿عَشْرَةٌ﴾ بفتح الشين، وهي لغة ضعيفة، وروي عنه كسرها وتسكينها، والإسكان لغة الحجاز. و﴿عَيْنًا﴾ نصب على التمييز، والعين اسم مشترك، وهي هنا منبع الماء، و﴿أَنْبِئِينَ﴾ اسم جمع لا واحد له من لفظه، ومعناه هنا: كل سبط لأن الأسباط في بني إسرائيل كالقبايل في العرب، وهم ذرية الإثنا عشر أولاد يعقوب عليه السلام، والمَشْرَب المَفْعَل موضع الشرب، كالمَشْرَع موضع الشروع في الماء، وكان لكل سبط عين من تلك العيون لا يتعدها.

وفي الكلام محذوف تقديره: وقلنا لهم: كلوا المن والسلوى واشربوا الماء المنفجر من الحجر المنفصل، وبهذه الأحوال حسنت إضافة الرزق إلى الله وإلا فالجميع رزقه، وإن كان فيه تَكْسِبٌ للبعد.

﴿وَلَا تَسْتَوُوا﴾ معناه: ولا تفرطوا في الفساد، يقال: عثي الرجل يعثي عثوًا وعثي يعثي عثيًا إذا أفسد أشد فساداً، والأولى هي لغة القرآن، والثانية شاذة.

وتقول العرب: عثا يعثوا عثوًا، ولم يقرأ بهذه اللغة لأنها توجب ضم الثاء من تَعَثُوا، وتقول العرب: عاث يعيث إذا أفسد، وعث يمثُ كذلك،

ومنه عَثَّةُ الصوف وهي السوسة التي تلحسه، و﴿مُفْسِدِينَ﴾ حال. وتكرر المعنى لاختلاف اللفظ.

وفي هذه الكلمات إباحة النعم، وتعدادها، والتقدم في المعاصي، والنهي عنها.

﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

كان هذا القول منهم في التيه، حين ملأوا المن والسلوى، وتذكروا عيشهم الأول بمصر، وكنى عن المن والسلوى بطعام واحد، وهما طعامان لأنهما كان يؤكلان في وقت واحد، ولتكرارهما سواة أبداً، قيل لهما طعام واحد، ولغة بني عامر ﴿فَادَخَ﴾ بكسر العين، و﴿مُخْرِجَ﴾ جزم بما تضمنه الأمر من معنى الجزاء، وبنفس الأمر على مذهب أبي عمر الجرمي. والمفعول على مذهب سيويه مُضْمَرٌ تقديره: مأكولاً مما تنبت الأرض، وقال الأخفش (مِنْ) في قوله: [مِمَّا] زائدة و (ما) مفعولة، وأبي سيويه أن تكون (مِنْ) ملغاة في غير النفي، كقولهم: «ما رأيت من أحد». ومِنْ في قوله: ﴿مِنْ بَقَلِكَا﴾، لبيان الجنس، ونقلها بدل بإعادة الحرف. والبقل كل ما تنبت الأرض من النَّجْم، والقئاء جمع قئاءة. وقرأ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب ﴿قُتَائِهَآ﴾ بضم القاف. وقال ابن عباس، وأكثر المفسرين: الفوم الحنطة، وقال مجاهد: الفوم الخبز، وقال عطاء وقتادة، الفوم جميع الحبوب التي يمكن أن تخبز كالحنطة والفول والعدس ونحوه، وقال الضحاك: الفوم الثوم، وهي قراءة عبدالله بن

مسعود بالثاء، وروي ذلك عن ابن عباس، والشاء تبدل من الفاء كما قالوا: مغائير ومغافير وجدث وجدف، ووقعوا في عاثور شر وعافور شر على أن البدل لا يقاس عليه، والأول أصح لأنها الحنطة، وأنشد ابن عباس قول أحيحة بن الجلاح:

قَدْ كُنْتُ أَغْنَى النَّاسِ شَخْصاً وَاجِداً
وَرَدَّ الْمَدْيِئَةَ عَنِ زِرَاعَةِ قَوْمٍ
يعني حنطة، قال ابن دريد: الفوم الزرع أو الحنطة. وأزد السراة يسمون السنبل فوماً.

والاستبدال طلب وضع الشيء موضع الآخر وأدنى مأخوذ عن أبي إسحق الزجاج من الدنو أي القرب في القيمة، وقال علي بن سليمان: هو مهموز من الدنيء البين الدناءة، بمعنى الأخص إلا أنه خُففت همزته، وقال غيره: هو مأخوذ من الدون أي الأخط، فأصله أدون أفعل، قلب فجاء أفلح، وقلبت الواو ألفاً لتطرفها. وقرأ زهير الكسائي: ﴿أذناً﴾.

ومعنى الآية: أتستبدلون البقل والقثاء والفوم والعدس والبصل التي هي أدنى باليمن والسلوى الذي هو خير؟

والوجه الذي يوجب فضل اليمن والسلوى على الشيء الذي طلبوه يحتمل أن يكون تفاضلها في القيمة، لأن هذه البقول لا خطر لها، وهذا قول الزجاج، ويحتمل أن يفضل اليمن والسلوى لأنه الطعام الذي من الله به، وأمرهم بأكله، وفي استدامة أمر الله تعالى وشكر نعمته

أجر وذخر في الآخرة، والذي طلبوا عارٍ من هذه الخصال، فكان أدنى في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في الطيب واللذة به، فالبقول لا محالة أدنى من هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في حسن الغذاء ونفمه، فالتمن والسلوى خير لا محالة في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل من جهة أنه لا كلفة فيه ولا تعب، والذي طلبوا لا يجيء إلا بالحرث والزراعة والتعب، فهو أدنى في هذا الوجه، ويحتمل أن يفضل في أنه لا ميزة في جلّه وحُلوصه، لنزوله من عند الله، والحبوب والأرض يتخللها البيوع والغصب، وتدخلها الشبهة فهي أدنى في هذا الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرتب الفضل لليمن والسلوى بهذه الوجوه كلها.

وفي الكلام حذف تقديره: فدعا موسى ربه فأجابته فقال لهم: ﴿أهبطوا﴾ وقد تقدم ذكر معنى الهبوط، وكأن القادم على قُطير مُتَّصِبٌ عليه، فهو من نحو الهبوط.

وجمهور الناس يقرءون ﴿مصرأ﴾ بالتثنية، وهو خط المصحف إلا ما حُكي عن بعض مصاحف عثمان رضي الله عنه، وقال مجاهد وغيره: مَنْ صَرَفَهَا أَرَادَ مَصْرَأً مِنَ الْأَمْصَارِ غَيْرَ مُعَيَّنٍ، واستدلوا بما اقتضاه القرآن من أمرهم بدخول القرية، وبما تظاهرت به الرواية أنهم سكنوا الشام بعد التيه. وقالت طائفة: من صرفها أراد مَصْرَ فرعون بعينها، واستدلوا بما في القرآن من أن الله أورث بني إسرائيل ديار آل فرعون

وآثارهم، وأجازوا صرفها، قال الأخفش: لخفتها وشبهها بهندٍ ودعدٍ، وسيبويه لا يجيز هذا، وقال غير الأخفش: أراد المكان صرفاً.

وقرأ الحسن، وأبان بن تغلب، وغيرهما: ﴿أهبطوا مِصْرَ﴾ بترك الصرف، وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب، وقالوا: هي مِصْرُ فرعون. قال الأعمش: هي مصر التي عليها صالح بن علي، وقال أشهب: قال لي مالك: هي عندي مصر، قرينك، مسكن فرعون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَكُمْ نَا سَأَلْتُمْ﴾ يقتضي أنه وكلهم إلى أنفسهم، وقرأ النخعي، وابن وثاب: ﴿سَأَلْتُمْ﴾ بكسر السين وهي لغة، ﴿وَضَرَبْتَ عَلَيْهِمُ الْأَذْلَةَ وَاللَّسْكَنَةَ﴾ معناه: ألزموها، وَقُضِيَ عَلَيْهِمُ بها، كما يُقال: ضرب الأمير البيعة، وكما قالت العرب: ضربة لأزب، أي إلزام مُلزم ولازم، فينضاف المصدر إلى المفعول بالمعنى، وكما يقال: ضرب الحاكم على اليد، أي حجر و أَلزَمَ، ومنه: ضرب الدهر ضَرَبَاتِهِ، أي أَلزَمَ إلزاماته.

و ﴿الَّذِلَّةُ﴾ فغلة من الذل، كأنها الهيئة والحال. ﴿وَاللَّسْكَنَةَ﴾ من المسكين، قال الزجاج: هي مأخوذة من السكون، وهي هنا زبي الفقير وخضوعه، وإن وجد يهودي غني فلا يخلو من زبي الفقر ومهاتته. قال الحسن وقتادة: المسكنة الحَرَاجُ، أي الجزية، وقال أبو العالية: المسكنة الفاقة والحاجة.

﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا هَادٍ أَصْحَابَ الْمَعَاذِ﴾ معناه: مَرُّوا متحملين له، تقول: بُؤْتُ بكذا

أنبياء، كفعيل في المعتل نحو ولي وأولياء وصفي وأصفياء، وحكى الزهراوي أنه يقال: نبؤ إذا ظهر فهو نبئية، والطريق الظاهر نبية بالهمز، وزوي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: السلام عليك يا نبية الله، وهمز، فقال له النبي ﷺ: «لست بنبيه الله - وهمز - ولكني نبي الله» - ولم يهمز الحديث. - قال أبو علي: ضَعَفَ سَنَدُ هَذَا قَدْ أَنشَدَهُ الْمَادِحُ:

يَا خَاتِمَ النَّبَاءِ.

ولم يؤثّر في ذلك إنكار، والجمع كالواحد.

وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّتَعْظِيمِ لِلشُّعْنَةِ وَالذَّنْبِ الَّذِي آتَوْهُ، وَمَعْلُومٌ أَنَّهُ لَا يَقْتُلُ نَبِيَّ بِحَقِّ، وَلَكِنْ مِنْ حَيْثُ قَدْ يَتَخِيلُ مُتَخَيِّلٌ لِّلذِّكِّ وَجَهًا، فَصَرَحَ قَوْلُهُ ﴿بَيِّنَاتٍ لِّتَعْظِيمِ﴾ عَنِ شُعْنَةِ الذَّنْبِ وَوَضُوحِهِ، وَلَمْ يَجْتَرْمِ قَطُّ نَبِيًّا مَا يُوجِبُ قَتْلَهُ. وَإِنَّمَا أَبَاحَ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ أَبَاحِ مِنْهُمْ، وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ، كَرَامَةً لَهُمْ، وَزِيَادَةً فِي مَنَازِلِهِمْ، كَمَثَلِ مَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: «لَمْ يَقْتُلْ قَطُّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا مَنْ لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهِ، وَكُلٌّ مِنْ أَمْرِ بِقَتْلِهِ نُصِرَ»، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذَلِكَ﴾ رَدٌّ عَلَى الْأَوَّلِ وَتَأْكِيدٌ لِلإِشَارَةِ إِلَيْهِ وَالْبَاءُ فِي (بِمَا) بَاءُ السَّبَبِ، وَ﴿يَتَدَوَّنُونَ﴾ مَعْنَاهُ يَتَجَاوَزُونَ الْحُدُودَ، وَالِاعْتِدَاءُ: تَجَاوُزُ الْحَدَّ فِي كُلِّ شَيْءٍ، وَعَرَفَهُ فِي الظُّلْمِ وَالْمَعَاصِي.

(١٢) - (١٣) تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في المراد بالذنين آمنوا في هذه الآية، فقال سفيان الثوري: هم المنافقون في أمة

في موضعين: في سورة الأحزاب ﴿إِنْ وَهَبْتَ نَفْسَكَ لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ﴾ بلا مد ولا همز، و ﴿لَا تَدْعُوا لِيَوْمِ يُؤْتَى يَوْمِ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْتَى لَكُمْ﴾ وإنما ترك همز هذين لاجتماع همزتين مكسورتين من جنس واحد. وترك الهمز في جميع ذلك الباقون، فأما من همز فهو عنده من أنباء إذا أخبر، واسم فاعله منبئية فقيل: نبية بمعنى منبئية كما قيل: سميع بمعنى مُسْمِع، واستدلوا بما جاء من جمعه على نبأ قال الشاعر:

يَا خَاتِمَ النَّبِيَّاءِ إِنَّكَ مُرْسَلٌ بِالْحَقِّ، كُلُّ هُدَى الْإِلَهِ هُدَاكَا
فهذا كما يجمع فعيل في الصحيح كظريف وظرفاء وشبهه. قال أبو علي: زعم سيبويه أنهم يقولون في تحقير النبوة: «كان مسليمة نبؤته نبئية سوء». وكلهم يقولون: نبئاً مسليمة. فاتفقهم على ذلك دليل على أن اللام همزة.

واختلف القائلون بترك الهمز في نبي، فمنهم من اشتق اشتقاق من همز، ثم سهل الهمز، ومنهم من قال: هو مشتق من نبا ينبؤ إذا ظهر، فالنبي الطريق الظاهر، وكان النبي من عند الله طريق الهدى والنجاة، وقال الشاعر:

لَمَّا وَرَدْنَا نَبِيًّا وَاسْتَشَبَّ بِنَا
مُسْحَفَرٌ كَخَطُوطِ السَّيْحِ مُنْسَجَلٌ
واستدلوا بأن الأغلب في جمعه

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ
مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ
عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٢٠﴾ وَإِذْ
أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ
بِقُوَّةٍ وَإِذْ كَرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ
بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ
الْخَاسِرِينَ ﴿١٢٢﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ الَّذِينَ اعْتَدُوا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ
فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا فَفَعَلْتُمْ تَلَافُؤًا
بَيْنَ يَدَيْهَا وَأخَفْتُمُوهَا وَمَوْعِظَةُ الْمُنْتَقِينَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذْ قَالَ
مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبُحُوا بَقْرَةً قَالُوا أَتَلْجِدْنَا
هُزُؤًا قَالُوا أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿١٢٤﴾ قَالُوا
أَنْذَرْنَاكَ بِبَيْنِنَا مَا مَنِئْنَا بِقَوْلِكَ إِنَّا بَقْرَةٌ لَا تَدْرِي
وَلَا يَكْرَهُونَ أَبَيْتِكَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ ﴿١٢٥﴾
قَالُوا أَنْذَرْنَاكَ بِبَيْنِنَا مَا لَوْ نَهَاكَ قَالَ إِنْهُ يَعْمَلُ
إِنَّمَا بَقْرَةٌ صَفَرَاءُ فَاقْعُ لَوْ نَهَاكَ تَسْرُ الْتَهْطِيرِ ﴿١٢٦﴾

أني تحملته، ومنه قول مهلهل لبجير بن الحارث بن عباد: «بؤ يشنع نعل كليب».

والغضب بمعنى الإرادة صفة ذات، وبمعنى إظهاره على العبد بالمعاقبة صفة فعل، والإشارة بذلك إلى ضرب الذلة وما بعده.

والباء في ﴿بَانَهُمْ﴾ باء السبب، وقال المهدي: إن الباء بمعنى اللام، والمعنى: لأنهم. والآيات هنا تحتل أن يراد بها التسع وغيرها ما يخرق العادة، وهي علامة لصدق الآتي بها، ويحتمل أن يراد آيات التوراة التي هي كآيات القرآن.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَتَقْتُلُونَ﴾ بالتاء على الرجوع إلى خطابهم وزوي عنه أيضاً بالياء، وقرأ نافع بهمز ﴿النبيين﴾ وكذلك حيث وقع في القرآن إلا

والصابيء في اللغة: مَنْ خَرَجَ مِنْ دِينِ إِلَى دِينٍ، ولهذا كانت العرب تقول لمن أسلم: قد صبأ، وقيل: إنما سمتهم بذلك لما أنكروا الآلهة، تشبيهاً بالصابئين في الموصل الذين لم يكن لهم بئر إلا قولهم: «لا إله إلا الله». وطائفة هَمَزَتْهُ وجعلته من صَبَّاتِ النجوم إذا طلعت وصَبَّاتِ ثِيْبَةِ الغلام إذا خرجت، قال أبو علي: يقال: صبأت على القوم بمعنى طرأت، فالصابيء التارك لدينه الذي شُرع له، إلى دين غيره، كما أن الصابيء على القوم تارك لأرضه ومنتقل إلى سواها، وبالهمز قرأ القراء غير نافع، فإنه لم يهزمه، ومن لم يهزم جعله من صَبَا يَصْبُو إذا مال، أو يجعله على قلب الهزمة ياءً، وسيبويه لا يجيزه إلا في الشعر.

وأما المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ فقال السدي: هم فرقة من أهل الكتاب، وقال مجاهد: هم قوم لا دين لهم، ليسوا بيهود ولا نصارى، وقال ابن أبي نجیح: هم قوم تركب دينهم بين اليهودية والمجوسية لا تؤكل ذبائحهم، وقال ابن زيد: هم قوم يقولون: «لا إله إلا الله»، وليس لهم عمل ولا كتاب، كانوا بجزيرة الموصل، وقال الحسن بن أبي الحسن، وفتادة: هم قوم يعبدون الملائكة، ويصلون إلى القبلة، ويصلون الخمس، ويقرؤون الزبور، رآهم زياد بن أبي سفيان فأراد وضع الجزية عنهم حتى عرف أنهم يعبدون الملائكة.

و ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾

فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وردت الشرائع كلها إلى شريعة محمد ﷺ.

﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ هم اليهود، وسُمُّوا بذلك لقولهم: ﴿إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ﴾ أي: تبنا، فاسمهم على هذا مِنْ هَادٍ، يَهُودٌ. وقال الشاعر:

إِنِّي امْرُؤٌ مِنْ مَدْحِهِ هَائِدٌ
أَي تَائِبٌ، وقيل: نُسبُوا إِلَى يَهُودَا بْنِ يَعْقُوبَ، فلما عُرب الاسم لحقه التغيير كما تُغَيَّرُ العرب في بعض ما عريت من لغة غيرها، وحكى الزهراوي: أن التهويد النطق في سكون ووقار ولين، وأنشد:

وَتُحَوِّدُ مِنَ اللَّيْلِ تَسْمَعُنَ بِالضُّحَى
قَرِيضَ الرُّدَافِي بِالْخَيْئِ الْمُهَوِّدِ
قال: ومن هذا سميت اليهود، وقرأ أبو السمال ﴿هَادُوا﴾ بفتح الدال.

﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ لفظة مشتقة من الضُّبْرِ، إمَّا لأن قريتهم تسمى ناصرة، ويقال: نصرباً، ويقال: نصرتنا، وإمَّا لأنهم تناصروا، وإمَّا لقول عيسى عليه السلام: ﴿مَنْ آمَنَ بِرَبِّي إِلَى اللَّهِ؟﴾ قال سيبويه: واحدهُ نَصْرَانٌ ونَصْرَانَةٌ كَنَصْرَانٍ وَنَصْرَانَةٍ وَنَصْرَانَةٍ وَنَصْرَانَةٍ، وأنشد:

فَكَلَّمْتَاهُمَا خَرْتُ وَأَسْجَدْتُ رَأْسَهَا
كَمَا سَجَدْتُ نَصْرَانَةً لَمْ تَحْتَفِ
وأنشد الطبري:

يَتَّظَلُّ إِذَا دَارَ الْعَيْشِيُّ مُحْتَفَاً
وَيُضْحِي لَدَيْهِ وَهُوَ نَصْرَانٌ شَامِسُ
قال سيبويه: إلا أنه لا يستعمل في الكلام إلا بياء نسب، قال الخليل: واحد النصارى نصري كمهري ومهاري.

محمد ﷺ، كأنه قال: إن الذين آمنوا في ظاهر أمرهم، وقرنهم باليهود والنصارى والصابئين، ثم بيّن حكم من آمن بالله واليوم الآخر من جميعهم، فمعنى قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ - في المؤمنين المذكورين - مَنْ حَقَّقَ وَأَخْلَصَ، وفي سائر الفرق المذكورة - مَنْ دَخَلَ فِي الْإِيمَانِ. وقالت فرقة: الذين آمنوا هم المؤمنون حقاً بمحمد ﷺ، وقوله: ﴿مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ﴾ يكون فيهم، بمعنى: مَنْ ثَبِتَ وَدَامَ، وفي سائر الفرق بمعنى مَنْ دَخَلَ فِيهِ. وقال السدي: هم أهل الحنيفية يمتن لم يلحق محمداً ﷺ كزيد بن عمرو بن نفيل، وقس بن ساعدة وورقة بن نوفل، والذين هادوا كذلك يمتن لم يلحق محمداً ﷺ، إلا من كفر بعيسى عليه السلام، والنصارى كذلك يمتن لم يلحق محمداً ﷺ، والصابئين كذلك، وقيل: إنها نزلت في أصحاب سلمان الفارسي، وذكر له الطبري قصة طويلة، وحكاها أيضاً ابن إسحق، مقتضاها: أنه صحب عبداً من النصارى فقال له آخرهم: إن زمان نبي قد أطل، فإن لحقت فآمن به، ورأى منهم عبادة عظيمة، فلما جاء إلى النبي ﷺ وأسلم، ذكر له خبرهم، وسأله عنهم، فنزلت هذه الآية.

وزوي عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت في أول الإسلام، وقرر الله بها أن مَنْ آمَنَ بمحمد ﷺ، وَمَنْ بَقِيَ عَلَى يَهُودِيَّتِهِ وَنَصْرَانِيَّتِهِ وَصَابِئِيَّتِهِ، وَهُوَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَهُ أَجْرُهُ، ثُمَّ نَسَخَ مَا قَرَّرَ مِنْ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا

البحر، وأحرقتم النار، فسجدوا توبةً لله، وأخذوا التوراة بالميثاق. وقال الطبري رحمه الله عن بعض العلماء: لو أخذوها أول مرة لم يكن عليهم ميثاق، وكانت سجدتهم على شق لأنهم كانوا يرقبون الجبل خوفاً، فلما رحمهم الله قالوا: لا سجدة أفضل من سجدة تقبلها الله ورحم بها، فأمرُوا سجودهم على شق واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي لا يصح سواه، أن الله تعالى اخترع - وقت سجودهم - الإيمان في قلوبهم لا أنهم آمنوا كرهاً وقلوبهم غير مطمئنة، وقد اختصرت ما سرد في قصص هذه الآية، وقصدت أصحها الذي تقتضيه ألفاظ الآية، وخلط بعض الناس صفة هذه القصة بصفة السبعين.

وقوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ يَقْوَاهُ﴾ في الكلام حذف تقديره: وقلنا: خذوا. و﴿آتَيْنَاكُمْ﴾ معناه: أعطيناكم، و﴿يقوَاهُ﴾، قال ابن عباس معناه: بجهد واجتهاد، وقيل: بكثرة درس، وقال ابن زيد: معناه بتصديق وتحقيق، وقال الربيع: معناه بطاعة الله، ﴿وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِ﴾، أي تدبّروه واحفظوا وأمره ووعيده ولا تنسوه ولا تضيعوه. والضمير عائد على ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ﴾، ويعني التوراة، وتقدير صلة (مَا) واذكروا ما استقر فيه، و﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، ترحّب في حق البشر.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ الآية، تَوَلَّى تَفَعَّلَ، وأصله الإعراض والإبصار عن الشيء

الحسن: ﴿وَلَا خَوْفًا﴾ نصب على التبرئة، وأما الرفع فعلى الابتداء، وقد تقدم القول في مثل هذه الآية. وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ﴾، ﴿إِذْ﴾ معطوفة على التي قبلها، والميثاق مَفْعَالٌ مِنْ وَثَقَ يَثِقُ مثل مِيزَانٍ مِنْ وَزَنَ يَزِنُ، و﴿أَطْوَرًا﴾ اسم الجبل الذي نوجي موسى عليه، قاله ابن عباس، وقال مجاهد، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: الطور اسم لكل جبل، ويستدل على ذلك بقول العجاج:

ذَانِي جَنَاحِيهِ مِنَ الطُّورِ قَمَزَ
تَقْضِي البَّازِي إِذَا البَّازِي كَسَزَ
وقال ابن عباس أيضاً: الطور كل جبل يثبت، وكلّ جبل لا يثبت فليس بطور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله على أن اللفظة عربية، وقال أبو العالية، ومجاهد: هي سريانية، اسم لكل جبل.

وقصص هذه الآية: أن موسى عليه السلام لما جاء إلى بني إسرائيل من عند الله تعالى بالألواح فيها التوراة قال لهم: خذوها والتزموها، فقالوا: لا، إلا أن يُكَلِّمَنَا الله بها كما كلمك، فصعقوا، ثم أحيوا، فقال لهم: خذوها، فقالوا: لا، فأمر الله تعالى الملائكة فاقتلعت جبلاً من جبال فلسطين طوله فرسخ في مثله، وكذلك كان عسكرهم، فجعل عليهم مثل الظلة، وأخرج الله تعالى البحر من ورائهم وأضرم ناراً بين أيديهم، فأحاط بهم غضبه، وقيل لهم: خذوها وعليكم الميثاق ألا تضيعوها وإلا سقط عليكم الجبل، وغرقكم

بِالله، في موضع نصب بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ والفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾ داخلة بسبب الإبهام الذي في (مَنْ)، و﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ ابتداء وخبر، في موضع خبر (إِنْ)، ويحتمل ويحسن أن تكون (مَنْ) في موضع رفع بالابتداء، ومعناها الشرط، والفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾ مُؤَطَّئَةٌ أَنْ تكون الجملة جوابها، و﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾ خبر (مَنْ)، والجملة كلها خبر (إِنْ)، والعائد على (الَّذِينَ) محذوف لا بد من تقديره وتقديره: (مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بالله). وفي الإيمان باليوم الآخر اندرج الإيمان بالرسول والكتب، ومنه يفهم - لأن البعث لم يعلم إلا بإخبار رسل الله عنه تبارك وتعالى. وجمع الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ﴾، بعد أن وحد في (مَنْ آمَنَ) لأن (مَنْ) تقع على الواحد والتثنية والجمع، فجائز أن يخرج ما بعدها مفرداً على لفظها، أو مثني أو مجموعاً على معناه، كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلْتِئَاتِهِ﴾، فجمع على المعنى، وكقوله: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ﴾ ثم قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، فجمع على المعنى. وقال الفرزدق:

تَعَالَى فَإِنْ عَاهَدْتَنِي لَا تَخُونَنِي
نَكْرٌ يَمِثُّ مَنْ يَأْدِيْبُ يَضْطَجِبَانِ
فثنى على المعنى. وإذا جرى ما بعد من على اللفظ فجائز أن يخالف به بعد على المعنى، وإذا جرى ما بعدها على المعنى فلم يستعمل أن يخالف به بعد على اللفظ، لأن الإلباس يدخل في الكلام. وقرأ

بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعاً ومجازاً.

و ﴿فَضَّلَ اللَّهُ﴾ رفع بالابتداء والخبر مضمرة عند سيبويه لا يجوز إظهاره للاستغناء عنه، تقديره: فلولا فضل الله عليكم تدارككم، ﴿رَحْمَةً﴾ عطف على (فضل). قال قتادة فضلُ الله الإسلام، ورحمته القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن المخاطب بقوله ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لفظاً ومعنى من كان في مدة محمد ﷺ، والجمهور على أن المراد بالمعنى من سلف، و ﴿لَكُنْتُمْ﴾ جواب (لولا)، و ﴿مِنَ الْخَيْرِينَ﴾ خبر كان، والخُسران، الثُّفُفان.

وتَوَلَّيْتُمْ من بعد ذلك إما بالمعاصي، فكان فضلُ الله بالتوبة والإمهال إليها، وإما أن يكون توليهم بالكفر، فكان فضلُ الله بأن لم يُعَاجِلْهُمْ بالإهلاك ليكون من ذريتهم من يؤمن، أو يكون المراد من لحق محمداً ﷺ، وقد قال ذلك قوم، وعليه يتجه قول قتادة: إن الفضلُ الإسلام، والرحمة القرآن، ويتجه أيضاً أن المراد بالفضل والرحمة إدراكهم مدة محمد ﷺ.

١٥ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿عَلَيْكُمْ﴾ معناه: عرفتم، كما تقول: علمت زيدا بمعنى عرفته فلا يتعدى العلمُ إلا إلى مفعول واحد، و ﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: تجاوزوا الحد مصرف من الاعتداء، و ﴿سَبَّتِ﴾ معناه: في يوم السبت،

ويحتمل أن يريد في حكم السبت، و ﴿السَّبَّتِ﴾ إما مأخوذ من السُّبُوت الذي هو الراحة والدُّعَة، وإما من السَّبَّتِ هو القطع، لأن الأشياء فيه سبتت وتمت خلقتها.

وقصة اعتدائهم فيه: أن الله عز وجل أمر موسى عليه السلام بيوم الجمعة، وعرفه فضله، كما أمر به سائر الأنبياء، فذكر موسى ذلك لبني إسرائيل عن الله، وأمرهم بالتحريج فيه، فأبوا، وتعدوه إلى يوم السبت، فأوحى الله إلى موسى أن دعهم وما اختاروا من ذلك، وامتحنهم فيه بأن أمرهم بترك العمل، وحرصم عليهم صيد الحيتان، وشدد عليهم الميخنة بأن كانت الحيتان تأتي يوم السبت حتى تخرج إلى الألفية. قاله الحسن بن أبي الحسن، وقيل: حتى تخرج خراطيمها من الماء، وذلك إما بإلهام من الله تعالى، أو بأمر لا يعقل، وإما بأن فهمها معنى الأمانة التي في اليوم مع تكراره حتى فهمت ذلك، ألا ترى أن الله تعالى قد ألهم الدواب معنى الخوف الذي في يوم الجمعة من أمر القيامة؟ يقضي بذلك قول النبي ﷺ: «وما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة فرقاً من الساعة» وحمام مكة قد فهم الأمانة إما أنها متصلة ففهمها.

وكان أمر بني إسرائيل بأئيلة على البحر، فإذا ذهب السبت ذهب الحيتان فلم تظهر إلى السبت الآخر، فبقوا على ذلك زماناً حتى اشتبها الحوت، فعمد رجل يوم السبت فربط حوتاً بخزامة وضرب له وتداً بالساحل، فلما ذهب السبت جاء

وأخذه فسمع قوم بفعله فصنعوا مثل ما صنع، وقيل: بل حفر رجل في غير السبت حفيراً، فخرج إليه البحر فإذا كان يوم السبت خرج الحوت وحصل في الحفير، فإذا جرز ذهب الماء من طريق الحفير وبقي الحوت، فجاء بعد السبت فأخذه، ففعل قومٌ مثل فعله، وكثر ذلك حتى صادوه يوم السبت علانية، وباعوه في الأسواق، فكان هذا من أعظم الاعتداء، وكانت من بني إسرائيل فرقة نَهَتْ عن ذلك، فنَجَّتْ من العقوبة، وكانت منهم فرقة لم تعص ولم تنه، فقيل: نَجَّتْ مع الناهين، وقيل هلكت مع العاصين.

و ﴿كُونُوا﴾ لفظة أمر، وهو أمر التكوين، كقوله تعالى لكل شيء: ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾ ولم يؤمروا في المصير إلى حال المسخ بشيء يفعلونه ولا لهم فيه تكسب، و ﴿خَيْرِينَ﴾ معناه: مبعدين أذلاء صاغرين كما يقال للكلب وللمطرود: إخساً، تقول: خسأته فخسأ، وموضعه من الإعراب، النصب على الحال، أو على خبر بعد خبر.

وروي في قصصهم أن الله تعالى مسخ العاصين قردةً بالليل، فأصبح الساجون إلى مساجدهم ومجتمعاتهم، فلم يروا أحداً من الهالكين، فقالوا: إن للناس لشأناً، ففتحوا عليهم الأبواب كما كانت مغلقة بالليل، فوجدوهم قردةً، يعرفون الرجل والمرأة، وقيل: إن الناجين كانوا قد قسموا بينهم وبين العاصين القرية بجدار، تبرياً منهم

فأصبحوا ولم تفتح مدينة الهالكين، فتسوروا عليهم الجدار، فإذا هم قردة يشب بعضهم على بعض.

وروي عن النبي ﷺ وثبت، أن المسوخ لا تنسل، ولا تأكل، ولا تشرب، ولا تعيش أكثر من ثلاثة أيام، ووقع في كتاب مسلم، عنه عليه السلام: «أن أمة من الأمم فقدت وأراما الفأر»، وظاهر هذا أن المسوخ تنسل، فإن كان أراد هذا فهو ظن منه عليه السلام في أمر لا مدخل له في التبليغ، ثم أوجي إليه بعد ذلك أن المسوخ لا تنسل. ونظير ما قلناه نزوله عليه السلام على مياه بدر، وأمره باطراح تذكير النخل، وقد قال ﷺ: «إذا أخبرتكم برأي في أمور الدنيا فإنما أنا بشر».

وروي عن مجاهد في تفسير هذه الآية أنه مسخت قلوبهم فقط، ورذت أفهامهم كأفهام القردة، والأول أقوى وأظهر. والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُمْ﴾ يحتمل العود على المسحة والعقوبة، ويحتمل على الأمة التي مسخت، ويحتمل على القردة، ويحتمل على القرية إذ معنى الكلام يقتضيها وقيل: يعود على الحيتان، وفي هذا القول بُعد.

والثكأل: الزُّجر والعقاب، والثكأل والأنكال قيود الحديد، فالثكأل عقاب يُنكَل بسببه غير المعاقب عن أن يفعل مثل ذلك الفعل، قال السدي: ما بين يدي المسخة ما قبلها من ذنوب القوم، وما خلفها لمن يذنب بعدها مثل تلك الذنوب، وهذا قول جيد. وقال غيره: ما بين يديها أي من حضرها من الناجين، وما

خلفها لمن يجيء بعدها، وقال ابن عباس: لما بين يديها أي من بعدهم من الناس ليخذر ويتقي، وما خلفها، لمن بقي منهم عبرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما أراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنه، لأن دلالة ما بين اليد ليست كما في القول، قال ابن عباس أيضاً: لما بين يديها وما خلفها أي من القرى، فهذا ترتيب أجرام لا ترتيب في الزمان و﴿مَوَظِعًا﴾ مَفْعَلَةٌ من الأتسعاط والازدجار، و﴿لِلْمُنْفِكَتِ﴾ معناه: للذين نهوا ونجوا، وقالت فرقة: معناه لأمة محمد ﷺ، واللفظ يعم كل متي من كل أمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقَالُوهُ﴾ الآية، ﴿إِذْ﴾ عطف على ما تقدم، والمراد تذكيرهم بنقض سلفهم للميثاق، وقرأ أبو عمرو: ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾ بإسكان الراء، وروي عنه اختلاس الحركة، وقد تقدم القول في مثله في ﴿بَارِكُمْ﴾.

وسبب هذه الآية على ما روي أن رجلاً من بين إسرائيل أسن، وكان له مال، واستبطأ ابن أخيه موته، وقيل: أخوه، وقيل: ابنا عمه، وقيل: ورثة كثير غير معينين - فقتله ليرثه، وألقاه في سبط آخر غير سبطه ليأخذ دينته، وَيُلْطَخُهُمْ بدمه، وقيل: كانت بنو إسرائيل في قريتين متجاورتين فألقاه إلى باب أحد المدينتين، وهي التي لم يقتل فيها، ثم جعل يطلبه هو وسبطه حتى وجده قتيلاً، فتعلق بالسبط أو بسكان المدينة التي وجد القتيل عندها، فأنكروا قتله، فوقع

بين بني إسرائيل في ذلك لحاء حتى دخلوا في السلاح. فقال أهل النهي منهم: أنقتل رسول الله معنا؟ فذهبوا إلى موسى عليه السلام، فقصوا عليه القصة، وسألوه البيان، فأوحى الله إليه أن يذبحوا بقرة فيضرب القنيل ببعضها فيحيا ويخبر بقاتله، فقال لهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ فكان جوابهم أن قالوا: ﴿أَتَتَّخِذُنَا هُزُؤًا﴾.

قرأ الجحدري: ﴿أَتَتَّخِذُنَا﴾ بالياء على معنى أتيتخذنا الله؟ وقرأ حمزة: ﴿هُزُؤًا﴾ بإسكان الزاي والهمز، وهي لغة، وقرأ عاصم ﴿هُزُؤًا﴾ بضم الزاي والهاء والهمز، وقرأ أيضاً دون همز ﴿هُزُؤًا﴾ حكاة أبو علي، وقرأت طائفة من القراء بضم الراء والزاي، والهمزة بين بين، وروي عن أبي جعفر، وشيبة ضم الراء وتشديد الزاي ﴿هُزُؤًا﴾.

وهذا القول من بني إسرائيل ظاهره فساد اعتقاد يمين قاله، ولا يصح الإيمان ممن يقول لنبي قد ظهرت معجزته، وقال: إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة، أتتخذنا هزواً، ولو قال ذلك اليوم أحد عن بعض أقوال النبي ﷺ لوجب تكفيره، وذهب قوم إلى ذلك منهم على جهة غلظ الطبع والجفاء والمعصية، على نحو ما قال القائل للنبي ﷺ في قسمة غنائم حنين: «إن هذه لقسمة ما أريد بها وجه الله» وكما قال له الآخر: «أعدل يا محمد»، وكل محتمل والله أعلم.

وقول موسى عليه السلام: ﴿أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾، يحتمل

معنيين: أحدهما الاستعاذة من الجهل في أن يخبر عن الله تعالى مستهزئاً، والآخر من الجهل كما جهلوا في قولهم ﴿الْتَحِذْنَا هُزُؤًا﴾ لمن يخبرهم عن الله تعالى.

٣٨ - ٣٩ تفسير قوله عز وجل:

هذا تعثت منهم وقلة طوعية، ولو امتثلوا الأمر فاستعرضوا بقرة فذبحوها لقصوا ما أمروا به، ولكن شددوا فشدد الله عليهم. قاله ابن عباس: وأبو العالية وغيرهما.

ولغة بني عامر ﴿اذع﴾ بكسر العين، و﴿ما﴾ استفهام رفع بالابتداء و﴿جئ﴾ خبر. ورفع ﴿فأرض﴾ على النعت للبقرة على مذهب الأخفش، أو على خبر ابتداء مضمّر تقديره لا هي فارض. والفاضض: الميسئة الهرمة التي لا تلد، قاله ابن عباس، وقاتدة، ومجاهد، وغيرهم.

تقول فرضت تفرض بفتح العين في الماضي فروضاً، ويقال: فرضت بضم العين، ويقال لكل ما قدّم وطال أمده: فأرض، وقال الشاعر:

يَارُبُّ ذِي ضِفْنِ عَلِيِّ فَارِضٍ
لَهُ قُرُوءٌ كَقُرُوءِ الْحَائِضِ

والبيكرو من البقر التي لم تلد من الصغر، وحكى ابن قتيبة: إنها التي ولدت ولداً واحداً، والبيكر من النساء: التي لم يمسهما الرجل، والبيكر من الأولاد: الأول، ومن الحاجيات: الأولى. والعنوان: التي قد ولدت مرة بعد مرة قاله مجاهد، والأخفش، وحكاها أهل اللغة، ومنه قول العرب: «العنوان لا تعلم الخمر»، وحرب عوان: قد قوتل فيها مرتين فما زاد. وزُفعت عوان

على خبر ابتداء مضمّر تقديره هي عوان، وجمعها عُونٌ بسكون الواو، وسمع عُونٌ بتحريكهما بالضم. و﴿بين﴾ بابها أن تضاف إلى اثنين وأضيفت هنا إلى ذلك، إذ ذلك يشار به إلى المجملات، فذلك عند سبويه نازل منزلة ما ذكرت، فهي إشارة إلى مفرد على بابها، وقد ذكر اثنان فجاءت أيضاً (بين) على بابها.

وقوله: ﴿فَأَقْصَوُا مَا تُؤْمَرُونَ﴾ تجديد للأمر، وتأکید، وتنبیه على ترك

التعنت فما تركوه، و﴿ما﴾ رفع بالابتداء و﴿لونها﴾ خبره. وقال ابن زيد، وجمهور الناس في قوله: ﴿صَفْرَاءُ﴾، إنها كانت كلها صفراء، قال مكّي رحمه الله عن بعضهم: حتى القرن والظلف، وقال الحسن ابن أبي الحسن، وسعيد بن جبیر: كانت صفراء القرن والظلف فقط. وقال الحسن أيضاً: صفراء معناه سوداء، وهذا شاذ لا يستعمل مجازاً إلا في الإبل، وبه فسر قول الأعشى ميمون بن قيس:

تِلْكَ خَيْلِي مِنْهُ وَتِلْكَ رِكَابِي
مَنْ صَفْرُ أَوْلَادِهَا كَالزَّبِيبِ
والفقوع: نعتٌ مختص بالصفرة، كما خص أحمر بقاني، وأسود بحالك، وأبيض بناصع، وأخضر بناضر. و﴿لونها﴾ فاعل بـ ﴿فأقبع﴾، و﴿تسّر النظرين﴾، قال

سورة البقرة

سورة البقرة

قَالُوا أَدْعُنَا لِنَارِكَ بَيْنَ يَدَيْنَا مَا هِيَ إِلَّا الْبَقْرُ فَتَشَبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا
إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبُّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقْرَةٌ لَأَذُولُ
ثِيْرُ الْأَرْضِ وَلَا تَسْقِي الْخَرْبَ مَسْلَمَةً لَا شَيْءَ فِيهَا قَالُوا
الْقَرْبُ حِجَّتُ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِذْ
قُلْتُمْ نَفْسًا قَادِرَةً نَفْسًا وَمَا وَآلَهُ مَخْرَجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٤٠﴾
فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُبْحِي اللَّهُ الْمُؤْمِنِ وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
فَهِيَ كَالْحِجَارِ وَأَوْأَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنْ مِنَ الْحِجَارِ لَمَآ يَنْفَجُرُ
مِنْهُ إِلَّا أَتَهَرٌ وَإِنْ مِنْهَا لَمَآ يَنْسَقُقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنْ
مِنْهَا لَمَآ يَهِيْطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيْلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾
وَإِذْ أَنْطَقْنَاهُ أَنْ يُؤْمِنُوا أَلَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيْقٌ مِنْهُمْ
يَسْمَعُونَ كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ مَحَّرُوهَا مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ
وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ الْفَوَّالِدِينَ مَأْمُورًا قَالُوا آمَنَّا
وَإِذَا خَلَا بِبَعْضِهِمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا اتَّخَذُوا لَهُمْ سَمَاتٍ
اللَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَمَّا حُرِّمَ بِهِ عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾

١١

وهب بن منبه، كانت كأن شعاع الشمس يخرج من جلدتها. فمعناه تعجب الناظرين، ولهذا قال ابن عباس وغيره: «الصفرة تسر النفس»، وحض ابن عباس على لباس النعال الصفرة، حكاها عنه النفاش، وحكى نهي ابن الزبير، ويحيى ابن أبي كثير عن لباس النعال السود، لأنها تهم، وقال أبو العالية، والسدي: تسر الناظرين معناه في سمنيتها ومنظرها كله، وسألوا بعد هذا كله عما هي سؤال متحيرين قد أحسوا بمقت المعصية. و﴿البقر﴾ جمع بقرة، ويجمع أيضاً على باقر، وبه قرأ ابن يعمر، وعكرمة، وتجمع على بقر، وبيقور، ولم يقرأ بهما فيما علمت.

وقرأ السبعة ﴿تشابه﴾ فعل ماض، وقرأ الحسن والأعرج ﴿تشابه﴾ بتشديد الشين وضم الهاء أصله

تَشَابَهُ، وهي قراءة يحيى بن يعمر، فأدغم، وقرأ أيضاً ﴿تَشَابَهُ﴾ بتخفيف الشين على حذف التاء الثانية، وقرأ ابن مسعود ﴿يَشَابَهُ﴾ بالياء وإدغام التاء، وحكى المهدي عن المعيطي ﴿تَشَبَهُ﴾ بتشديد الشين والياء دون ألف، وحكى أبو عمرو الداني قراءة ﴿مُتَشَبَّهٌ﴾ اسم فاعل من تَشَبَّهَ، وحكى أيضاً ﴿يَتَشَابَهُ﴾.

وفي استثنائهم في هذا السؤال الأخير إنباء ما، وانقياد، ودليل ندم، وحرص على موافقة الأمر، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿لَوْ لَا مَا اسْتَشْنَوْنَا مَا اهْتَدَوْا إِلَيْهَا أَبَدًا، وَالضَّمِيرُ فِي ﴿إِنَّا﴾ هُوَ اسْمُ (إِنَّ)، وَ﴿مَهْتَدُونَ﴾ الْخَيْرُ، وَاللَّامُ لِلتَّأَكِيدِ، وَالِاسْتِثْنَاءُ اعْتِرَاضٌ قُدِّمَ عَلَى ذِكْرِ الْإِهْتِدَاءِ تَهْمُماً بِهِ.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿ذُلُّوا﴾ مُذَلَّلَةٌ بِالْعَمَلِ وَالرِّيَاضَةِ، تَقُولُ بَقْرَةٌ ذُلُولٌ، بَيْنَةَ الذَّلِّ، بِكَسْرِ الذَّلِّ، وَرَجُلٌ ذُلُولٌ، بَيْنَ الذَّلِّ بِضَمِّ الذَّلِّ وَذُلُولٌ نَعَتْ لِبَقْرَةٍ أَوْ عَلَى إِضْمَارِ هِيَ، وَقَرَأَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ السَّلْمِيُّ ﴿لَا ذُلُّوا﴾ بِنَصْبِ اللَّامِ.

و﴿يُتِيرُ الْأَرْضَ﴾ مَعْنَاهُ بِالْحِرَاثَةِ، وَهِيَ عِنْدَ قَوْمٍ: جَمَلَةٌ فِي مَوْضِعِ رَفَعٍ عَلَى صِفَةِ الْبَقْرَةِ أَي: لَا ذُلُولٌ مَثِيرَةٌ. وَقَالَ قَوْمٌ: تَشِيرُ فَعَلٌ مُسْتَأْنَفٌ، وَالْمَعْنَى إِيجَابُ الْحَرِثِ، وَأَنَّهَا كَانَتْ تَحْرَثُ وَلَا تَسْقِي، وَلَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ الْجَمَلَةُ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، لِأَنَّهَا مِنْ نَكْرَةٍ.

و﴿سَتَقَى الْمَرْبَى﴾ مَعْنَاهُ بِالسَّانِيَةِ أَوْ غَيْرِهَا مِنَ الْأَلَاتِ، وَالْحَرِثُ: مَا حُرِّثَ وَزُرِعَ. وَ﴿مُسَلَّمَةٌ﴾ بِنَاءٌ مِبَالِغَةٌ

من السلامة، قال ابن عباس وقتادة، وأبو العالية: معناه من العيوب وقال مجاهد، وقتادة: معناه من الشيات والألوان، وقال قوم: معناه من العمل ﴿لَا شَيْءَ فِيهَا﴾ أَي لَا خِلَافَ فِي لَوْنِهَا، هِيَ صَفْرَاءُ كُلِّهَا، لَا بِيَاضَ فِيهَا، وَلَا حَمْرَةَ، وَلَا سَوَادَ. قَالَ ابْنُ زَيْدٍ، وَغَيْرُهُ. وَالْمَوْشَى الْمُخْتَلَطُ الْأَلْوَانُ، وَمِنْهُ وَشَى الثَّوْبَ تَزْيِينُهُ بِالْأَلْوَانِ، وَمِنْهُ الْوَاشِي لِأَنَّهُ يَزِينُ كَذِبُهُ بِالْأَلْوَانِ مِنَ الْقَوْلِ، وَالثَّوْرُ الْأَشْيَبُ الَّذِي فِيهِ بُلْقَةٌ. يُقَالُ: فَرَسٌ أَبْلَقٌ، وَكَبْشٌ أَخْرَجَ، وَتَيْسٌ أَبْرَقٌ، وَكَلْبٌ أَبْقَعٌ، وَثَوْرٌ أَشْيَبُ، كُلُّ ذَلِكَ بِمَعْنَى الْبُلْقَةِ.

وهذه الأوصاف في البقرة سببها أنهم شددوا فشد الله عليهم، ودين الله يسر، والتعمق في سؤال الأنبياء مذموم.

وقصة وجود هذه البقرة على ما روي أن رجلاً من بني إسرائيل وُلِدَ له ابن، وكانت له عجلة فأرسلها في غيضة، وقال: اللهم إني استودعتك هذه العجلة لهذا الصبي، ومات الرجل، فَلَمَّا كَبِرَ الصَّبِيُّ قَالَتْ لَهُ أُمُّهُ: إِنَّ أَبَاكَ كَانَ قَدْ اسْتَوْدَعَ اللَّهُ عَجَلَةَ لَكَ، فَاذْهَبْ فَخُذْهَا، فَذَهَبَ، فَلَمَّا رَأَتْهُ الْبَقْرَةُ جَاءَتْ إِلَيْهِ حَتَّى أَخَذَ بِقَرْنَيْهَا، وَكَانَتْ مُسْتَوْحِشَةً فَجَعَلَ يَقْرُدُهَا نَحْوَ أُمِّهِ، فَلَقِيَ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَوَجَدُوا بِقَرْتِهِ عَلَى الصِّفَةِ الَّتِي أَمْرُوا بِهَا.

وروت طائفة أنه كان رجل من بني إسرائيل براً بأبيه، فتأم أبوه يوماً وتحت رأسه مفاتيح مسكنهما، فمر به بائع جوهر، فسامه فيه بستانين

ألفاً، فقال له ابن النائم: اصبر حتى ينتبه أبي، وأنا آخذه منك بسبعين ألفاً، فقال صاحب الجوهر: أنبه أباك وأنا أعطيكه بخمسين ألفاً، فدام كذلك حتى بلغه مائة ألف وانحط صاحب الجوهر إلى ثلاثين ألفاً، فقال له ابن النائم: والله لا أشتريه منك بشيء، براً بأبيه، فعوضه الله منه أن وجدت البقرة عنده.

وقال قوم: وجدت عند عجوز تعول يتامى كانت البقرة لهم، إلى غير ذلك من اختلاف في قصتها، هذا معناه، فلما وجدت البقرة ساموا صاحبها، فاشتط عليهم، وكانت قيمتها على ما روي عن عكرمة ثلاثة دنانير، فأتوا به موسى عليه السلام، وقالوا: إن هذا اشتط علينا، فقال لهم: أرضوه في ملكه فاشتروها منه بوزنها مرة، قاله عبيدة السلماني، وقيل: بوزنها مرتين، وقال السدي: بوزنها عشر مرات. وقال مجاهد: كانت لرجل يبر أمه، وأخذت منه بملء جلدتها دنانير، وحكى مكي أن هذه البقرة نزلت من السماء، ولم تكن من بقر الأرض، وحكى الطبري عن الحسن أنها كانت وحشية.

و﴿الآن﴾ مبني على الفتح، ولم يتعرف بهذه الألف واللام، ألا ترى أنها لا تفارقه في الاستعمال؟ وإنما بُنِيَ لِأَنَّهُ ضَمَّنَ مَعْنَى حَرْفِ التَّعْرِيفِ، لِأَنَّهُ وَاقَعَ مَوْضِعَ الْمُتَبَهِّمِ، إِذْ مَعْنَاهُ هَذَا الْوَقْتُ، وَهُوَ عِبَارَةٌ عَمَّا بَيْنَ الْمَاضِي وَالْمُسْتَقْبَلِ، وَقُرِئَ: ﴿قَالُوا الْآنَ﴾ بِسُكُونِ اللَّامِ وَهَمْزَةٌ بَعْدَهَا، وَ﴿قَالُوا الْآنَ﴾ بِمَدَّةٍ عَلَى الْوَاوِ وَفَتْحِ اللَّامِ دُونَ هَمْزٍ، وَ﴿قَالُوا

الآن﴾ بحذف الواو من اللفظ دون همز، و ﴿قالوا الآن﴾ بقطع الألف الأولى وإن كانت ألف وصل، كما تقول: يا الله.

و ﴿جِئْتُ بِالْحَقِّ﴾ معناه عند من جعلهم عصاة: بَيَّنَّتْ لَنَا غَايَةَ الْبَيَانِ، وَجِئْتُ بِالْحَقِّ الَّذِي طَلَبْنَاهُ، لَا أَنَّهُ كَانَ يَجِيءُ قَبْلَ ذَلِكَ بِغَيْرِ حَقٍّ، وَمَعْنَاهُ عِنْدَ أَبِي زَيْدٍ الَّذِي حَمَلَ مَحَاوِرْتَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ: الْآنَ صَدَقْتُ، وَأَذَعْتُوا فِي هَذِهِ الْحَالِ حِينَ بَيَّنَّ لَهُمْ أَنَّهَا سَلِيمَةٌ، وَقِيلَ: إِنَّهُمْ عَيَّنُوهَا مَعَ هَذِهِ الْأَوْصَافِ، وَقَالُوا هَذِهِ بَقْرَةٌ فَلَانِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تُعْطِي أَنْ الذَّبْحَ أَصْلُ فِي الْبَقْرِ، وَإِنْ نَحَرْتَ أَجَزْتَ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾، عبارة عن تشبههم في ذبحها، وقلة مبادرتهم إلى أمر الله. وقال محمد بن كعب القرظي: كان ذلك منهم لغلاء البقرة وكثرة ثمنها، وقال غيره: كان ذلك خوف الفضيحة في أمر القاتل. وقيل: كان ذلك للمعهود من قلة انقيادهم، وتعنتهم على الأنبياء، وقد تقدم قصص القتل الذي يراد بقوله تعالى: ﴿وَأَذَكُرُوا إِذْ قَتَلْتُمْ﴾، والمعنى قلنا لهم اذكروا إِذْ قَتَلْتُمْ، و ﴿فَأَذَكُرْتُمْ﴾ أصله: (تدارأتم). أذغمت التاء في الدال، فتعذر الابتداء بمذغم فجلبت ألف الوصل، ومعناه تدافعتم أي دفع بعضكم قتل القاتل إلى بعض. قال الشاعر:

صَادَفَ ذُرَّةَ السَّنْبِيلِ ذُرَّةً يَدْفَعُهُ

وقال الآخر:

مِذْرًا يَذُرُّ أَلْحُصُومَ يَقُولُ
مِثْلُ حَدْ الصَّنْصَامَةِ الْهُنْدَوَانِي
والضمير في قوله ﴿فِيهَا﴾ عائد على النفس، وقيل: على القتلة. وقرأ أبو حنيفة، وأبو السوار الغنوي ﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَسَمَةً فَوَادَتْكُمْ﴾.

وقرأت فرقة: ﴿فَقَتَلْتُمْ﴾ على الأصل. وموضع (ما) نصب بمخرج والمكتوم هو أمر المقتول. وقوله: ﴿أَضْرِبُوهُ بِعَصَاهُ﴾، آية من الله تعالى على يدي موسى عليه السلام، أن أمرهم أن يضربوا ببعض البقرة القاتل، فَيَحْيَا وَيُخْبِرُ بِقَاتِلِهِ، فَقِيلَ: ضَرَبُوهُ: وَقِيلَ: ضَرَبُوا قَبْرَهُ لِأَنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ ذَكَرَ أَنَّ أَمْرَ الْقَتِيلِ وَقَعَ قَبْلَ جَوَازِ الْبَحْرِ، وَأَنَّهُمْ دَامُوا فِي طَلَبِ الْبَقْرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً، وَقَالَ الْقُرْظِيُّ: لَقَدْ أَمَرُوا بِطَلَبِهَا وَمَا هِيَ فِي صُلْبٍ وَلَا رَحِمٍ بَعْدَ. وقال السدي: ضرب باللحمة التي بين الكتفين وقال مجاهد، وقتادة، وعبيدة السلماني: ضرب بالفخذ، وقيل ضرب باللسان، وقيل: بالذنب، وقال أبو العالية: بعظم من عظامها. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُعَيِّنُ اللَّهُ الْأَمُورَ﴾ الآية، الإشارة بذلك إلى الإحياء الذي تضمنه قصص الآية، إذ في الكلام حذف تقديره فضره فحيي.

وفي هذه الآية حض على العبرة، ودلالة على البعث في الآخرة، وظاهرها أنها خطاب لبني إسرائيل حينئذ، حُكِيَ لِمُحَمَّدٍ ﷺ لِيُعْتَبَرَ بِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَذَهَبَ الطَّبْرِيُّ إِلَى أَنَّهَا خُطَابٌ لِمُعَاصِرِي مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّهَا مَقْطُوعَةٌ مِنْ قَوْلِهِ: ﴿أَضْرِبُوهُ بِعَصَاهُ﴾ وَرُوي أَنَّ هَذَا الْقَتِيلَ لِمَا

حيي، وأخبر بقاتله عاد ميتاً كما كان، واستدل مالك رحمه الله بهذه النازلة على تجويز قول القاتل، وأن تقع معه القسامة.

٧٤ - ٧٥) تفسير قوله عز وجل:

﴿قَسَتْ﴾ أي صَلَبَتْ وَجَعَتْ، وهي عبارة عن خلوها من الإنابة والإذعان لآيات الله تعالى. وقال ابن عباس: المراد قلوب ورثة القاتل، لأنهم حين حيي، وقال: إنهم قتلوه، وعاد إلى حال موته أنكروا قتله، وقالوا: كذب. بعد ما رأوا هذه الآية العظمى لكن نفذ حكم الله تعالى بقتلهم. قال عبيدة السلماني: ولم يرث قاتل من حينئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويمثله جاء شرعنا وحكي، مالك رحمه الله في الموطأ: أن قصة أحيحة بن الجلاح في عمه هي التي كانت سبباً ألا يرث قاتل ثم ثبت ذلك الإسلام كما ثبت كثيراً من نوازل الجاهلية. وقال أبو العالية، وقتادة، وغيرهما: إنما أراد الله قلوب بني إسرائيل جميعاً في معاصيهم وما ركبوه بعد ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ﴾ الآية، الكاف في موضع رفع خبر لهي تقديره فهي مثل الحجاره ﴿أَوْ أَشَدُّ﴾ مرتفع بالعطف على الكاف، أو على خبر الابتداء بتقدير تكرار هي، و ﴿قَسَوُا﴾ نصب على التمييز. والمعرف في ﴿أَوْ﴾، أنها للشك، وذلك لا يصح في هذه الآية. واختلف في معنى ﴿أَوْ﴾، هنا، فقالت طائفة: هي بمعنى الواو كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَوْ كَفُّرًا﴾، أي

وكفوراً. وكما قال الشاعر:

نَالَ الْخِلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا
كَمَا آتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدْرٍ
أَيَّ وَكَانَتْ لَهُ. وقالت طائفة: هي
بمعنى بل، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ يَأْتِيَنَّ
أَنْبِيَاءَ أَوْ يَزِيدُونَ﴾، المعنى بل
يزيدون. وقالت طائفة: معناها
التخيير، أي شبهوها بالحجارة
تصيبوا، أو بأشد من الحجارة
تصيبوا. وقالت فرقة: هي على بابها
في الشك، ومعناه عندكم أيها
المخاطبون، وفي نظرمكم أن لو
شاهدتم قسوتها لشككتكم: أي
كالحجارة أو أشد من الحجارة؟
وقلت فرقة: هي على جهة الإبهام
على المخاطب، ومنه قول أبي
الأسود الدؤلي:

أَجِبْ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا
وَعَبَّاسًا وَحَنْزَةَ أَوْ عَلِيًّا
ولم يشك أبو الأسود، وإنما قصد
الإبهام على السامع، وقد عورض
أبو الأسود في هذا واحتج بقول الله
تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَىٰ إِبْرَاهِيمَ لَمَلًا هَدَىٰ
أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، وهذه الآية
مفارقة لبيت أبي الأسود، ولا يتم
معنى الآية إلا بأو. وقالت فرقة:
إنما أراد الله تعالى أن يفهم من قلبه
كالحجر، وفيهم من قلبه أشد من
الحجر، فالمعنى فهي فرقتان
كالحجارة أو أشد، ومثل هذا قولك
أطعمتك الحلو أو الحامض، يريد أنه
لم يخرج ما أطعمته عن هذين.
وقالت فرقة: إنما أراد عز وجل أنها
كانت كالحجارة يُترجى لها الرجوع
والإنبابة كما تنفجر الأنهار ويخرج
الماء من الحجارة، ثم زادت قلوبهم

بعد ذلك قسوة بأن صارت في حد
من لا تُرجى إنبابته، فصارت أشد من
الحجارة فلم تخل أن كانت
كالحجارة طوراً أو أشد طوراً، وقرأ
أبو حيوة «قَسَاوَةً»، والمعنى
واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَانَ مِنَ الْيَجَارَةِ﴾
الآية معذرة للحجارة، وتفضيل لها
على قلوبهم في معنى قلة القسوة.
وقال قتادة: عَذَّرَ اللهُ تَعَالَى الْحِجَارَةَ
ولم يعذر شقي بني آدم. وقرأ قتادة:
﴿وَلَانَ﴾، مخففة من الثيلة، وكذلك
في الثانية والثالثة، وفرق بينها وبين
النافية لام التأكيد في ﴿لَمًا﴾، و
﴿مَا﴾ في موضع نصب اسم لأن،
ودخل اللام على اسم (إن) لما حال
بينهم المجرور، ولو اتصل الاسم
بإن لم يصح دخول اللام لثقل
اجتماع تأكيدين. وقرأ مالك بن دينار
﴿تَنْفَجِرُ﴾ بالنون وياء من تحت قلبها
وكسّر الجيم. ووحد الضمير في
﴿يَنْفُجُ﴾ حملاً على لفظ (ما). وقرأ
أبي بن كعب، والضحاك ﴿مِنْهَا
الْأَنْهَارُ﴾ حملاً على الحجارة.
والأنهار جمع نهر، وهو ما كثر ماؤه
جرباً من الأخاديد. وقرأ طلحة بن
مصرف ﴿لَمًا﴾ بتشديد الميم في
الموضعين وهي قراءة غير متجهة. و
﴿يَتَشَقَّقُ﴾ أصله يَتَشَقَّقُ، أدغمت التاء
في الشين، وهذه عبارة عن العيون
التي لم تعظم حتى تكون أنهاراً. أو
عن الحجارة التي تَشَقَّقُ وإن لم يجر
مئة منفسح.

وقرأ ابن مصرف: ﴿يَتَشَقَّقُ﴾
بالنون. وقيل في هبوط الحجارة:
تفسيؤ ظلالها، وقيل: المراد الجبل

الذي جعله الله دكاً، وقيل: إن الله
تعالى يخلق في بعض الأحجار خشية
وحياة يهبط بها من علو تواضعاً.

ونظير هذه الحياة حياة الحجر
المسلم على النبي ﷺ، وحياة
الجزع الذي أن لفقد النبي ﷺ.

وقيل: لفظة الهبوط مجاز، وذلك أن
الحجارة - لما كانت القلوب تعتبر
بخلقها، وتخضع ببعض مناظرها -
أضيف تواضع الناظر إليها كما قالت
العرب: «ناقاة تاجرة»، أي تبعث من
يراهها على شرائها. وقال مجاهد:
«ما تردى حجر من رأس جبل، ولا
تفجر نهر من حجر، ولا خرج ماء
منه إلا من خشية الله نزل بذلك
القرآن»، وقال مثله ابن جريج،
وحكى الطبري عن فرقة: أن الخشية
للحجارة مستعارة كما استعيرت
الإرادة للجدار في قوله تعالى:
﴿يُرِيدُ أَنْ يَبْقَى﴾، وكما قال زيد
الخيل:

بَجَمْعِ تَضَلُّ الْبَلْبُلُ فِي حُجْرَاتِهِ
تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
وكما قال جرير:

... الْجِبَالُ الْخُشْعُ
أَي مِنْ رَأَى الْحَجَرَ هَابِطًا تَخِيلُ فِيهِ
الْخَشْيَةَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قول ضعيف، لأن براعة معنى
الآية تختل به، بل القوي أن الله
تعالى يخلق للحجارة قدراً ما من
الإدراك تقع به الخشية والحركة.

و ﴿يَتَفَلَّلُ﴾ في موضع نصب خبر
﴿مَا﴾، لأنها الحجازية، يُقَرَّى ذلك
دخول الباء في الخبر، وإن كانت

الباء قد تجيء شاذة مع التسمية وقرأ ابن كثير: «يعملون» بالياء، والمخاطبة على هذا لمحمد ﷺ.

وقوله تعالى: «انظروا أن يؤمنوا لكم» الآية. الخطاب للمؤمنين من أصحاب محمد ﷺ، وذلك أن الأنصار كان لهم حرص على إسلام اليهود للحلف والجوار الذي كان بينهم. ومعنى هذا الخطاب التقرير على أمر فيه بُعد، إذ قد سلفت لأسلاف هؤلاء اليهود أفاعيل سوء، وهؤلاء على ذلك السُنن. والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه كالحزب. وقال مجاهد، والسدي: عني بالفريق هنا الأخبار الذين حرفوا التوراة في صفة محمد ﷺ.

وقيل: المراد كل من حرف في التوراة شيئاً حكماً أو غيره، كفعلهم في آية الرجم ونحوها، وقال ابن إسحق، والربيع: عني السبعون الذين سمعوا مع موسى، ثم بدلوا بعد ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول ضعف، ومن قال إن السبعين سمعوا ما سمع موسى فقد أخطأ، وأذهب فضيلة موسى عليه السلام، واختصاصه بالتكليم. وقرأ الأعمش «كَلِمَ اللهُ»، وتحريف الشيء إمالته من حال إلى حال، وذهب ابن عباس رضي الله عنهما إلى أن تحريفهم وتبديلهم إنما هو بالتأويل، ولفظ التوراة باق، وذهب جماعة من العلماء إلى أنهم بدلوا ألفاظاً من تلقائهم، وأن ذلك ممكن في التوراة لأنهم استخفوا، وغير ممكن في القرآن لأن الله تعالى ضمّن حفظه.

٧٦ - ٧٨ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وهم أيضاً إذا «لَقُوا» يفعلون هذا، فكيف يُطمع في إيمانهم. ويحتمل أن يكون هذا الكلام مُستأنفاً مقطوعاً من معنى الطمع، فيه كشف سرائرهم. وورد في التفسير أن النسبي ﷺ قال: «لا يدخلن علينا قصبية المدينة إلا مؤمن». فقال كعب بن الأشرف وهب بن يهودا، وأشباههما: اذهبوا وتحسسوا أخبار من آمن بمحمد، وقولوا لهم آمنا،

واكفروا إذا رجعت، فنزلت هذه الآية، وقال ابن عباس: نزلت في منافقين من اليهود، وروي عنه أيضاً أنها نزلت في قوم من اليهود قالوا لبعض المؤمنين: نحن نؤمن أنه نبي، ولكن ليس إلينا، وإنما هو إليكم خاصة، فلما خلوا قال بعضهم: لِمَ تُقْرُونَ بِنُبُوَّتِهِ وقد كنا قَبْلُ نستفتح به؟ فهذا هو الذي فتح الله عليهم من علمه، وأصل «خَلَوْا» خَلَوُ تَحَرَّكَ الرِّوَاوِ وَاِنْفَتَحَ مَا قَبْلَهَا فَانْقَلَبَتْ أَلْفًا. وقال أبو العالية وقادة: إن بعض اليهود تكلم بما في التوراة من صفة محمد ﷺ، فقال لهم كفرة الأخبار: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم - أي عَرَفَكُمُ من صفة محمد - فيحتجون عليكم إذ تُقْرُونَ به ولا تؤمنون به؟ وقال السدي: إن بعض اليهود حكى لبعض المسلمين ما عُدب به أسلافهم، فقال بعض

أَوْ لَا يَمْلِكُونَ أَنْ اللَّهُ يَمْلِكَ مَا يَشْرُوكُ وَمَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧٦﴾
وَمِنْهُمْ أُمَّتٌ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِينَ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٧﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْرَوْا بِهِ مُمْتَلِينَ قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْتُمُونَ ﴿٧٨﴾ وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّكَارَ إِلَّا أَنْبَاءَ مَا قَدْ وَدَّ قَوْمٌ أَنْ نَحْمَدَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ فَكُنْ بِخِلْفِ اللَّهِ عَهْدَهُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٩﴾ بَلْ لَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهَا حِيلَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَالَّذِينَ إِيْسَاكَا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالسُّكَّانَ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٨٢﴾

الأخبار: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم من العذاب، فيحتجون عليكم، ويقولون: نحن أكرم على الله حين لم يفعل بنا هذا؟ وفتح - على هذا التأويل - بمعنى: حكّم.

وقال مجاهد: إن رسول الله ﷺ قال لبني قريظة: يا إخوة الخنازير والقردة. فقال الأخبار لأتباعهم: ما عرف هذا إلا من عندكم. أتحدثونهم؟ وقال ابن زيد: كانوا إذا سُئِلُوا عن شيء قالوا: في التوراة كذا وكذا، فكرهت الأخبار ذلك ونهوا في الخلوة عنه، ففيه نزلت الآية. والفتح في اللغة ينقسم أقساماً تجمعها بالمعنى التوسعة وإزالة الإبهام، وإلى هذا يرجع الحكم وغيره، والفتح هو القاضي بلغة اليمن، و«بهاجور» من الحجّة

وأصله من حَجَّ إذا قصد، لأن المتحاجين كل واحد منهما يقصد غلبة الآخر، و ﴿عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ معناه في الآخرة، وقيل ﴿عِنْدَ﴾ بمعنى: في ربكم - أي فيكونون أحق به، وقيل: المعنى: عند ذكر ربكم. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَمَّوُلُونَ﴾، قيل: هو من قول الأخبار للأتباع، وقيل: هو خطاب من الله للمؤمنين، أي: أفلا تعقلون أن بني إسرائيل لا يؤمنون وهم بهذه الأحوال؟ والعقل علوم ضرورية.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ بالياء من أسفل، وقرأ ابن محيصن ﴿أَوْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ بالتاء خطاباً للمؤمنين.

والذي أسروه: كفرهم - والذي أعلنته: قولهم: أمنا، هذا في سائر اليهود، والذي أسره الأخبار: صفة محمد ﷺ والمعرفة به، والذي أعلنته: الجحد به، ولفظ الآية يعم الجميع. و ﴿أُمِّيُونَ﴾ هنا عبارة عن جهلة بالتوراة. قال أبو العالية، ومجاهد، وغيرهما: المعنى: ومن هؤلاء اليهود المذكورين. فالآية منبهة على عامتهم وأتباعهم، أي أنهم ممن لا يطعم في إيمانهم، لِمَا غمرهم من الضلال. وقيل: المراد هنا بالأميين قوم ذهب كتابهم لذنوب ركبوا فبقوا أميين. وقال عكرمة والضحاك: هم في الآية نصارى العرب، وقيل: عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: هم المجوس، والضمير في ﴿وَنَهُمُ﴾ على هذه الأقوال هو للكفار أجمعين، وقول أبي العالية، ومجاهد

وجهُ هذه الأقوال، وقرأ أبو حنيفة، وابن أبي عبيدة: ﴿أُمِّيُونَ﴾ بتخفيف الميم، والأُمِّيُّ في اللغة الذي لا يكتب ولا يقرأ في كتاب - نُسِبَ إلى الأُمِّ، إما لأنه بحال أمه من عدم الكتاب، لا بحال أبيه، إذ النساء ليس من شغلهن الكتاب، قاله الطبري، وإما لأنه بحال ولدته أمه فيها، لم ينتقل عنها، وقيل: نُسِبَ إلى الأمة وهي القامة والخلفة، كأنه ليس له من الآدميين إلا ذلك، وقيل: نسب إلى الأمة على سذاجتها قبل أن تعرف المعارف، فإنها لا تقرأ ولا تكتب، ولذلك قال النبي ﷺ في العرب: ﴿إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ، لَا نَحْسِبُ وَلَا نَكْتُبُ﴾ الحديث، والألف واللام في ﴿الْكِتَابِ﴾ للعهد، ويعني به التوراة في قول أبي العالية، ومجاهد.

والأمانى جمع أمنيّة، وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع، في بعض ما روي عنه ﴿أَمَانِي﴾ بتخفيف الياء، وأصل أمنيّة أمنيّة على وزن (أفعولة)، ويُجَمَعُ هذا الوزن على (أفاعِل)، وعلى هذا يجيء تخفيف الياء، ويجمع على (أفاعيل) - فعلى هذا يجيء أمانى، أدغمت الياء في الياء فجاء أمانى واختلف في معنى [أمانى] فقالت طائفة: هي هنا من تَمَتَّى الرجل إذا تَرَجَّى فمعناه أن منهم من لا يكتب ولا يقرأ، وإنما يقول بظنه شيئاً سمعه فتمنى أنه من الكتاب، وقال آخرون: هي من تمنى إذا تلا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِذَا تَمَتَّى أَلْفَى الشَّيْطَانُ فِي أُمِّيَّتِهِ﴾ ومنه قول الشاعر:

تَمَتَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوْلَ لَيْلِيهِ
وَأَخْرَهُ لَأَقَى جَمَامَ الْمَقَادِرِ
فمعنى الآية: أنهم لا يعلمون الكتاب إلا سماع شيء يُتلى لا علم لهم بصحته، وقال الطبري: هي من تَمَتَّى الرَّجُلُ إِذَا حَدَّثَ بِحَدِيثٍ مَخْتَلَقٍ كَذِبٍ، وذكر أهل اللغة أن العرب تقول: تَمَتَّى الرَّجُلُ إِذَا كَذَبَ، واختلق الحديث، ومنه قول عثمان رضي الله عنه: «مَا تَمَتَّيْتُ وَلَا تَعَتَّيْتُ مِنْذُ أَسْلَمْتُ». فمعنى الآية أن منهم أميين لا يعلمون الكتاب إلا أنهم يسمعون من الأخبار أشياء مختلفة يظنونها من الكتاب، ﴿زَانَ﴾ نافية بمعنى (ما)، والظن هنا على بابهِ في الميل إلى أحد الجائزين.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ﴾ في الآية يراد بهم الأخبار والرؤساء، قال الخليل: الويل شدة الشر: وقال الأصمعي: الويل القبوح، وهو مصدر لا فعل له، ويجمع على ويلات، والأحسن فيه - إذا انفصل - الرفع، لأنه يقتضي الوقوع ويصح النصب على معنى الدعاء، أي ألزمه الله ويلا.

وَوَيْلٌ، وَوَيْحٌ، وَوَيْسٌ، وَوَيْبٌ، تتقارب في المعنى، وقد فرق بينها قوم، وروى سفيان، وعطاء بن يسار، أن الويل في هذه الآية وإد يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار، وروى أبو سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه وإد في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاري أربعين خريفاً، وقال أبو عبيد: إنه صهرج في جهنم. وروى عثمان بن عفان

رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه جبل من جبال النار، وحكى الزهراوي عن آخرين أنه باب من أبواب جهنم. و ﴿لِيَذِينَ يَكْتُوبُونَ﴾ هم الأخبار الذين بدلوا التوراة، وقوله ﴿بِأَيْدِيهِمْ﴾ بيانٌ لجرمهم وإثبات لمجاهرتهم الله.

وفزق بين من كَتَبَ وبين من أمر، إذ المتولي للفعل أشدُّ موافقة مِمَّنْ لم يَتَّوَلَّهُ، وإن كان رأياً له، وقال ابن السراج: هو كناية عن أنه من تلقائهم دون أن ينزل عليهم، وإن لم تكن حقيقة في كتب أيديهم.

والذي بدلوا هو صفة النبي ﷺ ليستديموا رياستهم ومكاسبهم، وقال ابن إسحق: كانت صفته في التوراة أسمر ربيعة فردوه آدم طويلاً، وذكر السدي أنهم كانوا يكتبون كتباً يبدلون فيها صفة النبي ﷺ ويبيعونها من الأعراب، ويبشونها في أتباعهم، ويقولون: هي من عند الله. وتناسق هذه الآية على التي قبلها يُعْطِي أَنْ هَذَا الْكُتُبِ والتبديل إنما هو للأتباع الأُميين الذين لا يعلمون إلا ما قرئ لهم.

والشمن - قيل: عَرَضَ الدنيا، وقيل: الرُّشَا والمأكَل التي كانت لهم، ووصفه بالقللة إمَّا لفنائه، وإمَّا لكونه حراماً. وكرر الويل لتكرار الحالات التي استحقوه بها، و ﴿يَكْتُوبُونَ﴾ معناه من المعاصي والخطايا، وقيل: من المال الذي تضمنه ذِكْرُ الشمن.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا الْكَلْبُ﴾ الآية، روى ابن زيد، وغيره، أن سبها أن النبي ﷺ قال لليهود: «مَنْ أَهْلُ النَّارِ؟» فقالوا: نحن، ثم

تخلفونا أنتم، فقال لهم: «كذبتم، لقد علمتم أننا لا نخلفكم»، فنزلت هذه الآية. ويقال: إن السبب أن اليهود قالت: إن الله تعالى أقسم أن يدخلهم النار أربعين يوماً عدد عبادتهم العجل، قاله ابن عباس، وقتادة، وعطاء.

وقالت طائفة: قالت اليهود: إن في التوراة أن طول جهنم مسيرة أربعين سنة، وأنهم يقطعون في كل يوم سنة، حتى يكملوها وتذهب جهنم. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وابن جريج، إنهم قالوا: إن مدة الدنيا سبعة آلاف سنة، وأن الله تعالى يعذبهم بكل ألف سنة يوماً. و ﴿أَتَّخَذْتُمْ﴾ أصله: أتخذتم، وزنه أفتعلمت من الأخذ، سهلت الهمزة الثانية لامتناع جمع همزتين فجاء أيتخذتم، فاضطربت الياء في التصريف جاءت ألفاً في ياتخذوا، وواواً في موتخذ، فبدلت بحرف جلد ثابت وهو التاء وأدغمت، فلما دخلت في هذه الآية ألف التقرير استغني عن ألف الوصل. ومذهب أبي علي أن اتَّخَذْتُمْ من تخذ لا من أخذ، وقد تقدم ذكر ذلك.

وقال أهل التفسير: العهد من الله في هذه الآية الميثاق والموعود، وقال ابن عباس وغيره: معناه هل قلت لا إله إلا الله، وآمنتكم، وأطعتم، فتدلون بذلك، وتعلمون أنكم خارجون من النار؟ فعلى هذا التأويل الأول يجيء المعنى: هل عاهدكم الله على الذي تدعون؟ وعلى التأويل الثاني يجيء: هل أسلفتم عند الله أعمالاً توجب ما تدعون؟

وقوله: ﴿فَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ عَهْدَهُ﴾ اعتراض أثناء الكلام.

و ﴿بِئْسَ﴾ ردٌ بعد النفي، بمنزلة نعم بعد الإيجاب، وقال الكوفيون: أصلها [بئس] التي هي للإضراب عن الأول، وزيدت عليها الياء ليحسن الوقف عليها، وضُمَّت الياء معنى الإيجاب والإيناع بما يأتي بعدها. وقال سيبويه: هي حرف مثل [بئس] وغيره، وهي في هذه الآية ردٌ لقول بني إسرائيل: ﴿لَنْ تَمَسَّنَا الْكَلْبُ﴾، فردَّ الله عليهم، وبين أن الخلود في النار والجنة بحسب الكفر والإيمان. و ﴿مَنْ﴾ شرط في موضع رفع بالابتداء و ﴿أَوَّلِيكَ﴾ ابتداء ثان و ﴿أَمَحَبَّ﴾ خبره، والجملة خبر الأول، و[الفاء] مُوطئة أن تكون الجملة جواب الشرط. وقالت طائفة: السبيبة: الشرك، كقوله ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّبِيحَةِ فَكَبَّتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ والخطيئات كبائر الذنوب، وقرأ قوم ﴿حَاطِيئُهُ﴾ بالإنفراد، وقال قوم: السبيبة الكبائر وأفرادها وهي بمعنى الجمع لما كانت تدل على الجنس، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسُدُّوا نَسَمَتَ اللَّهِ﴾ والخطيئة: الكفر، ولفظة الإحاطة تُقَوِّي هذا القول، وهي مأخوذة من الحاطط المحدق بالشيء. وقال الربيع بن خيثم، والأعمش، والسدي، وغيرهم: معنى الآية: مات بذنوب لم يتب منها، وقال الربيع أيضاً: مات على كفره، وقال الحسن بن أبي الحسن، والسدي: كل ما تَوَعَّدَ الله عليه بالنار فهي الخطيئة المحيطة. والخلود في هذه الآية على

إحساناً بالوالدين، ويعترض هذا القول بأن المصدر قد تقدم عليه ما هو معمول له، وقيل: تتعلق الباء بأحسنوا، المقدر، والمعنى: وأحسنوا بالوالدين إحساناً، وهذا قول حسن، وقدم اللفظ بالوالدين قولاً تهماً فهو نحو قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ وفي الإحسان تدخل أنواع بر الوالدين كلها، ﴿وَرَى﴾ عطف على الوالدين و ﴿الْقَرِينِ﴾ بمعنى القرابة، وهو مصدر كالرُجَمَى والمُعْبَى، وهذا يتضمن الأمر بصلة الرحم، ﴿وَالْيَتَامَى﴾ جمع يتيم كنديم وندامى، واليُتَمُّ في بني آدم فقد الأب، وفي اليهائم فقد الأم، وقال عليه السلام: ﴿لَا يَتَمُّ بَعْدَ بُلُوغِ﴾. وحكى الماوردي أن اليُتَمُّ يقال في بني آدم في فقد الأم. وهذا يتضمن الرأفة باليتامى وحيطة أموالهم، ﴿وَالْمَسْكِينِ﴾ جمع مسكين، وهو الذي لا شيء له، لأنه مشتق من السكون، وقد قيل: إن المسكين هو الذي له بُلُغَةٌ من العيش، وهو على هذا مشتق من السُكْنِ، وهذا يتضمن الحظ على الصدقة والمواساة، وتفقد أحوال المساكين.

وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾، أمر - عطف على ما تضمنه: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾، وما بعده من معنى الأمر والنهي، أو على أحسنوا المقدر في قوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقرأ حمزة، والكسائي ﴿حُسْنًا﴾ بفتح الحاء والسين، قال الأخفش: هما بمعنى واحد كالْبُخْلِ والبُخْلِ، قال الزجاج وغيره: بل المعنى في القراءتين: وقولوا قولاً

وإنما هو ميثاق أخذ عليهم وهم عقلاء في حياتهم على لسان موسى عليه السلام وغيره من أنبيائهم عليهم السلام.

وأخذ الميثاق قول، فالمعنى قلنا لهم: ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي ﴿لَا يَغْبُدُونَ﴾ بالياء من أسفل، وقرأ الباقر بالتاء من فوق، حكاية ما قيل لهم، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود، ﴿لَا تَغْبُدُوا﴾ على النهي. وقال سيويه: متعلق ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾ والمعنى: وإذ

استخلفناكم والله لا تعبدون. وقالت طائفة: تقدير الكلام بألا تعبدوا إلا الله، ثم حذفت الباء، ثم حذف أن فارتفع الفعل لزوالها، فلا تعبدون على هذا معمول لحرف النصب، وحكي عن قطرب: أن ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ في موضع الحال، أي أخذنا ميثاقهم موحدين، وهذا إنما يتجه على قراءة ابن كثير، ونظام الآية يدفعه مع كل قراءة.

وقال قوم: ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾ نهي في صيغة خبر، ويدل على ذلك أن في قراءة أبي ﴿لَا تَغْبُدُوا﴾، والباء في قوله: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هي متعلقة بالميثاق، عطفاً على الباء المقدره أولاً على قول من قال: التقدير: بأن لا تعبدوا. وقيل: تتعلق بقوله ﴿إِحْسَانًا﴾، والتقدير: قلنا لهم: لا تعبدون إلا الله، وأحسنوا

وَلَا أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَاسْمِعُونَ وَمَا كُمْ وَلَا تَحْجُرُونَ
أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِينِكُمْ ثُمَّ أَقْرَضْتُمْ وَأَنْشَرْتُمْ تَشَهُدُونَ ﴿٨٣﴾
ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتَحْجُرُونَ فَرِيضًا
مِنْكُمْ مِنْ دِينِكُمْ تَطَهَّرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِيمِ وَالْعُدْوَانِ
وَلَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ أَسْرَى نَفْسُهُمْ وَهُمْ وَهُمْ حَرَمٌ عَلَيْكُمْ
إِخْرَاجُهُمْ أَفْتَرِيضُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَكُفْرُونَ
بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ وَالْآخِرَى
فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ
وَمَا اللَّهُ بِسَفِيهِ عَمَّا تَحْمِلُونَ ﴿٨٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَسْرَأُوا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ
يُصْرَفُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ
بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْكِتَابَ وَآيَدْنَاهُ
رُوحَ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ
اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِقْنَا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٦﴾ وَقَالُوا
قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٧﴾

١٣

الإطلاق والتأبيد في المشركين، ومستعار بمعنى الطول في العصاة، وإن علم انقطاعه كما يقال: ملك خالد، ويدعى للملك بالخلد.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية يدل هذا التقسيم على أن قوله: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً﴾ الآية، في الكفار، لا في العصاة، ويدل على ذلك أيضاً قوله: ﴿وَأَحْلَلْتُ﴾ لأن العاصي مؤمن فلم تُحط به خطيئته، ويدل على ذلك أيضاً أن الرد كان على كفار ادعوا أن النار لا تمسهم إلا أياماً معدودة، فهم المراد بالخلود، والله أعلم.

﴿٨٣﴾ - ﴿٨٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكروا إذ أخذنا، وقال مكي رحمه الله: هذا هو الميثاق الذي أخذ عليهم حين أخرجوا من صلب آدم كالذُرِّ، وهذا ضعيف،

وحركت في التثنية لتدل الحركة على التغيير الذي في الواحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ معناه: ولا ينفي بعضكم بعضاً بالفتنة والبغي. ولما كانت ملتهم واحدة، وأمرهم واحداً، وكانوا في الأمم كالشخص الواحد، جعل قتل بعضهم لبعض، ونفي بعضهم بعضاً قتلاً لأنفسهم ونفياً لها، وكذلك حكم كل جماعة تخاطب بهذا اللف في القول. وقيل: لا تسفكون دماءكم أي لا يقتل أحد فيقتل قصاصاً فكأنه سفك دم لئلا تسبب في ذلك، ولا يفسد في الأرض فيُنفي فيكون قد أخرج نفسه من دياره، وهذا تأويل فيه تكلف، وإنما كان الأمر أن الله تعالى قد أخذ على بني إسرائيل في التوراة ميثاقاً ألا يقتل بعضهم بعضاً، ولا ينفيه، ولا يسترقه، ولا يدعه يُستزق إلى غير ذلك من الطاعات.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَقْرَبْتُمْ﴾ أي خلفاً بعد سلف أن هذا الميثاق أخذ عليكم والتزمتوه، فينتج في هذه اللفظة أن تكون من الإقرار الذي هو ضد الجحد، وتتعدى بالباء، وأن تكون من الإقرار الذي هو إيقاء الأمر على حاله، أي أقررتهم هذا الميثاق ملتزماً، وقوله ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ قيل: الخطاب يراد به من سلف منهم، والمعنى: وأنتم شهداء، أي حضور أخذ الميثاق والإقرار، وقيل إن المراد من كان في مدة محمد ﷺ، والمعنى: وأنتم شهداء، أي بينة أن هذا الميثاق أخذ على أسلافكم فمن بعدهم منكم.

خطاب لمعاصري محمد ﷺ، أسند إليهم تولي أسلافهم إذ هم كلهم بتلك السبيل، قال نحوه ابن عباس وغيره. و﴿ثُمَّ﴾ مبنية على الفتح ولم تجر مجرى زِدْ وشَدْ لأنها لا تتصرف. وضمت التاء الأخيرة من ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ لأن تاء المفرد أخذت الفتح، وتاء المؤنث أخذت الكسر، فلم يبق للتثنية والجمع إلا الضم.

و﴿قِيلَ﴾ نصب على الاستثناء، قال سيبويه: والمستثنى منصوب على التشبيه بالمفعول به، قال المبرد: هو مفعول حقيقة لأن تقديره استثنيت كذا، والمراد بالقليل جميع مؤمنيه قديماً من أسلافهم، وحديثاً كابن سلام وغيره، والقلة على هذا هي في عدد الأشخاص، ويحتمل أن تكون القلة في الإيمان أي لم يبق حين عصوا وكفر آخرهم بمحمد ﷺ إلا إيماناً قليلاً إذ لا ينفعهم، والأول أقوى، وقرأ قوم ﴿إِلَّا قَلِيلٌ﴾ برفع القليل، ورويت عن أبي عمرو.

وهذا على بدل قليل من الضمير في ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾، وجاز ذلك مع أن الكلام لم يتقدم فيه نفي لأن توليتم معناه النفي، كأنه قال ثم لم تفوا بالميثاق إلا قليلاً، والسفك صبُّ الدم وسرد الكلام، وقرأ طلحة بن مصرف، وشعيب بن أبي حمزة ﴿لَا تَسْفُكُونَ﴾ بضم الفاء، وقرأ أبو نهيك ﴿لَا تَسْفُكُونَ﴾ بضم التاء وكسر الفاء وتضعيفها. وإعراب ﴿لَا تَسْفُكُونَ﴾ كما تقدم في ﴿لَا تَعْبُدُونَ﴾. و﴿وَمَا كُنْتُمْ﴾ جمع دم وهو اسم منقوص، أصله دمي وتثنيته دميان وقيل: أصله دمي بسكون الميم،

حَسَنًا - بفتح السين - أو قولاً ذا حُسْنٍ، بضم الحاء. وقرأ قوم: حُسْنِي مثل فَعْلِي، وردّه سيبويه لأن أَفْعَلَ وفَعْلَى لا تجيء إلا معرفة إلا أن يزال عنها معنى التفضيل، وتبقى مصدرأ كالعقبى، فذلك جائز وهو وجه القراءة بها.

وقرأ عيسى بن عمر، وعطاء بن أبي رباح، ﴿حُسْنًا﴾ بضم الحاء والسين. وقال ابن عباس: معنى الكلام: قولوا لهم: لا إله إلا الله، ومروهم بها، وقال ابن جريج: قولوا لهم: حسناً في الإعلام بما في كتابكم من صفة محمد ﷺ. قال سفيان الثوري: معناه مروهم بالمعروف وانهموم عن المنكر، وقال أبو العالية: معناه قولوا لهم الطيب من القول، وحاوروهم بأحسن ما تحبون أن تحاوروا به، وهذا حض على مكارم الأخلاق.

وحكى المهدي عن قتادة أن قوله تعالى: ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ منسوخ بآية السيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن هذه الأمة خوطبت بمثل هذا اللفظ في صدر الإسلام، وأما الخبر عن بني إسرائيل وما أمروا به فلا نسخ فيه، وقد تقدم القول في إقامة الصلاة. وزكاتهم هي التي كانوا يضعونها وتنزل النار على ما تُقْبَلُ، ولا تنزل على ما لم يُقْبَلْ، ولم تكن كزكاة أمة محمد ﷺ.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الزكاة التي أمروا بها طاعة الله والإخلاص. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ﴾ الآية،

﴿هُؤُلَاءِ﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿هُؤُلَاءِ﴾ دالة على أَنَّ المخاطبة للحاضرين لا تحتمل رداً إلى الأسلاف، قيل: تقدير الكلام: يا هؤلاء، فحذف حرف النداء، ولا يحسن حذفه عند سيبويه مع المُبَهَّمَات. ولا تقول: هذا أقبل. وقيل: تقديره أعني هؤلاء. وقيل: هؤلاء بمعنى الذين، فالتقدير ثم أنتم الذين تقتلون، فتقتلون صلة لهؤلاء ونحوه، قال يزيد بن مفرغ الحُميري:

عَدَسٌ مَا لِعَبَادِ عَلَيْنِكَ إِسَارَةٌ
تَجَوَّبَتْ وَهَذَا تَحْمِيلِينَ طَلِيئُ
وقال الأستاذ الأجل أبو الحسن بن أحمد شيخنا رضي الله عنه: ﴿هُؤُلَاءِ﴾ رفع بالابتداء و﴿أَنْتُمْ﴾ خبر مقدم، وتقتلون حال، بها تم المعنى، وهي كانت المقصود، فهي غير مستغنى عنها، وإنما جاءت بعد أن تم الكلام في المسند والمسند إليه، كما تقول: هذا زيد منطلقاً، وأنت قد قصدت الإخبار بانطلاقه لا الإخبار بأن هذا هو زيد. وهذه الآية خطابٌ لفريضة، والتَّضْيِيرُ، وبنِي قَيْنُقَاعَ وذلك أن التَّضْيِيرَ وقُرَيْظَةَ حالفت الأوس، وبنِي قَيْنُقَاعَ حالفت الخزرج، فكانوا إذا وقعت الحرب بين بنِي قَيْلَةَ ذهب كل طائفة من بنِي إسرائيل مع أحلافها، فقتل بعضهم بعضاً وأخرج بعضهم بعضاً من ديارهم، وكانوا مع ذلك يفدي بعضهم أسرى بعض أتباعاً لحكم التوراة، وهم قد خالفوها بالقتال والإخراج. وقرأ الحسن بن أبي الحسن ﴿تَقْتُلُونَ﴾ بضم التاء

الأولى، وكسر الثانية وشدها على المبالغة، والديار: مباني الإقامة، وقال الخليل: محلة القوم دأهم، وقرأ عاصم، وحمزة والكسائي ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بتخفيف الظاء، وهذا على حذف التاء الثانية من تَنْظَاهِرُونَ، وقرأ بقية السبعة ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بشد الظاء على إدغام التاء في الظاء، وقرأ أبو حنيفة ﴿تَنْظَاهِرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الهاء، وقرأ مجاهد، وقاتدة، ﴿تَنْظَهْرُونَ﴾ بفتح التاء وشد الظاء والهاء مفتوحة دون ألف، ورويت هذه عن أبي عمرو. ومعنى ذلك على كل قراءة: تتعاونون، وهو مأخوذ من الظَّهْر كأن المتظاهرين يشدُّ كل واحد منهما ظهره إلى صاحبه. والإثم العَهْدُ الراتب على العبد من المعاصي والمعنى بمكتسبات الإثم - والعدوان تجاوز الحدود والظلم. وحسن لفظ الإتيان من حيث هو في مقابلة الإخراج فيظهر التضاد المُفْتِحُ لفعلهم في الإخراج.

وقرأ حمزة ﴿أَسْرَى تَفْدُوهُمْ﴾، وقرأ نافع وعاصم والكسائي: ﴿أَسَارَى تَفَادُوهُمْ﴾، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وابن كثير: ﴿أَسَارَى تَفْدُوهُمْ﴾ وقرأ قوم: ﴿أَسْرَى تَفَادُوهُمْ﴾. وأسارى: جمع أسير والأسير مأخوذ من الأسر وهو الشد. سُمِّيَ بذلك لأنه يؤسر أي يُشد وثاقاً، ثم كثر استعماله حتى لزم، وإن لم يكن ثم ربط ولا شد، وأسير فعيل بمعنى مفعول ولا يجمع بواو ونون وإنما يُكسَرُ على أسرى وأسارى، والأقيس فيه أسرى، لأن

فصيلاً بمعنى مفعول الأصل فيه أن يجمع على فَعْلَى كقتلى وجرحى، والأصل في فَعْلَانُ أن يجمع على فَعَالَى بفتح الفاء، وفَعَالَى بضمها، كسكران وكسَلان وسُكاري وكسالى. قال سيبويه: فقالوا في جمع كسلان: كسلى، شَبَّهوه بأسرى كما قالوا: أسارى، شَبَّهوه بكسالى، ووجه الشبه أن الأسر يدخل على المرء مُكْرَها كما يدخل الكسل، وفَعَالَى إنما يجيء فيما كأن آفة تدخل على المرء.

و ﴿تَنَكَّرُوهُمْ﴾ معناه في اللفظة تُظَلِّقُونَهُمْ بعد أن تأخذوا عنهم شيئاً، قاله أبو علي، وفاديت نفسي إذا أطلقتها بعد أن دفعت شيئاً، فعلى هذا قد تجيء بمعنى قَدَيْتُ أي دفعت فيه من مال نفسي، ومنه قول العباس للنسي ﷺ: «أعطني فإني فاديت نفسي، وفاديت عقيلاً». وهما فعلان يتعديان إلى مفعولين، الثاني منهما بحرف جر، تقول: فديت زيدا بمال، وفاديته بمال، وقال قوم: هي في قراءة تُفَادُوهُمْ مُفَاعَلة في أسرى بأسرى، وقال أبو علي: كل واحد من الفريقين فعل: الأسر دفع الأسير، والمأسور منه دفع أيضاً إما أسيراً وإما غيره، والمفعول الثاني محذوف.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مُحَرَّمٌ﴾، قيل في ﴿هو﴾: إنه ضمير الأمر، وتقديره: والأمر محرم عليكم، و ﴿إِخْرَاجَهُمْ﴾ في هذا القول بدل من ﴿هو﴾، وقيل: (هو) فاصلة وهذا مذهب الكوفيين وليست، هنا بالتي هي عماد و ﴿مُحَرَّمٌ﴾ على هذا ابتداء و ﴿إِخْرَاجَهُمْ﴾ خبره، وقيل: هو

الضمير المقدر في محرم قُدِّم وأظهر، وقيل: هو ضمير الإخراج تقديره: وإخراجهم محرم عليكم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ﴾ يعني التوراة، والذي آمنوا به فداء الأسارى، والذي كفروا به قتل بعضهم بعضاً وإخراجهم من ديارهم - وهذا توبيخ لهم، وبيان لفتح فعلهم.

وزوي أن عبدالله بن سلام مرَّ على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادي من النساء من لم تقع عليه العرب، ولا يفادي من وقع عليه، فقال له ابن سلام: أما إنَّه مكتوب عندك في كتابك أن تفاديهم كلَّهم. ثمَّ توعدهم عز وجل. والخزبي: الفضيحة والعقوبة يقال: خزي الرجل يخزي خزياً إذا ذلَّ من الفضيحة، وخزي يخزي خزاية إذا استحيا...

واختلف ما المراد بالخزي ها هنا؟ فقيل: القصاص فيمن قتل، وقيل: ضرب الجزية عليهم غابر الدهر، وقيل: قتل قريظة وإجلاء النضير، و ﴿الَّذِينَ﴾ مأخوذة من دنا يدنو، وأصل الباء فيها واو، ولكن أبدلت فرقاً بين الأسماء والصفات.

و ﴿أَشِدَّاءُ الْغُلُوبِ﴾ الغلود في جهنم، وقرأ الحسن، وابن هرمز ﴿تُرْدُونَ﴾ بتاء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ﴾ الآية، قرأ نافع، وابن كثير ﴿يُغْمَلُونَ﴾ بياء على ذكر الغائب، فالخطاب بالآية لأمة محمد ﷺ، والآية واعظة لهم بالمعنى إذ الله تعالى بالمرصاد لكل كافر وعاصر. وقرأ الباقر بتاء على الخطاب

المحتمل أن يكون في سرد الآية وهو الأظهر، ويحتمل أن يكون لأمة محمد ﷺ، فقد زوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «إن بني إسرائيل قد مضوا، وأنتم الذين تُؤمنون بها يا أمة محمد».

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

جعل الله تزك الآخرة، وأخذ الدنيا مع قدرتهم على التمسك بالآخرة بمنزلة من أخذها ثمَّ باعها بالدنيا، وهذه النزعة صرفها مالك رحمه الله في فقه البيوع، إذ لا يجوز الشراء على أن يختار المشتري في كل ما تختلف صفة أحاده، ولا يجوز فيه التفاضل كالحجل المذبوحة وغيرها، ولا يخفف العذاب في الآخرة، ولا يُنصرون لا في الدنيا ولا في الآخرة، ﴿وَالْكِتَابِ﴾ التوراة ونصبه على المفعول الثاني لآتيننا، و ﴿فَقِيَّتْنَا﴾ مأخوذ من القفا، تقول: قَفَيْتُ فلاناً بفلان إذا جثت به من قَبَل قفاه، ومنه قَفَا يقفوا إذا اتبع، وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتًّا﴾، وكل رسول جاء بعد موسى فإنما جاء بإثبات التوراة والأمر بلزومها إلى عيسى عليه السلام. وقرأ الحسن، ويحيى ابن يعمر: ﴿بِالرُّسُلِ﴾ ساكنة السين، ووافقهما أبو عمرو إذا انضاف ذلك إلى ضمير نحو: رسلنا ورسلمهم، و ﴿الْبَيْتَاتِ﴾ الحجج التي أعطاها الله عيسى، وقيل: هي آياته من إحياء، وإبراء، وخلق طير، وقيل: هي الإنجيل، والآية تعم جميع ذلك، ﴿وَأَيَّدْتَهُ﴾ معناه قويناه، والأيد القوة. وقرأ ابن محيصن، والأعرج،

وحميد ﴿أَيَّدْنَاهُ﴾. وقرأ ابن كثير، ومجاهد: ﴿رُوحَ الْقُدُسِ﴾ بسكون الدال. وقرأ الجمهور بضم القاف والدال، وفيه لغة فتحها، وقرأ أبو حنيفة ﴿بِرُوحِ الْقُدُوسِ﴾ بواو. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: روح القدس: هو الاسم الذي به كان يُحيى الموتى. وقال ابن زيد: هو الإنجيل كما سُمي الله تعالى القرآن روحاً. وقال السدي، والضحاك، والربيع، وقتادة: روح القدس جبريل ﷺ، وهذا أصح الأقوال، وقد قال النبي ﷺ لحسان بن ثابت: «افج قريشاً، وروح القدس معك»، ومرة قاله له: «وجبريل معك»، الربيع، ومجاهد: القدس اسم من أسماء الله تعالى كالقُدُوس، والإضافة على هذا إضافة الملك إلى المالك، وتوجهت لما كان جبريل عليه السلام من عباد الله تعالى، وقيل: القدس الطهارة، وقيل: القدس البركة.

و ﴿كَلَّمَآ﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿أَشْكُرْتُمْ﴾، وظاهر الكلام الاستفهام ومعناه التوبيخ والتقرير، ويتضمن أيضاً الخبر عنهم، والمراد بهذه الآية بنو إسرائيل، ويروى أن بني إسرائيل كانوا يقتلون في اليوم ثلاثمائة نبي، ثم تقوم سوقهم آخر النهار، وروي: سبعين نبياً ثم تقوم سوق بقلهم آخر النهار، وفي ﴿تَهْوَى﴾ ضمير حذف من صلة (ما) لطول اللفظ. والهوى أكثر ما يُستعمل فيما ليس بحق، وهذه الآية من ذلك، لأنهم إنما كانوا يهوون الشهوات، وقد يستعمل في الحق،

مصحف أبي بن كعب (مصدقاً) بالنصب، و ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ معناه أن بني إسرائيل كانوا قبل مبعث النبي ﷺ قد علموا خروجه بما عندهم من صفته وذُكر وقته، وظنوا أنه منهم، فكانوا إذا حاربوا الأوس والخزرج فغلبتهم العرب قالوا لهم: لو خرج النبي الذي قد أظلم وقته لقتلناكم معه، واستنصرنا عليكم به، و ﴿يَسْتَفْتِحُونَ﴾ معناه يستنصرون، وفي الحديث: (كان رسول الله ﷺ يستفتح بصعاليك المهاجرين)، وروي أن قريظة، والنضير، وجميع يهود الحجاز في ذلك الوقت، كانوا يستفتحون على سائر العرب، وبسبب خروج النبي المنتظر كانت نقلتهم إلى الحجاز وسكناهم به، فإنهم كانوا علموا صُغع المبعث، وما عرفوا أنه محمد عليه السلام وشرعه، ويظهر من هذه الآيات العناد منهم، وأن كُفْرهم كان مع معرفة ومعاندة، و ﴿لَقِنَّةَ اللَّهِ﴾ معناه: إبعاده لهم وخزيهم لذلك، واختلف النحاة في جواب [لَمَّا] و [لَمَّا] الثانية في هذه الآية، فقال أبو العباس المبرد: جوابها في قوله: ﴿كَفَرُوا﴾، وأعيدت لَمَّا الثانية لطول الكلام، ويفيد ذلك تقريراً للذنب وتأكيده، وقال الزجاج: لَمَّا الأولى لا جواب لها، للاستغناء عن ذلك بدلالة الظاهر من الكلام عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنه محذوف.

وقال الفراء: جواب لَمَّا الأولى في الفاء وما بعدها، وجواب لَمَّا الثانية كفروا، وبسبب أصله بئس سهلت

المعنى فكيف يَغْرُب عنها علم محمد ﷺ؟ فَرَدَّ اللهُ عليهم بقوله: ﴿بَلْ لَعَنَهُمُ اللهُ بِكُفْرِهِمْ﴾، وبل في هذه الآية نقض للأول، وإضراب عنه، ثم بيّن تعالى أن السبب في نفورهم عن الإيمان إنما هو أنهم لعنوا بما تقدم من كفرهم واجترامهم، وهذا هو الجزاء على الذنب بأعظم منه، واللعن الإبعاد والطرده. و ﴿قِيلَ﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: فإيماناً قليلاً ما يؤمنون، والضمير في يؤمنون لحاضري محمد ﷺ،

وبتجه قلة هذا الإيمان، إمَّا لأن مَنْ آمن بمحمد منهم قليل، فيقل لقلة الرجال، قال هذا المعنى قتادة، وإمَّا لأن وقت إيمانهم عندما كانوا يستفتحون به قبل مبعثه قليل، إذ قد كفروا بعد ذلك، وإمَّا لأنهم لم يبق لهم بعد كفرهم غير التوحيد على غير وجهه، إذ هُم مجسمون، فقد قللوه بجحدهم الرسول، وتكذيبهم التوراة، فإنما يقل من حيث لا ينفعهم كذلك، وعلى هذا التأويل يجيء التقدير: فإيماناً قليلاً، وعلى الذي قبله: فوقاً قليلاً، وعلى الذي قبله فعدداً من الرجال قليلاً، و ﴿مَّا يُؤْمِنُونَ﴾ زائدة مؤكدة، و ﴿قِيلَ﴾ نصب بيؤمنون.

٨٩ - ٩٠ تفسير قوله عز وجل:

الكتاب: القرآن، و ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا كُفَرُوا﴾ يعني التوراة، وروي أن في

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَمَّا عَلِيَ الْكُفْرُ فِيهِمْ ﴿٨٩﴾ يَسْمَعُوا آسْرًا وَيَأْتِيَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ نَبِيًّا أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ قَبْلِهِ - عَلَى مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ نَبِيًّا وَيَعْضِبُ عَلَى عَضِبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا تَوْحِينَ بِمَا أَنْزَلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمْ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قُلُوبًا مَعِينًا وَعَصِيانًا وَأَسْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ يَكْفُرْهُمْ قُلْ يَسْمَعُوا يَا مَعْرُوفُكُمْ بِهِ يَتَّبِعُونَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾

ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أسرى بدر: «فهو رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو يهو ما قلت» و ﴿أَسْتَكْبِرْتُمْ﴾ من الكبر، و ﴿قَرِيبًا﴾ مفعول مقدم. وقرأ جمهور القراء: ﴿عُغْلَفَ﴾ بإسكان اللام على أنه جمع أغلف مثل حُمر وضُفر والمعنى قلبونا عليها غلف وغشاوة فهي لا تفقه. قاله ابن عباس: وقال قتادة: المعنى عليها طابع. وقالت طائفة: غُلف بسكون اللام جمع غلاف أصله غُلف بتثقيल اللام فحُفُف، وهذا قُل ما يستعمل إلا في الشعر. وقرأ الأعمش، والأعرج، وابن محيصن: ﴿عُغْلَفَ﴾ بتثقيل اللام جمع غُلاف، ورويت عن أبي عمرو، فالمعنى. هي أوعية للعلم والمعارف بزعمهم، فهي لا تحتاج إلى علم محمد. وقيل:

الهمزة ونقلت إلى الياء حركتها، ويقال في بش: بيس، إبتاعاً للكسرة وهي مستوفية للذم، كما أن نعم مستوفية للمدح. واختلف النحويون في (بَيْسَمًا) في هذا الموضع، فذهب سيبويه أن (ما) فاعلة بيس، ودخلت عليها بيس كما تدخل على أسماء الأجناس والتكررات لمّا أشبهتها (ما) في الإبهام، فالتقدير على هذا القول: «بيس الذي اشتروا به أنفسهم أن يكفروا»، كقولك: بيس الرجل زيد، و (ما) في هذا القول موصولة، وقال الأخفش: (ما) في موضع نصب على التمييز كقولك: بيس رجلاً زيداً، فالتقدير: بيس شيئاً أن يكفروا، و «أَشْتَرُوا بِوَيْهِ أَنْفُسَهُمْ»، في هذا القول صفة (ما). وقال الفراء: بيسما بجملته شيء واحد رُكِبَ كحيداً، وفي هذا القول اعتراض لأنه فعل يبقى بلا فاعل، و [مَا] إنما تكفُّ أبداً حروفاً. وقال الكسائي: ما واشتروا بمنزلة اسم واحد قائم بنفسه، فالتقدير: بيس اشتراؤهم أنفسهم أن يكفروا. وهذا أيضاً معترض لأن بيس لا تدخل على اسم معين متعرف بالإضافة إلى الضمير. وقال الكسائي أيضاً: إن (ما) في موضع نصب على التفسير، ثم (ما) أخرى مضمرة، فالتقدير: بيس شيئاً ما اشتروا به أنفسهم، و «أَنْ يَكْفُرُوا» في هذا القول بدل من (ما) المضمرة، ويصح في بعض الأقوال المتقدمة أن تكون «أَنْ يَكْفُرُوا» في موضع خفض بدلاً من الضمير في (به)، وأما في

القولين الأولين فَأَنْ يَكْفُرُوا ابتداءً وخبره فيما قبله. و «أَشْتَرُوا» بمعنى باعوا، يقال شرى واشترى بمعنى باع وبمعنى ابتاع و «مَا أَنْزَلَ اللَّهُ» يعني به القرآن، ويحتمل أن يراد به التوراة، لأنهم إذا كفروا بعيسى ومحمد عليهما السلام فقد كفروا بالتوراة، ويحتمل أن يراد به الجميع من توراة وإنجيل وقرآن، لأن الكفر ببعض يلزم الكفر بالكل. و (بغياً) مفعول من أجله، وقيل: نصب على المصدر، و «أَنْ يُنْزَلَ» نصب على المفعول من أجله، أو في موضع خفض بتقدير: بأن يُنْزَلَ، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: «أَنْ يُنْزَلَ» بالتخفيف في النون والزاي، و «بِئْسَ فَضْلُهُ» يعني من النبوة والرسالة، «مَنْ يَشَاءُ» يعني به محمداً ﷺ، لأنهم حسدوه لمّا لم يكن منهم، وكان من العرب، ويدخل في المعنى عيسى ﷺ لأنهم كفروا به بغياً، والله قد فضل عليه.

وباءوا: معناه مضوا متحملين لمّا يُذْكَرُ أنهم باءوا به، و «بِقَضْبٍ» معناه من الله تعالى، لكفرهم بمحمد ﷺ «عَلَّ عَضْبٍ» متقدم من الله تعالى عليهم، قيل: لعبادتهم العجل، وقيل: لقولهم: عَزَّزْنَا ابن الله، وقيل: لكفرهم بعيسى عليه السلام، فالمعنى: عَلَّى غضبٍ قد بآء به أسلافهم، حظ هؤلاء منه وافر بسبب رضاهم بتلك الأفعال وتصويبهم لها.

وقال قوم: المراد بقوله: «بِقَضْبٍ عَلَّ عَضْبٍ» التأكيد، وتشديد الحال عليهم، لأنه أراد غضبين مُعَلَّلَيْن

بقصتين. و «بِهَيْنٍ» مأخوذ من الهوان، وهو ما اقتضى الخلود في النار، لأن من لا يَخْلُدُ مِنْ عَصَاةِ المسلمين إنما عذابه كعذاب الذي يقام عليه الحد لا هوان فيه، بل هو تطهير له. وقوله تعالى: «وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ: يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِيمَانِ أَقْبَلَ عَلَيْهِمُ الْعُدْوَانَ» يعني اليهود أنهم إذا قيل لهم: آمنوا بالقرآن الذي أنزل الله على محمد ﷺ قالوا: نؤمن بما أنزل علينا، يعنون التوراة. «بِمَا وَرَاءَهُمْ». قال قتادة: أي ما بعده، قال الفراء: أي ما سواه ويعني به القرآن. وإذا تكلم رجل، أو فعلاً فأجاد يقال له: ما وراء ما أتيت به شيء، أي ليس يأتي بعده، ووصف تعالى القرآن بأنه الحق.

و «مُضِدَّقًا» حال مُؤَكَّدَةٌ عند سيبويه وهي غير منتقلة، وقد تقدم معناها في الكلام، ولم يبق لها هي إلا معنى التأكيد، وأشد سيبويه على الحال المؤكدة:

أَنَا ابْنُ دَاوَةَ مَعْرُوفًا بِهَا حَسْبِي
وَهَلْ لِدَاوَةَ يَا لِلنَّاسِ مِنْ عَارٍ؟
و «لِمَا مَعَهُمْ» يريد به التوراة.

وقوله تعالى: «قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ» الآية رد من الله تعالى عليهم في أنهم آمنوا بما أنزل عليهم، وتكذيب منه لهم في ذلك، واحتجاج عليهم.

ولا يجوز الوقف على «قُلْ» لنقصان الحرف الواحد، إلا أن البرزخي وقف عليه بالهاء، وسائر القراء بسكون الميم. وخاطب الله من حضر محمداً ﷺ من بني إسرائيل بأنهم قتلوا الأنبياء لما كان ذلك من فعل أسلافهم.

وجاء «تَقْتُلُونَ» بلفظ الاستقبال

والمعنى: جعلت قلوبهم تشربه، وهذا تشبيه ومجاز عبارة عن تمكن أمر العجل في قلوبهم، وقال قوم: إن معنى قوله: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَيْجَلَ﴾ شربهم الماء الذي ألقى فيه موسى بُرَادَةَ العجل، وذلك أنه بَرَدَةٌ بالمبرد ورماء في الماء، وقيل لبني إسرائيل: اشربوا من ذلك الماء، فشرب جميعهم، فمن كان يحب العجل خرجت برادة الذهب على شفثيه. وهذا قول يرده قوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ﴾، وزوي أن الذين تبين فيهم حب العجل أصابهم من ذلك الماء الجن.

وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرْهُمْ﴾، يحتمل أن تكون بآء السبب، ويحتمل أن تكون بمعنى مع.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَسْكَا﴾ الآية، أمر لمحمد ﷺ أن يوبخهم بأنه بشس هذه الأشياء التي فعلتم، وأمركم بها إيمانكم الذي زعمتم في قولكم: ﴿تُؤْمِنُونَ بِمَا نَزَّلَ عَلَيْنَا﴾، و (ما): في موضع رفع، والتقدير: بشس الشيء قتل واتخاذ عجل، وقول سمعنا وعصينا. ويجوز أن تكون (ما) في موضع نصب، ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط، وقد يأتي الشرط والشارط يعلم أن الأمر على أحد الجهتين، كما قال الله عن عيسى عليه السلام: ﴿إِنْ كُنْتُمْ قُلْتُمْ فَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾ وقد علم أن عيسى عليه السلام لم يقله، كذلك: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، والقائل يعلم أنهم غير مؤمنين، لكنه إقامة حجة بقياس بين، وقال قوم: ﴿إِنْ﴾ هنا نافية بمنزلة (ما) كالتي تقدمت. وقرأ الحسن، ومسلم بن

وفرق البحر، وغير ذلك من آيات موسى عليه السلام، وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتَذِمُّكُمْ﴾ تدل ﴿ثُمَّ﴾ على أنهم فعلوا ذلك بعد مهلة من النظر في الآيات، وذلك أعظم في ذنبهم، وقد تقدمت قصة اتخاذهم العجل، والضمير في قوله: ﴿مِنْ بَدْوِهِمْ﴾ عائد على موسى عليه السلام، أي من بعده حين غاب عنكم في المناجاة، ويحتمل أن يعود الضمير فسي ﴿بَدْوِهِمْ﴾ على المجيء، وهذه الآية ترد عليهم في أن من آمن بما

نزل عليه لا يتخذ العجل، وقد تقدم ذكر أخذ الميثاق ورفع الطور.

وقوله: ﴿عُدُوا مَا آتَيْنَكُم بِقُورَةٍ﴾، يعني التوراة، والشرع. و ﴿بِقُورَةٍ﴾ أي بعزم، ونشاط، وجد، ﴿وَأَسْمَعُوا﴾ معناه هنا: وأطيعوا، وليس معناه الأمر بإدراك القول فقط.

وقالت طائفة من المفسرين: إنهم ﴿قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾، ونطقوا بهذه الألفاظ مبالغة في التعنت والمعصية، وقالت طائفة: ذلك مجاز، ولم ينطقوا بسمعنا وعصينا ولكن فعلهم اقتضاه، كما قال الشاعر:

امْتِثْلًا الْحَزْضُ وَقَالَ قَطْنِي

.....

وهذا أيضاً احتاج عليهم في كذب قولهم: ﴿تُؤْمِنُونَ بِمَا نَزَّلَ عَلَيْنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَشْرَبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْوَيْجَلَ﴾، التقدير: حب العجل،

قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ أَلْسِنَةٌ آخِرَةٌ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِنْ دُونِ النَّاسِ فَمَتَمُّوا الْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٢﴾
وَأَنْ يَسْمَعُوهُ أَيْدٍ أَيْمَانًا قَدِمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٩٣﴾
وَلَعَلَّ جُنُودَهُمْ مَعْرُوفٌ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوْمَئِذٍ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ لَوْ يَسَّرُ اللَّهُ لَهُمْ مَذْهَبًا مِمَّا هُمْ فِيهِ يَخْتَرُونَ ﴿٩٤﴾
مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ بِمَا كَفَرُوا وَعَلَىٰ قَوْلِكَ يَا ذَا اللَّهِ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّ مَنزِلَهُ عَلَيْكَ لِكَيْلٍ بِأَذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٥﴾
مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ ﴿٩٧﴾
أَوْ كَلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا أَبَدَهُمْ فَوَيْبٌ لِيَهُمْ بَلْ أَكْرَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ بَدَّ فَوْقَهُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كَيْتَبَ اللَّهُ وَرَأَىٰ ظُهُورَهُمْ كَأَنَّهَمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٩﴾

وهو بمعنى الماضي لما ارتفع الإشكال بقوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾، وإذا لم يشكل فجازت سَوْقُ الماضي بمعنى المستقبل، وسَوْقُ المستقبل بمعنى الماضي، قال الحطيطي:

شَهِدَ الْخَطِيئَةَ يَوْمَ يَلْقَىٰ رَبَّهُ
أَنَّ الْوَلِيدَ أَحْسَبُ بِالْعُذْرِ

وفائدة سَوْقُ الماضي في موضع المستقبل الإشارة إلى أنه في الثبوت كالماضي الذي قد وقع، وفائدة سوق المستقبل في معنى الماضي الإعلام بأن الأمر مستمر ألا ترى أن حاضري محمد ﷺ لما كانوا راضين بفعل أسلافهم بقي لهم من قتل الأنبياء جزء، و ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ شرط، والجواب متقدم، وقالت فرقة: [إِنْ] نافية بمعنى (ما).

٩٢ - ٩٣ تفسير قوله عز وجل:

﴿الْبَيِّنَاتِ﴾: التوراة، والعصا،

جندب ﴿بِهِو إِيْمَانُكُمْ﴾ برفع الهاء .
 وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ
 أَلْدَارُ الْآخِرَةِ﴾ الآية، أمر
 لمحمد ﷺ أَنْ يُؤْبِخَهُمْ، والمعنى:
 إِنْ كَانَ لَكُمْ نَعِيمٌ وَحِطَّتْهَا وَخَيْرُهَا
 فَذَلِكَ يَقْتَضِي حِرْصَكُمْ عَلَى الْوَصُولِ
 إِلَيْهَا فَتَمَنُوا الْمَوْتَ، و﴿أَلْدَارُ﴾:
 اسم كانت، و﴿عَالِمِكُمْ﴾ خبرها،
 ويجوز أن يكون نصب ﴿عَالِمِكُمْ﴾
 على الحال، و﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ خبر
 كان، و﴿مِنْ دُونِ النَّاسِ﴾ يحتمل أن
 يراد بالناس محمد ﷺ ومن تبعه،
 ويحتمل أن يراد العموم التام، وهو
 قول اليهود فيما حفظ عنهم، وقرأ
 ابن أبي إسحاق بكسر الواو من
 ﴿تَمَنُوا﴾ للالتقاء، وحكى الأهوازي
 عن أبي عمرو أنه قرأ ﴿تَمَنُوا
 الْمَوْتَ﴾ بفتح الواو، وحكى عن
 غيره اختلاس الحركة في الرفع،
 وقراءة الجماعة بضم الواو.
 وهذه آية بيّنة أعطاهها الله رسوله
 محمداً ﷺ، لأن اليهود قالت:
 ﴿مَنْ أَسْبَغَ اللَّهُ وَاجْتَبَاهُ﴾، وشبهه
 ذلك من القول، فأمر الله نبيه أن
 يدعوهم إلى تَمَنِي الْمَوْتَ، وأن
 يعلمهم أنه مَنْ تَمَنَاهُ مِنْهُمْ مَاتَ،
 ففعل النبي ﷺ ذلك، فعلم اليهود
 صدقه فأحجموا عن تَمَنِيهِ فَرَقَا
 من الله لقبح أعمالهم، ومعرفتهم
 لكذبهم في قولهم: ﴿مَنْ أَسْبَغَ
 اللَّهُ﴾، وحرصاً منهم على الحياة،
 وقيل: إِنْ كَانَ اللَّهُ مَنَعَهُمْ مِنَ التَّمَنِي،
 وقصرهم على الإمساك عنه، لتظهر
 الآية لنبيه ﷺ.

والمراد بقوله: ﴿تَمَنُوا﴾ أريدوه
 بقلوبكم واسألوه، هذا قول جماعة

من المفسرين، وقال ابن عباس:
 المراد به السؤال فقط وإن لم يكن
 بالقلب، وقال أيضاً هو وغيره: إنما
 أمروا بالدعاء بالموت على أَرْدَى
 الحزين من المؤمنين أو منهم .

وذكر المهدي وغيره أن هذه الآية
 كانت مدة حياة النبي ﷺ وارتفعت
 بموته. والصحيح أن هذه النازلة من
 موت مَنْ تَمَنِي الْمَوْتَ إنما كانت
 أياماً كثيرة عند نزول الآية، وهي
 بمنزلة دعائه النصارى من أهل نجران
 إلى المباهلة، وقالت فرقة: إن سبب
 هذا الدعاء إلى تَمَنِي الْمَوْتَ أَنَّ
 النبي ﷺ أراد به هلاك الفريق
 المكذب، أو قطع حجتهم، لا أَنَّ
 عَلَّمَهُ قَوْلَهُمْ: ﴿مَنْ أَسْبَغَ اللَّهُ﴾.

ثم أخبر تعالى عنهم بعجزهم،
 وأنهم لا يَتَمَنُونَهُ، و﴿أَبَدًا﴾ ظرف
 زمان، وإذا كانت (ما) بمعنى الذي
 فتحتاج إلى عائذ تقديره: قَدَمْتُهُ،
 وإذا كانت مع ﴿قَدَمْتُهُ﴾ بمشابهة
 المصدر غنيت عن الضمير، هذا
 قول سيبويه، والأخفش يرى
 الضمير في المصدرية. وأضاف
 ذنوبهم واجترامهم إلى الأيدي،
 وأسند تقديمها إليها، إذ الأكثر من
 كسب العبد الخير والشر إنما هو
 بيديه، فحمل جميع الأشياء على
 ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّا عَلَىٰ
 بِالْقَلْبَيْنِ﴾ ظاهرها الخبر، ومضمونها
 الوعيد، لأن الله عليم بالظالمين
 وغيرهم، ففائدة تخصيصهم حصول
 الوعيد.

٩٦ - ٩٧ تفسير قوله عز وجل:

(وجد) في هذا المعنى تتعدى إلى
 مفعولين، لأنها من أفعال النفس،

ولذلك صح تعديها إلى ضمير
 المتكلم في قول الشاعر:

تَلَقَّتُ نَحْوَ الْحَيِّ حَتَّىٰ وَجَدْتَنِي
 وَجَعْتُ مِنَ الْإِضْغَاءِ لَيْتًا وَأَخْدَعًا
 وقال النبي ﷺ في الضب: ﴿إِنَّهُ لَمْ
 يَكُنْ بِأَرْضِ قَوْمِي فَأَجِدُنِي أَحَافَهُ﴾.

وحرصهم على الحياة لمعرفةهم
 بذنوبهم، وأن لا خير لهم عند الله
 تعالى .

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ
 أَشْرَكُوا﴾، قيل: المعنى وأحرص من
 الذين أشركوا، لأن مشركي العرب
 لا يعرفون إلا هذه الحياة الدنيا، ألا
 ترى إلى قول امرئ القيس:

تَمَتَّحَ مِنَ الدُّنْيَا فَبِأَنَّكَ قَانِ

والضمير في ﴿أَحَدَهُمْ﴾ يعود في
 هذا القول على اليهود، وقيل: إن
 الكلام تم في حياة ثم استؤنف
 الإخبار عن طائفة من المشركين أنهم
 يود أحدهم، وهي المجوس، لأن
 تسميتهم العاطس لفظ بلغتهم معناه
 «عش ألف سنة»، فكأن الكلام:
 ومن المشركين قوم يود أحدهم،
 وفي هذا القول تشبيه بني إسرائيل
 بهذه الفرقة من المشركين. وقصد
 الألف بالذكر لأنها نهاية العقد في
 الحساب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِمُرْزِقِيهِ﴾،
 اختلف النحاة في ﴿هُوَ﴾، فقيل: هو
 ضمير الأحد المتقدم، فالتقدير:
 (وما أحدهم بمزحزحه)، وخبر
 الابتداء في المجرور، و﴿أَنْ يُمَرَّ﴾
 فاعل بمزحزحه، وقالت فرقة: هو
 ضمير التعمير، والتقدير: (وما
 التعمير بمزحزحه)، والخبر في

المجور، وأن يعمر بدل من التعمير في هذا القول، وقالت فرقة: هو ضمير الأمر والشأن، وقد رُد هذا القول بما حفظ عن النحاة من أن الأمر والشأن إنما يفسر بجملة سالمة من حرف جر.

وقد جوز أبو علي ذلك في بعض مسائله الحليات.

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: هو عماد، وقيل: (ما) عاملة حجازية وهو اسمها والخبر في ﴿بِئْرٍ حَرَامٍ﴾، والزحزحة الإبعاد والتنحية، وفي قوله: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ﴾ يَمَّا يَمْتَلُونَ وعيد، والجمهور على قراءة ﴿يَفْتَلُونَ﴾ بالياء من أسفل، وقرأ قتادة، والأعرج، ويعقوب ﴿فَتَمْلُونَ﴾ بالتاء من فوق، وهذا على الرجوع إلى خطاب المتوَعِدِينَ من بني إسرائيل.

وقوله: ﴿فَلَمَّا كَانَتْ عِدَّةُ لَيْلٍ﴾ الآية، نزل على سبب لم يتقدم له ذكر فيما مضى من الآيات، ولكن أجمع أهل التفسير أن اليهود قالت: جبريل عدونا، واختلف في كيفية ذلك، فقيل: إن يهود فداق قالوا للنبي ﷺ: نسألك عن أربعة أشياء، فإن عرفتها أتبعناك، فسألوه عما حرم إسرائيل على نفسه، فقال: «لحوم الإبل والبانها»، وسألوه عن الشبه في الولد فقال: «أبي ماء علا كان الشبه له»، وسألوه عن نومه فقال: «تنام عيني ولا ينام قلبي»، وسألوه عمن يجيئه من الملائكة فقال: «جبريل»، فلما ذكره قالوا: ذاك عدونا، لأنه ملك الحرب والشدائد والجذب، ولو كان الذي

يجيئك ميكائيل ملك الرحمة والخصب والأمطار لا تبعناك. وقيل: إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يتكرر على بيت المدراس، فاستحلفهم يوماً بالذي أنزل التوراة على موسى بطور سيناء، أتعلمون أن محمداً نبي؟ قالوا: نعم، فلم تهلكون في تكذيبه؟ قالوا: صاحبه جبريل، وهو عدونا. وذكر أنهم قالوا سبب عدواتهم له: أنه حمى بخت نصر حين بعثوا قبل أن يملك من يقتله، فنزلت هذه الآية لقولهم.

وفي (جبريل) لغات: ﴿جَبْرِيْلُ﴾ بكسر الجيم والراء من غير همز، وبها قرأ نافع، و ﴿جَبْرِيْلُ﴾ بفتح الجيم وكسر الراء من غير همز، وبها قرأ ابن كثير، وروي عنه أنه قال: رأيت النبي ﷺ في النوم هو يقرأ ﴿جَبْرِيْلُ﴾ ويكسرها، فلا أزال أقرؤهما أبداً كذلك. و ﴿جَبْرِيْلُ﴾ بفتح الجيم والراء وهمزة بعد الراء واللام، وبها قرأ عاصم، و ﴿جَبْرِيْلُ﴾ بفتح الجيم والراء وهمزة بين الراء وياء بين الهمزة واللام، وبها قرأ حمزة والكسائي، وحكاها الكسائي عن عاصم، و ﴿جَبْرِيْلُ﴾ بألف بعد الراء ثم همزة، وبها قرأ عكرمة، و ﴿جَبْرِيْلُ﴾ بزيادة ياء بعد الهمزة، و ﴿جَبْرِيْلُ﴾ بياءين، وبها قرأ الأعمش، و ﴿جَبْرِيْلُ﴾ بفتح الجيم والراء وهمزة ولام مشددة، وبها قرأ يحيى بن يعمر، و ﴿جَبْرِيْلُ﴾ لغة فيه. و ﴿جَبْرِيْلُ﴾ بكسر الجيم والراء وياء ونون، قال الطبري: هي لغة بني أسد، ولم يقرأ بها.

وجبريل اسم أعجمي عربته العرب

فلها فيه هذه اللغات، فبعضها هي موجودة في أبنية العرب وتلك أدخل في التعريب كجبريل الذي هو كقنديل، وبعضها خارج عن أبنية العرب، فذلك كمثل ما عربته العرب ولم تُدخله في بناء كإبريسم وفردن وأجز ونحوه. وذكر ابن عباس، وغيره: أن جَبْرِيْلُ وَمَيْكَلُ، وسَرَاْفُ، هي كلها بالأعجمية بمعنى عبد ومملوك، وإيل: اسم الله تعالى، ويقال فيه: إيل، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع سجع مسيلمة: «هذا كلام لم يخرج من إيل».

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَ قَلْبِكَ﴾ الضمير في ﴿فَإِنَّهُ﴾ عائذ على الله عز وجل، والضمير في ﴿نَزَّلَهُ﴾ عائذ على جبريل ﷺ، والمعنى بالقرآن وسائر الوحي، وقيل: الضمير في (إنه) عائذ على جبريل، وفي ﴿نَزَّلَهُ﴾ على القرآن، وخص القلب بالذكر لأنه موضع العقل والعلم وتلقي المعارف.

وجاءت المخاطبة بالكاف في ﴿قَلْبِكَ﴾ اتساعاً في العبارة، إذ ليس ثم من يخاطبه النبي ﷺ بهذه الكاف، وإنما يجيء قوله: فإنه نزله على قلبي، لكن حسن هذا إذ يحسن في كلام العرب أن تُحزَّر اللفظ الذي يقوله المأمور بالقول، ويحسن أن تقصد المعنى الذي يقوله فتسرده مخاطبة له، كما تقول لرجل: قل لقومك لا يهينوك، فكذلك هي الآية، ونحو من هذا قول الفرزدق:

أَلَمْ تَرَ أَنِّي يَوْمَ جَوْ سُوْنُقَةَ
بَكَيْتُ فَنَادَتْنِي هُنَيْدَةَ مَا لِيَا؟

فأحرز المعنى ونكب عن نداء هينة: مالك؟

و ﴿يَا ذِينَ اللَّهِ﴾ معناه: بعلمه وتمكينه إياه من هذه المنزلة، و ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من ضمير القرآن في ﴿تَزَكُّوْكُمْ﴾ و ﴿لِمَا بَيَّنَّتْ يَدَيُّنَا﴾: ما تقدمه من كتب الله تعالى، و ﴿هُدًى﴾: إرشاد، و (البشرى): أَكْثَرُ استعمالها في الخير، ولا تجيء في الشر إلا مقيدة به، ومقصد هذه الآية تشريف جبريل ﷺ ذم معاديه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ الآية، وعيد وذم لمُعَادِي جبريل عليه السلام، وإعلام أن عداوة البعض تقتضي عداوة الله لهم. وعداوة العبد لله هي معصيته واجتناب طاعته، ومعاداة أوليائه. وعداوة الله للعبد تعذيب وإظهار أثر العداوة عليه.

وذكر جبريل وميكائيل وقد كان ذكر الملائكة معهما تشريفاً لهما. وقيل: خصاً لأن اليهود ذكروهما، ونزلت الآية بسببهما، فذكرهما واجب، لثلاثا تقول اليهود: إنا لم نعاد الله وجميع ملائكته. وقرأ نافع ﴿مِيكَائِيلَ﴾ بهمزة دون ياء. وقرأ بها ابن كثير فيما روي عنه. وقرأ ابن عامر، وابن كثير أيضاً، وحمزة، والكسائي: ﴿مِيكَائِيلَ﴾ بياء بعد الهمزة. وقرأ أبو عمرو، وعاصم ﴿مِيكَالَ﴾، ورويت عن ابن كثير منذ رأها في النوم كما ذكرنا. وقرأ ابن محيصن ﴿مِيكَتِلَ﴾ بهمزة دون ألف، وقرأ الأعشى: ﴿مِيكَائِيلَ﴾ بياءين. وظهر الاسم في قوله: ﴿فَإِنَّ لِلَّهِ﴾، لثلاثا يشكل عود الضمير، وجاءت العبارة بعموم الكافرين لأن عود

الضمير على (من) يشكل سواء أفردته أو جمعته، ولو لم نبال بالإشكال وقلنا: المعنى يدل السامع على المقصد للزم تعيين قوم بعداوة الله لهم، ويحتمل أن الله قد علم أن بعضهم يؤمن فلا ينبغي أن تطلق عليه عداوة الله للمال.

وروي أن رجلاً من اليهود لقي عمر بن الخطاب، فقال له: رأيت جبريل الذي يزعم صاحبك أنه يجيئه؟ ذلك عدونا. فقال له عمر رضي الله عنه: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ إلى آخر الآية، فنزلت على لسان عمر رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا الخبر ضعيف من جهة معناه. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾، ذكر الطبري أن ابن سوريا قال للنبى ﷺ: يا محمد. ما جئت بأية بيّنة. فنزلت هذه الآية. و ﴿الْفَاسِقُونَ﴾ هنا: الخارجون عن الإيمان، فهو فسق الكفر، والتقدير: وما يكفر بها أحد إلا الفاسقون، لأن الإيجاب لا يأتي إلا بعد تمام جملة النفي.

١١٥ - ١١٦ تفسير قوله عز وجل: قال سيبويه: الواو واو العطف، دخلت عليه ألف الاستفهام، وقال الأخفش: هي زائدة، وقال الكسائي: هي أذ، وفتحت تسهلاً، وقرأها قوم: ﴿أَوْ﴾ ساكنة الواو فتجيء بمعنى (بئ) كما يقول القائل: لأضربنك، فيقول المجيب: أَوْ يكفي الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا كله متكلف، وأو في هذا

المثال متمكنة في التقسيم، والصحيح قول سيبويه، وقرئ: ﴿عَهْدُوا عَهْدًا﴾، وقرأ الحسن، وأبو رجاء: ﴿ضَوْهَدُوا﴾، و(عَهْدًا) مصدر، وقيل: مفعول بمعنى أعطوا عهداً، والتبذ: الطرح والإلقاء، ومنه: التبيذ والمثبوذ. والفريق: اسم جمع لا واحد له من لفظه، ويقع على اليسير والكثير من الجمع، ولذلك فسرت كثرة الناظرين بقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ﴾، لما احتمل الفريق أن يكون الأقل، و ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ في هذا التأويل حال من الضمير في ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، ويحتمل الضمير العود على الفريق، ويحتمل العود على جميع بني إسرائيل، وهو أذم لهم، والعهد الذي نبذوه هو ما أخذ عليهم في التوراة من أمر محمد ﷺ، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿نَقَضَهُمْ فَرِيقًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ﴾، يعني به محمداً ﷺ، و ﴿لَمَّا مَنَّهُمْ﴾ هو التوراة و ﴿مُصَدِّقٌ﴾ نعت لرسول، وقرأ ابن أبي عمير: ﴿مُصَدِّقًا﴾ بالنصب. و ﴿لَمَّا﴾ يجب بها الشيء لوجوب غيره، وهي ظرف زمان، وجوابها في ﴿بَلِّغْ﴾ الذي يجيء، و ﴿الْكِتَابِ﴾ الذي أوتوه التوراة، و ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ مفعول بنيد، والمراد القرآن لأن التكذيب نبذ. وقيل: المراد التوراة لأن مخالفتها والكفر بما أخذ عليهم فيها نبذ.

و ﴿وَرَأَى ظُهُورَهُمْ﴾ مثل، لأن ما يجعل ظهرياً فقد زال النظر إليه جملة، والعرب تقول: جعل هذا

الأمر وراء ظهره وذبر أذنه، وقال الفرزدق:

تَمِيمَ بْنَ زَيْدٍ لَا تَكُونَنَّ حَاجَتِي
بِظَهْرٍ فَلَا يَغِيثِي عَمَلِي جَوَائِبُهَا
و ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَمْلِكُونَ﴾ تشبيه بمن
لا يعلم، إذ فعلوا فعل الجاهل،
فيجيء من اللفظ أنهم كفروا على
علم.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا نَتَلَوُا﴾
الآية، يعني اليهود، قال ابن زيد:
المراد مَنْ كان في عهد سليمان،
وقال ابن عباس: المراد مَنْ كان في
عهد النبي ﷺ، وقيل الجميع، و
﴿نَتَلَوُا﴾ قال عطاء: معناه تقرأ من
التلاوة، وقال ابن عباس: تتلوا:
تتبع، كما تقول: جاء القوم يتلو
بعضهم بعضاً، وتتلوا بمعنى تلت،
فالمستقبل وُضِعَ موضع الماضي،
وقال الكوفيون: المعنى ما كانت
تتلوا، وقرأ الحسن والضحاك:
الشياطون بالواو، وقوله: ﴿عَلَىٰ مَلِكٍ
سُلَيْمَانَ﴾ أي على عهد ملك
سليمان، وقيل: المعنى - في ملك
سليمان، بمعنى في قصصه وصفاته
وأخباره. وقال الطبري: اتبعوا
بمعنى فُضِّلُوا، وعلى ملك سليمان
أي على شرعه ونبوته وحاله.

والذي تلتته الشياطين - قيل: إنهم
كانوا يُلقُونَ إلى الكهنة الكلمة من
الحق معها المائنة من الباطل حتى
صار ذلك علمهم، فجمعه سليمان
ودفنه تحت كرسية، فلما مات قالت
الشياطين: إن ذلك كان علم
سليمان، وقيل: بل كان الذي تلتته
الشياطين سحراً وتعليمه، فجمعه
سليمان عليه السلام كما تقدم،

وقيل: إن سليمان عليه السلام كان
يملي على كاتبه آصف بن برخيا
علمه ويختزنه، فلما مات أخرجه
الجن وكتبت بين كل سطرين سطرأ
من سحر، ثم نسبت ذلك إلى
سليمان، وقيل: إن آصف تواطأ مع
شياطين على أن يكتبوا سحراً ينسبوه
إلى سليمان بعد موته، وقيل: إن
الجن كتبت ذلك بعد موت سليمان
واختلقته ونسبته إليه، وقيل: إن
الجن والإنس حين زال ملك سليمان
عنه اتخذ بعضهم السحر والكهانة
علماً، فلما رجع سليمان إلى ملكه
تتبع كتبهم في الآفاق ودفنها، فلما
مات قال شيطان لبني إسرائيل: هل
أدلكم على كنز سليمان الذي به
سُخِّرَتْ له الجن والريح؟ هو هذا
السحر، فاستخرجته بنو إسرائيل،
وانبث فيهم، ونسبوا سليمان إلى
السحر، وكفروا في ذلك حتى
برأه الله على لسان محمد ﷺ.

وروي أن رسول الله ﷺ لما ذكر
سليمان في الأنبياء قال بعض اليهود:
انظروا إلى محمد، يذكر سليمان في
الأنبياء وما كان إلا ساحراً. وقوله
تعالى: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ﴾ تبرئة
من الله تعالى لسليمان، ولم يتقدم
في الآيات أن أحداً نسبه إلى الكفر
ولكنها آية نزلت في السبب المتقدم
أن اليهود نسبه إلى السحر، والسحر
والعمل به كفر.

ويقتل الساحر عند مالك كفراً، ولا
يستتاب كالزنديق، وقال الشافعي:
يُسأل عن سحره، فإن كان كفراً
استتيب منه، فإن تاب وإلا قتل.
وقال مالك فيمن يعقد الرجال عن

النساء: يعاقب ولا يقتل، واختلف
في ساحر الذمة - فقيل: يقتل، وقال
مالك: لا يقتل إلا إن قتل بسحره،
ويضمن ما جنى، ويقتل إن جاء منه
بما لم يعاهد عليه. وقرأ نافع،
وعاصم، وابن كثير، وأبو عمرو،
بتشديد النون من ﴿لِكِنُّ﴾، ونصب
الشياطين. وقرأ حمزة، والكسائي،
وابن عامر بتخفيف النون ورفع
الشياطين. قال بعض الكوفيين:
التشديد أحب إلى إذا دخلت عليها
الواو، لأن المخففة بمنزلة (تَل) و(تَلَّ)
لا تدخل عليها الواو. قال أبو
علي: ليس دخول الواو عليها معنى
يوجب التشديد، وهي مثقلة ومخففة
بمعنى واحد، إلا أنها لا تعمل إذا
خفت.

وكفر الشياطين إما بتعليمهم
السحر، وإما بعلمهم به، وإما
بتكفيرهم سليمان به، وكل ذلك
كان. والناس المعلمون أتباع
الشياطين من بني إسرائيل، و
﴿السيِّخ﴾ مفعول ثان يتعلمون،
وموضع ﴿يَمْلِكُونَ﴾ نصب على
الحال، أو رفع على خبر ثان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ
الْمَلَائِكِينَ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾.
(ما) عطف على ﴿السيِّخ﴾ فهي
مفعولة، وهذا على القول بأن الله
تعالى أنزل السحر على الملكين فتنة
للناس، ليكفر من اتبعه، ويؤمن من
تركه، أو على قول مجاهد وغيره:
إن الله تعالى أنزل على الملكين
الشيء الذي يُفرك به بين المرء
وزوجه دون السحر، أو على القول:
إنه تعالى أنزل السحر عليهما ليعلم،

على جهة التحذير منه والنهي عنه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
والتعليم على هذا القول إنما هو
تعريف يسير بمبادئه .

وقيل إن (مَا) عطف على (مَا) في
قوله: ﴿مَا تَنَلُّوا﴾ . وقيل: (مَا)
نافية، رد على قوله: ﴿وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَنُ﴾، وذلك أن اليهود قالوا:
إن الله أنزل جبريل وميكائيل بالسحر
نفى الله ذلك .

وقرأ ابن عباس، والحسن،
والضحاك، وابن أبيزي **﴿الملكين﴾**
بكسر اللام . وقال ابن أبيزي: هما
داود وسليمان، وعلى هذا القول
أيضاً فما نافية، وقال الحسن هما
عِلْجَانٍ كانا ببابل ملكين، فما على
هذا القول غير نافية، وقرأهما كذلك
أبو الأسود الدؤلي وقال: هما
هاروت وماروت فهذا كقول
الحسن . وبابل لا ينصرف للتأنيث
والتعريف، وهي قطر من الأرض،
واختلف أين هي؟ فقال قوم: هي
بالعراق وما والاها، وقال ابن مسعود
لأهل الكوفة: أنتم بين الحيرة
وبابل . وقال قتادة: هي من نصيبين
إلى رأس العين . وقال قوم: هي
بالمغرب وهذا ضعيف وقال قوم:
هي جبل دماوند .

و **﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾** بدل من
﴿الملكين﴾ على قول من قال: هما
ملكان . ومن قرأ **﴿ملكين﴾** بكسر اللام
وجعلهما داود وسليمان، أو جعل
﴿الملكين﴾ جبريل وميكائيل جعل
هاروت وماروت بدلاً من الشياطين
في قوله **﴿ولكن الشيطان﴾**، وقال:
هما شيطانان .

ويجيء **﴿يَمْلُونُ﴾** إما
على أن الاثنين جمع،
وإما على تقدير أتباع
لهذين الشيطانين اللذين
هما الرأس . ومن قال:
كان **﴿عَلَجَيْنِ﴾** قال:
﴿هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ بدل من
قوله: **﴿الملكين﴾** .

وقيل: هما بدل من
الناس في قوله: **﴿يَعْلَمُونَ
أَنَاسَ﴾** . وقرأ الزهري
﴿هاروت وماروت﴾
بالرفع، ووجه البدل من
﴿الشيطانين﴾ في قوله:
﴿تَنَلُّوا الشيطانين﴾ أو من
الشياطين الثاني على قراءة
من خفف **﴿لكن﴾** ورتفع،

أو على خبر ابتداءٍ مضمرة تقديره:
هما هاروت وماروت . وروى من
قال إنهما ملكان أن الملائكة مَنَّتْ
حكام بني آدم، وزعمت أنها لو
كانت بمشابتهم من البعد عن الله
لأطاعت حق الطاعة، فقال الله لهم:
اختاروا ملكين يحكمان بين الناس،
فاختاروا هاروت وماروت، فكانا
يحكمان، فاختصمت إليهما امرأة،
ففتنتا بها، فراوداها فأبت حتى يشربا
الخمير، ويقتلا، ففعلا، وسألتهما
عن الاسم الذي يصعدان به السماء
فعلماها إياه، فتكلمت به فخرجت
فمسخت كوكباً فهي الزهرة، وكان
ابن عمر يلعبها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله ضعيف، ويعيد على ابن
عمر رضي الله عنهما . وروي أن
الزهرة نزلت إليهما في صورة امرأة

وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مَلَكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَانَ وَلَٰكِنَّ الشَّيْطَانَ كَفَرُوا وَيَعْلَمُونَ أَنَاسَ
السَّحَرِ وَمَا أَنزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَيِّنَاتٍ هَدَرُوتَ وَمَرُوتَ
وَمَا يَعْلَمَانِ مِن أَحَدٍ حَقَّ يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرَا
فَيَعْلَمُونَ مِنْهُمَا مَا يَفْتَرُونَ بِهِ يَبِينُ الْمَرْءَ وَرُوحَهُ
وَمَا هُمْ بِصَاحِبِينَ بِهِ مِن أَحَدٍ إِلَّا يَأْذَنُ اللَّهُ وَيَتَعَلَّمُونَ
مَا يَشَاءُونَ لَهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْرَبَهُ
مَا لَّهُ فِي الْآخِرَةِ مِن خَلْقٍ وَلَيْسَ مَا شَكروا بِهِ
أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا
وَأَتَقُوا لَمَثُورَةَ بَيْنِ عِنْدِ اللَّهِ حَدِيثًا كَانُوا يَعْلَمُونَ
﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا رُوحَنَا وَقُولُوا
أَنْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾
مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِن خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ
بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾

١٦

من فارس فجرى لهما ما ذكر،
فأطلع الله الملائكة على ما كان من
هاروت وماروت فتعجبوا، وبقي في
الأرض لأنهما خيِّرا، بين عذاب
الآخرة وعذاب الدنيا فاخترتا عذاب
الدنيا، فهما في سرب من الأرض
معلقين يصفقان بأجنحتهما .

وروت طائفة أنهما يعلمان السحر
في موضعهما ذلك، وأخذ عليهما ألا
يعلما أحداً حتى يقولوا له: إنما نحن
فتنة فلا تكفر . وهذا القصص يزيد في
بعض الروايات وينقص في بعض ولا
يقطع منه بشيءٍ فلذلك اختصرته .

﴿١٠٢﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
ذكر ابن الأعرابي في البياقوتة أن
﴿يَعْلَمَانِ﴾ بمعنى **﴿يُعْلَمَانِ وَيُشْعِرَانِ﴾**
كما قال كعب بن زهير:

تَعَلَّمْ رَسُولَ اللَّهِ أَنَّكَ مُدْرِكِي
وَأَنْ وَعِيداً مِّنْكَ كَالْأَخْذِ بِالْيَدِ

وَحَمَلَ هَذِهِ آيَةَ عَلَى أَنَّ الْمَلَائِكَةَ
إِنَّمَا نَزَلُوا يُعَلِّمَانِ النَّاسَ بِالسَّحْرِ
وَيَنْهَانِ عَنْهُ.

وقال الجمهور: بل التعليم على
عرفه. و ﴿فَلَا تَكْفُرْ﴾: قالت فرقة:
بتعلم السحر، وقالت فرقة:
باستعماله، وحكى المهدي أن
قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾
استهزاء، لأنهما إنما يقولانه لمن قد
تحققا ضلاله. و ﴿مِن﴾ في قوله:
﴿مِن أَحَدٍ﴾ زائدة بعد النفي، وقوله
تعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ﴾، قال سيبويه:
التقدير فَهُمْ يتعلمون، وقيل: هو
معطوف على قوله: ﴿يَعْلَمُونَ
النَّاسَ﴾ ومنعه الزجاج، وقيل: هو
معطوف على موضع ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾
لأن قوله: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ﴾ وإن دخلت
عليه ما النافية فمضمته الإيجاب في
التعليم، وقيل: التقدير فَيَأْتُونَ
فيتعلمون، واختاره الزجاج.

والضمير في ﴿يُعَلِّمَانِ﴾ هو لهاروت
وماروت المَلَكَيْنِ أو المَلِكَيْنِ
العِلْمَيْنِ على ما تقدم. والضمير في
﴿مِنْهُمَا﴾ قيل: هو عائد عليهما،
وقيل: على السحر، وعلى الذي
أنزل على الملكين.

و ﴿يَتَرْتَبُونَ﴾ معناه فُرْقَةُ العَصْمَةِ
وقيل معناه يُؤَخِّدُونَ الرجل عن
المرأة حتى لا يقدر على وطنها،
فهي أيضاً فُرْقَةٌ.

وقرأ الحسن، والزهري، وقتادة
﴿الْمَرءُ﴾ براء مكسورة خفيفة، وزوي
عن الزهري تشديد الراء، وقرأ ابن
أبي إسحق ﴿الْمَرءُ﴾ بضم الميم
وهمزة، وهي لغة هذيل.

وقرأ الأشهب العقيلي ﴿الْمَرءُ﴾

بكسر الميم وهمزة، ورويت عن
الحسن. وقرأ جمهور الناس
﴿الْمَرءُ﴾ بفتح الميم وهمزة.

والزوج هنا امرأة الرجل، وكل
واحد منهما زوج الآخر، ويقال
للمرأة: زوجة، قال الفرزدق:

وَإِنَّ الَّذِي يَسْعَى لِيُفْسِدَ زَوْجَتِي
كَسَاعٍ إِلَى أَسَدِ الشَّرَى يَسْتَبِيحُهَا
وقرأ الجمهور ﴿بِضَارِيْنَ﴾. وقرأ
الأعمش ﴿بِضَارِي بِهِ مِنْ أَحَدٍ﴾
فقيل: حذف النون تخفيفاً، وقيل:
حذفت للإضافة إلى أحد، وحيل بين
المضاف والمضاف إليه بالمجرور.

و ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه: بعلمه
وتمكنه، و ﴿يَسْتُرُهُمْ﴾ معناه: في
الآخرة، ﴿وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ فيها أيضاً
وإن نفع في الدنيا بالمكاسب،
فالْمُرَاعَى إنما هو أمر الآخرة.
والضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ عائد على
بني إسرائيل حسب الضمائر
المتقدمة، وقيل: على الشياطين،
وقيل: على المَلَكَيْنِ وهما جمع،
وقال: ﴿أَشْرَبَهُ﴾ لأنهم كانوا يعطون
الأجرة على أن يعلموا، والخلاق:
النصيب والحظ، وهو هنا بمعنى
الجاه والقدر، واللام في قوله
﴿لَكِنَّ﴾ المتقدمة للقسم، المؤذنة بأن
الكلام قسم لا شرط.

وتقدم القول في بثسما، و
﴿شَكَرُوا﴾ معناه: باعوا، وقد تقدم
مثله، والضمير في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ عائد
على بني إسرائيل باتفاق. ومن قال:
أن الضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ عائد عليهم
خرج هذا الثاني على المجاز، أي:
لما عملوا عمل من لا يعلم كانوا
كانهم لا يعلمون ومن قال: إن

الضمير في ﴿عَلِمُوا﴾ عائد على
الشياطين أو المَلَكَيْنِ قال: إن أولئك
علموا ألا خلاق لمن اشتراه،
وهؤلاء لم يعلموا، فهو على
الحقيقة. وقال مكي: الضمير في
﴿عَلِمُوا﴾ لعلماء أهل الكتاب، وفي
قوله: ﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾
للمتعلمين منهم.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ ءَانِسُوا﴾
موضع أن رفع، المعنى: ولو وقع
إيمانهم، ويعني الذين اشتروا
السحر، و ﴿لَوْ﴾ تقتضي جواباً،
فقالت فرقة: جوابها ﴿لَمْثُوبَةٌ﴾ لأنها
مصدر يقع للمضي والاستقبال،
وجواب (لو) لا يكون إلا ماضياً أو
بمعناه، وقال الأخفش: لا جواب
لِئَلُو في هذه الآية مُطَهراً ولكنه مقدر،
أي: لو آمنوا لأثيبوا. وقرأ قتادة،
وأبو السمال، وابن بريدة ﴿لَمْثُوبَةٌ﴾
بسكون الشاء، وفتح الواو، وهو
مصدر أيضاً كمشورة ومثورة. و
[مثوبة] رفع بالابتداء و ﴿خَيْرٌ﴾
خبره، والجملة خبر [أن]. والمثوبة
عند جمهور الناس بمعنى الثواب
والأجر، وهذا هو الصحيح، وقال
قوم: معناه: الرجعة إلى الله، من
ثاب يشوب إذا رجع، واللام فيها لام
القسم، لأن لام الابتداء مستغنى
عنها، وهذه لا غنى عنها. وقوله:
﴿لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ يحتمل نفي
العلم عنهم، ويحتمل أن يراد لو
كانوا يعلمون علماً ينفع. وقرأ
جمهور الناس ﴿زَاعِنًا﴾ من المُرَاعَاةِ
بمعنى فاعلنا، أي ارعنا نرعك، وفي
هذا جفاء أن يخاطب به أحد نبيه،
وقد حض الله تعالى على خفض

الجماعة، يظهرون بذلك إكباره، وهم يريدون في الباطن فاعولاً من الرعوننة، و﴿أَنْظِرْنَا﴾ مضمومة الألف والظاء معناها: انتظرنا وأمهل علينا، ويحتمل أن يكون المعنى تفقدنا، من النظر، وهذه لفظة مخلصة لتعظيم النبي ﷺ على المعنيين.

والظاهر عندي استدعاء نَظَر العين المقترن بتدبير الحال، وهذا هو معنى راعنا فَبَدَّلْتَ للمؤمنين اللفظة ليزول تعلق اليهود وقرأ الأعمش، وغيره ﴿أَنْظِرْنَا﴾ بقطع الألف

﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِخْهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِمَّا أَوْسَلَهَا﴾
﴿لَمْ نَسَلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
﴿أَمْ تَرِيدُونَ أَنْ نَسْتَأْذِنَ سُلُوكَكُمْ كَمَا سَأَلْنَا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ الْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾
﴿وَدَكَ كَيْفَ تَمَنَّاهُ﴾
﴿الْكِتَابَ لَوِزِدُنَا مِنْكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَمَا نَارَ أَحْسَبُ﴾
﴿مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْحَقَّ فَاعْتَمُوا﴾
﴿وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرٍ وَعَلَىٰ اللَّهِ عَنَّا كُلُّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾
﴿وَاقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾
﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾
﴿تِلْكَ أَمْثَالُهُمْ فَلْهَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾
﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾

وكسر الظاء، بمعنى أخرنا وأمهلنا حتى نفهم عنك ونتلقى منك.

ولمَّا نهى الله تعالى في هذه الآية وأمر، حَضُّ بَعْدُ على السمع الذي في ضمنه الطاعة، وأعلم أن لَمَنْ خالف أمره فكفر عناداً أليماً، وهو المُوَلِّم، و﴿وَأَسْمَأُ﴾ معطوف على ﴿قَوْلًا﴾ لا على معمولها.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن أبي ليلى، وابن مُحيصن، وأبو حنيفة: ﴿رَاعِنًا﴾ بالنونين وهذه من معنى الجهل، وهذا محمول على أن اليهود كانت تقوله، فنهَى الله تعالى المؤمنين عن القول المباح سد ذريعة لئلا يتطرق منه اليهود إلى المحذور، إذ المؤمنون إنما كانوا يقولون: ﴿رَاعِنًا﴾ دون تنوين. وفي مصحف ابن مسعود ﴿راهنًا﴾، وهي شاذة، ووجهها أنهم كانوا يخاطبون النبي ﷺ كما تخاطب

قال من ذهب إلى هذا المعنى: إن الله تعالى نهى المؤمنين عنه لهذه العلة، ولا مدخل لليهود في الآية على هذا التأويل، بل هو نهى عن كل مخاطبة فيها استواء مع النبي ﷺ. وقالت طائفة: هي لغة كانت الأنصار تقولها، فقالها رفاعة بن زيد بن الثابت للنبي ﷺ ليأ بلسانه وطعناً، كما كان يقال: اسمع غَيْرَ مسمع، فهى الله المؤمنين أن تقال هذه اللفظة.

وقرأ القاضي أبو محمد رحمه الله: ووقف هذه اللغة على الأنصار تقصير، بل هي لغة جميع العرب، فاعل من المراعاة، فكانت اليهود تصرفها إلى الرعوننة، يظهرون أنهم يريدون المراعاة، ويبطنون أنهم يريدون الرعوننة التي هي الجهل وحكى المهدوي عن قوم أن هذه الآية على هذا التأويل ناسخة لفعل قد كان مباحاً، وليس في هذه الآية شروط النسخ، لأن الأول لم يكن شرعاً متقدراً.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن أبي ليلى، وابن مُحيصن، وأبو حنيفة: ﴿رَاعِنًا﴾ بالنونين وهذه من معنى الجهل، وهذا محمول على أن اليهود كانت تقوله، فنهَى الله تعالى المؤمنين عن القول المباح سد ذريعة لئلا يتطرق منه اليهود إلى المحذور، إذ المؤمنون إنما كانوا يقولون: ﴿رَاعِنًا﴾ دون تنوين. وفي مصحف ابن مسعود ﴿راهنًا﴾، وهي شاذة، ووجهها أنهم كانوا يخاطبون النبي ﷺ كما تخاطب

﴿أَنْ﴾ مع الفعل بتأويل المصدر، و﴿مِنْ﴾ زائدة في قول بعضهم، ولما كان ود نزول الخير منتفياً قام ذلك مقام الجحد الذي يلزم أن يتقدم من الزائدة على قول سيبويه والخليل، وأما الأخص فيجوز زيادتها في الواجب.

وقال قوم: ﴿مِنْ﴾ للتبعيض لأنهم يريدون ألا ينزل على المؤمنين من الخير قليل ولا كثير، ولو زال معنى التبعيض لساغ لقاتل أن يقول: نريد ألا ينزل خير كامل، ولا نكره أن ينزل بعض، فإذا نفي ود نزول البعض فذلك أخرى في نزول خير كامل.

والرحمة في هذه الآية عامة لجميع أنواعها التي قد منحها الله عباده قديماً وحديثاً، وقال قوم: الرحمة هي القرآن، وقال قوم: نُبُوءة

ومعنى الآية: أنا ما أمرناكم به من أن تعظموا نبيكم خير من الله منحكم إياه، وذلك لا يوده الكفار، ثم يتناول اللفظ كل خير غير هذا، و

﴿١٠٥﴾ - ﴿١٠٦﴾ تفسير قوله عز وجل: التقدير: ولا من المشركين، وعَمُّ الذين كفروا، ثم بين أجناسهم من اليهود والنصارى وعبدة الأوثان، لسببين في الألف واللام في ﴿الَّذِينَ﴾ أنها ليست للعهد يراد بها معين.

ومعنى الآية: أنا ما أمرناكم به من أن تعظموا نبيكم خير من الله منحكم إياه، وذلك لا يوده الكفار، ثم يتناول اللفظ كل خير غير هذا، و

محمد ﷺ، وهذه أجزاء الرحمة العامة التي في لفظ الآية .

وقوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا﴾ الآية، النسخ - في كلام العرب - على وجهين: أحدهما النقل، كنقل كتاب من آخر، والثاني الإزالة، فأما الأول فلا مدخل له في هذه الآية، وورد في كتاب الله في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا سَنَسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، وأما الثاني الذي هو الإزالة فهو الذي في هذه الآية، وهو منقسم في اللغة على ضربين: أحدهما يثبت الناسخ بعد المنسوخ، كقولهم: نسخت الشمس الظل، والآخر لا يثبت كقولهم: نسخت الرياح الأثر.

وورد النسخ في الشرع حسب هذين الضربين. والناسخ حقيقة هو الله تعالى، ويسمى الخطاب الشرعي ناسخاً إذ به يقع النسخ. وحد الناسخ عند حذاق أهل السنة الخطاب الدال على ارتفاع الحكم الثابت بالخطاب المتقدم على وجه لولاه لكان ثابتاً مع تراخيه عنه.

والنسخ جائز على الله تعالى عقلاً، لأنه ليس يلزم عنه محال، ولا تغيير صفة من صفاته تعالى، وليست الأوامر معلقة بالإرادة فيلزم من النسخ أن الإرادة تغيرت، ولا النسخ ليطرؤ علم، بل الله تعالى يعلم إلى أي وقت ينتهي أمره بالحكم الأول، ويعلم نسخه له بالثاني.

والبداء لا يجوز على الله تعالى، لأنه لا يكون إلا ليطرؤ علم أو لتغير إرادة، وذلك محال في جهة الله تعالى. وجعلت اليهود النسخ والبداء

واحداً، ولذلك لم يجوزوه فضلوا. والمنسوخ عند أئمتنا: الحكم الثابت نفسه، لا ما ذهبت إليه المعتزلة من أنه مثل الحكم الثابت فيما يستقبل، والذي قادم إلى ذلك مذهبه في أن الأوامر مرادة، وأن الحُسن صفة نفسية للحسن، ومراد الله تعالى حسن، وقد قامت الأدلة على أن الأوامر لا ترتبط بالإرادة، وعلى أن الحُسن والقبح في الأحكام إنما هو من جهة الشرع لا بصفة نفسية.

والتخصيص من العموم يوهم أنه نسخ وليس به، لأن المُخصَّص لم يتناول العموم قط، ولو ثبت قطعاً تناول العموم لشيء ما ثم أخرج ذلك الشيء عن العموم لكان نسخاً لا تخصيصاً، والنسخ لا يجوز في الأخبار، وإنما هو مختص بالأوامر والنواهي، ورد بعض المعترضين الأمر خيراً بأن قال: أليس معناه: واجب عليكم أن تفعلوا كذا؟ فهذا خبر، والجواب أن يقال: إن في ضمن المعنى إلا أن أنسخه عنكم وأرفعه، فكما تضمن الأمر ذلك الإخبار، كذلك تضمن هذا الاستثناء.

وصور النسخ تختلف:

فقد ينسخ الأثقل إلى الأخف، كنسخ الثبوت لعشرة بالثبوت لاثنتين. وقد ينسخ الأخف إلى الأثقل، كنسخ يوم عاشوراء والأيام المعدودة بربضان.

وقد ينسخ اليثقل بمثله ثقلاً وخففةً، كالقبلة.

وقد ينسخ الشيء لا إلى بدل، كصدقة النجوى.

والنسخ التام أن تنسخ التلاوة والحكم، وذلك كثير، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: كنا نقرأ (لا ترعبوا عن آباءكم فإنه كفر). وقد تنسخ التلاوة دون الحكم، كآية الرجم.

وقد ينسخ الحكم دون التلاوة، كصدقة النجوى، وكقوله تعالى: ﴿إِن فَاتَكَ شَيْءٌ مِّنْ آيَاتِنَا إِلَى الْكُفَّارِ فَعَاتِمٌ فَكَأَنَّا الَّذِينَ ذُكِرْتُمْ أَزْوَاجَهُمْ نَبَلٌ مَّا آتَيْنَاهُمْ﴾، والتلاوة والحكم حكمان، فجائز نسخ أحدهما دون الآخر، وينسخ القرآن بالقرآن، والسنة بالسنة، وهذه العبارة يراد بها الخبر المتواتر القطعي، وينسخ خير الواحد بخير الواحد، وهذا كله متفق عليه، وحذاق الأئمة على أن القرآن ينسخ بالسنة، وذلك موجود في قوله ﷺ: ﴿لَا وَصِيَّةَ لِرَافِئَةَ﴾، وهو ظاهر مسائل مالك رحمه الله، وأبى ذلك الشافعي رحمه الله، والحجة عليه من قوله - إسقاطه الجدل في حد الزنا عن الثيب الذي يُرجم، فإنه لا مسقط لذلك إلا السنة، فعل النبي ﷺ.

وكذلك حذاق الأئمة على أن السنة تنسخ بالقرآن. وذلك موجود في القبلة، فإن الصلاة إلى الشام لم تكن قط في كتاب الله، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَرْجِعُوا إِلَى الْكُفَّارِ﴾ فإن رجوعهن إنما كان بصلح النبي ﷺ لقريش.

والحذاق على تجويز نسخ القرآن بخبر الواحد عقلاً، واختلفوا هل وقع شرعاً؟ فذهب أبو المعالي، وغيره إلى وقوعه في نازلة مسجد قباء، في التحول إلى القبلة، وأبى ذلك قوم.

مضمومة وسين مكسورة، فقال: «إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب»، وتلا «سَتْرُوكَ فَلَا تَنْسَى» ﴿١٠٥﴾ «وَأَذْكُرَ ذَبِكَ إِذَا نَسِيتَ» .

وقرأ سعيد بن المسيب - فيما ذكر عنه أيضاً - أو «تَنْسَهَا» بضم التاء أولاً وفتح السين وسكون النون بينهما، وهذه من النسيان، وقرأ الضحاك بن مزاحم، وأبو رجاء «تَنْسَهَا» بضم النون الأولى وفتح الثانية وسين مكسورة مشددة، وهذه أيضاً من النسيان، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس، وإبراهيم النخعي، وعطاء بن عمير، وابن كثير، وأبو عمرو «تَنْسَاهَا» بنون مفتوحة وأخرى بعدها ساكنة وسين مفتوحة وألف بعدها مهموزة، وهذه من التأخير، تقول العرب: نسأت الإبل عن الحوض أنسؤها نساً، أي آخرتها، وكذلك يقال: أنسأ الإبل إذا زاد في ظمئها يوماً أو يومين أو أكثر من ذلك، بمعنى آخرها عن الورد.

وقرأت فرقة مثل هذه القراءة إلا أنها بتاء مفتوحة أولاً على مخاطبة النبي ﷺ وإسناد الفعل إليه. وقرأ أبو حيوة مثل ذلك إلا أنه ضم التاء أولاً. وقرأ أبي بن كعب «أَوْ تَنْسِكُ» بضم النون الأولى وسكون الثانية وسين مكسورة وكاف مخاطبة، وفي مصحف سالم مولى أبي حذيفة «أَوْ تَنْسِكُهَا» مثل قراءة أبي إلا أنه زاد ضمير الآية. وقرأ الأعمش «ما ننسك من آية أو ننسخها نجىء بمثلها»، وهكذا ثبت

على وجهين: أحدهما أن يكون المعنى: ما نكتب ونُنزل من اللوح المحفوظ، أو ما نُؤخر فيه وترك فلا نُنزله أي ذلك فعلنا فإننا نأتي بخير من المؤخر المتروك أو بمثله، فيجيء الضميران في «بِنَهَا» أو «بِثَلْهَا» عائدين على الضمير في «نَسَاهَا» .

والمعنى الآخر: أن يكون ننسخ من النسخ بمعنى الإزالة، ويكون التقدير: ما ننسخك أي نبيح لك نسخه، كأنه لما نسخها الله أباح لئيبه تركها بذلك النسخ، فسمى تلك الإباحة إنساخاً. و [مَا] شرطية، وهي مفعولة بننسخ، و [تَنْسَخُ] جزم بالشرط. واختلف القراءة في قراءة قوله: «تَنْسِيهَا» فقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر، وجمهور من الناس «تَنْسِيهَا» بضم النون الأولى، وسكون الثانية، وكسر السين، وترك الهمزة، وهذه من أنسى المنقول من نسي، وقرأت ذلك فرقة كما تقدم إلا أنها همزت بعد السين، فهذه بمعنى التأخير، تقول العرب: أنسأت الدين وغيره أنسته إنساءً إذا آخرته. وقرأ طائفة: «أَوْ تَنْسَهَا» بفتح النون الأولى، وسكون الثانية، وفتح السين، وهذه بمعنى الترك، ذكرها مكى ولم ينسبها، وذكرها أبو عبيد البكري في كتاب «اللثالي» عن سعد بن أبي وقاص، وأراه وهم. وقرأ سعد بن أبي وقاص «أَوْ تَنْسَهَا» بتاء على مخاطبة النبي ﷺ، ونون بعدها ساكنة، وفتح السن، هكذا قال أبو الفتح، وأبو عمرو الداني، فقيل لسعد: إن سعيد ابن المسيب يقرؤها بنون أولى

ولا يصح نسخ نص بقياس، إذ من شروط القياس ألا يخالف نصاً، وهذا كله في مدة النبي ﷺ. وأما بعد موته واستقرار الشرع فأجمعت الأمة أنه لا نسخ، ولهذا كان الإجماع لا يَنْسَخُ ولا يُنْسَخُ، لأنه إنما يتعد بعد النبي ﷺ، فإذا وجدنا إجماعاً يخالف نصاً فعلنا أن الإجماع استند إلى نص ناسخ لا نعلمه نحن.

وقال بعض المتكلمين: النسخ الثابت متقرر في جهة كل أحد، علم الناسخ أو لم يعلمه، والذي عليه الحدائق أن من لم يبلغه الناسخ فهو متعبد بالحكم الأول، فإذا بلغه الناسخ طرأ عليه حكم النسخ. والحدائق على جواز نسخ الحكم قبل فعله، وهو موجود في كتاب الله تعالى في قصة الذبيح.

وقرأ جمهور الناس: «مَا نَنْسَخُ» بفتح النون، مِنْ نَسَخَ، وقرأت طائفة «تَنْسِيخُ»، بضم النون، مِنْ أَنْسَخَ، وبها قرأ ابن عامر وَخَذَهُ مِنَ السَّبْعَةِ.

قال أبو علي الفارسي: ليست لغة لأنه لا يقال: نَسَخَ وَأَنْسَخَ بمعنى، ولا هي للتعدية، لأن المعنى يجيء: ما نكتب من آية، أي ما نُنزل فيجيء القرآن كله على هذا منسوخاً، وليس الأمر كذلك، فلم يبق إلا أن يكون المعنى: ما نجده منسوخاً، كما تقول: أحمدت الرجل وأبخلته، بمعنى وجدته محموداً وبخيلاً، قال أبو علي: وليس يجده منسوخاً إلا بأن ينسخه، فتتفق القراءتان في المعنى، وإن اختلفتا في اللفظ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد خُرجَ قرأةً هذه القراءة المعنى

في مصحف عبدالله بن مسعود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه القراءات لا تخلو كل واحدة منها أن تكون من النسء أو الإنساء بمعنى التأخير، أو تكون من النسيان.

والنسيان في كلام العرب يجيء في الأغلب ضد الذكر، وقد يجيء بمعنى الترك، فالمعاني الثلاثة مقولة في هذه القراءات، فما كان منها يترتب في لفظه النسيان الذي هو ضد الذكر. فمعنى الآية: ما ننسخ من آية أو نقدر نسيانك لها فتنسأها حتى ترتفع جملة وتذهب، فإننا نأتي بما هو خيرٌ منها لكم أو مثلٌ في المنفعة. وما كان من هذه القراءات يحمل على معنى الترك فإن الآية معه تترتب فيها أربعة معان: أحدها: ما ننسخ - على وجوه النسخ - أو نترك غير منزل عليك فإننا لا بد أن ننزل - رفقاً بكم - خيراً من ذلك أو مثله، حتى لا ينقص الدين عن حد كماله. والمعنى الثاني: أو نترك تلاوته - وإن رفعتنا حكمه - فيجيء النسخ على هذا رفع التلاوة والحكم. والمعنى الثالث: أو نترك حكمه - وإن رفعتنا تلاوته - فالنسخ أيضاً على هذا رفع التلاوة والحكم، والمعنى الرابع: أو نتركها غير منسوخة الحكم ولا التلاوة، فالنسخ على هذا المعنى هو على جميع وجوهه. ويجيء الضميران في ﴿بِنهَا﴾ أو ﴿بِنهَا﴾ عائدتين على المنسوخة فقط، وكان الكلام: إن نسخنا أو أبقينا فإننا نأتي بخير من المنسوخة أو مثلها، وما كان من هذه القراءات يحمل على

معنى التأخير فإن الآية معه تترتب فيها المعاني الأربعة التي في الترك - أولها: ما ننسخ أو نؤخر إنزاله. والثاني: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر حكمه وإن أبقينا تلاوته. والثالث: ما ننسخ النسخ الأكمل أو نؤخر تلاوته وإن أبقينا حكمه. والرابع: ما ننسخ أو نؤخره مثبتاً لا ننسخه. ويعود الضميران كما ذكرنا في الترك. وبعض هذه المعاني أقوى من بعض، لكن ذكرنا جميعها لأنها تحتمل، وقد قال جميعها العلماء، إما نضاً، وإما إشارة فكلناها.

وقال الزجاج: إن القراءة ﴿أو﴾ تُشبهها بضم النون وسكون الثانية وكسر السين لا يتوجه فيها معنى الترك، لأنه لا يقال: أنسى بمعنى ترك. وقال أبو علي، وغيره: ذلك متشبه، لأنه بمعنى نزعك تركها وكذلك ضعف الزجاج أن تحمل الآية على النسيان الذي هو ضد الذكر، وقال: إن هذا لم يكن للنبي ﷺ، ولا نسي قرآناً. وقال أبو علي، وغيره: ذلك جائز، وقد وقع، ولا فرق بين أن ترفع الآية بنسخ، أو بتنسية، واحتج الزجاج بقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ شِئْنَا لَنذَهِبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أي لم نفعل، قال أبو علي: لم نذهب بالجميع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على معنى إزالة النعمة كما توعد، وقد حكى الطبري القول عن أقدم من الزجاج ورد عليه، والصحيح في هذا أن نسيان النبي ﷺ لِمَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَنْسَاهُ - وَلَمْ يُرِذْ أَنْ يُثَبِّتْ قَرَأَنًا - جائز.

فأما النسيان الذي هو آفة في البشر فالنبي ﷺ معصوم منه قبل التبليغ وبعد التبليغ ما لم يحفظه أحد من أصحابه، وأما بعد أن يحفظ فجائز عليه ما يجوز على البشر، لأنه قد بلغ وأدى الأمانة، ومنه الحديث: (حين أسقط آية، فلما فرغ من الصلاة قال: «أفي القوم أئبي؟» قال: نعم يا رسول الله، قال: «فَلِمَ لَمْ تُذَكِّرْنِي؟» قال: حسب أنها رفعت. فقال النبي ﷺ: «لم ترفع، ولكني نسيتها») ولفظة خير في الآية صفة تفضيل، والمعنى: بأنفع لكم أيها الناس في عاجل إن كانت الناسخة أخف، وفي آجل إن كانت أثقل، ويمثلها إن كانت مستوية، وقال قوم: خير في الآية مصدر، ويمز لابتداء الغاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقبلي هذا القول لقوله تعالى: ﴿أَذْ بِشَاهِكَا﴾، إلا أن يعطف المثل على الضمير في منها دون إعادة حرف الجر وذلك معترض.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَقَمْتُمْ أَنْ﴾، ظاهره الاستفهام ومعناه التقرير، والتقرير محتاج إلى معادل كالأستفهام المحض، فالمعادل هنا على قول جماعة: [أَمْ تُرِيدُونَ]، وقال قوم: [أَمْ] هنا منقطعة، فالمعادل على قولهم محذوف تقديره: أم علمتم، وهذا كله على أن القصد بمخاطبة النبي ﷺ مخاطبة أمته، وأما إن كان هو المخاطب وحده فالمعادل محذوف لا غير. وكلا القولين مَرُوي، ومعنى الآية: إن الله تعالى ينسخ ما يشاء، ويثبت

والياء مع ضم السين. وكُتبي عن الإعراض عن الإيمان والإقبال على الكفر بالتبديل. وقال أبو العالية: الكفر هنا الشدة، والإيمان الرخاء، وهذا ضعيف، إلا أن يريد هما مستعارتين أي الشدة على نفسه والرخاء لها عبارة عن العذاب أو النعيم. وأما الْمُتَعَارَفُ من شدة أمور الدنيا ورخائها فلا تُفسر الآية به، و ﴿صَلِّ﴾ أخطأ الطريق، والسواء من كل شيء الوسط والمعظم، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَبَرِ﴾، وقال عيسى بن عمر: كتبت حتى انقطع سوائي، وقال حسان بن ثابت في رثاء النبي ﷺ على ما ذكر ابن إسحق وغيره:

يَا وَنَحْ أَنْصَارِ الشَّيْبِيِّ وَرَفِطِهِ
بَعْدَ الْمَغِيبِ فِي سَوَاءِ الْمَلْحَدِ
وقال أبو عبيدة: هو في عثمان بن عفان رضي الله عنه وهو عندي وهم منه. و ﴿أَسْبِيلِ﴾ عبارة عن الشريعة التي أنزلها الله لعباده، لما كانت السبب إلى نيل رحمته كانت السبيل إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، كثير: مرتفع يودُّ، وهو نعت لمكسرة، وحذفت الموصوف النكرة قليل، ولكن جاز هنا لأنها صفة متمكنة ترفع الإشكال، بمنزلة فريق. قال الزهري: عني بكثير واحد، وهو كعب بن الأشرف، وهذا تحامل، وقوله: ﴿يُرَدُّونَكُمْ﴾ يرد عليه، وقال ابن عباس: المراد ابنا أخطب حبي وأبو ياسر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قال على أحد مَعْتَبَرِي بل، وهو الإضراب عن اللفظ والمعنى، ونغم ما قال سيويه: بل لتترك كلام وأخذ في غيره. وقال أبو العالية: إن هذه الآية نزلت حين قال بعض الصحابة للنبي ﷺ: ليت ذنوبنا جرت مجرى ذنوب بني إسرائيل بتعجيل العقوبة في الدنيا، فقال النبي ﷺ: ﴿قَدْ أَعْطَاكُمْ اللَّهُ خَيْرًا مِّمَّا أُعْطِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ وتلا ﴿وَمَنْ يَمَلِّ سَوْءًا أَوْ يَطْلَمْ نَفْسَهُ نَرَبُّهُ يَسْتَفْهِرُ اللَّهُ بِبِحَدِّ اللَّهِ عَفْوًا رَجِيمًا﴾، فتجيء إضافة الرسول ﷺ إلى الأمة على هذا حسب الأمر في نفسه، وحسب إقرارهم، وقال ابن عباس رضي الله عنه: إن رافع بن حريملة اليهودي سأل النبي ﷺ تفجير عيون وغير ذلك، وقيل: إن كفار قریش سألوا النبي ﷺ أن يأتيهم بالله جهرة، وقيل: سألوه أن يأتيهم بالله والملائكة قبلاً، وقال مجاهد: سألوه أن يرد الصفا ذهاباً، فقال لهم: ﴿خذوا ذلك كالمائدة لبني إسرائيل﴾ فأبوا ونكصوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتجيء على هذه الأقوال إضافة الرسول إليهم حسب الأمر في نفسه لا على إقرارهم.

وما سئل موسى عليه السلام هو أن يرى الله جهرة، وقرأ الحسن ابن أبي الحسن، وغيره ﴿سَبِيلِ﴾ بكسر السين وياء، وهي لغة يقال: سَبَلْتُ أَسْأَلُ، ويحتمل أن يكون مِّنْ هَمْزٍ أَبْدَلِ الهمزة ياءً على غير قياس، ثم كسر السين من أجل الياء. وقرأ بعض القراء بتسهيل الهمزة بين الهمزة

ما يشاء، ويفعل بأحكامه ما يشاء، هو قدير على ذلك وعلى كل شيء. وهذا لإنكار اليهود النسخ، وقوله: ﴿عَلَّ كَلِّ شَيْءٍ﴾ عموم معناه الخصوص إذ لم تدخل فيه الصفات القديمة بدلالة العقل ولا المحالات لأنها ليست بأشياء، والشيء في كلام العرب الموجود و ﴿قَدِيرٌ﴾ اسم فاعل على المبالغة من قَدَرَ بفتح العين يقدر بكسرها، ومن العرب من يقول: قدير بكسر العين يقدر بفتحها.

﴿١٠٧﴾ - ﴿١٠٨﴾ تفسير قوله عز وجل: الملك: السلطان، ونفوذ الأمر، والإرادة، وجمع الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ ذال على أن المراد بخطاب النبي ﷺ خطاب أمته. والوَلِيِّ: فعيل من ولي إذا جاور ولصق، فالناصر، والمعين، والقائم بالأمر، والحافظ، كلهم مجاور بوجه ما، والنصير: فعيل من النصر، وهو أشد مبالغة من ناصر.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ﴾، قالت فرقة: ﴿أَمْ﴾ رد على الاستفهام الأول فهي معادلته، وقالت فرقة: أم استفهام مقطوع من الأول، كأنه قال: أتريدون؟ وهذا موجود في كلام العرب، وقالت فرقة: أم هنا بمعنى بل وألف الاستفهام، قال مكي، وغيره: وهذا يضعف، لأن أم لا تقع بمعنى بل إلا إذا اعترض المتكلم شك فيما يورده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس كما قال مكي رحمه الله، لأن بل قد تكون للإضراب عن اللفظ الأول لا عن معناه، وإنما يلزم ما

وقيل بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ﴾، وقال قوم: ليس هذا حد المنسوخ لأن هذا في نفس الأمر كان التوقيف على مدته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على من يجعل الأمر المنتظر أوامر الشرع، أو قتل - قريظة وإجلاء النضير، وأما من يجعله أجل بني آدم فيترتب النسخ في هذه الآية بعينها لأنه لا يختلف أن آيات المودعة المطلقة قد نسخت كلها، والنسخ هو مجيء الأمر في هذه المقيدة، وقيل: مجيء الأمر هو فرض القتال، وقيل: قتل قريظة وإجلاء النضير. وقال أبو عبيدة في هذه الآية: إنها منسوخة بالقتال، لأن كل آية فيها ترك القتال فهي مكية منسوخة، وحكمه بأن هذه الآية مكية ضعيف، لأن معاندات اليهود إنما كانت بالمدينة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ مقتضاه في هذا الموضع وعد للمؤمنين.

﴿١١٠﴾ - ﴿١١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قالت فرقة من الفقهاء: إن قوله تعالى: ﴿وَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ﴾ عموم، وقالت فرقة: هو من مجمل القرآن، والمرجح أن ذلك عموم من وجه ومجمل من وجه، فعموم من حيث الصلاة الدعاء، فحملة على مقتضاه ممكن، وخصصه الشرع بهيئات وأفعال وأقوال، ومجمل من حيث الأوقات وعدد الركعات لا يفهم من اللفظ، بل السامع فيه مفتقر إلى التفسير، وهذا كله في ﴿أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْحَنِيفِ﴾، وأما الزكاة فمجملة لا

عند أنفسهم تأكيداً وإلزاماً كما قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ يَا قَوْمِمْهُمْ﴾ - و ﴿يَكْتُمُونَ الْكُتُبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾، ﴿وَلَا طَلِيمٌ يُطِيرُ بِصَنَائِدِهِ﴾. وقيل: يتعلق بقوله: ﴿يُرَدُّكُمْ﴾، فالمعنى: أنهم ودوا الرد بزيادة أن يكون من تلقائهم، أي بإغوائهم وتزيينهم.

واختلف في سبب هذه الآية - فقيل: إن حذيفة بن اليمان، وعمار بن ياسر أتيا بيت المدراس، فأراد اليهود صرفهم عن دينهم فشتا عليه ونزلت الآية، وقيل:

إنما هذه الآية تابعة في المعنى لما تقدم من نهي الله من متابعة أقوال اليهود في ﴿رَبِّعْتَا﴾ وغيره، وأنهم لا يودون أن ينزل خير ويودون أن يردوا المؤمنين كفاراً.

و ﴿الْحَقُّ﴾ المراد في هذه الآية: نبوة محمد ﷺ، وصحة ما المسلمون عليه. وهذه الآية من الظواهر في صحة الكفر عناداً، واختلف أهل السنة في جواز ذلك، والصحيح عندي جوازُهُ عقلاً وبُغْضُهُ وقوعاً، ويترتب في كل آية تقتضيه أن المعرفة تسلب في ثاني حال من العناد. والعفو: ترك العقوبة وهو من عفت الآثار، والصفح: الإعراض عن المذنب كأنه يولي صفحة العتق. وقال ابن عباس: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَتَقَبَّلُوا إِلَيْهِمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿صَبْرُونَ﴾.

وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ الْمَسْرِي عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرِيُّ لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتَّبِعُونَ الْكُتُبَ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٠﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذَكَّرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا لَخَافِيفَةٍ لَّهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١١﴾ وَاللَّهُ الشَّرِيفُ الْغَنِيُّ فَآتِنَا نَوْلًا فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ إِلَيْنَا اللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٢﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ لَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قِنْدَانٌ بِدِيحِ النَّسُوتِ وَالْأَرْضِ وَإِذْ أَضْمَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿١١٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْتَلَّ عَنْ أَحْسَبِ الْحَجِيرِ ﴿١١٥﴾

وفي الضمن الأتباع فتجيء العبارة متمكنة. و ﴿الْكِتَابُ﴾ هنا التوراة. و ﴿وَلَوْ﴾ هنا بمنزلة (أن) لا تحتاج إلى جواب، وقيل: يتقدر جوابها في وُدِّ، التقدير: لو يردونكم لودوا ذلك، فود دالة على الجواب، لأن من شرطه أن يكون متأخراً عن (لو)، و ﴿كُنَّا﴾ مفعول ثانٍ، ويحتمل أن يكون حالاً، و ﴿حَسَكًا﴾ مفعول له، وقيل: هو مصدر في موضع الحال.

واختلف في تعلق قوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَ أَنْفُسِهِمْ﴾ فقيل: يتعلق بـوَدِّ، لأنه بمعنى وُدِّوا، وقيل: يتعلق بقوله ﴿حَسَكًا﴾، فالوقف على قوله: ﴿كُنَّا﴾، والمعنى على هذين القولين: أنهم لم يجدوا ذلك في كتاب، ولا أمروا به، فهو من تلقائهم. ولفظة الحسد تعطي هذا، فجاء ﴿وَمَنْ

غير. قال الطبري: إنما أمر الله هنا بالصلاة والزكاة لتحط ما تقدم من ميلهم إلى قول اليهود: ﴿رَعَيْنَا﴾ لأن ذلك نهي عن نوعه، ثم أمر المؤمنين بما يحطه. والخير المقدم مُتَّفَضٌ لأنه فعل، فمعنى ﴿تَجِدُوا﴾: تجدوا ثوابه وجزاءه، وذلك بمنزلة وجوده، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَعِيدٌ﴾، خبر في اللفظ معناه الوعد والوعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ﴾ معناه: قال اليهود: لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً، وقال النصارى: لن يدخل الجنة إلا من كان نصارى، فجمع قولهم، ودلّ تفریق نوعيهم على تفرق قولتهم، وهذا هو الإيجاز واللف. ومرد: جمع هائد، مثل عائد وعود. ومعناه التائب الراجع، ومثله في الجمع: بازل ويُزَل، وحائل وحول، وبائر وبور. وقيل: هو مصدر يوصف به الواحد والجمع كفطر وعدل ورضا. وقال الفراء: أصله يهودي حذف ياءه على غير قياس. وقرأ أبي بن كعب: ﴿إِلَّا مَنْ كَانَ يَهُودِيًّا﴾، وكذبهم الله تعالى، وجعل قولهم أمنية، وقد قُطِعُوا قبل بقوله: ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾، وأمر محمد ﷺ بدعائهم إلى إظهار البرهان.

وقيل: إن الهاء في ﴿هَاتُوا﴾ أصلية من (هاتا، يهاتي) وأميت تصريف هذه اللفظة كله إلا الأمر منه، وقيل: هي عوض من همزة آتي، وقيل: ها تنبيه، وألزمت همزة آتي الحذف. والبرهان: الدليل الذي يوقع اليقين. قال الطبري: طلب

الدليل هنا يقضي بإثبات النظر، ويردُّ على من ينفيه، وقول اليهود: ﴿لَنْ نَفِيَّ حَسَنَتَ بَعْدَهُ﴾ بَلَى إِذْ هِيَ رَدُّ بِالْإِيجَابِ فِي جَوَابِ النَّفْيِ، حرف مرتجل لذلك، وقيل: هي (بل) زيدت عليها الياء لتزيلها عن حد النسق الذي في (بل).

﴿وَأَسْلَمَ﴾ معناه: استسلم وخضع ودان، ومنه قول زيد بن عمرو ابن نفيل:

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمَتْ
لَهُ الْمُزْنُ تَحْمِيلٌ غَضَبًا زُلَالًا
وَحُصَّ الْوَجْدُ بِالذِّكْرِ لِكَوْنِهِ أَشْرَفُ
مَا يُرَى مِنَ الْإِنْسَانِ وَمَوْضِعُ
الْحَوَاسِ، وفيه يظهر العز والذل، ولذلك يقال: وجه الأمر، أي معظمه وأشرفه، قال الأعشى:

أَوْوَلُ الْحُكْمِ عَلَى وَجْهِهِ
لَيْسَ قَضَائِي بِالْهَوَى الْجَائِرِ

ويصح أن يكون الوجه في هذه الآية، المقصد، ﴿وَقُوَّحْسِنُ﴾ جملة في موضع الحال، وعاد الضمير في (له) على لفظ ﴿تَنْ﴾ وكذلك في قوله: ﴿أَجْرُهُ﴾، وعاد في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ على المعنى، وكذلك في ﴿يَحْرُزُونَ﴾. وقرأ ابن محيصن ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ دون تنوين في الفاء المرفوعة، فقيل: ذلك تخفيف، وقيل: المراد فلا الخوف، فحذفت الألف واللام. والخوف: هو لما يَتَوَقَّعُ، والحزن: هو لما قد وقع.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ الآية، معناه ادعى كل فريق أنه أحق برحمة الله من الآخر. وسبب نزول الآية أن نصارى نجران اجتمعوا مع يهود المدينة عند النبي ﷺ،

فتسابوا، وكفر اليهود بعمسى وبالإنجيل، وكفر النصارى بموسى وبالتوراة، وفي هذا من فعلهم كفر كل طائفة بكتابتها، لأن الإنجيل يتضمن صدق موسى وتقرير التوراة، والتوراة تتضمن التبشير بعمسى وصحة نبوته، وكلاهما تضمن صدق محمد ﷺ. فعنفهم الله تعالى على كذبهم، وفي كتبهم خلاف ما قالوا.

وفي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾، تنبيه لأمة محمد ﷺ على ملازمة القرآن، والوقوف عند حدوده، كما قال الحر بن قيس في عمر بن الخطاب (وكان وقافاً عند كتاب الله). والكتاب الذي يتلونه - قيل: التوراة والإنجيل، فالألف واللام للجنس، وقيل: التوراة لأن النصارى تمتثلها، فالألف واللام للهد.

اختلف - من المراد بقوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ﴾ فقال الجمهور: عني بذلك كفار العرب لأنهم لا كتاب لهم، وقال عطاء: المراد أمم كانت قبل اليهود والنصارى، وقال قوم: المراد اليهود، وكأنه أعيد قولهم، وهذا ضعيف، وأخبرهم تعالى بأنه ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾، والمعنى بأن يشيب من كان على شيء أي شيبه حق، ويعاقب من كان على غير شيء. وقال الزجاج: المعنى يريهم عياناً من يدخل الجنة ومن يدخل النار. و ﴿يَوْمَ أَقْبَمْتَهُ﴾ سمي بقيام الناس من القبور، إذ ذلك مبدأ لجمع ما في اليوم، وفي الاستمرار بعده. وقوله: ﴿كَانُوا﴾ بصيغة الماضي حسن على مراعاة يوم الحكم، وليس هذا من

وضع الماضي موضع المستقبل لأن اختلافهم ليس في ذلك اليوم بل في الدنيا.

﴿١١٤﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية. ﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء و ﴿أَظْلَمُ﴾ خبره، والمعنى: لا أحد أظلم، واختلف في المشار إليه من هذا الصنف الظالم فقال ابن عباس وغيره: المراد النصارى الذين كانوا يؤذون مَنْ يصلي ببيت المقدس ويطرحون فيه الأقدار. وقال قتادة، والسدي: المراد الروم الذين أعانوا بخت نصر على تخريب بيت المقدس حين قتلت بنو إسرائيل يحيى بن زكريا عليه السلام. وقيل: المغيبي بخت نصر. وقال ابن زيد: المراد كفار قريش حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام.

وهذه الآية تتناول كل من منع من مسجد إلى يوم القيامة، أو خرّب مدينة إسلام لأنها مساجد وإن لم تكن موقوفة إذ الأرض كلها مسجد لهذه الأمة، والمشهور (مسجد) بكسر الجيم، ومن العرب من يقول: (مسجد) بفتحها. و ﴿أَنْ يَذَكَّرَ﴾ في موضع نصب إما على تقدير حذف (من) وتسلط الفعل، وإما على البدل من المساجد، وهو بدل الاشتمال الذي شأن البدل فيه أن يتعلق بالمُبدل منه، ويخص به أو يقوم به صفة، ويجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ مفعولاً من أجله، ويجوز أن تكون في موضع خفض على إسقاط حرف الجر، ذكره سيويه.

ومن قال من المفسرين: إن الآية

بسبب بيت المقدس جعل الخراب الحقيقي الموجود، ومن قال: هي بسبب المسجد الحرام جعل منع عمارته خراباً إذ هو داع إليه. ومن جعل الآية في النصارى روى أنه مرّ زمان بعد ذلك لا يدخل نصراني بيت المقدس إلا أوجع ضرباً، قاله قتادة والسدي، ومن جعلها في قريش قال: كذلك تُودي بأمر النبي ﷺ أنه لا يحج مشرك، و ﴿عَافِيَةً﴾ نصب على الحال.

وهذه الآية ليست بأمر بين منهم من المساجد، لكنها تطرق إلى ذلك، وبراءة فيها وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

ومن جعل الآية في النصارى قال: الخزي قتل الحربي، وجزية الذمي، وقيل: الفتوح الكائنة في الإسلام كعمورية وهرقلة وغير ذلك. ومن جعلها في قريش جعل الخزي غلبتهم في الفتح وقتلهم والعذاب في الآخرة لمن مات منهم كافراً، و ﴿خِزْيٌ﴾ رفع بالابتداء، وخبره في المجرور.

و ﴿الْمَشْرِقِ﴾ موضع الشروق، و ﴿الْمَغْرِبِ﴾ موضع الغروب أي هما له ملك وما بينهما من الجهات والمخلوقات، وخصهما بالذكر وإن كانت جملة المخلوقات كذلك لأن سبب الآية اقتضى ذلك.

و ﴿أَنْ مَّا﴾ شرط، و ﴿تَوَلَّوْا﴾ جزم به، والجواب في قوله: ﴿فَتَمَّ﴾، والمعنى: فأينما تولوا نحوه وإليه، لأن ولى - وإن كان غالب استعمالها أوبر - فإنها تقتضي أنه يقبل إلى ناحية، تقول: وُلِّيتُ عن كذا وإلى

كذا. وقرأ الحسن: ﴿تَوَلَّوْا﴾ بفتح التاء واللام، و ﴿ثم﴾ مبنية على الفتح وهي في موضع نصب على الظرف. و ﴿وَجِهَ اللَّهُ﴾ معناه الذي وجهنا إليه، كما تقول: سافرت في وجه كذا أي في جهة كذا.

واختلف الناس في تأويل الوجه الذي جاء مضافاً إلى الله تعالى في مواضع من القرآن، فقال الحذاق: ذلك راجع إلى الوجود، والعبارة عنه بالوجه من مجاز كلام العرب إذ كان الوجه أظهر الأعضاء في الشاهد وأجلها قدراً. وقال بعض الأئمة: تلك صفة ثابتة بالسمع، زائدة على ما توحيه العقول من صفات القديم تعالى، وضعف أبو المعالي هذا القول.

ويتجه في بعض المواضع كهذه الآية أن يراد بالوجه الجهة التي فيها رضاه وعليها ثوابه، كما تقول: تصدقت لوجه الله تعالى، ويتجه في هذه الآية خاص أن يراد بالوجه الجهة التي وجهنا إليها في القبلة حسبما يأتي في أحد الأقوال. وقال أبو منصور في المقنع: يحتمل أن يراد بالوجه هنا الجاه، كما تقول: فلان وجه القوم، أي موضع شرفهم، فالتقدير: فتمّ جلال الله وعظمته.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية. فقال قتادة: أباح الله لنبيه ﷺ بهذه الآية أن يصلي المسلمون حيث شاؤوا، فاختار النبي ﷺ بيت المقدس حينئذ، ثم نسخ ذلك كله بالتحول إلى الكعبة. وقال مجاهد، والضحاك: معناه إشارة إلى الكعبة،

أي حيث كنتم من المشرق والمغرب فأنتم قادرون على التوجه إلى الكعبة التي هي وجه الله الذي وجهكم إليه، وعلى هذا فهي ناسخة لبيت المقدس. وقال ابن زيد: كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس، وقالوا: ما اهتدى إلا بنا، فلما حول إلى الكعبة قالت اليهود: ما ولاهم عن قبلتهم؟ فنزلت: ﴿وَلِلَّهِ الشَّرْقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ الآية. وقال ابن عمر: نزلت هذه الآية في صلاة النافلة في السفر حيث توجهت بالإنسان دابته. وقال النخعي: الآية عامة، أينما تولوا في متصرفاتكم ومسايعكم فَمَنْ وَجِهَ اللهُ، أي موضع رضاه وثوابه وجهة رحمته التي يوصل إليها بالطاعة. وقال عبدالله بن عامر بن ربيعة: نزلت فيمن اجتهد في القبلة فأخطأ، وورد في ذلك حديث رواه عامر بن ربيعة قال: (كنا مع النبي ﷺ في سفر في ليلة مظلمة، فتحرى قوم القبلة واعملوا علامات، فلما أصبحوا رأوا أنهم قد أخطؤوها، فعرفوا رسول الله ﷺ بذلك فنزلت هذه الآية، وذكر قوم هذا الحديث على أن النبي ﷺ لم يكن مع القوم في السفر وذلك خطأ.

وقال قتادة أيضاً: نزلت هذه الآية في النجاشي، وذلك أنه لما مات دعا النبي ﷺ المسلمين إلى الصلاة عليه، فقال قوم: كيف يُصَلَّى على مَنْ لم يُصَلَّ إلى القبلة قط؟ فنزلت هذه الآية، أي أن النجاشي كان يقصد وجه الله وإن لم يبلغه التوجه إلى القبلة.

وقال ابن جبير: نزلت الآية في

الدعاء لما نزلت: ﴿اتَّخِذُوا مَنَاجِبَ لَكُمْ﴾ قال المسلمون: إلى أين ندعو؟ فنزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَسَمَّ وَجْهَ اللَّهِ﴾. وقال المهدي: وقيل: هذه الآية منتظمة في معنى التي قبلها، أي لا يمنعكم تخريب مسجد من أداء العبادات، فإن المسجد المخصوص للصلاة إن خرب فَمَنْ وَجِهَ اللهُ موجودٌ حيث توليتهم، وقال أيضاً: نزلت الآية حين صُدَّ رسول الله ﷺ عن البيت.

و ﴿دَبَّحَ﴾ معناه مُنَّسَعِ الرحمة، ﴿عَلِيمٌ﴾ أين يضعها. وقيل: واسع معناه هنا أنه يوسع على عباده في الحكم، دِينُهُ يُسْرَرُ، عليم بالنيات التي هي مِلَاكُ الْعَمَلِ وَإِنْ اخْتَلَفَتْ ظَوَاهِرُهُ فِي قِبَلَةٍ وَمَا أَشْبَهَهَا.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿قَالَ اللَّهُ تَبَّ﴾ قرأ هذه الآية عامة القراء: ﴿وَقَالُوا﴾ بواو تربط الجملة بالجملة، أو تعطف على (سَمَّ).

وقرأ ابن عامر، وغيره: ﴿قَالُوا﴾ بغير واو. قال أبو علي: وكذلك هي في مصاحف أهل الشام. وحذف هذه الواو يتجه من وجهين: أحدهما أن هذه الجملة مرتبطة في المعنى بالتي قبلها فذلك يغني عن الواو. والآخر أن تستأنف هذه الجملة ولا يراعى ارتباطها بما تقدم.

واختلف على من يعود الضمير في ﴿قَالُوا﴾؟ فقيل: على النصاري لأنهم قالوا: المسيح ابن الله وذكُرْهُمْ أشبه بسياق الآية، وقيل: على اليهود لأنهم قالوا: عزيز ابن الله، وقيل: على كفرة العرب لأنهم قالوا: الملائكة بنات الله.

و ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ﴾ مصدر معناه تنزيهاً له وتبرئةً مِمَّا قَالُوا، و ﴿هَا﴾ رفع بالابتداء والخبر في المجرور، أو بالاستقرار المقدر، أي كل ذلك له ملك، والذين قالوا: إن الله اتخذه ولداً داخلٌ في جملة ما في السموات والأرض ولا يكون الولد إلا من جنس الوالد لا من المخلوقات المملوكات.

والقنوت في اللغة الطاعة، والقنوت طول القيام في عبادة، ومنه القنوت في الصلاة، فمعنى الآية: أن المخلوقات كلها تُقَاتِلُ اللهُ، أي تخشع وتطيع، والكفار والجمادات قنوتهم في ظهور الصنعة عليهم وفيهم. وقيل: الكافر يسجد ظله وهو كاره.

و ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ مصروف من مُبْدِعٍ، كبصير من مُبْصِرٍ، ومثله قول عمرو بن معدي كرب:

أَمِينٌ رَيْحَانَةُ الدَّاعِي السَّمِيعُ

يريد المُسْمِع. والمُبدِع المخترع المنشئ، ومنه أصحاب البِدْع ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في صلاة رمضان: نعمت البِدْعَة هذه.

وخص السموات والأرض بالذكر لأنها أعظم ما نرى من مخلوقاته جل وعلا.

و ﴿قَدَّرَ﴾ معناه: قَدَّرَ، وقد يجيء بمعنى أمضى، ويتجه في هذه الآية المعنيان، فعلى مذهب أهل السنة قَدَّرَ في الأزل وأمضى فيه، وعلى مذهب المعتزلة أمضى عند الخلق والإيجاد. والأمر واحد الأمور، وليس هنا

مظهراً أو مقدرأ، وعلى بابها في المنع للوجوب يليها الابتداء، وجرت العادة بحذف الخبر.

والآية هنا: العلامة الدالة، وقد تقدم القول في لفظها. و ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ اليهود والنصارى في قول من جعل الذين لا يعلمون كفار العرب - وهم اليهود في قول من جعل الذين لا يعلمون النصارى - وهم الأمم السالفة في قول من جعل الذين لا يعلمون العرب والنصارى واليهود، والكاف الأولى من ﴿كَذَلِكَ﴾ نعت لمصدر مقدر. و ﴿يَسْئَلُ﴾ نعت لمصدر محذوف، ويصح أن يعمل فيه ﴿قَالَ﴾. وتشابه القلوب هنا هو في طلب ما لا يصرح، أو في الكفر وإن اختلفت ظواهرهم. وقرأ ابن أبي إسحق وأبو حيوة: ﴿تَشَابَهَتْ﴾ بشد الشين، وقال أبو عمرو الداني: وذلك غير جائز لأنه فعل ماض.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ بَيَّنَّا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ لما تقدم ذكر الذين أضلهم الله حتى كفروا بالأنبياء وطلبوا ما لا يجوز لهم أتبع ذلك بذكر الذين بين لهم ما ينفع وتقوم به الحجة، لكن البيان وقع وتحصل للموقنين فلذلك خصهم بالذكر، ويحتمل أن يكون المعنى: قد بينا البيان الذي هو خلق الهدى، فكأن الكلام: قد هدينا من هدينا. واليقين إذا اتصف به العلم خصمه وبلغ به نهاية الوثاقة.

وقوله تعالى: ﴿بَيَّنَّا﴾ قرينة تقضي أن اليقين صفة لعلمهم، وقرينة أخرى وهي أن الكلام مدح لهم.

ومن جعل من المفسرين (قضى) بمعنى أمضى عند الخلق والإيجاد فكان إظهار المخترعات في أوقاتها المؤجلة قول لها: (كن) إذ التأمل يقتضي ذلك على نحو قول الشاعر: وَقَالَتِ الْأَقْرَابُ لِلْبَطْنِ الْحَقِ

وهذا كله يجري مع قول المعتزلة، والمعنى الذي تقتضيه عبارة (كن): هو قديم قائم بالذات، والوضوح التام في هذه المسألة يحتاج أكثر من هذا البسط.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ الآية، قال الربيع، والسدي: هم كفار العرب، وقد طلب عبدالله بن أبي أمية وغيره من النبي ﷺ نحو هذا، نفى عنهم العلم لأنهم لا كتاب عندهم ولا اتباع نبوة، وقال مجاهد: هم النصارى، لأنهم المذكورون في الآية أولاً، ورجحه الطبري، وقال ابن عباس: المراد من كان على عهد رسول الله ﷺ من اليهود، لأن رافع بن حريملة قال للنبي ﷺ: أسمعنا كلام الله، وقيل: الإشارة بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ إلى جميع هذه الطوائف، لأن كلهم قال هذه المقالة أو نحوها، ويكون الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، و ﴿أُولَئِكَ﴾ تحضيض بمعنى هؤلاء كما قال الأشهب بن ربيعة:

تَعْدُونَ عَفْرَ النَّيْبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ
بَنِي ضَوْطَرَى لَوْلَا كَيْمِي الْمُقْتَنَا
وليست هذه لولا التي تعطي منع الشيء لوجود غيره، وفرق بينهما أنها في التحضيض لا يليها إلا الفعل

بمصدر أمر يأمر، ﴿وَيَكُونُ﴾ رفع على الاستئناف، قال سيبويه: معناه فهو يكون، قال غيره: ﴿يَكُونُ﴾ عطف على ﴿يَقُولُ﴾، واختاره الطبري وقرره. وهو خطأ من جهة المعنى لأنه يقتضي أن القول مع التكوين والوجود، وتكلم أبو علي الفارسي في هذه المسألة بما هو فاسد من جهة الاعتزال لا من جهة العربية.

وقرأ ابن عامر ﴿فَيَكُونُ﴾ بالنصب، وضَعَفَهُ أبو علي، وَوَجَّهَهُ - مع ضَعْفِهِ - على أن يشفع له شبه اللفظ. وقال أحمد بن موسى في قراءة ابن عامر: هذا لحن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الفاء لا تعمل في جواب الأمر إلا إذا كانا فعلين يطرد فيهما معنى الشرط، تقول: أكرم زيداً فيكرمك، والمعنى: إن تُكْرِمَ زيداً يكرمك، وفي هذه الآية لا يتجه هذا، لأنه يجيء تقديره: إن تكن تكن، ولا معنى لهذا، والذي يطرد فيه معنى الشرط هو أن يختلف الفاعلان أو الفاعلان، فالأول أكرم زيداً فيكرمك، والثاني أكرم زيداً فتسود.

وتلخيص المعتقد في هذه الآية أن الله عز وجل لم يزل أمراً للمعدومات بشرط وجودها، قادراً على تأخر المقدورات، عالماً مع تأخر وقوع المعلومات، فكل ما في الآية مما يقتضي الاستقبال فهو بحسب المأمورات، إذ المحدثات تجيء بعد أن لم تكن، وكل ما يستند إلى الله تعالى من قدرة وعلم وأمر فهو قديم لم يزل.

وَأَمَّا الْيَقِينُ فِي اسْتِعْمَالِ الْفُقَهَاءِ إِذَا لَمْ يَتَّصِفْ بِهِ الْعِلْمُ فَإِنَّهُ أَحْطَى مِنَ الْعِلْمِ لِأَنَّ الْعِلْمَ عِنْدَهُمْ مَعْرِفَةٌ الْمَعْلُومِ عَلَى مَا هُوَ بِهِ، وَالْيَقِينُ مَعْتَقِدٌ يَقَعُ لِلْمُوقِنِ فِي حَقِّهِ وَالشَّيْءُ عَلَى خِلَافِ مَعْتَقَدِهِ، وَمِثَالُ ذَلِكَ تَيَقُّنُ الْمُقَدِّدِ ثُبُوتِ الصَّانِعِ، وَمِنْهُ قَوْلُ مَالِكٍ رَحِمَهُ اللَّهُ فِي الْمَوْطِئِ فِي مَسْأَلَةِ الْحَالِفِ عَلَى الشَّيْءِ يَتَّقِيهِ وَالشَّيْءُ فِي نَفْسِهِ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَأَمَّا حَقِيقَةُ الْأَمْرِ فَالْيَقِينُ هُوَ الْأَخْصَرُ، وَهُوَ مَا عَلِمَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ إِلَّا عَلَيْهِ.

١١٩ - ١٢١ تفسير قوله عز وجل: **الْمَعْنَى: ﴿بَشِيرًا﴾** لِمَنْ آمَنَ، وَ **﴿نَذِيرًا﴾** لِمَنْ كَفَرَ، وَقُرْأَ نَافِعٌ وَحْدَهُ **﴿وَلَا تَسْأَلُ﴾** بِالْجُزْمِ عَلَى النَّهْيِ، وَفِي ذَلِكَ مَعْنِيَانِ: أَحَدُهُمَا - لَا تَسْأَلُ عَلَى جِهَةِ التَّعْظِيمِ لِحَالِهِمْ مِنَ الْعَذَابِ، كَمَا تَقُولُ: فَلَانِ لَا تَسْأَلُ عَنْهُ، تَعْنِي أَنَّهُ فِي نَهَايَةِ تَشْهُرِهِ مِنْ خَيْرٍ أَوْ شَرٍّ.

وَالْمَعْنَى الثَّانِي رُوي فِيهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْتَ شِعْرِي مَا فَعَلَ أَبُوَائِي؟» فَنَزَلَتْ: **﴿وَلَا تَسْأَلُ﴾**، وَحَكَى الْمَهْدَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «لَيْتَ شِعْرِي أَيُّ أَبُوِّي أَحَدْتُ مَوْتًا؟» فَنَزَلَتْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا خَطَأٌ يَمُنُّ رَوَاهُ أَوْ ظَنَّهُ، لِأَنَّ أَبَاهُ مَاتَ وَهُوَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ، وَقِيلَ: وَهُوَ ابْنُ شَهْرٍ، وَقِيلَ: ابْنُ شَهْرَيْنِ، وَمَاتَتْ أُمُّهُ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَمْسِ سِنِينَ مَنصَرَفَةً بِهِ مِنَ الْمَدِينَةِ مِنْ زِيَارَةِ أَحْوَالِهِ، فَهَذَا مِمَّا لَا يَتَوَهَّمُ أَنَّهُ خَفِيَ عَلَيْهِ ﷺ.

وَقُرْأَ بَاقِي السَّبْعَةِ **﴿وَلَا تَسْأَلُ﴾** بِضَمِّ التَّاءِ وَاللَّامِ، وَقُرْأَ قَوْمٌ **﴿وَلَا تَسْأَلُ﴾** بِفَتْحِ التَّاءِ وَضَمِّ اللَّامِ، وَتَجَهَّ فِي هَاتَيْنِ الْقُرْأَتَيْنِ مَعْنِيَانِ: أَحَدُهُمَا الْخَبِيرُ، أَنَّهُ لَا يَسْأَلُ عَنْهُمْ وَلَا يُسْأَلُ هُوَ عَنْهُمْ، وَالْآخَرُ أَنْ يَرَادَ مَعْنَى الْحَالِ كَأَنَّهُ قَالَ: وَغَيْرُ مَسْئُولٍ وَغَيْرُ سَائِلٍ عَنْهُمْ، عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: بِشِيرًا وَنَذِيرًا.

وَقُرْأَ أَبُو بِنِ كَعْبٍ: **﴿وَمَا تَسْأَلُ﴾**، وَقُرْأَ ابْنُ مَسْعُودٍ **﴿وَلَنْ تَسْأَلُ﴾** وَهَاتَانِ الْقُرْأَتَانِ تَوْيْدَانٌ مَعْنَى الْقَطْعِ وَالِاسْتِنْفَانِ فِي غَيْرِهِمَا.

وَالْحَجِيمُ إِحْدَى طَبَقَاتِ النَّارِ. وَيُقَالُ: رَضِيَ يَرْضَى رِضًا وَرِضًا وَرِضْوَانًا، وَحُكِيَ رِضَاءُ مَمْدُودًا، وَقَالَ: **﴿مِلَّتُمْ﴾** وَهِيَ مِلَّتَانِ مُخْتَلِفَتَانِ بِمَعْنَى - لَنْ تَرْضَى الْيَهُودَ حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ، وَلَنْ تَرْضَى النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ فَجَمَعَهُمْ إِيجَازًا لِأَنَّ ذَلِكَ مَفْهُومٌ.

وَالْمِلَّةُ: الطَّرِيقَةُ، وَقَدْ اخْتَصَتْ اللَّفْظَةُ بِالشَّرَائِعِ وَالِدِينِ، وَطَرِيقُ مَمْلُوكٍ أَيْ قَدْ أَثَّرَ الْمَشِي فِيهِ.

وَرُوي أَنَّ سَبَبَ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى طَلَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الْهَدَنَةَ، وَوَعَدُوهُ أَنْ يَتَّبِعُوهُ بَعْدَ مَدَّةٍ خُدَاعًا مِنْهُمْ، فَأَعْلَمَهُ اللَّهُ تَعَالَى أَنَّ إِعْطَاءَ الْهَدَنَةِ لَا يَنْفَعُ عَنْدَهُمْ، وَأَطْلَعَهُ عَلَى سِرِّ خُدَاعِهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ**

هُوَ الْهُدَى﴾ أَي مَا أَنْتَ عَلَيْهِ يَا مُحَمَّدٌ مِنَ هُدَى اللَّهِ الَّذِي يَضَعُهُ فِي قَلْبِ مَنْ يَشَاءُ هُوَ الْهُدَى الْحَقِيقِيُّ لَا مَا يَدْعِيهِ هَوَاهُ، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى لِنَبِيِّهِ: **﴿وَلَيْنِ أَنْتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ﴾** الْآيَةَ، فَهَذَا شَرْطُ خُوطْبِ بِهِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَمْتُهُ مَعَهُ دَاخِلَةٌ فِيهِ.

﴿أَهْوَاءَهُ﴾: جَمْعُ هَوَى، وَلَمَّا كَانَتْ مُخْتَلِفَةً جَمَعَتْ، وَلَوْ حَمَلَ عَلَى إِفْرَادِ الْمِلَّةِ لَقِيلَ: هَوَاهِمُ، وَالْوَلِيُّ الَّذِي يَتَوَلَّى الْإِصْلَاحَ وَالْحِيَاطَةَ وَالنَّصَرَ وَالْمَعُونَةَ، وَ **﴿نَصِيرٍ﴾** بِنَاءُ مَبَالِغَةٍ فِي اسْمِ الْفَاعِلِ مِنْ نَصَرَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: **﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾** الْآيَةَ، **﴿الَّذِينَ﴾** رَفَعَ بِالِابْتِدَاءِ، وَ **﴿آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾** صَلْتَهُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: الْمُرَادُ بِالَّذِينَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أُمَّةٍ

محمد ﷺ. والكتاب على هذا التأويل القرآن، وقال ابن زيد: المراد مَنْ أسلم من بني إسرائيل، والكتاب على هذا التأويل التوراة، وآتيناهم: معناه أعطيناهم، وقال قوم: هذا مخصوص بالأربعين الذين وردوا مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه في السفينة فأثنى الله عليهم، ويحتمل أن يراد بالذين العموم في مؤمني بني إسرائيل والمؤمنين من العرب، ويكون الكتاب اسم الجنس، و ﴿يَتْلُوهُ﴾ معناه: يتبعونه حتى اتباعه بامثال الأمر والنهي، وقيل: يتلونه: يقرؤونه حتى قراءته، وهذا أيضاً يتضمن الاتباع والامتثال، و ﴿يَتْلُوهُ﴾ - إذا أريد بالذين الخصوص فيمن اهتدى - يصح أن يكون خير الابتداء، ويصح أن يكون ﴿يَتْلُوهُ﴾ في موضع الحال، والخبر ﴿أُولَئِكَ﴾. وإذا أريد بالذين العموم لم يكن الخبر إلا ﴿أُولَئِكَ﴾، و ﴿يَتْلُوهُ﴾ حال لا يستغنى عنها، وفيها الفائدة لأنه لو كان الخبر في ﴿يَتْلُوهُ﴾ لوجب أن يكون كل مؤمن يتلو الكتاب حتى تلاوته.

و ﴿حَقَّ﴾ مصدر، والعامل فيه فعل مضمر وهو بمعنى أفعال ولا يجوز إضافته إلى واحد معرف، وإنما جازت هنا لأن تعرف التلاوة بإضافتها إلى الضمير ليس بتعرف محض، وإنما هو بمنزلة قولهم: رجل واحد أمة، ونسيج وحده، والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائذ على الكتاب، وقيل: يعود على محمد ﷺ، لأن متبعي التوراة

يجدونه فيها فيؤمنون به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل عندي أن يعود الضمير على الهدى الذي تقدم، وذلك أنه ذكر كفار اليهود والنصارى في أول الآية وحذر رسوله من اتباع أهوائهم، وأعلمه بأن هدى الله هو الهدى الذي أعطاه وبعثه به، ثم ذكر له أن المؤمنين التاليين لكتاب الله هم المؤمنون بذلك الهدى المقتدون بأنواره، والضمير في ﴿يَكْتَرُ بِهِ﴾ يحتمل من العود ما ذكر في الأول. و ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْخَيْرُونَ﴾ ابتداء وعماد وخبر، أو ابتداء وابتداء وخبر، والثاني وخبره خبر الأول. والخسران: نقصان الحظ.

﴿١٢٢﴾ - ﴿١٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن، وغيره ﴿يَغْمِثِي﴾ بتسكين الياء تخفيفاً لأن أصلها التحريك كتتحريك الضمائر: لك وبك، ثم حذفها الحسن للالتقاء، وفي السبعة من يحرك الياء، ومنهم من يسكنها.

وإن قدرنا فضيلة بني إسرائيل مخصوصة بكثرة الأنبياء وغير ذلك، فالعالمون عموم مطلق، وإن قدرنا تفضيلهم على الإطلاق فالعالمون عالمو زمانهم لأن أمة محمد ﷺ أفضل منهم بالنص، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية إلى قوله: ﴿يُعْمَرُونَ﴾.

ومعنى ﴿وَلَا تَقْعُبُكَ شَعْبَةٌ﴾ أنها ليست ثم - وليس المعنى أنه يشفع فيهم أحد فيرد، وإنما نفى أن تكون ثم شفاعة على حد ما هي في الدنيا، وأما الشفاعة التي هي في تعجيل

الحساب فليست بنافعة لهؤلاء الكفرة في خاصتهم، وأما الأخيرة التي هي بإذن من الله تعالى في أهل المعاصي من المؤمنين فهي بعد أن أخذ العقاب حقه، وليس لهؤلاء المتوعدين من الكفار منها شيء.

والعامل في ﴿وَلِذَٰلِكَ﴾ فعل تقديره واذكر إذ، و ﴿ابْتَغَ﴾ معناه اختبر، وإبراهيم يقال: إن تفسيره بالعربية أب رحيم.

وقرأ ابن عامر في جميع سورة البقرة ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾. وقدّم على الفاعل للاهتمام إذ كون الرب مبتلياً معلوم، فإنما يَهْتَمُّ السامع بمن ابتلي، وكون الضمير المفعول متصلاً بالفاعل موجب تقديم المفعول فإنما بُني الكلام على هذا الاهتمام.

واختلف أهل التأويل في الكلمات، فقال ابن عباس: هي ثلاثون سهماً هي الإسلام كله لم يُعْمَهُ أحد كاملاً إلا إبراهيم صلوات الله عليه، عشرة منها في براءة: ﴿الشَّاهِدِينَ الْمَكِيدُونَ﴾ الآية، وعشرة في الأحزاب: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾، وعشرة في: ﴿سَأَلْ سَائِلًا﴾.

وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة: الكلمات عشر خصال، خمس منها في الرأس: المضمضة والاستنشاق، وقص الشارب، والسواك، وفرق الرأس، وقيل بدل فرق الرأس: إعفاء اللحية. وخمس في الجسد: تغليم الظفر، وحلق العانة، ونتف الإبط، والاستنجاء بالماء، والاختتان، وقال ابن عباس أيضاً: هي عشر خصال، ست في البدن، وأربع في الحج: الختان، وحلق

العانة، ونسف الإبط، وتقليم الأظفار، وقص الشارب، والغسل يوم الجمعة، والطواف بالبيت، والسعي، ورمي الجمار، والإفاضة. وقال الحسن بن أبي الحسن: هي الخلال الست التي امتحن بها: الكوكب، والقمر، والشمس، والنار، والهجرة، والختان، وقيل بدل الهجرة: الذبيح. وقالت طائفة: هي مناسك الحج خاصة. وروي أن الله تعالى أوحى إليه أن تطهر، فتمضمض، ثم أن تطهر، فاستنشق، ثم أن تطهر، فاستاك، ثم أن تطهر، فأخذ من شارب، ثم أن تطهر، ففرق شعره، ثم أن تطهر، فاستنجدى، ثم أن تطهر، فحلق عاتته، ثم أن تطهر، فنتف إبطه، ثم أن تطهر، فقلم أظافره، ثم أن تطهر، فأقبل على جسده ينظر ماذا يصنع فاختنن بعد عشرين ومائة سنة، وفي البخاري أنه اختنن وهو ابن ثمانين سنة بالقدم.

قال الراوي فأوحى الله إليه: ﴿إِنَّ جَاءَكَ لِلنَّاسِ لِإِمَامَتِكَ يَأْتُمُونَ بِكَ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ، وَيَقْتَدِي بِكَ الصَّالِحُونَ.﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أقوى الأقوال في تفسير هذه الآية، وعلى هذه الأقوال كلها إبراهيم عليه السلام هو الذي أتته. وقال مجاهد، وغيره: إن الكلمات هي أن الله عز وجل قال لإبراهيم: إني مبتليك بأمر فما هو؟ قال إبراهيم: تجعلني إماماً للناس، قال الله: نعم، قال إبراهيم: تجعل البيت مشاية، قال الله: نعم، قال إبراهيم: وأمنأ، قال الله: نعم، قال

إبراهيم: وترينا مناسكنا وتثوب علينا، قال الله: نعم، قال إبراهيم: تجعل هذا البلد أمنأ، قال الله: نعم، قال إبراهيم: وترزق أهله من الثمرات، قال الله: نعم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا القول فالله تعالى هو الذي أتته، وقد طول المفسرون في هذا، وذكروا أشياء فيها بُعد فاخترتها. وإنما سُميت هذه الخصال كلمات لأنها اقترنت بها أوامر هي كلمات. وروي أن إبراهيم عليه السلام لما أتته هذه الكلمات أو أمنأها الله عليه كتب الله له البراءة من النار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَلِإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾.

والإمام: القدوة، ومنه قيل لخيط البناء إمام، وهو هنا اسم مفرد، وقيل في غير هذا الموضع: هو جمع أم، وزنه فاعل أصله أمم، فيجيء مثل قائم وقيام، وجائع وجياع، ونائم ونيام. وجعل الله تعالى إبراهيم إماماً لأهل طاعته فلذلك اجتمعت الأمم على الدعوى فيه، وأعلم الله تعالى أن كان حنيفاً، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾ هو على جهة الدعاء والرغبة إلى الله، أي: ومن ذريتي يا رب فاجعل. وقيل: هذا منه على جهة الاستفهام عنهم، أي ومن ذريتي يا رب ماذا يكون؟

والذرية مأخوذة من ذرأ يذرؤ، أو من ذرى يذري، أو من ذر يذر، أو من ذرأ يذرأ، وهي أفعال تتقارب معانيها، قد طوّل في تحليلها أبو الفتح وشفي.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا يَأْتَالُ﴾

عَهْدِي﴾ أي وقال الله. والعهد فيما قال مجاهد: الإمامة، وقال السدي: النبوة، وقال قتادة: الأمان من عذاب الله، وقال الربيع، والضحاك: العهد: الدين، دين الله تعالى. وقال ابن عباس: معنى الآية: لا عهد عليك لظالم أن تطيعه، ونصب ﴿الظَّالِمِينَ﴾ لأن العهد ينال كما ينال، وقرأ قتادة، وأبو رجاء، والأعمش: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ بالرفع. وإذا أولنا العهد الدين أو الأمان وأن لا طاعة لظالم، فالظلم في الآية ظلم الكفر، لأن العاصي المؤمن ينال الدين والأمان من عذاب الله، وتلزم طاعته إذا كان ذا أمر. وإذا أولنا العهد النبوة أو الإمامة في الدين، فالظلم ظلم المعاصي فما زاد.

﴿١٢٥﴾ - ﴿١٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَإِذْ عَظَفَ عَلَى وَرَثَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ، وَ ﴿آلِيَّتِ﴾ الكعبة، و ﴿مَثَانَةَ﴾ يحتمل أن يكون من ثاب إذا رجع لأن الناس يشوبون إليها أي ينصرفون، ويحتمل أن تكون من الشواب أي يشابون هناك. قال الأخفش: دخلت الهاء للمبالغة لكثرة من يشوب أي يرجع، لأنه قل ما يفارق أحد البيت إلا وهو يرى أنه لم يقض منه وطراً، فهي كمنسابة وعلامة، وقال غيره، هي هاء تأنيث المصدر فهي مفعلة أصلها مؤنثة نقلت حركة الواو إلى الثاء فانقلبت الواو ألفاً لانفتاح ما قبلها، وقيل: هو على تأنيث البقعة كما يقال: مقام ومقامة.

وقرأ الأعمش ﴿مَثَابَاتِ﴾ على

الجمع، وقال ورقة بن نوفل في الكعبة:

مَثَاباً لَأَقْنَاءِ الْقَبَائِلِ كُلِّهَا
تَحْتِ إِيَّهَا الْيَعْمَلَاتُ الْطَّلَائِحُ
﴿وَأَنْتُمْ﴾ معناه: أن الناس يغيرون ويقتلون حول مكة وهي آمنة من ذلك، يلقي الرجل بها قاتل أبيه فلا يهيجه لأن الله تعالى جعل لها في النفوس حرمة، وجعلها أمناً للناس والطير والوحوش. وخصص الشرع من ذلك الخمس الفواسق على لسان النبي ﷺ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمرزة، والكسائي: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ بكسر الخاء على جهة الأمر، فقال أنس بن مالك وغيره: معنى ذلك ما روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: وافقت ربي في ثلاث: في الحجاب، وفي ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّتْكُمْ﴾ - وقلت: يا رسول الله، لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى فينزلت: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ فهذا أمر لامة محمد ﷺ. وقال المهدي: وقيل: ذلك عطف على قوله: ﴿أَذْكُرُوا﴾ فهذا أمر لبني إسرائيل. وقال الربيع بن أنس: ذلك أمر لإبراهيم ومتبعيه فهي من الكلمات كأنه قال: إني جاعلك للناس إماماً واتخذوا، وذكر المهدي رحمه الله أن ذلك عطف على الأمر الذي يتضمنه قوله: جعلنا البيت مثابة، لأن المعنى ثوبوا. وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿وَاتَّخَذُوا﴾ بفتح الخاء على جهة الخبر عن من اتخذ من متبعي إبراهيم، وذلك معطوف على قوله:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا﴾ كأنه قال: وإذ اتخذوا، وقيل: هو معطوف على ﴿جَعَلْنَا﴾ دون تقدير إذ، فهي جملة واحدة، وعلى تقدير إذ جملتان.

واختلف في مقام إبراهيم - فقال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما، وخرجه البخاري: إنه الحجر الذي ارتفع عليه إبراهيم حين ضعف عن رفع الحجارة التي كان إسماعيل يناوله إياها في بناء البيت وغرقت قدماه فيه. وقال الربيع بن أنس: هو حجر ناولته إياه امرأته فاغتسل عليه وهو راكب، جاءت به من شق ثم من شق فغرقت رجلاه فيه حين اعتمد عليه.

وقال فريق من العلماء: المقام: المسجد الحرام. وقال عطاء بن أبي رباح: المقام: عرفة والمزدلفة والجمار. وقال ابن عباس: مقامه: مواقف الحج كلها. وقال مجاهد: مقامه: الحرم كله؛ و ﴿مُصَلًّى﴾ موضع صلاة، هذا قول من قال: المقام الحجر، ومن قال بغيره قال: مصلى مدعي على أصل الصلاة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَهْدَنَا﴾، العهد في اللغة على أقسام هذا منها الوصية بمعنى الأمر، و ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على تقدير بأن وحذف الخافض، قال سيبويه: إنها بمعنى أي مفسرة فلا موضع لها من الإعراب و ﴿طَهَّرْنَا﴾ قيل: معناه ابتياء وأسسه على طهارة ونية طهارة فيجيء مثل قوله: ﴿أَسْبَسَ عَلَى الْكَلْبِ﴾. وقال مجاهد: هو أمر بالتطهير من عبادة الأوثان، وقيل: من الفرت والدم، وهذا ضعيف لا

تعضده الأخبار، وقيل: من الشرك. وأضاف الله البيت إلى نفسه تشريفاً للبيت، وهي إضافة مخلوق إلى خالق ومملوك إلى مالك، و ﴿لِلطَّائِفِينَ﴾ ظاهره أهل الطواف، وقاله عطاء وغيره. وقال ابن جبير: معناه للغرباء الطائرين على مكة.

﴿وَالْمَكِينِينَ﴾ قال ابن جبير: هم أهل البلد المقيمون، وقال عطاء: هم المجاورون بمكة. وقال ابن عباس: المصلون. وقال غيره: المعتكفون.

والعكوف في اللغة، اللزوم للشيء والإقامة عليه، كما قال الشاعر:

عَكَفَ النَّبِيْطُ يَلْعَبُونَ الْفَتْرَجَا
فمعناه الملازمي البيت إرادة وجه الله العظيم.

﴿وَأَرْكَعَ السُّجُودَ﴾ المصلون، وخص الركوع والسجود بالذكر لأنهما أقرب أحوال المصلي إلى الله تعالى، وكل مقيم عند بيت الله إرادة ذات الله، فلا يخلو من إحدى هذه الرتب الثلاث: إما أن يكون في صلاة، أو طواف، فإن كان في شغل من دنياه فحال العكوف على مجاورة البيت لا يفارقه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ﴾ الآية، دعا إبراهيم عليه السلام لذريته وغيرهم بمكة بالأمن ورغد العيش، و ﴿أَجَلٌ﴾ لفظه الأمر وهو في حق الله رغبة ودعاء، و ﴿ءَامَنَّا﴾ معناه من الجبارة والمسلطين والعدو المستأصل والمثلات التي تحل بالبلاد، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفراً لا ماء فيه ولا نبات،

وَأَذِّنْ لَهُمْ أَهْلَهُمْ لِلنَّبِيِّ وَالنَّبِيَّاتِ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّذِينَ آمَنُوا هُمُ الْمُتَّقُونَ ۖ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ إِنَّ اللَّهَ سَمِعَ مَا قَالُوا وَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۗ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ هَذِهِ السُّبُلَ يَكُونُونَ فِيهَا أَهْلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۗ وَإِذْ قَالَ لُوطُ لربه رَبِّ اجْعَلْ لِي رَجُلًا صَالِحًا ۖ وَاجْعَلْ لِي فِي الْأَرْضِ مَخْرَجًا ۖ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبَ ۗ وَإِذْ قَالَ لُوطُ لربه رَبِّ اجْعَلْ لِي رَجُلًا صَالِحًا ۖ وَاجْعَلْ لِي فِي الْأَرْضِ مَخْرَجًا ۖ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبَ ۗ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ ۗ وَإِذْ قَالَ لُوطُ لربه رَبِّ اجْعَلْ لِي رَجُلًا صَالِحًا ۖ وَاجْعَلْ لِي فِي الْأَرْضِ مَخْرَجًا ۖ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبَ ۗ

أبي بن كعب، وابن إسحق وغيرهما: هذا القول من الله عز وجل لإبراهيم. وقرؤوا ﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ بضم الهمزة وفتح الميم وشد التاء ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ بقطع الألف وضم الراء، وكذلك قرأه السبعة حاشا ابن عامر فإنه قرأ ﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ بضم الهمزة وسكون الميم وتخفيف التاء ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ بقطع الألف. وقرأ يحيى ابن وثاب ﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ كما قرأ ابن عامر ﴿ثُمَّ إِضْطَرُّهُ﴾ بكسر الهمزة على لغة قريش في قولهم: لا إخال. قرأ أبي بن كعب ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُ﴾ ومن شرط والجواب في فأمته.

فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيره ونبتت فيها أنواع الثمرات.

وروي أن الله تعالى لما دعها إبراهيم أمر جبريل صلوات الله عليه فاقطلع فلسطين وقيل قطعة من الأردن، فطاف بها حول البيت سبعا وأنزلها بوج، فسميت الطائف بسبب ذلك الطواف.

واختلف في تحريم مكة متى كان، فقالت فرقة: جعلها الله حراماً يوم خلق الله السموات والأرض، وقالت فرقة: حرّمها إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول قاله النبي ﷺ في خطبه ثاني يوم الفتح، والثاني قاله أيضاً النبي ﷺ، ففي الصحيح عنه: «اللهم إن إبراهيم حرم مكة، وإني حرمت المدينة، ما بين لابتيها حرام».

ولا تعارض بين الحديثين لأن الأول إخبار سابق علم الله فيها وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم، وأوقات عمارة القطر بإيمان، والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها، وإظهاره ذلك بعد الدور.

وكل مقال من هذين الإخبارين حسن في مقامه، عظم الحرمة ثاني يوم الفتح على المؤمنين، بإسناد التحريم إلى الله تعالى، وذكر إبراهيم عند تحريمه المدينة مثلاً لنفسه، ولا محالة أن تحريم المدينة هو أيضاً من قبل الله تعالى، ومن نافذ قضائه وسابق علمه.

و ﴿بَدَلٌ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿بَدَلٌ﴾، وخص إبراهيم المؤمنين بدعائه. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ الآية، قال

متاع الدنيا قليل، وهو نعت إما لمصدر كأنه قال: متاعاً قليلاً، وإما لزمان كأنه قال: وقتاً قليلاً، أو زمناً قليلاً.

و ﴿الْمَصِيرُ﴾ مَفْعِلٌ كموضع من صار يصير، وييس أصلها بش، وقد تقدمت في بيسما، وأمّته معناه: أخوله الدنيا وأبقيه فيها بقاءً قليلاً، لأنه فإن مُتَّفَضٌ.

وأصل المتاع الزاد، ثم استعمل فيما يكون آخر أمر الإنسان أو عطائه أو أفعاله، قال الشاعر:

وقفت على قبر غريبٍ بقفرة
متاع قليلٍ من حبيبتٍ مُفَارِقِ
ومنهُ تَمْتِيعُ الزوجات، ويضطر الله الكافر إلى النار جزاءً على كفره.

﴿١٢٧﴾ - ﴿١٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: واذكر ﴿وَأَذِّنْ﴾ و ﴿الْفَوَاعِدُ﴾: جمع قاعدة وهي

وموضع [من] رفع على الابتداء والخبر. ويصح أن يكون موضعها نصباً على تقدير: وأرزق من كفر، فلا تكون شرطاً. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: هذا القول هو من إبراهيم ﷺ، وقرؤوا: ﴿فَأَمْتَعَهُ﴾ بفتح الهمزة وسكون الميم، ﴿ثُمَّ أَضْطَرُّهُ﴾ بوصل الألف وفتح الراء، وقرئت بالكسر، ويجوز فيها الضم. وقر ابن محيصن: ﴿ثُمَّ أَطْرُهُ﴾ بإدغام الضاد في الطاء. وقرأ يزيد بن أبي حبيب: ﴿ثُمَّ اضْطَرُّهُ﴾ بضم الطاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن إبراهيم عليه السلام دعا للمؤمنين وعلى الكافرين.

و ﴿قَلِيلًا﴾ معناه مدة العمر، لأن

الأساس، وقال الفراء: هي الجدر، وفي هذا تجوز، والقواعد من النساء جمع قاعد، وهي التي قعدت عن الولد، وحذفت تاء التأنيث لأنه لا دخول للمذكر فيه، هذا قول بعض النحاة، وقد شذ حذفها مع اشتراك المذكر بقولهم: ناقة ضامر، ومذهب الخليل أنه متى حذفت تاء التأنيث زال الجري على الفعل وكان ذلك على النسب.

والبيت هنا الكعبة بإجماع، واختلف بعد رواة القصص، فقيل: إن آدم بنائه فبناه، ثم دثر ودرس حتى دُلَّ عليه إبراهيم فرفع قواعده، وقيل: إن آدم هبط به من الجنة، وقيل: إنه لما استوحش في الأرض حين نقص طولهُ وفقد أصوات الملائكة أهبط إليه وهو كالدرة، وقيل: كالباقوتة، وقيل: إن البيت كان ربوة حمراء، وقيل: بيضاء ومن تحته دُحيت الأرض، وإن إبراهيم ابتدأ بناءه بأمر الله ورفع قواعده.

والذي يصح من هذا كله أن الله أمر إبراهيم برفع قواعد البيت، وَجَائِزٌ قَدَمُهُ، وجائز أن يكون ذلك ابتداءً، ولا يرجح شيء من ذلك إلا بسند يقطع العذر.

وقال عبيد بن عمير: رفعها إبراهيم وإسماعيل معاً، وقال ابن عباس: رفعها إبراهيم وإسماعيل يناوله الحجارة، وقال علي ابن أبي طالب: رفعها إبراهيم وإسماعيل طفل صغير، ولا يصح هذا عن علي رضي الله عنه لأن الآية والآثار ترده.

﴿وَأَسْمِعُ﴾ عطف على إبراهيم،

وقيل: هو مقطوع على الابتداء وخبره فيما بعد. قال الماوردي: إسماعيل أصله اسمع ياء إيل، وهذا ضعيف. وتقدير الكلام: يقولان: ﴿رَبَّنَا نَبِّئْ﴾، وهي قراءة أبي ابن كعب، وعبدالله بن مسعود كذلك بشبوت (يقولان)، وقالت فرقة: التقدير: وإسماعيل يقول: ربنا. وحذف لدلالة الظاهر عليه. وكل هذا يدل على أن إسماعيل لم يكن طفلاً في ذلك الوقت.

وخصاً هاتين الصفتين لتناسيهما مع حالهما، أي السميع لدعائنا والعليم بنياتنا: وقولهما: اجعلنا: بمعنى صيرنا، تتعدى إلى مفعولين، ﴿مُسْلِمِينَ﴾ هو المفعول الثاني، وكذلك كانا فإنما أرادا التشبث والدوام. والإسلام فسي هذا الموضع: الإيمان والأعمال جميعاً. وقرأ ابن عباس، وعوف: مُسْلِمِينَ على الجمع، ومين في قوله: ﴿وَمِنْ دُرِّيَّتَيْنَا﴾، للتبعيض، وخص من الذرية بعضاً لأن الله تعالى قد كان أعلمه أن منهم ظالمين. والأمة الجماعة، وحكى الطبري أنه أراد بذلك العرب خاصة، وهو ضعيف، لأن دعوته ظهرت في العرب وفيمن آمن من غيرهم.

وقرأ نافع، وحمزة والكسائي: ﴿أَرْنَا﴾ بكسر الراء، وقرأ ابن كثير: ﴿أَرْنَا﴾ بإسكان الراء، وقرأ أبو عمرو بين الإسكان والكسر اختلاصاً، والأصل أرئينا، حذفت الياء للجزم، ونقلت حركة الهمزة إلى الراء، وحذفت تخفيفاً واستثقل بعد من سكن الراء الكسرة كما

استثقلت في (فخذ)، وهنا من الإجحاف ما ليس في (فخذ). وقالت طائفة: أرنا من رؤية القلب، وهو الأصح، ويلزم قائله أن يتعدى الفعل منه إلى ثلاثة مفاعيل، وينفصل بأنه يوجد مُعَدَّى بالهمزة من رؤية القلب كغير المعدي، قال حطائط ابن يعفر أخو الأسود بن يعفر:

أرئني جَوَاداً مَاتَ هَزْلاً لِأَنْسِي
أرئى ما تَرَيْنَ، أَوْ بَخِيلاً مُخْلِداً

وقال قتادة: المناسك معالم الحج. وروي عن علي بن أبي طالب أنه قال: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت ودعا بهذه الدعوة بعث الله إليه جبريل فحج به، وقال ابن جريج: المناسك المذابح أي مواضع الذبح، وقال فريق من العلماء: المناسك العبادات كلها ومنه الناسك أي العابد. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَأَرْوَاهُمْ مَنَاسِكَهُمْ﴾ كأنه يريد الذرية.

والتوبة الرجوع، وعرفه شرعاً من الشر إلى الخير، وتوبة الله على العبد رجوعه به وهديته له. واختلف في معنى طلبهم التوبة وهم أنبياء معصومون، فقالت طائفة: طلبا التشبث والدوام، وقيل: أرادوا من بعدهما من الذرية، كما تقول: برئني فلان وأكرمني وأنت تريد في ولدك وذريتك، وقيل: - وهو الأحسن عندي - إنهما لما عرفا المناسك وبنا البيت وأطاعا، أرادوا أن يسئلا للناس أن ذلك الموقف وتلك المواضع مكان التنصل من الذنوب وطلب التوبة.

وقال الطبري: إنه ليس أحد من خلق الله تعالى إلا وبينه وبين الله تعالى معان يجب أن تكون أحسن مما هي. وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء في معنى التبليغ، ومن الكباثر، ومن الصغائر التي فيها رذيلة، واختلف في غير ذلك من الصغائر، والذي أقول به: إنهم معصومون من الجميع، وإن قول النبي ﷺ: «إِنِّي لِأَتُوبُ إِلَى اللَّهِ فِي الْيَوْمِ وَأَسْتَغْفِرُهُ سَبْعِينَ مَرَّةً»، إنما هو رجوعه من حالة إلى أرفع منها لتزيد علومه واطلاعه على أمر الله، فهو يتوب من المنزلة الأولى إلى الأخرى، والتوبة هنا لغوية.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَنْتَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾ الآية، هذا هو الذي أراد النبي ﷺ بقوله: «أنا دعوة أبي إبراهيم، ويشري عيسى». ومعنى ﴿يَنْتَهُمُ﴾: أن يعرفوه ويتحققوا فضله، ويشفق عليهم ويحرص، و ﴿يَتَلَوُّ﴾ في موضع نصب نعت لرسول أي تالياً عليهم، ويصح أن يكون في موضع الحال، والآيات: آيات القرآن، والكتاب: القرآن، ونسب التعليم إلى النبي ﷺ من حيث هو يعطى الأمور التي ينظر فيها ويعلم طرق النظر بما يلقى الله إليه ويوحيه. وقال قتادة: الحكمة: السُّنة وبيان النبي ﷺ وسلم الشرائع. وروى ابن وهب عن مالك، أن الحكمة الفقه في الدين والفهم الذي هو سجية ونور من الله تعالى، و ﴿يُرَكِّبُهُمْ﴾ معناه: يُطَهِّرُهُمْ وينميهم بالخير، ومعنى الزكاة لا يخرج عن التطهير والتنمية، و

﴿الْمَرْزُوقُ﴾ الذي يَغْلِبُ وَيَتِمُّ مراده ولا يرد، و ﴿الْحَكِيمُ﴾ المُصِيبُ مواقع الفعل المحكم لها.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَمَنْ﴾ استفهام من موضع رفع بالابتداء، و ﴿يَرْعُبُ﴾ خبره، والمعنى يزهد فيها ويربأ بنفسه عنها، والمملة: الشريعة والطريقة، و ﴿سَفِيهٌ﴾ من السفه الذي معناه الرُقَّةُ والخِفَّةُ. واختلف في نصب ﴿نَفْسِهِ﴾ فقال الرَّجَّاحُ: سَفِيهٌ بمعنى جهل، وعذاه بالمعنى، وقال غيره: سَفِيهٌ بمعنى أَقْلَكُ. وحكى ثعلب، والمبرد: أن (سَفِيهٌ) بكسر الفاء يتعدى كَسَفَهُ بفتح الفاء وشدها، وحكى عن أبي الخطاب أنها لغة. وقال الفراء: نصبها على التمييز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنَّ السفه يتعلّق بالنفس والرأي والخلق، فكأنه ميزها بين هذه، ورأى أن هذا التعريف ليس بمحض لأن الضمير فيه الإبهام الذي في (مَنْ)، فكأن الكلام: إِلَّا مَنْ سَفِيهٌ نفساً. وقال البصريون: لا يجوز التمييز مع هذا التعريف، وإنما النصب على تقدير حذف (في). فلما انحذف حرف الجر قوي الفعل، وهذا يجري على مذهب سيويه فيما حكاه من قولهم: ضرب فلان الظهر والبطن أي في الظهر والبطن. وحكى مكي أن التقدير إلا من سفه قوله نفسه، على أن نفسه تأكيد، حُذِفَ الْمُؤَكَّدُ وأقيم التوكيد مقامه قياساً على النعت والمنعوت، وهذا قول متحامل. واصطفى: افتعل من الصفة، معناه: تخيير الأصفى،

وأبدلت التاء طاءً لتناسبها مع الصاد في الإطباق. ومعنى هذا الاصطفاء أنه تَبَّأَهُ واتخذته خليلاً، و ﴿بِئْسَ الْأَخِرَةُ﴾ متعلق باسم فاعل مقدر من الصلاح، ولا يصلح تعلقه بالصالحين لأن الصلة لا تتقدم الموصول، هذا على أن تكون الألف واللام بمعنى الذي، وقال بعضهم: الألف واللام هنا للتعريف، ويستقيم الكلام، وقيل: المعنى إنه في عمل الآخرة لمن الصالحين، فالكلام على حذف مضاف.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ كَرِهُنَّ رَبِّيهِمْ أَسْلَمِينَ﴾، العامل في ﴿إِذْ﴾ اصطفيانها، وكان هذا القول من الله حين ابتلاه بالكوكب والقمر والشمس. والإسلام هنا على أتم وجوه.

وقرأ نافع وابن عامر: ﴿وَأَوْصَى﴾. وقرأ الباقون: ﴿وَوَصَّى﴾، والمعنى واحد - إلا أن وصى يقتضي التكثير، والضمير في ﴿بِئْسَ﴾ عائذ على كلمته التي هي: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وقيل: على الملة المتقدمة، والأول أصوب لأنه أقرب مذكور. وقرأ عمرو بن فسائد الأسواري: ﴿وَيَعْقُوبُ﴾ بالنصب على أن يعقوب داخل فيمن أوصى. واختلف في إعراب رفعه - فقال قوم من النحاة: التقدير، ويعقوبُ أوصى بنيه أيضاً، فهو عطف على إبراهيم. وقال بعضهم: هو مقطوع منفرد بقوله: ﴿بِئْسَ﴾ فتقدير الكلام (ويعقوبُ) قال: يا بني). واصطفى هنا معنا تخيير صفة الأديان، والألف واللام في الدين للعهد لأنهم قد كانوا عرفوه، وكسرت إن بعد أوصى لأنها

[ما] تجربة لهم، ولم يقل: (من) لثلا يطرق لهم الاهتداء، وإنما أراد

أن يختبرهم، وأيضاً فالمعبودات المتعارفة من دون الله جمادات كالأوثان والنار والشمس والحجارة، فاستفهم عما يعبدون من هذه، و

﴿مِنْ بَعْدِي﴾ أي من بعد موتي. وحكي أن يعقوب حين خيّر كما

يُخَيَّرُ الْأَنْبِيَاءُ اخْتَارَ الْمَوْتَ وَقَالَ: أَمَهْلُونِي حَتَّى أَوْصِيَ بِنَبِيِّ وَأَهْلِي، فجمعهم وقال لهم هذا فاهتدوا، و

﴿قَالُوا تَبُّدُ إِلَهَكَ﴾ الآية، فأرزه ثبوتهم على الدين ومعرفتهم الله

تعالى، ودخل إسماعيل في الآباء لأنه عم، وقد قال النبي ﷺ في العباس: «ردوا عليّ أبي، إني أخاف

أن تفعل به قريش ما فعلت ثقيف يمزوة بن مسعود»، وقال عنه في

موطن آخر: «هذا بقية آبائي» ومنه قوله عليه السلام: «أنا ابن

الذبيحتين»، على القول الشهير في أن إسحق هو الذبيح، وقرأ الحسن،

وابن يعمر، والجحدري، وأبو رجاء: ﴿وَاللَّهُ أَيْبُكُمْ﴾. واختلف بعد -

ف قيل: هو اسم مفرد أرادوا به إبراهيم وحده، وقال بعضهم: هو

جمع سلامة، وحكى سيبويه: أب وأبون وأبين، قال الشاعر:

قَلَّمَا تَبَّيَّنَ أَضْوَاتُنَا
بَكَّيْنٍ وَفَدَّيْنُنَا بِالْأَيْبِنَا

وقال ابن زيد: يقال: قُدِمَ إِسْمَاعِيلُ لِأَنَّهُ أَسْنَمٌ مِنْ إِسْحَاقَ، ﴿وَاللَّهُ﴾ بدل

من ﴿إِلَهَكَ﴾، وكرره لفائدة الصفة بالوحدانية.

وقيل: ﴿إِلَهًا﴾ حال، وهذا قول حسن لأن الغرض إثبات حال

﴿وَأَنْتُمْ مُشْرِكُونَ﴾ ابتداء وخبر في موضع الحال.

﴿١٣٢﴾ - ﴿١٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا الخطاب لليهود والنصارى الذين انتحلوا

الأنبياء صلوات الله عليهم، ونسبواهم إلى اليهودية والنصرانية،

فرد الله عليهم وكذبهم وأعلمهم أنهم كانوا على

الحنيفية الإسلام، وقال لهم - على جهة التقرير

والتوبيخ -: أشهدتم يعقوب وعلمتم بما أوصى

فتدعون عن علم؟ أي: لم تشهدوا، بل أنتم تفترون.

و ﴿أَمْ﴾ تكون بمعنى ألف الاستفهام في صدر الكلام، لغة يمانية. وحكى

الطبري أن ﴿أَمْ﴾ يستفهم بها في وسط كلام قد تقدم صدره، وهذا

منه، ومنه: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾ وقال قوم: [أَمْ] بمعنى بل والتقدير: بل

شهد أسلافكم يعقوب، وعلمتم منهم ما أوصى به ولكنكم كفرتم

جحداء، ونسبتموهم إلى غير الحنيفية عناداً.

والأظهر أنها التي بمعنى بل وألف الاستفهام معاً. و ﴿شُهَدَاءَ﴾: جمع

شاهد أي حاضر. ومعنى الآية: حضر يعقوب مقدّمات الموت، وإلا

فلو حضر الموت لما أمكن أن يقول شيئاً. وقدم ﴿يَعْقُوبَ﴾ على جهة

تقديم الأهم، والعامل في ﴿إِذْ﴾ (شهداء). و ﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من

﴿إِذْ﴾ الأولى، وعبر عن المعبود بـ

﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا﴾ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٢﴾ قُولُوا ءَأَمَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾ فَإِنِ ءَأَمَّوْا بِمِثْلِ مَا ءَأَمَّتُمْ بِهِ فَقَدْ أَهْتَدُوا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَبِّحْهُمْ بِحَمْدِ اللَّهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٣٤﴾ صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴿١٣٥﴾ قُلْ أَتَحَاجُّونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَإِنَّا عَمَلْنَا لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ ﴿١٣٦﴾ أَمْ يَقُولُونَ إِنَّا بِرَبِّهِمْ إِسْتَعْجِلُوا وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ ءَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَرَأَيْتُمْ وَمَنْ أَظْلَمُ وَمَنْ كَفَرَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٣٧﴾ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا تُنْسَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٨﴾

٢١

بمعنى القول، ولذلك سقطت أن التي تقتضيها أوصى في قوله: أن يا بني. وقرأ ابن مسعود والضحاك: ﴿أَنْ يَا بَنِي﴾ بثبوت أن.

وقوله: ﴿فَلَا تَتُوسَّئُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ إيجازٌ بليغ، وذلك أن

المقصود من أمرهم بالإسلام الدوام عليه فأتى بلفظ موجز يقتضي

المقصود ويتضمن وعظاً وتذكيراً بالموت، وذلك أن المرء يتحقق أنه

يموت ولا يدري متى، فإذا أمر بأمر لا يأتيه الموت إلا وهو عليه فقد

توجه من وقت الأمر دائباً لازماً. وحكى سيبويه - فيما يشبه هذا

المعنى - قولهم: لا أرينك ها هنا، وليس إلى المأمور أن يحجب إدراك

الأمر عنه، فإنما المقصود: إذهب وؤل عن ها هنا، فجاء بالمقصود بلفظ يزيد معنى الغضب والكرهية.

نؤمن ببعض ونكفر ببعض كما تفعلون، وفي الكلام حذف تقديره: بين أحد منهم وبين نظيره، فاختصر لفهم السامع، والضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على اسم الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنَمْنَا بِهِ﴾ الآية. خطاب لمحمد ﷺ وأمته، والمعنى: إن صدقوا تصديقاً مثل تصديقكم، فالمماثلة وقعت بين الإيمانين، هذا قول بعض المتأولين وقيل: الباء زائدة مؤكدة، والتقدير آمنوا مثل، والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد كضمير في ﴿لَهُ﴾، فكان الكلام: فإن آمنوا بالله مثل ما آمنتم به. ويظهر عود الضمير على [مَا]. وقيل: مثل زائدة كما هي في قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، وقالت فرقة: هذا من مجاز الكلام، تقول: هذا أمر لا يفعله مثلك، أي لا تفعله أنت، فالمعنى: فإن آمنوا بالذي آمنتم به، هذا قول ابن عباس، وقد حكاه عنه الطبري قراءة، ثم أسند إليه أنه قال: «لا تقولوا: فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به، فإنه لا مثل لله تعالى، ولكن قولوا: فإن آمنوا بالذي آمنتم أو بما آمنتم به».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على جهة التفسير، أي هكذا فليتلوا، وحكماهما أبو عمرو الداني قرأتين عن ابن عباس فله أعلم.

وقوله: ﴿وَإِن تَوَلَّوْا﴾ أي أعرضوا، يعني به اليهود والنصارى، والشقاق: المشاقة والمحادة والمخالفة، أي في شقاق لك هم في شق وأنت في شق، وقيل: الشقاق معناه شق كل واحد وصل ما بينه وبين صاحبه، ثم وعده تعالى أنه سيكفيهم إياهم، ويغلبه

طاعات الله عز وجل، وقد خصص بعض المفسرين - فقال قوم: الحنيف الحاج، وقال آخرون: المختتن، وهذه أجزاء الحنف. ونفى عنه الإشراف فانتفت عبادة الأوثان واليهودية لقولهم: عزير بن الله، والنصرانية لقولهم: المسيح ابن الله. ﴿١٣٦﴾ - ﴿١٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا الخطاب لأمة محمد ﷺ - علمهم الله الإيمان.

﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ يعني به القرآن، وصحة إضافة الإنزال إليهم من حيث هم المأمورون والمنهيون فيه.

و ﴿إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ يجمعان إبراهيم وسماويل، هذا هو اختيار سيبويه، والخليل. وقال قوم: براهم وسماعل، وقال الكوفيون: براهمة وسماعلة، وقال المبرد: أباره وأسابع، وأجاز ثعلب براه كما يقال في التصغير يُرِينِه. و ﴿وَالْأَسْبَاطِ﴾ هم ولد يعقوب، وهم: روبيل، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، وربالون، ويشحر، وندية بنته، وأمههم ليا، ثم خلف على أختها راحيل فولدت له يوسف، وبنيامين، وولده له من سَرِيَّتَيْنِ، دان، ونفتالي، وجاد، وأشرو. والسبب في بني إسرائيل بمنزلة القبيلة في ولد إسماعيل، فسموا الأسباط لأنه كان على كل واحد منهم سبط.

﴿وَمَا أَوْقَىٰ مُوسَىٰ﴾ هو التوراة وآياته، وما أوتي عيسى هو الإنجيل وآياته، فالمعنى: إنا نؤمن بجميع الأنبياء لأن جميعهم جاء بالإيمان بالله، فدين الله واحد، وإن اختلفت أحكام الشرائع، و ﴿لَا تَفَرَّقْ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ﴾ أي: لا

الوحدانية، ﴿وَوَعَنْ لَّمْ مُسْلِمُونَ﴾ ابتداء وخير، أي كذلك كُنَّا نحن ونكون، ويحتمل أن يكون في موضع الحال، والعامل ﴿تَعْبُدُ﴾، والتأويل الأول أمدح.

وقوله تعالى: ﴿فَدَّخَلْتَنِي﴾ في موضع رفع نعت لأمة، ومعناه: ماتت وصارت إلى الخلاء من الأرض، ويعنى بالأمة الأنبياء المذكورون، والمخاطب في هذه الآية اليهود والنصارى، أي أنتم أيها الناحلوهم اليهودية والنصرانية، ذلك لا ينفعكم، لأن كل نفس لها ما كسبت من خير وشر، فخيرهم لا ينفعكم إن كسبتم شراً. وفي هذه الآية رد على الجبرية القائلين: لا اكتساب للعبد، ﴿وَلَا تَسْتَأْذِنُ عَنَّا كَأَنَّا يَمُنُونَ﴾ فتتلوهم ديناً.

وقولهم: ﴿كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا﴾، نظير قولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ﴾.

ونصب ﴿بِئْتَىٰ﴾ بإضمار فعل، أي: بل تتبع ملّة، وقيل: نُصبت على الإغراء، وقرأ الأعرج، وابن أبي عمير: ﴿بَلْ بِلْمَةٍ﴾ بالرفع، والتقدير: بل الهدى ملّة، و ﴿حِينِيًّا﴾ حال، وقيل: نصب بإضمار فعل لأن الحال تقل من المضاف إليه. والحنف: الميل، ومنه الأحنف لما مالت إحدى قدميه إلى الأخرى. والحنيف في الدين: الذي مال عن الأديان المكروهة إلى الحق، وقال قوم: ألحنف: الاستقامة، وسُمي المعوج القدمين أحنف تفاؤلاً كما قيل: سليم ومفازة. ويجيء الحنيف في الدين المستقيم على جميع

قالوا: لم يكونوا على اليهودية والنصرانية قيل لهم: فهلما إلى دينهم إذ تُقْرُونَ بالحق.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ أَرِ اللَّهِ؟﴾ تقرير على فساد دعواهم، إذ لا جواب لمفطور إلا أن الله تعالى أعلم. ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ لَفْظُهُ الاستفهام، والمعنى: لا أحد أظلم منهم، وإياهم أراد تعالى بكتمان الشهادة.

واختلف في الشهادة هنا، ما هي؟ فقال مجاهد، والحسن، والربيع: هي ما في كتبهم من أن الأنبياء على الحيفية لا على ما ادعواهم، وقال قتادة، وابن زيد: هي ما عندهم من الأمر بتصديق محمد ﷺ وأتباعه، والأول أشبه بسياق معنى الآية، واستودعهم الله تعالى هذه الشهادة ولذلك قال: ﴿يَكْفُرُ اللَّهُ﴾، فَمَنْ عَلَى هذا متعلقة، بـ ﴿عِنْدَكُمْ﴾، كأن المعنى شهادة تحصلت له من الله، ويحتمل أن تتعلق ﴿وَمَنْ﴾ بـ ﴿كَتَبَ﴾، أي كتبها من الله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ بِمُنْجِلٍ عَنَّا تَمَلُّونَ﴾، وعيد وإعلام أنه لا يترك أمرهم سدى، وأن أعمالهم تُخصى ويجازون عليها، والغافل الذي لا يفتن للأمور إهمالاً منه، مأخوذ من الأرض الغفل، وهي التي لا علم بها.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ﴾ الآية، كررها عن قرب لأنها تضمنت معنى التهديد والتخويف، أي إذا كان أولئك الأنبياء على إمامتهم وفضلهم يجازون بكسبهم فأنتم أحرى، فوجب التأكيد، فلذلك كررها،

محيصن: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا﴾ بإدغام النون في النون، وخف الجمع بين ساكنين لأن الأول حرف مدّ ولين، فالمدّ كالحركة، ومن هذا الباب: دابة وشابّة، و ﴿فِي اللَّهِ﴾ معناه: في دينه والقرب منه والحظوة لديه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ نَقُولُونَ﴾ عطف على ألف الاستفهام المتقدمة، وهذه القراءة بالتاء من فوق قرأها ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ بالياء من أسفل، و ﴿أَمْ﴾ على هذه القراءة مقطوعة، ذكره الطبري، وحكي عن بعض النحاة أنها ليست بالمقطوعة لأنك إذا قلت: أتقوم أم يقوم عمرو؟ فالمعنى: أيكون هذا أم هذا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المثال غير جيد، لأن القائل فيه واحد والمخاطب واحد، والقول في الآية من اثنين والمخاطب اثنان غيران، وإنما تتجه معادلة [أم] للمعنى على الحكم المعنوي كأن معنى ﴿قُلْ أَتَحَاجُّونَنَا﴾: أي أتحتاجون محمداً أم تقولون؟

وقيل: إن [أم] في هذا الموضع غير معادلة على القراءتين، وحجة ذلك اختلاف معنى الآيتين وأنهما ليسا قسمين، بل المحاجة موجودة في دعواهم الأنبياء عليهم السلام.

وَوَقَّفَهُمْ تَعَالَى عَلَى مَوْضِعِ الانْقِطَاعِ فِي الْحِجَّةِ، لَأَنَّهُمْ إِنْ قَالُوا: إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ الْمَذْكُورِينَ عَلَى الْيَهُودِيَّةِ وَالنَّصْرَانِيَّةِ كَذِبُوا، لِأَنَّهُ قَدْ عَلِمَ أَنَّ هَذِينَ الدِّينِيِّينَ حَدَثًا بَعْدَهُمْ، وَإِنْ

عليهم، فكان ذلك في قتل بني قينقاع وبني قريظة وإجلاء النضير، وهذا الوعد وانتجازه من إعلام نبوة محمد ﷺ. و ﴿السَّمِيعُ﴾ لكل قائل، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بما يجب أن ينفذ في عبادته.

و ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ﴾ شريعته وسنته وفطرته، وذلك أن النصراني لهم ماء يصبغون فيه أولادهم، فهذا ينظر إلى ذلك، وقيل: سُمي الدين صبغة استعارة من حيث تظهر أعماله وسمته على المتدين كما يظهر الصبغ في الثوب وغيره. ونصب الصبغة على الإغراء، وقيل: بدل من ﴿بِلَّةُ﴾، وقيل: نصب على المصدر المؤكّد لأن ما قبله من قوله: ﴿فَقَدِ اهْتَدَوْا﴾ هو في معنى يلبسون أو يتجلجلون صبغة الله، وقيل: التقدير ونحن له: مسلمون صبغة الله، فهي متصلة بالآية المتقدمة، وقال الطبري: «من قرأ برفع ﴿بِلَّةُ﴾ قرأ برفع ﴿صِبْغَةَ﴾».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ذكرتها عن الأعرج، وابن أبي عبيدة. ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ عَيْدُونَ﴾ ابتداء وخبر.

﴿١٣٩﴾ - ﴿١٤١﴾ تفسير قوله عز وجل: معنى الآية: قل يا محمد لهؤلاء اليهود والنصارى الذين زعموا أنهم أبناء الله وأجباؤه وادّعوا أنهم أولى بالله منكم لقدم أديانهم وكتبهم: ﴿أَتَحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ؟﴾ أي: أتجاذبوننا الحجة على دعواكم؟ والرب تعالى واحد، وكلّ مجازي يعمله فأى تأثير لقدم الدين، ثم وبخوا بقوله: ﴿وَنَحْنُ لَكُمْ خُطْبُونَ﴾، أي: ولم تخلصوا أنتم فكيف تدعون ما نحن أولى به منكم؟ وقرأ ابن

ولترداد ذكرهم أيضاً في معنى غير الأول.

﴿١٤٢﴾ - ﴿١٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

أَعْلَمَ اللهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّهُمْ سَيَقُولُونَ فِي شَأْنِ تَحَوُّلِ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الشَّامِ إِلَى الْكَعْبَةِ: ﴿هَآ وَآلَهُمْ﴾، والسفهاء هم الخفاف الأحلام، والعقول، والسُّفَه: الخفة والهلهلة، ثوبٌ سفية أي غير متقن النسيج، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

مَشِينٌ كَمَا أَهْتَزْتُ رِمَاحَ تَسْفَهَتْ

أَعَالِيهَا مَرَّ الرِّيحِ الْشَّوَابِسِ
أَي اسْتَحْفَفَهَا، وخص بقوله: ﴿وَيَنْ النَّاسِ﴾ لأن السُّفَه يكون في جمادات وحيوانات، والمراد بالسفهاء هنا جميع مَنْ قَالَ: ﴿هَآ وَآلَهُمْ﴾، وقالها فِرْقٌ، واختلف في تعيينهم - فقال ابن عباس: قالها الأخبار منهم، وذلك أنهم جاؤوا إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد: ما ولاك عن قبلتنا؟ ارجع إلينا ونؤمن بك، يريدون فتنته، وقال السدي: قالها بعض اليهود والمنافقون استهزاءً، وذلك أنهم قالوا: اشتاق الرجل إلى وطنه.

وقالت طائفة: قالها كفار قريش، لأنهم قالوا: ما ولاه عن قبلته؟ ما رجع إلينا إلا لعلمه أنا على الحق، وسيرجع إلى ديننا كله، و﴿وَلَا هُمْ﴾ معناه صرفهم، والقبلة: فِعْلَةٌ هيئة المقابل للشيء، فهي كالقعدة والإزرة.

وجعل المستقبل موضع الماضي في قوله: ﴿سَعَوْا﴾ دلالة على استدامة ذلك، وأنهم يستمرون على ذلك القول، ونص ابن عباس وغيره

أن الآية نزلت بعد قولهم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ إقامة حُجَّة، أي: له ملك المشارق والمغرب وما بينهما، و﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إشارة إلى هداية الله تعالى هذه الأمة إلى قبلة إبراهيم. والصرراط: الطريق. واختلف العلماء، هل كانت صلاة رسول الله ﷺ إلى بيت المقدس بأمر من الله تعالى في القرآن، أو بوحى غير متلوه؟، فذكر ابن فورك عن ابن عباس قال: أول ما نُسخ من

القرآن القبلة، وقال الجمهور: بل كان أمر قبلة بيت المقدس بوحى غير متلوه، وقال الربيع: خُيِّر رسول الله ﷺ في التواحي فاختار بيت المقدس ليستألف بها أهل الكتاب، ومن قال بوحى غير متلوه قال: كان ذلك ليختبر الله تعالى من آمن من العرب لأنهم كانوا يألفون الكعبة وينافرون بيت المقدس وغيره، واختلف - كم صُلِّي إلى بيت المقدس؟ ففي البخاري ستة عشر شهراً، أو سبعة عشر شهراً، ورؤي عن أنس بن مالك تسعة أو عشرة أشهر، ورؤي عن غيره ثلاثة عشر شهراً.

وحكى مكي عن إبراهيم بن إسحاق أنه قال: أول أمر الصلاة أنها فرضت بمكة ركعتين في أول النهار، وركعتين في آخره، ثم كان الإسراء

﴿١٤٢﴾ سَمِعُوا السَّفَهَاءَ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّهُمْ عَن قِبَلِهِمْ أَنَّى كَانُوا عَلَيْهَا قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٤٣﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ عِبَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَبٌّ وَرَحِيمٌ ﴿١٤٤﴾ قَدْ رَوَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٥﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ مَآبَةٍ مَا تَتَّبِعُوا فَلَئِنَّكُمْ وَمَا تَتَّبِعْتُمْ وَمَا يَعْبَهُمُ يَتَّبِعُونَ قِبْلَةً بَعْضٌ وَلَقَدْ آتَيْنَاكُمْ آهْوَاهُمْ مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكُمْ بِهَا مِنَ الْوَعْدِ إِنَّكُمْ إِذْ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٦﴾

٢٢

ليلة سبع عشرة من شهر ربيع الآخر قبل الهجرة بسنة فرضت الخمس وأم فيها جبريل عليه السلام، وكانت أول صلاة الظهر، وتَوَجَّه بالنبي ﷺ إلى بيت المقدس، ثم هاجر النبي ﷺ إلى المدينة في ربيع الأول وتمادى إلى بيت المقدس إلى رجب من سنة اثنتين، وقيل: إلى جمادى، وقيل: إلى نصف شعبان.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾، الكاف متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾، أي كما هديناكم إلى قبلة إبراهيم وشريعته كذلك جعلناكم أُمَّةً، و﴿أُمَّةً﴾: مفعول ثان، ووسطاً: نعت. والأُمَّة: القرن من الناس، و﴿وَسَطًا﴾: معناه عدلاً، رُوِيَ ذَلِكَ عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وتظاهرت به عبارة المفسرين.

والوسط: الخيار والأعلى من الشيء، كما تقول: فلان وسط القوم، وواسطة القلادة أنفس حجر فيها، والأمير وسط الجيش، وكقوله تعالى: ﴿ قَالَ أَسْطُكُمُ ﴾، والوسط بإسكان السين ظرف مبني على الفتح، وقد جاء مُتَمَكَّنًا في بعض الروايات في بيت الفرزدق:

فَجَاءَتْ بِمَجْلُومٍ كَأَنَّ جَبِينَهُ
صَلَاةٌ وَزَسٍ وَسَطُهَا قَدْ تَفَلَّقَا
برفع الطاء، والضمير عائد على صلاة، وروي بفتح الطاء، والضمير عائد على الجائية، فإذا قلت: حضرت وسط الدار أو وسط الدار فالمعنى مختلف.

قال بعض العلماء: أمة محمد ﷺ لم تغل في الدين كما فعلت اليهود، ولا فترت كالنصارى، فهي متوسطة، فهي أعلاها وخيرها من هذه الجهة.

وقول النبي ﷺ «خير الأمور أوساطها» أي: خيارها.

وقد يكون العلو والخير في الشيء إما بأنه أنفَسُ جنسه، وإما أن يكون بين الإفراط والتقصير، فهو خيار من هذه الجهة، و﴿ شَهَدَاكُم ﴾: جمع شاهد.

واختلف المفسرون في المراد بالناس في هذا الموضع - فقالت فرقة: هم جميع الجنس. وأمة محمد ﷺ تشهد يوم القيامة للأنبياء على أمهم بالتبليغ، وذلك أن نوحاً ثناكره أمته في التبليغ، فتقول له أمة محمد: نحن نشهد لك، فيشهدون، فيقول الله لهم: كيف شهدتم على ما لم تحضروا؟ فيقولون: أي ربنا،

جاءنا رسولك، ونزل إلينا كتابك، فنحن نشهد بما عهدت إلينا وأعلمتنا به، فيقول الله تعالى: صدقتم.

وروي في هذا المعنى حديث صحيح عن النبي ﷺ، وروي عنه: «أن أمته تشهد لكل نبي ناكره قومه».

وقال مجاهد: معنى الآية: تشهدون لمحمد أنه قد بلغ الناس في مدته من اليهود والنصارى والمجوس. وقالت طائفة: معنى الآية: يشهد بعضكم

على بعض بعد الموت، كما قال رسول الله ﷺ حين مرت به جنازة فأثني عليها بالخير فقال: وجبت، ثم بأخرى فأثني عليها شراً فقال: وجبت، يعني الجنة والنار، فسئل عن ذلك فقال: أنتم شهداء الله في الأرض، وروي في بعض الطرق أنه قرأ: ﴿ لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾.

وكون الرسول عليكم شهيداً قيل: معناه: بأعمالكم يوم القيامة، وقيل: أن يشهد عليكم بالتبليغ إليكم، وقيل: عليكم بمعنى: لكم، أي يشهد لكم بالإيمان.

وقوله تعالى: ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا ﴾ الآية، قال قتادة،

والسدي، وعطاء، وغيرهم: القبلة هنا بيت المقدس، والمعنى: لم نجعلها حين أمرناك بها أولاً إلا فتنة، لنعلم من يتبعك من العرب الذين إنما يأفون مسجد مكة، أو من اليهود على ما قال الضحاك من أن الأحبار قالوا للنبي ﷺ: إن بيت المقدس هو قبلة الأنبياء، فإن صليت إليه اتبعناك، فأمره الله بالصلاة إليه امتحاناً لهم فلم يؤمنوا.

وقال بعض من ذكر القبلة بيت المقدس: والمعنى: وما جعلنا صرف القبلة التي كنت عليها وتحويلها، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه. وقال ابن عباس: القبلة في الآية الكعبة، و﴿ كُنْتَ ﴾ بمعنى (أنت) كقوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾، بمعنى أنتم، أي: وما جعلناها وصرفناك إليها إلا فتنة.

وروي في ذلك أن رسول الله ﷺ لما حول إلى الكعبة أكثر في ذلك اليهود والمنافقون، وارتاب بعض المؤمنين حتى نزلت الآية، وقال ابن جريج: بلغني أن ناساً ممن كان أسلم رجعوا عن الإسلام.

ومعنى قوله تعالى: ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ أي: ليعلم رسولي والمؤمنون به، وجاء الإسناد بنون العظمة إذ هم حزبه وخاصته، وهذا شائع في كلام العرب، كما تقول: فتَّحَ عمر العراق وجبى خراجها، وإنما فعل ذلك جنده وأتباعه، فهذا وجه التجوز إذا ورد علم الله تعالى بلفظ استقبال لأنه قديم لم يزل.

ووجه آخر وهو أن الله قد علم في الأزل من يتبع الرسول، واستمر العلم حتى وقع حدوثهم، واستمر في حين الأتباع والانقلاب، ويستمر بعد ذلك، والله تعالى متصف في كل ذلك بأنه يعلم. فأراد بقوله: ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾ ذكر علمه وقت مواعنتهم الطاعة أو المعصية، إذ بذلك الوقت يتعلق الثواب والعقاب، فليس معنى ﴿ لِنَعْلَمَ ﴾: لنثيب، فالمعنى: لنعلم

في حال استحقوا فيها الثواب، وعلق العلم بأنفعالهم لتقوى الحجّة ويقع الثبوت فيما علمه، لا مدافعة لهم فيه.

وحكى ابن فورك أيضاً: أن معنى ﴿لِيَتَعَلَّمَ﴾: لتمييز، وذكره الطبري عن ابن عباس.

وحكى الطبري أيضاً: أن معنى ﴿لِيَتَعَلَّمَ﴾: لنرى، وهذا كله متقارب، والقاعدة نفي استقبال العلم بعد أن لم يكن.

وقرأ الزهري: ﴿لِيُعَلِّمَ﴾ على ما لم ينسّم فاعله.

﴿يَتَقَلَّبُ عَلَى عَقَبَيْهِ﴾ عبارة عن المرتد الراجع عما كان فيه من إيمان أو شغل أو غير ذلك. والرجوع على العقب أسوأ حالات الراجع في مشيه عن وجهته، فلذلك شبه المرتد في الدين به، وظاهر التشبيه أنه بالمتقهقر، وهي مشية الحيران الفازع من شيء قد قرب منه. ويحتمل أن يكون هذا التشبيه بالذي رد ظهره ومشى أدراجه، فإنه عند انقلابه إنما يتقلب على عقبيه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ لَكَبِيرَةً﴾ الآية، والضمير في ﴿كَانَتْ﴾ راجع إلى القبلة إلى بيت المقدس، أو إلى التحويلة إلى الكعبة حسب ما ذكرناه من الاختلاف في القبلة، وقال ابن زيد: هو راجع إلى الصلاة التي ضلّيت إلى بيت المقدس. وشهد الله تعالى في هذه الآية للمتبعين بالهداية، و﴿كَبِيرَةً﴾ هنا معناه: شاقة صعبة تكبر في الصدور، و﴿إِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة، ولذلك لزمتهما

اللام لتزليل اللبس الذي بينها وبين النافية، وإذا ظهر التثقيب في (إِنَّ) فربما لزمّت اللام وربما لم تلتزم. وقال الفراء: (إِنْ) بمعنى (مَا) واللام بمنزلة إلا.

ولما حُوِّلَت القبلة كان من قول اليهود: يا محمد - إن كانت الأولى حقاً فأنت الآن على باطل، وإن كانت هذه حقاً فكنت في الأولى على ضلال، فوجست نفوس بعض المؤمنين، وأشفقوا على من مات قبل التحويل من صلاتهم السالفة فنزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِلَيْكُمْ﴾.

وخاطب الحاضرين والمراد من حضر ومن مات، لأن الحاضر يغلب، كما تقول العرب: ألم تقتلكم في موطن كذا؟ ومن خوطب لم يقتل ولكنه غلب لحضوره، وقرأ الضحاك ﴿لِيُضَيِّعَ﴾ بفتح الضاد وشد الياء.

وقال ابن عباس، والبراء بن عازب، وقتادة، والسدي، والربيع، وغيرهم: الإيمان هنا: الصلاة، وسمي الصلاة إيماناً لما كانت صادرة عن الإيمان والتصديق في وقت بيت المقدس وفي وقت التحويل.

ولما كان الإيمان قطباً عليه تدور الأعمال وكان ثابتاً في حال التوجه هنا وهنا ذكّره - إذ هو الأصل الذي به يرجع في الصلاة وغيرها إلى الأمر والنهي.

ولثلا تدرج في اسم الصلاة صلاة المنافقين إلى بيت المقدس، فذكر المعنى الذي هو ملاك الأمر.

وأيضاً فسميت إيماناً إذ هي من شعب الإيمان.

والرأفة أعلى منازل الرحمة، وقرأ قوم: ﴿لَرَوْفٌ﴾ على وزن فَعْلٌ، ومنه قول الوليد بن عتبة:

وَسُرُّ الطَّالِبِينَ - وَلَا تَكُنْهُ -

بِقَاتِلِ عَمِّهِ الرُّؤْفُ الرُّجِيمِ
تقول العرب: رَوْفٌ - ورؤوفٌ - ورؤفٌ - كحذير - ورؤفٌ. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لَرَوْفٌ﴾ بغير همز، وكذلك سهل كل همزة في كتاب الله تعالى ساكنة كانت أو متحركة.

﴿١٤٤﴾ - ﴿١٤٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

المقصد تقلب البصر، وذكر الوجه لأنه أعلم وأشرف، وهو المستعمل في طلب الرغائب، تقول: بذلت وجهي في كذا، وفعلت لوجه فلان، ومنه قول الشاعر:

رَجَعْتُ بِمَا أَبْيَعِي وَوَجْهِي بِمَايِهِ

وأيضاً فالوجه يتقلب بتقلب البصر، وقال قتادة والسدي وغيرهما: كان رسول الله ﷺ يقلب وجهه في الدعاء إلى الله تعالى، أي يحوله إلى قبة مكة، وقيل: كان يقلب ليؤذن له في الدعاء.

ومعنى التقلب نحو السماء أن السماء جهة قد تعود العالم منها الرحمة كالمطر والأنوار والوحي، فهم يجعلون رغبتهم حيث توالى النعم. و﴿رَضْنَهَا﴾ معناه: تحبها وتقرّ بها عينك.

وكان رسول الله ﷺ يحب الكعبة والتحول عن بيت المقدس لوجوه ثلاثة رويت، فقال مجاهد: لقول

اليهود: ما علم محمد دينه حتى أتبعنا، وقال ابن عباس: وليصيب قبلة إبراهيم عليه السلام، وقال الربيع، والسدي: وليستألف العرب بمحبتها في الكعبة، وقال عبدالله بن عمر: إنما وجه رسول الله ﷺ وأمه حيال ميزاب الكعبة، وقال ابن عباس، وغيره: بل وجهه إلى البيت كله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والميزاب: هو قبلة المدينة والشام، وهنالك قبلة أهل الأندلس بتقريب، ولا خلاف أن الكعبة قبلة من كل أفق.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ الآية، أمرٌ بالتحول ونسخ لقبلة الشام.

وقيل: نزل ذلك على النبي ﷺ وهو في صلاة الظهر بعد ركعتين منها فتحول في الصلاة. وذكر أبو الفرج أن عباد بن نهيك كان مع رسول الله ﷺ في هذه الصلاة. وقيل: إنما نزلت الآية في غير صلاة وكانت أول صلاة إلى الكعبة العصر، و﴿شَطْرَ﴾ نصب على الظرف، ويشبه المفعول به لوقوع الفعل عليه، ومعناه: نحو وتلقاء.

قال ابن أحرر:

تَعْدُو بِنَا شَطْرَ جَمْعٍ وَهِيَ عَاقِدَةٌ
قَدْ كَارَبَ الْعَقْدُ مِنْ إِيفَادِهَا الْحَقْبَا
وقال غيره:

أَقُولُ لَأَمْ زَنْبَاعِ أَيْمِي
صُدُورِ الْعَيْسِ شَطْرَ بَنِي تَمِيمٍ
وقال لقط:

وَقَدْ أَظْلَكُمْ مِنْ شَطْرِ نَعْرُكُمُ
هَؤُلَاءِ لَمْ تَغْشَاكُمْ قَطْعًا

وقال غيره:

أَلَا مَنْ مُنْبَلِّغٌ عَمْرَأَ رَسُولَا
وَمَا تُغْنِي الرِّسَالَةَ شَطْرَ عَمْرُو
﴿وَيَحِثُّ مَا كُنْتُمْ قَوْلًا﴾ أمرٌ للأمة

ناسخ. وقال داود بن أبي هند: إن في حرف ابن مسعود ﴿قَوْلٍ وَجْهَكَ تِلْقَاءَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾، وقال محمد بن طلحة: إن فيه ﴿قَوْلًا وَجْهَكُمْ قِبَلَهُ﴾، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿قَوْلًا وَجْهَكُمْ تِلْقَاءَهُ﴾. والذين أوتوا الكتاب: اليهود والنصارى، وقال السدي: المراد اليهود، والأول أظهر، والمعنى: إن اليهود والنصارى يعلمون أن الكعبة هي قبلة إبراهيم إمام الأمم، وأن استقبالها هو الحق الواجب على الجميع اتباعاً لمحمد ﷺ الذي يجدونه في كتبهم، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿عَمَّا تَمَلُّونَ﴾ بناءً على المخاطبة، فيما على إرادة أهل الكتاب أو أمة محمد ﷺ، وعلى الوجهين فهو إعلام بأن الله تعالى لا يهمل أعمال العباد، ولا يغفل عنها، وضمه الوعيد، وقرأ الباقون بالياء من تحت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ﴾ الآية، أعلم الله تعالى نبيه حين قالت له اليهود: راجع بيت المقدس ونؤمن بك، مخادعة منهم - أنهم لا يتبعون له قبلة، يعني جملتهم لأن البعض قد أتبع كعبدالله بن سلام وغيره، وأنهم لا يدينون بدينه، أي فلا تصغ إليهم، والآية هنا: العلامة. وجاء جواب ﴿لَيْسَ﴾ كجواب (لو) وهي ضدها في أن (لو) تطلب الماضي والوقوع و(إن) تطلب الاستقبال

لأنهما جميعاً يترتب قبلهما معنى القسم، فالجواب إنما هو للقسم لا أن أحد الحرفين يقع موقع الآخر. هذا قول سيويه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِتَبَاطُحٍ يَلِكُنَّهُمْ﴾، لفظ خبر يتضمن الأمر، أي: فلا تركز إلى شيء من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَعْضُهُمْ﴾ الآية، قال السدي وابن زيد: المعنى: ليست اليهود متبعة قبلة النصارى، ولا النصارى متبعة قبلة اليهود، فهذا إعلام باختلافهم وتدابيرهم وضلالهم، وقال غيرهما: معنى الآية: وما من أسلم معك منهم بمتبع قبلة من لم يسلم، ولا من لم يسلم بمتبع قبلة من أسلم، والأول أظهر في الأبعاض.

وقبله النصارى مشرق الشمس، وقبله اليهود بيت المقدس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آتَيْتَ﴾ الآية، خطاب للنبي ﷺ والمراد أمته، وما ورد من هذا النوع الذي يوهم من النبي ﷺ ظُلماً مُتَوَقَّعاً فهو محمول على إرادة أمته، لعصمة النبي ﷺ، وقطعنا أن ذلك لا يكون منه فإنما المراد من يمكن أن يقع ذلك منه، وخوطف النبي ﷺ تعظيماً للأمر.

والأهواء جمع هوى، ولا يجمع على أهوية، على أنهم قد قالوا: ندى وأندية قال الشاعر:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ أُنْدِيَةِ
لَا يُبْصِرُ الْكَلْبُ مِنْ ظُلْمَانِهَا الطُّبْنَا
وهوى النفس إنما يستعمل في الأكثر فيما لا خير فيه، وقد يستعمل

ابتداء والخبر مُقَيَّدًا به كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في أسرى بدر: «فهو رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر» و«إِذَا» حرف معناه: إن تقرر ما ذكر.

١٤٦ - ١٤٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾، ويصح أن يكون في موضع خفض نعتاً للظالمين، و﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ في موضع الحال. وخص الأبناء دون الأنفس وهي الصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه. والمراد هنا معرفة الوجه وميزه لا معرفة حقيقة النسب، ولعبدالله بن سلام رضي الله عنه في هذا الموضوع كلام معترض يأتي موضعه إن شاء الله.

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾، ويصح أن يكون في موضع خفض نعتاً للظالمين، و﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ في موضع الحال. وخص الأبناء دون الأنفس وهي الصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه. والمراد هنا معرفة الوجه وميزه لا معرفة حقيقة النسب، ولعبدالله بن سلام رضي الله عنه في هذا الموضوع كلام معترض يأتي موضعه إن شاء الله.

والضمير في ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾ عائد على الحق في القبلة والتحول بأمر الله إلى الكعبة. قاله ابن عباس، وقاتدة وابن جريج، والربيع. وقال قتادة أيضاً، ومجاهد، وغيرهما: هو عائد على محمد ﷺ، أي يعرفون صدقه وثبوته.

والفريق: الجماعة، وخص لأن منهم من أسلم ولم يكتف، والإشارة بالحق إلى ما تقدم من الخلاف في ضمير ﴿يَعْرِفُونَهُ﴾، فعم الحق مبالغة في ذمهم. ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ظاهر في صحة الكفر عناداً.

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾، الحق رفع على إضمار الابتداء، والتقدير هو الحق، ويصح أن يكون

﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ﴾، الخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، وامترى في الشيء إذا شك فيه، ومنه الجراء لأن هذا يشك في قول هذا، وأنشد الطبري شاهداً على أن الممترين شاكون قول الأعشى:

تَدْرُ عَلَى أَسْوَقِ الْمُفْتَرِي

ن رخصاً إذا ما السراب ازجحن
وهم في ذلك لأن أبا عبيدة وغيره قالوا: الممترين في البيت هم الذين يمزون الخيل بأرجلهم همزاً لتجري، كأنهم يحتلبون الجري منها، فليس في البيت معنى من الشك كما قال الطبري.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ﴾، الوجهة: فعلة من المواجهة، كالقبلة، وقوله: ﴿مَرٌّ﴾ عائد على اللفظ المفرد في ﴿كُلِّ﴾، والمراد به الجماعات، والمعنى: لكل صاحب ملة وجهة هو مولياها نفسه. قاله الربيع، وعطاء، وابن عباس. وقرأ ابن عباس، وابن عامر وحده من السبعة: ﴿هُوَ مَوْلِيَّهَا﴾، وقالت طائفة: الضمير في ﴿مَرٌّ﴾ عائد على الله تعالى والمعنى: الله مولياها إيها، وقالت فرقة: المعنى في الآية أن

الَّذِينَ مَا قَيْنَهُمُ الْكِتَابُ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُفْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾ وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ هُوَ مَوْلِيَّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ يُاتُونَ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لِلْحَقِّ مِنْ رَبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِبَدِّلٍ عَلِيمًا ﴿١٤٩﴾ وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّمَا كُنَّا لِنَاسٍ عَلَيْكُمْ حُجَّةً إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلَا تَمَنُّوا عَيْدَكُمْ وَاَلْمَأْمَأْتُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٠﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُؤْمِنُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾ فَأَذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِقَوْلِ اللَّهِ وَالصَّلُوا لِي إِنَّمَا اللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٣﴾

لكل ديناً وشرعاً وهو دين الله وملة محمد، وهو مولياها إيها، أتبعها من اتبعها، وتركها من تركها. وقال قتادة: المراد بالآية أن الصلاة إلى الشام ثم الصلاة إلى الكعبة، لكل واحدة منهما وجهة، الله مولياها إيها.

وحكى الطبري أن قوماً قرؤوا: ﴿وَلِكُلِّ وِجْهَةٍ﴾ بإضافة «كُلِّ» إلى ﴿وِجْهَةٍ﴾ وخطأها الطبري، وهي متجهة. أي: فاستبقوا الخيرات كل وجهة ولا تكموها، ولا تعترضوا فيما أمركم بين هذه وهذه، أي إنما عليكم الطاعة في الجميع، وقدم قوله: كُلُّ وِجْهَةٍ على الأمر في قوله: ﴿فَأَسْتَبِقُوا﴾ للاهتمام بالوجهة كما يُقدم المفعول، وذكر أبو عمرو الداني هذه القراءة عن ابن عباس رضي الله عنه.

وَسَلِمَتِ الْوَاوُ فِي ﴿وَجْهَةٌ﴾ وَلَمْ تُجْرَ كِعِدَّةٍ وَزَنْيَةٍ، لِأَنَّ وَجْهَةَ ظَرْفٍ، وَتِلْكَ مَصَادِرُ فَسَلِمَتْ لِلْفَرْقِ، وَأَيْضاً فَلْيَكْمُلُ بِنَاءَ الْهَيْئَةِ كَالْجِلْسَةِ، وَقَالَ أَبُو عَلِيٍّ: ذَهَبَ قَوْمٌ إِلَى أَنَّهُ مَصْدَرٌ شَذَّ عَنِ الْقِيَاسِ فَسَلِمَ، وَقَوْمٌ إِلَى أَنَّهُ اسْمٌ لَيْسَ بِمَصْدَرٍ، قَالَ غَيْرُ أَبِي عَلِيٍّ: وَإِذَا أُرِدَتِ الْمَصْدَرُ قُلْتُ: جِهَةٌ وَقَدْ تَقَالُ الْجِهَةُ فِي الظَّرْفِ.

وحكى الطبري عن منصور أنه قال: نحن نقرؤها: ﴿وَلِكُلِّ جَعَلْنَا قِبْلَةً يَرْضونها﴾، ثم أمر تعالى عباده باستتباب الخيرات والبدار إلى سبيل النجاة، ثم وعظهم بذكر الحشر موعظة تتضمن وعيداً وتحذيراً.

وقوله: ﴿يَأْتِي بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعاً﴾، يعني به البعث من القبور. ثم اتصف الله تعالى بالقدرة على كل شيء مقدور عليه لتناسب الصفة مع ما ذكر من الإتيان بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ﴾ معناه: حيث كنت وأتى توجّهت من مشارق الأرض ومغاربها، ثم تكررت هذه الآية تأكيداً من الله تعالى لأن موقع التحويل كان صعباً في نفوسهم جداً فأكد الأمر ليرى الناس التثمّم به فيخف عليهم وتسكن نفوسهم إليه.

﴿١٥٠﴾ - ﴿١٥١﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿قُولُوا وُجُوهَكُمْ سَطْرَةٌ﴾، هو فرض استقبال القبلة على المصلين - وفرض المصلي ما دام يرى الكعبة أن يصادفها باستقباله، فإذا غابت عنه ففرضه الاجتهاد في مصادفتها، فإن اجتهد ثم كشف الغيب أنه أخطأ فلا شيء

عليه عند كثير من العلماء، ورأى مالك رحمه الله أن يعيد في الوقت إحراراً لفضية القبلة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ الآية، قرأ نافع وحده بتسهيل الهمزة، وقرأ الباقون ﴿إِنَّمَا﴾ بالهمز. والمعنى: عرفتكم وجه الصواب في قبلكم والحجة في ذلك لثلاثاً وقوله: ﴿لِلنَّاسِ﴾ عموم في اليهود والعرب وغيرهم، وقيل: المراد بالناس اليهود، ثم استثنى كفار العرب، وقوله: ﴿بِئْسَ مَا يَرُدُّ هَذَا التَّأْوِيلُ﴾.

وقالت فرقة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ استثناء متصل، وهذا مع عموم لفظة الناس، والمعنى أنه لا حجة لأحد عليكم إلا الحجة الواضحة للذين ظلموا يعني اليهود وغيرهم من كل من تكلم في النازلة في قولهم: مَا وَلَاؤُنَا استهزاء، وفي قولهم: تحير محمد في دينه، وغير ذلك من الأقوال التي لم تنبعث إلا من عابد وثن، أو من يهودي، أو من منافق. وسماها تعالى حجة وحكم بفسادها حين كانت من ظلمة.

وقالت طائفة: ﴿إِلَّا الَّذِينَ﴾ استثناء منقطع، وهذا مع كون الناس اليهود فقط، فقد ذكرنا ضعف هذا القول، والمعنى: لكن الذين ظلموا يعني كفار قريش في قولهم: رجع محمد إلى قبلتنا وسيرجع إلى ديننا كله - ويدخل في ذلك كل من تكلم في النازلة من غير اليهود.

وقرأ ابن عباس، وزيد بن علي، وابن زيد: ﴿أَلَا﴾ بفتح الهمزة وتخفيف اللام على معنى استفتاح

الكلام، فيكون ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداءً، أو على معنى الإغراء بهم فيكون ﴿الَّذِينَ﴾ نصباً بفعل مقدر.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَأَخْشَوْنِي﴾ الآية، تحقير لشأنهم، وأمر باطراح أمرهم ومراعاة أمره، وقوله: ﴿وَلَا تَيْمَنُوا﴾ عطف على قوله: ﴿إِنَّمَا﴾، وقيل: هو مقطوع في موضع رفع بالابتداء، والخبر مضمّر بعد ذلك، التقدير: لَا تَيْمَنُ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ عرفتكم قبلي ونحوه. ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ترج في حق البشر، والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ رد على قوله: ﴿وَلَا تَيْمَنُوا﴾ أي إتماماً كما، وهذا أحسن الأقوال، أي لأتم عليكم في بيان سئة إبراهيم عليه السلام ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنْكُمْ﴾ إجابة لدعوته في قوله: ﴿رَبَّنَا وَأَنْتَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ الآية، وقيل: الكاف من ﴿كَمَا﴾ رد على ﴿تَهْتَدُونَ﴾ أي اهتداء كما، وقيل: هو في موضع نصب على الحال. وقيل: هو في معنى التأخير متعلق بقوله: ﴿فَأَذْرُوبِي﴾.

وهذه الآية خطاب لأمة محمد ﷺ، وهو المعنى بقوله: ﴿رَسُولًا مِّنْكُمْ﴾، و﴿رَسُولًا﴾ في موضع نصب على الصفة، والآيات: القرآن، و﴿زِيَّركُمْ﴾: يظهركم من الكفر وينميككم بالطاعة، و﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن، و﴿الْحِكْمَةَ﴾ ما يتلقى عنه عليه السلام من سئة وفقه ودين.

و﴿مَا لَمْ تَكُونُوا تَكُونُونَ﴾ قصص من سلف، وقصص ما يأتي من الغيوب.

﴿١٥٦﴾ - ﴿١٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال سعيد بن جبير: معنى الآية: اذكروني بالطاعة أذكركم بالشواب والمغفرة، أي اذكروني عند كل أموركم فيحملكم خوفاً على الطاعة فأذكركم حينئذ بالشواب.

وقال الربيع، والسدي: المعنى: اذكروني بالدعاء والتسبيح ونحوه، وفي الحديث: (إن الله تعالى يقول: ابن آدم: اذكروني في الرخاء أذكرك في الشدة)، وفي حديث آخر: (إن الله تعالى يقول: وإذا ذكرني عبدي في ملاذ ذكرتة في ملاذ خير منهم)، وروي: (إن الكافر إذا ذكر الله ذكره الله باللعة والخلود في النار)، وكذلك العصاة يأخذون بحظ من هذا المعنى، وروي أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: (قل للعاصين لا يذكروني).

﴿وَأَشْكُرُوا لِي﴾ واشكروني بمعنى واحد، ولي أشهر وأفصح مع الشكر. ومعناه: نعمي وأيادي، وكذلك إذا قلت: شكرتك فالمعنى: شكرت صنيعك وذكرته، فحذف المضاف إذ معنى الشكر ذكر اليد وذكر مسديها معاً، فما حذف من ذلك فهو اختصار للدلالة ما بقي على ما حذف.

﴿تَكْفُرُونَ﴾ أي نعمي وأيادي، وانحذفت نون الجماعة للجزم وهذه نون المتكلم، وحذفت الياء التي بعدها تخفيفاً لأنها رأس آية، ولو كان نهياً عن الكفر ضد الإيمان لكان (ولا تكفروا) بغير النون.

﴿يَا﴾ حرف نداء، و﴿أَي﴾ منادى، و﴿هَا﴾ تنبيه، وتجلب (أي)

فيما فيه الألف واللام، لأن في حرف النداء تعريفاً ما فلو لم تجلب (أي) لاجتمع تعريفان، وقال قوم: الصبر: الصوم، ومنه قيل لرمضان: شهر الصبر. وتقدم معنى الاستعانة بالصبر والصلاة، واختصاره أنها رادعان عن المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ معناه: بمعونته وإنجاده، فهو على حذف مضاف، كما قال رسول الله ﷺ لحسان بن ثابت: «اهجهم وروح القدس معك». وكما

قال: «ارموا وأنا مع بني فلان» الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية. سبها أن الناس قالوا فيمن قتل ببدر وأحد: مات فلان، مات فلان. فكره الله أن تحط منزلة الشهداء إلى منزلة غيرهم فنزلت هذه الآية، وأيضاً فإن المؤمنين صعب عليهم فراق إخوانهم وقراباتهم فنزلت الآية مسلية لهم، تعظم منزلة الشهداء، وتخبر عن حقيقة حالهم، فصاروا مغبوطين لا محزوناً لهم، ويبيّن ذلك من حديث أم حارثة في السير.

والفرق بين الشهيد وغيره إنما هو الرزق، وذلك أن الله تعالى فضلهم بدوام حالهم التي كانت في الدنيا فرزقهم، وروي عن النبي ﷺ في ذلك أن أرواح الشهداء في حواصل

سورة البقرة

سورة البقرة

وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ كُلُّ أَحْيَاءٍ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٦﴾ وَلَتَبْلُوَنكُمْ بَشِيرٌ مِّنَ الْغُوفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالشَّمْرِتِ وَيَشْرُ الْقَصِيرِ ﴿١٥٧﴾ إِذْ أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٨﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الصَّمَا وَالْمِوَةَ مِنْ سَعَاءِ اللَّهِ فَمَنْ حَاجَّ آلَيْتٍ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْآيَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ تَعْدٍ مَا يَبْتَغِي كُفَّارًا لِلنَّاسِ فِي الْكُتُبِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦١﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاوْتِيكَ آتَاؤُهُمْ عَلَيْهِمْ وَأَنَّا نَتُوبُ الرِّجْسَ ﴿١٦٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَمَّاوَاهُمْ كُفَّارًا أُولَئِكَ عَلَيْهِمُ لعنةُ اللَّهِ وملائكته والناس أجمعين خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَخَفُونَ لِعَذَابِهَا وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿١٦٣﴾ وَاللَّهُ كَرِيمٌ ﴿١٦٤﴾ وَاللَّهُ رَاحِمٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿١٦٥﴾ وَاللَّهُ رَاحِمٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿١٦٦﴾ وَاللَّهُ رَاحِمٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ﴿١٦٧﴾

٢٤

طير خضر تعلق من ثمر الجنة، وروي أنهم في قتاديل من ذهب، إلى كثير من هذا ولا محالة أنها أحوال لطوائف، أو للجميع في أوقات متغايرة. وجمهور العلماء على أنهم في الجنة، ويؤيده قول النبي ﷺ: «إنه في الفردوس الأعلى»، وقال مجاهد: هم خارج الجنة، ويعلقون من شجرها.

﴿وَأَمُوتَ﴾ رفع بإضمار الابتداء، والتقدير: هم أموات، ولا يجوز إعمال القول فيه، لأنه ليس بينه وبينه تناسب، كما صح قولك: قلت كلاماً وحجة.

وقوله: ﴿وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾، أي قبل أن تشعرتم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَتَبْلُوَنكُمْ﴾ الآية. أمر تعالى بالاستعانة بالصبر والصلاة وأخبر أنه مع الصابرين، ثم اقتضت الآية بعدها من فضل الشهداء ما

يقوي الصبر عليهم ويخفف المصيبة، ثم جاء بعد ذلك من هذه الأمور التي لا تتلقى إلا بالصبر أشياء تعلم أن الدنيا دار بلاءٍ ومِحْنٍ، أي فلا تنكروا فراق الإخوان والقرابة ثم وعد الصابرين آخرًا.

وقال عطاء، والجمهور، إن الخطاب في هذه الآية لأمة محمد ﷺ، وقيل: الخطاب لقريش وحل ذلك بهم، فهي آية للنبي ﷺ. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر.

﴿وَلَتَبْلُؤَنَّكُمْ يَتَّىءُ﴾ معناه: لنتحتكم، وحركت الواو لالتقاء الساكنين، وقيل: الفعل مبني وهو مع النون الثقيلة بمنزلة خمسة عشر.

والخوف: يعني من الأعداء في الحروب، والجوع: الجذب والسنة، وأما الحاجة إلى الأكل فإنما اسمها الغرث، وقد استعمل فيه المحدثون الجوع اتساعاً، ونقص الأموال: بالجوائح والمصائب. والأنفس: بالموت والقتل. والثمرات: بالعامات ونزع البركة. فالمراد: بشيء من هذا، وشيء من هذا، فاكتفي بالأول إيجازاً ولذلك وحّد. وقرأ الضحّاك ﴿بِأَشْيَاءَ﴾ على الجمع، والمعنى قريب بعضه من بعض.

وقال بعض العلماء: إنما المراد في هذه الآية مؤنّ الجهاد وكلفه، فالخوف من العدو، والجوع به وبالأسفار إليه، ونقص الأموال بالنفقات فيه، والأنفس بالقتل، والثمرات بإصابة العدو لها، أو بالغفلة عنها بسبب الجهاد.

ثم وصف تعالى الصابرين الذين

بشرهم بقوله: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا هَذِهِ الَّتِي كُنَّا نَعْتَدُ﴾، وجعل هذه الكلمات ملجأً لذوي المصائب، وعُضْرَةً للمُتَمَتِّحِينَ، لِمَا جمعت من المعاني المباركة وذلك: توحيد الله، والإقرار له بالعبودية، والبعث من القبور.

وقال سعيد بن جبير: لم يعط هذه الكلمات نبي قبل نبينا، ولو عرفها يعقوب لما قال: يا أسفي على يوسف، وروي أن مصباح رسول الله ﷺ انطفأ ذات ليلة فقال: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، فقيل: أمصيبة هي يا رسول الله؟ قال: نعم. كل ما آذى المؤمن فهي مصيبة.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ الآية، نعم من الله على الصابرين المسترجعين. وصلوات الله على عبده: عفوّه ورحمته، وبركته، وتشريفه إياه في الدنيا والآخرة، وكرر الرحمة لِمَا اختلف اللفظ تأكيداً، وهي من أعظم أجزاء الصلاة منه تعالى. وشهد لهم بالاهتداء، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين قرأ هذه الآية: «نعم العذلان، ونعم العلاوة». أراد بالعذلين الصلاة والرحمة، وبالعلاوة الاهتداء.

﴿١٥٨﴾ - ﴿١٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الصَّافَّاتِ وَاللَّمَّاتِ﴾: جَبِيلَانِ بِمَكَّةَ. والصفاء: جمع صفاة، وقيل هو: اسم مفرد جمعه صفي وأصفاء، وهي الصخرة العظيمة، قال الراجز:

مَوَاقِعُ الطَّيْرِ عَلَى الصُّفِيِّ وقيل: من شروط الصفا البياض والصلابة.

والمروة: واحدة المرو، وهي الحجارة الصغار التي فيها لين. ومنه قول الذي أصاب شاته الموت من الصحابة: (فذكيتها بمزوة)، ومنه قول الأمين: أخرجني إلى أخي، فإن قتلني فمروة كسرت مروة، وضمصامة قطعت ضمصامة، وقد قيل في المزو: إنها الصلاب، قال الشاعر:

تَوَلَّى الْأَرْضَ خُفًا ذَابِلًا
فَلِإِذَا مَا صَادَفَ الْمَرْوَ رَضَخَ
والصحيح أن المرو الحجارة صليبها ورخوها الذي يتشظي وترق حاشيته وفي هذا يقال المرو أكثر، وقد يقال في الصليب، وتأمل قول أبي ذؤيب:

حَسْبِي كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ
بِصَفَا الْمُشْفَرِّ كُلِّ يَوْمٍ تُفْرَعُ
وجبيل الصفا بمكة صليب، وجبيل المروة إلى اللين ماهق، فبذلك سُمِّيَا.

قال قوم: ذُكِرَ الصفا لأن آدم وقف عليه، ووقفت حواء على المروة فَأَبْنَتْ لذلك. وقال الشعبي: كان على الصفا صنم يدعى إسافا وعلى المروة صنم يدعى نائلة فاطرد ذلك في التذكير والتأنيث، وقدم المذكر.

﴿وَمِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ معناه: من معالمه ومواضع عبادته، وهي جمع شعيرة أو شعارة. وقال مجاهد: ذلك راجع إلى القول، أي مما أشعركم الله بفضله، مأخوذ من شعرت إذا تحسست، وشعرت مأخوذ من الشعار وهو ما يلي الجسد من الثياب، والشعار مأخوذ من الشعر.

ومن هذه اللفظة هو الشاعر.

﴿حَجَّ﴾ معناه: قصد وتكرر، ومنه قول الشاعر:

وَأَشْهَدُ مِنْ عَوْفٍ حُلُولًا كَثِيرَةً
يَحْجُونَ بَيْتَ الزُّبَيْرَانَ الْمُزْعَفَرَا
ومنه قول الآخر:

يَحُجُّ مَأْمُومَةً فِي قَفَرِهَا لِحَفِّ

﴿أَعْتَرَكَ﴾ زار وتكرر، مأخوذ من عمرت الموضع.

والجناح: الإثم والميل عن الحق والطاعة. ومن اللفظة الجناح لأنه في شق، ومنه قيل للخباء: جناح لتمايله وكونه كذي أجنحة، ومنه: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا﴾.

﴿يَطُوفُ﴾ أصله يَطُوفُ، سَكُنْتُ الثَّاءَ وأدغمت في الطاء، وقرأ أبو السمال: ﴿أَنْ يَطُوفَ﴾، وأصله يطوف، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً فجاء يَطُوفُ، أدغمت الثَّاءَ بعد الإسكان في الطاء على مذهب من أجاز إدغام الثاني في الأول كما جاء في (مُذَكَّرٍ)، ومن لم يُجز ذلك قال: قلبت الثَّاءَ طاءً، ثم أدغمت الطاءَ في الطاءِ، وفي هذا نظر، لأن الأصلي أدغم في الزائد، وذلك ضعيف.

وروي عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وشهر بن حوشب أنهم قرؤوا: ﴿أَلَا يَطُوفُ﴾ وكذلك في مصحف عبدالله بن مسعود، وأبي بن كعب ﴿أَلَا يَطُوفُ﴾، وقيل: ﴿أَلَا يَطُوفُ﴾ بضم الطاءِ وسكون الواو.

وقوله: ﴿إِنَّ الصَّغَا وَالْمَرْوَةَ بَيْنَ شَعَابِرِ اللَّهِ﴾ خبر يقتضي الأمر بما عهد من الطواف بهما، وقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾، ليس المقصد منه إباحة

الطواف لمن شاءه لأن ذلك بعد الأمر لا يستقيم، وإنما المقصد منه رفع ما وقع في نفوس قوم من العرب من أن الطواف بينهما فيه حرج، وإعلامهم أن ما وقع في نفوسهم غير صواب.

واختلف في كيفية ذلك. فروي أن الجن كانت تعزف وتطوف بينهما في الجاهلية، فكانت طائفة من تهامة لا تطوف بينهما في الجاهلية لذلك، فلما جاء الإسلام تخرجوا من الطواف، وروي عن عائشة رضي الله عنها: (أن ذلك في الأنصار، وذلك أنهم كانوا يُهلُّون لمناة التي كانت بالمشلل حذو قُدَيْدٍ ويعظمونها فكانوا لا يطوفون بين إساف ونائلة إجلالاً لتلك، فلما جاء الإسلام تخرجوا فنزلت هذه الآية). وروي عن الشعبي أن العرب التي كانت تطوف هنالك كانت تعتقد ذلك السعي إجلالاً لإساف ونائلة، وكان الساعي يتمسح بإساف، فإذا بلغ المروة تمسح بنائلة، وكذلك حتى تتم أشواطه فلما جاء الإسلام كرهوا السعي هنالك إذ كان بسبب الصنمين.

واختلف العلماء في السعي بين الصفا والمروة.

فمذهب مالك والشافعي أن ذلك فرض ركن من أركان الحج لا يجزي تاركه أو ناسيه إلا العودة، ومذهب الشوري وأصحاب الرأي أن الدم يجزي تاركه، وإن عاد فحسن، فهو عندهم نَذْبٌ.

وروي عن أبي حنيفة: إن ترك أكثر من ثلاثة أشواط فعليه دم، وإن ترك ثلاثة فأقل فعليه لكل شوطٍ إطعام

مسكين. وقال عطاء: ليس على تاركه شيء لا دم ولا غيره، واحتج عطاء بما في مصحف ابن مسعود: ﴿أَلَا يَطُوفُ بِهِمَا﴾، وهي قراءة خالفت مصاحف الإسلام، وقد أنكرتها عائشة رضي الله عنها في قولها لعروة حين قال لها: أرأيت قول الله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ أَنْ يَطُوفَ بِهِمَا﴾، فما نرى على أحد شيئاً ألا يطوف بهما. قالت: «يا عُرَيَّةُ كلا، لو كان ذلك لقال: فلا جناح عليه ألا يطوف بهما».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأيضاً فإن ما في مصحف ابن مسعود يرجع إلى معنى ﴿أَنْ يَطُوفَ﴾ وتكون (لا) زائدة صلة في الكلام كقوله: ﴿مَا مَنَّكَ اللَّهُ إِلَّا تَسْبِيحًا﴾، وكقول الشاعر:

مَا كَانَ يَرْضَى رَسُولَ اللَّهِ فِعْلَهُمْ
وَالطَّيِّبَانَ أَبُو بَكْرٍ وَلَا عَمْرُ
أي: وعمر.

وكقول الآخر:
وَمَا أَلْوَمُ اللَّيْبِضُ أَلَا تَسْخَرَا

ومذهب مالك وأصحابه في العمرة أنها سنة، إلا ابن حبيب فإنه قال بوجوبها.

وقرأ قوم من السبعة وغيرهم: ﴿ومن يطوع﴾ بالياء من تحت على الاستقبال والشرط، والجواب في قوله: ﴿فَإِنْ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر، وعاصم: ﴿تَطَوَّعَ﴾ على بابهِ في الماضي ﴿مَنْ﴾ على هذه القراءة بمعنى الذي، ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَإِنْ﴾ للإيهام الذي في ﴿وَمَنْ﴾. حكاه مكي، وقال أبو

وقد تقدم معنى اللعنة، واختلف في اللاعنين - فقال قتادة، والربيع: الملائكة والمؤمنون، وهذا ظاهر واضح جار على مقتضى الكلام. وقال مجاهد، وعكرمة: هم الحشرات والبهائم يصيبهم الجذب بذنوب علماء السوء الكاتمين

فيلعنونهم، وذكروا بالواو والنون كَمَنْ يَعْقِل، لأنهم أسند إليهم فعل مَنْ يَعْقِل، كما قال: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَجِيدًا﴾. وقال البراء بن عازب:

اللاعنون كل المخلوقات ما عدا الثقلين الجن والإنس، وذلك أن النبي ﷺ قال: «إن الكافر إذا ضرب في قبره فصاح سمعه الكل إلا الثقلين

فلعنه كل سامع». وقال ابن مسعود: المراد بهم ما قال النبي ﷺ: «إن كل مُتَلَاعِنَيْنِ إن استحقا اللعنة وإلا انصرفت على اليهود»، وهذه الأقوال الثلاثة لا يقتضيها اللفظ، ولا تثبت إلا بسند يقطع العذر.

ثم استثنى الله تعالى التائبين، وقد تقدم معنى التوبة.

﴿وَأَسْلَمُوا﴾ في أعمالهم وأقوالهم ﴿وَيَسُبُّوا﴾، قال مَنْ فسر الآية على العموم: معناه بينوا توبتهم بمبرز العمل والبروع فيه، ومن فسرها على أنها في كاتمي أمر محمد قال:

المعنى بينوا أمر محمد ﷺ فتجيء الآية فيمن أسلم من اليهود والنصارى، وقد تقدم معنى توبة الله على عبده، وأنها رجوعه به عن المعصية إلى الطاعة.

﴿وَأَسْلَمُوا﴾ - ﴿وَيَسُبُّوا﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، محكمة في الذين وافوا على

ورهبان النصارى الذين كتموا أمر محمد ﷺ، قال الطبري: وقد روي أن معينين منهم سألهم قوم من أصحاب النبي ﷺ عما في كتبهم من أمره، فكتموا، فنزلت.

وتتناول الآية بعد كل من كتم علماً من دين الله يحتاج إلى بته، وذلك مفسر في قول النبي ﷺ: «مَنْ سئِلَ عن علم فكتمه

ألجم يوم القيامة بلجام من نار». وهذا إذا كان لا يخاف ولا ضرر عليه في بته، وهذه الآية هي التي أراد أبو هريرة رضي الله عنه في قوله:

(لولا آية في كتاب الله ما حدثتكم حديثاً)، وقد ترك أبو هريرة ذلك حين خاف فقال: (حَفِظْتُ عن رسول الله ﷺ وعاءين، أما أحدهما فبثنته، وأما الآخر فلو بثنته قطع هذا البلعوم)، وهذه الآية هي التي أراد عثمان رضي الله عنه في قوله: (لأحدثنكم حديثاً لولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه). ومن روى في كلام عثمان: (لولا أنه في كتاب الله). فالمعنى غير هذا.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أمر محمد ﷺ. ثم يعم بعد كل ما يُكْتَمُ مِنْ خَيْرٍ. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿مَنْ بَعْدَ مَا بَيَّنَّكُمُ﴾ على الأفراد.

﴿وَفِي الْكِتَابِ﴾ يراد به التوراة والإنجيل بحكم سبب الآية، وأنها في أمر محمد ﷺ، ثم يدخل القرآن مع تعميم الآية.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يبدل الشواب والجزاء، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالنيات والأعمال، لا يضيع معه لعامل بـ. ولا غيره - عَمَلٌ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الآية، المراد بالذين أحبار اليهود

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي يبدل الشواب والجزاء، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالنيات والأعمال، لا يضيع معه لعامل بـ. ولا غيره - عَمَلٌ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الآية، المراد بالذين أحبار اليهود

علي: يحتمل ﴿تَطَوَّعَ﴾ أن يكون في موضع جزم و﴿وَمَنْ﴾ شرطية، ويحتمل أن تكون ﴿وَمَنْ﴾ بمعنى الذي والفعل صلة لا موضع له من الإعراب والفاء مُؤَدِّةُ أَنْ الثاني وجب لوجوب الأول.

ومن قال بوجوب السعي قال: معنى ﴿تَطَوَّعَ﴾ أي زاد برأ بعد الواجب فجعله عاماً في الأعمال، وقال بعضهم: معناه: من تطوع بحج أو عمرة بعد حجة الفريضة.

ومن لم يوجب السعي قال: المعنى تطوع بالسعي بينهما. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ بِخَيْرٍ﴾.

ومعنى ﴿شَارَكُوا﴾: أي يبذل الشواب والجزاء، ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالنيات والأعمال، لا يضيع معه لعامل بـ. ولا غيره - عَمَلٌ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ﴾ الآية، المراد بالذين أحبار اليهود

كفرهم، واختلف في معنى قوله: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ وهم لا يلعنون أنفسهم - فقال قتادة، والربيع: المراد بالناس المؤمنون خاصة. وقال أبو العالية: معنى ذلك في الآخرة، وذلك أن الكفرة يلعنون أنفسهم يوم القيامة. وقالت فرقة: معنى ذلك أن الكفرة يقولون في الدنيا: لعن الله الكافرين، فيلعنون أنفسهم من حيث لا يشعرون.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَالْمَلَكِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ بالرفع على تقدير: يلعنهم الله.

واللعنة في هذه الآية تقتضي العذاب فلذلك قال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾، والضمير عائد على اللعنة، وقيل: على النار، وإن كان لم يجر لها ذكر لثبوتها في المعنى، ثم أعلم تعالى برفع وجوه الرفق عنهم لأن العذاب إذا لم يخفف ولم يؤخر فهو النهاية. ﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه يؤخرون عن العذاب، ويحتمل أن يكون من النظر نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ آلْيَوْمِ﴾ والأول أظهر لأن النظر بالعين إنما يُعدى بالي إلا شأداً في الشعر.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُكُزُّ إِلَهُ وَجِدٌ لِّإِلَهِ إِلَّا هُوَ﴾ الآية إعلام بالوحدانية، وواحد في صفة الله تعالى معناه نفي المثل والنظير والثد. وقال (أبو المعالي): هو نفي التبعية والانقسام. وقال عطاء: لما نزلت هذه الآية بالمدينة قال كفار قريش بمكة: ما الدليل على هذا؟ وما آيته وعلامته؟ وقال سعيد بن المسيب: قالوا: إن كان هذا يا

محمد، فأثبتنا بآية من عنده تكون علامة الصدق، حتى قالوا: اجعل لنا الصفا ذهباً، فقيل لهم: ذلك لكم، ولكن إن كفرتم بعد ذلك عذبتم، فاشفق رسول الله ﷺ وقال: «دهني أدهم يوماً بيوم»، فنزل عند ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية.

ومعنى ﴿فِي خَلْقِ السَّمَكَاتِ﴾: في اختراعها وإنشائها، وقيل: المعنى إن في خلقه أي هيئة السموات والأرض. ﴿وَأَخْتِلَافِ أَيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ معناه أن هذا يخلف هذا، وهذا يخلف هذا فهما خلفه كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَمَعَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خَلْفَةً﴾.

وكما قال زهير:

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِينَ خَلْفَةً
وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْمَعٍ
وقال الآخر:

وَلَهَا بِالْمَاطِرُونَ إِذَا
أَكَلَ التُّنْمُلُ الَّذِي جَمَعَا
خَلْفَةً حَتَّى إِذَا ازْتَبَعَتْ
سَكَنَتْ مِنْ جِلْتِي بَيْعَا
ويحتمل أيضاً الاختلاف في هذه الآية أن يراد به اختلاف الأوصاف. والليل جمع ليلة، وتجمع ليالي، وزيدت فيها الياء كما زيدت في كراهية ورفاهية.

والنهار يجمع على نُهْرٍ وَأَنْهَرَةٍ، وهو من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، يقضي بذلك قول النبي ﷺ لعدي بن حاتم: «إنما هو بياض النهار وسواد الليل»، وهذا هو مقتضى الفقه في الإيمان ونحوها، فأما على ظاهر اللغة وأخذ من

السَّعَةِ فهو من وقت الإسفار إذا اتسع وقت النهار كما قال:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَرْتُ فَتَقَهَا
يَرِي قَائِمٌ مِنْ دُونِهَا مَا وَرَاءَهَا
وقال الرَّجَّاجُ في كتاب الأنواء:
أول النهار ذرور الشمس، قال:
وزعم النضر بن شميل أن أول النهار ابتداء طلوع الشمس، ولا يعد ما قبل ذلك النهار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقول النبي ﷺ هو الحكم.

﴿وَالْفُلُكِ﴾ السفن، وإفراده وجمعه بلفظ واحد، وليست الحركات تلك بأعيانها، بل كأنه بنى الجمع بناء آخر، يدل على ذلك توسط التنثنية في قولهم: فُلُكَانٌ، والفلك المفرد مذكّر، قال الله تعالى: ﴿فِي الْفُلُكِ الشَّحُونِ﴾.

﴿وَمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾ هي التجارات وسائر المآرب التي يُركب لها البحر من غزو وحج. والنعمة بالفلك هي إذا انتفع بها، فلذلك خص ذكر الانتفاع، إذ قد تجري بما يضر.

﴿وَمَا أَرْزَلُ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ﴾ يعني به الأمطار التي بها إنعاش العالم، وإخراج النبات والأرزاق. ﴿وَبَيْتٌ﴾ معناه: فَرَقٌ وَنَسَطٌ، ﴿وَدَابَّةٌ﴾ تجمع الحيوان كله، وقد أخرج بعض الناس الطير من الدواب، وقال الأعشى:

.....
دَبِيبٌ قَطَا البَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَنَهَلٍ
وقال علقمة بن عبدة:

.....
صَوَّاعِقُهَا لَطِيرُهُنَّ دَبِيبٌ
﴿وَتَصْرِيحِ الرِّيْحِ﴾ إرسالها عقيماً،

لآيات بيّنة، ومن الناس - مع ذلك البيان - من يتخذ.

وخرج ﴿يَتَّخِذُ﴾ مُؤَخِّدًا على لفظ ﴿مَنْ﴾ والمعنى جمعه. و﴿مَنْ دُونَ﴾ لفظ يعطي غيبة ما تضاف إليه (دون) عن القضية التي فيها الكلام وتفسير (دون) بسوى، أو بغير، لا يطرد.

والند: النظر والمقاوم والموازي، كان ضدًا، أو خلافًا، أو مثلًا، إذا قاوم من جهة فهو منها بئد.

وقال مجاهد، وقتادة: المراد بالأنداد الأوثان. وجاء ضميرها في ﴿يُجِئُونَكَ﴾ ضمير مَنْ يعقل، لَمَا نُزِّلَتْ بالعبادة منزلة مَنْ يَعْقِل، وقال ابن عباس، والسدي: المراد بالأنداد الرؤساء المتبعون، يطيعونهم في معاصي الله تعالى. و﴿يُجِئُونَكَ﴾ في موضع نصب نعت للأنداد، أو على الحال من المضمّر في ﴿يَتَّخِذُ﴾، أو يكون في موضع رفع نعت ل﴿مَنْ﴾، وهذا على أن تكون ﴿مَنْ﴾ نكرة.

والكاف من ﴿كَسَبَ﴾ في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، وحب: مصدر مضاف إلى المفعول في اللفظ، وهو على التقدير مضاف إلى الفاعل المضمّر، تقديره: كحبهم. أي يُسَوُّون بين محبة الله ومحبة الأوثان.

ثم أخبر أن المؤمنين أشد حبا لله لإخلاصهم وتيقنهم الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، قرأ نافع، وابن عامر بالتاء من فوق، و﴿أَنَّ﴾ بفتح الألف، و﴿أَنَّ﴾ الأخرى كذلك عطف على الأولى، وتقدير ذلك: ولو ترى يا محمد الذين ظلموا في حال رؤيتهم

﴿الرِّيحُ﴾، وفي الفرقان: ﴿أَرْسَلَ الرِّيحَ﴾، وفي النمل: ﴿وَمَنْ يُرِيدُ الرِّيحَ﴾، وفي الروم موضعين، وفي فاطر، وفي الجاثية، وفي عسق: ﴿يُسَكِّرِ الرِّيحَ﴾، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر موضعين من هذه بالإفراد: في إبراهيم، وفي عسق، وقرؤوا سائرهما كقراءة نافع، وقرأ ابن كثير بالجمع في خمسة مواضع: هنا، وفي الحجر، وفي الكهف، وفي الروم الحرف الأول، وفي الجاثية: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيحِ﴾، وباقى ما في القرآن بالإفراد.

وقرأ حمزة بالجمع في موضعين، في الفرقان، وفي الروم الحرف الأول، وأفرد سائر ما في القرآن، وقرأ الكسائي حمزة، وزاد عليه في الحجر، ﴿الرِّيحَ لَوْفِجَ﴾.

ولم يختلفوا في توحيد ما ليس فيه ألف ولا م.

﴿وَالسَّحَابِ﴾: جمع سحابة، سمي بذلك لأنه ينسحب، كما قالوا: حَبَا لأنه يجبو، قاله أبو علي الفارسي. وتسخيره: بعثه من مكان إلى آخر.

فهذه آيات أن الصانع موجود، والدليل العقلي يقوم أن الصانع للعالم لا يمكن أن يكون إلا واحداً، لجواز اختلاف الاثنين فصاعداً.

﴿١٦٦﴾ - ﴿١٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى الوجدانية، ثم الآيات الدالة على الصانع، الذي لا يمكن أن يكون إلا واحداً، ثم ذكر في هذه الآية الجاحدين الضالين تعجباً من سوء ضلالهم مع الآيات - لأن المعنى: إن في هذه الأمور

وملقحة، وصرأً، ونضراً، وهلاكاً، ومنه إرسالها جنوباً وشمالاً، وغير ذلك، والرياح: جمع ربح، وجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة مفردة مع العذاب، إلا في يونس في قوله: ﴿وَجَحَنَ يَمِ بِرِيحٍ طَبِيبَةٍ﴾ وهذا أغلب وقوعها في الكلام.

وفي الحديث: كان رسول الله ﷺ إذا هبت الريح يقول: «اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن ربح العذاب شديدة ملتزمة الأجزاء، كأنها جسم واحد، وريح الرحمة لينة متقطعة، فلذلك هي رباح، وهو معنى نشر. وأفردت مع الفلك، لأن ربح إجراء السفن إنما هي واحدة متصلة، ثم وصفت بالطيب، فزال الاشتراك بينها وبين ربح العذاب، وهي لفظة من ذوات السواو، يقال: ربح وأرواح، ولا يقال: أرياح، وإنما قيل: رباح من جهة الكسرة وطلب تناسب الياء معها.

وقد لحن في هذه اللفظة عمارة بن عقيل بن بلال، فاستعمل الأرياح في شعره، ولحن في ذلك، وقال له أبو حاتم: إن الأرياح لا تجوز، فقال: أما تسمع قولهم: رباح؟ فقال أبو حاتم: هذا خلاف ذلك، فقال: صدقت ورجع.

وأما القراء السبعة فاختلّفوا - فقرأ نافع: الرياح في اثني عشر موضعاً: هنا، وفي الأعراف: ﴿يُرِيدُ الرِّيحَ﴾، وفي إبراهيم: ﴿أَشَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ﴾، وفي الحجر: ﴿الرِّيحَ لَوْفِجَ﴾، وفي الكهف: ﴿تَدْرُوهُ

الربيع، وعطاء: هم رؤساؤهم.
ولفظ الآية يعم هذا كله.

﴿إِنَّ﴾ يحتمل أن تكون متعلقة
بـ ﴿شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾، ويحتمل أن
يكون العامل فيها اذكر.

﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ - بفتح الباء - هم
العبد لغير الله، والضالون المقلدون
لرؤسائهم أو للشياطين. وتبريهم هو
بأن قالوا: إنا لم نُضِلْ هؤلاء، بل
كفروا بإرادتهم، وتعلق العقاب على
المتبعين بكفرهم ولم يتأت ما
حاولوه من تعلق ذنوبهم على
المضلين. وقرأ مجاهد بتقديم الفعل
المسند إلى المتبعين للرؤساء،
وتأخير المسند إلى المتبعين.

والسبب في اللغة: الحبل الرابط
الموصل، فيقال في كل ما يمتسك به
فصل بين شيئين. وقال ابن عباس:
الأسباب هنا الأرحام. وقال مجاهد:
هي العهود، وقيل: المودات،
وقيل: المنازل التي كانت لهم في
الدنيا. وقال ابن زيد، والسدي: هي
الأعمال إذ أعمال المؤمنين كالسبب
في تنعيمهم، فتقطعت بالظالمين
أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾
الآية، وقال الأتباع الذين تُبْرَى
منهم: لو رُدَدنا إلى الدنيا حتى نعمل
صالحاً ونتبرأ منهم، والكثرة العود
إلى حال قد كانت. ومنه قول
جرير:

وَلَقَدْ عَطَفَنَ عَلَى قَرْزَةِ عَطْفَةٍ
كَرُّ الْمَيْيِخِ، وَجُلُنَ ثُمَّ مَجَالًا
وَالْمَيْيِخُ هُنَا أَحَدُ الْأَغْفَالِ مِنْ سَهَامِ
الْمَيْسِرِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ إِذَا خَرَجَ مِنْ

وتأويل آخر، روي عن المبرد
والأخفش: ولو يرى (بمعنى يعلم)
الذين ظلموا إذ يرون العذاب، أن
القوة لله جميعاً، لاستعظمو ما حل
بهم، فدَبَّرِيَّ عامِل في ﴿أَنَّ﴾
وسدت مسد المفعولين.

وقال أبو علي: الرؤية في هذه الآية
رؤية البصر، والتقدير في قراءة الباءِ
وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ
جَمِيعاً وحذف جواب (لو) للمبالغة،
ويعمل في ﴿أَنَّ﴾ الفعل الظاهر،
وهو أرجح من أن يكون العامل فيها
مقدراً.

ودخلت ﴿إِنَّ﴾ وهي لِمَا مَضَى في
أثناء هذه المستقبلات تقريباً للأمر،
وتصحيحاً لوقوعه، كما يقع الماضي
موقع المستقبل في قوله تعالى:
﴿وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾
﴿أَنَّهُ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ﴾ ومنه قول الأشتر
النخعي:

بَقَيْتُ نَفْسِي وَانْحَرَفْتُ عَنِ الْعُلَا
وَلَقَيْتُ أَصْيَافِي بِوَجْهِ عَبُوسٍ
وَقَرَأْتُ طَائِفَةَ ﴿يَبْرِي﴾ بِالْبَاءِ مِنْ
أَسْفَلِ، وَكَسَرَ الْأَلْفَ مِنْ ﴿إِنَّ﴾،
وذلك إما على حذف الجواب
وابتداء الخبر، وإما على تقدير:
لَقَالُوا: إِنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعاً.

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿يُورُونَ﴾
بضم الباء، والباقون بفتحها. وثبت
بنص هذه الآية القوة لله، بخلاف
قول المعتزلة، في نفيهم معاني
الصفات القديمة.

وقالت طائفة: ﴿الَّذِينَ اتَّبَعُوا﴾ كُلُّ
مَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ، وَقَالَ قَتَادَةُ:
هَمُ الشَّيَاطِينِ الْمُضِلُّونَ، وَقَالَ

للعذاب، وفزعهم منه، واستعظامهم
له، لأقروا أن القوة لله، فالجواب
مضمرة على هذا النحو من المعنى،
وهو العامل في ﴿أَنَّ﴾.

وتقدير آخر: ولو ترى يا محمد
الذين ظلموا في حال رؤيتهم
للعذاب، وفزعهم منه، لعلمت أن
القوة لله جميعاً، وقد كان النبي ﷺ
علم ذلك، ولكن خوطب، والمراد
أمته، فإن فيهم من يحتاج إلى تقوية
علمه بمشاهدة مثل هذا.

وتقدير ثالث: ولو ترى يا محمد
الذين ظلموا في حال رؤيتهم للعذاب
- لأن القوة لله - لعلمت مبلغهم من
النكال، ولاستعظمت ما حل بهم،
فاللام مضمرة قبل (أَنَّ) فهي مفعول
من أجله، والجواب محذوف مقدر
بعد ذلك، وفي حذف جواب (لو)
مبالغة، لأنك تدع السامع يسمو به
تخيله، ولو شرحت له، لو طنت
نفسه إلى ما شرحت.

وقرأ الحسن، وقَتَادَةُ، وشيبة، وأبو
جعفر: ﴿ترى﴾ بالتاء من فوق،
وكسر الهمزة من ﴿إِنَّ﴾، وتأويل
ذلك: ولو ترى الذين ظلموا إذ يرون
العذاب، لاستعظمت ما حل بهم،
ثم ابتداء الخبر بقوله: إن القوة لله.

وتأويل آخر: ولو ترى الذين ظلموا
إذ يرون العذاب يقولون: إن القوة لله
جميعاً لاستعظمت حالهم.

وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو
عمرو، وعاصم، وابن كثير ﴿يَبْرِي﴾
بالياء من أسفل وفتح الألف من
﴿أَنَّ﴾. وتأويله: ولو يرى في الدنيا
الذين ظلموا حالهم في الآخرة، إذ
يرون العذاب، لعلموا أن القوة لله.

في هذا القول أحاديث. وطرائقه، قال ابن عباس: خطواته: وأضيفت هذه الأعمال إليهم من حيث هم مأمورون بها، وأما إضافة الفاسدة فمن حيث عملوها.

﴿حَسْرَتِي﴾ حال على أن تكون الرؤية البصرية، ومفعول على أن تكون قلبية، والحسرة أعلى درجات الندامة والهم بما فات، وهي مشتقة من الشيء الحسير الذي قد انقطع وذهبت قوته كالبعير والبصر، وقيل: من حَسَرَ إذا كَشَفَ، ومنه قول النبي ﷺ: «يحسر القرات

عن جبل من ذهب». ﴿حَسْرَتِي﴾ حال على أن تكون الرؤية البصرية، ومفعول على أن تكون قلبية، والحسرة أعلى درجات الندامة والهم بما فات، وهي مشتقة من الشيء الحسير الذي قد انقطع وذهبت قوته كالبعير والبصر، وقيل: من حَسَرَ إذا كَشَفَ، ومنه قول النبي ﷺ: «يحسر القرات

وإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ مَا نُنَادِيكُم بِهِ أَتَأْمَنُونَ ﴿١٦٨﴾ وَمَنْ يَتَّبِعْ مَا نُنَادِيكُم بِهِ لَآتِيهِمْ مِنْهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٦٩﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا نُنَادِيكُم بِهِ لَآتِيهِمْ مِنْهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا نُنَادِيكُم بِهِ لَآتِيهِمْ مِنْهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧١﴾

٢٦

الربابة رد لفوره لأنه لا فرض فيه، ولا حكم عنه.

والكاف من قوله: ﴿كَمَا﴾ في موضع نصب على النعت، إما لمصدر أو لحال تقديرها: متبرئين كما، والكاف من قوله: ﴿كَذَلِكَ يُرِيهِمْ﴾، قيل: هي في موضع رفع على خبر ابتداء تقديره: الأمر كذلك، وقيل: هي كاف تشبيه مجردة، والإشارة إلى حالهم وقت تمنيعهم الكرة.

والرؤية في الآية هي من رؤية البصر، ويحتمل أن تكون من رؤية القلب.

﴿أَعْتَلَهُمْ﴾ قال الربيع، وابن زيد: المعنى: الفاسدة التي ارتكبوها فوجبت لهم بها النار، وقال ابن مسعود، والسدي: المعنى: الصالحة التي تركوها ففانتهت الجنة، ورويت

وقرأ ابن عامر، والكسائي: ﴿حُطُوتٍ﴾ بضم الخاء والطاء، ورويت عن عاصم، وابن كثير بخلاف، وقرأ الباقون بسكون الطاء، فإمّا أرادوا ضم الطاء وخففوها إذ هو الباب في جمع فُعْلَةٌ كَعُرْفَةٌ وَعُرْفَاتُ، وإما أنهم تركوها في الجمع على سكونها في المفرد. وقرأ أبو السمال: ﴿حُطُوتٍ﴾ بفتح الخاء والطاء. وروي عن علي بن أبي طالب، وقتادة، والأعمش، وسلام: ﴿حُطُوتٍ﴾ بضم الخاء والطاء وهمزة على الواو، وذهبوا بهذه القراءة إلى أنها جمع خطأ من الخطأ لا من الخطو.

وكل ما عدا السنن والشرايع من البدع والمعاصي فهي خطوات الشيطان.

﴿عَدُوٌّ﴾ يقع للمفرد والتثنية والجمع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِرُكُمْ﴾ الآية، ﴿إِنَّمَا﴾ تصلح للحصر، وقد تجيء غير حاصرة بل للمبالغة، كقولك: إنما الشجاع عنترة. كأنك تحاول الحصر أو توهمه، فإنما يعرف معنى ﴿إِنَّمَا﴾ بقرينة الكلام الذي هي فيه، فهي في هذه الآية حاصرة. وأمر الشيطان إما بقوله في زمن الكهنة

﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي.

﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي. ﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي. ﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي.

﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي. ﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي. ﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي.

﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي. ﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي. ﴿حَسْرَتِي﴾ بضم الحاء وسكون السين، والمعنى: حسرتي.

وحيث يُتَّصَرُفُ وإما بوسوسته، فإذا أُطِيعَ نَفَذَ أَمْرَهُ.

والسوءُ: مصدر من ساءَ يسوءُ، وهي المعاصي وما تسوءُ عاقبته، ﴿وَالْفَحْشَاءُ﴾ قال السدي: هي الزنا، وقيل: كل ما بلغ حداً من الحدود، لأنه يتفاحش حينئذ، وقيل: هي ما تفاحش ذكره، وأصل الفحش قبح المنظر كما قال امرؤ القيس:

وَجِيْدٌ كَجِيْدِ الرَّثْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نَضُّنَتْهُ وَلَا يَمُتَّطِلُ ثُمَّ اسْتَعْمَلَتِ اللَّفْظَةَ فِيمَا يَسْتَقْبِحُ مِنَ الْمَعَانِي. والشرع هو الذي يُخَسَّنُ وَيُقْبِحُ، فكلُّ ما نهت عنه الشريعة فهو من الفحشاء.

﴿وَمَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ قال الطبري: يريد به ما حرّموا من البحيرة والسائبة ونحوها وجعلوه شرعاً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا يَدَّ يَدَهُمْ﴾، يعني كفار العرب، وقال ابن عباس: نزلت في اليهود، وقال الطبري: الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائذ على ﴿النَّاسِ﴾ من قوله: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ كُفُولًا﴾، وقيل: هو عائذ على ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا﴾.

﴿وَأُتْبِعُوا﴾ معناه بالعمل والقبول. ﴿وَمَا أَرْزَلَهُ اللَّهُ﴾ هو القرآن والشرع. ﴿وَالنَّبَاتَا﴾ معناه وجدنا، قال الشاعر: عبدالله

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَعْتَبٍ وَلَا ذَا كِبَرٍ اللَّهُ إِلَّا قَلِيلًا وَالْأَلْفُ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَوَلَوْ﴾ للاستفهام، والواو لعطف جملة كلام على جملة، لأن غاية الفساد الالتزام أن يقولوا: نتبع آباءنا ولو كانوا لا

يعقلون، ففَرَرُوا على التزامهم هذا، إذ هذه حال آبائهم.

وقوة ألفاظ هذه الآية تعطي إبطال التقليد، وأجمعت الأمة على إبطاله في العقائد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، المراد تشبيه واعظ الكافرين وداعيتهم، والكافرين الموعوظين - بالراعي الذي ينطق بالغنم أو الإبل فلا تسمع إلا دعاءه ونداءه ولا تفقه ما يقول، هكذا فرس ابن عباس، وعكرمة، والسدي، وسيبويه، فذكر تعالى بعض هذه الجملة وبعض هذه، ودل المذكور على المحذوف، وهذه نهاية الإيجاز.

والنعيق: زجر الغنم والصباح بها، قال الأخطل:

انْعَقُ بِضَائِكَ يَا جَرِيرٍ فَإِنَّمَا مَثَلُكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا وَقَالَ قَوْمٌ: إِنَّمَا وَقَعَ التَّشْبِيهُ بِرَاعِي الضَّأْنِ لِأَنَّهَا مِنْ أَبْلَدِ الْحَيَوَانِ، فِيهِ تَحْمَقُ رَاعِيهَا، وَفِي الْمَثَلِ: «أَحْمَقُ مِنْ رَاعِي ضَّأْنِ ثَمَانِينَ».

وقد قال دُرَيْدٌ لِمَالِكِ بْنِ عَوْفٍ فِي يَوْمِ هَوَازِنَ: «رَاعِي ضَّأْنِ وَاللَّهِ»، وقال الشاعر:

أَضْبَحْتَ هُرَّةً لِرَاعِي الضَّأْنِ يَهْرَأُ بِي مَاذَا يَرِيْبُكَ مِنِّي رَاعِي الضَّأْنِ؟ فمعنى الآية أن هؤلاء الكفرة يمر الدعاء على آذانهم صفحاً يسمعونه ولا يفقهونه، إذ لا يتفهمون بفقهه.

وقال ابن زيد: المعنى في الآية: ومثل الذين كفروا في اتباعهم آلهتهم وعبادتهم إياها، كمثل الذي ينطق بما لا يسمع منه شيئاً، إلا دويماً غير

مفيد، يعني بذلك الصدى الذي يستجيب من الجبال.

وجه الطبري في الآية معنى آخر وهو أن المراد: ومثل الكافرين في عبادتهم آلهتهم، كمثل الذي ينطق بشيء بعيد منه، فهو لا يسمع من أجل البعد، فليس للناعق من ذلك إلا النداء الذي يتبعه ويُنصَبه، فإنما شبه في هذين التأويلين الكفار بالناعق، والأصنام بالمنعوق به، وشبهوا في الصمم والبكم والعمى بمن لا حسة له، لما لم ينتفعوا بحواسهم، ولا صرفوها في إدراك ما ينبغي، ومنه قول الشاعر:

أَصْمٌ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعٌ
ولما تقرر فقدم لهذه الحواس قضي بأنهم لا يعقلون، إذ العقل - كما قال أبو المعالي وغيره - علومٌ ضرورية تعطئها هذه الحواس، إذ لا بد في كسبها من الحواس. وتأمل.

﴿١٧٢﴾ - ﴿١٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

الطَّيِّبُ هُنَا يَجْمَعُ الْحَلَالَ وَالْمُسْتَلَذَ، وَالآيَةُ تُشِيرُ بِتَبْعِيضِ ﴿وَمِنَ﴾ إِلَى أَنَّ الْحَرَامَ رَزَقَ. وَحُضُّ تَعَالَى عَلَى الشُّكْرِ، وَالْمَعْنَى فِي كُلِّ حَالَةٍ، ﴿وَمِنَ﴾ شَرْطٌ، وَالْمُرَادُ بِهَذَا الشَّرْطِ التَّشْبِيهُ وَهَزُّ النَّفْسِ، كَمَا تَقُولُ: أَفْعَلُ كَذَا إِنْ كُنْتُ رَجُلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ﴾، ﴿إِنَّمَا﴾ هُنَا حَاصِرَةٌ، ﴿وَالْمَيْتَةَ﴾ نَصَبٌ بِ﴿حَرَّمَ﴾، وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرِ بْنِ الْقَعْقَاعِ ﴿وَالْمَيْتَةَ﴾ بِالتَّشْدِيدِ. قَالَ الطَّبْرِيُّ، وَجَمَاعَةٌ مِنَ اللُّغَوِيِّينَ: التَّشْدِيدُ وَالتَّخْفِيفُ مِنَ

مَيّت وميّت لغتان. وقال أبو حاتم، وغيره: ما قد مات فيقالان فيه، وما لم يمت فلا يقال فيه مَيّت بالتخفيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا هو استعمال العرب، ويشهد بذلك قول الشاعر:

لَيْسَ مَنْ مَاتَ فَاسْتَرَاخَ بِمَيِّتٍ
إِنَّمَا الْمَيِّتُ مَيِّتٌ الْأَخْيَاءِ

استراح: من الراحة، وقيل: من الراحة. ولم يقرأ أحد بتخفيف ما لم يمت، إلا ما روى البيهقي عن ابن كثير ﴿وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾ والمشهور عنه التثقل، وأما قول الشاعر:

إِذَا مَا مَاتَ مَيِّتٌ مِنْ تَمِيمٍ
فَسَرَّكَ أَنْ يَمِيشَ فَجِيءَ بِزَادٍ
فالأبلغ في الهجاء أن يريد الميِّت حقيقة، وقد ذهب بعض الناس إلى أنه أراد من شارف الموت، والأول أشهر. وقرأ قوم: ﴿المَيِّتَةُ﴾ بالرفع على أن تكون ﴿وَمَا﴾ بمعنى الذي و﴿إِنَّ﴾ عاملة.

وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي: ﴿حُرْمٌ﴾ - على ما لم يُسَمَّ فاعله، ورفع ما ذكر تحريمه، فإن كانت ﴿وَمَا﴾ كافة فالميِّتة مفعول لم يسم فاعله، وإن كانت بمعنى الذي فالميِّتة خير.

ولفظ الميِّتة عموم، والمعنى مخصص لأن الحوت والجراد لم يدخل قط في هذا العموم. والميِّتة: ما مات دون ذكاة مما له نفس سائلة، والطاغي من الحوت، جَوْزُهُ مالك وغيره، ومنعه العراقيون. وفي الميِّت دون تسيب من الجراد خلاف - منعه مالك، وجمهور أصحابه.

وجوزه ابن نافع، وابن عبدالحكم. وقال ابن وهب: إن ضم في غرائر فضمه ذكاته. وقال ابن القاسم: لا - حتى يُصنع به شيء يموت منه كقطع الرؤوس والأجنحة والأرجل، أو الطرح في الماء، وقال سحنون: لا يطرح في ماء بارد، وقد أشهب: إن مات مِنْ قَطْعِ رِجْلِ أَوْ جَنَاحٍ لَمْ يُوَكَّلْ لِأَنَّهَا حَالَةٌ قَدْ يَعِيشُ بِهَا وَيَسْلُ.

﴿وَالَّذِينَ﴾ يراد به المسفوح، لأن ما خالط اللحم فغير محرم بإجماع. وفي دم الحوت المزابل للحوت اختلاف روي عن القاسمي أنه طاهر، ويلزم عن طهارته أنه غير محرم.

وخص ذكر اللحم من الخنزير ليدل على تحريم عينه ذُكِّيَ أَوْ لَمْ يُذْكَ، وليعم الشحم وما هنالك من الغضاريف وغيرها، وأجمعت الأمة على تحريم شحمه.

وفي خنزير الماء كراهية - أبي مالك أن يجب فيه، وقال: أنتم تقولون: خنزيراً. وذهب أكثر اللغويين إلى أن لفظة الخنزير رباعية، وحكى ابن سيده عن بعضهم أنه مشتق من خزر العين لأنه كذلك ينظر، فاللفظة على هذا ثلاثية.

﴿وَمَا أَهْلٌ بِهِ لَبِئْسَ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس، وغيره: المراد ما ذبح للأتصاب والأوثان، و﴿أَهْلٌ﴾ معناه: صيخ، ومنه استهلال المولود، وجرت عادة العرب بالصياح باسم المقصود بالذبيحة، وغلب ذلك في استعمالهم حتى عُبر به عن النية التي هي علة التحريم - ألا ترى أن عَلِيَّ بن أَبِي طالب

رضي الله عنه راعى النية في الإبل التي نحرها غالب أبو الفرزدق، فقال: إنها مما أهل به لغير الله، فتركها الناس ورأيت في أخبار الحسن بن أبي الحسن أنه سُئِلَ عن امرأة مترفة صنعت لِبُعَيْهَا عرساً، فذبحت جزوراً، فقال الحسن: لا يحل أكلها، فإنها إنما ذبحت لصنم. وفي ذبيحة المجوسي اختلاف، ومالك لا يجيزها البتة. وذبيحة النصراني واليهودي جائزة. واختلف فيما حرم عليهم كالطريفة والشحم وغيره بالإجازة والمنع. وقال ابن حبيب: ما حُرِّمَ عليهم بالكتاب فلا يحل لنا من ذبحهم، وما حرموه باجتهادهم فذلك لنا حلال. وعند مالك كراهية فيما سمي عليه الكتابي المسيح أو ذبحه لكنيسته، ولا بلغ بذلك التحريم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ الآية - ضمنت النون للالتقاء إبتاعاً للضمة في الطاء حسب قراءة الجمهور، وقرأ أبو جعفر، وأبو السمال: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ بكسر الطاء، وأصله (اضْطَرَّر) فلما أدغم نقلت حركة الراء إلى الطاء. وقرأ ابن محيصن: ﴿فَمَنْ اضْطُرَّ﴾ بإدغام الضاد في الطاء، وكلك حيثما وقع في القرآن.

ومعنى اضطر: ضَمَّهُ عُدْمَ وَعَزَّتْ، هذا هو الصحيح الذي عليه جمهور العلماء والفقهاء. وقيل: معناه أكرهه وغلب على أكل هذه المحرمات.

و﴿غَيْرَ بَيَّاعٍ﴾ في موضع نصب على الحال، والمعنى فيما قال قتادة، والربيع، وابن زيد، وعكرمة وغيرهم: غير قاصد فساد وتعد، بأن

ذكاة بوجه، وإنما الرخصة فيما تصح الذكاة في نوعه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ الآية قال ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسدي: المراد أحبار اليهود، الذين كتموا أمر محمد ﷺ، و﴿الْكِتَابُ﴾: التوراة والإنجيل، والضمير في (به) عائد على الكتاب، ويحتمل أن يعود على (ما) وهو جزء من الكتاب فيه أمر محمد ﷺ، وفيه وقع الكتم لا في جميع الكتاب، ويحتمل أن يعود على الكتمان.

يجد عن هذه المحرمات مندوحة وبأكلها، وهؤلاء يجيزون الأكل منها في كل سفر مع الضرورة، وقال مجاهد، وابن جبير، وغيرهما: المعنى غير باغ على المسلمين وعاد عليهم، فيدخل في الباغي والمعادي قطاع السبل، والخارج على السلطان، والمسافر في قطع الرحم والغارة على المسلمين وما شاكله، ولغير هؤلاء هي الرخصة. وقال السدي: ﴿غَيْرِ بَاغٍ﴾ أي غير متزيد على حد إمساك رمقه، وإيقاف قوته، فيجزيء أكله شهوة - ﴿وَلَا عَادٍ﴾ أي متزود.

وقال مالك رحمه الله: يأكل المضطر شعبه، وفي الموطأ - وهو لكثير من العلماء - أنه يتزود إذا خشي الضرورة فيما بين يديه من مفازة وقفر.

وعادٍ معناه: عائد، فهو من المقلوب كشاكي السلاح، أصله شائك، وكهار أصله هائر، وكلاث أصله لاثث.

وباغٍ أصله باغي، استثقلت الكسرة على الباء فسكنت، والتنوين ساكن، فحذفت الياء، والكسرة تدل عليها، ورفع الله الإثم لما أحل الميتة للمضطر - لأن التحريم في الحقيقة متعلقه التصرف بالأكل، لا عين المحرم، ويطلق التحريم على العين تجزؤاً.

ومنع قوم التزود من الميتة وقالوا: لما استقلت قوة الأكل صار كمن لم تصبه ضرورة قبل.

ومن العلماء من يرى أن الميتة من بني آدم والخنزير لا تكون فيها رخصة اضطرار لأنهما لا تصح فيهما

والثمن القليل: الدنيا والمكاسب، ووصف بالقللة لانقضائه ونفاده، وهذه الآية - وإن كانت نزلت في الأحبار - فإنها تتناول من علماء المسلمين من كتم الحق مختاراً لذلك لسبب دنيا يصيها.

وذكرت البطون في أكلهم المؤدي إلى النار، دلالة على حقيقة الأكل، إذ قد يستعمل مجازاً في مثل: أكل فلان أرضي ونحوه، وفي ذكر البطن أيضاً تنبيه على مذمتهم، لأنهم باعوا آخرتهم بحظهم من المطعم، الذي لا خطر له، وعلى هجنتهم بطاعة بطونهم. وقال الربيع، وغيره: سمي مأكولهم ناراً لأنه يؤول بهم إلى النار، وقيل: معنى الآية: إن الله تعالى يعاقبهم على كتمانهم بأكل النار في جهنم حقيقة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمْ﴾،

﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قِيلَ الْمَشْرِيقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالرِّسَالِ وَءَامَنَ عَلَىٰ خُلُوفِهِ مَدْرِي الشَّرَفِ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ وَالسَّالِفِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَءَاتَىٰ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْتُونَ بِمَهْدِهِمْ إِذْ عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿١٧٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْقُرْبَىٰ وَالْحُرِّ وَالْعَبْدِ وَالْمَيْدَىٰ وَالْأَنْثَىٰ بِالْأُنثَىٰ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَابْتِغَاءً بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءً إِلَيْهِ بِإِحْسَنٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ مِّنْ عِنْدِي بَعْدَ ذَلِكَ فَالْهُدَىٰ عَدَابُ الْبَرِّ ﴿١٧٦﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حُكْمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةَ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧٨﴾ فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧٩﴾

قيل: هي عبارة عن الغضب عليهم، وإزالة الرضى عنهم، إذ في غير موضع من القرآن ما ظاهره أن الله تعالى يكلم الكافرين كقوله: ﴿أَفَشَرُّا فِيهَا وَلَا تَكْفُرُونَ﴾ ونحوه، فتكون هذه الآية بمنزلة قولك: فلان لا يكلمه السلطان، ولا يلتفت إليه، وأنت إنما تعبر عن انحطاط منزلته لديه. وقال الطبري وغيره: المعنى: ولا يكلمهم بما يحبون، وقيل: المعنى: لا يرسل إليهم الملائكة بالتحية.

﴿وَلَا يُرَكِّبُهُمْ﴾ معناه: ولا يطهرهم من موجبات العذاب، وقيل: المعنى لا يسميهم أركياء. و﴿الْبِرِّ﴾ اسم فاعل بمعنى مؤلم.

﴿١٧٦﴾ - ﴿١٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل: لَمَّا تَرَكَوا الْهَدَىٰ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ وَلَا زَمُوا الضَّلَالَةَ وَتَكْسَبُوهَا - مع أن

الإسلام وأهله. و﴿يَبْرُ﴾ هنا معناه: من الحق والاستقامة.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِالرَّاءِ، وقرأ أكثر السبعة برفع الراء، والبر اسم ليس، قال أبو علي: ليس بمنزلة الفعل فالوجه أن يليها الفاعل ثم المفعول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: مذهب أبي علي أن (ليس) حرف، والصواب الذي عليه الجمهور أنها فعل. وقرأ حمزة، وعاصم في رواية حفص: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ﴾ بنصب الراء، وجعل ﴿أَنْ تُولُوا﴾ بمنزلة المضمر، إذ لا يوصف كما لا يوصف المضمر، والمضمر أولى أن يكون اسماً يخبر عنه.

وفي مصحف أبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود: ﴿لَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تُولُوا﴾، وقال الأعمش: إن في مصحف عبدالله: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الْبِرُّ﴾.

وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: الخطاب بهذه الآية للمؤمنين، فالمعنى: ليس البر الصلاة وحدها، وقال قتادة، والربيع: الخطاب لليهود والنصارى، لأنهم اختلفوا في التوجه والتولي، فاليهود إلى بيت المقدس، والنصارى إلى مطلع الشمس، وتكلموا في تحويل القبلة، وفضلت كل فرقة توليها، فقيل لهم: ليس البر ما أنتم فيه، ولكن البر من آمن بالله. قرأ قوم: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ بشد النون ونصب البر. وقرأ الجمهور ﴿وَلَكِنَّ الْبِرُّ﴾ والتقدير: ولكن البرُّ برُّ مَنْ. وقيل: التقدير: ولكن ذو البر مَنْ،

الضبط عند المبرد بضم الهمزة وكسر الباء، ورُدُّ عليه في ذلك، فإنه لا يُعرف في اللغة أصْبِرَ بمعنى صبر، وإنما البيت أصْبِرْهَا بفتح الهمزة وضم الباء، ماضيه صبر، ومنه المصبورة، وإنما يرد قول أبي العباس على معنى: أ جعلها ذات صبر.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ﴾ الآية، المعنى: ذلك الأمر، أو الأمر ذلك، بأن الله نزل الكتاب بالحق، فكفروا به، والإشارة على هذا إلى وجوب النار لهم، ويحتمل أن يقدر: فعلنا ذلك، ويحتمل أن يقدر: وجب ذلك، ويكون ﴿الْكِتَابُ﴾ جملة القرآن على هذه التقديرات. وقيل: إن الإشارة بالكتاب إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ﴾ الآية، أي: وجبت لهم النار بما قد نزله الله في الكتاب من الخبر به، والإشارة ب﴿ذَلِكَ﴾ - على هذا - إلى اشتراطهم الضلالة بالهدى، أي ذلك بما سبق لهم في علم الله وورد إخباره به. و﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بالواجب، ويحتمل أن يراد بالأخبار الحق أي الصادقة، والذين اختلفوا في الكتاب - قال السدي: هم اليهود والنصارى، لأن هؤلاء في شق. وهؤلاء في شق، ويظهر أن الشقاق سميت به المشادة والمقاتلة ونحوه، لأن كل واحد يشق الوصل الذي بينه وبين مُشاقه. وقيل: إن المراد بالذين اختلفوا كفار العرب، لقول بعضهم: هو سحر، وبعضهم: هو أساطير، وبعضهم: هو مفتري، إلى غير ذلك - وشقاق هذه الطوائف إنما هو مع

الهدى ممكن لهم ميسر - كان ذلك كبيع وشراء، وقد تقدم إيعاب هذا المعنى. ولما كان العذاب تابعاً للضلالة التي اشتروها، وكانت المغفرة تابعة للهدى الذي اطرحوه أدخلوا في تجوز الشراء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ قال جمهور المفسرين: ﴿ما﴾ تعجب، وهو في حيز المخاطبين، أي هم أهل أن تعجبوا منهم ومما يطول مكثهم في النار. وفي التنزيل: ﴿قُلِ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُوا﴾ و﴿أَنجِ يَوْمَ نَأْتِيهِمُ﴾ وبهذا المعنى صدر أبو علي، وقال قتادة، والحسن، وابن جبير، والربيع: أظهر التعجب من صبرهم على النار لما عملوا عمل من وطن نفسه عليها. وتقديره: ما أجرأهم على النار إذ يعملون عملاً يؤدي إليها. وقيل: (ما) استفهام معناه: أي شيء صبرهم على النار؟ ذهب إلى ذلك معمر بن المثنى، والأول أظهر.

ومعنى ﴿أَصْبَرَهُمْ﴾ في اللغة: أمرهم بالصبر، ومعناه أيضاً: جعلهم ذوي صبر، وكلا المعنيين متجه في الآية على القول بالاستفهام. وذهب المبرد في باب التعجب من «المقتضب» إلى أن هذه الآية تقرير واستفهام لا تعجب، وأن لفظة ﴿أَصْبِرَ﴾ بمعنى اضطر وجس، كما تقول: أصبرت زيدا على القتل، ومنه نَهَى النبي ﷺ أن تصبر البهائم، قال ومثله قول الشاعر:

قُلْتُ لَهَا أَصْبِرْهَا ذَائِباً
أَمْثَالُ بَسْطَامِ بْنِ قَيْسِ قَلِيلِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقيل: البر بمنزلة اسم فاعل تقديره ولكن البارز من، والمصدر إذا نُزِل منزلة اسم الفاعل فهو ولا بد محمول على حذف مضاف كقولك: رجل عدل ورضى.

والإيمان: التصديق. أي صدق بالله تعالى، وبهذه الأمور كلها حسب مخبرات الشرائع.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَىٰ أَمْوَالٌ عَلَىٰ حَبِيبٍ﴾ الآية، هذه كلها حقوق في المال سوى الزكاة، وبها كمال البر. وقيل: هي الزكاة. و﴿وَمَا آتَىٰ﴾ معناه: أعطى، والضمير في ﴿حَبِيبٍ﴾ عائد على المال، فالمصدر مضاف إلى المفعول، ويجيء قوله: ﴿عَلَىٰ حَبِيبٍ﴾ اعتراضاً بليغاً أثناء القول. ويحتمل أن يعود الضمير على الإتياء، أي في وقت حاجة من الناس وفاقة، فإتياء المال حبيب إليهم، ويحتمل أن يعود على اسم الله تعالى من قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾، أي من تصدق محبة في الله تعالى وطاقته، ويحتمل أن يعود على الضمير المستكن في ﴿وَمَا آتَىٰ﴾، أي: على حبه المال، فالمصدر مضاف إلى الفاعل.

والمعنى المقصود أن يتصدق المرء في هذه الوجوه وهو شحيح صحيح يخشى الفقر ويأمل الغنى، كما قال ﷺ، والشح في هذا الحديث هو الغريزي الذي في قوله تعالى: ﴿وَأَخْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ﴾. وليس المعنى أن يكون المتصدق متصفاً بالشح الذي هو البخل.

و﴿ذَوِي الْقُرْبَىٰ﴾ يراد به قرابة النسب. واليتم في الآدميين من قبل الأب قبل البلوغ. وقال مجاهد،

وغيره: ابن السبيل المسافر لملازمته السبيل، وهذا كما يقال: ابن ماء للطائر الملازم للماء، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ ابْنُ زَنَاءٍ﴾ أي: الملازم له، وقيل: لما كانت السبيل تُبرزه، شُبّه ذلك بالولادة، فنسب إليها. وقال قتادة: ابن السبيل: الضيف.

﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾ يراد به العتق وفك الأسرى وإعطاء أواخر الكتابات - ﴿وَأَقَامَ الصَّلَاةَ﴾ أتمها بشروطها. وذكر الزكاة هنا دليل على أن ما تقدم ليس بالزكاة المفروضة، ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾ عطف على ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ﴾، ويحتمل أن يُقَدَّر: وَهُمْ الْمُؤْتُونَ.

﴿وَالْقَابِلِينَ﴾ نصب على المدح، أو على إضمار فعل، وهذا مهيب في تكرار النعوت. وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَالْمُؤْتِينَ﴾ على المدح، أو على قطع النعوت. وقرأ يعقوب، والأعمش، والحسن: ﴿وَالْمُؤْتُونَ وَالصَّابِرُونَ﴾. وقرأ الجحدري: ﴿بِعَفْوِهِمْ﴾.

و﴿الْبَائِسَاءَ﴾ الفقر والفاقة، ﴿وَالضَّرَبَاءَ﴾ المرض ومصائب البدن، ﴿وَوَجِينَ الْأَيْسَاءِ﴾ وقت شدة القتال، هذا قول المفسرين في الألفاظ الثلاثة، وتقول العرب: بتس الرجل إذا افتقر، ويؤس إذا شجع.

ثم وصف تعالى أهل هذه الأفعال البرّة بالصدق في أمورهم. أي: هم عند الظن بهم، والرجاء فيهم، كما تقول: صدقني المال، وصدقني الرمح، ومنه: عود صدق، وتحتمل اللفظة أيضاً صدق الأخبار،

ورصفهم الله تعالى بالشقى، والمعنى: هم الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية من العمل الصالح.

﴿١٧٨﴾ - ﴿١٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿كَيْبٌ﴾ معناه: فُرض وأُثبت، والكُتِبُ مستعمل في الأمور المخدلات الدائمة كثيراً. وقيل: إن ﴿كَيْبٌ﴾ في مثل هذا إخبار عما كُتِبَ في اللوح المحفوظ وسبق به القضاء.

وصورة فَرَضِ القصاص هو أن القاتل فُرض عليه - إذا أراد الولي القتل - الاستسلام لأمر الله، والانتقياد لقصاصه المشروع، وأن الولي فُرض عليه الوقوف عند قتل قاتل وليه، وترك التعدي على غيره كما كانت العرب تتعدى، وتقتل بقتيلها الرجل من قوم قاتله. وأن الحكام وأولي الأمر فُرض عليهم النهوض بالقصاص، وإقامة الحدود، وليس القصاص بِلزام - إنما اللزام ألا يتجاوز القصاص إلى اعتداء، فأما إذا وقع الرضى، بدون القصاص، من دية أو عفو، فذلك مباح. فالآية مُعَلِّمة أن القصاص هو الغاية عند الشحاح.

و﴿الْقِصَاصُ﴾ مأخوذ من قص الأثر، فكأن القاتل سلك طريقاً من القتل فقص أثره فيها، ومشى على سبيله في ذلك.

و﴿الْقَتْلُ﴾ جمع قتيل، لفظ يؤنث تأنيث الجماعة، وهو مما يدخل على الناس كرهاً، فلذلك جاء على هذا البناء، كَجَزَخَى وَزَمَنَى وَحَمَقَى وَصَرَعَ وَغَزَقَى.

واختلف في سبب هذه الآية - فقال الشعبي: إن العرب كان أهل العزة منهم والمنعة، إذا قُتِلَ منهم عبدٌ قتلوا به حراً، وإذا قُتِلَت امرأةٌ قتلوا بها ذكراً، فنزلت الآية بذلك، ليعلم الله تعالى بالسوية، ويذهب أمر الجاهلية.

وحُكي أن قوماً من العرب تقاتلوا قتال عُمية، ثم قال بعضهم: نقلت بعيدنا أحراراً فنزلت الآية.

وقيل: نزلت بسبب قتال وقع بين قبيلتين من الأنصار، وقيل: من غيرهم، فقتل هؤلاء من هؤلاء رجلاً، وعبيداً ونساء، فأمر رسول الله ﷺ أن يُصْلَحَ بينهم، ويقاصهم بعضهم ببعض بالديات على استواء: الأحرار بالأحرار، والنساء بالنساء والعبيد بالعبيد.

وروي عن ابن عباس أن الآية نزلت مقتضية ألا يُقتل الرجل بالمرأة، ولا المرأة بالرجل، ولا يدخل صنف على صنف، ثم نسخت بآية المائدة ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا رُوِيَ، وآية المائدة إنما هي إخبار عما كتب على بني إسرائيل، فلا يترتب النسخ إلا بما تُلقَى عن رسول الله ﷺ، من أن حكمنا في شرعنا مثل حكمهم.

وروي عن ابن عباس فيما ذكر أبو عبيد - وعن غيره: أن هذه الآية محكمة، وفيها إجمالٌ فسوته آية المائدة، وأن قوله هنا: ﴿أَلْفَرُّ بِالْحَرِّ﴾ يعم الرجال والنساء، وقاله مجاهد.

وقال مالك رحمه الله: أحسن ما

سمعت في هذه الآية أنه يراد بها الجنس، الذكر والأنثى فيه سواء، وأعيد ذِكْرُ الأنثى تأكيداً وتهمناً بإذهاب أمر الجاهلية.

وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعن الحسن بن أبي الحسن: أن الآية نزلت مُبَيَّنَّةً حكم المذكورين، ليدل ذلك على الفرق بينهم وبين أن يُقتل حرٌّ عبداً، أو عبدٌ حراً، أو ذَكَرُ أنثى، أو أنثى ذكراً، وقالوا: إنه إذا قتل رجل امرأة، فإن أراد أولياؤها قتلوا أصحابهم، ووفوا أولياءه نصف الدية منه، وإن أرادوا استخيوه وأخذوا منه دية المرأة. وإذا قتلت المرأة رجلاً فإن أراد أولياؤه قتلوا وأخذوا نصف الدية، وإلا أخذوا دية صاحبهم واستخيوها. وإذا قتل الحر العبد فإن أراد سيد العبد قتل، وأعطى دية الحر، إلا قيمة العبد، وإن شاء استحيا وأخذ قيمة العبد - هذا مذكور عن علي رضي الله عنه، وعن الحسن، وقد أنكر ذلك عنهما أيضاً.

وأجمعت الأمة على قتل الرجل بالمرأة، والمرأة بالرجل، والجمهور لا يرون الرجوع بشيء، وفرقة ترى الأثباع بفضل الديات. قال مالك والشافعي: وكذلك القصاص بينهما فيما دون النفس. وقال أبو حنيفة: لا قصاص بينهما فيما دون النفس، وإنما هو في النفس بالنفس. وقال النخعي، وقتادة، وسعيد بن المسيب، والشعبي، والثوري، وأبو حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأبو

يوسف: يقتل الحر بالعبد. وقال مالك رحمه الله، وجمهور من العلماء: لا يقتل الحر بالعبد، ودليلهم إجماع الأمة على أن العبد لا يقاوم الحر فيما دون النفس، فالنفس مقيسة على ذلك. وأيضاً فالإجماع فيمن قتل عبداً خطأ أنه ليس عليه إلا القيمة، فكما لم يشبهه الحر في الخطأ، لم يشبهه في العمد. وأيضاً فإن العبد سلعة من السلع يباع ويشتري. وإذا قتل الرجل ابنه فإن قصد إلى قتله مثل أن يضجعه ويذبحه أو يصبره مما لا عذر فيه، ولا شبهة في ادعاء الخطأ، فإنه يقتل به قولاً واحداً في مذهب مالك. وإن قتله على حد ما يرمى أو يضرب فيقتله، ففيه في المذهب قولان: يقتل به، ولا يقتل وتغلظ الدية.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُتِيَ لِمَنْ مِنْ أَخِيهِ شَيْئاً﴾ فيه أربع تأويلات.

أحدها: أن ﴿فَمَنْ﴾ يراد بها القاتل، و﴿عُتِيَ﴾ يتضمن عاقباً هو ولي الدم، و(الأخ) هو المقتول. ويصح أن يكون هو الولي على هذا التأويل، وهي أخوة الإسلام، و﴿شَيْئاً﴾ هو الدم الذي يُعفى عنه، ويرجع إلى أخذ الدية، هذا قول ابن عباس وجماعة من العلماء، والعفو على هذا القول في بابه. والضميران راجعان على ﴿مَنْ﴾ في كل تأويل.

والتأويل الثاني: - وهو قول مالك - أن ﴿فَمَنْ﴾ يراد بها الولي، و﴿عُتِيَ﴾ بمعنى يُسَرُّ، لا على بابها في العفو،

وعكرمة، والسدي وغيرهم: عذابه أن يقتل البتة، ولا يُمكن الحاكم الولي من العفو، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «نقسم ألا يعفى عن رجل عفا عن الدم، وأخذ الدية ثم عدا فقتل» وقال الحسن: عذابه أن يرد الدية فقط، ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة. وقال عمر بن عبدالعزيز: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيْرَةٌ﴾ نحوه قول العرب في مثل: «القتل أوقى للقتل»، ويروى: أبقى بساءٍ وقافٍ، ويروى: أنفى بنون وفاءٍ. والمعنى أن القصاص إذا أقيم وتحقق الحكم به ازدجر من يريد قتل أحد مخالفة أن يقتص منه فحياً بذلك معاً. وهذا الترتيب مما سبق لهما في الأزل. وأيضاً فكانت العرب - إذا قتل الرجل الآخر - حمي قبيلتهما وتقاتلتا، وكان ذلك داعية إلى موت العدد الكثير، فلما شرع الله القصاص قنع الكل به، ووقف عنده، وتركوا الاقتتال، فلهم في ذلك حياة.

وخص أولي الأبواب بالذكر، تبيهاً عليهم، لأنهم العارفون القابلون للأوامر والنواهي، وغيرهم تبع لهم.

﴿تَتَّبَعُونَ﴾ معناه: القتل فتسلمون من القصاص، ثم يكون ذلك داعية لأنواع التقوى في غير ذلك فإن الله تعالى يُثيب على الطاعة بالطاعة. وقرأ أبو الجوزاء أوس بن عبدالله الربيعي: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ﴾ أي

﴿عَفْوٌ﴾ لا يتعدى الماضي الذي بُنيت منه - من حيث يقدر ﴿شَوْءٌ﴾ تقدير المصدر، كأن الكلام: عفي له من أخيه عفو، و﴿شَوْءٌ﴾ اسم عام لهذا وغيره - أو من حيث تقدر عفي بمعنى ترك، فتعمل عملها، والأول أجود، وله نظائر في كتاب الله منها قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُؤُنَّ سِئْتًا﴾ قال الأخفش: التقدير لا تضرونه ضرراً، ومن ذلك قول أبي خراش:

فَعَارِيَتْ سِئْتًا وَالدَّرِيْسُ كَأَمَّا
يُزْعِزْغُهُ وَرَدَّ مِنْ السُّومِ مُرْدَمٌ
وقوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ رفع على خير ابتداء مضمرة تقديره: فالواجب والحكم اتباع، وهذا سبيل الواجبات كقوله تعالى: ﴿فَأَسْبَاكُ بِمَقْرُوبٍ﴾ وأما المندوب إليه فيأتي منصوباً كقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّ الرِّقَابُ﴾، وهذه الآية حُضُّ من الله تعالى على حسن الاقتضاء من الطالب، وحسن القضاء من المؤدي، وقرأ ابن أبي عجلة ﴿فَاتَّبَعُوا﴾ بالنصب.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَحْفِيَّتُ بَيْنَ رَيْبِكُمْ﴾، إشارة إلى ما شرعه لهذه الأمة من أخذ الدية، وكانت بنو إسرائيل لا دية عندهم، إنما هو القصاص فقط.

والاعتداء الْمُتَوَعَّد عليه في هذه الآية هو أن يأخذ الرجل دية وليه ثم يقتل القاتل بعد سقوط الدَّم. واختلف في العذاب الأليم الذي يلحقه - فقال فريق من العلماء منهم مالك: هو كمن قتل ابتداءً إن شاء الولي قتلته، وإن شاء عفا عنه، وعذابه في الآخرة. وقال قتادة،

والأخ) يراد به القاتل، و﴿شَوْءٌ﴾ هي الدية، والأخوة على هذا أخوة الإسلام - ويحتمل أن يراد بالأخ على هذا التأويل المقتول، أي يُسر له من قبل أخيه المقتول وبسببه، فتكون الأخوة أخوة قرابة وإسلام. وعلى هذا التأويل قال مالك رحمه الله: إن الولي إذا جنح إلى العفو على أخذ الدية، فإن القاتل مُحَيَّر بين أن يعطيها أو يسلم نفسه، فمرة تيسر ومرة لا تيسر. وغير مالك يقول: إذا رضي الأولياء بالدية فلا خيار للقاتل بل تلزمه، وقد روي أيضاً هذا القول عن مالك، ورجحه كثير من أصحابه.

والتأويل الثالث: أن هذه الألفاظ في المعنيين الذين نزلت فيهم الآية كلها، وتساقطوا الديات فيما بينهم مقاصة حسب ما ذكرناه آنفاً فمعنى الآية: فمن فضل له من الطائفتين على الأخرى شيء من تلك الديات - ويكون ﴿عَفْوٌ﴾ بمعنى فضل، من قولهم: «عفا الشيء إذا كثر» أي أنضلت الحال له أو الحساب أو القدر.

والتأويل الرابع: هو على قول علي رضي الله عنه، والحسن بن أبي الحسن في الفضل بين دية المرأة ودية الرجل، والحر والعبد، أي من كان له ذلك الفضل، فاتباع بالمعروف. و﴿عَفْوٌ﴾ في هذا الموضع أيضاً بمعنى فضل، وكأن الآية من أولها بينت الحكم، إذا لم تتداخل الأنواع، ثم الحكم إذا تداخلت، و﴿شَوْءٌ﴾ في هذه الآية مفعول لم يُسَمَّ فاعله، وجاز ذلك.

في كتاب الله الذي شرع فيه القصاص وحكمه. ويحتمل أن يكون مصدراً كالقصاص، أي أنه قص أثر القاتل قصاصاً، فقتل كما قتل.

وقوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾ الآية، كأن الآية متصلة بقوله: ﴿يَتَأْتِيَهَا الْمُرِيدُ آمَنُؤًا﴾، فلذلك سقطت واو العطف، و﴿كُتِبَ﴾ معناه فُرض وأُثبت. وقال بعض أهل العلم: الوصية فرض. وقال قوم: كانت فرضاً ونسخت، وقال فريق: هي مندوب إليها، و﴿كُتِبَ﴾ عامل في رفع ﴿الْوَصِيَّةِ﴾ على المفعول الذي لم يسم فاعله في بعض التقديرات وسقطت علامة التأنيث من ﴿كُتِبَ﴾ لطول الكلام فَحَسُنَ سقوطها. وقد حكى سيبويه: «قام امرأة»، ولكن حُسُنُ ذلك إنما هو مع طول الحائل.

ولا يصح عند جمهور النحاة أن تعمل الوصية في ﴿إِذَا﴾ لأنها في حكم الصلة للمصدر الذي هو ﴿الْوَصِيَّةِ﴾، وقد تقدمت فلا يجوز أن يعمل فيها متقدمة ويتجه في إعراب هذه الآية أن يكون ﴿كُتِبَ﴾ هو العامل في ﴿إِذَا﴾، والمعنى توجه إيجاب الله عليكم ومقتضى كتابه إذا حضر، فعبّر عن توجه الإيجاب، ب﴿كُتِبَ﴾ لينتظم إلى هذا المعنى أنه مكتوب في الأزل. و﴿الْوَصِيَّةِ﴾ مفعول لم يسم فاعله ب﴿كُتِبَ﴾. وجواب الشرطين: ﴿إِذَا﴾ و﴿إِنْ﴾. مُقَدَّرٌ يدل عليه ما تقدم من قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ﴾، كما تقول: شكرت ففعلك إن جنتني إذا كان كذا.

ويتجه في إعرابها أن يكون التقدير: كتب عليكم الإيضاء، ويكون هذا الإيضاء المقدر الذي يدل عليه ذكر الوصية بعد هو العامل في ﴿إِذَا﴾، وترتفع (الوصية) بالابتداء، وفيه جواب الشرطين على نحو ما أنشد سيبويه:

مَنْ يَفْعَلِ الصَّالِحَاتِ اللهُ يَحْفَظُهَا
.....

أو يكون رفعها بالابتداء بتقدير: فَعَلِيهِ الوصية، أو بتقدير الفاء فقط، كأنه قيل: فالوصية للوالدين.

ويتجه في إعرابها أن تكون ﴿الْوَصِيَّةِ﴾ مرتفعة ب﴿كُتِبَ﴾ على المفعول الذي لم يسم فاعله، وتكون ﴿الْوَصِيَّةِ﴾ هي العامل في ﴿إِذَا﴾، وهذا على مذهب أبي الحسن الأخفش، فإنه يُجيز أن يتقدم ما في صلة الموصول بشرطين هما في هذه الآية:

أحدهما: أن يكون الموصول ليس بموصولٍ مخض، بل يشبه الموصول، وذلك كالألف واللام حيث توصل، أو كالمصدر، وهذا في الآية مصدر وهو ﴿الْوَصِيَّةِ﴾.

والشرط الثاني: أن يكون المتقدم ظرفاً، فإن في الظرف يسهل الاتساع، و﴿إِذَا﴾ ظرف، وهذا رأي أبي الحسن في قول الشاعر:

تَقُولُ وَصَكَّتْ وَجْهَهَا بِمِجْنِيهَا
أَبْعَلِي هَذَا بِالرَّحَا الْمُتَقَاعِسْ؟
فإنه يرى أن (بالرَّحَا) متعلق بقوله: (المتقاعس) كأنه قال: أبعلي هذا المتقاعس بالرحا. وجواب الشرطين

في هذا القول كما ذكرناه في القول الأول.

وفي قوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ﴾، مجاز، لأن المعنى: إذا تخوف حضرت علاماته. والخير في هذه الآية: المال.

واختلف موجبو الوصية في القدر الذي تجب منه - فقال الزهري، وغيره: تجب فيما قُلَ وفيما كثر، وقال النخعي: تجب في خمسمائة درهم فصاعداً، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقاتدة: في ألف فصاعداً.

واختلف العلماء في هذه الآية - فقال فريق: هي محكمة، ظاهرها العموم، ومعناها الخصوص، في الوالدين اللذين لا يرثان، كالكافرين والعبدان، وفي القرابة غير الوارثة، وقال ابن عباس، والحسن، وقاتدة: الآية عامة، وتقرر الحكم بها برهة، ونسخ منها كل من يرث بأية الفرائض، وفي هذه العبارة يدخل قول ابن عباس، والحسن وغيرهما: أنه نُسخ منها الوالدان وثبت الأقربون الذين لا يرثون. وَيَبَيَّنُ أن آية الفرائض في سورة النساء ناسخة لهذه - للحديث المتواتر: «إن الله قد أعطى كل ذي حق حقه فلا وصية لوارث». وقال ابن عمر، وابن عباس أيضاً، وابن زيد: الآية كلها منسوخة، وبقيت الوصية ندباً، ونحو هذا قول مالك رحمه الله، وقال الربيع ابن خثيم، وغيره: لا وصية لوارث. وقال عذرة بن ثابت للربيع بن خثيم: أوص لي بمصحفك، فنظر الربيع إلى

وَلَدَهُ وَقَرَأَ: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ ونحو هذا صنع ابن عمر رضي الله عنه. وقال بعض أهل العلم: إن الناسخ لهذه الآية هي السنة المتواترة في الحديث المذكور قبل، وقد تقدم توجيه نسخ السنة للكتاب في تفسير قوله تعالى: ﴿مَا نَسَخَ مِنْ آيَةٍ﴾ وقال قوم من العلماء: الوصية للقرابة أولى، فإن كانت لأجنبي فمعهم، ولا تجوز لغيرهم مع تركهم، وقال الناس حين مات أبو العالية: عجباً له، أعتقه امرأة من رباح، وأوصى بماله لبني هاشم. وقال الشعبي: لم يكن ذلك له ولا كرامة. وقال طائوس: إذا أوصى لغير قرابته ردت الوصية إلى قرابته، ونُقِصَ فعله. وقاله جابر بن زيد، وقال الحسن، وجابر بن زيد أيضاً، وعبد الملك بن يعلى: يبقى ثلث الوصية حيث جعلها، ويُرَدُّ ثلثاها إلى قرابته. وقال مالك رحمه الله، وجماعة من العلماء: الوصية ماضية حيث جعلها الميت.

وَالْأَقْرَبُونَ: جمع أقرب. و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه: بالقصد الذي تعرفه النفوس دون إضرار بالورثة ولا تنزير للوصية. و﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، وخص المتقون بالذكر تشريفاً للرتبة ليتبارى الناس إليها.

﴿١٨١﴾ - ﴿١٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿بَدَلَهُ﴾ عائد على الإيصاء وأمر الميت، وكذلك في ﴿يَحْتَمِلُ﴾، ويحتمل أن يعود الذي في ﴿يَحْتَمِلُ﴾ على أمر الله تعالى في هذه

الآية، والقول الأول أسبق للناظر، لكن في ضمنه أن يكون المبدل عالماً بالنهي عامداً لخلافه. والضمير في ﴿إِثْمُ﴾ عائد على التبديل، و﴿سَجِيحٌ عَلَيْهِ﴾ صفتان لا يخفى معهما شيء من جَنَفٍ الموصيين وتبديل المتعدين. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر، عن عاصم: ﴿مِنْ مَوْصٍ﴾ بفتح الواو وتشديد الصاد، وقرأ الباقون بسكون الواو.

وَالجَنَفُ: الميل - وقال الأعمش:

تَجَانَفُ عَنْ حَجَرِ الْيَمَامَةِ نَاقَتِي وَمَا قَصَدْتُ مِنْ أَهْلِهَا لِيَسْوَائِكَا وَقَالَ عَامِرُ الرَّامِ الْخَضْرِي الْمَحَارِبِي:

هُمُ الْمَوْلَى وَقَدْ جَنَفُوا عَلَيْنَا وَإِنَّمَنْ عَدَاوتِهِمْ لَزُورٍ

ومعنى الآية على ما قال مجاهد: من خشي أن يحيف الموصي ويقطع ميراث طائفة، ويتعمد الإذابة أو يأتيها دون تعمد، وذلك هو الجنف دون إثم، وإذا تعمد فهو الجنف في إثم، فالمعنى: من وعظه في ذلك ورده عنه، فأصلح بذلك ما بينه وبين ورثته، وما بين الورثة في ذاتهم فلا إثم عليه، ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ﴾ عن الموصي إذا عملت فيه الموعظة، ورجع عما أراد من الإذابة ﴿رَحِيمٌ﴾ به.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقاتدة والربيع: معنى الآية: من خاف - أي علم ورأى وأتى علمه عليه بعد موت الموصي - أن الموصي حاف وجنف وتعمد إذابة بعض ورثته، فأصلح ما وقع بين الورثة من الاضطراب والشقاق فلا إثم عليه، أي لا يلحقه إثم المبدل المذكور قبل وإن كان في فعله تبديل ما ولا بد، ولكنه تبديل لمصلحة، والتبديل الذي فيه الإثم إنما هو تبديل الهوى، وقرأ عبدالله بن عمر: ﴿فَلَا تَمُّ﴾ عليه بحذف الألف.

و﴿كَيْبٌ﴾ معناه قرض. و﴿الْيَسِيَامُ﴾ في اللغة: الإمساك وترك التنقل من حال إلى حال، ومنه قول النابغة:

خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتُ الْعَجَاجِ، وَخَيْلٌ تَعْلُكُ اللَّجْمَا أَي: خيل ثابتة ممسكة ومنه

قول الله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ أي: إمساكاً عن الكلام، ومنه قول امرئ القيس:

كَأَنَّ الشَّرِيَا عَلَّقَتْ فِي مَصَامِهَا

أي في موضع ثبوتها وإمساكها، ومنه قوله:

فَدَخَّ ذَا وَسَلَّ إِلَهُمَّ عَنَّا بِجَسْرَةٍ
ذُمُولٌ إِذَا صَامَ النَّهَارُ وَهَجْرًا
أي: وقفت الشمس عن الانتقال وثبتت.

والصيام في الشرع: إمساك عن الطعام والشراب مقترنة به قرائن، من مراعاة أوقات وغير ذلك، فهو من مجمل القرآن في قول الحذاق، والكاف من قوله: ﴿كَنَّا﴾ في موضع نصب على النعت تقديره كتباً كَنَّا، أو صَوْمًا كَمَا، أو على الحال - كأن الكلام: كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ مَشْبَهُاً مَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ.

وقال بعض النحاة: الكاف في موضع رفع على النعت للصيام، إذ ليس تعريفه بمحض لمكان الإجمال الذي فيه مما فسرتة الشريعة، فلذلك جاز نعتها بكما، إذ لا تنعت بها إلا النكرات، فهو بمنزلة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ صِيَامٌ﴾ وقد ضعف هذا القول.

واختلف المتأولون في موضع التشبيه - فقال الشعبي وغيره: المعنى: كتب عليكم رمضان كما كتب على النصراني، قال: فإنه كتب عليهم رمضان فبدلوه لأنهم احتاطوا له، بزيادة يوم في أوله، ويوم في آخره، قرناً بعد قرن، حتى بلغوه خمسين يوماً، فصعب عليهم في الحر فنقلوه

إلى الفصل الشتوي. قال النقاش: وفي ذلك حديث عن دغفل بن حنظلة، والحسن البصري، والسدي.

وقيل: بل مرض ملك من ملوكهم، فنذر إن بريء أن يزيد فيه عشرة أيام، ثم آخر سبعة، ثم آخر ثلاثة، ورأوا أن الزيادة فيه حسنة بإزاء الخطأ في نقله.

وقال السدي، والربيع: التشبيه هو أنه من الإفطار إلى مثله، لا يأكل ولا يشرب ولا يطاق، فإذا حان الإفطار فلا يفعل هذه الأشياء من نام، وكذلك كان في النصراني أولاً، وكان في أول الإسلام، ثم نسخه الله بسبب عمر وقيس بن صرمة بما يأتي من الآيات في ذلك وقال عطاء: التشبيه كتب عليكم الصيام ثلاثة أيام من كل شهر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي بعض الطرق: ويوم عاشوراء، كما كتب على الذين من قبلكم ثلاثة أيام من كل شهر ويوم عاشوراء، ثم نسخ هذا في هذه الأمة بشهر رمضان، وقالت فرقة: التشبيه كتب عليكم كصيام بالإطلاق، أي: قد تقدم في شرع غيركم - فالذين عام في النصراني وغيرهم. و﴿لَمَّا كُنْتُمْ﴾ ترجح في حقهم، و﴿تَتَّقُونَ﴾ قال السدي: معناه تتقون الأكل والشرب والوطء بعد النوم على قول من تأول ذلك. وقيل: تتقون على العموم لأن الصيام كما قال عليه السلام جنة ووجاء وسبب تقوى لأنه يميئ الشهوات. و﴿أَنِيكَانَا﴾ مفعول ثان بـ﴿كُنْتُمْ﴾ قاله الفراء، وقيل: هي نصب على الظرف، وقيل: نصبها بالصيام، وهذا لا يحسن إلا على أن يعمل الصيام في الكاف من ﴿كَنَّا﴾

على قول من قدر صوماً كما، وإذا لم يعمل في الكاف قبح الفصل بين المصدر وبين ما عمل فيه - بما عمل فيه غيره، وذلك إذا كان العامل في الكاف ﴿كُنْتُمْ﴾. وجوز بعضهم أن يكون ﴿أَنِيكَانَا﴾ ظرفاً لعمل فيه الصيام. و﴿تَمُدُّوهُنَّ﴾ قيل: رمضان، وقيل: الثلاثة الأيام.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَتْ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ﴾ التقدير: فأفطر فعدة من أيام آخر، وهذا يسمونه فحوى الخطاب.

واختلف العلماء في حد المرض الذي يقع به الفطر - فقال قوم: متى حصل الإنسان في حال يستحق بها اسم المرض صح الفطر قياساً على المسافر أنه يفطر لعله السفر، وإن لم تدعه إلى الفطر ضرورة، وقاله ابن سيرين. وقال جمهور من العلماء: إذا كان به مرض يؤذيه ويؤلمه أو يخاف تماديه، أو يخاف من الصوم تزيده صح له الفطر، وهذا مذهب حذاق أصحاب مالك وبه يناظرون، وأما لفظ مالك فهو: المرض الذي يشق على المرء ويتبلغ به. وقال الحسن: إذا لم يقدر من المرض على الصلاة قائماً أفطر، وقالت فرقة: لا يفطر بالمرض إلا مَنْ دعت ضرورة المرض نفسه إلى الفطر، ومتى احتمل الضرورة معه لم يفطر، وهذا قول الشافعي رحمه الله.

واختلف العلماء في الأفضل من الفطر والصوم في السفر - فقال قوم، والشافعي، ومالك - في بعض ما روي عنه: الصوم أفضل لِمَنْ قَوِيَّ، وجُلُّ مذهب مالك التخيير، وقال ابن

عباس، وابن عمر، وغيرهما: الفطر أفضل. وقال مجاهد، وعمر بن عبدالعزيز، وغيرهما: أيسرهما أفضلهما، وكره ابن حنبل وغيره الصوم في السفر، وقال ابن عمر: من صام في السفر قضى في الحضر وهو مذهب عمر رضي الله عنه.

ومذهب مالك في استحبابه الصوم لمن قدر عليه وتقصير الصلاة حسن. لأن الزمة تبرأ في رخصة الصلاة وهي مشغولة في أمر الصيام، والصواب المبادرة بالأعمال، وقال ابن عباس رضي الله عنه: الفطر في السفر عزيمة، وذهب أنس بن مالك إلى الصوم وقال: إنما نزلت الرخصة ونحن جياع، نروح إلى جوع، ونغدو إلى جوع. والسفر سفر الطاعة، كالحج والجهاد بإجماع، ويتصل بهذين سفر صلة الرحم وطلب المعاش الضروري، وأما سفر التجارة والمباحات فمختلف فيه بالمنع والجواز، والقول بالجواز أرجح. وأما سفر المعاصي فمختلف فيه بالجواز والمنع، والقول بالمنع أرجح. ومسافة سفر الفطر عند مالك حيث تقصر الصلاة. واختلف في قدر ذلك - فقال مالك: يوم وليلة، ثم رجح فقال: ثمانية وأربعون ميلاً، وروي عنه: يومان، وروي عنه في العتبية: خمسة وأربعون ميلاً، وفي المبسوط: أربعون ميلاً، وفي المذهب: ستة وثلاثون ميلاً، وفيه: ثلاثون. وقال ابن عمر، وابن عباس، والشوري: الفطر في سفر ثلاثة أيام، وفي غير المذهب يقصر في ثلاثة أميال فصاعداً.

وقوله تعالى: ﴿فِيذِيَّةٍ﴾، مرفوع على خبر الابتداء تقديره: فالحكم أو فالواجب عدة، ويصح أن يرتفع على ابتداء والخبر بعده، والتقدير: عدة أنثُل له، ويصح: فعليه عدة. واختلف في وجوب متابعتها على قولين، و﴿أَخْرَجَ﴾ لا ينصرف عند سبويه لأنه معدول عن الألف واللام، لأن هذا البناء إنما يأتي بالألف واللام كما تقول: الفضل والكبر اجتمع فيه العدل والصفة. وجاء في الآية ﴿أَخْرَجَ﴾ ولم يجيء أخرى لثلاث تشكل بأنها صفة للعدة، والباب أن جمع مالا يعقل يجري في مثل هذا مجرى الواحدة المؤنثة، ومنه قوله تعالى: ﴿يَجِبَالٌ أُولِي مَعَادٍ﴾، إلى غير ذلك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُطَوَّقُونَهُ﴾ بكسر الطاء وسكون الياء، والأصل: يطوقونه، نقلت حركة الواو إلى الطاء وقلبت ياء لانكسار ما قبلها، وقرأ حميد: ﴿يَطُوقُونَهُ﴾، وذلك على الأصل والقياس الإعلال. وقرأ ابن عباس ﴿يُطَوَّقُونَهُ﴾ بمعنى يكلفونه، وقرأت عائشة، وطاوس، وعمر بن دينار: ﴿يَطُوقُونَهُ﴾ بفتح الياء وشد الطاء مفتوحة. وقرأت فرقة: ﴿يُطَيِّقُونَهُ﴾ بضم الياء وفتح الطاء وشد الياء مفتوحة، وقرأ ابن عباس: ﴿يُطَيِّقُونَهُ﴾ بفتح الياء وشد الطاء المفتوحة وشد الياء المفتوحة بمعنى يتكلفونه، وحكاها النقاش عن عكرمة، وتشديد الياء في هذه اللفظة ضعيف.

وقرأ نافع، وابن عمر من طريق ابن ذكوان: ﴿فِيذِيَّةٍ طَعَامُ مَسَاكِينٍ﴾

بإضافة الفدية. وقرأ هشام عن ابن عامر: ﴿فِيذِيَّةٍ طَعَامُ مَسَاكِينٍ﴾ بتونين الفدية. وقرأ الباقون: ﴿فِيذِيَّةٍ﴾ بالتونين ﴿طَعَامُ مَسَاكِينٍ﴾ بالإفراد، وهي قراءة حسنة لأنها بينت الحكم في اليوم. وجمع المساكين لا يدري كم منهم في اليوم إلا من غير الآية. وقال أبو علي: فإن قلت: كيف أفردوا المسكين والمعنى على الكثرة لأن الذين يطبقونه جمع، وكل واحد منهم يلزمه مسكين، فكأن الوجه أن يجمعوا كما جمع المطبقون؟ فالجواب أن الإفراد حسن، لأنه يفهم بالمعنى أن لكل واحد مسكيناً. ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرَبُّونَ السُّحُوبَ ثُمَّ لَا يُأْتُوا بِبَرَكَةٍ سَاهِلَةٍ فَلَا يَجِدُونَ فِيهَا سُبُوحًا وَلَا يَنْزِيلًا يَنْزِلًا﴾ فليس الثمانون متفرقة في جميعهم، بل لكل واحد ثمانون. واختلف المتأولون في المراد بالآية.

فقال معاذ بن جبل، وعلقمة، والنخعي، والحسن البصري، وابن عمر، والشيباني، وسلمة بن الأكوع، وابن شهاب: كان فرض الصيام هكذا على كل الناس، من أراد صام، ومن أراد أطعم مسكيناً وأفطر، ثم نسخ ذلك بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ وقالت فرقة: وعلى الذين يطبقونه: أي على الشيوخ والعجز الذين يطبقون لكن بتكلف شديد، فأباح الله لهم الفدية والفطر، وهي محكمة عند قائلها هذا القول، وعلى هذا التأويل تجيء قراءة ﴿يَطُوقُونَهُ﴾.

وقال ابن عباس: نزلت هذه

ابتداءً وخبره: ﴿فَمَنْ شَهِدَ﴾،
 ﴿الَّذِي أَنْزَلَ﴾ نعت له. فمن قال:
 إن الصيام في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ
 الصِّيَامُ﴾ هي ثلاثة أيام وعاشوراء،
 قال: هاهنا بالابتداء، ومن قال: إن
 الصيام هنالك هو رمضان وهو الأيام
 المعدودة قال هنا بخبر الابتداء أو
 بالبدل من ﴿الصِّيَامِ﴾. وقرأ مجاهد،
 وشهر بن حوشب: ﴿شَهْرٌ﴾
 بالنصب، ورواه أبو عمارة، عن
 حفص، عن عاصم، ورواه هارون
 عن أبي عمرو، وهي على الإغراء،
 وقيل: نصب (بِتَضَمُّوْا) وقيل:
 نصب على الظرف. وقرأت فرقة
 بإدغام الراء في الراء، وذلك لا
 تقتضيه الأصول لاجتماع الساكنين
 فيه.

اختلف في إنزال القرآن فيه، فقال
 الضحاك: أنزل في فرضه وتعظيمه
 والحض عليه، وقيل: بُدِيَءَ بنزوله
 فيه على النبي ﷺ، وقال ابن عباس
 فيما يؤثر: أنزل إلى السماء الدنيا
 جملة واحدة ليلة أربع وعشرين من
 رمضان، ثم كان جبريل ينزله رسلاً
 رسلاً في الأوامر والنواهي
 والأسباب. وروى وائل بن الأَسقع
 عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿فَنَزَلَتْ
 صُحُفٌ إِبْرَاهِيمَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ مِنْ شَهْرِ
 رَمَضَانَ، وَالتَّوْرَةَ لِسِتِّ مِائَتَيْنِ مِنْهُ،
 وَالْإِنْجِيلَ لثَلَاثِ عَشْرَةَ، وَالْقُرْآنَ
 لِأَرْبَعِ وَعِشْرِينَ﴾.

وترك ابن كثير همزة القرآن مع
 التعريف والتنكير حيث وقع، وقد
 قيل: إن اشتقاقه على هذه القراءة من
 قُرْنٌ وذلك ضعيف.

وأحمد بن حنبل، ومجاهد: تقضي
 وتفدي إذا أفطرت، وكذلك قال
 مالك في الموضع: إنها إذا أفطرت
 تقضي وتفدي، هذا هو المشهور،
 وقال في مختصر ابن عبدالحكم: لا
 إطعام على الموضع.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ
 خَيْرٌ لَّكَ﴾ الآية، قال ابن عباس،
 وطاوس، وعطاء، والسدي: المراد
 من أطعم مسكينين فصاعداً وقال ابن
 شهاب: من زاد الإطعام مع الصوم،
 وقال مجاهد: من زاد في الإطعام
 على المد.

و﴿خَيْرٌ﴾ الثاني صفة تفضيل،
 وكذلك الثالث، وخير الأول قد نزل
 منزلة: مالا أو نفعاً. وقرأ أبي بن
 كعب: ﴿وَالصُّوْمُ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ بدل:
 ﴿وَأَنْ تَصُومُوا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنْ
 كُنْتُمْ تَحِبُّونَ﴾ يقتضي الحض على
 الصوم، أي فاعلموا ذلك وصوموا.

﴿١٨٦﴾ - ﴿١٨٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
 الشهر: مشتق من الاشتهار، لأنه
 مشتهر، لا يتعد علمه على أحد
 يريده. ورمضان عَلِقَهُ الاسم من مدة
 كان فيها في المرض وشدة الحر.
 وكان اسمه قبل ذلك ناتقاً، كما
 سمي ربيع من مدة الربيع، وجمادى
 من مدة الجمود. وكره مجاهد أن
 يقال: رمضان، دون أن يقال: شهر
 رمضان، كما قال الله تعالى، وقال:
 لعل رمضان اسم من أسماء الله
 عز وجل، وقرأ جمهور الناس:
 ﴿شَهْرٌ﴾ بالرفع، ووجه خبر ابتداء،
 أي ذلكم شهرٌ، وقيل: بدل من
 الصيام، وقيل: على الابتداء وخبره:
 ﴿الَّذِي أَنْزَلَ فِيهِ الْقُرْآنَ﴾، وقيل:

الرخصة للشيخ والعجز خاصة، إذا
 أفطروا وهم يطيقون الصوم، ثم
 نسخت بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ
 مِنْكُمْ الشَّهْرَ﴾ فزال الرخصة، إلا
 لِمَنْ عجز منهم، وقال السدي:
 ﴿وَتَلَّى الَّذِينَ يُطِيقُونَ﴾ أي: على
 الذين كانوا يطيقونه وهم بحالة
 الشباب، ثم استحالوا بالشيخ فلا
 يستطيعون الصوم، وهي عنده
 محكمة، ويلزم الشيخ عنده الفدية
 إذا أفطروا، ونحوه عن ابن عباس.
 وقال مالك: لا أرى الفدية على
 الشيخ الضعيف واجبة، وتستحب
 لمن قدر عليها، والآية عنده إنما هي
 فيمن يدركه رمضان وعليه صوم من
 المتقدم، فقد كان يطيق في تلك
 المدة الصوم فتركه فعليه الفدية،
 وقال الشافعي وأبو حنيفة: على
 الشيخ العاجز الإطعام، وحكى
 الطبري عن عكرمة أنه كان يقرؤها:
 ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَ فَأَفْطَرُوا﴾.

ومذهب مالك رحمه الله، وجماعة
 من العلماء أن قدر الفدية مُدَّ لكل
 مسكين، وقال قوم: قوت يوم،
 وقال قوم: عشاء وسحور، وقال
 سفيان الثوري: نصف صاع من
 قمح، أو صاع من تمر أو زبيب.

والضمير في ﴿يُطِيقُونَ﴾ عائد على
 الصيام، وقيل: على الطعام، وهو
 قول ضعيف.

اختلف في الحامل - فقال ابن
 عمر، وابن عباس: تفدي وتفطر ولا
 قضاء عليها. وقال الحسن، وعطاء،
 والضحاك، والزهري، وربيعة،
 ومالك: تقضي الحامل إذا أفطرت،
 ولا فدية عليها. وقال الشافعي،

و﴿هُدًى﴾ في موضع نصب على الحال من القرآن، فالمراد أن القرآن بجملته من محكم ومتشابه، وناسخ ومنسوخ. هدى، ثم شُرِّفَ بالذكر والتخصيص ﴿الْبَيِّنَاتِ﴾ منه، يعني الحلال والحرام والمواظب والمحكم كله. فالألف واللام في ﴿الْمَدَنِيِّ﴾ للعهد، والمراد الأول و﴿الْفُرْقَانِ﴾ المفرق بين الحق والباطل. و﴿شَهْدًا﴾ بمعنى حَضَرَ، و﴿الشَّهْرِ﴾ نُصِبَ على الظرف، والتقدير من حضر المصر في الشهر، وقرأ الحسن، وعيسى الثقفى، والزهرى، وأبو عبدالرحمن السلمي، وأبو حيوة: ﴿فَلْيَعِشْتُمْ﴾ بتحريك اللام، وكذلك قرؤوا لام الأمر في جميع القرآن على أصلها الذي هو الكسر. وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعبيدة السلماني: ﴿مَنْ شَهِدَ﴾ أي من حضر دخول الشهر، وكان مقيماً في أوله فليكمل صيامه، سافر بعد ذلك أو أقام، وإنما يفطر في السفر من دخل عليه رمضان وهو في سفر. وقال جمهور الأمة: من شهد أول الشهر أو آخره فليصم ما دام مقيماً. وقال أبو حنيفة وأصحابه: من شهد الشهر بشروط التكليف غير مجنون ولا مُغْمَى عليه فليصمه، ومن دخل عليه رمضان وهو مجنون، وتمادى به طول الشهر، فلا قضاء عليه، لأنه لم يشهد الشهر بصفة يجب بها الصيام، ومن جُنَّ أول الشهر أو آخره فإنه يقضي أيام جنونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونُصِبَ الشهر على هذا التأويل هو

على المفعول الصريح بِشَهْدٍ. قوله تعالى: ﴿أَوْ عَلَيَّ سَفَرٍ﴾، بمنزلة: أو مسافراً فلذلك عطف على اسم. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، ويحيى بن وثاب، وابن هرمز، وعيسى بن عمر: ﴿الْيُسْرِ، وَالْيُسْرِ﴾ بضم السين، والجمهور بسكونه، وقال مجاهد، والضحاك بن مزاحم: اليسر: الفطر في السفر، والعسر: الصيام في السفر - والوجه عموم اللفظ في جميع أمور الدين، وقد فسر ذلك قول النبي ﷺ: «دين الله يُسْر».

وقوله تعالى: ﴿وَلِتُكْمِلُوا آيَاتَهُ﴾ معناه: وليكمل من أفطر في سفره أو في مرضه عدة الأيام التي أفطر فيها، وقرأ أبو بكر، عن عاصم، وأبو عمرو في بعض ما روي عنه: ﴿وَلِتُكْمَلُوا﴾ بتشديد الميم، وقد روي عنهما التخفيف كالجماعة، وهذه اللام متعلقة: إما بـ﴿يُرِيدُ﴾ فهي اللام الداخلة على المفعول كالذي في قولك: ضريت لزيد، والمعنى: ويريد إكمال العدة، وهي مع الفعل مقدرة بأن، كأن الكلام: ويريد لأن تكملوا، هذا قول البصريين، ونحوه قول أبي صخر: أريد لأتسى ذكراً فكأنما

وإما فعل مضمّر بعد، تقديره: ولأن تكملوا العدة رخص لكم هذه الرخصة، وهذا قول بعض الكوفيين. ويحتمل أن تكون هذه اللام لام الأمر، والواو عاطفة جملة كلام على جملة كلام.

وقوله: ﴿وَلِتُكْمَلُوا آيَاتَهُ﴾، حض

على التكبير في آخر رمضان، واختلف الناس في حده - فقال ابن عباس: يُكَبِّرُ المُرَّةَ مِنْ رُؤْيَةِ الْهَيْلَالِ إِلَى انْقِضَاءِ الْخَطْبَةِ، ويمسك وقت خروج الإمام، وَيُكَبِّرُ بتكبيره. وقال قوم: يُكَبِّرُ من رؤية الهلال إلى خروج الإمام إلى الصلاة. وقال سفيان: هو التَّكْبِيرُ يوم الفطر. وقال مالك: هو من حين يخرج الرجل من منزله إلى أن يخرج الإمام.

ولفظه عند مالك وجماعة من العلماء: الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر. ثلاثاً، ومن العلماء من يكبر ثم يهلل ويسبح أثناء التكبير، ومنهم من يقول: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وقد قيل غير هذا، والجميع حسن واسع مع البدأة بالتكبير.

و﴿هَدَانِكُمْ﴾ قيل: المراد لما ضل فيه التصارى من تبديل صيامهم، وتعميم الهدى جيد. ﴿وَلِتُكْمَلُوا تَشْكُرُوا﴾ تَرَجَّحَ في حق البشر، أي: على نعمة الله في الهدى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي﴾ الآية، قال الحسن بن أبي الحسن: سببها أن قوماً قالوا للنبي ﷺ: أَقْرَبُ رَبَّنَا فنتأججه أم بعيد فنتأديه؟ فنزلت. وقال عطاء: لما نزلت: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال قوم: في أي ساعة ندعو؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ﴾ وقال مجاهد: بل قالوا: إلى أين ندعو؟ فنزلت هذه الآية، وقال قتادة: بل قالوا: كيف ندعو؟ فنزلت: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي﴾ رُوي أن

الشين باختلاف عنهما، قرأ هذه القراءة والتي قبلها.

﴿١٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

لفظة ﴿أَجَلٌ﴾ تقتضي أنه كان محرماً قبل ذلك، و﴿إِلَّةٌ﴾ نصب على الظرف، وهي اسم جنس فلذلك أفردت، ونحوه قول عامر اليرام الخضري المحاربي:

هُمُ الْمَوْلَى وَقَدْ جَنَفُوا عَلَيْنَا
وَأَسَامِنُ عَدَاوَتِهِمْ تَزَوُّرُ
و﴿أَرْقَتْ﴾ كناية عن الجماع، لأن الله تعالى كريم يكتفى، قاله ابن عباس، والسدي. وقرأ ابن مسعود ﴿الرُّقُوتُ﴾. و﴿أَرْقَتْ﴾ في غير هذا ما فُحِّشَ من القول، ومنه قول الشاعر:

.....
عَنِ اللَّغَا وَرَقَّتِ الشُّكْلُمُ
وقال أبو إسحاق: الرقت كل ما يأتيه الرجل مع المرأة من قبله ولمس وجماع.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو كلام في هذه المعاني، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَزِفْهُ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ حَطَايَاهُ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ﴾.

وسبب هذه الآية فيما قال ابن عباس، وغيره: أن جماعة من المسلمين اختانوا أنفسهم، وأصابوا النساء بعد النوم أو بعد صلاة العشاء على الخلاف. منهم عمر بن الخطاب، جاء إلى امرأته فأرادها فقالت له: قد نمت فظن أنها تعتل فوقع بها، ثم تحقق أنها قد كانت نامت، وكان الوطء بعد نوم أحدهما ممنوعاً. وقال السدي: جرى له هذا

الدعاء، والوصف بمجانب الدعوة وصف بحسن النظر، والبعد عن الاعتداء، والتوفيق من الله تعالى إلى الدعاء في مقدور. وانظر أن أفضل البشر المصطفى محمداً ﷺ قد: «دعا أن لا يجعل بأس أمته بينهم». الحديث فُمنِعَها إذ كان القدر سبق بغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي﴾ قال أبو رجاء الخراساني: معناه: فليدعوا لي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: المعنى:

فليطلبوا أن أجيبهم، وهذا هو باب استفعل، أي طلب الشيء إلا ما شذ مثل استغنى الله.

وقال مجاهد، وغيره: المعنى: فليستجيبوا لي، فيما دعوتهم إليه من الإيمان، أي بالطاعة والعمل. ويقال: أجاب واستجاب بمعنى ومنه قول الشاعر:

وَدَاعَ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الثَّدَى
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبُ
أي لم يجبه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُوا لِي﴾ قال أبو رجاء: في أي أجيب دعاءهم، وقال غيره: بل ذلك دعاء إلى الإيمان بجملته.

وقرأ الجمهور: ﴿يُرْشِدُونَ﴾ بفتح الياء وضم الشين، وقرأ قوم بضم الياء وفتح الشين، وروي عن ابن أبي عمرة، وأبي حنيفة: فتح الياء وكسر

أَجَلٌ لَكُمْ يَلَّةَ الصَّيَاغِ الرَّفَثُ إِلَى صَيْحَانِكُمْ مِنْ لِيَّاسٍ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِيَّاسٌ لَهُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَاتَّقُوا بَيْنَهُمْ وَأَتَّقُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَسْبِقَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتُوا الصَّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَشِّرْوهُمْ وَأَنْتُمْ عَنْكُمْ فِي السُّجُودِ يَتَذَكَّرُونَ حُدُودَ اللَّهِ فَلَا تَقْرُبُوهَا كَذَلِكَ بَيَّرْتُمُوهُ اللَّهُ إِلَيْهِمُ لِلنَّاسِ لَمْ لَهُمْ يَتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ وَتَذَلُّوا بِهَا إِلَى الْكُفَّارِ لِيَأْكُلُوا فَرِيقًا مِنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ فُلْ هِيَ مَوَاقِفُ النَّاسِ وَالْحُجَّجُ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَفْلِحُونَ ﴿١٨٨﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَفْسُقُونَ كَفَرُوا وَلَا تَقْتُلُوا أَرْوَاحَهُمْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٨٩﴾

٢٩

المشركين قالوا لما نزل: ﴿فَأَنِّي قَرِيبٌ﴾، كيف يكون قريباً من بيننا وبينه على قولك سبع سموات في غلظ سمك كل واحدة خمسمائة عام وفيما بين كل سماءٍ مثل ذلك؟ فنزلت: ﴿أَجِيبْ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَاكَ﴾، أي فإني قريب بالإجابة والقدرة. وقال قوم: المعنى: أجيب إن شئت، وقال قوم: إن الله تعالى يجيب كل الدعاء فإما أن تظهر الإجابة في الدنيا، وإما أن يكفر عنه، وإما أن يُدْخِرَ له أجر في الآخرة، وهذا بحسب حديث الموطأ: «مَا مِنْ دَاعٍ يَدْعُوهُ إِلَّا كَانَ بَيْنَ إِحْدَى ثَلَاثٍ» الحديث. وهذا إذا كان الدعاء على ما يجب دون اعتداء، فإن الاعتداء في الدعاء ممنوع، قال الله تعالى: ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ قال المفسرون: أي في

في جارية له، قالوا: فذهب عمر فاعتذر عند رسول الله ﷺ، وجرى نحو هذا لكعب بن مالك الأنصاري، فنزل صدر الآية فيهم، فهي ناسخة للحكم المتقرر في منع الوطء بعد النوم.

وحكى النحاس، ومكي أن عمر نام، ثم وقع بامرأته، وهذا عندي بعيد على عمر رضي الله عنه. وروي أن صرمة بن قيس، ويقال: صرمة بن مالك، ويقال: أبو أنس قيس بن صرمة نام قبل الأكل فبقي لذلك دون أكل حتى غشي عليه في نهاره المقبل، فنزل فيه من قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾.

واللباس: أصله في الثياب، ثم شبه التباس الرجل بالمرأة وامتزاجهما وتلازمهما بذلك، كما قال النابغة: إِذَا مَا الضُّجَيْجُ نَشَى جِيدَهَا تَدَاعَتْ فَكَانَتْ عَلَيْهِ لِبَاسًا وقال النابغة أيضاً:

لَبِسْتُ أَنَسًا فَأَقْسَيْتُهُمْ وَأَقْسَيْتُ بَعْدَ أَنَسٍ أَنَسًا فشيء خلطته لهم باللباس. نحا هذا المنحى في تفسير اللباس الربيع، وغيره. وقال مجاهد، والسدي: لباس: سكن، أي يسكن بعضهم إلى بعض.

وإنما سميت هذه الأفعال اختياناً لعاقبة المعصية وجزائها، فراكبها يخون نفسه ويؤذيها.

﴿قَاتَبَ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: من المعصية التي واقعتها، ﴿وَعَمَّا عَنَّا﴾ يحتمل أن يريد عن المعصية بعينها، فيكون ذلك تأكيداً وتأنيساً بزيادة على التوبة، ويحتمل أن يريد

عفا عما كان أزمكم من اجتناب النساء فيما يؤتف بمعنى تركه لكم. كما تقول: شيء مغفوء عنه أي متروك.

قال ابن عباس، وغيره: ﴿بِتَيْرُوتٍ﴾ كناية عن الجماع مأخوذ من البشرة، وقد ذكرنا لفظه ﴿الْقَنَ﴾ في ماضي قصة البقرة، ﴿وَأَتَقُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، والحكم ابن عتيبة، وعكرمة، والحسن، والسدي، والربيع، والضحاك - معناه: وابتغوا الولد. وروي أيضاً عن ابن عباس وغيره أن المعنى: وابتغوا ليلة القدر، وقيل: المعنى: ابتغوا الرخصة والتزبيحة. قاله قتادة، وهو قول حسن. وقرأ الحسن - فيما روي عنه - معاوية بن قرة: وَأَتَبَعُوا مِنَ الْأَتْبَاعِ، وجوزها ابن عباس، ورجح ابتغوا من الابتغاء.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَبَيِّنَ﴾ نزلت بسبب صرمة بن قيس، و﴿حَتَّىٰ﴾ غاية للتبيين، ولا يصح أن يقع التبيين لأحد ويحرم عليه الأكل إلا وقد مضى لطلوع الفجر قدر، و﴿الْحَيْطُ﴾ استعارة وتشبيه لرقعة البياض أولاً ورقة السواد الحاف به، ومن ذلك قول أبي ذؤاد:

قَلَّمَا بَصَرُنْ بِهْ غَدَوَةٌ
وَلَاخِ مِنْ الْفَجْرِ حَيْطُ أَنْارَا
ويروي (فَسَارَا)، وقال بعض المفسرين: الحيط: اللون، وهذا لا يطرد لفة، والمراد فيما قال جميع العلماء: بياض النهار وسواد الليل، وهو نص قول النسبي - ﷺ - لعدي بن حاتم في حديثه المشهور،

﴿مِنْ﴾ الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض، و﴿الْفَجْرِ﴾ مأخوذ من تفجر الماء لأنه يتفجر شيئاً بعد شيء.

وروي عن سهل بن سعد، وغيره من الصحابة أن الآية نزلت إلا قوله: ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ فصنع بعض الناس خيطين أبيض وأسود، فنزل قوله تعالى: ﴿مِنْ الْفَجْرِ﴾ - وروي أنه كان بين طرفي المدة عام من رمضان إلى رمضان تأخر البيان إلى وقت الحاجة. وعدي بن حاتم جعل خيطين على وسادة وأخبر النبي ﷺ فقال له: «إِنَّ وَسَادَكَ لَعَرِيضٌ»، وروي أنه قال له: «إِنَّكَ لَعَرِيضٌ الْقَفَا»، ولهذه الألفاظ تأويلان.

واختلف في الحد الذي يَبَيِّنُهُ يجب الإمساك، فقال الجمهور - وبه أخذ الناس، ومضت عليه الأمصار والأعصار، ووردت به الأحاديث الصحاح - ذلك الفجر المعترض الآخذ في الأفق يمناً ويسرة، فبطول أوله في الأفق يجب الإمساك وهو مقتضى حديث ابن مسعود، وسفرة بن جندب.

وروي عن عثمان بن عفان، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس وطلق بن علي، وعطاء بن أبي رباح، والأعمش، وغيرهم: أن الإمساك يجب بتبيين الفجر في الطرق، وعلى رؤوس الجبال، وذكر عن حذيفة أنه قال: تسحرت مع رسول الله ﷺ وهو النهار إلا أن الشمس لم تطلع، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه صلى الصبح بالناس ثم قال: «الآن

تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود». قال الطبري: «ومما قادم إلى هذا القول أنهم يرون أن الصوم إنما هو في النهار، والنهار عندهم من طلوع الشمس، لأن آخره غروبها فكذلك أوله طلوعها».

وحكى النقاش، عن الخليل بن أحمد أن النهار من طلوع الفجر، ويدل على ذلك قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَقْرَبُ الصَّلَاةِ طَرَفِي النَّهَارِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول في نفسه صحيح وقد ذكرت حجته في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَخْلَفَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ وفسي الاستدلال بهذه الآية نظر ومن أكل وهو يشك: هل طلع الفجر أم لم يطلع؟ فعليه عند مالك القضاء.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَمَّا إِلَيَّ إِلَى إِلِيلٍ﴾ أمر يقتضي الوجوب، و﴿إِلَى﴾ غاية، وإذا كان ما بعدها من جنس ما قبلها فهو داخل في حكمه، كقولك: اشتريت الفدان إلى حاشيته، وإذا كان من غير جنسه كما تقول: اشتريت الفدان إلى الدار لم يدخل في المحدود ما بعد إلى.

ورأت عائشة رضي الله عنها أن قوله: ﴿إِلَى إِلِيلٍ﴾ يقتضي النهي عن الوصال، وقد واصل النبي ﷺ ونهى الناس عن الوصال، وقد واصل جماعة من العلماء.

وقد تقدم أن هذه الآية نسخت الحكم الذي في قوله: ﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ على قول من رأى التشبيه في الامتناع من الوطء والأكل بعد النوم في قول

بعضهم، وبعد صلاة العشاء في قول بعضهم.

والليل الذي يتم به الصيام مغيب قرص الشمس، فمن أفطر وهو شاك هل غابت الشمس، فالمشهور من المذهب أن عليه القضاء والكفارة، وفي ثمانية أبي زيد: عليه القضاء فقط قياساً على الشاك في الفجر، وهو قول جماعة من العلماء، وقال إسحاق والحسن: لا قضاء عليه كالناسي عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبْتَغُوا مِنْهُ وَآتَهُ عَنكُومًا فِي السَّجْدِ﴾ قالت فرقة: المعنى: لا تجامعوهن، وقال الجمهور: ذلك يقع على الجماع فما دونه مما يُتَلذذ به من النساء، و﴿عَنكُومًا﴾ ملازمون، يقال: عكف على الشيء إذا لازمه مقبلاً عليه، قال الراجز:

.....

عكف النبيط يلعبون الفنرجا
وقال الشاعر:

وظَلَّ بَنَاتُ اللَّيْلِ حَوْلِي عَكْفًا
عُكُوفَ الْبَوَاكِي بِنْتِهِنَّ صَرِيحُ
وقال أبو عمرو، وأبو حاتم: قرأ قتادة: ﴿عَكْفُونَ﴾ بغير ألف، والاعتكاف سُنة. وقرأ الأعمش: ﴿في المسجد﴾ بالإنفراد، وقال: هو المسجد الحرام. قال مالك رحمه الله وجماعة معه: لا اعتكاف إلا في مساجد الجماعات، وروي عن مالك أيضاً أن ذلك في كل مسجد، ويخرج إلى الجمعة كما يخرج إلى ضروري أشغاله، وقال قوم: لا اعتكاف إلا في أحد المساجد الثلاثة التي تُشَدُّ المِطِيُّ إليها، وقالت فرقة،

لا اعتكاف إلا في مسجد نبي. وقال مالك: لا يعتكف أقل من يوم وليلة، ومن نذر أحدهما لزمه الآخر. وقال سحنون: من نذر اعتكاف ليلة لم يلزمه شيء، وقالت طائفة: أيهما نذر اعتكفه ولم يلزمه أكثر. وقال مالك: لا اعتكاف إلا بصوم، وقال غيره: يعتكف بغير صوم. وروي عن عائشة أنه يُعتكف في غير مسجد، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى هذه الأوامر والنواهي.

والحدود: الحواجز بين الإباحة والحظر، ومنه قيل للبوابة حداد لأنه يمنع، ومنه الحاذ لأنها تُمنع من الزينة.

والآيات: العلامات الهادية إلى الحق، و﴿لَمَلَمَهُمْ﴾ ترج في حقهم، وظاهر ذلك عموم، ومعناه خصوص فيمن يسره الله للهدى بدلالة الآيات التي تتضمن أن الله يُضل من يشاء.

﴿١٨٩﴾ - ﴿١٩٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب لأمة محمد ﷺ، والمعنى: لا يأكل بعضكم مال بعض، فأضيفت الأموال إلى ضمير المنهي لما كان كل أحد منهياً ومنهياً عنه، وكما قال: ﴿تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ﴾.

ويدخل في هذه الآية القمار والخداع والغصب وجحد الحقائق وغير ذلك، ولا يدخل فيه الغبن في البيع مع معرفة البائع بحقيقة ما بيع لأن الغبن كأنه وهبه.

وقال قوم: المراد بالآية: ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل أي في الملاهي والقيان، والشرب والبطالة:

فتجيء على هذا إضافة المال إلى ضمير المالكين.

وقوله تعالى: ﴿وَتَذَلُّوا بِهَا﴾ الآية، يقال: أدلى الرجل بالحجة، أو بالأمر الذي يرجو النجاح به، تشبيهاً بالذي يرسل الدلو في البئر يرجو بها الماء.

قال قوم: معنى الآية: تُسارعون في الأموال إلى المخاصمة إذا علمتم أن الحجة تقوم لكم، إما بالألّا تكون على الجاحد بينة، أو يكون مال أمانة، كاليتيم ونحوه، مما يكون القول فيه قوله، فالباء في ﴿بِهَا﴾ باء السبب.

وقيل معنى الآية: ترشوا بها على أكل أكثر منها، فالباء إلّزاق مجرد، وهذا القول يترجح لأنّ الحكام مظنة الرشا، إلا من عُصِمَ وهو الأقل، وأيضاً فإنّ اللفظتين متناسبتان: تُذَلُّوا مِنْ أُرْسِلَ الدُّلُو، والرشوة من الرشاء، كأنها يمد بها لتقصي الحاجة.

﴿وَتَذَلُّوا﴾ في موضع جزم عطفاً على ﴿تَأْكُلُوا﴾، وفي مصحف أبي: ﴿وَلَا تُذَلُّوا﴾ بتكرار حرف النهي، وهذه القراءة تؤيد جزم ﴿وَتَذَلُّوا﴾ في قراءة الجماعة.

وقيل: ﴿وَتَذَلُّوا﴾ في موضع نصب على الظرف، وهذا مذهب كوفي، أن معنى الظرف هو الناصب، والذي ينصب في مثل هذا عند سيبويه (أن) مضرة.

والفريق: القطعة والجزء و﴿بِالْإِثْمِ﴾ معناه: بالظلم والتعدي، وسُمي ذلك إثمًا لما كان الإثم معنى يتعلق بفاعله، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي

أنكم مبطلون آثمون، وهذه مبالغة في المعصية والجرأة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْأَهْلِ﴾، الآية - قال ابن عباس، وقتادة، والربيع، وغيرهم: نزلت على سؤال قوم من المسلمين النبي ﷺ عن الهلال. وما فائدة محاقه وكماله ومخالفته لحال الشمس؟

وَجُمِعَ وهو واحد في الحقيقة من حيث كونه هلالاً في شهر غير كونه هلالاً في الآخر، فإنما جمع أحواله من الهلالية، والهلال ليلتان بلا خلاف ثم يُقَسِّرُ، وقيل: ثلاث، وقال الأصمعي: هو هلال حتى يُحَجَّرَ ويستدير له كالخيط الرقيق، وقيل: هو هلال حتى يبهر بضوئه السماء وذلك ليلة سبع.

وقوله: ﴿مَوَاقِيتٌ﴾ معناه: لمحلّ الديون وانقضاء العدد والأكرية وما أشبه هذا من مصالح العباد، ومواقيت الحج أيضاً يُعرف بها وقته وأشهره.

﴿مَوَاقِيتٌ﴾ لا ينصرف، لأنه جمع لا نظير له في الأحاد، فهو جمع ونهاية جمع، إذ ليس يجمع. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿والحجج﴾ بكسر الحاء في جميع القرآن. وفي قوله: ﴿حَجَّ الْبَيْتِ﴾ في آل عمران، قال سيبويه: الحجّ كالرّد والشّد، والحجّ كالذّكر فهما مصدران بمعنى، وقيل: الفتح مصدر، والكسر الاسم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ﴾ الآية، قال البراء بن عازب، والزهري، وقتادة: سببها أن الأنصار كانوا إذا حجوا أو اعتمروا يلتزمون شرعاً ألا

يحول بينهم وبين السماء حائل، فكانوا يتسمنون ظهور بيوتهم على الجدران، وقيل: كانوا يجعلون في ظهور بيوتهم فتوحاً يدخلون منها، ولا يدخلون من الأبواب، وقيل غير هذا مما يشبهه فاختصرته، فجاء رجل منهم فدخل من باب بيته فعُيِّرَ بذلك فنزلت الآية.

وقال إبراهيم: كان يفعل ما ذكر قوم من الحجاز. وقال السدي: ناس من العرب، وهم الذين يسمون الحمس. قال: فدخل النبي ﷺ باباً ومعه رجل منهم، فوقف ذلك الرجل، وقال: «إني أحمس» فقال له النبي ﷺ: «وأنا أحمس»، فنزلت الآية. وروى الربيع أن النبي ﷺ دخل وخلفه رجل أنصاري فدخل وخرق عادة قومه، فقال له النبي ﷺ: «لم دخلت وأنت قد أحمرت؟» قال: «دخلت أنت فدخلت بدخولك، فقال له النبي ﷺ: «إني أحمس» أي من قوم لا يدينون بذلك، فقال الرجل: «وأنا ديني دينك» فنزلت الآية. وقال أبو عبيدة: الآية ضرب مثل، المعنى: ليس البر أن تسألوا الجهال، ولكن اتقوا واسألوا العلماء، فهذا كما يقال: أتيت هذا الأمر من بابه. وقال غير أبي عبيدة: المعنى: ليس البر أن تشدوا في الأسئلة عن الأهلة وغيرها، فتأتون الأمور على غير ما يجب، وهذا يحتمل الأول أسد. وأما ما حكاه المهدي، ومكي عن ابن الأنباري من أن الآية مثل في جماع النساء فبعيد مُعَيَّرَ نمط الكلام. وقرأ ابن كثير، وابن عامر،

لكم أيها المؤمنون أن توقعوه بهم .
ويحتمل أن يكون المعنى: والفتنة
أي الكفر والضلال، الذي هم فيه
أشد في الحرّم، وأعظم جزءاً من
القتل الذي عيروكم به في شأن ابن
الحضرمي .

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا عِنْدَ
الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ﴾ الآية، قال الجمهور:
كان هذا ثم نسخ، وأمر بالقتال في
كل موضع . قال الربيع: نسخه:

﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ . وقال
قتادة: نسخه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ
الْأَكْثَرُ مِنَ الْهَرَمِ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ﴾ وقال مجاهد: الآية
محكمة، ولا يجوز قتال أحد في
المسجد الحرام إلا بعد أن يقاتل .

وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش:
﴿وَلَا تَقْتُلُواهُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ
حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ فِيهِ فَإِنْ قَتَلُوكُمْ
فَاقْتُلُوهُمْ﴾ بالقتل في الأربعة، ولا
خلاف في الأخيرة أنها ﴿فَاقْتُلُوهُمْ﴾،
والمعنى على قراءة حمزة،
والكسائي، والأعمش: فإن قتلوا
منكم فاقتلوهم أيها الباقون، وذلك
كقوله تعالى: ﴿قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ
كَيْدًا فَمَا وهَبُوا﴾ أي: فما وهن
الباقون .

والانتهاه في هذه الآية: هو
الدخول في الإسلام، لأن غفران الله
ورحمته إنما تكون مع ذلك .

وقوله تعالى: ﴿وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ
فِتْنَةً﴾ أمر بالقتال لكل مشرك في كل
موضع، على قول من رآها ناسخة،
ومن رآها غير ناسخة قال: المعنى:
قاتلوا هؤلاء الذين قال الله فيهم:
﴿إِنْ قَتَلْتُمْ﴾، والأول أظهر، وهو

قاتلوا الذين هم بحالة من
يقاتلكم، ولا تعتدوا في
قتل النساء والصبيان
والرهبان وشبههم، فهي
محكمة على هذا القول،
وقال قوم: المعنى:
لا تعتدوا في القتال لغير
وجه الله، كالحمية وكسب
الذكر .

١٩١ - ١٩٢ تفسير قوله
عز وجل:

قال ابن إسحاق وغيره:
نزلت هذه الآية في شأن
عمرو بن الحضرمي
وواقده، وهي سرية
عبدالله بن جحش .
و﴿يَقْتُلُوهُمْ﴾ معناه:

أحكمتم غلبهم، ولقيتموهم قادين
عليهم، يقال: رجل ثقّف لقف، إذا
كان محكماً لما يتناوله من الأمور،
﴿وَأَخْرَجُوهُمْ﴾ قال الطبري: الخطاب
للمهاجرين، والضمير لكفار قريش .
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
بل الخطاب لجميع المؤمنين،
ويقال: أخرجوكم إذا أخرجوا
بعضهم الأجل قدراً . وهم النبي ﷺ
والمهاجرين .

﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ﴾ أي: الفتنة
التي حملوكم عليها، وراموكم بها
على الرجوع إلى الكفر، أشد من
القتل .

قال مجاهد: أي من أن يُقتل
المؤمن، فالقتل أخف عليه من
الفتنة . قال غيره: بل المعنى:
الفتنة التي فعلوا أشد في هتك
حُرّمات الحق من القتل الذي أبيع

وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ يَفْتَنُوهُمْ وَأَخْرَجُوهُمْ مِنْ حَيْثُ أَخْرَجْتُمْ وَالْفِتْنَةُ
أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلَا تَقْتُلُوا عِنْدَ الْمَسْجِدِ لِلزَّكَاةِ حَتَّى يَقْتُلُوَكُمْ
فِيهِ فَإِنْ قَتَلْتُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنْ أَنْهَوْا
فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَتْلُهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً وَيَكُونَ
الَّذِينَ لِلَّهِ فَإِنْ أَنْهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٩٣﴾ الشُّهْرُ الْحَرَامُ
يَا شَهْرَ الْحَرَامِ وَالْحَرَمِ نَتْ فَصَاصٌ فَمَنْ أَعْدَى عَلَيْكُمْ فَأَعْدُوا
عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْدَى عَلَيْكُمْ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ
الْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾ وَأَنْقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ
وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٩٥﴾ وَأَيُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ
فَإِنْ أَحْسَرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِفُوا بِسُكْرٍ حَتَّى تَبْلُغَ
الْهَدْيَ مَحَلَّهُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ بِوَدَعٍ أَوْ يُنْزِلُ مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ
مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ
فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةً
إِذَا جِئْتُمْ بِهَا عَشْرَةٌ كَأَمَلَةٌ ذَلِكَ لِمَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ حَسَابِي
الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَأَنْقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾

والكسائي، ونافع بخلاف عنه:
﴿البيوت﴾ بكسر الباء . وقرأ بعض
القراء: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ﴾ بتشديد نون
(لكن) ونصب (البر)، وقد تقدم
القول على ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ
ءَامَنَ بِاللَّهِ﴾، ﴿وَأَنْقُوا﴾ معناه: اجعلوا
بينكم وبين عقابه وقاية،
﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ﴾ ترج في حق البشر،
والفلاح: درك البغية .

وقوله تعالى: ﴿وَقَتْلُوا فِي سَبِيلِ
اللَّهِ﴾ الآية، هي أول آية نزلت في
الأمر بالقتال، قال ابن زيد،
والربيع: معناها: قاتلوا من قاتلكم،
وكنفوا عنكم كف عنكم، ولا تعتدوا
في قتال من لم يقاتلكم، وهذه
الموادعة منسوخة بآية براءة ويقول:
﴿وَقَتْلُوا الْمُشْرِكِينَ كَأَنَّهُمْ﴾ .

وقال ابن عباس، وعمر بن
عبد العزيز، ومجاهد: معنى الآية:

اتَّعَمَّنَكَ، ولا تخن من خانك». وقرأ الحسن ابن أبي الحسن: ﴿وَالْحُرْمَاتُ﴾ بسكون الراء.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَسَدَكَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. اختلف في نسخ هذه الآية حسب ما تقدم، وسُمي الجزاء على العدوان عدواناً كما قال: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّمْ﴾ إلى غير ذلك ﴿وَأَتَقُوا﴾ الآية. قيل: معناه في ألا تعتدوا. وقيل: في ألا تزيدوا على المثل.

وقال ابن عباس: نزلت هذه الآية وما هو في معناها بمكة والإسلام لم يُعَزَّ، فلما هاجر رسول الله ﷺ وعزَّ دينه أمر المسلمون برفع أمورهم إلى حكامهم، وأمروا بقتال الكفار، وقال مجاهد: بل نزلت هذه الآية بالمدينة بعد عمرة القضاء، وهي في التدرج في الأمر بالقتال.

﴿١٩٥﴾ - ﴿١٩٦﴾ تفسير قوله عز وجل: سبيل الله هنا: الجهاد - واللفظ يتناول - بعد - جميع سبيله.

وقال أبو عبيدة، وقوم: الباء في قوله: ﴿بِأَيْدِيكُمْ﴾ زائدة. التقدير: ﴿تَلْقُوا أَيْدِيكُمْ﴾.

وقال الجمهور: ذلك ضرب مثل. تقول: ألقى فلان يده في أمر كذا إذا استسلم، لأن المستسلم في القتال يلقي سلاحه بيده، فكذلك فعل كل عاجز في أي فعل كان، ومنه قول عبدالمطلب: ﴿والله إن إلقاءنا بأيدينا إلى الموت لعجز﴾.

وقال قوم: التقدير: لا تُلْقُوا أنفسكم بأيديكم، كما تقول: لا تفسد حالك برأيك.

﴿وَأَهْلَكُوا﴾ بضم اللام مصدر منهلك. وقرأ الخليل: ﴿التهلكة﴾

البلد، وحرمة المحرمين حين صددم بحرمة البلد والشهر والقِطَان حين دخلتم.

وقال الحسن بن أبي الحسن: نزلت الآية في أن الكفار سألوا النبي ﷺ: هل يقاتل في الشهر الحرام؟ فأخبرهم أنه لا يقاتل فيه، فهوما بالهجوم عليه فيه، وقُتِل من معه حين طمعوا أنه لا يُدافع فيه، فنزلت: ﴿النَّهْرُ الْحَرَامُ بِالنَّهْرِ الْحَرَامِ وَاللَّيْلَةُ بِاللَّيْلِ وَالْحَرَامُ فِي الْحَرَامِ﴾ أي هو عليكم في الامتناع من القتال أو الاستباحة بالشهر الحرام عليهم في الوجهين، فأيةً سلكوا فاسلكوا، ﴿وَاللَّيْلَةُ﴾ على هذا جمع حرمة عموماً: النفس، والمال، والعرض، وغير ذلك. فأباح الله بالآية مدافعتهم. والقول الأول أكثر.

وقالت فرقة: قوله: ﴿وَاللَّيْلَةُ بِالنَّهْرِ﴾ مقطوع مما قبله، وهو ابتداء أمرٍ كان في أول الإسلام أن من انتهك حرمتك نلت منه مثل ما اغتدي عليك به، ثم نسخ ذلك بالقتال.

وقالت طائفة: ما تناول من الآية التعدي بين أمة محمد والجنائيات ونحوها لم ينسخ، وجازز لمن تُعَدِّي عليه في مال أو جرح أن يتعدى بمثل ما تُعَدِّي عليه به إذا خفي ذلك له وليس بينه وبين الله في ذلك شيء، قاله الشافعي، وغيره وهي رواية في مذهب مالك.

وقالت طائفة - منهم مالك - ليس ذلك له، وأمور القصاص وقُت على الحكام. والأموال يتناولها قول النبي ﷺ: ﴿أَدَّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ

أمر بقتال مطلق، لا بشرط أن يبدأ الكفار، دليل ذلك قوله: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ لِلَّهِ﴾، والفتنة هنا: الشرك وما تابعه من أذى المؤمنين، قاله ابن عباس، وقتادة، والربيع، والسدي، و﴿الَّذِينَ﴾ هنا الطاعة والشرع. وقال الأعشى ميمون بن قيس:

هو دَانَ الرَّبَابَ إِذْ كَرِهُوا الدِيَدَ
بِنِ دِرَاكِبِ بَغَزْوَةٍ وَصِيَالِ
والانتهاء في هذا الموضع يصح مع عموم الآية في الكفار أن يكون الدخول في الإسلام، ويصح أن يكون أداة الجزية.

وسمي ما يُصنع بالظالمين عدواناً من حيث هو جزاء عدوان، إذ الظلم يتضمن العدوان، والعقوبة تسمى باسم الذنب في غير ما موضع والظالمون: هم - على أحد التأويلين - من بدأ بقتال، وعلى التأويل الآخر من بقي على كفر وقتية.

وقوله تعالى: ﴿النَّهْرُ الْحَرَامُ بِالنَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية. قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ويقسم والسدي، والربيع، والضحاك، وغيرهم: نزلت في عمرة القضية وعام الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ خرج معتمراً حتى بلغ الحديبية سنة ست، فصدَّه كفار قريش عن البيت، فانصرف، ووعد الله أنه سيدخله عليهم فدخله سنة سبع، فنزلت الآية في ذلك، أي: الشهر الحرام الذي غلبكم الله فيه وأدخلكم الحرم عليهم، بالشهر الحرام الذي صدوكم فيه.

ومعنى ﴿وَاللَّيْلَةُ بِالنَّهْرِ﴾ على هذا التأويل أي: حرمة الشهر، وحرمة

بكسر اللام، وهي مفعلة من هَلَكَ بشد اللام.

وروي عن أبي أيوب الأنصاري أنه كان على القسطنطينية فحمل رجل على عسكر العدو فقال قوم: ألقى بيده إلى التهلكة، فقال أبو أيوب: لا. إن هذه الآية نزلت في الأنصار حين أرادوا - لما ظهر الإسلام - أن يتركوا الجهاد، ويعمروا أموالهم، وأما هذا فهو الذي قال الله فيه: ﴿وَيَكُفِّرُ بَأْسَكُمْ أَنَّ تَلْفُوا بِأَيْدِيكُمْ أَنَّ تَكُفُّوا النَّفْسَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَتَخَافُوا الْعَيْلَةَ، فيقول الرجل: ليس عندي ما أنفق.

وقال حذيفة بن اليمان، وابن عباس، والحسن، وعطاء، وعكرمة، وجمهور الناس: المعنى: لا تلقوا بأيديكم بأن تتركوا النفقة في سبيل الله، وتخافوا العيلة، فيقول الرجل: ليس عندي ما أنفق.

وقال البراء بن عازب، وعبيدة السلماني: الآية في الرجل يقول: قد بلغت في المعاصي، فلا فائدة في التوبة، فينهمك بعد ذلك.

وقال زيد بن أسلم: المعنى: لا تسافروا في الجهاد بغير زاد، وقد كان فعل ذلك قوم فأداهم ذلك إلى الانقطاع في الطريق، أو الكون عالة على الناس.

وقوله: ﴿وَأَحْيَوُا﴾ قيل: معناه: في أعمالكم بامثال الطاعات، وروي ذلك عن بعض الصحابة.

وقيل: المعنى: وأحسنوا في الإنفاق في سبيل الله، وفي الصدقات، قاله زيد بن أسلم.

وقال عكرمة: المعنى: وأحسنوا الظن بالله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا نَجِّجْ وَالْفَرَّةَ يُرَى﴾ قال ابن زيد، والشعبي، وغيرهما: إتمامهما ألا يفسخا، وأن تُتَمَّما إذا بدأت بهما. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إتمامهما أن تحرم بهما من ذؤيرة أهلك، وفعله عمران بن حصين. وقال سفيان الثوري: إتمامهما أن تخرج قاصداً لهما، لا لتجارة، ولا لغير ذلك، ويؤيد هذا قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ وقال قتادة، والقاسم بن محمد: إتمامهما أن تحرم بالعمرة وتقضيها في غير أشهر الحج، وأن تتم الحج دون نقص ولا جبر بدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مبني على أن الدم في الحج والعمرة جبرٌ نقص، وهو قول مالك وجماعة من العلماء. وأبو حنيفة وأصحابه يرون أن كثرة الدم كمالٌ وزيادة، وكلما كثر عندهم لزوم الدم فهو أفضل، واحتجوا بأنه قيل للنبى ﷺ: ما أفضل الحج؟ فقال: «الحج والشح» ومالك قال بقوله يراه تُحج التطوع. وقالت فرقة: إتمامهما أن تفرد كل واحدة من حجة وعمرة ولا تفرق، وهذا على أن الأفراد أفضل. وقالت فرقة: القرآن أفضل وذلك هو الإمام عندهم.

وقال ابن عباس، وعلقمة، وإبراهيم، وغيرهم: إتمامهما أن تقضي مناسكهما كاملة بما كان فيهما من دماء.

بين الصفا والمروة عندنا خلافاً لأبي حنيفة، والوقوف بعرفة، والجمرة على قول ابن الماجشون.

وأما أعمال العمرة: فنية وإحرام وطواف وسعي، واختلف في فرض العمرة.

فقال مالك رحمه الله: هي سنة واجبة لا ينبغي أن تُتْرَك كالوتر، وهي عنده مرة واحدة في العام وهذا قول جمهور أصحابه.

وحكى ابن المنذر في «الإشراف» عن أصحاب الرأي أنها عندهم غير واجبة.

وحكى بعض القرويين والبغداديين عن أبي حنيفة أنه يوجبها كالحج - وبأنها سنة. قال ابن مسعود وجمهور

من العلماء، وأسند الطبري النص على ذلك عن رسول الله ﷺ.

وروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن عمر، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، والشعبي، وجماعة تابعين أنها واجبة كالفرض، وقاله ابن الجهم من المالكيين. وقال مسروق: الحج والعمرة فرض، نزلت العمرة من الحج منزلة الزكاة من الصلاة.

وقرأ الشعبي، وأبو حنيفة: «العمرة لله» برفع العمرة على القطع والابتداء. وقرأ ابن أبي إسحاق: «الحج» بكسر الحاء، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَأَيُّهَا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ﴾، وروي عنه: ﴿وَأَيُّهَا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ إِلَى الْبَيْتِ﴾، وروي غير هذا مما هو كالتفسير.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَحْرَمْتُمْ فَأَ

أَسْتَيْسَرَ بِنَ الْهَدْيِ»، قال علقمة، وعروة بن الزبير، وغيرهما: الآية فيمن أحصر بالمرض لا بالعدو. وقال ابن عباس وغيره بعكس ذلك، والمشهور من اللغة: أحصر بالمرض وأحصِر بالعدو، وفي «المجمل» لابن فارس: حَصِرَ بالمرض وأحصِرَ بالعدو. وقال الفراء: هما بمعنى واحد في المرض والعدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح أن (حصِر) إنما هي فيما حاط وجاور، فقد يحصر العدو والماء ونحوه، ولا يحصر المرض. وأحصِر معناه: جعل الشيء ذا حصر كأقْبَر وأحسى وغير ذلك، فالمرض والماء والعدو وغير ذلك قد يكون محصراً لا حاصراً، ألا ترى أن العدو كان محصراً في عام الحديبية؟ وفي ذلك نزلت هذه الآية عند جمهور أهل التأويل - وأجمع جمهور الناس على أن المخصر بالعدو يحل حيث أحصر وينحر هديه إن كان ثم هدي ويحلق رأسه. وقال قتادة، وإبراهيم: يبعث بهديه إن أمكنه، فإذا بلغ محله صار حلالاً، ولا قضاء عليه عند الجميع، إلا أن يكون ضرورة فعليه حجة الإسلام. وقال ابن الماجشون: ليست عليه حجة الإسلام وقد قضاها حين أحصر، وهذا ضعيف لا وجه له. وقال أشهب: يهدي المخصر بعدو هدياً من أجل الحصر. وقال ابن القاسم: لا يهدي شيئاً إلا إن كان معه هدي فأراد نحره، ذكره ابن أبي زيد، وقال عطاء وغيره: المخصر بالمرض كالمخصر بالعدو.

وقال مالك وجمهور من العلماء: والمُخصِر بالمرض لا يحل له إلا البيت، ويقيم حتى يفتق وإن أقام سنين، فإذا وصل البيت بعد فوت الحج قطع التلبية في أوائل الحرم وحل بعمره، ثم تكون عليه حجة قضاء، وفيها يكون الهدي، وقيل: إن الهدي يجب في وقت الحصر أولاً. ولم ير ابن عباس من أحصره المرض داخلاً في هذه الآية، وقال: إن المريض إن لم يكن معه هدي حل حيث حُبِس، وإن كان معه هدي لم يحل حتى يبلغ الهدي محله ثم لا قضاء عليه. قال: وإنما قال الله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾، والأمن إنما هو من العدو فليس المريض في الآية.

﴿مَا﴾ في موضع رفع، أي فالواجب، أو فعليكم ما استيسر، ويحتمل أن تكون في موضع نصب، أي فانحروا، أو فاهدوا.

وما استيسر - عند جمهور أهل العلم -: شاة، وقال ابن عمر، وعروة بن الزبير: ما استيسر: جَمَلٌ دون جَمَلٍ، وبقرة دون بقرة. وقال الحسن: أعلى الهدي بَدَنَةٌ، وأوسطه بقرة، وأخسه شاة.

﴿الْمَدْيِ﴾: جمع هَدْيَةٍ كَجَدْيَةٍ السرج، وهي البراد جمعها جَدْيٌ. ويحتمل أن يكون الهدي مصدراً سُمِّيَ به كالبُرْهَمِ ونحوه، فيقع للإفراد وللجمع. وقال أبو عمرو بن العلاء: لا أعرف لهذه اللفظة نظيراً. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ﴾ الآية، الخطاب لجميع الأمة: مُخصِرٌ ومُخَلَى. ومن العلماء من يراها للمخصرين خاصة.

ومحل الهدي حيث يحل نحره، وذلك لِمَنْ لم يُحصِر بيني، ولمن أحصرَ بعدوً حيث أحصر إذا لم يمكن إرساله.

وأما المريض فإن كان له هدي فيرسله إلى محله.

والترتيب: أن يرمي الحاج الجمرة، ثم ينحر، ثم يحلق، ثم يطوف طواف الإفاضة، فإن نحر رجل قبل الرمي أو حلق قبل النحر فلا حرج حسب الحديث ولا دم. وقال قوم: لا حرج في الحج ولكن يهريق دمًا. وقال عبد الملك بن الماجشون - من أصحابنا -: إذا حلق قبل أن ينحر فليهد. وإن حلق رجل قبل أن يرمي فعليه دم قولاً واحداً في المذهب.

قال ابن الموزان، عن مالك: ويمرُّ المُوسَى على رأسه بعد الرمي، ولا دم في ذلك عند أبي حنيفة وجماعة معه. وقرأ الزهري، والأعرج، وأبو حنيفة: ﴿الْهَدْيِ﴾ بكسر الدال وشد الباء في الموضوعين وأحدثه هدية، ورويت هذه القراءة عن عاصم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَتْ يَدَاكَ يُنْفِقُ﴾ الآية، والمعنى: فحلق لإزالة الأذى، ففِدْيَةٌ، وهذا هو فحوى الخطاب عند أكثر الأصوليين.

ونزلت هذه الآية في كعب بن عجرة حين رآه رسول الله ﷺ ورأسه يتناثر فأمره بالجلق، ونزلت الرخصة.

﴿وَدْيَةٍ﴾ رفع على خبر الابتداء. والصيام عند مالك، وعطاء، ومجاهد، وإبراهيم، وغيرهم، وجميع أصحاب مالك -: ثلاثة أيام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه شِدَّةٌ على القادم مكة من سائر الأقطار لما أسقط سَفْرًا، والمكي لا يقتضي حاله سَفْرًا، في عمرة ولا حج، لأنه في بقعة الحج. فلم يُلْزَم شيئاً لأنه لم يُسْقِط شيئاً، ومن قال إن اسم التمتع وحكمه إنما هو من جهة التمتع بالنساء والطيب وغير ذلك، فيرد عليه أنه يستغرق قوله: ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْمَعْرِ إِلَىٰ الْحَجِّ﴾ المكي وغيره على السواء في القياس، فكيف يشتد مع ذلك على الغريب الذي هو أعذر، ويُلْزَمُ هدياً ولا يُفْعَلُ ذلك بالمكي؟ فيترجح بهذا النظر أن التمتع إنما هو من أجل إسقاط أحد السفريين. إلا أن أبا عبيد قال - في كتاب الناسخ والمنسوخ له -: إن العمرة في أشهر الحج ممنوعة للمكي، لا تجوز له، ورخص الله تعالى للقادم، لطول بقائه محرماً، وقرن الرخصة بالهدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه شدة على أهل مكة، وبهذا النظر يحسن أن يكون التمتع من جهة استحباحة ما لا يجوز للمحرم، لكنه قول شاذ لا يقول عليه.

وجُلُّ الأمة على جواز العمرة في أشهر الحج للمكي، ولا دم عليه، وذكر أبو عبيد القولين عن ابن عمر، واستند إليه في الذي وافقه، وقد حكاه الطبري عن ابن عباس وقال: إنه قال: يا أهل مكة، لا مُنْعَةٌ لكم، إن الله قد أحلها لأهل الأفاق، وحرّمها عليكم، إنما يَفْقُطُ أحدكم وادياً ثم يُحرم بعمرة، فمعنى هذا أنهم متى أحرموا داموا إلى الحج.

أشبهه باللفظ، إلا أن يُتَخَيَّلَ الخوف من المرض، فيكون الأمان منه. وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَنَّعَ بِالْمَعْرِ إِلَىٰ الْحَجِّ﴾ الآية.

قال عبدالله بن الزبير، وعلقمة، وإبراهيم: الآية في الْمُخَصَّرِينَ دون الْمُحَلَّى سبيلهم. وصورة التمتع عند ابن الزبير أن يُحَصَّرَ الرجلُ حتى يفوته الحج، ثم يصل إلى البيت، فيحل بعمرة، ويقضي الحج مِنْ قَابِلٍ، فهذا قد تمتع بما بين العمرة إلى حج القضاء. وصورة التمتع المُحَصَّرِ عند غيره أن يُحَصَّرَ فيحل دون عمرة ويؤخرها حتى يأتي مِنْ قَابِلٍ فيعتمر في أشهر الحج وَيُحْجُّ مِنْ عامه.

وقال ابن عباس، وجماعة من العلماء: الآية في الْمُخَصَّرِينَ وغيرهم ممن خلي سبيله. وصورة التمتع أن تجتمع فيه ستة شروط: أن يكون معتمراً في أشهر الحج، وهو من غير حاضري المسجد الحرام، ويحل، وينشئ الحج من عامه ذلك، دون رجوع إلى وطنه، أو ما سواه بُغْدًا. هذا قول مالك وأصحابه.

واختلف لم سُمِّيَ مُتَمَنَّعًا؟ - فقال ابن القاسم: لأنه تمتع بكل ما لا يجوز للمحرم ففعله، من وقت حله في العمرة إلى وقت إنشائه الحج، وقال غيره: سُمِّيَ متمنّعاً لأنه تمتع بإسقاط أحد السفريين، وذلك أن حق العمرة أن تقضد بسفر، وحق الحج كذلك، فلما تمتع بإسقاط أحدهما ألزمه الله هدياً، كالفارن الذي يجمع الحج والعمرة في سفر واحد.

والصدقة: ستة مساكين، لكل مسكين نصف صاع، وذلك مُدَّان بِمُدِّ النَّبِيِّ ﷺ، والنسك: شاة بإجماع، ومن ذبح أفضل منها فهو أفضل.

وقال الحسن بن أبي الحسن، وعكرمة: الصيام عشرة أيام، والإطعام عشرة مساكين. وقرأ الزهري: ﴿أَوْ نَسْكَ﴾ بسكون السين. وقال سعيد بن جبیر، ومجاهد: النسك: شاة، فإن لم يجدها فقيمتها يُشْتَرَى بها طعامٌ فَيُطْعَمُ منه مُدَّان لكل مسكين، فإن لم يجد القيمة عرفها، وعرف ما يشتري بها من الطعام، وصام عن كل مُدِّين يوماً.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ذلك كله حيث شاء، وقاله إبراهيم، وهو مذهب مالك وأصحابه، إلا ابن الجهم فإنه قال: لا يكون النسك إلا بمكة. وقال عطاء - في بعض ما روي عنه - وأصحاب الرأي: النسك بمكة، والصيام والإطعام حيث شاء. وقال الحسن بن أبي الحسن وطاوس وعطاء أيضاً، ومجاهد، والشافعي: النسك والإطعام بمكة، والصيام حيث شاء. والمفتدي مخير في أي هذه الثلاثة شاء، وكذلك قال مالك وغيره في كل ما في القرآن، أو فإنه على التخيير.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ قال علقمة، وعروة: المعنى: إذا برئتم من مرضكم، وقال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما: إذا أمنتم من خوفكم من العدو المُخَصَّرِ، وهذا

ذِي الْحِجَّةِ وَالْحَجُّ اشْهُرٌ مَعْلُومَةٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِ الْحَجَّ فَلَا رَفْعَ وَلَا سَوْفَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ حَبِيرٍ بِسْمَةِ اللَّهِ وَكَرَّوْا قَارِبَاتِ حَبْرَ الزَّادِ النَّقْوَى وَأَقْوُونَ يَتَأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣٧﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَيْكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قِبَلِهِ لَبِئْسَ الْأَصْحَابُ ﴿٣٨﴾ ثُمَّ أَفِضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّذِينَ تَبَتُّوا عَنْهُ غَفُورًا ﴿٣٩﴾ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ مَنَسِكِكُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ إِشْرَافِكُمْ مِنَ الْبَنَاتِ مَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ مِنْكُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَالَّذِينَ تَبَتُّوا مِنْ آخِرِهِ مَنْ خَلَقَ ﴿٤٠﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٤١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نُصِيبُ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤٢﴾

٣١

ذِي الْحِجَّةِ، لَأَنَّ الْحِجَّةَ، لِأَنَّ بِنَاقِضَاهُ يَنْقُضِي الْحَجَّ. وَقَالَ عَلِيٌّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَابْنُ عَمْرٍو، وَمَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَجَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: مِنْ فَاتِهِ صِيَامُهَا قَبْلَ يَوْمِ النَّحْرِ، فَلَهُ صِيَامُهَا فِي أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، لِأَنَّهَا مِنْ أَيَّامِ الْحَجِّ. وَقَالَ قَوْمٌ: لَهُ ابْتِدَاءٌ تَأْخِيرُهَا إِلَى أَيَّامِ التَّشْرِيقِ، لِأَنَّهُ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ الصِّيَامُ، إِلَّا بِأَلَا يَجِدُ يَوْمَ النَّحْرِ هَدْيًا.

وقوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ إِذَا رَكَعْتُمْ﴾ قال مجاهد، وعطاء، وإبراهيم: المعنى

إذا رجعتُم من منى، فمن بقي بمكة صامها، ومن نهض إلى بلده صامها في الطريق. وقال قتادة والربيع: هذه رخصة من الله تعالى، والمعنى: إذا رجعتُم إلى أوطانكم، فلا يجب على أحد صوم السبعة إلا إذا وصل وطنه، إلا أن يتشدّد أحد كما يفعل من يصوم في السفر في رمضان. وقرأ زيد بن علي: ﴿وَسَبِّعَةً﴾ بالنصب. أي: وصوموا سبعة، ولما جاز أن يتوهم متوهم التخيير بين ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع، أزيل ذلك بالجملة من قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشْرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: كاملة في الثواب كمن أهدي، وقيل: كاملة في الثواب كمن لم يتمتع، وهذا على أن الحج الذي لم تكثر فيه الدماء أخلص وأفضل، خلافاً

وقال السدي: المتمتع هو الذي يفسخ الحج في العمرة، وذلك لا يجوز عند مالك. وفي صحيح مسلم حديث سُرَاقَةَ بِنْتِ مَالِكٍ. قال: (قلت: يا رسول الله. فسنخ الحج في العمرة - أئنا خاصة أم للأبد؟) فقال: (بل للأبد أبدي).

وإنما شرط في المتمتع أن يحل في أشهر الحج، لأنها مدة يملكها الحج، فمن كان فيها محرماً فحقه أن يصل الإحرام إلى الحج. وفي كتاب مسلم إيعاب الأحاديث في هذا المعنى، ومذهب عمر، وقول أبي ذر: أن متعة النساء ومتعة الحج خاصتان لأصحاب النبي ﷺ. وقال طاوس: (من اعتمر في غير أشهر الحج ثم أقام حتى حج من عامه فهو متمتع). وقال الحسن بن أبي الحسن: (من اعتمر بعد يوم النحر في بقية العام فهو متمتع). وهذان القولان شاذان لم يوافقهما أحد من العلماء، وقد تقدم القول فيما استيسر من الهدي.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله: ﴿لَمْ يَجِدْ﴾ إما بعدم المال، وإما بعدم الحيوان - ﴿وَفِي لَحْيٍ﴾ قال عكرمة، وعطاء: له أن يصومها في أشهر الحج، وإن كان لم يحرم بالحج، وقال ابن عباس، ومالك بن أنس: له أن يصومها منذ يحرم بالحج. وقال عطاء أيضاً، ومجاهد: لا يصومها إلا في عشر ذي الحجة. وقال ابن عمر، والحسن، والحكم: يصوم يوماً قبل يوم التروية، ويوم التروية، ويوم عرفة، وكلهم يقول: لا يجوز تأخيرها عن عشر

لأبي حنيفة. وقيل: كاملة: توكيد. كما تقول: كتبت بيدي. وكقوله تعالى: ﴿نَحَرَ عَلَيْهِمُ السَّقْفَ مِنْ قَوْنِهِمْ﴾ وقيل: لفظها الإخبار ومعناها الأمر. أي: أكملوها فذلك فرضها.

وقال الأستاذ الأجل أبو الحسن علي بن أحمد: المعنى: تلك كاملة، وتكرر الموصوف تأكيداً، كما تقول: زيد رجل عاقل.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِيَنْ لَمْ يَكُنْ أَهْلَهُ﴾ الآية، الإشارة إلى التمتع وهديه وحكمه، وهذا على قول من يرى أن المكي لا تجوز له المتعة في أشهر الحج. فكأن الكلام: ذلك الترخيص - ويتأيد هذا بقوله: ﴿لَنْ﴾ لأن اللام أبداً إنما تجيء مع الرخص، تقول: لك أن تفعل كذا، وأما مع الشدة فالوجه أن تقول:

عليك. وأما من يرى أن المكئي يعتمر، ولا دم عليه، لأنه لم يسقط سفراً، فالإشارة به ﴿ذَلِكَ﴾ - على قوله - هي إلسى ﴿أَلْتَنَّى﴾، أي ذلك الاشتداد والإلزام.

واختلف الناس في ﴿حَايِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ بعد الإجماع على أهل مكة وما اتصل بها. وقال الطبري: بعد الإجماع على أهل الحرم، وليس كما قال - فقال بعض العلماء: من كان حيث تجب الجمعة عليه بمكة فهو حضري، ومن كان أبعد من ذلك فهو بدوي. فجعل اللفظة من الحضارة والبدواة. وقال بعضهم: من كان بحيث لا تقصر الصلاة إلى مكانه، فهو حاضر أي مشاهد، ومن كان أبعد من ذلك فهو غائب. وقال عطاء بن أبي رباح: مكة وضجنان وذو طوى وما أشبهها حاضر المسجد الحرام. وقال ابن عباس ومجاهد: أهل الحرم كُلُّهُ حاضر المسجد الحرام. وقال من كان دون المواقيت من كل جهة حاضر المسجد الحرام. وقال الزهري: من كان على يوم أو يومين فهو من حضري المسجد الحرام.

ثم أمر تعالى بتقواه على العموم، وحذر من شديد عقابه.

وقوله تعالى: ﴿أَلْحَجُّ أَنَّهُمْ مَمْلُوكَاتٌ﴾. في الكلام حذف تقديره: أشهر الحج أشهر. أو: وقت الحج أشهر. أو: وقت عمل الحج أشهر والغرض إنما هو أن يكون الخبر عن الابتداء هو الابتداء نفسه والحج ليس بالأشهر، فاحتيج

إلى هذه التقديرات. ومن قدر الكلام: الحج في أشهر فيلزمه مع سقوط حرف الجر نصب الأشهر، ولم يقرأ بنصبها أحد.

وقال ابن مسعود، وابن عمر، وعطاء، والربيع، ومجاهد والزهري: أشهر الحج: شوال وذو القعدة وذو الحجة كله. وقال ابن عباس، والشعبي، والسدي، وإبراهيم: هي: شوال وذو القعدة وعشر ذي الحجة، والقولان لمالك رحمه الله، حكى الأخير ابن حبيب. وجمع على هذا القول الأخير الاثنان وبعض الثالث، كما فعلوا في جمع عشر فقالوا: عشرون لعشرين، ويومين من الثالث، وكما قال امرؤ القيس:

ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال
فمن قال: إن ذا الحجة كلُّه من أشهر الحج، لم ير ذمّاً فيما يقع من الأعمال بعد يوم النحر، لأنها في أشهر الحج، وعلى القول الآخر ينقضي الحج بيوم النحر ويلزم الدُّمُّ فيما عمل بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ رَضَ فِيهِمْ لَمَلَّحٌ﴾ أي من ألزمه نفسه، وأصل الفرض: الحزُّ الذي يكون في السهام والقسي وغيرها، ومنه فريضة النهر والجبل، فكأن من التزم شيئاً - وأثبتته على نفسه - قد فرضه.

وقرئ الحج هو بالثنية، والدخول في الإحرام - والتلبية تبع لذلك. و﴿مَنْ﴾ رفع بالابتداء، ومعناها الشرط، والخبر قوله: ﴿وَمَنْ﴾ لأن ﴿مَنْ﴾ ليست بموصولة، فكأنه قال:

«فرجل فرض». وقوله: ﴿فَلَا رَفَتْ﴾ يحتمل أن يكون الخبر، وتكون ﴿رَفَتْ﴾ صفة.

وقوله تعالى: ﴿فِيهِمْ﴾. ولم يجيء الكلام «فَرَضَ فِيهَا». فقال قوم: هما سواء في الاستعمال. وقال أبو عثمان المازني. الجمع الكثير لما لا يعقل يأتي كالواحدة المؤنثة، والقليل ليس كذلك، تقول: الأجداع انكسران، والجدوع انكسرت. ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ ثم قال: منها.

وقرأ نافع: ﴿فَلَا رَفَتْ وَلَا سُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ بنصب الجميع، وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿فَلَا رَفَتْ وَلَا سُوقَ وَلَا جِدَالَ﴾ بالرفع في الاثنتين ونصب الجدل. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بالرفع في الثلاثة. ورويت عن عاصم في بعض الطرق.

و﴿لَا﴾ بمعنى ليس في قراءة الرفع، وخبرها محذوف على قراءة أبي عمرو، و﴿فِي لَمَلَّحٍ﴾ خبر ﴿وَلَا جِدَالَ﴾. وحذف الخبر هنا هو مذهب أبي علي. وقد خولف في ذلك، بل ﴿فِي لَمَلَّحٍ﴾ هو خبر الكل، إذ هو في موضع رفع في الوجهين لأن ﴿وَلَا﴾ إنما تعمل على بابها فيما يليها، وخبرها مرفوع باق على حاله من خبر الابتداء. وظن أبو علي أنها بمنزلة ليس في نصب الخبر، وليس كذلك، بل هي والاسم في موضع الابتداء يطلبان الخبر، و﴿فِي لَمَلَّحٍ﴾ هو الخبر في قراءة كلها بالرفع، وفي قراءة كلها بالنصب.

والتحرير: أن ﴿فِي لَحَجٍّ﴾ في موضع نصب بالخبر المقدر كأنك قلت: «موجود في الحج»، ولا فرق بين الآية وبين قولك: زيد في الدار.

وقال ابن عباس، وابن جبير، والسدي، وقتادة، ومالك، ومجاهد، وغيرهم: الرفث، الجماع. وقال عبدالله بن عمر، وطاوس، وعطاء، وغيرهم: الرفث: الإعرابة والتعريب، وهو الإفحاش بأمر الجماع عند النساء خاصة، وهذا قول ابن عباس أيضاً، وأشد وهو محرم:

وَهُنَّ يَمْتَشِينَ بِنَا قَمِيصًا
إِنْ تَضَدَّقَ الطَّيْرُ نَيْكَ لَمِيصًا
فقليل له: ترفث وأنت محرم؟ فقال: إنما الرفث ما كان عند النساء. وقال قوم: الرفث الإفحاش بذكر النساء، كان ذلك بحضرتهم أم لا. وقد قال ابن عمر للحادي: لا تذكر النساء، وهذا يحتمل أن تحضر امرأة فلذلك نهاه، وإنما يعوي القول من جهة ما يلزم من توقيف الحج. وقال أبو عبيدة: الرفث اللغا من الكلام وأشد:

عَنِ اللَّغَا وَرَفَثِ التَّكَلُّمِ
ولا حجة في البيت، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَلَا رَفُوثٌ﴾.

وقال ابن عباس، وعطاء، والحسن، وغيرهم: الفسوق: المعاصي كلها لا يختص بها شيء دون شيء.

وقال ابن عمر، وجماعة معه: الفسوق: المعاصي في معنى الحج كقتل الصيد وغيره.

وقال ابن زيد، ومالك: الفسوق: الذبح للأصنام. ومنه قول الله تعالى: ﴿أَوْ فَسَقًا أَوْلَىٰ لِيَخْرِجَ اللَّهُ بِهِ﴾.

وقال الضحاك: الفسوق: التنازب بالألقاب، ومنه قول الله تعالى: ﴿يَسَّ الْأَيْتُمُ الْفُسُوقُ﴾.

وقال ابن عمر أيضاً، ومجاهد، وعطاء، وإبراهيم: الفسوق: السباب. ومنه قول النبي ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقالة كُفْرًا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعموم جميع المعاصي أولى الأفعال.

وقال قتادة، وغيره: الجدل هنا: السباب.

وقال ابن مسعود، وابن عباس، وعطاء، ومجاهد: الجدل هنا: أن تمازي مسلماً حتى تغضبه.

وقال مالك، وابن زيد: الجدل هنا: أن يختلف الناس أيهم صادف موقف إبراهيم عليه السلام، كما كانوا يفعلون في الجاهلية، حين كانت قريش تقف في غير موقف سائر العرب، ثم يتجادلون بعد ذلك.

وقال محمد بن كعب القرظي: الجدل: أن تقول طائفة: حجنا أبْرُ من حجكم، وتقول الأخرى مثل ذلك.

وقالت فرقة: الجدل هنا: أن تقول طائفة: الحج اليوم، وتقول طائفة: بل الحج غداً، وقيل: الجدل كان في الفخر بالآباء.

وقال مجاهد، وجماعة معه: الجدل: أن تُنسى العرب المشهور

حسب ما كان النسيء عليه، فقرر الشرع وقت الحج وبيئته وأخبر أنه حتم لا جدال فيه، وهذا أصح الأقوال وأظهرها.

والجدال مأخوذ من الجدل وهو القتل، كأن كل مجادل يقاتل صاحبه، وأما ما كان النسيء عليه، فظاهر سير ابن إسحاق وغيرها من الدواوين، أن الناسء كان يحل المحرم لثلاث تتوالى على العرب ثلاثة أشهر لا إغارة فيها، ويحرم صفر وربما سموه المحرم، وتبقى سائر الأشهر بأسمائها حتى يأتي حجهم في ذي الحجة على الحقيقة.

وأسد الظبيري عن مجاهد أنه قال: كانوا يُسقطون المحرم ثم يقولون: صفران لصفر وشهر ربيع الأول، ثم كذلك ينقلون أسماء الشهور، ويتبادل وقت الحج في الحقيقة لكنه يبقى في ذي الحجة بالتسمية لا في حقيقة الشهر. قال: فكان حج أبي بكر سنة تسع في ذي القعدة على الحقيقة، ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر في ذي الحجة على الحقيقة، وقال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدِ اسْتَدَارَ الْحَدِيثَ، وَنَزَلَتْ: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ أَي قَد تَبَيَّنَ أَمْرُهُ فَلَا يَنْتَقِلُ شَهْرَ الْبَيْتِ أَبَدًا».

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقَعَّلُوا مِنْ حَبِيرٍ يَسَلَّمُهُ أَلَّهُ﴾ المعنى: فَيُسَبِّحُ عَلَيْهِ، وفي هذا تحضيض على فعل الخير.

وقوله تعالى: ﴿وَتَكَرَّرُوا﴾ الآية، قال ابن عمر، وعكرمة، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: نزلت الآية في طائفة من العرب كانت تجيء إلى الحج بلا زاد، ويقول بعضهم: نحن

المتوكلون، ويقول بعضهم: كيف نحج بيت الله ولا يطعمنا؟ فكانوا يبقون عالة على الناس، فنهوا عن ذلك، وأمروا بالتزود.

وقال بعض الناس: تزودوا الرفيق الصالح، وهذا تخصيص ضعيف، والأولى في معنى الآية: «وتزودوا لمعادكم من الأعمال الصالحة».

وفي قوله تعالى: ﴿فَاِنَّكَ حَيَّرَ الرَّادِّ الْمُتَّقِينَ﴾ حض على التقوى.

وخص أولوا الأبواب بالخطاب، - وإن كان الأمر يعم الكل - لأنهم الذين قامت عليهم حجة الله، وهم قابلوا أوامره، والناهضون بها، وهذا على أن اللب لب التجارب، وجودة النظر، وإن جعلناه لب التكليف فالنداء بأولي الأبواب عام لجميع المكلفين.

واللب: العقل. تقول العرب: لَبِيتُ بضم الباء الأولى أَلْبُ بضم اللام حكاه سيويه، وليس في الكلام فَعَلٌ يَفْعُلُ بضم العين فيهما غير هذه الكلمة.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية. الجُنَاح أعم من الإثم، لأنه فيما يقتضي العقاب، وفيما يقتضي العتاب والنزجر، و﴿تَبَتُّوْا﴾ معناه: تطلبون بمحاولتكم.

وقال ابن عمر، وابن عباس، ومجاهد، وعطاء: إن الآية نزلت لأن العرب تخرجت لما جاء الإسلام أن يحضروا أسواق الجاهلية كعكاظ وذو المجاز ومجثة، فأباح الله تعالى ذلك. أي: لا درك في أن تتجروا وتطلبوا الربح.

وقال مجاهد: كان بعض العرب لا يتجرون مذ يُحرمون فنزلت الآية في إباحة ذلك.

وقال ابن عمر: فيمن أكره ليحج - حجه تام، ولا حرج عليه في ابتغاء الكبراء.

وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وابن الزبير ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ «في مواسم الحج».

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِّنْ عَرَقَاتِ﴾ أجمع أهل العلم على تمام حج من وقف بعرفة بعد الزوال وأفاض نهاراً قبل الليل، إلا مالك بن أنس فإنه قال: لا بد أن يأخذ من الليل شيئاً. وأما من وقف بعرفة بالليل فلا خلاف بين الأمة في تمام حجة. وأفاض القوم أو الجيش إذا اندفعوا جملة، ومنه: أفاض الرجل في الكلام، ومنه: فاض الإناء، وأفضته، ومنه: المفيض في القداح. والتنوين في ﴿عَرَقَاتِ﴾ على حده في «مسلمات» الكسرة مقابلة للياء في مسلمين، والتنوين مقابل للنون. فإذا سميت به شخصاً ترك، وهو معرف على حده قبل أن تسمى به.

فإن كان عرفات اسماً لتلك البقعة كلها فهو كما ذكرنا، وإن كان جمع عرفة فهو كمسلمات دون أن يسمى به. وحكى سيويه كسر التاء من ﴿عَرَقَاتِ﴾ دون تنوين في حالة النصب والخفض مع التعريف. وحكى الكوفيون فتحها في حالة النصب والخفض تشبيهاً ببناء فاطمة وطلحة. وسميت تلك البقعة

عرفات، لأن إبراهيم عرفها حين رآها على ما وصفت له. قال السدي، وقال ابن عباس: سميت بذلك لأن جبريل عليه السلام كان يقول لإبراهيم عليه السلام: هذا موضع كذا فيقول: قد عرفت، وقيل: سميت بذلك لأن آدم عرف بها حواء حين لقيها هناك، والظاهر أنه اسم مرتجل كسائر أسماء البقاع. وعرفة هي نعمان الأراك. وفيها يقول الشاعر:

تَزَوَّدْتُ مِّنْ نَّعْمَانَ عُوْدًا زَاكِيَةً
لِيَهْتَدِيَ وَلَكِنْ مِّنْ يُبَلِّغُهُ هُنْدَا
و﴿النَّشْرُ الْحَرَاةُ﴾ جمع كله، وهو ما بين جبلي المزدلفة من حد مفضي مأزمي عرفة إلى بطن محسر. قال ذلك ابن عباس، وابن جبير، والربيع، وابن عمر، ومجاهد: فهي كلها مشعر، إلا بطن محسر، كما أن عرفة كلها موقف، إلا بطن عرنة يفتح الراء وضمها.

رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «عرفة كلها موقف إلا بطن عرنة، والمزدلفة كلها مشعر، وارتفعوا عن بطن محسر». وذكر هذا عبدالله بن الزبير في خطبته، وفي المزدلفة قرن قزح الذي كانت قريش تقف عليه.

وذكر الله تعالى عند المشعر الحرام نَذَبَ عند أهل العلم. وقال مالك: من مرَّ به ولم ينزل فعليه دم. وقال الشافعي: من خرج من مزدلفة قبل نصف الليل فعليه دم، وإن كان بعد نصف الليل فلا شيء عليه. وقال الشعبي، والنخعي: من فاته الوقوف بمزدلفة فاته الحج. وقوله: ﴿وَأَذْكُرُهُ كَمَا هَدَيْتُمْ﴾ تعديد

تكون إفاضة أخرى، وهي التي من المزدلفة فتجيء **﴿ثُمَّ﴾** على هذا الاحتمال على بابها، وعلى هذا الاحتمال عَوَّل الطبري. وقرأ سعيد بن جبير: **﴿النَّاسِي﴾** وتأويله آدم عليه السلام، ويجوز عند بعضهم تخفيف الياء فيقول: الناس كالقاض والهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما جوازه في العربية فذكره سيبويه، وأما جوازه مقروءاً به فلا أحفظه.

وأمر تعالى بالاستغفار لأنها مواطنه، ومطأ القبول، ومساقط الرحمة، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ: **﴿خطب عشية عرفة﴾** فقال: **﴿أيها الناس: إن الله تطول عليكم في مقامكم هذا فقبل من محسنكم، ووهب مسيئكم لمحسنكم، إلا التبعات فيما بينكم، أفيضوا على اسم الله﴾**. فلما كان غداة جمع خطب فقال: **﴿أيها الناس إن الله تطول عليكم فعوض التبعات من عنده﴾**.

وقالت فرقة: المعنى: واستغفروا الله من فعلكم الذي كان مخالفاً لسنة إبراهيم في وقوفكم بقرح من المزدلفة.

وقوله تعالى: **﴿فَلَمَّا فَصَّخِشَهُ مُنَايِكَكُمْ﴾** الآية، قال مجاهد: المناسك الذبائح وهراقة الدماء. والمناسك عندي: العبادات في

للنعمة، وأمر بشكرها، ثم ذكروهم بحال ضلالهم ليظهر قدر الإنعام، والكاف في **﴿كَمَا﴾** نعت لمصدر محذوف و**﴿مَا﴾** مصدرية أو كافة، و**﴿وَإِنْ﴾** مخففة من الثقيلة، ويدل على ذلك دخول اللام في الخبر، هذا قول سيبويه. وقال الفراء: هي النافية بمعنى (ما) واللام بمعنى (إلا) والضمير في **﴿قِيلَ لَهُ﴾** عائذ على الهدى.

﴿١٩٩﴾ - **﴿٢٠٣﴾** تفسير قوله عز وجل: قال ابن عباس، وعائشة، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم: المخاطب بهذه الآية قريش، ومن ولدت، وهم الحمس، وذلك أنهم كانوا يقولون: نحن قطين الله فينبغي لنا أن نعظم الحرم، ولا نعظم شيئاً من الحل، فسئوا شق الثياب في الطواف إلى غير ذلك، وكانوا مع معرفتهم وإقرارهم أن عرفة هي موقف إبراهيم، لا يخرجون من الحرم، ويقفون بجمع، ويفضون منه، وقف الناس بعرفة. فليل لهم أن يفيضوا مع الجملة.

﴿ثُمَّ﴾ ليست في هذه الآية للترتيب، إنما هي لعطف جملة كلام على جملة هي منها منقطعة، وكان رسول الله ﷺ من الحمس، ولكنه كان يقف مذ كان بعرفة هداية من الله.

وقال الضحاك: **﴿المخاطب بالآية جملة الأمة، والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام كما قال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾** وهو يريد واحداً، ويحتمل على هذا أن يؤمروا بالإفاضة من عرفة، ويحتمل أن

﴿وَأَذْكُرُوا لِلَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى﴾ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ **﴿١٩٩﴾** وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهَ عَلَىٰ مَائِ قَلْبِهِ. وَهُوَ الَّذِي الْخَصَّاصُ **﴿٢٠٠﴾** وَإِذَا تَوَلَّى سَعَىٰ فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ **﴿٢٠١﴾** وَإِذَا قِيلَ لَكَ إِنَّ اللَّهَ أَخَذَ مِنْكَ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُ جَهَنَّمَ وَلَيْسَ الْيَهُودُ **﴿٢٠٢﴾** وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ **﴿٢٠٣﴾** يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَاحِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ **﴿٢٠٤﴾** فَإِن زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ آيَاتِنَا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ **﴿٢٠٥﴾** هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَضِيَ الْأُمُورُ إِلَى اللَّهِ فَرُجِعَ الْأُمُورُ **﴿٢٠٦﴾**

معالم الحج ومواضع النسك فيه. والمعنى: إذا فرغتم من حجكم، الذي هو الوقوف بعرفة، فاذكروا الله بمحامده، وأنتم عليه بالآية عندكم، وخص هذا الوقت بالقضاء لما يقضي الناس فيه مناسكهم في حين واحد، وما قبل وبعد فهو على الافتراق، هذا في طواف، وهذا في رمي، وهذا في حلاق، وغير ذلك.

وكانت عادة العرب - إذا قضت حجها - تقف عند الجمرة، فتتفاخر بالآباء، وتذكر أيام أسلافها من بسالة وكرم وغير ذلك، فنزلت الآية لِيُزِمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى أَكْثَرَ مِنَ التَّزَامِهِمْ ذَكَرَ آبَائِهِمْ بِأَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ، هذا قول جمهور المفسرين. وقال ابن عباس، وعطاء: معنى الآية: اذكروا الله كذكر الأطفال آبائهم وأمهاتهم،

أي: فاستغيثوا به، والجؤوا إليه كما كنتم تفعلون في حال صغركم بآبائكم. وقالت طائفة: معنى الآية: اذكروا الله وعظموه وذبُّوا عن حرمه، وادفعوا من أراد الشرك والنقص في دينه ومشاعره، كما تذكرون آباءكم بالخير، إذا غض أحد منهم وتحمون جوانبهم، وتذَّبون عنهم.

وقرأ محمد بن كعب القرظي: ﴿كذركم آباؤكم﴾، أي اهتمبوا بذكره كما يهتمب المرء بذكر ابنه، فالمصدر على هذه القراءة مضاف إلى المفعول، ﴿أشكُّ﴾ في موضع خفض عطفاً على ﴿ذركم﴾، ويجوز أن يكون في موضع نصب - التقدير: أو اذكروه أشد ذكراً.

وقوله تعالى: ﴿فَمِنَ النَّكَايِنِ مَن يَكُولُ﴾ الآية. قال أبو وائل، والسدي، وابن زيد: كانت عاداتهم في الجاهلية أن يدعوا في مصالح الدنيا فقط، إذ كانوا لا يعرفون الآخرة، فنهوا عن ذلك الدعاء المخصوص بأمر الدنيا، وجاء النهي في صيغة الخبر عنهم.

والخلاق: النصيب والحظ، ﴿مَن﴾ زائدة لأنها بعد النفي، فهي مستغرقة لجنس الحظوظ.

وقال قتادة: حسنة الدنيا: العافية في الصحة وكفاف المال، وقال الحسن بن أبي الحسن: حسنة الدنيا: العلم والعبادة. وقال السدي: حسنة الدنيا: المال، وقيل: حسنة الدنيا: المرأة الحسنة، واللفظة تقتضي هذا كله، وجميع محاب الدنيا.

وحسنة الآخرة: الجنة بإجماع - ﴿وَقِنَا غَدَابَ النَّارِ﴾ دعاء في ألا يكون المرء ممن يدخلها بمعاصيه، وتخرجه الشفاعة، ويحتمل أن يكون دعاء مؤكداً لطلب دخول الجنة، لتكون الرغبة في معنى النجاة، والفوز من الطرفين، كما قال أحد الصحابة للنبي ﷺ: «أنا إنما أقول في دعائي: اللهم أدخلني الجنة، وعافني من النار. ولا أدري ما ذُنُوتُكَ ولا ذُنُوتَ معاذٍ؟» فقال له رسول الله ﷺ: «حولها تُذُنُينَ».

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا﴾ الآية. وعُد على كسب الأعمال الصالحة في صيغة الإخبار المجرد، والربُّ تعالى سريع الحساب لأنه لا يحتاج إلى عقد، ولا إلى إعمال فكر، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله الخلاق في يوم؟ فقال: كما يرزقهم في يوم، وقيل: الحساب هنا المجازاة، كأن المجازي يعد أجزاء العمل ثم يجازي بمثلها، وقيل: معنى الآية: سريع مجيء يوم الحساب، فالمقصد بالآية الإنذار بيوم القيامة، وأمر الله تعالى عباده بذكره في الأيام المعدودات، وهي الثلاثة التي بعد يوم النحر. وهي أيام التشريق، وليس يوم النحر من المعدودات، ودل على ذلك إجماع الناس على أنه لا يَنفِرُ أحد يوم القر وهو ثاني يوم النحر، فإن يوم النحر من المعلومات، ولو كان يوم النحر من المعدودات لساغ أن ينفِر من شاء متعجلاً يوم القر لأنه قد أخذ يومين من المعدودات. وحكى

مكي، والمهدوي، عن ابن عباس أنه قال: المعدودات هي أيام العشر. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إما أن يكون من تصحيف النسخة، وإما أن يريد العشر الذي بعد يوم النحر وفي ذلك بُعد.

والأيام المعلومات: هي يوم النحر ويومان بعده، لإجماعهم على أنه لا ينحر أحد في اليوم الثالث. والذكر في المعلومات إنما هو على ما رزق الله من بهيمة الأنعام. وقال ابن زيد: المعلومات عشر ذي الحجة وأيام التشريق، وفي هذا القول بعد.

وجعل الله الأيام المعدودات أيام ذكر الله، وقد قال النبي ﷺ: «هي أيام أكل وشرب وذكر الله».

ومن جملة الذكر التكبير في أثر الصلوات - واختلف في طرفي مدة التكبير.

فقال عمر بن الخطاب، وجلي بن أبي طالب وابن عباس:

يُكَبِّرُ من صلاة الصبح من يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال ابن مسعود، وأبو حنيفة: يُكَبِّرُ من غداة عرفة إلى صلاة العصر من يوم النحر.

وقال يحيى بن سعيد: يُكَبِّرُ من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر من آخر أيام التشريق.

وقال مالك: يُكَبِّرُ من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الصبح من آخر أيام التشريق، وبه قال الشافعي.

وقال ابن شهاب: يكبر من الظهر يوم النحر إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال سعيد بن جبير: يُكَبِّرُ من

الظهر يوم عرفة إلى العصر من آخر أيام التشريق.

وقال الحسن بن أبي الحسن: يكبر من صلاة الظهر يوم النحر إلى صلاة الظهر يوم النفر الأول. وقال أبو وائل: يكبر من صلاة الظهر يوم عرفة إلى صلاة الظهر يوم النحر.

ومشهور مذهب مالك أنه يُكَبَّرُ إثر كل صلاة ثلاث تكبيرات. وفي المذهب رواية أنه يقال بعد التكبيرات الثلاث: لا إله إلا الله، والله أكبر، والله الحمد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ الآية. قال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، ومجاهد: المعنى: من نَفَرَ في اليوم الثاني من الأيام المعدودات فلا حرج عليه، ومن تأخر إلى الثالث فلا حرج عليه، فمعنى الآية: كل ذلك مُباح، وعبر عنه بهذا التقسيم اهتماماً وتأكيذاً إذ كان من العرب من يذم المتعجل وبالعكس فنزلت الآية رافعة للجناح في كل ذلك.

ومن العلماء من رأى أن التعجل إنما أبيض لمن بعدَ قُطْرِهِ لا للمكي والقريب إلا أن يكون له عذر، قاله مالك، وغيره. ومنهم من رأى أن الناس كلهم مباح لهم ذلك. قاله عطاء وغيره. وقال علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وإبراهيم: معنى الآية: من تعجل فقد غفر له، ومن تأخر فقد غُفِرَ له، واحتجوا بقوله عليه السلام: ﴿مَنْ حَجَّ هَذَا الْبَيْتَ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ خَرَجَ مِنْ حَطَايَاهُ كَيَوْمِ وَلَدَتْهُ أُمُّهُ﴾ فقوله تعالى: ﴿فَلَا إِثْمَ﴾ نفي عام وتبرئة مطلقة.

وقال مجاهد أيضاً: معنى الآية: من تعجل أو تأخر فلا إثم عليه إلى العام القابل، وأسند في هذا القول أثر.

وقال أبو العالية: المعنى في الآية: لا إثم عليه لمن اتقى بقية عمره، والحاج مغفور له البتة.

وقال أبو صالح وغيره: معنى الآية: لا إثم عليه لمن اتقى قتل الصيد وما يجب عليه تجنبه في الحج.

وقال أيضاً: لمن اتقى في حجه فأتى به تاماً حتى كان مبروراً.

والسلام في قوله: ﴿لَنْ نَقْتُلَ﴾، متعلقة إما بالغفران على بعض التأويلات أو بارتفاع الإثم في الحج على بعضها. وقيل: بالذكر الذي دل عليه قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾، أي الذكر لمن اتقى، ويسقط رمي الجمره الثالثة عن تعجل.

وقال ابن أبي زمنين: يرميها في يوم النفر الأول حين يريد التعجيل.

قال ابن المواز: يرمي المتعجل في يومين بإحدى وعشرين حصاة، كل جمرة بسبع حصيات فيصير جميع رمية بتسع وأربعين حصاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنه قد رمى جمرة العقبة بسبع يوم النحر، قال ابن المواز: ويسقط رمي اليوم الثالث.

وقرأ سالم بن عبدالله: ﴿فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ بوصل الألف، ثم أمر تعالى بالتقوى، وذكر بالمشر والوقوف بين يديه.

قال السدي: ﴿٢٠٨﴾ - ﴿٢٠٧﴾ تفسير قوله عز وجل: قال السدي: نزلت في الأخنس بن

شريق، واسمه أبي، والأخنس لقب، وذلك أنه جاء إلى النبي ﷺ فأظهر إسلامه، وقال: الله يعلم أنني صادق، ثم هرب بعد ذلك، فمر بقوم من المسلمين، فأحرق لهم زرعاً، وقتل لهم حُمراً، فنزلت فيه هذه الآيات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ما ثبت قط أن الأخنس أسلم.

وقال ابن عباس: نزلت في قوم من المنافقين تكلموا في الذين قُتلوا في غزوة الرجيع: عاصم بن ثابت، وحُبيب، وابن الدثنة، وغيرهم، وقالوا: ويح هؤلاء القوم، لا هم قعدوا في بيوتهم، ولا أدوا رسالة صاحبهم، فنزلت هذه الآيات في صفات المنافقين، ثم ذكر المستشهدين في غزوة الرجيع في قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ مَنَ شَرِي نَفْسَهُ أَبَيْكَأَ مَرْكَاتِ اللَّهِ﴾ الآية.

وقال قتادة، ومجاهد، وجماعة من العلماء: نزلت هذه الآيات في كل مبطن كُفِرَ أو نفاق، أو كذب، أو إضرار، وهو يظهر بلسانه خلاف ذلك. فهي عامة، وهي تشبه ما ورد في الترمذي أن في بعض كتب الله تعالى: «إن من عباد الله قوماً أَلَسْتُمْ أَحلى من العسل، وقلوبهم أمر من الصبر، يلبسون الناس جلود الضأن من اللين، يجترونها الدنيا بالدين، يقول الله تعالى: أباي يغترون؟ وعلي يجتروؤن؟ حلفت لأسلطن عليهم فتنة تدع الحليم منهم حيران».

ومعنى: ﴿وَيُشْهِدُ اللَّهُ﴾ أي يقول: الله يعلم أنني أقول حقاً.

وقرأ أبو حيوة، وابن محيصن: **﴿وَيَشْهَدُ اللَّهُ﴾** بإسناد الفعل إلى الله. المعنى: يعجبك قوله والله يعلم منه خلاف ما قال - والقراءة التي للجماعة أبلغ في ذمه لأنه قوي على نفسه التزام الكلام الحسن، ثم ظهر من باطنه خلافه، وما في قلبه مختلف بحسب القراءتين، فعلى قراءة الجمهور: هو الخير الذي يظهر، أي هو في قلبه بزعمه. وعلى قراءة ابن محيصن، هو الشر الباطن. وقرأ ابن عباس: **﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ عَلَيَّ مَا فِي قَلْبِهِ﴾**. وقرأ أبو إسحاق، وابن مسعود: **﴿وَيَسْتَشْهَدُ اللَّهُ عَلَيَّ مَا فِي قَلْبِهِ﴾**.

والألد: الشديد الخصومة، الصعب الشكيمة، الذي يلوي الحجج في كل جانب، فيشبه انحرافه المشي في ليديدي الوادي، ومنه: لديد القم، واللدود. ويقال: منه لددت «بكسر العين» ألد. وهو ذم، ومنه قول النبي ﷺ: **﴿أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ الْخَصْمُ﴾** ويقال: لددته بفتح العين، ألدّه بضمها إذا غلبته في الخصام، ومن اللفظة قول الشاعر:

إِنْ تَحْتَ الْأَحْجَارِ حَزْمًا وَعَزْمًا
وَحَصِيمًا أَلْدًا مِغْلَاقًا

والخصام - في الآية - مصدر خاصم، وقيل: جمع خصم ككلب وكلاب، فكأن الكلام: وهو أشد الخصماء وألدّهم.

﴿تَوَلَّى﴾ و**﴿سَكَتَ﴾** تحتل جميعاً معنيين - أحدهما: أن تكونا فعل قلب فيجيء **﴿تَوَلَّى﴾** بمعنى ضلّ، وغضب، وأنف في نفسه، فسمى بحيله وإدارته الدوائر على الإسلام،

ومن هذا السعي قول الله تعالى: **﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾** ومنه: **﴿وَسَعَى لِمَا سَعَيْهَا﴾**، ومنه قول الشاعر:

أَسْعَى عَلَيَّ جُلُّ بَنِي مَالِكٍ
كُلِّ امْرِيءٍ فِي شَانِهِ سَاعٍ
ونحى هذا المنحى في معنى الآية ابن جريج، وغيره. والمعنى الثاني: أن تكونا فعل شخص فيجيء **﴿تَوَلَّى﴾** بمعنى أدير ونهض عنك يا محمد، و**﴿سَكَتَ﴾** يجيء معناها بقدميه، فقطع الطريق وأسدها. نحا هذا المنحى ابن عباس، وغيره. وكلا السعيين فساد.

وقوله تعالى: **﴿وَيُهْلِكُ الْخَرْتَّ وَالنَّسْلَ﴾** قال الطبري: المراد الأخنس في إحراقه الزرع، وقتله الحُمُر. وقال مجاهد: المراد أن الظالم يفسد في الأرض فيمسك الله المطر فيهلك الحرث والنسل. وقيل: المراد أن المفسد يقتل الناس فيقطع عمار الزرع والمنسلون. وقال الزجاج: يحتمل أن يراد بالحرث النساء وبالنسل نسلهن.

وقال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن الآية عبارة عن مبالغة في الإفساد إذ كل فساد في أمور الدنيا فعلى هذين الفصلين يدور.

وأكثر القراء على أن **﴿يُهْلِكُ﴾** بضم الياء وكسر اللام وفتح الكاف عطفاً على: **﴿لِيُنذِرَ﴾**، وفي مصحف أبي بن كعب: **﴿وَلِيُهْلِكُ﴾**. وقرأ قوم: **﴿وَيُهْلِكُ﴾** بضم الكاف - إما عطفاً على **﴿يُنذِرُكَ﴾**، وإما على **﴿سَكَتَ﴾** لأنها بمعنى الاستقبال، وإما على

القطع والاستثناف. وقرأ الحسن وابن أبي إسحاق، وأبو حيوة، وابن محيصن: **﴿وَيُهْلِكُ﴾** بفتح الياء وكسر اللام وضم الكاف ورفع **﴿الْخَرْتَّ وَالنَّسْلَ﴾**. وكذلك رواه ابن سلمة عن ابن كثير. وعبد الوارث عن أبي عمرو. وحكى المهدي أن الذي روى حماد بن سلمة عن ابن كثير إنما هو: **﴿وَيُهْلِكُ﴾** بضم الياء والكاف **﴿الْخَرْتَّ﴾** بالنصب. وقرأ قوم **﴿وَيُهْلِكُ﴾** بفتح الياء واللام ورفع **﴿الْحَرْتَّ﴾**، وهي لغة هلك يهلك تلحق بالشواذ كركن يزكن.

والحرث - في اللغة - شق الأرض للزراعة ويسمى الزرع حرثاً للمجاورة والتناسب، ويدخل سائر الشجر والغراسات في ذلك حملاً على الزرع، ومنه قوله عز وجل: **﴿إِذْ يَخْشَعُونَ فِي الْحَرْتِ﴾** وهو كرم على ما ورد في التفسير.

وسمى النساء حرثاً على التشبيه. والنسل: مأخوذ من نسل ينسل إذا خرج متتابعاً، ومنه نسال الطائر - ما تتابع سقوطه من ريشه، ومنه قوله تعالى: **﴿وَهُمْ يَنْ كَلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾** ومنه قول امرئ القيس:

.....
فَسَلِي ثِيَابِي مِنْ ثِيَابِكَ تَنْسَلِ
و**﴿لَا يَحِثُّ﴾** معناه: لا يحبه من أهل الصلاح، أو لا يحبه ديناً وإلا فلا يقع إلا ما يحب الله تعالى وقوعه، والفساد واقع، وهذا على ما ذهب إليه المتكلمون من أن الحب بمعنى الإرادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحب له على الإرادة مزية إشارته.

فلو قال أحد: إن الفساد المراد تنقصه مزية الإيثار لصح ذلك، إذ الحب من الله تعالى إنما هو لِمَا حسن من جميع جهاته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ الآية. هذه صفة الكافر والمنافق الذاهب بنفسه زهواً. ويكره للمؤمن أن يوقعه في الحرج في نحو هذا. وقال بعض العلماء: كفى بالمرء إثماً أن يقول له أخوه: اتق الله، فيقول له: عليك نفسك مثلك يوصيني؟

والعزة هنا: المَنَعَةُ وشدة النفس، أي اعترز في نفسه وانتحى فأوقعته تلك العزة في الإثم حين أخذته به، وألزمته إياه. ويحتمل لفظ الآية أن تكون: ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ﴾ مع الإثم فمعنى الباء يختلف بحسب التأويلين.

وحسبُهُ: أي كافيه معاقبة وجزاء، كما تقول للرجل: كفاك ما حل بك، وأنت تستعظم وتعظم عليه ما حل به. و﴿لِلْهَيْبَةِ﴾ ما مهَّد الرجل لنفسه كأنه الفراش.

ومن هذا الباب قول الشاعر:

.....

تَحِيَّةٌ بَيْنَهُمْ حَزْبٌ وَجِيحٌ
وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ مَنَ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الآية تتناول كل مجاهد في سبيل الله، أو مستشهد في ذاته، أو مغير منكر. والظاهر من هذا التقسيم أن تكون الآيات قبل هذه على العموم في الكافر، بدليل الوعيد في النار، وبأخذ العصاة الذين فيهم شيء من هذا المخلوق يحفظهم من وعيد الآية. ومن قال إن الآيات المتقدمة هي في منافقين

تكلموا في غزوة الرجيع قال: هذه الآية في شهداء غزوة الرجيع.

وَمَنْ قَالَ: تلك في الأخنس قال: هذه في الأنصار والمهاجرين الميسادين إلى الإيمان. وقال عكرمة، وغيره: هذه في طائفة من المهاجرين، وذكروا حديث صهيب أنه خرج من مكة إلى النبي ﷺ فاتبعته قريش لترده. فنثر كنانته وقال لهم: تعلمون والله أنني لمن أزمكم رجلاً، والله لأرمينكم ما بقي لي سهم، ثم لأضربن بسيفي ما بقي في يدي منه شيء. فقالوا له: لا نتركك تذهب عنا غنياً، وقد جئتنا صلوكاً، ولكن دلنا على مالك ونتركك، فدلهم على ماله وتركوه، فهاجر إلى النبي ﷺ فلما رآه قال له: «ربيع البيع أبا يحيى». فنزلت فيه هذه الآية.

ومن قال: قصد بالأول العموم قال في هذه كذلك بالعموم. و﴿يَشْرِي﴾ معناه يبيع، ومنه: ﴿وَشَرَوْهُ بِشَرْبٍ بَخْسٍ﴾، ومنه قول يزيد بن مفرغ الحميري:

وَشَرَيْتُ بُزْدًا لَيْتَنِي
مِنْ بَعْدِ بُزْدِ كُنْتُ هَامَهُ
وقال الآخر:

يُعْطَى بِهَا ثَمَنًا فَيَمْنَعُهَا
وَيَقُولُ صَاحِبُهُ: أَلَا تَشْرِي
ومن هذا تسمى الشراة كأنهم الذين باعوا أنفسهم من الله تعالى.

وحكى قوم أنه يقال: شرى بمعنى اشترى، ويحتاج إلى هذا من تأول الآية في صهيب لأنه اشترى نفسه بماله ولم يبعها، اللهم إلا أن يقال: إن عزم صهيب على قتالهم بيع لنفسه

من الله تعالى فتستقيم اللفظة على معنى باع. وتأول هذه الآية عمر بن الخطاب، وعلي ابن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم في مُعَيَّرِي المنكر، ولذلك قال علي، وابن عباس: اقتل الرجلان، أي قال المغير للمفسد: اتق الله - فأبى المفسد، وأخذته العزة فشرى المغير نفسه من الله تعالى وقائله فانتحلا.

وروي أن عمر بن الخطاب كان يجمع في يوم الجمعة شباباً من القرأة، فيهم ابن عباس، والخُر بن قيس، وغيرهما: فيقرؤون بين يديه ومعه، فسمع عمر ابن عباس يقول: اقتل الرجلان حين قرأ له هذه الآية، فسأله عما قال: ففسر له هذا التفسير، فقال له عمر: الله تلادك يا ابن عباس.

وقال أبو هريرة، وأبو أيوب - حين حَمَلَ هشام بن عامر على الصف في القسطنطينية فقال قوم: ألقى بيده إلى التهلكة - ليس كما قالوا: بل هذا قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ مَنَ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾ الآية.

و﴿أَيْتَاكَ﴾ مفعول من أجله، ووقف حمزة على: ﴿مَهْمَاكَ﴾ بالتاء، والباقون بالهاء. قال أبو علي: وجه وقف حمزة بالتاء إما أنه على لغة من يقول: طلحت وعلقمت، ومنه قول الشاعر:

.....

بل جَوَزُ نَيْهَاءِ كَطَهْرِ الْحَجَفِثِ
وإما أنه لما كان المضاف إليه في ضمن اللفظة ولا بد، أثبت التاء كما ثبتت في الوصل، ليعلم أن المضاف إليه مراد.

دخله كافة فلما حذف المنعوت بقي
النعى حالاً.

وتقدم القول في «خطوات»
والألف واللام في «التبطن»
للجنس، و«عدو» يقع على الواحد
والاثنين والجمع و«مئين» يحتمل
أن يكون بمعنى أبان عدواته وأن
يكون بمعنى بان في نفسه أنه عدو
لأن العرب تقول: بان الأمر وأبان
بمعنى واحد.

٢٠٩ - ٢١٠ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: «رَكَّلْتُمْ»
بفتح اللام. وقرأ أبو السمال:
«رَلَلْتُمْ» بكسرهما. وأصل الرُّل في
القدم، ثم يستعمل في الاعتقادات
والآراء وغير ذلك. والمعنى: ضللتهم
وعُجِّمْتُمْ عن الحق.

و«أبَيَّنَّتْ» محمد وآياته
ومعجزاته إذا كان الخطاب أولاً
لجماعة المؤمنين، وإذا كان الخطاب
لأهل الكتابين فالبيِّنات ما ورد في
شرائعهم من الإعلام بمحمد ﷺ
والتعريف به.

و«عَبَّرْتُ» صفة مقتضية أنه قادر
عليكم، لا تعجزونه، ولا تمتعون
منه، و«حَكَبْتُ» أي محكم فيما
يعاقبكم به لزللكم.

وحكى النقاش أن كعب الأخبار لما
أسلم، كان يتعلم القرآن، فأقرأه
الذي كان يُعَلِّمُهُ «فَاعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ
عَفْوٌ رَّحِيمٌ» فقال كعب: إني
لأستكر أن يكون هكذا، ومر بهما
رجل، فقال كعب: كيف تقرأ هذه
الآية؟ فقرأ الرجل: «فَاعَلَّمُوا أَنَّ اللَّهَ
عَفِيمٌ رَّحِيمٌ» فقال كعب: هكذا
ينبغي.

إذا جنحوا لها، وأما أن
يبتدىء بها فلا.

واختلف - بعد حمل
اللفظة على الإسلام - من
المخاطب؟ فقالت فرقة:
جميع المؤمنين
بمحمد ﷺ، والمعنى:
أمرهم بالثبوت فيه والزيادة
من التزام حدوده،
ويستغرق «كافة»
حينئذ المؤمنين، وجميع
أجزاء الشرع، فتكون
الحال من شينين وذلك
جائز نحو قوله تعالى:
«فَأَتَى بِهَا قَوْمَهَا حَمَلَةً»
إلى غير ذلك من الأمثلة.

وقال عكرمة: بل

المخاطب من آمن بالنبي من بني
إسرائيل كعبدالله بن سلام، وغيره،
وذلك أنهم ذهبوا إلى تعظيم يوم
السبت وكرهوا لحم الجمل، وأرادوا
استعمال شيء من أحكام التوراة
وخلط ذلك بالإسلام، فنزلت هذه
الآية فيهم، فكافة - على هذا -
لأجزاء الشرع فقط. وقال ابن
عباس: نزلت الآية في أهل الكتاب.
والمعنى: يا أيها الذين آمنوا بموسى
وعيسى ادخلوا في الإسلام بمحمد
كافة، فكافة - على هذا - لأجزاء
الشرع، وللمخاطبين. على من يرى
السلم الإسلام. ومن يراها المسالمة
يقول: أمرهم بالدخول في أن يعطوا
الجزية. و«كافة» معناه جميعاً،
والمراد بالكافة الجماعة التي تكف
مخالفاتها. وقيل: إن «كافة»
نعى لمصدر محذوف كأن الكلام،

سَلِّبِي إِسْرَءِيلَ يَلْ كَمْ ؕ أَتَيْتَهُمْ مِنْ ؕ أَيْمٍ يَبِينَةً وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ
اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٠٩﴾ زَيْنُ الَّذِينَ
كَفَرُوا الْحَيَوةُ الدُّنْيَا وَيَسْعُرُونَ مِنَ الَّذِينَ ؕ آمَنُوا ؕ وَالَّذِينَ
أَتَقُوا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ؕ وَاللَّهُ يَرِءُكَ مِنْ شِئَامٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ
﴿٢١٠﴾ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّنَّ مُبَشِّرِينَ
وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ
فِيمَا ؕ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا ؕ اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ ؕ أَوَّلُوهُ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَتْهُمْ ؕ الْبَيِّنَاتُ بَيِّنَاتٌ بَيْنَهُمْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ ؕ آمَنُوا
لِمَا ؕ اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِأُذُنِهِ ؕ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢١١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَكَمْ
بِأَيْكُم مَثَلُ الَّذِينَ ؕ خَلَاوْا مِنْ قَبْلِكُمْ ؕ سَتَبِمَ السَّاسُ وَالضَّرَّاءُ
وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ؕ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ
الْإِنَّمَا نَصَرَ اللَّهُ قُرْبَ ۖ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا ؕ أُنْفِقُونَ قُلْ
مَا ؕ أَنْفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدِينَ وَالْأَقْرَبِينَ ؕ لِلْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ
وَأَنَّ السَّكْبِيلَ وَمَا فَعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٢﴾

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ رَءُوفٌ
بِالْعِبَادِ» ترجية تقتضي الحض على
امتنال ما وقع به المدح في الآية،
كما أن قوله تعالى: «فَصَبِّرْ
جَهَنَّمَ» تخويف يقتضي التحذير مما
وقع به الذم في الآية.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالدخول في
السلم. وقرأ ابن كثير، ونافع،
والكسائي: «السلم» بفتح السين.
وقرأ الباقون بكسرهما في هذا
الموضع فقيل: هما بمعنى واحد
يقعان للإسلام وللمسالمة. وقال أبو
عمرو بن العلاء: السلم بكسر
السين: الإسلام، وبالفتح المسالمة،
وأكثر المبرد هذه التفرقة. ورجح
الطبري حمل اللفظة على معنى
الإسلام لأن المؤمنين لم يؤمروا قط
بالابتداء بالدخول في المسالمة،
وإنما قيل للنبي ﷺ أن ينجح للسلم

إسلام، وهذا قريب من الأول. ويدخل في اللفظ أيضاً كفار قريش الذين بُعث محمدٌ منهم نعمة عليهم، فبدلوا قبولها والشكر عليها كفرةً - والتوراة أيضاً نعمة على بني إسرائيل، أرشدتهم وهدتهم فبدلوا بالتحريف لها وجحدٍ أمر محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا اللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ خَبَرٌ يقتضي ويتضمن الوعيد.

والعقاب: مأخوذ من الْعَقِبَ، كان المعاقب يمشي بالمجازاة له في آثار عَقِيهِ.

ومنه عَقِبَةُ الراكب، وعَقِبَةُ القدر. وقوله تعالى: ﴿رَبِّنَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا أَلْحِيوَةُ الدُّنْيَا﴾ الْمَرْزِيُّ هو خالقها ومُخْتَرَعُهَا وخالق الكفر. وَيُرْزِنُهَا أيضاً الشيطان بوسوسته وإغوائه. وقرأ مجاهد، وحמיד بن قيس، وأبو حنيفة: ﴿رُزِّنَ﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب ﴿الحياة﴾. وقرأ ابن أبي عمير: ﴿رُزِنَتْ﴾ بإظهار العلامة - والقرأة دون علامة هي للحائل، ولكون التأنيث غير حقيقي.

وحُصَّ الذين كفروا بالذكر لقبولهم التزيين جملةً، وإقبالهم على الدنيا، وإعراضهم عن الآخرة بسببها. والتزيين من الله تعالى واقع للكُلِّ، وقد جعل الله ما على الأرض زينة لها لِيَتَلَوَّ الخلق أيهم أحسن عملاً، فالمؤمنون الذين هم على سنن الشرع لم تفتنهم الزينة، والكفار تملكتهم لأنهم لا يعتقدون غيرها، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه - حين قُدِمَ عليه بالمال -: «اللهم إنا

بنائه للمفعول وهي راجعة إليه تعالى قبل وبعد، وإنما نبه بذكر ذلك في يوم القيامة على زوال ما كان منها إلى الملوك في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿سَلِّ بِنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية. الخطاب لمحمد ﷺ، وفيه إباحة السؤال لمن شاء من أمته: ومعنى الآية توبيخهم على عنادهم بعد الآيات البينة. وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس عنه: ﴿اسأل﴾ على الأصل. وقرأ قوم: ﴿اسئل﴾ على نقل الحركة إلى السين وترك الاعتداد بذلك في إبقاء ألف الوصل على لغة من قال الحَمرَ وَمَنْ قرأ ﴿سَلِّ﴾ فإنه أزال ألف الوصل، حين نقل واستغنى عنها. و﴿كَمْ﴾ في موضع نصب - إما بفعل مضمر بعدها لأن لها صدر الكلام تقديره: كم آتينا ﴿ءَاتَيْنَهُمْ﴾ وإما ب﴿ءَاتَيْنَهُمْ﴾.

وقوله: ﴿يَوْمَ نَأْتِيهِمْ﴾ هو على التقدير الأول مفعول ثانٍ لآتيناهم، وعلى الثاني في موضع التمييز. ويصح أن تكون ﴿كَمْ﴾ في موضع رفع بالابتداء والخبر في ﴿ءَاتَيْنَهُمْ﴾ ويصير فيه عائد على ﴿كَمْ﴾ تقديره: ﴿كَمْ﴾ آتيناهموه - والمراد بالآية: كم جاءهم في أمر محمد ﷺ من آية مُعْرَفَةٌ به دالة عليه.

﴿وَمِنَّمَا اللَّهُ﴾ لفظ عام لجميع إنعامه ولكن يقوي من حال النبي معهم أن المشار إليه هنا محمد ﷺ، فالمعنى: مَنْ يبذل من بني إسرائيل صفة نعمة الله، ثم جاء اللفظ منسحباً على كل مُبَدِّلٍ نعمةً لله تعالى.

وقال الطبري: النعمة هنا -

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ الآية. الخطاب للنبي ﷺ - و﴿هَلْ﴾ من حروف الابتداء كما، و﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون، والمراد: هؤلاء الذين يزولون.

والظَّلُّ جمع ظَلَّةٌ، وهي: ما أطل من فوق. وقرأ قتادة، والضحاك: ﴿نسي ظلالاً﴾ وكذلك روى هارون بن حاتم، عن أبي بكر، عن عاصم هنا، وفي الحرفين في الزمر. وقال عكرمة: ظلل: طاقات. وقرأ الحسن، وابن القعقاع، وأبو حنيفة ﴿والملائكة﴾ بالخفض عطفاً على الغمام. وقرأ جمهور الناس بالرفع عطفاً على ﴿آلِهَ﴾، والمعنى يأتيهم حكم الله وأمره ونهيه وعقابه إياهم، وذهب ابن جريج، وغيره إلى أن هذا التوعد هو بما يقع في الدنيا. وقال قوم: بل هو توعد بيوم القيامة. وقال قوم: قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ﴾ وعيدٌ بيوم القيامة وأما الملائكة فالوعيد هو بإتيانهم عند الموت.

والغمام أرق السحاب وأصفاه وأحسنه، وهو الذي ظلل به بنو إسرائيل. وقال النقاش: هو ضباب أبيض - وفي قراءة ابن مسعود: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ وَالْمَلَائِكَةُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾.

﴿فَصَى الْأَمْرُ﴾ معناه: وقع الجزاء وعذب أهل العصيان. وقرأ معاذ بن جبل: ﴿وَقَضَاءُ الْأَمْرِ﴾. وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿وَقَضَى الْأُمُورَ﴾ بالجمع. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿تَرْجِعُ﴾ على بناء الفعل للفاعل. وقرأ الهاقون: ﴿تُرْجِعُ﴾ على

لا نستطيع إلا أن نفرح بما زينت لنا.

وقوله: ﴿وَسَخَّرُونَ﴾، إشارة إلى كفار قريش لأنهم كانوا يعظمون حالهم من الدنيا، ويغبطون بها، ويسخرون من أتباع النبي ﷺ. كبلال، وصهيب، وابن مسعود، وغيرهم. فذكر الله قبيح فعلهم، ونبه على خفض منزلتهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ومعنى الفوق هنا في الدرجة والقدر، فهي تقتضي التفضيل وإن لم يكن للكفار من القدر نصيب، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾. وتحتمل الآية أن المتقين هم في الآخرة في التنعم والفوز بالرحمة فوق ما هم هؤلاء فيه في دنياهم، وكذلك خير مستقراً، من هؤلاء في نعمة الدنيا. فعلى هذا الاحتمال وقع التفضيل في أمر فيه اشتراك، وتحتمل هذه الآية أن يراد بالفوق المكان من حيث الجنة في السماء والنار في أسفل السافلين فيعلم من ترتيب الأمكنة أن هؤلاء في الجنة وهؤلاء في النار.

وتحتمل الآيتان أن يكون التفضيل على ما يتضمنه زعم الكفار، فإنهم كانوا يقولون: وإن كان معاذ فلنا فيه الحظ أكثر مما لكم، ومنه حديث خباب مع العاصي بن وائل.

وهذا كله من التحميلات حفظ لمذهب سيبويه والخليل في أن التفضيل إنما يجيء فيما فيه شركة، والكوفيون يجيزونه حيث لا اشتراك.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَزِدُّ مَنْ يَشَاءُ يَتَرَكُ حِسَابًا﴾ يحتمل أن يكون

المعنى: والله يرزق هؤلاء الكفرة في الدنيا فلا تستعظموا ذلك، ولا تقيسوا عليه الآخرة، فإن الرزق ليس على قدر الكفر والإيمان بأن يحسب لهذا عمله، ولهذا عمله، فيرزقان بحساب ذلك، بل الرزق بغير حساب الأعمال - والأعمال ومجازاتها محاسبة ومعادة إذ أجزاء الجزاء تُقابل أجزاء الفعل المجازي عليه، فالمعنى أن المؤمن - وإن لم يرزق في الدنيا - فهو فوق يوم القيامة.

وتحتمل الآية أن يكون المعنى: إن الله يرزق هؤلاء المستضعفين علو المنزلة بكونهم فوق، وما في ضمن ذلك من النعيم بغير حساب، فالآية تنبيه على عظم النعمة عليهم، وجعل رزقهم بغير حساب من حيث هو دائم لا ينتهي فهو لا ينفد.

ويحتمل أن يكون: ﴿يَتَرَكُ حِسَابًا﴾ صفة لرزق الله تعالى كيف يصرف إذ هو جلت قدرته لا ينفق بعد، ففضله كله بغير حساب.

ويحتمل أن يكون المعنى في الآية: من حيث لا يحتسب هذا الذي يشاؤه الله. كأنه قال: بغير احتساب من المرزوقين كما قال تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسِبُ﴾.

وإن اعترض معترض على هذه الآية بقوله تعالى: ﴿عَطَاءٌ حِسَابًا﴾ فالمعنى في ذلك: محسباً، وأيضاً فلو كان عدلاً لكان الحساب في الجزاء والمثوبة لأنها معادة. وغير الحساب في التفضل والإنعام.

وقوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ قال أبي بن كعب، وابن زيد:

المراد بالناس: بنو آدم حين أخرجهم الله نساءً من ظهر آدم، أي كانوا على الفطرة.

وقال مجاهد: الناس: آدم وحده وقيل: آدم وحواء.

وقال ابن عباس، وقتادة: الناس: القرون التي كانت بين آدم ونوح، وهي عشرة - كانوا على الحق حتى اختلفوا، فبعث الله تعالى نوحاً فمّن بعده.

وقال قوم: الناس: نوح، ومن في سفيته - كانوا مسلمين، ثم بعد ذلك اختلفوا.

وقال ابن عباس أيضاً: كان الناس أمة واحدة كفاراً - يريد في مدة نوح، حين بعث الله.

وكان - على هذه الأقوال - هي على بابها من الماضي المنقضي، وتحتمل الآية معنى سابعاً وهو أن يخبر عن الناس الذين هم الجنس كله أنهم أمة واحدة، في خلوصهم عن الشرائع، وجهلهم بالحقائق، لولا من الله عليهم وتفضله بالرسول، فذَكَرَ ﴿كَانَ﴾ على هذا للشبوت، لا تختص بالماضي فقط، وذلك كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوَرًا رَحِيمًا﴾.

والأمة: الجماعة على المقصد الواحد، ويسمى الواحد أمة إذا كان منفرداً بمقصد، ومنه قول النبي ﷺ في قس بن ساعدة: ﴿يُحْسِرُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أُمَّةً وَحَدَهُ﴾.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿كَانَ الْبَشَرُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا فَبَعَثَ﴾، وكل من قدر ﴿النَّاسِ﴾ في الآية مؤمنين قدر في الكلام

الاختلاف على لفظ الحق اهتماماً، إذ العناية إنما هي بذكر الاختلاف. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا عندي بقوي. وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿لِمَا اُخْتَلَفُوا حَقَّهُ مِنْ الْحَقِّ﴾ أي عن الإسلام.

و﴿بِذَنبِهِ﴾ قال الزجاج: معناه: بعلمه - وقيل: بأمره - والإذن هو العلم والتمكين، فإن اقترن بذلك أمر صار أقوى من الإذن بمزية.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ رُدُّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ فِي قَوْلِهِمْ: إن العبد يستبد بهداية نفسه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ﴾ الآية، ﴿أَمْ﴾ قد تجيء الابتداء كلام بعد كلام وإن لم يكن تقسيم ولا معادلة ألف استفهام - وحكى بعض اللغويين أنها قد تجيء بمثابة ألف الاستفهام يُتدأ بها.

و﴿حَسِبْتُمْ﴾ تطلب مفعولين - فقال النحاة: ﴿أَنْ تَدْعُوا﴾ تُسَدُّ مَسَدَ المفعولين لأن الجملة التي بعد ﴿أَنْ﴾ مستوفاة المعنى، ويصح أن يكون المفعول الثاني محذوفاً تقديره: ﴿أَحْسِبْتُمْ دُخُولَكُمْ الْجَنَّةَ وَاقْعاً وَلَمَّا﴾.

ولا يظهر أن يقدر المفعول الثاني في قوله: ﴿وَلَمَّا يَأْتِكُمْ﴾ بتقدير: ﴿أَحْسِبْتُمْ دُخُولَكُمْ الْجَنَّةَ خُلُوعاً مِنْ أَنْ يَصِيْبَكُمْ مَا أَصَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، لأن ﴿حَقّاً﴾ حال، والحال هنا إنما تأتي بعد توفية المفعولين، والمفعولان هما الابتداء، والخبر قبل دخول حسب، و﴿أَبْسَاساً﴾ في المال، و﴿أَفْرَاقاً﴾ في البدن. و﴿حَقّاً﴾ معناه: انقروضوا - أي صاروا في

في قلوبهم، وقد تقدم ذكر وجوه الهدى في سورة (الحمد) - والمراد ب﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ من آمن بمحمد ﷺ - فقالت طائفة: معنى الآية: أن الأمم كذب بعضهم كتاب بعض فهدى الله أمة محمد للتصديق بجمعها. وقالت طائفة: إن الله هدى المؤمنين للحق فيما اختلف فيه أهل الكتابين - من قولهم: إن إبراهيم كان يهودياً أو نصرانياً. وقال ابن زيد: من قبلتهم - فإن قبله اليهود إلى بيت المقدس والنصارى إلى المشرق. ومن يوم الجمعة - فإن النبي ﷺ قال: «هذا اليوم الذي اختلفوا فيه، فهدانا الله له، فليهود هُدًى وللنصارى بعد غد» - ومن صيامهم وجميع. ما اختلفوا فيه.

وقال الفراء: في الكلام قلب، واختاره الطبري قال: وتقديره ﴿فَهَكَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اُخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ - ودعاه إلى هذا التقدير خوف أن يَحْتَمِلَ اللفظ أنهم اختلفوا في الحق، فهدى الله المؤمنين لبعض ما اختلفوا فيه، وعساه غير الحق في نفسه. نحا إلى هذا الطبري في حكايته عن الفراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وادعاء القلب على لفظ كتاب الله دون ضرورة - يدفع إلى ذلك عجز وسوء نظر، وذلك أن الكلام يتخرج على وجهه ووصفه لأن قوله: ﴿فَهَكَى﴾ يقتضي أنهم أصابوا الحق، وتمَّ المعنى في قوله: ﴿فِيهِ﴾. وتبين بقوله: ﴿مِنْ أَلْحَقِّ﴾ جنس ما وقع الخلاف فيه.

قال المهدوي: وقدم لفظ

﴿فَاتَّخَذُوا﴾، وكل من قدرهم كفاراً كانت بعثة النبيين إليهم. وأول الرسل - على ما ورد في الصحيح في حديث الشفاعة - نوح لأن الناس يقولون له: أنت أول الرسل. والمعنى: إلى تقويم كفار، وإلا فآدم مُرْسَلٌ إِلَى بَنِيهِ يَعْلَمُهُمُ الدِّينَ وَالْإِيمَانَ - و﴿مُبَشِّرِينَ﴾ معناه: بالشواب على الطاعة، و﴿مُنذِرِينَ﴾ معناه: من العقاب على المعاصي، ونصَّبُ اللَّفْظَتَيْنِ عَلَى الْحَالِ.

و﴿الْكِتَابِ﴾ اسم الجنس، والمعنى جميع الكتب. وقال الطبري: الألف واللام في ﴿الْكِتَابِ﴾ للعهد، والمراد التوراة. و﴿يَحْكُمُ﴾ مسند إلى ﴿الْكِتَابِ﴾ في قول الجمهور. وقال قوم: المعنى: ليحكم الله. وقرأ الجحدري: ﴿يَحْكُمُ﴾ على بناء الفعل للمفعول. وحكى عنه مكي ﴿يَحْكُمُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأظنه تصحيفاً لأنه لم يُحْكَمْ عنه البناء للمفعول كما حكى الناس - والضمير في ﴿فِيهِ﴾ عائذ على ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿فِيهَا﴾، والضمير في ﴿فِيهِ﴾ الثانية يحتمل العود على ﴿الْكِتَابِ﴾، ويحتمل على الضمير الذي قبله، و﴿الَّذِينَ أَوْفُوا﴾ أرباب العلم به والدراسة له. وخصصهم بالذكر تنبيهاً منه تعالى على الشنعة في فعلهم، والقبح الذي واقعوه، و﴿أَلْبَسْتِ﴾: الدلالات والحجج. و﴿بَيِّنَاتٍ﴾ منصوب على المفعول له. والبيِّن: التعدي بالباطل. و﴿هُدًى﴾ معناه: أرشد، وذلك خلق الإيمان

فيها؟ وأين يضعون ما لزم إنفاقه؟
 و﴿مَا﴾ يصح أن تكون في موضع رفع
 على الابتداء و﴿ذَا﴾ خبرها، فهي
 بمعنى الذي و﴿يُنْفِقُونَ﴾ صلة، وفيه
 عائد على ﴿ذَا﴾ تقديره: ينفقونه.
 ويصح أن تكون ﴿مَاذَا﴾ اسماً واحداً
 مركباً في موضع نصب ب﴿يُنْفِقُونَ﴾
 فيعري من الضمير، ومتى كانت اسماً
 مركباً فهي في موضع نصب إلا ما
 جاء من قول الشاعر:

وَمَاذَا عَسَى الْوَأَشُونَ أَنْ يَتَحَدَّثُوا
 سِوَى أَنْ يَقُولُوا: إِنِّي لِكِ عَاشِقٍ
 فَإِنْ عَسَى لَا تَعْمَلُ فِيمَا قَبْلَهَا -
 ف﴿مَاذَا﴾ في موضع رفع، وهو
 مركب إذ لا صلة ل﴿إِذَا﴾.

قال قوم: هذه الآية في الزكاة
 المفروضة، وعلى هذا نسخ منها
 الوردان وَمَنْ جَرَى مَجْرَاهُمَا مِنْ
 الْأَقْرَبِينَ.

وقال السدي: نزلت هذه الآية قبل
 فرض الزكاة، ثم نسختها الزكاة
 المفروضة.

وهو المهدي على السدي في
 هذا فتسبب إليه أنه قال: إن الآية في
 الزكاة المفروضة ثم نسخ منها
 الوردان.

وقال ابن جريج، وغيره: هي
 نذب، والزكاة غير هذا الإنفاق،
 فعلى هذا لا نسخ فيها.

واليثم: فقد الأب قبل البلوغ،
 وتقدم القول في المسكين وابن
 السليل.

﴿وَمَا تَفْعَلُوا﴾ جزم بالشرط
 والجواب في الفاء. وقرأ علي بن
 أبي طالب رضي الله عنه: ﴿يَفْعَلُوا﴾

﴿وَرُزِّلُوا ثُمَّ زُلُّوا وَيَقُولُ
 الرَّسُولُ﴾ وقرأ نافع:
 ﴿يَقُولُ﴾ بالرفع. وقرأ
 الباقون: ﴿يَقُولُ﴾
 بالنصب، فحتى غاية
 مجردة، تنصب الفعل
 بتقدير إلى أن. وعلى
 قراءة نافع كأنها اقترن بها
 تسبب فهي حرف ابتداء
 ترفع الفعل.

وأكثر المتأولين على أن
 الكلام إلى آخر الآية من
 قول الرسول والمؤمنين،
 ويكون ذلك من قول
 الرسول على طلب
 استعجال النصر لا على
 شك ولا ارتياب.

والرسول اسم الجنس، وذكره الله
 تعظيماً للنزلة التي دعت الرسول إلى
 هذا القول.

وقالت طائفة: في الكلام تقديم
 وتأخير، والتقدير: حتى يقول الذين
 آمنوا: متى نصر الله؟ فيقول
 الرسول: ألا إن نصر الله قريب.
 فقدم الرسول في الرتبة لمكانته، ثم
 قدم قول المؤمنين لأنه المتقدم في
 الزمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وهذا تحكم، وحمل الكلام على
 وجه غير متعذر.

ويحتمل أن يكون: ﴿أَلَا إِنَّ نَصْرَ
 اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ إخباراً من الله تعالى
 مؤتلفاً بعد تمام ذكر القول.

﴿٢١٥﴾ - ﴿٢١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
 السائلون: هم المؤمنون، والمعنى:
 يسألونك - ما هي الوجوه التي ينفقون

كَيْتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ وَهُوَ كِتَابٌ رَكِبْتُمْ فِيهِ الْحَرَامَ بِمَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَدْعُو لِيَوْمٍ تُنْفِقُونَ فِيهِ مَا كُنْتُمْ تُحِبُّونَ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٥﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفُسِ الَّتِي أُهْلِكَ بِهَا الْقُرْآنُ وَفِيهِ قَوْلٌ كَثِيرٌ وَأَمَّا ذُنُوبُهُمْ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَائِلُونَهُمْ وَأَلَمْ يَعْلَمُوا كَيْفَ حَاطَتْ لِقَابُهُمْ وَاللَّهُ بَصِيرٌ ﴿٢١٦﴾ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلِ عَلَيْكُمُ الْيَتَامَى بِالْإِحْسَانِ وَاللَّهُ يَدْعُو أَنْ تَعْلَمُوا سِوَى الْقُرْآنِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١٧﴾

٢٤

خلاء من الأرض.
 وهذه الآية نزلت في قصة
 الأحزاب، حين حَصَرُوا
 رسول الله ﷺ وأصحابه في المدينة،
 هذا قول قتادة، والسدي وأكثر
 المفسرين. وقالت فرقة: نزلت الآية
 تسلية للمهاجرين الذين أصيبت
 أموالهم بعدهم في بلادهم، وقتنوا
 هم قبل ذلك.
 و﴿يَسْأَلُونَكَ﴾ معناه: «شبه». فالتقدير:
 أي شبه الذين خَلُّوا.
 والزلزلة: شدة التحريك، تكون في
 الأشخاص، وفي الأحوال. ومذهب
 سيبويه أن زُلُّوا رباعي كذخرج.
 وقال الزجاج: هو تضعيف في زَلُّ
 فيجيء التضعيف على هذا في الفاء.
 وقرأ الأعمش: ﴿وَرُزِّلُوا﴾ ويقول
 الرسول ﴿بالواو بدل حتى.
 وفي مصحف ابن مسعود:

بالباء على ذكر الغائب، وظاهر الآية الخبر وهي تتضمن الوعد بالمجازاة.

و﴿كَيْبَ﴾ معناه: فرض، وقد تقدم مثله، وهذا هو فرض الجهاد. وقرأ قوم: ﴿كَيْبَ عَلَيَّكُمْ الْقَتْلَ﴾، وقال عطاء بن أبي رباح: فرض القتال على أعيان أصحاب محمد، فلما استقر الشرع وقيم به، صار على الكفاية - وقال جمهور الأمة: أول فرضه إنما كان على الكفاية دون تعيين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واستمر الإجماع على أن الجهاد على أمة محمد ﷺ فرض كفاية، فإذا قام به من قام من المسلمين سقط عن الباقيين، إلا أن ينزل العدو بساحة الإسلام فهو حينئذ فرض عين.

وذكر المهدي، وغيره عن الثوري أنه قال: الجهاد تطوع، وهذه العبارة عندي إنما هي على سؤال سائل، وقد قيم بالجهاد فقبل له: ذلك تطوع.

والكُره بضم الكاف: الاسم، ويفتحها المصدر، وقال قوم: الكُره بفتح الكاف ما أكره المرء عليه، والكُره ما كرهه هو. وقال قوم: هما بمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَعَسَىٰ أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا﴾ الآية. قال قوم: عسى من الله واجبة، والمعنى: عسى أن تكرهوا ما في الجهاد من المشقة وهو خير لكم في أنكم تُغلبون وتظهرون وتغنمون وتؤجرون، ومن مات مات شهيداً، وعسى أن تحبوا الدعة وترك القتال وهو شر لكم في أنكم تُغلبون وتذلون ويذهب أمركم.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكْتُمُ﴾ الآية قوة أمر.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ﴾ الآية، نزل في قصة عمرو بن الحضرمي، وذلك أن رسول الله ﷺ بعث سرية عليها عبدالله بن جحش الأسدي مقدمه من بدر الأولى، فلقوا عمرو بن الحضرمي ومعه عثمان بن عبدالله بن المغيرة، وأخوه نوفل المخزوميان، والحكم بن كيسان، في آخر يوم من رجب، على ما ذكر ابن إسحاق، وفي آخر يوم من جمادي الآخرة على ما ذكره الطبري عن السدي وغيره: والأول أشهر. على أن ابن عباس قد ورد عنه أن ذلك كان في أول ليلة من رجب، والمسلمون يظنونها من جمادي، وأن القتال في الشهر الحرام لم يقصدوه، وأما على قول ابن إسحاق فإنهم قالوا: إن تركناهم اليوم دخلوا الحرم فأزمعوا قتالهم، فرمى واقد بن عبدالله عمرو بن الحضرمي بسهم فقتله وأسر عثمان بن عبدالله والحكم، وفر نوفل فأعجزهم واستسهل المسلمون هذا في الشهر الحرام خوف قوتهم، فقالت قريش: محمد قد استحل الأشهر الحرم، وغيروا بذلك، وتوقف النبي ﷺ. وقال: «ما أمرتكم بقتال في الأشهر الحرم»، فنزلت هذه الآية.

وذكر المهدي أن سبب هذه الآية أن عمرو بن أمية الضمري قتل رجلين من بني كلاب في رجب فنزلت، وهذا تخليط من المهدي. وصاحبنا عمرو كان عندهما عهد من

النبي ﷺ، وكان عمرو قد أفلت من قصة بئر معونة، وذكر صاحب بن عباد، في رسالته المعروفة بالأسدية أن عبدالله بن جحش سمي أمير المؤمنين في ذلك الوقت لكونه مؤمراً على جماعة من المؤمنين.

و﴿تَالِ﴾ بدل عند سيبويه، وهو بدل الاشتمال. وقال الفراء: هو خفض بتقدير عن. وقال أبو عبيدة: هو خفض على الجوار. وقوله هذا خطأ، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ عَنِ قِتَالِ فِيهِ﴾ بتكرير «عن» وكذلك قرأها الربيع، والأعمش. وقرأ عكرمة: ﴿عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالِ فِيهِ قُلُ قِتْلٍ﴾ دون ألف فيهما.

والشهر في الآية اسم الجنس، وكانت العرب قد جعل الله لها الشهر الحرام قواماً، تعتدل عنده، فكانت لا تسفك دماً، ولا تغير في الأشهر الحرم، وهي: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب.

وروى جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ لم يكن يغزو فيها إلا أن يغزى، فذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ قِتَالِ فِيهِ كِبِيرٌ﴾، و﴿وَصَدٌّ﴾ مبتدأ مقطوع مما قبله، والخير ﴿أكْبَرُ﴾، و﴿وَأَلْسِنَةٌ﴾ معطوف على ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهذا هو الصحيح.

وقال الفراء: ﴿وَصَدٌّ﴾ عطف على ﴿كِبِيرٌ﴾ وذلك خطأ لأن المعنى يسوق إلى أن قوله: ﴿وَصَدٌّ يَوْمٌ﴾ عطف أيضاً على ﴿كِبِيرٌ﴾، ويجيء من ذلك أن إخراج أهل المسجد منه أكبر من الكفر عند الله، وهذا بين فساد.

مالك، وربيعه، وابن أبي ليلى، والشافعي، وأبو ثور: ميراثه في بيت المال - وأجمع الناس على أن ورثته من أهل الكفر لا يرثونه إلا شذوذاً، روي عن عمر بن عبدالعزيز، وعن قتادة، وروي عن عمر بن عبدالعزيز خلافه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا﴾ الآية. قال جندب بن عبدالله، وعروة بن الزبير، وغيرهما: لما قتل واقد بن عبدالله التميمي عمرو بن الحضرمي في الشهر الحرام توقّف رسول الله ﷺ عن أخذ حُصمه الذي وفق في فرضه له عبدالله بن جحش، وفي الأسيرين، فعنف المسلمون عبدالله بن جحش، وأصحابه - حتى شق ذلك عليهم - فتلافاهم الله عز وجل بهذه الآية في الشهر الحرام، ثم بذكرهم والإشارة إليهم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم هي باقية في كل من فعل ما ذكر الله عز وجل.

وهاجر الرجل إذا انتقل نقلة إقامة من موضع إلى موضع، وقصد ترك الأول إيثارةً للثاني وهي: مُفاعلة من هَجَرَ. ومن قال: المهاجرة الانتقال من البادية إلى الحاضرة فقد أوهم بسبب أن ذلك كان الأغلب في العرب، وليس أهل مكة مهاجرين على قوله.

وجاهد: مُفاعلة من جهد إذا استخرج الجهد، و﴿يَرْحُونَ﴾ معناه: يطمعون ويستقربون، والرجاء تنعم، والرجاء أبدأ معه خوف ولا بد. كما أن الخوف معه رجاء، وقد يتجاوز

خلاف عنه - والشافعي - في أحد قوله: يقتل دون أن يُسْتَتَاب. وروى نحو هذا عن أبي موسى الأشعري ومعاذ بن جبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقتضى قولهما أنه يقال له للحين: راجع، فإن أبي قُتل. وقال عطاء بن أبي رباح: إن كان المرتد ابن مسلمين قُتل دون استتابة، وإن كان أسلم ثم ارتد استتيب، وذلك لأنه يجهل من فضل الإسلام ما لا يجهل ابن المسلمين.

واختلف القائلون في الاستتابة - فقال عمر بن الخطاب: يُسْتَتَاب ثلاثة أيام، وبه قال مالك، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي، والشافعي - في أحد قوله. وقال الزهري: يدعى إلى الإسلام فإن تاب وإلا قتل. وروي عن علي بن أبي طالب أنه استتاب مرتداً شهراً فأبى فقتله. وقال النخعي، والثوري: يستتاب محبوساً أبداً. قال ابن المنذر: واختلفت الآثار عن عمر في هذا الباب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كان رضي الله عنه ينفذ بحسب جرم ذلك المرتد، أو قلة جرمه، المقترن بالرّدة.

وحبط العمل إذا انفسد في آخره فيطل. وقرأ أبو السمال: ﴿حَبِطت﴾ بفتح الباء في جميع القرآن. وقال علي بن أبي طالب، والحسن، والشعبي، والحكم، والليث، وأبو حنيفة، وإسحاق بن راهويه: ميراث المرتد لورثته من المسلمين. وقال

ومعنى الآية على قول الجمهور - إنكم يا كفار قريش تستعظمون علينا القتال في الشهر الحرام، وما تفعلون أنتم من الصد عن سبيل الله لمن أراد الإسلام ومن كفركم بالله وإخراجكم أهل المسجد منه - كما فعلوا برسول الله ﷺ وأصحابه - أكبر جرماً عند الله.

وقال الزهري، ومجاهد، وغيرهما قوله: ﴿قُلْ قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً﴾ ويقولوه: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ وقال عطاء: لم تنسخ، ولا ينبغي القتال في الأشهر الحرم، وهذا ضعيف. وقوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ المعنى عند جمهور المفسرين: والفتنة التي كنتم تفتنون المسلمين عن دينهم حتى يهلكوا أشد اجتراماً من قتلهم في الشهر الحرام. وقيل: المعنى: والفتنة أشد من أن لو قتلوا ذلك المفتون، أي: فعلكم على كل إنسان أشد من فعلنا. وقال مجاهد وغيره: الفتنة هنا: الكفر، أي كفركم أشد من قتلنا أولئك.

﴿٢١٧﴾ - ﴿٢١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْكُونُ﴾ ابتداءً خبر من الله - عز وجل - وتحذير منه للمؤمنين من شر الكفرة، و﴿يُرَدُّكُمْ﴾ نصب ب﴿حَتَّى﴾ لأنها غاية مجردة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْكُدْ﴾، أي يرجع عن الإسلام إلى الكفر. قالت طائفة من العلماء: يُسْتَتَاب المرتد فإن تاب وإلا قتل. وقال عبيد بن عمير، وطاوس، والحسن: على

أحياناً ويجيء الرجاء بمعنى ما يقارنه من الخوف كما قال الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّخْلُ لَمْ يَزُجْ لَسَعَهَا
وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ نَوْبِ عَوَامِلٍ

وقال الأصمعي: إذا اقترون حرف النفي بالرجاء كان بمعنى الخوف

كهذا البيت، وكقوله عز وجل: ﴿لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ المعنى: لا يخافون،

وقد قيل: إن الرجاء في الآية على بابه، أي لا يرجون الثواب في لقائنا

وبإزاء ذلك خوف العقاب. وقال قوم: اللفظة من الأصداد دون تجوز

في إحدى الجهتين، وليس هذا بجيد. وقال الجاحظ في كتاب

«البلدان»: إن معنى قوله: (لَمْ يَزُجْ لَسَعَهَا) أي لَمْ يَزُجْ بُزْءَ لَسَعِهَا

وزواله، فهو يصبر عليه. وباقى الآية وعُدَّ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ﴾ الآية - السائلون:

هم المؤمنون، و«الْخَمْرُ» مأخوذة من خَمَرَ إذا ستر، ومنه قول

النبي ﷺ: «خَمَرُوا الْإِنَاءَ» ومنه: خَمَارُ الْمَرْأَةِ - وَالْخَمْرُ: ما وارك من شجر وغيره، ومنه قول الشاعر:

أَلَا يَا زَيْدَ وَالضُّحَاكَ سَيِّرَا
فَقَدْ جَاوَزْتَمَا خَمْرَ الطَّرِيقِ

أي: سيرا مُدْلِينَ فقد جاوزتما الوهدة التي يستتر بها الذيب وغيره، ومنه قول العجاج:

فِي لَامِعِ الْعَقْبَانِ لَا يَمْشِي الْخَمْرُ
.....

يصف جيشاً برايات غير مستخف. ومنه قولهم:

دَخَلَ فُلَانٌ فِي غَمَارِ النَّاسِ
وَخَمَارِهِمْ، أَي: هُوَ بِمَكَانِ خَافٍ،

فلما كانت الخمر تستر العقل وتُعْطِي عليه سُمِّيتَ بذلك.

والخمر ماء العنب الذي عُليَ ولم يطبخ وما خامر العقل من غير ذلك فهو في حكمه.

وحُرِّمَتِ الخمر بالمدينة يوم حرمت وهي من العسل، والزبيب، والتمر،

والشعير، والقمح، ولم تكن عندهم خمر عنب. وأجمعت الأمة على

خمر العنب - إذا غلت ورمت بالزبد - أنها حرام قليلاً وكثيرها، وأن

الحد واجب في القليل منها والكثير. وجمهور الأمة على أن ما أسكر

كثيره من غير خمر العنب فمحرم قليله وكثيره، والحد في ذلك

واجب، وقال أبو حنيفة، وسفيان الثوري، وابن أبي ليلى، وابن

شبرمة، وجماعة من فقهاء الكوفة: «ما أسكر كثيره من غير خمر العنب

فما لا يسكر منه حلال، وإذا سكر أحد منه دون أن يتعمد الوصول إلى

حد السكر فلا حد عليه» وهذا قول ضعيف يردّه النظر. وأبو بكر

الصدّيق، وعمر الفاروق، والصحابه رضي الله عن جميعهم على خلافه.

وروي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْرٍ،

وكل خمر حرام، وما أسكر كثيره فقليله حرام». قال ابن المنذر في

«الإشراق»: لم يبق هذا الخبر مقالة لقاتل، ولا حجة لمحتج.

وروي أن هذه الآية أول تطرق إلى تحريم الخمر، ثم بعده: ﴿لَا تَقْرَبُوا

الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾. ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْمِرِ

وَيَصِدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَبِهُونَ ﴿٢١٩﴾ ثم قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تَنفَرُ وَالْمَيْمِرُ وَالْأَصْحَابُ وَالَّذِينَ يَمَسُّ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَأَجْزِبُوهُمْ﴾ فقال

رسول الله ﷺ: «حُرِّمَتِ الْخَمْرُ». ولم يحفظ عن النبي ﷺ في حدّ

الخمر إلا أنه جلد أربعين. خرجه مسلم، وأبو داود. وروي عنه ﷺ

أنه ضرب فيها ضرباً مشاعاً وحزره أبو بكر أربعين سوطاً، وعمل بذلك هو، ثم عمر، ثم تهافت الناس فيها

فشدد عليهم الحد وجعله كأخف الحدود ثمانين، وبه قال مالك،

وقال الشافعي بالأربعين - وضرب الخمر غير شديد عند جماعة من

العلماء لا يبدو إبط الضارب. وقال مالك: الضرب كله سواء لا يخفف

ولا يبرح - ويجتنب من المضروب الوجه والفرج والقلب والدماغ

والخواصر بإجماع.

وقالت طائفة: هذه الآية منسوخة بقوله: ﴿فَأَجْزِبُوهُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾؛

يريد ما في قوله: ﴿وَمَنْفِعٌ لِلنَّاسِ﴾ من الإباحة والإشارة إلى الترخيص.

و«الْمَيْمِرُ» مأخوذ من يسر: إذا جزر، والياسر: الجازر، ومنه قول

الشاعر:

فَلَمْ يَزَلْ بِكَ وَائِيهِمْ وَمَكْرِهِمْ
حَتَّى أَشَاطُوا بِغَيْبِ لَحْمٍ مِنْ يَسْرٍ

ومنه قول الآخر:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشُّغْبِ إِذْ يَنْسِرُونَنِي
أَلَمْ تَنْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدَمٍ

والجزور الذي يستهم عليه يسمى ميسيراً لأنه موضع اليسر - ثم قيل للسهم ميسير للمجاورة.

وقال الطبري: الميسر مأخوذ من

يَسْرَ لِي هَذَا إِذَا وَجِبَ وَتَسْنَى،
وَنَسِبَ الْقَوْلَ إِلَى مُجَاهِدٍ، ثُمَّ جَلَبَ
مِنْ نَصِّ كَلَامِ مُجَاهِدٍ مَا هُوَ خِلَافَ
لِقَوْلِهِ، بَلْ أَرَادَ مُجَاهِدُ الْجَزْرَ.

واليسر: الذي يدخل في الضرب
بالقداح، وجمعه أيسار، وقيل: يَسْرُ
جمع ياسر كحارس وحرس
وأحراس.

وسهام الميسر سبعة لها حظوظ،
وفيها فروض على عدة الحظوظ،
وثلاثة لا حظوظ لها، ولا فروض
فيها. وهي: القُدُّ. والثَوَامُ.
والرُّقِيبُ. والحلَسُ. والثَّافَسُ.
والمسبَلُ. والمَعْلَى. والثلاثة التي لا
حظوظ لها: المنيح. والسفيح.
والموْعَدُ. تزداد هذه الثلاثة لتكثر
السهام وتختلط على الخُرْضَةِ، وهو
الضارب بها فلا يجد إلى الميل مع
أحد سيلاً.

وكانت عادة العرب أن تضرب بهذه
القداح في - الشتوة وضيق الوقت
وكلب البرد على الفقراء - تشتري
الجزور، ويضمن الأيسار ثمنها ثم
تنحر وتقسم على عشرة أقسام،
وأخيراً الأصمعي في قصة الجزور
فذكر أنها كانت على قدر حظوظ
السهام ثمانية وعشرين قسماً وليس
كذلك. ثم يضرب على العشرة
الأقسام فمن فاز سهمه بأن يخرج من
الريابة متقدماً أخذ أنصباؤه وأعطاه
الفقراء.

وفي أحيان ربما تقامروا لأنفسهم
ثم يفرم الثمن من لم يفز سهمه،
ويعيش بهذه السيرة فقراء الحي،
ومنه قول الأعشي:

المُطَّصِرُ الضَّيْفُ إِذَا مَا شَتَّوَا

وَالجَاعِلُو الْقَوَاتِ عَلَى النَّيَاسِرِ
ومنه قول الآخر:

بِأَيْدِيهِمْ مَفْرُومَةٌ وَمَغَالِقُ
يَعُودُ بِأَرْزَاقِ الْعَفَاةِ مَنِيحُهَا

والمنيح في هذا البيت المستمنح،
لأنهم كانوا يستعيرون السهم الذي
قد أملس، وكثر فوزه، فذلك المنيح
الممدوح.

وأما المنيح الذي هو أحد الثلاثة
الأغفال فذلك إنما يوصف بالكر،
وإياه أراد جرير بقوله:

وَلَقَدْ عَطَفَنَ عَلَى فَرَازَةَ عَطْفَهُ
كُرُّ الْمَنِيحِ وَجَلَنَ ثُمَّ مَجَالَا
ومن الميسر قول لبيد:

إِذَا يَسْرُوا لِمِ يورِثُ الْيُسْرُ بَيْنَهُمْ
فَوَاجِشْ يُنْعَى ذِكْرُهَا بِالْمَصَافِي
فهذا كله هو نفع الميسر إلا أنه أكل
مال الغير بالباطل فيه إثم كبير.

وقال محمد بن سيرين، والحسن،
وابن عباس، وابن المسيب،
وغيرهم: كل قمار ميسر - من نرد
وشطرنج ونحوه حتى لعب الصبيان
بالجزور.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهَا إِثْمٌ
كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية. قال ابن
عباس والربيع: الإثم فيهما بعد
التحريم، والمنفعة فيهما قبله.
وقالت طائفة: الإثم في الخمر:
ذهاب العقل والسباب والافتراء
والإذابة والتعدي الذي يكون من
شاربها - والمنفعة: اللذة بها، كما
قال حسان بن ثابت:

وَنَشْرَبُهَا فَتَشْرِكُنَا مُلُوكاً
وَأَسْنَدُ لَا يَنْهَيْنَاهُنَا الْقَاءُ
إلى غير ذلك من أمثالها. وقال

مجاهد: المنفعة بها كسب أثمانها،
ثم أعلم الله عز وجل أن الإثم أكبر
من النفع وأعود بالضرر في الآخرة
فهذا هو التقدمة للتحريم.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿كَثِيرٌ﴾
بالشَاءِ المثلثة، وحجتها أن
النبي ﷺ: (لعن الخمر ولعن معها
عشرة: بائعها ومبتاعها والمشتراة له
وعاصرها والمعصورة له وساقياها
وشاربها وحاملها والمحمولة إليه
وأكل ثمنها) فهذه أثم كثيرة.

وأيضاً فجمع المنافع يحسن معه
جمع الأثم وكثير بالشاء المثلثة يُعْطَى
ذلك.

وقرأ باقي القراء، وجمهور الناس:
﴿كَبِيرٌ﴾ بالباء الموحدة، وحجتها أن
الذنب في القمار وشرب الخمر من
الكبائر فوصفه بالكبير أليق.

وأيضاً فاتفاقهم على ﴿أَكْبَرُ﴾ حجة
لكبير بالباء الموحدة، وأجمعوا على
رفض أكثر بالشاء مثلثة إلا ما في
مصحف ابن مسعود فإن فيه ﴿قُلْ
فيهما إثم كثير وإثمهما أكثر﴾ بالشاء
مثلثة في الحرفين.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا إِثْمٌ﴾،
يحتمل مقصدين - أحدهما أن يراد
في استعمالهما بعد النهي، والآخر
أن تُراد خلال السوء التي فيهما.

وقال سعيد بن جبير: لما نزلت
﴿قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ﴾
كرهها قوم للإثم، وشربها قوم
للمنافع، فلما نزلت ﴿لَا تَقْرَبُوا
الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ تجنّبوا عند
أوقات الصلوات، فلما نزلت: ﴿إِنَّمَا
أَنْفَقْتُمْ وَالْيَبِيرُ وَالْأَسْبَابُ وَالْأَكْلَامُ يَجَسُّ بَيْنَ

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا أَبْقَتْ غَنِيًّا»، وفي حديث آخر: «ما كان عن ظهر غني» وقرأ جمهور الناس: ﴿الْمَعْفُو﴾ بالنصب. وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿الْعَفْوُ﴾ بالرفع. واختلف عن ابن كثير. وهذا متركب على «مَادَا» فمن جعل «مَا» ابتداءً و«إِذَا» خبره بمعنى الذي وقدر الضمير في «يُنْفِقُونَ» عائداً قرأ ﴿الْمَعْفُو﴾ بالرفع لتصح مناسبة الجمل، ورفع على الابتداء تقديره: العفو إنفاقكم أو الذي

عَلَى الشَّيْطَانِ فَاجْتَبَيْهُ لَمَلَكُمْ قُلُوبُكُمْ ﴿٢٢٠﴾ قال عمر بن الخطاب: «ضبيعة لك اليوم، فُرنت بالميسر والأنصاب». وقال رسول الله ﷺ: «حُرِّمَتْ الخُمْر». ولما سمع عمر بن الخطاب قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ؟﴾ قال: انتهينا. انتهينا. قال الفارسي، وقال بعض أهل النظر: حرمت الخمر بهذه الآية، لأن الله تعالى قال: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَأَلَّا يَأْتُوا الخمر في هذه الآية أن فيها إثمًا فهي حرام. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ليس هذا النظر بجيد، لأن الإثم الذي فيها هو الحرام لا هي بعينها على ما يقتضيه هذا النظر.

وقال قتادة: ذم الله الخمر بهذه الآية ولم يحرمها. وقوله تعالى: ﴿وَسَلَّوْا لَكُمْ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْمَعْفُو﴾ قال قيس بن سعد: هذه الزكاة المفروضة. وقال جمهور العلماء: بل هي نفقات التطوع. وقال بعضهم: نسخت بالزكاة. وقال آخرون: هي محكمة وفي المال حق سوى الزكاة. والعفو: هو ما ينفقه المرء دون أن يجهد نفسه وماله، ونحو هذا هي عبارة المفسرين، وهو مأخوذ من عفا الشيء إذا كثر، فالمعنى: أنفقوا ما فضل عن حوائجكم ولم تؤذوا فيه أنفسكم فتكونوا عالة. وروي أن النبي ﷺ قال: «مَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ فَلْيُنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِهِ، ثُمَّ عَلَى مَنْ يَمْعُولُ، فَإِنْ فَضَلَ شَيْءٌ فَلْيَتَصَدَّقْ بِهِ».

التأويل - بالآيات، وعلى التأويل الأول وهو المشهور عن ابن عباس وغيره يتعلق ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بتفكرون. ﴿٢٢٠﴾ - ﴿٢٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله قبل: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ ابتداءً آية، وقد تقدم تعلقه وكون ﴿يَتَفَكَّرُونَ﴾ موقفاً يقوي تعلق ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ بالآيات. وقرأ طراس: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لِيهِمْ خَيْرٌ﴾.

وسبب الآية فيما قال السدي، والضحاك، أن العرب كانت عاداتهم أن يتجنبوا مال اليتيم، ولا يخالطوه في مأكلا ولا مشرب ولا شيء، فكانت تلك مشقة عليهم، فسألوا عنه رسول الله ﷺ.

وقال ابن عباس، وسعيد بن المسيب: سببها أن المسلمين - لما نزلت: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ الآية، ونزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ

تنفقون العفو. ومن جعل «مَادَا» اسماً واحداً مفعولاً بينفقون قرأ: ﴿قُلِ الْمَعْفُو﴾ بالنصب بإضمار فعل وضح له تناسب. ورفع ﴿الْمَعْفُو﴾ مع نصب «مَادَا» جائز ضعيف، وكذلك نصبه مع رفعها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يبينُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَمَلَكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ الإشارة إلى ما تقدم تبينه من أمر الخمر والميسر والإنفاق، وأخبر تعالى أنه يبين للمؤمنين الآيات التي تقودهم إلى الفكرة في الدنيا والآخرة، وذلك طريق النجاة لمن نفته فكرته.

وقال مكي: معنى الآية: أنه يبين للمؤمنين آيات في الدنيا والآخرة تدل عليهما وعلى منزلتهما، لعلهم يتفكرون في تلك الآيات، فقوله: ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ متعلق - على هذا

أَتَوَكَّلْ أَلَيْتَكُمُ طُلَمَّا ﴿٢٢٠﴾ تجنبوا اليتامى وأموالهم، وعزلوهم عن أنفسهم، فنزلت: ﴿وَإِنْ تَخَالَطُوهُمْ فَارْحَمُوهُمْ﴾ الآية. وقيل: إن السائل عبدالله بن رواحة، وأمر الله تعالى نبيه أن يجيب بأن من قصد الإصلاح في مال اليتيم فهو خير، وما فعل بعد هذا المقصد من مخالطة وانسباط بعوض منه فلا حرج - ورفع الله تعالى المشقة في تجنب اليتيم ومأكله ومشربه، وأباح الخلطة في ذلك، إذا قصد الإصلاح ورفق اليتيم.

مثال ذلك أن يكتفي اليتيم - دون خلطة - بقدر ما في الشهر، فإن دعت خلطة الولي إلى أن يزداد في ذلك القدر فهي مخالطة فساد، وإن دعت إلى الحط من ذلك القدر فهي مخالطة إصلاح. وقوله تعالى: ﴿فَارْحَمُوهُمْ﴾ خبر ابتداء محذوف. وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ تحذير.

والعت: المشقة، ومنه عنت العزبة - وعقبة عنوت. أي: شاقة - وَعَتَّ البعير إذا انكسر بعد جبر. فالمعنى: لِأَتَعَبَكُمْ فِي تَجَنُّبِ أَمْرِ الْيَتَامَى، ولكنه خفف عنكم.

وقال ابن عباس: المعنى لأؤيقم بما سلف من نيلكم من أموال اليتامى.

﴿عَبْرٌ﴾: مقتضاه لا يُرَدُّ أمره، و﴿حَكِيمٌ﴾: أي محكم ما ينفذه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَةَ حَتَّىٰ تُؤْمِنَ﴾ الآية. قرأ جمهور الناس: ﴿تَنكِحُوا﴾ بفتح التاء، وقرئت في الشاذ بالضم كأن المتزوج لها أنكحها من نفسه - ونكح

أصله الجماع، ويستعمل في التزوج تجوزاً واتساعاً.

وقالت طائفة: المشركات هنا من يشرك مع الله إلهاً آخر، فلم تدخل اليهوديات ولا النصرانيات في لفظ هذه الآية ولا في معناها.

وسببها قصة أبي مرثد كثر بن حصين مع عَنَاقِ التي كانت بمكة. وقال قتادة، وسعيد بن جبير: لفظ الآية العموم في كل كافرة، والمراد بها الخصوص أي غير الكتابيات، وبينت الخصوص آية المائدة ولم يتناول العموم قط الكتابيات.

وقال ابن عباس، والحسن: تناولهن العموم ثم نسخت آية سورة المائدة بعض العموم في الكتابيات، وهذا مذهب مالك رحمه الله. ذكره ابن حبيب.

وقال: ونكاح اليهودية والنصرانية - وإن كان قد أحله الله مستثقل مذموم، وكره مالك رحمه الله تزوج الحرييات لعله ترك الولد في دار الحرب، ولتصرفها في الخمر والخنزير، وأباح نكاح الكتابيات عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وجابر بن عبدالله، وطلحة، وعطاء بن أبي رباح، وابن المسيب، والحسن، وطاوس، وابن جبير، والزهري، والشافعي، وعمام أهل المدينة والكوفة. ومنع مالك، والشافعي وأبو حنيفة، والأوزاعي، وإسحاق - نكاح المجوسية. وقال ابن حنبل: لا يعجبني. وزوي أن حذيفة بن اليمان تزوج مجوسية. وقال ابن القصار. قال بعض أصحابنا: يجب - على أحد القولين

أن لهم كتاباً - أن تجوز مناعتهم. وقال ابن عباس في بعض ما روي عنه: إن الآية عامة في الوثنيات والمجوسيات والكتابيات، وكل من كان على غير الإسلام حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا هي ناسخة للآية التي في سورة المائدة، وينظر إلى هذا قول ابن عمر في الموطأ: «ولا أعلم إشراكاً أعظم من أن تقول المرأة ربها عيسى».

وروي عن عمر أنه فرق بين طلحة بن عبيدالله وحذيفة بن اليمان وبين كتابيتين وقال: نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب، فقال: لو جاز طلاقكما لجاز نكاحكما، ولكن أفرق بينكما صغرة قمأة، وهذا لا يستند جيداً، وأسند منه أن عمر أراد التفريق بينهما فقال له حذيفة: أنزعم أنها حرام فأخلي سبيلها يا أمير المؤمنين؟ فقال: لا أزعم أنها حرام ولكنني أخاف أن تعاطوا المومسات منهن. وروي عن ابن عباس نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَالأُمَّةُ مَوْجِدَةٌ﴾ إخبار أن المؤمنة المملوكة خير من المشركة وإن كانت ذات الحسب والمال، ولو أعجبتكم في الحسن وغير ذلك، هذا قول الطبري وغيره.

وقال السدي: نزلت في عبدالله بن رواحة - كانت له أمة سوداء فلطمها في غضب، ثم ندم فأتى النبي ﷺ فأخبره وقال: هي تصوم وتصلي وتشهد الشهادتين. فقال رسول الله ﷺ: «هذه مؤمنة» فقال ابن رواحة لأعتقنها ولأتزوجنها،

ف فعل، فطعن عليه ناس فنزلت الآية فيه.

ومالك رحمه الله لا يجوز عنده نكاح الأمة الكتابية. وقال أشهب في كتاب محمد فيمن أسلم وتحتة أمة كتابية: إنه لا يفرق بينهما - وروى ابن وهب وغيره عن مالك أن الأمة المجوسية لا يجوز أن توطأ بملك اليمين.

وأبو حنيفة وأصحابه يجيزون نكاح الإماء الكتابيات.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا﴾ الآية. أجمعت الأمة على أن المشرك لا يَطَأُ المؤمنة بوجه، لما في ذلك من الغضاضة على دين الإسلام، والقراء على ضم التاء من ﴿نُنكِحُوا﴾.

وقال بعض العلماء: إن الولاية في النكاح نص في لفظ هذه الآية - ولعبد مؤمن مملوك خير من مشرك حسيب، ولو أعجبك حسنه وماله حسب ما تقدم.

وليس التفضيل هنا بلفظة ﴿خَيْرٌ﴾ من جهة الإيمان فقط لأنه لا اشتراك من جهة الإيمان، لكن الاشتراك موجود في المعاشرة والصحبة وملك العصمة وغير شيء. وهذا النظر هو على مذهب سيبويه في أن - لفظة أفعل التي هي للتفضيل لا تصح حيث لا اشتراك، كقولك: الثلج أبرد من النار، والنور أضوأ من الظلمة.

وقال الفراء، وجماعة من الكوفيين: تصح لفظة أفعل حيث الاشتراك، وحيث لا اشتراك. وحكى مكى عن نفطوية أن لفظة

التفضيل تجيء في كلام العرب إيجاباً للأول ونفيًا عن الثاني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتل الآية عندي أن يكون ذكر العبد والأمة عبارة عن جميع الناس حرهم ومملوكهم، كما قال ﷺ: ﴿لَا تَمْنَعُوا إِمَاءَ اللَّهِ مَسَاجِدَ اللَّهِ﴾، وكما نعتقد أن الكل عبيد الله، وكما قال تعالى: ﴿يَعْمَ الْكَلْبُ إِنَّهُ آوَاكُ﴾ فكأن الكلام في هذه الآية: (ولامرأة ولرجل).

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾، الإشارة إلى المشركات والمشركين، أي أن صحبتهم ومعاشرتهم توجب الانحطاط في كثير من هواهم مع تربيتهم النسل، فهذا كله دعاء إلى النار، مع السلامة من أن يدعو إلى دينه نصاً من لفظه، والله تعالى يمتن بالهداية ويبين الآيات، ويحض على الطاعات التي هي كلها دواع إلى الجنة. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَالْمَغْفِرَةَ﴾ بالرفع على الابتداء.

والإذن: العلم والتمكين فإن انضاف إلى ذلك أمر فهو أقوى من الإذن، لأنك إذا قلت: أذنت في كذا، فليس يلزمك أنك أمرت، و﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ترج في حق البشر، ومن تذكر عمل حسب التذکر فنجا.

﴿٣٣١﴾ - ﴿٣٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الطبري، عن السدي أن السائل ثابت بن الدحداح. وقال قتادة، وغيره: إنما سألوا لأن العرب في المدينة وما والاها، كانوا قد استنوا بسنة بني إسرائيل، في تجنب مأكلة الحائض ومساكنتها، فنزلت هذه الآية: وقال مجاهد: كانوا يتجنبون

النساء في الحيض ويأثونهم في أدبارهن فنزلت الآية في ذلك.

و﴿الْحَيْضُ﴾: مصدر كالحيض، ومثله: المقيبل من قال يقبل. قال الراعي:

بُنِيَتْ مَرَايِقُهُنَّ فَوْقَ مَرْزَلَةٍ
لَا يَسْتَطِيعُ بِهَا الْقِرَاءُ مَقِيلًا

وقال الطبري: المحيض: اسم الحيض، ومنه قول رؤبة في العيش:

إِلَيْكَ أَشْكُو شِدَّةَ الْمَعِيشِ
وَمَرُّ أَعْوَامٍ نَتَفَنَ رِيشِي

و﴿أَذَى﴾ لفظ جامع لأشياء تؤذي: لأنه دم وقدر ومُنْتَن، ومن سبيل البول: وهذه عبارة المفسرين للفظة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَعْرَبُوا﴾ يريد: جماعهن بما فسر من ذلك

رسول الله ﷺ من أن يشد الرجل إزار الحائض ثم شأنه بأعلاها وهذا أصح ما ذهب إليه في الأمر، وبه قال ابن عباس، وشريح، وسعيد بن جبير، ومالك، وجماعة عظيمة من العلماء.

وروي عن مجاهد أنه قال: الذي يجب اعتزاله من الحائض الفرج وحده.

وروي ذلك عن عائشة، والشعبي، وعكرمة. وروي أيضاً عن ابن عباس، وعبيدة السلماني أنه يجب أن يعتزل الرجل فراش زوجته إذا حاضت، وهذا قول شاذ. وقد وقفت على ابن عباس حالته ميمونة رضي الله عنهما وقالت له: أرغبة عن سنة رسول الله ﷺ؟

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرُوا﴾ قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في

رواية حفص عنه: ﴿يَطْهَرُونَ﴾ بسكون الطاءِ وضَمِّ الهاءِ، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر والمفضل عنه: ﴿يَطْهَرُونَ﴾ بتشديد الطاءِ والهاءِ وفتحها.

وفي مصحف أبي، وعبدالله: ﴿حَتَّى يَتَطَهَّرُونَ﴾. وفي مصحف أنس بن مالك: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا النِّسَاءَ فِي مَحِيضِهِنَّ وَاعْتَزَلُوهُنَّ حَتَّى يَتَطَهَّرْنَ﴾.

ورجح الطبري قراءة تشديد الطاءِ وقال: هي بمعنى يغتسلن، لإجماع الجميع على أنه حرام على الرجل أن يقرب امرأته بعد انقطاع الدم حتى تطهر. قال: وإنما الاختلاف في الطهر - ما هو؟ فقال قوم: هو الاغتسال بالماء، وقال قوم: وضوء كوضوء الصلاة، وقال قوم: هو غسل الفرج، وذلك يحلها لزوجها وإن لم تغتسل من الحيضة. ورجح أبو علي الفارسي قراءة تخفيف الطاءِ إذ هو ثلاثي مضاد لطمث وهو ثلاثي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل واحدة من القراءتين تحتل أن يراد بها الاغتسال بالماء، وأن يراد بها إنقطاع الدم وزوال آذاه. وما ذهب إليه الطبري من أن قراءة شد الطاءِ مضمناها الاغتسال، وقراءة التخفيف مضمناها انقطاع الدم أمر غير لازم، وكذلك ادعاؤه لإجماع، أما إنه لا خلاف في كراهية الوطء قبل الاغتسال بالماء.

وقال الأوزاعي: من فعله تصدق بنصف دينار، ومن وطئ في الدم تصدق بدينار. وأسند أبو داود عن ابن عباس عن النبي ﷺ في الذي

يأتي امرأته وهي حائض قال: فيتصدق بدينار أو بنصف دينار. وقال ابن عباس: الدينار في الدم، والنصف عند انقطاعه. ووردت في الشدة في هذا الفعل آثار. وجمهور العلماء على أنه ذنب عظيم يتاب منه، ولا كفارة منه بمال.

وذهب مالك - رحمه الله - وجمهور العلماء، إلى أن الطهر الذي يحل جماع الحائض التي يذهب عنها الدم، هو تطهرها بالماء كطهور الجنب، ولا يجزي من ذلك تيمم ولا غيره.

وقال يحيى بن بكير، وابن القرطي: إذا طهرت الحائض وتيممت حيث لا ماء حلت لزوجها وإن لم تغتسل. وقال مجاهد، وعكرمة، وطاوس: انقطاع الدم يحلها لزوجها، ولكن بأن تتوضأ. و﴿حَتَّى﴾ غاية لا غير، و﴿وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ﴾ يريد بجماع، وهذا من سد الذرائع.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ﴾ الآية. القراءة ﴿تَطَهَّرْنَ﴾ بتاء مفتوحة وهاء مشددة، والخلاف في معناه كما تقدم من التطهر بالماء أو انقطاع الدم.

ومجاهد، وجماعة من العلماء يقولون هنا: إنه أريد الغسل بالماء ولا بد - بقريظة الأمر بالإتيان. وإن كان قُرْبُهُنَّ قبل الغسل مباحاً، لكن لا تقع صيغة الأمر من الله تعالى إلا على الوجه الأكمل.

﴿فَأَتَوْهُنَّ﴾ إباحة، والمعنى: من حيث أمركم الله باعتزالهن وهو الفرج، أو من السرة إلى الركبتين، أو جميع الجسد حسبما تقدم. هذا

كله قول واحد - وقال ابن عباس، وأبو رزين: المعنى من قَبِلَ الطهر لا من قَبِلَ الحيض، وقاله الضحاك - وقال محمد بن الحنفية: المعنى من قَبِلَ الحلال لا من قَبِلَ الزنى - وقيل: المعنى من قَبِلَ حال الإباحة لا صائحات ولا محرّمات ولا غير ذلك.

والتوابون: الراجعون، وعرفه: من الشر إلى الخير.

والمتطهرون. قال عطاء، وغيره: المعنى بالماء. وقال مجاهد، وغيره: المعنى: من الذنوب. وقال أيضاً مجاهد: المعنى: من إتيان النساء في أديارهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه نظر إلى قوله تعالى حكاية عن قوم لوط: ﴿أَخْرِجُوهُمْ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَظَاهِرُونَ﴾ وقرأ طلحة ابن مصرف: ﴿المطهرين﴾ بشد الطاءِ والهاءِ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُكُمْ خِثٌّ لَكُمْ﴾ الآية قال جابر بن عبدالله، والربيع: سببها أن اليهود قالت: إن الرجل إذا أتى المرأة من دبرها في قبلها جاء الولد أحول وعابت على العرب ذلك، فنزلت الآية تتضمن الرد على قولهم، وقالت أم سلمة وغيرها: سببها أن قريشاً كانوا يأتون النساء في الفرج على هيئات مختلفة، فلما قدموا المدينة وتزوجوا أنصاريات أرادوا ذلك فلم ترده نساء المدينة، إذ لم تكن عادة رجالهم إلا الإتيان على هيئة واحدة، وهي الانبطاح، فبلغ ذلك النبي ﷺ، وانتشر كلام الناس في ذلك، فنزلت الآية مبيحة

الهيئات كلها، إذا كان الوطء في موضع الحرث.

و﴿حَرَّتْ﴾ تشبيه لأنهن مُزدرع الذرية، فلفظة الحرث تعطي أن الإباحة لم تقع إلا في الفرج خاصة إذ هو المزدرع.

وقوله: ﴿أَنْتُمْ سِتْمٌ﴾ معناه: عند جمهور العلماء - من صحابة وتابعين وأئمة - أي وجه ستم، مقبلة ومدبرة وعلى جنب - و﴿أَنْتُمْ﴾ إنما تجيء سؤالاً أو إخباراً عن أمر له جهات، فهي أعم في اللغة من (كيف) ومن (أين) ومن (متى)، هذا هو الاستعمال العربي.

وقد فسر الناس ﴿أَنْتُمْ﴾ في هذه الآية - بهذه الألفاظ، وفسرها سيويه ب(كيف ومن أين) باجتماعهما. وذهبت فرقة ممن فسرها بأيّن إلى أن الوطء في الدبر جائز، روي ذلك عن عبدالله بن عمر وروى عنه خلافة وتكفير من فعله، وهذا هو اللائق به - ورويت الإباحة أيضاً عن ابن أبي مليكة، ومحمد بن المنكدر، ورواها مالك عن يزيد بن رومان، عن سالم، عن ابن عمر، وروي عن مالك شيء في نحوه، وهو الذي وقع في العتية، وقد كذب ذلك على مالك. وروي بعضهم أن رجلاً فعل ذلك في عهد النبي ﷺ فتكلم الناس فيه فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ورد عن رسول الله ﷺ في مصنف النسائي، وفي غيره أنه قال: «إتيان النساء في أديارهن حرام»، وورد عنه فيه أنه قال: «لمعون من أتى امرأة في دبرها». وورد عنه أنه

قال: «من أتى امرأة في دبرها فقد كفر بما أنزل على قلب محمد»، وهذا هو الحق المتبع - ولا ينبغي لمؤمن بالله واليوم الآخر أن يعرج في هذه النازلة على زلة عالم بعد أن تصح عنه، والله المرشد لا رب غيره.

وقال السدي: معنى قوله تعالى: ﴿وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾ أي الأجر نفسي تجنب ما نهيتم عنه، وامتنال ما أمرتم به. وقال ابن عباس: هي إشارة إلى ذكر الله على الجماع، كما قال النبي ﷺ: «لو أن أحدكم إذا أتى امرأته قال: بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان، وجنب الشيطان ما رزقتنا، فقضي بينهما ولد لم يضره». وقيل: معنى ﴿وَقَدِمُوا لِأَنْفُسِكُمْ﴾: طلب الولد، ﴿وَأَقْتُوا اللَّهَ﴾: تحذير، ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّكُمْ مُلْفَوهُ﴾: خبر يقتضي المبالغة في التحذير، أي فهو مجازيكم على البر والإثم ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾: تأنيس لفاعلي البر ومثيبي سنن الهدى.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْمَلُوا اللَّهَ عَرْضَةً﴾ الآية ﴿عَرْضَةً﴾ فُعلة بناء للمفعول، أي كثيراً ما يتعرض لما ذكر، تقول: جَمَلْتُ عَرَضَةَ للركوب، وفرس عرضة للجري، ومنه قول كعب بن زهير:

من كل نضاعة الذفري إذا عرقت
عرضتها طامس الإغلام مجهول
ومقصد الآية: ولا تُعَرِّضُوا اسم الله تعالى للأيمان به، ولا تكثروا من الأيمان، فإن الحنث مع الإكثار وفيه قلة رعي لحق الله تعالى.

ثم اختلف المتأولون - فقال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، والربيع، وغيرهم: المعنى: فيما تريدون الشدة فيه، من ترك صلة الرحم والبر والإصلاح - قال الطبري: التقدير: لأن لا تَبْرُوا ولا تَتَّقُوا ولا تصلحوا. وقدره المهدي: كراهة أن تَبْرُوا. وقال بعض المتأولين: المعنى: ولا تحلفوا بالله كاذبين إذا أردتم البر والتقوى والإصلاح، فلا يحتاج إلى تقدير (لا) بعد (أن) - ويحتمل أن يكون هذا التأويل في الذي يريد الإصلاح بين الناس فيحلف حائثاً ليكمل غرضه، ويحتمل أن يكون على ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «نزلت في تكثير اليمين بالله نهياً أن يحلف الرجل به براً فكيف فاجراً؟» فالمعنى: إذا أردتم لأنفسكم البر. وقال الزجاج، وغيره: معنى الآية: أن يكون الرجل إذا طلب منه فعل خير اعتل بالله تعالى فقال: علي يمين وهو لم يحلف. و﴿أَنْتُمْ تَبْرُوا﴾ مفعول من أجله، والبر جميع وجوه الخير. بر الرجل إذا تعلق به حكمها ونسبها كالحاج والمجاهد والعالم وغير ذلك وهو مضاد للإثم إذ هو الحكم اللاحق عن المعاصي و﴿سَبِيحٌ﴾ أي لأقوال العباد، ﴿عَلِيمٌ﴾ بنياتهم، وهو مجاز على الجميع.

وأما سبب الآية - فقال ابن جريج: نزلت في أبي بكر الصديق إذ حلف أن يقطع إنفاقه عن مسطح بن أثانة حين تكلم مسطح في حديث

يُكْفَرُ، فأشبه قوله بالكفارة قول من لا يراها لغواً.

وقال ابن عباس أيضاً، وطاوس: لغو اليمين: الحلف في حال الغضب. وروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: «لا يمين في غضب». وقال مكحول الدمشقي وجماعة من العلماء: لغو اليمين: أن يُحْرَم الرجل على نفسه ما أحل الله، فيقول: ما لي عليّ حرام إن فعلت كذا، أو الحلال عليّ حرام. وقال بهذا القول مالك بن أنس، إلا في الزوجة، فإنه ألزم فيها التحريم إلا أن يخرجها الحالف بقلبه.

وقال زيد بن أسلم، وابنه: لغو اليمين: دعاء الرجل على نفسه: أعمي الله بصره، أذهب الله ماله، هو يهودي، هو مشرك، هو لغيّة إن فعل كذا. وقال ابن عباس أيضاً، والضحاك: لغو اليمين: هي المكفّرة أي إذا كُفرت اليمين فيحتمد سقطت وصارت لغواً، ولا يؤاخذ الله بتكفيرها والرجوع إلى الذي هو خير. وقال إبراهيم النخعي: لغو اليمين: ما حثّ فيه الرجل ناسياً. وحكى عن ابن عبد البر قولاً: إن اللغو أيمان المكره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطريقة النظر أن تتأمل لفظة اللغو ولفظة الكسب، ويحكم موضعهما في اللغة، فكسب المرء ما قصده ونواه، واللغو ما لم يتعمده أو ما حقه لهجته أن يسقط، فيقوي على هذه الطريقة بعض الأقوال المتقدمة ويضعف بعضها.

وقد رفع الله عز وجل المؤاخذة

واختلف العلماء في اليمين التي هي لغو - فقال ابن عباس، وعائشة، وعامر الشعبي، وأبو صالح، ومجاهد: لغو اليمين: قول الرجل في درج كلامه واستعجاله في المحاورة: لا والله، وبلى والله دون قصد لليمين. وروى أن قوماً تراجعوا القول بينهم وهم يرمون بحضرة النبي ﷺ، فحلف أحدهم لقد أصببت وأخطأت يا فلان، فإذا الأمر بخلاف، فقال رجل: حنث يا رسول الله، فقال النبي ﷺ: «أيمان الرماة

لغو، لا إثم فيها ولا كفارة».

وقال أبو هريرة، وابن عباس أيضاً، والحسن، ومالك بن أنس، وجماعة من العلماء: لغو اليمين ما حلف به الرجل على يقينه، فكشف الغيب خلاف ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا اليقين هو غلبة ظن، أطلق الفقهاء عليه لفظة اليقين تجوزاً. قال مالك: مثله أن يرى الرجل على بعد فيعتقد أنه فلان، لا يشك، فيحلف ثم يجيء غير المحلوف عليه. وقال سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، وعبدالله وعروة ابنا الزبير: لغو اليمين: الحلف في المعاصي كالذي يقسم ليشربن الخمر، أو ليقطعن الرحم، فبهر ترك ذلك الفعل، ولا كفارة عليه. وقال سعيد بن جبير مثله، إلا أنه قال:

لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ فَلَوْ كُنتُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٥﴾ لِلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نَّفْسِهِمْ تَرْبُوعًا زَائِدَةً أَنَّهُمْ قَانُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾ وَالْمَطْلَقَتُ إِذْ يَرِيصَتُ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لهنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِيهِنَّ أَرْحَامَهُنَّ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يَتَوَلَّوْنَ أَحْسَنَ بَرِيئَةً فِي ذَلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ أَطْلَقَ مَرَّتَانِ فَأَمَّا كَيْفَ يَعْرِوْفُ أَوْ تَسْرِيبُ يُبَاحِسُنَّ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا مِمَّا آتَتْهُمُوهنَّ شَيْئًا إِلَّا أَنْ يَخَافَا أَلَّا يُضَيِّعَا حُودُودَ اللَّهِ فَإِنْ حَفِظْتُمُوهنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي مَا أَفْعَدْتُمْ بِيَدِكُمْ حُودُودَ اللَّهِ فَلا تَمْتَدُّوهَا وَمَنْ يَتَمَدَّ يَضَعُ حُودُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٢٩﴾ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا حِلَّ لهنَّ بَعْدَ حَيْثُ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ فَإِنْ طَلَّقَهَا فَلا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ أَنْ يَرْجِعَا إِنْ ظَنَّا أَنْ يَتِمَّامَا حُودُودَ اللَّهِ وَتِلْكَ حُودُودُ اللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

الإفك. وقيل: نزلت في أبي بكر الصديق مع ابنه عبدالرحمن في حديث الضيافة حين حلف أبو بكر ألا يأكل الطعام. وقيل نزلت في عبدالله بن رواحة مع بشير بن سعد حين حلف ألا يكلمه.

واليمين: الحلف، وأصله أن العرب كانت إذا تحالفت أو تعاهدت أخذ الرجل يمين صاحبه بيمينه، ثم كثر ذلك حتى سمي الحلف والعهد نفسه يميناً.

﴿٢٢٥﴾ - ﴿٢٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

اللغو: سقط الكلام الذي لا حكم له، ويستعمل في الهجر والرفث وما لا حكم له من الأيمان تشبيهاً بالسقط من القول، يقال منه: لغا يلغو لغواً، ولغى يلغى لغياً، ولغة القرآن بالواو.

والمؤاخذة: هي التناول بالمقوبة.

حلفها الرجل، ألا يظأ امرأته، أو ألا يكلمها، أو أن يضارها، أو أن يغازبها، فذلك كله إيلاء. وقال ابن المسيب - منهم - إلا أنه إن حلف ألا يكلم وكان يظأ فليس بإيلاء، وإنما تكون اليمين على غير الوطء إيلاء إذا اقترن بذلك الامتناع من الوطء.

وأقوال من ذكرناه - مع سعيد - مسجلة محتملة ما قال سعيد، ومحتملة أن فساد العشرة إيلاء، وذهب إلى هذا الاحتمال الأخير الطبري. وقال ابن عباس أيضاً: لا يُسمى مولياً إلا الذي يحلف ألا يظأ أبداً، حكاه ابن المنذر. وقال مالك، والشافعي، وأحمد، وأبو ثور: لا يكون مولياً إلا إن زاد على الأربعة أشهر.

وقال عطاء، والثوري، وأصحاب الرأي: الإيلاء أن يحلف على أربعة أشهر فصاعداً. وقال قتادة، والنخعي، وحماد بن أبي سليمان، وإسحاق، وابن أبي ليلى: من حلف على قليل من الوقت أو كثير فتركها أربعة أشهر فهو مول، قال ابن المنذر: وأنكر هذا القول كثير من أهل العلم.

وقوله تعالى: ﴿مِن سَيِّئِهِمْ﴾ يدخل فيه الحرائر والإماء إذا تزوجن. والعبد يلزمه الإيلاء من زوجته. وقال الشافعي، وأحمد وأبو ثور: أجله أربعة أشهر وقال مالك، والزهري، وعطاء بن أبي رباح، وإسحاق: أجله شهران. وقال الحسن: أجله من حرة أربعة أشهر، ومن أمة زوجة شهران، وقاله النخعي. وقال الشعبي: الإيلاء من

سَيِّئِهِمْ﴾ الآية. قرأ أبي بن كعب، وابن عباس: ﴿لِلَّذِينَ يُقْسِمُونَ﴾، و﴿يُؤَلِّونَ﴾: معناه: يحلفون، يقال: ألى يُولي إيلاء، والألية اليمين، ويقال فيها أيضاً: ألوة بفتح الهمزة وبضمها وبكسرها.

والتريص: التأنى والتأخر، وكان من عادة العرب أن يحلف الرجل ألا يظأ امرأته، يقصد بذلك الأذى عند المشارة ونحوها، فجعل الله تعالى في ذلك هذا الحد لئلا يضر الرجل بالنساء، وبقي للحالف على هذا المعنى فسحة فيما دون الأربعة أشهر.

وَاخْتَلَفَ - مِنَ الْمَرَادِ أَنْ يَلْزِمَهُ حَكْمَ الْإِيْلَاءِ؟ فَقَالَ مَالِكٌ رَحِمَهُ اللهُ: هُوَ الرَّجُلُ يَغَاضِبُ امْرَأَتَهُ فَيَحْلِفُ بِيَمِينٍ - يَلْحَقُ عَنِ الْحِنْتِ فِيهَا حَكْمٌ - أَلَا يَطَّأُهَا - ضَرَرًا مِنْهُ - أَكْثَرَ مِنْ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ لَا يَقْصِدُ بِذَلِكَ إِصْلَاحَ وَلَدٍ رَضِيْعٍ وَنَحْوِهِ. وَقَالَ بِهِ عَطَاءٌ وَغَيْرُهُ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: هُوَ الرَّجُلُ يَحْلِفُ أَلَا يَطَّأُ امْرَأَتَهُ عَلَى وَجْهِ مَغَاضِبَةٍ وَمَشَارَةٍ، وَسَوَاءٌ كَانَ فِي ضَمَنِ ذَلِكَ إِصْلَاحَ وَلَدٍ أَوْ لَمْ يَكُنْ. فَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَنِ غَضَبِ فُلَيْسِ بِإِيْلَاءٍ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَا إِيْلَاءَ إِلَّا بِغَضَبٍ. وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: سَوَاءٌ كَانَتْ الْيَمِينُ فِي غَضَبٍ أَوْ غَيْرِ غَضَبٍ هُوَ إِيْلَاءٌ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ، وَالثَّوْرِيُّ، وَمَالِكٌ، وَالشَّافِعِيُّ، وَأَهْلُ الْعِرَاقِ. إِلَّا أَنَّ مَالِكًا قَالَ: مَا لَمْ يَرُدْ إِصْلَاحَ وَلَدٍ. وَقَالَ الشَّعْبِيُّ، وَالْقَاسِمُ بْنُ مُحَمَّدٍ، وَسَالِمُ بْنُ عَبْدِ اللهِ، وَابْنُ الْمُسَيَّبِ: كُلُّ يَمِينٍ

بالإطلاق في اللغو، فحقيقته ما لا إثم فيه ولا كفارة. والمواخذه في الأيمان هي بعقوبة الآخرة في الغموس والمصبورة - وفيما ترك تكفيره مما فيه كفارة - وبعقوبة الدنيا في إلزام الكفارة فيضعف القول بأنها اليمين المكفرة لأن المواخذه قد وقعت فيها، وتخصيص المواخذه بأنها في الآخرة فقط تحكم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُوَاعِدُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ قال ابن عباس، والنخعي وغيرهما: ما كسب القلب: هي اليمين الكاذبة الغموس، فهذه فيها المواخذه في الآخرة، والكفارة إنما هي فيما يكون لغواً إذا كُفِّرَ.

وقال مالك وجماعة من العلماء: الغموس لا تُكْفَرُ، هي أعظم ذنباً من ذلك. وقال الشافعي، وقاتدة، وعطاء، والربيع: اليمين الغموس تُكْفَرُ، والكفارة مواخذه - والغموس: ما قصد الرجل في الحلف به الكذب، وكذلك اليمين المصبورة، المعنى فيهما واحد، ولكن الغموس سميت بذلك لأنها غمست صاحبها في الإثم، والمصبورة سميت بذلك لأنها صَبَرُهَا مَغَالِبَةٌ وَقُوَّةٌ عَلَيْهَا، كَمَا يَصْبِرُ الْحَيَوَانُ لِلْقَتْلِ وَالرَّمِيِّ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمٍ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَكِنْ يُوَاعِدُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ هُوَ فِي الرَّجُلِ يَقُولُ: هُوَ مُشْرِكٌ إِنْ فَعَلَ، أَيْ هَذَا لَغْوٌ إِلَّا أَنْ يَعْقِدَ الْإِشْرَاقَ بَقَلْبِهِ وَيَكْسِبُهُ.

﴿عَفْوَرٌ رَّجِيْعٌ﴾ صفتان لافتتان بما ذكر من طرح المواخذه، إذ هو باب رفق وتوسعة.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ يُؤَلِّونَ مِنْ

الأمة نصف الإيلاء من الحُرَّة. وقال مالك، والشافعي، وأصحاب الرأي، والأوزاعي، والنخعي، وغيرهم: المدخول بها وغير المدخول بها سواء في لزوم الإيلاء فيهما. وقال الزهري، وعطاء، والثوري: لا إيلاء إلا بعد الدخول. وقال مالك: ولا إيلاء من صغيرة لم تبلغ، فإن آلى منها فبلغت لزم الإيلاء من يوم بلوغها. وقال عمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب، وأبو الدرداء، وابن عمر، وابن المسيب، ومجاهد، وطاوس، ومالك، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو عبيد: إذا انقضت الأربعة الأشهر وقف، فإذا فاء وإما طلق، وإلا طلق عليه. وقال ابن مسعود، وابن عباس، وعثمان، وعلي أيضاً، وزيد بن ثابت، وجابر بن زيد، والحسن، ومسروق: بانقضاء الأربعة الأشهر دخل عليه الطلاق دون توقيف.

واختلف في الطلاق الداخل على المولى - فقال عثمان، وعلي، وابن عباس وابن مسعود، وعطاء، والنخعي، والأوزاعي، وغيرهم: هي طلاق بائنة لا رجعة له فيها. وقال سعيد بن المسيب، وأبو بكر بن عبد الرحمن، ومكحول، والزهري، ومالك: هي رجعية.

﴿قَاتُوا﴾ معناه: رجعوا، ومنه: ﴿حَتَّى تَبَيَّنَ لَكُمُ الْكُفْرُ﴾ (والفسيء): الظل الراجع عشيياً.

وقال الحسن، وإبراهيم: إذا فاء المولى ووطيء فلا كفارة عليه في

يمينه لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ قَاتُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا متركب على أن لغو اليمين ما حلف في معصية، وترك وطء الزوجة معصية.

وقال الجمهور: إذا فاء كفر، والفيء عند ابن المسيب، وابن جبير: لا يكون إلا بالجماع. وإن كان مسجوناً أو في سفر مضي عليه حكم الإيلاء إلا أن يطاق، ولا عذر له ولا فيء يقول.

وقال مالك رحمه الله: لا يكون الفيء إلا بالوطء أو بالتكفير إلا في حال العذر كالفائب والمسجون. قال ابن القاسم في المدونة: لا أن تكون يمينه مما لا يكفرها لأنها لا تقع عليه إلا بعد الحنث فإن القول يكفيه ما دام معذوراً.

واختلف القول في المدونة في اليمين بالله تعالى - هل يكتفي فيها بالفيء بالقول والعزم على التكفير أم لا بُد من التكفير، وإلا فلا فيء؟ وقال الحسن، وعكرمة، والنخعي وغيرهم: الفيء من غير المعذور الجماع، ولا بد من المعذور أن يشهد أنه قد فاء بقلبه.

وقال النخعي أيضاً: يصح الفيء بالقول والإشهاد فقط، ويسقط حكم الإيلاء، أرايت إن لم يتشر للوطء؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرجع في هذا القول إن لم يطاق إلى باب الضرر. وقرأ أبي بن كعب: ﴿فَإِنْ قَاتُوا فِيهِمْ﴾. وَرَوَى عَنْهُ: ﴿فَإِنْ قَاتُوا فِيهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا النَّكْثَ﴾

الآية. قال القائلون: إن بمضي الأربعة الأشهر يدخل الطلاق، وعزيمة الطلاق هي ترك الفيء، حتى تنصرم الأشهر. وقال القائلون: لا بد من التوقيف بعد تمام الأشهر، والعزيمة: هي التخليق أو الإبانة وقت التوقيف حتى يطلق الحاكم، واستدل من قال بالتوقيف بقوله: ﴿سَمِعْتُ﴾، لأن هذا الإدراك إنما هو في المقولات. وقرأ ابن عباس: ﴿فَإِنْ عَزَمُوا الشَّرْحَ﴾.

تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس ﴿فَرَدَّ﴾ على وزن فُعول - اللام همزة. وروي عن نافع شد الواو دون همز. وقرأ الحسن: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ بفتح القاف وسكون الراء وتثوين الواو خفيفة - وحكم هذه الآية مقصده الاستبراء، لا أنه عبادة، ولذلك خرجت منه من لم يبين بها، بخلاف عدة الوفاة التي هي عبادة.

﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ﴾ لفظ عموم يراد به الخصوص في المدخول بهن، ولم تدخل في العموم المطلقة قبل البناء، ولا الحامل، ولا التي لم تحض، ولا القاعد. وقال قوم: تناولهن العموم ثم نسيهن، وهذا ضعيف، فإنما الآية فيمن تحيض وهو عرف النساء، وعليه معظمن، فأغنى ذلك عن النص عليه.

والقُرء في اللغة: الوقت المعتاد ترده، وقرء النجم: وقت طلوعه، وكذلك وقت أفوله. وقُرء الريح: وقت هبوبها. ومنه قول الرازي:

يَارُبُّ ذِي ضُغْنٍ عَلَيَّ فَارِضْ لَه قُرُوءَ كَفَرُوءِ الْحَايِضِ

أراد وقت غضبه. فالحيض على هذا: يسمى قُرْءًا، ومنه قول النبي ﷺ: «اتركي الصلاة أيام إقرائك»، أي أيام حيضك، وكذلك على هذا النظر يسمى الطهر قُرْءًا، لأنه وقت معتاد تردده، يعاقب الحيض، ومنه قول الأعشى:

وفي كلِّ عام أنتِ جَائِئِمٌ عَزْوَةٌ
تشد لأقصاها عَزِيمَ عَزَائِكَا
مُورَثَةٌ مَالًا وفي الْحَيِّ رَفْعَةٌ
بِمَا ضَاعَ فِيهَا مِنْ قُرْوٍ نِسَائِكَا
أي من أطهارهن. وقال قوم: القرء مأخوذ من قرء الماء في الحوض، وهو جمعه، فكان الرحم تجمع الدم وقت الحيض، والجسم يجمعه وقت الطهر.

واختلف - أيهما أراد الله تعالى بالثلاثة التي حددها للمطلقة؟ فقال أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وابن عباس، والضحاك، ومجاهد، والربيع، وقتادة، وأصحاب الرأي، وجماعة كبيرة من أهل العلم: المراد الحيض، فإذا طلق الرجل امرأته في طهر لم يطق فيه استقبلت حيضة، ثم حيضة، ثم حيضة. فإذا اغتسلت من الثالثة خرجت من العدة. وقال بعض من يقول بالحيض: إذا طهرت من الثالثة انقضت العدة قبل الغسل، وهذا قول سعيد بن جبير وغيره.

وقالت عائشة، وابن عمر، وجماعة من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، منهم سليمان بن يسار، ومالك: المراد الأطهار، فإذا طلق الرجل امرأته في طهر لم يطق فيه اعتدت بما بقي منه ولو ساعة ثم استقبلت طهرًا ثانيًا بعد حيضة، ثم ثالثًا بعد حيضة

ثانية، فإذا رأت الدم من الحيضة الثالثة حلت للأزواج، وخرجت من العدة. فإن طلق مطلق في طهر قد مس فيه لزمه الطلاق، وقد أساء، واعتدت بما بقي من ذلك الطهر. وقال ابن القاسم، ومالك: إن المطلقة إذا رأت أول نقطة من الحيضة الثالثة، خرجت من العصمة، وهو مذهب زيد بن ثابت وغيره. وقال أشهب: لا تنقطع العصمة والميراث حتى يتحقق أنه دم حيض لثلاث يكون دفعة دم من غير الحيض.

واختلف المتأولون في المراد بقوله: ﴿مَا حَلَّقَ﴾ - فقال ابن عمر، ومجاهد، والربيع، وابن زيد، والضحاك: هو الحيض والحمل جميعاً ومعنى النهي عن الكتمان، النهي عن الإضرار بالزوج، وإذهاب حقه. فإذا قالت المطلقة: حضت - وهي لم تحض - ذهب بحقه من الارتجاع، وإذا قالت: لم أحض - وهي قد حاضت - ألزمت من النفقة ما لم يلزمه فأصيرت به، أو تقصد بكذبها في نفي الحيض ألا يرتجع حتى تتم العدة ويقطع الشرع حقه، وكذلك الحامل تكتم الحمل لينقطع حقه من الارتجاع.

وقال قتادة: كانت عاداتهن في الجاهلية أن يكتمن الحمل ليُتحقن الولد بالزوج الجديد، ففي ذلك نزلت الآية. وقال السدي: سبب الآية: أن الرجل كان إذا أراد أن يطلق امرأته سألها: أبها حمل؟ مخافة أن يضر بنفسه وولده في فراقها. فأمرهن الله بالصدق في ذلك. وقال إبراهيم

النخعي، وعكرمة: المراد ب﴿مَا حَلَّقَ﴾ الحيض. وروي عن عمر، وابن عباس أن المراد الحمل. والمعموم أرجح.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكَنَّ﴾ ما يقتضي أنهم مؤتمنات على ما ذكر، ولو كان الاستقصاء مباحاً لم يمكن كتم. وقرأ مبشر بن عبيد: ﴿فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ بضم الهاء.

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ يُؤْمِنُنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
الْآخِرِ﴾ الآية. أي حق الإيمان، فإن ذلك يقتضي ألا يكتمن الحق، وهذا كما تقول: إن كنت حرًا فانتصر - وأنت تخاطب حرًا ..

وقوله: ﴿وَيُؤْمِنُنَّ أَحَقُّ بِرَبِّهِنَّ فِي ذَلِكَ
إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا﴾. البعل: الزوج، وجمعه على بعولة شاذ لا ينقاس، لكن هو المسموع. وقال قوم: الهاء فيه دالة على تأنيث الجماعة، وقيل: هي هاء تأنيث دخلت على يعول، ويعول لا شذوذ فيه.

وقرأ ابن مسعود: ﴿بِرَبِّهِنَّ﴾ بزيادة تاء. وقرأ مبشر بن عبيد: ﴿بِرُدْهِنَّ﴾ بضم الهاء، ونص الله تعالى بهذه الآية على أن للزوج أن يرتجع امرأته المطلقة ما دامت في العدة، والإشارة ب﴿ذَلِكَ﴾ هي إلى المدة، ثم اقترن بما لهم من الرد شرط إرادة الإصلاح دون المضارة، كما تشدد على النساء في كتم ما في أرحامهن، وهذا بيان الأحكام التي بين الله تعالى، وبين عباده في ترك النساء الكتمان، وإرادة الرجال الإصلاح، فإن قصد أحد بعد هذا فساداً، أو كتتم امرأة ما في رحمها، فأحكام الدنيا على الظاهر والبواطن إلى الله

تعالى، يتولى جزاء كل ذي عمل - وتُضَعَفُ هذه الآية قول من قال في المولى: إن بانقضاء الأشهر الأربعة تزول العصمة بطلقة بائنة لا رجعة فيها، لأن أكثر ما تعطي ألفاظ القرآن أن ترك الفيء في الأشهر الأربعة هو عزم الطلاق، وإذا كان ذلك فالمرأة من المطلقات اللواتي يتربصن ويعولنهن أحق بردهن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ يَثُلُ الَّذِي عَيْتَنَ بِالْمَرْوَةِ﴾. قال ابن عباس: ذلك في التزين والتصنع والمواتاة. وقرأ الضحاك، وابن زيد: ذلك في حسن العشرة، وحفظ بعضهن لبعض، وتقوى الله فيه. والآية تعم جميع حقوق الزوجية وقوله: ﴿وَلِلرِّجَالِ عَيْتَنَ دَرَجَةً﴾. قال مجاهد، وقادة: ذلك تنبيه على فضل حفظه على حفظها في الجهاد والميراث وما أشبهه. وقال زيد بن أسلم وابنه: ذلك في الطاعة - عليها أن تطيعه، وليس عليه أن يطيعها، وقال عامر الشعبي: ذلك الصداق الذي يعطي الرجل، وأنه يلاعن إن قُذِفَ، وتُحَدُّ إن قذفت. وقال ابن عباس: تلك الدرجة إشارة إلى حض الرجال على حسن العشرة، والتوسع للنساء في المال والخلق، أي أن الأفضل ينبغي أن يتحامل على نفسه. وهذا قول حسن بارع. وقال ابن إسحاق: الدرجة: الإنفاق وأنه قوام عليها. وقال ابن زيد: الدرجة: ملك العصمة وأن الطلاق بيده. وقال حميد: الدرجة: اللحية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إن صح عنه - ضعيف لا

يقتضيه لفظ الآية ولا معناها. وإذا توملت هذه الوجوه التي ذكر المفسرون فيجيء من مجموعها درجة تقتضي التفضيل. و﴿عَزِيزٌ﴾ لا يعجزه أحد، و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما ينفذه من الأحكام والأمور.

﴿تفسير قوله عز وجل:

قال عروة بن الزبير، وقادة، وابن زيد، وغيرهم: نزلت هذه الآية بيانا لعدد الطلاق الذي للمرء فيه أن يرتجع، دون تجديد مهر وولي، وذلك أنهم كانوا في الجاهلية يُطَلِّقُونَ ويرتجعون إلى غير غاية، فقال رجل لامرأته على عهد النبي ﷺ: لا أؤويك ولا أدعك تحلين. فقالت: وكيف؟ قال: أطلقك، فإذا دنا مُضِي عديتك راجعتك - فشكت ذلك، فنزلت الآية.

وقال ابن عباس، وابن مسعود، ومجاهد وغيرهم: المراد بالآية التعريف بسنة الطلاق، أي من طلق اثنتين فليتنق الله في الثالثة، فإذا تركها غير مظلومة شيئاً من حقها، وإما أمسكها محبباً عشرتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تتضمن هذين المعنيين.

والإمسك بالمعروف: هو الارتجاع بعد الثانية إلى حسن العشرة، والتزام حقوق الزوجية. والتسريح يحتمل لفظه معنيين - أحدهما: تركها تيمم العدة من الثانية، وتكون أملك لنفسها، وهذا قول السدي، والضحاك، والمعنى الآخر: أن يطلقها ثالثة فيسرحها بذلك، وهذا قول مجاهد، وعطاء، وغيرهما -

ويقوى عندي هذا القول من ثلاثة وجوه:

أولها: أنه روي أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله: هذا ذكر الطلقتين فأين الثالثة؟ فقال النبي ﷺ: هي قوله: ﴿أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَنِ﴾.

والوجه الثاني: أن التسريح من ألفاظ الطلاق، ألا ترى أنه قد قرئ: ﴿وَإِنْ عَزَمُوا السَّرِيحَ﴾.

والوجه الثالث: أن فعل تفعيلاً بهذا التضعيف يُعطي أنه أحدث فعلاً مكرراً على الطلقة الثانية، وليس في الترك إحداث فعل يعبر عنه بالتفعيل، و﴿فَأَمْسَاكَ﴾ مرتفع بالابتداء، والخبر: أمثل، أو أحسن، ويصح أن يرتفع على خبر ابتداءٍ تقديره: فالواجب إمساك، وقوله: ﴿بِإِحْسَنِ﴾ معناه ألا يظلمها شيئاً من حقها، ولا يتعدى في قول.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا﴾ الآية، خطاب للأزواج، نهاهم به أن يأخذوا من أزواجهم شيئاً على وجه المضارة، وهذا هو الخلع الذي لا يصح إلا بالأل ينفرد الرجل بالضرر.

وخص بالذكر ما أتى الأزواج نساءهم، لأن العرف من الناس أن يطلب الرجل عند الشقاق والفساد ما خرج عن يده، هذا وكدهم في الأغلب فلذلك خص بالذكر.

وقرأ جميع السبعة - إلا حمزة - ﴿بِحَافًا﴾ بفتح الياء على بناء الفعل للفاعل، فهذا باب (خَافَ) في التعدي إلى مفعول واحد، وهو أن قرأ حمزة وحده ﴿بِخَافًا﴾ بضم

الخلع والأخذ أن تقول المرأة لزوجها إني لأكرهك ولا أحبك، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ﴾ إياحة للفدية، وشركهما في ارتفاع الجناح، لأنها لا يجوز لها أن تعطيه مالها، حيث لا يجوز له أخذه، وهي تقدر على المخاصمة فإذا كان الخوف المذكور جاز له أن يأخذ ولها أن تعطي، ومتى لم يقع الخوف فلا يجوز لها أن تعطي على طلب الفراق.

وقال ابن عمر، والنخعي، وابن عباس، ومجاهد، وعثمان بن عفان رضي الله عنه، ومالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وعكرمة، وقبيصة بن ذؤيب، وأبو ثور، وغيرهم: مباح للزوج أن يأخذ من المرأة في الفدية جميع ما تملكه، وقضى بذلك عمر بن الخطاب. وقال طاوس، والزهري، وعطاء، وعمرو بن شعيب، والحسن، والشعبي، والحكم، وحماد، وأحمد، وإسحاق: لا يجوز له أن يزيد على المهر الذي أعطاه، وبه قال الربيع، وكان يقرأ هو والحسن بن أبي الحسن: ﴿فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ مِنْهُ﴾ بزيادة ﴿مِنْهُ﴾ يعني: مما آتيتموهن، وهو المهر، وحكى مكي هذا القول عن أبي حنيفة، وابن المنذر أثبت. وقال ابن المسيب: لا أرى أن يأخذ منها كل مالها، ولكن ليدع لها شيئاً، وقال بكر بن عبدالله المزني: لا يجوز للرجل أن يأخذ من زوجته شيئاً خلعاً قليلاً ولا كثيراً قال: وهذه الآية منسوخة بقوله عز وجل: ﴿وَإِنْ

أعلم أحداً يُجيز له الفدية إلا ما روي عن أبي حنيفة أنه قال: إذا جاء الظلم والنشوز من قبَله فخالَعته، فهو جائز ماض، وهو آثم لا يحل ما صنع، ولا يُرَدُّ ما أخذ. قال ابن المنذر: وهذا خلاف ظاهر كتاب الله، وخلاف سنة رسول الله ﷺ، ولو قيل لأحد: أجهد نفسك في طلب الخطي ما وجد أمراً أعظم من أن ينطق القرآن بتحريم شيء فيحله هو ويجيزه.

وحدود الله - في هذا الموضع - هي ما يلزم الزوجين من حسن العشرة وحقوق العصمة.

ونازلة حبيبة بنت سهل، وقيل: جميلة بنت أبي ابن سلول - والأول أصح - مع ثابت بن قيس حين أباح له النبي ﷺ أخذ الفدية منها، إنما كان التعسف فيها من المرأة لأنها ذكرت عنه كل خير وأنها لا تحب البقاء معه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يَتَّبِعَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ المخاطبة للحكام والمتوسطين لمثل هذا الأمر وإن لم يكن حاكماً، وترك إقامة حدود الله هو استخفاف المرأة بحق زوجها وسوء طاعتها إياه. قاله ابن عباس، ومالك بن أنس، وجمهور الفقهاء، وقال الحسن بن أبي الحسن، وقوم معه: إذا قالت له لا أطيع لك أمراً، ولا أغتسل لك من جنابة، ولا أبر لك قسماً، حل الخلع. وقال الشعبي: ﴿أَلَّا يَتَّبِعَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ معناه: ألا يطيعا الله، وذلك أن المخاضبة تدعو إلى ترك الطاعة. وقال عطاء ابن أبي رباح: يحل

الباء على بناء الفعل للمفعول، فهذا على تعدية (خاف) إلى مفعولين أحدهما أسند الفعل إليه، والآخر أن بتقدير حرف جر محذوف. فموضع ﴿أَنْ﴾ خفض بالجار المقدر عند سيوبه والكسائي ونصب عند غيرهما لأنه لما حذف الجار، وصل الفعل للمفعول الثاني مثل أستغفر الله ذنباً، وأمرتك الخير.

وفي مصحف ابن مسعود: ﴿إِلَّا أَنْ يَخَافُوا﴾ بالياء وواو الجمع والضمير على هذا للحكام ومتوسطي أمور الناس.

وحرم الله تعالى على الزوج - في هذه الآية - أن يأخذ إلا بعد الخوف ألا يقيما، وأكد التحريم بالوعيد لمن تعدى الحد. وأجمع عوام أهل العلم على تحظير أخذ مالها، إلا أن يكون النشوز وفساد العشرة من قبَلها. قال ابن المنذر: روينا ذلك عن ابن عباس، والشعبي، ومجاهد، وعطاء، والنخعي، وابن سيرين، والقاسم بن محمد، وعروة بن الزبير، والزهري، وحميد بن عبدالرحمن، وقتادة، وسفيان الثوري، ومالك، وإسحاق، وأبي ثور.

وقال مالك رحمه الله، والشعبي، وجماعة معهم: فإن كان مع فساد الزوجة ونشوزها فساداً من الزوج. وتَفَاقَمَ ما بينهما فالفدية جائزة للزوج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى ذلك أن يكون الزوج - لو ترك فساد - لم يزل نشوزها هي.

وأما إن انفرد الزوج بالفساد فلا

إني لا أريد البقاء مع عبدالرحمن، ما معه إلا مثل الهدية، فقال لها رسول الله ﷺ: «لملك أردت الرجوع إلى رفاة؟ لا. حتى يدوق عسيلتك وتذوق عسيلته». فرأى العلماء أن النكاح المحل إنما هو الدخول والوطء وكلهم على أن مغيب الحشفة يُحِلُّ، إلا الحسن ابن أبي الحسن فإنه قال: لا يُحِلُّ إلا الإنزال، وهو ذوق العسيلة، وقال بعض الفقهاء: التقاء الختانين يُحِلُّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى واحد، إذ لا يلتقي الختانان إلا مع المغيب الذي عليه الجمهور. وروي عن سعيد بن المسيب أن العقد عليها يحلها للأول، وخطفة هذا القول لخلافه الحديث الصحيح، ويتأول على سعيد رحمه الله أن الحديث لم يبلغه، ولما رأى العقد عاملاً في منع الرجل نكاح امرأة قد عقد عليها أبوه قاس عليه عمل العقد في تحليل المطلقة - وتحليل المطلقة ترخيص، فلا يتم إلا بالأوفى، ومنع الابن شدة تدخل بأرق الأسباب على أصلهم في البر والجنث.

والذي يُحِلُّ عند مالك رحمه الله: النكاح الصحيح والوطء المباح، والمحلل إذا وافق المرأة فلم تنكح زوجاً، ولا يُحِلُّ ذلك، ولا أعلم في اتفاهه مع الزوجة خلافاً. وقال عثمان بن عفان: إذا قصد المحلل التحليل وحده لم يحل، وكذلك إن قصدته المرأة وحدها. ورخص فيه - مع قصد المرأة وحدها - إبراهيم، والشعبي إذا لم يأمر به الزوج.

وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا

وقتاده، والسدي: هذا ابتداء الطلقة الثالثة، فيجزي التسريح المتقدم ترك المرأة تتم عدتها من الثانية.

ومن قول ابن عباس رضي الله عنه أن الخلع فسخ عصمة، وليس بطلاق، واحتج من هذه الآية بذكر الله تعالى الطلاقين، ثم ذكره الثالثة بعد الخلع، ولم يك للخلع حكم يعتد به. ذكر هذا ابن المنذر في الأشراف عنه، وعن عكرمة، وطاوس، وأحمد،

وإسحاق، وأبي ثور - وذكر عن الجمهور خلاف قولهم.

وقال مجاهد: هذه الآية بيان ما يلزم المسرح. والتسريح: هو الطلقة الثالثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَسْرِحْ﴾ يحتمل الوجهين: إما تركها تتم العدة، وإما إرداف الثالثة، ثم بين في هذه الآية حكم الاحتمال الواحد، إذ الاحتمال الثاني قد علم منه أنه لا حكم له عليها بعد انقضاء العدة.

و﴿تَنكِحَ﴾ في اللغة جار على حقيقته في الوطء ومجاز في العقد. واجتمعت الأمة في هذه النازلة على اتباع الحديث الصحيح في بنت سمائل، امرأة رفاة حين تزوجها عبدالرحمن بن الزبير، وكان رفاة قد طلقها ثلاثاً، فقالت للنبي ﷺ:

وَأَاطَلْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِنَعْدَائِكُمْ وَأَمَّنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَنْدَحِدُوا وَأَنْتَ اللَّهُ هَرُورًا وَادْكُرُوا فِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ لِيُعْظِرَكُمْ بِمَوَاقِفِ اللَّهِ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَكْتُبُ لَكُمْ فِيهِمْ عَاقِبَةً وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْتُمْ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَنْفُسَهُنَّ إِذَا تَرَضُوا بَيْنَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ لَكُمْ وَأَطَهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ سَوَائِينَ كَامِلِينَ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنَمِّ الرِّضَاعَةَ وَعَلَى الْوَالِدِ لَهُ رِضْفُهُنَّ وَيَسُوغُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تَكْفُلْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَأَنْضَكَرَ وَوَلِدَةٌ يُولَدُهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَهُ يُولَدُهَا وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ فَإِنْ أَرَادَ فِصَالًا عَنْ تَرَاضٍ مِنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْرِحُوهُنَّ أُولَدُكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَأَلْتُمْ مَتَى يَأْتِيَنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

أَرَدْتُمْ أَسْتَبْدَالَ رَوْحٍ مَكَاتٍ رَوْحٍ وَءَاتَيْتُمْهُنَّ إِعْدَتَهُنَّ قِطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ سَحِيحًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن الأمة مجمعة على إجازة الفدية، ولأن المعنى المقترن بآية الفدية غير المعنى الذي في آية إرادة الاستبدال.

وقوله تعالى: ﴿تَلَاحُودُ اللَّهِ﴾ الآية - أي هذه الأوامر والنواهي هي المعالم بين الحق والباطل، والطاعة والمعصية، فلا تتجاوزها. ثم توعد تعالى على تجاوز الحد، ووصف المتعدي بالظلم، وهو وضع الشيء في غير موضعه، والظلم معاقب صاحبه. وهو كما قال ﷺ: «الظلم ظلمات يوم القيامة».

﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس، والضحاك،

والعضل: المنع من الزواج. وهو من معنى التضييق والتعسير كما يقال: أعضلت الدجاجة إذا عسر بيضها - والداء العضال العسير البرء.

نزلت هذه الآية في معقل بن يسار وأخته، وقيل: في جابر بن عبدالله، وذلك أن رجلاً طلق أخته، وقيل بنت عمه وتركها حتى تمت عدتها، ثم أراد ارتجاعها فغار جابر وقال: تركتها وأنت أملك بها - لا زَوْجُكَهَا أبداً، فنزلت الآية. وهذه الآية تقتضي ثبوت حق الولي في إنكاح وليته، وأن النكاح يفتقر إلى ولي، خلاف قول أبي حنيفة: «إن الولي ليس من شروط النكاح».

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه: المهر والإشهاد.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ﴾ خِطَابٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ، ثم رجوع إلى خطاب الجماعة، والإشارة في ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ترك العضل ﴿أَنْزَلْنَا وَأَطَهَّرْنَا﴾ معناه، أطيب للنفس، وأطهر للعرض والدين، بسبب العلاقات التي تكون بين الأزواج، وربما لم يعلمها الولي فيؤدي العضل إلى الفساد والمخالطة على ما لا ينبغي، والله تعالى يعلم من ذلك ما لا يعلم البشر.

﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿بِزَيْمَنِ أَزْوَاجِهِ﴾ خبر معناه الأمر على الوجوب لبعض الوالدات، والأمر على جهة الندب لبعضهن، فأما المرأة التي في العصمة فعليها الإرضاع وهو عرف يلزم، إذ قد صار كالشرط، إلا أن تكون شريفة ذات ترقة فعرؤها ألا ترضع، وذلك

﴿وَلَا تُنكِحُوا﴾ أي لا تراجعوهن ضراراً، وباقي الآية بيّن.

﴿٢٣١﴾ - ﴿٢٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل: المراد: آياته النازلة في الأوامر والنواهي.

وقال الحسن: نزلت هذه الآية فيمن طلق لاعباً أو هازلاً، أو راجع كذلك. وقالت عائشة، وقال رسول الله ﷺ: «ثلاث جدهن جد، وهزلهن جد: النكاح، والطلاق، والرجعة»، ووقع هذا الحديث في المدونة من كلام ابن المسيب: (النكاح، والطلاق، والعنق)، ثم ذكر الله عبادته بإنعامه عليهم بالقرآن والسنة.

﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي السنة المبينة على لسان رسول الله ﷺ مراد الله فيما لم يُنصَّ عليه في الكتاب - والوصف بـ﴿عَلِيمٌ﴾ يقتضيه ما تقدم من الأفعال التي ظاهرها خلاف النية فيها كالمحلل والمُرتجع مُضَارَّةً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَلَنْ أَجْلِهِنَّ فَلَا تَمْسُلُوهُنَّ﴾. الآية خطابٌ للمؤمنين الذين منهم الأزواج، ومنهم الأولياء، لأنهم المراد في ﴿تَمْسُلُوهُنَّ﴾.

وبلوغ الأجل في هذا الموضع تنبيه لأن المعنى يقتضي ذلك. وقد قال بعض الناس في هذا الموضع: إن المراد بـ﴿تَمْسُلُوهُنَّ﴾ الأزواج، وذلك بأن يكون الارتجاع مضارّة عضلاً عن نكاح الغير. فقوله: ﴿أَزْوَاجَهُنَّ﴾ على هذا يعني به الرجال إذ منهم الأزواج، وعلى أن المراد بـ﴿تَمْسُلُوهُنَّ﴾ الأولياء، فالأزواج هم الذين كن في عصمتهم.

هم أحد الثلاثة بالتحليل لم تحل للأول وهذا شاذ. وقال سالم والقاسم: لا بأس أن يتزوجها ليحلها إذا لم يعلم الزوجان.

وقوله تعالى: ﴿إِن طَلَقَهَا فَلَا جُنَاحَ﴾ الآية. المعنى: إن طلقها المتزوج الثاني فلا جناح عليهما أي المرأة والزوج الأول، قاله ابن عباس، ولا خلاف فيه، والظن على بابيه من تغليب أحد الجائزين. وقال أبو عبيدة: أيقنا. وقوله في ذلك ضعيف، و﴿حُدُودُ اللَّهِ﴾ الأمور التي أمر ألا تتعدى.

وخص الذين يعلمون بالذكر تشريفاً لهم، وإذ هم الذين ينتفعون بما بين، أي نصب للعبارة من قول أو صنعة.

وأما إذا أردنا بالتبيين خلق البيان في القلب فذلك يوجب تخصيص الذين يعلمون بالذكر، لأن من طبع على قلبه لم يبين له شيء، وقرأ السبعة ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ بالياء. وقرأ عاصم - فيما روي عنه ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ بالنون.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ﴾ الآية - خطاب للرجال لا يختص بحكمه إلا الأزواج، وذلك نهى للرجل أن يطول العدة على المرأة مضارّة منه لها، بأن يرتجع قرب انقضائها، ثم يطلق بعد ذلك. قاله الضحاك وغيره، ولا خلاف فيه.

ومعنى ﴿لَنْ أَجْلِهِنَّ﴾ قارين، لأن المعنى يضطر إلى ذلك، لأنه بعد بلوغ الأجل لا خيار له في الإمساك. ومعنى ﴿فَأُنكِحُوا﴾: راجعوهن و﴿بِمَعْرُوفٍ﴾ قيل: هو الإشهاد،

كالشرط، فإن مات الأب ولا مال للصبي فمذهب مالك في المدونة أن الرضاع لازم للأُم بخلاف النفقة، وفي كتاب ابن الجلاب: رضاعة في بيت المال. وقال عبدالوهاب: هو من فقهاء المسلمين، وأما المطلقة طلاق بينونة فلا رضاع عليها، والرضاع على الزوج إلا أن تشاء هي، فهي أحق به بأجرة المثل، هذا مع يسر الزوج، فإن كان معدماً لم يلزمها الرضاع إلا أن يكون المولود لا يقبل غيرها فتجبر حينئذ على الإرضاع، ولها أجر مثلها في يسر الزوج، وكل من يلزمها الإرضاع فإن أصابها عذر يمنعا منه عاد الإرضاع على الأب. وروي عن مالك أن الأب إذا كان معدماً ولا مال للصبي فإن الرضاع على الأم، فإن كان بها عذر ولها مال فالإرضاع عليها في مالها.

وهذه الآية في المطلقات، قاله السدي، والضحاك، وغيرهما، جعلها الله حدّاً عند اختلاف الزوجين في مدة الرضاع، فمن دعا منهما إلى إكمال الحولين فذلك له: وقال جمهور المفسرين: إن هذين الحولين لكل ولد.

وروي عن ابن عباس أنه قال: هي في الولد الذي يمكث في البطن ستة أشهر، فإن مكث سبعة أشهر فرضاعه ثلاثة وعشرون شهراً، فإن مكث ثمانية أشهر فرضاعه اثنان وعشرون شهراً، فإن مكث تسعة أشهر فرضاعه أحد وعشرون شهراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأن هذا القول اثبتني على قوله تعالى: ﴿وَحَمْلَهُ وَفِصْلَهُ تَلْتَوْنَ شَهْرًا﴾ إلا أن لك حكم على الإنسان عموماً. وسُمي العام حَوْلًا لاستحالة الأمور فيه في الأغلب.

ووصفهما بكاملين إذ مما قد اعتيد تجوزاً أن يقال: في حول وبعض آخر في حولين، وفي يوم وبعض آخر مشيت يومين، وصبرت عليك في ذنبي يومين وشهرين.

وقوله تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يُنِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ مني على أن الحولين ليسا بفرض لا يتجاوز. وقرأ السبعة: ﴿أَنْ يُنِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ بضم الياء ونصب الرضاعة. وقرأ مجاهد، وابن محيصر، وحמיד، والحسن، وأبو رجاء: ﴿تَنِمُّ الرَّضَاعَةَ﴾ بفتح التاء الأولى ورفع الرضاعة، على إسناده الفعل إليها. وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عبيدة، والجارود بن أبي سيرة كذلك، إلا أنهم كسروا الراء من ﴿الرَضَاعَةَ﴾، وهي لغة كالحضارة والحضارة وغير ذلك. وروي عن مجاهد أنه قرأ: ﴿الرضعة﴾ على وزن الفعل، وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿أن يكمل الرضاعة﴾ بالياء المضمومة. وانتزع مالك رحمه الله، وجماعة من العلماء من هذه الآية - أن الرضاعة المَحْرَمَةَ الجارية مجرى النسب إنما هي ما كان في الحولين لأن بانقضاء الحولين تمت الرضاعة، فلا رضاعة، وروي عن قتادة أنه قال: هذه الآية تضمنت فرض الإرضاع على الوالدات، ثم يسر ذلك وخُفِّفَ بالتخيير الذي في قوله: ﴿لَمَنْ أَرَادَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مبتدع.

﴿تفسير قوله عز وجل:

﴿الْمَوْلُودِ﴾: اسم جنس وصنف من الرجال، والرزق في هذا الحكم: الطعام الكافي.

وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يجمع حسن القدر في الطعام وجودة الأداء له، وحسن الاقتضاء من المرأة، ثم بين تعالى أن الإنفاق على قدر غنى الزوج ومنصبها بقوله: ﴿لَا تَكْفُفُ نَفْسٌ إِلَّا لِمَا رَزَقَتْهَا﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَكْلَفُ﴾ بضم التاء، ﴿نَفْسٌ﴾ على ما لم يُسَمِّ فاعله. وقرأ أبو رجاء: ﴿تَكْلِفُ﴾ بفتح التاء بمعنى تتكلف ﴿نَفْسٌ﴾ فاعله.

وروي عنه أبو الأشهب: ﴿لا تكلف﴾ بالنون ﴿نفساً﴾ بالنصب. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وأبان، عن عاصم: ﴿لَا تُضَارُّ وَالِدَةَ﴾ بالرفع في الرأه وهو خبر معناه الأمر، ويحتمل أن يكون الأصل ﴿لا تضار﴾ بكسر الراء الأولى، ﴿فوالدة﴾ فاعله، ويحتمل أن يكون الأصل ﴿تضار﴾ بفتح الراء الأولى، ﴿فوالدة﴾ مفعول لم يُسَمِّ فاعله، ويعطف ﴿مَوْلُودٌ﴾ على هذا الحد في الاحتمالين. وقرأ نافع، وحمرزة، والكسائي، وعاصم ﴿لا تضار﴾ بفتح الراء المشددة وهذا على النهي، ويحتمل أصله ما ذكرنا في الأولى.

ومعنى الآية - في كل قراءة - النهي عن أن تضار الوالدة زوجها المطلق بسبب ولدها، وأن يضارها هو بسبب الولد أو يضار الظئر لأن لفظة نهيه

تعم الظئر، وقد قال عكرمة في قوله: ﴿لَا تُضَاكَّرْ وَبِئْسَ مَعْنَاهُ﴾: **الظئر**.

وجوه الضرر لا تنحصر وكل ما ذكر منها في التفاسير فهو مثال. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿لَا تُضَاكَّرْ﴾ براءتين - الأولى مفتوحة. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لَا تُضَاكَّرْ﴾ بإسكان الراء وتخفيفها. وروي عنه الإسكان والتشديد. وروي عن ابن عباس: ﴿لَا تُضَاكَّرْ﴾ بكسر الراء الأولى.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ فقال قتادة والسدي، والحسن، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه، وغيرهم: هو وارث الصبي إن لو مات. قال بعضهم: وارثه من الرجال خاصة يلزمه الإرضاع كما كان يلزم أبا الصبي لو كان حياً، وقاله مجاهد، وعطاء. وقال قتادة أيضاً وغيره: هو وارث الصبي من كان من الرجال والنساء، ويلزمهم إرضاعه على قدر موارثتهم منه. وحكى الطبري عن أبي حنيفة، وأبي يوسف، ومحمد بن الحسن أنهم قالوا: الوارث الذي يلزمه إرضاع المولود هو وليه ووارثه إذا كان ذا رحم محرم منه، فإن كان ابن عم وغيره وليس بذئ رحم محرم فلا يلزمه شيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول تحكم. وقال قبيصة بن ذؤيب، والضحاك، وبشير بن نصر قاضي عمر بن عبدالعزيز:

الوارث هو الصبي نفسه، أي عليه في ماله إذا ورث أباه إرضاع نفسه. وقال سفيان رحمه الله: الوارث هو الباقي من والذي المولود بعد وفاة الآخر منهما، ويرى مع ذلك - إن كانت الوالدة هي الباقية - أن يشاركها العاصب في إرضاع المولود على قدر حظه من الميراث.

ونص هؤلاء الذين ذكرت أقوالهم على أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ الرزق والكسوة، وذكر ذلك أيضاً من العلماء إبراهيم النخعي، وعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، والشعبي، والحسن، وابن عباس وغيرهم.

وقال مالك رحمه الله في «المدونة»، وجميع أصحابه، والشعبي أيضاً، والزهري، والضحاك، وجماعة من العلماء: بل المراد بقوله: ﴿مِثْلُ ذَلِكَ﴾ ألا يضار، وأما الرزق والكسوة فلا شيء عليه منه. وروي ابن القاسم عن مالك أن الآية تضمنت أن الرزق والكسوة على الوارث، ثم نسخ ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالإجماع من الأمة ألا يضار الوارث، والخلاف - هل عليه رزق وكسوة أم لا؟

وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿وَعَلَى الْوَارِثَةِ مِثْلُ ذَلِكَ﴾ بالجمع.

﴿تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿أَرَادَ﴾ للوالدين، و﴿يَضَاكَّرُ﴾ معناه: فطاماً عن الرضاع - ولا يقع التشاور ولا يجوز التراضي إلا بما لا ضرر فيه على المولود،

فإذا ظهر في حاله الاستغناء عن اللبن قبل تمام الحَوْلَيْنِ فلا جناح على الأبوين في فصله، هذا معنى الآية. وقاله مجاهد، وقاتدة، وابن زيد، وسفيان وغيرهم - وقال ابن عباس: لا جناح مع التراضي في فصله قبل الحَوْلَيْنِ وبعدهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير القول في هذا، أن فصله قبل الحولين لا يصح إلا بتراضيهما، وألا يكون على المولود ضرر، وأما بعد تمامهما فمن دعا إلى الفصل فذلك له، إلا أن يكون في ذلك على الصبي ضرر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْتُمْ أَن تَجْمَعُوا لِيَوْمِئِذٍ لِّجَمِيعِ النَّاسِ نَجْمَ الْأَبْيَاءِ الْأُمَهَاتِ﴾، أي لهم اتخاذ الظئر مع الاتفاق على ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿إِذَا سَلَّمْتُمْ فَمَخَاطِبَةٌ لِلرِّجَالِ خَاصَّةٌ إِلَّا - عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَيْنِ - فِي قِرَاءَةٍ مِنْ قَرَأَ: ﴿أَتَيْتُمْ﴾ وقرأ الستة من السبعة: ﴿أَتَيْتُمْ﴾ بالمد. المعنى: أعطيتم. وقرأ ابن كثير: ﴿أَتَيْتُمْ﴾ بمعنى ما جئتم وفعلتم، كما قال زهير:

وَمَا كَانَ مِنْ خَيْرٍ أَتْوَهُ فَإِنَّمَا تَوَارَثَهُ أَبَاءُ آبَائِهِمْ قَبْلُ
قال أبو علي: المعنى: إذا سلمتم ما أتيتم نقده أو إعطاءه أو سوقه، فحذف المضاف، وأتيم الضمير مقامه، فكان التقدير: ما أتيتموه، ثم حذف الضمير من الصلة، ويحتمل اللفظ معنى آخر - قاله قتادة - وهو: إذا سلمتم ما أتيتم من إرادة الاسترضاع، أي سلم كل واحد من الأبوين ورضي، وكان ذلك عن

وهذه الآية هي في عدة المتوفى عنها زوجها، وظاهرها العموم، ومعناها الخصوص في الحرائر غير الحوامل، ولم يعن بالآية ما يشذ من مرتابة ونحوها.

وحكى المهدوي عن بعض العلماء: أن الآية تناولت الحوامل، ثم نسخ ذلك بقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ﴾ الآية. وعدة الحامل وضع حملها عند جمهور العلماء، وروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وغيرهما: أن تمام عدتها آخر الأجلين.

والتريص: التصبر والتأني بالشخص في مكان أو حال، وقد بين تعالى ذلك بقوله: ﴿يَأْتِسِهَنَّ﴾، والأحاديث عن النبي ﷺ متظاهرة أن التريص بإخداد - هو الامتناع عن الزينة وليس المصبوغ الجميل، والطيب ونحوه، والتزام المبيت في مسكنها، حيث كانت وقت وفاة الزوج. وهذا قول جمهور العلماء، وهو قول مالك وأصحابه.

وقال ابن عباس، وأبو حنيفة - فيما روي عنه - وغيرهما: ليس المبيت بمراعى، تبيت حيث شاءت.

وقال الحسن بن أبي الحسن: ليس الإخداد بشيء، إنما تتريص عن الزواج، ولها أن تترين وتطيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وقرأ جمهور الناس: ﴿يُتَوَفَّنَ﴾ بضم الياء. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿يُتَوَفَّنَ﴾ بفتح الياء، وكذلك روى المفضل عن عاصم، ومعناه يستوفون أجالهم.

على أن الله تعالى بصير بكل عمل، وفي هذا وعيد وتحذير، أي فهو مجاز بحسب عملكم.

تفسير قوله عز وجل:

قال بعض نحاة الكوفيين: الخبر عن متروك، **﴿الَّذِينَ﴾** متروك، والقصد الإخبار عن أزواجهم بأنهن يتريصن.

ومذهب نحاة البصرة أن خبر **﴿الَّذِينَ﴾** مترتب بالمعنى وذلك أن الكلام

إنما تقديره: **﴿يتريصن أزواجهم﴾**.

وإن شئت قدرته: **﴿وأزواج الذين يتوفون منكم يتريصن﴾**.

فجاءت العبارة في غاية الإيجاز، وإعرابها مترتب على هذا المعنى المالك لها

المقرر فيها.

وحكى المهدوي عن سيبويه: أن المعنى: «وفيمَا يتلى عليكم الذين يتوفون» ولا أعرف هذا الذي حكاه،

لأن ذلك إنما يتجه إذا كان في الكلام لفظ أمر بعد. مثل قوله:

﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوهُمَا﴾ وهذه الآية فيها معنى الأمر لا لفظه.

فيحتاج مع هذا التقدير إلى تقدير آخر يستغنى عنه إذا حضر لفظ الأمر

- وحسن مجيء الآية هكذا أنها توطئة لقوله: **﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾** إذ

القصد بالمخاطبة من أول الآية إلى آخرها الرجال الذين منهم الحكام

والنظار، وعبرة المبرد والأخفش ما ذكرناه.

والباقى الآية أمر بالتقوى، وتوقيف

وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ يَمَاعَزُونَ خَيْرٌ لِّمَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ فِيمَا عَزَّزْتُمْ بِهِ مِنَ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْتَسَبْنَ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَدَّكُمْ عَنْهُنَّ وَلَكِنَّ لَا تُوَاعِدُهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَزِمُوا عَقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ عَلِيمٌ لِّجُنَاحِ عَلَيْكُمْ إِنْ طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمْسُوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتَّعُوهُنَّ عَلَىٰ التَّوْبِيعِ قَدْرَهُ وَعَلَىٰ الْمُقْتَدِرِ قَدْرَهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَىٰ الْحُسَيْنَيْنِ وَإِنْ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَوَضَعْتُمَا وَقَدْ فَرَضْتُمْ أُولَئِكَ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ فِي النِّكَاحِ وَأَنْ تَعْمُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

اتفاق منهما وقصد خير وإرادة معروف من الأمر.

وعلى هذا الاحتمال فيدخل في الخطاب بـ **﴿سَلَّمْتُمْ﴾** الرجال والنساء، وعلى التأويل الذي ذكر أبو علي وغيره فالخطاب للرجال لأنهم الذين يعطون أجر الرضاع. قال أبو علي: ويحتمل أن تكون **﴿مَاءً﴾** مصدرية، أي إذا سلمتم الإتيان، والمعنى كالأول، لكن يستغنى عن الصنعة من حذف المضاف، ثم حذف الضمير.

قال مجاهد: المعنى: إذا سلمتم إلى الأمهات أجرهن، بحساب ما أرضعن إلى وقت إرادة الاسترضاع. وقال سفيان: المعنى: إذا سلمتم إلى المسترضعة وهي الطظر أجراها بالمعروف.

وباقى الآية أمر بالتقوى، وتوقيف

وجعل الله الأربعة الأشهر والعشر عبادة في العدة فيها استبراء للحمل، إذ فيها تكمل الأربعون، والأربعون، والأربعون، حسب الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره، ثم ينفخ الروح.

وجعل تعالى العشر تكملة، إذ هي مظنة لظهور الحركة بالجنين، وذلك لنعق الشهر أو كمالها، ولسرعة حركة الجنين أو إبطائها، قال سعيد بن المسيب، وأبو العالية وغيرهما.

وقال تعالى: ﴿عَشْرًا﴾ ولم يقل: ﴿عَشْرَةَ﴾ تغليباً لحكم الليالي، إذ الليلة أسبق من اليوم، والأيام في ضمنها، وعشر أخف في اللفظ. قال جمهور أهل العلم: ويدخل في ذلك اليوم العاشر، وهو من العدة، لأن الأيام مع الليالي. وحكى منذر بن سعيد، وروي أيضاً عن الأوزاعي أن اليوم العاشر ليس من العدة بل انقضت بتمام عشر ليال. قال المهدي: وقيل: المعنى: وعشر مدد، كل مدة من يوم وليلة.

وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿أربعة أشهر وعشر ليالٍ﴾.

تفسير قوله عز وجل:

أضاف تعالى الأجل إليهن إذ هو محدود مضروب في أمرهن.

والمخاطبة بقوله: ﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ عامة لجميع الناس، والتلبس بهذا الحكم هو للحكام والأولياء لللاصقين، والنساء المعتدات.

وقوله عز وجل: ﴿يَسْمَأُ فَمَلَكُنَّ﴾ يريد به التزوج فما دونه، من التزين،

وإطراح الإحداد. قال مجاهد، وابن شهاب، وغيرهما: أراد - بما فعلن - النكاح لمن أحبين، إذا كان معروفاً، غير منكر. ووجوه المنكر في هذا كثيرة.

وقال بعض المفسرين: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه بالإشهاد.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَمَكُّونَ حَبِيرٌ﴾ وعيدٌ يتضمن التحذير، و﴿حَبِيرٌ﴾ اسم فاعل من خبر إذا تقصى علم الشيء.

تفسير قوله عز وجل:

المخاطبة بهذه الآية لجميع الناس، والمباشر لحكمها هو الرجل الذي في نفسه تزويج معتدة.

والتعريض: هو الكلام الذي لا تصريح فيه، كأنه يعرض لفكر المتكلم به. وأجمعت الأمة على أن الكلام مع المعتدة بما هو نص في تزويجها، وتنبه عليه، لا يجوز، وكذلك أجمعت على أن الكلام معها بما هو زكث، وذكر جماع، أو تحريض عليه، لا يجوز، وجوز ما عدا ذلك.

ومن أعظمه قرباً إلى التصريح، قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس: «كوني عند أم شريك، ولا تسبقيني بنفسك» ومن المجوز قول الرجل: إنك إلى خير، وإنك لمرغوب فيك، وإني لأرجو أن أتزوجك، وإن يقدر أمر يكن - هذا هو تمثيل مالك، وابن شهاب، وكثير من أهل العلم في هذا.

وجائز أن يمدح نفسه، ويذكر مآثره على جهة التعريض بالزواج، وقد فعله أبو جعفر محمد بن علي بن

حسين، واحتج بأن النبي ﷺ فعله مع أم سلمة.

والهدية إلى المعتدة جائزة، وهي من التعريض، قاله سخون وكثير من العلماء. وقد كره مجاهد أن يقول: لا تسبقيني بنفسك ورأه في المواعدة سراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي على أن يتأول قول النبي ﷺ لفاطمة بنت قيس، إنه على جهة الرأي لها فيمن يتزوجها، لا أنه أرادها لنفسه، وإلا فهو خلاف لقوله ﷺ.

والخطبة - بكسر الخاء - فعل الخاطب من كلام وقصد واستلطاف بفعل أو قول، يقال: خطبها يخطبها خطباً وخطبة ورجل خطاب كثير التصرف في الخطبة، ومنه قول الشاعر:

بَرِحَ بِالْعَيْنِينَ خَطَابُ الْكُتُبِ
يَقُولُ إِنِّي خَاطِبٌ وَقَدْ كَذَبُ
وإِنَّمَا يَخْطُبُ عَسَا مِنْ حَلْبِ

والخطبة فعلة كجلسة وقعدة. والخطبة - بضم الخاء - هي الكلام الذي يقال في النكاح وغيره. و﴿أَكْتَنَّتْ﴾ معناه: سترتم وأخفيتم. تقول العرب: كُنْتُت الشيء من الأجرام، إذا سترته في بيت أو ثوب، أو أرض ونحوه، وأكُنْتُت الأمر في نفسي. ولم يسمع من العرب كُنْتُتُه في نفسي، وتقول: أكن البيت الإنسان ونحو هذا.

فرفع الله الجناح عنم أراد تزوج المعتدة مع التعريض ومع الإكناح ونهى عن المواعدة التي هي تصريح بالتزوج وبناء عليه، وانفاق على

وعد، فرخص - لعلمه تعالى - بغلبة النفوس وطماحها وضعف البشر عن ملكها.

وقوله تعالى: ﴿سَتَذَكَّرُونَ﴾ قال الحسن: ستخطبونهن، كأنه قال: إن لم تنهوا. وقال غير الحسن: معناه علم الله أنكم ستذكرون النساء المعتدات في نفوسكم وبألسنتكم لمن يخف عندهم، فنهى عن أن يوصل إلى التواعد معها، لما في ذلك من هتك حرمة العدة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ لَا تَوَاعِدُهُنَّ سِرًّا﴾، ذهب ابن عباس، وابن جبير، ومالك، وأصحابه، والشعبي، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، وجمهور أهل العلم إلى أن المعنى: لا توافقوهن بالمواعدة والتوثق وأخذ اليهود في استسرار منكم وخفية، ف﴿سِرًّا﴾ - على هذا التأويل - نصب على الحال، أي مستسرين. وقال جابر بن زيد، وأبو مجلز لاحق بن حميد، والحسن بن أبي الحسن، والضحاك، وإبراهيم النخعي: السر في هذه الآية الزنى: أي لا توافقوهن زنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا جاءت عبارة هؤلاء في تفسير السر، وفي ذلك عندي نظر، وذلك أن السر في اللغة يقع على الوطء، حلاله وحرامه، لكن معنى الكلام وقريته ترد إلى أحد الوجهين، فمن الشواهد قول الحطيئة:

وَيَحْرُمُ سِرُّ جَارَتِهِمْ عَلَيْهِمْ
وَيَأْكُلُ جَارُهُمْ أَنْفَ الْقِصَاصِ
فقريته هذا البيت تُعطي أن السر أراد به الوطء حراماً، وإلا فلو

تزوجت الجارة كما يَحْسُنُ لم يكن في ذلك عار، ومن الشواهد قول الآخر:

أَخَالَتْنَا سِرُّ النِّسَاءِ مُحْرَمٌ
عَلَيَّ وَتَشْهَادُ النَّدَامِي عَلَى الْخَمْرِ
لَيْسَ لَمْ أَصْبَحْ دَاهِنًا وَلَفِيْفَتَهَا
وَتَأْعِبَهَا يَوْمًا بِرَاغِيَةِ الْبُكْرِ
فقريته هذا الشعر أنه أراد تحريم جماع النساء عموماً، في حرام وحلال، حتى ينال ثأره.

والآية تعطي النهي عن أن يواعد الرجل المعتدة أن يطأها بعد العدة بوجه التزويج، وأما المواعدة في الزنى فمحرم على المسلم مع معتدة وغيرها.

وحكى مكي عن ابن جبير أنه قال: سرّاً: نكاحاً، وهذه عبارة مخلصة، وقال ابن زيد: معنى قوله: ﴿وَلَكِنَّ لَا تَوَاعِدُهُنَّ سِرًّا﴾ أي: لا تنكحوهن سرّاً وتكتمون ذلك، فإذا حلت أظهرتموه ودخلتم بهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فابن زيد في معنى السر مع القول الأول، أي خفية. وإنما شد في أن سمي العقد مواعدة، وذلك قلق، لأن العقد متى وقع - وإن كنتم - فإنما هو في عزم العقدة، وحكى مكي عنه أنه قال: الآية منسوخة بقوله: ﴿وَلَا تَعَزَّمُوا عُقَدَةَ النِّكَاحِ﴾.

وأجمعت الأمة على كراهية المواعدة في العدة للمرأة في نفسها وللأب في ابنته البكر، وللسيد في أمته - قال ابن المواز: «فأما الولي الذي لا يملك الجبر فأكرهه وإن نزل لم أفسخه». وقال مالك - رحمه الله

- فيمن يواعد في العدة ثم يتزوج بعدها: «فراقها أحب إليّ، دخل بها أو لم يدخل، وتكون تطليقة واحدة، فإذا حلت خطبها مع الخطاب». هذه رواية ابن وهب، وروى أشهب عن مالك أنه يفرق بينهما إيجاباً. وقاله ابن القاسم، وحكى ابن حارث مثله عن ابن الماجشون، وزاد ما يقتضي أن التحريم يتأبد.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ استثناء منقطع، والقول المعروف: هو ما أبيض من التعريض، وقد ذكر الضحاك، أن من القول المعروف أن يقول الرجل للمعتدة: احبسي عليّ نفسك، فإن لي بك رغبة، فتقول هي: وأنا مثل ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي مواعدة، وإنما التعريض قول الرجل: إنكم لأكفأ كراماً، وما قُدر كان، وإنك لمعجبة، ونحو هذا.

﴿٢٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: عَزَمَ الْعُقْدَةَ: عَقَدَهَا بِالْإِشْهَادِ وَالْوَلِيِّ، وَحَيْثُ تَسْمَى عُقْدَةً.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ﴾. يريد تمام العدة، و﴿الْكِتَابُ﴾ هنا هو الحد الذي جعل، والقدر الذي رُسم من المدة، سماه كتاباً إذ قد حده وفرضه كتاب الله تعالى، كما قال: ﴿كَيْتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ وكما قال: ﴿إِنَّ الْكَلِمَةَ كَانَتْ عَلَى الْوَالِدِينَ كِتَابًا مَوْثِقًا﴾ ولا يحتاج عندي في الكلام إلى حذف مضاف، وقد قدر أبو إسحاق في ذلك حذف مضاف، أي: فرض

الكتاب»، وهذا على أن جعل الكتاب القرآن .

واختلف أهل العلم إن خالف أحد هذا النهي، وعزم العقدة قبل بلوغ الأجل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأنا أفضل المسألة إن شاء الله تعالى .

أما إن عقد في العدة وعشر عليه ففسخ الحاكم نكاحه، وذلك قبل الدخول - فقول عمر بن الخطاب وجماعة من العلماء: إن ذلك لا يؤيد تحريماً، وقاله مالك، وابن القاسم في «المدونة» في آخر الباب الذي يليه ضرب أجل امرأة المفقود . وقال الجميع: يكون خاطباً من الخطاب .

وحكى ابن الجلاب - عن مالك - رواية أن التحريم يتأبد في العقد في العدة، وإن فسح قبل الدخول .

وأما إن عقد في العدة ودخل بعد انقضائها - فقال قوم من أهل العلم: ذلك كالدخول في العدة يتأبد التحريم بينهما . وقال قوم من أهل العلم: لا يتأبد بذلك تحريم . وقال مالك مرة يتأبد التحريم، وقال مرة: وما التحريم بذلك بالبين، والقولان له في «المدونة» في طلاق السنة .

وأما إن دخل في العدة فقول عمر بن الخطاب، ومالك، وجماعة من أصحابه، والأوزاعي، والليث، وغيرهم من أهل العلم: أن التحريم يتأبد وقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وإبراهيم، وأبي حنيفة، والشافعي، وجماعة من العلماء، وعبدالعزیز ابن

أبي سلمة، إن التحريم لا يتأبد - وإن وطئ في العدة - بل يفسخ بينهما، ثم تَعْتَدُ منه، ثم يكون خاطباً من الخطاب .

قال أبو حنيفة، والشافعي: تعتد من الأول، فإذا انقضت العدة فلا بأس أن يتزوجها الآخر . وحكى ابن الجلاب رواية في المذهب أن التحريم لا يتأبد مع الدخول في العدة، ذكرها في العالم بالتحريم المجترىء لأنه زان، وأما الجاهل فلا أعرف فيها خلافاً في المذهب .

حدثني أبو علي الحسين بن محمد الغساني مناوله، قال: نا أبو عمر بن عبدالبر، نا عبدالوارث بن سفيان، نا قاسم بن أصبغ، عن محمد بن إسماعيل، عن نعيم بن حماد، عن ابن المبارك، عن أشعث، عن الشعبي، عن مسروق، قال: بلغ عمر بن الخطاب أن امرأة من قريش تزوجها رجل من ثقيف في عدتها، فأرسل إليهما ففرق بينهما، وعاقبهما، وقال: لا تنكحها أبداً، وجعل صداقها في بيت المال، وفشا ذلك في الناس فبلغ علياً فقال: يرحم الله أمير المؤمنين، ما بال الصداق وبيت المال، إنما جهلا فينبغي للإمام أن يردهما إلى السنة . قيل: فما تقول أنت فيها؟ قال: لها الصداق بما استحلت من فرجها، ويُفَرَّق بينهما، ولا جلد عليهما، وتكمل عدتها من الأول، ثم تعتد من الثاني عدة كاملة ثلاثة أقراء، ثم يخطبها إن شاء، فبلغ ذلك عمر بن الخطاب فخطب الناس فقال: أيها الناس - زدوا الجهالات إلى السنة .

وهذا قول الشافعي، والليث في العدة من اثنين .

قال مالك، وأصحاب الرأي، والأوزاعي، والشوري: عدة واحدة تكفيهما جميعاً سواء كانت بالحمل أو بالأقراء أو بالأشهر .

وروى المدنيون، عن مالك، مثل قول علي بن أبي طالب، والشافعي في إكمال العدتين . واختلف قول مالك رحمه الله في الذي يدخل في العدة عالماً بالتحريم مجترئاً، فمرة قال: العالم والجاهل فيه سواء، لا حد عليه، والصداق له لازم، والولد لاحق، ويعاقبان ولا يتناكحان أبداً، ومرة قال: العالم بالتحريم كالزاني يُحَدُّ ولا يلحق به الولد، وينكحها بعد الاستبراء، والقول الأول أشهر عن مالك رحمه الله .

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ إلى آخر الآية . تحذير من الوقوع فيما نهى عنه، وتوقيف على غفره وحلمه في هذه الأحكام التي بين ووسع فيها من إباحة التعريض ونحوه .

﴿تفسير قوله عز وجل:﴾

هذا ابتداء إخبار برفع الجناح عن المطلق قبل البناء، والجماع، فرض مهراً أو لم يفرض . ولما نهى رسول الله ﷺ عن التزوج لمعنى الذوق وقضاء الشهوة، وأمر بالتزوج لطلب العصمة والتماس ثواب الله، وقصد دوام الصحة - وقع في نفوس المؤمنين أن من طلق قبل البناء قد واقع جزاءً من هذا المكروه، فنزلت الآية رافعةً للجناح في ذلك إذ كان أصل النكاح على المقصد الحسن .

وقال قوم: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾

قال ابن المواز: ولا فيما يدخله الفسخ بعد صحة العقد مثل ملك أحد الزوجين صاحبه.

وروي ابن وهب، عن مالك: أن المخيرة لها المتعة بخلاف الأمة تعتق تحت العبد فتختار، فهذه لا متعة لها، وأما الحرة تخير أو تملك، أو يتزوج عليها أمة فتختار هي نفسها في ذلك كله فلها المتعة، لأن الزوج سبب الفراق، وعليها هي غضاضة في ألا تختار نفسها.

واختلف الناس في مقدار المتعة - فقال ابن عمر: أدنى ما يجزي في المتعة ثلاثون درهماً أو شبيهاً، وروي أن ابن محيريز كان يقضي على صاحب الديوان بثلاثة دنانير. وقال ابن عباس: أرفع المتعة خادم، ثم كسوة، ثم نفقة. وقال عطاء: أوسط ذلك درع وخمار وملحفة. وقال الحسن: يمتع كل على قدره - هذا بخادم، وهذا بأثواب. وهذا بثوب، وهذا بنفقة، وكذلك يقول مالك بن أنس. ومتع الحسن بن علي بعشرين ألفاً وزقاق من عسل، ومتع شريح بخمسمائة درهم، وقالت أم حميد بن عبدالرحمن بن عوف: كأنني أنظر إلى خادم سوداء متع بها عبدالرحمن بن عوف زوجه أم أبي سلمة. وقال أصحاب الرأي، وغيرهم: متعة التي تطلق قبل الدخول والفرض - نصف مهر مثلها لا غير.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْوَيْحِ قَدَرٌ وَعَلَى الْقَمَرِ قَدَرٌ﴾ دليل على رفض التحديد. وقرأ الجمهور: ﴿عَلَى الْوَيْحِ﴾ بسكون الواو وكسر السين

مزاحم - على الوجوب، وحملة أبو عبيد، ومالك بن أنس، وأصحابه، وشريح، وغيرهم - على الندب، ثم اختلفوا في الضمير المتصل بـ ﴿مَتَّعُوا﴾ من المراد به من النساء؟ فقال ابن عباس، وابن عمر، وعطاء، وجابر بن زيد، والحسن، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأصحاب الرأي: المتعة واجبة للمطلقة قبل البناء والفرض، ومندوبة في غيرها.

وقال مالك وأصحابه: المتعة مندوب إليها في كل مطلقة وإن دخل بها، إلا في التي لم يدخل بها وقد فرض لها، فحسبها ما فرض لها، ولا متعة لها.

وقال أبو ثور: لها المتعة ولكل مطلقة.

وأجمع أهل العلم على أن التي لم يفرض لها ولم يدخل بها لا شيء لها غير المتعة. فقال الزهري: يقضي لها بها القاضي. وقال جمهور الناس: لا يقضي بها، قاله شريح، ويقال للزوج: إن كنت من المتقين والمحسنين فمتع ولم يقض عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مع إطلاق لفظ الوجوب عند بعضهم، وأما ربط مذهب مالك، فقال ابن شعبان: المتعة بإزاء غم الطلاق، ولذلك ليس للمختلعة والمبارية والملاعنة متعة. وقال الترمذي، وعطاء، والنخعي: للمختلعة متعة. وقال أصحاب الرأي: للملاعنة متعة.

وقال ابن القاسم: ولا متعة في نكاح مفسوخ.

معناه: لا طلب بجميع المهر، بل عليكم نصف المفروض لمن فرض لها، والمتعة لمن لم يفرض لها.

وقال قوم: ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: في أن ترسلوا الطلاق في وقت حيض، بخلاف المدخول بها.

وقال مكي: المعنى لا جناح عليكم في الطلاق قبل البناء، لأنه قد يقع الجناح على المطلق بعد أن كان قاصداً للذوق، وذلك مأمون قبل المسيس.

والخطاب بالآية لجميع الناس.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ بغير ألف. وقرأ الكسائي، وحمزة: ﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ بألف وضم التاء، وهذه القراءة الأخيرة تعطي المس من الزوجين، والقراءة الأولى تقتضي ذلك بالمعنى المفهوم من المس، ورجحها أبو علي لأن أفعال هذا المعنى جاءت ثلاثية على هذا الوزن: نَكَحَ وَسَفَدَ وَقَرَعَ وَذَقَطَ وضرب الفحل. والقراءتان حستان. و﴿تَمَسُّوهُنَّ﴾ عطفاً على ﴿تَمَسُّوا﴾ وفرض المهر إثباته وتحديده.

وهذه الآية تعطي جواز العقد على التفويض، لأنه نكاح مقرر في الآية، مبين حكم الطلاق فيه، قاله مالك في «المدونة».

والفريضة: الصداق.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَّوَهُنَّ﴾ معناه: أعطوهن شيئاً يكون متاعاً لهن، وحملة ابن عمر، وعلي بن أبي طالب، والحسن بن أبي الحسن، وسعيد بن جبير، وأبو قلابة، والزهري، وقتادة، والضحاك بن

بمعنى الذي أوسع أي اتسعت حاله .
وقرأ أبو حيوة: ﴿المَوْسِعُ﴾ بفتح
الواو وشد السين وفتحها، وقرأ ابن
كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم
في رواية أبي بكر: ﴿قَدْرَهُ﴾ بسكون
الدال في الموضعين. وقرأ ابن
عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم
- في رواية حفص - ﴿قَدْرَهُ﴾ بفتح
الدال فيهما. قال أبو الحسن
الأخفش، وغيره: هما بمعنى، لغتان
فصيحتان، وكذلك حكى أبو زيد:
تقول: خذ قدر كذا وقدر كذا
بمعنى، ويُقرأ في كتاب الله:
﴿فَسَاءَ أَجْرُهُ يُقَدِّرُهَا﴾. وقال: ﴿وَمَا
قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ ولو حركت
الدال لكان جائزاً.

و﴿الْمُقْتَرِبِ﴾: المقل القليل المال.
و﴿مَتَّعًا﴾: نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿بِالْمُقْتَرِبِ﴾ أي لا
حَمَلٌ فيه ولا تَكَلُّفٌ على أحد
الجانبين، فهو تأكيد لمعنى قوله:
﴿عَلَى الْكُوفِيِّ قَدْرُهُ وَعَلَى الْمُقْتَرِبِ قَدْرُهُ﴾.

ثم أكد تعالى التذنب بقوله: ﴿حَقًّا
عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ أي في هذه النازلة من
التمتع هم محسنون، ومن قال بأن
المتعة واجبة. قال: هذا تأكيد
الوجوب أي على المحسنين بالإيمان
والإسلام، فليس لأحد أن يقول:
لست بمحسن على هذا التأويل،
و﴿حَقًّا﴾ صفة لقوله: ﴿مَتَّعًا﴾ أو
نصب على المصدر، وذلك أدخل
في التأكيد للأمر.

﴿٢٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في هذه الآية.

فقال فرقة فيها مالك، وغيره:

إنها مخرجة المطلقة بعد الفرض من
حكم التمتع إذ يتناولها قوله تعالى:
﴿وَتَتَوَفَّوْنَ﴾.

وقال ابن المسيب: نسخت هذه
الآية الآية التي في الأحزاب، لأن
تلك تضمنت تمتع كل من لم يدخل
بها.

وقال قتادة: نسخت هذه الآية الآية
التي قبلها.

وقال ابن القاسم في «المدونة»:
كان المتاع لكل مطلقة بقوله تعالى:
﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾، ولغير
المدخول بها بالآية التي في سورة
الأحزاب فاستثنى الله المفروض لها
قبل الدخول بهذه الآية، وأثبت
للمفروض لها نصف ما فرض فقط.

وزعم زيد بن أسلم أنها منسوخة
بهذه الآية، حكى ذلك في «المدونة»
عن زيد بن أسلم زعماً.

وقال ابن القاسم: إنه استثناء،
والتحريم يرد ذلك إلى النسخ الذي
قال زيد، لأن ابن القاسم قال: إن
قوله تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ مَتَّعٌ عَمَّ
الجميع ثم استثنى الله منه هذه التي
فرض لها قبل المسيس.

وقال فريق من العلماء - منهم أبو
ثور: المتعة لكل مطلقة عموماً،
وهذه الآية إنما بينت أن المفروض
لها تأخذ نصف ما فرض، ولم يعن
بالآية إسقاط متعتها، بل لها المتعة
ونصف المفروض.

وقرأ الجمهور: ﴿فَنَصَفُ﴾ بالرفع،
والمعنى: فالواجب نصف ما
فرضتم. وقرأت فرقة: ﴿فَنَصَفُ﴾
بنصب الفاء، والمعنى: فادفعوا

نصف. وقرأ علي بن أبي طالب،
وزيد بن ثابت: ﴿فَنَصَفُ﴾ بضم
النون في جميع القرآن وهي لغة،
وكذلك روى الأصمعي قراءة عن
أبي عمرو بن العلاء.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَعْتُونَكَ﴾
استثناء منقطع لأن عفوهم عن
النصف ليس من جنس أخذهم
و﴿يَعْتُونَكَ﴾، معناه: يتركن
ويصفحن، ووزنه يَفْعَلُن. والمعنى:
إلا أن يتركن النصف الذي وجب
لهن عند الزوج.

والعافيات في هذه الآية كل امرأة
تملك أمر نفسها، وقال ابن عباس،
وجماعة من الفقهاء والتابعين:
ويجوز عفو البكر التي لا ولي لها.
وحكاه سحنون في «المدونة» عن
غير ابن القاسم، بعد أن ذكر لابن
القاسم أن وضعها نصف الصداق لا
يجوز.

وأما التي في جَجْرُ أَبٍ أَوْ وَصِيٍّ
فلا يجوز وضعها لنصف صداقتها
قولاً واحداً فيما أحفظ.

واختلف الناس في المراد بقوله:
﴿أَوْ يَعْتَوَا الَّذِي يَدْرُوهُ عَقْدَةُ الْبَيْتِ﴾.

فقال ابن عباس، وعلقمة،
وطاوس، ومجاهد، وشريح،
والحسن، وإبراهيم، والشعبي، وأبو
صالح، وعكرمة، والزهري، ومالك
 وغيرهم: هو الولي الذي المرأة في
ججره، فهو الأب في ابنته التي لم
تملك أمرها، والسيد في أمته، وأما
شريح فإنه جوز عفو الأخ عن نصف
المهر، وقال: أنا أعفو عن مهور بني
مرة وإن كرهن، وكذلك قال

عكرمة: يجوز عفو الذي عقد عقدة النكاح بينهما، كان عمًا أو أخًا أو أبًا، وإن كرهت.

وقالت فرقة من العلماء: الذي بيده عقدة النكاح الزوج، قاله علي بن أبي طالب، وقاله ابن عباس أيضاً، وشريح أيضاً رجع إليه، وقاله سعيد بن جبير، وكثير من فقهاء الأمصار.

فعلى القول الأول الندب لهما هو في النصف الذي يجب للمرأة، فإما أن تعفو هي، وإما أن يعفو وليها، وعلى القول الثاني فالندب في الجهتين، إما أن تعفو هي عن نصفها، فلا تأخذ من الزوج شيئاً، وإما أن يعفو الزوج عن النصف الذي يُحط، فيؤدي جميع المهر، وهذا هو الفضل منهما، وبحسب حال الزوجين يحسن التحمل والتحمل.

ويروى أن جبير بن مطعم دخل على سعد بن أبي وقاص فعرض عليه ابنة له فتزوجها، فلمَّا خرج طلقها وبعت إليه بالصداق، فقيل له: لم تزوجتها؟ فقال: عَرَضَهَا عَلَيَّ فكرهت رده - قيل: فلم تبعت بالصداق؟ قال: فأين الفضل؟.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتج القائلون بأن الذي بيده عقدة النكاح هو الزوج - بأن هذا الولي لا يجوز له ترك شيء من صداقها قبل الطلاق، فلا فرق بعد الطلاق، وأيضاً فإنه لا يجوز له ترك شيء من مالها الذي ليس من الصداق، فَمَالُهُ يترك نصف الصداق؟ وأيضاً

فإنه إذا قيل: إنه الولي، فما الذي يخصص بعض الأولياء دون بعض وكلهم بيده عقدة النكاح، وإن كان كافلاً، أو وصياً، أو الحاكم، أو الرجل من العشيرة؟ ويحتج من يقول: إنه الولي الحاجر بعبارة الآية لأن قوله: ﴿الَّذِي يَبْدُوهُ عَقْدَةُ النِّكَاحِ﴾ عبارة متمكنة في الولي، وهي في الزوج قلقةً بعض الفلق.

وليس الأمر في ذلك كما قال الطبري، ومكي من أن المطلق لا عقدة بيده، بل نسبة العقدة إليه باقية، من حيث كان عقدها قبل. وأيضاً فإن قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولَ﴾ لا يدخل فيه من لا تملك أمرها، لأنها لا عفو لها، فكذلك لا يغيب النساء بعفو من يملك أمر التي لا تملك أمرها. وأيضاً فإن الآية إنما هي ندب إلى ترك شيء قد وجب في مال الزوج، يعطي ذلك لفظ العفو الذي هو الترك والاطراح، وإعطاء الزوج المهر كاملاً لا يقال فيه عفو، إنما هو انتداب إلى فضل. اللهم إلا أن تقدر المرأة قد قبضته. وهذا إطار لا يعتد به. قال مكي: وأيضاً فقد ذكر الله الأزواج في قوله: ﴿فَصَبَّ مَا وَرَسْتُمْ﴾ ثم ذكر الزوجات بقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ فكيف يعبر عن الأزواج بعد بالذي بيده عقدة النكاح؟ بل هي درجة ثالثة، لم يبق لها إلا الولي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ يَقُولَ﴾ بفتح الواو لأن الفعل منصوب. وقرأ

الحسن بن أبي الحسن: ﴿أَوْ يَقُولَ﴾ بفتح الواو ساكنة. قال المهدي عامر بن الطفيل:

فَمَا سَوَّدْتَنِي عَامِرٌ عَنِّ وَرَأَيْتُ
أَبِيَّ اللَّهِ أَنْ أَسْمُو بَأْمٌ وَلَا أَبِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي عندي أنه استقل الفتحة على واو متطرفة قبلها متحرك، لقله مجيئها في كلام العرب، وقد قال الخليل رحمه الله: لم يجيء في الكلام واو مفتوحة متطرفة قبلها فتحة إلا في قولهم: «عفوة» وهو جمع «عفو» وهو ولد الحمار، وكذلك الحركة ما كانت قبل الواو المفتوحة فإنها ثقيلة.

ثم خاطب تعالى الجميع نادياً بقوله: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا أَزْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ أي: يا جميع الناس، وهذه قراءة الجمهور بالتاء باثنين من فوق. وقرأ أبو نهيك، والشعبي: ﴿وَأَنْ يَغْفُو﴾ بالياء، وذلك راجع إلى الذي بيده عقدة النكاح.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَسْأُوا النَّصْلَ﴾، وقرأ علي بن أبي طالب، ومجاهد، وأبو حيوة، وابن أبي عبلة: ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ﴾ وهي قراءة متمكنة المعنى، لأنه موضع تناس لا نسيان إلا على التشبيه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْأُوا النَّصْلَ﴾ ندب إلى المجاملة. قال مجاهد: الفضل إتمام الزوج الصداق كله، أو ترك المرأة النصف الذي لها.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ خبر في ضمنه الوعد للمؤمن، الحرمان لغير المحسن.

كَانَ مَشْهُودًا ﴿٢٣٨﴾ فيقوي هذا كله أمر الصبح .

وقالت فرقة: هي صلاة الظهر، قاله زيد بن ثابت، ورفع فيه حديثاً عن النبي ﷺ وقاله أبو سعيد الخدري، وعبدالله بن عمر، واحتج قائلو هذه المقالة بأنها أول صلاة صليت في الإسلام فهي وسطى بذلك، أي فضلى، فليس هذا التوسط في الترتيب، وأيضاً، فروي أنها كانت أشق الصلوات على أصحاب النبي ﷺ لأنها كانت

حَنِيفُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَأَمَّا اللَّهُ فَنَنْتِنَ ﴿٢٣٩﴾ فَإِنْ خَشْتُمْ فِرْعَانَ أَوْ رُكِبْنَا فَأِدْءًا آمِنًا ﴿٢٤٠﴾ فَادْعُوا إِلَى اللَّهِ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا تَمَّ تَكُونُوا تَامِمُونَ ﴿٢٤١﴾ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَكَ مِنْكُمْ وَيَدْرُونَ أَرْوَاجَ صَيْبَةٍ لَا رُؤُوسَ لَهَا مَتَلَعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا قُلْتُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٤٢﴾ وَالْمُطَلَقَاتُ مَتَّعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ﴿٢٤٣﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٤﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٥﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٦﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضْعِفُهُ اللَّهُ مُضْعَافًا كَثِيرًا وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٧﴾

تحيء في الهاجرة وهم قد نَفَهْتَهُمْ أعمالهم في أموالهم، وأيضاً فيدل على ذلك ما قالته حفصة وعائشة حين أمَلْنَا ﴿حَنِيفُوا عَلَى الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ «وصلاة العصر» فهذا اقتران الظهر والعصر.

وقالت فرقة: الصلاة الوسطى صلاة العصر، لأنها قبلها صلاتا نهار وبعدها صلاتا ليل، وروي هذا القول عن علي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبي هريرة، وابن عمر، وأبي سعيد الخدري، وفي مصحف عائشة رضي الله عنها: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ «وهي العصر» وهو قولها المروي عنها. وقاله الحسن البصري، وإبراهيم النخعي، وفي إملاء حفصة أيضاً: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ «وهي صلاة العصر». ومن روى، «وصلاة العصر» فيتأول أنه عطف إحدى الصفتين على

﴿٢٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب لجميع الأمة، والآية أمر بالمحافظة على إقامة الصلوات في أوقاتها بجميع شروطها.

وذكر تعالى الصلاة الوسطى ثانية، وقد دخلت قبل في عموم قوله: ﴿الصَّلَاةِ﴾ لأنه قصد تشريفها وإغراء المصلين بها. وقرأ أبو جعفر الرُّؤَاسِي: ﴿وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ﴾ بالنصب على الإغراء. وقرأ كذلك الحلواني.

واختلف الناس في أي صلاة هو هذا الوصف.

فذهبت فرقة إلى أنها الصبح، وأن لفظ وسطى يراد به الترتيب لأنها قبلها صلاتا ليل يُجهر فيهما، وبعدها صلاتا نهار يُسرُّ فيهما، قال هذا القول علي بن أبي طالب، وابن عباس، وصلى بالناس يوماً الصبح ففقت قبل الركوع، فلما فرغ قال: هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا الله أن نقوم فيها قانتين، وقاله أبو العالية، ورواه عن جماعة من الصحابة، وقاله جابر بن عبدالله، وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة، ومجاهد، وعبدالله بن شداد بن الهادي، والربيع ومالك بن أنس. وقوى مالك ذلك بأن الصبح لا تجمع إلى غيرها، وصالاتا جمع قبلها وصالاتا جمع بعدها. وقد قال رسول الله ﷺ: «لو يعلمون ما في العَمَّةِ وَالصُّبْحِ لَأَتَوْهَا وَلَوْ حَبَوًّا»، وقال: «إنهما أشد الصلوات على المنافقين»، «وفضل الصبح لأنها كقيام ليلة لمن شهدها، والعَمَّةُ نصف ليلة». وقال الله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْقَجْرِ

الأخرى وهما لشيء واحد كما تقول: «جاءني زيد الكريم والعاقل». وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ الْوُسْطَىٰ﴾ «صلاة العصر» على البدل، وروي هذا القول سُمرة بن جندب عن النبي ﷺ. وتواتر الحديث عن النبي ﷺ أنه قال يوم الأحزاب: «سَمَّلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ صَلَاةِ الْعَصْرِ مَلَأَ اللَّهُ بِيوتِهِمْ وَقُبُورِهِمْ نَارًا». وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «كنا نرى أنها الصبح حتى قال رسول الله ﷺ يوم الأحزاب: «سَمَّلُونَا عَنِ الصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ صَلَاةِ الْعَصْرِ»، فعرفنا أنها العصر».

وقال البراء بن عازب: «كنا نقرأ على عهد النبي ﷺ: «حافظوا على الصلوات وصلاة العصر»، ثم

نسخها الله فقرأنا: ﴿حَفِظُوا عَلَ الصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّلَاةِ﴾، فقال له رجل: فهي العصر؟ قال: قد أخبرتك كيف قرأناها وكيف نسخت، والله أعلم.

وروى أبو مالك الأشعري، أن رسول الله ﷺ قال: «الصَّلَاةُ الوسطى صلاة العصر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا القول جمهور الناس، وبه أقول والله أعلم.

وقال قبيصة بن ذؤيب: الصلاة الوسطى: صلاة المغرب لأنها متوسطة في عدد الركعات، ليست ثنائية ولا رباعية، وأيضاً فقبلها صلاتا سر، وبعدها صلاتا جهر.

وحكى أبو عمر يوسف بن عبدالله بن عبد البر في شرح باب جامع الوقوت وغيره، عن فرقة، أن الصلاة الوسطى صلاة العشاء الآخرة، وذلك أنها تجيء في وقت نوم، وهي أشد الصلوات على المنافقين، ويستحب تأخيرها، وذلك شاق، فوقع التأكيد في المحافظة عليها، وأيضاً قبلها صلاتان وبعدها صلاتان.

وقالت فرقة: الصلاة الوسطى لم يعينها الله تعالى فهي في جملة الخمس غير معينة كليلة القدر في ليالي العشر، فعل الله ذلك لتقع المحافظة على الجميع، قاله نافع عن ابن عمر. وقاله الربيع بن خثيم.

وقالت فرقة: الصلاة الوسطى هي صلاة الجمعة، فإنها وسطى فضلى لِمَا حُصِّتَ بِهِ مِنَ الْجَمْعِ وَالْمُخْطَبَةِ،

وجعلت عيداً، ذكره ابن حبيب ومكي.

وقال بعض العلماء: الصلاة الوسطى: المكتوبة الخمس. وقوله أولاً: ﴿عَلَّ الصَّلَاةَ﴾ يعم النفل والفرض، ثم خص الفرض بالذكر، ويجري مع هذا التأويل قوله ﷺ: «شغلونا عن الصلاة الوسطى».

وقوله تعالى: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينًا﴾ معناه: في صلاتكم، واختلف الناس في معنى قانتين - فقال الشعبي: معناه: مطيعين. وقاله جابر بن زيد، وعطاء وسعيد بن جبير. وقال الضحاك: كل قنوت في القرآن فإنما يعنى به الطاعة، وقاله أبو سعيد عن النبي ﷺ، وإن أهل كل دين فهم اليوم يقومون عاصين، فقبل لهذه الأمة: وقوموا لله مطيعين. وقال نحو هذا الحسن بن أبي الحسن، وطاوس. وقال السدي: قانتين معناه: ساكتين.

وهذه الآية نزلت في المنع من الكلام في الصلاة، وكان ذلك مباحاً في صدر الإسلام، وقال عبدالله بن مسعود: كنا نتكلم في الصلاة ونرد السلام ويسأل الرجل صاحبه حاجته قال: ودخلت يوماً والنبي ﷺ يصلي بالناس فسلمت، فلم يرد عليّ أحد فاشتد ذلك عليّ، فلما فرغ رسول الله ﷺ قال: «إِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرُدَّ عَلَيْهِ إِلَّا أَنَا أَمَرْنَا أَنْ نَقُومَ قَانَتِينَ لَا نَتَكَلَّمُ فِي الصَّلَاةِ».

والقنوت: السكوت، قاله زيد بن أرقم وقال: كنا نتكلم في الصلاة حتى نزلت: ﴿وَقَوْمُوا لِلَّهِ قَنِينًا﴾ فأمرنا بالسكوت. وقال مجاهد:

خاشعين، القنوت: طول الركوع والخشوع، وغض البصر، وخفض الجناح، وإحضار الخشية والفكر في الوقوف بين يدي الله تعالى.

وقال الربيع: القنوت: طول القيام وطول الركوع والانتصاب له. وقال قوم: القنوت: الدعاء. وقانتين معناه: داعين. روي معنى هذا عن ابن عباس.

وفي الحديث: قتت رسول الله ﷺ شهراً يدعو على رعل وذكوان، فقال قوم: معناه دعا - وقال قوم: معناه طول قيامه، ولا حجة في هذا الحديث لمعنى الدعاء.

﴿٢٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى بالقيام له في الصلاة، بحالة قنوت، وهو الوقار والسكينة، وهدهؤ الجوارح، وهذا على الحالة الغالبة من الأمن والطمأنينة، ثم ذكر تعالى حالة الخوف الطارئة أحياناً، فرخص لعبيده في الصلاة رجالاً متصرفين على الأقدام، وركبائاً على الخيل والإبل ونحوهما، إيماة وإشارة بالرأس حيث ما توجه. هذا قول جميع العلماء، وهذه هي صلاة الفذ الذي قد يضايقه الخوف على نفسه في حال المسايقة، أو من سيع يطلبه، أو عدو يتبعه، أو سيل يحمله.

وبالجملة - فكل أمر يخاف منه على روحه فهو يبيح ما تضمنته هذه الآية.

وأما صلاة الخوف بالإمام وانقسام الناس فليس حكمها في هذه الآية. وفرّق مالك رحمه الله بين خوف العدو المقاتل، وبين خوف السبع

ونحوه، بأن استحب في غير خوف العدو الإعادة في الوقت، إن وقع الأمن، وأكثر فقهاء الأمصار على أن الأمر سواء.

وقوله تعالى: ﴿فِرَاجًا﴾ هو جمع راجل، أو رجل - من قولهم: رجل الإنسان يرجل رجلاً، إذا عدم المركوب ومشى على قدميه، فهو رَجَلٌ وراجلٌ - ورجلٌ - بضم الجيم - وهي لغة أهل الحجاز، يقولون: مشى فلان إلى بيت الله حافياً رجلاً - حكاية الطبري وغيره، ورجلان ورجيل ورجل. وأنشد ابن الأعرابي في رجلان:

عَلَيَّ إِذَا لَأَقَيْتُ لَيْلَى بِخَلْوَةٍ
أَنْ أَذَارَ بَيْتَ اللَّهِ رَجْلَانِ حَافِيَاً
ويجمع على رجال ورجلي ورجالي ورجالي ورجالة ورجال ورجالي ورجلان ورجلة ورجلة بفتح الجيم وأرجلة وأرجل وأرجيل، والرجل الذي هو اسم الجنس يجمع أيضاً على رجال، فهذه الآية وقوله تعالى: ﴿يَأْتُونَ بِجَالٍ﴾ هما من لفظ الرجلة أي عدم المركوب. وقوله تعالى: ﴿شُجَيْدَيْنِ يَبْعَلِكُمُ﴾ فهو جمع اسم الجنس المعروف، وحكى المهدوي عن عكرمة، وأبي مجلز أنهما قرأا: ﴿فِرَجَالًا﴾ بضم الراء وشد الجيم المفتوحة.

وعن عكرمة أيضاً أنه قرأ: ﴿فِرَجَالًا﴾ بضم الراء وتخفيف الجيم. وحكى الطبري عن بعضهم أنه قرأ: ﴿فِرَجَالًا﴾ دون ألف على وزن فعل بضم الفاء وشد العين. وقرأ جمهور القراء: ﴿أَوْ رَكْبَانًا﴾، وقرأ بريد بن ميسرة: ﴿فِرَجَالًا﴾

فَرُكْبَانًا﴾ بالفاء. والركبان جمع راكب، وهذه الرخصة في ضمنها بإجماع من العلماء أن يكون الإنسان حيث ما توجه من السموت، ويتقلب ويتصرف بحسب نظره في نجاة نفسه.

واختلف الناس - كم يُصَلَّى من الركعات؟ فمالك رحمه الله، وجماعة من العلماء لا يرون أن ينقص من عدد الركعات شيئاً، بل يصلي المسافر ركعتين ولا بد.

وقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وغيرهما: يصلي ركعة إيماء. وروى مجاهد عن ابن عباس أنه قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة. وقال الضحاك بن مزاحم: يصلي صاحب خوف الموت في المسافة وغيرها ركعة، فإن لم يقدر فليكبر تكبيرتين. وقال إسحاق بن راهويه: فإن لم يقدر إلا على تكبيرة واحدة أجزأت عنه، ذكره ابن المنذر.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ فَأَذْكُرُوا اللَّهَ﴾ الآية - فقالت فرقة: المعنى: فإذا زال خوفكم الذي أجاءكم إلى هذه الصلاة فاذكروا الله بالشكر على هذه النعمة في تعليمكم هذه الصلاة التي وقع بها الإجزاء، ولم تفتكم صلاة من الصلوات، وهذا هو الذي لم يكونوا يعلمونه. وقالت فرقة: المعنى: فإذا كنتم آمنين قبل، أو بعد، كأنه قال: فمتى كنتم على أمن فاذكروا الله، أي صلوا الصلاة التي قد علمتموها، أي: فصلوا كما

علمكم صلاة تامة. حكاية النقاش وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله - على هذا التأويل: ﴿فَمَا لَمْ تَكُونُوا﴾ بدل من ﴿مَا﴾ التي في قوله: ﴿كَمَا﴾، وإلا لم يتسق لفظ الآية، وعلى التأويل الأول ﴿فَمَا﴾ مفعولة ب﴿عَلَّمَكُمُ﴾.

وقال مجاهد: معنى قوله: ﴿فَإِذَا أَمِنْتُمْ﴾ فإذا خرجتم من دار السفر إلى دار الإقامة. ورد الطبري على هذا القول، وذلك فيه تحريم على المعنى كثير، والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ للتشبيه بين ذكر الإنسان لله ونعمة الله عليه في أن تعادلا، وكان الذكر شبيهاً بالنعمة في القدر وكفاؤها، ومن تأول ﴿أَذْكُرُوا﴾ بمعنى صلوا على ما ذكرناه، فالكاف للتشبيه بين صلاة العبد والهيئة التي علمه الله.

﴿تفسير قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، والخبر في الجملة التي هي ﴿وَصِيَّةٌ لِأَزْوَاجِهِمْ﴾. وقرأ ابن كثير، ونافع، والكسائي، وعاصم - في رواية أبي بكر - ﴿وَصِيَّةٌ﴾ بالرفع، وذلك على وجهين - أحدهما: الابتداء، والخبر في الظرف الذي هو قوله: ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ﴾. ويحسن الابتداء بنكرة من حيث هو موضع تخصيص، كما حسن أن يرتفع ﴿سلامٌ عليك﴾. و﴿خَيْرٌ بين يديك﴾ - وأنت في خير لا فيك. لأنها مواضع دعاء، والوجه الآخر أن تضمير له خيراً تقديره: فعليهم وصية لأزواجهم، ويكون قوله: ﴿لِأَزْوَاجِهِمْ﴾ صفة.

قال الطبري: قال بعض النحاة: المعنى: كتبت عليهم وصية، قال: وكذلك هي في قراءة عبدالله بن مسعود.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وابن عامر: ﴿وَصِيَّةٌ﴾ بالنصب، وذلك حمل على الفعل كأنه قال: ليوصوا وصيةً و﴿لَأَزْوَاجِهِمْ﴾ - على هذه القراءة - صفةً أيضاً. قال هارون: وفي حرف أبي بن كعب: ﴿وَصِيَّةٌ لَأَزْوَاجِهِمْ، مَتَاعٌ﴾ بالرفع، وفي حرف ابن مسعود: ﴿الْوَصِيَّةُ لَأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعاً﴾. وحكى الخفاف أن في حرف أبي: ﴿فَمَتَاعٌ لَأَزْوَاجِهِمْ﴾ بدل ﴿وَصِيَّةٌ﴾. ومعنى هذه الآية: أن الرجل إذا مات، كان لزوجته أن تقيم في منزله سنة، ويُنفقُ عليها من ماله، وذلك وصية لها.

واختلف العلماء - ممن هي هذه الوصية؟ - فقالت فرقة: كانت وصية من الله تعالى، تجب بعد وفاة الزوج. قال قتادة: كانت المرأة إذا توفي عنها زوجها، فلها السكنى والنفقة حولاً في مال زوجها، ما لم تخرج برأيها، ثم نسخ ما في هذه الآية من النفقة بالربع أو الثمن الذي في سورة النساء، ونسخ سكنى الحول بالأربعة الأشهر والعشر، وقاله الربيع، وابن عباس، والضحاك، وعطاء، وابن زيد. وقالت فرقة: بل هذه الوصية هي من الزوج، كانوا ندبوا إلى أن يوصوا للزوجات بذلك، فيتوفون على هذا القول معناه: يقاربون الوفاة، ويحتضرون، لأن الميت لا يوصي.

قال هذا القول قتادة أيضاً، والسدي، وعليه حمل الآية أبو علي الفارسي في الحجة. قال السدي: إلا أن العدة كانت أربعة أشهر وعشراً، وكان الرجال يوصون بسكنى سنة، ونفقتها، ما لم تخرج، فلو خرجت بعد انقضاء العدة - الأربعة الأشهر والعشر - سقطت الوصية، ثم نسخ الله تعالى ذلك بنزول الفرائض فأخذت ربعها أو ثمنها، ولم يكن لها سكنى ولا نفقة، وصارت الوصايا لمن لا يرث، وقال الطبري عن مجاهد: إن هذه الآية محكمة لا نسخ فيها، والعدة كانت قد ثبتت أربعة أشهر وعشراً، ثم جعل الله لهن وصية منه سكنى سبعة أشهر وعشرين ليلة، فإن شاءت المرأة سكنت في وصيتها، وإن شاءت خرجت، وهو قوله تعالى: ﴿عَدَّةَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وألفاظ مجاهد رحمه الله التي حكى عنه الطبري، لا يلزم منها أن الآية محكمة، ولا نص مجاهد على ذلك، بل يمكن أنه أراد ثم نسخ ذلك بعد بالميراث.

و﴿مَتَاعاً﴾ نصب على المصدر. وكان هذا الأمر إلى الحول من حيث العام معلم من معالم الزمان، قد أخذ بحظ من الطول. وقوله تعالى: ﴿عَدَّةَ إِخْرَاجٍ﴾ معناه: ليس لأولياء الميت ووارثي المنزل إخراجها و﴿عَدَّةٍ﴾ نصب على المصدر عند الأخفش، كأنه قال: لا إخراجاً، وقيل: نصب على

الحال من الموصين. وقيل: هي صفة لقوله: ﴿مَتَاعاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ خَرَجْنَ﴾ الآية، معناه: إن الخروج إذا كان من قبل الزوجة، فلا جناح على أحد - ولي أو حاكم أو غيره - فيما فعلن في أنفسهن، من تزويج، وترك حداد، وتزوين، إذا كان ذلك من المعروف الذي لا ينكر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَّهَ عَزِيزٌ﴾ صفة تقتضي الوعيد بالنعمة لمن خالف الحد في هذه النازلة، فأخرج المرأة، وهي لا تريد الخروج، ﴿حَكِيمٌ﴾، أي محكم لما يأمر به عباده.

وهذا كله قد زال حكمه بالنسخ المتفق عليه، إلا ما قاله الطبري مجاهداً رحمه الله. وفي ذلك نظر على الطبري رحمه الله.

﴿٢٤١﴾ - ﴿٢٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في هذه الآية. فقال أبو ثور: هي محكمة، والمتعة لكل مطلقة، دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أو لم يفرض بهذه الآية.

وقال الزهري: لكل مطلقة متعة، وللأمة يطلقها زوجها.

وقال سعيد بن جبير: لكل مطلقة متعة.

وقال ابن القاسم في إرخاء الستور من «المدونة»: جعل الله تعالى المتاع لكل مطلقة بهذه الآية، ثم استثنى في الآية الأخرى التي قد فرض لها، ولم يدخل بها، فأخرجها من المتعة، وزعم زيد بن أسلم أنها نسختها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ثوباً إلا عاد كفنأ ريمأ حتى ماتوا
لأجالهم التي كتبت لهم.

وروى ابن جريج عن ابن عباس
أنهم كانوا من بني إسرائيل، وأنهم
كانوا أربعين ألفاً وثمانية آلاف،
وأنهم أميتوا ثم أحيوا، وبقيت
الرائحة على ذلك السبط من بني
إسرائيل إلى اليوم، فأمرهم الله
بالجهاد ثانية فذلك قوله: ﴿وَقَتَّلُوا
فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه القصص كله لين الأسانيد،
وإنما اللازم من الآية أن الله تعالى
أخبر نبيه محمداً ﷺ أخباراً في عبارة
التنبيه والتوقيف عن قوم من البشر
خرجوا من ديارهم فراراً من الموت
فأماهم الله تعالى ثم أحياهم ليروا
هم، وكل من خلف بعدهم أن
الإماتة إنما هي بيد الله لا بيد غيره،
فلا معنى لخوف خائف، ولا لاغترار
مغتر. وجعل الله تعالى هذه الآية
مقدمة بين يدي أمره المؤمنين من أمة
محمد بالجهاد. هذا قول الطبري،
وهو ظاهر رصف الآية. ولمورد
القصص في هذه القصة زيادات
اختصرتها لضعفها.

واختلف الناس في لفظ ﴿أُولَئِكَ﴾
فقال الجمهور: هي جمع ألف، قال
بعضهم: كانوا ثمانين ألفاً. وقال ابن
عباس: كانوا أربعين ألفاً، وقيل:
كانوا ثلاثين ألفاً. وهذا كله يجري
مع ﴿أُولَئِكَ﴾، إذ هو جمع الكثير،
وقال ابن عباس أيضاً: كانوا ثمانية
آلاف، وقال أيضاً: أربعة آلاف،
وهذا يضعفه لفظ ﴿أُولَئِكَ﴾ لأنه جمع
الكثير. وقال ابن زيد في لفظة

﴿وَلَمَّا كَفَّمْ﴾ ترج في حق البشر،
ومن رأي هذا المبين له رجا أن يعقل
ما بين له.

﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه رؤية القلب بمعنى: ألم تعلم،
والكلام عند سيبويه بمعنى تنبه إلى
أمر الذين، ولا تحتاج هذه الرؤية
إلى مفعولين.

وقصة هؤلاء فيما قال الضحاك:
هي أنهم قوم من بني إسرائيل أمروا
بالجهاد فخافوا الموت بالقتل في
الجهاد، فخرجوا من ديارهم فراراً
من ذلك، فأماهم الله ليعرفهم أنه لا
يُنَجِّيهم من الموت شيء، ثم أحياهم
وأمرهم بالجهاد بقوله: ﴿وَقَتَّلُوا فِي
سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية.

وحكى قوم من اليهود لعمر بن
الخطاب رضي الله عنه أن جماعة
من بني إسرائيل وقع فيهم الوباء
فخرجوا فراراً منه، فأماهم الله فبنى
عليهم ساير بني إسرائيل حائطاً،
حتى إذا بليت عظامهم بعث الله
حزقيل النبي عليه السلام فدعا الله
فأحياهم له.

وقال السدي: هم أمة كانت قبل
واسط، في قرية يقال لها: (ذاوردان)
وقع بها الطاعون فهربوا منه، وهم
بضعة وثلاثون ألفاً في حديث
طويل. ففيهم نزلت الآية. وقال:
إنهم فروا من الطاعون: الحسن
وعمر بن دينار. وحكى النقاش
أنهم فروا من الحمى. وحكى فيهم
مجاهد أنهم لما أحيوا رجعوا إلى
قومهم يعرفون لكن سحنة الموت
على وجهم، ولا يلبس أحد منهم

فقر ابن القاسم من لفظ النسخ إلى
لفظ الاستثناء، والاستثناء لا يتجه في
هذا الموضع، بل هو نسخ محض،
كما قال زيد بن أسلم، وإذا التزم
ابن القاسم أن قوله: ﴿وَلَمَّا كَفَّمْ﴾
عم كل مطلقة، لزمه القول بالنسخ
ولا بد.

وقال عطاء بن أبي رباح وغيره:
هذه الآية في الشيب اللواتي قد
جومعن، إذ قد تقدم في غير هذه
الآية ذكر المتعة للواتي لم يدخل
بهن، فهذا قول بأن التي قد فرض
لها قبل المسيس لم تدخل قط في
هذا العموم، فهذا يجيء على أن
قوله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوهُنَّ مِن بَإِلٍ
أَن تَسُوهُنَّ﴾ مخصصة لهذا الصنف
من النساء، ومتى قيل: إن العموم
تناولها، فذلك نسخ لا تخصيص.

وقال ابن زيد: هذه الآية نزلت
مؤكدة لأمر المتعة، لأنه نزل قبل
﴿حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ﴾ فقال رجل: فإن
لم أرد أن أحسن، لم أمتع؟ فنزلت:
﴿حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ﴾ فوجب ذلك
عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
هذا الإيجاب من تفويل الطبري لا
من لفظ ابن زيد.

وقوله تعالى: ﴿حَقًّا﴾ نصب على
المصدر، و﴿الْمُتَّقِينَ﴾ هنا ظاهره أن
المراد من تلبس بتقوى الله تعالى،
والكساف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾
للتشبيه، و﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى هذا
الشرح، والتنويح الذي وقع في
النساء وإلى إلزام المتعة لهن، أي
كبيانه هذه القصة يبين سائر آياته،

﴿أَلَوْ كُنَّا﴾: إنما معناها: وهم مُؤْتَلِفُونَ أي لم تخرجهم فرقة قومهم ولا فِئْتَةٌ بينهم، إنما كانوا مُؤْتَلِفِينَ فخالفت هذه الفرقة فخرجت فراراً من الموت وابتغاء الحياة، فأما تم الله في مناجاهم بزعمهم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا﴾ الآية إنما هي مبالغة في العبارة عن فعله بهم، كأن ذلك الذي نزل بهم فعلٌ من قِبَلِ له: مُتَّ - فمات.

وَحُكِّيَ أَنْ مَلَكَيْنِ صَاخَا بِهِمْ: موتوا - فماتوا، فالمعنى قال لهم الله بواسطة الملكين. وهذا الموت ظاهر الآية، وما زوي في قصصها أنه موت حقيقي فارقت فيه الأرواح الأجساد، وإذا كان ذلك فليس بموت آجالهم، بل جعله الله في هؤلاء كمرض وحادٍ مما يحدث على البشر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَهْلٍ عَلَى النَّاسِ﴾ الآية - تنبيه على فضل الله على هؤلاء القوم الذين تفضل عليهم بالنعيم، وأمرهم بالجهاد، وأمرهم بالألّا يجعلوا الحول والقوة إلا له حسباً أمر جميع العالم بذلك، فلم يشكروا نعمته في جميع هذا، بل استبدوا وظنوا أن حولهم وسعيهم ينجيهم، وهذه الآية تحذير لسائر الناس من مثل هذا الفعل، أي: فيجب أن يشكر الناس فضل الله في إيجاده لهم ورزقه إياهم، وهدايته بالأوامر والنواهي، فيكون منهم الجري إلى امتثالها لا طلب الخروج عنها. وتخصيصه تعالى الأكثر، دلالة على الأقل الشاكر.

﴿٢٤٥﴾ - ﴿٢٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

الروا في هذه الآية عاطفة جملة كلام على جملة ما تقدم. هذا قول الجمهور، إن هذه الآية هي مخاطبة لأمة محمد ﷺ بالقتال في سبيل الله، وهو الذي ينوي به أن تكون كلمة الله هي العليا حسب الحديث، وقال ابن عباس، والضحاك: الأمر بالقتال هو للذين أحيوا من بني إسرائيل، فالواو على هذا عاطفة على الأمر المتقدم، المعنى: وقال لهم: قاتلوا - قال الطبري رحمه الله: ولا وجه لقول من قال: إن الأمر بالقتال هو للذين أحيوا. و﴿عَلِمَ﴾ معناه للأقوال، ﴿عَلِمَ﴾ بالنيات.

ثم قال تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ الآية فدخل في ذلك المقاتل في سبيل الله، فإنه يقرض رجاء الشواب كما فعل عثمان رضي الله عنه في جيش العسرة.

ويروي أن هذه الآية لما نزلت قال أبو الدحداح: «يا رسول الله. أو أن الله يريد منا القرض؟»، قال: «نعم يا أبا الدحداح». قال: «فإني قد أقرضت حائطي» لحائط فيه ستمائة نخلة، ثم جاء الحائط وفيه أم الدحداح فقال: «أخرجني فإني قد أقرضت ربي حائطي هذا»، قال: فكان رسول الله ﷺ يقول: ﴿كَمْ مِنْ عِدْدٍ مَذْلُولٍ لِأَبِي الدَّحْدَاحِ فِي الْجَنَّةِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال فيه أبو الدحداحة، واستدعاء القرض في هذه الآية إنما هو تأنيس وتقريب للناس بما يفهمونه، والله هو

الغني الحميد لكنه تعالى شبه إعطاء المؤمن في الدنيا ما يرجو ثوابه في الآخرة بالقرض، كما شبه إعطاء النفوس والأموال في أخذ الجنة بالبيع والشراء، وقد ذهبت اليهود في مدة النبي ﷺ إلى التخليط على المؤمنين بظاهر الاستقراض، وقالوا: إلهكم محتاج يستقرض، وهذا بين الفساد.

وقوله: ﴿حُسْنًا﴾، معناه: تطيب فيه النية، ويشبه أيضاً أن تكون إشارة إلى كثرته وجودته.

واختلف القراءة في: تشديد العين وتخفيفها - ورفع الفاء ونصبها - وإسقاط الألف وإثباتها من قوله تعالى: ﴿فَيَضَعُهَا﴾، فقرأ ابن كثير: ﴿فَيَضَعُهَا﴾ برفع الفاء من غير ألف وتشديد العين في جميع القرآن. وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه نصب الفاء في جميع القرآن، ووافقه عاصم على نصب الفاء إلا أنه أثبت الألف: ﴿فَيَضَعُهَا﴾ في جميع القرآن، وكان أبو عمرو لا يسقط الألف من ذلك كله إلا قوله تعالى: ﴿يَضَعُهَا﴾ من سورة الأحزاب، فإنه بغير ألف كان يقرؤه. وقرأ حمزة والكسائي ونافع ذلك كله بالألف ورفع الفاء.

فالرفع في الفاء يتخرج على وجهين: أحدهما العطف على الصلة، وهو ﴿يُقْرِضُ﴾، والآخر يستأنف الفعل ويقطعه. قال أبو علي: والرفع في هذا الفعل أحسن، لأن النصب إنما هو بالفاء في جواب الاستفهام، وذلك إنما يترتب إذا كان الاستفهام عن نفس الفعل الأول ثم

يجيء الثاني مخالفاً له. تقول: أنقرضني فأشكرك؟ وها هنا: إنما الاستفهام عن الذي يقرض لا عن الإقراض، ولكن تحمل قراءة ابن عامر وعاصم في النصب على المعنى، لأنه لم يستفهم عن فاعل الإقراض إلا من أجل الإقراض، فكان الكلام: أيقرض أحد الله فيضاعفه له.

ونظير هذا - في الحمل على المعنى - قراءة من قرأ: ﴿مَنْ يَضِلْ اللَّهُ فَمَا هَادِي لَهُ، وَيَذْهَبْمْ﴾ بجزم ﴿يلزهم﴾ لما كان معنى قوله: ﴿تَكَادَى لَّهُ﴾ فلا يَهْدُهُ. وهذه الأضعاف الكثيرة هي إلى السبع المائة التي رويت ويعطىها مثال السنبلة.

وقرأ ابن كثير: ﴿يَنْسُطُ﴾ بالسين، ونافع بالصاد، في المشهور عنه. وقال الحلواني، عن قالون، عن نافع: إنه لا يبالي كيف قرأ: (بسطة ويسط) بالسين أو الصاد.

وروي أبو قرة، عن نافع: ﴿يَنْسُطُ﴾ بالسين. وروي أن النبي ﷺ طلب منه أن يسمر بسبب غلاء خيف على المدينة فقال: إن الله هو الباسط القابض، وإني لأرجو أن ألقى الله ولا يتبعني أحد بمظلمة في نفس ولا مال.

﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية خبرٌ عن قوم من بني إسرائيل، نالتهم ذلة وغلبة عدو، فطلبوا الإذن في الجهاد وأن يؤمروا به، فلما أمروا كغ أكثرهم وصبر الأقل فنصرهم الله. وفي هذا كله مثال للمؤمنين ليحذر المكروه ويقتدى بالحسن.

﴿وَأَلَّا﴾ في هذه الآية جميع القوم، لأن المعنى يقتضيه، وهذا هو أصل اللفظة، ويسمى الأشراف الملاً تشبيهاً.

وقوله: ﴿وَمِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾ معناه: من بعد موته وانقضاء مدته. واختلف المتأولون في النبي الذي قيل له: ابعث - فقال ابن إسحاق وغيره، عن وهب بن منبه: وهو شمويل بن بالي. وقال السدي: هو شمعون. وقال قتادة: هو يوشع بن نون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف، لأن مدة داود هي بعد مدة موسى بقرون من الناس، ويوشع هو قتي موسى، وكانت بنو إسرائيل تغلب من حاربها. وروي أنها كانت تضع التابوت الذي فيه السكينة والبقية في مأزق الحرب فلا تزال تغلب حتى عصوا، وظهرت فيهم الأحداث وخالف ملوكهم الأنبياء واتبعوا الشهوات. وقد كان الله تعالى قد أقام أمورهم بأن يكون أنبياءهم يسددون ملوكهم، فلما فعلوا ما ذكرنا سلط الله عليهم أمماً من الكفرة فغلبوهم، وأخذ لهم التابوت في بعض الحروب، فذل أمرهم. وقال السدي: كان الغالب لهم جالوت وهو من العمالقة، فلما رأوا أنه الاصطلام وذهاب الذكر أنف بعضهم، وتكلموا في أمرهم حتى

أَلَم تَرَ إِلَى الْمَلَكِ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ قَالُوا لِنَبِيِّهِمْ لَهُمْ آيَاتٌ أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْبُرْجَانَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ كَتَبَ عَلَيْكُمْ الْقِتَالَ أَنْ تَقْتُلُوا قَالُوا وَمَا نَا أَلَّا نَقْتُلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أَخْرَجْنَا مِنْ دِينِنَا وَأَبْنَاءَنَا قَلَمًا كَتَبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالَ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا يَنْتَهَرُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِظَالِمِيكُمْ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا إِنَّ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي إِسْلَمِهِ وَالْجَسَدِ وَاللَّهُ يُوْتِي مَلَكُهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّكُمُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

اجتمع ملؤهم على أن قالوا لنبي الوقت: ﴿آيَاتٌ لَنَا مَلِكًا﴾، الآية، وإنما طلبوا ملكاً يقوم بأمر القتال، وكانت المملكة في سبط من أسباط بني إسرائيل يقال لهم بنو يهوذا، فعلم النبي بالوحي أنه ليس في بيت المملكة من يقوم بأمر الحرب، ويسر الله لذلك طالوت.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تُنْتَقِلُ﴾ بالنون وجزم اللام على جواب الأمر. وقرأ الضحاك وابن أبي عمير: ﴿يُقَاتِلُ﴾ بالياء ورفع الفعل فهو في موضع الصفة للملك.

وأراد النبي المذكور عليه السلام أن يتوثق منهم فوقفهم على جهة التقرير وسبر ما عندهم بقوله: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ﴾ وقرأ نافع: ﴿هَسَيْتُمْ﴾ بكسر السين في الموضعين، وفتح الباقون السين. قال أبو علي: الأكثر

عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٢٤٧﴾. وقرأ أبي بن كعب: ﴿تَوَلَّوْا إِلَّا أَنْ يَكُونَ قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾.

﴿٢٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال وهب بن منبه: إنه لما قال الملائكة من بني إسرائيل لشمويل بن بالي ما قالوا، سأل الله تعالى أن يبعث لهم ملكاً ويدله عليه، فقال الله تعالى له: انظر إلى القرن الذي فيه الدهن في بيتك، فإذا دخل عليك رجل فنش الدهن الذي في القرن فهو ملك بني إسرائيل، فاذهن رأسه منه، وملكه عليهم. قال: وكان طالوت رجلاً دباغاً، وكان من سبط بنيامين بن يعقوب، وكان سبطه لا نبوة فيه ولا ملك، فخرج طالوت في بُغَاءٍ دابة له أضلها فقصد شمويل عسى أن يدعو له في أمر الدابة أو يجد عنده فرجاً فنش الدهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو دهن القدس فيما يزعمون. قال: فقام إليه شمويل فأخذه ودهن منه رأس طالوت، وقال له: أنت ملك بني إسرائيل الذي أمرني الله بتقدمه، ثم قال لبني إسرائيل: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَمَّتْ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا﴾، وطالوت: اسم أعجمي معرب، ولذلك لم ينصرف.

وقال السدي: إن الله أرسل إلى شمعون عصاً، وقال له: من دخل عليك من بني إسرائيل فكان على طول هذه العصا فهو ملكهم، فقيس بها بنو إسرائيل فكانت تطولهم حتى مر بهم طالوت في بُغَاءٍ حماره الذي كان يسقي عليه، وكان رجلاً سقاءً، فدعوه فقاوسه بالعصا، فكان مثلها، فقال لهم نبيهم ما قال.

فتح السين وهو المشهور. ووجه الكسر قول العرب: هو عسٍ بذلك، مثل خرٍ وشجٍ، وقد جاء فعل وفعل في نحو: نَمَّ وَتَمَّ، وكذلك عسيت وعسيت، فإن أسند الفعل إلى ظاهر فقياس عسيتم أن يقال: عسي زيد مثل رضي. فإن قيل - فهو القياس، وإن لم يُقَل فساتعُ أن يؤخذ باللغتين، فيستعمل إحدهما في موضع الأخرى كما فعل ذلك في غيره. ومعنى هذه المقالة: هل أنتم قريب من التولي والفرار إن كتب عليكم القتال؟

﴿٢٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وأي شيء يجعلنا ألى نقاتل وقد وترنا وأخرجنا من ديارنا؟، وقالوا هذه المقالة وإن كان القائل لم يخرج - من حيث قد أخرج من هو مثله، وفي حكمه - ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لما فرض عليهم القتال ورأوا الحقيقة ورجعت أفكارهم إلى مباشرة الحرب تولوا، أي اضطربت نياتهم، وفترت عزائمهم، وهذا شأن الأمم المتعممة المائلة إلى الدعة، تتمنى الحرب أوقات الأنفة، فإذا حضرت الحرب كُتت وانقادت لطبيعتها.

وعن هذا المعنى نهى النبي ﷺ بقوله: ﴿لَا تَتَمَنَّوْا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَاقِبَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمْهُمْ فَأَبْتُوا﴾.

ثم أخبر الله تعالى عن قليل منهم أنهم ثبتوا على النية الأولى، واستمرت عزيمتهم على القتال في سبيل الله، ثم توعد الظالمين في لفظ الخبر الذي هو قوله: ﴿وَاللَّهُ

ثم إن بني إسرائيل تعنتوا وحادوا عن أمر الله تعالى، وجَزَوْا على سننهم، فقالوا: ﴿أَنْ يَكُونَ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ﴾ أي لأنه ليس في بيت ملك، ولا سبقت له فيه سابقة، ولم يؤت مالاً واسعاً يجمع به نفوس الرجال حتى يغلب أهل الأنفة بماله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وترك القوم السبب الأقوى وهو قدر الله وقضاؤه السابق، وأنه مالك الملك، فاحتج عليهم نبيهم عليه السلام بالحجة القاطعة، وبين لهم مع ذلك تعليل اصطفاؤه طالوت، وأنه بسطة في العلم، وهو ملك الإنسان. والجسم الذي هو معينه في الحرب وعدته عند اللقاء.

قال ابن عباس: كان في بني إسرائيل سبطان - أحدهما للنبوة، والآخر للملك، فلا يبعث نبي إلا من الواحد، ولا ملك إلا من الآخر، فلما بعث طالوت من غير ذلك قالوا مقالتهم.

قال مجاهد: معنى المُلْك في هذه الآية الإمرة على الجيش ولكنهم قللوا لأن من عادة من تولى الحرب وغلب أن يستمر ملكاً.

واصطفى: افتعل مأخوذ من الصفة. وقرأ نافع: ﴿بِضْطَّةٍ﴾ بالصاد. وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿بِسْطَّةٍ﴾ بالسين. والجمهور على أن العلم في هذه الآية يراد به العموم في المعارف. وقال بعض المتأولين: المراد علم الحرب. وأما جسمه فقال وهب بن منبه: إن أطول رجل

في بني إسرائيل كان يبلغ منكب طالوت.

٢٤٧ - ٢٤٨ تفسير قوله عز وجل:

لما علم نبيهم عليه السلام تعتهم وجدالهم في الحجج تَمَمَّ كلامه بالقطعي الذي لا اعتراض عليه وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ يُوَيِّضُ مَلَكُوتَ مَنْ يَشَاءُ﴾.

وظاهر اللفظ أنه من قول النبي لهم، وقد ذهب بعض المتأولين إلى أنه من قول الله تعالى لمحمد ﷺ، والأول أظهر - وأضيف ملك الدنيا إلى الله تعالى إضافة مملوك إلى مالك، و﴿رَبِّعٌ﴾ معناه: وسعت قدرته وعلّمه كل شيء.

وأما قول النبي لهم: ﴿إِنَّ آيَةَ مَلَكُوتِي﴾ فإن الطبري ذهب إلى أن بني إسرائيل تعتوا، وقالوا لنبيهم: وما آية مُلك طالوت؟ وذلك على جهة سؤال الدلالة على صدقه في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَيَّنَّكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن نبيهم قال لهم ذلك على جهة التغيب والتنبية على هذه النعمة التي قرنها الله بمُلك طالوت، وجعلها آية له دون أن تعن بنو إسرائيل لتكذيب نبيهم، وهذا عندي أظهر من لفظ الآية - وتأويل الطبري أشبه بأخلاق بني إسرائيل الذميمة، فإنهم أهل تكذيب وتعننت واعوجاج، وقد حكى الطبري معناه عن ابن عباس، وابن زيد، والسدي.

واختلف المفسرون في كيفية إتيان التابوت، وكيف كان بدء أمره.

فقال وهب بن منبه: كان التابوت

عند بني إسرائيل يغلبون به من قاتلهم حتى عصوا فغلبوا على التابوت، وصار التابوت عند القوم الذين غلبوا فوضعوه في كنيسة لهم فيها أصنام، فكانت الأصنام تصبح منكسة، فجعلوه في قرية قوم فأصاب أولئك القوم أوجاع في أعناقهم.

وقيل: جعل في مخراً قوم، فكان يصيبهم الناسور، فلما عظم بلاؤهم كيف كان قالوا: ما هذا إلا لهذا التابوت فلنرده إلى بلاد بني إسرائيل، فأخذوا عجلة فجعلوا التابوت عليها، وربطوها ببقرتين فأرسلوهما في الأرض نحو بلاد بني إسرائيل، فبعث الله ملائكة تسوق البقرتين حتى دخلتا به على بني إسرائيل وهم في أمر طالوت فأبقنوا بالنصر، وهذا هو حمل الملائكة للتابوت في هذه الرواية.

وقال قتادة، والربيع: بل كان هذا التابوت مما تركه موسى عند يوشع بن نون، فجعله يوشع في البرية، ومرت عليه الدهور حتى جاء وقت طالوت، وكان أمر التابوت مشهوراً عندهم في تركة موسى، فجعل الله الإتيان به آية لمُلك طالوت، وبعث الله ملائكة حملته إلى بني إسرائيل. فيروى أنهم رأوا التابوت في الهواء يأتي حتى نزل بينهم، وروى أن الملائكة جاءت به تحمله حتى جعلته في دار طالوت، فاستوسقت بنو إسرائيل عند ذلك على طالوت.

وقال وهب بن منبه: كان قدر التابوت نحواً من ثلاثة أذرع في

ذراعين. وقرأ زيد بن ثابت: ﴿التَّابُوتُ﴾ وهي لغته، والناس على قراءته بالتاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكثر الرواة في قصص التابوت وصورة حمله بما لم أر لإثباته وجهاً للين إسناده.

٢٤٨ تفسير قوله عز وجل:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: السكينة ريح هفافة لها وجه كوجه الإنسان، وروى عنه أنه قال: هي ريح خجوج، ولها رأسان. وقال مجاهد: السكينة: لها رأس كرأس الهرة، وجناحان وذنب. وقال: أقبلت السكينة والصدرد وجبريل مع إبراهيم من الشام - وقال وهب بن منبه عن بعض علماء بني إسرائيل: السكينة: رأس هرة ميتة كانت إذا صرخت في التابوت بصراخ الهر أبقنوا بالنصر. وقال ابن عباس: السكينة: طلست من ذهب من الجنة، كان يغسل فيه قلوب الأنبياء، وقاله السدي. وقال وهب بن منبه: السكينة روح من الله يتكلم إذا اختلفوا في شيء أخبرهم ببيان ما يريدون.

وقال عطاء بن أبي رباح: السكينة: ما يعرفون من الآيات فيسكنون إليها. وقال الربيع بن أنس: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: رحمة من ربكم. وقال قتادة: ﴿سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ أي: وقار لكم من ربكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح أن التابوت كانت فيه أشباه فاضلة من بقايا الأنبياء وآثارهم،

معنى ما ذكر عليه، وهو: «فأتفق بنو إسرائيل على طالوت ملكاً وأذعنوا وتهيشوا لغزوهم عدوهم» ﴿فَلَمَّا فَصَلَ بِمُوسَى مِنَ الْقَوْمِ فِي الْيَوْمِ ذَلِكَ يَوْمُ بَدَأَ فَرَقَ بِعَبَّادِهِمْ يَوْمَ أَلْتَمَسُ الْأَمْرَ﴾ وقال عطاء بن سعد: هي عصا موسى، وعصا هارون وثيابهما ورضاض الألواح.

وقال الثوري: من الناس من يقول: البقية قفيز من، ورضاض الألواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان. وقال الضحاك: البقية: الجهاد وقتال الأعداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا محالة أنهم كان فيهم المؤمن والمنافق والمجد والكسلان. وقال وهب بن منبه: لم يتخلف عنه إلا ذو عذر من صغر أو كبر أو مرض. واختلف المفسرون في النهر - فقال وهب بن منبه: لما فصل طالوت قالوا له: إن المياه لا تحملنا فادع الله يُجرب لنا نهرأ، فقال لهم طالوت: ﴿إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ﴾ الآية. وقال قتادة: النهر الذي ابتلاههم الله به هو نهر بين الأردن وفلسطين، وقاله ابن عباس - وقال أيضاً هو والسدي: النهر فلسطين - وقرأ جمهور القراء: ﴿يَنْكِرُ﴾ بفتح الهاء. وقرأ مجاهد، وحמיד الأعرج، وأبو السمال، وغيرهم: ﴿يَنْهَرُ﴾ بإسكان الهاء في جميع القرآن.

ومعنى هذا الابتلاء أنه اختبار لهم، فمن ظهرت طاعته في ترك الماء علم أنه يطيع فيما عدا ذلك، ومن غلب شهوته في الماء وعصا الأمر فهو بالعصيان في الشدائد أخرى. وزوي أنهم أتوا النهر وهم قد نالهم عطش وهو في غاية العذوبة والحسن، ولذلك رخص للمطيعين في الغرفة ليرتفع عنهم أذى العطش بعض الارتفاع، وليكسروا نزاع النفس في

عصا موسى، وعصا هارون، ولوحان من التوراة، والمن - وقال عطاء بن سعد: هي عصا موسى، وعصا هارون وثيابهما ورضاض الألواح.

وقال الثوري: من الناس من يقول: البقية قفيز من، ورضاض الألواح، ومنهم من يقول: العصا والنعلان. وقال الضحاك: البقية: الجهاد وقتال الأعداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أي الأمر بذلك في التابوت، إما أنه

مكتوب فيه، وإما أن نفس الإتيان به هو كالأمر بذلك، وأسند الترك إلى آل موسى وهارون من حيث كان الأمر مندرجاً من قوم إلى قوم، وكلهم آل لموسى وهارون. وآل الرجل قرابته وأتباعه. وقال ابن عباس، والسدي، وابن زيد: حمل الملائكة هو سوقها التابوت دون شيء يحمله سواها حتى وضعت بين يدي بني إسرائيل وهم ينظرون إليه بين السماء والأرض - وقال وهب بن منبه، والشوري - عن بعض أشياخهم -: حنلها إياه هو سوقها الثورين أو البقرتين اللتين جرتا العجلة، ثم قرر تعالى أن مجيء التابوت آية لهم إن كانوا ممن يؤمن ويُبصر بعين حقيقة.

﴿تَلَوْنَهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾

قبل هذه الآية متروك من اللفظ يدل

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ رَبِّي مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلْقَوْنَ آلِلَّهِ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ قَلِيلًا غَلَبَتْ فِتْنَةُ كَثِيرَةٍ يَأْذِنُ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ ﴿٢٤٩﴾ ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذَا بِصَلَاتِكَ وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ﴾ ﴿٢٥٠﴾ ﴿فَهَزَمُوهُمْ بِرِزْقِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَءَاتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ ﴿٢٥١﴾ ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ ﴿٢٥٢﴾

فكانت النفوس تسكن إلى ذلك، وتأنس به وتقوى، فالمعهود أن الله ينصر الحق والأمور الفاضلة عنده، والسكينة على هذا: فعيلة مأخوذة من السكون، كما يقال: عزم عزيمة، وقطع قطعة.

واختلف المفسرون في البقية - ما هي؟ فقال ابن عباس: هي عصا موسى ورضاض الألواح. وقال الربيع: هي عصا موسى وأمور من التوراة. وقال عكرمة: هي التوراة والعصا ورضاض الألواح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا ما روي من أن موسى لما جاء قومه بالألواح فوجدتهم قد عبدوا العجل ألقى الألواح غضباً فتكسرت، فنزع منها ما بقي صحيحاً، وأخذ رضاض ما تكسر فجعل في التابوت. وقال أبو صالح: البقية

هذه الحال إلى الاعتراف بالأيدي لنظافته وسهولته، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الأكف أنظف الآتية».

ومنه قول الحسن رحمه الله:

لَا يَذْلُقُونَ إِلَى مَاءٍ بِأَيْتِيَةٍ
إِلَّا اغْتَرَفُوا مِنَ الْغُدْرَانِ بِالرَّاحِ
وظاهر قول طالوت: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ
مُتَّبِعِيكُمْ يَهْكِرُ﴾ هو أن ذلك بوحى
إلى النبي، وإخبار من النبي
لطلوت. ويحتمل أن يكون هذا مما
ألهم الله طالوت إليه فجرب به
جنده، وجعل الإلهام ابتلاءً من الله
لهم، وهذه النزعة واجب أن تقع من
كل متولي حرب، فليس يحارب إلا
بالجند المطيع - ومنه قول معاوية:
«علي في أحببت جند وأعصاه، وأنا
في أصح جند وأطوعه»، ومنه قول
علي رضي الله عنه: «أفسدتم علي
رأبي بالعصيان».

ويبين أن العُرْفَةَ كَأَفَّةٍ ضرر العطش
عند الحزمة الصابرين على شظف
العيش الذين هممهم في غير
الرفاهية، كما قال عروة:

وَأَحْسُو قَرَاخَ الْمَاءِ وَالْمَاءَ بَارِدٌ
فيشبه أن طالوت أراد تجربة القوم.
وقد ذهب قوم إلى أن عبدالله بن
حذافة السهمي إنما أمر أصحابه
بإيقاد النار والدخول فيها تجربة
لطاقتهم لكنه حملة مزاحه على
تخشين الأمر الذي كلفهم.

وقوله: ﴿فَلَيْسَ مِنِّي﴾ أي ليس من
أصحابي في هذه الحرب، ولم
يخرجهم بذلك عن الإيمان. ومثل
هذا قول النبي ﷺ: «مَنْ غَشَّنَا فَلَيْسَ

منا، ومن رمانا بالنبل فليس منا،
وليس منا من شق الجيوب ولطم
الْخُدُودَ» - وفي قوله: ﴿وَمَنْ لَمْ
يَطْمَئِنَّهُ﴾ سُدُّ الذَّرَائِعِ، لأن أدنى
الذوق يدخل في لفظ الطعم، فإذا
وقع النهي عن الطعم فلا سبيل إلى
وقوع الشرب ممن يتجنب الطعم،
ولهذه المبالغة لم يأت الكلام: ﴿وَمَنْ
لَمْ يَشْرَبْ مِنْهُ﴾.

وقرأ أبو عمرو، ونافع، وابن كثير:
﴿غَرْفَةٌ﴾ بفتح الغين، وهذا على
تعدي الفعل إلى المصدر، والمفعول
محذوف، والمعنى: إلا من اغترف
ماءَ غَرْفَةٍ. وقرأ الباقون: ﴿غَرْفَةً﴾
بضم الغين، وهذا على تعدي الفعل
إلى المفعول به، لأن الغرفة هي
الغين الْمُغْتَرَفَةُ، فهذا بمنزلة: إلا من
اغترف ماءً، وكان أبو علي يرجح
ضم الغين، ورَّجَّحه الطبري أيضاً من
جهة أن ﴿غَرْفَةٌ﴾ بالفتح إنما هو
مصدر على غير اغتراف.

ثم أخبر تعالى عنهم أن الأكثر
شرب وخالف ما أريد منه - وروي
عن ابن عباس، وقتادة، وغيرهما أن
القوم شربوا على قدر يقينهم - فشرب
الكفار شرب الهيم، وشرب
العاصون دون ذلك، وانصرف من
القوم ستة وسبعون ألفاً، وبقي بعض
المؤمنين لم يشرب شيئاً، وأخذ
بعضهم العُرْفَةَ. فأما من شرب فلم
يَزُوْ بِلْ بَرِّحْ به العطش، وأما من ترك
الماء فحسنت حاله، وكان أجلد
ممن أخذ العُرْفَةَ.

تفسير قوله عز وجل:

جاوز: فاعل من جاز يجوز، وهي

مفاعلة من اثنين في كل موضع لأن
النهر وما أشبهه كأنه يجاوز.

واختلف الناس في الذين معه كم
كانوا - فقال البراء بن عازب: كنا
نتحدث أن عدة أهل بدر كعدة
أصحاب طالوت الذين جاوزوا معه
النهر - ثلاثمائة وبضعة عشر رجلاً،
وفي رواية: وثلاثة عشر رجلاً، وما
جاز معه إلا مؤمن.

وقال قتادة: ذكر لنا أن
رسول الله ﷺ قال لأصحابه يوم
بدر: أنتم كعدة أصحاب طالوت:
وقال السدي، وابن عباس: «بل جاز
معه أربعة آلاف رجل». قال ابن
عباس: «فيهم من شرب» قال: فلما
نظروا إلى جالوت وجنوده: ﴿فَكَأَلُوا
لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ﴾، ورجع منهم
ثلاثة آلاف وستمائة وبضعة
وثمانون، هذا نص قول السدي،
ومعنى قول ابن عباس، فعلى القول
الأول قالت الجهلة: لا طاقة لنا
اليوم على جهة استكثار العدو، فقال
أهل الصلابة منهم والتصميم
والاستماتة: ﴿كَمْ يَنْ يَنْكَرُ
قَيْلِيلًا﴾ الآية. وظن لقاء الله - على
هذا القول - يَحْسُنُ أن يكون ظناً
على بابه، أي: يظنون أنهم
يستشهدون في ذلك اليوم لعزمهم
على صدق القتال، كما جرى
لعبده بن حرام في أحد، ولغيره.

وعلى القول الثاني، قال كثير من
الأربعة آلاف: لا طاقة لنا على جهة
الفضل والفرح من الموت، وانصرفوا
عن طالوت، فقال المؤمنون
الموقنون بالبعث والرجوع إلى الله
وهم عدة أهل بدر ﴿كَمْ يَنْ

فَتَكْتَرُ، والظنُّ - على هذا - بمعنى اليقين، وهو فيما لم يقع بعد ولا خرج إلى الحسن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما روي عن ابن عباس من أن في الأربعة الآلاف من شرب يرد عليه قوله تعالى: ﴿هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾.

وأكثر المفسرين على أنه إنما جاوز النهر مَنْ لم يشرب إلا عُرفه، ومن لم يشرب جملة، ثم كانت بصائر هؤلاء مختلفة، فبعض كع، وقليل صم.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿كَأَيُّنْ مِنْ فِتْنَةٍ﴾، والفتنة: الجماعة التي يرجع إليها في الشدائد. من قولهم: فاء يفيء إذا رجع، وقد يكون الرجل الواحد فتنة تشبيهاً والمليك فتنة الناس، والجيل فتنة، والحصن - كل ذلك تشبيه.

وفي قولهم رضي الله عنهم: ﴿كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ﴾ الآية، تحريض بالمثال، وحض واستشعار للصبر واقتداء بمن صدق ربه - وإذن الله هنا: تمكيته، وعلمه - مجموع ذلك هو الإذن ﴿وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ بنصره وتأنيده.

٢٥٠ - تفسير قوله عز وجل:

﴿بَرَزُوا﴾ معناه: صاروا في البراز وهو الأفيح من الأرض، المتسع، وجالوت: اسم أعجمي معرب - والإفراغ أعظم الصب، كأنه يتضمن عموم المُفْرَغ عليه - والهزم أصله أن يُضْرَب الشيء يدخل بعضه في بعض، وكذلك الجيش الذي يُرْدُ يركب رده، ثم قيل في معنى

الغلبة: هزم - وكان جالوت أمير العمالقة وَمَلِكُهُمْ، وكان فيما روي في ثلاثمائة ألف فارس.

وروي في قصة داود وقتله جالوت أن أصحاب طالوت كان فيهم إخوة داود وهم بنو إيشي، وكان داود صغيراً يرعى غنماً لأبيه، فلما حضرت الحرب قال في نفسه: لأذهبن لرؤية هذه الحرب، فلما نهض مر في طريقه بحجر فناداه: يا داود خذني بي تقتل جالوت، ثم ناداه حجر آخر، ثم آخر، ثم آخر، فأخذها، وجعلها في مخلاته.

وسار، فلما حضر الناس خرج جالوت يطلب مبارزاً، فكع الناس عنه حتى قال طالوت: من يبرز له ويقتله فأنا أروجه بنتي وأحكمه في مالي، فجاء داود فقال: أنا أبرز له وأقتله، فقال له طالوت: فاركب فرسي، وخذ سلاحي، ففعل وخرج في أحسن شكة، فلما مشى قليلاً رجع، فقال الناس: جين الفتى، فقال داود: إن كان الله لم يقتله لي ويُعني عليه لم ينفعني هذا الفرس، ولا هذا السلاح، ولكني أحب أن أقاتله على عادتي. قال: وكان داود من أرمى الناس بالمقلاع، فنزل وأخذ مخلاته فتقلدها، وأخذ مقلاعه وخرج إلى جالوت وهو شاك في سلاحه، فقال له جالوت: أنت يا فتى تخرج إلي؟ قال: نعم. قال: هكذا كما يخرج إلي الكلب؟ قال: نعم، وأنت أهون، قال: لأطعمن اليوم لحمك الطير والسباع، ثم تدانيا فأدار داود مقلاعه، وأدخل يده إلى الحجارة فروي أنها التأمت فصارت

حجراً واحداً، فأخذه فوضعه في المقلاع، وسمى الله وأداره ورماه، فأصاب به رأس جالوت فقتله، وحز رأسه وجعله في مخلاته واختلط الناس، وحمل أصحاب طالوت، وكانت الهزيمة - ثم إن داود جاء يطلب شرطه من طالوت فقال له: إن بنات الملوك لهن غرائب من المهر ولا بد لك من قتل مائتين من هؤلاء الجراجمة الذين يؤذون الناس، وتجيئني بغلهم، وطمع طالوت أن يعرض داود للقتل بهذه الفزعة، فقتل داود منهم مائتين، وجاء بذلك وطلب امرأته فدفعها إليه طالوت، وعظم أمر داود، فيروي أن طالوت تخلى له عن الملك وصار هو الملك، ويروي أن بني إسرائيل غلبت طالوت على ذلك بسبب أن داود قتل جالوت، وكان سبب الفتح - وروي أن طالوت أخاف داود حتى هرب منه فكان في جبل إلى أن مات طالوت، فذهبت بنو إسرائيل إلى داود فملكته أمرها - وروي أن نبي الله شمويل أوحى الله إليه أن يذهب إلى إيشي ويسأله أن يعرض عليه بنيه، فيدهن الذي يشار إليه بدهن القدس، ويجعله ملك بني إسرائيل، والله أعلم - أي ذلك كان - غير أنه يُقطع من ألفاظ الآية على أن داود صار ملك بني إسرائيل.

وقد روي في صدر هذه القصة أن داود كان يسير في مطبخة طالوت ثم كلمه حجر فأخذه فكان ذلك سبب قتله جالوت ومملكته وقد أكثر الناس في قصص هذه الآية، وذلك كله لئلا الأسانيد فلذلك انتقيت منه ما تنفك

به الآية، وتعلم به مناقل النازلة، واختصرت سائر ذلك.

وأما الحكمة التي آتاه الله فهي النبوة والزبور، وقال السدي: آتاه الله ملك طالوت ونبوة شمعون، والذي علمه: هي صنعة الدروع، ومنطق الطير، وغير ذلك من أنواع علمه ﷺ.

٢٥١ - ٢٥٢ تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لولا دفعه بالمؤمنين به في صدور الكفرة على مر الدهر لفسدت الأرض، لأن الكفر كان يطبقها ويتمادى في جميع أقطارها والله تعالى لا يخلي الزمان من قائم بحق، وداع إلى الله، ومقاتل عليه إلى أن جعل ذلك في أمة محمد ﷺ إلى قيام الساعة - له الحمد كثيراً.

قال مكي: وأكثر المفسرين على أن المعنى: لولا أن الله يدفع بمن يصلي عمن لا يصلي ويمن يتقي عمن لا يتقي لأهلك الناس بذنوبهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا معنى الآية، ولا هي منه في ورد ولا صدر - والحديث الذي روى ابن عمر صحيح وما ذكر مكي من احتجاج ابن عمر عليه بالآية لا يصح عندي، لأن ابن عمر من الفصحاء.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ﴾، وفي الحج: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ﴾. وقرأ نافع: ﴿وَلَوْلَا دَفَعَا اللَّهُ﴾، و﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ﴾. وقرأ الباقون: ﴿وَلَوْلَا دَفَعُ اللَّهُ﴾، و﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْفَعُ﴾، ففرقوا بينهما،

والدفاع يحتمل أن يكون مصدر دفع ككاتب كتاباً ولقي لقاءً، ويحتمل أن يكون مصدر دافع كقاتل قتالاً.

والإشارة بتلك إلى ما سلف من القصص والأنبياء، وفي هذه القصة بجمالها مثالاً عظيم للمؤمنين ومغتنباً، وقد كان أصحاب محمد مبعدين لحرب الكفار، فلهم في هذه النازلة معتبر يقتضي تقوية النفوس، والثقة بالله، وغير ذلك من وجوه العبرة.

٢٥٣ تفسير قوله عز وجل:

﴿تِلْكَ﴾ رفع بالابتداء و﴿الرُّسُلُ﴾ خبره، ويجوز أن يكون ﴿الرُّسُلُ﴾ عطف بين و﴿فَمَلَأْنَا﴾ الخبر، و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى جماعة مؤنثة اللفظ.

ونص الله في هذه الآية على تفضيل بعض الأنبياء على بعض، وذلك في الجملة دون تعيين مفضول، وهكذا هي الأحاديث عن النبي عليه السلام، فإنه قال: «أنا سيد ولد آدم»، وقال: «لا تفضلوني صلى موسى». وقال: «لا ينبغي لأحد أن يقول: أنا خير من يونس ابن متى»، وفي هذا نهى شديد عن تعيين المفضول - لأن يونس عليه السلام كان شاباً، وتفسخ تحت أعباء النبوة، فإذا كان هذا التوقيف فيه لمحمد ﷺ فغيره أخرى، فربط

تلك الرُّسُلَ فَضَلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَأَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنْ أَخْتَلَفُوا فَهُمْ مِنْ عَمَلِنَا وَمَنْ كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَقْتَلُوا وَلَكِنْ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمْ يَوْمٌ لَا يَبِيعُ وَلا يَشْتَرُ وَلا حِجْلٌ وَلا شَفَعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٥٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ إِلا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٣﴾ لَا آكْرَاهُ فِي الدِّينِ قَد تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥٤﴾

الباب أن التفضيل فيهم على غير تعيين المفضول - وقد قال أبو هريرة: خير ولد آدم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وهم أولوا العزم - والمكلم موسى ﷺ، وقد سئل رسول الله ﷺ عن آدم - أنبيي مرسل هو؟ فقال: «نعم، نبي مكلم»، وقد تأول بعض الناس أن تكليم آدم كان في الجنة، فعلى هذا تبقى خاصة موسى.

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ قال مجاهد، وغيره: هي إشارة إلى محمد ﷺ، لأنه بعث إلى الناس كافة، وأعطى الخمس التي لم يُعطاها أحد قبله، وهو أعظم الناس أمة، وختم الله به النبوات، إلى غير ذلك من الخلق العظيم الذي أعطاه الله، ومن معجزاته، وياهر آياته، ويحتمل اللفظ أن يراد به

محمد وغيره ممن عظمت آياته، ويكون الكلام تأكيداً للأول، ويحتمل أن يريد رفع إدريس المكان العلي، ومراتب الأنبياء في السماء فتكون الدرجات في المسافة، وبقي التفضيل مذكوراً في صدر الآية فقط.

وبينات عيسى عليه السلام: هي إحياء الموتى، وإبراء الأكمه والأبرص، وخلق الطير من الطين وروح القدس: جبريل عليه السلام، وقد تقدم ما قاله العلماء فيه.

﴿٢٥٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

ظاهر اللفظ في قوله: ﴿مِنْ بَدِيهِمْ﴾، يعطي أنه أراد القوم الذين جاؤوا من بعد جميع الرسل، وليس كذلك المعنى بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبي، فَلَفَّ الكلام لفاً، لم يفهمه السامع وهذا كما تقول: اشتريت خيلاً ثم بعته، فجائز لك هذه العبارة، وأنت إنما اشتريت فرساً ثم بعته، ثم آخر وبعته، ثم آخر وبعته، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبي. فمنهم من آمن، ومنهم من كفر بغياً وحسداً على حطام الدنيا، وذلك كله بقضاءٍ وقدر، وإرادة من الله تعالى. ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بسر الحكمة في ذلك، الفعّال لما يريد، فاقتلوا بأن قاتل المؤمنون الكافرين على مر الدهر، وذلك هو دفع الله الناس بعضهم ببعض.

﴿٢٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن جريج: هذه الآية تجمع

الزكاة والتطوع، وهذا كلام صحيح، فالزكاة واجبة، والتطوع مندوب إليه. وظاهر هذه الآية أنها مراد بها جميع وجوه البر: من سبيل خير، وصله رحم، ولكن ما تقدم من الآيات في ذكر القتال وأن الله يدفع بالمؤمنين في صدور الكافرين يترجح منه أن هذا الندب إنما هو في سبيل الله، ويقوي ذلك قوله في آخر الآية: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: فكافحوهم بالقتال بالأنفس وإنفاق الأموال - وندب الله تعالى بهذه الآية إلى إنفاق شيء مما أنعم به، وهذا غاية التفضل فعلاً وقولاً - وحذر تعالى من الإمساك إلى أن يجيء يوم لا يمكن فيه بيع ولا شراء ولا استدراك نفقة في ذات الله، إذ هي مباحة على ما قد فسرناه في قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ﴾ أي: إذ البيع فدية، لأن المرء قد يشتري نفسه ومراده بماله، وكأن معنى الآية معنى سائر الآي التي تتضمن ألا فدية يوم القيامة - وأخبر الله تعالى بعدم الخلة يوم القيامة، والمعنى: خلة نافعة تقتضي المساهمة كما كانت في الدنيا، وأهل التقوى بينهم في ذلك اليوم خلة ولكنها غير محتاج إليها، وخلة غيرهم لا تغني من الله شيئاً - وأخبر تعالى أن الشفاعة أيضاً معدومة في ذلك اليوم. فحمل الطبري ذلك على عموم اللفظ وخصوص المعنى، وأن المراد: «ولا شفاعة للكفار»، وهذا لا يحتاج إليه، بل الشفاعة المعروفة في الدنيا وهي انتداب الشافع وتحكمه على كره المشفوع عنده

مرتفعة يوم القيامة البتة، وإنما توجد شفاعة بإذن الله تعالى، فحقيقتها رحمة من الله تعالى لكنه شرف الذي أذن له في أن يشفع، وإنما المعدوم مثل حال الدنيا من البيع والخلة والشفاعة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ﴿لا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ بالنصب، في كل ذلك بلا تنوين وكذلك في سورة إبراهيم: ﴿لا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا خِلَالَ﴾ وفي الطور: ﴿لا لَغُو فِيهَا وَلَا تَأْيِيمٌ﴾، وقرأ الباقون جميع ذلك بالرفع والتنوين.

و﴿الظَّالِمُونَ﴾ واضعوا الشيء في غير موضعه. وقال عطية بن دينار: الحمد لله الذي قال: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ ولم يقل: «الظَّالِمُونَ هُمُ الْكَافِرُونَ».

﴿٢٥٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية سيدة آي القرآن، ورد ذلك في الحديث، وورد أنها تعدل ثلث القرآن، وورد أن من قرأها أول ليله لم يقربه شيطان، وكذلك من قرأها أول نهاره. وهي متضمنة التوحيد، والصفات العلى و﴿أَقَدَّ﴾ مبتدأ، و﴿لَا إِلَهَ﴾ مبتدأ ثان، وخبره محذوف تقديره: «معبود» أو «موجود»، و﴿إِلَّا هُوَ﴾ بدل من موضع: ﴿لَا إِلَهَ﴾، و﴿الْحَيُّ﴾ صفة من صفات الله تعالى ذاتية، وذكر الطبري عن قوم أنهم قالوا: الله تعالى حي لا بحياة، وهذا قول المعتزلة، وهو قول مرغوب عنه، وحكي عن قوم أنه حي بحياة هي صفة له - وحكي عن قوم أنه يقال:

حي كما وصف نفسه ويسلم ذلك دون أن ينظر فيه.

﴿الْقِيَامُ﴾ فيقول - من القيام أصله: قيوم، اجتمعت الياء والواو وسبقت إحداهما بالسكون فأدغمت الأولى في الثانية بعد قلب الواو ياء، وقيوم بناء مبالغة، أي: هو القائم على كل أمر بما يجب له، وبهذا المعنى فسره مجاهد، والربيع، والضحاك.

وقرأ ابن مسعود، وعلقمة، وإبراهيم النخعي، والأعمش: ﴿الْحَيُّ الْقَيَّامُ﴾ بالكاف.

ثم نفى عز وجل أن تأخذه سنة أو نوم، وفي لفظ الأخذ غلبة ما، فلذلك حسنت في هذا الموضع بالنفي - والسنة: بدء النعاس، وهو فتور يعتري الإنسان وترنيق في عينيه، وليس يفقد معه كل ذهنه، والنوم هو المستثقل الذي يزول معه الذهن.

والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا تدركه آفة، ولا يلحقه خلل بحال من الأحوال، فجعلت هذه مثلاً لذلك، وأقيم هذا المذكور من الآفات مقام الجميع، وهذا هو مفهوم الخطاب كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَى﴾ ومما يفرق بين الوسن والنوم قول عدي بن الرقاع:

وَسَنَانٌ أَقْصَدَهُ التُّعَاسُ فَرُنُقَتْ فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِسَائِمٍ وَبِهَذَا الْمَعْنَى فِي السُّنَّةِ فُسِّرَ الضُّحَاكُ وَالسُّدِّيُّ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ: السُّنَّةُ التُّعَاسُ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْوَسْنَانُ الَّذِي يَقُومُ مِنَ النَّوْمِ

وهو لا يعقل حتى ربما جرد السيف على أهله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الذي قال ابن زيد فيه نظر، وليس ذلك بمفهوم من كلام العرب. وروى أبو هريرة قال: (سمعت رسول الله ﷺ يحكي عن موسى على المنبر قال: وقع في نفس موسى هل ينام الله جل ثناؤه. فأرسل الله إليه ملكاً فأرقه ثلاثاً، ثم أعطاه قارورتين في كل يد قارورة، وأمره أن يحتفظ بهما، قال: فجعل ينام وتكاد يدها تلتقيان، ثم يستيقظ فيحس إحداهما عن الأخرى حتى نام نومة فاصطفت يدها فانكسرت القارورتان. قال: ضرب الله له مثلاً أن لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض).

وقوله تعالى: ﴿لَيْلٌ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي بالملك، فهو مالك الجميع ورب - وجاءت العبارة بـ﴿مَا﴾ وإن كان في الجملة من يعقل من حيث المراد الجملة والموجود. ثم قرر ووقف تعالى من يتعاطى أن يشفع عنده إلا أن يأذن هو فيه جل وعلا.

وقال الطبري: هذه الآية نزلت لما قال الكفار: ما نعبد أوثاننا هذه إلا ليقربونا إلى الله فقال الله: ﴿لَيْلٌ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية، وتقرر في هذه الآية أن الله يأذن لمن يشاء في الشفاعة وهم الأنبياء والعلماء وغيرهم.

والإذن هنا راجع إلى الأمر فيما نص عليه كمحمد ﷺ إذا قيل له: «واشفع تشفع» وإلى العلم والتمكين

إن شفع أحد من الأنبياء والعلماء قبل أن يؤمر - والذي يظهر أن العلماء والصالحين يشفعون فيمن لم يصل إلى النار وهو بين المنزلين، أو وصل ولكن له أعمال صالحة. وفي البخاري في باب بقية من أبواب الرؤية: (إن المؤمنين يقولون: ربنا. إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويعملون معنا، فهذه شفاعة فيمن يقرب أمره، وكما يشفع الطفل المحببطين على باب الجنة). الحديث. وهذا إنما هو في قرباتهم ومعارفهم - وأن الأنبياء يشفعون فيمن حصل في النار من عصاة أمهم بذنوب دون قربى ولا معرفة إلا بنفس الإيمان، ثم تبقى شفاعة أرحم الراحمين في المستغرقين في الذنوب الذين لم تلهم شفاعة الأنبياء.

وأما شفاعة محمد في تعجيل الحساب فخاصة له، وهي الخامسة التي في قوله: «وأعطيت الشفاعة» وهي عامة للناس، والقصد منها إراحة المؤمنين، وتعجيل الكفار منها المصير إلى العذاب، وكذلك إنما يطلبها إلى الأنبياء المؤمنون. والضميران في قوله: ﴿أَيُّدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عائدان على كل من يعقل ممن تضمنه قوله: ﴿لَيْلٌ مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وقيل مجاهد: ما بين أيديهم: الدنيا، وما خلفهم: الآخرة، وهذا في نفسه صحيح عند الموت، لأن ما بين اليد هو كل ما تقدم الإنسان، وما خلفه هو كل ما يأتي بعده، وينحو قول مجاهد قال السدي وغيره.

﴿٢٥٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾ معناه: من معلوماته، وهذا كقول الخضر لموسى عليهما السلام - حين نقر العصفور في حرف السفينة -: «ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من هذا البحر»، فهذا وما شاكله راجع إلى المعلومات لأن علم الله تعالى الذي هو صفة ذاته لا يتبعض - ومعنى الآية: لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يعلمه.

واختلف الناس في الكرسي الذي وصفه الله تعالى بأنه وسع السماوات والأرض.

فقال ابن عباس: كرسية: علمه، ورجحه الطبري، وقال: منه الكراسية للصحائف التي تضم العلم، ومنه قيل للعلماء: الكراسي، لأنهم المعتمد عليهم، كما يقال: أوتاد الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الألفاظ تعطي بعض ما ذهب إليه من أن الكرسي العلم، قال الطبري: ومنه قول الشاعر:

تحف بهم بيض الوجوه وغضبة كراسي بالأحداث حين تنوب
يريد بذلك علماء بحوادث الأمور ونوازلها.

وقال أبو موى الأشعري: الكرسي موضع القدمين، وله أطيظ كأطيظ الرجل.

وقال السدي: هو موضع قدميه، وعبرة أبي موسى مخلصه لأنه يريد هو من عرش الرحمن كموضع

القدمين في أسرة الملوك، فهو مخلوق عظيم بين يدي العرش نسبه إليه نسبة الكرسي إلى سرير الملك، والكرسي هو موضع القدمين، وأما عبارة السدي فقلقة، وقد مال إليها منذر البلوطي، وأولها بمعنى ما قدم من المخلوقات على نحو ما تأول في قول النبي عليه السلام: «يَضَعُ الْجِبَارُ فِيهَا قَدَمَهُ». وهذا عندي عناء، لأن التأويل لا يضطر إليه إلا في ألفاظ النبي عليه السلام، وفي كتاب الله، وأما في عبارة مفسر فلا:

وقال الحسن بن أبي الحسن: الكرسي هو العرش نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي تقتضيه الأحاديث أن الكرسي مخلوق عظيم بين يدي العرش والعرش أعظم منه، وقد قال رسول الله ﷺ: «ما السموات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»، وقال أبو ذر: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت في فلاة من الأرض».

وهذه الآية منبثثة عن عظم مخلوقات الله تعالى، والمستفاد من ذلك عظم قدرته إذ لا يؤوده حفظ هذا الأمر العظيم.

﴿يَوَدُّ﴾ معناه: يثقله يقال: أدني الشيء بمعنى أثقلني وتحملت منه مشقة، وبهذا فسر اللفظة ابن عباس، والحسن، وقتادة، وغيرهم.

وروي عن الزهري، وأبي جعفر، والأعرج - بخلاف عنهم - تخفيف

الهمزة التي على الواو الأولى، جعلوها بين بين، لا تخلص واوا مضمومة ولا همزة محققة، كما قيل في لؤم لؤم.

﴿الْمَلِكِ﴾ يراد به علو القدرة والمنزلة، لا علو المكان لأن الله منزّه عن التحيز.

وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: هو العلي عن خلقه بارتفاع مكانه عن أماكن خلقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول جهلة مجسمين، وكان الوجه ألا يحكى، وكذا «الْعَظِيمِ» هي صفة بمعنى عظم القدر والخطر، لا على معنى عظم الأجرام.

وحكى الطبري عن قوم أن «الْعَظِيمِ» معناه المَعْظَم كما يقال: العتيق بمعنى المعتق، وأنشد قول الأَعشى:

وَكأنَّ الخَمَرَ العَتيقَ مِنَ الإِنسِ
مَنُطِ مَمْرُوجَةً بِسَاءِ زُلالِ
وذكر عن قوم أنهم أنكروا ذلك، وقالوا: لو كان بمعنى مَعْظَم لوجب ألا يكون عظيماً قبل أن يخلق الخلق وبعد فئاتهم إذ لا مَعْظَم له حينئذ.

﴿٢٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الدين في هذه الآية: المعتقد والملة بقرينة قوله: ﴿فَدَبَّيْنِ الرُّشْدِ مِنَ التِّيِّ﴾.

والإكراه الذي في الأحكام من الأيمان والبيوع والهيات وغير ذلك ليس هذا موضعه، وإنما يجيء في تفسير قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فإذا تقرر أن الإكراه المنفي هنا هو في تفسير

المعتقد من الملل والنحل فاختلف الناس في معنى الآية.

قال الزهري: سألت زيد بن أسلم عن قوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فقال: كان رسول الله ﷺ بمكة عشر سنين لا يُكره أحداً في الدين، فأبى المشركون إلا أن يقاتلهم فاستأذن الله في قتالهم فأذن له، قال الطبري: والآية منسوخة في هذا القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزم على هذا أن الآية مكية، وأنها من آيات المواعدة التي نسختها آية السيف.

وقال قتادة، والضحاك بن مزاحم: هذه الآية محكمة خاصة في أهل الكتاب الذين يبذلون الجزية ويؤدونها عن يد صغرة، قالوا: «أمر رسول الله ﷺ أن يقاتل العرب أهل الأوثان لا يقبل منهم إلا لا إله إلا الله، أو السيف»، ثم أمر فيمن سواهم أن يقبل الجزية، ونزلت فيهم: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى مذهب مالك: أن الجزية تقبل من كل كافر سوى قريش - أي نوع كان - فتجئ الآية خاصة فيمن أعطى الجزية من الناس كلهم لا يقف ذلك على أهل الكتاب كما قال قتادة والضحاك.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: إنما نزلت هذه الآية في قوم من الأوس والخزرج، كانت المرأة تكون مقلدة لا يعيش لها ولد، فكانت تجعل على نفسها - إن جاءت بولد -

أن تهوده، فكان في بني النضير جماعة على هذا النحو، فلما أُجلى رسول الله ﷺ بني النضير قالت الأنصار: كيف نصنع بأبنائنا؟ إنما فعلنا ما فعلنا ونحن نرى أن دينهم أفضل مما نحن عليه، وأما إذ جاء الله بالإسلام فنكرهم عليه؟ فنزلت: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الآية. وقال بهذا القول عامر الشعبي، ومجاهد، والحسن، إلا أنه قال: كان سبب كونهم في بني النضير الاسترضاع.

وقال السدي: نزلت الآية في رجل من الأنصار يقال له أبو حصين، كان له ابنان، فقدم تجار من الشام المدينة يحملون الزيت، فلما أرادوا الرجوع أتاهم ابنا أبي حصين فدعوهما إلى النصرانية فتنصرا، ومضيا معهم إلى الشام، فأتى أبوهما رسول الله ﷺ مشتكياً أمرهما، ورغب في أن يبعث رسول الله ﷺ من يردهما، فنزلت: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ ولم يؤمر يومئذ بقتال أهل الكتاب - وقال: أبعدهما الله، هما أول من كفر، فوجد أبو الحصين في نفسه على رسول الله ﷺ حين لم يبعث في طلبهما، فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يَوْمُنَا حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. ثم إنه نسخ: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ فأمر بقتال أهل الكتاب في سورة براءة.

والصحيح في سبب قوله تعالى: ﴿فَلَا وَرَيْكَ لَا يَوْمُنَا﴾ حديث الزبير مع جاره الأنصاري في حديث السقي.

وقوله تعالى: ﴿مَدَّ يَدَيْكَ الرَّشْدَ مِنَ الْقِيِّ﴾ معناه: ينصب الأدلة، ووجود الرسول الداعي إلى الله، والآيات المنيرة. والرشد مصدر من قولك: رشد - بكسر الشين وضمها - يرشد رَشْدًا ورَشْدًا ورَشَادًا - والقي مصدر من عَوَى يغوى إذا ضل في معتقد أو رأي، ولا يقال القِيُّ في الضلال على الإطلاق - وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿الرشاد﴾ بالألف. وقرأ الحسن، والشعبي، ومجاهد: ﴿الرشد﴾ بفتح الراء والشين، وزوي عن الحسن ﴿الرشد﴾ بضم الراء والشين.

والطاغوت: بناء مبالغة من طغى يطغى، وحكى الطبري: يطغو إذا جاوز الحد بزيادة عليه ووزنه فغلوت. ومذهب سيبويه أنه اسم مفرد كأنه اسم جنس يقع للكثير والقليل، ومذهب أبي على أنه مصدر كرهوت وجبروت، وهو يوصف به الواحد والجمع، وقلبت لामه إلى موضع العين وعينه موضع اللام قليل: طاغوت. وقال المبرد: هو جمع، وذلك مردود. واختلف المفسرون في معنى الطاغوت - فقال عمر بن الخطاب، ومجاهد، والشعبي، والضحاك، وقتادة، والسدي: الطاغوت: الشيطان - وقال ابن سيرين، وأبو العالية: الطاغوت: الساحر. وقال سعيد بن جبير، ورفيع، وجابر بن عبد الله، وابن جريج: الطاغوت: الكاهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَيَبِّئُ أَنْ هَذِهِ أَمْثَلَةٌ فِي الطَّاغُوتِ،

كفروا به، فذلك إخراجهم من النور إلى الظلمات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن هذا القول أحرز نوراً في المعتقّد خرج منه إلى ظلمات، ولفظ الآية مستغن عن هذا التخصيص، بل هو مترتب في كل أمة كافرة آمن بعضها كالعرب، ومترتب في الناس جميعاً، وذلك أن من آمن منهم بالله وليه، أخرجته من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان، ومن كفر بعد وجود

الداعي والنبي المرسل فشيطنه ومغوبه كأنه أخرجته من الإيمان إذ هو مُعَدُّ وأهل للدخول فيه. وهذا كما تقول لمن منعك الدخول في أمر: أخرجتني يا فلان من هذا الأمر، وإن كنت لم تدخل فيه البتة. ولفظة الطاغوت في هذه الآية تقتضي أنه اسم جنس، ولذلك قال: أولياؤهم بالجمع، إذ هي أنواع، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «أُولِيَاؤُهُمُ الطَّوَاغِيتُ» يعني الشياطين، وحكم عليهم بالخلود في النار لكفرهم.

تفسير قوله عز وجل:

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيه، وهي رؤية القلب. وقرأ علي بن أبي طالب: «أَلَمْ تَرَ» بجزم الراء، والذي حاج إبراهيم هو نمرود بن كنعان بن كوش بن حام بن نوح ملك زمانه وصاحب النار والبعضة، هذا قول مجاهد، وقاتدة، والربيع، والسدي، وابن إسحاق، وزيد بن أسلم، وغيرهم - وقال ابن جريج: هو أول ملك في الأرض، وهذا مردود. وقال قتادة: هو أول من تجبر، وهو

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فَعَلَى مِنْ الوثاقة، وهذه الآية تشبيه. واختلفت عبارة المفسرين في الشيء المشبه بالعروة - فقال مجاهد: العروة الإيمان. وقال السدي: الإسلام. وقال سعيد بن جبير، والضحاك: العروة: لا إله إلا الله. وهذه العبارات ترجع إلى معنى واحد.

والانقسام: الانكسار من غير بينونة، وإذا نفي ذلك فلا بينونة بوجه، والفصم كسر بينونة، وقد يجيء الفصم بالفاء في معنى البينونة، ومن ذلك قول

اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآءُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّ إِبراهيمَ فِي رَبِّهِ ءَأَنَّهُ ءَاتَهُ اللهُ الْمَلِكَ إِذْ قَالَ إِبراهيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُعْبَدُ وَيُبَيِّتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي - وَأَمِيتُ قَالَ إِبراهيمُ فَإِنَّ اللهُ يَأْتِي بِالسَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِيهِم مِّنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ أَوَ كَذَلِكَ مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُغِي هَذِهِ اللهُ بِعَدُوِّيَهَا فَاَمَاتَهُ اللهُ وَءَاتَهُ عَآدٍ مَّمٌ بَعَثَهُ قَالَ كَم لَيْتَ قَالَ لَيْتَ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّيْسَتْ بِءَاتَةٍ فَانظُرْ إِلَىٰ ظَعَامِكُمْ وَشِرَابِكُمْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ يَتَسَّرُ لَكُمْ فإِنظُرْ إِلَىٰ جَمَآرِكُمْ وَلْيَجْعَلْ لَكُمْ ءَايَةً لِلنَّاسِ وَإِنظُرْ إِلَىٰ الظُّعَآدِ كَيْفَ تُنْفِرُهَا هُمْ تَكْسُوهَا لِحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُمْ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾

ذي الرمة:

كَأَنَّهُ ذُمَلُجٌ مِّنْ فِضَّةٍ نَّبِيَّةٌ فِي مَلْعَبٍ مِّنْ عَدَارِي الْخَيِّ مَفْصُومٌ ولما كان الكفر بالطاغوت والإيمان بالله مما ينطق به اللسان ويعتقده القلب حُسن في الصفات ﴿عَلِيمٌ﴾ من أجل النطق و﴿عَلِيمٌ﴾ من أجل المعتقد.

تفسير قوله عز وجل:

الولي: فاعيل من ولي الشيء إذا جاوره ولزمه، فإذا لازم أحد أحداً بنصره ووده واهتباله فهو وليه، هذا عرفه في اللغة. قال قتادة: «الظُّلُمَاتِ» الضلالة و﴿النُّورِ﴾ الهدى، وبمعناه قال الضحاك، والربيع. وقال مجاهد، وعبيدة بن أبي لبابة: إن قوله: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا» الآية - نزلت في قوم آمنوا بعيسى، فلما جاء محمد عليه السلام

لأن كل واحد منها له طغيان، والشیطان أصل ذلك كله. وقال قوم: الطاغوت: الأصنام. وقال بعض العلماء: كل ما عُبد من دون الله فهو طاغوت، وهذه تسمية صحيحة في كل معبود يرضى ذلك كفرعون ونمرود ونحوه، وأما من يرضى ذلك كعزير وعيسى عليهما السلام، ومن لا يعقل كالأوثان فسميت طاغوتاً في حق العبيدة، وذلك مجاز، إذ هي بسبب الطاغوت الذي يأمر بذلك ويحسنه وهو الشيطان.

وقدم تعالى ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ليظهر الاهتمام بوجود الكفر بالطاغوت.

والعروة في الأجرام هي موضع الإمساك وشد الأيدي، و﴿أَسْتَسْكَ﴾ معناه قبض وشد يديه،

جمهور المفسرين، وقال المهدي:
يحتمل أن يعود الضمير على إبراهيم
﴿أَنَّ آتَانَهُ﴾ ملك النسبة، وهذا
تحامل من التأويل.

وقرأ جمهور القراء: ﴿أَنَّ أُخِيَّ﴾
بطرح الألف التي بعد النون من
﴿أَنَا﴾ إذا وصلوا في كل القرآن غير
نافع، فإن وزشأ، وابن أبي أويس،
وقالون رأوا إبتاتها في الوصل إذا
لقبتها همزة في كل القرآن مثل:
﴿أَنَا أُخِيَّ﴾ ﴿أَنَا أُخْرَكَ﴾ إلا فسي
قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ﴾ فإنه
يطرحها في هذا الموضع مثل سائر
القراء، وتابع أصحابه في حذفها
عند غير همزة. قال أبو علي:
ضمير المتكلم الاسم فيه الهمزة
والنون، ثم إن الألف تلحق في
الوقف كما تلحق الهاء أحياناً في
الوقف، فإذا اتصلت الكلمة التي
هي فيها بشيء سقطت الهاء،
فكذلك هذه الألف، وهي مثل ألف
حيهلا وهذا مثل الألف التي تلحق
في القوافي، فتأمل. قال أبو علي
فإذا اتصلت الكلمة بشيء سقطت
الألف لأن الشيء الذي تتصل به
الكلمة يقوم مقام الألف، وقد
جاءت الألف مثبتة في الوصل في
الشعر - من ذلك قول الشاعر:

أَنَا شَيْخُ الْعَشِيرَةِ فَاغْرِ قُونِي
حَبِيداً قَدْ تَذَرَيْتُ السُّنَامَا
وقرأ الجمهور: ﴿فَبَهْتَ الَّذِي﴾
بضم الباء وكسر الهاء، يقال: بهت
الرجل إذا انقطع وقامت عليه
الحجة، قال ابن سيدة: ويقال في
هذا المعنى: بهت بفتح الباء وكسر

أخي. وأُيِّتُ ﴿أَحْضَرَ رَجُلَيْنِ فَحَتْلُ
أحدهما، وأرسل الآخر، وقال: قد
أحييت هذا، وأمث هذا، فلما رد
عليه بأمر الشمس بهت.

والرواية الأخرى: ذكر السدي أنه
لما خرج إبراهيم من النار أدخلوه
على المَلِكِ، ولم يكن قبل ذلك
دخل عليه، فكلمه، وقال له:
مَنْ رِيكَ؟ قال: ﴿رَبِّي الَّذِي يُخِيَّ-
وَيُيِّتُ﴾، قال نمرود: ﴿أَنَا أُخِيَّ-
وَأُيِّتُ﴾ أنا أخذ أربعة نفر فأدخلهم
بيتاً، ولا يطعمون شيئاً، ولا يسقون
حتى إذا جاعوا أخرجتهم فأطعمت
اثنين فحسبوا، وتركت اثنين
فماتا، فعارضه إبراهيم بالشمس
فبهت.

وذكر الأصوليون في هذه الآية أن
إبراهيم عليه السلام وصف ربه تعالى
بما هو صفة له من الإحياء والإماتة
لكنه أمر له حقيقة ومجاز - قصد
إبراهيم عليه السلام الحقيقة، ففرغ
نمرود إلى المجاز، وموّه به على
قومه، فسلم له إبراهيم تسليم
الجدل، وانتقل معه من المثال وجاءه
بأمر لا مجاز فيه، فبهت الذي كفر
ولم يمكنه أن يقول: أنا الآتي بها
من المشرق، لأن ذوي الأسنان
يكذبونه.

وقوله: ﴿حَاجَّ﴾، وزنه فاعل، من
الحجة، أي جاز به إياها، والضمير
في ﴿رَبِّيَّ﴾ يحتمل أن يعود على
إبراهيم عليه السلام، ويحتمل أن
يعود على الذي حاج، و﴿أَنَّ﴾
مفعول من أجله، والضمير في
﴿آتَانَهُ﴾ للنمرود، وهذا قول

صاحب الصرح ببابل، وقيل: إنه
ملك الدنيا بأجمعها ونفذت فيها
طينته، وهو أحد الكافرين،
والآخر بخت نصر، وقيل: إن الذي
حاج إبراهيم نمرود بن فالخ بن
عابر بن شالغ بن أرفخشذ بن
سام بن نوح.

وفي قصص هذه المحاجة روايتان:
إحدهما: ذكر زيد بن أسلم أن
النمرود هذا تعد يأمر للناس بالميرة
فكلما جاء قوم قال: مَنْ رِيكُمْ
وإلهكم؟ فيقولون: أنت. فيقول:
ميروهم، وجاء إبراهيم عليه السلام
يعتار، فقال له: مَنْ رِيكَ وَإِلَهَكَ؟
قال إبراهيم: ﴿رَبِّي الَّذِي يُخِيَّ-
وَيُيِّتُ﴾ فلما سمعها نمرود قال:
﴿أَنَا أُخِيَّ- وَأُيِّتُ﴾، فعارضه إبراهيم
بأمر الشمس فبهت الذي كفر،
وقال: لا تميروه، فرجع إبراهيم إلى
أهله دون شيء، فمر على كتيب من
رمل كالديق فقال: لو ملأت
غرارتي من هذا فإذا دخلت به فرح
الصبيان حتى أنظر لهما، فذهب
بذلك فلما بلغ منزله فرح الصبيان
وجعلا يلعبان فوق الغرارتين، ونام
هو من الإعياء، فقالت امرأته: لو
صنعت له طعاماً يجده حاضراً إذا
انتبه، ففتحت إحدى الغرارتين
فوجدت أحسن ما يكون من
الخَوَازِي فخبزته، فلما قام وضعت
بين يديه، فقال: من أين هذا؟
فقالت: من الدقيق الذي سقت،
فعلم إبراهيم أن الله تعالى يسر لهم
ذلك.

وقال الربيع، وغيره في هذا
القصص: إن النمرود لما قال: ﴿أَنَا

الهَاءِ، وَبُهِتَ بفتح الباءِ وضم الهاءِ. قال الطبري: وَحُكِيَ عن بعض العرب في هذا المعنى: بَهَتْ بفتح الباءِ والهَاءِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا ضبطت اللفظة في نسخة ابن ملول دون تقييد بفتح الباءِ والهَاءِ. قال ابن جنى: قرأ أبو حيوة: «فَبِهَتْ» بفتح الباءِ وضم الهاءِ، وهي لغة في بهت بكسر الهاءِ. قال: وقرأ ابن السميع: «فَبِهَتْ» بفتح الباءِ والهَاءِ على معنى فَبِهَتْ إبراهيم الذي كفر، فالذي في موضع نصب، قال: وقد يجوز أن يكون بَهَتْ بفتحهما لغة في بَهَتْ قال: وحكى أبو الحسن الأفش قراءة «فَبِهَتْ» بكسر الهاءِ كَحَرِقَ وَذَهَيْشَ قال: والأكثر بالضم في الهاءِ، قال ابن جنى: يعني أن الضم يكون للمبالغة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تأول قوم في قراءة من قرأ: «فَبِهَتْ» بفتحهما أنه بمعنى سب وقذف، وأن نمروداً هو الذي سب إبراهيم حين انقطع ولم تكن له حيلة.

وقوله تعالى: «وَأَلَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» إخبار لمحمد عليه السلام وأُمَّته، والمعنى لا يرشدهم في حججهم على ظلمهم، لأنه لا هدى في الظلم. فظاهره العموم، ومعناه الخصوص كما ذكرنا لأن الله قد يهدي الظالمين بالتوبة والرجوع إلى الإيمان، ويحتمل أن يكون الخصوص فيمن يوافي ظالماً.

﴿تفسير قوله عز وجل:

عطف ﴿أَذْ﴾ في هذه الآية على المعنى، لأن مقصد التعجيب في قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ حَاجَّكَ» يقتضي المعنى: أَرَأَيْتَ كالذي حاج؟ ثم جاء قوله: «أَوْ كَالَّذِي عَطَفَا على ذلك المعنى.

وقرأ أبو سفيان بن حسين: «أَوْ كَالَّذِي مَرَّ» بفتح الواو وهي واو عطف دخل عليها ألف التقرير. قال سليمان بن بريدة، وناجية ابن كعب، وقتادة، وابن عباس، والربيع، وعكرمة، والضحاك: الذي مر على القرية هو عزيز، قال وهب بن منبه وعبدالله بن عبيد بن عمير، ويكر بن مضر: هو أرمياء. وقال ابن إسحاق: أرمياء هو الخضر، وحكاه النقاش عن وهب بن منبه، وهذا كما تراه، إلا أن يكون اسماً وافق اسماً، لأن الخضر معاصر لموسى، وهذا الذي مر على القرية هو بعده بزمان من سبط هارون فيما روى وهب بن منبه. وحكى مكى عن مجاهد أنه رجل من بني إسرائيل غير مسمى، قال النقاش: ويقال: هو غلام لوط عليه السلام، واختلف في القرية أيما هي؟ فحكى النقاش أن قوماً قالوا: هي المؤتفكة. وقال ابن زيد: إن القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم أُلوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا مَرَّ عليهم رجل وهم عظام تلوح فوق ينظر فقال: أنى يحيي هذه الله بعد موتها؟ فأَمَاتَهُ اللهُ مائة عام ثم بعثه، وترجم الطبري على هذا القصص بأنه قولٌ بأن القرية التي

مر عليها هي التي أهلك الله فيها الذين خرجوا من ديارهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول ابن زيد لا يلائم الترجمة لأن الإشارة بهذه على مقتضى الترجمة هي إلى المكان، وعلى نفس القول هي إلى العظام والأجساد، وهذا القول من ابن زيد مناقض لألفاظ الآية، إذ الآية إنما تضمنت قرية خاوية لا أنيس فيها، والإشارة بهذه إنما هي إلى القرية، وإحيائها إنما هو بالعمارة ووجود البناء والسكان. وقال وهب بن منبه، وقتادة، والضحاك، وعكرمة، والربيع: القرية بيت المقدس لما خربها بخت نصر البابلي، وفي الحديث الطويل حين أحدثت بنو إسرائيل الأحداث وقف أرمياء أو عزيز على القرية وهي كاتل العظيم وسط بيت المقدس، لأن بخت نصر أمر جنده بنقل التراب إليه حتى جعله كالجبل، ورأى أرمياء البيوت قد سقطت حيطانها على سقفها، والعريش سقف البيت، وكل ما يهبط لظل أو يكن فهو عريش، ومنه عريش الدالية والشمار، ومنه قوله تعالى: ﴿رَبِّمَآ بَعْرِشُونَ﴾.

قال السدي: يقول: هي ساقطة على سقفها، أي سقطت السقف ثم سقطت الحيطان عليها. قال غير السدي: معناه خاوية من الناس على العروش، أي على البيوت، وسقفها عليها لكنها خوت من الناس، والبيوت قائمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وانظر استعمال العريش مع علي في الحديث في قوله: (وكان المسجد يومئذ على عريش في أمر ليلة القدر).

و﴿حَاوِيَةً﴾ معناه: خالية، يقال: خوت الدار تخوى خواءً، ويقال: خَوَيْتُ، قال الطبري: والأول أفصح.

وقوله: ﴿أَنَّ يُتِي. هَذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ معناه: من أي طريق؟ وبأي سبب؟ وظاهر اللفظ السؤال عن إحياء القرية بعمارة وسكان كما قال الآن في المدن الخربة التي يبعد أن تعمر وتسكن، فكأن هذا تلهف من الواقف المعبر على مدينته التي عهد فيها أهله وأحبته، وضرب له المثل في نفسه بما هو أعظم مما سأل عنه، والمثل الذي ضرب له في نفسه يحتمل أن يكون على أن سؤاله إنما كان عن إحياء الموتى من بني آدم، أي: أنى يحيي هذه الله موتاهم.

وقد حكى الطبري عن بعضهم أنه قال: كان هذا القول شكاً في قدرة الله على الإحياء فلذلك ضرب له المثل في نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس يدخل شك في قدرة الله على إحياء قرية بجلب العمارة إليها، وإنما يتصور الشك من جاهل في الوجه الآخر والصواب ألا يتأول في الآية شك.

وروي في قصص هذه الآية أن بني إسرائيل لما أحدثوا الأحداث بعث الله عليهم بخت نصر البابلي فقتلهم وجلاهم من بيت المقدس

فخره، فلما ذهب عنه جاء أرمياء فوقف على المدينة معتبراً فقال: ﴿أَنَّ يُتِي. هَذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾، قال: فأماته الله تعالى، وكان معه حمار قد ربطه بحبل جديد، وكان معه سلة فيها تين، وهو طعامه، وقيل: تين وعنب، وكان معه ركوة من خمر، وقيل: من عصير، وقيل: قلة ماء هي شرابه، وبقي مئتا مائة عام قُرُوي أنه بلي وتفرقت عظامه هو وحماره، وُرُوي أنه بلي دون الحمار، وأن الحمار بقي حياً مربوطاً لم يموت ولا أكل شيئاً ولا بليت رتمه، وُرُوي أن الحمار بلي وتفرقت أوصاله دون عزيز، وُرُوي أن الله بعث إلى تلك القرية من عمرها ورد إليها جماعة بني إسرائيل حتى كملت على رأس مائة سنة، وحينئذ حيي عزيز، وُرُوي أن الله رد عليه عينيه وخلق له حياة يرى بها كيف تعمر القرية وتُخيا مدة من ثلاثين سنة تكملة المائة، لأنه بقي سبعين مئتا كلة، وهذا ضعيف ترد عليه ألفاظ الآية.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا﴾، معناه: أحياء، وجعل له الحركة والانتقال فسأله الله تعالى بواسطة الملك: ﴿كَمْ لَيْتُ﴾؟ على جهة التقرير، و﴿كَمْ﴾ في موضع نصب على الظرف فقال: ﴿لَيْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، قال ابن جريج، وقتادة، والربيع: أماته الله غدوة يوم، ثم بعث قبل الغروب فظن هذا اليوم واحداً فقال: لبتت يوماً، ثم رأى بقية من الشمس فخشي أن يكون كاذباً فقال: ﴿أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ فقيل

له: ﴿لَيْتُ مِائَةَ عَامٍ﴾ - ورأى من عمارة القرية وأشجارها ومبانيها ما دلّه على ذلك. قال النقاش: العام مصدر كالعوم، سمي به هذا القدر من الزمان، لأنها عومة من الشمس في الفلك، والعوم كالسبح وقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ فِي فَكِّ يَسْبَحُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا معنى كلام النقاش، والعام على هذا كالكقول، والقال، وظاهر هذه الإمامة أنها بإخراج الروح من الجسد. وُرُوي في قصص هذه الآية أن الله بعث لها ملكاً من الملوك يعمرها ويجد في ذلك حتى كان كمال عمارتها عند بعث الله القائل: ﴿أَنَّ يُتِي. هَذَا اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾.

وقرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع: ﴿لَيْتُ﴾ في كل القرآن بإظهار الشاء، وذلك لتباين مخرج الشاء من مخرج التاء، وذلك أن الطاء والتاء والذال من حيز، والظاء والذال والشاء من حيز. وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحزمة، والكسائي بالإدغام في كل القرآن، أجزوهما مجرى المثليين من حيث اتفق الحرفان في أنهما من طرف اللسان وأصول الثنايا، وفي أنهما مهموسان قال أبو علي: وَيَقْوَى ذلك وقوْع هذين الحرفين في رُوِي قصيدة واحدة.

﴿تفسير قوله عز وجل:﴾

وقف في هذه الألفاظ على بقاء طعامه وشرابه على حاله لم يتغير، وعلى بقاء حماره حياً على مربطه هذا على أحد التأويلين، وعلى التأويل الثاني وقف على الحمار

كيف يُخيا وتجتمع عظامه، وقرأ ابن مسعود: ﴿وهذا طعامك وشرابك لم يتسنه﴾، وقرأ طلحة بن مصرف، وغيره: ﴿وانظر إلى طعامك وشرابك المائة سنة﴾.

قال أبو علي: واختلفوا في إثبات الهاء في الفعل من قوله عز وجل: ﴿لَمْ يَسَنَّهْ﴾ - ﴿أَفْتَدَهُ﴾، و﴿مَّا أَغْنَىٰ عَنِّي مَالِي﴾، و﴿سُلْطَانِيَّة﴾، و﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ وإسقاطها في الوصل - لم يختلفوا في إثباتها في الوقف - فقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: هذه الحروف كلها بإثبات الهاء في الوصل، وكان حمزة يحذفهن في الوصل، وكان الكسائي يحذفها في ﴿يَسَنَّهْ﴾ و﴿أَفْتَدَهُ﴾ ويثبتها في الباقي، ولم يختلفوا في ﴿جَسَّيَّة﴾ و﴿كَيْبِيَّة﴾ أنهما بالهاء في الوقف والوصل.

و﴿يَسَنَّهْ﴾ يحتمل أن يكون من تسنى الشيء إذا تغير وفسد، ومنه «الحما المسنون» في قول بعضهم، وقال الزجاج: ليس منه، وإنما المسنون: المصوب على سنن الأرض، فإذا كان من (تَسَّنَّ) فهو: (لم يَسَنَّ)، قلبت النون ياء كما فعل في (تَطَلَّثْتُ) حتى قلت: (لم أتظن) فيجزي تَسَّنَّ: تَسَّنَى، ثم تحذف الياء للجزم فيجزي المضارع: (لم يَسَنَّ). ومن قرأها بالهاء على هذا القول فهي هاء السكت، وعلى هذا يحسن حذفها في الوصل.

ويحتمل ﴿يَسَنَّهْ﴾ أن يكون من السنة وهو الجذب والقحط وما

أشبهه، يُسْمُوته بذلك، وقد اشتق منه فعل فقييل: (استنوا)، وإذا كان هذا أو من السنة التي هي العام على قول من يجمعها سنوات فعلى هذا أيضاً إنها هاء السكت، والمعنى: لم تغير طعامك القحوط والجذب ونحوه، أو لم تغيره السنون والأعوام.

وأما من قال في تصغير السنة: سُنِّيَّة، وفي الجمع: سَنَهَات، وقال: أَسَنَّهُت عند بني فلان - وهي لغة الحجاز - ومنها قول الشاعر:

وَأَسَنَّتْ بِسَنَهَاءِ وَلَا رُجِيْبِيَّةَ
ولكن عرابيا في السنين الجوائح
فإن القراءة على هذه اللغة هي بإثبات الهاء ولا بُد، وهي لام الفعل، وفيها ظهر الجزم بَلَمْ، وعلى هذا هي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، وقد ذُكر. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿لَمْ يَسَنَّهْ﴾ على الإدغام.

وقال النقاش: ﴿لَمْ يَسَنَّهْ﴾ معناه: لم يتغير، من قوله تعالى: ﴿مِنْ مَاءٍ عَذْبٍ غَيْرِ مَائِينَ﴾، ورد النحاة على هذا القول لأنه لو كان من: أسن الماء لجاء ﴿لَمْ يَتَأَسَّنْ﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَىٰ جَمْرِكَ﴾ فقال وهب بن منبه، وغيره: المعنى: وانظر إلى اتصال عظامه وإحيائه جزءا جزءا، ويروى أنه أحياء الله كذلك حتى صار عظاما ملتصمة، ثم كساه لحما حتى كمل حمارا، ثم جاء ملك فنفخ في أنفه الروح فقام الحمار ينهق، وروى عن الضحاك، وهب بن منبه أيضاً أنهما قالا: بل قيل له: وانظر إلى حمارك

قائما في مربطه لم يصبه شيء مائة سنة. قالا: وإنما العظام التي نظر إليها عظام نفسه، قالا: وأعمى الله العيون عن أرميائه وحمارة هذه المدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكثر أهل القصص في صورة هذه النازلة تكثيراً اختصرته لعدم صحته.

وقوله تعالى: ﴿وَلِتَجْمَلَ كَأَكَّةَ لِلنَّاسِ﴾ معناه: لهذا المقصد من أن تكون آية فعلنا بك هذا، وقال الأعمش: موضع كونه آية هو أنه جاء شاباً على حاله يوم مات فوجد الأبناء والحفدة شيوخاً، وقال عكرمة: جاء وهو ابن أربعين سنة كما كان يوم مات ووجد بنيه قد نيفوا على مائة سنة، وقال غير الأعمش: بل موضع كونه آية أنه جاء وقد هلك كل من يعرف فكان آية لمن كان حياً من قومه إذ كانوا مؤمنين بحاله سمعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي إمامته هذه المدة ثم إحيائه أعظم آية، وأمره كله آية للناس غابر الدهر لا يحتاج إلى تخصيص بعض ذلك دون بعض.

وأما العظام التي أمر بالنظر إليها فقد ذكرنا من قال: هي عظام نفسه، ومن قال: هي عظام الحمار - وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿تُنَشِّرُهَا﴾ بضم النون الأولى وبالراء، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿تُنَشِّرُهَا﴾ بالزاي، وروى أبان عن عاصم: ﴿تُنَشِّرُهَا﴾ بفتح النون الأولى، وضم الشين، وبالراء، وقرأها كذلك

الحسن، وابن عباس، وأبو حيوة، فمن قرأ: ﴿تُنشَرُهَا﴾ بضم النون الأولى وبالراء فمعناه: نُحْيِيهَا - يقال: أنشَر الله الموتى، قال الله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا سَاءَ أَنْشَرَهُ﴾، وقال الأعشى:

يَا عَجِبًا لِلْمَيِّتِ النَّاشِرِ
وقراءة عاصم ﴿تُنشَرُهَا﴾ بفتح النون الأولى وضم الشين يحتمل أن يكون لغة في الإحياء، يقال: نشرت الميت وأنشرتَه فيجيء: نَشَرَ المَيِّتُ ونشرتَه، كما يقال: حسرت الدابة وحسرتها، وغاض الماء وغضته، ورجع زيد وَرَجَعْتَهُ، ويحتمل أن يراد بها ضد الطي كأن الموت طي للعظام والأعضاء، وكان الإحياء وجمع بعضها إلى بعض نشر - وأما من قرأ: ﴿تُنشِرُهَا﴾ بالزاي فمعناه: نرفعها، والنشز المرتفع من الأرض، ومنه قول الشاعر:

ترى الثَّغْلَبَ الحَوْلِيَّ فيها كأنه
إذا ما علا نَشَزًا جِصَانًا مُجَلَّلًا
قال أبو علي وغيره: فتقديره: ننشزها برفع بعضها إلى بعض للإحياء، ومنه نشوز المرأة، وقال الأعشى:

فُضَاعِيَّةٌ تَأْتِي الْكَوَاهِنَ نَاشِرًا
يقال: نشز وأنشزته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقلق عندي أن يكون معنى النشوز رفع العظام بعضها إلى بعض، وإنما النشوز الارتفاع قليلاً قليلاً، فكانه وقف على نبات العظام الرفات وخروج ما يوجد منها عند الاختراع.

وقال النقاش: تُنَشِرُهَا معناه: تُنَشِئُهَا، وانظر استعمال العرب تجده على ما ذكرت لك، من ذلك: نشز ناب البعير، والنشز من الأرض على التشبيه بذلك. ونشزت المرأة كأنها فارقت الحال التي ينبغي أن تكون عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فانشُرُوا﴾ أي ارتفعوا شيئاً فشيئاً كنشوز الناب، فبذلك تكون التوسعة، فكأن النشوز ضرب من الارتفاع، ويبعد في الاستعمال أن يقال لمن ارتفع في حائط أو غرفة: نشز. وقرأ النخعي: ﴿تُنشِرُهَا﴾ بفتح النون وضم الشين والزاي، ورؤي ذلك عن ابن عباس، وقتادة، وقرأ أبي بن كعب: ﴿كيف تُنشِئُهَا﴾ بالياء.

والكسوة: ما وارى من الشياب، وشبه اللحم بها، وقد استعاره النابغة للإسلام فقال:

الْحَمْدُ لِلَّهِ إِذْ لَمْ يَأْتِنِي أَجْلِي
حَتَّى أَكْتَسَيْتُ مِنَ الْإِسْلَامِ سَرْبَالًا
ويروى أنه كان يرى اللحم والعصب والعروق كيف تلتئم وتتواصل، وقال الطبري: المعنى في قوله: ﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَكَ﴾ أي: لما اتضح له عياناً ما كان مستنكراً في قدرة الله عنده قبل عيانه ﴿قَالَ اعْلَمُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ لأنه ألزم ما لا يقتضيه اللفظ، وفسر على القول الشاذ والاحتمال الضعيف. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿اعْلَمُ﴾

مقطوعة الألف مضمومة الميم، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَالَ اعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ﴾ موصولة الألف ساكنة الميم، وقرأها أبو رجاء.

وقرأ عبدالله بن مسعود، والأعمش: ﴿قِيلَ اعْلَمُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما هذه فبينة المعنى، أي قال الملك له - والأولى بينة المعنى، أي قال هو: أنا ﴿اعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَّ كُنِّي شَيْءٌ قَدِيرٌ﴾، وهذا عندي ليس بإقرار بما كان قبل ينكره كما زعم الطبري، بل هو قول بعثه الاعتبار، كما يقول الإنسان المؤمن إذا رأى شيئاً غريباً من قدرة الله: ﴿لا إله إلا الله﴾ ونحو هذا. وقال أبو علي: معناه: أعلمُ هذا الضرب من العلم الذي لم أكن علمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني علم المعاينة.

وأما قراءة حمزة، والكسائي فتحتمل وجهين - أحدهما: قال الملك له: اعلم، والآخر أن ينزل نفسه منزلة المخاطب الأجنبي المنفصل، فالمعنى: فلما تبين له قال لنفسه: اعلم، وأنشد أبو علي - في مثل هذا - قول الأعشى:

وَدَّعْ هُرَيْرَةَ إِنَّ الرُّكْبَ مُرْتَجِلٌ
.....

وقوله:

أَلَمْ تَعْتَمَضْ عَيْنَاكَ لَيْلَةَ أَرَمَدَا؟
.....

وأمثلة هذا كثيرة. وتأنس أبو علي في هذا المعنى بقول الشاعر:

تَذَكَّرَ مِنْ أُنَى وَمِنْ أَيْنَ شُرْبِهِ
يُؤَامِرُ نَفْسِيهِ كَذِي الهَجْمَةِ الأَيْلُ

وليست مظنة ذلك، ويجوز أن يقول: هي أرجى آية لقوله: ﴿أَوَلَمْ تَوْتِنَ﴾ أي أن الإيمان كاف لا يحتاج بعده إلى تنقيح وبحث، وأما قول عطاء بن أبي رباح: «دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس» فمعناه من حب المعايينة، وذلك أن النفوس مستشرقة إلى رؤية ما أُخبرت به، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «ليس الخبر كالمعاينة»، وأما قول النبي عليه الصلاة والسلام: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» فمعناه أنه لو كان شكنا نحن أحق به، ونحن لا نشك، فإبراهيم عليه السلام أحرى ألا يشك، فالحديث مبني على نفي الشك عن إبراهيم. والذي روي فيه عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ذلك محض الإيمان» إنما هو في الخواطر الجارية التي لا تثبت، وأما الشك فهو توقف بين أمرين لا مزية لأحدهما على الآخر، وذلك هو المنفي عن الخليل عليه السلام.

وقال ابن زيد: رأى الدابة تنقسمها السباع والحيتان لأنها كانت على حاشية البحر. وقال ابن إسحاق: بل سببها أنه لما فارق النمرود وقد قال له: أنا أحيي وأميت فكر في تلك الحقيقة والمجاز فسأل هذا السؤال. وقال السدي، وسعيد بن جبير: بل سبب هذا السؤال أنه لما بشر بأن الله اتخذه خليلاً أراد أن يدل بهذا السؤال ليحرج صحة الخلة، فإن الخليل يدل بما لا يدل به غيره، وقال سعيد بن جبير: «ولكن يطمئن قلبي» يريد بالخلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما ترجم به الطبري عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة متأول، فأما قول ابن عباس: «هي أرجى آية» فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى - وسؤال الإحياء في الدنيا

وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴿١٦٦﴾ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنثنت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴿١٦٧﴾ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُستوعون ما أنفقوا منها ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١٦٨﴾ قول معروف ومغيرة حزين صدقة يتبعها أذى والله عنى حليم ﴿١٦٩﴾ يتأبها الذين آمنوا لا ينظروا صدقتكم باليمن والأذى كالأذى ينفق ما له رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمسله كمثل صفوان عليه ثواب فأصابه، وأبل فتركه صالداً لا يقديرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴿١٧٠﴾

وقال ابن زيد: رأى الدابة تنقسمها السباع والحيتان لأنها كانت على حاشية البحر. وقال ابن إسحاق: بل سببها أنه لما فارق النمرود وقد قال له: أنا أحيي وأميت فكر في تلك الحقيقة والمجاز فسأل هذا السؤال. وقال السدي، وسعيد بن جبير: بل سبب هذا السؤال أنه لما بشر بأن الله اتخذه خليلاً أراد أن يدل بهذا السؤال ليحرج صحة الخلة، فإن الخليل يدل بما لا يدل به غيره، وقال سعيد بن جبير: «ولكن يطمئن قلبي» يريد بالخلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما ترجم به الطبري عندي مردود، وما أدخل تحت الترجمة متأول، فأما قول ابن عباس: «هي أرجى آية» فمن حيث فيها الإدلال على الله تعالى - وسؤال الإحياء في الدنيا

وقال ابن زيد: رأى الدابة تنقسمها السباع والحيتان لأنها كانت على حاشية البحر. وقال ابن إسحاق: بل سببها أنه لما فارق النمرود وقد قال له: أنا أحيي وأميت فكر في تلك الحقيقة والمجاز فسأل هذا السؤال. وقال السدي، وسعيد بن جبير: بل سبب هذا السؤال أنه لما بشر بأن الله اتخذه خليلاً أراد أن يدل بهذا السؤال ليحرج صحة الخلة، فإن الخليل يدل بما لا يدل به غيره، وقال سعيد بن جبير: «ولكن يطمئن قلبي» يريد بالخلة.

وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعياً واعلم أن الله عزيز حكيم ﴿١٦٦﴾ مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنثنت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴿١٦٧﴾ الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يُستوعون ما أنفقوا منها ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴿١٦٨﴾ قول معروف ومغيرة حزين صدقة يتبعها أذى والله عنى حليم ﴿١٦٩﴾ يتأبها الذين آمنوا لا ينظروا صدقتكم باليمن والأذى كالأذى ينفق ما له رياء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمسله كمثل صفوان عليه ثواب فأصابه، وأبل فتركه صالداً لا يقديرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين ﴿١٧٠﴾

تفسير قوله عز وجل:

العامل في ﴿وإذ﴾ فعل مضمّر تقديره: واذكر. واختلف الناس لم صدرت هذه المقالة عن إبراهيم عليه السلام؟ - فقال الجمهور: إن إبراهيم عليه السلام لم يكن شاكاً في إحياء الله الموتى قط، وإنما طلب المعايينة، وترجم الطبري في تفسيره فقال: وقال آخرون: سأل ذلك ربه لأنه شك في قدرة الله على إحياء الموتى، وأدخل تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: «ما في القرآن آية أرجى عندي منها»، وذكر عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: «دخل قلب إبراهيم بعض ما يدخل قلوب الناس فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾»، وذكر حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «نحن أحق بالشك من إبراهيم» (الحديث)، ثم

قولك: كيف علم زيد؟ وكيف نسج الشوب؟ ونحو هذا - ومتى قلت: كيف ثوبك؟ وكيف زيد؟ فإنما السؤال عن حال من أحواله، وقد تكون ﴿كَيْفَ﴾ خبراً عن شيء شأنه أن يُستفهم عنه بكيف نحو قولك: كيف شئت فكن، ونحو قول البخاري: كيف كان بدء الوحي.

و﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية إنما هي استفهام عن هيئة الإحياء، والإحياء متقرر ولكن لما وجدنا بعض المنكرين لوجود شيء قد يعبر عن إنكاره بالاستفهام عن حالة لذلك الشيء يعلم أنها لا تصلح، فيلزم من ذلك أن الشيء في نفسه لا يصح، مثال ذلك: أن يقول مدع: أنا أرفع هذا الجبل. فيقول له المكذب: أرني كيف ترفعه. فهذه طريقة مجاز في العبارة، ومعناها تسليم جدلي، كأنه يقول: افرض أنك ترفعه، أرني كيف؟ فلما كان في عبارة الخليل عليه السلام هذا الاشتراك المجازي خلع الله له ذلك، وحمله على أن يبين الحقيقة فقال له: ﴿أَرَأَيْتَ تَوَّيْنٌ قَالَ بَلَىٰ﴾ فكملة الأمر، وتخلص من كل شك، ثم علل عليه السلام سؤاله بالطمأنينة.

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ تَوَّيْنٌ﴾ معناه: إيماناً مطلقاً، دخل فيه فعل إحياء الموتى، والواو واو حال دخلت عليها ألف التقرير.

و﴿يَطْمَئِنُّنَّ﴾ معناه: ليسكن عن فكره، والطمأنينة اعتدال وسكون على ذلك الاعتدال، فطمأنينة الأعضاء معروفة كما قال عليه السلام: «ثم اركع حتى تطمئن

راكعاً الحديث، وطمأنينة القلب هي أن يسكن فكره في الشيء المعتمد. والفكر في صورة الإحياء غير محظور، كما لنا نحن اليوم أن نفكر فيها بل هي فكر فيها عبر، فأراد الخليل أن يعاين فتذهب فكره في صورة الإحياء إذ حركه إلى ذلك إما أمر الدابة المأكولة، وإما قول النمرود: ﴿أَنَا أَنبِيٌّ وَرَأَيْتَ﴾، وقال الطبري: معنى ليطمئن: ليقن، وحكى نحو ذلك عن سعيد بن جبير، وحكي عنه: ليزداد يقيناً، وقاله إبراهيم، وقتادة، وقال بعضهم: لأزداد إيماناً مع إيماني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا زيادة في هذا المعنى تُمكن إلا السكون عن الفكر وإلا فاليقين لا يتبعض. وروى أن الأربعة التي أخذ إبراهيم هي الديك والطاوس والحمام والغراب، ذكر ذلك ابن إسحاق عن بعض أهل العلم الأول، وقاله مجاهد، وابن جريج، وابن زيد، وقال ابن عباس: مكان الغراب الكركي. وروى في قصص هذه الآية أن الخليل عليه السلام أخذ هذه الطير حسبما أمر، ودكأها ثم قطعها قطعاً صغاراً، وجمع ذلك مع الدم والريش، ثم جعل من ذلك المجموع المختلط جزءاً على كل جبل، ووقف هو من حيث يرى تلك الأجزاء وأمسك رؤوس الطير في يده، ثم قال: تعالين بإذن الله، فتطايرت تلك الأجزاء، وطار الدم إلى الدم، والريش إلى الريش حتى التأمت كما كانت أولاً وبقيت بلا رؤوس، ثم كرر النداء، فجاءته سعيّاً

حتى وضعت أجسادها في رؤوسها، وطارت بإذن الله تعالى.

وقرأ حمزة وحده: ﴿فَصِرْهُنَّ إِيَّاكَ﴾ بكسر الصاد، وقرأ الباقون بضمها، ويقال: صرت الشيء أسوره بمعنى قطعته، ومنه قول رؤبة:

صُرْنَا بِهِ الْحُكْمَ وَأَعْيَا الْحَكْمَا

ومنه قول الخنساء:

فَلَوْ يُلَاقِي الَّذِي لَأَقْبِيتهُ حَضَنٌ
لَظَلَّتِ الشَّمُّ مِنْهُ وَهِيَ تَنْصَارُ
أَي: تنقطع، ويقال أيضاً: صرت الشيء بمعنى أملتُهُ، ومنه قول الشاعر:

يَصُورُ عَنُوقَهَا أَحْرَى زَنِيمٍ
لَهُ صَخَبٌ كَمَا صَخَبَ الْقَرِيمُ
ومنه قول الأعرابي في صفة نساء: «هُنَّ إِلَى الصَّبَا صُورٌ وَعَنْ الْحَنَّا نُورٌ» فهذا كله في ضم الصاد. ويقال أيضاً في هذين المعنيين «القطع والإمالة»: صِرْتُ الشيء بكسر الصاد أصيره، ومنه قول الشاعر:

وَفَرَعٌ يَصِيرُ الْجِيدَ وَحَفٌّ كَأَنَّهُ
عَلَى اللَّيْلِ قَنَوَانُ الْكُرُومِ الدَّوَالِخِ
ففي اللفظة لغتان قرىء بهما.

وقد قال ابن عباس، ومجاهد في هذه الآية: «صُرْهُنَّ» معناه: قطعهن، وقال عكرمة، وابن عباس - في بعض ما روي عنه - إنها لفظة بالنبطية معناها: قطعهن، وقاله الضحاك، وقال أبو الأسود الدؤلي: هي بالسريانية، وقال قتادة: صُرهن: فصلهن، وقال ابن إسحاق: معناه: قطعهن، وهو

الصور في كلام العرب، وقال عطاء بن أبي رباح: فصرهن معناه: اضمُنهن إليك، وقال ابن زيد: معناه: اجمعهن، وروي عن ابن عباس معناه: أوثقهن، فقد تأول المفسرون اللفظة بمعنى التقطيع، وبمعنى الإمالة، فقوله: ﴿إِلَيْكَ﴾ على تأويل التقطيع متعلق بـ ﴿خُذْ﴾ وعلى تأويل الإمالة والضم متعلق بـ ﴿صُرُّهُنَّ﴾، وفي الكلام متروك يدل عليه الظاهر تقديره: فألمهن إليك وقطعهن، وقرأ قوم: ﴿فَصُرُّهُنَّ﴾ بضم الصاد وشد الراء المفتوحة، كأنه يقول: فشدهن، ومنه صُرَّة الدنانير.

وقرأ قوم: ﴿فَصُرُّهُنَّ﴾ بكسر الصاد وشد الراء المفتوحة، ومعناه: صيحنهن من قولك: صرَّ الباب والقلم إذا صوت، ذكره النقاش، قال ابن جنبي: وهي قراءة غريبة وذلك أن يفعل بكسر العين في المضاعف المتعدي قليل، وإنما بابه يفعل بضم العين كشد يشد ونحوه، لكن قد جاء منه: نَمَّ الحديث ينمه وينمه، وهُرَّ الحرب يهرها ويهرها، ومنه قول الأعشى:

لِيَعْتَوِرَنَّكَ الْقَوْلُ حَتَّى تَهْرَهُ
.....

إلى غير ذلك في حروف قليلة، قال ابن جنبي: وأما قرعة عكرمة بضم الصاد فيحتمل في الراء الضم والفتح والكسر كمدً وشدً، والوجه ضم الراء من أجل ضمة الهاء من بعد. قال المهدوي وغيره: وروي عن عكرمة فتح الصاد وشد الراء

المكسورة، وهذه بمعنى فاحسهن، من قولهم: صرَى يصري إذا حبس، ومنه الشاة المضرة.

واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿فَدَّرَ أَجْمَلَ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا﴾ فروى أبو حمزة عن ابن عباس أن المعنى: اجعل جزءاً على كل ربيع من أرباع الدنيا، كأن المعنى: اجعلها في أركان الأرض الأربعة، وفي هذا القول بُعد. وقال قتادة، والربيع: المعنى: واجعل على أربعة أجبل على كل جبل جزءاً من ذلك المجموع المتقطع، فكما يبعث الله هذه الطير من هذه الجبال فكذلك يبعث الخلق يوم القيامة من أرباع الدنيا وجميع أقطارها. وقرأ الجمهور: ﴿جُزْءًا﴾ بالهمز. وقرأ أبو جعفر: ﴿جُزْءًا﴾ بشد الزاي في جميع القرآن، وهي لغة في الوقف، فأجرى أبو جعفر الوصل مجراه، وقال ابن جريج، والسدي: أمر أن يجعلها على الجبال التي كانت الطير والسباع حين تأكل الدابة تطير إليها وتسير نحوها وتفرق فيها، قالوا: وكانت سبعة أجبل، فكذلك جزءاً ذلك المقطع من لحم الطير سبعة أجزاء، وقال مجاهد: بل أمر أن يجعل على كل جبل يليه جزءاً. قال الطبري: معناه دون أن تحصر الجبال بعدد، بل هي التي كان يصل إبراهيم إليها وقت تكليف الله إياه تفريق ذلك فيها، لأن الكل لفظ يدل على الإحاطة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعيد أن يكلف جميع جبال الدنيا، فلن يحيط بذلك بصره، فيجزيه ما

ذهب إليه الطبري جيداً متمكناً، والله أعلم أي ذلك كان.

ومعنى الآية أن إبراهيم عليه السلام كان بحيث يرى الأجزاء في مقامه، ويرى كيف التأمّت وكذلك صحت له العبرة - وأمره بدعائهن وهنّ أموات إنما هو لتقرب الآية منه، وتكون بسبب من حاله ويرى أنه قصد بعرض ذلك عليه، ولذلك جعل الله تعالى سيرهن إليه سعياً إذ هي مشية المجدد الراغب فيما يمشي إليه، فكان من المبالغة أن رأى إبراهيم جدّها في قصده وإجابة دعوته، ولو جاءت مشياً لزالته هذه القرينة، ولو جاءت طيراناً لكان ذلك على عرف أمرها، فهذا أغرب منه، ثم وقف عليه السلام على العلم بالعزة التي في ضمنها القدرة، وعلى الحكمة التي بها إتقان كل شيء.

﴿٢٦٠﴾ ﴿٢٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية لفظها بيان مثال بشرف النفقة في سبيل الله وبحسنها، وضمنها التحريض على ذلك، وهذه الآية في نفقة التطوع، وسبيل الله كثيرة، وهي جميع ما هو طاعة وعائد بمنفعة على المسلمين والمِلَّة، وأشهرها وأعظمها غناء الجهاد لتكون كلمة الله هي العليا.

والحبة اسم جنس لكل ما يزرعه ابن آدم ويقتاته، وأشهر ذلك البر، وكثيراً ما يراد بالحبّ، ومنه قول المتلمس:

أَلَيْتَ حَبَّ الْعِرَاقِ الدُّهْرَ أَطْعَمَهُ

والحبّ يأكله في القرية السوس وقد يوجد في سنبل القمح ما فيه مائة حبة، وأما في سائر الحبوب

فأكثر ولكن المثال وقع بهذا القدر، وقد ورد القرآن بأن الحسنة في جميع أعمال البر بعشر أمثالها، واقتضت هذه الآية أن نفقة الجهاد حسنتها بسبعمئة ضعف، ويُن ذلك الحديث الصحيح.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿وَاللَّهُ يَصْعِقُ لِمَنْ يَسْكَا﴾ - فقالت طائفة: هي مُبَيَّنَةٌ ومؤكدَة لما تقدم من ذكر السبع المائة، وليس ثم تضعيف فوق سبعمئة. وقالت طائفة من العلماء: بل هو إعلام بأن الله تعالى يضاعف لمن يشاء أكثر من سبعمئة ضعف. وروي عن ابن عباس أن التضعيف ينتهي - لمن شاء الله - إلى ألفي ألف، وليس هذا بثابت الإسناد عنه، وقال ابن عمر: لما نزلت هذه الآية قال النبي عليه الصلاة والسلام: «رَبِّ زِدْ أُمَّتِي، فنزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ﴾، فقال: رَبِّ زِدْ أُمَّتِي، فنزلت: ﴿إِنَّمَا يُؤِتَى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

﴿سُبُلَةٍ﴾ فَنُعَلَةٌ من أسبل الزرع أي أرسل ما فيه، كما يسبل الثوب، والجمع سنابل.

وفي قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ﴾ حذف مضاف تقديره: مثل إنفاق الذين، أو تقديره: كمثله ذي حبة.

وقال الطبري في هذه الآية: إن قوله: ﴿فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ معناه إن وجد ذلك، وإلا فعلى أن يفرضه، ثم أدخل عن الضحاك أنه قال: ﴿فِي كُلِّ سُبُلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ﴾ معناه: كل سبلة أنبتت مائة حبة،

فجعل الطبري قول الضحاك نحو ما قال هو، وذلك غير لازم من قول الضحاك.

قال أبو عمرو الداني: قرأ بعضهم: ﴿مِائَةٌ﴾ بالنصب على تقدير: أنبتت مائة حبة.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية، لما تقدم في الآية التي قبل هذه ذكر الإنفاق في سبيل الله على العموم بيّن في هذه الآية أن ذلك الحكم إنما هو لمن لم يُشْتَبِعْ إنفاقه مثلاً ولا أذى. وذلك أن المنفق في سبيل الله إنما يكون على أحد ثلاثة أوجه - إما أن يريد وجه الله تعالى ويرجو ثوابه، فهذا لا يرجو من المنفق عليه شيئاً ولا ينظر من أحواله في حال سوى أن يراعي استحقاقه، وإما أن يريد من المنفق عليه جزاء بوجه من الوجوه فهذا لم يرد وجه الله، بل نظر إلى هذه الحال من المنفق عليه، وهذا هو الذي متى أخلف ظنه من إنفاقه وأذى، وإما أن ينفق مضطراً دافع غرم إما لِمَا تَتَّقَى للمنفق عليه أو قرينة أخرى من اعتناء منفق ونحوه، فهذا قد نظر في حال ليست لوجه الله، وهذا هو الذي متى توبع وحرج بوجه من وجوه الحرج آذى.

فالمن والأذى يكشفان بمنّ ظهرا منه أنه إنما كان على ما ذكرناه من المقاصد، وأنه لم يخلص لوجه الله، فلهذا كان المن والأذى مبطلين للصدقة من حيث بيّن كل واحد منهما أنها لم تكن صدقة.

وذكر النقاش أنه قيل: إن هذه الآية نزلت في عثمان بن عفان، وقيل:

في علي بن أبي طالب، وقال مكي: في عثمان وابن عوف.

والمَنْ: ذكر النعمة على معنى التعدد لها والتفريع بها - والأذى: السب والتشكي، وهو أعم من المن، لأن المن جزء من الأذى لكنه نص عليه لكثرة وقوعه.

وذهب ابن زيد إلى أن هذه الآية هي في الذين لا يخرجون في الجهاد، بل ينفقون وهم قعود، وأن الأولى التي قبلها هي في الذين يخرجون بأنفسهم وأموالهم، قال: ولذا شرط على هؤلاء، ولم يشترط على الأولين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول نظر لأن التحكم فيه باد.

وقال زيد بن أسلم: «لئن ظننت أن سلامك يثقل علي من أنفقت عليه تريد وجه الله فلا تسلم عليه»، وقالت له امرأة: «يا أبا أسامة، دلي على رجل يخرج في سبيل الله حقاً فإنهم إنما يخرجون ليأكلوا الفواكه، فإن عندي أسهماً وجعبة»، فقال لها: «لا بارك الله في أسهمك وجعبتك فقد آذيتهم قبل أن تعطيه».

وضمن الله الأجر للمنفق في سبيل الله، والأجر الجنة، ونفى عنه الخوف بعد موته لما يستقبل، والحزن على ما سلف من دنياه، لأنه يغتبط بآخرته.

﴿٢٦٢﴾ ﴿٢٦٣﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا إخبار جزم من الله تعالى أن القول المعروف وهو الدعاء والتأنيس والترجية بما عند الله خير من صدقة هي في ظاهرها صدقة، وفي باطنها

لا شيء، لأن ذلك القول المعروف فيه أجر، وهذه لا أجر فيها.

قال المهدي وغيره: التقدير في إعرابه: قول معروف أولى، ومغفرة خير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ذهب بروثق المعنى، وإنما يكون المقدر كالظاهر، والمغفرة الستر للخلعة وسوء حالة المحتاج، ومن هذا قول الأعرابي - وقد سأل قوماً بكلام فصيح، فقال له قائل: ممن الرجل؟ فقال: «اللهم غفراً، سوء الاكتساب يمنع من الانتساب»، وقال النقاش: يقال: معناه ومغفرة للسائل إن أغلظ أو جفا إذا حرم.

ثم أخبر تعالى بغناه عن صدقة من هذه حاله، وعاقبة أمره، وعن حلمه عمن يمكن أن يوقع هذا من عبده وإمهالهم.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُبْتَغُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ الآية.

العقيدة أن السيئات لا تبطل الحسنات، فقال جمهور العلماء في هذه الآية: إن الصدقة التي يعلم الله من صاحبها أنه يمن أو يؤذي فإنه لا يتقبل صدقته، وقيل: بل جعل الله للملك عليها أمانة، فهو لا يكتبها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أحسن لأن ما نتلقى نحن على المعقول من بني آدم فهو أن المان المؤذي ينص على نفسه أن نيته لم تكن لله عز وجل على ما ذكرناه قبل، فلم تترتب له صدقة، فهذا هو بطلان الصدقة بالمن والأذى، والمن والأذى في صدقة لا يبطل صدقة

غيرها، إذ لم يكشف ذلك على النية في السليمة، ولا قدها فيها.

ثم مثل الله هذا الذي يمن ويؤذي بحسب مقدمة نيته بالذي يتفق رياء لا لوجه الله، والرياء مصدر من فاعل من الرؤية، كأن الرياء تظاهر وتفاخر بين من لا خير فيه من الناس. قال المهدي: والتقدير: كإبطال الذي يتفق رياء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ يحتتمل أن يريد الكافر الظاهر الكفر، إذ قد يتفق ليقال جواد، وليثني عليه بأنواع الثناء، ولغير ذلك، ويحتتمل أن يريد المنافق الذي يظهر الإيمان.

ثم مثل هذا الذي يتفق رياء بصفوان عليه تراب، فيظنه الظان أرضاً منبتة طيبة، كما يظن قوم أن صدقة هذا المرابي لها قدر أو معنى، فإذا أصاب الصفوان وإبل من المطر انكشف ذلك التراب، وبقي صلداً، فكذلك هذا المرابي إذا كان يوم القيامة، وحضرت الأعمال، انكشف سره، وظهر أنه لا قدر لصدقته ولا معنى.

فالمن والأذى يكشف عن النية، فيبطل الصدقة، كما يكشف الوابل الصفا فيذهب ما ظن أرضاً.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿رياء الناس﴾ بغير همز، ورويت عن عاصم.

والصفوان: الحجر الكبير الأملس، قيل: هو جمع واحده صفوانة، وقال قوم: واحده صفواة، وقيل: هو أفراد، وجمعه صفي، وأنكره المبرد، وقال: إنما هو جمع صفا،

ومن هذا المعنى الصفواء والصفاء. قال امرؤ القيس:

كَمَيْتٍ يَزُلُّ اللَّبْدُ عَنْ حَالِ مَثْنِهِ
كَمَا زَلَّتِ الصُّفْوَاءُ بِالْمُتَنَزِّلِ
وقال أبو ذؤيب:

حَسْبَى كَأَنِّي لِلْحَوَادِثِ مَرْوَةٌ
بِصَفَا الْمَشْفَرِّ كُلِّ حِينٍ تُقْرَعُ
وقرأ الزهري، وابن المسيب:

﴿صَفْوَانٌ بِفَتْحِ الْفَاءِ، وَهِيَ لَفَةٌ.
والوابل: الكثير القوي من المطر وهو الذي يسيل على وجه الأرض. والصلد من الحجارة الأملس الصلب الذي لا شيء فيه، ويستعار للرأس الذي لا شعر فيه، ومنه قول رؤبة:

.....
بَرَّاقَ أَصْلَادِ الْجَبِينِ الْأَجَلَةِ
قال النقاش: الصلد: الأجرد بلغة هذيل.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَفْرُدُونَ﴾ يريد به الذين ينفقون رياء، أي: لا يقدرون على الانتفاع بثواب شيء من إيفاقهم ذلك، وهو كسبهم - وجاءت العبارة بيقدرين على معنى الذي، وقد انحمل الكلام قبل على لفظ الذي، وهذا هو مهيع كلام العرب، ولو انحمل أولاً على المعنى لقبج بعد أن يحمل على اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إما عموم يراد به الخصوص في الموافية على الكفر، وإما أن يراد به أنه لم يهدهم في كفرهم، بل هو ضلال محض، وإما أن يريد أنه لا يهديهم في صدقاتهم وأعمالهم وهم على الكفر.

وما ذكرته في هذه الآية من تفسير

وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ
وَتَنْبِيئًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَذْءٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ
فَتَأْتَتْ أَكْطَبَهَا ضِعْفَتَيْنِ فَإِن لَّمْ يَهِبْهَا وَابِلٌ فَطَمَلَتْ
وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾ أَوْدٌ أَحَدَكُمْ أَن تَكُونَ
لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّجِيلٍ وَأَعْتَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضِعْفًا
فَأَصَابَهَا غَصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ
لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا أَنْفِقُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا
لَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَلَا تَتَّبِعُوا الْهَيْبَةَ وَتُفْقُونَهَا وَلَسْتُمْ
بِأَخْذِيهِ إِلَّا أَنْ تُحْضُوا فِيهِ وَعَلِّمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ
﴿٢٦٧﴾ الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُمْ بِالْفَحْشَاءِ
وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِنَّهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦٨﴾
يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ
أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾

ثبتهم على الإنفاق في طاعة الله تثبيتاً، وقال مجاهد، والحسن: معنى قوله: ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ أي أنهم يشبثون أين يضعون صدقاتهم، وقال الحسن: كان الرجل إذا هم بصدقة تثبت، فإن كان ذلك لله أمضاه، وإن خالطه شك أمسك، والقول الأول أصوب لأن هذا المعنى الذي ذهب إليه مجاهد والحسن إنما عبارته ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ فإن قال محتج: إن هذا من المصادر التي خرجت على غير المصدر

كقوله تعالى: ﴿وَتَنْبَلَّ إِلَيْهِ تَنْبِيلاً﴾ وكقوله: ﴿أَنْتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ تَبَاتًا﴾، فالجواب أن هذا لا يسوغ إلا مع ذكر المصدر، والإفصاح بالفعل المتقدم للمصدر، وأما إذا لم يقع إفصاح بفعل فليس لك أن تأتي بمصدر في غير معناه، ثم نقول: أخيمه على فعل كذا وكذا لفعل لم يتقدم له ذكر. هذا مهيج كلام العرب فيما علمت.

وقال قتادة: ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ معناه: وإحساناً من أنفسهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو القول الأول.

والجنة: البستان، وهي قطعة أرض نبتت فيها الأشجار حتى سترت الأرض، فهي من لفظ الجنين والجنن والجنة وجن الليل.

والربوة: ما ارتفع من الأرض ارتفاعاً يسيراً معه في الأغلب كثافة

لغة، وتقويم معنى، فإنه مسند عن المفسرين، وإن لم تجيء ألفاظهم ملخصة في تفسير إبطال المن والأذى للصدقة.

﴿٢٦٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

من أساليب فصاحة القرآن أنه يأتي فيه ذكر نقيض ما تقدم ذكره، لتستبين حال التضاد بعرضها على الذهن، فلما ذكر الله صدقات القوم الذين لا خلاق لصدقاتهم، ونهى المؤمنين عن مواقة ما يشبه ذلك بوجه ما، عقب في هذه الآية بذكر نفقات القوم الذين تركوا صدقاتهم وهي على وجهها في الشرع، فضرب لها مثلاً.

وتقدير الكلام: ومثل نفقة الذين يتفقون كمثل غراس جنة، لأن المراد بذكر الجنة غراسها. أو يقدر الإضمار في آخر الكلام، دون إضمار نفقة في أوله، كأنه قال: كمثل غراس جنة.

﴿وَأَبْتِغَاءَ﴾ معناه: طلب، وإعراجه النصب على المصدر في موضع الحال، وكان يتوجه فيه النصب على المفعول من أجله، لكن النصب على المصدر هو الصواب من جهة عطف المصدر الذي هو ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ عليه، ولا يصح في ﴿تَنْبِيئًا﴾ أنه مفعول من أجله، لأن الإنفاق من أجل التثبيت.

وقال مكِّي في «المشكل»: كلاهما مفعول من أجله وهو مردود بما بيّناه.

﴿مَهْمَاتٍ﴾ مصدر من رضي يرضى. وقال الشعبي، والسدي، وقتادة، وابن زيد، وأبو صالح: ﴿وَتَنْبِيئًا﴾ معناه: وتيقناً، أي أن نفوسهم لها بصائر متأكدة، فهي

التراب وطيبه وتعمقه، وما كان كذلك فنباته أحسن.

ورياض الحزن ليست من هذا كما زعم الطبري، بل تلك هي الرياوس المنسوبة إلى نجد لأنها خير من رياوس تهامة، ونبات نجد أعطر، ونسيمه أبرد وأرق، ونجد يقال له: الحزن، وقلما يصلح هواء تهامة إلا بالليل، ولذلك قالت الأعرابية: (زوجي كليل تهامة). وقال ابن عباس: «الربوة المكان المرتفع الذي لا تجري فيه الأنهار».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما أراد به هذه الربوة المذكورة في كتاب الله، لأن قوله تعالى: ﴿أَصَابَهَا وَابِلٌ﴾ إلى آخر الآية يدل على أنها ليس فيها ماء جار، ولم يرد ابن عباس أن جنس الربا لا يجري فيها ماء، لأن الله تعالى قد

ذكر ربوة ذات قرار ومعين .

والمعروف في كلام العرب أن الربوة ما ارتفع عما جاوره سواء جرى فيها ماء أو لم يجر، وقال الحسن: الربوة الأرض المستوية التي لا تعلو فوق الماء، وهذا أيضاً أراد أنها ليست كالجبل والظرب ونحوه .

قال الخليل: الربوة أرض مرتفعة طيبة . وخص الله بالذكر التي لا يجري فيها ماء من حيث هي العرف في بلاد العرب فمثل لهم بما يحسونه كثيراً .

وقال السدي: ﴿رَبْوَةٌ﴾ أي رباوة، وهو ما انخفض من الأرض، وهذه عبارة قلقة . ولفظ الربوة هو مأخوذ من ربا يربو إذا زاد، يقال: (ربوة) بضم الراء، وبها قرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع، وأبو عمرو . ويقال: (ربوة) بفتح الراء، وبها قرأ عاصم، وابن عامر، وكذلك خلفهم في سورة المؤمنين . ويقال: (ربوة) بكسر الراء، وبها قرأ ابن عباس فيما حكى عنه، ويقال: رباوة بفتح الراء والباء وألف بعدها، وبها قرأ أبو جعفر، وأبو عبد الرحمن، ويقال: رباوة بكسر الراء وبها قرأ الأشهب العقيلي .

﴿وَأَنْتَ﴾ معناه: أعطت، والأكل: بضم الهمزة وسكون الكاف الثمر الذي يؤكل، والشيء المأكل من كل شيء يقال له: أكل، وإضافته إلى الجنة إضافة اختصاص، كسرج الدابة، وباب الدار، وإلا فليس الثمر مما تأكله الجنة .

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿أَكْلُهَا﴾ بضم الهمزة وسكون

الكاف، وكذلك كل مضاف إلى مؤنث، وفارقهما أبو عمرو فيما أضيف إلى مذكر مثل ﴿أَكْلُهُ﴾ أو كان مضافاً إلى غير حكني مثل ﴿أَكْلِي﴾ ﴿حَمِيًّا﴾ فنقل أبو عمرو ذلك وخفاه .

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي في جميع ما ذكرناه بالثقل . ويقال: أكل وأكل بمعنى، وهو من أكل بمنزلة الطعنة من طعم، أي الشيء الذي يُطعم ويُؤكل، و﴿ضَعْفَتَيْنِ﴾ معناه: اثنتين، مما يُظن بها ويُحزر من مثلها، ثم أكد تعالى مدح هذه الربوة بأنها إن لم يصبها وابل فإن الطل يكفيها، وينوب مناب الواابل، وذلك لكرم الأرض .

والطل: المستدق من القطر الخفيف، قاله ابن عباس وغيره، وهو مشهور في اللغة، وقال قوم: الطل: الندى، وهذا تجوز وتشبيه، وقد روي ذلك عن ابن عباس . قال المبرد: تقديره: فطل يكفيها، وقال غيره: التقدير: فالذي أصابها طل، فشبّه نمو نفقات هؤلاء المخلصين الذين يربي الله صدقاتهم، كثرية الفلوالفصيل حسب الحديث بنمو نبات هذه الجنة بالربوة الموصوفة، وذلك كله بخلاف الصفوان الذي انكشف عنه ترابه بقي صلباً .

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ بِمَيْمِنِهِ﴾ وعد ووعيد، وقرأ الزهري: ﴿يَتَمَلُّونَ﴾ بالياء، كأنه يريد الناس أجمع، أو يريد المنافقين فقط، فهو وعد محض .

﴿تَمَلُّونَ﴾ تفسير قوله عز وجل:

حكى الطبري عن السدي أن هذه

الآية مثل آخر لنفقة الرياء، ورجح هو هذا القول، وحكى عن ابن زيد أنه قرأ قول الله تعالى: ﴿يَتَمَلُّونَ بِمَيْمِنِهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَبْتَغُونَ صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى﴾ الآية . قال: ثم ضرب في ذلك مثلاً فقال: ﴿يُؤَدُّ أَحَدَكُمْ﴾ الآية، وهذا أبين من الذي رجح الطبري، وليست هذه الآية بمثل آخر لنفقة الرياء، هذا هو مقتضى سياق الكلام .

وأما بالمعنى في غير هذا السياق فتشبه حال كل منافق أو كافر عمل وهو يحسب أنه يحسن صنعا، فلما جاء إلى وقت الحاجة لم يجد شيئاً، وقد سأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أصحاب النبي ﷺ عن هذه الآية فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال وهو غاضب: قولوا: نعلم أو لا نعلم، فقال له ابن عباس: هذا مثل ضربه الله كأنه قال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير فإذا فني عمره واقترب أجله ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فرضي ذلك عمر .

وروي ابن أبي مليكة أن عمر تلا هذه الآية: ﴿يُؤَدُّ أَحَدَكُمْ﴾، وقال: هذا مثل ضرب للإنسان يعمل عملاً صالحاً حتى إذا كان عند آخر عمره أحوج ما يكون إليه عَمِلَ عَمَلِ السوء . فهذا نظير يحمل الآية على كل ما يدخل تحت ألفاظها، وقال بنحو هذا مجاهد، وقتادة، والربيع، وغيرهم .

وخص النخيل والأعناب بالذكر لشرفها وفضلها على سائر الشجر، وقرأ الحسن: ﴿جَنَاتٍ﴾ بالجمع .

وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾، هو تحت بالنسبة إلى الشجر، والواو في قوله: ﴿وَأَسَاكِبَ﴾ واو الحال، وكذلك في قوله: ﴿لَكُمْ﴾، و﴿سُعْمَاءَ﴾ جمع ضعيف، وكذلك: ضعاف.

والإعصار: الريح الشديدة العاصف التي فيها إحراق لكل ما مرت عليه، يكون ذلك في شدة الحر، ويكون في شدة البرد، وكل ذلك من فيح جهنم ونفسها كما تضمن قول النبي ﷺ: «إِذَا اشْتَدَّ الْحَرُّ فَأَبْرِدُوا عَنِ الصَّلَاةِ، فَإِنْ شَدَّ الْحَرُّ مِنْ فَيْحِ جَهَنَّمَ، وَإِنَّ النَّارَ اشْتَكَّتْ إِلَى رَبِّهَا» الحديث بكماله، فإذا أنه نار على حقيقة وإلا فهو نفسها يوجد عنها كأثرها.

قال السدي: الإعصار: الريح والنار السموم، وقال ابن عباس: ریح فيها سموم شديدة، وقال ابن مسعود: إن السموم التي خلق الله منها الجان جزء من سبعين جزءاً من النار، يريد من نار الآخرة. وقال الحسن بن أبي الحسن: إعصار فيه نار: ریح فيها صر وبرد، وقاله الضحاک.

وفي المثل: - «إِنْ كُنْتَ رِيحًا فَقَدْ لَأَيْتَ إِعْصَارًا» - والريح إعصار لأنها تعصر السحاب، والسحاب معصرات إما أنها حوامل فهي كالمعصر من النساء وهي التي تكون عرضة للحمل، وإما لأنها تنعصر بالرياح، وبهذا فسر عبيدالله بن الحسن العنبري القاضي.

وحكى ابن سيدة أن المعصرات فسرهما قوم بالرياح لا بالسحاب. وقال الزجاج: الإعصار: الريح الشديدة تصعد من الأرض إلى السماء وهي التي يقال لها الزوبعة.

قال المهدوي: قيل لها إعصار لأنها تلتف كالثوب إذا عصر، وهذا ضعيف. والإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذه الأمثال المبينة، و﴿تَلْتَلِكُمْ﴾ ترج في حق البشر، أي إذا تأمل من يبين له هذا البيان رجع له التفكير، وكان أهلاً له.

وقال ابن عباس: ﴿تَتَفَكَّرُونَ﴾ في زوال الدنيا وفنائها، وإقبال الآخرة وبقائها.

﴿٢٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا الخطاب هو لجميع أمة محمد ﷺ، وهذه صيغة أمر من الإنفاق. واختلف المتأولون - هل المراد بهذا الإنفاق الزكاة المفروضة أو التطوع؟ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعبيدة السلماني، ومحمد بن سيرين: هي في الزكاة المفروضة - نهى الناس عن إنفاق الرديء فيها بدل الجيد، وأما التطوع فكما للمرء أن يتطوع بقليل فكذلك له أن يتطوع بنازل في القدر، ودرهم زائف خير من تمرة، فالأمر على هذا القول للوجوب.

والظاهر من قول البراء بن عازب، والحسن بن أبي الحسن، وقتادة أن الآية في التطوع. وروى البراء بن عازب وعطاء بن أبي رباح ما معناه أن الأنصار كانوا أيام الجداد يعلقون أقنعة التمر في جبل بين أسطوانتين في المسجد، فيأكل من ذلك فقراء المهاجرين، فعلق رجل حشفاً فراه رسول الله ﷺ فقال: «بِشِّ مَا عَلَّقَ هَذَا»، فنزلت الآية، والأمر على هذا القول للندب، وكذلك نُدبوا إلى ألا يتطوعوا إلا بجيد مختار.

والآية تعم الوجهين لكن صاحب الزكاة يتلقاها على الوجوب، وصاحب التطوع يتلقاها على الندب.

وهؤلاء كلهم وجمهور المتأولين قالوا: معنى ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ﴾: من جيد ومختار ما كسبتم، وجعلوا الخبيث بمعنى الرديء والردالة.

وقال ابن زيد: معناه: من حلال ما كسبتم قال: وقوله: ﴿وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ﴾ أي الحرام، وقول ابن زيد: ليس بالقوي من جهة نسق الآية، لا من معناه في نفسه.

وقوله: ﴿مِنْ طَيِّبَاتٍ مَا كَسَبْتُمْ﴾ يحتمل ألا يقصد به لا الجيد ولا الحلال، لكن يكون المعنى كأنه قال: أنفقوا مما كسبتم، فهو حصص على الإنفاق فقط، ثم دخل ذكر الطيب تبييناً لصفة حسنة في المكسوب عاماً، وتقريباً للنعمة، كما تقول: أعطمت فلاناً من مشيع الخبز، وسقيته من مروي الماء، والطيب على هذا الوجه يعم الجودة والحل، ويؤيد هذا الاحتمال أن عبدالله بن مغفل قال: (ليس في مال المؤمن خبيث).

و﴿كَسَبْتُمْ﴾ معناه: كانت لكم فيه سعاية، إما بتعب بدني أو مقاوله في تجارة. والموروث داخل في هذا، لأن غير الوارث قد كسبه إذ الضمير في ﴿كَسَبْتُمْ﴾ إنما هو لنوع الإنسان أو المؤمنين.

﴿وَمِمَّا كَسَبْتُمْ﴾ معناه: كانت لكم فيه سعاية، إما بتعب بدني أو مقاوله في تجارة. والموروث داخل في هذا، لأن غير الوارث قد كسبه إذ الضمير في ﴿كَسَبْتُمْ﴾ إنما هو لنوع الإنسان أو المؤمنين.

﴿وَمِمَّا كَسَبْتُمْ﴾ معناه: كانت لكم فيه سعاية، إما بتعب بدني أو مقاوله في تجارة. والموروث داخل في هذا، لأن غير الوارث قد كسبه إذ الضمير في ﴿كَسَبْتُمْ﴾ إنما هو لنوع الإنسان أو المؤمنين.

يقال: تَيْمَّمَتِ الرَّجُلُ كَذَا وَكَذَا إِذَا قَصَدَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ:

تَيْمَّمَتِ الْعَيْنُ الَّتِي عِنْدَ ضَارِحٍ
بِفِيءٍ عَلَيْنَهَا الظُّلُ عَرَمُضَهَا طَامِي
ومنه قول الأعشى:

تَيْمَّمَتْ قَيْسًا وَكَمْ دُونَهُ
مِنَ الْأَرْضِ مِنْ مَهْمَةٍ ذِي سَرْزَنْ
ومنه التيمم الذي هو البذل من
الوضوء عند عدم الماء، وهكذا قرأ
جمهور الناس.

وروي البزي عن ابن كثير بتشديد
التاء في أحد وثلاثين موضعاً أولها
هذا الحرف.

وحكى الطبري أن في قراءة
عبدالله بن مسعود: «وَلَا تَأْمَمُوا
الْخَبِيثَ» مِنْ أَمَمْتُ إِذَا قَصَدْتُ،
ومنه إمام البناء، والمعنى في
القراءة تين واحد. وقرأ الزهري،
ومسلم بن جندب: «وَلَا تُيْمَّمُوا»
بضم التاء وكسر الميم، وهذا على
لغة من قال: يمت الشيء، بمعنى
قصده.

وفي اللفظة لغات - منها: أَمَمْتُ
الشيء خفيفة الميم الأولى، وأَمَمْتُ
بشدها، وَيَمَّمْتَهُ وَيَتَمَّمْتَهُ. وحكى أبو
عمرو أن ابن مسعود قرأ: «وَلَا
تُؤْمَمُوا» بهمزة بعد التاء، وهذه على
لغة من قال: أَمَمْتُ مَثْقَلَةَ الميم،
وقد مضى القول في معنى الخبيث.

وقال الجرجاني (في كتاب نظم
القرآن): قال فريق من الناس: إن
الكلام تم في قوله: «الْخَبِيثَ». ثم
ابتدأ خيراً آخر في وصف الخبيث
فقال: «وَيْتَهُ تُنْفِقُونَ» وَأَنْتُمْ لَا
تَأْخُذُونَهُ إِلَّا إِذَا أَعْمَضْتُمْ، أَي
سأهلتهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كَأَنَّ هَذَا الْمَعْنَى عَتَابٌ لِلنَّاسِ
وَتَقْرِيعٌ. وَالضَّمِيرُ فِي «وَيْتَهُ» عَائِدٌ
عَلَى «الْخَبِيثِ». قَالَ الْجُرْجَانِيُّ:
وَقَالَ فَرِيقٌ آخَرٌ: بِلِ الْكَلَامِ مُتَّصِلٌ
إِلَى قَوْلِهِ: «وَيْتَهُ» فَالضَّمِيرُ فِي
«وَيْتَهُ» عَائِدٌ عَلَى «مَا كَتَبْتُمْ»
وَيَجِيءُ «تُنْفِقُونَ» فِي مَوْضِعِ نَصَبِ
عَلَى الْحَالِ وَهُوَ كَقَوْلِهِ: أَنَا أَخْرَجْتُ
أَجَاهِدُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

واختلف المتأولون في معنى قوله
تعالى: «وَلَسْتُمْ بِبَائِذِيهِ إِلَّا أَنْ
تُنْفِقُوا فِيهِ» فَقَالَ الْبِرَاءُ بْنُ عَازِبٍ،
وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمْ:
مَعْنَاهُ: وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ فِي دِيُونِكُمْ
وَحَقُوقِكُمْ عِنْدَ النَّاسِ إِلَّا أَنْ تَسَاهَلُوا
فِي ذَلِكَ، وَتَتْرَكُوا مِنْ حَقُوقِكُمْ،
وَتَكْرَهُونَهُ وَلَا تَرْضَوْنَهُ، أَي لَا تَفْعَلُوا
مَعَ اللَّهِ مَا لَا تَرْضَوْنَهُ لِأَنْفُسِكُمْ،
وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: مَعْنَى
الآية: «وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ لَوْ وَجَدْتُمُوهُ
فِي السُّوقِ يَبَاعُ إِلَّا أَنْ يَهْضُمَ لَكُمْ مِنْ
ثَمَنِهِ».

وَرَوَى نَحْوَهُ عَنِ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وَهَذَا الْقَوْلَانِ
يُشْبِهَانِ كَوْنَ الْآيَةِ فِي الزَّكَاةِ الْوَاجِبَةِ،
وَقَالَ الْبِرَاءُ بْنُ عَازِبٍ أَيْضاً: مَعْنَاهُ:
وَلَسْتُمْ بِأَخْذِيهِ لَوْ أَمَدَيْ لَكُمْ إِلَّا أَنْ
تَغْمِضُوا، أَي تَسْتَحِيحُوا مِنَ الْمَهْدِيِّ
فَتَقْبَلُوا مِنْهُ مَا لَا حَاجَةَ لَكُمْ فِيهِ، وَلَا
قَدْرَ لَهُ فِي نَفْسِهِ، وَهَذَا يُشْبِهُ كَوْنَ
الآية فِي التَّطَوُّعِ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ:
مَعْنَى الْآيَةِ: وَلَسْتُمْ بِأَخْذِي الْحَرَامِ
إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِي مَكْرُوهِهِ.

وَقَرَأَ جُمْهُورُ النَّاسِ: «إِلَّا أَنْ
تُنْفِقُوا» بِضَمِّ التَّاءِ، وَسُكُونِ الْغَيْنِ،

وَكَسْرِ الْمِيمِ. وَقَرَأَ الزَّهْرِيُّ بِفَتْحِ
التَّاءِ، وَكَسْرِ الْمِيمِ مُخَفَّفاً، وَرَوَى
عَنْهُ أَيْضاً: «تَغْمِضُوا» بِضَمِّ التَّاءِ
وَفَتْحِ الْغَيْنِ وَكَسْرِ الْمِيمِ مُشَدَّدةً.

وَحَكَى مَكِّي عَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ:
«تَغْمِضُوا» مُشَدَّدةً الْمِيمِ مُفْتَوحةً،
وَقَرَأَ قِتَادَةَ بِضَمِّ التَّاءِ وَسُكُونِ الْغَيْنِ
وَفَتْحِ الْمِيمِ مُخَفَّفاً، قَالَ أَبُو عَمْرٍو:
مَعْنَاهُ: إِلَّا أَنْ يَغْمِضَ لَكُمْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
هذه اللفظة تنتزع إما من قول
العرب: أغمض الرجل في أمر كذا
إذا تساهل فيه، ورضي ببعض حقه
وتجاوز، فمن ذلك قول الطرماح ابن
حكيم:

لَمْ يَفْتَنَّا بِالْوَثْرِ قَوْمٌ وَلِلضُّ
نِيمِ أَنَا سَ يَرْضُونَ بِالْإِغْمَاضِ
وإما أن تنتزع من تغميض العين،
لأن الذي يريد الصبر على مكروه
يغمض عنه عينيه، ومنه قول
الشاعر:

إِلَى كَمْ وَكَمْ أَشْيَاءُ مِنْكَ تَرَبِّئُنِي
أَعْمَضُ عَنْهَا لَسْتُ عَنْهَا بِذِي عَمَى؟

وهذا كالإغضاء عند المكروه، وقد
ذكرنا لنقاش هذا المعنى في هذه
الآية، وأشار إليه مكِّي - وإما من
قول العرب: أغمض الرجل إذا أتى
غامضاً من الأمر، كما تقول: أغمض
إذا أتى عمان، وأغرق إذا أتى
العراق، وأنجد وأغور إذا أتى نجداً،
والغور الذي هو تهامة، ومنه قول
الجارية:

«وإن دسر أغمض».

فقرأة الجمهور تُخْرِجُ: على
التجاوز، وعلى تغميض العين، لأن
أغمض بمنزلة غمض، وعلى أنها

بمعنى حتى تأتوا غامضاً من التأويل والنظر في أخذ ذلك، إما لكونه حراماً على قول ابن زيد، وإما لكونه مُهدي أو مأخوذاً في دين على قول غيره.

وأما قراءة الزهري الأولى فمعناها: تهضموا سوماً من البائع منكم فيحطكم، قال أبو عمرو: معنى قراءة الزهري: حتى تأخذوا بنقصان، وأما قراءته الثانية فهذا مذهب أبي عمرو الداني فيها، ويحتمل أن يكون من تغميض العين.

وأما قراءة قتادة فقد ذكرت تفسير أبي عمرو لها، وقال ابن جني: معناها: توجدوا قد غمضتم في الأمر بتأولكم، أو بتساهلكم، وجريتم على غير السابق إلى النفوس، وهذا كما تقول: أحمدت الرجل، وجدته محموداً، إلى غير ذلك من الأمثلة.

ثم نبه تعالى على صفة الغنى، أي لا حاجة به إلى صدقاتكم، فمن تقرب وطلب مثوبة فليعمل ذلك بماله قدر، و﴿جَيْدٌ﴾ معناه: محمود في كل حال، وهي صفة ذات.

﴿٢٦٨﴾ - ﴿٢٦٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية وما بعدها وإن لم تكن أمراً بالصدقة فهي جالبة النفوس إلى الصدقة - بين عز وجل فيها نزغات الشيطان ووسوسته وعداوته. وذكر شوابه هو لا رب غيره، وذكر بتفضله بالحكمة، وأثنى عليها، ونبه أن أهل العقول هم المتذكرون الذين يقيمون بالحكمة قدر الإنفاق في طاعة الله عز وجل وغير ذلك.

ثم ذكر علمه بكل نفقة ونذر، وفي

ذلك وعد ووعيد، ثم بين الحكم في الإعلان والإخفاء، وكذلك إلى آخر المعنى.

والوعد في كلام العرب - إذا أطلق - فهو في الخير، وإذا قيد بالموعود ما هو، فقد يُقيد بالخير، وقد يقيد بالشر، كالبشارة - فهذه الآية مما قُيد الوعد فيها بمكروه وهو الفقر.

والفحشاء: كل ما فحش، وفحش ذكره ومعاصي الله كلها فحشاء، وروى حبيوة عن رجل من أهل الرباط أنه قرأ ﴿الْفَقْرُ﴾ بضم الفاء، وهي لغة، وقد قال ابن عباس: في الآية اثنتان من الشيطان، واثنتان من الله تعالى.

وروى ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ لِلشَّيْطَانِ لَمَّةً مِنْ ابْنِ آدَمَ، وَلِلْمَلِكِ لَمَّةً، فَأَمَّا لَمَّةُ الشَّيْطَانِ فإِيعَازٌ بِالشَّرِّ، وَتَكْذِيبٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَتَعَوَّذْ، وَأَمَّا لَمَّةُ المَلِكِ فَوَعْدٌ بِالخَيْرِ، وَتَصْدِيقٌ بِالحَقِّ، فَمَنْ وَجَدَ ذَلِكَ فَلْيَسْجُدْ لِلْحَمْدِ لِلَّهِ»، ثم قرأ عليه السلام: ﴿الشَّيْطَانُ يَبْدَأُكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْتِرُكُمْ﴾ الآية.

والمغفرة: هي الستر على عباده في الدنيا والآخرة، والفضل: هو الرزق في الدنيا والتوسعة فيه، والنعيم في الآخرة وبكل قد وعد الله تعالى.

وذكر النقاش أن بعض الناس تأنس بهذه الآية أن الفقر أفضل من الغنى، لأن الشيطان إنما يبعد العبد من الخير وهو بتخوفه الفقر يبعد منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس في الآية حجة قاطعة إلا أن المعارضة بها قوية - وروي أن في التوراة: «عبدني، أنفق من رزقي

أبسط عليك فضلي، فإن يدي مبسوطة على كل يد مبسوطة». وفي القرآن مصداقة وهو: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾.

و﴿يَبِيعُ﴾ لأنه وسع كل شيء رحمة وعلماً.

ثم أخبر تعالى عن نفسه أنه: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ﴾ أي يعطيها لمن يشاء من عباده، واختلف المتأولون في الحكمة في هذا الموضع - فقال السدي: الحكمة: النبوة، وقال ابن عباس: هي المعرفة بالقرآن فقهه ونسخه ومحكمه ومتشابهه وعربيته، وقال قتادة: الحكمة: الفقه في القرآن، وقاله مجاهد، وقال مجاهد أيضاً: الحكمة: الإصابة في القول والفعل، وقال ابن زيد وأبو زيد بن أسلم: الحكمة: العقل في الدين، وقال مالك: الحكمة: المعرفة في الدين، والفقه فيه، والاتباع له، وروى عنه ابن القاسم أنه قال: الحكمة التفكير في أمر الله، والاتباع له، وقال أيضاً: الحكمة: طاعة الله، والفقه في الدين والعمل به، وقال الربيع: الحكمة: خشية. ومنه قول النبي عليه السلام: «رأس كل شيء خشية الله تعالى». وقال إبراهيم: الحكمة: الفهم، وقال زيد بن أسلم، وقال الحسن: الحكمة: الورع.

وهذه الأقوال كلها ما عدا قول السدي قريب بعضها من بعض، لأن الحكمة مصدر من الإحكام وهو الإتقان في عمل أو قول - وكتاب الله: حكمة - وسنة نبيه:

التطوع، وقال يزيد بن أبي حبيب: إنما نزلت هذه الآية في الصدقة على اليهود والنصارى، وكان يأمر بقسم الزكاة في السر - وهذا مردود لا سيما عند السلف الصالح، فقد قال الطبري: أجمع الناس على أن إظهار الواجب أفضل، قال المهدي: وقيل: المراد بالآية فرض الزكاة، وما تطوع به، فكان الإخفاء فيهما أفضل في مدة النبي عليه السلام، ثم ساءت ظنون الناس بعد ذلك فاستحسن العلماء إظهار الفرض لئلا يظن بأحد المنع، وهذا القول مخالف للآثار، ويشبهه في زماننا أن يحسن التستر بصدقة الفرض فقد كثر المانع لها وصار إخراجها عرضة للرياء - وقال النقاش: إن هذه الآية نسخها قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْئِيلِ وَالْهَمَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً...﴾ الآية.

وقوله: ﴿فَبِعَيْنَاهُ﴾ شأه على إبداء الصدقة، ثم حكم أن الإخفاء خير من ذلك الإبداء.

واختلف القراء في قوله: ﴿فَبِعَيْنَاهُ﴾، فقرأ نافع في غير رواية ورش، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر، والمفضل: ﴿فَبِعَيْنَاهُ﴾ بكسر النون وسكون العين. وقرأ عاصم في رواية حفص، وابن كثير، ونافع في رواية ورش: ﴿فَبِعَيْنَاهُ﴾ بكسر النون والعين، وقرأ ابن عامر، وحمزة والكسائي: ﴿فَبِعَيْنَاهُ﴾ بفتح النون وكسر العين وكلهم شدد الميم.

قال أبو علي: من قرأ بسكون العين لم يستقم قوله، لأنه جمع بين ساكنين، الأول منهما ليس بحرف

يفعله المرء تبرعاً، وما يفعله بعد إلزامه لنفسه، ويقال: نذر الرجل كذا إذا التزم فعله ينذر بضم الذال وينذر بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّكَرَّ اللَّهُ يَمْلِكُهُ﴾ قال مجاهد: معناه: يحصيه، وفي الآية وعد ووعيد، أي من كان خالص النية فهو مثاب، ومن أنفق رياءً أو لمعنى آخر مما يكشفه المن والأذى ونحو ذلك فهو ظالم، يذهب فعله باطلاً، ولا يجد ناصرًا فيه، ووحيد الضمير في ﴿يَمْلِكُهُ﴾ وقد ذكر شيئين

من حيث أراد ما ذكر أو نص.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَبُدُّوا أَلْسِنَتَكُمْ﴾ الآية. ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآية هي في صدقة التطوع، قال ابن عباس: جعل الله صدقة السر في التطوع تفضل علانيتها، يقال: بسبعين ضعفاً، وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها يقال: بخمسة وعشرين ضعفاً، قال: وكذلك جميع الفرائض والنوافل في الأشياء كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَيُقَوِّي ذلك قول النبي ﷺ: «صلاة الرجل في بيته أفضل من صلاته في المسجد إلا المكتوبة»، وذلك أن الفرائض لا يدخلها رياء، والنوافل عرضة لذلك.

وقال سفيان الثوري: هذه الآية في

وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ نَفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُمْ مِنْ نَذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٢٧٠﴾ إِنْ تَبُدُّوا أَلْسِنَتَكُمْ فَبِعَيْنَاهُ وَإِنْ تَخْفَوْهَا وَتُوْهُبُوا الْمُضِرَّاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيَكْفُرْ عَنْكُمْ مِنْ سَخِرَ بِكُمْ وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ خَيْرٌ ﴿٢٧١﴾ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِقُكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا لَأْتِيَنَّكُمْ وَجْهَ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْتَسِبُهُمُ الْكَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّقْوَى تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِالْئِيلِ وَالْهَمَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

حكمة، وكل ما ذكر فهو جزء من الحكمة التي هي الجنس - وقرأ الجمهور: ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأ الزهري ويعقوب: ﴿وَمَنْ يُؤْتِ﴾ بكسر التاء على معنى، ومن يُؤْتِ الله الحكمة، فَمَنْ مفعول أول مقدم، والحكمة مفعول ثان، وقرأ الأخفش: ﴿وَمَنْ يُؤْتِيهِ الْحِكْمَةَ﴾، وقرأ الربيع بن ختيم: ﴿تُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ تَشَاءُ﴾ بالتاء في ﴿تُؤْتِي﴾، وفي ﴿تَشَاءُ﴾ منقوطة من فوق، ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ﴾ بالياء.

وباقى الآية تذكر بيئته وإقامة لهمم العَفَلَةِ. والألباب: العقول، واحداً: لُب.

﴿٢٧١﴾ - ﴿٢٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

كانت النذور من سيرة العرب، تُكثَرُ منها، فذكر تعالى النوعين: ما

مدّ ولين، وإنما يجوز ذلك عند النحويين إذا كان الأول حرف مدّ، إذ المد يصير عوضاً من الحركة، وهذا نحو: دابة وضوأل، وشبهه، ولعل أبا عمرو أخفى الحركة واختلسها، كأخذه بالإخفاء في (باريكم - ويأمركم) فظن السامع الإخفاء إسكاناً للطف ذلك في السمع وخفائه.

وأما من قرأ **يَعْمَأُ** بكسر النون والعين فحجته أن أصل الكلمة نعم بكسر الفاء من أجل حرف الحلق، ولا يجوز أن يكون ممن يقول: **يَعْمُ**، ألا ترى أن من يقول: «هذا قدم ملك»، فيدغم «هؤلاء قوم ملك» و«جسم ماجد».

وقال سيبويه: **يَعْمَأُ** بكسر النون والعين ليس على لغة من قال: **يَعْمُ** فأسكن العين، ولكن على لغة من قال: **يَعْمُ** فحرك العين، وحدثنا أبو الخطاب أنها لغة هزبل، وكسرهما - كما قال - لعب ولو كان الذي قال: **يَعْمَأُ** ممن يقول: **يَعْمُ** بسكون العين لم يجز الإدغام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن هذا يمتنع لأنه يسوق إلى اجتماع ساكنين. قال أبو علي: وأما من قرأ: **يَعْمَأُ** بفتح النون وكسر العين فإنما جاء بالكلمة على أصلها وهو **يَعْمُ**، ومنه قول الشاعر:

مَا أَقْلَتُ قَدَمَايَ إِنْ هُمْ
نَعِمَ السَّاعُونَ فِي الْأَمْرِ السُّمِيرِ
ولا يجوز أن يكون ممن يقول قبل الإدغام: **يَعْمُ** بسكون العين، وقال المهدوي: وذلك جائز

محتمل، وتكسر العين بعد الإدغام لالتقاء الساكنين.

قال أبو علي: و(ما) من قوله: **يَعْمَأُ** في موضع نصب، وقوله: **يَعْمَأُ** تفسير للفاعل المضمر قبل الذكر، والتقدير: نعم شيئاً إيدأؤها، وقوله: والإيداء هو المخصوص بالمدح إلا أن المضاف حذف، وأقيم المضاف إليه مقامه، وبذلك على هذا قوله: **يَعْمَأُ** أي الإخفاء خير، فكما أن الضمير هنا للإخفاء لا للصدقات، فكذلك أولاً الفاعل هو الإيداء وهو الذي اتصل به الضمير فحذف الإيداء، وأقيم ضمير الصدقات مقامه.

واختلف القراءة في قوله تعالى: **يَعْمَأُ**، فقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر: **يَعْمَأُ** بالنون ورفع الراء، وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: **يَعْمَأُ** بالنون والجزم في الراء، وروي مثل ذلك أيضاً عن عاصم وقرأ ابن عامر: **يَعْمَأُ** بالياء ورفع الراء، وقرأ ابن عباس: **يَعْمَأُ** بالياء وكسر الفاء وجزم الراء، وقرأ عكرمة: **يَعْمَأُ** بالياء وفتح الفاء وجزم الراء، وقرأ الحسن: **يَعْمَأُ** بالياء وجزم الراء، وروي عن الأعمش أنه قرأ **يَعْمَأُ** بالياء ونصب الراء، وقال أبو حاتم: قرأ الأعمش: **يَعْمَأُ** بالياء دون واو قبلها ويجزم الراء.

وحكى المهدوي عن ابن هرمرز أنه قرأ: **يَعْمَأُ** بالياء ورفع الراء، وحكى عن عكرمة وشهر بن حوشب أنهما قرأ بتاء ونصب الراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فما كان من هذه القراءات بالنون فهي نون العظمة، وما كان منها بالتاء فهي الصدقة فاعلة إلا ما روي عن عكرمة بفتح الفاء فإن التاء في تلك القراءة إنما هي للسينات. وما كان منها بالياء فالله تعالى هو المكفّر - والإعطاء في خفاء هو المكفّر أيضاً كما ذكره مكّي، وأما رفع الراء فهو على وجهين: أحدهما أن يكون الفعل خبير ابتداءً تقديره: ونحن تكفّر، أو: وهي تكفّر، أعني الصدقة، أو والله يكفّر، والثاني: القطع والاستئناف، وألا تكون الواو العاطفة للاشتراك لكن لعطف جملة على جملة. وأما الجزم في الراء فإنه حمل للكلام على موضع قوله تعالى: **يَعْمَأُ** إذ هو في موضع جزم جواباً للشرط كأنه قال: وإن تخفوها يكن أعظم لأجركم، ثم عطفه على هذا الموضع، كما جاءت قراءة من قرأ: **يَعْمَأُ** فمن يعلل الله فكلاً **يَعْمَأُ** ولم يذكرهم بجزم الراء وأمثلة هذا كثيرة.

وأما نصب الراء فعلى تقدير (أن) وتأمل، وقال المهدوي: هو مشبه بالنصب في جواب الاستفهام، إذ الجزاء يجب به الشيء لوجوب غيره كالاستفهام. والجزم في الراء أفصح هذه القراءات، لأنها تؤذن بدخول التكفير في الجزاء، وكونه مشروطاً إن وقع الإخفاء، وأما رفع الراء فليس فيه هذا المعنى.

و**يَعْمَأُ** في قوله: **يَعْمَأُ** للتبعيض المحض، والمعنى في ذلك متمكن، وحكى الطبري عن فرقة

أنها قالت: ﴿يَنْ﴾ زائدة في هذا الموضوع، وذلك منهم خطأ.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَمَلَّوْنَ خَبِيرٌ﴾ وغد ووعيد.

﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن سعيد بن جبير في سبب هذه الآية: أن المسلمين كانوا يتصدقون على فقراء أهل الذمة، فلما كثر فقراء المسلمين قال رسول الله ﷺ: «لا تتصدقوا إلا على أهل دينكم»، فنزلت هذه الآية مبيحة للصدقة على من ليس من أهل دين الإسلام.

وذكر النقاش أن النبي عليه السلام أتى بصدقات فجاءه يهودي فقال: أعطني، فقال النبي ﷺ: «ليس لك من صدقة المسلمين شيء» فذهب اليهودي غير بعيد، فنزلت الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ مَدِينَةٌ﴾ فدعاه رسول الله ﷺ فأعطاه، ثم نسخ الله ذلك بآية الصدقات.

وروي عن ابن عباس أنه كان ناس من الأنصار لهم قرابات في بني قريظة والنضير، وكانوا لا يتصدقون عليهم رغبة في أن يسلموا إذا احتاجوا فنزلت الآية بسبب ذلك.

وحكى بعض المفسرين أن أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنهما أرادت أن تصل جدها أبا حنيفة، ثم امتنعت من ذلك لكونه كافراً فنزلت الآية في ذلك.

وذكر الطبري أن مقصد النبي ﷺ بمنع الصدقة إنما كان ليسلموا ويدخلوا في الدين، فقال الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ مَدِينَةٌ﴾.

وهذه الصدقة التي أبيحت عليهم

حسبما تضمنته هذه الآثار إنما هي صدقة التطوع، وأما المفروضة فلا يجزي دفعها لكافر، وهذا الحكم متصور للمسلمين اليوم مع أهل ذمتهم ومع المُشترَفين من الحريين.

قال ابن المنذر: أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم أن الذمي لا يُعطى من زكاة الأموال شيئاً، ثم ذكر جماعة ممن نص على ذلك ولم يذكر خلافاً - وقال المهدي: ورخص للمسلمين أن يعطوا المشركين من قراباتهم من صدقة الفريضة بهذه الآية، وهذا مردود عندي.

والهدى الذي ليس على محمد ﷺ هو خلق الإيمان في قلوبهم، وأما الهدى الذي هو الدعاء فهو عليه، وليس بمراد في هذه الآية، ثم أخبر تعالى أنه هو يهدي من يشاء أي يرشده، وفي هذا رد على القدرية وطوائف المعتزلة.

ثم أخبر أن نفقة المرء تأجراً إنما هي لنفسه، فلا يراعي حيث وقعت. ثم بين تعالى أن النفقة المعتد بها المقبولة إنما هي ما كان ابتغاء وجه الله، هذا أحد التأويلات في قوله تعالى: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِيَتَّبِعَ اللَّهُ وَجْهَ اللَّهِ﴾، وفيه تأويل آخر، وهو أنها شهادة من الله تعالى للصحابة أنهم إنما ينفقون ابتغاء وجهه، فهو خيرٌ منه لهم فيه تفضيل، وعلى التأويل الآخر هو اشتراط عليهم، ويتناول الاشتراط غيرهم من الأمة. ونصب قوله: ﴿لِيَتَّبِعَ اللَّهُ﴾ هو على المفعول من أجله.

ثم ذكر تعالى أن ثواب الإنفاق يُؤْفَى إلى المنفقين، والمعنى في الآخرة ولا يبخسون منه شيئاً، فيكون ذلك البخس ظلماً لهم، وهذا هو بيان قوله: ﴿وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ﴾.

والخير في هذه الآية المال، لأنه اقترن بذكر الإنفاق، فهذه القرينة تدل على أنه المال، ومتى لم يقترن بما يدل على أنه المال فلا يلزم أن يكون بمعنى المال نحو قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مِمَّا يَشْتَرُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿بِمَشْكَالٍ دَرَّةٍ خَيْرًا مِنْ حَبِّ كَلْبٍ﴾ إلى غير ذلك. وهذا الذي قلناه تحرز من قول عكرمة: «كل خير في كتاب الله فهو المال».

﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه اللام في قوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: الإنفاق أو الصدقة للفقراء.

وقال مجاهد، والسدي، وغيرهما: المراد بهؤلاء الفقراء فقراء المهاجرين من قريش وغيرهم، ثم تتناول الآية كل من دخل تحت صفة الفقر غابر الدهر، وإنما خص فقراء المهاجرين بالذكر لأنه لم يكن هناك سواهم، لأن الأنصار كانوا أهل أموال وتجارة في قطرهم.

ثم بين الله تعالى من أحوال أولئك الفقراء المهاجرين ما يوجب الحنو عليهم بقوله: ﴿الَّذِينَ أَحْصَرُوا فِي سَكِينِ اللَّهِ﴾ والمعنى: حبسوا ومنعوا، وذهب بعض اللغويين إلى أن أحصر وحصر بمعنى واحد من الحبس والمنع سواء كان ذلك بعدد أو بمرض ونحوه من الأعذار، حكاه ابن سيده وغيره.

وفسر السدي هنا الإحصار بأنه بالعدو، وذهب بعضهم إلى أن أحصر إنما يكون بالمرض والأعداء، وحُصر بالعدو، وعلى هذا فسر ابن زيد، وقتادة، ورجحه الطبري، وتأول في هذه الآية أنهم هم حاسبوا أنفسهم بريقة الدين، وقصد الجهاد، وخوف العدو، إذ أحاط بهم الكفر فصار خوف العدو عذراً أحصروا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا متجه كأن هذه الأعداء أحصرتهم، أي جعلتهم ذوي حصر كما قالوا: قبره أدخله في قبره، وأقبره جعله ذا قبر، فالعدو وكل محيط يُحصِر، والأعداء المانعة تُحصِر بضم التاء وكسر الصاد أي تجعل المرأة كالمحاط به، وقوله: ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل الجهاد، ويحتمل الدخول في الإسلام، واللفظ يتناولهما.

والضرب في الأرض: هو التصرف في التجارة، وضرب الأرض هو المشي إلى حاجة الإنسان في البراز، وكانوا لا يستطيعون الضرب في الأرض لكون البلاد كلها كفراً مطبقاً، وهذا في صدر الهجرة، فقلتهم تمنع من الاكتساب بالجهاد، وإنكار الكفار عليهم إسلامهم يمنع من التصرف في التجارة، فبقوا فقراء إلا أنهم من الانقباض وترك المسألة والتوكل على الله بحيث يحسبهم الجاهل بباطن أحوالهم أغنياء.

والتعفف: تفعل بئاء مبالغة، من عَفَّ عن الشيء إذا أمسك عنه، وتنزّه عن طلبه، وبهذا فسر قتادة وغيره.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿يُحْسِبُهُمْ﴾ بكسر السين، وكذلك هذا الفعل في كل القرآن، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿يُحْسِبُهُمْ﴾ بفتح السين في كل القرآن، وهما لغتان في (يحسب) كعهد يعهد ويعهد، بفتح الهاء وكسرهما في حروف كثيرة أنت كذلك، قال أبو علي: فتح السين في (يحسب) أقيس، لأن العين من الماضي مكسورة، فبابها أن تأتي في المضارع مفتوحة، والقراءة بالكسر حسنة لمجيء السمع به، وإن كان شاذاً عن القياس.

﴿يَرْبِكُ﴾ في قوله: ﴿يَرْبِكُ أَلْتَعَفُّ﴾، لا ابتداءً الغاية، أي: من تعففهم ابتدأت محسبته، وليست لبيان الجنس، لأن الجاهل بهم لا يحسبهم أغنياء غناءً تعفف، وإنما يحسبهم أغنياء غنى مال، ومحسبته من التعفف ناشئة، وهذا على أنهم متعففون عفة تامة عن المسألة، وهو الذي عليه جمهور المفسرين، لأنهم قالوا في تفسير قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ الْكَافِرُ﴾ المعنى: لا يسألون الناس البتة، وتحتمل الآية معنى آخر ﴿يَرْبِكُ﴾ فيه لبيان الجنس سنذكره بعد.

والسيما مقصورة: العلامة، وبعض العرب يقول: السيمياء بزيادة ياء وبالمد، ومنه قول الشاعر:

.....

لَهُ سِيمِيَاءٌ لَا تَسْقُ عَلَى الْبَصْرِ
واختلف المفسرون في تعيين هذه السيمياء التي يعرف بها هؤلاء المتعففون - فقال مجاهد: هي

التخشع والتواضع، وقال السدي، والربيع: هي جهد الحاجة وقصف الفقر في وجوههم، وقلة النعمة، وقال ابن زيد هي رثة الحال. وقال قوم - وحكاه مكي -: هي أثر السجود، وهذا أحسن، وذلك لأنهم كانوا متفرغين متوكلين، لا شغل لهم في الأغلب إلا الصلاة، فكان أثر السجود عليهم أبداً.

والإلحاف والإلحاح بمعنى واحد، وقال قوم: هو مأخوذ من ألحف الشيء إذا غطاه وعمه بالتغطية، ومنه اللحاف، ومنه قول ابن أحرر:

يَظَلُّ بِحُفَّتُهُنَّ بِقَفْقَفَتَيْنِهِ
وَيُلْجِفُهُنَّ قَفْقَفًا تُخِينَا

يصف ذكر نعام يحضن بياضاً، فكان هذا السائل المُلِحُّ يعم الناس بسؤاله فيلحفهم ذلك. وذهب الطبري، والزجاج، وغيرهما إلى أن المعنى: لا يسألون البتة، والآية تحتمل المعنيين: نفي السؤال جملة، ونفي الإلحاف فقط، أما الأول فعلى أن يكون التعفف صفة ثانية لهم، ويحسبهم الجاهل بفقهم لسبب تعففهم أغنياء من المال، وتكون ﴿يَرْبِكُ﴾ لا ابتداءً الغاية، ويكون قوله: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ الْكَافِرُ﴾ لم يرد به أنهم يسألون غير إلحاف، بل أريد به التنبيه على سوء حالة من يسأل إلحافاً من الناس، كما تقول: «هذا رجل خير لا يقتل المسلمين»، فقولهم: «خير» قد تضمن أنه لا يقتل ولا يعصي ولو بأقل من ذلك، ثم نُبِّهَتْ بقولك: «لا يقتل المسلمين» على قبح فعل غيره ممن يقتل، وكثيراً ما يقال مثل هذا إذا كان المنبه عليه

بوجود الثاني، أي ليس ثم مناز فإذا لا يكون اهتداء بمنار، وليس ثم قدم فإذا لا يكون عفاة، وليس ثم جوز فإذا لا يكون خوف. وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ الْبَشَرُ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ لا يترتب فيه شيء من هذا، لأن حرف النفي دخل على أمر عام للإلحاف وغيره، ثم خصص بقوله: ﴿إِلْحَافًا﴾ جزءاً من ذلك العام فليس بعدم الإلحاف ينتفي السؤال، وبيت الشعر ينتفي فيه الأول بعدم الثاني إذا دخل حرف النفي فيه على شيء متعلق وجوده بوجود الذي يراد أنه معدوم، والسؤال ليس هكذا مع الإلحاف، بل الأمر بالعكس إذ بعدم الإلحاف منهم ويبقى لهم سؤال لا إلحاف فيه.

ولو كان الكلام: «لا يلحفون الناس سؤالاً» لقرَّب الشبه بالآيات المتقدمة. وكذلك لو كان بعد: «لا يسألون شيء إذا عدم عدم السؤال» كأنك قلت: تكسباً أو نحوه - لصح الشبه، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَسْأَلُونَ خَيْرَ فَرَأَيْتَ اللَّهُ يَوْمَ عَلَيْكُمْ غَضَبًا﴾ مخض أي يعلمه ويُخصيه ليجازي عليه ويشب.

﴿٢٧٤﴾ ﴿٢٧٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس رضي الله عنه: نزلت هذه الآية في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كانت له أربعة دراهم، فتصدق بدرهم ليلياً، وبدرهم نهاراً، وبدرهم سراً، وبدرهم علانية، وقال ابن جريج: نزلت الآية في رجل فعل ذلك ولم يسمَ علماً ولا غيره، وقال ابن عباس

أَي لَيْسَ ثُمَّ مَنَازٌ فَلَيْسَ يَكُونُ اهْتِدَاءً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إن كان الزجاج أراد ألا يكون منهم سؤال البتة، فذلك لا تعطيه الألفاظ التي بعد ﴿لَا﴾، وإنما ينتفي السؤال إذا ضبط المعنى من أول الآية على ما قدمناه. وإن كان أراد: لا يكون منهم سؤال إلحاف فذلك نص الآية.

وأما تشبيه الآية ببيت امرئ القيس فغير

صحيح، وذلك أن قوله:

عَلَى لَا حِبَّ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

وقول الآخر:

قِفْ بِالطُّلُولِ الَّتِي لَمْ يُغْفِهَا الْقِدَمُ

وقول الآخر:

وَمَنْ حَفَّتْ مِنْ جُزُرِهِ فِي الْقَضَاءِ
فَمَا حَفَّتْ جُزُوكَ بِأَعَابِيَةِ

وما جرى مجراه ترتيب يسبق منه أنه لا يُهْتَدَى بالمنار وإن كان المنار موجوداً. فلا ينتفي إلا المعنى الذي دخل عليه حرف النفي فقط، وكذلك ينتفي العفاة وإن وُجد القِدَمُ، وكذلك ينتفي الخوف وإن وجد الجور، وهذا لا يترتب في الآية.

ويجوز أن يريد الشعراء أن الثاني معدوم فلذلك أدخلوا على الأول حرف النفي إذ لا يصح الأول إلا

سُورَةُ الْبَقَرَةِ

الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَخْتَبِطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٤﴾ يَخْتَبِطُهُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرِي الْمَصْدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَدْعُونَ وَذُرُوا مَوَاطِنَ الَّذِينَ كُفَرْتُمْ مَوَاطِنَ الَّذِينَ كُفَرْتُمْ فَادْعُوا يَحْرَبَ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ زُورٌ وَمَأْوَاكُمُ الْمَسْجِدُ وَالزُّمُرُ وَاللَّكُكُ وَالدُّعَابُ وَإِنَّكُمْ لَفِي غَمٍّ بِمَا كُفَرْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧٧﴾ وَإِنْ كَانَتْ ذُرِّيَّتُكُمْ حَرْفًا فَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْخَالِفِينَ ﴿٢٧٨﴾ وَإِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَةَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُنْ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كُفَرُوا لَئِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَةَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُنْ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كُفَرُوا لَئِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾ وَإِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّيبَةَ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُنْ مِثْلَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كُفَرُوا لَئِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٢﴾

٤٧

موجوداً في القضية، مشاراً إليه في نفس المتكلم والسامع. وسؤال الإلحاف لم تخل منه مدة وهو مما يكره، فلذلك نبه عليه، وأما المعنى الثاني فعلى أن يكون التعفف داخلياً في المحسبة، أي أنهم لا يظهر لهم سؤال، بل هو قليل.

وإجمال فالجاهل به مع علمه بفرقه يحسبهم أغنياء عفاة، ف﴿يَتَّقُوا﴾ لبيان الجنس على هذا التأويل، ثم نفى عنهم سؤال الإلحاف وبقي غير الإلحاف مقررأ لهم حسب ما يقتضيه دليل الخطاب، وهذا المعنى في نفي الإلحاف فقط هو الذي تقتضيه ألفاظ السدي.

وقال الزجاج رحمه الله: المعنى: لا يكون منهم سؤال فلا يكون إلحاف، وهذا كما قال امرؤ القيس: عَلَى لَا حِبَّ لَا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

أيضاً: نزلت هذه الآية في علف الخيل، وقال عبدالله بن بشر الغافقي، وأبو ذر، وأبو أسامة، والأوزاعي، وأبو الدرداء. قالوا: هي في علف الخيل المرتبطة في سبيل الله، وقال قتادة: هذه الآية في المنفقين في سبيل الله من غير تبذير ولا تقتير.

والآية - وإن كانت نزلت في علي بن أبي طالب - فمعناها يتناول كل من فعل فعله، وكل مشاء بصدفته في الظلم إلى مظنة الحاجة. وأما علف الخيل والتفقة عليها فإن ألفاظ الآية تتناولها تناولاً محكماً، وكذلك المنفق في الجهاد، المباشر له إنما يجيء إنفاقه على رتب الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنه: كان المؤمنون يعملون بهذه الآيات من قوله: ﴿إِنْ تَبَدُّوا الْمَدَقَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾، فلما نزلت براءة بتفصيل الزكاة قصروا عليها. وقد تقدم القول على نفي الخوف والحزن.

والفاء في قوله: ﴿فَلَهُمْ﴾ دخلت لما في ﴿الَّذِينَ﴾ من الإبهام، فهو يشبه بإبهامه الإبهام الذي في الشرط، فحسنت الفاء في جوابه كما تحسن في الشرط، وإنما يوجد الشبه إذا كان ﴿الَّذِي﴾ موصولاً بفعل، وإذا لم يدخل على ﴿الَّذِي﴾ عامل يغير معناه. فإن قلت: «الذي أبوه زيد هو عمرو» فلا تحسن الفاء في قولك: «فهو» - بل تلبس المعنى، وإذا قلت: «ليت الذي جاءك جاءني» لم يكن للفاء - مدخل في المعنى. وهذه الفاء المذكورة إنما تجيء مؤكدة للمعنى،

وقد يستغنى عنها إذا لم يقصد التأكيد كقوله بعد: ﴿لَا يَتُومُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا﴾ الآية. الربا: هو الزيادة، وهو مأخوذ من: رَبًا يَرِبُو إِذَا تَمَّا وَزَادَ عَلَى مَا كَانَ. وغالبه ما كانت العرب تفعله من قولها للغريم: أتقضي أم تربني؟ فكان الغريم يزيد في عدد المال ويصير الطالب عليه، ومن الربا البين التفاضل في النوع الواحد لأنها زيادة، وكذلك أكثر البيوع المنوعة إنما نجد منعها لمعنى زيادة، إما في عين مال، وإما في منفعة لأحدهما من تأخير ونحوه.

ومن البيوع ما ليس فيه معنى الزيادة، كبيع الشمرة قبل بدو صلاحها، وكالبيع ساعة النداء يوم الجمعة، فإن قيل لفاعلها أكل ربا، فتجوز وتشبيه.

والربا من ذوات الواو، وتثنيته: ربوان عند سيويه، ويكتب بالألف، قال الكوفيون: يكتب ويشي بالياء لأجل الكسرة التي في أوله، وكذلك يقولون في الثلاثي من ذوات الواو إذا انكسر الأول أو انضم نحو «ضحى»، فإن كان مفتوحاً نحو صفاً فكما قال البصري.

ومعنى هذه الآية: الذين يكسبون الربا ويفعلونه، وقصد إلى لفظة الأكل، لأنه أقوى مقاصد الإنسان في المال، ولأنها دالة على الجشع، فأقيم هذا البعض من توابع الكسب مقام الكسب كله، فاللباس والسكنى والادخار والإنفاق على العيال وغير ذلك داخل كله في قوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ﴾.

وقال ابن عباس رضي الله عنه، ومجاهد، وابن جبير، وقاتدة، والربيع، والضحاك، والسدي، وابن زيد: معنى قوله: ﴿لَا يَتُومُونَ﴾ من قبورهم في البعث يوم القيامة، وقال بعضهم: يجعل معه شيطان يخنقه، وقالوا كلهم: يبعث كالمجنون عقوبة له وتمقيتاً عند جمع المحشر، ويقوي هذا التأويل المجمع عليه أن في قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿لا المجنون﴾، وأما ألفاظ الآية فكانت تحتل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون، لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما نقول لمسرع في مشيه مخلط في هيئة حركاته إما من فرغ أو غيره: قد جن هذا. وقد شبه الأعشى ناقته في نشاطها بالمجنون في قوله:

وَتَضْبِغُ مِنْ غَبِّ السُّرَى وَكَأَنَّهَا
أَلَمَ بِهَا مِنْ طَائِفِ الْجِنَّ أَوْلَقُ
لكن ما جاءت به قراءة ابن مسعود، وتظاهرت به أقوال المفسرين يضعف هذا التأويل.

و﴿يَخْبِطُ﴾ يتفعله من: خبط يخبط، كما تقول: تملكه وتعبده وتحمله.

والمس: الجنون، وكذلك الأولق والألس والزؤد.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ معناه عند جميع المتأولين: في الكفار، وأنه قول بتكذيب الشريعة ورد عليها، والآية كلها في الكفار المرين نزلت، ولهم

قيل: ﴿فَلَمْ يَأْتِ سَلَفًا﴾ ولا يقال ذلك لمؤمن عاص ولكن يأخذ العصاة في الربا بطرف من وعيد هذه الآية.

ثم جزم تعالى الخبر في قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾، وقال بعض العلماء في قوله: ﴿وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ﴾، هذا على عموم القرآن، لأن العرب كانت تقدر على إنفاذه لأن الأخذ والإعطاء عندها بيع، وكل ما عارض العموم فهو تخصيص منه. وقال بعضهم: «هو من مجمل القرآن الذي فسر بالمحلل من البيع، وبالمحرم من الربا». والقول الأول عندي أصح، قال جعفر بن محمد الصادق: «حرم الله الربا ليتقارض الناس». وقال بعض العلماء: حرمه الله لأنه متلقة للأموال مهلكة للناس.

وسقطت علامة التأنيت في قوله: ﴿فَنَجَاءُكُمْ﴾ لأن تأنيت الموعظة غير حقيقي وهي بمعنى: وعظ. وقرأ الحسن: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ﴾ بإثبات العلامة.

وقوله: ﴿فَلَمْ يَأْتِ سَلَفًا﴾ أي من الربا لا يتباعه عليه منه في الدنيا ولا في الآخرة، قاله السدي وغيره، وهذا حكم من الله تعالى لمن أسلم من كفار قريش وثقيف ومن كان يتجر هنالك، و﴿سَلَفًا﴾ معناه: تقدم في الزمن وانقضى.

وفي قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أربع تأويلات - أحدها: أن الضمير عائد على ﴿الرِّبَا﴾، بمعنى: وأمر الربا إلى الله في إمرار تحريمه أو غير ذلك. والآخر: أن يكون الضمير عائداً على ﴿مَا سَلَفَ﴾ أي

أمره إلى الله في العفو عنه وإسقاط التبعة فيه، والثالث: أن يكون الضمير عائداً على ذي الربا، بمعنى: أمره إلى الله في أن يشته على الانتهاء أو يعيده إلى المعصية في الربا. والرابع: أن يعود الضمير على المنتهي، ولكن بمعنى التأنيس له، ويسطأمله في الخير، كما تقول: وأمره إلى طاعة وخير، وموضع رجاء، وكما تقول: وأمره في نمو أو إقبال إلى الله وإلى طاعته. ويجيء الأمر هاهنا ليس في الربا خاصة، بل وجملة أموره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ﴾ يعني إلى فعل الربا، والقول إنما البيع مثل الربا، وإن قدرنا الآية في كافر فالخلود خلود تأبيد حقيقي، وإن لحظناها في مسلم عاص، فهذا خلود مستعار على معنى المبالغة، كما تقول العرب: «ملك خالد»: عبارة عن دوام ما، لا على التأبيد الحقيقي.

﴿٣٧٧﴾ - ﴿٣٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَسْحَقُ﴾ معناه: ينقص ويذهب، ومنه محاق القمر وهو انتقاصه، ﴿وَيُرِي الْمَكْدَنَاتِ﴾ معناه: ينميتها ويزيد ثوابها تضاعفاً، تقول: ربت الصدقة، وأرباها الله تعالى ورباها، وذلك هو التضعيف لمن يشاء، ومنه قول النبي ﷺ: «إِنْ صَدَقَ أَحَدُكُمْ لَتَقْعَ فِي يَدِ اللَّهِ، فَيُرِيهَا لَهُ كَمَا يَرِي أَحَدُكُمْ فَصِيلَهُ أَوْ فُلُوهُ حَتَّى يَجِيءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَإِنَّ اللَّقْمَةَ لَعَلَى قَدَرِ أَحَدٍ». وقد جعل الله هذين الفعلين بعكس ما يظنه الحريص الجشع من بني آدم، يظن الربا يغنيه وهو في

الحقيقة يمحق، ويظن الصدقة تُفْقِرُه وهي نماء في الدنيا والآخرة.

وقرأ ابن الزبير: ﴿يُمَحِّقُ اللَّئِمَ﴾ بضم الياء وكسر الحاء مشددة و﴿يُرِيَّيْ﴾ بفتح الراء وشد الياء، ورويت عن النبي ﷺ كذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كَلَّ كَلَّارِ أَثِيمٍ﴾ يقتضي أن الزجر في هذه الآية للكفار المستحلين، القائلين على وجه التكذيب للشرع: «إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا». ووصف الكفار بأثيم إما مبالغة من حيث اختلف اللفظان، وإما ليذهب الاشتراك الذي في ﴿كَلَّارٍ﴾ إذ قد يقع على الزارع الذي يستر الحب في الأرض. قاله ابن فورك قال: ومعنى قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ﴾ أي: لا يحب الكفار الأثيم محسناً صالحاً بل يريد مسيئاً فاجراً، ويحتمل أن يريد: والله لا يحب توفيق الكفار الأثيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه تأويلات مستكرهه - أما الأول فأفرط في تعدية الفعل، وحمله من المعنى ما لا يحتمله لفظه، وأما الثاني فغير صحيح المعنى، بل الله تعالى يحب التوفيق على العموم ويحبه، والمحب في الشاهد يكون منه ميل إلى المحبوب، ولطف به، وحرص على حفظه، وتظهر دلائل ذلك. والله تعالى يريد وجود الكافر على ما هو عليه وليس له عنده مزية الحب بأفعال تظهر عليه نحو ما ذكرناه في الشاهد وتلك المزية موجودة للمؤمن.

ولما انقضى ذكرهم عقب بذكر ضدهم ليبين ما بين الحالين فقال:

﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، وقد تقدم تفسير مثل ألفاظ هذه الآية، وخص الصلاة والزكاة بالذكر - وقد تَضَمَّنَهُمَا عمل الصالحات - تشريفاً لهما، وتنبيهاً على قدرهما إنَّهُمَا رأس الأعمال - الصلاة في أعمال البدن، والزكاة في أعمال المال.

﴿٢٧٨﴾ - ﴿٢٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية أنه كان الربا بين الناس كثيراً في ذلك الوقت، وكان بين قريش وثقيف ربا، فكان لهؤلاء على هؤلاء، فلما فتح رسول الله ﷺ مكة قال في خطبته في اليوم الثاني من الفتح: «أَلَا كُلُّ رِيبَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَأَوَّلُ رِيبَا أَضَعَهُ رِيبَا الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلُبِ» فبدأ ﷺ بعمه وأخص الناس به، وهذه من سنن العدل للإمام أن يفيض العدل على نفسه وخاصته فيستفيض حينئذ في الناس، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة، واستعمل على مكة عتّاب بن أسيد، فلما استنزل أهل الطائف بعد ذلك إلى الإسلام اشتروا شروطاً منها ما أعطاه رسول الله ﷺ، ومنها ما لم يعطه، وكان في شروطهم أن كل ربا لهم على الناس فإنهم يأخذونه، وكل ربا عليهم فهو موضوع، فيروى أن رسول الله ﷺ قرر لهم هذه، ثم ردها الله بهذه الآية كما رد صلحه لكفار قريش في رد النساء إليهم عام الحديبية.

وذكر النقاش رواية أن رسول الله ﷺ أمر أن يكتب في أسفل الكتاب لثقيف: «لَكُمْ مَا لِلْمُسْلِمِينَ وَعَلَيْكُمْ مَا عَلَيْهِمْ»، فلما

جاءت آجال رباهم بعثوا إلى مكة للاقتضاء وكانت الديون لبني غيرة. وهم بنو عمرو بن عمير من ثقيف، وكانت لهم على بني المغيرة المخزوميين، فقال بنو المغيرة: لا نعطي شيئاً. فإن الربا قد وضع، ورفعوا أمرهم إلى عتّاب بن أسيد بمكة، فكتب به إلى رسول الله ﷺ فنزلت، وكتب بها رسول الله ﷺ إلى عتّاب، فعلمت بها ثقيف فكفت. هذا سبب الآية على اختصار مجموع مما روى ابن إسحاق، وابن جريج، والسدي، وغيرهم، فمعنى الآية: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بترككم ما بقي لكم من ربا وصفحكم عنه.

وقوله: «إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ» شرط محض في ثقيف على بابه، لأنه كان في أول دخولهم في الإسلام، وإذا قدرنا الآية فيمن تقرر إيمانه فهو شرط مجازي على جهة المبالغة، كما تقول لمن تريد إقامة نفسه: إن كنت رجلاً فاعل كذا.

وحكى النقاش عن مقاتل بن سليمان أنه قال: «إِنْ» في هذه الآية بمعنى «إِذ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود لا يعرف في اللغة، وقال ابن فورك: يحتمل أنه يريد: يا أيها الذين آمنوا بمن قبل محمد من الأنبياء ذروا ما بقي من الربا إن كنتم مؤمنين بمحمد إذ لا ينفع الأول إلا بهذا. وهذا مردود بما روي في سبب الآية.

ثم توعدهم تعالى - إن لم يذروا الربا - بحرب من الله ورسوله،

والحرب داعية القتل، وروى ابن عباس أنه يقال يوم القيامة لآكل الربا: خذ سلاحك للحرب. وقال ابن عباس أيضاً: من كان مقيماً على الربا لا ينزع عنه، فحق على إمام المسلمين أن يستتبه، فإن نزع وإلا ضرب عنقه. وقال قتادة: أوعد الله أهل الربا بالقتل فجعلهم بهرجاً أينما ثقفوا، ثم ردهم تعالى مع التوبة إلى رؤوس أموالهم وقال لهم: «لَا تَقْلِبُوا فِي الْأَمْوَالِ الَّتِي لَكُمْ» في أن يتمسك بشيء من رؤوس أموالكم فتذهب أموالكم. ويحتمل أن يكون «لَا تَقْلِبُوا» في مطل، لأن (مطل الغني ظلم) كما قال ﷺ، فالمعنى أن يكون القضاء مع وضع الربا، وهكذا سنة الصلح، وهذا أشبه شيء بالصلح، ألا ترى أن النبي ﷺ لما أشار على كعب بن مالك في دين ابن أبي حدرد بوضع الشطر فقال كعب: نعم يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ، للآخر: «قم فاقضه»، فتلقى العلماء أمره بالقضاء سنة في المصالحات. وقرأ الحسن: «مَا بَقِيَ» بكسر القاف وإسكان الياء وهذا كما قال جرير:

هُوَ الْخَلِيفَةُ فَارْضُوا مَا رَضِيَ لَكُمْ
مَاضِي الْغَزِيمَةِ مَا فِي حُكْمِهِ جَنَفٌ
وَوَجْهَهَا أَنَّهُ شِبْهُ الْبَاءِ بِالْأَلْفِ، فَكَمَا
لَا تَصِلُ الْحَرَكَةُ إِلَى الْأَلْفِ فَكَذَلِكَ
لَمْ تَصِلْ هُنَا إِلَى الْبَاءِ، وَفِي هَذَا
نَظَرٌ.

وقرأ أبو السمال: «بِمَنْ الرُّبُؤُ» بكسر الراء المشددة وضم الباء وسكون الواو، وقال أبو الفتح: شدُّ

هذا الحرف في أمرين - أحدهما: الخروج من الكسر إلى الضم بناء لازماً، والآخر: وقوع الواو بعد الضمة في آخر الاسم، وهذا شيء لم يأت إلا في الفعل نحو: يغزو ويدعو - أما (ذو) الطائفة بمعنى الذي فشاذة جداً، ومنهم من يغير واوها إذا فارق الرفع فيقول: رأيت ذا قام. ووجه القراءة أنه فحُم الألف فانتحى بها الواو التي الألف بدل منها، على حد قولهم: الصلاة والزكاة، وهي بالجملة قراءة شاذة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، والكسائي: ﴿فَأَذْنُوا﴾ مقصورة مفتوحة الذال. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿فَأَذْنُوا﴾ ممدودة مكسورة الذال، قال سيبويه: أذنت: أعلمت، وأذنت: ناديت وصوتت بالإعلام، قال: وبعض يجري أذنت مجرى أذنت. قال أبو علي: من قال: فأذنوا فقصر معناه: فاعلموا الحرب من الله، قال ابن عباس وغيره من المفسرين: معناه: فاستيقنوا الحرب من الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي من الإذن، وإذا أذن المرء في شيء فقد قرره وبنى مع نفسه عليه فكأنه قال لهم: فقررنا الحرب بينكم وبين الله ورسوله، ويلزمهم - من لفظ الآية - أنهم مُسْتَدْعُو الحرب والباغون لها إذ هم الأذنون بها وفيها، ويندرج في هذا المعنى الذي ذكرته عليهم بأنهم حرب، وتيقنهم لذلك. قال أبو علي: من قرأ فأذنوا، فنمذ فتقديره: فأعلموا من لم ينته عن ذلك بحرب،

والمفعول محذوف، وقد ثبت هذا المفعول في قوله تعالى: ﴿فَقُلْ مَا أَدْنُوَكُمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾، وإذا أمسروا بإعلام غيرهم علموا هم لا محالة، قال: ففي إعلامهم علمهم، وليس في علمهم إعلامهم غيرهم، فقراءة المد أرجح لأنها أبلغ وأكد، قال الطبري: قراءة القصر أرجح لأنها تختص بهم، وإنما أمروا على قراءة المد بإعلام غيرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقراءتان عندي سواة لأن المخاطب في الآية محصور بأنه كل من لم يذر ما بقي من الربا، فإن قيل لهم: ﴿فَأَذْنُوا﴾ فقد عمهم الأمر، وإن قيل لهم: ﴿فَأَذْنُوا﴾ بالمد فالمعنى أنفُسكم وبعضكم بعضاً، وكأن هذه القراءة تقتضي فسحاً لهم في الارتياح والتثبت، أي فأعلموا نفوسكم هذا، ثم انظروا في الأرجح لكم: ترك الربا أو الحرب.

وقرأ جميع القراء: ﴿لَا تُظْلِمُونَ﴾ بفتح التاء، و﴿وَلَا تُظْلَمُونَ﴾ بضمها، وقد مضى تفسيره، وروي المفضل عن عاصم: ﴿لَا تُظْلَمُونَ﴾ بضم التاء في الأولى وفتحها في الثانية. قال أبو علي: وترجح قراءة الجماعة بأنها تناسب قوله: ﴿فإن تبتم﴾ في إسناد الفعلين إلى الفاعل، فيجيء ﴿تظلمون﴾ بفتح التاء أشكل بما قبله.

﴿٢٨٠﴾ - ﴿٢٨١﴾ تفسير قوله عز وجل:

حكم الله تعالى لأرباب الربا برؤوس أموالهم عند الواجدين للمال، ثم حكم في ذي العسرة بالنظرة إلى حالة اليسر، قال

المهدوي: وقال بعض العلماء: هذه الآية ناسخة لما كان في الجاهلية من بيع من أعسر بدين، وحكى مكي أن النبي ﷺ أمر به في صدر الإسلام فإن ثبت فعل النبي ﷺ فهو نسخ، وإلا فليس بنسخ.

والعسر: ضيق الحال من جهة عدم المال، ومنه: جيش العسرة.

والنظرة: التأخير، والميسرة: مصدر بمعنى اليسر، وارتفع ﴿ذو عُسْرٍ﴾ بكان التامة التي هي بمعنى وجد وحدث، هذا هو قول سيبويه، وأبي علي، وغيرهما، ومن هنا يظهر أن الأصل الغنى ووفور الذمة، وأن العدم طارئٌ حادث يلزم أن يثبت، وقال بعض الكوفيين - وحكاه الطبري - بل هي كان الناقصة، والخبر محذوف تقديره: وإن كان من غرمانكم ذو عسرة، وارتفع قوله: ﴿فَنظِرَةٌ﴾ على خبر ابتداءٍ مقدر، تقديره: فالواجب نظرة، أو

فالحكم نظرة، قال الطبري: وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿وإن كان ذا عُسْرَةٍ﴾ على معنى: وإن كان المطلوب. وقرأ الأعمش: ﴿وإن كان مُسْبِرًا فَنظِرَةٌ﴾. قال أبو عمرو الداني، عن أحمد بن موسى: وكذلك في مصحف أبي بن كعب، قال مكي، والنقاش: وعلى هذا يختص لفظ الآية بأهل الربا، وعلى من قرأ: ﴿وإن كان ذو﴾ فهي عامة في جميع من عليه دين، وهذا غير لازم. وحكى المهدوي أن في مصحف عثمان: ﴿فإن كان﴾ بالفاء ﴿ذو عُسْرٍ﴾ بالواو.

وقراءة الجماعة: ﴿نظرة﴾ بكسر

الظاء، وقرأ مجاهد، وأبو رجاء، والحسن: ﴿فَنظَرَةٌ﴾ بسكون الظاء، وكذلك قرأ الضحاك، وهي لغة تميمية، وهم الذين يقولون: كرم زيد بمعنى كرم، ويقولون كبد في كبد - وكتف في كتف.

وقرأ عطاء بن أبي رباح: ﴿فَنَاطِرَةٌ﴾ على وزن فاعلة، وقال الزجاج: هي من أسماء المصادر، كقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِقَوْمِهَا كَذِبَةٌ﴾، وكقوله تعالى: ﴿تَنْظُرُ لَنْ يُعَمَّلَ بِهَا فَايَةٌ﴾، و﴿حَايَةَ الْأَعْيُنِ﴾ وغيره. وقرأ نافع وحده: ﴿مَيْسِرَةٌ﴾ بضم السين، وقرأ باقي السبعة، وجمهور الناس: ﴿مَيْسِرَةٌ﴾ بفتح السين، على وزن مفعلة، وهذه القراءة أكثر في كلام العرب، لأن مفعله بضم العين قليل، قال أبو علي: قد قالوا: مسرئية ومسرئية. ولكن مفعلة بفتح العين أكثر في كلامهم.

وقرأ عطاء بن أبي رباح أيضاً ومجاهد: ﴿فَنَاطِرَةٌ إِلَى مَيْسِرَةٍ﴾ على الأمر في ﴿نَاطِرَةٌ﴾، وجعلا الهاء ضمير الغريم، وضماً السين من ﴿مَيْسِرَةٍ﴾، وكسر الراء، وجعلا الهاء ضمير الغريم. فأما ﴿نَاطِرَةٌ﴾ ففاعله من التأخير، كما تقول: سابعه، وأما (مَيْسِرَةٌ) فشاذٌ - قال سيويه: ليس في الكلام (مَفْعَلٌ). قال أبو علي: يريد في الأحاد، فأما في الجمع فقد جاء قول عدي بن زيد:

أَبْلَغُ الثُّغْمَانَ عَنِّي مَأْلُكَا
أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وَانْتِظَارِي
وقول جميل:
بِشِينٍ - الزمي (لا) إِنَّ (لا) إِنْ لَزِمْتِيهِ

على كثرة الواشين أي مَعُونُونَ فالأول: جمع مألركة، والآخر: جمع معونة، وقال ابن جني: إِنَّ عِدِيًّا أَرَادَ مَأْلُكَةَ فَحَذَفَ، وكذلك جميل أراد: أَي مَعُونَةَ، وكذلك قول الآخر:

لَيْسُومُ رَوْحٌ أَوْ فَسْعَالٍ مَكْرُومٌ
أراد مَكْرُومَةً فَحَذَفَ. قال: ويحتمل أن تكون جمعاً كما قال أبو علي. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فَإِنْ كَانَ مَيْسِرٌ جَمْعٌ مَيْسِرَةٌ فَيَجْرِي مَجْرَى هَذِهِ الْأَمْثَلَةِ، وَإِنْ كَانَ قَارِنَهُ أَرَادَ بِهِ الْإِفْرَادَ فَذَلِكَ شَاذٌ، وَقَدْ خَطَأَهُ بَعْضُ النَّاسِ، وَكَلَامُ سَيُوبَةَ يَرِدُهُ.

واختلف أهل العلم - هل هذا الحكم بالنظرة إلى الميسرة واقف على أهل الربا أو هو منسحب على كل ذي دين حال؟ فقال ابن عباس، وشريح: ذلك في الربا خاصة، وأما الديون وسائر الأمانات فليس فيها نظرة، بل تؤدي إلى أهلها - وكان هذا القول يترتب إذا لم يكن في فقر مدقع، وأما مع الفقر والغدم الصريح، فالحكم هي النظرة ضرورة.

وقال جمهور العلماء: النظرة إلى الميسرة حكم ثابت في المعسر سواء كان الدين ربياً، أو من تجارة في ذمة، أو من أمانة، وبذلك فسره الضحاك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ ابتداء وخبره ﴿تَبَرُّ﴾، وندب الله تعالى بهذه الألفاظ إلى الصدقة على المعسر، وجعل ذلك خيراً من إنظاره. قاله السدي، وابن زيد،

والضحاك، وجمهور الناس، وقال الطبري: وقال آخرون: معنى الآية: وأن تصدقوا على الغني والفقير خير لكم، ثم أدخل الطبري تحت هذه الترجمة أقوالاً لقتادة، وإبراهيم النخعي لا يلزم منها ما تضمنته ترجمته، بل هي كقول جمهور الناس، وليس في الآية مدخل للغني.

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَصَدَّقُوا﴾ بتشديد الصاد على الإدغام من تصدقوا، وقرأ عاصم: ﴿وَأَنْ تَصَدَّقُوا﴾ بتخفيف الصاد، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَأَنْ تَتَصَدَّقُوا﴾ بفك الإدغام. وروى سعيد بن المسيب عن عمر بن الخطاب أنه قال: «كان آخر ما أنزل من القرآن آية الربا، وقبض رسول الله ﷺ ولم يفسرها لنا، فدعوا الربا، والريبة». وقال ابن عباس: «آخر ما نزل آية الربا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا عندي أنها من آخر ما نزل، لأن جمهور الناس - ابن عباس، والسدي، والضحاك، وابن جريج، وغيرهم - قالوا: آخر آية نزلت قوله تعالى: ﴿وَأَتَتْكُمْ رِيْبَةٌ﴾.

وقال سعيد بن المسيب: بلغني أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين. وروي أن قوله: ﴿وَأَتَتْكُمْ رِيْبَةٌ﴾ نزلت قبل موت النبي ﷺ بتسع ليال، ثم لم ينزل بعدها شيء، وروي: بثلاث ليال، وروي أنها نزلت قبل موته بثلاث ساعات، وأنه قال عليه السلام: «اجعلوها بين آية الربا

ووصفه الأجل بـ ﴿مُسَكِّي﴾ دليل على أن الجهالة لا تجوز، فكان الآية رفضتها، وإذا لم تكن تسمية وحد فليس هناك أجل - وذهب بعض الناس إلى أن كتب الديون واجب على أربابها فرض بهذه الآية، وذهب الربيع إلى أن ذلك وجب بهذه الألفاظ، ثم خففه الله تعالى بقوله: ﴿فَإِنْ آيِنَ بِعَمَلِكُمْ مَعْسًا﴾، وقال الشعبي: كانوا يرون أن قوله: ﴿فَإِنْ آيِنَ﴾، نسخ لأمره بالكتب، وحكي نحوه ابن جريج، وقاله ابن زيد، وروي عن أبي سعيد الخدري، وقال جمهور العلماء: الأمر بالكتب نذب إلى حفظ الأموال، وإزالة الريب، وإذا كان الغريم تقياً فما يضره الكتاب، وإن كان غير ذلك فالكتاب ثقاف في دينه، وحاجة صاحب الحق، وقال بعضهم: إن أشهدت فحزم، وإن ائتمنت ففي حال وسعة، وهذا هو القول الصحيح، ولا يترتب نسخ في هذا لأن الله تعالى نذب إلى الكتب فيما للمرء أن يهبه ويتركه بإجماع، فندبه إنما هو على جهة الحيلة للناس.

ثم أخبر تعالى أنه سيقع الائتمان فقال: إن وقع ذلك فليؤدّد - الآية، فهذه وصية للذين عليهم الديون، ولم يجزم تعالى الأمر نصاً بآلا يكتب إذا وقع الائتمان.

وأما الطبري رحمه الله فذهب إلى أن الأمر بالكتب فرض واجب، وطول في الاحتجاج، وظاهر قوله أنه يعتقد الأوامر على الوجوب حتى يقوم دليل على غير ذلك.

واختلف الناس في قوله تعالى:

كَأَنَّهُ تَعَالَى رَفَقَ
بِالْمُؤْمِنِينَ عَلَى أَنْ
يُؤَاجَهُهُمْ بِذِكْرِ الرَّجْعَةِ إِذْ
هِيَ مَا تَنْظُرُ لَهُ الْقُلُوبُ،
فَقَالَ لَهُمْ: ﴿وَأَتَقُوا يَوْمًا﴾
ثم رجع في ذكر الرجعة
إلى الغيبة رفقا بهم. وقرأ
أبي بن كعب: ﴿يَوْمًا
تُرْفُونَ﴾ بضم التاء.

وجهور العلماء على أن
هذا اليوم المحذّر منه هو
يوم القيامة والحساب
والتوفية، وقال قوم هو
يوم الموت والأول أصح
بحكم الألفاظ في الآية،
وفي قوله: ﴿إِلَى اللَّهِ﴾
مضاف محذوف تقديره:

إلى حكم الله، وفضل قضائه،
وقوله: ﴿وَهُمْ﴾ ردّ على معنى ﴿كُلُّ
نَفْسٍ﴾ لا على اللفظ إلا على قراءة
الحسن: ﴿يُرْجِعُونَ﴾ فقوله:
﴿وَهُمْ﴾ ردّ على ضمير الجماعة في
﴿يُرْجِعُونَ﴾.

وفي هذه الآية نص على أن الثواب
والعقاب متعلق بكسب الإنسان،
وهذا ردّ على الجبرية.

﴿٢٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس رضي الله عنه:
نزلت هذه الآية في السلم خاصة،
معناه أن سلم أهل المدينة كان سبب
هذه الآية، ثم هي تتناول جميع
المدينت إجماعاً.

وبين تعالى بقوله: ﴿بَيْنِي﴾ ما في
قوله: ﴿تَدَانِيكُمْ﴾ من الاشتراك، إذ
قد يقال في كلام العرب: تدانينا
بمعنى: جازى بعضهم بعضاً.

يَأْتِيهَا الَّذِينَ مَاتُوا إِذَا تَدَانَيْتُمْ بَيْنِي إِلَى أَجَلٍ مُسَكِّي
فَأَكْتَسَبُوهُ وَلَيْكُنَّ بَيْنَكُمْ كِتَابٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْتِ
كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيَسْلِلِ
الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَسِقِ اللَّهُ رَبِّهٖ وَلَا يَبْحَسْ مِنْهُ شَيْئًا
فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَفِيعُ
أَنْ يُجِلَّ هُوَ فَلْيَسْلِلْ وَلْيَهُ بِالْعَدْلِ وَأَسْتَشْهِدْ وَأَشْهَدَيْنِ
مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَآمْرٌ أُتَانِ
مَعْنَى رَضُونَ مِنَ الشَّهَادَةِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكَّرَ
إِحْدَاهُمَا الْآخَرَى وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْمَعُوا
أَنْ تَكْتُوبُوا صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَى أَجَلِهِمْ ذَلِكُمْ أَقْسَطُ
عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدَقُّ الْأَلْفَاظُ لِأَنَّ تَكُونَ
تَجِدَرَةٌ حَاضِرَةٌ تُدِيرُهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ
أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَادُّ كِتَابٌ
وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَقَلُّوا فَإِنَّهُ سَوْفَ يُكْتَبُ وَأَتَقُوا
اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ لِمَنْ يَشَاءُ عَلَيْهِ ۖ ﴿٢٨٢﴾

وآية اللذين، وحكى مكي أن
النبي ﷺ قال: «جاءني جبريل
فقال: اجعلها على رأس مائتين
وثمانين آية من البقرة».

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَقُوا﴾ إلى آخر
الآية وعظ لجميع الناس، وأمر
يخص كل إنسان و﴿يَوْمًا﴾ منصوب
على المفعول لا على الظرف.

وقرأ أبو عمرو بن العلاء:
﴿تُرْجِعُونَ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم،
وقرأ باقي السبعة ﴿تُرْجِعُونَ﴾ بضم
التاء وفتح الجيم، فمثل قراءة أبي
عمرو: ﴿إِنَّ لَنَا إِيَّاهُمْ﴾ ومثل
قراءة الجماعة: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ﴾
﴿وَلَكِنْ رُدُّوا إِلَى رَبِّي﴾. والمخاطبة
في القراءتين بالتاء على جهة المبالغة
في الوعظ والتحذير. وقرأ الحسن:
﴿يُرْجِعُونَ﴾ بالياء على معنى يرجع
جميع الناس. قال ابن جنبي:

وغير ذلك. والسفيه: المهلهل الرأي في المال الذي لا يُحسن الأخذ لنفسه ولا الإعطاء منها، مشبه بالثوب السفيه وهو الخفيف النسيج، والسُفه: الخفة، ومنه قول الشاعر وهو ذو الرمة:

مَشِينٌ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفُهُتْ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيحِ الشَّوَابِسِ
وهذه الصفة في الشريعة لا تخلو من حجر أب أو وصي، وذلك هو وليه، ثم قال: ﴿أَوْ صَوِيحًا﴾ والضعيف: هو المدخول العقل، الناقص الفطرة، وهذا أيضاً قد يكون وليه أباً أو وصياً - والذي لا يستطيع أن يُبلَّ هو: الصغير، ووليّه وصيه أو أبوه، والغائب عن موضع الإشهاد إما لمرض أو لغير ذلك من العذر، ووليّه وكيله، وأما الأخرس فيسوغ أن يكون من الضعفاء، والأولى أنه ممن لا يستطيع، فهذه أصناف تتميز، وقد تجد من ينفرد بواحد واحد منها، وقد يجتمع منها اثنان في شخص، وربما اجتمعت كلها في شخص، وهذا الترتيب ينتزع من قول مالك وغيره من العلماء الحدائق.

وقال بعض الناس: السفيه: الصبي الصغير، وهذا خطأ، وقال قوم: الضعيف: هو الكبير الأحمق، وهذا قول حسن.

وجاء الفعل مضاعفاً في قوله: ﴿أَنْ يُبَلَّ﴾، لأنه لو فُكَّ لتوالت حركات كثيرة، والفك في هذا الفعل لغة قريش. و﴿يَأْتِكَ﴾ معناه: بالحق وقصد الصواب.

﴿كَمَا﴾ متعلقة بما في قوله: ﴿وَلَا يَأْتِ﴾ من المعنى، أي كما أنعم الله عليه بعلم الكتابة فلا يأت هو ويفضل كما أفضل الله عليه، ويحتمل أن يكون الكلام على هذا المعنى تاماً عند قوله: ﴿أَنْ يَكْتُبَ﴾، ثم يكون قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ ابتداء كلام، وتكون الكاف متعلقة بقوله: ﴿فَلْيَكْتُبْ﴾، أما إذا أمكن الكتاب فليس يجب الكتب على معين، ولا وجوب النذب، بل له الامتناع، إلا إن استأجره، وأما إذا عُدِمَ الكتاب فيتوجه وجوب النذب حيثذ على الحاضر، وأما الكتب في الجملة فنذب كقوله تعالى: ﴿وَأَفْكَلُوا الْخَبْرَ﴾ وهو من باب عون الضائع.

تفسير قوله عز وجل:

﴿وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّخِذْ اللَّهَ رَبًّا وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا﴾

أمر الله تعالى الذي عليه عليه الحق بالإملاء، لأن الشهادة إنما تكون بحسب إقراره، وإذا كتبت الوثيقة وأقر بها فهو كإملائه، وأمر الله بالتقوى فيما يبطل، ونهى عن أن يبخس شيئاً من الحق، والبخس: النقص بنوع من المخادعة والمدافعة، وهؤلاء الذين أمروا بالإملاء هم المالكون لأنفسهم إذا حضروا.

ثم ذكر الله تعالى ثلاثة أنواع تقع نوازلهم في كل زمن، فقال: ﴿يَنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهاً﴾ وكسوت الحق يترتب في جهات سوى المعاملات، كالموارث إذا قسمت،

﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ﴾، فقال عطاء وغيره: واجب على الكاتب أن يكتب، وقال الشعبي، وعطاء أيضاً: إذا لم يوجد كاتب سواه فواجب عليه أن يكتب، فقال السدي: هو واجب مع الفراغ.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِكَ﴾، معناه: بالحق والمعدلة، والباء متعلقة بقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ﴾، وليست متعلقة بـ﴿كَاتِبًا﴾، لأنه كان يلزم ألا يكتب وثيقة إلا العدل في نفسه، وقد يكتبها الصبي والعبد والمسخوط إذا أقاموا فقهها، أما المنتصبون لكتبها فلا يجوز للولاء أن يتركوهم إلا عدولاً مرضيين، وقال مالك رحمه الله: لا يكتب الوثائق من الناس إلا عارف بها، عدل في نفسه، مأمون، لقوله تعالى: ﴿وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبًا بِالْعَدْلِ﴾.

ثم نهى الله تعالى الكاتب عن الإيباية، وأبى يأبى شاذ لم يجيء إلا قَلَى يَقْلَى وأبى يأبى، ولا يجيء فعل يفعل يفتح العين في المضارع إلا إذا رده حرف حلق، قال الزجاج والقول في أبي - أن الألف فيه أشبهت الهمزة فلذلك جاء مضارعه يفعل يفتح العين.

وحكى المهدوي عن الربيع والضحاك أن قوله: ﴿وَلَا يَأْتِ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَلَا يُضَاكَ كَاتِبًا وَلَا شَهِيدًا﴾.

والكاف من قوله: ﴿كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ﴾ متعلق بقوله: ﴿أَنْ يَكْتُبَ﴾، المعنى: كتباً كما علمه الله، هذا قول بعضهم، ويحتمل أن تكون

وذهب الطبري إلى أن الضمير في ﴿وَلِيٍّ﴾ عائذ على الحق، وأسند في ذلك عن الربيع وعن ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي شيء لا يصح عن ابن عباس، وكيف تشهد البيعة على شيء وتدخل مالا في ذمة السفية بإملاط الذي له الدين؟ هذا شيء ليس في الشريعة، والقول ضعيف إلا أن يريد قائله أن الذي لا يستطيع أن يميل بمرضه إذا كان عاجزاً عن الإملاء فليملل صاحب الحق بالعدل، ويسمع الذي عجز فإذا كمل الإملاء أقرب به، وهذا معنى لم تعن الآية إليه، ولا يصح هذا إلا فيمن لا يستطيع أن يمل بمرض فقط.

تفسير قوله عز وجل:

﴿وَأَسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ﴾

الاستشهاد: طلب الشهادة، وعبر ببناء مبالغة في: ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ دلالة على من قد شهد وتكرر ذلك منه، فكأنها إشارة إلى العدالة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ رِجَالِكُمْ﴾، نص في رفض الكفار والصبيان والنساء، وأما العبيد فاللفظ يتناولهم، واختلف العلماء فيهم - فقال شريح، وإسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل: شهادة العبد جائزة إذا كان عدلاً، وغلبوا لفظ الآية، وقال مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وجمهور العلماء: لا تجوز شهادة العبد، وغلبوا نقص الرق.

واسم كان الضمير في الذي في قوله: ﴿يَكُونُ﴾، والمعنى في قول الجمهور: فإن لم يكن المستشهد

رجلين، أي أغفل ذلك صاحب الحق أو قصده لعذر ما، وقال قوم: بل المعنى: فإن لم يوجد رجلان، ولا يجوز استشهاد المرأتين إلا مع عدم الرجال، وهذا قول ضعيف، ولفظ الآية لا يعطيه، بل الظاهر منه قول الجمهور.

وقوله: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، مرتفع بأحد ثلاثة أشياء: إما أن يقدر: فليستشهد رجل وامرأتان، وإما: فليكن رجل وامرأتان، ويصح أن تكون تامة وناقصة، ولكن التامة أشبه، لأنه يقل الإضمار، وإما: فرجل وامرأتان يشهدون - وعلى كل وجه فالمقدر هو العامل في قوله: ﴿أَنْ تَصِيَلَ إِعْدَتُكُمْ﴾.

وروى حميد بن عبدالرحمن عن بعض أهل مكة أنهم قرؤوا: ﴿وامرأتان﴾ بهمز الألف ساكنة، قال ابن جني: لا نظير لتسكين الهمزة المتحركة على قياس، وإنما خففوا الهمزة فقربت من الساكن، ثم بالغوا في ذلك فصارت الهمزة ألفاً ساكنة، كما قال الشاعر:

يَقُولُونَ جَهْلًا: لَيْسَ لِلشَّيْخِ عَيْلٌ
لَعَمْرِي لَقَدْ أَعْيَلْتُ وَأَنْ رَقُوبٌ
يريد: وأنا - ثم بعد ذلك يدخلون الهمزة على هذه الألف كما هي، وهي ساكنة، ومنه قراءة ابن كثير: ﴿عَنْ سَأَقِيهَا﴾، وقولهم: بَأَزْ، وَخَاتَمٌ، قال أبو الفتح: فإن قيل: شبهت الهمزة بالألف في أنها ساكنة في الجهر والزيادة والبدل والحذف وقُرْبُ المخرج فقول مخشوب لا صنعة فيه ولا يكاد يُفْنَعُ بمثله.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ رَضَوْنَ مِنَ الشَّهَادَةِ﴾ رفع في موضع الصفة لقوله عز وجل: ﴿فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ﴾، قال أبو علي: ويدخل في هذه الصفة قوله: ﴿شَهِيدَيْنِ﴾ لاختلاف الإعراب، وهذا حكم لفظي، وأما المعنى فالرضى شرط في الشهادتين كما هو في الرجل والمرأتين.

قال ابن بكير وغيره: قوله: ﴿مَنْ رَضَوْنَ﴾ مخاطبة للحكام، وهذا غير نبيل إنما الخطاب لجمع الناس لكن المتلبس بهذه القضية إنما هم الحكام، وهذا كثير في كتاب الله يعم الخطاب فيما يتلبس به البعض. وفي قوله: ﴿مَنْ رَضَوْنَ﴾ دليل على أن في الشهود من لا يُرضى فيجزي من ذلك أن الناس ليسوا بمحمولين على العدالة حتى تثبت لهم.

وقرأ حمزة وحده: ﴿إِنْ تَصِلْ﴾ بكسر الألف وفتح التاء وكسر الضاد ﴿فَتَذَكُرْ﴾ بفتح الذال ورفع الراء، وهي قراءة الأعمش، وقرأها الباقون: ﴿أَنْ تَصِلْ﴾ بفتح الألف ﴿فَتَذَكُرْ﴾ بنصب الراء غير أن ابن كثير وأبا عمرو خففا الذال والكاف وشددها الباقون.

وقد تقدم القول فيما هو العامل في قوله: ﴿أَنْ تَصِلْ﴾ و﴿أَنْ﴾ مفعول من أجله، والشهادة لم تقع لأن تضل إحداها وإنما وقع إشهاد امرأتين لأن تذكر إحداهما إن ضلت الأخرى، قال سيبويه، وهذا كما تقول: أعددت هذه الخشبة أن يميل هذا الحائط فأدعمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ولما كانت النفوس مستشرفة إلى معرفة أسباب الحوادث قدم في هذه الآية ذكر سبب الأمر المقصود أن يخبر به، وفي ذلك سبق النفوس إلى الإعلام بمرادها، وهذا من أبرع أنواع الفصاحة، إذ لو قال رجل لك: أعددت هذه الخشبة أن أدمم بها هذا الحائط لقال السامع: ولم تدعم حائطاً قائماً؟ فيجب ذكر السبب فيقال: إذا مال. فجاء في كلامهم تقديم السبب أخصر من هذه المحاوره. وقال أبو عبيد: معنى تضل: تنسى، والضلال عن الشهادة إنما هو نسيان جزء منها، وذكر جزء، ويبقى المرء بين ذلك حيران ضالاً، ومن نسي الشهادة جملة فليس يقال: ضل فيها، فأما قراءة حمزة فجعل ﴿إِنْ﴾ للجزاء، والفاء في قوله: ﴿فَتَذَكَّرَ﴾ جواب الجزاء، وموضع الشرط وجوابه رفع بكونه صفة للمذكور وهما المرأتان. وارتفع ﴿تَذَكَّرَ﴾ كما ارتفع قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ يَتَنَّيْمُ اللَّهُ يَنْتَهُ﴾ هذا قول سيبويه، وفي هذا نظر. وأما نصب قوله: ﴿فَتَذَكَّرَ﴾ على قراءة الجماعة فعلى العطف على الفعل المنصوب بـ ﴿أَنْ﴾.

وتخفيف الكاف على قراءة أبي عمرو، وابن كثير هو بمعنى تثقيله من الذكر، يقال: ذكّر وأذكّر. تُعْذِيه بالتضعيف أو بالهمز. وروي عن أبي عمرو بن العلاء، معنى قوله: ﴿فَتَذَكَّرَ﴾ بتخفيف الكاف أي تردها ذكراً في الشهادة، لأن شهادة امرأة نصف شهادة، فإذا

شهدتا صار مجموعهما كشهادة ذكّر، وهذا تأويل بعيد غير فصيح، ولا يحسن في مقابلة الضلال إلا الذكر وذكّرت بشد الكاف يتعدى إلى مفعولين، و﴿أَحَدُهُمَا﴾ في الآية محذوف، تقديره: فتذكر إحداهما الأخرى الشهادة التي ضلت عنها. وقرأ الجحدري وعيسى بن عمر: ﴿أَنْ تُضِلَّ﴾ بضم التاء وفتح الضاد بمعنى أن تنسى، هكذا حكى عنهما أبو عمرو الداني، وحكى النقاش عن الجحدري ضم التاء وكسر الضاد بمعنى أن تُضِلَّ الشهادة، تقول: أضللت الفرس والبعير إذا تلفا لك وذهبا فلم تجدهما. وقرأ حميد بن عبد الرحمن، ومجاهد: ﴿فَتَذَكَّرَ﴾ بتخفيف الكاف المكسورة ورفع الراء، وتضمنت هذه الآية جواز شهادة امرأتين بشرط اقترانهما برجل، واختلف قول مالك في شهادتهما - فروى عنه ابن وهب أن شهادة النساء لا تجوز إلا حيث ذكرها الله في الدين، وفيما لا يطلع عليه أحد إلا هُنَّ للضرورة إلى ذلك، وروي عن ابن القاسم أنها تجوز في الأموال، والوكالات على الأموال، وكل ما جر إلى مال، وخالف في ذلك أشهب وغيره.

وكذلك إذا شهدن على ما يؤدي إلى غير مال - ففيها قولان في المذهب.

قوله عز وجل:

﴿وَلَا يَأْتِ الشَّهَادَةَ إِذَا مَا دُعُوا﴾

قال قتادة، والربيع، وغيرهما: معنى الآية: إذا دعوا أن يشهدوا فيتقيد حق بشهادتهم، وفي هذا المعنى نزلت لأنه كان يطوف الرجل في القوم الكثير يطلب من يشهد له فيتخرجون هم عن الشهادة فلا يقوم معه أحد فتزلت الآية في ذلك.

وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية جمعت أمرين - لا تأب إذا دُعيت إلى تحصيل الشهادة، ولا إذا دُعيت إلى أدائها، وقاله ابن عباس.

وقال مجاهد: معنى الآية - لا تأب إذا دُعيت إلى أداء شهادة قد حصلت عندك. وأسند النقاش إلى النبي ﷺ أنه فسر الآية بهذا. قال مجاهد: فأما إذا دُعيت لتشهد أولاً فإن شئت فاذهب، وإن شئت فلا تذهب، وقاله: لاحق بن حميد، وعطاء، وإبراهيم، وابن جبير، والسدي، وابن زيد، وغيرهم.

والآية كما قال الحسن جمعت أمرين على جهة التنبه، فالمسلمون مندوبون إلى معونة إخوانهم، فإذا كانت الفسحة لكثرة الشهود والأمن من تعطيل الحق فالمدعو مندوب، وله أن يتخلف لأدنى عذر، وإن تخلف لغير عذر فلا إثم عليه، ولا ثواب له، وإذا كانت الضرورة، وخيف تعطيل الحق أدنى خوف قوي التنبه، وقرب من الرجوب. وإذا علم أن الحق يذهب ويتلف بتأخر الشاهد عن الشهادة فواجب عليه القيام بها لا سيما إن كانت محصلة، وكان الدعاء إلى أدائها، فإن هذا الطرف أكد، لأنها قلادة في العنق، وأمانة تقتضي الأداء.

﴿وَلَا تَسْمُوا﴾ معناه: تملوا، و﴿مَخِيراً أَوْ كَبِيراً﴾ حالان من الضمير في: ﴿تَكْتُمُوهُ﴾، وقدم الصغير اهتماماً به، وهذا النهي عن السامة إنما جاء لتردد المدينة عندهم، فخيف عليهم أن يملوا الكتب.

و﴿أَسْطُ﴾ معناه: أعدل، وهذا أعمل من الرباعي، وفيه شذوذ فانظر هل هي من قَسَطَ بضم السين كما تقول أكرم من كَرَمٍ. يقال: أَسْطَ بمعنى عدل، وقَسَطَ بمعنى جار، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ ومن قدر قوله: ﴿وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ﴾ بمعنى: وأشد إقامة فذلك أيضاً أعمل من الرباعي. ومن قدرها من قام بمعنى: اعتدل زال عن الشذوذ، ﴿وَأَذَلَّ﴾ معناه: أقرب و﴿تَرْتَابُوا﴾ معناه: تشكوا، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿يَسْأَمُوا، وَيَكْتُمُوهُ وَيَرْتَابُوا﴾ كلها بالياء على الحكاية عن الغائب.

قوله عز وجل:

﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً﴾.

لما علم الله تعالى مشقة الكتاب عليهم نص على ترك ذلك، ورفع الجناح فيه في كل مبيعة بنقد، وذلك في الأغلب إنما هو في قليل كالمطعموم ونحوه لا في كثير كالأملاك ونحوها، ولذا قال السدي، والضحاك: هذا فيما كان يبدأ بيد تأخذ وتعطي، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على الاستثناء

المنقطع.

وقوله تعالى: ﴿تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ﴾ يقتضي التقابض والبيئونة بالمقبوض - ولما كانت الرباع والأرض وكثير من الحيوان لا تقوى البيئونة به ولا يغاب عليه - حسن الكتب فيها، ولحقت في ذلك بمبيعة الدين. وقرأ عاصم وحده: ﴿يَجْرَةً﴾ نصباً، وقرأ الباكون: ﴿بِجَارَةٍ﴾ رفعا، قال أبو علي: وأشك في ابن عامر - وإذا أتت (كان) بمعنى حدث ووقع - غنيت عن خبر، وإذا خُلع منها معنى الحدوث لزمها الخبر المنصوب، فحجة من رفع ﴿تجارة﴾ أن (كان) بمعنى حدث ووقع، وأما من نصب فعلى خبر (كان) والاسم مقدر، تقديره عند أبي علي، إما: «المبيعة» التي دلت الآيات المتقدمة عليها، وإما: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ التِّجَارَةُ بِجَارَةٍ﴾ ويكون مثل ذلك قول الشاعر:

فَدَى لِبَنِي دُفْلِ بْنِ شَيْبَانَ نَاقَتِي
إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْتَعَا
أَي: إذا كان اليوم يوماً، هكذا أنشد أبو علي البيت، وكذلك أبو العباس المبرد، وأشد الطبري:
وَلَسْئَلُهُ قَزْمِي أَي قَوْمٍ لِحُرَّةٍ
إِذَا كَانَ يَوْمًا ذَا كَوَاكِبٍ أَشْتَعَا
وأشده سيويه: يوم بالرفع.

إذا كان يومٌ ذو كواكبٍ
.....
وقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾، قال الطبري: معناه: وأشهدوا على صغير ذلك وكبيره،

واختلف الناس - هل ذلك على الوجوب أو على الندب؟ فقال الحسن، والشعبي، وغيرهما: ذلك على الندب. وقال ابن عمر، والضحاك: ذلك على الوجوب، وكان ابن عمر يفعله في قليل الأشياء وكثيرها. وقاله عطاء، ورجح ذلك الطبري: والوجوب في ذلك قلق، أما في الدقائق فصعب شاق، وأما ما كثر فربما يقصد التاجر الاستيلاف بترك الإشهاد، وقد يكون عادة في بعض البلاد، وقد يستحي من العالم والرجل الكبير الموقر فلا يشهد عليه، فيدخل ذلك كله في الائتمان، ويبقى الأمر بالإشهاد ندباً لما فيه من المصلحة في الأغلب ما لم يقع عذر يمنع منه كما ذكرنا، وحكى المهدي عن قوم أنهم قالوا: ﴿وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ﴾ منسوخ بقوله: ﴿إِنَّ أَمِينَ﴾ الآية. وذكره مكّي عن أبي سعيد الخدري.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يُضَارُّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ﴾ فقال الحسن، وقتادة، وطاوس، وابن زيد، وغيرهم: المعنى: ولا يضار الكاتب بأن يكتب ما لم يُعلم عليه، ولا يضار الشاهد بأن يزيد في الشهادة أو ينقص منها، وقال مثله ابن عباس، ومجاهد، وعطاء، إلا أنهم قالوا: لا يضار الكاتب والشاهد بأن يمتنعا، ولفظ الضرر يعم هذا، والقول الأول، والأصل في ﴿يُضَارُّ﴾ على هذين القولين يضارز بكسر الراء، ثم وقع الإدغام وفتحت الراء في الجزم لخفة الفتحة.

﴿وَإِنْ كُنْتُمْ عَلَىٰ سَعَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهْنَ مَقُومَةً ۚ فَإِنْ أَثِمْنَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ فَلْيُؤَدِّ الَّذِي أُؤْتِمِنَ أَمْنَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فإِنَّهٗ ءَإِثْمٌ قَلْبُهُ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ۗ ﴿٢٨٣﴾ ۗ لِلَّهِ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوْهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ مَنْ يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٨٤﴾ ۗ ءَأَمِنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ۗ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَأَمِنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْهُ كِبَاهُ وَكُتِبَ لَهُ رُسُلِهِ ۗ لَا تَقْرَبُ بَيْتَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ۗ وَكَانَ الْأَوَّلُ سَمْعًا وَأَلْفًا عُرْفًا ۗ إِنَّكَ رَبُّنَا إِلَهُكَ الْمُبْدِي ۗ ﴿٢٨٥﴾ لَا يَكْفُرُ اللَّهُ فَنَسَا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا أَوْرَاقَ كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لِخَاطِئَةِ لَنَا بِيَدِهِ ۗ وَأَعْفُ عَنَّا وَاعْفُ عَنَّا وَارْحَمْنَا ۗ أَنْتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٢٨٦﴾

٤٩

وقرأ عكرمة: ﴿وَلَا يُضَارِزُ﴾ بكسر الراء الأولى ﴿كَاتِبًا وَلَا شَهِيدًا﴾ بالنصب، أي لا يبدأهما صاحب الحق بضرر، ووجوه المضارة لا تنحصر. وروي بمقسم عن عكرمة أنه قرأ: ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ بالإدغام وكسر الراء للالتقاء، وقرأ ابن محيصن: ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ برفع الراء مشددة، قال ابن مجاهد: ولا أدري ما هذه القراءة. قال أبو الفتح: هذا الذي أنكره ابن مجاهد معروف، وذلك أن تجعل ﴿لَا﴾ نفيًا

أي: ليس ينبغي أن يضار، كما قال الشاعر:

عَلَى الْحَكْمِ الْمَأْتِي يَوْمًا إِذَا قَضَى
قَضِيَّتَهُ أَلَا يَجُوزُ وَيَقْصِدُ
فرفع «يقصد» على إرادة وينبغي أن يقصد، فكذلك يرتفع ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ على معنى: وينبغي ألا يضار، قال: وإن شئت كان لفظ خير على معنى النهي، وهذا قريب من النظر الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَقَلَّوْا فَإِنَّهٗ سُوءٌ بِكُمْ﴾ من جعل المضارة المنهي عنها زيادة الكاتب والشاهد فيما ألمي عليهما أو نقصهما منه فالفسوق على عرفه في الشرع، وهو موقعة الكبائر، لأن هذا من الكذب المؤذي في الأموال والأبشار، وفيه إبطال الحق - ومن جعل المضارة المنهي عنها أذى الكاتب والشاهد

وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والضحاك، والسدي، وطاوس، وغيرهم: معنى الآية: ولا يضار كاتب ولا شهيد بأن يؤذيه طالب الكتبة أو الشهادة فيقول: اكتب لي أو اشهد لي، في وقت عذر أو شغل للكاتب أو الشاهد، فإذا اعتذرا بعذرهما حرج وآذاهما، وقال: خالفت أمر الله ونحو هذا من القول، ولفظ المضارة إذ هو من اثنين يقتضي هذه المعاني كلها، والكاتب والشهيد على القول الأول رفع بفعلهما، وفي القول الثاني رفع على المفعول الذي لم يسم فاعله، وأصل ﴿يُضَارُ﴾ على القول الثاني يضار بفتح الراء، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعن ابن مسعود، ومجاهد أنهم كانوا يقرؤون: ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ بالفك وفتح الراء الأولى، وهذا على معنى أن يبدأهما بالضرر طالب الكتبة والشهادة، وذكر ذلك الطبري عنهم في ترجمة هذا القول، وفسر القراءة بهذا المعنى، فدل ذلك على أن الراء الأولى مفتوحة كما ذكرنا. وحكى أبو عمرو الداني عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس، وابن أبي إسحاق، ومجاهد أن الراء الأولى مكسورة، وحكى عنهم أيضاً فتحها. وفك الفعل هي لغة أهل الحجاز، والإدغام لغة تميم. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وعمر بن عبيد: ﴿وَلَا يُضَارُ﴾ بجزم الراء، قال أبو الفتح: تسكين الراء مع التشديد فيه نظر، ولكن طريقه أجري الوصل مجرى الوقف،

بأن يقال لهما: أجيبا ولا تخالفا أمر الله أو جعلها امتناعهما إذا دعيا، فالفسوق على أصله في اللغة الذي هو الخروج من شيء كما يقال: فسقت الفأرة إذا خرجت من جحرها، وفسقت الرطبة، فكأن فاعل هذا فسق عن الصواب والحق في هذه النازلة، ومن حيث خالف أمر الله في هذه الآية فيقرب الأمر من الفسوق العرفي في الشرع.

وقوله: ﴿بِكُمْ﴾ تقديره: فسوق حال بكم، وياقي الآية موعظة وتعليد نعمة، والله المستعان لا رب غيره، وقيل: معنى الآية: الواعد بأن من اتقى علم الخير وألهمه.

تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى الندب إلى الإشهاد والكتب لمصلحة حفظ الأموال والديون، عقب ذلك بذكر

حال الأعدار المانعة من الكتب، وجعل لها الرهن، ونص من أحوال الرهن على السفر الذي هو الغالب من الأعدار، لا سيما في ذلك الوقت لكثرة الغزو.

ويدخل في ذلك بالمعنى كل عذر، فُرِبَ وقت يتعذر فيه الكاتب في الحضر، كأوقات أشغال الناس، وبالليل، وأيضاً فالخوف على خراب ذمة الغريم عذر يوجب طلب الرهن. وقد رهن النبي ﷺ درعه عند يهودي طلب منه سلف الشعير فقال: إنما يريد محمد أن يذهب بمالي، فقال النبي ﷺ: «كَذَّبَ، إِنِّي لَأَمِينٌ فِي الْأَرْضِ، أَمِينٌ فِي السَّمَاءِ، وَلَوْ أَتَمَنَنْ لَأَدَيْتَ، اذْهَبُوا إِلَيْهِ بِدِرْعِي».

وقد قال جمهور من العلماء: الرهن في السفر ثابت في القرآن، وفي الحضر ثابت في الحديث، وهذا حسن، إلا أنه لم يمعن النظر في لفظ السفر في الآية، وإذا كان السفر في الآية مثلاً من الأعدار، فالرهن في الحضر موجود في الآية بالمعنى إذ قد تترتب الأعدار في الحضر. وذهب الضحاک، ومجاهد إلى أن الرهن والائتمان إنما هو في السفر، وأما الحضر فلا ينبغي شيء من ذلك، وضعف الطبري قولهما في الرهن بحسب الحديث الثابت الذي ذكرته، وقوى قولهما في الائتمان، والصحيح ضعف القول في الفصلين، بل يقع الائتمان في الحضر كثيراً ويحسن.

وقرأ جمهور القراء: ﴿كَاتِبًا﴾ بمعنى: رجل يكتب، وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس ﴿كِتَابًا﴾: بكسر

الكاف، وتخفيف التاء، وألف بعدها، وهو مصدر. قال مكي: وقيل: هو جمع كاتب كقائم وقيام، ومثله صاحب وصحاب، وقرأ بذلك مجاهد، وأبو العالية، وقالوا: المعنى: وإن عدت الدواة والقلم والصحيفة.

ونفي وجود الكتاب يكون بعدم أي آلة اتفق من الآلة، فنفي الكتاب يعمها، ونفي الكاتب أيضاً يقتضي نفي الكتاب، فالقراءتان حسنتان إلا من جهة خط المصحف، وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿كُتَابًا﴾ بضم الكاف على جمع كاتب، وهذا يحسن من حيث لكل نازلة كاتب فقبل للجماعة: ﴿وَلَمْ تَجِدُوا كُتَابًا﴾، وهذا هو الجنس الذي تدل عليه قراءة من قرأ: ﴿كَاتِبًا﴾. وحكي المهدي، عن أبي العالية أنه قرأ: ﴿كُتِبًا﴾، وهذا جمع (كتاب) من حيث النوازل مختلفة، وهذا هو الجنس الذي تدل عليه قراءة من قرأ: ﴿كُتَابًا﴾.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وجمهور من العلماء: ﴿فَرِهْنًا﴾، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿فَرِهْنًا﴾ بضم الراء والهاء، وروي عنهما تخفيف الهاء، وقد قرأ بكل واحدة جماعة غيرهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: رهن الشيء في كلام العرب معناه: دام واستمر. يقال: أرهن لهم الشرب وغيره. قال ابن سيده: ورهته: أي أدامه - ومن رهن بمعنى

دام قول الشاعر:
اللحْمُ وَالْحُبُّزُ لَهُمْ رَاهِنٌ
وَقَهْوَةٌ رَاوَوْهَا سَاكِبٌ

أي: دائم، قال أبو علي: ولما كان الرهن بمعنى الثبوت والدوام فمن ثم بطل الرهن عند الفقهاء إذا خرج من يد المرتهن إلى يد الراهن بوجه من الوجوه، لأنه فارق ما جعل له، ويقال: أرهن في السلعة إذا غالى فيها حتى أخذها بكثير الثمن، ومنه قول الشاعر في وصف ناقة:

يطوي ابن سلمى بها من راكب بعداً
عيديّة أرهنت فيها الدثانير
العيد بطن من مَهْرَة، وإبل مَهْرَة موصوفة بالنجابة. ويقال في معنى الرهن الذي هو التوثق من الحق: أرهنت إرهاناً فيما حكى بعضهم. وقال أبو علي: يقال: أرهنت في المغالاة، وأما في القرض والبيع فرهنت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال بلا خلاف في البيع والقرض: رهنت رهناً، ثم سمي بهذا المصدر الشيء المدفوع، ونقل إلى التسمية، ولذلك كسر في الجمع كما تكسر الأسماء، وكما تكسر المصادر التي يسمى بها وصار فعله ينصبه نصب المفعول به لا نصب المصدر تقول: رهنت رهناً، فذلك كما تقول: رهنت ثوباً لا كما تقول: رهنت الثوب رهناً، وضربت ضرباً، قال أبو علي: وقد يقال في هذا المعنى: أرهنت، وفعلت فيه أكثر، ومنه قول الشاعر:

يُراهِئُنِي فَيَيزُهُئُنِي بِنَيْبِهِ
وَأَرَاهِنُهُ بِنَيْبِي بِمَا أَقُولُ
وقال الأعشى:

حتى يُفِيدَكَ مِنْ بَنِيهِ رَهِينَةً
تُعْشُ وَزَهْنِكَ السَّمَاكُ الْفَرْقَدَا

فهذه رويت من: زَهَنَ. وأما أرهن
فمنه قول همام بن مؤزة:

وَلَمَّا خَشِيَتْ أَظْفَانِيْرَهُمْ
تَجَوَّتْ وَأَرْهَنْتُهُمْ مَالِكًا
قال الزجاج: يقال في الرهن:
رَهنت وأرهننت، وقاله ابن الأعرابي،
ويقال: رهننت لساني بكذا، ولا يقال
فيه: أرهننت.

فمن قرأ: ﴿رَهْنًا﴾ فهو جمع زَهَن
ككَبَش وكِبَاش، وكَتَب وكِتَاب،
وتَغَل وتِعَال، وَيَغَل وَيَعَال. ومن
قرأ: ﴿فَرُهْنًا﴾ بضم الراء والهَاء فهو
جمع زَهَن - كسَقَب وسَقْف، وأسَد
وأسَد، إذ فَعْل وفُعْل يتقاربان في
أحكامهما، ومن قرأ: ﴿فَرُهْنًا﴾
بسكون الهاء فهو تخفيف رُهْن وهي
لغة في هذا الباب كله - ككَتَب وفَعَد
وعَضَد وغير ذلك. قال أبو علي:
وتكسیر رُهْن على أقل العدد لم
أعلمه جاء، ولو جاء لكان قياسه
أَفْعَل ككَلَب وأكَلَب، وكأنهم استغنوا
بالكثير عن القليل في قولهم: ثلاثة
شسوع، كما استغن ببناء القليل عن
بناء الكثير في رَسَن وأرسان.

فرهن يجمع على بناءين من أبنية
الجموع وهما: فُعْل وفِعَال، فمما
جاء على فُعْل قول الأعشى:

أَلَيْتَ لَا أُعْطِيهِ مِنْ أَبْنَائِنَا
رُهْنًا فَيَفْسِدُهُمْ كَمَنْ قَدْ أَفْسَدَا
قال الطبري: تأول قوم أن رُهْنًا
بضم الراء والهَاء، جمع رهان، فهو
جمع جمع، وحكاه الزجاج عن
الفراء. ووجه أبو علي قياساً يقتضي
أن يكون رهاناً جمع رُهْن بأن يقال:
يُجمع فُعْل على فِعَال كما جمعوا
فِعَالاً على فَعَالَت في قول ذي الرمة:

وَقَرَّبْنَا بِالرُّزْقِ الْجَمَائِلَ بَعْدَمَا
تَقَوَّبَ عَنْ غُرَبَانٍ أَوْزَاكِهَا الْخَطْرُ
ثم ضعف أبو علي هذا القياس،
وقال: إن سيبويه لا يرى جَمْع
الجمع مطرداً، فينبغي ألا يقدم عليه
حتى يرد سماعاً.

وقوله عز وجل: ﴿مَقْبُوضَةٌ﴾
يقتضي بينونة المرتهن بالرهن،
وأجمع الناس على صحة قبض
المرتهن، وكذلك على قبض وكيله
فيما علمت، واختلفوا في قبض
عدل يوضع الرهن على يديه - فقال
مالك، وجميع الصحابة، وجمهور
العلماء: قبض العدل قبض،
وقال الحكم بن عتيبة، وأبو
الخطاب قتادة بن دعامة، وغيرهما:
ليس قبض العدل بقبض. وقول
الجمهور أصح من جهة المعنى في
الرهن.

وقوله تعالى: ﴿إِن آيُنَ﴾ الآية،
شرط ربط به وصية الذي عليه الحق
بالأداء، وقوله: ﴿فَلْيَوَدَّ﴾ أمر بمعنى
الرجوع، بقريئة الإجماع على
وجوب أداء الديون، وثبوت حكم
الحاكم به، وجبره الغرماء عليه،
وبقريئة الأحاديث الصحاح في
تحريم مال الغير، وقوله: ﴿أَنْتَنَّتْ﴾
مصدر سُمِّي به الشيء الذي في
الذمة، وأضافها إلى الذي عليه الدين
من حيث لها إليه نسبة، ويحتمل أن
يريد بالأمانة نفس المصدر، كأنه
قال: فليحفظ مروءته، فيجيء
التقدير: فليؤد دين أمانته، وقرأ
عاصم - فيما روى عنه أبو بكر -
﴿الَّذِي أَوْثَمَنَ﴾ برفع الذال، ويشير
بالضم إلى الهمزة، قال أحمد بن

موسى: وهذه الترجمة غلط، وقرأ
الباقون بالذال مكسورة، وبعدها
همزة ساكنة بغير إشمام، وهذا هو
الصواب الذي لا يجوز غيره. وروى
سليم عن حمزة إشمام الهمزة الضم،
وهذا خطأ أيضاً لا يجوز، وصوب
أبو علي هذا القول كله الذي
لأحمد بن موسى، واحتج له، وقرأ
ابن محيصن: ﴿الَّذِي إِشْمَنَ﴾ بياء
ساكنة مكان الهمزة، وكذلك ما كان
مثله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا
الشَّهَادَةَ﴾ نهي عن الرجوب بعدة
قرائن منها الوعيد. وموضع النهي
هو حيث يخاف الشاهد ضياع
الحق. وقال ابن عباس: على
الشاهد أن يشهد حيثما استشهد،
ويخبر حيثما استخبر، قال: ولا
تقل: أخبر بها عند الأمير، بل أخبره
بها لعله يرجع ويرعوي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا عندي بحسب قريئة حال
الشاهد، والمشهود فيه، والتأذلة،
لا سيما مع فساد الزمن، وأرذال
الناس، ونفاق الحيلة، وأغراض
الدنيا عند الحكام. فرب شهادة
إن صرح بها في غير موضع النفوذ
كانت سبباً لتخدم باطلاً ينطمس به
الحق.

﴿إِيْمًا﴾ معناه: قد تعلق به الحكم
اللاحق عن المعصية في كتمان
الشهادة. وإعرايه أنه خبر ﴿إِن﴾
﴿قَلْبِهِ﴾ فاعل بـ ﴿إِيْمًا﴾، ويجوز
أن يكون ابتداء، و﴿قَلْبِهِ﴾ فاعل
يسد مسد الخبر، والجملة خبر
﴿إِن﴾، ويجوز أن يكون ﴿قَلْبِهِ﴾

بدلاً على بدل البعض من الكل، وخص الله تعالى ذكر القلب إذ الكتم من أفعاله، وإذ هو المضغنة التي بصلاحها يصلح الجسد، كما قال عليه السلام، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿فَإِنَّهُ آتَمَ قَلْبَهُ﴾ بنصب الباء، قال مكي: هو على التفسير، ثم ضغفه من أجل أنه معرفة. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ترعد وإن كان لفظها يعم الوعد والوعيد.

﴿٢٨٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: جميع ما في السماوات وما في الأرض ملك لله وطاعة لأنه الموجد المخترع لا رب غيره، وعبر بـ﴿مَا﴾ وإن كان ثم من يعقل لأن الغالب إنما هو جماد وحيوان لا يعقل، ويقل من يعقل من حيث قلت أجناسه إذ هي ثلاثة: ملائكة، وإنس، وجن - وأجناس الغير كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُعَاسِرِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ معناه أن الأمر سواء لا ينفع فيه المواراة والكتم، بل يعلمه ويحاسب به، وقوله: ﴿فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ تقتضي قوة اللفظ أنه ما تقرر في النفس، واعتقد، واستصحبت الفكرة فيه، وأما الخواطر التي يمكن دفعها فليست في النفس إلا على تجوز.

واختلف الناس في معنى هذه الآية - فقال ابن عباس، وعكرمة، والشعبي: هي في معنى الشهادة التي نهي عن كتمها، ثم أعلم في هذه

الآية أن الكاتم لها، المخفي في نفسه محاسب، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو هريرة، والشعبي، وجماعة من الصحابة والتابعين: (إن هذه الآية لما نزلت شق ذلك على أصحاب محمد ﷺ، وقالوا: هلكننا يا رسول الله إن حوسبنا بخواطر أنفسنا، وشق ذلك على النبي ﷺ، لكنه قال لهم: «أتريدون أن تقولوا كما قالت بنو إسرائيل: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا: سمعنا وأطعنا» - فقالوا، فأنزل الله بعد ذلك: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَةً﴾ فكشف عنهم الكربة، ونسخ بهذه الآية تلك). هذا معنى الحديث المروي، وله طرق من جهات، واختلفت عباراته، واستتبت عبارة هؤلاء القائلين بلفظة النسخ في هذه النازلة.

وقال سعيد بن مرجانة: جئت عبدالله بن عمر فتلا هذه الآية: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُعَاسِرِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ثم قال: والله لئن أخذنا بهذه الآية لنهلكن، ثم بكى حتى سالت دموعه وسمع نشيجه، قال ابن مرجانة: فقلت حتى جئت ابن عباس فأخبرته بما قال ابن عمر وبما فعل، فقال: يرحم الله أبا عبدالرحمن، لقد وجد المسلمون منها حين نزلت مثل ما وجد عبدالله بن عمر فأنزل الله: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَةً﴾ الآية، فنسخت الوسوسة وثبت القول والفعل - وقال الطبري، وقال آخرون: هذه الآية محكمة غير منسوخة والله تعالى يحاسب خلقه

على ما عملوا من عمل وعلى ما لم يعملوه مما ثبت في نفوسهم فأضمره ونووه وأرادوه، فيخفر للمؤمنين ويأخذ به أهل الكفر والنفاق، ثم أدخل عن ابن عباس ما يشبه هذا المعنى، وقال مجاهد: الآية فيما يطرأ على النفوس من الشك واليقين. وقال الحسن: الآية محكمة، وليست بمنسوخة. قال الطبري: وقال آخرون نحو هذا المعنى الذي ذكر عن ابن عباس. إلا أنهم قالوا: إن العذاب الذي يكون جزاء لما خطر في النفوس وصحبه الفكر هو بمصائب الدنيا والآمها وسائر مكارهاها، ثم أسند عن عائشة رضي الله عنها نحو هذا المعنى. ورجح الطبري أن الآية محكمة غير منسوخة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصواب، وذلك أن قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ﴾ معناه: مما هو في وسعكم وتحت كسبكم، وذلك استصحاب المعتقد والفكر فيه، فلما كان اللفظ مما يمكن أن تدخل فيه الخواطر أشفق الصحابة والنبي ﷺ، فبين الله تعالى لهم ما أراد بالآية الأولى وخصصها، ونص على حكمه أنه لا يكلف نفساً إلا وسعها - والخواطر ليست هي ولا دفعها في الوسع، بل هو أمر غالب، وليست مما يكسب ولا يكتسب، وكان في هذا البيان فرجهم، وكشف كربهم وياقي الآية محكمة لا نسخ فيها.

ومما يدفع أمر النسخ أن الآية

خبر، والأخبار لا يدخلها النسخ، فإن ذهب ذهاب إلى تقرير النسخ فإنما يترتب له في الحكم الذي لحق الصحابة حين فزعوا من الآية، وذلك أن قول النبي ﷺ لهم: ﴿قُولُوا: سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾ يجيء منه الأمر بأن يثبوا على هذا ويلتزموه، وينتظروا لطف الله في الغفران، فإذا قرر هذا الحكم فصحيح وقوع النسخ فيه، وتشبه الآية حينئذ قوله عز وجل: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَاعِدَةً يَنْفِيئُوا مَائَتِينَ﴾ فهذا لفظه الخبر ولكن معناه: التزموا هذا، واثبتوا عليه، واصبروا بحسبه، ثم نسخ ذلك بعد ذلك، وأجمع الناس - فيما علمت - على أن هذه الآية في الجهاد منسوخة بصبر المائة للماتين، وهذه الآية في البقرة أشبه شيء بها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبْ﴾ جزماً، وقرأ ابن عامر وعاصم: ﴿فَيَغْفِرْ وَيُعَذِّبْ﴾ رفعاً - فوجه الجزم أنه أتبعه ما قبله ولم يقطعه وهكذا تحسن المشاكلة في كلامهم، ووجه الرفع أنه قطعه من الأول - وقطعه على أحد وجهين - إما أن تجعل الفعل خبراً لمبتدأ محذوف، فيرتفع الفعل لوقوعه موقع خبر المبتدأ، وإما أن تعطف جملة من فعل وفاعل على ما تقدمها. وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو حيوة: ﴿فَيَغْفِرْ وَيُعَذِّبْ﴾ بالنصب على إضمار ﴿أَنْ﴾ وهو معطوف على المعنى كما في قوله: ﴿فَيَصْنَعُهُ﴾

وقرأ الجعفي، وخلاد، وطلحة بن مضرّف: ﴿يَغْفِرْ﴾ بغير فاء، وروى أنها كذلك في مصحف ابن مسعود قال ابن جني: هي على البدل من ﴿يُكَاسِبُكُمْ﴾ فهي تفسير المحاسبة، وهذا كقول الشاعر:

رُوئِدَا بَنِي شَيْبَانَ بَغَضَ وَعِيدَكُمْ
ثَلَاقُوا غَدَا حَيْلِي عَلَى سَفْوَانِ
ثَلَاقُوا جِيَادَا لَا تَحِيدُوا عَنِ الرَّغَى
إِذَا مَا عَدَدَتْ فِي الْمَأْرَقِ الْمَتَدَانَ
فهذا على البدل، وكرر الشاعر الفعل لأن الفائدة فيما يليه من القول.

وقوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ﴾ يعني من العصاة الذين ينفذ فيهم الوعيد، قال النقاش: يغفر لمن يشاء، أي: لمن ينزع عنه، ويعذب من يشاء، أي: من أقام عليه، وقال سفيان الثوري: يغفر لمن يشاء العظيم، ويعذب من يشاء على الصغير. وتعلق بهذه الآية قوم ممن قال بجواز تكليف ما لا يطاق، وقال: إن الله قد كلفهم أمر الخواطر وذلك مما لا يطاق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير بيّن، وإنما كان أمر الخواطر تأويلاً وتأوله أصحاب النبي ﷺ، ولم يثبت تكليفاً إلا على الوجه الذي ذكرنا من تقرير النبي ﷺ إياهم على ذلك، ومسألة تكليف ما لا يطاق نتكلم عليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

ولما ذكر المغفرة والتعذيب بحسب مشيئته تعالى عقب ذلك بذكر القدرة على جميع الأشياء إذا ما ذكر جزء منها.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ:﴾

سبب هذه الآية أنه لما أنزلت: ﴿وَإِنْ تَبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ وأسفق منها النبي ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، ثم تقرر الأمر على أن قالوا: سمعنا وأطعنا، فرجعوا إلى التضرع والاستكانة - مدحهم الله - وأثنى عليهم في هذه الآية، وقدم ذلك بين يدي رفقه بهم، وكشفه لذلك الكرب الذي أوجبه تأويلهم، فجمع لهم تعالى التشريف بالمدح، والثناء، ورفع المشقة في أمر الخواطر، وهذه ثمرة الطاعة والانقطاع إلى الله تعالى، كما جرى لبني إسرائيل ضد ذلك: من ذمهم، وتحميلهم المشقات من الذلة والمسكنة والجلالة، إذ قالوا سمعنا وعصينا - وهذه ثمرة العصيان، والتمرد على الله، أعادنا الله من نعمته.

﴿وَأَمَّنْ﴾ معناه: صدق - و﴿أَرْسُولٌ﴾: محمد ﷺ، و﴿بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ﴾ هو القرآن، وسائر ما أوحى إليه - من جملة ذلك هذه الآية التي تأولوها شديدة الحكم - ويروى أن رسول الله ﷺ - لما نزلت عليه - قال: «ويحق له أن يؤمن»، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَأَمَّنَ الْمُؤْمِنُونَ﴾، وكل لفظة تصلح للإحاطة، وقد تستعمل غير محيطية على جهة التشبيه بالإحاطة، والقرينة تبين ذلك في كل كلام، ولما وردت هنا بعد قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ دل ذلك على إحاطتها بمن ذكر.

والإيمان بالله: هو التصديق به، وبصفاته، ورفض الأصنام وكل

معبود سواه. والإيمان بملائكته: هو اعتقاد وجودهم وأنهم عباد الله، ورفض معتقدات الجاهلية فيهم. والإيمان بكتبه: هو التصديق بكل ما أنزل على الأنبياء الذين تضمن ذكرهم كتاب الله المنزل على محمد ﷺ، أو ما أخبر هو به.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن عامر: ﴿رَكَّبِي﴾ على الجمع، وقرؤوا في التحريم: ﴿وَكِتَابِي﴾ على التوحيد، وقرأ أبو عمرو هاهنا، وفي التحريم: ﴿رَكَّبِي﴾ على الجمع، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَكِتَابِي﴾ على التوحيد فيهما، وروى حفص، عن عاصم هاهنا وفي التحريم: ﴿رَكَّبِي﴾ مثل أبي عمرو. وروى خارجة عن نافع مثل ذلك، ويكل قراءة من هذه قرأ جمهور من العلماء، فمن جمع أراد جمع كتاب، ومن أفرد أراد المصدر الذي يجمع كل مكتوب كان نزوله من عند الله تعالى، هذا قول بعضهم، وقد وجهه أبو علي، وهو كما قالوا: نُسِجَ اليمَن، وقال أبو علي في صدر كلامه: أما الأفراد في قول من قرأ ﴿وَكِتَابِي﴾ فليس كما تفرد المصادر وإن أريد بها الكثير، كقوله: ﴿وَأَدْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ ونحو ذلك. ولكن كما تفرد الأسماء التي يراد بها الكثرة كقولهم: كثر الدينار والدرهم، ونحو ذلك، فإن قلت: هذه الأسماء التي يراد بها الكثرة إنما تجيء مفردة، وهذه مضافة، قيل: فقد جاء في المضاف ما يعني به الكثرة، ففي التنزيل: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا﴾ ونسي

الحديث: «منعت العراق ذرهمها وقيزيها» فهذا يراد به الكثير كما يراد بما فيه لام التعريف. ومنه قول ابن الرقاع:

يَذَعُ الْحَيَّ بِالْعَشِيَّيْ غِرَائًا
وَهُمْ عَن رَغِيْفِهِمْ أَغْنِيَاءُ
ومجيء أسماء الأجناس معرفة بالألف واللام أكثر من مجيئها مضافة.

وقراءة الجماعة: ﴿وَرُسُلِي﴾ بضم السين، وكذلك: ﴿رُسُلْنَا وَرُسُلِكُمْ وَرُسُلِكَ﴾ إلا أبا عمرو فروي عنه تخفيف ﴿رُسُلْنَا وَرُسُلِكُمْ﴾، وروي عنه في ﴿رُسُلِكَ﴾ التثقيب والتخفيف، قال أبو علي: مَنْ قرأ ﴿عَلَى رُسُلِكَ﴾ بالتثقيب فذلك أصل الكلمة، ومن خفف فكما يخفف في الأحاد مثل: عتق وطنب، فإذا خفف في الأحاد فذلك أحرى في الجمع الذي هو أثقل.

وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿وَكُتْبِي وَرُسُلِي﴾ بسكون التاء والسين، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَكُتَابِي - وَرُسُلِي﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿لَا تَقْرَأَنَّ﴾ بالنون، والمعنى: يقولون: ﴿لَا تَقْرَأَنَّ﴾، وقرأ سعيد بن جبيرة، ويحيى بن يعمر، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير، ويعقوب: ﴿لَا يُقْرَأَنَّ﴾ بالياء، وهذا على لفظ كل، قال هارون: وهي في حرف ابن مسعود: ﴿لَا يُقْرَأَنَّ﴾ بالياء، ومعنى هذه الآية: أن المؤمنين ليسوا كاليهود والنصارى في أنهم يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض. وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا سَمِعْنَا

وَأَطَعْنَا﴾ مدح يقتضي الحض على هذه المقالة، وأن يكون المؤمن يمثلها غابر الدهر، والطاعة: قبول الأوامر.

و﴿غُفْرَانِكَ﴾ مصدر كالكفران والخسران - ونصبه على جهة نصب المصادر، والعامل فيه فعل مقدر. وقال الزجاج: تقديره: اغفر غفرانك. وقال غيره: نطلب أو نسأل غفرانك، و﴿وَالَّذِكَ الْمَصِيرُ﴾ إقرار بالبعث والوقوف بين يدي الله تعالى.

وروي أن النبي ﷺ - لما نزلت هذه الآية - قال له جبريل: يا محمد: إن الله قد أجل الشئاء عليك وعلى أمتك، فسل تعطه، فسأل إلى آخر السورة.

﴿٢٨٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿لَا يَكْفُرُ اللَّهُ قَسًا إِلَّا وَسَمَهًا﴾ خبر جزم نص على أنه لا يكلف العباد من وقت نزول الآية عبادة من أعمال القلب أو الجوارح إلا وهي في وسع المكلف، ومقتضى إدراكه ونيته، وبهذا انكشفت الكربة عن المسلمين في تأولهم أمر الخواطر، وتأول من ينكر جواز تكليف ما لا يطاق هذه الآية بمعنى أنه لا يكلف ولا كلف، وليس ذلك بنص في الآية، ولا أيضاً يدفعه اللفظ، ولذلك ساغ الخلاف.

وهذا المعنى الذي ذكرناه في هذه الآية يجري مع معنى قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ يَكْفُرَكُمْ أَلْتَسْرَ وَلَا يُرِيدُ يَكْفُرَكُمْ أَلْتَسْرَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾،

وقوله تعالى: ﴿فَأَنقَرُوا اللَّهَ مَا اسْتَنقَرْتُمْ﴾.

واختلف الناس في جواز تكليف ما لا يطاق في الأحكام التي هي في الدنيا بعد اتفاقهم على أنه ليس واقعاً الآن في الشرع، وأن هذه الآية أذنت بعدمه - فقال أبو الحسن الأشعري، وجماعة من المتكلمين: تكليف ما لا يطاق جائز عقلاً، ولا يخرم ذلك شيئاً من عقائد الشرع، ويكون ذلك أمارة على تعذيب المكلف، وقطعاً به، وينظر إلى هذا تكليف المصور أن يعقد شعيرة حسب الحديث.

واختلف القائلون بجوازه - هل وقع في رسالة محمد ﷺ أم لا؟ فقالت فرقة: وقع في نازلة أبي لهب، لأنه حكم عليه بتبُّ اليدين، وصلي النار، وذلك مؤذن بأنه لا يؤمن، وتكليف الشرع له الإيمان راتب، فكأنه كلف أن يؤمن، وأن يكون في إيمانه أنه لا يؤمن لأنه إذا آمن فلا محالة أنه يؤمن بسورة: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾.

وقالت فرقة: لم يقع قط، وقوله تعالى: ﴿سَيَصَلَّى نَارًا﴾ إنما معناه إن وافى على كفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما لا يطاق ينقسم أقساماً، فمنه المحال عقلاً كالجمع بين الضدين، ومنه المحال عادة كرفع الإنسان جبلاً، ومنه ما لا يطاق من حيث هو مهلك كالاتراق بالنار ونحوه. ومنه ما لا يطاق للاشتغال بغيره، وهذا إنما يقال فيه: ما لا يطاق على تجوز كثير.

﴿يَكْفُفُ﴾ يتعدى إلى مفعولين -

أحدهما محذوف تقديره: عبادة أو شيئاً. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿إِلَّا وَسَمِعَهَا﴾ بفتح الواو وكسر السين، وهذا فيه تجوز، لأنه مقلوب، وكان وجه اللفظ ﴿إِلَّا وَسَمِعْتَهُ﴾، كما قال: ﴿وَسَمِعَ كَرِيمُهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكما قال: ﴿وَسَمِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِنَّا﴾ ولكن يجيء هذا من باب أدخلت القلنسوة في رأسي، وفمي في الحجر.

وقوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ﴾ يريد من الحسنات، ﴿وَعَلَيْهَا مَا أَكْتَسَبَتْ﴾ يريد من السيئات - قاله السدي، وجماعة من المفسرين. ولا خلاف في ذلك، والخواطر ونحوها ليس من كسب الإنسان - وجاءت العبارة في الحسنات بـ﴿لَهَا﴾ من حيث هي مما يفرح الإنسان بكسبه ويُسرُّ به، فتضاف إلى ملكه، وجاءت في السيئات بـ﴿عَلَيْهَا﴾ من حيث هي أوزار وأثقال ومحتملات صعبة، وهذا كما تقول: لي مال، وعليّ دين، وكما قال المتصدق باللقطة: اللهم عن فلان فإن أبي فلي وعلي، وكرر فعل الكسب فخالف بين التصريف حسناً لنمط الكلام كما قال: ﴿فَهَلْ أَلْكَفُونِ أَنَّهُمْ رَوَّيَا﴾ هذا وجه، والذي يظهر لي في هذا أن الحسنات هي ما كسب دون تكلف، إذ كاسبها على جادة أمر الله ورسم شرعه، والسيئات تكتسب ببناء المبالغة، إذ كاسبها يتكلف في أمرها خرق حجاب نهي الله تعالى، ويتخطأ إليها، فيحسن في الآية مجيء التصريفين إحرازاً لهذا المعنى.

وقال المهدي، وغيره: وقيل: معنى الآية: لا يؤخذ أحد بذنب أحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا صحيح في نفسه، لكن من غير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا﴾ معناه: قولوا في دعائكم.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿إِن نَّبَيِّنَا أَوْ أَنْعَمْنَا﴾ - فذهب الطبري وغيره إلى أنه النسيان بمعنى الترك، أي إن تركنا شيئاً من طاعتك، وأنه الخطأ المقصود - قالوا: وأما النسيان الذي يغلب المرء، والخطأ الذي هو عن اجتهاد فهو موضوع عن المرء، فليس بمأمور في الدعاء في ألا يؤاخذ به، وذهب كثير من العلماء إلى أن الدعاء في هذه الآية إنما هو في النسيان الغالب، والخطأ غير المقصود، وهذا هو الصحيح عندي.

قال قتادة - في تفسير الآية - : بلغني أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَنْ نِسْيَانِهَا وَخَطْئِهَا»، وقال السدي: لما نزلت هذه الآية فقالوا، قال جبريل للنبي ﷺ: (قد فعل الله لهم ذلك يا محمد). فظاهر قوليهما ما صححته، وذلك أن المؤمنين لما كشف عنهم ما خافوه في قوله تعالى: ﴿يُمَاسِكْتُمْ بِرِ اللَّهِ﴾ أمروا بالدعاء في دفع ذلك الذي ليس من طاقة الإنسان دفعه، وذلك في النسيان والخطأ.

والإصر: الثقل، وما لا يطاق على أتم أنواعه.

وهذه الآية - على هذا القول -

تقضي بجواز تكليف ما لا يطاق، ولذلك أمر المؤمنين بالدعاء في ألا يقع هذا الجائر الصعب.

ومذهب الطبري والزجاج أن تكليف ما لا يطاق غير جائز، فالنسيان عندهم: المتروك من الطاعات، والخطأ هو المقصود من العصيان. والإصر: هو العبادات الثقيلة كتكليف بني إسرائيل من قتل أنفسهم، وقرض أبدانهم، ومعاقبتهم على معاصيهم في أبدانهم حسبما كان يكتب على أبوابهم، وتحميلهم العهد الصعبة. وما لا طاقة للمرء به: هو عندهم على تجوز، كما تقول: لا طاقة لي على خصومة فلان، ولغير ذلك من الأمر تستصعبه وإن كنت في الحقيقة تطيقه، أو يكون ذلك ما لا طاقة لنا به من حيث هو مهلك لنا كعذاب جهنم وغيره. وأما لفظة «أخطأ» فقد تجيء في القصد ومع الاجتهاد.

قال قتادة: الإصر: العهد والميثاق الغليظ، وقاله مجاهد وابن عباس، والسدي، وابن جزيج، والربيع، وابن زيد. وقال عطاء: الإصر: المسخ قردة وخنزير. وقال ابن زيد أيضاً: الإصر: الذنب لا كفارة فيه ولا توبة منه. وقال مالك رحمه الله: الإصر: الأمر الغليظ الصعب، والآصرة - في اللغة - : الأمر الرابط من ذمام أو قرابة أو عهد ونحوه، فهذه العبارات كلها تنحو نحوه، والإصر: الحبل الذي تربط به الأحمال ونحوها، والقيْد يضم عضدي الرجل، يقال: أصر يأصر أصرأ، والإصر - بكسر الهمزة:

الاسم من ذلك، وفي هذا نظر. وروى عن عاصم أنه قرأ: أصر بضم الهمزة.

ولا خلاف أن ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلُنَا﴾ يراد به اليهود.

وقال الضحاك: والنصارى.

وأما عبارات المفسرين في قوله: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ فقال قتادة: لا تشدد علينا كما شددت على من كان قبلنا. وقال الضحاك: لا تحملنا من الأعمال ما لا نطيق. وقال نحوه ابن زيد. وقال ابن جريج: لا تمسخنا قردة وخنزير.

وقال سلام بن سابور: الذي لا طاقة لنا به الغلظة، وحكاه النقاش عن مجاهد وعطاء ومكحول. وروى أن أبا الدرداء كان يقول في دعائه: وأعوذ بك من غلظة ليس لها عدة. وقال السدي: هو التغليظ والأغلال التي كانت على بني إسرائيل من التحريم.

ثم قال تعالى فيما أمر المؤمنين بقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَفْنَا﴾، أي: فيما واقعناه وانكشف، ﴿وَأَغْفِرْ لَنَا﴾، أي: استر علينا ما علمت منا، ﴿وَأَرْحَمْنَا﴾، أي: تفضل مبتدئاً برحمة منك لنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهي مناح من الدعاء متباينة، وإن كان الغرض المراد بكل واحد منها واحداً وهو دخول الجنة.

﴿أَنْتَ مَوْلَانَا﴾ مدح في ضمنه تقرب إليه، وشكر على نعمه، ومولى: هو من ولي فهو مفعول أي: موضع الولاية، ثم ختمت

الدعوة بطلب النصر على الكافرين الذي هو ملاك قيام الشرع، وعلو الكلمة، ووجود السبيل إلى أنواع الطاعات.

وروي أن جبريل عليه السلام أتى محمداً ﷺ فقال: قل: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾، فقالها، فقال جبريل: قد فعل، فقال: قل كذا وكذا، فيقولها، فيقول جبريل: قد فعل. إلى آخر السورة، تظاهرت بهذا المعنى أحاديث.

وروي عن معاذ بن جبل أنه كان إذا فرغ من قراءة هذه السورة قال: آمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا يظن به أنه رواه عن النبي ﷺ، فإن كان ذلك فكمال، وإن كان بقياس على سورة الحمد من حيث هناك دعاء، وهنا دعاء فحسن.

وروي أبو مسعود عقبة بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَةِ كِفَاتِهِ﴾، يعني عن قيام الليل. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «ما أظن أحداً عقل وأدرك الإسلام ينام حتى يقرأهما».

وروي أن النبي ﷺ قال: ﴿أُوتِيتْ هؤُلاءِ الآياتِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُوْنِثْهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي﴾.

كملت سورة البقرة، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين.

(٣) تفسير سورة آل عمران

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت، وذكر النقاش أن اسم هذه السورة في التوراة: طيبة.

١ - ٢ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدم ذكر اختلاف العلماء في الحروف التي في أوائل السور في أول سورة البقرة، ومن حيث جاء في هذه السورة ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة قائمة بنفسها فتتصور تلك الأقوال كلها في:

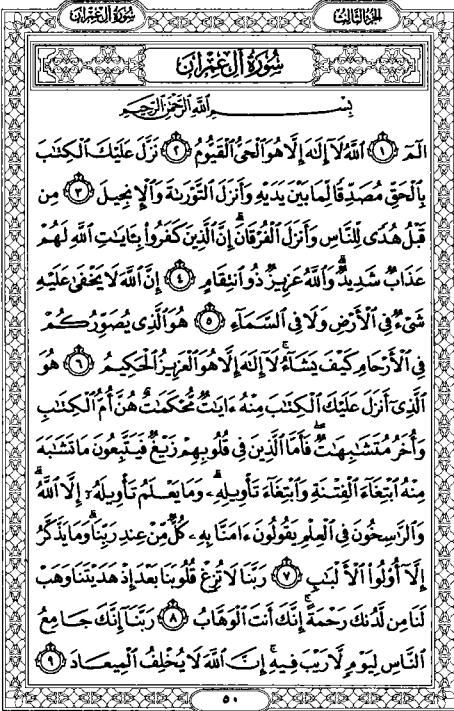
﴿آل﴾ في هذه السورة، وذهب الجرجاني في النظم إلى أن أحسن الأقوال هنا أن يكون ﴿آل﴾ إشارة إلى حروف المعجم كأنه يقول: هذه الحروف كتابك أو نحو هذا، ويدل قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ على ما ترك ذكره مما هو خبر عن الحروف، قال: وذلك في نظمه مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ وترك الجواب لدلالة قوله: ﴿قَوْلًا لِّقَسِيَّةٍ قُلُوبِهِمْ مِّن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ تقديره: كمن قسا قلبه، ومنه قول الشاعر:

فلا تدفنوني إن دقني مُحَرَّمٌ
عليكم، ولكن: خامري أم عامر
التقدير: ولكن اتركوني للتي يقال لها: «خامري أم عامر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يحسن في هذا القول أن يكون ﴿سَرَّلَ﴾ خبر قوله ﴿آل﴾ حتى يرتبط الكلام إلى هذا المعنى. وهذا

الذي ذكره القاضي الجرجاني فيه نظر، لأن مثله ليست صحيحة الشبه بالمعنى الذي نحا إليه، وما قاله في الآية محتمل، ولكن الأبرع في نظم الآية أن تكون ﴿آل﴾ لا تضم ما بعدها إلى نفسها في المعنى، وأن يكون ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ جملة رادة على نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله عليه السلام فحاجوه في عيسى ابن مريم وقالوا: إنه الله، وذلك أن ابن إسحاق

والربيع وغيرهما ممن ذكر السير رووا أن وفد نجران قدم على رسول الله ﷺ نصارى ستون راكباً، فيهم من أشرفهم أربعة عشر رجلاً، في الأربعة عشر ثلاثة نفر إليه يرجع أمرهم: العاقب أمير القوم وذو رأيهم واسمه عبدالمسيح، والسيد ثمالهم وصاحب مجتمعهم واسمه الأيهم، وأبو حارثة بن علقمة أحد بني بكر بن وائل أسقفهم وعالمهم؛ فدخلوا على رسول الله ﷺ المسجد إثر صلاة العصر، عليهم الحبراث جبب وأردية، فقال أصحاب رسول الله عليه السلام: ما رأينا وفداً مثلهم جمالاً وجلالة، وحانت صلاتهم فقاموا فصلوا في مسجد رسول الله ﷺ إلى المشرق فقال النبي ﷺ: «دعوهم»؛ ثم أقاموا بالمدينة أياماً يناظرون رسول الله ﷺ



في عيسى ويزعمون أنه الله، إلى غير ذلك من أقوال بشعة مضطربة، ورسول الله ﷺ يرذ عليهم بالبراهين الساطعة وهم لا يبصرون، ونزل فيهم صدر هذه السورة إلى نيف وثمانين آية إلى أن آل أمرهم إلى أن دعاهم رسول الله ﷺ إلى الابتهاج، وسيأتي تفسير ذلك.

وقرأ السبعة ﴿آلَمَ اللَّهُ﴾ بفتح الميم والالف ساقطة، وروي عن عاصم أنه سَكَنَ الميم ثم قَطَعَ الالف، وروي الأولى التي هي كالجماعة حفص، وروي الثانية أبو بكر، وذكرها الفراء عن عاصم، وقرأ أبو جعفر الرؤاسي وأبو حيوة ﴿آلَمَ﴾ بكسر الميم للالتقاء، وذلك رديء لأن الباء تمنع من ذلك، والصواب الفتح قراءة جمهور الناس. قال أبو علي: حروف التهجي مبنية على

الوقف، فالميم ساكنة واللام ساكنة، فحركت الميم بالفتح كما حركت النون في قولك: من الله، ومن المسلمين، إلى غير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال بأن حركة الهمزة القيت على الميم فذلك ضعيف لإجماعهم على أن الألف الموصولة في التعريف تسقط في الوصل، فما يسقط فلا تلقى حركته، قاله أبو علي.

وقد تقدم تفسير قوله: ﴿الْحَىُّ الْقَيُّومُ﴾ في آية الكرسي، والآية هناك إخبار لجميع الناس، وكررت هنا إخباراً بحجج هؤلاء النصارى، ويرد عليهم أن هذه الصفات لا يمكنهم ادعاؤها لعيسى عليه السلام لأنهم إذ يقولون إنه صلب فذلك موت في معتقدهم لا محالة، إذ من البين أنه ليس بقيوم.

وقرأ جمهور القراء ﴿الْقَيُّومُ﴾ وزنه فيعمل، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعبدالله بن مسعود وعلقمة بن قيس ﴿الْقِيَامُ﴾ وزنه - فيعمل - وروي عن علقمة أيضاً أنه قرأ ﴿الْقِيمُ﴾ وزنه فيعمل، وهذا كله من: قام بالأمر يقوم به إذا اضطلع بحفظه وبجميع ما يحتاج إليه في وجوده، والله تعالى القيّام على كل شيء بما ينبغي له أو فيه أو عليه.

وتنزيل الله الكتاب هو بواسطة الملك جبريل عليه السلام، و﴿الْكِتَابُ﴾ في هذا الموضع القرآن باتفاق من المفسرين.

وقرأ جمهور الناس ﴿زَكَرَ عَلَيْكَ﴾ بتشديد الزاي ﴿الْكِتَابُ﴾ بنصب

الباء، وقرأ إبراهيم النخعي ﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ بتخفيف الزاي ورفع الباء، وهذه الآية تقتضي أن قوله: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ﴾ جملة مستقلة منجزة.

وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون المعنى ضمن الحقائق من خبره وأمره ونهيه ومواعظه، فالباء على حدّها في قوله: جاءني كتابٌ بخبر كذا وكذا، أي ذلك الخبر مقتضٍ فيه، والثاني: أن يكون المعنى أنه نزل الكتاب باستحقاق أن ينزل لما فيه من المصلحة الشاملة، وليس ذلك على أنه واجب على الله تعالى أن يفعله، بل له بالحق أن يفعله، فالباء في هذا المعنى على حدّها في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿سُبْحٰنَكَ مَا يَكُوْنُ لِحَاقِي أَقُوْلُ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّقٍ﴾. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: معنى قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾: أي فيما اختلف فيه أهل الكتاب واضطرب فيه هؤلاء النصارى الوافدون، وهذا داخل في المعنى الأول.

﴿مُصَدِّقًا﴾ حالٌ مؤكدة وهي راتبة غير منتقلة لأنه لا يمكن أن يكون غير مصدق لما بين يديه من كتب الله، فهو كقول ابن دارة:

أنا ابنُ دارةٍ معروفٌ بها نسبي
وهل بدارةٍ يا للناس من عارا؟
﴿لَمَّا بَيَّنَّ يَدَيَّ﴾ التوراة والإنجيل
وسائر كتب الله التي تلقيت من
شرعنا كالزبور والصحف؛ وما بين
اليد في هذه الحوادث هو المتقدم
في الزمن.

﴿النَّوْبَةَ وَالْإِجِيدَ﴾ اسمان أصلهما عبراني، لكن النحاة وأهل اللسان حملوهما على الاشتقاق العربي، فقالوا في التوراة: إنها من وري الزند يَري إذا قدح وظهرت ناره، يقال: أوريته فوري، ومنه قوله تعالى: ﴿فَالْوَرْثِ﴾ وقوله: ﴿أَرْهَبَتُّرَ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ﴾. قال أبو علي: فأما قولهم: وَرَيْتُ بك زنادي على وزن فَعَلْتُ فزعم أبو عثمان أنه استعمل في هذا الكلام فقط ولم يجاوز به غيره.

وتوراة عند الخليل وسيبويه وسائر البصريين فوعلة كحوقلة، أصلها وَوَرِيَةٌ قلبت الواو الأولى تاء كما قلبت في «تولج» وأصله «تولج» من: ولجت. وحكى الزجاج عن بعض الكوفيين: أن توراة أصلها تَفَعَّلَةٌ بفتح العين، من: وَرَيْتُ بك زنادي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما ينبغي أن تكون من: أوريته، قال: فهي تَوْرِيَةٌ. وقال بعضهم: يصلح أن تكون تفعلة بكسر العين مثل توصية ثم رُدَّتْ إلى تفعلة بفتح العين. قال الزجاج: وكأنه يجيز في توصية توصاة وذلك غير مسموع، وعلى كل قولٍ فالباء لما انفتح ما قبلها وتحركت هي انقلبت ألفاً فقيل: توراة، ورجح أبو علي قول البصريين وضعف غيره.

وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم: ﴿النَّوْرَةَ﴾ مفتوحة الراء، وكان حمزة ونافع يلفظان بالراء بين اللفظين بين الفتح والكسر، وكذلك فعلا في قوله: ﴿مَعَ الْأَنْبَارِ﴾ و﴿بَيْنَ الْأَنْبَارِ﴾

﴿مِنْ قَرَارٍ﴾ إذا كان الحرف مخفوضاً. وروى المسيبي عن نافع فتح الرء من التوراة، وروى ورش عنه كسرهما، وكان أبو عمرو والكسائي يكسران الرء من التوراة ويميلان ﴿مِنَ الْأَبْرَارِ﴾ وغيرها أشد من إمالة حمزة ونافع.

وقالوا في الإنجيل: إنه إفعيل من النجّل، وهو الماء الذي ينز من الأرض؛ قال الخليل: استنجلت الأرض وبها نجالٌ إذا خرج منها الماء. والنجلُ أيضاً الولد والنسل. قاله الخليل وغيره، ونجله أبوه أي ولده، ومن ذلك قول الأعشى:

أنسجِبَ أَيْسَمَ والسداه به
إذ نَجَلَاهُ فنعم ما نَجَلَا

قال ابن سيدة عن أبي علي: معنى قوله: «أيام والداه به» كما تقول: أنا بالله وبك، وقال أبو الفتح: معنى البيت: أنجب والداه به أيام إذ نجلاه، فهو كقولك: حينئذ ويومئذ لكنه حال بالفاعل بين المضاف الذي هو «أيام» وبين المضاف إليه الذي هو «إذ». ويروى هذا البيت: «أنجب أيام والداه». والنجلُ: الرمي بالشئ وذلك أيضاً من معنى الظهور وفراق شئ شياً، وحكى أبو القاسم الزجاجي في نوادره: أن الوالد يقال له: نجل، وأن اللفظة من الأضداد، وأما بيت زهير فالرواية الصحيحة فيه:

وكلُّ فحلٍ له نَجْلٌ
أي ولد كريم ونسل. وروى الأصبغي فيما حكى عنه «وكلُّ فرع له نجل»، وهذا لا يتجه إلا على

تسمية الوالد نجلاً. وقال الزجاج: الإنجيل مأخوذٌ من النجل وهو الأصل، فهذا ينحو إلى ما حكى أبو القاسم.

قال أبو الفتح: فالتوراة من وَرَى الزناد إذا ظهرت ناره، والإنجيل من نَجَلٌ إذا ظهر ولده، أو من ظهور الماء من الأرض، فهو مستخرَجٌ إما من اللوح المحفوظ وإما من التوراة.

﴿الْفُرْقَانُ﴾ من الفرق بين الحق والباطل، فحروفها مختلفة والمعنى قريبٌ بعضه من بعض، إذ كلها معناه: ظهور الحق وبيان الشرع وفصله من غيره من الأباطيل.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿الأنجيل﴾ - بفتح الهزئة - وذلك لا يتجه في كلام العرب، ولكن تحميه مكانة الحسن من الفصاحة، وأنه لا يقرأ إلا بما روى، وأراه نحا به نحو الأسماء الأعجمية.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ يعني من قبل القرآن.

وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ معناه: دعاء، والناس: بنو إسرائيل في هذا الموضوع، لأنهم المدعوون بهما لا غير، وإن أراد أنهما هدى في ذاتهما مدعو إليه فرعون وغيره، منصوب لمن اهتدى به، فالناس عامٌ في كلِّ من شاء حينئذٍ أن يستبصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال هنا: ﴿لِّلنَّاسِ﴾، وقال في القرآن: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ وذلك عندي لأن هذا خير مجرد، وقوله: ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ خبرٌ مقررٌ به الاستدعاء والصرف إلى الإيمان، فحسنت الصفة، ليقع من السامع

النشاط والبِدَار، وذكر الهدى الذي هو إيجاد الهداية في القلب، وهنا إنما ذكر الهدى الذي هو الدعاء، والهدى الذي هو في نفسه معدٌ أن يهتدي به الناس، فسمي هدى لذلك، وقال ابن فورك: التقدير هنا: هدى للناس المتقين، ويرد هذا العام إلى ذلك الخاص، وفي هذا نظر.

والفرقان: القرآن، سمي بذلك لأنه فَرَّقَ بين الحق والباطل، قال محمد بن جعفر: فرق بين الحق والباطل في أمر عيسى عليه السلام، الذي جادل فيه الوفد، وقال قتادة والربيع وغيرهما: فرق بين الحق والباطل في أحكام الشرائع، وفي الحلال والحرام ونحوه، والفرقان يعسم هذا كله. وقال بعض المفسرين: الفرقان هنا: كلُّ أمر فرق بين الحق والباطل، فيما قُدِّم وحثت، فيدخل في هذا التأويل طوفانُ نوح، وفرق البحر لفرق فرعون، ويوم بدر، وسائر أفعال الله تعالى المفرقة بين الحق والباطل، فكانه تعالى ذكر الكتاب العزيز، ثم التوراة والإنجيل، ثم كلُّ أفعاله ومخلوقاته التي فرقت بين الحق والباطل، كما فعلت هذه الكتب، ثم توعد تعالى الكفار عموماً بالعذاب الشديد، وذلك يعم عذاب الدنيا بالسيف والغلبة، وعذاب الآخرة بالنار، والإشارة بهذا الوعيد إلى نصارى نجران، وقال النقاش: إلى اليهود، كعصب بن الأشرف، وكعصب بن أسد، وابني أخطب وغيرهم.

﴿عَبْرَةٌ﴾ معناه: غالب، وقد ذلَّ له كلُّ شيء؛ والنقمة والانتقام: معاينة المذنب بمبالغة في ذلك.

﴿٧﴾ - ﴿٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية أخبر عن علم الله تعالى بالأشياء على التفصيل، وهذه صفة لم تكن لعيسى ولا لأحد من المخلوقين، ثم أخبر عن تصويره البشر في أرحام الأمهات، وهذا أمر لا ينكره عاقل، ولا ينكر أن عيسى وسائر البشر لا يقدرّون عليه، ولا ينكر أن عيسى عليه السلام من المصوّرين في الأرحام، فهذه الآية تعظيمٌ لله تعالى في ضمنها الرد على نصارى نجران.

وفي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَيْءٌ﴾ وعيد ما لهم؛ فسّر بنحو هذا محمد بن جعفر بن الزبير والربيع، وفي قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُمَوِّنُكُمْ﴾ ردُّ على أهل الطبيعة، إذ يجعلونها فاعلة مستبدة، وشرح النبي ﷺ كيفية التصوير في الحديث الذي رواه ابن مسعود وغيره: «إن النطفة إذا وقعت في الرحم مكثت نطفة أربعين يوماً، ثم تكون علقة أربعين يوماً، ثم مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليها ملكاً فيقول: يا رب، أذكرك أم أنسى؟ أنسيت أم سمعيت؟». الحديث بطوله على اختلاف ألفاظه. وفي مسند ابن سنجر حديث: «إن الله يخلق عظام الجنين وعضاريفه من مني الرجل، ولحمه وشحمه وسائر ذلك من مني المرأة». و(صوّر) بناء مبالغة من: صار يصور إذا أمال وثنى إلى حال ما، فلما كان التصوير إمالة إلى حال

وإثباتاً فيها، جاء بناؤه على المبالغة. والرحم: موضع نشأة الجنين.

﴿كَيْفَ يَشَاءُ﴾ يعني من طول وقصر ولون وسلامة وعاهة وغير ذلك من الاختلافات.

﴿الزَّيْرُ﴾: الغالب، و﴿الْمَكِيمُ﴾: ذو الحكمة أو المحكم في مخلوقاته، وهذا أخص بما ذكر من التصوير.

﴿الْكَتَبُ﴾ في هذه الآية: القرآن بإجماع من المتأولين، والمحكمات: المفصلات المبينات الثابتات الأحكام، والمتشابهات: هي التي فيها نظر وتحتاج إلى تأويل ويظهر فيها ببادي النظر إما تعارض مع أخرى أو مع العقل، إلى غير ذلك من أنواع التشابه، فهذا الشبه الذي من أجله توصف بمتشابهات إنما هو بينها وبين المعاني الفاسدة التي يظنها أهل الزيغ ومن لم يُمنع النظر، وهذا نحو الحديث الصحيح، عن النبي عليه السلام: «الحلال بين والحرام بين، وبينهما أمور متشابهات» أي يكون الشيء حراماً في نفسه فيشبهه عند من لم يمعن النظر شيئاً حلالاً، وكذلك الآية يكون لها في نفسها معنى صحيح فتشبه عند من لم يمعن النظر أو عند الزائغ معنى آخر فاسداً، فربما أراد الاعتراض به على كتاب الله، هذا عندي معنى الإحكام والتشابه في هذه الآية، ألا ترى أن نصارى نجران قالوا للنبي عليه السلام: ليس عندك في كتابك أن عيسى كلمة الله وروح منه؟ قال: «نعم»، قالوا: فحسبنا إذاً، فهذا هو التشابه.

واختلفت عبارة المفسرين في تعيين المحكم والمتشابه المراد بهذه الآية، فقال ابن عباس: المحكمات: هي قوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَمَّائُوا أَن تُلَّ مَا حَرَّمَ رَبِّي كَمَا عَلَّمَكُم﴾ إلى ثلاث آيات، وقوله في بني إسرائيل: ﴿وَوَقَّعَ رَبُّكَ الْآلَاءَ تَبَدُّوا إِلَّا آيَاتَهُ﴾، وهذا عندي مثال أعطاه في المحكمات. وقال ابن عباس أيضاً: المحكمات: ناسخه وحلاله وحرامه وما يؤمن به ويعمل به؛ والمتشابهات: منسوخه ومقدمه ومؤخره وأمثاله وأقسامه وما يؤمن به ولا يُعمل به. وقال ابن مسعود وغيره: المحكمات: الناسخات، والمتشابهات: المنسوخات، وهذا عندي على جهة التمثيل؛ أي يوجد الإحكام في هذا والتشابه في هذا، لا أنه وقف على هذا النوع من الآيات. وقال بهذا القول قتادة والربيع والضحاك. وقال مجاهد وعكرمة: المحكمات: ما فيه الحلال والحرام، وما سوى ذلك فهو متشابه يصدق بعضه بعضاً، وذلك مثل قوله: ﴿وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ﴾ وقوله: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. وهذه الأقوال وما ضارعها يُضعفها أن أهل الزيغ لا تعلق لهم بنوع مما ذكر دون سواه.

وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المحكمات: هي التي فيهن حجة الرب وعصمة العباد ودفع الخصوم والباطل ليس لها تصريف ولا تحريف عما وُضعن عليه، والمتشابهات: لهن تصريف

وتحريف وتأويل ابتلى الله فيهن العباد، وهذا أحسن الأقوال في هذه الآية. وقال ابن زيد: المحكم: ما أحكم فيه قصص الأنبياء والأمم، ويبين لمحمد وأمه، والمتشابه: هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم عند التكرير في السور بعضه باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبعضه بعكس ذلك نحو قوله: ﴿حَيَّةٌ سَعَتْ﴾ و﴿ثَبَّانٌ شَيْبَانٌ﴾ ونحو: ﴿أَسَلَكُ يَدَكَ﴾ و﴿وَأَدْخَلَ يَدَكَ﴾.

وقالت جماعة من العلماء منهم جابر بن عبدالله بن رثاب وهو مقتضى قول الشعبي وسفيان الثوري وغيرهما: المحكمات من آي القرآن: ما عرف العلماء تأويله وفهموا معناه وتفسيره، والمتشابه: ما لم يكن لأحد إلى علمه سبيل مما استأثر الله بعلمه دون خلقه. قال بعضهم: وذلك مثل وقت قيام الساعة وخروج يأجوج ومأجوج والدجال ونزول عيسى، ونحو الحروف المقطعة في أوائل السور.

قال القاضي أبو محمد عبدالحق رضي الله عنه: أما الغيوب التي تأتي فهي من المحكمات، لأن ما يعلم البشر منها محدود، وما لا يعلمونه وهو تحديد الوقت محدود أيضاً. وأما أوائل السور فمن المتشابه لأنها مُعْرَضَةٌ للتأويل، ولذلك اتبعت اليهود وأرادوا أن يفهموا منه مدة أمية محمد عليه السلام.

وفي بعض هذه العبارات التي ذكرنا للعلماء اعتراضات، وذلك أن التشابه الذي في هذه الآية مقيد بأنه مما لأهل الزبغ به تعلق، وفي بعض

عبارات المفسرين تشابه لا يقتضي لأهل الزبغ تعلقاً.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ فمعناه الإعلام بأنها معظم الكتاب وعمدة ما فيه، إذ المحكم في آيات الله كثير قد فصل ولم يقرط في شيء منه.

قال يحيى بن يعمر: هذا كما يقال لمكة: أم القرى، ولمرو: أم خراسان، وكما يقال: أم الرأس لمجتمع الشؤون إذ هو أخطر مكان. قال المهدوي والنقاش: كل آية محكمة في كتاب الله يقال لها أم الكتاب؛ وهذا مردود؛ بل جميع المحكم هو أم الكتاب، وقال النقاش: وهذا كما تقول: كلكم علي أسد ضار؛ وهذا المثال غير محكم. وقال ابن زيد: ﴿أُمَّ الْكِتَابِ﴾ معناه: جماع الكتاب. وحكى الطبري عن أبي فاختة أنه قال: ﴿مَنْ أُمَّ الْكِتَابِ﴾ يراد به فواتح السور إذ منها يستخرج القرآن ﴿الْمَرْءُ ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ منه استخرجت سورة البقرة ﴿الْمَرْءُ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمَّ الْأَقْيَمُ﴾ منه

استخرجت سورة آل عمران. وهذا قول متداع للسقوط مضطرب لم ينظر قائله أول الآية وآخرها ومقصدها، وإنما معنى الآية الإنحاء على أهل الزبغ والإشارة بذلك أولاً إلى نصارى نجران وإلى اليهود الذين كانوا معاصرين لمحمد عليه السلام، فإنهم كانوا يعترضون معاني القرآن، ثم تعم بعد ذلك كل زائغ، فذكر الله تعالى أنه نزل الكتاب على محمد إفضالاً منه ونعمة، وأن مُحْكَمَهُ وَبَيَّنَّهُ

الذي لا اعتراض فيه هو معظمه والغالب عليه، وأن متشابهه الذي يحتمل التأويل ويحتاج إلى التفهم هو أقله. ثم إن أهل الزبغ يتركون المحكم الذي فيه عُثْنُهُمْ ويتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة وأن يفسدوا ذات البين ويردوا الناس إلى زبغهم، فهكذا تتوجه المذمة عليهم.

﴿وَأُخْرَى﴾ جمع أخرى ولا ينصرف لأنه صفة، وعدل عن الألف واللام في أنه يثنى ويجمع، وصفات التفضيل كلها إذا عريت عن الألف واللام لم تثن ولم تجمع، كأفضل وما جرى مجراه، ولا يفاضل بهذه الصفات بين شيئين إلا وهي منكرة، ومتى دخلت عليه الألف واللام زال معنى التفضيل بين أمرين، وليس عدل (أخر) عن الألف واللام مؤثراً في التعريف كما هو عدل (سحر) بل أخر نكرة، وأما سحر فعديل لأنه زالت الألف واللام وبقي معرفة في قوله: «جئت يوم الجمعة سحر». وخلط المهدوي في هذه المسألة وأفسد كلام سيويه فتأمله.

﴿٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَبِغٌ﴾ يعلم كل طائفة من كافر وزنديق وجاهل صاحب بدعة. والزبغ: الميل، ومنه زاغت الشمس، وزاغت الأبصار. والإشارة بالآية في ذلك الوقت كانت إلى نصارى نجران لتعرضهم للقرآن في أمر عيسى عليه السلام، قاله الربيع، وإلى اليهود، ثم تنسحب على كل ذي بدعة أو كفر، وبالميل عن الهدى فسر الزبغ

محمد بن جعفر بن الزبير وابن مسعود وجماعة من الصحابة ومجاهد وغيرهم.

﴿وَمَا تَكْتَبُ بِيَدِهِ﴾ هو الموصوف أنفأ بـ «متشابهات». وقال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾: إن لم يكونوا الحرورية وأنواع الخوارج فلا أدري من هم. وقالت عائشة: «إذا رأيتم الذين يجادلون في القرآن فهم الذين عنى الله فاحذروهم» وقال الطبري: الأشبه أن تكون الآية في الذين جادلوا رسول الله ﷺ في مدته ومدة أمته بسبب حروف أوائل السور، وهؤلاء هم اليهود.

﴿وَأَيْتَاءَ﴾ نُصِبَ عَلَى الْمَفْعُولِ مِنْ أَجْلِهِ، وَمَعْنَاهُ طَلَبُ الْفِتْنَةِ. وَقَالَ الرَّبِيعُ: الْفِتْنَةُ هُنَا: الشُّرْكُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: الْفِتْنَةُ: الشَّبَهَاتُ وَاللِّبْسُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ.

ثم قال: ﴿وَأَيْتَاءَ تَأْوِيلِهِ﴾ والتأويل هو مَرَدُّ الْكَلَامِ وَمَرْجَعُهُ وَالشَّيْءُ الَّذِي يَقِفُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعْنَى، وَهُوَ مِنْ آلِ يُوؤَلُ، إِذَا رَجَعَ، فَالْمَعْنَى: وَطَلَبَ تَأْوِيلَهُ عَلَى مَنَازِعِهِمُ الْفَاسِدَةَ. هَذَا فِيمَا لَهُ تَأْوِيلٌ حَسَنٌ، وَإِنْ كَانَ مِمَّا لَا يَتَأْوَلُ بَلْ يَوْقِفُ فِيهِ كَالْكَلَامِ فِي مَعْنَى الرُّوحِ وَنَحْوِهِ فَفَسَسَ طَلَبُ تَأْوِيلِهِ هُوَ اتِّبَاعُ مَا تَشَابَهَ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: ابْتَغَوْا مَعْرِفَةَ مَدَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ وَأَمْتَهُ.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ﴾ إِلَّا اللَّهُ ﴿فَهَذَا عَلَى الْكَمَالِ وَالتَّوْفِيقِ﴾ فِيمَا لَا يَتَأْوَلُ وَلَا سَبِيلَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ؛ كَأَمْرِ الرُّوحِ، وَتَعَرَّفَ وَقَبَّ قِيَامِ السَّاعَةِ وَسَائِرِ الْأَحْدَاثِ الَّتِي أَنْذَرَ بِهَا

الشرع، وفيما يمكن أن يتأوله العلماء ويصح التطرق إليه، فمعنى الآية: وما يعلم تأويله على الكمال إلا الله.

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ فرأت فرقة أن رفع ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ هو بالعطف على اسم الله عز وجل، وأنهم داخلون في علم المتشابه في كتاب الله، وأنهم مع علمهم به ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ﴾... الآية، قال بهذا القول ابن عباس، وقال: أنا ممن يعلم تأويله. وقال مجاهد: والراسخون في العلم يعلمون تأويله ويقولون آمنا به، وقاله الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير وغيرهم، و﴿يَقُولُونَ﴾ على هذا التأويل نصب على الحال.

وقالت طائفة أخرى: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ رفع بالابتداء وهو مقطوع من الكلام الأول، وخبره ﴿يَقُولُونَ﴾. والمنفرد بعلم المتشابه هو الله وحده بحسب اللفظ في الآية، وفعل الراسخين قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾، قالت عائشة وابن عباس أيضاً. وقال عروة بن الزبير: إن الراسخين لا يعلمون تأويله ولكنهم يقولون: ﴿آمَنَّا بِهِ﴾. وقال أبو نهيك الأسدي: إنكم تَصْلُونَ هذه الآية وإنها مقطوعة، وما انتهى علم الراسخين إلا إلى قولهم: ﴿آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾. وقال مثل هذا عمر بن عبدالعزيز، وحكى نحوه الطبري عن يونس عن أشهب عن مالك بن أنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه المسألة إذا تؤملت قُرْبُ الْخِلَافِ فِيهَا مِنَ الْإِتْفَاقِ، وَذَلِكَ

أن الله تعالى قَسَمَ آيَةَ الْكِتَابِ قَسَمِينَ: مُحْكَمًا وَمَتَشَابِهًا، فَالْمُحْكَمُ هُوَ الْمَتَّضِحُ الْمَعْنَى لِكُلِّ مَنْ يَفْهَمُ كَلَامَ الْعَرَبِ لَا يَحْتَاجُ فِيهِ إِلَى نَظَرٍ وَلَا يَتَعَلَّقُ بِهِ شَيْءٌ يُلْبِسُ، وَيَسْتَوِي فِي عِلْمِهِ الرَّاسِخُ وَغَيْرُهُ، وَالْمَتَشَابِهُ يَتَنَوَّعُ، فَمَنْه مَا لَا يُعْلَمُ الْبَيِّنَةُ، كَأَمْرِ الرُّوحِ، وَأَمَّا الْمَغْيِبَاتُ الَّتِي قَدْ أَعْلَمَ اللَّهُ بِوُقُوعِهَا إِلَى سَائِرِ ذَلِكَ، وَمَنْه مَا يَحْمَلُ عَلَى وَجْهِهِ فِي اللُّغَةِ وَمَنَاجٍ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ، فَيَتَأْوَلُ وَيُعْلَمُ تَأْوِيلَهُ الْمُسْتَقِيمَ، وَيَزَالُ مَا فِيهِ مِمَّا عَسَى أَنْ يَتَعَلَّقَ بِهِ مِنْ تَأْوِيلٍ غَيْرِ مُسْتَقِيمٍ كَقَوْلِهِ فِي عَيْسَى: ﴿رُوحٌ مِنْهُ﴾ إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ، وَلَا يُسَمَّى أَحَدٌ رَاسِخًا إِلَّا بِأَنْ يَعْلَمَ مِنْ هَذَا النَّوعِ كَثِيرًا بِحَسَبِ مَا قُدِّرَ لَهُ، وَإِلَّا فَمَنْ لَا يَعْلَمُ سِوَى الْمُحْكَمِ فَلَيْسَ يُسَمَّى رَاسِخًا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ﴾ الضمير عائد على جميع متشابه القرآن، وهو نوعان كما ذكرنا، فقوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ مقتضى ببديهة العقل أنه يعلمه على الكمال والاستيفاء، يعلم نوعه جميعاً، فإن جعلنا قوله: ﴿وَالرَّاسِخُونَ﴾ عطفاً على اسم الله تعالى، فالمعنى إدخالهم في علم التأويل لا على الكمال، بل علمهم إنما هو في النوع الثاني من المتشابه، وبديهة العقل تقضي بهذا، والكلام مستقيم على فصاحة العرب كما تقول: ما قام لنصرتي إلا فلان وفلان، وأحدهما قد نصرك بأن حارب معك، والآخر إنما أعانك بكلام فقط، إلى كثير من المثل، فالمعنى: ﴿وَمَا يَسْمَعُ تَأْوِيلَهُ﴾

إلا الله والراسخون كلُّ بقدره وما يصلح له، والراسخون بحال قول في جميعه: ﴿أَمَّا يَوْمَهُ﴾، وإذا تحصل لهم في الذي لا يعلم ولا يتصور عليه تمييزه من غيره فذلك قدرٌ من العلم بتأويله، وإن جعلنا قوله: ﴿وَأَلْبِشُوا﴾ رفعاً بالابتداء مقطوعاً مما قبله، فتسميتهم راسخين يقتضي بأنهم يعلمون أكثر من المحكم الذي يستوي في علمه جميع من يفهم كلام العرب، وفي أي شيء هو رسوخهم إذا لم يعلموا إلا ما يعلم الجميع؟ وما الرسوخ إلا المعرفة بتعاريف الكلام، وموارد الأحكام، ومواقع المواظ، وذلك كله بقريحة مُعَدَّة، فالمعنى: وما يعلم تأويله على الاستيفاء إلا الله، والقوم الذين يعلمون منه ما يمكن أن يُعَلَّم يقولون في جميعه: ﴿أَمَّا يَوْمَهُ كُلِّ يَوْمٍ عِنْدَ رَبِّي﴾، وهذا القدر هو الذي تعاطى ابن عباس رضي الله عنه، وهو ترجمان القرآن، ولا يُتَأَوَّلُ عليه أنه علم وقت الساعة وأمر الروح وما شاكلة. فإعراب ﴿وَأَلْبِشُوا﴾ يحتمل الوجهين، ولذلك قال ابن عباس بهما، والمعنى فيهما يتقارب بهذا النظر الذي سطرناه.

فأما من يقول: إن المتشابه إنما هو ما لا سبيل لأحدٍ إلى علمه فيستقيم على قوله إخراج الراسخين من علم تأويله، لكنَّ تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح، بل الصحيح في ذلك قول مَنْ قال: المحكم ما لا يحتمل إلا تأويلاً واحداً، والمتشابه ما احتتمل من التأويل أوجهاً. وهذا هو مُتَّبِعُ أهل الزبيغ،

وعلى ذلك يترتب النظر الذي ذكرته. ومن قال من العلماء الحذاق بأن الراسخين لا يعلمون تأويل المتشابه فإنما أرادوا هذا النوع، وخافوا أن يظنَّ أحدٌ أن الله وصف الراسخين بعلم التأويل على الكمال، وكذلك ذهب الزجاج إلى أن الإشارة بما تشابه منه إنما هي إلى وقت البعث الذي أنكره، وفسر باقي الآية على ذلك، فهذا أيضاً تخصيص لا دليل عليه. وأما من يقول: إن المتشابه هو المنسوخ فيستقيم على قوله إدخال الراسخين في علم التأويل، ولكن تخصيصه المتشابهات بهذا النوع غير صحيح. ورجح ابنُ فُورك أن الراسخين يعلمون التأويل وأظن في ذلك.

وقرأ أبي بن كعب وابن عباس: ﴿إِلَّا اللَّهُ وَيَقُولُ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ أَمَّا يَوْمَهُ﴾. وقرأ ابن مسعود: ﴿وَأَيْتَاءُ﴾ تأويله إن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون أمَّا يَوْمَهُ. والرسوخ: الثبوت في الشيء، وأصله في الأجرام أن يرسخَ الجبل أو الشجر في الأرض. وسئل النبي عليه السلام عن الراسخين في العلم فقال: «هو من برت يمينته وصدق لسانه واستقام قلبه».

وقوله: ﴿كُلُّ يَوْمٍ عِنْدَ رَبِّي﴾ فيه ضمير عائد على كتاب الله، محكمه ومتشابهه، والتقدير: كلُّه من عند ربنا، وحذف الضمير لدلالة لفظ «كل» عليه، إذ هي لفظة تقتضي الإضافة.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ أي ما يقول هذا ويؤمن به

ويقف حيث وقف ويدعُ اتباع المتشابه إلا ذولب، وهو العقل، وأولو: جمع ذو.

⑧ - ⑨ تفسير قوله عز وجل:

يحتمل أن تكون هذه الآية حكاية عن الراسخين في العلم أنهم يقولون هذا مع قولهم: ﴿أَمَّا يَوْمَهُ﴾، ويحتمل أن يكون المعنى منقطعاً من الأول، لما ذكّر أهل الزبيغ وذكر نقيضهم وظهر ما بين الحالتين عقب ذلك بأن علم عبادة الدعاء إليه في أن لا يكونوا من الطائفة الذميمة التي ذكّرت، وهي أهل الزبيغ. وهذه الآية حجة على المعتزلة في قولهم: إن الله لا يُضِلُّ العباد، ولو لم تكن الإزاعة من قِبَلِهِ لما جاز أن يدعى في دفع ما لا يجوز عليه فعله.

﴿وَيُزِغُ﴾ معناه: تُجَلِّ قلوبنا عن الهدى والحق. وقرأ أبو واقد والجراح: ﴿لا تزغ قلوبنا﴾ بإسناد الفعل إلى القلوب، وهذه أيضاً الرغبة إلى الله تعالى. وقال أبو الفتح: ظاهر هذا ونحوه الرغبة إلى القلوب وإنما المسؤول الله تعالى، وقوله: «الرغبة إلى القلوب» غير متمكن. ومعنى الآية على القراءتين: أي لا يكن منك خلُقُ الزبيغ فيها فتزبيغ هي؛ قال الزجاج: وقيل: إن معنى الآية: لا تكلفنا عبادةً ثقيلاً تزبيغ منها قلوبنا؛ وهذا قول فيه التحفظ من خلُقِ الله تعالى الزبيغ والضلالة في قلب أحد من العباد.

﴿وَمِنَ الَّذِينَ﴾ معناه: من عندك ومن قبلك، أي يكون فضلاً لا عن سبب منا ولا عن عمل. وفي هذا استسلام وتطرح. والمراد: هب لنا نعيماً

والكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ﴾ في موضع رفع، التقدير: ذابهم كذاب، ويصح أن يكون الكاف في موضع نصب؛ قال الفراء: هو نعت لمصدر محذوف تقديره: كفراً كذاب، فالعامل فيه ﴿كَذَّابٌ﴾، ورد هذا القول الزجاج بأن الكاف خارجة من الصلة فلا يعمل فيه ما في الصلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يعمل فيه فعل مقدر من لفظ الوقود، ويكون التشبيه في نفس الاحتراق، ويؤيد هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَسَأَقِ بِأَلِ فِرْعَوْنَ سَوْءَهُ الْعَذَابِ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا﴾ والقول الأول أرجح الأقوال أن تكون الكاف في موضع رفع، والهاء في ﴿قِيلِمٌ﴾ عائدة على آل فرعون، ويحتمل أن تعود على معاصري رسول الله ﷺ من الكفار.

وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد بالآيات: المتلوة، ويحتمل أن يريد: العلامات المنصوبة. واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الدأب، وذلك كله راجع إلى المعنى الذي ذكرناه.

﴿١٣﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وابن عامر: ﴿سُفُّوْرٌ وَنُفُّوْرٌ﴾ بالثاء من فوق، و﴿يُرُوْنَهُمْ﴾ بالياء من تحت، وحكى أبان عن عاصم ﴿تُرُوْنَهُمْ﴾ بالثاء من فوق، وقرأ نافع ثلاثتهن بالثاء من فوق، وقرأ حمزة ثلاثتهن بالياء من تحت،

﴿١٢﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله تعالى:

هَمَّ الْكُفَّارِ الَّذِينَ لَا يُقْرُونَ بِعَيْثٍ إِنَّمَا هِيَ عَلَى وَجْهِ الدَّهْرِ وَإِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ - فِي زِينَةِ الدُّنْيَا وَهِيَ الْعَمَالُ وَالْبُنُونَ، فَأَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ ذَلِكَ الْمَتَّهَمَ فِيهِ لَا يَغْنِي عَنْ صَاحِبِهِ شَيْئاً، وَلَا يَمْنَعُهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ وَعِقَابِهِ؛ (ومن) في قوله: ﴿يَوْمَ اللَّهِ﴾ لا ابتداء الغاية، والإشارة بالآية إلى معاصري النبي ﷺ، وكانوا يفخرون بأموالهم وأبنائهم، وهي - بعد -

متأولة كل كافر.

وقرأ أبو عبدالرحمن: ﴿لَنْ يُغْنِيَهُ﴾ بالياء، على تذكير العلامة.

والوقود بفتح الواو: ما يحترق في النار من حطب ونحوه، وكذلك هي قراءة جمهور الناس، وقرأ الحسن ومجاهد وجماعة غيرهما: ﴿وُقُودٌ﴾ بضم الواو، وهذا على حذف مضاف تقديره: «حطب وقود النار» والوقود بضم الواو: المصدر، وَقَدَّتِ النَّارُ تَقَدُّ إِذَا اشْتَعَلَتْ. والدأب والدأب - بسكون الهمزة وفتحها - مصدر دأب يدأب، إذا لازم فعل شيء ودام عليه مجتهداً فيه، ويقال للعادة: «دأب»، فالمعنى في الآية: تشبيه هؤلاء في لزومهم الكفر ودامهم عليه بأولئك المتقدمين، وآخر الآية يقتضي الوعيد بأن يصيب هؤلاء مثل ما أصاب أولئك من العقاب.

سورة آل عمران

الآيات ١٠ - ١٣

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١١﴾ كَذَّابٌ أَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَآخَذْنَاهُمْ بِالذُّبُوبِ ۗ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٢﴾ قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَعْتٌ بَلْ يَرَوْنَ بَأْسَ اللَّهِ وَنَحْمُسُوتُ لِمَاجِهَتِهِمْ وَيَقْسِ الْيَهُودُ ﴿١٣﴾ فَذَكَرْنَا لَكُمْ آيَةً فِي فَتْنَيْنِ الَّتِي آفَقْنَا فَمَنْ تَقَبَّلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُمْ مِثْلَ يَوْمِ رَبَّاعَى أَلْمَنَ وَاللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿١٤﴾ زَيْنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّكَاحِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْأَفْئِدَةِ وَالْحَيْلِ الْمُسَوِّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَتَابِ ﴿١٥﴾ قُلْ أَوْشَكَ بِخَيْرٍ مِمَّنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ يُصِيبُ بِالْأَنْبَاءِ ﴿١٦﴾

٥١

صادراً عن الرحمة، لأن الرحمة راجعة إلى صفات الذات فلا تتصور فيها الهبة.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ﴾ إقراؤاً بالبعث ليوم القيامة. قال الزجاج: هذا هو التأويل الذي عَلِمَهُ الراسخون وأقروا به، وخالف الذين اتبعوا ما تشابه عليهم من أمر البعث حين أنكروه، والريب: الشك، والمعنى: إنه في نفسه حق لا ريب فيه، وإن وقع فيه ريب عند المكذبين به فذلك لا يعتد به، إذ هو خطأ منهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخَلِّقُ الْإِيمَانَ﴾ يحتمل أن يكون إخباراً منه لمحمد ﷺ وأمته، ويحتمل أن يكون حكاية من قول الداعين، ففي ذلك إقرار بصفة ذات الله تعالى؛ والمعاد: بفعل من الورد.

الذين سَعَرُوا البلاد؟... الحديث بكماله، فنزلت الآية مقوية لنفوس المؤمنين ومبينة صحة ما أخبر به بالمثال الواقع.

فمن قرأ ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ بالتاء من فوق فهي مخاطبة لجميع المؤمنين، إذ قد رأى ذلك جمهور منهم، والهاء والميم في ﴿تَرَوْنَهُمْ﴾ لجميع المشركين، وفي ﴿يَتَّبِعْتَهُمْ﴾ لجميع المؤمنين، ومن قرأ بالياء من تحت فالمعنى يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلي جمع المؤمنين، ومن رأى أن الخطاب لجميع الكفار ومن رأى أنه لليهود فالآية عنده داخلة فيما أمر محمد عليه السلام أن يقوله لهم احتجاجاً عليهم، وتبييناً لصورة الوعيد المتقدم في أنهم سيفليون. فمن قرأ ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ بالياء من تحت فالمعنى: يرى الجمع من المؤمنين جمع الكفار مثلي جمع المؤمنين، ومن قرأ بالتاء فالمعنى: فلو حضرتم أو إن كنتم حضرتم، وساعت العبارة لوضوح الأمر في نفسه ووقوع اليقين به لكل إنسان في ذلك العصر، ومن قرأ بضم التاء أو الياء فكأن المعنى: إن اعتقاد التضعيف في جمع الكفار إنما كان تخميناً وظناً لا يقيناً، فلذلك ترك في العبارة ضرباً من الشك وذلك أن أرى - بضم الهمزة - تقولها فيما بقي عندك فيه نظر، وأرى - بفتح الهمزة - تقولها فيما قد صحَّ نظرك فيه. ونحا هذا المنحى أبو الفتح وهو صحيح. قال أبو علي: والرؤية في هذه الآية رؤية عين، ولذلك تعدت إلى مفعول واحد، و﴿يَتَّبِعْتَهُمْ﴾ نصب على

قريشاً - وهذا التأويل إنما يستقيم على قراءة ﴿سَيَغْلِبُونَ وَيُخْشِرُونَ﴾ بالياء من تحت، ومن قرأ بالتاء فمعنى الآية: قل للكفار جميعاً هذه الألفاظ. ومن قرأ بالياء من تحت فالمعنى: قل لهم كلاماً هذا معناه، وتحتمل قراءة التاء التأويل الذي ذكرناه آنفاً، أي قل لليهود: ستغلب قريش. ورجح أبو علي قراءة التاء على المواجهة، وأن الذين كفروا يعم الفريقين: المشركين واليهود، وكل قد غلب بالسيف والجزية والذلة. والحشر: الجمع والإحضار.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسَّسَ اللَّيْهَاءُ﴾ يعني جهنم، هذا ظاهر الآية، وقال مجاهد: المعنى بئس ما مهدوا لأنفسهم، فكأن المعنى: وبئس فعلهم الذي أدهم إلى جهنم.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي يَتَّبِعْتَهُمْ﴾... الآية تحتمل أن يخاطب بها المؤمنون، وأن يخاطب بها جميع الكفار، وأن يخاطب بها يهود المدينة، ويكل احتمال منها قد قال قوم، فمن رأى أن الخطاب بها للمؤمنين فمعنى الآية تثبيت النفوس وتشجيعها، لأنه لما قال للكفار ما أمر به يمكن أن يستبعد ذلك المنافقون وبعض ضعفة المؤمنين، كما قال قائل يوم الخندق: «يعدنا محمد أموال كسرى وقيصر، ونحن لا نأمن على أنفسنا في المذهب»، وكما قال عدي بن حاتم حين أخبره النبي عليه السلام بالأمانة التي تأتي، فقلت في نفسي: «وإن دُعَا طيء

وبكل قراءة من هذه قرأ جمهور من العلماء، وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة: ﴿يَرَوْنَهُمْ﴾ بالياء المضمومة، وقرأ أبو عبدالرحمن بالتاء من فوق مضمومة. واختلِفَ من الذين أُمِرَ بالقول لهم من الكفار؟ فقيل: هم جميع معاصريه من الكفار، أمر بأن يقول لهم هذا الذي فيه إعلام بغيب ووعيد قد صدق بحمد الله، غلب الكفر وصار من مات عليه إلى جهنم. ونحا إلى هذا أبو علي في «الحجة»، وتظاهرت روايات بأن المراد يهود المدينة، قال ابن عباس وغيره: «لما أصاب رسول الله ﷺ قريشاً يوم بدر، وقدم المدينة، جمع اليهود في سوق قينقاع فقال: «يا معشر يهود، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشاً»، فقالوا: يا محمد، لا تغرنك نفسك أن قتلت نفرأ من قريش كانوا أعماراً لا يعرفون القتال، إنك لو قاتلتنا لعرفت أننا نحن الناس، فأنزل الله في قولهم هذه الآية». وروي حديث آخر ذكره النقاش، وهو «أن النبي عليه السلام لما غلب قريشاً ببدر قالت اليهود: هذا هو النبي المبعوث الذي في كتابنا وهو الذي لا تُهزَمُ له راية، وكثرت فتنتهم بالأمر، فقال لهم رؤسائهم وشياطينهم: لا تَعَجَلُوا وأمهلوا حتى نرى أمره في وقعة أخرى، فلما وقعت أحد كفر جميعهم ويقوا على أولهم، وقالوا: ليس محمد بالنبي المنصور فنزلت الآية في ذلك»، أي قل لهؤلاء اليهود: سيفليون - يعني

الحال من الهاء والميم في ﴿ترونها﴾، وأجمع الناس على أن الفاعل بترؤن هم المؤمنون، والضمير المتصل هو للكفار، إلا ما حكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: بل كثر الله عدد المؤمنين في عيون الكافرين حتى كانوا عندهم ضعفيهم، وضعف الطبري هذا القول، وكذلك هو مردود من جهات، بل قلل الله كل طائفة في عين الأخرى، ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، فقلل الكفار في عيون المؤمنين ليقع التجاسر ويحترق العدو، وهذا مع اعتقاد النبي وقوله واعتقاد أولي الفهم من أصحابه أنهم من التسعمائة إلى الألف، لكن أذهب الله عنهم البهاء وانتشار العساكر وفخامة الترتيب، حتى قال ابن مسعود في بعض ما روي عنه: لقد قلت لرجل إلى جنبي أترامه سبعين؟ فقال: أظنهم مائة، فلما أخذنا الأسرى أخبرونا أنهم كانوا ألفاً. وقلل الله المؤمنين في عيون الكفار ليغفروا ولا يحزموا، وتظاهرت الروايات أن جمع الكفار بيدر كان نحو الألف فوق التسعمائة، وأن جمع المؤمنين كان ثلاثمائة وأربعة عشر رجلاً، وقيل: وثلاثة عشر، فكان الكفار ثلاثة أثلاث من المؤمنين، لكن رجح بنو زهرة مع الأخنس بن شريق، ورجح طالب بن أبي طالب وأتباع وناس كثير حتى بقي للقتال من يقرب من المثليين، وقد ذكر النقاش نحواً من هذا. فذكر الله تعالى المثليين إذ أمرهما متيقن لم يدفعه قط أحد، وقد حكى

الطبري عن ابن عباس: أن المشركين في قتال بدر كانوا ستمائة وستة وعشرين رجلاً. وقد ذهب الزجاج وبعض المفسرين إلى أنهم كانوا نحو الألف وأراهم الله المؤمنين مثلهم فقط، قال: فهذا هو التقليل في الآية الأخرى، ثم نصرهم عليهم مع علمهم بأنهم مثلام في العدد، لأنه قد كان أعلم المسلمين أن المائة منهم تغلب المائتين من الكفار، وروى علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي عليه السلام أنه قال يوم بدر: «القوم ألف». وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ آيَةٌ﴾ يريد علامة وأمارة ومعتبراً، والفتنة: الجماعة من الناس سميت بذلك لأنها يفاء إليها، أي يرجع في وقت الشدة، وقال الزجاج: الفتنة: الفرقة، مأخوذة من فأوت رأسه بالسيف، ويقال: فأيته إذا فلقته، ولا خلاف أن الإشارة بهاتين الفتنتين هي إلى يوم بدر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فِتْنَةٌ تَقْتُلُ﴾ برفع فنة على خير ابتداء تقديره: إحداهما فنة، وقرأ مجاهد والحسن والزهري وحמיד: ﴿فِتْنَةٌ﴾ بالخفض على البديل، ومنهم من رفع ﴿كَافِرَةٌ﴾ ومنهم من خفضها على العطف، وقرأ ابن أبي عجلة: ﴿فِتْنَةٌ﴾ بالنصب وكذلك ﴿كافرة﴾. قال الزجاج: يتجه ذلك على الحال كأنه قال: التقتا مؤمنة وكافرة، ويتجه أن يضمير فعل أعني ونحوه. و﴿رَأَى﴾ نصب على المصدر. و﴿يُؤَيِّدُ﴾: معناه: يقوي من الأيد وهو القوة.

﴿تَرْوَنَهَا﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿زَيْنٌ﴾ على بناء الفعل للمفعول ورفع ﴿زَيْنٌ﴾ على أنه مفعول لم يسم فاعله، وقرأ الضحاك ومجاهد: ﴿زَيْنٌ﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب ﴿حُبٌّ﴾ على أنه المفعول، واختلف الناس من المزين؟ فقالت فرقة: الله زين ذلك، وهو ظاهر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لأنه قال: لما نزلت هذه الآية قلت: الآن يا رب حين زينتها لنا فنزلت: ﴿قُلْ أُوَيْدِكُمْ بِحَبِّ زَيْنٍ دَلِيكُم﴾، وقالت فرقة: المزين هو الشيطان، وهذا ظاهر قول الحسن بن أبي الحسن، فإنه قال: من زينها؟ ما أخذ أشد لها ذمًا من خالقها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا قيل: زين الله، فمعناه بالإيجاد والتهيئة للانتفاع وإنشاء الجبلّة على الميل إلى هذه الأشياء. وإذا قيل: زَيْنَ الشيطان فمعناه: بالوسوسة والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها. والآية تحتل هذين النوعين من التزيين، ولا يختلف مع هذا النظر. وهذه الآية على كلا الوجهين ابتداء وعظ لجميع الناس، وفي ضمن ذلك توبيخ لمعاصري محمد ﷺ من اليهود وغيرهم. و﴿الْكُفْرَاتِ﴾ ذميمة واتباعها مُزِدٌ وطاعتها مهلكة، وقد قال عليه السلام: «حُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ وَحَفَّتِ الْجَنَّةُ بِالمَكَارِهِ» فحسبك أن النار حفت بها، فمن واقعها خلص إلى النار.

﴿وَأَلْقَتِطِيرٌ﴾ جمع قنطار، وهو

العقدة الكبيرة من المال. واختلف الناس في تحرير حده كم هو؟ فروى أبي بن كعب، عن النبي عليه السلام أنه قال: «القنطار ألف ومائتا أوقية»، وقال بذلك معاذ بن جبل وعبدالله بن عمر وأبو هريرة وعاصم بن أبي النجود وجماعة من العلماء، وهو أصح الأقوال. لكن القنطار على هذا يختلف باختلاف البلاد في قدر الأوقية. وقال ابن عباس والضحاك بن مزاحم والحسن بن أبي الحسن: القنطار ألف ومائتا مثقال، وروى الحسن ذلك مرفوعاً عن النبي عليه السلام. قال الضحاك: وهو من الفضة ألف ومائتا مثقال، وروى عن ابن عباس أنه قال: القنطار من الفضة اثنا عشر ألف درهم، ومن الذهب ألف دينار، وروى ذلك عن الحسن والضحاك. وقال سعيد بن المسيب: القنطار ثمانون ألفاً. وقال قتادة: القنطار مائة رطل من الذهب أو ثمانون ألف درهم من الفضة. وقال السدي: القنطار ثمانية آلاف مثقال وهي مائة رطل. وقال مجاهد: القنطار سبعون ألف دينار؛ وروى ذلك عن ابن عمر. وقال أبو نضرة: القنطار مائة مثقال ثور ذهباً. قال ابن سيدة: هكذا هو بالسريانية. وقال الربيع بن أنس: القنطار المال الكثير بعضه على بعض. وحكى النقاش عن ابن الكلبي أن القنطار بلغة الروم مائة مثقال ثور ذهباً. وقال النقاش: القنطائر ثلاثة، والمقنطرة تسعة لأنه جمع الجمع، وهذا ضعف نظير

وكلام غير صحيح، وقد حكى مكّي نحوه عن ابن كيسان أنه قال: لا تكون المقنطرة أقل من تسعة، وحكى المهدي عنه وعن الفراء: لا تكون المقنطرة أكثر من تسعة، وهذا كله تحكم. وقال أبو هريرة: القنطار اثنا عشر ألف أوقية. وحكى مكّي قولاً أن القنطار أربعون أوقية ذهباً أو فضة، وقاله ابن سيدة في المحكم، وقال: القنطار بلغة بربر ألف مثقال. وروى أنس بن مالك عن النبي عليه السلام في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ إِحْدَثُنَّ قِنطَارًا﴾ قال: ألف دينار، ذكره الطبري، وحكى الزجاج أنه قيل: إن القنطار هو رطل ذهباً أو فضة، وأظنها وهماً، وأن القول مائة رطل فسقطت «مائة» للناقل. والقنطار إنما هو اسم المعيار الذي يوزن به، كما هو الرطل والريغ، ويقال لما بلغ ذلك الوزن: هذا قنطار أي يعدل القنطار. والعرب تقول: قنطرت الرجل إذا بلغ ماله أن يوزن بالقنطار. وقال الزجاج: القنطار مأخوذ من عقيد الشيء وإحكامه، والقنطرة المعقودة نحوه، فكأن القنطار عقدة مال. واختلف الناس في معنى قوله: ﴿الْمَقْنَطِرَةُ﴾؛ فقال الطبري: معناها: المضغفة، وكان القنطائر ثلاثة والمقنطرة تسع، وقد تقدم ذكر هذا النظر، وقال الربيع: معناها: المال الكثير بعضه فوق بعض. وقال السدي: معنى المقنطرة: المضروبة حتى صارت دنائير أو دراهم. وقال

مكي: المقنطرة المكملة، والذي أقول: إنها إشارة إلى حضور المال وكونه عتيداً، فذلك أشهى في أمره، وذلك أنك تقول في رجل غني من الحيوان والأملاك: فلان صاحب قنطير مال، أي لو قومت أملكه لاجتمع من ذلك ما يعدل قنطير، وتقول في صاحب المال الحاضر العتيد: هو صاحب قنطير مقنطرة، أي قد حصلت كذلك بالفعل بها، أي قنطرت فهي مقنطرة، وذلك أشهى للنفوس وأقرب للانتفاع وبلوغ الآمال. وقد قال مروان بن الحكم: ما المال إلا ما حازته العياب، وإذا كان هذا فسواء كان المال مسكوكاً أو غير مسكوك، أما إن المسكوك أشهى لما ذكرناه، ولكن لا يعطى ذلك لفظة (المقنطرة).

﴿وَالْعَيْلِ﴾ جمع خائل عند أبي عبيدة، سمي بذلك الفرس لأنه يختال في مشيه فهو كطائر وطيير، وقال غيره: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه.

واختلف المفسرون في معنى ﴿الْمَسْوَمَةِ﴾؛ فقال سعيد بن جبير وابن عباس وعبدالله بن عبد الرحمن بن أبزي والحسن والربيع ومجاهد: معناها: الراعية في المروج والمسارح، تقول: سامت الدابة والشاة إذا سرحت وأخذت سومتها من الرعي، أي غاية جهدها، ولم تقصّر عن حال دون حال، وأسومتها أنا إذا تركتها لذلك، ومنه قول النبي ﷺ: «في سائمة الغنم الركاة»، ومنه قوله عز وجل: ﴿فِي ثِيَابٍ مَّسْمُونَةٍ﴾، وروى عن مجاهد أنه

قال: المسومة معناه: المطهمة الحسان، وقاله عكرمة: سوما الحُسْنُ. وروي عن ابن عباس أنه قال: المسومة معناه: المعلمة، ثياب الخيل في وجوهها، وقاله قتادة، ويشهد لهذا القول بيت لبيد:

وغداة قاع القرنيتين أتيتهنم
زجلاً يلوخ خلالها التسويم
وأما قول النابغة:

بسمير كالقداح مسومات
عليها مغشّر أشباه جن
فيحتمل أن يريد المطهمة الحسان، ويحتمل أن يريد المعلمة بالثياب، ويحتمل أن يريد المعدة. وقد فسّر الناس قوله تعالى: ﴿مُسَوَّمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ بمعنى معدة، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿وَالْحَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ﴾ معناه: المعدة للجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قوله: «للجهاد» ليس من تفسير اللفظة.

﴿وَالأَنْعَامِ﴾ الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز. ﴿وَالْحَرْثِ﴾ هنا اسم لكل ما يحرث، وهو مصدر سمي به، تقول: حرث الرجل حرثاً إذا أثار الأرض لمعنى الفلاحة، فيقع اسم الحرث على زرع الحبوب وعلى الجنات وغير ذلك من أنواع الفلاحة. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَبْكُؤْنَ فِي الْحَرْثِ﴾ قال جمهور المفسرين: كان كزماً.

والمتاع: ما يستمتع به ويستمتع مدة ما منحصرة؛ و﴿الْمَتَابِ﴾: المرجع،

تقول: أب الرجل يؤوب، ومنه قول الشاعر:

.....
رضيت من الغنيمة بالإياب
وقول الآخر:

.....
إذا ما القارظ العنزى أبا
وقول عبيد:

.....
وغائب الموت لا يثوب
وأصل مأب مأوب، نُقِلَتْ حركة الواو إلى الهمزة وأبدل من الواو ألف، مثل مقال، فمعنى الآية: تقليل أمر الدنيا وتحقيرها، والترغيب في حسن المرجع إلى الله تعالى في الآخرة.

وفي قوله: ﴿رَبَّنَا لِلنَّاسِ...﴾ الآية، تحسّر ما على نحو ما في قول النبي عليه السلام: «تتزوج المرأة لأربع...» الحديث؛ وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَتَيْنَاكَ﴾ الآية بمشابهة قول النبي ﷺ: «فاظفر بذات الدين».

﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: في هذه الآية تسليّة عن الدنيا وتقوية لنفوس تاركها، وذكر تعالى حال الدنيا وكيف استقرّ تزيين شهواتها، ثم جاء الإنبياء بخير من ذلك هازاً للنفوس وجامعاً لها، لتسمع هذا النبأ المستغرب النافع لمن عقل. وأنبيء: معناه أخير.

وذهبت فرقة من الناس إلى أن الكلام الذي أمر النبي ﷺ بقوله تمّ في قوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾، و﴿جَنَّتْ﴾ على هذا مرتفع بالابتداء

المضمر تقديره: ذلك جنات؛ وذهب آخرون إلى أن الكلام تمّ في قوله: ﴿مِن دَالِكُمْ﴾، وأن قوله: ﴿لِلَّذِينَ﴾ خبر متقدم، و﴿جَنَّتْ﴾ رفع بالابتداء، وعلى التأويل الأول يجوز في ﴿جَنَّتْ﴾ الخفض بدلاً من ﴿خَيْرٍ﴾، ولا يجوز ذلك على التأويل الثاني، والتأويلان محتملان.

وقوله: ﴿وَمِن تَحْتِهَا﴾ يعني من تحت أشجارها وعلوها من الغرف ونحوها.

وقوله: ﴿وَأَذْوَجَ﴾ عطف على الجنات، وهو جمع زوج وهي امرأة الإنسان، وقد يقال زوجة، ولم يأت في القرآن.

﴿مُطَهَّرَةٌ﴾، معناه من المعهود في الدنيا من الأقدار والريب وكل ما يصم في الخلق والخلق. ويحتمل أن يكون الأزواج: الأنواع والأشياء.

والرضوان: مصدر من الرضى، وفي الحديث عن النبي عليه السلام: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ إِذَا اسْتَقَرُوا فِيهَا وَحَصَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ؛ قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: أَتُرِيدُونَ أَنْ أَعْطِيَكُمْ مَا هُوَ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ قَالُوا: يَا رَبَّنَا وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَجَلُ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا» هذا سياق الحديث، وقد يجيء مختلف الألفاظ، والمعنى قريب بعضه من بعض.

وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِعَمِيرٍ بِالْكَوَادِ وَعَدَّ وَوَعِيدٌ.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ اتَّقُوا، فُسِّرَ في هذه الآية أحوال المتقين الموعودين بالجنات. ويحتمل أن يكون إعراب قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ في هذه الآية رفعاً على القطع وإضمار الابتداء، ويحتاج إلى القطع وإضمار فعل في قوله: ﴿الصَّادِقِينَ﴾، والخفض في ذلك كله على البدل أَوْجَهُ. ويجوز في ﴿الَّذِينَ﴾ وما بعده النصب على المدح.

والصبر في هذه الآية معناه: على الطاعات وعن المعاصي والشهوات؛ والصدق معناه: في الأقوال والأفعال. والقنوت: الطاعة والدعاء أيضاً وبكل ذلك يتصف المتقي. والإنفاق: معناه: في سبيل الله ومطناً الأجر كالمصلة للرحم وغيرها، ولا يختص هذا الإنفاق بالزكاة المفروضة. والاستغفار: طلب المغفرة من الله تعالى، وخض تعالى السَّحْرَ لما فسَّر النبي ﷺ في قوله: «يَنْزَلُ رَبُّنَا عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرِ فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ؟ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ؟ فَلَا يَزَالُ كَذَلِكَ حَتَّى يَطْلُعَ الْفَجْرُ».

وروي في تفسير قول يعقوب عليه السلام: «سَوْفَ أَسْتَفِيرُ لَكُمْ رَبِّي» أنه أخر الأمر إلى السحر، وروي إبراهيم بن حاطب عن أبيه قال: سمعت رجلاً في السحر في ناحية المسجد يقول: رب أمرتني فأطعتك، وهذا سحرٌ فاغفر لي، فنظرت فإذا ابن مسعود. وقال

أنس بن مالك: أمرنا أن نستغفر بالسحر سبعين استغفارة. وقال نافع: كان ابن عمر يُحيي الليل صلاةً ثم يقول: يا نافع أسحرنا؟ فأقول: لا، فيعاود الصلاة ثم يسأل، فإذا قلت نعم فقد يستغفر. فلفظ الآية إنما يعطي طلب المغفرة، وهكذا تأوله من ذكرناه من الصحابة. وقال قتادة: المراد بالآية المصلون بالسحر. وقال زيد بن أسلم: المراد بها الذين يصلون صلاة الصبح في جماعة، وهذا كله يفتن به الاستغفار.

والسَّحْر - بفتح الحاء وسكونها -: آخر الليل. قال الزجاج وغيره: هو قبل طلوع الفجر، وهذا صحيح لأن ما بعد الفجر هو من اليوم لا من الليلة. وقال بعض اللغويين: السحر من ثلث الليل الآخر إلى الفجر. والحديث في التنزل وهذه الآية في الاستغفار يؤيدان هذا. وقد يجيء في أشعار العرب ما يقتضي أن حكم السحر يستمر فيما بعد الفجر نحو قول امرئ القيس:

يَسْتَلُّ بِهِ بَسْرُدَ أَنْسَابِهَا
إِذَا عَرُدَ الطَّائِرُ الْمَسْتَحْرَ
يقال: أسحر واستحّر إذا دخل في السحر، وكذلك قولهم: نسيم السحر، يقع لما بعد الفجر، وكذلك قول الشاعر:

يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدُبُنَهُ
قَدْ قَمُنَ قَبْلَ تَبْلُجِ الْأَسْحَارِ

الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا أَمْنَا فَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَوَقِنَا
عَذَابَ آثَارِ ﴿١٦﴾ الصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقَاتِ
وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقَاتِ
اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقَدِيمُ الْقَائِمُ بِالْقِسْطِ
لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ
اللَّهِ أَلَسُّوا وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُنزِلَتْ إِلَيْهِمْ مِنْ آيَاتٍ
بِمَدِّ مَا جَاءَهُمْ أُولَئِكَ بِغَيْبَاتِهِمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ
اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٨﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسَلْتُ
وَجْهِي لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعْنِي فَقُلْ لِلَّذِينَ أُنزِلَتْ إِلَيْهِمْ
مَا أَسَلْتُمْ فَإِنْ أَسَلْتُمْ فَقَدْ أَهَنْكُوا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا
عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ
بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيَّاتِ وَيَهْرُسُونَ
الَّذِينَ يَأْتُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّرْهُم
بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَوِطَتْ أَعْمَالُهُمْ
فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢١﴾

فقد قضى أن السحر يتبلج بطلوع الفجر، ولكن حقيقة السحر في هذه الأحكام الشرعية من الاستغفار المحمود، ومن سحور الصائم، ومن يمين لو وقعت، إنما هي من ثلث الليل الباقي إلى السحر.

﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

أصل ﴿شَهِدَ﴾ في كلام العرب: حضر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ ثم صُرِّفَتْ الكلمة حتى قيل في أداء ما تقرر علمه في النفس بأي وجه تقرر من حضور أو غيره: شهد يشهد؛ فمعنى ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾: أعلم عباده بهذا الأمر الحق وبينه. وقال أبو عبيدة: شهد الله معناه: قضى الله، وهذا مردود من جهات.

وقرأ جميع القراء: ﴿أَنَّه لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بفتح الالف من ﴿أَنَّه﴾ وبكسرها من

قوله: ﴿إِنَّ الْذِينَ﴾ واستثناف الكلام. وقرأ الكسائي وحده: ﴿أَنَّ الذِينَ﴾ بفتح الألف. قال أبو علي: (أَنَّ) بدل من (أَنَّهُ) الأولى، وإن شئت جعلته من بدل الشيء من الشيء وهو هو، لأن الإسلام هو التوحيد والعدل، وإن شئت جعلته من بدل الاشتغال، لأن الإسلام يشتمل على التوحيد والعدل، وإن شئت جعلت ﴿إِنَّ الذِينَ﴾ بدلاً من ﴿الْقِسْطِ﴾ لأنه هو في المعنى. ووجه الطبري هذه القراءة بأن قدر في الكلام واو عطف ثم حذف وهي مرادة، كأنه قال: (وإن الدين) وهذا ضعيف. وقرأ عبدالله بن العباس: ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ بكسر الألف من إنه، وقرأ: ﴿أَنَّ الذِينَ﴾ بفتح الألف، فأعمل ﴿شهد﴾ في ﴿أَنَّ الذِينَ﴾ وجاء قوله: ﴿إِنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ اعتراضاً جميلاً في نفس الكلام المتصل. وتناول السدي الآية على نحو قراءة ابن عباس فقال: الله وملائكته والعلماء يشهدون ﴿أَنَّ الذِينَ عند الله الإسلام﴾. وقرأ أبو المهلب عمُّ مُحَارِبِ بن دينار: ﴿شهداء اللّٰه﴾ على وزن فُعلاء وبالإضافة إلى المكتوبة، قال أبو الفتح: هو نصبٌ على الحال من الضمير في ﴿المُستغفرين﴾، وهو جمع شهيد أو جمع شاهد كعالم وعلماء، وروي عن أبي المهلب هذا أنه قرأ: ﴿شهداء الله﴾ برفع الشهداء، وروي عنه أنه قرأ: ﴿شُهد الله﴾ على وزن فُعَل - بضم الفاء والعين - ونصب شهداء على الحال، وحكى النقاش أنه قرأ: ﴿شُهد

اللّٰه﴾ بضم الشين والهاء والإضافة إلى المكتوبة، قال: فمنهم من نصب الدال ومنهم من رفعها. وأصوب هذه القراءات قراءة الجمهور، وإيقاع الشهادة على التوحيد. ﴿وَالْمَلَكَةُ وَأَوْلُوا الْغَيْرِ﴾ عطف على اسم الله تعالى، وعلى بعض ما ذكرناه من القراءات يجيء قوله: ﴿وَالْمَلَكَةُ وَأَوْلُوا الْغَيْرِ﴾ ابتداءً وخبره مقدر، كأنه قال: ﴿وَالْمَلَكَةُ وَأَوْلُوا الْغَيْرِ﴾ يشهدون ﴿قَائِمًا﴾ نصب على الحال من اسمه تعالى في قوله: ﴿شَهِدَ اللَّهُ﴾ أو من قوله: ﴿إِلَّا هُوَ﴾. وقرأ ابن مسعود: ﴿القَائِمُ بِالْقِسْطِ﴾ والقسط: العدل.

﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدّم ذكر اختلاف القراء في كسر الألف من ﴿إِنَّ الذِينَ﴾ وفتحها، والذِينَ في هذه الآية: الطاعة والملة، والمعنى: إن الدين المقبول أو النافع أو المقرر.

﴿وَالْإِسْلَامُ﴾ في هذه الآية هو الإيمان والطاعة، قاله أبو العالية، وعليه جمهور المتكلمين، وعبر عنه قتادة ومحمد بن جعفر بن الزبير بالإيمان، ومرادهما أنه مع الأعمال. والإسلام هو الذي سأل عنه جبريل النبي عليه السلام حين جاء يعلمُ الناس دينهم... الحديث، وجواب النبي له في الإيمان والإسلام يفسرُ ذلك، وكذلك تفسيره قوله عليه السلام: ﴿بني الإسلام على خمس...﴾ الحديث. وكل مؤمن بنبية ملتزم لطاعات شرعه فهو داخل تحت هذه الصفة. وفي قراءة ابن

مسعود: ﴿إِنَّ الذِينَ عند الله للإسلام﴾ باللام.

ثم أخبر تعالى عن اختلاف أهل الكتاب أنه كان على علم منهم بالحقائق، وأنه كان بغياً وطلباً للدنيا، قاله ابن عمر وغيره.

﴿وَالذِينَ أَوْثُوا الْكُتُبَ﴾ لفظ يعمُّ اليهود والنصارى، لكن الربيع بن أنس قال: المراد بهذه الآية اليهود وذلك أن موسى عليه السلام لما حضرته الوفاة دعا سبعين حبراً من أحبار بني إسرائيل فاستودعهم التوراة، عند كل حبر جزء، واستخلف يوشع بن نون، فلما مضى ثلاثة قرون وقعت الفرقة بينهم. وقال محمد بن جعفر بن الزبير: المراد بهذه الآية النصارى، وهي توبيخ لنصارى نجران.

﴿وَبَشِّرِ﴾ نصب على المفعول من أجله أو على الحال من ﴿الذِينَ﴾. ثم توعد عز وجل الكفار.

وسرعة الحساب يحتمل أن يراد بها سرعة مجيء القيامة والحساب، إذ هي متيقنة الوقوع، فكل آت قريب، ويحتمل أن يراد بسرعة الحساب أن الله تعالى يلاحظه بكل شيء علماً لا يحتاج إلى عد ولا فكرة، قاله مجاهد.

﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿عَاجِزٌ﴾ فاعلوك من الحجّة، والضمير في حاجوك لليهود ولنصارى نجران، والمعنى: إن جادلوك وتعتنوا بالأقوابيل المزورة، والمغالطات فأنسبذ إلى ما كُلفت من الإيمان والتبليغ، وعلى الله نصر.

وقوله: ﴿وَتَبَيَّنَ﴾ يحتمل أن يراد به المقصد كما تقول: خرج فلان في وجه كذا، فيكون معنى الآية: جعلت مقصدي لله، ويحتمل أن يكون معنى الآية: أسلمت شخصي وذاتي وكلّيتي وجعلت ذلك لله. وعبر بالوجه إذ الوجه أشرف أعضاء الشخص وأجمعها للحواس. وقد قال حذائق المتكلمين في قوله تعالى: ﴿وَتَبَيَّنَ وَبَهَّ رَبِّكَ﴾ إنها عبارة عن الذات.

﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ في هذا الموضع بمعنى دفعته وأمضيتها، وليست بمعنى دخلت في السلم لأن تلك لا تتعدى. وقوله: ﴿وَمِنَ اتَّبَعِينَ﴾ في موضع رفع، عطف على الضمير في ﴿أَسْلَمْتُ﴾، ويجوز أن يكون مبتدأ، أي: ومن اتبعن أسلم وجهه. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون في موضع خفض عطفاً على اسم الله تعالى كأنه يقول: جعلت مقصدي لله بالإيمان به والطاعة له، ولمن اتبعني بالحفظ له والتحفي بتعليمه وصحبته. ولك في ﴿اتَّبَعِينَ﴾ حذف الياء وإثباتها، وحذفها أحسن اتباعاً لخط المصحف. وهذه النون إنما هي لتسلم فتحة لام الفعل فهي مع الكسرة تغني عن الياء لا سيما إذا كانت رأس آية، فإنها تشبه قوافي الشعر، كما قال الأعشى:

وهل يمنعن ارتيادي البلا
د من حذر الموب أن يأتين
ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَبَّتْ
أَكْرَمِينَ﴾، فإذا لم تكن نون فإثبات
الياء أحسن، لكنهم قد قالوا: هذا

غلام قد جاء، فاكتفوا بالكسرة دلالة على الياء. و﴿الَّذِينَ أَوْثَرُوا آلَ كَنْبَةَ﴾ في هذا الموضع يجمع اليهود والنصارى باتفاق، والأميون: هم الذين لا يكتبون، وهم العرب في هذه الآية، وهذه النسبة هي إلى الأم أو إلى الأمة، أي كما هي الأم، أو على حال خروج الإنسان عن الأم، أو على حال الأمة الساذجة قبل التعلم والتحلق.

وقوله: ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ تقييد في ضمنه الأمر، كذا قال الطبري وغيره، وذلك بين، وقال الزجاج: ﴿وَأَسْلَمْتُ﴾ تهديد، وهذا حسن، لأن المعنى: أسلمتم أم لا؟ وقوله: ﴿فَقَدَّ أَهْتَدُوا﴾ جاءت العبارة بالماضي مبالغة في الإخبار بوقوع الهدى لهم وتحصله. وقوله: ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ الْبَلَاءُ﴾ ذكر بعض الناس أنها آية موادة وأنها مما نسخته آية السيف؛ وهذا يحتاج أن يقترب به معرفة تاريخ نزولها، وأما على ظاهر نزول هذه الآية في وقت وفد نجران فإنما المعنى: ﴿فَلَمَّا عَلِمْتَ الْبَلَاءُ﴾ بما فيه قتال وغيره، والبلاغ مصدر بلغ بتخفيف عين الفعل، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَلَّهَ بَيْسُ بِالْمَكَادِ﴾ وعد للمؤمنين ووعيد للكافرين.

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل:

قال محمد بن جعفر بن الزبير وغيره: إن هذه الآية في اليهود والنصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتعم كل من كان بهذه الحال.

والآية توبيخ للمعاصرين لرسول الله ﷺ بمساوي أسلافهم وبقائهم أنفسهم على فعل ما أمكنهم من تلك المساوي؛ لأنهم كانوا حرضى على قتل محمد عليه السلام. وروي أن بني إسرائيل قتلوا في يوم واحد سبعين نبياً وقامت سوق البقل بعد ذلك. وروي أبو عبيدة بن الجراح عن النبي عليه السلام أنهم قتلوا ثلاثة وأربعين نبياً، فاجتمع من خيارهم وأحبارهم مائة وعشرون ليغيروا وينكروا فقتلوا أجمعين، وكل ذلك في يوم واحد؛ وذلك معنى قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَسْتَحِقُّونَ فِي التَّحْرِيرِ لِلذَّنْبِ إِذْ فِي الإِمْكَانِ أَنْ يَقْتَضِيَ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى بِوَجْهِ مَا مِنْ تَكْرَمَةِ النَّبِيِّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. وَعَلَى هَذَا الْمَعْنَى تَجِيءُ أَفْعَلُ مِنْ كَذَا إِذَا كَانَ فِيهَا شَيْعٌ مِثْلُ: أَحَبُّ وَخَيْرٌ وَأَفْضَلُ وَنَحْوَهُ مَقُولَةٌ بَيْنَ شَيْئَيْنِ ظَاهِرُهُمَا الإِشْتِرَاقُ بَيْنَهُمَا.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ﴾، وقرأ حمزة وجماعة من غير السبعة: ﴿ويقاتلون الذين﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَقَاتِلُوا الَّذِينَ﴾، وقرأها الأعمش، وكلها متوجهة وأبينها قراءة الجمهور.

والقسط: العدل، وجاءت البشارة بالعذاب من حيث نص عليه، وإذا جاءت البشارة مطلقاً فمجملاً فيما يستحسن.

ودخلت الفاء في قوله: ﴿فَبَيَّرَهُمْ﴾ لما في (الذي) من معنى الشرط في هذا الموضع، فذلك بمنزلة قولك:

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾
الإشارة فيه إلى التولي والإعراض،
أي إنما تولوا وأعرضوا لاغترارهم
بهذه الأقوال والافتراء الذي لهم في
قولهم: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَاجْتَمَعْنَا إِلَى
غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ هَذَا الْمَعْنَى. وكان من
قول بني إسرائيل: إنهم لن تمسهم
النار إلا أربعين يوماً عدداً الأيام التي
عبدوا فيها العجل، قاله الربيع
وقتادة. وحكى الطبري أنهم قالوا:
إن الله وعد أباهم يعقوب ألا يدخل
أحداً من ولده النار إلا تحلة القسم،
وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال
 لليهود: «مَنْ أَوْلَ مَنْ يَدْخُلُ النَّارَ؟
فقالوا: نحن، فترة سيرة ثم تخلفونا
فيها، فقال: كذبتم»... الحديث
بطوله.

﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ معناه: يشققون
ويختلفون من الأحاديث في مدح
دينهم وأنفسهم وادعاء الفضائل لها.
ثم قال تعالى خطاباً لمحمد وأمه
على جهة التوقيف والتعجيب:
فكيف حال هؤلاء المعتزين بالأباطيل
إذا حشروا يوم القيامة واضمحلت
تلك الزخارف التي ادعواها في الدنيا
وجوزوا بما اكتسبوه من كفرهم
وأعمالهم القبيحة؟ قال النقاش:
واليوم: الوقت. وكذلك قوله: ﴿فِي
سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ و﴿فِي يَوْمَيْنِ﴾ و﴿أَرْبَعَةَ
أَيَّامٍ﴾ إنما هي عبارة عن أوقات،
فإنما الأيام والليالي عندنا،
والصحيح في يوم القيامة أنه يوم لأن
قبله ليلة وفيه شمس، واللام في قوله
تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ طالبةً لمحدوف،
قال الطبري: تقديره: لما يحدث في
يوم.

بسبب أن رسول الله ﷺ
دخل بيت المدراس على
جماعة من يهود فدعاهم
إلى الله، فقال له نعيم بن
عمرو والحارث بن زيد:
على أي دين أنت يا
محمد؟ فقال
رسول الله ﷺ: «أنا على
ملة إبراهيم» فقالا: فإن
إبراهيم كان يهودياً، فقال
لهما النبي عليه السلام:
«فهلما إلى التوراة فهي
بيننا وبينكم» فأبيا عليه
فزلت. وذكر النقاش أنها
نزلت لأن جماعة من
اليهود أنكروا نبوة
محمد ﷺ فقال لهم النبي
عليه السلام: «هلما إلى التوراة
ففيها صفتي» فأبوا.

فالكتاب في قوله: ﴿بَيْنَ الْكِتَابِ﴾
هو اسم الجنس، والكتاب في
قوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ﴾ هو التوراة.
وقال قتادة وابن جريج: الكتاب في
قوله: ﴿إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ﴾ هو القرآن،
كان رسول الله ﷺ يدعوهم إليه
فكانوا يعرضون، ورجح الطبري
القول الأول، وقال مكي: الكتاب
الأول اللوح المحفوظ والثاني
التوراة.
وقرأ جمهور الناس: ﴿يَمُكِّمُ﴾
بفتح الياء أي ليحكم الكتاب، وقرأ
الحسن وأبو جعفر وعاصم
الجحدري: ﴿لِيُحْكَمَ﴾ بضم الياء
وبناء الفعل للمفعول. وخص الله
تعالى بالتولي فريقاً دون الكل لأن
منهم من لم يتول كابن سلام وغيره.

الَّذِينَ آمَنُوا وَأَوْصِيَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا كِتَابَ
اللَّهُ لِيُحْكَمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ تَوَلَّى فُرْقَانُ يَوْمَهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾
ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَسْنَا النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَعَرَّجْنَا
فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٤﴾ كَيْفَ إِذَا جُمِعْتَهُمْ
لِيَوْمِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوَفَّيْتُمْ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمَلِكِ تَوَلَّى الْمَلِكُ
مَنْ تَشَاءُ وَتَنَزَّحُ الْمَلِكُ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُضَرُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذَلُّ
مَنْ تَشَاءُ يَبِيدُكَ الْعَجْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تَوَلَّى أَيْلَ
فِي النَّهَارِ وَتَوَلَّى فِي النَّهَارِ فِي أَيْلَ وَتُخْرِجُ الْعَيْ مِنْ كَيْتِ
وَتُخْرِجُ الْعَيْ مِنْ الْعَيْ وَتُرْزِقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾
لَا يَخْذُ الْمُؤْمِنُونَ الْكُفْرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ
يَعْمَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ وَإِلَّا أَنْ تَكْتُمُوا بِمَنَّهُمْ
نَفْسَهُ وَيُحْذِرُكُمْ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَّا اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾ قُلِ
إِن تَخَفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تَبَدُّوهُ بِعَلَانَةٍ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي
السُّدُورِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾

الذي يفعل كذا فله كذا، إذا أردت
أن ذلك إنما يكون له بسبب فعله
الشيء الآخر، فيكون الفعل في
صلتها، وتكون بحيث لم يدخل
عليها عاملٌ يغير معناها كلياً ولعل،
وهذا المعنى نص في كتاب سيبويه
في باب ترجمته «هذا باب الحروف
التي تنزل منزلة الأمر والنهي لأن
فيها معنى الأمر والنهي».

﴿حَبِطَتْ﴾ معناه: بطلت وسقط
حكمها، وحبطها في الدنيا: بقاء
الذم واللعة عليهم، وحبطها في
الآخرة: كونها هباءً منبأً وتعذيبهم
عليها. وقرأ ابن عباس وأبو السمال
العدوي: ﴿حَبِطَتْ﴾ بفتح الباء وهي
لغة، ثم نفى النصر عنهم في كلا
الحالين.

﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس: نزلت هذه الآية

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال بعض العلماء: إن هذه الآية دافعة لباطل نصارى نجران في قولهم: إن عيسى هو الله، وذلك أن هذه الأوصاف تبين لكل صحيح الفطرة أن عيسى عليه السلام ليس في شيء منها، وقال قتادة: «ذكر لنا أن النبي عليه السلام سأل ربه أن يجعل في أمته ملك فارس والروم» فنزلت الآية في ذلك. وقال مجاهد: الملك في هذه الآية: النبوة. والصحيح أنه مالك الملك كله مطلقاً في جميع أنواعه، وأشرف ملك يؤتبه سعادة الآخرة؛ وروي أن الآية نزلت بسبب أن النبي عليه السلام بشر أمته بفتح ملك فارس وغيره فقالت اليهود والمنافقون: هيهات وكذبوا ذلك.

واختلف النحويون في تركيب لفظه ﴿اللَّهُمَّ﴾ بعد إجماعهم على أنها مضمومة الهاء مشددة الميم المفتوحة وأنها منادى، ودليل ذلك أنها لا تأتي مستعملة في معنى خبر، فمذهب الخليل وسيبويه والبصريين أن الأصل: يا الله، فلما استعملت الكلمة دون حرف النداء الذي هو «يا» جعلوا بدل حرف النداء هذه الميم المشددة، والضممة في الهاء هي ضمة الاسم المنادى المفرد، وذهب حرفان فعوض بحرفين. ومذهب الفراء والكوفيين أن أصل (اللهم) يا الله أم: أي أم بخير، وأن ضمة الهاء هي ضمة الهمزة التي كانت في (أم) نقلت. وردّ الزجاج على هذا القول وقال: محال أن يترك الضم الذي هو دليل على نداء المفرد وأن تجعل في اسم الله ضمة

(أم)، هذا إلحاذ في اسم الله تعالى. وهذا غلو من الزجاج. وقال أيضاً: إن هذا الهمز الذي يُطْرَحُ من الكلام فشأنه أن يؤتى به أحياناً كما قالوا: وَيَلْمُهُ في ويل أمه، والأكثر إثبات الهمزة، وما سمع قط يا لله أم في هذا اللفظ. وقال أيضاً: ولا تقول العرب يا ألهم. وقال الكوفيون: إنه قد يدخل حرف النداء على (اللهم) وأنشدوا على ذلك:

وما عليك أن تقولني كلما
سبخت أو هللت يا اللهم ما
أردد علينا شيخنا مسلماً
قالوا: فلو كانت الميم عوضاً من حرف النداء لما اجتمعا. قال الزجاج: وهذا شاذ لا يعرف قائله ولا يترك له ما في كتاب الله وفي جميع ديوان العرب. قال الكوفيون:

إنما تزداد الميم مخففة في فم وإبم ونحوه، فأما ميم مشددة فلا تزداد. قال البصريون: لما ذهب حرفان عوض بحرفين. و﴿مَلِكٌ﴾ نصب على النداء، نص سيبويه على ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وقال: إن ﴿اللَّهُمَّ﴾ لا يوصف لأنه قد ضمت إليه الميم، قال الزجاج: و﴿مَلِكٌ﴾ عندي في الإعراب صفة لاسم الله تعالى وكذلك ﴿فَاطِرَ السَّمَوَاتِ﴾، قال أبو علي: وهو مذهب أبي العباس، وما قال سيبويه أصوب، وذلك أنه ليس في الأسماء الموصوفة شيء على حد (اللهم) لأنه اسم مفرد ضم إليه صوت، والأصوات لا توصف، نحو «غاق» وما أشبهه. وكان حكم الاسم المفرد ألا

يوصف، وإن كانوا قد وصفوه في مواضع، فلما ضم هنا ما لا يوصف إلى ما كان قياسه ألا يوصف صار بمنزلة صوت ضم إليه صوت نحو «خَيْهَل» فلم يوصف. قال النضر بن شميل: من قال: اللهم، فقد دعا الله بجميع أسمائه كلها، وقال الحسن: اللهم مجتمَع الدعاء.

وخصّ الله تعالى: ﴿الْعَزِيزُ﴾ بالذكر وهو تعالى بيده كل شيء، إذ الآية في معنى دعاء ورغبة، فكأن المعنى: بيدك الخير فأجزل حظي منه. وقيل: المراد بيدك الخير والشر فحذف لدلالة أحدهما على الآخر، كما قال: ﴿تَقِيكُمْ النَّحْرَ﴾. قال النقاش: بيدك الخير أي: النصر والغنيمة، فحذف لدلالة أحدهما.

وقال ابن عباس ومجاهد والحسن وقتادة والسدي وابن زيد في معنى قوله تعالى: ﴿فَخُذْ أَلْبَدَ فِي النَّهَارِ﴾... الآية: إنه ما ينتقص من النهار فيزيد في الليل، وما ينتقص من الليل فيزيد في النهار، دأباً كل فصل من السنة، وتحتمل ألفاظ الآية أن يدخل فيها تعاقب الليل والنهار كأن زوال أحدهما ولو ج في الآخر.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَتُخْرِجُ النَّاسَ مِنَ كَيْبَتِ﴾... الآية، فقال الحسن: معناه تخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن، وروي نحوه عن سلمان الفارسي. وروى الزهري أن النبي ﷺ دخل على بعض أزواجه فإذا بامرأة حسنة النعمة فقال: «من هله؟» قالت: إحدى خالاتك، فقال: «إن خالاتي بهذه

البلدة لغرائب، أي خالتي هي؟
قالت: خالدة بنت الأسود بن
عبد يغوث، فقال النبي ﷺ:
«سبحان الذي يخرج الحي من
الميت» وكانت امرأةً صالحه، وكان
أبوها كافراً، وهو أحد المستهزئين
الذين كُفِّيَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ. فالمراد على
هذا القول موت قلب الكافر وحياة
قلب المؤمن، والحياة والموت
مستعاران.

وذهب جمهور كثير من العلماء إلى
أن الحياة والموت في الآية إنما هما
الحياة حقيقةً والموت حقيقة لا
باستعارة، ثم اختلفوا في المثل التي
فسروا بها، فقال عكرمة: هو إخراج
الدجاجة وهي حية من البيضة وهي
ميتة، وإخراج البيضة وهي ميتة من
الدجاجة وهي حية، ولفظ الإخراج
في هذا المثل وما ناسبه لفظ متمكن
على عرف استعماله. وقال
عبدالله بن مسعود في تفسير الآية:
هي النطفة تخرج من الرجل وهي
ميتة وهو حي، ويخرج الرجل منها
وهي ميتة. ولفظ الإخراج في تنقل
النطفة حتى تكون رجلاً إنما هو
عبارة عن تغير الحال، كما تقول في
صبي جيد البنية: يخرج من هذا
رجل قوي، وهذا المعنى يسميه ابن
جني: التجريد، أي تجرد الشيء من
حالي إلى حال هو خروج. وقد
يحتمل قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُ الْكَلْبَ
مِنَ الْكَلْبِ﴾ أن يراد به أن الحيوان
كله يميته فهذا هو معنى التجريد
بعينه، وأنشد ابن جني على ذلك:

أفأنت بنو مروان ظلماً دماًنا
وفي الله - إن لم ينصفوا - حكّم عدل

وروى السدي عن أبي مالك قال
في تفسير الآية: هي الحبة تخرج من
السنبلة، والسنبلة تخرج من الحبة،
والنواة تخرج من النخلة، والنخلة
تخرج من النواة، والحياة في النخلة
والسنبلة تشبيه.

وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ حِسَابٍ﴾ قيل
معناه: بغير حساب منك، لأنه تعالى
لا يخاف أن تنتقص خزائنه، هذا
قول الربيع وغيره. وقيل: معنى بغير
حساب: أي من أحد لك، لأنه
تعالى لا معقب لأمره. وقرأ عاصم
في رواية أبي بكر، وابن كثير وأبو
عمرو وابن عامر «الميت» بسكون
الياء في جميع القرآن. وروى حفص
عن عاصم «مِنَ الْكَلْبِ» بتشديد
الياء، وقرأ نافع وحزمة والكسائي
﴿الْكَلْبِ﴾ بتشديد الياء في هذه الآية،
وفي قوله: ﴿إِنَّ بَلْبًا مَّيْتًا﴾ و﴿يَكْلَبُ
مَيْتًا﴾، وخُفِّفَ حزمة والكسائي غير
هذه الحروف. قال أبو علي: الميت
هو الأصل، والواو التي هي عين منه
انقلبت ياء لإدغام الياء فيها، وميت
بالتخفيف محذوف منه عينه أعلت
بالحذف كما أعلت بالقلب،
والحذف حَسَنٌ والإتمام حسن، وما
مات وما لم يموت في هذا الباب
يستويان في الاستعمال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وذهب قوم إلى أن الميت بالتخفيف
إنما يستعمل فيما قد مات، وأما
الميت بالتشديد فيستعمل فيما مات
وفيما لم يموت بعد.

﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا النهي عن الاتخاذ إنما هو فيما
يظهره المرء، فأما أن يتخذه بقلبه

ونيته فلا يفعل ذلك مؤمن،
والمُنْهَيْتُونَ هنا قد قرر لهم الإيمان،
فالنهي إنما هو عبارة عن إظهار
اللفظ للكفار والميل إليهم، ولفظ
الآية عام في جميع الأعصار.

واختلف الناس في سبب هذه
الآية، فقال ابن عباس: كان
كعب بن الأشرف وابن أبي الحقيق
وقيس بن زيد قد بطنوا بنفر من
الأنصار ليفتنوهم عن دينهم، فقال
رفاعة بن المنذر بن زبير وعبدالله بن
جبير وسعد بن خيشمة لأولئك النفر:
اجتنبوا هؤلاء اليهود واحذروا
مباطنتهم، فأبى أولئك النفر إلا
موالاة اليهود، فنزلت الآية في ذلك.
وقال قوم: نزلت الآية في قصة
حاطب بن أبي بلتعة وكتابه إلى أهل
مكة، والآية عامة في جميع هذا،
ويدخل فيها فعل أبي لبابة في إشارته
إلى حلقه حين بعثه النبي عليه السلام
في استنزال بني قريظة. وأما تعذيب
بني المغيرة لعمار فنزل فيما أباح
النبي عليه السلام لعمار ﴿إِلَّا مَنْ
أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ دُونِ﴾ عبارة عن
كون الشيء الذي تضاف إليه (دون)
غائباً متنعياً ليس من الأمر الأول في
شيء، وفي المثل: «وأمرٌ دون عبيدة
الودم» كأنه من غير أن ينتهي إلى
الشيء الذي تضاف إليه، ورتبها
الزجاج: المضادة للشرف من الشيء
الدون، وفيما قاله نظر.

قوله: ﴿فَلْيَسَّرْ لَكُمُ اللَّهُ فِي شَيْءٍ﴾
معناه: في شيء مرضي على الكمال
والصواب، وهذا كما قال النبي عليه
السلام: «من غشنا فليس منا» وفي

الكلام حذف مضاف، تقديره: فليس من التقرب إلى الله أو التزلف ونحو هذا.

وقوله: ﴿فِي تَقْوَةٍ﴾ هو في موضع نصب على الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ﴾. ثم أباح الله إظهار اتخاذهم بشرط الانتفاء، فأما إبطانه فلا يصح أن يتصف به مؤمن في حال.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَقْنَةً﴾ أصله وَقِيَّةٌ - على وزن فُعْلَةٌ - بضم الفاء وفتح العين - أبدلوا من الواو تاء كشجاه وتكأه فصار تَقِيَّةً، ثم قلبت الياء ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها فجاء تَقَاةً. قال أبو علي: يجوز أن تكون تقاةً مثل رماة حالاً من ﴿كَتَفَرُوا﴾ وهو جمع فاعل وإن كان لم يستعمل منه فاعل، ويجوز أن يكون جمع تَقِيٍّ وجعل فعيل بمنزلة فاعل.

وقرأ ابن عباس والحسن وحميد بن قيس ويعقوب الحضرمي ومجاهد وقتادة والضحاك وأبو رجاء والجحدري وأبو حيوة ﴿تَقِيَّةً﴾ - بفتح التاء وشد الياء - على وزن فعيلة، وكذلك روى المفضل عن عاصم، وأمال الكسائي القاف في (تَقَاةً) في الموضعين، وأمال حمزة في هذه الآية ولم يمل في قوله: ﴿حَقٌّ تَقَالِيدٌ﴾، وفتح سائر القراء القاف إلا أن نافعاً كان يقرأها بين الفتح والكسر.

وذهب قتادة إلى أن معنى الآية ﴿إِلَّا أَنْ تَكْفُرُوا بِنَهَرٍ تَقْنَةً﴾ من جهة صلة الرحم أي: ملامة، فكان الآية عنده مبيحة الإحسان إلى القرابة من

الكفار. وذهب جمهور المفسرين إلى أن معنى الآية: إلا أن تخافوا منهم خوفاً، وهذا هو معنى التقية.

واختلف العلماء في التقية ممن تكون؟ وبأي شيء تكون؟ وأي شيء تبيح؟ فأما الذي تكون منه التقية فكل قادر غالب يُكْرِهُ بجورٍ منه، فيدخل في ذلك الكفار إذا غلبوا وَجَوْرَةً الرؤساء والسلاطة وأهل الجاه في الحواضر. قال مالك رحمه الله: وزوج المرأة قد يُكْرِهُ.

وأما بأي شيء تكون التقية ويترتب حكمها؟ فذلك بخوف القتل، وبالخوف على الجوارح، وبالضرب بالسوط، وبسائر التعذيب، فإذا فعل بالإنسان شيء من هذا أو خافه خوفاً متمكناً فهو مُكْرَهُ وله حُكْمُ التقية. والسجن إكراه، والتقييد إكراه، والتهديد والوعيد إكراه، وعداوة أهل الجاه الجَوْرَةُ تقية. وهذه كلها بحسب حال المُكْرَهُ، وبحسب الشيء الذي يكره عليه، فكم من الناس ليس السجن فيهم بإكراه، وكذلك الرجل العظيم يُكْرَهُ بالسجن والضرب غير المتلف ليكفر فهذا لا تتصور تقيته من جهة عظم الشيء الذي طُلبَ منه، ومسائل الإكراه هي من النوع الذي يدخله فقه الحال.

وأما أي شيء تبيح؟ فاتفق العلماء على إباحتها للأقوال باللسان من الكفر وما دونه، ومن بيع وهبة وطلاق، وإطلاق القول بهذا كله، ومن مداراة ومصانعة. وقال ابن مسعود: ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلماً به. واختلف الناس في

الأفعال، فقال جماعة من أهل العلم منهم الحسن ومكحول ومسروق: يفعل المكروه كل ما حُمِلَ عليه مما حَرَّمَ الله فعله وينجى نفسه بذلك. وقال مسروق: فإن لم يفعل حتى مات دخل النار. وقال كثير من أهل العلم منهم سحنون: بل إن لم يفعل حتى مات فهو ماجور، وتزك ذلك المباح أفضل من استعماله. وروي أن عمر ابن الخطاب قال في رجل يقال له: نهيت بن الحارث، أخذته الفرس أسيراً، فعرض عليه شرب الخمر وأكل الخنزير وهُدِّدَ بالنار فلم يفعل فقتلوه فيها، فبلغ ذلك عمر فقال: وما كان على نهيت أن يأكل؟. وقال جمع كثير من العلماء: التقية إنما هي مبيحة للأقوال، فأما الأفعال فلا، روي ذلك عن ابن عباس والربيع والضحاك، وروي ذلك عن سحنون، وقال الحسن في الرجل يقال له: اسجد لصنم وإلا قتلناك، قال: إن كان الصنم مقابل القبلة فليسجد ويجعل نيته لله، فإن كان إلى غير القبلة فلا وإن قتلوه، قال ابن حبيب: وهذا قول حسن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما يمنعه أن يجعل نيته لله تعالى وإن كان لغير قبلة، وفي كتاب الله: ﴿فَأَيُّنَا تَوَلَّوْا فَنَمَّ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾. وفي الشرع إباحة التنفل للمسافر إلى غير القبلة. هذه قواعد مسألة التقية، وأما تشعب مسائلها فكثير لا يقتضي الإيجاز جمعه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُذَكِّرُكُمْ اللَّهُ تَسَكُّرًا﴾... إلى آخر الآية، وعيد وتببيه ووعظ وتذكير بالآخرة. وقوله

من المكان أو الزمان. قال النابغة:

سَبَقَ الْجَوَادِ إِذَا اسْتَوْلَى عَلَى الْأَمْدِ
فهذه غاية في المكان، وقال
الطرماح:

كَلَّ حَتَّى مَسْتَكْمَلُ عِدَّةَ الْعُنْدِ
رَوْسُودٍ إِذَا انْقَضَى أَمْدُهُ
فهذه غاية في الزمان.

وقال الحسن في تفسير هذه الآية:
يَسْرُ أَحَدَهُمْ أَلَّا يَلْقَى عَمَلَهُ ذَلِكَ
أَبْدًا، ذَلِكَ مَنَاهُ، أَمَا فِي الدُّنْيَا فَقَدْ
كَانَتْ خَطِيئَتُهُ يَسْتَلْذَهَا.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَؤُوفٌ
بِالْبَاسِقِ﴾. يحتمل أن يكون إشارة إلى
التحذير لأن تحذيره وتنبئيه على
النجاة رافة منه بعباده، ويحتمل أن
يكون ابتداء إعلام بهذه الصفة،
فمقتضى ذلك التأنيس لثلا يفرط
الوعيد على نفس مؤمن، وتجيء
الآية على نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ
رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ
رَحِيمٌ﴾. لأن قوله: ﴿وَيَحذِرُكُمْ اللَّهُ
تَسَكُّمًا﴾. معناه: والله محذور العقاب.

٣١ - ٣٢ تفسير قوله عز وجل:
اختلف المفسرون فيمن أمر
محمد ﷺ أن يقول له هذه المقالة،
فقال الحسن بن أبي الحسن وابن
جريج: إن قوماً على عهد النبي ﷺ
قالوا: يا محمد إنا نحب ربنا،
فنزلت هذه الآية في قولهم،
جعل الله فيها اتباع محمد علماً
لحبّه. وقال محمد بن جعفر بن
الزبير: أمر رسول الله ﷺ أن يقول
هذا القول لنصارى نجران، أي: إن
كان قولكم في عيسى وغلوتكم في
أمره حباً لله فاتبعوني. ويحتمل أن

اختلف في العامل به،
فقال مكي بن أبي طالب:
العامل فيه ﴿وَيَحذِرُكُمْ﴾، وقال
الطبري: العامل فيه قوله:
﴿وَلِلَّهِ الْمَصِيرُ﴾، وقال
وقاله الزجاج، وقال
أيضاً: العامل فيه
(ويحذركم الله نفسه
يوم)، ورجحه؛ وقال
مكي حكاية: العامل فيه
فعل مضمّر تقديره: «اذكر
يوم». و﴿مَا﴾ بمعنى
الذي، و﴿تَحْمَسُوا﴾ قال
قتادة: معناه: موقراً،
وهذا تفسير بالمعنى،
والحضور أبيض من أن
يفسر بلفظ آخر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلْتَ
شَيْئًا﴾. يحتمل أن تكون ﴿مَا﴾
معطوفة على ﴿مَا﴾ الأولى فهي في
موضع نصب وتكون ﴿تَوَدُّ﴾ في
موضع الحال، وإلى هذا العطف
ذهب الطبري وغيره، ويحتمل أن
تكون رفعاً بالابتداء ويكون الخبر في
قوله: ﴿تَوَدُّ﴾ وما بعده، كأنه قال:
وعملها السوء مردودٌ عندها، إن
بينها وبينه أمداً.

وفي قراءة ابن مسعود ﴿وَمِنْ سَوْءٍ
وَدَثٍ﴾. وكذلك قرأ ابن أبي عبلة،
ويجوز على هذه القراءة أن تكون
﴿مَا﴾ شرطية، ولا يجوز ذلك على
قراءة ﴿تَوَدُّ﴾ لأن الفعل مستقبل
مرفوع، والشرط يقتضي جزم،
اللهم إلا أن يُقَدَّرَ في الكلام
محذوفٌ «فهي تود» وفي ذلك
ضعف. والأمد: الغاية المحدودة

يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ
مِنْ سُوءٍ تُوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا وَيُحَذِرُكُمْ
اللَّهُ نَفْسَهُ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعَاصِي ٣١ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ
فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ
٣٢ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُهْتَبُ
الْكَافِرِينَ ٣٣ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ
وَأَلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ٣٤ ذُرِّيَّتَهُمْ مِنْ بَعْضِ مَا بَخَّسَ اللَّهُ
سُبْحَٰنَ عَلَيْهِ ٣٥ إِذْ قَالَتِ امْرَأَتُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَدَيْتُ لَكَ
مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ٣٦ فَلَمَّا
وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنْثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ
وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنْثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي عُيِدْتُهَا بِكَ
وَدَرَيْتُهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ٣٧ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ
حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا
زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ لَنَرَكُمُ إِنَّا لَنَنظُرُنَّ هَذَا
قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّا لَنَرِيءُ مِنْ شَيْءٍ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٣٨

تعالى: ﴿تَسَكُّمًا﴾ نائبة عن إياه،
وهذه مخاطبة على معهود ما يفهمه
البشر، والنفس في مثل هذا راجع
إلى الذات، وفي الكلام حذف
مضاب لأن التحذير إنما هو من
عقاب وتنكيل ونحوه، فقال ابن
عباس والحسن: ويحذركم الله
عقابه.

٣١ - ٣٢ تفسير قوله عز وجل:
الضمير في ﴿تَحْمَسُوا﴾ هو للمؤمنين
الذين نهبوا عن اتخاذ الكافرين
أولياء، والمعنى: إنكم إن أبغضتم
الحرص على إظهار مواليتهم فإن الله
يعلم ذلك ويكرهه منكم. وقوله:
﴿وَمِمَّا فِي الْأَرْزَاقِ﴾
معناه: على التفصيل. وقوله: ﴿عَلَىٰ
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، والشئ في
كلام العرب: الموجود. وقد
و﴿يَوْمَ﴾ نُصِبَ عَلَى الظرف، وقد

رثاء النبي ﷺ وهو يعزي نفسه في أخيه عمرو:

فلا تبك مَيناً بعدَ مَينِتي أجنهُ
عليّ وعباسٌ وآلُ أبي بكر

أراد جميع المؤمنين. والآل في هذه الآية يحتمل الوجهين، فإذا قلنا أراد بالآل القرابة والبيئية، فالتقدير:

إن الله اصطفى هؤلاء على عالمي زمانهم، أو على العالمين عاماً بأن نقدر محمداً عليه السلام من آل إبراهيم؛ وإن قلنا: أراد بالآل الأتباع فيستقيم دخول أمة محمد في الآل لأنها على ملة إبراهيم.

وذهب منذر بن سعيد وغيره إلى أن ذكر آدم يتضمن الإشارة إلى المؤمنين به من بنيه، وكذلك ذكر نوح عليه السلام، وأن الآل الأتباع، فعُمت الآية جميع مؤمني العالم، فكان المعنى: إن الله اصطفى المؤمنين على الكافرين، وخصّ هؤلاء بالذكر تشريفاً لهم، ولأن الكلام في قصة بعضهم.

﴿وآل عمران﴾ أيضاً يحتمل من التأويل ما تقدّم في ﴿آل إبراهيم﴾؛ وعمران هو رجل من بني إسرائيل من ولد سليمان بن داود فيما حكى الطبري؛ قال مكي: هو عمران بن ماثال، وقال قتادة في تفسير هذه الآية: ذكر الله تعالى أهل بيتين صالحين ورجلين صالحين، فضلهم على العالمين، فكان محمد من آل إبراهيم. وقال ابن عباس: اصطفى الله هذه الجملة بالدين والنبوة والطاعة له.

وقوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةً﴾ نُصِبَ على البدل، وقيل: على الحال لأن معنى

أبي عمرو فيما حسبت. وذهب الطبري إلى أن قوله: ﴿قُلْ أَلْبِعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ﴾ خطاب لنصارى نجران. وفي قوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ وعيد، ويحتمل أن يكون بعد الصّدع بالقتال.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما مضى صدرٌ من محاخّة نصارى نجران والرّد عليهم وبيان فساد ما هم عليه، جاءت هذه الآية مُعلّمة بصورة الأمر الذي قد ضلوا فيه، ومنبئة عن حقيقته كيف كانت، فبدأ تعالى بذكر فضله على هذه الجملة التي آل عمران منها، ثم خصّ امرأة عمران بالذكر لأن القصد وصف قصة القوم إلى أن يبيّن أمر عيسى عليه السلام وكيف كان.

﴿وَأَسْطَقْنَ﴾ معناه: اختار صفو الناس، فكان ذلك هؤلاء المذكورين وبقي الكفار كذراً. ﴿وَأَدَّامٌ﴾ هو أبونا عليه السلام، اصطفاه الله تعالى بالإيجاد والرسالة إلى بنيه والنبوة والتكليم، حسباً ورد في الحديث، وحكى الزجاج عن قوم أن الله اصطفى آدم عليه السلام بالرسالة إلى الملائكة في قوله: ﴿أَنبِئْتَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وهذا ضعيف؛ ونوح عليه السلام هو أبونا الأصغر في قول الجمهور، وهو أول نبي بُعث إلى الكفار، وانصرف نوح مع عجمته وتعريفه لخفة الاسم، كهود ولسوط. ﴿وَأَلٌّ﴾ لِبَرِيَّةٍ يعني بإبراهيم الخليل عليه السلام، والآل في اللغة: الأهل والقرابة، ويقال للاتباع وأهل الطاعة: آل، فمنه آل فرعون، ومنه قول الشاعر وهو أراكة الشقفي في

تكون الآية عامة لأهل الكتاب اليهود والنصارى لأنهم كانوا يدعون أنهم يحبون الله ويحبهم. ألا ترى أن جميعهم قالوا: ﴿عَنَّا أَبْتَكُوا اللَّهَ وَأَجَبُواهُ﴾، ولفظ «أحباؤه» إنما يُعطي أن الله يحبهم، لكن يعلم أن مرادهم «ويحبوه» فيحسن أن يقال لهم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ﴾.

وقرأ الزهري ﴿فَاتَّبَعُونِي﴾ بتشديد النون، وقرأ أبو رجاء: ﴿يَخْبِيكُمْ﴾ بفتح الياء وضم الباء الأولى من «حَبٌّ» وهي لغة، قال الزجاج: حَبَّبْتُ قَلِيلَةً فِي اللُّغَةِ، وَزَعَمَ الْكِسَائِيُّ أَنَّهَا لُغَةٌ قَد مَاتَتْ، وَعَلَيْهَا اسْتَعْمَلَ مَحْبُوبٌ.

والمحبة إرادة يقترب بها إقبال من النفس وميل بالمعتقد. وقد تكون الإرادة المجردة فيما يكره المرید، والله تعالى يريد وقوع الكفر ولا يحبه، ومحبة العبد لله تعالى يلزم عنها ولا بد أن يطيعه، وتكون أعماله بحسب إقبال النفس، وقد تمثل بعض العلماء حين رأى الكعبة فأنشد:

هذه دائرة وأنت مجب
ما بقاء الدموع في الآفاق
ومحبة الله للعبد أمارتها للمتأمل أن يرى العبد مهدياً مسدداً ذا قبول في الأرض، فلطف الله بالعبد ورحمته إياه هي ثمرة محبته، وبهذا النظر يتفسر لفظ المحبة حيث وقعت من كتاب الله عز وجل.

وذكر الزجاج أن أبا عمرو وقرأ: ﴿وَيُفْقَرُ لَكُمْ﴾ بإدغام الراء في اللام، وخطأ القراءة وغلط من رواها عن

﴿ ذُرِّيَّةٌ مِّمَّنْهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ متشابهين في الدين والحال، وهذا أظهر من البديل. والذرية في عرف الاستعمال تقع لما تناسل من الأولاد سفلاً، واشتقاق اللفظة في اللغة يُعطي أن تقع على جميع الناس، أي كل أحد ذريةً لغيره، فالناس كلهم ذريةٌ بعضهم لبعض، وهكذا استعملت الذرية في قوله تعالى: ﴿ إِنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ ﴾ أي ذرية هذا الجنس، ولا يسوغ أن يقال في والد: هذا ذريةٌ لولده إذ اللفظة من «ذُرٌّ» إذا بث، فهكذا يجيء معناها، وكذلك إن جعلناها من «ذرا»، وكذلك إن جعلت من «ذرا»، أو من الذر الذي هو صغار النمل. قال أبو الفتح: الذرية يحتمل أن تكون مشتقة من هذه الحروف الأربعة، ثم طول أبو الفتح القول في وزنها على كل اشتقاق من هذه الأربعة الأحرف تطويلاً لا يقتضي هذا الإيجاز ذكره، وذكرها أبو علي في الأعراف في ترجمة: ﴿ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ﴾، قال الزجاج: أصلها فُعْلِيَّةٌ من الدر، لأن الله أخرج الخلق من صلب آدم كالذر. قال أبو الفتح: هذه نسبة إلى الدر غَيْرُ أولها، كما قالوا في النسبة إلى الخرم: جزمي - بكسر الحاء - وغير ذلك من تغيير النسب، قال الزجاج: وقيل: أصل ذريةٌ ذُرْورة، ووزنها فُعْلولة، فلما كثرت الرءاث أبدلوا من الأخيرة ياء فصارت ذُرْوِيَّةٌ، ثم أُدغمت الواو في الياء فجاءت ذُرِّيَّةٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا اشتقاق من ذر يذر، أو من

ذرى، وإذا كانت من ذراً فوزنها فعيلة كمريقة أصلها ذريئة فالزمت البديل والتخفيف، كما فعلوا في البريئة في قول من رآها من برأ الله الخلق، وفي كوكب دري، في قول من رآه من «درا» لأنه يدفع الظلمة بضوئه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ ذُرِّيَّةٌ ﴾ بضم الـذال، وقرأ زيد بن ثابت والضحاك: ﴿ ذُرِّيَّةٌ ﴾ - بكسر الـذال - . وقوله تعالى: ﴿ مِمَّنْهَا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ أي في الإيمان والطاعة وإنعام الله عليهم بالنبوة.

واختلف الناس في العامل في قوله: ﴿ إِذْ قَالَتْ ﴾ - فقال أبو عبيدة معمر: ﴿ إِذْ ﴾ زائدة، وهذا قول مردود، وقال المبرد والأخفش: العامل فعل مضمَر تقديره: «اذكر إذ»، وقال الزجاج: العامل معنى الاصطفاء، التقدير: «واصطفى آل عمران إذ». وعلى هذا القول يخرج عمران من الاصطفاء؛ وقال الطبري ما معناه: إن العامل في «إذ» قوله: ﴿ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾.

وامرأة عمران اسمها حنة بنت قاذوذ فيما ذكر الطبري عن ابن إسحاق، وهي أم مريم بنت عمران.

ومعنى قوله: ﴿ نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مِثْرًا ﴾ أي: جعلت نذراً أن يكون هذا الولد الذي في بطني حبساً على خدمة بيتك، محرراً من كل خدمةٍ وشغلٍ من أشغال الدنيا، أي: عتيقاً من ذلك فهو من لفظ الحرية، ونصبه على الحال. قال مكِّي: فمن نصبه على النعت لمفعول محذوف يقدره: غلاماً

محرراً، وفي هذا نظر، والبيت الذي نذَرْتَهُ له هو بيت المقدس.

قال ابن إسحاق: كان سبب نذر حنة أنها كانت قد أمسك عنها الولد حتى أسنثت، فبينما هي في ظل شجرة إذ رأت طائراً يزقُ فرخاً له، فتحررت نفسها للولد، فدعت الله أن يهب لها ولداً، فحملت بمريم، وهلك عمران، فلما علمت أن في بطنها جنيناً جعلته نذرةً لله أن يخدم الكنيسة لا يُتَفَعَّ به في شيءٍ من أمر الدنيا.

وقال مجاهد: ﴿ مِثْرًا ﴾ معناه: خادماً للكنيسة، وقال مثله الشعبي وسعيد بن جبير، وكان هذا المعنى من التحرير للكنائس عرفاً في الذكور خاصة، وكان فرضاً على الأبناء التزام ذلك، فقالت: ﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾ ولم تنص على ذكوره لمكان الإشكال، ولكنها جزمته الدعوة رجاء منها أن يكون ذكراً. وتقبل الشيء وقوله: أخذته حيث يُتَصَوَّرُ الأخذ والرضى به في كل حال، فمعنى قولها: ﴿ فَتَقَبَّلْنِي ﴾: أي أرض عني في ذلك، واجعله فعلاً مقبولاً مجازي به، و«السبيح» إشارة إلى دعائها، «العليق» إشارة إلى نيتها.

(٢٦) - (٢٧) تفسير قوله عز وجل: هذه الآية خطاب من الله تعالى لمحمد عليه السلام، والوضع: الولادة، وأنت الضمير في ﴿ وَوَعَدْنَا ﴾ حملاً على الموجودة ورفعاً للفظ (ما) التي في قولها: ﴿ مَا فِي بَطْنِي ﴾ وقولها: ﴿ رَبِّ إِنِّي وَوَعَدْنَا أَنَّنِي ﴾ لفظ خبر في ضمنه التحسر والتلهف،

وَيُنِّيَ اللَّهُ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا وَصَّيْتُمْ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَصَّيْتُمْ﴾ بفتح العين وإسكان التاء - وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿وَصَّيْتُمْ﴾ - بضم التاء وإسكان العين - وهذا أيضاً مُخْرِجٌ قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي وَصَّيْتَهَا أَنْتَ﴾ من معنَى الخبر إلى معنى التلief، وإنما تلهفت لأنهم كانوا لا يحزرون الإِنَاتَ لخدمة الكنائس ولا يجوز ذلك عندهم، وكانت قد رَجَتْ أَنْ يكون ما في بطنها ذكراً، فلما وضعت أتت تلهفت على فوت الأمل وأفرعها أن نذرت ما لا يجوز نذره، وقرأ ابن عباس: ﴿وَصَّيْتُمْ﴾ - بكسر التاء - على الخطاب من الله لها.

وقولها: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَى﴾ تريد في امتناع نذره، إذ الأنثى تحيض ولا تصلح لصحبة الرهبان، قاله قتادة والربيع والسدي وعكرمة وغيرهم، وبدأت بذكر الأهم في نفسها، وإلا فسياقُ قَصَّتْهَا يقتضي أن تقول: وليست الأنثى كالذكر، فتضع حرف النفي مع الشيء الذي عندها وانتفت عنه صفات الكمال للفرض المراد.

وفي قولها: ﴿وَلِإِنِّي سَيِّئَةٌ مَّرِيَّةٌ﴾ سِنَّةٌ تسمية الأطفال قرب الولادة، ونحوه قول النبي ﷺ: «ولد لي الليلة مولود فسميته باسم أبي إبراهيم». وقد روي عنه عليه السلام «أن ذلك في يوم السابع يعق عن المولود ويسمى» قال مالك رحمه الله: «ومن مات ولده قبل السابع فلا عقيقة عليه ولا تسمية» قال ابن حبيب: «أحب إلي أن

يسمى، وأن يسمى السقط لما زوي من رجاء شفاعته».

ومريم لا ينصرف لعجمته وتعريفه وتأنيثه. وباقى الآية إعادة، وورد في الحديث عن النبي عليه السلام من رواية أبي هريرة قال: «كل مولود من بني آدم له طعنة من الشيطان وبها يستهل إلا ما كان من مريم ابنة عمران وابنها، فإن أمها قالت حين وضعتها: ﴿وَلِإِنِّي أُيْتِمَا بِكَ وَذُرِّيَّتًا مِنْ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ فَضْرِبَ بَيْنَهُمَا حِجَابٌ فَطَمَنَ الشَّيْطَانُ فِي الْحِجَابِ» وقد اختلف ألفاظ الحديث من طرق، والمعنى واحد كما ذكرته.

وقوله تعالى: ﴿فَنَقَّبَهَا﴾ إخبار لمحمد عليه السلام بأن الله رضي مريم لخدمة المسجد كما نذرت أمها وسئى لها الأمل في ذلك، والمعنى يقتضي أن الله تعالى أوحى إلى زكرياء ومن كان هنالك بأنه قد تقبلها، ولذلك جعلوها كما نذرت.

وقوله: ﴿يَقْبُولِي﴾ مصدر جاء على غير المصدر، وكذلك قوله: ﴿تَبَاتَا﴾ بعد «أبنت».

وقوله: ﴿وَأَلْبَنَاهَا تَبَاتَا حَسَنًا﴾، عبارة عن حسن النشأة وسرعة الجودة فيها في خَلْقَةٍ وَخُلُقٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ معناه: ضمها إلى إنفاقه وحضنه، والكافل هو المرابي الحاضن، قال ابن إسحاق: إن زكرياء كان زوج خالتها لأنه وعمران كانا سلفين على أختين، ولدت امرأة زكرياء يحيى،

وولدت امرأة عمران مريم، وقال السدي وغيره: إن زكرياء كان زوج ابنة أخرى لعمران، ويعضد هذا القول قول النبي ﷺ في يحيى وعيسى: «ابنا الخالة» قال مكى: وهو زكرياء بن آذن. وذكر قتادة وغير واحد من أهل العلم أنهم كانوا في ذلك الزمان يتشاحون في المحرر عند من يكون من القائميين بأمر المسجد فيتساهمون عليه، وأنهم فعلوا في مريم ذلك، فزوي أنهم ألقوا أقالمهم التي كانوا يكتبون بها التوراة في النهر، وقيل: أقالماً بَرَوْهَا من عود كالسهم والقِداح، وقيل: عصياً لهم، وهذه كلها تقلم. وزوي أنهم ألقوا ذلك في نهر الأردن، وروي أنهم ألقوه في عين. وروي أن قلم زكرياء صاعد الجرية، ومضت أقلام الآخرين مع الماء في جريته. وروي أن أقلام القوم عانت على الماء معروضة كما تفعل العيدان وبقي قلم زكرياء مرتزاً واقفاً كأنما ركز في طين، فكفلها زكرياء عليه السلام بهذا الاستهام، وحكى الطبري عن ابن إسحاق أنها لما ترعرعت أصابت بني إسرائيل مجاعة فقال لهم زكرياء: إني قد عجزت عن إنفاق مريم فاقترعوا على من يكفلها، ففعلوا، فخرج سهم على رجل يقال له جُرْزِج، فجعل ينفق عليها، وحينئذ كان زكرياء يدخل عليها المحراب عند جُرْجِج فيجد عندها الرزق. وهذا استهام غير الأول، هذا المراد منه دفعها، والأول المراد منه أخذها. ومضت هذه الرواية أن زكرياء كفلها من لدن

طفولتها دون استهام، لكن لأن أمها هلكت، وقد كان أبوها هلك وهي في بطن أمها، فَضَمَّهَا زكرياء إلى نفسه لقربانها من امرأته، وهكذا قال ابن إسحاق. والذي عليه الناس أن زكرياء إنما كفل بالاستهام لتشآخهم حينئذ فيمن يكفل المحرَّر.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - مفتوحة الفاء خفيفة - ﴿زَكْرِيَاءُ﴾ مرفوعاً ممدوداً، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - مشددة الفاء، ﴿زَكْرِيَاءُ﴾ ممدوداً منصوباً - في جميع القرآن، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية حفص: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - مشددة الفاء مفتوحة، ﴿زَكْرِيَاءُ﴾ مقصوراً في جميع القرآن، وفي رواية أبي بن كعب: ﴿وَأَكْفَلَهَا زَكْرِيَاءُ﴾ - بفتح الفاء - على التعدية بالهمزة. وقرأ مجاهد: ﴿فَتَقَبَّلَهَا﴾ - بسكون اللام - على الدعاء ﴿رَبِّهَا﴾ ينصب الباء على النداء، ﴿وَأَتَيْنَهَا﴾ - بكسر الباء - على الدعاء، ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - بكسر الفاء وشدها - على الدعاء ﴿زَكْرِيَاءُ﴾ منصوباً ممدوداً، وروي عن عبدالله بن كثير، وعبدالله المزني: ﴿وَكَفَّلَهَا﴾ - بكسر الفاء خفيفة - وهي لغة يقال: كَفَّلَ يَكْفُلُ - يضم العين في المضارع، وكَفَّلَ - بكسر العين - يَكْفُلُ - بفتحها - في المضارع. وزكرياء: اسم أعجمي يمدُّ وَيُقَصِّرُ، قال أبو علي: لما عُرِبَ صادف العربية في بئانه فهو كالهجاء تمدُّ وتقصُر. قال الزجاج: فأما تركُّ صرفه فلأن فيه في المدُّ ألفي تأنيث وفي القصر ألف تأنيث.

قال أبو علي: ألفُ زكرياء ألفُ تأنيث ولا يجوز أن تكونَ ألفُ إلحاق، لأنه ليس في الأصول شيءٌ على وزنه، ولا يجوز أن تكونَ متقلبةً، ويقال في لغة: زَكْرِيٌّ منونٌ معرب، قال أبو علي: هاتان ياءا تَسَبُّ ولو كانتا اللتين في زكرياء لوجبَ ألا ينصرفَ الاسمُ للمعجمة والتعريف، وإنما حذفَت تلك وجلبت ياء النسب. وحكى أبو حاتم زكري بغير صرف وهو غلطٌ عند النحاة، ذكره مكي.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّمَ﴾ ظرف والعامل فيه ﴿وَجَدَّ﴾، والمحراب: المبنى الحسن كالغرف والعلالي ونحوه، ومحراب القصر: أشرف ما فيه، ولذلك قيل لأشرف ما في المصلى - وهو موقف الإمام -: محراب، وقال الشاعر:

رَبُّهُ مُحْرَابٌ إِذَا جِئْتُهَا
لَمْ أَلْقَهَا أَوْ أَرْتَقِي سَلْمًا
ومثل قول الآخر:

كَدُمَى الْعَاجِ فِي الْمُحَارِبِ أَوْ كَأَنَّ
بَيْضَ فِي الرُّوضِ زَهْرَهُ مُسْتَنْبِرٌ
وقوله تعالى: ﴿وَجَدَّ عِنْدَهَا رِزْقًا﴾ معناه: طعاماً تتغذى به مما لم يعهده ولا عرف كيف جُلِبَ إليها، وكانت - فيما ذكر الريب - تحت سبعة أبواب مغلقة، وحكى مكي أنها كانت في غرفة يُطَلَعُ إليها بسلم، قال ابن عباس: وجد عندها عنباً في مِكْتَلٍ في غير حينه، وقاله ابن جبير ومجاهد، وقال الضحاك ومجاهد أيضاً وقتادة: كان يجدُ عندها فاكهة الشتاء في الصيف، وفاكهة الصيف

في الشتاء، وقال ابن عباس: كان يجد عندها ثمار الجنة: فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف، وقال الحسن: كان يجد عندها رزقاً من السماء ليس عند الناس، ولو أنه علم أن ذلك الرزق من عنده لم يسألها عنه؛ وقال ابن إسحاق: هذا الدخول الذي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿كَلَّمَ دَخَلَ عَلَيْهَا﴾ إنما هو دخولُ زكرياء عليها وهي في كفالة جريج أخيراً، وذلك أن جريجاً كان يأتيها بطعامها فينتميه الله ويكثره، حتى إذا دخل إليها زكرياء عجب من كثرتة فقال: ﴿يَسْتَعِزُّمُ أَنَّ لَكَ هَذَا﴾، والذي عليه الناس أقوى مما ذكره ابن إسحاق.

وقوله: ﴿أَنَّ﴾ معناه: كيف؟ ومن أين؟ وقولها: ﴿هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ دليلٌ على أنه ليس من جُلِبَ بشر، وهكذا تلقى زكرياء المعنى وإلا فليس كان يقنع بهذا الجواب. قال الزجاج: وهذا من الآية التي قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾، وروي أنها لم تَلَقَمْ ثدياً قط.

وقولها: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَزَقُكَ مِنْ يَشَاءَ بِمَنْ حِسَابٍ﴾ تقرير لكون ذلك الرزق من عند الله، وذهب الطبري إلى أن ذلك ليس من قول مريم وأنه خبرٌ من الله تعالى لمحمد ﷺ، والله تعالى لا تنتقص خزائنه، فليس يحسب ما يخرج منها. وقد يعبر بهذه العبارة عن المكثرين من الناس أنهم يُنْفِقُونَ بغير حساب، وذلك مجاز وتشبيه، والحقيقة هي فيما يتفق من خزائن الله تعالى.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هناك - في كلام العرب - إشارة إلى مكان فيه بُعد أو زمان، وهنالك - باللام - أبلغ في الدلالة على البعد، ولا يُعْرَبُ (هنالك) لأنه إشارة فأشبه الحروف التي جاءت لمعنى.

ومعنى هذه الآية: إن في الوقت الذي رأى زكرياء رزق الله لمريم ومكانتها منه، وفكر في أنها جاءت أُنْهًا بعد أن أسنَّتْ وأن الله تقبَّلَهَا وجعلها من الصالحات، تحرك أملة لطلب الولد وقوي رجاءه، وذلك منه على حال سنٍّ ووهن عظم واشتعال شيب، وذلك لخوفه الموالي من ورائه - حسبما يتفسر في سورة مريم إن شاء الله - فدعا ربّه أن يهب له ذرية طيبة. والذرية: اسم جنس يقع على واحد فصاعداً كما الولي اسم جنس كذلك، وقال الطبري: إنما أراد هنا بالذرية واحداً، ودليل ذلك طلبه ولياً ولم يطلب أولياء، وأنت الطيبة حملاً على لفظ الذرية كما قال الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى
وأنت خليفة ذاك الكمال

وكما قال الآخر:

فما تزدري من حبة جبلية
سكّات إذا ما عضّ ليس بأدردا

وفيما قاله الطبري تعقب، وإنما الذرية والولي اسما جنس يقعان للواحد فما زاد، وهكذا كان طلب زكرياء عليه السلام، و﴿طَيْبَةً﴾ معناها: سليمة في الخلق والدين نقية، ﴿سَيِّجٌ﴾ في هذه الآية بناء اسم فاعل.

ثم قال تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾

وتُرك محذوف كثير دل ما ذكّر عليه، تقديره: فقبل الله دعاه، ووهبه يحيى، وبعث الملك أو الملائكة بذلك إليه، فنادته، وذكر أنه كان بين دعائه والاستجابة له بالبشارة أربعون سنة، وذكر جمهور المفسرين أن المنادي المخبر إنما كان جبريل وحده، وهذا هو العرف في الوحي إلى الأنبياء، وقال قوم: بل نادى ملائكة كثيرة حسبما تقتضيه الفاظ الآية. وقد وجدنا الله تعالى بعث ملائكة إلى لوط وإلى

إبراهيم عليه السلام وفي غير ما قصة.

وفي مصحف عبدالله بن مسعود وقراءته: ﴿فناداه جبريل وهو قائم يصلي﴾. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وابن عامر وأبو عمرو: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ - بالتاء - ﴿الْمَلَائِكَةُ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فناداه الملائكة﴾ - بالألف وإمالة الدال - قال أبو علي: من قرأ بالتاء فلموضع الجماعة، والجماعة ممن يعقل في جمع التكسير تجري مجرى ما لا يعقل، ألا ترى أنك تقول: هي الرجال كما تقول: هي الجدوع وهي الجمال، ومثله: ﴿فَالَّتِي الْأَعْرَابُ﴾. ففسر أبو علي على أن المنادي ملائكة كثيرة، والقراءة بالتاء على قول من يقول: المنادي جبريل وحده متجهة على مراعاة لفظ

هَذَا لَكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٨﴾ فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهِيَ قَائِمٌ فِي الْحَرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى مُصَدِّقًا بِكَلِمَاتِكَ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَأَحْسَبُ أَنَّ نَبِيًّا مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي يَكُونُ لِي عِلْمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤١﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٢﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٣﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٤﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٥﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٦﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٨﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ﴿٥٠﴾

الملائكة، وعبر عن جبريل بالملائكة إذ هو منهم، فذكر اسم الجنس كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾، قال أبو علي: ومن قرأ: ﴿فناداه الملائكة﴾، فهو كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدْيَنَةِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن المنادي كثير، ومن قال إنه جبريل وحده كالسدي وغيره فأورد الفعل مراعاة للمعنى، وعبر عن جبريل عليه السلام بالملائكة إذ هو اسم جنسه.

وقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ﴾ عبارة تستعمل في التبشير وفيما ينبغي أن يُسْرَعَ به وتُنْهَى إلى نفس السامع لِيُسْرَ به، فلم يكن هذا من الملائكة إخباراً على عرف الوحي بل نداء كما نادى الرجل الأنصاري كعب بن مالك من أعلى الجبل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَوْ قَاتِمٌ﴾ جملة في موضع الحال، و﴿يَسْكِي﴾ صفة القاسم، و﴿أَلْيَحْرَابِ﴾ في هذا الموضع موقف الإمام من المسجد.

وقرأ ابن عامر وحمزة: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الألف، قال أبو علي: وهذا على إضمار القول، كأنه قال: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فقالت، وهذا

كقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُ﴾ إنني مفلوٓبٌ على قراءة من كسر الألف، وقال بعض النحاة: كُسِرَتْ

بعد النداء والدعاء لأن النداء والدعاء أقوال. وقرأ الباقر بفتح الألف من

قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَيِّرُكَ﴾ قال أبو علي: المعنى: فنادته بأن الله، فلما

خُذِفَ الجار منها وصل الفعل إليها فنصبها، فأُن في موضع نصب،

وعلى قياس قول الخليل في موضع جرّ. وفي قراءة عبدالله: ﴿فِي

المحرابِ يا زكرياء إِنَّ اللَّهَ﴾، قال أبو علي: فقوله: ﴿زكرياء﴾ في موضع

نصب بوقوع النداء عليه، ولا يجوز فتح الألف في ﴿إِنَّ﴾ على هذه القراءة

لأن (نادته) قد استوفت مفعولها، أحدهما الضمير والآخر المنادى،

فإن فتحت ﴿إِنَّ﴾ لم يبق لها شيء متعلق به، قال أبو علي: وكلهم

قرأ: ﴿فِي أَلْيَحْرَابِ﴾ بفتح الراء إلا ابن عامر فإنه أمالها، وأطلق ابن مجاهد

القول في إمالة ابن عامر الألف من (محراب) ولم يخص الجر من غيره، وقال غير ابن مجاهد: إنما

نميلة في الجر فقط.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿يُبَيِّرُكَ﴾ بضم الياء وفتح الياء

والتشديد - في كل القرآن إلا في:

﴿عَسَى﴾ ﴿فإنه ما قرآن﴾ ذلك الذي يُبَيِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ - بفتح الياء

وسكون الياء وضم الشين. وقرأ نافع وعاصم وابن عامر: ﴿يُبَيِّرُكَ﴾ بشد

الشين المكسورة في كل القرآن، وقرأ حمزة: ﴿يُبَيِّرُ﴾ خفيفاً - بضم

الشين - مما لم يقع في كل القرآن إلا قوله تعالى: ﴿يُبَيِّرُكَ﴾. وقرأ

الكسائي: ﴿يُبَيِّرُ﴾ مخففة في خمسة مواضع: في آل عمران في قصة

زكرياء وقصة مريم، وفي سورة بني إسرائيل والكهف: ﴿وَيُبَيِّرُ

المؤمنين﴾ وفي - عسى - ﴿يُبَيِّرُ اللَّهَ عِبَادَهُ﴾.

قال غير واحد من اللغويين: في هذه اللفظة ثلاث لغات، بشر بشد

الشين، وبشّر بتخفيفها، وأبشر يُبَيِّرُ إشاراً، وهذه القراءات كلها متجهة

فصيحة مروية، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿يُبَيِّرُكَ﴾ - بضم الياء

وتخفيف الشين المكسورة - من «أبشر»، وهكذا قرأ في كل القرآن.

ويحيى: اسم سماه الله به قبل أن يولد، قال أبو علي: وهو اسم

بالعبرانية صادف هذا البناء، والمعنى من العربية؛ قال الزجاج: لا ينصرف

لأنه إن كان أعجمياً ففيه التعريف والمعجمة، وإن كان عربياً فالتعريف

ووزن الفعل، وقال قتادة: سماه الله يحيى لأنه أحياه بالإيمان. و

﴿مُؤَيَّدًا﴾ نصب على الحال، وهي مؤكدة بحسب حال هؤلاء الأنبياء

عليهم السلام.

وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ مِنَ اللَّهِ﴾، قال ابن عباس ومجاهد وقاتدة

والحسن والسدي وغيرهم: الكلمة

هنا يراد بها عيسى ابن مريم. وسمى الله عيسى كلمة إذ صدر عن

كلمة منه تعالى لا بسبب إنسانٍ آخر كعُزْفِ البشر. وروى ابن عباس أن

امرأة زكرياء قالت لمريم وهما حاملتان: إنني أجد ما في بطني

يتحرك لما في بطنك، وفي بعض الروايات: يسجد لما في بطنك.

قال: فذلك تصديقه، أي: أول التصديق. وقال بعض الناس:

﴿يَكْفُرُ مِنَ اللَّهِ﴾ معناه: بكتاب من الله، الإنجيل وغيره من

كتب الله، فأوقع المفرد موقع الجمع، فدكلمة: اسم جنس،

وعلى هذا النظر سَمَتِ العرب القصيدة الطويلة كلمة.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا﴾ قال فيه قتادة: أي والله، سيد في الحلم

والعبادة والورع، وقال مرة: معناه: في العلم والعبادة، وقال ابن جبير:

﴿وَسَيِّدًا﴾ أي حليماً، وقال مرة: السيد: التقى. وقال الضحاک:

﴿وَسَيِّدًا﴾ أي تقياً حليماً، وقال ابن زيد: السيد: الشريف، وقال ابن

المسيب: السيد: الفقيه العالم، وقال ابن عباس: ﴿وَسَيِّدًا﴾ يقول: تقياً

حليماً، وقال عكرمة: السيد: الذي لا يغلبه الغضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كل من فسر من هؤلاء العلماء المذكورين السؤدد بالحلم فقد أحرز

أكثر معنى السؤدد، ومن جرّد تفسيره بالعلم والتقوى ونحوه فلم يفسّر

بحسب كلام العرب، وقد تحضّل العلم ليحيى عليه السلام بقوله

عز وجل: ﴿مُؤَيَّدًا يَكْفُرُ مِنَ اللَّهِ﴾،

وتحصّل التقى بباقي الآية. وخصّ الله بذكر السؤدد الذي هو الاعتمال في رضى الناس على أشرف الوجوه دون أن يقع في باطل، هذا اللفظ يعمّ السؤدد، وتفصيله أن يقال: بذلّ الندى وهذا هو الكرم، وكفّ الأذى وهنا هي العفة بالفرج واليد واللسان، واحتمال العظائم وهنا هو الحلم وغيره من تحمّل الغرامات وجبر الكسر والإفضال على المسترشد والإنقاذ من الهلكات. وانظر أن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، يجمع الله الأولين والآخرين»، وذكر حديث الشفاعة في إطلاق الموقف، وذلك منه احتمال في رضى ولد آدم، فهو سيدهم بذلك. وقد يوجد من الثقات العلماء من لا يبرز في هذه الخصال، وقد يوجد من يبرز في هذه فيسمى سيّداً وإن قصّر في كثير من الواجبات، أعني واجبات الندب والمكافحة في الحق وقلة المبالاة باللائمة. وقد قال عبدالله بن عمر رضي الله عنه: ما رأيت أحداً أسودّ من معاوية بن أبي سفيان، قيل له: وأبو بكر وعمر؟ قال: هما خير من معاوية، ومعاوية أسودّ منهما. فهذه إشارة إلى أن معاوية برز في هذه الخصال ما لم يواقع محذوراً؛ وأنّ أبا بكر وعمر كانا من الاستصلاح بالواجبات وتتبّع ذلك من أنفسهما وإقامة الحقائق على الناس بحيث كانا خيراً من معاوية، ومع تتبّع الحقائق، وحمل الناس على الجادة، وقلة المبالاة برضاهم، والوزن بقسطاس الشريعة تحريراً،

ينخرم كثير من هذه الخصال التي هي السؤدد ويشغل الزمّن عنها. والتقى والعلم والأخذ بالأشدّ أوكدّ وأعلى من السؤدد، أمّا إنه يحسن بالتقى العالم أن يأخذ من السؤدد بكلّ ما لا يخلّ بعلمه وتقاه، وهكذا كان يحيى عليه السلام، وليس هذا الذي يحسن بواجب ولا بد، كما ليس التتبّع والتحرير في الشدة بواجب ولا بد، وهما طرفا خير قد حفتها الشريعة، فمن صائر إلى هذا ومن صائر إلى هذا، ومثال ذلك: حاكم صليّب معتبّ فظ على من عنده أدنى عوج، لا يعتني في حوائج الناس، وآخر ينسّط الوجه بسأم يعتني فيما يجوز، ولا يتتبّع فيما لم يُرْفَع إليه وينفّذ الحكم مع رفقٍ بالمحكوم عليه، فهما طريقان حسنان.

وقوله: ﴿وَحَصُورًا﴾ أصل هذه اللفظة الحبس والمنع، ومنه الحصر لأنه يحصر من جلس عليه، ومنه سمي السجن حصيراً وجهنم حصيراً، ومنه حصّر العدو وإحصار المرض والعذر، ومنه قيل: الذي لا ينفق مع ثدّماته حصور، قال الأخطل:

وشاربٍ مُربحٍ بالكأس نادمني
لا بالحصور ولا فيها بسوّار
ويقال للذي يكتم السر حصور
وحصر، قال جرير:

ولقد تساقطني الوشاة فصادفوا
حصراً بسرك يا أميمّ ضنيناً
وأجمع من يعتدّ بقوله من
المفسرين على أن هذه الصفة ليحيى
عليه السلام إنما هي الامتناع من

وطء النساء، إلا ما حكى مكّي من قول من قال: إنه الحصور عن الذنوب أي لا يأتيها. وروى ابن المسيب عن ابن العاصي - إما عبدالله وإما أبوه - عن النبي ﷺ، أنه قال: «كل بني آدم يأتي يوم القيامة وله ذنب إلا ما كان من يحيى بن زكرياء» قال: ثم دلى رسول الله ﷺ بيده إلى الأرض فأخذ عويداً صغيراً، ثم قال: «وذلك أنه لم يكن له ما للرجال إلا مثل هذا العود، ولذلك سماه الله سيّداً وحصوراً». وقال ابن مسعود: الحصور: العتّين، وقال مجاهد وقتادة: الحصور: الذي لا يأتي النساء، وقال ابن عباس والضحاك: الحصور: الذي لا ينزل الماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ذهب بعض العلماء إلى أن حصر يحيى عليه السلام كان لأنه لم يكن له إلا مثل الهدية، وذهب بعضهم إلى أن حصّره كان لأنه كان عينياً لا يأتي النساء وإن كانت خلقته غير ناقصة، وذهب بعضهم إلى أن حصّره كان بأنه كان يمسك نفسه تقى وجلداً في طاعة الله، وكانت به القدرة على جماع النساء. قالوا: وهذا أمدح له وليس له في التأويلين الأولين مدح، إلا بأن الله يسر له شيئاً لا تكسب له فيه، وباقي الآية بين، وروي من صلاحه عليه السلام أنه كان يعيش من العشب، وأنه كان كثير البكاء من خشية الله حتى خدد الدمع في وجهه طرقاتاً وأخاديد.

تفسير قوله عزّ وجل:

اختلف المفسرون - لم قال زكرياء:

الكلام لآفة نزلت به أم كان ذلك لغير آفة؟ فقال جبير بن نفير: ربا لسانه في فيه حتى ملأه ثم أطلقه الله بعد ثلاث. وقال الربيع وغيره: عوقب لأن الملائكة شافته بالبشارة فسأل بعد ذلك علامة فأخذ الله عليه لسانه، فجعل لا يقدر على الكلام. وقال قوم من المفسرين: لم تكن آفة، ولكنه مُنِعَ محاوراة الناس فلم يقدر عليها، وكان يقدر على ذكر الله، قاله الطبري، وذكر نحوه عن محمد بن كعب.

ثم استثنى الرمز، وهو استثناء منقطع. وذهب الفقهاء في الإشارة ونحوها إلى أنها في حكم الكلام في الأيمان ونحوها، فعلى هذا يجيء الاستثناء متصلاً، والكلام المراد بالآية إنما هو النطق باللسان لا الإعلام بما في النفس، فحقيقة هذا الاستثناء أنه منقطع.

وقرأ جمهور الناس: ﴿رَمَزًا﴾ - بفتح الراء وسكون الميم - وقرأ علقمة بن قيس: ﴿رُمَزًا﴾ بضمهما، وقرأ الأعمش: ﴿رَمَزًا﴾ بفتحهما. والرمز في اللغة: حركة تُعَلِّمُ بما في نفس الرامز بأي شيء كانت الحركة من عين أو حاجب أو شفة أو يد أو عود أو غير ذلك. وقد قيل للكلام المحرّف عن ظاهره: رموز، لأنها علامات بغير اللفظ الموضوع للمعنى المقصود بالإعلام به. وقد يقال للتصويت الدال على معنى: رمز، ومنه قول جؤية بن عائد:

وكان تكلم الأبطال رمزاً
وغمغمة لهم مثل الهدير

لبس الفتى إن كنت أعور عاقراً
جباناً فما عذري لدي كل محضر
وعاقر: بناء فاعل وهو على النسب وليس بجار على الفعل.

والإشارة بـ«ذلك» في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ﴾ يحتمل أن تكون إلى هذه الغربية التي بُشِّرَ بها، أي كهذه القدرة المستغربة هي قدرة الله، ففي الكلام حذف مضاف، والكلام تام في قوله: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ شرح للإبهام الذي في «ذَلِكَ». ويحتمل أن تكون الإشارة بـ«ذَلِكَ» إلى حال زكرياء وحال امرأته كأنه قال: ربّ على أي وجه يكون لنا غلام ونحن بحال كذا؟ فقال له: «كما أنتما يكون لكما الغلام»، والكلام تام على هذا التأويل في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ جملة مبنية مقررة في النفس وقوع هذا الأمر المستغرب.

﴿اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾

تفسير قوله عز وجل:

الآية: العلامة. وقال الربيع والسدي وغيرهما: إن زكرياء قال: رب إن كان ذلك الكلام من قبلك والبشارة حق، فاجعل لي علامة أعرف صحة ذلك بها، فعوقب على هذا الشك في أمر الله بأن منع الكلام ثلاثة أيام مع الناس. وقالت فرقة من المفسرين: لم يشك قط زكرياء وإنما سأل عن الجهة التي يكون الولد وتتم البشارة، فلما قيل له: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ سأل علامة على وقت الحمل ليعرف متى يحمل بيحيى.

واختلف المفسرون - هل كان منعه

﴿رَبِّ أَنْ يَكُونَ لِي عَلَمٌ؟﴾ فسأل عكرمة والسدي: إنه لما نودي بهذه البشارة، جاء الشيطان يكدر عليه نعمته ربه، فقال: هل تدري من ناداك؟ قال: نادتنى ملائكة ربي، قال: بل ذلك الشيطان، ولو كان هذا من عند ربك لأخفاه لك كما أخفيت نداءك، قال: فخالطت قلبه وسوسة وشك مكانه، فقال: ﴿أَنْ يَكُونَ لِي عَلَمٌ﴾.

وذهب الطبري وغيره إلى أن زكرياء لما رأى حال نفسه وحال امرأته وأنها ليست بحال نسل سأل عن الوجه الذي به يكون الغلام، أتبدل المرأة خلقتها أم كيف يكون؟ وهذا تأويل حسن لائق بزكرياء عليه السلام. قال مكّي: وقيل إنما سأل لأنه نسي دعاءه لطول المدة بين الدعاء والبشارة وذلك أربعون سنة، وهذا قول ضعيف المعنى.

﴿أَنْ﴾ معناه: كيف؟ ومن أين؟ وقوله: ﴿بَلَّغَنِي الْكَبِيرَ﴾ استعارة، كان الزمان طريقاً والحوادث تتساقط فيه فإذا التقى حادثان فكان كل واحد منهما قد بلغ صاحبه، وحقيقة البلوغ في الأجرام أن ينتقل البالغ إلى المبلوغ إليه. وحسن في الآية ﴿بَلَّغَنِي الْكَبِيرَ﴾ من حيث هي عبارة واهن منفعل، و«بلغت» عبارة فاعل مستعمل، فتأمل. ولا يعترض على هذا بقوله: ﴿وَقَدْ بَلَّغْتُ مِنَ الْكَبِيرِ عَيْتِي﴾ لأنه قد أنصح بضعف حاله في ذكر العتي.

والعاقر: الإنسان الذي لا يلد، يقال ذلك للمرأة والرجل، قال عامر بن الطفيل:

وأما المفسرون فخصص كل واحد منهم نوعاً من الرمز في تفسيره هذه الآية، فقال مجاهد: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾، معناه: إلا تحريكاً بالشفيتين، وقال الضحاك: معناه: إلا إشارة باليد والرأس، وبه قال السدي وعبدالله بن كثير، وقال الحسن: أمسك لسانه فجعل يشير بيده إلى قومه، وقال قتادة: ﴿إِلَّا رَمَزًا﴾ معناه: إلا إيماء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلَا تُكَلِّمُ النَّاسَ﴾ بنصب الفعل بأن، وقرأ ابن أبي عيلة: ﴿أَلَا تَكَلِّمُ﴾ برفع الميم، وهذا على أن تكون «أن» مخففة من الثقيلة ويكون فيها ضمير الأمر والشأن، والتقدير: آيتك أنه لا تكلم الناس. والقول بأن هذه الآية نسخها قول النبي عليه السلام: «لا صمت يوماً إلى الليل» قول ظاهر الفساد من جهات.

وأمره تعالى بالذكر لربه كثيراً لأنه لم يحل بينه وبين ذكر الله، وهذا قاض بأنه لم تدرکه آفة ولا علة في لسانه، وقال محمد بن كعب القرظي: لو كان الله رخص لأحد في ترك الذكر لرخص لزكرياء عليه السلام حيث قال: ﴿ءَايَتُكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾ لكنه قال له: ﴿وَأَذْكُرُ رَبَّكَ كَثِيرًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيِّحٌ﴾ معناه: قل: سبحان الله، وقال قوم معناه: صل، والقول الأول أصوب لأنه يناسب الذكر ويستغرب مع امتناع الكلام مع الناس. والعشي في اللغة: من زوال الشمس إلى مغيبها، ومنه قول القاسم بن محمد: ما أدركت الناس إلا وهم يصلون الظهر

بعشي، والعشي من حين يفىء الفيء، ومنه قول حميد بن ثور: فلا الظل من برد الضحى تستطيعه ولا الفيء من برد العشي تذوق والعشي: اسم مفرد عند بعضهم، وجمع عشية عند بعضهم كسفينة وسفين، و﴿وَالْإِنكِرَ﴾ مصدر أبكر الرجل، إذا بادر أمره من لدن طلوع الشمس، وتتمادى البكرة شيئاً بعد طلوع الشمس، يقال: أبكر الرجل وبكر، فمن الأول قول ابن أبي ربيعة:

أَيِّنْ آلٍ نَعْمَى أَنْتَ غَادٍ فَمُبَكَّرِ

ومن الثاني قول جرير:
أَلَا بَكَرَتْ سَلْمَى فَجَدَّ بِكُورِهَا
وَشَقَّ الْعَصَا بَعْدَ اجْتِمَاعِ أَمِيرِهَا
وقال مجاهد في تفسير الإبكار: أول الفجر، والعشي: ميل الشمس حتى تغيب.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
قال الطبري: العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿السَّيِّحِ﴾، فهو عطف على قوله: ﴿إِذْ قَالَتْ أُمَّرَأْتُ عَمْرَنَ﴾، وقال كثير من النحاة: العامل في ﴿إِذْ﴾ في هذه الآية فعل مضمّر تقديره: «واذكر»، وهذا هو الراجح لأن هذه الآيات كلها إنما هي إخبارات بغيث تدل على نبوة محمد ﷺ، مقصد ذكرها هو الأظهر في حفظ رونق الكلام.

وقرأ عبدالله بن عمر وابن مسعود: ﴿وَإِذْ قَالَ الْمَلَائِكَةُ﴾.

واختلف المفسرون؛ هل المراد هنا بالملائكة جبريل وحده أو جمع من الملائكة؟ وقد تقدم القول على معنى

مثلها في قوله تعالى: ﴿فَتَدَاثَهُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

﴿وَأَسْأَلُكَ﴾: مأخوذ من صفا يصفو وزنه «افتعل»، وبدلت طاء لتناسب الصاد. فالمعنى: تخيرك لطاعته.

وقوله تعالى: ﴿وَوَهَّارِكُ﴾ معناه: من كل ما يصم النساء في خلق أو خلق أو دين، قاله مجاهد وغيره. وقال الزجاج: قد جاء في التفسير أن معناه: من الحيض والنفاس؛ وهذا يحتاج إلى سند قوي وما أحفظه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْأَلُكَ عَلَى نِسَاءِ الْمَلَائِكِ﴾ إن جعلنا ﴿الْمَلَائِكِ﴾

عاماً فيمن تقدم وتأخر جعلنا الاصطفاء مخصوصاً في أمر عيسى عليه السلام وأنها اصطفت لتلد من غير فعل، وإن جعلنا الاصطفاء عاماً جعلنا قوله: ﴿الْمَلَائِكِ﴾ مخصوصاً في عالم ذلك الزمان، قاله ابن جريج وغيره، وقد روي عن رسول الله ﷺ

أنه قال: «خير نساء الجنة مريم ابنة عمران، وخير نساء الجنة خديجة بنت خويلد»، وروي عنه أنه قال: «خير نساها مريم بنت عمران، وخير نساها خديجة بنت خويلد» فذهب الطبري وغيره إلى أن الضمير في قوله: «خير نساها» يراد به الجنة، وذهب قوم إلى أنه يراد به الدنيا، أي كل امرأة في زمانها، وقال النبي ﷺ: «خير نساء ركبن الإبل صالح نساء قريش، أحناه على ولد في صغره، وأرעה على زوج في ذات يده». قال أبو هريرة راوي الحديث: ولم تترك مريم بنت عمران بغيراً قط، وهذه الزيادة فيها غيب، فلا

يتأول أن أبا هريرة رضي الله عنه قالها إلا عن سماع من النبي ﷺ. وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «خير نساء العالمين أربع: مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم امرأة فرعون، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد». وقد أسند الطبري أن النبي عليه السلام قال لفاطمة بنته: «أنت سيدة نساء أهل الجنة، إلا مريم بنت عمران البتول» وأنه قال: «فضلت خديجة على نساء أمتي، كما فضلت مريم على نساء العالمين».

وإذا تأملت هذه الأحاديث وغيرها مما هو في معناها، وجدت مريم فيها متقدمة، فسأنت أن يتأول عموم الاصطفاء على العالمين عموماً أيضاً. وقد قال بعض الناس: إن مريم نبيه، قال ابن إسحاق: كانت الملائكة تقبل على مريم فتقول: ﴿يَتَرَمَّزَنَّ إِنَّ اللَّهَ سَمَّفَلْتُكَ﴾ الآية، فيسمع ذلك زكرياء فيقول: إن لمريم لشأناً، فمن مخاطبة الملائكة لها جعلها هذا القائل نبيه، وجمهور الناس على أنه لم تنبأ امرأة.

﴿أَقْتَبِي﴾ معناه: اعبدني وأطيعي، قاله قتادة والحسن، وروى أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ أنه قال: «كل قنوت في القرآن فهو بمعنى طاعة الله» ويحتمل أن يكون معناه: أطيلي القيام في الصلاة، وهذا هو قول الجمهور، وهو المناسب في المعنى لقوله: ﴿وَأَسْبِرِي وَأَرْكَبِي﴾ وبه قال مجاهد، وابن جريج، والربيع، وروى مجاهد أنها لما خوطبت بهذا قامت حتى ورمت

قدمها. وروى الأوزاعي أنها قامت حتى سال الدم والقبح من قدميها. وروى أن الطير كانت تنزل على رأسها تنظنها جماداً لسكونها في طول قيامها. وقد قال سعيد بن جبير: ﴿أَقْتَبِي رَبِّكَ﴾ معناه: أخلصي لربك.

واختلف المتأولون: لم قدم السجود على الركوع؟ فقال قوم: كان ذلك في شرع زكرياء وغيره منهم، وقال قوم: الواو لا تعطي رتبة، وإنما المعنى: افعلي هذا وهذا، وقد علم تقديم الركوع. وهذه الآية أكثر إشكالاً من قولنا: «قام زيد وعمرو» لأن قيام زيد وعمرو ليس له رتبة معلومة، وهذه الآية قد علم أن السجود بعد الركوع، فكيف جاءت الواو بعكس ذلك؟ فالحقول عندي في ذلك أن مريم أمِرتُ بفصلين ومعلمين من معالم الصلاة، وهما طول القيام والسجود، وحُصِّصَ بالذكر لشرفهما في أركان الصلاة، إذ العبد يقرب في وقت سجوده من الله تعالى، وهذان يختصان بصلاتها مفردة، وإلا فمن يصلي وراء إمام فليس يقال له: أطل قيامك، ثم أمرت - بعدُ - بالصلاة في الجماعة، فقيل لها: ﴿وَأَرْكَبِي مَعَ أَرْكَبِي﴾، وقصد هنا معلم من معالم الصلاة، لئلا يتكرر لفظ، ولم يرد بالآية السجود والركوع الذي هو منتظم في ركعة واحدة، والله أعلم.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه المخاطبة لمحمد عليه السلام، والإشارة بذلك إلى ما تقدم ذكره من القصص. والأنبياء: الأخبار،

﴿الَّتِي﴾: ما غاب عن مدارك الإنسان. ﴿وَوُجِدِي﴾ معناه: نلقيه في نفسك في خفاء؛ وحَدَّ الوحي إلقاء المعنى في النفس في خفاء، ثم تختلف أنواعه، فمنه بالملك، ومنه بالإلهام، ومنه بالإشارة، ومنه بالكتاب، كما قال كعب بن زهير:

أتى العُجْمَ والآفاقَ منه قصائدُ
بقين بقاء الوحي في الحجرِ الأصمِّ
تقول العرب: أوحى، وتقول:
وحى. وفي هذه الآية بيان لنبوة محمد عليه السلام، إذ جاءهم بغيوب لا يعلمها إلا مَنْ شاهدها وهو لم يكن لديهم، أو مَنْ قرأها في كتب أهل الكتاب، ومحمد عليه السلام أمي من قوم أميين، أو مَنْ أعلمه الله بها وهو ذاك ﷺ. ﴿لَدَيْهِنَّ﴾ معناه: عندهم ومعهم، وقد تقدم القول في الأقسام والكفل. وجمهور العلماء على أنه استهام لأخذها والمنافسة فيها. وقال ابن إسحاق: إنما كان استهامهم حين نالتهم المجاعة دفعاً منهم لتحمل مؤنتها.

﴿يَخَيَّبُونَ﴾ معناه: يتراجعون القول الجهري في أمرها، وفي هذه الآية استعمال القرعة، والقرعة سنة، وكان النبي ﷺ إذا سافر أقرع بين نسائه، وقال عليه السلام: «لو يعلمون ما في الصف الأول لاستهموا عليه». وجمهور الأمة على تجويز القرعة إلا من شدَّ فظن أنها قمار، وهذا كله فيما يصلح التراضي بكونه دون قرعة، فكأن القرعة محسنة لذلك الاختصاص. وأما حيث لا يجوز التراضي كعتق العبيد في ثلث

الميت فجزؤها الجمهور ومنعها أبو حنيفة. وفي الحديث أن النبي ﷺ أفرع بين ستة أعبد، فأعتق اثنين وأرق أربعة.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب بالفعل الذي تقديره: ينظرون ﴿أَيُّهَا يَكْفُلُ مَرْيَمَ﴾، والعامل في قوله: ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾ فعل مضمر تقديره: اذكر ﴿إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾، وهكذا يطرّد وصف الآية وتتوالى الإعلامات بهذه الغيوب. وقال الزجاج: العامل فيها: ﴿يَخْبِئُونَ﴾، ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ﴾، وهذا كله يرده المعنى، لأن الاختصاص لم يكن عند قول الملائكة.

وقرأ ابن مسعود وعبدالله بن عمر: ﴿إِذْ قَالَ الْمَلَائِكَةُ﴾. واختلف المتأولون؛ هل الملائكة هنا عبارة عن جبريل وحده أو عن جماعة من الملائكة؟ وقد تقدم معنى ذلك كله في قوله آنفاً: ﴿فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ﴾ فتأمله، وتقدم ذكر القراءات في قوله: ﴿يَبْسُطُ﴾.

واختلف المفسرون؛ لم عبر عن عيسى عليه السلام بـ ﴿كَلِمَةٍ﴾ فقال قتادة: جعله الله كلمة إذ هو موجود بكلمة وهي قوله تعالى لمرادته: «كن»، وهذا كما تقول في شيء حادث: هذا قدر الله، أي هو عن قدر الله، وكذلك تقول: هذا أمر الله. وترجم الطبري فقال: وقال آخرون: بل الكلمة اسم لعيسى سماه الله بها كما سُمي سائر خلقه بما شاء من الأسماء، فمقتضى هذه الترجمة أن الكلمة اسم مرتجل

لعيسى، ثم أدخل الطبري تحت الترجمة عن ابن عباس أنه قال: الكلمة هي عيسى، وقول ابن عباس محتمل أن يفسر بما قال قتادة وبغير ذلك مما سنذكره الآن، وليس فيه شيء مما ادعى الطبري رحمه الله. وقال قوم من أهل العلم: سماه الله كلمة من حيث كان تقدم ذكره في توراة موسى وغيرها من كتب الله وأنه سيكون، فهذه كلمة سبقت فيه من الله، فمعنى الآية: أنت يا مريم مبشرة بأنك المخصوصة بولادة الإنسان الذي قد تكلم الله بأمره، وأخبر به في ماضي كتبه المنزلة على أنبيائه. و﴿أَسْمُهُ﴾ في هذا الموضع، معناه: تسميته، وجاء الضمير مذكراً من أجل المعنى، إذ الكلمة عبارة عن ولد.

واختلف الناس في اشتقاق لفظه ﴿الْمَسِيحِ﴾ فقال قوم: هو من ساح يسبح في الأرض إذا ذهب ومشى في أقطارها، فوزنه «مفعل». وقال جمهور الناس: هو من «مسح» فوزنه «فعليل»؛ واختلفوا - بعد - في صورة اشتقاقه من «مسح» فقال قوم من العلماء: سمي بذلك من مساحة الأرض لأنه مشاهها فكانه مسحها، وقال آخرون: سمي بذلك لأنه ما مسح بيده على ذي علة إلا برىء، فهو على هذين القولين «فعليل» بمعنى «فاعل». وقال ابن جبير: سمي بذلك لأنه مسح بالبركة، وقال آخرون: سمي بذلك لأنه مسح بدهن القدس، فهو على هذين القولين «فعليل» بمعنى «مفعول»، وكذلك هو في قول من قال:

مسحه الله فطهره من الذنوب. قال إبراهيم النَّحْمِيُّ: المسيح: الصديق، وقال ابن جبير عن ابن عباس: المسيح: الملك، وسمي بذلك لأنه ملك إحياء الموتى وغير ذلك من الآيات، وهذا قول ضعيف لا يصح عن ابن عباس.

وقوله تعالى: ﴿عِيسَى﴾ يحتمل من الإعراب ثلاثة أوجه: البديل من المسيح، وعطف البيان، وأن يكون خبراً بعد خير، ومنع بعض النحاة أن يكون خبراً بعد خير وقال: كان يلزم أن يكون أسماً على المعنى أو أسماها على اللفظ للكلمة، ويتجه أن يكون ﴿عِيسَى﴾ خبر ابتداء مضمر، تقديره: هو عيسى ابن مريم، ويدعو إلى هذا كون قوله: ﴿أَبْنُ مَرْيَمَ﴾ صفة لعيسى إذ قد أجمع الناس على كتبه دون ألف، وأما على البديل أو عطف البيان فلا يجوز أن يكون ابن مريم صفة لعيسى لأن الاسم هنا لم يرد به الشخص، هذه النزعة لأبي علي، وفي صدر الكلام نظر.

﴿وَجِهًا﴾ نُصِبَ عَلَى الْحَالِ وَهُوَ مِنَ الْوَجْهِ، أَي: لَهُ وَجْهٌ وَمَنْزِلَةٌ عِنْدَ اللَّهِ. وَالْمَعْنَى فِي الْوَجْهِ أَنَّهُ حَيْثُمَا أَقْبَلَ بِوَجْهِهِ عَظُمَ وَرُوعِي أَمْرُهُ، وَتَقُولُ الْعَرَبُ: فَلَانَ لَهُ وَجْهٌ فِي النَّاسِ وَلَهُ جَاهٌ، وَهَذَا عَلَى قَلْبٍ فِي اللَّفْظَةِ، يَقُولُونَ: جَاهَنِي يَجْهَنِي بِكَذَا أَيْ وَاجْهَنِي بِهِ، وَجَاهُ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي الدُّنْيَا نُبُوتهُ وَذِكْرُهُ، وَرَفَعَهُ فِي الْآخِرَةِ مَكَانَتَهُ وَنَعِيمَهُ وَشَفَاعَتَهُ. وَ﴿وَرَبِّ الْمَقْرِنِينَ﴾ مَعْنَاهُ: مِنْ اللَّهِ تَعَالَى.

أمر زكرياء عليه السلام، وجاءت العبارة في أمر زكرياء ﴿يَفْعَلُ﴾ وجاءت هنا ﴿يَتَخَقُّ﴾ من حيث أمر زكرياء داخل في الإمكان الذي يُتعارف وإن قل، وقصة مريم لا تتعارف البتة، فلفظ الخلق أقرب إلى الاختراع وأدل عليه. وروي أن عيسى عليه السلام ولد لثمانية أشهر فلذلك لا يعيش من يولد من غيره لمثل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰ﴾ معناه إذا أراد إيجاده، والأمر: واحد الأمور، وهو مصدرٌ سمي به، والضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على الأمر، والقول على جهة المخاطبة، قال مكي: وقيل: المعنى يقول لأجله، وهذا ينحو إلى ما نوره عن أبي علي بعد.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿يَكُونُ﴾ بالرفع، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿فِيَكُونُ﴾ بالنصب، فوجه الرفع العطف على ﴿يَقُولُ﴾ أو تقدير: فهو يكون. وأما قراءة ابن عامر فغير متجهة لأن الأمر المتقدم خطابٌ للمقضي وقوله: ﴿يَكُونُ﴾ خطابٌ للمخبر، فليس كقوله: قم فأحسن إليك، لكن وجهها أنه راعى الشبه اللفظي في أن يقدم في الكلام لفظ أمر كما قال أبو الحسن الأخفش في نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ لِمَ آدَى الَّذِينَ آمَنُوا يُبَيِّنُوا السُّلُوكَ﴾ إنه مجرى جواب الأمر وإن لم يكن له جواباً في الحقيقة، فكذلك على قراءة ابن عامر يكون قوله: ﴿فِيَكُونُ﴾ بمنزلة جواب الأمر وإن لم يكن جواباً. وذهب أبو علي في هذه المسألة إلى أن القول فيها ليس بالمخاطبة

عسى أن يقذفها به متعسف ظان. والمهد: موضع اضطجاع الصبي وقت تربيته. وأخبر تعالى عنه أنه أيضاً يكلم الناس كهلاً، وفائدة ذلك - إذ كلام الكهل عَرَفَ - أنه إخبارٌ لها بحياته إلى سن الكهولة، هذا قول الربيع وجماعة من المفسرين.

وقال ابن زيد: فائدة قوله: ﴿وَكَهَلًا﴾ الإخبار بنزوله عند قتله الدجال كهلاً. وقال جمهور الناس: الكهل: الذي بلغ سن الكهولة. وقال مجاهد: الكهل: الحليم،

وهذا تفسير الكهولة بعرض مصاحب لها في الأغلب. واختلف الناس في حد الكهولة، فقيل: الكهل: ابن أربعين سنة، وقيل: ابن ثلاث وثلاثين، وقيل: ابن اثنتين وثلاثين، وهذا حدٌ أولها. وأما آخرها فاثنتان وخمسون، ثم يدخل سن الشيخوخة.

وقول مريم: ﴿رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَكَذَلِكَ﴾ استفهام عن جهة حملها، واستغراب للحمل على حال بكارتها. و﴿يَسْتَسْفِي﴾ معناه: يطأ ويجامع، والمسيس: الجامع، ومريم لم تنفِ مسيس الأيدي، والإشارة بقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ يحتمل أن تكون إلى هذه القدرة التي تتضمنها البشارة بالكلمة، ويحتمل أن تكون إلى حال مريم وبكارتها، وقد تقدم شرح هذين التأويلين في

وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٤٦﴾
قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ، لَنْ يَكُونَ ﴿٤٧﴾
وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴿٤٨﴾
وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
أَنِّي أَخْلَقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ
وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنشِئُكُمْ يَمَانًا كَلُونَ وَمَا تَدْرُونَ
فِي بُيُوتِكُمْ إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّكُم إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾
وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَالتَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ لَكُمْ
بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ
فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴿٥٠﴾ إِن اللَّهَ رَبِّي وَرَبِّيكُمْ فَاعْبُدُوهُ
هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾ ﴿لَمَّا أَحْسَنَ عِيسَىٰ مِنْهُمْ
الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْخَوَارِيزِيُّونَ مَنْ
أَنْصَارُ اللَّهِ عَامِنًا بِاللَّهِ وَشَهِدًا بِأَنَّمَا سَلِمْتُ﴾ ﴿٥٢﴾

٤٦ - ٤٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ﴾ نائب عن حال تقديرها: «ومكلماً»، وذلك معطوف على قوله: ﴿وَجِئَهَا﴾، وجاز عطف الفعل المستقبل على اسم الفاعل لما بينهما من المضارعة، كما جاز عطف اسم الفاعل على الفعل المستقبل في قول الشاعر:

بِثْ أَعْشِيهَا بِعَضْبٍ بَاتِرٍ
يَقْصِدُ فِي أَسْوَاقِهَا وَجَائِرٍ
وقوله: ﴿فِي الْمَهْدِ﴾ حال من الضمير في ﴿وَيُكَلِّمُ﴾، و﴿وَكَهَلًا﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿فِي الْمَهْدِ﴾، وقوله: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿وَيُكَلِّمُ﴾.

وهذه الآية إخبار من الله تعالى لمريم بأن ابنها يتكلم في مهده مع الناس آية دالة على براءة أمه مما

المحضة، وإنما هو قول مجازي كما قال:

امتلاً الحَوْضُ وقالَ قطنِي

وغير ذلك، قال: لأن المتفتي ليس بكائن فلا يخاطب كما لا يؤمر، وإنما المعنى: فإنما يكونه فهو يكون، فهذه نزعة اعتزالية، رحمه الله وغفر له.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ نافع وعاصم: ﴿وَعَلَّمَ﴾ بالياء، وذلك عطف على: ﴿يَسِّرُكَ يَكْتُمُ﴾، كذا قال أبو علي، ويحتمل أن يكون في موضع الحال عطفاً على: ﴿وَيَكْتُمُ﴾. وقرأ الباقر: ﴿ونعلمه﴾ بالنون، وهي مثل قراءة الباء في المعنى لكن جاءت بنون العظمة، قال الطبري: قراءة الباء عطف على قوله: ﴿يَتَلَقَّ مَا يَشَاءُ﴾، وقراءة النون عطف على قوله: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الذي قاله خطأ في الوجهين مفسد للمعنى.

﴿الِكْتَبِ﴾ هو الخط باليد فهو مصدر كتب يكتب، هذا قول ابن جريج وجماعة المفسرين، وقال بعضهم: هي إشارة إلى كتاب منزل لم يعين، وهذه دعوى لا حجة عليها. وأما: ﴿الِحِكْمَةَ﴾ فهي السنة التي يتكلم بها الأنبياء في الشرعيات والمواعظ ونحو ذلك، مما لم يوح إليهم في كتاب ولا بملك، لكنهم يلهمون إليه وتقوى غرائزهم عليه. وقد عبر بعض العلماء عن الحكمة بأنها الإصابة في

القول والعمل، فذكر الله تعالى في هذه الآية أنه يعلم عيسى عليه السلام الحكمة، والتعليم متمكن فيما كان من الحكمة بوحى أو مأثوراً عن تقدم عيسى من نبي وعالم. وأما ما كان من حكمة عيسى الخاصة به فإنما يقال فيها نعلمه على معنى نُهَيْتِهِ غريزته لها ونقدره ونجعله يتمرن في استخراجها ويجري ذهنه إلى ذلك.

﴿وَالْتَّوْرَةَ﴾: هي المنزلة على موسى عليه السلام، ويروى أن عيسى عليه السلام كان يستظهر التوراة، وكان أعلم الناس وأعمل بما فيها، ويروى أنه لم يحفظها عن ظهر قلب إلا أربعة: موسى ويوشع بن نون وعزير وعيسى عليهم السلام. وذكر ﴿الْإِنْجِيلَ﴾ لمريم وهو لم ينزل بعد لأنه كان كتاباً مذكوراً عند الأنبياء والعلماء وأنه سينزل.

وقوله: ﴿وَرَسُولًا﴾ حال معطوفة على: ﴿وَعَلَّمَ﴾. إذ التقدير: ومعلماً الكتاب، فهذا كله عطف بالمعنى على قوله: ﴿وَيَجِيهَا﴾ ويحتمل أن يكون التقدير: ويجعله رسولاً.

وكانت رسالة عيسى عليه السلام إلى بني إسرائيل، مبنياً حكم التوراة ونادياً إلى العمل بها ومحللاً أشياء مما حرم فيها، كالشحوم ولحوم الإبل وأشياء من الحيتان والطيور.

ومن أول القول لمريم إلى قوله: ﴿إِسْرَائِيلَ﴾ خطاب لمريم، ومن قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جَعَلْتُكَ﴾ إلى قوله: ﴿مُسْتَقْبِرًا﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لمريم على معنى: يكون من قوله

لبنى إسرائيل: كيت وكيت، ويكون في آخر الكلام متروك يدل عليه الظاهر، تقديره: فجاء عيسى بني إسرائيل رسولاً فقال لهم ما تقدم ذكره: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾. ويحتمل أن يكون المتروك مقدراً في صدر الكلام بعد قوله: ﴿إِنِّي بَيِّنٌ لِّسْرَائِيلَ﴾ فيكون تقديره: فجاء عيسى كما بشر الله رسولاً إلى بني إسرائيل بأنني قد جئتكم، ويكون قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جَعَلْتُكُمْ﴾ ليس بخطاب لمريم، والأول أظهر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي قَدْ جَعَلْتُكُمْ﴾ بفتح الألف، تقديره: بأنني، وقرئ في الشاذ: ﴿إِنِّي قَدْ جَعَلْتُكُمْ﴾، وجمهور الناس قرؤوا: ﴿بَيِّنًا﴾ على الأفراد، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿بآيات﴾، وكذلك في قوله بعد هذا: ﴿وجعلتكم آيات من رُبِّكُمْ﴾. واختلف القراء في فتح الألف وكسرها من قوله: ﴿أَنِّي أَخْلَقُ﴾ - فقرأ نافع وجماعة من العلماء: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف، وقرأ باقي السبعة وجماعة من العلماء: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف. فوجه قراءة نافع: إما القطع والاستئناف، وإما أنه فسر الآية بقوله: (إني) كما فسر المثل في قوله: ﴿كَتَلَّيْءَ آدَمَ﴾ بقوله: ﴿خَلَقْتَهُ مِنْ رُأْبٍ﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة، ووجه قراءة الباقرين البديل من ﴿آية﴾، كأنه قال: وجئتكم بأنني أخلق، وقيل: هي بدل من ﴿أني﴾ الأولى، وهذا كله يتقارب في المعنى.

﴿وَأَخْلَقُ﴾ معناه: أندر وأهين، ويدي، ومن ذلك قول الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقتَ وبع
ضُ القومِ يخلُقُ ثم لا يفري
وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ تقييد لقوله:
﴿أَتَأْتُونَ﴾ لأنه يدل دلالة ما على أنه
لم يرد الإيجاد من العدم. ويصرح
بذلك قوله: ﴿يَاذَنْ اللَّهُ﴾، وحقيقة
الخلق في الأجرام، ويستعمل في
المعاني، ومنه قوله تعالى:
﴿وَتَخْلُقُونَ أَفْكَارًا﴾، ومنه قول
الشاعر:

من كان يخلق ما يقو
لُ فحيلتي فيه قليلةٌ
وجمهور الناس قرأ: ﴿كَهَيْئَةِ﴾
على وزن فَعْلَةٍ - بفتح الفاء - وهو
مصدر من قولك: هاء الشيء يهأ
هيناً وهيته، إذا ترتب واستقر على
حال ما، وهو الذي تعديه فتقول:
هيات، وقرأ الزهري: ﴿كَهَيْئَةِ
الطير﴾، بكسر الهاء وياء مفتوحة
مشددة، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع:
﴿كَهَيْئَةِ الطائرِ فَتَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ
طَائِرًا﴾ على الأفراد في الموضعين،
فالأول اسم الجنس والثاني مفرد،
أي يكون طائراً من الطيور، وقرأ
نانع وحده: ﴿كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَاتَنْفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ طَائِرًا﴾ بالأفراد في الأخير،
وهكذا قرأ في المائدة. وقرأ
الباقرن: ﴿كَهَيْئَةِ الظُّلَمِ فَاتَنْفُخُ فِيهِ
فَيَكُونُ ظُلُمًا﴾ بالجمع فيهما، وكذلك
في سورة المائدة، ومعاني هذه
القراءات بينة. والطيور: اسم جمع
وليس من أبنية الجموع، وإنما البناء
في جمع طائر أطيّار، وجمع الجمع
طيور، وحكاها أبو علي عن أبي
الحسن. وقوله: ﴿فَاتَنْفُخُ فِيهِ﴾ ذكر الضمير

هنا لأنه يحتمل أن يعود على الطين
المهيا، ويحتمل أن يريد فأنفخ في
المذكور. وأنت الضمير في سورة
المائدة في قوله: ﴿فَتَنْفُخُ فِيهَا﴾ لأنه
يحتمل أن يعود على الهيئة أو على
تأنيث لفظ الجماعة في قوله:
﴿الظُّلَمِ﴾. وكون عيسى عليه السلام
خالقاً بيده وناقضاً بفيه إنما هو لبيان
تلبسه بالمعجزة، وأنها جاءت من
قِيَلِهِ، وأما الإيجاد من العدم وخلق
الحياة في ذلك الطين فمن الله تعالى
وحده لا شريك له.

وقوله: ﴿يَاذَنْ اللَّهُ﴾ معناه: بعلم
منه تعالى أني أفعل ذلك وتمكين منه
لي. وحقيقة الإذن في الشيء هي
العلم بأنه يفعل والتمكين من ذلك،
فإن اقترن بذلك قول فذلك أمكن في
الإذن وأبلغ، ويخرج من حد الإذن
إلى حد الأمر، ولكن تجده أبداً في
قسم الإباحة. وتأمل قوله تعالى:
﴿فَهَكَزُونَهُمْ بِأَذْنِ اللَّهِ﴾ وقول النبي
عليه السلام: ﴿وَإِذْ نَهَا ضَمَاتَهَا﴾.

وروي في قصص هذه الآية أن
عيسى عليه السلام كان يقول لبني
إسرائيل: أي الطير أشد خلقاً
وأصعب أن يحكى؟ فيقولون:
الخفاش، لأنه طائر لا ريش له،
فكان يصنع من الطين خفافيش ثم
ينفخ فيها فتطير، وكل ذلك بحضرة
الناس ومعانتهم فكانوا يقولون: هذا
ساحر.

﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَأَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ أَنْ تَبَيَّنْ لَنَا مَاذَا كُنْتَ تَعْمَلُ وَمَا
تَدْعُرُونَنَا فِي يَوْمِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً
لِّكُلِّ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا﴾ معناه: أزيل المرض،
يقال: برأ المريض وأبرأه غيره،
ويقال: برىء المريض أيضاً كما يقال
في الذنب والدين.

واختلف المفسرون في:
﴿أَلَا تَعْلَمُونَ﴾ - فقال مجاهد:
الأكمه: هو الذي يبصر بالنهار ولا
يبصر بالليل، وقال ابن عباس
والحسن والسدي: الأكمه: الأعمى
على الإطلاق، وقال عكرمة:
الأكمه: الأعمش، وحكى النقاش
قولاً: إن الأكمه هو الأبكم الذي لا
يقهم ولا يفهم، الميت الفؤاد، وقال
ابن عباس أيضاً وقتادة: الأكمه:
الذي يولد أعمى مضموم العينين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد كان عيسى عليه السلام يبرئ
بدعائه ومَسْحِ يده كلُّ علة فتشفى،
ولكن الاحتجاج على بني إسرائيل
في معنى النبوة لا يقوم إلا بالإبراء
من العلة التي لا يبرئ منها طبيب
بوجه، فليس يتخلص من هذه
الأقوال في الأكمه إلا القول الأخير،
إذ الأكمه في اللغة هو الأعمى،
وكمعت العين عَمِيَتْ، ولولا ضبط
اللغة لكان القول الذي حكى النقاش
حسناً في معنى قيام الحجة به.
﴿وَالْأَنْبِيَاءُ﴾ معروف، وهو داء لا
يرأ منه إذا تمكن.

وروي في إحيائه الموتى أنه كان
يضرب بعصاه الميت أو القبر أو
الجمجمة فيحيي الإنسان ويكلمه،
وروي أنه أحيا سام بن نوح عليه
السلام، وروي أن الذي كان يحييه
كانت تدوم حياته، وروي أنه كان
يعود لموته سريعاً، وفي قصص

الإحياء أحاديث كثيرة لا يوقف على صحتها. وإحياء الموتى هي آيته المعجزة المعرّضة للتحدي، وهي بالمعنى متحدّى بها وإن كان لم ينصّ على التحدي بها. وآيات عيسى عليه السلام إنما تجري فيما يعارض الطب لأن علم الطب كان شرفَ الناس في ذلك الزمان وشغلهم، وحينئذ أُثيرت فيه العجائب، فلما جاء عيسى عليه السلام بغرائب لا تقتضيها الأزمنة وأصول الطب، وذلك إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، علمت الأطباء أن هذه القوة من عند الله، وهذا كأمر السحرة مع موسى والفضحاء مع محمد عليهما السلام، ووقع في التواريخ المترجمة عن الأطباء أن جالينوس كان في زمن عيسى عليه السلام، وأنه رحل إليه من رومية إلى الشام ليلقاه فعات في طريقه ذلك.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَتَيْنَكُمُ﴾... الآية؛ فقال السدي وسعيد بن جبيرة وابن إسحاق ومجاهد وعطاء: كان عيسى من لدن طفولته وهو في الكتاب يخبر الصبيان بما يفعل آباؤهم في منازلهم، وبما يؤكل من الطعام ويذخر حتى قال بنو إسرائيل لأبنائهم: لا تخالطوا هذا الساحر، وكذلك إلى أن نُبئ، فكان يقول لكلّ من سأله عن هذا المعنى: أكلت البارحة كذا وادخرت كذا. قال ابن إسحاق: وكان معلمه يريد أن يعلمه الشيء فيسبقه إليه عيسى، فيتعجب معلمه من ذلك ويذكره للناس.

وقال قتادة: معنى الآية إنما هو في نزول المائدة عليهم، وذلك أنها لما أنزلت أخذ عليهم عهداً أن يأكلوا ولا يخسبوا أحد شيئاً ولا يدخره ويحمله إلى بيته، فخانوا وجعلوا يخبثون من ثمار الجنة وطعامها الذي كان ينزل على المائدة، فكان عيسى عليه السلام يخبر كلّ أحد عما أكل، وعما ادخر في بيته من ذلك، وعوقبوا على ذلك.

﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿يَمَّا تَأْكُلُونَ﴾ تحتل أن تكون بمعنى «الذي» وتحتل المصدرية، وكذلك ﴿وَمَا تَكْخُرُونَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿تَكْخُرُونَ﴾ بدال مشددة وخاء مكسورة، وهو تفتعلون من ذخرت، أصله تذخرتون، استثقل النطق بالذال والتاء لتقاربهما في المخرج فأبدلت التاء دالاً وأدغمت الذال في الدال، كما صنع في مذكر ومطلع، بمعنى مضطلع وغير ذلك، نحو قول الشاعر:

إن الكريم الذي يعطيك نائله
عفواً وَيُظَلِّمُ أحياناً فيَطْلِمُ
بالطاء غير منقوطة. وقرأ الزهري ومجاهد وأيوب السختياني وأبو السمال: ﴿تَذْخُرُونَ﴾ بدال ساكنة وخاء مفتوحة.

وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الإحياء والإبراء والإنباء. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿لآيات﴾ على الجمع.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ توقيف، والمعنى: لآيات نافعة هادية إن آمنتم وأبصرتم، وإلا فليست بنافعة ولا هادية، فأما كونها آيات

فعلى كل حال آمنوا أو كفروا، هذا كله على أن المخاطبة لمن لم يؤمن - بعد - وهو ظاهر حاله مع بني إسرائيل، وإن كان خطابه لمؤمنين، أو لما كانوا مؤمنين بموسى، فمعنى الآية: التثبيت وهز النفس، كما تقول لإنسان تقيم نفسه إلى شيء: أما أنت يا فلان يلزمك أن تفعل كذا وكذا إن كنت من الرجال.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله: ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال معطوفة على قوله: ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ﴾. لأن قوله في موضع الحال، وكان عيسى عليه السلام مصدقاً للتوراة متبعاً لها عاملاً بما فيها. قال وهب بن منبه: كان يسبت ويستقبل بيت المقدس.

وقال قتادة في تفسير قوله: ﴿وَلَأَجَلٌ لَّكُمْ بَعَثَ الَّذِي هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾، كان الذي جاء به عيسى ألين من الذي جاء به موسى، وقال ابن جريج: أحلّ لهم لحوم الإبل والشحوم، قال الربيع: وأشياء من السمك، وما لا صنصنة له من الطير. وكان في التوراة محرّمات تركها شرع عيسى على حالها، فلفظة البعض على هذا متمكنة، وقال أبو عبيدة: البعض في هذه الآية بمعنى الكل، وخطأه الناس في هذه المقالة، وأنشد أبو عبيدة شاهداً على قوله بيت لبيد:

تَرَكَ أَمَكْنَةَ إِذَا لَمْ يَرْضَها
أَوْ يَخْتَرِمَ بَعْضَ النَّفُوسِ جَمَامُها
وليس في البيت له حجة لأن لبيداً أراد نفسه فهو تبعيض صحيح، وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿هُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى

رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْفُرْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَكُرُوا وَمَكَّرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَبِيرُ
الْمُكْرِمِينَ ﴿٥٣﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُحْيِسَ بِي مَتَوَفِيكَ وَرَأَيْتُكَ
إِنَّكَ وَمَطَهَّرَكَ مِنْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ
فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِنَّكَ مَرَّعْتُمْ
فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ
كَفَرُوا فَأَعَذَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا
لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٥٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٥٦﴾
ذَلِكَ نَتْلُوهُ عَلَيْكَ مِنَ الْآيَاتِ وَالذِّكْرِ الْحَكِيمِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ
مِثْلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمِثْلِ آدَمَ خَلَقْنَاهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ
لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٥٨﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكْفُرْ مِنَ الْمُتَكْفِرِينَ ﴿٥٩﴾
فَمَنْ سَأَلَكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْبَيِّنَاتِ فَقُلْ نَعَاؤُنَا نَدْعُ
أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ
ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦٠﴾

٥٧

أطيعوني، لأن الله ربي
وربكم، أو يكون المعنى:
لأن الله ربي وربكم
فاعبدوه.

وقوله: ﴿هَذَا صِرَاطٌ
مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى
قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي
وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ﴾، لأن
ألفاظه جمعت الإيمان
والطاعات. والصرط:
الطريق، والمستقيم: الذي
لا اعوجاج فيه.

عز وجل:

قبل هذه الآية متروك به
يتم اتساق الآيات،
تقديره: فجاء عيسى عليه

السلام كما بشر الله به فقال جميع ما
ذكر لبني إسرائيل ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ﴾،
ومعنى ﴿أَحَسَّ﴾: علم من جهة
الحواس بما سمع من أقوالهم في
تكذيبه ورأى من قرائن الأحوال
وشدة العداوة والإعراض؛ يقال:
أحسست بالشيء وحسيت به،
أصله: حسست فأبدلت إحدى
السينين ياء. و﴿الْكُفْرَ﴾ هو
التكذيب به، وروي أنه رأى منهم
إرادة قتله، فحينئذ طلب النصر،
والضمير في ﴿يَنْهَمُ﴾ لبني إسرائيل.
وقوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ آمَنَ بِي إِلَى
اللَّهِ﴾ عبارة عن حال عيسى عليه
السلام في طلبه من يقوم بالدين
ويؤمن بالشرع ويحميه، كما كان
محمد ﷺ يعرض نفسه على القبائل
ويتعرض للأحياء في المواسم. وهذه
الأفعال كلها وما فيها من أقوال يعبر

عنها بـ ﴿قَالَ مَنْ آمَنَ بِي إِلَى اللَّهِ﴾.
ولا شك أن هذه الألفاظ كانت في
جملة أقواله للناس. والأنصار: جمع
نصير، كشهيد وأشهد وغير ذلك،
وقيل: جمع ناصر، كصاحب
وأصحاب. وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾
يحتمل معنيين، أحدهما: من
ينصرنى في السبيل إلى الله؟ فتكون
«إلى» دالة على الغاية دلالة ظاهرة
على بابها. والمعنى الثاني: أن يكون
التقدير: من يضيف نصرته إلى
نصرة الله لي؟ فيكون بمنزلة قوله:
﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ﴾ فإذا
تأملتها وجدت فيها معنى الغاية لأنها
تضمنت إضافة شيء إلى شيء. وقد
عبر عنها ابن جريج والسدي بأنها
بمعنى «مع»؛ و«وإنعم» إن «مع» تسدُّ
في هذه المعاني مسد «إلى» لكن
ليس يباح من هذا أن يقال إن «إلى»
بمعنى «مع» حتى غلط في ذلك
بعض الفقهاء في تأويل قوله تعالى:
﴿وَأَيِّدِيكُمْ إِلَىٰ التَّرَافِقِ﴾ فقال: «إلى»
بمعنى «مع» وهذه عجمة، بل «إلى»
في هذه الآية غاية مجردة، وينظر؛
هل يدخل ما بعد «إلى» فيما قبلها
من طريق آخر؟

﴿وَالْمُكَرِّبِينَ﴾ قوم مرَّ بهم عيسى
عليه السلام فدعاهم إلى نصرته واتباع
ملته، فأجابوه وقاموا بذلك خير
قيام، وصبروا في ذات الله. وروي
أنه مرَّ بهم وهم يصطادون السمك.
واختلف الناس؛ لم قيل لهم
المحاربين؟ فقال سعيد بن جبير:
سموا بذلك لبياض ثيابهم ونفقاتها؛
وقال أبو أروطة: سموا بذلك لأنهم
كانوا قصارين يحورون الثياب، أي

ما حرمه الأحبار بعد موسى
وشرعوه، فكان عيسى ردُّ أحكام
التوراة إلى حقائقها التي نزلت من
عند الله تعالى.

وقرأ عكرمة: ﴿حَرَمَ عَلَيْكُمْ﴾ بفتح
الحاء والراء المشددة، وإسناد الفعل
إلى الله تعالى أو إلى موسى عليه
السلام. وقرأ الجمهور: ﴿وَجِئْتَكُمْ
بِبَيِّنَاتٍ﴾، وفي مصحف عبدالله بن
مسعود: ﴿وَجِئْتَكُمْ بِآيَاتٍ مِنْ
رَبِّكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْنَا اللَّهُ
وَأَطِيعُونِ﴾ تحذير ودعاء إلى الله
تعالى. وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّ اللَّهَ
رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بكسر الألف على
استئناف الخبر، وقرأه قوم: ﴿أَنَّ اللَّهَ
رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾ بفتح الألف؛ قال
الطبري: ﴿أَنَّ﴾ بدل من «آيَةٍ»،
في قوله: ﴿وَجِئْتَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ﴾، وفي
هذا ضعف، وإنما التقدير:

يُبَيِّنُونَهَا، وقال قتادة: الحواريون: أصفياء الأنبياء، الذين تصلح لهم الخلافة، وقال الضحاك ونحوه، وهذا تقرير حال القوم وليس بتفسير اللفظة؛ وعلى هذا الحد شبه النبي ﷺ ابن عمته بهم في قوله: «وحواري الزبير» والأقوال الأولى هي تفسير اللفظ، إذ هي من الحور، وهو البياض، حورت الشوب: ببيضته، ومنه الحواري. وقد تسمي العرب النساء الساكنات في الأمصار: الحواريات، لغلبة البياض عليهن، ومنه قول أبي جلدة الشكري:

فقل للحواريات بيبكين غيرنا
ولا تبيكننا إلا الكلاب النوايح

وذكر مكي أن مريم دفعت عيسى عليه السلام في صغره في أعمال شتى، وكان آخر ما دفعته إلى الحواريين وهم الذين يقصرون الثياب ثم يصبغونها فأراهم آيات وصيغ لهم ألواناً شتى من ماء واحد.

وقرأ جمهور الناس: «الْحَوَارِيُّونَ» بتشديد الياء، وأحدهم «حواري» وليست بياء نسب وإنما هي كياء كرسبي، وقرأ إبراهيم الشَّعْبِي وأبو بكر الشَّقْفِي: «الْحَوَارِيُّونَ» مخففة الياء في جميع القرآن. قال أبو الفتح: العرب تعاف ضمة الياء الخفيفة المكسور ما قبلها وتمتنع منها، ومتى جاءت في نحو قولهم: العاديون والقاضيون والساعيون أعلت بأن تستقل الضمة فتسكن الياء وتنقل حركتها ثم تحذف لسكونها وسكون الواو بعدها فيجاء العادون ونحوه، فكان يجب على هذا أن يقال: الحوارون، لكن وجه القراءة

على ضعفها أن الياء خفت استقلالاً لتضعفها وحملت الضمة دلالة على أن التشديد مراد، إذ التشديد محتمل للضمة، وهذا كما ذهب أبو الحسن في تخفيف يستهزئون إلى أن أخلص الهمزة ياء البتة وحملها الضمة تذكراً لحال الهمزة المرادة فيها.

وقول الحواريين: «وَأَشْهَدُ» يحتمل أن يكون خطاباً لعيسى عليه السلام، أي: اشهد لنا عند الله، ويحتمل أن يكون خطاباً لله تعالى كما تقول: أنا أشهد الله على كذا، إذا عزمت وبالغت في الالتزام، ومنه قول النبي عليه السلام في حجة الوداع: «اللَّهُمَّ اشهد». قال الطبري: وفي هذه الآية توبيخ لنصارى نجران، أي: هذه مقالة الأسلاف المؤمنين بعيسى، لا ما تقولونه أنتم يا من يدعي له الألوهية.

وقوله: «رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا آتَيْتَنَا وَرَبُّنَا الَّذِي أَلْهَمَنَا أَنْ نَرْسُلَ رُسُلًا» يريدون في الإنجيل وآيات عيسى. و«الرُّسُلُ»: عيسى عليه السلام.

وقولهم: «فَأَكْفِبْنَا مَعَ الشَّهِيدِينَ» عبارة عن الرغبة في أن يكونوا عنده في عداد من شهد بالحق من مؤمني الأمم، ولما كان البشر يقيد ما يحتاج إلى علمه وتحققه في ثاني حال بالكتاب، عبروا عن فعل الله بهم ذلك. وقال ابن عباس: قولهم: «مَعَ الشَّهِيدِينَ» معناه: اجعلنا من أمة محمد ﷺ في أن نكون ممن يشهد على الناس.

ثم أخبر تعالى عن بني إسرائيل الكافرين بعيسى فقال: «وَمَكَرُوا» يريد تحيلهم في أخذ عيسى للقتل بزعمهم، ويروى أنهم تحيلوا له،

وأذكروا عليه العيون حتى دخل هو والحواريون بيتاً فأخذوهم فيه، فهذا مكر بني إسرائيل، فجازاهم الله تعالى بأن طرح شبه عيسى على أحد الحواريين ورفع عيسى، وأعقب بني إسرائيل مذلةً وهواناً في الدنيا والآخرة. فهذه العقوبة هي التي سماها الله مكرأ في قوله: «وَمَكَرَ اللَّهُ»، وذلك مهيع أن تسمى العقوبة باسم الذنب وإن لم تكن في معناه؛ وعلى هذا فسر جمهور المفسرين الآية، وعلى أن عيسى قال للحواريين: من يصبر فيلقى عليه شبيهي فيقتل وله الجنة؟ فقال أحدهم: أنا، فكان ذلك. وروى قوم أن بني إسرائيل دسَّتْ يهودياً جاسوساً على عيسى حتى صحبه ودلَّهم عليه ودخل معه البيت، فلما أحيط بهم ألقى الله شبه عيسى على ذلك الرجل اليهودي فأخذ وصلب. فهذا معنى قوله: «وَمَكَرُوا» ومعناه أيضاً تسمية عقوبة باسم الذنب. والمكر في اللغة: السعي على الإنسان دون أن يظهر له ذلك، بل أن يُبْطِنَ الماكر ضد ما يبدى.

وقوله: «وَاللَّهُ خَبِيرٌ الْمَكْرِينِ» معناه: في أنه فاعل حق في ذلك، والماكر من البشر فاعل باطل في الأغلب، لأنه في الأباطيل يحتاج إلى التحيل، والله سبحانه أشد بطشاً وأنفذ إرادة، فهو خير من جهات لا تحصي، لا إله إلا هو. وذكر خصير عيسى عليه السلام، وعدة أصحابه به وأمر الشبه وغير ذلك من أمره سيأتي في موضعه إن شاء الله تعالى.

﴿٥٥﴾ - ﴿٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال الطبري: العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله تعالى: ﴿وَمَكَرَ اللَّهُ﴾. قال غيره من النحاة: العامل فعلٌ مضمَر تقديره: اذكر؛ وهذا هو الأصوب. وهذا القول هو بواسطة الملك لأن عيسى ليس بمكلم. و﴿عِيسَى﴾ اسم أعجمي معرّب فلذلك لا ينصرف، وهو بالسريانية - يسوع - عدلته العرب إلى عيسى.

واختلف المفسرون في هذا التوفي؛ فقال الربيع: هي وفاة نوم، رفعه الله في منامه، وقال الحسن وابن جريج ومطر الوارق ومحمد بن جعفر بن الزبير وجماعة من العلماء: المعنى: إني قابضك من الأرض ومحصلك في السماء فهو توفي قبض وتحصيل، وقال ابن عباس: هي وفاة موت، معناه: إني مميتك، هذا لفظ ابن عباس ولم يفسر. فقال وهب بن منبه: توفاه الله بالموت ثلاث ساعات ورفعته فيها ثم أحياه الله بعد ذلك عنده في السماء، وفي بعض الكتب: سبع ساعات.

وقال الفراء: هي وفاة موت ولكن المعنى: إني متوفيك في آخر أمرك عند نزولك وقتلك الدجال، ففي الكلام تقديم وتأخير، وقال مالك في جامع العتبية: مات عيسى وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة. ووقع في كتاب مكي عن قوم: إن معنى (مُتَوَفِّيكَ) متقبل عملك، وهذا ضعيف من جهة اللفظ.

وأجمعت الأمة على ما تضمنه الحديث المتواتر من أن عيسى عليه السلام في السماء حي، وأنه ينزل

في آخر الزمان فيقتل الخنزير ويكسر الصليب ويقتل الدجال ويفض العدل ويظهر هذه الملة، ملة محمد، ويحج البيت ويعتمر، ويبقى في الأرض أربعاً وعشرين سنة، وقيل أربعين سنة، ثم يمته الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقول ابن عباس رضي الله عنه: هي وفاة موت لا بد أن يتم، إما على قول وهب بن منبه، وإما على قول الفراء، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتُكَ إِلًا﴾ عبارة عن نقله إلى علو من سفلى، وقوله: ﴿إِلًا﴾ إضافة تشريف لما كانت سماه والجهة المكرومة المعظمة المرجوة، وإلا فمعلوم أن الله تعالى غير متحيز في جهة، وقوله تعالى: ﴿وَمَطَّهْرُكَ﴾ حقيقة التطهير إنما هي من دنس ونحوه، واستعمل ذلك في السب والدعاوى والآثام وخلطة الأشرار ومعاشرتهم، تشبيهاً لذلك كله بالأدناس، فظهر الله العظيم عيسى من دعاوى الكفرة ومعاشرتهم القبيحة له.

وقوله تعالى: ﴿وَيَا أَعْيُنَ﴾ اسم فاعل للاستقبال، وحذف تنوينه تخفيفاً، وهو متعد إلى مفعولين، لأنه بمعنى مُصَيِّرٍ، فأحدهما ﴿الَّذِينَ﴾، والآخر في قوله: ﴿قَوَّةَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وقال ابن زيد: الذين اتبعوه هم النصارى، والذين كفروا هم اليهود، والآية مخبرة عن إذلال اليهود وعقوبتهم بأن النصارى فوقهم في جميع أقطار الأرض إلى يوم القيامة. فخصص ابن زيد المتبعين والكافرين وجعله حكماً دنيوياً لا فضيلة فيه للمتبعين الكفار منهم بل

كونهم فوق اليهود عقوبة لليهود فقط، وقال جمهور المفسرين بعموم اللفظ في المتبعين، فيدخل في ذلك أمة محمد ﷺ لأنها متبعة لعيسى، نص على ذلك قتادة وغيره، وكذلك قالوا بعموم اللفظ في الكافرين.

فمقتضى الآية إعلام عيسى عليه السلام أن أهل الإيمان به كما يجب هم فوق الذين كفروا بالحجة والبرهان وبالعزة والغلبة، ويظهر من عبارة ابن جريج وغيره أن المراد المتبعون له في وقت استنصاره وهم الحواريون، جعلهم الله فوق الكافرين لأنه شرفهم وأبقى لهم في الصالحين ذكراً، فهم فوقهم بالحجة والبرهان، وما ظهر عليهم من أمارات رضوان الله.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِلًا مَّرْجُومًا﴾ الخطاب لعيسى، والمراد الإخبار بالقيامة والحشر، فلذلك جاء اللفظ عاماً من حيث الأمر في نفسه لا يخص عيسى وحده فكأنه قال له: ثم إلي - أي إلى حكمي وعدلي - يرجع الناس، فخاطبه كما تخاطب الجماعة إذ هو أحدها، وإذ هي مرادة في المعنى، وفي قوله تعالى: ﴿فَأَحْكُمُ﴾. . إلى آخر الآية، وعدّ لعيسى والمؤمنين ووعيد للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. . الآية، إخبار بما يجعل عليه حالهم من أول أمرهم، وليس بإخبار عما يفعل بعد يوم القيامة، لأنه قد ذكر الدنيا وهي قبل. وإنما المعنى: فأما الكافرون فالصنع بهم أنهم يعذبون عذاباً شديداً في الدنيا بالأسر والقتل والجزية والذل، ومن لم ينله منهم

فهو تحت خوفه إذ يعلم أن شرع الإسلام طالب له بذلك، وقد أبرز الوجود هذا. وفي الآخرة معناه: بعذاب النار، ثم ذكر قسم الإيمان وقرن به الأعمال الصالحات تنبيهاً على درجة الكمال ودعاء إليها.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿فَيُؤَيَّبُونَهُ﴾ بالياء على الغيبة، والفعل مسند إلى الله تعالى، وقرأ الباقر وأبو بكر عن عاصم: ﴿فَتُؤَيَّبُهُمْ﴾ بالنون، وهي نون العظمة. وتوفية الأجور هي قسم المنازل في الجنة فذلك هو بحسب الأعمال، وأما نفس دخول الجنة فبرحمة الله وبفضله. وتقدم نظير قوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ في قوله قبل: ﴿فَإِنْ قَوْلَا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾.

﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿ذَلِكَ﴾ رفع بالابتداء والإشارة به إلى ما تقدم من الأنبياء. و﴿نَتَلَّوْهُ عَلَيْكَ﴾ خبر ابتداء، وقوله: ﴿مِنَ الآيَاتِ﴾ لبيان الجنس، ويجوز أن تكون للتبويض، ويصح أن يكون: ﴿نَتَلَّوْهُ عَلَيْكَ﴾ حالاً، ويكون الخير في قوله: ﴿مِنَ الآيَاتِ﴾، وعلى قول الكوفيين يكون قوله: ﴿نَتَلَّوْهُ﴾ صلة لذلك، على حد قولهم في بيت ابن مفرغ الحميري:

.....
..... وهذا تحمليين طليق

ويكون الخبر في قوله: ﴿مِنَ الآيَاتِ﴾. وقول البصريين في البيت: إن «تحمليين» حال، التقدير: وهذا محمولاً. و﴿نَتَلَّوْهُ﴾ معناه: نسرده، و﴿مِنَ الآيَاتِ﴾ ظاهره آيات

القرآن، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿مِنَ الآيَاتِ﴾ مِنَ المعجزات والمستغريات أن تأتيهم بهذه الغيوب من قبلنا، ويسبب تلاوتنا وأنت أمي لا تقرأ. ولست ممن صحب أهل الكتاب. فالمعنى: إنها آيات لنبوتك. وهذا الاحتمال إنما يتمكن مع كون ﴿نَتَلَّوْهُ﴾ حالاً.

و﴿الَّذِينَ﴾ ما ينزل من عند الله و﴿الْحَكِيمِ﴾ يجوز أن يتأول بمعنى المُحكّم، وهو فعيل بمعنى مفعول، ويحتمل أن يتأول بمعنى مصرح بالحكمة، فيكون بناء اسم فاعل. قال ابن عباس: ﴿الَّذِينَ﴾: القرآن، و﴿الْحَكِيمِ﴾: الذي قد كمل في حكمته.

وذكر ابن عباس وقاتدة وعكرمة والسدي وغيرهم، قالوا: سبب نزول قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾... الآية أن وفد نصارى نجران جادلوا النبي ﷺ في أمر عيسى وقالوا: بلغنا أنك تشتم صاحبنا وتقول: هو عبد، فقال النبي ﷺ: «وما يضر ذلك عيسى، أجل هو عبد الله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه» فقالوا: فهل رأيت بشراً قط جاء من غير فحل أو سمعت به؟ وخرجوا من عند النبي فأنزل الله عليه هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ﴾: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى﴾: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ قالوا: معناه: صفة الجنة؛ وهذا عندي ضعف في فهم معنى الكلام، وإنما المعنى: إن المثل الذي تصوره النفوس والعقول من عيسى

هو كالمتصور من آدم، إذ الناس كلهم مجمعون على أن الله تعالى خلقه من تراب من غير فحل، وكذلك مثل الجنة عبارة عن المتصور منها، وفي هذه الآية صحة القياس، أي: إذا تصوّر أمر آدم قيس عليه جواز أمر عيسى عليه السلام. والكاف في قوله: ﴿كَثَلٌ﴾ اسم على ما ذكرناه من المعنى، وقوله: ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ عبارة عن الحق في نفسه، أي: هكذا هو الأمر فيما غاب عنكم. وقوله: ﴿خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ﴾ تفسير لمثل آدم الذي ينبغي أن يتصور، والمثل والمثال بمعنى واحد، ولا يجوز أن يكون ﴿خَلَقَهُ﴾ صلة لآدم ولا حالاً منه، قال الزجاج: إذ الماضي لا يكون حالاً أنت فيها بل هو كلام مقطوع منه، مضمته تفسير المثل.

وقوله عز وجل: ﴿ثُمَّ قَالَ﴾ ترتيب للأخبار لمحمد ﷺ، المعنى: خلفه من تراب ثم كان من أمره في الأزل أن قال له: كن وقت كذا، وعلى مذهب أبي علي الفارسي في أن القول مجازي مثل «وقال قطني» وأن هذه الآية عبارة عن التكوين، ف﴿ثم﴾ على بابها في ترتيب الأمرين المذكورين، وقراءة الجمهور: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالرفع على معنى: فهو يكون، وقرأ ابن عامر: ﴿فَيَكُونُ﴾ بالنصب، وهي قراءة ضعيفة الوجه، وقد تقدم توجيهها أنفاً في مخاطبة مريم.

وقوله تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ رفع على الابتداء وخبره فيما يتعلق به قوله: ﴿مِنَ رَبِّكَ﴾، أو الحق

ذلك، أو ما قلنا لك، ويجوز أن يكون خبر ابتداء، تقديره هذا الحق. ﴿وَالَّذِينَ﴾ هم الشاكون، والجرية: الشك. ونهي النبي ﷺ في عبارة اقتضت ذم الممتزين، وهذا يدل على أن المراد بالامتراء غيره، ولو قيل: فلا تكن ممترياً لكانت هذه الدلالة أقل، ولو قيل: فلا تمتر لكانت أقل، ونهي عليه السلام عن الامتراء مع بعده عنه على جهة التثبيت والدوام على حاله.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ حَاكَمَكَ فِيهِ﴾ معناه: جادلك ونازعك الحجة، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يعود على عيسى، ويحتمل أن يعود على الحق. و﴿الْعَلِيَّ﴾ الذي أشير إليه بالمجيء هو ما تضمنته هذه الآيات المتقدمة من أمر عيسى.

وقوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَمَّأَوْنَا﴾ الآية، استدعاء المباهلة، و﴿تَمَّأَوْنَا﴾ تفاعلوا من العلو، وهي كلمة قصد بها أولاً تحسين الأدب مع المدعو ثم اطردت حتى يقولها الإنسان لعدوه وللجهيمة ونحو ذلك. و﴿نَبَّهَلْ﴾ معناه: نلتعن، ويقال: عليهم بهلة الله بمعنى اللعنة، والابتهال: الجد في الدعاء بالبهلة.

وروي في قصص هذه الآية: أنها نزلت بسبب محاكمة نصارى نجران في عيسى عليه السلام وقولهم: هو الله، وكانوا يكثرون الجدل، وقد روى عبدالله بن الحارث بن جزء السوائي عن النبي عليه السلام أنه قال: «ليت بيني وبين أهل نجران حجاً فلا أراهم ولا يروني» لشدة ما

كانوا يمارون؛ فلما قرأ النبي ﷺ الآية دعاهم إلى ذلك. فروى الشعبي وغيره أنهم وعدوه بالغد أن يلاعوه، فانطلقوا إلى السيد والعاقب فتابعاهم على أن يلاعوا، فانطلقوا إلى رجل آخر منهم عاقل فذكروا له ما صنعوا فذمهم وقال لهم: إن كان نبياً ثم دعا عليكم هلكتم، وإن كان ملكاً فظهر عليكم لم يُبق عليكم، قالوا: فكيف نصنع وقد واعدنا؟ قال: إذا غدوتم فدعاكم إلى ذلك فاستعذوا بالله من ذلك، فعسى أن يعفيكم؛ فلما كان الغد غدا رسول الله ﷺ محتضناً حسيناً أخذاً بيد الحسن، وفاطمة تمشي خلفه، فدعاهم إلى الميعاد، فقالوا: نعوذ بالله، فأعاد فأعادوا التعموذ، فقال النبي ﷺ: «فإن أبيتم فأسلموا، فإن أبيتم فأعطوا الجزية عن يد وأنتم صافرون، فإن أبيتم فإني أبذ إليكم على سواء» قالوا: لا طاقة لنا بحرب العرب، ولكننا نؤدي الجزية. قال: فجعل عليهم كل سنة ألفي حلة: ألفاً في رجب وألفاً في صفر، وطلبوا منه رجلاً أميناً يحكم بينهم فبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح، وقال عليه السلام: «لقد أتاني البشير بهلكة أهل نجران لو تموا على الملاءنة». وروى محمد بن جعفر بن الزبير وغيره أن رسول الله ﷺ لما دعاهم قالوا: دعنا ننظر في أمرنا ثم نأتيك بما نفعل، فذهبوا إلى العاقب وهو ذو رأيهم فقالوا: يا عبد المسيح ما ترى؟ فقال: يا معشر النصارى، والله لقد عرفتم أن محمداً لنبى مرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر

صاحبكم عيسى، ولقد علمتم ما لأعن قوم قط نبياً فبقي كبيرهم، ولا نبت صغيرهم، وإنه الاستئصال إن فعلتم، فإن أبيتم إلا إلف دينكم وما أنتم عليه من القول في صاحبكم فوادعوا الرجل وانصرفوا إلى بلادكم حتى يريكم الزمان رأيه. فأتوا النبي عليه السلام فقالوا: يا أبا القاسم، قد رأينا ألا نلاعنك وأن نبقي على ديننا، وصالحوه على أموال وقالوا له: ابعث معنا رجلاً من أصحابك ترضاه لنا يحكم في أشياء قد اختلفنا فيها من أموالنا فإنكم عندنا رضى. وروى السدي وغيره أن النبي عليه السلام جاء هو وعلي وفاطمة والحسن والحسين ودعاهم فأبوا وجزعوا، وقال لهم أحبارهم: إن فعلتم اضطرم الوادي عليكم ناراً، فصالحوا النبي ﷺ على ثمانين ألف درهم في العام، فما عجزت عنه الدراهم ففي العروض: الحلة بأربعين، وعلى أن عليهم ثلاثاً وثلاثين درعاً وثلاثة وثلاثين بعبيراً وأربعاً وثلاثين فرساً عارية كل سنة، ورسول الله ﷺ ضامن لذلك حتى يؤديها إليهم. وقال رسول الله ﷺ: «لو لواعنوا لاستؤصلوا من جديد الأرض»، وقال أيضاً: «لو فعلوا لاضطرم عليهم الوادي ناراً». وروى علباء بن أحمر الشكري قال: لما نزلت هذه الآية أرسل محمد ﷺ إلى علي وفاطمة وابنيهما الحسن والحسين ودعا اليهود ليلاعنهم، فقال شاب من اليهود: ويحكم، أليس عهدكم بالأمس بإخوانكم الذين مسخوا قردة وخنازير؟ فلا

تلاعنا فانتهاوا. وفي هذه القصة اختلافات للرواة وعبارات تجري كلها في معنى ما ذكرناه لكننا قصدنا الإيجاز.

وفي ترك النصارى الملاعة لعلمهم بنبوة محمد شاهد عظيم على صحة نبوته ﷺ، وما روي من ذلك خير مما روى الشعبي من تقسيم ذلك الرجل العاقل فيهم أمر محمد بأنه إما نبي وإما ملك، لأن هذا نظر دنيابي، وما روى الرواة من أنهم تركوا الملاعة لعلمهم بنبوته أحج لنا على سائر الكفرة وأليق بحال محمد ﷺ. ودعاء النساء والأبناء للملاعة أهز للنفس، وأدعى لرحمة الله، أو لغضبه على المبطلين. وظاهر الأمر أن النبي ﷺ جاءهم بما يخصه، ولو عزموا استدعى المؤمنين بأبنائهم ونسائهم، ويحتمل أنه كان يكتفي بنفسه وخاصته فقط.

٦٢ - ٦٤ - تفسير قوله عز وجل:

هذا خبر من الله تعالى جَزْمٌ مَوْكَّدٌ فَصَّلَ به بين المختصين، والإشارة بـ «هذا» هي إلى ما تقدّم في أمر عيسى عليه السلام، قاله ابن عباس وابن جريج وابن زيد وغيرهم.

و«الْقَمَصُ» معناه: الإخبار، تقول: قص يقص قصاً وقصصاً، إذا تتبع الأمر يخبر به شيئاً بعد شيء، قال قوم: هو مأخوذ من: قص الأثر. وقوله: «لَمْؤٌ» يحتمل أن يكون فصلاً ويحتمل أن يكون ابتداءً، و«من» في قوله: «وَمِنَ اللَّهِ» مؤكدة بعد النفي، وهي التي يتم الكلام دونها لكنها تعطي معنى

التأكيد، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفِيدِينَ﴾ وعيد.

واختلف المفسرون؛ من المراد بقوله: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَارًا؟﴾ فقال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ دعا يهود المدينة إلى الكلمة السواء، وهم الذين حاجوا في إبراهيم، وقال الربيع وابن جريج، وقال محمد بن جعفر بن الزبير: نزلت الآية في وفد نجران، وقاله السدي.

وقال ابن زيد: لما أبى أهل نجران ما دُعوا إليه من الملاعة، دعوا إلى أيسر من ذلك، وهي الكلمة السواء.

والذي يظهر لي أن الآية نزلت في وفد نجران، لكن لفظ أهل الكتاب يعمهم وسواهم من النصارى واليهود، فدعا النبي ﷺ بعد ذلك يهود المدينة بالآية، وكذلك كتب بها إلى هرقل عظيم الروم، وكذلك ينبغي أن يدعى بها أهل الكتاب إلى يوم القيامة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنْ كَلِمَةٌ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام، وروى أبو السمال: ﴿كَلِمَةٌ﴾ - بفتح الكاف وسكون اللام.. وروي عنه أنه قرأ: ﴿كَلِمَةٌ﴾ - بكسر الكاف وسكون اللام - وذلك على إلقاء حركة اللام على الكاف، كما قالوا في كَبِدٍ: كَبَدٌ بكسر الكاف وسكون

إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِن تَرْزِيقٍ الْحَكِيمِ ﴿٦٢﴾ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفِيدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَمَارًا إِنَّ إِلَهُنَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُكُمْ إِلَهُنَا وَلَا تَجِدُ لَتَأْتِيَ رَبَّكَ يَوْمَ تَأْتِي سَائِرًا وَلَا تَتَّخِذَ بَعْضُنَا مَثَلًا لِّبَعْضِنَا إِنَّ اللَّهَ فَاعِلُ كُلِّ أَمْرٍ ﴿٦٤﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِن بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَذَا نُمُّهُ هُوَ الَّذِي حَاجَجْتُمْ فِيهِمَا لَكُمْ يَوْمَ عِلْمٍ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيهِمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ يَسْمَعُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ لِإِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُدْعَى لِلدِّينِ الْحَنِيفِ وَهَذَا الدِّينُ الَّذِي كَفَرْنَا بِهِ وَأَلَّهُ فِيهِ يُدْعَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَسْعُرُونَ ﴿٦٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَسْهَدُونَ ﴿٧٠﴾

الباء. والكلمة هنا عبارة عن الألفاظ التي تتضمن المعاني المدعو إليها، وهي ما فسرنا بعد ذلك بقوله: ﴿أَلَّا تَسْبُدُ﴾... الآية، وهذا كما تسمي العرب القصيدة كلمة، وجمهور المفسرين على أن الكلمة هي ما فسرنا بعد، وقال أبو العالية: الكلمة السواء: لا إله إلا الله، والقولان مجتمعان، لأن كل ما فسر ينطبق عليه معنى: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾ نعت للكلمة. قال قتادة والربيع وغيرهما: معناه: إلى كلمة عدل، فهذا معنى السواء، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿إلى كلمة عدل بيننا وبينكم﴾ كما فسر قتادة والربيع، وقال بعض المفسرين: معناه: إلى كلمة قصد. وهذا قريب في المعنى من الأول، والسواء والعدل والقصد

مصادر وُصِفَ بها في هذه التقديرات كلها.

والذي أقوله في لفظه ﴿سَوَاءٌ﴾ أنها ينبغي أن تفسر بتفسير خاص بها في هذا الموضع، وهو أنه دعاهم إلى معانٍ جميع الناس فيها مستورون، صغيرهم وكبيرهم. وقد كانت سيرة المدعويين أن يتخذ بعضهم بعضاً أرباباً فلم يكونوا على استواءٍ حال، فدعاهم بهذه الآية إلى ما تألفه النفوس من حق لا يتفاضل الناس فيه، فسواء - على هذا التأويل - بمنزلة قولك لآخر: هذا شريك في مال سواء بيني وبينه؛ والفرق بين هذا التفسير وبين تفسير اللفظة بعدل، أنك لو دعوت أسيراً عندك إلى أن يسلم أو تضرب عنقه، لكنك قد دعوته إلى السواء الذي هو العدل، وعلى هذا الحد جاءت لفظه ﴿سَوَاءٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿فَأَيُّدٌ لِأَيِّهِمْ عَلَى سَوَاءٍ﴾ على بعض التأويلات، ولو دعوت أسيرك إلى أن يؤمن فيكون حراً مقاسماً لك في عيشك، لكنك قد دعوته إلى السواء الذي هو استواء الحال على ما فسرتة. واللفظة على كل تأويل فيها معنى العدل، ولكني لم أزل متقدماً أن يكون في اللفظة معنى قصد استواء الحال، وهو عندي حسن، لأن النفوس تألفه، والله الموفق للصواب برحمته.

وقوله: ﴿أَلَا تَتَّبِعُونَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع خفض بمعنى: إلى ألا تعبد، فذلك على البدل من ﴿كَلِمَةً﴾، ويحتمل أن يكون في موضع رفع بمعنى: هي ألا تعبد،

وما ذكره المهدي وغيره من أن تكون مفسرة إلى غير ذلك من الجائزات التي يلزم عنها رفع ﴿تَعْبُدُونَ﴾ إكثاراً منهم فاختصرته. واتخاذ بعضهم بعضاً أرباباً هو على مراتب، أعلاها اعتقادهم فيهم الألوهية، وعبادتهم لهم على ذلك، كعزير وعيسى ابن مريم، وبهذا فسر عكرمة، وأدنى ذلك طاعتهم لأساقفتهم ورؤسائهم في كل ما أمروا به من الكفر والمعاصي والتزامهم طاعتهم شرعاً، وبهذا فسر ابن جريج. فجاءت الآية بالدعاء إلى ترك ذلك كله، وأن يكون الممثل ما قاله الله تعالى على لسان نبيه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَقُولُوا أَشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ أمر بالإعلان بمخالفتهم ومواجهتهم بذلك، وإشهادهم على معنى التويخ والتهديد، أي: سترون أنتم أيها المتولون عاقبة توليكم كيف تكون.

١٥٩ - ١٦٠ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المفسرون فيمن نزلت هذه الآية؛ فقال ابن عباس: اجتمعت نصارى نجران وأخبار يهود عند النبي عليه السلام فتنازعوا عنده فقالت الأخبار: ما كان إبراهيم إلا يهودياً، وقالت النصارى: ما كان إبراهيم إلا نصرانياً، فأنزل الله الآية. وقال السدي وقتادة، وحكى الطبري عن مجاهد وقتادة أيضاً أنهما قالا: نزلت الآية بسبب دعوى اليهود أنه منهم وأنه مات يهودياً، وجعل هذا القول تحت ترجمة مفردة له.

والصحيح أن جميع المتأولين إنما نحووا منحى واحداً، وأن الآية في اليهود والنصارى؛ وألفاظ الآية تعطي ذلك، فكيف يدافع أحد أحد الفريقين عن ذلك؟ وهذه الآية مبينة فساد هذه الدعاوى التي لا تشبه لقيام الدليل القاطع على فسادها، لأنهم ادعوا لإبراهيم الخليل نحللاً لم تحدث في الأرض، ولا وجدت إلا بعد موته بمدة طويلة، ولما كان الدليل عقلياً قال الله تعالى لهم موبخاً: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟﴾

واختلف القراء في قوله: ﴿هَآئِئْتُمْ﴾ في المد والهمز وتركه، فقرأ ابن كثير: ﴿هَآئِئْتُمْ﴾ في وزن هعنتم، وقرأ نافع وأبو عمرو: ﴿هائتم﴾؟ استفهاماً بلا همز، وقرأ الباقون: ﴿ها أنتم﴾ ممدوداً مهموزاً، ولم يختلفوا في مد ﴿هَآئِئْتُمْ﴾ و﴿أُولَآئِكَ﴾. فوجه قراءة ابن كثير أنه أبدل من همزة الاستفهام الهاء، أراد: أنتم، ووجه قراءة نافع وأبي عمرو أحد أمرين، يجوز أن تكون - ها - التي للتنبيه دخلت على - أنتم - ويكون التنبيه داخلاً على الجملة، كما دخل على قولهم: هلم، وكما دخلت «يا» التي للتنبيه في قوله: ﴿أَلَا يَا سَجْدُوا﴾، وفي قول الشاعر:

يا قاتل الله صبياناً تجيء بهم
أم الهندي من زندي لها واري
وقول الآخر:

يا لعنة الله والأقوام كلهم
والصالحين على سماعاً من جارٍ
وخففت الهمزة من ﴿أَنْتُمْ﴾ ولم

تحقق بعد الألف، كما قالوا في هبأة: هبأة، ويجوز أن تكون الهاء في ﴿هَبَأْتُمْ﴾ بدلاً من همزة الاستفهام، كوجه قراءة ابن كثير، وتكون الألف هي التي تدخل بين الهمزتين، لتفصل بينهما. ووجه قراءة الباقيين ﴿هَبَأْتُمْ﴾ مهموزاً ممدوداً يحتمل الوجهين اللذين في قراءة نافع وأبي عمرو، وحققوا الهمزة التي بعد الألف، ولم يخففوها كما خففها أبو عمرو ونافع، ومن لم يرَ إلحاق الألف للفصل بين الهمزتين كما يراه أبو عمرو، فينبغي أن تكون ﴿هَبَأَ﴾ في قوله للتنبية ولا تكون بدلاً من همزة الاستفهام، وأما ﴿هَبَأْتُمْ﴾ ففيه لغتان، المد والقصر، وقد جمعهما بيت الأعشى في بعض الروايات:

هؤلاء ثم هؤلاء قد أعطيت
ثُ نعالاً محذوةً بنعال
وأما إعراب: ﴿هَبَأْتُمْ هَبَأْتُمْ﴾ فابتداء وخبر، و﴿حَبَجْتُمْ﴾ في موضع حال لا يستغنى عنها، وهي بمنزلة قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ هَبَأْتُمْ تَقْتُلُونَ﴾. ويحتمل أن يكون ﴿هَبَأْتُمْ﴾ بدلاً أو صفة ويكون الخبر ﴿حَبَجْتُمْ﴾، وعلى مذهب الكوفيين ﴿حَبَجْتُمْ﴾ صلة لهؤلاء، والخبر في قوله: ﴿فَلِمَ تَمَاجُرُونَ﴾.

ومعنى قوله تعالى: ﴿فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي على زعمكم، وإنما المعنى فيما تُشَبِّه فيه دعواكم، ويكون الدليل العقلي لا يرد عليكم، وفسر الطبري هذا الموضع بأنه فيما لهم به علم من جهة كتبهم وأبائهم

مما أيقنوه وثبت عندهم صحته؛ وذهب عنه رحمه الله أن ما كان هكذا فلا يحتاج معهم فيه إلى محاكاة، لأنهم يجدونه عند محمد ﷺ، كما كان هنالك على حقيقته، وباقى الآية بين:

﴿٦٧﴾ - ﴿٦٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى في هذه الآية عن حقيقة أمر إبراهيم، فنفى عنه اليهودية والنصرانية والإشراك الذي هو عبادة الأوثان، ودخل في ذلك الإشراك الذي تتضمنه اليهودية والنصرانية. وجاء ترتيب النفي على غاية الفصاحة: نفى نفس الليل وقوَّز الحالة الحسنة، ثم نفى نفياً بين به أن تلك الملل فيها هذا الفساد الذي هو الشرك، وهذا كما تقول: ما أخذت لك مالا بل حفظته، وما كنت سارقاً، فنفيت أقبح ما يكون في الأخذ.

ثم أخبر تعالى إخباراً مؤكداً أن أولى الناس بإبراهيم الخليل عليه السلام هم القوم الذين اتبعوه على ملته الحنيفية؛ وهنا يدخل كل من اتبع الحنيفية في الفترات وهذا النبي محمد ﷺ، لأنه بعث بالحنيفية السمحة، و﴿النَّبِيِّ﴾ في الإعراب نعت، أو عطف بيان، أو بدل، وفي كونه بدلاً نظير. ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ يعني بمحمد ﷺ وسائر الأنبياء على ما يجب دون المحرزين المبدلين. ثم أخبر أن الله تعالى ﴿وَرَبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ وعداً منه لهم بالنصر في الدنيا والنعيم في الآخرة.

والحنيف مأخوذ من الحنف، وهو

الاستقامة، وقيل: هو الميل، ومنه قيل للمائل الرجل: أحنف، فالحنيف من الاستقامة معناه: المستقيم، ومن الميل معناه: المائل عن معوج الأديان إلى طريق الحق. واختلفت عبارة المفسرين عن لفظة الحنيف حتى قال بعضهم: الحنيف: الحاج، وكلها عبارة عن الحنف بأجزاء منه كالحج وغيره. وأسند الطبري عن عبدالله بن عمر عن أبيه، أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود، فسأله عن دينه، وقال له: إني أريد أن أكون على دينكم، فقال اليهودي: إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ نصيبك من غضب الله، قال زيد: ما أفرُّ إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا؟ قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم، لم يكن يهودياً ولا نصرانياً وكان لا يعبد إلا الله. فخرج من عنده فلقي عالماً من النصارى فقاوله بمثل مقابلة اليهودي، إلا أن النصراني قال: بنصيبك من لعنة الله، فخرج من عنده وقد اتفقا له على دين إبراهيم فلم يزل رافعاً يديه إلى الله، وقال: اللهم إني أشهدك أنني على دين إبراهيم، وروى عبدالله بن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿لكل نبيء ولاة من النبيين وإن وليي منهم أبي وخلييل ربي إبراهيم﴾ ثم قرأ ﴿وَإِذْ آتَيْنَا ابْرَاهِيمَ...﴾ الآية.

مكي: وقيل: إن هذه الآيات عني بها قريظة والنضير وبنو قينقاع ونصارى نجران.

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ﴾ معناه: تخلطون، تقول: لَبِست الأمر - بفتح الباء - بمعنى خلطته، ومنه

قوله تعالى: ﴿وَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلِيْسُونَ﴾ وتقول: لَبِست الثوب - بكسر الباء. قال ابن زيد: الحق

الذي لبسوه هو التوراة المنزلة، والباطل الذي لبسوه به هو ما كتبه

ابن عباس: الحق إسلامهم بكرة، والباطل كفرهم عشية؛ والآية نزلت في قول عبدالله بن الصيـف

وعدي بن زيد والحارث بن عوف: تعالوا نؤمن بما أنزل على محمد

وجه النهار، ونكفر آخره، عسى أن نلبس على المسلمين أمرهم. وقال

قتادة وابن جريج: ﴿لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ﴾ لَمْ تخلطون اليهودية

والنصرانية بالإسلام، وقد علمتم أن دين الله الذي لا يقبل غيره الإسلام؟

فكأن المعنى على هذا: لَمْ تبقون على هذه الأديان وتوجدونها فيكون في ذلك لبس على الناس أجمعين؟

قال بعض المفسرين: الحق الذي لبسوه قولهم: محمد نبي مرسل، والباطل الذي لبسوه به قول

أخبارهم: لكن ليس إلينا، بل ملء موسى مؤنثة.

باللغة، وإنما اطرده لأن هذا الضلال في الآية وفي البيتين اقترون به هلاك، وأما أن تفسر لفظة الضلال بالهلاك فغير قويم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعْلِمُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ إعلام بأن سوء فعلهم عائد

عليهم، وأنهم يبعدهم عن الإسلام هم الضالون، ثم

أعلم أنهم لا يشعرون بذلك، أي لا يتفطنون، مأخوذ من الشعار المأخوذ

من الشعر، وقيل: المعنى: لا يشعرون أنهم لا يصلون إلى إضلالكم.

ثم وقفهم تعالى موبخاً لهم على لسان نبيه ﷺ، والمعنى: قل لهم يا محمد: لأي سبب تكفرون

بآيات الله التي هي آيات القرآن؛ وأنتم تشهدون أن أمره وصفة محمد

الذي هو الآتي به في كتابكم؟ قال هذا المعنى قتادة وابن جريج

والسدي. وتحتمل الآية أن يريد بالآيات ما ظهر على يدي محمد

عليه السلام من تعجيز العرب والإعلام بالغيوب وتكلم الجمادات

وغير ذلك؛ و﴿سَهَّدُونَ﴾ - على هذا - تكون بمعنى تحضرون وتعاينون. والتأويل الأول أقوى لأنه روي أن أهل الكتاب كانوا قبل ظهور محمد ﷺ يخبرون بصفة النبي الخارج وحاله، فلما ظهر كفروا به حسداً، فإخبارهم المتقدم لظهوره هو الشهادة التي وقفوا عليها. قال

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَتَّاهِلُ الْكُتَيْبُ لِمَ تَلِيْسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَقَاتَ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكُتَيْبِ ءَامِنُوا بِالَّذِي أُنزِلَ عَلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَجَهَ النَّهَارَ وَكَفَرُوا آخِرَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٠﴾ وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ وَبِتَكْرُفٍ إِنَّ الْهُدَىٰ هَدَىٰ اللَّهُ أَنْ يُؤَفِّقَ أَحَدًا مِّثْلَ مَا أُوْتِيتُمْ وَأَبْجَاؤُكُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ قُلْ إِنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧١﴾ يَخْضُ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٧٢﴾ وَمِنَ أَهْلِ الْكُتَيْبِ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ بِقِطَارٍ يُؤَدُّ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَن إِنْ تَأَمَّنْهُ يَدِينَارٍ لَا يُؤَدُّ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دَمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمُوسِ سَكِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٣﴾ لَيْلٍ مِّنْ أَوْفٍ يَعْتَدُوهُ وَأَتَقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ ﴿٧٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَشْكُرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ تُمَنَّا قَلِيلًا أُولَٰئِكَ لَا خَلْقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٥﴾

٦٩ - ٧١ تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى عن طائفة أنها تود وتشتهي أن تفضل المسلمين، أي تتلفهم في دينهم وتجعلهم في ضلال، ثم فسّر الطائفة بقوله: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكُتَيْبِ﴾ فيحتمل «مِن» أن تكون للتبعيض، وتكون الطائفة الرؤساء والأخبار الذين يسكن الناس إلى قولهم، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس وتكون الطائفة جميع أهل الكتاب.

وقال الطبري: ﴿يُمَلِّكُكُمْ﴾ معناه: يهلكونكم، واستشهد بيت جرير:

كنت القذى في موج أخضر مُزِيد
قذفت الأتي به فضل ضلالا
وقول النابغة:

فأب مُضْلُوهُ بعين جلية... البيت
وهذا تفسير غير خاص

قال أبو إسحاق الزجاج: ولو قيل: «وتكتموا الحق» لجاز على قولك: لم تجمعوا ذا وذا؟ على أن «تكتموا» في موضع نصب على الظرف في قول الكوفيين، وبإضمار «أن» في قول أصحابنا. قال أبو علي: الظرف هاهنا يقيح، وكذلك إضمار «أن» لأن «وتكتمون» معطوف على موجب مقرر، وليس بمستفهم عنه، وإنما استفهم عن السبب في اللبس، واللبس موجب فليست الآية بمنزلة قولهم: أتناكل السمك وتشرب اللبن؟ وبمنزلة قولك: أتقوم فأقوم؟ والعطف على الموجب المقرر قبيح متى نصب، إلا في ضرورة شعر كما روي:

.....
والحق بالحجاز فاستريحا
وقد قال سيويه في قولك: أسرت حتى تدخل المدينة؟ لا يجوز إلا النصب في «تدخل» لأن السير مستفهم عنه غير موجب، وإذا قلت: أيهم سار حتى يدخلها؟ رفعت، لأن السير موجب والاستفهام إنما وقع عن غيره.

(٧٢) - (٧٣) تفسير قوله عز وجل:

أخبر تعالى في هذه الآية أن طائفة من اليهود من أحبارهم ذهبت إلى خديعة المسلمين بهذا المنزع، قال الحسن: قالت ذلك يهود خيبر ليهود المدينة، قال قتادة وأبو مالك والسدي وغيرهم: قال بعض الأحبار: لِيُظْهِرَ الْإِيمَانَ لِمُحَمَّدٍ صَدَرَ النَّهَارِ ثُمَّ لِنَكْفِرُ بِهِ آخِرَ النَّهَارِ، فسيقول المسلمون عند ذلك: ما بال هؤلاء كانوا معنا ثم انصرفوا عنا؟ ما

ذلك إلا لأنهم انكشفت لهم حقيقة في الأمر فيشكون، ولعلمهم يرجعون عن الإيمان بمحمد ﷺ. ولما كانت الأحبار يُظنُّ بهم العلم وجودة النظر والاطلاع على الكتاب القديم، طمعوا أن تنخدع العرب بهذه النزعة ففعلوا ذلك: جاؤوا إلى النبي ﷺ بكرة فقالوا: يا محمد أنت هو الموصوف في كتابنا، ولكن أمهلنا إلى العشي حتى ننظر في أمرنا، ثم رجعوا بالعشي فقالوا: قد نظرنا ولست به.

«وَجِبَةَ» على هذا التأويل منصوب بقوله: «أَسْرُوا» والمعنى: أظهروا الإيمان في وجه النهار، والضمير في قوله: «آخِرُهُ» عائد على النهار.

وقال ابن عباس ومجاهد وغيرهما: نزلت الآية لأن اليهود ذهبت إلى المكر بالمؤمنين، فصلوا مع النبي ﷺ صلاة الصبح، ثم رجعوا آخر النهار فصلوا صلاتهم ليرى الناس أنهم بدت لهم منه ضلالة بعد أن كانوا اتبعوه. وهذا القول قريب من القول الأول.

وقال جماعة من المفسرين: نزلت هذه الآية في أمر القبلة، وذلك أن رسول الله ﷺ صلى صلاة الصبح إلى الشام كما كان يصلي، ثم حوَّلت القبلة فصلى الظهر - وقيل العصر - إلى مكة، فقالت الأحبار لتباعهم وللعرب: آمنوا بالذي أنزل في أول النهار واكفروا بهذه القبلة الأخيرة.

والعامل في قوله: «وَجِبَةَ النَّهَارِ» - على هذا التأويل - قوله: «أَنْزَلَ»، والضمير في قوله: «آخِرُهُ» يحتمل

أن يعود على النهار أو يعود على «الَّذِي أَنْزَلَ». و«يَرْجِعُونَ» - فسي هذا التأويل - معناه: عن مكة إلى قبلتنا التي هي الشام، كذلك قال قائل هذا التأويل. و«وَجِبَةَ النَّهَارِ» أوله الذي يواجه منه، تشبيهاً بوجه الإنسان، وكذلك تقول: صدر النهار وغرة العام والشهر، ومنه قول النبي عليه السلام: «أَقْبَلْتَهُ فِي غُرَّةِ الْإِسْلَامِ»؟ ومن هذا قول الربيع بن زياد العبسي:

مَنْ كَانَ مَسْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ
فَلِيَاثَ يَسْتَوْتَنَا بِوَجْهِ نَهَارٍ
يَجِدُ النِّسَاءَ حَوَاسِرًا يَنْدِبْنَهُ
قَدْ قَمْنَنَ قَبْلَ تَبْلُجِ الْأَسْحَارِ
يقول هذا في مالك بن زهير بن جذيمة العبسي وكانوا قد أخذوا بشأره، وكان القتل عندهم لا يناخ عليه ولا يندب إلا بعد أخذ ثاره. فالمعنى: مَنْ سَرَّهُ مَصَابِنَا فِيهِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى مَا يَدُلُّهُ عَلَيَّ أَنَا قَدْ أَدْرَكْنَا ثَارَهُ، فيكمد لذلك ويغتم، ومن استعارة الوجه قولهم: فعلت كذا على وجه الدهر، أي في القديم.

وذكر الله تعالى عن هذه الطائفة من أهل الكتاب أنهم قالوا: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ يَنْبَغُ» ولا خلاف بين أهل التأويل أن هذا القول هو من كلام الطائفة.

واختلف الناس في قوله تعالى: «أَنْ يُؤْتِكَ أَحَدٌ يَثَلَّ مَا أَوْيْتُمْ أَوْ يَمَّاكُرُوا» - فقال مجاهد وغيره من أهل التأويل: الكلام كله من قول الطائفة لأتباعهم، وقوله تعالى: «قُلْ إِنَّ أَوْلَىٰ لَكَ بِذُنُوبِكُمْ هٰذِهِ الْأُمَّةُ الَّتِي كَفَرُوا» اعتراض بين الكلامين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والكلام على هذا التأويل يحتمل معاني أحدها: ولا تصدقوا تصديقاً صحيحاً وتؤمنوا إلا لمن جاء بمثل دينكم كراهة أو مخافة أو حذاراً أن يؤتى أحدٌ من النبوة والكرامة مثل ما أوتيتم، وحذاراً أن يحاجوكم بتصديقهم إياهم عند ربكم إذا لم تستمروا عليه. وهذا القول على هذا المعنى ثمره الحسد والكفر، مع المعرفة بصحة نبوة محمد ﷺ.

ويحتمل أن يكون التقدير، «ألا يُؤتى» فحذفت «لا» لدلالة الكلام، ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ولا تصدقوا وتؤمنوا بأن يؤتى أحدٌ مثل ما أوتيتم إلا لمن تبع دينكم وجاء بمثله وعاضداً له، فإن ذلك لا يؤتاه غيركم، ﴿أَوْ بِمَا جُؤِرَ عِنْدَ رَبِّكُمْ﴾ بمعنى: إلا أن يحاجوكم، كما تقول: أنا لا أتركك أو تقتضيني حقي. وهذا القول على هذا المعنى ثمره التكذيب بمحمد ﷺ على اعتقاد منهم أن النبوة لا تكون إلا في بني إسرائيل.

ويحتمل الكلام أن يكون معناه: ولا تؤمنوا بمحمد وتقرؤا بنبوته إذ قد علمتم صحتها إلا لليهود الذين هم منكم، ﴿أَنْ يُؤَفَّفَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مَّا أُوتِيتُمْ﴾ صفة لحال محمد، فالمعنى: تستروا بإقراركم أن قد أوتي أحدٌ مثل ما أوتيتم، أو فإنهم - يعنون العرب - يحاجوكم بالإقرار عند ربكم.

قال أبو علي: و﴿تُؤْمِنُونَ﴾ تعدى بالباء المقدره في قوله: ﴿أَنْ يُؤَفَّفَ﴾ كما تعدى أول الآية في قوله:

﴿بِالَّذِي أُنزِلَ﴾. واللام في قوله: ﴿لِمَنْ تَبِعَ﴾ لا يسهل أن تعلق ب﴿تُؤْمِنُونَ﴾ وأنت قد أوصلته بالباء فتعلقت بالفعل جازين، كما لا يستقيم أن تعديه إلى مفعولين إذا كان لا يتعدى إلا إلى واحد. وإنما يحمل أمر هذه اللام على المعنى، والمعنى: لا تقرؤا بأن الله يؤتي أحداً مثل ما أوتيتم إلا لمن، فهذا كما تقول: أقررت لزيد بألف، فتكون اللام متعلقة بالمعنى ولا تكون زائدة على حدّ ﴿إِنْ كُنْتُمْ لِلرِّيَاسَةِ قَاسِرِينَ﴾ ولا تعلق على حد المفعول. قال أبو علي: وقد تعدى ﴿ءَأَمِنَ﴾ باللام في قوله: ﴿فَمَا ءَأَمِنَ لِيَوْمِئِذٍ إِلاَّ ذُرِّيَّتَهُ﴾ وقوله: ﴿ءَأَمِنْتُمْ لَكُمْ﴾ وقوله: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾. و﴿أَحَدٌ﴾ إنما دخل في هذا الكلام بسبب النفي الواقع في قوله: ﴿وَلَا تُؤْمِنُونَ﴾ كما دخلت «من» في قوله: ﴿مَّا يَبُودُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَاللَّاتُكِّينَ﴾ أن يُنزلَ عليكم من خيرٍ من ربكم، فكما دخلت «من» في صلة ﴿أَنْ يُنْزَلَ﴾ لأنه مفعول النفي اللاحق لأول الكلام، فكذلك دخل ﴿أَحَدٌ﴾ في صلة ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿أَنْ يُؤَفَّفَ أَحَدٌ﴾ لدخول النفي في أول الكلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لأن أحداً الذي فيه الشياخ لا يجيء في واجب من الكلام، لأنه لا يفيد معنى.

وقرأ ابن كثير وحده بين السبعة: ﴿أَنْ يُؤْتَى﴾ بالمد على جهة الاستفهام الذي هو تقرير. وفسر أبو

علي قراءة ابن كثير على أن الكلام كله من قول الطائفة، إلا الاعتراض الذي هو: ﴿قُلْ إِنْ أَهْبَكْتُ هُدَى اللَّهِ فَإِنَّهُ لا يَخْتَلِفُ أَنَّهُ من قول الله تعالى لمحمد ﷺ قال: فلا يجوز مع الاستفهام أن يحمل: ﴿أَنْ يُؤَفَّفَ﴾ على ما قبله من الفعل، لأن الاستفهام قاطع، فيجوز أن تكون ﴿أَنْ﴾ في موضع رفع بالابتداء، وخبره محذوف تقديره: تصدقون به أو تعترفون أو تذكرونه لغيركم، ونحو هذا مما يدل عليه الكلام، ويكون ﴿بِمَا جُؤِرَ﴾ - على هذا - معطوفاً على ﴿أَنْ يُؤَفَّفَ﴾. قال أبو علي: ويجوز أن يكون موضع «أن» منصوباً، فيكون المعنى: أتشيعون أو أتذكرون ﴿أَنْ يُؤَفَّفَ أَحَدٌ مِّنْكُمْ مَّا أُوتِيتُمْ﴾ ويكون ذلك بمعنى قوله تعالى عنهم: ﴿أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾، فعلى كلا الوجهين معنى الآية توبيخ من الأخبار للاتباع على تصديقهم بأن محمداً نبي مبعوث، ويكون قوله تعالى: ﴿أَوْ بِمَا جُؤِرَ﴾ في تأويل نصب ﴿أَنْ﴾ أي: أو تريدون أن يحاجوكم؟ قال أبو علي: و﴿أَحَدٌ﴾ على قراءة ابن كثير هو الذي يدل على الكثرة، وقد منع الاستفهام القاطع من أن يشفع لدخوله النفي الذي في أول الكلام، فلم يبق إلا أن يقدر أنه «أحد» الذي في قولك: «أحد وعشرون»، وهو يقع في الإيجاب لأنه بمعنى واحد، وجمع ضميره في قوله: ﴿أَوْ بِمَا جُؤِرَ﴾ جمعاً على المعنى، إذ لـ﴿أَحَدٌ﴾ المراد بمثل النبوة أتباع، فهو في معنى الكثرة. قال أبو علي:

وهذا موضع ينبغي أن ترجح فيه قراءة غير ابن كثير على قراءة ابن كثير، لأن الأسماء المفردة ليس بالمستمر أن تدل على الكثرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا أن «أحدا» في مثل النبوة يدل عليها من حيث يقتضي الأتياع.

وقرأ الأعمش وشعيب بن أبي حمزة: «إِنْ يُؤْتَى» بكسر الهمزة بمعنى: لم يعط أحد مثل ما أعطيت من الكرامة، وهذه القراءة يحتمل أن يكون الكلام خطاباً من الطائفة القائلة، ويكون قولها: «أَوْ بِمَا جُرِّدَ» بمعنى: أو فليحاجوكم. وهذا على التصميم على أنه لا يؤتى أحد مثل ما أوتي، ويحتمل أن تكون بمعنى: إلا أن يحاجوكم، وهذا على تجويز أن يؤتى أحد ذلك إذا قامت الحجّة له، فهذا ترتيب التفسير والقراءات على قول من قال: الكلام كله من قول الطائفة.

وقال السدي وغيره: الكلام كله من قوله: «قُلْ إِنْ أَنْهَيْتَ هَذَى اللَّهِ...» إلى آخر الآية، هو مما أُمِرَ به محمد عليه السلام أن يقوله لأمته. وحكى الزجاج وغيره أن المعنى: قل إن الهدى هو هذا الهدى، لا يؤتى أحد مثل ما أوتيتم. وحكي عن بعض النحويين أن المعنى: «ألا يؤتى أحد»، وحذفت «لا» لأن في الكلام دليلاً عليها، كما في قوله تعالى: «يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضَلُّوا» أي ألا تضلوا. وحكي عن أبي العباس المبرّد: لا تحذف «لا» وإنما المعنى: كراهة أن تضلوا، وكذلك هنا: كراهة أن يؤتى أحد مثل ما

أوتيتم، أي ممن خالف دين الإسلام، لأن الله لا يهدي من هو كاذب كفار، فهدى الله بعيد من غير المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتبعد من هذا القول قراءة ابن كثير بالاستفهام والمد، وتُحْمَلُ عليه قراءة الأعمش وابن أبي حمزة: «إِنْ يُؤْتَى» بكسر الالف، كأنه عليه السلام يخبر أمته أن الله لا يعطي أحداً ولا أعطى فيما سلف مثل ما أعطى أمة محمد عليه السلام من كونها وسطاً، ويكون قوله تعالى: «أَوْ بِمَا جُرِّدَ» - على هذه المعاني التي ترتبت في قول السدي - يحتمل معنيين:

أحدهما: أو فليحاجوكم عند ربكم، يعني اليهود، فالمعنى: لم يعط أحد مثل حظكم وإلا فليحاجوكم من ادعى سوى ذلك.

والمعنى الثاني: أن يكون قوله: «أَوْ بِمَا جُرِّدَ» بمعنى التقرير والإزراء باليهود، كأنه قال: أو هل لهم أن يحاجوكم أو يخاصموكم فيما وهبكم الله وفضلكم به؟

وقوله: «هَذَى اللَّهِ» على جميع ما تقدم خبر «إِنْ»؛ وقال قتادة والربيع: الكلام من قوله: «قُلْ إِنْ أَنْهَيْتَ هَذَى اللَّهِ» إلى آخر الآية، هو مما أمر به محمد عليه السلام أن يقوله للطائفة التي قالت: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ»، وتتفق مع هذا القول قراءة ابن كثير بالاستفهام والمد، وتقدير الخبر المحذوف «أَنْ يُؤْتَى أَحَدٌ يَنْتَلِ مَا أُوْتِيْتُمْ»: «حسدتم وكفرتهم»، ويكون قوله: «أَوْ

بِمَا جُرِّدَ» محمولاً على المعنى، كأنه قال: أنحدون أو تكفرون لأن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم؟ أو يحاجوكم على ما أوتوه فإنه يغلبونكم بالحجة. وأما على قراءة غير ابن كثير بغير المد فيحتمل ذلك أن يكون بمعنى التقرير بغير حرف استفهام، وذلك هو الظاهر من لفظ قتادة فإنه قال: يقول: لما أنزل الله كتاباً مثل كتابكم وبعث نبياً مثل نبيكم حسدتموهم على ذلك. ويحتمل أن يكون قوله: «أَنْ يُؤْتَى» بدلاً من قوله: «هَذَى اللَّهِ» ويكون المعنى: قل إن الهدى هدى الله، وهو أن يؤتى أحد كالذي جاءنا نحن. ويكون قوله: «أَوْ بِمَا جُرِّدَ» بمعنى: أو فليحاجوكم، فإنه يغلبونكم. ويحتمل قوله: «أَنْ يُؤْتَى» خبر «إِنْ» ويكون قوله: «هَذَى اللَّهِ» بدلاً من «أَلْهَكُنَّ»، وهذا في المعنى قريب من الذي قبله. وقال ابن جريج: قوله تعالى: «أَنْ يُؤْتَى» هو من قول محمد ﷺ لليهود، وتم الكلام في قوله: «أُوْتِيْتُمْ»؛ وقوله تعالى: «أَوْ بِمَا جُرِّدَ» متصل بقول الطائفة: «وَلَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ»، وهذا القول يفسر معانيه ما تقدم في قول غيره من التقسيم والله المستعان.

وقرأ ابن مسعود: «أَنْ يُحَاجُّوْكُمْ» بدل «أَوْ» وهذه القراءة تلتزم مع بعض المعاني التي تقدمت ولا تلتزم مع بعضها.

وقوله: «عِنْدَ رَبِّكُمْ» يجيء في بعض المعاني على معنى «عند ربكم» في الآخرة، ويجيء في بعضها على معنى «عند كتب ربكم والعلم الذي

تنام، وهي لغة. ودام معناه: ثبت على حال ما، والتدويم على الشيء الاستدارة حول الشيء، ومنه قول ذي الرمة:

والشمس حيرى لها في الجو تَدْوِيمُ
والدوام: الدوار يأخذ في رأس
الإنسان فيرى الأشياء تدور له،
وتدويم الطائر في السماء، وهو ثبوته
إذا صف واستدار، والماء الدائم
وغيره هو الذي كأنه يستدير حول
مركزه.

وقوله: ﴿قَائِمًا﴾ يحتمل معنيين،
قال الزجاج وقتادة ومجاهد: معناه:
قائماً على اقتضاء دينك؛ يريدون
بأنواع الاقتضاء من الحفز والمرافعة
إلى الحاكم، فعلى هذا التأويل لا
تراعى هيئة هذا الدائم، بل اللفظة
من قيام المرء على أشغاله، أي
اجتهاده فيها. وقال السدي وغيره:
﴿قَائِمًا﴾ في هذه الآية معناه: قائماً
على رأسه، على الهيئة المعروفة،
وتلك نهاية الحفز، لأن معنى ذلك
أنه في صدر شغل آخر يريد أن
يستقبله. وذهب إلى هذا التأويل
جماعة من الفقهاء وانتزعوا من
الآيات جواز السجن، لأن الذي
يقوم عليه غريمه فهو يمنعه من
تصرفاته في غير القضاء، ولا فرق
بين المنع من التصرفات وبين
السجن.

وهذه الآية وما بعدها نزلت فيما
روي بسبب أن جماعة من العرب
كانت لهم ديون في ذم قوم من أهل
الكتاب، فلما أسلم أولئك العرب
قالت لهم اليهود: نحن لا نؤذي

والأشهب العقيلي وابن وثاب. وقد
تقدم القول في القنطار في صدر
السورة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُؤَذِّبُ إِلَيْكَ﴾
بكسر الهاء التي هي ضمير القنطار،
وكذلك في الأخرى التي هي ضمير
الدينار، واتفق أبو عمرو وحمزة
وعاصم والأعمش على إسكان
الهاء، وكذلك كل ما أشبهه في
القرآن، نحو: ﴿نُضِّلْنَا بِهِنَّ﴾
و﴿نُؤْتِنَا﴾ و﴿نُؤَلِّمُنَا﴾ إلا حرفاً حكيماً
عن أبي عمرو أنه كسره، وهو قوله
تعالى: ﴿قَالَتِ يَٰٓأَيُّهَا آلَ إِبْرَاهِيمَ﴾. قال أبو
إسحاق: وهذا الإسكان الذي روي
عن هؤلاء غلطٌ بين لأن الهاء لا
ينبغي أن تجزم، وإذا لم تجزم فلا
يجوز أن تسكن في الوصل. وأما أبو
عمرو فأراه كان يختلس الكسرة
فَعَلِطَ عليه، كما غلط عليه في
﴿بَارئِكُمْ﴾ وقد حكى عنه سيبويه -
وهو ضابط لمثل هذا - أنه يكسر
كسراً خفيفاً.

والقنطار في هذه الآية: مثالٌ للمال
الكثير يدخل فيه أكثر من القنطار
وأقل، وأما الدينار فيحتمل أن يكون
كذلك، مثلاً لما قل، ويحتمل أن
يريد طبقة لا تخون إلا في دينار فما
زاد، ولم يعن لذكر الخائنين في أقل
إذ هم طغام خثالة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿دَمَّتْ﴾ بضم
الدال، وقرأ ابن وثاب والأعمش
وأبو عبد الرحمن السلمي وابن أبي
ليلى والفياض بن غزوان وغيرهم:
﴿دَمَّتْ﴾ و﴿وَدَمَّتْ﴾ بكسر الدال في
جميع القرآن، قال أبو إسحاق: هو
من قولهم: دَمَّتْ تَدَامٌ مثل نَمَّتْ

جعل في العباد، فأضاف ذلك إلى
الرب تشريفاً، وكان المعنى: أو
يحاجوكم عند الحق.

وقرأ الحسن: ﴿إِنْ يُؤْتِي أَحَدٌ﴾،
بكسر الهمزة والتاء، على إسناد
الفعل إلى ﴿أَحَدٌ﴾ والمعنى: إن
إنعام الله لا يشبهه إنعام أحد من
خلقه. وأظهر ما في هذه القراءة أن
يكون خطاباً من محمد عليه السلام
لأمته، والمفعول محذوف تقديره:
إن يؤتي أحد أحداً.

تفسير قوله عز وجل:
﴿قُلْ إِنْ أَلْفَ عَشْرٌ يُكْفِّرُونَ﴾
إلى قوله: ﴿الْكَافِرِينَ﴾ تكذيب
للإهود في قولهم: نبوة موسى
مؤيدة، ولن يؤتي الله أحداً مثل ما
أتى بني إسرائيل من النبوة
والشرف، وسائر ما في الآية من
لفظة ﴿وَأَسِيعُ﴾ وغير ذلك قد تقدم
نظيره.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب
أنهم قسمان في الأمانة، ومقصد
الآية ذم الخونة منهم، والتفنيذ
لرأيهم وكذبهم على الله في
استحلالهم أموال العرب. وفي قراءة
أبي بن كعب: ﴿يَمِينَةٌ﴾ بناء وياء في
الحرفين وكذلك: ﴿يَمِينَتَا﴾ في
يوسف، قال أبو عمرو الداني: وهي
لغة تميم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وما أراه إلا لغة قرشية، وهي كسر
نون الجماعة كَنَيْسْتَعَيْنَ، وألف
المتكلم كقول ابن عمر: لا إخاله،
وتاء المخاطب كهذه الآية، ولا
يكسرون الياء في الغائب، وبها قرأ
أبي كعب في: ﴿يَمِينَتَا﴾ وابن مسعود

إليكم شيئاً حين فارقتم دينكم الذي كنتم عليه، فنزلت الآية في ذلك. وروي أن بني إسرائيل كانوا يعتقدون استحلال أموال العرب لكونهم أهل أوثان، فلما جاء الإسلام وأسلم من أسلم من العرب بقي اليهود فيهم على ذلك المعتقد، فنزلت الآية حامية من ذلك. وقال رسول الله ﷺ: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية فهو تحت قدمي، إلا الأمانة فإنها مؤداة إلى البرِّ والفاجر».

٧٥ - ٧٧ تفسير قوله عز وجل:

الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى كونهم لا يؤدون الأمانة في دينارٍ فما فوقه، على أحد التأويلين، والضمير في: ﴿قَالُوا﴾ يعني به ليف بني إسرائيل، لأنهم كانوا يقولون: نحن أهل الكتاب، والعرب أميون أصحاب أوثان، فأموالهم لنا حلال متى قدرنا على شيء منها لا حجة علينا في ذلك ولا سبيل لمعترض وناقد إلينا في ذلك. والأميون: القوم الذين لا يكتبون لأنهم لا يحسنون الكتابة، وقد مرَّ في سورة البقرة اشتقاق اللفظ.

واستعارة السبيل هنا في الحجّة هو على نحو قول حميد بن ثور:

وهل أنا إن علّلت نفسي بسرحية
من السرح موجودة عليّ طريق؟
وقوله تعالى: ﴿قَاتِلْكَ مَا عَلَيْكَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ هو من هذا المعنى، وهو كثير في القرآن وكلام العرب. وروي أن رجلاً قال لابن عباس: إنا نمر في الغزو بأموال أهل الذمة فنأخذ منها الشاة والدجاجة ونحوها قال: وتقولون ماذا؟ قال نقول: ليس علينا

بأس، فقال ابن عباس: هذا كما قال أهل الكتاب: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الْأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ﴾ إنهم إذا أدوا الجزية لم تحلّ لكم أموالهم إلا بطيب أنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ذم لبني إسرائيل بأنهم يكذبون على الله تعالى في غير ما شيء، وهم علماء بمواضع الصدق لو قصدوها، ومن أخطر ذلك أمر محمد ﷺ، هذا قول جماعة من المتأولين. وروي عن السدي وابن جريج وغيرهما أن طائفة من أهل الكتاب ادّعت أن في التوراة إحلال الله لهم أموال الأميين كذباً منها وهي عالمة بكذبها في ذلك، وقالوا: والإشارة بهذه الآية إلى ذلك الكذب المخصوص في هذا الفصل.

ثم ردّ الله تعالى في صدر قولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا﴾ بقوله: ﴿بِكُنْ﴾ أي: عليهم سبيل وحجة وتباعة، ثم أخبر على جهة الشرط أن من أوفى بالعهد واتقى عقوبة الله في نقضه، فإنه محبوب عند الله. وتقول العرب: وفى بالعهد، وأوفى به بمعنى، وأوفى هي لغة الحجاز، وفسر الطبري وغيره على أن الضمير في قوله: ﴿يَعْتَهُدُ﴾ عائد على الله تعالى. وقال بعض المفسرين: هو عائد على ﴿مَنْ﴾. والقولان يرجعان إلى معنى واحد، لأن أمر الله تعالى بالوفاء مقترن بعهد كل إنسان، وقال ابن عباس: ﴿أَتَقَرُّ﴾ في هذه الآية، معناه: اتقى الشرك، ثم خرج جواب الشرط على تعميم المتقين تشريفاً للتقوى وحضاً عليها.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ... الآية، وعيد لمن فعل هذه الأفاعيل إلى يوم القيامة، وهي آية يدخل فيها الكفر فما دونه من جحد الحقوق، وختر الموائيق. وكل أحد يأخذ من وعيد الآية على قدر جريمته.

واختلف المفسرون في سبب نزولها؛ فقال عكرمة: نزلت في أحبار اليهود، أبي رافع وكنانة بن أبي الحقيق وكعب بن الأشرف وحيي بن أخطب، تركوا عهد الله في التوراة للمكاسب والرياسة التي كانوا بسبيلها. وروي أنها نزلت بسبب خصومة الأشعث بن قيس مع رجل من اليهود في أرض، فوجبت اليمين على اليهودي فقال الأشعث: إذن يحلف يا رسول الله ويذهب بمالي، فنزلت الآية. وروي أن الأشعث بن قيس اختصم في أرض مع رجل من قرابته فوجبت اليمين على الأشعث، وكان في الحقيقة مبطلاً قد غصب تلك الأرض في جاهليته فنزلت الآية، فنكل الأشعث عن اليمين، وتخرج وأعطى الأرض وزاد من عنده أرضاً أخرى.

وروي أن الآية نزلت بسبب خصومة لغير الأشعث بن قيس؛ وقال الشعبي: نزلت الآية في رجل أقام سلعة في السوق من أول النهار، فلما كان في آخره جاءه رجل فساومه فحلف حائناً لقد منعها في أول النهار من كذا وكذا ولولا المساء ما باعها، فنزلت الآية بسببه، وقال سعيد بن المسيب: اليمين الفاجرة من الكباثر، ثم تلا هذه الآية؛ وقال ابن مسعود:

تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية .
وقرأ حميد: ﴿يَلُونُ﴾ بضم اللام
وسكون الواو، وهي في الأصل:
﴿يلون﴾ مثل قراءة الجماعة،
فهمزت الواو المضمومة لأنها عرفها
في بعض اللغات، فجاء - يلونون -
فنقلت ضمة الهمزة إلى اللام فجاء
﴿يلون﴾. والكتاب في هذا
الموضع: التوراة، وضمير الفاعل
في قوله: ﴿يَتَكَبَّرُونَ﴾ هو
للمسلمين .

وقوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ نفى
أن يكون منزلاً كما ادعوا، وهو من
عند الله بالخلق والاختراع والإيجاد،
ومنهم بالتكسب، ولم تعن الآية إلا
لمعنى التنزيل فبطل تعلق القدرية
بظاهر قوله: ﴿وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ .
وقد تقدم نظير قوله تعالى:
﴿وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ
يَلْمُونَ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِشَيْءٍ﴾
معناه: لأحد من الناس؛ والبشر:
اسم جنس يقع للكثير والواحد، ولا
مفرد له من لفظه، وهذا الكلام لفظه
النفسي التام كقول أبي بكر
رضي الله عنه: ما كان لابن أبي
قحافة أن يصلني بين يدي
رسول الله ﷺ، وإنما يعلم مبلغها
من النفى بقريئة الكلام الذي هي
فيه، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِقَتْلِهِ
أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وقوله
تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لَكُرْ أَنْ تُتَيَّرُوا
شَجَرَةً﴾ فهذا متبَع عقلاً، وأما آيتنا
هذه فإن النفى فيها على الكمال لأنها
نقطع أن الله تعالى لا يؤتي النبوة
للكذبة والمدعين . و ﴿الْكَتَابِ﴾

الآخرة، و ﴿آيَةٍ﴾ فعيل
بمعنى مفعول، فالمعنى،
مؤلم .
٧٨ - ٧٩ تفسير قوله
عز وجل:

الضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾
عائد على أهل الكتاب؛
والفريق: الجماعة من
الناس، هي مأخوذة من
فرق إذا فصل وأبان شيئاً
عن شيء . و ﴿يَلُونُ﴾
معناه: يحرفون ويتحيلون
بتبديل المعاني من جهة
اشتباه الألفاظ واشترائها
وتشعب التأويلات فيها،
ومثال ذلك قولهم:
﴿مَيْمَتًا وَعَصِيئًا وَاسْتَعَّ عَيْزَ

سَمِيعٍ﴾ ونحو ذلك، وليس التبديل
المحض بلي، وحقيقة اللي في
الشياب والحبال ونحوها: فتلها
وإراغتها، ومنه لي العنق، ثم
استعمل ذلك في الحجج
والخصومات والمجادلات تشبيهاً
بتلك الإراغة التي في الأجرام، فمنه
قولهم: خصم ألوى، ومنه قول
الشاعر:

فلو كان في ليلي شذى من خصومة
لَلْوَيْتِ أَعْنَاقِ الْخُصُومِ الْمَلَاوِيَا
وقال الآخر:

ألفيتني ألوى بعيد المُسْتَمَرِّ
وقرأ جمهور الناس: ﴿يَلُونُ﴾
مضارع لوى، على وزن فَعَلَ
بتخفيف العين، وقرأ أبو جعفر بن
القعقاع وشيبة بن نصاح: ﴿يَلُونُونَ﴾
بتشديد الواو وفتح اللام من لوى،
على وزن فَعَلَ بتشديد العين، وهو

وَلَا يَنْهَى لَفْرِيقًا يَلُونُ أَلْسِنَتَهُمُ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ
مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ
مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ
وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾ مَا كَانَ لِشَيْءٍ أَنْ يُوَظِّقَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ
وَالْحُكْمَ وَالسُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولُ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ
دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الْكِتَابَ
وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْتُرْكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ
وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا أَيَأْتُرْكُمْ بِالْكَفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾
وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَآ آتَيْنَاكُمْ مِنْ كِتَابٍ
وَجَعَلْنَاكُمْ شُرَاجِمًا لَكُمْ رَسُولٌ مَصْدُوقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي
قَالُوا أَقْرَبْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾
فَمَنْ قَوْلٍ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٨٢﴾
أَفَكَيْفَ دِينِ اللَّهِ يَبِغُوتُ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾

كنا نرى ونحن مع نبينا أن من الذنب
الذي لا يغفر يمين الصبر، إذا فجر
فيها صاحبها، وقد جعل الله الأيمان
في هذه الألفاظ مشترة فهي مضمونة
أيضاً. والخلاق: الحظ والنصيب
والقدر، وهو مستعمل في
المستحبات.

وقال الطبري: ﴿وَلَا يُكَلِّفُهُمْ
اللَّهُ﴾ معناه: بما يسره، وقال
غيره: نفى تعالى أن يكلمهم جملة
لأنه يكلم عباده المؤمنين المتقين.
وقال قوم من العلماء: وهي عبارة
عن الغضب؛ المعنى: لا يحفل بهم
ولا يرضى عنهم. ﴿وَلَا يُزَكِّيهِمْ﴾
يحتمل معنيين:

أحدهما: يطهرهم من الذنوب
وأدرانها.
والآخر: ينمي أعمالهم، فهي تنمية
لهم، والوجهان منفيان عنهم في

في هذه الآية اسم جنس، ﴿وَالْمُكْرِمُ﴾ بمعنى: الحكمة، ومنه قول النبي عليه السلام: «إِنَّ مِنَ الشُّعْرِ لِحِكْمًا»، و﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ معطية تعظيم الذنب في القول، بعد مهلة من هذا الإنعام.

وقوله: ﴿عِبَادًا﴾ هو جمع عبد، ومن جموعه عبيد وعبيدى. وقال بعض اللغويين: هذه الجموع بمعنى، وقال قوم: العباد لله، والعبيد والعبيدى للبشر، وقال قوم: العبدي، إنما تقال في العبدي بني العبدي، وكأنه بناء مبالغة تقتضي الإغراق في العبودية. والذي استقرت في لفظة العباد: أنه جمع عبد متى سبقت اللفظة في مضمار الترفيع والدلالة على الطاعة دون أن يقترن بها معنى التحقير وتصغير الشأن؛ وانظر قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ ﴿يَمِينًا الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ وقول عيسى في معنى الشفاعة والتعريض لرحمة الله: ﴿إِن تَدْرَبْتُمْ قُلُوبَهُمْ فَلَهُمْ عِبَادَةٌ﴾ فنوه بهم. وقال بعض اللغويين: إن نصارى الحيرة وهم عرب لما أطاعوا كسرى ودخلوا تحت أمره سمتهم العرب العباد فلم ينته بهم إلى اسم العبدي. وقال قوم: بل هم قوم من العرب من قبائل شتى اجتمعوا وتضرّوا وسَمُوا أَنفُسَهُم العباد كأنه انتساب إلى عبادة الله. وأما العبدي فيستعمل في تحقير، ومنه قول امرئ القيس:

قولاً لدوداً عبيد العصى
ما غركم بالأسد الباسل؟

ومنه قول حمزة بن عبدالمطلب: «وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟» ومنه قول الله تعالى: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾ لأنه مكان تشفيق وإعلام بقلّة انتصارهم ومقدرتهم، وأنه تعالى ليس بظلام لهم في ذلك. ولما كانت لفظة العباد تقتضي الطاعة لم تقع هنا، ولذلك أنس بها في قوله تعالى: ﴿فَلْيَمْدَى الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾. فهذا النوع من النظر يسلك به سبل العجائب في ميز فصاحة القرآن العزيز على الطريقة العربية السليمة.

ومعنى قوله: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ اعبدوني واجعلوني إلهاً.

واختلف المفسرون إلى من هي الإشارة بقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِإِسْرَافِهِمْ﴾؛ فقال النقاش وغيره: الإشارة إلى عيسى عليه السلام، والآية رادة على النصارى الذين قالوا: عيسى إله، وادعوا أن عبادته هي شرعه ومستندة إلى أوامره. وقال ابن عباس والربيع وابن جريج وجماعة من المفسرين: بل الإشارة إلى محمد عليه السلام. وسبب نزول الآية: أن أبا رافع القرظي قال للنبي ﷺ حين اجتمعت الأحزاب من يهود والوفد من نصارى نجران: يا محمد إنما تريد أن نعبدك ونتخذك إلهاً كما عبت النصارى عيسى، فقال الرئيس من نصارى نجران: أؤذلك تريد يا محمد وإليه تدعوننا؟ فقال النبي ﷺ: «معاذ الله، ما بذلك أمرت، ولا إليه دعوت» فنزلت الآية في ذلك. قال بعض العلماء: أرادت الأحزاب أن تلزم هذا القول

محمداً ﷺ، لما تلا عليهم: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾، وإنما معنى الآية: فاتبعوني فيما أَدْعُوكُمْ إليه من طاعة الله، فحرفوها بتأويلهم، وهذا من نوع ليهم الكتاب بالسنتهم.

وقرأ جمهور القراء: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ بالنصب، وروى شبل عن ابن كثير، ومحيب عن أبي عمرو: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾ برفع اللام، وهذا على القطع وإضمار مبتدأ، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿عِبَادًا لِّي﴾ بتحريك الياء مفتوحة.

٧٩ - ٨١ تفسير قوله عز وجل: المعنى: ولكن يقول: ﴿كُونُوا عِبَادًا لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾، وهو جمع رباني.

واختلف النحاة في هذه النسبة، فقال قوم: هو منسوب إلى الرب من حيث هو عالم علمه، العامل بطاعته، المعلم للناس ما أمر به؛ وزيدت الألف والنون مبالغة كما قالوا: لحياني وشعراني في النسبة إلى اللحية والشعر. وقال قوم: الرباني منسوب إلى الربان وهو معلم الناس وعالمهم السائس لأمرهم، مأخوذ من رب يرب إذا أصلح وربى، وزيدت فيه هذه النون كما زيدت في غضبان وعطشان، ثم نسب إليه رباني.

واختلف العلماء في صفة من يستحق أن يقال له: رباني، فقال أبو رزين: الرباني: الحكيم العالم، وقال مجاهد: الرباني: الفقيه، وقال قتادة وغيره: الرباني: العالم الجليل، وقال ابن عباس: هو الحكيم الفقيه، وقال الضحاك: هو الفقيه العالم، وقال ابن زيد:

الرباني: والي الأمر، يرب الناس أي يصلحهم. فالربانيون: الولاة والأخبار والعلماء؛ وقال مجاهد: الرباني: فوق الحبر لأن الحبر هو العالم، والرباني هو الذي جمع إلى العلم والفقه البصر بالسياسة والتدبير والقيام بأمر الرعية وما يصلحهم في دينهم ودنياهم، وفي البخاري: الرباني: الذي يربي الناس بصغار العلم قبل كباره. فجملة ما يقال في الرباني أنه العالم بالرب والشرع، المصيب في التقدير من الأقوال والأفعال التي يحاولها في الناس.

وقوله: ﴿بِمَا كُنْتُمْ﴾ معناه: بسبب كونكم عالمين دارسين، ﴿فَمَا﴾ مصدرية، ولا يجوز أن تكون موصولة، لأن العائد الذي كان يلزم لم يكن بد أن يتضمنه ﴿كُنْتُمْ﴾ لأن كان قد استوفت خبرها ظاهراً وهو: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾، وكذلك ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ قد استوفى مفعوله وهو ﴿الْكُتُبَ﴾ ظاهراً، فلم يبق إلا أن ﴿مَا﴾ مصدرية، إذ لا يمكن عائد، و: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بمعنى تعرفون، فهي متعدية إلى مفعول واحد.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بسكون العين وتخفيف اللام، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة والكسائي: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ مثلاً، بضم التاء وكسر اللام، وهذا على تعدية الفعل بالتضعيف، والمفعول الثاني على هذه القراءة محذوف، تقديره: تعلمون الناس الكتاب. والقراءتان متقاربتا المعنى، وقد رجحت قراءة التخفيف بتخفيفهم ﴿تُدْرُسُونَ﴾،

وبأن العلم هو العلة التي توجب للموفق من الناس أن يكون ربانياً، وليس التعليم شرطاً في ذلك، ورجحت الأخرى بأن التعليم يتضمن العلم، والعلم لا يتضمن التعليم، فتجيء قراءة التثنية أبلغ في المدح. ومن حيث العالم بحال من يعلم، فالعلم كأنه في ضمن العلم. وقراءة التخفيف عندي أرجح.

وقرأ مجاهد والحسن: ﴿تُعَلِّمُونَ﴾ بفتح التاء والعين وشد اللام المفتوحة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كُنْتُمْ﴾ بضم الراء، من دَرَسَ إذا دَرَسَ قراءة الكتاب وكرره، وقرأ أبو حية: ﴿تُدْرُسُونَ﴾ بكسر الراء، وهذا على أنه يقال في مضارع درس، يدرس ويدرس، وروي عن أبي حية أنه قرأ: ﴿تُدْرُسُونَ﴾، بضم التاء وكسر الراء وشدها، بمعنى: تدرسون غيركم. وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائي: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ برفع الراء، وكان أبو عمرو يختلس حركة الراء تخفيفاً، وقرأ عاصم وابن عامر وحزمة: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ نصباً، ولا خلاف في الراء من قوله: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ﴾ إلا اختلاس أبي عمرو، فمن رفع قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾، فهو على القطع. قال سيبويه: المعنى: ولا يأمركم الله؛ وقال ابن جريج وغيره: المعنى: ولا يأمركم هذا البشر الذي أوتي هذه النعم، وهو محمد ﷺ، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَلَنْ يَأْمُرُكُمْ﴾ فهذه قراءة تدل على القطع. وأما قراءة من نصب الراء فهي عطف على قوله: ﴿أَنْ يُؤَيِّتَهُ﴾

والمعنى: ولا له أن يأمركم، قاله أبو علي وغيره. وقال الطبري: قوله: ﴿وَلَا يَأْمُرُكُمْ﴾ - بالنصب - معطوف على قوله: ﴿ثُمَّ يَقُولُ﴾؛ وهذا خطأ لا يلتزم به المعنى، والأرباب في هذه الآية بمعنى الآلهة.

وقوله تعالى: ﴿أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ﴾ تقرير على هذا المعنى الظاهر فساداً.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ... الآية﴾، المعنى: واذكر يا محمد إذ، ويحتمل أن يكون أخذ هذا الميثاق حين أخرج بني آدم من ظهر آدم نسماً، ويحتمل أن يكون هذا الأخذ على كل نبي في زمنه ووقت بعثه، ثم جمع اللفظ في حكاية الحال في هذه الآية، والمعنى: إن الله تعالى أخذ ميثاق كل نبي بأنه يلتزم هو ومن آمن به الإيمان بمن أتى بعده من الرسل الظاهرة براهينهم والنصرة له.

واختلف المفسرون في العبارة عن مقتضى ألفاظ هذه الآية؛ فقال مجاهد والربيع: إنما أخذ ميثاق أهل الكتاب لا ميثاق النبيين، وفي مصحف أبي بن كعب وابن مسعود: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أوتُوا الكتاب﴾ قال مجاهد: هكذا هو القرآن، وإثبات ﴿النَّبِيِّينَ﴾ خطأ من الكتاب. وهذا لفظ مردود بإجماع الصحابة على مصحف عثمان رضي الله عنه. وقال ابن عباس رضي الله عنه: إنما أخذ الله ميثاق النبيين على قومهم، فهو أخذ لميثاق الجميع. وقال طاوس: أخذ الله ميثاق النبيين أن يصدق بعضهم

بعضاً. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ما بعث الله نبياً - آدم فمن بعده - إلا أخذ عليه العهد في محمد لئن بعث وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، وأمره بأخذه على قومه، ثم تلا هذه الآية، وقاله السدي؛ وروي عن طاوس أنه قال: صدر الآية أخذ الميثاق على النبيين، وقوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾ مخاطبة لأهل الكتاب بأخذ الميثاق عليهم - حكاه الطبري، وهو قول يفسده إعراب الآية. وهذه الأقوال كلها ترجع إلى ما قاله علي بن أبي طالب وابن عباس، لأن الأخذ على الأنبياء أخذ على الأمم.

وقرأ حمزة وغيره سوى السبعة: ﴿لِئِمَّا﴾ بكسر اللام، وهي لام الجر، والتقدير: لأجل ما آتيناكم، إذ أنتم القادة والرؤوس، ومن كان بهذه الحال فهو الذي يؤخذ ميثاقه. و﴿مَّا﴾ في هذه القراءة بمعنى الذي الموصولة، والعائد إليها من الصلة تقديره: آتيناكموه، و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس. وقوله: ﴿ثُمَّ جَاءَكُمْ﴾... الآية، جملة معطوفة على الصلة، ولا بد في هذه الجملة من ضمير يعود على الموصول، فتقديره عند سيبويه: رسول به مصدق لما معكم، وحذف تخفيفاً كما حذف الذي في الصلة بعينها لطول الكلام، كما قال تعالى: ﴿أَهْدِنَا اللَّهُ سَبِيلَكَ اللَّهُ رَسُولًا﴾؛ والحذف من الصلات كثير جميل، وأما أبو الحسن الأخفش فإن قوله تعالى: ﴿لِئِمَّا مَعَكُمْ﴾ هو العائد عنده على الموصول، إذ هو في المعنى

بمنزلة الضمير الذي قدر سيبويه، وكذلك قال الأخفش في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ لأن المعنى: لا يضيع أجرهم، إذ المحسنون هم من يتقي ويصبر، وكذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾. وكذلك ما ضارح هذه الآيات. وسيبويه رحمه الله لا يرى أن يضع المظهر موقع المضمرة، كما يراه أبو الحسن. والسلام في: ﴿تَتَوَسَّنَ﴾ هي اللام المتعلقة للقسم الذي تضمنته أخذ الميثاق، وفصل بين القسم والمقسم عليه بالجار والمجرور، وذلك جائز.

وقرأ سائر السبعة ﴿لِئِمَّا﴾ بفتح اللام، وذلك يتخرج على وجهين: أحدهما: أن تكون ﴿مَّا﴾ موصولة في موضع رفع بالابتداء، واللام لام الابتداء، وهي متلقية لما أجري مجرى القسم من قوله تعالى: ﴿فَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ﴾، وخبر الابتداء قوله: ﴿تَتَوَسَّنَ﴾، و﴿تَتَوَسَّنَ﴾ متعلق بقسم محذوف، والمعنى: والله لتؤمنن؛ هكذا قال أبو علي الفارسي، وفيه من جهة المعنى نظر إذا تأملت على أي شيء وقع التحليف، لكنه متوجه بأن الحلف يقع مرتين تأكيداً، فتأمل. والعائد الذي في الصلة، والعائد الذي في الجملة المعطوفة على الصلة هنا في هذه القراءة هما على حد ما ذكرناهما في قراءة حمزة، أما أن هذا التأويل يقتضي عائداً ثالثاً من الخبر الذي هو

﴿تَتَوَسَّنَ﴾ فهو قوله تعالى: ﴿بِهِ﴾، فالهاء من ﴿بِهِ﴾ عائدة على ﴿مَّا﴾، ولا يجوز أن تعود على ﴿رَسُولٌ﴾ فيبقى الموصول حينئذ غير عائد عليه من خبره ذكر.

والوجه الثاني الذي تتخرج عليه قراءة القراء ﴿لِئِمَّا﴾ بفتح اللام، هو أن تكون ﴿مَّا﴾ للجزاء شرطاً، فتكون في موضع نصب بالفعل الذي بعدها وهو مجزوم، و﴿جَاءَكُمْ﴾ معطوف في موضع جزم، واللام الداخلة على ﴿مَّا﴾ ليست المتلقية للقسم، ولكنها الموطئة المؤذنة بمجيء لام القسم فهي بمنزلة اللام في قوله تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُشْرِكُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ لأنها مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿لَتَقْرَبَنَّكُمْ يَوْمَ﴾، وكذلك هذه مؤذنة بمجيء المتلقية للقسم في قوله: ﴿تَتَوَسَّنَ بِهِ﴾، وهذه اللام الداخلة على: ﴿إِنْ﴾ لا يعتمد القسم عليها، فلذلك جاز حذفها تارة وإثباتها تارة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهِ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. قال الزجاج: لأن قولك: والله لئن جتني لأكرمك، إنما حلف على فعلك، لا أن الشرط معلق به، فلذلك دخلت اللام على الشرط، و﴿مَّا﴾ في هذا الوجه من كونها جزء لا تحتاج إلى عائد لأنها مفعولة والمفعول لا يحتاج إلى عائد ذكر. والضمير في قوله تعالى: ﴿تَتَوَسَّنَ بِهِ﴾ عائدة على ﴿رَسُولٌ﴾، وكذلك هو على قراءة من كسر اللام، وأما الضمير في قوله: ﴿وَلَتَنْصُرُنَّهُ﴾ فلا

يحتمل بوجه إلا العود على ﴿رَسُولٌ﴾، قال أبو علي في الإغفال: وجزء الشرط محذوف بدلالة قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ عليه. قال سيبويه: سأله - يعني الخليل - عن قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَاكُمْ﴾ فقال: ﴿مَا﴾ هنا بمنزلة الذي ودخلتها اللام كما دخلت على ﴿إِنْ﴾ حين قلت: لنن فعلت لأفعلن، ثم استمر يفسر وجه الجزاء؛ قال أبو علي: أراد الخليل بقوله: هي بمنزلة الذي أنها اسم كما أن الذي اسم ولم يرد أنها موصولة كالذي، وإنما فرّ من أن تكون ﴿مَا﴾ حرفاً كما جاءت حرفاً في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَلِمًا لَوِيقِيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَاهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿وَإِنْ كُفِّرْ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعُ الْمَيِّتَةَ الدُّنْيَا﴾، والله المستعان.

وحكى المهدي ومكي عن سيبويه والخليل: إن خبر الابتداء فيمن جعل ﴿مَا﴾ ابتداء على قراءة من فتح اللام هو في قوله: ﴿مَنْ صَبَّرَ وَجْهَهُ﴾ ولا أعرف من أين حكياه لأنه مفسد لمعنى الآية لا يليق بسيبويه والخليل؛ وإنما الخبر في قوله: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ﴾ كما قال أبو علي الفارسي ومن جرى مجراه كالزجاج وغيره.

وقرأ الحسن: ﴿لَمَّا آتَيْنَاكُمْ﴾ بفتح اللام وشد الميم، قال أبو إسحاق: أي لَمَّا آتَاكُمْ الكتاب والحكمة أخذ الميثاق، وتكون اللام تؤول إلى الجزاء، كما تقول: لَمَّا جئتنى أكرمتك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر أن (لَمَّا) هذه هي الظرفية،

أي: لما كنتم بهذه الحال رؤساء الناس وأماثلهم أخذ عليكم الميثاق، إذ على القادة يؤخذ، فيجزي هذا المعنى كالمعنى في قراءة حمزة.

وذهب ابن جنبي في ﴿لَمَّا﴾ في هذه الآية إلى أن أصلها «لَمَن مَّا»، وزيدت «مَن» في الواجب على مذهب الأخفش، ثم أدغمت، كما يجب في مثل هذا، فجاء (لَمَمَّا)، فثقل اجتماع ثلاث ميمات فحذفت الميم الأولى فبقي «لَمَمَّا». وتفسر هذه القراءة على هذا الترجيح المحلق تفسير ﴿لَمَّا﴾ بفتح الميم مخففة، وقد تقدم. وقرأ نافع وحده: ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾ بالنون، وقرأ الباقون: ﴿آتَيْنَاكُمْ﴾ بالياء، و﴿رَسُولٌ﴾ في هذه الآية اسم جنس، وقال كثير من المفسرين: الإشارة بذلك إلى محمد ﷺ، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿مُصَدِّقًا﴾ بالنصب على الحال.

٣٢٤ - تفسير قوله عز وجل: هذه الآية هي وصف توقيف الأنبياء على إقرارهم بهذا الميثاق والتزامهم له وأخذ عهد الله فيه، وذلك يحتمل موطن القسم، ويحتمل أن يراد بهذه العبارة الجامعة وصف ما فعل مع كل نبي في زمنه. ﴿وَأَخَذْتُمْ﴾ في هذه الآية عبارة عما تحضّل لهم من إتياء الكتاب والحكمة، فمن حيث أخذ عليهم أخذوا هم أيضاً؛ وقال الطبري: أخذتم في هذه الآية معناه: قبلتم، والإصر: العهد، لا تفسير له في هذا الموضوع إلا ذلك. وقوله تعالى: ﴿فَأَشْهَدُوا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فاشهدوا على أممكم

المؤمنين بكم، وعلى أنفسكم بالتزام هذا العهد، هذا قول الطبري وجماعة.

والمعنى الثاني: بينوا الأمر عند أممكم واشهدوا به. وشهادة الله تعالى على هذا التأويل وهي التي في قوله: ﴿وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ هي إعطاء المعجزات وإقرار نبوتهم، هذا قول الزجاج وغيره، فتأمل؛ القول الأول هو إيداع الشهادة واستحفاظها، والقول الثاني هو الأمر بأدائها. وحكم الله تعالى بالفسق على من تولّى من الأمم بعد هذا الميثاق، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره. ويحتمل أن يريد بعد الشهادة عند الأمم بهذا الميثاق على أن قوله: ﴿فَأَشْهَدُوا﴾ أمر بالأداء.

وقرأ أبو عمرو: ﴿يَبْتُغُونَ﴾ بالياء مفتوحة، و﴿وَتُرْجَعُونَ﴾ بالياء مضمومة، وقرأ عاصم: ﴿يَبْتُغُونَ﴾ و﴿يُرْجَعُونَ﴾ بالياء معجمة من تحت فيهما، وقرأ الباقون بالياء فيهما. ووجه هذه القراءات لا تخفى بأدنى تأمل.

و﴿تَبْتَغُونَ﴾ معناه: تطلبون. و﴿أَسَلْتُمْ﴾ في هذه الآية بمعنى: استسلم عند جمهور المفسرين، و﴿مَنْ﴾ في هذه الآية تعم الملائكة والثقلين.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿لَوْعًا وَكَرْهًا﴾؛ فقال مجاهد: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾، فالمعنى أن إقرار كل كافر بالصانع هو إسلام كرهاً. فهذا عموم في لفظ

قُلْ ءَأَمْتَكُم بِاللَّهِ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْنَا وَمَآ أَنزَلَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ
وَأَسْمِعُوا لِلْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ وَالْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ
مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا تَفْرُقَ بَيْنَ أَحَدٍ
مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ عِوَابَ الْإِسْلَامِ
دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٨٥﴾
كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا
أَن الرُّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
الظَّالِمِينَ ﴿٨٦﴾ أَوَلَيْكَ جَزَاءُ أَن عَلَّمْتَهُمُ الْكِتَابَ الَّذِي
وَالْمَلَكُوتِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿٨٧﴾ خَلِّدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ
عَنَّهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن
بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٨٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَّن نُّقَبِّلَ تَوْبَتَهُمْ
وَأَوَلَيْكَ هُمُ الضَّالُّونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ
كُفَّارًا فَلَن يُقْبَلَ مِن أَحَدِهِمْ تِلْءِ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ
أَفْتَدَىٰ بِهٖ أَوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٩١﴾

القسم الذي هو الكره إنما هو في أهل الأرض خاصة، والتوقيف بقوله:

﴿أَفْعَبَر﴾ إنما هو لمعاصري محمد ﷺ من الأحيار والكفار. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿أصري﴾ بضم الألف، وهي لغة.

﴿٨٤﴾ - ﴿٨٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل يا محمد أنت وأمتك: أمّا بالله وما أنزل علينا، وهو القرآن وأمر محمد ﷺ؛ والإنزال على نبي الأمة إنزال عليها، وقدم إسماعيل لسنته، وسائر الآية بين.

ثم حكم تعالى في قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ ... الآية، بأنه لا يقبل من آدمي ديناً غير دين الإسلام، وهو الذي وافق في معتقداته دين كل من سُمي من الأنبياء، وهو الحنيفية السمحة.

وقال عكرمة: لما نزلت هذه الآية قال أهل الملل للنبي ﷺ: قد أسلمنا قبلك ونحن المسلمون، فقال الله له: فحجّهم يا محمد وأنزل عليه: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فحج المسلمون وقعد الكفار.

وأسند الطبري عن ابن عباس أنه قال: نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالشَّكِكِينَ وَالصَّابِغِينَ مَن آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، إلى قوله: ﴿وَلَا هُمْ يُجْرَبُونَ﴾، فأنزل الله بعدها: ﴿وَمَن يَبْتَغِ عِوَابَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ

الآية، لأنه لا يبقى من لا يسلم على هذا التأويل، و﴿أَسْلَمَ﴾ فيه بمعنى استسلم، وقال بمثل هذا القول أبو العالية رفيع، وعبارته رحمه الله: كل آدمي فقد أقر على نفسه بأن الله حي وأنا أعبد، فمن أشرك في عبادته فهذا الذي أسلم كرهاً، ومن أخلص بهذا الذي أسلم طوعاً. وقال ابن عباس: بل إسلام الكاره منهم كان حين أخذ الميثاق. وروي عن مجاهد أنه قال: الكره في هذه الآية هو بسجود ظل الكافر، فيسجد المؤمن طوعاً ويسجد ظل الكافر وهو كاره. وقال الشعبي: الآية عبارة عن استفادة جميع البشر لله وإذعانهم لقدوته وإن نسب بعضهم الألوهية إلى غيره، وذلك هو الذي يسجد كرهاً؛ وهذا هو قول مجاهد وأبي العالية المتقدم وإن اختلفت العبارات. وقال الحسن بن أبي الحسن: معنى الآية أنه أسلم قوم طوعاً، وأسلم قوم خوف السيف. وقال مطر الوراق: أسلمت الملائكة طوعاً، وكذلك الأنصار وبنو سليم وعبد القيس، وأسلم سائر الناس كرهاً حذر القتال والسيف. وهذا قول الإسلام فيه هو الذي في ضمنه الإيمان، والآية ظاهرها العموم ومعناها الخصوص، إذ من أهل الأرض من لم يُسَلِّمْ طوعاً ولا كرهاً على هذا الحد. وقال قتادة: الإسلام كرهاً هو إسلام الكافر عند الموت والمعاناة حيث لا يتنفع. ويلزم على هذا أن كل كافر يفعل ذلك، وهذا غير موجود إلا في أفراد، والمعنى في هذه الآية يفهم كل ناظر أن هذا

بنته... الآية. فهذه إشارة إلى نسخ.

وقوله: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ متعلق بمقدر، تقديره: خاسر في الآخرة، لأن الألف واللام في الخاسرين في معنى الموصول. وقال بعض المفسرين: إن قوله: ﴿وَمَن يَبْتَغِ﴾ ... الآية، نزلت في الحارث بن سويد، ولم يذكر ذلك الطبري.

﴿٨٤﴾ - ﴿٨٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس: نزلت هذه الآيات من قوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ في الحارث بن سويد الأنصاري، كان مسلماً ثم ارتد ولحق بالشرك، ثم ندم فأرسل إلى قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ: هل لي من توبة؟ قال: فتزلت ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ ... الآيات إلى قوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾،

فأرسل إليه قومه فأسلم. وقال مجاهد: حمل الآيات إليه رجل من قومه فقرأها عليه، فقال له الحارث: إنك والله لما علمت لصدوق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة. قال: فرجع الحارث فأسلم وحسن إسلامه. وقال السدي: نسخ الله تعالى بقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾. وفي هذه العبارة تجوز كثير، وليس هذا بموضع نسخ.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في أبي عامر الراهب والحارث بن سويد بن الصامت ووحوح بن الأسلت في اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقرش ثم كتبوا إلى أهلهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت هذه الآيات. وقال ابن عباس أيضاً والحسن بن أبي الحسن: إن هذه الآيات نزلت في اليهود والنصارى، شهدوا بنعت الرسول ﷺ وأمتوا به، فلما جاء من العرب حسدوه، وكفروا به، ورجح الطبري هذا القول، وقال النقاش: نزلت هذه الآيات في طعيمة بن أبيرق. وكل من ذكر فالفاء الآية تَعَمَّهُ.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ﴾ سؤال عن حال، لكنه سؤال توقيف على جهة الاستبعاد للأمر، كما قال عليه السلام: «كيف تفلح أمة أدت وجة نبيها؟» فالمعنى: إنهم لشدة هذه الجرائم يبعد أن يهديهم الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿رَشَهُدًا﴾ عطف على ﴿كَذَرًا﴾ بحكم اللفظ،

والمعنى مفهوم أن الشهادة قبل الكفر، والواو لا ترتب. وقال قوم: معنى قوله: ﴿بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾: بعد أن آمنوا، فقوله: ﴿رَشَهُدًا﴾ عطف على هذا التقدير.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن حتم كفره وموافاته عليه، ويحتمل أن يريد الإخبار عن أن الظالم في ظلمه ليس على هدى من الله، فتجيء الآية عامة تامة العموم. واللعنة: الإبعاد وعدم الرحمة والعطف، وذلك مع قرينة الكفر زعيم بتخليدهم في النار، ولعنة الملائكة: قول: ﴿وَالنَّاسِ﴾: بنو آدم، ويظهر من كلام أبي علي الفارسي في بعض تعاليقه أن الجن يدخلون في لفظه الناس، وأنشد على ذلك:

فقلتُ إلى الطعام فقال منهم
أناسٌ نحسدُ الإنسانَ طعاماً
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والذي يظهر أن لفظه (الناس) إذا
جاءت مطلقة فإنما هي في كلام
العرب بنو آدم لا غير، فإذا جاءت
مقيدة بالجن فذلك على طريقة
الاستعارة، إذ هي جماعة كجماعة،
وكذلك: ﴿يَسْأَلُ مِنَ الْجِنِّ﴾ وكذلك:
﴿نَقَرَ مِنَ الْجِنِّ﴾، ولفظة النفر أقرب
إلى الاشتراك من رجال وناس،
وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾
قاصٍ ببيان الصنفين.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ إما أن يكون لمعنى الخصوص في المؤمنين سماهم الناس إذ هم المعول عليه، وإما أن يريد أنهم في

الآخرة يلعنهم المؤمنون ويلعن بعضهم بعضاً، فيجيء من هذا في كل شخص منهم أن لعنه جميع الناس، وإما أن يريد أن هذه اللعنة تقع في الدنيا من جميع الناس على من هذه صفة. وكل من هذه صفة - وقد أغواه الشيطان - يلعن صاحب الصفات ولا يشعر من نفسه أنه متصف بها، فيجيء من هذا أنهم يلعنهم جميع الناس في الدنيا حتى إنهم ليلعنون أنفسهم، لكن على غير تعيين.

والضمير في قوله: ﴿خَلْدِينَ فِيهَا﴾ قال الطبري: يعود على عقوبة الله التي يتضمنها معنى اللعنة. وقال قوم من المفسرين: الضمير عائد على اللعنة. وقرائن الآية تقتضي أن هذه اللعنة مخلدة لهم في جهنم، فالضمير عائد على النار، وإن كان لم يجز لها ذكر، لأن المعنى يفهمها في هذا الموضع، كما يفهم قوله تعالى: ﴿كُلٌّ مِّنْ عَنَّا قَاتِلٌ﴾ أنها الأرض. وقد قال بعض الخراسانيين في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ مِّنْ بَحْثِنَا﴾: إن الضمير عائد على النار.

و﴿يُنظَرُونَ﴾ في هذه الآية، بمعنى: يؤخرون، ولا راحة إلا في التخفيف أو التأخير فهما مرتفعان عنهم، ولا يجوز أن يكون ﴿يُنظَرُونَ﴾ هنا من نظر العين إلا على توجيه غير فصيح لا يليق بكتاب الله تعالى.

وقوله عز وجل: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾ استثناء متصل بين ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ بَدَأَ ذَلِكُمْ﴾ والتوبة: الرجوع،

والإصلاح عام في القول والعمل .
وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾
وعد؛ وقرأ الحسن بن أبي الحسن:
﴿والناس أجمعون﴾ .

﴿٩٠﴾ - ﴿٩١﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في كيف يترتب
كفر بعد إيمان، ثم زيادة كفر، فقال
الحسن وقتادة وغيرهما: الآية في
اليهود، كفروا بعبسى بعد الإيمان
بموسى ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ؛
وفي هذا القول اضطراب، لأن الذي
كفر بعبسى بعد الإيمان بموسى ليس
بالذي كفر بمحمد ﷺ، فالآية على
هذا التأويل تخلط الأسلاف
بالمخاطبين .

وقال أبو العالية رفيع: الآية في
اليهود، كفروا بمحمد ﷺ بعد
إيمانهم بصفاته وإقرارهم أنها في
التوراة، ثم ازدادوا كفراً بالذنوب
التي أصابوها في خلاف النبي ﷺ،
من الافتراء والبهت والسعي على
الإسلام وغير ذلك . وعلى هذا
الترتيب يدخل في الآية المرتدون
اللاحقون بقرش وغيرهم .

وقال مجاهد: معنى قوله: ﴿ثُمَّ
ازْدَادُوا كُفْرًا﴾ أي تموا على كفرهم
وبلغوا الموت به . فيدخل في هذا
القول اليهود والمرتدون . وقال
السدي نحوه .

ثم أخبر تعالى أن توبة هؤلاء لن
تقبل، وقد قررت الشريعة أن توبة
كل كافر تقبل، سواء كفر بعد إيمان
وازداد كفراً، أو كان كافراً من أول
أمره، فلا بد في هذه الآية من
تخصيص تُحْمَلُ عليه ويصح به نفي

قبول التوبة، فقال الحسن وقتادة
ومجاهد والسدي: نفي قبول توبتهم
مختص بوقت الحشرجة والفرغرة
والمعانية، فالمعنى: لن تقبل توبتهم
عند المعانية؛ وقال أبو العالية: معنى
الآية: لن تقبل توبتهم من تلك
الذنوب التي أصابوها مع إقامتهم
على الكفر بمحمد ﷺ، فإنهم كانوا
يقولون في بعض الأحيان: نحن
نتوب من هذه الأفعال وهم مقيمون
على كفرهم، فأخبر الله تعالى أنه لا
يقبل تلك التوبة .

وتحتمل الآية عندي أن تكون إشارة
إلى قوم بأعيانهم من المرتدين
ختم الله عليهم بالكفر، وجعل ذلك
جزاء لجريماتهم ونكايتهم في الدين،
وهم الذين أشار إليهم بقوله: ﴿كَيْفَ
يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا﴾ فأخبر عنهم أنهم لا
تكون لهم توبة فيتصور قبولها،
فتجىء الآية بمنزلة قول الشاعر:

على لاحبٍ لا يُهْتَدَى بِمَنَارِهِ

أي: قد جعلهم الله من سخطه في
حيزٍ من لا تقبل له توبة إذ ليست
لهم، فهم لا محالة يموتون على
الكفر . ولذلك بين حكم الذين
يموتون كفاراً بعقب الآية، فبانت
منزلة هؤلاء، فكانه أخير عن هؤلاء
المعنيين أنهم يموتون كفاراً، ثم أخبر
الناس عن حكم من يموت كافراً .
﴿وَالسَّارُونَ﴾ المخطئون الطريق القويم
في الأقوال والأفعال . وقرأ عكرمة:
﴿لَنْ تُقْبَلَ﴾ بنون العظمة ﴿تُوبَتِهِمْ﴾
بنصب التاء .

وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ

كُفْرًا﴾ . . . الآية، جزم للحكم على
كل مواف على الكفر إلى يوم
القيامة .

وقرأ عكرمة: ﴿فَلَنْ تُقْبَلَ﴾ بنون
العظمة ﴿مِلَّةَ الْأَرْضِ﴾ بالنصب،
والجلاء: ما شحن به الوعاء، فهو
بكسر الميم: الاسم، وبفتحتها:
المصدر، تقول ملأت الشيء أمْلأه
مَلْتًا، والمَلءُ: اسم ما ملأت به .
وقرأ أبو جعفر بن القعقاع وأبو
السمال: (مِل) دون همزة، ورويت
عن نافع: ﴿وَهَبًا﴾ نصب على
التمييز . وقرأ ابن أبي عملة: ﴿ذَقْبًا
لو افْتَدَى بِهِ﴾ دون واو .

واختلف الناس في هذه الآية في
قوله: ﴿وَلَوْ أَقْنَنَّا﴾؛ فقال الطبري:
هي متعلقة بمحذوف في آخر الكلام
دل عليه دخول الواو، كما دخلت
في قوله: ﴿وَلْيَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾
لمتروك من الكلام، تقديره: وليكون
من الموقنين أريناه ملكوت السموات
والأرض؛ وفي هذا التمثيل نظر
فتأمله . وقال الزجاج: المعنى: لن
يقبل من أحدهم إنفاقه وتقرباته في
الدنيا ولو أنفق ملة الأرض ذهباً ولو
افتدى به أيضاً في الآخرة لم يقبل
منه، قال: فأعلم أنه لا يثيبهم على
أعمالهم من الخير، ولا يقبل منهم
الافتداء من العذاب؛ وهذا قول
حسن . وقال قوم: الواو زائدة،
وهذا قول مردود . ويحتمل أن يكون
المعنى نفي القبول جملة على كل
الوجوه، ثم خص من تلك الوجوه
أليقها وأحراها بالقبول، كما تقول:
أنا لا أفعل لك كذا بوجه ولو رغبت
إلي؛ وباقى الآية وعيد بين .

يشتهي أكل السكر باللوز فكان يشتري ذلك ويتصدق به ويتلو الآية. وإذا تأملت جميع الطاعات وجدتها إنفاقاً مما يحب الإنسان، إما من ماله، وإما من صحته، وإما من دعته وترفئه، وهذه كلها محبوبات. وسأل رجل أبا ذر الغفاري رضي الله عنه، أي الأعمال أفضل؟ فقال: الصلاة عماد الإسلام، والجهد سنام العمل، والصدقة شيء عجيب، فقال له الرجل: أراك تركت شيئاً وهو أوثقها في نفسي: الصيام، فقال أبو ذر: قربة، وليس هناك، ثم تلا: ﴿لَنْ نَنفِقُوا إِلَيْكَ... الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ﴾ فإنك الله يه عليه شرط وجواب فيه وعد، أي: عليم مجاز به وإن قل.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ... الآية، إخبار بمغيب عن محمد ﷺ وجميع الأميين لا يعلمه إلا الله وعلماء أهل الكتاب.

وذهب كثير من المفسرين إلى أن معنى الآية: الرد على اليهود في قولهم في كل ما حرموه على أنفسهم من الأشياء: إنها محرمة عليهم بأمر الله في التوراة، فأكذبهم الله بهذه الآية، وأخبر أن جميع الطعام كان حلالاً لهم إلا ما حرم إسرائيل على نفسه خاصة ولم يرد به ولده، فلما استنواهم به جاءت التوراة بتحريم ذلك عليهم، وليس من التوراة شيء من الزوائد التي يدعون أن الله حرمها، وإلى هذا تنحو ألفاظ السدي، قال: إن الله تعالى حرم ذلك عليهم في التوراة عقوبة

البر: الجنة؛ وهذا تفسير بالمعنى، وإنما الخاص باللفظة أنه ما يفعله البر من أفاعيل الخير، فتحتمل الآية أن يريد: لن تنالوا بر الله تعالى بكم، أي رحمته ولطفه، ويحتمل أن يريد: لن تنالوا درجة الكمال من فعل البر حتى تكونوا أبراراً إلا بالإِنفاق المنضاف إلى سائر أعمالكم.

وبسبب نزول هذه الآية تصدق أبو طلحة بحائطه، المسمى بيرحا، وتصدق زيد بن حارثة بفرس كان يحبها، فأعطاهما

رسول الله ﷺ أسامة ابنه، فكان زيداً شق عليه فقال له النبي: «أما إن الله قد قبل صدقتك». وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري أن يشتري له جارية من سبي جلولاء وقت فتح مدائن كسرى على يدي سعد بن أبي وقاص، فسقيت إليه وأحبها فدعا بها يوماً وقال: إن الله يقول: ﴿لَنْ نَنفِقُوا إِلَيْكَ بِشَيْءٍ مِّنَّا نُحِبُّهُ﴾ فاعتقها. فهذا كله حمل للآية على أن قوله تعالى: ﴿وَمَا نُحِبُّهُ﴾ أي: من رغائب الأموال يُضن بها، ويتفسر بقول النبي ﷺ: «خير الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تخشى الفقر وتأمل الغنى... الحديث. وذهب قوم من العلماء إلى أن ما يحب من المطعومات على قدر الشهاء يدخل في الآية، فكان عبدالله بن عمر

لَنْ نَنفِقُوا إِلَيْكَ بِشَيْءٍ مِّنَّا نُحِبُّهُ وَمَا نُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِ كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَائِلَ بَيْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٢﴾ مَن أَفْرَأَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذْبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ قُلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٩٣﴾ قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنْ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٥﴾ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُزَيَّرُ بِهِمْ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مِنْ ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَنَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَنظُرُوا قُرْبَانًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ﴿٩٩﴾

٩٢ - ٩٣ تفسير قوله عز وجل:

ذهب بعض الناس إلى أن يصل معاني هذه الآيات بعضها ببعض، من حيث أخبر تعالى أنه لا يقبل من المواثي على الكفر ملء الأرض ذهباً، وقد بان أنه يقبل من المؤمن القليل والكثير، فحض على الإنفاق من المحبوب المرغوب فيه، ثم ذكر تقرب إسرائيل عليه السلام بتحريم ما كان يحب على نفسه، ليدل تعالى على أن جميع التقربات تدخل بالمعنى في جملة الإنفاق من المحبوب. وفسر جمهور المفسرين هذه الآيات على أنها معان منحازة، نظمتها الفصاحة المعجزة أجمل نظم.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَنفِقُوا... الآية، خطاب لجميع المؤمنين؛ وقال السدي وعمر بن ميمون:

لاستئنائهم في تحريم شيء إنما فعله يعقوب خاصة لنفسه، قال: فذلك قوله تعالى: ﴿فَيُظَلِّمُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا كَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبِئَتْ أُغْلَّتْ لَهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر في لفظة الظلم أنها مختصة بتحريم ونحوه، يدل على ذلك أن العقوبة وقعت بذلك النوع.

وذهب قوم من العلماء إلى أن معنى الآية: الرد على قوم من اليهود قالوا: إن ما نحرمة الآن على أنفسنا من الأشياء التي لم تذكر في التوراة كان علينا حراماً في ملة أبينا إبراهيم، فأكذبهم الله وأخبر أن الطعام كله كان حلالاً لهم قبل التوراة إلا ما حرم إسرائيل في خاصته، ثم جاءت التوراة بتحريم ما نصت عليه، وبقيت هذه الزوائد في حيز افترائهم وكذبهم؛ وإلى هذا تنحو ألفاظ ابن عباس رضي الله عنه، وترجم الطبري في تفسير هذه الآية بتراجم، وأدخل تحتها أقوالاً توافق تراجمه، وحمل ألفاظ الضحاك أن الاستثناء منقطع وكان المعنى: كل الطعام كان حلالاً لهم قبل نزول التوراة وبعد نزولها، وهذا شيء لم يقله الضحاك ولا يحتمله لفظه، لكنه في نفسه كلام متخرج على أن يجعل ﴿كَانَ﴾ لا تخص الماضي من الزمان، بل تكون بمنزلة التي في قولك: «وَكَانَ اللَّعْنُ غُفُوراً رَحِيماً»؛ والمعنى: إلا ما حرم إسرائيل على نفسه فحرم عليهم في التوراة لا هذه الزوائد التي افتروها، فيرجع المعنى إلى القول الأول الذي حكيناه. وحمل الطبري قول الضحاك أن

معناه: لكن إسرائيل حرم على نفسه خاصة ولم يحرم الله على بني إسرائيل في تورا ولا غيرها. وهذا تحمیل يرد عليه قوله تعالى: ﴿حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ﴾ وقوله ﷺ: «حرمت عليهم الشحوم» إلى غير ذلك من الشواهد. وقوله تعالى: ﴿حَلَالًا﴾ معناه: حلالاً، و﴿إِسْرَائِيلَ﴾ هو يعقوب. وانتزع من هذه الآية أن للأنبياء أن يحرموا باجتهادهم على أنفسهم ما اقتضاه النظر لمصلحة أو قرينة أو زهد، ومن هذا على جهة المصلحة تحريم النبي ﷺ جاريته على نفسه، فعاتبه الله تعالى في ذلك ولم يعاتب يعقوب، فقيل: إن ذلك لحق آدمي ترتب في نازلة نبينا محمد ﷺ، وقيل: إن هذا تحريم تقرب وزهد، وتحريم الجارية تحريم غضب ومصالحة نفوس.

واختلف الناس في الشيء الذي حرمه يعقوب على نفسه؛ فقال يوسف بن ماهك: جاء أعرابي إلى ابن عباس فقال له: إنه جعل امرأته عليه حراماً، فقال ابن عباس: إنها ليست عليك بحرام، فقال الأعرابي: ولم والله تعالى يقول في كتابه: ﴿إِلَّا مَا حَرَّمَ لِإِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ﴾؟ فضحك ابن عباس وقال: وما يدريك ما حرم إسرائيل؟ ثم أقبل على القوم يحدثهم فقال: إن إسرائيل عرضت له الأنساء فأضته فجعل لله إن شفاه من ذلك ألا يطعم عرقاً، قال: فلذلك اليهود تنزع العروق من اللحم، وقال يمثل هذا القول قتادة وأبو مجلز وغيرهم.

وقال ابن عباس والحسن بن أبي

الحسن وعبدالله بن كثير ومجاهد أيضاً: إن الذي حرم إسرائيل هو لحوم الإبل والبانها، ولم يختلف فيما علمت أن سبب التحريم هو مرض أصابه، فجعل تحريم ذلك شكراً لله تعالى إن شفي. وقيل: هو وجع عرق النساء. وفي حديث عن النبي ﷺ أن عصابة من بني إسرائيل قالوا له: يا محمد ما الذي حرم إسرائيل على نفسه؟ فقال لهم: «أنشدكم بالله هل تعلمون أن يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه، فنذر لله نذراً إن عافاه الله من سقمه ليحرم من أحب الطعام والشراب إليه، وكان أحب الطعام إليه لحوم الإبل والبانها؟ قالوا: اللهم نعم».

وظاهر الأحاديث والتفاسير في هذا الأمر أن يعقوب عليه السلام حرم لحوم الإبل والبانها - وهو يحبها - تقرباً إلى الله بذلك، إذ ترك الترفه والتنعم من القرب، وهذا هو الزهد في الدنيا، وإليه نحا عمر بن الخطاب رضي الله عنه بقوله: «إياكم وهذه المجازر فإن لها ضراوة كضراوة الخمر» ومن ذلك قول أبي حازم الزاهد، وقد مر بسوق الفاكهة فرأى محاسنها فقال: موعدك الجنة إن شاء الله، وحرم يعقوب عليه السلام أيضاً العروق، لكن بغضه لها لما كان امتحن بها، وهذا شيء يعترى نفوس البشر في غير ما شيء، وليس في تحريم العروق قرينة فيما يظهر، والله أعلم. وقد روي عن ابن عباس أن يعقوب حرم العروق ولحوم الإبل.

وأمر الله نبيه محمداً ﷺ أن يأمرهم

بالإتيان بالتوراة، حتى يبين منها كيف الأمر، المعنى: فإنه أيها اليهود، كما أنزل الله عليّ لا كما تدعون أنتم؛ قال الزجاج: وفي هذا تعجيزٌ لهم وإقامة الحججة عليهم، وهي كقصة المباحلة مع نصارى نجران.

(٩٤) - (٩٦) تفسير قوله عز وجل:

قوله: ﴿فَمَنْ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ مِنْ بَدِّ ذَٰلِكَ﴾ تحتل الإشارة بـ ﴿ذَٰلِكَ﴾ أن تكون إلى ثلاثة أشياء:

أحدهما: أن تكون إلى التلاوة إذ مضئها بيان المذهب وقيام الحججة، أي: فمن كذب منا على الله تعالى أو نسب إلى كتب الله ما ليس فيها فهو ظالم، واضع الشيء في غير موضعه.

والآخر: أن تكون الإشارة إلى استقرار التحريم في التوراة، لأن معنى الآية: كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه، ثم حرمة التوراة عليهم عقوبة لهم، فمن افتري على الله الكذب وزاد في المحرمات فهو الظالم.

والثالث: أن تكون الإشارة إلى الحال بعد تحريم إسرائيل على نفسه وقبل نزول التوراة، أي: من تسنن بيعقوب وشرع ذلك دون إذن من الله، ومن حرم شيئاً ونسبه إلى ملة إبراهيم فهو الظالم. ويؤيد هذا الاحتمال الأخير قوله تعالى: ﴿يَقُولُ يَزِ الْأَيْتِ هَادُوا حَرَمْنَا عَلَيْهِمْ طَيْبَاتٍ أُجِلَّتْ لَكُمْ فنص على أنه كان لهم ظلم في معنى التحليل والتحريم،

وكانوا يشددون فشدد الله عليهم، كما فعلوا في أمر البقرة. وبخلاف هذه السيرة جاء الإسلام في قوله ﷺ: «يسروا ولا تعسروا»، وقوله: «دين الله يسر» وقوله: «بعثت بالحنيفية السمحة».

ثم أمر الله تعالى نبيه أن يصدع بالخلاف والجدال مع الأخبار بقوله: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ أي: الأمر كما وصف لا كما تكذبون أنتم، فإن كنتم تعتزون بإبراهيم فاتبعوا ملته على ما ذكر الله.

وقرأ أبان بن تغلب: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾ بإدغام اللام في الصاد، وكذلك: ﴿قُلْ سِيرُوا﴾ قرأها بإدغام اللام في السين. قال أبو الفتح: علة جواز ذلك فشئ هذين الحرفين في الفم وانتشار الصدى المنبث عنهما، فقاربتا بذلك مخرج اللام، فجاز إدغامهما فيهما. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَضِعْ﴾ على بناء الفعل للمفعول على معنى: وضعه الله، فالآية على هذا ابتداء معنى منقطع من الكلام الأول. وقرأ عكرمة: ﴿وَضِعْ﴾ بفتح الواو والضاد، فيحتمل أن يريد: وضع الله، فيكون المعنى منقطعاً كما هو في قراءة الجمهور. ويحتمل أن يريد وضع إبراهيم عليه السلام، فيكون المعنى متصلاً بالذي قبله، وتكون هذه الآية استدعاء لهم إلى ملته في الحج وغيره على ما روى عكرمة أنه لما نزلت: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا﴾... الآية، قال اليهود: نحن على الإسلام، فقرئت: ﴿وَرَبُّهُ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ﴾ قيل له: أحجهم

يا محمد إن كانوا على ملة إبراهيم التي هي الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد هذا التأويل ما قال أبو ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت: كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة»، فيظهر من هذا أنهما من وضع إبراهيم جميعاً، ويضعف ما قال الزجاج من أن بيت المقدس من بناء سليمان بن داود، اللهم إلا أن يكون جدده، وأين مدّة سليمان من مدة إبراهيم؟ ولا مرية في أن إبراهيم وضع بيت مكة، وإنما الخلاف هل وضع بدأه أو وضع تجديداً؟

واختلف المفسرون في معنى هذه «الأولية» التي في قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ﴾؛ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: معنى قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ﴾ بيت وضع مباركاً وهدى هذا البيت الذي بمكة، وقد كانت قبله بيوت لم توضع وضعه من البركة والهدى. وقال قوم: بل هو أول بيت خلق الله تعالى ومن تحته دجيت الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورويت في هذا أقاصيص من نزول آدم به من الجنة ومن تحديد حد ما بين خلقه ودحو الأرض، ونحو ما قال الزجاج من أنه البيت المعمور، أساسيتها ضعاف فلذلك تركتها. وعلى هذا القول يجيء رفع إبراهيم القواعد تجديداً؛ وقال قتادة: ذكر لنا أن البيت أهبط مع آدم ورفع وقت الطوفان.

واختلف الناس في ﴿بِكَّة﴾؛ فقال الضحاك وجماعة من العلماء: بكة: هي مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن هذا من إبدال الباء بالميم، على لغة مازن وغيرهم.

وقال ابن جبير وابن شهاب وجماعة كثيرة من العلماء: مكة: الحرم كله، وبكة: مزدحم الناس حيث يتباكون، وهو المسجد وما حول البيت. وقال مالك في سماع ابن القاسم من العتبية: بكة: موضع البيت، ومكة: غيره من المواضع؛ قال ابن القاسم: يريد القرية. قال الطبري: ما خرج عن موضع الطواف فهو مكة لا بكة. وقال قوم: بكة: ما بين الجليلين، ومكة: الحرم كله.

و﴿مَبَارَكًا﴾ نصب على الحال، والعامل فيه على قول علي بن أبي طالب إنه أول بيت وضع بهذه الحال - قوله: ﴿وَضِعَ﴾، والعامل فيه على القول الآخر - الفعل الذي تتعلق به باء الجر في قوله: ﴿بِكَّة﴾ تقديره: استقرَّ ببكة مباركاً. وفي وصف البيت بهدى مجازية بليغة، لأنه مقوم مصلح، فهو مرشد، وفيه إرشاد، فجاء قوله: ﴿وَهْدَى﴾ بمعنى: وذا هدى، ويحتمل أن يكون هدىً في هذه الآية بمعنى الدعاء، أي من حيث دعي العالمون إليه.

﴿٩٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿فِيهِ﴾ عائذ على البيت، وساغ ذلك مع كون الآيات خارجة عنه لأن البيت إنما وضع بحرمه، وجميع فضائله فهي فيه وإن لم تكن داخل جدرانه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنذًا بَيْنَتْ﴾ بالجمع، وقرأ أبي بن كعب وعمر وابن عباس: ﴿آيَةً بَيْنَتْ﴾ على الأفراد، قال الطبري: يريد علامة واحدة؛ المقام وحده، وحكي ذلك عن مجاهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد بالآية اسم الجنس فيقرب من معنى القراءة الأولى.

واختلفت عبارة المفسرين عن الآيات البينات؛ فقال ابن عباس: من الآيات المقام، يريد الحجر المعروف والمشعر وغير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يدل على أن قراءته ﴿آيَةً﴾ بالأفراد إنما يراد بها اسم الجنس.

وقال الحسن بن أبي الحسن: الآيات البينات مقام إبراهيم، وأن من دخله كان آمناً. وقال مجاهد: المقام الآيَة، وقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ كلام آخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فرفع ﴿مَقَامًا﴾ على قول الحسن ومجاهد - على البذل من ﴿آيَاتٍ﴾، أو على خبر ابتداء تقديره: من مقام إبراهيم، وعلى قول ابن عباس ومن نحا نحوه - هو مرتفع بالابتداء وخبره محذوف مقدر تقديره: منهن مقام إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمترجح عندي أن المقام وأمن الداخل جملاً مثلاً مما في حرم الله من الآيات، وخُصَّ بالذكر لعظهما، وأنهما تقوم بهما الحججة على الكفار، إذ هم المدركون لهاتين الآيتين بحواسهم. ومن آيات الحرم

والبيت التي تقوم بها الحججة على الكفار أمر الفيل، ورمي طير الله عنه بحجارة السجيل، وذلك أمر لم تختلف كافة العرب في نقله وصحته إلى أن أنزله الله في كتابه. ومن آياته كف الجبابة عنه على وجه الدهر.

ومن آياته الحجر الأسود وما روي فيه أنه من الجنة، وما أشربت قلوب العالم من تعظيمه قبل الإسلام. ومن آياته حجر المقام، وذلك أنه قام عليه إبراهيم عليه السلام وقت رفعه القواعد من البيت لما طال البناء، فكلما علا الجدار ارتفع الحجر به في الهواء، فما زال يبني وهو قائم عليه وإسماعيل يناوله الحجارة والطين حتى أكمل الجدار، ثم إن الله تعالى لما أراد إبقاء ذلك آية للعالمين لئن الحجر، ففرقت فيه قدما إبراهيم عليه السلام كأنها في طين، فذلك الأثر العظيم باق في الحجر إلى اليوم. وقد نقلت كافة العرب ذلك في الجاهلية على مرور الأعصار، وقال أبو طالب:

وَمَوْطِئُ إِبْرَاهِيمَ فِي الصَّخْرِ رَطْبَةٌ
عَلَى قَدَمَيْهِ حَافِيًا غَيْرَ نَاعِلٍ
فَمَا حَفِظَ أَنْ أَحَدًا مِنَ النَّاسِ نَازِعٍ
فِي هَذَا الْقَوْلِ. وَمِنْ آيَاتِهِ الْبِنَاتُ
زَمَزَمَ فِي نَبْعِهَا لَهَا جِرْ بِهَمَزِ جَبْرِيلَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ الْأَرْضَ بَعْقِيهِ، وَفِي حَفْرِ
عَبْدِ الْمَطْلَبِ لَهَا آخِرًا بَعْدَ دَنُورِهَا
بِتِلْكَ الرَّوْيَا الْمَشْهُورَةِ، وَيَمَا نَبْعَ مِنَ
الْمَاءِ تَحْتَ خَفِّ نَاقَتِهِ فِي سَفَرِهِ، إِلَى
مَنَاقِرَةِ قَرِيشٍ وَمَخَاصِمَتِهَا فِي أَمْرِ
زَمَزَمَ، ذَكَرَ ذَلِكَ ابْنُ إِسْحَاقَ
مَسْتَوْعِبًا، وَمِنْ آيَاتِ الْبَيْتِ نَفْعُ مَاءِ
زَمَزَمَ لِمَا شَرِبَ لَهُ، وَأَنَّهُ يَعْظُمُ مَاؤُهَا

في الموسم ويكثر كثرة خارقة للعادة في الآبار. ومن آياته: الأمانة الثابتة فيه على قديم الدهر، وأن العرب كانت يغيّر بعضها على بعض وَيَتَخَطَّفُ النَّاسُ بِالْقَتْلِ وَأَخِذِ الْأُمُومَالِ وَأَنْوَاعِ الظُّلْمِ إِلَّا فِي الْحَرَمِ؛ وَتَرَكَّبَ عَلَى هَذَا أَمْنُ الْحَيَوَانِ فِيهِ وَسَلَامَةُ الشَّجَرِ، وَذَلِكَ كُلُّهُ لِلْبِرْكَةِ الَّتِي خَصَّهُ اللَّهُ بِهَا، وَالدَّعْوَةُ مِنَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامِ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَجْمَلْ هَذَا أَبَلَدَ آيَاتٍ﴾. وَإِذْعَانُ نَفُوسِ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ قَاطِبَةً لِتَوْقِيرِ هَذِهِ الْبِقْعَةِ دُونَ نَاهٍ وَلَا زَاجِرِ آيَةٍ عَظْمَى تَقُومُ بِهَا الْحُجَّةُ، وَهِيَ الَّتِي فَسَّرَتْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آيَاتًا﴾. وَمِنْ آيَاتِهِ كَوْنُهُ بِوَادِ غَيْرِ ذِي زُرْعٍ وَالْأَرْزَاقِ مِنْ كُلِّ قَطْرِ تَجِيءٍ إِلَيْهِ عَنِ قَرَبٍ وَعَنْ بَعْدٍ. وَمِنْ آيَاتِهِ مَا ذَكَرَ ابْنُ الْقَاسِمِ الْعَتَقِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ، قَالَ فِي النُّوَادِرِ وَغَيْرِهَا: سَمِعْتُ أَنَّ الْحَرَمَ يَعْرِفُ بِأَنْ لَا يَجِيءُ سَبِيلٌ مِنَ الْحَلِّ فَيَدْخُلُ الْحَرَمَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا - والله أعلم - لأن الله تعالى جعله ربوة أو في حكمها ليكون أصون له، والحرم - فيما حكى ابن أبي زيد في الحج الثاني من النوادر - مما يلي المدينة نحواً من أربعة أميال إلى منتهى التنعيم، ومما يلي العراق نحو ثمانية أميال إلى مكان يقال له المقطع، ومما يلي عرفة تسعة أميال، ومما يلي طريق اليمن سبعة أميال إلى موضع يقال له أضاة، ومما يلي جدة عشرة أميال إلى منتهى الحديدية. قال مالك في العتبية: والحديدية في الحرم.

ومن آياته فيما ذكر مكى وغيره أن الطير لا تعلقه، وإن علاه طائر فإنما ذلك لمرض به، فهو يستشفى بالبيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله عندي ضعيف، والطير تعابن تعلقه، وقد علت العقاب التي أخذت الحية المشرفة على جداره، وتلك كانت من آياته.

ومن آياته فيما ذكر الناس قديماً وحديثاً أنه إذا عمه المطر من جوانبه الأربع في العام الواحد أخضبت آفاق الأرض، وإن لم يُصَبْ جانباً منه لم يخضب ذلك الأفق الذي يليه ذلك العام.

واختلف الناس في مقام إبراهيم؛ فقال الجمهور: هو الحجر المعروف، وقال قوم: البيت كله مقام إبراهيم لأنه بناه وقام في جميع أقطاره، وقال قوم من العلماء: مكة كلها مقام إبراهيم، وقال قوم: الحرم كله مقام إبراهيم. والضمير في قوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ عائذ على الحرم في قول من قال: مقام إبراهيم هو الحرم، وعائذ على البيت في قول الجمهور، إذ لم يتقدم ذكر لغيره، إلا أن المعنى يفهم منه أن من دخل الحرم فهو في الأمن، إذ الحرم جزء من البيت، إذ هو بسببه وبحرمته.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿كَانَ آيَاتًا﴾؛ فقال الحسن وقتادة وعطاء ومجاهد وغيرهم: هذه وصف حال كانت في الجاهلية أن الذي يجر جريرة ثم يدخل الحرم فإنه كان لا يتناول ولا يطلب، فأما في الإسلام وأمن جميع الأقطار فإن

الحرم لا يمتنع من حد من حدود الله: من سرق فيه قطع، ومن زنى رجم، ومن قتل قتل. واستحسن كثير ممن قال هذا القول أن يُخْرَجَ من وجب عليه القتل إلى الجبل فيقتل هنالك. وقال ابن عباس رضي الله عنه: من أحدث حدثاً ثم استجار بالبيت فهو آمن، وإن الأمر في الإسلام على ما كان في الجاهلية، والإسلام زاد البيت شرفاً وتوقيراً، فلا يعرض أحد بمكة لقاتل وليه، إلا أنه يجب على المسلمين ألا يبايعوا ذلك الجاني ولا يكلموه ولا يؤووه حتى يتبرم فيخرج من الحرم فيقام عليه الحد. وقال بمثل هذا عبيد بن عمير والشعبي وعطاء بن أبي رباح والسدي وغيرهم؛ إلا أن أكثرهم قالوا هذا فيمن يقتل خارج الحرم ثم يعود بالحرم، فأما من يقتل في الحرم فإنه يقام عليه الحد في الحرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا تومل أمر هذا الذي لا يكلم ولا يبايع، فليس بأمن.

وقال يحيى بن جعدة: معنى الآية: ومن دخل البيت كان آمناً من النار. وحكى النقاش عن بعض العباد قال: كنت أطوف حول الكعبة ليلاً فقلت: يا رب إنك قلت: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آيَاتًا﴾ فمن ماذا هو آمن يا رب؟ فسمعتُ مكلماً يكلمني وهو يقول: من النار، فنظرت وتأملت فما كان في المكان أحد.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾... الآية، هو فرض الحج في كتاب الله بإجماع. وقال مالك

رحمه الله: الحج كله في كتاب الله، فأما الصلاة والزكاة فهي من مجمله الذي فسره النبي عليه السلام، والحج من دعائم الإسلام التي بني عليها حسب الحديث، وشروط وجوبه خمسة: البلوغ، والعقل، والحرية، والإسلام، واستطاعة السبيل. والحج في اللغة: القصد، لكنه في بيت الله مخصص بأعمال وأقوال.

وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم: ﴿حَجَّ الْبَيْتِ﴾ بكسر الحاء، وقرأ الباقر: ﴿حَجَّ الْبَيْتِ﴾ بفتحها. قال سيويه: حَجَّ حَجًّا مثل ذَكَرَ ذِكْرًا، قال أبو علي: فَحَجَّ عَلَى هذا مصدر، وقال سيويه أيضاً: قالوا غزاة فأرادوا عمل وجه واحد كما قيل جِزَّة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: - بكسر الحاء، يريدون عمل سنة واحدة - ولم يجيئوا به على الأصل لكنه اسم له. قال أبو علي: قوله: «لم يجيئوا به على الأصل» يريد على الفتح الذي هو الدفعة من الفعل، ولكن كسروه فجعلوه اسماً لهذا المعنى، كما أن غزاة كذلك، ولم تجيء فيه الغزوة وكان القياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأكثر ما التزم كسر الحاء في قولهم ذو الحججة، وأما قولهم: حَجَّةُ الورداء ونحوه فإنها على الأصل. وقال الزجاج وغيره: الحَجَّ - بفتح الحاء - المصدر، وبكسرها اسم العمل. وقال الطبري: هما لغتان: الكسر لغة نجد، والفتح لغة أهل العالية.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾: ﴿مَنْ﴾ في موضع خفض بدل من ﴿النَّاسِ﴾ وهو بدل البعض من الكل. وقال الكسائي وغيره: هي شرط في موضع رفع بالابتداء، والجواب محذوف تقديره: فعليه الحج؛ ويدل عليه عطف الشرط الآخر بعده في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ وقال بعض البصريين: ﴿مَنْ﴾ رفع على أنه فاعل بالمصدر الذي هو ﴿حَجَّ الْبَيْتِ﴾ ويكون المصدر مضافاً إلى المفعول.

واختلف الناس في حال مستطيع السبيل كيف هي؟ فقال عمر بن الخطاب وابن عباس وعطاء وسعيد بن جبيرة: هي حال الذي يجد زاداً وراحلة. وروى الطبري عن الحسن من طريق إبراهيم بن يزيد الخوزي أن رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية فقال له رجل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة». وأسند الطبري إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة فلم يحج فلا عليه أن يموت يهودياً أو نصرانياً». وروى عبدالرزاق وسفيان عن إبراهيم بن يزيد الخوزي عن محمد بن عباد بن جعفر عن ابن عمر قال: قام رجل إلى النبي عليه السلام، فقال: ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وضعف قوم هذا الحديث لأن إبراهيم بن يزيد الخوزي تكلم فيه ابن معين وغيره، والحديث مستغن عن طريق إبراهيم، وقال بعض

البغداديين: هذا الحديث مشير إلى أن الحج لا يجب مشياً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقول: إن هذا الحديث إنما خرج على الغالب من أحوال الناس وهو البعد عن مكة واستصعاب المشي على القدم كثيراً، فأما القريب الدار فلا يدخل في الحديث، لأن القرب أغناه عن زاد وراحلة. وأما الذي يستطيع المشي من الأقطار البعيدة، فالراحلة عنده بالمعنى والقوة التي وهب. وقد ذكره الله تعالى في قوله: ﴿يَأْتُوكَ رِحَالًا﴾ وكذلك أيضاً معنى الحديث: الزاد والراحلة إن لم يكن له عذر في بدنه، من مرض أو خوف على أقسامه أو استحقاق بأجرة أو دين وهو يحاول الأداء، ويطمع فيه بتصرفه في مال بين يديه، وأما العديم فله أن يحج إذا تكلف واستطاع، فمقصد الحديث أن يتحدد موضع الوجوب على البعيد الدار، وأما المشاة وأصحاب الأعدار فكثير منهم من يتكلف السفر وإن كان الحج غير واجب عليه، ثم يؤديه ذلك التكلف إلى موضع يجب فيه الحج عليه، وهذه مبالغة في طلب الأجر ونيله، إن شاء الله تعالى.

وذهبت فرقة من العلماء إلى أن قوله تعالى: ﴿مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ كلام عام لا يتفسر بزاد وراحلة ولا غير ذلك، بل إذا كان مستطيعاً غير شاق على نفسه فقد وجب عليه الحج، قال ذلك ابن الزبير والضحاك. وقال الحسن: من وجد شيئاً يبلغه فقد استطاع إليه سبيلاً.

وقال عكرمة: استطاعة السبيل: الصحة. وقال ابن عباس: من ملك ثلاثمائة درهم فهو السبيل إليه. وقال مالك بن أنس رضي الله عنه - في سماع أشهب من العتبية، وفي كتاب محمد، وقد قيل له: أتقول إن السبيل الزاد والراحلة؟ - فقال: لا والله، قد يجد زادا وراحلة ولا يقدر على مسير، وآخر يقدر أن يمشي راجلاً، ورب صغير أجلد من كبير، فلا صفة في هذا أبين مما قاله الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أنيل كلام؛ وجميع ما حكى عن العلماء لا يخالف بعضه بعضاً، الزاد والراحلة على الأغلب من أمر الناس في البعد، وأنهم أصحاب غير مستطيعين للمشي على الأقدام، والاستطاعة - متى تحصلت - عامة في ذلك وغيره، فإذا فرضنا رجلاً مستطيعاً للسفر ماشياً معتاداً لذلك، وهو ممن يسأل الناس في إقامته ويعيش من خدمتهم وسؤالهم، ووجد صحابة، فالحج عليه واجب دون زاد ولا راحلة. وهذه من الأمور التي يتصرف فيها فقه الحال. وكان الشافعي يقول: الاستطاعة على وجهين؛ بنفسه أولاً، فمن منعه مرض أو عذر وله مال فعليه أن يجعل من يحج عنه وهو مستطيع لذلك.

واختلف الناس، هل وجوب الحج على الفور أو على التراخي؟ على قولين، ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القولين، قال في «المجموع» فيمن أراد الحج ومنعه أبواه: لا

يعتجل عليهما في حجة الفريضة وليستأذنهما العام والعامين، فهذا على التراخي. وقال في كتاب ابن المواز: لا يحج أحد إلا بإذن أبيه إلا الفريضة، فليخرج وليدعهما، فهذا على الفور. وقال مالك في المرأة يموت عنها زوجها فتريد الخروج إلى الحج: لا تخرج في أيام عدتها، قال الشيخ أبو الحسن اللخمي: فجعله على التراخي. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا استقراء فيه نظر.

واختلف قول مالك رحمه الله فيمن يخرج إلى الحج على أن يسأل الناس جائباً وذاهباً، ممن ليست تلك عادته في إقامته - فروى عنه ابن وهب أنه قال: لا بأس بذلك، قيل له: فإن مات في الطريق؟ قال: حسابه على الله. وروى عنه ابن القاسم أنه قال: لا أرى للذين لا يجدون ما ينفقون أن يخرجوا إلى الحج والغزو ويسألون، وإنسي لأكره ذلك، لقول الله سبحانه: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حُجُّهُ﴾. قال ابن القاسم: وكره مالك أن يحج النساء في البحر لأنها كشفة، وكره أن يحج أحد في البحر إلا مثل أهل الأندلس الذين لا يجدون منه بدأ، وقال في كتاب محمد وغيره: قال الله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَكَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَبِيبٍ﴾. ولا أسمع للبحر ذكراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأنيس من مالك رحمه الله بسقوط لفظة البحر، وليس تقتضي

الآية سقوط البحر، وسيأتي تفسير ذلك في موضعه إن شاء الله، وقد قال رسول الله ﷺ: «ناس من أمتي عرضوا علي ملوكاً على الأسرة أو مثل الملوك على الأسرة، يركبون ثبج هذا البحر الأخضر غزاةً في سبيل الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا فرق بين الغزو والحج.

واختلف في حج النساء ماشيات مع القدرة على ذلك، فقال في «المدونة» في المرأة تنذر مشياً فتمشي وتعجز في بعض الطريق: إنها تعود ثانية؛ قال: والرجال والنساء في ذلك سواء، فعلى هذا يجب الحج إذا كانت قادرة على المشي، لأن حجة الفريضة أكد من النذر. وقال في كتاب محمد: لا أرى على المرأة الحج ماشية وإن قويت عليه، لأن مشيها عورة، إلا أن يكون المكان القريب من مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ينظر بفقهِ الحال إلى راتعة أو متجالّة.

ولا حج على المرأة إلا إذا كان معها ذو محرم، واختلف إذا عدته - هل يجب الحج بما هو في معناه من نساء ثقات يصطحبن في القافلة، أو رجال ثقات؟ فقال الحسن البصري وإبراهيم النخعي وابن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبو حنيفة وأصحابه: المحرم من السبيل، ولا حج عليها إلا مع ذي محرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وقوف مع لفظ الحديث.

وقال مالك: تخرج مع جماعة

نساء، وقال الشافعي: تخرج مع حرة ثقة مسلمة، وقال ابن سيرين: تخرج مع رجل ثقة من المسلمين، وقال الأوزاعي: تخرج مع قوم عدول وتتخذ مسلماً تصعد عليه وتنزل ولا يقربها رجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الأقوال راعت معنى الحديث. وجمهور الأمة على أن للمرأة أن تحج الفريضة وإن كره زوجها، وليس له منعها. واضطرب قول الشافعي في ذلك.

واختلف الناس في وجوب الحج مع وجود المكوس والغرامة؛ فقال سفيان الثوري: إذا كان المكس ولو درهماً سقط فرض الحج عن الناس. وقال عبد الوهاب: إذا كانت الغرامة كثيرةً مجحفة سقط الفرض، فظاهر هذا أنها إذا كانت كثيرةً غير مجحفة لسعة الحال أن الفرض لا يسقط، وعلى هذا المنتزِع جماعة أهل العلم وعليه مضت الأعصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه نبذة من فقه الاستطاعة، وليس هذا الجمع بموضع لتقصي ذلك، والله المستعان.

والسبيل: تذكر وتؤنث، والأغلب الأفضح التأنيث، قال الله تعالى: ﴿تَبَوَّأْنَا عِوَجًا﴾ وقال: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ؛ ومن التذكير قول كعب بن مالك:

قضى يوم بدر أن تلاقي معشرًا بغوا، وسبيلُ البغي بالناسِ جائزٌ والضمير في: ﴿إليه﴾ عائد على البيت، ويحتمل أن يعود على الحج.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ غَلِيظٌ﴾ قال ابن عباس: المعنى: من زعم أن الحج ليس بفرض عليه، وقال مثله الضحاک وعطاء وعمران القطان والحسن ومجاهد. وروي عن النبي عليه السلام أنه قرأ الآية، فقال له رجل من هذيل: يا رسول الله من تركه كفر، فقال له النبي ﷺ: ﴿من تركه لا يخاف عقوبته، ومن حجه لا يرجو ثوابه فهو ذلك﴾. وقال بمعنى هذا الحديث ابن عباس ومجاهد أيضاً. وهذا والذي قبل يرجع إلى كفر الجحد والخروج عن الملة. وقال ابن عمر وجماعة من العلماء: معنى الآية: من كفر بالله واليوم الآخر، وهذا قريب من الأول. وقال ابن زيد: معنى الآية: من كفر بهذه الآيات التي في البيت، وقال السدي وجماعة من أهل العلم: معنى الآية: ومن كفر بأن وجد ما يحج به ثم لم يحج، قال السدي: من كان بهذه الحال فهو كافر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا كفر معصية، كقوله عليه السلام: ﴿من ترك الصلاة فقد كفر﴾ وقوله: ﴿لا ترجعوا بعدي كفاراً، يضرب بعضهم رقاب بعض﴾ على أظهر احتمالات هذا الحديث. ويؤيد أن من أنعم الله عليه بمال وصحة ولم يحج فقد كفر النعمة.

ومعنى قوله تعالى: ﴿غَفُورٌ غَلِيظٌ﴾ الوعيد لمن كفر. والقصد بالكلام: فإن الله غني عنهم، ولكن عمم اللفظ ليبرع المعنى، وينبئه الفكر على قدرة الله وسلطانه

واستغناؤه من جميع الوجوه حتى ليس به افتقار إلى شيء، لا رب سواه.

هذه الآيات توبيخ لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ.

و﴿الكتاب﴾: التوراة، وجعلهم أهله بحسب زعمهم ونسبهم، وإلا فأهله على الحقيقة هم المؤمنون، و﴿آيات الله﴾: يحتمل أن يريد بها القرآن، ويحتمل أن يراد بالآيات العلامات الظاهرة على يدي محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَمَلَّؤْنَ﴾ وعيد محض: أي يجازيكم به ويعاقبكم. قال الطبري: هاتان الآيتان قوله: ﴿قُلْ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابُ لِمَ تَكْفُرُونَ﴾ وما بعدهما إلى قوله: ﴿وَأُولَٰئِكَ هُمُ عَدَاؤُ عَظِيمٌ﴾، نزلت بسبب رجل من يهود حاول الإغراء بين الأوس والخزرج، قال ابن إسحاق: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم، قال: مرَّ شاس بن قيس اليهودي - وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغن على المسلمين والحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج، وهم في مجلس يتحدثون، فغاظه ما رأى من جماعتهم، وصلاح ذات بينهم، بعد ما كان بينهم من العداوة فقال: قد اجتمع ملا بني قيلة بهذه البلاد، والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملوهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود، فقال: اعمد إليهم واجلس معهم وذكرهم يوم بعث، وما كان قبله من

تطلبون لها العوج، أي الاعوجاج والانفساد، تقول العرب: ابغني كذا بألف موصولة، بمعنى اطلبه لي، فإذا أرادوا أعني على طلبه واطلبه معي، قطعوا الألف مفتوحة. وقيل: إن «تبغون» هنا، من البغي الذي هو التعدي، أي: تبغون عليها، ويكون «عوجاً» - على هذا التأويل - نصبه على الحال من الضمير في «تبغون» أي: عوجاً منكم وعدم استقامة.

والعوج بكسر العين ما كان في الأمور والحجج غير الأجرام، والعوج بفتح العين ما كان في الأجرام كالجدار والعصا ونحو ذلك، قال ابن قتيبة: والأرض خاصة من الأجرام يقال فيها: عوج بكسر العين، ومنه قول الله تعالى: ﴿لَا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾. قال بعض اللغويين: هما لغتان بمعنى واحد. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ يريد جمع شاهد، على ما في التوراة من صفة محمد وصدقه، وباقي الآية وعيد.

١٠٠ - ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ تفسير قوله عز وجل: الخطاب بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عام في المؤمنين، والإشارة بذلك وقت نزوله إلى الأوس والخزرج بسبب نائرة شاس بن قيس. والفريق: الجماعة من الناس، والمراد بها هنا الأخبار والرؤوس، و﴿رُدُّوكُمْ﴾ معناه: بالإضلال والتشكيك والمخادعة وإظهار الغش في معرض النصح.

ثم وقف المؤمنين على هذا الأمر المستبعد المستشنع الذي يريده بهم

الشیطان، فألقوا السلاح وبكوا وعانق بعضهم بعضاً من الأوس والخزرج، وانصرفوا مع رسول الله ﷺ سامعين مطيعين، فأنزل الله في شاس بن قيس وما صنع هذه الآيات. وقال الحسن وقتادة والسدي: إن هذه الآيات نزلت في أخبار اليهود الذين كانوا يصدون المسلمين عن الإسلام، بأن يقولوا لهم، إن محمداً ليس بالموصوف في كتابنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك في وقوع هذين السبين وما شاكلهما من أفعال اليهود وأقوالهم، فنزلت الآيات في جميع ذلك.

وقد ورد: معناه: أعرض عن الشيء وانصرف عنه، وهو فعل يقف ويتعدى بلفظ واحد، تقول: صدت عن كذا، وصدت غيري عنه، فالذي في هذه الآية هو الفعل المتعدي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «تصدون»، بضم التاء وكسر الصاد، وهذا هو الفعل الواقف، نقل بالهمزة فعدي.

و«سبيل الله» في هذه الآية هو الإسلام الذي هو طريق إلى رضى الله وجنته، و«من» مفعولة ب«تصدون»، والضمير في «تبغونها» عائد على السبيل، ومعنى «تبغون» على ما فسر الزجاج والطبري وغيرهما: تطلبون، فالمعنى:

وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُنَالُ عَلَيْكُمْ مَا بَدَأَ اللَّهُ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَنْ يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَأَتَىٰكَ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ بَيِّنَاتِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضتْ وُجُوهُهُمْ ففِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٨﴾

أيام حربهم، وأنشدتهم ما قالوه من الشعر في ذلك، ففعل الفتى، فتكلم القوم عند ذلك فتفاخروا وتنازعوا، حتى تواتب رجالان من الحيين على الركب: أوس بن قيطي، أحد بني حارثة بن الحارث من الأوس، وجبار بن صخر من الخزرج، فتقالوا، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شتتم والله رددناها جذعة، فغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا، السلاح السلاح، موعدكم الظاهرة، يريدون الحرة، فخرجوا إليها، وتحاور الناس على دعواهم التي كانوا عليها في الجاهلية، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين، فقال: يا معشر المسلمين، الله الله، أبدو عوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ ووعظهم فعرف القوم أنها نزعة من

اليهود، فقال: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ﴾ بهذه الأحوال الموصوفة؟ و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال، كما هي في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ آمُونًا فَأَخْبِكُمْ﴾ والمعنى أجاهدين تكفرون؟ أجاهلين؟ أمستخفين؟ أمرتدين؟ ونحو هذا من التقدير؛ والواو في قوله: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ﴾ عاطفة جملة كلام على جملة كلام، ولا يجوز أن تكون ﴿كيف﴾ في هذه الآية كما هي في قولك: «كيف تفعل كذا؟» وأنت تسأل عن شيء ثابت الوقوع متحصله، لأنه كان يلزم أن يكون كفر المؤمنين مقررًا مثبت الوقوع. وتأمل معنى «كيف» إذا وليها فعل، ومعناها إذا وليها اسم. وقرأ جمهور الناس: ﴿تُنْتَلَى﴾ بالناء من فوق، وقرأ الحسن: ﴿يُنْتَلَى﴾ بالياء إذ الآيات هي القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْصِبْكُمْ﴾ هي ظرفية الحضور والمشاهدة لشخصه عليه السلام، وهو في أمته إلى يوم القيامة بأقواله وأثاره، و﴿يَنْصِبْكُمْ﴾ معناه: يتمسك ويستدري، وعصم الشيء إذا منع وحسى، ومنه قوله: ﴿يَعْصِي بِيْرَ الْمَاءِ﴾ والعصم: الأسباب التي يمت بها، ويعتصم من الخيبة في الغرض المطلوب، وقال الأعشى:

إلى المرء قيس أطيل الشرى
وأخذ من كل حي عُصْم
وتصرف اللفظة كثير جداً، وباقى الآية بين، والله المستعان.

١٠٢ - ١٠٣ تفسير قوله عز وجل:
الخطاب بهذه الآية يعم جميع

المؤمنين، والمقصود به وقت نزولها الأوس والخزرج الذين شجر بينهم بسعاية شاس بن قيس ما شجر.

وتقاة: مصدر وزنه فُعلة، أصله تقية، وقد تقدم قوله: ﴿إِلَّا أَنْ تَكْتُمُوا مِنْهَ تَكْتُمًا﴾، ويصح أن تكون التقاة في هذه الآية جمع فاعل وإن كان لم يتصرف منه فيكون كرامة ورام، أو يكون جمع تقي إذ فعيل وفاعل بمنزلة، والمعنى على هذا: اتقوا الله كما يحق أن يكون مُتَّقُوهُ المختصون به، ولذلك أُضيفوا إلى ضمير الله تعالى.

واختلف العلماء في قوله: ﴿حَقَّ تَقَاتِيرُ﴾، فقالت فرقة: نزلت الآية على عموم لفظها، وألزمت الأمة أن تتقي الله غاية التقوى حتى لا يقع إخلال في شيء من الأشياء، ثم إن الله نسخ ذلك عن الأمة بقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ويقولون: ﴿لَا يَكُفُّ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْمَهَا﴾ قال ذلك قتادة والسدي والربيع بن أنس وابن زيد وغيرهم.

وقالت جماعة من أهل العلم: لا نسخ في شيء من هذا، وهذه الآيات متفقات، فمعنى هذه: اتقوا الله حق تقاته فيما استطعتم، وذلك أن ﴿حَقَّ تَقَاتِيرُ﴾ هو بحسب أوامره ونواهيه، وقد جعل تعالى الذين يسراً، وهذا هو القول الصحيح، وألا يعصي ابن آدم جملة لا في صغيرة ولا في كبيرة وألا يفتر في العبادة؛ أمر متعذر في جملة البشر، ولو كلف الله هذا لكان تكليف ما لا يطاق، ولم يلتزم ذلك أحد في تأويل هذه الآية، وإنما عبروا في تفسير هذه الآية بأن قال

ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿حَقَّ تَقَاتِيرُ﴾: هو أن يطاع فلا يعصى، ويشكر فلا يكفر، ويذكر فلا ينسى، وكذلك عبر الربيع بن خثيم وفتادة والحسن. وقال ابن عباس رضي الله عنه: معنى قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِيرِهِ﴾: جاهدوا في الله حق جهاده، ولا نسخ في الآية. وقال طاوس في معنى قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِيرِهِ﴾: يقول تعالى: إن لم تتقوه ولم تستطيعوا ذلك فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ معناه: دوموا على الإسلام حتى يوافيكم الموت وأنتم عليه. وهكذا هو وجه الأمر في المعنى، وجاءت العبارة على هذا النظم الرائق الوجيز، ونظيره ما حكى سيبويه من قولهم: لا أرينك هاهنا، وإنما المراد: لا تكن هنا فتكون رؤيتي لك. و﴿مُسْلِمُونَ﴾ في هذه الآية: هو المعنى الجامع في التصديق والأعمال، وهو الذين عند الله وهو الذي بني على خمس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَسِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ معناه: تمنعوا وتحصنوا به، فقد يكون الاعتصام بالتمسك باليد، وبارتقاء القطن، وبغير ذلك مما هو منعة، ومنه الأعصم في الجبل، ومنه عصمة النكاح، والحبل في هذه الآية مستعار، لما كان السبب الذي يعتصم به وصلةً ممتدةً بين العاصم والمعصوم ونسبةً بينهما شبه ذلك بالحبل الذي شأنه أن يصل شيئاً بشيء، وتسمى العهود والمواثيق حبالاً، ومنه قول الأعشى:

الخروج معهم فقالوا: يا رسول الله، إن قدمت بلادنا على ما بيننا من العداوة والحرب خفنا ألا يتم ما نريده منك، ولكن نمضي نحن ونشيع أمرك ونداخل الناس، وموعداً وإياك العام المقبل، فمضوا وفعلوا. وجاءت الأنصار في العام التالي، فكانت العقبة الثانية وكانوا اثني عشر رجلاً، فيهم خمسة من الستة الأولين، ثم جاؤا من العام الثالث فكانت بيعة العقبة الكبرى، حضرها سبعون وفيهم اثنا عشر نقيباً؛ ووصف هذه القصة مستوعب في سيرة ابن هشام.

ويسر الله تعالى الأنصار للإسلام بوجهين:

أحدهما: أن بني إسرائيل كانوا مجاورين لهم وكانوا يقولون لمن يتعدونه من العرب: يبعث لنا نبي الآن تقتلكم معه قتل عاد وإرم، فلما رأى النفر من الأنصار محمداً ﷺ، قال بعضهم لبعض: هذا والله النبي الذي تذكره بنو إسرائيل فلا تُسْبَنَنَّ إليه.

والوجه الآخر: الحرب التي كانت ضررتهم وأفتت سراتهم، فرجوا أن يجمع الله به كلمتهم كالذي كان، فعدد الله تعالى عليهم نعمته في تأليفهم بعد العداوة، وذكرهم بها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَبَّحْتُمْ﴾ عبارة عن الاستمرار وإن كانت اللفظة مخصوصة بوقت ما. وإنما حُصِنَتْ هذه اللفظة بهذا المعنى من حيث هي مبدأ النهار، وفيها مبدأ الأعمال، فالحال التي يحسها المرء من نفسه فيها هي حاله التي يستمر عليها يومه

فالمعنى: كونوا في اعتصامكم مجتمعين، ﴿وَلَا تَفَرُّوا﴾ يريد التفرق الذي لا يأتي معه الائتلاف على الجهاد وحماية الدين وكلمة الله تعالى. وهذا هو الافتراق بالفتن والافتراق في العقائد، وأما الافتراق في مسائل الفروع والفقهاء فليس يدخل في هذه الآية. بل ذلك هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «خلاف أمتي رحمة» وقد اختلف الصحابة في الفروع أشد اختلاف، وهم يد واحدة على كل كافر. وأما الفتنة على علي بن أبي طالب رضي الله عنه فمن التفرق المنهني عنه، أما إن التأويل هو الذي أدخل في ذلك أكثر من دخله من الصحابة رضي الله عن جميعهم.

﴿تفسير قوله عز وجل:﴾

هذه الآية تدل على أن الخطاب بهذه الآية إنما هو للأوس والخزرج، وذلك أن العرب - وإن كان هذا اللفظ يصلح في جميعها - فإنها لم تكن في وقت نزول هذه الآية اجتمعت على الإسلام ولا تألفت قلوبها، وإنما كانت في قصة شاس بن قيس في صدر الهجرة، وحينئذ نزلت هذه الآية، فهي في الأوس والخزرج، كانت بينهم عداوة وحروب، منها يوم بعثت وغيره، وكانت تلك الحروب والعداوة قد دامت بين الحيين مائة وعشرين سنة، حتى رفعها الله بالإسلام، فجاء النفر الستة من الأنصار إلى مكة حتاجاً، فعرض رسول الله ﷺ نفسه عليهم، وتلا عليهم القرآن كما كان يصنع مع قبائل العرب، فأمنوا به، وأراد

وإذا تجوزها حبال قبيلة أخذت من الأدنى إليك حبالها ومنه قول الآخر:

إني بحبيلك واصل حبلي

ومنه قول الله تعالى: ﴿لَا يَجِبِلُ بَيْنَ اللَّهِ وَجِبِلِ بَيْنَ النَّاسِ﴾.

واختلفت عبارة المفسرين في المراد في هذه الآية بحبل الله؛ فقال ابن مسعود: حبل الله: الجماعة. وروى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: «إن بني إسرائيل افرقوا على إحدى وسبعين فرقة، وإن أمتي ستفترق على اثنتين وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة» قال: فقيل: يا رسول الله، وما هذه الواحدة؟ قال: فقبض يده وقال: «الجماعة» وقرأ: ﴿وَأَسْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾.

وقال ابن مسعود في خطبة: عليكم بالطاعة والجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به. وقال قتادة رحمه الله: حبل الله الذي أمر بالاعتصام به: هو القرآن. وقال السدي: حبل الله: كتاب الله، وقاله أيضاً ابن مسعود والضحاك. وروى أبو سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «كتاب الله هو حبل الله الممدود من السماء إلى الأرض». وقال أبو العالية: حبل الله في هذه الآية: هو الإخلاص في التوحيد. وقال ابن زيد: حبل الله: الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقيل غير هذا مما هو كله قريب بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير في قوله: ﴿واعتصموا﴾،

في الأغلب، ومنه قول الربيع بن ضبع:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا أملك رأس البعير إن نفرا والإخوان: جمع أخ، ويجمع إخوة، وهذان أشهر الجمع فيه، على أن سيبويه رحمه الله يرى أن إخوة اسم جمع، وليس ببناء جمع لأن فعلاً لا يجمع على فعلة، قال بعض الناس: الأخ في الدين يجمع إخواناً، والأخ في النسب يجمع إخوة: هكذا كثر استعمالهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي كتاب الله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وفيه ﴿أَزْوَاجٌ يُخَوِّنُونَ﴾ فالصحيح أنهما يقالان في النسب، ويقالان في الدين.

والشفا: حرف كل جرم له مهوى، كالحفرة والبئر والسقف والجدار ونحوه، ويضاف في الاستعمال إلى الأعلى كقوله: ﴿شَقًّا جُرْبِي﴾ وإلى الأسفل كقوله: ﴿شَقًّا حُقْرِي﴾، ويثنى شفوان. فثبه تعالى كفرهم الذي كانوا عليه وحريهم المُنذية من الموت بالشفا، لأنهم كانوا يسقطون في جهنم دأباً فأنقذهم الله بالإسلام، والضمير في ﴿يَنهَا﴾ عائد على النار أو على الحفرة، والعود على الأقرب أحسن، وقال بعض الناس - حكاه الطبري -: إن الضمير عائد على الشفا، وأنت الضمير من حيث كان الشفا مضافاً إلى مؤنث، فالآية كقول جرير:

رأت مرَّ السنين أخذن مني
كما أخذ السراز من الهلال
إلى غير ذلك من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس الأمر كما ذكر، والآية لا يحتاج فيها إلى هذه الصناعة، إلا لو لم تجد معاداً للضمير إلا الشفا، وأما ومعنا لفظ مؤنث يعود الضمير عليه وبعضه المعنى المتكلم فيه، فلا يحتاج إلى تلك الصناعة.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ إشارة إلى ما بين في هذه الآيات، أي: فكذلك يبين لكم غيرها. وقوله: ﴿لَمَلِكُمْ﴾ ترج في حق البشر، أي: من تأمل منكم الحال رجا الاهتداء.

﴿١٠٤﴾ - ﴿١٠٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن والزهري وأبو عبد الرحمن وعيسى بن عمر وأبو حيوة: ﴿وَلَتَكُنَّ﴾ بكسر اللام على الأصل، إذ أصلها الكسر، وكذلك قرؤوا لام الأمر في جميع القرآن.

قال الضحاك والطبري وغيرهما: أمر المؤمنون أن تكون منهم جماعة بهذه الصفة، فهم خاصة أصحاب الرسول، وهم خاصة الرواة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا القول ﴿مِنْ﴾ للتبويض. وأمر الله الأمة بأن يكون منها علماء يفعلون هذه الأفعال على وجوها ويحفظون قوانينها على الكمال، ويكون سائر الأمة متبعين لأولئك، إذ هذه الأفعال لا تكون إلا بعلم واسع، وقد علم تعالى أن الكل لا يكون عالماً. وذهب الزجاج وغير واحد من المفسرين إلى أن المعنى: ولتكونوا كلكم أمة يدعون، و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس قال: ومثله من

كتاب الله: ﴿فَأَجْتَبَيْنَاهُ آلِيَهُمْ مِنْ الْأَوْلَادِ﴾، ومثله من الشعر قول القائل:

أخو رغائب يُعطيها ويسألها
يأبى الظلامة منه النوفل الزقزق
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية على هذا التأويل إنما هي عندي بمنزلة قولك: ليكن منك رجل صالح، ففيها المعنى الذي يسميه النحويون «التجريد». وانظر أن المعنى الذي هو ابتداء الغاية يدخلها، وكذلك يدخل قوله تعالى: ﴿مِنْ الْأَوْلَادِ﴾ ولا تجده يدخل قول الشاعر: «منه النوفل الزفر»، ولا تجده يدخل في «من» التي هي صريح بيان الجنس، كقولك: ثوب من خز، وخاتم من فضة، بل هذه يعارضها معنى التبويض. ومعنى الآية على هذا التأويل: أمر الأمة بأن يكونوا يدعون جميع العالم إلى الخير، الكفار إلى الإسلام، والعصاة إلى الطاعة، ويكون كل واحد من هذه الأمور على منزلته من العلم والقدرة.

قال أهل العلم: وفرض الله بهذه الآية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من فروض الكفاية إذا قام به قائم سقط عن الغير، وللزوم الأمر بالمعروف شروط، منها أن يكون بمعروف لا بتخرق، فقد قال ﷺ: «من كان أمراً بمعروف، فليكن أمره ذلك بمعروف» ومنها ألا يخاف الأمر أذى يصيبه، فإن فعل مع ذلك فهو أعظم لأجره، وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مَنكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع

فلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والناس في تغيير المنكر والأمر بالمعروف على مراتب، ففرض العلماء فيه تنبيه الحكام والولاة، وحملهم على جادة العلم، وفرض الولاة تغييره بقوتهم وسلطانهم، ولهم: هي اليد، وفرض سائر الناس رفعه إلى الحكام الولاة بعد النهي عنه قولاً، وهذا في المنكر الذي له دوام، وأما إن رأى نازلة بديهته من المنكر كالسلب والزنى ونحوه فيغيرها بنفسه بحسب الحال والقدرة، ويحسن لكل مؤمن أن يحتتمل في تغيير المنكر وإن ناله بعض الأذى. ويؤيد هذا المنزوع أن في قراءة عثمان بن عفان وابن مسعود وابن الزبير: «يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَيَسْتَعِينُونَ بِاللَّهِ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ» فهذا وإن كان لم يثبت في المصحف، ففيه إشارة إلى التعرض لما يصيب عَقِيبَ الأَمْرِ والنهي، كما هي في قوله تعالى: «وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ»، وقوله تعالى: «يَأْتِيهِمُ الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْتُمْ كُمْ لَا يَصْرُوكُمْ مِّنْ ضَلِّ إِذَا أَعْتَدْتُمْ» معناه: إذا لم يقبل منكم ولم تقدرُوا على تغيير منكر. وقال بعض العلماء: المعروف: التوحيد، والمنكر: الكفر، والآية نزلت في الجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا محالة أن التوحيد والكفر هما رأس الأمرين، ولكن ما نزل عن قدر

التوحيد والكفر يدخل في الآية ولا بد.

﴿أَتْمَلِّحُونَ﴾ الظافرون ببغيتهم، وهذا وعد كريم.

ثم نهى الله تعالى هذه الأمة عن أن يكونوا كالمتفرقين من الأمم. واختلفت عبارة المفسرين في المشار إليهم، فقال ابن عباس: هي إشارة إلى كل من افترق في الأمم في الدين فأهلكهم الافتراق، وقال الحسن: هي إشارة إلى اليهود والنصارى، وقال الزجاج: يحتتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى فرق اليهود وفرق النصارى، ومجيء البيئات هو بيعث الرسل وإنزال الكتب، وأسند الفعل دون علامة إلى البيئات من حيث نزلت منزلة البيان، ومن حيث لا حقيقة لتأنيها، وباتي الآية وعيد.

وقوله: ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ يعني أنه أعظم من سواه، ويتفاضل هذان العوضان بأن أحدهما يتخلله فتور، وأما الجزء الفرد من هذا وذلك فسواء، هذا تحرير مذهب أصحابنا الأصوليين رحمهم الله.

﴿١٠٧﴾ - ﴿١٠٨﴾ تفسير قوله عز وجل: والعامل في قوله: ﴿يَوْمَ﴾ الفعل الذي تتعلق به اللام في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، قال الزجاج: تقديره: ويثبت لهم عذاب عظيم؛ وقال قوم: العامل فيه: عظيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك ضعيف من جهة المعنى، لأنه يقتضي أن عظم العذاب في ذلك اليوم، ولا يجوز أن يكون العامل قوله: ﴿عَذَابٌ﴾ لأنه مصدر قد وصف.

وبياض الوجوه: عبارة عن إشراقها واستنارتها وبشرها برحمة الله، قاله الزجاج وغيره. ويحتتمل عندي أن يكون ذلك من آثار الضوء كما قال ﷺ: «أنتم الغر المحجلون من آثار الضوء». وأما سواد الوجوه: فقال المفسرون: هو عبارة عن اربدادها وإظلامها بغم العذاب. ويحتتمل أن يكون ذلك تسويداً ينزله الله بهم على جهة التشويه والتمثيل بهم، على نحو حشرهم زرقاً وهذه أقبح طلعة، ومن ذلك قول بشار:

وللبخيل على أمواله عِلْلٌ
زُرُقُ العيونِ عليها أوجه سودٌ
وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿تَبْيِضُ وَتَسْوَدُ﴾ بكسر التاء، وقرأ الزهري: ﴿تَبْيِاضُ وَجَوْهٌ، وَتَسْوَادُ وَجَوْهٌ﴾
بألف، وهي لغة.

ولما كان صدر هذه الآية إخباراً عن حال لا تخص أحداً معيناً بديء بذكر البياض لشرفه، وأنه الحالة المثلى، فلما فهم المعنى وتعين له الكفار والمؤمنون، بديء بذكر الذين اسودت وجوههم للاهتمام بالتحذير من حالهم.

وقوله تعالى: ﴿أَكْفَرْتُمْ﴾ تقرير وتوبيخ متعلق بمحذوف تقديره: فيقال لهم: أكفرتم؟ وفي هذا المحذوف هو جواب (أما)، وهذا هو فحوى الخطاب، وهو أن يكون في الكلام شيء مقدر لا يستغني المعنى عنه، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنكُمْ عَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ﴾ المعنى: فأفطر فعدة.

وقوله تعالى: ﴿بِمَدِّ إِيمَانِكُمْ﴾

الخوارج وهو قول واحد،
 و(ما) في قوله: ﴿يَمَا
 كُنْتُمْ﴾ مصدرية؛ وقوله
 تعالى: ﴿فِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾
 أي في النعيم الذي هو
 موجب رحمة الله، وقوله
 بعد ذلك: ﴿هُمْ يَبْهَاتُونَ﴾
 تأكيد بجملتين، إذ كان
 الكلام يقوم دونها.

عز وجل: ﴿...﴾
 تفسير قوله

الإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى
 هذه الآيات المتقدمة
 المتضمنة تعذيب الكفار
 وتنعيم المؤمنين، ولما
 كان فيها ذكر التعذيب
 أخبر تعالى أنه لا يريد أن

يقع منه ظلم لأحد من العباد، وإذا
 لم يرد ذلك فلا يوجد البتة، لأنه لا
 يقع من شيء إلا ما يريد تعالى.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه:
 بالإخبار الحق، ويحتمل أن يكون
 المعنى: نلتوها عليك مضمنة
 الأفاعيل التي هي حق في أنفسها،
 من كرامة قوم، وتعذيب آخرين.
 وقرأ أبو نهبك: ﴿يَتْلُوها﴾ بالياء،
 وجاء الإعلام بأنه تعالى لا يريد ظلماً
 في حكمه، فإذا لا يوجد.

ولمّا كان للذهن أن يقف هنا في
 الوجه الذي به خصّ الله قوماً بعملٍ
 يرحمهم من أجله، وآخرين بعملٍ
 يعذبهم عليه، ذكر تعالى الحجة
 القاطعة في ملكه جميع المخلوقات،
 وأن الحق لا يُعْتَرَضُ عليه، وذلك
 في قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
 الْأَرْضِ﴾ الآية، وقال: ﴿مَا﴾ ولم

يقتضي أن لهؤلاء الموقنين إيماناً
 متقدماً، فاختلف أهل التأويل في
 تعيينهم؛ فقال أبي بن كعب:
 الموقنين جميع الكفار، والإيمان
 الذي قيل لهم بسببه: ﴿بَعْدَ
 إِيمَانِكُمْ﴾ هو الإيمان الذي أقروا به
 يوم قيل لهم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا
 بَلَىٰ﴾ وقال أكثر المتأولين: إنما عنى
 بالتوفيق في هذه الآية أهل القبلة من
 هذه الأمة، ثم اختلفوا؛ فقال
 الحسن: الآية في المنافقين، يؤمنون
 بالسنتهم ويكفرون بقلوبهم، فيقال
 لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ أي ذلك
 الإيمان بالسنتهم. وقال السدي: هي
 فيمن كفر من أهل القبلة حين
 اقتتلوا، وقال أبو أمامة: الآية في
 الخوارج، وقال قتادة: الآية في أهل
 الردة، ومنه الحديث: «ليردنّ على
 الحوض رجال من أصحابي حتى إذا
 رفعوا إليّ اختلفوا فأقول: أصيحابي
 أصيحابي، فيقال: إنك لا تدري ما
 أحدثوا بعدك، فأقول: فسحقاً
 فسحقاً، وفي بعض طرقه:
 «فأناديهم: ألا هلّم، ألا هلّم». وذكر
 النحاس قولاً: إن الآية في اليهود،
 وذلك أنهم آمنوا بصفة محمد
 واستفتحوا به، فلما جاءهم من
 غيرهم كفروا، فهذا كفر بعد إيمان،
 وروي عن مالك أنه قال: الآية في
 أهل الأهواء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 إن كان هذا ففي المختلفين منهم
 القائلين ما هو كفر، وروي حديثٌ
 أن الآية في القدرية وقال أبو أمامة:
 سمعنا من رسول الله ﷺ: أنها في
 الحرورية، وقد تقدم عنه أنها في

وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ
 ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
 وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ
 أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ
 وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٠٨﴾ لَنْ يَضُرَّكُمْ وَلَا أَذَىٰ
 وَإِنْ يَحْسَبُوا كُفْرًا إِنَّهُمْ يَأْتُونَ اللَّهَ لَا يَدْرِيْنَ
 عَلَيْهِمُ الدَّلِيلَ أَنْ يَنْفَعُوهُمُ إِلَّا يُجِيبُ اللَّهُ مِنْ نَحْوِ
 وَيَأْتِيهِمْ الْغَيْبُ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ
 بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ
 الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ يُعَاصُوا
 وَأَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿١٠٩﴾ لَيْسُوا سَوَاءً
 مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ
 وَأَنَّهُ الْبَيْتَ اللَّهُ أَنَّهُ الْبَيْتَ اللَّهُ أَنَّهُ الْبَيْتَ
 وَهُمْ يَسْتَجِدُّونَ ﴿١١٠﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ
 وَالْآخِرِ وَبِالْمَعْرُوفِ وَبِالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ
 وَبِالسُّرْعَةِ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١١﴾ وَمَا يَفْعَلُوا
 مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١١٢﴾

يقول: ﴿مَنْ﴾ من حيث هي جمل
 وأجناس، وذكر الطبري أن بعض
 البصريين نظر قوله تعالى: ﴿وَإِلَى
 اللَّهِ﴾ فأظهر الاسم، ولم يقل إليه
 بقول الشاعر:

لا أرى الموت يسبق الموت شيء
 نَعَصَّ الموتِ ذَا الغنى والفقير
 وما جرى مجراه، وقاله الزجاج،
 وحكى أن العرب تفعل ذلك إرادة
 تفخيم الكلام والتنبيه على عظم
 المعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 والآية تشبه البيت في قصد فخامة
 النظم، وتفارقه من حيث الآية
 جملتان مفترقتان في المعنى، فلو
 تكررت جمل كثيرة على هذا الحد
 لحسن فيها كلها إظهار الاسم،
 وليس التعرض بالضمير في ذلك
 بعرف، وأما البيت وما أشبهه

فالضمير فيه هو العرف، إذ الكلام في معنى واحد، ولا يجوز إظهار الاسم إلا في المعاني الفخمة في النفوس التي يؤمن فيها اللبس على السامع.

وقرأ بعض السبعة: ﴿تَرْجِعُ الْأُمُورَ﴾ بفتح التاء على بناء الفعل للفاعل، وقد تقدم ذكر ذلك.

واختلف المتأولون في معنى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ فقال عمر بن الخطاب: هذه لأولنا، ولا تكون لآخرنا، وقال عكرمة: نزلت في ابن مسعود وسالم مولى أبي حذيفة وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد ومن شاكلهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين هاجروا مع رسول الله ﷺ إلى المدينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا كله قول واحد، مقتضاه أن الآية نزلت في الصحابة، قيل لهم: كنتم خير أمة، فالإشارة بقوله: ﴿أُمَّةٌ﴾ إلى أمة محمد معينة، فإن هؤلاء هم خيرها.

وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة من أهل العلم: معنى الآية: خطاب الأمة بأنهم خير أمة أخرجت للناس، فلطفة ﴿أُمَّةٌ﴾، على هذا التأويل اسم جنس، كأنه قيل لهم: كنتم خير الأمم، ويؤيد هذا التأويل كونهم شهداء على الناس، وقول النسبي ﷺ: ﴿نَحْنُ الْآخِرُونَ السَّابِقُونَ...﴾ الحديث. وروى بهز بن حكيم عن أبيه عن جده: أن

رسول الله ﷺ قال يوماً وهو مسند ظهره إلى الكعبة: ﴿نَحْنُ نَكْمَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ سَبْعِينَ أُمَّةً نَحْنُ آخِرُهَا وَخَيْرُهَا﴾ قال مجاهد: معنى الآية: كنتم خير الناس، وقال الحسن: نحن آخرها وأكرمها على الله تعالى، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: معنى الآية: كنتم للناس خير الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فدأمة) على هذا التأويل: اسم جنس، قال أبو هريرة: يجيئون بالكفار في السلاسل فيدخلونهم في الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يبعث نبي إلى الأمة كافة إلا محمد ﷺ، فهو وأمه يدعون إلى الإيمان ويقاتلون العالم عليه، فهم خير الناس للناس، وليس يلزم على هذا التأويل أنهم أفضل الأمم من نفس لفظ الآية، لكن يعلم هذا من لفظ آخر، وهي كقوله ﷺ: ﴿أَرَأَيْتُمْ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، فَلَيْسَ يَقْتَضِي هَذَا اللَّفْظُ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَرَأَى النَّاسَ عَلَى الْإِطْلَاقِ مِنْ مُؤْمِنٍ وَكَافِرٍ.﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والرافة المفروضة على الإطلاق ليست بجارية مع الشرع كما يجب.

وأما قوله: ﴿كُنْتُمْ﴾ على صيغة الماضي، فإنها التي بمعنى الدوام، كما قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَفْوًا رَحِيمًا﴾، إلى غير هذا من الأمثلة، وقال قوم: المعنى كنتم في علم الله، وقيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: فيما أخبر به الأمم قديماً عنكم. و﴿خَيْرٌ﴾ على هذه الأقوال كلها خير كان، ويحتمل أن تكون ﴿كَانَ﴾ التامة، ويكون

﴿خَيْرٌ أُمَّةٌ﴾ نصباً على الحال، وهذا يتجه على بعض التأويلات التي ذكرناها دون بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الخيرية التي فرضها الله لهذه الأمة إنما يأخذ بحظه منها من عمل هذه الشروط من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله.

وقوله: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ﴾ وما بعده أحوال في موضع نصب.

ثم أخبر تعالى عن أهل الكتاب على جهة التوبيخ المقرون بالنصح أنهم لو آمنوا لنجوا أنفسهم من عذاب الله. وجاءت لفظة ﴿خَيْرٌ﴾ في هذه الآية وهي صيغة تفضيل، ولا مشاركة بين كفرهم وإيمانهم في الخير، وإنما جاز ذلك لما في لفظة ﴿خَيْرٌ﴾ من الشياخ وتشعب الوجوه، وكذلك هي لفظة أفضل وأحب وما جرى مجراهما. وقد بين هذا المعنى في غير هذا الموضع بأوعب من هذا.

وقوله تعالى: ﴿يَنْهَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تنبيه على حال عبدالله بن سلام وأخيه وثعلبة بن سعية وغيرهم ممن آمن. ثم حكم الله على أكثرهم بالفسق في كفره لأنهم حرّفوا وبدّلوا وعاندوا بعد معرفتهم بحقيقة أمر محمد ﷺ، فهم كفار فسقة في الكفر قد جمعوا المذمتين.

﴿١١١﴾ - ﴿١١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ وَلَا أَذَىٰ﴾ معناه: لن يصيبكم منهم ضرر في الأبدان ولا في الأموال، وإنما هو أذى بالألسنة، فالاستثناء متصل. وقال الحسن وقتادة

وغيرهما: الأذى هو تحريفهم أمر محمد ﷺ وتكذيبهم إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتَقْصِمُهم المؤمنین وطَعْنُهُم عليهم جملة وأفراداً، وهذا كله عظيم مقلق ويسببه استحقوا القتل والإجلاء وضرب الجزية. لكن أراد الله تعالى بهذه الآية أن يلحظهم المؤمنون بعين الاحتقار حتى لا يصدوا أحداً عن دينه، ولا يشغلوه عن عبادة ربه، وهكذا هي فصاحة العرب، ومن هذا المعنى في التحقير قول ثمامة بن أثال: «يا محمد إن تقتلني تقتل ذا دم، وإن تنعم تنعم على شاكرك، وإن شئت المال فسل منه ما شئت» فقله: «ذا دم» روي بالذال منقوطة، وبالذال غير منقوطة، فدم بفتح الذال وبكسرهما أراد بها الذمام، وأما بالذال غير منقوطة، فيحتمل أنه أراد التعظيم لأمر نفسه، وذلك بأحد وجهين: إما أن يريد الوعيد، أي تقتل ذا دم مطلوب بشاره له حماة فاحذر عاقبة ذلك، وإما أن يريد تقتل ملكاً يَسْتَشْفِي بدمه، كما كانت العرب تعتقد في دماء الملوك، فهذا استعطاف لا وعيد، أي: لا ينبغي لك أن تفسد مثلي، وهذا كما استعطف الأشعث بن قيس أبا بكر رضي الله عنه بهذا المعنى، ويحتمل كلام ثمامة أنه أراد تحقير أمر نفسه وليذهب عن نفس رسول الله ﷺ المسرة بنيل مثل هذا الأمر العظيم، ويجري ذلك مجرى قول أبي جهل لعبدالله بن مسعود: وهل أعمد من رجل قتلتموه؟ ومثله قول الأسير لعمر بن عبدالعزيز، حين قال له:

لأقتلنك، قال: إن ذلك لا ينقص من عدد الخزر شيئاً، فكان ثمامة أراد: إن تقتلني تقتل حيواناً حقيراً شأنه، كما يقتل كل ذي دم فما بالك تفعل ذلك وتدع الإنعام علي؟ فالآية تنظر إلى هذا المعنى من جهة أنه حقر عند المؤمنين ما هو عظيم في نفسه تنبيهاً لهم.

وأخبر الله تعالى في قوله: ﴿وَأَنْ يَفْتَلِكُوكُمْ﴾... الآية، بخبر غيب صححه الوجود، فهي من آيات محمد ﷺ، وفائدة الخبر هي في قوله: ﴿ثُمَّ لَا يُعْمَرُونَ﴾، أي: لا تكون حربهم معكم سجالاتاً، وخض الأديار بالذكر دون الظاهر تخسباً للفاز، وهكذا هو حيث تصرف.

وقوله: ﴿مُحْرَبَاتٍ﴾ معناه: أثبتت بشدة والزام مؤكد، وهذا وصف حال تقررت على اليهود في أقطار الأرض قبل مجيء الإسلام، قال الحسن: جاء الإسلام وإن المجوس لتجبيهم الجزية، وما كانت لهم عزة ومنعة إلا يثرب وخيبر وتلك الأرض فأزالها الله بالإسلام، ولم تبق لهم راية أصلاً في الأرض. و﴿أَذَلَّةٌ﴾ فعلة من الذل، و﴿تُفَعَّوْا﴾ معناه: أخذوا وهم بحال المذنب المستحق الإهلاك، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا تَفَعَّفَكُمُ فِي الْحَرْبِ﴾. و﴿وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ تَفَعَّفُوهُمْ﴾ واللفظة مأخوذة من الثقافة، ومنه قول الشاعر:

تدعو ثقيفاً وقد عض الحديد بها
عض الثقاف على صم الأنابيب
وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾ استثناء منقطع، وهو نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا

حَبْطًا﴾ لأن بادي الرأي يعطي أن له أن يقتل خطأ، وأن الحبل من الله ومن الناس يزيل ضرب الذلة، وليس الأمر كذلك، وإنما الكلام محذوف يدرکه فهم السامع الناظر في الأمر، وتقديره في آيتنا: فلا نجاة من الموت إلا بحبل.

وقوله تعالى: ﴿مُحْرَبَاتٍ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾ أي: ما تُفَعَّوْا، كأنه بالمعنى: هلكوا واستوصلوا، فلذلك حسن أن يجيء بعدها: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ﴾. وقرب فهم ذلك للسامع. قال الزجاج: المعنى: ضُرِبَتْ عليهم الذلة إلا أنهم يعتصمون بالعهد إذا أعطوه، والحبل: العهد، شَبَّ به لأنه يصل قوماً يقوم كما يفعل الحبل في الأجرام.

و﴿وَأَذَلَّةٌ﴾ معناه: مضوا متحملين لهذا الحكم، وغضب الله عليهم بما دلت عليه هذه الأمور التي أوقع بهم. وأفعال بني إسرائيل على وجه الدهر من التعنت والعصيان توجب الغضب، فلذلك خُصُّوا به، والنصارى إنما ضلوا فقط. و﴿المسكنة﴾: التذل والضعف، وهي حالة الطوائف الملتصمات للقامة وللقمتين الضارح المفارق لحالة التعفف والتعزز به، فليس أحد من اليهود وإن كان غنياً إلا وهو بهذه الحال.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الغضب وضرب الذلة والمسكنة، فعاقبهم الله على كفرهم وقتلهم الأنبياء بذلك، و﴿أَيَّتِ اللَّهُ﴾ يختم أن يراد بها المتلوة، ويحتمل أن يريد العبر التي عرضت عليهم. وقوله:

﴿بِمَنْ حَقَّ﴾ تأكيد ومبالغة وقطع لما عسى أن يكون في وهم إنسان ممكناً بوجه ما.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا عَصَا﴾ حملة المفسرون على أن الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الشيء الذي أشير إليه بـ ﴿ذَلِكَ﴾ الأول، قاله الطبري والزجاج وغيرهما. والذي أقول: إن الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ الأخير إنما هي إلى كفرهم وقتلهم، وذلك أن الله تعالى استدرجهم فعاقبهم على العصيان والاعتداء بالمصير إلى الكفر وقتل الأنبياء، وهو الذي يقول أهل العلم: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالإيقاع في معصية، ويجازي على الطاعة بالتوفيق إلى طاعة، وذلك موجود في الناس إذا تأمل. وعصيان بني إسرائيل واعتداؤهم في السبت وغيره متقرر في غير ما موضع من كتاب الله. وقال قتادة رحمه الله عندما فسر هذه الآية: اجتنبوا المعصية والعدوان فإن بها أهلك من كان قبلكم من الناس.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما مضت الضمائر في الكفر والقتل والعصيان والاعتداء عامة في جميع أهل الكتاب، عقب تعالى ذلك بتخصيص الذين هم على خير وإيمان، وذلك أن أهل الكتاب لم يزول فيهم من هو على استقامة، فمنهم من مات قبل أن يدرك الشرائع فذلك من الصالحين، ومنهم من أدرك الإسلام فدخل فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا النظر أن جميع اليهود على عوج من وقت عيسى، وتجيء الآية إشارة إلى من أسلم فقط، أو يكون اليهود في معنى الأمة القائمة إلى وقت عيسى، ثم ينتقل الحكم في النصارى، ولفظ ﴿أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ يعم الجميع، والضمير في: ﴿لَيْسُوا﴾ لمن تقدم ذكره في قوله: ﴿يُنْتَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، وما قال أبو عبيدة من أن الآية نظرية قول العرب: «أكلوني البراغيث» خطأ مردود، وكذلك أيضاً ما حكى عن الفراء أن ﴿أُمَّةٌ﴾ مرتفعة بـ ﴿سَوَاءٌ﴾ على أنها فاعلة كأنه قال: لا تستوي أمة كذا، وأن في آخر الكلام محذوفاً معادلاً تقديره: وأمة كافرة، فأغنى القسم الأول عن ذكرها ودل عليه، كما قال أبو ذؤيب:

عصيتُ إليها القلبَ إني لأمرها
سميعٌ فما أدري أُرشدُ طلابها؟
المعنى: أم غي، فاقتصر لدلالة ما ذكر عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما الوجه أن الضمير في: ﴿لَيْسُوا﴾ يراد به من تقدم ذكره، و﴿سَوَاءٌ﴾ خبر ليس، و﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ مجرور فيه خبر مقدم، و﴿أُمَّةٌ﴾ رفع بالابتداء.

قال ابن عباس رضي الله عنه: لما أسلم عبدالله بن سلام، وثعلبة بن سعية، وأسيد بن سعية، وأسد بن عبيد، ومن أسلم من اليهود معهم: قال الكفار من أحبار اليهود: ما آمن بمحمد إلا شرارنا، ولو كانوا خياراً ما تركوا دين آبائهم، فأنزل الله تعالى

في ذلك: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾... الآية، وقال مثله قتادة وابن جريج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو أصح التأويلات. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: معنى الآية: ليس اليهود وأمة محمد سواء، وقاله السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمن حيث تقدم ذكر هذه الأمة في قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ﴾ وذكر أيضاً اليهود قال الله لنبيه: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾، والكتاب على هذا جنس كتب الله، وليس بالمعهود من التوراة والإنجيل فقط. والمعنى: من أهل الكتاب وهم أهل القرآن أمة قائمة.

واختلفت عبارة المفسرين في قوله: ﴿قَائِمَةٌ﴾ فقال مجاهد: معناه: عادلة، وقال قتادة والربيع وابن عباس: معناه: قائمة على كتاب الله وحدوده مهتدية، وقال السدي: القائنة المطيعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله يرجع إلى معنى واحد من الاعتدال على أمر الله، ومنه قيل للدنانير أو الدراهم الوازنة: قائمة، وهذه الآية تحتل هذا المعنى وألاً تنظر اللفظة إلى هيئة الأشخاص وقت تلاوة آيات الله. ويحتمل أن يراد بـ ﴿قَائِمَةٌ﴾ وصف حال التالين في آناء الليل، ومن كانت هذه حاله فلا محالة أنه معتدل على أمر الله. وهذه الآية في هذين الاحتمالين مثل ما تقدم في قوله: ﴿إِلَّا مَا دُمَّتْ عَلَيْهِ قَائِمًا﴾.

و﴿يَتْلُونَ﴾ معناه: يسردون،

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ في هذه الآية هي: كُتِبَ، والآتاء: الساعات، واحدها: إنِّي بكسر الهمزة وسكون النون. ويقال فيه: أتى بفتح الهمزة، ويقال: إنِّي بكسر الهمزة وفتح النون والقصر، ويقال فيه: أتى بفتح الهمزة، ويقال: إنَّوْ بكسر الهمزة وسكون النون ويوau مضمومة. ومنه قول الهذلي:

حلَّوْ ومرُّ كعطفِ القذحِ يرثُهُ
في كلِّ إنِّي قضاءه الليل ينتعلُ
وحكمُ هذه الآية لا يتفق في كلِّ
شخص شخص بأن يكون كلُّ
واحد يصلي جميعَ ساعات الليل،
وإنما يقوم هذا الحكم من جماعة
الأمَّة، إذ بعض الناس يقومُ أولَ
الليل، وبعضهم آخره، وبعضهم
بعد هجعةٍ ثم يعود إلى نومه،
فيأتي من مجموع ذلك في المدن
والجماعات عبارة آتاء الليل بالقيام،
وهكذا كان صدرُ هذه الأمَّة،
وعرفَ الناسُ القيامَ في أولِ الثلث
الأخر من الليل أو قبله بشيء،
وحينئذ كان يقوم الأكثر، والقيامُ
طولَ الليل قليلاً، وقد كان في
الصالحين من يلتزمه، وقد ذكر الله
تعالى القصد من ذلك في سورة
المزمل، وقيام الليل لقراءة العلم
المبتغى به وجهُ الله داخلٌ في هذه
الآية، وهو أفضل من التنفُّل لمن
يُرْجَى انتفاعُ المسلمين بعلمه.

وأما عبارة المفسرين في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، فقال الربيع وقتادة وغيرهما: آتاء الليل: ساعات الليل، وقال عبدالله بن كثير: سمعنا العرب تقول: آتاء الليل: ساعات الليل،

وقال السدي: آتاء الليل: جوف الليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلق. أما إن جوف الليل جزء من الآتاء.

وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية بسبب أن النبي ﷺ احتبس عنا ليلة عن صلاة العتمة وكان عند بعض نسائه فلم يأت حتى مضى ليل، فجاء ومنا المصلي ومنا المضطجع، فقال: «أبشروا فإنه ليس أحد من أهل الكتاب يصلي هذه الصلاة» فأنزل الله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾... الآية، فالمراد بقوله: ﴿يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ﴾ صلاة العشاء. وروى سفيان الثوري عن منصور أنه قال: بلغني أن هذه الآية نزلت في المصلين بين العشاءين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ يَسْجُدُونَ﴾، ذهب بعض الناس إلى أن السجود هنا عبارة عن الصلاة، سماها بجزء شريف منها كما تسمى في كثير من المواضع ركوعاً، فهي على هذا جملة في موضع الحال، كأنه قال: يتلون آيات الله آتاء الليل مصلين. وذهب الطبري وغيره إلى أنها جملة مقطوعة من الكلام الأول، أخير عنهم أنهم أيضاً أهل سجد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحسن هذا من جهة أن التلاوة آتاء الليل قد يعتقد السامع أن ذلك في غير الصلاة، وأيضاً فالقيام في قراءة العلم يخرج من الآية على التأويل الأول، ويثبت فيها على هذا الثاني، ﴿فَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ على هذا نعت

عُدُّ بواو العطف، كما تقول: جاءني زيد الكريم والعاقل.

﴿يُؤْمِنُونَ﴾ معناه: يصدقون، وفي الإيمان باليوم الآخر إيمان بالأنبياء. لأنه من جائزات العقل التي أثبتتها السمع من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ وصف بأنهم متى دُعُوا إلى خير من نصر مظلوم وإغاثة مكروب وجبر مهيض وعبادة الله أجابوا، ومنه فعلُ مالكٍ رضي الله عنه في ركعتي المسجد، وقال: دعوتني إلى خير فأجبت إليه. ومما يدخل في ضمن قوله تعالى: ﴿وَيُؤْتِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أن يكون المرء مغتنماً للخمس قبل الخمس كما قال النبي ﷺ: «اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل مماتك، وغناك قبل فقرك»، فيكون متى أراد أن يصنع خيراً بادر إليه ولم يسوف نفسه بالأمل، فهذه أيضاً مسارعة في الخيرات. وذكر بعض الناس قال: دخلت مع بعض الصالحين في مركب فقلت له: ما تقول أصلحك الله في الصوم في السفر؟ فقال لي: إنها المبادرة يا ابن أخي، قال المحدث: فجاءني والله بجواب ليس من أجوبة الفقهاء.

ثم وصف الله تعالى من تحصلت له هذه الصفات بأنه من جملة الصالحين، ﴿وَمِنْ﴾ يحسن أن تكون للتبعيض، ويحسن أن تكون لبيان الجنس.

الآخر، ودلّ المذكوران على المتروكين، وهذه غاية البلاغة والإيجاز، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَتَّقُ يَمًا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً﴾.

وقرأ عبدالرحمن بن هرمز الأعرج ﴿تُفْقُونَ﴾ بالتاء على معنى قل لهم يا محمد، و﴿مَثَلٌ﴾ رفع بالابتداء، وخبره في محذوف به تعلق الكاف من قوله: ﴿كَمَثَلِ﴾، و﴿مَا﴾ - بمعنى الذي، وجمهور المفسرين على أن ﴿يُفْقُونَ﴾ يراد به الأموال التي كانوا ينفقونها في التحنث وفي عداوة رسول الله ﷺ، وكان ذلك عندهم قرية، وقال السدي: ﴿يُفْقُونَ﴾ معناه: من أقوالهم التي يطنون ضدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، لأنه يقتضي أن الآية في المنافقين، والآية إنما هي في كفار يعلنون مثل ما يطنون، وذهب بعض المفسرين إلى أن ﴿يُفْقُونَ﴾ يراد به أعمالهم من الكفر ونحوه، أي هي كالريح التي فيها صرّ، فتبطل كل ما لهم من صلة رحم وتحنث بعنق ونحوه، كما تبطل الريح الزرع، وهذا قول حسن لولا بُغْد الاستعارة في الإنفاق.

والصُرُّ: البرد الشديد المحرق لكل ما يهبّ عليه، وهو معروف، قال ابن عباس وجمهور المفسرين: الصُرُّ: البرد، وتسميه العرب: الضرب، وذهب الزجاج وغيره إلى أن اللفظة من التصويت، من قولهم: صرّ الشيء، ومنه الريح الصرصر،

ثم عقب تعالى ذكر هذا الصنف الصالح بذكر حال الكفار لبيان الفرق، وخصّ الله تعالى الأموال والأولاد بالذكر لوجوه: منها أنها زينة الحياة الدنيا وعظم ما تجري إليه الآمال، ومنها أنها الصنق النصره بالإنسان وأيسرها، ومنها أن الكفار المكذبين بالآخرة لا همة لهم إلا فيها وهي عندهم غاية المرء وبها كانوا يفخرون على المؤمنين، فذكر الله أن هذين اللذين هما بهذه الأوصاف لا غناء فيهما من عقاب الله في الآخرة،

فإذا لم تغن هذه غيرها من الأمور البعيدة أخرى ألا يغني.

وقوله تعالى: ﴿أَخَصَبُ النَّارِ﴾ إضافة تخصيص ما تقتضي ثبوت ذلك لهم ودوامه.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ مَا يُفْقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾... الآية، معناه: المثال القائم في النفوس من إنفاقهم الذي يعدونه قرية وحسبة وتحنثاً، ومن حبطه يوم القيامة وكونه هباءً منثوراً وذهابه، كالمثال القائم في النفوس من زرع قوم نبت واخضرّ وقويّ الأمل فيه فهبت عليه ريح فيها صرّ محرق فأهلكته، فوقع التشبيه بين شيئين وشيئين، ذكر الله عز وجل أحد الشيئين المشبهين وترك ذكر الآخر، ثم ذكر أحد الشيئين المشبه بهما - وليس الذي يوازي المذكور الأول - وترك ذكر

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ تُنْفِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١٥﴾
مَثَلُ مَا يُفْقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتَهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٦﴾ تَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مَنْ دُونَكُمْ لَا يَأْتِي لُونَكُمْ حَبَالٌ وَدُّوْا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ كَبُرَ قَدْرًا كَبُرَ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ مَعْقِلُونَ ﴿١١٧﴾ هَتَانِ الْمَوْتُ وَهُنَا حَيَاتُهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ دُونِهَا وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيْهُمُ وَإِذَا الْقُرُوءُ قَالَوْا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَابِلَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْمِنُوا بِعَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٨﴾ إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَصْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصْرَعُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَسْمُرُونَ مُحِيطٌ ﴿١١٩﴾ وَإِذْ عَدُوٌّ مِنْ آهْلِكِ يُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدًا لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾

١١٥ - ١١٧ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير ونافع وعاصم في رواية أبي بكر وابن عامر: ﴿تَفْعَلُوا﴾ و﴿تُكْفَرُوا﴾ بالتاء، على مخاطبة هذه الأمة، وقرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم بالياء فيهما على مشابهة ما تقدم من: ﴿يَتْلُونَ﴾ و﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وما بعدهما، وكان أبو عمرو يقرأ بالوجهين.

و﴿تُكْفَرُوا﴾ معناه: يغطي دونكم فلا تشابون عليه، من هذا قول النبي ﷺ: «ومن أزلت إليه نعمة فليذكرها فإن ذكرها فقد شكرها، فإن لم يفعل فقد كفرها».

ومن قول الشاعر:

.....
والكفر مَحْبُتَةٌ لِنَفْسِ الْمَنْعَمِ
وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُنْتَهَبِ﴾ وعد ووعيد.

قال الزجاج: فالصّر: صوت النار التي في الريح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الصّر: هو نفس جهنم الذي في الزمهرير يحرق نحواً مما تحرق النار.

والحرث: شامل للزرع والشمار، لأن الجميع مما يصدر عن إثارة الأرض وهي حقيقة الحرث، ومنه الحديث: «لا زكاة إلا في عين أو حرث أو ماشية».

وقال عز وجل: ﴿ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فما بال هذا التخصيص والمثل صحيح، وإن كان الحرث لمن لم يظلم نفسه؟ فالجواب أن ظلم النفس في هذه الآية تأوله جمهور المفسرين بأنه ظلم بمعاصي الله، فعلى هذا وقع التشبيه بحرث من هذه صفة، إذ عقوبته أرجى، وأخذة الله له أشد، والنقمة إليه أسرع وفيه أقوى، كما روي: «في جوف العير» وغيره. وأيضاً فمن أهل العلم من يرى أن كل مصائب الدنيا فإنما هي بمعاصي العبيد، ويتترع ذلك من غير ما آية في القرآن، فيستقيم على قوله: إن كل حرث تحرقه ريح فإنما هو لمن ظلم نفسه. وذهب بعض الناس ونحا إليه المهدي إلى أن قوله تعالى: ﴿حَرَّتْ قَوْرٌ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ معناه: زرعوها في غير أوان الزراعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينبغي أن يقال في هذا: ظلموا أنفسهم بأن وضعوا أفعال الفلاحة غير موضعها من وقت أو هيئة عمل، ويخص هؤلاء بالذكر لأن الحرق فيما جرى هذا المجرى أوعب وأشد

تمكناً، وهذا المتزع يشبهه من جهة ما قول امرئ القيس:

وسالفة كَسَحُوقِ اللَّيَا
نِ أَضْرَمَ فِيهَا الْغَوِيُّ السَّعَزُ
فخصص الغوي لأنه يلقي النار في النخلة الخضراء الحسنة التي لا ينبغي أن تحرق، فتطفئ النار عن نفسها رطوبتها بعد أن تتشذب وتسد، فيجيء الشبه حسناً. والرشيذ لا يضرم النار إلا فيما ييس وأسحق فهو يذهب ولا يبقى منه ما يشبه به.

والضمير في: ﴿ظَلَمَهُمْ﴾ للكفار الذين تقدم ضميرهم في: ﴿يُنْفِقُونَ﴾، وليس هو للقوم ذوي الحرث لأنهم لم يذكروا ليرد عليهم ولا ليبين ظلمهم، وأيضاً فقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ يدل على فعل الحال في حاضرين.

تفسير قوله عز وجل: ﴿يُنْفِقُونَ﴾ نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن أن يتخذوا من الكفار واليهود أخلاء يأنسون بهم في الباطن من أمورهم، ويفاوضونهم في الآراء، ويستقيمون إليهم.

وقوله: ﴿يَنْ دُونََكُمْ﴾ يعني: من دون المؤمنين، ولفظة «دون» تقتضي فيما أضيف إليه أنه معدوم من القصة التي فيها الكلام، فشبّه الأخلاء بما يلي بطن الإنسان من ثوبه، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «ما من خليفة ولا ذي إمرة إلا وله بطانتان، بطانة تأمره بالخير وتحضه عليه، وبطانة تأمره بالشر وتحضه عليه، والمعصوم من عصم الله».

وقوله: ﴿لَا يَأْتِيَنَّكُمْ حَيَالًا﴾ معناه:

لا يقصرون لكم فيما فيه الفساد عليكم، تقول: ما ألوث في كذا، أي: ما قصرت بل اجتهدت، ومنه قول زهير:

جرى بعدهم قومٌ لكي يلحقوهم
فلم يلحقوا ولم يُلِمُوا ولم يألوا
أي لم يقصروا. والخبل والخبال: الفساد.

وقال ابن عباس: كان رجال من المؤمنين يواصلون رجالاً من اليهود للجوار والحلف الذي كان بينهم في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك. وقال أيضاً ابن عباس وقتادة والربيع والسدي: نزلت في المنافقين، نهى الله المؤمنين عنهم. وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لا تستضيئوا بنار المشركين، ولا تنقشوا في خواتيمكم عربياً»، فسره ابن أبي الحسن فقال: أراد عليه السلام: لا تستشيروا المشركين في شيء من أموركم، ولا تنقشوا في خواتيمكم «محمداً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويدخل في هذه الآية استكتاب أهل الذمة وتصريفهم في البيع والشراء والاستنامة إليهم. وروي أن أبا موسى الأشعري استكتب ذمياً فكتب إليه عمر يعنه، وتلا عليه هذه الآية. وقيل لعمر: إن هاهنا رجلاً من نصارى الحيرة لا أحد أكتب منه ولا أخط بقلم، أفلا يكتب عنك؟ فقال: إذا أتخذ بطانة من دون المؤمنين.

و«ما» في قوله: ﴿مَا عَيْتُمْ﴾ مصدرية. فالمعنى: ودوا عنكم، والعنت: المشقة والمكروه يلقاه

المراء، وعقبة عنوت: أي شاقة؛ وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِمَنْ حَشِيَ أَلَمَتَّ﴾ معناه: المشقة إما في الزنى وإما في ملك الأرب. قال السدي: معناه: ودوا ما ضللتم، وقال ابن جريج: المعنى: ودوا أن تعتنوا في دينكم، ويقال: عَيْتَ الرجل يَعْتُ بكسر النون في الماضي.

وقوله تعالى: ﴿فَدَّ بَدَتِ الْبَغْضَاءَ بَيْنَ أَقْوَاهِمُ﴾ يعني بالأقوال، فهم فوق المستر الذي تبدو البغضاء في عينيه. وحضّ تعالى الأقواء بالذكر دون الألسنة إشارة إلى تشدقهم وثرثرتهم في أقوالهم هذه، ويشبه هذا الذي قلناه ما في الحديث أن رسول الله ﷺ نهى أن يتشحى الرجل في عرض أخيه، معناه: أن يفتح فاه به، يقال: شحا الحمار فاه بالهنيق، وشحا اللجم في الفرس، والنهي في أن يأخذ أحد عرض أخيه همساً راتب، فذكر التشحى إنما هو إشارة إلى التشدق والانبساط.

وقوله: ﴿وَمَا تُحْنِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ إعلام بأنهم يبطنون من البغضاء أكثر مما يظهرون بأفواههم، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿قَدْ بَدَأَ الْبَغْضَاءُ﴾ بتذكير الفعل، لما كانت البغضاء بمعنى البغض.

ثم قال تعالى للمؤمنين: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمْ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ تحذيراً وتنبهاً، وقد علم تعالى أنهم عقلاء، ولكن هذا هزٌّ للنفوس كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا وكذا.

﴿١١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم إعراب نظير هذه الآية وقراءتها في قوله تعالى آنفاً: ﴿هَكَأُنْتُمْ

هَكَأُنْتُمْ حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ﴾، والضمير في: ﴿حُجُوتُمْ﴾ لمنافقي اليهود الذين تقدم ذكرهم في قوله: ﴿بِطَانَةٌ مِّنْ دُونِكُمْ﴾، والضمير في هذه الآية اسم للجنس، أي: تؤمنون بجميع الكتب وهم لا يؤمنون بقرآنتكم. وإنما وقف الله تعالى المؤمنين بهذه الآية على هذه الأحوال الموجبة لبغض المؤمنين لمنافقي اليهود واطراحهم إياهم، فمن تلك الأحوال أنهم لا يحبون المؤمنين، وأنهم يكفرون بكتابهم، وأنهم ينافقون عليهم ويستخفون بهم ويغتاطلون ويتربصون الدوائر عليهم.

وقوله تعالى: ﴿عَصَاؤُا عَلَيْكُمْ الْآيَاتِ﴾ عبارة عن شدة الغيظ مع عدم القدرة على إنفاذه، ومنه قول أبي طالب:

يَعَصُّونَ غَيْظًا خَلَقْنَا بِالْأَنَامِلِ
ومنه قول الآخر:

وقد شهدت قيس فما كان نصرها
قتيبة إلا عَصَاهَا بِالْأَبَاهِمِ
وهذا العَصُ هو بالأسنان، وهي هيئة في بدن الإنسان تتبع هيئة النفس الغائظة، كما أن عَصُ اليد على اليد يتبع هيئة النفس النادمة المتلطفة على فائت قريب الفتوت، وكما أن قرع السن هيئة النفس النادمة فقط، إلى غير ذلك من عَصِ الحصى والخَطِّ في الأرض للمهموم ونحوه، ويكتب هذا العَصُ بالضاد، ويكتب عَصُ الزمان بالظاء المشالة، وواحد الأنامل أنملة بضم الميم، ويقال: بفتحها، والضم أشهر، ولا نظير

لهذا الاسم في بنائه إلا أشد، وله نظائر في الجموع.

وقوله: ﴿وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كَرِهًا﴾ يقتضي أن الآية في منافقي اليهود لا في منافقي العرب، ويعترضها أن منافقي اليهود لم يُخَفِّظْ عنهم أنهم كانوا يؤمنون في الظاهر إيماناً مطلقاً ويكفرون في الباطن كما كان المنافقون من العرب يفعلون، إلا ما روي من أمر زيد بن الصييت القيناعي، فلم يبق إلا أن قولهم: ﴿هَاتِمًا﴾ معناه: صدقنا أنه نبي مبعوث إليكم، أي: فكونوا على دينكم ونحن أولياؤكم وإخوانكم لا نضمر لكم إلا المودة، ولهذا كان بعض المؤمنين يتخذهم بطانة، وهذا منزع قد حُفِظَ أن كثيراً من اليهود كان يذهب إليه، ويدل على هذا التأويل أن المعادل لقولهم: (آمننا) عض الأنامل من الغيظ، وليس هو ما يقتضي الارتداد كما هو قوله تعالى: ﴿وَلِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شُطُوبِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ﴾، بل هو ما يقتضي البغض وعدم المودة. وكان أبو الجوزاء إذا تلا هذه الآية قال: هم الإباضية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الصفة ترتب في أهل البدع من الناس إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مُؤْمِنُوا بِبَيْتِكُمْ﴾، قال فيه الطبري وكثير من المفسرين: هو دعاء عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا يتجه أن يدعى عليهم بهذا مواجهة وغير مواجهة، وقال قوم: بل أمر النبي ﷺ وأمه أن يواجهوهم بهذا. فعلى هذا زال معنى الدعاء

وبقي معنى التقريع والإغاظه، ويجري المعنى مع قول مسافر بن أبي عمرو:

وننمى في أرومتنا
ونفقاً عين من حسدا
وينظر إلى هذا المعنى في قوله:
﴿مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ﴾ قوله تعالى:
﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ﴾.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾
وعيد يواجهون به على هذا التأويل
الأخير في: ﴿مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ﴾، وهو
إخبار مجرد لمحمد ﷺ في تأويل
الدعاء في: ﴿مُؤْتُوا بِعَيْظِكُمْ﴾،
و﴿ذات الصدور﴾: ما تنطوي عليه،
والإشارة هنا إلى المعتقدات، ومن
هذا قول أبي بكر الصديق
رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن
بنت خارجه»، ومنه قولهم: «الذئب
مغبوط بذئ بطنه»، والذات: لفظ
مشترك في معان لا يدخل منها في
هذه الآية إلا ما ذكرناه.

﴿١٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الحسنة والسيئة في هذه الآية لفظ
عام في كل ما يحسن ويسوء، وما
ذكر المفسرون من الخصب والجذب
واجتماع المؤمنين ودخول الفرقة
بينهم وغير ذلك من الأقوال فإنما
هي أمثلة وليس ذلك باختلاف،
وذكر تعالى المس في الحسنة ليبين
أن بأدنى طرود الحسنة تقع المساءة
بنفوس هؤلاء المبغضين، ثم عادل
ذلك بالسيئة بلفظ الإصابة وهي عبارة
عن التمكن، لأن الشيء المصيب
لشيء فهو متمكن منه أو فيه، فدل
هذا المنزغ البليغ على شدة العداوة،

إذ هو حقد لا يذهب عند الشدائد،
بل يفرحون بنزول الشدائد
بالمؤمنين، وهكذا هي عداوة الحسد
في الأغلب، ولا سيما في مثل هذا
الأمر الجسيم الذي هو ملاك الدنيا
والآخرة، وقد قال الشاعر:

كل العداوة قد ترجى إزالتها
إلا عداوة من عاداك من حسد
ولما قرر تعالى هذا الحال لهؤلاء
المذكورين، وأوجبت الآية أن
يعتقدهم المؤمنون بهذه الصفة، جاء
قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا
يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً تَسْلِيَةً
لِلْمُؤْمِنِينَ وَتَقْوِيَةٌ لِنَفْسِهِمْ، وَشَرَطَ
ذلك بالصبر والتقوى.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع:
﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بكسر الضاد وجزم
الراء، وهو من ضار يضير بمعنى:
ضُرُّ يضر وهي لغة فصيحة، وحكى
الكسائي: ضار يضور، ولم يقرأ
على هذه اللغة. وبين ضار يضير في
كتاب الله ﴿لَا ضَيْرٌ﴾، ومنه قول
أبي ذؤيب الهذلي:

فقيل: تَحْمَلُ فوق طوقك إنها
مُطَبَّقَةٌ مَنْ يَأْتِيهَا لَا يَضِيرُهَا
يصف مدينة، والمعنى: فليس
يَضِيرُهَا، وفي هذا النفي المقدر
بالفاء هو جواب الشرط. ومن اللفظ
قول توبة بن الحمير:

وقال أناس لا يَضِيرُكَ نأيها
بلى كل ما شَفَّ النفوس يضيرها
وقرأ عاصم وابن عامر وحمزة
والكسائي: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بضم
الضاد والراء والتشديد في الراء،
وهذا من ضر يضر، وروي عن

حمزة مثل قراءة أبي عمرو. وأما
إعراب هذه القراءة فجزم، وضمت
الراء للالتقاء، وهو اختيار سيويه في
مثل هذا إتباعاً لضمة الضاد، ويجوز
فتح الراء وكسرها مع إرادة الجزم،
فأما الكسر فلا أعرفها قراءة، وعبارة
الزجاج في هذا متجوز فيها، إذ يظهر
من درج كلامه أنها قراءة، وأما فتح
الراء من قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ فقرأ
به عاصم فيما رواه أبو زيد عن
المفضل عنه، ويجوز أيضاً أن يكون
إعراب قوله: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ رفعاً
إما على تقدير: فليس يضركم، على
نحو ما تقدم في بيت أبي ذؤيب،
وإما على نية التقدم على: ﴿وَأَنْ
تَصْبِرُوا﴾ كما قال:

يا أقرعُ بن حابس يا أقرعُ
إنك إن يضرعُ أخوك تُضرعُ
المراد إنك تصرع. وقرأ أبي بن
كعب: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ براءين،
وذلك على فك الإدغام، وهي لغة
أهل الحجاز، وعليها قوله تعالى في
الآية: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ﴾، ولغة سائر
العرب الإدغام في مثل هذا كله.
والكيد: الاحتيال بالأباطيل، وقوله
تعالى: ﴿وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ إنما هي
تسمية العقوبة باسم الذنب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِمَا
يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وعيد، والمعنى:
محيط جزاؤه وعقابه بالقدرة
والسلطان. وقرأ الحسن: ﴿بِمَا
تَعْمَلُونَ﴾ بالتاء، وهذا إما على تعدد
المؤمنين في اتخاذ هؤلاء بطانة، وإما
على تعدد هؤلاء المنافقين بتقدير:
قل لهم يا محمد.

قالوا: يا رسول الله أقم إن شئت، فإننا لا نريد أن نُكْرِهَكَ، فقال رسول الله ﷺ: «ما ينبغي لنبي إذا ليس سلاحه أن يضعها حتى يقاتل».

ثم خرج بالناس، وسار حتى قرب من عسكر المشركين هناك، وبات تلك الليلة، وقد غضب عبدالله بن أبي ابن سلول وقال: أطاعهم وعصاني. فلما كان في صبيحة يوم السبت اعتزم رسول الله ﷺ على السير إلى مناجزة المشركين، فنهض وهو في ألف رجل، فانخرل عنه عند ذلك عبدالله بن أبي ابن سلول بثلاثمائة من الناس، من متناقض ومتبع، وقالوا: نظن أنكم لا تلقون قتالاً، ومضى رسول الله ﷺ في سبعمائة، فهتت عند ذلك بنو حارثة من الأوس وبنو سلمة من الخزرج بالانصراف، وراوا كثافة المشركين وقلة المسلمين، وكادوا أن يجبنوا ويفشلوا فعصمهم الله تعالى، وذمر بعضهم بعضاً، ونهضوا مع النبي ﷺ، فمضى رسول الله ﷺ حتى أطل على المشركين، فتصاف الناس. وكان رسول الله ﷺ قد أمر على الرماة عبدالله بن جبير وكانوا خمسين رجلاً، وجعلهم يحمون الجبل وراء المسلمين، وأسند هو إلى الجبل، فلما أضمرت الحرب انكشف المشركون وانهمزوا، وجعل نساء المشركين تبدو خلاخلهن وهن يسندن في صفح جبل، فلما رأى الرماة ذلك قالوا: الغنيمة الغنيمة أيها المسلمون. وكان رسول الله ﷺ قال لهم: «لا ترحوا من هنا ولو رأيتمونا تتخطفنا الطير» فقال لهم عبدالله بن

ثلاث من الهجرة، على رأس أحد وثلاثين شهراً من الهجرة، وأقاموا هنالك يوم الخميس، ورسول الله ﷺ بالمدينة يدبر وينتظر أمر الله تعالى، فلما كان في صبيحة يوم الجمعة جمع رسول الله ﷺ الناس واستشارهم، وأخبرهم أنه كان رأى في منامه بقرة تذبذع وثلماً في ذباب سيفه، وأنه يدخل يده في درع حصينة، وأنه تأولها المدينة، وقال لهم: «أرى ألا نخرج إلى هؤلاء الكفار»، فقال له عبدالله بن أبي ابن سلول: أقم يا

رسول الله ولا تخرج إليهم بالناس، فإن هم أقاموا أقاموا بشر محبس، وإن انصرفوا مضوا خائبين، وإن جاؤونا إلى المدينة قاتلناهم في الأفنية، ورامهم النساء والصبيان بالحجارة من الأطام، فوالله ما حاربنا قط عدواً في هذه المدينة إلا غلبناه، ولا خرجنا منها إلى عدو إلا غلبنا، فوافق هذه السراي رأيي رسول الله ﷺ ورأيي جماعة من المهاجرين والأنصار. وقال قوم من صلحاء المؤمنين ممن كان فاته بدر: يا رسول الله، اخرج بنا إلى عدونا، وشجعوا الناس ودعوا إلى الحرب، فقام رسول الله ﷺ فصلّى بالناس صلاة الجمعة وقد جشمه هؤلاء الداعون إلى الحرب، فدخل إثر صلواته بيته ولبس سلاحه، فقدم أولئك القوم وقالوا: أكرهنا رسول الله ﷺ، فلما خرج عليهم النبي ﷺ في سلاحه

إذ همّت طائفتان منكم أن تقسلا والله وليهما وعلى الله فليسوا كل المؤمنين ﷻ ولقد نصركم الله يديروا نتم أدلة فاتقوا الله لعلكم تتشكرون ﷻ إذ تقول للمؤمنين آلن يكفيناكم أن يعيدكم ربكم بملئمة آلف من الملائكة منزيين ﷻ بل إن نصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﷻ وما جعله الله إلا بشرى لكم ولطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم ﷻ ليقط طرفاً من الذين كفروا أو يكذبهم فينقلبوا خائبين ﷻ ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون ﷻ والله ما في السموات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم ﷻ يتأبها الذين آمنوا لا تأكلوا الربوا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون ﷻ واتقوا النار التي أعدت للكافرين ﷻ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول لعلكم ترحموا ﷻ

١٢١ - ١٢٢ تفسير قوله عز وجل:

ذهب الطبري رحمه الله إلى أن هذه الآية متصلة بمعنى ما تقدمها من الآيات، والظاهر أنها استقبال أمر آخر. لأن تلك مقاومة في شأن منافقي اليهود، وهذا ابتداء عتب المؤمنين في أمر أحد، فالعامل في ﴿إذ﴾ فعل مضمر تقديره: واذكر. وقال الحسن: هذا الغدو المذكور في هذه الآية لتبوء المؤمنين الذي كان في غزوة الأحزاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وخالفه الناس. والجمهور على أن ذلك كان في غزوة أحد، وفيها نزلت هذه الآيات كلها. وكان من أمر غزوة أحد أن المشركين اجتمعوا في ثلاثة آلاف رجل، وقصدوا المدينة ليأخذوا بشأهم في يوم بدر، فنزلوا عند أحد يوم الأربعاء الثاني عشر من شوال سنة

كانت صفوف المسلمين أولاً، والمبارزة والسرعان يجولون.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أي: ما تقول ويقال لك وقت المشاورة وغيره؛ و﴿إِذْ﴾ الثانية بدل من الأولى، و﴿هَمَّتْ﴾ معناها: أرادت ولم تفعل، والفشل في هذا الموضع: هو الجبن الذي كاد يلحق بني سلمة وبني حارثة، والفشل في البدن: هو الإعياء والتبليغ، والفشل في الرأي: هو العجز والحيرة وفساد العزم، وقال جابر بن عبدالله: ما ودنا أنها لم تنزل، لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ وَبِئْسَمَا﴾.

وقوله: ﴿وَعَلَّ اللَّهُ فُلَيْتَوَكِّلَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ أمر في ضمنه التغييب للمؤمنين بمثل ما فعله بنو حارثة وبنو سلمة من المسير مع النبي ﷺ. وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿تَبْشِيرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ بلام الجر، وقرأ: ﴿وَاللَّهُ وَلِيهِمْ﴾ على معنى الطافتين لا على اللفظ.

١٢٣ - ١٢٤ تفسير قوله عز وجل: لما أمر الله تعالى بالتوكل عليه، ذكر بأمير بدر الذي كان ثمرة التوكل على الله والثقة به، فمن قال من المفسرين إن قول النبي ﷺ للمؤمنين: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ كان في غزوة بدر، فيجيء التذكير بأمير بدر وبأمير الملائكة وقتالهم فيه مع المؤمنين محرضاً على الجِدِّ والتوكل على الله، ومن قال: إن قول النبي ﷺ: ﴿أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾... الآية إنما كان في غزوة أحد، كان قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ إلى ﴿تَشْكُرُونَ﴾ اعتراضاً بين الكلام

وقال غير الطبري: بل نهوض النبي ﷺ يوم الجمعة بعد الصلاة هو غدوه، ويؤا المؤمنيين في وقت حضور القتال، وقيل: ذلك في ليلته، وسماه غدواً إذ كان قد اعتزم التدبير والشروع في الأمر من وقت الغدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا سيما أن صلاة الجمعة ربما كانت قبل الزوال، حسبما وردت بذلك أحاديث، فيجيء لفظ الغدو متمكناً. وقيل: إن الغدو المذكور هو غدوة يوم السبت إلى القتال، ومن حيث لم يكن في تلك الليلة موافقاً للغدو فهو كأنه كان في أهله، ويؤا المسلمين بأمره الرماة وغير ذلك من تدبيره مضافاً للناس، و﴿تَبْشِيرٌ﴾ معناها: تعيين لهم مقاعد يتمكنون فيها ويشتون، تقول: تبوأ مكان كذا إذا حللته حلولاً متمكناً ثبت فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿نَدَبُوا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ﴾ ومنه قول النبي ﷺ: «من كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»، ومنه قول الشاعر:

كم صاحبٍ لي صالحٍ
ببوائئه بيدي لحداءٍ
ومنه قول الأعشى:

وما بواً الرحمن بيتك منزلاً
بشرفي أجياد الصفا والمحرم
وقوله تعالى: ﴿مَقْعِدٌ﴾ جمع مقعد، وهو مكان القعود، وهذا بمنزلة قولك: مواقف، ولكن لفظة القعود أدل على الثبوت، ولا سيما أن الرماة إنما كانوا قعوداً، وكذلك

جبير وقوم منهم: اتقوا الله واثبتوا كما أمركم نبيكم، فَعَصُوا وخالفوا وزالوا متبعين، وكان خالد بن الوليد قد تجرد في جريدة خيل وجاء من خلف المسلمين حيث كان الرماة، فحمل على الناس، ووقع التخاذل وصبح في المسلمين من مقدمتهم ومن ساقتهم، وصرخ صارخ: قُتِلَ محمد، فتخاذل الناس واستشهد من المسلمين نيفٌ على سبعين. قال مكي: قال مالك رحمه الله: قتل من المهاجرين يوم أحد أربعة، ومن الأنصار سبعون، وتحيز رسول الله ﷺ في أعلى الجبل وتجاوز الناس.

هذا مختصر من القصة يتركب عليه تفسير الآية، وأمر أخذ بطوله وما تخلله من الأفعال والأقوال مستوعب في كتب السير، وليس هذا التعليق مما يقتضي ذكره.

وحكى مكي عن السدي ما يظهر منه أن القتال كان يوم الجمعة، وحكى عنه الطبري أن نزول أبي سفيان بأحد كان في الثالث من شوال، وذلك كله ضعيف، وقال النقاش: وقعة أحد في الحادي عشر من شوال، وذلك خطأ. قال الطبري وغيره: فغدو رسول الله ﷺ يوم الجمعة إلى التدبير مع الناس واستشارتهم هو الذي عبر عنه بقوله تعالى: ﴿تَبْشِيرٌ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدٌ لِّقِتَالِهِمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا سيما أن غدو النبي ﷺ إنما كان ورأيه ألا يخرج الناس، فكان لا يشك في نفسه أن يقسم أقطار المدينة على قبائل الأنصار.

جميلاً. والنصرُ بيدر هو المشهور الذي قتل فيه صناديد قريش، وعلى ذلك اليوم اتبنى الإسلام، وكانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة لثمانية عشر شهراً من الهجرة. وبدر: ماء هنالك سُمي به الموضع. وقال الشعبي: كان ذلك الماء لرجل من جهينة يسمى بدرأ فيه سُمي. قال الواقدي: فذكرت هذا لعبدالله بن جعفر ومحمد بن صالح فأنكراه وقالوا: بأي شيء سميت الصفراء والجار وغير ذلك من المواضع؟ قال: وذكرت ذلك ليحيى بن النعمان الغفاري فقال: سمعت شيوخاً من بني غفار يقولون: هو ماؤنا ومزئنا وما ملكه أحد قط يقال له بدر، وما هو من بلاد جهينة إنما هي بلاد غفار، قال الواقدي: فهذا المعروف عندها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ أَدِلَّةٌ﴾ معناه: قليلون، وذلك أنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، وكان عدوهم ما بين التسعمائة والألف، وأدلة: جمع ذليل، واسم الذل في هذا الموضع مستعار ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعزة، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند التأمل ذلتهم، وأنهم مغلوبون، وقد قال النبي ﷺ في ذلك اليوم: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لم تعبد»، وهذه الاستعارة هي كاستعارة الكذب في قوله في الموطأ: كذب كعب، وكقوله: كذب أبو محمد، وكاستعارة المسكنة لأصحاب السفينة على بعض الأقوال، إذ كانت

مسكنتهم بالنسبة إلى الملك القادر الغاصب.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالتقوى، ورجاهم في الإنعام الذي يوجب الشكر، ويحتمل أن يكون المعنى: اتقوا الله عسى أن تكون تقواكم شكراً على النعمة في نصره بيدر.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ﴾، العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿فَصَرَّمْ﴾ وهذا على قول الجمهور: إن هذا القول من النبي ﷺ كان بيدر، قال الشعبي والحسن بن أبي الحسن وغيرهما: إن هذا كان بيدر، قال الشعبي: بلغ المؤمنين أن كرز بن جابر بن حسل المحاربي محارب فهر قد جاء في مدد المشركين، فغم ذلك المؤمنين، فقال النبي ﷺ للمؤمنين عن أمر الله تعالى هذه المقالة، فصر المؤمنين واتقوا، وهزم المشركون، وبلغت الهزيمة كرزاً ومن معه فانصرفوا ولم يأتوا من فورهم، ولم يمد المؤمنين بالملائكة، وكانت الملائكة بعد ذلك تحضر حروب النبي ﷺ مدداً، وهي تحضر حروب المسلمين إلى يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وخالف الناس الشعبي في هذه المقالة، وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت بدرأ وقاتلت، ومن ذلك قول أبي أسيد مالك بن ربيعة: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي بصري لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا أتمارى. ومنه حديث الغفاري وابن عمه اللذين سمعا من الصحابة: أقدم

حيزوم، فأنكشف قناع قلب أحدهما فمات مكانه وتماسك الآخر. وقال ابن عباس: لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام إلا يوم بدر، وكانوا يكونون في سائر الأيام عدداً ومدداً لا يضر بيون. ومن ذلك قول أبي سفيان بن الحارث لأبي لهب: ما هو إلا أن لقينا القوم فمنحناهم أكتافنا يقتلون ويأسرون، وعلى ذلك فوالله ما لمت الناس، لقينا رجالاً بيضاً على خيلٍ بلقي بين السماء والأرض ما ثلقت شيئاً ولا يقوم لها شيء. ومن ذلك أن أبا اليسر كعب بن عمرو الأنصاري أحد بني سلمة أسر يوم بدر العباس بن عبدالمطلب، وكان أبو اليسر رجلاً مجموعاً، وكان العباس رجلاً طويلاً جسيماً، فقال النبي ﷺ: «لقد أهانك عليه ملك كريم». . .

الحديث بجملته. وقد قال بعض الصحابة: كنت يوم بدر أتبع رجلاً من المشركين لأضربه بسيفي فلما دنوت منه وقع رأسه قبل أن يصل سيفي إليه فعلمت أن ملكاً قتله. وقال قتادة بن دعامة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف من الملائكة، قال الطبري: وقال آخرون: إن الله وعد المؤمنين يوم بدر أن يمدهم في حروبهم كلها إن صبروا واتقوا، فلم يفعلوا ذلك إلا في يوم الأحزاب، فأمدهم حين حاصروا قريظة، ثم أدخل تحت هذه الترجمة عن عبدالله بن أبي أوفى أنه قال: حاصرنا قريظة مدة فلم يفتح علينا فرجعنا، فبينما رسول الله ﷺ قد دعا بغسل يريد أن يغسل رأسه، إذ

جاء جبريل عليه السلام فقال: وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها، فلف رسول الله ﷺ رأسه بخرقه ولم يغسله، ونادى فينا فقمنا كآلين متعبين، حتى أتينا قريظة والنضير، فيومئذ أمدنا الله بالملائكة بثلاثة آلاف، وفتح لنا فتحاً سيراً، فانقلبنا بنعمة من الله وفضل.

وقال عكرمة: كان الوعد يوم بدر، فلم يصبروا يوم أحد ولا اتقوا، فلم يمدوا ولو مدوا لم يهزموا.

وقال الضحاك: كان هذا الوعد والمقالة للمؤمنين يوم أحد، ففرّ الناس وولوا مدبرين، فلم يمدهم الله، وإنما مدوا يوم بدر بألف من الملائكة مردفين.

وقال ابن زيد: قال المسلمون لرسول الله ﷺ يوم أحد وهم ينتظرون المشركين: يا رسول الله، أليس يمدنا الله كما أمدنا يوم بدر؟ فقال لهم النبي ﷺ: ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾... الآية، وإنما أمدهم يوم بدر بألف؛ قال ابن زيد: فلم يصبروا.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَكْفِيَكُمْ﴾ تقرير على اعتقادهم الكفاية في هذا العدد من الملائكة، ومن حيث كان الأمر بيناً في نفسه أن الملائكة كافية بادر المتكلم إلى الجواب ليبني ما يستأنف من قوله عليه فقال: ﴿بِكُلِّ﴾ وهي جواب المقررين. وهذا يحسن في الأمور البينة التي لا محيد في جوابها، ونحوه قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتَىٰ نَبِيَّ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿أَلَا يَكْفِيكُمْ﴾، وقد مضى القول في الإمداد في سورة

البقرة في قوله: ﴿وَيَسْتَكْفِرُ فِي ظُلُمَاتِهِمْ﴾.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بِثَلَاثَةِ آلَافٍ﴾ يقف على الهاء، وكذلك: ﴿بِخَمْسَةِ آلَافٍ﴾، ووجه هذه القراءة ضعيف، لأن المضاف والمضاف إليه يقتضيان الاتصال، إذ هما كالاسم الواحد، وإنما الثاني كمالاً للأول، والهاء إنما هي أمانة وقف، فيلحق الوقف في موضع إنما هو للاتصال، لكن قد جاء نحو هذا للعرب في مواضع، فمن ذلك ما حكاه الفراء أنهم يقولون: أكلت لحماً شاه، يريدون لحم شاة فمطلوا الفتحة حتى نشأت عنها ألف، كما قالوا في الوقف: قالوا، يريدون: قال، ثم مطلوا الفتحة في القوافي ونحوها من مواضع الروية والتثيت، ومن ذلك في الشعر قول الشاعر:

ينباع من ذفري غضوب جئرة

يريد: ينبع، فمطل، ومنه قول الآخر:

أقول إذ خَرَّتْ على الكلكال

ياناقتا ما جُلَّتْ من مجال

يريد: على الكلكل، فمطل، ومنه

قول الآخر:

فأنت من الغوائل حين ترمي

ومن دم الرجال بمنسزاج

يريد بمنسزج، قال أبو الفتح: فإذا

جاز أن يعترض هذا التماذي بين أثناء

الكلمة الواحدة، جاز التماذي والتأني

بين المضاف والمضاف إليه إذ هما

في الحقيقة اثنان.

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿مُنْزَلِينَ﴾

بفتح النون والزاي مشددة، وقرأ

الباقون: ﴿مُنْزَلِينَ﴾ بسكون النون وفتح الزاي مخففة، وقرأ ابن أبي عبة: ﴿مُنْزَلِينَ﴾ بفتح النون وكسر الزاي مشددة معناها: ينزلون النصر، وحكى النحاس قراءة ولم ينسبها: ﴿مُنْزَلِينَ﴾ بسكون النون وكسر الزاي خفيفة، وفسرها بأنهم ينزلون النصر. و﴿بِقُلِّ﴾ جواب النفي الذي في ﴿أَنْ﴾ وقد تقدم معناه.

ثم ذكر تعالى الشرط الذي معه يقع الإمداد وهو الصبر، والتقى. والفور: النهوض المسرع إلى الشيء مأخوذ من فور القدر والماء ونحوه، ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَارَ كَتُّورٌ﴾ فالعنى: ويأتوكم في نهضتكم هذه. قال ابن عباس: ﴿مَنْ قَوَّرَهُمْ هَذَا﴾ معناه: من سفرهم هذا، قال الحسن والسدي: معناه: من وجههم هذا، وقاله قتادة. وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح مولى أم هانئ: من غضبهم هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير لا يخص اللفظة، قد يكون الفور لغضب ولطمع ولرغبة في أجر، ومنه الفور في الحج والوضوء.

وقرأ أبو عمرو وابن كثير وعاصم: ﴿سَوَّيِينَ﴾، بكسر الواو، وقرأ الباقون: ﴿مُسَوِّمِينَ﴾، بفتح الواو، فأما من قرأ بفتح الواو فمعناه: مُعْلَمِينَ بعلامات، قال أبو زيد الأنصاري: السومة: العلامة تكون على الشاة وغيرها يجعل عليها لون يخالف لونها لتعرف، وروي أن الملائكة أعلمت يومئذ بعامتهم بيض، حكاه المهدوي عن الزجاج، إلا

جبريل عليه السلام فإنه كان بعمامة صفراء على مثال عمامة الزبير بن العوام، وقاله ابن إسحاق. وقال مجاهد: كانت خيلهم مجزوزة الأذنان والأعراف معلمة النواصي والأذنان بالصفوف والعهن؛ وقال الربيع: كانت سيماهم أنهم كانوا على خيل بلق، وقال عباد بن حمزة بن عبدالله بن الزبير: نزلت الملائكة في سيما الزبير عليهم عمائم صفر، وقال ذلك عروة وعبدالله ابنا الزبير. وقال عبدالله: كانت ملاءة صفراء فاعتمت الزبير بها.

ومن قرأ: ﴿مُسُوِّمِينَ﴾ بكسر الواو، فيحتمل من المعنى مثل ما تقدم، أي: هم قد أعلموا أنفسهم بعلامة وأعلموا خيلهم، ورجح الطبري وغيره هذه القراءة بأن النبي ﷺ قال للمسلمين يوم بدر: «سُومُوا فَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ قَدْ سُوِّمَتْ» فهم على هذا مُسُوِّمُونَ، وقال كثير من أهل التفسير: إن معنى ﴿مُسُوِّمِينَ﴾ بكسر الواو أي هم قد سُومُوا خيلهم أي: أعطوها سُومَهَا من الجري والقتال والإحضار فهي سائمة، ومنه سائمة الماشية، لأنها تركت وسومها من الرعي، وذكر المهدي هذا المعنى في ﴿مُسُوِّمِينَ﴾ بفتح الواو أي: أرسلوا وسومهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو قلق، وقد قاله ابن فورك أيضاً. ﴿١٢٦﴾ - ﴿١٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في: ﴿جَمَلَةٌ أَلَّهَ﴾ عائد على الإنزال والإمداد، والبشرى مصدر، واللام في: ﴿وَلِنَلْمِينَ﴾ متعلقة بفعل مضمر يدل عليه

﴿جَمَلَةٌ﴾. ومعنى الآية: وما كان هذا الإمداد إلا لتستبشروا به وتطمئن به قلوبكم وتروا حفاية الله بكم، وإلا فالكثرة لا تغني شيئاً إلا أن ينصر الله.

وقوله: ﴿وَمَا أَلْتَمَرُ﴾ يريد للمؤمنين، وكذلك أيضاً هي الإدالة للكفارة من عند الله، واللام في قوله: ﴿لِيَقْطَعُ﴾ متعلقة بقوله: ﴿وَمَا أَلْتَمَرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، وعلى هذا لا يكون قطع الطرف مختصاً بيوم، اللهم إلا أن تكون الألف واللام في ﴿أَلْتَمَرُ﴾ للمهد، وقيل: العامل فيه ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ﴾، حكاه ابن فورك وهو قلق، لأن قوله: ﴿أَوْ يَكْتُمُ﴾ لا يترتب عليه، وقد يحتمل أن تكون اللام في قوله: ﴿لِيَقْطَعُ﴾ متعلقة بـ ﴿جَمَلَةٌ﴾، فيكون قطع الطرف إشارة إلى من قتل بيدر على ما قال الحسن وابن إسحاق وغيرهما، أو إلى من قتل بأحد على ما قال السدي، وقتل من المشركين بيدر سبعون، وقتل منهم يوم أحد اثنان وعشرون رجلاً. وقال السدي: قتل منهم ثمانية عشر، والأول أصح.

والطرف: الفريق، ومتى قتل المسلمون كفاراً في حرب فقد قطعوا طرفاً، لأنه الذي وليهم من الكفار، فكان جميع الكفار رقعةً وهؤلاء المقتولون طرفٌ منها أي حاشية. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿لِيَقْطَعُ طَرَفًا﴾ بمنزلة: لِيَقْطَعُ دَابِرًا.

وقوله: ﴿أَوْ يَكْتُمُ﴾ معناه: أو يخزيهم، والكيت: الصرع للبدن، وقال النقاش وغيره: التاء بدلٌ من دال كَيْتِه، أصلها كَيْتِه أي: فعل به

ما يؤذي كبده، وإذا نصر الله على أمة كافرة فلا بد من أحد هذين الوجهين، إما أن يقتل منهم وإما أن يخيووا، فذلك نوع من الهزم.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ توقيفٌ على أن الأمر كله لله، وهذا التوقيف يقتضي أنه كان بسبب من جهة النبي ﷺ. وروي في ذلك أنه لما هُزِمَ أصحابُه، وَشُجَّ في وجهه حتى دخلت بعضُ حَلَقِ الدرعِ في خده، وكسرت رباعيته، وارتث بالحجارة حتى صُرِعَ لجنبه، تحيز عن الملحمة، وجعل يمسحُ الدَمَ من وجهه ويقول: «لا يفلح قوم فعلوا هذا بنبيهم» هذا لفظ الحديث من طريق أنس بن مالك، وفي بعض الطرق: «وكيف يفلح؟» وفي بعضها أن سالماً مولى أبي حذيفة كان يغسل الدَمَ عن وجه رسول الله ﷺ، قال: فأفاق وهو يقول: «كيف يقوم فعلوا هذا بنبيهم وهو يدعوهم إلى الله؟» فنزلت الآية بسبب هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان النبي ﷺ لحقه في تلك الحال يأسٌ من فلاح كفار قريش، فمالت نفسه إلى أن يستأصلهم الله ويريح منهم، فروي أنه دعا عليهم أو استأذن في أن يدعو عليهم، وروي ابن عمر وغيره: أنه دعا على أبي سفيان والحارث بن هشام وصفوان بن أمية باللعنة، إلى غير هذا من معناه، فقيل له بسبب ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أي: عواقب الأمور بيد الله، فامض أنت لشأنك ودم على الدعاء إلى ربك. قال الطبري وغيره من المفسرين:

قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ عطف على ﴿يَكْتُمُهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقولوه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ اعتراض أثناء الكلام، وقوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ معناه: فيسلمون، وقوله: ﴿أَوْ يَعَذِّبَهُمْ﴾ معناه: في الآخرة بأن يوافوا على الكفر. قال الطبري وغيره: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ بمعنى حتى يتوب، أو إلى أن يتوب، فيجيء بمنزلة قولك: لا أفارقك أو تقضيني حقي، وكما تقول: لا يتم هذا الأمر أو يجيء فلان، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ليس باعترض على هذا التأويل، وإنما المعنى الإخبار لمحمد عليه السلام أنه ليس يتحصل له من أمر هؤلاء الكفار شيء يؤمله إلا أن يتوب الله عليهم فيسلموا، فيرى محمد عليه السلام أحد أمليته فيهم، أو يعذبهم الله بقتل في الدنيا، أو بنار في الآخرة أو بهما، فيرى محمد ﷺ الأمل الآخر. وعلى هذا التأويل فليس في قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ردع كما هو في التأويل الأول، وذلك التأويل الأول أقوى.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿أَوْ يَتُوبَ﴾ ﴿أَوْ يَعَذِّبَ﴾ برفع الباء فيهما، المعنى: أو هو يتوب.

ثم قرر تعالى ظلم هؤلاء الكفار، ثم أكد معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ بالقول العام، وذكر الحجة الساطعة في ذلك وهي ملكة الأشياء، إذ ذلك مقتضى أن يفعل بحق ملكه ما شاء، لا اعتراض عليه ولا معقب لحكمه، وذكر أن الغفران

والتعذيب إنما هو بمشيئته وحسب السابق في علمه، ثم رجا في آخر ذلك تأنيساً للنفوس وجلباً لها إلى طاعته، وذلك كله في قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ يَتَقَرَّرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذَكِيٌّ﴾.

﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ إشارة إلى جملة العالم فلذلك حسنت ﴿مَا﴾؛ وما ذكر في هذه الآية من أن هذه الآية ناسخة لدعاء النبي ﷺ على المشركين كلام ضعيف كله، وليس هذا من مواضع النسخ والمنسوخ.

﴿١٣١﴾ - ﴿١٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا النهي عن أكل الربا اعترض أثناء قصة أحد، ولا أحفظ سبباً في ذلك مروياً. والربا: الزيادة، وقد تقدم ذكر مثل هذه الآية وأحكام الربا في سورة البقرة.

وقوله: ﴿أَمْثَلًا﴾ نصب في موضع الحال، ومعناه: الربا الذي كانت العرب تضعف فيه الدين، فكان الطالب يقول: أتقضي أم تُزني؟ وقوله: ﴿مُضَعَّفَةً﴾ إشارة إلى تكرار التضعيف عاماً بعد عام كما كانوا يصنعون، فدللت هذه العبارة المؤكدة على شناعة فعلهم وقبحه، ولذلك ذكرت حال التضعيف خاصة. وقد حرم الله جميع أنواع الربا، فهذا هو مفهوم الخطاب، إذ السكوت عنه في الربا في حكم المذكور، وأيضاً فإن الربا يدخل جميع أنواعه التضعيف والزيادة على وجود مختلفة من العين أو من التأخير ونحوه.

والنار في قوله: ﴿وَأَقْتَرُوا النَّارَ﴾ هي

اسم الجنس، ويحتمل أن تكون للعهد، ثم ذكر أنها أعدت للكافرين، أي أنهم هم المقصود والمراد الأول، وقد يدخلها سواهم من العصاة، فشئع أمر النار بذكر الكفر، وحسن للمؤمن أن يحذرهما ويبعد بطاعة الله عنها، وهذا كما قال في الجنة: ﴿أَعِدَّتْ لِلشَّاقِينَ﴾ أي أنهم هم المقصود، وإن كان يدخلها غيرهم من صبي ومجنون ونحوه ممن لا يكلف ولا يوصف بتقوى، هذا مذهب أهل العلم في هذه الآية.

وحكى الماوردي وغيره عن قوم أنهم ذهبوا إلى أن أكلة الربا إنما توعدهم الله بنار الكفرة، إذ النار سبع طبقات، العليا منها وهي جهنم للعصاة، والخمس للكفار، والدرك الأسفل للمنافقين، قالوا: فأكلة الربا إنما يعذبون يوم القيامة بنار الكفرة لا بنار العصاة، وبذلك توعدوا، فالألف واللام على هذا في قوله: ﴿وَأَقْتَرُوا النَّارَ﴾ إنما هي للعهد.

ثم أمر بطاعته وطاعة رسوله، والطاعة هي موافقة الأمر الجاري عند المأمور مع مراد الأمر، وقال رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني﴾.

وقال محمد بن إسحاق: إن هذه الآية من قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ هي ابتداء المعاتبية في أمر أحد، وانتهزام من فرّ وزوال الرماة عن مراكزهم.

قال: تُقَرَّنُ السموات والأرضون بعضها ببعض كما يبسط الثوب، فذلك عرض الجنة ولا يعلم طولها إلا الله. وفي الحديث عن النبي ﷺ: «إن بين المصراعين من أبواب الجنة مسيرة أربعين سنة، وسيأتي عليها يوم يزدحم الناس فيها كما تزدحم الإبل إذا وردت خُنْصاً ظمأ»، وفي الحديث عنه ﷺ: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجذ في ظلها مائة عام لا يقطعها»، فهذا كله يقوي قول ابن عباس، وهو قول الجمهور: إن الجنة أكبر من هذه المخلوقات المذكورة، وهي ممتدة عن السماء حيث شاء الله تعالى، وذلك لا يتكرر، فإن في حديث النبي عليه السلام: «ما السموات السبع والأرضون السبع في الكرسي إلا كدرهم ألقيت في فلاة من الأرض، وما الكرسي في العرش إلا كحلقية في فلاة الأرض».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه مخلوقات أعظم بكثير جداً من السموات والأرض، وقدرة الله تعالى أعظم من ذلك كله.

وروي يعلى بن أبي مرة قال: لقيت التنوخي رسول هرقل إلى رسول الله ﷺ بحمص، شيئاً كبيراً قد فند فقال: قدمت على النبي ﷺ بكتاب هرقل، فناول الصحيفة رجلاً عن يساره فقلت: من صاحبكم الذي يقرأ؟ قالوا: معاوية، فإذا كتاب هرقل: إنك كتبت إليّ تدعوني إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فأين النار؟ فقال رسول الله ﷺ: «سبحان الله، فأين

ألا ترى إلى قوله تعالى:

﴿فَأَسْمِعُوا الْعَبْرَةَ﴾

وقوله: ﴿إِنَّ مَعْرِفَةَ﴾
معناه: سارعوا بالتقوى والطاعة والتقرب إلى ربكم إلى حال يغفر الله لكم فيها، أي: يستر ذنوبكم بعفوه عنها وإزالة حكمها، ويدخلكم جنته.
قال أنس بن مالك ومكحول في تفسير ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْرِفَةِ﴾
معناه: إلى تكبيرة الإحرام مع الإمام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مقال حسن يحتذى عليه في كل

﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْرِفَةِ رَبِّكُمْ وَجَنَّةِ عَرْضِهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الَّذِينَ يُفْقَهُونَ فِي النَّوَائِ وَالصَّرَّاءِ وَالصَّكَطِ وَالْمَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٣﴾ وَالذِّكْرُ إِذَا قُمُوا فَحَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَّرُوا اللَّهَ فَاسْتَعْفُوا لِدُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَكُمْ يُصْرُؤُا عَلَيَّ مَا قُلُوا وَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١٣٤﴾ أَوَلَيْكُمْ حِرَآؤُكُمْ مَعْرِفَةً مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّتْ تَحْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيَعْمَ أَجْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٥﴾ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ ﴿١٣٦﴾ هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٧﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٨﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ يُقَالُ لَهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣٩﴾

﴿١٣٣﴾ - ﴿١٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ نافع وابن عامر: ﴿سَارِعُوا﴾ بغير واو، وكذلك هي في مصاحف أهل المدينة وأهل الشام، وقرأ باقي السبعة بالواو، قال أبو علي: كلا الأمرين شائع مستقيم، فمن قرأ بالواو فلأنه عطف الجملة على الجملة، ومن ترك الواو فلأن الجملة الثانية ملتبسة بالأولى مستغنية بذلك عن العطف بالواو. وأمال الكسائي الألف من قوله: ﴿سَارِعُوا﴾ ومن قوله: ﴿وَسَارِعُوا﴾ في الْعَبْرَةِ ﴿وَسَارِعُوا لَمْ فِي الْحَبْرَةِ﴾ في كل ذلك؛ قال أبو علي: والإمالة هنا حسنة لوقوع الراء المكسورة بعدها.

والمسارعة: المبادرة، وهي مفاعلة إذ الناس كأن كل واحد يسرع ليصل قبل غيره، فبينهم في ذلك مفاعلة،

طاعة.

وقوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ تقديره: كعرض السموات والأرض، وهذا كقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بِعَنَّاكُمْ إِلَّا كَفَتَيْنِ وَجِدَّةٍ﴾ أي كخلق نفس واحدة وبعثها، فجاء هذا الاقتضاب المفهوم الفصيح، ومنه قول الشاعر:

حَسِبْتُ بُعْثًا رَاحِلَتِي عَنَّا قَا
وَمَا هِيَ وَنَبَّ غَيْرِكَ بِالْعَنَاقِ
ومنه قول الآخر:

كَانَ غَدِيرِهِمْ بِجَنُوبِ سَيْلِي
نَعَامٌ قَاتِقٌ فِي بَلَدِ قِفَارِ
التقدير: صوت عَنَاقِ وَغَدِيرِ نَعَامِ.

وأما معنى قوله تعالى: ﴿عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ فاختلف العلماء في ذلك على ثلاثة مذاهب؛ فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه

الليل إذا جاء النهار؟»، وروى قيس بن مسلم عن طارق بن شهاب قال: جاء رجلان من اليهود من نجران إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال أحدهما: تقولون جنة عرضها السموات والأرض، أين تكون النار؟ فقال عمر رضي الله عنه: رأيت النهار إذا جاء أين يكون الليل؟ والليل إذا جاء أين يكون النهار؟ فقال اليهودي: إنه لمثلها في التوراة، فقال له صاحبه: لم أخبرت؟ دعه إنه بكل موقن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه الآثار كلها هي في طريق واحد، من أن قدرة الله تتسع لهذا كله، وخصّ العرض بالذكر لأنه يدل متى دُكِرَ على الطول، والطول إذا ذكر لا يدل على قَدْرِ العرض، بل قد يكون الطويل يسير العرض كالخيط ونحوه؛ ومن ذلك قول العرب: بلاد عريضة، وفلاة عريضة.

وقال قوم: قوله تعالى: ﴿عَرِضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ معناه: كعرض السموات والأرض، كما هي طباقاً، لا بأن تفرق كسط الثياب، فالجنة في السماء، وعرضها كعرضها وعرض ما وراءها من الأرضين إلى السابعة، وهذه الدلالة على العظم أغنت عن ذكر الطول.

وقال قوم: الكلام جارٍ على مقطع العرب من الاستعارة، فلما كانت الجنة من الاتساع والانفاسح في غاية قصوى، حسنت العبارة عنها بعرضها السموات والأرض، كما تقول لرجل: هذا بحرٌ، ولشخص كبير من

الحيوان: هذا جبَلٌ، ولم تقصد الآية تحديده العرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجلب مكي هذا القول غير ملخص، وأدخل حجة عليه قول العرب: أرض عريضة. وليس قولهم: أرض عريضة مثل قوله: ﴿عَرِضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ إلا في دلالة ذكر العرض على الطول فقط، وكذلك فعل النقاش؛ وروى أن النبي ﷺ قال للفارين يوم أحد: «لقد ذهبتم فيها عريضة» وقال ابن فورك: الجنة في السماء، ويزاد فيها يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا متعلق لمنذر بن سعيد وغيره ممن قال: إن الجنة لم تخلق بعد، وكذلك النار، وهو قول ضعيف، وجمهور العلماء على أنها قد خلقتا، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله: ﴿أَعَدَّتْ لِشَاقِقِينَ﴾ و﴿أَعَدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ وغير ذلك؛ وهو نص في الأحاديث كحديث الإسراء وغيره مما يقتضي أن تمّ جنة قد خلقت. وأما من يقول: يزداد فيهما فلا ترد عليه الأحاديث، لكنه يحتاج إلى سند يقطع العذر.

و﴿أَعَدَّتْ﴾ معناه: يسرت وانتظروا بها. ثم وصف تعالى المتقين الذين أعدت لهم الجنة بقوله: ﴿الَّذِينَ يُتَّقُونَ﴾... الآية، وظاهر هذه الآية أنها مدحٌ لفعل المندوب إليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِي السَّرَّاءِ وَالصَّرَّاءِ﴾ معناه: في العسر واليسر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إذ الأغلب أن مع اليسر النشاط وسرور النفس، ومع العسر الكراهية وضر النفس.

وكظم الغيظ: رُدُّه في الجوف إذا كاد أن يخرج من كثرته، فضبته ومنعه كَظْمٌ له، والكَظْمُ: السير الذي يُشَدُّ به فم الزق والقربة، وكظم البعير جرَّته: إذا رُدَّها في جوفه، وقد يقال لحبسه الجرة قبل أن يرسلها إلى فيه: كَظْمٌ، حكاه الزجاج، فقال: كظم البعير والناقة إذا لم يجترأ، ومنه قول الراعي:

فَأَفْضَنَ بَعْدَ كُظْمِهِمْ بِجِرَّةٍ
مَنْ ذِي الْأَبَاطِحِ إِذْ زَعِينَ حَقِيلًا
والغيظ: أصل الغضب، وكثيراً ما يتلازمان، ولذلك فسر بعض الناس الغيظ بالغضب، وليس تحرير الأمر كذلك، بل الغيظ فعل النفس لا يظهر على الجوارح، والغضب حال بها معه ظهور في الجوارح وفعلٌ ما ولا بد، ولهذا جاز إسناد الغضب إلى الله تعالى، إذ هو عبارة عن أفعاله في المغضوب عليهم، ولا يُسْتَدُّ إليه تعالى غيظ، وخلط ابن فورك في هذه اللفظة.

ووردت في كظم الغيظ وَمَلِكُ النفس عند الغضب أحاديث، وذلك من أعظم العبادة وجهاد النفس، ومنه قوله عليه السلام: «ليس الشديد بالصرعة، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»، ومنه قول النبي عليه السلام: «ما من جرعة يتجرعها العبد خيرٌ له وأعظم أجراً من جرعة غيظ في الله»، وروى أبو هريرة أن النبي عليه السلام قال: «من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاده، ملاه الله

أمنأ وإيماناً، والعفو عن الناس من أجل ضرور فعل الخير، وهذا حيث يجوز للإنسان ألا يعفو، وحيث يتجه حقه. وقال أبو العالية: ﴿وَالْمَافِيْنَ عَنِ النَّاسِ﴾ يريد عن المماليك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن على جهة المثال، إذ هم الخدمة، فهم المذنبون كثيراً، والقدرة عليهم متيسرة، وإنفاذ العقوبة سهل، فلذلك مثل هذا المفسر به.

وذكر تعالى بعد ذلك أنه يحب المحسنين، فعم هذه الوجوه وسواها من البر، وهذا يدل على أن الآية في المندوب إليه، ألا ترى إلى سؤال جبريل عليه السلام فقال: «ما الإيمان؟» ثم قال: «ما الإسلام؟» فذكر له رسول الله ﷺ المفروضات، ثم قال له: «ما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه... الحديث.

﴿١٣٥﴾ - ﴿١٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى في هذه الآية صنفاً دون الصنف الأول، فألحقهم بهم برحمته ومنه، فهؤلاء هم التوابون. وروي في سبب هاتين الآيتين: أن الصحابة قالوا: يا رسول الله، كانت بنو إسرائيل أكرم على الله منا حين كان المذنب منهم يصيح وعقوبته مكتوبة على باب داره، فأنزل الله هذه الآية توسعة ورحمة وعضواً من ذلك الفعل ببني إسرائيل. وروي أن إبليس بكى حين نزلت هذه الآية. وروى أبو بكر الصديق رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ

قال: «ما من عبد يذنب ذنباً ثم يقوم فيتطهر ويصلي ركعتين ويستغفر إلا غفر له».

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف جملة ناس على جملة أخرى، وليس ﴿الَّذِينَ﴾ بنعت كرر معه واو العطف، لأن تلك الطبقة الأولى تنزه عن الوقوع في الفواحش، والفاحشة هنا: صفة لمحذوف أقيمت الصفة مقامه، التقدير: فعلوا فعلة فاحشة، وهو لفظ يعم جميع المعاصي، وقد كثر اختصاصه بالزنى، حتى فسر السدي هذه الآية بالزنى، وقال جابر بن عبدالله لما قرأها: زنى القوم ورب الكعبة؛ وقال إبراهيم النخعي: الفاحشة من الظلم، والظلم من الفاحشة، وقال قوم: الفاحشة في هذه الآية إشارة إلى الكبائر، وظلم النفس إشارة إلى الصغائر.

﴿وَذَكِّرُوا لِلَّهِ﴾ معناه: بالخوف من عقابه والحياء منه، إذ هو المنعم المتطول؛ ومن هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «رحم الله صهيياً لو لم يخف الله لم يعصه». واستغفروا معناه: طلبوا الغفران، واللام معناها: لأجل ذنوبهم، ثم اعترض أثناء الكلام قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفِرُّ الذَّنْبَ إِلاَّ اللَّهُ﴾، اعتراضاً مرققاً للنفس، داعياً إلى الله، مرجحاً في عفوهِ إذا رجع إليه، وجاء اسم الله مرفوعاً بعد الاستثناء والكلام موجب حملاً على المعنى، إذ هو بمعنى: وما يغفر الذنوب إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا﴾ الإصرار معناه: اعتزام الدوام على

الأمر وترك الإقلاع عنه، ومنه صر الدنانير أي: الربط عليها، ومنه قول أبي السمال قعب العدوي: علم الله أنها مني صري، يريد: عزيمة، فالإصرار اعتزام البقاء على الذنب، ومنه قول النبي عليه السلام: «لا توبة مع إصرار» وقال أيضاً: «ما أصر من استغفر».

واختلفت عبارة المفسرين في الإصرار؛ فقال قتادة: هو الذي يمضي قدماً في الذنب لا تنهيه مخافة الله، وقال الحسن: إتيان العبد الذنب هو الإصرار حتى يموت، وقال مجاهد: ﴿لَمْ يُصِرُّوا﴾ معناه: لم يمشوا، وقال السدي: الإصرار: هو ترك الاستغفار والسكوت عنه مع الذنب.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْمُونُ﴾ قال السدي: معناه: وهم يعلمون أنهم قد أذنبوا، وقال ابن إسحاق: معناه: وهم يعلمون بما حرمت عليهم، وقال آخرون: معناه: وهم يعلمون أن باب التوبة مفتوح لهم، وقيل: المعنى: وهم يعلمون أي أعاقب على الإصرار.

ثم شرك تعالى الطائفتين المذكورتين في قوله: ﴿أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ﴾... الآية، وهذه تؤذن بأن الله تعالى أوجب على نفسه بهذا الخبر الصادق قبول توبة التائب، وليس يجب عليه تعالى من جهة العقل شيء، بل هو بحكم الملك لا معقب لأمره.

وقوله: ﴿وَيَقَمُ أَجْرَ الْكٰفِرِينَ﴾ بمنزلة قوله: ونعم الأجر، لأن نعم وبش تطلب الأجناس المعرفة أو ما

أضيف إليها، وليست هذه الآية بمنزلة قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾ لأن المثل هنا أضيف إلى معهود لا إلى جنس، فلذلك قدره أبو علي: ساء المثل مثل القوم، ويحتمل أن يكون مثل القوم مرتفعاً بساء ولا يضم شيء.

١٣٧ - ١٣٨ - تفسير قوله عز وجل: الخطاب بقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ للمؤمنين. والمعنى: لا يذهب بكم أن ظهر الكفار المكذوبون عليكم بأحد، فإن العاقبة للمتقين، وقديماً أدال الله المكذبين على المؤمنين، ولكن انظروا كيف هلك المكذبون بعد ذلك، فكذلك تكون عاقبة هؤلاء. وقال النقاش: الخطاب بعد ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ للكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك قلق. وخلص معناه: مضت وسلفت.

قال الزجاج: التقدير: أهل سنن، والسنن: الطرائق من السير والشرائع والملك والفتن ونحو ذلك، وسنة الإنسان: الشيء الذي يعمله ويواليه، ومن ذلك قول خالد الهذلي لأبي ذؤيب:

فلا تجزعن من سنة أنت سيرتها
فأول راض سنة من يسيرها

وقال سليمان بن قته:

وإن الأئى بالططف من آل هاشم
تأسؤا فسئؤا للكرام التأسيا

وقال لييد:

من معسر سئت لهم آباؤهم
ولكل قوم سنة وإمامها

وقال ابن زيد: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ معناه: أمثال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير لا يخص اللفظة.

وقال تعالى: ﴿تَسْبِرُوا﴾ وهذا الأمر ينشك بالإخبار دون السير لأن الإخبار إنما يكون ممن سار وعاین، إذ هو مما يُذكَر بحاسة البصر وعن ذلك ينتقل خبره، فأحالهم الله تعالى على الوجه الأكمل. وقوله: ﴿فَانظُرُوا﴾، هو عند الجمهور من نظر العين، وقال قوم: هو بالفكر.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَيِّنَاتٌ لِلنَّاسِ﴾ قال الحسن: الإشارة إلى القرآن، وقال قتادة في تفسير الآية: هو هذا القرآن جعله الله بياناً للناس عامةً وهدى وموعظة للمتقين خاصة، وقال بمثله ابن جريج والربيع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كونه بياناً للناس ظاهر، وهو في ذاته أيضاً هدى منصوب وموعظة، لكن من عمي بالكفر وضل وقسا قلبه لا يحسن أن يضاف إليه القرآن، وتحسن إضافته إلى المتقين الذين منهم نفع وإياهم هدى، وقال ابن إسحاق والطبري وجماعة: الإشارة بـ(هذا) إلى قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾... الآية، قال ابن إسحاق: المعنى: هذا تفسير للناس إن قبلوه، قال الشعبي: المعنى: هذا بيان للناس من العمى.

ثم نهى عز وجل المؤمنين عن الوهن لما أصابهم بأحد، والحزن على من فقد وعلى مذمة الهزيمة، وأنسهم بأنهم الأعلون أصحاب العاقبة، والوهن والوهن: الضعف واللين والبلى، ومنه ﴿وَمَنْ أَنْظَمُ بَيْتٍ﴾ ومنه قول زهير:

.....
فأصبح الحبل منها واهناً خلقاً
ومن كرم الخلق ألا يهن الإنسان
في حربه وخصامه، ولا يلين إذا كان
محققاً، وأن يتقصى جميع قدرته ولا
يضرع ولو مات، وإنما يحسن اللين
في السلم والرضى، ومنه قول
النبي ﷺ: «المؤمن هين لين»
و«المؤمنون هينون لينون»، ومنه قول
الشاعر:

لعمرك ما إن أبو مالك
بؤاه ولا بضعيف فؤاه
إذا سدت سد مطواعة
ومهما وكلت إليه كفاه
وفي هذا الأسلوب الذي ذكرته
يجري قول النابتة:

ومن عصاك فعاقبه معاقبة
تنهى الظلوم ولا تقعد على ضمّد
إلا لمثلك أو من أنت سابقه
سبق الجواد إذا استولى على الأمد
وفيه يجري قول العرب: «إذا لم
تغلب فاخلب»، على من تأوله من
المخلب، أي حارب ولو بالأظافر،
وهذا هو فعل عبدالله بن طارق وهو
من أصحاب عاصم بن عدي حين
نزع يده من القرآن وقاتل حتى قتل،
وفعل المنذر بن محمد بن عقبة بن
أحيحة بن الجلاح في يوم بشر
معونة. ومن رآه من معنى الخلب
والخلاية الذي هو الخديعة والمكر
فهو رأي دهاة العرب، وليس برأي
جمهورها، ومنه فعل عمرو بن
سعيد الأندق مع عبدالملك بن
مروان عند قتله إياه، والأمثلة في
ذلك كثيرة، وأيضاً فليس المكر

والخديعة بذل محض، ولذلك رآه بعضهم.

وأما قولهم: «إذا عَزَّ أخوك فِهِن»، فالرواية الصحيحة المعنى فيه بكسر الهاء بمعنى: لِنِ واضعِف ضَعْفَ المطواع. وأما الرواية بضم الهاء فهي أمرٌ بالهوان، وما أعرف ذلك في شيء من مقاطع العرب، وأما الشرع فقد قال عليه السلام: «لا ينبغي لمؤمن أن يُذِلَّ نفسه»، ورأيت لعاصم أن المثل على ضم الهاء إنما هو من الهون الذي هو الرفق وليس من الهوان.

وقال منذر بن سعيد: يجب بهذه الآية ألا يوادع العدو ما كانت للمسلمين قوة، فإن كانوا في قطر ما على غير ذلك فينظر الإمام لهم بالأصلح.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ إخبارٌ بعلو كلمة الإسلام؛ هذا قول الجمهور وظاهر اللفظ، وقاله ابن إسحاق، وروي عن ابن عباس وابن جريج: إنما قال الله لهم ذلك بسبب علوهم في الجبل، وذلك أن رسول الله ﷺ حين انحاز في نفر يسير من أصحابه إلى الجبل، فبينما هو كذلك إذ علا خالد بن الوليد عليهم الجبل فقال رسول الله ﷺ: «اللهم لا يعلوننا» ثم قام وقام من معه فقاتل أصحابه وقاتل حينئذ عمر بن الخطاب حتى أزالوا المشركين عن رأس الجبل، وصعد رسول الله ﷺ وأصحابه فيه، فأنزل الله تعالى عليه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ

مُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يتعلق الشرط بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ فيكون المقصد هز النفوس وإقامتها، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ فيكون الشرط على بابِه دون تجوز، ويترتب من ذلك الطعن على من نجم نفاقه في ذلك اليوم، وعلى من تأود إيمانه واضطرب يقينه: ألا لا يتحصل الوعد إلا بالإيمان، فالزموه.

ثم قال تعالى تسليةً للمؤمنين: ﴿إِنْ يَمْسِكُكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾، والأسوة منسلةٌ للبشر، ومنه قول الخنساء:

ولولا كثرة الباكين حولي
على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن
أعزّي النفس عنه بالتأسي
والسلو بالتأسي هو النفع الذي يجره إلى نفسه الشاهد المحدود، فلذلك رُدَّتْ شهادته فيما حدَّ فيه وإن تاب وحسنت حاله. والقَرْح: القتل والجراح، قاله مجاهد والحسن والربيع وقتادة وغيرهم.

والمعنى: إن مسكم في أحدٍ فقد مس كفار قريش بيدٍ بأيديكم.

وقرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية حفص: ﴿قَرْحٌ﴾ بفتح القاف، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿قَرْحٌ﴾ بضم القاف، وكلهم سَكَنَ الرَّاء، قال أبو علي: هما لفتان كالضَّعْف والضَّعْف والكَرْه والكَرْه، والفتح أولى، لأنها لغة أهل الحجاز والأخذ بها أوجب لأن القرآن عليها نزل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذه القراءات لا يُظَنُّ إلا أنها مروية عن النبي ﷺ، وجميعها عارض جبريل عليه السلام مع طول السنين توسعةً على هذه الأمة، وتكملةً للسبعة الأحرف حسب ما بيناه في صدر هذا التعليق، وعلى هذا لا يقال: هذه أولى من جهة نزول القرآن بها، وإن رجحت قراءة فبوجه غير وجه النزول. قال أبو الحسن الأخفش: القَرْح والقَرْح مصدران بمعنى واحد، ومن قال: القَرْح بالفتح الجراحات بأعيانها، والقَرْح بضم القاف ألم الجراحات؛ قُبِلَ منه إذا أتى برواية، لأن هذا مما لا يعلم بقياس، وقال بهذا التفسير الطبري.

وقرأ الأعمش: ﴿إِنْ تَمَسَّنْكُمْ﴾ بالتاء من فوق، ﴿قَرُوحٌ﴾ بالجمع، ﴿فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾. وقرأ محمد بن السميع اليماني ﴿قَرْحٌ﴾ بفتح القاف والراء؛ قال أبو الفتح: هي لغة في القرح كالشَّلِّ والشَّلْبِ والطَّرْدِ والطَّرْدِ، هذا مذهب البصريين، وليس هذا عندهم من تأثير حرف الحلق، وأنا أميل في هذا إلى قول أصحابنا البغداديين في أن لحرف الحلق في مثل هذا أثراً معتمداً، وقد سمعت بعض بني عقيل يقول: نَحَوَه بفتح الحاء، يريد نَحَوَه، ولو كانت الكلمة مبنية على فتح الحاء لأَعْلَبَتِ الواو كعصاة وقناة، وسمعت غيره يقول: أنا مَحْمُوم بفتح الحاء. قال ابن جني: ولا قرابة بيني وبين البصريين ولكنها بيني وبين الحق والحمد لله.

وَلِيَمْحَضَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكُفْرِينَ ﴿١٤٠﴾ أَمْرٌ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤١﴾ وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ ﴿١٤٢﴾ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسِعَ جَزَى اللَّهِ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كُنَّا مُوَجَّهَاتٍ وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَنُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُوْتِهِ مِنْهَا وَسَيَجْزِي الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قُتِلَ مِنْهُ رِيثُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَرُوا وَلَمْ يُؤْمِنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٥﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٦﴾ فَكَانَتْ لَهُمْ ثَوَابٌ لَدُنَّا وَحَسَنُ ثَوَابٍ الآخِرَةُ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٧﴾

١٤٨

ثم أخبر تعالى أن إدالته الكفار على المؤمنين إنما هي ليمحض المؤمنين، وأن إدالة المؤمنين على الكفار إنما هي لمححق الكفار، هذا مقتضى الفاظ الآية. وقد قال ابن عباس وغيره: جعل الله الدولة لرسوله يوم بدر، وعليه يوم أحد. وذهب كثير من أهل العلم إلى العبارة عن إدالة المؤمنين بالنصر، وعن إدالة الكفار بالإدالة، وروي في ذلك عن النبي ﷺ حديث: «إنهم يدالون كما تصرون».

﴿١٤٠﴾ - ﴿١٤١﴾ تفسير قوله عز وجل: أخبر تعالى على جهة التسلية أن الأيام على قديم الدهر وغايره أيضاً إنما جعلها دولاً بين البشر، أي: فلا تنكروا أن يدال عليكم الكفار. وقال تعالى: ﴿تَدَاوَلَهَا﴾ فهي مفاعلة من جهة واحدة، وإنما ساغ ذلك لأن المداولة منه تعالى هي بين شيئين، فلما كان ذاك الفريقان يتداولان حسن ذلك، والدولة بضم الدال: المصدر، والدولة بفتح الدال: الفعلة الواحدة من ذلك، فلذلك يقال: في دولة فلان لأنها مرة في الدهر، وسمع بعض العرب الأتحاح قارناً يقرأ هذه الآية، فقال: إنما هو «وتلك الأيام نداولها بين العرب»، فقليل له: إنما هو «بين الناس» فقال: إنما لله، ذهب ملئك العرب ورب الكعبة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ دخلت الواو لتؤذن أن اللام متعلقة بمقدّر في آخر الكلام، تقديره: وليعلم الله الذين آمنوا فعل ذلك. وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ معناه: ليظهر في الوجود إيمان الذين قد علم أزل أنهم يؤمنون، وليساق علمه إيمانهم ووجودهم، وإلا فقد علمهم في الأزل، وعلمه تعالى لا يطرأ عليه التغير؛ ونحو هذا: أن يضرب حاكم أحداً ثم يبين سبب الضرب ويقول: فعلت هذا التبيين لأضرب مستحقاً، معناه: ليظهر أن فعلي وافق استحقاقه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَجِدَّ مِنْكُمْ شُهَدَاءً﴾، معناه: أهل فوز في سبيله حسبما ورد في فضائل الشهيد.

والتمحيص: التنقية. قال الخليل: التحميص من العيب، يقال: تمحص الحبل إذا زال عنه بكثرة مرّو على اليد زفيره وأملس، هكذا ساق الزجاج اللفظة (الحبل) ورواها النقاش «محص الجمل»: إذا زال عنه وبرّه وأملس، وقال حنيف الحناتم وقد ورد ماء يقال له: طوئلع: إنك لمحص الرشاء، بعيد المستقى، مطلق على الأعداء، فالمعنى: إنه لبعده يملس حبله بطول الجز ومر الأيدي.

فمعنى الآية: إن الله يمحص المؤمنين إذا أدال عليهم بأنه ينقي المستشهادين من ذنوبهم، وينقي الأحياء من منافقهم إذ يميزهم، وإنه يمحق الكافرين إذا نصر عليهم، أي: يتنقصهم، والمحق: الذهاب شيئاً شيئاً، ومنه محاق القمر.

﴿١٤٢﴾ - ﴿١٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَمْ﴾ هي بمعنى الإضراب عن الكلام الأول والترك له، وفيها لازم معنى الاستفهام، فلذلك قدرها سيبويه ببل وألف الاستفهام. و«حَبِثْتُمْ» معناه: ظننتم؛ وهذه الآية وما بعدها تفرغ وغب لطوائف المؤمنين الذين وقعت منهم الهفوات المشهورة في يوم أحد.

وقوله: ﴿وَلَمَّا يَتَرَوُا﴾ نفي مؤكد وهو معادل لقول القائل: قد كان كذا، فلما أكد هذا الخبر الموجب بقدر أكد النفي المعادل له بلماً، وإذا قال القائل: كان هذا، فمعادله: لم يكن دون تأكيد في الوجهين، قاله سيبويه.

وقرأ جمهور الناس: بكسر الميم للالتقاء في قوله: ﴿وَلَمَّا يَتَرَوُا﴾، وقرأ يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي:

﴿وَلَمَّا يَغْلَمُ﴾ بفتح الميم إتباعاً لفتحة اللام، وقرأ الجمهور ﴿وَيَغْلَمُ﴾ على النصب بإضمار «أن» عند البصريين، ويوao الصرف عند الكوفيين. وروي عن أبي عمرو ابن العلاء أنه قرأ: ﴿وَيَغْلَمُ﴾ بالرفع على استئناف الفعل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ويحيى بن يعمر أبو حياة وعمرو بن عبيد: ﴿وَيَغْلَمُ﴾ بكسر الميم جزماً معطوفاً على قوله: ﴿وَكَلَّمَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بقوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾، والسبب في ذلك أن رسول الله ﷺ خرج في غزوة بدر يريد غير فريش مبادراً فلم يُوعِبِ الناسُ معه، إذ كان الظن أنه لا يلتقى حرباً، فلما قضى الله بدير ما قضى وفاز حاضروها بالمنزلة الرفيعة؛ كان المتخلفون من المؤمنين عنها يتمنون حضور قتال الكفار مع النبي ﷺ ليكون منهم في ذلك غنّة يُلْحِقُهُمْ عند ربهم وبنبيهم بمنزلة أهل بدر، ولأنس بن النضر في ذلك كلام محفوظ، فلما جاء أمر أحد وحضر القتال لم يَضُدُّ كُلَّ الْمُؤْمِنِينَ، فعاتبهم الله بهذه الآية، وألزمهم تعالى تمنى الموت من حيث تمنوا لقاء الرجال بالحديد ومضاربتهم به، وهي حال في ضمنها في الأغلب الموت، ولا يتمناها إلا من طابت نفسه بالموت، فصار الموت كأنه الممتنى، وإلا ففسد قتل المشرك للمسلم لا يجوز أن يتمنى من حيث هو قتل، وإنما تتمنى لواحقه من الشهادة والتنعيم.

وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَمُوتَ﴾

تَلَقَّوْهُ، وقرأ الزهري وإبراهيم النخعي: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تُلَاقَوْهُ﴾، وهذه والأولى في المعنى سواء من حيث «لقي» معناه يتضمن أنه من اثنين وإن لم يكن على وزن فاعل، وقرأ مجاهد: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ بضم اللام وترك الإضافة، وجعل ﴿أَنْ تَلَقَّوْهُ﴾ بدلاً من الموت.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا رَأَيْتُوهُ﴾ يريد رأيت أسبابه، وهي الحرب المشتعلة والرجال بأيديهم السيوف، وهذا كما قال عمير بن وهب يوم بدر: رأيت البلايا تحمل المنايا. قال الحارث بن هشام:

ووجدت ریح الموت من تلقائهم
في مأزق والخيل لم تتبدد
يريد لقرب الأمر، ونحو هذا قول عامر بن فهيرة:

لقد رأيت الموت قبل ذوقه

يريد لما اشتد به المرض.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿فَلَقَدْ رَأَيْتُوهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ يحتل ثلاثة معان:

أحدها: التأكيد للرؤية وإخراجها من الاشتراك الذي بين رؤية القلب ورؤية العين في اللفظ.

والآخر: أن يكون المعنى: وأنتم تنظرون في أسباب النجاة والفرار وفي أمر محمد عليه السلام هل قُتِلَ أم لا؟ وذلك كله نقض لما كنتم عاهدتم الله عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى مكى وغيره عن قوم أنهم قالوا: المعنى: وأنتم تنظرون إلى محمد، وهذا قول ضعيف، إلا أن

ينحى به إلى هذا القول الذي ذكرته أنه النظر في أمره هل قتل؟ والاضطراب بحسب ذلك.

والمعنى الثالث: أن يكون قد وفقهم على تمنيتهم ومعاهدتهم، وعلى أنهم رأوا الذي تمنوا، ثم قال على جهة التوبيخ والعتب: ﴿وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ في فعلكم الآن بعد انقضاء الحرب هل فويتم أم خالفتم؟ كأنه قال: وأنتم حسياء أنفسكم، فتأملوا قبيح فعلكم، وفي هذا التوبيخ على هذا الوجه ضرب جميل من الإبقاء والصون والاستدعاء. قال ابن فورك: المعنى: وأنتم تأملون الحال في ذلك وتفكرون فيها كيف هي؟ وهذا نحو ما تقدم.

هذا استمرار في عتابهم وإقامة حجة الله عليهم، المعنى: إن محمداً ﷺ رسول كسائر الرسل، وقد بلغ كما بلغوا، ولزمكم أيها المؤمنون العمل بمضمّن الرسالة، وليست حياة الرسول وبقاؤه بين أظهركم شرطاً في ذلك، لأن الرسول يموت كما مات الرسل قبله. و«حَلَّتْ» معناه: مضت وسلفت، وصارت إلى الخلاء من الأرض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَرْسُلُ﴾ بالتعريف، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿رُسُلُ﴾ دون تعريف، وهي قراءة حطان بن عبد الله، فوجه الأولى تفخيم ذكر الرسل والتنويه بهم على مقتضى حالهم من الله تعالى، ووجه الثانية أنه موضع تفسير لأمر النبي عليه السلام في معنى

الحياة، ومكان تسوية بينه وبين البشر في ذلك فيجزي تنكير ﴿الرُّسُلُ﴾ جارياً في مضممار هذا الاقتصاد به ﷺ، وهكذا يفعل في مواضع الاقتصاد بالشيء، فمنه قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لَنْ يَأْتِيَنَّكَ الشُّكُورُ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَمِنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة. ذكر ذلك أبو الفتح، والقراءة بتعريف الرسل أوجه في الكلام.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ تَأْتِ...﴾ الآية، دخلت ألف الاستفهام على جملة الكلام على الحد الذي يخبر به ملتزمه، لأن أقبح الأحوال أن يقولوا: إن مات محمد أو قتل انقلبنا، فلما كان فعلهم ينحو هذا المنحى وقفوا على الحد الذي به يقف الإخبار. وقال كثير من المفسرين: ألف الاستفهام دخلت في غير موضعها، لأن الغرض إنما هو: تنقلبون على أعقابكم إن مات محمد؛ فالسؤال إنما هو عن جواب الشرط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبذلك النظر الذي قدمته يبين وجه فصاحة الألف على الشرط، وذلك شبيهة بدخول ألف التقريب في قوله: ﴿أَوَلَوْ كَانَتْ آيَاتُهُمْ﴾ ونحوه من الكلام، كأنك أدخلت التقريب على ما ألزمت المخاطب أنه يقوله. والانقلاب على العقب يقتضي التولي عن المنقلب عنه. ثم توعد تعالى المنقلب على عقبه بقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا﴾ لأن المعنى: فإنما يضر نفسه وإياها يؤيق. ثم وعد الشاكرين وهم الذين

صدقوا وصبروا ولم ينقلب منهم أحد على عقبه بل مضى على دينه قدماً حتى مات، فمنهم سعد بن الربيع وتقتضي بذلك وصيته إلى الأنصار، ومنهم أنس بن النضر، ومنهم الأنصاري الذي ذكر الطبري عنه يستد أنه مر عليه رجل من المهاجرين والأنصاري يتشخط في دمه، فقال: يا فلان أشعرت أن محمداً قد قتل، فقال الأنصاري: إن كان محمد قد قتل فإنه قد بلغ، فقاتلوا على دينكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهؤلاء أصحاب النازلة يومئذ صدق فعلهم قولهم، ثم يدخل في الآية الشاكرون إلى يوم القيامة. قال ابن إسحاق: معنى ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ أي: من أطاعه وعمل بأمره. وذكر الطبري بسند عن علي بن أبي طالب وذكره غيره: أنه قال في تفسير هذه الآية: الشاكرون: الشابتون على دينهم، أبو بكر وأصحابه، وكان يقول: أبو بكر أمير الشاكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الإشارة من علي بن أبي طالب رضي الله عنه إنما هي إلى صدق أبي بكر رضي الله عنه بهذه الآية في يوم موت النبي عليه السلام وثبوته في ذلك الموطن، وثبوته في أمر الردة، وذلك أن رسول الله ﷺ لما قبض وشاع موته، هاج المنافقون وتكلموا وهموا بالاجتماع والمكاشفة، فأوقع الله تعالى في نفس عمر رضي الله عنه أن النبي لم يقبض، فقام بخطبته المشهورة

المخوفة للمنافقين برجوع النبي عليه السلام، فقت ذلك في أعضاء المنافقين وتفرقت كلمتهم، ثم جاء أبو بكر بعد أن نظر إلى النبي عليه السلام فسمع كلام عمر فقال له: اسكت، فاستمر عمر في كلامه فتشهد أبو بكر فأصغى الناس إليه، فقال: أما بعد فإنه من كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ وتلا الآية كلها، فبكى الناس ولم يبق أحد إلا قرأ الآية كأن الناس ما سمعوها قبل ذلك اليوم، قالت عائشة رضي الله عنها في البخاري: فنفخ الله بخطبة عمر ثم بخطبة أبي بكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا من المواطن التي ظهر فيها شكر أبي بكر وشكر الناس بسببه.

ثم أخبر تعالى عن النفوس أنها إنما تموت بأجل مكتوب محتوم واحد عند الله تعالى، أي: فالجين لا يزيد فيه، والشجاعة والإقدام لا تنقص منه، وفي هذه الآية تقوية النفوس للجهاد، قال ابن فورك: وفيه تسلية ما في موت النبي عليه السلام، والعبارة بقوله: ﴿وَمَا كَانَ﴾ قد تجيء فيما هو ممكن قريب نحو قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ. وقد تقع في الممتنع عقلاً نحو قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُبَيِّنُوا شَجْرًا﴾ فهي عبارة لا صيغة لها ولا تتضمن نهياً كما يقول بعض المفسرين، وإنما

بفهم قدر معناها من قرائن الكلام الذي نجيء العبارة فيه .

و«نفس» في هذه الآية: اسم الجنس، والإذن: التمكين من الشيء مع العلم بالشيء المأذون فيه، فإن انضاف إلى ذلك قولٌ فهو الأمر. وقوله: ﴿كَتَبْنَا﴾ نصب على التمييز، و«تَوَجَّلًا» صفة. وهذه الآية رادة على المعتزلة في قولهم بالأجلين. وأما الانفصال عن تعلقهم بقوله تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ ونحو هذا من الآيات؛ فسيجيء في مواضعه إن شاء الله تعالى.

١٤٥ - ١٤٦ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿تَوَجَّهْ مَنَاهًا﴾ مشروطٌ بالمشيئة، أي نوت من شئنا منها ما قُدِّرَ له، بيِّن ذلك قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْمَغَالَةَ فَعَلَّمْنَا لَوْ فِيهَا مَا تُغْنِي لِمَنْ يُرِيدُ﴾، وقرينة الكلام تقتضي أنه لا يؤتى شيئاً من الآخرة، لأن من كانت نيته من عمله مقصورة على طلب الدنيا فلا نصيب له في الآخرة، والأعمال بالنيات، وقرينة الكلام في قوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فَوَابَّ الْآخِرَةَ تَوَجَّهْ مَنَاهًا﴾ لا تمنع أن يؤتى نصيباً من الدنيا.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَوَجَّهْ﴾ و«تَوَجَّهْ» و«وَسَجَّرِي» كلها بنون العظمة، وقرأ الأعمش بالياء في الثلاثة، وذلك على حذف الفاعل لدلالة الكلام عليه. قال ابن فورك في قول الله تعالى: ﴿وَسَجَّرِي الْشُّكْرِينَ﴾ إشارة إلى أنه ينعمهم بنعيم الدنيا لا أنهم يقصرون على الآخرة. ثم ضرب تعالى المثل للمؤمنين

بمن سلف من صالح الأمم الذين لم يُشْهِم عن دينهم قتل الكفار لأنبيائهم فقال: ﴿ذَكَرَيْنَ مِنْ نَبِيِّ﴾ . . . الآية، وفي (كأين) أربع لغات: ﴿كأَيْنَ﴾ على وزن كَعَيْن بفتح العين، و«وكأين»، على وزن كاعن، و«كأَيْنَ﴾ على وزن كَعَيْن بسكون العين، و«كإن﴾ على وزن كَعِين بكسر العين؛ وأكثر ما استعملت العرب في أشعارها التي على وزن كاعن، فمن ذلك قول الشاعر:

وكائن ردذنا عنكم من مُدَجِّجٍ
يجيء أمام القوم يَزِدِّي مَقْتَعًا
وقال جرير:

وكائن بالأباطح من صديقي
يراني لو أصببت هو المصابا
وقال آخر:

وكائن ترى من صامت لك معجب
زيادته أو نقصه في التكلم
وقد جاء في اللغة التي ذكرتها أولاً قول الشاعر:

كأين في المعاشر من أناس
أخوهم فوقهم وهم كرام
وهذه اللغة هي أصل هذه اللفظة، لأنها كاف التشبيه دخلت على «أي» كما دخلت على «ذا» في قولك: فلان كذا وكذا، وكما دخلت على «أن» في قولك: كأن زيداً أسد، لكن بقي لها معنى التشبيه في كأن، وزال عنها ذلك في كذا وكذا، وفي كأين، وصرفت العرب كأين في معنى «كم» التي هي للتكثير، وكثر استعمالهم للفظه حتى لعب فيها لسان العرب على اللغات الأربع التي ذكرت، وهذا كما لعب في قولهم: لعمري

حتى قالوا: رعملي، وكما قالوا: أطيّب وأيطب، وكما قالوا: بطيخ في بطيخ، فعولمت الكاف وأي معاملة ما هو شيء واحد. فأما اعتلال لغة من قال: (كائن) على وزن فاعل؛ فإنهم أخذوا الأصل الذي هو (كأين) فقلبوا الياء قبل الهزمة ونقلت حركة كل واحد منهما إلى آخرتها، فجاء (كيتاً) على وزن كَيْع، فحذفوا الياء الثانية المفتوحة تخفيفاً، كما حذفوا الياء من مَيْت وهَيْن ولَيْن فقالوا، مَيْت وهَيْن ولَيْن، وكما حذفوا الياء الثانية من «أي» تخفيفاً، ومنه قول الفرزدق بن غالب التميمي:

تنظرت نصرأ والسماكين أيهما
علي من الغيث استهلّت مواطره
فجاء (كيتاً) على وزن كَيْع، فأبدلت هذه الياء الساكنة ألفاً مراعاةً للفتحة التي قبلها، كما قالوا: في يُوَجِّل ياوجل، وكما أبدلوا الياء ألفاً في (طاي)، وكما أبدلت في (آية) عند سبويه، إذ أصلها عنده (آية) على وزن فعلة بسكون العين، فجاء (كاي) ثم كتب هذا التنوين نوناً في المصحف؛ فأما قياس اللغة فحذفه في الوقف؛ فكما يقولون: مررت بزيد فكذلك يقولون: (كايي)، ووقف عليه أبو عمرو (كاي) بياء دون نون، وكذلك روى سورة بن المبارك عن الكسائي، ووقف سائر القراء بإثبات النون مراعاة لخط المصحف. قال أبو علي: ولو قيل إنه لما تُصَرَّف في الكلمة بالقلب صارت بمنزلة النون التي من نفس الكلمة وصارت بمنزلة لام فاعل

فأثرت في الوقف، لكان قولاً، ويقوّي ذلك أنهم لما حذفوا الكلام من قولهم: إملاً، جعلوها بالحذف ككلمة واحدة، فأجازوا الإمالة في ألف «لا» كما تجوز في التي من نفس الكلمة في الأسماء والأفعال، فيوقف على النون إذا لم تقلب، كما لا تميل الألف من «لا» إذا لم يحذف فعلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذه اللغة التي فيها هذا القلب قرأ ابن كثير وحده، وقرأ سائر السبعة باللغة التي هي الأصل، وذهب يونس بن حبيب في (كأين) إلى أنه فاعل من الكون، وقوله مردود، إذ يلزم عنه إعراب الكلمة ولم يعربها أحد من العرب. وأما اللغة التي هي (كأين) على وزن (كَمِين) فهي قراءة ابن محيصن والأشهب العقيلي، وتعليل هذه اللغة أنه علل الأصل الذي هو (كأين) بالتعليل لمقدم، فلما جاء (كياً) على وزن كيع، ترك هؤلاء إبدال الياء الساكنة ألفاً كما تقدم في التعليل الأول، وقلبوا الكلمة فجعلوها (كأين) على وزن كعين، وحسن هذا من وجهين:

أحدهما: أن التلعب والتصرف في هذه الكلمة مهيح.

والثاني: أنهم راجعوا الأصل الذي هو تقديم الهمزة على الياء. وأما اللغة التي هي (كإن) على وزن (كُون) فهي قراءة ابن محيصن أيضاً، حكاهما عنه أبو عمرو الداني، وقرأها الحسن بن أبي الحسن إلا أنه سهل

الهمزة ياء فقرأ (كي) في جميع القرآن، وتعليل هذه اللغة أنهم حذفوا الألف من (كائن) الممدودة على وزن كاعن بعد ذلك التصرف كله تخفيفاً، وهذا كما قالوا: أم والله، يريدون: أما، وكما قالوا على لسان الضب:

لا أَشْتَهِي أَنْ أُرْدَا
إِلَّا عَرَاداً عَرَاداً
وَصِلِيَاناً بَرْدَا
وَعَنَكَا مُتَبِيدَا
أرادوا: عارداً وبارداً، فحذفوا تخفيفاً، وهذا كثير في كلامهم، و(كأين) في هذه الآية في موضع رفع بالابتداء، وهي بمنزلة «كم»؛ ومعناها تعطي في الأغلب التكثير.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿قُتِلَ﴾ بضم القاف وكسر التاء مخففة، وقرأ الباقون: ﴿قَتَلَ﴾ بضم القاف، بآلف بين القاف والتاء، وقرأ قتادة: ﴿قُتِلَ﴾ بضم القاف وكسر التاء مشدودة على التكثير.

وقوله تعالى: ﴿قُتِلَ﴾ قال فيه جماعة من المفسرين منهم الطبري: إنه مستند إلى ضمير ﴿نَبِيِّ﴾، والمعنى عندهم: أن النبي قتل. قال ابن عباس في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُتَلَ﴾ النبي يقتل؛ فكيف لا يخان، وإذا كان هذا فـ ﴿رَبِّيُّونَ﴾ مرتفع بالظرف بلا خلاف.

وقوله تعالى: ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ على هذا التأويل يجوز أن يكون صفة لـ ﴿نَبِيِّ﴾، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير الذي أسند إليه ﴿قُتِلَ﴾، فإن جعلته صفةً أضمرت للمبتدأ الذي

هو ﴿كأين﴾ خيراً تقديره في آخر الكلام: مضى أو ذهب أو فقد ﴿مَمَّا وَهَتْوَ﴾، وإن جعلت معه ﴿رَبِّيُّونَ﴾ حالاً من الضمير فخير المبتدأ في قوله: ﴿قُتِلَ﴾، وإذا جعلته صفة فالضمير في ﴿مَعَهُ﴾ عائد على ﴿نَبِيِّ﴾، وإذا جعلته حالاً فالضمير في ﴿مَعَهُ﴾ عائد على الضمير ذي الحال، وعلى كلا الوجهين من الصفة والحال فـ ﴿مَعَهُ رِبِّيُّونَ﴾ متعلق في الأصل بمحذوف، وليس متعلقاً بـ ﴿قُتِلَ﴾. وقال الحسن بن أبي الحسن وجماعة معه: إن ﴿قُتِلَ﴾ إنما هو مستند إلى قوله: ﴿رَبِّيُّونَ﴾ وهم المقتولون، قال الحسن وسعيد بن جبير: لم يقتل نبي في حرب قط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا القول يتعلق قوله: ﴿مَعَهُ﴾ بـ ﴿قُتِلَ﴾، وهذه الجملة: ﴿قتل معه ربيون﴾ هي خير الابتداء. ويتصور في قراءة من قرأ ﴿قَتَلَ﴾ جميع ما ذكرته من التقديرات في قراءة ﴿قُتِلَ﴾. وأما قراءة قتادة ﴿قُتِلَ﴾ فقال أبو الفتح: لا يحسن أن يُسْتَدَّ الفعل إلا إلى الربيين، لما فيه من معنى التكثير الذي لا يجوز أن يُسْتَعْمَلَ في قتل شخص واحد، فإن قيل: يستند إلى ﴿نَبِيِّ﴾ مراعاة لمعنى «كم»؛ فالجواب أن اللفظ قد مشى على جهة الإفراد في قوله: ﴿بَيْنَ نَبِيِّ﴾، ودل الضمير المفرد في ﴿مَعَهُ﴾ على أن المراد إنما هو التمثيل بواحد واحد، فخرج الكلام على معنى «كم»، قال أبو الفتح: وهذه القراءة تقوّي قول من قال من

السبعة: إن **﴿قُتِلَ﴾** بتخفيف التاء أو **﴿قَتَلَ﴾** إنما يستند إلى الربيين . ورجح الطبري استناد **﴿قُتِلَ﴾** إلى النبي بدلالة نازلة محمد ﷺ، وذلك أن المؤمنين إنما تخاذلوا لما قيل: قتل محمد، فضرب المثل بنبي قُتِلَ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا لم يستند الفعل إلى **﴿نَبِيٍّ﴾** فإنما يجيء معنى الآية: تثبيت المؤمنين بعد من قتل منهم فقط، وترجيح الطبري حسن، ويؤيد ذلك ما تقدم من قوله تعالى: **﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾**، وحجة من قرأ: **﴿قَتَلَ﴾** أنها أعم في المدح لأنه يدخل فيها من قتل ومن بقي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحسن عندي على هذه القراءة إسناد الفعل إلى الربيين، وعلى قراءة **﴿قُتِلَ﴾** إسناده إلى **﴿نَبِيٍّ﴾** .

وأجمع السبعة وجماعة من الناس على كسر الراء من **﴿رَبِّيُّونَ﴾**، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود وابن عباس وعكرمة والحسن وأبو رجاء وعمرو بن عبيد وعطاء بن السائب: **﴿رَبِّيُّونَ﴾** بضم الراء، وروى قتادة عن ابن عباس: **﴿رَبِّيُّونَ﴾** بفتح الراء، قال ابن جني: الفتح في الراء لغة تميم، وكلها لغات. واختلف الناس في معنى **﴿رَبِّيُّونَ﴾**؛ فقال ابن مسعود: الربيون: الألو ف من الناس والجمع الكثير، وقال ابن عباس: ربيون: جموع كثيرة، وقاله الحسن و قتادة وعكرمة. ولقول عبدالله بن مسعود

وابن عباس: «إنهم الألو ف»؛ قال بعض المفسرين: هم عشرة آلاف فصاعداً، أخذ ذلك من بناء الجمع الكثير في قولهما: هم الألو ف، وهذا في الربيين أنهم الجماعات الكثيرة هو من الربة بكسر الراء وهي الجماعة الكثيرة، قاله يونس بن حبيب، وقال: إن قوله تعالى: **﴿قُتِلَ﴾** معه ربيون منسوبون إليها، قال قطرب: جماعة العلماء على قول يونس، وقال الزجاج: يقال: إن الربة عشرة آلاف، وروي عن ابن عباس وعن الحسن بن أبي الحسن وغيرهما أنهم قالوا: **﴿رَبِّيُّونَ﴾** معناه: علماء، وقال الحسن: فقهاء علماء، قال أيضاً: علماء صُبر، وهذا القول هو على النسبة إلى الرّب، إما لأنهم مطيعون له، أو من حيث هم علماء بما شرع، ويقوي هذا القول في قراءة من قرأ **﴿رَبِّيُّونَ﴾** بفتح الراء، وأما في ضم الراء وكسرها فيجيء على تغيير النسب، كما قالوا في النسبة إلى الحرم: جِزْمِي بكسر الحاء، وإلى البصرة: بَضْرِي بكسر الباء، وفي هذا نظر، وقال ابن زيد: الرّبانيون: الولاة، والرّبيون: الرعية الأتباع للولاة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كان هذا من حيث هم مربيون .

وقال النقاش: اشتقاق (رَبِّي) من: ربا الشيء يربو إذا كثر، فسمي بذلك الكثير العلم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف .

وقال مكّي: ربّي بكسر الراء منسوب إلى الرّب، لكن كسرت راءه إتباعاً للكسرة والياء اللتين بعد الراء، وروي بضم الراء كذلك لكنهم ضموها كما قيل: دُهرِي بضم الدال في النسب إلى الدهر .

وقرأ جمهور الناس: **﴿فَمَّا وَهَوُوا﴾** بفتح الهاء، وقرأ الأعمش والحسن وأبو السمال: **﴿وَهِنُوا﴾** بكسر الهاء، وهما لغتان بمعنى، يقال: وَهِنَ بكسر الهاء يُوَهِنُ، وَوَهَنَ بفتح الهاء يَهِنُ . وقرأ عكرمة وأبو السمال أيضاً: **﴿وَهِنُوا﴾** بإسكان الهاء، وهذا على طلب الخفة كما قالوا في نعم ويش إلى غير ذلك من الأمثلة، وقد تقدم معنى الوهن في قوله آنفاً: **﴿وَلَا تَهِنُوا﴾** . والضمير في قوله: **﴿فَمَّا وَهِنُوا﴾** عائد على جميع الربيين في قول من أسند **﴿قُتِلَ﴾** إلى **﴿نَبِيٍّ﴾**، ومن أسنده إلى (الربيين) قال في هذا الضمير: إنه يعود على من بقي منهم، إذ المعنى يفهم نفسه .

وقوله تعالى: **﴿وَمَا سَمِعُوا﴾** معناه: لم يكتسبوا من العجز والإلقاء باليد ما ينبيء عن ضعفهم .

وقوله تعالى: **﴿وَمَا اسْتَكَاؤُوا﴾** ذهب طائفة من النحاة إلى أنه من السكون فوزنه افتعلوا استكناؤا، فمطلت فتحة الكاف فحدث من مَظْلُها أَلْفٌ . وذهب طائفة إلى أنه مأخوذ من كان يكون، فوزنه على هذا الاشتقاق استفعلوا أصله استكونوا، نقلت حركة الواو إلى الكاف وقلبت ألفاً، كما فعلوا في

قولك: استعانوا واستقاموا، والمعنى: إنهم لم يضعفوا ولا كانوا قريباً من ذلك، كما تقول: ما فعلت كذا ولا كدت، فتحذف لأن الكلام يدل على أن المراد: وما كدت أن أفعل، ومحبة الله تعالى للصابرين ما يظهر عليهم من نصره وتعيمة.

(١٤٧) - (١٤٨) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية في ذكر الرئيين، أي: هذا كان قولهم، لا ما قاله بعضهم يا أصحاب محمد، من قول من قال: نأخذ أماناً من أبي سفيان، ومن قول من قال: نرجع إلى ديننا الأول، ومن قول من فرّ، فلا شك أن قوله مناسب لفعله ولو بعض المناسبة، إلى غير ذلك مما اقتضته تلك الحال من الأقوال.

وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿قَوْلُهُمْ﴾ بالنصب، ويكون الاسم فيما بعد ﴿إِلَّا﴾، وقرأ جماعة من القراء ﴿قَوْلُهُمْ﴾ بالرفع وجعلوا الخبر فيما بعد ﴿إِلَّا﴾، وروى ذلك حماد بن سلمة عن ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، ذكره المهدي.

واستغفار هؤلاء القوم الممدوحين في هذا الموطن ينحو إلى أنهم رأوا أن ما نزل من مصائب الدنيا إنما هو بذنوب من البشر، كما نزلت قصة أحد بعصيان من عصا.

وقوله تعالى: ﴿ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ عبارتان عن معنى قريب بعضه من بعض، جاء ذلك للتأكيد ولتعلم مناحي الذنوب، وكذلك فسر ابن عباس وغيره. وقال الضحاك:

الذنوب عام، والإسراف في الأمر أريد به الكباثر خاصة.

وقوله: ﴿وَتَبَيَّنَتْ أَقْدَامُنَا﴾ يحتمل أن يجري مع ما قبله من معنى الاستغفار، فيكون المعنى: اجعلنا دائبين على طاعتك والإيمان بك، وتثبيت القدم على هذا استعارة، ويحتمل أن يكون في معنى ما بعده من قوله: ﴿وَأَنْصَرْنَا عَلَى الْقَوْرِ الْكَثِيرِينَ﴾ فيراد ثبوت القدم حقيقة في مواقف الحرب؛ قال ابن فورك: في هذا الدعاء ردّ

على القدرية، لقولهم: إن الله لا يخلق أفعال العبد، ولو كان ذلك لم يسع أن يدعى فيما لا يفعله.

﴿تَوَابَ الدُّنْيَا﴾ في هذه الآية: الظهور على عدوهم، قاله ابن إسحاق وقتادة وغيرهما، وقال ابن جريج: الظفر والغنيمة، وفسر بهذا جماعة من المؤلفين في التفسير، قال النقاش: ليس إلا الظفر والغلبة فقط، لأن الغنيمة لم تحل إلا لهذه الأمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا اعتراض صحيح.

﴿وَحَسَنَ تَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ الجنة بلا خلاف، وعبر بلفظة ﴿حَسَنٍ﴾ زيادة في الترغيب وباقي الآية بين.

(١٤٩) - (١٥٠) تفسير قوله عز وجل:

الإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾

يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تُطِغِمُوا الَّذِينَ كَفَرُوا سِرْدُكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَقْبَلُوا خَسِرِينَ ﴿١٤٧﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٤٨﴾ سَتُنْفِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَهُمْ لَكَ وَبَيْتَسْ مَثْوَى الظَّالِمِينَ ﴿١٤٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ: إِذْ تَحْسَبُونَهُمْ بِيَادِنِهِ حَتَّى إِذَا فَتِنَهُ وَتَنَزَّلْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَحْبُوتُونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُاسِوَكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٠﴾ إِذْ تَضَعُونَ وَلَا تَكُونُونَ عَلَى أَحَدٍ وَالرُّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي آخِرَتِكُمْ فَأَنْتُمْ كَأَنَّكُمْ عَمَّا يَفْعَلُ لِكَيْلًا تَحْزَنُوا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥١﴾

إلى المنافقين الذين جبنوا المسلمين وقالوا في أمر أحد: لو كان محمد نبياً لم يهزم، والذين قالوا: قد قتل محمد فلنرجع إلى ديننا الأول، إلى نحو هذه الأقوال، ثم اللفظ يقتضي كل كافر كان في ذلك الوقت ويكون إلى يوم القيامة، نهى الله المؤمنين عن طاعتهم. و﴿بَلِ﴾ ترك للكلام الأول ودخول في غيره.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ﴾ على الابتداء والخبر، وهذا تثبيت، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بَلِ اللَّهُ﴾ بالنصب على معنى: بل أطيعوا الله.

وقوله تعالى: ﴿سَتُنْفِي﴾ استعارة، إذ حقيقة الإلقاء إنما هي في الأجرام، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْسِنَاتِ﴾ ونحوه قول الفرزدق:

هما نشفا في في من فَمَوِيهما
على النابحِ العاوي أشدُّ رجاء
وقرأ جمهور الناس: ﴿سَتَلَقُ﴾
بنون العظمة، وقرأ أيوب
السختياني: ﴿سَيْلَقِي﴾ بالياء على
معنى «هو»، وقرأ ابن عامر
والكسائي: ﴿الرُّحْبُ﴾ بضم العين
حيث وقع، وقرأ الباقر:
﴿الرُّحْبُ﴾ بسكون العين. وهذا
كقولهم: عُنُقٌ وَعُنُقٌ، وكلاهما حسن
فصح.

وسبب هذه الآية: أنه لما ارتحل
أبو سفيان بالكفار بعث
رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب
وقال: انظر القوم، فإن كانوا قد
جنبوا الخيل وركبوا الإبل فهم
متشمرون إلى مكة، وإن كانوا على
الخيال فهم عامدون إلى المدينة،
فمضى علي فرأهم قد جنبوا الخيل
فأخبر رسول الله ﷺ، فسرَّ وسر
المسلمون. ثم رجع رسول الله ﷺ
إلى المدينة فتجهز واتبع المشركين
يربهم الجلد، فبلغ حمراء الأسد؛
وإن أبا سفيان قال له كفار قريش:
أحين قتلناهم وهزمتناهم ولم يبق إلا
الفل والطريد ننصرف عنهم؟ ارجع
بنا إليهم حتى نستأصلهم فغزموا على
ذلك، وكان معبد بن أبي معبد
الخزاعي قد جاء إلى رسول الله ﷺ
وهو على كفره، إلا أن خزاعة كلها
كانت تميل إلى رسول الله ﷺ،
فقال له: والله يا محمد لقد ساءنا ما
أصابك؛ ولوددنا أنك لم تُرْزَأَ في
أصحابك. فلما سمع رسول الله ﷺ
والناس بما عزمتم عليه قريش من
الانصراف اشتد ذلك عليهم،

فسخَّر الله ذلك الرجل معبد بن أبي
معبد، وألقى بسببه الرعب في قلوب
الكفار، وذلك أنه لما سمع الخبر
ركب حتى لحق بأبي سفيان
بالروحاء، وقريش قد أجمعوا الرجعة
إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، فلما
رأى أبو سفيان معبداً قال: ما وراءك
يا معبد؟ قال: محمد قد خرج في
أصحابه يطلبكم في جمع لم أر مثله
قط يتحرقون عليكم، قد اجتمع إليه
من كان تخلف عنه، وندموا على ما
صنعوا، قال: وبيك، ما تقول؟
قال: والله ما أرى أن ترتحل حتى
ترى نواصي الخيل، قال: فوالله لقد
أجمعنا الكرة عليهم لنستأصل
بقيتهم، قال: فإني أنهاك عن ذلك،
والله لقد حملني ما رأيت على أن
قلت فيه شعراً، قال: وما قلت؟
قال: قلت:

كادت تُهَدِّ من الأصوات راحلتي
إذ سالت الأرض بالجرى الأبايل
تُرْدي بأسد كرام لا تنابله
عند اللقاء ولا يبيل معازيل
فظللتُ عدواً أظنُّ الأرض مائلة
لما سمعوا برئيس غير مخذول
إلى آخر الشعر، فوقع الرعب في
قلوب الكفار. وقال صفوان بن
أمية: لا ترجعوا فإني أرى أنه
سيكون للقوم قتالٌ غير الذي كان،
فنزلت هذه الآية في هذا الإلقاء،
وهي - بعد - متناولة كل كافر،
ويجري معها قول النبي عليه السلام:
«فُصِرَتْ بالرعب مسيرة شهر»،
ويظهر أن هذه الفضيلة إنما أعلم
عليه السلام بها بعد هذه الأحوال
كلها حين امتد ظل الإسلام. قال

بعض أهل العلم: إنه لما أمر الله
المؤمن بالصبر، ووعد النصر،
وأخبره أن الرعب مُلْقَى في قلوب
الكفار، نقص الرعب من كل كافر
جزءاً مع زيادة شجاعة المؤمن إذ قد
وعد النصر، فلذلك كلف المؤمن
الوقوف للكافرين.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا أَتَرَ كُفُورًا﴾
هذه باء السبب، والمعنى: إن
المشرك بالله نفسه مقسمة في الدنيا،
وليس له بالله تعالى ثقة، فهو يكره
الموت ويستشعر الرعب منه،
والسلطان: الحجة والبرهان، ثم
أخبر تعالى بعاقبة الكفار في الآخرة،
والمأوى: مَفْعَلٌ من أويت إلى
المكان إذا دخلته وسكنت فيه،
والمشوى، مَفْعَلٌ من: ثويت،
والتقدير: وبس مشوى الظالمين
هي.

﴿١٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

جاءت المخاطبة في هذه الآيات
بجمع ضمير المؤمنين، وإن كانت
الأمور التي عاتبهم الله تعالى عليها
لم يقع فيها جميعهم، ولذلك وجوه
من الفصاحة: منها وعظ الجميع
وزجره، إذ من لم يفعل مُعَدَّ أن
يفعل إن لم يزجر، ومنها الستر
والإبقاء على من فعل، وكان
رسول الله ﷺ قد وعد المؤمنين
النصر يومئذ على خبر الله تعالى إن
صبروا وجدوا، فصدق الله الوعد
أولاً، وذلك أن رسول الله ﷺ
صافَّ المسلمين يومئذ ورتب الرماة
على ما قد ذكرناه في صدر تفسير
هذه الآيات في قصة أحد، فبارز

علي بن أبي طالب أبا سعد بن أبي طلحة وهو صاحب لواء المشركين، وحمل الزبير وأبو دجاجة فهزأ عسكر المشركين، ونهض رسول الله ﷺ بالناس، فأبلى حمزة بن عبدالمطلب وعاصم بن أبي الأقلح، وانهزم المشركون وقتل منهم اثنان وعشرون رجلاً، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ تَحْسَبُوهُمْ بِيَادِيهِمْ﴾. والحس: القتل الذريع، يقال: حسهم إذا استأصلهم قتلاً، وحس البردُ النبات، وقال رؤية:

إذا شكّونا سنة حسوسا
تأكل بعد الأخضر اليابسا
قال بعض الناس: هو مأخوذ من الحاسة، والمعنى في حس: أفسد الحواس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. والإذن: التمكين مع العلم بالممكن منه.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ يحتمل أن تكون ﴿حَتَّىٰ﴾ غاية مجردة، كأنه قال: إلى أن فشلتم، ويقوي هذا أن ﴿إِذَا﴾ بمعنى «إذ» لأن الأمر قد كان تقضى، وإنما هي حكاية حال، فنستغني ﴿إِذَا﴾ على هذا النظر عن جواب، والأظهر الأقوى أن ﴿إِذَا﴾ على بابها تحتاج إلى الجواب، وتكون ﴿حَتَّىٰ﴾ كأنها حرف ابتداء على نحو دخولها على الجمل.

واختلف النحاة في جواب ﴿إِذَا﴾، فذهبت فرقة إلى أن الجواب قوله: ﴿تَنْزَعْتُمْ﴾، والواو زائدة، وحكى المهدي عن أبي علي أنه قال:

الجواب قوله: ﴿مَكَرْتَكُمْ﴾ و﴿نَمَّ﴾ زائدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يشبه نظر أبي علي. ومذهب سيبويه والخليل وفرسان الصناعة أن الجواب محذوف مقدر يدل عليه المعنى، تقديره: انهزمتم ونحوه. والفشل: استشعار العجز وترك الجد، وهذا مما فعله يومئذ قوم. والتنازع هو الذي وقع بين الرماة، فقال بعضهم: الغنيمة الغنيمة، ألحقونا بالمسلمين، وقال بعضهم: بل ثبت كما أمرنا. و﴿وَصَكَّيْتُمْ﴾ عبارة عن ذهاب مَنْ ذَهَبَ من الرماة حتى تمكن خالد بن الوليد من غرة المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَا مَا نُجِئُونَ﴾ يعني من هزم القوم، قال الزبير بن العوام: والله لقد رأيتني أنظر إلى خدم هند بنت عتبة وصواحبها مشمرات هاربات ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه يريدون النهب وخلوا ظهورنا للخليل، فأتينا من أدارنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمداً قد قتل، فانكفأنا وانكفأ علينا القوم.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾ إخبار عن الذين حرصوا على الغنيمة وكان المال همهم، قاله ابن عباس وسائر المفسرين. وقال عبدالله بن مسعود: ما كنت أرى أن أحداً من

أصحاب رسول الله ﷺ يريد الدنيا حتى نزل فينا يوم أحد: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ إخبار عن ثبوت من ثبت من الرماة مع عبدالله بن جبير امتثالاً للأمر حتى قتلوا، ويدخل في هذا أنس بن النضر وكل من جد ولم يضطرب من المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ بَكُمْ ذَلِكَ البلاء من القتل والتمحيص﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ إعلام بأن الذنب كان يستحق أكثر مما نزل، وهذا تحذير، والمعنى: ولقد عفا عنكم بأن لم يستأصلوكم، فهو بمنزلة: ولقد أبى عليكم، ويحتمل أن يكون إخباراً بأنه عفا عن ذنوبهم في قصة أحد، فيكون بمنزلة العفو المذكور بعد، وبالتفسير الأول قال ابن جريج وابن إسحاق وجماعة من المفسرين، وقال الحسن بن أبي الحسن: قتل منهم سبعون، وقتل عم النبي عليه السلام، وشج في وجهه وكسرت ربايعيته، وإنما العفو أن لم يستأصلهم، هؤلاء مع رسول الله ﷺ وفي سبيل الله غضاب الله، يقتلون أعداء الله، نهوا عن شيء فضيعوه، فوالله ما تركوا حتى غموا بهذا الغم، فأفست الفاسقين اليوم يجترم كل كبيرة، ويركب كل داهية، ويسحب عليها ثيابه، ويزعم أن لا بأس عليه، فسوف يعلم.

لم يكن على الجبل إلا بعدما فرّ
الناس عنه، وهذه الحال من
إصعادهم إنما كانت وهو يدعوهم،
وروي أنه كان ينادي: «إليّ
عباد الله»، والناس يفرون.

وفي قوله تعالى: ﴿فِي آخِرِنَاكُمْ﴾
مدحٌ للنبي عليه السلام، فإن ذلك
هو موقف الأبطال في أعقاب
الناس، ومنه قول الزبير بن باطا: ما
فعل مقدمتنا إذ حملنا وحميتنا إذ
فرنا. وكذلك كان رسول الله ﷺ
أشجع الناس، ومنه قول سلمة بن
الأكوع: كنا إذا احمر البأس اتقينا
برسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ كُمْ﴾ مغناه:
جازاكم على صنيعكم، وسمى الغم
ثوباً على معنى أنه القائم في هذه
النازلة مقام الثواب، وهذا كقوله:

تحية بينهم ضربٌ وجيع
وكقول الآخر:
أخاف زياداً أن يكون عطاؤه
أداهم سوداً أو مُحَذَّرَجَةً سُفْراً
فجعل القيود والسيّاط عطاء،
ومحدرجة: بمعنى مدحرجة.

واختلف الناس في معنى قوله
تعالى: ﴿عَمَّا بَعَّرَ﴾؛ فقال قوم:
المعنى: أثابكم غمّاً بسبب الغم
الذي أدخلتموه على رسول الله ﷺ
وسائر المؤمنين، بفشلكم وتنازعكم
وعصيانكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فالباء على هذا باء السبب.

وقال قوم: المعنى أثابكم غمّاً
بالغم الذي أوقع على أيديكم بالكفار
يوم بدر.

وقرأ الحسن بن أبي
الحسن وأبو عبدالرحمن
واليزيدي ومجاهد وقناة:
﴿إِذْ تَضَعُدُونَ﴾، بفتح
التاء والعين، من صعد
إذا علا، والمعنى بهذا
صعود من صعد في
الجبل، والقراءة الأولى
أكثر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا
تَكُونُوا﴾ مبالغة في صفة
الانهزام، وهو كما قال
دريد: وهل يرد المنهزم
شيء؟ وهذا أشد من قول
امرئ القيس:

أخو الجهد لا يلوي على من تعدراً
وقرأ ابن محيصن وابن كثير في
رواية شبل: ﴿إِذْ يُضَعِدُونَ وَلَا
يَلُودُونَ﴾ بالياء فيهما على ذكر
الغيب، وقرأ بعض القراء: ﴿وَلَا
تَلُودُونَ﴾ بهمز الواو المضمومة،
وهذه لغة، وقرأ بعضهم: ﴿وَلَا
تَلُونُ﴾ بضم اللام وواو واحدة،
وهي قراءة متركية على لغة من همز
الواو المضمومة، ثم نقلت حركة
الهمزة إلى اللام وحذفت إحدى
الواوين الساكتين، وقرأ الأعمش
وعاصم في رواية أبي بكر:
﴿تَلُونُ﴾ بضم التاء، من ألوى وهي
لغة، وقرأ حميد بن قيس: ﴿على
أحد﴾ بضم الألف والحاء، يريد
الجبل، والمعنى بذلك رسول الله
عليه السلام، لأنه كان على الجبل،
والقراءة الشهيرة أقوى لأن النبي ﷺ

ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَسَايَسِيْحَةً طَائِفَةً
مِّنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّوْنَ أَنَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ
لَا يَدْرِيْنَ أَلَمْ يَخْبُرْ لَمَّا أَتَى الْبَنِيْنَ أَنَّهُمْ قَالُوْا وَاللَّهِ لَأَنبِئَنَّكُمْ
وَاللَّهِ لَآخِذٌ بِذُنُوبِكُمْ لَمَّا تَبَرَّأ إِلَيْهِم مِّنَ الْمُشْرِكِيْنَ لَمَّا قَالُوْا إِنَّ
اللَّهَ عِندَ رَبِّنَا لَأَنزَلَ الْغَمَامَ غَمَامًا مُّغِيْبًا ذُرِّيَّتَهُ لِيُزَيِّتَ لَكُمْ
بَنِيَّكُمْ مِنْكُمْ وَيُقْتَلَ فِيْ ذُنُوبِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِيْ قُلُوْبِكُمْ
وَاللَّهُ عَلِيْمٌ بِذَاتِ الصُّدُوْرِ ﴿١٥٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ
يَوْمَ النَّبِيِّ الْجَمْعَانِ إِنَّمَا أَسْزَلَهُمُ الشَّيْطٰنُ بَعْضَ مَا
كَسَبُوْا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُوْرٌ حَلِيْمٌ ﴿١٥٤﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لَا تَكُوْنُوْا كَالَّذِيْنَ كَفَرُوْا وَقَالُوْا لَا آخِرَ لِهَيْبَتِهِمْ إِذَا
ضَرَبُوْا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوْا عِزْرَى لَوْ كَانُوْا عِندَنَا مَا مَاتُوْا وَمَا
قُتِلُوْا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذٰلِكَ حَسْرَةً فِيْ قُلُوْبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِيْ وَيُمِيْتُ
وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّوْنَ يَبْصُرُ ﴿١٥٥﴾ وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيْلِ اللَّهِ
أَوْ مِتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُوْنَ ﴿١٥٦﴾

١٥٣ - ١٥٤ - تفسير قوله عز وجل:

العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿عَمَّا﴾.
وقرأ جمهور الناس: ﴿تَضَعُدُونَ﴾
بضم التاء وكسر العين من أصعد:
ومعناه: ذهب في الأرض، وفي
قراءة أبي بن كعب: ﴿إِذْ تَصْعَدُونَ
في الوادي﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والصعيد وجه الأرض، وصعدة
اسم من أسماء الأرض، فأصعد
معناه: دخل في الصعيد، كما أن
أصبح دخل في الصباح إلى غير
ذلك. والعرب تقول: أصعدنا من
مكة وغيرها، إذا استقبلوا سفراً
بعيداً. وأنشد أبو عبيدة لحادي
الإبل:

قد كنت تبكين على الإصعاد
فالآن صرخت وصاح الحادي

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالباء على هذا باء معادلة، كما قال أبو سفيان: يومٌ بيوم بدر والحرب سجال. وقالت جماعة كثيرة من المتأولين: المعنى أثابكم غمّاً على غم، أو غمّاً مع غم، وهذه باء الجرّ المجرد.

واختلفوا في ترتيب هذين الغمين فقال قتادة ومجاهد: الغمّ الأول: أن سمعوا: ألا إن محمداً قد قتل، والثاني: القتل والجراح الواقعة فيهم. وقال الربيع وقتادة أيضاً بعكس هذا الترتيب، وقال السدي ومجاهد أيضاً وغيرهما: بل الغمّ الأول هو قتلهم وجراحهم وكل ما جرى في ذلك المأزق، والغم الثاني هو إشراف أبي سفيان على النبي ومن كان معه. وذلك أن رسول الله ﷺ طفق يومئذ يدعو الناس حتى انتهى إلى قوم من أصحابه قد علوا صخرة في صفح الجبل فمشى نحوهم، فأهوى إليه رجل بسهم ليرميه فقال: أنا رسول الله، ففرحوا بذلك، وفرح هو عليه السلام إذ رأى من أصحابه الامتناع، ثم أخذوا يتأسفون على ما فاتهم من الظفر، وعلى من مات من أصحابهم، فبينما هم كذلك إذ أشرف عليهم أبو سفيان من علو في خيل كثيرة، فسوا ما نزل بهم أولاً، وأهمهم أمر أبي سفيان، فقال رسول الله عليه السلام: «ليس لهم أن يعلونا، اللهم إن تقتل هذه المصيبة لا تعبد» ثم ندب أصحابه فرمهم بالحجارة، وأغنى عمر بن الخطاب حتى أنزلوهم.

واختلفت الروايات في هذه القصة من هزيمة أحد اختلافاً كثيراً، وذلك أن الأمر هو، فكل أحد وصف ما رأى وسمع، قال كعب بن مالك: أول من ميّز رسول الله ﷺ أنا، رأيت عينيه تزهرا تحت المغفر. وروي أن الخيل المستعلية إنما كانت حملة خالد بن الوليد، وأن أبا سفيان إنما دنا والنبي عليه السلام في عرعرة الجبل. ولأبي سفيان في ذلك الموقف قول كثير، ولعمر معه مراجعة محفوظة اختصرتها إذ لا تخص الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَيْكَيْلًا تَحَرَّوْا عَلَيَّ مَا فَاتَكُمْ﴾ معناه: من الغنيمة، ﴿وَلَا مَا أَصْبَحْتُمْ﴾ معناه: من القتل والجرح وذل الانهزام وما نيل من نبيكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللام من قوله: ﴿لَيْكَيْلًا﴾ متعلقة بـ «أثابكم»، المعنى: لتعلموا أن ما وقع بكم إنما هو بجنايتكم، فأنتم آذيتم أنفسكم، وعادة البشر أن جاني الذنب يصبر للعقوبة، وأكثر قلق المعاقب وحزنه إنما هو مع ظنه البراءة بنفسه. وفي قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ توعده.

ثم ذكر الله تعالى أمر النعاس الذي أثنى به المؤمنين فغشي أهل الإخلاص، وذلك أنه لما ارتحل أبو سفيان من موضع الحرب، قال النبي ﷺ لعلي بحضرة أصحابه المتحيزين في تلك الساعة إليه: «أذهب فانظر إلى القوم، فإن جنبوا الخيل فهم ناهضون إلى مكة، وإن كانوا على خيلهم فهم عامدون إلى

المدينة، فاتقوا الله واصبروا» ووطنهم على القتال. فمضي علي ثم رجع فأخبر أنهم جنبوا الخيل وقعدوا على أبقالهم عجلاً، فأين الموقنون المصدقون رسول الله ﷺ، وألقى الله عليهم النعاس، وبقي المنافقون والذين في قلوبهم مرض لا يصدقون، بل كان ظنهم أن أبا سفيان يؤم المدينة ولا بد، فلم يقع على أحد منهم نوم، وإنما كان همهم في أحوالهم الدنياوية. قال أبو طلحة: لقد نمت في ذلك اليوم حتى سقط سيفي من يدي مراراً. وقال الزبير بن العوام: لقد رفعت رأسي يوم أحد من النوم فجعلت أنظر إلى أصحاب النبي ﷺ، فما منهم أحد إلا وهو يميل تحت حَجَفَتِهِ. وقال ابن مسعود: نعسنا يوم أحد والنعاس في الحرب أمة من الله، والنعاس في الصلاة من الشيطان.

وقرأ جمهور الناس ﴿أُمَّة﴾ بفتح الميم، وقرأ ابن محيصن والنخعي ﴿أُمَّة﴾ بسكون الميم، وهما بمعنى الأمن، وفتح الميم أفصح، وقوله: ﴿شَأْسًا﴾ بدل. وقرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: ﴿بِشْتَنٍ﴾ بالياء حملاً على لفظ النعاس بإسناد الفعل إلى الضمير البدل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَغْشَى﴾ بالتاء حملاً على لفظ ﴿أُمَّة﴾ بإسناد الفعل إلى ضمير المبدل منه. والواو في قوله تعالى: ﴿وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ هي واو الحال كما تقول: جئت وزيد قائم. قاله سيبويه وغيره، قال الزجاج: وجائز أن يكون خبر قوله:

﴿وَطَائِفَةٌ﴾ قوله: ﴿يَطُوتُ﴾ ويكون ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ﴾ صفة للطائفة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ﴾ ذهب أكثر المفسرين قتادة والربيع وابن إسحاق وغيرهم إلى أن اللفظة من الهم الذي هو بمعنى الغم والحزن، والمعنى: إن نفوسهم المريضة وظنونهم السيئة قد جلبت إليهم الهم خوف القتل وذهاب الأموال، تقول العرب: أهمني الشيء إذا جلب الهم. وذكر بعض المفسرين أن اللفظة من قولك: هم بالشيء يهّم إذا أراد فعله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى: أهتمهم أنفسهم المكاشفة ونبتذ الدين، وهذا قول من قال: قد قتل محمد فلترجع إلى ديننا الأول، ونحو هذا من الأقوال.

﴿١٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَطُوتُ بِاللَّهِ عِزَّ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَتُوتُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَيْكُمْ مَضْجِعِهِمْ وَيَلْتَمِئِلَى اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِمَصَّحَّ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾

قوله تعالى: ﴿عِزَّ الْحَقِّ﴾ معناه: يظنون أن الإسلام ليس بحق وأن أمر محمد عليه السلام يضمحل ويذهب.

وقوله: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ ذهب جمهور الناس إلى أن المراد مدة الجاهلية القديمة قبل الإسلام، وهذا كما قال: ﴿جَمِئَةَ الْجَاهِلِيَّةِ﴾،

﴿وَبَرِيحٍ الْجَاهِلِيَّةِ﴾، وكما تقول: شعر الجاهلية، وكما قال ابن عباس: سمعت أبي في الجاهلية يقول: اسقنا كأساً دهاقاً. وذهب بعض المفسرين إلى أنه أراد في هذه الآية: ظن الفرقة الجاهلية، والإشارة إلى أبي سفيان ومن معه، والأمر محتمل، وقد نحا هذا المنحى قتادة والطبري.

وقوله تعالى: ﴿يَتُوتُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ﴾ حكاية كلام قالوه. قال قتادة وابن جريج: قيل لعبدالله بن أبي ابن سلول: قتل بنو الخزرج، فقال: وهل لنا من الأمر من شيء؟ يريد أن الرأي ليس لنا، ولو كان لنا منه شيء لسمع من رأينا فلم يخرج فلم يُقتل أحد منا، وهذا منهم قول بأجلين، وكان كلامهم يحتمل الكفر والنفاق، على معنى: ليس لنا من أمر الله شيء، ولا نحن على حق في اتباع محمد، ذكره المهدوي وابن فورك، لكن يُضعف ذلك أن الرد عليهم إنما جاء على أن كلامهم في معنى سوء الرأي في الخروج، وأنه لو لم يخرج لم يقتل أحد.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ اعتراض أثناء الكلام فصيح.

وقرأ جمهور القراء: ﴿كَلَهُ﴾، بالنصب على تأكيد الأمر، لأن (كله) بمعنى أجمع، وقرأ أبو عمرو بن العلاء: ﴿كله لله﴾ برفع (كل) على الابتداء والخبر، ورجح الناس قراءة الجمهور لأن التأكيد أملك بلفظة (كل).

وقوله تعالى: ﴿يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يَبْدُونَ لَكَ﴾ يحتمل أن يكون

إخباراً عن تسترهم بمثل هذه الأقوال التي ليست بمحض كفر، بل هي جهالة، ويحتمل أن يكون إخباراً عما يخفونه من الكفر الذي لا يقدر أن يظهر منه أكثر من هذه النزعات، وأخبر تعالى عنهم على الجملة دون تعيين، وهذه كانت سنته في المنافقين، لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا﴾ هي مقالة سمعت من مُعْتَبِ بن قشير المغموص عليه بالنفاق. وقال الزبير بن العوام فيما أسند الطبري عنه: والله لكانني أسمع قول معتب بن قشير أخي بني عمرو بن عوف، والنعاس يغشاني، ما أسمعهم إلا كالحلم حين قال: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكلام معتب يحتمل من المعنى ما احتل كلام عبدالله بن أبي، ومعتب هذا ممن شهد بدرأ، ذكر ذلك ابن إسحاق وغيره، وقال ابن عبدالبر: إنه شهد العقبة، وذلك وهم، والصحيح أنه لم يشهد عقبة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ﴾... الآية، رد على الأقوال، وإعلام بأن أجل كل امرئ إنما هو واحد، فمن لم يقتل فهو يموت لذلك الأجل على الوجه الذي قدر الله تعالى، وإذا قُتِلَ فذلك هو الذي كان في سابق الأزل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فِي بُيُوتِكُمْ﴾ بضم الباء، وقرأ بعض القراء - وهي بعض طرق السبعة - ﴿فِي بِيُوتِكُمْ﴾ بكسر الباء، وقرأ جمهور الناس:

رسول الله ﷺ، فقال لهم: «لقد ذهبتم فيها حريضة». قال ابن زيد: فلا أدري هل عفا عن هذه الطائفة خاصة أم عن المؤمنين جميعاً؟

واستزل معناه: طلب منهم أن يزلوا، لأن ذلك هو مقتضى وسوسته وتخويفه. وقوله تعالى: ﴿بِغَيْضٍ مَّا كَسَبُوا﴾ ظاهره عند جمهور المفسرين أنه كانت لهم ذنوب عاقبهم الله عليها بتمكين الشيطان من استزلالهم، وبخلق ما اكتسبوه أيضاً هم من الفرار، وذهب الزجاج وغيره إلى أن المعنى: إن الشيطان ذكّرهم بذنوب لهم متقدمة، فكرهوا الموت قبل التوبة منها والإقلاع عنها، قال المهدي: بما اكتسبوا من حبّ الغنيمة والحرص على الحياة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل لفظ الآية أن تكون الإشارة في قوله: ﴿بِغَيْضٍ مَّا كَسَبُوا﴾ إلى هذه العبرة، أي: كان للشيطان في هذا الفعل الذي اكتسبوه استزلال لهم، فهو شريك في بعضه.

ثم أخبر تعالى بغفوه عنهم، فتأوله جمهور العلماء على حطّ التبعة في الدنيا والآخرة، وكذلك تأوله عثمان بن عفان في حديثه مع عبيد الله بن عدي بن الخيار، وكذلك تأوله ابن عمر في حديثه مع الرجل العراقي، وقال ابن جريج: معنى الآية: عفا الله عنهم إذ لم يعاقبهم، والفرار من الزحف كبيرة من الكبائر بإجماع فيما علمت، وعدها رسول الله ﷺ في الموبقات مع الشرك وقتل النفس وغيرها.

الجمعة فقرأ ﴿آل عمران﴾. وكان يعجبه إذا خطب أن يقرأها، فلما انتهى إلى قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ آتَتْ الْجَمْعَانَ﴾ قال: لما كان يوم أخذ هزمننا ففررت حتى صعدت الجبل، فلقد رأيتني أنزو كأنني أروى، والناس يقولون: قُتِلَ محمد، فقلت: لا أجد أحداً يقول: قتل محمد إلا قتلت، حتى اجتمعنا على الجبل، فنزلت هذه الآية كلها. قال قتادة: هذه الآية في كل من فر بتخويف الشيطان وخذعيه، وعفا الله عنهم هذه الزلة. قال ابن فورك: لم يبق مع النبي يومئذ إلا ثلاثة عشر رجلاً، أبو بكر، وعلي، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وسائرهم من الأنصار، أبو طلحة وغيره. وقال السدي وغيره: إنه لما انصرف المسلمون عن حملة المشركين عليهم سعد قوم الجبل، وفرّ آخرون حتى أتوا المدينة، فذكر الله في هذه الآية الذين فروا إلى المدينة خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: جعل الفرار إلى الجبل تحيزاً إلى فئة.

وقال عكرمة: نزلت هذه الآية فيمن فر من المؤمنين فراراً كثيراً، منهم رافع بن المعلى، وأبو حذيفة بن عتبة، ورجل آخر، قال ابن إسحاق: فر عثمان بن عفان وعقبة بن عثمان وأخوه سعد، ورجلان من الأنصار زُرقيان، حتى بلغوا الجَلْعَبَ - جبل بناحية المدينة مما يلي الأعوص - فأقاموا به ثلاثة أيام، ثم رجعوا إلى

﴿بَرَزَ﴾ بفتح الراء والباء على معنى: صاروا في البراز من الأرض، وقرأ أبو حيو: ﴿بُرُزَ﴾ بضم الباء وكسر الراء وشدها، وقرأ جمهور الناس: ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾ أي: كتب عليهم في قضاء الله وتقديره، وقرأ الحسن والزهري: ﴿عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ﴾، وتحتمل هذه القراءة معنى الاستغناء عن المنافقين، أي: لو تخلفتم أنتم لبرز المؤمنون الموقنون المطيعون في القتال المكتوب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾... الآية: السلام في قوله تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ﴾ متعلقة بفعل متأخر تقديره: وليبتلي وليمحص فعل هذه الأمور الواقعة، والابتلاء هنا هو الاختبار، والتمحيص: تخليص الشيء من غيره، والمعنى: ليختبره فيعلمه علماً مساوفاً لوجوده وقد كان متقدراً قبل وجود الابتلاء أولاً، و﴿ذات الصدور﴾: ما تنطوي عليه من المعتقدات، هذا هو المراد في هذه الآية.

تفسير قوله عز وجل: اختلف المتأولون في من المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ آتَتْ الْجَمْعَانَ﴾؛ فقال الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه: المراد بها جميع من تولى ذلك اليوم عن العدو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد على جميع أنحاء التولي الذي لم يكن تحرفاً لقتال.

وأسند الطبري رحمه الله قال: خطب عمر رضي الله عنه يوم

﴿تفسير قوله عز وجل:

نهى الله تعالى المؤمنين عن الكون مثل الكفار والمنافقين في هذا المعتقد الفاسد، الذي هو أن من سافر في تجارة ونحوها ومن قاتل قَتِيلًا لو قعد في بيته لعاش ولم يمض في ذلك الوقت الذي عَرَضَ فيه نفسه للسفر أو للقتال، وهذا هو معتقد المعتزلة في القول بالأجلين، وهو نحو منه.

وقوله تعالى: ﴿لِإِحْوَانِهِمْ﴾ هي أخوة نسب، لأن قتلى أخذ كانوا من الأنصار، أكثرهم من الخزرج، ولم يكن فيهم من المهاجرين إلا أربعة، وصرح بهذه المقالة - فيما ذكر السدي ومجاهد وغيرهما - عبدالله بن أبي المنافق وأصحابه، وقيل: بل قالها جميع المنافقين، ودخلت ﴿إِذَا﴾ في هذه الآية وهي حرف استقبال من حيث ﴿الذين﴾ اسم فيه إبهام يعم من قال في الماضي ومن يقول في المستقبل، ومن حيث هذه النازلة تتصور في مستقبل الزمان، ويطرِدُ النهي للمؤمنين فيها، فوضعت ﴿إِذَا﴾ لتدل على اطراد الأمر في مستقبل الزمان، وهذه فائدة وضع المستقبل موضع الماضي، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا لِكِ دَارِ السَّلَامِ﴾ إلى نحوها من الآيات، وكما قالت:

وفينا نبي يعلم ما في غد

كما أن فائدة وضعهم الماضي موضع المستقبل للدلالة على ثبوت الأمر، لأن صيغة الماضي متحققة الوقوع، فمن ذلك قول الشاعر:

وإني لآتيكم تشكراً ما مضى
من الأمر واستيجاب ما كان في غد
ومنه قول الربيع:

أصبحت لا أحمل السلاح ولا
أملك رأس البعير إن نفرا
والضرب في الأرض: الإبعاد في السير، ومنه: ضرب الدهر ضرباته، إذا بعدت المدة. وضرب الأرض: هو الذهاب فيها لحاجة الإنسان خاصة بسقوط (في)، وقال السدي وغيره في هذه الآية: الضرب في الأرض: السير في التجارة؛ وقال ابن إسحاق وغيره: بل هو السير في جميع طاعات الله ورسوله، والضرب في الأرض يعم القولين. و﴿عُرِّي﴾: جمع غاز، وزنه - فُعِلَ - بضم الفاء وشد العين المفتوحة، كشاهد وشهد وقاتل وقول، وينشد بيت رؤية:

فإلآن قد نَهْتَهْنِي تَهْتُهُي
وأول حلم ليس بالمسْفِه
وقَوْلٌ إلآ دَوْ فَلَادَوْ

يريد إن لم تتب الآن فلا تتوب أبداً، وهو مثل معناه: إن لم يكن كذا فلا يكون كذا، وقد روي: وقولهم إلآ دَوْ فَلَادَوْ، قال سيبويه وغيره: لا يدخل ﴿عُرِّي﴾ الجر ولا الرفع. وقرأته عامة القراءة بتشديد الزاي، وقرأ الحسن بن أبي الحسن والزهري: ﴿عُرِّي﴾ مخففة الزاي، ووجهه إما أن يريد غزاةً، فحذف الهاء إخلاذاً إلى لغة من يقول: ﴿عُرِّي﴾ بالتشديد، وهذا الحرف كثير في كلامهم، ومنه قول الشاعر يمدح الكسائي:

أبى الذم أخلاق الكسائي وانتضى
به المجد أخلاق الأبو السوابق
يريد الأبوة جمع أب، كما أن العمومة جمع عم، والبنوة جمع ابن، وقد قالوا: ابن وبنو. وتحتمل قراءتهما أن تكون تخفيفاً للزاي من (عُرِّي)، ونظيره قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿وكذبوا بآياتنا كذباً﴾ في قول من قال: إنه تخفيف، وقد قيل: إنه مصدر جرى على غير المصدر، وقرأ الحسن: ﴿وما قتلوا﴾ مشددة التاء.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْمَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً﴾ قال مجاهد: معناه: يحزنهم قوله ولا ينفعهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذا المعتقد الذي لهم، جعل الله ذلك حسرة، لأن الذي يتيقن أن كل موت وقيل فبأجل سابق، يجد برد اليأس والتسليم لله تعالى على قلبه، والذي يعتقد أن حميمه لو قعد في بيته لم يمض يتحسر ويتلهف. وعلى هذا التأويل مشى المتأولون، وهو أظهر ما في الآية.

وقال قوم: الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى انتهاء المؤمنين ومخالفتهم الكافرين في هذا المعتقد، فيكون خلافهم لهم حسرة في قلوبهم. وقال قوم: الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى نفس نهى الله تعالى عن الكون مثل الكافرين في هذا المعتقد، لأنهم إذا رأوا أن الله تعالى قد وسمهم بمعتقد وأمر بخلافهم كان ذلك حسرة في قلوبهم. ويحتمل عندي أن تكون الإشارة إلى النهي والانهاء معاً،

وَلَيْنَ مُتَمِّمٌ أَوْ قَاتِلٌمْ لِآلِ اللَّهِ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٥٧﴾ وَإِن يَبْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلاَ عَلاِبَ لَكُمْ وَإِن يَخْذَلْكُمْ فَمَن ذَا الَّذِي يَبْصُرْكُمْ مِن بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٥٨﴾ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْفُرَ بِمَا آتَاهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُم مِّمَّا كَفَرُوا مِنْ شَيْءٍ وَمَن يَكْفُرْ بِمَا آتَاهُ مِنَ اللَّهِ فَمَا لِيُبَدِّلْ اللَّهُ نَفْسَ مَن يَكْفُرْ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٩﴾

٧١

بضم الميم في جميع القرآن، وروى أبو بكر عن عاصم ضم الميم في جميع القرآن، وروى عنه حفص ضم الميم في هذين الموضعين: ﴿أَوْ مُتَمِّمٌ﴾ و﴿لَيْنَ مُتَمِّمٌ﴾ فقط، وكسر الميم حيث ما وقعت في جميع القرآن. قال أبو علي: ضم الميم هو الأشهر والأقرب، ثم تموت مثل: قُلْتُ تقول وطُفَّتْ تطوف، والكسر شاذ في القياس وإن كان قد استعمل كثيراً، وليس كما شذ قياساً واستعمالاً كشذوذ اليجدع ونحوه،

ونظير يمّ تموت بكسر الميم: فضل بكسر الضاد يفضل في الصحيح وأنشدوا:

ذكرت ابن عباس بباب ابن عامر وما مرّ من عمري ذكرت وما فضل وقوله تعالى: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ رفع بالابتداء ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عطف على المغفرة و﴿خَيْرٌ﴾ خبر الابتداء، والمعنى: المغفرة والرحمة اللاحقة عن القتل أو الموت في سبيل الله خير، فجاء لفظ المغفرة غير معرف إشارة بليغة إلى أن أيسر جزء منها خير من الدنيا، وأنه كافٍ في فوز العبد المؤمن، وتحتمل الآية أن يكون قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ إشارة إلى القتل أو الموت في سبيل الله، سمي ذلك مغفرة ورحمة إذ هما مقترنان به، ويجيء التقدير: لذلك مغفرة ورحمة، وترتفع المغفرة على خبر

فتأمله. والحسرة: التلهف على الشيء والغم به.

ثم أخبر تعالى خبراً جزماً أنه الذي يحيي ويميت بقضاء حتم، لا كما يعتقد هؤلاء. وقرأ ابن كثيره وحمة والكسائي: ﴿وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، فهذا وعيد للمنافقين، وقرأ الباقون: ﴿تَمَلُّونَ﴾ بالتاء على مخاطبة المؤمنين، فهذا توكيد للنهي في قوله: ﴿لَا تَكُونُوا﴾، ووعيد لمن خالفه، ووعد لمن امتثله.

١٥٧ - ١٥٩ تفسير قوله عز وجل:

اللام في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ﴾ هي المؤذنة بمجيء القسم، واللام في قوله: ﴿لَمَغْفِرَةٌ﴾ هي المتلقية للقسم، والتقدير: والله لمغفرة.

وترتب الموت قبل القتل في قوله: ﴿مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ مراعاة لرتبة الضرب في الأرض والغزو، فقدم الموت الذي هو بإزاء المتقدم الذكر، وهو الضرب، وقدم القتل في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ قَاتِلٌمْ﴾ لأنه ابتداء إخبار، فقدم الأشرف الأهم، والمعنى: أو متم في سبيل الله، فوقع أجركم على الله، ثم قدم الموت في قوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ مُتَمِّمٌ أَوْ قَاتِلٌمْ﴾ لأنها آية وعظ بالآخرة والحشر، وآية تزهيد في الدنيا والحياة. والموت المذكور فيها هو موث على الإطلاق في السبيل وفي المنزل وكيف كان، فقدم لعمومه وأنه الأغلب في الناس من القتل.

وقرأ نافع وحمة والكسائي: ﴿مِثْمٌ﴾ بكسر الميم و﴿مِثْنَا﴾ و﴿مِثٌّ﴾ بالكسر في جميع القرآن، وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر:

الابتداء المقدر، وقوله: ﴿خَيْرٌ﴾ صفة لخبر الابتداء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَجْمَعُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة وهي أشكل بالكلام، وقرأ قوم منهم عاصم فيما روى عنه حفص: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ بالياء، والمعنى: مما يجمعه المنافقون وغيرهم.

ثم ذكر تعالى الحشر إليه، وأنه غاية لكل أحد قتل أو مات. وفي الآية تحقير لأمر الدنيا وحض على طلب الشهادة، أي: إذا كان الحشر في كلا الأمرين فالمضي إليه في حال الشهادة الأولى.

وقوله تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ رَبُّكَ﴾ معناه: فبرحمة من الله و﴿مَا﴾ قد جرد عنها معنى النفي، ودخلت للتأكيد، وليست بزائدة على الإطلاق لا معنى لها، وأطلق عليها سبويه

اسم الزيادة من حيث زال عملها، وهذه بمنزلة قوله تعالى: ﴿فِيمَا نَقَضِهِمْ بِئْسَ فِعْلَهُمْ﴾ قال الزجاج: الباء بإجماع من النحويين صلة وفيها معنى التأكيد. ومعنى هذه الآية: التفرقة لجميع من أخل يوم أحد بمركزه، أي: كانوا يستحقون الملام منك، والأتلين لهم، ولكن رحم الله جميعكم، أنت يا محمد بأن جعلك الله على خلق عظيم، وبعثك لتمم محاسن الأخلاق، وهُم بأن لئيتك الله لهم، وجعلت بهذه الصفات لما علم تعالى في ذلك من صلاحهم، وأنت لو كنت فقط غليظ القلب لانفضوا من حولك وتفرقوا عنك.

والفظ: الجافي في منطقته ومقاطعته، وفي صفة النبي عليه السلام في الكتب المنزلة: ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاب في الأسواق، وقال الجوارى لعمر بن الخطاب: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله... الحديث، وفظاظة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إنما كانت مستعملة منه آلة لعضد الحق والشدة في الدين، والفظاظة: الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلًا، ومنه قول الشاعر:

أخشى فظاظة عم أو جفاء أخ
وكنت أخشى عليها من أذى الكلم
وغلظ القلب: عبارة عن تجهم الوجه وقلة الانفعال في الرغائب وقلة الإشفاق والرحمة، ومن ذلك قول الشاعر:

يُبْنِكِي عَلَيْنَا وَلَا نَبْكِي عَلَى أَحَدٍ
لَنَحْنُ أَغْلَظُ أَكْبَادًا مِنَ الْإِبِلِ

والانفضاض: افتراق الجموع، ومنه فض الخاتم.

١٥٩ - ١٦٠ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى رسوله بهذه الأوامر التي هي بتدرج بليغ، وذلك أنه أمره بأن يعفو عليه السلام عنهم ما له في خاصته عليهم من تبعة وحق، فإذا صاروا في هذه الدرجة أمره أن يستغفر لهم فيما الله عليهم من تبعة، فإذا صاروا في هذه الدرجة كانوا أهلاً للاستشارة في الأمور.

والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ وقال النبي ﷺ: «ما خاب من استخار ولا ندم من استشار» وقال عليه السلام: «المستشار مؤتمن».

وصفة المستشار في الأحكام أن يكون عالماً دنيًا، وقل ما يكون ذلك إلا في عاقل، فقد قال الحسن بن أبي الحسن: ما كمل دين امرئ لم يكمل عقله. وصفة المستشار في أمور الدنيا أن يكون عاقلًا مجربًا وإذا في المستشار. والشورى بركة، وقد جعل عمر بن الخطاب الخلافة - وهي أعظم النوازل - شورى. وقال الحسن: والله ما تشاور قوم بينهم إلا هداهم الله لأفضل ما بحضرتهم.

وكان رسول الله ﷺ يشاور أصحابه، وقد قال في غزوة بدر: «أشيروا علي أيها الناس»، في اليوم الذي تكلم فيه المقداد ثم سعد بن عباد. ومشاورته عليه السلام إنما هي في أمور

الحروب والبعوث ونحوه من أشخاص النوازل، وأما في حلال أو حرام أو حد فتلك قوانين شرع ﴿مَا فَرَقْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾، وكان الآية نزلت مؤنسة للمؤمنين، إذ كان تغلبهم على الرأي في قصة أحد يقتضي أن يعاقبوا بالأ يشارروا في المستأنف.

وقرأ ابن عباس: ﴿وَشَاوَرَهُمْ فِي بَغْضِ الْأُمُورِ﴾. وقراءة الجمهور إنما هي باسم الجنس الذي للبعض وللكل، ولا محالة أن اللفظ خاص بما ليس من تحليل وتحريم، والشورى مبنية على اختلاف الآراء، والمستشير ينظر في ذلك الخلاف ويتحيز، فإذا أرشده الله تعالى إلى ما شاء منه عزم عليه وأنفذه متوكلاً على الله، إذ هي غاية الاجتهاد المطلوب منه، وبهذا أمر تعالى نبيه في هذه الآية.

وقرأ جابر بن زيد وأبو نُهَيْك وجعفر بن محمد وعكرمة: ﴿عَزَمْتُ﴾ بضم التاء، سمي الله تعالى إرشاده وتسديده عزماً منه، وهذا في المعنى نحو قوله تعالى: ﴿لِيَحْكُمَ بَيْنَ الَّذِينَ يَأْتِيكَ اللَّهُ﴾، ونحو قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾، فجعل تعالى هزمه المشركين بحنين وتشوية وجوههم رمياً، إذ كان ذلك متصلاً برمي محمد ﷺ بالحصباء. وقد قالت أم سلمة: ثم عزم الله لي. والتوكل على الله تعالى من فروض الإيمان وفصوله، ولكنه مقترن بالجد في الطاعة والتشمير والحزامة بغاية الجهد، وليس الإلقاء باليد وما أشبهه

بتوكل، وإنما هو كما قال عليه السلام: «قيدها وتوكل».

ثم ثبت تعالى المؤمنين بقوله: ﴿إِنْ يَشْرِكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾ أي: فالزموا الأمور التي أمركم بها ووعدكم النصر معها.

والخذل: هو الترك في مواطن الاحتياج إلى التارك، وأصله من خذل الظباء، وبهذا قيل لها: خاذل إذا تركتها أمها، وهذا على النسب أي: ذات خذل لأن المتروكة هي الخاذل بمعنى مخذولة.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ ذَا الَّذِي يَشْرِكُكُمْ﴾ تقدير جوابه: لا من، والضمير في ﴿بَدِيلِهِمْ﴾ يحتمل العودة على المكتوبة، ويحتمل العودة على الخذل الذي تضمنه قوله: ﴿وَإِنْ يَخْذَلْكُمْ﴾.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في صيغة: وما كان لكذا أن يكون كذا، في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ تَمُوتَ﴾ وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿يَمُوتُ﴾ بفتح الياء وضم الغين، وبها قرأ ابن عباس وجماعة من العلماء. وقرأ باقي السبعة: ﴿أَنْ يُغْلَ﴾ بضم الياء وفتح الغين، وبها قرأ ابن مسعود وجماعة من العلماء. واللفظة: بمعنى الخيانة في خفاء، قال بعض اللغويين: هي مأخوذة من الغلل وهو الماء الجاري في أصول الشجر والدوح، قال أبو علي: تقول العرب: أغل الرجل يُغْلُ إغلالاً: إذا خان ولم يؤد الأمانة، ومنه قول النمر بن تولب:

جزى الله عني جُمرةً ابنةً نوفل

جزاء مُغِلٍّ بالأمانة كاذب

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال شريح: ليس على المستعير غير المُغِلِّ ضمان. قال أبو علي: وتقول في الغل الذي هو الضغن: غَلٌّ يُغْلُ بكسر الغين. ويقولون في الغلول من الغنيمة: غَلٌّ يُغْلُ بضم الغين. والحجة لمن قرأ يُغْلُ أن ما جاء من هذا النحو في التنزيل أسند الفعل فيه إلى الفاعل على نحو: ﴿وَمَا كَانَتْ تَأْتِيكُ أَنْ تُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِأَخَاهُ فِي بَيْنِ الْمَلِكِ﴾ ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ﴾ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ﴾ ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِمَكُمْ عَلَى النَّبِيِّ﴾ ولا يكاد يجيء: ما كان زيد لِيُضْرَبَ فيسند الفعل فيه إلى المفعول به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الاحتجاج نظر.

وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿يُغْلُ﴾ بضم الغين، فقيل له: إن ابن مسعود قرأ ﴿يُغْلُ﴾ بفتح الغين، فقال ابن عباس: بلى والله وَيُقْتَلُ.

واختلف المفسرون في السبب الذي أوجب أن ينفي الله تعالى عن النبي أن يكون غالاً على هذه القراءة - التي هي بفتح الياء وضم الغين - فقال ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وغيرهم: نزلت بسبب قطيبة حمراء فُقدت من المغانم يوم بدر، فقال بعض من كان مع النبي ﷺ: ولعل رسول الله أخذها، فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قيل: كانت هذه المقالة من مؤمنين

لم يظنوا أن في ذلك حرجاً، وقيل: كانت من منافقين، وقد روي أن المفقود إنما كان سيفاً. قال النقاش: ويقال: إنما نزلت لأن الرماة قالوا يوم أحد: الغنيمة الغنيمة أيها الناس، إنما نخشى أن يقول النبي ﷺ: من أخذ شيئاً فهو له، فلما ذكروا ذلك للنبي ﷺ، قال: «خشيتم أن نفل؟» ونزلت هذه الآية. وقال الضحاك: بل السبب أن رسول الله ﷺ بعث طلائع في بعض غزواته ثم غنم قبل مجيئهم، فقسم للناس ولم يقسم للطلائع، فأنزل الله تعالى عليه عتاباً: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُدْ﴾ أي: يقسم لبعض ويترك بعضاً، وروي نحو هذا القول عن ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتجه على هذا أن تكون الآية إعلماً بعدل رسول الله ﷺ وقسمه للغانم، ورداً على الأعراب الذين صاحوا به: اقسم علينا غنائمنا يا محمد، وازدحموا حتى اضطروه إلى السمرة التي أخذت رداءه، ونحا إليه الزجاج. وقال ابن إسحاق: الآية إنما نزلت إعلماً بأن النبي عليه السلام لم يكتم شيئاً مما أمر بتبليغه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان الآية على هذا في قصة أحد، لما نزل عليه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ إلى غير ذلك مما استحسونه بعد إساءتهم من العفو عنهم ونحوه، وبالجملة فهو تأويل ضعيف، وكان يجب أن يكون - ﴿يُغْلُ﴾ بضم الياء وكسر الغين، لأنه من الإغلال في الأمانة. وأما قراءة من قرأ: ﴿أَنْ يُغْلَ﴾ بضم الياء وفتح الغين،

فمعناها عند جمهور من أهل العلم: أن ليس لأحد أن يُغْلَهُ، أي يخونه في الغنيمة. فالآية في معنى نهى الناس عن الغلول في المغنم والتوعد عليه. وخص النبي بالذكر وإن كان ذلك محظوراً مع الأمراء لشئنة الحال مع النبي ﷺ، لأن المعاصي تعظم مع حضرته لتعین توقيره، والولاء وإنما هم عن أمر النبي ﷺ فلهم حظهم من التوقيع. وقال بعض الناس: معنى ﴿أَنْ يَغْلَ﴾ أن يوجد غالباً، كما تقول: أحمدت الرجل وجدته محموداً، فهذه القراءة - علي هذا التأويل - ترجع إلى معنى ﴿يَغْلُ﴾ بفتح الياء وضم الغين، وقال أبو علي الفارسي: معنى ﴿يَغْلُ﴾ بضم الياء وفتح الغين يقال له: غللت وينسب إلى ذلك، كما تقول أسقيته، إذا قلت: سقاك الله، كما قال ذو الرمة:

وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبَيْتُهُ
تَكَلَّمَنِي أَحْجَازُهُ وَمَلَاعِبُهُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل موثّر للنبي عليه السلام. ونحوه في الكلام: أكفرت الرجل إذا نسبته إلى الكفر، وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «لا أكل سمناً حتى يحيا الناس من أول ما يحيون»، أي يدخلون في الحيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وعيد لمن يغل من الغنيمة، أو في زكاته فيجحدتها ويمسكها، فالفضيحة يوم القيامة بأن يأتي على رؤوس الأشهاد بالشيء الذي غلّ في الدنيا. وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ خطب

فقال: «ألا عسى رجل منكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله أغثنني، فأقول: لا أملك لك من الله شيئاً قد أبلغتك» ثم ذكر ذلك عليه السلام في بقرة لها خواز، وجمل له رغاء، وفرس له حمحة. وروى نحو هذا الحديث ابن عباس، قال النبي ﷺ: «لا أعرفن أحدكم يأتي يوم القيامة يحمل شاة لها ثغاء...» الحديث بطوله. وروى نحوه أبو حميد الساعدي وعمر بن الخطاب وعبدالله بن أنيس. وقال رسول الله ﷺ: «أدوا الغياط والمخيطة» فقام رجل فجاه بشراك أو شراكين، فقال رسول الله ﷺ: «شراك أو شراكان من نار»، وقال في مدغم: «إن الشملة التي غلّ من المغنم يوم خيبر لتشتعل عليه ناراً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الفضيحة التي يوقع الله بالغال هي نظيرة الفضيحة التي توقع بالغادر؛ في أن يُنصَب له لواء بغدرته حسب قوله عليه السلام، وجعل الله هذه المعاقبات حسبما يعهده البشر ويفهمونه، ألا ترى إلى قول الحادرة: أَسْمِي وَيَحْكُ هَل سَمَعْتِ بَغْدِرَةَ رُفِعَ اللِّوَاءُ لَنَا بِهَا فِي المَجْمَعِ وَكَانَتِ العَرَبُ تَرْفَعُ لِلْغَادِرِ لِوَاءً، وكذلك يطاف بالجاني مع جنابته. وقد تقدم القول في نظير: ﴿ثُمَّ نُؤْتِ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّا نَبِيٌّ رَضَوْنَ اللَّهَ كَمَنْ بَاءَ﴾... الآية، توقيف على تباين المنزلتين وافتراق الحاليتين،

والرضوان: مصدر، وقرأه عاصم - فيما روي عنه - بضم الراء، وقرأ جميعهم بكسرهما، وحكى أبو عمرو الداني عن الأعمش أنه قرأها بكسر الراء وضم الضاد، وهذا كله بمعنى واحد مصدر من الرضى. والمعنى: اتبعوا الطاعة الكفيلة برضوان الله، ففي الكلام حذف مضاف.

﴿بَاءَ يَسْخَطُ﴾ معناه: مضى متحملاً له، والسخط: صفة فعل، وقد تردد متى لحظ فيها معنى الإرادة. وقال الضحاک: إن هذه الآية مشيرة إلى أن من لم يغل واتقى فله الرضوان، وإلى أن من غلّ وعصى فله السخط. وقال غيره: هي مشيرة إلى أن من استشهد بأحد فله الرضوان، وإلى المناقين الراجعين عن النبي ﷺ فلهم السخط، وباقي الآية بين.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ﴾؛ من المراد بذلك؟ فقال ابن إسحاق وغيره: المراد بذلك الجمعان المذكوران، أهل الرضوان وأصحاب السخط، أي: لكل صنف منهم تباين في نفسه في منازل الجنة، وفي أطباق النار أيضاً. وقال مجاهد والسدي ما ظاهره: إن المراد بقوله: ﴿هُمُ﴾ إنما هو لمتبعي الرضوان، أي: لهم درجات كريمة عند ربهم، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: هم ذوو درجات، والدرجات: المنازل بعضها أعلى من بعض في المسافة أو في التكرمة، أو في العذاب. وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿هُمُ دَرَجَاتٌ﴾ بالإفراد. وباقي الآية وعيد ووعد.

﴿١٦٤﴾ - ﴿١٦٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
 اللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام القسم، ﴿وَمَنْ﴾
 في هذه الآية معناه تطول وتفضل،
 وقد يقال: مَنْ بمعنى كدر معروفه
 بالذكر، فهي لفظة مشتركة.
 وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ معناه:
 في الجنس واللسان والمجاورة،
 فكونه من الجنس يوجب الأنس به
 وقلة الاستيحاش منه، وكونه بلسانهم
 يوجب حسن التفهيم وقرب الفهم،
 وكونه جاراً وربيباً يوجب التصديق
 والطمأنينة، إذ قد خبروه وعرفوا صدقه
 وأمانته، فبعث رسول الله ﷺ في
 نفس قومه، وكذلك الرسل. قال
 النقاش: ليس في العرب قبيلة إلا وقد
 ولدت رسولاً الله ﷺ من قبل أمهاته
 إلا بني تغلب لنصرايتهم. والآيات في
 هذه الآية تحتل أن يُراد بها القرآن
 وتحتل أن يراد بها العلامات، والأول
 أظهر.

جملة على جملة دخلت
 عليها ألف التقرير على
 معنى إلزام المؤمنين هذه
 المقالة في هذه الحال.
 والمصيبة التي نالت
 المؤمنين هي قصة أحد
 وقتل سبعين منهم.
 واختلف في المثليين اللذين
 أصاب المؤمنون؛ فقال
 قتادة والربيع وابن عباس
 وجمهور المتأولين: ذلك
 في يوم بدر، قتل المؤمنون
 من كفار قريش سبعين
 وأسروا سبعين، وقال
 الزجاج: أحد المثليين: هو
 قتل السبعين يوم بدر،
 والثاني: هو قتل اثنين

وعشرين من الكفار يوم أحد، فهو قتل
 بقتل. ولا مدخل للأسرى في هذه
 الآية، هذا معنى كلامه، لأن أسارى
 بدر أسروا ثم فدوا، فلا مماثلة بين
 حالهم وبين قتل سبعين من المؤمنين.
 و﴿أَنْ﴾ معناها: كيف؟ ومن أين؟ ثم
 أمر نبيه عليه السلام أن يقول لهم: هو
 من عند أنفسكم.

واختلف الناس كيف هو من عند
 أنفسهم ولأي سبب؟ فقال الجمهور
 من المفسرين: لأنهم خالفوا
 رسول الله ﷺ في الرأي حين رأى أن
 يقيم بالمدينة ويترك كفار قريش بشر
 المحبس، فأبوا إلا الخروج حتى
 جرت القصة. وقالت طائفة: قوله
 تعالى: ﴿مِنْ عِنْدِ أَنفُسِكُمْ﴾ إشارة إلى
 عصيان الرماة وتسيبهم الهزيمة على
 المؤمنين. وقال الحسن وعلي بن أبي
 طالب رضي الله عنهما: بل ذلك لما

قبلوا الفداء يوم بدر، وذلك أن
 علي بن أبي طالب رضي الله عنه
 قال: لما فرغت هزيمة المشركين ببدر
 جاء جبريل عليه السلام فقال: يا
 محمد إن الله قد كره ما يصنع قومك
 في أخذ الأسارى، وقد أمرك أن
 تخيرهم بين أمرين: أن يقدموا
 الأسارى فتضرب أعناقهم، أو يأخذوا
 الفداء على أن يقتل من أصحابك عدة
 هؤلاء الأسارى. فدعا رسول الله ﷺ
 الناس فذكر ذلك لهم فقالوا: يا
 رسول الله، عشائرتنا وإخواننا، بل
 نأخذ فداءهم فنتقوى به على قتال
 عدونا ويستشهد منا عدتهم، فليس في
 ذلك ما نكره، قال: فقتل منهم يوم
 أحد سبعون رجلاً.

﴿١٦٦﴾ - ﴿١٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَمَا
 أَصَبَكُمْ﴾ للمؤمنين، والجمعان هما

عسكر النبي ﷺ وعسكر قريش يوم أحد، ودخلت الفاء في قوله: ﴿وَيَاذَنَّا اللَّهُ﴾ رابطة مشددة، وذلك للإيهام الذي في ﴿مَا﴾ فأشبهه الكلام الشرط، وهذا كما قال سيبويه: الذي قام فله درهمان، فيحسن دخول الفاء إذا كان القيام سبب الإعطاء، وكذلك ترتيب هذه الآية، فالمعنى إنما هو: وما أذن الله فيه فهو الذي أصاب، لكن قَدَّمَ الأهم في نفوسهم والأقرب إلى حسهم. والإذن: التمكين من الشيء مع العلم به.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ﴾ معناه: ليكون العلم مع وجود المؤمنين والمنافقين، أي مساوقين للعلم الذي لم يزل ولا يزال. واللام في قوله: ﴿لِيَعْلَمَ﴾ معلقة بفعل مقدر في آخر الكلام، والإشارة بقوله: ﴿نَأْفُقُوا وَيَدَّ لَكُمْ﴾ هي إلى عبدالله بن أبي وأصحابه الذين انصرفوا معه عن النبي ﷺ يوم أحد، وذلك أنه كان من رأي عبدالله بن أبي ألا يخرج إلى كفار قريش، فلما خرج رسول الله ﷺ بالناس على الوجه الذي قد ذكرناه، قال عبدالله بن أبي: أطاعهم وعصاني، فانخزل بنحو ثلث الناس، فمشى في أثرهم عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري أبو جابر بن عبدالله بن حرام فقال لهم: اتقوا الله ولا تتركوا نبيكم، وقاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، أو نحو هذا من القول، فقال له ابن أبي: ما أرى أن يكون قتال، ولو علمنا أن يكون قتالاً لكتنا معكم. فلما ينس منهم عبدالله قال: اذهبوا أعداء الله، فسئغني الله رسوله

عنكم، ومضى مع النبي ﷺ فاستشهد.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿أَوْ اَدْفَعُوا﴾؛ فقال السدي وابن جريج وغيرهم: معناه: كشروا السواد وإن لم تقاتلوا، فيندفع القوم لكشرتكم، وقال أبو عون الأنصاري: معناه: رابطوا، وهذا قريب من الأول، ولا محالة أن المرابط مدافع، لأنه لولا مكان المرابطين في الثغور لجاءها العدو، والمكثّر للسواد مدافع. وقال أنس بن مالك: رأيت يوم القادسية عبدالله بن أم مكتوم الأعمى، وعليه درع يجز أطرافها ويده راية سوداء، فقيل له: أليس قد أنزل الله عذرك؟ قال: بلى، ولكنني أكثر المسلمين بنفسي، وروي أنه قال: فكيف بسوادي في سبيل الله. وذهب بعض المفسرين إلى أن قول عبدالله بن عمرو: ﴿أَوْ اَدْفَعُوا﴾ إنما هو استدعاء للقتال حمية، لأنه دعاهم إلى القتال في سبيل الله، وهو أن تكون كلمة الله هي العليا، فلما رأى أنهم ليسوا أهل ذلك، عرض عليهم الوجه الذي يحشمهم ويبعث الأنفة، أي: أو قاتلوا دفاعاً عن الحوزة، ألا ترى أن قرمان قال: والله ما قاتلت إلا على أحساب قومي، وألا ترى أن بعض الأنصار قال يوم أحد، لما رأى قريشاً قد أرسلت الظهر في زرع قناة قال: أُنزَعِي زرع بني قيلة ولما نضارب؟ وكان النبي ﷺ قد أمر ألا يقاتل أحد حتى يأمره بالقتال، وكان عبدالله بن عمرو بن حرام دعاهم إلى هذا

الأمر العربي الخارج عن الدين والقتال في سبيل الله.

وذهب جمهور المفسرين إلى أن قوله: ﴿أَقْرَبُ﴾ مأخوذ من القرب ضد البعد، وسَدَّتِ اللام في قوله: ﴿لِلْكَفَرِ﴾ و﴿لِلْإِيمَانِ﴾ مسد إلى. وحكى النقاش أن قوله: ﴿أَقْرَبُ﴾ مأخوذ من القَرَب - بفتح القاف والراء - وهو الطلب، والقارب طالب الماء، وليلة القَرَب ليلة الزود، فاللفظة بمعنى الطلب، واللام متمكنة على هذا القول. وقوله: ﴿يَأْفُوهِمْ﴾ تأكيد، مثل: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ﴾.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يريد ما يظهرون من الكلمة الحاققة لدمائهم، ثم فضحهم تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ أي: من الكفر وعداوة الدين، وفي الكلام توعدهم لهم.

﴿١٦٨﴾ - ﴿١٧١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الَّذِينَ﴾ المتقدم، وإخوانهم: المقتولون من الخزرج، وهي أخوة نسب ومجاورة. وقوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ معناه: لأجل إخوانهم، وفي شأن إخوانهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾ للأحياء من المنافقين، ويكون الضمير في: ﴿أَطَاعُوا﴾ هو للمقتولين. وقوله: ﴿وَقَدَرُوا﴾ جملة في موضع الحال وهي حال معترضة أثناء الكلام. وقوله: ﴿لَوْ أَطَاعُوا﴾ يريد في ألا يخرجوا إلى قريش.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿مَا قَتَلُوا﴾، بشد التاء، وهذا هو القول بالأجلين، فردَّ الله تعالى عليهم بقول: ﴿قُلْ قَادَرُوا﴾... الآية،

والدرء: الدفع، ومنه قول دغفل النسابة:

صادف درء السيل درءاً يدفعه
والعباء لا تعرفه أو ترْفَعُه

ولزوم هذه الحجة هو أنكم القائلون: إن التوقي واستعمال النظر يدفع الموت، فتوقوا وانظروا في الذي يغشاكم منه حتف أنوفكم، فادفعوه إن كان قولكم صدقاً، أي: إنما هي آجالٌ مضرورية عند الله.

وقرأ جمهور القراء: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ﴾
بالتاء مخاطبة للنبي عليه السلام،
وقرأ حميد بن قيس: ﴿وَلَا
يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء على ذكر الغائب،
ورويت عن ابن عامر، وذكرها أبو
عمرو، وكان الفاعل مقدر: ولا
يحسبن أحد أو حاسب. وأرى هذه
القراءة بضم الباء، فالمعنى: ولا
يحسبُ الناس، ويحسبنُ معناه:
يظنن. وقرأ الحسن: ﴿الَّذِينَ
قُتِلُوا﴾، بشد التاء، وابن عامر من
السبعة. وروي عن عاصم أنه قرأ:
﴿الَّذِينَ قَاتَلُوا﴾ بالالف بين القاف
والتاء.

وأخبر الله تعالى في هذه الآية عن
الشهداء أنهم في الجنة يرزقون، هذا
موضع الفائدة، ولا محالة أنهم ماتوا
وأن أجسادهم في التراب،
وأرواحهم حية كأرواح سائر
المؤمنين، وفضلوا بالرزق في الجنة
من وقت القتل، حتى كأن حياة الدنيا
دائمة لهم. قال الحسن بن أبي
الحسن: ما زال ابن آدم يتحمد حتى
صار حياً لا يموت بالشهادة في
سبيل الله. فقوله: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾ مقدّمة
لقوله: ﴿يُرَزَقُونَ﴾ إذ لا يسزق إلا

حي، وهذا كما تقول لمن ذم رجلاً:
بل هو رجل فاضل، فتجني باسم
الجنس الذي تركب عليه الوصف
بالفضل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بَلْ أَحْيَاءُ﴾
بالرفع على خبر ابتداء مضمّر، أي:
هم أحياء، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿بَلْ
أَحْيَاءُ﴾ بالنصب؛ قال الزجاج:
ويجوز النصب على معنى بل
أحسبهم أحياء، قال أبو علي في
الأغفال: ذلك لا يجوز لأن الأمر
يقين فلا يجوز أن يؤمر فيه بحسبة،
ولا يصح أن يضمر له فعل
المحسبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فوجه قراءة ابن أبي عبله أن تضمّر
فعلًا غير المحسبة: أَعْتَقِدُهُمْ أَوْ
أَجْعَلُهُمْ، وذلك ضعيفٌ إذ لا دلالة
في الكلام على ما يضمر.

وقوله: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ فيه حذفٌ
مضاف تقديره: عند كرامة ربهم،
لأن (عند) تقتضي غاية القرب،
ولذلك لم تصغر، قاله سيبويه،
ورود عن النبي ﷺ أنه قال: «أرواح
الشهداء على نهر يباب الجنة يقال له
بارق، يخرج عليهم رزقهم من الجنة
بكرة وهشياً». وروي عنه عليه
السلام أنه قال: «أرواح الشهداء في
جواف طيرٍ خضر تردُّ أثمارَ الجنةِ
وتأكل من ثمارها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه طبقاتٌ وأحوالٌ مختلفة،
يجمعها أنهم يرزقون. وقال عليه
السلام: «إنما نسمة المؤمن من طير
تعلق في ثمار الجنة»، ويروي «يعلق»

بفتح اللام وبالياء. والحديث معناه
في الشهداء خاصة، لأن أرواح
المؤمنين غير الشهداء إنما ترى
مقاعدنا من الجنة دون أن تدخلها،
وأيضاً فإنها لا ترزق. وتعلق معناه:
تصيب العلقة من الطعام، وفتح اللام
هو من التعلق، وقد رواه الفراء في
إصابة العلقة، وروي أن النبي ﷺ
قال: «إن الله تعالى يطلع إلى
الشهداء فيقول: يا عبادي ما تشتهون
فأزيدكم؟ فيقولون: يا ربنا لا فوق ما
أعطيتنا، هذه الجنة تأكل منها حيث
نشاء، لكننا نريد أن تردنا إلى الدنيا
فنقاتل في سبيلك فنقتل مرة أخرى،
فيقول تعالى: قد سبق أنكم لا
تردون». وروي أن النبي ﷺ قال
لجابر بن عبد الله: «ألا أبشرك يا
جابر؟» قال جابر: قلت: بلى يا
رسول الله، قال: «إن أباك حيث
أصيب بأحد، أحياء الله ثم قال: ما
تحب يا عبدالله بن عمرو أن أفعل
بك؟ قال: يا رب أحب أن تردني
إلى الدنيا فأقاتل فيك فأقتل مرة
أخرى» وقال قتادة رحمه الله: ذكر
لنا أن رجلاً من أصحاب
رسول الله ﷺ قالوا: ليتنا نعلم ما
فعل إخواننا الذين أصيبوا بأحد،
فنزلت هذه الآية. وقال محمد بن
قيس بن مخزوم في حديث: «إن
الشهداء قالوا: يا ربنا، ألا رسول
يخبر نبينا عنا بما أعطيتنا؟ فقال الله
تعالى: أنا رسولكم، فنزل جبريل
بهذه الآيات».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وكشرت هذه الأحاديث في هذا
المعنى واختلفت الروايات، وجميع

يحتمل أن تكون ﴿الَّذِينَ﴾ صفة للمؤمنين على قراءة من كسر الألف من (إن)، والأظهر أن ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداء وخبره في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾... الآية. فهذه الجملة هي خبر الابتداء الأول.

والمستجيبون لله والرسول هم الذين خرجوا مع النبي ﷺ إلى حمراء الأسد في طلب قريش والتظاهر لهم؛ وذلك أنه لما كان في يوم الأحد وهو الثاني من يوم أحد نادى رسول الله ﷺ في الناس باتباع المشركين، وقال: «لا يخرجن معنا إلا من شاهدنا بالأمس» وكانت بالناس جراحة وقرح عظيم، ولكن تجلدوا ونهض معه مائتا رجل من المؤمنين حتى بلغ حمراء الأسد، وهي على ثمانية أميال من المدينة، وأقام بها ثلاثة أيام، وجرت قصة معبد بن أبي معبد التي ذكرناها، ومرت قريش، وانصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة، فأنزل الله تعالى في شأن أولئك المستجيبين هذه الآية، ومدحهم لصبرهم.

وروي أنه خرج في الناس أخوان وبهما جراحة شديدة وكان أحدهما قد ضعف، فكان أخوه يحمله بحمالة عقيب ويمشي هو عقيباً. ورغب جابر بن عبد الله إلى النبي ﷺ في الخروج معه فأذن له، وأخبرهم تعالى أن الأجر العظيم قد تحصل لهم بهذه الفعلة، وقال رسول الله ﷺ: «إنها غزوة».

﴿١٧١﴾ - ﴿١٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ صفة للمحسنين المذكورين. وهذا القول هو الذي قاله الركب من عبد القيس لرسول الله ﷺ وأصحابه حين

يحزنون. وذهب فريق من العلماء - وأشار إليه الزجاج وابن فورك - إلى أن الإشارة في قوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا﴾ إلى جميع المؤمنين، أي: لم يلحقوا بهم في فضل الشهادة، لكن الشهداء لما عاينوا ثواب الله وقع اليقين بأن دين الإسلام هو الحق الذي يشيب الله عليه، فهم فرحون لأنفسهم بما آتاهم الله من فضله، ويستبشرون عليهم ولا هم يحزنون.

﴿الآ﴾ مفعول من أجله، التقدير: بأن لا خوف، ويجوز أن يكون في موضع خفض بدل اشتمال.

ثم أكد تعالى استبشارهم بقوله: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ﴾، ثم بين تعالى بقوله: ﴿وَفَضْلٍ﴾ فوق إدخاله إياهم الجنة الذي هو فضل منه لا بعمل أحد، وأما النعمة في الجنة والدرجات فقد أخبر أنها على قدر الأعمال.

وقرأ الكسائي وجماعة من أهل العلم: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الألف من (إن)، وقرأ باقي السبعة وجمهور العلماء: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بفتح الألف، فمن قرأ بالفتح فذلك داخل فيما يُستبشر به، المعنى: بنعمة وبأن الله، ومن قرأ بالكسر فهو إخبار مستأنف. وقرأ عبدالله: ﴿وَفَضْلٍ وَاللَّهُ لَا يُضِيعُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾

فَاتَقَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسَّهُمْ سُوءٌ وَأَسْعَوْا رِضْوَانِ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧١﴾ إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشُّكْرُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ. فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا إِن كُنتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٢﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسَدِّعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَشْرَكُوا الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ وَلَا يَحْزَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمَلِّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ أَمَا نُملِّ لَهُمْ لِيُؤَدُّوا أُنْفُسَهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٧٥﴾ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُذِرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَ رُسُلِهِ. مَنْ يَشَأْ فَتَابُوا لِلَّهِ وَرُسُلِهِ. وَإِن تَوَلَّوْا وَتَوَلَّوْا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ وَلَا يَحْزَنَ الَّذِينَ يَبْعَثُونَ رِجَالَهُمْ إِلَى اللَّهِ مِنْ فَضْلِهِ. هُوَ خَيْرٌ لِّمَنْ دَلَّ هُوَ سَبِيلَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا يَجْلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ يَأْتِعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿١٧٧﴾

٧٣

ذلك جائز على ما اقتضته من هذه المعاني.

وقوله تعالى: ﴿وَجِبْنَ﴾ نصب في موضع الحال، وهو من الفرح بمعنى السرور. والفضل في هذه الآية: التعميم المذكور.

﴿١٧١﴾ - ﴿١٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَسْتَبْشِرُونَ﴾ معناه: يسرون ويفرحون، وليست استفعل في هذا الموضع بمعنى طلب البشارة، بل هي بمعنى: استغنى الله، واستمجد المرخ والعمارة، وذهب قتادة والربيع وابن جريج وغيرهم إلى أن هذا الاستبشار إنما هو بأنهم يقولون: إخواننا الذين تركناهم خلفنا في الدنيا يقاتلون في سبيل الله مع نبينهم فيشهدون فينالون من الكرامة مثل ما نحن فيه فيسرون لهم بذلك، إذ يُحصلون لا خوف عليهم ولا هم

حملهم أبو سفيان ذلك، وقد ذكرته قبل، فالتاس الأول ركب عبد القيس والناس الثاني عسكر قريش.

وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾، أي: ثبوتاً واستعداداً، فزيادة الإيمان في هذا هي في الأعمال.

وأطلق العلماء عبارة: إن الإيمان يزيد وينقص، والعقيدة في هذا أن نفس الإيمان الذي هو تصديق واحد بشيء ما، إنما هو معنى فرد لا تدخله زيادة إذا حصل، ولا يبقى منه شيء إذا زال، فلم يبق إلا أن تكون الزيادة والنقص في متعلقاته دون ذاته، فذهب بعض العلماء إلى أنه يقال: يزيد وينقص من حيث تزيد الأعمال الصادرة عنه وتنقص، لا سيما أن كثيراً من العلماء يوقعون اسم الإيمان على الطاعات؛ وذهب قوم إلى أن الزيادة في الإيمان إنما هي بتزول الفروض والأخبار في مدة النبي ﷺ، وفي المعرفة بها بعد الجهل غابر الدهر، وهذا إنما هو زيادة إيمان إلى إيمان، فالقول فيه أن الإيمان يزيد وينقص قول مجازي، ولا يتصورُ النقص فيه على هذا الحد، وإنما يتصور الأتقص بالإضافة إلى من علم. وذهب قوم من العلماء إلى أن زيادة الإيمان ونقصه إنما هي من طريق الأدلة، فتزيد الأدلة عند واحد، فيقال في ذلك: إنها زيادة في الإيمان، وهذا كما يقال في الكسوة، إنها زيادة في الإنسان. وذهب أبو المعالي في «الإرشاد»: إلى أن زيادة الإيمان ونقصانه إنما هو بسبب ثبوت المعتقد وتعاوره دائباً، قال: وذلك أن

الإيمان عرض وهو لا يثبت زمانين فهو للنبي ﷺ وللصلحاء متعاقب متوالٍ، وللفاسق والغافل غير متوالٍ، يصحبه حيناً ويفارقه حيناً في الفترة، فذلك الآخر أكثر إيماناً، فهذه هي الزيادة والنقص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول نظر.

وقوله تعالى: ﴿فَزَادَهُمْ إِيْمَانًا﴾ لا يتصور أن يكون من جهة الأدلة، ويتصور في الآية الجهات الآخر الثلاث. وروي أنه لما أخبر الوفد من عبد القيس رسول الله ﷺ بما حملهم أبو سفيان، وأنه ينصرف إليهم بالناس ليستأصلهم، وأخبر بذلك أيضاً أعرابي، شق ذلك على المسلمين فقال لهم رسول الله ﷺ: ﴿قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل﴾، فقالوها، واستمرت عزائمهم على الصبر، ودفع الله عنهم كل سوء، وألقى الرعب في قلوب الكفار فرأوا.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوا بِبَيْمَتِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾، ويريد في السلامة والظهور في اتباع العدو وحماية الحوزة، وبفضل في الأجر الذي حازوه والفخر الذي تجلّلوه. وباقي الآية بين قد مضت نظائره.

هذا هو تفسير الجمهور لهذه الآية، وأنها في غزوة أحد في الخرجة إلى حمراء الأسد، وشدّ مجاهد رحمه الله فقال: إن هذه الآية من قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ﴾ إلى قوله: ﴿فَضَلَّ عَضْبِي﴾ إنما نزلت في خروج النبي عليه السلام إلى بدر الصغرى، وذلك أنه خرج لميعاد أبي

سفيان في أحد إذ قال: موعدنا بدر من العام المقبل، فقال النبي عليه السلام: «قولوا نعم» فخرج رسول الله قبل بدر وكان بها سوق عظيم، فأعطى رسول الله ﷺ أصحابه دراهم، وقرب من بدر فجاءه نعيم بن مسعود الأشجعي فأخبره أن قريشاً قد اجتمعت وأقبلت لحربه هي ومن انضاف إليها، فاشفق المسلمون من ذلك لكنهم قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، وصرخوا حتى أتوا بدرأ فلم يجدوا عدواً، ووجدوا السوق فاشترؤا بدراهمهم أدماً وتجاراً، وانقلبوا ولم يلقوا كيداً وربحوا في تجارتهم، فذلك قوله تعالى: ﴿بِئْتَمَرَ مِنْ اللَّهِ﴾ وقُضِيَ ﴿أي فضل في تلك التجارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب ما قاله الجمهور: إن الآية نزلت في غزوة حمراء الأسد، وما قال ابن قتبية وغيره من أن لفظه ﴿الناس﴾ تقع على رجل واحد من هذه الآية، فقول ضعيف.

(١٧٦) - (١٧٧) تفسير قوله عز وجل: مقتضى ﴿إِنَّمَا﴾ في اللغة الحصر، هذا منزع المتكلم بها من العرب. ثم إذا نظر عقلاً - وهذا هو نظر الأصوليين - فهي تصلح للحصر وللتأكيد الذي يستعار له لفظ الحصر، وهي في هذه الآية حاصرة، والإشارة بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ إلى جميع ما جرى من أخبار الركب العبيدين عن رسالة أبي سفيان، ومن تحميل أبي سفيان ذلك الكلام، ومن جزع من جزع من ذلك الخبر من مؤمن أو متردد.

و﴿ذَلِكُمْ﴾ في الإعراب ابتداء، و﴿الشَّيْطَانُ﴾ مبتدأ آخر، و﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ خبر عن الشيطان، والجملة خبر الابتداء الأول، وهذا الإعراب خير في تناسق المعنى من أن يكون ﴿الشَّيْطَانُ﴾ خبر ﴿ذَلِكُمْ﴾ لأنه يجيء في المعنى استعارة بعيدة. و﴿يُخَوِّفُ﴾ فعل يتعدى إلى مفعولين، لكن يجوز الاقتصار على أحدهما إذ الآخر مفهوم من بنية هذا الفعل، لأنك إذا قلت: خوفت زيدا، فمعلوم ضرورة أنك خوفته شيئا حقه أن يخاف.

وقرأ جمهور الناس ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ فقال قوم: المعنى: يخوفكم أيها المؤمنون أولياءه الذين هم كفاؤ قريش، فحذف المفعول الأول، وقال قوم: المعنى يخوف المنافقين ومن في قلبه مرض، وهم أولياؤه، فإذا لا يعمل فيكم أيها المؤمنون تخوفه، إذ لستم بأوليائه، والمعنى: يخوفهم كفاؤ قريش، فحذف هنا المفعول الثاني واقتصر على الأول. وقرأ ابن عباس فيما حكى أبو عمرو الداني: ﴿يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ﴾ المعنى: يخوفكم قريش ومن معهم، وذلك بإضلال الشيطان لهم، وذلك كله مضمحل، وبذلك قرأ النخعي. وحكى أبو الفتح ابن جني عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ﴾ فهذه قراءة ظهر فيها المفعولان، وفسرت قراءة الجماعة: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿يُخَوِّفُكُمْ أَوْلِيَاءَهُ﴾.

والضمير في قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾

لكفار قريش وغيرهم من أولياء الشيطان، حقر الله شأنهم وقوى نفوس المؤمنين عليهم، وأمرهم بخوفه هو تعالى وامتثال أمره من الصبر والجلد، ثم قرر بقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ كما تقول: إن كنت رجلاً فافعل كذا.

وقرأ نافع وحده: ﴿يُحْزِنُكَ﴾ بضم الياء من أحزن، وكذلك قرأ في جميع القرآن، إلا في سورة الأنبياء: ﴿لَا يُحْزِنُهُمُ الْفَرَقَ الْأَكْثَرُ﴾ فإنه فتح الياء، وقرأ الباقون: ﴿يُحْزِنُكَ﴾ بفتح الياء، من قولك: حزنتُ الرجل. قال سيبويه: يقال: حزن الرجل وفتن إذا أصابه الحزن والفتنة. وحزنته وفتنته، إذا جعلت فيه وعنده حزناً وفتنة، كما تقول: دهنت وكحلت، إذا جعلت دهناً وكحلاً، وأحزنته وأفتنته إذا جعلته حزياً وفاتناً، كما تقول: أدخلته وأسعته، هذا معنى قول سيبويه.

والمسارعة في الكفر هي المبادرة إلى أقواله وأفعاله والجد في ذلك. وقرأ الحرز النحوي ﴿يُسْرِعُونَ﴾ في كل القرآن، وقراءة الجماعة أبلغ، لأن من يسارع غيره أشد اجتهاداً من الذي يسرع وحده، ولذلك قالوا: «كل مجر بالخلاء يسر». وسلى الله نبيه بهذه الآية عن حال المنافقين والمجاهدين إذ كلهم مسارع.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَنْ يَصْرُوا اللَّهَ شَيْئاً﴾ خير في ضمنه وعيد لهم، أي: إنما يضررون أنفسهم. والحظ إذا لم يقيد فإنما يستعمل في الخير، ألا ترى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا دُورٌ حَقِيظٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا﴾ أطلق عليهم الشراء من حيث كانوا متمكنين من قبول هذا، فجاء أخذهم للواحد وتركهم للآخر كأنه ترك لما قد أخذ وحصل، إذ كانوا ممكنين منه، ولمالك رحمه الله متعلق بهذه الآية في مسألة شراء ما تختلف أحاد جتسه مما لا يجوز التفاضل فيه، في أن منع الشراء على أن يختار المتباع، وباقى الآية وعيد كالمقدم.

﴿تَلَى﴾ معناه: نهمل ونمد في العمر، والملاوة: المدة من الدهر، والمملوان الليل والنهار، وتقول: ملأك الله النعمة أي: منحكها عمراً طويلاً.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو ونافع: ﴿يُخَسِبِينَ﴾ بالياء من أسفل وكسر السين وفتح الباء، وقرأ ابن عامر كذلك إلا في السين فإنه فتحها، وقرأ حمزة - ﴿تُخَسِبِينَ﴾ بالياء من فوق وفتح السين، وقرأ عاصم والكسائي كل ما في هذه السورة بالياء من فوق إلا حرفين: قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في هذه الآية، وبعدها ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾. فأما من قرأ ﴿وَلَا يَخْسِبِينَ﴾ بالياء من أسفل فإن ﴿الَّذِينَ﴾ فاعل، وقوله: ﴿أَتَأْتِيَ لَمْ خَيْرٌ﴾ بفتح الألف من ﴿أَتَأْتِيَ﴾ ساء مسد مفعولي «حسب»، وذلك أن «حسب» وما جرى مجراها تتعدى إلى مفعولين أو إلى مفعول يسد مسد مفعولين، وذلك إذا جرى في صلة ما تتعدى إليه ذكر الحديث والمحدث عنه. قال أبو علي: وكسر

«إن» في قول من قرأ: ﴿يُحْسِبَنَّ﴾
بالياء لا يبغي، وقد قرئ فيما حكاه
غير أحمد بن موسى وفي غير
السبع، ووجه ذلك أن «إن» يتلقى
بها القسم كما يتلقى بلام الابتداء،
ويدخلان على الابتداء والخبر، أعني
«اللام» و«إن» فعلق عن «إنما» عمل
الحسبان كما تعلق عن اللام في
قولك: حسبت لزيد قائم، فيعلق
الفعل عن العمل لفظاً، وأما بالمعنى
فما بعد «إن» أو «اللام» ففي موضع
مفعولي حسب، و«ما» يحتمل أن
تكون بمعنى الذي، ففي ﴿تَتَلَى﴾
عائد مستكن، ويحتمل أن تكون
مصدرية فلا تحتاج إلى تقدير عائد.
وأما من قرأ ﴿وَلَا تُحْسِبَنَّ﴾ بالتاء من
فوق فـ ﴿الَّذِينَ﴾ مفعول أول
للحسبان. قال أبو علي: وينبغي أن
تكون الألف من «إنما» مكسورة في
هذه القراءة، وتكون «إن» وما دخلت
عليه في موضع المفعول الثاني
لـ ﴿تُحْسِبَنَّ﴾، ولا يجوز فتح الألف
من «إنما» لأنها تكون المفعول
الثاني، والمفعول الثاني في هذا
الباب هو المفعول الأول بالمعنى،
والإملاء لا يكون إياهم. قال مكِّي
في مشكله: ما علمت أحداً قرأ:
﴿تُحْسِبَنَّ﴾ بالتاء من فوق وكسر
الألف من «إنما». وجوز الزجاج
هذه القراءة ﴿تُحْسِبَنَّ﴾ بالتاء و
﴿أَنَّمَا﴾ بفتح الألف، وظاهر كلامه
أنها تنصب ﴿خَيْرًا﴾ قال: وقد قرأ
بها خلق كثير وساق عليها مثلاً قول
الشاعر:

فما كان قيسٌ مُلكه مُلكٌ واحدٍ

بنصب مُلك الثاني على أن الأول
بدل.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فكذلك يكون ﴿أَنَّمَا تَتَلَى﴾ بدلاً من
﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ كقوله تعالى:
﴿وَمَا أَسْئِنُهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرْ﴾
وقوله: ﴿وَرَادَ بِيَدِكُمْ اللَّهُ حَنَى
الطَّائِفِينَ أَنَّهُمْ لَكُمْ﴾ ويكون ﴿خَيْرٌ﴾
المفعول الثاني.

قال أبو علي: لم يقرأ هذه القراءة
أحد، وقد سألت أحمد بن موسى
عنها فزعم أنه لم يقرأ بها أحد.
ويظهر من كلام أبي علي أن أبا
إسحاق إنما جوز المسألة مع قراءة
﴿خَيْرٌ﴾ بالرفع، وأبو علي أعلم
لمشاهدته أبا إسحاق. وذكر قوم أن
هذه القراءة تجوز على حذف مضاف
تقديره: ولا تحسبن شأن الذين
كفروا أنما نملي لهم، فهذا كقوله
تعالى: ﴿وَسَلِّ الْقُرْبَىٰ﴾ وغير ذلك.
ويذهب الأستاذ أبو الحسن بن
البادش: إلى أنها تجوز على بدل
﴿أَنْ﴾ من ﴿الَّذِينَ﴾ وحذف المفعول
الثاني لحسب، إذ الكلام يدل عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والمسألة جائزة إذ المعنى: لا
تحسبن إملأنا للذين كفروا خيراً
لهم، أو نحو هذا.

ومعنى هذه الآية: الرد على الكفار
في قولهم: إن كوننا ظاهرين ممولين
أصح دليلاً على رضى الله بحالنا
واستقامة طريقتنا عنده، فأخبر الله أن
ذلك التأخير والإمهال إنما هو إملاء
واستدراج، ليكتسبوا الآثام، وقال
عبدالله بن مسعود: ما من نفس برّوة
ولا فاجرة إلا والموت خير لها، أما

البرة فلتسرع إلى رحمة الله، وقرأ
﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾، وأما
الفاجرة فلثلاثاً تزداد إنثماً، وقرأ هذه
الآية. ووصف العذاب بالمهين
معناه: التخسيس لهم، فقد يعذب
من لا يهان، وذلك إذا اعتقدت إقالة
عثرته يوماً ما.

واختلف المفسرون في معنى قوله
تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ
الْمُؤْمِنِينَ﴾... الآية؛ فقال مجاهد
وابن جريج وابن إسحاق وغيرهم:
الخطاب للمؤمنين، والمعنى: ما
كان الله ليدع المؤمنين مختلطين
بالمنافقين مشكلاً أمرهم، يجري
المنافق مجرى المؤمن، ولكن ميز
بعضهم من بعض، بما ظهر من
هؤلاء وهؤلاء في أخذ من الأفعال
والأقوال. وقال قتادة والسدي:
الخطاب للكفار، والمعنى: حتى
يميز المؤمنين من الكافرين بالإيمان
 والهجرة. وقال السدي وغيره: قال
محمد تزعم في بعض جدلهم: أنت يا
أهل النار، وأنه إذا اتبعك من أهل
الجنة، فكيف يصح هذا؟ ولكن
أخبرنا بمن يؤمن منا ويمن يبقى على
كفره، فنزلت الآية، فقبل لهم:
لا بد من التمييز، وما كان الله
ليطلعكم على الغيب فيمن يؤمن ولا
فيمن يبقى كافراً، ولكن هذا رسول
مجتبي فآمنوا به. فإن آمنتم نجوتم
وكان لكم أجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وأما مجاهد وابن جريج وأهل القول
الأول، فقولهم في تأويل قوله
تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَىٰ﴾

والأحاديث في مثل هذا من منع الزكاة واكتناز المال كثيرة صحيحة. قال ابن عباس: الآية إنما نزلت في أهل الكتاب وبخلهم ببيان ما علمهم الله من أمر محمد ﷺ، وقال ذلك مجاهد وجماعة من أهل التفسير.

وقوله تعالى: ﴿سَيَطُوفُونَ﴾ على هذا التأويل معناه: سيحملون عقاب ما بخلوا به فهو من الطاقة كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ وليس من التطويق. قال إبراهيم النخعي: ﴿سَيَطُوفُونَ﴾ سيجعل لهم يوم القيامة طوق من نار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يجري مع التأويل الأول الذي ذكرته للسدي وغيره.

وقال مجاهد: معنى ﴿سَيَطُوفُونَ﴾: سيكلفون أن يأتوا بمثل ما بخلوا به يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يضطرب مع قوله: إن البخل هو بالعلم الذي تفضل الله عليهم بأن علمهم إياه.

وإعراب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ رفع في قراءة من قرأ: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ بالياء من أسفل، والمفعول الأول مقدر بعد الصلة تقديره: ولا يحسن الذين يبخلون بما آتاهم من فضله بخلهم هو خيراً، والمفعول الثاني ﴿خَيْرًا﴾، و﴿هو﴾ فاصلة وهي العماد عند الكوفيين، ودل قوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ على هذا البخل المقدر كما دل السفيه على السفه في قول الشاعر:

وليس ميّزت بمنقول من ميّزت، بدليل أن ميّزت لا يتعدى إلى مفعولين وإنما يتعدى إلى مفعول واحد كيّزت، كما أن «ألقيت» ليس بمنقول من «لقي» إنما هو بمعنى أسقطت.

والغيب هنا: ما غاب عن البشر مما هو في علم الله من الحوادث التي تحدث، ومن الأسرار التي في قلوب المنافقين، ومن الأقوال التي يقولونها إذا غابوا عن الناس. قال الزجاج وغيره: روي أن بعض الكفار قال: لم لا

يكون جميعنا أنبياء؟ فنزلت هذه الآية. و﴿يَبْتَغِي﴾ يختار ويصطفي، وهي من جيت الماء والمال، وباقي الآية بين، والله المستعان.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل: القراءات في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ كالتي تقدمت آنفاً في قوله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ سواء.

قال السدي وجماعة من المتأولين: الآية نزلت في البخل بالمال والإنفاق في سبيل الله وأداء الزكاة المفروضة ونحو ذلك. قالوا: ومعنى ﴿سَيَطُوفُونَ مَا يَبْتَغُونَ﴾ هو الذي ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما من ذي رحم يأتي ذا رحمه فيسأله عن فضل ما عنده فيبخل به عليه إلا خرج له يوم القيامة شجاع أقرع من النار يتلطمط حتى يطوقه».

لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاهُ سَكَتُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُورِ عَادَ ابْنَ الْحَرِيقِ ﴿٧٨﴾ ذَلِكَ يَمَاقِدَ مَتَّ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٧٩﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدُ الْبَيْتِ الْأَثْوَرِ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِ بَابِنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِ يَأْتِيَنَّكُمْ وَإِلَّا لَدَى قَلْبِهِ فَتَأْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٠﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءَ وَالْبَيْتِ وَالزُّبَيْرِ وَالْكِتَابِ الْمُؤْمِنِ ﴿٨١﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ الْجُؤُورَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَن رَّحِمَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَتَّةٌ الْفُرُورِ ﴿٨٢﴾ تَسْبُوتُكُمْ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْتُمْ مَعَهُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَنْشَرَكُمُ الْأَدَمَى كَثِيرًا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَوَقَّعُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزَا الْأُمُورِ ﴿٨٣﴾

الْتَبِيءِ ﴿٧٨﴾ إنه في أمر أحد، أي: ما كان الله ليطلعكم على أنكم تهزمون، فكيف تكفون ونحو هذا. وأيضا فما كان ليطلعكم على المنافقين تصريحاً بهم وتسمية لهم، ولكن هذا بقرائن أفعالهم وأقوالهم في مثل هذا الموطن.

و﴿حَتَّى﴾ في قوله: ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾ غاية مجردة، لأن الكلام قبلها معناه: الله يخلص ما بينكم بائلاته وامتحانه حتى يميز.

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم: ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾ بفتح الياء وكسر الميم وتخفيف الياء، وكذلك ﴿يَمِيزَ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿حَتَّى يَمِيزَ﴾ و﴿يَمِيزَ﴾ الله بضم الياء والتشديد. قال يعقوب بن السكيت: ميّزت وميّزت لغتان بمعنى واحد. قال أبو علي:

إذا نُهِيَ السَّفِيهُ جَرَى إِلَيْهِ
وخالَفَ، والسَّفِيهُ إلى خلافٍ
فالمعنى جرى إلى السفه، وأما من
قرأ ﴿تُحْسِنُ﴾ بالتاء من فوق ففي
الكلام حذف مضاف هو المفعول
الأول، تقديره: ولا تحسن يا محمد
بخل الذين يبخلون خيراً لهم. قال
الزجاج: وهي مثل ﴿وَسَلِّ
الْقَرِيْبَةَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَرْثُ
السَّمَوَاتِ﴾ خطاب على ما يفعله
البشر دال على فناء الجميع، وأنه لا
يبقى مالك إلا الله تعالى، وإن كان
ملكه تعالى على كل شيء لم يزل.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿وَاللَّهُ
بِمَا يَعْمَلُونَ﴾ بالياء من أسفل على
ذكر الذين يبخلون ويطوقون، وقرأ
الباقون بالتاء من فوق، وذلك على
الرجوع من الغيبة إلى المخاطبة لأنه
قد تقدم: ﴿وَإِنْ تَوَيْبُوا وَتَوَقَّأُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَلَقَدْ سَبَّحَ اللَّهُ...﴾
الآية، قال ابن عباس: نزلت بسبب
فنحاص اليهودي وذلك أن
رسول الله ﷺ بعث أبا بكر الصديق
رضي الله عنه إلى بيت المدراس
ليدعوهم فوجد فيه جماعة من اليهود
قد اجتمعوا على فنحاص - وهو
حبرهم - فقال أبو بكر له: يا
فنحاص، اتق الله وأسلم، فوالله إنك
لتعلم أن محمداً رسول الله قد
جاءكم بالحق من عند الله تجدونه
مكتوباً عندكم في التوراة، فقال
فنحاص: والله يا أبا بكر ما بنا
إلى الله من حاجة، وإنه إلينا لفقير،
وإننا عنه لأغنياء، ولو كان غنياً لما
استقرضنا أموالنا كما يزعم

صاحبكم، في كلام طويل غضب
أبو بكر منه، فرفع يده فلطم وجه
فنحاص وسبه وهم يقتله، ثم منعه
من ذلك أن رسول الله ﷺ قال له:
﴿لَا تُخَدِّثْ شَيْئاً حَتَّى تَنْصَرِفَ إِلَيَّ﴾
ثم ذهب فنحاص إلى النبي ﷺ
فشكا فعل أبي بكر، فقال النبي ﷺ
لأبي بكر: ﴿مَا حَمَلَكَ عَلَى مَا
صَنَعْتَ؟﴾ فنزلت الآية في ذلك.

وقال قتادة: نزلت الآية في
حيي بن أخطب، وذلك أنه لما
نزلت: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا﴾ قال: يستقرضنا ربنا؟ إنما
يستقرض الفقير الغني. وقال
الحسن بن أبي الحسن ومعر وقاتدة
أيضاً وغيرهم: لما نزلت: ﴿مَنْ ذَا
الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا...﴾
الآية، قالت اليهود: إنما يستقرض
الفقير من الغني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا محالة أن هذا قول صدر أولاً
عن فنحاص وحيي وأشباههما من
الأخبار ثم تقاولها اليهود، وهو قول
يغلط به الأتباع ومن لا علم عنده
بمقاصد الكلام، وهذا تحريف اليهود
للتأويل على نحو ما صنعوا في
توراتهم.

وقوله تعالى: ﴿قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾
دال على أنهم جماعة.

﴿١٨١﴾ - ﴿١٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
قرأ حمزة وحده: ﴿سَيُكْتَبُ﴾ بالياء
من أسفل على بناء الفعل للمفعول:
﴿وَقَتْلُهُمْ﴾ برفع اللام عطفاً على
المفعول الذي لم يسم فاعله، و:
﴿يَقُولُ﴾ بالياء من أسفل، وقرأ
الباقون بنون الجمع، فإما أنها نون

العظمة، وإما هي للملائكة، و﴿مَا﴾
على هذه القراءة مفعولة بها،
و﴿وَقَتْلَهُمْ﴾ بنصب اللام عطفاً على
﴿مَا﴾، و﴿وَقَوْلُ﴾ بالنون على نحو
﴿سَيُكْتَبُ﴾. والمعنى في هاتين
القراءتين قريب بعضه من بعض، قال
الكسائي: وفي قراءة عبدالله بن
مسعود: ﴿وَيُقَالُ فَوْقُوا﴾. وقال أبو
معاذ النحوي في حرف ابن مسعود:
﴿سَيُكْتَبُ مَا يَقُولُونَ﴾ و﴿يُقَالُ لَهُمْ
فَوْقُوا﴾. وقرأ طلحة بن مصرف:
﴿سَيُكْتَبُ مَا يَقُولُونَ﴾، وحكى أبو
عمرو عنه أيضاً أنه قرأ: ﴿سَيُكْتَبُ﴾
بناء مرفوعة ﴿مَا قَالُوا﴾ بمعنى:
سكتب مقاتلهم.

وهذه الآية وعيد لهم، أي:
سيحصى عليهم قولهم. والكتب فيما
حكى كثير من العلماء هو في صحف
تقيده الملائكة فيها، وتلك الصحف
المكتوبة هي التي توزن، وفيها
يخلق الله الثقل والخفة بحسب
العمل المكتوب فيها. وذهب قوم
إلى أن الكتب عبارة عن الإحصاء
وعدم الإهمال، فبغير ذلك بما
تفهم العرب منه غاية الضبط
والتقييد. فمعنى الآية: إن أقوال
هؤلاء تكتب وأعمالهم، ويتصل
ذلك بأفعال آبائهم من قتل الأنبياء
بغير حق ونحوه، ثم يقال لجميعهم:
﴿ذُرُّوْا عَذَابَ الْحَرِيْقِ﴾. وخلطت
الآية الآباء مع الأبناء في الضمائر،
إذ الآباء هم الذين طرَّقوا لأبنائهم
الكفر وإذ الأبناء راوضون بأفعال الآباء
متبعون لهم.

والذوق مع العذاب مستعار، عبارة
عن المباشرة، إذ الذوق من أبلغ

أنواعها وحاسته مميزة جداً، والحريق معناه: المُحْرَق فمِعِل بمعنى مُفْعِل، وقيل؛ الحريق طبقة من طبقات جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمْتُمْ أَيْبِكُمْ﴾ توبيخ وتوقيف داخل فيما يقال لهم يوم القيامة، ويحتمل أن يكون خطاباً لمعاصري النبي ﷺ يوم نزول الآية، ونسب هذا التقديم إلى اليد إذ هي الكاسبة للأعمال في غالب أمر الإنسان، فأضيف كل كسب إليها، ثم بين تعالى أنه يفعل هذا بعدل منه فيهم ووضع الشيء موضعه، والتقدير: وير ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّقُلُوبٍ﴾، وجمع «عبداً» في هذه الآية على عبيد، لأنه مكان تشفيق ونتيجة من ظلم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا صفة راجعة إلى قوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ تَقَبَّرَ﴾. وقال الزجاج: ﴿الَّذِينَ﴾ صفة للعبيد، وهذا مفسد للمعنى والرصف، وهذه المقالة قالتها أجباز يهود مدافعةً لأمر النبي ﷺ، أي أنك لا تأتي بنار فنحن قد عهد إلينا ألا نؤمن لك. و﴿عٰهَدَ﴾ معناه: أمر، والعهد: أخص من الأمر، وذلك أنه في كل ما يتناول أمره ويبقى في غابر الزمان، وتعدى (أمن) في هذه الآية باللام والباء في ضمن ذلك. و﴿قربان﴾ مصدر سمي به الشيء الذي يقرب كالرهن، وكان أمر القربان حكماً قديماً في الأنبياء، ألا ترى أن ابني آدم قربا قرباناً، وذلك أنهم كانوا إذا أرادوا معرفة قبول الله تعالى لصدقة إنسان أو عمله أو

صدق قوله، قَرَّبَ قرباناً: شاةً أو بقرة ذبيحة أو بعض ذلك، وجعله في مكان للهواء وانتظر به ساعة، فنزل نار من السماء فتحرق ذلك الشيء، فهذه علامة القبول، وإذا لم تنزل النار فليس ذلك العمل بمقبول، ثم كان هذا الحكم في أنبياء بني إسرائيل. وكانت هذه النار أيضاً تنزل لأموال الغنائم فتحرقها، حتى أُجْلِبت الغنائم لمحمد ﷺ حسب الحديث.

وروي عن عيسى بن عمر أنه كان يقرأ: ﴿بِقُرْبَانٍ﴾ بضم الراء، وذلك على الإبتاع لضممة القاف وليست بلغة، لأنه ليس في الكلام فُعْلان بضم الفاء والعين، وقد حكى سيويه: السُّلْطَان بضم اللام، وقال: إن ذلك على الإبتاع.

﴿١٨٣﴾ - ﴿١٨٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا رد عليهم في مقاتلهم وتبيين لإبطالهم، أي: قد جاءكم رسل بالآيات الباهرة البينة، وفي جملتها ما قتلتم من أمر القربان فلم تقتلتموهم يا بني إسرائيل؟ المعنى: بل هذا منكم تعلق وتعنت، ولو أتيتكم بالقربان لتعلتتم بغير ذلك، والاقتراح لا غاية له، ولا يجاب كل مقترح، ولم يجب الله مقترحاً إلا وقد أراد تعذيبه وألأ يمهل، كقوم صالح وغيرهم، وكذلك قيل لمحمد في اقتراح قریش فأبى، وقال: «بل أَدْعُوهُمْ وَأَحَالِجُهُمْ» ثم أنس تعالى نبية بالأسوة والقذوة فيمن تقدم من الأنبياء أي: فلا يعظم عليك ذلك.

وقرأ ابن عامر: ﴿وَالزُّرِّيُّ﴾ بإعادة باء الجبر، وسقوطها على قراءة

الجمهور متجهه، لأن الواو شرتك ﴿الزُّرِّيُّ﴾ في الباء الأولى فاستغنى عن إعادة الباء، وإعادتها أيضاً مُتَّجِهَةٌ لأجل التأكيد، وكذلك ثبتت في مصاحف أهل الشام، وروي أيضاً عن ابن عامر إعادة الباء في قوله: ﴿وَالكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾.

﴿وَالزُّرِّيُّ﴾: الكتاب المكتوب يقال: زبرت الكتاب إذا كتبت، وزبرته إذا قرأته، والشاهد لأنه الكتاب قول امرئ القيس:

لمن طلل أبصرته فشحجاني

كخط زبور في عسيب يمان؟
وقال الزجاج: زبرت: كتبت، وذبرت بالذال: قرأت، و﴿الْمُنِيرِ﴾: وزنه مُفْعِل من النور، أي سطع نوره.

﴿١٨٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا خير واعظ فيه تسلية للنبي عليه السلام ولأمتة عن أمر الدنيا وأهلها، ووعد في الآخرة، فبالفكرة في الموت يهون أمر الكفار وتكذيبهم، والمعنى: كل نفس مخلوقة حية، والذوق هنا: استعارة، ﴿وَأَنكُمُ﴾ حاصرة على التوفية التي هي على الكمال، لأن من قُضِيَ له بالجنة فهو ما لم يدخلها غير مُؤَفَّى. وخص تعالى ذكر الأجور لشرفها وإشارة إلى معرفته لمحمد ﷺ وأمته، ولا محالة أن المعنى: إن يوم القيامة تقع فيه الأجور وتوفية العقاب. و﴿زُجِرَ﴾ معناه: أبعد، والمكان الزحزح: البعيد. و﴿فَذَاذُ﴾ معناه: نجا من خطره وخوفه، و﴿الزُّرِّيُّ﴾ الخدع والترجية بالباطل، والحياة الدنيا وكل ما فيها من الأموال فهي

متاع قليل تخدع المرء وتمنيه الأباطيل.

وعلى هذا فسر الآية جمهور من المفسرين: قال عبدالرحمن بن سابط: متاع الغرور كزاد الراعي يزود الكف من التمر أو الشيء من الدقيق يشرب عليه اللبن، قال الطبري: ذهب إلى أن متاع الدنيا قليل لا يكفي من تمتع به ولا يبلغه سفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرور في هذا المعنى مستعمل في كلام العرب، ومنه قولهم في المثل: «عش ولا تغتر»، أي: لا تجتريء بما لا يكفيك.

وقال عكرمة: «مَتَاعُ الْغُرُورِ»: القوارير، أي: لا بد لها من الانكسار والفساد، فكذلك أمر الحياة الدنيا كله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تشبيه من عكرمة.

وقرأ عبدالله بن عمير «الغُرُورُ» بفتح الغين، وقرأ أبو حيوة والأعمش: «ذائقة» بالتنوين «الموت» بالنصب، وقال النبي ﷺ: «الموضع سوط أحدكم في الجنة خير من الدنيا وما فيها» ثم تلا هذه الآية؟.

(١٨٦) - (١٨٧) تفسير قوله عز وجل:

هذا الخطاب للنبي عليه السلام وأمه، والمعنى: لثخترين ولثمتحنن في أموالكم بالمصائب والأرزاء، وبالإلفاق في سبيل الله، وفي سائر تكاليف الشرع، والابتلاء في الأنفس بالموت والأمراض، وفقد الأحبة بالموت.

وختلف المفسرون في سبب قوله

تعالى: ﴿وَأَسْمَرْكُمْ مِنْ آلِيَيْنِ أَوْتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾؛ فقال عكرمة وغيره: السبب في ذلك أقوال فنحاص: إن الله فقير ونحن أغنياء، وقوله: ﴿يَدُ اللَّهِ مَمْلُوءَةٌ﴾ إلى غير ذلك. وقال الزهري وغيره: نزلت هذه الآية بسبب كعب بن الأشرف، فإنه كان يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ويشبب بنساء المسلمين، حتى بعث إليه رسول الله ﷺ من قتله القتلة المشهورة في السير.

والأذى: اسم جامع في معنى الضرر، وهو هنا

يشمل أقوالهم فيما يخص النبي ﷺ وأصحابه من سبهم وأقوالهم في جهة الله تعالى وأنبياؤه. وندب الله تعالى عباده إلى الصبر والتقوى، وأخبر أنه من عزم الأمور، أي من أشدها وأحسنها. والعزم: إمضاء الأمر المرؤى المنقح، وليس ركوب الأمر دون روية عزمًا إلا على مقطع المشيحين من فتاك العرب كما قال:

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه
ونكب عن ذكر الحوادث جانباً
وقال النقاش: العزم والحزم بمعنى واحد، الحاء مبدلة من العين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ. والحزم: جودة النظر في الأمر وتنقيحه والحذر من الخطأ فيه، والعزم: قصد الإمضاء، والله تعالى يقول: ﴿وَسَأَوْدُهُمْ فِي الْأَرْضِ فَإِذَا عَزَمْتَ﴾ فالمشاورة وما كان في معناها

سورة التين

١٨٦

وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِمَّا كَانُوا يَكْتُمُونَ فَلْيَحْشُوا أَيُّ مَثَلٍ خَيْرٌ لِمَنْ لَا يَحْسَبُنَّ الَّذِينَ يُقْرُونَ بِمَا أُوتُوا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبنَهُمْ بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَسْبًا لَهُمْ وَعَذَابُ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿١٨٦﴾ وَاللَّهُ مَلِكٌ أَلِيمٌ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٨٧﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ أَلْبَسُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطُلًا تُسَبِّحُكَ قِيَامًا وَعَذَابُ النَّارِ ﴿١٨٨﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ مَن ذَخِلَ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ مَوَاطِنَ اللَّظَالِمِينَ مِنْ أَصْبَارِهِ ﴿١٨٩﴾ رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَقَّنَا مِنَ الْآثَارِ ﴿١٩٠﴾ رَبَّنَا وَإِنَّا مَأْمُونُونَ عَلَىٰ رَسُولِكَ وَلَا نُخْرِجُكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلَفُ الْإِعَادَ ﴿١٩١﴾

٧٥

هو الحزم، والعرب تقول: قد أحزم ولو أعزم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ...﴾ الآية، توبيخ لمعاصري النبي ﷺ، ثم هو مع ذلك خبر عام لهم ولغيرهم. والعامل في «إذ» فعل مقدر تقديره: اذكر، وأخذ هذا الميثاق هو على السنة الأنبياء أمة بعد أمة. وقال ابن عباس والسدي وابن جريج: الآية في اليهود خاصة، أخذ الله عليهم الميثاق في أمر محمد فكتموه ونبذوه.

قال مسلم البطيين: سأل الحجاج بن يوسف جلساءه عن تفسير هذه الآية فقام رجل إلى سعيد بن جبير فسأله فقال له: نزلت في يهود، أخذ الميثاق عليهم في أمر محمد فكتموه. وروي عن ابن

عباس أنه قرأ: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَتُبَيِّنُنَّهُ﴾ فيجزيء قوله: ﴿فَتَبَدَّرُوهُ﴾ عائداً على الناس الذين بيّن الأنبياء لهم. وقال قوم من المفسرين: الآية في اليهود والنصارى. وقال جمهور من العلماء: الآية عامة في كل من علّمه الله علماً، وعلماء هذه الأمة داخلون في هذا الميثاق، وقد قال رسول الله ﷺ: «من سُئِلَ عن علم فكتمه، أُلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ» وقد قال أبو هريرة: إني لأحدثكم حديثاً، ولولا آية في كتاب الله ما حدثتكموه، ثم تلا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ الْكِتَابِ﴾.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُونَهُ﴾ بالياء من أسفل فيها، وقرأ الباقون عن حفص وعاصم بالتاء من فوق فيها، وكلا القراءتين متجه، والضمير في الفعلين عائداً على الكتاب. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿لَتُبَيِّنُونَهُ﴾ دون النون الثقيلة، وقد لا تلزم هذه النون لأم القسم، قاله سيبويه. والنبذ: الطرح. وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى ظَهْرَكُمْ﴾ استعارة لما يبالغ في اطراحه، ومنه: ﴿وَأَعْتَدْتُمُوهُمْ وَرَأَى كَمَ ظَهْرًا﴾، ومنه قول الفرزدق:

تميمٌ بينَ مرٍّ لا تكوننُ حاجتي
بظهرٍ فلا يعيا عليّ جوابها
ومنه بالمعنى قول النبي ﷺ:
«لا تجعلوني كقذح الراكب» أراد
عليه السلام: لا تجعلوا ذكري
وطاعتي خلف أظهركم، وهو موضع

القدح، ومنه قول حسان:

كما نيط خَلْفَ الرَّابِكِ الْقَدْحُ الْفَرْدُ
والتشبيه بالقدح إنما هو في هيئته لا في معناه، لأن الراكب يحتاجه، ومحلّه من محلات الراكب جليل. والثلث القليل: هو مكسب الدنيا. وبقي الآية بين:

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر في هذه الآية أنها نزلت في اليهود، وهم المعنيون، ثم إن كل كاتم من هذه الأمة يأخذ بحظه من هذه المذمة ويتصف بها.

﴿١٨٨﴾ - ﴿١٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المفسرون في المراد بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَرْحَمُونَ﴾؛ فقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه وابن زيد وجماعة: الآية نزلت في المنافقين، وذلك أنهم كانوا إذا خرج النبي ﷺ للغزو تخلّفوا عنه، فإذا جاء اعتذروا إليه وقالوا: كانت لنا أشغال ونحو هذا، فيظهر رسول الله ﷺ القبول ويستغفر لهم، ففضحهم الله تعالى بهذه الآية، فكانوا يفرحون بما يأتونه ويفعلونه من التخلف والاعتذار، ويحبون أن يقال لهم: إنهم في حكم المجاهدين، لكن العذر جسيم.

وقالت جماعة كثيرة من المفسرين: إنما نزلت الآية في أهل الكتاب أحرار اليهود، ثم اختلفوا فيما هو الذي أتوه وكيف أحبوا المحمّدة؟ فقال ابن عباس رضي الله عنه: أتوا إضلال أتباعهم عن الإيمان بمحمد، وفرحوا بذلك لردّهم عن ريبهم، والنيوية، وأحبوا أن يقال عنهم:

إنهم علماء بكتاب الله ومتقدم رسالاته. وقال ابن عباس أيضاً والضحاك السدي: أتوا أنهم تعافدوا وتكاتبوا من كل قطر بالارتباط إلى تكذيب محمد ﷺ والدفع في صدر نبوته، وأحبوا أن يقال عنهم: إنهم أهل صلاة وصيام وعبادة، وقالوا هم ذلك عن أنفسهم. وقال مجاهد: فرحوا بإعجاب أتباعهم بتبديلهم تأويل التوراة، وأحبوا حمدهم إياهم على ذلك، وهم في الحقيقة لم يفعلوا شيئاً نافعاً ولا صحيحاً بل الحق أبلج.

وقال سعيد بن جبیر: الآية في اليهود، فرحوا بما أعطى الله آل إبراهيم من النبوة والكتاب، فهم يقولون: نحن على طريقهم، ويحبون أن يحمّدوا بذلك وهم ليسوا على طريقهم. وقراءة سعيد بن جبیر: ﴿أوتوا﴾ بمعنى أعطوا بضم الهزّة والتاء، وعلى قراءته يستقيم المعنى الذي قال.

وقال ابن عباس أيضاً: إن الآية نزلت في قوم سألهم النبي عليه السلام عن شيء فكتّموه الحق وقالوا له غير ذلك، وفرحوا بما فعلوا وأحبوا أن يحمّدوا بما أجابوا، وظنوا أن ذلك قد قنع به واعتقدت صحته.

وقال قتادة: إن الآية في يهود خيبر، نافقوا على النبي ﷺ والمؤمنين مرة، وقالوا: نحن معكم وعلى رأيكم وردء لكم، وهم يعتقدون خلاف ذلك، فأحبوا الحمد على ما أظهروا وفرحوا بذلك.

وقال الزجاج: نزلت الآية في قوم من اليهود، دخلوا على النبي ﷺ

وكلموه في أشياء ثم خرجوا، فقالوا لمن لقوا من المسلمين: إن النبي أخبرهم بأشياء قد عرفوها فحمدهم المسلمون على ذلك وطعموا بإسلامهم، وكانوا قد أبطنوا خلاف ما أظهروا للمسلمين وتمادوا على كفرهم، فنزلت الآية فيهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أُدُّوْا﴾ بمعنى فعلوا، كما تقول أتيث أمر كذا، وقرأ مروان بن الحكم وإبراهيم النخعي: ﴿أتوا﴾ بالمد، بمعنى: أعطوا بفتح الهمزة والطاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي قراءة تستقيم على بعض المعاني التي تقدمت.

وقرأ سعيد بن جبير وأبو عبدالرحمن السلمي: ﴿أوتوا﴾ بمعنى أعطوا، وقد تقدمت مع معناها. وقرأ أبو عمرو وابن كثير: ﴿لَا يَخْسِبُنَّ الَّذِينَ يُفْرِحُونَ﴾ ﴿فَلَا يَخْسِبُهُمْ﴾ بالياء من تحت فيهما وبكسر السين ويرفع الباء في (يخسبهم) قال أبو علي: ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بأنه فاعل (يخسب)، ولم تقع (يخسبن) على شيء، وقد تجيء هذه الأفعال لغواً لا في حكم الجمل المفيدة نحو قول الشاعر:

وما خلئت أبقي بيننا من مودّة
عراض المذاكي المُسَيِّفَاتِ الْقَلَايِصَا
وقال الخليل: العرب تقول: ما رأيته يقول ذاك إلا زيد، وما ظننته يقول ذلك إلا زيد، فنتجه القراءة بكون قوله: ﴿فَلَا يَخْسِبُهُمْ﴾ بدلاً من الأول، وقد عدي إلى مفعوليه وهما: الضمير وقوله: ﴿يَمَّا ذَرُّهُ﴾ فاستغنى بذلك عن تعدية الأول

إليهما كما استغنى في قول الشاعر: بأيّ كتابٍ أو بآية سنّة ترى حبهام عاراً علي وتحسب؟ فاستغنى بتعدية أحد الفعلين عن تعدية الآخر. والفاء في قوله: ﴿فَلَا يَخْسِبُهُمْ﴾ زائدة، ولذلك حسن البديل، إذ لا يتمكن أن تكون فاء عطف ولا فاء جزاء، فلم يبق إلا أن تكون زائدة لا يقبح وجودها بين البديل والمبدل منه، وقوله على هذه القراءة: ﴿فَلَا يَخْسِبُهُمْ﴾ فيه تعدى فعل الفاعل إلى ضمير نفسه، نحو: ظننتني أخاه، ورأيتني الليلة عند الكعبة، ووجدتني وجعتُ من الإصغاء، وذلك أن هذه الأفعال وما كان في معناها لما كانت تدخل على الابتداء والخبر أشبهت إن وأخواتها، فكما تقول: إني ذاهب، فكذلك تقول: ظننتني ذاهباً، ولو قلت: أظن نفسي أفعل كذا لم يحسن كما يحسن: أظنتني فاعلاً.

وقرأ نافع وابن عامر: ﴿لَا يَخْسِبُنَّ الَّذِينَ﴾ بالياء من تحت وفتح الباء، وكسر نافع السين وفتحها ابن عامر. ﴿فَلَا تَحْسِبْنَهُمْ﴾ بالياء من فوق وفتح الباء، والمفعولان اللذان يقتضيهما قوله: ﴿لَا يَحْسِبُنَّ الَّذِينَ﴾ محذوفان لدلالة ما ذكر بعده، والكلام في ذلك كما تقدم في قراءة ابن كثير، إلا أنه لا يجوز في هذا البديل الذي ذكر في قراءة ابن كثير وأبي عمرو لاختلاف الفعلين واختلاف فعليهما. وقرأ حمزة: ﴿لَا تَخْسِبُنَّ﴾ بالياء من فوق وكسر السين، ﴿فَلَا تَخْسِبْنَهُمْ﴾ بالياء من فوق وكسر السين وفتح الباء، ف﴿الَّذِينَ﴾ على هذه القراءة -

مفعول أول ﴿تَخْسِبُنَّ﴾، والمفعول الثاني محذوف لدلالة ما يجيء بعد عليه، كما قيل آنفاً في المفعولين. وحسن تكرار الفعل في قوله: ﴿فَلَا تَخْسِبْنَهُمْ﴾ لطول الكلام، وهي عادة العرب وذلك تقريب لذهن المخاطب. وقرأ الضحاك بن مزاحم: ﴿فَلَا تَخْسِبْنَهُمْ﴾ بالياء من فوق وفتح السين وضم الباء.

والمفازة: مَفْعَلَةٌ من فاز يفوز إذا نجا فهي بمعنى منجاة، وسمي موضع المخاف مفازة على جهة التفاضل، قاله الأصمعي، وقيل: لأنها موضع تفويض ومظنة هلاك، تقول العرب: فوز الرجل إذا مات، قال ثعلب: حكيت لابن الأعرابي قول الأصمعي فقال: أخطأ، قال لي أبو المكارم: إنما سميت مفازة لأن من قطعها فاز، وقال الأصمعي: سمي اللديغ سليماً تفاؤلاً، قال ابن الأعرابي: بل لأنه مستسلم لما أصابه.

ويعد أن نهى أن يحسبوا ناجين أخبر أن لهم عذاباً، ثم استفتح القول بذكر قدرة الله تعالى ومملكه فقال: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾... الآية، قال بعض المفسرين: الآية ردّ على الذين قالوا: ﴿إِنَّ اللَّهَ قَبِيرٌ وَنَحْنُ أَقْبَرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، قال القاضي ابن الطيب وغيره: ظاهره العموم ومعناه الخصوص؛ لأن الله تعالى لا يوصف بالقدرة على المحالات، و(شيء) هو الموجود في مقتضى كلام العرب.

ثم دلّ تعالى على مواضع النظر والعبارة، حيث يقع الاستدلال على الصانع بوجود السموات والأرضين، والمخلوقات ذال على العلم، ومحال أن يكون موجود عالم مرید غير حي، ثبت بالنظر في هذه الآية عظم الصفات.

﴿وَخَلْقِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾: هو تعاقبهما، إذ جعلهما الله خلفه، ويدخل تحت لفظة الاختلاف: كونهما يقصر هذا ويطول الآخر وبالعكس، ويدخل في ذلك اختلافهما بالنور والظلام. والآيات: العلامات. و﴿الْأَنْبِيَاءِ﴾ في هذه الآية: هي آليات التكليف لا آليات التجربة، لأن كل من له علوم ضرورية يدركها فإنه يعلم ضرورة ما قلناه من صفات الله تعالى.

﴿١٩١﴾ ﴿١٩٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض صفة ﴿لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾، وهذا وصف ظاهره استعمال التعميد والتهليل والتكبير ونحوه من ذكر الله، وأن يحصر القلب اللسان، وذلك من أعظم وجوه العبادات، والأحاديث في ذلك كثيرة. وابن آدم منتقل في هذه الثلاث الهياث لا يخلو في غالب أمره منها فكانها تحصر زمنه، وكذلك جرت عائشة رضي الله عنها إلى حصر الزمن في قولها: كان رسول الله ﷺ يذكر الله على كل أحيانه، فدخل في ذلك كونه على الخلاء وغير ذلك.

وذهب جماعة من المفسرين إلى أن قوله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ﴾ إنما هو عبارة عن الصلاة، أي: لا

يضيعونها، ففي حال العذر يصلونها قعوداً وعلى جنوبهم، قال بعضهم: وهي كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَادْكُرُوا اللَّهَ﴾... الآية، هذا على تأويل من تأول هنالك: ﴿قَضَيْتُمُ﴾ بمعنى: أدبتم، لأن بعض الناس يقول: ﴿قَضَيْتُمُ﴾ هنالك بمعنى: فرغتم منها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإذا كانت هذه الآية في الصلاة ففقهها أن الإنسان يصلي قائماً، فإن لم يستطع فقاعداً، ظاهر المدونة متربعا. وروي عن مالك وبعض أصحابه أنه يصلي كما يجلس بين السجدين، فإن لم يستطع القعود صلى على جنبه أو ظهره على التخيير، هذا مذهب المدونة وحكى ابن حبيب عن ابن القاسم: يصلي على ظهره فإن لم يستطع فعلى جنبه الأيمن، ثم على الأيسر. وفي كتاب ابن الموزان: يصلي على جنبه الأيمن، وإلا فعلى الأيسر، وإلا فعلى الظهر. وقال سحنون: يصلي على الأيمن كما يجعل في لحده، وإلا فعلى ظهره، وإلا فعلى الأيسر.

وحسن عطف قوله: ﴿وَكَلَّمَ جُنُوبَهُمْ﴾ على قوله: ﴿وَيَسَّمَا وُقُودَهُمْ﴾ لأنه في معنى مضطجعين. ثم عطف على هذه العبادة التي هي ذكر الله باللسان أو الصلاة فرضها ومندوبها بعبادة أخرى عظيمة، وهي الفكرة في قدرة الله تعالى ومخلوقاته، والعبير التي بث:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

ومز النبي ﷺ على قوم يتفكرون في الله فقال: «تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق، فإنكم لا تقدرون قدره، وهذا هو قصد الآية ﴿وَيَتَنَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقد قال بعض العلماء: المتفكر في ذات الله تعالى كالناظر في عين الشمس، لأنه تعالى ليس كمثل شيء، وإنما التفكير وانسباط الذهن في المخلوقات، وفي مخاوف الآخرة. قال رسول الله ﷺ: «لا عبادة كتفكر» وقال الحسن بن أبي الحسن: الفكرة مرآة المؤمن، ينظر فيها إلى حسناته وسيئاته. وقال ابن عباس وأبو الدرداء: فكرة ساعة خير من قيام ليلة. وقال سري السقطي: فكرة ساعة خير من عبادة سنة، ما هو إلا أن تحل أطناب خيمتك فتجعلها في الآخرة. وأخذ أبو سليمان الداراني قدح الماء ليتوضأ لصلاة الليل وعنده ضيف، فرآه لما أدخل إصبعه في أذن القدح أقام كذلك مفكراً حتى طلع الفجر، فقال له: ما هذا يا أبا سليمان؟ فقال: إني لما طرحت إصبعي في أذن القدح تذكرت قول الله جلّ وتعالى: ﴿إِذْ الْأَعْمَالُ فِي قُلُوبِهِمْ وَالنَّاسِلُ﴾ ففكرت في حالي، وكيف أنلقت الغل إن طرح في عتقي يوم القيامة، فما زلت في ذلك حتى أصبحت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه نهاية الخوف، وخير الأمور أوساطها. وليس علماء الأمة الذين هم الحجّة على هذا المنهاج، وقراءة علم كتاب الله ومعاني سنة رسول الله ﷺ لمن يفهم ويرجي

نفعه أفضل من هذا، لكن يحسن ألا تخلو البلاد من مثل هذا.

وحدثني أبي رضي الله عنه عن بعض علماء المشرق قال: كنت بائناً في مسجد الإقدام بمصر، فصليت العتمة فرأيت رجلاً قد اضطجع في كساء له مسجى بكسائه حتى أصبح، وصلينا نحن تلك الليلة وسهرنا، فلما أقيمت صلاة الصبح قام ذلك الرجل فاستقبل القبلة فصلى مع الناس، فاستعظمت جراته في الصلاة بغير وضوء، فلما فرغت الصلاة خرج فتبعته لأعظه، فلما دنوت منه سمعته يشد:

منسحق الجسم غائب حاضز
منتبیه القلب صامت ذاكز
منقبض في الغيوب منبسط
كذلك من كان عارفاً ذاكز
يببئ في ليله أخا فكر
فهو مدى الليل قائم ساهر
قال: فعلمت أنه ممن يعبد بالفكرة
وانصرف عنه.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا﴾ معناه: يقولون: ربنا على النداء، ﴿مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا﴾، يريد لغير غاية منصوبة؛ بل خلقته وخلقته البشر لينظر فيه فتَوَحَّدَ وتعبد، فمن فعل ذلك نَعَمته ومن ضلَّ عن ذلك عُدْبته لكفره وقوله عليك ما لا يليق بك. ولهذا المعنى الذي تعطيه قوة اللفظ حسن قولهم: ﴿سُبْحَانَكَ﴾، أي تنزيهاً لك عما يقول المبطلون. وحسن قولهم: ﴿فَيَنَّا عَدَابَ النَّارِ﴾ إذ نحن المسيحون المنزهون لك الموحدون. وقولهم: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾ استجارة

واستعاذة، أي: فلا تفعل بنا ذلك، ولا تجعلنا ممن يعمل عملها. والخزي: الفضيحة المخجلة الهادمة لقدر المرء، خَزِي الرجل يخزي خزيًا إذا افتضح، وخزياة إذا استحى، الفعل واحد والمصدر مختلف.

وقال أنس بن مالك والحسن بن أبي الحسن وابن جريج وغيرهم: وهذه إشارة إلى من يخلد في النار، ومن يخرج منها بالشفاعة والإيمان فليس بمخزي. وقال جابر بن عبدالله وغيره: كل من دخل النار فهو مخزي وإن خرج منها، وإن في دون ذلك لخزيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما إنه خزي دون خزي، وليس خزي من يخرج منها بفضيحة هادمة لقدره، وإنما الخزي التام للكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن أَصْكَارٍ﴾ هو من قول الداعين، وبذلك يتسق وصف الآية.

﴿١٩٣﴾ - ﴿١٩٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات حكاية عن أولي الألباب أنهم يقولون: ربنا ربنا. قال أبو الدرداء: يرحم الله المؤمنين ما زالوا يقولون: ربنا ربنا حتى استجيب لهم.

واختلف المتأولون في المنادي، فقال ابن جريج وابن زيد وغيرهما: المنادي محمد ﷺ، وقال محمد بن كعب القرظي: المنادي كتاب الله وليس كلهم رأى النبي ﷺ وسمعه. ولما كانت ﴿بِنَادِي﴾ بمنزلة يدعو،

حسن وصولها باللام بمعنى إلى الإيمان.

وقوله: ﴿أَن مَّآئِيثًا﴾ ﴿أَنَّ﴾ مفسرة لا موضع لها من الإعراب. وغفران الذنوب وتكفير السيئات أمر قريب بعضه من بعض، لكنه كرر للتأكيد، ولأنها مناج من الستر، وإزالة حكم الذنب بعد حصوله، و﴿الْأَبْرَارِ﴾ جمع بَرّ، أصله: برر على وزن فعل، أدغمت الراء في الراء، وقيل: هو جمع باز كصاحب وأصحاب، والمعنى: توفنا معهم في كل أحكامهم وأفعالهم.

وقوله: ﴿رَبَّنَا وَهَاتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾ معناه: على السنة رسلك، وقرأ الأعمش: ﴿رُسُلِكَ﴾ بسكون السين. وطلبوا من الله تعالى إنجاز الوعد، وهو تعالى من لا يجوز عليه خلفه من حيث في طلبه الرغبة أن يكونوا ممن يستحقه، فالطلبية والتخوف إنما هو في جهتهم لا في جهة الله تعالى، لأن هذا الدعاء إنما هو في الدنيا، فمعنى قول المرء: اللهم أنجز لي وعدك، إنما معناه: اجعلني ممن يستحق إنجاز الوعد، وقيل: معنى دعائهم الاستعجال مع تقتمهم بأن الوعد منجز. وقال الطبري وغيره: معنى الآية ما وعدتنا على السنة رسلك من النصر على الأعداء فكان الدعوة إنما هي في حكم الدنيا.

وقولهم: ﴿وَلَا تَحْزَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِقُ الْآلِيَامَةَ﴾ إشارة إلى قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾، فهذا وعده تعالى وهو دال على أن الخزي إنما هو مع الخلود.

فقال له رسول الله ﷺ: «أنت طرَدتني كل مطرد؟» إنكاراً عليه. ومن ذلك قول كعب بن زهير: في عصبة من قريش قال قائلهم بسطن مكة لما أسلموا زلوا زلوا فما زال أنكاس ولا كُشِف عند اللقاء ولا يميل معازيل وقرأ نافع وعاصم وأبو عمرو: ﴿وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ بتخفيف التاء وضم القاف، ومعنى هذه القراءة بين، وقرأ ابن كثير: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ بتشديد التاء وهي في المعنى كالأولى في المبالغة في القتل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا﴾ بيدان بالفعل المبني للمفعول به، وكذلك اختلافهم في سورة التوبة، غير أن ابن كثير وابن عامر يشددان في التوبة.

ومعنى قراءة حمزة هذه: ألا تعطي الواو رتبة لأن المعطوف بالواو يجوز أن يكون أولاً في المعنى، وليس كذلك العطف بالفاء، ويجوز أن يكون المعنى: وقتلوا وقتل باقيهم، فتشبه الآية قوله تعالى: ﴿مَاءًا وَهَاتُوا لِمَا آسَأْتُمْ﴾ على تأويل من رأى أن القتل وقع بالربيين.

وقرأ عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: ﴿وَقَتَلُوا﴾ بفتح القاف والتاء من غير ألف، بضم القاف وكسر التاء خفيفة، وهي قراءة حسنة المعنى مستوفية للفضلين على الترتيب المتعارف. وقرأ محارب بن دثار: ﴿وَقَتَلُوا﴾ بفتح القاف ﴿وَقَاتَلُوا﴾، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿قَتَلُوا﴾ بضم القاف وشد التاء ﴿وَقَاتَلُوا﴾،

وقوله: ﴿بَيْنَ ذِكْرٍ﴾ تبين لجنس العامل، وقال قوم: ﴿وَمِنْ﴾ زائدة لتقدم النفي من الكلام.

وقوله تعالى: ﴿بِمَعْصِمٍ مِّنْ بَعْضٍ﴾ يعني في الأجر وتقبل العمل، أي: أن الرجال والنساء في ذلك على حد واحد. وبين تعالى حال المهاجرين، ثم الآية بعد تسحب على كل من أودى في الله تعالى، وهاجر أيضاً إلى الله تعالى، وإن كان اسم الهجرة وفضلها الخاص بها قد انقطع بعد الفتح فالمعنى باق إلى يوم

القيامة، وذلك أن الذي يهجر وطنه وقربته في الله كأن الوطن والقربة يهجرونه أيضاً فهي مهاجرة.

وقوله تالي: ﴿وَأُخْرِجُوا مِّن دِيَارِهِمْ﴾ عبارة إلزام ذنب للكفار، وذلك أن المهاجرين إنما أخرجهم سوء العشرة وقبيح الأفعال فخرجوا باختيارهم، فإذا جاء الكلام في مضمار إلزام الذنب للكفار قيل: ﴿أُخْرِجُوا مِّن دِيَارِهِمْ﴾ ﴿وَأُخْرِجُوا مِّن دِيَارِهِمْ﴾ إلى غير ذلك من الأمثلة. وإذا جاء الكلام في مضمار الفخر والقوة على الأعداء تمسك بالوجه الآخر من أنهم خرجوا برأيهم، فمن ذلك إنكار النبي ﷺ على أبي سفيان بن الحارث حين أنشده:

..... ورُدُنِّي

إلى اللّه مَن طَرَدْتُ كلَّ مُطَرِّدٍ

فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذِكْرٍ أَوْ أَمْرٍ بَعْضِكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَأَلَّيْنَهَا جِزْأً وَأُخْرِجُوا مِّن دِيَارِهِمْ وَأُودُوا فِي سَبِيلِي وَقَتَلُوا وَقُتِلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَعَاتِهِمْ وَلَا أَذَلَّنَّهُمْ جَنَّتْ جَعْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَوَأبَىٰ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾ لَا يَبْرُكُ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ لَكِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نُنزَلُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآبِرَارِ ﴿١٩٨﴾ وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لِابْتِشَارٍ وَعَبَادَاتٍ اللَّهُ تَمَسَّكَ قَلِيلًا أَوْلَيْكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ كَثِيرًا مِنَ السَّرِيعِ الْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾ بَيَّنَّا لِلَّذِينَ آمَنُوا صَبْرًا وَصَابِرًا وَرَأَيْطًا وَأَتَقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَتْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾

﴿١٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

«استجاب» استفعل بمعنى أجاب، فليس استفعل على بابه من طلب الشيء بل هو كما قال الشاعر:

وداع دعا يا مَنْ يجيبُ إلى الندى
فلم يستجبه عند ذلك مجيب
أي لم يجبه. وقوله: ﴿أَنَّ﴾ يجوز أن تكون «أن» مفسرة، ويمكن أن تكون بمعنى (أي)، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿إِنِّي﴾ بكسرة الهمزة. وهذه آية وعِدٍ من الله تعالى، أي: هذا فعله مع الذين يتصفون بما ذكر. وروي أن أم سلمة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، قد ذكر الله تعالى الرجال في الهجرة ولم يذكر النساء في شيء من ذلك، فنزلت الآية، ونزلت آيات في معناها فيها ذكر النساء.

وهذه يدخلها إما رفض رتبة الواو، وإما أنه قاتل من بقي. واللام في قوله: ﴿لَا تُكْفِرَنَّ﴾ لام القسم. و﴿تَوَابًا﴾ مصدر مؤكد مثل قوله: ﴿صُحِّحَ اللَّهُ﴾ و﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾. وبإتي الآية يُبَيَّن.

﴿١٩٦﴾ - ﴿١٩٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

نزلت ﴿لَا يَغْرَنَكَ﴾ في هذه الآية منزلة: لا تظن أن حال الكفار حسنة فتتهم لذلك، وذلك أن المغتر فارح بالشيء الذي يغتر به، فالكفار مغترون بتقليبهم، والمؤمنون مهتمون به، لكنه ربما يقع في نفس مؤمن أن هذا الإيلاء للكفار إنما هو لخير لهم، فيجيء هذا جنوحاً إلى حالهم ونوعاً من الاعتزاز فلذلك حسنت ﴿لَا يَغْرَنَكَ﴾. ونظيره قول عمر لحفصة: لا يغرنك أن كانت جارتك أوضأ منك وأحب إلي رسول الله ﷺ، المعنى: لا تغتري بما يتم لتلك من الإدلال فتعني فيه فيطلقك النبي ﷺ. والخطاب للنبي ﷺ، والمراد أمته، وللكفار في ذلك حظ، أي: لا يغرنهم تقلبهم.

وقرأ ابن أبي إسحاق ويعقوب: ﴿لَا يَغْرَنَكَ﴾ بسكون النون خفيفة، وكذلك ﴿لَا يُصَدَّنْكَ﴾ و﴿لَا يُصَدَّنْكُمْ﴾ و﴿لَا يَضْرَبَنَّكُمْ﴾، وشبهه.

والتقلب: التصرف في التجارات والأرباح والحروب وسائر الآمال. ثم أخبر تعالى عن قلة ذلك المتاع، لأنه منقضى صائر إلى ذل وقيل وعذاب.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لَكِنَّ﴾ الذين﴾ بشد النون، وعلى أن (الذين) في موضوع نصب اسماً (للكين).

و﴿نَزَلًا﴾: معناه تكرمه ونصبه على المصدر المؤكد. وقرأ الحسن و﴿نَزَلًا﴾ ساكنة الزاي.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ لِلْآزِرِينَ﴾ يحتمل أن يريد: خير مما هؤلاء فيه من التقلب والتنعم، ويحتمل أن يريد: خير مما هم فيه في الدنيا. وإلى هذا ذهب ابن مسعود، فإنه قال: ما من مؤمن ولا كافر إلا والموت خير له، أما الكافر فلثلاً يزداد إثماً، وأما المؤمن فلأن ما عند الله خير للأبرار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر». فقال القاضي ابن الطيب: هذا إنما هو بالإضافة إلى ما يصير إليه كل واحد منهما في الآخرة، فالدنيا على المؤمن المنعم سجن بالإضافة إلى الجنة، والدنيا للكافر الفقير المضيق عليه في حاله وصحته جنة بالإضافة إلى جهنم. وقيل: المعنى أنها سجن المؤمن لأنها موضع تعبها في الطاعات وصومه وقيامه، فهو فيها كالمعنت المنكل، ويتنظر الثواب في الأخرى التي هي جنته؛ والدنيا جنة الكافر لأنها موضع ثوابه على ما عسى أن يعمل من خير، وليس ينتظر في الآخرة ثواباً، فهذه جنته، وهذا القول عندي كالتفسير والشرح للأول.

﴿١٩٦﴾ - ﴿١٩٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية؛ فقال جابر بن عبدالله وابن جريج وقتادة وغيرهم: نزلت بسبب أصحابه النجاشي سلطان الحبشة، وذلك أنه كان مؤمناً بالله وبمحمد ﷺ، فلما مات عرف بذلك رسول الله ﷺ في ذلك اليوم، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «أخرجوا فصلوا على أخ لكم» فصلى عليه رسول الله ﷺ بالناس، فكبر أربعاً. وفي بعض الحديث: أنه كشف لرسول الله ﷺ عن نعشه في الساعة التي قرب منها للدفن، فكان يراه من موضعه بالمدينة، فلما صلى عليه النبي ﷺ قال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على علق نصراني لم يره قط، فنزلت هذه الآية. وكان أصحابه النجاشي نصرانياً، وأصحابه تفسيره بالعربية: عطية، قاله سفيان بن عيينة وغيره. وروي أن المنافقين قالوا بعد ذلك: فإنه لم يصل للقبلة فنزلت: ﴿وَاللَّهُ أَشْرَقُ وَأَكْرَبُ فَأَيُّنَا تَوْلَا فَمَنْ وَجَّهَ اللَّهُ﴾. وقال قوم: نزلت في عبدالله بن سلام، وقال ابن زيد ومجاهد: نزلت في جميع من آمن من أهل الكتاب.

و﴿حَشِييُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، وورد ﴿حَشِييُونَ﴾ على المعنى في ﴿مِنْ﴾ لأنه جمع، لا على لفظ ﴿مِنْ﴾ لأنه أفراد.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَشْرُونَ بِعَابَتِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلاً﴾ مدح لهم وذم لسائر كفار أهل الكتاب لتبديلهم

بأهلهم الذين يعتمرون ويكتسبون هنالك، فهم وإن كانوا حماة فليسوا بمرابطين.

وقوله: ﴿لَقَدْ لَقَّاهُ لَقْحُونَ﴾ ترجّح في حقّ البشر.

كامل تفسير سورة آل عمران والحمد لله على ذلك كثيراً

(٤) تفسير سورة النساء

بسم الله الرحمن الرحيم،
وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد
وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً.

هذه السورة مدنية إلا آية واحدة
نزلت بمكة عام الفتح في عثمان بن
طلحة وهي قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ
تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ قال
النقاش: وقيل: نزلت السورة عند
هجرة رسول الله ﷺ من مكة إلى
المدينة المنورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد قال بعض الناس: إن قوله تعالى:
﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾ حيث وقع إنما هو
مكي، فيشبه أن يكون صدر هذه
السورة مكياً، وما نزل بعد الهجرة
فإنما هو مدني وإن نزل في مكة أو في
سفر من أسفار النبي عليه السلام،
وقال النحاس: هذه السورة مكية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا خلاف أن فيها ما نزل بالمدينة،
وفي البخاري: آخر آية نزلت:
﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي
الْكَلْبَةِ﴾، ذكرها في تفسير سورة

عسرّ يسرين، وإن الله تعالى يقول
في كتابه: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا
أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا﴾... الآية.

وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن:
هذه الآية في انتظار الصلاة بعد
الصلاة، ولم يكن في زمن
رسول الله ﷺ غزو يرباط فيه،
واحتج بحديث علي بن أبي طالب
وجابر بن عبدالله وأبي هريرة، أن
رسول الله ﷺ قال: «ألا أدلكم على
ما يحطّ الله به الخطايا ويرفع به
الدرجات؟ إسباغ الوضوء على
المكاره، وكثرة الخطى إلى
المساجد، وانتظار الصلاة بعد
الصلاة، فذلكم الرباط، فذلكم
الرباط، فذلكم الرباط».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والقول الصحيح هو أن الرباط هو
الملازمة في سبيل الله، أصلها من
ربط الخيل، ثم سمي كلّ ملازم لثغر
من ثغور الإسلام مرابطاً، فزاسماً كان
أو راجلاً، واللفظة مأخوذة من
الربط، قول النبي ﷺ: «فذلكم
الرباط»، إنما هو تشبيه بالرباط في
سبيل الله، إذ انتظار الصلاة إنما هو
سبيل من السبل المنجية، والرباط
اللغوي هو الأول، وهذا كقوله:
«ليس الشديد بالصرعة» وكقوله:
«ليس المسكين بهذا الطواف» إلى
غير ذلك من الأمثلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والمرابط في سبيل الله عند الفقهاء
هو الذي يشخص إلى ثغر من الثغور
ليرباط مدة ما، قاله ابن المواز
ورواه. فأما سكان الثغور دائماً

وإيثارهم كسب الدنيا الذي هو ثمن
قليل على آخرتهم وعلى آيات الله
تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ﴾ قيل: معناه: سريع
الإتيان بيوم القيامة، وهو يوم
الحساب، فالحساب إذاً سريع، إذ
كلّ آت قريب. وقال قوم: سريع
الحساب أي: إحصاء أعمال العباد
وأجورهم وأثامهم، إذ ذلك كله في
عمله لا يحتاج فيه إلى عدّ وروية
ونظر، كما يحتاج البشر.

ثم ختم الله تعالى السورة بهذه
الوصية التي جمعت الظهور في الدنيا
على الأعداء، والفوز بنعيم الآخرة،
فحضّ على الصبر على الطاعات
وعن الشهوات، وأمر بالمصابرة
فقيل: معناه: مصابرة الأعداء، قاله
زيد بن أسلم. وقيل: معناه: مصابرة
وعد الله في النصر، قاله محمد بن
كعب القرظي، أي: لا تساموا
وانتظروا الفرج، وقد قال
رسول الله ﷺ: «انتظار الفرج
بالصبر عبادة».

وكذلك اختلف المتأولون في معنى
قوله: ﴿وَرَابِطُوا﴾؛ فقال جمهور
الامة: معناه: رابطوا أعداءكم
الخيل، أي: ارتبطوها كما يرتبطها
أعداؤكم، ومنه قوله عز وجل:
﴿وَمِنَ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾... الآية.

وكتب عمر بن الخطاب إلى أبي
عبيدة، وقد كتب إليه يذكر جموع
الروم، فكتب إليه عمر: أما بعد،
فإنه مهما نزل بعبد مؤمن شدة،
جعل الله بعدها فرجاً، ولن يغلب

ضلع، فإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها قال بعضهم: معنى ﴿مِنهَا﴾: من جنسها، واللفظ يتناول المعنيين، أو يكون لحمها وجواهرها من ضلعه، ونفسها من جنس نفسه.

﴿وَبَيْتٌ﴾ معناه: نشر، كقوله تعالى: ﴿كَأَلْفَافٍ﴾ أي: المتشتر. وحصره ذريتها إلى نوعين: الرجال والنساء مقتض أن الخنثى ليس بنوع، وأنه وإن فرضناه مشكل الظاهر عندنا، فله

حقيقة ترده إلى أحد هذين النوعين. وفي تكرار الأمر بالاتقاء تأكيد وتنبية لنفوس المأمورين.

﴿الَّذِي﴾ في موضع نصب على النعت، و﴿تَسَاءَلُونَ﴾ معناه: تتعاطفون به، فيقول أحدهم: أسألك بالله أن تفعل كذا، وما أشبهه؛ وقالت طائفة: معناه: تساءلون به حقوقكم وتجعلونه مقطعاً لها، وأصله: تساءلون، فأبدلت التاء الثانية سيناً وأدغمت في السين، وهذه قراءة ابن كثير ونافع وابن عامر وأبي عمرو، بخلاف عنه. وقرأ الباقون: ﴿تَسَاءَلُونَ﴾ بسين مخففة، وذلك لأنهم حذفوا التاء الثانية تخفيفاً، فهذه تاء تتفاعلون تدغم في لغة وتحذف في أخرى لاجتماع حروف متقاربة. قال أبو علي: وإذا اجتمعت المتقاربة خففت بالحذف والإدغام والإبدال كما قالوا: طَسْتُ، فأبدلوا

«براءة» من رواية البراء بن عازب. وفي البخاري عن عائشة أنها قالت: ما نزلت سورة النساء إلا وأنا عند رسول الله ﷺ، تعني قد بنى بها. تفسير قوله عز وجل:

﴿يَا﴾ حرف نداء، و﴿أَيُّ﴾ منادى مفرد، و﴿هَآءُ﴾ تنبيه، و﴿الَّذِي﴾ نعت لأبي، أز صلة على مذهب أبي الحسن الأخفش. والرُبُّ: المالك. وفي الآية تنبيه على الصانع وعلى افتتاح الوجود، وفيها حض على التواصل لحرمة هذا النسب وإن بعد، وقال: ﴿وَيَزَوَّجُ﴾ على تأنيث لفظ النفس، وهذا كقول الشاعر:

أبوك خليفة ولدته أخرى
وأنت خليفة ذاك الكمال

وقرأ ابن أبي عجلة: ﴿مِنْ نَفْسٍ وَاحِدٍ﴾ بغير هاء، وهذا على مراعاة المعنى، إذ المراد بالنفس: آدم ﷺ، قاله مجاهد وقتادة وغيرهما.

والخلق في الآية: بمعنى الاختراع، ويعني بقوله: ﴿زَوْجَهَا﴾ حواء، والزوج في كلام العرب: امرأة الرجل، ويقال زوجة، ومنه بيت أبي فراس:

وإن الذي يسعى ليُفسد زوجتي
كساعٍ إلى أسدٍ الشرى يستبيلها
وقوله: ﴿مِنهَا﴾ قال ابن عباس ومجاهد والسدي وقتادة: إن الله تعالى خلق آدم وحشاً في الجنة وحده، ثم نام فانتزع الله أحد أضلاعه الفصيري من شماله، وقيل: من يمينه، فخلق منه حواء، ويعضد هذا القول الحديث الصحيح في قوله عليه السلام: «إن المرأة خلقت من

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ فِيهِمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَبِّسًا ﴿١﴾ وَهُوَ أَنُوَ الَّذِي يَنْفَعُ أَمْوَالَكُمْ وَلَا يُتَبَدَّلُ الْوَالِدُ لِلْوَالِدِ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِنْ أَمَرَكُمُ اللَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَسْمَنِ فَانكِسُوا مَطَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَنِّي وَتِلْكَ وَرِثَةٌ لَكُمْ إِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْدِيكُمْ ذَلِكَ أَذَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ﴿٣﴾ وَهُوَ أَنُوَ النِّسَاءِ صِدْقَيْنِ بَعْضُهُمَا لِبَعْضٍ فَإِنْ طَلَّقَ بَعْضُهُمَا نَفْسًا فَكَلِمَةٌ هَيْبَةً وَيَعْتَدُ بِهَا وَلَا تُؤْتَوُا الشُّهُبَةَ أَمْوَالَكُمْ إِلَىٰ جَمَلِ اللَّهِ لَكُمْ قِيمًا وَأَرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْتُمُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٤﴾ وَإِنَّمَا الْيَسْمَنُ حَرِّ إِذَا بُعِثَ الْبَيْتَاحُ فَإِنْ نَسِيتُمْ مِثْمًا زَيْدًا فَادْعُوا إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ وَلَا تَكُونُوا سِرًا فَإِذَا رَأَوْا أَن يَكْفُرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْعِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَعْتُمْ إِلَىٰ أَيْتِهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٥﴾

٧٧

من السين الواحدة تاء، إذ الأصل طس، قال العجاج:

لَوْ عَرَضْتُ لِأَيْبُلِي قَسْرَ
أَشَعْتُ فِي هَيْكَلِهِ مُنْدَسْرَ
حَنْ إِلَىٰهَا كَحَنِينِ الطُّسْرِ
وقرأ ابن مسعود: ﴿تَسْلُونَ﴾ خفيفة بغير ألف، ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ نصب على العطف على موضع ﴿بِهِ﴾، لأن موضع نصب، والأظهر أنه نُصِبَ بإضمار فعلٍ تقديره: واتقوا الأرحام أن تقطعوها، وهذه قراءة السبعة إلا حمزة، وعليها فسّر ابن عباس وغيره. وقرأ عبدالله بن يزيد: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالرفع، وذلك على الابتداء والخبر مقدر، تقديره: والأرحامُ أهل أن توصل، وقرأ حمزة وجماعة من العلماء: ﴿وَالْأَرْحَامَ﴾ بالخفض عطفاً على الضمير، والمعنى عندهم: إنها يتساءل بها كما

يقول الرجل: أسألك بالله وبالرحم، هكذا فسرها الحسن وإبراهيم النخعي ومجاهد. وهذه القراءة عند رؤساء نحويي البصرة لا تجوز، لأنه لا يجوز عندهم أن يعطفَ ظاهرٌ على مضمَرٍ مخفوض، قال الزجاج عن المازني: لأن المعطوف والمعطوف عليه شريكان يحلُّ كلُّ منهما محلُّ صاحبه، فكما لا يجوز: مررت بزيد وبك، فكذلك لا يجوز مررت بك وزيد. وأما سبويه فهي عنده قبيحة لا تجوز إلا في الشعر، كما قال: فاليومُ قد بثَّ تهجوناً وتشتمناً فاذهب فما بك والأيام من عجب وكما قال:

تُعلِّقُ في مثلِ السواري سيوفنا
وما بينها والكعبِ غَوَظُ نفايفُ
واستهلها بعض النحويين، قال أبو علي: ذلك ضعيف في القياس. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: المضمَر المخفوض لا ينفصل فهو كحرف من الكلمة، ولا يعطف على حرف، ويردُّ عندي هذه القراءة من المعنى وجهان:

أحدهما: أن ذكر (الأزحام) فيما يتساءل به لا معنى له في الحضر على تقوى الله، ولا فائدة فيه أكثر من الإخبار بأن الأرحام يتساءل بها، وهذا تفرق في معنى الكلام وغضُّ من فصاحته، وإنما الفصاحة في أن يكون لِيذْكَرِ الأرحام فائدة مستقلة.

والوجه الثاني: أن في ذكرها على ذلك تقريراً للتساؤل بها والقسم بحرمتها، والحديث الصحيح يرد ذلك في قوله عليه السلام: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت»،

وقالت طائفة: إنما خفض ﴿وَالْأَرْحَامُ﴾ على جهة القسم من الله على ما اختص به لا إله إلا هو من القسم بمخلوقاته، ويكون المقسم عليه فيما بعد من قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾، وهذا كلام يأباه نظم الكلام وسرده، وإن كان المعنى يخرج به.

و﴿كَانَ﴾ في هذه الآية ليست لتحديد الماضي فقط، بل المعنى: كان وهو يكون. والرقيب: بناء لاسم الفاعل من رقب يرقب إذا أخذ النظر بالبصر أو بالبصيرة إلى أمر ما ليتحققه على ما هو عليه، ويقترن بذلك حفظ ومشاهدة وعلم بالحاصل عن الرقبة. وفي قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ ضرب من الوعيد، ولم يقل: «لكم» للاشتراك الذي كان يدخل من أنه يرقب لهم ما يصنع غيرهم. ومما ذكرناه قبل للذي يرقب خروج السهم من ربابة الضريب في القداح: رقيب، لأنه يرتقب ذلك، ومنه قول أبي داود:

كمقاعد الرقباء للضُّ
رباء أيديهم نواهدُ
① - ② تفسير قوله عز وجل:

اليتامى: جمع يتيم ويتيمة، واليتيم في كلام العرب: من فقد الأب قبل البلوغ، وقال النبي ﷺ: «لا يثم بعد بلوغ»، وهو في البيهية فقد الأم في حال الصغر، وحكي: اليتيم في الإنسان من جهة الأم.

وقال ابن زيد: هذه المخاطبة هي لمن كانت عادته من العرب ألا يورث الصغير من الأولاد مع الكبير، فقيل لهم: ورثوهم أموالهم، ولا

تركوا أيها الكبار حظوظكم حلالاً طيباً وتأخذوا الكلّ ظلماً حراماً خبيثاً، فيجيء فعلكم ذلك تبديلاً. وقالت طائفة: هذه المخاطبة هي لأوصياء الأيتام، والمعنى: إذا بلغوا وأونس منهم الرشد. وسامهم يتامى وهم قد بلغوا استصحاباً للحالة الأولى التي قد ثبتت لهم من اليتيم.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا﴾ قيل: المراد: ما كان بعضهم يفعل من أن يبدل الشاة السمينة من مال اليتيم بالهزيلة من ماله، والدرهم الطيب بالزائف من ماله، قال سعيد بن المسيب والزهري والسدي والضحاك. وقيل: المراد بذلك: لا تأكلوا أموالهم خبيثاً، وتدعوا أموالكم طيباً. وقيل: معناه: لا تتعجلوا أكل الخبيث من أموالهم وتدعوا انتظار الرزق الحلال من عند الله، قاله مجاهد وأبو صالح. والخبيث والطيب: إنما هو هنا بالتحليل والتحرير.

وروي عن ابن محيصن أنه قرأ: ﴿تَبَدَّلُوا﴾ بإدغام التاء، وجاز في ذلك الجمع بين ساكنين، لأن أحدهما حرف مدّ ولين يشبه الحركة.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِنْ كَانَ عَلَيْكُمْ﴾ استوى الأيتام في النهي عن أكل أموالهم، كانوا ورثة ممنوعين من الميراث أو مخجوبين، والآية نص في قصد مال اليتيم بالأكل والتمول على جميع وجوه. وروي عن مجاهد أنه قال: الآية ناهية عن الخلط في الإنفاق، فإن العرب كانت تخلط نفقتها بنفقة أيتامها فنهوا عن ذلك، ثم نسخ منه النهي بقوله:

﴿وَإِنْ تَخَاطَبُوهُم فَاِخْوَانُكُمْ﴾ وقد تقدم ذكر هذا في سورة البقرة، وقال ابن فورك عن الحسن: إنه تأول الناس من هذه الآية النهي عن الخلط فاجتنبوه من قبل أنفسهم، فخفف عنهم في آية البقرة، وقالت طائفة من المتأخرين: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى «مع»، وهذا غير جيد. وروي عن مجاهد أن معنى الآية: ولا تأكلوا أموالهم مع أموالكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تقريب للمعنى، لأنه أراد أن الحرف بمعنى الآخر.

وقال الحدائق: ﴿إِلَّا﴾ هي على بابها وهي تتضمن الإضافة، التقدير: لا تضيفوا أموالهم إلى أموالكم في الأكل، كما قال تعالى: ﴿مَنْ أَنْصَارِكُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: من ينضاف إلى الله في نصرته؟

والضمير في: ﴿إِنَّهُ﴾ عائد على الأكل الذي تضمنه الفعل الظاهر، والحبوب: الإثم، قاله ابن عباس والحسن وغيرهما، تقول: حاب الرجل يحوب حوباً وحاباً إذا أثم، قال أمية بن الأسكر:

وإن مهاجرين تكسّفاه
غداة إذ لقد خطشنا وحابا

وقرأ الحسن: ﴿حَوْبًا﴾ بفتح الحاء، وهي لغة بني تميم، وقيل: هو بفتح الحاء المصدر ويضمها الاسم. وتحوب الرجل إذا ألقى الحوب عن نفسه، وكذلك تحثت وتأمم وتحرج، فإن هذه الأربعة بخلاف «تفعل» كله، لأن تفعل معناه: الدخول في الشيء، كتعبّد وتكسّب وما أشبهه، ويلحق بهذه

الأربعة تفكّهون، في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطْمًا فَطَلَّخْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، بدليل قوله بعد ذلك: ﴿إِنَّا لَمَعْرِونَ﴾ بل نحن معمرّون ﴿﴾ أي: يقولون ذلك. وقوله: ﴿كَبِيرًا﴾ نص على أن أكل مال اليتيم من الكبائر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتِيمِ﴾ قال أبو عبيدة: خفتم هنا بمعنى: أيقتم، واستشهد بقول الشاعر:

فقلّت لهم خافوا بألفني مُدَجِّجِ

وما قاله غير صحيح، ولا يكون الخوف بمعنى اليقين بوجه وإنما هو من أفعال التوقع، إلا أنه قد يميل الظن فيه إلى إحدى الجهتين. وأما أن يصل إلى حدّ اليقين فلا. و﴿تُقْسِطُوا﴾ معناه: تعدلوا، يقال: أقسط الرجل إذا عدل، وقسط إذا جار، وقرأ ابن وثاب والنخعي: ﴿أَلَّا تُقْسِطُوا﴾ بفتح التاء من «قسط» على تقدير زيادة «لا» كأنه قال: وإن خفتم أن تجوروا.

واختلف في تأويل الآية؛ فقالت عائشة رضي الله عنها: نزلت في أولياء اليتامى الذين يعجبهم جمال ولياتهم، فيريدون أن يخسوهن في المهر لمكان ولايتهم عليهن، فقيل لهم: أقسطوا في مهورهن، فمن خاف ألا يقسط فليتزوج ما طاب له من الأجنيبات اللواتي يكايسن في حقوقهن، وقاله ربيعة.

وقال عكرمة: نزلت في قریش، وذلك أن الرجل منهم كان يتزوج

العشر وأكثر وأقل، فإذا ضاق ماله مال على مال يتيمة فتزوج منه، فقيل لهم: إن خفتم عجز أموالكم حتى تجوروا في اليتامى فاقصروا.

وقال سعيد بن جبیر والسدي وقناة وابن عباس: إن العرب كانت تتحرج في أموال اليتامى، ولا تتحرج في العدل بين النساء، كانوا يتزوجون العشر وأكثر، فنزلت الآية في ذلك، أي: كما تخافون ألا تقسطوا في اليتامى، فكذلك فتخرجوا في النساء، وانكحوا على هذا الحد الذي يبعد الجور عنه.

وقال مجاهد: إنما الآية تحذير من الزنى وزجر عنه، أي: كما تتحرجون في مال اليتامى فكذلك فتخرجوا من الزنى، وانكحوا على ما حُدّ لكم. قال الحسن وأبو مالك وسعيد بن جبیر: ما طاب معناه: ما حل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن المحرمات من النساء كثير.

وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿مَنْ طَابَ﴾ على ذكر من يعقل، وحكى بعض الناس أن ﴿مَا﴾ في هذه الآية ظرفية، أي ما دتمت تستحسنون النكاح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا المنزع ضعف. وقال: ﴿مَا﴾ ولم يقل: ﴿مَنْ﴾ لأنه لم يرد تعيين من يعقل، وإنما أراد النوع الذي هو الطيب من جهة التحليل، فكانه قال: فانكحوا الطيب. وهذا الأمر هو نذب لقوم وإباحة لآخرين بحسب قرائن المرء، والنكاح في الجملة والأغلب مندوب إليه، قال

عليه السلام: «من استطاع منكم الباءة فليتزوج».

و﴿مَنْ وَتَلَكَ وَرَبِّعٌ﴾: موضعها من الإعراب نصب على البدل مما طاب، وهي نكرات لا تنصرف لأنها معدولة وصفة، كذا قال أبو علي، وقال غيره: هي معدولة في اللفظ وفي المعنى، وأيضاً فإنها معدولة وجمع، وأيضاً فإنها معدولة مؤنثة، قال الطبري: هي معارف لأنها لا تدخلها الألف واللام، وخطأ الزجاج هذا القول، وهي معدولة عن اثنين وثلاثة وأربعة، إلا أنها مضمنة تكرار العدد إلى غاية المعدود، وأنشد الزجاج لشاعر:

وَلَكُنتُما أَهْلِي بَوادِ أُنَيْسُهُ
ذَنابٌ تَبَغَّى النَّاسَ مثنى وَمَوْحَدٌ
فإنما معناه: اثنين اثنين، وواحد واحد، وكذلك قولك: جاء الرجال مثنى وثلاث، فإنما معناه: اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة.

وقرأ يحيى بن وثاب وإبراهيم النخعي: ﴿وَرَبِّعٌ﴾ ساقطة الألف، وتلك لغة مقصدها التخفيف كما قال الشاعر: على لسان الضب:

لَا أَشْتَهِي أَنْ أَرْدَا
إِلَّا عَرَاداً عَرَاداً
وَصَلِيئَاناً بَرْدَا
وعشكشاً مُنْتَبِداً
يريد: بارداً.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ عَفْتُمْ آلَ قَتَلَبَاءَ فَوَاحِشَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ قال الضحاک وغيره: المعنى: ألا تعدلوا في الميل والمحبة والجماع والعشرة بين الأربع أو الثلاث أو الاثنين، ويتوجه على قول من قال: إنها

نزلت فيمن يخاف أن ينفق ماله التيامى في نكاحاته أن يكون المعنى: ألا تعدلوا في نكاح الأربع والثلاث حتى تنفقوا فيه أموال يتامكم، أي: فتزوجوا واحدة بأموالكم، أو تسروا منها.

ونصب ﴿واحدة﴾ بإضمار فعل تقديره: فانكحوا واحدة. وقرأ عبدالرحمن بن هرمز والحسن: ﴿فواحدة﴾ بالرفع على الابتداء، وتقدير الخبر: فواحدة كافية أو ما أشبهه، ورويت هذه القراءة عن أبي عمرو.

و﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يريد به الإماء، والمعنى: إن خاف ألا يعدل في عشرة واحدة فما ملكت يمينه. وأسند الملك إلى اليمين إذ هي صفة مدح، واليمين مخصوصة بالمحاسن لتمكنها، ألا ترى أنها المنفقة، كما قال عليه السلام: «حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه» وهي المعاهدة المبيعة، وبها سميت الألية يميناً، وهي الملتقية لكتاب النجاة ولرايات المجد، وقد نهى عليه السلام عن استعمالها في الاستنجاء وأمر المرء بالأكمل بها.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

﴿أَدْفَكَ﴾ أقرب، وهو من الدنو، وموضع ﴿أَنْ﴾ من الإعراب نصب بإسقاط الخافض، والناصب أريحية الفعل الذي في ﴿أَدْفَكَ﴾، التقدير: ذلك أدنى إلى ألا تعولوا. و﴿تَتَوَلَّوْا﴾ معناه: تميلوا، قاله ابن عباس وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك والسدي وغيرهم، يقال: عال الرجل يعمل:

إذا مال وجار، ومنه قول أبي طالب في شعره في النبي ﷺ:

بميزان قِسْطٍ لا يَخْسُ شَعْبِيرَةٌ
ووازن صدقٍ وزنه غيرُ عائِلٍ
يريد غير مائل. ومنه قول عثمان لأهل الكوفة حين كتب إليهم: إني لستُ بميزان لا أعول. ويروى بيت أبي طالب: له شاهد من نفسه غير عائل، وعال يعيل، معناه: افتقر فصار عالاً. وقالت فرقة منهم زيد بن أسلم وابن زيد والشافعي: معناه: ذلك أدنى ألا يكثروا عيالكم. وحكى ابن الأعرابي أن العرب تقول: عال الرجل يعول إذا كثر عياله، وقده في هذا الزجاج وغيره، بأن الله قد أباح كثرة السراري، وفي ذلك تكثير العيال، فكيف يكون أقرب إلى ألا يكثروا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القدر غير صحيح، لأن السراري إنما هن ما لا يتصرف فيه بالبيع، وإنما العيال الفادح الحرائر ذوات الحقوق الواجبة.

وقوله: ﴿وَمَا تَوَلَّوْا الْيَتَامَى صَدَقْتَهُنَّ﴾ قال ابن عباس وقتادة وابن جريج: إن الخطاب في هذه الآية للأزواج، أمرهم الله أن يتبرعوا بإعطاء المهور نحلة منهم لأزواجهم. وقال أبو صالح: الخطاب لأولياء النساء، لأن عادة بعض العرب كانت أن يأكل ولي المرأة مهرها، فرفع الله ذلك بالإسلام وأمر بأن يدفع ذلك إليهن. وقال المعتمر بن سليمان عن أبيه: زعم حضرمي أن المراد بالآية المتشاعرون الذين كانوا يتزوجون

امراً بأخرى، فأمرُوا أَنْ يَضْرِبُوا
المهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والآية تتناول هذه الفرق الثلاث.

وقرأ جمهور الناس والسبعة:
﴿صُدَّقْتَيْنِ﴾ بفتح الصاد وضم
الدال، وقرأ موسى بن الزبير وابن
أبي عبللة وفيات بن غزوان
وغيرهم: ﴿صُدَّقَاتِهِنَّ﴾ بضم الصاد
والدال، وقرأ قتادة وغيره:
﴿صُدَّقَاتِهِنَّ﴾ بضم الصاد وسكون
الدال، وقرأ ابن وثاب والنخعي
﴿صُدَّقْتِهِنَّ﴾ بالإفراد وضم الصاد
وضم الدال. والإفراد من هذا كله:
صَدُوقٌ، وَصَدُوقَةٌ.

و﴿عَلَّةٌ﴾: معناه: نحلة منكم لهن،
أي: عطية، وقيل: التقدير: من الله
عز وجل لهن، وذلك لأن الله جعل
الصدقات على الرجال ولم يجعل على
النساء شيئاً، وقيل: نحلة معناه:
شركة، مأخوذ من النحل تقول:
فلان ينتحل دين كذا، وهذا يحسن
مع كون الخطاب للأولياء، ويتجه
مع سواه، ونصبها على أنها من
الأزواج بإضمار فعل من لفظها،
تقديره: انحلوهن نحلة، ويجوز أن
يعمل الفعل الظاهر وإن كان من غير
اللفظ لأنه مناسب للنحلة في
المعنى، ونصبها على أنها من الله
عز وجل بإضمار فعل مقدر من
اللفظ، لا يصح غير ذلك، وعلى
أنها شريعة هي أيضاً من الله.

وقوله: ﴿فَإِنْ طَلَّقَ لَكُمْ عَنْ سَبَوِ يَتِّئَهُ
نَسَاءً كَلُّهُ هَيْبًا تَرِيكَ﴾ الخطاب حسماً
تقدم من الاختلاف في الأزواج
والأولياء، والمعنى: إن وهبن غير

مُكْرَهَاتٍ طَيِّبَةً نفوسهن. والضمير
في: ﴿يَتِّئَهُ﴾ راجع على الصداق،
وكذلك قال عكرمة وغيره، أو على
الإيتاء. وقال حضرمي: سبب الآية
أن قوماً تخرجوا أن يرجع إليهم شيء
مما دفعوا إلى الزوجات. ﴿نَسَاءً﴾
نصب على التمييز، ولا يجوز تقدمه
على العامل عند سيبويه إلا في
ضرورة شعرٍ مع تصرف العامل،
وأجازه غيره في الكلام. ومنه قول
الشاعر:

.....

وما كان نَفْساً بالفراق تطيب
(ومن): تتضمن الجنس هاهنا،
ولذلك يجوز أن تهب المهر كله،
ولو وقفت (من) على التبويض لما
جاز ذلك. وقرئ: ﴿هَيْبًا مَرِيئًا﴾ دون
همز، وهي قراءة الحسن بن أبي
الحسن والزهرى. قال الطبري: ومن
هنا البعير أن يعطي الشفاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا ضعيف؛ وإنما قال اللغويون:
الطعام الهنيء هو السائغ المستحسن
الحميد المغنبة، وكذلك المريء،
قال اللغويون: يقولون: هنائي الطعام
ومرأني على الإتياع، فإذا أفردوا
قالوا: أمرأني على وزن أفعال. قال
أبو علي: وهذا كما جاء في
الحديث: «ارجعن مأزورات غير
مأجورات»، فإنما اعتلت الواو من
موزورات إتياعاً للفظ مأجورات،
فكذلك مرأني إتياعاً لهنائي. ودخل
رجل على علقمة وهو يأكل شيئاً مما
وهبته امرأته من مهرها، فقال له:
كل من الهنيء المريء، قال سيبويه:
هنيئاً مريئاً صفتان نصبوهما نُصِبَ

المصادر المدعو بالفعل غير
المستعمل إظهاره، المختزل للدلالة
التي في الكلام عليه، كأنهم قالوا:
ثبت ذلك هنيئاً مريئاً.

وقوله: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ﴾...
الآية، اختلف المتأولون في المراد
بالسفهاء؛ فقال ابن مسعود والسدي
والضحاك والحسن وغيرهم: نزلت
في ولد الرجل الصغار وامرأته، وقال
سعيد بن جبيرة: نزلت في
المُخْجَرِينَ السفهاء، وقال مجاهد:
نزلت في النساء خاصة، وروي عن
عبدالله بن عمر أنه مرت به امرأة لها
شارة فقال لها: ﴿وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ
أَمْوَالَكُمُ﴾... الآية. وقال أبو موسى
الأشعري والطبري وغيرهما: نزلت
في كل من اقتضى الصفة التي
شرط الله من السفه كان من كان،
وقول من خضعها بالنساء يضعف من
جهة الجمع، فإن العرب إنما تجمع
فعية على فعائل أو فعيلات.

وقوله: ﴿أَمْوَالَكُمُ﴾ يريد أموال
المخاطبين، هذا قول أبي موسى
الأشعري وابن عباس والحسن
وقتادة. وقال سعيد بن جبيرة: يريد
أموال السفهاء، وأضافها إلى
المخاطبين تضييقاً بالأموال، أي: هي
لهم إذا احتاجوا، كأموالكم التي تقي
أعراضكم، وتصونكم وتعظم
أقداركم، ومن مثل هذا: ﴿وَلَا
تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وما جرى مجراه.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن
والنخعي: ﴿اللاتي﴾، والأموال
جمع لما لا يعقل، فالأصوب فيه
قراءة الجماعة.

و﴿يَتِّئَا﴾ جمع قيمة كديمة وديم،

إذا احمر البسر، ولا تقول: إن احمرُ البسر. وقال الحسن وقتادة: الرشد في العقل والدين، وقال ابن عباس: بل في العقل وتدبير المال لا غير، وهو قول ابن القاسم في مذهبا. والرواية الأخرى: إنه في العقل والدين؛ مروية عن مالك. وقالت فرقة: دفع الوصي المال إلى المحجور يفتقر إلى أن يرفعه إلى السلطان ويثبت عنده رشده، أو يكون ممن يأمنه الحاكم في مثل ذلك. وقالت فرقة: ذلك موكل إلى اجتهاد الوصي دون أن يحتاج إلى رفعه إلى السلطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب في أوصياء زمننا ألا يستغنى عن رفعه إلى السلطان وثبوت الرشد عنده، لما حُفظ من تواطؤ الأوصياء على أن يرشد الوصي ويبرأ المحجور لسفهه وقلة تحصيله في ذلك الوقت.

وقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا﴾... الآية، نهي من الله تعالى للأوصياء عن أكل أموال اليتامى بغير الواجب المباح لهم؛ والإشراف: الإفراط في الفعل، والسرف: الخطأ في مواضع الإنفاق، ومنه قول الشاعر:

.....
ما في عطائهم من ولا سرف
أي: لا يخطئون مواضع العطاء.
﴿وَبَدَارًا﴾: معناه: مبادرة كبرهيم، أي: أن الوصي يستغنى مال محجوره فيأكل ويقول: أبادر كبره لثلاث يرشد ويأخذ ماله، قاله ابن عباس وغيره.
﴿وَأَنْ يَكْبُرُوا﴾ نصب بدبادار، ويجوز أن يكون التقدير: مخافة أن.

وقرأ ابن مسعود: ﴿أَحْسَنُمْ﴾ بالحاء وسكون السين على مثال فعلتم، وقرأ أبو عبد الرحمن وأبو السمال وابن مسعود وعيسى الثقفي: ﴿رَشْدًا﴾ بفتح الراء والشين، والمعنى واحد. ومالك رحمه الله يرى الشرطيين: البلوغ والرشد المختبر، وحينئذ يدفع المال؛ وأبو حنيفة يرى أن يدفع المال بالشرط الواحد ما لم يحتفظ له سلفة كما أبيحت التسرية بالشرط الواحد، وكتاب الله قد قيدها بعدم الطول وخوف العنت، إلى غير ذلك من الأمثلة، كاليمين والحنث للذين بعدهما تجب الكفارة، ولكنها تجوز قبل الحنث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتمثيل عندي في دفع المال بنوازل الشرطيين غير صحيح، وذلك أن البلوغ لم تسقه الآية سياق الشرط، ولكنها حالة الغالب على بني آدم أن تلتئم عقولهم فيها، فهو الوقت الذي لا يعتبر شرط الرشد إلا فيه، فقال: إذ بلغ ذلك الوقت فلينظر إلى الشرط وهو الرشد حينئذ، وفصاحة الكلام تدل على ذلك، لأن التوقيف بالبلوغ جاء «بإذا» والمشروط جاء «بإن» التي هي قاعدة حروف الشرط، و«إذا» ليست بحرف شرط لحصول ما بعدها، وأجاز سيبويه أن يجازى بها في الشعر، وقال: فعلوا ذلك مضطرين، وإنما جوزي بها لأنها تحتاج إلى جواب، ولأنها يليها الفعل مظهراً أو مضمراً. واحتج الخليل على منع شرطيتها بحصول ما بعدها، ألا ترى أنك تقول: أجيئك

ولكن شدت في الرد إلى البياء كما شد قولهم: جياذ في جمع جواد، وكما قالت بنو ضبة: طويل وطيال، ونحو هذا، وقوماً وقواماً وقياماً معناه: ثباتاً في صلاح الحال ودواماً في ذلك، وقرأ نافع وابن عامر: ﴿قِيَمًا﴾ بغير ألف، وروي أن أبا عمرو فتح القاف من قوله: (قواماً وقياماً) كان أصله قواماً، فردت كسرة القاف الواو ياءً للتناسب. ذكرها ابن مجاهد ولم ينسبها، وهي قراءة أبي عمرو والحسن، وقرأ الباقون: ﴿قِيَنًا﴾ وقرأت طائفة: ﴿قواماً﴾.

وقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَاهُمْ فِيهَا وَأَكْسَوْهُمْ﴾ قيل: معناه: فيمن يلزم الرجل نفقته وكسوته من زوجه وبنيه الأصاغر، وقيل: في المحجورين من أموالهم، و: ﴿مَمْرُوقًا﴾ قيل: معناه: ادعوا لهم: بارك الله فيكم وحاطكم وصنع لكم، وقيل: معناه: عدوهم وعداؤهم حسناً، أي: إن رشدتهم دفعنا إليكم أموالكم، ومعنى اللفظة: كل كلام تعرفه النفوس وتأنس إليه ويقتضيه الشرع.

تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة للجميع، والمعنى يخلص التلبس بهذا الأمر للأوصياء، والابتلاء: الاختبار، و﴿بَلِّغُوا أَيْتَانِكُمْ﴾ معناه: بلغوا مبلغ الرجال بحلم وحيض أو ما يوازيه، ومعناه: جربوا عقولهم وقرائحهم وتصرفهم، و﴿ءَأْتَسْتُمْ﴾، معناه: علمتم وشعرتم وخبرتم، كما قال الشاعر:

آتست نبأه وأفزعها القنأ
ص عصرأ وقد دنا الإمساء

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ حَيٍّ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَالنَّخَعِيُّ: الْمُرَادُ أَنْ يَأْكُلَ الْوَصِيُّ بِالْمَعْرُوفِ مِنْ مَالِهِ حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى مَالِ الْيَتِيمِ.

وَقَالَ رُبَيْعَةُ بْنُ أَبِي عَبْدِ الرَّحْمَنِ: الْمُرَادُ الْيَتَامَى فِي الْحَالِ، أَيْ: مَنْ كَانَ مِنْهُمْ غَنِيًّا فَلْيُعْفُ بِمَالِهِ، وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَتَّقِرْ عَلَيْهِ بِالْمَعْرُوفِ وَالْإِقْتِصَادِ.

وَقَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ﴾... الآية أمرٌ مِنْ اللَّهِ بِالْتَحَرُّزِ وَالْحَزْمِ، وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فِي الْإِشْهَادِ فِي الْمَدْفُوعَاتِ كُلِّهَا، إِذَا كَانَ حَبْسُهَا أَوْلَى مَعْرُوفًا. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: الْإِشْهَادُ هَاهُنَا فَرَضٌ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هُوَ نَدْبٌ إِلَى الْحَزْمِ، وَرَوَى عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنُ جَبْرِ أَنَّ هَذَا دَفْعٌ مَا يَسْتَقْرِضُهُ الْوَصِيُّ الْفَقِيرُ إِذَا أَيْسَرَ، وَاللَّفْظُ يَعْمُ هَذَا وَسِوَاهُ. وَالْحَسْبِيُّ هُنَا: الْمَحْسَبُ، أَيْ: هُوَ كَافٍ مِنَ الشُّهُودِ، هَكَذَا قَالَ الطَّبْرِيُّ، وَالْأَطْهَرُ أَنْ «حَبِيْبًا» مَعْنَاهُ: حَاسِبًا أَعْمَالَكُمْ وَمَجَازِيًّا بِهَا، فَفِي هَذَا وَعَيْدٌ لِكُلِّ جَاحِدٍ حَقًّا.

٧ - ٨ - ٩ تفسير قوله عز وجل: سَمَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ الْأَبَّ وَالِدًا لِأَنَّ الْوَالِدَ مِنْهُ وَمِنَ الْوَالِدَةِ، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ حَيٍّ: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾... الآية، يُقَالُ: عَفَفَ الرَّجُلُ عَنِ الشَّيْءِ وَاسْتَعْفَفَ: إِذَا أَمْسَكَ، فَأَمَرَ الْغَنِيُّ بِالْإِمْسَاكِ عَنِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَبَاحَ اللَّهُ لِلْوَصِيِّ الْفَقِيرِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ مَالِ يَتِيمِهِ بِالْمَعْرُوفِ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي حَدِّ الْمَعْرُوفِ؛ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدَةُ وَابْنُ جَبْرِ وَالشَّعْبِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ: إِنَّ ذَلِكَ الْقَرَضُ، أَنْ يَتَسَلَّفَ مِنْ مَالِ يَتِيمِهِ وَيَقْضِي إِذَا أَيْسَرَ، وَلَا يَتَسَلَّفَ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَعُكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَطَاءٌ: رَوَى عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي نَزَلْتُ مِنْ مَالِ اللَّهِ مَنْزِلَةً وَالْيَتِيمِ، إِنَّ اسْتَعْفَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ، وَإِنْ احْتَجْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ، فِإِذَا أَيْسَرْتُ قَضَيْتُ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾... الآية، يُقَالُ: عَفَفَ الرَّجُلُ عَنِ الشَّيْءِ وَاسْتَعْفَفَ: إِذَا أَمْسَكَ، فَأَمَرَ الْغَنِيُّ بِالْإِمْسَاكِ عَنِ مَالِ الْيَتِيمِ، وَأَبَاحَ اللَّهُ لِلْوَصِيِّ الْفَقِيرِ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ مَالِ يَتِيمِهِ بِالْمَعْرُوفِ.

وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي حَدِّ الْمَعْرُوفِ؛ فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ وَابْنُ عَبَّاسٍ وَعَبِيدَةُ وَابْنُ جَبْرِ وَالشَّعْبِيُّ وَمُجَاهِدٌ وَأَبُو الْعَالِيَةِ: إِنَّ ذَلِكَ الْقَرَضُ، أَنْ يَتَسَلَّفَ مِنْ مَالِ يَتِيمِهِ وَيَقْضِي إِذَا أَيْسَرَ، وَلَا يَتَسَلَّفَ أَكْثَرَ مِنْ حَاجَتِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا وَعُكْرَمَةُ وَالسُّدِّيُّ وَعَطَاءٌ: رَوَى عَنْ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنِّي نَزَلْتُ مِنْ مَالِ اللَّهِ مَنْزِلَةً وَالْيَتِيمِ، إِنَّ اسْتَعْفَيْتُ اسْتَعْفَفْتُ، وَإِنْ احْتَجْتُ أَكَلْتُ بِالْمَعْرُوفِ، فِإِذَا أَيْسَرْتُ قَضَيْتُ.

وَرَوَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ وَعَطَاءٍ وَغَيْرِهِمَا أَنَّهُ لَا قِضَاءَ عَلَى الْوَصِيِّ الْفَقِيرِ فِيمَا أَكَلَ بِالْمَعْرُوفِ، قَالَ الْحَسَنُ: هِيَ طَعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ لَهُ، وَذَلِكَ أَنْ يَأْكُلَ مَا يَقِيمُهُ أَكْلًا بِأَطْرَافِ الْأَصَابِعِ، وَلَا يَكْتَسِي مِنْهُ بِوَجْهِهِ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَمَكْحُولٌ: يَأْكُلُ مَا يَقِيمُهُ وَيَكْتَسِي مَا يَسْتَرُ عَوْرَتَهُ، وَلَا يَلْبَسُ الْكِتَانُ وَالْحَلْلَ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَأَبُو الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنُ وَالشَّعْبِيُّ: إِنَّمَا يَأْكُلُ الْوَصِيُّ بِالْمَعْرُوفِ إِذَا شَرِبَ مِنَ اللَّبَنِ وَأَكَلَ مِنَ الشَّمْرِ، بِمَا يَهْنَأُ الْجَرَبِيُّ، وَيَلْبَسُ الْحَوْضَ، وَيَجِدُّ الشَّمْرَ، وَمَا شَابَهُ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: الْمَعْرُوفُ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَجْرٌ يَقْدَرُ عَمَلُهُ وَخِدْمَتُهُ.

بحيث يعتش الغراب البائض

لأن البيض من الأنثى والذكر. قال قتادة وعكرمة وابن زيد: وسبب هذه الآية أن العرب كان منها من لا يورث النساء ويقول: لا يرث إلا من طاعن بالرمح وقاتل بالسيف، فنزلت هذه الآية.

قال عكرمة: سببها خبر أم كحلثة، مات زوجها وهو أوس بن سويد وترك لها بنتاً فذهب عم بنيتها إلى ألبا، فذهبت إلى النبي ﷺ، فقال العم: هي يا رسول الله لا تقاتل، ولا تحمل كلاً، ويكسب عليها، ولا تكسب، واسم العم ثعلبة فيما ذكر.

و«نصيياً مَفْرُوضاً» نصب على الحال، كذا قال مكِّي، وإنما هو اسم نصب كما ينصب المصدر في موضع الحال، تقديره: فرضاً، ولذلك جاز نصبه، كما تقول: لك

عند سبويه قياساً على حروف الجر إلا في ضرورة شعر، ومنه قول الشاعر:

محمدٌ تفدي نفسك كل نفس
إذا ما خفت من أمر تبالا
وقرأ أبو حيوة وعيسى بن عمر
والحسن والزهري: بكسر لامات
الأمر في هذه الآية.

وقد تقدم الكلام على لفظ ﴿ذُرِّيَّةٌ﴾ في سورة آل عمران. ومفعول (يخشى) محذوف لدلالة الكلام عليه، وَخَسَّنَ حذفه من حيث يتقدر فيه التخويف بالله تعالى، والتخويف بالعاقبة في الدنيا، فينظر كل متأول بحسب الأهم في نفسه.

وقرأ أبو عبدالرحمن وأبو حيوة والزهري وابن محيصن وعائشة: ﴿ضُمَّفَاءٌ﴾ بالمد وضم الضاد، وروي عن ابن محيصن: ﴿ضُمَّفَاءٌ﴾ بضم الضاد والعين وتنوين الفاء، وأمال حمزة ﴿ضُمَّفَاءً﴾، وأمال ﴿خَافُوا﴾، والداعي إلى إمالة ﴿خَافُوا﴾ الكسرة التي في الماضي في قولك: خِفت، ليدل عليها. و﴿خَافُوا﴾ جواب ﴿لَوْ﴾ تقديره: لو تركوا لخافوا، ويجوز حذف اللام في جواب ﴿لَوْ﴾، تقول: لو قام زيد لقام عمرو، ولو قام زيد قام عمرو.

واختلف؛ من المراد بهذه الآية؟ فقال ابن عباس وقتادة والسدي وابن جبير والضحاك ومجاهد: المراد من حضر ميتاً حين يوصي فيقول له: قدم لنفسك وأعط لفلان وفلانة، ويؤذي الورثة بذلك، فكان الآية تقول لهم: كما كنتم تخشون على ورثتكم وذريتكم بغدكم، فكذلك

على وجه المعروف فقط، يقوله ولي الوارث دون عطاء ينفذ، وقالت فرقة: بل يعطي ولي الوارث الصغير من مال محجوره بقدر ما يرى.

والقول الثاني - فيمن خطب بها - أن الخطاب للمحتضرين الذين يقسمون أموالهم بالوصية، فالمعنى: إذا حضركم الموت أيها المؤمنون، وقسمتم أموالكم بالوصية، وحضركم من لا يرث من ذي القرابة واليتامى فارزقوهم منه، قال ابن عباس وسعيد بن المسيب وابن زيد: كانوا يقولون للوصي: فلان يقسم ماله، ومعنى ﴿حَضَرَ﴾: شهد، إلا أن الصفة بالضعف واليتم والمسكنة تقضي أن ذلك هو علة الرزق، فحيث وجدت رزقوا وإن لم يحضروا القسمة، و﴿أَزْوَاجاً﴾: اسم جمع لا واحد له من لفظه، ولا يكون إلا مضافاً للإبهام الذي فيه، وربما كان واحده من غير لفظه «ذو». واليتم: الانفراد، واليتيم: الفرد، وكذلك سمي من فقد أباه يتيماً لانفراده، ورأى عبيدة ومحمد بن سيرين أن الرزق في هذه الآية أن يُصنع لهم طعام يأكلونه، وفعل ذلك: ذبحا شاة من التركة.

والضمير في قوله: ﴿فَارْزُقُوهُمْ﴾ وفي قوله: ﴿لَكُمْ﴾ عائذ على الأصناف الثلاثة، وغير ذلك من تفریق عود الضميرين - كما ذهب إليه الطبري - تحكّم؛ والقول المعروف كل ما يؤنس به من دعاء أو عذبة أو غير ذلك.

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ﴾ جزم بلام الأمر، ولا يجوز إضمار هذه اللام

علي كذا وكذا حقاً واجباً، ولولا معنى المصدر الذي فيه ما جاز في الاسم الذي ليس بمصدر هذا النصب، وكان حقه الرفع.

وقوله: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ﴾... الآية، اختلف المتأولون فيمن خطب بهذه الآية على قولين:

أحدهما: أنها مخاطبة للوارثين، والمعنى: إذا حضر قسمتكم لمال موروثكم هذه الأصناف الثلاثة، فارزقوهم منه، ثم اختلف قائلو هذا القول؛ فقال سعيد بن المسيب وأبو مالك والضحاك وابن عباس فيما حكى عنه المهدوي: نسخ ذلك بآية الموارث. وكانت هذه قسمة قبل الموارث، فأعطى الله بعد ذلك كل ذي حق حقه، وجعلت الوصية للذين يحزنون ولا يرثون. وقال ابن عباس والشعبي ومجاهد وابن جبير: ذلك محكم لم ينسخ. وقال ابن جبير: وقد ضيع الناس هذه الآية، قال الحسن: ولكن الناس شحوا، وامتثل ذلك جماعة من التابعين: عروة بن الزبير وغيره، وأمر به أبو موسى الأشعري.

واختلف القائلون بإحكامها؛ فقالت فرقة: ذلك على جهة الفرض والوجوب أن يعطي الورثة لهذه الأصناف ما نفه وطابت به نفوسهم كالماعون والثوب الخلق، وما خفت كالتابوت، وما تعذر قسمه. وقال ابن جبير والحسن: ذلك على جهة الندب، فمن تركه فلا حرج عليه.

واختلف في هذا القول إذا كان الوارث صغيراً لا يتصرف في ماله؛ فقال سعيد بن جبير وغيره: هذا

فَاخْشَوْا عَلَى وِرْثَةِ غَيْرِكُمْ وَذَرِيَّتِهِ، وَلَا تَحْمِلُوهُ عَلَى تَبْذِيرِ مَالِهِ وَتَرْكِهِمْ عَالَةً. وَقَالَ مَقْسَمٌ وَحَضْرَمِي: نَزَلَتْ فِي عَكْسِ ذَلِكَ، وَهُوَ أَنْ يَقُولَ لِلْمَحْتَضِرِ: أَمْسِكْ عَلَى وَرِثَتِكَ، وَأَبْقِ لِوَلَدِكَ، وَبِنِهَاةٍ عَنِ الْوَصِيَّةِ فَيَضُرُّ بِذَلِكَ ذَوِي الْقُرْبَى وَكُلُّ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَوْصَى لَهُ، فَقِيلَ لَهُمْ: كَمَا كُنْتُمْ تَخْشَوْنَ عَلَى ذَرِيَّتِكُمْ وَتَسْرُونَ بِأَنْ يَحْسَنَ إِلَيْهِمْ، فَكَذَلِكَ فَسَدُّوا الْقَوْلَ فِي جِهَةِ الْمَسَاكِينِ وَالْيَتَامَى، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي ضَرْمِهِمْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا الْقَوْلَانِ لَا يَطْرُدُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا فِي كُلِّ النَّاسِ، بَلِ النَّاسُ صِنْفَانِ: يَصْلُحُ لِأَحَدِهِمَا الْقَوْلُ الْوَاحِدُ، وَلِلْآخَرِ الْقَوْلُ الثَّانِي، وَذَلِكَ أَنَّ الرَّجُلَ إِذَا تَرَكَ وَرْثَةً مُسْتَقْلِلِينَ بِأَنْفُسِهِمْ أَغْنِيَاءَ حَسَنًا أَنْ يُتَذَبَّ إِلَى الْوَصِيَّةِ، وَيَحْمَلُ عَلَى أَنْ يُقَدَّمَ لِنَفْسِهِ، وَإِذَا تَرَكَ وَرْثَةً ضَعْفَاءَ مَقْلَبِينَ حَسَنًا أَنْ يَنْدَبَ إِلَى التَّرْكِ لَهُمْ وَالِاحْتِيَاظُ، فَإِنْ أَجْرَهُ فِي قَضِيٍّ ذَلِكَ كَأَجْرِهِ فِي الْمَسَاكِينِ، فَالْمِرَاعَى إِنَّمَا هُوَ الضَّعْفُ، فَيَجِبُ أَنْ يَمَالَ مَعَهُ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضًا: الْمُرَادُ بِالْآيَةِ وَلَاةُ الْإِيْتَامِ، فَالْمَعْنَى: أَحْسِنُوا إِلَيْهِمْ، وَسَدُّوا الْقَوْلَ لَهُمْ، وَاتَّقُوا اللَّهَ فِي أَكْلِ أَمْوَالِهِمْ كَمَا تَخَافُونَ عَلَى ذَرِيَّتِكُمْ أَنْ يَفْعَلَ بِهِمْ خِلَافَ ذَلِكَ.

وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: بَلِ الْمُرَادُ جَمِيعِ النَّاسِ، فَالْمَعْنَى: أَمْرُهُمْ بِاتِّقَاءِ اللَّهِ فِي الْإِيْتَامِ وَأَوْلَادِ النَّاسِ وَإِنْ لَمْ يَكُونُوا فِي حُجُورِهِمْ، وَأَنْ يَسُدُّوا

لَهُمُ الْقَوْلُ كَمَا يَرِيدُ كُلُّ أَحَدٍ أَنْ يَفْعَلَ بَوْلَدِهِ بَعْدَهُ.

وَمِنْ هَذَا مَا حَكَاهُ الشَّيْبَانِيُّ قَالَ: كُنَّا عَلَى قَسْطَنْطِينِيَّةَ فِي عَسْكَرِ مُسْلِمَةَ بْنِ عَبْدِ الْمَلِكِ، فَجَلَسْنَا يَوْمًا فِي جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ فِيهِمْ الذُّبُلِيُّ، فَتَذَاكُرُوا مَا يَكُونُ مِنْ أَهْوَالِ آخِرِ الزَّمَانِ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا بَسْرٍ، وَذِي الْأَلَى يَكُونُ لِي وَلَدٌ، فَقَالَ لِي: مَا عَلَيْكَ، مَا مِنْ نَسْمَةٍ قَضَى اللَّهُ بِخُرُوجِهَا مِنْ رَجُلٍ إِلَّا خَرَجَتْ أَحَبَّ أَوْ كَرَهُ، وَلَكِنْ إِنْ أَرَدْتَ أَنْ تَأْمَنَ عَلَيْهِمْ فَاتَّقِ اللَّهَ فِي غَيْرِهِمْ، ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ. وَالسُّدِيدُ: مَعْنَاهُ: الْمَصِيبُ لِلْحَقِّ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ
فَلَمَّا اشْتَدَّ سَاعِدُهُ رِمَانِي
مَعْنَاهُ: لَمَّا وَافَقَ الْأَغْرَاضَ الَّتِي يَرْمِي إِلَيْهَا.

١١ - ١٠ تفسير قوله عز وجل:

قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَزَلَتْ فِي الْكُفَّارِ الَّذِينَ كَانُوا لَا يُورَثُونَ النِّسَاءَ وَالصِّغَارَ، وَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَهُمْ. وَقَالَ أَكْثَرُ النَّاسِ: نَزَلَتْ فِي الْأَوْصِيَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ مَا لَمْ يَبِخْ لَهُمْ مِنْ مَالِ الْيَتِيمِ. وَهِيَ تَتَنَاوَلُ كُلَّ أَكْلٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ وَصِيًّا. وَسُمِّيَ أَخْذُ الْمَالِ عَلَى كُلِّ وَجْهِهِ أَكْلًا لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ هُوَ الْأَكْلُ، وَبِهِ أَكْثَرُ الْإِتْلَافِ لِلْأَشْيَاءِ. وَفِي نَفْسِهِ عَلَى الْبَطُونِ مِنَ الْفَصَاحَةِ تَبْيِينُ نَقْصِهِمْ، وَالتَّشْنِيعُ عَلَيْهِمْ بِضَدِّ مَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، مِنْ التَّهَابُتِ بِسَبَبِ الْبَطْنِ، وَهُوَ أَنْقَصُ الْأَسْبَابِ وَالْأَمَهَا حَتَّى يَدْخُلُوا تَحْتَ الْوَعِيدِ بِالنَّارِ.

و﴿ظُلْمًا﴾ مَعْنَاهُ: مَا جَاوَزَ الْمَعْرُوفَ مَعَ فِقْرِ الْوَصِيِّ، وَقَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْمَعْنَى: إِنَّهُ لَمَّا يُوْوَلُّ أَمْوَالَهُمْ لِلْأَمْوَالِ إِلَى دَخْلِهِمُ النَّارِ قِيلَ: يَا كَلُونَ النَّارِ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: بَلِ هِيَ حَقِيقَةٌ أَنَّهُمْ يَطْعَمُونَ النَّارَ، وَفِي ذَلِكَ أَحَادِيثٌ، مِنْهَا حَدِيثُ أَبِي سَعِيدِ الْخَدْرِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا النَّبِيُّ ﷺ عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِي بِهِ قَالَ: «رَأَيْتُ أَقْوَامًا لَهُمْ مَشَافِرُ كَمَشَافِرِ الْإِبِلِ، وَقَدْ وَكَّلَ بِهِمْ مِنْ يَأْخُذُ بِمَشَافِرِهِمْ ثُمَّ يَجْعَلُ فِي أَفْوَاهِهِمْ صَخْرًا مِنْ نَارٍ يَخْرُجُ مِنْ أَسْفَلِهِمْ، قُلْتُ: يَا جَبْرِيلُ مَنْ هَؤُلَاءِ؟ قَالَ: هُمُ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا».

وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: ﴿وَسَيُصَلِّونَ﴾ عَلَى إِسْنَادِ الْفِعْلِ إِلَيْهِمْ، وَقَرَأَ ابْنُ عَامِرٍ بِضَمِّ الْبَاءِ، وَاخْتَلَفَ عَنْ عِاصِمٍ، وَقَرَأَ أَبُو حَبِيبَةَ: ﴿وَسَيُصَلِّونَ﴾ عَلَى بِنَاءِ الْفِعْلِ لِلْمَفْعُولِ، بِضَمِّ الْبَاءِ وَفَتْحِ الصَّادِ وَشَدِّ اللَّامِ عَلَى التَّكْثِيرِ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عِبِلَةَ: ﴿وَسَيُصَلِّونَ﴾ بِضَمِّ الْبَاءِ وَاللَّامِ، وَهِيَ ضَعِيفَةٌ، وَالْأَوَّلُ أَصُوبٌ، لِأَنَّهُ كَذَلِكَ جَاءَ فِي الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَا يَسْلَمْنَا إِلَّا الْآتِنَى﴾ وَفِي قَوْلِهِ: ﴿صَالِيَ الْجَنَّةِ﴾، وَالصَّلَا هُوَ التَّسَخُّنُ بِقُرْبِ النَّارِ أَوْ بِمَبَاشَرَتِهَا، وَمِنْهُ قَوْلُ الْحَارِثِ بْنِ عَبَادٍ:

لَمْ أَكُنْ مِنْ جَنَاتِهَا عِلْمَ الدُّعَى، وَإِنِّي بِحَرِّهَا الْيَوْمَ صَالٍ
وَالْمَحْتَرِقُ الَّذِي يُذْهِبُهُ الْحَرَقُ لَيْسَ بِصَالٍ إِلَّا فِي بَدءِ أَمْرِهِ، وَأَهْلُ جَهَنَّمَ لَا تَذْهَبُهُمْ فَهْمٌ فِيهَا صَالُونَ؛ وَالسَّعِيرُ: الْجَمْرُ الْمَشْتَعِلُ.

وهذه آية من آيات الوعيد، والذي يعتقدُه أهل السنة أن ذلك نافذٌ على بعض العصاة، لثلا يقع الخبر بخلاف مخيره، ساقط بالمشيئة عن بعضهم، وتلخيص الكلام في المسألة: إن الوعد في الخير، والوعيد في الشر، هذا عرفهما إذا أطلقا، وقد يستعمل الوعد في الشر مقيداً به، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾. فقالت المعتزلة: آيات الوعد كلها في التائبين والطائعين، وآيات الوعد في المشركين والعصاة بالكبائر - وقال بعضهم: وبالصغائر.. وقالت المرجئة: آيات الوعد كلها فيمن اتصف بالإيمان الذي هو التصديق، كان من كان من عاص أو طائع. وقلنا أهل السنة والجماعة: آيات الوعد في المؤمنين الطائعين ومن حازته المشيئة من العصاة، وآيات الوعيد في المشركين ومن حازه الإنفاذ من العصاة، والآية الحاكمة بما قلناه قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، فإن قالت المعتزلة: لمن يشاء يعني التائبين، رد عليهم بأن الفائدة في التفضيل كانت تنفسد، إذ الشرك أيضاً يُغْفَرُ للتائب، وهذا قاطع بحكم قوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾ بأن ثم مغفوراً له وغير مغفور، واستقام المذهب السني.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْمِرُكُمُ﴾ يتضمن الفرض والوجوب، كما تتضمنه لفظة «أمر» كيف تصرفت، وأما صيغة الأمر من غير اللفظة ففيها الخلاف الذي سيأتي موضعه إن شاء الله،

ونحو هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَمَنْكُمْ بِهِ﴾.

وقيل: نزلت هذه الآية بسبب بنات سعد بن الربيع، وقال السدي: نزلت بسبب بنات عبدالرحمن بن ثابت أخي حسان بن ثابت، وقيل: بسبب جابر بن عبدالله، إذ عاده رسول الله ﷺ في مرضه، قال جابر بن عبدالله: وذكر أن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون إلا من لاقى الحروب وقاتل العدو، فنزلت الآيات تبيناً أن لكل أنثى وصغير حظ. وروي عن ابن عباس أن نزول ذلك كان من أجل أن المال كان للولد، والوصية للوالدين، فنسخ ذلك بهذه الآيات.

﴿يَتَذَكَّرُ﴾ مرتفع بالابتداء أو بالصفة، تقديره: حظ مثل حظ. وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿فِي أَوْلَادِكُمْ أَنْ لِلذَّكَرِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً...﴾ الآية. الأولاد لفظ يجمع الذكران والإناث، فلما أراد بهذه الآية أن يخص الإناث بذكر حكمهن أتت الفعل للمعنى، ولو اتبع لفظ الأولاد لقال: كانوا، واسم كان مضمراً، وقال بعض نحويي البصرة: تقديره: وإن كن المتروكات نساء.

وقوله: ﴿فَوَقَّ الْأَنْثَتَيْنِ﴾ معناه: اثنتين فما فوقهما، تقتضي ذلك قوة الكلام، وأما الوقوف مع اللفظ فيسقط معه النص على الاثنتين، ويثبت الثلثان لهما بالإجماع الذي مرت عليه الأمصار والأعصار، ولم يحفظ فيه خلاف، إلا ما روي عن

عبدالله بن عباس أنه يرى لهما النصف. ويثبت أيضاً ذلك لهما بالقياس على الأختين المنصوص عليهما، ويثبت ذلك لهما بالحديث الذي ذكره الترمذي أن رسول الله ﷺ قضى للابنتين بالثلثين، ومن قال: ﴿فَوَقَّ زائدة واحتج بقوله تعالى: ﴿فَوَقَّ الْأَعْنَاقِ﴾ يريد: اضربوا منهم الأعناق؛ فقوله خطأ لأن الظروف وجميع الأسماء لا يجوز في كلام العرب أن تراد لغير معنى، ولأن قوله: ﴿فَوَقَّ الْأَعْنَاقِ﴾ هو الفصح وليست ﴿فَوَقَّ﴾ زائدة بل هي محكمة المعنى لأن ضربة العنق إنما يجب أن تكون فوق العظام في المفصل دون الدماغ، كما قال دريد بن الصمة: اخفض عن الدماغ وارفع عن العظم، فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال.

وقد احتج لأخذهما الثلثين بغير هذا، وكله معارض، قال إسماعيل القاضي: إذا كانت البنت تأخذ مع أخيها الثلث إذا انفرد، فأحرى أن تأخذ ذلك مع أختها؛ قال غيره: وكما كان حكم الاثنتين فما فوقهما من الإخوة للام واحداً، فكذلك البنات.

وقال النحاس: لغة أهل الحجاز وبني أسد: الثلث والرُبُع إلى العشر، وقد قرأ الحسن ذلك كله بإسكان الأوسط، وقرأه الأعرج. ومذهب الزجاج أنها لغة واحدة، وأن سكون العين تخفيف.

وإذا أخذ بنات الصلب الثلثين، فلا شيء بعد ذلك لبنات الابن، إلا أن يكون معهن أخ لهن، أو ابن أخ،

فيرد عليهم، وعبدالله بن مسعود لا يرى لهم شيئاً وإن كان الأخ أو ابن الأخ، ويرى المال كله للذكر وحده دونهن.

﴿تفسير قوله عز وجل﴾:

قرأ السبعة سوى نافع: ﴿وَجِدَّةٌ﴾ بالنصب على خبر «كان»؛ وقرأ نافع: ﴿وَاحِدَةٌ﴾ بالرفع على أن كان بمعنى وقع وحضر؛ وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿النَّصْفُ﴾ بضم النون، وكذلك قرأه علي بن أبي طالب وزيد بن ثابت في جميع القرآن.

وقوله: ﴿وَالَّذِي﴾ يريد ذكراً أو أنثى، واحداً أو جماعة، للصلب أو لوليد ذكر، فإن ذلك كيف وقع يجعل فرض الأب السدس، وإن أخذ النصف في ميراثه فإنما يأخذه بالتعصيب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَكُمْ وَلَدٌ﴾... الآية، المعنى: فإن لم يكن له ولد، ولا ولدٌ وُلِدَ، ذكراً كان أو أنثى. وقوله: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ تقتضي قوة الكلام أنهما منفردان عن جميع أهل السهام من ولد وغيره، فعلى هذا يكون قوله: ﴿وَوَرِثَهُ﴾ حكماً لهما بالمال، فإذا ذكر وحده بعد ذلك نصيب أحدهما أخذ النصيب الآخر، كما تقول لرجلين: هذا المال بينكما، ثم تقول لأحدهما: أنت يا فلان لك منه الثلث، فقد حددت للآخر منه الثلثين بنص كلامك

وعلى أن فريضة خلت من

الولد وغيره يجيء قول أكثر الناس: إن للآم مع الانفراد الثلث من المال كله، فإن كان معهما زوج كان للآم السدس، وهو الثلث بالإضافة إلى الأب. وعلى أن الفريضة خلت من الولد فقط يجيء قول شريح وابن عباس: إن الفريضة إذا خلت من الولد أخذت الأم الثلث من المال كله مع الزوج، وكان ما بقي للآب، ويجيء على هذا قوله: ﴿وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ﴾ منفردين أو مع غيرهما.

وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فَلِأُمَّهِ﴾ بكسر الهمزة، وهي لغة حكاها سيبويه، وكذلك كسر الهمزة من قوله: ﴿فِي بُطُونِ إِمَائِكُمْ﴾، وفي إِمَائِهِمَا، وفي إِمَّهَا، وكذا إذا وصلاً إبتاعاً للكسرة أو الباء التي قبل الهمزة. وقرأ الباقون كل هذا بضم الهمزة، وكسر همزة الميم من ﴿إِمَائِكُمْ﴾ إبتاعاً لكسر الهمزة، ومتى لم يكن وصل وباء أو كسرة فالضم باتفاق.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ أَلْفٌ شَدْرًا﴾ الإخوة يحطون الأم إلى السدس ولا يأخذونه، أشقاء كانوا أو للآب أو للآم، وقال من لا يُعده قوله إلا في الشذوذ: إنهم يحطون ويأخذون ما يحطون لأنفسهم مع الأب، روي عن ابن عباس، وروي عنه خلافه مثل قول السدس الذي يحجبون الأم عنه، قال قتادة: وإنما أخذ الأب دونهم، لأنه يمونهم، ويولي نكاحهم، والنفقة عليهم، هذا في الأغلب،

ومجمعون على أن أخوين فصاعداً يحجبون الأم عنه، إلا ما روي عن عبدالله بن عباس: أن الأخوين في حكم الواحد، ولا يحجب الأم أقل من ثلاثة. واستدل الجميع بأن أقل الجمع اثنان، لأن التثنية جمع شيء إلى مثله، فالمعنى يقتضي أنها جمع، وذكر المفسرون أن العرب قد تأتي بلفظ الجمع وهي تريد التثنية، كما قال تعالى: ﴿وَوَارِثَةٌ وَسَلِيمَةٌ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِنَكْتُمُهُمْ شَاهِدِينَ﴾، وكقوله في آية الخصم: ﴿إِذْ تَسَوَّأَ الْمُحْرَبُونَ لِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾، واحتجوا بهذا كله في أن الإخوة يدخل تحت الأخوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآيات كلها لا حجة فيها عندي على هذه الآية، لأنه قد تبين في كل آية منها بالنص أن المراد اثنان، فسأغ التجوز بأن يؤتى بلفظ الجمع بعد ذلك، إذ معك في الأولى ﴿يَحْكُمَانِ﴾، وفي الثانية ﴿إِنَّ هَذَا أَخِي﴾، وأيضاً فالحكم قد يضاف إلى الحاكم والخصوم، وقد يتصور مع الخصم غيرهما فهم جماعة، وأما ﴿أَلْفٌ شَدْرًا﴾ في الآية الثالثة فالآلف واللام فيه للجنس فإنما أراد طرفي كل يوم، وأما إذا ورد لفظ الجمع ولم يقترن به ما يبين المراد فإنما يحمل على الجمع، ولا يحمل على التثنية، لأن اللفظ مالك للمعنى، وللبنية حق. وذكر

الصفة، و﴿لَا تَدْرُونَ﴾ عامل في الجملة بالمعنى ومعلق عن العمل في اللفظ بحسب المعمول فيه، إذ الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، و﴿تَمَّتْ﴾ قال مجاهد والسدي وابن سيرين: معناه: في الدنيا، أي: إذا اضطر إلى إنفاقهم للحاجة، نحا إليه الزجاج، وقد ينفقون دون اضطرار، وقال ابن عباس والحسن: في الآخرة، أي: بشفاعة الفاضل للمفضول، وقال ابن زيد: فيهما، واللفظ يقتضي ذلك، و﴿وَرِيَّةٌ﴾ نصب على المصدر المؤكد، إذ معنى ﴿يُؤَيِّرُ﴾ يفرض عليكم. قال مكّي وغيره: هي حال مؤكدة، وذلك ضعيف. والعامل ذلك ضعيف. والعامل ﴿يُؤَيِّرُ﴾، و﴿كَانَ﴾ هي الناقصة، قال سيبويه: لما رأوا علماً وحكمة قيل لهم: إن الله لم يزل هكذا، وصيغة ﴿كَانَ﴾ لا تعطي إلا الماضي، ومن المعنى بعد يعلم أن الله تعالى كان كذلك، وهو يكون، لا من لفظ الآية، وقال قوم: ﴿كَانَ﴾ بمعنى وجد ووقع، و﴿عَلِمًا﴾ حال، وفي هذا ضعف، ومن قال: ﴿كَانَ﴾ زائدة فقوله خطأ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ...﴾ الآية، الخطاب للرجال، والولد هاهنا: بنو الصلب وبنو ذكورهم وإن سفلوا، ذكراً وإناثاً، واحداً فما زاد، هذا بإجماع من العلماء.

﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

والولد في هذه الآية كما تقدم في

يقصد بها ترتيبها في أنفسهما، ولذلك تقدمت الوصية في اللفظ، والذين مقدم على الوصية بإجماع، والذي أقول في هذا: إنه قدم الوصية إذ هي أقل لزوماً من الدين، اهتماماً بها وندباً إليها، كما قال تعالى: ﴿لَا يُعَادِرُ صَيِّرَةً وَلَا كَبِيرَةً﴾، وأيضاً قدمها من جهة أنها مضمنها الوصية التي هي كاللازم يكون لكل ميت، إذ قد حضّ الشرع عليها، وآخر الذين لشذوذهم، وأنه قد يكون ولا يكون، فبدأ بذكر الذي لا بد منه، ثم

عطف بالذي قد يقع أحياناً، ويقوي هذا كون العطف بأو، ولو كان الذين راتباً لكان العطف بالواو، وقدمت الوصية أيضاً إذ هي حظّ مساكين وضعاف، وأخّر الذين إذ هو حظّ غريم يطلبه بقوة، وهو صاحب حق له فيه، كما قال عليه السلام: «إن لصاحب الحق مقالاً». وأجمع العلماء على أنه ليس لأحد أن يوصي بأكثر من الثلث، واستحبّ كثير منهم ألا يبلغ الثلث، وأن يغضّ الناس إلى الربع.

﴿١١﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَأَبَاؤَكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾ رفع بالابتداء، والخبر مضمّر تقديره: هم المقسوم عليهم وهم المعطون، وهذا عرض للحكمة في ذلك، وتأنيس للعرب الذين كانوا يورثون على غير هذه

﴿١١﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِنْ لَمْ يَكُن لهنَّ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمْ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبْعُ مِمَّا تَرَكَنَّ إِنْ لَمْ يَكُن لَكُمْ وَلَدٌ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّلُثُ مِمَّا تَرَكَنَّ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوَصِّونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِنْ كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوْ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِنْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١١﴾ ﴿١٢﴾ وَإِلَى اللَّهِ حُجُودُ اللَّهِ وَمَنْ يَطِغْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ الْعَمَلِ الْعَظِيمِ ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٣﴾

بعض من احتج لقول عبدالله بن عباس: إن بناء التشنية يدل على الجنس والعدد كبناء الإفراد، وبناء الجمع يدل على الجنس ولا يدل على العدد، فلا يصح أن يدخل هذا على هذا.

وقرأ نافع وأبو عمرو وحمزة والكسائي: ﴿يُؤَيِّرُ﴾ بإسناد الفعل إلى الموروث، إذ قد تقدم له ذكر، وقرأ ابن كثير وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿يُؤَوِّصِي﴾ بفتح الصاد بنية الفعل للمفعول الذي لم يُسم فاعله، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يُؤَوِّصِي﴾ بفتح الصاد وتشديدها، وكل هذا في الموضعين، وقرأ حفص عن عاصم في الأولى بالفتح، وفي الثانية بالكسر.

وهذه الآية إنما قصد بها تقديم هذين الفعلين على الميراث، ولم

الآية التي قبلها، و﴿أَلْتُمُنُّ﴾ للزوجة أو للزوجات من فيه مشتركات بإجماع، ويلحق العول فرض الزوج والزوجة، كما يلحق سائر الفرائض المسماة، إلا عند ابن عباس، فإنه قال: يعطيان فرضهما بغير عول. والكلالة: مأخوذة من تكليل النسب، أي: أحاط، لأن الرجل إذا لم يتترك والدًا ولا ولدًا فقد انقطع طرفاه، وبقي أن يرثه من يتكلمه نسبه، أي: يحيط به من نواحيه كالإكليل، وكالنبات إذا أحاط بالشيء، ومنه: روض مُكَلَّلٌ بالزهر، والإكليل: منزل القمر يحيط به فيه كواكب، ومن الكلالة قول الشاعر:

فإن أبا المرء أحمى له
ومولى الكلالة لا يغضب
فالأب والابن هما عمودا النسب
وسائر القرابة يكللون. وقال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب وابن عباس وسليم بن عبيد وقتادة والحكم وابن زيد والزهرى وأبو إسحاق السبيعي: الكلالة: خلو الميت عن الولد والوالد، وهذا هو الصحيح. وقالت طائفة: هي خلو الميت من الولد فقط، وروي ذلك عن أبي بكر الصديق وعن عمر، ثم رجعا عنه، وروي عن ابن عباس، وذلك مستقراً من قوله في الإخوة مع الوالدين: إنهم يحيطون الأم ويأخذون ما يحيطونها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هكذا حكى الطبري، ويلزم على قول

ابن عباس إذ ورثهم بأن الفريضة كلالة أن يعطيهم الثلث بالنص. وقالت طائفة - منهم الحكم بن عتيبة -: الكلالة: الخلو من الوالد، وهذا القولان ضعيفان، لأن من بقي والده أو ولده فهو موروث بجزم نسب لا بتكليل. وأجمعت الآن الأمة على أن الإخوة لا يرثون مع ابن ولا مع أب، وعلى هذا مضت الأمصار والأعصار. وقرأ جمهور الناس: ﴿يُورَثُ﴾ بفتح الراء، وقرأ الأعمش وأبو رجاء: ﴿يُورِثُ﴾ بكسر الراء وتشديدها. قال أبو الفتح ابن جنى: وقرأ الحسن: ﴿يُورِثُ﴾ من أورث، وعيسى: ﴿يُورِثُ﴾ بشد الراء من ورث، والمفعولان على كلتا القراءتين محذوفان، التقدير: يورث وارثه ماله ﴿كَلَّلَهُ﴾، ونصب ﴿كَلَّلَهُ﴾ على الحال.

واختلفوا في الكلالة فيما وقعت عليه في هذه الآية، فقال عمر وابن عباس: الكلالة: الميت الموروث إذا لم يكن له أب، ونصبها على خير كان، وقال ابن زيد: الكلالة: الوارثة بجملتها، الميت والأحياء كلهم كلالة، ونصبها على الحال أو على النعت لمصدر محذوف تقديره: وراثة كلالة، ويصح على هذا أن تكون ﴿كَانَ﴾ تامة بمعنى وقع، ويصح أن تكون ناقصة وخبرها ﴿يُورِثُ﴾، وقال عطاء: الكلالة: المال، ونصب على المفعول الثاني. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والاشتقاق في معنى الكلالة يفسد تسمية المال بها.

وقالت طائفة: الكلالة: الورثة، وهذا

يستقيم على قراءة ﴿يُورِثُ﴾ بكسر الراء، فينصب كلالة على المفعول. واحتج هؤلاء بحديث جابر بن عبد الله، إذ عاده رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، إنما يرثني كلالة أفأوصي بمالي كله؟ وحكى بعضهم أن تكون (الكلالة) الورثة، ونصبها على خير كان، وذلك بحذف مضاف، تقديره: ذا كلالة، ويستقيم سائر التأويلات على كسر الراء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ﴾... الآية، الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائذ على الرجل، واكتفى بإعادته عليه دون المرأة، إذ المعنى فيهما واحد، والحكم قد ضبطه العطف الأول، وأصل أخت: أخوة، كما أصل بنت: بنية، فضم أول أخت إذ المحذوف منها واو، وكسر أول بنت إذ المحذوف ياء، وهذا الحذف والتعليل على غير قياس.

وأجمع العلماء على أن الإخوة في هذه الآية الإخوة لأم، لأن حكمهم منصوص في هذه الآية على صفة، وحكم سائر الإخوة مخالف له، وهو الذي في كلالة آخر السورة.

وقرأ سعد بن أبي وقاص: ﴿وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ لِأُمِّهِ﴾.

الأنثى والذكر في هذه النازلة سواء، وشركتهم في الثلث متساوية وإن كثرُوا، هذا إجماع، فإن ماتت امرأة وتركت زوجاً وأماً وإخوة أشقاء، فللزوجة: النصف، وللأم: السدس، وما بقي: للإخوة، فإن كانوا لأم فقط، فلهم الثلث، فإن تركت الميتة زوجاً وأماً وآخرين لأم وإخوة لأب وأم، فهذه الحمارية،

وقوله: ﴿بِذَلِكَ حُدُّدَ اللَّهُ...﴾ الآية. ﴿بِذَلِكَ﴾ إشارة إلى القسمة المتقدمة في الموارث، والحد: الحجز المانع لأمر ما أن يدخل على غيره أو يدخل عليه غيره، ومن هذا قولهم للبوابة: حذاد لأنه يمنع، ومنه إحداد المرأة وهو امتناعها عن الزينة، هذا هو الحد في هذه الآية.

وقوله: ﴿مَنْ تَحْتَهَا﴾ يريد من تحت بناتها وأشجارها الذي من أجله سميت جنة، لأن أنهار الجنة إنما هي على وجه أرضها في غير أخاديد.

وحكى الطبري: إن الحدود عند السدي هنا شروط الله، وعند ابن عباس: طاعة الله، وعند بعضهم: سنة الله، وعند بعضهم: فرائض الله، وهذا كله معنى واحد وعبارة مختلفة.

﴿وَخَالِدِينَ﴾ قال الزجاج: هي حالة على التقدير، أي: مقدرين خالدين فيها، وجمع ﴿خَالِدِينَ﴾ على معنى «مَنْ» بعد أن تقدم الإفراد مراعاة للفظ «مَنْ»، وعكس هذا لا يجوز.

وقوله: ﴿وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ...﴾ الآية، قرأ نافع وابن عامر: ﴿يُدْخِلُهُ﴾ بنون العظمة، وقرأ الباقون: ﴿يُدْخِلُهُ﴾ بالياء فيهما جميعاً، وهذه آيتنا وعد ووعد، وتقدم الإيجاز في ذلك، ورجى الله تعالى على التزام هذه الحدود في قسمة الميراث، وتوعد على العصيان فيها بحسب إنكار العرب لهذه القسمة، وقد كلف فيها النبي ﷺ عينة بن حصن وغيره.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله: ﴿وَالَّذِي﴾: اسم جمع «التي»، وتجمع أيضاً على اللواتي،

﴿يُؤَيِّدُكُمْ﴾، وقيل: هو نصب على الخروج من قوله: ﴿فَلِكُلِّ وَجِدٍ يَنْتَهِمَا الشُّدُنُ﴾ أو من قوله: ﴿فَهُنَّ شُرَكَاءُ فِي الثَّلْثِ﴾، ويصح أن يعمل ﴿مُضَاكِرٌ﴾ في ﴿وَصِيَّةٌ﴾، والمعنى أن يقع الضرر بها وبسببها فأوقع عليها تجوزاً. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿غَيْرِ مُضَاكِرٍ وَصِيَّةٌ﴾ بالإضافة، كما تقول: شجاع حرب، ويمدرة حرب، وبضئ المتجرد، في قول طرفه بن العبد، والمعنى على ما ذكرناه من التجوز في اللفظ لصحة المعنى.

وقال ابن عباس: الضرار في الوصية من الكبائر، رواه عن النبي ﷺ، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «من ضارني في وصية ألقاه الله تعالى في واد في جهنم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووجوه المضارة كثيرة لا تنحصر، وكلها ممنوعة: يقر بحق ليس عليه، ويوصي بأكثر من ثلثه، أو لو ارثه، أو بالثلث فراراً عن وارث محتاج، وغير ذلك. ومشهور مذهب مالك وابن القاسم أن الموصي لا يعد فعله مضارة ما دام في الثلث، فإن ضار الورثة في ثلثه مضى ذلك، وفي المذهب قول: إن المضارة تُرَدُّ وإن كانت في الثلث، إذا عَلِمَتْ بإقرار أو قرينة، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مَوْصٍ جَنَّتَا أَوْ إِثْمًا فَاصْلَحْ بَيْنَهُمْ﴾... الآية.

قال قوم فيها: للإخوة للأم: الثلث، ولا شيء للإخوة للأشقاء، كما لو مات رجل وخلف أخوين أم، وخلف مائة أخ لأب وأم، فإنه يعطى الأخوان الثلث، والمائة الثلثين، فيفضلون بالثلث عليهم، وقال قوم: الأم واحدة وهب أباهم كان حماراً، وأشركوا بينهم في الثلث، وسموها أيضاً: المشتركة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا تستقيم هذه المسألة أن لو كان الميت رجلاً، لأنه يبقى للأشقاء، ومتى بقي لهم شيء فليس لهم إلا ما بقي، والثلث للإخوة للام.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿عِزَّةٌ مُضَاكِرٌ﴾. نصب على الحال، والعامل ﴿يُؤَيِّدُكُمْ﴾، و﴿وَصِيَّةٌ﴾ نصب على المصدر في موضع الحال، والعامل

وَالَّذِي يَأْتِيكَ مِنَ التَّحِيَّةِ مِنْ نِسَائِكُمْ فَاسْتَشْهِدُوا عَلَيْهِنَّ آذَانَهُنَّ مِنْكُمْ فَإِنْ شَهِدُوا فَأَمْسِكُوهُنَّ فِي الْبُيُوتِ حَتَّى يَتَوَفَّيَهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجْعَلَ اللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلًا ﴿١٥﴾ وَالَّذَانِ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ فَادَّعَاهُمَا فَإِنْ تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرَضُوا عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿١٦﴾ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِمَهَلَةٍ ثُمَّ تَوَابُوا مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٧﴾ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْفَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ الْإِلْمَاءِ ﴿١٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَصَلُّوهُنَّ لِيَدْهَبُوا بِبَعْضِ مَاءِ آتِنَهُمْهُنَّ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِفَحِيشَةٍ مُبِينَةٍ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِنْ كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ﴿١٩﴾

بالمعنى، والآية الثانية هي في الرجل والمرأة البكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا القول تام إلا أن لفظ الآية يقلق عنه، وقد رجحه الطبري. وقرأ ابن مسعود: ﴿وَالَّذِينَ يَفْعَلُونَهُ مِنكُمْ﴾.

وأجمع العلماء على أن هاتين الآيتين منسوختان بآية الجلد في سورة النور، قاله الحسن ومجاهد وغيرهما، إلا من قال: إن الأذى والتعبير باقي مع الجلد لأنهما لا يتعارضان بل يتحملان على شخص واحد. وأما الحبس فمنسوخ بإجماع. وآية الجلد عامة في الزناة محصنهم وغير محصنهم، وكذلك عممه رسول الله ﷺ في حديث حطان بن عبد الله الرقاشي الذي ذكرته آنفاً، وإن كان في صحيح المتواتر أن رسول الله ﷺ رجم ولم يجلد، فمن قال: إن السنة المتواترة تنسخ القرآن، جعل رجم الرسول دون جلد ناسخاً لجلد الثيب، وهذا الذي عليه الأئمة؛ أن السنة المتواترة تنسخ القرآن، إذ هما جميعاً وحي من الله، ويوجبان جميعاً العلم والعمل، وإنما اختلفا في أن السنة نَقَصَ منها الإعجاز، وصح ذلك عن النبي ﷺ في خبر ماعز، وفي حديث الغامدية، وفي حديث المرأة التي بعث إليها أتيس. ومن قال: إن السنة المتواترة لا تنسخ القرآن قال: إنما يكون حكم القرآن موقناً، ثم تأتي السنة مستأنفة من غير أن تتناول نسخاً.

ويقال: اللاتي بالياء، و﴿الَّتَجَسَّءَ﴾ في هذا الموضع: الزنى وكل معصية فاحشة، لكن الألف واللام هنا للعهد، وقرأ ابن مسعود: ﴿بِالْفَاحِشَةِ﴾ ببناء الجر، وقوله: ﴿مِن سَائِكِكُمْ﴾ إضافة في معنى الإسلام، لأن الكافرة قد تكون من نساء المسلمين بنسب، ولا يلحقها هذا الحكم، وجعل الله الشهادة على الزنى خاصة لا تتم إلا بأربعة شهداء تغليظاً على المدعي وستراً على العباد، وقال قوم: ذلك ليترتب شاهدان على كل واحد من الزانين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وكانت هذه أول عقوبات الزناة: الإمساك في البيوت. قال عبادة بن الصامت والحسن ومجاهد: حتى تُسَخَّ بالآذى الذي بعده، ثم تُسَخَّ ذلك بآية النور وبالرجم في الثيب. وقالت فرقة: بل كان الأذى هو الأول، ثم نسخ بالإمساك، ولكن التلاوة أخرجت وقدمت، ذكره ابن فورك. و﴿سَيِّئاً﴾ معناه: مخرجاً بأمر من أوامر الشرع، وروى حطان بن عبد الله الرقاشي عن عمران بن حصين أنه قال: كنا عند النبي ﷺ، فنزل عليه الوحي، ثم أفلح عنه ووجهه محمر، فقال: ﴿قد جعل الله لهن سبيلاً﴾، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم.

قال مجاهد وغيره: الآية الأولى في النساء عامة لهن، محصنات وغير محصنات، والآية الثانية في الرجال، ويُن بلفظ التثنية صنف الرجال ممن أحصن وممن لم يحصن، فعقوبة النساء الحبس، وعقوبة الرجال الأذى، وهذا قول يقتضيه اللفظ، ويستوفي نص الكلام أصناف الزناة عليه، ويؤيده من جهة اللفظ قوله في الأولى: ﴿مِن سَائِكِكُمْ﴾، وقوله في الثانية: ﴿مِنكُمْ﴾، وقال السدي وقتادة وغيرهما: الآية الأولى في النساء المحصنات، يريد: ويدخل معهن من أحصن من الرجال

﴿وَالَّذِينَ﴾ تشبيه «الذي»، وكان القياس أن يقال: اللذان كرحيان قال سيويه: حذفت الياء ليفرق بين الأسماء المتمكنة وبين الأسماء

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تخيل لا يستقيم لأننا نجد السنة ترفع بحكمها ما استقر من حكم القرآن على حدّ النسخ، ولا يرد ذلك نظر، ولا ينخرم منه أصل. أما إن هذه النازلة بعينها يتوجه عندي أن يقال فيها: إن الناسخ لحكم الجلد هو القرآن المتفق على رفع لفظه وبقاء حكمه، في قوله تعالى: ﴿الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنِيا فَازْجُمُوهما الْبَيْتَةَ﴾، وهذا نص في الرجم، وقد قرره عمر على المنبر بمحضر الصحابة، وذكر أنهم قرؤوه على عهد النبي ﷺ، والحديث بكماله في مسلم. وأيضاً فيعضد أن ذلك من القرآن قول رسول الله ﷺ للذي قال له: فاقض بيننا يا رسول الله بكتاب الله، فقال له النبي ﷺ: «لأقضيئن بينكما بكتاب الله» ثم أمر أنيساً برجم المرأة إن هي اعترفت، فدلّ هذا الظاهر على أن الرجم كان في القرآن، وأجمعت الأمة على رفع لفظه. وهاتان الآيتان أعني الجلد والرجم لو لم يقع بيان من الرسول لم يجب أن تنسخ إحداهما الأخرى، إذ يسوغ اجتماعهما على شخص واحد، وحديث عبادة المتقدم يقوي جمعهما، وقد أخذ به علي رضي الله عنه في شراحة: جلدها ثم رجمها، وقال: أجلدها بكتاب الله وأرجمها بسنة رسول الله ﷺ، وبه قال الحسن وإسحاق بن راهويه، ولكن لما بين الرسول برجمه دون جلد كان فعله بمثابة قوله مع هذه الآية: انفوا ولا تجلدوا، فيكون القرآن هو الناسخ والسنة هي المبينة؛

ويصح أن نعرض من ينسخ بالسنة في هذه النازلة فنقول: الناسخ من شروطه أن يستقل في البيان بنفسه، وإذا لم يستقل فليس بناسخ، وآية الرجم بعد أن يُسَلَّم ثبوتها لا تستقل في النسخ بنفسها، بل تنبني مع الجلد وتجتمع، كما تضمن حديث عبادة بن الصامت، لكن إسقاط الرسول الجلد هو الناسخ، لأن فعله في ذلك هو بمنزلة قوله: لا تجلدوا الشيب، وأما البكر فلا خلاف أنه يجلد، واختلف في نفيه؛ فقال الخلفاء الأربعة وابن عمر ومالك والشافعي وجماعة: لا نفي اليوم، وقالت جماعة: ينفي، وقيل: نفيه سجنه، ولا تنفي المرأة ولا العبد، هذا مذهب مالك وجماعة من العلماء.

وقوله: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمَا﴾ كانت هذه العقوبة من الإمساك والأذى إرادة أن يتوب الزناة، وهو الرجوع عن الزنى والإصرار عليه، فأمر الله تعالى المؤمنين إذا تاب الزنبيان وأصلحا في سائر أعمالهما أن يُكفَّ عنهما الأذى، وجاء الأمر بهذا الكف الذي هو ﴿أَعْرِضُوا﴾. وفي قوة اللفظ غض من الزناة وإن تابوا، لأن تركهم إنما هو إعراض، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنِ الْبُهْلَيْتِ﴾ وليس الإعراض في الآيتين أمراً بهجرة، ولكنها متاركة مُعرض، وفي ذلك احتقار لهم بحسب المعصية المتقدمة، وبحسب الجهالة في الآية الأخرى، والله تعالى تواب، أي: راجع بعباده عن المعاصي إلى تركها ولزوم الطاعة.

﴿٧﴾ - ﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا﴾ حاصرة، وهو مقصد المتكلم بها أبداً، فقد تصادف من المعنى ما يقتضي العقل فيه الحصر، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَحِيدٌ﴾، وقد تصادف من المعنى ما لا يقتضي العقل فيه الحصر، كقوله: إنما الشجاع عنتره، فيبقى الحصر في مقصد المادح، ويتحصل من ذلك لكل سامع تحقيق هذه الصفة للموصوف بمبالغة.

وهذه الآية مما يوجب النظر فيها أنها حاصرة للتوبة، وهي في عرف الشرع: الرجوع من شر إلى خير، وحدّ التوبة: الندم على فارط فعل، من حيث هو معصية الله عز وجل، وإن كان الندم من حيث أضرب ذلك الفعل في بدن أو ملك فليس بتوبة، فإن كان ذلك الفعل مما يمكن هذا التادم فعله في المستقبل فمن شروط التوبة العزم على ترك ذلك الفعل في المستقبل، وإلا فتم إصراراً لا توبة معه، وإن كان ذلك الفعل لا يمكنه، مثل أن يتوب من الزنى فيجب بأثر ذلك ونحو ذلك، فهذا لا يحتاج إلى شرط العزم على الترك. والتوبة فرض على المؤمنين بإجماع الأمة، والإجماع هي القرينة التي حمل بها قوله تعالى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا﴾ على الوجوب، وتصح التوبة من ذنب مع الإقامة على غيره من غير نوعه، خلافاً للمعتزلة في قولهم: لا يكون تائباً من أقام على ذنب، وتصح التوبة وإن نقضها التائب في ثاني حال بمعاودة الذنب، فإن التوبة الأولى طاعة قد انقضت وصحّت،

وهو محتاج بعد موافقة الذنب إلى توبة أخرى مستأنفة، والإيمان للكافر ليس نفس توبته، وإنما توبته ندمه على سالف كفره.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى اللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: على فضل الله ورحمته لعباده، وهذا نحو قول النبي ﷺ لمعاذ بن جبل: «يا معاذ أتدري ما حق الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً» ثم سكت قليلاً، ثم قال: «يا معاذ أتدري ما حق العباد على الله؟» قال: الله ورسوله أعلم، قال: «أن يدخلهم الجنة»، فهذا كله إنما معناه: ما حقهم على فضل الله ورحمته، والعقيدة أنه لا يجب على الله تعالى شيء عقلاً، لكن إخباره تعالى عن أشياء أوجبها على نفسه يقتضي وجوب تلك الأشياء سمعاً، فمن ذلك تخليد الكفار في النار، ومن ذلك قبول إيمان الكافر، والتوبة لا يجب قبولها على الله تعالى عقلاً، فأما السمع فظاهره قبول توبة التائب؛ قال أبو المعالي وغيره: فهذه الظواهر إنما تعطي غلبة ظن لا قطعاً على الله بقبوله التوبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد خولف أبو المعالي وغيره في هذا المعنى. فإذا فرضنا رجلاً قد تاب توبة نصوحاً تامة الشروط، فقول أبي المعالي: يغلب على الظن قبول توبته، وقال غيره: يقطع على الله تعالى بقبول توبته، كما أخبر عن نفسه عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وكان أبي رحمة الله عليه يميل إلى هذا القول ويرجح، وبه أقول، والله تعالى أرحم بعباده من أن ينخرم في هذا التائب المفروض معنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آذَى بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ﴾. والسوء في هذه الآية يعم الكفر والمعاصي.

وقوله تعالى: ﴿بِجَهْلَتِكُمْ﴾ معناه: بسفاهة وقلية تحصيل أذى إلى المعصية، وليس المعنى أن تكون الجهالة أن ذلك الفعل معصية، لأن المتعمد للذنوب كان يخرج من التوبة، وهذا فاسد إجماعاً. وبما ذكرته في الجهالة قال أصحاب رسول الله ﷺ، ذكر ذلك عنهم أبو العالية، وقال قتادة: اجتمع أصحاب النبي ﷺ على أن كل معصية فهي بجهالة، عمداً كانت أو جهلاً، وقال به ابن عباس ومجاهد والسدي، وروي عن مجاهد والضحاك أنهما قالوا: الجهالة هنا العمد، وقال عكرمة: أمور الدنيا كلها جهالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد الخاصة بها الخارجة عن طاعة الله. وهذا المعنى عندي جار مع قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَكَاثِرُونَ لَكُمْ لَيْسَ لَكُمُ عَلَيْهِمْ عِقَابٌ أَلِيمٌ﴾ وقد تأول قوم قول عكرمة بأنه للذين يعملون السوء في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان الجهالة اسم للحياة الدنيا، وهذا عندي ضعيف، وقيل: ﴿بِجَهْلَتِكُمْ﴾، أي: لا يعلم كنه العقوبة، وهذا أيضاً ضعيف، ذكره ابن فورك ورواه عليه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾؛ فقال ابن عباس والسدي: معنى ذلك: قبل المرض والموت، وقال أبو مجلز ومحمد بن قيس والضحاك وعكرمة وابن زيد وغيرهم: معنى ذلك: قبل المعاينة للملائكة والسوق، وأن يُغلب المرء على نفسه. وروي أبو قلابة: «إن الله تعالى لما خلق آدم فرآه إبليس أجوف، ثم جرى له ما جرى ولعين وأنظر، قال: وَعِزَّتِكَ لَا بَرَحْتُ مِنْ قَبْلِهِ مَا دَامَ فِيهِ الرُّوحُ، فقال الله تعالى: وعزتي لا أحجب عنه التوبة ما دام فيه الروح».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فابن عباس رضي الله عنه ذكر أحسن أوقات التوبة، والجمهور حدوا آخر وقتها. وقال إبراهيم النخعي: كان يقال: التوبة مبسوطة لأحدكم ما لم يؤخذ بكظمه. وروي بشير بن كعب والحسن أن النبي ﷺ قال: «إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر ويغلب على عقله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الرجاء فيه باق، ويصح منه الندم والعزم على ترك الفعل في المستأنف، فإذا غلب تعذرت التوبة لعدم الندم والعزم على الترك.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ قَرِيبٍ﴾ إنما معناه: من قريب إلى وقت الذنب، ومدة الحياة كلها قريب، والمبادر في الصحة أفضل وأحق لأمله من العمل الصالح، والبعد كل البعد الموت، ومنه قول مالك بن الربيع:

.....

وَأَيْنَ مَكَانُ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا؟

وقوله تعالى: ﴿وَكَاذَبَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ أي: بمن يتوب وييسره هو للتوبة، حكيماً فيما ينفذه من ذلك، وفي تأخير من يؤخر حتى يهلك.

ثم نفى بقوله تعالى: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ...﴾ الآية أن يدخل في حكم التائبين من حضره موته وصار في حيز اليأس، وحضور الموت هو غاية كما كان فرعون حين صار في غمرة الماء والغرق، فلم ينفعه ما أظهر من الإيمان، وبهذا قال ابن عباس وابن زيد وجماعة المفسرين.

وقال الربيع: الآية الأولى قوله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ﴾ هي نفي المؤمنين، والآية الثانية قوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ...﴾ الآية نزلت في المسلمين ثم نسخت بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ ففتحم ألا يغفر للكافر وأرجأ المؤمنين إلى مشيئته، لم يشهم من المغفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطعن بعض الناس في هذا القول بأن الآية خير، والأخبار لا تنسخ. وهذا غير لازم، لأن الآية لفظها الخير، ومعناها تقرير حكم شرعي، فهي نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْرَأُوا مَا فِي بُطُونِكُمْ أَوْ تُخْفُوا بِمَا فِي بُطُونِكُمْ يَأْتِينِكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ ونحو قوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَأْتُوا بَأْتِنَيْنِ﴾ وإنما يضعف القول بالنسخ من حيث تبني الآيات ولا يحتاج إلى تقرير نسخ، لأن هذه الآية لم تنسخ أن يغفر للعاصي الذي لم يتب من قريب، فنحتاج أن نقول: إن قوله:

﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ نسخها، وإنما نفت هذه الآية أن يكون تائباً من لم يتب إلا مع حضور الموت. فالعقيدة عندي في هذه الآيات: أن من تاب من قريب فله حكم التائب فيغلب الظن عليه أنه يتب ولا يعذب، هذا مذهب أبي المعالي وغيره، وقال غيرهم: بل هو مغفور له قطعاً لإخبار الله تعالى بذلك، وأبو المعالي يجعل تلك الأخبار ظواهر مشروطة بالمشيئة، ومن لم يتب حتى حضره الموت فليس في حكم التائبين، فإن كان كافراً فهو يخلد، وإن كان مؤمناً فهو عاص في المشيئة، لكن يغلب الخوف عليه، ويقوى الظن في تعذبه، ويقطع من جهة السمع أن من هذه الصنفية من يغفر الله تعالى له تفضلاً منه ولا يعذبه. وأعلم الله تعالى أيضاً أن الذين يموتون وهم كفار فلا مستعجب لهم ولا توبة في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾؛ إن كان الإشارة إلى الذين يموتون وهم كفار فقط، فالعذاب عذاب خلود، وإن كانت الإشارة إليهم وإلى من ينفذ عليه الوعيد، ممن لا يتوب إلا مع حضور الموت من العصاة فهو في جهة هؤلاء عذاب ولا خلود معه، ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ معناه: يسرناه وأحضرناه، وظاهر هذه الآية أن النار مخلوقة بعد.

﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرِهًا﴾؛ فقال ابن عباس: كانوا في

الجاهلية إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته من أهلها، إن شاؤوا تزوجها أحدهم، وإن شاؤوا زوجوها من غيرهم، وإن شاؤوا منعوها الزواج، فنزلت الآية في ذلك، قال أبو أمامة بن سهل بن حنيف: لما توفي أبو قيس ابن الأسلت، أراد ابنه أن يتزوج امرأته، وكان لهم ذلك في الجاهلية، فنزلت الآية في ذلك، ذكر النقاش أن اسم ولد أبي قيس: محسن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كانت هذه السيرة في الأنصار لازمة، وكانت في قريش مباحة مع التراخي، ألا ترى أن أبا عمرو بن أمية خلف على امرأة أبيه بعد موته، فولدت من أبي عمرو مسافراً وأبا معيط وكان لها من أمية أبو العيص وغيره، فكان بنو أمية إخوة مسافر وأبي معيط وأعمامهما. وقال بمثل هذا القول الذي حكيت عن ابن عباس: عكرمة والحسن البصري وأبو مجلز، قال عكرمة: نزلت في كبيشة بنت معن الأنصارية، توفي عنها أبو قيس ابن الأسلت، وقال مجاهد: كان الابن الأكبر أحق بامرأة أبيه إذا لم يكن ولد لها، وقال السدي: كان ولي الميت إذا سبق فالق على امرأة الميت ثوبه فهو أحق بها، وإن سبقته فذهبت إلى أهلها كانت أحق بنفسها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والروايات في هذا كثيرة بحسب السير الجاهلية، ولا منفعة في ذكر جميع ذلك، إذ قد أذهب الله بقوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكُمْ﴾، ومعنى الآية على

هذا القول: لا يحل لكم أن تجعلوا النساء كالمال، يورثن عن الرجال الموتى كما يورث المال، والمتلبس بالخطاب أولياء الموتى، وقال بعض المتأولين: معنى الآية: لا يحل لكم عَضْلُ النساء اللواتي أنتم أولياء لهن وإمساكهن دون تزويج حتى يمتن فتورث أموالهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا القول فالموروث مالها لا هي، وروي نحو هذا عن ابن عباس وغيره. والمتلبس بالخطاب أولياء النساء وأزواجهن إذا حبسوهن مع سوء العشرة طماعية أَنْ يَرْتُوهُنَّ.

وقرأ نافع وأبو عمرو وابن كثير: ﴿كَرِهًا﴾ بفتح الكاف حيث وقع في النساء وسورة التوبة وفي الأحقاف، وقرأ حمزة والكسائي جميع ذلك بضم الكاف، وقرأ عاصم وابن عامر في النساء والتوبة بفتح الكاف، وفي الأحقاف في الموضعين بضمها، والكزّه والكزّه لغتان كالضّعف والضّعف، والفقر والفقر، قاله أبو علي. وقال الفراء: هو بضم الكاف: المشقة وبفتحها: إكراه غير، وقاله ابن قتيبة.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْسُلُوهُنَّ﴾... الآية؛ فقال ابن عباس وغيره: هي أيضاً في أولئك الأولياء الذين كانوا يرثون المرأة لأنهم كانوا يتزوجونها إذا كانت جميلة، ويمسكونها حتى تموت إذا كانت دميمة، وقال نحوه الحسن وعكرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويسجيء في قوله: ﴿يَتَيَسَّرُوهُنَّ﴾

خلط، أي: ما آتاها الرجال قبل، فهي كقوله: ﴿فَأَقْبَلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ وغير ذلك، وقال ابن عباس أيضاً: هي في الأزواج: في الرجل يمسك المرأة ويسيء عشرتها حتى تفندي منه، فذلك لا يحل له، وقال مثله قتادة، وقال ابن البيلماني: الفصل الأول من الآية هو في أمر الجاهلية، والثاني في العضل هو في أهل الإسلام في حبس الزوجة ضراً للفدية. وقال ابن مسعود: معنى الآية: لا ترثوا النساء كفعل الجاهلية، ولا تعضلوهن في الإسلام، وقال نحو هذا القول السدي والضحاك، وقال السدي: هذه الآية خطاب للأولياء، كالعضل المنهي عنه في سورة البقرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلق، إلا أن يكون العضل من ولي وارث، فهو يؤمل موتها، وإن كان غير وارث فبأي شيء يذهب؟ وقال ابن زيد: هذا العضل المنهي عنه في هذه الآية هو من سير الجاهلية في قريش بمكة، إذا لم يتوافق الزوجان طلقها على ألا تزوج إلا بإذنه، ويشهد عليها بذلك، فإذا خطبت فإن أعطته ورثته وإلا عضل، ففي هذا نزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقول: إن العضل في اللغة: الحبس في شدة ومضرة، والمنع من الفرج في ذلك، فمن ذلك قولهم: أعضلت الدجاجة وعضلت إذا صعب عليها وضع البيضة، ومنه أعضل الداء إذا لجج ولم يبرأ، ومنه داء عضال، ومشى عرف الفقهاء على أن

العضل من الأولياء في حبس النساء عن التزويج، وهو في اللغة أعم من هذا حسبما ذكرت، يقع من ولي ومن زوج، وأقوى ما في هذه الأقوال المتقدمة أن المراد الأزواج، ودليل ذلك قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ يَنْجِسَتْ﴾، وإذا أنت بفاحشة فليس للولي حَبْسُهَا حتى يذهب بمالها إجماعاً من الأمة، وإنما ذلك للزوج على ما سنبين بعد إن شاء الله. وكذلك قوله: ﴿وَعَارِضُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ إلى آخر الآية يظهر منه تقوية ما ذكرته، وإن كان ذلك يحتمل أن يكون أمراً منقطعاً من الأول يخص به الأزواج. وأما العضل فمنهي عنه كل من يتصور في نازلة عاضلاً، ومتى صح في ولي أنه عاضل نظر القاضي في أمر المرأة وزوجها ولم يلتفت، إلا الأب في بناته، فإنه إن كان في أمره إشكال فلا يُعْتَرَضُ قولاً واحداً، وإن صحَّ عضله ففيه قولان في مذهب مالك: أحدهما أنه كسائر الأولياء، يزوج القاضي من شاء التزويج من بناته وطلبه، والقول الآخر أنه لا يعرض له.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَا تَمْسُلُوهُنَّ﴾ أن يكون جزءاً، فتكون الواو عاطفة جملة كلام مقطوعة من الأولى، ويحتمل أن يكون ﴿تَمْسُلُوهُنَّ﴾ نصباً عطفاً على ﴿تَرْتُوهُنَّ﴾ فتكون الواو مشركة عاطفة فعل على فعل.

وقرأ ابن مسعود: ﴿وَلَا أَنْ تَعْضَلُوهُنَّ﴾ فهذه القراءة تقوي احتمال النصب، وأن العضل مما لا يحل بالنص، وعلى تأويل الجزم هو نهى معرض لطلب القرائن في

وهذه القراءات كلها لغات فصيحة، يقال: بين الشيء وأبان: إذا ظهر، وبان الشيء وبيته.

وقوله تعالى: ﴿وَعَايَرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ أمر للجميع، إذ لكل أحد عشرة، زوجاً كان أو ولياً، ولكن المتلبس في الأغلب بهذا الأمر الأزواج، والعشرة: المخالطة والممازجة، ومنه قول طرفة:

فلئن شططت نواها مرة
لعلى عهد حبيبٍ مُفتشز
جعل «الحبيب» جمعاً كالخليط
والفريق. يقال: عاشره معاشره،
وتعاشر القوم واعتشروا، وأرى
اللفظة من أعشار الجزور، لأنها
مقاسمة ومخالطة ومخالقة جميلة،
فأمر الله تعالى الرجال بحسن صحبة
النساء، وإلى هذا ينظر قول
النبي ﷺ: «فاستمع بها وفيها
هوج». ثم أذب تعالى عباده بقوله:
﴿فَإِنْ كَفَرْتُمْ عَنْهُنَّ﴾ إلى آخر الآية. قال
السدي: الخير الكثير في المرأة:
الولد، وقال نحوه ابن عباس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ومن فصاحة القرآن العموم الذي
في لفظة «شيء» لأنه يطرد هذا
النظر في كل ما يكرهه المرء مما
يجمل الصبر عليه، فيحسن الصبر،
إذ عاقبته إلى خير، إذا أريد به
وجه الله.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:
لما مضى في الآية المتقدمة حكم
الفراق الذي سببه المرأة، وأن للزوج
أخذ المال منها، عقب ذلك ذكر
الفراق الذي سببه الزوج، والمنع من
أخذ مالها مع ذلك، فهذا الذي في

وهذا هو مذهب مالك،
إلا أنني لا أحفظ له نصاً
في معنى الفاحشة في هذه
الآية.

وقال قوم: الفاحشة:
البذاء بالنساء وسوء العشرة
قولاً وفعلاً، وهذا في معنى
النشوز. ومن أهل العلم من
يجيز أخذ المال من الناشز
على جهة الخلع، إلا أنه يرى
ألا يتجاوز ما أعطاها ركوناً
إلى قوله تعالى: ﴿لِيَذْهَبُوا
بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ﴾. وقال
مالك وأصحابه وجماعة من
أهل العلم: للزوج أن يأخذ
من الناشز جميع ما تملك.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: والزنى أصعب على
الزوج من النشوز والأذى، وكل
ذلك فاحشة تُجَلُّ أخذ المال، وقرأ
ابن مسعود: ﴿إِلَّا أَنْ يَفْحَشْنَ،
وعاشروهن﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا خلاف مفرط لمصحف الإمام.
وكذلك ذكر أبو عمرو عن ابن عباس
وعكرمة وأبي بن كعب، وفي هذا
نظر. وقرأ ابن كثير وعاصم في رواية
أبي بكر: ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ «وآيات
مُبيِّنات» بفتح الياء فيهما، وقرأ ابن
عامر وحمزة والكسائي وحفص
والمفضل عن عاصم: ﴿مُبيِّنَاتٍ﴾
و﴿مُبيِّنَاتٍ﴾ بكسر الياء فيهما، وقرأ
نافع وأبو عمرو: ﴿مُبيِّنَاتٍ﴾ بالكسر،
و﴿مُبيِّنَاتٍ﴾ بالفتح، وقرأ ابن
عباس: ﴿بِفاحشةٍ مُبيِّنَةٍ﴾ بكسر الياء
وسكون الياء، من أبان الشيء.

وَأِنْ أَرَدْتُمْ أَنْ تَسْتَبِدَالَ زَوْجَ مَكَاتٍ زَوْجٍ وَأَنْتُمْ
إِحْدَاهُمْ فَنظَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا أَنْتُمْ تَأْخُذُونَ
بِهَتْئَانًا وَإِنَّمَا تَبَيَّنَا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَى
بَعْضُكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَأَخَذْتُمْ مِنْكُمْ مِيتَةً
غَلِيظًا ﴿٢١﴾ وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ
النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَمَقْتًا
وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ
وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَسَوَاسِغُهُمْ وَأَبْنَاؤُهُمْ
وَبَنَاتُ الْأَخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ الَّتِي أَرْضَعْتُمْ
وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرِّضَاعِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ
وَرَبِّبُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ
الَّتِي دَخَلْتُمُوهُنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمُوهُنَّ
فَلَا حُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلِيلَ آبَائِكُمُ الَّذِينَ
مِنْ أُمَّهَاتِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ
إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾

التحريم أو الكراهية، واحتمال
النصب أقوى.

واختلف الناس في معنى الفاحشة
هنا؛ فقال الحسن بن أبي الحسن:
هو الزنى، وإذا زنت البكر فإنها
تجلد مائة وتنفى سنة، وترد إلى
زوجها ما أخذت منه، وقال أبو
قلاية: إذا زنت امرأة الرجل فلا
بأس أن يضاها ويشق عليها حتى
تفتدي منه، وقال السدي: إذا فعلن
ذلك فخذوا مهورهن، وقال عطاء
الخراساني: كان هذا الحكم ثم
نسخ بالحدود، وهذا قول ضعيف،
وقال ابن عباس رحمه الله:
الفاحشة في هذه الآية: البغض
والنشوز، وقاله الضحاك وغيره،
قالوا: فإذا نشزت حل له أن يأخذ
مالها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

هذه الآية هو الذي يختص الزوج بإرادته.

واختلف العلماء: إذا كان الزوجان يريدان الفراق، وكان منهما نشوز وسوء عشرة، فقال مالك رحمه الله: للزوج أن يأخذ منها إذا سببت الفراق، ولا يراعي تسببه هو، وقالت جماعة من العلماء: لا يجوز له أخذ المال إلا أن تنفرد هي بالنشوز وبظلمه في ذلك. وقال بعض الناس: يخرج في هذه الآية جواز المغالاة بالمهور، لأن الله تعالى قد مثل بفنطار، ولا يمثل تعالى إلا بمباح.

وخطب عمر بن الخطاب فقال: ألا لا تغالوا بمهور نساتكم، فإن الرجل يغالي حتى يكون ذلك في قلبه عداوة للمرأة، يقول: تجشمت إليك علق القربة أو عرق القربة، فيروى أن امرأة كلمته من وراء الناس فقالت: كيف هذا؟ والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كُنْتُمْ بِأَعْيُنِنَا إِنْ كُنْتُمْ مُنْصِفِينَ﴾ قال: فاطرق عمر ثم قال: كل الناس أفقه منك يا عمر. ويروى أنه قال: امرأة أصابت ورجل أخطأ، والله المستعان، وترك الإنكار.

وقال قوم: لا تعطى الآية جواز المغالاة بالمهور لأن التمثيل جاء على جهة المبالغة، كأنه قال: وآيتم هذا القدر العظيم الذي لا يؤتیه أحد، وهذا كقوله عليه السلام: «من بنى لله مسجداً ولو كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة» فمعلوم أنه لا يكون مسجد كمفحص، وقد قال النبي عليه السلام لابن أبي حذرد - وقد جاء يستعينه في مهرة - فسأله

عن المهر فقال: مائتين، فغضب رسول الله ﷺ وقال: «كأنكم تقطعون الذهب والفضة من عرض الحرة أو جبل»... الحديث فاستقرأ بعض الناس من هذا منع المغالاة بالمهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يلزم، لأن هذا أحوج نفسه إلى الاستعانة والسؤال، وذلك مكروه باتفاق، وإنما المغالاة المختلف فيها مع الغنى وسعة المال، وقرأ ابن محيصن بوصل ألف «أخداهن» وهي لغة تحذف على جهة التخفيف. ومنه قول الشاعر:

.....
وتسمع من تحت العجاج لها أزملا
وقول الآخر:

إن لم أقاتل فاليسوني بزقفا
وقد تقدم القول في قدر القنطار في سورة آل عمران، وقرأ أبو السمال: «منه شيئاً» بفتح الياء والتنوين، وهي قراءة أبي جعفر. والبهتان: في موضع الحال، ومعناه: مبتهناً محيراً لشئته وقبح الأحذوثه والفعلة فيه.

ثم وعظ تعالى عباده مذكراً لهم بالمودة التي بين الزوجين الموجبة لحياطة مال المرأة، إذ قد أخذ منها العوض عما أعطيتها، ﴿وَكَيْفَ﴾ في موضع نصب على الحال؛ وأفضى معناه: باشر وجاوز أقصى المجاوزة، ومنه قول الشاعر:

يلى وثأى أفضى إلى كل كتبية
بدا سيرها من ظاهر بعد باطن
وفي المثل: «الناس قوضى فضا»، أي: مختلطون يباشر أمر بعضهم بعضاً، وتقول: أفضت الحال إلى

كذا أي: صارت إليه. وقال ابن عباس ومجاهد والسدي وغيرهم: الإفضاء في هذه الآية: الجماع، قال ابن عباس: ولكن الله كريم يكتي.

واختلف الناس في المراد بالميثاق الغليظ؛ فقال الحسن وابن سيرين وقتادة والضحاك والسدي وغيرهم: هو قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَاكَ بِمَهْرِهِ أَوْ تَرْبِيحٍ بِإِئْتِنٍ﴾، وقال مجاهد وابن زيد: الميثاق الغليظ: عقدة النكاح، وقول الرجل: نكحت وملكت النكاح ونحوه، فهذه التي بها تستحل الفروج. وقال عكرمة والربيع: الميثاق الغليظ يفسره قول النبي ﷺ: «استوصوا بالنساء خيراً، فإنهن عوان عندكم، أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهن بكلام الله»، وقال قوم: الميثاق الغليظ: الولد.

ومن شاذ الأقوال في هذه الآية أن بكر بن عبدالله المزني قال: لا يجوز أن يؤخذ من المختلعة قليل ولا كثير، وإن كانت هي المريدة للطلاق، ومنها أن ابن زيد قال: هذه الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَأْخُذُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ شَيْئاً إِلَّا أَنْ يَخَافَ أَلَّا يُعِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾... الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس في شيء من هذه الآيات ناسخ ولا منسوخ، وكلها يبنى بعضها مع بعض.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية مخاطبة للمؤمنين من العرب في مدة نزول الآية، ومعنى الآية والتحريم الذي بعدها مستقر على المؤمنين أجمع. وسبب الآية

أن العرب كان منهم قبائل قد اعتادت أن يخلف الرجل على امرأة أبيه، على ما ذكرناه من أمر أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس، ومن ذلك خبر أبي قيس ابن الأسلت، ومن ذلك صفوان بن أمية بن خلف، تزوج بعد أبيه فاختة بنت الأسود بن المطلب بن أسد، وكانت امرأة أبيه، قتل عنها، ومن ذلك منظور بن زبآن، خلف على مُلَيْكَةَ بنت خارجة، وكانت عند أبيه زبآن بن سيار، إلى كثير من هذا. وقد كان في العرب من تزوج ابنته، وهو حاجب بن زرارة، تمجسّ وفعل هذه الفعل، ذكر ذلك النضر بن شميل في كتاب المثالب، فنهى الله المؤمنين عما كان عليه آبائهم من هذه السير. وقال ابن عباس: كان أهل الجاهلية يحزّمون ما يحرم إلا امرأة الأب والجمع بين الأختين، فنزلت هذه الآية في ذلك.

واختلف المتأولون في مقتضى ألفاظ الآية؛ فقال فرقة: قوله: ﴿مَا نَكَحَ﴾ يراد به النساء، أي: لا تنكحوا النساء اللواتي نكح آبؤكم، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ معناه: لكن ما قد سلف فدعوه، وقال بعضهم: المعنى: لكن ما قد سلف فهو معفو عنكم لمن كان واقعه، فكانه قال تعالى: ﴿وَلَا تَفْعَلُوا حَاشَا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ﴿مَا﴾ على هذا القول واقعة على من يعقل من حيث هؤلاء النساء صنّف من أصناف من يعقل، و﴿مَا﴾ تقع للأصناف والأوصاف مما يعقل. وقالت فرقة: قوله: ﴿مَا نَكَحَ﴾ يراد به فعل الآباء،

أي: لا تنكحوا كما نكح آبؤكم من عقودهم الفاسدة، وقوله: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ معناه: إلا ما تقدم منكم ووقع من تلك العقود الفاسدة فمباح لكم الإقامة عليه في الإسلام، إذا كان مما يُقَدَّر عليه من جهة القرابة، ويجوزّه الشرع إن لو ابتدء نكاحه في الإسلام على سنته، وقيل: معنى ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ أي: فهو معفو عنكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و﴿مَا﴾ على هذا مصدرية، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِلَّا مَنْ تَابَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك حكاه أبو عمرو الداني.

وقال ابن زيد: معنى الآية: النهي عن أن يطأ الرجل امرأة وطئها الآباء، إلا ما قد سلف من الآباء في الجاهلية من الزنى، لا على وجه المناكحة، فذلك جائز لكم زواجهم في الإسلام، لأن ذلك الزنى كان فاحشاً، قال ابن زيد: فزاد في هذه الآية المقت.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في تأويل هذه الآية: كل امرأة تزوجها أبوك أو ابنك دخل أو لم يدخل فهي عليك حرام. و﴿كَانَ﴾ في هذه الآية تقتضي الماضي والمستقبل، وقال المبرد: هي زائدة، وذلك خطأ يرذ عليه وجود الخبر منصوباً؛ والمقت: البغض والاحتقار بسبب رذيلة يفعلها، فسمى تعالى هذا النكاح مقتاً إذ هو ذا مقت يلحق فاعله. وقال أبو عبيدة وغيره: كانت العرب تسمي الولد

الذي يجيء من زوج الوالد المقتي، وقوله: ﴿وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ أي: بنس الطريق والمنهج لمن يسلكه، إذ عاقبته إلى عذاب الله.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ... الآية﴾، حكم حرم الله به سبعاً من النسب، وستاً من بين رضاع وصهر، وألحقت السنة المتواترة سابعة، وذلك الجمع بين المرأة وعمتها، ومضى عليه الإجماع، وروي عن ابن عباس أنه قال: حرم من النسب سبع، ومن الصهر سبع، وتلا هذه الآية، وقال عمرو بن سالم مولى الأنصار مثل ذلك، وجعل السابعة قوله تعالى:

﴿وَالْمَحْضُوتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾. وتحريم الأمهات عام في كل حال لا يتخصص بوجه من الوجوه، ويسميه أهل العلم «المبهم» أي لا باب فيه، ولا طريق إليه لانسداد التحريم وقوته، وكذلك تحريم البنات والأخوات، فالأم كل من ولدت المرء وإن علت، والبنات كل من ولدها وإن سفلت، جمعه وإياها صلب أو بطن، والعمة أخت الأب، والخالة أخت الأم، كذلك فيهما العموم والإبهام، وكذلك عمه الأب وخالته، وعمه الأم وخالته، وكذلك عمه العمة، وأما خالة العمة فينظر، فإن كانت العمة أخت أب لأم أو لأب وأم فلا تحل خالة العمة، لأنها أخت الجدّة، وإن كانت العمة إنما هي أخت أب لأب فقط فخالتها أجنبية من بني أخيها، تحل للرجال، ويجمع بينها وبين النساء؛ وكذلك عمه الخالة ينظر، فإن كانت الخالة

أخت أم لأب، فعمتها حرام، لأنها أخت جد، وإن كانت الخالة أخت أم لأم فقط فعمتها أجنبية من بني أختها، وكذلك في بنات الأخ وبنات الأخت العموم والإبهام، سواء كانت الأخوة أشقاء، أو لأب أو لأم.

وقرأ أبو حيوة: ﴿مِنَ الرُّضَاعَةِ﴾ بكسر الراء، والرضاع يحرم ما يحرم النسب، والرضعة أم، وما تقدم من أولادها وتأخر إخوة، وفحل اللبن أب، وما تقدم من أولاده وتأخر إخوة. وقرأ ابن مسعود: ﴿اللَّيِّ﴾ بكسر الياء، وقرأ ابن هرمز: ﴿وَأُمَّهَاتِكُمُ الَّتِي﴾ بالإفراد، كأنه من جهة الإبهام مع الواحد والجماعة.

واختلف الناس في تأويل قوله تعالى: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾؛ فقال جمهور أهل العلم: هي تامة العموم فيمن دخل بها أو لم يدخل، فبالعقد على الابنة حرمت الأم، وهذا مذهب جملة الصحابة والتابعين وفقهاء الأمصار، وروي عن علي بن أبي طالب أنه قيل له في رجل تزوج امرأة فطلقها قبل أن يدخل بها أيتزوج أمها؟ قال: نعم، هي بمنزلة الربيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد أن قوله تعالى: ﴿مِنَ نِسَائِكُمْ﴾ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾ شرط في هذه وفي الربيبة، وروي نحوه عن ابن عباس، وروي عنه كقول الجمهور. وروي عن زيد بن ثابت أنه كان يقول: إذا ماتت عنده فأخذ ميراثها كره أن يخلف على أمها، وإن طلقها قبل أن يدخل بها، فإن شاء فعل. وقال مجاهد: الدخول مراد في

النازلتين، وقول جمهور الناس مخالف لهذا القول. وروي في ذلك عن زيد بن ثابت أنه قال: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ﴾ مبهمة، وإنما الشرط في الربايب. وقال ابن جريج: قلت لعطاء: أكان ابن عباس يقرأ: ﴿وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾؟ فقال: لا تترا، قال حجاج: قلت لابن جريج: ما تترا؟ قال: كأنه قال: لا لا. ويرد هذا القول من جهة الإعراب أن المجرورين إذا اختلفا لم يكن نعتهما واحداً، ومعناه: إذا اختلفا في العامل، وهذه الآية قد اختلف فيها جنس العامل.

﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

الرَّيْبِيَّةُ: بنت امرأة الرجل من غيره، سميت بذلك لأنه يرببها في حجره فهي مربوبته. وربيبه: فعيلة بمعنى مفعولة، وقوله تعالى: ﴿الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ﴾ ذكر الأغلب في هذه الأمور، إذ هي حالة الربيبية في الأكثر، وهي محرمة وإن كانت في غير الحجر، لأنها في حكم أنها في الحجر، إلا ما روي عن علي أنه قال: تحل إذا لم تكن في الحجر وإن دخل بالأم، إذا كانت بعبدة عنه، ويقال: حَجَرَ بكسر الحاء وفتحها، وهو مُقَدَّمُ ثوب الإنسان وما بين يديه منه في حال اللبس، ثم استعملت اللفظة في الحفظ والستر، لأن اللابس إنما يحفظ طفلاً وما أشبه بذلك الموضع من الثوب.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿دَخَلْتُمْ بِهِنَّ﴾؛ فقال ابن عباس وطاوس وابن دينار: الدخول في هذا الموضع: الجماع، فإن طلق الرجل

بعد البناء وقبل الوطء فإن ابنتها له حلال. وقال جمهور من العلماء منهم مالك بن أنس وعطاء بن أبي رباح وغيرهم: إن التجريد والتقبييل والمضاجعة وجميع أنواع التلذذ يُحَرِّمُ الابنة كما يحرمها الوطء؛ والحلائل: جمع حليلة، وهي الزوجة، لأنها تحل مع الرجل حيث حل، فهي فعيلة بمعنى فاعلة. وذهب الزجاج وقوم إلى أنها من لفظة الحلال، فهي حليلة بمعنى محللة. وقوله: ﴿الَّذِينَ مِنْ أُمَّاتِكُمْ﴾ تخصيص ليخرج عنه كل من كانت العرب تتبناه ممن ليس للصلب، وكان عندهم أمراً كثيراً قوي الحكم.

قال عطاء بن أبي رباح: يُتَخَذُ - والله أعلم - أنها نزلت في محمد عليه السلام حين تزوج امرأة زيد بن حارثة، فقال المشركون: قد تزوج امرأة ابنه، فنزلت الآية.

وحرمت حليلة الابن من الرضاع وإن لم يكن للصلب بالإجماع المستند إلى قوله ﷺ: ﴿يُحْرَمُ مِنَ الرُّضَاعَةِ مَا يُحْرَمُ مِنَ النِّسْبِ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ لفظ يعم الجمع بنكاح وبملك يمين، وأجمعت الأمة على منع جمعهما بنكاح، وأما بملك يمين فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أحلتها آية، وحرمتها آية. فأما أنا في خاصة نفسي فلا أرى الجمع بينهما حسناً. وروي نحو هذا عن ابن عباس، ذكره ابن المنذر، وذكر أن إسحاق بن راهويه حرم الجمع

وفي الباب بعينه قول آخر: إن النكاح لا ينعقد. وقال أشهب في كتاب الاستبراء: عقد النكاح في الواحدة تحريم لفرج المملوكة.

وثبت عن النبي ﷺ أنه نهى أن يجمع بين المرأة وعمتها، وبين المرأة وخالتها، وأجمعت الأمة على ذلك؛ وقد رأى بعض العلماء أن هذا الحديث ناسخ لعموم قوله تعالى: ﴿وَأَجَلٌ لَّكُمْ مَا وَكَّأَ ذَلِكُمْ﴾، وذلك الحديث من المتواتر، وكذلك قوله عليه السلام: «يحرم من الرضاة ما يحرم من النسب» قيل أيضاً: إنه ناسخ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾ استثناء منقطع، معناه: لكن ما قد سلف من ذلك ووقع وأزاله الإسلام فإن الله يغفره، والإسلام يجبهه.

تفسير قوله تعالى:

قوله عز وجل: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ عطف على المحرمات قبل. والتحصن: الثمنع، يقال: حصن المكان: إذا امتنع، ومنه الحصن، وحصنت المرأة: امتنعت بوجه من وجوه الامتناع، وأحصنت نفسها، وأحصنها غيرها. والإحصان تستعمله العرب في أربعة أشياء، وعلى ذلك تصرفت اللفظة في كتاب الله عز وجل: فتستعمله في الزواج، لأن ملك الزوجة منعة وحفظ. ويستعملون الإحصان في الحرية، لأن الإمام كان عرفهن في الجاهلية الزنى، والحررة بخلاف ذلك، ألا ترى إلى قول هند بنت عتبة للنبي عليه الصلاة والسلام حين بايعته: «وهل تزني الحررة؟»، فالحررة منعة

من ملكه، يبيع أو عتق أو بأن يزوجها. قال ابن المنذر: وفيها قول ثان لقتادة، وهو أنه إن كان يبطاً واحدة وأراد وطء الأخرى فإنه ينوي تحريم الأولى على نفسه والأولى يقربها، ثم يمسك عنها حتى يستبرئ الأولى المحرمة، ثم يغشى الثانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومذهب مالك رحمه الله: إذا كان أختان يبطاً أيتهما شاء، والكف

عن الأخرى موكول إلى أمانته، فإن أراد وطء الأخرى فيلزمه أن يحرم على نفسه فرج الأولى بفعله، من إخراج عن الملك أو تزويج أو عتق إلى أجل أو إخدام طويل، فإن كان يبطاً إحداهما ثم وثب على الأخرى دون أن يحرم الأولى وقف عنهما، ولم يجز له قرب إحداهما حتى يحرم الأخرى، ولم يبق ذلك إلى أمانته، لأنه متهم فيمن قد وطئ، ولم يكن قبل متهماً إذ كان لم يبطاً إلا الواحدة. وإن كانت عند رجل أمة يبطؤها ثم تزوج أختها، ففيها في المذهب ثلاثة أقوال: في النكاح الثالث من المدونة أنه يوقف عنهما إذا وقع عقد النكاح حتى يحرم إحداهما مع كراهيته لهذا النكاح، إذ هو عقد في موضع لا يجوز فيه الوطء، وذلك مكروه إلا في الحيض، لأنه أمر غالب كثير،

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ وَأَجَلَ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنِينَ غَيْرَ مُسْفِحِينَ فَمَا اسْتَمْتَعْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا تَرَضَيْتُمْ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكَحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسْفِحَاتٍ وَلَا مَتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَ فَإِنَّ أَتَى بِفَرْجِهِ فَلَهُنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ۝ يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ الَّذِي بَدَأَ بِكُمْ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝

بينهما بالوطء، وأن جمهور أهل العلم كرهوا ذلك، وجعل مالكا فيمن كرهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا خلاف في جواز جمعها في الملك، وكذلك الأم وبنتها، ويجيء من قول إسحاق أن يرجم الجامع بينهما بالوطء، وتستقرأ الكراهية من قول مالك: إنه إذا وطئ واحدة ثم وطئ أخرى وقف عنهما حتى يحرم إحداهما، فلم يلزمه حداً.

واختلف العلماء بعد القول بالمنع من الجمع بينهما بالوطء، إذا كان يبطاً واحدة ثم أراد أن يبط الأخرى؛ فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن عمر والحسن البصري والأوزاعي والشافعي وأحمد وإسحاق: لا يجوز له وطء الثانية حتى يحرم فرج الأخرى بإخراجها

وحفظ. ويستعملون الإحصان في الإسلام لأنه حافظ، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «الإيمان قَيْدُ الْفَتَاكِ».

ومنه قول الهذلي:

فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ
وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرَّقَابِ السَّلَابِلُ
ومنه قول الشاعر:

قَالَتْ هَلُمَّ إِلَى الْحَدِيثِ فَقُلْتُ لَا
يَأْبَى عَلَيْكَ اللَّهُ وَالْإِسْلَامُ
ومنه قول سحيم:

كفى الشئب والإسلام لَلْمَرْءِ نَاهِيَا
ومنه قول أبي حية:

رَمَخْنِي وَسِئْرُ اللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَهَا
فإن أحد الأقوال في السُّرِّ أنه أراد به الإسلام.

ويستعملون الإحصان في العفة، لأنه إذا ارتبط بها إنسان وظَهَرَتْ على شخصٍ ما وتخلَّق بها فهي مَنَعَةٌ وحفظ.

وحيشا وقعت اللفظة في القرآن فلا تجدها تخرج عن هذه المعاني، لكنها قد تقوى فيها بعض هذه المعاني دون بعض بحسب موضع وموضع، وسيأتي بيان ذلك في أماكنه إن شاء الله.

فقوله في هذه الآية: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ - قال ابن عباس: وأبو قلابة، وابن زيد، ومكحول، والزهرى، وأبو سعيد الخدري: هن ذوات الأزواج، أي: هن محرمات إلا ما ملكت اليمين بالسبي من أرض الحرب، فإنَّ تلك حلالٌ لِلَّذِي تَقَعُ فِي سَهْمِهِ وَإِنْ كَانَ لَهَا زَوْجٌ.

وروى أبو سعيد الخدري (أن الآية نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ بعث جيشاً إلى أوطاس، فلقوا عدواً، وأصابوا سبياً لهنَّ أزواج من المشركين، فَتَأَمَّمُ الْمُسْلِمُونَ مَنْ غَشِيَانِهِنَّ، فنزلت الآية مرخصة).

وقال عبدالله بن مسعود، وسعيد بن المسيب، والحسن بن أبي الحسن، وأبي بن كعب، وجابر بن عبدالله، وابن عباس أيضاً: معنى المحصنات: ذوات الأزواج، فهنَّ حرامٌ إلا أن يشتري الرجل الأمة ذات الزوج، فإنَّ بَيْعَهَا طلاقها، وهبتها طلاقها، والصدقة بها طلاقها، وأن تُعتق طلاقها، وأن تُورث طلاقها، وتطليق الزوج طلاقها. وقال ابن مسعود: إذا بيعت الأمة ولها زوج فالمشتري أحق بِيُضْعِعَهَا. ومذهب مالك والشافعي وجمهور العلماء أن انتقال الملك في الأمة لا يكون طلاقاً، ولا طلاق لها إلا الطلاق.

وقال قوم: المحصنات - في هذه الآية -: العفاف، أي: كلُّ النساء حرامٌ، وَكَبَسَهُنَّ اسم الإحصان إذ الشرائع في أنفسها تقتضي ذلك.

﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْتَانُكُمْ﴾ - قالوا: معناه: بنكاح أو شراء، كلُّ ذلك تحت ملك اليمين. قال بهذا القول أبو العالية، وعبيدة السلماني، وطاوس، وسعيد بن جبيرة، وعطاء، ورواه عبيدة عن عمر رضي الله عنه. وقال ابن عباس: الْمُحْصَنَاتُ: العفاف من المسلمين ومن أهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبهذا التأويل يرجع معنى الآية إلى تحريم الزنى.

وأسند الطبري عن عروة أنه قال في تأويل قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾: من الحرائر، ويكون ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْتَانُكُمْ﴾ معناه: بنكاح. هذا على اتصال الاستثناء، وإن أريد الإمام فيكون الاستثناء منقطعاً.

وروي عن أبي سعيد الخدري أنه قال: كان نساءً يأتينا مهاجرات، ثم يهاجر أزواجهن، فَمُعِينَاهُنَّ بقوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾. الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قولٌ يرجع إلى ما قد ذكر من الأقوال.

وأسند الطبري أن رجلاً قال لسعيد بن جبيرة: أما رأيت ابن عباس حين سُئِلَ عن هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فلم يقل فيها شيئاً؟ فقال سعيد: كان ابن عباس لا يعلمها، وأسند أيضاً عن مجاهد أنه قال: لو أعلم من يفسر لي هذه الآية لضربت إليه أكباد الإبل. قوله: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ إلى قوله: ﴿حِكِيمًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا أدري كيف نسب هذا القول إلى ابن عباس؟ ولا كيف انتهى مجاهد إلى هذا القول؟

وروي عن ابن شهاب أنه سُئِلَ عن هذه الآية ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾ فقال: يُرَوَى أَنَّهُ حَرَمَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ذَوَاتِ الْأَزْوَاجِ وَالْعَفَافَاتِ مِنْ حَرَائِرٍ وَمَمْلُوكَاتٍ، وَلَمْ يَحِلَّ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ إِلَّا بِالنِّكَاحِ أَوْ الشِّرَاءِ وَالتَّمْلِكِ، وَهَذَا قَوْلٌ حَسَنٌ، عَمِمَ لَفْظُ الْإِحْصَانِ، وَلَفْظُ مَلِكِ الْيَمِينِ، وَعَلَى هَذَا

التأويل يتخرج عندي قول مالك في الموطأ، فإنه قال: هُنَّ ذوات الأزواج، وذلك راجع إلى أن الله حرّم الزنى، ففسّر الإحصان بالزواج، ثم عاد عليه بالعفة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ بفتح الصاد في كل القرآن، وقرأ الكسائي كذلك في هذا الموضع وحده. وقرأ سائر ما في القرآن: ﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾ بكسر الصاد، و﴿محصنات﴾ كذلك.

وروي عن علقمة أنه قرأ جميع ما في القرآن بكسر الصاد، فَفُتِحَ الصاد هو على معنى: أَحْصَنَهُمْ غيرهن من زوج أو إسلام أو عفة أو حرية. وكسُرُ الصاد هو على معنى: أَنهِنَّ أَحْصَنَ أنفسهن بهذه الوجوه أو ببعضها.

وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ﴾ بضم الصاد، وهذا على إتباع الضمة الضمة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾ وذلك نصب على المصدر المؤكد.

وقرأ أبو حيوة، ومحمد بن السميع اليماني: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ على الفعل الماضي المسند إلى اسم الله تعالى.

وقال عبيدة السلماني وغيره: قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إشارة إلى ما ثبت في القرآن من قوله: ﴿مَتَى وَكُنْتُمْ ذُرِّيَّةً﴾. وفي هذا بعد، والأظهر أن قوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ إنما هو إشارة إلى التحريم الحاجز بين الناس وبين ما كانت العرب تفعله.

واختلفت عبارة المفسرين في قوله

تعالى: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ مَا وَرَاءَ ذَلِكَ﴾ - فقال السدي: المعنى: وأحل لكم ما دون الخمس، أن تبتغوا بأموالكم على وجه النكاح، وقال نحوه عبيدة السلماني. وقال عطاء وغيره: المعنى: وأحل لكم ما وراء من حرّم من سائر القرابة فهنّ حلالٌ لكم تزويجهن. وقال قتادة: المعنى: وأحل لكم ما وراء ذلكم من الإماء. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظ الآية يعم جميع هذه الأقوال.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمر، وابن عامر: ﴿وَأَحْلَلْ لَكُمْ﴾ بفتح الألف والحاء، وهذه مناسبة لقوله: ﴿كَتَبَ اللَّهُ﴾، إذ المعنى: كتب الله ذلك كتاباً، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَأَحْلَلْ﴾ بضم الهمزة وكسر الحاء، وهذه مناسبة لقوله: ﴿حَرِّمَتْ عَلَيْكُمْ﴾.

والوراء في هذه الآية: ما يعتبر أمره بعد اعتبار المحرمات، فهن وراء أولئك بهذا الوجه، و﴿أَنْ تَبْتَغُوا بِأَمْوَالِكُمْ﴾ لفظ يجمع التزوج والشراء، و﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، وعلى قراءة حمزة في موضع رفع، ويحتمل النصب بإسقاط الباء.

و﴿مُحْصِنَاتٍ﴾ معناه: متعففين، أي: تُحْصِنُونَ أنفسكم بذلك ﴿غَيْرَ مُسْتَوْجِبِينَ﴾، أي: غير زناة، والسفاح: الزنى، وهو مأخوذ من: سفح الماء، أي: صبّه وسيلانه، ولزم هذا الاسم الزنى، ومنه قول النبي ﷺ حين سمع الدُّقَاف في عرس: «هذا النكاح لا السفاح ولا نكاح السُّرِّ». واختلف المفسرون في معنى قوله:

﴿فَمَا اسْتَسْتَمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ رِيضَةً﴾ - فقال ابن عباس: ومجاهد، والحسن، وابن زيد، وغيرهم: المعنى: فإذا استمتعتم بالزوجة، ووقع الوطء ولو مرة فقد وجب إعطاء الأجر، وهو المهر كله، ولفظة ﴿فَمَا﴾ تعطي أن يسيّر الوطء يجب إتياء الأجر.

وروي عن ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والسدي، وغيرهم: أن الآية في نكاح المتعة، وقرأ ابن عباس، وأبي بن كعب، وسعيد ابن جبير: ﴿فَمَا اسْتَسْتَمْتُمْ بِهِ مِنْهُنَّ فَتَأْوَهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾، وقال ابن عباس لأبي نضرة: «هكذا أنزلها الله عز وجل».

وروي الحكم بن عتيبة أن علياً رضي الله عنه قال: «لولا أن عمر نهى عن المتعة ما زنى الأشقي».

وقد كانت المتعة في صدر الإسلام، ثم نهى عنها النبي عليه الصلاة والسلام، وقال ابن المسيب: نسختها آية الميراث، إذ كانت المتعة لا ميراث فيها. وقيل: قول الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقَتُ النِّسَاءَ فَطَلَّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾. وقالت عائشة

رضي الله عنها: نسختها قوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَرْبَابِهِمْ حَافِظُونَ﴾ إلا على أزواجهم، ولا زوجية مع الأجل ورفع الطلاق والعدة والميراث. وكانت: أن يتزوج الرجل المرأة بشاهدين وإذن الزوجي إلى أجل مُسَمًّى، وعلى ألا ميراث بينهما، ويعطيها ما اتفقا عليه، فإذا انقضت المدة فليس له عليها سبيل، وتستبرئ رحمها لأن الولد لا حق

فيه بلا شك، فإن لم تحمل حلت لغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي كتاب النحاس: في هذا خطأ فاحش في اللفظ، يوهم أن الولد لا يلحق في نكاح المتعة. وحكى المهدي عن ابن المسيب أن نكاح المتعة كان بلا ولي ولا شهود، وفيما حكاه ضعف.

و ﴿فَرِيضَةً﴾ نصب على المصدر في موضع الحال.

واختلف المفسرون في معنى قوله: ﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية - فقال القائلون بأن الآية المتقدمة أمر بإيتاء مهور النساء إذا دخل بهن: إن هذه إشارة إلى ما يتراضى به من حط أو تأخير بعد استقرار الفريضة، فإن ذلك الذي يكون على وجه الرضا جائز ماض. وقال القائلون بأن الآية المتقدمة هي أمر المتعة: إن الإشارة بهذه إلى أن ما تراضيا عليه من زيادة في مدة المتعة، وزيادة في الأجر جائز سائغ.

وباقى الآية بين.

تفسير قوله تعالى:

قال ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبيرة، والسدي، وابن زيد، ومالك بن أنس في «المدونة»: الطُول هنا: السعة في المال. وقال ربيعة، وإبراهيم النخعي: الطُول هنا: الجَلْد والصبر لمن أحب أمةً وهويتها حتى صار لذلك لا يستطيع أن يتزوج غيرها، فإن له أن يتزوج الأمة إذا لم يملك هواه، وإن كان يجد سعة في المال لنكاح حرة، ثم يكون قوله تعالى: ﴿لِمَنْ حَيْسَ

أَلَمَّتْ﴾ على هذا التأويل بياناً في صفة عدم الجَلْد، وعلى التأويل الآخر يكون تزوج الأمة معلقاً بشرطين: عدم السعة في المال، وخوف العنت، فلا يصح إلا باجتماعهما. وهذا هو نص مذهب مالك في «المدونة» من رواية ابن نافع، وابن القاسم، وابن وهب، وابن زياد: إن الحُرَّ لا يتزوج الأمة على حالٍ إلا ألا يجد سعة في المال لمهر حُرَّة، وأن يخشى العنت مع ذلك.

وقال مالك في كتاب محمد: إذا وجد المهر ولكنه لا يقدر على النفقة فإنه لا يجوز له أن يتزوج أمة.

وقال أصبغ: ذلك جائز، إذ نفقة الأمة على أهلها إذا لم يَضُمَّها إليه.

وقال مطرف، وابن الماجشون: لا يحل للحُرَّ أن ينكح أمة، ولا يُقَرَّ إن وقع، إلا أن يجتمع الشرطان كما قال الله تعالى، وقاله أصبغ، قال: وقد كان ابن القاسم يذكر أنه سمع مالكا يقول: نكاح الأمة حلال في كتاب الله عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو في «المدونة».

وقال سحنون في غيرها: ذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَّتَى يَنْكُرُ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ﴾، وقاله ابن مزين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس في الآية ما يلزم منه تحليل الأمة لحُرَّ دون الشرطين. وقال مالك: في «المدونة»: ليست الحرة بطول تمنع من نكاح الأمة إذا لم يجد سعة لأخرى وخاف العنت.

وقال في كتاب محمد ما يقتضي أن الحرة بمثابة الطُول. قال الشيخ أبو الحسن اللُّخمي: وهو ظاهر القرآن، وروي نحو هذا عن ابن حبيب، وقاله أبو حنيفة، فمقتضى هذا أن من عنده حُرَّة فلا يجوز له نكاح أمة وإن عدم السعة وخاف العنت، لأنه طالب شهوة وعنده امرأة، وقال به الطبري، واحتج له. و ﴿طَوْلًا﴾ يصح في إعرابه أن يكون مفعولاً بالاستطاعة، و ﴿أَنْ يَنْكَحَ﴾ في موضع نصب بدل مِنْ قوله: ﴿طَوْلًا﴾، أو في موضع نصب بتقدير: لأن ينكح. وفي هذا نظر.

ويصح أن يكون ﴿طَوْلًا﴾ نصباً على المصدر، والعامل فيه الاستطاعة، لأنها بمعنى يتقارب، و ﴿أَنْ يَنْكَحَ﴾ - على هذا - مفعول بالاستطاعة أو بالمصدر، تقول: طال الرجل طولا - بفتح الطاء - إذا تفضل ووجد واتسع عرفه. وطولا - بضم الطاء في ضد القصر.

و ﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ - في هذا الموضع -: الحرائر، يدل على ذلك التقسيم بينهن وبين الإماء، وقالت فرقة: معناه: العفاف، وهو ضعيف لأن الإماء يَقَعْنَ تحته، وقد تقدم الذكر للقراءة في المحصنات، و ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ صفة، فأما من يقول في الرجل يجد طولا لحره كتابية لا لمؤمنة: إنه يمتنع عن نكاح الإماء - فهي صفة غير مشترطة، وإنما جاءت لأنها مقصد النكاح، إذ الأمة مؤمنة، وهذا هو المذهب المالكي، نص عليه ابن الماجشون في الواضحة، ومن قال في الرجل لا يجد طولا إلا

الكتابية: إنه يتزوج الأمة إن شاء - فصفة المؤمنات عنده في الآية مشترطة في إباحة نكاح الإمام، والمسألة مختلف فيها حسبما ذكرناها.

﴿وَمَلَّ﴾ في قوله: ﴿فَمِنْ مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يصح أن تكون مصدرية، تقديره: فمن ملك أيمانكم، ويصح أن يراد بها النوع المملوك، فهي واقعة عليه.

والفتاة وإن كانت واقعة في اللغة على الشابة أياً كانت فعرفها في الإمام، وفتى كذلك، وهذه المخاطبات بالكاف والميم عامة، أي: منكم الناكحون، ومنكم المالكون، لأن الرجل ينكح فتاة نفسه، وهذا التوسع في اللغة كثير.

والمؤمنات - في هذا الموضع - صفة مشترطة عند مالك وجمهور أصحابه، لأنهم يقولون: لا يجوز زواج أمة غير مسلمة بوجه. وقالت طائفة من أهل العلم منهم أصحاب الرأي: نكاح الأمة الكتابية جائز، وقوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ على جهة الوجه الفاضل، واحتجوا بالقياس على الحرائر، وذلك أنه لما لم يمنع قوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ في الحرائر من نكاح الكتابيات الحرائر، فكذلك لا يمنع قوله: ﴿الْمُؤْمِنَاتِ﴾ في الإمام في نكاح الكتابيات الإمام. وقال أشهب في «المدونة»: جائز للعبد المسلم أن يتزوج أمة كتائية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمنع عنده أن يفضل الزوج في الحرية والدين معاً.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ﴾ معناه: إن الله عَلِيمٌ ببواطن الأمور، ولكم ظواهرها، فإذا كانت الفتاة ظاهرها الإيمان فنكاحها صحيح، وَعَلِمَ باطنها إلى الله، وإنما هذا لثلا يستريب مُتَحَيِّرٌ بإيمان بعض الإمام، كالقريبة عهد بالسبأ، أو كالخرساء، وما أشبه. وفي اللفظ أيضاً تشبيه على أنه ربما كان إيمان أمة أفضل من إيمان بعض الحرائر، أي: فلا تعجبوا بمعنى الحرية.

وقوله: ﴿بِعَشْمِكُمْ مِنْ بَعْضِ﴾ - قالت طائفة: هو رفع على الابتداء والخبر، والمقصد بهذا الكلام، أي أنكم أيها الناس سواء بنو الحرائر وبنو الإمام، أكرمكم عند الله أتقاكم، فهذه توطئة لنفوس العرب التي كانت تستهجن ولد الأمة، فلما جاء الشرع أعلموا مع ذلك أن ذلك التهجين لا معنى له، وقال الطبري: هو رفع بفعل تقديره: فليتكح مما ملكت أيمانكم بعضكم من بعض، فعلى هذا في الكلام تقديم وتأخير، وهذا قول ضعيف.

﴿٥٠﴾ تفسير قوله تعالى:

قوله: ﴿يَا ذِي أَرْبَابِهِنَّ﴾ معناه: بولاية أربابهن المالكين، وقوله: ﴿وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ﴾ يعني: مهورهن، قاله ابن زيد وغيره، و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه: بالشرع والسنة، وهذا يقتضي أنهم أحق بمهورهن من السادة، وهو مذهب مالك، قال في كتاب الرهون:

ليس للسيد أن يأخذ مهر أمة ويدعها بلا جهاز - قال سحنون في كتاب «المدونة»: كيف هذا وهو لا يبؤنه معها بيتاً؟ وقال بعض الفقهاء: معنى ما في «المدونة»: أنه بشرط الثبوت، فعلى هذا لا يكون قول سحنون خلافاً.

﴿وَمُحَمَّدَاتٍ﴾ وما بعده: حال، فالظاهر أنه بمعنى عفيفات، إذ غير ذلك من وجوه الإحصان بعيد إلا «مسلمات» فإنه يقرب، والعامل في الحال ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿فَأَنكِحُوهُنَّ يَا ذِي أَرْبَابِهِنَّ﴾ كلاماً تاماً ثم استأنف: «وَأَتَوْهُنَّ أَجُورَهُنَّ مُرُوجَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ» فيكون العامل: ﴿وَأَتَوْهُنَّ﴾، ويكون معنى الإحصان: التزويج.

والمسافحات من الزواني: المبتذلات اللواتي هُنَّ سوق للزنى. ومتخذات الأخذان: هُنَّ المتسترات اللواتي يَصْحَبْنَ واحداً واحداً ويزنين خفية. وهذان كانا نوعين في زنى الجاهلية، قاله ابن عباس، وعامر الشعبي، والضحاك، وغيرهم، وأيضاً فهو تقسيم عقلي لا يعطي الوجود، إلا أن تكون الزانية: إما لا ترد يد لامس، وإما أن تختص من تقصير عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَحْسِنَ﴾ الآية - قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿أَحْسِنَ﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأ حمزة، والكسائي على بناء الفعل الفاعل، واختلف عن عاصم، فوجه الكلام

وَأَنَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ يُبَيِّلُوا مِثْلًا عَظِيمًا ﴿٢٦﴾ يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا ﴿٢٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ بَيْعَةً عَنْ رِضَىٰ نَفْسِكُمْ وَلَا تَقْسُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عَدُوًّا وَظَلَمًا فَسَوْفَ نُصَلِّيهُ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢٩﴾ إِنْ تَجَدَّبُوا كِبَارًا مَاتَهُمْ عَنْهُ نُكُوفٌ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدَّخِلْكُمْ مَدْخَلًا كَرِيمًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبْنَ وَسَأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٣١﴾ وَلِكُلِّ جَعَلْنَا مَوْلَىٰ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتَوْهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٣٢﴾

٨٣

:- الحرائر، إذ هي الصفة المشروطة في الحد الكامل، والرجم لا يتنصف، فلم يرد في الآية بإجماع، ثم اختلف - فقال ابن عباس والجمهور: على الأمة نصف المائة لا غير ذلك، وقال الطبري وجماعة من التابعين: على الأمة نصف المائة ونصف المدة، وهي نفي ستة أشهر، والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى نكاح الأمة.

والعنت في اللغة: المشقة. وقالت طائفة: المقصد به ما هنا الزنى، قاله مجاهد، وقال ابن عباس: ما أزلحفت ناكح الأمة عن الزنى إلا قريباً، قال: والعنت: الزنى، وقاله عطية العوفي، والضحاك، وقالت طائفة: الإثم، وقالت طائفة: الحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تحتل ذلك كله، وكل ما يعنت عاجلاً وأجلاً.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَصْرُوا خَيْرٌ لَكُمْ﴾ يعني عن نكاح الإماء. قاله سعيد بن جبيرة، ومجاهد، والسدي، وابن عباس رضي الله عنهما، وهذا نذب إلى الترك، وعلمته ما يؤدي إليه نكاح الإماء من استرقاق الولد ومهنتهن. وهذه الجملة ابتداء وخبر تقديره: وصبركم خير لكم. ﴿وَأَلَّهُ عَفْوٌ﴾ أي: لمن فعل وتزوج.

٣١ - ٣٢ - تفسير قوله تعالى: اختلف النحاة في اللام من قوله:

أن تكون القراءة الأولى بالتزويج، والثانية بالإسلام أو غيره مما هو من فعلهن، ولكن يدخل كل معنى منهما على الآخر. واختلف المتأولون فيما هو الإحصان هنا - فقال الجمهور: هو الإسلام، فإذا زنت الأمة المسلمة حُدت نصف حد الحرة، وإسلامها هو إحصانها الذي في الآية، وقالت فرقة: إحصانها الذي في الآية هو التزويج لِحُرٍّ، فإذا زنت الأمة المسلمة التي لم تتزوج فلا حدٌ عليها، قال سعيد بن جبيرة، والحسن، وقاتدة. وقالت فرقة: الإحصان في الآية: التزوج، إلا أن الحد واجب على الأمة المسلمة بالسنة، وهي الحديث الصحيح في مسلم والبخاري (أنه قيل: يا رسول الله، الأمة إذا زنت ولم تحصن؟ فأوجب عليها الحد).

قال الزهري: فالمتزوجة محدودة بالقرآن، والمسلمة غير المتزوجة محدودة بالحديث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الحديث والسؤال من الصحابة يقتضي أنهم فهموا من القرآن أن معنى ﴿أُحْسِنَ﴾: تزوجن، وجواب النبي ﷺ على ذلك يقتضي تقرير المعنى، ومن أراد أن يضعف قول من قال: «إنه الإسلام» - بأن الصفة لهن بالإيمان قد تقدمت وتقررت - فذلك غير لازم لأنه جائز أن يقطع في الكلام ويزيد، فإذا كن على هذه الحالة المتقدمة من الإيمان فإن أتيين بفاحشة فعلين، وذلك سانع صحيح.

والفاحشة هنا: الزنى بقريئة إلزام الحد، و﴿الْمُحْصَنَاتِ﴾ - في هذه الآية

﴿يُسَبِّحَنَّ﴾ - فمذهب سيبويه - رحمه الله -: أن التقدير: لأن يبين، والمفعول مضمرة، تقديره: يريد الله هذا، فإن كان لام الجر، أو لام كي فلا بد فيهما من تقدير (أن) لأنهما لا يدخلان إلا على الأسماء. وقال الفراء والكوفيون: اللام نفسها بمنزلة (أن) - وهو ضعيف. ونظير هذه اللام قول الشاعر:

أريد لأتسى ذكرها...

وقال بعض النحاة: إرادتي لأنسى. ﴿وَيَهْدِيكُمْ﴾ بمعنى: يرشدكم، لا يتوجه غير ذلك بقريئة السنن. والسنن: الطرق ووجوه الأمور وأنهاؤها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر من قوة هذا الكلام أن شرعنا في المشروعات كشرعة من قبلنا،

وليس ذلك كذلك، وإنما هذه الهداية في أحد أمرين: إما في أنا خوطبنا في كل قصة نهياً وأمرأ، كما خوطبوا هم أيضاً في قصصهم، وشرع لنا كما شرع لهم، فهدينا سننهم في ذلك وإن اختلفت أحكامنا وأحكامهم، والأمر الثاني أن هدينا سننهم في أن أطعنا وسمعنا كما سمعوا وأطاعوا، فوقع التماثل من هذه الجهة.

والذين من قبلنا: هم المؤمنون في كل شريعة، وتوبة الله على عبده هي رجوعه به عن المعاصي إلى الطاعات، وتوفيقه له. وحسن ﴿عَلِيمٌ﴾ هنا بحسب ما تقدم من سنن الشرائع وموضوع المصالح، و ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: مصيب بالأشياء مواضعها بحسب الحكمة والإنقان.

وتكرار إرادة الله التوبة على عباده تقوية للإخبار الأول، وليس المقصد في هذه الآية إلا الإخبار عن إرادة الذين يتبعون الشهوات، فقدمت إرادة الله توطئة مظهرة لفساد إرادة متبعي الشهوات، واختلف المتأولون في متبعي الشهوات - فقال مجاهد: هم الزناة، وقال السدي: هم اليهود والنصارى، وقالت فرقة: هم اليهود خاصة، لأنهم أرادوا أن يتبعهم المسلمون في نكاح الأخوات من الأب، وقال ابن زيد: ذلك على العموم في هؤلاء، وفي كل متبع شهوة، ورجحه الطبري.

وقرأ الجمهور: ﴿رَبِيدٌ﴾ بسكون الياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿مَيْلًا﴾ بفتح الياء. وقوله تعالى: ﴿رَبِيدُ اللَّهِ أَنْ يُخَفَّفَ

عَنْكُمْ﴾ - المقصد الظاهر بهذه الآية أنها في تخفيف الله تعالى ترك نكاح الإمام بإباحة ذلك، وأن إخباره عن ضعف الإنسان إنما هو في باب النساء، أي: لما علمنا ضعفكم عن الصبر عن النساء خففنا عنكم بإباحة الإمام، وكذلك قال مجاهد، وابن زيد، وطاوس. وقال طاوس: ليس يكون الإنسان في شيء أضعف منه في أمر النساء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم بعد هذا المقصد تخرج الآية في مخرج التفضل، لأنها تتناول كل ما خفف الله تعالى عن عباده، وجعله الدين يسراً، ويقع الإخبار عن ضعف الإنسان عاماً حسباً هو في نفسه ضعيف يستميله هواه في الأغلب. و ﴿الْإِنْسَانُ﴾ رفع على ما لم يُسَمِّ فاعله، و ﴿صَعِيماً﴾ حال.

وقرأ ابن عباس، ومجاهد: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ على بناء الفعل للفاعل، و ﴿صَعِيماً﴾ حال أيضاً على هذه القراءة، ويصح أن يكن ﴿خَلَقَ﴾ بمعنى جعل فيكسبها ذلك قوة التعدي إلى مفعولين، فيكون قوله: ﴿صَعِيماً﴾ مفعولاً ثانياً.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله تعالى: هذا استثناء ليس من الأول، والمعنى: لكن إن كانت تجارة فكلوها.

وقرأ المدنيون، وابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو: ﴿تجارة﴾ بالرفع على تمام (كان)، وأنها بمعنى: وقّع. وقرأت فرقة هي الكوفيون: حمزة، وعاصم، والكسائي: ﴿بِحَكْرَةٍ﴾ بالنصب على نقصان

(كان). وهو اختيار أبي عبيد.

وهما قولان قويان: إلا أن تمام (كان) يترجح عند بعض، لأنها صلة ل ﴿أَنَّ﴾ فهي محطوفة عن درجتها إذا كانت سليمة من صلة وغيرها، وهذا ترجيح ليس بالقوي، ولكنه حسن، و ﴿أَنَّ﴾ في موضع نصب. ومن نصب ﴿بِحَكْرَةٍ﴾ جعل اسم (كان) مضمراً تقديره: الأموال أموال تجارة، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، أو يكون التقدير: إلا أن تكون التجارة تجارة، ومثل ذلك قول الشاعر:

.....

إذا كان يوماً ذا كواكب أشنعاً
أي: إذا كان اليوم يوماً، والاستثناء منقطع في كل تقدير، وفي قراءة الرفع. فأكل الأموال بالتجارة جائز بإجماع الأمة، والجمهور على جواز الغبن في التجارة، مثال ذلك: أن يبيع الرجل ياقوتة بدرهم وهي تساوي مائة، فذلك جائز، ويعضده حديث النبي ﷺ: ﴿لَا يَبِيعُ حَاضِرٌ لِبَايَةٍ﴾، لأنه إنما أراد بذلك أن يبيع البادي باجتهاده، ولا يمنع الحاضر الحاضر من رزق الله في غبته. وقالت فرقة: الغبن إذا تجاوز الثلث مردود، وإنما أبيع منه المتقارب المتعارف في التجارات، وأما المتفاحش الفادح فلا، وقاله ابن وهب من أصحاب مالك رحمه الله.

و ﴿عَنْ رَأْيٍ﴾ معناه: عن رضا، إلا أنها جاءت من المفاعلة، إذ التجارة من اثنين، واختلف أهل العلم في التراضي - فقال طائفة: تمامه وجزمه بافتراق الأبدان بعد

عقدة البيع، أو بأن يقول أحدهما لصاحبه: اختر، فيقول: قد اخترت، وذلك بعد العقدة أيضاً، فينجزم حينئذ، هذا هو قول الشافعي وجماعة من الصحابة، وحجته حديث النبي ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا إلا بيع الخيار» وهو حديث ابن عمر، وأبي برزة، ورأيهما - وهما الراويان - أنه افتراق الأبدان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتفرق لا يكون حقيقة إلا بالأبدان، لأنه من صفات الجواهر.

وقال مالك، وأبو حنيفة رحمه الله: تمام التراضي أن يعقد البيع بالألسنة فتنجزم العقدة بذلك ويرتفع الخيار، وقال في الحديث المتقدم: إنه التفرق بالقول، واحتج بعضهم بقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَتَفَرَّقَا يَمُنِ اللَّهُ كُلًّا مِنْ سَمْعِهِ﴾، فهذه فرقة بالقول لأنها بالطلاق.

قال من احتج للشافعي: بل هي فرقة بالأبدان، بدليل تشبيه الضمير والطلاق لا حظ للمرأة فيه، وإنما حظها في فرقة البدن التي هي ثمرة الطلاق، قال الشافعي: ولو كان معنى قوله: ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ بالقول الذي هو العقد لطلت الفائدة في قوله: «البيعان بالخيار»، لأنه لا يشك في أن كل ذي سلعة مخير ما لم يعقد، فجاء الإخبار لا طائل فيه.

قال من احتج لمالك: إنما القصد في الحديث الإخبار عن وجوب ثبوت العقد، فجاء قوله: «البيعان بالخيار» توطئة لذلك، وإن كانت التوطئة معلومة فإنها تهيب النفس

لاستشعار ثبوت العقد ولزومها.

واستدل الشافعي بقوله عليه الصلاة والسلام: «لا يُسَمُّ الرجل على سوم أخيه، ولا يبيع الرجل على بيع أخيه» فجعلها مرتبتين، لأن حالة البيعين بعد العقد قبل التفرق تقتضي أن يُفْسِدَ مُفْسِدَ بزيادة في السلعة فيختار رُبُّهَا حُلَّ الصَّفَقَةِ الْأُولَى، فنهى النبي ﷺ عن ذلك الإفساد، ألا ترى أنه عليه الصلاة والسلام قال: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه»، فهي في درجة: «لا يسم»، ولم يقل: «لا ينكح على نكاح أخيه» لأنه لا درجة بعد عقد النكاح تقتضي تخيراً بإجماع من الأمة.

قال من يحتج لمالك رحمه الله: قوله عليه الصلاة والسلام: «لا يسم» «ولا يبيع» هي درجة واحدة كلها قبل العقد، وقال: «لا يبيع» تجوزاً في «لا يسم» - إذ ماله إلى البيع، فهي جميعاً بمنزلة قوله: «لا يخطب» - والعقد الجازم فيهما جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله في الحديث: «إلا يبيع الخيار» معناه عند المالكيين: المتساومان بالخيار ما لم يعقدا، فإذا عقدا بطل الخيار، إلا في بيع الخيار الذي عقد من أوله على خيار مدة ما، فإنه لا يبطل الخيار فيه.

ومعناه عند الشافعيين: المتبايعان - بعد عقدهما - مخيران ما دام في مجلسهما، إلا يبيعا يقول فيه أحدهما لصاحبه: اختر، فيختار، فإن الخيار ينقطع بينهما وإن لم يتفرقا، فإن فرض بيع خيار فالمعنى: إلا بيع

الخيار فإنه يبقى الخيار بعد التفرق بالأبدان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ - قرأ الحسن: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ على الكثير، فأجمع المتأولون أن المقصد بهذه الآية النهي عن أن يقتل بعض الناس بعضها، ثم لفظها يتناول أن يقتل الرجل نفسه بقصد منه للقتل، أو بأن يحملها على غرر ربما مات منه، فهذا كله يتناول النهي، وقد احتج عمرو بن العاص بهذه الآية حين امتنع من الاغتسال بالماء البارد خوفاً على نفسه منه، فقرر رسول الله ﷺ احتجاجه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾، اختلف المتأولون في المشار إليه به «ذلك» - فقال عطاء: «ذلك» عائد على القتل، لأنه أقرب مذكور. وقالت فرقة: «ذلك» عائد على أكل المال بالباطل وقتل النفس، لأن النهي عنهما جاء مُتَّسِقًا مسروداً، ثم ورد الوعيد حسب النهي. وقالت فرقة: «ذلك» عائد على كل ما نهى عنه من القضايا من أول السورة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْعَلْ ذَلِكَ﴾. وقال الطبري: «ذلك» عائد على ما نهى عنه من آخر وعيد، وذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾، لأن كل ما نهى عنه من أول السورة قرن به وعيد إلا من قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرْتُوا النِّسَاءَ كَرْهًا﴾ فإنه والنواهي بعده لا وعيد معها إلا قوله: ﴿وَمَنْ يَقْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا﴾.

والعدوان: تجاوز الحد. و ﴿نُضْلِيهِ﴾ معناه: نُجِسُهُ حَرْهَا كما تعرض الشاة المَضْلِيَّة، أي: نحرقه بها.

وقرأ الأعمش والنخعي: ﴿نُضْلِيهِ﴾ بفتح النون، وقراءة الجمهور بضم النون على نقل صلي بالهمز، وقراءة هذين على لغة من يقول: صليته ناراً بمعنى: أصليته، وحكى الزجاج أنها قد قرئت: ﴿نُضْلِيهِ﴾ بفتح الصاد وشد اللام المكسورة، ويسير ذلك على الله عز وجل، لأن حجته بالغة وحكمه لا معقب له.

﴿٣١﴾ تفسير قوله تعالى:

﴿تَجْتَنِبُوا﴾ معناه: تدعون جانباً، وقرأ ابن مسعود، وابن جبير: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبِيرٌ﴾، وقرأ المفضل عن عاصم ﴿يَكْفُرُ﴾، ﴿وَيُدْخِلَكُمُ﴾ على علامة الغائب، وقرأ الباقون بالنون، والقراءتان حستان، وقرأ ابن عباس: ﴿عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ بزيادة (من)، وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿مُدْخَلًا﴾ بضم الميم، وقرأ نافع: ﴿مُدْخَلًا﴾ بالفتح، وقد رواه أيضاً أبو بكر عن عاصم ها هنا، وفي الحج، ولم يختلف في سورة بني إسرائيل في ﴿مُدْخَلٌ﴾، ﴿مُخْرَجٌ صِدْقٌ﴾ أنهما بضم الميم.

قال أبو علي: ﴿مُدْخَلًا﴾ بالفتح - يحتمل أن يكون مصدرًا، والعامل فيه فعل يدل عليه الظاهر، التقدير: ويدخلكم فتدخلون مَدْخَلًا، ويحتمل أن يكون مكاناً فيعمل فيه الفعل الظاهر، وكذلك يحتمل ﴿مُدْخَلًا﴾ بضم الميم للوجوبين، وإذا لم يعمل الفعل الظاهر فمعموله الثاني

محذوف، تقديره: ويدخلكم الجنة. واختلف أهل العلم في الكبائر - فقال علي بن أبي طالب: «هي سبع: الإشراف بالله، وقتل النفس، وقذف المحصنات، وأكل مال اليتيم، وأكل الربا، والفرار يوم الزحف، والتعزُّبُ بعد الهجرة». وقال عبيد بن عمير: «الكبائر سبع، في كل واحدة منها آية في كتاب الله عز وجل».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر كقول علي، وجعل الآية في التعرب قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُوا عَلَيَّ آذِنَهُمْ يَأْتِيَنَّ لَهُمْ الْهُدُوكُ﴾ الآية. ووقع في البخاري - في كتاب الحدود، في باب رمي المحصنات: «أتقوا السبع الموبقات، الإشراف بالله، والسحر، وقتل النفس، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ».

وقال عبدالله بن عمر: «هي تسع، الإشراف بالله، والقتل، والفرار، والقذف، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد في المسجد الحرام، والذي يستسحر، وبكاء الوالدين من العقوق». قال عبدالله بن مسعود، وإبراهيم النَّخَعِي: هي في جميع ما نُهي عنه من أول سورة النساء إلى ثلاثين آية منها، وهي: ﴿إِنْ تَجْتَنِبُوا﴾. وقال عبدالله بن مسعود: «هي أربع أيضاً: الإشراف بالله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله». وروي أيضاً عن ابن مسعود: «هي ثلاث: القنوط، واليأس، والأمن

المتقدمة». وقال ابن عباس أيضاً، وغيره: «الكبائر: كل ما ورد عليه وعيد بنار، أو عذاب، أو لعنة، أو ما أشبه ذلك». وقالت فرقة من الأصوليين: هي في هذا الموضع أنواع الشرك التي لا تصلح معها الأعمال، وقال رجل لابن عباس: أخبرني عن الكبائر السبع، فقال: «هي إلى السبعين أقرب». وقال ابن عباس: «كل ما نهى الله عنه فهو كبير»، فهنا يدخل الزنى، وشرب الخمر، والزور، والغيبة، وغير ذلك مما قد نُص عليه في أحاديث لم يُقصد الحصر للكبائر بها، بل ذُكر بعضها مثلاً، وعلى هذا القول أئمة الكلام: القاضي، وأبو المعالي، وغيرهما، قالوا: وإنما قيل: صغيرة، بالإضافة إلى أكبر منها، وهي في نفسها كبيرة من حيث المعصية بالجميع واحد.

وهذه الآية يتعاضد معها حديث رسول الله ﷺ في كتاب الوضوء من مسلم (عن عثمان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من أمرٍ مسلم تحضره صلاة مكتوبة، فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يأْت بكبيرة، وذلك الدهر كله»).

واختلف العلماء في هذه المسألة - فجماعة من الفقهاء وأهل الحديث يرون أن الرجل إذا اجتنب الكبائر، وامتنل الفرائض كفرت صفاته كالنظر وشبهه قطعاً بظاهر هذه الآية، وظاهر الحديث. وأما الأصوليون فقالوا: لا يجب على القطع تكفير

الصغائر باجتناب الكبائر، وإنما يحمله ذلك على غلبه الظن وقوة الرجاء، والمشية ثابتة، ودل على ذلك أنه لو قطعنا لمجتنب الكبائر وممثل الفرائض بتكفير صغائره قطعاً لكانت له في حكم المباح الذي يقطع بأنه لا تباعة فيه، وذلك نقض لعري الشريعة، ومحمل الكبائر عند الأصوليين في هذه الآية أجناس الكفر، والآية التي قيدت الحكم فترد إليها هذه المطلقات كلها قوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾.

و ﴿كَرِيمًا﴾ يقتضي كرم الفضيلة ونفي العيوب، كما تقول: ثوب كريم، وكريم المختد. وهذه آية رجاء، روي عن عبدالله بن مسعود أنه قال: خمس آيات من سورة النساء هي أحب إلي من الدنيا جميعاً - قوله: ﴿إِن تَحْسَبُوا﴾ الآية، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ﴾ الآية، وقوله أيضاً: ﴿يُضْعِفْنَهَا﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية.

تفسير قوله تعالى:

سبب الآية أن النساء قلن: ليتنا استوتينا مع الرجال في الميراث، وشركناهم في الغزو، وروي أن أم سلمة قالت ذلك أو نحوه، وقال الرجال: ليت لنا في الآخرة حظاً زائداً على النساء، كما لنا عليهن في الدنيا، فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن في تمنّيهم هذا تحكماً على الشريعة، وتطرقاً إلى الدفع في صدر

حكم الله، فهذا نهى عن كل تمنن لخلاف حكم شرعي، ويدخل في النهي أن يتمنى الرجل حال الآخر من دين أو دنيا، على أن يذهب ما عند الآخر، إذ هذا هو الحسد بعينه، وقد كره بعض العلماء أن يتمنى أحد حال رجل ينصبه في فكره وإن لم يتمن زوال حاله، هذا في نعم الدنيا، وأما في الأعمال الصالحة فذلك هو الحسن، وأما إذا تمنى المرء على الله من غير أن يقرب أميته بشيء مما قدمنا فذلك جائز، وذلك موجود في حديث النبي ﷺ في قوله: «ووددت أن أقتل في سبيل الله، ثم أحيأ فأقتل»، وفي غير موضع، ولقوله تعالى: ﴿وَسَأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ الآية - قال قتادة: معناه: من الميراث، لأن العرب كانت لا تورث النساء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف، ولقطة الاكتساب ترد عليه رداً بيناً، ولكنه يتركب على قول النساء: ليتنا ساوينا الرجال في الميراث، فكأنه قيل بسببهن: لا تتمنوا هذا فللكل نصيبه، وقالت فرقة: معناه: من الأجر والحسنات، فكأنه قيل للناس: لا تتمنوا في أمر خلاف ما حكم الله به، لاختيار تروته أنتم، فإن الله قد جعل لكل أحد نصيباً من الأجر والفضل بحسب اكتسابه فيما شرع له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول هو الواضح بين الأعم. وقالت فرقة: معناه: لا تتمنوا خلاف ما حد الله في تفضيله، فإنه تعالى قد

جعل لكل أحد مكاسب تختص به، فهي نصيبه، قد جعل الجهاد والإنفاق وسعي المعيشة وحمل الكلف كالأحكام والإمارة والحسبة وغير ذلك للرجال، وجعل الحمل ومشقته وحسن التئبل وحفظ غيب الزوج وخدمة البيوت للنساء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كالقول الذي قبله، إلا أنه فارقه بتقسيم الأعمال. وفي تعليقه النصيب بالاكتساب حصصاً على العمل، وتبنيه على كسب الخير.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿وَأَسْأَلُوا﴾ بالهمز وسكون السين، وقرأ الكسائي وابن كثير: ﴿وَسَأَلُوا﴾ ألقيا حركة الهمزة على السين، وهذا حيث وقعت اللفظة إلا في قوله: ﴿وَسَأَلُوا مَا أَنْفَقْتُمْ﴾ فإنهم أجمعوا على الهمز فيه، قال سعيد بن جبيرة، وليث بن أبي سليم: هذا في العبادات، والذين، وأعمال البر، ليس في فضل الدنيا. وقال الجمهور: ذلك على العموم، وهو الذي يقتضيه اللفظ، وقوله: ﴿وَسَأَلُوا﴾ يقتضي مفعولاً ثانياً، فهو - عند بعض النحويين - في قوله: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾، التقدير: وأسألوا الله فضله، وسيبويه لا يجيز هذا لأن فيه حذف (من) في الواجب، والمفعول عنده مضمّر تقديره: وأسألوا الله الجنة، أو كثيراً، أو حظاً من فضله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأصح، ويحسن عندي أن يُقدّر المفعول: أمانيتكم، إذ ما تقدم يحسن هذا التقدير.

وقوله: ﴿يَكْفِي سَاءَ عِلْمًا﴾

عقدت أيمانكم حلفهم أو ذمتهم،
وقرأ حمزة - في رواية علي بن كيشة
عنه -: ﴿عَقَدْتُ﴾ مشددة القاف .

واختلف المتأولون في من المراد بـ
﴿الَّذِينَ﴾ - فقال الحسن، وابن
عباس، وابن جبير، وقتادة،
وغيرهم: هم الأحلاف، فإن العرب
كانت تتوارث بالحلف، فشدد الله
ذلك بهذه الآية، ثم نسخ بآية
الأنفال: ﴿وَأُولُوا الْأَرْكَامِ بَيْنَهُمْ أَوْلَىٰ
بِمَعُونِ فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، وقال ابن
عباس أيضاً: هم الذين كان
رسول الله ﷺ آخى بينهم، فإنهم
كانوا يتوارثون بهذه الآية حتى نسخ
ذلك بما تقدم .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ورود لابن عباس أن المهاجرين كانوا
يرثون الأنصار دون ذوي رحمهم،
للأخوة التي آخى رسول الله ﷺ
بينهم فنزلت الآية في ذلك ناسخة،
وبقي إيتاء النصيب من النصر
والمعونة أو من المال على جهة
الندب في الوصية .

وقال سعيد بن المسيب: هم الأبناء
الذين كانوا يَتَّبِعُونَ، والنصيب الذي
أمر الناس بإيتائه هو الوصية لا الميراث .
وقال ابن عباس أيضاً: هم
الأحلاف إلا أن النصيب هو المؤازرة
في الحق، والنصر، والوفاء
بالحلف، لا الميراث .

وروي عن الحسن أنها في قوم
يوصى لهم فيموت الموصى له قبل
نفوذ الوصية ووجوبها، فأمر الموصى
أن يؤديها إلى ورثة الموصى له .

ولفظه المعاقدة والأيمان ترجح أن
المراد: الأحلاف، لأن ما ذكر من

والصديق، والحليف،
والمعتيق، والمعتك،
والوارث، والعبد فيما
حكى ابن سيدة، ويحسن
هنا من هذا الاشتراك:
الورثة، لأنها تصلح على
تأويل: ولكل أحد، وعلى
تأويل: ولكل شيء،
وبذلك فسر قتادة،
والسدي، وابن عباس،
وغيرهم أن الموالي:
العصبة والورثة. قال ابن
زيد: لما أسلمت العجم
سُمُوا موالى استعارة
وتشبيهاً، وذلك في
قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ لَّمْ
تَلْمِزُوا عِبَادَهُمْ فَلْيُوَدِّعُوا فِي
الَّذِينَ وَمَوْلِيكُمْ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد سُمي قوم من العجم ببني العم .
و﴿بِمَا﴾ متعلقة بشيء، تقديره:
ولكل شيء مما ترك الوالدان
والأقربون جعلنا ورثة، وهي متعلقة -
على تأويل: ولكل أحد - بفعل
مضمر تقديره: ولكل أحد جعلنا
موالي يرثون مما ترك الوالدان
والأقربون، ويحتمل - على هذا - أن
تتعلق (من) بـ ﴿مَوْلِي﴾ . وقوله:
﴿وَالَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، والخبر في
قوله: ﴿فَتَأْتُوهُمْ﴾ .

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمر،
وابن عامر: ﴿عَاقَدْتُ﴾ على
المفاعلة، أي: أيمان هؤلاء عاقدت
أولئك، وقرأ عاصم، وحمزة،
والكسائي: ﴿عَقَدْتُ﴾ بتخفيف
القاف على حذف مفعول تقديره:

الرِّجَالُ قَوْمُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ
عَلَىٰ بَعْضٍ وَيَمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَأَلْصَقَ لِحْتِ
قَدِيدَتِ حَافِظَتِ لِلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ وَالَّذِي نَخَافُونَ
شُرُوهُمْ فَيَعْطُوهُمْ . وَأَهْجُرُوهُمْ فِي الْمَضَاجِعِ
وَأَضْرِبُوهُمْ فَإِنْ أَطَعْتَكُمْ فَلَا تَبْغُوا عَلَيْهِمْ سَبِيلًا
إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا كَبِيرًا ﴿٣٣﴾ وَإِنْ جَفَرْتُمْ شِقَاقَ
بَنِيهَا فَأَبْغُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ . وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ
يُرِيدُ أَنْ يَصْلِحَ لَوْ فِيقَ اللَّهِ بَيْنَهُمَا إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا
﴿٣٤﴾ وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْعًا وَبِالْوَالِدَيْنِ
إِحْسَانًا وَبِزِي الْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ
ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ
وَأَيْنَ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنْ اللَّهُ لَا يُحِبُّ مَنْ
كَانَ مَخْتًا لَا فَعْرًا ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ
النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٣٦﴾

معناه: إن علم الله قد أوجب
الإصابة والإنتقان والإحكام، فلا
تعارضوا بتمن ولا غيره، وهذه الآية
تقتضي أن الله يعلم الأشياء،
والمعقودات توجب أنه يعلم المعدومات
الجائز وقوعها وإن لم تكن أشياء،
والآية لا تناقض ذلك، بل وقفت
على بعض معلوماته وأمست عن
بعض .

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله تعالى:
(كُلٌّ) إنما تستعمل مضافةً ظهر
المضاف إليه أو تقدر، فهي بمثابة:
(قَبْلَ وَبَعْدَ) ولذلك أجاز بعض
النحاة: مرزئت بكل - على حد (قبل
وبعد)، فالمقدر هنا على قول فرقة:
ولكل أحد - وعلى قول فرقة: ولكل
شيء، يعني: التركة .

والمولى - في كلام العرب - لفظه
يشارك فيها: القريب والقرباة،

غير الأحلاف ليس في جميعه معاقدة ولا إيمان.

و ﴿شَهِيدًا﴾ معناه: إن الله شهيد بينكم على المعاقدة والصلة، فَأَوْفُوا بالعهد بحسب ذلك مراقبة ورهبة.

وقوله تعالى: ﴿الزَّيَالُ قَوْمُونَ﴾ الآية - قَوْم: فَعَال، بناءً مبالغة، وهو من القيام على الشيء، والاستبداد بالنظر فيه، وحفظه بالاجتهاد، فقيام الرجال على النساء هو على هذا الحد، وتعليل ذلك بالفضيلة والنفقة يقتضي أن للرجال عليهن استيلاء وملكا له.

قال ابن عباس: الرجال أمراء على النساء، وعلى هذا قال أهل التأويل، و﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِمَا فَكَّلَ اللَّهُ﴾ مصدرية، ولذلك استغنت عن العائد، وكذلك: ﴿وَبِمَا أَنْفَقُوا﴾، والفضيلة: هي الغزو، وكمال الدين، والعقل، وما أشبهه، والإنفاق: هو المهر، والنفقة المستمرة على الزوجات.

وقيل: سبب هذه الآية أن سعد بن الربيع لطم زوجه حبيبة بنت زيد بن أبي زهير، فجاءت مع أبيها إلى رسول الله ﷺ، فأمر أن تلممه كما لطمها، فنزلت الآية مبيحة للرجال تأديب نسايتهم، فدعاهم رسول الله ﷺ، ونقض الحكم الأول، وقال: «أردت شيئا وما أردت الله خيرا»، وفي طريق آخر: «أردت شيئا وأردت الله غيره»، وقيل: إن في هذا الحكم المردود نزلت: ﴿وَلَا تَعْبَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُفْصَلَ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾، وقيل: سببها قول أم سلمة المتقدم، أي: لما

تمنى النساء درجة الرجال عرفن وجه الفضيلة.

والصلاح في قوله: ﴿وَالصَّالِحَاتُ﴾ هو الصلاح في الدين. و ﴿وَتَزَيَّنَّتْ﴾ معناه: مطيحات، والقنوت: الطاعة، ومعناه: لأزواجهن، أو لله في أزواجهن، وغير ذلك. وقال الزجاج: إنها الصلاة، وهذا هنا بعيد.

و ﴿لَلغَيْبِ﴾ معناه: كل ما غاب عن علم زوجها مما استرته، وذلك يعم حال غيب الزوج وحال حضوره، وروى أبو هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «خَيْرُ النِّسَاءِ امْرَأَةٌ إِذَا نَظَرْتَ إِلَيْهَا سَرَّتْكَ، وَإِذَا أَمَرْتَهَا أَطَاعَتْكَ، وَإِذَا غَبْتَ عَنْهَا حَفِظَتْكَ فِي مَالِكَ وَفِي نَفْسِهَا»، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية.

وفي مصحف ابن مسعود: «فالصالح قوائن حواظ»، وهذا بناء يختص بالموث، وقال ابن جنبي: «والتكسير أشبه لفظاً بالمعنى، إذ هو يعطي الكثرة وهي المقصود هنا».

و ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ - الجمهور على رفع اسم الله بإسناد الفعل إليه، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿اللَّهُ﴾ بالنصب على إعمال: ﴿حَفِظَ﴾، أما قراءة الرفع ف [مَا] مصدرية تقديره: يحفظ الله، ويصح أن تكون بمعنى (الذي)، ويكون العائد الذي في [حَفِظَ] ضمير نصب، ويكون المعنى: إما حفظ الله ورعايته التي لا يتم أمر دونها، وإما أوامره ونواهيها للنساء، فكانها حفظه، فمعناه: أن النساء يحفظن بإرادته وقدرته - وأما قراءة ابن القعقاع ﴿بِمَا

حَفِظَ اللَّهُ﴾ فالأولى أن تكون [مَا] بمعنى (الذي)، وفي [حَفِظَ] ضمير مرفوع، والمعنى: حافظات للغيب بطاعة وخوف وبر ودين حَفِظْنَ الله في أوامره حين امْتَثَلْنَها. وقيل: يصح أن تكون [مَا] مصدرية على أن تقدير الكلام: بما حفظن الله، وينحذف الضمير، وفي حذفه قبح لا يجوز إلا في الشعر كما قال:

فَأَنَّ السَّوَادِثَ أَوْذَى بِهَا
يريد: أودين، والمعنى: يحفظن الله في أمره حين امتثلنه، وقال ابن جنبي: الكلام على حذف مضاف تقديره: بما حفظ دين الله، أو أمر الله. وفي مصحف ابن مسعود: «بما حفظ الله فأصلحوها إليهن».

و﴿وَأَلَّتِي﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿فَيُطَوَّرُونَ﴾، ويصح أن تكون في موضع نصب بفعل مضمّر تقديره: وعظروا اللواتي تخافون نشوزهن، كقوله: ﴿وَأَسْكَرُوكَ وَالسَّارِقَةَ﴾ على قراءة من قرأها بالنصب، قال سيبويه: النصب القياس، إلا أن الرفع أكثر في كلامهم، وحكي عن سيبويه أن تقدير الآية عنده: وفيما يتلى عليكم اللاتي. قالت فرقة: معنى ﴿تَحَاوَرْنَ﴾: تعلمون وتَتَمَقَّوْنَ، وذهبوا في ذلك إلى أن وقوع النشوز هو الذي يوجب الروعظ، واحتجوا في جواز وقوع الخوف بمعنى اليقين بقول أبي مخجن:

وَلَا تَذْفُقُنِّي بِالْقَلَاةِ فَلَئِنِّي
أخاف إذا ما سِئْتُ أَلَا أذوقها
وقالت فرقة: الخوف - ها هنا - على باب في التوقع، لأن الروعظ وما

بعده إنما هو في دوام ما ظهر من مبادئ ما يتخوف.

والنشوز: أن تتعوج المرأة، وترتفع في خلقها، وتستعلي على زوجها وهو من نشز الأرض، يقال: ناشز، وناشص، ومنه بيت الأعمى:

تَجَلَّلَهَا شَيْخٌ عِشَاءً فَأَصْبَحَتْ
قُضَاعِيَةً تَأْتِي الْكُوَاهِمَ نَائِصًا
و ﴿يُظَوِّرُهُنَّ﴾ معناه: ذكر وهن أمر الله، واستدعوهن إلى ما يجب عليهن بكتاب الله وسنة نبيه، وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿فِي الْمَضْجَعِ﴾، وهو واحد يدل على الجمع.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَأَقْفُرُهُنَّ﴾ - فقالت فرقة: معناه: جَنَّبُوا جَمَاعَهُنَّ، وجعلوا ﴿فِي﴾ للوعاء على بابها دون حذف، قال ابن عباس: يضاجمها ويوليها ظهره ولا يجامعها، وقال مجاهد: جنّبوا مضاجعتهم، فيتقدر على هذا القول حذف تقديره: واهجروهن برفض المضاجع، أو بترك المضاجع، وقال سعيد بن جبير: هي هجرة الكلام، أي: لا تكلموهن، وأعرضوا عنهن، فيقدر حذف تقديره: واهجروهن في سبب المضاجع حتى يراجعتنّها، وقال ابن عباس أيضاً: معناه: وقلوا لهن هجراً من القول، أي: إغلاظاً حتى يراجعن المضاجع، وهذا لا يصح تصريفه إلا على من حكى: هجر وأهجر بمعنى واحد وقال الطبري: معناه: اربطوهن بالهजार كما يربط البعير به، وهو حيل يُشد به البعير، فهي في معنى: اضربوهن ونحوها، ورجح الطبري منزعه هذا، وقدح في سائر

الأقوال، وفي كلامه كله في هذا الموضوع نظر.

والضرب في هذه الآية هو ضرب الأدب غير المبرح وهو الذي لا يكسر عظماً، ولا يشين جارحة، وقال النبي ﷺ: «اضربوا النساء إذا عصينكم في معروف ضرباً غير مبرح»، وقال عطاء: قلت لابن عباس: ما الضرب غير المبرح؟ قال: بالشراك ونحوه، وروي عن ابن شهاب أنه قال: لا قصاص بين الرجل وامرأته إلا في النفس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تجاوز، قال غيره: إلا في النفس والجراح، وهذه العظة والهجرة والضرب مراتب، إن وقعت الطاعة عند إحداها لم يتعد إلى سائرهما.

و ﴿تَبَوَّأُ﴾ معناه: تطلبوا، و ﴿سَبِيلًا﴾ أي: إلى الأذى، وهو التعنيت والتعسف بقول أو فعل، وهذا نهي عن ظلمهن بغير واجب بعد تقدير الفضل عليهن، والتمكين من أدبهن، وحسن معه الانصاف بالعلو والكبر، أي: قدره فوق كل قدر، ويده بالقدرة فوق كل يد، فلا يستعلي أحد على امرأته، فالله بالمرصاد، وينظر هذا إلى حديث ابن مسعود: فصرفت وجهي فإذا رسول الله ﷺ يقول: «اعلم أبا مسعود أن الله أقدر عليك منك على هذا العبد».

﴿٣٥﴾ تفسير قوله تعالى:

قسّمت هذه الآية النساء تقسيماً عقلياً، لأنها إما طاعة، وإما ناشزة، والنشز: إما من يرجع إلى الطواعية، وإما من يحتاج إلى الحكمين.

واختلف المتأولون أيضاً في الخوف - ها هنا - حسب ما تقدم، ولا يبعث الحكمان إلا مع شدة الخوف. والشقاق: مصدر شاق يشاق، وأجري (البين) مجرى الأسماء، وأزيل عنه الظرفية إذ هو بمعنى: حالهما وعشرتهما وصحبتهما، وهذا من الإيجاز الذي يدل فيه الظاهر على المقدر.

واختلف - من المأمور بالبعثة؟ فقيل: الحاكم، فإذا أعضل على الحاكم أمر الزوجين، وتعاضدت عنه الحجج، واقتترنت الشبه، واغتمت الإنفاذ على أحدهما بعث حكمين من الأهل ليباشرا الأمر، وخص الأهل لأنهم مظنة العلم بباطن الأمر، ومظنة الإشفاق بسبب القرابة. وقيل: المخاطب الزوجان، وإليهما تقديم الحكمين، وهذا في مذهب مالك، والأول لريبعة وغيره.

واختلف الناس في المقدار الذي ينظر فيه الحكمان - فقال الطبري: قالت فرقة: لا ينظر الحكمان إلا فيما وكلهما به الزوجان، وصرحا بتقديمهما عليه، ترجم بهذا ثم أدخل عن علي غيره، وقال الحسن ابن أبي الحسن، وغيره: ينظر الحكمان في الإصلاح، وفي الأخذ والعطاء، إلا في الفرقة، فإنها ليست إليهما، وقالت فرقة: ينظر الحكمان في كل شيء، ويحلمان على الظالم، ويُمضيان ما رأياه من بقاء أو فراق، وهذا هو مذهب مالك والجمهور من العلماء، وهو قول علي بن أبي طالب في «المدونة» وغيرها، وتأول الزجاج عليه ذلك، وأنه وكل

الْحَكَمَيْنِ عَلَى الْفِرْقَةِ، وَأَنَّهَا لِلْإِمَامِ،
وذلك وهم من أبي إسحق.

واختلف المتأولون في من المراد
بقوله: ﴿إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا﴾؟ فقال
مجاهد، وغيره: المراد الحكمان،
أي: إذا نصحا وقصدا الخير بورك
في وساطتهما، وقالت فرقة: المراد
الزوجان، والأول أظهر، وكذلك
الضمير في ﴿بَيْنَهُمَا﴾ يحتمل
الأميرين، والأظهر أنه للزوجين،
والإتصاف بعليم خبير يشبه ما ذكر
من إرادة الإصلاح.

﴿٣٦﴾ تفسير قوله تعالى:

(الواو) لعطف جملة الكلام على
جملة غيرها، والعبادة: التذلل
بالطاعة، ومنه: طريق معبد، ويعبر
معبد إذا كانا معلمين، و﴿إِسْكَانًا﴾
نصب على المصدر، والعامل فعل
مضمر تقديره: وأحسنوا بالوالدين
إحساناً، وما ذكر الطبري من أنه
نصب بالإغراء خطأ، والقيام بحقوق
الوالدين اللازمة لهما من التوقير
والصون والإنفاق - إذا احتاجا -
واجب، وسائر ذلك من وجوه البر،
والألطاف، وحسن القول، والتصنع
لهما مندوب إليه مؤكد فيه، وهو البر
الذي تفضل فيه الأم على الأب،
(حسب قوله عليه الصلاة والسلام
للذي قال له: من أبر؟ قال:
«أمك»، قال: ثم من؟ قال:
«أمك»، قال: ثم من؟ قال:
«أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أباك،
ثم الأقرب فالأقرب»)، وفي رواية:
«ثم أدناك أدناك». وقرأ ابن أبي
عبله: ﴿إِحْسَانًا﴾ بالرفع.

وذو القربى: هو القربى النسب من

قَبِيلِ الْأَبِ وَالْأُمِّ، وَهَذَا مِنَ الْأَمْرِ
بصلة الرحم وحفظها، و﴿الَّتَيْنِ﴾:
جمع يتيم، وهو فاقد الأب قبل
البلوغ، وإن ورد في كلام العرب يتم
من قبيل الأم فهو مجاز واستعارة،
﴿وَالسَّكِينِ﴾: المفتقرون من
المسلمين الذين تحل لهم الزكاة،
وجاءوا بالسؤال.

واختلف في معنى ﴿وَالْحَمَارِ ذِي
الْقُرْنَيْنِ﴾ وفي معنى ﴿الْجُنُبِ﴾ - فقال
ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة،
وغيرهم: الجار ذو القربى هو الجار
القريب النسب، والجار الجنب هو
الجار الأجنبي الذي لا قرابة بينك
وبينه، وقال نوف الشامي: الجار ذو
القربى هو الجار المسلم، والجار
الجنب هو الجار اليهودي أو
النصراني، فهي عنده قرابة الإسلام،
وأجنبية الكفر، وقالت فرقة: الجار ذو
القربى هو الجار القريب المسكن
منك، والجار الجنب هو البعيد
المسكن منك، وكان هذا القول منتزح
من الحديث. (قالت عائشة: يا
رسول الله، إن لي جارين، فإلى أيهما
أهدي؟ قال: «إلى أقربهما منك باباً»).

واختلف الناس في حد الجيرة -
فقال الأوزاعي: أربعون داراً من كل
ناحية جيرة، وقالت فرقة: من سمع
إقامة الصلاة فهو جار ذلك المسجد،
ويقدر ذلك في الدور، وقالت فرقة:
من ساكن رجلاً في محلة أو مدينة
فهو جاره. والمجاورة مراتب بعضها
ألصق من بعض، أدناها الزوج، كما
قال الأعشى:

أيسا جسارتي بيسيبي ..

وبعد ذلك الجيرة الخُلط، ومنه
قول الشاعر:

سائلٌ مُجاوِرٌ جَزْمٌ هَلْ جَنَيْتَ لَهَا
خَرِيْبًا تُفَرِّقُ بَيْنَ الْجِيْرَةِ الْخُلْطِ
وحكى الطبري عن ميمون بن
مهران أن الجار ذا القربى أريد به
جارُ القربى، وهذا خطأ في اللسان،
لأنه جمع - على تأويله - بين الألف
واللام والإضافة، وكان وجه
الكلام: وجار ذي القربى.

وقرأ أبو حيوة: وابن أبي عبلة:
﴿وَالْجَارَ ذَا الْقُرْبَى﴾ بنصب
﴿وَالْجَارِ﴾، وحكى مكّي عن ابن
وهب أنه قال عن بعض الصحابة في
الجار الجنب: إنها زوجة الرجل.
وروى المفضل عن عاصم أنه قرأ:
﴿وَالْجَارَ الْجُنُبِ﴾ بفتح الجيم
وسكون النون.

و﴿الْجُنُبِ﴾ في هذه الآية معناه:
البعيد، والجنابة: البعد، ومنه قول
الشاعر وهو الأعشى:

أَتَيْتُ حُرَيْشًا زَائِرًا عَنْ جَنَابَةٍ
فَكَانَ حُرَيْشٌ عَن عَطَائِي جَامِدًا
ومنه قول الآخر، وهو علقمة بن
عبد:

فَلَا تُخْرِمْنِي نَائِلًا عَنْ جَنَابَةٍ
فَلِإِنِّي أَمْرٌ وَسَطُ الْقِيَابِ غَرِيبٌ
وهو من الاجتناب، وهو أن يُترك
الشيء جانباً، وسئل أعرابي عن
الجار الجنب فقال: هو الذي يجيء
فيحل حيث تقع عينك عليه، قال أبو
علي: جُنُبٌ: صفة كناقية أجد،
ومشية سُجُجٌ، وَجُنُبُ التَّطَهُّرِ مأخوذ
من الجُنُبِ.

وقال ابن عباس، وابن جبير،

من التوعد، وخص هاتين الصفتين هنا إذ مقتضاهما العجب والزهو، وذلك هو الحامل على الإخلال بالأصناف الذين تقدم أمر الله بالإحسان إليهم. ولكل صنف نوع من الإحسان يختص به، ولا يعوق عن الإحسان إليهم إلا العجب أو البخل. فلذلك نفى الله محبته عن المعجبين والباخلين على أحد التأويلين حسبما نذكره الآن بعد هذا، وقال أبو رجاء الهروي: لا تجده سئىء الملكة إلا وجدته مختلاً فخوراً، ولا عاقفاً إلا وجدته جباراً شقياً، والفخر: عد المناقب تطاولاً بذلك.

٣٧ - ٣٨ تفسير قوله تعالى:

قالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب بدل من ﴿مَنْ﴾ في قوله: ﴿مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾، ومعناه - على هذا -: يبخلون بأموالهم، ﴿وَيَايُرُونَ النَّاسَ﴾ يعني: إخوانهم، ومن هو مَظِنَّة طاعتهم بالبخل بالأموال، فلا تنفق في شيء من وجوه الإحسان إلى من ذكره ﴿وَيَكْسُرُونَ مَا آتَاهُمْ﴾ الله مِنْ فَضْلِهِ، يعني: من الرزق والمال، فيجيء - على هذا - أن الباخلين مُنْفِيَةٌ عنهم محبة الله، والآية إذاً في المؤمنين، فالمعنى: أحسنوا إليها المؤمنون إلى من سُمِّي، فإن الله لا يُحب مَنْ فيه الإخلال المانعة من الإحسان إليهم من المؤمنين، وأما الكافرون فإنه أعد لهم ﴿عَذَابًا مُهِينًا﴾، ففصل توعد المؤمنين من توعد الكافرين بأن جعل الأول عدم المحبة، والثاني عذاباً مهيناً.

المسافر على ظهر طريقه، وسُمِّي ابنه لزوجته له، كما قيل: ابن ماءٍ للطائر الملازم للماء، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: لا يدخل الجنة ابن زنى، أي: ملازمه الذي يستحق بالمثابرة عليه أن ينسب إليه، وذكر الطبري أن مجاهداً فسره بأنه المارء عليك في سفره، وأن قتادة - وغيره - فسره بأنه الضيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله قول واحد.

﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾

يريد العبيد الأرقاء، ونسب الملك إلى اليمين إذ هي في المعتاد جارحة البطش والتغلب والثمك، فأضيفت هذه المعاني - وإن لم تكن بها - إليها تجوزاً، والعبيد موسى بهم في غير ما حديث يطول ذكرها، ويعني عن ذلك اشتهارها.

ومعنى ﴿لَا يُجِبُّ﴾ - في هذه الآية -: لا تظهر عليه آثار نعمه في الآخرة، لا آثار حَمْدِهِ في الدنيا، فهي المحببة التي هي صفة فعل، أبعدها عمن صفته الخيلاء والفخر، يقال: خال الرجل يخول خولاً إذا تكبر وأعجب بنفسه، وأنشد الطبري:

فَإِنْ كُنْتَ سَيِّدَنَا سُدَّتْنَا
وَإِنْ كُنْتَ لِلْخَالِ فَادْقَبْ فَخَلْنَا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونفي المحبة عمن هذه صفة ضرب

وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِيعَةَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا ﴿٣٧﴾ وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٨﴾ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ دَرَرٌ وَإِنْ نَكَ حَسَنَةً يَنْصَعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٩﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤٠﴾ يَوْمَ يُؤْذَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَعْصُوا الرُّسُولَ لَوْ سَوَّيْتُمْ الْأَرْضَ وَلَا يَكُونُونَ اللَّهُ حَٰدِيًا ﴿٤١﴾ يَتَأَيَّمُوا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَفْرَبُوا الضَّلَوَةَ وَأَسْتَشْكُرِي حَتَّى تَكَلِّمُوا مَا تُكَلِّمُونَ وَلَا جُنَاثًا لِأَعْيُنِي سَيَّلِي حَتَّى تَنْتَسِلُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحُومًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَقِيتُمْ نِسَاءً فَلَمْ تُحَدِّثُوا مَاءً فَتَمْتَمُوا صِحْبًا طَيِّبًا فَأَمْسُوا يُجْوهَكُمْ وَأَيْدِيكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا غَفُورًا ﴿٤٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكُتُبِ يَشْرُونَ الضَّلَالَةَ وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضِلُّوا السَّبِيلَ ﴿٤٣﴾

وقتادة، ومجاهد، والضحاك: ﴿وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ هو: الرفيق في السفر، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وابن أبي ليلى، وإبراهيم النخعي: صاحب بالجنب: الزوجة، قال ابن زيد: هو الرجل يعترك ويُلِمُّ بك لتنفعه، وأسند الطبري (أن رسول الله ﷺ كان معه رجلٌ من أصحابه وهما على راحلتين، فدخل رسول الله ﷺ غيضة فقطع قضيبيين أحدهما معوج، وخرج فأعطى صاحبه القويم، وحبس هو المعوج، فقال له الرجل: كنت يا رسول الله ﷺ أحق بهذا، فقال له: يا فلان، إن كل صاحب يصحب آخر فإنه مسؤول عن صحبته ولو ساعة من نهار).

وقال المفسرون: ابن السبيل: هو

وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر محذوف، تقديره - بعد قوله: ﴿مِنْ قَسْبِهِ﴾ -: مُعَذَّبُونَ، أو مجازون، أو نحوه. وقال الزجاج: الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا﴾ دَرَوْرًا إِنَّ تَكَّ حَسَنَةٌ يُعَيِّنُهَا، وفي هذا تَكَلَّفٌ مَا، والآية على هذا كله في كفار.

وقد روي أنها نزلت في أحبار اليهود بالمدينة، فإنهم بخلوا بالإعلام بصفة محمد عليه الصلاة والسلام، وبما عندهم من العلم في ذلك، وأمروا الناس بالبخل على جهتين: بأن قالوا لأتباعهم وعوامهم: اجحدوا أمر محمد وابخلوا به، وبأن قالوا للأتباع، لم تنفقوا أموالكم على هؤلاء المهاجرين فتفتقروا؟ ونحو هذا مروى عن مجاهد، وحضرمي، وابن زيد، وابن عباس.

وحقيقة البخل: منع ما في اليد، والشح: هو البخل الذي تقترون به الرغبة فيما في أيدي الناس، وكتمان الفضل هو - على هذا -: كتمان العلم، والتوعد بالعذاب المهين لهم.

وقرأ عيسى بن عمر، والحسن: ﴿بِالْبُخْلِ﴾ بضم الباء والخاء، وقرأ الجمهور بضم الباء وسكون الخاء، وقرأ حمزة والكسائي هنا وفي «الحديد»: ﴿بِالْبُخْلِ﴾ بفتح الباء والخاء، وقرأ ابن الزبير، وقناة، وجماعة بفتح الباء وسكون الخاء، وهي كلها لغات.

﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ معناه: يَسْرُنَا وَأَعْدَدْنَا

وأحضرنا، والعتيد: الحاضر. والمُهين: الذين يقترون به خزي وذل. وهو أنكى وأشدُّ على المعذب.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُبَيِّنُونَ﴾ الآية - قال الطبري: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض عطف على ﴿الْكُفْرِينَ﴾، ويصح أن يكون في موضع رفع عطفاً على ﴿الَّذِينَ يُبَيِّنُونَ﴾ على تأويل من رآه مقطوعاً ورأى الخبر محذوفاً، وقال: إنها نزلت في اليهود. ويصح أن يكون في موضع رفع على العطف وحذف الخبر، وتقديره - بعد ﴿الْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ -: مُعَذَّبُونَ. وقال مجاهد: نزلت هذه الآية في اليهود، قال الطبري: وهذا ضعيف، لأنه نفى عن هذه الصفة الإيمان بالله واليوم الآخر، واليهود ليسوا كذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول مجاهد متجه على المبالغة والإلزام، إذ إيمانهم باليوم الآخر كلا إيمان، من حيث لا يفهم.

وقال الجمهور: نزلت في المنافقين، وهذا هو الصحيح، وإنفاقهم: هو ما كانوا يعطون من زكاة، وينفقون في السفر مع رسول الله ﷺ رياءً ودفعاً عن أنفسهم، لا إيماناً بالله، ولا حياءً في دينه. و ﴿رِئَاءَ﴾ نصب على الحال من الضمير في ﴿يُبَيِّنُونَ﴾، والعامل: ﴿يُبَيِّنُونَ﴾، ويكون قوله: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في الصلاة، لأن الحال لا تفرق إذا كانت مما هو في الصلاة، وحكى المهدوي أن الحال تصح أن تكون من ﴿الَّذِينَ﴾ فعلى

هذا يكون ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ مقطوعاً ليس من الصلاة، والأول أصح، وما حكى المهدوي ضعيف، ويحتمل أن يكون ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في موضع الحال، أي: غير مؤمنين، فتكون الواو واو الحال.

والقرين: فاعيل بمعنى فاعل، من المقارنة، وهي: الملازمة والاصطحاب، وهي - ها هنا - مقارنة مع خُلطة وتواد، والإنسان كله يقارنه الشيطان، ولكن الموفق عاص له، ومنه قيل لما يُلْزَمُ مِنَ الْإِبِلِ والبقرة: قرينان. وقيل للحبل الذي يُشْدَانُ به: قَرَن، قال الشاعر:

كَمْ دَخِلَ رَأْسَهُ لَمْ يُدْنِهِ أَحَدٌ
بَيْنَ الْقَرِينَيْنِ حَتَّى لَزَهُ الْقَرْنُ
فالمعنى: ومن يكن الشيطان له مصاحباً وملازماً، أو شك أن يطيعه فتسوء عاقبته، و ﴿قَرِينًا﴾ نصب على التمييز، والفاعل ل ﴿سَاءَ﴾ مضمراً، تقديره: ساء القرين قريناً، على حدِّ (بئس)، وقرن الطبري هذه الآية بقوله تعالى: ﴿يَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، وذلك مردود، لأن ﴿بَدَلًا﴾ حال، وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ﴾ - [ما] رفع بالابتداء، و [ذَا] صلة، و ﴿عَلَيْهِمْ﴾ خبر الابتداء، والتقدير: وأي شيء عليهم؟ ويصح أن تكون [ما] اسماً بانفرادها. و [ذَا] بمعنى الذي ابتداءً وخبر، وجواب [لَوْ] في قوله: ﴿مَاذَا﴾ فهو جواب مقدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان هذا الكلام يقتضي أن الإيمان متعلق بقدرتهم، ومن فعلهم. ولا

يقال لأحد: «ما عليك لو فعلت». إلا فيما هو مقدور له. وهذه شبهة للمعتزلة، والانفصال عنها أن المطلوب إنما هو تكسبهم واجتهادهم وإقبالهم على الإيمان، وأما الاختراع فالله المنفرد به، وفي هذا الكلام تفجع ما عليهم، واستدعاء جميل يقتضي حيطة وإشفاقاً.

﴿وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً﴾ إخبار يتضمن وعيداً، وينبه على سوء تواطئهم، أي: لا ينفعهم كتم مع علم الله تعالى بهم.

﴿تفسير قوله تعالى:﴾

﴿يُقَالُ﴾ مفعال من الشقل، والذرة: الصغيرة الحمراء من النمل، وهي أصغر ما يكون إذا مر عليها حول، لأنها تصغر وتجري كما تفعل الأنعي: تقول العرب: أفعى جارية، وهي أشدها، وقال امرؤ القيس:

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطُّرْفِ لَوْ دَبَّ مَحْوَلٌ
مِنَ الذَّرَفِ فَوْقَ الْأَثْبِ مِنْهَا لِأَثْرَا
فَالْمُحْوَلُ: الذي أتى عليه الحول، وقال حسان:

لَوْ يَدَبُ الْحَوْلِيُّ مِنْ وُلْدِ الذُّ
رُ عَلَيْهَا لِأَثْبِ بَشْهَا الْكُلُومِ
وعبّر عن الذرة يزيد بن هارون بأنها دودة حمراء، وهي عبارة فاسدة، وروي عن ابن عباس: الذرة: رأس النملة، وقرأ ابن عباس: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ و ﴿يُقَالُ﴾: مفعول ثانٍ لـ ﴿يَظْلِمُ﴾، والأول مضمَر، التقدير: إن الله لا يظلم أحداً مشقالاً. و (يَظْلِمُ) لا يتعدى إلا إلى مفعول

واحد، وإنما عُذِّي هنا إلى مفعولين بأن يقدر في معنى ما يتعدى إلى مفعولين، كأنه قال: إن الله لا ينقص، أو لا يَبْخَسُ، أو لا يَغْضِبُ، ويصح أن يكون نصب ﴿يُقَالُ﴾ على أنه بيان وصفة لمقدار الظلم المنفي، فيجيء - على هذا - نعتاً لمصدر محذوف، التقدير: إن الله لا يظلم ظلماً مثقال ذرة، كما تقول: إن الأمير لا يظلم قليلاً ولا كثيراً، أي: لا يظلم ظلماً قليلاً ولا كثيراً، فعلى هذا وقف ﴿يَظْلِمُ﴾ على مفعول واحد، وقال قتادة عن نفسه - ورواه عن بعض العلماء -: «لأن تفضل حسناتي سيئاتي بمثقال ذرة أحب إلي من الدنيا جميعاً». وحذفت النون من [تَكُنْ] لكثرة الاستعمال، وشبهها خفة بحروف المدِّ واللين.

وقرأ جمهور السبعة ﴿حَسَنَةً﴾ بالنصب على نقصان (كان)، واسمها مضمَر تقديره: وإن تك زنة الذرة حسنة، وقرأ نافع وابن كثير ﴿حَسَنَةً﴾ بالرفع على تمام (كان). التقدير: وإن تقع حسنة، أو توجد حسنة، و ﴿يُضْعِفُهَا﴾ جواب الشرط، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿يُضْعِفُهَا﴾ مُشَدَّدة العين بغير ألف، قال أبو علي: المعنى فيهما واحد، وهما لغتان، وقرأ الحسن: ﴿يُضْعِفُهَا﴾ بسكون الضاد وتخفيف العين. ومضاعفة الشيء في كلام العرب: زيادة مثله إليه، فإذا قلت: (ضَعَفْتُ)، فقد أتيت ببنية التكثير، وإذا كانت صيغة الفعل دون التكثير تقتضي الطي مرتين فبناء التكثير

يقتضي أكثر من المرتين إلى أقصى ما تريد من العدد، وإذا قلت: (ضَاعَفْتُ) فليس ببنية تكثير، ولكنه فعل صيغته دالة على الطي مرتين فما زاد. هذه أصول هذا الباب على مذهب الخليل وسيبويه، وقد ذكر أبو عبيدة معمر بن المثنى في كتاب المجاز أن (ضَاعَفْتُ) يقتضي مراراً كثيرة. و (ضَعَفْتُ) يقتضي مرتين، وقال مثله الطبري، ومنه نقل، ويدلُّ على تقارب الأمر في المعنى ما قرئ به في قوله. ﴿يُضْعِفُهَا لَهُ﴾ أضعافاً كثيرة، فإنه قرئ: ﴿يُضَاعِفُهَا﴾، و ﴿يُضْعِفُهَا﴾، وما قرئ به في قوله تعالى: ﴿يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾، فإنه قرئ: ﴿يُضْعَفُ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾.

وقال بعض المتأولين: هذه الآية خص بها المهاجرون، لأن الله أعلم في كتابه أن الحسنه لكل مؤمن مضاعفة عشر مرار، وأعلم في هذه أنها مضاعفة مراراً كثيرة جداً حسب ما روى أبو هريرة من أنها تضاعف ألفي ألف مرة، وروي غيره من أنها تضاعف ألف ألف مرة، ولا يستقيم أن يتضاد الخبران، فهذه مخصوصة للمهاجرين السابقين حسبما روى عبدالله بن عمر: (أنها لما نزلت: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا﴾ في الناس كافة، قال رجل: فما للمهاجرين؟ فقال: ما هو أعظم من هذا ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ﴾ الآية). فخصوا بهذا كما خصت نفقة سبيل الله بتضعيف سبعائة مرة، ولا يقع تضاد في الخبر.

وقال بعضهم: بل وعد بذلك

جميع المؤمنين، وروى في ذلك أحاديث وهي: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَجْمَعُ الْأُولِينَ وَالْآخِرِينَ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَيُنَادِي: هَذَا فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، فَمَنْ كَانَ لَهُ عِنْدَهُ حَقٌّ فَلْيَقُمْ، قَالَ: فَيُحِبُّ الْإِنْسَانَ أَنْ لَوْ كَانَ لَهُ يَوْمٌ مَثَدٌ الْحَقُّ عَلَى أَبِيهِ وَابْنِهِ، فَيَأْتِي كُلٌّ مِنْ لَهُ حَقٌّ فَيَأْخُذُ مِنْ حَسَنَاتِهِ حَتَّى يَبْقَى الْإِنْتِصَافُ، وَلَا يَبْقَى لَهُ إِلَّا وَزْنُ الذَّرَّةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أضعفوها لِعَبْدِي، وَادْهَبُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ﴾، وهذا يجمع معاني ما روي مما لم نذكره.

والآية تعمُّ المؤمنين والكافرين - فأما المؤمنون فيجازون في الآخرة على مشاقيل الذُّرِّ فما زاد، وأما الكافرون فما يفعلون من خير فتقع المكافأة عليه بِنِعْمِ الدُّنْيَا، وَيَجِيئُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا حَسَنَةَ لَهُمْ.

و ﴿لَذُنُّهُ﴾ معناه: من عنده، قال سيبويه: ولدن: هي لابتداء الغاية فهي تناسب أحد مواضع (من)، ولذلك التأمًا، ودخلت (من) عليها. والأجر العظيم: الجنة، قاله ابن مسعود، وسعيد بن جبير، وابن زيد، والله إذا مَنْ بِنَفْضِهِ بَلَغَ بَعْدَهُ الْغَايَةَ.

٤١ - ٤٢ تفسير قوله تعالى:

تقدم في الآية قبلها الإعلام بتحقيق الأحكام يوم القيامة، فحسن - بعد ذلك - التنبيه على الحالة التي يحضر ذلك فيها، ويُجاء فيها بالشهداء على الأمم. ومعنى الآية: إن الله يأتي بالأنبياء شهداء على أممهم بالتصديق والتكذيب، ومعنى الأمة - في هذه الآية - غير المعنى المتعارف في إضافة الأمم إلى

الأنبياء، فإن المتعارف أن تريد بأمة محمد عليه الصلاة والسلام جميع من آمن به، وكذلك في كل نبي، وهي هنا: جميع من بُعث إليه. من آمن منهم ومن كفر. وكذلك قال الأولون: إن الإشارة بـ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إلى كفار قريش وغيرهم من الكفار، وإنما خص كفار قريش بالذكر لأن وطأة الوعيد أشد عليهم منها على غيرهم.

و ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب مفعول مقدم بفعل تقديره في آخر الآية: ترى حالهم، أو يكونون، أو نحوه، وقال مكِّي في الهداية: ﴿جَسَنًا﴾ عاملٌ في ﴿كَيْفَ﴾، وهذا خطأ.

وروي (أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية فاضت عيناه). وكذلك ذرفت عيناه عليه الصلاة والسلام حين قرأها عليه عبدالله بن مسعود في الحديث المشهور، وما ذكره الطبري من شهادة أمة محمد بتبليغ الرسل، وما جرى في معنى ذلك من القصص الذي ذكر مكِّي كسؤال اللوح المحفوظ، ثم إسماعيل، ثم جبريل، ثم الأنبياء - فليست هذه آيته، وإنما آيته: ﴿لِنَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾.

و ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف، ويصح أن يكون نصب - يوم - في هذا الموضع على الظرف، على أنه معربٌ من الأسماء غير المتمكنة، ويصح أن يكون نصبه على أنه مبني على النصب مع الأسماء غير المتمكنة، والوُدُّ إنما هو في ذلك اليوم.

وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿تَسْوَى﴾

على إدغام التاء الثانية من (تَسْوَى)، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَسْوَى﴾ بتخفيف السين وتشديد الواو، على حذف التاء الثانية المذكورة، وهما بمعنى واحد، واختلف فيه - فقالت فرقة: تنشق الأرض فيحصلون فيها، ثم تسوى هي في نفسها عليهم وبهم، وقالت فرقة: معناه: لو تسوى هي معهم في أن يكونوا تراباً كآبائهم، فجاء اللفظ على أن الأرض هي المسوية معهم، والمعنى إنما هو أنهم يستون مع الأرض، ففي اللفظ قلب يخرج على نحو اللغة التي حكاهما سيبويه: أدخلت القلنسوة في رأسي، وأدخلت فمي في الحجر، وما جرى مجراه، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو: ﴿تَسْوَى﴾ على بناء الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله، فيكون الله تعالى يفعل ذلك على حسب المعنيين المتقدمين. قال أبو علي: إمالة الفتحه إلى الكسرة، والألف إلى الياء في: ﴿تَسْوَى﴾ حسنة.

قالت طائفة: معنى الآية أن الكفار لما يرونه من الهول وشدة المخاوف يودون أن تسوى بهم الأرض فلا ينالهم ذلك الخوف، ثم استأنف الكلام فأخبر أنهم لا يكتفون حديثاً لنطق جوارحهم بذلك، حين يقول بعضهم: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فيقول الله: كذبتهم، ثم يُنطق جوارحهم فلا تكتم حديثاً، وهذا قول ابن عباس، وقال فيه: إن الله إذا جمع الأولين والآخرين ظنَّ بعض الكفار أن الإنكار يُنجي فقالوا: ﴿وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، فيقول الله:

كذبتم، ثم يُنطق جوارحهم فلا تكتبم حديثاً، وهكذا فتح ابن عباس على سائل أشكل عليه الأمر. وقالت طائفة مثل القول الأول إلا أنها قالت: إنما استأنف الكلام بقوله: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ ليخبر عن أن الكتم لا ينفع وإن كتموا، لأن الله تعالى يعلم جميع أسرارهم وأحاديثهم، فمعنى ذلك: وليس ذلك المقام الهائل مقاماً ينفع فيه الكتم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الفرق بين هذين القولين أن الأول يقتضي أن الكتم لا ينفع بوجه، والآخر يقتضي أن الكتم لا ينفع وقع أو لم يقع، كما تقول: هذا مجلس لا يقال فيه باطل، وأنت تريد: لا ينتفع به ولا يستمع إليه. قالت طائفة: الكلام كله متصل، ومعناه: يود الذين كفروا لو تسوى به الأرض، ويؤدّون ألا يكتموا الله حديثاً، وودهم لذلك إنما هو ندم على كذبهم حين قالوا: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾. وقالت طائفة: هي مواطن وفروق. وقالت طائفة: معنى الآية: يؤدّ الذين كفروا أن تُسوى بهم الأرض، وأنهم لم يكتموا الله حديثاً، وهذا على جهة الندم على الكذب أيضاً، كما تقول: وددت أن أعزم كذا، ولا يكون كذا على جهة الفداء، أي: يفدون كتمانهم بأن تسوى بهم الأرض.

والرسول - في هذه الآية -: للجنس، شرف بالذكر، وهو مفرد دلّ على الجمع، وقرأ أبو السمال، وبحيى بن يغمز: ﴿وَعَصُوا

الرّسول﴾ بكسر الواو من: ﴿عَصُوا﴾.

﴿٤٣﴾ تفسير قوله تعالى:

سبب التّهي عن قُرب الصلاة في حال سُكْر: أن جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ شربت الخمر عند أحدهم قبل التحريم، فيهم أبو بكر، وعمر، وعلي، وعبدالرحمن بن عوف، فحضرت الصلاة فتقدمهم علي بن أبي طالب فقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ فخلط فيها بأن قال: «أعبُد ما تعبدون، وأنتم عابدون ما أعبد»، فنزلت الآية، وروي أن المصلي عبدالرحمن بن عوف.

وجمهور المفسرين على أن المراد سُكْر الخمر، إلا الضحاك فإنه قال: إنما المراد سكر النوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

والخطاب لجميع الأئمة الصّاحين، أما السكران - إذا عدم الميز لسكره - فليس بمخاطب في ذلك الوقت، وإنما هو مخاطب إذا صحا بامتثال ما يجب عليه، وبتكفير ما ضاع في وقت سكره من الأحكام التي تقرر تكليفه إياها قبل السكر، وليس في هذا تكليف ما لا يطاق على ما ذهب إليه بعض الناس.

وقرأت فرقة: ﴿سَكَارَى﴾ جمع: سَكَرَان، وقرأت فرقة: ﴿سُكْرَى﴾ بفتح السّين، على مثال: فُعْلَى، وقرأ الأعمش: ﴿سُكْرَى﴾ بضم السين وسكون الكاف على مثال: فُعْلَى، وقرأ النخعي: ﴿سُكْرَى﴾ بفتح السّين، قال أبو الفتح: هو تكسير (سكران) على (سكرى)، كما قالوا:

رُؤْيَى نِيَامًا، وكقولهم: هَلَكَى وَمَيْدَى في جمع: هالك، ومائد، ويحتمل أن يكون صفة لمؤنثة واحدة، كأن المعنى: وأنتم جماعة سُكْرَى. وأما ﴿سُكْرَى﴾ بضم السّين فصفة لواحدة، كَحُبْلَى، والسُّكْرَى: انسداد الفهم، ومنه: سكرت الماء إذا سددت طريقه.

وقالت طائفة: الصلاة - هنا - العبادة المعروفة حسب السبب في نزول الآية. وقالت طائفة: الصلاة - هنا - المراد بها موضع الصلاة والصلاة معاً، لأنهم كانوا حينئذ لا يأتون المسجد إلا للصلاة، ولا يصلّون إلا مجتمعين، فكاننا متلازمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما احتج إلى هذا الخلاف بحسب ما يأتي في: (عابري السبيل).

ويظهر من قوله: ﴿حَقًّا تَمَلَّؤُا﴾ أن السكران لا يعلم ما يقول، ولذلك قال عثمان بن عفان رضي الله عنه وغيره: إن السكران لا يلزمه طلاقه، فأسقط عنه أحكام القول، لهذا، ولقول النبي ﷺ لِلَّذِي أقر بالزنى: (أسكران أنت؟) فمعناه أنه لو كان سكران لم يلزمه الإقرار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبين طلاق السكران وإقراره بالزنى فرق، وذلك أن الطلاق، والإقرار بالمال، والقذف، وما أشبه هذا يتعلق به حقوق الغير من الآدميين، فيتهم السكران إن ادّعى أنه لم يعلم، ويحكم عليه حكم العالم، والإقرار بالزنى إنما هو حقّ لله تعالى فإذا ادّعى فيه بعد الصّحو أنه كان غير

عالم دين، وأما أحكام الجنائيات فهي كلها لازمة للسكران.

﴿وَأَنْتُمْ سَكَرَى﴾ ابتداءً وخبر، جملة في موضع الحال، وحكي عن ابن فورك أنه قال: معنى الآية النهي عن السكر، أي: لا يكن منكم سكر فيقع قرب الصلاة، إذ المرء مدعوً إلى الصلاة دأباً، والظاهر أن الأمر ليس كذلك، وقد روي أن الصحابة - بعد هذه الآية - كانوا يشربون ويقللون إثر الصبح وإثر العتمة، ولا تدخل عليهم صلاة إلا وهم صاحون.

وقوله: ﴿وَلَا جُنْبًا﴾ عطف على موضع هذه الجملة المنصوبة، والجُنْب: هو غير الطاهر من إنزال أو مجاوزة ختان، هذا قول جمهور الأمة، وروي عن بعض الصحابة: لا غسل إلا على من أنزل، وهو من الجنابة وهي البعد كأنه جانب الطهر، أو من الجُنْب كأنه ضاجع ومن بجنبه جنباً، وقرأ فرقة: ﴿جُنْبًا﴾ بإسكان النون.

و ﴿عَابِرِ سَبِيلٍ﴾ هو من العبور، أي: الخطور والجواز، ومنه: عبر السفينة النهر، ومنه: ناقة عُبُرَ السَّيْرِ والفلاة والمهاجرة، أي تعبرها بسرعة السَّيْرِ، قال الشاعر وهي امرأة:

عَيْرَانَةٌ سُرْحُ الْيَدَيْنِ شَيْمَلَةٌ
عُبُرُ الْهَوَاجِرِ كَالهَرْفِ الْخَاضِبِ

وقال علي بن أبي طالب: وابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والحكم، وغيرهم: عابر السبيل: هو المسافر، فلا يصح لأحد أن يقرب الصلاة وهو جنب إلا بعد

الاعتسال إلا المسافر فإنه يَتَيَّمُ. وقال ابن عباس أيضاً، وابن مسعود، وعكرمة، والنخعي، وغيرهم: عابر السبيل: الخاطر في المسجد، وهو المقصود في الآية، وهذا يحتاج إلى ما تقدم من أن القول بأن الصلاة هي المسجد والمصلى، وروي بعضهم أن سبب نزول الآية (أَنَّ قَوْمًا مِنَ الْأَنْصَارِ كَانَتْ أَبْوَابُ دُورِهِمْ شَارِعَةً فِي الْمَسْجِدِ، فِإِذَا أَصَابَتْ أَحَدَهُمُ الْجَنَابَةُ اضْطُرَّ إِلَى الْمَرُورِ فِي الْمَسْجِدِ فَنَزَلَتْ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ)، ثم نزلت: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْتَبَةً﴾ إلى آخر الآية بسبب عدم الصحابة الماء في غزوة «الْمُرَيْسِيعِ» حين أقاموا على التماس العقدة، هكذا قال الجمهور.

وقال النخعي: نزلت في قوم أصابتهم جراح ثم أجنبوا، فذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت هذه الآية، ذكر النقاش أن ذلك نزل بعبدالرحمن بن عوف، والمريض المقصود في هذه الآية هو الحضري، والذي يصح له التيمم هو الذي يخاف الموت لبرد الماء وللعلة به، وهذا يَتَيَّمُ بإجماع، إلا ما روي عن عطاء: أنه يتطهر وإن مات. والذي يخاف حدوث علة على علة، أو زيادة علة، والذي يخاف بطفه برفه، فهؤلاء يَتَيَّمُونَ بإجماع من المذهب فيما حفظت، والأسباب التي لا يجد المريض بها الماء هي:

إما عدم المناول، وإما خوف ما ذكرناه. وقال داود: كل من انطلق عليه اسم المريض فجاز له التيمم، وهذا قول خُلف، وإنما هو عند علماء الأمة المجذور، والمحسوب

والعلل المخوف عليها من الماء.

والمسافر - في هذه الآية -: هو الغائب عن الحضرة، كان السفر مما تقصر فيه الصلاة أو لا تقصر، هذا مذهب مالك وجمهور الفقهاء، وقال الشافعي - في كتاب الأشراف -: وقال قوم: لا يتيمم إلا في سفر يجوز فيه التقصير، وهذا ضعيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك قالت فرقة: لا يتيمم في سفر معصية، وهذا أيضاً ضعيف.

والأسباب التي لا يجد بها المسافر الماء هي: إما عدمه جملة، وإما خوف فوات الرفيق بسبب طلبه، وإما خوف على الرحل بسبب طلبه، وإما خوف سباح أو إذاية عليه.

واختلف في وقت إيقاعه التيمم - فقال الشافعي: في أول الوقت، وقال أبو حنيفة، وغيره: في آخر الوقت. وفرق مالك بين اليائس والعالم الطامع بإدراكه في الوقت، والجاهل بأمره جملة، وقال إسحق بن راهويه: لا يلزم المسافر طلب الماء إلا بين يديه وحوله، وقالت طائفة: يخرج من طلبه العَلَوَتَيْنِ ونحوهما، وفي مذهب مالك يمشي في طلبه ثلاثة أميال، وقال الشافعي: يمشي في طلبه ما لم يخف فوات رفيق، أو فوات الوقت. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن.

وأصل ﴿الْفَائِطِ﴾ ما انخفض من الأرض، وكانت العرب تقصد بقضاء حاجتها ذلك الصنف من المواضع، حتى كثر استعماله في قضاء الحاجة وصار عرفه، وقرأ قتادة، والزهري:

﴿مِنْ أَلْفَيْطٍ﴾ ساكنة الياء من غير ألف، قال ابن جنبي: هو محذوف من فيعل، عين هذه الكلمة وار، وهذا اللفظ يجمع بالمعنى جميع الأحداث الناقضة للطهارة الصفري، واختلف الناس في حصرها، وأنبأ ما أعتقد في ذلك أن أنواع الأحداث ثلاثة: ما خرج من السبيلين معتاداً، وما أذهب العقل، واللمس. هذا على مذهب مالك، وعلى مذهب أبي حنيفة: ما خرج من النجاسات من الجسد، ولا يراعى المخرج ولا غيره، ولا يُعدّ للمس فيها، وعلى مذهب الشافعي: ما خرج من السبيلين، ولا يراعى الاعتیاد، والإجماع من الأحداث على تسعة: أربعة من الذُكر وهي: البول، والمني، والودي، والمذي، وواحد من فرج المرأة وهو: دم الحيض، واثنان من الدبر وهما: الريح والغائط. وذهب العقل كالجنون، والإغماء، والنوم الثقيل - فهذه تنقض الطهارة الصفري إجماعاً، وغير ذلك كاللمس، والدود يخرج من الدبر، وما أشبهه - مختلف فيه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿كَلَسْتُمْ﴾، وهي في اللغة لفظة قد تقع للمس الذي هو الجماع، وفي اللبس الذي هو جس اليد، والقبلة، ونحوه، إذ في جميع ذلك لَمَسَ. واختلف أهل العلم في موقعها هنا - فمالك رحمه الله يقول: اللفظة هنا على أتم عمومها تقتضي الوجهين، فالمَلَمَس باليد يَتِيَمُّ، لأن اللبس نقض وضوءه.

وقالت طائفة: هي هنا مُخصَّصة لِلْمَسِّ اليد، والجُنْب لا ذُكْر له إلا مع الماء، ولا سبيل له إلى التيمم، وإنما يغتسل الجُنْب أو يدع الصلاة حتى يجد الماء، روي هذا القول عن عمر رضي الله عنه، وعن عبدالله بن مسعود وغيرهما. وقال أبو حنيفة: هي هنا مُخصَّصة لِلْمَسِّ الذي هو الجماع، فالجُنْب يَتِيَمُّ، واللامس باليد لم يجر له ذكر فليس بِحَدِيثٍ، ولا هو ناقض لوضوءه، فإذا قُبِلَ الرجل امرأته للذَّعة لم ينتقض وضوءه. ومالك رحمه الله يرى أن اللبس ينتقض إذا كان للذَّعة، ولا ينتقض إذا لم يقصد به الذَّعة، ولا كان لابنة أو لأم، والشافعي رحمه الله يُعمم لفظة النساء، فإذا لمس الرجل عنده أمه أو ابنته على أي وجه كان انتقض وضوءه.

وعدم وجود الماء يترتب للمريض وللمسافر حسبما ذكرناه، ويترتب للصحيح الحاضر بالغلاء الذي يعم جميع الأصناف، واختلف فيه - فقال الحسن: يشتري الرجل الماء بماله كله ويبقى عديماً، وهذا قول ضعيف لأن دين الله يُسر، كما قال ﷺ، ويريد بنا اليسر، ولم يجعل علينا في الدين من حرج. وقالت طائفة: يشتري ما لم يزد على القيمة الثلث فصاعداً، وقالت طائفة: يشتري قيمة الدرهم بالدرهمين والثلاثة، ونحو هذا. وهذا كله في مذهب مالك رحمه الله، وقيل لأشهب: أتشتري القربة بعشرة دراهم؟ فقال: ما أرى ذلك على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقدر هذه المسألة إنما هو بحسب غنى المشتري وحاجته، والوجه عندي أن يشتري ما لم يؤذ غلاؤه. ويترتب أيضاً عدم الماء للصحيح الحاضر بأن يُسجن أو يربط، وهذا هو الذي يقال فيه: إنه لم يجد ماء ولا تراباً كما ترجم البخاري، ففيه أربعة أقوال - فقال مالك، وابن نافع: لا يُصلي ولا يعيد، وقال ابن القاسم: يصلي ويعيد، وقال أشهب: يُصلي ولا يعيد، وقال أصبغ: لا يُصلي ويقضي. وإذا خاف الحضري فوات الوقت إن تناول الماء فَلِمَالِكِ رحمه الله قولان في «المدونة»: إنه يتيمم ولا يعيد، وقال: إنه يُعِيد، وفي الواضحة وغيرها عنه أنه يتناول الماء ويغتسل وإن طلعت الشمس، وعلى القول بأنه يتيمم ولا يعيد إذا بقي من الوقت شيء بقدر ما كان يتوضأ ويصلي ركعة، فقيل: يعيد، وقيل: لا يعيد.

ومعنى قوله: ﴿تَيَمَّمُوا﴾: اقصدوا، ومنه قول امرئ القيس: تَيَمَّمَتِ العَيْنُ التي عند ضارج يفيء عليها الظلُّ عَرَمَها طأبي ومنه قول أعشى بني ثعلبة: تَيَمَّمْتُ قَنِساً وكم دونه من الأرض من مَهَمَةٍ ذي شَرْنُ ثم غلب هذا الاسم في الشرع على العبادة المعروفة. والصعيد في اللغة: وجه الأرض، قاله الخليل وغيره، ومنه قول ذي الرمة: كَأَنَّهُ بِالضُّحَى تَرْمِي الصُّعَيْدَ بِهِ دَبَابَةٌ فِي عِظَامِ الرَّأْسِ حُرْطُومٌ

باليمنى على اليسرى كذلك. فظاهر هذا الكلام أنه يستغني عن مسح الكف بالأخرى، ووجهه أنهما في الإمرار على الذراع ماسحة مسوحة، قال ابن حبيب: يمر بعد ذلك على كفيه، فهذا مع تحكيم ظاهر «المدونة» خلاف. قال اللخمي: في كلام المدونة يريد: ثم يمسح كفه بالأخرى، فيجيء على تأويل أبي الحسن كلام ابن حبيب تفسيراً، وقالت طائفة: يبدأ بالشمال كما في «المدونة»، فإذا وصل على باطن الذراع إلى الرسغ مشى على الكف، ثم كذلك باليمنى في اليسرى. ووجه هذا القول ألا يترك من عضو بعد التلبس به موضعاً، ثم يحتاج إلى العودة إليه بعد غيره. وقالت طائفة: يتناول بالتراب كما يتناول بالماء في صورة الإمرار دون رتبة، وقال مالك في «المدونة»: يمسح يديه إلى المرفقين، فإن مسح إلى الكوعين أعاد في الوقت، وقال ابن نافع: يعيد أبدأ، قال غيرهما: في المذهب: يمسح إلى الكوعين، وهذا قول مكحول وجماعة من العلماء، وفي غير المذهب يمسح الكفين فقط، وفي ذلك حديث عن عمار بن ياسر، وهو قول الشعبي، وقال ابن شهاب: يمسح إلى الآباط، (وذكر الطبري عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال لعائشة رضي الله عنها حين نزلت آية التيمم: إنك لمباركة، نزلت فيك رخصة، فضربنا ضربة لوجوهنا، وضربة بأيدينا إلى المناكب والآباط) وفي مصنف أبي داود عن الأعمش

المذهب أكثر، وأما ما طبخ كالأجر والجص فيه من المذهب قولان: الإجازة والمنع، وفي التيمم على الجدار خلاف، وأما التيمم على النبات والعود فاختلف فيه في مذهب مالك - فالجمهور على منع التيمم على العود، وفي مختصر الوقار: أنه جائز، وحكى الطبري في لفظه (الصعيد) اختلافاً - أنها الأرض الملساء، وأنها الأرض المستوية، وأن الصعيد: التراب، وأنه: وجه الأرض.

وترتيب القرآن الوجه قبل اليدين، وبه قال الجمهور، ووقع في حديث عمار في البخاري في بعض الطرق تقديم اليدين، وقاله بعض أهل العلم قياساً على تنكيس الوضوء، وتراعى في الوجه حدوده المعلومة في الوضوء، فالجمهور على أن استيعابه بالمسح في التيمم واجب، ويتبعه كما يصنع بالماء، وألا يقصد ترك شيء منه، وأجاز بعضهم ألا يتتبع كالغضون في الحُفَّين، وما بين الأصابع في اليدين، وهو في المذهب قول محمد بن مسلمة. ومذهب مالك في «المدونة» أن التيمم بضربتين، وقال ابن الجهم: التيمم واحدة، وقال مالك في كتاب «محمد»: إن تيمم بضربة أجزاءه، وقال غيره في المذهب: يعيد في الوقت، وقال ابن نافع: يعيد أبدأ، وقال مالك في «المدونة» يبدأ بأصابع اليسرى على أصابع اليمنى، ثم يمر كذلك إلى المرفق، ثم يلوي بالكف اليسرى على باطن الذراع الأيمن حتى يصل إلى الكوع، ثم يفعل

واختلف الفقهاء فيه من أجل تقييد الآية إياه بالطيب - فقالت طائفة: يتيمم بوجه الأرض، تراباً كان أو رملاً أو حجارةً أو معدناً أو سبخةً، وجعلت الطيب بمعنى: الطاهر، وهذا مذهب مالك، وقالت طائفة منهم: الطيب بمعنى: الحلال، هذا في هذا الموضع قلت، وقال الشافعي وطائفة: الطيب بمعنى: المُنْتَبِ، كما قال جل ذكره: ﴿وَأَلْبَسُوا الطَّيِّبُ يَخْرُجُ بِتَأْتُوهُ﴾، فيجيء (الصعيد) على هذا: التراب، وهذه الطائفة لا تجيز التيمم بغير ذلك مما ذكرناه، فمكان الإجماع، أن يتيمم الرجل في تراب منبت طاهر غير منقول ولا مفسوب، وكان الإجماع في المنع: أن يتيمم الرجل على الذهب الصرغ، أو الفضة والياقوت والزمرد، أو الأطعمة كالخبز واللحم وغيرهما، أو على النجاسات، واختلف في غير هذا كالمعادن - فأجيز وهو مذهب مالك، ومنع وهو مذهب الشافعي، وأشار أبو الحسن اللخمي إلى أن الخلاف فيه موجود في المذهب، وأما الملح فأجيز في المذهب المعدني والجامد، ومنع الجامد. والتلج في «المدونة» جوازه، ولمالك في غيرها منعه، وذكر النقاش عن ابن عليه وابن كيسان أنهم أجازا التيمم بالمسك والزعفران.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ بحث من جهات.

وأما التراب المنقول في طبق وغيره - فجمهور المذهب جواز التيمم به، وفي المذهب المنع، وهو في غير

في موالاته، أو ما أشبه ذلك، وهذا بين في ألفاظها، فمن ذلك: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا﴾، أي: تدعوا الصواب في اجتنابهم، وتحسيبهم غير أعداء، والله أعلم بهم.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ﴾ خبر في ضمنه التحذير منهم، و﴿يَا اللَّهُ﴾ في قوله: ﴿وَكُنْ يَا اللَّهُ﴾ في موضع رفع بتقدير زيادة الخافض، وفائدة زيادته تبين معنى الأمر في لفظ الخبر، أي: اكتفوا بالله، فالباء تدل على المراد من ذلك، ﴿وَيَا﴾ فعلاً و﴿نَصِيرًا﴾ كذلك، من الولاية والنصر.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ قال بعض المتأولين: ﴿بَيْنَ﴾ راجعة على ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى، فهي - على هذا - متعلقة ب﴿تَرَى﴾. وقالت طائفة: هي متعلقة ب﴿نَصِيرًا﴾، والمعنى: ينصركم من الذين هادوا، فعلى هذين التأويلين لا يوقف في قوله: ﴿نَصِيرًا﴾، وقالت فرقة: هي لا ابتداء الكلام، وفيه إضمار تقديره: يُحَرِّفُونَ، هذا مذهب أبي علي، ونظيره قول الشاعر:

كانت من جمال أبي أقيش
يقتقع خلف رجليه يشن
وقال الفراء وغيره: تقديره: (من)، ومثله قول ذي الرمة:

فظلوا ومنهم دمه سابق له
وأخر يشني دمة العين باليد
فعلى هذا التأويل يوقف في قوله: ﴿نَصِيرًا﴾، وقول سيبويه أصوب، لأن إضمار الموصول ثقيل، وإضمار الموصوف أسهل.

رؤية القلب، وهي علم بالشيء. وقال قوم: معناه: ألم تعلم. وقال آخرون: ألم تخبر، وهذا كله يتقارب. والرؤية بالقلب تصل بحرف الجر، وبغير حرف الجر.

والمراد ب﴿الَّذِينَ﴾: اليهود، قاله قتادة وغيره، ثم اللفظ يتناول معهم النصراري، وقال ابن عباس: نزلت في رفاعه بن يزيد بن التابوت اليهودي.

و﴿أوتوا﴾: أعطوا، والنصيب: الحظ، والكتاب: التوراة والإنجيل، وإنما جعل المعطي نصيباً في حق كل واحد منفرد لأنه لا يحصر علم الكتاب واحد بوجه.

و﴿يَشْرَفُونَ﴾ عبارة عن إشارهم الكفر وتركهم الإيمان، فكأنه أخذ وإعطاء، هذا قول جماعة. وقالت فرقة: أراد الذين كانوا يعطون أموالهم للأحبار على إقامة شرعهم، فهذا شراء على وجهه على هذا التأويل.

﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ معناه: أن تكفروا، وقرأ السخعي: ﴿وَيُرِيدُونَ أَنْ تَضَلُّوا﴾ بالتاء منقوطة من فوق في ﴿تُرِيدُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية وما بعده تقتضي توبيخاً للمؤمنين على استنامة قوم منهم إلى أحبار اليهود في سؤال عن دين، أو

وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَابِكُمْ وَكُنْ يَا اللَّهُ وَلِيًّا وَكُنْ يَا اللَّهُ نَصِيرًا ﴿٤٤﴾
مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنُقُودًا
سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ وَرَدَعْنَا لِيَأْ بِأَسْنِنِهِمْ
وَطَعْنَا فِي الَّذِينَ وَلُوا أَنَّهُمْ قَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَسْمَعُ وَأَنْظُرْنَا
لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَكِنْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ يَكْفُرُ هُمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ
إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٥﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ أَوْتُوا الْكِتَابَ إِمَانًا بَمَا نُنزَلْنَا
مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَطْمِسَ وُجُوهَ قَوْمٍ هَآءَ
عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ أَوْ نَلْعَنَهُمْ كَمَا لَعْنَا أَعْصَابَ السَّبْتِ وَكَانَ أَمْرُ
اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٤٦﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ لِمَن يَشْرِكُ بِهِ يَغْفِرُ مَا دُونَ
ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا
﴿٤٧﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْكُونَ أَنفُسَهُمْ بِاللَّهِ يَزْكُونَ مِن بَيْتِهِ
وَلَا يُظَلِّمُونَ فِتْيَانًا ﴿٤٨﴾ أَنْظَرَ كَيْفَ يَقْرءُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَلِمَاتِ
وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ﴿٤٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا
مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْحَبِيبِ وَالطَّلُوعِ وَيَقُولُونَ
لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَتُّؤُلَاءَ أَهْدَىٰ مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا سَبِيلًا ﴿٥٠﴾

(أن رسول الله ﷺ مسح إلى أنصاف ذارعيه)، ولم يقل بهذا الحديث أحد من العلماء فيما حفظت، وما حكى الداودي من أن الكوعين فرض، والمرافق سنة والأباط فضيلة - فكلام لا يعضده قياس ولا دليل، وإنما عمم قوم لفظة اليد فأوجبوه من المنكب، وقاس قوم على الوضوء فأوجبوه من المرافق، وهنا وقف جمهور الأمة، ووقف قوم مع الحديث في الكوعين، وقيس أيضاً على القطع، إذ هو حكم شرعي وتطهير، كما هذا تطهير، ووقف آخرون مع حديث عمار في الكفين، واختلف المذهب في تحريك الخاتم، وتخليل الأصابع على قولين: يجب، ولا يجب.

٤٤ - ٤٥ - تفسير قوله تعالى:

الرؤية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ من

فكأنه استدعاء اهتبالٍ وتَحَفُّ، ومنه قول ابن الرقيات:

ظَاهِرَاتُ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ يَنْظُرُ
نَ كَمَا تَنْظُرُ الْأَرَكَ الطَّبَّاءُ
و ﴿أَقْوَمٌ﴾ معناه: أعدل وأصوب.

واللعنة: الإبعاد، فمعناه: أبعدهم من الهدى، و ﴿قَلِيلًا﴾ نعت، إمَّا لإيمان، وإمَّا لِنَفَرٍ أو قوم، والمعنى مختلف - فمن عبر بِالْقَلَّةِ عن الإيمان قال: إمَّا هي عبارة عن عَدَمِهِ على ما حكى سيويه من قولهم: «أَرْضٌ قَلْمًا تَنْبِتُ كَذَا»، وهي لا تُنْبِتُهُ جملة، وإمَّا قَلْلُ الْإِيمَانِ لما قَلَّتِ الْأَشْيَاءُ التي آمَنُوا بها فلم ينفعهم ذلك، وذلك أنهم كانوا يؤمنون بالتوحيد ويكفرون بمحمد وجميع أوامر شريعته ونواهيها، ومن عبَّرَ بِالْقَلَّةِ عن النفر قال: لا يؤمن منهم إلا قليل كعبدالله بن سلام، وكعب الأحبار، وغيرهما، وإذا قدرت الكلام: نفرًا قليلًا، فهو نصب في موضع الحال.

١٧ - ١٨ - تفسير قوله تعالى:

هذا خطابٌ لليهود والنصارى، و ﴿لِمَا مَكَّمْ﴾ معناه: من شرع وملة، لا لما كان معهم من مُبَدَّلٍ ومُغَيَّرٍ. والطامس: الدائر المُغَيَّرُ الأعلام، كما قال ذو الرمة:

مِنْ كُلِّ نَضَاخَةِ الدُّفْرِى إِذَا عَرَقَتْ
عُرْضَتَهَا طَامِسُ الأَعْلَامِ مَجْهُوُلٌ
ومن ذلك قيل للأعمى المسدودة عيناه: أعمى مطموس. وقالت طائفة:

طَمَسُ الوَجْوهِ هُنَا: أَنْ تَعْفَى آثَارَ الحَوَاسِ فِيهِ، وَتَزَالِ الخَلْقَةُ مِنْهَا فَتَرْجِعُ كَسَائِرَ الأَعْضَاءِ فِي الخَلْوِ مِنْ أَعْضَاءِ الحَوَاسِ،

تعظيمه، قال نحوه ابن عباس، وغيره، وكذلك ﴿رَبِّكَ﴾ كانوا يريدون منه في نفوسهم معنى الرعونة، وحكى مكي معنى رعاية المشاشية، ويظهرون منه معنى المراعاة، فهذا معنى لِيِ اللسان، فقال الزجاج: كان يريدون: اجعل اسمك لكلامنا مرعى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا جفأة لا يخاطب به نبي، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَرَجَعْنَا﴾ - ومن قال: ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾: غير مقبول منك فإنه لا يساعده التصريف، وقد حكاه الطبري عن الحسن، ومجاهد. و ﴿لِيَأْ﴾ أصله لؤبياً، قلبت الواو ياءً وأدغمت، و ﴿وَطَمَّتْ فِي الدِّينِ﴾ أي: توهيناً له، وإظهاراً للاستخفاف به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا اللَّيُّ باللسان إلى خلاف ما في القلب موجود حتى الآن في بني إسرائيل، ويحفظ منه عصرنا أمثلة، إلا أنه لا يليق ذكرها بهذا الكتاب.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ﴾ الآية، المعنى: لو أنهم آمنوا وسمعوا وأطاعوا، واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَأَنْظَرْنَا﴾ - فقال مجاهد، وعكرمة، وغيرهما: معناه: انتظرونا، بمعنى: افهمنا وتمهل علينا حتى نفهم عنك، ونعسي قولك، وهذا كما قال الحطيئة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِسْنَاءَ صَادِرَةٍ
لِلْخُمْسِ طَالٌ بِهَا مُنْجِي وَتُنْسَائِي
وقالت فرقة: انظر معناه: انظر إلينا

و ﴿مَا دُوا﴾ مأخوذ من هاد إذا تاب، أو من يهود بن يعقوب، وغيره التعريب، أو من التهود، وهو: الرويد من المشي واللّين في القول. ذكر هذه كلها الخليل، وقد تقدم شرحها وبيانها في سورة البقرة.

وتحريف الكلم على وجهين: إمَّا بتغيير اللفظ، وقد فعلوا ذلك في الأَقْل - وإمَّا بتغيير التأويل، وقد فعلوا ذلك في الأكثر، وإليه ذهب الطبري، وهذا كله في التوراة على قول الجمهور، وقالت طائفة: هو كلم القرآن، وقال مكي: كلام النبي محمد عليه الصلاة والسلام، فلا يكون التحريف على هذا إلا في التأويل. وقرأ النَّحْمِيُّ: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلَامَ﴾ بالألف.

ومن جعل [مِنْ] متعلقة بـ ﴿نَصِيرًا﴾ جعل ﴿يَحْرَفُونَ﴾ في موضع الحال، ومن جعلها منقطعة جعل ﴿يَحْرَفُونَ﴾ صفة.

وقوله تعالى عنهم: ﴿يَجْمَعُونَ وَعَصَيْنَا﴾ عبارة عن عتوهم في كفرهم وطمغيانهم فيه.

و ﴿سَمِعَ﴾ لا يتصرف إلا من (أسمع)، و ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ يتخرج فيه معنيان: أحدهما: غير مأمور وغير صاغر، كأنه قال: غير أن تسمع مأموراً بذلك، والآخر: على وجه الدعاء، أي: لا سمعت، كما تقول: امض غير مصيب، وغير ذلك، فكانت اليهود إذا خاطبت النبي بـ ﴿غَيْرَ مُسْمِعٍ﴾ أرادت في الباطن الدعاء عليه، وأرت ظاهراً أنها تريد

فيكون الرُّدُّ على الأدبار في هذا الموضع بالمعنى، أي: خُلُوهُ من الحواس دبراً لكونه عامراً بها، وقال ابن عباس، وعطية العوفي: طمس الوجوه أن تُزال العينان خاصة منها، وترد العينان في القفا، فيكون ذلك رداً على الدبر، ويمشي القهقري. وحكى الطبري عن فرقة أن طمس الوجوه أن تتغير أعلامها وتصير منابت للشعر، فذلك هو الرد على الدبر، وردَّ على هذا القول الطبري. وقال مالك رحمه الله: كان أول إسلام كعب أنه مرَّ برجل من الليل وهو يقرأ هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ أَنْوَأُوا الْكُنُفَ مَأْمُوءًا بِمَا زَكَّأْنَا مَصَدَّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ فوضع كفيه على وجهه، ورجع القهقري إلى بيته، فأسلم مكانه وقال: والله لقد خفت ألا أبلغ بيتي حتى يطمس وجهي. وقال مجاهد، والحسن، والسدي، والضحاك: ذلك تجوز، وإنما المراد به وجوه الهدى والرشد، وطمسها: حتم الإضلال والصد عنها والتضيير إلى الكفر، وهو الرُّدُّ على الأدبار. وقال ابن زيد: الوجوه: هي أوطانهم وسكناهم في بلادهم التي خرجوا إليها، وطمسها: إخراجهم منها، والرد على الأدبار: هو رجوعهم إلى الشام من حيث أتوا أولاً.

و ﴿أَخَذَ النَّبِيُّ﴾ هم أهل أيلة الذين اعتدوا في السبت في الصيد حسبما تقدم، وكانت لعنتهم أن مُسخوا خنازير وقردة، قاله قتادة، والحسن، والسدي.

و ﴿أَمَرَ اللَّهُ﴾ في هذا الموضع: واحد الأمر، دال على جنسها، لا واحد الأوامر، فهي عبارة عن المخلوقات كالعذاب واللعنة هنا، أو ما اقتضاه كل موضع مما يختص به.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الآية. هذه مسألة الوعد والوعيد، وتلخيص الكلام فيها أن يقال: الناس أربعة أصناف: كافر مات على كفره فهذا مخلد في النار بإجماع، ومؤمن محسن لم يذنب قط ومات على ذلك، فهذا في الجنة محتوم عليه حسب الخبر من الله تعالى بإجماع، وتائب مات على توبته، فهو عند أهل السنة وجمهور فقهاء الأمة لاحق بالمؤمن المحسن، إلا أن قانون المتكلمين أنه في المشيئة، ومذنب مات قبل توبته، فهذا موضع الخلاف - فقالت المرجئة: هو في الجنة بإيمانه، ولا تضره سيئاته، وبنوا هذه المقالة على أن جعلوا آيات الوعيد كلها مخصصة في الكفار، وآيات الوعد عامة في المؤمنين، تقيهم وعاصيهم. وقالت المعتزلة: إذا كان صاحب كبيرة فهو في النار ولا بد. وقالت الخوارج: إذا كان صاحب كبيرة أو صغيرة فهو في النار مخلد، ولا إيمان له، لأنهم يرون كل الذنوب كباثر، وبنوا هذه المقالة على أن جعلوا آيات الوعد كلها مخصصة في المؤمن المحسن الذي لم يعص قط، والمؤمن التائب، وجعلوا آيات الوعيد عامة في العصاة كفاراً أو مؤمنين وقال أهل

السنة والحق: آيات الوعد ظاهرة العموم، وآيات الوعيد ظاهرة العموم، ولا يصح نفوذ كلها لوجهه بسبب تعارضها، كقوله تعالى: ﴿لَا يَصَلُّهَا إِلَّا الْأَشْقَى الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَبْسُ اللَّهُ وَرَسُولَهُ إِنَّا لَمُ نَارَ جَهَنَّمَ﴾، وهذه الآية هي الحاكمة ببيان ما تعارض من آيات، فلا بد أن نقول: إن آيات الوعد لفظها لفظ عموم، والمراد بها الخصوص في المؤمن المحسن، وفي التائب، وفيمن سبق في علمه تعالى العفو عنه دون تعذيب من العصاة، وإن آيات الوعيد لفظها لفظ عموم، والمراد بها الخصوص في الكفرة، وفيمن سبق في علمه تعالى أنه يعذبه من العصاة، ونحكم بقولنا: «هذه الآية الثص في موضع النزاع، وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ فإنها جلت الشك، وردت على الطائفتين: المرجئة، والمعتزلة، وذلك أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ فصل مجمع عليه، وقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ فصل قاطع بالمعتزلة، راد على قولهم رداً لا محيد عنه، ولو وقفنا في هذا الموضع من الكلام لصح قول المرجئة، فجاء قوله: ﴿لَنْ يَشَاءُ﴾ راداً عليهم، موجباً أن عُفِران ما دون الشرك إنما هو لقوم دون قوم، بخلاف ما زعموه من أنه مغفور لكل مؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورامت المعتزلة أن ترد هذه الآية إلى

أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ وَمَنْ يَلْعَنِ اللَّهُ فَلَنْ مَجْدَلَهُ تَصِيرًا ﴿٤٩﴾
 أَمْ هُمْ تَصِيبُ مِنَ الْمَلَكِ فَإِذَا لَا تَأْتُونَ النَّاسَ نَبِيرًا ﴿٥٠﴾ أَمْ
 يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا
 آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مَلَكًا عَظِيمًا ﴿٥١﴾
 فَوَيْلٌ لِمَنْ آمَنَ وَبِعَاقِبَتِهِمْ مِنَ صَدْعَتِهِ وَكَفَى بِهِمْ سَعِيرًا ﴿٥٢﴾
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّبُهُمْ نَارًا كَمَا نُصَلِّبُ
 جُلُودَهُمْ بَدَنَهُمْ جُلُودًا أُخْرَى لِيَذُرَ النَّاسُ أَنْ يَقُولُوا إِنَّ اللَّهَ
 كَانُ غَرِيبًا حَكِيمًا ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا
 لَمْ يَمُوتْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَوَجَّهْنَاهُمْ لِيَلْجَأُوا إِلَى اللَّهِ
 اللَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ
 النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ لَبِظِيرًا لِمَنْ كَانَ سَيِّئًا
 بَصِيرًا ﴿٥٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي
 الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِن تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوه إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ
 تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٥﴾

نجد الله تعالى في أمر
 القتل إذا ذكر القصاص
 لم يذكر الوعيد، وإذا
 ذكر الوعيد بالنار لم
 يذكر القصاص، فيظهر
 أن القصاص للقاتل
 المؤمن العاصي، والوعيد
 للمستحل الذي في حكم
 الكافر، ومنها من جهة
 أخرى أن الخلود - إذا لم
 يقرن بقوله: ﴿أَبَدًا﴾ -
 فجانز أن يراد به الزمن
 المتطول، إذ ذلك معهود
 في كلام العرب، ألا
 ترى أنهم يحيون الملوك
 بخلد الله ملكك؟ ومن
 ذلك قول امرئ القيس:

وَهَلْ يَعْصِنُ إِلَّا سَعِيدٌ مُخَلَّدٌ
 قَلِيلُ الْهَمُومِ مَا يَبِيْتُ بِأَوْجَالِ؟

وقال عبدالله بن عمرو: لما نزلت:
 ﴿قُلْ يَكُودِي الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ
 لَا تَقْتُلُوا بَيْنَ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ
 الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ قال بعض أصحاب
 النبي عليه الصلاة والسلام: والشرك
 يا رسول الله؟ فنزلت: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا
 يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ
 لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

ولما حتم على أنه لا يغفر الشرك
 ذكر قبح موضعه، وقدره في
 الذنوب. والفرية: أشد مراتب
 الكذب قبحاً، وهو الاختلاف
 للعصية.

٥٣ - ٥٤ - تفسير قوله تعالى:

هذا لفظ عام في ظاهره، ولم
 يختلف أحد من المتأولين في أن

قولها بأن قالوا: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾: هو
 التائب، وما أرادوه فاسد، لأن فائدة
 التقسيم في الآية كانت تبطل، إذ
 التائب من الشرك يُغفر له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 ورامت المرجحة أن ترد الآية إلى
 قولها بأن قالوا: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾:
 معناه: يشاء أن يؤمن، لا يشاء أن
 يغفر له، فالمشيئة معلقة بالإيمان
 ممن يؤمن، لا بغفران الله لمن
 يغفر له، ويرد ذلك بأن الآية
 تقتضي - على هذا التأويل - أن
 قوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾ عام في
 كافر ومؤمن، فإذا خص المؤمنون
 بقوله: ﴿لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وجب أن
 الكافرين لا يُغفر لهم ما دون
 ذلك، ويجازون به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وذلك - وإن كان مما قد قيل - فهو
 مما لم يقصد بالآية على تأويل أحد
 من العلماء، ويرد على هذا المنزوع
 بطول التقسيم، لأن الشرك مغفور
 أيضاً لمن شاء الله أن يؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 ومن آيات الوعيد التي احتج بها
 المعتزلة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ
 مُؤْمِنًا مَّتَّعِدًا فَجْرًاؤُهُ جَهَنَّمَ
 حَكِيلًا فِيهَا وَعَظِيبَ اللَّهُ عَلَيْهِ
 وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾،
 والآية مخرجة عنهم لوجوه منها:
 أن الأصح في تأويل قوله تعالى:
 ﴿مَّتَّعِدًا﴾ ما قاله ابن عباس:
 إنه أراد: مستحلاً، وإذا استحَلَّ
 أحد ما حَرَّمَ الله عليه فقد كفر،
 ويدل على ما قال ابن عباس أنا

المراد اليهود، واختلف في المعنى
 الذي زكوا أنفسهم - فقال قتادة،
 والحسن: ذلك قولهم: ﴿مَنْ يَشَاءُ
 اللَّهُ وَأَجْتَوَى﴾، وقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ
 الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا﴾. وقال
 الضحاك، والسدي: ذلك قولهم: لا
 ذنوب لنا، وما فعلناه نهراً غُفر ليلاً،
 وما فعلناه ليلاً غُفر نهراً، ونحن
 كالأطفال في عدم الذنوب، وقال
 مجاهد، وأبو مالك، وعكرمة:
 تقديمهم أولادهم الصغار للصلاة
 لأنهم لا ذنوب لهم.

قال المؤلف:

وهذا يبعد من مقصد الآية، وقال
 ابن عباس: ذلك قولهم: أبناؤنا
 الذين ماتوا يشفعون لنا، ويزكوننا،
 وقال عبدالله بن مسعود: ذلك ثناء
 بعضهم على بعض، ومدحهم لهم،
 وتزكيتهم لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتقتضي هذه الآية الغض من المزكي لنفسه بلسانه، والإعلام بأن الزاكي المزكى من حسنت أفعاله، وزكاه الله عز وجل، والضمير في: ﴿يَزْكُونَ﴾ عائد على المذكورين ممن زكى نفسه، أو ممن يُزكبه الله تعالى، وغير هذين الصنفين علم أن الله تعالى لا يظلمهم من غير هذه الآية. وقرأت طائفة: ﴿وَلَا تُظَلَّمُونَ﴾ بالتاء على الخطاب.

والفتيل: هو ما قتل، فهو فعيل بمعنى مفعول، وقال ابن عباس، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم: الفتيل: الخيط الذي في شق نواة التمرة، وقال ابن عباس، وأبو مالك، والسدي: هو ما خرج من بين إصبعك أو فكيفك إذا قتلتهما، وهذا كله يرجع إلى الكناية عن تحقير الشيء وتصغيره، وأن الله لا يظلمه، ولا شيء دونه في الصغر، فكيف بما فوقه. ونصبه على مفعول ثانٍ بـ ﴿يُظَلَّمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَقْتَرُونَ﴾ الآية، بين أن تزكيتهم أنفسهم كانت بالباطل والكذب، ويقوي أن التزكية كانت بقولهم: ﴿مَنْ أَنْبَأَنَا اللَّهَ وَأَجَبْتُهُ﴾ إذ الافتراء في هذه المقالة أمكن.

و ﴿كَيْفَ﴾ يصح أن يكون في موضع نصب بـ ﴿يَقْتَرُونَ﴾، ويصح أن يكون في موضع رفع بالابتداء، والخبر في قوله: ﴿يَقْتَرُونَ﴾.

و ﴿وَكُنْ بِهِ إِتْمَانًا تَبِينًا﴾ خبر في مضمته تعجب وتعجب من الأمر، ولذلك دخلت الباء لتدل على معنى

الأمر بالتعجب، وأن يكفي لهم بهذا الكذب إثمًا، ولا يطلب لهم غيره، إذ هو موبق ومهلك، و ﴿إِتْمَانًا﴾ نصب على التمييز.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ﴾ الآية. ظاهرها يعم اليهود والنصارى، ولكن أجمع المتأولون على أن المراد بها طائفة من اليهود، والقصص يبين ذلك، واختلف في الجبت والطاغوت - فقال عكرمة وغيره: هما في هذا الموضع صنمان كانا لقريش، وذلك أن كعب بن الأشرف وجماعة معه وردوا مكة محرضين على قتال رسول الله ﷺ، فقالت لهم قريش: إنكم أهل الكتاب، ومحمد صاحب كتاب، ونحن لا نأمنكم أن تكونوا معه إلا أن تسجدوا لهذين الصنمين اللذين لنا، ففعلوا، ففي ذلك نزلت هذه الآية. وقال ابن عباس: الجبت هنا: حُيِّيُّ بن أخطب، والطاغوت: كعب بن الأشرف، فالمراد على هذه الآية القوم الذين كانوا معهما من بني إسرائيل لإيمانهم بهما، وأتباعهم لهما، وقال ابن عباس: الجبت: الأصنام، والطاغوت: القوم المترجمون عن الأصنام، الذين يضلون الناس بتعليمهم إياهم عبادة الأصنام، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: الجبت: السحر، والطاغوت: الشيطان، وقاله مجاهد والشعبي، وقال زيد بن أسلم، الجبت: الساحر، والطاغوت: الشيطان، وقال سعيد بن جبير، ورفيع: الجبت: الساحر، والطاغوت:

الكاهن. وقال قتادة: الجبت: الشيطان، والطاغوت: الكاهن. وقال سعيد بن جبير أيضاً: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الشيطان. وقال ابن سيرين: الجبت: الكاهن، والطاغوت: الساحر، وقال مجاهد في كتاب الطبري: الجبت: كعب بن الأشرف، والطاغوت: الشيطان كان في صورة إنسان. قال ابن عطية:

فمجموع هذا يقتضي أن الجبت والطاغوت هو كل ما عُبد وأُطيع من دون الله تعالى، وكذلك قال مالك رحمه الله: الطاغوت: كل ما عُبد من دون الله تعالى، وذكر بعض الناس أن الجبت هو من لغة الحبشة. وقال قطرب: الجبت: أصله الجبس، وهو الثقل الذي لا خير عنده، وأما الطاغوت فهو مَنْ طَغَى، أصله طَغَوْتُ، وزنه فعلوت، وتأوّه زائدة، قلب فرُدُّ فعلوت، أصله طوغوت، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا رَبُّنَا كُنَّا أَهْلًا مِنَ اللَّهِ وَرُوَاهُ يُرَوِّجُ الْجِبْتِ﴾ الآية - سببها (أن قريشاً قالت لكعب بن الأشرف حين ورد مكة: أنت سيدنا وسيد قومك، إنا قوم ننحدر الكوماء، ونقري الضيف، ونصل الرحم، ونسقي الحجيج، ونعبد آلهتنا التي وجدنا آباءنا يعبدون، وهذا الصنوبر المنبت من قومه، قد قطع الرحم، فمن أهدى نحن أو هو؟ فقال كعب: أنتم أهدى منه، وأقوم ديناً، فنزلت هذه الآية)، قاله ابن عباس. وحكى السدي أن أبا سفيان خاطب كعباً بهذه المقالة،

فالضمير في ﴿يَقُولُونَ﴾ عائد على كعب على ما تقدم، أو على الجماعة من بني إسرائيل التي كانت مع كعب، لأنها قالت بقوله في جميع ذلك على ما ذكر بعض المتأولين.

و ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في هذه الآية هم قريش، والإشارة بـ ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إليهم، و ﴿أَهْدَأُ﴾: وزنه أفعِل، وهو للتفضيل، و ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾: هم النبي عليه الصلاة والسلام وأمه، و ﴿سَيِّئًا﴾: نصب على التمييز.

وقالت فرقة: بل المراد في الآية من بني إسرائيل هو حَيِّي بن أخطب، وهو المقصود من أول الآيات، والمشار إليه بقوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ هم المراد من بني إسرائيل، فمن قال: كانوا جماعة فذلك مستقيم لفظاً ومعنى، ومن قال: هو كعب أو حَيِّي فعبر عنه بلفظ الجمع لأنه كان متبوعاً، وكان قوله مقترناً بقول جماعة.

و ﴿لَمَنَّهُمْ﴾ معناه: أبعدهم من خيره وَمَقْتَنَهُمْ، ومن يفعل الله ذلك به ويخذه فلا ناصر له من المخلوقين، وإن نصرته طائفة فنصرتها كلاً نُصْرَةً، إذ لا تغني عنه شيئاً.

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله تعالى:

عرف ﴿أَمْ﴾ أن تعطف بعد استفهام متقدم، كقولك: أقام زيد أم عمرو؟ فإذا وردت ولم يتقدمها استفهام - فمذهب سيبويه أنه مُضْمَنَةٌ معنى الإضراب عن الكلام الأول والقطع عنه، وهي مُضْمَنَةٌ - مع ذلك - معنى الاستفهام، فهي بمعنى (بل) مع ألف الاستفهام، كقول العرب: إنها لإبل

أم شاء؟ فالتقدير عند سيبويه: إنها لإبل بل أمي شاء؟ وكذلك هذا الموضع، تقديره: بل أَلَهُمْ نصيب من المُلْك؟ وقد حُكي عن بعض النحويين أن (أم) يُستفهم بها ابتداءً دون تقدم استفهام، حكاه ابن قتيبة في المشكل، وهذا غير مشهور للعرب، وقال بعض المفسرين: [أم] بمعنى (بل)، ولم يذكروا الألف اللازمة، فأوجبوا - على هذا - حصول المُلْك للمذكورين في الآية، والتزموا ذلك وفسروا عليه، فالمعنى عندهم: بل هم ملوك أهل دُنْيَا وَعُتُو وَتَنَعُم لا يبغون غيره، فهم بخلاء به، حريصون على ألا يكون ظهور لسواهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى على الأرجح - الذي هو مذهب سيبويه والحدائق - أنه استفهام على معنى الإنكار، أي: أَلَهُمْ مُلْك؟ فإذا لو كان تَبَخَّلُوا.

وقرأ ابن مسعود: ﴿فَإِذَا لَا يُؤْتُوا﴾ بغير نون على إعمال (إِذَا)، والمصحف على إلغائها، والوجهان جائزان، وإن كانت صدرًا من أجل دخول الفاء عليها.

والتقرير: أعرف ما فيه أنها النكتة التي في ظهر النواة من النمرة، ومن هنالك تنبت، وهو قول الجمهور، وقالت فرقة: هي النقطة التي في بطن النواة، وروي عن ابن عباس أنه قال: هو نقر الإنسان بإصبعه، وهذا كله يجمعه أنه كناية عن الغاية في الحقارة والقلة على مجاز العرب واستعارتها، و [إِذَا] في هذه الآية مُلَغَّاةٌ لدخول فاء العطف عليها،

ويجوز إعمالها، والإلغاء أفصح، وذلك أنها إذا تقدمت أعملت قولاً واحداً، فإذا دخل عليها وهي مقدمة فاء أو واو جاز إعمالها والإلغاء أفصح، وهي لغة القرآن، وتكتب (إِذَا) بالنون وبالألف، فالنون هو الأصل، كَعَنَ وَمَنَ، وجاز كتبها بالألف لصحة الوقوف عليها فأثبتت نون التنون، ولا يصح الوقوف على (عن) و (من).

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ﴾ الآية - ﴿أَمْ﴾ هذه على بابها، لأن الاستفهام الذي في تقديرنا: بل لَهُمْ - قد تقدمها.

واختلف المتأولون في المراد بـ ﴿النَّاسِ﴾ في هذا الموضع - فقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والسدي، والضحاك: هو النبي عليه الصلاة والسلام، والفضل: النبوة فقط، والمعنى: قَلِمٌ يَحْسُدُونَهُ بالحسد ولا يحسدون آل إبراهيم في جميع ما أتيناهم من هذا وغيره من الملك؟ وقال ابن عباس، والسدي أيضاً: هو النبي ﷺ، والفضل: ما أبيض له من النساء فقط، وسبب الآية عندهم أن اليهود قالت لكفار العرب: انظروا إلى هذا الذي يقول: إنه بعث بالتواضع، وإنه لا يملأ بطنه طعاماً، ليس همه إلا في النساء، ونحو هذا، فنزلت الآية، والمعنى: قَلِمٌ يَحْسُدُونَهُ بالحسد ولا يحسدون آل إبراهيم عليه الصلاة والسلام؟ يعني سليمان وداود عليهما الصلاة والسلام، في أنهما أعطيا النبوة والكتاب، وأعطيا - مع ذلك - مُلْكًا عظيمًا في أمر النساء، وهو ما روي

أنه كان لسليمان سبعمئة امرأة، وثلاثمئة سرية، ونحو هذا من الأخبار الواردة في ذلك، فالملك في هذا القول إباحة النساء كأنه المقصود أولاً بالذكر. وقال قتادة: الناس في هذا الموضع: العرب، حسدتها بنو إسرائيل في أن كان النبي عليه الصلاة والسلام منها، والفضل على هذا التأويل: هو محمد عليه الصلاة والسلام، فالمعنى: لم يحسدون العرب على هذا النبي ﷺ، وقد أوتي آل إبراهيم ﷺ، وهم أسلافهم - أنبياء وكتباً كالتوراة والزيور، وحكمة وهي الفهم في الدين - وما يكون من الهدى مما لم ينص عليه الكتاب. وروي عن ابن عباس أنه قال: نحن الناس. يريد قريشاً.

و ﴿تِلْكَ عَظِيمًا﴾ أي: مسللك سليمان، قاله ابن عباس، وقال مجاهد: الملك العظيم في الآية هو النبوة، وقال همام بن الحارث، وأبو سلمة: هو التأيد بالملائكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأصوب أنه ملك سليمان، أو أمر النساء في التأويل المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿فِيَنَّهُم مِّنْ ءَامَنٍ بِئِدٍ﴾ الآية، اختلف المتأولون في عود الضمير من ﴿بِئِدٍ﴾ - فقال الجمهور: هو عائد على القرآن الذي في قوله تعالى: ﴿ءَايَاتُوا بِمَا نَزَّلْنَا مُبَدَّبًا لِّمَا مَنَّكَم يِّن قَبْلِ أَن نَّطْوِيَهُمْ﴾ فأعلم الله أن منهم من آمن كما أمر، فلذلك ارتفع الوعيد بالطمس ولم يقع، وصدق قوم ثبت الوعيد عليهم في الآخرة بقوله: ﴿وَكَلَّنِي بِجَهَنَّمَ سَيِّئًا﴾، وقالت فرقة: الضمير عائد

على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وحكى مكي في ذلك قصصاً ليست بالثابتة، وقالت فرقة: هو عائد على الفضل الذي آتاه الله النبي عليه الصلاة والسلام، أو العرب على ما تقدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قرأت فرقة: ﴿صُدَّ صَتْهُ﴾ بضم الصاد، على بناء الفعل للمفعول، و ﴿سَيِّئًا﴾ معناه: احتراقاً وتلهباً، والسعير: شدة توقد النار، فهذا كناية عن شدة العذاب والعقوبة.

٥٧ - ٥٦ تفسير قوله تعالى:

تقدم في الآيات وصف المردة من بني إسرائيل، وذكر أفعالهم وذنوبهم، ثم جاء بالوعيد النص لهم بلفظ جلي عام لهم ولغيرهم ممن فعل فعلهم من الكفر، والقراءة المشهورة: ﴿نُصَلِّيَهُمْ﴾ بضم النون، من: أصَلَّيتُ، ومعناه: قرئت من النار وألقيت فيها، وهو معنى صَلَّيتُ بتشديد اللام، وقرأ حميد ﴿نُصَلِّيَهُمْ﴾ من: صَلَّيتُ، ومعناه: شويت، ومنه الحديث: (أنتي رسول الله ﷺ بشاة مُصَلِّيَّة) أي: مشوية، وكذا وقع تصريف الفعل في العين وغيره، وقرأ سلام، ويعقوب: ﴿نُصَلِّيَهُمْ﴾ بضم الهاء.

واختلف المتأولون في معنى تبديل الجلود - فقالت فرقة: تبديل عليهم جلود غيرها، إذ نفوسهم هي المعذبة، والجلود لا تألم في ذاتها، فإنها تبديل ليدقوا تجديد العذاب. وقالت فرقة: تبديل الجلود هو إعادة ذلك الجلد بعينه الذي كان في

الدينا، تأكله النار ويعيده الله دأباً لتجدد العذاب، وإنما سماه تبديلاً، لأن أوصافه تتغير ثم يعاد، كما تقول: «بدل من خاتمي هذا خاتماً». وهي فضته بعينها، فالبديل إنما وقع في تغيير الصفات، وقال ابن عمر: كلما احترقت جلودهم بدلوا جلوداً بيضاء كالقراطيس، وقال الحسن بن أبي الحسن: تبديل عليهم في اليوم سبعين ألف مرة، وقالت فرقة: الجلود في هذا الموضع سراويل القطران، سماها جلوداً للزومها فصارت كالجلود، وهي تبديل دأباً عافانا الله من عذابه برحمته، جكاه الطبري.

وحسن الاتصاف بعد هذه المقدمات بالعزة والإحكام، لأن الله لا يغالبه مغالب إلا غلبه الله، ولا يفعل شيئاً إلا بحكمة وإصابة، لا إله إلا هو تبارك وتعالى.

ولما ذكر الله وعيد الكفار عقب بوعد المؤمنين بالجنة على الإيمان والأعمال الصالحة، وقرأ ابن وثاب: ﴿سَيُدْخِلُهُمْ﴾ بالياء، وكذلك ﴿يُدْخِلُهُمْ﴾ بعد ذلك. وقد تقدم القول في معنى ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ في سورة البقرة، و ﴿مُطَهَّرَةٌ﴾ معناه: من الريب والأقذار التي هي معهودات في الدنيا، و ﴿ظَلِيلًا﴾ معناه عند بعضهم: يقي الحر والبرد، ويصح أن يريد أنه ظل لا يستحيل ولا ينتقل، كما يفعل ظل الدنيا، فأكد بقوله: ﴿ظَلِيلًا﴾ لذلك، ويصح أن يصفه بظليل لا امتداده، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «إن في الجنة شجرة يسير

الراكب الجواد المضمّر في ظلها مائة سنة ما يقطعها.

﴿٥٨﴾ - ﴿٥٩﴾ تفسير قوله تعالى:

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وزيد بن أسلم، وشهر بن حوشب، وابن زيد، هذا خطاب لولاة المسلمين خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهو للنبي عليه الصلاة والسلام وأمرائه، ثم يتناول من بعدهم. وقال ابن جريج وغيره: ذلك خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام خاصة في أمر مفتاح الكعبة حين أخذه من عثمان بن طلحة بن أبي طلحة العَبْدَرِي، ومن ابن عمه شيبة بن عثمان بن أبي طلحة، فطلبه العباس بن عبدالمطلب لتنضاف له السدانة إلى السُقاية، فدخل رسول الله ﷺ الكعبة فكسر ما كان فيها من الأوثان، وأخرج مقام إبراهيم، ونزل عليه جبريل بهذه الآية، قال عمر بن الخطاب: وخرج رسول الله ﷺ وهو يقرأ هذه الآية، وما كنت سمعتها قبل منه، فدعا عثمان وشيبة فقال لهما: «خذها خالدة تالدة، لا ينزعها منكم إلا ظالم»، وحكى مكي أن شيبة أراد ألا يدفع المفتاح، ثم دفعه وقال للنبي عليه الصلاة والسلام: خذه بأمانة الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختلف الرواة في بعض ألفاظ هذا الخبر زيادة ونقصاناً، إلا أنه المعنى بعينه، وقال ابن عباس: الآية في الولاة بأن يعظوا النساء في النشوز ونحوه، ويردوهن إلى الأزواج،

والأظهر في الآية أنها عامة في جميع الناس، ومع أن سببها ما ذكرناه فهي تتناول الولاة فيما إليهم من الأمانات في قسمة الأموال، ورد الظلمات وعدل الحكومات وغيره، وتتناولهم ومن دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات، وغير ذلك، كالرجل يحكم في نازلة ما ونحوه، والصلاة والزكاة والصيام وسائر العبادات أمانات لله تعالى، وقال ابن عباس: لم يرخص لموسر ولا لمعسر أن يمسك الأمانة.

و ﴿يَتَيَّمًا﴾ أصله: نَعِمَ مَا، سكنت الأولى وأدغمت في الثانية، وحركت العين لالتقاء الساكنين، وخصت بالكسر إتباعاً للنون، و (ما) المردفة على (نعم) إنما هي مهيئة لاتصال الفعل بها، كما هي في (رئبما) و (بئبما) في قوله: «وكان رسول الله ﷺ مما يحرك شفتيه» وكقول الشاعر:

وإِنَّا لِمِمَّا نَضْرِبُ الكَيْشَ ضَرْبَةً
على رأسه تُلقِي اللِّسَانَ من أَلَمِّ
ونحوه، وفي هذا هي بمنزلة (رئبما)، وهي لها مخالفة في المعنى، لأن (ربما) معناها التقليل، و (ممًا) معناها التكثير، ومع أن (ما) موطئة فهي بمعنى (الذي)، وما وطأت إلا وهي اسم، ولكن القصد إنما هو لما يليها من المعنى الذي في الفعل.

وحسُن الاتصاف بعد هذه المقدمات بالسمع والبصر لأنها في الشاهد محصلات ما يفعل المأمور فيما أمر به.

وقوله عز وجل: ﴿يَتَيَّمًا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ - ﴿يَتَيَّمًا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ - لما تقدم إلى الولاة في الآية المتقدمة، تقدم في هذه إلى الرعية، فأمر بطاعته عز وجل، وهي: امتثال أوامره ونواهي، وطاعة رسوله، وطاعة الأمراء على قول الجمهور: أبي هريرة، وابن عباس، وابن زيد، وغيرهم، وقال جابر بن عبدالله، ومجاهد، وجماعة: أولو الأمر: أهل القرآن والعلم، فالأمر - على هذا التأويل - إشارة إلى القرآن والشريعة، أي: أولي هذا الأمر وهذا الشأن، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال: الإشارة هنا بأولي الأمر إلى أصحاب محمد ﷺ خاصة، وحكى عن عكرمة أنها إشارة إلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما خاصة، وفي هذا التخصيص بُعد. وحكى بعض من قال «إنهم الأمراء»: أنها نزلت في أمراء رسول الله ﷺ، وكان السبب أن رسول الله ﷺ بعث سرية فيها عمار بن ياسر، وأميرها خالد بن الوليد، فقصدا قوماً من العرب، فأتاهم نذير فهربوا تحت الليل، وجاء منهم رجل إلى عسكر خالد، فدخل إلى عمار فقال: يا أبا اليقظان، إن قومي قد فروا، وإني قد أسلمت، فإن كان ينفعني إسلامي بقيت، وإلا فرت، فقال له عمار: هو ينفعك فأقم، فلما أصبحوا أغار خالد فلم يجد سوى الرجل المذكور، فأخذه وأخذ ماله، فجاء عمار فقال: خلّ عن الرجل فإنه قد أسلم، وإنه في أمانٍ مني، فقال خالد: وأنت تجير؟ فاستبأ وارتفعاً إلى رسول الله ﷺ فأجاز أمان

أنهم يؤمنون هو ممّا قويت فيه شبهة الإطال لسوء أفعالهم، حتى صححها الخبر من الله تعالى عنهم، ومن هذا قول النبي ﷺ: «بئس مطية الرجل زعموا»، وقد قال الأعشى:

وَبُئِثْتُ قَيْسًا وَلَسَمَ أَبْلُهُ
كَمَا زَعَمُوا خَيْرَ أَهْلِ الْيَمَنِ
فقال الممدوح: وما هو إلا الزعم وحرمه، وإذا قال سيويه: «زعم الخليل» فإنما يستعملها فيما انفرد الخليل به، وكان أقوى رتب (زعم) أن تبقى معها عهدة الخبر على المخبر. و«أن» معمولة ﴿رَعْمُونَ﴾.

وقال عامر الشعبي وغيره: نزلت الآية في منافق اسمه بشر، خاصم رجلاً من اليهود، فدعاه اليهودي إلى المسلمين لعلمه أنهم لا يرتشون، وكان هو يدعو اليهودي إلى اليهود لعلمه أنهم يرتشون، فاتفقا بعد ذلك على أن أتيا كاهناً كان بالمدينة فرضياه، فنزلت هذه الآية فيهما وفي صنيهما.

فالذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل على محمد هم المنافقون، والذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل من قبله هم اليهود، وكان قد أمر في كتابه بالكفر بالطاغوت، و«أَطْلَهُوْتُ» - هنا - الكاهن المذكور، فهذا تأنيب للصنفين، وقال ابن عباس: الطاغوت هنا: هو كعب بن الأشرف، وهو الذي تراضيا به، فعلى هذا إنما يؤنب صنف المنافقين وحده، وهم الذين آمنوا بما

وأمرؤكم، ومعنى التنازع أن كل واحد ينتزع حجة الآخر ويذهبها.

والرُدُّ إلى الله: هو النظر في كتابه العزيز، والرُدُّ إلى الرسول: هو سؤاله في حياته، والنظر في سنته بعد وفاته عليه الصلاة والسلام، هذا قول مجاهد، والأعمش، وقتادة، والسدي، وهو الصحيح، وقال قوم: معناه: قولوا: الله ورسوله أعلم، فهذا هو الرُدُّ.

وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ بعض وعيد، لأن فيه جزاء المسيء العاتي، وخاطبهم بـ ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾ وهم قد كانوا آمنوا على جهة التقدير، ليتأكد الإلزام.

و«تَأْوِيلًا» معناه: مآلاً، على قول جماعة. وقال مجاهد: أحسن جزاء. قال قتادة، والسدي، وابن زيد: المعنى: أحسن عاقبة. وقالت فرقة: المعنى: إن الله ورسوله أحسن نظراً وتأولاً منكم إذا انفردتم بتأولكم.

٦٥ - ٦٦ ﴿تفسير قوله تعالى:

تقول العرب: زعم فلان كذا في الأمر الذي يضعف فيه التحقيق، وتتقوى فيه شبهة الإطال، فغاية درجة الزعم إذا قوي أن يكون مظنوناً. يقال: زُعم بفتح الزاي، وهو المصدر، وزُعم بضمها، وهو الاسم، وكذلك زُعم المنافقين

أَمْ تَرَى إِلَى الَّذِينَ رَعِمُوا أَنَّهُمْ إِمَّا تُنزلُ إِلَيْكَ
وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّكِمُوا إِلَى الظُّلْمِ
وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ
ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٥﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُتَنَفِّقِينَ يُضَدُّونَ عَنْكَ
صُدُودًا ﴿٦٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا
قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ ثُمَّ جَاءَ وَكَرَّ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا
إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا ﴿٦٧﴾ أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا
فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي
أَنْفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا ﴿٦٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا
لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
جَاءَهُمْ فَاسْتَعْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ
لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٩﴾ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ
حَتَّى يُحَكِّمُوكُمْ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتُمْ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٧٠﴾

عمار، ونهاه أن يجير الثانية على أمير، واستبا عند رسول الله ﷺ، فقال خالد: يا رسول الله، أتترك هذا العبد الأجدع يسبني؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا خالد، لا تسب عماراً، فإنه من سب عماراً سبه الله، ومن أبغض عماراً أبغضه الله، ومن لعن عماراً لعنه الله»، فغضب عمار فقام فذهب، فتيبه خالد حتى اعتذر إليه، فتراضيا، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَطِيعُوا الْأَمْرَ مِنْكُمْ﴾، وطاعة الرسول هي: اتباع سنته، قاله عطاء وغيره، وقال ابن زيد: معنى الآية: وأطيعوا الرسول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: وسنته بعد موته.

﴿فَإِنْ نَزَعْتُمْ﴾ - المعنى: فإن تنازعتم فيما بينكم، أو أنتم

أنزل على محمد، وبما أنزل من قبله بزعمهم، لأن اليهود لم يؤمروا في شرعهم بالكفر بالأخبار، وكعب منهم. وذكر النقاش أن كعباً هذا أصله من طيبيء وتهود. وقال مجاهد: نزلت في مؤمن ويهودي، وقالت فرقة: نزلت في يهوديين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان بعيدان من الاستقامة على ألفاظ الآية، وقال السدي: نزلت في المنافقين من قريظة والنضير، وذلك أنهم تفاخروا بسبب الجاهلية تدي من قتل، وتستفيد إذا قتلت قريظة منهم، فأبت قريظة لما جاء الإسلام، وطلبوا المنافرة، فدعا المؤمنون منهم إلى النبي ﷺ، ودعا المنافقون إلى أبي بردة الكاهن، فنزلت الآية فيهم. وحكى الزجاج أن المنافق المتقدم الذكر أو غيره اختصم عند النبي ﷺ ففضى في أمره، فخرج وقال لخصمه: لا أرضى بحكمه، فذهب إلى أبي بكر ففضى بينهما، فقال المنافق: لا أرضى، فذهب إلى عمر فوصف له جميع ما فعلا، فقال لهما: اصبرا حتى أقضي حاجة في منزلي ثم أخرج فأحكم بينكما، فدخل وأخذ سيفه وخرج، فضرب المنافق حتى برد، وقال: هذا حكمي فيمن لم يرض بحكم رسول الله ﷺ، فنزلت الآية، وقال الحسن: احتكم المنافقون بالقдах التي يضرب بها عند الأوثان فنزلت الآية.

و ﴿يُعَلِّمُ﴾ معناه: يتلفهم، وجاء

﴿ضَلَّكَ﴾ على غير المصدر، تقديره: يفضلون ضلالاً، و ﴿يَبِيدُ﴾ عبارة عن عظم الضلال وتمكنه حتى يبعد الرجوع عنه والاهتداء معه.

وقرأ الجمهور: ﴿تَمَالَوْا﴾ بفتح اللام، وقرأ الحسن فيما روى عنه قتادة ﴿تَمَالُوا﴾ بضمه، وجهها أن لام الفعل من (تعاليت) حذفت تخفيفاً، وضمت اللام التي هي عين الفعل، وذلك لوقوع واو الجمع بعدها، كقولك: تقدموا وتأخروا، وهي لفظة مأخوذة من العلو، لما استعملت في دعاء الإنسان وجلبه وأشخاصه، سبقت من العلو تحسناً للأدب، كما تقول: ارتفع إلى الحق، ونحوه.

و ﴿رَأَيْتَ﴾ هي رؤية عين لمن صد من المنافقين مجاهرة وتصريحاً، وهي رؤية قلب لمن صد منهم مكرراً وتخابثاً ومسارقة حتى لا يعلم ذلك منه إلا بالتأويل عليه والقرائن الصادرة عنه، فإذا كانت رؤية عين ف ﴿يَصُدُّونَ﴾ في موضع نصب على الحال، وإذا كانت رؤية قلب ف ﴿يَصُدُّونَ﴾ نصب على المفعول الثاني.

و ﴿صُدُّوْا﴾ مصدر عند بعض النحاة من (صد)، وليس عند الخليل بمصدر منه، والمصدر عنده: (صدًا)، وإنما ذلك لأن فعولاً إنما هو مصدر للأفعال غير المتعدية، كجلس جلوساً، وقعد قعوداً، و (صد) فعل متعدٍ بنفسه مرة كما قال: ﴿فَصَدَّمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾، ومرة بحرف الجر كقوله تعالى: ﴿يَصُدُّونَ عَنْكَ

صُدُّوْا﴾، وغيره، فمصدره (صد) و (صُدود) اسم.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله تعالى:

قالت فرقة: هي في المنافقين الذين احتكموا حسب ما تقدم، فالمعنى: فكيف بهم إذا عاقبهم الله بهذه الذنوب بنقمة منه؟ ثم حلفوا إن أردنا بالاحتكام إلى الطاغوت إلا توفيق الحكم وتقريبه دون مر الحكم وتقصي الحق. وقالت فرقة: هي في المنافقين الذين طلبوا دم الذي قتله عمر، فالمعنى: فكيف بهم إذا أصابتهم مصيبة في قتل قريبهم ومثله من نعم الله تعالى؟ ثم إنهم حلفوا ما أرادوا بطلب دمه إلا إحساناً وحقاً، نحا إليه الزجاج. وموضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب بفعل تقديره: فكيف تراهم؟ ونحوه، ويصح أن يكون موضعها رفعاً، تقديره: فكيف صنعهم؟ وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْتَمِرُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ تكذيب المنافقين المتقدم ذكرهم وتوعدهم، أي: فهو مجازيهم بما يعلم.

و ﴿أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾ يعنني عن معاقبتهم، وعن شغل البال بهم، وعن قبول أيمانهم الكاذبة في قوله: ﴿يَحْلِفُونَ﴾، ليس بالإعراض الذي هو القطيعة والهجر، فإن قوله: ﴿وَعَظَّمَهُمْ﴾ يمنع من ذلك، و ﴿وَعَظَّمَهُمْ﴾ معناه بالتخوير من عذاب الله وغيره من المواعظ.

والقول البليغ اختلف فيه - فقيل: هو الزجر والردع والكف بالبلاغة من القول، وقيل: هو التوعد بالقتل إن استداموا حالة النفاق، قاله الحسن، وهذا أبلغ ما يكون في نفوسهم.

الأولى، وكان يصح إسقاط الأولى ويبقى معنى النفي، ويذهب معنى الاهتمام.

و ﴿شَجَرَ﴾ معناه: اختلط والتف من أمورهم، وهو من الشجر، شبيه بالتفاف الأغصان، وكذلك الشجير الذي امتزجت مودته بمودة صاحبه، وقرأ أبو السمال: ﴿شَجْرًا﴾ بإسكان الجيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأظنه قرء من توالي الحركات، وليس بالقوي ليخفة الفتحة.

و ﴿يُحْكِمُونَكَ﴾ نصب بـ ﴿عَنْ﴾ لأنها هنا غاية مجردة، و ﴿يُحَدِّثُونَكَ﴾ عطف عليه، والجرح الضيق والتكلف والمشقة. قال مجاهد: حرجاً: شكاً، وقوله:

﴿تَسْلِمًا﴾ مصدر مؤكد منبىء على التحقيق في التسليم، لأن العرب إنما تردف الفعل بالمصدر إذا أرادت أن الفعل وقع حقيقة، كما قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾، وقد تجيء به مبالغة وإن لم يقع، ومنه:

.....

وعَجَّتْ عَجِيجًا مِنْ جُدَامِ الْمَطَارِفِ وقال مجاهد وغيره: المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أراد التحاكم إلى الطاغوت، وفيهم نزلت، ورجح الطبري هذا لأنه أشبه بنسق الآية. وقالت طائفة: نزلت في رجل خاصم الزبير بن العوام في السقي بماء الحرة، فقال لهما رسول الله ﷺ: «استق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك»، فغضب ذلك الرجل وقال: أن كان ابن عمتك؟ فغضب رسول الله ﷺ،

رسول إلا ليطاع بأمر الله بطاعته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى التعليقين فالكلام عام اللفظ خاص المعنى، لأننا نقطع أن الله تبارك وتعالى قد أراد من بعض خلقه ألا يطيعوا، ولذلك خرّجت طائفة معنى الإذن إلى العلم، وطائفة خرّجته إلى الإرشاد لقوم دون قوم، وهذا تخريج حسن، لأن الله إذا علم من أحد أنه يؤمن، ووفقه لذلك فكأنه أذن له فيه، وحقيقة الإذن: التمكين مع العلم

بقدر ما مكن منه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ الآية - معناه: بالمعصية والافتقار ونقصها حظها من الإيمان، و ﴿فَأَسْتَفْزَرُوا اللَّهَ﴾ معناه: طلبوا مغفرته، وتابوا إليه، و ﴿تَوَابًا﴾ معناه: راجعاً بعباده.

١٥٠ - ١٧٨ تفسير قوله تعالى:

قال الطبري: قوله: ﴿فَلَا رُدُّ عَلَى مَا تَقْدِم، تقديره: فليس الأمر كما يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك، ثم استأنف القسم بقوله: ﴿وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال غيره: إنما قدم ﴿لَا﴾ على القسم اهتماماً بالنفي، وإظهاراً لقوته، ثم كررها بعده تأكيداً للثبوت بالنفي، وكان يصح إسقاط ﴿لَا﴾ الثانية، ويبقى أكثر الاهتمام بتقديم

وَلَوْ أَنَّا كُنِينَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْسَلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرَجُوا مِنْ دِينِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا وَعَدُوا غَدَوْا بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَبَتُّبًا ﴿١٧٨﴾ وَإِذَا لَا تَأْتِنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٧٩﴾ وَلَهَدَيْتَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿١٨٠﴾ وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رِيفًا ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيمًا ﴿١٨٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اخذُوا حذرَكُمْ فَأَنْفِرُوا ثُبَاتٍ أَوْ أَنْفِرُوا جَمِيعًا ﴿١٨٣﴾ وَإِنْ مَكَرْتُمْ لَن يُبْطِئَنَّ فَإِنْ أَصَبْتُمْ مَوْجِبَةً قَالِ قَدْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُنْ مَعَهُمْ شَهِيدًا ﴿١٨٤﴾ وَلَئِنْ أَصَبْتُمْ مَوْجِبَةً فَضَلَّ مِنَ اللَّهِ لَيَقُولُنَّ كَأَنْ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ يَلَيْسَتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿١٨٥﴾ فَلْيَقْتُلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُضْلِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَن يُغْنِ عَنْهُ قَوْلُهُ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٨٦﴾

والبلاغة مأخوذة من بلوغ المراد بالقول، وحكي عن مجاهد أن قوله: ﴿فِي أَنفُسِهِمْ﴾ متعلق بقوله: ﴿مَوْجِبَةً﴾ وهو مؤخر بمعنى التقديم، وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ تنبيه على جلاله الرسل، أي: فأنت يا محمد منهم، تجب طاعتك، وتتعين إجابة الدعوة إليك، و ﴿لِيُطَاعَ﴾ نصب بلام (كي)، و ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ معناه: بأمر الله، وحسنت العبارة بالإذن، إذ بنفس الإرسال تجب طاعته وإن لم ينص أمر بذلك، ويصح تعلق الباء من قوله: ﴿بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، والمعنى: وما أرسلنا بأمر الله، أي: بشريعته وعبادته من رسول إلا ليطاع، والأظهر تعلقها بـ ﴿يُطَاعَ﴾ والمعنى: وما أرسلنا من

واستوعب للزبير حقه فقال: «احبس يا زبير الماء حتى يبلغ الجدر، ثم أرسل الماء»، فنزلت الآية. واختلف أهل هذا القول في الرجل - فقال قوم: هو رجل من الأنصار من أهل بدر، وقال مكّي وغيره: هو حاطب بن أبي بلتعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح الذي وقع في البخاري أنه رجل من الأنصار، وأن الزبير قال: فما أحسب أن هذه الآية نزلت إلا في ذلك، وقالت طائفة: لما قتل عمر الرجل المنافق الذي لم يرض بحكم النبي ﷺ بلغ ذلك النبي ﷺ وعظم عليه، وقال: «ما كنت أظن أن عمر يجترىء على قتل رجل مؤمن»، فنزلت الآية نافية لإيمان ذلك الرجل الراد لحكم النبي عليه الصلاة والسلام، مقيمة عذر عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قتله.

و ﴿كُنْتُمْ﴾ معناه: فرضنا، و ﴿أَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه: ليقتل بعضكم بعضاً، وقد تقدم نظيره في البقرة، وضم النون من [أَنْ] وكسرها جائز، وكذلك الواو من ﴿أَوْ أَخْرَجُوا﴾، وبضمها قرأ ابن عامر، ونافع، وابن كثير، والكسائي، ويكسرها قرأ حمزة وعاصم، وكسر أبو عمرو النون وضم الواو، و ﴿قِيلُوا﴾ رفع على البدل من الضمير في ﴿فَعَلُوا﴾، وقرأ ابن عامر وحده بالنصب: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾، وذلك جائز، أجرى النسفي مجرى الإيجاب.

وسبب الآية على ما حكى أن اليهود قالوا - لما لم يرض المنافق

بحكم النبي عليه الصلاة والسلام -: ما رأينا أسخف من هؤلاء، يؤمنون بمحمد ويتبعونه، ويطؤون عقبه، ثم لا يرضون بحكمه، ونحن قد أمرنا بقتل أنفسنا ففعلنا، وبلغ القتل فينا سبعين ألفاً، فقال ثابت بن قيس: لو كتب ذلك علينا لفعلناه، فنزلت الآية معلمة حال أولئك المنافقين، وأنه لو كتب ذلك على الأمة لم يفعلوه، وما كان يفعله إلا قليل مؤمنون محققون، كسابت وغيره، وكذلك روي أن رسول الله ﷺ قال: «ثابت ابن قيس، وعمار، وابن مسعود من القليل»، وشركهم في ضمير ﴿وَنَهَمْتُمْ﴾ لما كان المنافقون والمؤمنون مشتركين في دعوة الإسلام وظواهر الشريعة. وقال أبو إسحق السبيعي: لما نزلت: ﴿وَلَوْ أَنَا كُنْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، قال رجل: لو أمرنا لفعلنا، والحمد لله الذي عافانا، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن من أمتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي». وذكر مكّي أن الرجل هو أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وذكر النقاش أنه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وذكر عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: لو كتب علينا لبدأت بنفسي وبأهل بيتي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا﴾ أي: لو أن هؤلاء المنافقين اتعظوا وأنابوا لكان خيراً لهم.

و ﴿تَلَيَّيْنَا﴾ معناه: يقيناً وتصديقاً ونحو هذا، أي: يشبههم الله.

ثم ذكر تعالى ما كان يمن به عليهم من تفضله بالأجر، ووضفه إياه

بالعظم مقتض ما لا يحصله بشر من النعيم المقيم. والصرط المستقيم: الإيمان المؤدي إلى الجنة. وجاء ترتيب هذه الآية كذا، ومعلوم أن الهداية قبل إعطاء الأجر لأن المقصد إنما هو تعديد ما كان الله ينعم به عليهم دون ترتيب، فالمعنى: ولهديناهم قبل حتى يكونوا ممن يؤتى الأجر.

﴿٦٩﴾ - ﴿٧٠﴾ تفسير قوله تعالى:

لما ذكر الله الأمر الذي لو فعلوه لأنعم عليهم ذكر بعد ذلك ثواب من يفعله، وهذه الآية تفسير قوله تعالى: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾، وقالت طائفة: إنما نزلت هذه الآية لما قال عبدالله بن زيد بن عبد ربه الأنصاري الذي أرى الأذان: يا رسول الله، إذا متّ ومنتنا كنت في عليين فلا تراك ولا نجتمع بك، وذكر حزنه على ذلك فنزلت هذه الآية، وحكى مكّي عن عبدالله هذا أنه لما مات النبي ﷺ قال: اللهم أعينني حتى لا أرى شيئاً بعده، فعمي، وذكر أن جماعة من الأنصار قالت ذلك أو نحوه، حكاها الطبري عن ابن جرير، وقادة، والسدي.

ومعنى «مع الذين أنعم الله عليهم»: أنهم في دار واحدة، ومنتّم واحد، وكل من فيها قد رزق الرضا بحاله، وذهب عنه أن يعتقد أنه مفضل، وإن كنا نحن قد علمنا من الشريعة أن أهل الجنة تختلف مراتبهم على قدر أعمالهم، وعلى قدر فضل الله على من شاء.

والصديق: فَعِيل من الصدق،

وقيل: من الصدقة، وروي عن النبي عليه الصلاة والسلام: «الصديقون المصدقون».

والشهداء: المقتولون في سبيل الله، هم المخصوصون بفضل الميتة، وهم الذين فرق الشرع حكمهم في ترك الغسل والصلاة، لأنهم أكرم من أن يشفع لهم، وسئموا بذلك لأن الله شهد لهم بالجنة، وقيل: لأنهم شهدوا لله بالحق في موتهم ابتغاء مرضاته، ولكن لفظ الشهداء في هذه الآية يعم أنواع الشهداء.

و ﴿رَفِيقًا﴾ موحد في معني الجمع، كما قال: ﴿تَمَّ يَخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾. ونصبه على التمييز، وقيل: على الحال، والأول أصوب، وقرأ أبو السمال: ﴿وَحَسَنٌ﴾ بسكون السين، وذلك مثل: ﴿شَجَرٍ بَيْنَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ﴾ رد على تقدير معترض يقول: وما الذي يوجب استواء أهل الطاعة والظلمين في الآخرة والفرق بينهم في الدنيا بين؟ فذكر الله أن ذلك بفضل لا يوجب عليه، والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى كون المطيعين مع المنعم عليهم، وأيضاً فلا تقرر الاستواء، بل هم معهم في دار والمنازل متباينة.

ثم قال: ﴿وَكُنِّيَ بِاللَّهِ عَلَيْهِمَا﴾ وفيها معنى أن يقول: فسلموا فعل الله وتفضله من الاعتراض عليه، واكتفوا بعلمه في ذلك وغيره، ولذلك أدخلت الباء على اسم الله، لتدل على الأمر الذي في قوله: ﴿وَكُنِّيَ﴾.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله تعالى: هذا خطاب للمخلصين من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، وأمر لهم بجهاد الكفار، والخروج في سبيل الله، وحماية الشرع.

و ﴿خُدُوا جِذْرَكُمْ﴾ معناه: احزموا واستعدوا بأنواع الاستعداد، فهنا يدخل أخذ السلاح وغيره، و ﴿أُفْرُوا﴾ معناه: اخرجوا مجذبين مصممين، يقال: نفر الرجل ينفر - بكسر الفاء - نفيراً، ونفرت الدابة تنفر - بضم الفاء - نفوراً. و ﴿ثَبَاتٍ﴾ معناه: جماعات متفرقات، فهي كناية عن السرايا.

و ﴿جَيْعًا﴾ معناه: الجيش الكثيف مع النبي ﷺ، هكذا قال ابن عباس وغيره.

والثبته: حكي أنها فوق العشرة من الرجال، وزنها فُعلة بفتح العين، أصلها: ثبوة، وقيل: ثبيته، حذف لامها بعد أن تحركت وانقلبت ألفاً حذفاً غير مقيس، ولذلك جمعت: ثبون بالواو والنون عوضاً عن المحذوف، وكسر أولها في الجمع دلالة على خروجها عن بابها لأن بابها أن تجمع بالتاء أبداً، فيقال: ثبات، وتصغر: ثبيته، أصلها: ثبوة، أما ثبة الحوض - وهي وسطه الذي يشوب الماء إليه - فالمحذوف منها العين، وأصلها: ثوبة وتصغيرها: ثونية، وهي من: ثاب يشوب، وكذلك قال أبو علي الفارسي في بيت أبي ذؤيب:

فَلَمَّا جَلَّاهَا بِالْإِيَامِ تَحَيَّرَتْ
ثَبَاتًا عَلَيْهَا ذُلُّهَا وَكَيْتَابُهَا
إنه اسم مفرد ليس بالجمع، سبق

على الأصل، لأن أصل ثبة: ثبوة، تحركت الواو وانفتح ما قبلها فانقلبت ألفاً، فساقها أبو ذؤيب في هذه الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْكُمْ لَمِنْ الْمُؤْمِنِينَ، والمراد بـ [مِنْ] المنافقون، وعبر عنهم بـ ﴿مِنْكُمْ﴾ إذ هم في عداد المؤمنين ومنتحلون دعوتهم، واللام الداخلة على [مِنْ] لام التأكيد دخلت على اسم [إِنَّ] لما كان الخبر متقدماً في المجرور، وذلك مهيج، في كلامهم، كقولك: «إن في الدار لزيداً»، واللام الداخلة على [يُبَيِّطُنَّ] لام قَسَم عند الجمهور، تقديره: «وإن منكم لمن - والله - ليبطئن»، وقيل: هي لام تأكيد، ويبطئن معناه: يبطئ غيره، أي: يبْطئه ويحمله على التخلف عن مغازي رسول الله ﷺ، وقرأ مجاهد: ﴿لَيُبَيِّطُنَّ﴾ بالتخفيف في الطاء. و ﴿مُصِيبَةً﴾ يعني من قتل واستشهاد، وإنما هي مصيبة بحسب اعتقاد المنافقين ونظرهم الفاسد، أو على أن الموت كله مصيبة كما شاء الله تعالى، وإنما الشهادة في الحقيقة نعمة لحسن مآلها، و ﴿شَهِيدًا﴾ معناه: مشاهدًا، فالمعنى: إن المنافق يسره غيبه إذا كانت شدة، وذلك يدل على أن تخلفه إنما هو فزع من القتال، وتكول عن الجهاد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ أَمَتِكُمْ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ﴾ الآية، المعنى: ولئن ظفرتم وغنتم وكل ذلك من فضل الله ندم المنافق أن لم يحضر ويصب

وَمَا كُذِّبُوا لَأَقْبِلُونَنِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ
وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ
الظَّالِمِهَا أَهْلُهَا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَنَا مِنْ لَدُنْكَ
نَصِيرًا ﴿٧٤﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يُقْبِلُونَنِي فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
يُقْبِلُونَنِي فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَبِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ
الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٥﴾ الرَّزْمِيُّ الَّذِينَ قَبِلْتُمْ كَفَرُوا أَيْدِيَكُمْ
وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ
مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا الرَّبُّ
كَتَبَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْنَا إِلَيْكَ أَجَلَ قَرِيبٍ فَلَمَنْعَ الْدُنْيَا
فَلَيْلٍ وَالْآخِرَةَ خَيْرَ لِمَنْ أَتَىٰ وَلَا تَنْظُمُونَ ﴿٧٦﴾ أَيْنَمَا
تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَأَنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّسْتَدِيرِينَ وَإِنْ نَصَبْتَهُمْ
حَسَنَةً يَقُولُوا هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ نَصَبْتَهُمْ سَيِّئَةً يَقُولُوا
هَٰذَا مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ قَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمُ لَا يَكَادُونَ
يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٧﴾ إِنَّمَا آسَأُ بِكُمْ مِنَ حَسَنَةٍ فِي الْيَوْمِ مَا آسَأُ بِكُمْ مِنَ
سَيِّئَةٍ فَمَنْ نَفْسِكُمْ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٨﴾

١٠

النحوي: ﴿فَأَقُورٌ﴾ بالرفع على القطع والاستئناف، التقدير: فأنا أقور، قال روح: لم يجعل لليت جواباً، وقال الزجاج: إن قوله: ﴿كَانَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ مؤخر، وإنما موضعه: ﴿وَإِنْ أَصَبْتُمْ مَوْبِيَةً﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأنه يفسد فصاحة الكلام. (٧٦) - (٧٥) تفسير قوله تعالى:

هذا أمر من الله عز وجل للمؤمنين الذين وصفهم بالجهاد في سبيل الله.

و ﴿يَشْرُونَ﴾ معناه: يبيعون في هذا الموضع، وإن جاء في مواضع يشترون، فالمعنى ها هنا يدل على أنه بمعنى: يبيعون.

ثم وصف الله تعالى ثواب المقاتل في سبيل الله، فذكر غايته حالته، واكتفى بالغايتين عما بينهما، وذلك أن غاية المغلوب في القتال أن يُقْتَلَ، وغاية الذي يُقْتَلُ وَيَغْتَمُّ أن يتصف بأنه غالب على الإطلاق. والأجر العظيم: الجنة، وقالت فرقة: ﴿فَلْيَمْتَلِ﴾ بسكون لام الأمر، وقرأت فرقة: ﴿فَلْيَمْتَلِ﴾ بكسرها، وقرأ محارب بن دثار: ﴿فَيَقْتُلُ أَوْ يَغْلِبُ﴾ على بناء الفعلين للفاعل، وقرأ الجمهور: ﴿فَيُؤْتِيهِ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش وطلحة بن مُصَرِّف: ﴿فَسَوْفَ يُؤْتِيهِ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ﴾ اللام

الغنيمة، وقال: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَقُورٌ قُورًا عَظِيمًا﴾ متمنياً شيئاً قد كان عاهد أن يفعله ثم غدر في عهده، لأن المؤمن إنما يتمنى مثل هذا إذا كان المانع له من الحضور عذراً واضحاً، وأمراً لا قدرة له معه، فهو يتأسف بعد ذلك على فوات الخير، والمنافق يعاطي المؤمنين المودة، ويعاهد على التزام كلف الإسلام ثم يتخلف نفاقاً وشكاً وكفراً بالله ورسوله، ثم يتمنى عندما يكشف الغيب الظفر للمؤمنين، فعلى هذا يجيء قوله تعالى: ﴿كَانَ لَمْ تَكُنْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ مَوَدَّةٌ﴾ التفاتة بليغة، واعتراضاً بين القائل والمقول بلفظ يظهر زيادة في قبح فعلهم، وحكى الطبري عن قتادة وابن جريج أنهما كانا يتأولان قول المنافق: ﴿يَلَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ﴾ على معنى الحسد منه للمؤمنين في نيل رغبة.

وقرأ الحسن: ﴿ليقولن﴾ بضم اللام على معنى [من]، وضم اللام يدل على الواو المحذوفة.

ويدل مجموع هاتين الآيتين على أن خارج المنافقين إنما كان يقصد الغنيمة، ومتخلفهم إنما كان يقصد الشك وتريص الدوائر بالمؤمنين.

و ﴿كَانَ﴾ مضمنة معنى التشبيه، ولكنها ليست كالثقيلة في الحاجة إلى الاسم والخبر، وإنما تجيء بعدها الجمل. وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص: ﴿تَكُنْ﴾ بتاء، وقرأ غيرهما: ﴿يَكُنْ﴾ بياء، وذلك حسن للفصل الواقع بين الفعل والفاعل.

وقوله: ﴿فَأَقُورٌ﴾ نصب بالفاء في جواب التمني، وقرأ الحسن، ويزيد

متعلقة بما يتعلق بالمستضعف عنه في معنى الفعل، تقديره: وأي شيء موجود أو كائن أو نحو ذلك لكم؟ و ﴿لَا تُقْبِلُونَنِي﴾ في موضع نصب على الحال تقديره: تاركين، أو مضيعين. وقوله: ﴿وَالْمُسْتَضْعَفِينَ﴾ عطف على اسم الله تعالى، أي: وفي سبيل المستضعفين، وقيل: عطف على السبيل، أي: وفي المستضعفين لاستنقاذهم، ويعني بالمستضعفين من كان بمكة من المؤمنين تحت إذلال كفرة قريش وأذاهم لا يستطيعون خروجاً، ولا يطيب لهم - على الأذى - إقامة، وفي هؤلاء كان رسول الله ﷺ يقول: «اللهم أنج سلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين».

﴿وَالْوِلْدَانَ﴾ بابه أن يكون جمع

وليد، وقد يكون جمع ولد، كوزل ووزلان، فهي على الوجهين عبارة عن الصبيان، والقرية - ها هنا - مكة بإجماع من المتأولين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تتناول المؤمنين والأسرى وحواضر الشرك إلى يوم القيامة، ووحيد الظالم لأنه موضع اتخاذ الفعل، ألا ترى أن الفعل إنما تقديره: الذي ظلم أهلها، ولما لم يكن للمستضعفين حيلة إلا الدعاء دعوا في الاستقاذ، وفيما يوالئهم من معونة الله تعالى، وما ينصرهم على أولئك الظلمة من فتح الله تبارك وتعالى.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله تعالى:

هذه الآية تقتضي تقوية قلوب المؤمنين وتحريضهم، و﴿الْمُكْرُوتِ﴾ كل ما عُبِدَ وأُتْبِعَ من دون الله، وتدلل قرينة ذكر الشيطان بعد ذلك على أن المراد بالطاغوت هنا الشيطان، وإعلامه تعالى بضعف كيد الشيطان تقوية لقلوب المؤمنين، وتجربة لهم على مقارعة الكيد الضعيف فإن العزم والحزم الذي يكون على حقائق الإيمان يكسره ويهدده، ودخلت ﴿كَانَ﴾ دالة على لزوم الصفة.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ، ااخْتَلَفِ الْمُتَأُولُونَ فِي مِمَّا ارْتَدَوْا عَنْكُمْ فَأَمَّرْنَا عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ مِمَّنْ هُمْ أَقْرَبُ إِلَىٰهِمْ فَأُولَٰئِكَ يَخِيفُ أُولَٰئِكَ﴾ - فقال ابن عباس وغيره: كان عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والمقداد بن عمرو الكندي، وجماعة سواهم قد أنفوا من الذل بمكة قبل الهجرة، وسألوا رسول الله ﷺ أن

يُبيح لهم مقاتلة المشركين، فأمرهم الله تعالى بكف الأيدي، وألا يفعلوا، فلما كان بالمدينة وفُرض القتال شق ذلك على بعضهم، وصعب موقعه، ولحقهم ما يلحق البشر من الخور والكع عن مقارعة العدو فنزلت الآية فيهم.

وقال قوم: كان كثير من العرب قد استحسنا الدخول في دين محمد عليه الصلاة والسلام على فرائضه التي كانت قبل القتال من الصلاة والزكاة ونحوها، والمواذعة وكف الأيدي، فلما نزل القتال شق ذلك عليهم، وجزعوا له، فنزلت الآية فيهم وقال مجاهد، وابن عباس أيضاً: إنما الآية حكاية عن اليهود أنهم فعلوا ذلك مع نبيهم في وقته، فمعنى الحكاية عنهم تقبيح فعلهم، ونهي المؤمنين عن فعل مثله، وقالت فرقة: المراد بالآية المنافقون من أهل المدينة - عبدالله بن أبي وأمثاله، وذلك أنهم كانوا قد سكتوا على الكره إلى فرائض الإسلام مع الدعة وعدم القتال، فلما نزل القتال شق عليهم وصعب عليهم صعوبة شديدة، إذ كانوا مكذبين بالشواب، ذكره المهدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحسن هذا القول أن ذكر المنافقين يطرد فيما بعدها من الآيات.

ومعنى ﴿كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ﴾: أمسكوا عن القتال. والفريق: الطائفة من الناس، كأنه فارق غيره، وقوله: ﴿يَخِشَوْنَ النَّاسَ كَخَشِيَةِ اللَّهِ﴾ يعني أنهم كانوا يخافون الله في جهة الموت، لأنهم لا يخشون الموت إلا منه،

فلما كتب عليهم قتال الناس رأوا أنهم يموتون بأيديهم، فخشوهم في جهة الموت كما كانوا يخشون الله. وقال الحسن: قوله: ﴿كَخَشِيَةِ اللَّهِ﴾ يدل على أنها في المؤمنين، وهي خشية خوف لا خشية مخافة، ويحتمل أن يكون المعنى: يخشون الناس على حد خشية المؤمنين الله عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ترجيح لا قطع.

وقوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً﴾ قالت فرقة: ﴿أَوْ﴾ بمعنى الواو، وفرقة: هي بمعنى بل، وفرقة: هي للتخيير، وفرقة: على بابها في الشك في حق المخاطب، وفرقة: هي على جهة الإبهام على المخاطب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد شرحت هذه الأقوال كلها في سورة البقرة في قوله: ﴿أَوْ أَشَدَّ قَسْوَةً﴾ لأن الموضوعين سواء.

وقولهم: ﴿لَوْ كُنَّتَ عَلَيْنَا أُنُوفًا﴾ رد في صدر أوامر الله تعالى، وقلة استسلام، والأجل القريب يعنون به موتهم على فرشهم، هكذا قال المفسرون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحسن إذا كانت الآية في اليهود أو المنافقين، وأما إذا كانت في طائفة من الصحابة فإنما طلبوا التأخر إلى وقت ظهور الإسلام وكثرة عددهم.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله تعالى:

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء: متاع الدنيا، أي: الاستمتاع بالحياة فيها الذي حرصتم عليه، وأشفقتم من

فقدته - قليل، لأنه فإن زائل،
والآخرة التي هي نعيم مؤبد خير
لمن أطاع الله واتقاه في امتثال
لأوامره على المحاب والمكاره.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر،
وعاصم: ﴿تُظَلَّمُونَ﴾ بالتاء على
الخطاب، وقرأ ابن كثير، وحزمة،
والكسائي: ﴿يُظَلَّمُونَ﴾ بالياء على
ترك المخاطبة وذكر الغائب.

والفتيل: الخيط في شق نواة
التمر، وقد تقدم القول فيه.

و ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكَكُمُ الْمَوْتُ﴾
جزاءً وجوابه، وهكذا قراءة
الجمهور، وقرأ طلحة بن سليمان:
﴿يُدْرِكُكُمْ﴾ بضم الكافين ورفع
الفاعل. قال أبو الفتح: ذلك على
تقدير دخول الفاء كأنه قال:
فيدرككم الموت، وهي قراءة
ضعيفة. وهذا إخبارٌ من الله يتضمن
تحقير الدنيا، وأنه لا منجي من الفناء
والثقل.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿فِي
بُيُوتِكُمْ﴾ - فالأكثر والأصح أنه أراد
البروج والحصون التي في الأرض
المنبئية، لأنها غاية البشر في التحصن
والمنعة، فمثل الله لهم بها، قال
قتادة: المعنى: في قصور محصنة،
وقال ابن جريج، والجمهور، وقال
السدي: هي بروج في سماء الدنيا
منبئية، وحكى مكي هذا القول عن
مالك، وأنه قال: ألا ترى إلى قوله:
﴿وَالنَّجْمَ ذَاتَ الْبُرُوجِ﴾، وحكى
النفاش عن ابن عباس إنه قال: ﴿فِي
بُيُوتِكُمْ مُشِيدَةٌ﴾ معناه: في قصور من
حديد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا لا يُعْطِيهِ اللفظ، وإنما البروج في
القرآن إذا وردت مقترنة بذكر السماء
بروج المنازل للقمر وغيره، على ما
سمتها العرب وعرفتها. ويَرَجُ معناه:
ظهر، ومنه البروج، أي: المطولة
الظاهرة، ومنه تبرج المرأة.

و ﴿مُشِيدَةٌ﴾ قال الزجاج وغيره:
معناه: مرفوعة مطولة، لأن «شاد»
الرجل البناء إذا صنعه بالشيد، وهو
الجص، و «أشَادَ» و «شَيْدَ» إذا رفعه
وعلاه، ومنه «أشاد الرجل ذكر
الرجل» إذا رفعه، وقالت طائفة:
﴿مُشِيدَةٌ﴾ معناه: محسنة بالشيد،
وذلك عندهم أن «شاد الرجل»
معناه: جصص بالشيد، وشيد معناه:
كرر ذلك الفعل، فهي للمبالغة، كما
تقول: «كسرت العود مرة»، و
«كسرتُه في مواضع منه كثيرة مراراً»،
و «خرقتُ الثوب وخرقتُه» إذا كان
الخرق منه في مواضع كثيرة، فعلى
هذا يصح أن تقول: «شاد الرجل
الجدار مرة»، و «شيد الرجل
الجدار» إذا أردت المبالغة، لأن
التشييد منه وقع في مواضع كثيرة،
ومن هذا المعنى قول الشاعر:

شاده مزمراً وجلسه كـ
سافلٍ للطير في ذراه وكور
والهَاء والميم في قوله: ﴿وَيُن
تُصِيَّبُهُمْ﴾ رد على الذين قيل لهم:
﴿كُفُوا أَيديكُمْ﴾، وهذا يدل على أنهم
المنافقون، لأن المؤمنين لا تليق بهم
هذه المقالة، ولأن اليهود لم يكونوا
للنبي عليه الصلاة والسلام تحت
أمر، فتصيبهم بسببه أسوأ، ومعنى
الآية: وإن تصب هؤلاء المنافقين

حسنة من هزم عدو، أو غنيمة، أو
غير ذلك رأوا أن ذلك بالاتفاق من
صنع الله، لا أنه ببركة اتباعك
والإيمان بك، وإن تصيبهم سيئة،
أي: هزيمة، أو شدة جوع، وغير
ذلك، قالوا: هذه بسببك لسوء
تدبيرك، كذا قال ابن زيد، وقيل:
لشؤمك علينا، قاله الزجاج وغيره.

وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ رِزْقٌ مِنْ رَبِّكَ وَإِلَيْهِ
رُجْعُكُمْ﴾ من الله تعالى أن الخير والشر
والحسنة والسيئة خلق له ومن عنده،
لا رب غيره، ولا خالق ولا مخترع
سواه، فالمعنى: قل يا محمد
لهؤلاء: ليس الأمر كما زعمتم من
عندي، ولا من عند غيري، بل هو
كله من عند الله، قال قتادة: النعم
والمصائب من عند الله، قال ابن
زيد: النصر والهزيمة، قال ابن
عباس: السيئة والحسنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله شيء واحد.

ثم ويخهم بالاستفهام عن علة
جهلهم، وقلة فهمهم وتحصيلهم لما
يخبرون به من الحقائق، والفقه في
اللغة: الفهم، وأوقفته الشريعة على
الفهم في الدين وأموره، وغلب عليه
بعد الاستعمال في علم المسائل
الإحكامية. والبلاغة في الاستفهام
عن قلة فقههم بينة، لأنك إذا
استفهمت عن علة أمر ما فقد تضمن
كلامك إيجاب ذلك الأمر تضمناً
لطيفاً بليغاً.

ووقف أبو عمرو، والكسائي على
قوله: ﴿فَمَا﴾، ووقف الباقون على
اللام في قوله: ﴿فَمَا﴾ اتباعاً للخط،
ومنعه قوم جملة، لأنه حرف جر فهي

وقالت طائفة: بل القطع في الآية من أولها، والآية مضمنة الإخبار أن الحسنه من الله وبفضله، وتقدير ما بعده: وما أصابك من سيئة فجن نفسك على جهة الإنكار والتقرير، فعلى هذه المقالة ألف الاستفهام محذوفة من الكلام، وحكى هذا القول المهدوي. و ﴿رَسُولًا﴾ نصب على الحال، وهي حال تتضمن معنى التأكيد في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ بِاللَّيْلِ رَسُولًا﴾، ثم تلاه بقوله: ﴿وَكُنَّ بِاللَّهِ شَهِدًا﴾ توعد للكفرة، وتهديد تقتضيه قوة الكلام، لأن المعنى: شهيداً على من كذبه، والمعنى أن الرسول إنما يأمر وينهى بياناً من الله وتبليغاً، فإنما هي أوامر الله ونواهي.

وقالت فرقة: سبب هذه الآية أن رسول الله ﷺ قال: ﴿مَنْ أَحْبَبَنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ﴾ فاعترضت اليهود عليه في هذه المقالة، وقالوا: هذا محمد يأمر بعبادة الله وحده، وهو في هذا القول مدع للربوبية، فنزلت هذه الآية تصديقاً للرسول عليه الصلاة والسلام، وتبييناً لصورة التعلق بينه وبين فضل الله تعالى.

و ﴿تَوَلَّى﴾ معناه: أعرض، وأصل تولى في المعنى أن يتعدى بحرف فنقول: تولى فلان عن الإيمان، وتولى إلى الإيمان، لأن اللفظة تتضمن إقبالاً وإدباراً، لكن الاستعمال غلب عليها في كلام العرب على الإعراض والإدبار، حتى استغنى فيها عن ذكر الحرف الذي يتضمنه.

و ﴿حَفِيفًا﴾ يحتمل معنيين - أي:

الإنسان بإذنايه، وهي من الله بالخلق والاختراع.

وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَلَنْ نَقْسِكَ﴾ وأنا قضيتها عليك، وقرأ بها ابن عباس، وحكى أبو عمرو أنها في مصحف ابن مسعود: ﴿وَأَنَا كَتَبْتُهَا﴾، وروي أن أبياً وابن مسعود قرأ: ﴿وَأَنَا قَدَرْتُهَا عَلَيْكَ﴾.

ويعضد هذا التأويل أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام معناها: إنما يصيب ابن آدم من مصائب فإنما هي عقوبة

ذنوبه، ومن ذلك (أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ جزع، فقال له رسول الله ﷺ: «أَلَسْتَ تَمْرُضُ؟ أَلَسْتَ تَسْقُمُ؟ أَلَسْتَ تَغْتَمُّ؟»، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام: «ما يصيب الرجل خدشة عود، ولا عشرة قدم، ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر». ففي ذلك بيان أن تلك كلها مجازاة على ما يقع من الإنسان.

وقالت طائفة: معنى الآية كمنعني التي قبلها في قوله: ﴿وَلَنْ نُصِيبَهُمْ سَيِّئَةً يَأْتُوا هَآؤِهِ مِنْ عَدَاكَ﴾ على تقدير حذف (يقولون)، فتقديره: «فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً، يقولون: ما أصابك من حسنة، ويجيء القطع على هذا القول من قوله: ﴿وَأَرْسَلْنَاكَ﴾».

مَنْ يَطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ اطَّاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى مَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيفًا ﴿٧٩﴾ وَيَعُولُونَ طَاعَةً فَإِذَا بَرَدُوا مِنْ عِنْدِكَ بَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكُنْ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٨٠﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرْمَانُ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴿٨١﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَفُتِنْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ فَقَدِّلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تَكْفُلْ الْإِنْفُسَ وَحَرَضِ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ اللَّهِ أَنْ يَكْفُتْ بِأَسْ الذِّينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بِأَسَا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٠﴾ مَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْبِلاً ﴿٨١﴾ وَإِذَا حُيِّبْتُمْ بِحَبِيبٍ فَحَبِّبُوا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أَوْ رَدُّوْهَا إِلَى اللَّهِ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٢﴾

بعض المجرور، وهذا كله بحسب ضرورة وانقطاع النفس، وأما أن يختار أحد الوقف فيما ذكرناه ابتداء فلا.

﴿٧٩﴾ - ﴿٨١﴾ تفسير قوله تعالى:

قالت فرقة: ﴿مَا﴾ شرطية، ودخلت ﴿مِنْ﴾ بعدها لأن الشرط ليس بواجب فأشبهه النفي الذي تدخله (من). وقالت فرقة: ﴿مَا﴾ بمعنى (الذي) و ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، لأن المصيب للإنسان أشياء كثيرة، حسنة وسيئة، ورخاء وشدة، وغير ذلك، والخطاب للنبي ﷺ. وغيره داخل في المعنى، وقيل: الخطاب للمرء على الجملة.

ومعنى هذه الآية عند ابن عباس، وقاتدة، والحسن، والربيع، وابن زيد، وأبي صالح، وغيرهم: القطع واستثنا الإخبار من الله تعالى بأن الحسنه منه وبفضله، والسيئة من

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإن عرضت لأحد شبهة، وظن اختلافاً في شيء من كتاب الله، فالواجب أن يتهم نظره، ويسأل من هو أعلم منه.

وذهب الزجاج إلى أن معنى الآية: لوجدوا فيما نخبرك به مما يبيتون اختلافاً، أي: فإذا تخبرهم به على حد ما يقع فذلك دليل أنه من عند الله غيب من الغيوب، هذا معنى قوله، وقد بينه ابن قُورك، والمهدوي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ﴾ الآية، قال جمهور المفسرين: الآية في المنافقين حسماً تقدم من ذكرهم، والآية نازلة في سرايا رسول الله ﷺ وبعوثه، والمعنى: إن المنافقين كانوا يشربون إلى سماع ما يسوء النبي ﷺ في سراياه، فإذا طرأت لهم شبهة آمن للمسلمين أو فتح عليهم حقروها وصغروا شأنها، وأذاعوا بذلك التصغير والتحقير، وإذا طرأت لهم شبهة خوف للمسلمين أو مصيبة عظموا، وأذاعوا ذلك التعظيم، و﴿أَذَاعُوا يَدًا﴾ معناه: أفسوه، وهو فعل يتعدى بحرف جر، وبنفسه أحياناً، تقول: أذعت كذا، وأذعت به، ومنه قول أبي الأسود:

أذاعوا به في الناس حتى كأنه
بِعَلِيَّةٍ نَارٌ أوقدت بشقوب
وقالت فرقة: الآية نازلة في المنافقين، وفي من ضعف جلده عن الإيمان من المؤمنين وقُلت تجربته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيما أن يكون ذلك في أمر السرايا

يكتبه عنده حسب كتب الحفظه حتى يقع الجزاء، وإما يكتبه في كتابه إليك، أي: ينزله في القرآن ويعلم بها، قال هذا القول الزجاج. والأمر بالإعراض إنما هو عن معاقبتهم ومجازاتهم، وأما استمرار دعوتهم وعظمتهم فلازم، قال الضحاك: معنى ﴿أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾: لا تُخبر بأسمائهم، وهذا أيضاً قبل نزول القتال على ما تقدم، ثم أمر الله تعالى بالتوكل عليه والتمسك بعروته الوثقى ثقة بإنجاز وعده في النصر، والوكيل: القائم بالأمر، المصلح لما يُخاف من فسادها، وليس ما غلب عليه الاستعمال في (الوكيل) في عصرنا بأصل في كلام العرب، وهي لفظة رفيعة وضعها الاستعمال العامي كالعريف والقيب وغيره.

٨٢ - ٨٣ تفسير قوله تعالى:

المعنى: هؤلاء المنافقون، الطاعنون عليك، الدافعون بغير برهان في صدر نبوتك ألا يرجعون إلى النصفة. وينظرون موضع الحجة، ويتدبرون كلام الله تعالى فتظهر لهم براهينه، وتلوح أدلته؟

والتدبر: النظر في أعقاب الأمور وتأويلات الأشياء، هذا كله يقتضيه قوله: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾. وهذا أمر بالنظر والاستدلال. ثم عرف تعالى بمواقع الحجة، أي: لو كان من كلام البشر لدخله ما في كلام البشر من القصور، وظهر فيه التناقض والتنافي الذي لا يمكن جمعه، إذ ذلك موجود في كلام البشر، والقرآن منزله عنه، إذ هو كلام المحيط بكل شيء علماً.

ليحفظهم حتى لا يقعوا في الكفر والمعاصي ونحوه، أو: ليحفظ مساويهم وذنوبهم ويحسبها عليهم. وهذه الآية تقتضي الإعراض عن تولي والترك له، وهي قبل نزول القتال، وإنما كانت توطئة ورفقاً من الله تعالى حتى يستحکم أمر الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَوَلَّوْنَ طَاعَةً﴾ الآية، نزلت في المنافقين باتفاق من المفسرين، المعنى: يقولون لك يا محمد: أملك طاعة، فإذا خرجوا من عندك اجتمعوا ليلاً وقالوا غير ما أظهروا لك، و﴿يَتَوَلَّوْنَ﴾ معناه: فعل ليلاً، فإما أخذ من (بات)، وإما من (البيت) لأن ملتزم بالليل، وفيه الأسرار التي يُخاف شياعها، ومن ذلك قول الشاعر:

أتؤني فلنم أراض ما بيئوا
وكانوا أتؤني بأمرئ نكر
ومنه قول الثمر بن تولب:

هَبَّتْ لَتغذلني بليل استمعي
سَفَهَا تَبَيَّنْتُكَ الملامة فاهجعي
المعنى: وتقول لي: استمع، وزيدت الباء إشباعاً لتصريح القافية، كقول امرئ القيس:

ألا أيها اللئيل الطويلُ ألا انجلي

وقوله: بأمثل. وقرأ جمهور القراء: ﴿بَيَّتَ﴾ بتحريك التاء، وقرأ أبو عمرو، وحمزة بإدغامها في الطاء، وقرأ ابن مسعود: ﴿بَيَّتَ مَبِيَّتَ﴾ منهم يا محمد. و﴿تَقُولُ﴾ يحتمل أن يكون معناه: تقول أنت يا محمد، ويحتمل تقول هي لك. و﴿يَكْتَسِبُ﴾ معناه على وجهين: إما

فإنهم كانوا يسمعون أقوال المنافقين فيقولونها مع من قالها، ويذعنونها مع من أذاعها، وهم غير متثبتين من صحتها، وهذا هو الدال على قلة تجربتهم، وإما أن يكون ذلك في سائر الأمور الواقعة، كالذي قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنه جاء وقوم في المسجد يقولون: طلق رسول الله ﷺ نساء، قال: فدخلت على عائشة، فقلت: يا ابنة أبي بكر بلغ من أمرك أن تؤذي رسول الله ﷺ فقالت: يا ابن الخطاب، عليك بعيبتك، قال: فدخلت على حفصة، فقلت: يا حفصة، قد علمت أن رسول الله ﷺ لم يكن يحبك، ولولا أنا لطلقك، فجعلت تبكي، قال: فخرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ وهو في غرفة له، ورياح مولاه جالس على أسكفة الغرفة، فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله، فنظر إلى الغرفة، ثم نظر إلي وسكت، فقلت: يا رباح، استأذن لي على رسول الله، فلعله يظن أنني جئت من أجل حفصة، والله لو أمرني أن أضرب عنقها لضربته، فنظر ثم أشار إلي بيده أن ادخل، فدخلت وإذا رسول الله ﷺ مضطجع على حصير، وقد أثر في جنبه، وإذا ليس في غرفته إلا قبضة من شعير، وقبضة من قَرَط، وإذا أفيقان معلقان، فبكيت، فقال رسول الله ﷺ: «ما يبكيك يا ابن الخطاب؟» فقلت: يا رسول الله، أنت صفوة الله من خلقه ورسوله، وليس لك من الدنيا إلا هذا،

وكسرى وقيصر في الأشجار والأنهار، فقال: «ها هنا أنت يا عمر؟ أما ترضي أن تكون لهم الدنيا ولنا الآخرة؟» فقلت: بلى، ثم جعلت أحدثه حتى تهلّل وابتسم، فقلت: يا رسول الله، إنهم ادعوا أنك طلقت نساءك، فقال: «لا»، فقلت: أتأذن لي أن أعرف الناس؟ فقال: «افعل إن شئت». قال: فقلت على باب المسجد فقلت: ألا إن رسول الله ﷺ لم يطلق نساء، فأنزل الله في هذه القصة: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَدْعَاؤُهُمْ﴾. الآية، وأنا الذي استنبطه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ﴾ الآية. المعنى: لو أمسكوا عن الخوض، واستقصوا الأمور من قبل الرسول، أو أولي الأمر - وهم الأمراء - قاله السدي، وابن زيد، وقيل: أهل العلم، قاله الحسن، وقاتدة، وغيرهما، والمعنى يقتضيهما معاً. ﴿لَعَلِمَةٌ﴾ طلابه من أولي الأمر، والبحث عنه وهم مستنبطوه كما يستنبط الماء وهو: النبط، أي: الماء المستخرج من الأرض، ومنه قول الشاعر:

قريب نراه ما ينال عدوّه
له نبطاً أبى الهوان قطوب
وهذا التأويل جارٍ مع قول عمر رضي الله عنه: أنا استنبطته ببحني وسؤالي. وتحتل الآية أن يكون المعنى: لعلمه المسؤولون المستنبطون فأخبروا بعلمهم، وقرأ أبو السمال: ﴿لَعَلِمَةٌ﴾ بسكون اللام، وذلك مثل: ﴿شَجَرَ يَبْنَهُمْ﴾

والضمير: في ﴿رَدُّوهُ﴾ على الأمر، وفي: ﴿يَبْنَهُمْ﴾ يحتمل أن يعود على الرسول وأولي الأمر، ويحتمل أن يعود على الجماعة كلها، أي: لعلمه البحة من الناس.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ الآية، هذا الخطاب لجميع المؤمنين باتفاق من المتأولين، والمعنى: ولولا هداية الله وإرشاده لكم بالإيمان - وذلك فضل منه ورحمة - لكنتم على كفركم، وذلك هو اتباع الشيطان. وحكى الزجاج: لولا فضل الله في هذا القرآن ورسالة محمد عليه الصلاة والسلام.

واختلف المتأولون في الاستثناء بقول: ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ - م هو؟ فقال ابن عباس، وابن زيد: ذلك مستثنى من قوله: ﴿أَدْعَاؤُهُمْ﴾ - ﴿إِلَّا قَلِيلاً﴾ ورجحه الطبري، وقال قاتدة: ذلك مستثنى من قوله: ﴿يَسْتَنْبِطُونَهُ﴾ إلا قليلاً، وقالت فرقة: ذلك مستثنى من قوله: ﴿لَا تَبْعُتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلاً﴾، على سرد الكلام دون تقرير تقديم، ثم اختلفت هذه الفرقة - فقال الضحاك: إن الله هدى الكل منهم إلى الإيمان، فكان منهم من تمكّن فيه حتى لم يخطر له قط خاطر شك، ولا عنت له شبهة ارتياب، فذلك هو القليل، وسائر من أسلم من العرب لم يخل من الخواطر، فلولا فضل الله بتجديد الهداية لهم لضلوا وأتبعوا الشيطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا معنى قول الضحاك، ويجيء الفضل معيناً، أي: رسالة محمد

عليه الصلاة والسلام والقرآن، لأن الكل إنما هدي بفضل الله على الإطلاق، وقال قوم: المخاطب بقوله: ﴿اتَّبِعْتُمْ﴾ جميع المؤمنين، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ إشارة إلى من كان قبل الإسلام غير متبع الشيطان على ملة إبراهيم، كورقة بن نوفل، وزيد بن عمرو بن نفيل، وغيرهما. وقال قوم: الاستثناء إنما هو من الاتباع، أي: لا تتبعتم الشيطان كلكم إلا قليلاً من الأمور كنتم لا تتبعونه فيها، وقال قوم: قوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ عبارة عن العدم، يريدون: لا تتبعتم الشيطان كلكم، وهذا الأخير قول قلق، وليس يشبهه ما حكى سيويه من قولهم: «أرض قلما تبت كذا» بمعنى: لا تثبت، لأن اقتران القلة بالاستثناء يقتضي حصولها، ولكن قد ذكره الطبري.

٨٤ - تفسير قوله تعالى:

هذا أمر في ظاهر اللفظ للنبي عليه الصلاة والسلام وحده، لكن لم نجد قط في خبر أن القتال فرض على النبي ﷺ دون الأمة مدة ما، فالمعنى - والله أعلم - أنه خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام في اللفظ، وهو مثال ما يقال لكل واحد في خاصة نفسه، أي: أنت يا محمد وكل واحد من أمتك القول له: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾، ولهذا ينبغي لكل مؤمن أن يستشعر أن يجاهد ولو وحده، ومن ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «والله لأقاتلنهم حتى تنفرد سالفتي»، وقول أبي بكر رضي الله عنه وقت الرعدة: «ولو خالفني يميني لجاهدتها بشمالي».

وخلط قوم في تعلق الفاء في قوله: ﴿فَقَاتِلْ﴾ بما فيه بُعد، والوجه أنها عاطفة جملة كلام على جملة، وهي دالة على اطراح غير ما أمر به، ثم خص النبي عليه الصلاة والسلام بالأمر بالتحريض، أي: حث المؤمنين على القيام بالفرض الواجب عليهم.

و ﴿عَسَى﴾ إذا وردت من الله تعالى - فقال عكرمة وغيره: إنها واجبة، لأنها من البشر متوقعة مرجوة، ففضل الله تعالى يوجب وجوبها، وفي هذا وعد للمؤمنين بغلبتهم للكفرة، ثم قوى - بعد ذلك - قلوبهم بأن عرفهم شدة بأس الله، وأنه أقدر على الكفرة، وأشد تنكيلاً لهم، والتنكيل: الأخذ بأنواع العذاب وترديده عليهم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَشْفَعْ شَفَعَةً حَسَنَةً﴾ الآية. أصل الشفاعة والشفاعة ونحوها من: الشفع، وهو الزوج في العدد، لأن الشافع ثاب لوثر المذنب، والشفيع ثاب لوثر المشتري.

واختلف في الآية المتأولون - فقال الطبري: المعنى: من يشفع وتر الإسلام بالمعونة للمسلمين، أو من يشفع وتر الكفر بالمعونة على الإسلام، ودل على هذا التأويل ما تقدم من أمر القتال، وقال مجاهد، والحسن، وابن زيد، وغيرهم: هي في شفاعات الناس بينهم في حوائجهم، فمن يشفع لينفع فله نصيب، ومن يشفع ليلضر فله كفل، وقال الحسن وغيره: الشفاعة: الحسننة هي في البر والطاعة، والسيئة هي في المعاصي. وهذا كله

قريب بعضه من بعض.

والكفل: النصيب، ويستعمل في النصيب من الخير ومن الشر، وفي كتاب الله تعالى: ﴿يُؤَيِّدُكُمْ كَهَاتَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾.

و ﴿مُحِقِينَ﴾ معناه: قديراً، ومنه قول الشاعر وهو الزبير بن عبدالمطلب:

وذي ضيغٍ كففت النفس عنه

وكنت على مساءته مُحِقِيْنَا

أي: قديراً، وعبر عنه ابن عباس

ومجاهد: بحفيظ وشهيد.

وعبدالله بن كثير: بأنه الواصب القيم

بالأمور، وهذا كله يتقارب، ومنه قول

رسول الله ﷺ: «كفى بالمرء إثماً أن

يضيع من يقيت»، على من رواها

هكذا، أي: من هو تحت قدرته وفي

قبضته من عيال وغيره، وذهب

مقاتل بن حيان إلى أنه الذي يقوت كل

حيوان، وهذا على أن يقال: أقات

بمعنى قات، وعلى هذا يجيء قوله

عليه الصلاة والسلام: «من يقيت»

من: أقات، وقد حكى الكسائي:

أقات يقيت، فأما قول الشاعر:

لَيْتَ شِعْرِي وَأَشْعُرُنْ إِذَا مَا

قَرَّبُوها مَطْوِيَّةً ودَعِيَّتْ

أَلَيْسَ الْفَضْلُ أَمَّ عَلَيَّ إِذَا حُرُو

سَبْتُ؟ إِنِّي عَلَى الْحَسَابِ مُقِيَّتْ

فقال فيه الطبري: إنه من غير هذا

المعنى المتقدم، وأنه بمعنى:

موقوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا يضعفه أن يكون بناء فاعل

بمعنى بناء مفعول. وقوله

تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّبْتُمْ﴾ الآية، التحية

وزنها تفعللة من: حيي، وهذا هو

الأغلب من مصدر فعل المعتل،

هذه الصفة إذ معنى الآية في أن يزيد الإنسان أو ينقص أو يوفي قدر ما يحيى به .

(٨٧) - (٨٨) تفسير قوله تعالى :

لما تقدم الإنذار والتحذير الذي تضمنه قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا﴾ تلاه مقرباً له الإعلام بصفة الربوبية وحال الرحمانية، والإعلام بالحشر والبعث من القبور للشواب والعقاب، إعلاماً بقسَم، والمُقَسَّم به تقديره: وهو، أو: وحقه، أو: وعظمته ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ .

والجمع هنا: الحشر، فلذلك حسنت بعده ﴿إِلَىٰ﴾، أي: إليه السوق والحشر، و ﴿الْقَيْمَةَ﴾ أصلها: القيام، ولما كان قيام الحشر من أذل الحال وأضعفها إلى أشد الأهرال وأعظمها لحقته هاء المبالغة .

و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ تبرية هي وما بعدها بمثابة الابتداء تطلب الخبر، ومعناه: لا ريب فيه في نفسه وحقيقة أمره، وإن ارتاب فيه الكفرة فغير ضائر .

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ ظاهره الاستفهام، ومعناه: تقرير الخبر، تقديره: لا أحد أصدق من الله تعالى، لأن دخول الكذب في حديث البشر إنما علته الخوف والرجاء، أو سوء السجية، وهذه منفية في حق الله تعالى وتقدست أسماؤه، والصدق في حقيقته أن يكون ما يجري على لسان المُخْبِر موافقاً لما في قلبه وللأمر المُخْبِر عنه في وجوده، و ﴿حَدِيثًا﴾ نصب على التمييز .

نقص المُسَلَّم من النهاية فحُيُوا بأحسن، وإن انتهى فردوا، وقالت فرقة: إنما معنى الآية تخيير الراد، فإذا قال البادى: السلام عليك، فللراد أن يقول: وعليك السلام، فقط، وهذا هو الرد، وله أن يقول: وعليك السلام ورحمة الله، وهذا هو التحية بأحسن منها، وقال ابن عباس وغيره: المراد بالآية: إذا حُيَيْتُمْ بتحية فإن كانت من مؤمن فحوا بأحسن منها، وإن كانت من كافر فردوا على ما قال رسول الله ﷺ أن يقال

لهم: «وعليكم»، وروي عن ابن عمر، وابن عباس، وغيرهما: انتهى السلام إلى البركة، وجمهور أهل العلم على ألا يُبْنَدُ أهل الكتاب بسلام، فإن سلم أحد ساهياً أو جاهلاً فينبغي أن يستقبله سلامه، وشذ قوم في إباحة ابتدائهم، والأول أصوب، لأن به يتصور إذلالهم، وقال ابن عباس: كل من سلم عليك من خلق الله فرد عليه وإن كان مجوسياً، وقال عطاء: الآية في المؤمنين خاصة، ومن سلم من غيرهم قيل له: عليك، كما في الحديث. وأكثر أهل العلم على أن الابتداء بالسلام سنة مؤكدة، ورده فريضة، لأنه حق من الحقوق، قاله الحسن بن أبي الحسن، وغيره .

و ﴿حَسِيبًا﴾ معناه: حفيظاً، وهو فعيل من الحساب، وحسنت ها هنا

اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَآ هُوَ لِيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴿٨٨﴾ ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِتْنَةٍ وَاللَّهُ أَرَكُمُ بِمَا كَسَبُوا أَلْتَرِيدُونَ أَنْ نَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلَّ اللَّهُ فَمَا لَهُ سَبِيلًا ﴿٨٧﴾ وَذَلُوا تُكْفِرُونَ مَا كَفَرُوا أَفَتَكُونُونَ سَوَاءً فَلَا تَشْجِدُوا لَهُمْ مِنْهُم مَّا يُدْعَوْنَ حَتَّىٰ يَخْرُجُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَخُذُوهُمْ وَأَقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَنْجِدُوا مِنْهُمْ وَلَا نَجِدُ إِلَّا الَّذِينَ يُصَلُّونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَدَلْتُمْ بِهِمْ يُشْفِقُونَ كَلِمَةً كَلِمَةً حَتَّىٰ تَصُدُّهُمْ عَنْهُمُ أَنْ يَقْتُلُوهُمْ أَوْ يَقْبَلُوهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَطْنَاهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَبَلْتُمُوهُمْ فَإِنْ بَدَلْتُمْ عَنْهُمْ فَلَقَبَلْتُمُوهُمْ وَأَقْبَلْتُمْ إِلَيْكُمْ السَّلَامَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَأْمَنُوا بكم وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلًّا مَادَّةً وَإِلَىٰ الْفِتْنَةِ أُرْكَسُوا فِيهَا فَإِنْ لَمْ يَعْرِفُواكُمْ وَيَقُولُوا كَلِمَةَ السَّلَامِ وَيَكْفُوا أَيْدِيَهُمْ فخذوهم وأقتلوهم حيث نقيتوهم وأوليكم جملنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً ﴿٨٩﴾

وروي عن مالك أن هذه الآية في تسميت العاطس، وفيه ضعف، لأنه ليس في الكلام على ذلك دلالة، أما الرُّدُّ على المشمت فمما يدخل بالقياس في معنى رد التحية وهذا هو منحنى مالك رحمه الله إن صحَّ ذلك عنه، والله أعلم .

واختلف المتأولون - فقالت فرقة: التحية أن يقول الرجل: سلام عليك، فيجب على الآخر أن يقول عليك السلام ورحمة الله، فإن قال البادى: السلام عليك ورحمة الله، قال الراد: عليك السلام ورحمة الله وبركاته، فإن قال البادى: السلام عليك ورحمة الله وبركاته فقد انتهى، ولم يبق للراد أن يحيى بأحسن منها، فها هنا يقع الرد المذكور في الآية، فالمعنى عند أهل هذه القالة: إذا حُيَيْتُمْ بتحية فإن

وقوله: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي اللَّتَائِفِينَ﴾ الآية، الخطاب للمؤمنين، وهذا ظاهره استفهام، والمقصد منه التوبيخ، واختلف المتأولون في: من المراد بالمنافقين؟ - فقال ابن عباس: هم قوم كانوا بمكة فكتبوا إلى أصحاب النبي ﷺ بالمدينة أنهم قد آمنوا وتركوا الهجرة، وأقاموا بين أظهر الكفار، ثم سافر قوم منهم إلى الشام فأعطتهم قريش بضاعات، وقالوا لهم: إنكم لا تخافون أصحاب محمد، لأنكم تخدعونهم بإظهار الإيمان لهم، فاتصل خبرهم بالمدينة، فاختلف المؤمنون فيهم، فقالت طائفة: نخرج إلى أعداء الله المنافقين، وقالت طائفة: بل هم مؤمنون لا سبيل لنا إليهم فنزلت الآية، وقال مجاهد: بل نزلت في قوم جاءوا إلى المدينة من مكة، فأظهروا الإسلام، ثم قالوا: لنا بضاعات بمكة فانصرفوا إليها، وأبطنوا الكفر، فاختلف فيهم أصحاب النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان يعضدهما ما في آخر الآية في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا﴾.

وقال زيد بن ثابت: نزلت في المنافقين الذين رجعوا عن رسول الله ﷺ يوم أحد، عبدالله بن أبي وأصحابه، لأن أصحاب النبي ﷺ اختلفوا فيهم.

وقال السدي: بل نزلت في قوم منافقين كانوا بالمدينة فطلبوا الخروج عنها نفاقاً وكفراً، وقالوا: اجتوبناها، وقال ابن زيد: إنما نزلت في

المنافقين الذين تكلموا في حديث الإفك، لأن الصحابة اختلفوا فيهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الاختلاف في هذه النازلة كان بين أسيد بن حضير، وسعد بن عباد حسبما وقع في البخاري، وكان لكل واحد أتباع من المؤمنين على قوله، وكل من قال في هذه الآية إنها في من كان بالمدينة يرُدُّ عليه قوله: ﴿حَتَّىٰ يَهَاجِرُوا﴾ لكنهم يخرجون المهاجرة إلى هجر ما نهى الله عنه، وترك الخلاف والنفاق، كما قال عليه الصلاة والسلام: «والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه».

و ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: فرقتين، ونصبهما على الحال، كما تقول: مالك قائماً، هذا مذهب البصريين، وقال الكوفيون: نصبه ما يتضمنه ﴿مَا لَكُمْ﴾ من الفعل، والتقدير: ما لكم كنتم فنتين، أو صرتم، وهذا الفعل المقدر ينصب عندهم النكرة والمعرفة، كما تقول: مالك الشاتم لزيد، وخطأ هذا القول الزجاج، لأن المعرفة لا تكون حالاً.

و ﴿أَرْكَسَهُمْ﴾ معناه: رجعهم في كفرهم وضلالهم، والركس: الرجيع، ومنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام في الاستنجاء: «فأخذ الحجرين، وألقى الروثة» وقال: إنها ركس، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

فأركسوا في حميم الثار إنهم
كانوا عَصاةً وقالوا الإفك والزورا
وحكى النضر بن شميل،
والكسائي، ركس وأركس بمعنى واحد، أي: رجعهم، ومن قال من

المتأولين: أهلكم، أو أضلهم فإنما هي بالمعنى، لأن ذلك كله يتضمنه رُدُّهم إلى الكفر.

و ﴿يَمَّا كَسَبُوا﴾ معناه: بما اجترحوا من الكفر والنفاق، أي أن كفرهم بخلق من الله واختراع، ويتكسب منهم، وقوله: ﴿أَتْرِيدُونَ﴾ استفهام معناه الإبعاد واليأس مما أرادوه، والمعنى: أتريدون أيها المؤمنون القائلون بأن أولئك المنافقين مؤمنون أن تسموا بالهدى من قد يسره الله للضلالة وحثمها عليه. ثم أخبر تعالى أنه ﴿مَنْ يُضِلِّي﴾ فلا سبيل إلى إصلاحه ولا إلى إرشاده.

﴿٨٩﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير في ﴿وَرُودًا﴾ عائد على المنافقين، وهذا كشف من الله ليخبر معتقدهم، وتحذير للمؤمنين منهم، والمعنى: تمنوا كفركم، وهي غاية المصائب بكم، وهذا الود منهم يحتمل أن يكون عن حسد منهم لهم على ما يرون للمؤمنين من ظهور في الدنيا فتجري الآية: مع ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم، ويحتمل أمر المنافقين أن يكون أنهم رأوا المؤمنين على غير شيء فودوا رجوعهم إلى عبادة الأصنام، والأول أظهر.

وقوله: ﴿فَلَا تَتَّخِذُوا﴾ الآية، هذا نهي عن موالاتهم حتى يهاجروا، لأن الهجرة في سبيل الله تتضمن الإيمان، و ﴿فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ معناه: في طريق مرضاة الله، لأن سبيل الله كثيرة، وهي طاعته كلها، المعنى:

فإن أعرضوا عن الهجرة وتولوا عن الإيمان فخذوهم، وهذا أمرٌ بالحمل عليهم، ومجاهرتهم بالقتال.

﴿٩٠﴾ تفسير قوله تعالى:

كان هذا الحكم في أول الإسلام قبل أن يستحكم أمر الطاعة من الناس، فكان رسول الله ﷺ قد هادن من العرب قبائل، كرهط هلال بن عويسم الأسلمي، وسراقة بن مالك بن جعشم، وخزيمة بن عامر بن عبد مناف، فقضت هذه الآية بأنه من وصل من المشركين الذين لا عهد بينهم وبين النبي ﷺ إلى هؤلاء أهل العهد، فدخل في عدادهم وفعل من المواعدة، فلا سبيل عليه. قال عكرمة، والسدي، وابن زيد: ثم لما تقوى الإسلام وكثر ناصره نسخت هذه والتي بعدها بما في سورة براءة، وقال أبو عبيدة، وغيره: ﴿يَبْسُطُونَ﴾ - في هذا الموضع - معناه: يتسبون، ومنه قول الأعشى: إذا أتصّلت قالت لبكر بن وائل وبكر سبّتها والأنوف رواغم يريد: إذا انتسبت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير صحيح، قال الطبري: قال رسول الله ﷺ قريشاً وهم قرابة السابقين إلى الإسلام يقضي بأن قرابة من له ميثاق أجدر بأن تقاتل، فإن قيل: إن النبي عليه الصلاة والسلام لم يُقاتل قريشاً إلا بعد نسخ هذه الآية، قيل: التواريخ تقضي بخلاف ذلك، لأن الناسخ لهذه الآية هي سورة براءة، ونزلت بعد فتح مكة، وإسلام جميع قريش.

وقوله تعالى: ﴿أَزَّجَاكُمْ﴾ عطف على: ﴿يَبْسُطُونَ﴾، ويحتمل أن يكون على قوله: ﴿يَبْسُطُونَ﴾، ﴿يَبْسُطُونَ﴾، والمعنى في العطفين مختلف، وهذا أيضاً حكم كان قبل أن يستحكم أمر الإسلام، فكان المشرك إذا اعتزل القتال، وجاء إلى دار الإسلام مسالماً كارماً لقتال قومه مع المسلمين، ولقتال المسلمين مع قومه - لا سبيل عليه، وهذه نُسخت أيضاً بما في براءة.

و ﴿حَصِرَتْ﴾: ضاقت وحرجت، ومنه الحصر في القول، وهو: ضيق الكلام على المتكلم.

وقرأ الحسن، وقتادة: ﴿حَصِيرَةٌ﴾، كذا قال الطبري، وحكى ذلك المهدي عن عاصم من رواية حفص، وحكى عن الحسن أنه قرأ: ﴿حَصِيرَاتٌ﴾، وفي مصحف أبي سقط: ﴿أَزَّجَاكُمْ﴾ و ﴿حَصِرَتْ﴾ عند جمهور النحويين في موضع نصب على الحال بتقدير: قد حَصِرَتْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يصح الفعل الماضي إذا كان في موضع الحال، والداعي إليه أن يفرق بين تقدير الحال وبين خبر مُستأنف، كقولك: «جاء زيد ركب الفرس»، فإن أردت بقولك: «ركب الفرس»، خبراً آخر عن زيد لم تحتج إلى تقدير (قد)، وإن أردت به الحال من زيد قدرته ب (قد)، قال الزجاج: ﴿حَصِرَتْ﴾: خبر بعد خبر، وقال المبرد: ﴿حَصِرَتْ﴾: دعاء عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال بعض المفسرين: لا يصح هنا

الدعاء، لأنه يقتضي الدعاء عليهم بالأبالي يقاتلوا قومهم، وذلك فاسد.

قال المؤلف:

وقول المبرد يخرج على أن الدعاء عليهم بالأبالي يقاتلوا المسلمين تعجيز لهم، والدعاء عليهم بالأبالي يقاتلوا قومهم تحقير لهم، أي: هم أقل وأحق، ويستغنى عنهم، كما تقول إذا أردت هذا المعنى: لا جعل الله فلاناً علي ولا معي أيضاً، بمعنى: أستغني عنه وأستقل دونه.

واللام في قوله: ﴿سَلَّمْتُمْ﴾ جواب ﴿أَزَّ﴾، وفي قوله: ﴿فَلَقَّتُلُوكُمْ﴾ لام المحاذاة والازدواج، لأنها بمثابة الأولى، لو لم تكن الأولى كنت تقول: لو شاء الله لقاتلوكم، والمعنى تقرير المؤمنين على مقدار النعمة وصرافها، أي: لو شاء الله لقوهم وجراهم عليكم، فإذا قد أنعم عليكم بالهدنة فاقبلوها وأطيعوا فيها. وقرأت طائفة: ﴿فَلَقَّتُلُوكُمْ﴾، وقرأ الجحدري، والحسن: ﴿فَلَقَّتُلُوكُمْ﴾ بتشديد التاء، والمعنى: ﴿فَلَمَّ﴾ أَعَزَّوَكُمْ أي: هادنوكم وتازكوكم في القتل. و ﴿الْبَيْتِ﴾ هنا: الصلح، قاله الربيع، ومنه قول الطرماح بن حكيم:

وذاك أن تميماً غادرت سلماً
للأسد كل حصان زعنة الكبد
قال الربيع: السلم ها هنا: الصلح، وكذا قرأته عامة القراء، وقرأ الجحدري: ﴿السلم﴾ بسكون اللام، وقرأ الحسن: ﴿السلم﴾ بكسر السين وسكون اللام، فمعنى جملة هذه الآية: خذوا المنافقين الكافرين واقتلوهم حيث وجدتموهم، إلا من

دخل منهم في عداد من بينكم وبينه ميثاق، والتزم مهادنتكم، أو من جاءكم وقد كره قتالكم وقتال قومه، وهذا بفضل الله عليكم ودفاعه عنكم، لأنه لو شاء لسلط هؤلاء الذين هم بهذه الصفة من المتاركة عليكم فلقاتلوكم، فإن اعتزلوكم، أي: إذا وقع هذا فلم يُقاتلوكم فلا سبيل لكم عليهم.

وهذا الذي في سورة «الممتحنة» من قوله تعالى: ﴿لَا يَهْتَكِرُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَكَمْ يَجْرِمُونَ بَيْنَ يَدَيْكُمْ أَنْ تَرَوْهُمُ وَيَقْتُلُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾، منسوخ بما في سورة «براءة»، قاله قتادة، وابن زيد، وغيرهما.

﴿١١﴾ تفسير قوله تعالى:

لما وصف الله تعالى فيما تقدم صفة المحقين في المتاركة، المُجِدِّين في إلقاء السُّلْم - نُبّه على طائفة مخادعة مبطلّة مبطنّة كانوا يريدون الإقامة في مواضعهم مع أهلهم، يقولون لهم: نحن معكم وعلى دينكم، ويقولون أيضاً للمسلمين إذا وفدوا وأرسلوا: نحن معكم وعلى دينكم خبيثة منهم وخديعة. قيل: كانت أسد وغطفان بهذه الصفة، وقيل: نزلت في نعيم بن مسعود الأشجعي، كان ينقل بين النبي ﷺ والكفار الأخبار، وقيل: نزلت في قوم يجيئون من مكة إلى النبي عليه الصلاة والسلام رياء، يظهرون الإسلام، ثم يرجعون إلى قريش فيكفرون، ففضح الله تعالى هؤلاء، وأعلم أنهم على غير صفة من تقدم.

وقوله: ﴿إِلَى الْوَيْتَةِ﴾ معناه: إلى الاختبار، حكى أنهم كانوا يرجعون إلى قومهم فيقال لأحدهم: ربي الخنفساء، وربى العود، وربى المعقرب، ونحوه، فيقولها، ومعنى ﴿ارْكَبُوا﴾ رجعوا رجع ضلالة، أي: أهلكوا في الاختبار بما واقعوه من الكفر. وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿رُكِبُوا﴾ بضم الراء من غير ألف، وحكاه عنه أبو الفتح بشد الكاف على التضعيف، والخلاف في

﴿الْوَيْتَةِ﴾ حسبما تقدم.

وهذه الآية حُضَّ على قتل هؤلاء المخادعين إذا لم يرجعوا عن حالهم إلى حال الآخرين المعتزلين الملقين للسلم.

قال القاضي أبو محمد عبدالحق رحمه الله: وتأمل فصاحة الكلام في أن سياقه في الصيغة المتقدمة قبل هذه سياق إيجاب الاعتزال، وإيجاب إلقاء السُّلْم، ونفي المقاتلة إذا كانوا مُحِقِّين في ذلك معتقدين له، وسياقه في هذه الصيغة المتأخرة سياق نفي الاعتزال، ونفي إلقاء السلم إذا كانوا مبطلين فيه مخادعين، والحكم سواء على السياقين، لأن الذين لم يجعل الله عليهم سبيلاً لو لم يعتزلوا لكان حكمهم حكم هؤلاء الذين جعل عليهم سلطان مبين، وكذلك هؤلاء الذين عليهم السلطان إذ لم يعتزلوا، لو اعتزلوا لكان حكمهم

﴿١١﴾ وَمَا كَانُوا لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَاً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَاً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَدَّقَ فَأَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوِّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَىٰ أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامٌ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءُ لَهُ جَهَنَّمُ جُزَاءً ذَوِيهَا وَعَضْبُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعْنَةُ وَعَدْلُ لَعْنَةِ أَبِي عَظِيمًا ﴿١٣﴾ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَبُّوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ آتَىٰ إِلَيْكُمُ الْيَقِينُ إِلَيْكُمُ السَّلَامُ لَسْتُمْ مُؤْمِنًا تَبَعُورُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَائِدُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَيَبُّوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٤﴾

٩٣

حكم الذين لا سبيل عليهم، ولكنهم بهذه العبارة تحت القتل إن لم يعتزلوا.

و ﴿تَفْتَنُونَهُمْ﴾ مأخوذ من الشفاف، أي: ظفرتهم بهم مغلوبين متمكناً منهم، والسلطان: الحجة. قال عكرمة: حيثما وقع السلطان في كتاب الله تعالى فهو الحجة.

﴿١٢﴾ تفسير قوله تعالى:

قال جمهور المفسرين: معنى الآية: وما كان في إذن الله، وفي أمره للمؤمن أن يقتل مؤمناً بوجه، ثم استثنى استثناء منقطعاً ليس من الأول، وهو الذي تكون فيه (إلا) بمعنى (لكن)، والتقدير: لكن الخطأ قد يقع، وهذا كقول الشاعر:

أَمْسَى سَقَامٌ خَلَاةٌ لَا أَيْبَسَ بِهِ إِلَّا السَّبَاعُ وَمَرَّ الرِّيحُ بِالْعَرَفِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

سُقَام: اسم واد، والعَرَف: شجر يدبغ بلحائه. وكما قال جرير: من البيض لم تظعن بعيداً ولم تطأ على الأرض إلا ذئيل مِرْط مَرَحْل وفي هذا الشاهد نظر.

ويتجه في معنى الآية وجه آخر، وهو أن تقدر ﴿كَأَنَّ﴾ بمعنى: استقر ووجد، كأنه قال: وما وجد ولا تقرر ولا ساغ لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ، إذ هو مغلوب فيه أحياناً، فيجزي الاستثناء - على هذا - غير منقطع، وتتضمن الآية - على هذا - إعظام العمد وبشاعة شأنه، كما تقول: ما كان لك يا فلان أن تتكلم بهذا إلا ناسياً، إعظاماً للعمد والقصد مع حظر الكلام به ألبتة.

وقرأ الزهري ﴿خطأ﴾ مقصوراً غير مهموز، وقرأ الحسن والأعمش مهموزاً ممدوداً.

وقال مجاهد، وعكرمة: نزلت هذه الآية في عياش بن أبي ربيعة المخزومي حين قتل الحارث بن يزيد بن نبيشة، وذلك أنه كان يعذبه بحمكة، ثم أسلم الحارث وجاء مهاجراً، فلقيه عياش بالحرّة، فظنه على كفره فقتله، ثم جاء فأخبر النبي عليه الصلاة والسلام فشق ذلك عليه، ونزلت الآية، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿قم فحرره﴾.

وقال أبو زيد: نزلت في رجل قتله أبو الدرداء، كان يرعى غنماً وهو يتشهد، فقتله وساق غنمه إلى رسول الله ﷺ، ونزلت الآية.

وقيل: نزلت في أبي حذيفة اليماني حين قتل خطأ يوم أحد، وقيل غير هذا، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا﴾ الآية. بين الله تعالى في هذه الآية حكم المؤمن إذا قتل المؤمن خطأً، وحقيقة الخطأ ألا يقصده بالقتل، ووجوه الخطأ كثيرة لا تحصى، يربطها عدم القصد، قال ابن عباس، والحسن، والشعبي، والنخعي، وقتادة، وغيرهم: الرقبة المؤمنة هي الكبيرة التي قد صلّت وعقلت الإيمان، ولا يجزىء في ذلك الصغير، وقال عطاء بن أبي رباح: يجزىء الصغير المولود بين مسلمين، وقال جماعة منهم مالك بن أنس: يجزىء كل من يحكم له بحكم الإسلام في الصلاة عليه إن مات ودفن، قال مالك: ومن صلى وصام أحب إلي، وأجمع أهل العلم على أن الناقص النقصان الكثير كقطع اليدين، أو الرجلين، أو الأعمى لا يجزىء فيما حفظت، فإن كان النقصان يسيراً تتفق له معة المعيشة والتحرف كالمرج ونحوه ففيه قولان.

و ﴿مُسَلَّمَةً﴾ معناه: مؤداة مدفوعة، وهي على العاقلة فيما جاز ثلث الدية، و ﴿إِلَّا أَنْ يَصَدَّقُوا﴾ يريد أولياء القتيل. وقرأ أبي بن كعب: ﴿يَتَصَدَّقُوا﴾، وقرأ الحسن، وأبو عبدالرحمن، وعبدالوارث عن أبي عمرو: ﴿تَصَدَّقُوا﴾ بالتاء على المخاطبة للحاضر، وقرأ تبيح العنزي ﴿تَصَدَّقُوا﴾ بالتاء وتخفيف الصاد.

والدية: مائة من الإبل على أهل الإبل عند قوم، وعند آخرين: على الناس كلهم، إلا ألا يجد الإبل أهل الذهب والفضة، فحينئذ ينتقلون إلى

الذهب والفضة، يعطون منها قيمة الإبل في وقت النازلة بالغة ما بلغت، واختلف في المائة من الإبل - فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي مربعة، ثلاثون حقة، وثلاثون جذعة، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون. وقال عبدالله بن مسعود: مخمسة، عشرون حقة، وعشرون جذعة، وعشرون بنت مخاض، وعشرون بنت لبون، وعشرون ابن لبون ذكراً، ولبعض الفقهاء غير هذا الترتيب، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه «وغيره» يرى الدية من البقر مائتي بقرة، ومن الغنم ألفي شاة، ومن الحُلل مائة حُلّة، وورد بذلك حديث عن النبي ﷺ في مصنف أبي داود. والحُلّة: ثوبان من نوع واحد في كلام العرب، وكانت في ذلك الزمن صفة تقاوم المائة من الإبل فمضى القول على ذلك، وأما الذهب فهي ألف دينار، قررها عمر رضي الله عنه، ومشى الناس عليها، وأما الفضة فقررها عمر رضي الله عنه اثني عشر ألفاً، وبه قال مالك، وجماعة تقول: عشرة آلاف درهم.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ﴾ الآية، المعنى عند ابن عباس، وقتادة، والسدي، وإبراهيم، وعكرمة، وغيرهم: فإن كان هذا المقتول خطأ رجلاً مؤمناً قد آمن وبقي في قومه وهم كفرة عدو لكم - فلا دية فيه، وإنما كفارته تحرير الرقبة، والسبب عندهم في نزولها أن جيوش رسول الله ﷺ كانت تمر بقبائل الكفار فربما قُتل من قد آمن

ولم يهاجر، أو من قد هاجر ثم رجع إلى قومه فيقتل في حملات الحرب على أنه من الكفار، فنزلت الآية، وتسقط الدية عند قاتلي هذه المقالة لوجهين: أولهما أن أولياء القتيل كفار فلا يصح أن تدفع الدية إليهم يتقوون بها، والآخر أن حرمة هذا الذي آمن ولم يهاجر قليلة، فلا دية فيه، واحتجوا بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّنْ وَلِيَّتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا﴾. وقالت فرقة: بل الوجه في سقوط الدية أن الأولياء كفار فقط، فسواء كان القتيل خطأ بين أظهر المسلمين أو بين قومه لم يهاجر، أو هاجر ثم رجع إلى قومه - كفارته التحرير، ولا دية فيه، لأنه لا يصح دفعها إلى الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقائل المقالة الأولى يقول: إن قتل المؤمن في بلد المسلمين وقومه في حرب ففيه الدية لبيت المال والكفارة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنَ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ المعنى عند الحسن، وجابر بن زيد، وإبراهيم، وغيرهم: وإن كان هذا المقتول خطأ مؤمناً من قوم معاهدين لكم، فعهدهم يوجب أنهم أحق بدية صاحبهم، فكفارته التحرير وأداء الدية، وقرأ الحسن: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِّيثَاقٌ - وهو مؤمن﴾ - وقال ابن عباس، والشعبي، وإبراهيم أيضاً: المقتول من أهل العهد خطأ لا يبالي كان مؤمناً أو كافراً على عهد قومه - فيه الدية كدية المسلم، والتحرير. واختلف على هذا في دية المعاهد -

فقال أبو حنيفة وغيره: ديته كدية المسلم، ورؤي ذلك عن أبي بكر وعمر رضي الله عنهما. وقال مالك وأصحابه: ديته على نصف دية المسلم، وقال الشافعي، وأبو ثور: ديته على ثلث دية المسلم.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ لَّمْ يَجِدْ﴾ الآية، يريد عند الجمهور: فمن لم يجد العتق، ولا اتسع ماله له فيجزيه صيام شهرين متتابعين في الأيام لا يتخللها فطر، وقال مكّي عن الشعبي: صيام الشهرين يجزىء عن الدية والعتق لمن لم يجدهما، وهذا القول وهم، لأن الدية إنما هي على العاقلة وليست على القاتل، والطبري حكى القول عن مسروق.

و ﴿تُوبَكُمْ﴾ نصب على المصدر، ومعناه: رجوعاً بكم إلى التيسير والتسهيل.

﴿٩٣﴾ تفسير قوله تعالى:

المتعمد في لغة العرب: القاصد إلى الشيء، واختلف العلماء في صفة المتعمد في القتل - فقال عطاء، وإبراهيم النخعي، وغيرهما: هو من قتل بحديدة كالسيف أو الخنجر وسنان الرمح ونحو ذلك من المشحوذ المعد للقطع، أو بما يعلم أن فيه الموت من ثقل الحجارة ونحوه، وقالت فرقة: المتعمد: كل من قتل، بحديدة كان القتل أو بحجر أو بعصا أو بغير ذلك، وهذا قول الجمهور، وهو الأصح، ورأى الشافعي وغيره أن القتل بغير الحديد المشحوذ هو شبه العمد، ورأوا فيه تغليظ الدية، ومالك رحمه الله لا يرى شبه العمد، ولا يقول به في

شيء، وإنما القتل عنده ما ذكره الله تعالى عمداً وخطأ لا غير، والقتل بالسم عنده عمد وإن قال: ما أردت إلا سكره.

وقوله: ﴿فَجَزَاءُ جَهَنَّمَ﴾ تقديره عند أهل السنة: فجزاؤه إن جازاه بذلك، أي: هو أهل ذلك ومستحقه لعظم ذنبه، ونص على هذا أبو مجلز، وأبو صالح، وغيرهما، وهذا مبني على القول بالمشيئة في جميع العصاة، قاتل وغيره، وذهبت المعتزلة إلى عموم هذه الآية، وأنها مخصصة بعمومها لقوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِيْنِ يَشَاءُ﴾. وتوركو في ذلك على ما روي عن زيد بن ثابت أنه قال: نزلت الشديدة بعد الهتة، يريد نزلت ﴿وَمَنْ يَسْتَلْ مُؤْمِنًا مِّنْهُمْ مُّتَعَمِّدًا﴾ بعد ﴿وَيَقْتُلُ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِيْنِ يَشَاءُ﴾، فهم يريدون أن ذلك الوعيد نافذ حتماً على كل قاتل يقتل مؤمناً، وورونه عموماً ماضياً لوجهه، مخصصاً للعموم في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُ مَا دُونَهُ ذَلِكَ لِيْنِ يَشَاءُ﴾ كأنه قال: إلا من قتل عمداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأهل الحق يقولون لهم: هذا العموم منكر غير ماضٍ لوجهه من جهتين: إحداهما ما أنتم معنا مجمعون عليه من الرجل الذي يشهد عليه، أو يقر بالقتل عمداً، ويأتي السلطان أو الأولياء فيقام عليه الحد، ويقتل قوداً، فهذا غير متبع في الآخرة، والوعيد غير نافذ عليه إجماعاً متكباً على الحديث الصحيح من طريق عبادة بن الصامت: (أنه من عوقب في الدنيا فهو كفارة له)، وهذا نقض

للمعموم، والجهة الأخرى أن لفظ هذه الآية ليس بلفظ عموم، بل لفظ مشترك يقع كثيراً للخصوص، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَجِدْكَ يَمَّا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾، وليس حكام المؤمنين إذا حكموا بغير الحق في أمر بكفرة بوجه، وكقول الشاعر:

وَمَنْ لَا يَدُّ عَن حَوْضِهِ بِسِلَاحِهِ
يُهْتَمُّ، وَمَنْ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ يُظْلَمُ
وهذا إنما معناه الخصوص، لأنه ليس كل من لا يظلم يُظلم، فهذه جهة أخرى تدل على أن العموم غير مترتب، وما احتجوا به من قول زيد بن ثابت فليس كما ذكره، وإنما أراد زيد أن هذه الآية نزلت بعد سورة (الفرقان)، ومراده باليئنة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الآية، وإن كان المهدي قد حكى عنه أنه قال: أنزلت الآية: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَدِّيًا﴾ بعد قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ بأربعة أشهر، فإذا دخله التخصيص فالوجه أن هذه الآية مخصوصة في الكافر يقتل المؤمن، إما على ما روي أنها نزلت في شأن مقيس بن صبابه حين قتل أخاه هشام بن صبابه رجل من الأنصار فأخذ له رسول الله ﷺ الدية، ثم بعته مع رجل من فهر بعد ذلك في أمر ما، فعدا عليه مقيس فقتله، ورجع إلى مكة مُرتداً، وجعل ينشد:

فَقَتَلْتُ بِهِ فَهْرًا وَحَمَلْتُ عَقْلَهُ
سَرَاةَ بَنِي النَّجَارِ أَزْيَابَ فَارِعَ
حَلَلْتُ بِهِ وَثَرِي وَأَدْرَكْتُ ثَوْرِي
وَكُنْتُ إِلَى الْأَوْثَانِ أَوْلَّ رَاجِعَ

فقال رسول الله ﷺ: «لا أؤمنه في حل ولا في حرم»، وأمر بقتله يوم فتح مكة وهو متعلق بالكعبة، وإما أن يكون على ما حكى عن ابن عباس أنه قال: ﴿مُتَعَدِّيًا﴾ معناه: مستحلاً لقتله، فهذا يوول أيضاً على الكفر، وفي المؤمن الذي قد سبق في علم الله أنه يعذبه بمعصيته على ما قدمناه من تأويل فجزاؤه - إن جازاه - - ويكون قوله: ﴿حَكِيدًا﴾ إذا كانت في المؤمن بمعنى باق مدة طويلة على نحو دعائهم للملوك بالتخليد ونحو ذلك، ويدل على هذا سقوط قوله: - أبداً - فإن التأييد لا يقترن بالخلود إلا في ذكر الكفار.

واختلف العلماء في قبول توبة القاتل - فجماعة على أن لا تقبل توبته، وروي ذلك عن ابن عباس، وابن مسعود، وابن عمر، وكان ابن عباس يقول: «الشُّرْكُ والقتل مبهمان، من مات عليهما خُلِدَ»، وكان يقول: «هذه الآية مدنية نسخت الآية التي في الفرقان، إذ الفرقان مكية»، والجمهور على قبول توبته، وروي عن بعض العلماء أنهم كانوا يقصدون الإغلاظ والتخويف أحياناً فيطلقون: «لا تقبل توبة القاتل»، منهم ابن شهاب، كان إذا سأله من يفهم منه أنه قد قتل قال له: «توبتك مقبولة»، وإذا سأله من لم يفعل قال له: «لا توبة للقاتل»، ومنهم ابن عباس، وقع عنه في تفسير عبد بن حميد أن رجلاً سأله: «أللقاتل توبة؟» فقال له: «لا توبة للقاتل، وجزاؤه جهنم»، فلما مضى السائل قال له أصحابه: «ما هكذا كنا نعرفك

تقول إلا أن للقاتل توبة»، فقال لهم: «إنني رأيته مغضباً، وأظنه يريد أن يقتل»، فقاموا فطلبوه وسألوا عنه فإذا هو كذلك، وذكره هبة الله في كتاب «الناسخ والمنسوخ» له: أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾، وقال: «هذا إجماع الناس إلا ابن عباس، وابن عمر، فإنهما قالا: هي محكمة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيما قاله هبة الله نظر، لأنه موضع عموم وتخصيص، لا موضع نسخ، وإنما ركب كلامه على اختلاف الناس في قبوله توبة القاتل، والله أعلم.

﴿٩٤﴾ تفسير قوله تعالى:

تقول العرب: «ضربت في الأرض» إذا سرت لتجارة أو غزو أو غيره مقترنة بـ (في)، وتقول: «ضربت الأرض» دون (في) إذا قصدت قضاء حاجة الإنسان، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يخرج الرجلان يضربان الغائط يتحدثان كاشفين عن فرجهما فإن الله يمقت على ذلك».

وسبب هذه الآية أن سرية من سرايا رسول الله ﷺ لقيت رجلاً له جمل ومتيع، وقيل: غنيمة، فسلم على القوم وقال: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فحمل عليه أحدهم فقتله، فشق ذلك على رسول الله، ونزلت الآية فيه.

واختلف المفسرون في تعيين القاتل والمقتول في هذه النازلة - فالذي عليه الأكثر، وهو في سيرة ابن إسحق، وفي مصنف أبي داود، وغيرهما: أن القاتل: مُحَلَّم بن

جثامة، والمقتول: عامر بن الأصبط. والحديث بكماله في «المصنف» لأبي داود، وفي السير، وفي الاستيعاب، وقالت فرقة: القاتل: أسامة بن زيد، والمقتول: مِرْدَاس بن نَهيك الغطفاني، وقالت فرقة: القاتل: أبو قتادة، وقالت فرقة: القاتل: غالب الليثي، والمقتول: مرداس، وقالت فرقة: القاتل: أبو الدرداء، ولا خلاف أن الذي لفظته الأرض هو مُحَلِّم بن جثامة.

وقرأ جمهور السبعة ﴿تَبَيَّنُوا﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿فَتَّبَشُوا﴾ بالثاء مثلثة في الموضعين، وفي الحجرات. وقال قوم: ﴿تَبَيَّنُوا﴾ أبلغ وأشد من ﴿تَبَشَّرُوا﴾، لأن المثبت قد لا يتبين، وقال أبو عبيد: هما متقاربان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح ما قال أبو عبيد، لأن تبين الرجل لا يقتضي أن الشيء بان له، بل يقتضي محاولة اليقين، كما أن تثبت تقتضي محاولة اليقين، فهما سواء.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، وابن كثير في بعض طرقة: ﴿إِلَيْكُمْ﴾ بتشديد السين وفتحها وفتح اللام، ومعناه: الاستسلام، أي: ألقى بيده واستسلم لكم، وأظهر دعوتكم، وقرأ بقية السبعة: ﴿السَّلَام﴾، يقول: سلم ذلك المقتول على السرية، لأن سلامه بتحية الإسلام مؤذن بطاعته وانقياده، ويحتمل أن يراد به الانحياز والتزك، قال الأخفش: يقال: «فلان سلام» إذا

كان لا يخالط أحداً، وروي في بعض طرق عاصم: ﴿السُّلْم﴾ بكسر السين وشده وسكون اللام، وهو الصلح، والمعنى المراد بهذه الثلاثة يتقارب. وقرأ الجحدري: ﴿السُّلْم﴾ بفتح السين وسكون اللام.

والقرص: هو المتبع والجمل، أو الغنيمة التي كانت للرجل المقتول.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وأبو حمزة، واليماني: ﴿لَسْتُمْ مَوْمِنًا﴾ بفتح الميم، أي: لسنا نؤمنك في نفسك، وقوله

تعالى: ﴿فَوَيْدَ اللَّهِ مَكَانِئُ كَثِيرٌ﴾ عِدَّة بما يأتي به الله على وجهه، ومن جلّه دون ارتكاب محذور، أي: فلا تتهاوتوا.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ - فقال سعيد بن جبير: معناه: كنتم مستخفين من قومكم بإسلامكم، خائفين منهم على أنفسكم، فمن الله عليكم بإعزاز دينكم، وإظهار شريعتكم. فهو الآن كذلك، كل واحد منهم خائف من قومه، مترصد أن يصل إليكم، فلم يصلح إذا وصل أن تقتلوه حتى تبينوا أمره، وقال ابن زيد: كذلك كنتم كفرة، فمن الله عليكم بأن أسلمتم، فلا تنكروا أن يكون هو كافراً ثم يسلم لحينه حين لقيكم، فيجب أن تثبت في أمره. ويحتمل أن يكون المعنى إشارة بـ

لَا يَسْتَوِي الْقَتِيلُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ عَمَّا أُولَى الضَّرِّ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَتِيلِينَ دَرَجَةً وَلَا وَعَدَ اللَّهُ الْخَسِيسَ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَتِيلِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾ دَرَجَتٍ وَنَهْ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا لِمَ تَمَيَّنْتُمْ أَلَيْسَ الْأَرْضُ لِلَّهِ وَأَسِعَتْ فَنَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَا لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ سِوَاةٍ صَغِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانَ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩٩﴾ وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَافَعًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْوَيْلُ فَدَقَّقَ آجُرَهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا ضَرَأْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْضُوا مِنْ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ الْكُفْرَانَ كَانُوا كَحُرِّدٍ أُمِّيَّةٍ ﴿١٠١﴾

﴿ذَلِكَ﴾ إلى القتل قبل التثبيت، أي: على هذه الحال كنتم في جاهليتكم لا تثبتون، حتى جاء الله بالإسلام، ومن عليكم، ثم وكّد تبارك وتعالى الوصية باللبينين، وأعلم أنه خير بما يعمله العباد، وذلك منه خير يتضمن تحذيراً منه تعالى، لأن المعنى أن الله كان بما تعملون خبيراً، فاحفظوا نفوسكم، وجنبوها الزلل الموبق بكم.

﴿٩٥﴾ - ﴿٩٦﴾ تفسير قوله تعالى:

في قوله ﴿لَا يَسْتَوِي﴾ إيهام على السامع هو أبلغ من تحديد المنزلة التي بين المجاهد والقاعد، فالمتأمل يمشي مع فكرته، ولا يزال يتخيل الدرجات بينهما.

و ﴿الْقَتِيلُونَ﴾ عبارة عن المتخلفين، إذ القعود هيئة من لا يتحرك إلى الأمر المقعود عنه في الأغلب.

واحتج بهذه الآية المُظهرة لفضل المال من قال: إن الغنى أفضل من الفقر، وإن متعلقه بها لبين. وفسر الناس الآية على أن تكملة التفضيل فيها بالدرجة، ثم بالدرجات إنما هو مبالغة وتأكيد وبيان، وقال ابن جريج: الفضل بدرجة هو على القاعدين من أهل العذر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنهم مع المؤمنين بنياتهم، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام في غزوة تبوك: «إن بالمدينة رجالاً ما قطعنا وادياً، ولا سلكتنا جبلاً ولا طريقاً إلا وهم معنا، حسبهم العذر»، قال ابن جرير: والتفضيل بالأجر العظيم والدرجات هو على القاعدين من غير أهل العذر. و«الْحَسْبُ»: الجنة: وهي التي وعدوا المؤمنون، وكذلك قال السدي، وغيره.

وقال ابن محيريز: الدرجات هي درجات في الجنة، ما بين الدرجتين حضر الفرس الجواد المضمّر سبعين سنة، وقال بهذا القول الطبري ورجحه. وقال ابن زيد: الدرجات في الآية هي السبع المذكورات في سورة (براءة)، فهي قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآيات، فذكر فيها الموطىء الغائظ للكفار، والثليل من العدو، والنفقة الصغيرة والكبيرة، وقطع الأودية والمسافات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ودرجات الجهاد لو حُصرت أكثر من

على الحال، وأما كسر الراء فعلى الصفة من «الْمُؤَيَّنِينَ».

وروي من غير طريق أن الآية نزلت: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤَيَّنِينَ عَدُوُّ أُولِي الْقَرْبَى وَالْمُؤَيَّنِينَ﴾، فجاء ابن أم مكتوم حين سمعها فقال: يا رسول الله، هل من رخصة فإني ضريب البصر؟ فنزلت عند ذلك: ﴿عَدُوُّ أُولِي الْقَرْبَى﴾، قال الفلقان بن عاصم: كنا قعوداً عند النبي ﷺ، فأنزل عليه، وكان إذا أوحى إليه دام بصره مفتوحة عيناه، وفرغ سمعه وبصره لما يأتيه من الله، وكنا نعرف ذلك في وجهه، فلما فرغ قال للكاتب: «اكتب: ﴿لَا يَسْتَوِي الْقَائِدُونَ مِنَ الْمُؤَيَّنِينَ عَدُوُّ أُولِي الْقَرْبَى وَالْمُؤَيَّنِينَ﴾» إلى آخر الآية، قال: فقام الأعمى فقال: يا رسول الله، ما ذنبنا؟ قال: فأنزل الله على رسوله، فقلنا للأعمى: إنه ينزل عليه، فخاف أن ينزل فيه شيء فبقي قائماً مكانه يقول: «أتوب إلى رسول الله» حتى فرغ رسول الله ﷺ، فقال للكاتب: «اكتب ﴿عَدُوُّ أُولِي الْقَرْبَى﴾»، وأولو الضر هم أهل الأعداء إذ قد أضرت بهم حتى منعهم الجهاد، قاله ابن عباس وغيره.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتُرْلَهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ هي الغاية في كمال الجهاد، ولما كان أهل الديوان متملكين بذلك العطاء، يصرفون في الشدائد، وتروعهم البعث والأوامر - قال بعض العلماء: هم أعظم أجراً من المتطوع، لسكون جأشه، ونعمة باله في الصوائف الكبار ونحوها.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمة: «غَيْرُ أُولِي الضَّرَبِ» برفع الراء من «غَيْرُ»، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي: «غَيْرُ» بالنصب، واختلف عن عاصم، فروي عنه الرفع والنصب، وقرأ الأعمش، وأبو حيوة: «غَيْرُ» بكسر الراء، فمن رفع جعل «غَيْرُ» صفة للقاعدين عند سيويه، كما هي عنده صفة في قوله تعالى: «غَيْرِ الْمَنْصُوبِ» بجر «غَيْرُ» صفة، ومثله قول لبيد:

وإذا جُوزيتَ قرضاً فاجزه
إنما يجزي الفتى غير الجمل
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كذا ذكره أبو علي، وروى: «ليس الجمل». ومن قرأ بنصب الراء جعله استثناء من (القاعدين)، قال أبو الحسن: ويقوي ذلك أنها نزلت بعدها على طريق الاستثناء والاستدراك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يتحصل الاستدراك بتخصيص القاعدين بالصفة، قال الزجاج: يجوز أيضاً في قراءة الرفع أن يكون على جهة الاستثناء، كأنه قال: لا يستوي القاعدون والمجاهدون إلا أولو الضر فإنهم يساؤون المجاهدين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود، لأن أولي الضر لا يساؤون المجاهدين، وغايتهم أن خرجوا من التوبيخ والمذمة التي لزم القاعدين من غير عذر، قال: ويجوز في قراءة نصب الراء أن يكون

هذه، لكن يجمعها بذل النفس والمال، والاعتماد بالبدن والمال في أن تكون كلمة الله هي العليا، ولا شك أن بحسب مراتب الأعمال ودرجاتها تكون مراتب الجنة ودرجاتها، فالأقوال كلها متقاربة، وباقى الآية وغد كريم وتأنيس.

ونصب ﴿وَرَجَّيْتُمْ﴾ إما على البدل من الأجر، وإما على إضمار فعل على أن تكون تأكيداً للأجر، كما تقول: «لك علي ألف درهم عرفاً»، كأنك قلت: أعرفها عرفاً.

﴿٩٧﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله تعالى:

المراد بهذه الآية إلى قوله: ﴿مَصِيدًا﴾ جماعة من أهل مكة، كانوا قد أسلموا، وأظهروا للنبي ﷺ الإيمان به، فلما هاجر رسول الله ﷺ أقاموا مع قومهم، وفتن منهم جماعة فافتنوا، فلما كان أمر بدر خرج منهم قوم مع الكفار فقتلوا ببدر فنزلت الآية فيهم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قوم من أهل مكة قد أسلموا، وكانوا يَسْتَحْفُونَ بِإِسْلَامِهِمْ، فأخرجهم المشركون يوم بدر، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروها فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْهُمُ الْمُتَكَلِّفُونَ﴾ الآية، قال: فكتب إلى من بقي بمكة من المسلمين بهذه الآية لِأَعْلُرَ لَهُمْ، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطروهم الفتنة، فنزلت فيهم هذه الآية الأخرى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ

مَنْ يَقُولُ مَا مَكَانَ اللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، فكتب إليهم المسلمون بذلك، فخرجوا ويئسوا من كل خير، ثم نزلت فيهم: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَهِدُوا وَصَرُّوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَعَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا وقُتل من قُتل. وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في خمسة قتلوا ببدر، وهم: قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وقيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو المعاصي بن منبه ابن الحجاج، وعلي بن أمية بن خلف. قال النقاش: في أناس سواهم أسلموا ثم خرجوا إلى بدر، فلما رأوا قلة المسلمين قالوا: غرَّ هؤلاء دينهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان العباس ممن خرج مع الكفار لكنه نجا وأسر، وكان من المطعمين في نفي بدر، قال السدي: لما أسر العباس، وعقيل، ونفيل، قال رسول الله ﷺ للعباس: «أفد نفسك وابن أخيك»، فقال له العباس: يا رسول الله، ألم نصل قبلك ونشهد شهادتك؟ قال: «يا عباس، إنكم خاصمتهم فخصمتهم»، ثم تلا عليه هذه الآية: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ دَائِمَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا﴾، قال السدي: فيوم نزلت من هذه الآية كان من أسلم ولم يهاجر فهو كافر حتى يهاجر، إلا

من لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الذي قاله السدي نظر، والذي يجري مع الأصول أن من مات من أولئك بعد أن قبل الفتنة وارتد فهو كافر، ومأواه جهنم على جهة الخلود، وهذا هو ظاهر أمر تلك الجماعة، وإن فرضنا فيهم من مات مؤمناً وأكراه على الخروج، أو مات بمكة فإنما هو عاصٍ في ترك الهجرة، مأواه جهنم على جهة العصيان دون خلود، لكن لما لم يتعين أحد أنه مات على الإيمان لم يسغ ذكروهم في الصحابة، ولم يُعْتَدَ بما كان عرف منهم قبل، ولا حجة للمعتزلة في شيء من أمر هؤلاء على تكفيرهم بالمعاصي، وأما العباس فقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله أنه أسلم قبل بدر، ولذلك قال رسول الله ﷺ: «من لقي العباس فلا يقتله فإنما أخرج كرهاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر أنه إنما أسلم مأسوراً حين ذكر له النبي ﷺ أمر المال الذي ترك عند أم الفضل، وذكر أنه أسلم في عام خيبر، وكان يكتب إلى رسول الله ﷺ بأخبار المشركين، وكان يُحِبُّ أن يهاجر، فكتب إليه رسول الله ﷺ: «أن امكث بمكة فمقامك بها أنفع لنا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لكن عامله رسول الله ﷺ حين أسر على ظاهر أمره.

وقوله تعالى: ﴿تَوَفَّنَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً ماضياً لم يستند بعلامة تأنيث، إذ تأنيث لفظ الملائكة غير حقيقي، ويحتمل أن يكون فعلاً مستقبلاً على معنى: تتوفاهم، فحذفت إحدى التاءين، ويكون في العبارة إشارة إلى ما يأتي من هذا المعنى في المستقبل بعد نزول الآية، وقرأ إبراهيم: ﴿تَوْفَاهُمْ﴾ بضم التاء، قال أبو الفتح: كأنهم يدفعون إلى الملائكة ويحتسبون عليهم، و ﴿تَوَفَّنَهُمْ﴾ بفتح التاء معناه: تَقْبُضُ أرواحهم، وحكى ابن فورك عن الحسن أن المعنى: تحشرهم إلى النار.

و ﴿عَالِيْنَ أُنْسِيهِمْ﴾ نصب على الحال، أي: ظالمها بترك الهجرة، قال الزجاج: حذفت النون من (ظالمين) تخفيفاً، كقوله تعالى: ﴿بَلِيغَ الْكَلِمَةِ﴾، وقول الملائكة: ﴿فِيْمَ كُنْتُمْ﴾ تقرير وتوبيخ، وقول هؤلاء: ﴿كَا مُسْتَضْعَفِيْنَ فِي الْأَرْضِ﴾ اعتذار غير صحيح، إذ كانوا يستطيعون الجليل، ويهتدون السبيل، ثم وقفتهم الملائكة على ذنبهم بقولهم: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَبِيْعَةً؟﴾ والأرض في قول هؤلاء: هي أرض مكة خاصة، وأرض الله: هي الأرض بالإطلاق، والمراد: ﴿فَتَهَاجِرُوا فِيهَا إِلَى مَوْضِعِ الْأَمْنِ؟﴾ وهذه المقالة إنما هي بعد توفي الملائكة لأرواح هؤلاء، وهي دالة على أنهم ماتوا مسلمين، وإلا فلو ماتوا كافرين لم يُقَلْ لهم شيء من هذا، وإنما أُضْرِبَ عن ذكرهم في الصحابة لشدة ما وقعوه، ولعدم

تعيين أحد منهم بالإيمان، ولاحتمال رده. وتوعدهم الله تعالى بأن مأواهم جهنم، ثم استثنى منهم من كان استضعافه على حقيقة: من زَمَنَ الرجال، وضعة النساء والوالدان، كعياش بن أبي ربيعة، والوليد بن هشام، وغيرهما، قال ابن عباس: «كُنْتُ أَنَا وَأُمِّي مِنَ الْمُسْتَضْعَفِيْنَ، هِيَ مِنَ النِّسَاءِ، وَأَنَا مِنَ الْوَالِدَانِ»، والحيلة: لفظ عام لأسباب أنواع التخلص، والسبيل: سبيل المدينة فيما ذكر مجاهد، والسدي، وغيرهما، والصواب أنه عام في جميع السبل.

ثم رَجَى اللهُ تعالى هؤلاء بالمعفو عنهم و ﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، كما أنها دالة على ثقل الأمر المعفو عنه. قال الحسن: (عسى) من الله واجبة، قال غيره: هي بمنزلة الوعد، إذ ليس يخبر بـ (عسى) عن شك ولا توقع، وهذا يرجع إلى الوجوب، قال آخرون: هي علي مُعْتَقَدَ البشر، أي: ظنكم بمن هذه حاله ترجي عفو الله تعالى عنه.

والمُرَاعَمُ: الْمُتَحَوِّلُ والمذهب، كذا قال ابن عباس، والضحاك، والربيع، وغيرهم، ومنه قول النابغة الجعدي:

كَطَوْدٍ يُلَادُ بِأَرْكَانِهِ
عَزِيْزِ الْمُرَاعَمِ وَالْمَذْهَبِ
وقول الآخر:

إِلَى بَلَدٍ غَيْرِ دَانِي الْمَحَلِّ
بِعِيْدِ الْمُرَاعَمِ وَالْمَضْطَرَبِ
وقال مجاهد: المرغام: الْمُتَزَحَّرَجُ عما يكره، وقال ابن زيد: المرغام:

المهاجر، وقال السدي: المرغام: المبتغي المعيشة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله تفسير بالمعنى، فأما الخاص باللفظة فإن المرغام: موضع المراغمة، وهو أن يرغم كل واحد من المتنازعين أنف صاحبه بأن يغلبه على مراده، فكفار قريش أرغموا أنوف المحبوسين بمكة، فلو هاجر منهم مهاجر في أرض الله لأرغم أنوف قريش بحصوله في منعة منهم، فتلك المَنَعَةُ هي موضع المراغمة، وكذلك الطود الذي ذكره النابغة، من سعد فيه أمام طالب له وتوقل فقد أرغم أنف ذلك الطالب، وقرأ نبيح، والجراح، والحسن بن عمران: ﴿مُرَاعِمًا﴾ بفتح الميم وسكون الراء دون ألف. قال أبو الفتح: هذا إنما هو على حذف الزوائد من (راغم)، والجماعة على (مُرَاعِم).

وقال ابن عباس، والربيع، والضحاك، وغيرهم: السعة هنا: هي السعة في الرزق، وقال قتادة: المعنى: سعة من الضلالة إلى الهدى، ومن العيلة إلى الغنى. وقال مالك: السعة سعة البلاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمشبه لفصاحة العرب أن يُريد سعة الأرض، وكثرة المعامل، وبذلك تكون السعة في الرزق، واتساع الصدر لهومومه وفكره وغير ذلك من وجوه الفرح، ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

لَكَانَ لِي مُضْطَرَبٌ وَابِغٌ
فِي الْأَرْضِ ذَاتِ الطُّوْلِ وَالْعَرْضِ

ومنه قول الآخر:

وكنث إذا خليل رام قطعني
وجدت وراي مُفْسِحاً عريضاً

وهذا المعنى ظاهر من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَرِيعَةً﴾، وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: الآية تعطي أن كل مسلم ينبغي أن يخرج من البلاد التي تغير فيها السنن، ويعمل فيها بغير الحق.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ﴾ الآية، حكم باقي في الجهاد والمشى إلى الصلاة والحج ونحوه، أما إنه لا يقال: إن بنفس خروجه ونيته حصل في مرتبة الذي قضى ذلك الفرض أو العبادة في الجملة، ولكن يقال: وقع له بذلك أجر عظيم، وروي أن هذه الآية نزلت بسبب رجل من كنانة، وقيل: من خزاعة من بني ليث، وقيل: في جندع لما سمع قول الله عز وجل: ﴿لَا يَسْتَوِيُونَ حِجَّةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾ قال: إني لذو مال وعبيد - وكان مريضاً - فقال: أَخْرِجُونِي إِلَى الْمَدِينَةِ، فَأَخْرَجَ فِي سَرِيرٍ فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ بِالتَّعْنِيمِ، فنزلت الآية بسببه، واختلف في اسمه - فحكى الطبري عن ابن جبير أنه ضَمْرَةُ بن العيص، أو العيص بن ضَمْرَةَ بن زُبَيْع، وحكى عن السدي أنه ضَمْرَةُ بن جُنْدَب، وحكى عن عكرمة أنه جُنْدَب بن ضَمْرَةَ الجُنْدَبي، وحكى عن ابن جبير أيضاً أنه ضَمْرَةُ بن بغيض الذي من بني ليث، وحكى أبو عمر بن عبد البر أنه ضَمْرَةُ بن العيص، وحكى المهدي أنه ضَمْرَةُ بن نُعَيْم، وقيل: ضَمْرَةُ بن خُزَاعَةَ.

وقرأت الجماعة: ﴿ثُمَّ يَذُرُّكَ الْغَمُّ﴾ بالجزم عطفاً على ﴿يَخْرُجُ﴾، وقرأ طلحة بن سليمان، وإبراهيم النخعي فيما ذكره أو عمرو: ﴿ثُمَّ يَذُرُّكَ﴾ برفع الكاف، قال أبو الفتح: هذا رفع على أنه خير مبتداً محذوف، أي: ثم هو يذركه الموت، فعطف الجملة من المبتدأ والخبر على الفعل المجزوم بفاعله، فهما إذن جملة، فكأنه عطف جملة على جملة، وعلى هذا حمل يونس بن حبيب قول الأعشى:

إِنْ تَزَكَّبُوا فَرَكُوبُ الْخَيْلِ عَادَتُنَا
أَوْ تَشْرُلُونَ فَلُوْنَا مَشْرُ نُرُلُ
المراد: وأنتم تنزلون. وعليه قول الآخر:

إِنْ تُذْنِبُوا ثُمَّ يَأْتِينِي بِقِيَّتِكُمْ
فَمَا عَلَيَّ بِذَنْبٍ عِنْدَكُمْ فَوْتُ
المعنى: ثم أنتم تأتيني، وهذا أوجه من أن يحمله على قول الآخر:
أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تُسْمِي

وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وتبنيح، والجراح: ﴿ثُمَّ يَذُرُّكَ﴾ بنصب الكاف على إضمار (أَنْ) كقول الأعشى:

لَنَا قَضَبَةٌ لَا يَنْزُلُ الدُّلُّ وَسَطَهَا
وَيَأْوِي إِلَيْهَا الْمُسْتَجِيرُ فَيُعْصِمُهَا
أراد: فأن يُعْصِمَ، قال أبو الفتح: وهذا ليس بالسهل، وإنما بابه الشعر

وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلوة فلننم طائفة منكم مكم وليأخذوا بأسلحتهم فإذا سجدوا فليكفوا من وراءكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا مكم وليأخذوا أذرهم وأسلحتهم وذالذين كفروا لوفقوا عن أسلحتكم وأمتعتهم فيبيلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضعاً أن تضعوا أسلحتكم وخذوا أذرهم إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً ﴿١٠١﴾ فإذا قضيتُمُ الصلوة فاذكروا الله وقومًا وعمل جؤبكم فإذا قلتم أنتم فأصلوا الصلوة إن الصلوة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً ﴿١٠٢﴾ ولا تهتأ في ابتغاء القوم إن تكونوا تألمون فإنهم يآلمون كما تألمون ورجون من الله ما لا يرجون وكان الله عليماً حكيماً ﴿١٠٣﴾ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أرتك الله ولا تكن للخائنين خصيماً ﴿١٠٤﴾

لا القرآن، وأنشد ابن زيد:
سَأْتُرُّكَ مَسْزَلِي لِبَنِي تَمِيمٍ
وَأَلْحَقَ بِالْحِجَازِ فَأَسْتَرِيحَا
والآية أقوى من هذا لتقدم الشرط قبل المعطوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن هذه الآية رأى بعض العلماء أن من مات من المسلمين وقد خرج غازياً فله سهمه من الغنيمة، قاسوا ذلك على الأجر، وقد تقدم معنى الهجرة فيما سلف، و [وقع] عبارة عن الثبوت وقوة اللزوم، كذلك هي (وجب)، لأن الوقوع والوجوب نزول في الأجرام بقوة، فشبه لازم المعاني بذلك، وباقى الآية بين.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله تعالى:
﴿مَرَّتَمَةً﴾ معناه: سافرتم، فأهل الظاهر يرون القصر في كل سفر يخرج عن الحاضرة، وهي من حيث

تؤتي الجمعة، وهذا قول ضعيف، واختلف العلماء في حد المسافة التي تقصر فيها الصلاة - فقال مالك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وابن راهوية: تقصر الصلاة في أربعة بُدَد، وذلك ثمانية وأربعون ميلاً، وحجهم أحاديث رويت في ذلك عن ابن عمر، وابن عباس، وقال الحسن، والزهري: تقصر الصلاة في مسيرة يومين، ولم يذكر أَمْيالاً، وروي هذا القول عن مالك، وروي عنه أيضاً: تقصر الصلاة في يوم وليلة، وهذه الأقوال الثلاثة تتقارب في المعنى، وروي عن ابن عباس، وابن عمر أن الصلاة تقصر في مسيرة اليوم التام، وقصر ابن عمر في ثلاثين ميلاً، وعن مالك في «العتبية» فيمن خرج إلى ضيعته على مسيرة خمسة وأربعين ميلاً، قال: يقصر، وعن ابن القاسم في «العتبية»: إن قَصَرَ في ستة وثلاثين فلا إعادة عليه، وقال يحيى بن عمر: يعيد أبداً، وقال ابن عبدالحكم: في الوقت، وقال ابن مسعود، وسفيان، والثوري، وأبو حنيفة، ومحمد بن الحسن: من سافر مسيرة ثلاث قصر، قال أبو حنيفة: ثلاثة أيام ولياليها سير الإبل ومشى الأقدام، وروي عن أنس بن مالك أنه قصر في خمسة عشر ميلاً، قال الأوزاعي: عامة العلماء في القصر في مسيرة اليوم التام، وبه تأخذ.

واختلف الناس في نوع السفر الذي تقصر فيه الصلاة، فأجمع الناس على الجهاد، والحج، والعمرة، وما ضارها من صلة الرحم، وإحياء

نفس. واختلف الناس فيما سوى ذلك - فالجمهور على جواز القصر في السفر المباح، كالتجارة ونحوها، وروي عن ابن مسعود أنه قال: لا تقصر الصلاة إلا في حج أو جهاد، وقال عطاء: لا تقصر الصلاة إلا في سفر طاعة وسبيل من سبل الخير، وقد روي عن عطاء أنها تقصر في كل المباح، والجمهور من العلماء على أنه لا قصر في سفر المعصية، كالبغي، وقاطع الطريق، وما في معناهما، وروي عن الأوزاعي وأبي حنيفة إباحة القصر في جميع ذلك، وجمهور العلماء على أن المسافر لا يقصر حتى يخرج من بيوت القرية، وحينئذ هو ضارب في الأرض، وهو قول مالك في «المدونة» وابن حبيب وجماعة المذهب، قال ابن القاسم في «المدونة»: ولم يجد لنا مالك في القرب حداً، وروي عن مالك: إذا كانت قرية يجمع أهلها فلا يقصر حتى يجاوزها بثلاثة أميال، وإلى ذلك في الرجوع، وإن كانت لا يجمع أهلها قصر إذا جاوز بسايتينها، وروي عن الحارث بن أبي ربيعة أنه أراد سفرأ فصلى بهم ركعتين في منزله، وفيهم الأسود بن يزيد، وغير واحد من أصحاب ابن مسعود، وبه قال عطاء بن أبي رباح، وسليمان بن موسى، وروي عن مجاهد أنه قال: لا يقصر المسافر يومه الأول حتى الليل، وهو شاذ، وقد ثبت (أن النبي ﷺ صلى الظهر بالمدينة أربعاً، والعصر بذي الحليفة ركعتين)، وليس بينهما ثلث يوم.

ويظهر من قوله تعالى: ﴿فَلَيْسَ

عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا﴾ أن القصر مباح، أو مخير فيه، وقد روى ابن وهب عن مالك أن المسافر مخير، وقاله الأبهري، وعليه حذاق المذهب. وقال مالك في «المبسوط»: القصر سنة. وهذا هو جمهور المذهب، وعليه جواب «المدونة» بالإعادة في الوقت لمن أتم في سفره. وقال محمد بن سحنون، وإسماعيل القاضي: القصر فرض، وبه قال حماد بن أبي سليمان، وروي نحوه عن عمر بن عبد العزيز، وروي عن ابن عباس أنه قال: من صلى في السفر أربعاً فهو كمن صلى في الحضر ركعتين، وحكى ابن المنذر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: صلاة السفر ركعتان تمام غير قصر على لسان نبيكم عليه الصلاة والسلام، وقد خاب من افتري، ويؤيد هذا قول عائشة رضي الله عنها: (فرضت الصلاة ركعتين في الحضر والسفر، فأقرت صلاة السفر، وزيد في صلاة الحضر).

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿أَنْ تَقْصُرُوا﴾ - فذهب جماعة من العلماء إلى أنه القصر إلى اثنتين من أربع، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: سأل قوم من التجار رسول الله ﷺ، فقالوا: إنا نضرب في الأرض، فكيف نصلي؟ فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَا تَرْتَمُوا فِي الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ﴾، ثم انقطع الكلام، فلما كان بعد ذلك بحول غزا النبي عليه الصلاة والسلام، فصلى الظهر، فقال

المشركون: لقد أمكنكم محمد وأصحابه من ظهورهم، فهلا شددتم عليهم، فقال قائل منهم: إن لهم أخرى في أثرها، فأنزل الله تعالى بين الصلاتين ﴿إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلى آخر صلاة الخوف.

وذكر الطبري في سرد هذه المقالة حديث يعلى بن أمية، قال: قلت لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن الله تعالى يقول: ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾ وقد أمن الناس، فقال: عجبت مما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: «صدقة تصدق الله بها عليكم، فاقبلوا صدقته». قال الطبري: وهذا كله قول حسن، إلا أن قوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ تُوذَنُ بَانْقِطَاعِ مَا بَعْدَهَا مَا قَبْلَهَا، فَلَيْسَ يَتَرْتَبُ مِنْ لَفْظِ الْآيَةِ إِلَّا أَنْ الْقَصْرَ مَشْرُوطٌ بِالْخَوْفِ. وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: «أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ أَنْ يَفْتِنَكُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا» بِسُقُوطِ ﴿إِنْ خِفْتُمْ﴾، وَثَبَتَ فِي مَصْحَفِ عَثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَذَهَبَتْ جَمَاعَةٌ أُخْرَى إِلَى أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ إِنَّمَا هِيَ مُبِيحَةٌ الْقَصْرِ فِي السَّفَرِ لِلْخَائِفِ مِنَ الْعَدُوِّ، فَمَنْ كَانَ آمِنًا فَلَا قَصْرَ لَهُ، وَرَوَى عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّهَا كَانَتْ تَقُولُ فِي السَّفَرِ: «أَتَمُّوا صَلَاتِكُمْ»، فَقَالُوا: إِنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَقْصُرُ، فَقَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ فِي حَرْبٍ، وَكَانَ يَخَافُ، وَهَلْ أَنْتُمْ تَخَافُونَ؟ وَقَالَ عَطَاءٌ: كَانَ يَتِمُّ الصَّلَاةَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَأَتَمَّ عَثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ،

ولكن علل ذلك بعلة غير هذه، وكذلك علل إتمام عائشة رضي الله عنها أيضاً بغير هذا وقال آخرون: القصر المباح في هذه الآية إنما هو قصر الركعتين إلى ركعة، والركعتان في السفر إنما هي تمام، وقصرها أن تصير ركعة، قال السدي: إذا صليت في السفر ركعتين فهو تمام، والقصر لا يحل إلا أن يخاف، فهذه الآية مبيحة أن تصلي كل طائفة ركعة لا تزيد عليها شيئاً، ويكون للإمام ركعتان، وروي عن ابن عمر رضي الله عنه أنه قال: ركعتان في السفر تمام غير قصر، إنما القصر في صلاة المخافة، يصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم يجيء هؤلاء إلى مكان هؤلاء، وهؤلاء إلى مكان هؤلاء، فيصلي بهم ركعة، فتكون للإمام ركعتان، ولهم ركعة ركعة. وقال نحو هذا سعيد بن جبير، وجابر بن عبد الله، وكعب من أصحاب النبي ﷺ، وفعله حذيفة بطبرستان، وقد سأله الأمير سعيد بن العاصي ذلك، وروي ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كذلك في غزوة ذي قرد ركعة بكل طائفة، ولم يقضوا، وقال مجاهد عن ابن عباس: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم في الحضر أربعاً، وفي السفر ركعتين، وفي الخوف ركعة، وروي جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ صلى كذلك بأصحابه يوم حارب خصفة وبنى ثعلبة، وروي أبو هريرة أن النبي ﷺ صلى كذلك بين ضحجان وعسفان.

وقال آخرون: هذه الآية مبيحة

القصر من حدود الصلاة وهيبتها عند المسايقة واشتعال الحرب، فأبيح لمن هذه حاله أن يصلي إيماء برأسه، ويصلي ركعة واحدة حيث توجه، إلى تكبيرتين، إلى تكبيرة، على ما تقدم من أقوال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ﴾ فَيَجَازًا أَوْ رُكْبَاتًا، وَرَجَّحَ الطَّبْرِيُّ هَذَا الْقَوْلَ، وَقَالَ: إِنَّهُ يَعَادِلُهُ قَوْلُهُ: ﴿وَإِذَا أَطْمَأْنَنْتُمْ فَأَبِيحُوا الصَّلَاةَ﴾ أَي: بِحُدُودِهَا وَهَيْبَتِهَا الْكَامِلَةَ.

وقرأ الجمهور: ﴿تَقْصُرُوا﴾ بفتح التاء وضم الصاد، وروى الضبي عن أصحابه: ﴿تُقْصِرُوا﴾ بضم التاء وكسر الصاد وسكون القاف، وقرأ الزهري: ﴿تَقْصُرُوا﴾ بضم التاء وفتح القاف وكسر الصاد وشدها.

و ﴿يَفْتِنَكُمْ﴾ معناه: يمتحنكم بالحمل عليكم وإشغال نفوسكم في صلاتكم، ونحو هذا قول صاحب الحائض، لقد أصابني في مالي هذا فتنة، وأصل الفتنة الاختبار بالشدائد، وإلى هذا المعنى ترجع كيف تَصَرَّفْتَ.

وَعُدُوٌّ: وَصَفٌ يَجْرِي عَلَى الْوَاحِدِ وَالْجَمَاعَةِ، وَمَبِينٌ: مَفْعَلٌ مِنْ أَبَانَ. الْمَعْنَى: قَدْ جَلَحُوا فِي عِدَاوَتِكُمْ، وَرَامُوكُمْ كُلِّ مَرَامٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا كُنْتُمْ فِيهِمْ﴾ الآية، قال جمهور الأمة: الآية خطاب للنبي عليه الصلاة والسلام، وهو يتناول الأمراء بعده إلى يوم القيامة، وقال أبو يوسف وإسماعيل بن علية: الآية خصوص للنبي ﷺ، لأن الصلاة بإمامة النبي عليه الصلاة والسلام لا عوض عنها،

وغيره من الأمراء منه العوض،
فصلي الناس بإمامين، طائفة بعد
طائفة، ولا يحتاج إلى غير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وكذلك جمهور العلماء على أن
صلاة الخوف تُصلى في الحضر إذا
نزل الخوف، وقال قوم: لا صلاة
خوف في حَضْر، وقاله في
المذهب: عبد الملك بن الماجشون،
وقال الطبري: ﴿فَأَقَمْتَ لَهُمُ﴾،
معناه: حدودها وهيئتها، ولم تقصر
على ما أُبِيح قَبْلُ في حال المسابقة.

وقوله: ﴿فَلَنَقُصَّ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ
مَّا كَفَرَ﴾ أمر بالانقسام، أي: وسائرهم
وجاه العدو حذراً وتوقع حملته.

وأعظم الروايات والأحاديث أن
صلاة الخوف إنما نزلت الرخصة
فيها في غزوة ذات الرِّقَاع، وهي
غزوة محارب خصفة، وفي بعض
الروايات أنها نزلت في ناحية عُصْفَانَ
وَضَجْنَانَ، والعدو: خيل قريش
عليها خالد بن الوليد، واختلف - من
المأمور بأخذ الأسلحة هنا؟ فقيل:
الطائفة المصلية، وقيل: بل
الحارسة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولفظ الآية يتناول الكل، ولكن
سلاح المصلين ما خف، واختلفت
الأثار في هيئة النبي ﷺ بأصحابه
صلاة الخوف، وبحسب ذلك
اختلف الفقهاء.

فروى يزيد بن رومان، عن
صالح بن خوات، عن سهل بن أبي
حَثْمَةَ أنه صلى مع رسول الله ﷺ
صلاة الخوف يوم «ذات الرقاع»،
فَصَفَّتْ طائفة معه، وطائفة وجاه

العدو، فصلى بالذين معه ركعة، ثم
ثبت قائماً، وأتموا ثم انصرفوا فصفاً
وجاه العدو، وجاءت الطائفة
الأخرى فصلى بهم الركعة التي بقيت
من صلاته، ثم ثبت جالساً، وأتموا
لأنفسهم، ثم سلم بهم. وروى
القاسم بن محمد، عن صالح بن
خوات، عن سهل هذا الحديث
بعينه، إلا أنه روى أن النبي ﷺ حين
صلى بالطائفة الأخيرة ركعة سلم،
ثم قضت هي بعد سلامه، وبهذا
الحديث أخذ مالك رحمه الله في
صلاة الخوف، كان أولاً يميل إلى
رواية يزيد بن رومان، ثم رجع إلى
رواية القاسم بن محمد بن أبي بكر.

وروى مجاهد، وغيره، عن أبي
عياش الرُّزْقِي واسمه زيد بن
الصَّامِت - على خلاف فيه - أن
النبي ﷺ صلى صلاة الخوف
بعُصْفَانَ والعدو في قبلته، قال:
فصلى بنا النبي ﷺ الظهر، فقال
المشركون: لقد كانوا على حالٍ لو
أصبنا غرَّتْهم، فقالوا: تأتي الآن
عليهم صلاة هي أحبُّ إليهم من
أبنائهم وأنفسهم، قال: فنزل جبريل
عليه السلام بين الظهر والعصر بهذه
الآيات، وأخبره خبرهم، ثم قام
رسول الله ﷺ فصف العسكر خلفه
صفين، ثم كبر فكبروا جميعاً، ثم
ركع فركعنا جميعاً، ثم رفع فرفعنا
جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ بالصف
الذي يليه، والآخرين قيام
يحرسونهم، فلما سجدوا وقاموا
سجد الآخرون في مكانهم، ثم
تقدموا إلى مصاف المتقدمين، وتأخر
المتقدمون إلى مصاف المتأخرين،

ثم ركع فركعوا جميعاً، ثم رفع
فرفعوا جميعاً، ثم سجد النبي ﷺ
فسجد الصف الذي يليه، فلما رفع
سجد الآخرون، ثم سلم فسلموا
جميعاً، ثم انصرفوا، قال
عبدالرزاق بن همام في مصنفه:
وروى الثوري عن هشام مثل هذا،
إلا أنه قال: ينكص الصف المتقدم
القهقري حين يرفعون رؤوسهم من
السجود، ويتقدم الآخرون فيسجدون
في مصاف الأولين، قال عبدالرزاق،
عن معمر، عن خلاد بن
عبدالرحمن، عن مجاهد، قال: لم
يصل النبي ﷺ صلاة الخوف إلا
مرتين، مرة بذات الرقاع من أرض
بني سليم، ومرة بعُصْفَانَ والمشركون
يُضَجِّجَان بينهم وبين القبلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وظاهر اختلاف الروايات عن
النبي ﷺ يقتضي أنه صلى صلاة
الخوف في غير هذين الموطنتين.
وذكر ابن عباس أنه كان في غزوة
ذي قَرْد صلاة خوف.

وروى عبدالله بن عمر أن
النبي ﷺ صلى بإحدى الطائفتين
ركعة، والطائفة الأخرى مواجهة
العدو، ثم انصرفوا وقاموا في مقام
أصحابهم مقبلين على العدو. وجاء
أولئك فصلى بهم النبي ﷺ ركعة،
ثم سلم، ثم قضى هؤلاء ركعة،
وهؤلاء ركعة في حين واحد،
وبهذه الصفة في صلاة الخوف أخذ
أشهب رحمه الله، ومشى على
الأصل في ألا يقضي أحد قبل
زوال حكم الإمام، فكذلك لا
يبنى، ذكر هذا عن أشهب جماعة

عائشة رضي الله عنها صفة في صلاة النبي الله ﷺ صلاة الخوف تقرب مما روي عن أبي هريرة، وتخالفها في أشياء، إلا أنها صفة في ألفاظها تداع وتناقض، فلذلك اختصرتها.

ومجموع ما ذكرنا في صلاة الخوف من لدن قول أبي يوسف، وابن علي أحد عشر قولاً مع صلاة الخوف لكونها خاصة للنبي ﷺ، وعشر صفات على القول الشهير بأنها باقية للأمرء.

﴿١٠٢﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير في: ﴿سَجِدُوا﴾ للطائفة المصلية، والمعنى: فإذا سجدوا معك الركعة الأولى فلينصرفوا، هذا على بعض الهيئات المروية، وقيل: المعنى: فإذا سجدوا ركعة القضاء، وهذا على هيئة سهل بن أبي حنيفة.

والضمير في قوله: ﴿فَلْيَكُونُوا﴾ يحتمل أن يكون للذين سجدوا، ويحتمل أن يكون للطائفة القائمة أولاً بإزاء العدو، ويجيء الكلام وصاً في حال الحذر والحرب.

وقرأ الحسن، وابن أبي إسحق: ﴿فَلْيَقُمْ﴾ بكسر اللام، وقرأ الجمهور: ﴿وَلَتَأْتِ طَائِفَةٌ﴾ بالتاء، وقرأ أبو حنيفة: ﴿وَلَيَأْتِ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿وَدَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية إخبار عن معتقد القوم، وتحذير من الغفلة، لثلاثين نزال العدو أمله، وأسليحة: جمع سلاح. وفي قوله تعالى: ﴿مَيْلَةً وَاجِدَةً﴾ بناء مبالغه،

الصلاة، فيقضون ركعة وسجدتين وحداناً ويسلمون، ثم يجيئون إلى إزاء العدو، وتنصرف الطائفة الأخرى إلى مقام الصلاة، فيقضون ركعتين بقرأة وحداناً ويسلمون، وكملت صلاتهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا طرد قول أصحاب الرأي في سائر الصلوات.

وسأل مروان بن الحكم أبا هريرة: هل صليت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف؟ قال أبو هريرة: نعم، قال مروان: متى؟ قال أبو هريرة: عام غزوة نجد، قام رسول الله ﷺ إلى صلاة العصر، فقامت معه طائفة، وطائفة أخرى مقابل العدو وظهورهم إلى القبلة، فكبر رسول الله، وكبروا جميعاً، الذين معه والذين بإزاء العدو، ثم ركع رسول الله، وركع معه الذين معه، وسجدوا كذلك، ثم قام رسول الله ﷺ، فصارت الطائفة التي كانت معه إلى إزاء العدو، وأقبلت الطائفة التي كانت بإزاء العدو، فركعوا وسجدوا ورسول الله ﷺ قائم كما هو، ثم قاموا فركع رسول الله ﷺ ركعة أخرى، وركعوا معه، وسجد فسجدوا معه، ثم أقبلت الطائفة التي كانت بإزاء العدو فركعوا وسجدوا، ورسول الله ﷺ قاعد، ثم كان السلام فسلم رسول الله ﷺ وسلموا جميعاً.

وأسند أبو داود في مصنفه عن

منهم: ابن عبد البر، وابن يونس، وغيرهما. وحكى اللخمي عنه أن مذهبه أن يُصلي الإمام بطائفة ركعة، ثم ينصرفون تجاه العدو، وتأتي الأخرى فيصلِّي بهم ركعة، ثم يسلم، وتقوم التي معه تقضي، فإذا فرغوا منه صاروا تجاه العدو، وقضت الأخرى، وهذه سنة رؤيت عن ابن مسعود، ورجح ابن عبد البر القول بما روي عن ابن عمر، وروى أن سهل بن أبي حنيفة قد روي عنه مثل ما روي عن ابن عمر سواء، وروى حذيفة حين حكى صلاة النبي عليه الصلاة والسلام في الخوف أنه صلى بكل طائفة ركعة، ولم يقض أحد من الطائفتين شيئاً زائداً على ركعة، وذكر ابن عبد البر، وغيره، عن جابر بن عبد الله أن النبي ﷺ صلى بكل طائفة ركعتين ركعتين، فكانت لرسول الله ﷺ أربع، ولكل رجل ركعتان، وبهذه كان يُفتي الحسن بن أبي الحسن، وهو قول يجيزه كل من أجاز اختلاف نية الإمام والمأموم في الصلاة.

وقال أصحاب الرأي: إذا كانت صلاة المغرب افتتح الإمام الصلاة ومعه طائفة، وطائفة بإزاء العدو، فيصلِّي بالتي معه ركعتين، ثم يصيرون إلى إزاء العدو، وتأتي الأخرى فيدخلون مع الإمام، فيصلِّي بهم ركعة، ثم يسلم وحده، ثم يقومون إلى إزاء العدو، وتأتي الطائفة التي صلَّت مع الإمام الركعتين إلى مقامهم الأول في

قبل إنما هو قضاء صلاة الخوف، و
﴿تَهْتُوا﴾ معناه: تلتينا تضعفوا، جبل
واهن: أي ضعيف، ومنه: وهن
العظم، و**﴿إِنْعَاءَ الْقَوْرِ﴾**: طلبهم.
وقرأ عبدالرحمن الأعرج: **﴿أَنْ
تكونوا﴾** بفتح الألف، وقرأ
يحيى بن وثاب، ومنصور بن
المعتمر: **﴿يَتَلْمُونَ﴾** في الثلاثة،
وهي لغة، وهذا تشجيع لنفوس
المؤمنين، وتحقير لأمر الكفرة، ومن
نحو هذا المعنى قول الشاعر:

القوم أمشألكم لهم شعز
في الرأس لا يُشرون إن قتلوا
ثم تأكد التشجيع بقوله تعالى:
﴿وَرَجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾.
وهذا برهان بين. ينبغي بحسبه أن
تقوى نفوس المؤمنين. وباقى الآية
بين.

١٥٥ - ١٥٧ تفسير قوله تعالى:

في هذه الآية تشريف للنبي ﷺ،
وتفويض إليه، وتقويم أيضاً على
الجدادة في الحكم، وتأنيب ما على
قبول ما رفع إليه في أمر بني أبيرق
بسرعة.

وقوله تعالى: **﴿يَا أَرْثَكَ اللَّهُ﴾**
معناه: على قوانين الشرع، إما يوحي
ونص، أو بنظر جار على سنن
الوحي، وقد تضمن الله تعالى
لأنبيائه العصمة، وقوله تعالى: **﴿وَلَا
تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ خَصِيماً﴾** واستغفر الله
إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُوراً رَجِيماً ﴿١٥٦﴾ سببها
باتفاق من المتأولين أمر بني أبيرق،
وكانوا إخوة: بشر، وبشير، ومبشر،
وكان بشير رجلاً منافقاً يهجو
أصحاب النبي ﷺ، وينحل الشعر
غيره، فكان المسلمون يقولون: والله

قضاء المناسك بذكر الله،
فهو ذكر باللسان.

وذهب قوم إلى أن
﴿فَصَيِّبُهُ﴾ بمعنى:
فعلتم، أي: إذا تلبستم
بالصلاة فلتكن على هذه
الهيئات بحسب
الضرورات: المرض
وغيره، وبحسب هذه الآية
رتب ابن المواز صلاة
المريض فقال: يُصَلِّي
قاعداً، فإن لم يُطق فعلى
جنبه الأيمن، فإن لم يُطق
فعلى الأيسر، فإن لم يُطق
فعلى الظهر. ومذهب
مالك في «المدونة»
التخيير، لأنه قال: فعلى

جنبه أو ظهره، وحكى ابن حبيب
عن ابن القاسم أنه قال: يستدىء
بالظهر ثم بالجانب، قال ابن حبيب:
هو وهم، قال اللخمي: وليس
بوهم، بل هو أحكم في استخدام
القبلة. وقال سحنون: يصلي على
جنبه الأيمن كما يجعل في قبره، فإن
لم يقدر فعلى ظهره.

والطمأنينة في الآية: سكون النفس
من الخوف، وقال بعض المتأولين:
المعنى: فإذا رجعت من سفركم إلى
الحضر فأقيموا تامة أربعة.

وقوله تعالى: **﴿كِتَابًا مُّؤْتَوَكَّاتًا﴾**
معناه: منجماً في أوقات، هذا ظاهر
اللفظ، وروي عن ابن عباس: أن
المعنى: فرضاً مفروضاً، فهما لفظان
بمعنى واحد، كُرر مبالغة.

وقوله تعالى: **﴿وَلَا تَهْتُوا فِي إِنْعَاءِ
الْقَوْرِ﴾** بين أن القضاء المشار إليه

وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهُ إِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُوراً رَجِيماً ﴿١٥٦﴾ وَلَا تَجِدُوا
عَنِ الَّذِينَ يَخْتَفُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ
خَوَّاتًا أَيْمًا ﴿١٥٧﴾ يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ
مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ مَا لَآ يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ
اللَّهُ يَمَآ يَعْمَلُونَ مِيطًا ﴿١٥٨﴾ هَاتَانِ هَاتَا هَاتَا جَدَانِ
عَنَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَمَن يُجِدْ لَ اللَّهِ عَنَّهُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَم مَن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا ﴿١٥٩﴾ وَمَن يَمَلْ
سُوءًا أَوْ يظلم نفسه ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهُ عَفُوراً
رَجِيماً ﴿١٦٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَ نَفْسِهِ
وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً ﴿١٦١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِنَّمَا
تُرِيرُ رِيءاً بَرِيئاً فَقَدْ أَحْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِنَّمَا بُهْتَانٌ ﴿١٦٢﴾ وَلَوْلَا
فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَمَسْتَ طَائِفَةً مِّنْهُم مَّا
يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن
شَيْءٍ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ
مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴿١٦٣﴾

أي: مستأصلة لا يحتاج معها إلى
ثانية.

وقوله تعالى: **﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ﴾**
الآية ترخيص، قال ابن عباس:
نزلت بسبب عبدالرحمن بن عوف،
كان مريضاً فوضع سلاح فعنفه
الناس.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: كأنهم تلقوا الأمر بأخذ
السلاح على الوجوب، فرخص الله
تعالى في هاتين الحالتين، وينقاس
عليهما كل عذر يحدث في ذلك
الوقت.

ثم قرى الله نفوس المؤمنين بقوله:
﴿إِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾.

١٦٣ - ١٦٤ تفسير قوله تعالى:

ذهب جمهور العلماء إلى أن هذا
الذكر المأمور به إنما هو إثر صلاة
الخوف، على حد ما أمروا عند

ما هو إلا شعر الخبيث، فقال شعراً يتصل فيه، فمته قوله:

أَفَكُلَّمَا قَالِ الرَّجَالُ قَصِيدَةً
نُجِلْتُ وَقَالُوا ابْنُ الْأَبْيُرُقِ قَالِهَا؟

قال قتادة بن النعمان: وكان بنو أبيروق أهل فاقة، فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملاً من ذؤمك الشام، فجعله في مشربة له، وفي المشربة درعان له وسيفان، فعدي على المشربة من الليل، فنقبت وأخذ الطعام والسلاح، فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يا بن أخي، تعلم أنه قد عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا، وذهب بطعامنا وسلاحنا، فقال: فتحسنا في الدار وسألنا، فقيل لنا. قد رأينا بني أبيروق استوقدوا في هذه الليلة، ولا نراه إلا على بعض طعامكم، قال: وقد كان بنو أبيروق قالوا - ونحن نسأل -: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجل منا له صلاح وإسلام، فسمع ذلك لبيد، فاخترط سيفه، ثم أتى بني أبيروق فقال: والله ليخالنكم هذا السيف أو لتبين هذه السرقة، قالوا: إليك عنا أيها الرجل، فوالله ما أنت بصاحبها، فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا بن أخي، لو أتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بهذه القصة، فأتته عليه الصلاة والسلام فقصصتها عليه، فقال: أنظر في ذلك، فلما سمع بذلك بنو أبيروق أتوا رجلاً منهم يقال له: أسير بن عروة فكلموه في ذلك، واجتمع إليه ناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان

وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة عن غير بينة، قال قتادة: فأتيت رسول الله ﷺ فكلمته. فقال: عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح فرميتهم بالسرقة عن غير بينة، قال: فرجعت وقد وددت أن أخرج عن بعض مالي، ولم أكلمه، فأتيت عمي فقال: ما صنعت؟ فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ فقال: الله المستعان، فلم نلبث أن نزل القرآن: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ الآيات، فالخائنون: بنو أبيروق، والبريء المرمي: لبيد بن سهل، والطائفة التي همت: أسير وأصحابه.

وقال قتادة، وغير واحد من المتأولين: هذه القصة إنما كان صاحبها طعمة بن أبيروق، ويقال فيه طُعَيْمَة، وقال السدي: القصة في طعمة بن أبيروق ولكن بأن استودعه يهودي درعاً. فجحده إياها، وخانه فيها، وطرحها في دار أبي مليك الأنصاري، وأراد أن يرميه بسرقتها لما افتضح، وأبو مليك هو البريء المشار إليه، وقال عكرمة: سرق طعمة بن أبيروق درعاً من مشربة، ورمى بسرقتها رجلاً من اليهود يقال له: زيد بن السمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة هذا يستدير على أن قوم طعمة أتوا النبي ﷺ وكلموه في أن يذب عن طعمة، ويرفع الدعوة عنه، ودفعوا هم عنه، ومنهم من يعلم أنه سرق، فكانت هذه معصية من مؤمنهم، وخلق مقصود من

مناقبيهم، فعصم الله رسوله من ذلك، ونبه على مقالة قتادة بن النعمان بقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ لِلظَّالِمِينَ حَصِيماً﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطعمة بن أبيروق صرح بعد ذلك بالارتداد، وهرب إلى مكة، ونزل على سلافة، فرماها حسان بن ثابت بشعر، فأخذت رحل طعمة ورمت به في الأبطح، وقالت: اخرج عنا، أهديت إلي شعر حسان، فروي أن نزل على الحجاج بن علاط وسرقه فطرده، وروي أنه نقب حائط بيت ليسرقه فانهدم الحائط عليه فقتله، وروي أنه اتبع قوماً من العرب فسرقهم فقتلوه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرِ اللَّهَ﴾ ذهب الطبري إلى أن المعنى: استغفر الله من ذنبك في خصامك للخنائين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ليس بذنب، لأن النبي ﷺ إنما دافع عن الظاهر، وهو يعتقد براءةتهم، والمعنى: استغفر للمذنبين من أمتك، والمتخاصمين في الباطل، لا أن تكون ذا جدال عنهم، فهذا حدك، ومحللك من الناس أن تسمع من المتداعيين، وتقضي بنحو ما تسمع، وتستغفر للمذنب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الْبِرِّ يَخْتَابُونَ أَنفُسَهُمْ﴾ لفظ عام يندرج طيه أصحاب النزلة، ويتقرر به توبيخهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ حَوَآءًا أَيْمًا﴾ رفق وإيقاظ، فإن الخوان هو الذي تتكرر منه الخيانة،

والأثيم هو الذي يقصدها، فيخرج من هذا التشديد الساقط مرة واحدة، ونحو ذلك مما يجيء من الخيانة من غير قصد أو على غفلة، واختيان الأنفس هو بما يعود عليها من الإثم والعقوبة في الدنيا والآخرة.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٢﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير: في ﴿يَسْتَحْفُونَ﴾ للصف المرتكب للمعاصي مستترين بذلك عن الناس، مباحتين لهم، واندراج في طي هذا العموم ودخل تحت هذه الأتحاء أهل الخيانة في النازلة المذكورة، وأهل التعصب لهم والتدبير في خدع النبي ﷺ والتلبيس عليه. ويحتمل أن يكون الضمير لأهل النازلة، ويدخل في معنى هذا التويخ كل من فعل نحو فعلهم.

ومعنى ﴿وَهُوَ مَعَهُمْ﴾ بالإحاطة والعلم والقدرة. و ﴿يَبْسُتُونَ﴾ يدبرون ليلاً، انطلقت العبارة على كل استسرار بهذا، إذ الليل مظنة الاستتار والاختفاء. قال الطبري: وزعم بعض الطائين أن التبييت في لغتهم: التبذل، وأنشد للأسود بن عامر بن حوین الطائي:

وَبَيْتٌ قَوْلِي عِنْدَ الْمَلِيحِ

لِي قَاتَلْتُكَ اللَّهُ عَبْدًا كَنُودًا
وقال أبو زيد: ﴿يَبْسُتُونَ﴾ معناه: يؤلفون، ويحتمل أن تكون اللفظة مأخوذة من البيت، أي: يستسرون في تدبيرهم بالجدران.

وقوله تعالى: ﴿هَاتَتْهُ هَوَالَاءُ﴾ قد تقدمت وجوه القراءات فيه في سورة آل عمران، والخطاب بهذه الآية للقوم الذين يتعصبون لأهل الرب والمعاصي، ويندرج في هذا العموم

أهل النازلة، ويحتمل أن يكون الخطاب لأهل التعصب في هذه النازلة، وهو الأظهر عندي بحكم التأكيد بـ ﴿هَوَالَاءُ﴾ وهي إشارة إلى حاضرين - وقد تقدم إعراب مثل هذه الآية في سورة آل عمران.

والمجادلة: المدافعة بالقول، وهي من قُتِلَ الكلام وليه، إذ الجدل: القتل، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُجَادِلُ اللَّهَ عَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وعيد محض، أي أن الله يعلم حقيقة الأمر، فلا يمكن أن يلبس عليه بجادل ولا غيره، كما فعلتم بالنبي ﷺ، إذ هو بشر يقضي على نحو ما يسمع.

ولما تمكن هذا الوعيد، وقضت العقول بألا مجادل الله، ولا وكيل يقوم بأمر العصاة عنده - عقب ذلك هذا الرجاء العظيم، والمهل المنسحق بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سُوءًا﴾ الآية، وقوله: ﴿أَوْ يَطْلِمَ نَفْسَهُ﴾ منحى من عمل السوء وهما بمعنى واحد يكرر باختلاف لفظ مبالغاً، واستغفاراً الله تعالى مع التحقيق في ذلك توبة.

وقوله: ﴿يَعِدُّ اللَّهُ﴾ استعارة، لما كانت الرحمة والغفران مُعدة للمستغفرين التائبين كانوا كالواجدين لمطلوب، وكان التوبة ورود على رحمة الله، وقرب من الله، وقال عبدالله بن مسعود يوماً في مجلسه: كان بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم ذنباً أصبح وقد كتبت كفارة ذلك الذنب على بابه، وإذا أصاب البول شيئاً من ثيابه قرضه بالمقراض، فقال رجل من القوم: لقد أتى الله بني إسرائيل خيراً. فقال عبدالله: ما

أتاكم الله خير مما أتاهم، جعل لكم الماء طهوراً، وقال: ﴿وَمَنْ يَمَلَّ سُوءًا أَوْ يَطْلِمَ نَفْسَهُ﴾ الآية، وهذه آية وعد بشرط المشيئة على ما تقتضيه عقيدة أهل السنة، وفضل الله مرجو، وهو المستعان.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٢﴾ تفسير قوله تعالى:

تقدم القول في معنى الكسب، والإثم: الحكم اللاحق على المعصية، ونسبة المرء إلى العقوبة فيها، وقوله: ﴿فَإِنَّمَا يَكْتِيبُ عَلَيْ نَفْسِهِ﴾ أي: إياها يُردي، وبها يُحل المكروه.

وقوله تعالى: ﴿خَطِيئَةٌ أَوْ إِنَّمَا﴾ ذهب بعض الناس إلى أنهما لفظان بمعنى، كرر لاختلاف اللفظ، وقال الطبري: إنما فرق بين الخطيئة والإثم أن الخطيئة تكون عن عمد، وعن غير عمد، والإثم لا يكون إلا عن عمد. وهذه الآية لفظها عام، ويندرج تحت ذلك العموم ويتجه أهل النازلة المذكورة، وبريء النازلة - قيل: هو لبيد بن سهل، وقيل: هو زيد بن السمين اليهودي، وقيل: أبو مليك الأنصاري. وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ أَحْتَمَلَ﴾ تشبيه، إذ الذنوب ثقل ووزر، فهي كالمحمولات. و ﴿بُهْتَانًا﴾ معناه: كذباً على البريء، ومنه قول النبي ﷺ: «إِذَا قُلْتَ فِي أَخِيكَ مَا فِيهِ مِمَّا يَكْرَهُ سَمَاعَهُ فَقَدْ اغْتَبْتَهُ، فَإِنْ قُلْتَ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهْتَهُ». فَرَمَى الْبَرِيءَ بِبُهْتَانٍ، ونفس الخطيئة والإثم إثم مبين، ومعصية هذا الرامي معصيتان.

ثم وقف الله تعالى نبيه على هذا، وعصمته له، وأنها بفضل من الله

ورحمة، وقوله: ﴿كُنْتُمْ﴾ معناه: لجعلته همها وشغلها حتى تنفذه، وهذا يدل على أن الألفاظ عامة في غير أهل النازلة، وإلا فأهل التعصب لبني أبيرق قد وقع مهمهم وثبت، وإنما المعنى: ولولا عصمة الله لك لكان في الناس من يشتغل بإضلالك، ويَجْعَلُهُ هَمَّ نَفْسِهِ، أي: كما فعل هؤلاء، لكن العصمة تبطل كيد الجميع فيبقى الضلال في حيزهم.

ثم ضَمَّنْ وَعَدَ اللهُ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَا يَضُرُّونَهُ شَيْئًا، وقرر عليه نعمه لديه، من إنزال الكتاب المتلَوِّ، والحكمة التي بعضها خوطب به، وبعضها جعلت له سجيةً مَلَكْهَا، وقريحة يعمل عنها، وينظر بين الناس بها، لا ينطق عن الهوى، ويهذين علمه ما لم يكن يعلم، وباقي الآية يبين:

﴿١١٤﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير في ﴿تَجَوَّبْتُمْ﴾ عائد على الناس أجمع، وجاءت هذه الآيات عامة التناول، وفي عمومها يندرج أصحاب النازلة، وهذا من الفصاحة والإيجاز المضمن الماضي والمغاير في عبارة واحدة.

والنجوى: المسارة، مصدر، وقد تسمى به الجماعة، كما يقال: قوم عدلٌ ورضاً، وتحتمل اللفظة في هذه الآية أن تكون الجماعة، وأن تكون المصدر نفسه، فإن قدرناها الجماعة فالاستثناء متصل، كأنه قال: لا خير في كثير من جماعاتهم المنفردة المتسارة إلا مَنْ. وإن قدرنا اللفظة المصدر نفسه فكأنه قال: لا خير في كثير من تناجيهم، فالاستثناء منقطع

بحكم اللفظ، ويقدر اتصاله على حذف مضاف، كأنه قال: إلا نجوى مَنْ. قال بعض المفسرين: النجوى: كلام الجماعة المنفردة كان ذلك سرّاً أو جهراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: انفراد الجماعة من الاستسار، والغرض المقصود أن النجوى ليست بمقصورة على الهمس في الأذن ونحوه.

والمعروف: لفظ يعم الصدقة والإصلاح، ولكن خُصَّ بالذكر اهتماماً بهما،

إذ هما عظيمَا العَنَاءِ في مصالح العباد، ثم وعد الله تعالى بالأجر العظيم على فعل هذه الخيرات نيّةً وقصد لرضا الله تعالى. و﴿آيَتِكَ﴾ نصب على المصدر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، والكسائي: ﴿فَسَوْفَ نُؤْتِيكَ﴾ بالنون، وقرأ أبو عمرو، وحمزة ﴿يُؤْتِيهِ﴾ بالياء، والقراءتان حستان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾ الآية. لفظ عام نزل بسبب طعمة بن أبيرق؛ لأنه ارتدّ وسار إلى مكة، فاندرج الإنحاء عليه في طي هذا العموم المتناول لمن اتصف بهذه الصفات إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿مَا تَوَلَّكَ﴾ وعيد بأن يُترك مع فاسد اختياره في تولي الطاغوت، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يُؤْتِيهِ﴾ و﴿يُضِلُّهُ﴾ بالياء فيها.

ثم أوجب تعالى أنه لا يغفر أن

﴿١١٤﴾ ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ اتِّبَاعًا مَّرْضَاتِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا نَبَّأَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصَلِّهِمْ وَسَاءَ مَا يَصِيرُوا ﴿١١٥﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغْفِرُ لِمَن يَشْرِكْ بِهِ. وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ. وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنَّ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا إِنثَانًا وَإِن يَدْعُونَ إِلَّا لَشَيْطَانًا مَّرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْفَٰكِرِ لَا تَخْذَنَ مِنْ عِبَادِكَ نَفْسِيًّا مَّفْرُوضًا ﴿١١٨﴾ وَلَا ضَلَمَنَّهُمْ وَلَا مُنِيبَهُمْ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَبْتِكُنْ مَا آذَانَ الْآفَكِرِ وَلَا مَرْتَبَهُمْ فَلْيَغْفِرْ لِكُلِّ خَلْقٍ وَاللَّهُ وَفَىٰ بِمَا يَدْعُونَ ﴿١١٩﴾ مِّن دُونِ اللَّهِ فَفَدَّ خَيْرٌ حَسْرًا تَائِبِينَ ﴿١٢٠﴾ يَدْعُوهُمْ وَيَمْنَعُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢١﴾ أُولَٰئِكَ مَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ لَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢٢﴾

٤٧

يُشْرِكْ بِهِ، وقد مضى تفسير مثل هذه الآية وما يتصل بها من المعتقد. والبعد في صفة الضلال مُقتَضٍ بُعْدَ الرجوع إلى المحجة البيضاء وتعدُّره وإن بقي غير مستحيل.

﴿١١٧﴾ - ﴿١١٨﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ عائد على من تقدم ذكره من الكفرة في قوله: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ﴾، و﴿إِن﴾ نافية بمعنى (ما)، و﴿يَدْعُونَ﴾ عبارة مغنية موجزة في معنى: يعبدون، ويتخذون آلهة. وقرأ أبو رجاء العطاردي: ﴿إِن تَدْعُونَ﴾ بالتاء، فقال أبو مالك، والسدي، وغيرهما: ذلك لأن العرب كانت تسمي أصنامها بأسماء مؤنثة، كالكلات، والعزى، ومناة، ونائلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويردُّ على هذا أنها كانت تسمى

فقال فرقة: هو الشيطان المقترن بكل صنم، فكأنه موحد باللفظ جمع بالمعنى، لأن الواحد يدل على الجنس، وقال الجمهور: المراد: إبليس، وهذا هو الصواب، لأن سائر المقالة به تليق، و ﴿مُرِيدًا﴾ معناه: عاتياً صليباً في غوايته، وهو فعيل من: مَرَدَ إِذَا عَتَا وَعَلَا فِي انحرافه وتجرده للشر والغواية.

وأصل اللُّغْن: الإبعاد، وهو في العرف: إبعاد مقترن بسخط وغضب، ويحتمل أن يكون ﴿لَمَنَّا﴾ صفة الشيطان، ويحتمل أن يكون خيراً عنه، والمعنى يتقارب على الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَكَ لِآخِذَنَّ﴾ الآية، التقدير: وقال الشيطان، والمعنى: لأستخلصنهم لغوايتي، ولأخصننهم بإضلالي، وهم الكفرة والعصاة.

والمفروض: معناه - في هذا الموضوع -: المنحاز، وهو مأخوذ من الفرض، وهو الحزب في العود وغيره، ويحتمل أن يريد: واجباً أن آخذته، وبعث النار: هو نصيب إبليس.

﴿١١٩﴾ - ﴿١٢٢﴾ تفسير قوله تعالى:

قوله: ﴿وَلَا أُصَلِّتَهُمْ﴾ معناه: أصرفهم عن طريق الهدى، و ﴿وَلَا أُمْنِيَهُمْ﴾: لأسؤلن لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا ينحصر إلى نوع واحد من الأمانة، لأن كل واحد في نفسه إنما تمنيه بقدر نسبته وقرائن حاله، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَقُولُ لِمَنْ يَرْكَبُ وَلَا

مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَوْثَانًا»، وقرأ ابن عباس فيما روى عنه أبو صالح: ﴿إِلَّا أَثْنَا﴾ يريد: وثناً، فأبدل الهمزة واواً. وهو جمع جمع على ما حكى بعض الناس، كأنه جمع وثناً على وثان، كجَمَلَ على وثان، ثم جمع وثناً على وثن، كرهانٍ وُرْثَن، وكَيْثَالٍ ومثُل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ، لأن فعلاً في جمع فعل إنما هو للتكثير، والجمع الذي هو للتكثير لا يُجمع، إنما تُجمع جموع

التقليل، والصواب أن تقول: وثنٌ جمع وثنٌ دون واسطة كأسدٌ وأسَد. قال أبو عمرو: وبهذا قرأ ابن عمر، وسعيد بن المسيب، ومسلم بن جنذب، وعطاء. وروي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿إِلَّا وَثْنَا﴾ بفتح الواو والثاء على أفراد اسم الجنس، وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿وُثْنَا﴾ بضم الواو والثاء، وقرأت فرقة: ﴿إِلَّا وَثْنَا﴾، وقرأت فرقة: ﴿إِلَّا أَثْنَا﴾ بسكون الثاء، وقرأ النبي ﷺ: ﴿إِلَّا أَثْنَا﴾ بتقديم الثون، وهو جمع أنيث، كغديرٍ وُعْدُرٍ ونحو ذلك، وحكى الطبري أنه جمع إناث، كَيْثَارٍ وَثْمُر. وحكى هذه القراءة عن النبي ﷺ أبو عمر الداني، قال: وقرأ بها ابن عباس، وأبو حيوة، الحسن.

واختلف في المعنى بالشيطان -

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْجِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا ﴿١١٩﴾ أَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا مَا فِي أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْرِبْ بِهِ وَلَا يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٢٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنَّى وَهُوَ مُؤْتِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ فِيهَا ﴿١٢١﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا ﴿١٢٢﴾ وَاللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُخَبِّرًا ﴿١﴾ وَسَتَفْتُنُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يَفْتِنُكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُبْدِلُ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي نِسَاءِ النَّسَاءِ الَّتِي لَا تُؤْتُونَ هُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْمِعِينَ مِنَ الْوَالِدَانِ وَأَنْ تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ حَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ عَلِيمًا ﴿٢﴾

بأسماء مذكورة كثيرة. وقال الضحاك وغيره: المراد: ما كانت العرب تعتقده من تأنيث الملائكة وعبادتهم إياها، فقبل لهم هذا على جهة إقامة الحجة من فاسد قولهم. وقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: المراد: الخشب والحجارة وهي مؤنثات لا تعقل، فيخبر عنها كما يخبر عن المؤنث من الأشياء، فيجئ قوله: ﴿إِلَّا إِنثًا﴾ عبارة عن الجمادات، وقيل: إنما هذا لأن العرب كانت تسمي الصنم أنثى فتقول: أنثى بني فلان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على اختلافه يقضي بتعبييرهم بالتأنيث، وأن التأنيث نقص وخساسة بالإضافة إلى التذكير. وقيل: معنى ﴿إِنثًا﴾: أوثاناً. وفي مصحف عائشة رضي الله عنها: «إِنْ يَدْعُونَ

يذكر الله: تغن، فإن لم يحسن قال له: تمن، واللامات كلها للسم.

والبَثْكَ: القطع، وكثر الفعل إذ القطع كثير على أنحاء مختلفة، وإنما كنى سبحانه وتعالى عن البحيرة والسائبة ونحوه مما كانوا يشبثون فيه حكماً بسبب ألفتهم، وبغير ذلك. وقرأ أبو عمرو ابن العلاء: ﴿وَأَمْرُهُمْ﴾ بغير ألف، وقرأ أبي: ﴿وَأَمْلُهُمْ وَأَمْنُهُمْ وَأَمْرُهُمْ﴾.

واختلف في معنى تغيير خلق الله - فقال ابن عباس، وإبراهيم، ومجاهد، والحسن، وقتادة، وغيرهم: أراد: يغيرون دين الله، وذهبوا في ذلك إلى الاحتجاج بقوله تعالى: ﴿فَظَرَّتْ أَلَّهُ أَلَّتِي قَطَرَتْ النَّاسَ عَلَيَّ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾، أي:

لدين الله. والتبديل يقَع موضعه التغيير، وإن كان التغيير أعم منه. وقالت فرقة: تغيير خلق الله هو أن الله تعالى خلق الشمس والنهار والحجارة وغيرها من المخلوقات ليعتبر بها وينتفع بها، فغيرها الكفار بأن جعلوا آلهة معبودة، وقال ابن عباس أيضاً، وأُس، وعكرمة، وأبو صالح: من تغيير خلق الله الإخصاء، والآية إشارة إلى إخصاء البهائم وما شاكله، فهي عندهم أشياء ممنوعة، ورخص في إخصاء البهائم جماعة إذا قصدت به المنفعة، إما السمن أو غيره، وخصها عمر بن عبدالعزيز في الخيل. وقال ابن مسعود، والحسن: هي إشارة إلى الوشم وما جرى مجراه من التصنع للتحسن، فمن ذلك الحديث: ﴿لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْوَأَشْمَاتِ﴾

والموشومات، والمتشمصات، والمتفلجات المُمَيَّرَات خَلَقَ اللهُ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿لَعَنَ اللهُ الْوَاصِلَةَ وَالْمُسْتَوْصِلَةَ﴾. وملاك تفسير هذه الآية أن كل تغيير ضار فهو في الآية، وكل تغيير نافع فهو مباح.

ولما ذكر الله تعالى عَثُوَ الشيطان وما توعد به من بث مَكْرِهِ، حذره تبارك وتعالى عباده، بأن شرط لمن يتخذه ولياً جزاء الخسران، وتصوّر الخسران إنما هو بأن أخذ هذا المتخذ حظ الشيطان، فكأنه أعطي حظ الله تبارك وتعالى فيه، وتركه من أجله.

وقوله تعالى: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيَمِينُهُمْ﴾، يعدهم بأباطيله من المال والجاه، وأن لا بعث ولا عقاب ونحو ذلك، لكل أحد ما يليق بحاله، ويمينهم كذلك، ثم ابتدأ تعالى الخبر عن حقيقة ذلك بقوله: ﴿وَمَا يَعِدُّهُمْ أَسْتَيْطِلُونَ إِلَّا عُرُودًا﴾.

ثم أخبر تعالى بمصير المتخذين الشيطان ولياً، وتوعدهم بأن مأواهم جهنم، لا يدافعونها بحيلة، ولا يعدلون عنها ولا ينحرفون ولا يتروغون، والمحيص: مفعول من: حاص إذا راغ ونفر، ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ أَدْرِ إِنْ جِئْنَا مِنَ الْمَوْتِ حَيْصَةً
كَمْ الْعُمُرُ بَاقِي وَالْمَدَى مُنْتَظَاوُلٌ
ومنه الحديث: «فحاصوا حيصة حمر الوحش إلى الأبواب»، وجاض (بالجيم والضاد المنقوطة) إذا راغ بنفور، ولغة القرآن الحاء والصاد غير منقوطة.

ولما أخبر تعالى عن الكفار الذين يتخذون الشيطان ولياً، وأعلم بنفور وعد الشيطان لهم، وأعلم بصيور أمرهم، وأنه إلى جهنم، فاقترض ذلك كله التحذير - أعقب ذلك - عز وجل - بالترغيب في ذكر حالة المؤمنين، وأعلم بصيور أمرهم، وأنه إلى النعيم المقيم، وأعلم بصحة وعده تعالى لهم، ثم قرر ذلك بالتوقيف عليه في قوله: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾. والقيل والقول واحد. ونصبه على التمييز.

وقرأت فرقة: ﴿سَدَّخُلُهُمْ﴾ بالنون. وقرأت فرقة: ﴿سَيَذِجُلُهُمْ﴾ بالياء، و﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر، و﴿حَقًّا﴾ مصدر أيضاً مُؤَكَّدٌ لما قبله.

﴿١٢٣﴾ - ﴿١٢٤﴾ تفسير قوله تعالى: اسم ﴿لَيْسَ﴾ مضمر، والأمانى: جمع أمنية، وزنها أفعولة، وهي: ما يشتها المرء ويطمع نفسه فيه، وتجمع على فعاليل فتجتمع ياءان، فلذلك تدغم إحداهما في الأخرى فتجئ مُشَدَّدة وهي قراءة الجمهور، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، والحكم، والأعرج: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ﴾ ساكنة الياء، وكذلك في الثانية، قال الفراء: هذا جمع على فعاليل كما يقال: قراير وقرافر إلى غير ذلك.

واختلف الناس فيمن المخاطب بهذه الآية؟ فقال ابن عباس: والضحاك، وأبو صالح، ومسروق، وقتادة، والسدي، وغيرهم: الخطاب لأمة محمد ﷺ، قال

بعضهم: سبب الآية أن المؤمنين اختلفوا مع قوم من أهل الكتاب، فقال أهل الكتاب: ديننا أقدم من دينكم وأفضل، ونبينا قبل نبيكم، فنحن أفضل منكم، وقال المؤمنون: كتابنا يقضي على الكتب، ونبينا خاتم النبيين، أو نحو هذا من المحاوررة، فنزلة الآية، وقال مجاهد وابن زيد: بل الخطاب لكفار قريش، وذلك أنهم قالوا: لن نبعث، ولا نعذب، وإنما هي حياتنا الدنيا، لنا فيها النعيم ثم لا عذاب، وقالت اليهود: نحن أبناء الله وأحباؤه، إلى نحو هذا من الأقوال، كقولهم: ﴿لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرَانًا﴾، فرد الله تعالى على الفريقين بقوله: ﴿لَيْسَ بِأَمَانِيكُمْ وَلَا أَمَانِي أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، ثم ابتداء الخبر الصادق بقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾، وجاء هذا اللفظ عاماً في كل سوء فاندرج تحت عمومه الفريقان المذكوران.

واختلف المتأولون في تعميم لفظ هذا الخبر - فقال الحسن بن أبي الحسن: هذه الآية في الكافر، وقرأ: ﴿وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَافِرَ﴾، قال: والآية يعني بها الكفار، ولا يعني بها أهل الصلاة، وقال: والله ما جازى الله أحداً بالخير والشر إلا عذبه، ولكنه يغفر ذنوب المؤمنين، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ يعني بذلك اليهود والنصارى والمجوس وكفار العرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا تخصيص للفظ الآية، ورأي

هؤلاء أن الكافر يجزى على كل سوء يعمله، وأن المؤمن قد وعده الله تكفير سيئاته. وقال ابن عباس، وسعيد بن جبير: قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا﴾ معناه: مَنْ يَكْ مُشْرِكًا، والسوء هنا: الشرك، فهو تخصيص لعموم اللفظ من جهة أخرى، لأن أولئك خَصُّوا لفظ [مَنْ]، وهذان خَصُّوا لفظ (السوء). وقال جمهور الناس: لفظ الآية عام، والكافر والمؤمن مجازى بالسوء يعمله، فأما مجازاة الكافر فالنار، لأن كفره أوبقه، وأما المؤمن فبنكبات الدنيا. قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لما نزلت: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَى بِهِ﴾ قلت: يا رسول الله - ما أشد هذه الآية، فقال: «يا أبا بكر، أما تحزن؟ أما تمرض؟ أما تصيبك اللأواء؟ فهذا بذلك»، وقال عطاء بن أبي رباح: لما نزلت هذه الآية قال أبو بكر: جاءت قاصمة الظهر، فقال النبي ﷺ: «إنما هي المصيبات في الدنيا». وقالت بمثل هذا التأويل عائشة رضي الله عنها، وقال أبي بن كعب - وسأله الربيع بن زياد عن معنى الآية وكأنه خافها - فقال له أبي: ما كنت أظنك إلا أفتقه مما أرى، ما يصيب الرجل خدش ولا غيره إلا بذنب، وما يعفو الله عنه أكثر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمقيدة في هذا أن الكافر مجازى، والمؤمن يجازى في الدنيا غالباً، فمن بقي له سوء إلى الآخرة فهو في المشيئة، يغفر الله لمن يشاء، ويجازى من يشاء.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يُجِذْ﴾ بالجزم عطفاً على: ﴿يُجْزَى﴾، وروى ابن بكار عن ابن عامر: ﴿وَلَا يُجِذْ﴾ بالرفع على القطع، وقوله: ﴿مَنْ دُونَ اللَّهِ﴾ لفظة تقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة، ويفسرهما بعض المفسرين بـ (غير)، وهو تفسير لا يطرد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ﴾ دخلت ﴿وَمَنْ﴾ للتبعض، إذ الصالحات على الكمال مما لا يطيقه البشر، ففي هذا رفق بالعباد، لكن في هذا البعض الفرائض، وما أمكن من المنادوب إليه، ثم قيد الأمر بالإيمان إذ لا ينفع عمل دونه، وحكى الطبري عن قوم أن [مِنْ] زائدة، وضعفه كما هو ضعيف. وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾ بفتح الباء وضم الخاء، وكذلك حيث جاء من القرآن، وروى مثل هذا عن عاصم، وقرأ أبو عمرو في هذه الآية، وفي (مريم) و (الملائكة)، وفي (المؤمن): ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بضم الباء وفتح الخاء، وقرأ بفتح الباء من ﴿سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ﴾.

والنقير: النكتة التي في ظهر نواة التمرة، ومنه تنبت، وروى عاصم: النقير ما تنقره بإصبعك، وهذا كله مثال للحقير اليسير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهنا كمل الرد على أهل الأماني والإخبار بحقيقة الأمر.

ثم أخبر تعالى إخباراً موافقاً على أنه لا أحسن ديناً ممن أسلم

الدميمة الفقيرة أبداً، والدميمة الغنية حتى تموت فيرثها العاضل، ونحو هذا مما يقصد به الولي منفعة نفسه، لا نفع اليتيمة، والذي كتب الله لهُنُّ: هو توفية ما تستحقه من مهر، وإلحاقها بأقرانها.

وقرأ أبو عبدالله المدني: ﴿فِي يَمَامَى النِّسَاءِ﴾ بياءً، قال أبو الفتح: والقول في هذه القراءة أنه أراد (أيامى) فقلبت الهمزة ياءً، كما قُلبت في قولهم: «باهلة بن يعصر»، وإنما هو «ابن أعصر» لأنه إنما يُسمى بقوله:

أَبَيْتِي إِنْ أَبَاكَ غَيْرَ لَوْنَهُ
كُرَّ اللَّيَالِي وَاخْتِلَافُ الْأَعْصُرِ
وكما قلبت الياء همزة في قولهم: «قطع الله أذه»، يريدون: «يذه»، وأيامى: جمع أيام، أصله: أياميم، فقلبت اللام موضع العين فجاء: أيامي، ثم أبدلت من الكسرة فتحة، ومن الياء ألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن الداعي إلى هذا استئصال الضمة على الياء، قال أبو الفتح: ولو قال قائل: كُسِرَ أَيِّمٌ عَلَى أَيِّمِي عَلَى وَزْنِ سَكْرِي وَقَتْلَى مِنْ حَيْثُ الْأَيُّومَةُ بِلِيَّةٍ تَدْخُلُ كَرهًا، ثُمَّ كُسِرَ أَيِّمِي عَلَى أَيِّمِي - لكان وجهاً حسناً.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَّوْبُونَ﴾، إن كانت الجارية غنية جميلة فالرغبة في نكاحها، وإن كانت بالعكس فالرغبة عن نكاحها. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يأخذ الناس بالدرجة الفضلى في هذا المعنى، فكان إذا سأل الولي

وتبيين الجادة منه - ترغيباً في طاعة الله، والانتطاع إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَسَتَقُونَكُمْ﴾، نزلت بسبب سؤال قوم من الصحابة عن أمر النساء وأحكامهن في الموارث وغير ذلك، فأمر الله نبيه أن يقول لهم: ﴿اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ﴾، أي: يُبين لكم حكم ما سألتكم عنه. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْتَلِ عَلَيْكُمْ﴾، يحتمل ﴿وَمَا﴾ أن تكون في موضع خفض عطفاً على الضمير في قوله: ﴿فِيهِنَّ﴾، أي: ويُفتيكم فيما يُنتلى عليكم، قاله محمد بن أبي موسى، وقال: أفناهم الله فيما سألوا عنه، وفيما لم يسألوا عنه، ويضعف هذا التأويل ما فيه من العطف على الضمير المخفوض بغير إعادة حرف الخفض. ويحتمل أن تكون ﴿وَمَا﴾ في موضع رفع عطفاً على اسم الله عز وجل، أي: ويُفتيكم ما يُنتلى عليكم في الكتاب، يعني القرآن، والإشارة بهذا إلى ما تقدم من الآيات في أمر النساء، وهو قوله تعالى في صدر السورة ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَقْضُوا فِي الْيَمِينِ فَأَنْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنْهُنَّ﴾ الآية، قالت عائشة رضي الله عنها: نزلت هذه الآية أولاً، ثم سأل ناس بعدها رسول الله ﷺ عن أمر النساء فنزلت: ﴿وَسَتَقُونَكُمْ فِي النِّسَاءِ﴾، أي: يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يَنْتَلِ عَلَيْكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿فِي يَمَامَى النِّسَاءِ﴾، أي: في يمامى النساء، أي: لا تؤتونهنَّ ما كُتِبَ لهنَّ، معناه النهي عما كانت العرب تفعله من ضمِّ اليتيمة الجميلة الغنية بدون ما تستحقه من المهر، ومن عضل

وجهه لله، أي: أخلص مقصده وتوجَّهه، وأحسن في أعماله، واتبع الحنيفية التي هي ملة إبراهيم، إمام العالم، وقدوة أهل الأديان، ثم لما ذكر الله تعالى إبراهيم بأنه الذي يجب اتباعه شرفه بذكر الخلَّة، وإبراهيم ﷺ خليلاً إذ كان خلوصه وعبادته واجتهاده على الغاية التي يجري إليها المحب المبالغ، وكان لطف الله به، ورحمته ونصرتُه له، بحسب ذلك.

وذهب قوم إلى أن إبراهيم سُمِّي خليلاً من الخلَّة، بفتح الخاء أي: لأنه أنزل خلَّته وفاقته بالله تعالى، وقال قوم: سُمِّي خليلاً لأنه - فيما روي في الحديث - جاء من عند خليل كان له بمصر، وقد حرمه الميرة التي قصد لها، فلما قرب من منزله ملأ غرارتيه رملاً ليتأنس بذلك صبيته، فلما دخل منزله نام كلالاً وهماً، فقامت امرأته وفتحت الغرارة فوجدت أحسن ما يكون من الحوار، فعجنت منه، فلما انتبه قال: ما هذا؟ قالت: من الدقيق الذي سقت من عند خليلك المصري: فقال: بل هو من عند خليلي الله تعالى، فسمي بذلك خليلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ضعف، ولا تقتضي هذه القصة أن يُسمى بذلك اسماً غالباً، وإنما هو شيء شرفه الله به، كما شرف محمداً ﷺ، فقد صح في كتاب مسلم وغيره: أن الله اتخذ خليلاً.

(١٢٦) - (١٢٧) تفسير قوله تعالى:

ذكر الله عزَّ وجلَّ سَعَةً مُلْكِهِ، وإحاطته بكل شيء عقب ذكر الدين

على الصبر على الأثرة. فهذا كله مباح.

واختلف المفسرون في سبب الآية - فقال ابن عباس، وجماعة معه: نزلت في النبي ﷺ وسودة بنت زمعة، حدث الطبري بسند عن ابن عباس قال: خشيت سودة أن يطلقها رسول الله ﷺ فقالت: لا تطلقني،

واحسني مع نسائك، ولا تقسم لي، ففعل، فنزلت: ﴿وَإِنَّ امْرَأَةً حَاثَتْ مِنْ بَعْلِهَا ثُورًا آوَىٰ إِلَىٰ عَرَصٍ﴾ الآية، وفي المصنفات أن سودة لما كبرت وهبت يومها لعائشة، وهذا نحو الأول، وقال سعيد بن المسيب، وسليمان بن يسار، وعبيدة السلماني، وغيرهم: نزلت الآية بسبب رافع بن خديج، وخولة بنت محمد بن مسلمة، وذلك أنه خلا من سنها فتزوج عليها شابة، فأثر الشابة فلم تصبر هي فطلقها طلقه، ثم تراجع فعاد فأثر الشابة فلم تصبر هي فطلقها أخرى، فلما بقي من العدة يسير قال لها: إن شئت راجعتك وصبرت على الأثرة، وإن شئت تركتك حتى يخلو أجلك، قالت: بل راجعني وأصبر، فراجعها فأثر الشابة فلم تصبر، فقال: إنما هي واحدة، فإما أن تقري على ما ترين من الأثرة وإلا طلقتك، فقررت، فهذا هو الصلح الذي أنزل الله فيه: ﴿وَإِنَّ امْرَأَةً حَاثَتْ﴾ الآية.

وقال مجاهد: نزلت الآية بسبب أبي السنابل بن بعكك وامرأته.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يُضَالِحًا﴾ بفتح الياء وشد الصاد وألف بعدها، وأصلها:

تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ إِيَّاهُ غَيْرَ ذَلِكَ﴾ إلى غير ذلك مما ذكر في مال اليتيم، والقسط: العدل، وباقى الآية وعد على فعل الخير بالجزء الجميل بين.

تفسير قوله ﴿١٢٨﴾ - ﴿١٢٩﴾

هذه الآية حكم من الله تعالى في أمر المرأة التي تكون ذات سن ودمامة، أو نحو ذلك مما يرغب زوجها عنها، فيذهب الزوج إلى طلاقها، أو إلى إثارة شابة عليها، ونحو هذا مما يقصد به صلاح نفسه، ولا يضرها هي

ضرراً يلزمه إياها، بل يعرض عليها الفرقة، أو الصبر على الأثرة، فتريد هي بقاء العصمة، فهذه التي أباح الله تعالى بينهما الصلح، ورفع الجناح فيه، إذ الجناح في كل صلح يكون عن ضرر من الزوج يفعل حتى تعالجه، وأباح الله تعالى الصلح مع الخوف، وظهور علامات النشوز أو الإعراض، وهو - مع وقوعها - مباح أيضاً.

والنشوز: الارتفاع بالنفس عن رتبة حسن العشرة. والإعراض: أخف من النشوز.

وأشأن الصلح كلها مباحة في هذه النازلة - أن يعطى الزوج على أن تصبر هي، أو تعطى هي على ألا يؤثر الزوج، أو على أن يؤثر ويتمسك بالعصمة، أو يقع الصلح

وإن امرأة خافت من بعلها ثوراً أو إعراصاً فلا جناح عليهما أن يصلحا بينهما صلحاً والصلح خير وأحضرت الأنفس الشح وإن تحسنوا وتتقوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً ﴿١٢٨﴾ وإن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم فلا تبيحوا لكل الميسل فتدروها كالمعلقة وإن تصلحوا وتتقوا فإن الله كان عفواً رحيماً ﴿١٢٩﴾ وإن يقرقا عين الله كلاً من سعيته وكان الله واسعاً حكيماً ﴿١٣٠﴾ والله مافي السموات وما في الأرض ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله وإن تكفروا فإن لله مافي السموات وما في الأرض وكان الله غنياً حميداً ﴿١٣١﴾ والله مافي السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴿١٣٢﴾ إن يتأيد بهبكم أيها الناس ويأت يتأخرون وكان الله على ذلك قديراً ﴿١٣٣﴾ من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة وكان الله سميعاً بصيراً ﴿١٣٤﴾

عن وليته فقيل: هي غنية جميلة، قال له: اطلب لها من هو خير منك وأعود عليها بالنفع. وإذا قيل له: هي دميمة فقيرة قال له: أنت أولى بها وبالستر عليها من غيرك.

وقوله تعالى: ﴿وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الَّذِينَ﴾ عطف على: ﴿يَتَنَكَّ﴾ النساء، والذي تلي في المستضعفين من الولدان هو قوله تعالى: ﴿يَوْمِئِذٍ﴾ الله في أولئككم، وذلك أن العرب كانت لا تورث الصبي ولا الصبي الصغير، وكان الكبير ينفرد بالمال، وكانوا يقولون: إنما يرث المال من يحمي الحوزة، ويرد الغنيمة، ويقاقل عن الحریم، ففرض الله لكل أحد حقه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ تَقُومُوا لِلنَّكاحِ بِالْقِسْطِ﴾ عطف أيضاً على ما تقدم، والذي تلي في هذا المعنى هو قوله

تَقْيِيدِهِ، فقد أثبت أن لكل نفس شحاً، وقول النبي ﷺ: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ شَيْءٍ»، وهذا ما لم يُرد به واحداً بعينه، وليس يجمل أن يقال هنا: «أَنْ تَصَدَّقَ وَأَنْتَ صَاحِبُ بَخِيلٍ».

وقوله تعالى: «وَإِنْ تُحْسِنُوا» نذب إلى الإحسان في تحسين العشرة، وحمل أخلاق الزوجة، والصبر على ما يكره من حالها، وتمكن النذب إلى الإحسان من حيث للزوج أن يشح فلا يحسن. «وَتَتَّقُوا» معناه: تتقوا الله في وصيته بالنساء، إذ هن عوان عند الأزواج حسبما فسره النبي ﷺ بقوله: «استوصوا بالنساء خيراً فإنهن عوان عندكم».

وقوله تعالى: «وَلَنْ نَسْتَطِيعُوا أَنْ تَقْدُوا بَيْنَ يَدَيْهِ» الآية، معناه: العدل التام على الإطلاق، المستوي في الأفعال والأقوال والمحبة والجماع وغير ذلك، وكان رسول الله ﷺ يقيم بين نسائه، ثم يقول: «اللَّهُمَّ هَذَا فِعْلِي فِيمَا أَمَلَكَهُ، فَلَا تَوَاضَعْنِي فِيمَا تَمَلَكَ وَلَا أَمَلَكَ»، يعني ميله بقلبه. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «اللَّهُمَّ قلبي فلا أملك، وأما ما سوى ذلك فأرجو أن أعدل». وروي أن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ وميله بقلبه إلى عائشة رضي الله عنها، فوصف الله تعالى حالة البشر، وأنهم بحكم الخلفة لا يملكون ميل قلوبهم إلى بعض الأزواج دون بعض، ونشاطهم إليهن، وبشرهم معهن، ثم نهى عن الميل كل الميل، وهو أن

وقوله تعالى: «وَالصُّلْحُ خَيْرٌ» لفظ عام مطلق يقتضي أن الصلح الحقيقي الذي تسكن إليه النفوس، ويزول به الخلاف خير على الطلاق، ويندرج تحت هذا العموم أن صلح الزوجين - على ما ذكرنا - خير من الفُرقة.

وقوله تعالى: «وَأَخْيَرِيَّتِي الْأَنْفُسُ الْأَشْحَى» معذرة عن عبده تعالى، أي: لا بد للإنسان بحكم خلقته وجبليته من أن يشح على إرادته حتى يحمل صاحبه على بعض ما يكره، وخصص المفسرون هذه اللفظة - هنا - فقال ابن جبير: هو شح المرأة بالنفقة من زوجها ويقسمه لها أيامها، وقال ابن زيد: الشح هنا منه ومنها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أحسن، «فإن الغالب على المرأة الشح بنصيبها من زوجها، والغالب على الزوج الشح بنصيبه من الشابة».

والشح: الضبط على المعتقدات والإرادات، والههم والأموال ونحو ذلك، فما أفرط منها ففيه بعض المذمة، وهو الذي قال تعالى فيه: «وَمَنْ يُوَقِّ شَيْءٌ نَفْسِهِ»، وما صار إلى حيز منع الحقوق الشرعية أو التي تقتضيها المروءة فهو البخل، وهي رذيلة، ولكنها قد تكون في المؤمن، ومنه الحديث: (قيل: يا رسول الله، أياكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم»)، وأما الشح ففي كل أحد لكن لا يُفْرِطُ إلا على الدين، وبذلك على أن الشح في كل أحد قوله تعالى: «وَأَخْيَرِيَّتِي الْأَنْفُسُ الْأَشْحَى»، وقوله: «شَحٌّ

يتصلحها، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: «يُصْلِحًا» بضم الياء وسكون الصاد دون ألف، وقرأ عبيدة السلماني: «يُصَالِحًا» بضم الياء من المفاعلة. وقرأ الجحدري، وثمان البتي: «يُصْلِحًا» بفتح الياء وشد الصاد، أصلها: يَضْلِحُهَا. قال أبو الفتح: أبدل الطاء صاداً، ثم أدغم فيها الصاد التي هي فاء فصارت: يَصْلِحُهَا، وقرأ الأعمش: «إِنْ أَصَالِحًا». وكذلك هي في قراءة ابن مسعود.

وقوله: «صُلْحًا» ليس الصلح مصدرًا على واحد من هذه الأفعال التي قرئ بها، فالذي يحتمل أن يكون اسماً كالعطاء مع أعطيت، والكرامة مع أكرمت، فمن قرأ «يُصْلِحًا» كان تعدية إلى الصلح كتعدية إلى الأسماء، كما تقول: أصلحت ثوباً، ومن قرأ: «يُصَالِحًا» من تفاعل، وعُرف تفاعل أنه لا يتعدى، فوجهه أن تفاعل قد جاء متعدياً في نحو قول ذي الرمة:

وَمِنْ جَرْدَةِ غُفْلٍ بَسَاطٍ تَحَاسَنَتْ
بِهَا الْوَشْيِ قَرَأَتْ الرِّيَّاحُ وَخَوَّرَهَا
ويجوز أن يكون الصلح مصدرًا حذف زوائده كما قال:

وإن تهلك فذلك كأن قذري
أي: تقديري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا كلام أبي علي، على أن القدر مصدر جارٍ على أن قَدَرْتُ الأمر بمعنى قَدَرْتُ بالتشديد.

يفعل فعلاً يقصده من التفضيل وهو يقدر ألا يفعله، فهذا هو كل الميل وإن كان في أمرٍ حقير، فكأن الكلام: ولا تميلوا النوع الذي هو كل الميل، وهو المقصود من قول أو فعل.

وقوله تعالى: ﴿تَدْرُوهَا كَالْمُلْقَةِ﴾ أي: لا هي أيم ولا ذات زوج، وهذا تشبيه بالشيء المعلق من شيء، لأنه لا على الأرض استقر، ولا على ما علق منه انحمل، وهذا مطرد في قولهم في المثل: «الارض من المزكب بالتعليق»، وفي عرف النحويين في تعليق الفعل، ومنه في حديث أم زرع قول المرأة: (زوجي العشتق، إن أنطق أطلق، وإن أسكت أعلق).

وقرأ أبي بن كعب: ﴿تَدْرُوهَا كَالْمَسْجُوتَةِ﴾، وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿تَدْرُوهَا كَأَنَّهَا مُعْلَقَةٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصْلِحُوا وَتَتَّقُوا﴾ أي: وإن تلتزموا بما يلزمكم من العدل فيما تملكون، ﴿فَإِنَّكَ اللَّهُ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا﴾ لما لا تملكونه، متجاوزاً عنه، وقال الطبري: معنى الآية: غفوراً لما سلف منكم من الميل كل الميل قبل نزول الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا فهي مغفرةٌ مُخَصَّصَةٌ لقوم بأعيانهم، واقعوا المحذور في مدة النبي ﷺ.

وجاء في التسي قنبل: ﴿وَإِنْ تَحْسَبُوا﴾ وفي هذه: ﴿وَإِنْ تَصْلِحُوا﴾ لأن الأول في مندوب إليه، وهذه

في لازم، لأن الرجل له هناك ألا يُحسن، وأن يشح ويصالح بما يرضيه، وفي هذه ليس له ألا يصلح، بل يلزمه العدل فيما يملك.

﴿١٣٢﴾ - ﴿١٣٣﴾ تفسير قوله تعالى:

الضمير في قوله: ﴿يَتَفَرَّقَا﴾ للزوجين اللذين تقدم ذكرهما، أي: إن شخ كل واحد منهما فلم يتصالحا لكنهما تفرقا بطلاق، فإن الله تعالى يُغني كل واحد منهما عن صاحبه بفضلهِ ولطائف صنعه، في المال والعشرة والسعة وجود المرادات والتمكن منها. وذهب بعض الفقهاء المالكيين إلى أن التفرق في هذه الآية هو بالقول، إذ الطلاق قول، واحتج بهذه على قول النبي ﷺ: «البيعان بالخيار ما لم يتفرقا»، إذ مذهب مالك في الحديث أنه التفرق بالقول لا بالبدن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا حجة في هذه الآية، لأن إخبارها إنما هو عن افتراقهما بالأبدان، وتراخي المدة بزوال العصمة، والإغناء إنما يقع في ثاني حال، ولو كانت الفرقة في الآية الطلاق لما كان للمرأة فيها نصيبٌ يوجب ظهور ضميرها في الفعل، وهذه بُدئة من المعارضة في المسألة، والواسع معناه: الذي عنده خزائن كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا فِي الْأَرْضِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيه على موضع الرجاء لهذين المفتقرين، ثم جاء بعد ذلك قوله: ﴿وَإِنْ تَكَفَّرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي

السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تنبيهاً على استغناؤه عن العباد، ومقدمة للخبر بكونه ﴿غَنِيًّا حَمِيدًا﴾. ثم جاء بعد ذلك قوله: ﴿وَلَا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ مقدمة للوعيد، فهذه وجوه تكرر هذا الخبر الواحد ثلاث مرات متقاربة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ لفظ عام لكل من أوتي كتاباً، فإن وصية الله عباده بالقوى لم تزل منذ أوجدهم. والوكيل: القائم بالأمر، المنفذ فيها ما رآه.

وقوله تعالى: ﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مخاطبة للحاضرين من العرب، وتوقيف للسامعين لتحضر أذهانهم، وقوله: ﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ يريد: من نوعكم، وروي عن أبي هريرة أنه لما نزلت هذه الآية ضرب رسول الله ﷺ بيده على كتف سلمان الفارسي وقال: هم قوم هذا وتحتمل ألفاظ الآية أن تكون وعيداً لجميع بني آدم، ويكون الآخرون من غير نوعهم كما قد روي أنه كان في الأرض ملائكة يعبدون الله قبل بني آدم، وقدرة الله تعالى على ما ذكر تقضي بها العقول ببدائنها. وقال الطبري: هذا الوعيد والتوبيخ هو للقوم الذين شفعوا في طعمة بن أبيرق، وخاصموا عنه في أمر خيانتته في الدرغ والديق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل بعيد، واللفظ إنما يظهر حُسن رصفه بعمومه وانسحابه على العالم جملة، أو العالم الحاضر.

﴿١٣٤﴾ - ﴿١٣٥﴾ تفسير قوله تعالى:

أي: من كان لا مراد له إلا في ثواب الدنيا، ولا يعتقد أن ثم سواه، فليس هو كما ظن، بل عند الله ثواب الدارين، فمن قصد الآخرة أعطاه الله من ثواب الدنيا، وأعطاه قصده، ومن قصد الدنيا فقط أعطاه من الدنيا ما قدر له، وكان له في الآخرة العذاب، والله تعالى سميع للأقوال، بصير بالأعمال والنيات.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بقوله: ﴿كُونُوا قَوَّيِينَ﴾ الآية، وهذا بناء مبالغة، أي: ليتكرر منكم القيام ﴿بِالْقِسْطِ﴾، وهو العدل، وقوله: ﴿شَهَادَةً﴾ نصب على خبر بعد الخبر، والحال فيه ضعيفة في المعنى، لأنها تخصيص القيام بالقسط إلى معنى الشهادة فقط، وقوله: ﴿لِلَّهِ﴾ المعنى: لذات الله، ولوجهه ولمرضاته. وقوله: ﴿وَلَوْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ﴾ متعلق بـ ﴿شَهَادَةً﴾. هذا هو الظاهر الذي فسر عليه الناس، وإن هذه الشهادة المذكورة هي في الحقوق.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿شَهَادَةً لِلَّهِ﴾ معناه: بالوحدانية، ويتعلق بقوله: ﴿وَلَوْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ﴾ بـ ﴿قَوَّيِينَ بِالْقِسْطِ﴾، والتأويل الأول أئين.

وشهادة المرء على نفسه: إقراره بالحقائق وقوله الحق في كل أمر، وقيامه بالقسط عليها كذلك، ثم ذكر الوالدين لوجوب برهما وعظم قدرهما، ثم ثنى بالأقربين إذ هم مظنة المودة والتعصب، فجاء الأجنبي من الناس أخرى أن يُقام بالقسط ويُشهد عليه، وهذه الآية إنما

تضمنت الشهادة على القرابة، فلا معنى لتفقه منها في الشهادة لهم كما فعل بعض المفسرين، ولا خلاف بين أهل العلم في صحة أحكام هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ معناه: إن يكن المشهود عليه غنياً فلا يراعى لغناه، ولا يخاف منه، وإن يكن فقيراً فلا يراعى إشفاقاً عليه، فإن الله تعالى أولى بالنوعين وأهل الحالين. والغني والفقير اسما جنس، فلذلك ثني

الضمير في قوله: ﴿بِهِمَا﴾ وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا﴾ على الجمع، وقال الطبري: ثني الضمير لأن المعنى: فالله أولى بهذين المعنيين، غني الغني، وقر الفقير، أي: وهو أنظر فهما، وقد حدّ حدوداً، وجعل لكل ذي حق حقه. وقال قوم: [أَوْ] بمعنى (الواو)، وفي هذا ضعف.

وذكر السدي أن هذه الآية نزلت في النبي ﷺ: احتصم إليه غني وفقير، فكان في ضلع الفقير، علماً منه أن الغني أحرى أن يظلم الفقير، فأبى الله إلا أن يقوم بالقسط بين الغني والفقير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وارتبط هذا الأمر على ما قال النبي ﷺ: «فأقضي له على نحو ما أسمع»، أما إنه قد أبيح للحاكم أن

يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّيِينَ بِالْقِسْطِ شَهَادَةً لِلَّهِ وَلَوْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ أَوِّلَادِينَ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلَوُّهُ أَوْ نَعَسُوا إِنْ كَانَ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرًا لِّبَنِيكُمْ يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا بِمَا هُوَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ أَدَّوْا كُفْرًا لَا يَكُنِ اللَّهُ لِيُغْفِرَهُمْ وَلَا لِيُعَذِّبَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٤﴾ بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٥﴾ الَّذِينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ أَلْيَبْتُغُونَ عَنْهُمْ الزُّلْمَةَ فَإِنَّ الزُّلْمَةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٦﴾ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتَ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَعْدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ تَخْرُجُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرٍ وَإِن كُنَّا لَأَشِدُّوا عَلَيْكُمْ إِذْ نُنزِّلُ الْآيَاتَ لِيُنذِرَ لَكُمْ أَنْ تَكُونُوا مِنَ الْمُكْفِرِينَ ﴿١٣٧﴾

يكون في ضلع الضعيف بأن يتخذ له المقالات، ويشد على عضده، ويقول له: قل حجتك مديلاً، وبنهه تنبيهاً لا يفت في عضد الآخر، ولا يكون تعليم خصام، هكذا هي الرواية عن أشهب وغيره. وذكر الطبري أن هذه الآية هي بسبب نازلة طعمة بن أبيرق، وقيام من قام في أمره بغير القسط.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ﴾ نهي بين، واتباع الهوى مرذئ مهلك. وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَعْدِلُوا﴾ يحتمل أن يكون معناه: مخافة أن تعدلوا، ويكون العدل هنا بمعنى: العدل عن الحق، ويحتمل أن يكون معناه: محبة أن تعدلوا، ويكون العدل بمعنى: القسط، كأنه قال: انتهوا خوف أن تجوروا، أو: محبة أن تقسطوا، فإن جعلت العامل:

﴿تَتَّبِعُوا﴾ فيحتمل أن يكون المعنى: محبة أن تجوروا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَلَّوْا أَوْ تُعْرَضُوا﴾ قال ابن عباس: هو في الخصمين يجلسان بين يدي القاضي، فيكون لئى القاضي وإعراضه لأحدهما على الآخر، فاللئى - على هذا - مطلق الكلام وجزه حتى يفوت فصل القضاء وإنفاذه للذي يميل القاضي عليه، وقد شاهدت بعض القضاة يفعلون ذلك، والله حسيب الكل. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وقتادة، والسدي، وابن زيد، وغيرهم: هي في الشاهد، يلوي الشهادة بلسانه ويحرفها، فلا يقول الحق فيها، أو يعرض عن أداء الحق فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظ الآية يعم القضاء والشهادة والتوسط بين الناس، وكل إنسان مأخوذ بأن يعدل، والخصوم مطلوبون يعدل ما في القضاء فتأمله.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَلَّوْا﴾ بواو، من: لوى يلوي على حسب ما فسره، وقرأ حمزة، وابن عامر، وجماعة في الشاذ: ﴿وَإِنْ تَلَّوْا﴾ بضم اللام وواو واحدة، وذلك يحتمل أن يكون أصله: (تَلَّوْا) على القراءة الأولى، هُجِزَتْ الواو المضمومة كما همزت في (أدوؤ)، وألقيت حركتها على اللام التي هي فاء (لوى)، ثم حذف لاجتماع ساكنين. ويحتمل أن تكون [تَلَّوْا] من قولك: ولي الرجل الأمر، فيكون في الطرف الآخر من ﴿تُعْرَضُوا﴾، كأنه قال تعالى للشهود

وغيرهم: وإن وليتم الأمر أو أعرضتم عنه فإله خبير بفعلكم ومقصدكم فيه، فالولاية والإعراض طرفان، واللئى والإعراض في طريق واحد، وباقي الآية وعيد.

﴿١٣٧﴾ - ﴿١٣٦﴾ تفسير قوله تعالى:

اختلف الناس فيمن خوطب بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ﴾ - فقالت فرقة: الخطاب لمن آمن بموسى وعيسى من أهل الكتابين، أي: يا من قد آمن بنبي من الأنبياء آمين بمحمد عليه الصلاة والسلام، ورجح الطبري هذا القول. وقيل: الخطاب للمؤمنين على معنى: ليكن إيمانكم هكذا على الكمال والتوفية بالله تعالى، وبمحمد عليه الصلاة والسلام، وبالقرآن وسائر الكتب المنزلة، ومضمن هذا الأمر الثبوت والدوام. وقيل: الخطاب للمنافقين، أي: يا أيها الذين أظهروا الإيمان بألسنتهم، لكن إيمانكم حقيقة على هذه الصورة.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر: ﴿نَزَّلَ﴾ بضم النون وكسر الزاي المشددة على ما لم يُسَمَّ فاعله، وكذلك قرؤوا: ﴿وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ﴾ بضم الهمزة وكسر الزاي على ما لم يُسَمَّ فاعله، وقرأ الباقون: ﴿نَزَّلَ﴾ و ﴿أَنْزَلَ﴾ بفتح النون والزاي ويفتح الهمزة في [أنزل] على إسناد الفعل إلى الله تعالى، وروي عن عاصم مثل قراءة أبي عمرو. والكتاب المذكور أولاً هو القرآن، والمذكور ثانياً هو اسم جنس لكل ما نزل من الكتاب. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ﴾ إلى

آخر الآية وعيد وخبر مُضمنة تحذير المؤمنين من حالة الكفر.

واختلف المتأولون في المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا﴾ - فقالت طائفة منهم قتادة وأبو العالية: الآية في اليهود والنصارى، آمنت اليهود بموسى والتوراة ثم كفروا، وآمنت النصارى بعيسى والإنجيل ثم كفروا، ثم ازدادوا كفراً بمحمد ﷺ، ورجح الطبري هذا القول، وقال الحسن بن أبي الحسن: الآية في الطائفة من أهل الكتاب التي قالت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَجَّهَ النَّهَارَ وَآكُفُّوا أَعْيُنَكُمْ﴾، وقال مجاهد، وابن زيد: الآية في المنافقين، فإن منهم من كان يؤمن ثم يكفر، ثم يؤمن ثم يكفر، يتردد في ذلك، فنزلت هذه الآية فيمن ازداد كفراً بأن تم على نفاقه حتى مات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو القول المترجح، وقول الحسن بن أبي الحسن جيد محتمل، وقول قتادة وأبي العالية وهو الذي رجح الطبري قول ضعيف، تدفعه ألفاظ الآية. وذلك أن الآية إنما هي في طائفة يتصف كل واحد منها بهذه الصفة من التردد بين الكفر والإيمان، ثم يزداد كفراً بالموافاة، واليهود والنصارى لم يترتب في واحد منهم إلا إيمان واحد وكفر واحد، وإنما يُتَخَيَّلُ فيهم الإيمان والكفر مع تلفيق الطوائف التي لم تتلاحق في زمان واحد، وليس هذا مقصد الآية. وإنما توجد هذه الصفة في شخص من المنافقين، لأن الرجل الواحد

الَّذِينَ يَرَبُّونَ يُكْفَرُ، ثم يوافي على الكفر، وتأمل قوله تعالى: ﴿لَنْ يَكُنَ اللَّهُ لِيُغْفِرَ لَهُمْ﴾ فإنها عبارة تقتضي أن هؤلاء محتوم عليهم من أول أمرهم، ولذلك ترددوا، وليست هذه العبارة مثل أن يقول: «لا يغفر الله لهم»، بل هي أشد. وهي مشيرة إلى استدراج من هذه حاله وإهلاكه، وهي عبارة تقتضي لسامعه أن يتنبه ويراجع قبل نفوذ الحتم عليه، وأن يكون من هؤلاء، وكل من كفر كفراً واحداً ووافي عليه فقد قال الله تعالى: «إنه لا يغفر له»، ولم يقل: «لم يكن الله ليغفر له»، فتأمل الفرق بين العبارتين فإنه من دقيق غرائب الفصاحة التي في كتاب الله تعالى، كأن قوله: ﴿لَنْ يَكُنِيَ اللَّهُ﴾ حُكْمٌ قد تقرر عليهم في الدنيا وهم أحياء.

(١٣٨) - (١٤٣) تفسير قوله تعالى:

في هذه الآية دليل ما على أن التي قبلها إنما هي في المنافقين كما ترجح أنفاً، وجاءت البشارة هنا مصرحاً بقيدها، فلذلك حسن استعمالها في المكروه، ومتى جاءت مُطْلَقَةً فإنما عرفها في المحبوب.

ثم نصّر تعالى من صفة المنافقين على أشدها ضرراً على المؤمنين، وهي موالاتهم الكفار واطراحهم المؤمنين، ونبه على فساد ذلك ليدعه من عسى أن يقع في نوع منه من المؤمنين غفلة أو جهالة أو مسامحة.

ثم وقف تعالى على جهة التوبيخ على مقصدهم في ذلك أمر طلب العزة والاستكثار بهم؟ أي: ليس الأمر كذلك، بل العزة كلها لله، يؤتيها من يشاء، وقد وعد بها

المؤمنين، وجعل العقابة للمتقين. والعزة أصلها: الشدة والقوة، ومنه: الأرض السزاز، أي: الصلبة، ومنه: عزني، أي: غلبني بشدته، واستعزّ المرض إذا قوي، إلى غير هذا من تصاريف اللفظة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ مخاطبة لجميع من أظهر الإيمان من محقق ومُناقق، لأنه إذا أظهر الإيمان فقد لزمه أن يمتثل أوامر كتاب الله تعالى، والإشارة بهذه الآية إلى قوله تعالى:

﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي مَائِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ إلى نحو هذا من الآيات.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نَزَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ بضم النون وكسر الزاي المشددة، قال الطبري: وقرأ بعض الكوفيين: ﴿نَزَّلَ﴾ بفتح النون والزاي المشددة، على معنى: نزل الله، وقرأ أبو حنيفة، وحميد: ﴿نَزَّلَ﴾ بفتح النون والزاي خفيفة، وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿أَنْزَلَ﴾ بألف على بناء الفعل للمفعول، والكتاب - في هذا الموضع - القرآن.

وفي هذه الآية دليل قوي على وجوب تجنب أهل البدع وأهل المعاصي، وألا يُجالسوا، وقد روي عن عمر بن عبدالعزيز أنه أخذ قوماً يشربون الخمر، فقبل له عن أحد الحاضرين: «إنه صائم» فحمل عليه

الأدب، وقرأ هذه الآية: ﴿لَنْ يَكُنِيَ إِذَا نَهَلَهُمْ﴾، وهذه المماثلة ليست في جميع الصفات، ولكنه إنزام شبه بحكم الظاهر من المقارنة، وهذا المعنى كقول الشاعر:

عَرِ الْعَمْرَةَ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمَقَارِنِ يَقْتَدِي
ثم توعد تعالى المنافقين والكافرين بجمعهم في جهنم، فتأكد بذلك النهي والحذر من مجالستهم وخلطتهم.

(١٣٧) - (١٣٨) تفسير قوله تعالى:

﴿الَّذِينَ﴾ صفة للمنافقين، و﴿يَرَبُّونَ﴾ معناه: ينتظرون دور الدوائر عليكم، فإن كان فتح للمؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يظهره من الإيمان، وإن كان للكافرين نيل من المؤمنين ادعوا فيه النصيب بحكم ما يبطونه من موالات الكفار، وهذا حال المنافقين.

و ﴿تَسْتَوِدُّ﴾ معناه: تغلب على أمركم، ونحو طمكم ونحامي أمركم، ومنه قول العجاج في صفة نور وبقر:

يَحُودُهُنَّ وَلَهُ حُودِي

أي يغلبهن على أمرهن، ويغلب الثيران عليهن، ويروي: «يحوزهن» بالزاي. ومن اللفظة قول لبيد في صفة غير وأتن.

إِذَا اجْتَمَعَتْ وَأُخُوذَ جَانِبَيْهَا
وَأُورِدَقَا عَلَى عُوجِ طِوَالِ
أَحُوذِ جَانِبَيْهَا: قهرها وغلب عليها. وقوله تعالى: ﴿أَسْتَوِدُّ عَلَيْهُرُ أَكْتَيْلُنُ﴾ معناه: غلب عليهم، وشذ هذا الفعل في أن لم تُعَلَّ واوه، بل استعملت على الأصل.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَمَتَّفَنَاكُمْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وقرأ ابن أبي عتبة: ﴿وَنَمْتَمَكُمُ﴾ بفتح العين على الصرف.

ثم سأل وأمس المؤمنين بما وعدهم به في قوله: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: وبينهم، وينصفكم من جميعهم، ولقوله: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾. وقال يُسْنِعُ الْحَضْرَمِي: كنت عند أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال له رجل: يا أمير المؤمنين، أرأيت قول الله تعالى: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ كيف ذلك وهم يقاتلوننا ويظهرون علينا أحياناً؟ فقال علي رضي الله عنه: معنى ذلك: يوم القيامة يكون الحكم، وبهذا قال جميع أهل التأويل.

والسبيل: الحجة والغلبة، ومخادعة

المنافقين هي لأولياء الله تعالى، إذ يظنونهم غير أولياء، ففي الكلام حذف المضاف، والزام ذنب اقتضته أفعالهم وإن كانت ثباتهم لم تقتضه، لأنه لا يقصد أحد من البشر مخادعة الله تعالى.

وقوله: ﴿وَهُوَ خَدِيعُهُمْ﴾ أي: منزل الخداع بهم، وهذه عبارة عن عقوبة سألها باسم الذنب، فعقوبتهم في الدنيا ذلهم وخوفهم وغم قلوبهم، وفي الآخرة عذاب جهنم، وقال السدي، وابن جريج، والحسن، وغيرهم من المفسرين: إن هذا الخدع هو أن الله تعالى يعطي لهذه الأمة يوم القيامة نوراً لكل إنسان مؤمن أو منافق، فيفرح المنافقون، ويظنون أنهم قد نجوا، فإذا جاءوا إلى الصراط طفيء نور كل منافق، ونهض المؤمنون بذلك، فذلك قول المنافقين: ﴿أَنْظَرُونَا نَقِيسَ مِنْ نُورِكُمْ﴾، وذلك هو الخدع الذي يجري على المنافقين. وقرأ مسلمة بن عبدالله النحوي: ﴿وَهُوَ خَادِيعُهُمْ﴾ بإسكان العين، وذلك على التخفيف.

ثم ذكر تعالى كسلهم في القيام إلى الصلاة، وتلك حال كل من يعمل العمل كارهاً غير معتقد فيه الصواب تقية أو مصانعة، وقرأ ابن هرمز الأعرج: ﴿كسالى﴾ بفتح الكاف، وقرأ جمهور الناس: ﴿يُرْوُونَ﴾ بهمز مضمومة مشددة بين الراء والواو دون ألف، وهي تعدية (رأى) بالتضعيف، وهي أقوى في المعنى من [يُرَاؤُونَ] لأن معناها: يحملون الناس على أن يَرَوْهم، ويتظاهرون لهم بالصلاة

وهم يظنون النفاق. وتقلبه ذكرهم يحتمل وجهين، قال الحسن: قل لأنه كان لغير الله، فهذا وجه، والثاني أنه قليل بالنسبة إلى خوضهم في الباطل وقولهم الزور والكفر.

و ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ معناه: مضطربين لا يشبتون على حال، والتذذب: الاضطراب بخجل أو خوف أو إسراع في مشي أو نحوه، ومنه قول النابغة:

تَرَى كُلَّ مَلِكٍ دُونَهَا يَتَذَذِبُ
ومنه قول الآخر:

خِيَالٌ لَأَمْ السُّلْسَبِيلِ وَدُونَهَا
مَسِيرَةٌ شَهْرٌ لِیْرِيدَ الْمُذَبِّبِ
بكسر الذال الثانية، قال أبو الفتح: أي: المهتز، القلق، الذي لا يثبت ولا يتمهل، فهؤلاء المنافقون مترددون بين الكفر والمؤمنين ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾. كما قال رسول الله ﷺ: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين»، فالإشارة بذلك إلى حالي الكفر والإيمان، وأشار إليه وإن لم يتقدم ذكر لظهور تضمن الكلام له، كما جاء: ﴿حَتَّى تَوَارَّتْ بِالْحِجَابِ﴾ و ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ بفتح الذال الأولى والثانية، وقرأ ابن عباس، وعمرو بن فائد: ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ بكسر الذال الثانية، وقرأ أبي بن كعب: ﴿مُتَذَبِّبِينَ﴾ بالتاء وكسر الذال الثانية، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿مُذَبِّبِينَ﴾ بفتح الميم والذالين. وهي قراءة مردودة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ يَجْعَلَ لِهِمْ سَبِيلًا﴾ معناه: سبيل هدى ولا رشاد.

﴿١٤٤﴾ - ﴿١٤٥﴾ تفسير قوله تعالى:

خطابه تعالى للمؤمنين يدخل فيه بحكم الظاهر المنافقون المظهرون للإيمان. ففي اللفظ رفق بهم، وهم المراد بقوله تعالى: ﴿أَتُرِيدُونَ أَنْ تَحْمِلُوا ثِقَلَكُمُ اللَّيْلَةَ كُلَّهَا سَامِلِينَ﴾ لأن التوقيف إنما هو لمن ألمَّ بشيء من الفعل المؤدي إلى هذه الحال. والمؤمنون المخلصون ما ألموا قط بشيء من ذلك، ويقوي هذا المنزاع قوله تعالى: ﴿مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: والمؤمنون العارفون المخلصون غيب عن هذه الموالاة، وهذا لا يقال للمؤمنين المخلصين، بل المعنى: يأيها الذين أظهروا الإيمان، والتزموا لوازمه.

والسلطان: الحجة، وهي لفظة تؤنث وتذكر، والتذكير أشهر، وهي لغة القرآن حيث وقع، والسلطان إذا سمي به صاحب الأمر فهو على حذف مضاف والتقدير: ذو السلطان، أي: ذو الحجة على الناس، إذ هو مدبرهم والناظر في منافعهم.

ثم أخبر تعالى عن المنافقين أنهم في الدرك الأسفل من نار جهنم، وهي أدراك بعضها فوق بعض سبعة، طبقة على طبقة، أعلاها هي جهنم، وقد يسمى جميعها باسم الطبقة العليا، فالمنافقون الذين يظهرون الإيمان ويؤمنون الكفر هم في أسفل طبقة من النار، لأنهم أسوأ غوائل من الكفار، وأشد تمكناً من أذى المسلمين.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿فِي الدَّرَكِ﴾ مفتوحة الراء، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب: ﴿فِي الدَّرَكِ﴾ بسكون الراء، واختلف عن عاصم،

فروى عنه الفتح والسكون، وهما لغتان، قال أبو علي: كالشَّمْع والشَّمْع، ونحوه. وروى عن أبي هريرة، وعن عبدالله بن مسعود، وغيرهما أنهم قالوا: المنافقون في الدرك الأسفل من النار في توابيت من النار تقفل عليهم، والنصير: بناء مبالغة من النصر.

ثم استثنى عز وجل الثانيين من المنافقين، ومن شروط التائب أن يصلح في قوله وفعله، ويعتصم بالله، أي: يجعله منعمته وملجأه، ويخلص دينه لله تعالى،

وإلا فليس بتائب، وقال حذيفة بن اليمان بحضرة عبدالله بن مسعود: «والله ليدخلن الجنة قوم كانوا منافقين»، فقال عبدالله بن مسعود: «وما علمك بذلك؟» فغضب حذيفة وتنحى، فلما تفرقوا مر به علقمة فدعاه وقال: أما إن صاحبكم يعلم الذي قلت، ثم تلا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَمَرُوا﴾ الآية، وأخبر الله تعالى أنهم مع المؤمنين في رحمة الله، وفي منازل الجنة، ثم وعد المؤمنين الأجر العظيم.

وحذفت الباء من [يُؤْتَب] في المصحف تخفيفاً، قال الزجاج: لسكونها وسكون اللام في ﴿أَقْرَبُ﴾، كما حذفت من قوله: ﴿يَوْمَ يَدْعُ السَّادِدُ﴾، وكذلك: ﴿سَنَعَتِ الرَّبَابِيَّةُ﴾، وأمثال هذا كثير، والأجر العظيم: التخليد في الجنة.

﴿١٤٤﴾ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوَى مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً عَلِيماً ﴿١٤٥﴾ إِنْ يُبَدُوا خَيْرًا أَوْ خَفَوْهُ أَوْ تَعَفَوْا عَنْ سُوءِ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا ﴿١٤٦﴾ إِنْ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ يُؤْيِدُونَ أَنْ يُفْرَقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَقُولُونَ نَحْنُ مُؤْمِنُونَ بِبَعْضٍ وَنُكْفَرُ بِبَعْضٍ وَهُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٤٧﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكٰفِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٤٨﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَمْ يُقِرُّوا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ أَوْلِيَاءَ لَهُمْ مِنَ الْكٰفِرِينَ أُولَئِكَ سَوَفَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مِمَّا كَانُوا اللَّهُ عَفُوًّا رَحِيمًا ﴿١٤٩﴾ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنزِلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرًا مِنْ ذَلِكَ قَوْلًا أَرَادَ اللَّهُ جَهَنَّمَ فَاخْتَدَتْهُمُ الصَّيْقَةُ لظُلْمَتِهِمْ ثُمَّ اتَّخَذُوا آلِ عِجْلٍ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْآيَاتُ فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ وَإِنَّا مُوسَى سُلْطٰنًا مُبِينًا ﴿١٥٠﴾ وَرَفَعْنَا فَوْقَهُمُ الطُّورَ بِمِثْقَلِ ذَرَّةٍ مِنْهَا وَكُنَّا نَحْنُ آدِحُونَ ﴿١٥١﴾ وَكُنَّا لَهُمْ لَاقِدُونَ فِي السَّنَاتِ وَأَخَذْنَا مِنْهُمُ يَتِيقًا غَلِيظًا ﴿١٥٢﴾

ثم قال تعالى للمنافقين: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَا يُبَدِّئُكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ﴾ الآية، أي: أي منفعة له في ذلك أو حاجة؟ والشكر على الحقيقة لا يكون إلا مقترناً بالإيمان، لكنه ذكر الإيمان تأكيداً وتنبهياً على جلاله موقعه، ثم وعد الله تعالى بقوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ أي: يتقبل أقل شيء من العمل ويُنميه، فذلك شكر منه لعباده، والشكور من البهائم الذي يأكل قليلاً ويظهر به بدنه، والعرب تقول في مثل: «أشكر من بَرَوَقَةٍ»، لأنها - يقال - تُخَضَّرُ وتنضُر بظل السحاب دون مطر، وفي قوله: ﴿عَلِيمًا﴾ تحذير وندب إلى الإخلاص.

﴿١٤٧﴾ - ﴿١٤٨﴾ تفسير قوله تعالى: المحبة في الشاهد إرادة يقترن بها استحسان وميل واعتقاد، فتكون

الأفعال الظاهرة من المحب بحسب ذلك، والجهر بالسوء من القول لا يكون من الله تعالى فيه شيء من ذلك، أما إنه يريد وقوع الواقع منه ولا يحبه هو في نفسه.

والجهر: كشف الشيء، ومنه الجَهْرَةُ في قول الله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ جَهْرَةً﴾، ومنه قولهم: «جهرت البثر» إذا حفرت حتى أخرجت ماءها. واختلف القراءة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾، وقراءة جمهور الناس بضم الظاء وكسر اللام، وقرأ ابن أبي إسحق، وزيد بن أسلم، والضحاك بن مزاحم، وابن عباس، وابن جبير، وعطاء بن السائب، وعبد الأعلى بن عبد الله بن مسلم بن يسار، ومسلم بن يسار، وغيرهم: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ بفتح الظاء واللام، واختلف المتأولون على القراءة بضم الظاء - فقالت فرقة: المعنى: لا يُحِبُّ اللهُ أَنْ يَجْهَرَ أَحَدٌ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ فَلَا يَكْرَهُ لَهُ الْجَهْرُ بِهِ، ثُمَّ اخْتَلَفَتْ هَذِهِ الْفِرْقَةُ فِي كَيْفِيَةِ الْجَهْرِ بِالسُّوءِ، وَمَا هُوَ الْمَبَاحُ مِنْ ذَلِكَ؟ - فقال الحسن: هو الرجل يظلم الرجل، فلا يدع عليه، ولكن ليقول: اللهم أعني عليه، اللهم استخرج لي حقي، اللهم خل بيني وبين ما يريد من ظلمي، وقال ابن عباس وغيره: المباح لمن ظلم أن يدعو على من ظلمه، وإن صبر فهو أحسن له، وقال مجاهد وغيره: هو في الضيف المحول رحله، فإنه يجهر للذي لم يكرمه بالسوء من القول،

فقد رخص له أن يقول فيه، وفي هذا نزلت الآية، ومقتضاها ذكر الظلم وتبيين الظلّامة في ضيافة وغيرها، وقال ابن عباس، والسدي: لا بأس لمن ظلم أن ينتصر ممن ظلمه بمثل ظلمه، ويجهر له بالسوء من القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه الأقوال على أربع مراتب:

قول الحسن - دعاء في المدافعة، وتلك أقل منازل السوء من القول.

وقول ابن عباس - الدعاء على الظالم بإطلاق في نوع الدعاء.

وقول مجاهد - ذكر الظلّامة والظلم.

وقول السدي - الانتصار بما يوازي الظلّامة.

وقال ابن المستنير: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ معناه: إلا من أكره على أن يجهر بسوء من القول كقرأ أو نحوه، فذلك مباح، والآية في الإكراه.

واختلف المتأولون على القراءة بفتح الظاء واللام - فقال ابن زيد: المعنى: إلا من ظلم في قول أو فعل فاجهروا له بالسوء من القول في معنى النهي عن فعله والتوبيخ والرد عليه، قال: وذلك أنه لما أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم في الدرك الأسفل من النار، كان ذلك جهراً بالسوء من القول، ثم قال لهم بعد ذلك: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِمَذْذِيبِكُمْ﴾ الآية، على معنى التأنيس والاستدعاء إلى الشكر والإيمان، ثم

قال للمؤمنين: لا يحب الله أن يجهر بالسوء من القول إلا لمن ظلم في إقامته على النفاق، فإنه يقال له: ألسنت المنافق الكافر الذي لك في الآخرة الدرك الأسفل؟ ونحو هذا من الأقوال. وقال قوم: معنى الكلام: لا يحب الله أن يجهر أحد بالسوء من القول، ثم استثنى استثناءً منقطعاً، تقديره: لكن من ظلم فهو يجهر بالسوء وهو ظالم في ذلك.

وإعراب ﴿مَنْ﴾ يحتمل في بعض هذه التأويلات النصب، ويحتمل الرفع على البدل من (أحد) المقدر، وسميع عليم: صفتان لاقتان بالجهر بالسوء وبالظلم أيضاً، فإنه يعلمه ويجازى عليه.

ولما ذكر تعالى عذر المظلوم في أن يجهر بالسوء لظالمه أتبع ذلك عرض إبداء الخير وإخفائه، والعمو عن السوء، وعَدَّ عليه بقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا﴾ وَعَدَّ إِخْفَاءَهُ تَقْتِضِيَةَ الْبَلَاغَةِ، وَرَغَبَ فِي الْعَفْوِ إِذْ ذَكَرَ أَنَّهَا صِفَتُهُ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى الْإِنْتِقَامِ، فِي هَذِهِ الْأَلْفَاظِ السَّيْرَةَ مَعَانَ كَثِيرَةً لِمَنْ تَأْمَلَهَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ إلى آخر الآية نزل في اليهود والنصارى، لأنهم في كفرهم بمحمد عليه الصلاة والسلام كأنهم قد كفروا بجميع الرسل، وكفرهم بالرسل كفر بالله، وفرقوا بين الله ورسله في أنهم قالوا: نحن نؤمن بالله ولا نؤمن بفلان وفلان من الأنبياء، وقولهم: ﴿تُؤْمِنُ بِبَعْضٍ

وَنَكْفُرُ بِبَعْضِ الَّذِي كُنَّا نَعْبُدُ﴾ قيل: معناه: من الأنبياء، وقيل: هو تصديق بعضهم لمحمد في أنه نبي، لكن ليس إلى بني إسرائيل، ونحو هذا من تفرقاتهم التي كانت تعتأ وروغاناً، وقوله: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ أي: بين الإيمان والإسلام والكفر الصريح المجلح، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم الكافرون حقاً، لثلا يظن أحد أن ذلك القدر الذي عندهم من الإيمان ينفعهم. وباقى الآية وعيد.

﴿١٥٢﴾ - ﴿١٥٣﴾ تفسير قوله تعالى:

لما ذكر الله تعالى أن المعرفين بين الرسل هم الكافرون حقاً، عقب ذلك بذكر المؤمنين بالله ورسله جميعاً، وهم المؤمنون بمحمد عليه الصلاة والسلام، ليصرح بوعده هؤلاء كما صرح بوعده أولئك، فبين الفرق بين المنزلتين، وقرأ بعض السبعة: ﴿سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ﴾ بالسياء، أي: يؤتيتهم الله، وقرأ الأكثر: ﴿سَوْفَ نُؤْتِيهِمْ﴾ بالنون، منهم ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو.

واختلف المتأولون في كيفية سؤال أهل الكتاب لمحمد عليه الصلاة والسلام أن ينزل عليهم كتاباً من السماء - فقال السدي: قالت اليهود: يا محمد، إن كنت صادقاً فجيء بكتاب من السماء كما جاء موسى بكتاب، وقال محمد بن كعب القرظي: قد جاء موسى بألواح فيها التوراة فجيء أنت بألواح فيها كتابك، وقال قتادة: بل سألوهم أن يأتي بكتاب خاص لليهود، يأمرهم فيه بالإيمان بمحمد، وقال ابن

جريج: قالت اليهود: يا محمد: لن نتابعك على ما تدعونا إليه حتى تأتينا بكتاب من عند الله إلى فلان وإلى فلان أنك رسول الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقول ابن جريج يقتضي أن سؤالهم كان على نحو سؤال عبدالله بن أبي أمية المخزومي القرشي.

ثم قال تعالى: ﴿فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ﴾ على جهة التسلية لمحمد عليه الصلاة والسلام، وعرض الأسوة، وفي الكلام متروك يدل عليه المذكور، تقديره: فلا تبال يا محمد عن سؤالهم وتشططهم فإنها عادتهم، فقد سألو موسى أكبر من ذلك. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَكْبَرَ﴾ بالباء المنقوطة بواحدة، وقرأ الحسن: ﴿أَكْثَرَ﴾ بالثاء المثناة. وجمهور المتأولين على أن ﴿جَهَنَّمَ﴾ معمول لـ ﴿أَرْنَا﴾ أي: حتى نراه جهاراً، أي: عياناً رؤياً منكشفة بيئة، وروي عن ابن عباس أنه كان يرى أن ﴿جَهَنَّمَ﴾ معمول لـ ﴿قَالُوا﴾، أي: قالوا جهنم منهم وتصريحاً: ﴿أَرْنَا اللَّهَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأهل السنة معتقدون أن هؤلاء لم يسألوا محلاً عقلاً، لكنه محال من جهة الشرع، إذ قد أخبر الله تعالى على السنة أنبيائه أنه لا يرى في هذه الحياة الدنيا، والرؤية في الآخرة ثابتة عن النبي صلوات الله وسلامه عليه بالخبر المتواتر، وهي جائزة عقلاً دون تحديد ولا تكييف ولا تحييز، كما هو تعالى معلوم لا

كالمعلومات، كذلك هو مرثي لا كالمرثيات، هذه حجة أهل السنة وقولهم، ولقد حدثني أبي رضي الله عنه، عن أبي عبدالله النحوي أنه كان يقول عند تدريس هذه المسألة: مثال العلم بالله خلق لحي المعتزلة في إنكارهم الرؤية، والجملة التي قالت: ﴿أَرْنَا اللَّهَ جَهَنَّمَ﴾ هي التي مضت مع موسى لحضور المناجاة، وقد تقدم قصصها في سورة البقرة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَأَخَذْنَاهُمُ الصَّخْرَةَ﴾ وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي، وإبراهيم النخعي: ﴿الصَّخْرَةَ﴾، والمعنى يتقارب، إذ ذلك كله عبارة عن الوقع الشديد من الصوت يصيب الإنسان بشدته وهوله خمود وركود حواس، وظلمهم هو تَعَنَّتْهُمْ وسؤالهم ما ليس لهم أن يسألوه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَخَذُوا الْعِجْلَ﴾ ترتيب في الإخبار لا في نفس الأمر، التقدير: ثم قد كان من أمرهم أن اتخذوا العجل، وذلك أن اتخاذ العجل كان عند أمر المضي للمناجاة، فلم يكن الذين صَعَقُوا ممن اتخذوا العجل، لكن الذين اتخذوه كانوا قد جاءتهم البينات في أمر إجازة البحر، وأمر العصا، وغرق فرعون، وغيره ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَعَفَوْنَا عَنْ ذَلِكَ﴾ يعني بما امتحنهم به من القتل لأنفسهم، ثم وقع العفو عن الباقي منهم، والسلطان: الحجة.

الأمر، فجعلوا بدل ذلك الانتهاء إلى انتهاك أعظم حرمة، وهي قتل الأنبياء، وكذلك أخذ الميثاق الغليظ منهم تضمن فهمهم بقدر ما التزموه، فجعلوا بدل ذلك تجاهلهم. وقولهم: ﴿فَلَوْ مَا عَلَفْنَا﴾ أي: هي في حجب وغلب، فهي لا تفهم، وأخبر الله تعالى أن ذلك كله عن طبع منه على قلوبهم، وأنهم كذبة فيما يدعون من قلة الفهم.

وقرأ نافع: ﴿تَعْتَدُوا﴾ بسكون العين وشد الدال المضمومة، وروى عنه ورش: ﴿تَعْتَدُوا﴾ بفتح العين وشد الدال المضمومة، وقرأ الباقون: ﴿لَا تَعْتَدُوا﴾ ساكنة العين خفيفة الدال مضمومة، وقرأ الأعمش، والحسن: ﴿لَا تَعْتَدُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا﴾، (ما) زائدة مؤكدة، التقدير: فبنقضهم، وحذف جواب هذا الكلام بليغ متروك مع ذهن السامع، تقديره: لعناهم وأذللناهم، وحتمنا على الموافين منهم الخلود في جهنم.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَكْفُرِهِمْ﴾ أي: في أمر عيسى عليه السلام، ﴿وَقَوْلِهِمْ عَلَنَ مَرِيَّةَ بَيْتَنَا عَظِيمًا﴾ يعني رميهم إياها بالزنى مع رؤيتهم الآية في كلام عيسى في المهد، وإلا فلولا الآية لكانوا في قولهم جارين على حكم البشر في إنكار حمل من غير ذكر. والبُهتان: مصدر، من قولك: بَهْتَهُ إِذَا قَابَلَهُ بِأَمْرٍ مُبْهِتٍ يَحَارُ مَعَهُ الذَّهْنُ، وهو رمي بِبَاطِلٍ.

١٥٧ - ١٥٨ تفسير قوله تعالى:

هذه الآية والتي قبلها عدد الله تعالى فيها أقوال بني إسرائيل

يدخلوا باب المدينة سجداً، وهو نوع من سجدة الشكر التي قد فعلها كثير من العلماء، ورويت عن النبي ﷺ، وإن كان مالك بن أنس رحمه الله لا يراها.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ لَا تَعْدُوا فِي السَّبْتِ﴾ أي: على الحيتان وفي سائر الأعمال، وهؤلاء كانوا بأيلة من ساحل البحر، فأمروا بالسكون عن كل شغل في يوم السبت فلم يفعلوا، بل اصطادوا وتصرفوا، وقد تقدم قصص ذلك، وأخذ الله

تعالى منهم الميثاق الغليظ هو على لسان موسى وهارون وغيرهما من الأنبياء، أي: بأنهم يأخذون التوراة بقوة ويعملون بجميع ما فيها، ويوصلونه إلى أبنائهم، ويؤدون الأمانة فيه.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا تَقَّضِهِمُ﴾ الآية، إخبار عن أشياء واقعوها هي في الضد مما أمروا به، وذلك أن الميثاق الذي رفع الطور من أجله نقضوه، والإيمان الذي تضمنه ﴿ادْعُوا آلِيَابَ مُحَمَّدًا﴾، إذ ذلك التواضع إنما هو ثمرة الإيمان والإخبات جعلوا بدله كفرهم بآيات الله، وقولهم: «حجة في شعرة وحنطة في شعيرة»، ونحو ذلك مما هو استخفاف بأمر الله وكفر به، وكذلك أمروا بالاعتداء في السبت، وفي ضمن ذلك الطاعة وسماع

فِيمَا تَقَّضِهِمْ يَمْتَنِعُهُمْ وَكَفَرِهِمْ وَبَايَعَتِ اللَّهُ وَقَالُوا أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ حَقِي وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ طَبَعَ اللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَيَكْفُرُهُمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَى مَرِيَّةَ بَيْتَنَا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قُلْنَا لِلنَّبِيِّ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قُلْنَا لَهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِنْ شِئْنَا لَهُمْ وَإِنَّا لَنَدِينُ مَخْلُوقًا قَدِ ابْتِغَيْنَا مِنْهُ مَا لَمْ يَكُنْ مِنْ عِلْمِ الْإِنْبَاءِ الظَّنِّ وَمَا قُلْنَا بِهِ نَبِيًّا ﴿١٥٧﴾ بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلَّا لِيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ سَهِيمًا ﴿١٥٩﴾ فَيُظَاهِرُ مِن ذُرِّيَّتِهِ هَادُوا حَرَمًا عَلَيْهِمْ طَبَعَتْ أُجَلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدْقِهِمْ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا وَقَدْ هَوَاعَنَهُ وَكَلِمَةُ آمُولِ النَّاسِ بِالْبَطْلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَنَكُونَ أَلرَّاسِخُونَ فِي الْعَالَمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ مِمَّا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِن قَبْلِكَ وَالْمُؤْمِنِينَ الصَّالِحِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ الرَّاكِعَاتُ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

١٥٩ - ١٦١ تفسير قوله تعالى:

﴿الطُّور﴾: الجبل اسم جنس، هذا قول. وقيل: الطور: كل جبل غير منبت، وبالشام جبل قد عرف بالطور، ولزمه الاسم، وهو طور سيناء، وليس بالمرفوع على بني إسرائيل، لأن رفع الجبل كان فيما يلي فحص التيه من جهة ديار مصر، وهم ناهضون مع موسى عليه السلام، وقد تقدم في سورة البقرة قصص رفع الطور. وقوله: ﴿يَمْتَنِعُهُمْ﴾ أي: بسبب ميثاقهم أن يعطوه في أخذ الكتاب بقوة، والعمل بما فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْنَا لَهُمْ ادْعُوا آلِيَابَ مُحَمَّدًا﴾ هو باب بيت المقدس المعروف بباب حطة، أمروا أن يتواضعوا شكراً لله تعالى على الفتح الذي منحهم في تلك البلاد، وأن

وأفعالهم على اختلاف الأزمان، وتعاقب القرون، فاجتمع من ذلك توبيخ خلفهم المعاصرين لمحمد ﷺ، وبيان الحجة في أن وجبت لهم اللعنة، وضربت عليهم الذلة والمسكنة، فهذه الطائفة التي قالت: ﴿إِنَّا قُلْنَا لَأَسِيحٌ﴾ غير الذين نقضوا الميثاق في الطور، وغير الذين اتخذوا العجل. وقول بني إسرائيل إنما هو إلى قوله: ﴿عِيسَى أَنْ مَرْسُومًا﴾. وقوله عز وجل: ﴿رَسُولَ اللَّهِ﴾ إنما هو إخبار من الله تعالى بصفة لعيسى وهي الرسالة، على جهة إظهار ذنب هؤلاء المقرين بالقتل، ولزمهم الذنب وهم لم يقتلوا عيسى لأنهم صلبوا ذلك الشخص على أنه عيسى، وعلى أن عيسى كذاب ليس برسول، ولكن لزمهم الذنب من حيث اعتقدوا أن قتلهم وقع في عيسى فكأنهم قتلوه، وإذا كانوا قتلوه فليس يرفع الذنب عنهم اعتقادهم أنه غير رسول، كما أن قريشاً في تكذيبها رسول الله ﷺ لا ينفعهم فيه اعتقادهم أنه كذاب، بل جازاهم الله على حقيقة الأمر في نفسه، ثم أخبر تعالى أن بني إسرائيل ما قتلوا عيسى ولا صلبوه، ﴿وَلَكِنَّ شَيْئاً لَّهُمْ﴾، واختلفت الرواية في هذه القصة وكيفيتها اختلافاً شديداً أنا أختصر عيونه، إذ ليس في جميعه شيء يقطع بصحته، لأنه لم يثبت عن النبي ﷺ في شيء، وليس لنا متعلق في ترجيح شيء منه إلا ألفاظ كتاب الله. فالذي لا نشك فيه أن عيسى عليه السلام كان يسبح في الأرض، ويدعو إلى الله، وكانت بنو

إسرائيل تطلبه، وملكهم في ذلك الزمان يجعل عليه الجعائل، وكان عيسى عليه السلام قد انضوى إليه الحواريون يسرون معه حيث سار، فلما كان في بعض الأوقات شعر الملك بأمر عيسى عليه السلام، فروي أن أحد الحواريين أرشى عليه فقبل الرُشوة ودل على مكانه فأحيط به، ثم ندم ذلك الحواري وخنق نفسه، وزوي أن رجلاً من اليهود جعل له جُغل فما زال ينقر عليه حتى دل على مكانه، فلما أحس عيسى عليه السلام وأصحابه بتلاحق الطالبين بهم دخلوا بيتاً بمرأى من بني إسرائيل، فروي أنهم عدوهم ثلاثة عشر، وروي ثمانية عشر، وحُصروا ليلاً، فروي أن عيسى عليه السلام فرق الحواريين عن نفسه تلك الليلة، ووجههم إلى الآفاق، وبقي هو ورجل معه، فرفع عيسى وألقي شبهه على الرجل، فصلب ذلك الرجل، وروي أن الشبه ألقى على اليهودي الذي دل عليه فصلب، وروي أن عيسى عليه السلام لما أحيط بهم قال لأصحابه: أيكم يلقي شبيهي عليه فيقتل ويخلص هؤلاء وهو رفيقي في الجنة؟ فقال سرجس: أنا، وألقي عليه شبه عيسى، وروي أن شبه عيسى عليه السلام ألقى على الجماعة كلها، فلما أخرجهم بنو إسرائيل نقص واحد من العدة، فأخذوا واحداً ممن ألقى عليه الشبه حسب الروايات التي ذكرتها، فصلب ذلك الشخص، وروي أن الملك والمتناولين لم يخف عليهم أمر رفع عيسى عليه

السلام لما رأوا أمر نقصان العدد واختلاط الأمر، فصلب ذلك الشخص، وأبعد الناس عن خشبته أياماً حتى تغير ولم تثبت له صفة، وحينئذ دنا الناس منه، ومضى الحواريون يحدثون بالأفاق أن عيسى صلب، فهذا أيضاً يدل على أنه فرقه وهو في البيت، أو على أن الشبه ألقى على الكل، وروي أن هذه القصة كلها لم يكن فيها إلقاء شبه شخص عيسى على أحد، وإنما المعنى: ولكن شبه لهم، أي: شبه عليهم الملك الممخوق ليستديم ملكه، وذلك أنه لما نقص واحد من الجماعة وفقد عيسى عمد إلى أحدهم، وبطش بصلبه، وفرق الناس عنه وقال: هذا عيسى قد صلب وانحل أمره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ آخَلَفُوا بِوَعْدِهِمْ﴾ يعني: اختلاف المحاولين لأخذه، لأنهم حين فقدوا واحداً من العدد، وتحدثت برفع عيسى اضطربوا واختلفوا. وعلى رواية من روى أنه ألقى شبه يوشك أنه بقي في ذلك الشبه مواضع للاختلاف، لكن أجمعوا على صلب واحد على غير ثقة ولا يقين أيهم هو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فاليقين الذي صح فيه نقل الكافة عن حواسها هو أن شخصاً صلب، وأما هل هو عيسى أم لا؟ فليس هو من علم الحواس، فلذلك لم ينفع في ذلك نقل كافة اليهود والنصارى، ونفى الله عنهم أن يكون لهم في أمره علم على ما هو به.

ثم استثنى اتباع الظن، وهو استثناء

متصل، إذ الظن والعلم يضمهما جنس أنهما من معتقدات النفس، وقد يقول الظانُّ على طريق التَّجَوُّز: علمي في هذا الأمر أنه كذا، وهو يعني ظنَّه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، اختلف المتأولون في عود الضمير من ﴿قَتَلُوهُ﴾ - فقالت فرقة: هو عائد على الظن، كما تقول: قتل هذا الأمر علماً، فالمعنى: وما صحَّ ظنُّهم عندهم ولا تحقَّقوه يقيناً، هذا قول ابن عباس، والسدي، وجماعة، وقال قوم: الضمير عائد على عيسى عليه السلام، أخبر أنهم لم يقتلوه يقيناً فيصح لهم الإصفاق، ويثبت نقل كافتهم. ومضمن الكلام أنهم ما قتلوه في الحقيقة جملة واحدة، لا يقيناً ولا شكاً، ولكن لما حصلت في ذلك الدعوى صار قتله عندهم مشكوكاً فيه، وقال قوم من أهل اللسان: الكلام تامُّ في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾. و﴿يَقِينًا﴾ مصدرٌ مؤكد للظن في قوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ﴾، المعنى: يخبركم يقيناً، أو يقص عليكم يقيناً، أو أيقنوا بذلك يقيناً.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْنَا﴾ يعني: إلى سمائه وكرامته، وعيسى عليه السلام حيٌّ في السماء الثانية على ما تضمَّنهُ حديث الإسراء في ذكر ابن الخالة عيسى ويحيى، ذكره البخاري في حديث المعراج وذكره غيره، وهو هنالك مقيم حتى ينزله الله لقتل الدجال، وليملأ الأرض عدلاً، ويحيا فيها أربعين سنة، ثم يموت كما يموت البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾، اختلف المتأولون في معنى الآية - فقال ابن عباس، وأبو مالك، والحسن بن أبي الحسن، وغيرهم: الضمير في ﴿مَوْتِهِ﴾ راجع إلى عيسى، والمعنى: إنه لا يبقى من أهل الكتاب أحد إذا نزل عيسى إلى الأرض إلا يؤمن بعيسى كما يؤمن سائر البشر، وترجع الأديان كلها واحداً، وقال مجاهد، وابن عباس أيضاً، وغيرهما: الضمير في ﴿بِهِ﴾ لعيسى، وفي ﴿مَوْتِهِ﴾ للكتابي الذي تضمنه قوله: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾، التقدير: وإن من أهل الكتاب أحد، قالوا: وليس يموت يهودي حتى يؤمن بعيسى روح الله، ويعلم أنه نبي، ولكن عند المعاينة للموت، فهو إيمان لا ينفعه، كما لم ينفع فرعون إيمانه عند المعاينة، وقال هذا القول عكرمة، والضحاك، والحسن بن أبي الحسن أيضاً، وقال عكرمة أيضاً: الضمير في ﴿بِهِ﴾ لمحمد عليه الصلاة والسلام، وفي ﴿قَبْلَ مَوْتِهِ﴾ للكتابي، قال: وليس يخرج يهودي ولا نصراني من الدنيا حتى يؤمن بمحمد، ولو غرق أو سقط عليه جدار فإنه يؤمن في ذلك الوقت، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿قَبْلَ مَوْتِهِمْ﴾ ففي هذه القراءة تقوية لعود الضمير على الكتابي، وقرأ الفياض بن غزوان: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ بتشديد [إن]، والضمير المستتر في [يكون] هو لعيسى عليه السلام في جُلِّ الأقوال، ولمحمد عليه الصلاة والسلام في قول عكرمة.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿يَظُنُّوا﴾ عطف على قوله: ﴿فِيمَا تَقْضِيهِمْ﴾، كأنه قال: فينقضهم لعناهم وأوجبنا عذابهم، قبظلم منهم حرماً عليهم المطاعم. وجعل الله هذه العقوبة الدنيوية إزاء ظلم بني إسرائيل في تعنتهم وسائر أخلاقهم الذميمة. والطيبات هنا هي الشحوم وبعض الذبائح والطيور والحوث وغير ذلك، وقرأ ابن عباس: ﴿طَيِّبَاتٍ كَأَنَّثٍ أَجَلَّتْ لَهُنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَبَصُرَتْهُمُ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا﴾، يحتمل أن يريد صدهم في ذاتهم، ويحتمل أن يريد صدهم غيرهم، وإلى هذا ذهب الطبري، وقال: هو جردهم أمر محمد ﷺ، فإنهم صدوا بذلك جمعاً عظيماً من الناس عن سبيل الله، ﴿وَأَخَذَهُمُ الرِّبَا﴾ هو الدرهم بدرهمين إلى أجل ونحو ذلك مما هو مفسدة، وقد نهوا عنه فشرعوه لأنفسهم واستمروا عليه، من ذلك، ومن كراه العين ونحوه. وأكل أموال الناس بالباطل: هو الرِّشَا، ثم استثنى الله تعالى من بني إسرائيل الراسخين في علم التوراة الذين قد تحقَّقوا أمر محمد عليه الصلاة والسلام وعلاماته، وهم: عبدالله بن سلام، ومخيريق، ومن جرى مجراهما، ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ﴾ عطف على «الراسخين» وما أنزل إلى محمد عليه الصلاة والسلام: هو القرآن، والذي أنزل من قبله: هو التوراة والإنجيل.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنِينَ﴾، وكيف خالف إعرابها

قوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ﴾، والمعنى: ويؤمنون بالمقيمين الصلاة وهم الملائكة، وقال بعضهم: بل من تقدم من الأنبياء، قالوا: ثم رجع بقوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾ فعطف على قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾. وقال قوم: ﴿وَالْقِيَّينَ﴾ عطف على ﴿وَمَا أُنزِلَ﴾، والمراد بهم المؤمنون بمحمد، أي: هم عليه، ويكون قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾ أي: وهم المؤتون، وقال قوم: ﴿وَالْقِيَّينَ﴾ عطف على

إعراب ما تقدم وتأخر - فقال أبان بن عثمان بن عفان، وعائشة رضي الله عنها: ذلك من خطب الكاتب المصحف، وروي أنها في مصحف أبي بن كعب: ﴿وَالْمُقِيمُونَ﴾، وقد روي أنها فيه ﴿وَالْقِيَّينَ﴾ كما هي في مصحف عثمان رضي الله عنه، قال الفراء: وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَالْمُقِيمُونَ﴾، وكذلك روى غصمة عن الأعمش، وكذلك قرأ سعيد بن جبير، وكذا قرأ عمرو بن عبيد الجحدري، وعيسى بن عمر، ومالك بن دينار، وكذلك روى يونس، وهارون عن أبي عمرو. وقال آخرون: ليس ذلك من خطب الكاتب، ولا خطأ في المصحف، وإنما هذا من قطع النعوت إذا كثرت على النصب بـ (أعني)، والرفع بعد ذلك بـ (هم)، وذهب إلى هذا المعنى بعض نحوي الكوفة والبصرة، وحكي عن سيويه: أنه قطع على المدح، وخبر ﴿لَنْ يَكُنَّ﴾ ﴿يُؤْمِنُونَ﴾، لأن المدح لا يكون إلا بعد تمام الجملة الأولى، وهذا كقول خرتق بنت هفان:

لَا يَبْعُدُنَّ قَوْمِي الَّذِينَ هُمْ
سُمُّ الْفُؤَادَةِ وَأَقْسَى الْجُزْرِ
النَّازِلِينَ بِكُلِّ مُغْتَرِكٍ
وَالطَّيَّبُونَ مَعَايِدَ الْأُزْرِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد فُرق بين البيت والآية بحرف العطف الذي في الآية، فإنه يمنع عند بعضهم تقدير الفعل، وفي هذا نظر.

وقال قوم: قوله تعالى: ﴿وَالْقِيَّينَ﴾ ليس بعطف على قوله: ﴿وَالْمُؤْتُونَ﴾، ولكن على - ما - في

﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالذِّكْرِ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآدَمَ إِنَّا كُنَّا بِمَا تَعْمَلُونَ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِتَلَايَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةً بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿لَنْ يَكُنَّ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكِ مَكَّةً بِشَهَادَةٍ وَكَفَّنَا بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنْ اللَّهُ لِيَعْرِفَهُمْ وَلَا لِيُعْذِرَهُمْ يَوْمَ تَطْرُقُ النَّارُ﴾ ﴿بِأَيِّهَا النَّاسُ فَدَجَّاءُكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾

١٠٤

وجحدوا جميع ذلك، فأنزل الله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ﴾.

والوحي: إلقاء المعنى في خفاء، وعرفه في الأنبياء بواسطة جبريل عليه السلام، وذلك هو المراد بقوله: ﴿كَمَا أَوْحَيْنَا﴾ أي: يملك ينزل من عند الله، ونوح: أول الرسل في الأرض إلى أمة كافرة، وصراف نوح مع العجمة والتعريف لخفته، وإبراهيم عليه السلام: هو الخليل، وإسماعيل عليه السلام: ابنه الأكبر، وهو الذبيح في قول المحققين، وهو أبو العرب، وإسحق: ابنه الأصغر، ويعقوب: هو ولد إسحق، وهو إسرائيل، والأسباط: بنو يعقوب، يوسف وإخوته، وعيسى: هو المسيح، وأيوب: هو المبتلى الصابر،

الضمير في ﴿يُنْتَهَمُ﴾، وقال آخرون: بل على الكاف في قوله: ﴿مِنْ قَبْلِكَ﴾ ويعني الأنبياء، وقرأت فرقة: ﴿سَيُؤْتِيَهُمْ﴾ بالنون، وقرأت فرقة: ﴿سَيُؤْتِيَهُمْ﴾ بالياء.

﴿١٦٣﴾ - ﴿١٦٤﴾ تفسير قوله تعالى:

رُوي عن عبدالله بن عباس أن سبب هذه الآية أن سُكِنَا الحِجْر، وَعَدِيَّ بن زيد قال: يا محمد، ما نعلم أن الله أنزل على بشر شيئاً بعد موسى، ولا أوحى إليه، فنزلت هذه الآية تكديماً لقولهما.

وقال محمد بن كعب القرظي: لما أنزل الله: ﴿يَسْتَأْذِنُ أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ﴾ إلى آخر الآيات، فنلت عليهم، وسمعوا الخبر بأعمالهم الخبيثة قالوا: ما أنزل الله على بشر من شيء، ولا على موسى، ولا على عيسى،

الساکن، فذلک کله غیر مرضی عند الأصولیین .

وقرأ جمهور الأمة: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ﴾ بالرفع في اسم الله، وقرأ يحيى بن وثاب، وإبراهيم النخعي: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ﴾ بالنصب على أن موسى هو المكلم، وهي قراءة ضعيفة من جهة الاشتهار، لكنها مخرجة من عدة تأويلات.

﴿١٦٥﴾ ﴿١٦٦﴾ تفسير قوله تعالى:

﴿رُسُلًا﴾ بدلاً من الأول قبل: و ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ حالان، أي: يبشرون بالجنة من آمن وأطاع، وينذرون بالنار من كفر وعصى، وأراد الله تعالى أن يقطع بالرسول احتجاج من يقول: لو بُعث إلي لآمنت، والله تعالى عزيز، لا يغالبه شيء، ولا حجة لأحد عليه، وهو - مع ذلك - حكيم، تصدر أفعاله عن حكمه، فلذلك قطع الحجة، فالرسول حكمة منه تعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ الآية: سببها قول اليهود: ﴿مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾، وقال بعضهم لمحمد عليه الصلاة والسلام: ما نعلم يا محمد أن الله أرسل إليك ولا أنزل عليك شيئاً. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والجراح الحكمي: ﴿لَٰكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ﴾ بشد النون ونصب المكتوبة على اسم [لكن].

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا بِرِسَالَةٍ﴾، هذه الآية من أقوى متعلقات أهل السنة في إثبات علم الله تعالى خلافاً للمعتزلة في أنهم يقولون: عالم بلا علم، والمعنى - عند أهل السنة -:

﴿فَصَصَّوْنَهُمْ﴾ معناه: ذكرنا أسماءهم وأخبارهم، وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا لَّمْ تَقْضُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ يقتضي كثرة الأنبياء دون تحديد بَعْدِي، وقد قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿وَفُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾، وما يذكر من عدد الأنبياء فغير صحيح، والله أعلم بعدتهم صلى الله عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ إخبارٌ بخاصة موسى، وأن الله تعالى شرفه بكلامه، ثم أكد تعالى الفعل بالمصدر، وذلك مبني في الأغلب عن تحقيق الفعل ووقوعه، وأنه خارج عن وجوه المجاز والاستعارة، لا يجوز أن تقول العرب: امتلأ الحوض وقال قطني قولاً، وإنما تؤكد بالمصادر الحقائق، ومما شد قول هند بنت النعمان بن بشير:

وَعَجَّتْ عَجِيجًا مِّنْ جُدَامِ الْمَطَارِفِ
وكلام الله للنبي موسى عليه السلام دون تكييف ولا تحديد ولا تجويز حدوث ولا حروف ولا أصوات، والذي عليه الراسخون في العلم أن الكلام هو المعنى القائم في النفس، ويخلق الله لموسى أو جبريل إدراكاً من جهة السمع يتحصل به الكلام، كما أن الله تعالى موجود لا كالموجودات معلوم لا كالمعلومات، فكذلك كلامه لا كالكلام، وما روي عن كعب الأجار، وعن محمد بن كعب القرظي ونحوهما من أن الذي سمع موسى كان كأشد ما يسمع من الصواعق، وفي رواية أخرى كالرعد

ويونس: هو ابن متى، وروى ابن جَمَاز عن نافع: ﴿يونس﴾ - بكسر النون - وقرأ ابن وثاب، والنخعي بفتحها، وهي كلها لغات، وهارون: هو ابن عمران، وسليمان: هو النبي الملك، وداود: أبوه. وقرأ جمهور الناس: ﴿زُبُورًا﴾ بفتح الزاي، وهو اسم كتاب داود تخصيصاً، وكل كتاب في اللغة فهو زبورٌ من حيث تقول: زَبُرْتُ الكتاب إذا كتَبْتَهُ. وقرأ حمزة وحده ﴿زُبُورًا﴾ بضم الزاي، قال أبو علي: يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ: زَبْرٌ، أَوْ قَعِ عَلَى الْمَزْبُورِ اسْمُ الزَّبْرِ كَمَا قَالُوا: ضَرَبَ الْأَمِيرُ، وَنَسَجَ الْيَمَنُ، وَكَمَا سُمِّيَ الْمَكْتُوبُ كِتَابًا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ جَمْعُ زُبُورٍ عَلَى حَذْفِ الزِّيَادَةِ، كَمَا قَالُوا: ظَرِيفٌ وَظُرُوفٌ، وَكَزْرَانٌ وَكِرْزَانٌ، وَوَرْشَانٌ وَوَرْشَانٌ، وَنَحْوَ ذَٰلِكَ مِمَّا يَجْمَعُ بِحَذْفِ الزِّيَادَةِ، وَيُقَوَّى هَذَا الْوَجْهَ أَنَّ التَّكْسِيرَ مِثْلَ التَّصْغِيرِ، وَقَدْ اطْرَدَ هَذَا الْمَعْنَى فِي تَصْغِيرِ التَّرْخِيمِ نَحْوُ: أَزْهَرُ وَزَهِيرٌ، وَحَارَتْ وَخَرِثَتْ، وَثَابَتْ وَثَبِيتَتْ، فَالْجَمْعُ مِثْلُهُ فِي الْقِيَاسِ وَإِنْ كَانَ أَقْلُ مِنْهُ فِي الْاسْتِعْمَالِ.

وقوله تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ فَصَّصْنَاهُمْ عَلَيْكَ﴾ الآية. نصب ﴿رُسُلًا﴾ على المعنى، لأن المعنى: إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ كَمَا أَرْسَلْنَا نُوحًا، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَنْصَبَ ﴿رُسُلًا﴾ بفعل مضمر، تقديره: أَرْسَلْنَا رُسُلًا، لِأَنَّ الرَّدَّ عَلَى الْيَهُودِ إِنَّمَا هُوَ فِي إِتْكَارِهِمْ إِسْبَالَ الرِّسْلِ وَالْمُرَادُ الْوَحْيَ، وَفِي حَرْفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: ﴿وَرُسُلٌ﴾ فِي الْمَوْضِعَيْنِ بِالرَّفْعِ عَلَى تَقْدِيرٍ: هُم رُسُلٌ، وَ

يَتَّاهِلَ الْكَافِرُونَ لَا تَسْأَلُوهُ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَسْأَلُوهُ
عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ
اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمَنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهَى خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ
وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧٠﴾ لَنْ يَسْتَنْكِفَ
الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ
وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِي وَسَيُكْفِرْ بِفِعْلِهِمْ
إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧١﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
فَيُؤْتِيهِمْ أَجْرَهُمْ بِزِدَادٍ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ
اسْتَنْكَفُوا وَسَيُكْفَرُوا بِفِعْلِ بَعْضِ عَذَابِ آيَاتِنَا وَلَا
يَعْدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ
فَدَجَّاءٌ كَمْ بَرَّهْنٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴿١٧٣﴾
فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَأَعْتَصَمُوا بِرُوحِهِ فَسَيُكْفَرُهُمْ
فِي رَحْمَتِي وَرَحْمَةِ وَفَضْلِي وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمًا ﴿١٧٤﴾

لأبيع هذا الشيء،
فلا اغتباط منك أكثر، هذا
هو المفهوم من هذه
العبارة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَهْدِيهِمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ﴾، هذه
هداية الطارق، وليست
بالإرشاد على الإطلاق،
وباقى الآية بيّن، يتضمن
تحقير أمر الكفار، وأنهم لا
يباليهم الله بالة، كما ورد
في الحديث: **يذهب**
الصالحون، الأول فالأول،
حتى تبقى حثالة كحثالة
التمر، لا يباليهم الله بالة،
المعنى: إذ هم كفار في
آخر الزمان، وعليهم تقوم
الساعة.

﴿١٧٠﴾ - ﴿١٧٢﴾ تفسير قوله تعالى:

المخاطبة بقوله: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ﴾
مخاطبة لجميع الناس، والسورة
مدنية، فهذا مما خوطب به جميع
الناس بعد الهجرة، لأن الآية دعاء
إلى الشرع، ولو كانت في أمر من
أوامر الأحكام ونحوها لكانت - يَأْتِيهَا
الَّذِينَ آمَنُوا - والرسول في هذه الآية:
محمد ﷺ، والحق: هو شَرَعُهُ.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرًا لَكُمْ﴾ منصوب
بفعل مضمّر تقديره: اثّوا خيراً لكم،
أو حوزوا خيراً لكم، وقوله:
﴿آمَنُوا﴾ وقوله: ﴿انْتَهَى﴾ - بعد
ذلك - أمر بترك الشيء والدخول في
غيره، فذلك حسنت صفة التفضيل
التي هي (خير)، هذا مذهب سيبويه
في نصب (خير)، ونظيره من الشعر
قول عمر بن أبي ربيعة:

أنزله وهو يعلم إنزاله ونزوله،
ومذهب المعتزلة في هذه الآية أنه
أنزله مقترناً بعلمه، أي: فيه علمه
من غيوب وأوامر ونحو ذلك،
فالعلم عبارة عن المعلومات التي في
القرآن، كما هو في قول الخضر: ما
نقص علمي وعلمك من علم الله إلا
ما نقص هذا العصفور من هذا
البحر، معناه: من علم الله الذي بث
في عباده. وقرأ الجمهور: ﴿أَنْزَلَ﴾
على بناء الفعل للفاعل، وقرأ
الحسن: ﴿أَنْزِلَ﴾ بضم الهمزة على
بنائه للمفعول.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْمَلِكَةَ يَتَّهَدُونَ﴾
تقوية لأمر محمد عليه الصلاة
والسلام، وردّ على اليهود، قال
قتادة: شهود والله غير متهمة، وقوله
تعالى: ﴿وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، تقديره:
وكفى الله شهيداً، لكن دخلت الباء
لتدل على أن المراد: ائْتَفُوا بِاللَّهِ.

ثم أخبر تعالى عن الكافرين الذين
يصدون عن سبيل الله أنهم قد بعدوا
عن الحق، وضلوا ضلالاً بعيداً، لا
يقرب رجوعهم عنه، ولا تخلصهم
منه، وقرأ عكرمة، وابن هرمز:
﴿وَضُدُّوا﴾ بضم الصاد.

ثم أخبر تعالى عن الكافرين
الظالمين في أن وضعوا الشيء في
غير موضعه، وهو الكفر بالله، والله
تعالى يستوجب منهم غير ذلك لنعمه
الظاهرة والباطنة، إنهم بحيث لم
يكن الله تعالى ليغفر لهم، وهذه
العبارة أقوى من الإخبار المجرد أنه
لا يغفر، ومثال ذلك أنك إذا قلت:
«أنا لا أبيع هذا الشيء» فهم منك
الاعتباط به، فإذا قلت: «أنا ما كنت

فَوَاعِدِيهِ سَرَّخْتِي مَالِكِ
أَوِ الرَّئِى بَيْتُهُمَا أَسْهَلَا
أي: يأت أسهل، وقال أبو عبيدة:
التقدير: يكن الإيمان خيراً والانتهاة
خيراً، فنصبه على خبر كان، وقال
الفراء: التقدير: فآمنوا إيماناً خيراً
لكم، فنصبه على النعت لمصدر
محذوف.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ
مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وهذا خبر
بالاستغناء، وأن ضرر الكفر إنما هو
نازل بهم، والله تعالى العلم
والحكمة.

ثم خاطب تعالى أهل الكتاب من
النصارى بأن يَدْعُوا الْعُلُو، وهو
تجاوز الحدّ، ومنه غلاء السعر،
ومنه غلوة السهم. وقوله تعالى:
﴿فِي دِينِكُمْ﴾ فإنما معناه: في
الدين الذي أنتم مطلوبون به، فكأنه

اسم جنس، وأضاف إليهم بياناً أنهم مأخوذون به، وليست الإشارة إلى دينهم المضلل، ولا أمروا بالشبوت عليه دون غلوه، وإنما أمروا بترك الغلو في دين الله على الإطلاق، وأن يُؤخذوا، ولا يقولوا على الله إلا الحق، وإذا سلخوا ما أمروا به فذلك سائقهم إلى الإسلام.

ثم بيّن تعالى أمر المسيح، وأنه رسول الله وكلمته، أي: مُكوّن عن كلمته التي هي: كن. وقوله: ﴿أَلْتَنهَاءَ﴾ عبارة عن إيجاد هذا الحادث في مريم، وقال الطبري: ﴿وَكَلِمَتُهُ أَلْتَنهَاءَ﴾ يريد البشارة التي بعث المَلَكُ بها إليها. وقوله تعالى: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾، أي: من جملة مخلوقاته، فـ ﴿من﴾ لا ابتداءً الغاية إذا حقق النظر فيها، وقال الطبري: ﴿وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ أي: نفخة منه، إذ هي من جبريل بأمره، وأنشد بيت ذي الرّمة:

فَقُلْتُ لَهُ اضْمُمْهَا إِلَيْكَ وَأَخِيهَا
بِرُوحِكَ وَأَفْتَتْهُ لَهَا قَيْئَةً قَدْرًا
يصف سقط النار، وقال أبي بن كعب: روح عيسى من أرواح الله التي خلقها واستنطقها بقوله: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى﴾، فبعثه الله إلى مريم فدخل فيها، ثم أمرهم بالإيمان بالله ورسله، أي: الذين من جملتهم عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لَنْهَاءُ﴾ المعنى: الله ثالث ثلاثة، فحذف الابتداء والمضاف، كذا قدر أبو علي، ويحتمل أن يكون المُقَدَّرُ: المعبود ثلاثة، أو الإله ثلاثة، أو الآلهة ثلاثة، أو الأقانيم ثلاثة،

وكيفما تشعب اختلاف عبارات النصارى فإنه يختلف بحسب ذلك التقدير، وقد تقدم القول في معنى ﴿أَنْتَهُوَا خَيْرًا لَّكُمْ﴾.

﴿١٧١﴾ - ﴿١٧٢﴾ تفسير قوله تعالى:

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة، اقتضى ذلك العقل في المعنى المتكلم فيه، وليست صيغة (إنما) تقتضي الحصر، ولكنها تصلح للحصر وللمبالغة في الصفة وإن لم يكن حصر، نحو: إنما الشجاع عنتره، وغير ذلك، و ﴿سُبْحَانَهُ﴾ معناه: تنزيهاً له وتعظيماً عن أن يكون له ولد كما تزعمون أنتم أيها النصارى في أمر عيسى، إذ نقلتم أبوة الحنّانة والرّافة إلى أبوة النسل، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿إِنْ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ﴾ بكسر الألف من [إِنْ] وهي نافية بمعنى: ما يكون له ولد، وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية: إخبار يستغرق عبودية عيسى وغير ذلك من الأمور.

ثم برأ تعالى جهة المسيح عليه السلام من أقوالهم، وخلصه للذي يليق به فقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ﴾ الآية، والاستنكاف إيابةً بأنفة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ زيادة في الحجة، وتقريب من الأذهان، أي: ولا هؤلاء الذين هم في أعلى درجات المخلوقين لا يستنكفون عن ذلك، فكيف سواهم؟ وفي هذه الآية الدليل الواضح على تفضيل الملائكة على الأنبياء.

ثم أخبر تعالى عن استنكاف، أي: يأنف عن عبادة الله ويستكبر بأنه سيناله الحشر يوم القيامة، والرّدُّ

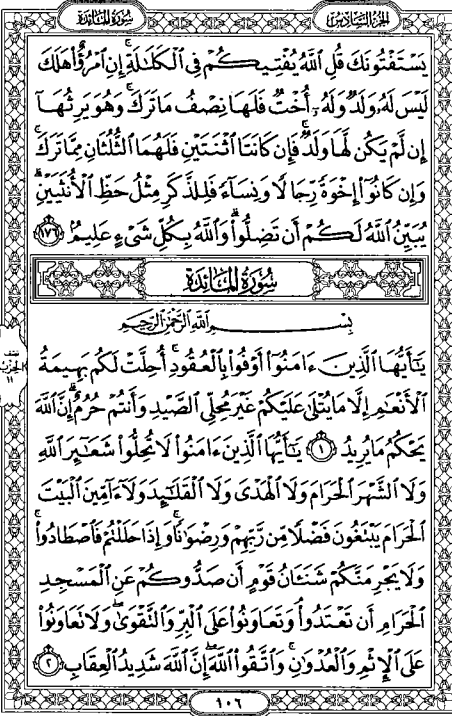
إلى الله، وقوله: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ عبارة وعيد. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ بنون الجماعة. ﴿فَتُؤْتِيهِمْ﴾ ﴿وَتُزِيدُهُمْ﴾ ﴿فَتُعَذِّبُهُمْ﴾ كلها بالنون. قال أبو الفتح: وقرأ مسلّمة: ﴿فَسَيَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿فَتُعَذِّبُهُمْ﴾ بسكون الراء والياء على التخفيف.

وبيّن الله تعالى أمر المحشورين فأخبر عن المؤمنين العاملين بالصالحات أنه يوفيهم أجورهم حتى لا يبخس أحداً قليلاً أو كثيراً، وأنه يزيدهم من فضله، وتحتمل هذه الزيادة أن تكون المخبر عنها في أن الحسنه بعشر إلى سبعمائة ضعف، ويحتمل أن يكون التضعيف الذي هو غير مُضَرَّدٍ مَحْسُوبٍ، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾.

﴿١٧٣﴾ - ﴿١٧٤﴾ تفسير قوله تعالى:

هذا وعيد للمستنكفين الذين يدعون عبادة الله أنفةً وتكبّراً، وهذا الاستنكاف إنما يكون من الكفار عن اتباع الأنبياء، وما جرى مجراه، كفعل حُيَيِّ بن أخطب وأخيه أبي ياسر بمحمد عليه الصلاة والسلام، وكفعل أبي جهل وغيره، وإلا، فإذا فرضت أحداً من البشر عرف الله تعالى فمحال أن تجده يكفر به تكبراً عليه، والعناد المجوز إنما يسوق إليه الاستكبار عن البشر، ومع تقارب المنازل في ظن المتكبر.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَهُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية، إشارة إلى محمد رسول الله ﷺ، والبرهان:



في صدر السورة، وأن المترجح أنها الوراثة التي خلت من: أب وابن وابنة، ولم يكن فيها عمود نسب، لا عال ولا سافل، وبقي فيها من يتكفل، أي: يُحيط من الجوانب كما يُحيط الإكليل. وكان أمر الكلاله عند عمر بن الخطاب رضي الله عنه مشكلاً فقال: «ما راجعت رسول الله ﷺ في شيءٍ مراجعتي إياه في الكلاله، ولوددت أن رسول ﷺ لم يمت حتى يبينها». وقال على المنبر: «ثلاث لو بينها رسول الله ﷺ لكان

الحُجَّةُ الثَّيْرَةُ الواضحة التي تعطي اليقين التام، والمعنى: قد جاءكم مقترناً بمحمد برهان من الله تعالى على صحة ما يدعوكم إليه، وفساد ما أنتم عليه من الشُّحْلِ، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ يعني القرآن، فيه بيان كل شيء، وهو الواعظ الزاجر، الناهي الأمر.

ثم وعد تبارك وتعالى المؤمنين بالله المعتصمين به. والضمير في ﴿بِهِ﴾ يحتمل أن يعود على الله تعالى، ويحتمل أن يعود على القرآن الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿نُورًا مُبِينًا﴾، والاعتصام به: التمسك بسببه، وطلب النجاة والمنعة به، فهو يعصم كما تعصم المعافل، وهذا قد فسره قول النبي ﷺ: «القرآن حبل الله المتين، من تمسك به عصم».

والفضل: الجنة ونعيمها، ﴿وَبَدِيَّتِهِمْ﴾ معناه: إلى الفضل، وهذه هداية طريق الجنان، كما قال تعالى: ﴿سَبِيْرِهِمْ وَيُصَلِّحُ بَالَهُمْ﴾ لأن هداية الإرشاد قد تقدمت وتحصلت حين آمنوا بالله تعالى، واعتصموا بكتابه. و﴿صِرَاطًا﴾ نصب بإضمار فعل يدل عليه ﴿بَدِيَّتِهِمْ﴾ تقديره: فيعرفهم، ويحتمل أن ينتصب كالمفعول الثاني إذ ﴿بَدِيَّتِهِمْ﴾ في معنى: يعرفهم، ويحتمل أن ينتصب على ظرفية ما، ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾، وقيل: من ﴿فَضَّلُ﴾. والصرط: الطريق، وقد تقدم تفسيره غير مرة.

تفسير قوله تعالى:

تقدم القول في تفسير ﴿الْكَلَالَةَ﴾

عمر رضي الله عنه الناس يوم جمعة فقال: «إني والله ما أدع بعدي شيئاً هو أهم إليّ من أمر الكلاله، وقد سألت عنها رسول الله ﷺ فما أغلظ لي في شيءٍ ما أغلظ لي فيها، حتى طعن في نحري وقال: «تكفيك آية الصيف التي أنزلت في آخر سورة النساء، فإن أحش فسأقضي فيها بقضية لا يختلف معها اثنان ممن يقرأ القرآن».

وسئل عقبه بن عامر عن الكلاله فقال: ألا تعجبون لهذا يسألني عن الكلاله، وما أعضل بأصحاب رسول الله ﷺ شيءٍ ما أعضلت بهم الكلاله؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فظاهر كلام عمر رضي الله عنه أن آية الصيف هي هذه. وروى أبو سلمة عن النبي ﷺ أنه سُئِلَ عن الكلاله فقال:

أحب إلي من الدنيا: الجُدُّ والكلالة، والخلافة، وأبواب من الربا». وروى عنه رضي الله عنه أنه كتب فيها كتاباً فمكث يستخير الله فيه ويقول: «اللهم إن علمت فيه خيراً فأمضه». فلما طعن دعا بالكتاب فمُحِي، فلم يدر أحد ما كان فيه. وروى الأعمش عن إبراهيم وسائر شيوخه قال: ذكروا أن عمر رضي الله عنه قال: «لأن أكون أعلم الكلاله أحب إليّ من جزية قصور الشام». وقال طارق بن شهاب: أخذ عمر بن الخطاب رضي الله عنه كتفاً، وجمع أصحاب النبي ﷺ ثم قال: «لأقضيَنَّ في الكلاله قضاءً تحدث به النساء في خدورها»، فخرجت عليهم حية من البيت فتفرقوا، فقال عمر: «لو أراد الله أن يتم هذا الأمر لأتمه». وقال معدان بن أبي طلحة: خطب

«ألم تسمع الآية التي أنزلت في الصيف: ﴿وَإِنْ كَانَتْ رَجُلٌ يُوْرَثُ كَلَلَةً﴾ إلى آخر الآية).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا هو الظاهر، لأن البراء بن عازب قال: آخر آية أنزلت على النبي ﷺ: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُبَيِّنُ لَكُمْ فِي الْكَلَلَةِ﴾، وقال كثير من الصحابة: هي آخر ما نزل، وقال جابر بن عبد الله: نزلت بسببي، عادني رسول الله ﷺ وأنا مريض، فقلت: يا رسول الله، كيف أقضي في مالي؟ وكان لي تسع أخوات، ولم يكن لي والد ولا ولد: فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله رسول الله ﷺ: «تكفيك منها آية الصيف» بيان فيه كفاية وجلاء، ولا أدري ما الذي أشكل منها على الفاروق رضوان الله عليه إلا أن تكون دلالة اللفظ لم تطرد له، أن كان استعمال قريش لها قليلاً، ولا محالة أن دلالة اللفظ اضطربت على كثير من الناس، ولذلك قال بعضهم: الكلاله: الميت نفسه، وقال آخرون: الكلاله: المال، إلى غير ذلك من الخلاف. وإذا لم يكن في الفريضة والد ولا ولد وترك الميت أختاً فلها النصف فرضاً مسمى بهذه الآية، فإن ترك الميت بنتاً وأختاً فللبنت النصف، وللأخت النصف بالتعصيب لا بالفرض المسمى. ولعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن عباس في هذه المسألة خلاف للناس، وذكر عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال في خطبته: (ألا إن آية أول سورة النساء

أنزلها الله في الولد والوالد، والآية الثانية أنزلها الله في الزوج والزوجة والإخوة من الأم، والآية التي ختم بها سورة النساء أنزلها في الإخوة والأخوات من الأب والأم، والآية التي ختم بها سورة الأنفال أنزلها الله في أولي الأرحام).

وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿قِرَانٌ﴾، وللذكر مثل حظ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَصِلُوا﴾ معناه: كراهة أن تصلوا، وحذر أن تصلوا، فالتقدير: لئلا تصلوا، ومنه قول القطامي في صفة ناقة:

رَأَيْتُنَا مَا يَرَى الْبُصْرَاءُ مِنْهَا
فَأَلَيْتُنَا عَالِيَهَا أَنْ تُبَاعَا
وكان عمر رضي الله عنه إذا قرأ: ﴿يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَصِلُوا﴾ قال: اللهم من بينت له الكلاله فلم تتبين لي.

تم بحمد الله تفسير سورة النساء

(٥) تفسير

سورة المائدة

هذه السورة مدنية بإجماع، وروي أنها نزلت عند منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية، وذكر النقاش عن أبي سلمة أنه قال: لما رجع رسول الله ﷺ من الحديبية قال: «يا علي، أشعرت أنه نزلت علي سورة المائدة، ونعمت الفائدة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي لا يشبه كلام النبي ﷺ. ومن هذه السورة ما نزل في حجة الوداع، ومنها ما نزل عام الفتح،

وهو قوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ﴾ الآية، وكل ما نزل من القرآن بعد هجرة النبي ﷺ فهو مدني، سواء ما نزل بالمدينة، أو في سفر من الأسفار، أو بمكة، وإنما يرسم بالمكي ما نزل قبل الهجرة، وروي أن النبي ﷺ قال: (سورة المائدة تدعى في ملكوت الله المنقذة، تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب).

١ - ٢ تفسير قوله تعالى:

قال علقمة: كل ما في القرآن ﴿يَكَايِبُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ فهو مدني، وقد تقدم القول في مثل هذا، ويقال: وقى وأوفى بمعنى واحد، وأمر الله تعالى المؤمنين عامة بالوفاء بالعقود، وهي: الرُّبُوط في القول، كان ذلك تعاهد على بر، أو في عقدة نكاح أو بيع أو غيره، ولفظ المؤمنين يعم مؤمني أهل الكتاب، إذ بينهم وبين الله عقد في أداء الأمانة فيما في كتابهم من أمر محمد ﷺ، ولفظ ﴿يَالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعم عقود الجاهلية المبينة على بر، مثل دفع الظلم ونحوه، وأما في سائر تعاقدهم على الظلم والغارات فقد هدمه الإسلام، فإنما معنى الآية: أمر جمع المؤمنين بالوفاء على عقد جارٍ على رسم الشريعة، وفسر الناس لفظ العقود بالعهود. وذكر بعضهم من العقود أشياء على جهة المثال، فمن ذلك قول قتادة: ﴿أَوْفُوا بِالْمُعْوَِدِ﴾ معناه: بعهد الجاهلية، روي لنا عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أوفوا بعقد الجاهلية، ولا تحدثوا عقداً في الإسلام».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفقه هذا الحديث أن عقد الجاهلية كان يخص المتعاقدين، إذ كان الجمهور على ظلم وضلال، والإسلام قد ربط الجميع، وجعل المؤمنين إخوة، فالذي يريد أن يختص به المتعاقدان قد ربطهما إليه الشرع مع غيرهم من المسلمين، اللهم إلا أن يكون التعاقد على دفع نازلة من نوازل الظلمات فيلزم في الإسلام التعاقد على دفع ذلك والوفاء بذلك العهد، وإما عهد خاص لما عسى أن يقع، يختص المتعاقدون بالنظر فيه والمنفعة، كما كان في الجاهلية، فلا يكون ذلك في الإسلام.

قال الطبري: وذكر أن فُرَاتَ بْنَ حَيَّانَ الْعِجْلِيَّ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ حَلْفِ الْجَاهِلِيَّةِ، فَقَالَ: «لَعَلَّكَ تَسْأَلُ عَنْ حَلْفِ لَحْمٍ وَتَيْمِ اللَّهِ؟ قَالَ: نَعَمْ يَا تَيْبِي اللَّهِ، قَالَ: لَا يَزِيدُهُ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أَوْفُوا بِالْمُعْثُودِ» معناه: «بما أحلَّ الله وبما حرَّم، وبما فرض وبما حدَّ في جميع الأشياء». قاله مجاهد وغيره.

وقال محمد بن كعب القرظي، وابن زيد، وغيرهما: العقود في الآية: هي كل ما ربطه المرء على نفسه من بيع أو نكاح أو غيره.

وقال ابن زيد، وعبدالله بن عبيدة: العقود خمس: عقدة الإيمان، وعقدة النكاح، وعقدة العهد، وعقدة البيع، وعقدة الحلف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تنحصر إلى أقل من خمس.

وقال ابن جريج: قوله تعالى: «أَوْفُوا بِالْمُعْثُودِ» قال: هي العقود التي أخذها الله على أهل الكتاب أن يعملوا بما جاءهم. وقال ابن شهاب: قرأت كتاب رسول الله ﷺ الذي كتب لعمر بن حزم حين بعثه إلى نجران، وفي صدره: (هذا بيان من الله ورسوله، «بِتَابِهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْمُعْثُودِ» فكتب الآيات منها إلى قوله: «إِنَّكَ اللَّهُ سَرِيحُ الْحِسَابِ»).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأصوب ما يقال في تفسير هذه الآية أن تُعْمَمَ ألفاظها بغاية ما تتناول، فيعمم لفظ المؤمنين جملة، في مظهر الإيمان - إن لم يُبطنه - وفي المؤمنين حقيقة. ويُعْمَمَ لفظ العقود في كل ربط بقول موافق للحق والشرع. ومن لفظ العقد قول الحطية:

قَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِبَجَارِهِمْ
شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَرْقَهُ الْكَرْبَا
وقوله تعالى: «أَحَلَّتْ لَكُمْ بَيْمَةَ الْأَنْتَمِرِ» خطاب لكل من التزم الإيمان على وجهه وكماله، وكانت للعرب سنن في الأنعام من السائبة والبحيرة والحام وغير ذلك، فنزلت هذه الآية رافعة لجميع ذلك.

واختلف في معنى «بَيْمَةُ الْأَنْتَمِرِ» - فقال السدي، والربيع، وقتادة، والضحاك: هي الأنعام كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه قال: أحلت لكم الأنعام، فأضاف الجنس إلى أخص منه، وقال الحسن: «بَيْمَةُ الْأَنْتَمِرِ»: الإبل والبقر والغنم، وروي عن عبدالله بن

عمر رضي الله عنهما أنه قال: «بَيْمَةُ الْأَنْتَمِرِ» الأجنَّة التي تخرج عند الذبح للأمهات، فهي تؤكل دون ذكاة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الأجنَّة من بهيمة الأنعام، قال الطبري: وقال قوم: «بَيْمَةُ الْأَنْتَمِرِ» وخشها، كالظباء وبقر الوحش والحمر وغير ذلك، وذكره غير الطبري عن الضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن، وذلك أن الأنعام هي الثمانية الأزواج، وما انضاف إليها من سائر الحيوان يقال له أنعام بمجموعه معها، وكأن المفترس من الحيوان كالأسد وكل ذي ناب قد خرج عن حد الأنعام فصار له نظر ما، فبهيمة الأنعام هي الراعي من ذوات الأربع، وهذه - على ما قيل - إضافة الشيء إلى نفسه، كدار الآخرة، ومسجد الجامع، وما هي عندي إلا إضافة الشيء إلى جنسه، وصرح القرآن بتحليلها، واتفقت الآية وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «كل ذي ناب من السباع حرام»، ويؤيد هذا المنزع الاستثناءان بعد، إذ أحدهما استثني فيه أشخاص نالتها صفات ما، وتلك الصفات واقعات كثيراً في الراعي من الحيوان، والثاني استثني فيه حال للمخاطبين وهي الإحرام والحرم، والصيد لا يكون إلا من غير الثمانية الأزواج، فترتب الاستثناءان في الرعي من ذوات الأربع. والبهيمة في كلام العرب: ما أبهم من جهة نقص النطق والفهم، ومنه: باب مبهم، وحائط مبهم، وليل بيهيم،

وَبُهْمَةٍ لِلشَّجَاعِ الَّذِي لَا يُذْرَى مِنْ
أَيْنَ يُؤْتَى لَهُ .

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا يَتْلُو عَلَيْكُمْ﴾
استثناء مما تلي في قوله تعالى:
﴿حَرَمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْبَانَهُ وَأَلْدَمُ وَكَلْمُ
الْفُجْرِيِّ﴾ الآية. و ﴿مَا﴾ في موضع
نصب على أصل الاستثناء، وأجاز
بعض الكوفيين أن تكون في موضع
رفع على البدل، وعلى أن تكون
﴿إِلَّا﴾ عاطفة، وذلك لا يجوز عند
البصريين إلا من نكرة أو ما قاربها
من أسماء الأجناس، نحو قولك:
جاء الرجال إلا زيد، كأنك قلت:
غير زيد بالرفع.

وقوله: ﴿غَيْرَ مَحْلِيٍّ الصَّيْدِ﴾ نصب
﴿غَيْرِ﴾ على الحال من الكاف
والميم في قوله: ﴿أَجَلَّتْ لَكُمْ﴾،
وقرأ ابن أبي عجلة ﴿غَيْرِ﴾ بالرفع،
ووجهها الصفة للضمير في: ﴿يَتْلُو﴾
لأن ﴿غَيْرَ مَحْلِيٍّ الصَّيْدِ﴾ هو في المعنى
بمنزلة: «غير مستحل إذا كان
صيداً، أو يتخرج على الصفة لـ
﴿بَيْمَتُهُ﴾ على مراعاة معنى الكلام
كما ذكرت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد خلط الناس في هذا الموضع في
نصب (غَيْرِ) وقدروا فيها تقديمات
وتأخيرات، وذلك كله غير مرضي،
لأن الكلام على اطراده متمكن
استثناء بعد استثناء.

و ﴿حَرَمَ﴾ جمع حرام، وهو
المُحْرَم، ومنه قول الشاعر:

فَقُلْتُ لَهَا فَيْبِي إِلَيْكَ فِإِنِّي
حَرَامٌ وَإِنِّي بَعْدَ ذَلِكَ لَيْسِبُ
أي: مُلَبِّبٌ. وقرأ الحسن،
وإبراهيم، ويحيى بن وثاب:

﴿حَرَمَ﴾ بسكون الراء، قال أبو
الحسن: هذه لغة تميمية، يقولون في
رُسُلٍ: رُسُلٌ، وفي كُتُبٍ: كُتُبٌ،
ونحوه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ تقوية
لهذه الأحكام الشرعية المخالفة
لمعهود أحكام العرب، أي: فأنت
أيها السامع لنسخ تلك العهود التي
عهدت تَبَّهَ، فإن الله الذي هو مالك
الكل يحكم ما يريد، لا معقب
لحكمه.

وهذه الآية مما تلوح فصاحتها
وكثرة معانيها على قلة ألفاظها لكل
ذي بَصَرٍ بالكلام، ولمن عنده أدنى
إبصار، فإنها تضمنت خمسة أحكام:
الأمر بالفداء بالعقود، وتحليل بهيمة
الأنعام، واستثناء ما تلي بعد،
واستثناء حال الإحرام فيما يصاد،
وما يقتضيه معنى الآية من إباحة
الصيد لمن ليس بمُحْرَمٍ. وحكى
النقَّاش أن أصحاب الكندي قالوا
للكندي: أيها الحكيم، اعمل لنا مثل
هذا القرآن، فقال: نعم أعمل مثل
بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج
فقال: والله ما أقدر عليه، ولا يطيق
هذا أحد، إني فتحت المصحف
فخرجت سورة المائدة، فنظرت فإذا
هو قد أمر بالفداء، ونهى عن
النكت، وحلل تحيلاً عاماً، ثم
استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر
عن قدرته وحكمته في سطرين، ولا
يستطيع أن يأتي أحد بهذا إلا في
أجلاد.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا
تُحِلُّوا سَعْيَكُمْ اللَّهُ﴾ خطابٌ للمؤمنين
حقاً ألا يتعدوا حدود الله في أمر من

الأمر، والشعائر: جمع شعيرة،
أي: قد أشعر الله أنها حده وطاعته،
فهي بمعنى: معالم الله، واختلفت
عبارة المفسرين في المقصود من
الشعائر الذي بسببه نزل هذا العموم
في الشعائر - فقال السدي ﴿شَعَائِرِ
اللَّهِ﴾: حرم الله، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: ﴿شَعَائِرِ اللَّهِ﴾: مناسك الحج، وكان المشركون
يُحْجُونَ ويعتمرون ويهدون وينحرون
ويُعْظَمُونَ مشاعر الحج، فأراد
المسلمون أن يغيروا عليهم فقال الله
تعالى: ﴿لَا تُحِلُّوا سَعْيَكُمْ اللَّهُ﴾، وقال
ابن عباس أيضاً: ﴿شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ واحد
تحريمه في الإحرام، وقال عطاء بن
أبي رباح [شعائر الله]: جميع ما أمر
به أو نهى عنه، وهذا هو القول
الراجح الذي تقدم، وقال ابن
الكلبي: كان عامة العرب لا يعدون
الصفا والمروة من الشعائر، وكانت
قريش لا تقف بعرفات، فنهوا بهذه
الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا اتَّخَذُوا الْحَرَامَ﴾
اسم مفرد يدل على الجنس في
جميع الأشهر الحرم، وهي كما قال
النبي ﷺ: «ذو القعدة، وذو الحجة،
والمحرم، ورجب مضر الذي بين
جمادى وشعبان»، وإنما أُصِفَ إلى
مضر لأنها كانت تختص بتحريمه،
وتزِيلُ فيه السلاح، وتنزع الأَسنة من
الرماح، وتسميه: مُنْصِلُ الأَسنة،
وتسميه: الأَصَم، من حيث كان لا
يُسمع فيه صوت سلاح، وكانت
العرب مجمعة على: ذي القعدة،
وذي الحجة، والمحرم، وكانت
تطول عليها الحرمة، وتمتنع من

الغارات ثلاث أشهر، فلذلك اتخذت النسبي، وهو أن يحل لها ذلك المتكلم نعيم بن ثعلبة وغيره المحرم ويحرم بدله صفرأ، فنهى الله عن ذلك بهذه الآية، ويقول: ﴿إِنَّمَا النَّسَبُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ﴾، وجعل المحرم أول شهور السنة من حيث كان الحج والموسم غاية العام وثمرته، فبذلك يكمل، ثم يستأنف عام آخر، ولذلك - والله أعلم - دون به عمر بن الخطاب رضي الله عنه الدواوين، فمعنى قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْتَهَرُ الْحَرَامَ﴾، أي: لا تحلوه بقتال ولا غارة ولا تبديل، فإن تبديله استحلال لحرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي أن الشهر الحرام أريد به رجب ليشتهر أمره، لأنه إنما كان مختصاً بقرش، ثم نشأ في مضر، ومما يدل على هذا قول عوف بن الأحوص:

وشهر بني أمية والهدايا
إذا حبست مضرُ جها الدماء
قال أبو عبيدة: أراد رجباً، لأنه شهر كانت مشايخ قرش تعظمه، فنسبه إلى بني أمية، ذكر هذا الأخص في «المفضليات»، وقد قال الطبري: المراد في هذه الآية رجب مضر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فوجه هذا التخصيص هو كما قد ذكرت أن الله تعالى شدد أمر هذا الشهر إذ كانت العرب غير مجمعة عليه. وقال عكرمة: المراد في هذه الآية ذو القعدة من حيث كان أولها، وقولنا فيها (أول) تقريب وتجاوز، إن

الشهور دائرة، فالأول إنما يترتب بحسب نازلة أو قرينة ما مختصة بقوم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا الْمَدَى وَلَا أَلْقَتَيْدَ﴾ - أما الهدي فلا خلاف أنه ما أهدي من النعم إلى بيت الله وقصدت به القرية، فأمر الله ألا يستحل ويغار عليه. واختلف الناس في القلائد - فحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القلائد هي الهدي المقلد، وأن الهدي يسمى هدياً ما لم يقلد، فكأنه قال: ولا الهدي الذي لم يقلد المقلد منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الذي قال الطبري تحامل على ألفاظ ابن عباس رضي الله عنهما، وليس يلزم من كلام ابن عباس رضي الله عنهما أن الهدي إنما يقال لما لم يقلد، وإنما يقتضي أن الله نهى عن استحلال الهدي جملة، ثم ذكر المقلد منه تأكيداً ومبالغة في التنبيه على الحرمة في التقليد، وقال جمهور الناس: الهدي عام في أنواع ما أهدي قرية، والقلائد ما كان الناس يتقلدونه أمانة لهم، قال قتادة: كان الرجل في الجاهلية إذا خرج من بيته يريد الحج تقلد من السمر قلادة فلم يعرض له أحد بسوء، إذ كانت تلك علامة إحرامه وحجه، وقال عطاء وغيره: بل كان الناس إذا خرجوا من الحرم في حوائج لهم تقلدوا من شجر الحرم ومن لحائه، فيدل ذلك على أنهم من أهل الحرم أو من حجاجه، فيأمنون بذلك، فنهى الله تعالى عن استحلال من تحرم بشيء من هذه المعاني، وقال

مجاهد وعطاء: بل الآية نهى للمؤمنين عن أن يستحلوا أخذ القلائد من شجر الحرم كما كان أهل الجاهلية يفعلون، وقاله الربيع بن أنس عن مطرف بن الشخير وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَاءَ بَيْنَ الْيَتِّ الْحَرَامِ﴾ معناه: ولا تحلوهم فتغيروا عليهم، ونهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن أن يعمدوا للكفار القاصدين البيت الحرام على جهة التعبد والقرية. وكل ما في هذه الآية من نهى عن مشرك، أو مراعاة حرمة له بقلادة، أو أم البيت ونحوه، فهو كله منسوخ بأية السيف في قوله تعالى: ﴿فَأَقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾.

وروي أن هذه الآية نزلت بسبب الحطيم بن هند البكري أخي بني ضبيعة بن ثعلبة، وذلك أن رسول الله ﷺ قال يوماً لأصحابه: «يدخل اليوم عليكم رجل من ربيعة يتكلم بلسان شيطان»، فجاء الحطيم فخلف خيله خارجة من المدينة، ودخل على رسول الله ﷺ، فلما عرض رسول الله ﷺ عليه الإسلام ودعاه إلى الله قال: انظروا لعلي أسلم، وأرى في أمرك غلظة، ولي من أشاوره، فخرج، فقال النبي ﷺ: «لقد دخل بوجه كافر، وخرج بعقب غادر». فمر بسرح من سرح المدينة فساقه وانطلق به وهو يقول:

قَدْ لَفَّهَا اللَّيْلُ بِسَوَاقِ حُطَمِ
لَيْسَ بِرَاعِي إِسْلٍ وَلَا عَنَمِ
وَلَا بِجَرَّارٍ عَلَى ظَهْرٍ وَضَمِ
بَاتُوا نِيَاماً وَابْنُ هِنْدٍ لَمْ يَنْمِ

في حرم البشرِ حسنةً في فصاحة القول، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْطَادُوا﴾ صيغة أمر، ومعناه الإباحة بإجماع من الناس.

واختلف العلماء في صيغة (افعل) إذا وردت ولم يقترن بها بيان واضح في أحد المحتملات - فقال الفقهاء: هي على الوجوب حتى يدل الدليل على غير ذلك، وقال المتكلمون: هي على الوقف حتى تطلب القرينة، ولن يُعزى أمر من قرينة، وقال قوم: هي على الإباحة حتى يدل الدليل، وقال قوم: هي على الندب حتى يدل الدليل، وقول الفقهاء أخوطةا، وقول المتكلمين أئيسها، وغير ذلك ضعيف. ولفظة (افعل) قد تجيء للوجوب كقوله: ﴿أَقْبِسُوا السَّكَّارَةَ﴾، وقد تجيء للندب كقوله: ﴿وَأَفْكَلُوا الْخَيْرَ﴾، وقد تجيء للإباحة كقوله: ﴿فَأَسْطَادُوا﴾ و ﴿وَأَبْتَعُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾، و ﴿فَأَنْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ﴾، ويحتمل الابتغاء من فضل الله أن يكون ندباً، وقد تجيء للوعيد كقول: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، وقد تجيء للتعجيز كقوله: ﴿كُونُوا حِجَارَةً﴾.

وقرأ أبو واقد، والجراح، وتُنْبِخ، والحسن بن عمران: ﴿فَأَسْطَادُوا﴾ بكسر الفاء، وهي قراءة مشككة، ومن توجيهها أن يكون راعي كسر ألف الوصل إذا بدأت فقلت: اصطادوا - فكسر الفاء مراعاةً وتذكراً لكسر ألف الوصل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: ولا يكسبكم، ويجرم الرجل معناه: كسب، ويتعدى إلى

مسلم حاج فهو مُخَكَّم، وكل ما كان منها في الكفار فهو منسوخ، وقرأ ابن مسعود وأصحابه: ﴿وَلَا أَمْسَى الْبَيْتَ﴾ بالإضافة إلى البيت.

وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّن رِّزْقِهِمْ وَرِضْوَانًا﴾ قال فيه جمهور المفسرين: معناه: يبتغون الفضل في الأرباح في التجارة، وابتغون - مع ذلك - رضوانه في ظنهم وطمعهم. وقال قوم: إنما الفضل والرضوان في الآية في معنى واحد، وهو رضا الله وفضله

بالرجاء والجزاء، فمن العرب من كان يعتقد جزاء بعد الموت، وأكثرهم إنما كانوا يرجون الجزاء والرضوان في الدنيا والكسب وكثرة الأولاد، ويتقربون رجاء الزيادة في هذه المعاني، وقرأ الأعمش: ﴿وَرِضْوَانًا﴾ بضم الراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية استتلاف من الله تعالى للعرب، ولطف بهم، لتبسط النفوس، ويتداخل الناس، ويردون الموسم فيسمعون القرآن، ويدخل الإيمان في قلوبهم، وتقوم عندهم الحجة كالذي كان، وهذه الآية نزلت عام الفتح، ونسخ الله تعالى ذلك كله بعد عام سنة تسع إذ حج أبو بكر ونودي الناس بسورة براءة.

١ - تفسير قوله تعالى: جاءت إباحة الصيد عقب التشدد

حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ الْمَيْتَةُ وَالِدَمٌ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أِهْلَ لِبَعْرِ اللَّهِ يَدَيْهِ وَالْمَنْخِيقَةُ وَالْمَوْفُودَةُ وَالْمُرْدِيَّةُ وَالنَّطِيطَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ وَإِن تَسْقَسَمُوا بِالْأَزْوَاجِ ذَلِكُمْ فَسُقُ الْيَوْمِ بِيَسِّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن دِينِكُمْ فَلَا تُحْسِنُوهُمْ وَأَلسُنُ الْيَوْمِ أَكَلْتُ لَكُمْ وَيُنَمُّ عَلَيْكُمْ نَعْمَى وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا فَمَن أَضْطَرَّ فِي مَخْصَصَةٍ غَيْرِ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٠٧ يَسْتَوْلُوكَ مَاذَا أَجَلَ لَهُمْ قُلْ أَجَلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنَ عَلَيْكُمْ وَادْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ وَاقُولُوا اللَّهُ إِنْ اللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ١٠٨ الْيَوْمِ أَجَلَ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَلْالٌ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حَلْالٌ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرِ مُسْتَفْحِينَ وَلَا مِتْجَزِي أَحَدَانِ وَمَن يَكْفُرْ بِالْإِيْمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخٰسِرِينَ ١٠٩

بَات يُقَابِسُهَا غَلَامٌ كَالرَّزْمِ خَدْلَجُ السَّاقِينِ خَفَاقُ الْقَدَمِ ثُمَّ أَقْبَلَ الْحُطَمَ مِنْ عَامٍ قَابِلٍ حَاجِئاً، وَسَاقٌ هَدِيئاً، فَأَرَادَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَبْعَثَ إِلَيْهِ، وَخَفَّ إِلَيْهِ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ. قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: هَذِهِ الْآيَةُ نَهَتْ عَنِ الْحُجَّاجِ أَنْ تُقَطَعَ سُبُلُهُمْ، وَنَزَلَتْ الْآيَةُ بِسَبَبِ الْحُطَمِ، فَذَكَرَهُ نَحْوَهُ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: نَزَلَتْ الْآيَةُ عَامَ الْفَتْحِ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِمَكَّةَ، جَاءَ أَنَسٌ مِنَ الْمَشْرِكِينَ يُحْجُونَ وَيَعْتَمِرُونَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُونَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا هَؤُلَاءِ مُشْرِكُونَ، فَلَنْ نَدْعَهُمْ إِلَّا أَنْ نَغْيِرَ عَلَيْهِمْ، فَنَزَلَ الْقُرْآنُ: ﴿وَلَا تَأْتِينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكل ما فيه هذه الآية مما يتصور في

مفعولين، كما يتعدى كسب، وفي الحديث: «وتكسب المعدوم». قال أبو علي: وأجرم بالألف عرفه الكسب في الخطايا والذنوب، وقال الكسائي: جَزَمَ وأجرم لفتان بمعنى واحد، أي: كسب. وقال قوم: ﴿يَجْرِمُكُمْ﴾ معناه: يحق لكم، كما أن ﴿لَا جِزْمَ أَنْ لَكُمْ الْقَارَ﴾ معناه: حق لهم أن لهم النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَجْرِمُكُمْ﴾ معناه: يَحْمِلُنْكُمْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها أقوال تتقارب بالمعنى، فالنفس الذي يخص اللفظة هو معنى الكسب، ومنه قول الشاعر:

جريمة ناهض في رأس ينيق
تري ليعظام ما جمعت صليبا
معناه: كاسب قوت ناهض.

ويقال: فلان جريمة قومه، إذا كان الكاسب لهم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: ﴿يَجْرِمُكُمْ﴾ بضم الياء، والمعنى أيضاً: لا يكسبكم، وأما قول الشاعر:

ولقد طعنت أبا عبيدة طعنة
جرمت فزارة بعدنا أن يعضبوا

فمعناه: كسبت فزارة بعدها الغضب، وقد فسر بغير هذا مما قريب منه.

وقوله تعالى: ﴿شَنَّكَ قَوِي﴾ قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿شَنَّكَ﴾ متحركة النون، وقرأ ابن عامر: ﴿شَنَّان﴾ ساكنة النون، واختلف عن عاصم ونافع، يقال: شَنَّتُ الرجل شَنَّاً (بفتح الشين)، وشَنَّاناً (بفتح النون)، وشَنَّاناً (بسكون النون)، والفتح

أكثر، كل ذلك إذا أبغضته، قال سيبويه: كل ما كان من المصادر على (فَعْلَان) بفتح العين لم يتعد فعله إلا أن يشد شيء كالشَنَّان، وإنما عدي (شَنَّتُ) من حيث كان بمعنى أبغضت، كما عدي (الرُّفْتُ) إل من حيث كان بمعنى (الإفشاء).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما من قرأ: ﴿شَنَّكَ﴾ بفتح النون فالأظهر فيه أنه مصدر، كأنه قال: لا يكسبكنم بغض قوم من أجل أن صدوكم عدواناً عليهم وظلماً لهم، والمصادر على هذا الوزن كثيرة: كالنَزْوَان، والخَلْيَان، والطَوْفَان، والجرَّيَان، وغيره، ويحتمل الشَنَّان بفتح النون أن يكون وصفاً فيجيء المعنى: ولا يكسبكنم ببيض قوم أو بغضا قوم عدواناً.

ومما جاء على هذا الوزن صفة قولهم: «حمار قطوان»، إذا لم يكن سهل السير، وقولهم: «عدو وضمان» أي: ثقيل كعدو الشيخ ونحوه، إلى غير هذا مما ليس في الكثرة كالمصادر، ومنه ما أنشده أبو زيد:

وقبلك ما هاب الرجال ظلامتي
وقفأت عين الأوس الأبيان

بفتح الباء، وأما من قرأ: ﴿شَنَّان﴾ بسكون النون فيحتمل أن يكون مصدراً، وقد جاء المصدر على هذا الوزن في قولهم: لويته دينة لزياناً، وقول الأحوص:

.....
وإن لأم فيه ذو الشَنَّانِ وقنُدا
إنما هو تخفيف من (شَنَّان) الذي هو مصدر بسكون النون، لأنه حذف

الهمزة وألقى حركتها على الساكن، هذا هو التخفيف القياسي، قال أبو علي: من زعم أن (فَعْلَان) إذا سُكنت عينه لم يكن مصدراً فقد أخطأ، وتحتمل القراءة بسكون النون أن تكون وصفاً، فقد حُكي: رجل شَنَّان وامرأة شَنَّانة، وقياس هذا أنه من فعل غير متعد، وقد يشتق من لفظ واحد فعل متعد وفعل واقف، فيكون المعنى: ولا يكسبكنم بغض قوم أو بغضا قوم عدواناً، وإذا قدرت اللفظة مصدراً فهو مصدر مضاف إلى المفعول، ومما جاء وصفاً على فَعْلَان ما حكاه سيبويه من قولهم: خصمان، ومن ذلك قولهم: ندمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومنه رحمان.

وهذه الآية نزلت عام الفتح حين أراد المؤمنون أن يستطيلوا على قريش وأغافها من القبائل المتظاهرين على صدر رسول الله ﷺ وأصحابه عام الحديبية، وذلك سنة ست من الهجرة، فحصلت بذلك بغضة في قلوب المؤمنين وحسيكة للكفار، فقيل للمؤمنين عام الفتح وهو سنة ثمان: لا يحملنكم ذلك البغض أو أولئك البغضاء من أجل أن صدوكم على أن تعتدوا عليهم، إذ لله فيهم إرادة خير، وفي علمه أن منهم من يؤمن كالذي كان. وحكى المهدي عن قوم أنها نزلت عام الحديبية لأنه لما صد المسلمون عن البيت مر بهم قوم من أهل نجد يريدون البيت فقالوا: نصد هؤلاء كما صددنا، فنزلت الآية.

وقصد به صنم أو بشر من الناس، كما كانت العرب تفعل، وكذلك النصارى، وعادة الذابح أن يُسمى مقصوده ويصيح به، فذلك إهلاله، ومنه استهلال المولود إذا صاح عند الولادة، ومنه إهلال الهلال، أي: الصياح بأمره عند رؤيته، ومن الإهلال قول ابن أحمر:

يُسهلُ بالفَرْقَدِ رُكْبَانُهَا
كما يهلُ الرَّاكِبُ المُغْتَمِرُ
وقوله تعالى: ﴿وَالنَّخِيعَةَ﴾ معناه: التي تموت خنقاً، وهو حبس الثَّئِيسِ سواء فعل بها ذلك آدمي أو اتفق لها ذلك في حجر أو شجرة أو بحبل أو نحوه، وهذا بإجماع، وقد ذكر قتادة أن الجاهلية كانوا يخنقون الشاة وغيرها، فإذا ماتت أكلوها، وذكر نحوه ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَالْمَوْوَدَّةَ﴾ التي تُرمى أو تضرب بعصا أو بحجر أو نحوه، وكأنها التي تحذف به، وقال الفرزدق:

شَعَارَةٌ تَقْدُ الفَصِيلَ بِرَجْلِهَا
فَطَّارَةٌ لِقَوَادِمِ الأَبْكَارِ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التي تضرب بالخشب حتى يوقدها فتموت، وقال قتادة: كان أهل الجاهلية يفعلون ذلك ويأكلونها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن اللفظة قول معاوية: «وأما ابن عمر فرجل قد وقذه الورع، وكفى أمره ونزوته». وقال الضحاك: «كانوا يضربون الأنعام بالخشب لإلهتهم حتى يقتلونها فيأكلونها»، وقال أبو عبد الله الصنابحي: «ليس الموقودة إلا في مالك، وليس في الصيد وقيد».

رأى كثير من العلماء أنه لا بد من فعل فيها يجري مجرى الذكاة، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلْبَيْتَةَ﴾ بسكون الياء، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿المَيْتَةَ﴾ بالتشديد في الياء، قال الزجاج: هما بمعنى واحد، وقال قوم من أهل اللسان: الميت بسكون الياء: ما قد مات، والميت: يقال لما قد مات ولما لم يموت وهو حيُّ بغد، ولا يقال له: ميت بالتخفيف، وردَّ الزجاج هذا القول، واستشهد على رده بقول الشاعر:

لَيْسَ مِنْ مَاتَ فَاسْتَرَاحَ بِمَيْتٍ
إِنَّمَا المَيْتُ مَيْتُ الأَخْيَارِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والبيت يحتفل أن يتأول شاهداً عليه لا له، وقد تأول قوم «استراح» في هذا البيت بمعنى: اكتسب راحة، إذ قائله جاهلي لا يرى في الموت راحة.

وقوله تعالى: ﴿وَالذَّمَّ﴾ معناه: المسفوح، لأنه بهذا تقيد الدم في غير هذه الآية، فيرد المطلق إلى المقيد، وأجمعت الأمة على تحليل الدم المخالط للحم، وعلى تحليل الطحال ونحوه، وكانت الجاهلية تستيخ الدم، ومنه قولهم: «لَمْ يُحْرَمَ مَنْ قُصِدَ لَهُ»، و «العِلْوَزُ»: دم ووبر يأكلونه في الأزمان.

﴿وَلَحْمَ الخَنْزِيرِ﴾ مقتض لشحمه بإجماع، واختلف في استعمال شمره وجلده بعد الدباغ فأجيز ومنع، وكل شيء من الخنزير حرام بإجماع، جلدًا كان أو عظماً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَهْلٌ لغيرِ اللَّهِ بِهِ﴾ يعني ما ذبح لغير الله تعالى،

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿إِنْ صَدُّوكُمْ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الباقون: ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ﴾ بفتح الهمزة إشارة إلى الصد الذي وقع، وهذه قراءة الجمهور، وهي أمكن في المعنى، وكسر الهمزة معناه: إن وقع مثل ذلك في المستقبل.

وقرأ ابن مسعود: ﴿إِنْ يَصُدُّوكُمْ﴾، وهذه تؤيد قراءة أبي عمرو وابن كثير. ثم أمر الله تعالى الجميع بالتعاون على البرِّ والتقوى، قال قوم: هما لفظان بمعنى، وكرر باختلاف تأكيداً ومبالغة، إذ كل برِّ تقوى، وكل تقوى برُّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا تسامحٌ ما، والعرف في دلالة هذين اللفظين أن البر يتناول الواجب والمندوب إليه، والتقوى رعاية الواجب، فإن جعل أحدهما بدل الآخر فَيَتَجَوَّزُ، ثم نهى تعالى عن التعاون على الإثم، وهو الحكم اللاحق عن الجرائم وعن العدوان، وهو ظلم الناس، ثم أمر بالتقوى، وتوعد توعداً مجملًا بشدة العقاب. وروي أن هذه الآية نزلت نهياً عن الطلب بدخول الجاهلية، إذ أراد قوم من المؤمنين ذلك، قاله مجاهد، وقد قتل بذلك حليف لأبي سفيان من هذيل.

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أَلْبَيْتَةُ﴾ الآية تعديد لما يتلى على الأمة مما استثنى من بهيمة الأنعام، والميتة: كل حيوان له نفس سائلة خرجت نفسه من جسده على غير طريق الذكاة المشروع، سوى الحوت والجراد، على أن الجراد قد

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعند مالك وغيره من الفقهاء في الصيد ما حكمه حكم الوقيذ، وهو نص في قول النبي ﷺ في المعراض: «وإذا أصاب بعرضه فلا تأكل فإنه وقيد».

﴿وَالْمَرْدِيَّةُ﴾ هي التي تنردى من العلو إلى السفلى فتموت، كان ذلك من جبل أو في بئر ونحوه، وهي متفعللة من الردى وهو الهلاك، وكانت الجاهلية تأكل المتردي، ولم تكن العرب تعتقد ميتة إلا ما مات بالوجع ونحو ذلك دون سبب يعرف، فأما هذه الأسباب فكانت عندها كالذكاة، فحصر الشرع الذكاة في صفة مخصوصة، وبقيت هذه كلها ميتة.

﴿وَالنَّطِيحَةُ﴾ فعيلة بمعنى مفعولة، وهي الشاة تنطحها أخرى أو غير ذلك فتموت، وتأول قوم النطيحة بمعنى الناطحة، لأن الشاتين قد تتناطحان فتموتان، وقال قوم: لو ذكر الشاة لقليل: والشاة النطيح، كما يقال: كف خضيب، ولحية دهين. فلما لم تذكر ألحقت الهاء لثلا يشكل الأمر، أمذكراً يديد أم مؤنثاً؟ قال ابن عباس، والسدي، وقتادة، والضحاك: النطيحة: الشاة تناطح الشاة فتموتان، أو الشاة تنطحها البقر والغنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل ما مات ضغطاً فهو نطيح، وقرأ أبو مسرة: ﴿وَالْمَنْطُوحَةُ﴾.

وقوله: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ يريد كل ما افترسه ذو ناب وأظفار من الحيوان كالأسد والنمر والشعلب

والذئب والضبع ونحوه، هذه كلها سباع، ومن العرب من يوقف اسم السبع على الأسد، وكان العرب إذا أخذ السبع شاة فقتلها ثم خلصت منه أكلوها، وكذلك إن أكل بعضها، قاله قتادة وغيره. وقرأ الحسن، والفياض، وطلحة بن سليمان، وأبو حيوة: ﴿وَمَا أَكَلَ السَّبْعُ﴾ بسكون الباء، وهي لغة أهل نجد، وقرأ بذلك عاصم في رواية أبي بكر عنه، وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿وَأَكِيلَةٌ السَّبْعُ﴾، وقرأ عبدالله بن عباس: ﴿وَأَكِيلُ السَّبْعِ﴾.

واختلف العلماء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ - فقال ابن عباس، والحسن بن أبي الحسن، وعلي بن أبي طالب، وقتادة، وإبراهيم التَّخَمِي، وطاوس، وعبيد بن عمير، والضحاك، وابن زيد، وجمهور العلماء: الاستثناء هو من هذه المذكورات، فما أدرك منها يطرف بعين، أو يمصع برجل، أو يحرك ذنباً، وبالجمل ما يتحقق أنه لم تَفُضْ نفسه بل له حياة، فإنه يذكي على سنة الذكاة ويؤكل، وما فاضت نفسه فهو في حكم الميتة بالوجع ونحوه على ما كانت الجاهلية تعتقده. وقال مالك رحمه الله مرة بهذا القول، وقال أيضاً - وهو المشهور عنه وعن أصحابه من أهل المدينة -: إن قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ معناه: من هذه المذكورات في وقت تصح فيه ذكاتها، وهو ما لم تنفذ مقاتلها ويتحقق أنها لا تعيش، ومتى صارت في هذا الحد فهي في حكم الميتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقال بعض المفسرين: إن الاستثناء في قول الجمهور متصل، وفي قول مالك منقطع، لأن المعنى عنده: لكن ما ذكيتم مما تجوز تذكيته فكلوه، حتى قال بعضهم: إن المعنى: إلا ما ذكيتم من غير هذه فكلوه، وفي هذا عندي نظر، بل الاستثناء على قول مالك متصل، لكنه يخالف في الحال التي تصح فيها ذكاة هذه المذكورات، وقال الطبري: إن الاستثناء عند مالك من التحريم لا من المحرمات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه العبارة تجوز كثير، وحيث يلبس المعنى.

والذكاة في كلام العرب: الذبح، قال ثعلب، قال ابن سيدة: والعرب تقول: «ذكاة الجنين ذكاة أمه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما هو حديث. وذكى الحيوان ذبحه، ومنه قول الشاعر:

- يُذَكِّيهِهَا الْأَسْلُنُ -

ومما احتج به المالكيون قول مالك «إن ما تيقن أنه يموت من هذه الحوادث فهو في حكم الميتة» - أنه لو لم تحرم هذه التي قد تيقن موتها إلا بأن تموت لكان ذكر الميتة أولاً يُغني عنها، فمن حجة المخالف أن قال: إنما ذكرت بسبب أن العرب كانت تعتقد أن هذه الحوادث كالذكاة فلو لم يذكر لها غير الميتة لظنت أنها ميتة الوجود حسب ما كانت هي عليه.

﴿٣﴾ - تفسير قوله تعالى:

قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ﴾ عطف على

المحرمات المذكورات، و﴿أَنْصَبَ﴾ جمعٌ، واحده: نصاب، وقيل: هو اسم مفرد، وجمعه: أنصاب، وهي حجارة تُنصب، كان منها حول الكعبة ثلاثمائة وستون، وكان أهل الجاهلية يُعظمونها ويذبحون عليها لألهتهم ولها أيضاً، وتلطخ بالدماء، وتوضع عليها اللحوم قطعاً قطعاً ليأكل الناس، قال مجاهد، وفتادة، وغيرهما: النُّصْب حجارة كان أهل الجاهلية يذبحون عليها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ويُهلون عليها، قال ابن جُرَيْج: النُّصْب ليست بأصنام، الصُّنم يصور وينقش، وهذه الحجارة تنصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد كانت للعرب في بلادها أنصاب حجارة يعبدونها، ويحكون فيها أنصاب مكة، ومنها الحجر المسمى بسغد وغيره، قال ابن جريج: كانت العرب تذبح بمكة، وينضحون بالدم ما أقبل من البيت، ويشرحون اللحم ويضعونه على الحجارة، فلما جاء الإسلام قال المسلمون لرسول الله ﷺ: نحن أحق أن نعظم هذا البيت بهذه الأفعال، فكأن رسول الله ﷺ لم يكره ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَنْ نَبَالَ اللَّهُ لَوْمَهَا وَلَا يَمَأُوهَا﴾، ونزلت: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: المعنى والنية فيها تعظيم النصب، قال مجاهد: وكان أهل مكة يبدلون ما شاءوا من تلك الحجارة إذا وجدوا أعجب إليهم منها، قال ابن زيد: ما ذُبح على النصب وما أُهِّل

به لغير الله شيء واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ما ذبح على النصب جزء مما أُهِّل به لغير الله، لكن خص بالذكر بعد جنسه لشهرة الأمر، وشرف الموضوع، وتعظيم النفوس له، وقد يقال للصنم أيضاً نُصْب لأنه يُنصب، وروي أن الحسن بن أبي الحسن قرأ: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النَّصْبِ﴾ بفتح النون وسكون الصاد، وقال: على الصنم. وقرأ طلحة بن مُصرف: ﴿عَلَى النَّصْبِ﴾ بضم النون وسكون الصاد، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿على النَّصْبِ﴾، بفتح النون والصاد، وروي عنه أنه قرأ بضم النون والصاد كقراءة الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْتَقِيمُوا بِالْأَزْلَمِ﴾ حُرْمٌ به تعالى طلب القسم وهو النصيب، أو القَسْم - بفتح القاف - وهو المصدر بالأزلام. وهي سهام واحدها: زَلْمٌ - بضم الزاي ويفتحها - وأزلام العرب ثلاثة أنواع: منها الثلاثة التي كان يتخذها كل إنسان لنفسه، على أحدها أفعل، والآخر لا تفعل، والثالث مهمل لا شيء عليه فيجعلها في خريطة معه، فإذا أراد فعل شيء أدخل يده - وهي متشابهة - فأخرج أحدهما واثمر وانتهى بحسب ما يخرج له، وإن خرج القدح الذي لا شيء فيه أعاد الضرب، وهذه هي التي ضرب بها سراقه بن مالك بن جعشم حين اتبع النبي ﷺ وقت الهجرة.

والنوع الثاني سبعة قدح كانت عند هبل في جوف الكعبة، فيها أحكام العرب وما يدور بين الناس من

النوازل، في أحدها: العقل في أمور الديات، وفي آخر: منكم، وفي آخر: من غيركم، وفي آخر: ملصق، وفي سائرهما: أحكام المياه وغير ذلك، وهي التي ضرب بها على بني عبدالمطلب، إذ كان نَذْرٌ هو نحر أحدهم إذاكملوا عشرة، وهو الحديث الطويل الذي في سير ابن إسحق، وهذه السبعة أيضاً متخذة عند كل كاهن من كهان العرب وحكامهم على نحو ما كانت في الكعبة عند هبل.

والنوع الثالث هو قدح الميسر، وهي عشرة، سبعة منها فيها خطوط لها بعددها حظوظ، وثلاثة أغفال، وكانوا يضربون بها مقامرة، ففيها لهو للطالبين ولعب، وكان عقلاؤهم يقصدون بها إطعام المساكين والمُعْدَم في زمن الشتاء وكَلْب البرد وتُعْذَر الثُّخْرَف، وكان من العرب من يستقسم بها لنفسه طلب الكسب والمغامرة، وقد شرحت أمرها بأوعب من هذا في سورة البقرة في تفسير الميسر. فالاستقسام بهذا كله هو طلب القَسْم والنصيب، وهو من أكل المال بالباطل، وهو حرام، وكل مقامرة بحمام أو ببرد أو بشرطنج أو بغير ذلك من هذه الألعاب فهو استقسام بما هو في معنى الأزلام حرام كله.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ يَتَّقُ﴾ إشارة إلى الاستقسام بالأزلام، والفسق: الخروج من مكان محتو جامع، يقال: فسقت الرطبة: خرجت من قشرها، والفأرة من جحرها، واستعملت اللفظة في الشرع فيمن يخرج من احتواء الأمر الشرعي وإحاطته.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ معناه عند ابن عباس رضي الله عنهما: من أن ترجعوا إلى دينهم، وقاله السدي وعطاء، وظاهر أمر النبي ﷺ وأصحابه وظهور دينه يقتضي أن يأس الكفار عن الرجوع إلى دينهم قد كان وقع منذ زمان، وإنما هذا اليأس عندي من اضمحلال أمر الإسلام وفساد جمعه، لأن هذا أمر كان يترجاه من بقي من الكفار، ألا ترى إلى قول أخي صفوان بن أمية في يوم هوازن حين انكشف المسلمون وظنها هزيمة: ألا يظل السحر اليوم، إلى غير هذا من الأمثلة، وهذه الآية نزلت في أثر حجة الوداع، وقيل: في يوم عرفة ولم يكن المشركون يومئذ إلا في حَيْزِ القلة، ولم يحضر الموسم منهم بشر، وفي ذلك اليوم انمحي أمر الشرك من مشاعر الحج، ويحتمل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ﴾ أن يكون إشارة إلى اليوم بعينه، لا سيما في قول الجمهور - عمر بن الخطاب رضي الله عنه وغيره - أنها نزلت في عشية عرفة يوم الجمعة ورسول الله ﷺ في الموقف على ناقته، وليس في الموسم مشرك، ويحتمل أن يكون إشارة إلى الزمن والوقت، أي: في الأوان يش الذين كفروا من دينكم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يعم مشركي العرب وغيرهم من الروم والفرس وغير ذلك، وهذا يقوِّي أن اليأس من انحلال أمر الإسلام وذهاب شوكته، ويقوِّي أن الإشارة باليوم إنما هي إلى الأوان الذي فاتحته يوم عرفة، ولا مشرك بالموسم، ويعضد هذا قوله تعالى:

﴿فَلَا تَحْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ﴾ فإنما نهى المؤمنين عن خشية جميع أنواع الكفار، وأمر بخشيته تعالى التي هي رأس كل عبادة كما قال ﷺ، ومفتاح كل خير، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ ﴿نَبِّئِ﴾ بغير همزة، وهي قراءة أبي جعفر.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ تحتل الإشارة باليوم ما قد ذكرناه، وهذا الإكمال عند الجمهور هو الإظهار واستيعاب عظم الفرائض والتحليل والتحرير. قالوا: وقد نزل بعد ذلك قرآن كثير، ونزلت آية الربا، ونزلت آية الكلاله، إلى غير ذلك. وإنما كمل عظم الدين وأمر الحج أن حجوا وليس معهم مشرك، وقال ابن عباس، والسدي: هو إكمال تام، ولم ينزل على النبي ﷺ بعد ذلك اليوم تحليل ولا تحريم ولا فرض، وحكى الطبري عن بعض من قال هذا القول أن رسول الله ﷺ لم يعيش بعد نزول هذه الآية إلا إحدى وثمانين ليلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أنه عاش عليه الصلاة والسلام أكثر بأيام يسيرة، وروي أن هذه الآية لما نزلت في يوم الحج الأكبر، وقرأها رسول الله ﷺ بكى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فنقال له رسول الله ﷺ: «ما يبكيك؟» فقال: أبكاني أنا كنا في زيادة من ديننا، فأما إذ كمل فإنه لم يكمل شيء إلا نقص، فقال له النبي ﷺ: «صدقت».

وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال له يهودي: آية في

كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر يهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال له عمر رضي الله عنه: آية آية هي؟ فقال له: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، فقال له عمر رضي الله عنه: قد علمنا ذلك اليوم، نزلت على رسول الله ﷺ وهو واقف بعرفة يوم جمعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ففي ذلك اليوم عيدان لأهل الإسلام إلى يوم القيامة.

وقال داود بن أبي هند للشعبي: إن اليهود تقول: كيف لم تحفظ العرب هذا اليوم الذي كمل الله لها دينها فيه؟ فقال الشعبي: أو ما حفظته؟ قال داود: فقلت: أي يوم هو؟ قال: يوم عرفة.

وقال عيسى بن جارية الأنصاري: كنا جلوساً في الديوان، فقال لنا نصراني مثل ما قال اليهودي لعمر بن الخطاب رضي الله عنه، فما أجابه منا أحد، فلقيت محمد بن كعب القرظي فأخبرته، فقال: هلاً أحببتموه، قال عمر بن الخطاب: أنزلت على النبي ﷺ وهو واقف على الجبل يوم عرفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر عكرمة عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: نزلت سورة المائدة بالمدينة يوم الاثنين، وقال الربيع بن أنس: نزلت سورة المائدة في مسير رسول الله ﷺ إلى حجة الوداع، وهذا كله يقتضي أن السورة مدنية بعد الهجرة، وإتمام النعمة هو في: ظهور الإسلام، ونور العقائد، وإكمال الدين، وسعة الأحوال وغير

ذلك مما انتظمت هذه الملة الحنيفية، إلى دخول الجنة والخلود في رحمة الله، هذه كلها نعم الله المتmente قَبَلْنَا.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾، يحتمل الرضا في هذا الموضع أن يكون بمعنى الإرادة، ويحتمل أن يكون صفة فعل عبارة عن إظهار الله إياه، لأن الرضا من الصفات المترددة بين صفات الذات وصفات الأفعال، والله تعالى قد أراد لنا الإسلام ورضيه لنا، وثم أشياء يريد الله تعالى وقوعها ولا يرضاهما، والإسلام في هذه الآية هو الذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْبَيْتَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَيْسَرَ﴾، وهو الذي تفسر في سؤال جبريل النبي ﷺ، وهو الإيمان والأعمال والشعب.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ فِي تَخَصُّصِهِ﴾ يعني: من دعت ضرورة إلى أكل الميتة وسائر المحرمات، وسئل رسول الله ﷺ: متى تحل الميتة؟ فقال: «إذا لم تصطبحوا، ولم تغتبقوا، ولم تحتفتوا بها بقلًا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا مثال في حال عدم المأكول حتى يؤدي ذلك إلى ذهاب القوة والحياة.

وقرأ ابن محيصن: ﴿فَمَنْ أَطْرُزْ﴾ بإدغام الضاد في الطاء، وليس بالقياس، ولكن العرب استعملته في ألفاظ قليلة استعمالاً كثيراً. وقد تقدم القول في أحكام الاضطرار في نظير هذه الآية في سورة البقرة.

والمخمصة: المجاعة التي تخمض فيها البطون، أي: تضمر،

والخَمَص: ضمور البطن، فالخلقة منه حسنة في النساء، ومنه يقال: خُمَصَانَةٌ، وبطن خَمِص، ومنه أخصم القدم، ويستعمل ذلك كثيراً في الجوع والغرث، ومنه قول الأعشى:

تَبَيَّنُونَ فِي الْمَشْتَى مَلَاءَ بَطُونِكُمْ
وَجَارَاتِكُمْ عَزَّتِي يَبْتَنُ خَمَائِصًا
أي: منطويات على الجوع قد أضمر بطونهن.

وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْرٍ﴾ هو بمعنى: «غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَارٍ»، وقد تقدم تفسيره وفقهه في سورة البقرة، والحنف: الميل، وقرأ أبو عبد الرحمن، ويحيى بن وثاب، وإبراهيم النخعي: «غَيْرَ مُتَجَنِّفٍ» دون ألف، وهي أبلغ في المعنى من متجانف، لأن شد العين يقتضي مبالغة وتوغلاً في المعنى وثبوتاً لحكمه، وتفاعل إنما هي محاكاة الشيء والتقرب منه، ألا ترى إذا قلت: تمايل الغصن، فإن ذلك يقتضي تأوذاً ومقاربة ميل، وإذا قلت: تميل فقد ثبت حكم الميل، كذلك: تصاوون وتصوون، وتغافل وتغفل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ نائب مناب «فلا حرج عليه»، إلى ما يتضمن من زيادة الوعد وترجيبة النفوس، وفي الكلام محذوف يدل عليه المذكور، تقديره: فأكل من تلك المحرمات المذكورات.

وسبب نزول قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ مَاذَا أُحِلَّ لَكُمْ﴾ أن جبريل عليه السلام جاء إلى رسول الله ﷺ، فوجد في البيت كلباً فلم يدخل، فقال له

النبي ﷺ: «ادخل»، فقال: أنا لا أدخل بيتاً فيه كلب، فأمر رسول الله ﷺ بقتل الكلاب فقتلت حتى بلغت العوالي، فجاء عاصم بن عدي، وسعد بن خيشمة، وعويم بن ساعدة فقالوا: يا رسول الله: ماذا يحل لنا من هذه الكلاب؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروى هذا السبب أبو رافع مولى النبي ﷺ، وهو كان المتولي لقتل الكلاب، وحكاه أيضاً عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي موقوفاً عليهما، وظاهر الآية أن سائلاً سأل عما أحل للناس من المطاعم، لأن قوله تعالى: ﴿فَلْ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ﴾ ليس الجواب عما يحل لنا من اتخاذ الكلاب، اللهم إلا أن يكون هذا من إجابة السائل بأكثر مما سأل عنه، وهذا موجود كثيراً من النبي ﷺ، كجوابه في لباس المخرم وغير ذلك، وهو ﷺ مبين الشرع، فإنما يجابو ما إذا إطناب التعليم لأتمه.

والطيبات: الحلال، هذا هو المعنى عند مالك وغيره، ولا يراعى مستلذاً كان أم لا، وقال الشافعي: الطيبات: الحلال المستلذ، وكل مستقذر كالوزغ والخنافس وغيرها فهي من الخبائث حرام.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ﴾ تقديره: وصيد ما علمتم، أو فاتخاذ ما علمتم، وأعلى مراتب التعليم أن يشلى الحيوان فيئشلي، ويدعى فيجيب، ويزجر بعد ظفره بالصيد فينجزر، وأن يكون لا يأكل من صيده، فإذا كان كلب بهيماً الصفات ولم يكن أسود بهيماً

وليس في الحيوان شيء يقبل التعليم التام إلا الكلب شاذاً.

وأكثرها يأكل من الصيد، ولذلك لم ير مالك ذلك من شروط التعليم، وأما الطير فقال ربيعة: ما أجاب منها إذا دُعي فهو المعلم الضاري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن أكثر الحيوان بطبعته ينشلي، وقال أصحاب أبي حنيفة: إذا صاد الكلب وأمسك ثلاث مرات ولاء فقد حصل منه التعليم، قاله ابن المنذر: وكان النعمان لا يحدد في ذلك عدداً، وقال غيرهم: إذا فعل ذلك مرة واحدة فقد حصل معلماً، وإذا كان الكلب تعليم يهودي أو نصراني فِكْرَةَ الصَّيْدِ به الحسن البصري، فأما كلب المجوسي وبازؤه وصقره فِكْرَهُ الصيد بها جابر بن عبد الله، والحسن، وعطاء، ومجاهد، وإبراهيم الشَّخمي، والثوري، وإسحاق بن راهويه - ومالك رحمه الله، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابهم على إباحة الصيد بكلابهم إذا كان الصائد مسلماً، قالوا: وذلك مثل شفرته، وأما إذا كان الصائد من أهل الكتاب فجمهور الأمة على

جواز صيده غير مالك رحمه الله، فإنه لم يجوز صيد اليهودي والنصراني، وفرَّق بين ذلك وبين ذبيحته، وتلا قول الله تعالى: ﴿تَنَالَهُ آيَاتُكُمْ وَرَمَاتُكُمْ﴾ قال: فلم يذكر الله بهذا اليهود ولا النصراني، وقال ابن وهب، وأشهب: صيد اليهودي والنصراني حلال كذبيحته، وفي كتاب محمد: لا يجوز صيد الصايء ولا ذبيحته، وهم قوم بين اليهود

وإبراهيم الشَّخمي، وسعيد بن جبير، وعطاء بن أبي رباح، وقتادة، وعكرمة، والشافعي، وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور، والنعمان وأصحابه: لا يؤكل ما بقي، لأنه إنما أمسك على نفسه، ولم يمسك على ربه، ويعضد هذا القول قول النبي ﷺ لعدي بن حاتم في الكلب المعلم: «وإذا أكل فلا تأكل فإنما أمسك على نفسه»، وتأول هؤلاء قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ أي: الإمساك التام، ومتى أكل فلم يمسك على الصائد. وقال سعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن عمر، وأبو هريرة أيضاً، وسلمان الفارسي، رضي الله عنهم: إذا أكل الجارح أكل ما بقي وإن لم تبق إلا بضعة، وهذا قول مالك وجميع أصحابه فيما علمت، وتأولوا قول الله تعالى: ﴿مِمَّا أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ﴾ على عموم الإمساك، فمتى حصل إمساك ولو في بضعة حَلَّ أكلها، وروي عن الشَّخمي، وأصحاب الرأي، والثوري، وحمام بن أبي سليمان: أنهم رخصوا فيما أكل البازي منه، خاصة في البازي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه لا يمكن فيه أكثر من ذلك، لأن حدَّ تعليمه أن يدعى فيجيب، وأن يُشلى فينشلي، وإذا كان الجارح يشرب من دم الصيد فجمهور الناس على أن ذلك الصيد يؤكل، وقال عطاء: ليس شرب الدم بأكل، وكثره أكل ذلك الصيد الشعبي، وسفيان الثوري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فأجمعت الأمة على صحة الصيد به بشرط أن يكون تعليم مسلم، ويصيد به مسلم، هنا انعقد الإجماع، فإذا انخرم شيء مما ذكرنا دخل الخلاف، فإن كان الذي يصاد به غير كلب كالفهد وما أشبهه، وكالبازي والصقر ونحوهما من الطير، فجمهور الأمة على أن كل ما صاد بعد تعليم فهو جارح، أي: كاسب، يقال: جرح فلان واجترح إذا كسب، ومنه قوله تعالى: ﴿وَيَسَلِّمُوا مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ﴾، أي: كسبتم من حسنة وسيئة، وكان ابن عمر يقول: إنما يصاد بالكلاب، فأما ما صيد به من البزاة وغيرها من الطير فما أدركت ذكاته فذكه فهو حلال لك، وإلا فلا تطعمه، هكذا حكى ابن المنذر، قال: وسئل أبو جعفر عن البازي والصقر، أيحل صيده؟ قال: لا، إلا أن تدرك ذكاته، قال: واستثنى قوم البزاة فجوزوا صيدها لحديث عدي بن حاتم، قال: سألت رسول الله ﷺ عن صيد البازي فقال: «إذا أمسك عليك فكل». وقال الضحاك والسدي: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ﴾ هي الكلاب خاصة، فإن كان الكلب أسود بهيماً فِكْرَةَ صَيْدِهِ الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وإبراهيم الشَّخمي، وقال أحمد بن حنبل: ما أعرف أحداً يرخص فيه إذا كان بهيماً، وبه قال ابن راهويه، فأما عوام أهل العلم بالمدينة والكوفة فيرون جواز صيد كل كلب معلَّم.

وأما أكل الكلب من الصيد، فقال ابن عباس، وأبو هريرة، والشعبي،

والنصارى لا دين لهم، وأما إذا كان الصائد مجوسياً فممنوع من أكل صيده مالك، والشافعي، وأبو حنيفة، وأصحابهم، وعطاء، وابن جبير، والشَّخمي، والليث بن سعد، وجمهور الناس، وقال أبو ثور فيها قولين: أحدهما كقول هؤلاء، والآخر أن المجوس أهل كتاب، وأن صيدهم جائز.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَمَا عَلَّمْتُمْ﴾ بفتح العين واللام، وقرأ ابن عباس، ومحمد بن الحنفية: ﴿عَلَّمْتُمْ﴾ بضم العين وكسر اللام، أي: أمر الجوارح والصيد بها.

والجوارح: الكواسب على ما تقدم، وحكى ابن المنذر عن قوم أنهم قالوا: الجوارح مأخوذ من الجراح، أي: الحيوان الذي له ناب وظفر أو مخلب يجرح به صيده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف، أهل اللغة على خلافه. وقرأ جمهور الناس ﴿مُكَلَّبِينَ﴾ بفتح الكاف وشد اللام، والمكَلَّب: معلم الكلاب ومُضْرِبُهَا، ويقال لمن يعلم غير كلب: مُكَلَّب، لأنه يرد ذلك الحيوان كالكلب. وقرأ الحسن، وأبو زيد: ﴿مُكَلَّبِينَ﴾ بسكون الكاف وتخفيف اللام ومعناه: أصحاب كلاب، يقال: أششى الرجل: كثرت ماشيته، وأكلب: كثرت كلابه. وقال بعض المفسرين: المكَلَّب بفتح الكاف وشد اللام: صاحب الكلاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بمحرر.

وقوله تعالى: ﴿تَلْبُوتِينَ مِمَّا عَلَّمْتُمْ

الله﴾ أي: تعلمونهن من الحيلة في الاصطياد والتأني لتحصيل الحيوان، وهذا جزء مما علمه الله الإنسان فـ [من] للتبعيض، ويحتمل أن تكون لا ابتداءً للغاية، وأنت الضمير في ﴿تَلْبُوتِينَ﴾ مراعاة للفظ الجوارح، إذ هو جمع جارحة.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا أَسْكَنْتُمْ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أن يريد: مما أسكن فلم يأكلن منه شيئاً، ويحتمل أن يريد: مما أسكن وإن أكلن بعض الصيد، وبحسب هذا الاحتمال اختلف العلماء في جواز أكل الصيد إذا أكل منه الجراح، وقد تقدم ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا أَنَّمْ اللهُ عَلَيْكُمْ﴾ أمر بالتسمية عند الإرسال على الصيد، وفقه الصيد والذبح في معنى التسمية واحد، فقال بعض العلماء: هذا الأمر على الوجوب، ومتى ترك المرسل أو الذابح التسمية عمداً أو نسياناً لم تؤكل، ومن رويت عنه كراهية ما لم يسم عليه الله نسياناً الشعبي، وابن سيرين، ونافع، وأبو ثور. ورأى بعض العلماء هذا الأمر بالتسمية على الندب، وإلى ذلك بنحو أشهب في قوله: إن ترك التسمية مستخفاً لم تؤكل، وإن تركها عامداً لا يدري قدر ذلك ولكنه غير متهاون بأمر الشريعة فإنها تؤكل. ومذهب مالك وجمهور أهل العلم أن التسمية واجبة مع الذكر، ساقطة من النسيان، فمن تركها عامداً فقد أفسد الذبيحة، والصيد، ومن تركها ناسياً سُمي عند الأكل وكانت

الذبيحة جائزة. واستحب أكثر أهل العلم ألا يذكر في التسمية غير الله تعالى، وأن لفظها: بسم الله والله أكبر، وقال قوم: إن صلى مع ذلك على النبي ﷺ فجائز.

ثم أمر تعالى بالتقوى على الجملة، والإشارة القريبة هي إلى ما تضمنته هذه الآيات من الأوامر، وسرعة الحساب هي من حيث أنه تبارك وتعالى قد أحاط بكل شيء علماً، فلا يحتاج إلى محاولة عد، وبحاسب جميع الخلائق دفعة واحدة، وتحتمل الآية أن تكون وعيداً بيوم القيامة كأنه قال: إن حساب الله لكم سريع إتيانه إذ يوم القيامة قريب، ويحتمل أن يريد الحساب المجازاة فكأنه توعد في الدنيا بمجازاة سريعة قريبة إن لم يتقوا الله.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمْ الْطَيِّبَاتُ﴾ إشارة إلى الزمن والأوان، والخطاب للمؤمنين، وتقدم القول في ﴿الطَّيِّبَاتُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالطَّعَامُ الَّذِي آتَوْا أَلْكَلْبَ﴾ ابتداءً وخبر، و﴿حِلٌّ﴾ معناه: حلال، والطعام في هذه الآية: الذبائح، كذا قال أهل التفسير: وذلك أن الطعام الذي لا محاولة فيه كالْبَرِّ والفاكهة ونحوه لا يضُرُّ فيه ويَحْرُمُ عَيْنَهُ تَمَلُّكُ أَحَدٍ. والطعام الذي تقع فيه محاولة على ضربين: فمنه ما محاولته صنعة لا تعلق للدين بها كخبز الدقيق وتعصير الزيت ونحوه، فهذا إن تَجَنَّبَ من الذمي فعلى جهة التفريز، والضرب الثاني التي هي محتاجة إلى الدين

والثنية، فإذا كان القياس ألا تجوز ذبائحهم - كما تقول: إنهم لا صلاة لهم ولا صوم ولا عبادة مقبولة - رخص الله تبارك وتعالى في ذبائحهم على هذه الأمة، وأخرجها بالنص على القياس.

ثم إن العلماء اختلفوا في لفظ [طَعَام] - فقال الجمهور: وهي الذبيحة، كلها، وتذكية الذمي عاملة لنا في كل الذبيحة ما حل له منها وما حرم عليه، لأنه مُذَكٌّ، وقالت جماعة من أهل العلم: إنما أحل لنا طعامهم من الذبيحة - أي الحلال لهم - لأن ما لا يحل لهم لا تعمل فيه تذكيتهم، فمنعت هذه الطائفة الطُرف والشحوم المحضة من ذبائح أهل الكتاب، وهذا الخلاف موجود في مذهب مالك رحمه الله.

واختلف العلماء في لفظة [أَوْثُوا] - فقالت فرقة: إنما أحلت لنا ذبائح بني إسرائيل والنصارى الصرحاء الذين نزل عليهم التوراة والإنجيل، فمنعت هذه الفرقة ذبائح نصارى بني تغلب من العرب، وذبائح كل دخيل في هذين الدينين، وكان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ينهى عن ذبائح نصارى بني تغلب ويقول: لأنهم لم يتمسكوا بشيء من النصرانية إلا بشرب الخمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا ليس بنهي عن ذبائح النصارى المحققين منهم، وقال جمهور الأمة: ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وابن المسيب، والشعبي، وعطاء، وابن شهاب، والحكم، وحماد، وقتادة، ومالك رحمه الله،

وغيرهم: إن ذبيحة كل نصراني حلال سواء كان من بني تغلب أو غيرهم، وكذلك اليهود، وتأولوا قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّكُمْ يَتَكْفُرْ إِنَّهُمْ يَبْغُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ حِلًّا لِّكُمْ﴾ أي: ذبائحكم، فهذه رخصة للمسلمين لأهل الكتاب، لما كان الأمر يقتضي أن شيئاً قد تشرعنا فيه بالتذكية ينبغي لنا أن نحمله منهم، ورخص الله تعالى في ذلك رفعا للمشقة بحسب التجاوز.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّحْمَ سَكَنٌ﴾ عطف على الطعام المحلل. والإحصان في كلام العرب وفي تصريف الشرع مأخوذ من المنعة، ومنه الحصن، وهو مترتب بأربعة أشياء: الإسلام والعفة والنكاح والحرية، فيمتنع في هذا الموضوع أن يكون الإسلام لأنه قد نص أنهن من أهل الكتاب، ويمتنع أن يكون النكاح لأن ذات الزوج لا تحل، ولم يبق إلا الحرية والعفة فاللفظة تحتلها. واختلف أهل العلم بحسب هذا الاحتمال - فقال مالك رحمه الله، ومجاهد، وعمر بن الخطاب، وجماعة من أهل العلم: المحصنات في هذه الآية: الحرائر، فمنعوا نكاح الأمة الكتابية، وقالت جماعة من أهل العلم: المحصنات في هذه الآية: العفائف، منهم مجاهد أيضاً، والشعبي، وغيرهم، فجوزوا نكاح الأمة الكتابية، وبه قال سفيان، والسدي، وقال الشعبي: إحصان الذمية ألا تزني وأن تغتسل من الجنابة، وقال أبو ميسرة: مملوكات

أهل الكتاب بمنزلة حرائرهن العفائف منهن حلالاً نكاحهن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومنع بعض العلماء زواج غير العفيفة بهذه الآية، وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا اطلع الرجل من امرأته على فاحشة فليفارقتها، وفرق ابن عباس رضي الله عنهما بين نساء أهل الحرب ونساء أهل الذمة فقال: من أهل الكتاب من يحل لنا وهم كل من أعطى الجزية، ومنهم من لا يحل لنا وهم أهل الحرب. وكرة مالك رحمه الله نكاح نساء أهل الحرب مخافة ضياع الولد أو تغير دينه.

والأجور في هذه الآية: المهور، وانتزع أهل العلم من لفظة [آتَيْتُمُوهُنَّ] أنه لا ينبغي أن يدخل زوج بزوجه إلا بعد أن يبذل من المهر ما يستحلها به، ومن جوز أن يدخل دون أن يبذل ذلك فرأى أنه بحكم الارتباط والالتزام في حكم المؤتي.

و ﴿مُحْصِنَاتٍ﴾ معناه: متزوجين على الشئة، والإحصان - في هذا الموضوع - هو بالنكاح، والمسافح: المزاني، والسفاح: الزنى، والمسافحة هي المرأة التي لا ترد يد لأمس، وتزني مع كل أحد، وهن أصحاب الرايات في الجاهلية، والمخاذنة: أن يكون الزانيان قد وقف كل واحد نفسه على صاحبه، وقد تقدم نظير هذه الآية، وفُسر بأوعب من هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ﴾ يحتمل أن يكون المعنى على أن الكفر هو بنفسي الإيمان، وفي هذا

صلاتين بوضوء واحد في حديث سويد بن النعمان، وفي غير موطن، إلى أن جمع يوم الفتح بين الصلوات الخمس بوضوء واحد، إرادة البيان لأتمته. وروى ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «من توضأ على طهر كتب له عشر حسنات» وقال: إنما رغبت في هذا. وقالت فرقة: نزلت هذه الآية رخصة لرسول الله ﷺ، لأنه كان لا يعمل عملاً إلا وهو على وضوء، ولا يكلم أحداً، ولا يرد سلاماً، إلى غير ذلك، فأعلمه الله بهذه الآية أن الوضوء إنما هو عند القيام إلى الصلاة فقط دون سائر الأعمال، قال ذلك علقمة بن الفغواء، وهو من الصحابة وكان دليل رسول الله ﷺ إلى تبوك، وقال زيد بن أسلم، والسدي: معنى الآية: إذا قمت إلى الصلاة من المضاجع، يعني النوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقصد بهذا التأويل أن يعم الأحداث بالذكر، ولا سيما النوم الذي هو مختلف فيه، هل في نفسه حدث، وفي الآية على هذا التأويل تقديم وتأخير، تقديره: «يَتَأْتِيَنَّكَ الْذَّبْرُ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ» من النوم، «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ الْمَسَاءِ» يعنسي الملامسة الصغرى، «فَاغْسِلُوا» - فتمت أحكام المحدث حدثاً أصغر، ثم قال: «وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا» فهذا حكم نوع آخر، ثم قال للنوعين جميعاً: «وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَجًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ الْمَسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا»، وقال بهذا

المصطلق، وفيها كان هبوب الريح فيما روي، وفيها كان قول عبدالله بن أبي ابن سلول: «لئن رجعنا إلى المدينة» القصة بطولها، وفيها وقع حديث الإفك.

ولما كانت محاولة الصلاة في الأغلب إنما هي بقيام جاءت العبارة: «إِذَا قُمْتَ». واختلف الناس في القرينة التي أريدت مع قوله: «إِذَا قُمْتَ». فقالت طائفة: هذا لفظ عام في كل قيام، سواء كان المرء على طهور أو محدثاً، فإنه

ينبغي له إذا قام إلى الصلاة أن يتوضأ، وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يفعل ذلك ويقرأ الآية، وروي نحوه عن عكرمة، وقال ابن سيرين: كان الخلفاء يتوضؤون لكل صلاة، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه توضأ وضوءاً فيه تجوز، ثم قال: هذا وضوء من لم يحدث. وقال عبدالله بن حنظلة بن أبي عامر الغسيل: إن النبي ﷺ أمر بالوضوء عند كل صلاة فشق ذلك عليه فأمر بالسواك ورفع عنه الوضوء إلا من حدث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان كثير من الصحابة منهم ابن عمر وغيره يتوضؤون لكل صلاة انتداباً إلى فضيلة، وكذلك كان رسول الله ﷺ يفعل، ثم جمع بين

يَتَأْتِيَنَّكَ الْذَّبْرُ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَجًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ الْمَسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ①
وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْقَلَةَ الذَّرَّةِ الَّتِي أَنْفَقْتُمْ يَوْمَ إِذْ أَنْفَقْتُمْ سَعْيَكُمْ وَأَطْعَمْنَا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ ② يَتَأْتِيَنَّكَ الْذَّبْرُ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَجًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ الْمَسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ③
وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْقَلَةَ الذَّرَّةِ الَّتِي أَنْفَقْتُمْ يَوْمَ إِذْ أَنْفَقْتُمْ سَعْيَكُمْ وَأَطْعَمْنَا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ ④ يَتَأْتِيَنَّكَ الْذَّبْرُ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَجًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ الْمَسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑤
وَأَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِثْقَلَةَ الذَّرَّةِ الَّتِي أَنْفَقْتُمْ يَوْمَ إِذْ أَنْفَقْتُمْ سَعْيَكُمْ وَأَطْعَمْنَا وَأَنْفَقُوا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَدَاتِ الصُّدُورِ ⑥ يَتَأْتِيَنَّكَ الْذَّبْرُ إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ وَإِنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَأَطْهَرُوا وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْحَجًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لَسْتُمْ مِنَ الْمَسَاءِ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ⑦

مجاز واستعارة، لأن الإيمان لا يتصور كفر به، إنما الكفر بالأمور التي حقها أن يقع الإيمان بها، وباقى الآية بين.

① تفسير قوله عز وجل:

لا يختلف أن هذه الآية هي التي قالت عائشة رضي الله عنها فيها: «نزلت آية التيمم»، وهي آية الوضوء، لكن من حيث كان الوضوء متقرباً عندهم مستعملاً فكان الآية لم تزدهم فيه إلا تلاوته، وإنما أعطتهم الفائدة والرخصة في التيمم. واستدل على حصول الوضوء بقول عائشة رضي الله عنها: «فأقام رسول الله ﷺ بالناس وليسوا على ماءٍ وليس معهم ماء». وآية النساء إما نزلت معها أو بعدها ببسير، وكانت قصة التيمم في سفر رسول الله ﷺ في غزوة المُرَيْسِيعِ، وهي غزوة بني

التأويل محمد بن مسلمة من أصحاب مالك رحمه الله وغيره.

وقال جمهور أهل العلم: معنى الآية: ﴿إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ «مُحْدِثِينَ»، وليس في الآية على هذا تقديم ولا تأخير، بل يترتب في الآية حكم واجد الماء إلى قوله: ﴿فَأَغْتَسِلُوا﴾، ودخلت الملامسة الصغرى في قوله: «مُحْدِثِينَ»، ثم ذكر بعد ذلك بقوله: ﴿وَبِإِنْ كُنْتُمْ مِنَ الْمَاءِ مِنَ النَّوعَيْنِ جَمِيعًا، وَكَانَتِ الْمَلَامَسَةُ هِيَ الْجَمَاعَ وَلَا بَدَّ، لِيَذَكَرَ الْجُنُبُ الْعَادِمَ لِلْمَاءِ كَمَا ذَكَرَ الْوَاجِدَ. وَهَذَا هُوَ تَأْوِيلُ الشَّافِعِيِّ وَغَيْرِهِ، وَعَلَيْهِ تَجِيءُ أَقْوَالُ الصَّحَابَةِ كَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ، وَأَبِي مُوسَى، وَغَيْرِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْتَسِلُوا دُجُوهَكُمْ﴾، الغسل في اللغة: إيجاد الماء في المغسول مع إمرار شيء عليه كاليد، أو ما قام مقامها، وهو يتفاضل بحسب الانغمار في الماء أو التقليل منه، وغسل الوجه في الوضوء هو بنقل الماء إليه وإمرار اليد عليه، والوجه: ما واجه الناظر وقابله، وحده في الطول منابت الشعر فوق الجبهة إلى آخر الذقن، وعبر بعض الناس: إلى ما قابل آخر الذقن، وقيل: بل حده فيها آخر الشعر. واختلف العلماء في تخليل اللحية على قولين: روي تخليلها عن النبي ﷺ من حديث أنس، ذكره الطبري، واختلف في حده عرضاً - فهو في المرأة والأمرد من الأذن إلى الأذن، وفي ذي اللحية ثلاثة أقوال -

فقيل: من الشعر إلى الشعر - يعني شعر العارضين، وقيل: من الأذن إلى الأذن، ويدخل البياض الذي بين العارض والأذن في الوجه، وقيل: يغسل ذلك البياض استحباباً، واختلف في الأذنين - فقيل: هما من الرأس، وقال الزهري: من الوجه، وقيل: هما عضو قائم بنفسه ليس من الوجه ولا من الرأس، وقيل: ما أقبل منهما من الوجه، وما أدبر فهو من الرأس. واختلف في المضمضة والاستنشاق - فجمهور الأمة يرونها سنة، ولا يدخل هذان الباطنان عندهم في الوجه، وقال مجاهد: الاستنشاق شطر الوضوء، وقال حماد بن أبي سليمان، وقاتدة، وعطاء، والزهري، وابن أبي ليلى، وابن راهويه: من ترك المضمضة والاستنشاق في الوضوء أعاد الصلاة، وقال أحمد: يعيد من ترك الاستنشاق، ولا يعيد من ترك المضمضة، والناس كلهم على أن داخل العينين لا يلزم غسله إلا ما روي عن عبدالله بن عمر أنه كان ينضح الماء في عينيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾. اليد في اللغة تقع على العضو الذي هو من المنكب إلى أطراف الأصابع، ولذلك كان أبو هريرة يغسل جميعه في الوضوء أحياناً ليطلق الغرة، وحد الله موضع الغسل منه بقوله: ﴿إِلَى الْمَرَافِقِ﴾، يقال في واحدها: مِرْفَقٌ وَمِرْفَقٌ، وكسر الميم وفتح الفاء أشهر، واختلف العلماء هل تدخل المرافق في الغسل أم لا؟ فقالت طائفة: لا

تدخل، لأن (إلى) غاية تحول بين ما قبلها وما بعدها، وقالت طائفة: تدخل المرافق في الغسل، لأن ما بعد (إلى) إذا كان من نوع ما قبلها فهو داخل، ومثل أبو العباس المبرد في ذلك بأن تقول: اشترت الفدان إلى حاشيته، أو بأن تقول: اشترت الفدان إلى الدار، ويقول: ﴿أَيْتُوا أَيْتِيكُمْ إِلَى الْآيِلِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير العبارة في هذا المعنى أن يقال: إذا كان ما بعد (إلى) ليس مما قبلها، فالحد أول المذكور بعدها، وإذا كان ما بعدها من جملة ما قبلها فالاحتياط يعطي أن الحد آخر المذكور بعدها، ولذلك يترجح دخول المرفقين في الغسل، والروايتان محفوظتان عن مالك ابن أنس رضي الله عنه، روى عنه أشهب أن المرفقين غير داخلين في الحد، وروى عنه أنهما داخان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْسَخُوا رِءُوسَكُمْ﴾ المسح أن يمر على الشيء بشيء مبلول بالماء. وسنة مسح الرأس أن يؤخذ ماء باليدين ثم يرسل، ثم يمسح الرأس بما تعلق باليدين. واختلف في مسح الرأس في مواضع منها هيئة المسح - فقالت طائفة منها مالك، والشافعي، وجماعة من الصحابة والتابعين: يبدأ بمقدم رأسه، ثم يذهب بهما إلى قفاه، ثم يردهما إلى مقدمه، وقالت فرقة: يبدأ من مؤخر الرأس حتى يجيء إلى المقدم ثم يرد إلى المؤخر، وقالت فرقة: يبدأ من وسط الرأس فيجيء يديه نحو الوجه، ثم

يرد فيصيب باطن الشعر، فإذا انتهى إلى وسط الرأس أمرَ يديه كذلك على ظاهر شعر مؤخر الرأس، ثم يرد فيصيب باطنه ويقف عند وسط الرأس، وقالت فرقة: يمسح رأسه من هنا وهنا على غير نظام ولا مبدأ محدود حتى يعمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله قول بالعموم. واختلف في ردّ اليدين على شعر الرأس، هل هو فرض أم سنة، وقيل: هو فرض. ومن مواضع الخلاف في مسح الرأس قَدْزُ ما يمسح - فقالت جماعة: الواجب من مسح الرأس عمومه، ثم اختلفوا في الهيثات على ما ذكرناه. وقال محمد بن مسلمة: إن مسح ثلثي الرأس وتَرَكَ الثُلُثَ أَجْزَاءً، وقال أبو الفَرَج المالكى - وروى عن مالك -: إنه إن مسح الثلث أَجْزَاءً لأنه كثير في أمور من الشرع، وقال أشهب: إن مسح الناصية أَجْزَاءً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكلٌّ مَن أحفظ عنه إِنْجَاءً بعض الرأس فإنه يرى ذلك البعض من مقدم الرأس، وذلك أنه قد روي في ذلك أحاديث في بعضها ذكر الناصية، وفي بعضها ذكر مقدم الرأس، إلا ما روي عن إبراهيم، والشعبي، قالوا: أي نواحي رأسك مسحت أَجْزَاءً. وكان سلمة بن الأكوع يمسح مقدم رأسه، وروي عن ابن عمر أنه مسح اليافوخ فقط. وقال أصحاب الرأي: إن مسح بثلاث أصابع أَجْزَاءً، وإن كان الممسوح أقل مما يمر عليه ثلاث

أصابع لم يجزىء. وقال قوم: يجزىء من مسح الرأس أن يمسح مسحة بإصبع واحدة، وقال الحسن بن أبي الحسن: إن لم تصب المرأة إلا شعرة واحدة أَجْزَاءً، وحكى الطبري وغيره عن سفيان الثوري أن الرجل إذا مسح شعرة واحدة أَجْزَاءً.

ومن مواضع الخلاف في مسح الرأس، ما العضو الذي يمسح به؟ - فالإجماع على استحسان المسح باليدين جميعاً، وعلى الإجزاء إن مسح بواحدة. واختلف في من مسح بإصبع واحدة حتى عمَّ ما يرى أنه يجزئه من الرأس، فالمشهور أن ذلك يجزىء، وقيل: لا يجزىء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويترجح أنه لا يجزىء لأنه خروج عن سنة المسح وكأنه لعب، إلا أن يكون ذلك عن ضرورة مرض فينبغي ألا يختلف في الإجزاء.

ومن مواضع الخلاف عدد المسحات - فالجمهور على مرة واحدة، ويجزىء ذلك عند الشافعي وثلاث أحب إليه، وروي عن ابن سيرين أنه مسح رأسه مرتين، وروي عن أنس أنه قال: يمسح الرأس ثلاثاً، وقاله سعيد بن جبير، وعطاء، وميسرة.

والباء في قوله: ﴿رُءُوسِكُمْ﴾ مؤكدة زائدة عند من يرى عموم الرأس، والمعنى عنده: وامسحوا رؤوسكم، وهي للإلحاق المحض عند من يرى إجزاء بعض الرأس كأن المعنى: أوجدوا مسحاً برؤوسكم، فمن مسح شعرة فقد فعل ذلك، ثم اتبعوا في

المقادير التي حدوها آثاراً وأقيسة بحسب اجتهاد العلماء رحمهم الله.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحزمة: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ خفضاً، وقرأ نافع وابن عامر، والكسائي: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ نصباً، وروى أبو بكر عن عاصم الخفض، وروى عنه حفصُ النصب، وقرأ الحسن، والأعمش: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بالرفع، المعنى: فاغسلوها، وزويت عن نافع. وبحسب هذا اختلاف الصحابة والتابعين، فكل من قرأ بالنصب جعل العامل ﴿اغسلوها﴾، وبنى على أن الفرض في الرجلين الغسل بالماء دون المسح، وهذا هو مذهب الجمهور، وعليه فعل النبي ﷺ، وهو اللازم من قوله ﷺ وقد رأى قوماً يتوضؤون وأعقابهم تلوح، فنادى بأعلى صوته: «ويل للأعقاب من النار».

ومن قرأ بالخفض جعل العامل أقرب العاملين، واختلفوا - فقالت فرقة منهم: الفرض في الرجلين المسح لا الغسل، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الوضوء غسلتان ومسحتان»، وروي أن الحجاج خطب بالأهواز فذكر الوضوء فقال: «اغسلوا وجوهكم وأيديكم، وامسحوا برؤوسكم وأرجلكم، وإنه ليس شيء من ابن آدم أقرب من خبثه من قدميه، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعراقيبهما»، فسمع ذلك أنس بن مالك فقال: «صدق الله وكذب الحجاج» قال الله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾، قال: وكان

أنس إذا مسح رجله بلهما، وروي أيضاً عن أنس أنه قال: «نزل القرآن بالمسح، والسُّتة بالغسل»، وكان عكرمة يمسح على رجله وليس في الرجلين غسل، إنما نزل فيهما المسح، وقال الشعبي: «نزل جبريل بالمسح»، ثم قال: «ألا ترى أن التيمم يمسح فيه ما كان غَسَلًا، ويلغي ما كان مسحًا؟»، وروي عن أبي جعفر أنه قال: «امسح على رأسك وقدميك»، وقال قتادة: «افترض الله غَسَلَتَيْنِ وَمَسَحَتَيْنِ». وكلُّ مَنْ ذَكَرْنَا فَقِرَاءَتُهُ: ﴿وَأَرْجُلِكُمْ﴾ بكسر اللام، وبذلك قرأ علقمة، والأعمش، والضحاك، وغيرهم، وذكرهم الطبري تحت ترجمة القول بالمسح.

وذهب قومٌ ممن يقرأ بكسر اللام إلى أن المسح في الرجلين هو الغَسَل، وروي عن أبي زيد أن العرب تسمي الغَسَل الخفيف مسحاً، ويقولون: «تَمَسَّحْتُ لِلصَّلَاةِ» بمعنى: غَسَلْتُ أَعْضَائِي، وقال أبو عبيدة، وغيره في تفسير قوله تعالى: ﴿فَكَفَيْكَ مَسْحًا﴾: إنه الضرب، ويقال: مسح علاوته إذا ضربه، قال أبو علي: فهذا يقوي أن المراد بـمسح الرجلين الغسل. ومن الدليل على أن مسح الرجلين يراد به الغَسَل أن الحد قد وقع فيهما بإلى كما وقع في الأيدي وهو مغسولة، ولم يقع في الممسوح حدٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعترض هذا التأويل بترك الحد في الوجه، فكان الوضوء مغسولين حدٌ أحدهما، وممسوحين حدٌ أحدهما.

وقال الطبري رحمه الله: إن مسح الرجلين هو بيبصال الماء إليهما، ثم يمسح بيديه بعد ذلك فيكون المرء غاسلاً ماسحاً. ولذلك كره أكثر العلماء للمتوضئ أن يدخل رجله في الماء دون أن يمر يديه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد جوز ذلك قوم منهم الحسن البصري وبعض فقهاء الأمصار، وجمهور الأمة من الصحابة والتابعين على أن الفرض في الرجلين الغَسَل وأن المسح لا يجزئ، وروي ذلك عن الضحاك وهو يقرأ بكسر اللام.

والكلام في قوله: ﴿إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ كما تقدم في قوله: ﴿إِلَى الْأَرْفَاقِ﴾، واختلف اللغويون في (الكعبين) - فالجمهور على أنهما العظامان اللتان في جنبي الرجل، وهذان هما حدُّ الوضوء بالإجماع فيما علمت. واختلف، هل يدخلان في الغَسَل أم لا كما تقدم في المرفق وقال قوم: الكعب: هو العظم الناتئ في وجه القدم حيث يجتمع شراك النعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا أعلم أحداً جعل حدَّ الوضوء إلى هذا، ولكن عبد الوهاب في التلقين جاء في ذلك بلفظ فيه تخليط وإبهام. قال الشافعي رحمه الله: لم أعلم مخالفاً في أن الكعبين هما العظامان في مجمع مفصل الساق. وروي الطبري عن يونس عن أشهب عن مالك قال: الكعبان اللذان يجب الوضوء إليهما هما العظامان المتصقان بالساق المحاذيان للعقب، وليس الكعب بالظاهر في وجه القدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر ذلك من الآية، من قوله في الأيدي: ﴿إِلَى الْأَرْفَاقِ﴾، أي: في كل يد مرفق، ولو كان كذلك في الأرجل ل قيل: ﴿إِلَى الْكَعُوبِ﴾ فلما كان في كل رجل كعبان خصا بالذكر.

وألفاظ الآية تقتضي الموالاة بين الأعضاء، واختلف العلماء في ذلك - فقال ابن أبي سلمة، وابن وهب: ذلك من فروض الوضوء في الذكر والنسيان، وقال ابن عبد الحكم: ليس بفرض مع الذكر، وقال مالك: هو فرض مع الذكر ساقط مع النسيان.

وكذلك تتضمن ألفاظ الآية الترتيب، واختلف فيه - فقال الأبهري: الترتيب سُنة، وظاهر المذهب أن التنكيس للناسي مجزئ، واختلف في العمد فقيل: يجزئ ويرتب في المستقبل، وقال أبو بكر القاضي وغيره: لا يجزئ لأنه عايت.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ جُنُبًا﴾. الجُنُب مأخوذ من الجُنْب، لأنه يمس جنبه جنب امرأة في الأغلب، ومن المجاورة والقرب قيل: «والجار الجُنْب»، ويحتمل الجُنْب أن يكون من البعد، إذ البعد يسمى جنباً، ومنه تجنبت الشيء إذا بعدت عنه، فكأنه جانب الطهارة. وعلى هذا يحتمل أن يكون «الجار الجُنْب» هو البعيد الجوار، ويكون مقابلاً للصاحب بالجنب.

و «فَأَطَهَّرُوا» أمرٌ بالاغتسال بالماء، ولذلك رأى عمر بن

بالحنيفية السمحة، وجاء لفظ الآية على العموم والشيء المذكور بقرب هو أمر التيمم والرخصة فيه وزوال الحرج في تحمل الماء أبداً، ولذلك قال أسيد: «ما هي بأول بركتكم يا آل أبي بكر».

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُرِيدُ يُطَهِّرْكُمْ﴾ الآية إعلام بما لا يوازي بشكر من عظيم تفضله تبارك وتعالى: ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَرَجُّ فِي حَقِّ الْبَشَرِ، وَقَرَأَ سَعِيدُ بْنُ الْمَسِيبِ: ﴿يُطَهِّرْكُمْ﴾ بسكون الطاء وتخفيف الهاء.

١١ - تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بقوله: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ إلى آخر الآية هو للمؤمنين بمحمد ﷺ، و﴿بِعَمَّةِ اللَّهِ﴾ اسم جنس يجمع الإسلام، وجمع الكلمة، وعزة الحياة، وغنى المال، وحسن المآل، هذه كلها نعم هذه العملة، والميثاق المذكور هو ما وقع للنبي ﷺ في بيعات العقبة وبيعة الرضوان، وكل موطن قال الناس فيه: سمعنا وأطعنا، هذا هو قول ابن عباس، والسدي، وجماعة من المفسرين، وقال مجاهد: الميثاق المذكور هو المأخوذ على التمس حين استخرجوا من ظهر آدم، والقول الأول أرجح وأليق بنمط الكلام.

ثم أمر تعالى المؤمنين بالقيام دأباً متكرراً بالقسط وهو العدل، وقد تقدم نظير هذا في سورة النساء، وتقدم في صدر هذه السورة نظير قوله: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ﴾، وباقى الآية بين متكرر، والله المعين.

١٢ - تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعد للمؤمنين بستر الذنوب

وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ الإرادة: صفة ذات، وجاء الفعل مستقبلاً مراعاة للحوادث التي تظهر عن الإرادة، فإنها تجيء مؤتلفة، من تطهير المؤمنين وإتمام النعم عليهم، وتعدية (أراد) وما تصرف منه بهذه اللام عرف في كلام العرب، ومنه قول الشاعر:

أريد لأنسى ذكراً فكاتماً
تمثل لي ليلي بكل سبيل
قال سيبويه: وسألته

رحمه الله عن هذا فقال:
المعنى: إرادتي لأنسى، ومن ذلك قول قيس بن سعد:

أزدت لي كَيْمًا يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهَا
سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ
ويحتمل أن يكون في الكلام مفعول محذوف تتعلق به اللام، وما قال الخليل لسبويه أخضر وأحسن. ويعترض هذا الاحتمال في المفعول المحذوف بأن [مِنْ] تصير زائدة في الواجب، وينفصل بأن قوة النفي الذي في صدر الكلام يشفع لزيادة [مِنْ] وإن لم يكن النفي واقعاً على الفعل على الحرج، ولهذا نظائر.

والحرج: الضيق، والحرجة: الشجر الملتف المتضائق، ومنه قيل يوم بدر في أبي جهل: إنه كان في مثل الحرج من الرماح، ويجري مع معنى هذه الآية قول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ بِدِينِ اللَّهِ يُسْرًا»، وقوله ﷺ: «بُعِثْتُ

وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هُمْ قَوْمٌ لَا يَسْطُرُونَ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَبِيًّا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١٣﴾ فِيمَا نَقُضُوا مِنْهُمُ يُبْتَغَاهُمْ لَعْنَتُنَا وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَوَاضِعِهَا وَتَسَوَّأُوا حَظَلًا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا نَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِبَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا إِنَّهُمْ فَاعَقُوا عَهْدَهُمْ وَأَصْفَحَ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾

١١٩

الخطاب رضي الله عنه، وابن مسعود، وغيرهما أن الجنب لا يقيم البتة، بل يدع الصلاة حتى يجد الماء، وقال جمهور الناس: بل هذه العبارة هي لواجد الماء، وقد ذكر الجنب أيضاً بغد في أحكام عادم الماء بقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمَسْتُمُ النِّسَاءَ﴾، إذ الملامسة هنا الجماع. والظهور بالماء صفته أن يعم الجسد بالماء وتمر اليد مع ذلك عليه، هذا هو مشهور المذهب، وروى محمد بن مروان الظاهري، وغيره، عن مالك أنه يجزئ في غسل الجنابة أن ينغمس الرجل في الماء دون تدلك، وقد تقدم في سورة النساء تفسير قوله عز وجل: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرَجًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمْسَحُوا بِوُجُوهِِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ﴾، وقراءة من قرأ: ﴿مِنَ الْغَيْطِ﴾.

عليه وبالجنة، فهي الأجر العظيم، و ﴿وَعَدَّ﴾ يتعدى إلى مفعولين ويجوز الانتصار على أحدهما، وكذلك هو في هذه الآية، فالمفعول الثاني مقدر، يفسره ويدل عليه قوله: ﴿لَكُمْ مَغْرُورَةٌ﴾، ثم عقب تعالى بذكر حال الكفار لبيان الفرق.

وقوله تعالى: ﴿بَنِيَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب للنبي ﷺ وأمه، والنعمة هي العاملة في ﴿إِذَا﴾، وهي نعمة مخصوصة، وهم الرجل بالشيء إذا أراد فعله، ومنه قول الشاعر:

هَلْ يَنْفَعُنكَ الْيَوْمَ إِنْ هَمَّتْ بِهِمْ
كثرة ما تُوصِي وتُعْقَدُ الرُّتْمُ؟
ومنه قول الآخر:

هَمَمْتُ وَلَمْ أَفْعَلْ وَكذتِ وَلَيْتَنِي
تَرَكْتُ عَلَى عُثْمَانَ تَبْكِي حَلَالِيَه

واختلف الناس في سبب هذه الآية، وما النازلة التي وقع فيها الهم ببسط اليد والكف من الله تعالى؟ - فقال الجمهور: إن سبب هذه الآية أنه لما قتل أهل بئر معونة نجا من القوم عمرو بن أمية الضمري ورجل آخر معه. فلقيا بقرب المدينة رجلين من سليم قد كان أخذا عهداً من النبي ﷺ وانصرفا، فسألها عمرو: **مِمَّن أنتما؟** فانتسبا إلى بني عامر رهط عامر بن الطفيل، وهو كان الجاني على المسلمين في بئر معونة، فقتلها عمرو وصاحبه، وأتيا بسلبهما النبي ﷺ، فقال: **«القد قتلتما قتيلين، لأويئهُمَا»**، ثم شرع رسول الله ﷺ في جمع الدية، فذهب يوماً إلى بني النضير يستعينهم في الدية، ومعه أبو بكر وعمر وعلي، فكلّمهم فقالوا: نعم يا أبا

القاسم، انزل حتى نصنع لك طعاماً وننظر في معونتك، فنزل رسول الله ﷺ في ظل جدار، فتأمروا بينهم في قتله، وقالوا: ما ظفرتم بمحمد قط أقرب مراماً منه اليوم، فقال بعضهم لبعض: **«من رجل يظهر على الحائط فيصب عليه حجراً يشدخه؟ فانتدب لذلك عمرو ابن جحاش فيما روي، وجاء جبريل عليه السلام فأخبر النبي ﷺ، فقام رسول الله ﷺ من المكان وتوجه إلى المدينة، ونزلت الآية في ذلك. وفي الخبر زوائد لا تخص الآية، وقد ذكره ابن إسحق وغيره، وهذا القول يترجح بما يأتي بعد من الآيات في وصف غدر بني إسرائيل ونقضهم المواثيق.»**

وقالت جماعة من العلماء: سبب الآية فعل الأعرابي في غزوة «ذات الرقاع»، وهي غزوة النبي ﷺ بني محارب بن خصفة بن قيس بن عيلان، وذلك أنه نزل بوادٍ كثير العِضَاء، فترقق الناس في الظلال، وتركت للنبي ﷺ شجرة ظليلة، فعلق سيفه بها ونام، فجاء رجل من محارب فاخترط السيف فانتبه النبي ﷺ والسيف صلت في يده، فقال للنبي ﷺ: **«أتخافني؟ فقال: «لا». فقال له: ومن يمنعك مني؟ فقال: «الله»، فشام السيف في غمده وجلس. وفي البخاري أن النبي ﷺ دعا الناس فاجتمعوا وهو جالس عند النبي ﷺ ولم يعاقبه، وذكر الواقدي، وابن حاتم عن أبيه أنه أسلم، وذكر قوم أنه ضرب برأسه في ساق الشجرة حتى مات، فنزلت**

الآية بسبب ذلك، وفي البخاري في غزوة «ذات الرقاع» أن اسم الرجل غَزَوْتُ بن الحارث - بالفتحة منقوطة، وحكى بعض الناس أن اسمه دُعُوثُ بن الحارث.

وحكى الطبري أن الآية نزلت بسبب قوم من اليهود أرادوا قتل النبي ﷺ في طعام، فأشعره الله بذلك، ثم أدخل الطبري تحت هذه الترجمة عن ابن عباس خلاف ما ترجم به من أن قوماً من اليهود صنعوا للنبي ﷺ وأصحابه طعاماً ليقتلوه إذا أتى الطعام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فشبّه أن ابن عباس رضي الله عنهما إنما وصف قصة بني النضير المتقدمة.

وقال قتادة: سبب الآية ما همت به محارب وبنو ثعلبة يوم ذات الرقاع من الحمل على المسلمين في صلاة العصر، فأشعره الله تبارك وتعالى بذلك، ونزلت صلاة الخوف، فذلك كف أيديهم عن المسلمين.

وحكى ابن قُورك عن الحسن بن أبي الحسن أن الآية نزلت بسبب أن قريشاً بعثت إلى النبي ﷺ رجلاً ليغتاله ويقتله، فأطلعه الله تبارك وتعالى على ذلك وكفاه شره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمحفوظ في هذا هو نهوض عمير بن وهب لهذا المعنى بعد اتفاهه على ذلك مع صفوان بن أمية، والحديث بكماله في سير ابن هشام.

وذكر قوم من المفسرين - وأشار

إليه الزجاج - أن الآية نزلت في قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نَبِّئِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ﴾ فكأنه تبارك وتعالى عدّد على المؤمنين نِعَمَه في أن أظهرهم، وكفّ بذلك أيدي الكفار عنهم التي كانوا هموا ببسطها إلى المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحسن - على هذا القول - أن تكون الآية نزلت عقب غزوة الخندق وحين هزم الله الأحزاب، وكفى الله المؤمنين القتال، وباقى الآية أمر بالتقوى والتوكل.

﴿تفسير قوله عز وجل:﴾

هذه الآيات المتضمنة الخبر عن نقضهم موثيق الله تعالى تقوي أن الآية المتقدمة في كف الأيدي إنما كانت في أمر بني النضير، واختلف المفسرون في كيفية بعثه هؤلاء النقباء، بعد الإجماع على أن النقيب كبير القوم القائم بأمرهم التي ينقب عنها وعن مصالحهم فيها، والنقباء: الرجل العظيم الذي هو في الناس كلهم على هذه الطريقة، ومنه قيل في عمر رضي الله عنه: إنه كان لثَقَابًا، فالثَقَبَاءُ: الضُّمَان، واحدهم: نقيب، وهو شاهد القوم وضمينهم، وقال قوم: الثَّقَبَاءُ: الأُمْنَاء على قومهم، وهذا كله قريب بعضه من بعض، والنقيب أكبر مكانة من العريف، قال قتادة رحمه الله، وغيره: هؤلاء الثَّقَبَاءُ قومٌ من كلِّ سبط تكفّل كل واحد بسبطه بأن يؤمنوا ويتقوا الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ونحو هذا كان النقباء ليلة بيعة العقبة مع محمد ﷺ، وهي العقبة الثالثة، بايع فيها سبعون رجلاً وامرأتان، فاختر رسول الله ﷺ من السبعين اثني عشر رجلاً وسماهم النقباء، وقال الربيع، والسدي، وغيرهما: إنما بعث النقباء من بني إسرائيل أمناً على الاطلاع على الجبارين والسَّبْر لقوتهم ومنعتهم، فساروا حتى لقيهم رجل من الجبارين فأخذهم جميعاً فجعلهم في حجزته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

في قصص طويل ضعيف مقتضاه أنهم اطلعوا من الجبارين على قوة عظيمة، وظنوا أنهم لا يقبل لهم بهم، فتعاقدوا بينهم على أن يخفوا ذلك عن بني إسرائيل، وأن يعلموا به موسى عليه السلام ليرى فيه أمر ربّه، فلما انصرفوا إلى بني إسرائيل خان منهم عشرة فعرفوا قراباتهم، ومن وثقوه على سرهم، ففشا الخير حتى اعوج أمر بني إسرائيل، وقالوا: ﴿فَأَذْهَبَ أَتَى وَرَبِّكَ فَفَتَيَلَا إِنَّا هَهُنَا قَوِدُورٌ﴾.

وأسند الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: النقباء من بني إسرائيل بعثهم موسى عليه السلام لينظروا إلى مدينة الجبارين، فذهبوا ونظروا فجاؤوا بحجة من فاكهتهم وفر رجل، فقالوا: اقدروا قدر قوة قوم هذه فاكهتهم، فكان ذلك سبب فتنة بني إسرائيل ونكولهم.

وذكر النقاش أن معنى قوله تعالى: ﴿وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا﴾

أي: ملكاً، وأن الآية تعدد نعمة الله عليهم في أن بعث لإصلاحهم هذا العدد من الملوك، قال: فما وفي منهم إلا خمسة: داود عليه السلام، وابنه سليمان عليه السلام، وطالوت، وحزقيا، وابنه، وكفر السبعة وبدلوا وقتلوا الأنبياء، وخرج خلال الاثني عشر اثنان وثلاثون جباراً كلهم يأخذ الملك بالسيف ويعيث فيهم، والضمير في: ﴿مَمَكُمُ﴾ لبني إسرائيل جميعاً، ولهم كانت هذه المقالة، وقال الربيع: بل الضمير للاثني عشر، ولهم كانت هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أرجح، و ﴿مَمَكُمُ﴾ معناه: بنصري وحياطي وتأييدي، واللام في قوله: ﴿كَيْنُ﴾ هي المؤذنة بمجيء لام القسم، ولام القسم هي قوله: ﴿لَأُكَيِّرَنَّ﴾، والدليل على أن هذه اللام إنما هي مؤذنة أنها قد يستغنى عنها أحياناً، ويتم الكلام دونها، ولو كانت لام القسم لن يترتب ذلك.

وإقامة الصلاة: توفية شروطها، والزكاة هنا: شيء من المال كان مفروضاً فيما قال بعض المفسرين، ويحتمل أن يكون المعنى: وأعطيتم من أنفسكم كل ما فيه زكاة لكم حسبما نديتكم إليه، وقدم هذه على الإيمان تشريعاً للصلاة والزكاة، وإذ قد علم وتقرر أنه لا ينفع عملٌ إلا بإيمان، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بِرُسُلِي﴾ ساكنة السين في كل القرآن.

﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ معناه: وقَرَّزْتُمُوهُمْ وعظمتمموهم ونصرتموهم، ومنه قول الشاعر:

وَكَمْ مِنْ مَّاجِدٍ لَهُمْ كَرِيمٌ
وَمِنْ لَيْثٍ يُعَزِّزُنِي السُّدْيُ
وقرأ عاصم الجحدري:
﴿وَعَزَّزْتُمُوهُمْ﴾ خفيفة الزاي حيث وقع، وقرأ في سورة الفتح:
﴿وَتَقَرَّرُوهُ﴾ بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي. وقد تقدم في سورة البقرة تفسير الإقراض. وتكفيزُ السِّيَّاتِ: تَغَطَّيْتُهَا بالمحو والإذهاب، فهي استعارة، و﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ وسطه، ومنه: ﴿سَوَاءَ الْحَجِيرِ﴾، ومنه قول الأعرابي: «قد انقطع سوائي»، وأوساط الطرق: هي المعظم اللاحب منها، وسائر ما في الآية بين، والله المستعان.

﴿١٣﴾ تفسير قوله تعالى:

يحتمل أن تكون [ما] زائدة، والتقدير: فينقضهم، ويحتمل أن تكون اسماً نكرة أبدل منه النقص على بدل المعرفة من النكرة، التقدير: فبفعل هو نقضهم للميثاق، وهذا هو المعنى في هذا التأويل، وقد تقدم في (النساء) نظير هذا، و﴿لَمَكَّنْهُمْ﴾ معناه: أبعدناهم من الخير أجمعه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر:
﴿قَسِيَّةٌ﴾ بالألف، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَسِيَّةٌ﴾ دون ألف، وزنها: فعيلة، فحجة الأولى قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلْقَسِيَّةِ قَوْلُكُمْ﴾، وقوله: ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبَكُمْ وَنَأَى بَدَدِ

ذَلِكَ﴾، والقسوة: غَلَطَ القلب، ونبوه عن الرقة والموعظة، وصلاته حتى لا يتفعل لخير. ومن قرأ ﴿قَسِيَّةٌ﴾ فهو من هذا المعنى: فعيلة بمعنى فاعلة، كشاهد وشهيد، وغير ذلك من الأمثلة، وحكى الطبري عن قوم أنهم قالوا: [قَسِيَّةٌ] ليست من معنى القسوة، وإنما هي كالقسي من الدراهم، وهي التي خالطها غش وتدليس، فكذا القلوب، لم تصف للإيمان، بل خالطها الكفر والفساد، ومن ذلك قول أبي زيد:

لَهَا صَوَاهِلُ فِي ضَمِّ السَّلَامِ كَمَا
صَاحَ الْقَسِيَّاتُ فِي أَيْدِي الصَّيَارِفِ
ومنه قول الآخر:

فَمَا زُوْدَانِي غَيْرَ سَخَقِ عِمَامَةٍ
وَخُمْسِيٍّ مِنْهَا قَسِيٍّ وَرَائِفٍ
قال أبو علي: هذه اللفظة معربة، وليست بأصل في كلام العرب.

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿يَجْرَتُونَ أَلْكَامَ﴾ - فقال قوم منهم ابن عباس: تحريفهم هو بالتأويل، ولا قدرة لهم على تبديل الألفاظ في التوراة، ولا يتنكح لهم ذلك، ويدل على ذلك بقاء آية الرجم واحتياجهم إلى أن يضع القارئ يده عليها، وقالت فرقة: بل حرفوا الكلم وبدلوه أيضاً، وفعلوا الأمرين جميعاً بحسب ما أمكنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وألفاظ القرآن تحتل المعنيين، فقوله تعالى: ﴿قَوْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُمُونَ أَلْكَامَ بِيَدِيهِمْ﴾ الآية تقتضي التبديل، ولا شك أنهم فعلوا الأمرين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلْكَامَ﴾ بفتح الكاف وكسر اللام، وقرأ أبو عبد الرحمن، وإبراهيم الثخمي: ﴿الكَلَامَ﴾ بالألف، وقرأ أبو رجاء: ﴿الكَلِمَ﴾ بكسر الكاف وسكون اللام.

وقوله تعالى: ﴿وَسُوا حَظًّا مِمَّا دُكِّرُوا بِهِ﴾ نص على سوء فعلهم بأنفسهم، أي: قد كان لهم حظ عظيم فيما ذكروا به فسوه وتركوه. ثم أخبر تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أنه لا يزال في مؤتف الزمان يطلع على خاتنة منهم وغائلة وأمور فاسدة، واختلف الناس في معنى: ﴿خَائِنَةٌ﴾ في هذا الموضوع - فقالت فرقة: خاتنة: مصدر كالعاقبة، وكقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا كَرُا بِالطَّاغِيَةِ﴾ فالمعنى: على خيانة، وقال آخرون: معناه: على فرقة خاتنة، فهي اسم فاعل صفة المؤتف، وقال آخرون: المعنى: على خائن، فزيدت المهاء للمبالغة كعلامة ونسابة، ومنه قول الشاعر:

حَدَّثْتُ نَفْسَكَ بِالْوَفَاءِ وَلَمْ تُكُنْ
لِلْعَذْرِ خَائِنَةً مُنِغِلَ الْإِضْبَعِ
وقرأ الأعمش: ﴿عَلَى خِيَانَةٍ مِنْهُمْ﴾، ثم استثنى تبارك وتعالى منهم القليل، فيحتمل أن يكون الاستثناء في الأشخاص، ويحتمل أن يكون في الأفعال.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقْصَ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ﴾ منسوخ بما في (براءة) من الأمر بقتالهم حتى يؤدوا الجزية، وبإتي الآية وعد على الإحسان.

معناه: ويترك كثيراً لا يفضحكم فيه إبقاء عليكم، وهذا المتروك هو في معنى افتخارهم ووصفهم أيام الله قبلهم، ونحو ذلك مما لا يتعين في ملة الإسلام فضحهم فيه وتكذيبهم، والفاعل في ﴿وَيَقْرَأُ﴾ هو محمد ﷺ، ويحتمل أن يستند الفعل إلى الله تبارك وتعالى، وإذا كان العفو من النبي عليه الصلاة والسلام فبأمر ربه، وإذا كان من الله تبارك وتعالى فعلى لسان نبيه عليه الصلاة والسلام، والاحتمالان قريب بعضهما من بعض.

١٥ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله عز وجل: ﴿تُورِ وَكِتَابٌ تُبَيِّنُ﴾ يحتمل أن يريد محمداً ﷺ، والقرآن، وهذا هو ظاهر الألفاظ، ويحتمل أن يريد موسى عليه السلام والتوراة، أي: ولو أتبعتموها حق الاتباع لأنتم بمحمد عليه الصلاة والسلام، إذ هي امرأة بذلك، مبشرة به. وقرأ عبيد بن عمير، والزهري، وسلام، وحميد، ومسلم بن جندب: ﴿بِهِ اللَّهُ﴾ بضم الهاء حيث وقع مثله.

و ﴿أَتَّبَعَ رِضْوَانَكُمْ﴾ معناه: بالتكسب والنية والإقبال عليه، والسبل الطُّرُق، والقراءة في ﴿رِضْوَانٍ﴾ بضم الراء وبكسرهما، وهما لغتان، وقد تقدم ذكر ذلك، وقرأ ابن شهاب والحسن بن أبي الحسن: ﴿سُبُلٍ﴾ ساكنة الباء و ﴿السُّلَمِ﴾ في هذه الآية يحتمل أن يكون اسماً من أسماء الله تبارك وتعالى، فالمعنى: طرق الله تعالى التي أمر بها عباده وشرعها لهم،

يحتمل أن يعود على اليهود والنصارى، لأن العداوة بينهم موجودة ومستمرة، ويحتمل أن يعود على النصارى فقط، لأنها أمة مقاتلة بينها الفتن إلى يوم القيامة، ثم توعدهم تبارك وتعالى بعقاب الآخرة، إذ إنبأهم بصنعهم إنما هو تقدير وتوبيخ مُتَقَدِّمٌ للعذاب، إذ صنعهم كفر يوجب الخلود في النار.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ﴾ لفظ يعم اليهود والنصارى، ولكن نوازل الإخفاء كالرجم وغيره إنما حفظت لليهود، لأنهم كانوا مجاوري رسول الله ﷺ في مهاجره. وقال محمد بن كعب القرظي: أول ما نزل من هذه السورة هاتان الآيتان في شأن اليهود والنصارى، ثم نزل سائر السورة بعرفة في حجة الدواع.

وقوله تعالى: ﴿رَسُولًا﴾ يعني محمداً ﷺ، وفي الآية الدلالة على صحة نبوته، لأن إعلامه بخفي ما في كتبهم وهو أُمِّي لا يقرأ ولا يصحب القراءة دليل على أن ذلك إنما يأتيه من عند الله تبارك وتعالى.

وأشهر النوازل التي أخفوها فأظهرها الله على لسان نبيه أمر الرجم، وحديثه مشهور. ومن ذلك صفات محمد ﷺ إلى غير ذلك. و ﴿وَنَ الْكِتَابِ﴾ يعني: من التوراة.

وقوله: ﴿وَيَقْرَأُ عَنْ كَثِيرٍ﴾

وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّونَ أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا فَمَا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٥﴾ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ﴿١٦﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٧﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَأُمُّهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

١٥ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّونَ﴾ متعلقة بـ ﴿أَخَذْنَا﴾، التقدير: وأخذنا من الذين قالوا إنا نصارى ميثاقهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَمِنَ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيُّونَ﴾، ويكون قوله: ﴿أَخَذْنَا مِيثَقَهُمْ﴾ ابتداءً خبر عنهم، والأول أرجح، وعلق كونهم نصارى بقولهم ودعواهم من حيث هو اسم شرعي يقتضي نصر دين الله، وسموا به أنفسهم دون استحقاق ولا مشابهة بين فعلهم وقولهم، فجاءت هذه العبارة مويخة لهم مزحزة عن طريق نصر دين الله وأبيائه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمْ﴾ معناه: أثبتناهم بينهم وألصقناهم، والإغراء مأخوذ من الغراء الذي يلصق به، والضمير في ﴿بَيْنَهُمْ﴾

يَشَاءُ ﴿١٨﴾. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم معناه الخصوص في ما عدا الذات والصفات والمحالات، والشيء في اللغة: هو الموجود.

﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

في الكلام لف وإيجاز يحال المستمع على تفرقه بذهنه، وذلك أن ظاهر اللفظ يقتضي أن جميع اليهود والنصارى يقولون عن جميعهم: «نَحْنُ أبنَاءُ الله وأحبّاءه» وليس الأمر كذلك، بل كل فرقة

تقول خاصة: «نَحْنُ أبنَاءُ الله وأحبّاءه»، والنبوة في قولهم هذا بنوة الحنان والرّأفة، وذكروا أن الله تعالى أوحى إلى بني إسرائيل أن أول أولادي بكري، فضّلوا بذلك، وقالوا: «نَحْنُ أبنَاءُ الله وأحبّاءه»، ولو صحّ ما روّوا لكان بكراً في التشريف أو النبوة ونحوه. وأحبّاء: جمع حبيب، وكانت هذه المقالة منهم عندما دعاهم النبي ﷺ إلى الإيمان به، وحوّقهم العذاب، فقالوا: «نحن لا نخاف ما تقول، لأننا أبناءُ الله وأحبّاءه»، وذكر ذلك ابن عباس رضي الله عنهما، وقد كانوا قالوا للنبي ﷺ في غير ما موطن: نحن ندخل النار فنقيم بها أربعين يوماً، ثم تخلّفوننا فيها، فردّ الله عليهم بقولهم، فقال لمحمد ﷺ: ﴿قُلْ لِمَ يَعبُدُكُمْ﴾

ويحتمل أن يكون مصدرًا كالسلامة، فالمعنى: طرق النجاة والسلامة من النار. وقوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجُهُم﴾ يعني المتّبعين الرضوان، فالضمير على معنى «يَنْ» لا على لفظها، والظلمات: الكفر، والنور: الإيمان. وقوله تعالى: ﴿يَؤْتِيهِمْ﴾ أي يمكنهم من أقوال الإيمان وأفعاله، ويعلم فعلهم لذلك والتزامهم إياه، فهذا هو حدّ الإذن: العلم بالشيء والتمكين منه، وقد تقدم شرحه في سورة البقرة، والصراط المستقيم: هو دينُ الله وتوحيده وما تركب عليه من شرعه.

ثم أخبر تعالى بكفر النصارى القائلين بأن الله هو المسيح، وهذه فرقة من النصارى، وكل فرقه على اختلاف أقوالهم يجعل للمسيح عليه السلام حظًا من الألوهية. وقد تقدم القول في لفظ المسيح في سورة آل عمران.

ثم ردّ عليهم تعالى قوله لبيته: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ أي: لا مالك ولا راد لإرادة الله تعالى في المسيح ولا في غيره، فهذا مما تقتضي العقول معه أن من تفدّ الإرادة فيه ليس بلّاه، ثم قرر تبارك وتعالى ملكه في السموات والأرض وما بينهما فحصل المسيح عليه السلام أقلّ أجزاء ملك الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ إشارة إلى خلقه المسيح في رحم مريم من غير والد، بل اختراعاً كأدم عليه السلام، وقد تقدم في آل عمران الفرق بين قوله تعالى في قصة زكريا: ﴿يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ وفي قصة مريم: ﴿يَخْلُقُ مَا

﴿١٨﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوا قَوْلَهُ قُلْ لِمَ يَعبُدُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ يَعبُرُ لِمَن يَشَاءُ وَيَعبُدُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٩﴾ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِّنَ الرَّسُولِ أَن تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِن بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَعبُورُوا أَرْضِي فَإِن تُبَدِّلُونَهَا إِلَى مَاءٍ مَّا لَمْ يَكُن مِثْلَ آبِهَا فَلا تَطْمَئِنُّوا عَلَيْهِمْ أَدخلوا أَرْضِي الْمَقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَرُدُّوا عِلَّاءَ بَارِكُمْ فَتَنفَلِقُوا أَحْسِرِينَ ﴿٢١﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِن فِيهَا قَوْمٌ مُّجَابِرِينَ وَإِنَّا لَنَدخلُهَا سَحَى نَحْرُجُوا مِنْهَا فَإِن يَحْرُجُوا مِنْهَا فَإِنَّا دَخلُوكَ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمَا أَدخلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُهُمَا قَاتَمَهُمُ الظُّلُمَاتُ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٣﴾

بِذُنُوبِكُمْ ﴿١٨﴾ أي: لو كانت منزلتكم فوق منازل البشر لما عذبكم، وأنتم قد أقررتم أنه يعذبكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن التعذيب هو بنار الآخرة، وقد تحتل الآية أن يكون المراد ما كان الله تعالى يعذبهم به في الدنيا، وذلك أن بني إسرائيل كانوا إذا أصاب الرجل منهم خطيئة أصبح مكتوباً على بابه ذكر ذنبه وذكر عقوبته، فينفذ ذلك عليه، فهذا تعذيب في الدنيا على الذنوب ينافي أنهم أبناء وأحبّاء.

ثم ترك الكلام الأول، وأضرب عنه غير مفسد له، ودخل في غيره من تقرير كونهم بشراً كسائر الناس والخلق، أكرمهم أنقام، يهدي من يشاء للإيمان فيغفر له، ويورط من يشاء في الكفر فيعذبه، وله ملك

السموات والأرض وما بينهما، فله بحق المُلْك أن يفعل ما شاء، لا معقب لحكمه، وإليه مصير العالم بالحشر والمعاد.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَهَّلَ الْكَتَّابُ﴾ خطابٌ لليهود والنصارى، والرسول في قوله: ﴿رَسُولُنَا﴾ محمد ﷺ، وقوله: ﴿عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ﴾ أي: على انقطاع من مجيئهم مدة ما، والفترة: سكون بعد حركة في جرم، ويستعار ذلك في المعاني، وقد قال النبي ﷺ: «لكل عمل شِوْرَةٌ، ولكل شِوْرَةٌ فترة»، وقال الشاعر:

وَإِنِّي لَسَعْرُونِي لِذِكْرِكَ فَتْرَةٌ

معناه سكون بعد اضطراب. واختلف الناس في قدر الفترة التي كانت بين عيسى ومحمد ﷺ عليهما - فقال قتادة: خمسمائة عام وستون عاماً، وقال الضحاك: أربعمائة سنة وبيض وثلاثون سنة، وفي الصحيح أن الفترة بينهما ستمائة سنة، وهذه الآية نزلت بسبب قول اليهود: ما أنزل الله على بشر بعد موسى من شيء، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ مفعول من أجله، المعنى: حذار أن تقولوا محتجين يوم القيامة: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ وقامت الحججة عليكم ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فهو الهادي والمضل، والمنعم والمعذب، لا رب غيره.

(٢٠) - (٢٢) تفسير قوله تعالى:

المعنى: واذكر لهم يا محمد على جهة إعلامهم بغير كتبهم ليتحققوا نبوتك، وينتظم في ذلك نعم الله

عليهم، وتلقَّيهم تلك النعم بالكفر وقلة الطاعة والإنابة.

وقرأ ابن محيصن: ﴿يَا قَوْمُ﴾ بالرفع، وكذلك حيث وقع في القرآن، وروي ذلك عن ابن كثير، و﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ هنا اسم الجنس، ثم عدَّد عيون تلك النعم. والأنبياء الذين جعل فيهم أمرهم مشهور من لدن إسرائيل إلى زمان عيسى عليه السلام، والأنبياء حاطة ومنقذون من النار، وشرف في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ يحتمل معاني - أحدها: أن يُعَدَّد عليهم مُلْكٌ مِّنْ مَلِكٍ من بني إسرائيل، لأن الملوك شرف في الدنيا، وحاطة من نوابها. والمعنى الآخر: أن يريد: استنقذكم من القبط الذين كانوا يستخدمونكم فصرتم أحراراً تملكون ولا تُملكون، فهم ملوك بهذا الوجه، وينحو هذا فسّر السدي وغيره، وقال قتادة: إنما قال: ﴿وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا﴾ لأننا كنا نتحدث أنهم أول من خدمه أحد من بني آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، لأن القبط كانوا يستخدمون بني إسرائيل، وظاهر أمر بني آدم أن بعضهم كان يُسخَّر بعضاً مذ تناسلوا وكثروا، وإنما اختلفت الأمم في معنى التملك فقط. وقال عبدالله بن عمرو بن العاص، والحسن بن أبي الحسن، وجماعة من أهل العلم: من كان له مسكن وامرأة وخادم فهو مَلِكٌ، وقيل: من له مسكن لا يدخلون عليه فيه إلا بإذن فهو مَلِكٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَوَآتَيْنَاكَ مَا لَمْ يُؤْتِ أَكْدَاكُ مِنَ الْمَلَكِ﴾ قال فيه أبو مالك، وسعيد بن جبير: الخطاب لأمة محمد ﷺ، وهذا ضعيف، وقال جمهور المفسرين: الخطاب هو من موسى عليه السلام لقومه، ثم اختلف المفسرون - ما الذي أوتوا ولم يُؤْت أحد مثله؟ فقال مجاهد: المن والسلوى والحجر والغمام، وقال غيره: كثرة الأنبياء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا في كثرة الأنبياء - فالعالمون على العموم والإطلاق، وعلى القول بأن المؤتى هو آيات موسى فالعالمون مقيدون بالزمان الذي كانوا فيه، لأن أمة محمد قد أُوتيت من آيات محمد عليه الصلاة والسلام أكثر من ذلك، فقد ظلل رسول الله ﷺ بغمامة قبل مبثته، وكلمته الحجارة والبهائم، وأقبلت إليه الشجرة، وحنَّ الجذع، ونبع الماء من بين أصابعه، وشبع كثير من الناس من قليل الطعام ببركته، وانشق له القمر، وعاد العود سيفاً، ورجع الحجر المعترض في الخندق رملًا مهيلًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه المقالة من موسى توطئة لنفوسهم حتى يتعزز ويأخذ الأمر بدخول أرض الجبارين بقوة، وينفذ في ذلك نفوذ من أعزه الله ورفع شأنه، و﴿الْمُقَدَّسَةَ﴾ معناه: المطهرة، وقال مجاهد: المباركة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والبركة تطهير من القحوط والجوع ونحوه، واختلف الناس في تعيينها -

فقال ابن عباس، ومجاهد: هي الطور وما حوله، وقال قتادة: هي الشام، وقال ابن زيد: هي أريحاء، وقاله السدي، وابن عباس أيضاً، وقال قوم: هي الغوطة وفلسطين وبعض الأردن، قال الطبري: ولا يختلف أنها بين الفرات وعريش مصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتظاهرت الروايات أن دمشق هي قاعدة الجبارين.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْكَ كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه: التي كتب الله في قضائه وقدره أنها لكم ترثونها وتسكنونها مالكين لها، ولكن فَتَنَّاكُمْ في دخولها بغرض قتال من فيها عليكم تمحيصاً وتجربة، ثم حذرهم موسى عليه السلام الارتداد على الأدبار، وذلك الرجوع القهقري، ويحتمل أن يكون تولية الدبر والرجوع في الطريق الذي جيء منه. والخاسر: الذي قد نقص حظه.

ثم ذكر عز وجل عن بني إسرائيل أنهم تعتوا ونكصوا، فقالوا: ﴿إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ﴾، والجبار: فقال من الجبر، كأنه لقوته وعشمه وبطشه يجبر الناس على إرادته، والنخلة الجبارة: العالية التي لا تنال بيد، وكان من خبر الجبارين أنهم كانوا أهل قوة، فلما بعث موسى الاثني عشر نقيباً مطلعين على أمر الجبارين وأحوالهم، رأوا لهم قوة وبطشاً، وتخلوا أن لا طاقة لهم بهم، فجاءوا بني إسرائيل، ونقضوا العهد بأن أخبروهم بحال الجبارين حسبما قدمناه في ذكر بعث النقباء، ولم يف

منهم إلا يوشع بن نون، وكالب بن يوقنا، ثم إن بني إسرائيل كعوا وجبنوا وقالوا: كوننا عبيداً للقط أسهل من قتال هؤلاء، وهم كثير منهم أن يقدموا رجلاً على أنفسهم وبصير بهم إلى أرض مصر مُرْتَدِّين على الأعقاب، ونسوا أن الله تعالى إذا أيد الضعيف غلب القوي، وأخبروا موسى عليه السلام أنهم لن يدخلوا الأرض ما دام الجبارون فيها، وطلبوا منه أن يُخرج الله الجبارين بجند من عنده، وحينئذ يدخل بنو إسرائيل.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد: ﴿يَخَافُونَ﴾ بضم الياء، وقرأ الجمهور: ﴿يَخَافُونَ﴾ بفتح الياء، وقال أكثر المفسرين: الرجلان يوشع بن نون وهو ابن أخت موسى، وكالب بن يوقنا، ويقال فيه: كلاب، ويقال: كالوث بشاء مثله، ويقال في اسم أبيه: قافيا، وهو صهر موسى على أخته، قال الطبري: اسم زوجته مريم بنت عمران، ومعنى ﴿يَخَافُونَ﴾ أي: أي: الله. وأنعم عليهما بالإيمان الصحيح وربط الجأش والشبوت في الحق، وقال قوم: المعنى: يخافون العدو، لكن أنعم الله عليهما بالإيمان والشبوت مع خوفهما، ويقوي التأويل الأول أن في قراءة ابن مسعود: ﴿قال رجلان من

قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا كَانَ نَدْعُهَا إِدَامًا دَامُوا فِيهَا فَادْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَدْ لَنَا هَاهُنَا قَعْدَتٌ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي لَا أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي فَافْرِقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ فَإِنَّا نَحْمَرُّهُ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴿٢٥﴾ وَأَقْبَلَ عَلَيْهِمْ نَبَأُ ابْنِي آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقْبِلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٦﴾ لَئِن بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِسَاطِئِ يَدَيْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٧﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُو أَبَانِي وَأَتِيكَ فَتَكُونَ مِنِّي وَأَصْحَابُ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَبِعَثَّ اللَّهُ عُرْأَبًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سُوَةَ أَخِيهِ قَالَ يُنَوِّجُ أَصْحَابُهَا أَن آكُونَ مِثْلَ هَذَا الْكُرْبِ فَأُوَارِي سُوَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِينَ ﴿٣٠﴾

١١٢

الذين يخافون الله أنعم عليهما، وأما من قرأ بضم الياء فلقرآته ثلاثة معان - أحدهما: ما روي من أن الرجلين كانا من الجبارين أمتا بموسى واتبعا، فكانا من القوم الذين يخافون، لكن أنعم الله عليهما بالإيمان بموسى، فقالا: نحن أعلم بقومنا. والمعنى الثاني: أنهم يوشع وكالوث، لكنهما من الذين يُوقرون ويُسمع كلامهم ويُهابون لتقويهم وفضلهم، فهم يخافون بهذا الوجه، والمعنى الثالث: أن يكون الفعل من أخاف، والمعنى: من الذين يخافون بأوامر الله ونواهيهِ ووعيده وزجره، فيكون ذلك مدحاً لهم على نحو المدح في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ آمَنُوا أَن نَحْنُ نَقُصُّهُمْ عَلَيْكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَنَّمْ اللَّهُ عَلَيْهِمَا صَفَةً للرجلين.

والباب: هو باب مدينة الجبارين فيما ذكر المفسرون، والمعنى: اجتهدوا وكافحوا حتى تدخلوا الباب. وقوله: ﴿فَأَنكُمْ غَالِبُونَ﴾ ظن منهم ورجاء وقياس، أي: أنكم بذلك تفتنون في أعضادهم، ويقع الرعب في قلوبهم فتغلبونهم، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿عَلَيْهِمَا وَيَلْكُم اذْخُلُوا﴾، وقولهما: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقتضي أنهما استرابا بإيمانهم حين رأياهم يعصون الرسول، ويجبنون مع وعد الله تعالى لهم بالنصر.

ثم إن بني إسرائيل لجؤا في عصيانهم، وسمعوا من العشرة النقباء الجواسيس الذين خوفهم أمر الجبارين، ووصفوا لهم قوة الجبارين وعظم خلقهم، فصمموا على خلاف أمر الله تعالى: ﴿قَالُوا يَكُونُ مِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِيلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ وهذه عبارة تقتضي كفرة، وذهب بعض الناس إلى أن المعنى: اذهب أنت وربك يُعينك، وأن الكلام معصية لا كفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقولهم: ﴿فَقَتِيلًا﴾ يقطع بهذا التأويل، وذكر النقاش عن بعض المفسرين أن المراد بالرب (هنا) هارون، لأنه كان أسس من موسى، وكان معظماً في بني إسرائيل، محبباً لسعة خلقه ورحب صدره، فكانهم قالوا: اذهب أنت وكبيرك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل بعيد، وهارون إنما كان وزيراً لموسى وتابعا له في معنى

الرسالة، ولكنه تأويل يخلص بني إسرائيل من الكفر. وذكر الطبري عن قتادة أنه قال: بلغنا أن رسول الله ﷺ لما عزم على قتال قريش في عام الحديبية جمع العسكر وكلم الناس في ذلك، فقال له المقداد بن الأسود: لسا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل: ﴿فَاذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَتِيلًا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ﴾ لكننا نقول: اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، وذكر النقاش أن الأنصار قالت هذه المقالة للنبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجميع هذا وهم، غلط قتادة رحمه الله في وقت النازلة، وغلط النقاش في قائل المقالة، والكلام إنما وقع في غزوة بدر حين نزل رسول الله ﷺ ذفران فكلم الناس وقال لهم: أشيروا علي أيها الناس، فقال له المقداد في كلام طويل، ذكر ذلك ابن إسحق وغيره، ثم تكلم من الأنصار سعد بن معاذ بنحو هذا المعنى، ولكن سبقه المقداد إلى التمثيل بالآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتمثيل المقداد بها وتقرير النبي ﷺ لذلك يقتضي أن الرب إنما أريد به الله تعالى، ويؤنس أيضاً في إيمان بني إسرائيل، لأن المقداد قد قال: اذهب أنت وربك فقاتلا، وليس لكلامه معنى إلا أن الله تعالى يُعينك، ويقايل معك ملائكته ونصره، فعسى أن بني إسرائيل أرادت ذلك، أي: اذهب أنت، ويخرجهم الله بنصره وقدرته من

المدينة، وحينئذ ندخلها، لكن قبحت عبارتهم لاقتران النكول بها، وحسنت عبارة المقداد لاقتران الطاعة والإقدام بها.

ولما سمع موسى عليه السلام قولهم، ورأى عصيانهم، تبرأ إلى الله تعالى منهم، وقال داعياً عليهم: ﴿رَبِّ إِنِّي لَأَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ يعني هارون، وقوله: ﴿وَأَخِي﴾ يحتمل أن يكون إعرابه رفعا إما على الابتداء والتقدير: وأخي لا يملك إلا نفسه، وإما على العطف على الضمير الذي في ﴿أَمْلِكُ﴾، تقديره: لا أملك أنا، ويحتمل أن يكون إعرابه نصبا على العطف على: ﴿نَفْسِي﴾، وذلك لأن هارون كان يطيع موسى، فلذلك أخبر أنه يملكه. وقرأ الحسن: ﴿إِلَّا نَفْسِي وَأَخِي﴾ بفتح الياء فيهما، وقوله: ﴿فَأَقْرُبْ بَيْنَنَا﴾ دعاء حرج، قال السدي: هي عجلة عجلها موسى عليه السلام، وقال ابن عباس، والضحاك، وغيرهما: المعنى: افصل بيننا وبينهم بحكم وافتح، فالمعنى: احكم بحكم يفرق هذا الاختلاف ويُلْمُ الشعث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل فليس من الدعاء عجلة. وقال قوم: المعنى: فافرق بيننا وبينهم في الآخرة حتى تكون منزلة المطيع مفارقة لمنزلة العاصي الفاسق، ويحتمل الدعاء أن يكون معناه: فرق بيننا وبينهم، بمعنى أن يقول: ﴿فَقَدْنَا وجوههم، وفَرَّقْ بيننا وبينهم حتى لا نشقى بفسقهم﴾، وبهذا الوجه تجيء العجلة في

الدعاء، وقرأ عُبيد بن عُمير:
﴿فَأَفْرِقْ﴾ بكسر الراء.

﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ المعنى:
قال الله، وأضمر الفاعل في هذه
الأفعال كلها إيجازاً لدلالة معنى
الكلام على المراد. وحزْمُ الله تعالى
على جميع بني إسرائيل دخول تلك
المدينة أربعين سنة، وتركهم خلالها
يتيهون في الأرض، أي: في أرض
تلك النازلة، وهو فحص التيه، وهو
- على ما يحكى - طول ثمانين ميلاً
في عرض ستة فراسخ، وهو ما بين
مصر والشام، ويروى أنه اتفق أن
مات كل من كان قال: ﴿إِنَّمَا كُنْ
نَدَّخْهَآ أَبَدًا﴾، ولم يدخل المدينة أحد
من ذلك الجيل إلا يوشع وكالوث،
ويروى أن هارون عليه السلام مات
في فحص التيه في خلال هذه
المدة، ولم يختلف في هذا، وروي
أن موسى عليه السلام مات فيه بعد
هارون بشمانية أعوام، وقيل: بستة
أشهر ونصف، وأن يوشع نبيء بعد
كمال الأربعين سنة، وخرج ببني
إسرائيل وقاتل الجبارين وفتح
المدينة، وفي تلك الحرب وقفت له
الشمس ساعة حتى استمر هزم
الجبارين. وروي أن موسى عليه
السلام عاش حتى كملت الأربعون،
وخرج بالناس وحارب الجبارين
ويوشع وكالب على مقدمته، وأنه
فتح المدينة وقتل بيده عوج بن
عناق، يقال: كان في طول موسى
عشرة أذرع، وفي طول عصاه عشرة
أذرع، وترامى من الأرض في السماء
عشرة أذرع، وحينئذ لحق كعب
عوج فضربه بعصاه في كعبه فخر

صريعاً، ويروى أن عوجاً اقتلع
صخرة ليطرحها على عسكر بني
إسرائيل فبعث الله هدهداً بحجر
الماس فأداره على الصخرة فتقورت
ودخلت في عنق عوج، وضربه
موسى فمات، وحكى الطبري أن
طول عوج ثمانمائة ذراع، وحكى
عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه
قال: لَمَّا خَرَّ كَانَ جَسَراً عَلَى النَّيْلِ
سَنَةً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والنيل ليس في تلك الأقطار، وهذا
كله ضعيف، والله أعلم، وحكى
الزجاج عن قوم أن موسى وهارون
لم يكونا في التيه، والعامل في
﴿أَرْبَعِينَ﴾ يحتمل أن يكون
﴿مُحَرَّمَةٌ﴾، أي: حرمت عليهم
أربعين سنة، ويتيهون في الأرض
هذه المدة ثم تفتح عليهم، أدرك
ذلك من أدركه، ومات قبله من
مات. وخَطَأُ أَبُو إِسْحَاقَ أَنْ يَكُونَ
العامل ﴿مُحَرَّمَةٌ﴾، وذلك منه
تحامل. ويحتمل أن يكون العامل
«يتيهون» مضمرأ يدل عليه
﴿يَتِيهُونَ﴾ المتأخر، ويكون قوله:
﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ﴾ إخباراً مستمراً تلقوا
منه أن المخاطبين لا يدخلونها أبداً،
وأَنَّهُمْ - مع ذلك - يتيهون في الأرض
أربعين سنة يموت فيها من مات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والخطاب على هذا التأويل أصعب
موقفاً وأحضر بأساً، وروي أن من
كان قد جاوز عشرين سنة لم يعش
إلى الخروج من التيه، وأن من كانوا
دون العشرين عاشوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كأنه لم يعش المكلفون، أشار إلى
ذلك الزجاج.

والتيه: الذهاب في الأرض إلى غير
قصد معلوم، ويروى أن بني إسرائيل
كانوا يرحلون بالليل ويسبرون ليلهم
أجمع في تحليق ونحوه من التردد
وقلة استقامة السير، حتى إذا أصبحوا
وجدوا جُمَلَتَهُمْ في الموضع الذي
كانوا فيه أول الليل، قال مجاهد
وغيره: كانوا يسبرون النهار أحياناً
والليل أحياناً فيمسون حيث
أصبحوا، ويصبحون حيث أمسوا،
وذلك في مقدار ستة فراسخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويحتمل أن يكون تيههم بافتراق
الكلمة وقلة اجتماع الرأي، وأن الله
تعالى رماهم بالاختلاف، وعلموا
أنها قد حرمت عليهم أربعين سنة
فتفرقت منازلهم في ذلك الفحص،
وأقاموا ينتقلون من موضع إلى
موضع على غير نظام واجتماع، حتى
كملت هذه المدة وأذن الله
بخروجهم، وهذا تيه ممكن محتمل
على عرف البشر، والآخر الذي ذكر
مجاهد إنما هو خرق عادة وعجب
من قدرة الله تعالى.

وفي ذلك التيه ظلل عليهم الغمام،
ورزقوا المن والسلوى إلى غير ذلك
مما روي من ملابسهم، وقد مضى
ذلك في سورة البقرة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ
الَّذِينَ﴾ معناه: فلا تحزن، يقال:
أسى الرجل يأسى أسى إذا حزن،
ومنه قول امرئ القيس:

وُقُوفاً بِهَا صَخْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهُمْ
يقولون لا تهلك أسى وتَجَمَّل

ومنه قول مَتَّم بن نُؤيرة:

فَقُلْتُ لَهُمْ إِنَّ الْأَسَى يَنْبَغُ الْأَسَى
دَعُونِي فَهَذَا كَلُّهُ قَبْرُ مَالِكٍ
والخطاب بهذه الآية لموسى عليه
السلام، قال ابن عباس رضي الله
عنهما: ندم موسى على دعائه على
قومه، وحزن عليهم، فقال له الله
تبارك وتعالى: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْرِ
الْمُتَّقِينَ﴾. وقال قوم من
المفسرين: الخطاب بهذه الألفاظ
لمحمد ﷺ، ويراد بالفاسقين
معاصروه، أي: هذه أفعال أسلافهم
فلا تحزن أنت بسبب أفعالهم الخبيثة
ورُدِّهم عليك، فإنها سجية خبيثة
موروثة عندهم.

٢٧ - ٢٩ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَنْتَلُّ﴾ معناه: اسرد وأسمعهم
إياه، وهذه من علوم الكتب الأول
التي لا تعلق لمحمد ﷺ بها إلا من
طريق الوحي، فهو من دلائل نبوته،
والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ ظاهر أمره أنه
يُرَادُ به بنو إسرائيل لوجهين: أحدهما
أن المحاوره فيما تقدم إنما هي في
شأنهم، وإقامة الحجج عليهم بسبب
همهم ببسط اليد إلى محمد ﷺ،
والثاني أن عَلِمَ نَبِيَّ ابْنِي آدَمَ إِنَّمَا هُوَ
عندهم، وفي غامض كتبهم، وعليهم
تقوم الحججة في إيراده. والنبأ:
الخبر، وابنا آدم: هما في قول
جمهور المفسرين لصلبه، وهما
قائيل وهابيل، وقال الحسن بن أبي
الحسن البصري: ابنا آدم ليسا
لصلبه، ولم تكن القرايين إلا في بني
إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا وهم، وكيف يجهل صورة

الدفن أحد من بني إسرائيل حتى
يقندي بالغراب؟ والصحيح قول
الجمهور، وروي أن تقربيهما
للقربان إنما كان تحنناً وتطوعاً،
وكان قاييل صاحب زرع، فعمد إلى
أرذل ما عنده وأدناه فقربه، وكان
هابيل صاحب غنم، فعمد إلى
أفضل كباشه فقربه، وكانت العادة
حينئذ أن يقرب المقرب قربانه ويقوم
يصلي ويسجد، فإن نزلت نار
وأكلت القربان فذلك دليل للقبول،
وإلا كان تركه دليل عدم القبول،
فلما قرب هذان كما ذكرت، فنزلت
النار فأخذت كبش هابيل فرفعته
وسترته عن العيون، وتركت زرع
قاييل، قال سعيد بن جبير: فكان
ذلك الكبش يرتع في الجثة حتى
أهبط إلى إبراهيم في فداء ابنه، قال
سائقوا هذا القصص: فحسد قاييل
هابيل، وقاله له: أتمشي على
الأرض يراك الناس أفضل مني؟
وكان قاييل أسنُّ ولد آدم، وروي أن
آدم سافر إلى مكة ليرى الكعبة،
وترك قاييل وصياً على بنيه، فجرت
هذه القصة في غيبته، وروت جماعة
من المفسرين - منهم ابن مسعود -
أن سبب هذا التقرب أن حواء كانت
تلد في كل بطن ذكراً وأنثى، فكان
الذكر يزوج أنثى البطن الآخر، ولا
تحل له أخته توأمته، فولدت مع
قاييل أخت جميلة، ومع هابيل
أخت ليست كذلك، فلما أراد آدم
تزوجها قال قاييل: أنا أحق بأختي،
فأمره آدم فلم يأتمر، فاتفقوا على
التقريب، وروي أن آدم حضر ذلك،
فتقبل قربان هابيل، ووجب أن يأخذ

أخت قاييل، فحينئذ قال له:
﴿لَا تَقْنَلَنَّكَ﴾، وقول هابيل: ﴿إِنَّمَا
يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ كلام قبله
محذوف تقديره: ولم تقتلني وأنا لم
أجن شيئاً ولا ذنب لي في قبول
قرباني؟ أما إني أتقيه وكنت علي
لأحب الخلق و ﴿إِنَّمَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ
الْمُتَّقِينَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وإجماع أهل السنة في معنى هذه
الألفاظ أنها اتقاء الشرك، فمن اتقاء
وهو موحد فأعماله التي تصدق فيها
نيته مقبولة، وأما المتقي للشرك
والمعاصي فله الدرجة العليا من
القبول والرحمة بالرحمة، علم ذلك
بإخبار الله تعالى، لا أن ذلك يجب
على الله تعالى عقلاً، وقال عدي بن
ثابت وغيره: قُرْبَانُ متقي هذه الأمة
الصلاة.

واختلف الناس، لم قال هابيل:
﴿مَا أَنَا بِبَاطِلٍ يَدِي إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ؟﴾
فقال مجاهد: كان الفرض عليهم
حينئذ ألا يسلب أحد سيفاً، وألا
يمنتع من أريد قتله، وقال
عبدالله بن عمرو، وجمهور الناس:
كان هابيل أشد قوة من قاييل ولكنه
تخرج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا هو الأظهر، ومن هنا يقوى أن
قاييل إنما هو عاص لا كافر، لأنه لو
كان كافراً لم يكن للتخرج وجه،
وإنما وجه التخرج في هذا أن
المتخرج يأبى أن يُقاتل موحداً،
ويرضى بأن يُظلم ليُجَازَى في
الآخرة، ونحو هذا فعل عثمان بن
عقاف رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ أَرِيدَ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ الآية، ليست هذه بإرادة محبة وشهوة، وإنما هو تَحْيِيرٌ فِي شَرْطَيْنِ، كما تقول العرب: فِي الشَّرْطِ خِيَارٌ، فالمعنى: إِنْ قَتَلْتَنِي وَسَبَقَ بِذَلِكَ قَدْرَ فَاخْتِيَارِي أَنْ أَكُونَ مَظْلُومًا سَيَنْتَصِرُ اللَّهُ لِي فِي الْآخِرَةِ. وَ ﴿تَبُوءَ﴾ معناه: تَمْضِي مَتَحَمَلًا، وقوله: ﴿بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ﴾ قيل: معناه: بِإِثْمٍ قَتَلْتَنِي وَسَائِرِ أَثَامِكَ الَّتِي أَوْجِبَتِ الْأَيْثَامُ مَنكَ، وقيل: المعنى: بِإِثْمٍ قَتَلْتَنِي وَإِثْمِكَ فِي الْعَدَاءِ عَلَيَّ، إِذْ هُوَ فِي الْعَدَاءِ وَإِرَادَةُ الْقَتْلِ أَثْمٌ وَلَوْ لَمْ يَنْفِذِ الْقَتْلَ. وَقِيلَ: المعنى: بِإِثْمِي إِنْ لَوْ قَاتَلْتِكَ وَقَتَلْتِكَ وَإِثْمَ نَفْسِكَ فِي قِتَالِي وَقِتَالِي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الإثم الذي يقتضيه قول النبي ﷺ: «إِذَا تَقَى الْمُسْلِمَانِ بَسَفَيْهِمَا فَالْقَاتِلُ وَالْمَقْتُولُ فِي النَّارِ»، قيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، هَذَا الْقَاتِلُ، فَمَا بِالْمَقْتُولِ؟ قَالَ: «إِنَّهُ كَانَ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ». فَكَأَنَّ هَابِيلَ أَرَادَ: إِنِّي لَسْتُ بِحَرِيصٍ عَلَى قَتْلِكَ، فَالِإِثْمُ الَّذِي كَانَ يَلْحَقَنِي لَوْ كُنْتُ حَرِيصًا عَلَى قَتْلِكَ أَرِيدُ أَنْ تَحْمِلَهُ أَنْتَ مَعَ إِثْمِكَ فِي قِتَالِي، وَقِيلَ: المعنى: بِإِثْمِي الَّذِي يَخْتَصُّ لِي فِيْمَا فَرَطَ لِي، أَي: يُوْخَذُ مِنْ سَيِّئَاتِي فَيَطْرَحُ عَلَيْكَ بِسَبَبِ ظَلْمِكَ لِي، وَتَبُوءُ بِإِثْمِكَ فِي قِتَالِي، وَهَذَا تَأْوِيلُ بَعْضِهِ قَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «يُؤْتَى بِالظَّالِمِ وَالْمَظْلُومِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُؤْخَذُ مِنَ حَسَنَاتِ الظَّالِمِ فَيُزَادُ فِي حَسَنَاتِ الْمَظْلُومِ حَتَّى يَنْتَصِفَ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ

حَسَنَاتٌ أَخَذَ مِنْ سَيِّئَاتِ الْمَظْلُومِ فَطَرَحَ عَلَيْهِ».

وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ جَزَاءُ الْفٰلِئِينَ﴾ يحتتمل أن يكون من قول هابيل لأخيه، ويحتمل أن يكون إخباراً من الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل: قِرَاءَةُ الْجُمْهُورِ: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ والمعنى أن القتل في ذاته مستصعب عظيم على النفوس، فردته هذه النفس اللجوجة الأثارة بالسوء طائعاً منقاداً حتى واقعه صاحب هذه النفس. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، والجراح، والحسن بن عمران، وأبو واقد: ﴿فَطَوَّعَتْ﴾ والمعنى: كَأَنَّ الْقَتْلَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ بِسَبَبِ الْحَقْدِ وَالْحَسَدِ الَّذِي أَصَابَ قَابِيلَ، وَكَأَنَّ النَّفْسَ تَأْبَى ذَلِكَ وَيَصْعَبُ عَلَيْهَا، وَكُلَّ جِهَةٍ تَرِيدُ أَنْ تَطِيعَهَا الْآخَرَى، إِلَى أَنْ تَفَاقَمَ الْأَمْرُ، وَطَاوَعَتِ النَّفْسُ الْقَتْلَ فَوَاقَعَتْهُ، وَرَوَى أَنَّهُ التَّمَسُّ الْغَيْرَةَ فِي قَتْلِهِ حَتَّى وَجَدَهُ نَائِمًا فِي غَنَمِهِ فَشَدَخَ رَأْسَهُ بِحَجَرٍ، وَرَوَى أَنَّهُ جَهَلَ كَيْفَ يَقْتُلُهُ، فَجَاءَ إِبْلِيسَ بِطَائِرٍ أَوْ حَيَوَانَ غَيْرِهِ فَجَعَلَ يَشْدَخُ رَأْسَهُ بَيْنَ حَجَرَيْنِ لِيَقْتَدِي بِهِ قَابِيلَ فَعَمِلَ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ قَابِيلُ إِلَى آدَمَ قَالَ لَهُ: أَيُّنَ هَابِيلَ؟ قَالَ: لَا أَدْرِي كَأَنَّكَ وَكَلْتَنِي بِحَفْظِهِ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: أَفَعَلْتَهَا؟ وَاللَّهِ إِنْ دَمَهُ لِنَادِيَنِ مِنَ الْأَرْضِ، اللَّهُمَّ الْعَنِ أَرْضاً شَرِبَتْ دَمَ هَابِيلَ، فَرَوَى أَنَّهُ مِنْ حَيْثُذَ مَا شَرِبَتْ أَرْضٌ دَمًا، ثُمَّ إِنْ آدَمَ ﷺ بَقِيَ مِائَةَ عَامٍ لَمْ يَبْتَسِمَ حَتَّى جَاءَ

ملك فقال له: حياك الله يا آدم وبياك، فقال آدم: ما بياك؟ قال: اضحك، ويروي أن آدم عليه السلام قال حينئذ:

تَغَيَّرَتِ الْبِلَادُ وَمَنْ عَلَيْنَهَا
فَوَجَّهَ الْأَرْضَ مُغْبِرٌ قَبِيحٌ
تَغْيِيرُ كُلِّ ذِي طَنَمٍ وَلَوْنٌ
وَقَلَّ بِشَاشَةِ الْوَجْهِ الْمَلِيحِ
هكذا هو الشعر بنصب (بشاشة) وكف التنوين.

وروي عن مجاهد أنه قال: علقت إحدى رجلي القاتل بساقها إلى فخذهما من يومئذ إلى يوم القيامة، ووجه إلى الشمس حيث ما دارت، عليه في الصيف حظيرة من نار، وعليه في الشتاء حظيرة من ثلج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فَإِنَّ صَحَّ هَذَا فَهُوَ مِنْ خَسْرَانِهِ الَّذِي تَضَمَّنَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ الْكٰفِرِينَ﴾، وَمِنْ خَسْرَانِهِ مَا رَوَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّا لَنَجِدُ ابْنَ آدَمَ الْقَاتِلَ يَقَاسِمُ أَهْلَ النَّارِ قِسْمَةَ صَحِيحَةِ الْعَذَابِ، عَلَيْهِ شَطْرُ عَذَابِهِمْ»، وَمِنْ خَسْرَانِهِ مَا ثَبِتَ وَصَحَّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَا قُتِلَتْ نَفْسٌ ظَلَمًا إِلَّا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الْأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا»، وَذَلِكَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ.

وقوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ عبارة عن جميع أوقاته، أقيم بعض الزمن مقام كله، وخص الصباح بذلك لأنه بداية النهار والانبعاث إلى الأمور، ومطية النشاط، ومنه قول الربيع بن ضبع:

طلحة بن مصرف، والفياض بن غزوان: ﴿فَأَوَارِي﴾ بسكون الياء، وهي لغة لتوالي الحركات.

ولما رأى قابيل فعل الغراب تنبه على ما يجب أن يصنع بأخيه، ورأى قصور نفسه وجهل البشر بالأمر، فقال: ﴿يَوَلِّيْجَ أَعَجَزْتُ﴾ الآية، واحتقر نفسه، ولذلك ندم، وقرأ الجمهور: ﴿يَوَلِّيْجَ﴾ والأصل: يا وَيَلِّي، لكن من العرب من يبدل من الياء ألفاً ويفتح الياء لذلك، فيقولون: يا وَيَلِّي وَيَا غِلَامًا، وَيَقِفُ بعضهم على هاء السكت فيقول: يا وَيَلِّيَّاهُ. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يَا وَيَلِّيَّتِي﴾. ونداء الويلة هو على معنى: احضري فهذا أوانك، وهذا هو الباب في قوله: ﴿يَبْحَثَرَةَ﴾،

وفي قولهم: يا عجباً وما جرى مجراه من نداء هذه الأمور التي لا تعقل وهي معان. وقرأ الجمهور: ﴿أَعَجَزْتُ﴾ بفتح الجيم، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والفياض، وطلحة بن سليمان: ﴿أَعَجِزْتُ﴾ بكسر الجيم، وهي لغة.

ثم إن قابيل وارى أخاه، وندم على ما كان منه من معصية الله في قتله حيث لا ينفع الندم، واختلف العلماء في قابيل - هل هو من الكفار أو من العصاة؟ والظاهر أنه من العصاة، وروي عن النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ضَرَبَ لَكُمْ ابْنِي آدَمَ مَثَلًا، فَخَذُوا مِنْ خَيْرِهِمَا وَدَعَوْا الشَّرَّ».

﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

جمهور الناس على أن قوله: ﴿مِنْ أَجَلٍ ذَلِكَ﴾ متعلق بقوله: ﴿كَيْبَنَّا﴾، أي: بسبب هذه النازلة، ومن جرأها

إنما بعث غراباً واحداً فجعل يبيحث ويلقي التراب على هابيل.

وظاهر هذه الآية أن هابيل هو أول ميت من بني آدم، ولذلك جهلت سنة المواراة، وكذلك حكى الطبري عن ابن إسحق عن بعض أهل العلم بما في الكتب الأول.

و ﴿يَبْحَثُ﴾ معناه: يفتش التراب بمنقاره وبثوره، ومن هذا سميت سورة (براءة) - البحوث - لأنها فتشت عن المنافقين، ومن ذلك قول الشاعر:

إِنَّ النَّاسَ عَطُونِي تَعَطَّيْتُ عَنْهُمْ
وإنَّ يَحْثُونِي كَانَ فِيهِمْ مَبَاحِثُ
وفي مثل: لا تكن كالباحث عن الشفرة.

والضمير في قوله: ﴿سَوَاءَ أَخِيهِ﴾ يحتمل أن يعود على قابيل، ويراد بالأخ هابيل، ويحتمل أن يعود على الغراب الباحث، ويراد بالأخ الغراب الميت، والأول أشهر في التأويل، والسؤاة: العورة، وخصت بالذكر مع أن المراد مواراة جميع الجسد للاهتمام بها، ولأن سترها أوكد، ويحتمل أن يراد بالسؤاة هذه الحالة التي تسوء الناظر بمجموعها، وأضيفت إلى المقتول من حيث نزلت به النازلة لا على جهة الغصُ منه، بل الغصُ لاحقاً للقاتل، وهو الذي أتى بالسؤاة، وقرأ الجمهور: ﴿فَأَوَارِي﴾ بنصب الياء، وقرأ

مِنْ أَجَلٍ ذَلِكَ كَيْبَنَّا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُمْ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِعَدْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادًا فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَ تَهُمُ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُمْ بَعَدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ جِزَاؤُا الَّذِي هُمْ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدُرُوا عَلَيْهِمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِنُفُوزِ اللَّهِ وَابْتِعْوَالِهِ الْوَسِيلَةَ وَجَهْدِ وَأَفِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تَقْلِحُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَآتَتْ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَوَسَّلهُ مَعَهُ لِيَفْتَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ عَذَابَ يَوْمٍ الْقِيَامَةِ مَا يَقْبَلُونَ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٣٦﴾

أَصْبَحْتُ لَا أَجْعَلُ السَّلَاحَ
البيت. ومنه قول سعد بن أبي وقاص: «ثم أصبحت بنو أسد تعزرنى على الإسلام» إلى غير ذلك من استعمال العرب لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿بَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُورِى سَوَاءَ أَخِيهِ﴾، روي في معناه أن قابيل جعل أخاه في جراب، ومشى به يحمله في عنقه مائة عام، وقيل: سنة واحدة، وقيل: بل أصبح في ثاني يوم قتله يطلب إخفاء أمر أخيه، فلم يدر ما يصنع به، فبعث الله غراباً حياً إلى غراب ميت، فجعل يبيحث في الأرض ويلقي التراب على الغراب الميت. وروي أن الله تعالى بعث غرابين فاقتلا حتى قتل أحدهما الآخر، ثم جعل القاتل يبيحث ويوارى الميت، وروي أن الله تعالى

وقال مجاهد: الذي يقتل النفس المؤمنة متعمداً جعل الله جزاءه جهنم، وغضب عليه، ولقنه، وأعد له عذاباً عظيماً، يقول: لو قتل الناس جميعاً لم يزد على ذلك. ومن لم يقتل أحداً فقد حيي الناس منه.

وقال ابن زيد: المعنى أن من قتل نفساً فيلزمه من القود والقصاص ما يلزم من قتل الناس جميعاً، قال: ومن أحيها، أي: من عفا عمن وجب له قتله، وقاله الحسن أيضاً، أي: هو العفو بعد القدرة، وقال مجاهد: ومن أحيها، أنقذها من حرق وغرق.

وقال قوم: لما كان المؤمنون كلهم يطلبون القاتل كان كمن قتل الناس جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول متداع، ولم يتخلص التشبيه إلى طرف في شيء من هذه الأقوال، والذي أقول: إن الشبه بين قاتل النفس وقاتل الكل لا يطرد من جميع الجهات، لكن الشبه قد تحصل من ثلاث جهات: إحداها القود فإنه واحد، والثانية الوعيد، فقد توعد الله قاتل النفس بالخلود في النار، وتلك غاية العذاب، فإن فرضناه يخرج من النار بعد سبب التوحيد فكذلك قاتل الجميع إن لو اتفق ذلك، والثالثة انتهاك الحرمة، فإن نفساً واحدة في ذلك وجميع الأنفس سواء، والمنتهاك في واحدة ملحوظ بعين منتهاك الجميع، ومثال ذلك: رجلان حلفا على شجرتين ألا يطعما من ثمرهما شيئاً، فطعم أحدهما واحدة من ثمر شجرتة،

نفس ظلماً وتعدياً. وهنا يندرج المحارب. والفساد في الأرض يَجْمَعُ الزنى والارتداد والحرابة. وقرأ الحسن: ﴿أَوْ فَسَاداً فِي الْأَرْضِ﴾ بنصب الفساد على فعل محذوف، وتقديره: أو أتى فساداً، أو أحدث فساداً، وحذف الفعل الناصب لدلالة الكلام عليه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾ اضطرب لفظ المفسرين في ترتيب هذا التشبيه - فروي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: من قتل نبياً أو إماماً عدل فكأنما قتل الناس جميعاً، ومن أحيأه بأن شد عضده ونصره فكأنما أحيأه الناس جميعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا تعطيه الألفاظ.

وروي عن ابن عباس أيضاً أنه قال: المعنى: من قتل نفساً واحدة وانتهاك حرمتها فهو يمثل من قتل الناس جميعاً، ومن ترك قتل نفس واحدة، وصان حرمتها، واستحيا من أن يقتلها، فهو كمن أحيأه الناس جميعاً.

وقال عبدالله بن عباس أيضاً: المعنى: فكأنما قتل الناس جميعاً عند المقتول، ومن أحيأه واستنقذها من هلكة فكأنما أحيأه الناس جميعاً عند المُسْتَقْتَدِ.

وقال ابن عباس أيضاً وغيره: المعنى: من قتل نفساً فأوبق نفسه فكأنه قتل الناس جميعاً، إذ يضل النار بذلك، ومن سلم من قتلها فكأنه سلم من قتل الناس جميعاً.

كتبنا. وقال قوم: بل هو متعلق بقوله: ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾، أي: ندم من أجل ما وقع، والوقف - على هذا - على ﴿ذَلِكَ﴾، والناس على أن الوقف ﴿مِنَ الَّذِينَ﴾.

ويقال: أجل الأمر أجلاً وأجلاً، إذا جناه وجره، ومنه قول خوات:

وأهل خبأء صالح ذات بينهم
قد احتربوا في عاجل أنا أجله
ويقال: فعلت ذلك من أجلك بفتح

الهمزة، ومن إجلك بكسرهما. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿مِنَ أَجْلِ ذَلِكَ﴾ بوصل الألف وكسر النون قبلها، وهذا على أن ألقى حركة الهمزة على النون، كما قالوا: «كم ابلك؟» بكسر الميم ووصل الألف، و «من ابراهيم» بكسر النون.

و ﴿كُنِيناً﴾ معناه: كُتِبَ بأمرنا في كتب منزلة عليهم تضمنت فرض ذلك، وخص الله تعالى بني إسرائيل بالذكر وقد تقدمتهم أمم كان قتل النفس فيهم محظور لوجهين: أحدهما فيما روي أن بني إسرائيل أول أمة نزل الوعيد عليهم في قتل النفس في كتاب، وغلظ الأمر عليهم بحسب طغيانهم وسفكهم الدماء، والآخر لتلوح مذمتهم في أن كتب عليهم هذا، وهم مع ذلك لا يرعون ولا يتتهون، بل هموا بقتل النبي ﷺ ظلماً، فحُصِرُوا بالذكر لحضورهم مخالفين لما كتب عليهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعْرِئِينَ﴾ معناه: بغير أن تقتل نفساً تستحق القتل، وقد حرّم الله تعالى نفس المؤمن إلا بإحدى ثلاث خصال: كفر بعد إيمان، أو زنى بعد إحصان، أو قتل

وطعم الآخر ثمر شجرته كله، فقد استويا في الحنث.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾ فيه تجوز. لأنها عبارة عن الترك والإنقاذ، وإلا فالإحياء حقيقة الذي هو الاختراع وإنما هو الله تعالى. وإنما هذا الإحياء بمنزلة قول نمرود: «أنا أحيي»، سُمي الترك إحياء، ومحبي نفس كمحبي الجميع في حفظ الحرمة واستحقاق الحمد.

ثم أخبر الله تعالى عن بني إسرائيل أنهم جاءتهم الرسل من الله بالبينات في هذا وفي سواه، ثم لم يزل الكثير منهم بعد ذلك في كل عصر يُسرفون ويتجاوزون الحدود، وفي هذه الآية إشارة إلى فعل اليهود في مهمهم بقتل النبي ﷺ وغيره، إلى سائر ذلك من أعمالهم.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

اقتضى المعنى في هذه الآية كون ﴿إِنَّمَا﴾ حاضرة الحصر التام، واختلف الناس في سبب هذه الآية - فروي عن ابن عباس، والضحاك أنها نزلت بسبب قوم من أهل الكتاب كان بينهم وبين رسول الله ﷺ عهد، فنقضوا العهد وقطعوا السبل وأفسدوا في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن تكون نازلة بني قريظة حين هموا بقتل النبي ﷺ، وقال عكرمة والحسن: نزلت الآية في المشركين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ضعف، لأن توبة المشرك نافعة بعد القدرة عليه وعلى كل حال، وقال أنس بن مالك، وجري بن عبد الله، وسعيد بن جبير،

وعروة بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وغيرهم: إن الآية نزلت في قوم من عكَل وَعَزَّيْنَةَ قَدَمُوا عَلَى رسول الله ﷺ فَأَسْلَمُوا، ثم إنهم مرضوا واستوخموا المدينة، فأمرهم النبي ﷺ أن يكونوا في لقاح الصدقة، وقال: «اشربوا من ألبانها وأبوالها»، فخرجوا فيها، فلما صَحُّوا قتلوا الرعاة واستاقوا الإبل، فجاء الصريخ فأخبر بذلك النبي ﷺ، فأمر فنودي في الناس: يا خيل الله اركبي، فركب رسول الله ﷺ على أثرهم فأخذوا، وقال جرير بن عبد الله: فبعثني رسول الله ﷺ في نفر من المسلمين، حتى إذا أدركناهم وقد أشرفوا على ديارهم، فجئنا بهم النبي ﷺ، قال جمع الرواة: فقطع رسول الله ﷺ أيديهم وأرجلهم من خلاف، وسمر أعينهم، ويروى: وسمل، وتركهم في جانب الحرّة يستسقون فلا يسقون، وفي حديث جرير: فكانوا يقولون: الماء، ويقول رسول الله ﷺ: «النار». وفي بعض الروايات عن أنس أن رسول الله ﷺ أحرقهم بالنار بعد ما قتلهم، قال أبو قلابة: هؤلاء كفروا وقتلوا وأخذوا الأموال وحاربوا الله ورسوله، وحكى الطبري عن بعض أهل العلم أن هذه الآية نسخت فعل النبي ﷺ بالمرنئين، ووقفت الأمر على هذه الحدود، وقال بعضهم: وجعلها الله عتاباً لنبيه ﷺ على سئل الأعين، وحكى عن جماعة من أهل العلم أن هذه الآية ليست بناسخة لذلك الفعل، لأن ذلك وقع في المرتدين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا سيما وفي بعض الطرق أنهم سملوا أعين الرعاة، قالوا: وهذه الآية هي في المحارب المؤمن، وحكى الطبري عن السدي أن النبي ﷺ لم يسمل أعين العرنين، وإنما أراد ذلك فنزلت الآية ناهية عن ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف تخالفه الروايات المتظاهرة.

ولا خلاف بين أهل العلم أن حكم هذه الآية مترتب في المحاربين من أهل الإسلام، واختلفوا فيمن هو الذي يستحق اسم الحرابة - فقال مالك بن أنس رحمه الله: المحارب عندنا من حمل على الناس السلاح في مصر أو بركة فكابروهم عن أنفسهم وأموالهم دون نائرة ولا دخل ولا عداوة، وقال بهذا القول جماعة من أهل العلم، وقال أبو حنيفة وأصحابه، وجماعة من أهل العلم: لا يكون المحارب إلا القاطع على الناس في خارج الأمصار، فأما في المصر فلا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريدون أن القاطع في المصر يلزمه حد ما أجترح من قتل أو سرقة أو غصب ونحو ذلك. والحرابة رُتِبَ أدناها إخافة الطريق فقط، لكنها توجب صفة الحرابة، ثم بعد ذلك يأخذ المال مع الإخافة. ثم بعد ذلك أن يقتل مع الإخافة، ثم بعد ذلك يجمع ذلك كله. فقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء: في أي رتبة كان المحارب من هذه الرتب فالإمام مخير فيه في أن يعاقبه

بما رأى من هذه العقوبات، واستحسن أن يأخذ في الذي لم يقتل بأيسر العقوبات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا سيما إن كانت زلة ولم يكن صاحب شرور معروفة، وأما إن قتل فلا بد من قتله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، وأبو مجلز، وقاتدة، وغيرهم من العلماء: بل لكل رتبة من الحرابة رتبة من العقاب، فمن أخاف الطريق فقط فعقوبته النفي، ومن أخذ المال ولم يقتل فعقوبته القطع من خلاف، ومن قتل دون أن أخذ مال فعقوبته القتل، ومن جمع الكل قتل وصلب، وحجة هذا القول أن الحرابة لا تُخرج عن الإيمان، ودم المؤمن حرام إلا بإحدى ثلاث: ارتداد أو زنى بعد إحصان، أو قتل نفس، فالمحارب إذا لم يقتل فلا سبيل إلى قتله، وقد روي عن ابن عباس، والحسن أيضاً، وسعيد بن المسيب، وغيرهم مثل قول مالك: إن الإمام مخير، ومن حجة هذا القول أن ما كان في القرآن [أو - أو] فإنه للتخير، كقوله تعالى: ﴿فَيَذِيئُ مِنْ مِثَابِهِ أَوْ مَدَقَّةً أَوْ سُؤْيًا﴾، وكآية كفارة اليمين، وآية جزاء الصيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورجح الطبري القول الآخر، وهو أحوط للمفتي ولدم المحارب، وقول مالك أسد للذريعة، وأحفظ للناس والطرق، والمخيف في حكم القاتل، ومع ذلك فمالك يرى فيه الأخذ بأيسر العقوبات استحساناً، وذكر الطبري عن أنس بن مالك أنه

قال: سأل رسول الله جبريل عليه السلام عن الحكم في المحارب فقال: «من أخاف السبيل وأخذ المال فاقطع يده للأخذ، ورجلته للإخافة، ومن قتل فاقته، ومن جمع ذلك فاصليه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبقي النفي للمخيف فقط.

وقوله تعالى: ﴿يُحَارِبُونَ اللَّهَ﴾ تغليظ جعل ارتكاب نهيه محاربة، وقيل: التقدير: يحاربون عباد الله، ففي الكلام حذف مضاف.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ تبيين للحرابة، أي: ويسعون بحرابتهم، ويحتمل أن يكون المعنى: ويسعون فساداً متضافاً إلى الحرابة، والرباط إلى هذه الحدود إنما هو الحرابة.

وقرأ الجمهور: ﴿يُقْتَلُونَ - يُصَلَّبُونَ﴾ - تَقَطُّعٌ بالتثنية في هذه الأفعال للمبالغة والتكثير، والتكثير هنا إنما هو من جهة عدد الذي يوقع بهم، كالتذبيح في بني إسرائيل في قراءة مَنْ تَقَطَّلَ: ﴿يُذَبِّحُونَ﴾، وقرأ الحسن، ومجاهد، وابن محيصن: ﴿يُقْتَلُوا - يُصَلَّبُوا - تَقَطُّعٌ﴾ بالتخفيف في الأفعال الثلاثة.

وأما قتل المحارب بالسيف ضربة العنق، وأما صلبه فجمهور من العلماء على أنه يقتل ثم يصلب نكالاً لغيره، وهذا قول الشافعي. وجمهور من العلماء على أنه يصلب حياً ويقتل بالطعن على الخشبة، وروي هذا عن مالك، وهو الأظهر من الآية، وهو الأنكى في النكال، وأما القطع: فاليد اليمنى من الرسغ،

والرجل الشمال من المفصل. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقطع اليد من الأصابع، ويُبقي الكف، والرجل من نصف القدم، ويُبقي العقب.

واختلف العلماء في النفي - فقال السدي: هو أن يطلب أبداً بالخيل والرجل حتى يؤخذ فيقام عليه حد الله، أو يخرج من دار الإسلام، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهم أنه قال: نفيه أن يطلب، وقاله أنس بن مالك، وروي ذلك عن الليث ومالك بن أنس، غير أن مالكا قال: لا يضطر مسلم إلى دخول دار الشرك، وقال سعيد بن جبير: النفي من دار الإسلام إلى دار الشرك، وقالت طائفة من العلماء منهم عمر بن عبدالعزيز: النفي في المحاربين أن ينفوا من بلد إلى غيره مما هو قاص بعيد، وقال الشافعي بنفيه من عمله، وقال أبو الزناد: كان النفي قديماً إلى ذمك وبأصح، وهما من أقصى اليمن، وقال أبو حنيفة، وأصحابه، وجماعة: النفي في المحاربين السجن، فذلك إخراجهم من الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن الأرض في هذه الآية هي أرض النازلة، وقد جُنب الناس قديماً الأرض التي أصابوا فيها الذنوب، ومنه حديث الذي ناء بصدرة نحو الأرض المقدسة، وينبغي للإمام إن كان هذا المحارب المنفي مخوف الجانب يُظن أنه يعود إلى حرافة وإفساد أن يسجنه في البلد الذي يغرب إليه، وإن كان غير مخوف

استهلك فلا يطلب به، وذكر الطبري ذلك عن مالك من رواية الوليد بن مسلم عنه، وهو الظاهر من فعل علي بن أبي طالب رضي الله عنه بحارثة بن بدر الغداني، فإنه كان محارباً ثم تاب قبل القدرة عليه، فكتب له بسقوط الأموال والدم كتاباً منشوراً، وحكى الطبري عن عروة بن الزبير أنه قال: لا تقبل توبة المحارب، ولو قبلت لاجترأوا وكان فساد كثير، ولكن لو فرّ إلى العدو ثم جاء تائباً لم أر عليه عقوبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا أدري، هل أراد ارتد أم لا. وقال الأوزاعي نحوه إلا أنه قال: إذا لحق بدار الحرب فارتد عن الإسلام أو بقي عليه ثم جاء تائباً من قبل أن يقدر عليه، قبلت توبته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح من هذا كله مذهب الفقهاء الذي قرّزته آتفاً، أن حكم الحرابة يسقط، ويبقى كسائر المسلمين، واختلف إذا كان المال أقل مما يقطع فيه السارق - فقال مالك: ذلك كالكثير، وقال الشافعي وأصحاب الرأي: لا يقطع من المحاربين إلا من أخذ ما يقطع فيه السارق.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية وعظّم من الله تعالى بعقب ذكر العقوبات النازلة بالمحاربين، وهذا من أبلغ الوعظ، لأنه يرّد على النفوس وهي خائفة وجلّة، وعادة البشر إذا رأى وسمع أمرًا مُمتنعين ببشيع المكاره - أن يرقّ ويخشع، فجاء الوعظ في هذه الحال.

﴿ابْتَعَرًا﴾ معناه: اطلبوا،

عوقب، وعذاب الآخرة لمن سلم في الدنيا، ويجري هذا الذنب مجرى غيره، وهذا الوعيد مشروط بالإفناء بالمشيئة، أما إن الخوف يغلب عليهم بحسب الوعد وعظم الذنب، والخزي في هذه الآية: الفضيحة والذل والمقت.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾ استثنى عز وجل التائب قبل أن يقدر عليه، وأخبر بسقوط حقوق الله عنه بقوله تعالى: ﴿فَاعْلَمُوا أَنكُمُ اللَّهُ

عَزُورٌ رَّحِيمٌ﴾. واختلف الناس في معنى الآية - فقال قتادة، والزهري في كتاب «الأشراف»: ذلك لأهل الشرك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من حيث رأيا الوعيد بعد العقاب، وهذا ضعيف، والعلماء على أن الآية في المؤمنين، وأن المحارب إذا تاب قبل القدرة عليه فقد سقط عنه حكم الحرابة، ولا نظر للإمام فيه إلا كما ينظر في سائر المسلمين، فإن طلبه أحد بدم نظر فيه وأقاد منه إذا كان الطالب وليّاً، وكذلك يتبع بما وجد عنده من مال الغير وبقية ما استهلك من الأموال، هذا قول مالك، وذكره والشافعي، وأصحاب الرأي، ذكره ابن المنذر، وقال قومٌ من الصحابة والتابعين: إنه لا يطلب من المال إلا بما وجد عنده بعينه، وأما ما

يُرِيدُونَ أَن يُخْرَجُوا مِنَ السَّارِ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِمٌ ﴿٣٥﴾ وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جِزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَمَن تَابَ مِن بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَعْذِبُ مَن يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٣٨﴾ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ لَا يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسْئِرُونَ فِي الْكُفْرِينَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا وَاسْتَعْرَبُوا لِلْكَذِبِ سَمْعُوكَ لِقَوْمٍ ءآخِرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يَخْرُقُونَ إِلَيْكَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُرْتِسِرْ هَذَا فَاحْذَرُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتُوهُ فَاخْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُمْ أَلْفٌ مِّن شَيْءٍ أَوْ تِلْكَ الَّذِينَ لَمْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ أَن يَطْفِرُ قُلُوبُهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا حِزْبٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٩﴾

الجانب ترك مسرحاً، وهذا هو صريح مذهب مالك: أن يغرب ويسجن حيث يغرب، وهذا هو الأغلب في أنه مخوف، ورجحه الطبري، وهو الواضح لأن نفيه من أرض النازلة أو الإسلام هو نص الآية، وسجنه بعد بحسب الخوف منه، فإذا تاب وفهم حاله سرح.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لَهُمْ حِزْبٌ﴾ إشارة إلى هذه الحدود التي توقع بهم. وغلظ الله الوعيد في ذنب الحرابة بأن أخبر أن لهم في الآخرة عذاباً عظيماً مع العقوبة في الدنيا، وهذا خارج عن المعاصي الذي في حديث عبادة بن الصامت في قول النبي ﷺ: «فمن أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به فهو كفارة له».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون الخزي لمن

و﴿الْوَسِيلَةَ﴾ القرية وسبب الشجع في المراد، ومن ذلك قول عنترة لامرأته:

إِنَّ الرَّجَالَ لَهُمُ الْبَيْتُ وَسَيْلَةُ
أَنْ يَأْخُذُواكَ تَكْحَلِي وَتَخْضَبِي
وأما الوسيلة المطلوبة لمحمد ﷺ فهي أيضاً من هذا، لأن الدعاء له بالوسيلة والفضيلة إنما هو أن يؤتاها في الدنيا، ويتصف بهما، ويكون ثمرة ذلك في الآخرة التشفيح في المقام المحمود، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

إِذَا غَمَلُ الْوَاشُونَ عُدْنَا لِوَصْلِنَا
وعاد الثصافي يَبْنِنَا والوسائلُ
أشده الطبري.

وقوله تعالى: ﴿وَجَهَدُوا فِي سَبِيلِهِ﴾ خصَّ الجهاد بالذكر لوجهين: أحدهما نبأته في أعمال البرِّ، وأنه قاعدة الإسلام، وقد دخل بالمعنى في قوله: ﴿وَأَبْتَعُوا لِآلِهِ الْوَسِيلَةَ﴾، ولكن خصه تشريفاً، والوجه الآخر أنها العبادة التي تصلح لكل منهي عن المحاربة، وهو مُعَدُّ لها من حاله وسنه وقوته وشيئة نفسه، فليس بينه وبين أن ينقلب إلى الجهاد إلا توفيق الله تعالى.
واللام في قوله: ﴿لِيَقْتَدُوا﴾ لام (كي).

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَقْبَلُ﴾ بضم التاء والقاف على ما لم يسم فاعله، وقرأ يزيد بن قطيب: ﴿تَقْبَلُ﴾ بفتحها على معنى: ما تقبل الله.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ﴾ إخبار عن أنهم يتمنون هذا في قلوبهم، وفي غير ما آية أنهم ينطقون عن هذه الإرادة. وقال الحسن بن أبي

الحسن: إذا فارت بهم النار قربوا من حاشيتها فحينئذ يريدون الخروج، ويطمعون به، وذلك قوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُخْرِجُوا مِنَ النَّارِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تأول قوم هذه الإرادة أنها بمعنى (يَكَاذُونَ) على هذا القصص الذي حكى الحسن، وهذا لا ينبغي أن يُتأول إلا فيما لا تتأتى معه الإرادة الحقيقية، كقوله تعالى: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْفَضَ﴾، وأما في إرادة بني آدم فلا، إلا على تجوز كثير.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُخْرِجُوا﴾ بفتح السين وضم الراء. وقرأ يحيى بن وثاب، وإبراهيم الشَّحْمِي: ﴿يُخْرِجُوا﴾ بضم الياء وفتح الراء.

وأخبر تعالى عن هؤلاء الكفار أنهم ليسوا بخارجين من النار، بل عذابهم فيها مقيم متأبداً، وحكى الطبري عن نافع بن الأزرق الخارجي أنه قال لابن عباس: يا أعمى البصر، أعمى القلب، تزعم أن قوماً يخرجون من النار وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُمْ بِيُخْرِجِينَ مِنْهَا﴾؟ فقال له ابن عباس: ويحك، اقرأ ما فوقها، هذه الآية في الكفار.

﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور القراء: ﴿وَالسَّارِقُ﴾ بالساقط. وقرأ عيسى بن عمر، وإبراهيم بن أبي عبلة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ بالنصب. قال سيبويه رحمه الله: الوجه في كلام العرب النصب، كما تقول: زيدا اضربه، ولكن أبت العائمة إلا الرفع - يعني عامة القراء وجلهم - قال سيبويه: الرفع في هذا وفي قوله:

﴿أَنْزَيْنَهُ وَالرَّاقِ﴾، وفي قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَأْتِيَنَّهَا مِنْكُمْ﴾ هو على مجنى: فيما فرض عليكم.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَقْطَعُوا﴾ ردت المستقبل غير مستقبل، لأن قوله: «فيما فرض عليكم السارق» جملة حقا وظاهرها الاستقلال، لكن المعنى المقصود ليس إلا في قوله: ﴿فَأَقْطَعُوا﴾ فهذه الفاء هي التي ربطت الكلام الثاني بالأول، وأظهرت الأول هنا غير مستقل. وقال أبو العباس المبرد، وهو قول جماعة من البصريين: أختار أن يكون ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ﴾ رفعا بالابتداء، لأن القصد ليس إلى واحد بعينه، فليس هو مثل قولك: زيدا فاضربه، إنما هو كقولك: «من سرق فاقطع يده»، قال الزجاج: هو المختار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أنزل سيبويه النوع السارق منزلة الشخص المعين، وقرأ عبدالله بن مسعود، وإبراهيم الشَّحْمِي: ﴿وَالسَّارِقُونَ وَالسَّارِقَاتُ فَأَقْطَعُوا أَيْمَانَهُمْ﴾، وقال الخفاف: وجدت في مصحف أبي بن كعب: «والسُّرُوقُ والسُّرُوقَةُ» هكذا ضبطاً، بضم السين المشددة وفتح الراء المشددة فيها، هكذا ضبطها أبو عمرو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن يكون هذا تصحيحاً من الضابط، لأن قراءة الجماعة إذا كتب [السَّارِقُ] بغير ألف وافقت في الخط هذه.

وأخذ ملك الغير يتنوع بحسب قرائته، فمنه الغصب، وقرينته علم

المغصوب منه وقت الغضب، أو
عَلِمَ مُشَاهِدٍ غَيْرِهِ. ومنه: الخيانة،
وقربنتها أن الخائن قد طرق إلى
المال بتصرف مَّا، ومنه: السَّرَقَةُ،
وقرائثُهَا أَنْ يُؤْخَذَ مَالٌ لَمْ يَطْرُقْ إِلَيْهِ
عَلَى غَيْرِ عِلْمٍ مِنَ الْمَسْرُوقِ مَالِهِ،
وفي خفاءٍ من جميع الناس فيما يرى
السارق، وهذا هو الذي يجب عليه
القطع وحده من بين أخذة الأموال
لخيث هذا المنزِع، وَقَلَّةُ الْعَدْرِ فِيهِ.
وأحاط الله تعالى البشر على لسان
نبيه بأن القطع لا يكون إلا بقرائن:
منها الإخراج من حرز، ومنها القدر
المسروق على اختلاف أهل العلم
فيه، ومنها أن يعلم السارق بتحريم
السرقَة، وأن تكون السرقَة فيما يَجِلُّ
مِلْكُهُ، فلفظ [السَّارِقُ] في الآية
عموم معناه الخاص.

فأما القدر المسروق - فقالت
طائفة: لا قطع إلا في ربع دينار
فصاعداً، قال به عمر بن الخطاب،
وعثمان بن عفان، وعلي، وعائشة،
وعمر بن عبدالعزيز، والأوزاعي،
والليث، والشافعي، وأبو ثور،
رضي الله عنهم وفيه حديث عن
النبي ﷺ أنه قال: «القطع في ربع
دينار فصاعداً»، وقال مالك
رحمه الله: تقطع اليد في ربع دينار
أو في ثلاثة دراهم، فإن سرق
درهمين - وهي ربع دينار - لانهطاط
الصرف لم يقطع، وكذلك العروض
لا يقطع فيها إلا أن تبلغ ثلاثة دراهم
قُلِّ الصَّوْفِ أَوْ كَثُرَ، وقال إسحق بن
راهويه، وأحمد بن حنبل: إن كانت
قيمة السلعة ربع دينار أو ثلاثة دراهم
قطع فيهما قُلِّ الصَّوْفِ أَوْ كَثُرَ، وفي

القطع قول رابع وهو أن لا قطع إلا
في خمسة دراهم أو قيمتها، روي
هذا عن عمر، وبه قال سليمان بن
يسار، وابن أبي ليلى، وابن شبرمة،
ومنه قول أنس بن مالك: «قَطَعَ أَبُو
بَكْرٍ فِي مَجْنٍ قِيمَتُهُ خَمْسَةُ دِرَاهِمٍ».
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا حجة في هذا على أن الخمسة
حدٌ.

وقال أبو حنيفة وأصحابه، وعطاء:
لا قطع في أقل من عشرة دراهم،
وقال أبو هريرة: وأبو سعيد
الخدري: لا تقطع اليد في أقل من
أربعة دراهم، وقال عثمان البتي:
تقطع اليد في درهم فما فوقه،
وحكى الطبري أن عبدالله بن الزبير
قطع في درهم، وروي عن
الحسن بن أبي الحسن أنه قال:
تقطع اليد في كل ما له قيمة قُلِّ أَوْ
كَثُرَ عَلَى ظَاهِرِ الْآيَةِ، وقد حكى
الطبري نحوه عن ابن عباس
رضي الله عنهما، وهو قول أهل
الظاهر، وقول الخوارج. وروي عن
الحسن أيضاً أنه قال: تذاكرنا القطع
في كم يكون على عهد زياد فاتفق
رأينا على درهمين، وأكثر العلماء
على أن التوبة لا تُسْقَطُ عَنِ السَّارِقِ
القطع، وروي عن الشافعي أنه إذا
تاب قبل أن يقدر عليه وتمتد إليه يد
الأحكام فإن القطع يسقط عنه قياساً
على المحارب، وجمهور الناس على
أن القطع لا يكون إلا على من أخرج
من حرز. وقال الحسن بن أبي
الحسن: إذا جمع الثياب في البيت
قطع وإن لم يخرجها.

وقوله تعالى: «فَأَقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا»

جمع الأيدي من حيث كان لكل
سارق يمين واحدة وهي المعروضة
للقطع في السرقة أولاً، فجاءت
للسارق أيدٍ وللسارقَاتِ أَيْدٍ، فكأنه
قال: اقطعوا أيمن النوعين، فالثنية
في الضمير إنما هي للنوعين. قال
الزجاج عن بعض النحويين: إنما
جعلت ثنية ما في الإنسان منه واحد
جمعاً كقوله: «صَنَعْتَ قُلُوبِكُمْ» لِأَنَّ
أَكْثَرَ أَعْضَائِهِ فِيهِ مِنْهُ اثْنَانِ، فَحُجِّلَ مَا
كَانَ فِيهِ الْوَاحِدُ عَلَى مِثَالِ ذَلِكَ، قَالَ
أَبُو إِسْحَاقَ: وَحَقِيقَةُ هَذَا الْبَابِ أَنْ مَا
كَانَ فِي الشَّيْءِ مِنْهُ وَاحِدٌ لَمْ يُكُنْ
وَلُفِظَ بِهِ عَلَى لَفْظِ الْجَمْعِ لِأَنَّ
الإضافة تبينه، فإذا قلت: أشبعت
بطونهما - علم أن للثنتين بطنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كأنهم كرهوا تثنتين في كلمة.

واختلف العلماء في ترتيب القطع،
فمذهب مالك رحمه الله، وجمهور
الناس أن تقطع اليمنى من يدي
السارق، ثم - إن عاد - قطعت رجله
اليسرى، ثم - إن عاد - قطعت يده
اليسرى، ثم - إن عاد - قطعت رجله
اليمنى، ثم إن سرق عَزُرَ وحبس،
وقال علي بن أبي طالب رضي الله
عنه، والزهري، وحماد بن أبي
سليمان، وأحمد بن حنبل: تقطع
يده اليمنى، ثم - إن سرق - قطعت
رجله اليسرى، ثم - إن سرق - عَزُرَ
وحبس، وروي عن عطاء بن أبي
رباح: لا تقطع في السرقة إلا اليد
اليمنى فقط، ثم - إن سرق - عَزُرَ
وحبس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا تمسك بظاهر الآية، والقول

شأذ، فيلزم - على ظاهر الآية - أن تقطع اليد ثم اليد، ومذهب جمهور الفقهاء أن القطع في اليد من الرسغ، وفي الرجل من المفضل، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن القطع في اليد من الأصابع، وفي الرجل من نصف القدم.

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ بِنَا كَسَبَا﴾ نصبه على المصدر، وقال الزجاج: مفعول لأجله، وكذلك: ﴿تَكْلًا مِّنَ اللَّهِ﴾. والتَّكَال: العذاب، والتَّكُلُّ: القيد. وسائر معنى الآية بيّن، وفيه عن بعض الأعراب حكاية.

(٣٩) - (٤١) تفسير قوله عز وجل:

المعنى عند جمهور أهل العلم أن من تاب من السرقة فندم على ما مضى، وأقلع في المستأنف، وأصلح - بِرَدِّ الظُّلَامَةِ إِنْ أَمَكْنَهُ ذَلِكَ، وَإِلَّا فَبِإِنْفَاقِهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ - وأصلح أيضاً في سائر أعماله، وارتفع إلى فوق، فإن الله يتوب عليه، ويذهب عنه حكم السرقة فيما بينه وبين الله تعالى، وهو في المشيئة مرجو له الوعد، وليس تسقط عنه التوبة حكم الدنيا من القطع إن اعترف أو شهد عليه. وقال مجاهد: التوبة والإصلاح هي أن يقام عليه الحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تشديد، وقد جعل الله للخروج من الذنوب بابين، أحدهما الحد، والآخر التوبة. وقال الشافعي: إذا تاب السارق، وقبّل أن يتلبس الحاكم بأخذه فتوبته ترفع عنه حكم القطع قياساً على توبة المحارب.

وقوله: ﴿أَلَمْ تَلَمَّ﴾ الآية توقيف وتنبه على العلّة الموجبة لإنفاذ هذه

الأوامر في المحاربين والسرقة، والإخبار بهذا التعذيب لقوم والتوبة على آخرين، وهي ملكة تعالى لجميع الأشياء، فهو بحق الملك، لا معقب لحكمه، ولا معترض عليه.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ، وتقوية لنفسه بسبب ما كان يلقي من طوائف المنافقين وبني إسرائيل، والمعنى: قد وعدناك النصر والظهور عليهم، فلا يحزنك ما يقع منهم خلال بقائهم.

وقرأ بعض القراء: ﴿يَحْزَنُكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي، تقول العرب: «حزن الرجل» بكسر الزاي، و«حزنته» بفتحها. وقرأ بعض القراء: ﴿يُحْزِنُكَ﴾ بضم الياء وكسر الزاي، لأن من العرب من يقول: «أحزنت الرجل» بمعنى: حزنته، وجعلته ذا حزن. وقرأ الناس: ﴿يُسْرِعُونَ﴾، وقرأ الحر النحوي: ﴿يُسْرِعُونَ﴾ دون ألف، ومعنى المسارعة في الكفر: البدار إلى نصره وإقامة حججه، والسعي في إطفاء الإسلام به.

واختلف المفسرون في ترتيب معنى الآية، وفيمن المراد بقوله: ﴿يَأْتُوهُمْ﴾، وفي سبب نزول الآية - فأما سببها فروي عن أبي هريرة رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما، وجماعة أنهم قالوا: نزلت هذه الآيات بسبب الرجم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أن يهودياً زنى بيهودية، وكان في التوراة رجم الزناة، وكان بنو

إسرائيل قد غيروا ذلك، وردّوه جلدأً وتحميم وجوه، لأنهم لم يقيموا الرجم على أشرفهم، وأقاموه على صغارهم في القدر، فاستقبحوا ذلك، وأحدثوا حكماً سوا فيه بين الشريف والمشروف، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة زنى رجل من اليهود بامرأة، فروي أن ذلك كان بالمدينة، وروي أنه كان في غير المدينة في يهود الحجاز، وبعثوا إلى يهود المدينة، وإلى حلفائهم من المنافقين أن يسألوا رسول الله ﷺ عن النازلة، وطمعوا بذلك أن يوافقهم على الجلد والتحميم فيشد أمرهم بذلك، فلما سئل رسول الله ﷺ عن ذلك نهض في جملة من أصحابه إلى بيت المدراس، فجمع الأخبار هنالك، وسألهم عما في التوراة، فقالوا: إنا لا نجد فيها الرجم. فقال رسول الله ﷺ: «إن فيها الرجم، فانشروها»، فنشرت، ووضع أحدهم يده على آية الرجم، فقال عبدالله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده فإذا آية الرجم، فحكم رسول الله ﷺ بالرجم وأنفذه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الحديث اختلاف ألفاظ وروايات كثيرة، منها أنه روي أن رسول الله ﷺ مرّ على يهودي ويهودية زنيا وقد جلدوا وحُما، فقال: «هكذا شرعكم يا معشر يهود؟» فقالوا: نعم، فقال: «لا»، ثم مشى إلى بيت المدراس وفضحهم، وحكم في ذنبيك بالرجم، وقال: «لأكونن أول من

في قوم من اليهود أرادوا سؤال النبي ﷺ في أمر رجل منهم قتل آخر، فكلفوا السؤال رجلاً من المسلمين وقالوا: إن أفتى بالدية قبلنا قوله، وإن أفتى بالقتل لم نقبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو ما تقدم عن قتادة في أمر قتل النضير وقريظة.

وقال عبدالله بن كثير، ومجاهد، وغيرهما: قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَكَرُّوا قُلُوبَهُمْ﴾ يراد به المنافقون، وقوله بعد ذلك: ﴿سَتَكُونُ لِلْكَذِبِ سَكُونًا لِّقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ يراد به اليهود.

وأما ترتيب معنى الآية بحسب هذه الأقوال:

فيحتمل أن يكون المعنى: يأبها الرسول لا يحزنك المسارعون في الكفر من المنافقين واليهود، ويكون قوله: ﴿سَتَكُونُ﴾ خبر ابتداءً مضمراً.

ويحتمل أن يكون المعنى: لا يحزنك المسارعون في الكفر من اليهود، ووصفهم بأنهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَكَرُّوا قُلُوبَهُمْ﴾ إلزاماً منه لهم من حيث حرقوا توراتهم وبدلوا أحكامها. فهم يقولون بأفواههم: نحن مؤمنون بالتوراة وبموسى، وقلوبهم غير مؤمنة، من حيث بدلوها، وحججوا ما فيها من نبوة محمد ﷺ وغير ذلك مما هو كفر منهم. ويؤيد هذا التأويل قوله بعد هذا: ﴿وَمَا أَوْلَيْتُكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾، ويجيء - على هذا التأويل - قوله: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا﴾ كأنه قال: «ومنه»، لكن صرح بذكر اليهود من

يحتاج - مع ظهور دينه - إلى حاجتهم تلك المحاجة؟ وظاهر حديث بيت المدراس أنه كان في صدر الهجرة، اللهم إلا أن يكون ذلك من النبي ﷺ مع عزة كلمته من حيث أراد أن يخرج حكمهم من أيدي أخبارهم بالحجة عليهم من كتابهم، فلذلك مشى إلى بيت مدراسهم مع قدرته عليهم، وهذا عندي يبعد، لأنهم لم يكونوا ذلك الوقت يخزئونه، ولا كانت له حال يسئى عنها ﷺ.

وأما اختلاف الناس فيمن المراد بقوله: ﴿الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَقْوَابِهِمْ وَكَرُّوا قُلُوبَهُمْ﴾ - فقال السدي: نزلت في رجل من الأنصار زعموا أنه أبو لبابة بن عبد المنذر أشارت إليه قريظة يوم حصرهم: ما الأمر؟ وعلام تنزل من الحكم؟ فأشار إلى حلقه بمعنى أنه الذبح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وأبو لبابة من فضلاء الصحابة، وهو وإن كان أشار بتلك الإشارة فلأنه قال: «فوالله ما زالت قدمي حتى علمت أنني خنت الله ورسوله»، ثم جاء إلى مسجد النبي ﷺ، فربط نفسه بسارية من سواري المسجد، وأقسم ألا يبرح كذلك حتى يتوب الله عليه، ويرضى رسول الله ﷺ عنه، فإنما كانت تلك الإشارة منه زلة حمله عليها إشفاقاً ما على قوم كانت بينه وبينهم مودة ومشاركة قديمة، رضي الله عنه وعن جميع الصحابة.

وقال الشعبي وغيره: نزلت الآية

أحيا حكم التوراة حين أماتوه. وروي أن الزائنين لم يكونوا بالمدينة، وأن يهود فدك هم الذين قالوا ليهود المدينة: استفتوا محمداً، فإن أفتاكم بما نحن عليه من الجلد والتجنية فخذوه، وإن أفتاكم بالرجم، قاله الشعبي وغيره، وقال قتادة بن دعامة وغيره: سبب الآية وذكر اليهود أن بني النضير كانوا غزوا بني قريظة، فكان النضري إذا قتل قرظي قتل به، وإذا قتل نضري قرظياً أعطى الدية. وقيل: كانت دية القرظي على نصف دية النضري، فلما جاء النبي ﷺ المدينة طلبت قريظة الاستواء، إذ هم أبناء عم يرجعان إلى جد، وطلبت الحكومة إلى رسول الله ﷺ، فقالت النضير بعضها لبعض: إن حكم بما كنا عليه فخذوه وإلا فاحذروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه النوازل كلها وقعت، ووقع غيرها مما يضارعها ويحسن أن يكون سبباً لفضيحة اليهود في تحريفهم الكلم وتحرشهم بالدين، والروايات في هذا كثيرة ومختلفة.

وقد وقع في بعض الطرق في حديث أبي هريرة أنه قال في قصة الرجم: «فقام رسول الله ﷺ إلى بيت مدراسهم وقمنا معه»، وهذا يقتضي أن الأمر كان في آخر مدة النبي ﷺ، لأن أبا هريرة أسلم عام خيبر في آخر سنة ست من الهجرة، وقد كانت النضير أجليت وقريظ وقريش قتلت، واليهود بالمدينة لا شيء، فكيف كان لهم بيت مدراس في ذلك الوقت؟ أو إن كان لهم بيت على حال ذلّة فهل كان النبي ﷺ

حيث الطائفة السماعية غير الطائفة التي تبدل التوراة على علم منها.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَمْعُونَ﴾، وقرأ النحاس: ﴿سَمَاعِينَ﴾، ووجهها عندي نصب على الذم على ترتيب من يقول: لا يحزنك

المسارعون من هؤلاء سماعين، وأما المعنى في قوله: ﴿سَمْعُونَ

لِلْكَذِبِ﴾ فيحتمل أن يكون صفة للمنافقين ولبنی إسرائيل، لأن جميعهم يسمع الكذب بعضهم من بعض ويقبلونه، ولذلك جاءت عبارة

سماعهم في صيغة المبالغة، إذ المراد أنهم يقبلون ويستزيدون من ذلك المسموع، وقوله تعالى:

﴿لِلْكَذِبِ﴾ يحتمل أن يريد: سماعون للكذب، ويحتمل أن يريد:

سماعون منك أقوالك من أجل أن يكونوا عليك، وينقلوا حديثك،

ويزيدوا مع الكلمة أضعاها كذباً. وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر:

﴿لِلْكَذِبِ﴾ بكسر الكاف وسكون الهمزة. والذال.

وقوله تعالى: ﴿سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾ يحتمل أن يريد: يسمعون منهم، وذكر الطبري عن جابر أن

المراد بالقوم الآخرين يهود فداك، وقيل: يهود خيبر، وقيل: أهل

الزانيين، وقيل: أهل الخصام في القتل والدية. وهؤلاء القوم الآخرون

هم الموصوفون بأنهم لم يأتوا النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون

بمعنى: ﴿سَمْعُونَ لِقَوْمٍ﴾ بمعنى جواسيس مُسْتَرْقِنِينَ للكلام لينقلوه

لقوم آخرين، وهذا مما يمكن أن يتصف به المنافقون ويهود المدينة.

وقيل لسفيان بن عيينة: هل جرى للجاسوس ذكر

في كتاب الله عز وجل؟ فقال: نعم، وتلا هذه

الآية: ﴿سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ﴾.

٤١ - ٤٢ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿الْكَذِبِ﴾ بفتح الكاف

وكسر اللام، وقرأ بعض الناس: ﴿الْكَلِمِ﴾ بكسر

الكاف وسكون اللام، وهي لغة ضعيفة في

(كلمة). وقوله تعالى: ﴿بِمَعْرُوفٍ

الْكَلِمِ﴾ صفة لليهود فيما

حرفوا من التوراة، إذ ذاك أخطر أمر

حرفوا فيه، ويحتمل أن يكون صفة لهم وللمنافقين فيما يحرفون من

الأقوال عند كذبهم، لأن مبادئهم كذبهم لا بُدَّ أن تكون من أشياء

قيلت أو فعلت، وهذا هو الكذب المُزَيَّن الذي يُقَرَّبُ بقوله. وأما

الكذب الذي لا يُزَفد بمبدأ فقليل الأثر في النفوس.

وقوله: ﴿مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ﴾ أي: من بعد أن وضع مواضعه وقصدت

به وجوهه القويمة، والإشارة بهذا - قيل: هي إلى التخميم والجلد في الزنى. وقيل: هي إلى قبول الدية

في أمر القتل، وقيل: إلى إبقاء عزة النضير على قريظة، وهذا بحسب

الخلاف المتقدم في الآية. ثم قال تعالى لِيُنَبِّهَ عَلَى جِهَةِ قَطْعِ الرَّجَاءِ فِيهِمْ: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ

سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ أَكْثَرُونَ لِلسَّخْتِ فَإِنْ جَاءَكَ مِنْ أَهْلِكَ بِبُيُوتٍ مَبْنُوعَةٍ فَإِنْ تَوَلَّاهَا فَأُولَئِكَ سَمْعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ ﴿٤١﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الَّتِي نُنزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَظُوهَا وَتُحْيِيهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَعَلَّكَ تَفْهَمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الَّتِي نُنزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَظُوهَا وَتُحْيِيهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَعَلَّكَ تَفْهَمُ ﴿٤٣﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الَّتِي نُنزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَظُوهَا وَتُحْيِيهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَعَلَّكَ تَفْهَمُ ﴿٤٤﴾ وَتِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ الَّتِي نُنزِّلُهَا عَلَيْكَ لَعَلَّ لَكَ تَحْفَظُوهَا وَتُحْيِيهَا لِلَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنزَلْنَا الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَعَلَّكَ تَفْهَمُ ﴿٤٥﴾

فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنْ اللَّهِ شَيْئاً، أَي: لا تُنصِفُ نَفْسَكَ أَمْرَهُمْ، والفتنة

هنا: المحنة بالكفر والتعذيب في الآخرة، ثم أخبر تعالى عنهم أنهم

الذين سبق لهم في علم الله ألا يطهر قلوبهم، وأن يكونوا مُدْتَسِّينَ بالكفر،

ثم قرر تعالى لهم الخزي في الدنيا، والمعنى: بالذلة والمسكنة التي

انضربت عليهم في أقطار الأرض، وفي كل أمة، وقرر لهم العذاب في الآخرة بكفرهم.

وقوله: ﴿سَمْعُونَ لِلْكَذِبِ﴾، إن كان الأول في بني إسرائيل فهذا

تكرار تأكيد ومبالغة، وإن كان الأول في المنافقين فهذا خبر أيضاً عن بني

إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿أَكْثَرُونَ لِلسَّخْتِ﴾ فقالون بناءً مبالغة، أي: يتكرر أكلهم

له ويكثر. والسخت: كل ما لا يحل له ويكثر.

كسبه من المال. وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحزمة: ﴿السُّحْتُ﴾ ساكنة الحاء خفيفة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿السُّحْتُ﴾ مضمومة الحاء مثقلة، وروي عن خارجة بن مصعب عن نافع: ﴿السُّحْتُ﴾ بكسر السين وسكون الحاء، واللفظة مأخوذة من قولهم: سَحَتَ وَأَسَحَتَ: إذا استأصل وأذهب، فمن الثلاثي قوله تعالى: ﴿فَسَجِّتْكَ بِمَدَائِبِ﴾. ومن الرباعي قول الفرزدق:

... إلَّا مُسَحَّتًا أَوْ مُجَلَّفَ
والسُّحْتُ والسُّحْتُ - بضم السين وتخفيف الحاءٍ وتثقيلها: لغتان في اسم الشيء المسحوت. والسُّحْتُ - بفتح السين وسكون الحاء: المصدر، سُمِّيَ به المسحوت، كما سُمِّيَ المصيد صيداً في قوله عز وجل: ﴿لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ﴾، وكما سُمِّيَ المرهون رهناً، وهذا كثير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فسمي المال الحرام سحاً لأنه يذهب وتستأصله النوب، كما قال عليه السلام: «من جمع مالاً من مهاوش أذهب الله في نهاير»، وقال مكِّي: سمي المال الحرام سحاً لأنه يذهب من حيث يسحت الطاعات، أي: يذهب بها قليلاً قليلاً، وقال المهدي: من حيث يسحت أديانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود، لأن السيئات لا تحيط بالحسنات، اللهم إلَّا أن يقدر أنه

يشغل عن الطاعات، فهو سحتها من حيث لا تعمل، وأما طاعةٌ حاصلة فلا يقال هذا فيها، وقال المهدي: سمي أجر الحجاج سحاً لأنه يسحت مِرْوَةَ أخذه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أشبه.

قال الطبري: أصل السحت كَلْبُ الجوع، يقال: فلان مسحوت المعدة إذا كان لا يُلْفَى أبداً إلا جائعاً يذهب ما في معدته، فكان الذي يرتشي به من الشره مثل ما بالجائع أبداً لا يشبع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك بأن الرشوة تنسحت، فالمعنى هو كما قدمناه، وفي عبارة الطبري بعض اضطراب، لأن مسحوت المعدة هو مأخوذ من الاستئصال والذهاب، وليس كَلْبُ الغرث أصلاً للسحت. والسحت الذي عني أن اليهود يأكلونه هو الرشاش في الأحكام، والأوقاف التي تؤكل ويُرفد أكلها بقول الأباطيل وخدع العامة ونحو هذا.

وقال أبو هريرة، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَهْرُ البغي سُحْتٌ، وَعَسْبُ الفح سُحْتٌ، وكَسْبُ الحجاج سُحْتٌ، وثمن الكَلْبِ والخمر سحت. وقال ابن مسعود: السحت أن يهدي لك من قد أعنته في حاجته أو حقه فَنُقْبَلُ، قيل لعبدالله: ما كنا نَعُدُّ السحت إلا الرشوة في الحكم، قال: ذلك الكفر، وقد روي عن ابن مسعود، وجماعة كثيرة أن السحت هو الرشوة في الحكم، وروي عن النبي ﷺ أنه

قال: «كل لحم نَبَت من سحت فالنار أولى به»، قيل: يا رسول الله، ما السحت؟ قال: «الرشوة في الحكم». قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل ما ذكر في معنى السحت فهو أمثلة، ومن أعظمها الرشوة في الحكم، والأجرة على قتل النفس، وهو لفظ يعم كل كسب لا يحل.

وقوله تعالى: ﴿إِن جَاءَكَ فَاعْتَمِدْ عَلَيْهِمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ تخيير للنبي ﷺ، ولحكام أمته بعده في أن يحكم بينهم إذا تراضوا في نوازلهم. وقال عكرمة، والحسن: هذا التخيير منسوخ بقوله: ﴿وَأَنَّ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾. وقال ابن عباس، ومجاهد: نُسخ من (المائدة) آيتان، قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾، نسختها آية السيف، وقوله: ﴿أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، نسختها: ﴿وَأَنَّ أَحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال كثير من العلماء: هي محكمة، وتخيير الحكام باق، وهذا هو الأظهر إن شاء الله.

وقفه هذه الآية أن الأمة فيما علمت مجمعة على أن حاكم المسلمين يحكم بين أهل الذمة في التظالم، ويتسلط عليهم في تغييره، وينتقز عن صورته كيف وقع فيغير ذلك، ومن التظالم حبس السلع المبيعة، وغضب المال، وغير ذلك. فأما نوازل الأحكام التي لا ظلم فيها من أحدهم للآخر، وإنما هي دعاوي محتملة، وطلب ما يحل وما لا يحل، وطلب المخرج من الإثم في الآخرة، فهذه هي التي الحاكم فيها

مُخَيَّر، وإذا رضي به الخصمان فلا بد مع ذلك من رضی الأساقفة أو الأخبار، قاله ابن القاسم في العتبية. قال: وأما إن رضي الأساقفة دون الخصمين، أو الخصمان دون الأساقفة، فليس له أن يحكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وانظر إن رضي الأساقفة لأشكال النوازل عندهم دون أن يرضى الخصمان، فإنها تحتل الخلاف، وانظر إذا رضي الخصمان ولم يقع من الأخبار تكيير فحكّم الحاكم، ثم أراد الأخبار ردّ ذلك الحكم، وهل تستوي النوازل في هذا، كالرجم في زانيتين، والقضاء في مال يصير من أحدهما إلى الآخر؟ وانظر إذا رضي الخصمان هل على الحاكم أن يستعلم ما عند الأخبار، أو يقنع بأن لم تقع منهم معارضة؟ ومالك رحمه الله يستحب لحاكم المسلمين الإعراض عنهم وتركهم إلى دينهم. وقال ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: قوله تعالى: ﴿فَإِنْ جَاءَكَوَكْ﴾ يعني أهل نازلة الزانيتين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم الآية بعد تتناول سائر النوازل، والله أعلم.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

أَمَّنَ اللهُ تَعَالَى نَبِيَهُ ﷺ مِنْ ضَرَرِهِمْ إِذَا أَعْرَضَ عَنْهُمْ، وَحَقَّرَ فِي ذَلِكَ شَأْنَهُمْ، وَالْمَعْنَى: إِنَّكَ مَنْصُورٌ ظَاهِرُ الْأَمْرِ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَهَذَا نَحْوُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى لِلْمُؤْمِنِينَ: ﴿لَنْ يَضُرَّوَكُمْ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ﴾ أي: اخترت أن تحكم بينهم في

نازلة ما، ﴿فَأَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل، يقال: أَسْطَ الرجل: إذا عدل وحكم بالحق، وقَسَطَ: إذا جار، ومنه قوله: ﴿رَأَى الْقَلِيظُونَ فَكَأَوْا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾، ومحبة الله للمقسطين ما يظهر عليهم من نعمة.

ثم ذكر الله تعالى بعد تحكيمهم للنبي ﷺ بالإخلاص منهم، وبين بالقياس الصحيح أنهم لا يحكمونه إلا رغبة في ميله في هواهم، وانحطاطه في شهواتهم، وذلك أنه قال: ﴿وَكَيْفَ يُحْكَمُوَكْ﴾ بيئية صادقة وهم قد خالفوا حكم الكتاب الذي يصدقون به، وبنوة الآتي به، وتولوا عن حكم الله فيهما؟ فأنت الذي لا يؤمنون بك، ولا يصدقونك، أخرى بأن يخالفوا حكمك. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ بَدَدْتَ ذَلِكَ﴾ أي: من بعد حكم الله في التوراة في الرجم، وما أشبهه من الأمور التي خالفوا فيها أمر الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَوْلَيْكَ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ يعني بالتوراة وموسى، وهذا إلزام لهم، لأن من خالف حكم كتاب الله فدعواه الإيمان به قلقة. وهذه الآية تقوي أن قوله في صدر الآية: ﴿وَإِنْ أَلَّيْتَ قَالُوا ءَأَمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ نُؤْمِن قُلُوبُهُمْ﴾ أنه يراد به اليهود.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ﴾ الآية - قال قتادة: ذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يقول - لما أنزلت هذه الآية -: «نحن اليوم نحكم على اليهود وعلى من سواهم من أهل الأديان» والهدى: الإرشاد في المعتقد والشرائع، والنور: ما يستضاء به من أوامرها ونواهيها، و

﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الذين أسلموا﴾ هم من بُعث من لدن موسى بن عمران إلى مدة محمد ﷺ، هذان طرفا هذه الجماعة المذكورة في هذه الآية، و﴿أسلموا﴾ معناه: أخلصوا وجوههم ومقاصدهم لله تعالى. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هَادُوا﴾ متعلق ب﴿تَحْكَمُ﴾، أي: يحكمون بمقتضى التوراة لبني إسرائيل وعليهم، وقوله تعالى: ﴿وَالرَّيْبِيِّونَ﴾ عطف على ﴿الَّذِينَ﴾، أي: ويحكم بها الربانيون، وهم العلماء. وفي البخاري قال: الرباني: الذي يُرَبِّي الناس بصغار العلم قبل كباره. وقيل: الرباني: منسوب إلى الرب، أي: عنده العلم به ودينه، وزيدت النون في (رباني) مبالغة، كما قالوا: منظراني، ومُخَبَّراني، وفي العظيم الرقية: رقباني. والأخبار أيضاً: العلماء، واحدهم جبر بكسر الحاء، ويقال: بفتحها، وكثر استعمال الفتح فيه للفرق بينه وبين الحبر الذي يكتب به. وقال السدي: المراد - هنا - بالربانيين والأخبار الذي يحكمون بالتوراة: ابنا سوريا، كان أحدهم ربانياً، والآخر حبراً، وكانا قد أعطيا النبي ﷺ عهداً ألا يسألها عن شيء من أمر التوراة إلا أخبراه به، فسألها عن آية الرجم فأخبراه به على وجهه، فنزلت الآية مشيرة إليهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، والرواية الصحيحة أن ابني سوريا وغيرهم جحدوا أمر الرجم، وفضحهم فيه عبدالله بن سلام، وإنما اللفظ عام في كل حبر

مستقيم فيما مضى من الزمان. وأما في مدة محمد ﷺ فلو وجد لأسلم، فلم يَسْمَ حبراً ولا ربانياً.

وقوله تعالى: ﴿يَمَا اسْتَحْفَظُوا﴾ أي: بسبب استحفاظ الله تعالى إياهم أمر التوراة، وأخذ العهد عليهم في العمل والقول بها، وعرفهم ما فيها فصاروا شهادة عليه. وهؤلاء ضِيمُوا لما استَحْفَظُوا حتى تبدلت التوراة، والقرآن بخلاف هذا لقوله تعالى: ﴿وَأِنَّا لَهُمْ لَحَافِظُونَ﴾، والحمد لله، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ وَآخِذُوا بِحُبَايَا مَا قِيلَ لِعُلَمَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تَشْرَبُوا بِإِنِّي مَنَّا قَلِيلًا﴾ نهي عن جميع المكاسب الخبيثة بالعلم، والتَّحِيلُ للدنيا بالدين، وهذا المعنى بعينه يتناول علماء هذه الأمة وحكامها، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ﴾ إلى آخر الآية خطاباً لأمة محمد ﷺ.

واختلف العلماء في المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ :-

فقال جماعة: المراد اليهودُ - [الكافرين - والظالمين - والفاسقين] وروى في هذا حديث عن النبي ﷺ من طريق البراء ابن عازب.

وقالت جماعة عظيمة من أهل العلم: الآية متناولة كل من لم يحكم بما أنزل الله، ولكنه في أمراء هذه الأمة كفر معصية لا يُخرجهم عن الإيمان.

وقيل لحذيفة بن اليمان: أنزلت هذه الآية في بني إسرائيل؟ فقال: نعم الإخوة لكم بنو إسرائيل، إن

كان لكم كل حلوة، ولهم كل مُرَّة، لتسلكن طريقهم قدر الشراك.

وقال الشعبي: نزلت: [الكافرون] في المسلمين، و [الظالمون] في اليهود، و [الفاسقون] في النصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا أعلم لهذا التخصيص وجهاً، إلا إذا صح فيه حديث عن النبي ﷺ، إلا أنه راعى من ذكر مع كل خير من هذه الثلاثة، فلا يترتب له ما ذكر في المسلمين إلا على أنهم خوطبوا بقوله: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّكَاسَ﴾.

وقال إبراهيم السُّخمي: نزلت هذه الآيات في بني إسرائيل، ثم رضي لهذه الأمة بها.

﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

الكتب في هذه الآية هو حقيقة كتب في الألواح، وهو بالمعنى كتب فَرَضَ وإلزام. والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لبني إسرائيل، وفي ﴿فِيهَا﴾ للتوراة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمر، وابن عامر: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ بنصب [النفس] على اسم [أَنْ]، وعطف ما بعد ذلك منصوباً على [النفس]، ويرفعون ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ على أنها جملة مقطوعة.

وقرأ نافع وحزمة، وعاصم بنصب ذلك كله، و ﴿قِصَاصٌ﴾ خبر [أَنْ]، وروى الواقدي عن نافع أنه رفع ﴿وَالْجُرُوحُ﴾، وقرأ الكسائي ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ نصباً، ورفع ما بعد ذلك، فمن نصب ﴿وَالْمَيْتَ﴾ جعل عطف الواو مشركاً في عمل [أَنْ]، ولم يقطع الكلام ممّا قبله، ومن رفع ﴿وَالْمَيْتَ﴾ فيتمثل ذلك من الإعراب أن يكون قطع ممّا قبل، وصار

عطف الواو عطف جملة كلام، لا عطف تشريك في عامل، ويحتمل أن تكون الواو عاطفة على المعنى، لأن معنى قوله: ﴿وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ قلنا لهم: النفس بالنفس، ومثله: لما كان المعنى في قوله: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ بِأَكْرَابٍ وَأَبْرَارٍ وَكُؤُوبٍ مِّن مِّمِينَ ﴿...﴾ يُمْتَحَنُونَ كَأْساً مِن مَّعِينٍ - عطف ﴿وَحُوراً عِيناً﴾ على ذلك، وهذا على قراءة، ﴿وَحُوراً عِيناً﴾ بالنصب - ويحتمل أن يعطف قوله: ﴿وَالْمَيْتَ﴾ على الذكر المستتر في الطرق الذي هو الخير، وإن لم يؤكّد المعطوف عليه بالضمير المنفصل كما أكد في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرْتَكِبُ هُوَ وَفِيْلَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَرْوَاهُمْ﴾، وقد جاء مثله غير مؤكّد في قوله تعالى: ﴿مَا أَنتَرَكْنَا وَلَا مَا بَأْتُنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولسببويه رحمه الله في هذه الآية أن العطف ساغ دون توكيد بضمير منفصل، لأن الكلام طال بـ [لَا] في قوله ﴿وَلَا مَا بَأْتُنَا﴾، فكانت [لَا] عوضاً من التوكيد، كما طال الكلام في قولهم: «حضر القاضي اليوم امرأة»، قال أبو علي: وهذا يستقيم أن يكون عوضاً إذا وقع قبل حرف العطف، فهناك يكون عوضاً من الضمير الواقع قبل حرف العطف، فأما إذا وقع بعد حرف العطف فلا يَسُدُّ مَسَدَ الضمير، ألا ترى أنك لو قلت: «حضر امرأة القاضي اليوم» لم يُغْنِ طول الكلام في غير الموضع الذي ينبغي أن يقع فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قوله: ﴿لَهُ﴾ عليه أيضاً، ويكون المعنى: إن من تصدق بجرحه أو دم وليه فعفا عن حقه في ذلك، فإن ذلك العفو كفارة له عن ذنوبه، ويعظم الله أجره بذلك ويكفر عنه، وقال بهذا التأويل عبدالله بن عمر، وجابر بن زيد، وأبو الدرداء، وذكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما من مسلم يُصاب بشيء من جسده فيهبه إلا رفعه الله بذلك درجة، وحط عنه خطيئته». وذكر مكي حديثاً من طريق الشعبي أنه يحط من ذنوبه بقدر ما عفا من الذنبة، والله أعلم، وقال به أيضاً قتادة، والحسن.

والمعنى الثاني أن تكون [مَنْ] للمجرور أو ولي القتل، والضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود على الجارح أو القاتل إذا تصدق المجرور على الجارح بجرحه وصفح عنه، فذلك العفو كفارة للجارح عن ذلك الذنب، فكما أن القصاص كفارة، فكذلك العفو كفارة، وأما أجر العافي فعلى الله تعالى، وعاد الضمير على مَنْ لم يتقدم له ذكر لأن المعنى يقتضيه، قال بهذا التأويل ابن عباس، وأبو إسحق السبيعي، ومجاهد، وإبراهيم، وعامر الشعبي، وزيد بن أسلم.

والمعنى الثالث أن تكون [مَنْ] للمجارح أو القاتل، والضمير في ﴿لَهُ﴾ يعود عليه أيضاً، والمعنى: إذا جنى جان فجهل وخفي أمره، فتصدق هو بأن عرّف بذلك ومكّن الحق من نفسه فذلك الفعل كفارة لذنبه، وذهب القائلون بهذا التأويل إلى الاحتجاج بأن مجاهد قال: إذا

الحديث عن النبي ﷺ: «لا يقتل مسلم بكافر»، وقال ابن عباس رضي الله عنه: رخص الله لهذه الأمة ووسع عليها بالذية، ولم يجعل لبني إسرائيل دية فيما نزل على موسى وكتب عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه الآية بيان لفساد فعل بني إسرائيل في تعزز بعضهم على بعض، وكون بني النضير على الضعف في الذية من بني قريظة، أو على ألا يقاد بينهم، بل يُقنع بالذية، ففضحهم الله بهذه الآية، وأعلم أنهم خالفوا كتابهم. وحكى الطبري عن ابن عباس: كان بين حيين من الأنصار قتال فصارت بينهم قتلى، وكان لأحدهما طول على الآخر، فجاء النبي ﷺ فجعل الحر بالحر، والعبد بالعبد، قال الثوري: وبلغني عن ابن عباس أنه قال: ثم نسختها النفس بالنفس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَلْجُرُوحُ فِصَاصٌ﴾ هو عموم يراد به الخصوص في جراح القود، وهي التي لا يخاف منها على النفس. وأما ما خيف منه كالمأومة وكسر الفخذ ونحو ذلك فلا قصاص فيها، والقصاص مأخوذ من قص الأثر، وهو اتباعه، فكان الجاني يقتص أثره، ويُتبع فيما سئمه، فيقتل كما قتل.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَّهُ﴾ يحتل ثلاثة معان - أحدها: أن تكون [مَنْ] للمجرور أو ولي القتل، ويعود الضمير في

وكلام سيبويه متجه على النظر النحوي، وإن كان الطول قبل حرف العطف أم، فإنه بعد حرف العطف مؤثر، لا سيما في هذه الآية، لأن [لا] ربطت المعنى، إذ قد تقدمها نفي، ونفت هي أيضاً عن الآباء، فتمكن العطف. قال أبو علي: ومن رفع ﴿وَالْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ فقطعه مما قبله، فإن ذلك يحتمل هذه الوجوه الثلاثة التي احتملها رفع ﴿وَالْعَيْنُ﴾. ويجوز أن يُستأنف: ﴿وَالْجُرُوحُ﴾ ليس على أنه مما كُتب عليهم في التوراة، ولكن على استئناف إيجاب وابتداء شريعة، ويُقوي أنه من المكتوب عليهم نصب من نصبه. ورَوَى أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿أَنْ النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ بتخفيف [أَنْ] ورفع [النفس]، ثم رفع ما بعدها إلى آخر الآية، وقرأ أبي بن كعب بنصب ﴿النفس﴾ وما بعدها، ثم قرأ: ﴿وَأَنْ الْجُرُوحُ قِصَاصٌ﴾ بزيادة (أَنْ) الخفيفة، ورفع [الجروح].

ومعنى هذه الآية الخبر بأن الله تعالى كتب فرضاً على بني إسرائيل أنه من قتل نفساً فيجب في ذلك أخذ نفسه، ثم هذه الأعضاء المذكورة كذلك، ثم استمر هذا الحكم في هذه الأمة بما علم من شرع النبي ﷺ وأحكامه، ومضى عليه إجماع الناس.

وذهب قوم من العلماء إلى تعميم قوله: ﴿النَّفْسُ بِالنَّفْسِ﴾ فقتلوا الحر بالعبد، والمسلم بالذمي، والجمهور على أنه عموم يراد به الخصوص في المتماثلين، وهذا مذهب مالك، وفيه

وفي هذا قلق من جهة اتساق المعاني.

وقرأ الناس: ﴿وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةٌ﴾ بالثُضْبِ، وذلك عطف على «مصدق»، وقرأ الضحاك: ﴿وَهْدَىٰ وَمَوْعِظَةٌ﴾ بالرفع، وذلك متجه، وخص المتقون بالذكر لأنهم المقصود به في علم الله، وإن كان الجميع يُدعى وُوعِظَ، ولكن ذلك على غير المتقين عمى وحيرة.

وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَأَنْ لِيُخَيِّكُمْ﴾ بزيادة «أن»، وقرأ حمزة: ﴿وَلِيُخَيِّكُمْ﴾ بكسر اللام وفتح الميم على لام (كي) ونصب الفعل بها، والمعنى: وآتيناه الإنجيل ليتضمن الهدى والنور والتصديق ليحكم أهله بما أنزل الله فيه، وقرأ باقي السبعة: ﴿وَلِيُخَيِّكُمْ﴾ بسكون اللام التي هي لام الأمر، وجزم الفعل، ومعنى أمره لهم بالحكم أي: هكذا يجب عليهم، وحسن عقب ذلك التوقيف على وعيد من خالف ما أنزل الله، ومن القراء من يكسر لام الأمر ويجزم الفعل، وقد تقدم نظير هذه الآية، وتقريره هذه الصفات لمن لم يحكم بما أنزل الله هو على جهة التأكيد، وأصوب ما يقال فيها أنها نعم كل مؤمن وكل كافر، فيجيء كل ذلك في الكافر على أتم وجوه، وفي المؤمن على معنى كفر المعصية وظلمها ونفسها.

وأخبر تعالى بَعْدُ بنزول هذا القرآن، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل أن يريد: مضمناً للحقائق من الأمور، فكأنه نزل بها، ويحتمل أن يريد أنه أنزله بأن حق ذلك، لا أنه وجب

وقد تقدم القول على قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ﴾ الآية. وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿وَمَنْ يَتَصَدَّقْ بِهِ فَإِنَّهُ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾.

١١٦ - تفسير قوله عز وجل:

فَقَيْنَا تَشْبِيهًا، كأن مجيء عيسى كان في قضاء مجيء النبيين وذهابهم، والضمير في «آئتهم» للنبيين المذكورين في قوله: ﴿يُخَيِّكُمْ بِمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، حال مؤكدة، و«التَّورَةَ» بين يدي

عيسى لأنها جاءت قبله كما أن رسول الله ﷺ بين يدي الساعة. وقد تقدم القول في هذا المعنى في غير موضع.

و«الْإِنْجِيلَ» اسم أعجمي ذهب به مذهب الاشتقاق، من نَجَل إذا استخرج وأظهر، والناس على قراءته بكسر الهمزة إلا الحسن بن أبي الحسن فإنه قرأ «الْأَنْجِيلَ» بفتح الهمزة، وقد تقدم القول على ذلك في أول سورة آل عمران.

والهدى: الإرشاد والدعاء إلى توحيد الله وإحياء أحكامه. والنور: ما فيه مما يستضاء به، و«مُصَدِّقًا» حال مؤكدة معطوفة علي موضع الجملة التي هي: ﴿بِهِ هُدًى﴾ فإنها جملة في موضع الحال، وقال مكي وغيره: «مُصَدِّقًا» معطوف على الأول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَقَيْنَا عَلَيَّ آتَاهُمْ يَعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَمَأْتِينَهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّورَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١١٦﴾ وَيَحْكُمُ أَهْلَ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفٰسِقُونَ ﴿١١٧﴾ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّئًا عَلَيْهِ فَاحِشَكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ بَشِيرَةً وَمِنْهَا لِمَا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لَسَبَلُوكُمْ فِي مَا مَا أَنزَلْنَا فَأَسْتَفْتُوا الْخَبِرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعَكُمْ جِيئًا فَيُخَيِّكُمْ بِمَا كُتِبَ فِيهِ فَتَقْلُقُونَ ﴿١١٨﴾ وَأَنْ أَحْكَمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتُرُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّمَا يُعِيبُهُمْ بِبَعْضِ دُخُورِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفٰسِقُونَ ﴿١١٩﴾ فَحْكُمُوا الْجَاهِلِيَةَ يَتَّبِعُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٢٠﴾

أصاب رجل رجلاً ولم يعلم المصاب من أصابه فاعترف له المصيبُ فهو كفارة للمصيب، وروي أن عروة بن الزبير أصاب عين إنسان عند الركن وهم يستلمون، فلم يدر المصاب من أصابه، فقال له: عروة: أنا أصبتك، وأنا عروة بن الزبير، فإن كان عينك بأس فانا بها. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وانظر أن «تَصَدَّقَ» - على هذا التأويل - يحتمل أن يكون من الصدقة، ومن الصدق.

وذكر مكي بن أبي طالب أن قوماً تأولوا الآية أن المعنى: والجروح قصاص، فمن أعطى ذبّة الجرح وتصدق بذلك فهو كفارة له إذا رضيت منه وقبلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل قلق.

﴿مُصَدَّقًا - وَمُهَيَّمًا﴾ حالين من الكاف في ﴿إِلَيْكَ﴾، ولا يخص ذلك قراءة مجاهد وحده كما زعم مكي.

﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال بعض العلماء: هذه ناسخة لقول: ﴿وَأَرْعَضَ عَنْهُمْ﴾، وقد تقدم ذكر ذلك. وقال الجمهور: إنه ليس بنسخ، وإن المعنى: فإن اخترت أن تحكم فاحكم بينهم بما أنزل الله.

ثم حذر تعالى نبيه من اتباع أهوائهم، أي: شهواتهم وإرادتهم التي هي هوى ورسول للنفس، والنفس أمارة بالسوء، فهوها مُرَدُّ لا محالة، وحسن هنا دخول (عن) في قوله: ﴿عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ لما كان الكلام بمعنى: لا تتصرف أو لا تزحزح بحسب أهوائهم عما جاءك.

واختلف المتأولون في معنى قوله عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ بَرَكَةً وَبَيْنَهُمَا﴾ - فقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقتادة، وجمهور المتكلمين: المعنى: لكل أمة منكم جعلنا شرعةً ومنهاجاً، أي: لليهود شرعةً ومنهاجاً، وللنصارى كذلك، وللمسلمين كذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندهم في الأحكام، وأما في المعتقد فالدين واحد لجميع العالم، توحيد وإيمان بالبعث وتصديق للرسول، وقد ذكر الله تعالى في كتابه عدداً من الأنبياء شراعتهم مختلفة، ثم قال لنبيه ﷺ: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبَدَّلَهُمْ أَفْتِدَةً﴾، فهذا عن العلماء في المعتقدات فقط، فأما في الشرائع فهذه الآية هي القاضية فيها: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ بَرَكَةً وَبَيْنَهُمَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وغلط الطبري رحمه الله في هذه اللفظة على مجاهد، فإنه فسر تأويله على قراءة الناس: ﴿وَمُهَيَّمًا﴾ بكسر الميم الثانية فبعد التأويل، ومجاهد رحمه الله إنما يقرأ هو وابن محيصن: ﴿مُهَيَّمَنَا عَلَيْهِ﴾ بفتح الميم الثانية، فهو بناء اسم المفعول، وهو حال من الكتاب معطوفة على قوله: ﴿مُصَدَّقًا﴾، وعلى هذا يتجه أن المؤتمن عليه هو محمد ﷺ، و﴿عَلَيْهِ﴾ في موضع رفع على تقدير أنها مفعول لم يُسم فاعله، هذا على قراءة مجاهد، وكذلك مشى مكي رحمه الله وتوغل في طريق الطبري في هذا الموضع، قال أبو العباس محمد بن يزيد المبرد رحمه الله: مُهَيَّمَنَ أصله: مُؤَيَّمَن - من أمين - أبدلت همزته هاء، كما قالوا: أرفقت السماء وهرقته، قال الزجاج: وهذا حسنٌ على طريق العربية، وهو موافق لما جاء في التفسير من أن معنى مهيمن: مؤتمن. وحكى ابن قتيبة هذا الذي قاله المبرد في بعض كتبه، فحكى النقاش أن ذلك بلغ ثعلباً فقال: «إن ما قال ابن قتيبة رديء»، وقال: هذا باطل، والثوب على القرآن شديد، وهو ما سمع الحديث من قوي ولا ضعيف، وإنما جمع الكتب. انتهى كلام ثعلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال من مهيمن: هَيَّمَنَ الرجلُ على الشيء، إذا حفظه وحاطه وصار قائماً عليه أميناً، ويحتمل أن يكون

على الله، ولكن حق في نفسه، وأنزله تعالى صلاحاً لعباده، وقوله: ﴿يَوْمَ الْكِتَابِ﴾ يريد من الكتب المنزلة، فهو اسم جنس، واختلفت عبارة المفسرين في معنى مُهَيَّمِينَ - فقال ابن عباس: ﴿وَمُهَيَّمِينَ﴾: شاهداً، وقال أيضاً: مؤتمناً، وقال ابن زيد: معناه: مصدقاً، وقال الحسن بن أبي الحسن: أميناً، وحكى الزجاج: قريباً، ولفظة المهيمن أخص من هذه الألفاظ، لأن المهيمن على الشيء هو المعنى بأمرة، الشاهد على حقائقه، الحافظ لحاصله، فلا يدخل فيه ما ليس منه، والله تبارك وتعالى هو المهيمن على مخلوقاته وعباده، والوصيُّ مُهَيَّمَن على محجوريه وأمواتهم، والرئيس مهيمن على رعيته وأحوالهم، والقرآن جعله الله مهيمناً على الكتب يشهد بما فيها من الحقائق، وعلى ما نسبه المحرفون إليها فيصحح الحقائق ويطل التحريف، وهذا هو شاهد ومصدق ومؤتمن وأمين، ومهيمن: بناء اسم فاعل، قال أبو عبيدة: ولم يجيء في كلام العرب على هذا البناء إلا أربعة أحرف، وهي: مُسَيِّطِر، ومُبَيِّطِر، ومُهَيَّمَن، ومُجَيَّمِر، وذكر أبو القاسم الزجاج - في شرحه لصدر أدب الكتاب - ومُبَيِّقِر، يقال: يُبَيِّقِر الرجل إذا سار من الحجاز إلى الشام، ومن أفق إلى أفق، ويُبَيِّقِر أيضاً: لعب التبيقري، وهي لعبة يلعب بها الصبيان، وقال مجاهد: قوله تعالى: ﴿وَمُهَيَّمِينَ عَلَيْهِ﴾ يعني محمداً ﷺ هو مؤتمن على القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول عليه الناس - ويحتمل أن يكون المراد بقوله: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِّنكُمْ يَرْعَىٰ ذَنبَهُ﴾ الأسم كما قدمنا، ويحتمل أن يكون المراد الأنبياء لا سيما وقد تقدم ذكرهم وذكر ما أنزل عليهم، وتجيء الآية مع هذا الاحتمال في الأنبياء تنبيهاً لمحمد ﷺ أي: فاحفظ شرعتك ومنهاجك لئلا يستزلك اليهود وغيرهم في شيء منه.

والمتأولون على أن الشريعة والمنهاج في هذه الآية لفظان بمعنى واحد، وذلك أن الشريعة والشريعة هي: الطريق إلى الماء وغيره مما يورد كثيراً، فمن ذلك قول الشاعر:

وفي الشرائع من جلالٍ مُقتَضِصٍ
بالي الثيابِ خَفِي الصُّوتِ مَنْدُوبٌ
أراد في الطرق إلى الماء، ومنها: الشارع، وهي سكك المدن، ومنه قول الناس: وفيها يشرع الباب. والمنهاج أيضاً: الطريق، ومنه قول الشاعر:

مَنْ يَكْ ذَا شَكِّ فَهَذَا نَهْجُ
مَاءِ رِوَاةٍ وَطَرِيقٌ نَهْجُ
أراد: واضحاً، والمنهاج بناءً بالغة في ذلك، وقال ابن عباس وغيره: ﴿يَرْعَىٰ ذَنبَهُ﴾ معناه: سببلاً وسنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل لفظ الآية أن يريد بالشريعة الأحكام، وبالمنهاج: المعتقد. أي: وهو واحد في جميعكم، وفي هذا الاحتمال بُغِد. والقراءة على ﴿يَرْعَىٰ﴾ بكسر الشين، وقرأ إبراهيم

السَّخَعِي، ويحيى بن وثاب: ﴿شُرْعَةً﴾ بفتح الشين.

ثم أخبر تعالى بأنه لو شاء لجعل العالم أمة واحدة، ولكنه لم يشأ لأنه أراد اختبارهم وابتلاهم فيما آتاهم من الكتب والشرائع، كذا قال ابن جريج وغيره، فليس لهم إلا أن يجدوا في امتثال الأوامر، وهو استباق الخيرات، فلذلك أمرهم بأحسن الأشياء عاقبة لهم.

ثم حثهم تعالى بالموعظة والتذكير بالمعاد في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَرَجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾، والمعنى: فالبدار البدار. وقوله تعالى: ﴿فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ معناه: يظهر الشواب والعقاب فتُخَبِّرون به إخبار إيقاع، وإلا فقد نبأ الله في الدنيا بالحق فيما اختلفت الأمم فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية بارعة الفصاحة، جمعت المعاني الكثيرة في الألفاظ اليسيرة، وكل كتاب الله كذلك، إلا أننا بقصور أفهامنا يبين في بعض لنا أكثر مما يبين في بعض.

﴿وَإِنَّ أَعْيُنَكُمْ﴾ معطوف على ﴿الْكِتَابِ﴾ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾. وقال مكِّي: هو معطوف على ﴿الْحَقِّ﴾ في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾. والوجهان حسنان. ويقرأ بضم النون من ﴿أَنَّ أَحْكُمْ﴾ مراعاة للضمة في عين الفعل المضارع، ويقرأ بكسرها على القانون في التثنية الساكنين.

وهذه الآية ناسخة عند قوم للتخيير الذي في قوله: ﴿أَوْ أَعْرَضَ عَنْهُمْ﴾،

وقد تقدم ذكر ذلك، ثم نهاه تعالى عن اتباع أهواء بني إسرائيل إذ هي مُضِلَّة، والهوى في الأغلب إنما يجيء عبارة عما لا خير فيه، وقد يجيء أحياناً بما فيه خير، ومن ذلك قول عمر بن الخطاب في قصة رأيه ورأي أبي بكر في أسر بدر: «فهوى رسول الله ﷺ رأي أبي بكر رضي الله عنه»، ومنه قول عمر بن عبدالعزيز وقد قيل له: ما ألد الأسياء عندك؟ قال: حق وافق هوى، والهوى مقصور ووزنه فعل، ويجمع على أهواء، والهواء ممدود، ويجمع على أهوية.

ثم حذر تبارك وتعالى من جهتهم أن يفتنوه، أي: يصرفوه بامتحانهم وابتلاهم عن شيء مما أنزل الله عليه من الأحكام، لأنهم كانوا يريدون أن يخذعوا النبي ﷺ، فقالوا له مراراً: احكم لنا في نازلة كذا وكذا وتبعك على دينك.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ قبله محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر، تقديره: لا تتبع واحذر، فإن حكموك مع ذلك واستقاموا فنبعنا ذلك، وإن تولوا فاعلم، ويحسن أن يقدر هذا المحذوف المعادل بعد قوله: ﴿لَنُنَبِّئَنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿فَاعَلَيْهِ﴾ الآية وعدٌ للنبي ﷺ فيهم، وقد أنجزه بقصة بني قينقاع، وقصة قريظة والنضير، وإجلال عمر أهل خيبر وفدك وغيرهم، وخصص تعالى إصابتهم ببعض الذنوب دون كلها لأن هذا الوعيد إنما هو في الدنيا، وذنوبهم فيها نوعان: نوع يخصهم كشر

رَسُولًا ﴿٥١﴾. وكما تقول: **فمررت بالذي أكرمت**. ويحذف أقل من ذلك من الصفة، وحذفه من الخبر قبيح كما جاء في بيت أبي النجم، ويتجه بيته بوجهين - أحدهما: أنه ليس في صدر قوله ألف استفهام يطلب الفعل كما هي في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمٌ﴾، والثاني أن في البيت عوضاً من الهاء المحذوفة، وذلك حرف الإطلاق، أعني الياء في (أصنعي)، فتضعف قراءة من قرأ: ﴿أَفَحُكْمٌ﴾ بالرفع، لأن الفعل بعد لا ضمير فيه ولا عوض من الضمير، وألف الاستفهام - التي تطلب الفعل ويختار معها النصب وإن لفظ بالضمير - حاضرة، وإنما تنجبه القراءة على أن يكون التقدير: «أفحكم الجاهلية حكم يبيغون؟» فلا تجعل ﴿يَبِغُونَ﴾ خبراً، بل تجعله صفة لخبر محذوف وموصوف. ونظيره قوله تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ﴾، تقديره: قوم يحرفون، فحذف الموصوف وأقام الصفة مقامه، ومثله قول الشاعر:

وما الدهر إلا تارتان فمئنهما
أموت وأخرى أبتغي العيش أكذخ
وقرأ سليمان بن مهران:
﴿أَفَحُكْمٌ﴾ بفتح الحاء والكاف والميم، وهو اسم جنس، وجاز إضافة اسم الجنس على نحو قولهم: منعت العراق قفيزها ويزهمها، ومصر إردبها، وله نظائر.

الخمر ورباهم وريشاهم ونحو ذلك، ونوع يتعدى إلى النبي والمؤمنين، كعماماتهم للكفار وأقوالهم في الدين، فهذا النوع هو الذي يوجد إليهم السبيل، وبه هلكوا، وبه توعدهم الله في الدنيا، فلذلك خصص البعض دون الكل، وإنما يعذبون بالكل في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ﴾ إشارة إليهم لكن جاءت العبارة تعميمهم وغيرهم ليتنبه سواهم ممن كان على فسق و نفاق وتول عن النبي عليه الصلاة والسلام فيرى أنه تحت الوعيد، واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمٌ بِالْجَاهِلِيَّةِ يَبِغُونَ﴾ - فقرأ الجمهور بنصب الميم على إعمال فعل ما يلي ألف الاستفهام بيته هذا الظاهر بعد، وقرأ يحيى بن وثاب، والسلمي، وأبو رجاء، والأعرج: ﴿أَفَحُكْمٌ﴾ برفع الميم، قال ابن مجاهد: وهي خطأ، قال أبو الفتح: ليس كذلك، ولكنه وجبة غير أقوى منه، وقد جاء في الشعر، قال أبو النجم:

قد أضبحت أم الخيار تدعي
علي ذنباً كله لم أضنع
برفع كل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهكذا الرواية، وبها يتم المعنى الصحيح، لأنه أراد التبرؤ من جميع الذنب، ولو نصب (كل) لكان ظاهر قوله أنه صنع بعضه، وهذا هو حذف الضمير من الخبر، وهو قبيح، التقدير: يبيغونه، ولم أصنعه، وإنما يحذف الضمير كثيراً من الصلة كقوله تعالى: ﴿هَذَا الَّذِي بَكَتَ اللَّهُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنه قال: أفحكم الجاهلية يبيغون؟ إشارة إلى الكهان الذين كانوا يأخذون الحلوان، ويحكمون بحسه وبحسب الشهوات، ثم ترجع هذه القراءة بالمعنى إلى الأولى، لأن التقدير: أفحكم حكام الجاهلية. وقرأ ابن عامر: ﴿يَبِغُونَ﴾ بالتاء على الخطاب لهم، أي: قل لهم. وباقى السبعة: ﴿يَبِغُونَ﴾ بالياء من تحت، ويبيغون معناه: يطلبون ويريدون.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا﴾ تقرير: أي: لا أحد أحسن منه حكماً تبارك وتعالى، وحسن دخول اللام في قوله: ﴿لِقَوْمٍ﴾ من حيث المعنى بين ذلك ويظهر لقوم يوقنون.

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل:

نهى الله تعالى المؤمنين بهذه الآية عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء في

النصرة والخُلطة المؤدية إلى الامتزاج والمعاضدة، وحكم هذه الآية باق، وكل من أكثر مخالطة هذين الصنفين فله حظ من المقت الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿فَأَنبَأْ يَتَهُمْ﴾، وأما معاملة اليهودي والنصراني من غير مخالطة ولا ملامسة فلا تدخل في النهي، وقد عامل رسول الله ﷺ يهودياً وورنه درعه.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية - فقال عطية بن سعد، والزهري، وابن إسحق، وغيرهم: سببها أنه لما انقضت بدر وشجر أمر بني قينقاع أراد رسول الله ﷺ قتلهم، فقام دونهم عبدالله بن أبي سلول وكان حليفاً لهم، وكان لعبادة بن الصامت من جلفهم مثل ما لعبدالله، فلما رأى عبادة منزع رسول الله ﷺ، وما سلخته يهود من المشاقفة لله ورسوله، جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله. إني أبرأ إلى الله من جلف يهود وولائهم، ولا أولي إلا الله ورسوله، وقال عبدالله بن أبي: أما أنا فلا أبرأ من ولائ يهود، فإني لا بدلي منهم، إني رجل أخاف الدوائر.

وحكى ابن إسحق في السير أنه قام إلى رسول الله ﷺ فأدخل يده في جيب درعه وقال: يا محمد، أحسن في موالي، فقال له رسول الله ﷺ: «أرسل الدرع من يدك»، فقال: لا والله حتى تهيبهم لي، لأنهم ثلاثمائة دارع وأربعمائة حاسر، أفأدعك تحصدهم في غداة واحدة؟ فقال رسول الله ﷺ: «قد وهبتهم لك»، ونزلت الآية في ذلك.

وقال السدي: سبب هذه الآية أنه

لما نزل بالمسلمين أمر أحد فزع منهم قوم، وقال بعضهم لبعض: نأخذ من اليهود عصماً ليعاضدونا إن ألمت بنا قاصمة من قريش وسائر العرب، فنزلت الآية في ذلك.

وقال عكرمة: سبب الآية أمر أبي لبابة بن عبد المنذر وإشارته إلى قريظة: إنه الذبح حين استفهموه عن رأيه في نزولهم على حكم سعد بن معاذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل هذه الأقوال محتمل، وأوقات هذه النوازل مختلفة. وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ جملة مقطوعة من النهي تتضمن التفرقة بينهم وبين المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ يَنكُمُ فَإِنَّهُ يَتَهُمْ﴾ إنحاء على عبدالله بن أبي وكل من اتصف بهذه الصفة من موالاتهم، ومن تولاهم بمعتقده ودينه فهو منهم في الكفر واستحقاق النقمة والخلود في النار، ومن تولاهم بأفعاله من العضد ونحوه دون معتقد ولا إخلال بإيمان فهو منهم في المقت والمذمة الواقعة عليهم وعليه، وبهذه الآية جوز ابن عباس وغيره ذبائح النصراني من العرب، وقال: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّمْ يَنكُمُ فَإِنَّهُ يَتَهُمْ﴾ فقال: من دخل في دين قوم فهو منهم، وسئل ابن سيرين رحمه الله عن رجل أراد بيع داره من نصاري يتخذونها كنيسة فتلا هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ عموم، وإنما أن يراد به الخصوص فيمن سبق في علم الله ألا يؤمن ولا يهتدي، وإنما أن يراد به تخصيص مدة الظلم والتلبس بفعله، فإن الظلم لا هدى فيه، والظالم من حيث هو ظالم فليس بمهدي في ظلمه.

وقوله تعالى: ﴿فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ الآية، مخاطبة لمحمد ﷺ، والإشارة إلى عبدالله بن أبي ابن سلول ومن تبعه من المنافقين على مذهبه في حماية بني قينقاع، ويدخل في الآية من كان من مؤمني الخزرج يتابعه جهالةً وعصية، فهذا الصنف له حظه من مرض القلب. وقراءة جمهور الناس: ﴿تَكْرَهُ﴾ بالتاء من فوق، فإن جعلت رؤية عين فـ ﴿يَسْرَعُونَ﴾ حال، وفيها الفائدة المقصودة، وإن جعلت رؤية فـ ﴿يَسْرَعُونَ﴾ في موضع المفعول الثاني، و﴿يَقُولُونَ﴾ حال. وقرأ إبراهيم النخعي، ويحيى بن وثاب: ﴿فَتَيْزِي﴾ بالياء من تحت، والفاعل على هذه القراءة محذوف، ولك أن تقدر: فيرى الله، أو فيرى الرأي، و﴿الَّذِينَ﴾ مفعول، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ فاعلاً، والمعنى: «أن يسارعوا» فحذفت «أن» إيجازاً.

و﴿يَسْرَعُونَ فِيهِمْ﴾ معناه: في نصرتهم وتأييدهم وتجميل ذكركم.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ نَحْنُ نَحْنُ عَنْ نَبِيِّنَا دَابَّةٌ﴾ لفظ محفوظ عن عبدالله بن أبي، ولا محالة أنه قال بقوله منافقون كثير، والآية تُعطي ذلك، ودائرة: معناه: نازلة من الزمان وحادثة من الحوادث تُحوجنا

إلى موالينا من اليهود، وتسمى هذه الأمور دوائر على قديم الزمان من حيث الليل والنهار في دوران، فكأن الحديث يدور بدورانها حتى ينزل فيمن نزل، ومنه قول الله تعالى: ﴿دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾، و﴿وَيَرْتَضِ بِكُرِّ الدَّوَابِّ﴾، ومنه قول الشاعر:

وَالدَّهْرُ بِالْإِنْسَانِ دَوَارِيٌّ

وقول الآخر:

وَيَغْلَمُ أَنَّ الثَّائِبَاتِ تَدُورُ

وقول الآخر:

يَرُدُّ عَنْكَ الْقَدَرَ الْمَقْدُورَا

وَدَائِرَاتِ الدَّهْرِ أَنْ تَدُورَا

وبعضه قول النبي ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفعل عبدالله بن أبي في هذه النازلة لم يكن ظاهره مغالبة رسول الله ﷺ، ولو فعل ذلك لحاربه رسول الله ﷺ، وإنما كان يظهر للنبي ﷺ أن يستبقيهم لنصرة محمد ولأن ذلك هو الرأي، وقوله: «إني امرؤ أخشى الدوائر» أي: من العرب وممن يحارب المدينة وأهلها، وكان يبطن في ذلك كله التحرز من النبي والمؤمنين والفَتْ في أعضادهم، وذلك هو الذي أسرَّ هو في نفسه ومن معه على نفاقه ممن يفتضح بعضهم إلى بعض.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَمَسَى اللَّهُ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ وللْمُؤْمِنِينَ ووعده لهم، و (عسى) من الله واجبة، واختلف المتأولون في معنى [الفتح] في هذه الآية - فقال قتادة: يعني به

القضاء في هذه النوازل، والفتح: القاضي، فكان هذا الوعد هو مما نزل ببني قينقاع بعد ذلك وبقرينة والنضير، وقال السدي: يعني به فتح مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الفتح في هذه الآية ظهور رسول الله ﷺ وعلو كلمته، أي: فيبدو الاستغناء عن اليهود، ويرى المتأفق أن الله لم يوجد سبيلاً إلى ما كان يؤمل فيهم من المعونة على أمر محمد ﷺ والدفع في صدر نبوته، فيندم حينئذ على ما حصل فيه من محاذاة الشرع، وتجلل ثوب المقت من الله تعالى ومن رسوله عليه الصلاة والسلام والمؤمنين كالذي وقع وظهر بنُد.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ﴾ قال السدي: المراد ضرب الجزية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر أن هذا التقسيم إنما هو لأن الفتح الموعود به هو ما يتركب على سعي النبي عليه الصلاة والسلام وأصحابه ويسببه جدهم وعملهم، فوعد الله تعالى إما بمقتضى تلك الأفعال، وإما بأمر من عنده يُهلك أعداء الشرع، هو أيضاً فتح لا يقع للبشر فيه تسيب.

وقوله تعالى: ﴿فَيَصْحُخُوا﴾ معناه: يكونون كذلك طول دهرهم، وخصَّ الإصباح بالذكر لأن الإنسان في ليله مُتَّفَكِرٌ مُتَّسِرٌ، فعند الصباح يرى بالحالة التي اقتضتها فِكْرُهُ أو أمراضه ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

أَضْبَحْتُ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ

إلى غير هذا من الأمثلة.

والذي أسرَّوه هو ما ذكرناه من التمرس بالنبي ﷺ، وإعداد اليهود للشورة عليه يوماً ما، وقرأ ابن الزهري: «فَيُضِجُ الفُسَّاقُ حَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ».

٥٣ - ٥٤ تفسير قوله عز وجل:

اختلف القراء في هذه الآية - فقرأ ابن كثير، وابن عامر، ونافع: ﴿يَقُولُ﴾ بغير واو عطف وبرفع اللام، وكذلك ثبت في مصاحف المدينة ومكة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿وَيَقُولُ﴾ بإثبات الواو، وكذلك ثبت في مصاحف الكوفيين، وقال الطبري:

كذلك هي في مصاحفنا، مصاحف أهل الشرق، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿وَيَقُولُ﴾ بإثبات الواو ويصحب اللام، قال أبو علي: وروى علي بن نصر عن أبي عمرو النصب والرفع في اللام، فأما قراءة ابن كثير ونافع فمتعاضدة مع قراءة حمزة والكسائي، لأن الواو ليست عاطفة مفرد على مفرد مُشْرَكَة في العامل، وإنما هي عاطفة جملة على جملة وواصلت بينها، والجملتان متصلتان بغير واو، إذ في الجملة الثانية ذكر من الجملة المعطوف عليها، إذا الذين يسارعون وقالوا نخشى ويصبحون نادمين هم الذين قيل فيهم: ﴿أَمْثَلَاءَ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾، فلما كانت الجملتان هكذا حسنَّ العطف بالواو وبغير الواو، كما أن قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ لَوْلَا رَبُّهُمْ كَلِمَةٌ وَيَقُولُونَ خَسَفَتْ سَائِدُهُمْ كَلِمَةً﴾ لما كان في كل واحدة من الجملتين ذكر ما تقدم اكتفى بذلك عن الواو،

وعلى هذا قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ أَحْصَبَ النَّارُ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ولو دخلت الواو فقيلاً: ﴿وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ كان حسناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن براعة الفصاحة في الإيجاز، ويدل على حسن دخول الواو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَبَعَةَ وَأَمْنَهُمْ كَأَمْرُهُمْ﴾. فحذف الواو من قوله: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ كحذفها من هذه الآية، وإلحاقها في قوله: ﴿وَأَمْنَهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهب كثير من المفسرين إلى أن هذا القول من المؤمنين إنما هو إذا جاء الفتح وحصلت ندامة المنافقين، وفضحهم الله تعالى، فحينئذ يقول المؤمن: ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية، وتحتمل الآية أن تكون حكاية لقول المؤمنين في وقت قول الذين في قلوبهم مرض: ﴿تَحْتَقُّ أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾، وعند أفعالهم ما فعلوا في حكاية بني قينقاع، فظهر فيها سرهم، وفهم منهم أن تمسكهم بهم إنما هو إرصاد الله ولرسوله، فمقتهم النبي والمؤمنون، وترك النبي ﷺ بني قينقاع لعبدالله بن أبي رغبة في المصلحة والألفة، وبحكم إظهار عبداً أن ذلك هو الرأي من نفسه، وأن الدوائر التي يخاف إنما هي ما يخرب المدينة، وعلم المؤمنون وكل فطن أن عبداً في ذلك بخلاف ما أبدى، فصار ذلك موطناً يحسن أن يقول فيه المؤمنون: ﴿أَهْوَلَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية.

وأما قراءة أبي عمرو: ﴿ويقول﴾

بنصب اللام فلا يتجه معها أن يكون قول المؤمنين إلا عند الفتح وظهور ندامة المنافقين وفضيحتهم، لأن الواو عاطفة فعل على فعل مشتركة في العامل، وتوجه عطف (ويقول) مطرد على ثلاثة أوجه - أحدها: على المعنى، وذلك أن قوله: ﴿فَمَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ إنما المعنى فيه: فعسى أن يأتي الله بالفتح بعطف قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ على ﴿يَأْتِيَ﴾ اعتماداً على المعنى، وإلا فلا يجوز أن يقال: عسى الله أن يقول المؤمنون، وهكذا قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَلْتَمَسْنَا لِكُلِّ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَاصَّدَقَ وَأَكُنَّ﴾، لما كان المعنى: أخرني إلى أجل قريب. أصدق، وحيل ﴿أَكُنَّ﴾ على الجزم الذي يقتضيه المعنى في قوله: ﴿فَاصَّدَقَ﴾، والوجه الثاني: أن يكون قوله: ﴿أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ بدلاً من اسم الله عز وجل، كما أبدل من الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَسْتَبِيهُ إِلَّا أَلِ الشَّيْطَانِ أَنْ أَذْكَرَ﴾، ثم يعطف ﴿وَيَقُولُ﴾ على: ﴿أَنْ يَأْتِيَ﴾ لأنه حينئذ كأنك قلت: عسى أن يأتي، والوجه الثالث: أن يعطف قوله: ﴿وَيَقُولُ﴾ على ﴿فَيَمْسِحُوا﴾ إذ هو فعل منصوب بالفاء في جواب التمني، إذ قوله: ﴿عَسَى اللَّهُ تَمَنُّ وَتَرَجُّ فِي حَقِّ الْبَشَرِ، وَفِي هَذَا الْوَجْهِ نَظَرٌ، وَكَذَلِكَ عِنْدِي فِي مَنْعَهُمْ جَوَازٌ: «عَسَى اللَّهُ أَنْ يَقُولَ الْمُؤْمِنُونَ» نَظَرٌ، إِذَ اللَّهُ تَعَالَى يَصِيرُهُمْ يَقُولُونَ بِنَصْرِهِ وَإِظْهَارِ دِينِهِ، فَيَنْبَغِي أَنْ يَجُوزَ ذَلِكَ اعْتِمَاداً عَلَى الْمَعْنَى.

وقوله تعالى: ﴿جَهَدَ أَيَّتَهُمْ﴾

نصب ﴿جَهَدَ﴾ على المصدر المؤكد، والمعنى: أهولاء المقسمون باجتهاد منهم في الإيمان ﴿إِيْتَهُمْ كَتَمَهُمْ﴾ ثم قد ظهر الآن منهم من موالات اليهود وخذل الشريعة ما يكذب إيمانهم. ويحتمل أن يكون من قول المؤمنين على جهة الإخبار بما حصل في اعتقادهم إذ رأوا المنافقين في هذه الأحوال، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿حَيَّطَتْ أَعْيُنَهُمْ﴾ على جهة الدعاء، إما من الله تعالى عليهم، وإما من المؤمنين، وحبط العمل: إذا بطل بعد أن كان حاصلًا، وقد يقال: حبط في عمل الكفار وإن كان لم يتحصل على جهة التشبيه، وقرأ جمهور الناس: ﴿حَيَّطَتْ﴾ بكسر الباء، وقرأ أبو واقد، والجراح: بفتح الباء، وهي لغة.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ﴾ الآية، قال فيها الحسن بن أبي الحسن، ومحمد بن كعب القرظي، والضحاك، وقتادة: نزلت الآية خطاباً للمؤمنين عامة إلى يوم القيامة، والإشارة بالقوم الذين يأتي الله بهم إلى أبي بكر الصديق وأصحابه الذين قاتلوا أهل الردة، وقال هذا القول ابن جريج وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى الآية عندي: إن الله وعد هذه الأمة أن من ارتد منها فإنه يجيء بقوم ينصرون الدين، ويغنون عن المرتدين. فكان أبو بكر وأصحابه ممن صدق فيهم الخبر في ذلك العصر، وكذلك هو عندي أمر علي

مع الخوارج، وروى أبو موسى الأشعري أنه لما نزلت هذه الآية قرأها النبي ﷺ وقال: «هم قوم هذا»، يعني أبا موسى الأشعري، وقال هذا القول عياض، وقال شريح بن عبيد: لما نزلت هذه الآية قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنا وقومي هم يا رسول الله؟ فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكنهم قوم هذا»، وأشار إلى أبي موسى، وقال مجاهد، ومحمد بن كعب أيضاً: الإشارة إلى أهل اليمن، وقاله شهر بن حوشب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله عندي قول واحد، لأن أهل اليمن هم قوم أبي موسى، ومعنى الآية على هذا القول مخاطبة جميع من حضر عصر النبي ﷺ على معنى التنبيه لهم والعتاب والتوعد، وقال السدي: الإشارة بالقوم إلى الأنصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن يكون قوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاباً للمؤمنين الحاضرين يعم مؤمنهم ومنافقهم، لأن المنافقين كانوا يظهرون الإيمان، والإشارة بالارتداد إلى المنافقين، والمعنى: إن من نافق وارتد فإن المحققين من الأنصار يحمون الشريعة ويسد الله بهم كل ثلم، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، وحمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿يَتَنَكَّرَ﴾ بإدغام الدال في الدال، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿يَزْتَدِدُ﴾ بترك الإدغام، وهذه لغة أهل الحجاز مكة وما جاورها، والإدغام لغة تميم.

وقوله تعالى: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: متذللين من قبل أنفسهم غير متكبرين، وهذا كقوله تعالى: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رَحِمَةٌ بَيْنَهُمْ﴾، وكقوله عليه الصلاة والسلام: «المؤمن هين لين». وفي قراءة ابن مسعود: ﴿أَذَلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ غُلْظَةٌ عَلَى الْكُفَّارِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ﴾ إشارة إلى الرد على المنافقين في أنهم كانوا يعتدرون بملامة الأخلاق والمعارف من الكفار ويراعون أمرهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى كون القوم يحبون الله ويحبهم، وقد تقدم القول غير مرّة في معنى محبة الله للعبد وأنها إظهار النعم المنتهية عن رضاه وإلباسه إياها، و ﴿رِسْعٌ﴾ معناه: ذو سعة فيما يملك ويعطي وينعم.

﴿٥٥﴾ - ﴿٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بقوله: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ﴾ الآية للقوم الذين قيل لهم: ﴿لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾، و ﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة، يعطي ذلك المعنى، و ﴿وَلَوْ﴾ اسم جنس، وقرأ ابن مسعود: ﴿إِنَّمَا مَوْلَاكُمْ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي: ومن آمن من الناس حقيقة لا نفاقاً، وهم الذين ﴿يُتَّبِعُونَ الْآسَافَةَ﴾ المفروضة بجميع شروطها، و ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، وهي هنا لفظ عام للزكاة المفروضة وللتطوع بالصدقة ولكل أفعال البر، إذ هي تنمية للحسنات مطهرة للمرء من دنس الذنوب، فالْمُؤْمِنُونَ يؤتون من ذلك كل بقدر

استطاعته، وقرأ ابن مسعود: ﴿آمَنُوا وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ﴾ بواو.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ رَكُوعُونَ﴾ جملة معطوفة، ومعناها وصفهم بتكبير الصلاة، وخص الركوع بالذكر لكونه من أعظم أركان الصلاة، وهو هيئة تواضع فعبر به عن جميع الصلاة، كما قال: ﴿وَالرُّكُوعُ الشُّجُودُ﴾ وهي عبارة عن المصلين، وهذا قول جمهور المفسرين، ولكن اتفق أن علي بن أبي طالب أعطى صدقة وهو راكع، قال السدي: هذه الآية في جميع المؤمنين، ولكن علي بن أبي طالب مرّ به سائل وهو راكع في المسجد فأعطاه خاتمه، وروي في ذلك أن النبي ﷺ خرج من بيته وقد نزلت عليه الآية فوجد مسكيناً فقال له: «هل أعطاك أحد شيئاً؟» فقال: نعم، أعطاني ذلك الرجل الذي يصلي خاتماً من فضة، وأعطانيه وهو راكع، فنظر النبي ﷺ فإذا الرجل الذي أشار إليه علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر»، وتلا الآية على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال مجاهد: نزلت الآية في علي بن أبي طالب، تصدق وهو راكع، وفي هذا القول نظر، والصحيح ما قدمناه من تأويل الجمهور، وقد قيل لأبي جعفر: نزلت هذه الآية في علي. فقال: علي من المؤمنين. والواو - على هذا القول - في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ واو الحال. وقال قوم: نزلت الآية من أولها بسبب عبادة بن الصامت وتبرئه

استهزاء أهل الكتاب في لفظ هذه الآية، وثبت استهزاء المنافقين في قولهم لشياطينهم: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ﴾. ومن قرأ ﴿وَالْكَافِرَ﴾ بالنصب حمل على الفعل الذي هو: ﴿لَا تَتَّخِذُوا﴾، ويخرج الكفار من أن يَتَّخِضْنَ لفظ هذه الآية استهزاءهم، وقرأ أبي بن كعب: ﴿ومن الكفار﴾ بزيادة (من)، فهذه قراءة ابن مسعود: ﴿مِنْ قَبْلِكُمْ مِنْ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾.

وفرت الآية بين الكفار وبين الذين أوتوا الكتاب من حيث الغالب في اسم الكفار أن يقع على المشركين بالله إشراك عبادة أوثان، لأنهم أبعد شأواً في الكفر، وقد قال تعالى: ﴿يَهْدِي الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ ففرق بينهم إرادة البيان والجميع كفار، وكان هذا لأن عبادة الأوثان هم كفار من كل جهة، وهذه الفرق تلحق بهم في حكم الكفر وتخالفهم في رتب، فأهل الكتاب يؤمنون بالله وبعض الأنبياء، والمنافقون يؤمنون بالستهم.

ثم أمر تعالى بتقواه، ونبه النفوس بقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي حق مؤمنين.

(٥٨) - (٦٠) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَأْتَيْتُمُ الْآيَةَ﴾ إنحاء على اليهود، وتبيين لسوء فعلهم، فإنهم كانوا إذا سمعوا قيام المؤمنين إلى الصلاة قال بعضهم لبعض: قد قاموا لا قاموا، إلى غير هذا من الألفاظ التي يستخفون بها في وقت الأذان وغيره، وكل ما ذكر

وكانت تحارب في أمر الإفك فهلكت فيمن هلك.

ثم نهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ اليهود والنصارى أولياء، فوسمهم بوسم يحمل النفوس على تجنبهم، وذلك اتخاذهم دين والمؤمنين هزواً ولعباً، والهزء: السخرية والازدراء، ويقرأ:

﴿هُزُوا﴾ بضم الزاي والهمز، و ﴿هُزُوا﴾ بسكون الزاي والهمز، ويقرف عليه ﴿هزأ﴾ بتشديد الزاي المفتوحة،

و ﴿هزوا﴾ بضم الزاي وتنوين الواو، و ﴿هزأ﴾ بزاي مفتوحة منونة. ثم بين تعالى جنس هؤلاء أنهم من أهل الكتاب: اليهود والنصارى.

واختلف القراءة في إعراب: ﴿الْكَافِرَ﴾ - قرأ ابن كثير، وناقع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿وَالْكَافِرَ﴾ نصباً، وقرأ أبو عمرو، والكسائي: ﴿وَالْكَافِرَ﴾ خفضاً، وروى حسين الجعفي عن أبي عمرو النصب، قال أبو علي: حجة من قرأ بالخفض حمل الكلام على أقرب العاملين، وهي لغة التنزيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويدخل الكفار على قراءة الخفض فيمن اتخذ دين المؤمنين هزواً، وقد ثبت استهزاء الكفار في قوله: ﴿إِنَّا كُنْتُمْ الْمُسْتَهْزِئِينَ﴾، وثبت

وَإِذَا تَأْتَيْتُمُ إِلَى الصَّلَاةِ فَخُذُوا هُزْؤًا وَلِئِمَّا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَقْتُمُونَ وَمَا لَكُمْ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلُ وَأَنْ أَكْثَرُ الَّذِينَ يُفْسِقُونَ ﴿٥٩﴾ قُلْ هَلْ أَنْتُمْ بِشَرِّهِمْ مِنْ ذَلِكَ مُتَّبِعِينَ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ لَعْنَةِ اللَّهِ وَعَذَابِهِ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرْدَةَ وَالْفَنَارِيرَ وَعِبَادَ الطَّاغُوتِ أَوْلِيَاءَ شَرِّ مَكَانًا وَأَضَلَّ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٦٠﴾ وَإِذَا جَاءَهُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ خَلَوْنَا بِالْكَفَرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِرَبِّهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ كَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦١﴾ وَرَبِّي كَثِيرٌ أَمْتُهُمْ يَسْرِعُونَ فِي الْإِيمَانِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْثَرُهُمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾ لَوْلَا نَبَتْهُمْ الرَّبِّيَّةُ وَالْأَجْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِيمَانُ وَأَكْثَرُهُمُ السُّحْتِ لَيْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلِعِنُوا بِمَا قَالُوا لَيَلِدَّاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُغْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُنَّ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعُدُوةَ وَالْعِصْيَانَةَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾

١١٨

من بني قينقاع. وقال ابن الكلبي: نزلت بسبب قوم أسلموا من أهل الكتاب، فجاءوا فقالوا: يا رسول الله، بيوتنا بعيدة، ولا نتحدث لنا إلا مسجدك، وقد أقسم قومنا ألا يخالطونا ولا يوالونا، فنزلت الآية مؤنسة لهم.

ثم أخبر تعالى أن من يتول الله ورسوله والمؤمنين فإنه غالب كل من ناوأه، وجاءت العبارة عامة - ﴿وَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُوَ الْغَالِبُونَ﴾ اختصاراً لأن المتولِّي هو من حزب الله، وحزب الله غالب، فهذا الذي تولى الله ورسوله والمؤمنين غالب، و﴿وَمَنْ﴾ يراد بها الجنس لا مفرد بعينه، والحزب: الصاغية، والمنتمون إلى صاحب الحزب والمعاونون فيما يحزب، ومنه قول عائشة رضي الله عنها في حمنة

من ذلك فهو مثال. وقد ذكر السدي أنه كان رجل من النصارى بالمدينة، فكان إذا سمع المؤذن يقول: أشهد أن محمداً رسول الله قال: حرق الله الكاذب، فما زال كذلك حتى سقط مصباح في بيته فأحرقه وأحترق النصراني لعنه الله.

ثم ذكر تعالى أن فعلهم هذا إنما هو لعدم عقولهم، وإنما عدموها إذ لم تتصرف كما ينبغي لها فكأنها لم توجد.

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يقول لأهل الكتاب: ﴿هَلْ تَنقِمُونَ؟﴾ ومعناه: هل تعدون علينا ذنباً أو نقیصة؟ يقال: نَقِمَ - بفتح القاف - ينقِم - بكسرهما - وعلى هذه اللغة قراءة الجمهور، ويقال: - نَقِمَ بكسر القاف - ينقِم - بفتحها - وعلى هذه اللغة قرأ أبو حية، وابن أبي عبلة، وأبو البرهسم والشَّخمي. وهذه الآية من المحاوراة البليغة الوجيزة، ومثلها قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ﴾، ونظير هذا الغرض في الاستثناء قول النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُورَهُمْ
بِهِمْ فُلُوقٌ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ
وقرأ الجمهور: ﴿أَنْزِلَ﴾ بضم الهمزة، وكذلك في الثاني، وقرأ أبو نُهَيْك: ﴿أَنْزَلَ﴾ بفتح الهمزة والزاي فيهما.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَ فَسِقُونَ﴾ هو عند أكثر المتأولين معطوف على قوله: ﴿أَنَّ آمَنَّا﴾، فيدخل كونهم فاسقين فيما نقموه، وهذا لا يتجه معناه، وروي عن الحسن بن أبي

الحسن أنه قال في ذلك: بِفِسْقِهِمْ نَقَمُوا عَلَيْنَا الْإِيمَانَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الكلام صحيح في نفسه لكنه غير مغن في تقويم معنى الألفاظ، وإنما يتجه على أن يكون معنى المحاوراة: هل تنقمون منا إلا عموم هذه الحال من أننا مؤمنون وأنتم فاسقون؟ ويكون: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَ فَسِقُونَ﴾ مما قرره المخاطب لهم، وهذا كما تقول لمن تخصصه: هل تنقم علي إلا أن صدقت أنا وكذبت أنت؟ وهو لا يقر بأنه كاذب ولا ينقم ذلك، لكن معنى كلامك: هل تنقم إلا مجموع هذه الحال؟ وقال بعض المتأولين: قوله: ﴿وَأَنَّ أَكْثَرَ مَعْطُوفٌ عَلَى [مَا] كَأَنَّهُ قَالَ: ﴿إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾، ويكتبه ويأن أكثركم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مستقيم المعنى، لأن إيمان المؤمنين بأن أهل الكتاب المستمرين على الكفر بمحمد فسقة هو مما ينقمونه، وذكر تعالى الأكثر منهم من حيث بينهم من آمن ومن اهتدى.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ هَلَّ أَتَيْتُكُمْ﴾ - قرأ الجمهور بفتح النون وشد الباء، وقرأ ابن وثاب، والشَّخمي: ﴿أَتَيْتُكُمْ﴾ بسكون النون وتخفيف الباء من (أتياً)، وقرأ الناس: ﴿مُؤْتِيَةٌ﴾ بضم الشاء وسكون الواو، وقرأ ابن بريدة، والأعرج، ونبيح، وابن عمران: ﴿مُؤْتِيَةٌ﴾ بسكون الشاء، وفتح الواو، وقال أبو الفتح: هذا مما خرج عن أصله شاذ عن نظائره، ومثله قول العرب: «الفاكهة مقوذة إلى الأذى» بسكون القاف وفتح الواو،

والقياس: مثابة ومقادة وأما، مؤتية بضم الشاء فأصلها مؤتية وزنها مَفْعَلَةٌ بضم العين، نقلت حركة الواو إلى الشاء، وكانت قبل مشؤوبة مثل مقولة، والمعنى في القراءتين: مرجعاً عند الله، أي: في الحشر يوم القيامة، تقول العرب: ثاب يثوب إذا رجع، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا آيَاتٍ مَبَآئِلَ لِلنَّاسِ وَأُمَّتًا﴾.

ومشى المفسرون في هذه الآية على أن الذين أمر أن يقول لهم: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ﴾ هم اليهود والكفار المتخذون ديننا هزواً ولعباً، قال ذلك الطبري وتويع عليه، ولم يسند في ذلك إلى متقدم شيئاً، والآية تحتل أن يكون القول للمؤمنين، أي: قل يا محمد للمؤمنين: هل أتيتكم بشر من حال هؤلاء الفاسقين في وقت الرجوع إلى الله، أولئك أسلافهم الذين لعنهم الله وغضب عليهم، فتكون الإشارة به ﴿ذَلِكَ﴾ إلى حالهم من كون أكثرهم فاسقين، وتحتل الآية أن يكون القول للحاضرين من بني إسرائيل، وتكون الإشارة به ﴿ذَلِكَ﴾ إلى حال الحاضرين من كون أكثرهم فاسقين، ويكون قوله: ﴿سَكَّرٌ - وَأَصْلٌ﴾ صفة تفضيل بين شيتين لهما اشتراك في الشر والضلال.

وتحتل الآية أن يكون القول للحاضرين من بين إسرائيل، والإشارة به ﴿ذَلِكَ﴾ إلى إيمان المؤمنين وجميع حالهم، ويؤججه التفضيل به ﴿سَكَّرٌ - وَأَصْلٌ﴾ على أن الاشتراك في الشر والضلال هو في معتقد اليهود، فأما في الحقيقة فلا

شرّاً ولا ضلال عند المؤمنين، ولا شركة لهم في ذلك مع اليهود والكفار، ويكون على هذا الاحتمال قوله: ﴿مَنْ لَمَنَهُ اللَّهُ﴾ الآية يراد به جميع بني إسرائيل - الأسلاف والأخلاف، لأن الخلف يُذم ويُعير بمذمات السلف إذا كان الخلف غير مراجع ولا ذامّ لما كان عليه سلفه، فهو في حكمه. وفي قراءة أبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود: ﴿مَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَجَعَلَهُمْ قِرْدَةً وَخَنَازِيرًا﴾، واللعنة: الإبعاد عن الخير.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ﴾ هي بمعنى: صيّر، وقال أبو علي في كتاب الحجة: هي بمعنى خلق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه منه رَجْمُهُ اللهُ نَزْعُهُ اعْتِزَالِيَّةً، لأن قوله: ﴿وَجَعَلَ﴾ تقديره: ومن عبد الطاغوت، والمعتزلة لا ترى أن الله يصير أحداً عابداً طاغوت، وقد تقدم قصص مسخهم قردة في سورة البقرة، وأما مسخهم خنازير فروي أن ذلك كان بسبب امرأة كانت مؤمنة من بني إسرائيل، وكفر ملك منهم في مدينة من مدنها وكفر معه أهل مملكته، فدعت المرأة قوماً إلى نُصْرَةِ الدين فأجابوها، فخرجت بهم فَهْرُمُوا، ثم فعلت ذلك ثانية وثالثة وفي كل مرة يُهْزَمُ جمعها، فيشتت وياتت مهمومة، فلما أصبح رأت أهل تلك المدينة يسعون في نواحيها خنازير فقالت: الآن أعلم أن الله أعز دينه وأثر دينه، قال عمرو بن كثير بن أفلح مولى أبي أيوب الأنصاري: ما

كان مسخ بني إسرائيل إلا على يدي تلك المرأة.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ﴾ تقديره: ومن عبد الطاغوت، وذلك عطف على قوله: ﴿مَنْ لَمَنَهُ اللَّهُ﴾، أو معمول لـ ﴿جَعَلَ﴾، وفي هذا يقول أبو علي: إن جعل بمعنى خلق.

واختلف القراءة في هذا الحرف - فقرأ حمزة وحده: ﴿وَجَعَلَ﴾ الطاغوت بفتح العين وضم الباء وكسر التاء من ﴿أَلْطَغُوتُ﴾، وذلك أن ﴿عَبَدَ﴾ لفظ مبالغة كَيَقِظُ وَتُدْسُ، فهو لفظ مفرد يراد به الجنس وبني بناء الصفات، لأن عَبَدَ في الأصل صفة وأن كان استعمل استعمال الأسماء، وذلك لا يُخرجه عن حُكْمِ الصفة، فلذلك لم يمتنع أن يُبنى منه بناء الصفات، وقرأ بهذه القراءة الأعمش، ويحيى بن وثاب، ومنه قول الشاعر:

أَبْنَى لُبَيْسِي إِنْ أَمَكُمُ
أُمَّةٌ وَإِنْ أَبَاكُمُ عَبِيدُ
ذكره الطبري وغيره بضم الباء، وقرأ الباقون: ﴿وَجَعَلَ﴾ بفتح العين والباء وإعماله في ﴿أَلْطَغُوتُ﴾، وقد تقدم ذكره، وقرأ أبي بن كعب: ﴿عَبَدُوا الطَّاغُوتَ﴾ على إسناد الفعل الماضي إلى ضمير جمع، وقرأ ابن مسعود فيما روى عبد الغفار عن علقمة عنه: ﴿وَجَعَلَ الطَّاغُوتَ﴾ بفتح العين وضم الباء ورفع التاء من ﴿أَلْطَغُوتُ﴾، وذلك على أن يصير له أن ﴿عَبَدَ﴾ كَالخَلْقِ والأمر المعتاد المعروف، فهي في معنى: فَعَهُ وَشَرَفَ وَظَرَفَ. وقرأ ابن

عباس، وإبراهيم بن أبي عبلة: ﴿وَجَعَلَ الطَّاغُوتَ﴾ بفتح العين والباء وكسر التاء من ﴿أَلْطَغُوتُ﴾، وذلك على أن المراد «عبدة الطاغوت»، وحذفت الهاء تخفيفاً، ومثله قول الراجز:

قَامَ وَلَاهَا فَسَقَوَهُ صَرْخَداً
أراد: وُلَاثُهَا فَحَذَفَ تَخْفِيفاً. وقرأ الحسن بن أبي الحسن في رواية عباد عنه: ﴿وَجَعَلَ الطَّاغُوتَ﴾ بفتح العين وسكون الباء وكسر التاء من ﴿أَلْطَغُوتُ﴾، وهذا على أنه اسم جنس مفرد يراد به جمع، وروي عن الحسن من غير طريق عباد أنه قرأ بفتح العين والبدال وسكون الباء ونصب التاء من ﴿أَلْطَغُوتُ﴾، وهذه تتجه على وجهين - أحدهما أنه أراد: «وَجَعَلَ الطَّاغُوتَ» فحذف التنوين كما حذف في قول الشاعر:

وَلَا ذَاكِرَ اللهُ إِلَّا قَلِيلاً
والوجه الآخر أن يريد: ﴿وَجَعَلَ﴾ الذي هو فعل ماضٍ، وسكن عين الباء على نحو ما هي عين الفعل مسكنة في قول الشاعر:

وَمَا كُلُّ مَغْيُوبٍ وَلَوْ سَلَفَ صَفْقُهُ
فَإِنَّ اللام من «سلف» مسكنة، ونحو هذا قول أبي السَّمَالِ: ﴿وَلِيُونَا بِمَا قَالُوا﴾. فهذه قراءات العين فيها مفتوحة.

وقرأ أبو واقد الأعرابي في رواية العباس بن الفضل عنه: ﴿وَجَعَلَ الطَّاغُوتَ﴾ بضم العين وشد الباء المفتوحة وألف بعدها وفتح الدال

وكسر التاء من ﴿أَلْقَتْهُو﴾. وذلك جمع عابد. وقرأ عون العُقَيْلي فيما روى عنه العباس بن الفضل أيضاً: ﴿وَعَابِدُ الطَّاغُوتِ﴾ على وزن فاعل، والبدال مرفوعة. قال أبو عمرو: تقديره: وهم عابد الطاغوت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهو اسم جنس. وروى عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَعَابِدُوا الطَّاغُوتِ﴾ بضمير جمع، وقد قال بعض الرواة في هذه الأخيرة إنها تجوز لا قراءة. وقرأ ابن بُرَيْدة: ﴿وَعَابِدُ الطَّاغُوتِ﴾ بفتح العين والبدال وكسر الباء والتاء. وقرأ بعض البصريين: ﴿وَعِبَادُ الطَّاغُوتِ﴾ بكسر العين وفتح الباء والبدال وألف بينهما وكسر التاء. قال أبو الفتح: فيحتمل أن يكون ذلك جمع (عابد) كقائم وقيام، وصائم وصيام، وقد يجوز أن يكون جمع (عبد). ولما يأتي (عباد) مضافاً إلى غير الله، وأنشد سيويه:

أَتُوْعِدُنِي بِقَوْمِكِ يَا بِنَ حَجَلِ
أَشَابَاتِ يُخَالِسُونَ الْعِبَادَا
قال أبو الفتح: يريد «عباد آدم» عليه السلام، ولو أراد «عباد الله» فليس ذلك شيء يسب به أحد، وجميع الخلق عباد الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التعليق بآدم ﷺ شاذٌ بعيد، والاعتراض فيه باق، وليس هذا مما يُتَخِيلُ أن الشاعر قصده، وإنما أراد «العبيد» فساقته القافية إلى «العباد»، إذ يقال ذلك لمن تملك ملكة ما وقد ذكر أن عرب الحيرة من العراق إنما سموا العباد لأنهم دخلوا في طاعة كسرى فدانته مملكته.

وذكر الطبري عن بريدة الأسلمي أنه كان يقرأ: ﴿وَعَابِدُ الشَّيْطَانِ﴾ بفتح العين والبدال وكسر الباء وألف قبلها، وذكر «الشيطان» بدل «الطاغوت» فهذه قراءات فيها ألف.

وقرأ ابن عباس فيما روى عنه عكرمة، وقرأها مجاهد، ويحيى بن وثاب: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ بضم العين والياء وفتح البدال وكسر التاء، وذلك جمع «عبد» كرفن ورهن وسقف وسقف، وقال أحمد بن يحيى ثعلب: هو جمع «عابد» كشارفٍ وشرف، ومنه قول القينة: أَلْيَا حَمَزٌ لِّلشَّرْفِ النَّوَاءِ
وَهُنَّ مُعَقَّلَاتٌ بِالْفِئَاءِ
وقال أبو الحسن الأخفش: هو جمع «عبيد»، وأنشد:

أَنْسِبُ الْعَبْدَ إِلَى آبَائِهِ
أَسْوَدَ الْجِلْدَةِ مِنْ قَوْمِ عُبْدِ
وقرأ الأعمش وغيره: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ بضم العين وشد الباء المفتوحة وفتح البدال وكسر التاء، وذلك على جمع «عابد» كضارب وضرب، وقرأ إبراهيم النخعي. وأبو جعفر بن القعقاع، والأعمش في رواية هارون: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ بضم العين وكسر الباء وفتح البدال وضم التاء، كما تقول: ضرب زيد، وضُفَّ الطبري هذه القراءة وهي متجهة. وروى عن عبدالله بن مسعود أنه قرأ: ﴿وَوَسَّيْتِ الطَّاغُوتِ﴾ كما تقول: «ضربت المرأة»، وروى علقمة عن عبدالله بن مسعود: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ بضم العين وفتح الباء والبدال وكسر التاء، وهذه أيضاً بناءً مبالغة اسم مفرد يراد

به هنا الجمع بُني كحُطَمَ ولُبَّدَ، وروى عكرمة عن ابن عباس: ﴿وَعَبْدُ الطَّاغُوتِ﴾ على وزن فَعْلٌ بضم الفاء وشد العين المفتوحة وفتح اللام ونصب التاء، وهذه تتخرج على أنه أراد: «وعبدا» منوناً ثم حذف التنوين للالتقاء، كما قال: ولا ذاكِرَ الله - وقد تقدم نظيره.

الطاغوت: كل ما عبد من دون الله من وثن أو آدمي يرضى ذلك أو شيطان، وقد استوعبت تفسيره في سورة البقرة. ومكان: يحتمل أن يريد في الآخرة، فالمكان على وجهه، أي: المحل، إذ محلهم جهنم. وأن يريد في الدنيا فهي استعارة للمكانة والحالة.

و ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾: وسطه، ومنه قول العرب: «قمت حتى انقطع سوائي»، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾، وخط الاستقامة في السبيل إنما هو متمكن غاية التمكن في الأوساط، فلذلك خص السواء بالذكر، ومن لفظ السواء قيل: خط الاستواء.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿جَاؤُكُمْ﴾ لليهود المعاصرين لمحمد ﷺ، وخاصة للمنافقين منهم، نص على ذلك ابن عباس، وقادة، والسدي.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم دخلوا وهو كفار، وخرجوا كذلك، لم تنفعهم الموعظة، ولا نفع فيهم التذكير، وقوله: ﴿وَهُمْ﴾ تخلص من احتمال العبادة أن يدخل قوم بالكفر ثم يؤمنوا، ويخرج قوم وهم كفرة، فكان ينطبق على الجميع:

«وقد دخلوا بالكفر وقد خرجوا به»، فأزال الاحتمال قوله تعالى: ﴿وَمِمَّ قَدْ خَرَجُوا بِدِينِهِ﴾، أي: هم بأعيانهم، ثم فضحهم الله تعالى بقوله: ﴿وَاللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ﴾ أي: من الكفر.

وقوله تعالى لنبيه: ﴿وَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾، ويحتمل أن يكون من رؤية البصر، ويحتمل من رؤية القلب ويكون المفعول الثاني، ﴿يُسْتَرْغَبُونَ﴾، وعلى الاحتمال الأول ﴿يُسْتَرْغَبُونَ﴾ حال، و﴿فِي الْآيَاتِ﴾ معناه: في موجبات الإثم، إذ الإثم إنما هو الحكم المعلق بصاحب المعصية والنسبة التي يصير إليها إذا وقع الذنب، وهو من هؤلاء كُفِّرْهُمْ، و﴿وَاللَّذِينَ﴾ مصدر من: عَدَا الرجل إذا ظلم وتجاوز الحد، و﴿أَلْسَحَتْ﴾ هو الرُّشَا وسائر مكسبهم الخبيث، واللام في ﴿لَيْتَنَى﴾ لام قَسَم، وقرأ أبو حيوة: ﴿وَالعِدْوَانِ﴾ بكسر العين.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا بَيْنَهُمُ الْبُرُزَاتُ وَالْأَخْبَارُ﴾ تخصيص في ضمنه توبيخ لهم إذ تركوا اللازم، قال الطبري: كل العلماء يقولون: ما في القرآن آية هي أشد توبيخاً للعلماء من هذه الآية ولا أخوف عليهم منها. وقال الضحاك بن مزاحم: ما في القرآن آية أخوف عندي منها، إنا لا ننتهي، وقال نحو هذا ابن عباس. وقرأ الجراح، وأبو واقد: ﴿الرِّبَايُنِيُّونَ﴾ بكسر الراء، واحدهم: ربي، إما منسوب إلى علم الرب، وإما من تربية الناس بصغار العلم قبل كباره، وزيدت النون في نسبه مبالغة كشعراني ومنظراني ومخبراني، وقال

الحسن: الرِّبَانِي: عالم الإنجيل، والحبر: عالم التوراة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله في الرِّبَانِي شاذ بعيد.

﴿وَالْأَخْبَارُ﴾ واحدهم حَبْرٌ بكسر الحاء وفتحها، وهم العلماء الذين لا يعنون لإصلاح الناس ولا يكلفون ذلك، والرِّبَانِي هو العالم المدير المصلح، وقوله تعالى: ﴿عَن قَوْلِهِمُ الْآيَاتُ﴾ ظاهر أن الإثم هنا يراد به الكفر، ويحتمل أن يراد به سائر أقوالهم المنكرة في النبي ﷺ والمؤمنين، وقرأ ابن عباس: ﴿بِشَسِّ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ بغير لام قَسَم.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾ إلى قوله: ﴿لَا يُحِبُّ الْمُسْلِمِينَ﴾ هذه الآية تعديد كبيرة من أقوالهم وكفرهم، أي: فمن يقول هذه العظيمة فلا يُسْتَنَكِر عليه أن ينافق عليك يا محمد، ويسعى في رد أمر الله الذي أوحاه إليك. وقال ابن عباس

وجماعة من المتأولين: معنى قولهم التبخيل، وذلك أنهم لحقتهم سنة وجهد فقالوا هذه العبارة يعنون بها أن الله بخل عليهم بالرزق والتوسعة، وهذا المعنى يشبه ما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْتَمِلُ يَدَكَ مَثْوًوَةً إِلَيْكَ عَنقُوكَ﴾، فإنما المراد: لا تبخل، ومنه قول النبي ﷺ: «مثل البخيل والمتصدق» الحديث، وذكر الطبري والنقاش أن هذه الآية نزلت في فنحاص اليهودي وأنه قالها، وقال الحسن بن أبي الحسن: قولهم: ﴿يَدُ اللَّهِ مَثْوًوَةً﴾، إما يريدون عن عذابهم، فهي - على هذا - في معنى قولهم: ﴿مَنْ أَبْتَلَا اللَّهَ وَاجْتَبَاهُ﴾،

وقال السدي: أرادوا بذلك أن يده مغلوله حتى يرد علينا ملكنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنهم عنوا أن قوته تعالى نقصت، ولذلك غلبوا على ملكهم، وظاهر مذهب اليهود لعنهم الله في هذه المقالة التجسيم، وكذلك يعطي كثير من أقوالهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾ دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، ويصح على كلا الاحتمالين أن يكون ذلك في الدنيا، وأن يراد به الآخرة، وإذا كان خبراً عن الدنيا فالمعنى: غلت أيديهم عن الخير والإنفاق في سبيل الله ونحوه، وإذا كان خبراً عن الآخرة فالمعنى: غلَّت في نار جهنم، أي: حتم هذا عليهم ونفذ به القضاء، كما حتمت عليهم اللعنة بقولهم هذا وبما جرى مجراه، وقرأ أبو السمال: ﴿وَلُغِنُوا﴾ بسكون العين، وذلك قصد للتخفيف لا سيما هنا للهبوط من ضمة إلى كسرة.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ العقيدة في هذا المعنى نفى التشبيه عن الله تعالى، وأنه ليس بجسم ولا جارحة، ولا يُشَبَّه ولا يُكَيَّف ولا يتحيز في جهة كالجواهر ولا تحله الحوادث، تعالى عما يقول المبطلون.

ثم اختلف العلماء فيما ينبغي أن يعتقد في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ﴾، وقوله: ﴿يَدَيَّ﴾، ﴿عَمِلْتَ آيَاتًا﴾، ﴿يَدُ اللَّهِ قَوْقُ أَيْدِيهِمْ﴾، و﴿وَلِيَصْنَعَنَّ عَلَيَّ عَيْقًا﴾، و﴿تَجَرَى بِأَعْيُنِنَا﴾، و﴿وَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾، ونحو هذا.

فقال فريق من العلماء، منهم

الشعبي، وابن المسيب، وسفيان: يُؤمن بهذه الأشياء، وتقرأ كما نصها الله، ولا يعن لتفسيرها، ولا يشق النظر فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول يضطرب، لأن القائلين به يجمعون على أنها ليست على ظاهرها في كلام العرب، فإذا فعلوا هذا فقد نظروا، وصار السكوت على الأمر بعد هذا مما يوهم العوام ويؤيه الجهلة.

وقال جمهور الأمة: بل نفسر هذه الأمور على قوانين اللغة ومجاز الاستعارة وغير ذلك من أفانين كلام العرب، فقالوا في العين والأعين: إنها عبارة عن العلم والإدراك، كما يقال: فلان من فلان بمرأى ومسمع، إذا كان يعنى بأمره وإن كان غائباً عنه. وقالوا في الوجه: إنه عبارة عن الذات وصفاتها، وقالوا في اليد واليمين والأيدي: إنها تأتي مرة بمعنى القدرة، كما تقول العزب: لا يد لي بكذا، ومرة بمعنى النعمة، كما يقال: لفلان عند فلان يد، وتكون بمعنى الملك، كما تقول: يد فلان على أرضه. وهذه المعاني إذا وردت عن الله تبارك وتعالى عبر عنها باليد أو الأيدي أو اليدين استعمالاً لفصاحة العرب، ولما في ذلك من الإيجاز، وهذا مذهب أبي المعالي والحقاق.

وقال قوم من العلماء منهم القاضي ابن الطيب: هذه كلها صفات زائدة على الذات، ثابتة لله دون أن يكون في ذلك تشبيه ولا تحديد، وذكر هذا الطبري وغيره.

وقال ابن عباس في هذه الآية: يده: نعمته.

ثم اختلفت عبارة الناس في تعيين النعمتين - فقيل: نعمة الدنيا ونعمة الآخرة، وقيل: النعمة الظاهرة والنعمة الباطنة، وقيل: نعمة المطر ونعمة النبات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاؤُكُمْ سُوءُطَبَّائٍ﴾ عبارة عن إنعامه على الجملة، وعبر عنه بيدين جزياً على طريقة العرب في قولهم: فلان ينفق بكلتى يديه، ومنه قول الشاعر وهو الأعشى:

يَدَاؤُكَ يَدَا مَجْدٍ، فَكَيْفَ مُفِيدَةٌ
وَكَيْفَ إِذَا مَا ضُرُّ بِالْمَالِ تُشْفِقُ
ويؤيد أن اليدين هنا بمعنى الإنعام قرينة الإنفاق. قال أبو عمرو الداني: وقراً أبو عبدالله: ﴿بَلْ يَدَاؤُكُمْ بِسُوءِطَبَّائٍ﴾، يقال: يد بسطة أي: مطلقه، وروي عنه: «بسطان».

وقوله تعالى: ﴿وَلِكَيْذَرُكَّ كَثِيرًا يَتَّبِعُهُمْ تَآؤِيلٌ وَإِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ تُحْمَلُونَ﴾ إعلام لمحمد ﷺ، فإن هؤلاء اليهود من العتو والبعد عن الحق بحيث إذا سمعوا هذه الأسرار التي لهم والأقوال التي لا يعلمها غيرهم تنزل عليك طفوا وكفروا، وكان تؤلهم أن يؤمنوا، إذ يعلمون أنك لا تعرفها إلا من قبل الله، لكنهم من العتو بحيث يزيدهم ذلك طغياناً، وخص تعالى ذكر الكثير إذ فيهم من آمن بالله ومن لا يطغي كل الطغيان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْتَمِسْنَا رَبَّهُمْ نَدْوَةً وَابْتِغَاءً﴾ معطوف على قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ﴾، فهي قصص يعطف

بعضها على بعض، والعداوة أخص من البغضاء لأن كل عدو فهو يبغض، وقد يبغض من ليس بعدو، وكان العداوة شيء مشتهر يكون عن عمل وحرب، والبغضاء قد لا تجاوز النفوس، وقد ألقى الله الأمرين على بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ﴾ استعارة بليغة تُشْبِهُ عن فض جموعهم وتشتيت آرائهم وتفريق كلمتهم. و الآية تحتمل أن تكون إخباراً عن حال أسلافهم، أي: منذ عصوا وعتوا وهذ الله ملئهم رماهم بهذه الأمور، فهم لا ترتفع لهم راية إلى يوم القيامة، ولا يقاتلون جميعاً إلا في قرى محصنة. هذا قول الربيع والسدي وغيرهما. وقال مجاهد: معنى الآية: كلما أوقدوا ناراً لحرب محمد أطفأها الله، فالآية على هذا تبشير لمحمد ﷺ والمؤمنين، وإشارة إلى حاضريه من اليهود.

وقوله تعالى: ﴿وَسَعَوْنَ﴾ معنى السعي في هذه الآية: العمل والفعل، وقد يجيء السعي بمعنى الانتقال على القدم، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وإن كان مالك رحمه الله قد قال في الموطأ: إن السعي في قوله: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ إنه العمل والفعل، ولكن غيره من أهل العلم جعله على الأقدام، وهو الظاهر بقريضة ضيق الوقت وبالتمدنية بإلى، ويؤيده قراءة عمر بن الخطاب: ﴿فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّه لَا يَجِبُ

مجاهد: المقتصدة: مسلمة أهل الكتاب قديماً وحديثاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا يخرج قول الطبري، ولا يقول في عيسى إنه عبد رسول إلا مسلم، وقال ابن زيد: هم أهل طاعة الله من أهل الكتاب، وهذا هو المترجح، وقد ذكر الزواج أنه يعني بالمقتصدة الطوائف التي لم تناصب الأنبياء مناصبة المتهتكين المجاهرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يتوجه أن توصف بالاقتصاد بالإضافة إلى المتمردة، كما يقال في أبي البحري بن هشام: إنه مقتصد بالإضافة إلى أبي جهل بن هشام لعنه الله. ثم وصف تعالى الكثير منهم بسوء العمل عموماً، وذهب الطبري إلى أن ذلك في تكذيبهم الأنبياء، وكفر اليهود بعيسى والجمع من أهل الكتابين بمحمد ﷺ.

و ﴿سَاءَ﴾ في هذه الآية هي المتصرفة، كما تقول: ساء الأمر يسوء، وقد تستعمل (ساء) استعمال (نعم وبئس)، كقوله عز وجل: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾، فتلك غير هذه، يحتاج في هذه التي في قوله: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾ من الإضمار والتقدير إلى ما يحتاج في (نعم وبئس)، وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى قوله: ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾..

هذه الآية أمر من الله لرسوله بالتبليغ على الاستفناء والكمال، لأنه قد كان بلغ، وإنما أمر في هذه الآية بالأمر يتوقف عن شيء مخافة أحد،

﴿وَالْإِنجِيلُ﴾ يقتضي دخول النصارى في لفظ أهل الكتاب في هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معناه من وحى وسُنن على السنة الأنبياء.

واختلف المفسرون في معنى ﴿مِنْ رَبِّهِمْ﴾ ومن تحت أرجلهم - فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي: المعنى: لأعطتهم السماء مطرها وبركتها، والأرض نباتها بفضل الله تعالى، وحكى الطبري والزجاج وغيرهما أن الكلام استعارة ومبالغة

في التوسعة، كما يقال: فلان قد عمه الخير من قرنه إلى قدمه، وذكر النقاش أن المعنى: لأكلوا من فوقهم، أي: من رزق الجنة، ومن تحت أرجلهم، أي: من رزق الدنيا إذ هو من نبات الأرض.

قوله تعالى: ﴿يَنْهَى أُمَّةً مُّقْتَصِدَةً﴾ معناه: معتدلة، والقصد والاقتصاد: الاعتدال والرفق والتوسط الحسن في الأقوال والأفعال. قال الطبري: معنى الآية: إن من بني إسرائيل من هو مقتصد في عيسى عليه السلام، يقولون: هو عبدالله ورسوله وروح منه، والأكثر منهم غلا فيه، فقال بعضهم: هو إله، وعلى هذا مشى الروم ومن دخل بأخرة في بلة عيسى عليه السلام، وقال بعضهم وهم الأكثر من بني إسرائيل: هو آدمي لغير رشدة، فكفر الطرفان. وقال

وَأُولَٰئِكَ أَهْلَ الْكِتَابِ ؕ آمَنُوا وَأَتَقُوا لِكُفْرَانِهِمْ سِيَئَاتِهِمْ وَلَا ذَلَّتْهُمْ جَنَّتِ النَّبِيِّ ؕ وَأُولَٰئِكَ أَقَامُوا التَّوْبَةَ وَالْإِيمَانَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكْلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٦﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْمُ عَلَيْكُمْ فِي وَحْيٍ قَبِضُوا التَّوْبَةَ وَالْإِيمَانَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَازِمٌ كَثِيرٌ مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ؕ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالصَّابِرِينَ مِنَ ؕ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلُوا صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَرَأْسَنَا إِلَيْهِمْ رَسُولًا قُلْنَا جَاءَ هُمْ رَسُولًا بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ ﴿٦٩﴾

الْمُفْسِدِينَ، أي: لا يظهر عليهم من أعماله في الدنيا والآخرة ما يقتضي المحبة.

﴿٦٥﴾ - ﴿٦٨﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية تحتل أن يراد بها معاصروا محمد ﷺ، والأظهر أنه يراد بها الأسلاف، والمعاصرون داخلون في هذه الأحوال بالمعنى، والغرض الإخبار عن أولئك الذين أطفأ الله نيرانهم وأذلهم بمعاصيهم، لو آمنوا بالله وكتابه، واتقوا في امتثال أوامره ونواهيه لكُفرت سيئاتهم، أي: سُرت وأذهبت، ولأدخلوا الجنة.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا التَّوْبَةَ﴾ أي: أظهروا أحكامها، فهي كإقامة السوق وإقامة الصلاة، وذلك كله تشبيه بالقائم من الناس، إذ هي أظهر هيئات المرء. وقوله تعالى:

وذلك أن رسالته ﷺ تضمنت الطعن على أنواع الكفرة، وبيان فساد حالهم، فكان يلقي منهم عتاً، وربما خافهم أحياناً قبل نزول هذه الآية، فقال الله له: ﴿يَلَيْحَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي: كاملاً متمماً، ثم توعدته تعالى بقوله: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ مَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ أي: إنك إن تركت شيئاً فكأنما قد تركت الكل، وصار ما بُلِّغْتَ غير معتد به، فقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ﴾ معناه: «وإن لم تستوف» ونحو هذا قول الشاعر:

سُئِلْتُ فَلَمْ تَمْنَعْ وَلَمْ تُعْطِ نَائِلًا
فَسَيْبَانٌ لَا دُمَّ عَلَيْكَ وَلَا حَمْدُ
أي: ولم تعط ما يُعد نائلاً، وإلا فيتكاذب البيت.

وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي: ﴿فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ على الإفراد، وقرؤوا في الأنعام ﴿حَيْثُ يَجْمَعُ رِسَالَتَهُ﴾ على الجمع، وكذلك في الأعراف ﴿يُرْسَلَتِهِ﴾، وقرأ ابن كثير في المواضع الثلاثة بإفراد الرسالة، وقرأ نافع ﴿وَرِسَالَتِهِ﴾ بالجمع، وكذلك في الأنعام، وأفرد في الأعراف، وقرأ ابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر بجمع الرسالة في المواضع الثلاثة، وروى حفص عن عاصم الإفراد في العقود والأنعام، والجمع في الأعراف. فمن أفرد (الرسالة) فلأن الشرع كله شيء واحد وجملة بعضها من بعض، ومن جمع فمن حيث الشرع معان كثيرة وورد دُعُماً في أزمان مختلفة، وقالت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: من زعم أن محمداً كتم شيئاً من الوحي فقد أعظم الفرية، والله تعالى يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ﴾ الآية. وقال عبدالله بن شقيق: (كان رسول الله ﷺ يعتقه أصحابه يحرسونه فلما نزلت: ﴿وَأَلَّهِ بِصَيْحُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ خرج فقال: «يا أيها الناس الحقوا بملاحقكم فإن الله قد عصمني». وقال محمد بن كعب القرظي: نزلت: ﴿وَأَلَّهِ بِصَيْحُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ بسبب الأعرابي الذي اخترط سيف النبي ﷺ ليقتله به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هو غورث بن الحارث، والقصة في غزوة ذات الرقاع، وقال ابن جريج: كان رسول الله ﷺ يهاب قريشاً، فلما نزلت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَأَلَّهِ بِصَيْحُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ استلقى وقال: من شاء فليخذلني، مرتين أو ثلاثاً.

و ﴿بِصَيْحُكَ﴾ معناه: يحفظك ويجعل عليك وقاية، ومنه قوله تعالى: ﴿بِصَيْحُكِ مِنَ الْمَاءِ﴾، ومنه قول الشاعر:

فقلْتُ عَلَيْكُمْ مَا لِكَا إِنْ مَا لِكَا
سَيَعِصِمُكُمْ إِنْ كَانَ فِي النَّاسِ عَاصِمٌ
وهذه العصمة التي في الآية هي من المخاوف التي يمكن أن توقف عن شيء من التبليغ كالقتل والأسر والأذى في الجسم ونحوه، وأما أقوال الكفار ونحوها فليست في الآية.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إما على الخصوص فيمن سبق في علم الله أنه لا يؤمن، وإما على العموم على أن لا هداية في الكفر، ولا يهدي الله الكافر في سبيل كفره.

ثم أمر تعالى نبيه محمداً عليه الصلاة والسلام أن يقول لأهل الكتاب الحاضرين معه ﴿لَسْتُمْ عَلَى

شئٍ﴾ أي: على شيء مستقيم حتى تقيموا التوراة والإنجيل، وفي إقامة هذين الإيمان بمحمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ يعني به القرآن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، ثم أخبر تعالى نبيه أنه سيطفي كثير منهم بسبب نبوة محمد ﷺ، ويزيده نزول القرآن والشرع كفرة وحسداً، ثم سلاهم عنهم وحفرهم بقوله: ﴿فَلَا تَأْسَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: لا تحزن إذا لم يؤمنوا. ولا تُبالي بهم، والأسى: الحزن. يقال: أسى الرجل يأسى أسى إذا حزن، ومنه قول الراجز:

وَأَحْبَبْتُ عَيْنَاهُ مِنْ فَرْطِ الْأَسَى

وأسند الطبري إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء رسول الله ﷺ رافع بن جارية، وسلام بن مشكم، ومالك بن الصيف، ورافع بن خزيمة فقالوا: يا محمد، ألسنت تزعم أنك على ملّة إبراهيم وأنت تؤمن بالتوراة وبنبوة موسى، وأن جميع ذلك حق؟ قال: بلى، ولكنكم أحدثتم وغيرتم وكنتمتم، فقالوا: إنا نأخذ بما في أيدينا فإنه الحق، ولا نصدقك ولا نسمعك، فنزلت الآية بسبب ذلك: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ الآية.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ لفظ عام لكل مؤمن من ملّة محمد ومن غيرها من الملل، فكان ألقاظ الآية حصر بها الناس كلهم، وبيّنت الطوائف على اختلافها. وهذا تأويل جمهور المفسرين، وقال الزجاج: المراد

هادوا، وقيل: (إِنَّ) بمعنى (نعم)، وما بعدها مرفوع بالابتداء، وروي عن بعضهم أنه قرأ: ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ بالهمزة. واتصال هذه الآية بالتي قبلها هو أن قيل لهم: ليس الحق في نفسه على ما تزعمون من أنكم أبناء الله وأحباؤه، بل لستم على شيء مستقيم حتى تؤمنوا وتقيموا الكتب المنزلة، ثم استأنف الإخبار عن الحق في نفسه بأنه من آمن في كل العالم فهو الفائز الذي لا خوف عليه.

وقوله عز وجل: ﴿أَقَدَّ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية استئناف خبر بفعل أوائلهم، وما نقضوا من العهود واجتروا من الجرائم، أي: ﴿إِنَّ الْعَصَا مِنَ الْعَصِيَّةِ﴾. وهؤلاء يا محمد من أولئك، فليس قبيح فعلهم بيدع.

و ﴿كَلَّمَآ﴾ ظرف والعامل فيه: ﴿كَذَّبُوا﴾ و ﴿يَقْتُلُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَمَّا لَا تَهْتَبُ أَنفُسُهُمْ﴾ يقتضي أن هواهم كان غير الحق، وهو ظاهر هوى النفس متى أطلق، فمتى قُيد بالخير ساغ ذلك، ومنه قول عمر رضي الله عنه في قصة أسارى بدر: فهوي رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر رضي الله عنه، ولم يهو ما قلت أنا. وقوله تعالى: ﴿فَرِيقًا كَذَّبُوا﴾ معناه: كذبه فقط، يريد: الفريق من الرسل، ولم يقتلوه، وفريقاً من الرسل كذبه، وقتلوه فاكتفى بذكر القتل إذ هو يستغرق التكذيب.

٧١ - ٧٢ تفسير قوله عز وجل:

المعنى في هذه الآية: وظن هؤلاء الكفرة والعصاة من بني إسرائيل ألا

كعب، وسعيد بن جبير، والجحدري: ﴿الصَّابِغِينَ﴾، وهذه قراءة بيئنة الإعراب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، والزهري: ﴿والصَّابِغُونَ﴾ بكسر الباء وضم الياء دون همز، وقد تقدم في سورة البقرة.

وأما قراءة الجمهور: ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ فمذهب سيبويه والخليل ونحاة البصرة أنه من المقدم الذي معناه التأخير، وهو المراد به، كأنه قال: (إِنَّ) الذين آمنوا والذين هادوا من آمن بالله واليوم الآخر

وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، والصابغون والنصارى كذلك، وأنشد الزجاج نظيراً في ذلك:

وإلا فاعلُموا أننا وأنتم
بُناة ما بقينا في شقاق
فقوله: «وأنتم» مقدم في اللفظ مؤخر في المعنى، أي: وأنتم كذلك.

وحكى الزجاج عن الكسائي والفراء أنهما قالوا: ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ عطف على ﴿الَّذِينَ﴾، إذ الأصل في ﴿الَّذِينَ﴾ الرفع، وإذ نصب (إِنَّ) ضعيف. وخطأ الزجاج هذا القول وقال: (إِنَّ) أقوى النواصب، وحكى أيضاً عن الكسائي أنه قال: ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ عطف على الضمير في ﴿هَادُوا﴾ والتقدير: هادوا هم والصابغون وهذا قول يردّه المعنى: لأنه يقتضي أن الصابغين

وَصَبَّوْا الْأَتَاكُوتَ فَنَسَتْهُ فَعَمُوا وَصَمَّوْا ثُمَّ قَاتَبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ ثُمَّ عَمُوا وَصَمَّوْا كَثِيرًا مِنْهُمْ وَاللَّهُ بِبَصِيرٍ يَمَا يَعْمَلُونَ ﴿٧١﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَدْرِكُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأَمَّهُ صِدْقَةٌ كَانَ نَايَأً كَلَانَ أَطْعَمَهُمُ أَنْظَرَكِهِمْ نَبِيًّا لَهُمْ آيَاتٌ ثُمَّ أَنْظَرْنَا أَنْ يُؤْفِكُوهُمْ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَعْتَدْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾

بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ المنافقون، فالمعنى: إن الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان ألفاظ الآية عدت الطوائف التي يمكن أن تنتقل إلى الإيمان، ثم نفى عنهم الخوف والحزن بشرط انتقالهم إلى الإيمان بالله واليوم الآخر، وعلى التأويل الأول يكون قوله: ﴿مَنْ آمَنَ﴾ في حيز المؤمنين، بمعنى: ثبت واستمر، وقد تقدم تفسير: ﴿هَادُوا﴾ وتفسير ﴿وَالصَّابِغِينَ﴾ وتفسير ﴿الْفَصْرَيْنِ﴾ في سورة البقرة.

واختلف الفراء في إعراب «الصابغين» في هذه الآية - فقرأ الجمهور: ﴿وَالصَّابِغُونَ﴾ بالرفع، وعليه مصاحف الأمصار والقراء السبعة، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعائشة رضي الله عنها، وأبي بن

يكون من الله ابتلاء لهم وأخذ في الدنيا وتمحيص فلجؤوا في شهواتهم، وعموا فيها إذ لم يتبصروا الحق شبهوا بالعمى، وصموا إذ لم يسمعهو شبهوا بالصمم، ونحو هذا قول النبي ﷺ: «جُبْتُ الشَّيْءَ يَعْمي ويصم».

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ - قالت جماعة من المفسرين: هذه التوبة هي ردهم إلى بيت المقدس بعد الإخراج الأول وردهم ملكهم وحالهم، ثم عموا وصموا بعد ذلك حتى أخرجوا الخرجة الثانية، ولم ينجبروا أبداً. وقالت جماعة: ثم تاب الله عليهم ببعث عيسى عليه السلام إليهم. وقالت جماعة: توبته تعالى عليهم بعث محمد عليه الصلاة والسلام، وخص بهذا المعنى كثيراً منهم لأن منهم قليلاً قد آمن. ثم توعدهم بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَمْشَوْنَ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَلَا تَكُونُ﴾ بنصب النون، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنْ لَا تَكُونُ﴾ برفع النون، ولم يختلفوا في رفع ﴿فِتْنَةً﴾ لأن (كان) هنا هي التامة، فوجه قراءة النصب أن تكون [أَنْ] هي الخفيفة الناصبة، ووجه قراءة الرفع أن تكون المخففة من الثقلة، وحسن دخولها لأن (لا) قد وطأت أن يليها الفعل، وقامت مقام الضمير المحذوف عوضاً منه، ولا بد في مثل هذا من عوض، مثل قولك: علمت أن قد يقوم زيد، وقوله عز وجل: ﴿عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ نَجْرًا﴾، وقولك: علمت أن سوف يقوم زيد،

وأنا لا تكونون فتنَةً. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ حسن فيه ألا يكون عوض لأن (ليس) ليس بفعل حقيقي، والأفعال ثلاثة ضروب: ضربٌ يجري مجرى تيقنت، نحو علمتُ ودرت، فهذا الضرب تليه (أن) الثقلة التي تناسبه في الشبوت وحصول الوقوع، وضرب في الضد من ذلك، نحو طمعتُ ورجوت وخفت، هو مصرح بأن لم يقع، فهذا الضرب تليه (أن) الخفيفة إذ هي تناسبه، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغَيِّرَ لِي﴾، و﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخْتَلِفَكُمْ أُنَاسٌ﴾، و﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُبَيِّنَ لَكُمْ اللَّهُ﴾، و﴿فَخَيَّبْنَا أَنْ يُرَافِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾، و﴿وَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُفَدِّمُوا﴾ ونحو هذا، وضرب ثالث ينجذب إلى الأول مرة وإلى الثاني أحياناً نحو ظننت وحسبت وزعمت، فيجري مجرى أرجو وأطمع من حيث الظن والزعم والمحسبة أمور غير ثابتة ولا مستقرة، وقد تنزل منزلة العلم من حيث يستعمل استعماله كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُلْقُونَ أَنْهَمُ مُلْتَمِئًا رِيبَهُمْ﴾، وقوله: ﴿إِنِّي لَنْتُنَّ أَنْفَ مَلَكِي حَسَابَةً﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ بفتح العين والصاد، وقرأ ابن وثاب، والسُّخمي: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾ بضم العين والميم مخففة، ويضم الصاد، وهذا هو على أن تجري مجرى: زُكِمَ الرجل وأزكمه الله، وحُمَ الرجل وأحمه الله، ولا يقال: زكمه الله ولا حمه الله. فكذلك يجيء هذا: عُمي الرجل وأعماه غيره، وُصِمَ وأصمه غيره، ولا يقال: عميته ولا صمته.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: رجع بهم إلى الطاعة والحق، ومن فصاحة اللفظ استناد هذا الفعل الشريف إلى الله تعالى، واستناد العمى والصمم للذين هما عبارة عن الضلال إليهم.

وقوله تعالى: ﴿كَثِيرٌ﴾ يرتفع من إحدى ثلاث جهات - إما على البدل من الواو في قوله: ﴿عَمُوا وَصَمُوا﴾، وإما على جمع الفعل وإن تقدم على لغة من قال: «أكلوني البراغيث»، وإما على أن يكون ﴿كَثِيرٌ﴾ خبر ابتداء مضمراً.

ثم أخبر تعالى إخباراً مؤكداً بلام القسم عن كفر القائلين: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ»، وهذا قول اليعقوبية من النصارى، ثم أخبر تعالى عن قول المسيح لهم وتبليغه كيف كان، فقال: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وهذه المعاني قول المسيح بألفاظ لغته، وهي بعينها موجودة في تبليغ محمد ﷺ في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغَيِّرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾، إلى غير ذلك من الآيات، وأخبرهم عيسى عليه السلام أن الله تعالى هو ربُّه وربُّهم فضلوا هم وكفروا بسبب ما رأوا على يديه من الآيات.

والمأوى هو المحل الذي يسكنه المرء ويرجع إليه، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول عيسى عليه السلام لبني إسرائيل، ويحتمل أن يكون إخباراً مستأنفاً لمحمد ﷺ، وقد تقدم القول في تفسير لفظة (المسيح) في سورة آل عمران.

وغيرهم، ولا تكون هنالك نبوة،
فكذلك أمر مريم.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ يَكْفُرًا
الطَّغَامُ﴾ تنبيه على نقص البشرية
وعلى حال من الاحتياج إلى الغذاء
وتنتفي معه الألوهية، وذكر مكى،
والمهدوي، وغيرهما أنها عبارة عن
الاحتياج إلى الغائط، وهو قول بشع
ولا ضرورة تدفع إليه حتى يقصد هذا
المعنى بالذكر، وإنما هي عبارة عن
الاحتياج إلى التغذية، ولا محالة أن
الناظر إذا تأمل بذهنه لواحق التغذية
وجد ذلك وغيره.

ثم أمر تعالى محمداً ﷺ - وفي
الضمن أمته - بالنظر في ضلال هؤلاء
القوم ويعدمهم عن سنن الحق، وأن
الآيات تُبَيِّنُ لهم وتُبَيِّرُ في غاية
الوضوح، ثم هم بعد ذلك
يُضْرَفُونَ، أي: تصرفهم دواعيهم
ويزيلهم تكسيهم عن الحق.

و ﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية ليست
سؤالاً عن حال، لكنها عبارة عن
حال شأنها أن يُسأل عنها بكيف،
وهذا كقولك: كن كيف شئت فأنت
صديق.

و ﴿أَيَّ﴾ معناها: من أي جهة، قال
سيبويه: معناها: كيف؟ ومن أين؟

و ﴿يُؤَفِّكُونَ﴾ معناها: يصرفون،
ومنه قوله عز وجل: ﴿يُؤَفِّكُ عَنْهُ مِنَ
أَيْدِيهِمْ﴾، والأرض المأفوكة: التي
صرفت عن أن ينالها المطر، والمطر
في الحقيقة هو المصروف، ولكن
قيل: أرض مأفوكة لما كانت مأفوكة
عنها.

٧٣ - ٧٤ - تفسير قوله عز وجل:
أمر الله تعالى نبيه أن يوقفهم على

الخالق المبتدع المتصف
بالصفات العلى، تعالى
عما يقول المبطلون.

ثم توعد تبارك وتعالى
هؤلاء القائلين هذه
العظيمة بمرس العذاب،
وذلك وعيد بعذاب الدنيا
من القتل والسبي،
وبعذاب الآخرة بعدد، لا
يفلت منه أحد منهم.

ثم رفق جل وعلا بهم
بتحضيضه إياهم على التوبة
وطلب المغفرة، ثم وصف
نفسه بالغفران والرحمة
استجلاباً للتائبين وتأنيساً
لهم ليكونوا على ثقة من
الانتفاع بتوبتهم.

ثم أخبر تعالى عن حقيقة أمر
المسيح وأنه رسول بشر كالرسل
المتقدمة قبله. و ﴿خَلَقَ﴾ معناه:
مضت وتقدمت في الخلاء من
الأرض، وقرأ حطان بن عبدالله
السرقاشسي: ﴿قَدْ خَلَقَ مِنْ قَبْلِهِ
الرُّسُلَ﴾ بتكثير الرسل، وكذلك
قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَقَ مِنْ
قَبْلِهِ الرُّسُلَ﴾ وقد مضى القول على
وجه هذه القراءة هناك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا صِدْقَةٌ﴾
صفة ببناءٍ مبالغه من الصدق،
ويحتمل أن يكون من التصديق، وبه
سُمي أبو بكر الصديق رضي الله عنه
لتصديقه، وهذه الصفة لمريم تدفع
قول من قال: هي نبيّة، وقد يوجد
في صحيح الحديث قصص قوم
كلمتهم ملائكة في غير ما فن كقصّة
الثلاثة، الأقرع والأعمى والأبرص

قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ
وَلَاتَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَصْلُوا
كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٣﴾ لَوْ أَنَّ الَّذِينَ
كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلِمُوا لِسَانَ دَاوُدَ وَعِيسَى
ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٤﴾
كَانُوا لَا يَتَنَبَّهُونَ عَنْ مَنكِرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ
مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٥﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ
يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ
أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خِلَافٌ ﴿٧٦﴾
وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ
مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَسَقُونَ
﴿٧٧﴾ اتَّجَدَدَ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودُ
وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَنَجِدَنَّ أَقْرَبَهُمْ مَوَدَّةً لِلَّذِينَ
آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرُكَ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُضِلِّينَ ﴿٧٨﴾
فَتَسْبِيحٌ وَرَهَبٌ وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٧٩﴾

٧٣ - ٧٤ - تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية إخبار مؤكد كالذي قبله،
وهو عن هذه الفرقة الناطقة بالتثليث،
وهي - فيما يقال - الملكية، وهم فرق
من النسطورية وغيرهم، ولا معنى
لذكر أقوالهم في كتاب تفسير، إنما
الحق أنهم على اختلاف أحوالهم كفار
من حيث جعلوا في الإلهية عدداً،
ومن حيث جعلوا العيسى عليه السلام
حكماً إلهياً.

وقوله تعالى: ﴿تَالِكِ لَنَلْبَثَنَّ﴾ لا
يجوز فيه إلا الإضافة وخفض
﴿لَنَلْبَثَنَّ﴾، لأن المعنى: أحد ثلاثة،
فإن قلت: زيد ثالث اثنين، أو رابع
ثلاثة جاز لك أن تضيف كما تقدم،
وجاز ألا تضيف وتنصب ثلاثة على
معنى: زيد يربع ثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا
إِلَهُ رَبِّكَ﴾ خبر صادق بالحق، وهو

عبادتهم شخصاً من البشر لا يملك أن يضرهم ولا أن ينفعهم.

و ﴿تَنْ دُونِ﴾ و «دُونَ فُلَانٍ» وما جاء من هذه اللفظة فإنما تُضاف إلى من ليس في النازلة التي فيها القول، وتفسيرها بـ (غير) أمر غير مطرد.

والضَّر - بفتح الضاد - المصدر، والضَّر - بضمها - الاسم، وهو عدم الخير.

و ﴿السَّمِيعُ﴾ إشارة إلى تحصيل أقوالهم، و ﴿الْعَلِيمُ﴾ بنياتهم، وقال بعض المفسرين: هاتان الصفتان منبّهتان على قصور البشر، أي: والله تعالى هو السميع العليم بالإطلاق لا عيسى ولا غيره، وهم مقرّون أن عيسى قد كان مُدَّة لا يسمع ولا يعلم، وقال نحوه مكي.

ثم أمر تعالى نبيه محمداً أن ينهاهم عن الغلو في دينهم، والغلو: تجاوز الحد، غلا السهم: إذا تجاوز الغرض المقصود واستوفى سره من الاطراد، وتلك المسافة هي غلوته، وكما كان قوله: ﴿لَا تَقُولُوا﴾

بمعنى: لا تقولوا ولا تلتزموا نصب (غير)، وليس معنى هذه الآية:

جنبوا من دينكم الذي أنتم عليه الغلو، وإنما معناه: ﴿فِي دِينِكُمْ﴾ الذي ينبغي أن يكون دينكم، لأن

كل إنسان فهو مطلوب بالدين الحق، وحرّي أن يتبعه ويلتزمه، وهذه

المخاطبة هي للنصارى الذين غلو في عيسى عليه السلام، والقوم الذين

نهى النصارى عن اتباع أهوائهم بنو إسرائيل، ومعنى الآية: لا تتبعوا أنتم أهواءكم كما اتبع أولئك أهواءهم، فالمعنى: لا تتبعوا طرائقهم، والذي

دعا إلى هذا التأويل أن النصارى في غلوهم ليسوا على هوى بني إسرائيل، هم بالضد في الأقوال، وإنما اجتمعوا في اتباع نوع الهوى، فالآية بمنزلة قولك لمن تلومه على عوج: هذه طريقة فلان: تمثله بأخر قد اعوج نوعاً آخر من الاعوجاج وإن اختلفت نوازله.

ووصف تعالى اليهود بأنهم ضلوا قديماً وأضلوا كثيراً من أتباعهم، ثم أكد الأمر بتكرار قوله تعالى:

﴿وَضَلُّوا عَنْ سَبِيلِ السَّبِيلِ﴾، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى:

يأهل الكتاب من النصارى لا تتبعوا أهواء هؤلاء اليهود الذين ضلوا من قبل، أي: ضل أسلافهم وهم قبل

مجيء محمد عليه الصلاة والسلام، وأضلوا كثيراً من المنافقين، وضلوا

عن سواء السبيل الآن بعد وضوح الحق. وقوله تعالى:

﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ الآية، قد تقرر في غير موضع من القرآن ما

جرى في مدة موسى عليه السلام من كفر بعضهم وعتوهم، وكذلك أمرهم

مع محمد عليه الصلاة والسلام كان مشاهداً في وقت نزول القرآن،

فخصت هذه الآية داود وعيسى عليهما السلام إعلماً بأنهم لعنوا في الكتب الأربعة، وأنهم قد لعنوا على

لسان غير موسى عليه السلام ومحمد عليه الصلاة والسلام.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لعنوا بكل لسان، لعنوا على عهد موسى عليه السلام في التوراة، وعلى عهد داود عليه السلام في

الزبور، وعلى عهد عيسى عليه السلام في الإنجيل، وعلى عهد محمد ﷺ في القرآن.

وروي ابن جريج أنه اقترن بلعنتهم على لسان داود عليه السلام أن

مسخوا خنازير، وذلك أن داود عليه السلام مرّ على نفر وهم في بيت، فقال: من في البيت؟ قالوا: خنازير،

على معنى الأثحاب، قال: اللهم اجعلهم خنازير، فكانوا خنازير، ثم

دعا عيسى عليه السلام على من افترى عليه على أن يكونوا قردة، فكانوا قردة. وقال مجاهد وقتادة:

بل مسخوا في زمن داود عليه السلام قردة، وفي زمن عيسى عليه السلام خنازير، وحكى الزجاج نحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر المسخ ليس مما تعطيه ألفاظ الآية، وإنما تعطي ألفاظ الآية أنهم لعنهم الله وأبعدهم من رحمته،

وأعلم بذلك العباد المؤمنين على لسان داود النبي في زمنه، وعلى

لسان عيسى في زمنه، وروي عن ابن عباس أنه قال: لعن على لسان داود

أصحاب السبت، وعلى لسان عيسى الذين كفروا بالمائدة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى لعنتهم، وبإتي الآية بين:

﴿٧٩﴾ - ﴿٨١﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذم الله تعالى هذه الفرقة الملعونة بأنهم ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ﴾ أي أنهم كانوا يتجاهرون بالمعاصي، وإن نهى ناه

فعلن غير جد. بل كانوا لا يمتنع الممسك عن مواصلة المعاصي ومواكفته وخلطته، وروي ابن مسعود

تعالى: ﴿أَنْ سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، فإن ﴿سَخَطَ﴾ في موضع رفع بدلٌ من [ما] ويحتمل أن يكون التقدير: هو أن سخط الله عليهم، وقال الزجاج: [أَنْ] في موضع نصب على تقدير: بأن سخط الله عليهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالنَّبِيِّ﴾ إن كان المراد الأسلاف فالنبي داود وعيسى عليهما السلام، وإن كان المراد معاصري محمد فالنبي محمد عليه الصلاة والسلام، و ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم عبدة الأوثان، وخص الكثير منهم بالفسق إذ منهم قليل من آمن.

وذهب بعض المفسرين إلى أن قوله تعالى: ﴿تَكَرَّيْ كَثِيرًا يَنْهَدُ﴾ كلام منقطع من ذكر بني إسرائيل، وأنه يعني به المنافقون، وقال مجاهد رحمه الله: ﴿وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية، يعني بها المنافقون.

(٨٢) - (٨٢) تفسير قوله عز وجل: اللام في قوله: ﴿تَتَّجِدَنَّ﴾ لام الابتداء، وقال الزجاج: هي لام قسم، ودخلت هذه النون الثقيلة لتفصل بين الحال والاستقبال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خير مطلق منسحب على الزمن كله، وهكذا هو الأمر حتى الآن، وذلك أن اليهود مَرَّتُوا على تكذيب الأنبياء وقتلهم، ودرَبُوا العُسْرَ والمعاصي، ومَرَدُوا على استشعار اللعنة وضرب الذلة والمسكنة، فهم قد لَحَجَّتْ عداوتهم، وكَثُرَ حسدهم، فهم أشد الناس عداوةً للمؤمنين، وكذلك المشركون عبدة الأوثان من العرب، والنيران من

وقال حذاق أهل العلم: ليس من شروط الناهي أن يكون سليماً من المعصية، بل ينهى العصاة بعضهم بعضاً. وقال بعض الأصوليين: فرض على الذين يتعاطون الكؤوس أن ينهى بعضهم بعضاً، واستدل قائل هذه المقالة بهذه الآية، لأن قوله: ﴿يَسْتَأْهِونَ﴾ و ﴿فَمَلُوهُ﴾ يقتضي اشتراكهم في الفعل، وذهب على ترك التناهي.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ السلام لام قسم، وجعل الزجج مصدرية، وقال: التقدير: لبس شيئاً فعلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر. وقال غيره: [ما] نكرة موصوفة، التقدير: لبس الشيء الذي كانوا يفعلون فعلاً.

وقوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿تَكَرَّيْ كَثِيرًا﴾ يحتمل أن يكون رؤية قلب، وعلى هذا فيحتمل أن يريد: من الأسلاف المذكورين، أي: ترى الآن إذا أخبرناك، ويحتمل أن يريد: من معاصري محمد ﷺ، لأنه كان يرى ذلك من أمورهم ودلائل حالهم، ويحتمل أن تكون رؤية عين، فلا يريد إلا معاصري محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ مَا قَدَّمَتْ كَفَرٌ أَنْفُسُهُمْ﴾ أي: قدمته لآخره واجترحته، ثم فسّر ذلك قوله

وإذ أسموها أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا إنما كنا كنا مع الشاهدين ﴿٨٢﴾ وما لنا لا تؤمن بالله وما جاءنا من الحق ونطمع أن يدخلنا ربنا مع القوم الصالحين ﴿٨٣﴾ فأنهت الله بما قالوا جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وذلك جزاء المحسنين ﴿٨٤﴾ والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم ﴿٨٥﴾ يتأهبها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تحسدوا إيت الله لا يحب الممتدين ﴿٨٦﴾ وكفوا أيماناً منكم الله حلال طيبات وأنقوا الله الذي أنشد به مؤمنون ﴿٨٧﴾ لا يؤاخذكم الله بالغوا في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفرت به بطعام عشرة مسكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصصام تلتذوا أيام ذلك كفرة أيمانكم إذا حلفتم وأحفظوا أيمانكم كذلك بين الله لكم ما بينكم لعلكم تذكرون ﴿٨٨﴾

قال: (قال رسول الله ﷺ: إن الرجل من بني إسرائيل كان إذا رأى أخاه على ذنب نهاه عنه تعزيراً، فإذا كان من الغد لم يمنعه ما رأى منه أن يكون خليطه وأكيله) فلما رأى الله ذلك منهم ضرب بقلوب بعضهم على بعض، ولعنهم على لسان نبيهم داود وعيسى عليهما السلام، قال ابن مسعود: وكان رسول الله ﷺ متكأ فجلس وقال: لا والله حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والإجماع على أن النهي عن المنكر واجب لمن أطاقه ونهى بمعروف وأمن الضرر عليه وعلى المسلمين، فإن تعذر على أحد النهي لشيء من هذه الوجوه ففرض عليه الإنكار بقلبه وألا يخالط ذا المنكر.

المجوس، لأن الإيمان إياهم كفر، وعروشهم ثل ويبن أنهم ليسوا على شيء من أول أمرهم، فلم يبق لهم بقية، فعداوتهم شديدة.

والنصارى أهل الكتاب يقضي لهم شرعنا بأن أول أمرهم صحيح لولا أنهم ضلوا، فهم يعتقدون أنهم لم يضلوا، وأن هذه الجلة لم تنسخ شرعهم، ويعظمون من أهل الإسلام من استشعروا منهم صحة دين، ويستهينون من فهموا منه الفسق، فهم إذا حاربوا فإنما حزبتهم أنفة وكسب لا أن شرعهم يأخذهم بذلك، وإذا سالموا فسلمهم صاف، ويعين على هذا أنهم أمة شريفة الخلق، لهم الوفاء والخلال الأربع التي ذكر عمرو بن العاص في صحيح مسلم، وتأمل أن النبي ﷺ سر حين غلبت الروم فارس، وذلك لكونهم أهل كتاب، ولم يرد عليه الصلاة والسلام أن يستمر ظهور الروم، وإنما سر بغلبة أهل كتاب لأهل عبادة النار، وانضاف إلى ذلك أن غلب العدو الأصغر وانحصرت شوكة العدو الأكبر المخوف على الإسلام.

واليهود - لعنهم الله - ليسوا على شيء من هذا الخلق، بل شأنهم الخبث والئي بالأسنة، وفي خلال إحسانك إلى اليهودي يبغيك هو الغوائل إلا الشاذ القليل منهم ممن عسى أن تخصص بأدب وأمور غيرهم ما علم أولاً.

ولم يصف الله تعالى النصارى بأنهم أهل ود، وإنما وصفهم بأنهم أقرب من اليهود والمشركين، فهو

قرب مودة بالنسبة إلى متباعدين.

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرَتُكَ﴾ إشارة إلى أن المعاصرين لمحمد ﷺ من النصارى ليسوا على حقيقة النصرانية، بل كونهم نصارى قول منهم وزعم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَن مِّنْهُمْ قِبَلَيْكَ ذُرِّيَّتًا﴾ معناه: ذلك بأن منهم أهل خشية وانقطاع إلى الله وعبادته وإن لم يكونوا على هدى، فهم يميلون إلى أهل العبادة والخشية، وليس عند اليهود ولا كانوا قط أهل ديارات وصوامع وانقطاع عن الدنيا، بل هم معظّمون لها، متطاولون في البنيان وأمور الدنيا حتى كأنهم لا يؤمنون بالأخرة، فلذلك لا يرى فيهم زاهد.

ويقال: قس بفتح القاف وبكسرهما وقسيس، وهو اسم أعجمي عرب، والقس في كلام العرب: النعمة، وليس من هذا.

وأما الرهبان فجمع راهب، وهذه تسمية عربية، والرهب: الخوف، ومن الشواهد على أن الرهبان جمع قول الشاعر:

رُهْبَانٌ مَّذِينٌ لَوْ رَأَوْكَ تَسْتَرُّوْا

والغضم من شغف العقول الفاذر وقد قيل: الرهبان اسم مفرد، والدليل عليه قول الشاعر:

لَوْ عَايَنْتَ رُهْبَانَ ذَيْرٍ فِي الْقُلُلِ

تحذر الرهبان يمشي وتزل قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويروي: وتزل بالياء من الزلزل، وهذه الرواية أبلغ في معنى غلبة هذه المرأة على ذهن هذا الراهب.

ووصف الله تعالى النصارى بأنهم لا

يستكبرون، وهذا بين موجود فيهم حتى الآن، واليهودي متى وجد غروراً طغى وتكبر، وإنما أذلهم الله وأضرعتهم الحمى، وداسهم لكلل الشريعة، ودین الإسلام أعلاه الله.

وذكر سعيد بن جبیر، ومجاهد، وابن عباس أن هذه الآية نزلت بسبب وفد بعثهم النجاشي إلى رسول الله ﷺ ليرؤه ويعرفوا حاله، فقرأ للنبي ﷺ عليهم القرآن فبكوا وآمنوا ورجعوا إلى النجاشي فأمن ولم يزل مؤمناً حتى مات فصلى عليه النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي أن نغش النجاشي كشف للنبي ﷺ فكان يراه من موضعه بالمدينة، وجاء الخبر بعد مدة أن النجاشي دفن في اليوم الذي صلى فيه النبي ﷺ، وذكر السدي أنهم كانوا اثني عشر، سبعة قسيسين وخمسة رهباناً. وقال أبو صالح:

كانوا سبعة وستين رجلاً، وقال سعيد بن جبیر: كانوا سبعين، عليهم ثياب الصوف، وكلهم صاحب صومعة، اختارهم النجاشي الخير فالخير، وذكر السدي أن النجاشي خرج مهاجراً فمات في الطريق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لم يذكره أحد من العلماء بالسيرة.

وقال قتادة: نزلت هذه الآيات في قوم كانوا مؤمنين ثم آمنوا بمحمد عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفرق الطبري بين هذين القولين وهما واحد.

وروي سلمان الفارسي عن النبي ﷺ: «ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ صِدِّيقِينَ وَرُهْبَانًا».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ الرَّسُولَ تَرَكَا مَقَاعَهُنَّ﴾ الآية، الضمير في ﴿سَمِعُوا﴾ ظاهره العموم، ومعناه الخصوص فيمن آمن من هؤلاء القادمين من أرض الحبشة، إذ هم عرفوا الحق وقالوا: أمنا، وليس كل النصراني يفعل ذلك، وصدر الآية في قُرب المودة عام فيهم، ولا يتوجه أن يكون صدر الآية خاصاً فيمن آمن، لأن من آمن فهو من الذين آمنوا وليس يقال فيه: ﴿قَالُوا إِنَّا نَصَرْنَاكَ﴾، ولا يقال في مؤمنين: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قَتِيلِينَ﴾، ولا يقال: «إنهم أقرب مودة»، بل من آمن فهو أهل مودة محضة، فإنما وقع التخصيص من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا﴾، وجاء الضمير عاماً إذ قد تُحمد الجماعة بفعل واحد منها، وفي هذا استدعاء للنصراني ولطف من الله تعالى بهم، ولقد يوجد فيض الدموع غالباً فيهم وإن لم يؤمنوا.

وروي أن وفداً من نجران قدم على أبي بكر الصديق في شيء من أمورهم، فأمر من يقرأ القرآن بحضرتهم، فبكوا بكاء شديداً، فقال أبو بكر: هكذا كنا ولكن قست القلوب.

وروي أن راهباً من رهبان ديارات الشام نظر إلى أصحاب النبي ﷺ ورأى عبادتهم وجدّهم في قتال عدوهم فعجب من حالهم وبكى وقال: ما كان الذين نُشروا بالمشاير

على دين عيسى بأصبر من هؤلاء ولا أجَدَّ في دينهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالقوم الذين وُصفوا بأنهم عرفوا الحق هم الذين بعثهم النجاشي ليروا النبي ﷺ ويسمعوا ما عنده، فلما رأوه قرأ عليهم القرآن، وهو المراد بقوله: ﴿مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ الرَّسُولُ﴾ فاضت أعينهم بالدمع من خشية القلوب.

والرؤية في الآية رؤية العين، و ﴿تَبَيَّنَ حَالُ مَنْ (الْأَعْيُنَ)﴾ و ﴿يَقُولُونَ حَالٌ أَيْضاً﴾ و ﴿ءَامَنَّا﴾ معناه: صدقنا أن هذا رسولك، والمسموع كتابك. والشاهدون: محمد وأمه. قال ابن عباس، وابن جريج، وغيرهما.

وقال الطبري: لو قال قائل: معنى ذلك: مع الشاهدين بتوحيدك من جميع العالم من تقدم ومن تأخر لكان ذلك صواباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا معنى قول الطبري، وهو كلام صحيح، وكان ابن عباس رضي الله عنهما خصص أمة محمد عليه الصلاة والسلام لقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ الآية.

٨٧ - ٨٤ - تفسير قوله عز وجل: قولهم: ﴿وَمَا لَنَا﴾ توقيف لأنفسهم، أو محاجة لمن عارضهم من الكفار بأن قال لهم: آمنتم وعجلتم، فقالوا: وأي شيء يصدنا عن الإيمان وقد لاح الصواب وجاء الحق المنير؟ ﴿وَمَا لَنَا﴾ ابتداء وخبر و ﴿لَا تُؤْمِنُ﴾ في موضع الحال، ولكنها حال هي المقصد وفيها الفائدة، كما تقول: «جاء زيد راكباً»

وأنت قد سُئِلت: «هل جاء ماشياً أو راكباً؟»

وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وما لَنَا لا نُؤْمِنُ بالله وما أنزل إلينا ربنا﴾.

﴿وَنَطَمَعُ﴾ تقديره: ونحن نطمع، فالواو عاطفة جملة على الجملة، لا عاطفة فعل على فعل، والقوم الصالحون: محمد وأصحابه، قاله ابن زيد وغيره من المفسرين.

ثم ذكر الله تعالى ما أتاهم به من النعيم على إيمانهم وإحسانهم.

ثم ذكر حال الكافرين المكذبين وأنهم قرناء الجحيم، والمعنى قد علم من غير ما آية من كتاب الله أنه اقتران لازم دائم أبدي.

وقوله تعالى: ﴿بَنَاتُهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَحْرِمُوا طَبِيبَاتٍ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾ الآية.

قال أبو مالك، وعكرمة، والنخعي، وأبو قلابة، وقتادة، والسدي، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وغيرهم: إنها نزلت بسبب جماعة من أصحاب النبي ﷺ بلغت منهم المواعظ وخوف الله إلى أن حرّم بعضهم النساء، وبعضهم النوم بالليل والطيب، وهم بعضهم بالاختصاص، وكان منهم علي بن أبي طالب، وعثمان بن مظعون. قال عكرمة: ومنهم ابن مسعود، والمقداد، وسالم مولى أبي حذيفة. وقال قتادة: رفضوا النساء واللحم وأرادوا أن يتخذوا الصوامع، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أخذوا الشفار ليقطوا مذاكرهم، وطول السدي في قصة الحولاء امرأة عثمان بن مظعون مع أزواج النبي ﷺ وإخبارها بأنه لم

يلم بها، فلما أعلم رسول الله ﷺ بحالهم قال: «أَنَا أَنَا فَأَقُومُ وَأَنَا، وَأَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأَتِي النِّسَاءَ، وَأَنَا الطَّيِّبُ، فَمَنْ رَغِبَ عَنِ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي».

قال الطبري: وكان فيما يتلى: «من رغب عن سنتك فليس من أمتك، وقد ضلَّ سواة السبيل».

وقال ابن زيد: سبب هذه الآية أن عبد الله بن رواحة ضاف ضيف، فانقلب ابن رواحة وضيفه لم يتعش، فقال لزوجه: ما عشيته؟ قالت: كان الطعام قليلاً فانتظرتك، فقال: حَبَسْتُ ضَيْفِي مِنْ أَجْلِي، طَعَامُكَ عَلِيٌّ حَرَامٌ إِنْ ذَقْتَهُ، فَقَالَتْ هِيَ: وَهُوَ عَلِيٌّ حَرَامٌ إِنْ ذَقْتَهُ إِنْ لَمْ تَذُقْهُ، وَقَالَ الضَّيْفُ: وَهُوَ عَلِيٌّ حَرَامٌ إِنْ ذَقْتَهُ إِنْ لَمْ تَذُقْهُ، فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ ابْنُ رَوَاحَةَ قَالَ: قَرَّبِي طَعَامَكَ، كُلُوا بِاسْمِ اللَّهِ، فَأَكَلُوا جَمِيعاً، ثُمَّ غَدَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: أَحْسَنْتَ، وَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وأسنَد الطبري إلى ابن عباس رضي الله عنهما أن الآية نزلت بسبب رجل أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، إني إذا أصبْتُ من اللحم انتشرت وأخذتني شهوتي فحُرمت اللحم، فأَنْزَلَ اللهُ هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والطببات في هذه الآية: المُسْتَلْدَاتُ، بدليل إضافتها إلى «مَا أَحَلَّ»، وبقرينة ما ذكر من سبب الآية.

واختلف المتأولون في معنى قوله: «وَلَا تَسْتَدُوا» - فقال السدي،

وعكرمة، وغيرهما: هو نهي عن هذه الأمور المذكورة من تحريم ما أحلَّ الله وشرع ما لم يأذن به، فقوله: «وَلَا تَسْتَدُوا» تأكيد لقوله: «وَلَا تُحَرِّمُوا»، وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: ولا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله، فالنهيان على هذا تضمنا الطرفين فكأنه قال: لا تتشددوا فتحرموا حلالاً، ولا تترخصوا فتحلوا حراماً. وقد تقدم القول في معنى: «لَا يُحِبُّ الْمُتَشَدِّتِينَ» غير مرة.

﴿٨٨﴾ - ﴿٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿كُلُوا﴾ في هذه الآية عبارة عن: تمتعوا بالأكل والشرب واللباس والركوب ونحو ذلك، وخصَّ الأكل بالذكر لأنه أعظم المقصود وأخص الانتفاعات بالإنسان.

والرزق عند أهل السنة: ما صحَّ الانتفاع به، وقالت المعتزلة: الرزق: كل ما صحَّ تملكه، والحرام ليس برزق لأنه لا يصح تملكه، ويرد عليهم بأنه يلزمهم أن أكل الحرام ليس بمرزوق من الله تعالى، وقد خرَّج بعض النبلاء أن الحرام رزق من قوله تعالى: «كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةً طَيِّبَةً وَرَبُّكُمْ غَفُورٌ» قال: فذكر المغفرة مشيراً إلى أن الرزق قد يكون فيه حرام، وردَّ أبو المعالي في الإرشاد على المعتزلة بأنهم إذا قالوا: الرزق ما تملك فيلزمهم أن ما ملك فهو الرزق، وملك الله تعالى للأشياء لا يصح أن يقال فيه: إنه رزق له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الذي ألزم غير لازم فتأمل. وباقى الآية بين.

وقد تقدم القول في سورة البقرة في نظير قوله تعالى: «لَا يُوَافِقُكُمْ اللَّهُ بِأَلْفٍ فِي آيَاتِكُمْ». وقوله تعالى: «وَمَا عَدَدُ الْآيَاتِينَ» معناه: شدتكم.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: «عَقَدْتُمْ» مُشَدَّة القاف، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - وحمزة، والكسائي: «عَقَدْتُمْ» خفيفة القاف، وقرأ ابن عامر: «عَاقَدْتُمْ» بألف على وزن فاعلتم.

قال أبو علي: من شدد القاف احتمل أمرين: أحدهما أن يكون لتكثير الفعل لأنه خاطب جماعة، والآخر أن يكون (عقد) مثل (ضعف) لا يراد به التكثير، كما أن ضاعف لا يراد به فعل من اثنين، ومن قرأ «عَقَدْتُمْ» فخفف القاف جاز أن يراد به الكثير من الفعل والقليل. وعقد اليمين كعقد الحبل والعهد، وقال الحطبية:

تَوْمٌ إِذَا عَقَدُوا عَقْدًا لِحَبَابِهِمْ شَدُّوا الْعِنَاجَ وَشَدُّوا فَوْقَهُ الْكُرْبَا وَمَنْ قَرَأَ «عَاقَدْتُمْ» فَيَحْتَمِلُ ضَرَبَيْنِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَكُونَ كَطَارِقَتِ النَّعْلِ، وَعَاقِبَتِ اللَّصِّ، وَالْآخَرُ أَنْ يَرَادَ بِهِ فَاعِلَتِ الَّذِي يَقْتَضِي فَاعِلَيْنِ كَأَنَّ الْمَعْنَى: يُوَافِقُكُمْ بِمَا عَقَدْتُمْ عَلَيْهِ الْإِيمَانَ، وَيُعَدِّي (عَاقِدٌ) بِ (عَاقِدٌ) لِمَا هُوَ فِي مَعْنَى (عَاهِدٌ)، قَالَ اللهُ تَعَالَى: «وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهُ»، وَهَذَا كَمَا عُدِيَتْ «تَأْتِيْتُمْ إِلَيَّ أَكْفَاؤُكُمْ» بِ (إِلَى)، وَبِأَبْهَاءِ أَنْ تَقُولَ: نَادَيْتَ زَيْدًا، «وَتَدْبِيْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْآيَتِينَ» لَكِنْ لِمَا كَانَتْ بِمَعْنَى: دَعَوْتَ إِلَى كَذَا كَقَوْلِهِ

تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ﴾ عُدَيْت (نادى) بـ (إلى)، ثم يتسع في قوله تعالى: «عاقدمت عليه الأيمان» فيحذف الجار ويصل الفعل إلى المفعول، ثم يحذف من الصلة الضمير الذي يعود على الموصول، وتقديره: «يؤاخذكم بما عقدتموه الأيمان» كما حذف من قوله تعالى: ﴿فَأَصْحَبَا بِمَا تَوَمَّرَا﴾.

والأيمان: جمع يمين وهي الآية، سميت يميناً لما كان عرفهم أن يصفقوا بأيمان بعضهم على بعض عند الآية. وقوله تعالى: ﴿فَكَفَّرْنَاهُ﴾ معناه: فالشيء الساتر على إثم الحنث في اليمين إطعام، والضمير على الصناعة التحوية عائد على [مَا]، وتحتل [مَا] في هذا الموضع أن تكون بمعنى الذي، وتحتل أن تكون مصدرية وهو عائد مع المعنى الذي ذكرناه على إثم الحنث، ولم يجز له ذكر صريح ولكن المعنى يقتضيه.

و ﴿إِطْعَامَ عَشْرَةِ مَسْكِينٍ﴾ معناه: إشباعهم مرة، قال الحسن بن أبي الحسن: إن جمعهم أشبعهم إشباعاً واحدة، وإن أعطاهم أعطاهم مَكْرُوكاً مَكْرُوكاً، وحكم هؤلاء ألا يتكرر واحد منهم في كفارة يمين واحدة، وسواء أطعموا أفراداً أو جماعة في حين واحد، ولا يجوز في شيء من ذلك ذمّي وإن أطعم صبي فيعطى حظ كبير، ولا يجوز أن يطعم عبد ولا ذور رحم تلزم نفقته، فإن كان ممن لا تلزم المكفر نفقته فقد قال مالك: لا يعجبني أن يطعمه، ولكن إن فعل وكان فقيراً أجزأه، ولا يجوز

أن يطعم منها غني، وإن أطعم جهلاً بغناه ففي «المدونة» وغير كتاب أنه لا يجزىء، وفي «الأسدية» أنه يجزىء.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿بَيْنَ أَوْسَطٍ﴾ - فرأى مالك رحمه الله وجماعة معه هذا التوسط في القدر، ورأى ذلك جماعة في الصنف، والوجه أن يعم بلفظ الوسط القدر والصنف، فرأى مالك أن يطعم المسكين بالمدينة مذاً بمد النبي ﷺ، وذلك رطل وثلث من الدقيق وهذا لضيق المعيشة بالمدينة، ورأى في غيرها أن يتوسع، ولذلك استحسنت الغداء والعشاء، وأفتى ابن وهب بمصر بمدّ ونصف، وأشهب بمدّ وثلث، قال ابن المواز: ومدّ وثلث وسط من عيش أهل الأمصار في الغداء والعشاء، قال ابن حبيب: ولا يجزىء الخبز قفّاراً، ولكن بإدام زيت أو لبن أو لحم أو نحوه، وفي شرح ابن مزين أن الخبز القفّار يجزىء، ورأى من يقول: «إن التوسط في الصنف» إنما هو في الصنف أن يكون الرجل المكفر يتجنب أدنى ما يأكل الناس في البلد، وينحط عن الأعلى، ويكفر بالوسط من ذلك، ومذهب «المدونة» أن يراعي المكفر عيش البلد، وفي كتاب ابن المواز أن المراعى عيشه في أهله الخاص به.

وكأن الآية - على التأويل الأول - معناها: من أوسط ما تطعمون أيها الناس أهليكم في الجملة من مدينة أو صقح، وعلى التأويل الثاني معناها: من أوسط ما يطعم شخص

أهله. وقرأ الجمهور: ﴿أَهْلِيكُمْ﴾ وهو جمع أهل على السلامة، وقرأ جعفر بن محمد: ﴿بَيْنَ أَوْسَطٍ مَا تُطْعَمُونَ أَهْلِيكُمْ﴾، وهذا جمع مكسر، قال أبو الفتح: أهل بمنزلة: لَيْتَالِ كَأَنَّ وَاحِدَهَا: أَهْلَاتٌ وَلِيْلَاتٌ، والعرب تقول: أَهْلٌ وَأَهْلَةٌ، ومنه قول الشاعر:

وَأَهْلَةٌ وَذَقْدٌ تَبْرَيْتُ وَذُهُمَّ

ويقال: ليلةً وليلاه، وأنشد ابن الأعرابي:

فِي كُلِّ مَا يَوْمَ كُلِّ لَيْلَاءِ
حَتَّى يَقُولَ مَنْ رَأَى إِذْ رَأَاهُ

يَا وَنَحَهُ مَنْ جَمَلَ مَا أَشْقَاهُ
وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾

بكسر الكاف، يراد به كسوة الثياب. وقرأ سعيد بن المسيّب، وأبو

عبدالرحمن، وإبراهيم الثخعي: ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ بضم الكاف. وقرأ

سعيد بن جبير، ومحمد بن السميع اليماني ﴿أَوْ كَسَوْتُهُمْ﴾ من الأسوة،

قال أبو الفتح: كأنه قال: أو بما يكفي مثلهم، فهو على حذف

مضاف بتقدير: أو ككفاية أسوتهم. قال: وإن شئت جعلت الأسوة هي

الكفاية فلم تحتج إلى حذف مضاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، والقراءة مخالفة لخط

المصحف، ومعناها على خلاف ما تأول أهل العلم من أن الحانث في

اليمين بالله مخير في الإطعام أو الكسوة أو العتق، والعلماء على أن العتق أفضل ذلك، ثم الكسوة، ثم

الإطعام، وبدأ الله تعالى عباده

الحيوان، فهو موضع الملك فأضيف التحرير إليها.

واختلف الناس في صفة المعتق في الكفارة كيف ينبغي أن يكون؟ فقالت جماعة من العلماء: هذه رقبة مطلقة لم تقيد بإيمان فيجوز في كفارة اليمين عتق الكافر، وهذا مذهب الطبري وجماعة من العلماء، وقالت فرقة: كل مطلق في القرآن من هذا فهو راجع إلى المقيد في عتق الرقبة في القتل الخطأ، فلا يجزئ في شيء من الكفارات كافر، وهذا قول مالك رحمه الله وجماعة معه، وقال مالك رحمه الله: لا يجزئ أعمى ولا أبرص ولا مجنون، وقاله ابن شهاب وجماعة، وفي الأعراب قولان في المذهب، وكذلك في الأصم وفي الخصي، وفي العلماء من رأى أن جميع هذا يجزئ، وفرق الثخمي فجوز عتق من يعمل أشغاله وخدمته، ومنع عتق من لا يعمل كالأعمى والمقعّد والأشل البيدين، قال مالك رحمه الله: والأعجمي عندي يُجزئ من قصر النفقة، وغَيْرُهُ أَحَبُّ إِلَيَّ، قال سحنون: يريد بعد أن يجيب إلى الإسلام، فإن كان الأعجمي لم يُجب إلا أنه ممن يُجبر على الإسلام كالكبير من المجوس والصغير من الحربيين الكتائبين فقال ابن القاسم: يجزئ عتقه وإن لم يسلم، وقال أشهب: لا يُجزئ حتى يسلم، ولا يجزئ عند مالك من فيه شعبة حرية كالمدير وأم الولد ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ لَمْ يَجِدْ﴾ معناه: لم يجد في ملكه أحد هذه الثلاثة من

وزبياً، وقال بعضهم: الكسوة في الكفارة: إزار وقميص ورداء، قاله ابن عمر رضي الله عنهما، وروي عن الحسن، وابن سيرين، وأبي موسى الأشعري أن الكسوة في الكفارة ثوبان لكل مسكين، وعلّق مالك رحمه الله الحكم بما يجزئ في الصلاة، وهذا أحسن نظر، فقال: يجزئ في الرجل ثوب واحد، وقال ابن حبيب: يكسى قميصاً أو إزاراً يبلغ أن يلتفت به مشتملاً، وكلام ابن حبيب تفسير، قال مالك: تكسى المرأة درعاً وخماراً، وقال ابن القاسم في «العتبية»: وإن كسا صغير الإناث فدرع وخمار كالكبيرة، والكفارة واحدة لا يُنقص منها لصغير، قال عنه ابن المواز: ولا تعجني كسوة المراضع بحال، فأما من أمر بالصلاة فيكسوه قميصاً ويجزئه، قال ابن المواز من رأيه: بل كسوة رجل كبير وإلا لم يجزئ، قال أشهب: تعطى الأثني إذا لم تبلغ الصلاة ثوب رجل ويجزئ، وقاله ابن الماجشون.

قوله: ﴿أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ التحرير: الإخراج من الرق، ويستعمل في الأسر والمشقات وتعب الدنيا ونحوها، فمنه قوله تعالى عن أم مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحْرَضًا﴾ أي من شغوب الدنيا، ومن ذلك قول الفرزدق:

أَبْنِي عُدَانَةَ إِنَّنِي حَرَوْتُكُمْ
فَوَهَبْتُكُمْ لِعَطِيَّةَ بْنِ جَعَالٍ
أَي حَرَرْتُكُمْ مِنَ الْهَجَاءِ، وَخَصَّ
الرَّقْبَةَ مِنَ الْإِنْسَانِ إِذْ هُوَ الْعَضْوُ الَّذِي
فِيهِ يَكُونُ الْغُلُّ وَالتَّوْتُوقُ غَالِبًا مِنْ

بِالْأَيْسَرِ فَالْأَيْسَرُ، وَرُبُّ مُدَّةٍ وَمُسْغَبَةٌ
يَكُونُ فِيهَا الْإِطْعَامُ أَفْضَلُ مِنَ الْعَتَقِ،
لَكِنْ ذَلِكَ شَاذٌ وَغَيْرُ مَعْهُودٍ، وَالْحَكْمُ
لِلْأَغْلَبِ.

اختلف العلماء في حد الكسوة - فراعى قوم نفس اللفظة، فإذا كان الحانت المكفر كاسياً والمسكين مكسوراً حصل الإجزاء، وهذه رتبة تتحصل بثوب واحد، أي ثوب كان بعد إجماع الناس على أن القلنسوة بانفرادها لا تجزئ في كفارة اليمين. قال مجاهد: يجزئ في كفارة اليمين ثوب واحد فما زاد، وقال الحسن: الكسوة: ثوب لكل مسكين، وقاله طاوس، وقال منصور: الكسوة: ثوب قميص أو رداء أو إزار، وقاله أبو جعفر، وعطاء، وابن عباس، وقال: وقد تجزئ العباة في الكفارة، وكذلك الشملة، وقال الحسن بن أبي الحسن: تجزئ العمامة في كفارة اليمين، وقال مجاهد: يجزئ كل شيء إلا الثبّان وروى عن سلمان رضي الله عنه أنه قال: «نعم الثوب الثبّان»، أسنده الطبري، وقال الحكم بن عتبة: تجزئ عمامة يلف بها رأسه. وراعى قوم معهود الزي والكسوة المتعارفة، فقال بعضهم: لا يجزئ الثوب الواحد إلا إذا كان جامعاً مما قد يُتَزَيُّ به كالكساء والملحفة، قال إبراهيم الثخمي: يجزئ الثوب الجامع، وليس القميص والدرع والخمار ثوباً جامعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قد يكون القميص الكامل جامعاً

فكان بقي منها في نفوس كثير من المؤمنين .

فيه . وقال سعيد بن جبير: إن لم يكن له إلا ثلاثة دراهم أطعم، وقال قتادة: إذا لم يكن له إلا قدر ما يكفر به صام، وقال الحسن بن أبي الحسن: إذا كان له درهمان أطعم، وقال الطبري: وقال آخرون: جائز لمن لم تكن عنده مائتا درهم أن يصوم وهو ممن لا يجسد، وقال آخرون: جائز لمن لم يكن عنده فضل على رأس ماله الذي يتصرف به في

معاشه أن يصوم .
وقرأ أبي بن كعب: ﴿فَصِيَامٌ ثَلَاثَةٌ أَيَّامٍ مُّتَّبِعَاتٍ﴾، وكذلك عبدالله بن مسعود، وإبراهيم النخعي، وقال بذلك جماعة من العلماء منهم مجاهد وغيره، وقال مالك رحمه الله وغيره: إن تابع فحسب وإن فرّق أجزاء .
وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ كَثْرَةٌ أَيَّتُمْكُمْ﴾ إشارة إلى ما ذكر من الأشياء الثلاثة .
وقوله تعالى: ﴿إِذَا حَلَقْتُمْ﴾ معناه: ثم أردتم الحنث أو وقعتم فيه، وباقى الآية وصاة وتوقيف على النعمة والإيمان .
﴿٩٠﴾ - ﴿٩١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب للمؤمنين جميعاً لأن هذه الأشياء شهوات وعادات قد تلبس بها في الجاهلية وغلبت على النفوس،

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْغَنَمُ وَالْبَيْتُورُ وَالْأَنْصَابُ وَالَّذِينَ يَحْسَبُونَ أَنَّ الشَّيْطَانَ أَنْ يَقُولَ لَكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ إِنَّكُمْ رَيْدُ الشَّيْطَانِ أَنْ يَقُولَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاةُ وَالْبَغْضَاءُ فِي الْحَرَمِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدُّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأَحْذَرُوا أَنْ تَرُدَّكُمْ قَاعَ لَعْنَتِكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ عَلَى رَسُولِنَا الْبَلِّغِ الْمُبِينِ ﴿٩١﴾ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ جَاهِدُ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٢﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَيْسَلُوكُمْ اللَّهُ يُضَيِّقُ وَيُوسِّدُ تَأْتِيهِ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لَعْنَةُ اللَّهِ مِنَ الْجَاهِلِيَّةِ الْبَلِيَّةِ فَمَنْ أَعْتَدَكَ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهِ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٣﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَلَّهِ مِنْكُمْ مُعْتَدٍ فَجَزَاءٌ مِمَّا قَلَّ مِنْ أَلْسِنِهِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّرَهُ طَعَامٌ مُسْكِنٍ أَوْ عَدْلٌ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِ عَفَا اللَّهُ عَنْهُ سَلَفٌ وَمَنْ عَادَ فَيَنْقِمِ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٩٤﴾

الإطعام أو الكسوة أو عتق الرقبة .
واختلف العلماء في حد هذا العادم الوجد حتى يصبح له الصيام - فقال الشافعي رحمه الله وجماعة من العلماء: إذا كان المكفر لا يملك إلا قوته وقوت عياله يومه وليته فله أن يصوم، فإن كان عنده زائداً على ذلك ما يطعم عشرة مساكين لزمه الإطعام، وهذا أيضاً هو مذهب مالك وأصحابه، قاله مالك في «المدونة»: لا يُجزئه الصيام وهو يقدر على أحد الوجوه الثلاثة، وروي عن ابن القاسم أن من تفضل له نفقة يوم فإنه لا يصوم، وقال ابن المواز: ولا يصوم الحانث حتى لا يجد إلا قوته أو يكون في بلد لا يعطف عليه فيه، وقال ابن القاسم في كتاب ابن مزين: إن كان لكانث فضل عن قوت يومه أطعم إلا أن

الأصنام فإنما قرنت بهذه الأمور ليبين النقص في هذه إذ تُقرن بالأصنام، ولا يتأول أنه بقي في نفس مؤمن شيء من تعظيم الأصنام والتلبس بها حتى يقال له: اجتنبه . وأما الأزلام فهي الثلاثة التي كان أكثر الناس يتخذونها، في أحدها لا، وفي الآخر نعم، والآخر غفل، وهي التي حبست سراقه بن مالك بن جعشم حين اتبع النبي ﷺ في وقت الهجرة، فكانوا يعظمونها، وبقي منها في بعض النفوس شيء، وبين هذا القبيل هو الزجر بالطير، وأخذ الفأل في الكتب ونحوه مما يصنعه الناس اليوم، وقد يقال لسهام الميسر أزلام، والزلم: السهم، وكان من الأزلام أيضاً ما يكون عند الكهان، وكان منها سهام عند الأصنام وهي التي ضرب بها على عبدالله بن

عبدالمطلب أبي النبي ﷺ، وكان عند قريش في الكعبة أزالام فيها أحكام ذكرها ابن إسحق وغيره فأخبر الله تعالى أن هذه الأشياء رجس، قال ابن زيد: الرجس: الشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كل مكروه ذميم، وقد يقال للعذاب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: رجس: سخط، وقد يقال للثن وللعدرة والأقذار رجس، والرجز: العذاب لا غير، والرئس: العذرة لا غير، والرجس يقال للأميرين، وأمر الله تعالى باجتناب هذه الأمور، واقتربت بصيغة الأمر في قوله: ﴿فَأَجْتَنِبُوا﴾ نصوص الأحاديث وإجماع الأمة، فحصل الاجتناب في رتبة التحريم، فبهذا حرمت الخمر بظاهر القرآن ونص الحديث وإجماع الأمة، وقد تقدم تفسير لفظة الخمر ومعناها وتفسير المنسر في سورة البقرة، وتقدم تفسير الأنصاب والاستقام بالأزالام في صدر هذه السورة.

واختلف الناس في سبب نزول هذه الآيات - فقال أبو مسرة: نزلت بسبب عمر بن الخطاب رضي الله عنه فإنه ذكر للنبي ﷺ عيوب الخمر وما ينزل بالناس من أجلها، ودعا إلى الله في تحريمها، وقال: اللهم بين لنا فيها بياناً شافياً، فنزلت هذه الآيات، فقال عمر: انتهينا انتهينا، وقال مصعب بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه سعد قال: صنع رجل من الأنصار طعاماً فدعانا فشربنا الخمر حتى انتشينا، فتفاخرت الأنصار وقريش، فقال كل

فريق: نحن خير منكم، فأخذ رجل من الأنصار لحي جمل فضرب به أنف سعد ففزره، فكان سعد أفزر الأنف، قال سعد: ففي نزلت هذه الآية إلى آخرها.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل تحريم الخمر في قبيلتين من الأنصار، شربوا حتى إذا ثملوا عربدوا، فلما صحوا جعل كل واحد منهم يرى الأثر بوجهه ولحيته وجسده فيقول: هذا فعل بي فلان، فحدث بينهم في ذلك ضغائن، فنزلت هذه الآيات في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأمر الخمر إنما كان بتدرج ونوازل كثيرة، منها قصة حمزة حين جب الأسنة، وقال للنبي ﷺ: وهل أنتم إلا عبيد أبي؟ ومنها قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه في صلاة المغرب: قل يا أيها الكافرون، أعبد ما تعبدون، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَرَى﴾ الآية، ثم لم تنزل النوازل تحزب الناس بسببها حتى نزلت هذه الآية، فحرمت بالمدينة وخمر العنب فيها قليل، إنما كانت خمرهم من خمسة أشياء: من العسل ومن التمر ومن الزبيب ومن الحنطة ومن الشعير، والأمة مجمعة على تحريم القليل والكثير من خمر العنب التي لم تمسها نار ولا خالطها شيء، وأكثر الأمة على أن ما أسكر كثيرة فقليله حرام، ولأبي حنيفة وبعض فقهاء الكوفة إباحة ما لا يسكر مما يسكر كثيره من غير خمر العنب، وهو مذهب مردود، وقد خرج قوم

تحريم الخمر من وصفها به ﴿رَيْسٌ﴾، وقد وصف تبارك وتعالى في آية أخرى الميتة والدم المسفوح ولحم الخنزير بأنها رجس، فيجزي ذلك أن كل رجس حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

والاجتناب أن يجعل الشيء جانباً أو ناحية.

ثم أعلم تبارك وتعالى أن الشيطان إنما يريد أن تقع العداوة بسبب الخمر وما يعتري عليها بين المؤمنين، وبسبب الميسر إذ كانوا يتقارون على الأموال والأهل، حتى ربما بقي المقمور حزينا فقيراً فتحدث من ذلك ضغائن وعداوة، فإن لم يصل الأمر إلى حد العداوة كانت بغضاء، ولا تحسن عاقبة قوم متباغضين، ولذلك قال النبي ﷺ: **فولا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخواناً**، وياجتمع النفوس والكلمة يحمي الدين ويجهاد العدو. والبغضاء تنقض عرى الدين وتهدم عماد الحماية، وكذلك أيضاً يريد الشيطان أن يصد المؤمنين عن ذكر الله وعن الصلاة ويشغلهم عنها بشهوات، فالخمر والميسر والقمار كله من أعظم آلاته في ذلك. وفي قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ﴾ وعيد في ضمن التوقيف زائد على معنى (انتهوا).

ولما كان في الكلام معنى (انتهوا) حسن أن يعطف عليه ﴿وَأَطِيعُوا﴾، وكرر ﴿وَأَطِيعُوا﴾ في ذكر الرسول تأكيداً، ثم حذر تعالى من مخالفة

الأمر، وتوعد مَنْ تولى بعدذاب الآخرة، أي: إنما على الرسول أن يبلغ، وعلى المرسل أن يعاقب أو يثيب بحسب ما يُعصى أو يطاع.

﴿٩٣﴾ - ﴿٩٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية فيما قال ابن عباس، والبراء بن عازب، وأنس بن مالك أنه لما نزل تحريم الخمر قال قوم من الصحابة: يا رسول الله، كيف بمن مات منا وهو يشربها ويأكل الميسر؟ ونحو هذا من القول، فنزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نظير سؤالهم عن مات على القبلة الأولى، ونزلت: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُنزِلَ فِيكُمْ﴾، ولما كان أمر القبلة خطيراً ومعلماً من معالم الدين تخيل قوم نقص من فاته، وكذلك لما حصلت الخمر والميسر في هذا الحد العظيم من الذم أشفق قوم وتخيلوا نقص من مات على هذه المذمات، فأعلم تبارك وتعالى عباده أن الذم والجُنَاح إنما يلحق من جهة المعاصي، وأولئك الذين ماتوا قبل التحريم لم يعصوا في ارتكاب محرّم بعد، بل كانت هذه الأشياء مكروهة لم يُنص عليها بالتحريم، والشرع هو الذي قبّحها وحسّن تجنيبها، والجُنَاح: الإثم والحرَج، وهو كله الحكم الذي يتصف به فاعل المعصية، والنسبة التي تترتب للمعاصي.

و ﴿مَيِّمًا﴾ معناه: ذاقوا فصاعداً في رتب الأكل والشرب، وقد يُستعار للنوم وغيره، وحقيقته في حاسة اللوق.

والتكرار في قوله: ﴿اتَّقُوا﴾ يقتضي في كل واحدة زيادة على التي قبلها، وفي ذلك مبالغة في هذه الصفات لهم، وذهب بعض المفسرين إلى أن يعين المراد بهذا التكرار - فقال قوم: الرتبة الأولى: هي اتقاء الشرك والكبائر، والإيمان على كماله وعمل الصالحات.

والرتبة الثانية: هي الثبوت والدوام على الحالة المذكورة.

والرتبة الثالثة: هي الانتهاء في التقوى إلى امتثال ما ليس بفرض من النوافل في الصلاة والصدقة وغير ذلك. وهو الإحسان.

وقال قوم: الرتبة الأولى لماضي الزمن، والثانية للحال، والثالثة للاستقبال.

وقال قوم: الاتقاء الأول هو في الشرك والتزام الشرع، والثاني في الكبائر، والثالث في الصغائر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليست هذه الآية وفقاً على من عمل الصالحات كلها واتقى كل التقوى، بل هي لكل مؤمن وإن كان عاصياً أحياناً إذا كان قد عمل من هذه الخصال الممدوحة ما استحق به أن يوصف بأنه مؤمن عامل للصالحات، مُتَّقٍ في غالب أمره، محسن، فليس على هذا الصنف جُنَاح فيما طعم مما لم يحرم عليه.

وقد تناول هذه الآية قدامة بن مظهر الجُنَاحي من الصحابة رضي الله عنه، وهو ممن هاجر إلى أرض الحبشة مع أخويه عثمان وعبدالله، ثم هاجر إلى المدينة وشهد بدرًا، وعُمُرَ، وكان ختن عمر بن

الخطاب خال عبدالله وحفصة، ولأه عمر بن الخطاب رضي الله عنه على البحرين، ثم عزّله لأن الجارود سيد عبد القيس قدم على عمر بن الخطاب فشهد عليه بشرب الخمر، فقال له عمر: ومن يشهد معك؟ فقال: أبو هريرة، فجاء أبو هريرة فقال له عمر رضي الله عنه: بم تشهد؟ قال: لم أراه يشرب، ولكن رأيته سكران يقيء، فقال له عمر: لقد تنطعت في الشهادة، ثم كتب عمر إلى قدامة أن يقدم عليه فقدم، فقال الجارود لعمر: أتم على هذا كتاب الله، فقال له عمر رضي الله عنه: أخصم أنت أم شهيد؟ قال: بل شهيد، قال: قد أدبت شهادتك، فصمت الجارود، ثم غدا على عمر فقال: أقم على قدامة كتاب الله، فقال له عمر: ما أراك إلا خصماً، وما شهد معك إلا رجل واحد، فقال الجارود: إني أنشدك الله، قال عمر: لتمسكن لسانك أو لأسوءئك، فقال الجارود: ما هذا والله يا عمر بالحق أن يشرب ابن عمك الخمر وتسوءني، فقال أبو هريرة رضي الله عنه: إن كنت تشك في شهادتنا فأرسل إلى ابنة الوليد فسلها، وهي امرأة قدامة، فبعث عمر إلى هند بنت الوليد ينشدها الله، فأقامت الشهادة على زوجها، فقال عمر لقدامة: إني حادك فقال: لو شربت كما يقولون لم يكن لك أن تحدني، قال عمر: لم؟ قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ﴾ الآية، فقال له عمر

فمن خاف الله انتهى عن الصيد من ذات نفسه، وقد خفي له لو صاد، ثم توعد تعالى من اعتدى بعد هذا النهي الذي يأتي وهو الذي أراد بقوله: ﴿يَبْلُوكُمْ﴾، وأشار إليه قوله: ﴿ذَلِكَ﴾. والعذاب الأليم هو عذاب الآخرة.

﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب لجميع المؤمنين، وهذا النهي هو الابتداء الذي أعلم به قوله قبل: ﴿يَبْلُوكُمْ﴾، والصيد مصدر عومل معاملة الأسماء فأوقع على الحيوان المصيد، ولفظ الصيد هنا عام، ومعناه الخصوص فيما عدا الحيوان الذي أباح رسول الله ﷺ قتله في الحرم، ثبت عنه ﷺ أنه قال: «خَمْسٌ فَوَاسِقٌ يَقْتُلْنَ فِي الْحَرَمِ: الْعُرَابُ وَالْحِدَاةُ وَالْفَارَةُ وَالْعُقُوبُ وَالْكَلْبُ الْعَقُورُ»، ووقف مع ظاهر هذا الحديث سفيان الثوري، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وإسحق بن راهويه فلم يبيحوا للمحرم قتل شيء سوى ما ذكر، وقاس مالك رحمه الله على الكلب العقور كل ما كلب على الناس وعقرهم، ورآه داخلاً في اللفظ فقال: للمحرم أن يقتل الأسد والنمر والفهد والذئب وكل السباع العادية مبتدئاً بها، فأما الهر والثعلب والضبع فلا يقتلها المحرم، وإن قتلها قداً، وقال أصحاب الرأي: إن بدأ السبع المحرم فله أن يقتله، وإن ابتدأه المحرم فعليه قيمته، وقال مجاهد: والثخعي لا يقتل المحرم من السباع إلا ما عدا عليه، وقال ابن عمر: ما حل بك من السباع فحل

فصيد بعض هذه الأحوال بعض الصيد على العموم، ويجوز أن تكون لبيان الجنس، قال الزجاج: وهذا كما تقول: لأمتحنك بشيء من الرزق، وكما قال تعالى: ﴿فَأَجْتَبِئُوا الرَّجْسَ مِنَ الْآوْتِنِ﴾. وقوله: ﴿بِئْسَ مَا يَفْتَضِي تَبِعِيضاً مَا، وَقَدْ قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْفُقَهَاءِ: إِنَّ الْبَاءَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَمْسَحُوا رُءُوسِكُمْ﴾ أَعْطَتْ تَبِعِيضاً مَا.

وقرأ ابن وثاب، والنخعي: ﴿بِنَالِهِ﴾ بالياء منقوطة من تحت، وقال مجاهد: الأيدي تنال الفراخ والبيض وما لا يستطيع أن يفر، والرماح تنال كبار الصيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن الله تعالى خص الأيدي بالذكر لأنها عظم المتصرف في الاصطياد، وهي آلة الآلات، وفيها تدخل الجوارح والحبال وما عمل باليد من فخاخ وشباك، وخص الرماح بالذكر لأنها عظم ما يجرح به الصيد، وفيها يدخل السهم ونحوه، واحتج بعض الناس على أن الصيد للآخذ لا للمشير بهذه الآية، لأن المشير لم تنل يده ولا رماحه بعد شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ﴾ معناه: ليستمر علمه عليه وهو موجود، إذ عليمٌ تعالى ذلك في الأزل. وقرأ الزهري: ﴿لِيُعْلِمَ اللَّهُ﴾ بضم الياء وكسر اللام، أي: ليُعْلِمَ عباده.

و ﴿بِالْيَسْبِ﴾ قال الطبري: معناه: في الدنيا حيث لا يرى العبد ربه فهو غائب عنه، والظاهر أن المعنى: بالغيب من الناس، أي في الخلوة،

رضي الله عنه: أخطأت التأويل، إنك إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم عليك، ثم حده عمر، وكان مريضاً، فقال له قوم من الصحابة: لا نرى أن تجلده ما دام مريضاً، فأصبح يوماً وقد عزم على جلده، فقال لأصحابه: ما ترون في جلد قدامه؟ قالوا: لا نرى ذلك ما دام وجعاً، فقال عمر: لأن يلقى الله وهو تحت السياط أحب إلي من أن ألقاه وهو في عنقي، وأمر بقدامة فجلد، فغاضب قدامة عمر وهجره إلى أن حج عمر وحج معه قدامة مغاضباً له فلما كان عمر رضي الله عنه بالسقيا نام ثم استيقظ فقال: عجلوا علي بقدامة، فقد أتاني أت في النوم فقال: سالِمٌ قدامة فإنه أخوك، فبعث في قدامة فأبى أن يأتي، فقال عمر: جُرُّوه إن أبي، فلما جاء كلمه عمر واستغفر له فاصطلحا، قال أيوب بن أبي تيممة: لم يحد أحد من أهل بدر في الخمر غيره.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا يَبْلُوكُمْ اللَّهُ بِئْسَ مِنَ الصَّيْدِ﴾ أي: ليختبرنكم ليري طاعتكم من معصيتكم، وصرركم من عجزكم عن الصيد، وكان الصيد أحد معاش العرب العاربة، وشائعاً عند الجميع منهم مستعملاً جداً، فابتلاهم الله فيه مع الإحرام أو الحرم كما ابتلى بني إسرائيل في ألا يتعدوا في السبت.

و ﴿بِئْسَ﴾ يحتمل أن تكون للتبعيض فالمعنى: من صيد البر دون البحر، ذهب إليه الطبري وغيره، ويحتمل أن يكون التبعيض في حالة الحرم إذ قد يزول الإحرام ويفارق الحرم،

مثل ما، و ﴿يَنْتَلَّ﴾ على هذه القراءة صفة لـ [جَزَاءٍ]، أي: فجزاء مماثلٌ .
وقوله تعالى: ﴿مِنَ النَّعْمِ﴾ صفة لـ [جَزَاءٍ] على القراءةتين كليهما .

وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿فَجَزَاؤُهُ﴾ مثل ما ﴿بإظهار هاءٍ﴾ يحتمل أن تعود على الصيد أو على الصائد القاتل، وقرأ أبو عبدالرحمن: ﴿نَجْرَاءُ﴾ بالرفع والتثوين ﴿مِثْلُ مَا﴾ بالنصب، وقال أبو الفتح: ﴿مِثْلُ﴾ منصوبة بنفس الجزاء، أي: فعليه أن يجزى مثل ما قتل .

واختلف العلماء في هذه المماثلة، كيف تكون؟

فذهب الجمهور إلى أن الحَكَمَيْنِ ينظران إلى مثل الحيوان المقتول في الخَلْقَةِ وَعِظَمِ المرأى فيجعلون ذلك من النَّعْمِ جزاءه، قال الضحَّاك بن مَرْحَمٍ، والسدي، وجماعة من الفقهاء: في النَّعْمَةِ وحمار الوحش ونحوه بَدَنَةً، وفي الوعل والأيل ونحوه بقرة، وفي الظبي ونحوه كبش، وفي الأرنب ونحوه ثنية من الغنم، وفي اليربوع حَمَلٌ صغير، وما كان من جرادة ونحوها ففيها قبضة طعام، وما كان من طير فيقوم ثمنها طعاماً فإن شاء تصدق به، وإن شاء صام لكل صاع يوماً، وإن أصاب بيض نعام فإنه يحمله الفحل على عدد ما أصاب من بكاراة الإبل، فما نتج منها أهداه إلى البيت، وما فسد منها فلا شيء عليه فيه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حكم عمر رضي الله عنه على قبيصة بن جابر في الظبي بشاة، وحكم هو وعبدالرحمن بن عوف،

لإحرامه فهذا أَجَلٌ وأعظم من أن يُكْفَّرَ، وقال مجاهد: قد حل ولا رخصة له، وقال ابن جريج، وحكى المهدي وغيره أنه بطل حَجُّهُ، وقال ابن زيد: هذا يوكل إلى نعمة الله، وقال جماعة من أهل العلم منهم ابن عباس، وعطاء، وسعيد بن جبيرة، والزهرري، وطاوس، وغيرهم: المتعمد هو القاصد للمقتل الذَّاكِر لإحرامه، وهو يُكْفَرُ، وكذلك الناس والقاتل خطأ يُكْفَران، قال الزهري: نزل القرآن بالعمد، وجرت السنة في قتله خطأً أنهما يكفران، وقال بعض الناس: لا يلزم القاتل خطأً كفارة .

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا﴾ بإضافة الجزاء إلى ﴿يَنْتَلَّ﴾ وخفض ﴿يَنْتَلَّ﴾ . وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿فَجَزَاءٌ﴾ بالرفع ﴿مِثْلُ﴾ بالرفع أيضاً، فأما القراءة الأولى ومعناها: فَعَلَيْهِ جزاء مثل ما قتل، أي قضاؤه وغرمه، ودخلت لفظة (مثل) هنا كما تقول: «أنا أكرم مثلك» وأنت تقصد بقولك: «أنا أكرمك»، ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَوْ مَنْ كَانَ مِيثًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾، التقدير: كمن هو في الظلمات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل قوله تعالى: ﴿فَجَزَاءٌ يَنْتَلَّ﴾ أن يكون المعنى: فعليه أن يجزى مثل ما، ثم وقعت الإضافة إلى المثل الذي يجزي به اتساعاً .

وأما القراءة الثانية فمعناها: فالواجب عليه، أو فاللازم له جزاء

به، وأما فراخ السبع الصغار قبل أن تُفْرَسَ، فقال مالك في «المدونة»: لا ينبغي للمحرم قتلها، قال أشهب في كتاب «محمد»: فإن فعل فعليه الجزاء، وقال أيضاً أشهب، وابن القاسم: لا جزاء عليه، وثبت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه أمر المحرمين بقتل الحيات، وأجمع الناس على إباحتها، وثبت عن عمر رضي الله عنه إباحتها قتل الزنبور لأنه في حكم العقرب، وقال مالك: يطعم قاتله شيئاً، وكذلك قال مالك فيمن قتل البرغوث والذباب والنمل ونحوه، وقال أصحاب الرأي: لا شيء على قاتل هذه كلها . وأما سباع الطير فقال مالك: لا يقتلها المحرم وإن فعل فداءً، وقال ابن القاسم في كتاب «محمد»: وأحب إلي ألا يقتل الغراب والحدأة حتى يؤذيه، ولكن إن فعل فلا شيء عليه .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذوات السموم كلها في حكم الحية كالأقمة والرؤيتلا، وما عدا ما ذكرناه فهو مما نهى الله عن قتله في الحرمة بالبلد أو بالحال، وفرض الجزاء على من قتله .

و ﴿حَرَمٌ﴾ جمع حَرَامٍ، وهو الذي يدخل في الحَرَمِ أو في الإحرام . وحَرَامٌ يقال للذكر والأنثى والائتين والجميع .

واختلف العلماء في معنى قوله: ﴿مُتَمَعِّدًا﴾ - فقال مجاهد، وابن جريج، والحسن، وابن زيد: معناه: متعمداً لقتله ناسياً لإحرامه، فهذا هو الذي يُكْفَرُ، وكذلك الخطأ المحض يُكْفَرُ، وأما إن قتله متعمداً ذاكراً

قال قبيصة: فقلت له: يا أمير المؤمنين، إن أمره أهون من أن تدعو من يحكم معك، قال: فضررتني بالدرة حتى سابقته عدواً ثم قال: أقتلت الصيد وأنت محرم ثم تغمض الفتوى؟ وهذه القصة في «الموطأ» بغير هذه الألفاظ، وكذلك روي أنها نزلت بصاحب لقبیصة، وقبيصة هو راويها فيهما، والله أعلم، وأما الأرنب واليربوع ونحوهما فالحكم فيهما عند مالك أن يقوم طعاماً فإن شاء تصدق به، وإن شاء صام بدل كل مُد يوماً، وكذلك عنده الصيام في كفارة الجزاء إنما هو كله يومٌ بدل مُدٍ وعند قوم: بَدَلُ صَاعٍ، وعند قوم: بَدَلُ مُدَيْنٍ. وفي حمام الحرم عند مالك شاةٌ في الحمامة، وفي الحمام غيره حكومة وليس كحمام الحرم، وأما بيض النعم وسائر الطير ففي البيضة عند مالك عُشْرُ ثَمَنِ امَّةٍ، قال ابن القاسم: وسواء كان فيها فرخ أم لم يكن ما لم يستهل الفرخ صارحاً بعد الكسر، فإن استهل فيه الجزاء كاملاً جزاءً كبير ذلك الطير، قال ابن المواز: بحكومة عدلين، وقال ابن وهب: إن كان في بيضة النعامة فما دونها فرخ فعُشْرُ ثَمَنِ امَّةٍ، وإن لم يكن فصيام يومٍ أو مُدٌ لكل مسكين.

وذهب فرقة من أهل العلم منهم التُّخمي، وغيره إلى أن الممائلة إنما هي في القيمة، يُقْوَمُ الصيد المقتول ثم يشتري بقيمته يَدُهُ من النعم ثم يهدي، وردُّ الطبري وغيره على هذا القول.

والتَّعْمُ: لفظ يقع على الإبل والبقر

والنعم إذا اجتمعت هذه الأصناف، فإذا انفرد كل صنف لم يُقَلَّ نَعْمٌ إلا للإبل وحدها، وقرأ الحسن: ﴿مِنَ التَّعْمِ﴾ بسكون العين وهي لغة، والجزاء إنما يجب بقتل الصيد لا بنفس أخذه بحكم لفظ الآية، وذلك في «المدونة» ظاهر من مسألة الذي اصطاد طائراً فنتف ريشه ثم حبسه حتى نسل ريشه فطار، قال: لا جزاء عليه، وقصر القرآن هذه النازلة على حَكَمَيْنِ عدلين عالمين يحكم النازلة وبالتقدير فيها، وحكم عمر وعبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهما، وأمر أبا جرير الججلي أن يأتي رجلين من العدول ليحكما عليه في عنز من الظباء أصابها، قال: فأتيت عبدالرحمن وسعداً فحكما عليّ تيساً أعفر، ودعا ابنُ عمر ابنَ صفوان ليحكم معه في جزاء، وعلى هذا جمهور الناس وفقهاء الأمصار.

وقال ابن وهب رحمه الله في «العتبية»: من السُّنَّةُ أن يَخْتِيرَ الحَكَمَانِ من أصابَ الصيد كما خيَّره الله في أن يُخْرَجَ هدياً بالغ الكعبة، أو كفارة طعام مساكين، أو عدل ذلك صياماً، فإن اختار الهدى حكماً عليه بما يريانه نظيراً لما أصاب ما بينهما وبين أن يكون عدل ذلك شاة لأنها أدنى الهدى، فما لم يبلغ شاة حكماً فيه بالطعام، ثم خير في أن يطعمه أو يصوم مكان كل مُدٍ يوماً، وكذلك قال مالك في «المدونة»: إذا أراد المصيب أن يطعم أو يصوم وإن كان لما أصاب نظير من النعم فإنه يقوم صيده طعاماً

لا دراهم، قال: وإن قوموه دراهم واشترى بها طعام لرجوت أن يكون واسعاً. والأول أصوب، فإن شاء أطعمه وإلا صام مكانه لكل مُدٍ يوماً. وإن زاد ذلك على شهرين أو ثلاثة.

وقال يحيى بن عمر من أصحابنا إنما يُقال: كم من رجل يشبع من هذا الصيد؟ فيعرف العدد، ثم يُقال: كم من الطعام يشبع هذا العدد؟ وإن شاء أخرج ذلك الطعام، وإن شاء صام عدد أمداه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن احتاط فيه، لأنه قد تكون قيمة الصيد من الطعام ذليلة، فبهذا النظر يكثر الإطعام، ومن أهل العلم من يرى ألا يتجاوز في صيام الجزاء شهران، قالوا: لأنها أعلى الكفارات بالصيام.

وقوله تعالى: ﴿هَدْيًا بَلِغَ الْكَعْبَةِ﴾ يقتضي هذا اللفظ أن يُشْخَصَ بهذا الهدى حتى يبلغ، وذكرت الكعبة لأنها أم الحرم ورأس الحُرْمَةِ، والحرم كله مَنَحَرٌ لهذا الهدى، فما وقف به بعرفة من هذا الجزاء فينحر بمعنى، وما لم يوقف به فينحر بمكة وفي سائر بقاع الحرم بشرط أن يدخل من الجبل، لا بد أن يجمع فيه بين جِلٍّ وحَرَمٍ حتى يكون بالغاً الكعبة.

وقرأ عبدالرحمن الأعرج: ﴿هَدْيًا بِالْبَلْغِ الْكَعْبَةِ﴾ بكسر الدال وتشديد الياء. و﴿هَدْيًا﴾ نصب على الحال من الضمير في [بها]، وقيل: على المصدر، و﴿بَلِغَ﴾ نكرة في الحقيقة لم تنزل الإضافة عنه الشيعاء، فتقديره: «بالغا الكعبة» حذف تنوينه

تخفيفاً، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَوْ كَفَّرَةٌ﴾ منوناً ﴿طَعَامُ مَسْكِينٍ﴾ برفع [طَعَامُ] وإضافته إلى جمع المساكين. وقرأ نافع، وابن عامر برفع الكفارة دون تنوين، وخفض الإطعام على الإضافة، و ﴿مَسْكِينٍ﴾ بالجمع، قال أبو علي: إعراب ﴿طَعَامٍ﴾ في قراءة من رفعه أنه عطف بيان، لأن الطعام هو الكفارة، ولم يضاف الكفارة لأنها ليست للطعام، إنما هي لقتل الصيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الكلام كله مبني على أن الكفارة هي الطعام، وفي هذا نظر، لأن الكفارة هي تغذية الذنب بإعطاء الطعام، فالكفارة غير الطعام لكنها به، فيتجه في رفع الطعام البديل المحض، وتتجه قراءة من أضاف الكفارة إلى الطعام على أنها إضافة تخصيص، إذ كفارة هذا القتل قد تكون كفارة هدي، أو كفارة طعام، أو كفارة صيام. وقرأ الأعرج وعيسى بن عمر: ﴿أَوْ كَفَّرَةٌ﴾ بالرفع والتنوين، ﴿طَعَامُ﴾ بالرفع دون تنوين ﴿مَسْكِينٍ﴾ على الأفراد، وهو اسم جنس.

وقال مالك رحمه الله وجماعة من العلماء: القاتل مُخَيَّر في الرتب الثلاثة وإن كان غنياً، وهذا عندهم مقتضى ﴿أَوْ﴾. وقال ابن عباس وجماعة: لا ينتقل المكفر من الهدي إلى الطعام إلا إذا لم يجد هدياً، وكذلك لا يصوم إلا إذا لم يجد ما يطعم، وقاله إبراهيم النخعي، وحمام بن أبي سليمان، قالوا:

والمعنى: أو كفارة طعام إن لم يجد الهدي.

ومالك رحمه الله - وجماعة معه - يرى أن المقوم إنما هو الصيد المقتول، يقوم بالطعام كما تقدم، وقال العراقيون: إنما يقوم الجزاء طعاماً، فمن قتل ظليماً قوم الظلي عند مالك، وقوم عدله من الكباش أو غير ذلك عند أبي حنيفة وغيره. وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: إذا أصاب المحرم الصيد حكم عليه جزاؤه من الثَّم، فإن وجد جزاءه ذبحه فتصدق به، وإن لم يجد قُومَ الجزاء دراهم، ثم قُومت الدراهم حنطة، ثم صام مكان كل نصف صاع يوماً، قال: وإنما أريد بذكر الطعام تبيين أمر الصوم، ومن يجد طعاماً فإنما يجد جزاء، وأسند أيضاً عن السدي.

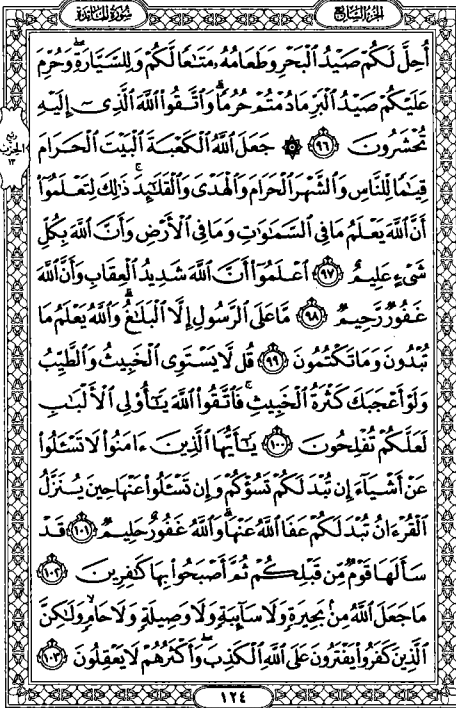
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعترض هذا القول بظاهر لفظ الآية فإنه ينافره، والهدي لا يكون إلا في الحرم كما ذكرنا قبل.

واختلف الناس في الطعام - فقال جماعة من العلماء: الإطعام والصيام حيث شاء المكفر من البلاد، وقال عطاء بن أبي رباح وغيره: الهدي والإطعام بمكة، والصوم حيث شئت.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَانًا﴾، قرأ الجمهور بفتح العين، ومعناه: نظير الشيء بالموازنة والمقدار المعنوي. وقرأ ابن عباس، وطلحة بن مصرف، والجحدري: ﴿أَوْ عَدَلُ﴾ بكسر العين، قال أبو عمرو الداني: ورواه ابن عباس

رضي الله عنهما عن النبي ﷺ. وقال بعض الناس: العَدَلُ بالفتح: قدر الشيء من غير جنسه، وعَدَلَهُ بالكسر قدره من جنسه، نسبها مكي إلى الكسائي وهو وهم، والصحيح عن الكسائي أنهما لغتان في المثل، وهذه المنسوبة عبارة معترضة، وإنما مقصد قائلها أن العدل بالكسر قدر الشيء موازنة على الحقيقة كعدلي البعير، وعَدَلَهُ: قدره من شيء آخر موازنة معنوية، كما يقال في ثمن فرس: هذا عدله من الذهب، ولا يتجه هنا كسر العين فيما حفظت. والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ﴾ يحتمل أن تكون إلى الطعام، وعلى هذا انبنى قول من قال من الفقهاء: الأيام التي تصام هي على عدد الأمداد أو الأصواع أو أنصافها حسب الخلاف الذي قد ذكرته في ذلك. ويحتمل أن تكون الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الصيد المقتول، وعلى هذا انبنى قول من قال من العلماء: الصوم في قتل الصيد إنما هو على قدر المقتول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن قتل المحرم ظليماً فعليه شاة تذبح بمكة، فإن لم يجد فإطعام ستة مساكين، فإن لم يجد فصيام ثلاثة أيام، وإن قتل أياً فلعليه بقرة، فإن لم يجد فإطعام عشرين مسكيناً، فإن لم يجد صام عشرين يوماً، وإن قتل نعاماً أو حمار وحش فعليه بَدَنَةٌ، فإن لم يجد أطعم ثلاثين مسكيناً، فإن لم يجد صام ثلاثين يوماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم لابن عباس رضي الله



فذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ﴾ .

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ﴾ تنبيه على صفتين تقتضي خوف من له بصيرة، ومن خاف ازدجر، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل» .

٩٦ - ٩٧ - تفسير قوله عز وجل: هذا حكم بتحليل صيد البحر، وهو كل ما صيد من حيثانه، وهذا التحليل هو للمحرم وللحلال، والصيد هنا أيضاً يراد به المصيد، وأضيف إلى البحر لما كان منه بسبب. والبحر: الماء الكثير ملحاً كان أو عذبا، وكل نهر كبير بحر.

واختلف الناس في معنى قوله: ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ - قال أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما،

فإنه يكفر في كل مرة، فأما المتعمد العالم بإحرامه فإنه يكفر أول مرة، وعفا الله عن ذنبه مع التكفير، فإن عاد ثانية فلا يحكم عليه، ويقال له: ينتقم الله منك، كما قال الله، وقال بهذا القول شريح القاضي، وإبراهيم التخعي، ومجاهد. وقال سعيد بن جبير: رخص في قتل الصيد مرة فمن عاد لم يدعه الله حتى ينتقم منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول منه رضي الله عنه وعظ بالأية، وهو - مع ذلك - يرى أن يحكم عليه في العودة ويكفر، لكنه خشي مع ذلك بقاء النعمة.

وقال ابن زيد: معنى الآية: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنَّا سَلَفًا﴾ لكم أيها المؤمنون من قتل هذا الصيد قبل هذا النهي والتحريم، قال: وأما من عاد فقتل الصيد وهو عالم بالحرمة متعمد للمقتل فهذا لا يحكم عليه، وهو موكول إلى نعمة الله، ومعنى قوله: ﴿مُنْعَجِدًا﴾ في صدر الآية أي: متعمداً للقتل ناسياً للحرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم ذكر هذا الفصل.

قال الطبري: وقال قوم: هذه الآية مخصوصة في شخص بعينه، وأسند إلى زيد بن المعلّى أن رجلاً أصاب صيداً وهو محرم فنجوز له عنه، ثم عاد فأرسل الله عليه ناراً فأحرقته،

عنهما قول غير هذا أنفاً حكاهما عنه الطبري مسندين، ولا ينكر أن يكون له في هيئة التكفير قولان. وقال سعيد بن جبير في تفسير قوله تعالى: ﴿أَوْ عَدَلُ ذَلِكَ صِيَامًا﴾ قال: يصوم ثلاثة أيام إلى عشرة.

وقوله تعالى: ﴿يَذُوقْ وَبَالَ أَمْرِهِ﴾، الذوق هنا مستعار كما قال تعالى: ﴿ذُوقْ إِنَّكَ مِنَ الْعَزِيزِ الْكَرِيمِ﴾ وكما قال: ﴿فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ﴾، وكما قال أبو سفيان: ﴿ذُوقْ عَقْبًا﴾، وحقيقة الذوق إنما هي في حاسة اللسان، وهي في هذا كله مستعارة فيما بوشر بالنفس، والوبال: سوء العاقبة، والمرعى الويل هو الذي يُتَأَذَى به بعد أكله، وعبر بـ ﴿أَمْرِهِ﴾ عن جميع حاله من قتل وتكفير وحكم عليه ومضي ماله أو تبعه بالصيام.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنَّا سَلَفًا﴾ - فقال عطاء بن أبي رباح وجماعة معه: معناه: عفا الله عما سلف في جاهليتك من قتلكم الصيد في الحرمة، ومن عاد الآن في الإسلام فإن كان مُسْتَجِلًّا فينتقم الله منه في الآخرة ويكفر في ظاهر الحكم، وإن كان عاصياً فالنقمة هي في إلزام الكفارة فقط، قالوا: وكلما عاد المحرم فهو مكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويخاف المتورعون أن تبقى النقمة مع التكفير، وهذا هو قول الفقهاء مالك ونظائره وأصحابه رحمهم الله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المحرم إذا قتل مراراً ناسياً لإحرامه

وجماعة كثيرة من الصحابة والتابعين ومن بعدهم: هو ما قذف به وما طفا عليه، لأن ذلك طعام لا صيد، وسأل رجل ابن عمر عن حيطان طرحها البحر فنهاه عنها، ثم قرأ المصحف فقال لنافع: الحقه فمره بأكلها فإنها طعام البحر، وهذا التأويل ينظر إلى قول النبي ﷺ: «هو الطهور ماؤه، الجبل ميتته»، وقال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم التميمي وجماعة: طعامه كل ما ملح منه وبقي، وتلك صنائع تدخله فترده طعاماً، وإنما الصيد الغريض، وقال قوم: طعامه يلحبه الذي يتعقد من مائه وسائر ما فيه من نبات ونحوه. وكره قوم خنزير الماء. وقال مالك رحمه الله: أنتم تقولون خنزير، ومذهبه إباحتها.

وقول أبي بكر وعمر هو أرجح الأقوال، وهو مذهب مالك.

وقرأ ابن عباس، وعبدالله بن الحارث: «وَطَعْمُهُ» بضم الطاء وسكون العين دون ألف، و«مَتَاعًا» نصب على المصدر، والمعنى: متعكم به متاعاً تنتفعون به وتأتمون. و«لَكُمْ» يريد حاضري البحر ومُؤَدَّنُهُ، «وَلِلسَّيَّارَةِ» المسافرين، وقال مجاهد: أهل القرى هم المخاطبون، والسيارة: أهل الأمصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه يريد أهل قرى البحر، وأن السيارة من أهل الأمصار غير تلك القرى يجلبونه إلى الأمصار.

واختلف العلماء في مقتضى قوله: «وَرَحِمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ مَا دُمَّتْ حُرْمًا»

- فتلقاه بعضهم على العموم من جميع جهاته فقالوا: إن المحرم لا يحل له أن يصيد، ولا أن يأمر بصيد، ولا أن يأكل صيداً صيد من أجله ولا من غير أجله، ولحم الصيد بأي وجه كان حرام على المخرم.

وروي أن عثمان حج، وحج علي بن أبي طالب، فأنتى عثمان بلحم صيد صاده حلالاً فأكل منه، ولم يأكل علي، فقال عثمان: والله ما صدنا ولا أمرنا ولا أشرنا، فقال علي: «وَرَحِمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ مَا دُمَّتْ حُرْمًا». وروي أن عثمان استعمل على العروض أبا سفيان بن الحارث فصاد يعاقيب فجعلها في حظيرة فمر به عثمان بن عفان رضي الله عنه فطبخهن وقدمهن إليه، وجاء علي بن أبي طالب فنهاهم عن الأكل، وذكر نحو ما تقدم، قال: ثم لما كانوا بمكة أتى عثمان فقيل له: هل لك في علي؟ أهدي له تصيف حمار فهو يأكل منه، فأرسل إليه عثمان يسأله عن أكل التصيف، وقال له: «أما أنت فتأكل، وأما نحن فتنهانا»، فقال له علي: «إنه صيد عام أول وأنا حلال فليس علي بأكله بأس، وصيد ذلك - يعني يعاقيب - وأنا محرم وذبحن وأنا حرام». وروي مثل قول علي عن ابن عباس، وابن عمر، وطاوس، وسعيد بن جبيرة.

وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لا يرى بأساً للمخرم أن يأكل لحم الصيد الذي صاده الحلال لحلال مثله ولنفسه، وسئل أبو هريرة عن هذه النازلة فأفتى

بالإباحة، ثم أخبر عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال له: لو أفتيت بغير هذا لأوجعت رأسك بهذه الدرّة، وسأل أبو الشعثاء ابن عمر رضي الله عنهما عن هذه المسألة فقال له: كان عمر يأكله، قال: قلت: فأنت؟ قال: كان عمر خيراً مني، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ما صيد أو ذبح وأنت حلال فهو لك حلال، وما صيد أو ذبح وأنت حرام فهو عليك حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثل قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وروي عطاء عن كعب قال: أقبلت في ناس محرمين فوجدنا لحم حمار وحشي فسألوني عن أكله فأفتيتهم بأكله، فقدمنا على عمر فأخبروه بذلك فقال: قد أمرته عليكم حتى ترجعوا، وقال بمثل قول عمر بن الخطاب عثمان بن عفان رضي الله عنهما، والزيبر بن العوام، وهو الصحيح لأن النبي ﷺ أكل من الحمار الذي صاده أبو قتادة وهو حلال والنبي عليه الصلاة والسلام محرم.

قال الطبري: وقال آخرون: إنما حرم على المحرم أن يصيد، فأما أن يشتري الصيد من مالك له فيذبحه فيأكله فذلك غير مُحَرَّم، ثم ذكر أن أبا سلمة بن عبد الرحمن اشترى قطاً وهو بالعرج فأكله فعاب ذلك عليه الناس.

ومالك رحمه الله يُجيز للمحرم أن يأكل ما صاده الحلال وذبحه إذا كان

لم يصد من أجل المُحْرَم، فإن صيد من أجله فلا يأكله، وكذلك قال الشافعي، ثم اختلفا إن أكل، فقال مالك: عليه الجزاء، وقال الشافعي: لا جزاء عليه.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء والراء مشددة. ﴿صَيْدٌ﴾ بنصب الدال، ﴿مَا دُمْتُمْ حَرَمًا﴾ بفتح الحاء، المعنى: وحرم الله عليكم. و ﴿حَرَمًا﴾ يقع للجميع والواحد كرضى وما أشبهه، والمعنى: ما دمتم محرمين، فيه بالمعنى كقراءة الجماعة بضم الحاء والراء.

ولا يختلف في أن ما لا زوال له من الماء أنه صيد بحر، وفيما لا زوال له من البر أنه صيد برّ، واختلف فيما يكون في أحدهما وقد يعيش ويحيا في الآخر - فقال مالك رحمه الله، وأبو مجلز، وعطاء، وسعيد بن جبير، وغيرهم: كل ما يعيش في البرّ وله فيه حياة فهو من صيد البرّ إن قتلته المُحْرَم وداه، وذكر أبو مجلز في ذلك الضفادع والسلاحف والسرطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن هذه أنواع لا زوال لها من الماء فيه لا محالة من صيد البحر، وعلى هذا خرج جواب مالك في الضفادع في «المدونة» فإنه قال: الضفادع من صيد البحر، وروي عن عطاء بن أبي رباح خلاف ما ذكرناه، وهو أنه راعى أكثر عيش الحيوان، سئل عن ابن الماء أصيد برّ أم صيد بحر؟ فقال: حيث يكون أكثر فهو منه، وحيث يفرخ فهو منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب في ابن ماء أنه صيد برّ طائر يرعى ويأكل الحب.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ تشديد وتبنيه عقب هذا التحليل والتحريم، ثم ذكر تعالى بأمر الحشر والقيامة مبالغة في التحذير.

ولما بان في هذه الآيات تعظيم الحرّم والحُرْمَة بالإحرام من أجل الكعبة، وأنها بيت الله وعنصر هذه الفضائل ذكر تعالى في قوله سبحانه: ﴿جَمَلٌ لِلَّهِ﴾ الآية ما سنّه في الناس وهداهم إليه وحمل عليه الجاهلية الجهلاء من التزامهم أن الكعبة قوام، والهدي قوام، والقلائد قوام، أي أمر يقوم للناس بالتأمين وحل الحرب كما يفعل الملوك الذين هم قوام العالم، فلما كانت تلك الأمة لا يملك لها جعل الله هذه الأشياء كالملك لها، وأعلم تعالى أن التزام الناس لذلك هو مما شرعه وارتضاه، ويدل على مقدار هذه الأمور في نفوسهم أن النبي عليه الصلاة والسلام لما بعثت إليه قريش زمن الحديبية الحليس، فلما رآه النبي عليه الصلاة والسلام قال: هذا رجل يعظم الحرمة فالقوة بالبُدن مشعرة، فلما رآها الحليس عظم ذلك عليه وقال: ما ينبغي أن يُصد هؤلاء ورجع عن رسالتهم.

و ﴿جَمَلٌ﴾ في هذه الآية بمعنى صيّر، و ﴿الْكَبِيْرُ﴾ بيت مكة، وسمي كعبة لتربيته، قال أهل اللغة: كل بيت مربع فهو مكعب وكعبة، ومنه قول الأسود بن يَغْفَر:

أهل الخورنق والسُدَيْرِ وَبَارِقِ
وَأَبْيَتِ ذِي الْكَعْبَاتِ مِنْ سِنْدَادِ
قالوا: كانت فيه بيوت مربعة، وفي كتاب سير ابن إسحق أنه كان في خثعم بيت يسمونه كعبة اليمانية. وقال قوم: سميت كعبة لنتونها ونشوزها على الأرض، ومنه: كَعَبٌ ثدي الجارية، ومنه: كَعَبُ القدم، ومنه: كعوب القناة.

و ﴿قَيْمًا﴾ معناه: أمر يقوم للناس بالأمانة والمنافع كما الملك قوام الرعية وقيامهم، يقال ذلك بالياء كالصيام ونحوه، وذلك لخفة الياء فتستعمل أشياء من ذوات الواو بها، وقد يستعمل القوام على الأصل، قال الراجز:

قِيَامٌ دُنْيَا وَقِيَامٌ دِينِ
وذهب بعض المتأولين إلى أن معنى قوله تعالى: ﴿قَيْمًا لِلنَّاسِ﴾ أي: موضع وجوب قيام بالمناسك والتعبادات وضبط النفوس في الشهر الحرام، ومع الهدي والقلائد.

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿قَيْمًا﴾ دون ألف، وهذا إما على أنه مصدر كالشُبّع ونحوه، وأعل فلم يجز مجرى عوض وحول من حيث أعل فعله، وقد تُعمل الجموع لاعتلال الأحاد، فأحرى أن تُعمل المصادر لاعتلال أفعالها، ويحتمل ﴿قَيْمًا﴾ أن تحذف الألف وهي مُراد، وحكم هذا أن يجيء في شعر وغير سعة. وقرأ الجحدري: ﴿قَيْمًا﴾ بفتح القاف وشد الياء المكسورة.

و ﴿الشَّهْرُ﴾ هنا اسم جنس، والمراد الأشهر الثلاثة بإجماع من العرب، وشهر مُضَر وهو رجب الأصم، سمي

بذلك لأنه كان لا يُسمع فيه صوت الحديد، وسموه مُنْصِلِ الأَسنة لأنهم كانوا ينزعون فيه أسنة الرماح، وهو شهر قريش، وله يقول عوف بن الأخوص:

وَشَهْرٍ بَنِي أُمَيَّةَ وَهَدَايَا
إِذَا سَيَقَتْ مُضْرَجُهَا الدَّمَاءُ
وَسَمَّاهُ النَّبِيَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
شَهْرُ اللَّهِ، أي: شهر آل الله، وكان يقال لأهل الحرم: آل الله، ويحتمل أن يسمى شهر الله لأن الله سئته وشده إذ كان كثير من العرب لا يراه.

وأما الهدى فكان أماناً لمن يسوقه لأنه يعلم أنه في عبادة لم يأت لحرب، وأما القلائد فكذلك كان الرجل إذا خرج يريد الحج تقلد من لحاء السَّمُرِ أو غيره شيئاً فكان ذلك أماناً له، وكان الأمر في نفوسهم عظيماً مكنه الله حتى كانوا لا يقدر من ليس بمحرم أن يتقلد شيئاً خوفاً من الله، وكذلك إذا انصرفوا تقلدوا من شجر الحرم.

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّاسِ﴾ لفظ عام، وقال بعض المفسرين: أراد العرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا وجه لهذا التخصيص. وقال سعيد بن جبير: جعل الله هذه الأمور للناس وهم لا يرجون جنة ولا يخافون ناراً، ثم شدد ذلك بالإسلام.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى أن جعل هذه الأمور قياماً، والمعنى: فعل ذلك لتعلموا أن الله تعالى يعلم تفاصيل أمور السموات

والأرض، ويعلم مصالحكم أيها الناس قبل وبعد، فانظروا لطفه بالعباد على حال كفرهم.

وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُ شَيْءٌ عَلَيْهِمْ﴾ عام عموماً تاماً في الجزئيات ودقائق الموجودات، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا تَسْغُطُ مِنْ رَدَقَةٍ إِلَّا بِمَلْمَأَةٍ﴾ والقول بغير هذا إلحاد في الدين وكفر.

ثم خوف تعالى عباده ورجاهم بقوله: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ﴾ الآية، وهكذا هو الأمر في نفسه حري أن يكون العبد خائفاً عاملاً بحسب الخوف متقياً متأنساً بحسب الرجاء.

﴿١٠٢﴾ - ﴿١٠٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿مَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَعُ﴾ إخبار للمؤمنين، فلا يتصور أن يقال: هي آية موادة منسوخة بآيات القتال، بل هذه حال من آمن وشهد شهادة الحق، فإنه إذ قد عصم من الرسول ماله ودمه فليس على الرسول في جهته أكثر من التبليغ، والله تعالى - بعد ذلك - يعلم ما ينطوي عليه صدره، وهو المجازي - بحسب ذلك - ثواباً أو عقاباً.

والبلاغ مصدر من: بلغ يبلغ، والآية معناها الوعيد للمؤمنين إن انحرفوا ولم يمتثلوا ما بلغ إليهم.

وقوله: ﴿قُلْ لَا يَسْرُبُ﴾ الآية، لفظ عام في جميع الأمور يتصور في المكاسب وعدد الناس والمعارف من العلوم ونحوها، فالخبث من هذا كله لا يفلح ولا ينجب ولا تخسن له عاقبة، والطيب ولو قل نافع جميل العاقبة. وينظر إلى هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي كَلَّمْتِ بِحُجْرَتِكَ﴾

يأذنين زبيبة وألذيت خبث لا يخرج إلا نكداً، والخبث هو الفساد الباطن في الأشياء حتى يظن بها الصلاح، والطيب وهو بخلاف ذلك، وهكذا هو الخبث في الإنسان، وقد يراد بلفظة خبيث في الإنسان فساد نسبه، فهذا لفظ يلزم قائله - على هذا القصد - الحد.

وقوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَتَأُولَى الْأَلْتَبِ﴾ تنبيه على لزوم الطيب في المعتقد والعمل، وخص أولي الأبواب بالذكر لأنهم المتقدمون في ميز هذه الأمور، والذين لا ينبغي لهم إهمالها مع ألبابهم وإدراكهم، وكان الإشارة بهذه الأبواب إلى لب التجربة الذي يزيد على لب التكليف بالحنكة والفتنة المستنبطة والنظر البعيد.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءٍ﴾ الآية، اختلف الرواة في سببها - فقالت فرقة منهم أنس بن مالك وغيره: نزلت بسبب سؤال عبدالله بن حذافة السهمي، (وذلك أن رسول الله ﷺ صعد المنبر مغضباً فقال: «لا تسألوني اليوم عن شيء إلا أخبرتكم به»، فقام رجل فقال: «أين أنا؟ فقال رسول الله ﷺ: «في النار»، فقام عبدالله بن حذافة السهمي وكان يطعن في نسبه فقال: من أبي؟ فقال: «أبوك حذافة»).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي الحديث مما لم يذكر الطبري: (فقام آخر فقال: من أبي؟ فقال: «أبوك سالم مولى أبي شيبة»، فقام عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجثا

على ركبتيه وقال: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، ومحمد نبياً، نعوذ بالله من الفتن، وبكى الناس من غضب رسول الله ﷺ، ونزلت هذه الآية بسبب هذه الأسئلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وصعد رسول الله ﷺ المنبر مغضباً إنما كان بسبب سؤالات الأعراب والجهال والمنافقين، فكان منهم من يقول: أين ناقتي؟ وآخر يقول: ما الذي ألقى في سفري هذا؟ ونحو هذا مما هو جهالة أو استخفاف وتعنت.

وقال علي بن أبي طالب، وأبو هريرة، وأبو أمامة الباهلي، وابن عباس رضي الله عنهم أجمعين - في لفظهم اختلاف والمعنى واحد - (خطب رسول الله ﷺ الناس فقال: «أيها الناس، كتب عليكم الحج»، وقرأ عليهم: «وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ لِإِيَّائِهِ سَبِيلاً» قال علي رضي الله عنه: فقالوا: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فسكت، فأعادوا، قال: «لا، ولو قلت نعم لوجبت»، وقال أبو هريرة: فقال عكاشة بن محصن، وقال مرة: فقال محصن الأسدي، وقال غيره: فقام رجل من بني أسد، وقال بعضهم: فقام أعرابي فقال: يا رسول الله، أفي كل عام؟ فسكت رسول الله ﷺ، ثم قال: «من السائل؟» فقيل: فلان، فقال رسول الله ﷺ: «لوقلت نعم لوجبت، ولو وجبت لم تطيقوه، ولو تركتموه لهلكتم» فنزلت هذه الآية بسبب ذلك.

ويُقوي هذا حديث سعد بن أبي

وقاص أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «إن أعظم المسلمين على المسلمين جرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته».

وروي عن ابن عباس أنه قال: نزلت هذه الآية بسبب قوم سألوا عن البحيرة والسائبة والوصيلة ونحو هذا من أحكام الجاهلية، وقاله سعيد بن جبير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي أنه لما بين الله تعالى في هذه الآيات أمر الكعبة والهدْي والقلائد، وأعلم أن حُرْمَتها هو الذي جعلها، إذ هي أمور نافعة قديمة من لدن عهد إبراهيم عليه السلام - ذهب ناسٌ من العرب إلى السؤال عن سائر أحكام الجاهلية ليروا هل تلتحق بتلك أم لا، إذ كانوا قد اعتقدوا الجميع سنة لا يفرقون بين ما هو من عند الله وما هو من تلقاء الشيطان والمُتَعَبِّرِينَ لِدِينِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ عَلَيْهِمَا السَّلَام كَعَمْرٍو بِنِ لُحَيِّ وَغَيْرِهِ، وفي عمرو بن لُحَيِّ قال رسول الله ﷺ: «رَأَيْتَهُ يَجْرُ قُضْبَهُ فِي النَّارِ وَكَانَ أَوَّلَ مَنْ سَيَّبَ السَّوَابِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من الروايات أن رسول الله ﷺ أَلْحَتَ عَلَيْهِ الْأَعْرَابَ وَالْجُهَالُ بِأَنْوَاعِ مِنَ السُّؤَالَاتِ حَسِيباً ذَكَرْنَاهُ، فَزَجَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ بِهَذِهِ الْآيَةِ.

و «أَشْيَاءٌ»: اسم جمع لشيء، أصله عند الخليل وسيبويه شيئاء مثل قَعْلَاءَ قَلْبِتِ إِلَى لَفْعَاءِ لِيُقَلَّ اجْتِمَاعِ الْهَمَزَتَيْنِ، وَقَالَ أَبُو حَاتِمٍ: أَشْيَاءٌ وَزَنْهَا أَفْعَالٌ وَهُوَ جَمْعُ شَيْءٍ وَتَرَكَ

الصرف فيه سماع، وقال الكسائي: لم ينصرف أشياء لشبه آخرها بآخر حمراء ولكثرة استعمالها، والعرب تقول: أشياءوات كما تقول: حمراوات، ويلزم على هذا ألا ينصرف (أسماء) لأنهم يقولون: أسماوات، وقال الأخفش: أشياء أصلها أشيئاء على وزن أفعلاء، استثقل اجتماع الهمزتين فأبدلت الأولى ياء لانكسار ما قبلها ثم حذفت الياء استخفافاً، ويلزم على هذا أن يكون واحد الأشياء شيئاً مثل هَيْنَ وَأَهْوَنَاءَ.

وقرأ جمهور الناس: «إِنْ تَبَدَّدْ» بضم التاء وفتح الدال وبناء الفعل للمفعول، وقرأ مجاهد: «إِنْ تَبَدَّدْ» بفتح التاء وضم الدال على بناء الفعل للمفاعل، وقرأ الشَّعْبِيُّ: «إِنْ يَبْدُ لَكُمْ» بالياء من أسفل مفتوحة والدال مضمومة «يَسْؤُوكُمْ» بالياء من أسفل، أي: يئده الله لكم.

وقوله تعالى: «وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّدْ لَكُمْ» قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: لا تسألوا عن أشياء في ضمن الإخبار عنها مساءةً لكم، إما لتكليف شرعي يلزمكم، وإما لخبر يسوء، كما قيل للذي قال: أين أنا؟ ولكن إذا نزل القرآن بشيء وابتدأكم ريبكم بأمر فحينئذ إن سألتم عن تفصيله وبيانه يبين لكم وأبدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالضمير في قوله: «عَنْهَا» عائد على نوعها، لا على الأولى التي نهى عن السؤال عنها.

وقال أبو ثعلبة الخشني رضي الله

وهذا المعنى إنما يقال لمن سأل النبي عليه الصلاة والسلام: أين ناقتي؟ وكما قال له الأعرابي: ما في بطن ناقتي هذه؟ فأما من سأله عن الحج: أفي كل عام هو؟ فلا يفسر قوله: ﴿قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ﴾ الآية بهذا ولا مثله، بل بأن الأمم قديماً طلبت التعمق في الدين من أنبيائها، ثم لم تَفِّ بما كلفت.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٤﴾ تفسير قوله عز وجل: لما سأل قوم عن هذه الأحكام التي كانت في الجاهلية هل تلحق بحكم الله في تعظيم الكعبة والحرم، أخبر تعالى في هذه الآية أنه لم يجعل شيئاً منها ولا سنه لعباده، والمعنى: ولكن الكفار فعلوا ذلك، إذ أكابرههم ورؤسأؤهم كعمرو بن لُحَيٍّ وغيره يفترون على الله الكذب، ويقولون: هذه قرية إلى الله وأمر يرضيه، وأكثرهم - يعني الأتباع - لا يعقلون، بل يتبعون هذه الأمور تقليداً وضلالاً بغير حجة.

و ﴿جَمَلٌ﴾ في هذه الآية لا يتجه أن تكون بمعنى: خلق الله، لأن الله تعالى خلق هذه الأشياء كلها، ولا هي بمعنى: صير، لعدم المفعول الثاني، وإنما هي بمعنى: ما سنّ ولا شرع، فتعدت تعدي هذا الذي هي بمعناه إلى مفعول واحد.

والبحيرة: فعيلة بمعنى مفعولة، ويخر: شق، كانوا إذا أنتجت الناقة عشرة بطون شقوا أذنها نصفين طولاً، فهي مبحورة، وتركت ترعى وترد الماء ولا ينتفع منها بشيء، ويحرم لحمها إذا ماتت على النساء ويحل للرجال، وقال ابن عباس

ولم يعرف بها، وهذه اللفظة التي هي [عفا] تؤيد أن (الأشياء) التي هي في تكليفات الشرع. وينظر إلى ذلك قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إن الله قد عفا لكم عن صدقة الخيل».

و ﴿عَفُوٌّ عَلَيْهِ﴾ صفتان تناسب العفو وترك المباحثة، والسماحة في الأمور.

وقرأ عامة الناس: ﴿قَدْ سَأَلَهَا﴾ بفتح السين، وقرأ إبراهيم النخعي: ﴿قَدْ سِالَهَا﴾ بكسر السين، والمراد بهذه القراءة

الإمالة، وذلك على لغة من قال: سِلت تسال، وحكى عن العرب: «هما يتساولان» فهذا يعطي أن هذه اللغة هي من الواو لا من الهمزة، فالإمالة إنما أريدت وساغ ذلك لانكسار ما قبل اللام في (سِلت) كما جاءت الإمالة في (خاف) لمجيء الكسرة في خاء (خفت).

ومعنى الآية أن هذه السؤالات التي هي تعنيتات وطلب شطط واقتراحت ومباحثات، قد سألتها قبلكم الأمم ثم كفروا بها. قال الطبري: كقوم صالح في سؤالهم الناقة، وكبني إسرائيل في سؤالهم المائدة، وقال السدي: كسؤال قريش أن يجعل الله لهم الصفا ذهباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يتجه في قريش مثلاً سؤالهم آية، فلما شق لهم القمر كفروا،

وَأَذِيقِلْ لَهُمْ تَمَأ تَمَأ إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرُّسُولِ قَالُوا الْحَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آيَاتَهُ نَا أُولُو كَانٍ مَا بَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا تَعْذَرُوا مَنْ ضَلَّ إِذَا أَهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرَجِعَكُمْ جَمِيعًا فَيُنْفِقُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ أَحْرَانُ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرِيئٌ مِنَ الْأَرْضِ فَأَصْبَحْتُمْ مَصِيبَةُ الْمَوْتِ تَحْسَبُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الصَّلَاةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْتُمْ أَنْ تَشْتَرُوا بِمِثْمَتِكُمْ وَأَنْ تَكُونَ ذَافِرِينَ وَلَا تَكْفُرْ شَهَادَةُ اللَّهِ إِنَّا إِذَا لَمِنَ الْأَيُّمِينَ ﴿١٠٥﴾ فَإِنْ عَرَفْتُمْ أَنْتُمَا اسْتَحَقَّا إِذَا مَا فَخَّرَانِ يَوْمَانِ مَقَامَهُمَا مِنَ الَّذِينَ اسْتَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْأَوْلِيَانِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ لَشَهَادَتُنَا أَحَقُّ مِنْ شَهَادَتِهِمَا وَمَا اعْتَدَيْنَا إِنَّا إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٦﴾ ذَلِكَ آذَقُوا أَنْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ عَلَى وَجْهِهَا أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يُرَدُّوا مِنْ بَعْدِ أَيْدِيهِمْ وَأَتَقُوا اللَّهَ وَاسْمَعُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٠٧﴾

١٢٥

عنه: إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، ونهى عن أشياء فلا تنتهكوها، وحدّ حدوداً فلا تعتدوها، وعفا من غير نسيان عن أشياء فلا تبخثوا عنها.

وكان عبيد بن عمير يقول: إن الله أحلّ وحرم، فما أحلّ فاستحلوا، وما حرم فاجتنبوا، وترك بين ذلك أشياء لم يحلها ولم يحرمها، فذلك عفو من الله عفا، ثم يتلو هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ بِدَلَلِكُمْ﴾ أن يكون في معنى الوعيد، كأنه قال: لا تسألوا، وإن سألتم لقيتم عبء ذلك وصعوبته، لأنكم تتكلمون وتستعجلون علم ما يسوؤكم كالذي قيل له: إنه في النار.

وقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنْهَا﴾ تركها

رضي الله عنهما: كانوا يفعلون ذلك بها إذا أنتجت خمسة بطون، وقال مسروق: إذا ولدت خمساً أو سبعا شقوا أذنها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر مما يروى في هذا أن العرب كانت تختلف في المبلغ الذي تبحر عنده أذان النوق، فلكل سئة، وهي كلها ضلال، قال ابن سيده: ويقال: البحيرة هي التي خُلِّيت بلا راع، ويقال للناقة الغزيرة بحيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أرى أن البحيرة تصلح وتسمن ويغزر لبنها فتشبه الغزيرات بالبحر، وعلى هذا يجيء قول ابن مفضل:

فيه من الأخرج المُرْتاع قَرَقَرَةً
هَذَرُ الدِّيَامِي وَسَطُ الْهَجْمَةِ الْبُحْرِ
فإنما يريد النوق العظام وإن لم تكن مُشَقَّةَ الآذان.

وروى الشعبي، عن أبي الأحوص، عن أبيه قال: (دخلت على النبي ﷺ فقال لي: «أرأيت إبلك؟ ألسنتها تنبت حياضاً مسلمة آذانها، فتأخذ موسى فتقطع آذانها، فتقول: هذه بُحْرٌ، وتقطع جلودها فتقول: هذه صرم، فتحرّمها عليك وعلى أهلِكَ؟» قال: نعم، قال: «فإن ما آتاك الله لك حلٌّ، وساعد الله أشدَّ، وموسى الله أخذ».

والسائبة: هي الناقة التي تُسَيَّبُ للآلهة، والناقة أيضاً إذا تابعت نثني عشرة إناثاً ليس فيهن ذكر سَيَّبَت. وقال رسول الله ﷺ: لا تُكْتَمُ بن الجون الخزاعي: «يا أكثم، رأيت عمرو بن لُحَيِّ بن قُمَعَةَ بن خندق يعجزُ قُضْبَهُ في النار، فما رأيت أشبه

به منك»، قال أكثم: أضرني شبهه يا رسول الله؟ قال: «لا، إنك مؤمن وإنه كافر، هو أول من غير دين إسماعيل عليه السلام، ونصب الأوثان، وسَيَّب السوائب»، وكانت السوائب أيضاً في العرب كالقُرْبَةِ عند المَرَض يُبرأ منه، والمُشَدوم من السفر، وإذا نزل بأحدهم أسر يشكر الله عليه تقرب بأن يُسَيَّب ناقة فلا ينتفع منها بلين ولا ظهر ولا غيره. يرون ذلك كجئق بني آدم، ذكره السدي وغيره، وكانت العرب تعتقد أن من عَرَضَ لهذه النوق فأخذها أو انتفع منها بشيء فإنه تلحقه عقوبة من الله.

والوصيلة: قال أكثر الناس: إن الوصيلة في الغنم. قالوا: إذا ولدت الشاة ثلاثة بطون أو خمسة فإن كان آخرها جذياً ذبحوه لبيت الآلهة، وإن كانت عناقاً استخيوها، وإن كان جذي وعناق استخيوها وقالوا: هذه العناق وصلت أخاها فمنعت من أن يُذبح، وعلى أن الوصيلة في الغنم جاءت الروايات عن أكثر الناس. وروى عن سعيد بن المسيب أن الوصيلة من الإبل - كانت الناقة إذا ابتكرت بأنثى ثم نثت بأخرى قالوا: وصلت أنثيين، فكانوا يجدعونها لطواغيتهم أو يذبحونها، شك الطبري في إحدى اللفظتين.

وأما الحامي فإنه الفحل في الإبل إذا ضرب في الإبل عشر سنين، وقيل: إذا وُلِدَ من وُلِدَ ولده قالوا: حمى ظهره فسبوه لم يركب ولا سخر في شيء، قال علقمة لمن سأله في هذه الأشياء: ما تريد إلى شيء

كان من عمل أهل الجاهلية وقد ذهب؟ وقال نحوه ابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة ما يظهر من هذه الأمور أن الله تعالى قد جعل هذه الأنعام رفقا لعباده، ونعمة عُدّها عليهم، ومنفعة بالغة، فكان أهل الجاهلية يقطعون طريق الانتفاع، ويذهبون نعمة الله فيها، ويزيلون المصلحة التي للعباد في تلك الإبل. وبهذا فارتقت هذه الأمور الأحباس والأوقاف، فإن المالك الذي له أن يهب ويتصدق له أن يصرف المنفعة في أي طريق من البير، ولم يسد الطريق إليها جملة كما فعل بالبحيرة والسائبة.

وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تجوز الأحباس والأوقاف، وقاسوا على البحيرة والسائبة، والفرق بين، ولو عمد رجل إلى ضيعة له فقال: هذه تكون حبساً لا يُخْتنى ثمرها، ولا تُزْرَع أرضها، ولا يُنْتَفَع منها بنفع لجاز أن يشبه هذا بالبحيرة والسائبة. وأما الحبس البين طريقه واستمرار الانتفاع به فليس من هذا، وحسبك بأن النبي عليه الصلاة والسلام قال لعمر بن الخطاب رضي الله عنه في مال له: (اجعله حبساً لا يباع أصله)، وحسب أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، وقد تقدم أن المفتريين هم المتبدعون، وأن الذين لا يعقلون هم الأتباع، وكذلك نص الشعبي وغيره، وهو الذي تعطيه الآية، وقال محمد بن أبي موسى: الذين كفروا

وافتروا هم أهل الكتاب، والذين لا يعقلون هم أهل الأوثان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير من انتزع ألفاظ آخر الآية عما تقدمها وارتبط بها من المعنى، وعما تأخر أيضاً من قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾، والأول من التأويلين أرجح.

والضمير في قوله: ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ عائد على الكفار المستنئين بهذه الأشياء، و﴿تَمَاتُوا﴾ نداء بين، هذا أصله، ثم استعمل حيث البرّ وحيث ضده، و﴿إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يعني القرآن الذي فيه التحريم الصحيح، و﴿حَسْبُنَا﴾ معناه: كفانا، وقوله: ﴿أَوْ لَوْ كَانَتْ آبَاؤُنْهُمُ﴾ ألسف التوقيف دخلت على واو العطف، كأنهم عطفوا بهذه الجملة على الأولى والتزموا شنيع القول، وإنما التوقيف توبيخ لهم كأنهم يقولون بعده: نعم ولو كانوا كذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾، اختلف الناس في تأويل هذه الآية - فقال أبو أمية الشعباني: سألت أبا ثعلبة الخشني عن هذه الآية فقال: لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: «اتتمروا بالمعروف، وانهوا عن المنكر، فإذا رأيت دنيا مؤثرة، وشخصاً مطاعاً، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخويصة نفسك، وفر عوامهم فإن وراءكم أياماً أجر العامل فيها كأجر خمسين منكم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو التأويل الذي لا نظر لأحد معه، لأنه مستوف للمصالح، صادر

عن النبي عليه الصلاة والسلام.

ويظهر من كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض الناس تأول الآية أنها لا يلزم معها أمر بمعروف ولا نهي عن منكر، فصعد المنبر فقال: أيها الناس، لا تغتروا بقول الله: ﴿عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فيقول أحدكم: علي نفسي، والله لتأمرن بالمعروف، ولتنهون عن المنكر أو ليستعملن عليكم شراركم فليستعملنكم سوء العذاب.

وروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: ليس هذا بزمان هذه الآية، قولوا الحق ما قبل منكم، فإذا رد عليكم فعليكم أنفسكم.

وقيل لابن عمر في بعض أوقات الفتن: لو تركت القول في هذه الأيام فلم تأمر ولم تنه، فقال: إن رسول الله ﷺ قال لنا: «السيبلغ الشاهد الغائب»، ونحن شهدنا فيلزمنا أن نبلغكم، وسيأتي زمان إذا قيل فيه الحق لم يقبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة ما عليه أهل العلم في هذا أن الأمر بالمعروف متعين متى رجي القبول، أو رجي رد المظالم ولو بعنف ما لم يخف المرء ضرراً يلحقه في خاصته، أو فتنة يدخلها على المسلمين، إما بشق عصا، وإما بضرر يلحق طائفة من الناس، فإذا خيف هذا فعليكم أنفسكم بخكم واجب أن يوقف عنده.

وقال سعيد بن جبير: معنى هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾ فالتزموا شرعكم بما فيه من جهاد وأمر بمعروف وغيره، ولا

يضرركم ضلال أهل الكتاب إذا اهتديتم.

وقال ابن زيد: معنى الآية: يأتيها الذين آمنوا من أبناء أولئك الذين بحروا البحيرة وسيبوا السوائب عليكم أنفسكم في الاستقامة على الدين، ولا يضرركم ضلال الأسلاف إذا اهتديتم، قال: وكان الرجل إذا أسلم قال له الكفار: سقمت آباءك وضللتهم وفعلت وفعلت، فنزلت الآية بسبب ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يقل أحد - فيما علمت - إنها آية مودعة للكفار، وكذلك لا ينبغي أن يعارض بها شيء مما أمر الله به في غير ما آية، من القيام بالقسط والأمر بالمعروف، قال المهدوي: وقد قيل: هي منسوخة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف ولا يعلم قائله.

وقال بعض الناس: نزلت بسبب ارتداد بعض المؤمنين وافتتانهم، كابن أبي سرح وغيره، فقيل للمؤمنين: لا يضرركم ضلالهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بضم الضاد وشد الراء المضمومة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بضم الضاد وسكون الراء، وقرأ إبراهيم: ﴿لَا يَضُرُّكُمْ﴾ بكسر الضاد، وهي كلها لغات بمعنى: ضرّ يضرّ، وضار يضرور ويضير.

وقوله تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية. تذكير بالحشر وما بعده، وذلك مُسَلَّ عن أمور الدنيا ومكروها ومحبوها. وروي عن

بعض الصالحين أنه قال: ما من يوم إلا يجيء الشيطان فيقول: ما تأكل؟ وما تلبس؟ وأين تسكن؟ فأقول له: أكل الموت، وألبس الكفن، وأسكن القبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمن فكر في مرجعه إلى الله فهذه حاله.

﴿١٠٦﴾ - ﴿١٠٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال مكي بن أبي طالب رضي الله عنه: هذه الآيات عند أهل المعاني من أشكل ما في القرآن، إعراباً ومعنى وحكماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كلام من لم يقع له التلجج في تفسيرها، وذلك بين من كتبه رحمه الله، وبه نستعين.

لا نعلم خلافاً أن سبب هذه الآية أن تميم الداري، وعدي بن بداء كانا نصرانيين سافرا إلى المدينة يريدان الشام لتجارتهم، قال الواقدي: وهما أخوان، وقدم المدينة أيضاً ابن أبي مارية مولى عمرو بن العاص يريد الشام تاجراً، فخرجوا رفاقة، فمرض ابن أبي مارية في الطريق، قال الواقدي: فكتب وصية بيده ودسها في متاعه، وأوصى إلى تميم وعدي أن يوديا رَحْلَهُ، فأتيا بعد مدة المدينة برحله فدفعاه، ووجد أولياؤه من بني سهم وصيته مكتوبة، ففقدوا أشياء قد كتبها فسألوهما عنها فقالا: ما ندري، هذا الذي قبضناه له، فرفعوهما إلى رسول الله ﷺ، فنزلت الآية الأولى، فاستحلفهما رسول الله ﷺ بعد العصر، فبقي

الأمر مدة ثم عثر بمكة من متاعه على إناء عظيم من فضة مَحْوُوصٌ بالذهب، فقبل لمن وُجد عنده: من أين صار لكم هذا الإناء؟ فقالوا: ابتعناه من تميم الداري وعدي بن بداء، فارتفع في الأمر إلى النبي عليه الصلاة والسلام، فنزلت الآية الأخرى، فأمر رسول الله ﷺ رجلين من أولياء الميت أن يحلفا. قال الواقدي: فحلف عبدالله بن عمرو بن العاص، والمطلب بن أبي وداعة، واستحقا.

وروى ابن عباس عن تميم الداري أنه قال: برىء الناس من هذه الآيات غيري وغير عدي بن بداء، وذكر القصة، إلا أنه قال: وكان معه جام فضة يريد به الملك، فأخذته أنا وعدي، فبعناه بألف وقسمنا ثمنه، فلما أسلمت بعد قدوم رسول الله ﷺ المدينة تأثمت من ذلك، فأتيت أهله فأخبرتهم الخبر، وأذيت إليهم خمسمائة، فوثبوا إلى عدي فأتوا به رسول الله ﷺ، وحلف عمرو بن العاص ورجل آخر معه، ونزعت من عدي خمسمائة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: تختلف ألفاظ هذه القصة في الدواوين، وما ذكرته هو عمود الأمر، ولم يصح لعدي ضحبة فيما علمت ولا ثبت إسلامه، وقد صنفه في الصحابة بعض المتأخرين، وضعف أمره، ولا وجه عندي لذكره في الصحابة.

وأما معنى الآية من أولها إلى آخرها فهو أن الله تعالى أخبر المؤمنين أن حكمه في الشهادة على الموصي إذا

حضره الموت أن تكون شهادة عدلين، فإن كان في سفر - وهو الضرب في الأرض - ولم يكن معه من المؤمنين أحد فليشهد شاهدين ممن حضره من أهل الكفر، فإذا قدما وأديا الشهادة على وصيته حلفا بعد الصلاة أنهما ما كذبا ولا بدلا، وأن ما شهدا به حق ما كتما فيه شهادة الله، وحكم بشهادتهما، فإن عثر - بعد ذلك - على أنهما كذبا أو خانا ونحو هذا مما هو إثم حلف رجلان من أولياء الموصي في السفر وغرم الشاهدان ما ظهر عليهما. هذا معنى الآية على مذهب أبي موسى الأشعري، وسعيد بن المسيب، ويحيى بن يعمر، وسعيد بن جبير، وأبي مخجل، وإبراهيم، وشريح، وعبيدة السلماني، وابن سيرين، ومجاهد، وابن عباس، وغيرهم، يقولون: معنى قوله: ﴿مِنْكُمْ﴾ من المؤمنين، ومعنى ﴿بِأَيْمَانِكُمْ﴾ من الكفار، قال بعضهم: وذلك أن الآية نزلت ولا مؤمن إلا بالمدينة، وكانوا يسافرون في التجارة صحبة أهل الكتاب وعبيدة الأوثان وأنواع الكفرة.

واختلفت هذه الجماعة المذكورة - فذهب أبي موسى الأشعري وشريح وغيرهما أن الآية مُحْكَمَةٌ، وأسد الطبري إلى الشعبي أن رجلاً حضرته المنية بدقوقا، ولم يجد أحداً من المؤمنين يشهده على وصيته، فأشهد رجلين من أهل الكتاب، فقدموا الكوفة، فأتيا أبا موسى الأشعري فأخبراه وقدما بتركته، فقال أبو موسى الأشعري: هذا أمر لم يكن

بعد الذي كان في مدة النبي عليه الصلاة والسلام، ثم أحلفهما بعد صلاة العصر، وأمضى شهادتهما.

وأسد الطبري عن شريح أنه كان لا يجيز شهادة النصراني واليهودي على مسلم إلا في الوصية ولا تجوز أيضاً في الوصية إلا إذا كانوا في سفر.

ومذهب جماعة ممن ذكر أنها منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُوا ذَوَىٰ عَدْلٍ مِّنكُمْ﴾ وبما استند إليه إجماع جمهور الناس على أن شهادة الكافر لا تجوز.

وتأول جماعة من أهل العلم الآية على غير هذا كله، قال الحسن بن أبي الحسن: وقوله تعالى: ﴿مِنْكُمْ﴾ يريد من عشيرتكم وقربانكم، وقوله: ﴿أَوْ مَلَآئِكًا مِّنْ غَيْرِكُمْ﴾ يريد من غير القرابة والعشيرة، وقال بهذا عكرمة مولى ابن عباس، وابن شهاب، قالوا: أمر الله بإشهاد عدلين من القرابة إذ هم ألحن بحال الوصية وأدرى بصورة العدل فيها، فإن كان الأمر في سفر ولم تحضر قرابة أشهد أجنبيان، فإذا شهدا فإن لم يقع ارتياب مضت الشهادة، وإن ارتيب أنهما مالا بالوصية إلى أحد أو زادا أو نقصا حلفا بعد صلاة العصر ومضت شهادتهما، فإن عثر بعد ذلك على تبديل منهما واستحقاق إثم حلف وليان من القرابة، وبطلت شهادة الأولين.

وقال بعض الناس: الآية منسوخة، ولا يحلف شاهد، ويذكر هذا عن مالك بن أنس، والشافعي، وكافة الفقهاء.

وذكر الطبري رحمه الله أن هذا

التخالف الذي في الآية إنما هو بحسب التداعي، وذلك أن الشاهدين الأولين إنما يحلفان إذا ارتيب، وإذا ارتيب فقد ترتبت عليهما دعوى فتلزهما اليمين، لكن هذا الارتياب إنما يكون في خيانة منهما. فإن عثر بعد ذلك على أنهما استحقا إثمًا نظر، فإن كان الأمر بينًا عرُما دون يمين وليين، وإن كان بشاهد واحد أو بدلائل تقتضي خيانتها أو ما أشبه ذلك مما هو كالشاهد حمل على الظالم وحلف المدعيان مع ما قام لهما من شاهد أو دليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا هو الاختلاف في معنى الآية وصورة حكمها.

ولنرجع الآن إلى الإعراب والكلام على لفظ لفظة من الآية، ولنقص القول المفيد، لأن الناس خلطوا في تفسير هذه الآية تخليطاً شديداً، وذكر ذلك والرُدُّ عليه يطول، وفي تبیین الحق الذي تتلقاه الأذهان بالقبول مقنع، والله المستعان.

قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ﴾، قال قوم: الشهادة هنا بمعنى الحضور، وقال الطبري: الشهادة بمعنى اليمين، وليست بالتي تؤدى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، والصواب أنها الشهادة التي تحفظ لثؤدى. ورفعها بالابتداء والخبر في قوله: ﴿أَتْسَانٌ﴾.

قال أبو علي: التقدير: شهادة بينكم في وصاياكم شهادة اثنين، فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقدره غيره أولاً، كأنه قال: «مقيم شهادة بينكم اثنان».

وأضيفت الشهادة إلى (بين) اتساعاً في الظرف بأن يعامل معاملة الأسماء، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَعْنَا بَيْنَكُمْ﴾.

وقرأ الأعرج، والشعبي، والحسن: ﴿شَهَادَةٌ﴾ بالتنوين ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب، وإعراب هذه القراءة على نحو إعراب قراءة السبعة. وروي عن الأعرج، وأبي حنيفة: ﴿شَهَادَةٌ﴾ بالنصب والتنوين ﴿بَيْنَكُمْ﴾ نصباً، قال أبو الفتح: التقدير: «ليقم شهادة بينكم اثنان».

وقوله تعالى: ﴿إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ معناه: إذا قرب الحضور، وإلا فإذا حضر الموت لم يشهد ميت، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾، وكقوله: ﴿إِذَا طَلَعْتُمْ إِلَى النَّسَاءِ فَطَلِّقُوهُنَّ﴾، وهذا كثير، والعامل في ﴿إِذَا﴾ المصدر الذي هو ﴿شَهَادَةٌ﴾، وهذا على أن تحتاج إلى ﴿إِذَا﴾ بمنزلة (حين) لا تحتاج إلى جواب، ولك أن تجعل ﴿إِذَا﴾ في هذه الآية المحتاجة إلى جواب لكن استغني عن جوابها بما تقدم في قوله: ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُمْ﴾ إذ المعنى: إذا حضر أحدكم الموت فينبغي أن يشهد.

وقوله: ﴿حِينَ الْوَيْسِيَّةِ﴾ ظرف زمان والعامل فيه ﴿حَضَرَ﴾، وإن شئت جعلته بدلاً من ﴿إِذَا﴾، قال أبو علي: ولك أن تعلقه بـ ﴿الْمَوْتُ﴾، ولا يجوز أن تعمل فيه ﴿شَهَادَةٌ﴾ لأنها إذا عملت في ظرف من الزمان لم تعمل في ظرف آخر منه.

وقوله: ﴿ذَوَا عَدْلٍ﴾ صفة لقوله ﴿أَتْسَانٌ﴾، و ﴿مِنْكُمْ﴾ صفة أيضاً بعد صفة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ صفة لـ ﴿ءَاخِرَانَ﴾، و ﴿صَرِيحًا فِي الْأَرْضِ﴾ معناه: سافرت للتجارة، تقول: ضربت في الأرض أي: سافرت للتجارة، وضربت الأرض: ذهبت فيها لفضاء حاجة الإنسان، وهذا السفر كان كالذي يمكن أن يعدم فيه المؤمن مؤمنين، فلذلك حُصَّ بالذكر، لأن سفر الجهاد لا يكاد يعدم فيه مؤمنين.

قال أبو علي: قوله: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا﴾ صفة لـ ﴿ءَاخِرَانَ﴾، واعتراض بين الموصوف والصفة بقوله: ﴿إِنْ أَنْتَ﴾ إلى ﴿أَلْتَوَيْتَ﴾، وأفاد الاعتراض أن العدول إلى آخرين من غير الملة أو القرابة حسب اختلاف العلماء في ذلك إنما يكون مع ضرورة السفر وحلول الموت فيه، واستغني عن جواب [إِنْ] لما تقدم من قوله: ﴿أَوْ ءَاخِرَانَ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

وقال جمهور العلماء: الصلاة هنا صلاة العصر، لأنه وقت اجتماع الناس، وقد ذكره النبي ﷺ فيمن حلف على سلعته، وأمر باللعان فيه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنما هي بعد صلاة الذميين، وأما العصر فلا حرمة لها عندهما.

والفاء في قوله: ﴿فَيَقْسِمَانِ﴾ عاطفة جملة على جملة، لأن المعنى تم في قوله: ﴿وَبِئْسَ الْبَدِيَّةُ الْكَلْبَاءُ﴾، قال أبو علي: وإن شئت لم تقدر الفاء عاطفة جملة على جملة، ولكن تجعله جزاء كقول ذي الرمة:

وإنسان عني يخير الماء تارة
فَيَبْدُو وتارات يَجْمُ فَيَغْرُقُ
تقديره عندهم: إذا حَسَرَ بدا،

فكذلك إذا حبستوهما أَسْمَا.

وقوله: ﴿إِنْ آزَيْتَ﴾ شرط لا يتوجه تحليف الشاهدين إلا به، ومتى لم يقع ارتياب ولا اختلاف فلا يمين، أما إنه يظهر من حكم أبي موسى تحليف الذميين أنه باليمين تكمل شهادتهما وتفذ الوصية لأهلها وإن لم يرتب. وهذه الرية - عند من لا يرى الآية منسوخة - تترتب في الخيانة وفي الاتهام بالميل إلى بعض الموصى لهم دون بعض، وتقع مع ذلك اليمين عنده، وأما من يرى الآية منسوخة فلا يقع تحليف إلا بأن يكون الارتياب في خيانة، أو تَعَدُّ بوجه من وجوه التعدي، فيكون التحليف عنده بحسب الدعوى على منكر لا على أنه تكميل للشهادة.

والضمير في قول الحالفين: ﴿لَا نَشْتَرِي بِهِنَّ شَيْئًا﴾ عائد على القسم، ويحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى، قال أبو علي: يعود على تحريف الشهادة. وقوله: ﴿لَا نَشْتَرِي﴾ جواب ما يقتضيه قوله: ﴿فَيَقْسِمَانِ بِاللَّهِ﴾ لأن القسم ونحوه يتلقى بما تتلقى به الأيمان، وتقدير ﴿بِهِنَّ شَيْئًا﴾ أي: ذا ثمن، لأن الثمن لا يُشْتَرَى، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَشْتَرُوا بِعَابَتِ اللَّهِ ذَنْبًا قَلِيلًا﴾ معناه: ذا ثمن. ولا يجوز أن يكون ﴿نَشْتَرِي﴾ في هذه الآية بمعنى نبيع، لأن المعنى يبطله، وإن كان ذلك موجوداً في اللغة في غير هذا الموضع.

وخص ذا القربى بالذكر لأن العرف ميل الناس إلى قرباتهم، واستسهلهم في جنب نفعهم ما لا يستسهل. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرْ بِشَهَادَةٍ

اللَّهِ﴾ أضاف ﴿شَهَادَةً﴾ إليه تعالى من حيث هو الأمر بإقامتها الناهي عن كتمانها. وقرأ الحسن والشعبي: ﴿وَلَا تَكْفُرْ﴾ بجزم الميم، وقرأ علي بن أبي طالب، ونعيم بن مسيرة، والشعبي - بخلاف عنه - ﴿شَهَادَةً﴾ بالتنوين ﴿اللَّهُ﴾ نصب بـ ﴿تَكْفُرْ﴾، كأن الكلام: ﴿وَلَا تَكْفُرْ بِشَهَادَةِ اللَّهِ شَهَادَةً﴾. قال الزهراوي: ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿وَلَا تَكْفُرْ بِشَهَادَةِ اللَّهِ﴾ ثم حذفت الواو ونصب الفعل إيجازاً، وروى يحيى بن آدم عن أبي بكر بن عياش: ﴿شَهَادَةً﴾ ﴿اللَّهُ﴾ بقطع الألف دون مدّ وخفض الهاء، ورويت أيضاً عن الشعبي وغيره أنه كان يقف على الهاء من (الشهادة) بالسكون، ثم يقطع الألف المكتوبة من غير مدّ كما تقدم، وروي عنه أنه كان يقرأ ﴿اللَّهُ﴾ بمدّ ألف الاستفهام في الوجهين، أعني بسكون الهاء من (الشهادة) وتحريكها منونة منصوبة، ورويت هذه التي هي تنوين (الشهادة) ومدّ ألف الاستفهام بعد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال أبو الفتح: أما تسكين هاء ﴿شَهَادَةً﴾ والوقف عليها واستئناف القسم فوجه حسن، لأن استئناف القسم في أول الكلام أوقر له وأشد هيبه أن يدرج في عرض القول. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، وعبد الله بن حبيب، والحسن البصري - فيما ذكر أبو عمرو الداني -: ﴿شَهَادَةً﴾ بالنصب والتنوين ﴿اللَّهُ﴾ بالمدّ في همزة الاستفهام التي هي عَوْضٌ من حرف القسم [آنَا] بمدّ ألف الاستفهام أيضاً دخلت لتوقيف أو تقرير لنفوس

المقسمين، أو لمن خاطبوه. وقرأ ابن مُخَيِّصٍ: ﴿إِلْمِلَائِمِينَ﴾ بالإدغام.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ عُرِّيَ﴾ استعارة لما يُوقَع على علمه بعد خفائه اتفاقاً ويعد أن لم يُرج ولم يُقصد، وهذا كما يقال: على الخبير سقطت، ووقعت على كذا، قال أبو علي: والإثم هنا: اسم الشيء المأخوذ، لأن أخذه يأخذه أثم فسمي إثمًا كما سُمي ما يؤخذ بغير حق مَظْلَمَةً، قال سيبويه: المظلمة اسم ما أخذ منك، وكذلك سمي هذا المأخوذ باسم المصدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر هنا أن الإثم على بابه وهو الحكم اللاحق لهما والنسبة التي يتحصلان فيها بعد موافقتهما لتحريف الشهادة أو لأخذ ما ليس لهما أو نحو ذلك.

و﴿أَسْتَحَقَّ﴾ معناه: استوجبه من الله وكانا أهلاً له، فهذا استحقاق على بابه، إنه استيجاب حقيقة، ولو كان الإثم الشيء المأخوذ لم يقل فيه استحقاقاً لأنهما ظلما وخانا فيه، فإنما استحقا منزلة السوء وحكم العصيان، وذلك هو الإثم.

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَخَّرَانَ﴾ أي: فإذا عُثِر على فسادهما فالأوليان باليمين وإقامة القضية آخران من القوم الذين هم ولاة الميت، واستحق عليهم حظهم أو ظهورهم أو مالهم أو ما شئت من هذه التقديرات.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ مضمومة التاء، ﴿الْأُولَيْنِ﴾ على التثنية لـ (أولي)، وروى قُرَّة عن ابن كثير: ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاء ﴿الْأُولَيْنِ﴾

على التثنية، وكذلك روى حفص عن عاصم، وقرأ حمزة وعاصم في رواية أبي بكر ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ بضم التاء ﴿الْأُولَيْنِ﴾ على جمع (أول)، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ﴿أَسْتَحَقَّ﴾ بفتح التاء ﴿الْأُولَانَ﴾ على تثنية (أول)، وقرأ ابن سيرين ﴿الْأُولَيْنِ﴾ على تثنية (أول)، ونصبهما على تقدير: الأولين فالأولين في الرتبة والقربى.

قال أبو علي في قراءة ابن كثير ومن معه: لا يخلوا ارتفاع ﴿الْأُولَيْنِ﴾ من أن يكون على الابتداء وقد أخرج، فكأنه في التقدير: «والأوليان بأمر الميت آخران يقومان» فيجئ الكلام كقولهم: «تيمي أنا»، أو يكون خير ابتداءً محذوف كأنه: «فآخران يقومان مقامهما هما الأوليان»، أو يكون بدلاً من الضمير الذي في ﴿يُؤْمَانِ﴾، أو يكون مسنداً إلى ﴿أَسْتَحَقُّ﴾، وأجاز أبو الحسن فيه شيئاً آخر وهو أن يكون ﴿الْأُولَيْنِ﴾ صفة لـ ﴿آخِرَانَ﴾ لأنه لما وصف خصص، فوصف من أجل الاختصاص الذي صار له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم قال أبو علي بعد كلامه هذا: فأما ما يُسند إليه ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ فلا يخلو من أن يكون: الأنصبة، أو الوصية، أو الإثم. وسمي المأخوذ إثمًا كما يقال لما يؤخذ من المظلوم: مَظْلَمَةً، ولذلك جاز أن يستند إليه ﴿أَسْتَحَقُّ﴾، ثم قال بعد كلام: فإن قلت: هل يجوز أن يُسند ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ إلى ﴿الْأُولِيَانَ﴾؟ فالقول أن ذلك لا يجوز، لأن المستحق إنما يكون

الوصية أو شيئاً منها، وأما الأوليان بالميت فلا يجوز أن يستحقا فيسند ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ إليهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الكلام نظر، ويجوز عندي أن يسند ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ إلى ﴿الْأُولَيْنِ﴾، وذلك أن أبا علي حمل لفظه الاستحقاق على أنه حقيقي فلم يُجوزَه إلا حيث يصح الاستحقاق الحقيقي في النازلة، وإنما يُسْتَحَق حقيقة التَّصِيب ونحوه، ولفظة الاستحقاق في الآية إنما هي استعارة وليست بمعنى «استحقاقاً إثمًا» فإن الاستحقاق هنا حقيقة، وفي قوله ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ مستعار، لأنه لا وجه لهذا الاستحقاق إلا الغلبة على الحال بحكم انفراد هذا الميت وعدمه لقرابته أو لأهل دينه، فـ ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ هنا كما تقول لظالم يظلمك: هذا قد استحق عليّ مالي أو منزلي يظلمه، فَتُسَبِّهُهُ بالمستحق حقيقة، إذ قد تسور تسوره وتملك تملكه، وكذلك يقال: فلان قد استحق زمنه شغل كذا إذا كان الأمر قد غلبه على أوقاته، وهكذا هي ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ في الآية على كل حال وإن أُسندت إلى الأنصبة ونحوه، لأن قوله ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ صلة لـ ﴿الَّذِينَ﴾ و ﴿الَّذِينَ﴾ واقع على الصنف المناقض للشاهدين الجائرين، فالشاهدان ما استحقا قط في هذه النازلة شيئاً حقيقة استحقاق، وإنما تسورا تسور المستحق، فلنا أن نقدر ﴿الْأُولَيْنِ﴾ ابتداءً وقد أخرج، فيسند ﴿أَسْتَحَقُّ﴾ - على هذا - إلى المال أو التصيب ونحوه على جهة الاستعارة،

وَمَا أَجْتَرُ قَالُوا لِأَعْمَرَ
يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرُّسُلَ يَقُولُ مَاذَا أَجْتَرْتُمْ قَالُوا لَأَعْمَرَ
لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَمُ الْغُيُوبِ ﴿١٠٨﴾ إِذْ قَالَ اللَّهُ لِيَعْقُوبَ بْنَ مَرْيَمَ
اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِكَ إِذْ أَيْدَتْنَاكَ بَيْرُوحَ
الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْنَاكَ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالرُّسُلَ وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغُلَقِ
مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِ فَتَنَّفَعُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا
بِإِذْنِ رَبِّكَ الْأَرْضَ وَاللَّيْلَ وَإِذْ نَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغُلَقِ
مِنَ الطَّيْرِ بِإِذْنِ رَبِّكَ إِذْ كَفَفْتُمْ بَيْنَ يَدَيْهِ إِذْ
جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَذَا إِلَهٌ آخَرٌ
مِّثْلُكُمْ وَإِذْ أَخْبَرْتُمْ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنَّ مَسِيحَ ابْنَ
مَرْيَمَ قَالُوا مَا مَسِيحٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ
رُسُلٌ كَثِيرَةٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ فَذَكَرَ اللَّهُ إِلَهُانَ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٩﴾ قَالُوا رَبُّنَا كُنَّا كُفَّارًا وَنَطْمِئِنُّ فَلَئِمَّا
وَعَلَّمْنَا أَنْ قَدْ صَدَّقْتَنَا وَتَكُونُ عَلَيْهِمُ الْشَّاهِدِينَ ﴿١١٠﴾

استحق عليهم القيام،
والصواب من التأويلين أن
الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد
على ﴿الَّذِينَ﴾،
و﴿الَّذِينَ﴾ رفع —
[استحق] وذلك متخرج
على ثلاثة معان:

أحدها أن يكون المراد
من الذين استحق عليهم
مآلهم وتركتهم شاهدا
الزور، فسُمي شاهدي
الزور أو لئيين من حيث
جعلتهما الحال الأولى
كذلك، أي صيرهم عذم
الناس أولى بهذا الميت
وتركته فجارا فيها.

والمعنى الثاني أن يكون
المراد من الجماعة الذين حق عليهم
أن يكون منهم الأوليان، فاستحق
بمعنى: حق ووجب، كما تقول:
هذا بناء قد استحق بمعنى حق،
كعجب واستعجب ونحوه.

والمعنى الثالث أن يجعل [استحق]
بمعنى سعى واستوجب، فكأن
الكلام: فأخرا من القوم الذين
حضر أوليان منهم فاستحقا عليهم
حقهم، أي: استحقا لهم وسعيا فيه
واستوجباه بأيمانها وقرباهما، ونحو
هذا المعنى الذي يعطيه التعدي بـ
(على) قول الشاعر:

أَسْعَى عَلَى حَيِّ بَنِي مَالِكٍ
كُلُّ امْرِئٍ فِي شَأْنِهِ سَاعِي
وكذلك في الحديث: «كنت أرمي
عليهم الغنم» في بعض طرق حديث
الثلاثة الذين ذكر أحدهم بره بأبويه
حين انحطت عليهم الصخرة.

وكذلك إذا كان ﴿الَّذِينَ﴾ خبر
ابتداء، وكذلك على البدل من
الضمير في ﴿يَقُولَانِ﴾، وعلى الصفة
على مذهب أبي الحسن، ولنا أن
نقدر الكلام بمعنى: من الجماعة
التي غابت وكان حقها والمبتغى أن
يحضر وليها، فلما غابت وانفرد هذا
الموصي استحققت هذه الحال —
وهذان الشاهدان من غير أهل الدين —
الولاية وأمر الأوليين على هذه
الجماعة، ثم بني الفعل للمفعول
على هذا المعنى إيجازاً. ويقوي هذا
الغرض أن تعدي الفعل بـ ﴿عَلَى﴾ لما
كان باقتدار وحمل هيئته الحال، ولا
يقال: استحق منه أو فيه إلا في
الاستحقاق الحقيقي على وجهه،
وأما استحق عليه فيقال في الحمل
والغلبة والاستحقاق المستعار.
والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على كل
حال في هذه القراءة على الجماعة
التي تناقض شاهدي الزور الأئمين،
ويحتمل أن يعود على الصنف الذين
منهم شاهد الزور على ما بُيِّنَتْه الآن
إن شاء الله في غير هذه القراءة.

وأما رواية قُورَة عن ابن كثير ﴿استحق﴾
بفتح التاء فيحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾
ابتداء أو خبر ابتداء، ويكون المعنى:
من الجمع أو القبيل الذي استحق
القضية على هذا الصنف الشاهد
بالزور، والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد
على صنف شاهدي الزور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي هذا التأويل تحويم وتحليل
وصنعة في ﴿الَّذِينَ﴾، وعليه يبني
كلام أبي علي في كتاب الحججة،
ويحتمل أن يكون المعنى: من الذين

وأما قراءة حمزة فمعناها: من القوم
الذين استحق عليهم أمرهم، أي:
غلبوا عليه، ثم وصفهم بأنهم
أولون، أي: في الذكر في هذه
الآية، وذلك في قوله: ﴿أَشْتَانِ ذَا
عَدْلٍ يَنْكُرُ﴾، ثم بعد ذلك قال: ﴿أَوْ
مَآخِرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَيُتَسَمَّنَ بِاللَّهِ﴾ يعني
الآخرين اللذين يقومان مقام شاهدي
التحريف، وقولهما: ﴿لَشَهَدْنَا
أَحَقُّ مِنْ شَهَدْتَهُمَا﴾ أي: لَمَّا أَخْبَرْنَا
نحن به وذكرناه من نَصِّ القضية أحق
مما ذكرناه أولا وحرفنا فيه، ﴿وَمَا
أَسْتَدِينَا﴾ نحن في قولنا هذا ولا زدنا
على الحد. وقولهما: ﴿إِنَّا إِذَا لَمِينُ
الظَّالِمِينَ﴾ تبرُّ في صيغة الاستعظام
والاستبجاب للظلم، والظلم وضع
الشيء في غير موضعه.

﴿١٠٨﴾ - ﴿١١٠﴾ تفسير قوله عز وجل:
الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ هي إلى جميع

ما حذَّ الله قبل من حبس الشاهدين من بعد الصلاة لِلْيَمِينِ، ثم إن عثر على جورهما رُدَّت اليمين وغرَّما، فذلك كله يقرب اعتدال هذا الصنف فيما عسى أن ينزل من النوازل، لأنهم يخافون التحليف المغلظ بعقب الصلاة، ثم يخافون الفضيحة وردَّ اليمين. هذا قول ابن عباس رضي الله عنهما.

ويظهر من كلام السدي أن الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إنما هي إلى الحبس من بعد الصلاة فقط، ثم يجيء قوله تعالى: ﴿أَوْ يَخَافُوا أَنْ تُرَدَّ أَيْمَانٌ بِيَازٍ﴾ فَإِنَّ عَيْبَ الآية.

وجمع الضمير في ﴿يَأْتُوا﴾ و ﴿يَخَافُوا﴾ إذ المراد صنف ونوع من الناس، و ﴿أَنْ﴾ في هذه الآية على تأويل السدي بمنزلة قولك: فتجيشني يا زيد أو تسخطني، كأنك تريد: وإلا أسخطتني، فكذلك معنى الآية: ذلك أدنى أن يأتوا بالشهادة على وجهها وإلا خافوا ردَّ الأيمان، وأما على مذهب ابن عباس رضي الله عنهما فالمعنى: ذلك الحكم كله أقرب إلى أن يأتوا، وأقرب إلى أن يخافوا.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ وَجْهَيْهَا﴾ معناه: على جهتها القيمة التي لم تبدل ولا حُرِّفَتْ.

ثم أمر تعالى بالتقوى التي هي الاعتصام بالله، وبالسَّمْعَ لهذه الأوامر المنجية، وأخبر أنه لا يهدي القوم الفاسقين من حيث هم فاسقون، وإلا فهو تعالى يهديهم إذا تابوا، ويحتمل أن يكون لفظ ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ عاماً والمراد الخصوص فيمن لا يتوب.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْعُ اللَّهُ أَرْسُلَ﴾ ذهب قوم من المفسرين إلى أن العامل في ﴿يَوْمَ﴾ ما تقدم من قوله: ﴿لَا يَهْدِي﴾، وذلك ضعيف. ووصف الآية وبراعتها إنما هو أن يكون هذا الكلام مستأنفاً والعامل مقدراً، إما: اذكروا، وإما: تذكروا، وإما: احذروا ونحو هذا مما حسن اختصاره لعلم السامع.

والإشارة بهذا اليوم إلى يوم القيامة، وخصَّ الرسل بالذكر لأنهم قادة الخلق، وفي ضمن جمعهم جمع الخلائق، وهم المكلَّمون أولاً.

و﴿مَاذَا أُجِيتُمْ﴾ معناه: ماذا أجابت به الأمم من إيمان أو كفر وطاعة أو عصيان؟ وهذا السؤال للأنبياء الرسل إنما هو لتقوم الحجة على الأمم. وابتدئ حسابهم على الواضح المستبين لكل مفطور.

واختلف الناس في معنى قولهم عليهم السلام: ﴿لَا عِلْمَ لَنَا﴾ - فقال الطبري: ذهلوا عن الجواب لهول المطمع، وذكر عن الحسن أنه قال: لا علم لنا من هول ذلك اليوم، وعن السدي: نزلوا منزلاً ذهلت فيه العقول فقالوا: لا علم لنا، ثم نزلوا منزلاً آخر شهدوا على قومهم، وعن مجاهد أنه قال: يفزعون فيقولون: لا علم لنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وضعف بعض الناس هذا المنزِع بقوله تعالى: ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَرَجُ الْأَكْبَرُ﴾، والأنبياء في أشد أهوال يوم القيامة وحالة جواز الصراط يقولون: سلم، سلم، وحالهم أعظم وفضل الله عليهم أكثر من أن تذهل

عقولهم حتى يقولوا ما ليس بحق في نفسه.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معنى الآية: لا علم لنا إلا علماً أنت أعلم به منا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن، كأن المعنى: لا علم لنا يكفي وينتهي إلى الغاية.

وقال ابن جريج: معنى ﴿مَاذَا أُجِيتُمْ﴾: ماذا عملوا بعدكم؟ وماذا أحدثوا؟ فلذلك قالوا: لا علم لنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى حسن في نفسه، ويؤيده قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّمُ الْقُتُوبِ﴾، لكن لفظة ﴿أُجِيتُمْ﴾ لا تساعد قول ابن جريج إلا على كره، وقول ابن عباس أصوب هذه المناحي، لأنه يتخرج على التسليم لله تعالى وردَّ الأمر إليه، إذ قوله: ﴿مَاذَا أُجِيتُمْ﴾ لا علم عندهم في جوابه إلا بما شوفهوا به مدة حياتهم، وينقصهم ما في قلوب المشافهين من نفاق ونحوه، وكذلك ينقصهم ما كان يغدّم من أمتهم، والله تعالى يعلم جميع ذلك على التفصيل والكمال، فرأوا التسليم له والخضوع لعلمه المحيط.

وقرأ أبو حيوة: ﴿مَاذَا أُجِيتُمْ﴾ بفتح الهمزة.

﴿١١٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

يحتمل أن يكون العامل في ﴿إِذْ﴾ فعلاً مضمراً تقديره: اذكر يا محمد إذ جنتهم بالبينات، و ﴿قَالَ﴾ هنا بمعنى: يقول، لأن ظاهر هذا القول أنه في القيامة تقدمت لقوله: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ﴾، وذلك كله إحكام

لتوبيخ الذين يتحصلون كافرين بالله في ادعائهم ألوهية عيسى .

ويحتمل أن تكون ﴿إِذْ﴾ بدلاً من قوله: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ﴾ .

ونعمة الله على عيسى هي بالنبوة وسائر ما ذكر وما علم مما لا يُحصى، وعددت عليه النعمة على أمة إذ هي نعمة صائرة إليه وبسببه كانت.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَيَّدْتَكُ﴾ بتشديد الياء، وقرأ مجاهد، وابن محيصن: ﴿أَيَّدْتِكُ﴾ على وزن فاعلتك، ويظهر أن الأصل في القراءة تين ﴿أَيَّدْتِكُ﴾ على وزن أفعلتك ثم اختلف الإعلال، والمعنى فيهما: قوّيتك من الأيدي، وقال عبدالمطلب:

الحمد لله الأعز الأكرم
أيدينا يوم زحوف الأشرم
وروح القدس هو جبريل عليه السلام، وقوله: ﴿فِي الْهَيْدِ﴾ حال، كأنه قال: صغيراً، ﴿وَكَهْلًا﴾ حال أيضاً معطوفة على الأول، ومثله قوله تعالى: ﴿دَعَا لِحَبِيْبِهِ أَوْ قَائِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ والكهولة من الأربعين إلى الخمسين، وقيل: هي من ثلاثة وثلاثين، و ﴿الْكِتَابِ﴾ في هذه الآية: مصدر كتب يكتب، أي: علمتك الخط، ويحتمل أن يريد اسم جنس في صحف إبراهيم وغير ذلك، ثم خص بعد ذلك التوراة والإنجيل بالذكر تشريفاً. ﴿وَالْحِكْمَةَ﴾ هي الفهم والإدراك في أمور الشرع، وقد وهب الله الأنبياء منها ما هم به مختصون معصومون لا ينطقون عن هوى.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ﴾ في هذه الآية حيثما تكررت فهي عطف على الأولى التي عملت فيها ﴿يَمَتِّي﴾ .

﴿تَمَاتَّقُ﴾ معناه: تقدر وتتهيء تقديراً مستوياً متقناً، ومنه قول الشاعر:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَغْدُ
فَضُّ الْقَوْمِ يَخْلُقُ نَمًّا لَا يَفْرِي
أي: يُهيء ويقدر ليعمل ويكمل ثم لا يفعل، ومنه قول الآخر:

مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقْو
لُ فَحِيلَتِي فِيهِ قَلِيلَةٌ
وكان عيسى عليه السلام يصور من الطين أمثال الخفافيش ثم ينفخ فيها أمام الناس فتحيا وتطير بإذن الله، وقد تقدم هذا القصص في «آل عمران» .

وقرأ جمهور الناس: ﴿كَهَيْتَهُ﴾ بالهمز، وهو مصدر من قولهم: هاء الشيء يهأه إذا ثبت واستقر على أمر حسن. وقال اللحياني: ويقال: يهيهي. وقرأ الزهري: ﴿كَهَيْتَةَ﴾ بتشديد الياء من غير همز، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿كَهَيْتَةَ الطائر﴾ .

والإذن في هذه الآية كيف تكرر معناه: التمكين مع العلم بما يصنع وما يقصد من دعاء الناس إلى الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿فَتَنْفِخُ فِيهَا﴾ هو النفخ المعروف من البشر، وإنما جعل الله الأمر هكذا ليظهر تلبس عيسى بالمعجزة وظهورها منه، وهذا كطرح موسى عليه السلام العصا، وكإيراد محمد ﷺ القرآن، وهذا أحد شروط المعجزات، وقوله: ﴿فِيهَا﴾ بضمير مؤنث مع مجيء ذلك في «آل عمران»: ﴿فَتَنْفِخُ

فِيهَا﴾ بضمير مذكر موضع قد اضطرب المفسرون فيه. قال مكي: هو في (آل عمران) عائد على الطائر وفي المائدة عائد على الهيئة. قال: ويصح عكس هذا. وقال غيره: الضمير المذكر عائد على الطين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يصح عود هذا الضمير لا على الطائر ولا على الطين ولا على الهيئة، لأن الطين أو الطائر الذي يجيء الطين على هيئته لا نفخ فيه البتة، وكذلك لا نفخ في هيئته الخاصة بجسده وهي المذكورة في الآية، وكذلك الطين المذكور في الآية إنما هو الطين العام، ولا نفخ في ذلك، وإنما النفخ في الصور

المخصوصة منه التي رببتها يد عيسى عليه السلام، فالوجه أن يقال في عود الضمير المؤنث إنه عائد على ما تقتضيه الآية ضرورة، وذلك أن قوله: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْتَةَ الطَّيْرِ﴾ يقتضي صوراً أو أجساماً أو أشكالاً، وكذلك الضمير المذكر يعود على المخلوق الذي تقتضيه ﴿تَمَاتَّقُ﴾ . ولك أن تعيده على ما تدل عليه الكاف من معنى المثل، لأن المعنى: وإذ تخلق من الطين مثل هيئة. ولك أن تعيد الضمير على الكاف نفسه فيمن يجوز أن يكون اسماً في غير الشعر، وتكون الكاف في موضع نصف صفة للمصدر المراد، تقديره: وإذ تخلق خلقاً من الطين كهية الطير.

وقرأ عبدالله بن عباس: ﴿كَهَيْتَةَ الطَّيْرِ فتنفخها فيكون﴾، وقرأ الجمهور ﴿فَتَكُونُ﴾ بالفاء من فوق،

وقرأ عيسى بن عمر: ﴿فِيهَا فَيَكُونُ﴾
بالياء من تحت، وقرأ نافع وحده:
﴿فَتَكُونُ طَائِرًا﴾، وقرأ الباقون:
﴿طَيْرًا﴾ بغير ألف، والقراءتان
مستفيضتان في الناس، فالطير: جمع
طائر، كتاجر وتجر، وصاحب
وصخب، وراكب وركب. والطائر:
اسم مفرد، والمعنى على قراءة نافع:
فتكون كل قطعة من تلك المخلوقات
طائراً.

قال أبو علي: ولو قال قائل: إن
الطائر قد يكون جمعاً كالحامل
والباقر فيكون على هذا معنى
القراءتين واحداً لكان قياساً، ويقوي
ذلك ما حكاه أبو الحسن من قولهم:
طائرة، فيكون من باب: شعيرة
وشعير، وتمرة وتمر.

وقد تقدم في الأكمه والأبرص،
وفي قصص إحيائه الموتى في
(آل عمران)، و﴿تُخْضِجُ الْمَوْتَى﴾
معناه: من قبورهم وكف بني
إسرائيل عنه عليه السلام هو رفعه
حين أحاطوا به في البيت مع
الحواريين، ومن أول ما منعه الله
منهم هو الكف إلى تلك النازلة
الآخرة، فهناك ظهر عظم الكف،
والبيئات: هي معجزاته وإنجيله
وجميع ما جاء به.

وقرأ ابن كثير وعاصم هنا وفي
(هود والصف): ﴿إِلَّا سِحْرًا﴾ بغير
ألف، وقرأ حمزة والكسائي في
المواضع الأربعة: ﴿ساحراً﴾ بألف،
فمن قرأ ﴿سحراً﴾ جعل الإشارة إلى
البيئات والحديث وما جاء به، ومن
قرأ ﴿ساحراً﴾ جعل الإشارة إلى
الشخص إذ هو ذو سحر عندهم،

وهذا مُطَرَّد في القرآن كله حيثما ورد
هذا الخلاف.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ﴾ هو من
جملة تعديد النعمة على عيسى، و
﴿أَوْحَيْتُ﴾ في هذا الموضع إما أن
يكون وحي إلهام أو وحي أمر، كما
قال الشاعر:

أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ
وبالجملة فهو إلقاء معنى في خفاء
أوصله تعالى إلى نفوسهم كيف
شاء.

والرسول - في هذه الآية - عيسى
عليه السلام، وقول الحواريين:
﴿وَأَشْهَدُ﴾ يحتمل أن يكون مخاطبة
منهم لله تعالى، ويحتمل أن يكون
لعيسى عليه السلام، وقد تقدم تفسير
لفظة [الحواريين] في آل عمران.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ﴾
الآية، اعتراض أثناء وصف حال
قول الله لعيسى يوم القيامة، مضمن
الاعتراض إخبار محمد عليه الصلاة
والسلام وأمه بنازلة الحواريين في
المائدة، إذ هي مثال نافع لكل أمة
مع نبئها يقتدى بحاسنه ويزدجر عما
يقصد منه من طلب الآيات ونحوه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ
رَبُّكَ﴾ بالياء ورفع الباء من ﴿رَبُّكَ﴾
، وهي قراءة السبعة حاشا
الكسائي، وهذا ليس لأنهم شكوا في
قدرة الله على هذا الأمر، لكنه
بمعنى: هل يفعل تعالى هذا؟ وهل
تقع منه إجابة له؟ وهذا كما قال
لعبدالله بن زيد: هل تستطيع أن
تربني كيف كان رسول الله ﷺ

يتوضأ؟ فالمعنى: هل يخف عليك؟
وهل تفعله؟ أما إن في اللفظة بشاعة
بسببها قال عيسى: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ إِنْ
كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ﴾، وبسببها مال فريق
من الصحابة وغيرهم إلى غير هذه
القراءة، فقرأ علي بن أبي طالب،
ومعاذ بن جبل، وابن عباس،
وعائشة، وسعيد بن جبير
رضي الله عنهم أجمعين: ﴿هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾ بالتاء ونصب الباء
من [ربك]، والمعنى: هل تستطيع
أن تسأل ربك؟ قالت عائشة
رضي الله عنها: كان الحواريون
أعرف بالله من أن يقولوا: ﴿هَلْ
يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
نزهتهم عائشة رضي الله عنها عن
بشاعة اللفظ، وإلا فليس يلزمهم منه
جهل بالله تعالى على ما قد تبين
آنفاً، وبمثل هذه القراءة قرأ الكسائي
وزاد أنه أدغم اللام في التاء، قال أبو
علي: وذلك حسن، و﴿أَنْ﴾ في
قوله: ﴿أَنْ يُزِيلَ﴾ على هذه القراءة
متعلقة بالمصدر المحذوف الذي
هو: سؤال، و﴿أَنْ﴾ مفعول به، إذ
هو في حكم المذكور في اللفظ وإن
كان محذوفاً منه إذ لا يتم المعنى إلا
به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد يمكن أن يستغنى عن تقدير
(سؤال) على أن يكون المعنى: هل
تستطيع أن ينزل ربك بدعائك أو
بأثرتك عنده ونحو هذا؟ فيردك
المعنى ولا بد إلى مقدر يدل عليه ما
ذكر من اللفظ.

والمائدة فاعلة من (ماد) إذا تَحَرَّكَ،

قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ
تَكُونُ لَنَا عَيْدًا كَمَا كُنْتَ آخِرَ نَوْمِ آبَائِنَا إِذْ هُمْ يَدْعُوكَ وَأَنْزَلْنَا
عَلَيْهِمُ الزُّبُرِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ اللَّهُ إِنِّي مَتْرَلُهُا عَلَيْكُمْ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ
مِنْكُمْ فَأِنِّي أَغْزِبُهُ عَذَابًا لَا أَغْزِبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١١٥﴾
وَأِذْ قَالَ اللَّهُ يٰعِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي
وَأَهْلِي الْهَيْئِينَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالِ سُبْحٰنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ
أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّهِ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي
نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا
قُلْتُ لَهُ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ وَأَنَا خَشِيعٌ وَأَلَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ وَكُنْتُ
عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ مِنَ الرَّقِيبِ
عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِنْ تَعَدَّ بِهِمْ عِيَادَتُكَ
وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الرَّحِيمُ الرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ
يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ لَمْ يَجْنُجْ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْ ذَلِكَ الْغُورِ الْعَظِيمِ ﴿١١٩﴾
لِلَّهِ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٢٠﴾

الضرورة والمشاهدة أن قد صدقتنا فلا تعترضنا الشبهة التي تعرض في علم الاستدلال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذا يترجح قول من قال: كان هذا قبل علمهم بآياته. ويدل أيضاً على ذلك أن وحى الله إليهم ﴿أَنْزِلُوا﴾ إنما كان في صدر الأمر وعند ذلك قالوا هذه المقالة ثم آمنوا ورأوا الآيات واستمروا وصدوا، وهلك من كفر. وقرأ سعيد بن جبيرة: ﴿وَتَعْلَمُ﴾ بالياء مضمومة على ما لم يُسَمِّ فاعله.

وقوله: ﴿وَتَكُونُ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ معناه: من الشاهدين بهذه الآية، الناقلين لها إلى غيرنا، الداعين إلى هذا الشرع بسببها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي أن الذي نحا بهم هذا المنحى من الاقتراح هو أن عيسى عليه السلام قال لهم مرة: هل لكم في صيام ثلاثين يوماً لله، ثم إن سألتهم حاجة قضاها؟ فلما صاموها قالوا: يا معلم الخير، إن حق من عمل عملاً أن يطعم، فهل يستطيع ريك؟ فأرادوا أن تكون المائدة عيد ذلك الصوم.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى عن عيسى أنه أجابهم إلى دعاء الله في أمر المائدة، فروي أنه لبس جبة شعر ورداء شعر وقام يصلي ويكي ويدعو.

هذا قول الزجاج، أو من (ماد) إذا ماز وأطعم كما قال رؤبة:

تَهْدَى رُؤُوسُ الْمُتَرْفِينَ الْأَنْدَادِ
إِلَى أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَنَادِ
أَي الَّذِي يُسْتَطْعَمُ وَيُتَمَادُ مِنْهُ.

وقول عيسى عليه السلام: ﴿أَنْقُوا﴾ الله إن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿تَقْرِيرٌ لَهُمْ﴾ كما تقول: افعل كذا وكذا إن كنت رجلاً، ولا خلاف أحفظه في أن الحواريين كانوا مؤمنين، وهذا هو ظاهر الآية.

وقال قوم: قال الحواريون هذه المقالة في صدر الأمر قبل علمهم بأنه يبرئ الأكمه والأبرص ويحيي الموتى.

ويظهر من قوله عليه السلام: ﴿أَنْقُوا﴾ إنكار لقولهم ذلك وذلك على قراءة من قرأ: ﴿يَسْتَطِيعُ﴾ بالياء من أسفل متوجه على أمرين: أحدهما بشاعة اللفظ، والآخر إنكار طلب الآيات والتعرض إلى سخط الله بها، والنبوات ليست مبنية على أن تتعنت، وأما على القراءة الأخرى فلم ينكر عليهم إلا الاقتراح وقلة طمأنينتهم إلى ما قد ظهر من آياته، فلما خاطبهم عليه السلام بهذه المقالة صرحوا بالمذاهب التي حملتهم على طلب المائدة فقالوا: نريد أن نأكل منها فنشرف على العالم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن هذا الأكل ليس الغرض منه شبع البطن.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُنَا﴾ معناه: يسكن فكرنا في أمرك بالمعانية لأمر نازل من السماء بأعيننا، ﴿وَتَعْلَمُ﴾ علم

و ﴿اللَّهُمَّ﴾ عند سبويه أصلها: يا الله، فجعلت اليمين بدلاً من (يا) و ﴿رَبَّنَا﴾ منادى آخر، ولا يكون صفة لأن (اللهم) يجري مجرى الأصوات من أجل ما لحقه من التغيير.

وقرأ الجمهور: ﴿تَكُونُ لَنَا﴾ على الصفة للمائدة، وقرأ ابن مسعود والأعمش: ﴿تَكُنْ لَنَا﴾ على جواب ﴿أَنْزِلْ﴾.

والعيد: المجتمع واليوم المشهود، وعرفه أن يقال فيما يستدير بالسنة أو بالشهر والجمعة ونحوه، وهو من: عاد يعود، فأصله الوار، ولكن لزمته الياء من أجل كسرة العين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَاؤَلَانَا وَآخِرَانَا﴾، وقرأ زيد بن ثابت، وابن محيصن، والجحدري: ﴿لَاؤَلَانَا وَآخِرَانَا﴾. واختلف المتأولون في

الحواريين قال لعيسى عليه السلام حين رأى طعام المائدة: يا روح الله، أمن طعام الدنيا هو أم من طعام الآخرة؟ قال عيسى عليه السلام: «ألم ينهكم الله عن هذه السؤالات؟ هذا طعام ليس من طعام الدنيا ولا من طعام الآخرة، بل هو القدرة الغالبة، قال الله له: كن فكان»، وروي أنه كان على المائدة بقول سوى الثوم والكراث والبصل، وقيل: كان عليها زيتون وتمر وحب ورمان.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المفسرون في وقت وقوع هذا القول - فقال السدي وغيره: لما رفع الله عيسى عليه السلام إليه قالت النصارى ما قالت، وزعموا أن عيسى أمرهم بذلك، فسأله تعالى حينئذ عن قولهم فقال: ﴿سُبْحٰنَكَ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيجيء ﴿قَالَ﴾ على هذا متمكنة في الماضي، ويجيء قوله آخراً: ﴿وَإِنْ تَعَفَّرَ لَهُمْ﴾ أي بالتوبة من الكفرة، لأن هذا قاله عيسى عليه السلام وهم أحياء في الدنيا.

وقال ابن عباس، وقتادة، وجمهور الناس: هذا القول من الله إنما هو في يوم القيامة، يقوله الله له على رؤوس الخلائق، فيرى الكفار تَبَرُّيه منهم، ويعلمون أن ما كانوا فيه باطل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و﴿قَالَ﴾ - على هذا التأويل - بمعنى: يقول. ونزول الماضي موضع المستقبل دلالة على كون الأمر وثبوته، وقوله آخراً: ﴿وَإِنْ

المائدة سمكة فيها طعم كل طعام، قال ابن عباس: نزل خوان عليه خبز وسمك يأكلون منه أينما نزلوا إذا شأؤوا، وقاله وهب بن منبه، قال إسحق بن عبدالله: نزلت المائدة عليها سبعة أرغفة وسبعة أحوات، قال: فسرق منها بعضهم فرفعت، وقال عمار بن ياسر: سألو عيسى عليه السلام مائدة يكون عليها طعام لا ينفد، فقيل لهم: فإنها مقيمة لكم ما لم تخبثوا أو تخونوا فإن فعلتم عذبتم، قال: فما مضى يوم حتى خبثوا وخانوا فمسخوا قردة وخنازير، وقال ابن عباس في المائدة أيضاً: كان طعام ينزل عليهم حيثما نزلوا، وقال عمار بن ياسر: نزلت المائدة عليها ثمار من ثمار الجنة، وقال ميسرة: كانت المائدة إذا وضعت لبنى إسرائيل اختلفت عليها الأيدي بكل طعام إلا اللحم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكثر الناس في قصص هذه المائدة بما رأيت اختصاره لعدم سنده، وقال قوم: لا يصح ألا تنزل المائدة لأن الله تعالى أخبر أنه منزلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير لازم لأن الخبر مقرون بشرط يتضمنه قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بَدُّ مِنْكُمْ﴾، وسانغ ما قال الحسن، أما إن الجمهور على أنها نزلت وكفرت جماعة منهم فمسخهم الله خنازير، قاله قتادة وغيره، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أشد الناس عذاباً يوم القيامة من كفر من أصحاب المائدة، والمنافقون، وآل فرعون، ويذكر أن شمعون رأس

معنى ذلك - فقال السدي، وقتادة، وابن جريج، وسفيان: ﴿لَأَوْلَيْنَا﴾ معناه: لأول الأمة ثم لمن بعدهم حتى آخرهم يتخذون ذلك اليوم عيداً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنى: يكون مجتمعاً لجميعنا أولنا وآخرنا، قال: وأكل من المائدة حين وضعت أول الناس كما أكل آخرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالعيد - على هذا - لا يراد به المستدير.

وقوله: ﴿وَمَا يَأْتِيَنَّكَ﴾ أي: علامة على صدقي وتشريفي، فأجاب الله دعوة عيسى وقال: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾ ثم شرط عليهم شرطه المتعارف في الأمم أنه من كفر بعد آية الاقتراح عذب أشد عذاب.

وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا﴾ بفتح النون وشد الزاي، وقرأ الباقون: ﴿مُنَزَّلُهَا﴾ بسكون النون، والقراءتان متجهتان، نزل وأنزل بمعنى واحد، وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف: ﴿قال الله إني سأُنزِّلُهَا عَلَيْكُمْ﴾.

واختلف الناس في نزول المائدة - فقال الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد: إنهم لما سمعوا الشرط في تعذيب من كفر استغفوها فلم تنزل، قال مجاهد: فهو مثل ضربه الله تعالى للناس لثلا يسألوا هذه الآيات، وقال جمهور المفسرين: نزلت المائدة، ثم اختلفت الروايات في كيفية ذلك - فروى الشعبي عن أبي عبدالرحمن السلمي قال: نزلت المائدة خبزاً وسمكاً، وقال عطية:

تَقَرَّرَ لَهُمْ ﴿﴾ معناه: إن عذبت العالم كله فبحقك، وإن غفرت وسبق ذلك في علمك فلأنك أهل لذلك، لا معقب لحكمك ولا منازع لك. وليس المعنى أنه لا بد من أن تفعل أحد هذين الأمرين، بل قال هذا القول مع علمه بأن الله لا يغفر أن يشرك به، وفائدة هذا التوقيف على قول من قال إنه في يوم القيامة ظهور الذنب على الكفرة في عبادة عيسى، وهو توقيف له يتبين منه بيان ضلال الضالين.

و ﴿سَبَّحْتَكَ﴾ معناه: تنزيهاً لك عن أن يقال هذا وينطق به.

وقوله: ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُولِّقَ﴾ الآية نفى يعضده دليل العقل، فهذا ممنوع عقلاً أن يكون لبشر محدث أن يدعي الألوهية، وقد تجيء هذه الصيغة فيما لا ينبغي ولا يحسن مع إمكانه، ومنه قول الصديق رضي الله عنه: «ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ». ثم قال: ﴿إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ﴾ فوق الله عيسى عليه السلام لهذه الحجة البالغة. وقوله: ﴿تَعَلَّمْ مَا فِي نَفْسِي﴾ بإحاطة الله به، وخص النفس بالذكر لأنها مظنة الکتس والانتواء على المعلومات، والمعنى: إن الله يعلم ما في نفس عيسى ويعلم كل أمره بما عسى ألا يكون في نفسه، وقوله: ﴿وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ معناه: ولا أعلم ما عندك من المعلومات وما أحطت به. وذكر النفس هنا مقابلة لفظية في اللسان العربي يقتضيها الإيجاز، وهذا ينظر من طرف خفي إلى قوله:

﴿وَمَكْرُورًا وَمَكْرَ أَلَلِّهِ﴾، ﴿اللَّهُ يَسْتَوِيئُ بِهِمْ﴾، فتسمية العقوبة باسم الذنب إنما قاد إليها طلب المقابلة اللفظية، إذ هي من فصيح الكلام وبارع العبارة، ثم أقر عليه السلام الله تعالى بأنه علام الغيوب، والمعنى: ولا علم لي أنا بغيب فكيف تكون لي الألوهية؟ ثم أخبر عما صنع في الدنيا وقال في تبليغه، وهو أنه لم يتعد أمر الله في أن أمرهم بعبادته وأقر برؤيته، و [أَنْ] في قوله: ﴿إِنْ أَعْبَدُوا اللَّهَ﴾ مفسرة لا موضع لها من الإعراب، ويصح أن تكون بدلاً من [مَا]، ويصح أن تكون في موضع خفض على تقدير: بأن اعبدوا الله، ويصح أن تكون بدلاً من الضمير في [به].

ثم أخبر عليه السلام أنه كان شهيداً ما دام فيهم في الدنيا. ف [مَا] ظرفية.

وقوله: ﴿فَلَمَّا تَوَقَّيْتُ﴾ أي: قبضتني إليك بالرفع والتصيير في السماء، والرقيب: الحافظ المراعى.

﴿١١٨﴾ - ﴿١١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية - على قول من قال: «إن توقيف عيسى عليه السلام كان إثر رفعه» - مستقيمة المعنى، لأنه قال عنهم هذه المقالة وهم أحياء في الدنيا وهو لا يدري على ما يوافقون.

وهي - على قول من قال: «إن التوقيف هو يوم القيامة» - بمعنى: إن سبقت لهم كلمة العذاب كما سبقت فهم عبادك تصنع بحق الملك ما شئت لا اعتراض عليك، ﴿وَإِنْ تَقَرَّرَ لَهُمْ﴾ بتوبة كما غفرت لغيرهم فإنك أنت العزيز في قدرتك، الحكيم في أفعالك، لا تُعارض على حال،

فكأنه قال: إن يكن لك في الناس معذبون فهم عبادك، وإن يكن مغفور لهم فعزتك وحكمتك تقتضي هذا كله.

وهذا عندي هو القول الأرجح ويتقوى بما بعده، وذلك أن عيسى عليه السلام لما قرر أن الله تعالى له أن يفعل في عباده ما يشاء من تعذيب ومغفرة أظهر الله لعباده ما كانت الأنبياء تخبرهم به كأنه يقول: هذا أمر قد فرغ منه، وقد خلص للرحمة من خلص، وللعذاب من خلص، فقال تبارك وتعالى: ﴿هَذَا يَوْمٌ يَنْفَعُ الصَّالِحِينَ صِدْقُهُمْ﴾ فدخل تحت هذه العبارة كل مؤمن بالله تعالى، وكل ما كان أتقى فهو أدخل في العبارة، ثم جاءت هذه العبارة مشيرة إلى عيسى في حاله تلك وصدقه فيما قال فحصل له بذلك في الموقف شرف عظيم وإن كان اللفظ يعمّه وسواه، وذكر تعالى ما أعد لهم برحمته وطوله إلى قوله: ﴿ذَلِكَ الْقَرُّ الْعَظِيمُ﴾.

وقرأ نافع وحده: ﴿هَذَا يَوْمٌ﴾ بنصب «يوم»، وقرأ الباقون بالرفع على خبر المبتدأ الذي هو «هَذَا» و «يَوْمٌ» مضاف إلى «يَنْفَعُ»، والمبتدأ والخبر في موضع نصب بأنه مفعول القول، إذ القول يعمل في الجمل، وأما قراءة نافع فتحتمل وجهين: أحدهما أن يكون «يومٌ» ظرفاً للقول، كأن التقدير: قال الله هذا القصص أو الخبر يوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي معنى يزيل رصف الآية وبهاء اللفظ.

والمعنى الثاني أن يكون ما بعد

يَعْمَلُونَ أَنَّهُ مَرْزُوقٌ مِن رَّبِّكَ، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبْتَ بِعُرْوَتِهِمْ﴾.

وقال الكلبي: الأنعام كلها مكية إلا آيتين نزلتا بالمدينة في فنحاص اليهودي، وهي: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ بِمِثْقَالِ عَذَابِ الْإِسْمِ﴾، وذلك أن فنحاص قال: «ما أنزل الله على بشر من شيء».

وقال ابن عباس: نزلت سورة الأنعام وحولها سبعون ألف ملك لهم رُجُلٌ يَخَارُونَ بِالتَّبْسِيحِ.

وقال كعب: فاتحة التوراة فاتحة الأنعام ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ إلى ﴿يَبْدُلُونَا﴾، وخاتمة التوراة خاتمة هود ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾، وقيل: خاتمتها ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ الْإِلَهِيَّةُ﴾.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: الأنعام من نجائب القرآن.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى في رضى ربه.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

هذا تصريح بأن الله تعالى هو الذي يستحق الحمد بأجمعه، لأن الألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق الجنس، فهو تعالى له الأوصاف السنية، والعلم والقدرة والإحاطة والإنعام، فهو أهل للمحامد على ضروبها، وله الحمد الذي يستغرق الشكر المختص بأنه على نعم.

لأن الماضي الذي في البيت مبني، والمضارع الذي في الآية معرب.

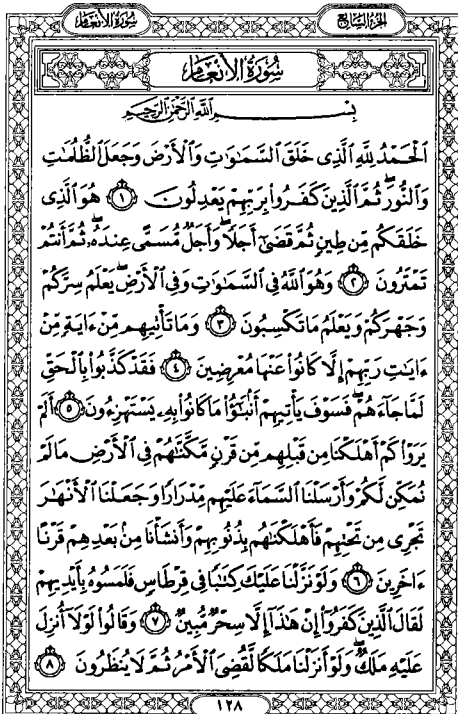
وقرأ الحسن بن العباس الشامي: ﴿هَذَا يَوْمٌ بِالرَّفْعِ وَالتَّنْوِينِ.

وقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - الآية - يحتمل أن يكون مما يقال يوم القيامة، ويحتمل أنه مقطوع من ذلك مخاطب به محمد ﷺ وأمه. وعلى الوجهين ففيه عطف ما قال عيسى: «إن تعذب الناس فإنهم عبادك» على ما تقدم من تأويل الجمهور.

كامل تفسير سورة المائة والهاء المستعان وهو حسي ونعم الوكيل

(٦) تفسير سورة الأنعام

قيل: هي كلها مكية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت بمكة ليلاً جملةً إلا ست آيات وهي: ﴿قُلْ تَكَلَّمْنَا أَتَىٰ مَا حَرَّمَ رَبِّي كُفْرًا بِآيَاتِنَا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا فَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ﴾، وقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ النَّارِ وَالْكَافِرَاتُ كَأَنَّهُنَّ آبَاءُ لَهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْتَبْتَ﴾



﴿قَالَ﴾ حكاية عما قبلها من قوله لعيسى إشارة إليه، وخير ﴿هَذَا﴾ محذوف إيجازاً، وكأن التقدير: قال الله هذا المقتض يقع أو يحدث يوم ينفخ الصادقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والخطاب - على هذا - لمحمد عليه الصلاة والسلام وأمه، وهذا أشبه من الذي قبله، والبارع المتوجه قراءة الجماعة.

قال أبو علي: ولا يجوز أن تكون ﴿يوم﴾ في موضع رفع على قراءة نافع لأن هذا الفعل الذي أضيف إليه معرب، وإنما يكتسى البناء من المضاف إليه إذا كان المضاف إليه مبنياً نحو: ﴿مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ﴾، ولا يشبه قول الشاعر:

عَلَىٰ حِينِ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ: أَلَمْ أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَازِعٌ؟

ولما ورد هذا الإخبار تبعه ذكر أوصافه الموجبة للحمد وهي الخلق للسموات والأرض قوام الناس وأرزاقهم. و ﴿وَالْأَرْضَ﴾ هنا للجنس، فإفرادها في اللفظ بمنزلة جمعها.

والبادي من هذا الترتيب أن السماء خلقت من قبل الأرض، وقد حكاه الطبري عن قتادة، وليس كذلك لأن الواو لا ترتب المعاني، والذي يبنى من مجموع أي القرآن أن الله تعالى خلق الأرض ولم يذحها، ثم استوى إلى السماء فخلقها، ثم دحا الأرض بعد ذلك.

و﴿جَمَلٌ﴾ ها هنا بمعنى خَلَقَ، لا يجوز غير ذلك، وتأمل لِمَ خصت السموات والأرض بـ ﴿خَلَقَ﴾ والظلمات والنور بـ ﴿جَمَلٌ﴾؟ وقال الطبري: ﴿جَمَلٌ﴾ هذه هي التي تتصرف في طرق الكلام كما تقول: جَعَلْتُ أَعْمَلُ كَذَا، فكأنه قال: وجعل إظلامها وإنارتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير جيد لأن (جَعَلَ) إذا كانت على هذا النحو فلا بد أن يرتبط معها فعل آخر كما يرتبط في أفعال المقاربة، كقولك: «كاد زيد يموت» و«جعل زيد يجيء ويذهب»، وأما إذا لم يرتبط معها فعل فلا يصح أن تكون تلك التي ذكر الطبري.

وقال السدي، وقتادة، والجمهور من المفسرين: الظلمات: الليل، والنور: النهار. وقالت فرقة: الظلمات: الكفر، والنور: الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا غير جيد لأنه إخراج لفظ بين في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة، وهذا هو طريق اللغز الذي برىء القرآن منه، والنور أيضاً هنا للجنس فإفراده بمشابهة جمعه.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ﴾ دالة على قبج فعل الذين كفروا، لأن المعنى أن خلقه السموات والأرض وغيرهما قد تقرر، وآياته قد سطعت، وإنعامه بذلك قد تبين، ثم بعد هذا كله عدلوا بربهم، فهذا كما تقول: يا فلان، أعطيتك وأكرمتك وأحسننت إليك ثم تشمتني؟ أي: بعد مهلة من وقوع هذا كله، ولو وقع العطف في هذا ونحوه بالواو لم يلزم التوبيخ كلزومه بـ (ثُمَّ).

و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في هذا الموضوع هم كل من عبد شيئاً سوى الله، قال قتادة: هم أهل الشرك خاصة، ومن خصص من المفسرين في ذلك بعضاً دون بعض فلم يصب، إلا أن السابق من حال النسبي ﷺ أن الإشارة إلى عبدة الأوثان لمجاورتهم له، ولفظ الآية أيضاً يشير إلى المانوية، ويقال: المائنيّة العابدين للنور، القائلين: إن الخير من فعل النور، وإن الشر من فعل الظلام، وقول ابن أبيزي: «إن المراد أهل الكتاب» بعيد.

و﴿يَتَدَلَّوْنَ﴾ معناه: يسوون ويمثلون، وعدل الشيء قرينه ومثله، والمانوية مجوس، وورد في مصنف أبي داود حديث وهو: «القدورية مجوس هذه الأمة»، ومعناه

الإغلاظ عليهم والذم لهم في تشبيههم بالمجوس، وموضع الشبه هو أن المجوس تقول: الأفعال خيرها خلق النور، وشؤها خلق الظلمة، فجعلوا خالقاً غير الله، والقدورية تقول: الإنسان يخلق أفعاله، فجعلوا خالقاً غير الله تعالى عن قولهم، وذهب أبو المعالي إلى أن التشبيه بالمجوس إنما هو لقول القدورية: إن الخير من الله، وإن الشر ليس منه ولا يريده، وإنما قلنا في الحديث: «إنه تغليظ» لأنه قد صرح أنهم من الأمة، ولو جعلهم مجوساً حقيقة لم يصفهم إلى الأمة، وهذا كله إن لرو صحت الحديث، والله الموفق.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾ الآية، قال مجاهد، وقتادة، والضحاك، وغيرهم: المعنى: خلق آدم من طين، والبشر من آدم فلذلك قال: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ﴾. وحكى المهدي عن فرقة أنها قالت: بل المعنى أن النطفة التي يخلق منها الإنسان أصلها من طين ثم يقبلها الله نطفة، وذكره مكّي والزهراوي. والقول الأول أليق بالشريعة، لأن القول الثاني إنما يترتب على قول من يقول بأن الطين يرجع بعد التولد والاستحالات الكثيرة نطفة، وذلك مردود عند الأصوليين.

واختلف المفسرون في هذين الأجلين - فقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، والضحاك: ﴿أَجَلٌ﴾ أجل الإنسان من لدن ولادته إلى موته، و (الأجل المسمى عنده) من وقت موته إلى حشره،

وتكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في ترتيب زمني وقوع القضيّتين .

و ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ معناه: تشكُّون، والمزنية: الشك .

وقوله: ﴿ثُمَّ أَنْتُمْ﴾ على نحو قوله: ﴿ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ في التوبيخ على سوء الفعل بعد مهلة من وضوح الحجج .

③ - ⑤ تفسير قوله عز وجل:

قاعدة الكلام في هذه الآية أن حلول الله تعالى في الأماكن مستحيل، وكذلك مماثته للأجرام أو محاذاته لها أو تحيُّزه في جهة لامتناع جواز ذلك عليه تبارك وتعالى، فإذا تقرر هذا فبين أن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ ليس على حدِّ قولنا: «زيد في الدار» بل هو على وجه من التأويل آخر، قالت فرقة: ذلك على تقدير صفة محذوفة من اللفظ ثابتة في المعنى، كأنه قال: وهو الله المعبود في السموات وفي الأرض، وعبر بعضهم بأن قدر: هو الله المدبّر للأمر في السموات وفي الأرض، وقال الزجاج: ﴿في﴾ متعلقة بما تضمنه اسم الله تعالى من المعاني، كما يقال: «أمير المؤمنين الخليفة في المشرق والمغرب» .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي أفضل الأقوال وأكثرها إحراراً لفصاحة اللفظ وجزالة المعنى، وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وإيثار قدرته وإحاطته واستيلائه ونحو هذه الصفات فجمع

ووصفه بـ (مُسْمًى) عنده لأنه استأثر بعلم وقت القيامة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَجَلًا﴾ الدنيا و ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الآخرة، وقال مجاهد: ﴿أَجَلًا﴾ الآخرة، و ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الدنيا، بعكس الذي قبله، وقال ابن عباس أيضاً: ﴿أَجَلًا﴾ وفاة الإنسان بالنوم، و ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وفاته بالموت، وقال ابن زيد: الأجل الأول هو في وقت أخذ الميثاق على بني آدم حين استخراجهم من ظهر آدم، وبقي أجل واحد مسمى في هذه الحياة الدنيا. وحكى المهدوي عن فرقة: ﴿أَجَلًا﴾ ما عرف الناس من آجال الأهلة والسنين والكوائن، و ﴿أَجَلًا مُّسَمًّى﴾ قيام الساعة، وحكى أيضاً عن فرقة: ﴿أَجَلًا﴾ مسمى: ما عرفناه من أنه لا نبي بعد محمد ﷺ، و ﴿أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينبغي أن تتأمل لفظه ﴿فَقَعَى﴾ في هذه الآية فإنها تحتمل معنيين، فإن جعلت بمعنى: قدر وكتب، ورجعت إلى سابق علمه وقدره فنقول: إن ذلك ولا بد قبل خلقه آدم من طين، وتخرج ﴿ثُمَّ﴾ من معهودها في ترتيب زمني وقوع القضيّتين، ويبقى لها ترتيب زمني الإخبار عنه، كأنه قال: أخبركم أنه خلقكم من طين ثم أخبركم أنه قضى أجلاً، وإن جعلت ﴿فَقَعَى﴾ بمعنى: أوجد وأظهر، ويرجع ذلك إلى صفة فعل فيصح أن يكون خلق آدم من طين قبل إظهار هذا الأجل وإبدائه،

هذه كلها في قوله: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ أي: الذي له هذه كلها في السموات وفي الأرض، كأنه قال: وهو الخالق الرازق المحيي المحيط في السموات وفي الأرض، كما تقول: زيد السلطان في الشام والعراق، فلو قصدت ذات زيد لقلت محالاً، وإذا كان مقصد قولك: زيد الأمر الناهي الناقض المبرم الذي يعزل ويولي في الشام والعراق فأقمت (السلطان) مقام هذه الآية أقام لفظه [الله] مقام تلك الصفات المذكورة.

وقالت فرقة: ﴿وَهُوَ اللَّهُ﴾ ابتداء وخبر تم الكلام عنده، ثم استأنف، وتعلق قوله: ﴿فِي السَّمَوَاتِ﴾ بمفعول ﴿يَسْأَلُكُمْ﴾، كأنه قال: وهو الله يعلم سرّكم وجهركم في السموات وفي الأرض، فلا يجوز - مع هذا التعلق - أن يكون [هو] ضمير أمر وشأن لأنه يرفع [الله] بالابتداء، و ﴿يَسْأَلُكُمْ﴾ في موضع الخبر، وقد فرّق ﴿في﴾ بين الابتداء والخبر، وهو ظرف غريب من الجملة، ويلزم قائله هذه المقالة أن تكون المخاطبة بالكاف في قوله: ﴿يَسْأَلُكُمْ وَيَجْهَرُكُمْ﴾ لجميع المخلوقين الإنس والملائكة، لأن الإنس لا سرّ ولا جهر لهم في السماء، فترتيب الكلام على هذا القول: «وهو الله يعلم يا جميع المخلوقين سرّكم وجهركم في السموات وفي الأرض» .

وقالت فرقة: ﴿وَهُوَ﴾ ضمير الأمر والشأن، و ﴿اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ﴾ ابتداء

وخبر تم الكلام عنده، ثم ابتداءً، كأنه قال: «ويعلم في الأرض سرهم وجهرهم»، وهذا القول إذ قد تخلص من لزوم مخاطبة الملائكة فهو مُخْلَصٌ من شبهة الكون في السماء بتقدير حذف (المعبود) أو (المديّر) على ما تقدم، وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ بِيَوْمِكُمْ وَيَهْرِكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ خبر في ضمنه تحذيرٌ ورَجْرٌ، و ﴿تَكْسِبُونَ﴾ لفظ عامٌ لجميع الاعتقادات والأفعال.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ﴾ الآية. [مَا] نافية و [مِنْ] الأولى هي الزائدة التي تدخل على الأجناس بعد النفي، فكأنها تستغرق الجنس، و [مِنْ] الثانية للتبعض، والآية: العلامة والدلالة والحجة، وقد تقدم القول في وزنها في صدر الكتاب، وتضمنت هذه الآية مذمة هؤلاء الذين يعدلون بالله سواه بأنهم يُعرضون عن كل آية ترد عليهم، ثم اقتضت الفاء في قوله: ﴿فَقَدَّ﴾ أن إعراضهم عن الآيات قد أعقب أن كذبوا بالحق وهو محمد عليه الصلاة والسلام وما جاء به، ثم توعدهم بأن يأتيهم عقاب استهزائهم، [مَا] بمعنى الذي، ويصح أن تكون مصدرية، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: يأتيهم مضمن أنباء القرآن الذي كانوا به يستهزئون، وإن جعلت [مَا] مصدرية فالتقدير: يأتيهم نأ كونهم مستهزئين، أي: عقاب يُخَبِّرُونَ أنه على ذلك الاستهزاء، وهذه العقوبات التي تُؤْعَدُّو بها تعم عقوبات الدنيا كيدر وغيرها وعقوبات الآخرة.

﴿٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا حَصُّ على العبرة، والرؤية هنا رؤية القلب، و ﴿كَمْ﴾ في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾.

والقرن: الأمة المقترنة في مدة من الزمان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «خير الناس قرني» الحديث. واختلف الناس في مدة القرن - كم هي؟ أنها مائة سنة ويرجع ذلك الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «أُرَأَيْتُمْ ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» قال ابن عمر رضي الله عنهما: يريد أنها تخريم ذلك القرن، وروي أن رسول الله ﷺ قال لعبدالله بن بشر: «تميش قرناً» فعاش مائة سنة.

وقيل: القرن ثمانون سنة، وقيل: سبعون، وقيل: ستون، وتمسك هؤلاء بالمعترك، وحكى النقاش أربعين، وذكر الزهراوي في ذلك أنه عن النبي ﷺ، وحكى النقاش أيضاً ثلاثين، وحكى عشرين، وحكى ثمانية عشر. وهذا كله ضعيف، وهذه طبقات وليست بقرون، إنما القرن أن يكون وفاة الأشياخ ثم ولادة الأطفال، ويظهر ذلك من قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْنَا مِنْ بَدْرِهِ قُرْآنًا آخِرِينَ﴾، وإلى مراعاة الطبقات وانقراض الناس بها أشار ابن الماجشون في «الواضحة» في تجويز شهادة السماع في تقادم خمسة عشر عاماً فصاعداً، وقيل: القرن الزمن

نفسه، وهو على حذف مضاف تقديره: «من أهل قرن»، والضمير في ﴿تَكْسِبُونَ﴾ عائد على القرن، والمخاطبة في ﴿كَمْ﴾ هي للمؤمنين ولجميع المعاصرين لهم من سائر الناس، فكأنه قال: ما لم نمكن بأهل هذا العصر لكم، فهذا أُبَيِّنُ ما فيه، ويحتمل أن يقدر في الآية معنى القول لهؤلاء الكفرة، كأنه قال: يا محمد قل لهم: ﴿إِنَّمَا بَرَأْنَاكُمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِمَّنْ قَرَّبْنَا كَثَرًا مِمَّنْ ظَنَّ أَنْ يَكُونَ لَهُ نُفُوسٌ مَوْلَاةٌ مِنْ رَبِّكَ فَأُتِيَ بِهَا فَبَدَلَهَا﴾، وإذا أخبرت أنك قلت لغائب أو قيل له أو أمرت أن يقال فلك في فصيح كلام العرب أن تحكي الألفاظ المقولة بعينها فتجيء بلفظ المخاطبة، ولك أن تأتي بالمعنى في الألفاظ بذكر غائب دون مخاطبة.

والسماء: المطر، ومنه قول الشاعر:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ
رَعِيَتْهَا وَإِنْ كَانُوا غَضَاباً
و ﴿يَذْرَأُكَ﴾ بناء تكثير كمدكار ومثاث، ومعناه: يدر عليهم بحسب المنفعة، لأن الآية إنما سياقها تعديد النعم، وإلا فظاهرها يحتمل النعمة ويحتمل الإهلاك، وتحتمل الآية أن تُراد السماء المعروفة على تقدير: وأرسلنا مطر السماء لأن ﴿يَذْرَأُكَ﴾ لا يوصف به إلا المطر.

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَاهُمْ﴾ معناه: فَعَصَوْا وكفروا فأهلكناهم.

﴿وَأَنْشَأْنَا﴾ اخترعنا وخلقنا، وجمع ﴿آخِرِينَ﴾ حملاً على معنى القرن.

لجعلناه ولا بُدُّ في خَلْقِ رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية المَلَك في صورته، وقاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومما يؤيد هذا المعنى الحديث الوارد عن الرجلين اللذين صعدا على الجبل يوم بدر ليريا ما يكون في حرب النبي عليه الصلاة والسلام للمشركين فسمعا حسن الملائكة وقائلاً يقول في السماء: «أقدم حيزوم» فمات أحدهما لهول ذلك، فكيف برؤية ملك في خلقته؟ ولا يُعارض هذا برؤية النبي عليه الصلاة والسلام لجبريل عليه السلام وغيره في صورهم لأن النبي عليه الصلاة والسلام أعطي قوة غير هذه كلها ﷺ.

﴿وَلَلْبَسَاتُ﴾ أي: لخلطنا عليهم ما يخلطون به على أنفسهم وعلى ضعفهم، أي: لفضلنا لهم في ذلك ملبساً يُطْرَقُ لهم إلى أن يلبسوا به، وذلك لا يحسن. ويحتمل الكلام مقصداً آخر، أي: للبسنا نحن عليهم كما يلبسون على ضعفهم، فكنا ننهامهم عن التلبس ونفعله بهم، ويقال: لبس الرجل الأمر يلبسه لبساً إذا خلطه. وقرأ ابن محيصن: ﴿وَلَبَّسْنَا﴾ بفتح اللام وشد الباء.

وذكر بعض الناس في هذه الآية أنها نزلت في أهل الكتاب، وسياق الكلام ومعانيه يقتضي أنها في كفار العرب.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرىء: ﴿وَلَقَدْ﴾ بضم الدال للضمه بعد الساكن الذي بعد الدال، وقرىء

كنت أصدقك»، ثم أسلم بعد ذلك عبدالله وقتل شهيداً في الطائف.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا لَوْلَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلَائِكَةَ حَاكِئَاتٍ عَمَّا تَشْطُطُ مِنَ الْعَرَبِ بِأَن طَلَبَ أَنْ يَنْزَلَ مَلَكَ يُصَدِّقُ مُحَمَّدًا فِي نُبُوته، ويعلم عن الله عز وجل أنه حق، فردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَ لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾، وقال مجاهد: معناه: لقامت القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وقال قتادة، والسدي،

وابن عباس رضي الله عنهما: في الكلام حذف تقديره: ولو أنزلنا ملكاً فكذبوا به لقضي الأمر بعدابهم ولم يُنظروا حسبما سلف في كل أمة اقترحت بآية وكذبت بعد أن أظهرت إليها، وهذا قول حسن.

وقالت فرقة: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لماتوا من هول رؤية المَلَك في صورته، ويؤيد هذا التأويل ما بعده من قوله: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَ لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا﴾ فإن أهل التأويل مجمعون على أن ذلك لأنهم لم يكونوا يطبقون رؤية المَلَك في صورته، فالأولى في قوله: ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لماتوا من هول رؤيته.

و ﴿يُنظَرُونَ﴾ معناه: يُؤخَرُونَ والنظرة: التأخير.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ﴾ الآية - المعنى: إنا لو جعلناه ملكاً

﴿٧﴾ وَوَجَعَلْنَاهُ مَلَكَ أَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلْبَسْنَا عَلَيْهِ مَا لِيَلْبَسُونَ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا مِنْ رَبِّكَ طَائِفًا مِّنَ الَّذِينَ سَخَرُوا مِنِّيهِمْ مَا كَانُوا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿١٠﴾ قُلْ لِمَن مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لِيَجْمَعَكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾ وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي الْآلِ وَالْأَنْهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢﴾ قُلْ أَغْرَبَ اللَّهُ أَحْمَدًا وَلَيْسَ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطِيعُمْ وَلَا يَظَعُمُ قُلْ إِنِّي أَخْرَجْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسَدُ وَلَا تَكُونَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤﴾ مَن يُصِرْ فَعَنَّهُ يَوْمَ مِذْيَقِ رَحْمَةِ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُتَمِينُ ﴿١٥﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١٧﴾

﴿٧﴾ - ﴿٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما أخبر عنهم عز وجل بأنهم كذبوا بكل ما جاءهم من آية تبع ذلك إخبار فيه مبالغة مضمته أنه لو جاءهم أشنع مما جاء لكذبوا أيضاً، والمعنى: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا﴾ بمرأى منهم ﴿عَلَيْكَ كِتَابًا﴾ أي كلاماً مكتوباً ﴿فِي رِطَاسٍ﴾، أي في صحيفة، ويقال: قرطاس بضم القاف، ﴿فَلَسَوْهُ بِأَلْبَسِهِمْ﴾ يريد أنهم بالغوا في ميزه وتقليبه ليرتفع كل ارتياب لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم وقالوا: هذا سحر ميين.

ويشبه أن سبب هذه الآية اقتراح عبدالله بن أبي أمية وتعثته إذ قال للنبي ﷺ: «لا أومن لك حتى تصعد إلى السماء ثم تنزل بكتاب فيه: من رب العزة إلى عبدالله بن أمية، بأمرني بتصديقك، وما أراني مع هذا

بكسر الدال على عرف الالتقاء. وهذه تسلية للنبي ﷺ بالأسوة في الرسل، وتقوية لنفسه على محاجة المشركين، وإخبار يتضمن وعيد مكذبيه والمستهزئين.

و ﴿نَحَاكَ﴾ معناه: نزل وأحاط، وهي مخصوصة في الشر، يقال: حاق يحيق حيقاً، ومنه قول الشاعر: فَأَوْطَأُ جُرْذَ الْخَيْلِ عَقْرَ دِيَارِهِمْ وَحَاقَ بِهِمْ مِنْ بَأْسِ ضَيْبَةٍ حَائِقُ وَقَالَ قَوْمٌ: أَصْلُ حَاقٍ: حَقَّ فَبَدَلْتُ الْقَافَ الْوَاحِدَةَ كَمَا بَدَلْتُ النُّونَ فِي: تَطَلَّثْتُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

و ﴿نَا﴾ في قوله: ﴿مَا كَانُوا﴾ يصح أن تكون بمعنى الذي، ويصح أن تكون مع الفعل بتأويل المصدر كأنه قال: استهزأؤهم. وهذه كناية عن العقوبة كما تهدد إنساناً فتقول: سيلحقك عملك، والمعنى: عاقبه. و ﴿سَخِرُوا﴾ معناه: استهزؤوا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَيَّةِ حُضْ عَلَى الْاِعْتِبَارِ بَاتَّارٍ مِنْ مَضَى يَمُنُّ فَعَلْ فَعَلُهُمْ، وَقَالَ: ﴿كَانَ﴾ ولم يقل: (كانت) لأن تأنيث العاقبة ليس بحقيقي، وهي بمعنى الآخر والمآل.

ومعنى الآية: سيروا وتلقوا ممن سار، لأن تحصيل العبرة بآثار من مضى إنما يستند إلى جس العين.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال بعض أهل التأويل: في الكلام حذف تقديره: ﴿قُلْ لَيْنَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟ فَإِذَا تَحِيرُوا وَلَمْ يَجِيبُوا﴾ ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾. وقالت فرقة:

المعنى أنه أمر بهذا السؤال فكأنهم لما لم يجيبوا ولا يتقنوا سألوا فقيل له: ﴿قُلْ لِلَّهِ﴾. والصحيح أن الله عز وجل أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بقطعهم بهذه الحجة الساطعة والبرهان القطعي الذي لا مدافعة فيه عندهم ولا عند أحد ليعتقد هذا المعتقد الذي بينه وبينهم ثم يتركب احتجاجه عليه، وجاء ذلك في لفظ استفهام وتقرير في قوله: ﴿قُلْ لَيْنَ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾. والوجه في المحاجة إذا سأل الإنسان خصمه بأمر لا يدافعه الخصم فيه أن يسبقه بعد التقرير إليه مبادرة إلى الحجة، كما تقول لمن تريد غلبته بأية تحتج بها عليه: كيف قال الله في كذا؟ ثم تسبقه أنت إلى الآية فتنبئها عليه، فكأن النبي ﷺ قال لهم: يأيها الكافرون العادلون بربهم لمن ما في السموات والأرض؟ ثم سبقهم فقال: لله، أي: لا مدافعة في هذا عندهم ولا عند أحد.

ثم ابتدأ يخبر عنه تعالى: ﴿كَتَبَ عَلَنَ تَقْيِيهِ الرَّحْمَةَ﴾ معناه: قضاهما وأنفذهما، وفي هذا المعنى أحاديث عن النبي عليه الصلاة والسلام تتضمن كتب الرحمة، ومعلوم من غير ما موضع من الشريعة أن ذلك للمؤمنين في الآخرة وجميع الناس في الدنيا، منها: «إن الله تعالى خلق مائة رحمة فوضع منها واحدة في الأرض، فيها تعاطف البهائم، وترفع الفرس رجلها لثلاثاً تطأ ولدها، وبها تعاطف الطير والحيتان، وعنده تسع وتسعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة

صير تلك الرحمة مع التسعة والتسعين وبثها في عباده».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فما أشقى من لم تسغه هذه الرحمات، تعمدنا الله بفضل منه.

ومنها حديث آخر: «إن الله عز وجل كتب عنده كتاباً فهو عنده فوق العرش أن رحمتي سبقت غضبي» ويروي «نالت غضبي» ومعناه: سبقت، وأشد عليه ثابت بن قاسم:

أَبْنِي كُلَيْبُ إِنْ عَمِيَا اللَّذَا نَالَا الْمُلُوكَ وَقَكَا الْأَغْلَالَا

ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالى بأنه كتب الرحمة تأنيث الكفار ونفي بأسهم من رحمة الله إذا تابوا، وأن باب توبتهم مفتوح. قال الزجاج: الرحمة هنا إمهال الكفار وتعميرهم ليتوبوا، وحكى المهدي أن جماعة من النحويين قالت: إن ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ هو تفسير الرحمة، تقديره: «أن يجمعكم» فيكون ﴿لِيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ في موضع نصب على البذل من ﴿الرَّحْمَةَ﴾، وهو مثل قوله: ﴿نُذِّبْنَا لَهُمْ مِنْ بَيْنِ مَا رَأَوْا الْآيَاتِ لِيَسْجُتَهُ حَقَّ حَقِّينَ﴾ المعنى: «أن يسجنوه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يلزم على هذا القول أن تدخل النون الثقيلة في الإيجاب وهو مردود، وإنما تدخل في الأمر والنهي وباختصاص من الواجب في القسم.

وقالت فرقة (وهو الأظهر): إن اللام لام قسم والكلام مستأنف، ويتخرج ذلك في: ﴿لِيَسْجُتَهُ﴾.

وقالت فرقة: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (في).

وقيل: على بابها غاية، وهو الأرجح.

و ﴿لَا رِيَّ فِيهِ﴾ أي: هو في نفسه وذاته لا ريب فيه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ خَيْرُوا أَنفُسَهُمُ﴾ الآية... قيل: إن ﴿الَّذِينَ﴾ منادى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو فاسد لأن حرف النداء لا يسقط مع المبهمات.

وقيل: هو نعت ﴿الْمُكَذِّبِينَ﴾ الذين تقدم ذكرهم. وقيل: هو بدل من الضمير في ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾، قال المبرد: ذلك لا يجوز كما لا يجوز: «مررت بك زيد».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله في الآية: ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾ مخالف لهذا المثال، لأن الفائدة في البدل مترتبة من الثاني، وإذا قلت: «مررت بك زيد» فلا فائدة في الثاني، وقوله: ﴿يَجْمَعَنَّكُمْ﴾ يصلح لمخاطبة الناس كافة فيفيدنا ﴿الَّذِينَ﴾ من الضمير أنهم هم المختصون بالخطاب هنا، وخصوا على جهة الوعيد، ويتضح فيها الوعيد إذا جعلنا (اللام) للقسم وهو القول الصحيح، ويجيء هذا بدل البعض من الكل.

وقال الزجاج: ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ وهذا قول حسن، والفاء في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ جواب على القول بأن ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء لأن معنى الشرط حاصل تقديره: «من خسر نفسه فهو لا يؤمن».

وعلى القول بأن ﴿الَّذِينَ﴾ بدل

من الضمير هي عاطفة جملة على جملة، و ﴿خَيْرُوا﴾ معناه: غبنوا أنفسهم بأن وجب عليها عذاب الله وسخطه، ومنه قول الشاعر:

لا يأخذ الرُشوة في حُكمِهِ
ولا يُبالي غَبْنِ الخَاسِرِ
وقوله تعالى: ﴿وَلَا مَا سَكَنَ﴾

الآية. ﴿وَلَا﴾ عطف على قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، واللام للملك، و [مَا] بمعنى: الذي، و ﴿سَكَنَ﴾ هي من السكنى ونحوه، أي: ما ثبت وتقرر، قاله السدي وغيره. وقالت فرقة: هو من السكون، وقال بعضهم: لأن الساكن من الأشياء أكثر من المتحرك إلى غير هذا من القول الذي هو تخليط، والمقصد في الآية عموم كل شيء، وذلك لا يترتب إلا أن يكون ﴿سَكَنَ﴾ بمعنى: استقر وثبت، وإلا فالمتحرك من الأشياء المخلوقات أكثر من السواكن، ألا ترى إلى الفلك والشمس والقمر والنجوم السابحة والملائكة وأنواع الحيوان، والليل والنهار حاصران للزمان.

﴿وَهُوَ السَّيِّئُ الْكَلِيمُ﴾ هاتان صفتان تليقان بتمط الآية من قِبَلِ أَنْ ما ذكر من قِبَلِ من الأقوال الرُدِّيَّة عن الكفرة العادلين هو سميع لها، عليهم بمواقعها، مجازٍ عليها، ففي الضمير وعيد.

﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: قال الطبري وغيره: أمر أن يقول هذه المقالة للكفرة الذين دَعَوْهُ إلى عبادة أوثانهم، فتجيء الآية - على هذا - جواباً لكلامهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا التأويل يحتاج إلى سند في أن هذا نزل جواباً، وإلا فظاهر الآية لا يتضمنه، والفصح هو أنه لما قرر معهم أن الله تعالى: ﴿لَا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ﴿وَلَا مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وأنه ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ أمر أن يقول لهم على جهة التوبيخ والتوقيف: أغير هذا الذي هذه صفاته أتخذ ولياً؟ بمعنى أن هذا خطأ لو فعلته بين، وتُعطي قوة الكلام أن من فعله من سائر الناس بين الخطأ، و ﴿أَخَذَ﴾ عاملٌ في قوله: ﴿أَغْيَرُ﴾ وفي قوله: ﴿وَلَا﴾ تقدم أحد المفعولين.

والولي لفظ عام لمعبود وغير ذلك من الأسباب الواصلة بين العبد وربّه. ثم أخذ في صفات الله تعالى فقال: ﴿فَاطِرٌ﴾ بخفض الراء نعت لله تعالى، و﴿فَطَّرَ﴾ معناه: ابتدع وخلق وأنشأ، و﴿فَطَّرَ﴾ أيضاً في اللغة: شقّ، ومنه: ﴿هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ﴾ أي: من شقوق، ومن هذا انفطار السماء، وفي هذه الجهة يتمكن قولهم: ﴿فَطَّرَ﴾ نابّ البعير إذا خرج لأنه يشق اللثة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنتُ أعرف معنى: ﴿فَاطِرُ السَّمَوَاتِ﴾ حتى اختصم إليّ أعرابيان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرناها، أي: اخترعتها وأنشأتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فحمله ابن عباس على هذه الجهة، ويصح حملُه على الجهة الأخرى أنه شقّ الأرض والبشر حين احتفرها. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿فَاطِرٌ﴾ برفع الراء على خبر ابتداء مضمّر، أو على الابتداء.

﴿وَذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى صرف العذاب وإلى الرحمة والفوز والنجاة.

﴿٧﴾ - ﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿تُسَبِّحُ﴾ معناه: يُصَبِّحُ وَيَتَلَكَّ، وحقيقة المس هي بتلاقي جسمين، فكأن الإنسان والضّر يتماسان.

والضّر بضم الضاد: سوء الحال في الجسم وغيره. والضّر بفتح الضاد: ضدّ التّع - وناب الضّر في هذه الآية مناب الشّر - وإن كان الشّر أعم منه - فقابل الخير، وهذا من الفصاحة عدول عن قانون التكلف والصنعة، فإن باب التكلف وترصيع الكلام أن يكون الشيء مقترناً بالذي يختص به بنوع من أنواع الاختصاص موافقة أو مضادة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ فجعل الجوع مع العري وبابه أن يكون مع الظم، ومنه قول امرئ القيس:

كأني لم أزكّب جواداً لئلا
ولم أتبطن كاعباً ذات خلخال
ولم أسبب الرق الروي ولم أقل
لخيلتي كرى كرى تغد إجمال
وهذا كثير.

قال السدي: الضّر ها هنا: المرض، والخير: العافية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال، ومعنى الآية الإخبار عن أن الأشياء كلها بيد الله، إن ضر فلا كاشف لضره غيره، وإن أصاب بخير فكذلك أيضاً لا راد له

الضمير العائد على العذاب، فهو مُقدّر. وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم أيضاً: ﴿مَنْ يَضْرِفْ عَنْهُ﴾ فيسند الفعل إلى الضمير العائد إلى ﴿رِيقٍ﴾ ويعمل في ضمير العذاب المذكور آنفاً لكنه مفعول محذوف، وحكي أنه ظهر في قراءة عبدالله وهي: ﴿مَنْ يَضْرِفُهُ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ﴾، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿مَنْ يَضْرِفُهُ اللَّهُ عَنْهُ﴾ وقيل: إنها لمن يَضْرِفُ الله عنه، قال أبو علي: وحذف هذا الضمير لا يَحْسُنُ كما يَحْسُنُ حذف الضمير من الصلة كقوله عز وجل: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾، وكقوله: ﴿وَسَلَّمَ عَلَى عِبَادِ الَّذِينَ أَصْطَفَى﴾ معناه: بعثه، واصطفاهم - فَحَسُنَ هذا للطول كما علله سيبويه، ولا يَحْسُنُ هذا لعدم الصلة، قال بعض الناس: القراءة بفتح الياء من ﴿يَضْرِفُ﴾ أحسن لأنه يناسب ﴿فَقَدْ رَجِمَهُ﴾، وكان الأولى على القراءة الأخرى ﴿فَقَدْ رَجِمَ﴾ ليتناسب الفعلان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا توجيه لفظي تعلقه خفيف، وأما بالمعنى فالقراءتان واحد، ورجح قوم قراءة ضم الياء لأنها أقل إضماماً، وأشار أبو علي إلى تحسن القراءة بفتح الياء بما ذكرناه، وأما مكى بن أبي طالب رحمه الله فتخط في كتاب «الهداية» في ترجيح القراءة بفتح الياء، ومثل في احتجاجه بأمثلة فاسدة، والله ولي التوفيق.

و (رَجِمَ) عامل في الضمير المتصل وهو ضمير ﴿مَنْ﴾ ومستند إلى الضمير العائد إلى ﴿رِيقٍ﴾، وقوله:

و ﴿يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ المقصود به: يَرْزُقُ ولا يَرْزُقُ، وخضّ الإطعام من أنواع الرزق لِمَسْ الحاجة إليه وشهرته واختصاصه بالإنسان. وقرأ يمان العماني، وابن أبي عبيدة: ﴿يُطْعَمُ﴾ بضم الياء وكسر العين في الثاني مثل الأول، يعني الوثن أنه لا يُطْعِمُ. وقرأ مجاهد، وسعيد بن جببر، والأعمش، وأبو حيوة، وعمرو بن عبيد، وأبو عمرو بن العلاء في رواية عنه في الثاني: ﴿وَلَا يُطْعَمُ﴾ بفتح الياء على مستقبل (طعيم)، فهي صفة تتضمن التبرية، أي: لا يأكل ولا يشبه المخلوقين.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ لَبِئَ أَمْرٌ﴾ إلى ﴿عَظِيمٍ﴾ قال المفسرون: المعنى: أول من أسلم من هذه الأمة وبهذه الشريعة، ولا يتضمن الكلام إلا ذلك، قالت طائفة: في الكلام حذف تقديره: وقيل لي: ولا تكن من المشركين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتلخيص الكلام في هذا أنه عليه الصلاة والسلام أمر فقيل له: «كن أول من أسلم ولا تكونن من المشركين»، فلما أمر في الآية أن يقول ما أمر به جاء بعض ذلك على المعنى وبعضه باللفظ بعينه. ولفظة ﴿عَظِيمٌ﴾ عامة فسي أنواع المعاصي، ولكنها ها هنا إنما تشير إلى الشرك الذي نُهي عنه. واليوم العظيم هو يوم القيامة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿مَنْ يَضْرِفْ عَنْهُ﴾ بضم الياء وفتح الراء، والمفعول الذي أسند إليه الفعل هو

عن غمرة الإبهام فأعربت.

وتتضمن هذه الآية أن الله تعالى يقال عليه: شيء، كما يقال عليه: موجود، ولكن ليس كمثل تبارك وتعالى شيء. و «شَهَدَةٌ» نصب على التمييز، ويصح على المفعول بأن يحمل «أَكْبَرُ» على التشبيه بالصفة المشبهة باسم الفاعل.

وهذه الآية مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ لَيْسَ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْاَرْضِ قُلُّ لِيْلِهٖ﴾ في أن استفهم على جهة التوقيف والتقدير ثم بادر إلى الجواب إذ لا تتصور فيه مدافعة، وهذا كما تقول لمن تخاضمه وتظلم منه: من أقدر من في البلد؟ ثم تبادر وتقول: السلطان فهو يحول بيننا، ونحو هذا من الأمثلة، فتقدير الآية أنه قال لهم: أي شيء أكبر شهادة؟ الله أكبر شهادة، فهو شهيد بيني وبينكم، ف «الله» رفع بالابتداء وخبره مضمرة يدل عليه ظاهر الكلام كما قدرناه، و «شَهِيدٌ» خبر ابتداء مضمرة.

وقال مجاهد: المعنى أن الله تعالى قال لِشَيْءٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: قل لهم: ﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةٌ﴾، وقل لهم: ﴿اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ لما عيوا عن الجواب. ف «شَهِيدٌ» - على هذا التأويل - خبر ل «الله»، وليس في هذا التأويل مبادرة من السائل إلى الجواب المراد بقوله: «شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ» أي: في تبليغي.

وقرأت فرقة: «وَأُوْحَىٰ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ» على الفعل الماضي ونصب «الْقُرْآنُ»، وفي «أُرْحَىٰ» ضمير عائد على الله تعالى من قوله: ﴿قُلْ اللَّهُ»، وقرأت فرقة: «وَأُرْحَىٰ» على

كأنه قال: وهو القاهر غالباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يسلم من الاعتراض أيضاً، والأول عندي أصوب.

والعباد بمعنى العبيد، وهما جمعان للعبيد، أما إننا نجد ورود لفظة (العباد) في القرآن وغيره في مواضع تفضيح أو ترفيع أو كرامة، وورود لفظة (العبيد) في تحقير أو استضعاف أو قصد ذم، ألا ترى قول امرئ القيس:

قولا يدودان عبيد العصا

ولا يستقيم أن يقال هنا: عباد العصا، وكذلك الذين سماوا العباد لا يستقيم أن يقال لهم: العبيد لأنهم أفخم من ذلك، وكذلك قول حمزة رضي الله عنه: «وهل أنتم إلا عبيد لأبي؟» لا يستقيم فيه عباد.

و «الْمَكِيْمُ» بمعنى المحكم، و «الْحَيِيْرُ» دالة على مبالغة العلم، وهما وصفان مناسبان لنمط الآية.

﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةٌ﴾، وهي معربة مع إبهامها، وإنما كان ذلك لأنها تلتزم الإضافة، ولأنها تتضمن علم جزء من المستفهم عنه غير معين، لأنك إذا قلت: «أي الرجلين جاءنا؟» فقد كنت تعلم أن أحدهما جاء غير معين، فأخرجها هذان الوجهان

قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَدَةٌ قُلْ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هٰذَا الْقُرْآنُ لِأَذْكُرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَهَيْكُمْ لِتَنبِّهُوْنَ أَنْتُمْ مَعَ اللَّهِ ۗ ؕ وَاللَّهُ ۗ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ قُلْ لَا تَأْخُذُكُمْ سَاعَةٌ وَلَا نَوْمٌ وَلَا نَفْسٌ وَلَا عَيْنٌ وَلَا يَدٌ يَوْمَ تُنْفَخُ الْأَنْفُسُ إِلَىٰ رَبِّهَا أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ بِرُفُوْدِهِمْ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَىٰ اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٠﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاعًا نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا لَنْ نَسْأَلَكُمْ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢١﴾ مُدْرِكًا لِّمَنْ فِئْتَنَهُمُ الْإِلَٰهَ أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبَّنَا مَا كَانُوا إِسْرَافِيْنَ ﴿٢٢﴾ أَظْهَرَ كَيْفَ كَذَّبُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾ وَيَوْمَ مَنْ يَسْتَعِجِلُّ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوْهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَلْمِزُوْنَ أَحْسَنَ إِذَا جَاءَهُمْ وَلَكِنْ نَّجِدُهُمْ يُعْوَدُ سَآءَ مَا يَكْفُرُونَ ﴿٢٤﴾ هٰذَا الَّذِي لَمْ يَأْتِكُمْ مِّنَ اللَّهِ بِبَيِّنَةٍ وَهُمْ يُنْفَعُونَ عَنْهُ وَيَتَنَوَّنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهَيِّجُكُم مِّنْهُمُ الْفِتْنَةَ وَنَجِّنَهُم مِّنْهُ وَيَتَوَكَّلْ عَلَىٰ الْعَذَابِ فَقَالُوا يَا بَلِيَّةَ إِنَّهُ لَا يُعْجِلُ الْعَذَابَ عَلَيْنَا وَإِنَّا لَكَاذِبُونَ ﴿٢٥﴾

ولا مانع منه، هذا تقرير الكلام، ولكن وضع بدل هذا المقدر لفظاً أعم منه يستوعبه وغيره وهو قوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ودل ظاهر الكلام على المقدر فيه، وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: على كل شيء جائز أن يوصف الله تعالى بالقدرة عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ﴾ الآية. أي: وهو عز وجل المستولي المقدر، و «قَوِيٌّ» نصب على الظرف لا في المكان بل في المعنى الذي تضمنه لفظ «الْقَاهِرُ» كما تقول: زيد فوق عمرو في المنزل. وحقيقة (فوق) في الأماكن، وهي في المعان مستعارة شبه بها من هو أرفع رتبة في معنى ما لها كانت في الأماكن تنبئ حقيقة عن الأرفع. وحكى المهدوي أنها بتقدير الحال

بناء الفعل للمفعول ﴿الْقُرْآنُ﴾ رفعاً. ﴿لَا يُذَكَّرُ﴾ معناه: لأخوفكم به العقاب والآخرة، و﴿وَمَنْ﴾ عطف على الكاف والميم في قوله: ﴿لَا يُذَكَّرُ﴾، و﴿يَلْتَمَسُ﴾ معناه - على قول الجمهور - بلاغ القرآن، أي: لأذركم وأندر من بلغه، ففي ﴿يَلْتَمَسُ﴾ ضمير محذوف لأنه صلة ﴿وَمَنْ﴾ فحذف الطول الكلام، وقالت فرقة: ومن بلغ الحلم، ففي ﴿يَلْتَمَسُ﴾ - على هذا التأويل - ضمير مقدر راجع إلى ﴿وَمَنْ﴾.

وروي في معنى التأويل الأول أحاديث منها أن النبي ﷺ قال: «يَأْتِيهَا النَّاسُ، بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، فَإِنَّهُ مِنْ بَلِّغَ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى فَقَدْ بَلِّغَهُ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى أَخَذَهُ أَوْ تَرَكَهُ» ونحو هذا من الأحاديث كقوله: «مَنْ بَلِّغَهُ هَذَا الْقُرْآنَ قَانَا نَذِيرَهُ».

وقرأت فرقة: ﴿أَيْتِكُمْ﴾ بزيادة ألف بين الهمزة الأولى والثانية المُسَهَّلَةَ عاملة بعد هذا التسهيل المعاملة قبل التسهيل، وقرأت فرقة: ﴿أَيْتِكُمْ﴾ بهمزتين الثانية مُسَهَّلَةَ دون ألف بينهما، وقرأت فرقة: ﴿أَيْتِكُمْ﴾ اسْتَقْبَلَتْ اجتماع الهمزتين فزادت ألفاً بين الهمزتين، وقرأت فرقة: ﴿إَيْتِكُمْ﴾ بالإيجاب دون تقدير.

وهذه الآية مقصدها التوبيخ وتسفيه الرأي.

و﴿أَخْرَجَ﴾ صلة لـ ﴿إِلَهَةٍ﴾، وصفة جمع ما لا يعقل تجري في الأفراد مجرى الواحدة المؤنثة كقوله: ﴿مَتَارِبُ أُخْرَى﴾، وكذلك مخاطبة جمع ما لا يعقل كقوله: ﴿يَجِئَالُ أَوْيَ مَكَّةَ﴾ ونحو هذا.

ولما كانت هذه الآلهة حجارة وعيداناً أجريت هذا المجرى.

ثم أمره الله تعالى بالتَّبَرُّي من شهادتهم، والإعلان بالتوحيد لله تبارك وتعالى، والتَّبَرُّي من إشراكهم. ﴿وَلَا تَنْ﴾ إيجاب ألحق فيه النون التي تلتق الفعل لتبقى حركته عند اتصال الضمير به في قولك: «ضربني» ونحوه.

وظاهر الآية أنها في عبدة الأصنام، وذكر الطبري أنه قد ورد من وجه لم تثبت صحته أنها نزلت في قوم من اليهود، وأسند إلى ابن عباس رضي الله عنهما قال: جاء النحام بن زيد، وفردم بن كعب، وبحري بن عمرو فقالوا: يا محمد ما تعلم مع الله إلهاً غيره؟ فقال لهم: «لا إله إلا الله، بذلك أمرت». فنزلت الآية فيهم.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿يَتَرَفُّونَ﴾، و﴿الْكِتَابُ﴾ معناه: التوراة والإنجيل، وهو لفظ مفرد يدل على الجنس، والضمير في ﴿يَتَرَفُّونَ﴾ عائد - في بعض الأقوال - على التوحيد لقرب قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَجِدُّ﴾، وهذا استشهاد في ذلك على كفره قريش والعرب بأهل الكتاب. و﴿الَّذِينَ حَسِبُوا﴾ - على هذا التأويل - منقطع مرفوع بالابتداء وليس من صفة ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى، لأنه لا يصح أن يُستشهد بأهل الكتاب ويُذمَّون في آية واحدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يصح ذلك لاختلاف ما استشهد فيه بهم وما ذموا فيه، وأنَّ الذمَّ

والاستشهاد لئساً من جهة واحدة. وقال قتادة، والسدي، وابن جريج: الضمير عائد في ﴿يَتَرَفُّونَ﴾ على محمد عليه الصلاة والسلام ورسالته، وذلك على ما في قوله: ﴿وَأَنْزَلَ إِلَهُ هَذَا الْقُرْآنُ لِيُذَكَّرَ﴾ فكأنه قال: «وأهل الكتاب يعرفون ذلك من إنذار الوحي إلي». وتأول هذا التأويل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدل على ذلك قوله لعبد الله بن سلام: إن الله أنزل على نبيه بمكة أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم، فكيف هذه المعرفة؟ فقال عبد الله بن سلام: نعم أعرفه بالصفة التي وصفه الله في التوراة فلا أشك فيه، وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه، وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطئ الأب فيها.

وقالت فرقة: الضمير في ﴿يَتَرَفُّونَ﴾ عائد على القرآن المذكور قبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن نعبد الضمير على هذه كلها دون اختصاص كأنه وصف أشياء كثيرة ثم قال: «أهل الكتاب يعرفونه» أي: ما قلنا وما قصصنا.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ حَسِبُوا﴾ الآية... يصح أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ نعناً تابعاً لـ ﴿الَّذِينَ﴾ قبله، والفاء في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ عاطفة جملة على جملة، وهذا يحسن على تأويل من رأى في الآية قبلها أن أهل الكتاب

مَتَّوَعِدُونَ مَذْمُومُونَ لَا مُسْتَشْهَدَ بِهِمْ .
ويصح أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ رفعاً
بالابتداء على استئناف الكلام،
وخبره ﴿فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، والفاء
على هذا جواب، و ﴿خَيْرُوا﴾
معناه: غيروها، وقد تقدم.

وروي أن كل عبد له منزل في
الجنة ومنزل في النار، فالمؤمنون
ينزلون منازل أهل الكفر في الجنة،
والكافرون ينزلون منازل أهل الجنة
في النار، فها هنا هي الخسارة بيّنة
والريح للآخرين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾
الآية... ﴿وَمَنْ﴾ استفهام مضمنة
التوقيف والتقرير، أي: لا أحد أظلم
ممن افتري. و ﴿أَفْتَرَكُمُ﴾ معناه:
اخترق، والمكذب بالآيات مفتر
كذاب، ولكنهما منحيان من الكفر
لذلك نَصًا مفسرين.

والآيات: العلامات والمعجزات
ونحو ذلك، ثم أوجب أنه لا يفلح
الظالمون، والفلّاح: بلوغ الأمل
والإرادة والنجاح، ومنه قول عبيد:

أَفْلِيحُ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالضُّدِّ
غُفٍ، وَقَدْ يُخْلَعُ الْأَرِيْبُ
﴿٢٢﴾ ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: ﴿لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾
كلام تام معناه: لا يفلحون جملة ثم
استأنف فقال: واذكر يوم نحشرهم،
وقال الطبري: المعنى: لا يفلح
الظالمون اليوم في الدنيا ﴿يَوْمَ
نَحْشُرُهُمْ﴾ عطفاً على الظرف المقدر،
والكلام متصل.

وقرأت طائفة: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و
﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ حميد
ويعقوب فيهما بالياء، وقرأ عاصم

هنا وفي (يونس) قبل الثلاثين
﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ و ﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وقرأ
في باقي القرآن بالياء. وقرأ أبو هريرة
﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بكسر الشين، فيجيء
الفعل - على هذا - حَشَرَ يَحْشُرُ
وَيَحْشِرُ. وأضاف الشركاء إليهم لأنه
لا شركة لهم في الحقيقة بين الأصنام
وبين شيء، وإنما وقع عليها اسم
الشريك بمجرد تسمية الكفرة
فأضيفت إليهم لهذه النسبة.

و ﴿تَزْعُمُونَ﴾ معناه: تدعون
أنهم لله، والزعم: القول الأميل إلى
الباطل والكذب في أكثر كلامهم،
وقد يقال: زعم بمعنى: ذكر دون
ميل إلى الكذب، وعلى هذا الحد
يقول سيبويه، زعم الخليل، ولكن
ذلك إنما يستعمل في الشيء الغريب
الذي تبقى عهده على قائله.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَرَأَيْتَ كُنْتَ تَفْتَنَهُمْ
إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ الآية - قرأ ابن كثير في
رواية شبل عنه، وعاصم في رواية
حفص، وابن عامر: ﴿تَكُنْ تَفْتَنَهُمْ﴾
برفع الفتنة، و ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ في
موضع نصب على الخبر، التقدير:
إلّا قولهم. وهذا مستقيم لأنه أتت
العلامة في الفعل حين أسنده إلى
مؤنث وهي الفتنة. وقرأ نافع، وأبو
عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر،
وابن كثير أيضاً: ﴿تَكُنْ تَفْتَنَهُمْ﴾
بنصب الفتنة، واسم كان: ﴿أَنْ قَالُوا﴾
وفي هذه القراءة تأنيث ﴿أَنْ قَالُوا﴾،
وساغ ذلك من حيث الفتنة مؤنثة في
المعنى، قال أبو علي: وهذا كقوله
تعالى: ﴿فَلَمَّا عَشُرَ أَتَّالَاهَا﴾ فأثت
الأمثال لما كانت الحسنات بالمعنى،
وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَكُنْ﴾

بالياء ﴿فَتَفْتَنَهُمْ﴾ بالنصب واسم كان
﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ وهذا مستقيم لأنه
ذكر علامة الفعل حين أسنده إلى
مذكر. قال الزهراوي: وقرأت فرقة:
﴿يَكُنْ تَفْتَنَهُمْ﴾ برفع الفتنة، وفي
هذه القراءة إسناد فعل مذكر إلى
مؤنث، وجاء ذلك بالمعنى لأن الفتنة
بمعنى الاختبار أو المودة في الشيء
والإعجاب. وقرأ أبي بن كعب،
وابن مسعود، والأعمش: ﴿وَمَا كَانَ
تَفْتَنَهُمْ﴾، وقرأ طلحة بن مصرف:
﴿ثُمَّ كَانَ تَفْتَنَهُمْ﴾. والفتنة في كلام
العرب لفظة مشتركة تقال بمعنى حب
الشيء والإعجاب به كما تقول:
فتنت بكذا، وتحتل الآفة هنا هذا
المعنى، أي: لم يكن حبه للأصنام
وإعجابهم بها واتباعهم لها لما سئلوا
عنها ووقفوا على عجزها إلا التبري
منها والإنكار لها. وهذا توبيخ لهم
كما تقول لرجل يدعي مودة آخر ثم
انحرف عنه وعاداه: يا فلان، لم
تكن مودتك لفلان إلا أن شتمته
وعاديته، ويقال: الفتنة في كلام
العرب بمعنى الاختبار كما قال عز
وجل لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّا
فُؤَادًا﴾ وكقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا
سُلَيْمَانَ وَأَلْقَيْنَا﴾، وتحتل الآفة ها هنا
هذا المعنى لأن سؤلهم عن الشركاء
وتوقيفهم اختبار، فالمعنى: ثم لم
يكن اختبارنا لهم - إذ لم يفد ولا
أمر - إلا إنكارهم الإشراف، وتجيء
الفتنة في اللغة على معان غير هذين
لا مدخل لها في الآية، ومن قال:
«إن أصل الفتنة الاختبار، ومن فتنت
الذهب في النار، ثم يُستعار بعد
ذلك في غير ذلك» - فقد أخطأ لأن

الاسم لا يحكم عليه بمعنى الاستعارة حتى يقطع باستحالة حقيقته في الموضع الذي استعير له، كقول ذي الرمة:

وَلَفَّ الثُّرَيَّا فِي مُلَاةٍ تَبِيهِ الْفَجْرُ
ونحوه. والفتنة لا يستحيل أن تكون حقيقة في كل موضع قيلت عليه.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا﴾ خفض على النعت لاسم الله، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿رَبَّنَا﴾ نصب على النداء، ويجوز فيه تقدير المدح. وقرأ عكرمة، وسلام بن مسكين: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا﴾ برفع الاسمين وهذا على تقدير تقديم وتأخير كأنهم قالوا: «ما كنا مشركين والله ربنا». و﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ معناه جحود إشراكهم في الدنيا، فروي أنهم إذا رأوا إخراج من في النار من أهل الإيمان ضجوا فيوقفون ويقال لهم: «أَيْنَ شُرَكَائِكُمْ» فينكرون طماعية منهم أن يفعل بهم ما فعل بأهل الإيمان. وأتى رجل ابن عباس فقال: سمعت الله يقول: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ وفي أخرى: ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا مؤمن قالوا: تعالوا فلنجد، وقالوا: «ما كنا مشركين» ففتح الله على أفواههم وتكلمت جوارحهم فلا يكتُمون الله حديثاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعبر بعض المفسرين عن الفتنة هنا بأن قالوا معذرتهم، قاله قتادة، وقال

آخرون: كلامهم، قاله الضحاك، وقيل غير هذا مما هو في ضمن ما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ كَذَّبُوا﴾ الآية... الخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام، والنظر نظر القلب، وقال: ﴿كَذَّبُوا﴾ في أمر لم يقع إذ هي حكاية يوم القيامة فلا إشكال في استعمال الماضي فيها موضع المستقبل، ويفيدنا استعمال الماضي تحقيقاً ما في الفعل وإثباتاً له، وهذا مهيج في اللغة، ومنه قول الربيع بن ضبع الفزاري:

أُضْبِحْتُ لَا أُحْمِلُ السُّلَاحَ وَلَا
أَمْلِكُ رَأْسَ السَّبْعِيِّرِ إِنْ نَفَرَا
يريد: إن يفر.

﴿وَمَنْدَلٌ عَنْهُمْ﴾ معناه: ذهب افتراؤهم في الدنيا وكذبهم بادعائهم لله تبارك وتعالى الشركاء.

﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله: ﴿وَرَبَّهُمْ﴾ عائد على الكفار الذين تضمنهم قبل قوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جِجَاءً﴾، وأفسرد ﴿يَسْتَعِجُّ﴾ وهو فعل جماعة حملاً على لفظ ﴿بَنٍ﴾ و﴿أَكِنَّةٌ﴾ جمع كنان وهو الغطاء الجامع، ومنه كنانة السهام والكن، ومنه قوله تعالى: ﴿بَيْضٌ مَكُونٌ﴾، ومنه قول الشاعر: إِذَا مَا انْتَضَوْهَا فِي الرَّعَى مِنْ أَكِنَّةٍ حَسِبْتَ بُرُوقَ النَّعِيثِ هَاجَتْ غَيُومُهَا وَفَعَالٌ وَأَفْعَلَةٌ مهيج في كلامهم.

و﴿أَنْ يَفْقَهُوهُ﴾ نصب على المفعول من أجله، أي: كراهية أن يفقهوه، وقيل: المعنى: ألا يفقهوه، ويلزم هذا القول إضمار حرف النفي. و﴿يَفْقَهُوهُ﴾ معناه: يفهموه، ويقال:

فقه الرجل بكسر القاف إذا فهم الشيء، وفقه بضمها إذا صار فقيهاً له ملكة، وفقه إذا غلب في الفقه غيره.

والوَقْرُ: الثقل في السمع، يقال: وقرت أذنه ووقرت بكسر القاف وفتحها، ومنه قول الشاعر:

وَكَلَامَ سَيِّئٍ قَدْ وَقِرْتِ
أَذْنِي مِنْهُ وَمَا بِي مِنْ صَمَمٍ
وقد سمع: أذن موقورة، فالفعل على هذا وقرت. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَقْرًا﴾ بكسر الواو كأنه ذهب إلى أن آذانهم وقرت بالضم كما تقرر الدابة من الحمل، وهي قراءة شاذة، وهذا عبارة عما جعل الله في نفوس هؤلاء القوم من الغلظ والبعد عن قبول الخير، لا أنهم لم يكونوا سامعين لأقواله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كَلِمَاتٍ﴾ الآية... الرؤية هنا رؤية العين، يريد كاشفاق القمر وشبهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقصد هذه الآية أنهم في أعجز درجة وحاولوا رد الحق بالدعوى المجردة، والواو في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا﴾ واو الحال، والباب أن يصرح معها بقدر، وقد تجيء أحياناً مقدره، وإيضاح ذلك أنه تعالى قال: ومن هؤلاء الكفرة من يستمعك وهو من الغباوة في حد قلبه في كنان، وأذنه صماء، وهو يرى الآيات فلا يؤمن بها، ولكنه مع بلوغه الغاية من هذا القصور إذا جاء للمجادلة قابل بدعوى مجردة.

والمجادلة: المقابلة في الاحتجاج، مأخوذ من الجدل، و﴿هَذَا﴾ في

قولهم إشارة إلى القرآن، والأساطير: جمع أسطار، كأقوال وأقاويل ونحوه، وأنطار: جمع سطر أو سطر، وقيل: الأساطير: جمع إسطار وهي الثُّرَّهات، وقيل: جمع أسطورة كأعجوبة وأضحوة، وقيل: هو اسم جمع لا واحد له من لفظه كعابيد وشماطيط، والمعنى: أخبار الأولين وأقاصيصهم وأحاديثهم التي تسطر وتحكى ولا تحقق كالتواريخ، وإنما شبهها الكفار بأحاديث النضر بن الحارث وأبي عبدالله بن أبي أمية عن رستم والسندباد، ومجادلة الكفار كانت مرادتهم نور الله بأفواههم المبظلة، وقد ذكر الطبري عن ابن عباس أنه مثل من ذلك قولهم: إنكم أيها المتبعون محمداً تأكلون ما قتلتم بذبحكهم ولا تأكلون ما قتل الله، ونحو هذا من التخليط الذي لا تتركب منه حجة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا جدال في حُكم، والذي في الآية إنما هو جدال في مدافعة القرآن، فلا تفسر الآية عندي بأمر الذبح.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائذ على المذكورين قبل. والضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾ قال قتادة، ومجاهد: يعود على القرآن المتقدم ذكره في قوله: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْا﴾. وقال ابن عباس، وابن الحنفية، والضحاك: هو عائذ على محمد عليه الصلاة والسلام، والمعنى أنهم ينهون غيرهم ويبعدون هم بأنفسهم، والتأي: البعد.

﴿وَأَنْ يَهْتَكِرُوا﴾ معناه: ما يهلكون إلا أنفسهم بالكفر الذي يدخلهم جهنم، وقال ابن عباس أيضاً، والقاسم، وحبيب بن أبي ثابت، وعطاء بن دينار، المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾ أبو طالب ومن كان معه على حماية رسول الله ﷺ وعلى الدوام في الكفر، والمعنى: وهم ينهون عنه من يريد إذايته، ويتأون عنه بإيمانهم واتباعهم، فهم يفعلون الشيء وخلافه. ويُقَلَقُ هذا القول ردُّ قوله: ﴿وَهُمْ﴾ على جماعة الكفار المتقدم ذكرها، لأن جميعهم لم يكن ينهى عن إذاية النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتخرج ذلك ويحسن على أن تقدر القصد ذكر ما ينهى على فريق من الجماعة التي هي كلها مُجْمِعَةٌ على الكفر، فخرجت العبارة عن فريق من الجماعة بلفظ يعم الجماعة لأن التوبيخ على هذه الصورة أغلظ عليهم، كما تقول إذا شئت على جماعة فيها زناة وسرقة وشربة خمر: هؤلاء يزنون ويسرقون ويشربون الخمر، وحقيقة كلامك أن بعضهم يفعل هذا وبعضهم يفعل هذا، فكأنه قال: من هؤلاء الكفرة من يستمع وهم ينهون عن إذايته ولا يؤمنون به، أي: منهم من يفعل ذلك.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: ما يعلمون علم حس، وهو مأخوذ من الشعار الذي يلي بدن الإنسان، والشعار مأخوذ من الشعر، ونفَى الشعور مذمة بالغة إذ البهائم تشعر وتُحس، فإذا قلت: «فلان لا يشعر» فقد نفيت

عنه العلم النفي العام الذي يقتضي أنه لا يعلم ولا المحسوسات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقرأ الحسن: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَنْهُ﴾. أَلْقَيْت حركة الهمزة على النون على التسهيل القياسي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ تُفْعَلُونَ عَلَ الْآثَارِ﴾ الآية. المخاطبة فيه لمحمد ﷺ، وجواب [لَوْ] محذوف تقديره في آخر هذه الآية: لرأيت هَوَلاً أو مشقات أو نحو هذا، وحذف جوابها في مثل هذا أبلغ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله.

ووقعت ﴿إِذْ﴾ في موقع (إذا) التي هي لما يُستقبل، وجاز ذلك لأن الأمر المتيقن وقوعه يُعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع. و﴿وَيَنْهَوْنَ﴾ معناه: حبسوا، ولفظ هذا الفعل متعدياً وغير متعدٍ سواء، تقول: وقفْتُ أنا ووقفْتُ غيره. وقال الزهراوي: وقد فُرِّقَ بينهما بالمصدر، ففي المتعدي: وقفته ووقفاً، وفي غير المتعدي: وقفت ووقفاً، قال أبو عمرو بن العلاء: لم أسمع في شيء من كلام العرب أوقفْتُ فلاناً، إلا أنني لقيت رجلاً واقفاً فقلت له: ما أوقفك ها هنا؟ لكان عندي حسناً، ويحتمل قوله: ﴿وَيَنْهَوْنَ عَلَ الْآثَارِ﴾ أن يكون: دخلوها، فكان وقوفهم عليها أي فيها، قاله الطبري، ويحتمل أن يكون: أشرفوا عليها وعابنوها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وعاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: ﴿وَلَا نُكْذِبُ﴾ ﴿وَتَكُونُ﴾ بالرفع في

بَلْ يَدَّأَهُمْ غَمًّا مَا نُكُونُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ
وَأَنْتُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٨﴾ وَقَالُوا لَنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ
بِمُعَذَّبِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَعُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ قَالَ أَيْسَ هَذَا
يَالْحَقُّ قَالُوا بَلْ وَرَيْنَا قَالَ فذوقوا العذاب بما كُفرتُمْ وَكُفْرُونَ
﴿٣٠﴾ فَخَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِقَوْلِ اللَّهِ الْحَقِّ إِذْ آجَأَهُمْ السَّاعَةُ
بَغْتَةً قَالُوا لَوْ إِنَّا صِرْنَا عَلَىٰ مَا فَرَطْنَا فِيهَا مِنْهُمْ لَنَحْمِلُونَهَا وَأَنْتُمْ
عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ إِلَّا سَاءَ مَا يَرُونُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا
لَمَبٌ وَلَهُوَ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
﴿٣٢﴾ هَدَّ نَعْلَهُمُ إِنَّمَا لِيخْرُجَنَّكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَانْتُمْ لَا تَكْذِبُونَ نَكَ
وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَتْ
رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ فَضَلَّوْا عَلَىٰ مَا كَذَّبُوا وَأَوْدَوْا عَنِ الظَّالِمِينَ نَضْرِبُ
الْأَمْثَالَ لِلْمُجْرِمِينَ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّائِ الْمُرْسَلِينَ
﴿٣٥﴾ وَإِنْ كَانَ كَرِهْتَ لِكَلِمَاتِهَا فَإِنَّهَا أَلْفٌ عَشْرٌ أَفَلَا تَعْقِلُونَ
فَقَفَّيْنَا عَلَى الْأَرْضِ وَنُسَخْنَاهُ عَلَىٰ سَبْعِ مِائَاتٍ وَمِنْهَا لِكُلِّ شَيْءٍ
أَلْفٌ مِائَةٌ وَاللَّهُ يَجْعَلُ الْكُفْرَ حَسْبًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَوْ شَاءَ
اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهَدْيِ فَلَا تَكُونُ مِنَ الْغَالِبِينَ ﴿٣٦﴾

١٣١

بنصب الفعلين، وذلك
كما تنصب الفاء في
جواب التمني، فالرأؤ في
ذلك والفاء بمنزلة، وهذا
على تقدير ذكر مصدر
الفعل الأول، كأنهم
قالوا: يا ليتنا كان لنا ردُّ
وعدمُ تكذيب وكونُ من
المؤمنين. وقرأ ابن عامر
في رواية هشام بن عمار
عن أصحابه عن ابن
عامر: ﴿ولا تكذب﴾
بالرفع ﴿وتكون﴾ بالنصب.
ويتوجه ذلك - على ما
تقدم - في مصحف
عبدالله بن مسعود: ﴿يا
ليتنا نرُدُّ فلا تكذبُ بآياتِ

كلها، وذلك على نيَّة الاستئناف
والقطع في قوله: ﴿ولا تكذب﴾
﴿وتكون﴾ أي: يا ليتنا نرُد، ونحن
على كل حال لا نُكذِّبُ ونكونُ،
فأخبروا عن أنفسهم بهذا، ولهذا
الإخبار صح تكذيبهم بعد هذا،
ورجَّح هذا سيبويه ومثله بقولك:
دعني ولا أعوذ، أي: وأنا لا أعوذ
على كل حال، ويخرُج ذلك على
قول آخر وهو أن يكون: ﴿ولا
تكذب﴾ ﴿وتكون﴾ داخلًا في التمني
على حدِّ ما دخلت فيه ﴿نرُدُّ﴾،
كأنهم قالوا: يا ليتنا نرُدُّ، وليتنا لا
نكذبُ، وليتنا نكونُ، ويعترض هذا
التأويل بأن من تمنى شيئًا لا يقال:
إنه كاذب، وإنما يُكذَّب من أخبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وينفصل عن هذا الاعتراض بأن
يكون قوله: ﴿وَأَنْتُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ حكاية
عن حالهم في الدنيا كلامًا مقطوعاً
عما قبله، وبوجه آخر وهو أن
التمنِّي إذا كانت سجيته وطريقته
مخالفة لما تمنى بعيدة منه يصح أن
يقال له: كذبت على تجوز، وذلك
أن من تمنى شيئاً فتمنَّيه يتضمن
إخباراً أن تلك الأمنية تصلح له
ويصلح لها، فيقع التكذيب في ذلك
الإخبار الذي يتضمَّنهُ التمني، ومثال
ذلك أن يقول رجلٌ شريرٌ: ليتني
أحجُّ وأجاهد وأقوم الليل، فجائز أن
يقال لهذا على تجوز: كذبت، أي
أنت لا تصلح لهذا ولا يصلح لك.

وزوي عن أبي عمرو أنه أدم باء
﴿نكذب﴾ في الباء التي بعدها، وقرأ
ابن عامر، وحزمة وعاصم في رواية
حفص: ﴿ولا تكذب﴾ ﴿وتكون﴾

مضى، وإنما يصح التكذيب الذي
ذكرناه قبل هذا على تجوز في تمنى
المستقبلات.

﴿٢٨﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿لهم﴾ عائد على من
ذكر في قوله: ﴿وَيُؤْتُوا﴾ و ﴿قَالُوا﴾،
وهذا الكلام يتضمن أنهم كانوا
يخفون شيئاً ما في الدنيا فظهر لهم
يوم القيامة، أو ظهر لهم وبأله
وعاقبته، فحذف المضاف وأقيم
المضاف إليه مقامه. وحكى
الزهراوي عن فرقة أنها قالت: الآية
في المنافقين لأنهم كانوا يخفون
الكفر فبدا لهم وبأله يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتقلق العبارة على هذا التأويل لأنه
قال: ﴿وَيُؤْتُوا﴾ يريد جماعة كفار، ثم
قال: ﴿بَدَأَهُمْ﴾ يريد المنافقين من
هؤلاء الكفار، والكلام لا يعطي هذا

ليتنا نرُدُّ فلا تكذبُ بآياتِ
رَبِّنَا وَتَكُونُ﴾ بالثناء، وفي قراءة
أبي بن كعب: ﴿يا ليتنا نرُدُّ فلا
نُكذِّبُ بآياتِ رَبِّنَا أبدأً وَنَكُونُ﴾،
وحكى أبو عمرو أن قراءة أبي:
﴿بآياتِ رَبِّنَا ونحن نكونُ﴾.

وقوله: ﴿نرُدُّ﴾ في هذه الأقوال
كلها معناه: إلى الدنيا، وحكى
الطبري تأويلاً آخر وهو: يا ليتنا نرُد
إلى الآخرة، أي: نبعث نوقف على
النار التي وقفنا عليها مكذِّبين، ليت
ذلك ونحن في حالة لا نكذب
ونكون، فالمعنى: يا ليتنا نوقف هذا
الوقوف غير مكذِّبين بآيات ربنا
كائنين من المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا التأويل يضعف من غير وجه،
ويبطله قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا
لِمَا نُهُوا عَنْهُ﴾، ولا يصح أيضاً
التكذيب في هذا التمني لأنه تمنى ما

إلا على تحامل. قال الزهراوي: وقيل: إن الكفار كانوا إذا وعظهم النبي ﷺ خافوا وأخفوا ذلك الخوف لثلا يشعر به أتباعهم فظهر لهم ذلك يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يكون مقصد الآية الإخبار عن هول ما لقوه والتعظيم لما شقوا به، فعبّر عن ذلك بأنهم ظهرت لهم مستوراتهم في الدنيا من معاص وغير ذلك. فكيف الظن - على هذا - بما كانوا يعلنون من كفر ونحوه؟ وينظر إلى هذا التأويل قوله تعالى في تعظيم شأن يوم القيامة: ﴿يَوْمَ تَكُنُ أَتْرَابًا﴾. ويصح أن يقصد الشيء الذي كانوا يخفونه في الدنيا نبوة محمد ﷺ وأقواله، وذلك أنهم كانوا يخفون ذلك في الدنيا بأن يحرقوه عند من يرد عليهم، ويصفوه بغير صفته، ويتلقوا الناس على الطرق فيقولون لهم: هو ساحر، هو يفرق بين الأقارب، يريدون بذلك إخفاء أمره وإبطاله، فمعنى هذه الآية على هذا: بل بدا لهم يوم القيامة أمرك وصدقك وتحذيرك وإخبارك بعقاب من كفر الذي كانوا يخفونه في الدنيا، ويكون الإخفاء على ما وصفناه.

وقال الزجاج: المعنى: ظهر للذين أتبعوا العواة، ما كان العواة يخفون من البعث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالضميران على هذا ليسا لشيء واحد، وحكى المهدوي عن الحسن نحو هذا. وقرأ يحيى بن وثاب، والتخمي،

الأمش: ﴿وَلَوْ رُدُّوا﴾ بكسر الراء على نقل حركة الدال من (رُودُوا) إليها.

وقوله: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَمَادُوا﴾ إخبار عن أمر لا يكون كيف كان يوجد، وهذا النوع مما استأثر الله بعلمه، فإن أعلم بشيء منه علم وإلا لم يتكلم فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَكْفُرُوا﴾ إما أن يكون متصلاً بالكلام ويكون التكذيب في إخبارهم على معنى أن الأمر في نفسه بخلاف ما قصدوا لأنهم قصدوا الكذب، أو يكون التكذيب في التمني على التجوز الذي ذكرناه. وإما أن يكون منقطعاً إخباراً مستأنفاً عما هم عليه في وقت مخاطبة النبي عليه الصلاة والسلام، والأول أصوب.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا إِنَّا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا﴾ الآية... هذا - على تأويل الجمهور - ابتداء كلام وإخبار عنهم بهذه المقالة، ويحسن مع هذا أن يكون قوله قبل: ﴿وَأَن تَكْفُرُوا﴾ مستأنفاً مقطوعاً خبراً عن حالهم في الدنيا التي من قولهم فيها: «إن هي إلا حياتنا الدنيا» وغير ذلك، و﴿إِنَّ﴾ نافية، ومعنى الآية التكذيب بالحشر والعودة إلى الله، وقال ابن زيد: قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ معطوف على قوله: ﴿لَمَادُوا﴾ أي: لعادوا لما نُهوا عنه من الكفر وقالوا: إن هي إلا حياتنا الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتوقف الله لهم في الآية بعدها على البعث والإشارة إليه في قوله:

﴿أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ﴾ يرُدُّ على هذا التأويل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وَقَفُوا﴾ الآية... بمعنى: ولو ترى إذ وقفوا كما تقدم أنفاً من حذف جواب [لوا]، وقوله: ﴿عَلَى رَيْبٍ﴾ معناه: على حُكمه وأمره، ففي الكلام ولا بُدُّ حذف مضاف. وقوله: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى البعث الذي كذبوا به في الدنيا، و﴿بِكَلِّ﴾ هي التي تقتضي الإقرار بما استفهم عنه منفياً ولا تقتضي نفيه وجحده، و (نَعَمْ) تصلح للإقرار به، كما ورد ذلك في قول الأنصار للنبي عليه الصلاة والسلام حين عاتبهم في الحظيرة عقب غزوة حنين، وتصلح أيضاً (نَعَمْ) لجحده فلذلك لا تستعمل، وأما قول الزجاج وغيره: إنها إنما تقتضي جحده، وإنهم لو قالوا: (نَعَمْ) عند قوله: ﴿أَلَيْسَ بِرَيْبٍ﴾ لكفروا فقول خطأ، والله المستعان. وقولهم: ﴿بَلَّ وَرَيْبًا﴾ إيمان ولكنه حين لا ينفع، وقوله: ﴿دُوقُوا﴾ استعارة بليغة، والمعنى: باشروه مباشرة الذائق إذ هي من أشد المباشرات.

﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا استئناف إخبار عن خسارة المكذبين يتضمن تعظيم المصاب الذي حلَّ بهم، وتستعمل الخسارة في مثل هذا لأنه من أخذ الكفر وأتبعه فكأنه قد أعطى الإيمان واطَّرحه، فأشبهت صفقة أخذ وإعطاء.

والإشارة بهذه الآية إلى الذين قالوا: «إنما هي حياتنا الدنيا»، وقوله: ﴿بِلِقَاءِ اللَّهِ﴾ معناه: بالرجوع

إليه وإلى أحكامه وقدرته، كما تقول: لَقِيَ فلان أعماله، أي لقي عواقبها ومآلها. و ﴿الْآتَاءُ﴾: يوم القيامة، وأدخل عليها تعريف العهد دون تقدم ذكرها لشهرتها واستقرارها في النفوس وذبوع أمرها، وأيضاً فقد تضمنها قوله تعالى: ﴿يَلْقَاهُ اللَّهُ﴾.

و ﴿بَغْتَةً﴾ معناه: فجأة، تقول: بغتني الأمر أي فجأني، ومنه قول الشاعر:

ولكنهم تابوا ولم أخش بَغْتَةً
وأقطع شنيء حين يفجؤك البَغْتُ
ونصبها على المصدر في موضع الحال، كما تقول: «قتلتُه صبراً»، ولا يجيز سبويه القياس عليه، لا تقول: «جاء فلان سرعة» ونحوه.

ونداء «الحسرة» على تعظيم الأمر وتشنيعه، قال سبويه: وكان الذي ينادي الحسرة أو العجب أو السرور أو الويل يقول: اقربني أو احضري فهذا وقتك وزمنك، وفي ذلك تعظيم للأمر على نفس المتكلم وعلى سامعه إن كان ثمَّ سامع، وهذا التعظيم على النفس والسماع هو المقصود ببناء الجمادات كقولك: يا دار، ويا رُبُع، وفي نداء ما لا يعقل كقولهم: يا جَمَل، ونحو هذا.

و ﴿رَطَطْنَا﴾ معناه: قصرنا مع القدرة على ترك التقصير، وهذه حقيقة التفريط، والضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾ عائد على الساعة، أي: في التقدمة لها، وهذا قول الحسن، وقال الطبري: يعود على الصفة التي يتضمنها ذكر الخسارة في أول الآية، ويحتمل أن يعود الضمير على الدنيا إذ المعنى يقتضيها وتجيء الظرفية

أمكن بمنزلة: زيد في الدار، وعوده على الساعة إنما معناه في أمورها والاستعداد لها بمنزلة: زيد في العلم مشتغل.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ﴾ الآية... الواو واو الحال.

والأوزار: جمع وِزْر بكسر الواو وهو الثقل من الذنوب، تقول منه:

وَرَزَّ يَزُرُ إذا حمل، قال الله تعالى: ﴿وَلَا زُرُّوا زُرَّةً وَرَدَّ أُخْرَى﴾، وتقول:

وَرَزَّ الرجل فهو مَوْزُور، قال أبو عبيدة: والعامية تقول: مأزور، وأما

إذا اقترن ذلك بمأجور فإن العرب تقول: مأزور، وقد قال النبي ﷺ:

لِإِنْسَاءٍ لَقِيَهُنَّ مَقْبَلَاتٍ مِنَ الْمُقَابِرِ: «ارجعن مأزورات غير مأجورات»،

قال أبو علي وغيره: فهذا للإتباع اللفظي، والوَزْر هنا تجوز وتشبيه

بثقل الأحمال، وقوى التشبيه بأن جعله على الظهور إذ هي في العادة

موضع حمل الأثقال، ومن قال إنه من الوَزْر وهو الجبل الذي يُلْتَجأ إليه

- ومنه الوزير وهو المعين - فهي مقالة غير بيّنة. وقال الطبري وغيره:

هذا على جهة الحقيقة. ورووا في ذلك خبراً أن المؤمن يلقاه عمله في

أحسن صورة وأفرحها فيسلم عليه ويقول له: طالما ركبتك في الدنيا

وأجهدتُك فاركبني اليوم، قال: فيحمله تمثال العمل، وأن الكافر

يلقاه عمله في أقبح صورة وأنتنها فيشتمه ويقول: أنا عمك الخبيث،

طالما ركبتني في الدنيا بشهواتك فأنا أركبك اليوم، قال: فيحمل تمثال

عمله وأوزاره على ظهره. وقوله تعالى: ﴿أَلَا سَاءَ مَا يَزُرُونَ﴾

إخباراً عن سوء ما يأثمون مُضْمَنَ التعظيم لذلك والإشادة به، وهذا

كقول النبي ﷺ: «أَلَا فَلْيَبْلُغِ الشَّاهِدُ الغائب» وقوله: «أَلَا هل بلغت؟»،

فإنما أراد الإشادة والتشديد، وهذا كله يتضمنه ﴿أَلَا﴾، وأما ﴿سَاءَ مَا

يَزُرُونَ﴾ فهو خبر مجرد كقول الشاعر:

رضيتَ حُطَّةً حَسَفَ غَيْرَ طَائِلَةٍ
فساء هذا رضى يا قَبْسُ غيلانا

و ﴿سَاءَ﴾ فعل ماضٍ، و ﴿مَا﴾ فاعلة به كما تقول: «ساءني أمر

كذا»، ويحتمل أن تجري ﴿سَاءَ﴾ هنا مجرى (بش) ويقدر لها ما قد يقدر

لبش إذ قد جاء في كتاب الله: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ﴾.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداءً خبر عن حال الدنيا، والمعنى: إنها إذا كانت فانية منقضية

لا طائل لها أشبهت اللعب واللهو الذي لا طائل له إذا انقضى.

وقرأ السُّنَّةُ من القراءة: ﴿وَلَدَانِ﴾ بلامين، و ﴿وَلَدَانِ﴾ نعت للدار،

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿وَلَدَانِ﴾ بلام واحدة، وكذلك وقع في مصاحف

الشام بإضافة الدار إلى الآخرة، وهذا نحو: مسجد الجامع، أي: مسجد

اليوم الجامع، فكذلك هذا: ولدار الحياة الآخرة. وقرأ ابن كثير، وأبو

عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَغْفِقُونَ﴾ على

إرادة الغائب. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم:

﴿مَقِيلُونَ﴾ على إرادة المخاطبين، وكذلك في الأعراف وفي آخر يوسف، ووافقه أبو بكر في آخر

يوسف، فأما ﴿أَفَلَا يَعْلَمُونَ﴾ في ﴿بِسِّ﴾ فقرأه نافع وابن ذكوان بناءً والباقون بياء.

وهذه الآية تتضمن الردّ على قولهم: «إن هي إلا حياتنا الدنيا» وهو المقصود بها، ويصح أن يكون قوله: ﴿أَفَلَا تَعْلَمُونَ﴾ على معنى: فقل لهم يا محمد: إذ الحال على هذه الصفة أفلا تعلمون؟

قوله تعالى: ﴿قَدْ تَعْلَمُ﴾ الآية... (قد) الملازم للفعل حرف يجيء مع التوقع إما عند المتكلم وإما عند السامع أو مقدراً عنده، فإذا كان الفعل خالصاً للاستقبال كان التوقع من المتكلم كقولك: قد يقوم زيد، وقد ينزل المطر في شهر كذا، وإذا كان الفعل ماضياً أو فعل حال بمعنى الماضي مثل آيتنا هذه فإن التوقع ليس من المتكلم بل المتكلم موجب ما أخبر به، وإنما كان التوقع ليس من المتكلم بل المتكلم موجب ما أخبر به، وإنما كان التوقع عند السامع فيخبره المتكلم بأحد المتوقّعتين. و ﴿تَعْلَمُ﴾ تتضمن - إذا كانت من الله تعالى - استمرار العلم وقدمه، فهي تَعْمُ الماضي والحال والاستقبال، ودخلت (أَنَّ) للمبالغة في التأكيد.

وقرأ نافع وحده: ﴿لِيُخَوِّنَكَ﴾ من (أخزن)، وقرأ الباقون: ﴿لِيُخَوِّنَكَ﴾ من (حزن الرجل)، وقرأ أبو رجاء: ﴿لِيُخَوِّنَكَ﴾ بكسر اللام والزاي وجزم النون، وقرأ الأعمش: ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الهمزة ﴿يُخَوِّنَكَ﴾ بغير لام، قال أبو علي الفارسي: تقول العرب: حزن الرجل بكس الزاي يخزن حزنًا وحزنًا، وحزنته أنا.

وحكي عن الخليل أن قولهم: (حزنته) ليس هو تغيير (حزن) على نحو (دخّل وأدخلت)، ولكنه بمعنى: جعلت فيه حزنًا، كما تقول: كحلته ودقنته، قال الخليل: ولو أردت تغيير (حزن) لقلت: (أخزنته)، وحكى أبو زيد الأنصاري في كتاب «حياة» عن العرب: «أخزنت الرجل»، قال أبو علي: و (حزنت) الرجل أكثر استعمالاً عندهم من (أخزنته)، فمن قرأ: ﴿لِيُخَوِّنَكَ﴾ بضم الياء فهو على القياس في التغيير، ومن قرأ: ﴿لِيُخَوِّنَكَ﴾ بفتح الياء وضم الزاي فهو على كثرة الاستعمال.

و ﴿الَّذِي يَقُولُونَ﴾ لفظ يعُمُّ جميع أقوالهم التي تتضمن الردّ على النبي ﷺ والدفع في صدر نبوته، كقول بعضهم: إنه كذاب، مفتر، ساحر، وقول بعضهم: إنه مجنون مسحور، وقول بعضهم: له زُيٌّ من الجن، ونحو هذا.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو، وعاصم، وحمرزة: ﴿لَا يُكذِّبُونَكَ﴾ بتشديد الذال وفتح الكاف، وقرأها ابن عباس وردها على قارئ عليه: ﴿يُكذِّبُونَكَ﴾ بضم الياء وقال: إنهم كانوا يسمونه الأمين، وقرأ نافع، والكسائي بسكون الكاف وتخفيف الذال، وقرأها علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهما قراءتان مشهورتان صحيحتان، واختلف المتأولون في معناهما - فقال فرقة: هما بمعنى واحد كما تقول: سَقَيْتُ وَأَسْقَيْتُ وَقُلْتُ وَأَقُلْتُ وَكَثَّرْتُ

وَأَكثَرْتُ، وحكى الكسائي أن العرب تقول: «كذبت الرجل» إذا نسبت الكذب إليه، و «أكذبت» إذا نسبت الكذب إلى ما جاء به دون أن تنسبه إليه، وتقول العرب أيضاً: «أكذبت الرجل» إذا وجدته كاذباً، كما تقول: «أخمدته» إذا وجدته محموراً، فالمعنى على قراءة من قرأ: ﴿يُكذِّبُونَكَ﴾ بتشديد الذال، أي: لا تحزن فإنهم لا يُكذِّبونك تكذيباً يضرك، إذ لست بكاذب في حقيقتك، فتكذيبهم كلا تكذيب، ويحتمل أن يريد: «فإنهم لا يُكذِّبونك» على جهة الإخبار عنهم أنهم لا يُكذِّبون وأنهم يعلمون صدقه ونبوته، ولكنهم يجحدون عناداً منهم وظلماً، والآية على هذا لا تتناول جميع الكفار، بل تخص الطائفة التي حكي عنها أنها كانت تقول: إنا لنعلم أن محمداً صادق ولكن إذا أمتنا به فضلتنا بنو هاشم بالنبوة فنحن لا نؤمن به أبداً، ورويت هذه المقالة عن أبي جهل ومن جرى مجراه، وحكى النقاش أن الآية نزلت في الحارث بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف، فإنه كان يكذب في العلانية ويصدق في السر ويقول: نخاف أن تتخطنا العرب ونحن أكلة رأس، والمعنى على قراءة من قرأ: ﴿يُكذِّبُونَكَ﴾ بتخفيف الذال يحتمل ما ذكرناه أولاً في ﴿يُكذِّبُونَكَ﴾ أي: لا يجدونك كاذباً في حقيقتك، ويحتمل هذين الوجهين اللذين ذكرت في ﴿يُكذِّبُونَكَ﴾ بشد الذال.

آيات الله: علاماته وشواهد نبيه محمد ﷺ، و ﴿يُحَمِّدُونَ﴾ حقيقته

في كلام العرب: الإنكار بعد معرفة، وهو ضد الإقرار، ومعناه - على تأويل من رأى الآية في المعاندين - مترتب على حقيقته، وهو قول قتادة والسدي وغيرهما، وعلى قول من رأى أن الآية في الكفار قاطبة دون تخصيص أهل العناد يكون في اللفظة تجوز، وذلك أنهم لما أنكروا نبوته وراموا تكذيبه بالدعوى التي لا تعضدها حجة عُبِّرَ عن إنكارهم بأقبح وجوه الإنكار وهو الجحد تغليظاً عليهم وتقييحاً لفعلهم، إذ معجزاته وآياته نيرة يلزم كل مفطور أن يعلمها ويقر بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجميع ما في هذه التأويلات من نفي التكذيب إنما هو عن اعتقادهم وأما أقوالهم جميعهم فمكذبة إما له وإما للذي جاء به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكفر العناد جائز الوقوع بمقتضى النظر، وظواهر القرآن تعطيه كقوله: ﴿وَمَكَّدُوا بِهَا وَاسْتَقْبَلَتْهَا أَنْفُسُهُمْ﴾ وغيرها، وذهب بعض المتكلمين إلى المنع من جوازه، وذهبوا إلى أن المعرفة تقتضي الإيمان والجحد يقتضي الكفر ولا سبيل إلى اجتماعهما، وتأولوا ظواهر القرآن فقالوا في قوله تعالى: ﴿وَمَكَّدُوا بِهَا﴾: إنها في أحكام التوراة التي بدلوها كآية الرجم وغيرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ودفع ما يتصور ويُغفل من جواز كفر العناد على هذه الطريقة صعب، أما إن كفر العناد من العارف بالله وبالنبوة بعيد لأنه لا داعية لكفر العناد إلا

الحسد، ومن عرف الله والنبوة وأن محمداً يجيئه ملك من السماء فلا سبيل إلى بقاء الحسد مع ذلك، أما إنه جائز فقد رأى أبو جهل على رأس النبي ﷺ فحلاً عظيماً من الإبل قد هم بأبي جهل ولكنه كفر مع ذلك، وأسند الطبري أن جبريل عليه السلام وجد النبي عليه الصلاة والسلام حزينا فسأله فقال: «كذبني هؤلاء»، فقال: «إنهم لا يكذبونك، بل يعلمون أنك صادق ولكن الظالمين بآيات الله يجهلون»، والذي عندي في كفر حيتي بن أخطب ومن جرى مجراه أنهم كانوا يرون صفات النبي ﷺ ويعرفونها أو أكثرها، ثم يرون من آياته زائداً على ما عندهم فيتعلقون في مخالطة أنفسهم بكل شبهة بأضعف سبب، وتتخالج ظنونهم فيقولون مرة: هو ذلك، ومرة: عساه ليسه، ثم ينضاف إلى هذا حسدهم وفقدهم الرياسة فيتزيد ويتمكن إغراضهم وكفرهم فهم على هذا، وإن عرفوا أشياء وعاندوا فيها فقد قطعوا في ذلك بأنفسهم عن الوصول إلى غاية المعرفة ويقوا في ظلمة الجهل، فهم جاهرون بأشياء معاندين في أشياء غيرها، وأنا استبعد العناد مع المعرفة التامة.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تضمنت عرض الأسوة التي ينبغي الاقتداء بها على محمد رسول الله ﷺ وترجيته أن يأتيه مثل ما أتاهم من النصر إن امتثل ما امتلوه من الصبر.

قال الضحّاك وابن جريج: عزى الله بهذه الآية نبيه ﷺ، وروى

عن ابن عامر أنه قرأ: ﴿وَأُدْوَا﴾ بغير واو بعد الهمزة. ثم قوي ذلك الرجاء بقوله: ﴿وَلَا مِثْلَ لِكَمَاتِ اللَّهِ﴾ أي: لا راد لأمره وكلماته السابقات بما يكون، ولا مكذب لما أخبر به، فكأن المعنى: فاصبر كما صبروا وانتظر ما يأتي وثق بهذا الإخبار فإنه لا مبدل له، فالقصد هنا هذا الخبر وجاء اللفظ عاماً لجميع كلمات الله السابقات، وأما كلام الله عز وجل في التوراة والإنجيل فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنه لا مبدل لها وإنما حرفها اليهود بالتأويل لا ببدل حروف وألفاظ، وجوز كثير من العلماء أن يكونوا بدلوا الألفاظ لأنهم استخفطوها، وهو الأظهر، وأما القرآن فإن الله تضمن حفظه فلا يجوز فيه التبديل، قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأِنَّا لَهُ لَكٰحِفٰطُونَ﴾ وقال في أولئك: ﴿يٰۤاَيُّهَا سٰخِطُوۤا مِنْ كِتٰبِ اللّٰهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيّٰٓئِ التَّوْرٰتِ﴾ أي فيما أنزلناه وقصصناه عليك ما يقضي هذا الذي أخبرناك به، وفاعل ﴿جَاءَكَ﴾ مضمر على ما ذهب إليه الطبري والرماني تقديره: ولقد جاءك نبأ أو أنباء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب عندي في المعنى أن يقدر: جلاء أو بيان.

وقال أبو علي الفارسي: قوله: ﴿مِنْ نَّبِيّٰٓئِ التَّوْرٰتِ﴾ في موضع رفع بـ (جاء) ودخل حرف الجر على الفاعل، وهذا على مذهب الأخفش في تجويزه دخول (من) في الواجب، ووجه قول الرماني أن (من) لا تزداد في الواجب.

وهذه الآية تُرَدُّ على القدرية المغرزة الذين يقولون: إن القدرة لا تقتضي أن يؤمن الكافر وإن ما يأتيه الإنسان من جميع أفعاله لا خلق لله فيه، تعالى الله عن قولهم.

و ﴿مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ يحتمل في ألا يعلم أن الله لو شاء لجمعهم، ويحتمل في أن تهتم بوجود كفرهم الذي قدره وأراده، وتذهب بك نفسك إلى ما لم يقدره الله تعالى.

ويظهر تباين ما بين قوله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ وبين قوله لنوح عليه السلام: ﴿إِنِّي أَعْطَكَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وقد تقرر أن محمداً ﷺ أفضل الأنبياء، قال مكي والمهدي: الخطاب بقوله: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ للنبي عليه الصلاة والسلام والمراد به أمته، وهذا ضعيف لا يقتضيه اللفظ، وقال قوم: وقُر نوح لِسَنِهِ وشيئته، وقال قوم: جاء الحمل أشد على محمد ﷺ لقربه من الله تعالى ومكانته عنده كما يخجل المُعَاقِب على قربه أكثر من حملة على الأجنبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والوجه القوي عندي في الآية هو أن ذلك لم يجيء بحسب الثبوت، وإنما جاء بحسب الأمرين اللذين وقع النهي عنهما والعتاب فيهما، وبين أن الأمر الذي نُهي عنه محمد ﷺ أكبر قدراً وأخطر واقعة من الأمر الذي واقعه نوح ﷺ.

(٣٦) - (٣٧) تفسير قوله عز وجل: هذا من النمط المتقدم في التسلية، أي: لا تحفل بمن أعرض فإنما

بحق ملكه فلا تكونن من الجاهلين في أن تأسف وتحزن على أمر أَرَادَهُ اللهُ وأمضاه وَعَلِمَ المصلحة فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أسلوب معنى الآية.

واسم ﴿كَانَ﴾ يصح أن يكون الأمر والشأن، و ﴿كَبَّرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضَهُمْ﴾ خبرها، ويصح أن يكون ﴿إِعْرَاضَهُمْ﴾ هو اسم ﴿كَانَ﴾ ويقدر في ﴿كَبَّرَ﴾ ضمير، وتكون ﴿كَبَّرَ﴾ في موضع الخبر، والأول من الوجوهين أقيس.

والنفق: السرب في الأرض، ومنه نافقاء اليربوع، والسُّلْمُ: الشيء الذي يُصعد عليه ويرتقى، ويمكن أن يشق اسمه من السلامة لأنه سببها، وجمعه: سلايم، ومنه قول الشاعر: لا يَخِجِزُ المَرَّةَ أَحْجَاءُ الأَبِلَادِ وَلَا تُبْنِي لَهُ فِي السَّمَوَاتِ السَّلَالِيمُ و ﴿فَتَأْتِيهِمْ بَيَّاتَةً﴾ أي: بعلامة، ويريد إما في فعلك ذلك، أي: تكون الآية نفس دخولك في الأرض أو ارتقائك في السماء، وإما أن تأتيهم بالآية من إحدى الجهتين، وحذف جواب الشرط قبل في قوله: ﴿وَإِنِ اسْتَفْتَيْتَ﴾ إيجازاً لفهم السامع به، تقديره: فافعل أو فدونك كما تقدم.

و ﴿لَيَجْمَعَهُمْ﴾ يحتمل إما بأن يخلقهم مؤمنين، وإما بأن يكسبهم الإيمان بعد كفرهم بأن يشرح صدورهم، و ﴿الْمُدَّكَ﴾: الإرشاد،

﴿إِنَّمَا اسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَعْزِمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ﴾ وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ مَائِدَةٌ مِنَ رَبِّهِمْ لَبَرَأْنَا لِلَّهِ فَادْرِعْ عَلَىٰ أَنْ يُزِيلَ مَائِدَةً وَلَكِنْ أَكْرَهَهُمْ لِأَعْمَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَلِيمٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُنمِّئْنَا لَهُ مَقَافَرًا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ وَعُمِرَ لِكُلِّ رِيحٍ بِمَشْرُوفٍ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُغُرُوكُمْ فِي الظُّلُمَاتِ مِنْ نَشِئَةِ اللَّهِ يُضِلُّهُ وَمَنْ يُضِلُّهُ اللَّهُ فَكَيْفَ يُهْتَدِ إِلَىٰ سَبِيلِهِ وَلَا يَدْعُونَ إِلَّا أَنْتَ اللَّهُ أَوْ تَمْسِكُمْ مِنْ سَبِيلِهِ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ بَلْ آيَاتُهُ تَدْعُونَ وَكَيْفَ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾ بَلْ آيَاتُهُ تَدْعُونَ وَكَيْفَ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ وَتَسْتَوُونَ مَا فَتَرَكُونُ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَآخَذْنَاهُمْ بِالْأَسْوَأِ الَّذِي أَلَمُوا بِهِمْ فَضَعَفُوا عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا ضَعَفُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ ﴿٤٣﴾

١٢٢

وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ﴾ الآية. آية فيها إلزام الحجة للنبي ﷺ وتقسيم الأحوال عليه حتى يتبين أن لا وجه إلا الصبر والمضي لأمر الله تعالى، والمعنى: إن كنت تعظم تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتلتزم الحزن عليه فإن كنت تقدر على دخول سرب في أعماق الأرض أو على ارتقاء سلم إلى السماء فدونك وشأنك به، أي أنك لا تقدر على شيء من هذا، ولا بد لك من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها الله تبارك وتعالى للناظرين المتأملين، إذ هو - لا إله إلا هو - لم يُرد أن يجمعهم على الهدى، وإنما أراد أن ينصب من الآيات ما يهتدي بالنظر فيه قوم ويضل آخرون، إذ خلقهم على الفطرة وهدى السبيل وسبقت رحمته غضبه، وله ذلك كله

يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول، فعبر عن ذلك كله بـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾ إذ هو طريق العلم بالنبوة والآيات المعجزة، وهذه لفظة تستعملها الصوفية، إذا بلغت الموعدة من أحد مبلغاً شافياً قالوا: سمع.

ثم قال تعالى: ﴿وَالْمُؤَقَّ﴾ يريد الكفار فعبر عنهم بضم ما عبر عن المؤمنين، وبالصفة التي تشبه حالهم في العمى عن نور الله تبارك وتعالى والصَّمِّم عن وعي كلماته، قاله مجاهد، وقتادة، والحسن.

و ﴿يَعْتَمُّهُمُ اللَّهُ﴾ يحتمل معنيين - قال الحسن: معناه: يبعثهم الله بأن يؤمنوا حين يوقفهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتجيء الاستعارة في هذا التأويل في الوجهين: في تسميتهم موتى وفي تسمية إيمانهم وهدايتهم بعثاً، والواو على هذا مشرقة في العامل عطفت ﴿الْمُؤَقَّ﴾ على ﴿الَّذِينَ﴾. و ﴿يَعْتَمُّهُمُ اللَّهُ﴾ في موضع الحال، وكان معنى الآية: إنما يستجيب الذين يرشدون حين يسمعون فيؤمنون، والكفار حين يرشدهم الله بمشيئته، فلا تتأسف أنت ولا تستعجل ما لم يقدر. وقرأ الحسن: ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ يَرْجَعُونَ﴾ فتناسبت الآية. وقال مجاهد وقتادة: ﴿وَالْمُؤَقَّ﴾: يريد الكفار، أي هم بمثابة الموتى حين لا يرون هدى ولا يسمعون فيؤمنون، و ﴿يَعْتَمُّهُمُ اللَّهُ﴾ أي: يحشرهم يوم القيامة، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾ أي إلى سطوته وعقابه يرجعون،

وقرأت هذه الطائفة ﴿يَرْجَعُونَ﴾ بياض، والواو على هذا عاطفة جملة كلام على جملة، و ﴿الْمُؤَقَّ﴾ مبتدأ و ﴿يَعْتَمُّهُمُ اللَّهُ﴾ خبره، فكأن معنى الآية: إنما يستجيب الذين يسمعون فيؤمنون، والكفار يبعثهم الله ويردهم إلى عقابه، فالآية على هذا متضمنة الوعيد للكفار، والعائد على ﴿الَّذِينَ﴾ هو الضمير في ﴿يَسْمَعُونَ﴾.

والضمير في ﴿قَالُوا﴾ عائد على الكفار، و ﴿وَلَوْلَا﴾ تحضيض بمعنى: هلاً، قال الشاعر:

تَعْدُونَ عَقْرَ النَّبِيِّ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ

بني ضَوْطَرَى لَوْلَا الكَجِي المَقْتَمَا
ومعنى الآية: هلاً أنزل على محمد عليه الصلاة والسلام بيان واضح لا يقع معه توقف من أحد كملك يشهد له أو كنز أو غير ذلك من تشططهم المحفوظ في هذا، فأمر عليه الصلاة والسلام بالرُّد عليهم بأن الله عز وجل له القدرة على إنزال تلك الآية ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنها لو نزلت ولم يؤمنوا لعلجوا بالعذاب، ويحتمل ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أن الله تعالى إنما جعل المصلحة في آيات معرضة للنظر والتأمل ليهتدي قوم ويضل آخرون.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ الآية - المعنى في هذه الآية التنبيه على آيات الله الموجودة في أنواع مخلوقاته، أي: قل لهم: إن الله قادر على أن ينزل آية إلا أنكم لا تعلمون وجه الحكمة في ألا ينزل آية مجهزة وإنما يحيل على الآيات المنصوبة لمن فكر واعتبر كالدواب

والطير التي قد حصرت جميع الحيوان، وهي أمم أي جماعات مماثلة للناس في الخلق والرزق والحياة والموت والحشر، ويحتمل أن يريد بالمماثلة أنها في كونها أمماً لا غير، كما تريد بقولك: «مررت برجل مثلك» أي في أنه رجل، ويصح في غير ذلك من الأوصاف إلا أن الفائدة في هذه الآية إنما تقع بأن تكون المماثلة في أوصاف غير كونها أمماً، قال الطبري وغيره: والمماثلة في أنها يهتبل بأعمالها وتحاسب ويقص لبعضها من بعض على ما روي في الأحاديث، أي: فإذا كان يفعل هذا بالهائم فأنتم أخرى إذ أنتم مكلفون عقلاء، وروى أبو ذر أنه انتطحت عنزان بحضرة النبي ﷺ فقال: «أتعلمون فيم انتطحتا؟» قلنا: لا، قال: «فإن الله يعلم وسيقضي بينهما». وقد قال مكي في: المماثلة في أنها تعرف الله تعالى وتعبده، وهذا قول خلف.

و ﴿دَابَّةٍ﴾ وزنها: فاعلة، وهي صفة وضعت موضع الاسم كما قالوا: الأعرج والأبرق، وأزيل منه معنى الصفة، وليست بالصفة الغالبة في قولنا: العباس والحارث، لأن معنى الصفة باق في الصفة الغالبة. وقرأ طائفة: ﴿وَلَا طَيْرٍ﴾ عطفاً على اللفظ، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة: ﴿وَلَا طَائِرٍ﴾ بالرفع عطفاً على المعنى، وقرأت فرقة: ﴿وَلَا طَيْرٍ﴾ وهو جمع طائر.

وقوله: ﴿بِحَاجِدٍ﴾ تأكيد وبيان وإزالة للاستعارة المتعاهدة في اللفظة، فقد يقال: طائر السعد

والنحس. وقال تعالى: ﴿الزَّيْنَةُ
طَلَبُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي: عمله، ويقال:
«طار لفلان طائر كذا» أي سهمه في
المقتسمات، فقوله تعالى:
﴿بِحَاجَتِهِ إِخْرَاجَ لِلطَّائِرِ عَنْ هَذَا
كَلِمَةً﴾.

وقرأ علقمة، وابن هرمز: ﴿قَرَطْنَا
فِي الْكِتَابِ﴾ بتخفيف الراء،
والمعنى واحد، وقال النقاش:
﴿قَرَطْنَا﴾ مخففة: أخرنا، كما قالوا:
«قَرَطَ اللهُ عنك المرض» أي أزاله،
والأول أصوب، والتفريط: التقصير
في الشيء مع القدرة على ترك
التقصير. و ﴿الْكِتَابِ﴾: القرآن،
وهو الذي يقتضيه نظام المعنى في
هذه الآيات، وقيل: اللوح
المحفوظ. و ﴿بِن شَيْءٍ﴾ - على هذا
القول - عام في جميع الأشياء،
وعلى القول بأنه قرآن خاص: في
الأشياء التي فيها منافع للمخاطبين
وطرائق هدايتهم. و ﴿بِحُجْرَتِكَ﴾
قالت فرقة: حشر البهائم: موتها.
وقالت فرقة: حشرها: بعثها.
واحتجوا بالأحاديث المضمنة أن الله
تعالى يقتص للجناء من القرآن،
إنما هي كناية عن العدل وليست
بحقيقة، فهو قول مردود ينحو إلى
القول بالرموز ونحوها.

﴿٣٩﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل:

كأنه قال: وما من دابة ولا طائر
ولا شيء إلا وفيه آية منصوبة على
وحدانية الله تبارك وتعالى، ولكن
الذين كذبوا صمَّ وَيُكْمُّ لا يتلقون
ذلك ولا يقبلونه. وظاهر الآية أنها
تعمُّ كل مكذب، وقال النقاش:
نزلت في عبد الدار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ثم انسجت على سواهم.

ثم بيّن أن ذلك حكم من الله عز
وجل بمشيئته في خلقه فقال مبتدئاً
لكلام: ﴿مَنْ يَشَأِ اللهُ يُضِلَّهُ﴾ شرط
وجوابه، وقوله: ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾
ينوب عن (غمي)، و ﴿فِي الظُّلُمَاتِ﴾
أهول عبارة وأفسح وأوقع في
النفس. والصرط: الطريق الواضح.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَرَأَيْتُمْ﴾ ابتداء
احتجاج على الكفار الجاعلين لله
شركاء، والمعنى: أرايتم إذا خفتم
عذاب الله أو خفتم هلاكاً أو خفتم
الساعة أتدعون أصنامكم وتلجؤون
إليها في كشف ذلك إن كنتم صادقين
في قولكم: إنها آلهة؟ بل تدعون الله
الخالق الرزاق فيكشف ما خفتموه إن
شاء وتسنون أصنامكم أي تتركوهم،
فعبّر عن الترك بأعظم وجوهه الذي
هو مع الترك ذهول وإغفال، فكيف
يُجعل إلهاً مَنْ هذه حاله في الشدائد
والأزمات؟

وقرأ ابن كثير، وعاصم، وأبو
عمرو، وابن عامر، وحمزة:
﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ بألف مهموزة على
الأصل، لأن الهمزة عين الفعل،
وقرأ نافع بتخفيف الهمزة بين بين
على عُرف التخفيف وقياسه، وروي
عنه أنه قرأها بألف ساكنة وحذف
الهمزة، وهذا تخفيف على غير
قياس، والكافي في (أرايتك زيدا،
وأرايتكم) ليست باسم، وإنما هي
مجردة للخطاب كما هي في (ذلك)
و (أبصرك زيدا) ونحوه، ويدل على
ذلك أن (أريت) بمعنى العلم إنما
تدخل في الابتداء والخبر، فالأول

من مفعولها هو الثاني بعينه،
والكاف في (أرايتك زيدا) ليست
المفعول الثاني كقوله تعالى:
﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾،
فإذا لم تكن اسماً صح أنها مجردة
للخطاب، وإذا تجردت للخطاب
صح أن التاء ليست للخطاب كما هي
في (أنت)، لأن علامتي خطاب لا
تجتمع على كلمة، كما لا تجتمع
علامتا تأنيث ولا علامتا استفهام،
فلما تجردت التاء من الخطاب
وبقيت علامة الفاعل فقط استغني
عن إظهار تغيير الجمع فيها والتأنيث
لظهور ذلك في الكلام. وبقيت التاء
على حد واحد في الإفراد والتثنية
والجمع والتأنيث، وروي عن بعض
بني كلاب أنه قال: «أتعلمك كان
أحد أشعر من ذي الرمة؟ فهذه
الكاف صلة في الخطاب.

و ﴿أَتُنَكِّمُ عَذَابَ اللَّهِ﴾ معناه: أتاكم
خوفه وأماراته وأوائله مثل الجذب
والبأساء والأمراض ونحوها التي
يخاف منها الهلاك، ويدعو إلى هذا
التأويل أنا لو قدرنا إتيان العذاب
وحلوله لم يترتب أن يقول - بعد
ذلك -: ﴿فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ﴾
لأن ما قد صح حلوله ومضى على
البشر لا يصح كشفه، ويحتمل أن
يراد ب ﴿النَّاسِئَةَ﴾ في هذه الآية ساعة
موت الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ﴾
الآية - المعنى: بل لا ملجأ لكم
إلا الله، وأصنامكم مطرحة منسية،
و [ما] بمعنى الذي تدعون إليه من
أجله، ويصح أن تكون [ما] ظرفية،
ويصح أن تكون مصدرية على حذف

فَقَطَّعَ ذَايِرَ الْقَوَارِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّينَ ﴿٤٢﴾
 قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَحَمَّ عَلَى قُلُوبِكُمْ
 مَنَ إِيَّاهُ غَيْرَ اللَّهِ يَأْتِيَكُمْ بِهِ أَنْظَرَكُمْ كَيْفَ تُصَرِّفُونَ الْآيَاتِ
 تُعْهِمُ يَصِدُّونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ آيَاتٍ
 بَعَثْنَا فِي هَذِهِ أَوْجُهًا هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٤﴾ وَمَا
 نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ مَأْمَنَ وَأَصْلَحَ
 فَلَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
 يَمْسَهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ
 عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ
 إِنِّي أَنْصِتُ وَالْأَنْصِيطُ إِنْ هِيَ إِلَّا نَفْسُ الْمَوْتُورِ وَالصَّيْدُ
 أَنْتُمْ تَنْفَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخْفَوْنَ أَنْ يُحْشَرُوا
 إِنَّ لِي رَيْبَهُمْ لَيْسَ لَهُمْ دُونِي وَكَانُوا يُشْفِقُونَ ﴿٤٨﴾
 وَلَا تَنْظُرْ بِالنُّظُورِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدُوِّ وَالْغَشِيِّ يُرِيدُونَ
 وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ
 عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَطَرَهُمْ فَتَكُونُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٤٩﴾

١٣٣

الكفار وضرب المثل لهم. و ﴿لَوْلَا﴾ تحضيض وهي التي تلي الفعل بمعنى (هلا)، وهذا على جهة المعاتبة لمذنب غائب، وإظهار سوء فعله مع تحسر ما عليه، والمعنى: إذ جاءهم أوائل البأس وعلاماته وهو تردد البأساء والضراء. و ﴿كُنْتُ﴾ معناه: صلبت وهي عبارة عن الكفر، ونسب التزيين إلى الشيطان وقد قال تعالى في آية أخرى: ﴿كَذَلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ لأن تسبب الشيطان ووسوسته

في الكلام، قال الزجاج: هو مثل: ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾، والضمير في ﴿إِيَّاهُ﴾ يحتمل أن يعود إلى الله تعالى بتقدير: فيكشف ما تدعون فيه إلى الله تعالى، ويحتمل أن يعود على [ما] بتقدير: فيكشف ما تدعون إليه، و ﴿إِنْ شَاءَ﴾ استثناء، لأن المحنة إذا أظلت عليهم فدعوا إليه في كشفها وصرفها فهو - لا إله إلا هو - كاشف إن شاء ومصيب إن شاء، لا يجب عليه شيء. وتقدم معنى: ﴿وَتَسْوُونَ﴾. و ﴿إِيَّاهُ﴾ اسم مضمرة مجرى المظهرات في أنه يضاف أبداً، وقيل: هو مبهم، وليس بالقوي لأن الأسماء المبهمة مضمّنة الإشارة إلى حاضر نحو: ذلك وتلك وهؤلاء، و ﴿إِيَّاهُ﴾ ليس فيه معنى الإشارة.

٤٢ - ٤٣ تفسير قوله عز وجل:

في الكلام حذف يدل عليه الظاهر بتقديره: فكذبوا فأخذناهم، ومعناه: لازمتهم وتابعتهم الشيء بعد الشيء. والبأساء: المصائب في الأموال، والضراء: في الأبدان، هذا قول الأكثر، وقيل: قد يوضع كل واحد بدل الآخر، ويؤدب الله عباده بالبأساء والضراء، ومن هنالك أدب العباد نفوسهم بالبأساء في تفریق المال والضراء في الحمل على البدن في جوع وعري.

والترجي في ﴿لَمَلَّ﴾ في هذا الموضع إنما هو على معتقد البشر، أي: لو رأى أحد ذلك لرجا تضرعهم بسببه، والتضرع: التذلل والاستكانة، وفي المثل: «إن الحمى أضرعثني لك» ومعنى الآية توعد

تجلب حسن الكفر في قلوبهم، وذلك المجلوب الله يخلقه، فإن نُسب إلى الله تعالى فبأنه خالقه، وإلى الشيطان فبأنه سببه.

وقوله تعالَى: ﴿فَلَمَّا سَوَّا﴾ الآية... عبّر عن الترك بالنسيان إذا بلغ وجوه الترك الذي يكون معه نسيان، وزوال المتروك عن الذهن، وقرأ ابن عامر فيما روي عنه: ﴿فَتَحَنَّنَا﴾ بتشديد التاء، و ﴿كُلِّ نَسْوَةٍ﴾ معناه: مما كان سُدَّ عليهم بالبأساء والضراء من النعم الدنيوية، فهو عموم معناه خصوص. و ﴿فَرَحُوا﴾ معناه: بطروا وأشروا وأعجبوا وظنوا أن ذلك لا يبديد، وأنه دال على رضى الله عنهم وهو استدراج من الله تبارك وتعالى، وقد روي عن بعض العلماء أنه قال: «رحم الله عبداً تدبر هذه الآية ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا﴾

أَخَذَتْهُمْ بَعْتَةٌ». وقال محمد بن النضر الحارثي: أمهل هؤلاء القوم عشرين سنة، وروى عقبه بن عامر أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيتم الله يعطي العباد ما يشاؤون على معاصيهم فذلك استدراج»، ثم تلا ﴿فَلَمَّا سَوَّا﴾ الآية كلها.

و ﴿أَخَذَتْهُمْ﴾ - في هذا الموضع - معناه: استأصلناهم وسطونا بهم، و ﴿بَعْتَةٌ﴾ معناه: فجأة، والعامل فيه ﴿أَخَذَتْهُمْ﴾، وهو مصدر في موضع الحال لا يقاس عليه عند سبويه، والمبليس: الحزين الباهت البائس من الخير الذي لا يحير جواباً لشدة ما نزل به من سوء الحال.

وقوله تعالى: ﴿فَقَطَّعَ ذَايِرَ الْقَوَارِ﴾ الآية. الدابر: آخر الأمر الذي يذبحه أي: يأتي من خلفه، ومنه قول الشاعر:

فَأَهْلِكُوا بَعْدَ بَعْضِ دَابِرِهِمْ
فَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ دَفْعاً وَلَا انْتَصَرُوا
وقول الآخر:

وقد زعمت غلباً بغيبض ولقها
بأني وحيدٌ قد تقطع دابري
وهذه كناية عن استئصال شأقتهم
ومحو آثارهم كأنهم وردوا العذاب
حتى ورد آخرهم الذي دبرهم، وقرأ
عكرمة: ﴿فَقَطَّعَ﴾ بفتح القاف الطاء
﴿دَابِرٌ﴾ بالنصب.

وحسن الحمد عقب هذه الآية
لجمال الأفعال المتقدمة في أن أرسل
الرسول، وتلطف في الأخذ بالبأساء
والضراء ليتضرع إليه فيرحم ويتعم،
وقطع في آخر الأمر دابر الظلمة،
وذلك حسن في نفسه ونعمة على
المؤمنين فحسن الحمد يعقب هذه
الأفعال، ويحمد الله ينبغي أن يختم
كل فعل وكل مقالة لا رب غيره.

٥٦ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء احتجاج على الكفار، و
﴿أَخَذَ اللَّهُ﴾ معناه: أذهب وانتزعه
بقدرته، ووحد السمع لأنه مصدر
مفرد يدل على جمع، والضمير في
﴿بِهِ﴾ عائد على المأخوذ، وقيل:
على السمع، وقيل: على الهدى
الذي يتضمنه المعنى، وقرأ الأعرج
وغيره: ﴿بِهِ أَتَقَطَّرُ﴾ بضم الهاء،
ورواها المسيبي، وأبو وقرة عن
نافع، و﴿يَصْدِفُونَ﴾ معناه: يعرضون
وينفرون، ومنه قول الشاعر:

إِذَا ذَكَرْنَا حَدِيثاً قُلْنَا أَحْسَنَهُ
وَهُنَّ عَنْ كُلِّ سُوءٍ يُتَقَى صُدْفُ
قال النقاش: في الآية دليل على
تفضيل السمع على البصر لتقدمه
هنا، ثم احتج لذلك بقوله: ﴿إِنَّمَا

يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمُونَ﴾ وبغير ذلك.
والاستفهام في قوله: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾
معناه التوقيف، أي: ليس ثمة إله
سواه فما بال تعلقكم بالأصنام
وتمسككم بها وهي لا تدفع ضرراً
ولا تأتي خيراً؟ وتصريف الآيات هو
نضج العبر ومجيء آيات القرآن
بالإنذار والإعذار والبشارة ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ﴾
الآية، وعيد وتهديد. و﴿بَنَتَهُ﴾
معناه: لا يتقدم عندكم منها علم، و
﴿جَهْرَةً﴾ معناه: تبدو لكم مخايله
ومباده ثم تتوالى حتى تنزل. قال
الحسن بن أبي الحسن: ﴿بَنَتَهُ﴾
فجأة، و﴿جَهْرَةً﴾ نهاراً، قال
مجاهد: ﴿بَنَتَهُ﴾ فجأة أمينين، و
﴿جَهْرَةً﴾ وهم ينظرون.

وقرأ ابن مخرين: ﴿هَلْ يَهْلِكُ﴾
على بناء الفعل للفاعل، والمعنى:
هل تهلكون إلا أنتم لأن الظلم قد
تبين في حيزكم. و﴿هَلْ﴾ ظاهرها
الاستفهام ومعناها التسوية المضمنة
لنفي، ولا تكون التسوية بها إلا في
النفي، وتكون بالألف في نفي وفي
إيجاب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تُرِيدُ الْمُرْسَلِينَ﴾
الآية. المعنى: إنما نرسل الأنبياء
المخصوصين بالرسالة ليبشروا
بإنعامنا ورحمتنا لمن آمن، وينذروا
بعذابنا وعقابنا من كذب وكفر ولسنا
نرسلهم ليقترح عليهم الآيات
ويتابعوا شذوذ كل متعسف متعمق.
ثم وعد من سلك طريق البشارة فآمن
وأصلح في امتثال الطاعات، وأوعد
الذي سلك طريق النذارة فكذب
بآيات الله وفسق أي: خرج عن

الحد في كفرانه وعصيانه، وقال ابن
زيد: «كل فسق في القرآن فمعناه
الكذب»، ذكره عنه الطبري مسنداً،
و﴿يَسْمُونَ﴾ أي: يباشروهم ويلصق
بهم. وقرأ الحسن والأعمش
﴿الْعَذَابَ بَعَا﴾ بإدغام الباء في الباء،
ورويت عن أبي عمرو، وقرأ
يحيى بن وثاب والأعمش:
﴿يَفْسِقُونَ﴾ بكسر السين، وهي لغة.
٥٨ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل:

هذا من الرد على القائلين: «لولا
أنزل عليه آية» والطالبين أن ينزل
ملك أو تكون له جنة أو أكثر أو نحو
هذا، والمعنى: لسئ بهذه الصفات
فيلزمني أن أجيئك باقتراحتكم.

وقوله: ﴿لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ
اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبُ﴾ يحتمل معنيين
أظهرهما: أنه يريد أنه بشر لا شيء
عنده من خزائن الله ولا من قدرته
ولا يعلم شيئاً مما غيب عنه،
والآخر: أنه ليس بإله، فكأنه قال:
لا أقول لكم إني أنصف بأوصاف إله
في أن عندي خزائنه وأنني أعلم
الغيب. وهذا هو قول الطبري.

وتعطي قوة اللفظ في هذه الآية أن
الملك أفضل من البشر، وليس ذلك
بلازم في هذا الموضوع، وإنما الذي
يلزم منه أن الملك أعظم موقفاً في
نفوسهم وأقرب إلى الله، والتفضيل
يعطيه المعنى عطاء خفياً، وهو ظاهر
من آيات آخر، وهي مسألة خلاف.

و﴿يَا يُوحَى﴾ يريد القرآن وسائر ما
سيأتي به الملك، أي: وفي ذلك
عبر وآية لمن تأمل ونظر.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَوِي﴾
الآية. أي: قل لهم: إنه لا يستوي

الناظر المفكر في الآيات مع المُعرض الكافر المهمل للنظر، فالأعمى والبصير مثالان للمؤمن والكافر، أي: ففكروا أنتم وانظروا، وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتخصيص.

﴿وَأَنْذِرْ﴾ عطف على ﴿قُلْ﴾، والنبى عليه الصلاة والسلام مأمورٌ بإنذار جميع الخلائق، وإنما وقع التخصيص هنا بحسب المعنى الذي قصد، وذلك أن فيما تقدم من الآيات نوعاً من اليأس في الأغلب عن هؤلاء الكفرة الذين قد قال فيهم أيضاً: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، فكأنه قيل له هنا: قل لهؤلاء الكفرة المعرضين كذا ودعهم ورأيهم لأنفسهم، وأنذر بالقرآن هؤلاء الآخرين الذين هم مظنة الإيمان وأهل الانتفاع، ولم يرد أنه لا ينذر سواهم، بل الإنذار العام ثابت مستقر، والضمير في ﴿يُدْعَى﴾ عائداً على ﴿مَا يُؤْمِنُونَ﴾، و﴿يُخَاوِفُونَ﴾ على بابها في الخوف، أي الذين يخافون ما تحققوه من أن يحشروا ويستعدون لذلك، ورب متحقق لشيء مخوف وهو - لِقِيلَةُ النظر والحزم - لا يخافه ولا يستعد له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال الطبري: وقيل: ﴿يُخَاوِفُونَ﴾ هنا بمعنى يعلمون، وهذا غير لازم، وقوله: ﴿الَّذِينَ يُخَاوِفُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ يعنى بنفس اللفظ كل مؤمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني. وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنَ دُونِهِ وَكَيْلٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾ يحتتمل معنيين - فإن جعلنا

داخلاً في الخوف كان في موضع نصب على الحال، أي: يخافون أن يحشروا في حال من لا ولي له ولا شفيع، فهي مختصة بالمؤمنين المسلمين لأن اليهود والنصارى يزعمون أن لهم شفعاة وأنهم أبناء الله ونحو هذا من الأباطيل، وإن جعلنا قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَكَيْلٌ وَلَا شَفِيعٌ﴾ إخباراً من الله عن صفة الحال يومئذ فهي عامة للمسلمين وأهل الكتاب، و﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ترجع على حسب ما يرى البشر ويعطيه نظرهم.

٥٢ - ٥٣ - تفسير قوله عز وجل: المراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾ ضعفة المؤمنين في ذلك الوقت في أمور الدنيا: بلال وعمار وابن أم عبد ومرثد الغنوي وخباب وصهيب وصبيح وذو الشمالين والمقداد ونحوهم.

وسبب الآية أن الكفار قال بعضهم للنبي ﷺ: نحن لشرفنا وأقدارنا لا يمكننا أن نختلط بهؤلاء، فلو طردتهم لا تبعناك وجالسناك، ورد في ذلك حديث عن ابن مسعود. وقيل: إنما قال هذه المقالة أبو طالب على جهة النصح للنبي ﷺ، قال له: لو أزلت هؤلاء لا تبعك أشراف قومك. وروي أن ملاً قریش اجتمعوا إلى أبي طالب في ذلك، وظاهر الأمر أنهم أرادوا بذلك الخديعة، فصوب هذا الرأي من أبي طالب عمر بن

وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَمَا سَلَّمْتُ عَلَىٰ نَفْسِي الرَّحْمَةُ أَنَّهُمْ مَنَعُوا وَعَدَلَ مِنْكُمْ سَوْءُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَنَّا بِبَعْضِهِمْ بَعْضَهُمْ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَمَا سَلَّمْتُ عَلَىٰ نَفْسِي الرَّحْمَةُ أَنَّهُمْ مَنَعُوا وَعَدَلَ مِنْكُمْ سَوْءُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَنَّا بِبَعْضِهِمْ بَعْضَهُمْ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَمَا سَلَّمْتُ عَلَىٰ نَفْسِي الرَّحْمَةُ أَنَّهُمْ مَنَعُوا وَعَدَلَ مِنْكُمْ سَوْءُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَنَّا بِبَعْضِهِمْ بَعْضَهُمْ لِّيَقُولُوا أَهَٰؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَإِذَا جَاءَهُمُ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَّمْتُ عَلَيْكُمْ كَمَا سَلَّمْتُ عَلَىٰ نَفْسِي الرَّحْمَةُ أَنَّهُمْ مَنَعُوا وَعَدَلَ مِنْكُمْ سَوْءُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾

الخطاب رضي الله عنه وغيره من المؤمنين فنزلت الآية.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن بعض الكفار إنما طلب أن يؤخر هؤلاء عن الصف الأول في الصلاة، ويكونون هم موضعهم ويؤمنون إذا طرد هؤلاء من الصف الأول فنزلت الآية. أسند الطبري إلى خباب بن الأرت أن الأقرع بن حابس ومن شابهه من أشراف العرب قالوا للنبي ﷺ: اجعل لنا منك مجلساً لا يخالطنا فيه العُبد الحلفاء، وكتب لنا كتاباً فهمم النبي ﷺ بذلك فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل بعيد في نزول الآية، لأن الآية مكية وهؤلاء الأشراف لم يفدوا إلا في المدينة. وقد يمكن أن يقع هذا القول منهم، ولكنه إن كان وقع

فبعد نزول الآية بمددة اللهم إلا أن تكون الآية مدنية، قال خباب رضي الله عنه: ثم نزلت ﴿وَإِذْ جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية، فكنا نأتي فيقول لنا: (سلام عليكم) ونفعد معه، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا فأنزل الله: ﴿وَأَمِيرٌ نَسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ الآية، فكان يقعد معنا، فإذا بلغ الوقت الذي يقوم فيه قمنا وتركناه حتى يقوم.

و ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْقُدُورِ وَالْعَشِيِّ﴾ قال الحسن بن أبي الحسن: المراد به صلاة مكة التي كانت مرتين في اليوم بكرة وعشياً. وقيل: بل قوله: ﴿بِالْقُدُورِ وَالْعَشِيِّ﴾ عبارة عن استمرار الفعل وأن الزمن معمور به، كما تقول: الحمد لله بكرة وأصيلاً، فإنما تريد الحمد لله في كل وقت، والمراد - على هذا التأويل - قيل: هو الصلوات الخمس، قاله ابن عباس وإبراهيم، وقيل: الدعاء وذكر الله واللفظة على وجهها. وقال بعض القصاص: إنه الاجتماع إليهم غدوة وعشياً، فأنكر ذلك ابن المسيب، وعبدالرحمن بن أبي عمرة وغيرهما وقالوا: إنما الآية في الصلوات في الجماعة. وقيل: قراءة القرآن وتعلمه، قاله أبو جعفر، ذكره الطبري، وقيل: العبادة، قاله الضحاك.

وقرأ أبو عبدالرحمن، ومالك بن دينار، والحسن، ونصر بن عاصم، وابن عامر: ﴿بِالْقُدُورِ وَالْعَشِيِّ﴾، وروي عن أبي عبدالرحمن ﴿بِالْقُدُورِ﴾ بغير هاء، وقرأ ابن أبي

عبله: ﴿بِالْقُدُورِ وَالْعَشِيِّ﴾ بألف فيهما على الجمع. وغدوة: معرفة لأنها جعلت علماً لوقت من ذلك اليوم بعينه، وجاز إدخال الألف واللام عليها كما حكى أبو زيد: «لقيته فينة» غير مصروف، و «الفينة بعد الفينة» فألحقوا لام المعرفة ما استعمل معرفة، وحملوا على ما حكاه الخليل أنه يقال: «لقيته اليوم غدوة» منونا، ولأن فيها مع تعيين اليوم إمكان تقدير معنى الشيع، ذكره أبو علي الفارسي.

و ﴿رَجَهُ﴾ - في هذا الموضع - معناه: جهة التزلّف إليه، كما تقول: «خرج فلان في وجه كذا»، أي: في مقصد وجهة.

و ﴿مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناه: لم تكلف شيئاً غير دعائهم فتقدم أنت وتؤخر، ويظهر أن يكون الضمير في ﴿حِسَابِهِمْ﴾ و ﴿عَلَيْهِمْ﴾ للكفار الذين أرادوا طرد المؤمنين، أي: ما عليك منهم آمنوا أو كفروا فتطرد هؤلاء رعيّاً لذلك، والضمير في ﴿تَقَرُّوهُمْ﴾ عائد على الضعفة من المؤمنين. ويؤيد هذا التأويل أن ما بعد الفاء أبداً سبب ما قبلها، وذلك لا يبين إذا كانت الضمائر كلها للمؤمنين وحكى الطبري أن الحساب هنا إنما هو في رزق الدنيا، أي: لا ترزقهم ولا يرزقونك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا تجيء الضمائر كلها للمؤمنين، وذكره المهدي، وذكر عن الحسن أنه من حساب عملهم كما قال الجمهور، و ﴿مِنْ﴾ الأولى

للتبعية والثانية زائدة مؤكدة، وقوله: ﴿تَقَرُّوهُمْ﴾ جواب النفي في قوله: ﴿مَا عَلَيْكَ﴾، وقوله: ﴿تَنَكَّرُكَ﴾ جواب النهي في قوله: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾. و ﴿مِنْ الظَّالِمِينَ﴾ معناه: الذين يضعون الشيء غير مواضعه.

وقوله تعالى: ﴿رَكَّابًا فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ﴾ الآية. ﴿فَتَنَّا﴾ - في هذه الآية - معناه: ابتلينا، فابتلاء المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى، وابتلاء المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوماً لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نيته قدراً ومنزلة. والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة، و ﴿يَتَقُولُوا﴾ معناه: ليصير بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا، فهي لام الصيرورة كما قال تعالى: ﴿فَالْقَلْبَةُ أَلٌ مَرْغُوبَةٌ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَرَحْمَةً﴾ أي: ليصير ماله أن يكن لهم عدواً، وقول المشركين - على هذا التأويل -: ﴿أَهْتَدَيْنَا مِنَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا﴾ هو على جهة الاستخفاف والهزء، ويحتمل الكلام معنى آخر وهو أن تكون اللام في ﴿يَتَقُولُوا﴾ على بابها في لام (كي)، وتكون المقالة منهم استفهاماً لأنفسهم ومباحثة لها، وتكون سبب إيمان من سبق إيمانه منهم، فمعنى الآية - على هذا التأويل -: وكذلك ابتلينا أشرف الكفار بضعفاء المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك، ويكون سبب نظر لمن هدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول أسبق، والثاني يتخرج، و﴿بَرَّ﴾ على كلا التأويلين إنما هي على معتقد المؤمنين، أي: هؤلاء من الله عليهم بزعمهم أن دينهم مئة.

وقوله: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ أي: يأبها المستحقون أو المتعجبون - على التأويل الآخر - ليس الأمر أمر استخفاف ولا تعجب، فالله أعلم بمن يشكر نعمته، وبالمواضع التي ينبغي أن يوضع فيها فجة إعلامهم بذلك في لفظ التقدير، إذ ذلك بين لا تمكنهم فيه معاندة.

٥٤ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل:

قال جمهور المفسرين: ﴿الَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم الذين كانوا عرض طردهم فنهى الله عز وجل عن طردهم، وشفع ذلك بأن أمر بأن يسلم النبي ﷺ عليهم ويؤنسهم.

وقال عكرمة، وعبدالرحمن بن زيد: ﴿الَّذِينَ﴾ يراد بهم القوم من المؤمنين الذين صوبوا رأي أبي طالب في طرد الضعفة فأمر الله نبيه أن يسلم عليهم ويعلّمهم أن الله يغفر لهم مع توبتهم من ذلك السوء وغيره.

وأسند الطبري عن ما هان أنه قال: نزلت الآية في قوم من المؤمنين استفتوا النبي ﷺ في ذنوب سلفت منهم فنزلت الآية بسببهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي - على هذا - نعم جميع المؤمنين دون أن تشير إلى فرقة.

وقال الفضيل بن عياض: قال قوم

للنبي ﷺ: إنا قد أصبنا ذنوباً فاستغفر لنا. فأعرض عنهم، فنزلت الآية.

وقوله: ﴿بِقَائِنَا﴾ يعُمُّ آيات القرآن وأيضاً علامات النبوة كلها. و﴿سَلَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ ابتداء، والتقدير: سلام ثابت أو واجب عليكم، والمعنى: أمتة لكم من عذاب الله في الدنيا والآخرة، وقيل: المعنى: إن الله يسلم عليكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى لا يقتضيه لفظ الآية حكاة المهدي. ولفظه لفظ الخير ومعناه الدعاء، وهذا من المواضع التي جاز فيها الابتداء بالشكوة إذ قد تخصصت، و﴿كَيْفَ﴾ بمعنى أوجب، والله تعالى لا يجب عليه شيء عقلاً إلا إذا أعلمنا أنه قد حتم بشيء ما فذلك الشيء واجب. وفي: أين هذا الكتاب؟ اختلاف - قيل: في اللوح المحفوظ، وقيل: في كتاب غيره لقوله عليه الصلاة والسلام في صحيح البخاري: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى كَتَبَ كِتَاباً فَهُوَ عِنْدَهُ فَوْقَ الْعَرْشِ: إِنَّ رَحْمَتِي سَبَقَتْ غَضَبِي».

وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿أَنْتُمْ﴾ يفتح الهمزة في الأولى والثانية، ف﴿أَنْتُمْ﴾ الأولى بدل من ﴿الرَّحْمَةَ﴾ و﴿أَنْتُمْ﴾ الثانية خبر ابتداء مضمرة تقديره: فأمره أنه غفور رحيم، هذا مذهب سيبويه. وقال أبو حاتم: ﴿فَأَنْتُمْ﴾ ابتداء، ولا يجوز هذا عند سيبويه، وقال النحاس: هي عطف على الأولى وتكرير لها لطول الكلام، قال أبو علي: ذلك لا يجوز

لأن [مَنْ] لا يخلو أن تكون موصولة بمعنى الذي فتحتاج إلى خبر، أو تكون شرطية فتحتاج إلى جواب، وإذا جعلنا ﴿فَأَنْتُمْ﴾ تكريراً للأولى عطفاً عليها بقي المبتدأ بلا خبر، أو الشرط بلا جواب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنْتُمْ﴾ بكسر الهمزة في الأولى والثانية، وهذا على جهة التفسير لـ ﴿الرَّحْمَةَ﴾ في الأولى والقطع فيها، وفي الثانية - إما في موضع الخبر أو موضع جواب الشرط، وحكم ما بعد الفاء إنما هو الابتداء، وقرأ نافع بفتح الأولى وكسر الثانية، وهذا على أن أبدل من ﴿الرَّحْمَةَ﴾ واستأنف بعد الفاء، وقرأت فرقة بكسر الأولى وفتح الثانية، حكاة الزهراوي عن الأعرج، وأظنّه وهماً لأن سيبويه حكاة عن الأعرج مثل قراءة نافع، وقال أبو عمرو الداني: قراءة الأعرج ضد قراءة نافع.

والجهالة - في هذا الموضع - تعُمُّ التي تضاد العلم والتي تُشَبَّه بها، وذلك أن المتعمد لفعل الشيء الذي قد نهى عنه تشمل معصيته تلك جهالة، إذ قد فعل ما يفعله الذي لم يتقدم له علم. قال مجاهد: «من الجهالة ألا يعلم حلالاً من حرام، ومن جهالته أن يركب الأمر». ومن هذا الذي لا يضاد العلم قول النبي ﷺ في استعاذته: «أَنْ أَجْهَلَ أَوْ يُجْهَلَ عَلَيَّ»، ومنه قول الشاعر:

أَلَا لَا يَجْهَلُنَّ أَحَدٌ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
والجهالة المشبهة ليست بعذر في الشرع جملة، والجهالة الحقيقية

يعذر بها في بعض ما يخف من الذنوب، ولا يعذر بها في كبيرة. والتوبة: الرجوع، وصحتها مشروطة باستدامة الإصلاح بعدها في الشيء الذي تيب منه.

والإشارة بقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم من النهي عن طرد المؤمنين وبيان فساد منزع العارضين لذلك. وتفصيل الآيات: تبيينها وشرحها وإظهارها، واللام في قوله: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ﴾ متعلقة بفعل مضمر تقديره: «ولتستبين سبيل المجرمين فصلناها».

وقرأ نافع: ﴿وَلِيَسْتَبِينَ﴾ بالياء أي النبي ﷺ ﴿سَبِيلٌ﴾ بالنصب، حكاة مكى في «المشكل» له، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلَ الْمُجْرِمِينَ﴾ برفع (السبيل) وتأتيها، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر، وحمزة، والكسائي: ﴿وَلِيَسْتَبِينَ سَبِيلٌ﴾ برفع (السبيل) وتذكيرها، وعرب الحجاز تؤنث (السبيل)، وتميم وأهل نجد يذكرونها. خص سبيل المجرمين لأنهم الذين أثاروا ما تقدم من الأقوال، وهم أهم في هذا الموضع لأنها آيات رد عليهم، وأيضاً فتبين سبيلهم يتضمن بيان سبيل المؤمنين، وتأول ابن زيد أن قوله: ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾ يعني به الأمرين بطرد الضعفة.

٥٦ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يجاهروهم بالثبيري مما هم فيه، و ﴿أَنْ أَعْبُدُ﴾ هو بتأويل المصدر، والتقدير: «عن عبادة»، ثم حذف

الجار فتسلط الفعل، ثم وضع ﴿أَنْ أَعْبُدُ﴾ موضع المصدر. وعبر عن الأصنام بـ ﴿الَّذِينَ﴾ على زعم الكفار حين أنزلوها منزلة من يعقل، و ﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون، ويحتمل أن يريد: تدعون في أموركم، وذلك في معنى العبادة واعتقادها آلهة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿قَدْ ضَلَلْتُمْ﴾ بفتح اللام، وقرأ يحيى بن وثاب، وأبو عبد الرحمن السلمي، وطلحة بن مصرف: ﴿ضَلَلْتُمْ﴾ بكسرها، وهما لغتان، و [إِذَا] في هذا الموضع متوسطة وما بعدها معتمد على ما قبلها، فهي غير عاملة إلا أنها تتضمن معنى الشرط فهي بتقدير: «إن فعلت ذلك». و ﴿أَمْوَالًا﴾ جمع هوى وهو الإرادة والمحبة في المرديات من الأمور، هذا غالب استعمال الهوى، وقد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي﴾ الآية. هذه الآية تمام في إيضاح مبايته لهم، والمعنى: «قل إنني على أمر بين»، فحذف الموصوف ثم دخلت هاء المبالغة كقوله عز وجل: ﴿بِكُلِّ آيَةٍ عَلَيْنَا حَسِيبَةٌ﴾، ويصح أن تكون الهاء في ﴿بَيِّنَةٌ﴾ مجردة للتأنيث، وتكون بمعنى البيان كما قال: ﴿وَيَجِيءُ مَن حَرَّمَ عَنْ بَيِّنَةٍ﴾، والمزاد بالآية: إنني أيها المكذبون في اعتقادي ويقيني وما حصل في نفسي من العلم على بينة من ربي. ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِدِينِ﴾ الضمير في ﴿بِدِينِ﴾ عائد على (بين) في تقدير هاء المبالغة، أو على

البيان التي هي (بينة) بمعناه في التأويل الآخر، أو على الرب، وقيل: على القرآن وهو وإن لم يتقدم له ذكر جلي فإنه بعض البيان الذي منه حصل الاعتقاد واليقين للنبي عليه الصلاة والسلام فيصح عود الضمير عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وللنبي عليه الصلاة والسلام أمور أخر غير القرآن وقع له العلم أيضاً من جهتها، كتكليم الحجارة له، ورؤيته للملك قبل الوحي، وغير ذلك.

وقال بعض المفسرين: الضمير في ﴿بِدِينِ﴾ عائد على ﴿مَا﴾ والمراد بها الآيات المقترحة على ما قال بعض المفسرين، وقيل: المراد بها العذاب، وهذا يترجح بوجهين: أحدهما من جهة المعنى وذلك أن قوله: ﴿وَكَذَّبْتُمْ بِدِينِ﴾ يتضمن أنكم واقعتم ما تستوجبون به العذاب إلا أنه ليس عندي، والآخر من جهة اللفظ وهو الاستعجال الذي لم يأت في القرآن استعجالهم إلا للعذاب، لأن اقتراحهم بالآيات لم يكن باستعجال. وقوله: ﴿إِنِ الْكُفْرَ إِلَّا لِلَّهِ أَيُّ الْقَضَاءِ وَالْإِنْفَادِ﴾، ﴿بِقَضِ الْحَقِّ﴾ أي يخبر به. والمعنى: يقض القصاص الحق.

وهذه قراءة ابن كثير، وعاصم، ونافع، وابن عباس. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، ﴿يَقْضِ الْحَقِّ﴾ أي: ينفذه. وترجع هذه القراءة بقوله: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ لأن الفصل مناسب للقضاء، وقد جاء أيضاً الفصل

وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّنَا بِاللَّيْلِ وَيَمْلِكُ مَا جَرَحْنَا مِنَ النَّهَارِ فَمَنْ يَبْعَثْكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنْفِخُ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ ﴿٦٠﴾ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَمْرٌ الْحَسِينُ ﴿٦١﴾ قُلْ مَنْ يَنْجِيكُمْ مِنَ ظِلْمَاتِ الْبُرُوجِ وَالْبَحْرِ يَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّيِّنَ أَجْنَابِنَ هَلْ يَدْعُونَ تَلَكُّونَ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٢﴾ قُلْ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ مُشْكِرُونَ ﴿٦٣﴾ قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أُنُوجِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِعْرًا وَيُؤَيِّدَ بَعْضُكُم بِأَسْبَاطِ بَعْضٍ أَنْظِرْكُمْ نَصْرَ اللَّهِ إِنِّي لَمَعْلَمٌ بِمُقْتَدِرِكُمْ ﴿٦٤﴾ وَكَذَّبَ بِآيَاتِهِ الْقَوْمُ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿٦٥﴾ لِكُلِّ نَسْفَةٍ مِّنْ سُنُوفِهِمْ تَلْعَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَإِذَا رَأَتْ الَّذِينَ يُخَوِّضُونَ فِيهَا أَمَانَتًا فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُبَسِّطُكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرِ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٧﴾

١٣٥

بالمفتاح إلى المغيب عن الإنسان، ولو كان جمع ومفتاح لقال: مفاتيح. ويظهر أيضاً أن (مفاتيح) جمع مفتاح بفتح الميم، أي مواضع تفتح عن المعنيات، ويؤيد هذا قول السدي وغيره: ﴿مَفَاتِيحُ النَّبِيِّ﴾ خزائن الغيب، فأما مفتاح بالكسر فهو بمعنى مفتاح، قال الزهراوي: ومفتاح أفصح، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الإشارة بـ ﴿مَفَاتِيحُ النَّبِيِّ﴾ هي إلى الخمسة التي في آخر لقمان: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ

والتفصيل مع القصص. وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ أَسْرَعُ الْفَاصِلِينَ﴾، قال أبو عمرو الداني: وقرأ عبدالله، وأبي، ويحيى بن وثاب، وإبراهيم النخعي، وطلحة، والأعمش: ﴿يُقْضَىٰ بِالْحَقِّ﴾ بزيادة باء الجر، وقرأ مجاهد، وسعيد بن جبير: ﴿يُقْضَىٰ الْحَقُّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي الْأَيَّةَ. المعنى: لو كان عندي الآيات المقترحة، أو العذاب - على التأويل الآخر - لَقُضِيَ الْأَمْرُ، أي لَوَقَّع الانفصال، تم النزاع لظهور الآية المقترحة، أو لنزول العذاب، بحسب التأويلين. وحكى الزهراوي أن المعنى: لقامت القيامة، ورواه النقاش عن عكرمة، وقال بعض الناس: معنى ﴿لَقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي: لُدِّيح الموت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف جداً، لأن قائله سمع هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذَرْتَهُمْ يَوْمَ الْقِسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾ وذبح الموت هنا لائق فنقله إلى هذا الموضوع دون شبه، وأسند الطبري في هذا القول إلى ابن جريج غير مقيد بهذه السورة، والظن بابن جريج أنه إنما فسّر الذي في يوم الحسرة، ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِاطْلَاقِيَّتِ﴾ يتضمن الوعيد والتهديد.

٥٩ - ٦٠ تفسير قوله عز وجل:

﴿مَفَاتِيحُ﴾ جمع مفتاح، وهذه استعارة عبارة عن التوصل إلى الغيوب كما يتوصل في الشاهد

﴿وَلَا رُطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ بالرفع عطفاً على الموضع في ﴿وَرَقَةً﴾ لأن التقدير: «وما تسقط ورقة»، و ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ قيل: يعني كتاباً على الحقيقة، ووجه الفائدة فيه امتحان ما يكتبه الحفظة، وذلك أنه روي أن الحفظة يرفعون ما كتبوه ويعارضونه بهذا الكتاب المشار إليه ليتحققوا صحة ما كتبوه. وقيل: المراد بقوله: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ علم الله عز وجل المحيط بكل شيء. وحكى النقاش عن جعفر بن محمد قولاً: إن الورقة يراد بها السقط من أولاد بني آدم، والحبة يراد بها الذي ليس بسقط، والرطب يراد به الحي، واليابس يراد به الميت. وهذا قول جار على طريقة الرموز، ولا يصح عن جعفر بن محمد رضي الله عنه، ولا ينبغي أن يلتفت إليه.

عَلَّمَ السَّاعَةَ﴾ الآية، لأنها تعم جميع الأشياء التي لم توجد بعد، ثم قوى البيان بقوله: ﴿وَتَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ تنبيهاً على أعظم المخلوقات المجاورة للبشر. وقوله: ﴿مِن رَّوْحَةٍ﴾ على حقيقته في ورق النبات، و [من] زائدة، و ﴿إِلَّا يَمْلِكُهَا﴾ يريد: على الإطلاق وقبل السقوط ومعه وبعده، ﴿وَلَا حَبْرٌ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾ يريد: في أشد حالات التغييب. وهذا كله وإن كان داخلًا في قوله: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِيحُ النَّبِيِّ﴾ عند من رأها في الخمس وغيرها ففيه البيان والإيضاح والتنبيه على مواضع العبر، أي: إذا كانت هذه المحقورات معلومة فغيرها من الجلائل أخرى. ﴿وَلَا رُطْبٌ وَلَا يَابِسٌ﴾ عطف على اللفظ، وقرأ الحسن، وعبدالله بن أبي إسحق:

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ الْآيَاتِ الْمُنصُوبَةِ لِلنَّظَرِ، وَفِيهَا ضَرْبٌ مِثْلٌ لِلْبَعَثِ مِنَ الْقُبُورِ، إِنَّ هَذَا أَيْضاً إِمَانَةٌ وَبَعَثٌ عَلَى نَحْوِ مَا.

والتوفي هو استيفاء عدد، قال الشاعر:

إِنَّ بَنِي الْأَذْرَمِ لَيْسُوا مِنْ أَحَدٍ
وَلَا تُوقَأُهُمْ قُرَيْشٌ فِي الْعَذِّ
وصارت اللفظة عرفاً في الموت، وهي في النوم على بعض التجوز.

و ﴿جَرَحْتُمْ﴾ معناه: كسبتم، ومنه جوارح الصيد أي كواسبه، ومنه جوارح البدن لأنها كواسب للنفس. ويحتمل أن يكون ﴿جَرَحْتُمْ﴾ هنا من الجرح، كأن الذنب جرح في الدين، والعرب تقول: «جرح اللسان كجرح اليد»، وروي عن ابن مسعود أو سلمان - شك ابن دينار - أنه قال: «إن هذه الذنوب جراحات فمنها شوى ومنها مقتلة، ألا وإن الشرك مقتلة».

و ﴿يَتَمَنَّكُمُ﴾ يريد الإيقاظ، ففي ﴿يَلِغُ﴾ عائد على النهار، قال مجاهد، وقتادة، والسدي، وذكر النوم مع الليل واليقظة مع النهار بحسب الأغلب وإن كان النوم يقع بالنهار واليقظة بالليل فنادر. ويحتمل أن يعود الضمير على التوفي، أي: يوقظكم في التوفي، أي: في خلاله وتضاعيفه، قاله عبدالله بن كثير. وقيل: يعود على الليل، وهذا قلق في اللفظ، وهو في المعنى نحو من الذي قبله.

وقرأ طلحة بن مصرف، وأبو رجاء: ﴿لِيَقْضِيَ أَجْلاً مُسْمًى﴾،

والمراد بالأجل آجال بني آدم، ﴿ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾ يريد بالبعث والنشور، ﴿ثُمَّ يَبْتَلِيكُمْ﴾ أي: يعلمكم لإعلام توفيق ومحاسبة.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الْقَاهِرُ﴾ إن أخذ صفة فعل، أي مظهر القهر بالصواعق والرياح والعذاب فيصح أن يجعل ﴿فَوْقَ﴾ ظرفية للجهة، لأن هذه الأشياء إنما تعاهدها العباد من فوقهم، وإن أخذ ﴿الْقَاهِرُ﴾ صفة ذات بمعنى القدرة والاستعلاء فـ ﴿فَوْقَ﴾ لا يجوز أن تكون للجهة، وإنما هي لعلو القدر والشأن، على حد ما تقول: «الياقوت فوق الحديد».

﴿وَرِزِيلٌ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: يبشهم فيكم، و ﴿حَفَظَةٌ﴾ جمع حافظ، مثل كاتب وكتبة، والمراد بذلك الملائكة الموكلون بكتب الأعمال، وروي أنهم الملائكة الذين قال فيهم النبي ﷺ: «تتعاقب فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار»، وقاله السدي وقتادة. وقال بعض المفسرين: «حفظه يحفظون الإنسان من كل شيء حتى يأتي أجله».

والأول أظهر. وكلهم غير حمزة قرأ: ﴿تَوَفَّئَهُ رُسُلُنَا﴾ على تأنيث لفظ الجمع، كقوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبْتَ رَسُولًا مِنْ قَبْلِكَ﴾، وقرأ حمزة: ﴿تَوَفَّاهُ رُسُلُنَا﴾، ورجته أن التأنيث غير حقيقي، وظاهر الفعل أنه ماض كقوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَسُوهُ﴾، ويحتمل أن يكون بمعنى: تتوفاه، فتكون العلامة مؤنثة، وأمال حمزة من حيث خط المصحف بغير ألف، فكانها إنما كتبت على

الإمالة، وقرأ الأعمش: ﴿يَتَوَفَّاهُ رُسُلُنَا﴾ بزيادة ياء في أوله، والتذكير.

وقوله تعالى: ﴿رُسُلُنَا﴾ يريد به على ما ذكر ابن عباس رضي الله عنهما وجميع أهل التأويل ملائكة مقترنين بملك الموت يعاونونه ويأتمرون له.

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَا يَقْرَاطُونَ﴾ بالتشديد، وقرأ الأعرج: ﴿يَقْرَاطُونَ﴾ بالتخفيف، ومعناه: يجاوزون الحد مما أمروا به، قال أبو الفتح: فكما أن المعنى في قراءة العامة: لا يقصرون، فكذلك هو في هذه: لا يزيدون على ما أمروا به.

ورجع اللفظ في قوله: ﴿رُدُّوهُ﴾ من الخطاب إلى النبية، والضمير في ﴿رُدُّوهُ﴾ عائد على المتقدم ذكرهم، ويظهر أن يعود على العباد فهو إعلام برذ الكل، وجاءت المخاطبة بالكاف في قوله: ﴿عَلَيْكُمْ﴾ تقريباً للموعظة من نفوس السامعين. و ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ لفظ عام لأنواع الولاية التي تكون بين الله، وبين عبده من الرزق والنصرة والمحاسبة والملك وغير ذلك، وقوله: ﴿الْحَقُّ﴾ نعت لـ ﴿مَوْلَاهُمْ﴾ ومعناه: الذي ليس بباطل ولا مجازي. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، والأعمش: ﴿الْحَقُّ﴾ بالنصب، وهو على المدح، ويصح على المصدر. ﴿أَلَا لَهُ الْكَلِمَةُ﴾ ابتداء كلام مضمونه التشبيه وهز نفس السامع، و ﴿الْحُكْمُ﴾ تعريفه للجنس، أي: جميع أنواع التصرفات في العباد، و ﴿أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ﴾ متوجه على أن الله عز وجل حسابه لعبده

صادر عن علمه بهم فلا يحتاج في ذلك إلى إعداد ولا تكلف، سبحانه لا رب غيره، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في حالة واحدة؟ قال: كما يرزقهم في حال واحدة في الدنيا.

١٣ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:

هذا تماد في توبيخ العادلين بالله الأوثان، وتوقيفهم على سوء الفعل في عبادتهم الأصنام، وتركهم الذي ينجي من المهلكات، ويلجأ إليه في الشدائد.

و ﴿مَنْ﴾ استفهام رفع بالابتداء، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿مَنْ يَنْجِيكُمْ﴾ ﴿قَالَ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ﴾ بتشديد الجيم وفتح النون، وقرأ أبو عمرو في رواية علي بن نصر عنه، وحميد بن قيس، ويعقوب: ﴿يُنْجِيكُمْ﴾ بتخفيف الجيم وسكون النون، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر بالتشديد في الأولى والتخفيف في الثانية فجمعوا بين التعدية بالألف والتعدية بالتضعيف، كما جاء ذلك في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَتْمَلَهُمْ رَبُّنَا﴾.

و ﴿ظَلَمْتَ الْبَرَّ وَالنَّاصِرَ﴾ يراد به شدائدها، فهو لفظ عام يستغرق ما كان من الشدائد بظلمة حقيقية وما كان بغير ظلمة، والعرب تقول: عامٌ أسود، ويومٌ مُظْلِمٌ، ويومٌ ذو كواكب، ونحو هذا يريدون به الشدة، قال قتادة: المعنى: من كُرب البر والبحر، وقاله الزجاج، و ﴿تَدْعُونَهُمْ﴾ في موضع الحال، و

﴿نَضْرَبًا﴾ نصب على المصدر والعامل فيه ﴿تَدْعُونَهُمْ﴾، والتضارع صفة بادية على الإنسان، ﴿وَحَقِيبة﴾ معناه: الاختفاء والسر، فكأن نسق القول: تدعونهم جهراً ورسواً، هذه العبارة بمعان زائدة.

وقرأ الجميع غير عاصم: ﴿وَحَقِيبة﴾ بضم الخاء، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: ﴿وَحَقِيبة﴾ بكسر الخاء، وقرأ الأعمش: ﴿وَحَقِيبة﴾ من الخوف، وقرأ الحجازيون وأهل الشام: ﴿أَنْجَيْنَا﴾، وقرأ الكوفيون: ﴿أَنْجَيْنَا﴾ على ذكر الغائب، وأمال حمزة، والكسائي الجيم. و ﴿يَنْجِيكُمْ﴾ أي: على الحقيقة، والشكر على الحقيقة يتضمن الإيمان، وحكى الطبري في قوله: ﴿ظَلَمْتُمْ﴾ أنه ضلال الطريق في الظلمات ونحوه، وحكى السدي أنه ظلام الليل والغيم والبحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإنما هو لفظ عام لأنواع الشدائد في المعنى، وخص لفظ الظلمات بالذكر لما تقرر في النفوس من هول الظلمة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ يَنْجِيكُمْ﴾ سَبَقَ في المجادلة إلى الجواب، إذ لا محيد عنه، ﴿وَيَنْجِيكُمْ كَرِيحًا﴾ لفظ عام أيضاً ليتضح العموم الذي في الظلمات، ويصح أن يتأول من قوله: ﴿وَيَنْجِيكُمْ كَرِيحًا﴾ تخصيص الظلمات قبلاً، ونص عليها لهولها. وعطف في هذا الموضع بد (ثُمَّ) للمهلة التي تُبَيِّنُ قبح فعلهم، أي:

ثم بعد معرفتكم بهذا كله وتحققكم به أنتم تشركون.

١٥ - ١٦ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار يتضمن الوعيد، والأظهر من نسق الآيات أن هذا الخطاب للكفار الذين تقدم ذكرهم، وهو مذهب الطبري، وقال أبي بن كعب، وأبو العالية، وجماعة معهما: هي للمؤمنين وهم المراد، قال أبي بن كعب: هي أربع خلال وكلهن عذاب وكلهن واقع قبل يوم القيامة، فمضت اثنتان بعد رسول الله ﷺ بخمس وعشرين سنة، لبسوا شيعاً وأذيق بعضهم بأس بعض، واثنتان واقعتان لا محالة - الخسف والرجم، وقال الحسن بن أبي الحسن: بعضها للكفار وبعضها للمؤمنين، وهذا الاختلاف إنما هو بحسب ما يظهر من أن الآية تتناول معانيها المشركين والمؤمنين.

وروي من حديث جابر وخالد الخزاعي أن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿أَنْ يَمَعَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ قَوْلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت: ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ قال: «أعوذ بوجهك»، فلما نزلت: ﴿أَوْ يَلِيْسَكُمْ شَيْعًا وَيَذِيْنَ بَمَعْرِكَ بِأَسِّ بَعْضِ﴾ قال: «هذه أهون» أو «هذه أيسر»، فاحتج بهذا من قال إنها نزلت في المؤمنين. قال الطبري: وغير ممتنع أن يكون النبي ﷺ تعوذ لأمته من هذه الأشياء التي توعد بها الكفار، وهون الثالثة لأنها بالمعنى هي التي دعا بها فمتنع حسب حديث الموطأ وغيره، وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: إنها أسوأ الثلاث،

﴿قَوْمًا﴾، ويحتمل أن يعود الضمير على الوعيد الذي تضمنته الآية، ونحا إليه الطبري، وقرأ ابن أبي عملة: «وَكَذَّبَتْ بِهِ قَوْمُكَ» بزيادة تاء، و «يُوكِلُ» معناه: بمدفوع إلى أخذكم بالإيمان والهدى، والوكيل بمعنى الحفيظ، وهذا كان قبل نزول الجهاد والأمر بالقتال ثم نسخ، وقيل: لا نسخ في هذا إذ هو خبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والنسخ فيه متوجه لأن اللازم من اللفظ ليس الآن، وليس فيه أنه لا يكون في المستأنف، وقوله: ﴿يَكِلُ بَلْرُ تُسْتَقَرُّ﴾ أي غاية يعرف عندها صدقه من كذبه، «وَسَوْفَ تَمْلُؤُونَ» تهديد محض ووعيد.

﴿٧٨﴾ - ﴿٦٩﴾ تفسير قوله عز وجل: لفظ هذا الخطاب محرر للنبي ﷺ وحده، واختلف في معناه - فقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصحيح، لأن علة النهي وهي سماع الخوض في آيات الله تشملهم وإياه، وقيل: بل المعنى أيضاً أريد به النبي ﷺ وحده، لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم، ورفاقه لهم على مغاضبة، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك، فأمر النبي ﷺ أن يتابذهم بالقيام عنهم إذا استهزؤا وخاضوا ليتأدبوا بذلك، ويدعوا الخوض والاستهزاء، وهذا التأويل يتركب على كلام ابن جرير يرحمه الله.

والخوض أصله في الماء ثم

بعضها لبعض، واللبس: الخلط، وقال المفسرون: هو افتراق الأهواء والقتال بين الأمة. وقرأ أبو عبدالله المدني «يُلْبِسُكُمْ» بضم الياء من: ألبس، فهو على هذه استعارة من اللباس، فالمعنى: أو يلبسكم الفتنة شيعاً، و «شَيْعاً» منصوب على الحال. وقد قال الشاعر:

لَبِسْتُ أَناساً فَأَفْتَيْتُهُمْ

.....

فهذه عبارة عن الخلطة والمقاساة والباس القتل وما أشبهه من المكاره.

﴿وَيَذِيقُ﴾ استعارة إذ هي

من أجل حواس الاختبار، وهي استعارة مستعملة في كثير من كلام العرب وفي القرآن، وقرأ الأعمش: «وَتَلْبِيْقُ» بنون الجماعة، وهي نون العظمة في جهة الله عز وجل، وتقول: أذقت فلاناً العلقم، تريد كراهة شيء صنعته به، ونحو هذا.

وفي قوله: «أَنْظَرُ كَيْبَ نَمْرُوتَ» الآية استرجاع لهم، وإن كان لفظها لفظ تعجب للنبي ﷺ فمضمونها أن هذه الآيات والدلائل إنما هي لاستصراغهم عن طريق غيهم، والفقهاء: الفهم.

والضمير في «يذيق» عائد على القرآن الذي فيه جاء تصريف الآيات، قاله السدي، وهذا هو الظاهر، وقيل: يعود على النبي ﷺ، وهذا بعيد لقرب مخاطبته بعد ذلك بالكاف في قوله:

وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذَكَرْنَاهُمْ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٨﴾ وَذَرَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ حِبَالًا وُلْهُوا وَعَصَوْا حَيْوَةَ الدُّنْيَا وَذَكَرَ رَبَّهُمْ أَنْ يُسَلِّ نَفْسًا بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا سَفِيحٌ وَإِنْ تَمَدَّلْ كَلَّ عَدْلٌ لَا يُؤَخِّدُهَا وَأَوَّلِيكَ الَّذِينَ أَدْبَسُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَدَّابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٩﴾ قُلْ أَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُونَ وَلَا يَضُرُّونَ وَتُرَدُّ عَنْ أَغْفَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْنَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانٌ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى أِقْبِنَا قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَأُرَبِّنَا لِلْإِسْلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٠﴾ وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَهُوَ الَّذِي يُبَدِّلُ حَشْرُونَ ﴿٧١﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلَهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عِلْمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةُ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٢﴾

وهذا عندي على جهة الإغلاظ في الموعظة، والحق أنها أيسرها كما قال عليه الصلاة والسلام.

و «يُن قَوْمَكُمْ أَرْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» لفظ عام للمنطبقين على الإنسان، وقال السدي عن أبي مالك: «يُن قَوْمَكُمْ» الرجم و «يُن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» الخسف، وقاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «يُن قَوْمَكُمْ» ولاة الجور، و «يُن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ» سفلة السوء وخدمة السوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها أمثلة لا أنها هي المقصود، إذ هي وغيرها من القحوط والفرق وغير ذلك داخل في عموم اللفظ.

و «يُلْبِسُكُمْ» - على قراءة السُّنَّة - معناه: يخلطكم «شَيْعاً» فرقاً يتشيع

يستعمل بعد في غمرات الأشياء التي هي مجاهل تشبيهاً بغمرات الماء.

﴿وَأَنَّا﴾ شرط، وتلزمها النون الثقيلة في الأغلب، وقد لا تلزم كما قال: **إِنَّمَا يُصِيبُكَ عَذَابٌ فِي مُتَأَوِّةٍ**

إلى غير ذلك من الأمثلة. وقرأ ابن عامر وحده ﴿يُنَسِّئُكَ﴾ بتشديد السين وفتح النون، والمعنى واحد إلا أن التشديد أكثر مبالغة.

والذكرى والذكر واحد في المعنى وإنما هو تأنيث لفظي، ووصفهم هنا بـ ﴿الظَّالِمِينَ﴾ متمكن لأنهم وضعوا الشيء في غير موضعه، و ﴿أَعْرَضَ﴾ في هذه الآية بمعنى المفارقة على حقيقة الإعراض وأكمل وجوهه، ويدل على ذلك ﴿فَلَا تَقْعُدُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ﴾ الآية، المراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾ هم المؤمنون، والضمير في ﴿حِسَابِهِمْ﴾ عائد على ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، ومن قال إن المؤمنين داخلون في قوله: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ قال: إن النبي ﷺ داخل في هذا القصد بـ ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾، والمعنى عندهم على ما روي أن المؤمنين قالوا لما نزلت: ﴿فَلَا تَقْعُدُوا﴾ معهم إذا كنا لا تقرب المشركين ولا نسمع أقوالهم فما يمكننا طواف ولا قضاء عبادة في الحرم فنزلت لذلك ﴿وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالإباحة في هذا هي في القدر الذي يحتاج إليه من التصرف بين المشركين في عبادة ونحوها، وقال بعض من يقول: «إن النبي ﷺ

داخل في ﴿الَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ وإن المؤمنين داخلون في الخطاب الأول: هذه الآية الأخيرة ليست بإباحة بوجه، وإنما معناها: لا تقعدوا معهم ولا تقربوهم حتى تسمعوا استهزاءهم وخوضهم، وليس نهيكهم عن القعود لأن عليكم شيئاً من حسابهم وإنما هو ذكرى «لكم»، ويحتمل المعنى أن يكون «لهم» لعلهم إذا جانبتموهم يتقون بالإمساك عن الاستهزاء، وأما من قال: «إن الخطاب الأول هو مجرد للنبي ﷺ لثقل مفارقتة مغضباً على الكفار» فإنه قال في هذه الآية الثانية: إنها مختصة بالمؤمنين، ومعناها الإباحة، فكأنه قال: فلا تقعد معهم يا محمد، وأما المؤمنون فلا شيء عليهم من حسابهم فإن قعدوا فليذكروهم لعلهم يتقون الله في ترك ما هم فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أشار إليه النقاش ولم يوضحه، وفيه عندي نظر، وقال قائل هذه المقالة: إن هذه الإباحة للمؤمنين نسخت بأية النساء قوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا بَعِثْتُمْ مَائِدَتِ اللَّهِ يَكْفُرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوشُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾، وكذلك أيضاً من قال: «إن الإباحة كانت بحسب العبادات» يقول: إن هذه الآية التي في النساء ناسخة لذلك إذ هي مدنية، والإشارة بقوله: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ﴾ إليها بنفسها فتأمل، وإلا فيجب أن يكون الناسخ غيرها. و ﴿ذَكَرْنَا﴾ - على هذا القول - يحتمل أن يكون: ذكروهم ذكرى،

ويحتمل: ولكن أعرضوا متى أعرضتم في غير وقت العبادة ذكرى، و ﴿ذَكَرْنَا﴾ - على كل قول - يحتمل أن تكون في موضع نصب بإضمار فعل، أو رفع بإضمار مبتدأ. وينبغي للمؤمن أن يمثل حكم هذه الآية مع الملحدين وأهل الجدل والخوض فيه، وحكى الطبري عن أبي جعفر أنه قال: لا تُجالسوا أهل الخصومات فإنهم الذين يخوضون في آيات الله.

﴿٧٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا أمر بالمشاركة، وكان ذلك بحسب قلة أتباع الإسلام حينئذ. قال قتادة: ثم نسخ ذلك وما جرى مجراه بالقتال. وقال مجاهد: الآية إنما هي للتهديد والوعيد فهي كقوله تعالى: ﴿ذَرِّقْ وَمَنْ خَلَقَتْ وَجِدَا﴾، وليس فيها نسخ لأنها متضمنة خبراً وهو التهديد. وقوله: ﴿لَيْبَاً وَكَلْباً﴾ يريد: إذ يعتقدون أن لا بعث فهم يتصرفون بشهواتهم تصرف اللاعب اللاهي، ﴿وَعَرَّتْهُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم، من الغرور وهو الإطماع بما لا يتحصل، فاغترروا بنعم الله وورقه وإمهاله، وطمعهم ذلك فيما لا يتحصل من رحمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتخرج في ﴿وَعَرَّتْهُمْ﴾ هنا وجه آخر من العَرَبُ بفتح الغين، أي: ملأت أفواههم وأشبعتهم، ومنه قول الشاعر:

وَلَمَّا التَّقَيْنَا بِالْحُلَيْنِبَةِ عَزَّنِي
بِمَعْرُوفِهِ حَتَّى خَرَجْتُ أَفْوَقُ
ومنه: غَرَّ الطائر فرخه، ولا يتَّجه

هذا المعنى في تفسير عزّ في كل موضع.

وأضاف الدين إليهم على معنى أنهم جعلوا اللعب واللهو ديناً، ويحتمل أن يكون المعنى: اتخذوا دينهم الذي كان ينبغي لهم لعباً ولهواً. والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد على الدين، وقيل: على القرآن.

و ﴿أَنْ تُسَلَّ﴾ في موضع المفعول، أي: لثلاث تبسل، أو كراهية أن تبسل، ومعناه: تسلم، قال الحسن وعكرمة، وقال قتادة: تُخْبَسُ وتُرْتَهَنُ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تُفْضَحُ، وقال الكلبي وابن زيد: تُجْرَى. وهذه كلها متقاربة بالمعنى، ومنه قول الشُّقْرِي:

هُنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةَ تَسْرُنِي
سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبَسَّلًا بِالْجِرَاثِرِ
وقال بعض الناس: هو مأخوذ من البَسَل، أي من الحرام كما قال الشاعر:

بَكَرَتْ تَلْوَمُكَ بَعْدَ وَهْنٍ فِي الثَّدْيِ
بَسَلٌ عَلَيْكَ مَلَامَتِي وَعِثَابِي
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعيد.

و ﴿نَفَسٌ﴾ تدل على الجنس، ومعنى الآية: وذكر بالقرآن والدين وادع إليه لثلاث تبسل نفس التارك للإيمان بما كسبت من الكفر وأثرته من رفض الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ في موضع الحال، و ﴿وَمِنْ﴾ لابتداء الغاية، ويجوز أن تكون زائدة، و ﴿دُونِ﴾ ظرف مكان، وهي لفظة تقال باشتراك، وهي - في هذه

الآية - الدالة على زوال من أضيفت إليه من نازلة القول، كما في المثل: ﴿وَأَمْرٌ دُونَ عَيْبَةِ الدُّؤْمِ﴾.

والولي والشفيع هما طريقا الحماية والغوث في جميع الأمور، ﴿وَإِنْ تَعَدَّلَ كَعَدْلٍ﴾ أي: وإن تعطل كل فدية وإن عظمت فتجعلها عدلاً لها لا يقبل منها، وحكى الطبري عن قائل أن المعنى: وإن تعدل من العدل المضاد للجور، ورد عليه وضعفه بالإجماع على أن توبة الكافر مقبولة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يلزم هذا الرد لأن الأمر إنما هو يوم القيامة ولا تقبل فيه توبة ولا عمل، والقول نص لأبي عبيدة. والعدل في اللغة معانيل الشيء من غير جنسه، وقيل: العدل بالكسر: المثل، والعدل بالفتح: القيمة، و ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى الجنس المدلول عليه بقوله: ﴿تُبَسَّلُ نَفْسٌ﴾ و ﴿أَبْيَلُوا﴾ معناه: أسلموا بما اجترحوه من الكفر. والحميم: الماء الحار، ومنه الحمام والحمة، ومنه قول أبي ذؤيب:

.....

إِلَّا الْحَمِيمِ فَإِنَّهُ يَتَبَصَّحُ
و ﴿أَلَيْتُ﴾ فاعيل بمعنى مُفْعِل، أي: مؤلم.

﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل في احتجاجك: أنطيع رأيكم في أن ندعو من دون الله؟ والدعاء يعم العبادة وغيرها، لأن من جعل شيئاً موضع دعائه فإياه يعبد وعليه يتكل. ﴿مَا لَا يَفْعَعْنَا وَلَا يَضْرَبْنَا﴾ يعني الأصنام، إذ هي

جمادات: حجارة وخشب ونحوه. وضرر الأصنام في الدين لا يفهمه الكفار فلذلك قال: ﴿وَلَا يَضْرَبْنَا﴾ إنما الضرر الذي يفهمونه من نزول المكاره الدنياوية.

﴿وَرَدُّ عَلَيَّ أَعْقَابَنَا﴾ تشبيهه، وذلك أن المردود على العقب وهو أن يكون الإنسان يمشي قُدماً - وهي المشية الجيدة - فيرد يمشي القهقري - وهي المشية الدنية - فاستعمل المثل بها فيمن رجع من خير إلى شر، ووقعت في هذه الآية في تمثيل الراجع من الهدى إلى عبادة الأصنام. و ﴿هَدَّيْنَا﴾ بمعنى أَرشدْنَا. قال الطبري وغيره: الرد على العقب يستعمل فيمن أمل أمراً فخاب أمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول قلن.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنِّي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ الآية. الكاف في موضع نصب نعت لمصدر محذوف تقديره: رداً كردة الذي و ﴿اسْتَهْوَتْهُ﴾ استفعلته بمعنى استدعت هواه وأمالته، قال أبو عبيدة: ويحتمل هُوِيَهُ وهو جده وركوب رأسه في النزوع إليهم، والهوي من هوى يهوي، يستعمل في السقوط من علو إلى أسفل، ومنه قول الشاعر:

هَوَى ابْنِ مَنْ ذَرَى شَرَفٍ
فَنَزَلَتْ رَجُلُهُ وَوَسَدُهُ

وهذا المعنى لا مدخل له في هذه الآية إلا أن تتأول اللفظة بمعنى: ألقته الشياطين في هوة، وقد ذهب إليه أبو علي وقال: هو بمعنى أهوى كما أن استزل بمعنى أزل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتحرير أن العرب تقول: هوى، وأهواه غيره، واستهواه بمعنى طلب منه أن يهوي هو، أو طلب منه أن يهوى شيئاً. ويستعمل الهوى أيضاً في ركوب الرأس في النزوع إلى الشيء، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿فَاجْمَلْ أَفِيدَةً مِنَكِ الْفَاسِقِ تَهْوِي إِلَىٰهِمْ﴾، ومنه قول شاعر الجن:

تَهْوِي إِلَىٰ مَكَّةَ تَبْنِي الْهُدَىٰ
مَا مُؤْمِنُ الْجِنِّ كَأَنْجَاسِهَا
وهذا المعنى هو الذي يليق بالآية.

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وقرأ الحسن: ﴿أَسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ﴾، قال بعض الناس: هو لحن. وليس كذلك هو شاذٌ قبيح، وإنما هو محمول على قولهم: سنون وأرضون إلا أن هذه في جمع مسلم وشياطين في جمع مكسر فهذا موضع الشذوذ، وقرأ حمزة: ﴿أَسْتَهْوَاهُ الشَّيَاطِينُ﴾ وأمال ﴿أَسْتَهْوَاهُ﴾، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والأعمش، وطلحة: ﴿أَسْتَهْوِيهِ الشَّيْطَانُ﴾ بالياء وإفراد ﴿الشَّيْطَانُ﴾، وذكر الكسائي أنها كذلك في مصحف ابن مسعود.

وقوله: ﴿فِي الْأَرْزَاقِ﴾ يحكم بأن ﴿أَسْتَهْوَتْهُ﴾ إنما هو بمعنى استدعت هويته الذي هو الجد في النزوع، و ﴿حَيْرَانَ﴾ في موضع الحال، ومؤنثه (حيزرى) فهو لا يتصرف في معرفة ولا نكرة، ومعناه: ضالاً متحيراً، وهو حال من الضمير في ﴿أَسْتَهْوَتْهُ﴾، والعامل فيه ﴿أَسْتَهْوَتْهُ﴾، ويجوز أن يكون من ﴿الَّذِي﴾ والعامل فيه المقدر بعد

الكاف، وقوله: ﴿أَسْتَهْوَتْهُ﴾ يقتضي أنه كان على طريق فاستدعته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فسياق هذا المثل كأنه قال: يصلح أن يكون بعد الهدى نعبد الأصنام فيكون ذلك منا ارتداداً على العقب فيكون كرجل على طريق واضح فاستهوته عنه الشياطين فخرج عنه إلى دعوتهم فبقي حائراً؟ وقوله: ﴿لَهُ أَصْحَابٌ﴾ يحتمل أن يريد: له أصحاب على الطريق الذي خرج منه، فيشبه بالأصحاب - على هذا - المؤمنون الذين يدعون من ارتد إلى الرجوع إلى الهدى، وهذا تأويل مجاهد، وابن عباس. ويحتمل أن يريد: له أصحاب أي من الشياطين الدعاة لا يدعون إلى الهدى بزعمهم وإنما يهيمونه، فيشبه بالأصحاب - على هذا - الكفرة الذين يثبتون من ارتد عن الإسلام على ارتداده، وروي هذا التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً.

و ﴿أَتَيْنَا﴾ من الإتيان بمعنى المجيء، وفي مصحف عبدالله «إلى الهدى بينا»، وهذه تؤيد تأويل من تأول «الهدى» حقيقة إخباراً من الله تبارك وتعالى، وحكى مكي وغيره أن المراد بـ ﴿الَّذِي﴾ في هذه الآية عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق، وبالأصحاب أبوه وأمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن في الصحيح أن عائشة رضي الله عنها لما سمعت قول القائل: إن قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِيُؤَدِّيهِ أَبِي لَكُمْ﴾ نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر قالت:

(كذبوا ما نزل فينا من القرآن شيء إلا برأيتي).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ الفقيه الإمام أبا عبدالله المعروف بالنحوي المجاور بمكة يقول: من نازع أحداً من الملاحدة فإنما ينبغي أن يرد عليه وينازعه بالقرآن والحديث، فيكون كمن يدعو إلى الهدى بقوله: ﴿أَتَيْنَا﴾، ومن ينازعهم بالجدل ويحلق عليهم به فكأنه بعد عن الطريق الواضح أكثر ليرد هذا الزايغ فهو يخاف عليه أن يضل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا انتزاع حسن جداً.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ الآية. من قال: «إن الأصحاب هم من الشياطين المستهزئين، وتأول ﴿إِلَىٰ الْهُدَىٰ﴾ بزعمهم» قال: إن قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ هُوَ الْهُدَىٰ﴾ ردٌ عليهم في زعمهم، فليس ما زعموه صحيحاً، وليس بهدى، بل هو في نفسه كفر وضلال، وإنما الهدى هدى الله، وهو الإيمان. ومن قال: «إن الأصحاب هم على الطريق المدعو إليها، وإن المؤمنين الداعين للمرتدين شبهوا بهم، وإن الهدى هو هدى على حقيقته، يجيء على قوله: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَىٰ اللَّهِ﴾ بمعنى: إن دعاء الأصحاب وإن كان إلى هدى فليس نفس دعائهم تقع الهداية، وإنما يهتدي بذلك الدعاء من هداة الله تعالى بهداة.

﴿وَأُزِّنَا لِلنَّاسِ﴾ السلام لام كسي، ومع (أن) مقدرة، ويقدر مفعول لـ ﴿أُمَرَاءَ﴾ مضمرة تقديره، وأمرنا

بالإخلاص أو بالإيمان ونحو هذا، فتقدير الجملة كلها: «وأمرنا بالإخلاص لأن نُسلم»، ومذهب سيبويه في هذا أن «لِئْسَلِمَ» هو موضع المفعول، وأن قولك: «أمرت لأقوم»، و«أمرت أن أقوم» يجريان سواء، ومثله قول الشاعر: أزدت لأتسى ذكرها..

إلى غير ذلك من الأمثلة، و«لِئْسَلِمَ» يعم الدين والاستسلام.

٧٢ - ٧٣ تفسير قوله عز وجل: «وَأَنَّ أَقِيمُوا» يتجه أن يكون بتأويل. «وإقامة» فهو عطف على المفعول المقدر في «أَمَرْنَا»، وقيل: بل هو معطوف على قوله: «لِئْسَلِمَ» تقديره: لأن نسلم وأن أقيموا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول الزجاج، واللفظ يمانعه، وذلك أن قوله: «لَأَنَّ نُسَلِمَ» معرب، وقوله: «أَنَّ أَقِيمُوا» مبني، وعطف المبني على المعرب لا يجوز، لأن العطف يقتضي التشريك في العامل، اللهم إلا أن تجعل العطف في (أن) وحدها، وذلك قلق، وإنما يتخرج على أن يقدر قوله: «وَأَنَّ أَقِيمُوا» بمعنى: لنقيم، ثم خرجت بلفظ الأمر لما في ذلك من جزالة اللفظ فجاز العطف على أن تُلغى حكم اللفظ وتُعمل على المعنى. ويشبه هذا من جهة ما حكاه يونس عن العرب: «ادخلوا الأول فالأول» برفع لفظ (الأول)، فإنما هو بأن يقدر: (ادخلوا) بمعنى: ليدخل الأول وإلا فليس يجوز إلا: ادخلوا الأول فالأول بالنصب. وقال الزجاج

أيضاً: يحتمل أن يكون «وَأَنَّ أَقِيمُوا» معطوفاً على «أَقْتَنَّا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيه بُعْد.

والضمير في قوله: «وَأَتَّقُوا» عائد على «رَبِّهِمُ الْمَلَكِيَّاتِ»، وهو ابتداء وما بعده خبره، وهو لفظ خبر يتضمن التنبيه والتخويف.

وقوله تعالى: «وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ» الآية. «خَلَقَ» ابتدع وأخرج من العدم إلى الوجود، و«بِالْحَقِّ» أي: لم يخلقها باطلاً لغير معنى، بل لمعان مفيدة ولحقائق بيّنة، منها ما يحسه البشر من الاستدلال بها على الصانع ونزول الأرزاق وغير ذلك، وقيل: المعنى: بأن حق له أن يفعل ذلك، وقيل: «بِالْحَقِّ» معناه: بكلامه في قوله للمخلوقات «كُنْ» وفي قوله: «أَتَيْنَا طَوْراً أَوْ كَرهاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير القول أن المخلوقات إنما إيجادها بالقدرة لا بالكلام، واقتران «كُنْ» بحالة إيجاد المخلوق فائدته إظهار العزة والعظمة ونفوذ الأوامر وإعلان القصد، ومثال ذلك في الشاهد أن يضرب إنسان شيئاً فيكسره ويقول في حال الكسر بلسانه: انكسر، فإن ذلك إنفاذ عزم وإظهار قصد، والله المثل الأعلى، لا تشبيه ولا حرف ولا صوت ولا تغيير، أمره واحد كلمح بالبصر، فكأن معنى الآية على هذا القول: وهو الذي خلق السموات والأرض بقوله كن المقترنة بالقدرة التي بها يقع إيجاد المخلوق بعد عدمه، فعبر عن ذلك بالحق.

«وَيَوْمَ يَقُولُ» نصب على الظرف، وهو متعلق بمعمول فعل مضمّر تقديره: «واذكر الخلق والإعادة يوم». وتحتمل الآية مع هذا أن يكون معناها: واذكر الإعادة يوم يقول الله للأجساد: كن معادة، ثم يحتمل أن يتم الكلام هنا ثم يبدأ بإخبار أنه يكون قوله الحق الذي كان في الدنيا إخباراً بالإعادة، ويحتمل أن يكون تمام الكلام في قوله: «نِيَكُونُ»، ويكون «قَوْلُهُ الْحَقِّ» ابتداء وخبر، أو على الاحتمال الذي قبله، ف«قَوْلُهُ» فاعل، قال الزجاج: قوله: «وَيَوْمَ» معطوف على الضمير من قوله: «وَأَتَّقُوا»، فالتقدير هنا على هذا القول: «واقتوا العقاب أو الأهوال والشدائد يوم»، وقيل: إن الكلام معطوف على قوله: «خَلَقَ الْمَسَكُونَاتِ»، والتقدير - على هذا: «وهو الذي خلق السموات والأرض والمعادات إلى الحشر يوم»، ولا يجوز أن تعمل هذه الأفعال - لا تقديره: اذكر، ولا: اتقوا، ولا: خلق - في «يَوْمَ» لأن أسماء الزمان إذا بنيت مع الأفعال فلا يجوز أن تنصب إلا على الظرف، ولا يجوز أن يتعلّق «يَوْمَ» بقوله: «قَوْلُهُ الْحَقِّ» لأن المصدر لا يعمل فيما تقدمه، وقد أطلق قوم أن العامل: اذكر أو خلق. ويحتمل أن يريد بـ «يَقُولُ» معنى الماضي كأنه قال: «وهو الذي خلق السموات والأرض بالحق يوم يقول - بمعنى قال لها: كن». ف«يَوْمَ» ظرف معطوف على موضع قوله: «أَلْحَقَّ» إذ هو في موضع نصب، ويجيء تمام الكلام

في قوله: ﴿يَكُونُ﴾، ويجيء ﴿قَوْلُهُ﴾ **الْحَقُّ** ابتداءً وخبراً، ويحتمل أن يتم الكلام في ﴿كُنْ﴾ وتبتداً ﴿يَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ﴾ وتكون **﴿يَكُونُ﴾** تامة بمعنى يظهر، و **﴿الْحَقُّ﴾** صفة للقول، و **﴿قَوْلُهُ﴾** فاعل. وقرأ الحسن: **﴿قَوْلُهُ﴾** بضم القاف، **﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾** ابتداءً وخبر **﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ﴾**، **﴿يَوْمَ﴾** بدل من الأولى على أن **﴿يَتَوَلَّى﴾** مستقبل، لا على تقدير مضيئه.

وقيل: بل متعلق بما تضمن **﴿الْمُلْكُ﴾** من معنى الفعل، أو بتقدير: **﴿ثابت أو مستقر يوم﴾** و **﴿في الصُّورِ﴾** قال أبو عبيدة: هو جمع صورة، فالمعنى: يوم تعاد العوالم، وقال الجمهور: هو الصور، القرن

الذي قال النبي ﷺ: **﴿إنه ينفخ فيه للصبق ثم للبعث﴾**، ورجحه الطبري بقول النبي ﷺ: **﴿إن إسرئيل قد التقم الصور وحتى جبهته ينظر متى يؤمر فينفخ﴾**. وقرأ الحسن: **﴿في الصُّورِ﴾** بفتح الواو، وهذه تؤيد التأويل الأول، وحكاها عمرو بن عبيد عن عياض، **﴿عَلَيْمٌ﴾** رفع بإضمار مبتدأ، وقيل: نعت لـ **﴿الَّذِي﴾**، وقرأ الحسن والأعمش: **﴿عَالِمٌ﴾** بالخفض على النعت للضمير الذي في **﴿وَلَهُ﴾**، أو على البدل منه من قوله **﴿وَلَهُ الْمُلْكُ﴾**، وقد رويت عن عاصم، وقيل: ارتفع **﴿عَلَيْمٌ﴾** بفعل مضمر من لفظ الفعل المبني للمفعول تقديره: **﴿ينفخ فيه عالمٌ﴾** على ما أنشد سيويه:

لِيُنْبِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُونَةٍ
وَأَخْرَجُ مِنْ طَوْحَتِهِ الطَّوَائِحَ

التقدير: يبكيه ضارع. وحكى هذا التأويل الذي يشبه (ليُنْبِكَ يَزِيدُ) عن ابن عباس، ونظيرها من القرآن قراءة من قرأ: **﴿زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتْلٌ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاءُ لَهُمْ﴾** بضم الزاي ورفع (الشركاء)، وروي عن عبد الوارث عن أبي عمرو: **﴿يَوْمَ نَنفُخُ فِي الصُّورِ﴾** بنون العظمة.

و **﴿الغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾** معناه: ما غاب عنا وما حضر، وهذا يعُم جميع الموجودات.

٧٤ - ٧٥ تفسير قوله عز وجل: **﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ آتَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ وَنِعْمَ الضَّالِّينَ أَهْلًا﴾** (٧٤) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٥) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٦) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٧) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٨) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٩) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٠) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨١) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٢) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٣) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٤) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٥) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٦) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٧) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٨) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٩) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٠) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩١) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٢) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٣) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٤) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٥) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٦) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٧) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٨) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٩) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (١٠٠)

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس يلزم هذا من لفظ الآية، أما إن جميع ما يجيء من مثل هذا غرضة للاقتداء. وقرأ السبعة وجمهور الناس: **﴿أَزْرًا﴾** بفتح الهمزة التي قبل الألف وفتح الزاي والراء، قال السدي، وابن إسحق، وسعيد بن عبدالعزيز: هو اسم إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ثبت أن اسمه تَارَحَ، فله على هذا القول اسمان كيعقوب

١٣٧

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ إِذْ آتَاكَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ وَنِعْمَ الضَّالِّينَ أَهْلًا﴾ (٧٤) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٥) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٦) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٧) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٨) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٧٩) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٠) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨١) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٢) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٣) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٤) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٥) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٦) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٧) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٨) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٨٩) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٠) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩١) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٢) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٣) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٤) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٥) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٦) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٧) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٨) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (٩٩) **﴿وَأَنَّكَ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكَ﴾** (١٠٠)

وإسرائيل، وهو في الإعراب - على هذا - بدل من الأب المضاف في موضع خفض، وهو اسم علم. وقال مجاهد: بل هو اسم صنم، وهو في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: **﴿أَتَّخِذُ أَزْرًا؟ أَتَّخِذُ أَصْنَامًا؟﴾** قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ضعف.

وقال بعضهم: بل هو صفة، ومعناه هو المعرج المخطيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعترض هذا بأن **﴿أَزْرًا﴾** إذا كان صفة فهو نكرة ولا يجوز أن تنعت المعرفة بالنكرة، ويوجه ذلك على تحامل بأن يقال: زيدت فيه الألف واللام وإن لم يلغظ بها، وإلى هذا أشار الزجاج لأنه قدر ذلك فقال: **﴿لأبيه المخطيء﴾**، وبأن يقال: إن ذلك مقطوع منصوب بفعل تقديره: **﴿أذم**

المعوج أو المخطىء، ولا تبقى فيه الصفة بهذا الحال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وقيل: نصبه على الحال كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه وهو في حال عوج وخطأ، وقرأ أبي بن كعب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم بضم الراء على النداء، ويصح - مع هذا - أن يكون (أزر) اسم أب إبراهيم، ويصح أن يكون بمعنى المعوج والمخطىء. وقال الضحاك: (أزر) بمعنى: شيء، ولا يصح - مع هذه القراءة أن يكون (أزر) صفة، وفي مصحف أبي رضي الله عنه: ﴿يا أزر﴾ بثبوت حرف النداء ﴿اتخذت أصناماً؟﴾ بالفعل الماضي. وقرأ ابن عباس فيما روي عنه أيضاً: ﴿أزرأ تتخذ؟﴾ بألف الاستفهام وفتح الهمزة من (أزرأ) وسكون الزاي ونصب الراء وتوينها وإسقاط ألف الاستفهام من ﴿أَتَتَّخِذُ﴾ ومعنى هذه القراءة: أعضداً وقوة ومظاهرة على الله تعالى تتخذ، وهو من نحو قوله تعالى: ﴿أَشَدُّ بِهِ أَزْرَى﴾، وقرأ أبو إسماعيل - رجل من أهل الشام - بكسر الهمزة من هذا الترتيب، ذكرها أبو الفتح، ومعناها أنها مبدلة من واو كوسادة وإسادة، فكأنه قال: أوزراً ومأثماً تتخذ أصناماً؟ ونصبه - على هذا - بفعل مضمَر، ورويت أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقرأ الأعمش: ﴿إِزْرَأُ تَتَّخِذُ﴾ بكسر الهمزة وسكون الزاي دون ألف توقيف. و﴿أَسْكَانًا إِلَهًا﴾ مفعولان.

وذكر أن (أزر) أبا إبراهيم كان نجاراً محسناً ومهندساً، وكان تُمرود يتعلق بالهندسة والنجوم فحظي عنده (أزر) لذلك، وكان على خطة عمل الأصنام، تُعمل بأمره وتدبيره، ويطبخ هو في الصنم يختم معلوم عندها، وحينئذ يعبد ذلك الصنم، فلما نشأ ابنه إبراهيم على الصفة التي تأتي بعد كان أبوه يكلفه بيعها، فكان إبراهيم ينادي عليها: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟ ويستخف بها ويجعلها في الماء منكوسة ويقول: اشربي، فلما شهر أمره بذلك وأخذ في الدعاء إلى الله تعالى قال لأبيه هذه المقالة.

و ﴿أَرْذَكُ﴾ - في هذا الموضع - يشترك فيها البصر والقلب، لأنها رؤية قلب ومعرفة وهي مترتبة على رؤية بصر. و ﴿تُبِينُ﴾ بمعنى: واضح ظاهر، وهو من: أبان الشيء إذا ظهر، ليس بالفعل المتعدي المنقول من: بانَّ بَيِّن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يكون المنقول، ويكون المفعول مقدرًا تقديره: في ضلال مبين كفركم. وقيل: كان أزر رجلاً من أهل كوثا من سواد الكوفة، قال النقاش، وبها ولد إبراهيم عليه السلام، وقيل: كان من أهل حُرَّان.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، الآية المتقدمة تقضي بهداية إبراهيم عليه السلام، والإشارة هنا بـ ﴿ذَلِكَ﴾ هي إلى تلك الهداية، أي: وكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكفر أريناه ملكوت. و ﴿نُرِي﴾ لفظها

الاستقبال ومعناه الماضي، وحكى المهدوي أن المعنى: وكما هديناك يا محمد فكذلك نُري إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد إذ اللفظ لا يعطيه، و ﴿نُرِي﴾ هنا متعدية إلى مفعولين لا غير، فهي إما من رؤية البصر، وإما من (أرى) التي بمعنى عرف، ولو كانت من (أرى) بمعنى أعلم وجعلنا أعلم منقولة من علم التي تعدى إلى مفعولين لوجب أن تعدى (أرى) إلى ثلاثة مفاعيل، وليس كذلك، ولا يصح أن يقال: إن الثالث محذوف، لأنه لا يجوز حذفه إذ هو الخبر في الجملة التي يدخل عليها علمت في هذا الموضع، وإنما هي من علم بمعنى عرف، ثم نقلت الهمزة فتعدت إلى مفعولين، ثم جعلت (أرى) بمنزلتها في هذه الحال.

وهذه الرؤية - قيل: رؤية البصر، وروي في ذلك أن الله عز وجل فرج لإبراهيم السموات والأرضين حتى رأى ببصره الملكوت الأعلى والملكوت الأسفل، فإن صح هذا المنقول ففيه تخصيص لإبراهيم عليه السلام بما لم يدرکه غيره قبله ولا بعده، وهذا هو قول مجاهد، قال: تفرجت له السموات والأرضون فرأى مكانه في الجنة، وبه قال سعيد بن جبیر، وسلمان الفارسي. وقيل: هي رؤية بصر في ظاهر الملكوت وقع له معها من الاعتبار ورؤية القلب ما لم يقع لأحد من أهل زمنه الذين بعث إليهم، قاله ابن عباس وغيره، ففي هذا تخصيص ما على جهة التقييد بأهل زمنه، وقيل:

هي رؤية قلب رأى بها ملكوت السموات والأرض بفكرته ونظره، وذلك لا بد متركب على ما تقدم من رؤيته ببصره وإدراكه في الجملة بحواسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان الأخيران يناسبان الآية، لأن الغاية التي نصبت له إنما هي أن يؤمن ويكون من جملة موقنين كثيرة، والإشارة لا محالة إلى من قبله من الأنبياء والمؤمنين وبعده، واليقين يقع له ولغيره بالرؤية في ظاهر الملكوت والاستدلال به على الصانع والخالق لا إله إلا هو.

و ﴿مَلَكُوتٌ﴾ بناء مبالغة كَجَبَرُوتٌ وَرَقِيبُوتٌ وَرَحْمُوتٌ. وقال عكرمة: هو مَلَكُوتِي باليونانية أو بالنبطية، وقرأ ﴿مَلَكُوتٌ﴾ بالثاء مُثَلَّثَةً، وقرأ أبو السمال: ﴿مَلَكُوتٌ﴾ بإسكان اللام، وهي لغة ومَلَكُوت بمعنى: الملك، والعرب تقول: «فلان ملكوت اليمن» أي: ملكه.

واللام في ﴿لِيَكُونَ﴾ متعلقة بفعل مؤخر تقديره: «وليكون من الموقنين أربناه»، والموقن: العالم بالشيء علماً لا يمكن أن يطرأ له فيه شك، وقال الضحاك، ومجاهد أيضاً: إن الإشارة ها هنا بملكوت السموات هي إلى الكوكب والشمس والقمر، وهذا راجع وداخل فيما قدمناه من أنها رؤية بصر في ظاهر الملكوت.

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير ﴿وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ قال: جئلى له الأمور سرها وعلانيتها فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق، فلما جعل يلعن

أصحاب الذنوب قال الله تعالى: إنك لا تستطيع هذا فرؤه لا يرى أعمالهم.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الفاء في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا﴾ رابطة جملة ما بعدها بما قبلها، وهي ترجح أن المراد بالملكوت هو هذا التفصيل الذي في هذه الآية.

وجنّ الليل: ستر وغطى بظلامه، ويقال: أجنّ، والأول أكثر، ويشبه أن يكون الجنّ والمجنّ والجنّ وهو القبر مشتقة من جنّ إذا ستر.

ولفظ هذه القصة يحتمل أن تكون وقعت له في حال صباه وقبل بلوغه كما ذهب إليه ابن عباس، فإنه قال: رأى كوكباً فعبده. وقال ناس كثير: إن النازلة قبل البلوغ والتكليف، ويحتمل أن تكون وقعت له بعد بلوغه وكونه مكلفاً، وحكى الطبري هذا عن فرقة، وقالت: إنه استفهم على جهة التوقيف بغير ألف، قال: وهذا كقول الشاعر:

رَفُونِي وَقَالُوا يَا حَوْيَلِدُ لَمْ تَرَخْ
فَقُلْتُ وَأَنْكَرْتُ الْوُجُوهَ هُمْ هُمْ
يريد: أهُم هُمْ؟ وكما قال الآخرة:
لَعَمْرُكَ مَا أَذْرِي وَإِنْ كُنْتُ دَارِيَا
شُعَيْبٌ بِنَ سَهْمٍ أَمْ شُعَيْبٌ بِنَ مَيْمُونٍ؟
يريد: أشعيت؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والبيت الأول لا حجة فيه عندي.

وقد حكى أن نمروود جبار ذلك الزمن رأى منجموه أن مولوداً يولد في سنة كذا في عمله يكون خراب الملك على يديه، فجعل يتبع الحبالى ويوكل بهن حراساً، فمن وضعت أنثى تركت، ومن وضعت

ذكرأ حمل إلى الملك فذبحه، وأن أم إبراهيم حملت - وكانت شابة قوية - فسترت حملها، فلما قربت ولادتها بعثت تارخ أبا إبراهيم إلى سفر، وتحملت لمضيئه إليه، ثم خرجت هي إلى غار فولدت فيه إبراهيم، وتركته في الغار وقد هيأت عليه، وكانت تتفقدته فتجده يتغدى بأن يمض أصابعه فيخرج له منها عسل وسمن ونحوهما، وحكي: بل كان يغذوه ملك، وحكي: بل كانت تأتيه بألبان النساء اللاتي ذبح أبنائهن، فشب إبراهيم أضعاف ما يشب غيره، والمليك في خلال ذلك يحس بولادته ويشدد في طلبه، فمكث في الغار عشرة أعوام، وقيل: خمس عشرة سنة، وأنه نظر - أول ما عقل - من الغار فرأى الكوكب وجرت قصة الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجلبت هذه القصص بغاية الاختصار في اللفظ، وقصدت استيفاء المعاني التي تخص الآية، ويضعف عندي أن تكون هذه القصة في الغار لقوله في آخرها: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وهي ألفاظ تقتضي محاجة ورداً على قوم، وحاله في الغار بعيدة عن مثل هذا، اللهم إلا أن يتأول في ذلك أنه قالها بينه وبين نفسه، أي قال في نفسه معنى العبارة عنه: ﴿وَيَقُولُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾، وهذا كما قال الشاعر:

نَمْ أَنشَنِي وَقَالَ فِي التَّفْكِيرِ
إِنَّ الْحَيَاةَ السَّوْمَ فِي السُّرُورِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومع هذا فالمخاطبة تبعده، ولو قال:

«يا قوم إني بريء من الإشراك» لصح هذا التأويل وقوي، فإن قلنا بأنه وقعت له القصة في الغار في حال الصبوة وعدم التكليف على ما ذهب إليه بعض المفسرين ويحتمله اللفظ فذلك ينقسم على وجهين: إما أن يجعل قوله: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ تصميماً واعتقاداً، وهذا باطل لأن التصميم لم يقع من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم، وإما أن يجعله تعريضاً للنظر والاستدلال، كأنه قال: هذا المنير البهي ربي إن عضدت ذلك الدلائل، ويجيء إبراهيم عليه السلام كما قال الله تعالى لمحمد ﷺ: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾ أي: مهمل المعتقد. وإن قلنا بأن القصة وقعت له في حال كفره وهو مكلف فلا يجوز أن يقول: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ مُصْطَمًا ولا معرضاً للنظر، لأنها رتبة جهل أو شك، وهو عليه السلام مُتَزَهٍّ معصوم من ذلك كله، فلم يبق إلا أن يقولها على جهة التقرير لقومه والتوبيخ لهم وإقامة الحجة عليهم في عبادة الأصنام، كأنه قال لهم: «أهذا المنير ربي؟» أو ﴿هَذَا رَبِّي﴾ وهو يريد: على زعمكم، كما قال تعالى: ﴿أَيَّنْ شُرَكَائِكُمْ؟ فَإِنَّمَا الْمَعْنَى: عَلَى زَعْمِكُمْ. ثم عرض إبراهيم عليهم من حركته وأفوله أمانة الحدوث. وأنه لا يصح أن يكون رباً، ثم في آخر أعظم منه، وأحرى كذلك، ثم في الشمس كذلك، فكأنه يقول: فإذا بان في هذه المنيرات الرفيعة أنها لا تصلح للربوبية فأصنامكم التي هي خشب وحجارة أحرى أن يبين ذلك

فيها، ويُعضد عندي هذا التأويل قوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾. ومثل لهم بهذه الأمور لأنهم كانوا أصحاب علم نجوم ونظر في الأفلاك، وهذا الأمر كله إنما وقع في ليلة واحدة، أي الكوكب - وهو الزهرة في قول قتادة، وقال السدي: هو المشتري - جانحاً للغروب، فلما أفل بزغ القمر وهو أول طلوعه، فسرى الليل أجمع، فلما بزغت الشمس زال ضوء القمر قبلها لانتشار الصباح وخفي نوره ودنا أيضاً من مغربه، فسمى ذلك أفولاً لقربه من الأفول التام على تجوز في التسمية، ثم بزغت الشمس على ذلك، وهذا الترتيب يستقيم في الليلة الخامسة عشرة من الشهر إلى ليلة عشرين، وليس يترتب في ليلة واحدة كما أجمع أهل التفسير إلا في هذه الليالي، وبذلك التجوز في أفول القمر، و (أفل) في كلام العرب معناه: غاب، يقال: أين أفلت عنا يا فلان؟ وقيل: معناه ذهب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خلاف في عبارة فقط، وقال ذو الرمة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللُّوَاتِي تَقُودُهَا
نُجُومٌ وَلَا بِالْأَفْلَاتِ الدُّوَالِكِ
وقال: ﴿الْأَفْلَاتِ﴾ فجمع بالياء والنون لما قصد قصد الأرباب ونحو ذلك، وعلى هذا يخرج قوله في الشمس: ﴿هَذَا رَبِّي﴾ فذكر الإشارة إليها لما قصد قصد ربه.

وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية حفص: ﴿رَبًّا﴾ بفتح الراء والهمزة، وقرأ نافع بين الفتح والكسر، وقرأ

عاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بكسرهما، وقرأ أبو عمرو بن العلاء بفتح الراء وكسر الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا﴾ الآية - البزوغ في هذه الأنوار: أول الطلوع، وقد تقدم القول فيما تدعو إليه ألفاظ الآية وكون هذا بالترتيب في ليلة واحدة مع التجوز في أفول القمر، لأن أفوله لو قدرنا مغيبه في المغرب لكان ذلك بعد بزوغ الشمس، وجميع ما قلناه يعطيه الاعتبار.

و ﴿بَيِّنًا﴾ يرشدي، وهذا اللفظ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الصغر. والقوم الضالون: عبدة المخلوقات كالأصنام وغيرها، وإن كان الضلال أعم من هذا فهذا هو المقصود في هذا الموضع.

٧٨ - ٧٩ - تفسير قوله عز وجل:

لما قصد قصد ربه ﴿قَالَ هَذَا﴾ فذكر، أي: هذا المرئي أو المنير ونحو هذا، ﴿فَلَمَّا أَكَلَتْ﴾ لم يبق شيء يمثل لهم به، فظهرت حاجته وقوي بذلك على منابذتهم والتبيري من إشراكهم.

وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ يؤيد قول من قال: النازلة في حال الكبر والتكليف، و ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ﴾ أي: أقبلت بقصدي وعبادتي وتوحيدي وإيماني وغير ذلك مما يعمه المعنى المعبر عنه ب ﴿وَجَّهْتُ﴾.

و ﴿فَكَرَّ﴾ معناه: ابتدع في أجرام، و ﴿حَنِيفًا﴾ معناه: مستقيماً، والحنف: الميل في كلام العرب، وأصله في الأشخاص، وهو في

الَّذِينَ ءَامَنُوا وَتَرَىٰ عِندَهُمْ أَتَقَاتِلَ أَمْرًا لَّهُمْ لَا يَمُوتُونَ ﴿٨١﴾ وَتَرَكَ حُجَّتَنَا أَلْتَمِينًا مِّمَّا عَلَّمْنَاهُمْ مَبِئَدَ رَبِّكَ إِن رَّبَّكَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٨٢﴾ وَهَدَيْنَاهُم لِأَسْحَابٍ وَعَبَقُوبٌ كُلًّا هَدَيْتَنَا وَنُوحًا هَدَيْتَنَا مِنْ قَبْلَ وَرِيبِيْعِيَّةَ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٣﴾ وَرَكَبْنَا الرِّيحَ الَّتِي نَسُفُّهَا لِنُفِثَ بِهِمُ الْفِتْنَةَ وَنُحِيطَ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْزَلْنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِنْ يَكْفُرْ بِهَا هُنَّ لِأَعْيُنِنَا فَبَدَّلْنَاهُمْ أُخْتُرًا فَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْفِجْرِينَ ﴿٨٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبَدَّلْنَاهُمْ أُخْتُرًا فَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْفِجْرِينَ ﴿٨٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبَدَّلْنَاهُمْ أُخْتُرًا فَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْفِجْرِينَ ﴿٨٧﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبَدَّلْنَاهُمْ أُخْتُرًا فَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْفِجْرِينَ ﴿٨٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ فَبَدَّلْنَاهُمْ أُخْتُرًا فَجَعَلْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ كَالْفِجْرِينَ ﴿٨٩﴾

لها ولا غناء عندها، و ﴿مَا﴾ في هذا الموضع بمعنى الذي، والضمير في ﴿يَوْمٍ﴾ يحتمل أن يعود على الله عز وجل، فيكون - على هذا - في قوله: ﴿تَشْرِكُونَ﴾ ضمير عائد على [مَا]، وتقدير الكلام: «ولا أخاف الأصنام التي تشركونها بالله في الربوبية». ويحتمل أن يعود الضمير على ﴿مَا﴾ فلا يحتاج إلى غيره، كأن التقدير: «ما تشركون بسببه».

المعاني مستعار، فالمعوج في الأجرام أحنف على الحقيقة، أي مائل، والمستقيم فيها أحنف على تجوز كأنه مال عن كل جهة إلى القوام. ﴿وَمَا تَجِبُ﴾ فاعله من الحججة، قال: أترجعوني في الحججة في توحيد الله؟ وقرأ قوم: ﴿أَتَحْجُجُونِي﴾ بإظهار النون وهو الأصل، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿أَتَحْجُجُونِي﴾ بإدغام النون الأولى في الثانية، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿أَتَحْجُجُونِي﴾ بحذف النون الواحدة، فقيل: هي الثانية، وقيل: هي الأولى ويدل على ذلك أنها بقيت مكسورة، قال أبو علي الفارسي: لا يجوز أن تحذف الأولى لأنها للإعراب، وإنما حذفت الثانية التي هي توطئة لياء المتكلم، كما حذفت في (لَيْتِي)، وفي قول الشاعر:

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا﴾ استثناء ليس من الأول، و ﴿شَيْئًا﴾ منصوب بـ ﴿يَشَاءَ﴾، ولما كانت قوة الكلام أنه لا يخاف ضراً استثنى مشيئة ربه تعالى في أن يريده بضر، و ﴿عَلَمًا﴾ نصب على التمييز، وهو مصدر بمعنى الفاعل كما تقول العرب: تَضَيَّبَ زيدٌ عرقاً، والمعنى: تصيب عرق زيد، فكذلك المعنى هنا: وسع علم ربي كل شيء، و ﴿أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ توقيف وتنبيه وإظهار لموضع التقصير منهم. ﴿٨١﴾ - ﴿٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْغَالِيَاتِ إِذَا نُفِثْنَ يَسْرًا - بعد ذلك - الأولى الباقية لمجاورتها للياء. ﴿وَقَدْ هَدَيْنَا﴾ أي: أرشدني إلى معرفته وتوحيده، وأمال الكسائي: ﴿هَدَانًا﴾، والإمالة في ذلك حسنة، وإذا جازت الإمالة في «غزا ودعا» وهما من ذوات الواو فيه في (هدان) التي هي من ذوات الياء أجوز وأحسن، وحكي أن الكفار قالوا لإبراهيم عليه السلام: خف أن تُصيِّبَ آلهتنا بَبْرَصٍ أو داءٍ لإذابتك لها وتنفصك، فقال لهم: لسْتُ أخاف الذي تشركون به لأنه لا قدرة

أنتم الله عز وجل وقد أشركتم به في الربوبية أشياء لم ينزل بها عليكم حجة؟ والسلطان: الحججة.

ثم استفهم على جهة التقرير ﴿فَأَيُّ الْقَرِيبِينَ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ؟﴾ أي: من لم يشرك بالقادر العالم أحق أن يأمن. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ الآية. ﴿الَّذِينَ﴾ رفع بالابتداء، و ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: يخلطوا، والظلم - في هذه الآية - الشرك، تظاهرت بذلك الأحاديث عن النبي ﷺ، وعن جماعة من الصحابة أنه لما نزلت هذه الآية أشفق أصحاب رسول الله ﷺ وقالوا: «أَيُّنَا لَمْ يَظْلَمْ نَفْسَهُ؟» فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّمَا ذَلِكَ كَمَا قَالَ لِقَمَانَ: ﴿إِنَّكَ أَلْتَرِكَ لَطَلْرَ عَظِيمٍ﴾». وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ في المصحف، فلما أتى عليها عظمت

عليه، فلبس رداءه ومرّ إلى أبي بن كعب فقال: يا أبا المنذر، وسأله عنها، فقال له: إنه الشُّرك يا أمير المؤمنين، فسُرّي عن عمر، وجرى لزيد بن صوحان مع سلمان نحو ممّا جرى لعمر مع أبي بن كعب رضي الله عنهم. وقرأ مجاهد: ﴿وَلَمْ يَلْبَسُوا إِيمَانَهُمْ بِشْرِكٍ﴾، وقرأ عكرمة: ﴿يُلْبَسُوا﴾ بضم الياء، و﴿الْأَمْنِ﴾ رفع بالابتداء وخبره في المجرور والجملة خبر ﴿أَوْلَيْتِكَ﴾، ﴿وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ أي: راشدون.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد بهذه الآية إبراهيم عليه السلام خاصة، وقال عكرمة: نزلت في مهاجري أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام خاصة، وقالت فرقة: هي من قول إبراهيم عليه السلام لقومه، فهي من الحجة التي أوتيتها، وقال ابن جريج: هي من قول قوم إبراهيم، ويجيء هذا من الحجّة أيضاً أن أفروا بالحق وهم قد ظلموا في الإشراك، وقال ابن إسحق، وابن زيد، وغيرهما: بل ذلك قول من الله عزّ وجلّ ابتداء حكم فصل عام لوقت محاجة إبراهيم وغيره، ولكل مؤمن تقدم أو تأخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو البين الفصيح الذي يرتبط به معنى الآية ويحسن رصفها، وهو خبر من الله تعالى.

و﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى هذه الحجّة المتقدمة، وهي رفع بالابتداء، و﴿حُجَّتَا﴾ خبره، و﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ في موضع الحال، ويجوز أن تكون

﴿حُجَّتَا﴾ بدلاً من ﴿تِلْكَ﴾، و﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ خبر ﴿تِلْكَ﴾ و﴿إِزْوَجَةٍ﴾ مفعول به ﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾، والضمير مفعول أيضاً بـ ﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ مقدم، و﴿عَلَى﴾ متعلقة بقوله: ﴿حُجَّتَا﴾ وفي ذلك فصل كثير، ويجوز أن تتعلق ﴿عَلَى﴾ بـ ﴿ءَاتَيْنَاهَا﴾ على المعنى، إذ المعنى: أظهرناها لإبراهيم على قومه، ونحو هذا.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾ بإضافة الدرجات إلى ﴿مِّنْ﴾، وقرأ عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿تَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَأٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهما مأخذان من الكلام، والمعنى المقصود بهما واحد، و﴿دَرَجَاتٍ﴾ على قراءة مَن نُّوُنُ نصب على الظرفية، ﴿حِكْمٌ عَلَيْهِ﴾ صفتان تليق بهذا الموضع إذ هو موضع مشيئة واختيار فيحتاج ذلك إلى العلم والإحكام. والدرجات أصلها في الأجسام ثم تستعمل في المراتب والمنازل المعنوية.

(٨٢) - (٨١) تفسير قوله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ عطف على ﴿وَأَتَيْنَاهَا﴾، و﴿إِسْحَقَ﴾ ابنه من سارة، و﴿وَيَعْقُوبَ﴾ هو ابن إسحاق، و﴿كَلَانَ﴾ و﴿تَوَسَّأَ﴾ منصوبان على المفعول مقدمان على الفعل، وقوله: ﴿مِن قَبْلِ﴾ لقدمه ﷺ، وقوله: ﴿وَمِن دُرَيْدٍ﴾ المعنى: وهدينا من ذرئته. والضمير في ﴿دُرَيْدٍ﴾ - قال الزجاج: جائز أن يعود على إبراهيم، ويعترض هذا بذكر لوط

عليه السلام وهو ليس من ذرئته إبراهيم عليه السلام، بل هو ابن أخيه، وقيل: ابن أخته، ويتخرج عند من يرى الخال أباً، وقيل: يعود الضمير على نوح، وهذا هو الجيد.

و﴿دَاوُدَ﴾ يقال: هو ابن أيشى ﴿وَسُلَيْمَانَ﴾ ابنه، و﴿أَيُّوبَ﴾ هو - فيما يقال - أيوب بن رازح بن عيصو بن إسحق بن إبراهيم عليه السلام. و﴿يُوسُفَ﴾ هو ابن يعقوب بن إسحاق، و﴿يُوسَى وَهَارُونَ﴾ عليهما السلام هما ابنا عمران بن يصر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب. ونصب ﴿دَاوُدَ﴾ يحتمل أن يكون بـ ﴿وَهَبْنَا﴾، ويحتمل أن يكون بـ ﴿هَدَيْنَا﴾.

وهذه الأسماء كلها فيها العجمة والتعريف، فهي غير منصرفة، وموسى عند سيبويه وزنه مُفْعَل، فعلى هذا ينصرف في النكرة، وقيل: وزنه فُعْلَى، فعلى، هذا لا ينصرف في معرفة ولا نكرة.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ وغدّ من الله عزّ وجلّ لمن أحسن في عمله، وترغيب في الإحسان، ﴿وَرَكْرَكِيًّا﴾ عليه السلام - فيما يقال - هو ابن آذن بن بركتنا ﴿وَعِيسَى﴾ عليه السلام ابن مريم بنت عمران بن ياشهم بن أموم بن حزقياء، ﴿وَأَيَّاسَ﴾ عليه السلام هو ابن نسمي بن فنحاص بن العيزار بن هارون بن عمران، وروي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إدريس هو إلياس عليه السلام، وردّ ذلك الطبري وغيره بأن إدريس هو جدّ نوح عليه السلام، تظاهرت

بذلك الروايات، وزكرياء قرأته طائفة بالمد، وقرأته طائفة بالقصر زكريا، وقرأ ابن عامر باختلاف عنه. والحسن وقتادة بتسهيل الهمزة من إلياس.

وفي هذه الآية أن عيسى عليه السلام من ذرية نوح أو إبراهيم عليهما السلام بحسب الاختلاف في عود الضمير من ﴿ذُرِّيَّتِي﴾، وهو ابن ابنته، وبهذا يستدل في الأحباس على أن ولد البنت من الذرية.

﴿وَأَسْمَاءُ﴾ عليه السلام هو أكبر ولدي إبراهيم عليه السلام، وهو من هاجر. ﴿وَالْيَسَعَ﴾ قال زيد بن أسلم: هو يوشع بن نون، وقال غيره: هو اليَسَعَ بن أخطوب بن المعجوز، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَالْيَسَعَ﴾، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَالْيَسَعَ﴾ كأن الألف واللام

دخلت على فَيْعَل، قال أبو علي الفارسي: فالألف واللام في (اليَسَعَ) زائدة لا تؤثر معنى تعريف، لأنها ليست للمهد كالرجل والغلام، ولا للجنس كالإنسان والبهائم، ولا صفة غالبية كالعباس والحارث لأن ذلك يلزم عليه أن يكون ﴿وَالْيَسَعَ﴾ فعلاً وحينئذ يجري صفة، وإذا كان فعلاً وجب أن يلزمه الفاعل، ووجب أن يحكى إذ هي جملة، ولو كان كذلك لم يجز لحاق اللام له، إذ اللام لا تدخل على الفعل، فلم يبق إلا أن تكون الألف واللام زائدة كما هي زائدة في قولهم: «الخمسة عشر درهماً» وفي قول الشاعر:

يا لَيْتَ أُمِّ الْعَمْرِ كَانَتْ صَاحِبِي

بالعين غير منقوطة، وفي قوله:

وَجَدْنَا الْوَلِيدَ بْنَ الْيَزِيدِ مُبَارِكاً
شَدِيداً بِأَعْيَابِ الْخُلَافَةِ كَاهِلَةً
وأما (الْيَسَعَ) فالألف واللام فيه بمنزلتها في الحارث والعباس لأنه من أبنية الصفات، لكنه بمنزلة (الْيَسَعَ) في أنه خارج عما عليه الأسماء الأعجمية، إذ لم يجيء فيها شيء هو على هذا الوزن، كما لم يجيء منها شيء فيه لام تعريف، فهما من الأسماء الأعجمية إلا أنهما مخالفان للأسماء الأعجمية فيما ذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما (الْيَزِيد) فإنه لما سمي به أزيل منه معنى الفعل وأُفردت فيه الاسمية، فحصل فيه العلمية، وزيدت فيه الألف واللام لا لتعريف. وقال الطبري: دخلت الألف واللام إبتاعاً للفظ الوليد.

﴿وَيُوشَعَ﴾ هو ابن مثنى، ويقال: يونس ويونس ويونس ويونس، وبكسر الثون من ﴿يُونُسَ﴾ والسُّين من ﴿يُوسُفَ﴾ قرأ الحسن، وابن مصرف، وابن وثاب، وعيسى بن عمر، والأعمش في جميع القرآن. و ﴿الْمَكَلِيمَ﴾ معناه: عالمي زمانهم.

(٨٧) - (٩٠) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وهدينا من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم جناعات، فـ ﴿وَرَيْنَ﴾ للتبعيض، والمراد من آمن منهم نبياً كان أو غير نبي، ويدخل عيسى عليه السلام في ضمير قوله: ﴿وَرَيْنَ﴾. وللهذا قال محمد بن كعب: الخال أب والخالة أم.

﴿وَأَخْيَبْتَهُمْ﴾ معناه: تخيرناهم

وأرشدناهم وضمنناهم إلى خاصتنا وأرشدناهم إلى الإيمان والفوز برضى الله تعالى، قال مجاهد: معناه: أخلصناهم.

والذُرِّيَّةُ: الأبناء، وينطلق على جميع البشر ذُرِّيَّةً لأنهم أبناء، وقال قوم: الذُرِّيَّةُ تقع على الآباء لقوله تعالى: ﴿وَرَبَّآئِهِمْ لَمَّا نَأَىٰ حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ﴾ يراد به نوع البشر.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ﴾ الآية. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى النعمة في قوله: ﴿وَأَخْيَبْتَهُمْ﴾، وإضافة الهدى إلى الله إضافة ملك. و ﴿حَبِطَ﴾ معناه: تلف وذهب لسوء غلب عليه.

و ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره، و ﴿الْكِتَابُ﴾ يراد به الصحف والتوراة والإنجيل والزبور، و ﴿الْفُكْرَ﴾ يراد به اللب والفطنة والفقهاء في دين الله، و ﴿هُؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى كفار قريش المعادين لرسول الله ﷺ وإلى كل كفار في ذلك العصر، قاله قتادة، وابن عباس، والسدي، وغيرهم. و ﴿قَوْمًا﴾ يراد به مؤمنو أهل المدينة، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، والسدي، وغيرهم: فالآية - على هذا التأويل - وإن كان القصد في نزولها هذين الصنفين فهي تعم الكفرة والمؤمنين إلى يوم القيامة. وقال قتادة أيضاً، والحسن بن أبي الحسن: المراد بالقوم من تقدم ذكره من الأنبياء والمؤمنين، وقال أبو رجاء: المراد الملائكة، والباء في ﴿بِهَآءَ﴾ متعلقة بقوله: ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾، والباء في ﴿بِكُفْرِهِمْ﴾ زائدة للتأكيد.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ﴾ الآية. الظاهر في الإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ أنها إلى المذكورين قبل من الأنبياء ومن معهم من المؤمنين المهديين، ومعنى الاقتداء: اتباع الأثر في القول والفعل والسيرة، وإنما يصح اقتداؤه بجمعهم في العقود والإيمان والتوحيد الذي ليس بينهم فيه اختلاف، وأما أعمال الشرائع فمختلفة، وقد قال عز وجل: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِّنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنَهَا جَمَلٌ﴾، ويحتمل أن تكون الإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى قوله: ﴿قَوْمِكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك يترتب على بعض التأويلات في المراد بالقوم، ويقلق بعضها.

قال القاضي ابن الباقلاني: واختلف الناس - هل كان رسول الله ﷺ قبل مبعثه متعبداً بشرع من كان قبله؟ فقالت طائفة: كان متعبداً، واختلف بشرع من؟ فقالت فرقة: بشرع إبراهيم، وفرقة: بشرع موسى، وفرقة: بشرع عيسى عليهم السلام، وقالت طائفة: بالوقف في ذلك، وقالت طائفة، لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله، وهو الذي يترجح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يحمل كلام القاضي على أنه لم يكن متعبداً بشرع من كان قبله في توحيد ولا مُعْتَقَد، لأننا نجد شرعنا يبيء أن الكفار الذين كانوا قبل النبي عليه الصلاة والسلام كأبويه وغيرهما في النار، ولا يدخل الله تعالى أحداً في النار إلا بترك ما كلف، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مَعَذِّبِينَ حَتَّىٰ

بَيَّنَّ رَسُولًا﴾ وغير ذلك. وقاعدة المتكلمين أن العقل لا يوجب ولا يكلف، وإنما يوجب الشرع، فالوجه في هذا أن يقال: إن آدم عليه السلام فمن بعده دعا إلى توحيد الله دعاءً عاماً، واستمر ذلك على العالم، فوجب على آدمي البالغ أن يبحث على الشرع الأمر بتوحيد الله تعالى، وينظر الأدلة المنصوبة على ذلك بحسب إيجاب الشرع النظر فيها، ويؤمن ولا يعبد غير الله، فمن فرضناه لم يجد سبيلاً إلى العلم بشرع أمر بتوحيد الله، وهو مع ذلك لم يكفر ولا عبد صنماً، بل تخلى، فأولئك أهل الفترات الذين أطلق عليهم أهل العلم أنهم في الجنة، وهم بمنزلة الأطفال والمجانين، ومن قَصُر في النظر والبحث فعبد صنماً وكفر فهذا تارك للواجب عليه مستوجب العقاب بالنار. فالنبي ﷺ قبل المبعث ومن كان معه من الناس وقبله مخاطبون على ألسنة الأنبياء قبل بتوحيد الله عز وجل، وغير مخاطبين بفروع شرائعهم إذ هي مختلفة، وإذ لم يدعهم إليها نبي، وأما بعد مبعث النبي ﷺ فهل هو وأُمَّته مخاطبون بشرع من تقدم؟ فقالت فرقة: لسنا مخاطبين بشيء من ذلك، وقالت فرقة: نحن مخاطبون بشرع من قبلنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال من هذه الطائفة إن محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمَّته مخاطبون بكل شرائع من تقدم على الإطلاق فقد أحال، لأن أحكام الشرائع تأتي مختلفة، وإنما يتخذون قول من قال

منها: إنا متعبدون بما صح نقله من شرائع من قبلنا ولم تختلف فيه الشرائع، وبالأخر مما اختلفت فيه لأنه الناسخ المتقدم، ويرتكب في صحة نقل ذلك إلى ما وقع في القرآن وفي حديث رسول الله ﷺ من حكاية أحكام سألته، كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَدَّ يَدًا ضَرْفًا فَأُثْرِبَ يَدَهُ﴾ وكقوله: ﴿وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾، وكحكاية تزويج شعيب ابنته من موسى عليهما السلام، وكحديث النبي ﷺ في قضية سليمان عليه السلام بين المرأتين في الولد ونحو ذلك.

ولا يقتضي قولهم أكثر من جواز أن يُتَّعَبَدَ بذلك، وأما وجوب أن يتعبد بغير لازم، ولا تعلق عندي أشبه في ذلك من أن يقال: إن النبي ﷺ شرع لأُمَّته أن يصلي الناس صلاته إذا ذكرها، ثم مثل في ذلك لا على طريق التعليل بقوله عز وجل لموسى: ﴿وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ فننقل نحن هذا إلى غير ذلك من النوازل ونقل: إنه كما شرع عندنا ذلك المثال في نسيان الصلاة كذلك شرع هذه الأمثلة كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قياسٌ ضعيف، ولو ذكر النبي ﷺ قوله تعالى: ﴿وَأَقْبِرَ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ على جهة التعليل لكانت الحجة به قوية، ولا يصح أن يقال: يصح عندنا نقل ما في الشرائع من جهة من أسلم منهم كعبدالله بن سلام وغيره صحة نقلها، وكذلك ما شرعه الحواريون لا سبيل إلى صحة شرع عيسى عليه السلام له.

وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْنَا بَشِيرًا مِّنْ نَّحْنُ
 قُلْ مَن أَنزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ
 يَجْعَلُونَهُ قَرَابِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيَخْفَوْنَ كَثِيرًا وَعَلِمْتُمْ مَا رَتَبْنَا
 أَنزَلْنَا وَأَنبَأْتُمْ قُلْ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾
 وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبْرُوكٌ مُّصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنِ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ
 أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ
 وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ اتَّخَذَ عَلَىٰ
 أَنفُسِهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوْحَىٰ إِلَيَّ وَلَمْ يُوْحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنزِلُ
 مِثْلَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُوبُ لَمُوتٌ فِي عَمَزِ اللَّوْنِ
 وَالسَّلَاطِكُ بِأَسْطُرٍ أَيْدِيَهُمْ آخِرُ جَوَافِكُمْ أَنفُسِكُمْ الْيَوْمَ
 تُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ
 وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ
 كَمَا خَلَقْتُمُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَرَكَّبْتُمْ مَا خَوَّلْتُمْ وَأَآءَ ظُهُورِكُمْ
 وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَاءَ كُفَّيْنِ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ
 لَقَدْ نَقَطَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنْكُمْ مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

١٣٩

بتشديد الدال ﴿الله حق قدره﴾
 بفتح الدال، وقرأ الجمهور في
 الأول بالتخفيف وفي الثانية
 بإسكانه.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنزَلَ
 الْكِتَابَ﴾ الآية. أمره الله تعالى أن
 يستفهم على جهة التقرير على موضع
 الحجة، والمراد بالكتاب التوراة. و
 ﴿نُورًا وَهُدًى﴾ اسمان في موضع
 الحال بمعنى نيراً وهداياً، فإن جعلناه
 حالاً من ﴿الْكِتَابِ﴾ فالعامل فيه
 ﴿أَنْزَلَ﴾، وإن جعلناه حالاً من
 الضمير في ﴿بِهِ﴾ فالعامل فيه
 ﴿جَاءَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَجْعَلُونَهُ
 قَرَابِيسَ يُبَدُّونَهَا وَيَخْفَوْنَ﴾
 بالهاء من فوق في الأفعال الثلاثة، فمن رأى
 أن الاحتجاج على بني إسرائيل
 استقامت له هذه القراءة، وتناسقت

رجل مخصوص منهم
 يقال له: مالك بن
 الصيف، قاله سعيد بن
 جبير، وقيل: في
 فنخاص، قاله السدي.

و ﴿قَدَرُوا﴾ هو من توفية
 القدر والمنزلة، فهي عامة
 يدخل تحتها من لم يعرف
 ومن لم يُعظم وغير ذلك،
 غير أن تعليبه بقولهم: «ما
 أنزل الله» يقضي بأنهم
 جهلوا ولم يعرفوا الله حق
 معرفته، إذ أحالوا عليه
 بعثة الرسل. و ﴿حَقَّ﴾
 نصب على المصدر، ومن
 قال: «إن المراد كفار

العرب» فيجئ الاحتجاج
 عليهم بقوله: ﴿مَنْ أَنزَلَ
 الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ
 مُوسَىٰ﴾ احتجاجاً بأمر مشهور
 منقول بكافة قوم لم تكن العرب
 مكذبة لهم. ومن قال: «إن المراد
 بنو إسرائيل» فيجئ الاحتجاج عليهم
 مستقيماً لأنهم يلتزمون صحة نزول
 الكتاب على موسى عليه السلام.

وروي أن مالك بن الصيف كان
 سميناً، فجاء يخاصم النبي ﷺ
 بزعمه، فقال له رسول الله ﷺ:
 «أتشكك الله، ألتست تقرأ فيما أنزل
 على موسى أن الله يبغض الجبر
 السمين؟» وقال: «والله ما أنزل الله
 على بشر من شيء».

والآية على قول من قال: نزلت
 في قول بني إسرائيل يلزم أن تكون
 مدنية، وكذلك حكى النقاش أنها
 مدنية، وقرأ الحسن، وعيسى
 الشقفي، وغيرهما: ﴿وَمَا قَدَرُوا﴾

وقرأ ابن كثير، وأهل مكة، ونافع،
 وأبو عمرو، وأهل المدينة،
 وعاصم: ﴿أَفْتَدِي﴾ بهاء السكت
 ثابتة في الوصل والوقف، وقرأ
 حمزة، والكسائي: ﴿أَفْتَدِي﴾ قال:
 بحذف الهاء في الوصل وإثباتها في
 الوقف، وهذا هو القياس، وهي
 تشبه ألف الوصل في أنها تقطع في
 الابتداء، وتوصل غير مبتدأ بها،
 فكذلك هذه تثبت في الوقف
 وتحذف في الوصل، وقرأ ابن
 عامر: ﴿أَفْتَدِي﴾ بكسر الهاء دون
 بلوغ الياء، قال ابن مجاهد: وهذا
 غلط لأنها هاء وقف لا تعرب على
 حال، قال أبو علي: ووجه ذلك أن
 تكون ضمير المصدر كأنه قال: «اقتد
 الاقتداء»، وقرأ ابن ذكوان على
 هذه: ﴿أَفْتَدِي﴾ بإشباع الياء بعد
 الهاء، وقالت فرقة: إن كسر الهاء
 إنما هو في هاء السكت، كما قد
 تسكن هاء الضمير أحياناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وهذا ضعيف، ولا تجوز عليه القراءة
 بإشباع الياء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَّا أَشْتَكُكُمْ﴾
 الآية. المعنى: قل يا محمد لهؤلاء
 الكفرة المعاندين: لا أسألكم على
 دعائي إياكم بالقرآن إلى عبادة الله
 وتوحيده أجرة أستكثر بها وأختص
 بدنياها، إن القرآن إلا موعظة وذكرى
 ودعاء لجميع العالمين.

﴿٩١﴾ تفسير قوله عز وجل:
 الضمير في ﴿قَدَرُوا﴾ و ﴿قَالُوا﴾
 يراد به العرب، قاله مجاهد وغيره.
 وقيل: يراد به بنو إسرائيل، قاله ابن
 عباس رضي الله عنهما. وقيل:

مع قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَرَّ تَلَّمُوا﴾، ومن رأى أن الاحتجاج على كفار العرب فيضطر في هذه القراءة - إذ لا يمكن رفعها - إلى أن يقول: إنه خرج من مخاطبة قريش في استفهامهم وتقريرهم إلى مخاطبة بني إسرائيل بتوبيخهم وتوبيخ أفعالهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مع بُغده أسهل من دفع القراءة، فكأنه - على هذا التأويل - قال لقريش: من أنزل الكتاب على موسى؟ ثم اعترض على بني إسرائيل فقال لهم خلال الكلام: تجعلونه أتمم يا بني إسرائيل قراطين. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿يَجْعَلُونَهُ قَرَاتِيْسَ يَبْدُوتَهَا وَيُحْفُونَ كَثِيرًا﴾ بالياء في الأفعال الثلاثة. فمن رأى الاحتجاج على قريش رآه إخباراً من الله عز وجل بما فعلته اليهود في الكتاب، ويحتمل أن يكون الإخبار بذلك لقريش، أو للنبي ﷺ وحده، وما أخبر به النبي ﷺ في القرآن فأتمه متلقية ذلك.

و ﴿قَرَاتِيْسَ﴾ جمع قرطاس، أي بطائق وأوراق، والمعنى: يجعلونه قراطين من حيث يكتب فيها، وتوبيخهم بالإبداء والإخفاء هو على إخفائهم آيات محمد عليه الصلاة والسلام والإخبار بنبوته وجميع ما عليهم فيه حجة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَرَّ تَلَّمُوا﴾. قال مجاهد وغيره: هي مخاطبة للعرب، فالمعنى - على هذا - قُضِدَ مِنَّةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، أي: عَلِّمْتُمْ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ مِنَ الْهَدَايَاتِ وَالتَّوْحِيدِ

والإرشاد إلى الحق ما لم تكونوا عالمين به ولا أبأؤكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْتُمْ مَا لَرَّ تَلَّمُوا﴾ يصلح - على هذا المعنى - لمخاطبة من انتفع بالتعليم ومن لم ينتفع به، ويصح الامتنان بتعليم الصنفين، وليس من شرط من عَلَّمَ أن يعلم ولا بُدَّ، أما إن التعليم الكامل هو الذي يقع معه التعلم.

وقالت فرقة: بل هي مخاطبة لبني إسرائيل، والمعنى - على هذا - يترتب على وجهين: أحدهما أن يُقصد به الامتنان عليهم وعلى آبائهم بأن عَلَّمُوا من دين الله وهداياته ما لم يكونوا عالمين به، لأن آباء المخاطبين من بني إسرائيل كانوا عَلَّمُوا أيضاً وَعَلِمَ بعضهم، وليس ذلك في آباء العرب. والوجه الآخر أن يكون المقصد ذمهم، أي: وَعَلِّمْتُمْ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوهُ بَعْدَ التَّعْلِيمِ وَلَا انْتَفَعْتُمْ بِهِ لِإِعْرَاضِكُمْ وَضَلَالِكُمْ.

ثم أمره الله تعالى بالمبادرة إلى موضع الحجة، أي قل لهم: الله هو الذي أنزل الكتاب على موسى. ويحتمل أن يكون المعنى: فإن جهلوا أو تحيروا أو سألوا أو نحو هذا فقل: الله. ثم أمره تبارك وتعالى بترك من كفر وأعرض.

وهذه آية منسوخة بآية القتال إن تَوُؤِلَّتْ مَوَادِعُهُ، وقد يحتمل ألا يدخلها النسخ إذا جعلت تتضمن تهديداً ووعيداً مجرداً من موادة. والخوض: الذهاب فيما لا تسير حقائقه، وأصله في الماء ثم يستعمل

في المعاني المُشْكَلَةُ الْمُتَلَبِّسَةُ، و﴿يَلْمُونَ﴾ في موضع الحال.

﴿٩٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، و﴿بَيِّنَاتٍ﴾ صفة له، و﴿مُصَدِّقَاتٍ﴾ كذلك، وحذف التنوين من ﴿مُصَدِّقَاتٍ﴾ للإضافة، وهي إضافة غير محضة لم تتعرف بها ﴿مُصَدِّقَاتٍ﴾، ولذلك ساغ أن يكون وصفاً لئكرة، و﴿الَّذِي﴾ في موضع المفعول، والعامل فيه مصدر، ولا يصلح أن يكون ﴿مُصَدِّقَاتٍ﴾ - مع حذف التنوين منه - يتسلط على ﴿الَّذِي﴾، ويقدر حذف التنوين للالتقاء، وإنما جاء ذلك شاذاً في الشعر في قوله:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُنْتَفِعِيْبٍ
وَلَا ذَاكِرِ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلاً
وَلَا يِقَاسُ عَلَيْهِ. و ﴿بَيِّنَاتٍ يَدِّيهِ﴾ هي حال التوراة والإنجيل لأن ما تقدم فهو بين يدي ما تأخر. وقالت فرقة: الذي بين يديه القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير صحيح لأن القرآن هو بين يدي القيامة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلْيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى﴾ أي أنت يا محمد، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿وَلْيُنذِرَ﴾ أي القرآن بمواعظه وأوامره: والسلام في ﴿لينذر﴾ متعلقة بفعل متأخر تقديره: ولننذر أُمَّ الْقُرَى ومن حولها أنزلناه.

وأم القرى: مكة، سُميت بذلك لوجوه أربعة: منها أنها منشأ الدين والشرع، ومنها ما روي أن الأرض منها دُحيت، ومنها أنها وسط الأرض، ومنها ما لحق عن الشرع

تخليه. و ﴿الْقَلِيلُونَ﴾ لفظ عام لمن واقع ما تقدم ذكره وغير ذلك من أنواع الظلم الذي هو كفر. والغمرات: جمع غمرة وهي المصيبة البهمة المذهلة، وهي مشبهة بغمرة الماء، ومنه قول الشاعر:

ولا يُشجِي مِنَ السَّمَرَاتِ إِلَّا
بَرَكَاءُ الْقَيْسَالِ أَوْ الْفِرَازِ
﴿وَالْمَلَكُوتِ﴾ ملائكة قبض الروح، و ﴿بَاسِطُوا أَيْدِيَهُمْ﴾ كناية عن مدها بالمكروه، كما قال تعالى حكاية عن إبني آدم: ﴿لَيْنًا بَسَطَ لَكَ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي﴾، وهذا المكروه هو لا محالة أوائل عذاب وأماراته، قال ابن عباس: يضربون وجوههم وأدبارهم، وأما البسط لمجرد قبض النفس فإنه يشترك فيه الصالحون والكفرة، وقيل: إن المراد بسط الأيدي في جهنم، والغمرات كذلك، لكنهم لا يُقضى عليهم فيموتوا.

وقوله تعالى: ﴿أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ﴾ حكاية لما تقوله الملائكة، والتقدير: «يقولون أخرجوا أنفسكم»، ويحتمل قول الملائكة ذلك أن يريدوا: فأخرجوا أنفسكم من هذه المصائب والمحن وخلصوها إن كان ما زعمتموه حقاً في الدنيا، وفي ذلك توبيخ وتوقيف على سالف فعلهم القبيح، قال الحسن: هذا التوبيخ - على هذا الوجه - هو في جهنم، ويحتمل أن يكون ذلك على معنى الزجر والإهانة، كما يقول الرجل لمن يقهره بنفسه على أمر ما: «افعل كذا» لذلك الأمر الذي يتناوله بنفسه

الْقَلِيلَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْمَلَقَةَ مُضْمَكَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْمَعَةَ عِظْمًا فَكَسَرْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَا خَلْقًا مَآخِرًا، فقال عبدالله بن سعد من تلقاء نفسه: «فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ»، فقال له رسول الله ﷺ: «اكتبها فهكذا أنزلت». فتوهم عبدالله ولحق بمكة مُرْتَدًّا وقال: أنا أنزل مثل ما أنزل الله. وروي عنه أيضاً أن النبي ﷺ ربما أملى عليه: «والله غفور رحيم» فبدلها هو: «والله سميع عليم» فقال النبي ﷺ: «ذلك سؤاء»، ونحو هذا. وقال عكرمة: أولها في مسيلمة، والآخر في عبدالله بن سعد بن أبي سرح، وذكر الزهراوي والمهدوي أن الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه عارض القرآن بقوله: «والزراعات زرعاً، والخابزات خبزاً» إلى غير ذلك من السخافات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فخصص المتأولون في هذه الآيات ذكر قوم قد يمكن أن كانوا أسباب نزولها، ثم هي إلى يوم القيامة تتناول من تعرض شيئاً من معانيها كَطَلِيحَةَ الْأَسَدِيِّ، والمختار بن أبي عبيد، وسواهما. وقرأ الجمهور: ﴿سَأَزُلُّ بِشَلِّ مَا أُنزِلَ اللهُ﴾ بتخفيف، وقرأ أبو حيوه: ﴿سَأَنْزُلُّ﴾ بفتح النون وتشديد الزاي.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْقُلُوبُ أَلْفَاةً﴾ الآية. جواب [لَسَوْا] محذوف تقديره: لرأيت عجباً أو هولاً ونحو هذا. وحذف هذا الجواب أبلغ من نصه، لأن السامع إذا لم ينص له الجواب يترك مع غاية

من أنها قبله كل قرية، فهي - لهذا كله - أم وسائر القرى بنات، وتقدير الآية: لتندرد أهل أم القرى. ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يريد أهل سائر الأرض، و ﴿حَوْلَهَا﴾ ظرف، والفاعل فيه فعل مضمرة تقديره: ومن استقر حولها.

ثم ابتداء تعالى مدح قوم وصفهم وأخبر عنهم أنهم يؤمنون بالآخرة والبعث والنشور. و﴿يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ وَيَصَدِّقُونَ بِحَقِّقَتِهِ، ثُمَّ قُوَى تَبَارَكَ وَتَعَالَى مَدْحُهُمْ بِأَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ عَلَى صَلَاتِهِمُ الَّتِي هِيَ قَاعِدَةُ الْعِبَادَاتِ وَأُمُّ الطَّاعَاتِ، وَقَرَأَ الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ، وَأَبُو بَكْرٍ عَنِ عَاصِمٍ بِالْإِفْرَادِ فَإِنَّهُ مُفْرَدٌ يَدُلُّ عَلَى الْجَمْعِ، وَإِذَا انْضَافَتِ الصَّلَاةُ إِلَى ضَمِيرٍ لَمْ تَكْتُبْ إِلَّا بِالْأَلْفِ وَلَا تَكْتُبْ فِي الْمَصْحَفِ بَوَاوٍ إِلَّا إِذَا لَمْ تَضْفِ إِلَى ضَمِيرٍ.

٩٣ تفسير قوله عز وجل:

هذه ألفاظ عامة، فكل من واقع شيئاً مما يدخل تحت هذه الألفاظ فهو داخل في الظلم الذي قد عظمه الله تعالى بقوله: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ أي: لا أحد أظلم. وقال قتادة وغيره: المراد بهذه الآيات مسيلمة والأسود العنسي، وذكروا رؤية النبي ﷺ للسوزيين، وقال السدي: المراد بها عبدالله بن سعد بن أبي سرح العامري، وكان يكتب للنبي ﷺ الوحي، وكان أخا عثمان بن عفان رضي الله عنه من الرضاعة، فلما نزلت ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُفُوسَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا

منه على جهة الإهانة وإدخال الرعب عليه.

وقوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ نُجْزِيكَ عَذَابَ الْهُونِ﴾ الآية. هذه حكاية عن قول الملائكة للكفرة عند قبض أرواحهم. و ﴿الْهُونُ﴾: الهوان، ومنه قول ذي الإصبع:

إِلَيْكَ عَنِّي فَمَا أُمِّي بِرَاعِيَةٍ
تُرْعَى الْمُخَاضُ وَلَا أُغْضِي عَلَى الْهُونِ
وقرأ عبدالله بن مسعود، وعكرمة: ﴿عَذَابَ الْهُونِ﴾ بالألف.

وقوله تعالى: ﴿تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ عِبْرَةٌ الْخَوْفُ﴾ لفظ جامع لكل نوع من الكفر، ولكنه يظهر منه ومن قوله: ﴿وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ الإنحاء على من قرب ذكره من هؤلاء الذين ادعوا الوحي، وأن يُنزّلوا مثل ما أنزل الله، فإنها أفعال بين فيها قول غير الحق على الله، وبين فيها الاستكبار.

﴿٩٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه حكاية عما يقال لهم بعد قبض أرواحهم، فإما عند خروجها من الأجساد، وإما يوم القيامة، كل ذلك محتمل.

و ﴿فَرْدَائِي﴾ معناه: فرداً فرداً، والألف في آخره ألف تانيث، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الثُّعْرَابَ الرُّزُقَ تَحْتَ لَبَانِهِ
فِرَادَى وَمَنْشَى أضعفثها صواهلته
وقرأ أبو خيوة: ﴿فِرَادَى﴾ متوناً على وزن فعال وهي لغة تميم، ﴿وَفِرَادَى﴾ قيل: جمع فرّد بفتح الراء، وقيل: جمع فرّد بإسكان الراء، والمقصد في الآية توقيف الكفار على انفرادهم وقلة النصير

واحتياجهم إلى الله عز وجل يفقد الخَوْل والشفعاء، فيكون قوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ تشبيهاً بالانفراد الأول في وقت الخَلْق. ويتوجه معنى آخر وهو: أن يتضمن قوله تعالى: ﴿كَمَا خَلَقْتُمْ﴾ زيادة معان على الانفراد كأنه قال: ولقد جنتمونا فرادى وبأحوال كذا، والإشارة - على هذا - بقوله تعالى: ﴿كَمَا﴾ هي إلى ما قاله النبي ﷺ في صفة من يُخَشَّر: «إِنَّهُمْ يَحْشَرُونَ حُفَاةَ عُرَاةٍ غُرْلَاءَ».

و ﴿خَوْلَتَكُمْ﴾ معناه: أعطيناكم، وكان أبو عمرو بن العلاء ينشد بيت زهير:

هَذَا لِكَ إِنْ يُسْتَخُولُوا الْمَالَ يُخُولُوا
وَإِنْ يُسْأَلُوا يُعْطُوا وَإِنْ يُبَسَّرُوا يُغْلُوا
و ﴿وَرَاةَ ظُهُورِكُمْ﴾ إشارة إلى الدنيا لأنهم يتركون ذلك موجوداً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَزَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ﴾، الآية توقيف على الخطأ في عبادة الأصنام وتعظيمها، قال الطبري: وروي أن هذه الآية نزلت في النضر بن الحارث لأنه قال: سوف تشفع لي اللات والعزى.

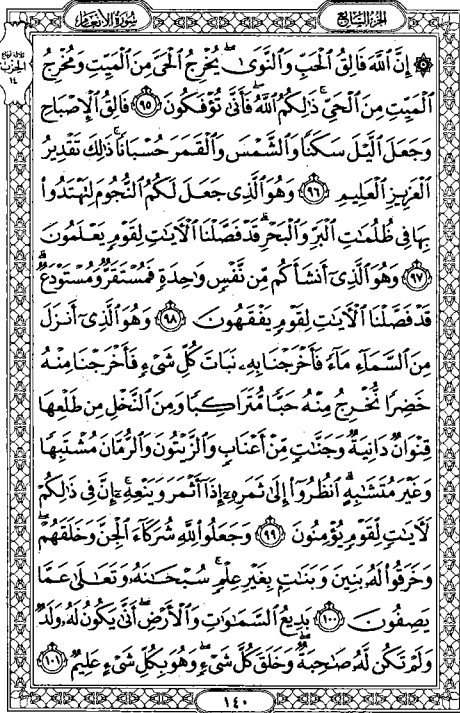
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن كان من العرب يعتقد أنها تشفع وتقرب إلى الله رُفَى ويرى شركتها بهذا الوجه فمخاطبتهم بالآية متمكن، وهكذا كان الأكثر، ومن كان منهم لا يقر بإله غيرها فليس هو في هذه الآية.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة ﴿بَيْنِكُمْ﴾ بالرفع، وقرأ نافع والكسائي: ﴿بَيْنَكُمْ﴾ بالنصب، أما

الرفع فعلى وجوه: أولاً أنه الطرف استعمال اسماً وأسند إليه الفعل كما قد استعمالوه اسماً في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾، وكقولهم فيما حكى سيبويه: «أحمر بين العينين»، ورجح هذا القول أبو علي الفارسي، والوجه الآخر أن بعض المفسرين منهم الزهراوي والمهدوي وأبو الفتح وسواهم حكوا أن (البين) في اللغة يقال على الافتراق وعلى الوصل، فكأنه قال: لقد تقطع وصلكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا عندي اعتراض لأن ذلك لم يُرَوَّ مسموعاً عن العرب، وإنما انتزع من الآية، والآية محتملة، قال الخليل في العين: «والبين: الوصل» لقوله عز وجل: ﴿لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ فَعَلَّلَ سَوْقَ اللَّفْظَةِ بِالْآيَةِ، وَالْآيَةِ مَعْرُضَةً لِغَيْرِ ذَلِكَ. أَمَا أَنْ أَبَا الْفَتْحِ قَوَى أَنْ الْبَيْنَ: الْوَصْلُ، وَقَالَ: «وَقَدْ أَتَى ذَلِكَ بَعْضُ الْمُحَدِّثِينَ بِقَوْلِهِ: قَدْ أَنْصَفَ الْبَيْنَ مِنَ الْبَيْنِ». وَالْوَجْهُ الثَّلَاثُ مِنْ وَجْهِ الرَّفْعِ أَنْ يَكُونَ الْبَيْنَ عَلَى أَصْلِهِ مِنَ الْفُرْقَةِ مِنْ: بَانَ بَيْنَ إِذَا بَعُدَ، وَيَكُونُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَقَطَّعَ﴾ تَجَوَّزَ عَلَى نَحْوِ مَا يُقَالُ فِي الْأَمْرِ الْبَعِيدِ فِي الْمَسَافَةِ: «تَقَطَّعَ الْفَجَاجَ بَيْنَ كَذَا وَكَذَا» عِبَارَةٌ عَنْ بُعْدِ ذَلِكَ. وَيَكُونُ الْمَقْصِدُ: لَقَدْ تَقَطَّعَ الْمَسَافَةَ بَيْنَكُمْ لَطَوْلَهَا، فَعَبَّرَ عَنْ ذَلِكَ بِالْبَيْنِ الَّذِي هُوَ الْفُرْقَةُ.

وأما وجه قراءة النصب فأن يكون ظرفاً ويكون الفعل مستنداً إلى شيء محذوف وتقديره: لقد تقطع



خالق، وقال السدي: وأبو مالك: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ إشارة إلى إخراج النبات الأخضر والشجر الأخضر من الحب اليابس والنوى اليابس، فكأنه جعل الخضرة والنضارة حياة، واليابس موتاً. ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ إشارة إلى إخراج الحب اليابس من النبات والشجر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: بل ذلك كله إشارة إلى إخراج النطفة الميتة من الإنسان الحي، وكذلك

الاتصال أو الارتباط بينكم، أو نحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وجه واضح، وعليه فسره الناس: مجاهد، والسدي، وغيرهما. ووجه آخر يراه أبو الحسن الأخفش، وهو: أن يكون الفعل مسنداً إلى الطرف ويبقى الطرف على حال نصبه وهو في النية مرفوع، ومثل هذا عنده قوله تعالى: ﴿وَأَنَا مِتًّا مُضِلٍّ حَيًّا وَمِتًّا دُونَ ذَلِكَ﴾.

وقرأ ابن مسعود، ومجاهد، والأعمش: ﴿تَقَطَّعَ مَا بَيْنَكُمْ﴾ بزيادة (ما)، و ﴿وَصَلَّ﴾ معناه: تليف وذهب، و ﴿مَا كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ يريد دعواهم أنها تشفع وتشارك الله في الألوهية.

١٤٠ - ١٤١ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء تنبيه على العبرة والنظر، ويتصل المعنى بما قبله لأن القصد: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ لا هذه الأصنام، وقال مجاهد، وأبو مالك: هذه إشارة إلى الشق الذي في حبة البرّ ونواة التمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعبرة - على هذا القول - مخصوصة في بعض الحبّ وبعض النوى، وليس لذلك وجه. وقال الضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم: هذه إشارة إلى فعل الله في أن يشق جميع الحبّ عن جميع النبات الذي يكون منه، ويشق النوى عن جميع الأشجار الكائنة عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الظاهر الذي يعطي العبرة التامة، فسبحان الخلاق العليم.

وقال الضحاك: ﴿فَالِقُ﴾ بمعنى

سائر الحيوان والطير من البيض والحوت وجميع الحيوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أرجح، وإنما تعلق قائلو القول الأول بتناسب تأويلهم مع قوله تعالى: ﴿فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ﴾، وهما على هذا التأويل الراجح معنيان متباينان فيهما معتبر.

وقال الحسن: المعنى: يخرج المؤمن من الكافر، والكافر من المؤمن.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ﴾ ابتداء وخبر متضمن التنبيه. ﴿فَالِقُ ثَوَّفَكُورُ﴾ أي: تصرفون وتصدون.

و ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾، أي: شأته ومظهره، والفلق: الصبح، وقرأ الجمهور: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وعيسى بن عمر، وأبو

رجاء: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بفتح الهمزة جمع صبح، وقرأت فرقة: ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بحذف التنوين من ﴿فَالِقُ﴾ لالتقاء الساكنين ونصب ﴿الْإِصْبَاحِ﴾ بـ ﴿فَالِقُ﴾ كأنه أراد ﴿فَالِقُ الْإِصْبَاحِ﴾ بتنوين القاف، وهذه قراءة شاذة، وإنما جوّز سيبويه مثل هذا في الشعر، وأشد عليه:

فَأَلْفَيْتُهُ غَيْرَ مُسْتَفْعِبٍ
ولا ذا كَرِ الله إِلا قَلِيلاً
وحكى النحاس عن الميزد جواز ذلك في الكلام. وقرأ أبو حيوة، وإبراهيم النخعي، ويحيى بن وثاب: ﴿فَلَقَّ الْإِصْبَاحِ﴾ بفعل ماض. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَجَاهِلَ اللَّيْلِ﴾، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَجَمَلَ اللَّيْلِ﴾، وهذا لما كان ﴿فَالِقُ﴾ بمعنى الماضي فكان اللفظ

فَلَقَّ الإِضْبَاحَ وَجَعَلَ، ويؤيد ذلك نصب ﴿السَّمَنَ وَالْقَمَرَ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿سَكَا﴾، وروي عن يعقوب ﴿سَاكِنًا﴾، قال أبو عمرو الداني: ولا يصح ذلك عنه، ونصبه بفعل مضمّر إذا قرأنا: ﴿يَجَاعِلُ﴾ لأنه بمعنى المضي، وتقدير الفعل المضمّر: «وجاعل الليل يجعله ساكناً»، وهذا مثل قولك: «هذا معطي زيد أمس درهماً»، والذي حكاه أبو علي في هذا أن ينتصب بما في الكلام من معنى: (مُعْطِي)، وقرأ أبو حيوة: ﴿وَالشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾ بالخفض عطفاً على لفظ ﴿أَيْلٍ﴾.

و ﴿حِسَابًا﴾ جمع حساب، كشبهان في جمع شهاب، أي: تجري بحساب. هذا قول ابن عباس، والسدي، وقناة، ومجاهد، وقال مجاهد في صحيح البخاري: المراد حسابان كحسبان الرحي، وهو الدولار والعود الذي عليه دورانه.

١٧٧ - ١٧٨ تفسير قوله عز وجل:

هذه المخاطبة تعم المؤمنين والكافرين، فالحجة بها على الكافرين قائمة، والعبرة بها للمؤمنين ممكنة متعرضة، و ﴿جَعَلَ﴾ هنا بمعنى خلق لدخولها على مفعول واحد، وقد يمكن أن تكون بمعنى صَيَّرَ، ويُقدَّر المفعول الثاني في ﴿لِيُنذِرَ﴾ لأنه يُقدَّر: «وهو الذي جعل لكم النجوم هداية». و ﴿فِي ظُلُمَاتٍ﴾ هي ها هنا على حقيقتها في ظلمة الليل بقرينة ﴿النُّجُومِ﴾ التي لا تكون إلا بالليل. ويصح أن تكون الظلمات هنا الشدائد في المواضع التي يتفق أن يهتدى فيها بالشمس.

وذكر الله تبارك وتعالى النجوم في ثلاث منافع، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾. فالواجب أن يعتقد أن ما عدا هذه الوجوه من أهل التأثير باطل واختلاق على الله وكُفْرٌ به.

و ﴿فَسَلْنَا﴾ معناه: بَيَّنَّا وَقَسَمْنَا، و ﴿الْآيَاتِ﴾ الدلائل، و ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ تخصيص لهم بالذكر، وتنبية منهم لتحصيلهم الآيات المفصلة المنصوبة وغيرهم تمر عليهم الآيات وهم معرضون عنها. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَجَدَّوْهُ فَسَقَّرَ وَمُسَوِّدًا﴾ الآية. الإنشاء: ابتداء فعل الشيء، و ﴿مِّن نَّفْسٍ وَجَدَّوْهُ﴾ يريد آدم عليه السلام.

وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ بفتح القاف على أنه موضع استقرار، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿فَمُسْتَقَرًّا﴾ بكسر القاف على أنه اسم فاعل، وأجمعوا على فتح الدال من ﴿مُسْتَوْدِعًا﴾ بأن يقدر موضع استيداع، وأن يقدر أيضاً مفعولاً، ولا يصح ذلك في ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ لأن (استقر) لا يتعدى فيبنى منه مفعول، أما أنه روى هارون الأعور عن أبي عمرو ﴿مُسْتَوْدِعًا﴾ بكسر الدال، فمن قرأ: ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُسْتَوْدِعًا﴾ على أنها موضع استقرار وموضع استيداع علقها بمجرور تقديره: «فلكم مستقر ومستودع»، ومن قرأ: ﴿فَمُسْتَقَرًّا

وَمُسْتَوْدِعًا﴾ على اسم الفاعل في ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ واسم المفعول في ﴿مُسْتَوْدِعًا﴾ علقها بمجرور تقديره: «فمنكم مستقر ومستودع»، واضطرب المتأولون في معنى الاستقرار والاستيداع، فقال الجمهور: مستقر في الرحم، ومستودع في ظهور الآباء حتى يقضي الله بخروجهم، وقال ابن عون: مشيت إلى منزل إبراهيم النخعي وهو مريض فقالوا: قد توفي، فأخبرني بعضهم أن عبدالرحمن بن الأسود سأله عن ﴿مُسْتَقَرًّا وَمُسْتَوْدِعًا﴾ فقال: مستقر في الرحم ومستودع في الصلب، وقال الحسن بن أبي الحسن: مستقر في القبور ومستودع في الدنيا، وقال ابن عباس: المستقر: الأرض، والمستودع عند الرحم، وقال ابن جبير: المستودع في الصلب والمستقر في الآخرة، والذي يقتضيه النظر أن ابن آدم هو مستودع في ظهر أبيه، وليس بمستقر فيه استقراراً مطلقاً لأنه ينتقل لا محالة: ينتقل إلى الرحم، ثم ينتقل إلى الدنيا، ثم ينتقل إلى القبر، ثم ينتقل إلى المحشر، ثم ينتقل إلى الجنة أو النار فيستقر في إحداها استقراراً مطلقاً، وليس فيها مستودع لأنه لا نقلة له بعد، وهو في كل رتبة متوسطة بين هذين الطرفين مستقر بالإضافة إلى التي قبلها، ومستودع بالإضافة إلى التي بعدها، لأن لفظ الوديعه يقتضي فيها نقلة ولا بد.

و ﴿يَقْفُونَ﴾ معناه: يفهمون، وقد تقدم تفسير مثل هذا أنفاً.

﴿٩٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿السَّمَاءِ﴾ - في هذا الموضع :-
السحاب، وكل ما أظلك فهو سماء.
و ﴿مَاءٍ﴾ أصله (مَوْه) تحركت الواو
وانفتح ما قبلها فجاء (ماء) فبدلت
الهاء بالهمزة لجلد الهمزة لأن الألف
والهاء ضعيفان مهموسان.

وقوله: ﴿بَنَاتٍ كُنَّ شَجَرًا﴾. قال
بعض المفسرين: أي مما بُنيت،
وحسن إطلاق العموم في ﴿كُلِّ شَجَرٍ﴾
لأن ذكر النبات قبله قد قيد
المقصد، وقال الطبري: المراد بـ
﴿كُلِّ شَجَرٍ﴾ ما ينمو من جميع
الحيوانات والنبات والمعادن وغير
ذلك، لأن ذلك كله يتغذى وينمو
بنزول الماء من السماء، والضمير في
﴿بُنِيَ﴾ يعود على النبات، وفي
الثاني يعود على الخضر، و
﴿خَضِرًا﴾ بمعنى أخضر، ومنه قوله
عليه الصلاة والسلام: «الدنيا خضرة
حُلوة» بمعنى: خضراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وكان (خضراً) إنما يأتي أبداً لمعنى
النضارة، وليس للون فيه مدخل، و
(أخضر) إنما تمكنه في اللون، وهو
في النضارة تجوز.

وقوله: ﴿حَبًّا مُدَكِّبًا﴾ يعُمُّ
جميع السنابل وما شاكلها كالصنوبر
والرمان وغيرها من جميع النبات.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّخْلِ﴾
تقديره: ونخرج من النخل، و ﴿مِنَ﴾
للملحمة فتواناً ابتداء خبره مقدم،
والجملة في موضع المفعول به
﴿نَخْرَجُ﴾، والطلع: أول ما يخرج
من النخلة في أكامه، و ﴿فَتَوَانٌ﴾
جمع فتو وهو العنق بكسر العين وهو

الكباسة، والعرجون: عوده الذي
ينتظم الثمر. وقرأ الأعرج ﴿فَتَوَانٌ﴾
بفتح القاف، وقال أبو الفتح: ينبغي
أن يكون اسماً للجمع غير مكسر لأن
فعلان ليس من أمثلة الجمع، قال
المهدوي: وروي عن الأعرج ضم
القاف، وذلك على أنه جمع فتو بضم
القاف، قال الفراء: وهي لغة قيس
وأهل الحجاز، والكسر أشهر في
العرب. وفتو يُقْنَى فتوان منصرفة
النون. و ﴿ذَائِبَةً﴾ معناها: قريبة من
المتناول، قاله ابن عباس، و
البراء بن عازب، والضحاك. وقيل:
قريبة بعضها من بعض.

وقرأ الجمهور: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾ بنصب
﴿وَجَنَّاتٍ﴾ عطفاً على قوله تعالى:
﴿بَنَاتٍ﴾، وقرأ الأعمش،
ومحمد بن أبي لیلی، ورويت عن
أبي بكر عن عاصم: ﴿وَجَنَّاتٍ﴾
بالرفع على تقدير: ولكم جنات، أو
نحو هذا. وقال الطبري: هو عطف
على ﴿فَتَوَانٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقوله ضعيف.

﴿وَالزَّرْتُونَ وَالرُّمَّانَ﴾ بالنصب إجماعاً
عطفاً على قوله تعالى: ﴿حَبًّا﴾، و
﴿مُسْتَدْبِهَا وَغَيْرَ مُنْشَبِهَا﴾ قال قتادة:
معناه: تتشابه في اللون وتباین في
الثمر، وقال الطبري: جائز أن تتشابه
في الثمر وتباین في الطعم، ويحتمل
أن يريد: تتشابه في الطعم وتباین
في المنظر، وهذه الأحوال موجودة
بالاعتبار في أنواع الثمرات.

وقوله تعالى: ﴿انظُرُوا﴾ هو نظر
بصر يترتب عليه فكرة قلب. وقرأ
ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن

عامر، وعاصم: ﴿إِلَّا ثَمَرًا﴾ بفتح
الثاء والميم، وهو جمع ثَمَرَةٌ كبقرة
ويقر، وشجرة وشجر، وقرأ
يحيى بن وثاب، ومجاهد:
﴿ثَمَرًا﴾، قالوا: وهي أصناف المال.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كأن المعنى: انظروا إلى الأموال التي
تتحصل منه، وهي قراءة حمزة
والكسائي، قال أبو علي: والأحسن
فيه أن يكون جمع ثمرة كخشبة
وحُشْب وأكمة وأكم، ومنه قول
الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
ونظيره في المعتل: لابة ولوب
وناقة ونوق وساحة وسوح، ويجوز
أن تكون جمع جمع فتقول: ثَمَرَةٌ
وِثْمَارٌ وَثَمَرٌ مثل جمار وحُمُر.
وقرأت فرقة: ﴿إِلَى ثَمَرِهِ﴾ بضم الثاء
وإسكان الميم كأنها ذهبت إلى طلب
الخفة في تسكين الميم. والثمر في
اللغة: جنى الشجر وما يطلع، وإن
سمي الشجر ثماراً فتجوز.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَتَبَوَّءَهُ﴾
بفتح الياء، وهو مصدر يَبْعُ يَبْعُ إذا
نَضِجَ، يقال: يَبْعُ وَأَيْبَعُ، وبالنضج
فسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه
الآية، ومنه قول الحجاج: «إني
لأرى رؤوساً قد أَيْبَعَتْ»، ويستعمل
يَبْعُ بمعنى: استقل واخضر ناضراً،
ومنه قول الشاعر:

فِي قَبَابِ حَوْلِ دَشْكِرَةَ
حَوْلَهَا الزُّبَيْشُونَ قَدْ يَسْمَعُوا
وقيل في ﴿وَتَبَوَّءَهُ﴾ أنه جمع يانع
مثل: تاجر وتجر وراكب وركب،
ذكره الطبري، وقرأ ابن محيصن،

وقوله تعالى: ﴿يَتَذَكَّرُ عَلَيْهِمْ﴾ نص على قبح تقمهم المجهولة وافترائهم الباطل على عمى، ﴿سُحَّخَتْهُ﴾ أي: تَنَزَّهَ عن وصفهم الفاسد المستحيل عليه تبارك وتعالى. و ﴿يَدِينُ﴾ بمعنى: مبدع ومخترع وخالق، فهو بناء اسم فاعل كما جاء سميع بمعنى سميع. و ﴿أَنَّ﴾ بمعنى: كيف؟ ومن أين؟ فهي استفهام في معنى التوقيف والتقرير.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَنْزَلْنَا كُنُوزًا﴾ بالناء على تأنيث علامة الفعل، وقرأ إبراهيم التخمي بالياء على تذكيرها. وتذكير كان وأخواتها مع تأنيث اسمها أسهل من ذلك في سائر الأفعال، فقولك: «كان في الدار هنده أسوُّع من: «قام في الدار هنده، وحسن القراءة الفصل بالظرف الذي هو الخير، ويتجه في القراءة المذكورة أن يكون في ﴿يَكُنُ﴾ ضمير اسم الله تبارك وتعالى، وتكون الجملة التي هي: ﴿أَنْزَلْنَا كُنُوزًا﴾ خبر كان، ويتجه أن يكون في ﴿يَكُنُ﴾ ضمير أمر وشأن، وتكون الجملة بعد تفسيراً له وخبراً، وهذه الآية رد على الكفار بقياس الغائب على الشاهد.

وقوله تعالى: ﴿وَوَخَّلَا كُلُّ شَيْءٍ﴾ لفظ عام لكل ما يجوز أن يدخل تحته، ولا يجوز أن يدخل تحته صفات الله تعالى وكلامه، فليس هو عموماً مخصصاً على ما ذهب إليه قوم، لأن العموم المخصص هو أن يتناول العموم شيئاً ثم يخرج منه التخصيص، وهذا لم يتناول قط هذه التي ذكرناها، وإنما هذا بمنزلة قول

ذكر عزيز، والنصارى في ذكر المسيح، وأما ذاكروا البنات فالعرب الذين قالوا للملائكة: بنات الله، فكان الضمير في ﴿جَمَلُوا﴾ و ﴿وَحَرَّفُوا﴾ لجميع الكفار، إذ فعل بعضهم هذا وبعضهم هذا، وبشعر هذا فسّر السدي وابن زيد، وقرأ شعيب بن أبي حمزة: ﴿شُرَكَاءُ الْجِنِّ﴾ بخفض النون، وقرأ يزيد بن قطيب، وأبو حيوة ﴿الْجِنِّ﴾ و ﴿الْجِنِّ﴾ بالخفض والرفع على تقدير: هم الجن.

وقرأ الجمهور:

﴿وَوَخَّلَاهُمْ﴾ بفتح اللام على معنى: وهو خلقهم، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَهُوَ خَلَقَهُمْ﴾، والضمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾ يحتمل العودة على الجاعلين، ويحتملها على المجموعين، وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿وَوَخَّلَاهُمْ﴾ بسكون اللام عطفاً على ﴿أَلْيَيْنَ﴾، أي: جعلوا خلقهم الذي ينحتونه أصناماً شركاء لله.

وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿وَحَرَّفُوا﴾ بتخفيف الراء، وهو بمعنى: اختلقوا وافتروا، وقرأ نافع: ﴿وَوَحَّرَفُوا﴾ بتشديد الراء على المبالغة، وقرأ ابن عمر، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَوَحَّرَفُوا﴾ من التحريف، كذا قال أبو الفتح، قال أبو عمرو الداني: قرأ ابن عباس: ﴿وَحَرَّفُوا﴾ خفيفة الراء، وابن عمر ﴿وَحَرَّفُوا﴾ مشددة الراء.

ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَأَعْتَدَهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٠﴾ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٠١﴾ فَجَاءَ كُمْ بِصَافِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٢﴾ وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لِيُوقِلُوا أَدْرَسَتْ وَلِيُتَبَيَّنَ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾ أَنْتَبِعْ مَا أَرْجَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرَضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٤﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٥﴾ وَلَا تَسْتَوُوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسْبُوا اللَّهَ عَدَاوَةً بَغِيرَ عَلِيمٍ كَذَلِكَ رَسَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا لِكُلِّ أُمَّةٍ جَمَلَةٌ لِمَنْ إِلَى رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْدِيهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ آيَةٌ لَيُؤْمِنُنَّ بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٧﴾ وَنَقَلْنَا عَنْهُمْ وَأَنْصَرْنَاهُمْ كَمَا تَرَى يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرْنَاهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٠٨﴾

وقتادة والضحاك: ﴿وَوَسَّعِهِ﴾ بضم الياء، أي نضجه، وقرأ ابن أبي عملة، واليماني: ﴿وَوَسَّعِهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ إيجاب تنبيه وتذكير، وتقدم تفسير مثله.

﴿١٠٠﴾ - ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿جَمَلُوا﴾ بمعنى: صيروا و ﴿أَلْيَيْنَ﴾ مفعول، و ﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعول ثانٍ مقدم، ويصح أن يكون قوله تعالى: ﴿شُرَكَاءَ﴾ مفعولاً أولاً، و ﴿لِلَّهِ﴾ في موضع المفعول الثاني، و ﴿أَلْيَيْنَ﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿شُرَكَاءَ﴾. وهذه الآية مشيرة إلى العادلين بالله عز وجل، والقائلين إن الجن تعلم الغيب، العابدين للجن، وكانت طوائف من العرب تفعل ذلك وتستجير بجن الأودية في أسفارها، ونحو هذا.

وأما الذين خرّقوا البنين فاليهود في

الإنسان: «قتلت كلَّ فارس وأفحمت كلَّ خصم»، فلم يدخل القاتل قط في هذا العموم الظاهر من لفظه، وأما قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ فهذا عموم على الإطلاق لأن الله عزَّ وجلَّ يعلم كل شيء لا ربَّ غيره ولا معبود سواه.

ولما تقررت الحُجُجُ وبنات الوجدانية جاء قوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الآية، تتضمن تقريراً وحكماً إخلاصاً وأمرأً بالعبادة، وإعلاماً بأنه - تفيظ رقيب على كل فعل وقول، وفي هذا الإعلام تخويف وتحذير.

﴿١٠٣﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

أجمع أهل السنة على أن الله تبارك وتعالى يُرَى يوم القيامة، يراه المؤمنون، قاله ابن وهب عن مالك بن أنس رضي الله عنه، والوجه أن يبين جواز ذلك عقلاً ثم يستند إلى ورود السمع بوقوع ذلك الجائز، واختصار تبين ذلك أن يُعتبر بعلمنا بالله عزَّ وجلَّ، فمن حيث جاز أن نعلمه لا في مكان ولا متميزاً ولا متقابلاً ولم يتعلق علمنا بأكثر من الوجود، جاز أن نراه غير مقابل ولا محاذي ولا مكيفاً ولا محدوداً، وكان الإمام أبو عبد الله النحوي يقول: مسألة العلم حَلَقَتْ لِحَى المعتزلة، ثم ورد الشرع بذلك وهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿ذُؤُوبٌ يُوَبِّذُ نَازِعَةً ﴿١٠٣﴾ إِنَّ رَبَّهَا نَاطِقَةٌ ﴿١٠٤﴾ وتعددية النظر بإلى إنما هو في كلام العرب لمعنى الرؤية لا معنى الانتظار على ما ذهب إليه المعتزلة، وذكر هذا المذهب لمالك فقال: «فأين هم عن

قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمِئِذٍ لَمَخْرُوبُونَ ﴿١٠٤﴾؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقال بدليل الخطاب. ذكره النقاش، ومنه قول النبي ﷺ فيما صحَّ عنه وتواتر وكثر نقله: «إنكم ترون ربكم يوم القيامة كما ترون القمر ليلة البدر»، ونحوه من الأحاديث على اختلاف ترتيب ألفاظها.

وذهبت المعتزلة إلى المنع من جواز رؤية الله تعالى يوم القيامة، واستحالة ذلك بآراء مجردة، وتمسكوا بقوله تعالى: ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْآبْصَارُ﴾ وانفصل أهل السنة عن تمسكهم بأن الآية مخصوصة في الدنيا، ورؤية الآخرة ثابتة بأخبارها. وانفصال آخر وهو أن يفرق بين معنى الإدراك ومعنى الرؤية. ونقول: إنه عزَّ وجلَّ تراه الأبصار ولا تدركه وذلك أن الإدراك يتضمن الإحاطة بالشيء والوصول إلى أعماقه وحوزه من جميع جهاته، وذلك كله محال في أوصاف الله عزَّ وجلَّ، والرؤية لا تنفقر إلى أن يحيط الرائي بالمزني ويبلغ غايته، وعلى هذا التأويل يترتب العكس في قوله: ﴿وَهُوَ يَدْرِكُ الْآبْصَارَ﴾ ويحسن معناه. ومثل هذا روي عن ابن عباس، وقاتدة، وعطية العوفي، فرقوا بين الرؤية والإدراك. وأما الطبري رحمه الله ففرق بين الرؤية والإدراك، واحتج بقول بني إسرائيل: ﴿إِنَّا لَمَدْرِكُونَ﴾ فقال: إنهم رأوهم ولم يدركوهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله خطأ لأن هذا الإدراك ليس

بإدراك البصر، بل هو مستعار منه أو باشتراك. قال: وقال بعضهم: إن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى بحاسة سادسة تُخلَق يوم القيامة، وتبقى هذه الآية في منع الإدراك بالأبصار عامة سليمة، قال: وقال بعضهم: إن هذه الآية مخصوصة في الكافرين، أي أنه لا تدركه أبصارهم لأنهم محجوبون عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الأقوال كلها ضعيفة ودعاؤ لا تستند إلى قرآن ولا حديث.

و ﴿الطَّيِّفُ﴾ المتلطف في خلقه واختراعه وإتقانه، وبخلقه وعباده و ﴿الْحَيَّرُ﴾ المختبر لباطن أمورهم وظاهرها.

والبصائر: جمع بصيرة وهي ما يتفق عن تحصيل العقل للأشياء المنظور فيها بالاعتبار، فكأنه قال: قد جاءكم في القرآن والآيات طرائق إِبصار الحق والمعنية عليه. والبصيرة للقلب مستعارة من إِبصار العين، والبصيرة أيضاً هي المُعْتَقَدُ المُحْصَلُ في قول الشاعر:

راحوا بِبَصَائِرِهِمْ على أكتافِهِمْ
وبصيرتي يعدو بها عَتَدٌ وَأَيُّ
وقال بعض الناس في هذا البيت:
البصيرة: طريقة الدم، والشاعر إنما يصف جماعة مَشَوْا به في طلب الدم ففتروا فجعلوا الأمر وراء ظهورهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَبْصَرَ ﴿١٠٣﴾ وَمَنْ عَمِيَ ﴿١٠٤﴾ عبارة مستعارة فيمن اهتدى ومن ضلَّ، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ كان في أول الأمر وقبل ظهور الإسلام، ثم بعد ذلك كان رسول الله ﷺ حفيظاً على

العالم آخذاً لهم بالإسلام والسيف.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ لَدِينَتْ﴾ الآية. الكاف في قوله سبحانه: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿نُفَصِّلُ﴾، أي: ومثل ما بيئنا البصائر وغير ذلك نصرف الآيات، أي نردها ونوضحها، وقرأت طائفة: ﴿وَلْيَقُولُوا فَذَرْنَتْ﴾ بسكون اللام على جهة الأمر، ويتضمن التوبيخ والوعيد. وقرأ الجمهور: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ بكسر اللام على أنها لام كي، وهي - على هذا - لام الصيرورة كقوله تعالى: ﴿فَالْقَلْبَ مَالٍ فَغُورًا﴾ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا، أي: لما صار أمرهم إلى ذلك. وقرأ نافع، وعاصم، وحمرزة، والكسائي: ﴿ذَرَسَتْ﴾ أي يا محمد درست في الكتب القديمة ما تُجيبنا به، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿دارست﴾ أي أنت يا محمد دارست غيرك في هذه الأشياء، أي: قارأته وناظرته، وهي إشارة منهم إلى سلمان وغيره من الأعاجم واليهود، وقرأ ابن عامر وجماعة من غير السبعة: ﴿ذَرَسَتْ﴾ بإسناد الفعل الآيات كأنهم أشاروا إلى أنها ترددت على أسماعهم حتى بليت في نفوسهم واثحت، قال أبو علي: واللام في ﴿لِيَقُولُوا﴾ - على هذه القراءة بمعنى: لئلا يقولوا، أي: صرفت الآيات وأحكمت لئلا يقولوا: هذه أساطير قديمة قد بليت وتكررت على الأسماع، واللام في سائر القراءات لام الصيرورة. وقرأت فرقة: ﴿ذَارَسَتْ﴾ كأنهم أرادوا: دارسك يا محمد، أي الجماعة

المشار إليها قبل من سلمان واليهود وغيرهم، وقرأت فرقة: ﴿ذَرَسَتْ﴾ بضم الراء، وكأنها في معنى ﴿ذَرَسَتْ﴾ أي بليت، وقرأ قتادة: ﴿ذَرَسَتْ﴾ بضم الدال وكسر الراء، وهي قراءة ابن عباس بخلاف عنه، ورويت عن الحسن، قال أبو الفتح: في ﴿ذَرَسَتْ﴾ ضمير ﴿الآيَاتِ﴾، ويحتمل أن يراد: عفيت وتنويت، وقرأ أبي بن كعب: ﴿ذَرَسَ﴾ وهي في مصحف عبدالله، قال المهدي: وفي بعض مصاحف عبدالله ﴿ذَرَسْنَ﴾، ورويت عن الحسن، وقرأت فرقة: ﴿ذَرَسْنَ﴾ بتشديد الراء على المبالغة في (ذَرَسْنَ)، وهذه الثلاثة الأخيرة مخالفة لخط المصحف.

واللام في قوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ وفي قوله سبحانه: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ متعلقان بفعل متأخر تقديره: صرفناها، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ بالتاء على مخاطبة النبي ﷺ، وقرأت فرقة: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾ بياء أي الله تعالى، وذهب بعض الكوفيين إلى أن (لا) مضمرة بعد (أن) المقدرة في قوله تعالى: ﴿وَلْيَقُولُوا﴾، فتقدير الكلام عندهم: «وأن لا يقولوا»، كما أضمرها في قوله تعالى: ﴿يَبِينُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَصِلُوا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلق، ولا يجيز البصريون إضمار (لا) في موضع من المواضع.

١٠٦ - ١٠٧ تفسير قوله عز وجل: هذان أمران للنبي ﷺ مضمّنهما

الاعتصار على اتباع الوحي وموادة الكفار، وذلك كان في أول الإسلام، ثم نسخ الإعراض عنهم بالقتال والسوق إلى الدين طوعاً أو كرهاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا﴾ في ظاهرها ردٌ على المعتزلة القائلين: إنه ليس عند الله لطف يؤمن به الكافر، وأن الكافر والإنسان في الجملة يخلق أفعاله، وهي متضمنة أن إشراكهم وغيره وقف على مشيئة الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ كان في أول الإسلام، وكذلك ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. مخاطبة للمؤمنين وللنبي ﷺ، وقال ابن عباس: وسبها أن كُفَّرَ قريش قالوا لأبي طالب: إما أن ينتهي محمد وأصحابه عن سب آلهتنا والغض منها وإما أن نسب إلهه ونهجوهُ فنزلت الآية، وحكمها على كل حال باق في الأمة، فمتى كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو النبي ﷺ أو الله عز وجل فلا يحل للمسلم أن يسب دينهم ولا صلبانهم ولا يتعرض إلى ما يؤدي إلى ذلك أو نحوه، وعبر عن الأصنام - وهي لا تعقل - بـ ﴿الَّذِينَ﴾ وذلك على معتقد الكفرة فيها، وفي هذه الآية ضرب من الموادة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَدُوًّا﴾ بفتح العين وسكون الدال نصب على المصدر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاء، وقتادة،

ويعقوب، وسلام، وعبدالله بن زيد: ﴿عَدُوًّا﴾ بضم العين والدال وتشديد الواو، وهذا أيضاً نصب على المصدر وهو من الاعتداء، وقرأ بعض الكوفيين: ﴿عَدُوًّا﴾ بفتح العين وضم الدال نصب على الحال، أي في حال عداوة الله، وهو لفظ مفرد يدل على الجمع.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعْ عِلِّيًّا﴾ بيان لمعنى الاعتداء المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنًا لِّكُلِّ آتَةٍ﴾ إشارة إلى ما زَيْنَ اللهُ لهؤلاء عبدة الأصنام من التمسك بأصنامهم من التمسك بها والدَّبُّ عنها، وتزيين الله عمل الأمم هو ما يخلقه ويخترعه في النفوس من المحبة للخير أو الشر والاتباع لطرفه، وتزيين الشيطان هو ما يقذفه في النفوس من الوسوسة وخطوات السوء، وقوله: ﴿ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ تَرْجِعُهُمْ فَيُنْشِئُهُمْ﴾ يتضمن وعداً جميلاً للمحسنين ووعيداً ثقيلاً للمسيئين.

﴿١٠٩﴾ - ﴿١١٠﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَسْمُوا﴾ عائد على المشركين المتقدم ذكرهم، و﴿جَهَنَّمَ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه ﴿أَسْمُوا﴾ على مذهب سيويه لأنه في معناه، وعلى مذهب أبي العباس الميزد فعل من لفظه. واللام في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ﴾ لام موطنة للقسم مؤذنة به، وأما اللام المتلقية للقسم فيه في قوله سبحانه: ﴿لِيُؤْمِنَنَّ﴾. و﴿آيَاتِهِ﴾ يريد: علامة. وحكي أن الكفار لما نزلت: ﴿إِن نَّسَأْ نَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَظَلَّتْ

أَعْيُنُهُمْ فَمَا خَصَّيْنَهُمْ﴾ ﴿١٠٩﴾ أسماوا حينئذ أنها إن نزلت آمنوا فنزلت هذه الآية، وحكي أنهم اقترحوا أن يعود الصفا ذهباً، وأسموا على ذلك، فقام رسول الله ﷺ يدعو في ذلك، فجاءه جبريل عليه السلام فقال له: **إِنْ شِئْتَ أَصْبَحَ ذَهَباً فَإِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا هَلَكُوا** عن آخرهم معاجلة كما فعل بالأمم إذ لم تؤمنن بالآيات المقترحة، وإن شئت أخروا حتى يتوب تائبهم، فقال رسول الله ﷺ: **بَلْ حَتَّىٰ يَتُوبَ تَائِبِهِمْ**، ونزلت هذه الآية. وقرأ ابن مصرف: ﴿لِيُؤْمِنَنَّ﴾ بفتح الميم والنون وبالنون الخفيفة.

ثم قال تعالى: قل لهم يا محمد على جهة الرذ والتغطية إنما الآيات بيد الله وعنده، ليست عندي فتتوهم علي، ثم قال سبحانه: ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ﴾، فاختلف المتأولون فيمن المخاطب بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ؟﴾ ومن المستفهم ب[مَا] التي يعود عليها الضمير الفاعل في ﴿يُشِيرُكُمْ﴾. فقال مجاهد، وابن زيد: المخاطب بذلك الكفار، وقال الفراء وغيره: المخاطب بها المؤمنون، ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ﴾ معناه: وما يعلمكم؟، وما يدريكم؟ وقرأ قوم: ﴿يُشِيرُكُمْ﴾ بسكون الراء، وهي على التخفيف، و﴿يُحَسِّنُهَا﴾ أن الخروج من كسرة إلى ضمة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم في رواية داود الإيادي: ﴿إِنَّهَا﴾ بكسر الألف على القطع واستشفاف الإخبار، فمن قرأ: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالياء - وهي قراءة ابن عامر وحزمة - استقامت له المخاطبة

أولاً وأخراً للكفار، ومن قرأ: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء - وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو، والكسائي - فيحتمل أن يخاطب أولاً وأخراً المؤمنين، ويحتمل أن يخاطب بقوله تعالى: ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ﴾ الكفار، ثم يستأنف عنهم للمؤمنين، ومفعول ﴿يُشِيرُكُمْ﴾ الثاني محذوف ويختلف تقديره بحسب كل تأويل. وقرأ نافع، وعاصم في رواية حفص، وحزمة، والكسائي، وابن عامر: ﴿إِنَّهَا﴾ بفتح الألف، فمنهم من جعلها (أَنَّ) التي تدخل على الجمل وتأتي بعد الأفعال - كعلمت وظننت - وأعمل فيها ﴿يُشِيرُكُمْ﴾. والتزم بعضهم أن [لَا] زائدة في قوله سبحانه: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾، وأن معنى الكلام: ﴿وَمَا يُشِيرُكُمْ﴾ أنها إذا جاءت يؤمنون أو تؤمنون. فزيدت [لَا] كما زيدت في قوله تعالى: ﴿وَحَكَرُمْ عَلَىٰ قَوْمِهِمْ فَمَلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، لأن المعنى: وحرام على قرية مهلكة رجوعهم، وكما جاءت في قول الشاعر:

أَبِي جُودُهُ لَا الْبُخْلُ وَاسْتَفْجَلَتْ بِهِ
نَعْمَ مِنْ قَتَى لَا يَمْنَعُ الْجُودَ قَاتِلُهُ
قال الزجاج: أراد: أبي جودُهُ الْبُخْلُ، وكما جاءت زائدة في قول الشاعر:

أَفْمِنْكَ لَا يَرْقُ كَأَنَّ وَمِيضُهُ
غَابَ تَسْتَمُّهُ ضَرَامٌ مَشْقَبٌ
ودعا إلى التزام هذا حفظ المعنى، لأنها لو لم تكن زائدة لعاد الكلام عدراً للكفار وفسد المراد بالآية، وضعف الزجاج وغيره زيادة [لَا] وقال: هذا غلط، ومنهم من جعل

﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَكَيْنَا وَكَلَّمَهُم بِاللُّغَةِ وَحَسَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ وَقِيلَ مَا كَانُوا يَوْمِنَا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ ﴿١١١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَاطِئِينَ إِلَّا نِسَاءً وَالْجَنُّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرَفَ الْقَوْلِ غَرُورًا وَأُوْشَاءَ رَبِّكَ مَا فَعَلُوا فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَيَصْغَحَنَّ إِلَيْهِ أَقْبِدَةُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَلَيَرْمِيَهُمْ وَلَيَقْرَأُوا مَا هُمْ مُقْتَرُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّبَعِي حَكْمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونُونَ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِنْ قُطِعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ بِضُلُوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾ فَكُلُوا مِمَّا ذَكَرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾

بِهَا الْأَوْلُونَ ﴿١١١﴾ أي بالآيات المقترحة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويترتب على هذا التأويل أن تكون [ما] نافية، ذكر ذلك أبو علي فتأمل. وترجح عنده أيضاً أن تكون [لا] زائدة، وبسط شواهد في ذلك، وحكى بعض المفسرين أن في آخر الآية حذفاً يستغنى به عن زيادة [لا]، وعن تأويلها بمعنى (لعل)، وتقديره عندهم: أنها إذا جاءت لا يؤمنون أو يؤمنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف لا يعضده لفظ الآية ولا يقتضيه.

وتحتمل الآية أن يكون المعنى يتضمن الإخبار أنهم لا يؤمنون وقيل لهم: وما يشعركم بهذه الحقيقة؟ أي: لا سبيل إلى شعوركم بها وهي حق في نفسها وهم لا يؤمنون أن لو جاءت، و [ما] استفهام على هذا التأويل، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَمَا يُشْعِرْكُمْ إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلَّبُ أَعْيُنَهُمْ وَأَبْصُرُهُمْ كَمَا رَأَوْا يُؤْمِنُونَ﴾. المعنى على ما قالت فرقة: ونقلب أفئدتهم وأبصارهم في النار وفي لهيبها في الآخرة لما لم يؤمنوا في الدنيا، ثم استأنف على هذا: ﴿وَتَذَرُهُمْ فِي الدُّنْيَا﴾ في طَلْعَتِهِمْ يَتَّبِعُونَ. وقالت فرقة: إنما المراد بالتقليب التحويل عن الحق والهدى والترك في الضلالة

والكفر. ومعنى الآية: إن هؤلاء الذين أَسَمُوا أنهم يؤمنون إن جاءت آية نحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم أن لو جاءت فلا يؤمنون بها كما لم يؤمنوا أول مرة بما دُعا إليه من عبادة الله، فأخبر الله تعالى - على هذا التأويل - بصورة فعله بهم.

وقرأ أبو رجاء: ﴿يَذَرُهُمْ﴾ بالياء، ورويت عن عاصم، وقرأ إبراهيم الثخمي: ﴿وَتَقَلَّبُ﴾ و﴿يَذَرُهُمْ﴾ بالياء فيها كناية عن الله تبارك وتعالى. وقرأ أيضاً فيما روي عنه مغيرة: ﴿وَتَقَلَّبُ﴾ بفتح التاء واللام، بمعنى: ﴿وَتَقَلَّبُ﴾ أفئدتهم وأبصارهم بالرفع فيهما، و﴿يَذَرُهُمْ﴾ بالياء وحزم الراء.

وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ في هذه الآية إنما هي بمعنى المجازاة، أي: لما لم يؤمنوا أول مرة نجازيهم بأن نقلب أفئدتهم عن الهدى ونطبع على قلوبهم، فكأنه سبحانه قال: ونحن نقلب أفئدتهم وأبصارهم جزاء لما لم يؤمنوا أول مرة بما دُعا إليه من الشرع.

والضمير في ﴿يَذَرُهُمْ﴾ على الله عز وجل، أو على النبي عليه الصلاة والسلام، و﴿يَذَرُهُمْ﴾ معناه: نتركهم. وقرأ الأعمش، والهمداني: ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياء وحزم الراء على وجه التخفيف. والطغيان: التخبط في الشُرِّ والإفراط فيما يتناوله المرء. والعمى: التردد والحيرة.

﴿١١١﴾ - ﴿١١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: أخبر الله عز وجل في هذه الآية أنه لو أتى بجميع ما اقترحوه من إنزال الملائكة، وإحياء سلفهم حسبما كان

[أنها] بمعنى (لعلها)، وحكاها سبويه عن الخليل، وهو تأويل لا يحتاج معه إلى تقدير زيادة [لا]، وحكى الكسائي أنه كذلك في مصحف أبي بن كعب: ﴿وما أدراكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون﴾، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

قُلْتُ لِسَيِّبَانَ اذْنٌ مِنْ لِقَائِهِ
أَنْ تُسَلِّدِي الْقَوْمَ مِنْ شِوَانِهِ
فهذه كلها بمعنى (لعل)، وضعف أبو علي هذا بأن التوقع الذي فيه لا يناسب الآية بعد التي حكمت بأنهم لا يؤمنون، وترجح عنده في الآية أن تكون (أَنْ) على بابها، وأن يكون المعنى: قل إنما الآيات عند الله لأنها إذا جاءت لا يؤمنون. فهو لا يأتي بها لإصرارهم على كفرهم، وتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَّ أَنْ تُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ

من اقتراح بعضهم أن يحشر قصي وغيره، فيخبر بصدق محمد، أو يجمع عليهم كل شيء يعقل أن يحشر عليهم - ما آمنوا إلا بالمشيئة واللطف الذي يخلقه الله ويخترعه في نفس من شاء لا رب غيره، وهذا يتضمن الرد على المعتزلة في قولهم بالآيات التي تضطر الكفار إلى الإيمان.

وقال ابن جريج: نزلت هذه الآية في المستهزئين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يثبت إلا بسند.

وقرأ نافع، وابن عامر، وغيرهما: ﴿قَبِلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، ومعناه: مواجهة ومعاناة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره. ونصبه على الحال، وقال المبرد: المعنى: ناحية، كما تقول: لي قَبِلٌ فلان دين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فنصبه - على هذا - هو على الظرف، وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، وغيرهم: ﴿قَبِلًا﴾ بضم القاف والباء، وكذلك قرأ ابن كثير، وأبو عمرو هنا، وقرأ: ﴿العَذَابُ قَبِيلًا﴾ مكسورة القاف. واختلف في معناه - فقال عبدالله بن زيد، ومجاهد، وابن زيد: قَبِلٌ: جمع قبيل، أي: صنعا صنعا ونوعا نوعا، كما يجمع قضيب على قضب وغيره، وقال الفراء والزجاج: هو جمع قبيل وهو الكفيل، أي: وحشرنا عليهم كل شيء كفلاء بصدق محمد ﷺ، وذكره الفارسي وضَعَفَه، وقال بعضهم: قَبِلٌ بالضم بمعنى قَبِل

بكسر القاف أي: مواجهة كما تقول: قَبِلٌ ودبر، ومنه قوله تعالى: ﴿قَدْ يَنْ قُبُلٍ﴾، ومنه قراءة ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿لَقَبْلٍ عَدُوْتَهُنَّ﴾ أي لاستقبالها ومواجهتها في الزمن، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وأبو حيو: ﴿قَبِلًا﴾ بضم القاف وسكون الباء وذلك على جهة التخفيف، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿قَبِلًا﴾ بفتح القاف وإسكان الباء، وقرأ أبي، والأعمش: ﴿قَبِيلًا﴾ بفتح القاف وكسر الباء وزيادة ياء. والنصب في هذا كله على الحال.

وقوله عز وجل: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ الضمير عائد على الكفار المتقدم ذكرهم، والمعنى: يجهلون أن الآية تقتضي إيمانهم ولا بد، فيقتضي اللفظ أن الأقل لا يجهل، فكان فيهم من يعتقد أن الآية لو جاءت لم يؤمن إلا أن يشاء الله له ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ آيَةً. تتضمن تسليية النبي ﷺ وعرض القدوة عليه، أي أن هذا الذي امتحنت به يا محمد من الأعداء قد امتحن به غيرك من الأنبياء ليبلي الله أولي العزم منهم. و﴿عَدُوًّا﴾ مفرد في معنى الجمع، ونصبه على المفعول الأول لـ ﴿جَعَلْنَا﴾، والمفعول الثاني في قوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ﴾ و﴿شَيْطَانٍ﴾ بدل من قوله سبحانه: ﴿عَدُوًّا﴾، ويصح أن يكون المفعول الأول ﴿شَيْطَانٍ﴾ والثاني ﴿عَدُوًّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿شَيْطَانٍ الْإِنْسِ

وَالْجِنِّ﴾ يريد به المتمردين من النوعين الذين هم من شيم السوء كالشياطين، وهذا قول جماعة من المفسرين، ويؤيده حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه صلى يوماً فقال له رسول الله ﷺ: «تَعُوذُ يَا أَبَا ذَرٍّ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ»، قال: وإنَّ من الإنس لشياطين؟ قال: «نعم»، وقال السدي، وعكرمة: المراد بالشياطين الموكلون بالإنس والشياطين الموكلون بمؤمني الجن، وزعموا أن للجن شياطين موكلين بغوايتهم، وأنهم يوحون إلى شياطين الإنس بالشَّرِّ والوسوسة يتعلمها بعضهم من بعض، قالوا: ولا شياطين من الإنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يستند إلى خبر ولا إلى نظر.

و﴿يُوحِي﴾ معناه: يلقيه في إخفاء كالمنجاة والسرار، و﴿زُخْرَفٌ الْقَوْلِ﴾ معناه: مُحَسَّنُهُ وَمُزَيَّنُهُ بالأباطيل، قاله عكرمة ومجاهد. والزخرفة أكثر ذلك إنما تستعمل في الشر والباطل. و﴿عُرْوًا﴾ نصب على المصدر، ومعناه أنهم يغرون به المضللين، ويوهمون لهم أنهم على شيء والأمر بخلاف، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَعَلَوْهُ﴾ عائد على اعتقادهم العداوة، ويحتمل على الوحي الذي تضمنته ﴿يُوحِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرَهُمْ يَفْتَرُونَ﴾ لفظ يتضمن الأمر بالموادعة منسوخ بآيات القتال، قال قتادة: كل (دَز) في كتاب الله فهو منسوخ بالقتال، و﴿يَفْتَرُونَ﴾ معناه:

يختلفون ويشتقون وهو من الفرقة
تشبيهاً بقرى الأديم.

﴿١١٣﴾ - ﴿١١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَلْيَصْغَىٰ لِأَيْدِيهِمْ﴾ معناه: لئتميل،
يقال: صغى يصغى، وأصلها يصغي
بكسر الغين لكن رده حرف الحلق
إلى الفتح، ويقال: صغنا يصغوا،
وأصغى يصغى، وصغى يصغى.

و ﴿أَنْتَدُهُ﴾ جمع فؤاد، ويقترفون
معناه: يواقعون ويجترحون، وهي
مستعملة أكثر ذلك في الشر والذنوب
ونحوه.

والفراء على كسر اللام في الثلاثة
الأفعال على أنها لام كي، فإما أن
تكون معطوفة على ﴿عُرِدُوا﴾ وإما أن
تكون متعلقة بفعل مؤخر تقديره:
فعلوا ذلك، أو جعلنا ذلك، فهي
لام صيرورة، قاله الزجاج. ولا
يحتمل أن تكون هذه اللامات - على
هذه القراءة - لام الأمر وضمنها
الوعيد وتبقى الياء في ﴿وَلْيَصْغَىٰ﴾
على نحو ما جاء من ذلك في قول
الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِيكَ.....

إلى غير ذلك مما قد قرئ به، قال
أبو الفتح: قرأها الحسن بالتسكين
في الثلاثة، وهي لام كي، وهي
معطوفة على قوله تعالى: ﴿عُرِدُوا﴾،
والتقدير: لأجل الغرور ولتصغى،
وإسكان هذه اللام شاذ في
الاستعمال قوي في القياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويظهر أن تُحمل قراءة الحسن
بسكون اللامات الثلاثة على أنها لام
الأمر المضمن الوعيد والتهديد،

والخط على القراءة ﴿وَلتَضْعَع﴾.
ذكر أبو عمرو الداني أن تسكينه في
اللامات الثلاثة، وكذلك قال أبو
الفتح وذكر أن الحسن إنما يسكن
اللامين الثانية والثالثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وذلك يخالف خط المصحف في
﴿وَلتَضْعَع﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويستحصل أن تسكن اللام في
﴿وَلتَضْعَع﴾ على ما ذكرناه في قراءة
الجماعة. قال أبو عمرو: وقراءة
الحسن إنما هي: ﴿لِتَضْعَع﴾ بكسر
الغين، وقراءة إبراهيم الشَّحْمِي
﴿لِتَضْعَع﴾ بضم التاء وكسر الغين
من: أضغى يُضغى، وكذلك قرأ
الجراح بن عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَدِرُ﴾ نصب بـ
﴿أَبْتِي﴾ و﴿حَكَمًا﴾ و﴿مُضَلًّا﴾ معناه:
البيان والتمييز. ومزال الإشكال قد فصلت آياته.

وهذه الآية - وإن كان معناها يعتم في
أن الله لا يبتغي سواه حكماً في كل
شيء وفي كل قضية - فإننا نحتاج في
وصف الكلام وأتساق المعاني أن
ننظر فيما تقدم إلى قضية تكون سبباً
إلى قوله تعالى: ﴿أَنْتَدِرُ اللَّهُ أَبْتِي﴾
حَكَمًا؟ فهي - والله أعلم - حُكْمُهُ
عليهم بأنهم لا يؤمنون ولو بعث
إليهم كل الآيات، وحكمه بأن جعل
للأنبياء أعداء من الجن والإنس. و
﴿حَكَمًا﴾ أبلغ من (حاكم) إذ هي
صيغة لِنَعْدِلُ من الحُكَمَاءِ، و
(الحاكم) جارٍ على الفعل، فقد يقال
للجائر. و ﴿حَكَمًا﴾ نصب على
البيان أو الحال.

وبهذه الآية خاصمت الخوارج علياً
رضي الله عنه في تكفيره بالتحكيم،
ولا حجة لها لأن الله تعالى حكّم في
الصِّيد، وبين الزوجين، فتحكيم
المؤمنين من حُكْمه تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يَلْعَنُونَ أَنْتُمْ مَرْكَلٌ مِّنْ رَبِّكَ
بِأَلْسِنَةٍ﴾ يتضمن الاستشهاد بمؤمنهم،
والطعن والتشبيه على مشركيهم
وحسدتهم. وقرأ ابن عامر، وحفص
عن عاصم: ﴿مُتْرَلٌ﴾ بالتشديد،
والباقون بالتخفيف، و ﴿الْكِتَابُ﴾
أولاً هو القرآن، وثانياً اسم جنس
التوراة والإنجيل والزبور والصحف.
ووصفه أهل الكتاب بالعلم عموم
بمعنى الخصوص، وإنما يريد
علماءهم وأخبارهم.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُتَمَرِّينَ﴾ تثبيت ومبالغة وطعن على
المتمرين.

﴿١١٤﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿تَمَّتْ﴾ - في هذا الموضع -
بمعنى: استمرت وصحت في الأزل
صدقاً وعدلاً، وليس بتمام من
نقص، ومثله ما وقع في السيرة من
قولهم: «وتم حمزة على إسلامه» في
الحديث مع أبي جهل.

والكلمات: ما نزل على عباده،
وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي:
كلمت بالإنفراد هنا وفي يونس في
الموضعين، وفي حم المؤمن وقرأ
نافع، وابن عامر جميع ذلك
﴿كلمات﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير،
وأبو عمرو هنا فقط ﴿كلمات﴾
بالجمع، وذهب الطبري إلى أنه
القرآن كما يقال: «كلمة فلان» في

قصيدة الشعر والخطبة البليغة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي بعيد معترض، وإنما القصد، العبارة عن نفوذ قوله تعالى: ﴿صِدْقًا﴾ فيما تضمنه من خبر، و ﴿وَعَدْلًا﴾ فيما تضمنه من حكم، وهما مصدران في موضع الحال، وقال الطبري: «نصباً على التمييز»، وهذا غير صواب. و ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ معناه: في معانيها بأن يبين أحد أن خبره بخلاف ما أخبر به، أو يبين أن أمره لا ينفذ، والمثال من هذا أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَدْثَوْكَ لِيُخْرِجُوا﴾ إلى ﴿الْخَالِفِينَ﴾.

فقال المنافقون بعد ذلك للنبي ﷺ وللمؤمنين: ﴿دَرُونا تَبِعْكُمْ﴾ فقال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ فَلَئِنْ تَبِعُواكَ كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِن قَبْلُ﴾، أو في قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا أَن مَضَّاهُ الْخَبْرُ بِأَن لَا يَبَاحَ لَهُمْ خُرُوجُ، وَأَمَّا الْأَلْفَاظُ فَقَدْ بَدَلْتَهَا بَنُو إِسْرَائِيلَ وَغَيَّرْتَهَا، هَذَا مَذْهَبُ جَمَاعَةٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَدَّلُوا بِالتَّأْوِيلِ، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ. وَفِي حَرْفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَطِيعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. المعنى: فامض يا محمد لما أمرت به وأنفذ لرسالتك فإنك إن تطع أكثر من في الأرض يضلوك، وذكر سبحانه: ﴿أَكْثَرُ﴾ لأن أهل الأرض حينئذ كان أكثرهم كافرين، ولم يكن المؤمنون إلا قلة.

وقال ابن عباس: الأرض هنا: الدنيا. وحكي أن سبب هذه الآية أن المشركين جادلوا رسول الله ﷺ في أمر الذبائح وقالوا: تأكل ما تقتل وتترك ما قتل الله؟ فنزلت الآية، ووصفهم عز وجل بأنهم إنما يقتلون بظنونهم، ويتبعون تخرضهم، والخرض: الحزُّ والظن، وقرأ جمهور الناس: ﴿يُضِلُّ﴾ بضم الياء، ورواه أحمد بن أبي شريح عن الكسائي. و ﴿مَنْ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ يُضِلُّ﴾

في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: «يعلم مَنْ». وقيل: في موضع رفع كأنه قال: «أَيُّ يضل عن سبيله»، ذكره أبو الفتح وضعفه أبو علي، وقيل: في موضع خفض بإضمار باء الجر كأنه قال: «بمن يضل عن سبيله»، وهذا ضعيف. قال أبو الفتح: هذا هو المراد فحذفت باء الجر ووصل «أَعْلَمُ» بنفسه، قال: ولا يجوز أن يكون «أَعْلَمُ» مضافاً إلى «مَنْ» لأن أفعال التفضيل بعض ما يضاف إليه. وهذه الآية خبر في ضمنه وعيد للضالين ووعد للمهتدين.

١١٨ - ١١٩ تفسير قوله عز وجل:

القصود بهذه الآية النهي عما ذُبح للنصب وغيرها وعن الميتة وأنواعها، فجاءت العبارة أمراً بما يضاد ما قصد النهي عنه، ولا قصد

سورة الأنعام

سورة الأنعام

وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيرًا لِّيُضِلُّوا بِأَهْوَاءِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٨﴾ وَذُرُوا أَطْلَهْرَ الْإِنْتِمِ وَبِاطْنَهُ إِنْ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِنْتِمَ سَيَجْرُونَ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١١٩﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيْطَانَ لِيُخَوِّنَ إِلَىٰ أَوْلِيَاءِهِمْ لِيُحْدِثُ لَكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ لَكُمْ مَشْرُوكُونَ ﴿١٢٠﴾ أَوْ مَن كَانَ مِثْلَهَا حَيْثُ نَهَىٰ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا نَبِيًّا يَهْدِي النَّاسَ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَوْمٍ آيَةً كَثِيرًا مَّجْرِمًا لِيَتَكْفُرُوا فِيهَا وَمَا يَكْفُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٢﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا إِنَّا أَنبِيَاءٌ نَحْنُ نُرْسِلُ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَاتِهِ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارًا عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿١٢٣﴾

١٤٣

في الآية إلى ما نسي في المؤمن التسمية أو تعمدتها بالترك. وقال عطاء:

هذه الآية أمر بذكر اسم الله على الشراب والطعام والذبح وكل مطعوم، وقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتُمْ بِآيَاتِنَا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: إن كنتم بأحكامه وأوامره آخذين، فإن الإيمان بهما يتضمن ويقضي الأخذ بها والالتقياد لها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا﴾ الآية. [ما] استفهام يتضمن التقرير، وتقدير هذا الكلام: وأي شيء لكم في ألا تأكلوا؟ ذ [أَنْ] في موضع خفض بتقدير حرف الجر، ويصح أن تكون في موضع نصب على ألا يقدر حرف الجر ويكون الناصب معنى الفعل الذي في قوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ﴾ تقديره: ما

يجعلكم وقد فُضِّلَ لكم ما حُرِّمَ، أي: وقد بَيَّنَّ لكم الحلال من الحرام وأزِيلَ عنكم اللبس والشك؟

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على بناء الفعل للمفعول في الفعلين. وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: ﴿وَقَدْ فَضَّلَ لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على بناء الفعل للفاعل في الفعلين. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَقَدْ فَضَّلَ﴾ على إسناد الفعل إلى الفاعل ﴿لَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ على إسناد الفعل إلى المفعول. وقرأ عطية العوفي: ﴿وَقَدْ فَضَّلَ﴾ على بناء الفعل للفاعل وفتح الصاد وتخفيفها ﴿مَا حَرَّمَ﴾ على بناء الفعل للمفعول. والمعنى: قد فَضَّلَ الحرام من الحلال وانتزعه بالبينين. و [ما] في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا أَشْطَرْتُمْ﴾ يريد بها: من جميع ما حُرِّمَ كالميتة وغيرها، وهي في موضع نصب بالاستثناء، والاستثناء منقطع.

وقوله تعالى: ﴿وَرِئَاءَ كَثِيرٍ﴾ يريد الكفرة المحاذين المجادلين في المطاعم بما ذكرناه من قولهم: «تأكلون ما تذبحون ولا تأكلون ما ذبح الله؟» وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ بفتح الياء على معنى إسناد الضلال إليهم في هذه السورة وفي يونس: ﴿رَبَّنَا يُضِلُّوْا﴾ وفي سورة إبراهيم: ﴿أَنذَادًا لِّيُضِلُّوْا﴾ وفي الحج ﴿ثَاقِبٍ عَلَيْهِ لِيُضِلَّ﴾ وفي لقمان: ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَبْغِيْهِ عَلِيْرٌ﴾ وفي الزمر: ﴿أَنذَادًا لِّيُضِلَّ﴾ وقرأ نافع، وابن عامر كذلك في هذه

وفي يونس. وفي الأربعة التي بعد هذه يَضْمَانُ الياء على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم، وهذه أبلغ في ذمهم لأن كل مُضِلٌّ ضال، وليس كل ضالٍّ مُضِلًّا. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي في المواضع الستة: ﴿لِيُضِلُّوْا﴾ على معنى إسناد إضلال غيرهم إليهم. ثم بيَّن عز وجل في ضلالهم أنه على أفصح الوجوه، وأنه بالهوى لا بالنظر والتأمل، و ﴿يَبْغِيْهِ عَلِيْرٌ﴾ معناه: في غير نظر، فإن لِمَنْ يَضِلُّ بنظر مَّا بعض عذر لا ينفع في أنه اجتهد.

ثم توعدهم تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾.

﴿١٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا نهى عام من طرفيه لأن الإثم يعم الأحكام والنسب اللاحقة للعصاة عن جميع المعاصي، والظاهر والباطن يستوفيان جميع المعاصي، وقد ذهب المتأولون إلى أن الآية من ذلك في مخصص، فقال السدي: ظاهره الزنى الشهير الذي كانت العرب تفعله، وباطنه اتخاذ الأخدان، وقال سعيد بن جبیر: الظاهر ما نص الله على تحريمه بقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ﴾ الآية، والباطن الزنى، وقال ابن زيد: الظاهر التعري، والباطن الزنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد التعري الذي كانت العرب تفعله في طوافها. وقال قوم: الظاهر الأعمال، والباطن المعتقد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن لأنه عام.

ثم توعد تبارك وتعالى كسبة الإثم بالمجازاة على ما اكتسبه من ذلك وتحملوا ثقله، والافتراف: الاكتساب.

﴿١٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المقصد بهذه الآية النهي عن الميتة، إذ هي جواب لقول المشركين: «تتركون ما قتل الله»، والنهي أيضاً عما ذبح للأنصاب، ومع ذلك فلفظها يعم ما تركت التسمية عليه من ذبائح الإسلام، وبهذا العموم تعلق محمد بن سيرين، وعبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، وعبدالله بن عمر، ونافع، وعبدالله بن زيد الخطمي، والشعبي، وغيرهم، فما تركت التسمية عليه نسياناً أو عمداً لم يؤكل، وقالت طائفة عظيمة من أهل العلم: يؤكل ما ذبح ولم يُسَمَّ عليه نسياناً، ولا يؤكل ما لم يُسَمَّ عليه عمداً، وهذا قول الجمهور، وحكى الزهراوي عن مالك بن أنس أنه قال: تؤكل الذبيحة التي تركت التسمية عليها عمداً أو نسياناً، وعن ربيعة أيضاً، قال عبدالوهاب: التسمية سُنَّةٌ فإذا تركها الذابح ناسياً أكلت الذبيحة في قول مالك وأصحابه، وإذا تركها عمداً فقال مالك: لا تؤكل، فحمل بعض أصحابه قوله: «لا تؤكل» على التحريم، وحمله بعضهم على الكراهية، وقال أشهب: تؤكل ذبيحة تارك التسمية عمداً إلا أن يكون مستخفاً، وقال نحوه الطبري.

وذبائح أهل الكتاب عند جمهور العلماء في حكم ما ذكر اسم الله عليه من حيث لهم دين وشرع، وقال قوم: نسخ من هذه الآية ذبائح أهل الكتاب، قاله عكرمة، والحسن بن أبي الحسن.

والضمير في [إنه] من ﴿وَأَنَّهُ لَفِئَتٌ مِّنْهُمُ عَلَىٰ ذُبْحَانِ الْمُضَرِّ الَّذِي تَضَمَّنَهُ﴾ والفسق: الخروج عن الطاعة، هذا عرفه في الشرع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ﴾ الآية، قال عكرمة: عني بالشياطين في هذه الآية مرادة الإنس من مجوس فارس، وذلك أنهم كانوا يوالون قريشاً على عداوة النبي ﷺ فخطبهم مُتَّبِعِينَ على الحججة التي ذكرناها في أمر الذبائح من قولهم: «تأكلون ما قتلتم ولا تأكلون ما قتل الله؟» فذلك من مخاطبتهم هو الوحي الذي عني. والأولياء قرائن. والمجادلة: هي تلك الحججة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وعبدالله بن كثير: بل الشياطين: الجن، واللفظة على وجهها، وكفرة الجن أولياء لكفرة قريش، ووخيمهم إليهم كان بالوسوسة حتى ألهمهم تلك الحججة، أو على ألسنة الكهان. وقال أبو زميل: كنت عند ابن عباس فجاءه رجل فقال: إن أبا إسحق - يعني المختار - زعم أنه أوحى إليه الليلة، فقال ابن عباس: صدق، فَتَشَفَّرْتُ، فقال ابن عباس: «وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم».

ثم نهى الله تعالى عن طاعتهم بلفظ يتضمن الوعيد، وعرض أصعب مثال في أن يشبه المؤمن بمشرك، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قولاً: إن الذين جادلوا بتلك الحججة هم قوم من اليهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن اليهود لا تأكل الميتة، أما إن ذلك يتجه منهم على جهة المغالطة كأنهم يحتججون عن العرب.

١٢٢ - ١٢٣ تفسير قوله عز وجل:

تقدم في هذه الآية السالفة ذكر قوم مؤمنين أمروا بترك ظاهر الإثم وباطنه وغير ذلك، وذكر قوم كافرين يضلون بأهوائهم وغير ذلك، فمثل الله عز وجل في الطائفتين بأن شبه الذين آمنوا بعد كفرهم بأموال أحيوا، هذا معنى قول ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، وغيرهما، وشبه الكافرين وحيرة جهلهم بقوم في ظلمات يترددون فيها ولا يمكنهم الخروج منها، لِيُبَيِّنَ عَزَّ وَجَلَّ الفرق بين الطائفتين والبُؤُونَ بين المنزلتين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَزْمَنَ؟﴾ بفتح الواو، فهي ألف استفهام دخلت على واو عطف جملة على جملة، و [مَنْ] بمعنى الذي. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَفَمَنْ؟﴾ بالفاء، والمعنى قريب من معنى الواو، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ عاطفة. و ﴿تُورَا﴾ أنكرن ما يُقَى به الإيمان، و ﴿يَمِشَى يَمْشَى﴾، يراد به جميع التصرف في الأفعال والأقوال. قال أبو علي:

ويحتمل أن يراد النور الذي يؤتاه المؤمنون يوم القيامة، و ﴿فِي آتَانِ﴾ متعلق بـ ﴿يَمِشَى﴾، ويصح أن يتعلق بـ ﴿كَانَ مَيْتًا﴾. وقوله تعالى: ﴿كَانَ مَيْتًا﴾ بمنزلة «كمن هو»، والكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ زَيْنٌ﴾ متعلقة بمحذوف يدل ظاهر الكلام عليه، تقديره: «وكما أحيينا المؤمنين وجعلنا لهم نوراً كذلك زَيْن للكافرين»، ويحتمل أن يتعلق بقوله تعالى: ﴿كَانَ مَيْتًا﴾ أي كهذه الحال هو التزين.

وقرأ نافع وحده: ﴿مَيْتًا﴾ بكسر الياء وشذها. وقرأ الباقون: ﴿كَانَ﴾ بسكون الياء. قال أبو علي: التخفيف كالتشديد، والياء المحذوفة هي الثانية المنقلبة عن واو أعلت بالحذف كما أعلت بالقلب.

وقالت طائفة: إن هذه الألفاظ التي مثل بها وإن كانت تعم كل مؤمن وكل كافر فإنما نزلت في مخصوصين. فقال الضحاك: المؤمن الذي كان ميتاً فأحيى عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وحكى المهدي عن بعضهم أنه حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه. وقال عكرمة: عمار بن ياسر رضي الله عنه، وقال الزجاج: جاء في التفسير أنه يعني به النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واتفقوا على أن الذي في الظلمات أبو جهل بن هشام، وإلى حاله وحال أمثاله هي الإشارة والتشبيه بقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾، وهذه الآية تتضمن إنذاراً

بفساد حال الكفرة المتقدم ذكرهم لأنه مقتضى حال من تقدمهم من نظائرهم، وقال عكرمة: نزلت هذه الآية في المستهزئين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني أن التمثيل لهم، و ﴿جَمَلْنَا﴾ في هذه الآية بمعنى صيرنا، فهي تتعدى إلى مفعولين، فالمفعول الأول: ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ والثاني: ﴿أَكْبَرِ﴾، وفي الكلام - على هذا - تقديم وتأخير تقديره: وكذلك جعلنا في كل قرية مجرميها أكابر، وقدم الأهم، إذ لعله كبيرهم أجمعوا. ويصح أن يكون المفعول الأول: ﴿أَكْبَرِ﴾ و ﴿مُجْرِمِيهَا﴾ مضاف والمفعول الثاني قوله سبحانه: ﴿فِي كُلِّ قَرْيَةٍ﴾ و ﴿يَسْتَكْبِرُونَ﴾ نصب بلام الصيرورة.

والأكابر جمع أكبر كما الأفاضل جمع أفضل، ويقال: أكابرة كما يقال: أحمر وأحامرة، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ الْأَحْمِرَةَ الثَّلَاثَةَ أَتَلَفْتُ
مَالِي، وَكُنْتُ بِهِنَّ قَدَمًا مُوَلَعًا
يريد: الخمر واللحم والزعفران.
والمكر: التخييل بالباطل والخديعة ونحوهما. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُونَ إِلَّا يَأْتِسِبُهُمْ﴾ يريد: لرجوع وبال ذلك عليهم، ﴿وَمَا يَشْفُرُونَ﴾ أي: ما يعلمون، وهي لفظة مأخوذة من الشعار وهو الشيء الذي يلي البدن، فكان الذي لا يشعر نفي عنه أن يعلم علم حسن، وفي ذلك مبالغة في صفة جهله إذ البهائم تعلم علوم الحسن، وأما هذه الآية فإنما نفي فيها الشعور في نازلة مخصوصة.

﴿١٢٤﴾ - ﴿١٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية آية ذم للكفار وتوعد لهم، يقول: وإذا جاءتهم علامة ودليل على صحة الشرع تشططوا وتسحبوا وقالوا: إنما يفلق لنا البحر، إنما يحيي لنا الموتى ونحو ذلك. فرد الله عز وجل عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ نَعْلَمْ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، أي: فيمن اصطفاه وانتخبه لا فيمن كفر وجعل يشطط على الله. قال الزجاج: قال بعضهم: الأبلغ في تصديق الرسل ألا يكونوا قبل المبعث مطاعين في قومهم. و ﴿أَعْلَمُ﴾ معلق العمل والعامل في ﴿حَيْثُ﴾ فعل تقديره: يعلم حيث.

ثم توعد تعالى بأن هؤلاء المجرمين الأكابر في الدنيا سيصيهم عند الله صَغَارٌ وذُلَّةٌ. و ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾ متعلقة بـ ﴿سَيُصِيبُ﴾، ويصح أن تتعلق بـ ﴿صَغَارٌ﴾ لأنه مصدر، قال الزجاج: التقدير: صغار ثابت عند الله، قال أبو علي: وهو متعلق بـ ﴿صَغَارٌ﴾ دون تقدير (ثابت) ولا شيء غيره.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ الآية. [مَنْ] أداة شرط، و ﴿يَشْرَحْ﴾ جواب الشرط، والآية نص في أن الله عز وجل يريد هدى المؤمن وضلال الكافر، وهذا عند جميع أهل السنة بالإرادة القديمة التي هي صفة ذاته تبارك وتعالى.

والهدى في هذه الآية هو خلق الإيمان وتحبيبه وإعداد القلب لقبوله وتحصيله، والهدى لفظة مشتركة تأتي بمعنى الدعاء كقوله عز وجل:

﴿وَإِنَّكَ لَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾، وتأتي بمعنى إرشاد المؤمنين إلى مسالك الجنان والطرق والأعمال المفضية إليها كقوله تعالى: ﴿لَنْ يُضِلَّ أَعْيُنَنَا سَبِيلَهُمْ وَيُضِلِّحَ بِالْمَمِّ﴾، وغير ذلك، إلا أنها في هذه الآية، وفي قوله سبحانه: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَى وَمَنْ يُضِلِّحْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾. وفي قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ونحوها لا يتجه حملها إلا على خلق الإيمان واختراعه، إذ الوجوه الأخر من الهدى تدفعها قرائن الكلام مما قبله وبعده.

وقوله تعالى: ﴿يَشْرَحْ صَدْرَهُ﴾ ألفاظ مستعارة ها هنا، إذ الشرح: التوسعة والبسط في الأجسام، وإذا كان الجرم مشروحاً موسعاً كان معداً ليحل فيه، فيشبهه توطئة القلب وتنويره وإعداده للقبول بالشرح والتوسيع، وشبه قبوله وتحصيله للإيمان بالحلول في الجسم المشروح، والصدر عبارة عن القلب، وهو المقصود إذ الإيمان من خصاله، وكذلك الإسلام عبارة عن الإيمان إذ الإسلام أعم منه، وإنما المقصود هنا الإيمان فقط بدليل قرينة الشرح والهدى، ولكنه عبر بالإسلام إذ هو أعم. وأدنى الهدى حب الأعمال وامتثال العبادات. وفي ﴿يَشْرَحْ﴾ ضمير عائد على الهدى، قال: وعوده على الله عز وجل أبين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول بأن الضمير عائد على الهدى قول يتركب عليه مذهب القدرية في خلق الأفعال، وينبغي أن يعتقد

فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَمَا يُضَعِّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢٤﴾ وَهَذَا صِرْطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا فَدَفَعْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ رِيدُ كُرُونُ ﴿١٢٥﴾ لَمْ دَارُ السَّلْوِ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَيُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٦﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا يَمْعَشِرُ الْخَيْنِ فَدَأَسْتَكْرُمُ مِنَ الْإِنْسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُمْ مِنَ الْإِنْسِ رَبَّنَا اسْتَمِعْ بَعْضًا يَمُضُ وَبَلَعْنَا لَئِذَا نَزَلْنَاهُ لَنَّا قَالُ الْتَاؤْمُونُكُمْ خَلِيلِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٢٧﴾ وَكَذَلِكَ نُؤَلِّي بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢٨﴾ يَمْعَشِرُ الْخَيْنِ وَالْإِنْسِ أَلْتَأْيَاكُمْ رُسُلُ رَبِّكُمْ يَقْضُونَ عَلَيْكُمْ مَا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَتَكْفُرُ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَعَرَّيْنَاهُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿١٢٩﴾ ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ ﴿١٣٠﴾

١٤٤

الفرقان. قال أبو علي: وهما بمنزلة الميت والميت، قال الطبري: ومنزلة الهَيْنِ واللَّيْنِ والهَيْنِ واللَّيْنِ، قال: ويصح أن يكون الضُّيق مصدرًا من قولك: ضاق الأمر يضيق ضيقًا وضيقًا، وحكى عن الكسائي أنه قال: الضُّيق بشد الضاد وكسرهما في الأجرام والمعاش، والضُّيق بفتح الضاد في الأمور والمعاني.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿حَرَجًا﴾ بفتح الراء. وقرأ

نافع، وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿حَرَجًا﴾ بكسرهما، قال أبو علي: فمن فتح الراء كان وصفًا بالمصدر، كما تقول: رجل قَمَنَ بكذا، وحزى بكذا، ودثف، ومن كسر الراء فهو كَذَيْفٌ وقَمِنٌ وفَرِقٌ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأها يوماً بفتح الراء فقرأها له بعض الصحابة بكسر الراء فقال: ابغوني رجلاً من كنانة وليكن راعياً وليكن من بني مدلج، فلما جاءه قال له: يا فتى ما الحَرَجَةُ عندكم؟ قال: الشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها راعية ولا وحشية، قال عمر: كذلك قلب المنافق لا يصل إليه شيء من الخير.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ أي: كأن هذا الضُّيق الصدر يحاول الصعود في السماء متى حاول

ضعفه، وأن الضمير إنما هو عائذ على اسم الله عز وجل فإن هذا يعضده اللفظ والمعنى، وروي عن النبي ﷺ أنه لما نزلت هذه الآية قالوا: يا رسول الله، كيف يشرح الصدر؟ قال: «إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح»، قالوا: وهل لذلك علامة يا رسول الله؟ قال: «نعم، الإجابة إلى دار الخلود، والتجاني عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الفؤت».

والقول في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ﴾ كالقول في قوله سبحانه وتعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ ألفاظ مستعارة تضاد شرح الصدر للإسلام، و﴿يَجْعَلْ﴾ - في هذا الموضع - تكون بمعنى: يَحْكُمُ له بهذا الحكم، كما تقول: «هذا يجعل البصرة مصرًا»، أي يحكم له بحكمها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المعنى يقرب من: صَيْرٌ، وحكاه أبو علي الفارسي، وقال أيضاً: يصح أن يكون (جَعَلَ) بمعنى سَمَّى كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا أَلْسِنَتَهُمُ الْكَلْبَ الَّذِي يَمُوتُ عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنتِئًا﴾ أي: سموهم، قال: وهذه الآية تحتمل هذا المعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الوجه يضعف في هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس والسبعة سوى ابن كثير: ﴿سَيِّقًا﴾ بكسر الياء وتشديدها، وقرأ ابن كثير: ﴿ضَيِّقًا﴾ بسكون الياء، وكذلك قرأ في

الإيمان أو فكر فيه ويجد صعوبته عليه كصعوبة الصعود في السماء، قال بهذا التأويل ابن جريج، وعطاء الخراساني، والسدي. وقال ابن جبير: المعنى: لا يجد مسلماً إلا صعدا من شدة التضايق.

وقرأ نافع، وأبو عمر، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَصَّعَّدُ﴾ بإدغام التاء من «يَتَّصَعَّدُ» في الصاد، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: ﴿يَتَّصَاهِدُ﴾ بإدغام التاء من «يَتَّصَاعَدُ» في الهمزة، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿يَتَّصَعَّدُ﴾، وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وابن مصرف: ﴿يَتَّصَعَّدُ﴾ بزيادة تاء.

و ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ يريد: من سفلى إلى علو في الهواء، قال أبو علي: ولم يرد السماء المُنْتَظَّة بعينها، وإنما هو كما قال سيبويه: «والقيود:

الطويل في غير سماء». يريد: في غير ارتفاع صعدا، قال: ومن هذا قوله عز وجل: ﴿قَدْ رَأَى ثَقَلَبُ وَجْهَكَ فِي السَّمَاءِ﴾ أي في جهات الجو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على غير من تأول «تَقَلَّبَ الوجه» أنه الدعاء إلى الله عز وجل في الهداية إلى قبلة، فإن مع الدعاء يستقيم أن يقلب وجهه في السماء المُظَلَّة حسب عادة الداعين إذ قد أَلْفُوا مجيء النعم والآلاء من تلك الجهة. وتحتمل الآية أن يكون التشبيه بالصاعد في عقبه كزود كأنه يصعد بها في الهواء. ويضعد معناه: يعلو. ويضعد معناه: يتكلف من ذلك ما يشق عليه، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ما تصعدني شيء كما تصعدني خطبة النكاح إلى غير ذلك من الشواهد، ويضاعد في المعنى مثل يصعد.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ﴾ أي: وكما كان هذا كله من الهدى والضلال بإرادة الله عز وجل ومشيشته كذلك يجعل الله الرجس. قال أهل اللغة: الرجس يأتي بمعنى العذاب ويأتي بمعنى النجس، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال: الرجس كل ما لا خير فيه، وقال بعض الكوفيين: الرجس والنجس لغتان بمعنى، و«يَجْعَلُ» في هذا الموضع - يحسن أن تكون بمعنى يُلقِي، كما تقول: جعلت متاعك بعضه على بعض، وكما قال عز وجل: ﴿وَيَجْعَلُ الْحَيَاةَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المعنى في (جَعَلَ) حكاها أبو علي الفارسي، ويحسن أن تكون «يَجْعَلُ» - في هذه الآية - بمعنى: يُصَيِّرُ، ويكون المفعول الثاني في ضمن «عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ» كأنه قال سبحانه: «قرين الذين»، أو «لِزَيْمِ الَّذِينَ» ونحو ذلك.

تفسير قوله عز وجل: ﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن والشرع الذي جاء به محمد عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس، والصراط: الطريق، وإضافة الصراط إلى الرب على جهة أنه من عنده وبأمره، و«مُسْتَقِيمًا» حال مؤكدة، وليست كالحال في قولك: جاء زيد ركبًا، بل هذه المؤكدة تتضمن المعنى المقصود.

و«نَصَلْنَا» معناه: بيئنا وأوضحنا، وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ أي للمؤمنين الذين يعدون أنفسهم للنظر ويسلكون طريق الاهتداء، والضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ عائذ على القوم المتذكرين، و«السَّلَامُ» يتجه فيه معنيان: أحدهما أن (السلام) اسم من أسماء الله عز وجل فأضاف (الدار) إليه وهي ملكه وخلقه، والثاني أنه المصدر بمعنى السلامة، كما تقول: السلام عليك، وكقوله عز وجل: ﴿وَنَحْنُ فِيهَا سَلَامٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ يريد: في الآخرة بعد الحشر، و«وَالْيَوْمِ» أي: ولي الإنعام عليهم، و«يَمَّا كَانُوا يَمْلِكُونَ» أي بسبب ما كانوا يقدمون من الخير، ويفعلون من الطاعة والبر.

تفسير قوله عز وجل: ﴿يَوْمٍ﴾ نصب بفعل مضمّر تقديره: واذكر يوم، ويحتمل أن يكون العامل: ﴿وَالْيَوْمِ﴾ والعطف على موضع قوله: ﴿يَمَّا كَانُوا﴾، والضمير في «يَحْتَرُّهُ» عائذ على الطائفتين: الذين يجعل الله الرجس عليهم وهم جميع الكفار جنًا وإنسًا، والذين لهم دار السلام جنًا وإنسًا، ويدل على ذلك التأكيد العام بقوله تعالى: ﴿حَيْمًا﴾.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿يَحْتَرُّهُ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالنون. وكلُّ مثجه.

ثم ذكر عز وجل ما يقال للجن الكفرة، وفي الكلام فعل مضمّر يدل عليه ظاهر الكلام تقديره: نقول يا معشر الجن. وقوله تعالى: ﴿قَدْ اسْتَكْرَهْتُمْ﴾ معناه: فرطتم، و«بَيْنَ الْإِنْسِ» يريد في إغوائهم وإضلالهم، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقناة. وقال الكفار من الإنس وهم أولياء الجن المؤيحين على جهة الاعتذار عن الجن: ﴿رَبَّنَا اسْتَمْتَحَ بَعْضًا مِنْ بَعْضٍ﴾ أي اتفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك في وجوه كثيرة: حكى الطبري وغيره أن الإنس كانت تستعذ بالجن في الأودية ومواقع الخوف، وكانت الجن تتعظم على الإنس وتسودها كما يفعل الربى بالكاهن والمجبر والمستجير، إذ كان العربي إذا نزل وادياً ينادي: يا رب الوادي إني أستجير بك هذه الليلة، ثم يرى أن سلامته إنما هي بحفظ جنّي ذلك الوادي، فهذا استمتاع بعضهم ببعض. قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَنْ يَرْجُكْ يَخِضْ عَمَّا
يَعْمَلُونَ ﴿١٣١﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ
يُدْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَنْ يَشَاءُ كَمَا
أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ أَخْرَجْتَ ﴿١٣٢﴾ إِنْ مَا
تُوعَدُونَ لَأْتِيَنَّكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿١٣٣﴾ قُلْ يَقُولُوا
أَعْمَلُوا عَلَنَ مَا كُنْتُمْ تُعْمَلُونَ إِنْ يَشَاءُ اللَّهُ
يَنْزِلْ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُطْبَقُ عَلَيْكُمْ
مِنْ عَذَابٍ لَكُمْ لَسْتُمْ تَأْمِنُونَ ﴿١٣٤﴾ وَجَعَلُوا لِلَّهِ
شُرَكَاءَ مَا لَمْ يُخْلِقْ لَهُمْ شُرَكَاءَ مِنْ دُونِهِ
يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٣٥﴾
وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا فَعَلْنَا ذَلِكَ وَلَئِنْ شِئْنَا
لَمَنْعَنَّكُمْ مِنْهُ فَلَا تَحْتَسِبُونَ ﴿١٣٦﴾ وَبَشِّرِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَمِلُوا غَيْرَ صَالِحٍ جَنَّةً أُولَئِكَ
سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٧﴾ وَكَذَلِكَ زَكَّيْنَا
لِكُلِّ شَيْءٍ مِزْقًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣٨﴾ وَكَذَلِكَ
نُفِثْنَاكُمْ أَمْشِقَةَ اللَّيْلِ وَكَذَلِكَ نُفِثْنَاكُمْ
أَمْشِقَةَ النَّهَارِ وَاللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٣٩﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وساغ هذا من حيث العبارة بقوله تعالى: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾ لا تخص بصيغتها مستقبل الزمان دون غيره، وقال الطبري عن ابن عباس إنه كان يتناول في هذا الاستثناء أنه مبلغ حال هؤلاء في علم الله، ثم أسند إليه أنه قال: إن هذه الآية آية لا ينبغي لأحد أن يحكم على الله في خلقه، ولا ينزلهم جنة ولا ناراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والإجماع على التخليد الأبدى في الكفار، ولا يصح هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتجه عندي في هذا الاستثناء أن يكون مخاطبة للنبي ﷺ وأمه، وليس مما يقال يوم القيامة، والمستثنى هو من كان من الكفرة يومئذ في علم الله، كأنه لما أخبرهم أنه قال للكفار: ﴿النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾ استثنى لهم من يمكن أن يؤمن منهم.

و ﴿حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان لهذه الآية، لأن تخليد هؤلاء الكفرة في النار فعل صادر عن حكمة وعلم بمواقع الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُفِثْنَاكُمْ أَمْشِقَةَ النَّهَارِ﴾ قال قتادة: ﴿نُفِثْنَا﴾ معناه: نجعل بعضهم وليي بعض في الكفر والظلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يؤيده ما تقدم من ذكر

وهذا مثال في الاستمتاع، ولو تبيح لتبنت له وجوه أخر كلها دنيوية.

ويلوغ الأجل المؤجل - قال السدي: هو الموت الذي انتهى الكل منهم إليه، وقيل: هو الحشر، وقيل: هو الغاية التي انتهى جميعهم إليها من الاستمتاع، كأنهم أشاروا إلى أن ذلك بقدرك وقضائك إذ لكل كتاب أجل. وقرأ الحسن: ﴿وَبَلَّغْنَا أَجَلَنَا﴾ بكسر اللام مشددة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوًى لَكُمْ﴾ الآية. إخبار من الله عز وجل عما يقول لهم يوم القيامة إثر كلامهم المتقدم، وجاء الفعل بلفظ الماضي - وهو في الحقيقة مستقبل - لصحة وقوعه، وهذا كثير في القرآن وفصح الكلام. و ﴿مَثْوًى لَكُمْ﴾ أي موضع ثوابكم كمقامكم الذي هو موضع الإقامة. هذا قول الزجاج وغيره، قال أبو علي في «الأغفال»: المثنى عندي مصدر لا موضع له، وذلك لعمله في الحال التي هي ﴿خَالِدِينَ﴾ والموضع ليس فيه معنى فعل فيكون عاملاً، والتقدير: النار ذات ثوابكم، والاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ - قالت فرقة: [مَا] بمعنى (مَنْ) فالمراد: إلا من شاء ممن آمن في الدنيا بعد أن كان من هؤلاء الكفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولما كان هؤلاء صنفاً ساغت في العبارة عنهم [مَا]، وقال الفراء: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى (سوى)، والمراد: سوى ما يشاء من زيادة في العذاب، ونحا إليه الزجاج. وقال الطبري: إن المستثنى هي المدة التي بين حشرهم إلى دخولهم النار.

الجن والإنس واستمتاع بعضهم ببعض. وقال قتادة أيضاً: معنى ﴿نُفِثْنَا﴾: نتبع بعضهم بعضاً في دخول النار، أي نجعل بعضهم يلي بعضاً، وقال ابن زيد: معناه: نسلط بعض الظالمين على بعض ونجعلهم أولياء النعمة منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل لا تؤيده ألفاظ الآية المتقدمة، أما إنه حفظ في استعمال الصحابة والتابعين من ذلك ما روي عن عبدالله بن الزبير لما بلغه أن عبدالملك بن مروان قتل عمرو بن سعيد الأشدق صعد المنبر فقال: «إن فم الذبان قتل لطيم الشيطان»، ﴿وَكَذَلِكَ نُفِثْنَاكُمْ أَمْشِقَةَ النَّهَارِ﴾ كَأَوْ يَكْمُونَ.

﴿١٣٦﴾ - ﴿١٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿يَكْمُرُونَ الْإِنْسَانَ﴾ داخل في القول يوم الحشر والضمير

في ﴿مِنْكُمْ﴾ قال ابن جريج: عمم بظاهره الطائفتين والمراد الواحدة تَجَوُّزاً، وهذا موجود في كلام العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا النَّوْلُ وَالْمَرْيَاتُ﴾، وذلك إنما يخرج من الأجاج. وقال الضحاك: الضمير عائد على الطائفتين وفي الجِنِّ رسل منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وقال ابن عباس: الضمير عائد على الطائفتين، ولكن رسل الجن هم رسل الإنس، فهم رسل الله بواسطة إذ هم رسلُ رسله، وهم السُّدُر. و﴿يَقْضُونَ﴾ من القصص. وقرأ عبدالرحمن الأعرج: ﴿أَلَمْ تَأْتِكُمْ﴾ بالتاء على تأنيث لفظ الرسل.

وقولهم: «شهدنا» إقرار منهم بالكفر واعتراف، أي: شهدنا على أنفسنا بالتقصير. وقوله تعالى: ﴿وَعَرَّهِنَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ التفتاة فصيحة تضمنت أن كفرهم كان بأذى الوجوه لهم وهو الاغترار الذي لا يواقعه عاقل. ويحتمل ﴿وَعَرَّهِنَّ﴾ أن يكون بمعنى: أشبعتهن وأطمعتهن بحوائلهما كما يقال: غرَّ الطائر فرخه. وقوله تعالى: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَاذِبُونَ﴾ تظهر بينه وبين ما في القرآن من الآيات التي تقتضي إنكار المشركين الإشراك - مناقضة، والجمع بينهما هو إما بأنها طوائف، وإما طائفة واحدة في مواطن شتى، وإما أن يريد سبحانه بقوله هنا: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ شهادة الأيدي والأرجل والجلود بعد إنكارهم بالأسنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللفظ ما هنا يعد من هذا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ﴾ الآية. ﴿ذَلِكَ﴾ يصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره: ذلك الأمر، ويصح أن يكون في موضع نصب بتقدير: فعلنا، و [أن] مفعول من أجله، و ﴿الْقُرَى﴾: المدن، والمراد أهل القرى، و ﴿يُظَلِّمُونَ﴾ يتوجه فيه معنيان: أحدهما أن الله عز وجل لم يهلك المدن دون نذارة، فيكون ظلماً لهم إذا لم ينذرهم والله ليس بظلام للعبيد، والآخر أن الله عز وجل لم يهلك أهل القرى بظلم إذا ظلموا دون أن ينذرهم، وهذا هو البين القوي، وذكر الطبري رحمه الله التأويلين.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ﴾ الآية إخبار من الله عز وجل أن المؤمنين في الآخرة على درجات من التفاضل بحسب أعمالهم وتفضل الله عليهم، والمشركين أيضاً على درجات من العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن كل مؤمن قد رضي بما أعطي غاية الرضى.

وقرأت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿يَسْكُوتُونَ﴾ على لفظ (كَل)، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ على المخاطبة بالتاء.

﴿١٣٣﴾ - ﴿١٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ لَمَّا نُهُوا عَنِ الْمُشْرِكَةِ﴾ الآية. ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ صفة ذات لله عز وجل لأنه تبارك وتعالى لا يفترق إلى شيء من جهة من الجهات، ثم ثلثت هذه الصفة بقوله تعالى: ﴿ذُو الْأَرْحَامِ﴾

فأردف الاستغناء بالفضل، وهذا أجمل تناسب، ثم عقب بهذه الألفاظ المضمنة الوعيد المحذرة من بطش الله عز وجل في التعجيل بذلك، وإما مع المهملة ومرور الجديدين فكذلك عادة الله في الخلق، وأما الاستخلاف فكما أوجد الله تعالى هذا العالم الآدمي بالنشأة من ذرية قوم متقدمين أصلهم آدم عليه السلام.

وقرأت الجماعة: ﴿ذُرِّيَّةٍ﴾ بضم الذال وشد الراء المكسورة، وقرأ زيد بن ثابت بكسر الذال، وكذلك في سورة (آل عمران)، وحكى أبو حاتم عن أبان بن عثمان أنه قرأ: ﴿ذُرِّيَّةٍ﴾ بفتح الذال وتخفيف الراء المكسورة، وحكى عنه أبو الزناد أنه قرأ على المنبر: ﴿ذُرِّيَّةٍ﴾ بفتح الذال وسكون الراء على وزن فَعَلَةٌ، قال: فسألته فقال: أقرأنيها زيد بن ثابت.

و ﴿زَيْنٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿زَيْنِ ذُرِّيَّةٍ﴾ للتبعيض، وذهب الطبري إلى أنها بمعنى قولك: أخذت من ثوبي ديناراً، بمعنى: عنه وعوضه. و ﴿تُوعَدُونَ﴾ مأخوذ من الوعيد بقريسة: ﴿وَمَا أَنتُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ والإشارة إلى هذا الوعيد المتقدم خصوصاً، وأما أن يكون العموم مطلقاً فذلك يتضمن تنفيذ الوعيد، والعقائد ترد ذلك، و ﴿بِمُعْجِزِينَ﴾ معناه: بناجين هرباً، أي يعجزون طالبهم.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يتوعدهم بقوله: ﴿اعْتَصِلُوا﴾، أي: فسترون عاقبة عملكم الفاسد، وصيغة «افعل» ما هنا بمعنى الوعيد

والتهديد، و ﴿عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ معناه: على حالكم وطريقتكم، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿عَلَىٰ مَكَاتِبِكُمْ﴾ بجمع المكانية في كل القرآن، وقرأ الجميع بالإفراد في كل القرآن، و ﴿مَنْ﴾ يتوجه أن يكون بمعنى الذي فتكون في موضع نصب به ﴿تَكْفُرُونَ﴾، ويتوجه أن يكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، والخبر في قوله تعالى: ﴿تَكْفُرُونَ لَكُمْ﴾، و ﴿عَقِبَةُ الذَّارِبِ﴾ أي: مآل الآخرة، ويحتمل أن يراد مآل الدنيا بالنصر والظهور، ففي الآية إعلام بغيب.

ثم جزم الحكم بأنه ﴿لَا يُبْلَغُ الظَّالِمُونَ﴾ أي: لا ينجح سعيهم، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿مَنْ يَكُونُ﴾ بالياء ما هنا وفي القصص على تذكير معنى العاقبة.

﴿١٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿جَعَلُوا﴾ عائد على كفار العرب العادلين بربهم الأوثان الذين تقدم الرّد عليهم من أول السورة.

و ﴿ذَرَأًا﴾ معناه: خلق وأنشأ وبث في الأرض. يقال: ذرأ الله الخلق يذرؤهم ذرءاً وذرؤاً أي خلقهم و قوله تعالى: ﴿وجعلوا من كذا وكذا نصيباً﴾ يتضمن بقاء نصيب آخر ليس بداخل في حكم الأول، فبيّنه بقوله تعالى: ﴿فَقَالُوا هَذَا بَيْنَهُمْ﴾ و﴿هَذَا لِشُرَكَائِكُمْ﴾، ثم اعترضهم أثناء القول بأن ذلك زعم وتقول، والزعم في كثير كلام العرب أقرب إلى غير اليقين والحق، يقال: زعم بفتح الزاي وبه قرأت الجماعة، وزعم بضمها، وقرأ الكسائي وحده في هذه

الآية، وزعم بكسر الزاي ولا أحفظ أحداً قرأ به.

و ﴿الْمُزَنِّ﴾ في هذه الآية يريد به الزرع والأشجار وما يكون من الأرض، وقوله تعالى: ﴿إِشْرَاقًا﴾ يريد به الأصنام والأوثان، وسموهم شركاء على معتقدهم فيهم أنهم يساهمونهم في الخير والشر ويكسبونهم ذلك.

وسبب نزول هذه الآية أن العرب كانت تجعل من غلاتها وزرعها وثمارها ومن أنعامها جزءاً تسميه الله وجزءاً تسميه لأصنامها، وكانت عاداتها التحفي والاهتبال بنصيب الأصنام أكثر منها بنصيب الله إذ كانوا يعتقدون أن الأصنام بها فقر وليس ذلك بالله، فكانوا إذا جمعوا الزرع فهبت الريح فحملت بمن الذي لله إلى الذي لشركائهم أقروه، وإذا حملت من الذي لشركائهم إلى الله ردوه، وإذا تفجر من سقي ما جعلوا لله في نصيب شركائهم تركوه، وإن بالعكس سدوه وإذا لم يصيبوا في نصيب شركائهم شيئاً قالوا: لا بُدُّ للآلهة من نفقة فيجعلون نصيب الله تعالى في ذلك، قال هذا المعنى ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والسدي، وغيرهم. إنهم كانوا يفعلون هذا ونحوه من الفعل، وكذلك في الأنعام، وكانوا إذا أصابتهم السنة أكلوا نصيب الله وتحاملوا نصيب شركائهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ﴾ الآية. قال جمهور المتأولين: إن المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَا يَصِلُ﴾ وبقوله سبحانه:

﴿يَصِلُ﴾ ما قدمنا ذكره من حمايتهم نصيب ألتهم في هبوب الريح وغير ذلك، وقال ابن زيد: إنما ذلك في أنهم كانوا إذا ذبحوا لله ذكروا ألتهم على ذلك الذبح، وإذا ذبحوا لآلتهم لم يذكروا الله، فكانه قال: «فلا يصل إلى ذكر الله»، وقال: «فهو يصل إلى ذكر شركائهم»، و ﴿مَا﴾ في موضع رفع كأنه قال: «ساء الذي يحكمون»، ولا يتجه عندي أن يجري هنا ﴿سَاءَ﴾ مجرى نعم وبس، لأن المفسر هنا مضمّر ولا بد من إظهاره باتفاق من النحاة، وإنما اتجه أن تجري مجرى «بس» في قوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا كَانُوا الْقَوْمُ﴾ لأن المفسر ظاهر في الكلام.

﴿١٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الكثير في هذه الآية يراد به من كان يثد من شركي العرب، والشركاء هنا الشياطين الآمرون بذلك المزنون له، والحاملون عليه أيضاً من بني آدم الناقلين له عصراً بعد عصر، إذ كلهم مشتركون في قبح هذا الفعل وتباعته في الآخرة، ومقصد هذه الآية الذم للوؤد الإنحاء على فعلته.

واختلفت القراءة - فقرأت الجماعة سوى ابن عامر: ﴿وَكَذَلِكَ زُفَّتْ﴾ بفتح الزاي ﴿قَتَلٌ﴾ بالنصب ﴿أَوْلَادِهِمْ﴾ بكسر الدال، ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ وهذه أبين قراءة، وحكى سيبويه أنه قرأت فرقة: ﴿وَكَذَلِكَ زُفَّتْ﴾ بضم الزاي ﴿قَتَلٌ﴾ بالرفع ﴿أَوْلَادِهِمْ﴾ بكسر الدال ﴿شُرَكَائِهِمْ﴾ بالرفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي قراءة أبي عبدالرحمن السلمي،

وسكون الياء على الرتبة المتقدمة من الفصل بالمفعول. وحكى الزهراوي أنه قرأت فرقة من أهل الشام: **﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ﴾** بضم الزاي **﴿قتل﴾** بالرفع **﴿أولادهم﴾** بكسر الدال **﴿شركائهم﴾** بالخفض. والشركاء على هذه القراءة هم الأولاد

المزودون لأنهم شركاء في النسب والموارث، وكان وصفهم بأنهم شركاء يتضمن حرمة لهم، وفيها بيان لفساد الفعل إذ هو قتل من له حرمة.

و **﴿يُرِيدُوهُمْ﴾** معناه: ليهلكوهم. من الردى. **﴿وَلَيْلِسُوا﴾** معناه:

ليخلطوا، والجماعة على كسر الباء، وقرأ إبراهيم النخعي: **﴿وَلَيْلِسُوا﴾** بفتح الباء، قال أبو الفتح: هي استعارة من اللباس عبارة عن شدة المخالطة. وهذان الفعلان يؤيدان أول قراءة في ترتيبنا في قوله تعالى: **﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾** يقتضي أن لا شيء إلا بمشيئة الله عز وجل، رد على من قال: إن العرة يخلق أفعاله.

وقوله تعالى: **﴿فَدَرَبَهُمْ﴾** وعيد محض، و **﴿يَقْتَرُونَ﴾** معناه: يختلقون من الكذب في تشريعهم بذلك واعتقادهم أنها مباحات لهم.

تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن تعديد ما شرعوه لأنفسهم والتزموه على جهة القربة كذباً منهم على الله واقتراء عليه، فوصف تعالى أنهم عمدوا إلى بعض أنعامهم وهي: الإبل والبقر والغنم، أو الإبل بانفرادها، وأما غيرها إذا انفرد فلا يقال له أنعام، وإلى بعض

الذي ذكره سيبويه هو الصحيح، ومنه قوله عز وجل على قراءة من قرأ: **﴿يَسْخِرْ لَهُ فِيهَا بِالْعُدْوِ وَالْآصَالِ بِجَالٍ﴾** بفتح الباء المشددة، أي: يسبح رجال.

وقرأ ابن عامر: **﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ﴾** بضم الزاي **﴿قتل﴾** بالرفع **﴿أولادهم﴾** بنصب الدال **﴿شركائهم﴾** بخفض الشركاء، وهذه قراءة ضعيفة في استعمال العرب، ورؤساء العربية لا يجيزون الفصل بالظرف في مثل هذا إلا في الشعر

وَقَالُوا هَذِهِ أَمْنَةٌ وَأَمْنَةٌ حَجَرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَأَ بِرِعْبِهِمْ وَأَمْنَةٌ حَرَمَتْ طَهُورُهَا وَأَمْنَةٌ لَا يَكْفُرُونَ أَسْمَاءَ اللَّهِ عَلَيْهَا أَقْرَاءَ عَلَيْهِ سَيَجْرِبُهُمْ بِمَا كَانُوا يَقْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَمُحَرَّمٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَإِنْ كَانَ مِيتَةً فَهُوَ فِيهِمْ شُرَكَاءُ سَيَجْرِبُهُمْ وَصَفَهُمْ بِهِ، حَكِيمٌ عَلَيْهِ ﴿١٣٩﴾ فَذَخِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلَادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَمُوا مَا رَزَقَهُمُ اللَّهُ أَقْرَاءَ عَلَى اللَّهِ فَذَخَرُوا وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَعَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْثَرُهُ بِالزَّبْتِ وَالرِّمَاطَ مُتَشَابِهًا وَعَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلًّا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآثَاوًا حَقًّا يَوْمَ جَسَادِهِ، وَلَا تَشْرَفُوا إِلَيْهِ، لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِمَّنْ الْأَنْعَامِ حَمُولَةٌ وَفَرَسَاتٌ كُلُّوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿١٤٢﴾

والحسن، وأبي عبد الملك قاضي الجند صاحب ابن عامر، كأنه قال: **﴿زَيْنٌ﴾** شركاؤهم، قال سيبويه: وهذا كما قال الشاعر:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُضُومَةٍ
وَمُخْتَبِطٌ بِمَا يَطِيحُ الطَّوَائِحُ
كأنه قال: يبكيه ضارعٌ لخصومة، وأجاز قطرب أن يكون الشركاء في هذه القراءة ارتفعوا بالقتل، كأن المصدر أضيف إلى المفعول، ثم ذكر بعده الفاعل كأنه قال: أن قتل أولادهم شركاؤهم، كما تقول: حبب إلى ركوب الفرس زيد، أي: أن ركب زيد الفرس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والفصيح إذا أضيف مصدر إلى مفعول ألا يذكر الفاعل، وأيضاً فالجمهور - في هذه الآية - على أن الشركاء مزيتون لا قاتلون. والتوجيه

بقوله:

كما خُطَّ الكتابُ بكفٍ يزوماً
يهوديُّ يُقاربُ أو يزِيلُ
كيف بالمفعول في أفصح الكلام؟
ولكن وجهها - على ضعفها - أنها وردت شاذة في بيت أنشدته أبو الحسن الأخفش وهو:

فَرَجَجْتُهَا بِوَزَجِي
زَجَّ الْقُلُوصِ أَبِي مَزَادَةَ
وفي بيت الطرمح وهو قوله:

يَطْفَنُ بِحُوزِي المراتب لم تُرْعِ
بَوَادِيهِ مِنْ قَرْعِ القَيْسِي الكَثَائِنِ
والشركاء - على هذه القراءة - هم الذين يتأولون وأد بنات الغير، فهم القاتلون، والصحيح من المعنى أنهم المَزَيُّونَ لا القاتلون، وذلك مضمن قراءة الجماعة.

وقرأ بعض أهل الشام - ورويت عن ابن عامر -: **﴿زَيْنٌ﴾** بكسر الزاي

رضي الله عنهما - بخلاف - والأعرج، وقتادة، وسفيان بن حسين: ﴿خالصة﴾ بالنصب، وقرأ سعيد بن جبير - فيما ذكر أبو الفتح -: ﴿خالصاً﴾، ونصب هاتين القراءتين على أن الحال من الضمير الذي في قوله تعالى: ﴿فِي بُطُونٍ﴾ وذلك على تقدير الكلام: ﴿وقالوا: ما استقر هو في بطون هذه الأنعام﴾ فحذف الفعل وحمل المجرور الضمير، والحال من الضمير والعامل فيها معنى الاستقرار، قال أبو الفتح: ويصح أن يكون حالاً من [ما] على مذهب أبي الحسن في إجازته تقديم الحال على العامل فيها. وقرأ ابن عباس أيضاً، وأبو حيوه، والزهري: ﴿خالصة﴾ بإضافة (خالص) إلى ضمير يعود على [ما] ومعناه: ما خلص وخرج حياً، والخبر - على قراءة من نصب ﴿خالصة﴾ في قوله سبحانه: ﴿لِتُذَكَّرُوا﴾، والمعنى المراد بـ ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا فِي بُطُونٍ﴾ قال السدي: هي الأجنة، وقال ابن عباس، وقتادة، والشعبي: هو اللبن، قال الطبري: واللفظ يعمهما.

وقوله تعالى: ﴿وَمَحْرَمٌ﴾ يدل على أن الهاء في ﴿خالصة﴾ للمبالغة، ولو كانت لتأنيث لقال: ومحرمه. و ﴿أَزْوَاجًا﴾ يريد به جماعة النساء التي هي معدة أن تكون أزواجاً، قاله مجاهد. وحكى الطبري عن ابن زيد أن المراد بـ ﴿أَزْوَاجًا﴾ البنات. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يبعد تحليقه على المعنى. وقوله تعالى: ﴿وَأَن تَكُن مِّثْلَهُ﴾،

قيل: كانت لهم سنة في أنعام ما ألا يُحج عليها، فكانت تركب في كل وجه إلا في الحج فذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾، هذا قول جماعة من المفسرين، ويروى ذلك عن أبي وائل. وقالت فرقة: بل ذلك في الذبائح، يريد أنهم جعلوا لألهتهم منها نصيباً لا يذكرون الله على ذبحها. وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبًا﴾ مصدر نصب على المفعول من أجله، أو على إضمار فعل تقديره: يفترون ذلك. و ﴿سَجَّيْرِهِمْ﴾ وعيد بمقارضة الآخرة، والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائذ على اسم الله. و ﴿يَقْتُلُونَ﴾ أي: يكذبون ويختلقون.



تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن تعديد مذاهبهم الفاسدة، وكانت سنتهم في بعض الأنعام أن يحرموا ما ولدت على نساءهم ويخصصونه لذكروهم، والهاء في ﴿خالصة﴾ قيل: هي للمبالغة كما هي في (رواية) وغيرها، وهذا كما تقول: فلان خالصتي، وإن كان باب هاء المبالغة أن تلحق بئاء مبالغة كعلامة ونسابة وبصيرة ونحوه. وقيل: هي لتأنيث الأنعام إذ ما في بطونها أنعام أيضاً. وقيل: هي على تأنيث لفظ [ما] لأن [ما] واقعة في هذا الموضع موقع قولك: جماعة وجملة.

وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿خالصة﴾ بالرفع، وقرأ عبدالله بن مسعود، وابن جبير، وابن أبي عبله، والأعمش: ﴿خالصن﴾ دون هاء. ورفع هاتين القراءتين على خبر الابتداء، وقرأ ابن عباس

زروعهم وثمارها، وسُمي ذلك حرث إذ عن الحرث يكون، وقالوا: هذه حَجْرٌ، أي: حرام، وقرأ جمهور الناس: ﴿حَجْرٌ﴾ بكسر الحاء وسكون الجيم، وقرأ قتادة، والحسن، والأعرج: ﴿حَجْرٌ﴾ بضم الحاء وسكون الجيم، وقرأ ابن عباس، وأبي، وابن مسعود، وابن الزبير، والأعمش، وعكرمة، وعمرو بن دينار: ﴿حَجْرٌ﴾ بكسر الحاء وتقدير الراء على الجيم وسكونها. فالأولى والثانية بمعنى: التحجير وهو المنع والتحريم، والأخيرة من الحَجْر وهو التضييق والتحريم.

وكانت هذه الأنعام - على ما قال ابن زيد - مُحَلَّلَةً للرجال مُحْرَمَةً على النساء، وقيل: كانت وقفاً لمطعم سدنة بيوت الأصنام وخدمتها، حكاه المهدي، فذلك المراد بقوله تعالى: ﴿مَنْ نَشَاءُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِرَّعِيهِمْ﴾ أي يتقوله الذي هو أقرب إلى الباطل منه إلى الحق، وزعمهم هنا في قولهم: حَجْرٌ، وتحريمهم بذلك ما لم يحرم الله تعالى، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿بِرَّعَمِهِمْ﴾ بفتح الزاي والعين، وكذلك في الذي تقدم.

﴿وَأَنفُسَهُ حَرِمَتْ طُهُورُهَا﴾، كانت للعرب سنن، إذا فعلت الناقة كذا من جودة النسل والمواصلة بين الإناث ونحوه حُرِّمَ ظهرها فلم تركب، وإذا فعل الفحل كذا وكذا حُرِّمَ ظهره، فعَدَّدَ الله ذلك على جهة الرد عليهم إذ شرعوا ذلك برأيهم وكذبهم، ﴿وَأَنفُسَهُ لَا يَذْكُرُونَ أَنَّهُ اللَّهُ عَلَيْهَا﴾،

كان من سننهم أن ما خرج من الأجنة ميتاً من تلك الأنعام الموقوفة فهو حلال للرجال والنساء جميعاً، وكذلك ما مات من الأنعام الموقوفة نفسها.

وقرأ ابن كثير: ﴿وإن يكن﴾ بالياء **ميتة** بالرفع، فلم يلحق الفعل علامة التأنيث لما كان تأنيث الفاعل المسند إليه غير حقيقي، والمعنى: وإن وقع ميتة أو حدث ميتة، وقرأ ابن عامر: ﴿وإن تكن﴾ بالتاء **ميتة** بالرفع، فألحق الفعل علامة التأنيث لما كان الفاعل في اللفظ مؤنثاً، وأسند الفعل إلى الميتة كما فعل ابن كثير، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر عنه: ﴿تكن﴾ بالتاء **ميتة** بالنصب فأنت وإن كان المتقدم مذكراً لأنه حملة على المعنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالتقدير: وإن تكن النسمة أو نحوها ميتة. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم في رواية حفص: ﴿يكن﴾ بالياء **ميتة** بالنصب، فذكروا الفعل لأنهم أسندوه إلى ضمير ما تقدم من قوله تعالى: ﴿ما في بطونهم هذه الأبقار﴾ وهو مذكر، وانتصبت الميتة على الخبر. قال أبو عمرو بن العلاء: ويقوي هذه القراءة قوله تعالى: ﴿فهم في﴾ ولم يقل (فيها)، وقرأ يزيد بن القعقاع: ﴿وإن تكن ميتة﴾ بالتشديد، وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿فهم فيه سواة﴾.

ثم أعقب تعالى بوعيدهم على ما

وصفوا أنه من القربات إلى الله تعالى وشرعوه من الباطل والإفك، ﴿إنه حكيم﴾ أي في عذابهم على ذلك، ﴿عليم﴾ بقليل ما تقولوه من ذلك وكثيره.

﴿١٤١﴾ - ﴿١٤٠﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا لفظ يتضمن التشنيع بقبح فعلهم والتعجب من سوء حالهم في وأدهم البنات وحجرهم الأنعام والحرح. قال عكرمة: وكان الوأد في ربيعة ومضر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان جمهور العرب لا يفعله، ثم إن فاعليه كان منهم من يفعله خوف العيلة والإقتار، وكان منهم من يفعله غير مخافة السباء. وقرأ ابن عامر، وابن كثير: ﴿قتلوا﴾ بتشديد التاء على المبالغة، وقرأ الباقون: ﴿قتلوا﴾ بتخفيفها.

و ﴿ما رزقهم الله﴾ هي تلك الأنعام والغلات التي توقف - بغير شرع ولا مثوبة في معاد، بل الاقتراء على الله والكذب. و ﴿قد صلوا﴾ إخبار عنهم بالحيرة، وهو من التعجب بمنزلة قوله تعالى: ﴿قد خير﴾. ﴿وما كانوا﴾ يريد: في هذه الفعلة، ويحتمل أن يريد: وما كانوا قبل ضلالهم بهذه الفعلة مهتدين، ولكنهم زادوا بهذه الفعلة ضلالاً.

وقوله تعالى: ﴿وهو الذي أنشأ جنات معروشات﴾ الآية. هذا تنبيه على مواضع الاعتبار، و ﴿أنشأ﴾ معناه: خلق واخترع، والجنات مأخوذة من جن إذا ستر، و ﴿معروشات﴾ قال ابن عباس: ذلك في ثمر العنب، ومنها ما عرش وسمك، ومنها ما لم

يعرش، وقال السدي: المعروش: هو ما يعترشه بنو آدم من أنواع الشجر، وغير المعروش: ما يحدث في الجبال والصحراء ونحو ذلك. وقيل: المعروش: ما حلق بحائط، وغير المعروش: ما لم يحلق. و ﴿مغلاتاً﴾ نصب على الحال على تقدير حصول الاختلاف في ثمرها لأنها حين الإنشاء لا ثمرة فيها، فهي حال مقدرة تجيء بعد الإنشاء. و ﴿مستبهاً﴾ يريد: في المنظر. و ﴿وعبر مستكبراً﴾ في المطعم، قاله ابن جريج وغيره.

وقوله تعالى: ﴿كلوا من ثمريه﴾ نفس الإباحة وهو مضمن الإشارة إلى النعمة بذلك، ويقرأ ﴿من ثمريه﴾ بضم التاء، وقد تقدم. ﴿وآثراً حقاً﴾ يورث حكاية، قالت طائفة من أهل العلم: هي في الزكاة المفروضة، منهم ابن عباس، وأنس بن مالك، والحسن بن أبي الحسن، وطاوس، وجابر بن زيد، وسعيد بن المسيب، وقتادة، ومحمد بن الحنفية، والضحاك، وزيد بن أسلم، وابنه، وقاله مالك بن أنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول معترض بأن السورة مكية وهذه الآية على قول الجمهور غير مستثناة، وحكى الزجاج أن هذه الآية قيل فيها إنها نزلت بالمدينة، ومعترض أيضاً بأنه لا زكاة فيما ذكر من الرمان وجميع ما هو في معناه.

وقال ابن الحنفية أيضاً، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم من أهل العلم: بل قوله تعالى: ﴿وآثراً حقاً﴾ ندب

فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِجْحَافِ بِالْمَالِ وَإِضَاعِهِ .
 وَرَوَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنْ ثَابِتَ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ حَصَلَ غَلَّةٌ لَهُ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا جَاءَنِي الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا أَطْعَمْتَهُ ، فَأَمْسَى وَلَيْسَ عِنْدَهُ ثَمَرَةٌ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : كَانُوا يُعْطُونَ شَيْئاً عِنْدَ الْحِصَادِ ثُمَّ تَبَادَرُوا فِيهِ وَأَسْرَفُوا فَنَزَلَتْ الْآيَةُ .
 وَمَنْ قَالَ إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ تَرْتَبُ لَهُ النَّهْيُ فِي وَقْتِ حُكْمِ الْآيَةِ .

﴿١٤٣﴾ - ﴿١٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل :

﴿ حَمُولَةٌ ﴾ عطفت على ﴿ جَنَّتِ تَمَرٌ وَرَشَّتِ ﴾ ، والتقدير : وأنشأنا من الأنعام حمولة ، والحمولة : ما تحمّل الأثقال من الإبل والبقر عند من عاداته أن يحمّل عليها ، والهاء في ﴿ حَمُولَةٌ ﴾ للمبالغة ، وقال الطبري : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه . والفَرَشُ : ما لا يحمل ثقلًا كالغنم وصغار البقر والإبل ، هذا هو المروي عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وغيرهم ، يقال له : الفَرَشُ والفَرِيشُ ، وذهب بعض الناس إلى أن تسميته فرشاً إنما هي لوطأته وأنه مما يمتهن ويتوطأ ويتمكن من التصرف فيه إذا قرب جسمه من الأرض .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الحمولة :

فِي ذَلِكَ مِنَ الْإِجْحَافِ بِالْمَالِ وَإِضَاعِهِ .
 وَرَوَى أَنَّ الْآيَةَ نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنْ ثَابِتَ بْنِ قَيْسِ بْنِ شِمَاسٍ حَصَلَ غَلَّةٌ لَهُ فَقَالَ : وَاللَّهِ لَا جَاءَنِي الْيَوْمَ أَحَدٌ إِلَّا أَطْعَمْتَهُ ، فَأَمْسَى وَلَيْسَ عِنْدَهُ ثَمَرَةٌ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ : كَانُوا يُعْطُونَ شَيْئاً عِنْدَ الْحِصَادِ ثُمَّ تَبَادَرُوا فِيهِ وَأَسْرَفُوا فَنَزَلَتْ الْآيَةُ .
 وَمَنْ قَالَ إِنَّهَا مَنْسُوخَةٌ تَرْتَبُ لَهُ النَّهْيُ فِي وَقْتِ حُكْمِ الْآيَةِ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : والنسخ غير مرتب في هذه الآية لأن هذه الآية وآية الزكاة لا تتعارض ، بل تنبني هذه على الندب وتلك على الغرض .

وقرأ ابن كثير ، ونافع ، وحمزة ، والكسائي : ﴿ حِصَادَهُ ﴾ ، وقرأ عاصم ، وأبو عمرو ، وابن عامر : ﴿ حِصَادَهُ ﴾ بفتح الحاء ، وهما لغتان في المصدر .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تُسْرِفُوا ﴾ الآية . من قال إن الآية في الزكاة المفروضة جعل هذا النهي عن الإسراف إما للناس عن التمتع عن أدائها لأن ذلك إسراف من الفعل ، وقاله سعيد بن المسيب ، وإما للولادة عن التشتط على الناس والإذابة لهم ، فذلك إسراف من الفعل ، وقاله ابن زيد ، ومن جعل الآية على جهة الندب إلى حقوق غير الزكاة ترتب له النهي عن الإسراف في تلك الحقوق لما

الإبل والخيل والبغال والحمير . ذكره الطبري .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا منه تفسير لنفس اللفظة لا من حيث هي في هذه الآية ، ولا مدخل في الآية لغير الأنعام ، وإنما خصت بالذكر من جهة ما شرعت فيها العرب .

وقوله تعالى : ﴿ يَتَّخِذُونَ كَذِبًا يُضِلُّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ ﴿١٤٤﴾ .
 ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ وهي جمع خطوة ، أي : لا تمشوا في طرقه المضلة ، وقد تقدم في سورة البقرة اختلاف القراء في خطوات ، ومن شاذها قراءة علي رضي الله عنه ، والأعرج ، وعمرو بن عبيد ﴿ خَطُّوَاتٍ ﴾ بضم

﴿ حَمُولَةٌ ﴾ عطفت على ﴿ جَنَّتِ تَمَرٌ وَرَشَّتِ ﴾ ، والتقدير : وأنشأنا من الأنعام حمولة ، والحمولة : ما تحمّل الأثقال من الإبل والبقر عند من عاداته أن يحمّل عليها ، والهاء في ﴿ حَمُولَةٌ ﴾ للمبالغة ، وقال الطبري : هو اسم جمع لا واحد له من لفظه . والفَرَشُ : ما لا يحمل ثقلًا كالغنم وصغار البقر والإبل ، هذا هو المروي عن ابن مسعود ، وابن عباس ، والحسن ، وغيرهم ، يقال له : الفَرَشُ والفَرِيشُ ، وذهب بعض الناس إلى أن تسميته فرشاً إنما هي لوطأته وأنه مما يمتهن ويتوطأ ويتمكن من التصرف فيه إذا قرب جسمه من الأرض .

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : الحمولة :

الخاء والطاء وبالهزمة، قال أبو الفتح: وذلك جمع خطأ من الخطأ، ومن الشاذ قراءة أبي السمال: ﴿خُطْرِي﴾ بالواو دون همزة، وهو جمع خُطوة، وهي ذراع ما بين قدمي الماشية، ثم علل النهي عن ذلك بتقرير عداوة الشيطان لابن آدم.

وقوله تعالى: ﴿تَمَيَّنَ﴾ اختلف في نصبها. فقال الأخفش علي بن سليمان: بفعل مضمر تقديره: كلوا لحم ثمانية أزواج، فحذف الفعل والمضاف وأقيم المضاف إليه مقامه، وقيل: نصب على البدل من [ما] في قوله تعالى: ﴿كُلُوا مِنَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾، وقيل: نصبت على الحال، وقيل: نصبت على البدل من قوله تعالى: ﴿حَوَالَهُمْ كَزَلَجِئْتُمْ﴾. وهذا أصوب الأقوال وأجراها مع معنى الآية. وقال الكسائي: نُصِبَهَا ﴿أَنْتَا﴾. والزوج: الذكر، والزوج: الأنثى، كل واحد منهم زوج صاحبه، وهي أربعة أنواع فتجيء ثمانية أزواج.

والضأن: جمع ضائنة وضائن، وقرأ طلحة بن مصرف، وعيسى بن عمر، والحسن: ﴿مِنَ الضَّائِنِ﴾ بفتح الههمزة، وقرأ نافع، وعاصم، وحمة، والكسائي: ﴿وَرَبِّكَ الْمَعْرُ﴾ بسكون العين، وهو جمع معازر ومعازرة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَرَبِّكَ الْمَعْرُ﴾ بفتح العين. فضان ومعز كراكب وركب وتاجر وتجر، وضان ومعز كخادم وخدم ونحوه. وقرأ أبان بن عثمان: ﴿مِنَ الضَّائِنِ اثْنَانِ﴾ على الابتداء

والخير المقدم، ويقال في جمع ما عز: مَعَزٌ وَمَعَزٌ وَمَعِيزٌ وَمِعْزَى وَأَمْعُوزٌ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَذْكَرُونَ﴾، هذا تقسيم على الكفار حتى يتبين كذبهم على الله، أي: لا بُدَّ أَنْ يكون حَرَمُ الذَّكْرَيْنِ فيلزمكم تحريم جميع الذكور، أو الأنثيين فيلزمكم تحريم جميع الإناث، ﴿أَمَّا أَشْتَكَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثِيَّيْنَ﴾ فيلزمكم تحريم الجميع، وأنتم لم تلتزموا شيئاً مما يوجب هذا التقسيم، وفي هذه السؤالات تقرير وتوبيخ.

ثم أتبع تقريرهم وتوبيخهم بقوله تعالى: ﴿نَبِّئُونِي﴾ أخبروني ﴿بِمَلِمٍ﴾ أي من جهة نبوءة أو كتاب من كتب الله ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، و [إِنْ] شرط وجوابه في ﴿نَبِّئُونِي﴾، وجاز تقديم جواب هذا الشرط لما كانت [إِنْ] لا يظهر لها عمل في الماضي، ولو كانت ظاهرة العمل لما جاز تقدم الجواب.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾:

القول في هذه الآية في المعنى وترتيب التقسيم كالقول المتقدم في قوله سبحانه: ﴿وَرَبِّكَ الضَّائِنِ اثْنَيْنِ﴾ و﴿رَبِّكَ الْمَعْرُ﴾، وكأنه قال: أنتم الذين تدعون أن الله حرم خصائص من هذه الأنعام، فلا يخلو تحريمه من أن يكون في الذكرين أو في الأنثيين أو فيما اشتملت عليه أرحام الأنثيين، لكنه لم يحرم لا هذا ولا هذا فلم يبق إلا أنه لم يقع تحريم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّيْنَاكُمْ اللَّهُ بِهَذَا﴾. الآية

استفهام على جهة التوبيخ، إذ لم يبق لهم الادعاء المحال والتقول أنهم شاهدوا وصية الله لهم بهذا.

و ﴿شُهَدَاءَ﴾ جمع شهيد، ثم تضمن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ ذكر حال مفتري الكذب على الله وتقرير إفراط ظلمه. وقال السدي: كان الذين سيؤا ويحروا يقولون: الله أمرنا بهذا، ثم بين تعالى سوء مقصدهم بالافتراء، لأنه لو افترى أحد فرية على الله لغير معنى لكان ظلماً عظيماً فكيف إذا قصد بها إضلال أمة. وقد يحتمل أن تكون اللام في ﴿يُضِلُّ﴾ لام صيرورة.

ثم جزم الحكم لا رب غيره بأنه لا يهدي القوم الظالمين، أي: لا يرشدهم، وهذا عموم في الظاهر، وقد تبين تخصيصه مما يقتضيه الشرع من أن يهدي ظلمة كثيرة بالتوبة.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾:

هذا أمر من الله عز وجل بأن يشرع للناس جميعاً ويبين عن الله ما أوحى إليه، وهذه الآية نزلت بمكة ولم يكن في الشريعة في ذلك الوقت شيء محرم غير هذه الأشياء، ثم نزلت سورة المائدة بالمدينة وزيد في المحرمات كالمنخفة والموقودة والمتردة والتطيحة. فإن هذه وإن كانت في حكم الميتة فكان في النظر احتمال أن تلحق بالمذكيات لأنها بأسباب وليست ختف الأنف. فلما بين النص إلحاقها بالميتة كان زيادة في المحرمات، ثم نزل النص على رسول الله ﷺ في تحريم الحمر بوحى غير معجز، وبتحريم كل ذي ناب من السباع، فهذه كلها زيادات

والرجس: الثن والحرام، ويوصف بذلك الأجرام والمعاني كما قال عليه الصلاة والسلام: «دهوها فإنها مُتَنَّة» الحديث. فكذلك قيل في الأزام رجس. والرجس أيضاً: العذاب لغة بمعنى الرجز، وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَسْتَفَاقُوا﴾ يريد ذبائحهم التي يختصون بها أصنامهم.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَمَاطَ﴾ الآية، أباح الله فيها مع الضرورة ركوب المحظور دون بغي، واختلف الناس فيم ذاء؟ - فقالت فرقة: دون أن يبني الإنسان في أكله فيأكل فوق ما يقيم رفقته وينتهي إلى حد الشبع وفوقه، وقالت فرقة: بل دون أن يبني في أن يكون سفره في قطع طريق أو قتل نفس، أو يكون تصرفه في معصية، فإن ذلك لا رخصة له، وأما من لم يكن بهذه الأحوال فاضطر فله أن يشبع ويتزود، وهذا مشهور قول مالك بن أنس رحمه الله، وقال بالأول الذي هو الاقتصار على سد الرمق عبدالمالك بن حبيب رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَرَكُ وَغُورٌ نَجْمًا﴾ إباحة تعطيتها قوة اللفظ.

﴿تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى ما حرم على أمة محمد ﷺ أعقب ذلك بذكر ما حرم على اليهود لِمَا في ذلك من تكذيبهم في قولهم: إن الله لم يحرم علينا شيئاً، وإنما حرمنا على أنفسنا ما حرمه إسرائيل على نفسه وقد تقدم القول في سورة البقرة في ﴿هَادُوا﴾ ومعنى تسميتهم يهوداً.

﴿كُلُّ ذِي ظُفْرٍ﴾ يراد به الإبل والنعام والأوز ونحوه من الحيوان

جعفر محمد بن علي: ﴿يَطْعُمُهُ﴾ بتشديد الطاء وكسر العين. وقرأ محمد بن الحنفية، وعائشة، وأصحاب عبدالله: ﴿طَعْمُهُ﴾ بفعل ماض. وقرأ نافع، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿إِلَّا أَنْ يَكُونَ﴾ بالياء على تقدير: إلا أن يكون المطعوم. وقرأ ابن كثير، وحمزة، وأبو عمرو أيضاً: ﴿إِلَّا أَنْ تَكُونَ﴾ بالتاء من فوق ﴿مَيْتَةً﴾ على تقدير: إلا أن تكون المطعومة. وقرأ ابن عامر وحده - وذكرها مكي عن أبي جعفر: - [إِلَّا أَنْ تَكُونَ] بالتاء ﴿مَيْتَةً﴾ بالرفع على أن تجعل ﴿تَكُونَ﴾ بمعنى (تقع)، ويحتاج - على هذه القراءة - أن يعطف ﴿دَمًا﴾ على موضع ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ لأنها في موضع نصب بالاستثناء. والمسفوح: الجاري الذي يسيل، وجعل الله سبحانه وتعالى هذا فرقا بين القليل والكثير، والمسفوح: السائل من الدم والدمع ونحوه، ومنه قول الشاعر - وهو طرفه -:

إِذَا مَا عَادَةَ مِثْلًا نِسَاءَ
سَفَحْنَ الدَّمَ مِنْ بَعْدِ الرَّيْنِ
وقول امرئ القيس:

وإن شِفائي عِبْرَةٌ إِنْ سَفَحْتُهَا
وَقَلَّ عِنْدَ رِشْمِ دَارِسٍ مِنْ مَعْوَلٍ
فالدَّمُ المِخْتَلِطُ باللحم والدمُ الخارج من مرق اللحم وما شاكل هذا حلال، والدم غير المسفوح هو هذا وهو معفو عنه، وقيل لأبي مجلز في القدر تعلوها الحمرة من الدم قال: إنما حرم الله المسفوح، وقالت نحوه عائشة وغيرها، وعليه إجماع العلماء، وقيل: الدم حرام لأنه إذا زایل فقد انسفع.

في التحريم، ولفظة التحريم إذا وردت على لسان رسول الله ﷺ فإنها صالحة أن تنتهي بالشيء المذكور إلى غاية المنع والحظر، وصالحة بحسب اللغة أن تقف دون الغاية في حيز الكراهية ونحوها، فما اقترنت به قرينة التسليم من الصحابة المتأولين وأجمع عليه الكل منهم ولم تضطرب فيه ألفاظ الأحاديث وأمضاه الناس على أدلاله وجب بالشرع أن يكون تحريمه قد وصل الغاية من الحظر والمنع، ولحق الخنزير والميتة، وهذه صفة تحريم الخمر. وما اقترنت به قرينة ألفاظ الحديث واختلفت الأمة فيه مع علمهم بالأحاديث كقوله عليه الصلاة والسلام: ﴿كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبَاعِ حَرَامٌ﴾ وقد ورد نهي رسول الله ﷺ عن أكل كل ذي ناب من السباع، ثم اختلفت الصحابة ومن بعدهم في تحريم ذلك فجاز - لهذه الوجوه - لمن ينظر أن يحمل لفظ التحريم على المنع الذي هو الكراهية ونحوها. وما اقترنت به قرينة التأويل كتحرимه عليه الصلاة والسلام لحوم الحمر الإنسية فتأول بعض الصحابة الحاضرين ذلك لأنها نجس، وتأول بعضهم ذلك لثلا تفتى حمولة الناس، وتأول بعضهم التحريم المحض، وثبت في الأمة الاختلاف في تحريم لحمها فجاتز لمن ينظر من العلماء أن يحمل لفظ التحريم بحسب اجتهاده وقياسه على كراهة أو نحوها.

وروي عن ابن عامر أنه قرأ: ﴿فيما أَوْحَى إِلَيَّ﴾ بفتح الهمزة والحاء، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَطْعُمُهُ﴾. وقرأ أبو

الذي هو غير منفرج الأصابع وله ظفر. وقال أبو زيد: «المراد الإبل خاصة». وضعف هذا التخصيص. وذكر النقاش عن ثعلب أن كل ما لا يصيد فهو ذو ظفر، وما يصيد فهو ذو مخلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: «وهذا غير مطرد لأن الأسد ذو ظفر».

وقرأ جمهور الناس: ﴿ظَفْرٌ﴾ بضم الظاء والفاء، وقرأ الحسن والأعرج ﴿ظَفْرٌ﴾ بسكون الفاء، وقرأ أبو السمال قنعب ﴿ظَفْرٌ﴾ بكسر الظاء وسكون الفاء.

وأخبرنا الله عز وجل في هذه الآية بتحريم الشحوم على بني إسرائيل، وهي الشروب، والكلى وما كان شحماً خالصاً خارجاً عن الاستثناء الذي في الآية.

واختلف العلماء في تحريم ذلك على المسلمين من ذبائح اليهود - فحكى ابن المنذر في «الأشراف» عن مالك وغيره منع أكل الشحم من ذبائح اليهود، وهو ظاهر «المدونة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على القول في قوله عز وجل: ﴿وَمَنْ أَمَّا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ لَدُنْكَ﴾ بأنه المطلوم من ذبائحهم، وأما ما لا يحل لهم فلا تقع عليه ذكاة بل هو كالمذبح في ذبائح المسلمين، وعلى هذا القول يجيء قول مالك رحمه الله في «المدونة» فيما ذبحه اليهودي مما لا يحل لهم كالجمل والأرنب: إنه لا يؤكل.

وروي عن مالك رحمه الله كراهية الشحم من ذبائح أهل الكتاب دون

تحريم، وأباح بعض الناس الشحم من ذبائح أهل الكتاب وذبحهم ما هو عليهم حرام إذا أمرهم بذلك مسلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أن يجعل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَمَّا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ لَدُنْكَ﴾ يراد به الذبائح، فمتى وقع الذبح على صفة وقعت الإباحة، وهذا قول ضعيف لأنه جرّد لفظه ﴿مَطْعَمًا﴾ من معنى أن تكون «مطعموماً» لأهل الكتاب وخلصها لمعنى «الذبح»، وذلك حرج لا يتوجه.

وأما الطريق فحرمه قوم، وكرهه قوم، وأباحه قوم، وحلله مالك في «المدونة» ثم رجع إلى منعه. وقال ابن حبيب: ما كان محرماً عليهم وعلمنا ذلك من كتابنا فلا يحل لنا من ذبائحهم، وما لم نعلم تحريمه إلا من أقوالهم فهو غير محرم علينا من ذبائحهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَكَّكَتْ ظُهُورُهُمْ﴾ يريد ما اختلط باللحم في الظهر والأجناب نحوه، قال السدي، وأبو صالح: الأليات مما حملت ظهورهما. ﴿أَوْ الْحَوَايَا﴾ قال: هو جمع حَوِيَّةٍ على وزن فعيلة، فوزن (حَوَايَا) على هذا فاعل كسفية وسفائن. وقيل: هو جمع حاوية على وزن فاعلة، ف (حَوَايَا) على هذا فواعل كضاربة وضوارب. وقيل: جمع حاويات فوزنها على هذا أيضاً فواعل كقاصعاء وقواصع، وأما الحوايا على الوزن الأول فأصلها حَوَايِي فقلبت الياء الأخيرة ألفاً

فانفتحت لذلك الهمزة ثم بدلت ياء، وأما على الوزنين الأخيرين فأصل [حَوَايَا] حَوَاوي، وبدلت الواو الثانية همزة. والحوية: ما تحوى في البطن واستدار وهي المصارين والحشوة ونحوهما. وقال مجاهد، وقتادة، وابن عباس، والسدي، وابن زيد: ﴿الْحَوَايَا﴾: المباعر، وقال بعضهم: هي المرباط التي تكون فيها الأمعاء وهي بنات اللبن.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ﴾ يريد في سائر الشخص.

و ﴿الْحَوَايَا﴾ معطوف على [ما] في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا حَكَّكَتْ﴾، فهي في موضع نصب عطفاً على المنصوب بالاستثناء. وقال الكسائي: ﴿الْحَوَايَا﴾ معطوف على (الظهور) كأنه قال: إلا ما حملت ظهورهما أو حملت الحوايا، وقال بعض الناس: ﴿الْحَوَايَا﴾ معطوف على (الشحوم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا تدخل ﴿الْحَوَايَا﴾ في التحريم، وهذا قول لا يعضده اللفظ ولا المعنى بل يدفعانه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾. ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع، و ﴿جَزَاءُ الَّذِينَ يَبْتَغُونَ﴾ يقتضي أن هذا التحريم إنما كان عقوبة لهم على ذنوبهم وبغيتهم واستعصائهم على الأنبياء، وقوله تعالى: ﴿وَرِثَا لَصَدِيقُونَ﴾ إخبار يتضمن التعريض بكذبهم في قولهم: «ما حرم الله علينا شيئاً وإنما اقتدينا بإسرائيل فيما حرم على نفسه» ويتضمن إدحاض قولهم وزده عليهم.

وَجَلُّ شَاءَ إِشْرَاكِهِمْ، وَأَقْدَرَهُمْ عَلَى اِكْتِسَابِ الإِشْرَاكِ وَالْمَعَاصِي وَمَجِبَتِهِ وَالِاسْتِغْثَالَ بِهِ، ثُمَّ عَلِقَ الْعِقَابَ وَالشُّوَابَ عَلَى تِلْكَ الْأَشْيَاءِ وَالِاِكْتِسَابَاتِ وَهُوَ الَّذِي يَقْتَضِيهِ ظَاهِرُ الْقُرْآنِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿جَزَاءً يَبْأُ كَانُوا بِكَيْسَبِهِمْ﴾، وَنَحْوِ ذَلِكَ. وَيَلْزِمُهُمْ عَلَى اِحْتِجَاجِهِمْ أَنْ تَكُونَ كُلُّ طَرِيقَةٍ وَكُلُّ نَحْلَةٍ صَوَابًا، إِذْ كُلُّهَا لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَمْ تَكُنْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ: إِنَّمَا هَذِهِ الْمَقَالَةُ مِنَ الْمَشْرُكِينَ عَلَى جِهَةِ اِلسْتِهْزَاءِ. وَهَذَا ضَعِيفٌ.

وَتَعَلَّقَتْ الْمَعْتَزَةُ بِهَذِهِ الْآيَةِ قَالَتْ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ ذَمَّ لَهُمْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، وَإِنَّمَا ذَمَّهَا لِأَنَّ كُفْرَهُمْ لَيْسَ بِمُشِيئَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى، بَلْ هُوَ خَلَقَ لَهُمْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَلَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا قَالُوا، وَإِنَّمَا ذَمَّ اللَّهُ تَعَالَى ظَنَ الْمَشْرُكِينَ أَنَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا يَقَعُ عَلَيْهِ عِقَابٌ، وَأَمَّا أَنَّهُ ذَمَّ قَوْلَهُمْ: «الْوَلَا الْمُشِيئَةَ لَمْ تَكْفُرْ»، فَلَا.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾، وَفِي الْكَلَامِ حَذْفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ تَنَاسُقُ الْكَلَامِ، كَأَنَّهُ قَالَ: سَيَقُولُ الْمَشْرُكُونَ كَذَا وَكَذَا، وَلَيْسَ فِي ذَلِكَ حُجَّةٌ لَهُمْ، وَلَا شَيْءٌ يَقْتَضِي تَكْذِيبَهُمْ، وَلَكِنْ كَذَلِكَ كَذَّبَ

١٤٧ - ١٤٨ - تفسير قوله عز وجل:

يريد: فَإِنَّ كَذْبُكَ فِيمَا أَخْبَرْتَ بِهِ أَنَّ اللَّهَ حَرَمَهُ عَلَيْهِمْ وَقَالُوا: لَمْ يَحْرَمْ اللَّهُ عَلَيْنَا شَيْئًا، وَإِنَّمَا حَرَمْنَا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلَ عَلَى نَفْسِهِ. قَالَ السُّدِّيُّ: وَهَذِهِ كَانَتْ مَقَالَتَهُمْ، فَقُلَّ يَا مُحَمَّدُ عَلَى جِهَةِ التَّعَجُّبِ مِنْ حَالِهِمْ وَالتَّعْظِيمِ لِغَيْبَتِهِمْ فِي تَكْذِيبِهِمْ لَكَ مَعَ عِلْمِهِمْ بِحَقِيقَةِ مَا قُلْتَ: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾، إِذْ لَا يَجَالِكُمْ بِالْعُقُوبَةِ مَعَ شِدَّةِ جُرْمِكُمْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذَا كَمَا تَقُولُ عَنْ رُؤْيَا مَعْصِيَةٍ أَوْ أَمْرٍ مَبْغِيٍّ: مَا أَحْلَمَ اللَّهُ، وَأَنْتَ تَرِيدُ: لِإِمْهَالِهِ عَلَى مِثْلِ ذَلِكَ. فَبَدَّلَ قَوْلَهُ: ﴿رَبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ قُوَّةً وَصَفَهُمْ بِغَايَةِ اِلْجْتِرَامِ وَشِدَّةِ الطُّغْيَانِ.

ثُمَّ أَعْقَبَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ بِوَعِيدٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا يُرَدُّ بِأَسْمِعٍ عَنِ الْقَوْرِ الْمُجْرِمِينَ﴾ فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَلَا تَغْتَرُوا أَيْضًا بِسَعَةِ رَحْمَتِهِ فَإِنَّ لَهُ بِأَسْمِعٍ لَا يُرَدُّ عَنِ الْمَجْرِمِينَ إِمَّا فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا فِي الْآخِرَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ وَمَا جَانَسَهَا مِنْ آيَاتِ مَكَّةَ مَرْتَفِعٌ حُكْمُهُ بِالْقِتَالِ. وَأَخْبَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ الْمَشْرُكِينَ سَيَحْتَجُونَ لِصَوَابِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنْ شُرْكَهِمْ وَتَدِينُهُمْ بِتَحْرِيمِ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ بِإِمْهَالِ اللَّهِ تَعَالَى وَتَقْرِيرِهِ حَالَهُمْ، وَأَنَّهُ لَوْ شَاءَ غَيْرُ ذَلِكَ لَمَا تَرَكَهُمْ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَبَيَّنَّ أَنَّ الْمَشْرُكِينَ لَا حُجَّةَ لَهُمْ فِيمَا ذَكَرُوا لِأَنَّا نَحْنُ نَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَوْ شَاءَ مَا أَشْرَكُوا، وَلَكِنَّهُ عَزَّ

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ بِنَحْوِ هَذِهِ الشَّبَهَةِ مِنْ ظَنِّهِمْ أَنَّ تَرَكَ اللَّهُ لَهُمْ دَلِيلٌ عَلَى رِضَا بِحَالِهِمْ.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰ ذَاوَأُ أَبَاسًا﴾ وَعِيدٌ بَيِّنٌ، وَلَيْسَ فِي الْآيَةِ رَدٌّ مَنصُوعٌ عَلَى قَوْلِهِمْ: ﴿لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾، وَإِنَّمَا تَرَكَ الرُّدَّ عَلَيْهِمْ مَقْدَرًا فِي الْكَلَامِ لَوْضُوحِهِ وَبَيَانِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا مَابَ أُنَا﴾ مَعْطُوفٌ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ فِي «أَشْرَكْنَا»، وَالْعَطْفُ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ لَا يَرُدُّهُ قِيَاسًا، بِخِلَافِ الْمَنْصُوبِ، لَكِنْ سَبَبِيَّةً قَدْ قَبِحَ الْعَطْفُ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَرْفُوعِ، وَوَجَّهَ قَبِيحَهُ أَنَّهُ لَمَّا بَنَى الْفِعْلَ صَارَ كَحَرْفٍ مِنَ الْفِعْلِ فَقَبِيحٌ الْعَطْفُ عَلَيْهِ لِشَبَهِهِ بِالْحَرْفِ، وَذَلِكَ كَقَوْلِكَ: «قَمْتُ وَزَيْدًا»، لِأَنَّ تَأْكِيدَهُ فِيهِ يَبِينُ مَعْنَى اِلْسْمِيَّةِ وَيَذْهَبُ عَنْهُ شَبَهُ الْحَرْفِ،

وحسن عند سيبويه العطف في قوله تعالى: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءَنَا﴾ لما طال الكلام بـ [لَا] فكأن معنى الاسمية اتضح واقتضت [لَا] ما يعطف بعدها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ﴾ الآية. المعنى: قل يا محمد للكفرة: هل عندكم من علم من قبل الله فتبينوه حتى تقوم به الحجة. و ﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ زائدة مؤكدة، وجاءت زيادتها لأن الاستفهام داخل في غير الواجب. ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ أي: لا شيء عندكم إلا الظن، وهو أكذب الحديث.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ على المخاطبة، وقرأ إبراهيم النخعي، وابن وثاب: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ بالياء حكاية عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي قراءة شاذة يضعفها قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَشْرَكُوا﴾ و ﴿تَحْرُصُونَ﴾ معناه: تقدرون وتظنون وترجمون.

﴿١٤٩﴾ - ﴿١٥٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

ثم أعقب تعالى أمره نبيه ﷺ بتوقيف المشركين على موضع عجزهم بأمره إياه بأن يقول مبيناً مفصلاً: ﴿فَلِلَّهِ الْحُجْمَةُ الْبَيْلَتُكُمُ﴾، يريد: البالغة غاية المقصد في الأمر الذي يحتاج فيه، ثم أعلم بأنه لو شاء لهدى العالم بأسره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية ترد على المعتزلة في قولهم: إن الهداية والإيمان إنما هي من العبد لا من الله، فإن قالوا: معنى ﴿لَهَدَيْتُكُمْ﴾ لا اضطرركم إلى

الهدى فسد ذلك بمعتقدهم أن الإيمان الذي يريده الله من عباده ويشيب عليه ليس الذي يضطر إليه العبد، وإنما هو عندهم الذي يقع من العبد وحده.

و ﴿هَلُمَّ﴾ معناها: هات، وهي حينئذ متعدية، وقد تكون بمعنى: أقبل فهي حينئذ لا تتعدى، وبعض العرب يجعلها اسماً للفعل كـ (رويدك) فيخاطب بها الواحد والجمع والمذكر والمؤنث على حد واحد، وبعض العرب يجعلها فعلاً فيركب عليها الضمائر فيقول: هلم يا زيد، وهلموا أيها الناس، وهلمي يا هند، ونحو هذا، وذكر اللغتين أبو علي في الأغفال، وقال أبو عبيدة: اللغة الأولى لأهل العالية، واللغة الثانية لأهل نجد، وقال سيبويه والخليل: أصلها: هالم، وقال بعضهم: أصلها: هالمم وحذفت الألف لالتقاء الساكنين فجاء هلمم، فحذف من قال أصلها: هالم، وأدغم من قال أصلها هالمم على غير قياس.

ومعنى هذه الآية: قل هاتوا شهادتكم على تحريم الله ما زعمتم أنه حرمه، ثم قال الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَإِنْ شَهِدُوا﴾ أي: فإن افتري لهم أحد وزور شهادة أو خبراً عن نبوة ونحو ذلك فتجنب أنت ذلك ولا تشهد معهم. وفي قوله تعالى: ﴿فَلَا تَشْهَدُ مَعَهُمْ﴾ تسوة وصف شهادتهم بنهاية الزور، ﴿وَلَا تَنْجِعْ أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ يريد: لا تنحط في شهوات الكفرة وتوافقهم على أقوالهم، ﴿وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ عطف نعت على

نعت كما تقول: جاءني زيد الكريم والعاقل، هذا مذهب معظم الناس. وقال النقاش: نزلت في الدهرية من الزنادقة ﴿وَهُمْ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ أنداداً يُسوونهم به، وإن كانت في الزنادقة فقدلهم غير هذا.

﴿١٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا أمر من الله عز وجل لنبيه ﷺ أن يدعو جميع الخلق إلى سماع تلاوة ما حرم الله بشعر الإسلام المبعوث به إلى الأسود والأحمر.

و ﴿تَقَاوًا﴾ معناه: أقبلوا، وأصله من العلو، فكأن الدعاء لما كان أمراً من الداعي استعمل فيه ترفيع المدعو، وتعالى هو مطاوع عالي، إذ تفاعل هو مطاوع فاعل.

و ﴿أَتْلُ﴾ معناه: أسرد وأنص من التلاوة التي هي إتباع بعض الحروف بعضاً، و [مَأ] نصب بقوله تعالى: ﴿أَتْلُ﴾، وهي بمعنى الذي، وقال الزجاج: يجوز أن يكون قوله تعالى: ﴿أَتْلُ﴾ معلقاً عن العمل و [مَأ] نصب بـ ﴿حَرَمَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قِلْوٌ.

و ﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تُشْكِرُوا﴾ يصح أن تكون في موضع رفع بالابتداء والتقدير: الأمر أن، أو: ذلك أن. ويصح أن تكون في موضع نصب على البدل من [مَأ]، قاله مكي وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى يبطله فتأمله.

ويصح أن تكون مفعولاً من أجله، والتقدير: إرادة أن لا تشركوا به شيئاً، إلا أن هذا التقدير يُخرج ﴿أَلَّا

تُنْزِرُكُمْ ﴿١٥٢﴾ من المتلّو ويجعله سبباً لتلاوة المحرمات.

و ﴿تُنْزِرُكُمْ﴾ يصح أن يكون منصوباً بـ [أن]، ويتوجه أن يكون مجزوماً بالنهي وهو الصحيح في المعنى المقصود. و (أن) قد توصل بما نصبت، وقد توصل بالفعل المجزوم بالأمر والنهي، و ﴿سَبَّأً﴾ عام يراد به كل معبود من دون الله.

و ﴿إِحْسَانًا﴾ نصب على المصدر، وناصبه فعل مضمّر من لفظه تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحساناً. والمحرمات تنفك من هذه المذكورات بالمعنى وهي: الإشراف والعقوق وقرب الفواحش وقتل النفس.

وقال كعب الأخبار: هذه الآيات مفتتح التوراة بسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ﴿قُلْ تَكَلَّوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّي عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخر الآية. وقال ابن عباس: هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران اجتمعت عليها شرائع الخلق ولم تنسخ قط في ملّة، وقد قيل: إنها العشر الكلمات المنزلة على موسى عليه السلام.

وإن اعترض من قال إن ﴿تُنْزِرُكُمْ﴾ منصوب بـ [أن] بعطف المجزومات عليه فذلك موجود في كلام العرب، وأشد الطبري حجة لذلك:

حَجٌّ وَأَوْصَى بِسُلَيْمِي الْأَعْبُدَا
أَنْ لَا تَسْرَى وَلَا تُكَلِّمَ أَحَدًا
وَلَا يَزَلْ شَرَابُهَا مُبْرَدًا

وقوله تعالَى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ﴾ الآية؛ نهى عن عادة العرب في وأد البنات، والولد يعم الذكر والأنثى من البنين. والإملاق:

الفقر وعدم المال. قاله ابن عباس وغيره، يقال: أملت الرجل إذا افتقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن يكون معناه: أملت أي: لم يبق له إلا الملتق، كما قالوا: أترب إذا لم يبق له إلا التراب، وأزمل إذا لم يبق له إلا الرمل. والمَلْتَق: الحجارة السود واحده: مَلْقَة، وذكر منذر بن سعيد أن الإملاق: الإنفاق، ويقال: أملت ماله بمعنى أنفقه، وذكر أن علياً قال لامرأة: أملتني من مالك ما

شئت، وذكر النقاش عن محمد بن نعيم الترمذي أنه السرف في الإنفاق، وحكى أيضاً النقاش عن مؤرّج أنه قال: الإملاق: الجوع بلغة لحم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ نهى عام عن جميع أنواع الفواحش وهي المعاصي، و ﴿ظَهَرَ﴾ و ﴿بَطَنَ﴾ حالتان تستوفيان أقسام ما جعلت له من الأشياء، وذهب بعض المفسرين إلى أن القصد بهذه الآية أشياء مخصصات، فقال السدي، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو زنى الحوانيت الشهير، و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾. هو متخذات الأخدان، وكانوا يستقبحون الشهير وحده فحرم الله الجميع، وقال مجاهد: ﴿مَا ظَهَرَ﴾ هو نكاح حلائل الآباء ونحو ذلك، و ﴿وَمَا بَطَنَ﴾ هو الزنى،

وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ
وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْيَتِيمَ الْإِنْسَانَ لَا تُكَلِّفْ نَفْسًا إِلَّا
وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعِلُوا وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ
أَلْفَوْا آيَاتِ اللَّهِ فَكَلَّمُوا بِهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥١﴾
وَأَنْ هَذَا صِرْطِي مَسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ
فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِحَبْلِ الْإِسْمِ
تَتَّقُونَ ﴿١٥٢﴾ ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي
أَحْسَنَّا وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَالَمِينَ ﴿١٥٣﴾
رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مَبَارَكًا فَآتِوهُ
وَأَتَقُوا أَعْلَانَكُمْ تُرْجِمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ
الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَنِيًّا
﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا لَوْ أَنَّا أُنزِلْنَا عَلَيْهِتَا الْكِتَابَ لَكُنَّا أَهْدَىٰ مِنْهُمْ
فَقَدْ جَاءَكُمْ يُبَيِّنُ لَكُمْ بَيِّنَاتٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةً فَمَنْ
أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَقَ عَنْهَا فَسَجَرَى الَّذِينَ
يُضِلُّونَ عَنْ آيَاتِنَا سُمُومَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُصَدِّقُونَ ﴿١٥٧﴾

إلى غير هذا من تخصيص لا تقوم عليه حجة، بل هو دعوى مجردة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ الآية متضمنة تحريم قتل النفس المسلمة والمعاهدة، ومعنى الآية: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ الذي يوجب قتلها، وقد بيّنته الشريعة وهو الكفر بالله وقتل النفس والزنى بعد الإحصان والحراية وما تشعب من ذلك.

و ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى هذه المحرمات، والوصية: الأمر المؤكد المقرر، ومنه قال الشاعر:

أَجِدُكَ لَمْ تَسْمَعْ وَصَاةَ مُحَمَّدٍ
نَبِيِّ الْإِلَهِ جِئِن أَوْصَى وَأَشْهَدَا
وقوله تعالى: ﴿لَمَلِكُمْ﴾ ترجّح بالإضافة إلينا، أي من سمع هذه الوصية ترجّح وقوع أثر العقل بعدها وتميز المنافع والمضار في الدين.

﴿١٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا نهى عن القرب الذي يعم

وجوه التصرف، وفيه سدّ الذريعة، ثم استثنى ما يحسن وهو التشمير والسعي في نمائه، قال مجاهد: التي هي أحسن: التجارة فيه ممن كان من الناظرين له مال يعيش به، فالأحسن - إذا ثمر مال اليتيم - إلا يأخذ منه نفقة ولا أجرة ولا غيرها. ومن كان من الناظرين لا مال له ولا يتفق له نظر إلا بأن يتفق على نفسه من ربح نظره وإلا دعت الضرورة إلى ترك مال اليتيم دون نظر، فالأحسن أن ينظر ويأكل بالمعروف. قاله ابن زيد.

والأشدّ: جمع شدّ، وجمع شدّة، وهو هنا الحزم والنظر في الأمور وحسن التصرف فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بالأشدّ المقرون ببلوغ الأربعين، بل هذا يكون مع صغر السنّ في ناس كثير، وتلك الأشدّ هي التجارب والعقل المحنك ولكن قد خلطهما المفسرون، وقال ربّعة، والشعبي، ومالك فيما روي عنه، وأبو حنيفة: بلوغ الأشدّ: البلوغ مع ألاّ يثبت سفه، وقال السدي: الأشدّ: ثلاثون سنة، وقالت فرقة: ثلاثة وثلاثون سنة، وحكى الزجاج عن فرقة: ثمانين عشرة سنة وضعّفه ورجح البلوغ مع الرشد، وحكى النقاش أن الأشدّ هنا من خمس عشرة إلى ثلاثين. والفقّه ما رجّح الزواج وهو قول مالك رحمه الله: الرشد وزوال السفه مع البلوغ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أصلح الأقوال وأليقها بهذا الموضوع.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ وَالْيَمْرَاقِ﴾ الآية أمر بالاعتدال في الأخذ والإعطاء، والقسط: العدل، وقوله سبحانه: ﴿لَا تَكْلَفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يقتضي أن هذه الأوامر إنما هي فيما يقع تحت قدرة البشر من التحفظ والتحرز، لا أنه مُطالب بغاية العدل في نفس الشيء المتصرف فيه. قال الطبري: لما كان الذي يعطي ناقصاً يتكلف في ذلك مشقة والذي يعطي زائداً يتكلف أيضاً مثل ذلك؛ رفع الله عزّ وجلّ الأمر بالمعادلة حتى لا يتكلف واحد منهما مشقة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ يتضمن الشهادات والأحكام والتوسط بين الناس وغير ذلك، أي: ولو كان ميل الحق على قربائكم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَهْدِ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يراد جميع ما عهد الله إلى عباده، ويحتمل أن يراد به جميع ذلك مع جميع ما انعقد بين إنسانين ويضاف إلى ذلك العهد إلى الله من حيث قد أمر بحفظه والوفاء به. وقوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تَرَجَّحْتُمْ﴾ بحسبنا.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال والكاف جميعاً، وكذلك ﴿يَذَكَّرُونَ﴾ و ﴿يَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ﴾ وما جرى من ذلك مشدداً كله، وقرأ نافع، وعاصم في رواية أبي بكر، وابن عامر كل ذلك بالتشديد إلا قوله تعالى: ﴿أَوَّلًا يَذَكِّرُ الْإِنْسَانَ﴾ فإنهم خففوها، وروى أبان، وحفص عن عاصم ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ خفيفة الذال في كل

القرآن، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال إذا كان الفعل بالتاء وإذا كان بالياء قرأه بالتشديد، وقرأ حمزة وحده في سورة الفرقان: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَكَّرَ﴾ بسكون الذال وتخفيف الكاف، وقرأ ذلك الكسائي بتشديدهما وفتحهما.

﴿١٥٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

الإشارة هي إلى الشرع الذي جاء به محمد ﷺ بجملته. وقال الطبري: الإشارة هي إلى هذه الوصايا التي تقدمت من قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ تَمَّالُوا أُمَّلٌ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿وَأَنَّ هَذَا﴾ بفتح الهمزة وتشديد النون ﴿صِرَاطِي﴾ ساكن الياء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿وَأَنَّ﴾ بكسر الألف وتشديد النون، وقرأ عبدالله بن أبي إسحق، وابن عامر من السبعة: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الهمزة وسكون النون ﴿صِرَاطِي﴾ مفتوح الياء، فأما من فتح الألف فالمعنى عنده كأنه قال: «ولأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه»، أي: «اتبعوه لكونه كذا»، وتكون الواو - على هذا - إنما عطفت جملة على جملة، ويصح غير هذا أن يعطف على ﴿أَلَّا تَشْكُرُوا﴾، وكأن المحرم من هذا اتباع السبل والتكيب عن الصراط الأقوم. ومن قرأ بتخفيف النون عطف على قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَشْكُرُوا﴾، ومذهب سيويه أنها المخففة من الثقيلة، وأن التقدير: «وأنه هذا صراطي». ومن قرأ بكسر الألف وتشديد النون فكأنه استأنف الكلام وقطعه من الأول،

وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وهذا صراطي﴾ بحذف «أن».

وقال ابن مسعود: إن الله جعل طريقاً صراطاً مستقيماً طرفه محمد ﷺ وشرعه، ونهايته الجنة، وتشعب منه طرق، فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار، وقال أيضاً: خط لنا رسول الله ﷺ يوماً خطاً، فقال: هذا سبيل الله، ثم خط عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطوطاً، فقال: هذه سبيل، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليها، ثم قرأ هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية تضم أهل الأهواء والبدع والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلزل ومظنة لسوء المعتقد.

وتقدم القول في ﴿ذِكْرُكُمْ﴾ وفي قوله: ﴿لَكُمْ﴾، ومن حيث كانت المحرمات الأولى لا يقع فيها عاقل قد نظر بعقله جاءت العبارة: ﴿لَكُمْ تَقُولُونَ﴾، والمحرمات الأخر شهوات وقد يقع فيها من العقلاء من لم يتذكر جاءت العبارة: ﴿لَكُمْ ذِكْرُونَ﴾، ثم لما كان ركوب الجادة الكاملة يتضمن فعل الفضائل وتلك درجة التقوى جاءت العبارة: ﴿لَكُمْ تَقْوُونَ﴾.

﴿١٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية إنما مهلتها في ترتيب القول الذي أمر به محمد ﷺ، كأنه قال: «ثم مما وصيانه أنا آتينا موسى الكتاب»،

ويدعو إلى ذلك أن موسى عليه السلام متقدم في الزمان على محمد ﷺ وتلاوته ما حرم الله. و﴿الْكِتَابُ﴾: التوراة، و﴿تَمَاماً﴾ نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ الَّذِينَ أَحْسَنَ﴾ مُخْتَلَفٌ فِي مَعْنَاهُ - فقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ بمعنى: الذين، و﴿أَحْسَنَ﴾ فعل ماضٍ صلة (الذين)، وكأن الكلام: «وآتينا موسى الكتاب تفضلاً على المحسنين من أهل ملته وإتماماً للنعمة عندهم»، هذا تأويل مجاهد، وفي مصحف عبدالله: «تماماً على الذين أحسنوا» فهذا يؤيد ذلك التأويل، وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ غير موصولة والمعنى: «تماماً على ما أحسن هو من عبادة ربه والاضطلاع بأمر نبوته»، يريد موسى عليه السلام، وهذا تأويل الربيع وقتادة، وقالت فرقة: المعنى: «تماماً» أي تفضلاً وإكمالاً على الذي أحسن الله فيه إلى عباده من النبوات والنعمة وغير ذلك، ف﴿الَّذِينَ﴾ أيضاً في هذا التأويل غير موصولة، وهذا تأويل ابن زيد.

وقرأ يحيى بن يعمر، وابن أبي إسحاق: «تماماً على الذي أحسن» بضم النون، فجعلها صفة تفضيل ورفعها على خبر ابتداءٍ مضمرة تقديره: «على الذي هو أحسن». وضعف أبو الفتح هذه القراءة لقبح حذف المبتدأ العائد. وقال بعض نحويي الكوفة: يصح أن يكون ﴿أَحْسَنُ﴾ صفة لـ ﴿الَّذِينَ﴾ من حيث قارب المعرفة إذ لا تدخله الألف واللام، كما تقول العرب: «مررت

بالذي خير منك»، ولا يجوز «بالذي عالم»، وخطأ الزجاج هذا القول الكوفي، و﴿فَنَصِيحاً﴾ يريد: بياناً وتقسيماً. و﴿لَعَلَّهُمْ﴾ ترجح بالإضافة إلى البشر، و﴿يَلْبِغُوا رَبَّهُمْ﴾ أي بالبعث الذي الإيمان به نهاية تصديق الأنبياء صلوات الله عليهم، إذ لا تلزمه العقول بذواتها، وإنما ثبت بالسمع مع تجويز العقل له.

﴿١٥٥﴾ - ﴿١٥٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿هَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، و﴿يُرِيدُ﴾ وصف بما فيه من التوسعات وإزالة أحكام الجاهلية وتحريماتها، وجمع كلمة العرب ووحدة أيدي متبعية، وفتح الله على المؤمنين به، ومعناه: منمى خيره مكثراً، والبركة: الزيادة والنمو. و﴿تَأْتِيهِمْ﴾ دعاء إلى الدين، ﴿وَأَتَوْا﴾ الأظهر فيه أنه أمر بالتقوى العامة في جميع الأشياء بقرينة قوله تعالى: ﴿لَكُمْ تَحْوُونَ﴾.

و﴿أَنْ﴾ من قوله تعالى: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ في موضع نصب، والعامل فيه ﴿أَنْتُمْ﴾، والتقدير: «وهذا كتاب أنزلناه كراهية أن»، وهذا أصح الأقوال وأصبتها للمعنى المقصود، وقيل: العامل في ﴿أَنْ﴾ قوله تعالى: ﴿وَأَتَوْا﴾ فكأنه قال: «واتقوا أن تقولوا»، وهذا تأويل يتخرج على معنى: «واتقوا أن تقولوا كذا لأنه لا حجة لكم فيه، ولكن يعرض فيه قلن لقوله تعالى أثناء ذلك: ﴿لَكُمْ تَحْوُونَ﴾»، وفي التأويل الأول يتسق نظم الآية.

والطائفتان: اليهود والنصارى بإجماع من المتأولين، والدراسة:

عليكم لثلا تقولوا: إنما أنزلت التوراة والإنجيل بغير لساننا على غيرنا، ونحن لم نعرف ذلك، فهذا كتاب بلسانكم ومع رجل منكم.

وقوله تعالى: ﴿أَزْ تَقُولُوا﴾ جملة معطوفة على الجملة الأولى، وهي في غرضها من الاحتجاج على الكفار وقطع تعلقهم في الآخرة بأن الكتب إنما أنزلت على غيرهم، وأنهم غافلون عن الدراسة والنظر في الشرع، وأنهم لو نزل عليهم كتاب لكانوا أسرع إلى الهدى من

الناس كلهم، فقيل لهم: قد جاءكم بيان من الله وهدى ورحمة.

ولما تقرر أن البيئنة قد جاءت والحة قد قامت حسن - بعد ذلك - أن يقع التقرير بقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَشَدَّ ظُلْمًا مِمَّنْ كَذَبَ بِهِذِهِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ﴾.

﴿وَصَدَقَ﴾ معناه: حاد وراغ وأعرض. وقرأ يحيى بن وثاب، وابن أبي عبيدة: ﴿كَذَّبَ﴾ بتخفيف الذال. والجمهور ﴿كَذَّبَ﴾ بتشديد الذال، و ﴿سَجَّزَى الَّذِينَ﴾ وعبيد، وقرأت فرقة: ﴿يَصْدِفُونَ﴾ بكسر الدال، وقرأت فرقة: ﴿يَصْدِفُونَ﴾ بضم الدال.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾:

الضمير في ﴿يَنْظُرُونَ﴾ هو للطائفة التي قيل لها قبل: ﴿فَقَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وهم العادلون

بربهم من العرب الذين مضت أكثر آيات السورة في جدالهم، و ﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون. و ﴿الْمَلَكُوتَ﴾ هنا يراد بها ملائكة الموت الذين يصحبون عزرائيل المخصوص بقبض الأرواح، قاله قتادة ومجاهد وابن جريج. ويحتمل أن يريد الملائكة الذين يتصرفون في قيام الساعة، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿تَأْتِيَهُمْ﴾ بالتاء من فوق.

وقوله تعالى: ﴿أَزْ يَأْتِي رَبَّكَ﴾ قال الطبري: لموقف الحساب يوم القيامة، وأسند ذلك إلى قتادة وجماعة من المتأولين. وحكى الزجاج أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَزْ يَأْتِي رَبَّكَ﴾ أي العذاب السذي يسلمه الله في الدنيا على من يشاء من عباده كالصيححات والرجفات والخسف ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا الكلام على تأويل فإنما هو بحذف مضاف تقديره: أمر ربك، أو بطش ربك، أو حساب ربك، وإلا فالإثبات المفهوم من اللغة مستحيل في حق الله تعالى، ألا ترى أن الله تعالى يقول: ﴿تَأْتِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْسِبُوا﴾، فهذا إثبات قد وقع وهو على المجاز وحذف المضاف.

وقوله تعالى: ﴿أَزْ يَأْتِي بَعْضَ آيَاتِ رَبِّكَ﴾، أما ظاهر اللفظ لو وقفنا معه فيقتضي أنه توعدهم بالشهير الفظيع من أشراف الساعة دون أن يخص من ذلك شرطاً يريد بذلك الإبهام الذي يترك السامع مع أقوى تخيله، لكن لما قال بعد ذلك: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ

هَلْ يَنْظُرُونَ لَا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِي رَبُّكَ أَوْ يَأْتِي بَعْضَ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضَ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَفْعَلُ نَفْسًا مِنْهُمْ لَنْ تَرْضَكَ وَأَمْنَتٌ مِنْ قَبْلِ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلْ لِنَنْظُرُوا إِنَّمَا نُنظُرُونَ ﴿١٥٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا بَيْنَهُمْ وَكَانُوا شِعْمًا كَسَبَتْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ يَنْتَظِرُ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يَجْرِي لَهُ أَثْمَالُهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنِّي هَدَيْتُ رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا لِمَلِكٍ لَمْ يَرِهِمْ خَافِيًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغْنَى اللَّهُ عَنِّي رَبِّي وَأُحِبُّ رَبِّي وَأَسْبِغُ كُلَّ نَفْسٍ لَّا عَلَيْهِمْ وَلَا لِي وَلَا لِمَنْ أَشْرَكَ وَذَرَى أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْفَلُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ خَلْقَ الْأَرْضِ رَوَّعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغَكُمْ فِي مَاءٍ أَنْتُمْ كَرِيمٌ رَبِّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَوْرٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾

القراءة والتعلم بها، و ﴿وَأِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَأِنْ كُنَّا﴾ مخففة من الثقلية، واللام في قوله تعالى: ﴿لَتَفِيلِينَ﴾ لام تأكيد. هذا مذهب البصريين، وحكى سيبويه عن بعض العرب أنهم يخففونها وييقونها على عملها، ومنه قراءة بعض أهل المدينة: ﴿وَأِنْ كُلا﴾، وأما المشهور فإنها إذا خففت ترجع حرف ابتداء ولا تعمل. وأما على مذهب الكوفيين ف ﴿وَأِنْ﴾ في هذه الآية بمعنى (ما) النافية، واللام بمعنى (إلا)، فكأنه قال: «وما كنا عن دراستهم إلا غافلين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: معنى هذه الآية إزالة الحجة عن أيدي قريش وسائر العرب بأنهم لم يكن لهم كتاب، فكأنه قال: وهذا القرآن يا معشر العرب أنزل حجة

ءَايَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ﴿١٥٩﴾ وَيُؤْتِ الْأَنْثَارَ الصَّحَاحَ فِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ أَنَّ الْآيَةَ الَّتِي مَعَهَا هَذَا الشَّرْطُ هِيَ طُلُوعُ الشَّمْسِ مِنَ الْمَغْرِبِ قَوِيٌّ أَنْ الْإِشَارَةَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ إِنَّمَا هِيَ إِلَى طُلُوعِ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا. وَقَالَ بِهَذَا التَّأْوِيلَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ وَغَيْرُهُمْ، وَيَقْوِي أَيْضًا أَنْ تَكُونَ الْإِشَارَةُ إِلَى غُرْغَرَةِ الْإِنْسَانِ عِنْدَ الْمَوْتِ أَوْ مَا يَكُونُ فِي مَثَبَتِهَا لَمَنْ لَمْ يَغْرُغِرْ، فَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ تَوْبَةَ الْعَبْدِ تَقْبِيلٌ مَا لَمْ يَغْرُغِرْ، وَهَذَا إِجْمَاعٌ لِأَنَّ مِنْ غُرْغَرٍ وَعَايِنٌ فَهُوَ فِي عِدَادِ الْمَوْتَى، وَكَوْنُ الْمَرْءِ فِي هَذِهِ الْحَالَةِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا عَلَى مَنْ يَرَى الْمَلَائِكَةَ الْمُتَصَرِّفِينَ فِي قِيَامِ السَّاعَةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمقصد هذه الآية تهديد الكافرين بأحوال لا يخلون منها، كأنه قال: هل ينظرون مع إقامتهم على الكفر إلا الموت الذي لهم بعده أشد العذاب، والأخذات المعهودة لله عز وجل، أو الآيات التي ترفع التوبة وتعلم بقرب القيامة؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يريد بقوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِكَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ جميع ما يقطع بوقوعه من أشرطة الساعة، ثم خصص - بعد ذلك - بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ﴾ الآية التي ترفع التوبة معها. وقد بينت الأحاديث أنها طلوع الشمس من مغربها.

وقرأ زهير الفرقي: ﴿يَوْمَ يَأْتِي﴾ بالرفع، وهو على الابتداء والخبر في

الجملة التي هي: ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ إلى آخر الآية، والعائد من الجملة محذوف لطول الكلام، وقرأ ابن سيرين، وعبدالله بن عمرو، وأبو العالية: ﴿لَا تَنْفَعُ﴾ بناءً، وأنت الإيمان لما أضيف إلى مؤنث، أو لما نزل منزلة التوبة، وقال جمهور أهل التأويل كما تقدم: الآية التي لا تنفع التوبة من الشرك أو من المعاصي بعدها هي طلوع الشمس من المغرب. وروي عن ابن مسعود أنها إحدث ثلاث، إما طلوع الشمس من مغربها، وإما خروج الدابة، وإما خروج يأجوج ومأجوج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا فيه نظر لأن الأحاديث ترويه وتخصص الشمس، وروي في الحديث «أن الشمس تجري كل يوم حتى تسجد تحت العرش وتستأذن فيؤذن لها في الطلوع من المشرق، وحتى إذا أراد الله عز وجل سد باب التوبة أمرها بالطلوع من مغربها». قال ابن مسعود وغيره عن النبي ﷺ: «فتطلع هي والقمر كالبعيرين القرينين»، ويقوي النظر أيضاً أن الغرغرة هي الآية التي ترفع معها التوبة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي أِيْمَانِهَا خِيْرًا﴾ يريد جميع أعمال البر فرضها ونفلها، وهذا الفصل هو للعصاة المؤمنين، كما أن قوله تبارك وتعالى: ﴿لَوْ تَكُنْ ءَامَنْتَ مِنْ قَبْلُ﴾ هو للكفار. والآية المشار إليها تقطع توبة الصنفين. وقرأ أبو هريرة: ﴿أَوْ كَسِبَتْ فِي إِيْمَانِهَا صَالِحًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرُوا﴾ الآية

يتضمن الوعيد، أي: فسترون من يحق كلامه ويتضح ما أخبر به.

﴿١٥٩﴾ - ﴿١٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل: قال ابن عباس، والصحابة، وقتادة: المراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾ اليهود والنصارى، أي: فرقوا دين إبراهيم الحنيفية. وأضيف الدين إليهم من حيث كان ينبغي أن يلتزموه إذ هو دين الله الذي أزمه العباد، فهو دين جميع الناس بهذا الوجه. ووصفهم بالشيع إذ كل طائفة منهم لها فرق واختلافات، ففي الآية حض لأمة محمد ﷺ على الائتلاف وقلّة الاختلاف. وقال الأحوص وأم سلمة زوج النبي ﷺ: الآية في أهل البدع والأهواء والفتن ومن جرى مجراهم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام، أي: فرقوا دين الإسلام، وقرأ علي بن أبي طالب، وحمزة، والكسائي: ﴿فَارْقُوا﴾ ومعناه: تركوا، ثم بين قوله: ﴿وَكَاثُرًا شَيْبًا﴾ أنهم فرقوه أيضاً، والشيع جمع شيعة وهي الفرقة على مقصد ما يتشايعون عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَسْتَ يَتَّبِعُهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ أي: لا تشفع لهم، ولا لهم بك تعلق، وهذا على الإطلاق في الكفار، وعلى جهة المبالغة في العصاة والمتنطعين في الشرع، لأنهم لهم حظ في تفريق الدين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ إلى آخر الآية وعيد محض، والقرينة المتقدمة تقتضي أن ﴿أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ﴾ فيه وعيد، كما أن القرينة في قوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾

تعطي أن في ذلك الأمر رجاء كأنه قال: «وأمره في إقبال وإلى خير».

وقرأ التَّخَعِي، والأَعْمَش، وأبو صالح: «فَرَقُوا» بتخفيف الراء، وقال السدي: هذه آية لم يؤمر فيها بقتال وهي منسوخة بالقتال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كلام غير متقن، فإن الآية خبر لا يدخله نسخ، ولكنها تضمنت بالمعنى أمراً بالموادعة فيشبه أن يقال: إن النسخ وقع في ذلك المعنى الذي تقرر في آيات أخر.

وقوله تعالى: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» الآية. قال أبو سعيد الخدري، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما: هذه الآية نزلت في الأعراب الذين آمنوا بعد الهجرة فضاعف الله حسناتهم للحسنة عشر، وكان المهاجرون قد ضوعف لهم، للحسنة سبعائة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل يحتاج إلى سند يقطع العذر.

وقالت فرقة: هذه الآية لجميع الأمة، أي أن الله يضاعف الحسنة بعشرة ثم بعد هذا المضمون قد يزيد ما يشاء، وقد يزيد أيضاً على بعض الأعمال كنفقة الجهاد، وقال ابن مسعود، ومجاهد، والقاسم بن أبي بزة، وغيرهم: الحسنة ها هنا: لا إله إلا الله، والسيئة: الكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه هي الغاية من الطرفين.

وقالت فرقة: ذلك لفظ عام في جميع الحسنات والسيئات، وهذا هو الظاهر. وأنت لفظ العَشْر لأن

الأمثال ها هنا بالمعنى حسنات ويحتمل أن الأمثال أنت لما أضيف إلى مؤنث وهو الضمير، كما قال الشاعر:

مَشِينٌ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهُتْ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ النُّوَايِمِ
فَأَنْتَ.

وقرأ الحسن، وسعيد بن جبير، وعيسى بن عمر، والأعمش، ويعقوب: «فَلَهُ عَشْرٌ» بالتنوين «أَمْثَالُهَا» بالرفع.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الْأَعْمَالُ سِتَّةٌ: مُوجِبَةٌ وَمُوجِبَةٌ، وَمُضْعَفَةٌ وَمُضْعَفَةٌ، وَمِثْلٌ وَمِثْلٌ. فَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تُوَجِّبُ الْجَنَّةَ، وَالشَّرْكَ يُوَجِّبُ النَّارَ، وَنَفَقَةُ الْجِهَادِ تَضْعَفُ سَبْعِمِائَةَ ضِعْفٍ، وَالنَّفَقَةُ عَلَى الْأَهْلِ حَسَنَتُهَا بَعَشْرَةٌ، وَالسِّيئَةُ جَزَاؤُهَا مِثْلُهَا، وَمَنْ هُمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَتْ لَهُ حَسَنَةً مِثْلُهَا».

وقوله تعالى: «لَا يُلَاقُونَ» أي: لا يوضع في جزائهم شيء في غير موضعه، وتقدير الآية: من جاء بالحسنة فله ثواب عشر أمثالها، والمماثلة بين الحسنة والثواب مرتبة إذا تديرت. وقال الطبري: قوله: «مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ» الآية، يريد: من الذين فرقوا دينهم، أي: من جاء مؤمناً فله الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقصد بالآية إلى العموم في جميع العالم أئيب باللفظ.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٣﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر من الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام بالإعلان بشريعته ونبذ ما سواها من أضرابيلهم،

ووصف الشريعة بما هي عليه من الحُسن والفضل والاستقامة.

و ﴿هَدَيْتِي﴾ معناه: أرشدني بخلق الهدى في قلبي. و الربُّ: المالك، ولفظه مصدر، من قولك: ربه يره، وإنما هو مثل عدل ورضا في أنه مصدر وصف به، وأصله ذو الرب، ثم حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه فقيل: الرب. والصرط: الطريق. و ﴿دِينًا﴾ منصوب به ﴿هَدَيْتِي﴾ المقدر الذي يدل عليه ﴿هَدَيْتِي﴾ الأول، وهذا الضمير إنما يصل وحده دون أن يحتاج إلى إضمار إلى، إذ (هدى) يصل بنفسه إلى مفعوله الثاني ويحرف الجز، فهو فعل متردد، وقيل: نَصَبَ ﴿دِينًا﴾ فعلٌ مضمر تقديره: عرفني ديناً. وقيل: تقديره: فاتبعوا ديناً، أو فالزموا ديناً. وقيل: نصب على البدل من ﴿صِرَاطًا﴾ على الموضع؛ لأن تقديره: هداني ربي صراطاً مستقيماً. و ﴿يَمِينًا﴾ نعت للدين، ومعناه: مستقيماً معتدلاً.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿قِيمًا﴾ بفتح القاف وكسر الياء وشدها، وأصله: قِيَوْمٌ عللت كتعليل سِيدٌ ومَيْتٌ. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿يَمِينًا﴾ بكسر القاف وفتح الياء على وزن فِعْلٍ، وكان الأصل أن يجيء فيه (قِيَوْمًا) كعِيوض وجَوْلٍ إلا أنه شذَّ كشذوذ قولهم: جِياد في جمع جواد ويَزِيْرَة في جمع نُور.

و ﴿يَمِينًا﴾ بدل من الدين، واليَمْلَة: الشريعة، و ﴿حَيِّقًا﴾ نصب على الحال من ﴿إِيْرِيْرَة﴾ والْحَنْفُ في

كلام العرب: الميل، وقد يكون الميل إلى فساد كحنف الرجل. وكقوله تعالى: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوسَىٰ حَنُفًا﴾ على قراءة من قرأ بالحاء غير المنقوطة، ونحو ذلك. وقد يكون الحنف إلى الصلاح كقوله عليه الصلاة والسلام: «الحنيفية السمحة»، الدين الحنيف، ونحو ذلك، وقال ابن قتيبة: الحنف: الاستقامة، وإنما سمي الأحنف في الرجل على جهة التفاؤل له. ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ نفي للتنقيصة عنه ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ إِنَّ صَلَاتِي﴾ الآية. أمر من الله عز وجل أن يعلن بأن مقصده في صلاته وطاعته من ذبيحة وغيرها، وتصرفه مدة حياته، وحاله من الإخلاص والإيمان عند مماته إنما هو لله عز وجل، وإرادة وجهه وطلب رضاه، وفي إعلان النبي ﷺ بهذه المقالة ما يلزم المؤمنين التأسى به حتى يلتزموا في جميع أعمالهم قصد وجه الله عز وجل. ويحتمل أن يريد بهذه المقالة أن صلاته ونسكه وحياته وموته بيد الله عز وجل يصرفه في جميع ذلك كيف يشاء، وأنه قد هداه من ذلك إلى صراط مستقيم، ويكون قوله تعالى: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ﴾ على هذا التأويل راجعاً إلى قوله تعالى: ﴿لَا شَرِيكَ لِي﴾ فقط، أو راجعاً إلى القول الأول، وعلى التأويل الأول، يرجع إلى جميع ما ذكر من صلاة وغيرها، أي: أمرت بأن أقصد وجه الله عز وجل في ذلك وأن ألتزم العمل. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَشَكِّي﴾

بضم السين، وقرأ أبو حيوة، والحسن بإسكان السين، وقالت فرقة: النسك: في هذه الآية الذبائح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحسن تخصيص الذبيحة بالذكر في هذه الآية أنها نازلة قد تقدم ذكرها والجدل فيها في السورة، وقالت فرقة: النسك في هذه الآية: جميع أعمال الطاعات، من قولك: نسك فلان فهو ناسك إذا تعبد.

وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ بفتح الباء من ﴿وَمَحْيَايَ﴾ وسكونها من ﴿وَمَمَاتِي﴾، وقرأ نافع وحده: ﴿وَمَحْيَايَ﴾ بسكون الباء، قال أبو علي الفارسي: وهي شاذة في القياس لأنها جمعت بين ساكنين، وشاذة في الاستعمال، ووجهها أنه قد سمع من العرب: «الْتَمَّتْ حَلَقَتَا الْبَطَانِ»، و«الفلان ثلثا المال»، وروى أبو خليل عن نافع: ﴿وَمَحْيَايَ﴾ بكسر الباء، وقرأ ابن أبي إسحق، وعيسى، والجحدري: ﴿وَمَحْيَايَ﴾، وهذه لغة هذيل، ومنه قول أبي ذؤيب:

سَبَقُوا هَمَوِيَّ وَاعْتَقُوا لِهَوَاهُمُ
فَتَصَرَّعُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعُ
وقرأ عيسى بن عمر: ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ بفتح الباء فيهن، وروي ذلك عن عاصم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ النَّاسِ﴾ أي: من هذه الأمة، وقال النقاش: من أهل مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى واحد، بل الأول أعم وأحسن. وقرأت فرقة: ﴿وَأَنَا﴾

بإشباع الألف، وجمهور القراء على القراءة ﴿وَأَنَا﴾ دون إشباع، وهذا كله في الوصل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتزك الإشباع أحسن لأنها ألف وقف فإذا اتصل الكلام استغني عنها لا سيما إذا وليتها همزة.

﴿١٦٤﴾ - ﴿١٦٥﴾ تفسير قوله عز وجل: حكى النقاش أنه روي أن الكفار قالوا للنبي ﷺ: ارجع يا محمد إلى ديننا، واعد آلهتنا، وترك ما أنت عليه، ونحن نتكفل لك بتباعة توقعها في دنياك وآخرتك، فنزلت هذه الآية. وهي استفهام يقتضي التقرير والتوقيف والتوبيخ.

و ﴿أَنْتُمْ﴾ معناه: أطلب، فكأنه قال: أفبخسن عندكم أن أطلب إليها غير الله الذي هو رب كل شيء؟ وما ذكرتهم من كفالتكم لا يتم، لأن الأمر ليس كما تظنون، وإنما كسب كل نفس من الشر والإثم عليها وحدها، ﴿وَلَا زُرُّ﴾ أي: لا تحمل ﴿وَأَزَارُهُ﴾ أي: حاملة جنل أخرى ونقلها. والوزر أصله الثقل ثم استعمل في الإثم لأنه ينقض الظهر تجوزاً واستعارة، يقال منه: وزر الرجل يوزر فهو وازر وووزر يوزر فهو موزور.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ إِنَّ رَبِّيكَ تَزَجَّجْتُكَ﴾ تهديد ووعيد ﴿فَيُنَبِّئُكُمْ﴾ أي: فيعلمكم أن العقاب على الأوجاج تبين لموضع الحق. وقوله: تبارك وتعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ﴾ يريد - على ما حكي بعض المتأولين -: من أمري في قول بعضهم: هو ساحر، وبعضكم: هو

الْفَرِيكَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاصِرَةَ الْبَحْرِ ﴿١﴾
إلى قوله سبحانه: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ
ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ فإن هذه الآيات مدنية.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
تقدم القول في تفسير الحروف
المقطعة التي في أوائل السور وذكر
اختلاف المتأولين فيها، ويختص هذا
الموضع زائداً على تلك الأقوال بما
قال السدي: إن ﴿الْتَصَّ﴾ هجاء
اسم الله تبارك وتعالى هو المصور،
ويقول زيد بن علي: إن معناه:
أنا الله الفاصل.

وقوله تعالى: ﴿كَتَبْنَا أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾
الآية. قال الفراء وغيره: ﴿كَتَبْنَا﴾
رفع على الخبر للحروف، كأنه قال:
هذه الحروف كتاب أنزل إليك، وردَّ
الرُّجَاجَ على هذا القول بما لا طائل
فيه. وقال غيره: ﴿كَتَبْنَا﴾ رفع على
خبر ابتداء مضمّر تقديره: هذا
كتاب، و ﴿أَنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ في موضع
الصفة ل ﴿كَتَبْنَا﴾.

ثم نهي النبي ﷺ أن يُبْرَمَ أو
يستصحب من هذا الكتاب أو بسبب
من أسبابه حرجاً، ولفظ النهي هو
للحرج ومعناه للنهي عليه الصلاة
والسلام. وأصل الحرج الضيق،
ومنه الحَرْجَةُ: الشجر الملتف الذي
قد تضايق. والحرج ها هنا يعم
الشك والخوف والهَمُّ وكل ما يضيق
الصدر، وبحسب سبب الحرج يفسر
الحَرْجُ ها هنا، وتفسيره بالشك قليق،
والضمير في ﴿مِنْهُ﴾ عائد على
الكتاب، أي: بسبب من أسبابه، و
﴿مِنْ﴾ ها هنا لابتداء الغاية، وقيل:
يعود على التبليغ الذي يتضمّن معنى
الآية، وقيل: على الإنذار.

ويروى: «أنتم آخرها
وأكرمها على الله».

وقوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ
بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ﴾
لفظ عام في المال والجاه
والقوة وجودة النفوس
والأذهان وغير ذلك، وكل
ذلك إنما هو ليختبر الله
تعالى الخلق فيرى الحسن
من المسيء.

ولما أخبر عز وجل بهذا
ففسح للناس ميدان العمل،
وحضّمهم على الاستباق إلى
الخير تورّع وتورّع وتخويفاً
منه وترجية فقال: ﴿إِنَّ رَبَّكَ
سَرِيعُ الْعِقَابِ﴾ وسرعة
عقابه إما بأخذاته في الدنيا،
وإما بعقاب الآخرة، وحسن أن
يوصف عقاب الآخرة بـ ﴿سَرِيعٍ﴾ لما
كان متحققاً مضمون الإتيان والوقوع،
فكل أت يحكم عليه بالقرب ويوصف
به، ﴿وَأَنَّ لَقَوْلَ رَبِّهِمْ﴾ ترجية لمن
أذنب وأراد التوبة، وهذا في كتاب الله
تبارك وتعالى كثير، اقتران الوعيد
بالوعد لطفاً من الله سبحانه وتعالى
بعياده.

كامل تفسير سورة الأنعام والله
المستعان وهو حسي ونعم الوكيل

(٧) تفسير سورة الأعراف

وهي مكية كلها، قاله الضحاك
وغيره. وقال مقاتل: هي مكية إلا
قوله تبارك وتعالى: ﴿وَسَأَلْتَهُمْ عَنِ

سُورَةُ الْأَعْرَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَعْنَى ﴿١﴾ كِتَابٌ أَنْزَلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ
لِتُنذِرَ بِهِ وَتُذَكِّرَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ أَنْتُمْ أُولُو الْأَرْحَامِ
مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَنْبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مِمَّا تَدْعُرُونَ ﴿٣﴾
وَكَمْ مِنْ قَرِيبٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفْجَاءَ هَا بِأَسْنَانَيْنَاتٍ أَوْ هُمْ قَائِلُونَ
﴿٤﴾ فَمَا كَانَ دَعْوَتُهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بِأَسْنَانٍ إِلَّا أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا
ظَالِمِينَ ﴿٥﴾ فَلَنَسْتَأْذِنَ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْتَأْذِنَ
الْمُرْسَلِينَ ﴿٦﴾ فَلَنَقْضِ عَنْهُمْ بَعْدَ مَا كَانُوا عَلَيْهِمْ
وَالْوَزْنَ بِمِيزَانٍ الْحَقِّ فَمَنْ تَقَلَّتْ مُوزِنُهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ ﴿٧﴾ وَمَنْ حَفَّتْ مُوزِنُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا
أَنْفُسَهُمْ يَمَا كَانُوا يَمِينًا يَطْلُمُونَ ﴿٨﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَاكُمْ
فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَمَازِيحَ قَلِيلًا مِمَّا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾
وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٠﴾

١٥١

شاعر، وبعضكم: افتراه، وبعضكم:
اكتبه، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا التأويل يحسن في هذا الموضع
وإن كان اللفظ يعم جميع أنواع
الاختلافات من الأديان والملل
والمذاهب وغير ذلك.

و ﴿حَلِيفَةً﴾ جمع خليفة، أي:
يخلف بعضكم بعضاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا يتصور في جميع الأمم وسائر
أصناف الناس، لأن من أتى خليفة لمن
مضى، ولكنه يحسن في أمة
محمد ﷺ أن يُسَمَّى أهلها بجملتهم
خلائف للأمم، وليس لهم من يخلفهم
لأنهم آخر الأمم وعليهم قيام الساعة.

وروى الحسن بن أبي الحسن أن
النبي ﷺ قال: «توفون سبعين أمة
أنتم خيرها وأكرمها على الله»

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص كله لا وجه له إذ اللفظ يعم الجهات التي هي من سبب الكتاب ولأجله، وذلك يستغرق التبليغ والإنذار وتعرض المشركين وتكذيب المكذابين وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَكُنْ فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ اعتراض في أثناء الكلام، ولذلك قال بعض الناس: إن فيه تقدماً وتأخيراً. وقوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ الْغَلَامَ مَتَلَقَةً ب﴾ ﴿أُنزِلَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرْنَا﴾ معناه: تذكرة وإرشاد، و ﴿ذَكَرْنَا﴾ في موضع رفع عطفاً على قوله سبحانه: ﴿كُنْتُمْ﴾ فالتقدير: هذه الحروف كتاب وذكرى. وقيل: رفعه على جهة العطف على صفة الكتاب، فالتقدير: هذه الحروف كتاب منزل إليك وذكرى، فهي عطف على (مُنزَّل) داخله في صفة الكتاب. وقيل: ﴿ذَكَرْنَا﴾ في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: ﴿لِيُنذِرَ بِهِ﴾ وتذكر ذكرى للمؤمنين. وقيل: نصبها على المصدر. وقيل: ﴿ذَكَرْنَا﴾ في موضع خفض عطفاً على قوله تعالى: ﴿لِيُنذِرَ﴾ أي: لإنذارك وذكرى.

وقوله تعالى: ﴿أَتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ الآية. قال الطبري وحكاة: التقدير: قال اتبعوا، فحذف القول لدلالة الإنذار المتقدم الذكر عليه. وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿أَتَّبِعُوا﴾ أمر يعم النبي ﷺ وأُمَّته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن يكون أمراً لجميع الناس، اتبعوا ملّة الإسلام والقرآن.

وقرأ الجحدري: ﴿إِتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ﴾ من الابتغاء، وقرأ مجاهد: ﴿وَلَا تَبْتَغُوا﴾ من الابتغاء أيضاً، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ يريد كل ما عبد وأتبع من دون الله كالأصنام والأحبار والكهان والنار والكواكب وغير ذلك، والضمير في قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِ﴾ راجع إلى ﴿رَبِّكُمْ﴾، هذا أظهر وجوهه وأبينها، وقيل: يعود على ﴿مَا﴾ من قوله: ﴿أَتَّبِعُوا مَا﴾، وقيل: يعود على الكتاب المتقدم الذكر، و ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر نصب بفعل مضمر، وقال مكي: هو منصوب بالفعل الذي بعده. قال الفارسي: و ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا تَدَّكَّرُونَ﴾ موصولة بالفعل وهي مصدرية. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿تَدَّكَّرُونَ﴾ بتشديد الدال والكاف، وقرأ حمزة والكسائي، وعاصم في رواية حفص: ﴿تَدَّكَّرُونَ﴾ بتخفيف الدال وتشديد الكاف، وقرأ ابن عامر: ﴿يَتَدَّكَّرُونَ﴾ بالياء كناية عن غيب، وروي عنه أنه قرأ: ﴿تَتَدَّكَّرُونَ﴾ بتاءين على مخاطبة حاضرين.

① - ⑦ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَكَمْ﴾ في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿أَفَلَا تَكْتُمُهَا﴾، ويصح أن يكون الخبر في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَسَا﴾، و ﴿أَفَلَا تَكْتُمُهَا﴾ صفة، ويصح أن تكون في موضع نصب بفعل مقدر بعدها تقديره: وكم أهلكتنا من قرية أهلكتناها. وقدر الفعل بعدها - وهي خبرية - تشبيهاً لها بالاستفهامية في أن لها في كل

حال صدر الكلام. وقالت فرقة: المراد: وكم من أهل قرية، وحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقام المضاف، وقالت فرقة: إنما عتبر بالقرية لأنها أعظم في العقوبة إذ أهلك البشر وقريرتهم، وقد بين في آخر الآية بقوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ خَلَوْا فِي الْهَلَاكِ، فَالآية - على هذا التأويل - تتضمن هلاك القرية وأهلها جميعاً. وعلى التأويل الأول تتضمن هلاك الأهل.

والمراد بالآية الكثير، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿وَكَمْ مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهُمْ فَبِمَا نَسَا﴾، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا نَسَا﴾ يقتضي ظاهره أن المجيء بعد الإهلاك وذلك مستحيل، فلم يبق إلا أن يُعدل عن ظاهر هذا التعقيب، فقيل: الفاء قد تجيء منزلة الواو ولا تعطي رتبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقيل: عتبر عن إرادة الإهلاك بالإهلاك، قال مكي في المشكل: مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحتاج به من قال: الفاء في هذه الآية لتعقيب القول. وقيل: المعنى: أهلكتناها بالخذلان وقلة التوفيق فبما ناسنا بعد ذلك. وقال الفراء - وحكاة الطبري -: إن الإهلاك هو مجيء البأس ومجيء البأس هو الإهلاك، فلما تلازما لم يبال أيهما قدم في الرتبة. وقيل: إن الفاء لترتيب القول فقط، فكانه أخبر عن

قرى كثيرة أنه أهلها ثم قال: فكان من أمرها مجيء البأس.

و ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ نصب على المصدر في موضع الحال، و ﴿قَائِلُونَ﴾ من القائلة، وإنما خصص وقتي الدعة والسكون لأن مجيء العذاب فيهما أفظع وأهول لما فيهما من البغت والفجأة، و ﴿أَوْزٍ﴾ في هذا الموضع كما تقول: الناس في فلان صنفان حامد أو ذام، فكأنه قال: جاءهم بأسنا فرقتين بائتين أو قائلتين، وهذا هو الذي يسمى اللف، وهو إجمال في اللفظ يفرقه ذهن المخاطب دون كلفة. والبأس: العذاب. وقيل: المراد: أو وهم قائلون، فكره اجتماع حرفي العطف فحذفت الواو، وهذا تكلف لأن معنى اللف باق.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ﴾ الآية. تبين في هذه الآية غاية البيان أن المراد في الآية قبلها أهل القرى. والدعوى في كلام العرب لمعنيين: أحدهما: الدعاء، قال الخليل: تقول: اللهم أشركنا في صالح دعوى المسلمين، ومنه قوله عز وجل: ﴿فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ﴾ ومنه قول الشاعر:

وإن مذلت رجلي دعوتك أشقني
بدعواك من مذلي بها فيهنون
والثاني الادعاء، قال الطبري: هي في هذا الموضع بمعنى الدعاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتوجه أيضاً أن يكون بمعنى الادعاء، لأن من ناله مكروه أو حزيه حادث فمن شأنه أن يدعو كما ذهب إليه المفسرون في فعل هؤلاء

المذكورين في هذه الآية، ومن شأنه أيضاً أن يدعي معاذير وأشياء تحسن حاله وتقيم حجته في زعمه، فينتجه أن يكون هؤلاء بحال من يدعي معاذير ونحوها، فأخبر الله عنهم أنهم لم تكن لهم دعوى ثم استثنى من غير الأول كأنه قال: لم يكن دعاء أو ادعاء إلا الإقرار والاعتراف، أي: هذا كان بدل الدعاء والادعاء.

وتحتمل الآية أن يكون المعنى: فما آلت دعواهم التي كانت في حال كفرهم إلا إلى اعتراف، ونحو من الآية قول الشاعر:

وقد شهدت قيس فما كان نضرها
فتيبة إلا عطفها بالأباهم
واعترافهم وقولهم إنا كنا ظالمين
هو في المدة بين ظهور العذاب إلى إتيانه على أنفسهم، وفي ذلك مهلة بحسب نوع العذاب تتسع لهذه المقالة وغيرها، وروى ابن مسعود عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «ما هلك قوم حتى يغلذروا من أنفسهم»، وفسر عبد الملك بن ميسرة هذا الحديث بهذه الآية. و ﴿دَعْوَاهُمْ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾ واسمها ﴿إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾، وقيل بالعكس.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ﴾ وعيد من الله عز وجل لجميع العالم، أخبر أنه يسأل الأمم أجمع عما بلغ إليهم عنه وعن جميع أعمالهم، ويسأل النبيين عما بلغوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد نفي السؤال في آيات وذلك هو سؤال الاستفهام الحقيقي، وقد أثبت في آيات كهذه الآية وهذا هو سؤال التقرير، فإن الله قد أحاط علماً بكل

ذلك قبل السؤال، فأما الأنبياء والمؤمنون فيعقبهم جوابهم رحمة وكرامة، وأما الكفار ومن نفذ عليه الوعيد من العصاة فيعقبهم جوابهم عذاباً وتوبيخاً، فمن أنكر منهم قص عليه يعلم، وقرأ ابن مسعود: ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلْنَا إِلَيْهِمْ فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلْنَا إِلَيْهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنَقُصَّنَّ أَي: فَلَئَسْأَلُودُنَّ عَلِيهِمْ﴾ أعمالهم قصة ﴿بِيْلِمُ﴾ أي: بحقيقة ويقين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يوضع الكتاب يوم القيامة فيتكلم بما كانوا يعملون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن يكون الكلام هنا استعارة إذ كل شيء فيه مقيد.

﴿وَمَا كُنَّا مَن﴾ أي: ما كنا من لا يعلم جميع تصرفاتهم كالفان عن الشيء الذي لا يعرف له حالاً.

﴿الْوَزْنُ﴾ - ﴿الْحَقُّ﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الْوَزْنُ﴾: مصدر وَزَنَ يَزِنُ، ورفع بالابتداء، و ﴿الْحَقُّ﴾ خبره. و ﴿يَوْمِيذٍ﴾ ظرف منتصب بـ ﴿الْوَزْنُ﴾، ويصح أن يكون ﴿يَوْمِيذٍ﴾ خبر الابتداء، و ﴿الْحَقُّ﴾ نعت لـ ﴿الْوَزْنُ﴾، والتقدير: الوزن الحق ثابت أو ظاهر يومئذ. و ﴿يَوْمِيذٍ﴾ إشارة إلى يوم القيامة والفصل بين الخلاق.

واختلف الناس في معنى الوزن والموازن - فقالت فرقة: إن الله عز وجل أراد أن يعلم عباده أن الحساب والنظر يوم القيامة هو في غاية التحرير ونهاية العدل، فمثل لهم في ذلك بالوزن والميزان إذ لا يعرف

البشر أمراً أكثر تحريراً منه، فاستعير للعدل وتحرير النظر لفظة الوزن والميزان كما استعار ذلك أبو طالب في قوله:

بِمِيزَانٍ قَسِطٍ لَا يَخْسُ شَعِيرَةً
لَهُ حَاكِمٌ مِنْ نَفْسِهِ غَيْرِ عَائِلٍ
وَرُوي هذا القول عن مجاهد والضحاك وغيرهما، وكذلك استعير - على قولهم - الثقل والخفة لكثرة الحسنات وقتلتها.

وقال جمهور الأمة: إن الله عز وجل أراد أن يعرض لعباده يوم القيامة تحرير النظر وغاية العدل بأمر قد عرفوه في الدنيا وعهدته أنهمامهم، فميزان القيامة له عمود وكفتان على هيئة موازين الدنيا، قال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه: «صاحب الموازين يوم القيامة جبريل عليه السلام»، وقالوا: هذا الذي اقتضاه لفظ القرآن ولم يرده نظر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أصح من الأول من ثلاث جهات - أولها: أن ظواهر كتاب الله عز وجل تقتضيه، وحديث الرسول عليه الصلاة والسلام ينطق به، من ذلك قوله لبعض الصحابة - وقد قال له: يا رسول الله، أين أجدك في يوم القيامة؟ - فقال: «اطلبي عند الحوض، فإن لم تجدني فعند الميزان». ولو لم يكن الميزان مرتباً محسوساً لَمَا أحاله رسول الله ﷺ على الطلب عنده، وجهة أخرى أن النظر في الميزان والوزن والثقل والخفة المقترنات بالحساب لا يفسد شيء منه ولا تختل صحته، وإذا كان الأمر كذلك

فَلِمَ نخرج من حقيقة الأمر إلى مجازه دون علة؟، وجهة ثالثة وهي أن القول في الميزان هو من عقائد الشرع الذي لم يُعرف إلا سماعاً، وإن فتحنا فيه باب المجاز غمرتنا أقوال الملاحدة والزنادقة في أن الميزان والصراط والجنة والنار والحشر ونحو ذلك إنما هي ألفاظ يراد بها غير الظاهر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فينبغي أن يجري في هذه الألفاظ إلى حملها على حقائقها.

وأما الثقل والخفة فإن الآثار تظاهرت بأن صحائف الحسنات والسيئات توضع في كفتي الميزان فيحدث الله في الجهة التي يريد ثقلاً وخفة على نحو إحدائه ذلك في جسم رسول الله ﷺ في وقت نزول الوحي عليه، ففي الصحيح من حديث زيد بن ثابت أنه قال: (كنت أكتب حتى نزلت ﴿عِزُّ أُولِي الْقُرْبَى﴾ وفخذ رسول الله ﷺ على فخذي حتى كادت أن ترض فخذي)، وفي الحديث (أنه كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته بركت به عجزاً عن حمله للثقل الحادث فيه). ولا بد لنا أن نعلم أن الثقل الحادث مع الحسنات إنما يتعلق بجسم، إذ العَرْض لا يقوم بِعَرْض، فجاز أن يحدث الثقل في الصحائف وهو أقربها إلى الظن، وجزاء أن يحدث في ذلك من الأجسام المجاورة لتلك الحال، وإلى حدوثه في الصحائف ذهب أبو المعالي، ورويت في خبر الميزان آثار عن صحابة وتابعين في هيئته وطوله وأحواله لم تصح بالإسناد،

فلم نر للإطالة بها وجهاً. وقال الحسن فيما روي عنه: بلغني أن لكل أحد يوم القيامة ميزاناً على حدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مردود والناس على خلافه، وإنما لكل أحد وَزْن يختص به والميزان واحد، وروى عن مجاهد في قوله تعالى: ﴿تُنَزَّلَتْ مُوَزَّيْنًا﴾ أن الموازين الحسنات نفسها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجمع لفظ الموازين إذ في الميزان موازنات كثيرة فكأنه أراد التنبيه عليها بجمعه لفظ الميزان.

و ﴿الْمُؤَلِّمُونَ﴾ في اللغة: المدركون لبغيتهم، الناجحون في طلبهم، ومنه قول عبيد:
أَفْلِيحُ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يَبْلُغُ بِالضُّدِّ
فَبِ وَقَدْ يُسْخَدُ الأَرِيْبُ
فأما قول الشاعر:

والمُسْنِي وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهُ
فقد قيل: إنه بمعنى البقاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والبقاء: بلوغ بغية، فالمعنيان متقاربان، ووزن الله أعمال العباد مع علمه بدقائق الأشياء وجلالها نظير كتبه أعمالهم في صحائفهم واستنساخه ذلك، ونظير استنطاقه جوارحهم بالشهادة عليهم إقامة للحجة وإيضاحاً، فقد تقرر في الشرع أن كلمة التوحيد ترجح ميزان من وزنت في أعماله ولا بُدَّ. فإن قال قائل: كيف تثقل موازين العصاة من المؤمنين بالتوحيد ويصعُ لهم حكم الفلاح ثم

تدخل طائفة منهم النار وذلك شقاء لا محالة؟ فقالت طائفة: إنه توزن أعمالهم دون التوحيد فتخف الحسنات فيدخلون النار، ثم عند إخراجهم يوزن التوحيد فتثقل الحسنات فيدخلون الجنة، وأيضاً فمعرفة العاصي أنه غير مخلد فلاح وإن تقدمه شقاء على جهة التأديب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ الآية. المعنى: من حَفَّتْ كفة حسناته فشالت. و﴿حَيْرِرًا أُنْفُسَهُمْ﴾ أي بالهلاك والخلود في النار وتلك غاية الخسارة. وقوله تعالى: ﴿يَبَا كَأُولِ﴾ أي جزاء بذلك، كما تقول: أكرمك بما أكرمتني، و [ما] في هذا الموضع مصدرية، والآيات هنا: السرايين والأوامر والنواهي، و ﴿يُظَلِّمُونَ﴾ أي يضيعونها في غير مواضعها بالكفر والتكذيب.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب لجميع الناس، والمراد أن النوع بجملته مُمَكَّن في الأرض، والمعاش: جمع معيشة وهي لفظة تُعْمُ المأكول الذي يعاش به والتحرّف الذي يؤدي إليه. وقرأ الجمهور: ﴿مَعْيِشٌ﴾ بكسر الياء دون همز، وقرأ الأعرج وغيره: ﴿مَعَائِشٌ﴾ بالهمز كمدائن وسفائن، ورواه خارجة عن نافع، وروي عن ورش ﴿مَعَائِشٌ﴾ بسكون الياء، فمن قرأ: ﴿مَعْيِشٌ﴾ بتصحيح الياء فهو الأصوب لأنها جمع مَعْيِشَة وزنها مَفْعَلَة. ويحتمل أن تكون مَفْعَلَة بضم العين، قالهما سيويه، وقال الفراء: مَفْعَلَة بفتح العين، فالياء في معيشة أصلية، وأعلت لموافقتها الفعل الذي

هو يعيش في البياء أي في المتحرك والساكن، وصححت معاش في جمع التكسير لزوال الموافقة المذكورة في اللفظ، ولأن التكسير معنى لا يكون في الفعل وإنما تختص به الأسماء، ومن قرأ: ﴿مَعَائِشٌ﴾ فعلى التخفيف من (معاش)، ومن قرأ: ﴿مَعَائِشٌ﴾ فأعلها فذلك غلط، وأما توجيهه فعلى تشبيه الأصل بالزائد لأن (معيشة) تشبه في اللفظ (صحيفة)، فكما يقال: صحائف قيل: معاش، وإنما همزت ياء (صحائف) ونظائرها مما الياء فيه زائدة لأنها لا أصل لها في الحركة، وإنما وزنها فعيلة ساكنة، فلما اضطر إلى تحريكها في الجمع بُدِلت بأجلد منها.

و ﴿قَلِيلًا﴾ نصب بـ ﴿تَشْكُرُونَ﴾، ويحتمل أن تكون [ما] زائدة، ويحتمل أن تكون مع الفعل بتأويل المصدر، و ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: شكراً قليلاً شكركم، أو: شكراً قليلاً تشكرون. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ الآية. هذه الآية معناها التنبيه على موضع العبرة والتعجب من غريب الصنعة وإسداء النعمة، فبدأ بالخلق الذي هو الإيجاد بعد العدم، ثم بالتصوير في هذه البنية المخصوصة للبشر، وإلا فلم يُعْرَ المخلوق قط من صورة.

واضطرب الناس في ترتيب هذه الآية لأن ظاهرها يقتضي أن الخلق والتصوير لبني آدم قبل القول للملائكة أن يسجدوا، وقد صححت الشريعة أن الأمر لم يكن كذلك -

فقال فرقة: المراد بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ آدم بنفسه وإن كان الخطاب ليّنيه، وذلك لما كان سبب وجود بنيه فما فعل فيه صحّ مع تجوز أن يقال: إنه فعل في بنيه، وقال مجاهد: المعنى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾ في صلب آدم وفي وقت استخراج ذرية آدم من ظهره أمثال الذرّ في صورة البشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرتب في هذين القولين أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ على بابها في الترتيب والمهلة.

وقال عكرمة والأعمش: المراد: خلقناكم في ظهور الآباء وصورناكم في بطون الأمهات. وقال ابن عباس والربيع بن أنس: أما ﴿خَلَقْنَاكُمْ﴾ فأدم، وأما ﴿صَوَّرْنَاكُمْ﴾ فذريته في بطون الأمهات، وقاله قتادة والضحاك. وقال معمر بن راشد عن بعض أهل العلم: بل ذلك كله في بطون الأمهات من خلق وتصوير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقالت هذه الفرقة: إن ﴿ثُمَّ﴾ لترتيب الإخبار بهذه الجمل لا لترتيب الجمل في نفسها، وقال الأخفش: ﴿ثُمَّ﴾ في هذه الآية بمعنى الواو، وردّ عليه نحويو البصرة.

وملائكة: ووزنه إمّا مَفَاعِلَة وإمّا مَفَاعِلَة بحسب الاشتقاق الذي قد مضى ذكره في سورة البقرة. وهنالك ذكرنا هيئة السجود والمراد به، ومعنى إبليس، وكيف كان قبل المعصية، وأما قوله تعالى في هذه الآية: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ فقال الزجاج: هو استثناء ليس من الأول، ولكن إبليس أمر بالسجود بدليل قوله

قَالَ مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ أُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ فِيمَا أُغْوِيَنِي لِأَقْعُدَ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَا تَجِدُهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴿١٧﴾ قَالَ أخرجنا منها مذبذباً ذكراً ونكراً لئن لم يكن لهم آية لكانن جهنم مكنة أجمعين ﴿١٨﴾ وَيَتَّعَدُّونَ عَلَيْكَ بِئْسَ صِرَاطَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ وَتَتَجَاوَزُ الْأَشْجَارَ فَتُحَدِّثُ الْغُصْنِ وَتَنْسَوِي الْعُودَ لَوْلَا أَنْ يَقُولُوا هَذَا مِنْ حَيْثُ سَمِعْنَا لَلَنُفُورُ الْغُصْنِ إِذْ يَسْمُرُ لَهَا مَا وُرِيَ عَنْهَا مِنْ سَوْءِهَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنِ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ نَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَسَمُوهُمَا إِنِّي لَكُلَا لِيَوْمِ الْقِسْمِ ﴿٢١﴾ فَذَلَّهُمَا بِقُرْءٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطُفِقَا بِيَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وُرْقٍ الْجِنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلَّ لَكُمَا أَنْ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ قَبْلَ هَذَا

١٥٢

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي كلام الطبري نظر، وروي عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا: أول من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالقياس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال الطبري: يعني القياس الخطأ، ولا دليل من لفظهما عليه، ولا يتأول عليهما إنكار القياس، وإنما خرج كلامهما نهيًا عما كان في زمنهما من مقاييس الخوارج وغيرهم، فأزاد حمل الناس على الجادة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَهْبِطْ مِنْهَا﴾ الآية. أمر من الله عز وجل لإبليس بالهبوط في وقت عصيانه في السجود، فيظهر من هذا أنه أهبط أولاً وأخرج من الجنة وصار في السماء لأن الأخبار تظاهرت أنه أغوى آدم وحواء من خارج الجنة، ثم أمر آخرًا بالهبوط

وقيل في الآية: ليست (لا) زائدة، وإنما المعنى: ما منعك فأحوجك إلى ألا تسجد؟ وقيل: لما كان ﴿مَا مَنَّكَ﴾ بمعنى: مَنْ أَمَرْتُكَ؟ ومن قال لك؟ حَسُنَ أن يقول بعدها: ألا تسجد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة هذا أن يقدر في الكلام فعل يخسن حمل النفي عليه كأنه قال: ما أحوجك أو حملك أو اضطررك؟ وجواب إبليس للعين ليس عما سئل عنه، ولكنه جاء بكلام يتضمن الجواب

والحجة عليه، فكأنه قال: منعني فضلي إذ أنا خير منه حين خلقتني من نار وخلقته من طين. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا أسجد، وأنا خير منه وأكبر سنًا وأقوى خلقًا، يقول: إن النار أقوى من الطين، وظن إبليس أن النار أفضل من الطين، وليس كذلك، بل هما في درجة واحدة من حيث هما جماد مخلوق، فلما ظن إبليس أن صعود النار وخفتها يقتضي فضلًا على سكان الطين وبلادته قاس أن ما خلق منها أفضل مما خلق من الطين، فأخطأ قياسه، وذهب عليه أن الروح الذي نُفِخَ في آدم ليس من طين. قال الطبري: ذهب عليه ما في النار من الطيش والخفة والاضطراب، وما في الطين من الوقار والأناة والحلم والتثبت.

تعالى: ﴿مَا مَنَّكَ إِلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ﴾. وقال غير الزجاج: الاستثناء من الأول، لأننا لو جعلناه منقطعاً على قول من قال: إن إبليس لم يكن من الملائكة لوجب أن إبليس لم يؤمر بالسجود، إلا أن يقول قائل هذه المقالة: إن أمر إبليس كان بوجه آخر غير قوله تعالى: ﴿أَسْجُدُوا﴾ وذلك بين الضعف.

وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿لِلْمَلَائِكَةِ أَسْجُدُوا﴾ بضم الهاء، وهي قراءة ضعيفة، وروَّجها أنه حذف همزة ﴿أَسْجُدُوا﴾ وألقى حركتها على الهاء، وذلك لا يتَّجِه لأنها همزة محذوفة مع الهاء بحركة، أي شيء يلغى، والإلغاء يكون في الوصل.

﴿١٢﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿مَا﴾ استفهام والمقصود به التوبيخ والتقرع، و (لا) في قوله تعالى: ﴿أَلَا﴾ قيل: هي زائدة، والمعنى: ما منعك أن تسجد، وهي ك (لا) في قول الشاعر:

أبى جوده لا البخل فاستعجلت به
نعم من فتى لا يمتنع الجود نائله
وهذا على أحد الأقوال في هذا البيت، فقد قيل: (لا) فيه زائدة، وقال الزجاج: مفعولة، والبخل بدل منها، وحكى الطبري عن يونس عن أبي عمرو بن العلاء أن الرواية فيه: (لا البخل) بخفض اللام، لأن (لا) قد تتضمن جوداً إذا قالها في أمر يمنع الحقوق والبخل عن الواجبات. ومن الأبيات التي جاءت (لا) فيها زائدة قول الشاعر:

أَمْسِكْ لَا يَبْزُقُ كَأَنَّ وَمِيضَهُ
غَابَ تَسْتَمُّهُ ضِرَامٌ مَشْقَبٌ

من السماء مع آدم وحواء والحية .
قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وهذا كله بحسب ألفاظ القصة والله
أعلم .

وقوله تعالى: ﴿مَّا يَكُونُ لَكَ﴾
معناه: فما يصح لك ولا يتم، وليس
يقتضي هذا أن التكبر له في غيرها
على ما ذهب إليه بعض المعترضين،
فقد تضمنت الآية أن الله أخبر إبليس
أن الكبرياء لا يتم له ولا يصح في
الجنة مع نهيه له ولغيره عن الكبرياء
في كل موضع، وأما لو أخذنا ﴿مَّا
يَكُونُ﴾ على معنى: فما يحسن وما
يجمل كما تقول للرجل: ما كان لك
ألا تصل قرابتك لفتّر معنى الإغلاظ
على إبليس .

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾
حكم عليه بضد المعصية التي عصى
بها وهي الكبرياء، فعوقب بالحمل
عليه بخلاف شهوته وأمله،
والصغار: الذل، قاله السدي .

ثم سأل إبليس ربّه أن يؤخره إلى
يوم البعث، طمع ألا يموت إذ علم
أن الموت ينقطع بعد البعث . ومعنى
﴿أَنْظِرْنِي﴾ أخرني . فأعطاه الله النّظرة
إلى يوم الوقت المعلوم، فقال أكثر
الناس: الوقت المعلوم هو النّفخة
الأولى في الصور التي يصعق لها من
في السموات ومن في الأرض من
المخلوقين، وقالت فرقة: بل أحاله
على وقت معلوم عنده عز وجل يريد
به يوم موت إبليس وحضور أجله
دون أن يعين له ذلك، وإنما تركه في
عماء الجهل به ليغمه ذلك ما عاش .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وقال بعض أهل هذه المقالة: إن

إبليس قتلته الملائكة يوم بدر، ورووا
في ذلك أثراً ضعيفاً .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
والأول من هذه الأقوال أصح وأشهر
في الشرع .

ومعنى ﴿وَيَنْ أَلْتَنْظِرِينَ﴾: من الطائفة
التي تأخرت أعمالها كثيراً حتى
جاءت آجالها على اختلاف أوقاتها،
فقد عمّ تلك الطائفة إِنْظار وإن لم
يكونوا أحياء مدة الدهر .

وقوله: ﴿فِيمَا﴾ يحتمل أن يريد به
القسم كما تقول: فبالله لأفعلن،
ويحتمل أن يريد به معنى المجازاة
كما تقول: فبإكرامك يا زيد
لأكرمك .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وهذا أليق المعاني بالقصة .

ويحتمل أن يريد: فمع إغوائك لي
ومع ما أنا عليه من سوء الحال
لأنجلدن ولأقعدن، ولا يعرض
لمعنى المجازاة . ويحتمل أن يريد
بقوله: ﴿فِيمَا﴾ الاستفهام عن السبب
في إغوائه، ثم قطع ذلك وابتدأ
الإخبار عن قعوده لهم، وبهذا فسر
الطبري أثناء لفظه . و ﴿أَعْرَيْتَنِي﴾ قال
الجمهور: معناه: أضللتني، من
الغني، وعلى هذا المعنى قال
محمد بن كعب القرظي - فيما حكى
الطبري -: قاتل الله القدرية، لإبليس
أعلم بالله منهم، يريد في أنه علم
أن الله يهدي ويضل . وقال الحسن:
﴿أَعْرَيْتَنِي﴾ لعنتني، وقيل: معناه:
خيّبتني .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وهذا كله تفسير بأشياء لزم إغواءه .
وقالت فرقة: ﴿أَعْرَيْتَنِي﴾ معناه:

أهلكنتني، حكى ذلك الطبري،
وقال: هو من قولك: غوي الفصيل
يغوي غوي إذا انقطع عنه اللبن
فمات . وأشد:

مُعْطَفَةُ الْأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُهَا
بِرَازِيهَا ذَوْا وَلَا مَيْبَتِ غَوِي
قال: وقد حكى عن بعض طيبي:
أصبح فلان غاوياً، أي مريضاً .

وقوله: ﴿لَأَقْدُدَنَّ لِمَن مَّرَّكَ﴾ يريد:
على صراطك، وفي صراطك،
وحذف كما يفعل في الظروف،
ونحوه قول الشاعر:

لِذُنِّ بَهْرَزِ الْكَفِّ يَغْسِلُ مَثْنُهُ
فِيهِ كَمَا عَسَلَ الطَّرِيقُ الشُّغْلُبُ
وقال مجاهد: ﴿مَرَّكَ﴾ يريد به الحق . وقال عون بن
عبدالله: يريد طريق مكة .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
وهذا تخصيص ضعيف، وإنما
المعنى: لأتعرضنّ لهم في طريق
شرعك وعبادتك ومنهج النجاة
فلأصدنّهم عنه، ومنه قوله عليه
الصلاة والسلام: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَعْدُ
وَقَالَ: تترك دين آبائك؟ فعصاه
فأسلم، فنهاه عن الهجرة وقال: تدع
أهلك وبلدك؟ فعصاه فهاجر، فنهاه
عن الجهاد وقال: تقتل وتترك ولدك؟
فعصاه فجاهد فله الجنة» . الحديث .

﴿٧﴾ - ﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذا توكيد من إبليس في أنه يجذ
في إغواء بني آدم، وهذا لم يكن
حتى علم إبليس أن الله يجعل في
الأرض خليفة وعلم أنه آدم، وإلا
فلا طريق له إلى علم أنسال آدم من
ألفاظ هذه الآيات .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقصد هذه الآية أن إبليس أخبر عن نفسه أنه يأتي لإضلال ابن آدم من كل جهة، وعلى كل طريق، يفسد عليه ما أمكنه من معتقده، وينسيه صالح أعمال الآخرة، ويغريه بقبيح أعمال الدنيا، فعبر عن ذلك بألفاظ تقتضي الإحاطة بهم، وفي اللفظ تَجَوُّزٌ، وهذا قول جماعة من المفسرين.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه: أراد بقوله: ﴿مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ الآخرة، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ الدنيا، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ الحق، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ الباطل. وقال ابن عباس أيضاً فيما روي عنه: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ هي الدنيا، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ هي الآخرة، ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ الحسنات، ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ السيئات. وقال مجاهد: ﴿مَنْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ﴿وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ﴾ معناه: حيث يبصرون، ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ﴾ ﴿وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ﴾ حيث لا يبصرون.

وقوله: ﴿وَلَا يَجِدُ أَكْرَمَهُمْ شُكْرِيكَ﴾ أخبر أن سعائته تفعل ذلك ظناً منه وتوهماً في خلقه آدم حين رأى خلقته من أشياء مختلفة، فعلم أنه ستكون لهم شَيْمٌ تقتضي طاعته كالغلل والحسد والشهوات ونحو ذلك، قال ابن عباس، وقتادة: إلا أن إبليس لم يقل إنه يأتي بني آدم من فوقهم ولا جعل الله له سبيلاً إلى أن يحول بينهم وبين رحمة الله وعفوه ومثله. وما ظنَّه إبليس صدقه الله عز وجل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنْ

الْمُتَزَيِّبِينَ﴾ ﴿فَجَعَلَ أَكْثَرَ الْعَالَمِ كُفْرًا، وَوَبَّيَّنُهُ قَوْلَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْحَدِيثِ: يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا آدَمُ، أَخْرَجَ بَعَثَ النَّارَ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ وَمَا بَعَثَ النَّارَ؟ فَيَقُولُ: مِنْ كُلِّ أَلْفِ تَسْمَاعَةَ وَتَسْمَعَةٌ وَتَسْمَعِينَ، وَوَاحِدٌ إِلَى الْجَنَّةِ، وَنَحْوَهُ مِمَّا يَخْصُ أُمَّةَ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، مَا أَنْتُمْ فِي الْأُمَمِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ.﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله: (كالشعرة) يحتمل أن يريد شعرة واحدة وهو بعيد لأن تناسب الحديث الأول يرده. ويحتمل أن يريد الشعرة التي هي للجنس، والقصد أن يشبههم بثور أسود قد أنبت في خلال سواده شعرة بيضاء، ويحتمل أن يريد لللمعة من الشعر الأبيض وهذا فيه بعد. وقوله: ﴿شُكْرِيكَ﴾ معناه: مؤمنين لأن ابن آدم لا يشكر نعمة الله إلا بأن يؤمن، قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَخْرَجْنَاهَا﴾ الضمير في ﴿بَيْنَهَا﴾ عائد على الجنة، و﴿مَذْمُومًا﴾ معناه: معيباً، يقال: ذمته إذا عابه، ومنه الذمأم وهو العيب، وفي المثل: «لن تعدم الحسنة ذاماً» أي عيباً، وسهلت فيه الهزمة، ومنه قول قتل حمير: أردت أن تذيمة فمدحته، يريد: فمدحته، وحكى الطبري أنه يروى هذا البيت: صَحْبَتُكَ إِذْ عَيْنِي عَلَيَّهَا غِشَاوَةٌ فَلَمَّا انجَلَتْ قَطَعْتُ نَفْسِي أَذِيمَهَا قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والرواية المشهورة ألومها. ومن

المشاهد في اللفظ قول الكمي: وَهُمْ الْأَقْرَبُونَ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ وَهُمْ الْأَبْعَدُونَ مِنْ كُلِّ ذَمٍّ وَمِنَ الشَّاهِدِ فِي ﴿مَتَحَوُّرًا﴾ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَدَخَرْتُ بَنِي الْحَصِيبِ إِلَى قُدَيْدٍ وَقَدْ كَانُوا ذَوِي أَشْرٍ وَفَخِرَ وَقَرَأَ الزَّهْرِيُّ، وَأَبُو جَعْفَرٍ، وَالْأَعْمَشُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿مَتَوَمًّا﴾ عَلَى التَّسْهِيلِ. وَ﴿مَتَحَوُّرًا﴾ مَعْنَاهُ: مَقْصِيًّا مُبْعَدًا. وَقَرَأَ فَرَقَةَ: ﴿لَتَنَّ يَمَّكَ﴾ بِفَتْحِ اللَّامِ وَهِيَ عَلَى هَذِهِ لَامُ الْقِسْمِ الْمَخْرُجَةِ الْكَلَامُ مِنَ الشُّكِّ إِلَى الْقِسْمِ، وَقَرَأَ عَاصِمُ الْجَحْدَرِيُّ، وَالْأَعْمَشُ: ﴿لَيَمَنَّ تَبِعَكَ﴾ بِكَسْرِ اللَّامِ، وَالْمَعْنَى: لِأَجْلِ مَنْ تَبِعَكَ لِأَمْلَانِ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ، فَأَدْخَلَهُ فِي الْوَعِيدِ مَعَهُمْ بِحُكْمِ هَذِهِ الْكَلِمَةِ فِي ﴿مِنْكُمْ﴾.

﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل: إِذَا أَمَرَ الْإِنْسَانَ بِشَيْءٍ هُوَ مُتْلِسٌ بِهِ فَإِنَّمَا الْمَقْصِدُ بِذَلِكَ أَنْ يَسْتَمِرَّ عَلَى حَالِهِ وَيَتِمَادَى فِي هَيْئَتِهِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى لِآدَمَ: ﴿أَسْكَنْ﴾ هُوَ مِنْ هَذَا الْبَابِ. وَأَكَّدَ الضَّمِيرَ الَّذِي فِي قَوْلِهِ: ﴿أَسْكَنْ﴾ بِقَوْلِهِ: ﴿أَنْتَ﴾ وَحَيْثُ جَازَ الْعَطْفُ عَلَيْهِ وَهُوَ ضَمِيرٌ لَا يَجُوزُ إِظْهَارُهُ وَلَا يَتَرْتَبُ، وَالْعَطْفُ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَلْفُوظِ بِهِ لَا يَجُوزُ إِلَّا بَعْدَ تَأْكِيدِهِ كَقَوْلِكَ: قَمَتِ أَنْتَ وَزَيْدٌ، لِأَنَّ الضَّمِيرَ بِمَنْزِلَةِ حَرْفٍ مِنَ الْفِعْلِ، وَهَذَا الضَّمِيرُ الَّذِي فِي ﴿أَسْكَنْ﴾ أَضْعَفُ مِنَ الْمَلْفُوظِ بِهِ فَأَحْرَى الْأُصْحَابُ يَصْحُحُ الْعَطْفُ عَلَيْهِ إِلَّا بَعْدَ التَّأْكِيدِ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا﴾ هُوَ مِنْ (أَكَلَ)، فَأَصْلُهُ أَوْكَلَا فَحُذِفَتْ فَاءُ

الفعل لاجتماع المثليين، واستغني عن الأخرى لما تحرك ما بعدها، وحسن أيضاً حذف فاء الفعل لأنهم استثقلوا الحركة على حرف علة، وهذا باب كل فعل أوله همزة ووزنه فَعَلَ كَأَخَذَ وأمر ونحوه، وكان القياس ألا تحذف فاء الفعل ولكن ورد استعمالهم هكذا.

ويقال: قرب يقرب. و ﴿هَذِي الشَّجَرَةَ﴾ الظاهر أنه أشار إلى شخص شجرة واحدة من نوع وأرادها، ويحتمل أن يشير إلى شجرة معينة وهو يريد النوع بجملته، وعبر باسم الواحدة كما تقول: أصاب الناس الدينار والدرهم، وأنت تريد النوع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى الاحتمالين فآدم عليه السلام إنما قصد في وقت معصية فعل ما نهي عنه، قاله جمهور المتأولين، وبذلك أغواه إبليس لعنه الله بقوله: إنك لم تكن إلا لثلا تخلد أو تكون ملكاً، فيبطل بهذا قول من قال: إن آدم إنما أخطأ متأولاً بأن ظن النهي متعلقاً بشخص شجرة فأكل من النوع فلم يعذر بالخطأ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أن القائل إنما يفرض آدم معتقداً أن النهي إنما تعلق بشجرة معينة فكيف يقال له مع هذا الاعتقاد: إنك لم تكن إلا لثلا تخلد، ثم يقصد هو طلب الخلود في ارتكاب غير ما نهي عنه؟ ولا فرق بين أكله ما يعتقد أنه لم يكن عنه وبين أكله سائر المباحات له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والهاء الأخيرة في ﴿هَذِي﴾ بدل من

الياء في (هذي) أبدلت في الوقف ثم ثبتت في الوصل هاء حملاً على الوقف، وليس في الكلام هاء تأنيث قبلها كسرة إلا هذه. وقرأ ابن محيصن: ﴿هَذِي الشَّجَرَةَ﴾ على الأصل. وقوله تعالى: ﴿فَتَكُونُ﴾ نصب في جواب النهي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتعلق الناس بهذه الآية في مسألة الحظر والإباحة، وذلك أن مسألة الحظر والإباحة تكلم الناس فيها على ضربين: فأما الفقهاء فدعاهم إلى الكلام فيها أنه تنزل نوازل لا توجد منصوصة في كتاب الله عز وجل في سنة نبيه ولا في إجماع، ويعتم وجه استقراءها من أحد هذه الثلاثة وقياسها على ما فيها، فيرجع الناظر بعد ذلك ينظر على أي جهة يحملها من الإجازة والمنع، فقال بعضهم: إذا نزل مثل هذا فنحمله على الحظر، ونأخذ فيه بالشدّة، ونستبرئ لأنفسنا، إذ الله عز وجل قد بين لنا في كتابه جميع ما يجب بيانه، وأحل ما أراد تحليله، ولم يترك ذكر هذه النازلة إلا عن قصد فاجترأنا نحن عليه لا تقتضيه الشريعة. وقال بعضهم: بل نحملها على الإباحة لأن الله عز وجل قد أكمل لنا ديننا وحرم علينا ما شاء تحريمه، ولم يهمل النص على نازلة إلا وقد تركها في جملة المباح، ويعيد أن يريد في شيء التحريم ولا يذكره لنا ويدعنا في عمى الجهالة به، فإنما نحملها على الإباحة حتى يطرأ الحظر، وقال بعضهم: بل نحمل ذلك على الوقف أبداً ولا

نحكم فيه بحظر ولا إباحة، بل نطلب فيه النظر والقياس أبداً، وذلك لأننا نجد الله عز وجل يقول في كتابه: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾ في مواضع، ويقول: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ﴾ في مواضع، فدل ذلك على أن كل نازلة تحتاج إلى شرع وأمر، إما مخصوصاً بها، وإما مشتملاً عليها وعلى غيرها، ولو كانت الأشياء على الحظر لما قال في شيء: ﴿حَرَّمَ عَلَيْكُمْ﴾، ولو كانت على الإباحة لما قال في شيء: ﴿أَجَلٌ لَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أبين الأقوال، ولم يتعرض الفقهاء في هذه المسألة إلى النظر في تحسين العقل وتقييحه، وإنما تمسكوا في أقوالهم هذه بأسباب الشريعة، وذهبوا إلى انتزاع مذاهبهم منها.

وأما الضرب الثاني من كلام الناس في الحظر والإباحة فإن المعتزلة ومن قال بقولهم: إن العقل يحسن ويقبح - نظروا في المسألة من هذه الجهة فقالوا: نفرض زماناً لا شرع فيه، أو رجلاً نشأ في برية ولم يخس قط بشرع ولا بأمر ولا بنهي، أو نقدر آدم عليه السلام وقت إبطاه إلى الأرض قد ترك وعقله قبل أن يؤمر وينهى. كيف كانت الأشياء عليه؟ أو كيف يقتضي العقل في الزمن والرجل المفروضين؟ فقال بعضهم: الذي يخس في العقل أن تكون محظورة كلها حتى يرد الإذن باستباحتها، وذلك أن استباحتها تعد على ملك الغير، وإذا قبح ذلك في الشاهد فهو في حق الله أعظم حرمة، وذهب بعض هذه الفرقة إلى استثناء النفس

والحركة من هذا الحظ وقالوا: إن هذه لا يمكن غيرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويمكن أن يقدر الاضطراب إليها إباحة لها. وقال بعضهم: بل يحسنُ في العقل أن تكون مباحة إذ التحكم في ملك الغير بوجه لا ضرر عليه فيه كالاستئطال بالجدران ونحوه مباح، فإذا كان هذا في الشاهد جائزاً فهو في عظم قدر الله تعالى ووجوده أجوز، إذ لا ضرر في تصرفنا نحن في ملكه ويتعلق بحقه شيء من ذلك.

وقال أهل الحق والسنة في هذا النحو من النظر: بل الأمر في نفسه على الوقف، ولا يوجب العقل تحسناً ولا تقييحاً بمجرد إيدان به، ولا يتجه حكم الحسن والقبیح إلا بالشرع. وقال بعضهم: والعقل لم يخلُ قط من شرع، فلا معنى للخوض في هذه المسألة ولا لفرض ما لا يقع، وذهبوا إلى الاحتجاج بأن آدم عليه السلام قد توجهت عليه الأوامر والنواهي في الجنة بقوله تعالى له حين جرى الروح في جسده فعطس: قل: الحمد لله يا آدم، ويقول: اسكن وكل ولا تقرب ونحو هذا، وقال القاضي الباقلاني في «التقريب والإرشاد»: إن الفقهاء الذين قالوا بالحظر والإباحة لم يقصدوا الكون مع المعتزلة في غوايتهم، ولكنهم رأوا كلاماً ملئفاً مُمَوِّهاً فاستحسنوه دون أن يشعروا بما يؤول إليه من الفساد في القول بتحسين العقل وتقييحه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا الكلام حمل على فقهاء الشرع واستقصار لهم، والصواب ألا يُظنَّ بهم هذا الخلل، وإنما التمسوا على نوازلهم تعليق حكم الحظر والإباحة من الشرع، وهم مع ذلك لا يحمل عليهم أنهم يدعون الحق في أن العقل لا يُحسن ولا يُتَّجح دون الشرع.

وقد تقدم في البقرة ذكر الاختلاف في الشجرة وتعيينها.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

الوسوسة: الحديث في خفاء همساً وسراراً من الصوت، والوسواس: صوت الخَلْي فشبّه الهمس به، وسمي إلقاء الشيطان في نفس ابن آدم وسوسة إذا هي أبلغ السرار وأخفاه، هذا في حال الشيطان معنا الآن، وأما مع آدم فممكن أن تكون وسوسة بمجاورة خفية، أو بإلقاء في نفس، ومن ذلك قول رؤبة:

وَسَوْسَ يدعو جاهداً ربّ الفلق
فهذه عبارة عن كلام خفي، والشيطان يراد به إبليس نفسه. واختلفت ثقلّة القصص في صورة وسوسته، فروي أنه كان يدخل إلى الجنة في فم الحية مُسْتَخْفِياً بزعمه فيتمكن من الوسوسة، وروي أن آدم وحواء كانا يخرجان خارج الجنة فيتمكن إبليس منهما، وروي أن الله تعالى أقدره على الإلقاء في نفسيهما فأغواهما وهو في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف يردّه لفظ القرآن.

واللام في قوله تعالى: ﴿يَسْتَدِينُ﴾ هي على قول كثير من المؤلفين لام الصيرورة والعاقبة، وهذا بحسب آدم

وحواء، وبحسب إبليس في هذه العقوبة المخصوصة لأنه لم يكن له علم بها فيقصدتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويمكن أن تكون لام يكي على بابها بحسب قصد إبليس إلى حط مرتبتها وإلقائها في العقوبة غير المخصوصة، و﴿مَا وُورِي﴾ معناه: ما سُتر، من قولك: وازى يوارى إذا ستر، وظاهر هذا اللفظ أنها مفاعلة من واحد، ويمكن أن تقدر من اثنين لأن الشيء الذي يوارى هو أيضاً من جهة. وقرأ ابن وثاب: ﴿مَا وُورِي﴾ بواو واحدة. وقال قوم: إن هذه اللفظة في هذه الآية مأخوذة من وراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول يوهنه التصريف.

والسواة: الفرج والدبر، ويشبه أن يسمى بذلك لأن منظره يسوء. وقرأ مجاهد والحسن: ﴿مِنْ سَوَاتِيمَا﴾ بالإفراد وتسهيل الهمزة وشد الواو. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وشيبة بن نصاح، والحسن، والزهري: ﴿مِنْ سَوَاتِيمَا﴾ بتسهيل الهمزة وتشديد الواو، وحكاها سيبويه لغة، قال أبو الفتح: ووجهها حذف الهمزة وإلقاء حركتها على الواو فيقولون: سوة، ومنهم من يُشدُّ الواو، وقالت طائفة: إن هذه العبارة إنما قصد بها أنها كشفت لهما معانيهما وما يسوؤهما ولم يقصد بها العورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول كان اللفظ يحتمله إلا أن ذكر خصف الورق يردّه، إلا أن يقدر

بمعنى (الذي) كان قوله تبارك وتعالى: ﴿لَكُمَا﴾ داخلاً في الصلة فلا يجوز تقديمه، وأظن أن أبا علي الفارسي خرج جواز تقديمه وهي بمعنى (الذي)، والظاهر أنه إن جعلت بمعنى (الذي) كانت اللام في قوله: ﴿لَكُمَا﴾ متعلقة بمحذوف تقديره: إني ناصح لكما من الناصحين. وقال أبو العالية في بعض القراءة: «وقاسمهما بالله».

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿فَدَلَّهَا بِذُرِّيَّتِهِ يُرِيدُ: فغيرهما بقوله وخذعهما بمكره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه عندي أن يكون هذا استعارة من الرجل يدلي آخر من هوة بحبل قد أزم، أو بسبب ضعيف يغتر به، فإذا تدلى به ثورك عليه انقطع به فهلك، فَيُسَبِّهُ الذي يُعَرُّ بالكلام حتى يصدقه فيقع في مصيبة بالذي يُدلى في هوة بسبب ضعيف.

وعلق حكم العقوبة بالدوق إذ هو أول الأكل وبه يرتكب الشيء، وفي آية أخرى: ﴿فَأَكَلَا مِنَّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَدَتِ﴾، قيل: تخرقت عنهما ثياب الجنة وملابسها وتطايرت تَبْرِيأً منهما، وقال وهب بن مُتَيْبَةَ: كان عليهما نور يستر عورة كل واحد منهما فانقشع بالمعصية ذلك النور، قال ابن عباس وقتادة: كان عليهما ظفر كاس فلما عصيا تقلص عنهما فبدت سواتهما وبقي منه على الأصابع قدر ما يتذكران به المعصية فيجددان الندم.

﴿وَطَفَيْتَا﴾ معناه: أخذوا وجعلا، وهو فعل لا يختص بوقت كِبَات

اللام، ويؤيد هذه القراءة قوله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال بعض الناس: يخرج من هذه الألفاظ أن الملائكة أفضل من البشر، وهي مسألة اختلفت الناس فيها، وتمسك كل فريق بظواهر من الشريعة، والفضل بيد الله، وقال ابن فورك: لا حجة في هذه الآية لأن يحتمل أن يريد ملكين في ألا تكون لهما شهوة في طعام.

﴿وَقَاسَمَهُمَا﴾ أي حلف لهما بالله، وهي مفاعلة إذ قبول المحلوف له وإقباله على معنى اليمين كالقسم وتقريره، وإن كان بادي الرأي يعطي أنها من واحد، ومثله قول الهذلي: وَقَاسَمَهُمَا بالله جَهْدًا لِأَنْتُمْ أَلْدُّ مِنَ السُّلْوَى إِذَا مَا تَشُوْرُهُا وروي في القصص أن آدم قال في جملة اعتذاره: ما ظننت يا رب أن أحداً يحلف حائشاً، فقال بعض العلماء: خدع الشيطان آدم بالله عز وجل فانخدع، ونحن من خدعنا بالله عز وجل انخدعنا له، وروي نحوه عن قتادة.

واللام في قوله تعالى: ﴿لَكُمَا﴾ متعلقة بـ ﴿التَّصْوِيرِ﴾، فقال بعض الناس، مكى وغيره: ذلك على أن تكون الألف واللام لتعريف الجنس لا بمعنى (الذي)، لأنها إذا كانت

فَالرَّبِّيَّاتُ لَنَا أَنْفُسًا وَإِنْ لَمْ تَفْقَرْنَا وَرَحْمَةً لَنْ تَكُونَ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ أَهْبَطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٣﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَفِيهَا تَحْرَجُونَ ﴿٢٤﴾ بَنِي آدَمَ قَدْ أَرْنَا عَلَيْهِمْ مَا سَاءَ بَوْرَىٰ سَوْءَ يَكْمُومُونَ وَرِشَاءَ لِيَأْسَ الْقَوْدَىٰ ذَٰلِكَ خَبْرٌ ذَٰلِكَ مِنَ ءَايَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ بَنِي آدَمَ لَا يَفْقِنُكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِيَاسِمًا لِئُرِيَهُمَا سَوْءَ مَا كَانُوا بَرِينَ ﴿٢٦﴾ هُوَ قَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَأْتِيهِمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَعَلُوا فَحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آيَاتِنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحِشَةِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيْطِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهم مُّهْتَدُونَ ﴿٣٠﴾

الضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ عائذ على بدنيهما إذ تمزقت عنهما ثياب الجنة فيصح القول المذكور.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مَا تَهَكِّمُكَ﴾ الآية، هذا القول الذي حكى عن إبليس يدخله من هذا التأويل ما دخل الوسوسة، فممكن أن يقول هذا مخاطبة وحواراً، وممكن أن يقوله إلقاء في النفس ووحياً.

و ﴿إِلَّا أَنْ﴾ تقديره عند سبويه والبصريين: إلا كراهية أن. وتقديره عند الكوفيين: إلا أن لا، على إضمار (لا).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويُرْجَحُ قول البصريين أن إضمار الأسماء أحسن من إضمار الحروف.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مَلَكَيْنِ﴾ بفتح اللام، وقرأ ابن عباس، ويحيى بن كثير، والضحاك: ﴿مَلَكَيْنِ﴾ بكسر

وظَلَّ، و ﴿يَخْصِفَانِ﴾ معناه: يلصقانه ويضممان بعضها إلى بعض، والمِخْصَفُ: الإِشْفَى، والخِصْفُ: ضم الورق بعضه إلى بعض أشبه بالخَزَزِ منه بالخياطة. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ من خَصَفَ، وقرأ عبدالله بن بريدة: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ بِشَدِّ الصَّادِ، وقرأ الزُّهْرِيُّ: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ من أَخْصَفَ، وقرأ الحسن فيما روي عنه محبوب: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ بفتح الباء والخاء وكسر الصاد وشدها، ورويت عن ابن بريدة وعن يعقوب، وأصلها ﴿يَخْصِفَانِ﴾، كما تقول: سمعت الحديث واستمعته. فأدغمت التاء في الصاد ونقلت حركتها إلى الخاء، وكذلك الأصل في القراءة بكسر الخاء بعد هذه، لكن لما سكنت التاء وأدغمت في الصاد اجتمع ساكنان فكسرت الخاء على عرف التقاء الساكنين، وقرأ الحسن، والأعرج، ومجاهد: ﴿يَخْصِفَانِ﴾ بفتح الباء وكسر الخاء وكسر الصاد وشدها، وقد تقدم تعليلها.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الورق الذي خصف منه ورق التين، (وروي أبي عن النبي ﷺ أن آدم عليه السلام كان يمشي في الجنة كأنه نخلة سموق، فلما واقع المعصية وبدت له حاله فرز على وجهه فأخذت شجرة بشعر رأسه يقال إنها الزيتون، فقال لها: أرسليني، فقالت: ما أنا بمرسلتك، فناداه ربه: أينني نفر يا آدم؟ قال: لا يا رب ولكنني استحييتك، قال: أما كان لك فيما منحتك من الجنة مندوحة عما

حرمت عليك؟ قال: بلى يا رب، ولكن وعزتك ما ظننت أن أحداً يحلف بك كاذباً، قال: فبِعزمتي لأهبطنك إلى الأرض ثم لا تنال العيش إلا كذاً.

وقوله تعالى: ﴿وَكَادَهُمَا﴾ الآية، قال الجمهور: إن هذا النداء نداء وحي بواسطة، ويؤيد ذلك أنا نتلقى من الشرع أن موسى عليه السلام هو الذي خصص بين العالم بالكلام، وأيضاً ففي حديث الشفاعة (أن بني آدم المؤمنين يقولون لموسى يوم القيامة: أنت خصصك الله بكلامه واصطفاك برسالته، اذهب فاشفع للناس)، وهذه ظاهره أنه مخصص، وقال فرقة: بل هو نداء تكليم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحجة هذا المذهب أنه وقع في أول ورقة من تاريخ ابن أبي خيثمة أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: «نبي مكلم»، وأيضاً فإن موسى خصص بين البشر الساكنين في الأرض، وأما آدم إذا كان في الجنة فكان في غير رتبة سكان الأرض، فليس في تكليمه ما يُفَسِّدُ تخصيص موسى عليه السلام، ويؤيد أنه نداء وحي اشتراك حواء فيه، ولم يُزَوِّقْ أن الله عز وجل كلم حواء، ويتأول قوله عليه الصلاة والسلام: «نبي مكلم» أنه بمعنى موصل إليه كلام الله تبارك وتعالى.

وقوله عز وجل: ﴿أَرَأَيْتُمْ كَيْفَ سَأَلْنَا رَبَّنَا أَنْ نَرْجِعَ إِلَى الْآرْتِيقِ﴾ وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ يؤيد بحسب ظاهر اللفظ أنه إنما أشار إلى شخص شجرة ﴿وَأَقَلُّ لَكُمَا إِنَّ السَّيْلَانَ لَكُمَا﴾

عَدُوِّنِي﴾ إشارة إلى الآية التي في سورة طه في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَخْرُجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو العهد الذي نسيه آدم على مذهب من يجعل النسيان على بابه، وقرأ أبي بن كعب: ﴿أَلَمْ تَنْهَيْتَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَقِيلَ لَكُمَا؟﴾ وقولهما: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا﴾ اعتراف من آدم وحواء عليهما السلام، وطلب للتوبة والستر والتخمس بالرحمة، فطلب آدم هذا وطلب إبليس النظر، ولم يطلب التوبة فوكِّلَ إلى رأيه، قال الضحاك: هذه الآية هي الكلمات التي تلقى آدم من ربه.

٢٤ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل: المخاطبة بقوله تعالى: ﴿أَمِطُوا﴾ قال أبو صالح، والسدي، والطبري، وغيرهم: هي لآدم وحواء وإبليس والحية. وقالت فرقة: هي مخاطبة لآدم وذريته وإبليس وذريته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لعدمهم في ذلك الوقت، فإن قيل: خاطبهم وأمهم بشرط الوجود فذلك يبعد في هذه النازلة لأن الأمر بشرط الوجود إنما يصح إذا ترتب على الأمر بعد وجوده وصح معناه عليه كالصلاة والصوم ونحو ذلك، وأما هنا فإن معنى الهبوط لا يتصور في بني آدم بعد وجودهم، ولا يتعلق بهم من الأمر به شيء، وأما قوله تعالى في آية أخرى: ﴿أَمِطُوا﴾ فهي مخاطبة لآدم وإبليس بدليل بيانه العداوة بينهم.

و ﴿عَدُوًّا﴾ فرد بمعنى الجمع، تقول: قومٌ عدوٌ وقومٌ صديقٌ، ومنه قول الشاعر:

لَعُمْرِي لَيْتَ كُنْتُمْ عَلَيَّ الثَّأْبِي وَالغَنِي
بِكُمْ مِثْلُ مَا بَنِي إِنْ كُنْتُمْ لَصْدِيقِي

وعداوة الحيات معروفة، وروى قتادة عن النبي ﷺ: «مَا سَأَلْتُمَاهُ مِنْ حَارِثَانِ»، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «من تركهن فليس منا»، وقالت عائشة رضي الله عنها: «من ترك حيّة خشية من تأرها فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يعرض في أمرهن حديث الفتى في غزوة الخندق، وقول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنْ جُنَّا بِالْمَدِينَةِ قَدْ أَسْلَمُوا، فَمَنْ رَأَى مِنْ هَذِهِ الْحَيَاتِ شَيْئاً فِي بَيْتِهِ فَلْيُخْرِجْ عَلَيْهِ ثَلَاثاً، فَإِنْ رَأَهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَلْيَقْتُلْهُ فَإِنَّمَا هُوَ كَافِرٌ».

وقوله تعالى: ﴿سُنَّتٌ﴾ لفظ عام ليزمن الحياة ويزمن الإقامة في القبور، ويزمن الحياة فسر أبو العالية وقال: هي كقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِي جَمَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ رِزْقًا﴾، وبالإقامة في القبور فسر ابن عباس رضي الله عنهما، واللفظ يُمْتَمًا، فهي كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجْمَلِ الْأَرْضَ كِنَانًا ﴿١﴾ أَحْيَاءً وَأَمْوَاتًا ﴿٢﴾﴾، وأما

المتاع فهو بحسب شخص شخص في زمن الحياة، اللهم إلا على أن تقدر سكنى القبر متاعاً بوجه ما، والمتاع: التمتع والثيل من الفوائد، و ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ هو بحسب الجملة: قيام الساعة، وبحسب مفرد مفرد: بلوغ الأجل والموت. والحين في

كلام العرب: الوقت غير مُعَيَّن.

وَرُوِيَ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَهْبَطَ بِالْهِنْدِ، وَحَوَاءَ بَجْدَةَ، وَتَمَانَهَا بِنِي، وَعَرَفَ حَقِيقَةَ أَمْرَهَا بِعَرَفَةَ، وَلَقِيَهَا بِجَمْعٍ، وَأَهْبَطَ إِبْلِيسَ بِمَيْسَانَ، وَقِيلَ: بِالْبَصْرَةِ، وَقِيلَ: بِمِصْرَ - فَبَاضَ فِيهَا وَفَرَّخَ. قَالَ ابْنُ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: وَسَطَ إِبْلِيسَ فِيهَا عَيْقَرِيهِ، وَذَكَرَ صَالِحُ مَوْلَى التَّوْمَةِ قَالَ: فِي بَعْضِ الْكُتُبِ: لَمَّا أَهْبَطَ إِبْلِيسَ قَالَ: رَبِّ أَيْنَ مَسْكَنِي؟ قَالَ: مَسْكَنُكَ الْحِمَامُ، وَمَجْلِسُكَ الْأَسْوَاقُ، وَلَهْوُكَ الْمَزَامِيرُ، وَطَعَامُكَ مَا لَمْ يَذَكَرْ عَلَيْهِ اسْمِي، وَشَرَابُكَ الْمَسْكِرُ، وَرَسْلُكَ الشُّهُورَاتُ، وَحِبَائِلُكَ النِّسَاءُ. وَأَهْبَطْتَ الْحَيَّةَ بِأَصْبَهَانَ، وَرُوِيَ أَنَّهَا كَانَتْ ذَاتَ قَوَائِمٍ كَالْبَعِيرِ فَعَوَّقِبَتْ بِأَنَّ رُذَّتْ تَسَابَ عَلَى بَطْنِهَا.

وَرُوِيَ أَنَّ آدَمَ لَمَّا أَهْبَطَ إِلَى شِقَاءِ الدُّنْيَا عَلِمَ صِنْعَةَ الْحَدِيدِ، ثُمَّ عَلِمَ الْحَرثَ فَحَرَثَ وَسَقَى وَحَصَدَ وَذَرَا وَطَحَنَ وَعَجَنَ وَخَبَزَ وَطَبَخَ وَأَكَلَ فَلَمْ يَبْلُغْ إِلَى ذَلِكَ حَتَّى بَلَغَ مِنَ الْجَهْدِ مَا شَاءَ اللَّهُ، وَرُوِيَ أَنَّ حَوَاءَ قِيلَ لَهَا: يَا حَوَاءُ، كَمَا دَمِيتِ الشَّجَرَةَ تَدْمِينِ فِي كُلِّ شَهْرٍ، وَأَنْتِ لَا تَحْمَلِينَ إِلَّا كَرْهًا وَلَا تَضَعِينَ إِلَّا كَرْهًا، قَالَ: فَرُتْتُ عِنْدَ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهَا: الرَّئِئَةُ عَلَيْكَ وَعَلَى وَلَدِكَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه القصة من الأنبياء كثير، اختصرتها إذ لا تقتضياها اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ﴾ الآية. حكم من الله عز وجل أمضاه وجعله حتماً في رقاب العباد، يحيون

في الأرض ويموتون فيها ويبعثون منها إلى الحشر أحياء، كما أنشأ أول خلق يُعِده.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿تَخْرُجُونَ﴾ بضم التاء وفتح الراء هنا وفي الروم، وكذلك حيث تكرر إلا في الروم ﴿إِنَّا أَنْتَرْنَا تَخْرُجُونَ﴾، وفي سأل سائل ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ﴾، فإن هذين بفتح التاء والياء وضم الراء ولم يختلف الناس فيها. وقرأ حمزة، والكسائي في الأعراف: ﴿وَمِنْهَا تَخْرُجُونَ﴾ بفتح التاء وضم الراء، وفتح ابن عامر التاء في الأعراف وضمها في الباقي.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ أَمْثَلُ﴾ الآية. هذا خطاب لجميع الأمم وقت النبي عليه الصلاة والسلام، والمراد قرش ومن كان من العرب يتعرب في طوافه بالبيت، ذكر النقاش ثقيفاً وخزاعة وبنو عامر بن صعصعة وبنو مُذَلِّجٍ وعمار والحارث ابني عبد مناف فإنها كانت عاداتهم رجالاً ونساءً، وذلك غاية العار والعصيان، قال مجاهد: ففهم نزلت هذه الأربع الآيات.

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ يحتمل أن يريد التدريج، أي: لما أنزلنا المطر فكان عنه جميع ما يُلبس قال عن اللباس: أنزلنا، وهذا نحو قول الشاعر يصف مطراً:

أَقْبَلَ فِي الْمُسْتَشْرَقِ مِنْ سَحَابِهِ

أَسْنِمَةَ الْأَبَالِ فِي رَسَابِهِ

أي: بالمال، ويحتمل أن يريد:

«خَلَقْنَا» فجاءت العبارة بـ ﴿أَنْزَلْنَا﴾

كقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ

بَأْسٌ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا لَكَ مِنَ الْأَنْعَامِ نَمِيَّةً آرَاحًا﴾، وأيضاً

فخلق الله عز وجل وأفعاله إنما هي من علو في القدر والمنزلة. و ﴿لِيَأْكُلَ﴾ عام في جميع ما يُلبس، و ﴿يُؤَيِّرِي﴾ يستر، وفي حرف أبي: ﴿سَوَاتِكُمْ وزيئة ولبس التقوى﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿ولباس التقوى خيرٌ، ذلكم﴾، ويروي عنه: «ذلك»، وسقطت «ذلك» الأولى. وقرأ سكن النحوي: ﴿ولبوس التقوى﴾ بالواو مرفوعة السين. وقرأ الجمهور من الناس: ﴿وريشاً﴾، وقرأ الحسن، ووزر بن حَبِيش، وعاصم فيما روى عنه أبو عمرو أيضاً، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن، ومجاهد، وأبو رجاء، وزيد بن علي، وعلي بن الحسين، وقتادة: ﴿وريشاً﴾، قال أبو الفتح: وهي قراءة النبي ﷺ، قال أبو حاتم: رواها عنه عثمان بن عفان رضي الله عنه، وهما عبارتان عن سعة الرزق ورفاهة العيش ووجود الملابس والتمتع، وفسره قوم بالأثاث، وفسره ابن عباس رضي الله عنهما بالمال، وكذلك قال السدي والضحاك، وقال ابن زيد: الريش: الجمال، وقيل: الرياش، جمع ريش، كبير وكبار وذيب وذياب وليضب وليصاب وشغب وشعاب، وقيل: الرياش: مصدر من أراشه الله يريشه إذا أنعم عليه، والريش مصدر أيضاً من ذلك، وفي الحديث: «رجل راشه الله مالا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن هذا كله من معنى ريش الطائر وريش السهم، إذ هو لباسه

وسُترته وعونه على النفوذ، وراش الله مأخوذ من ذلك، ألا ترى أنها تُقرن ببرى، ومن ذلك قول الشاعر:

فرشني بخير طالما قذ برشيتي
وخير الموالى من يرش ولا يبري

وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي: ﴿ولباس﴾ بالنصب عطفاً على ما تقدم، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحزمة: ﴿ولباس﴾ بالرفع - فقيل: هو خير ابتداء مضمّر تقديره: وهو لباس، وقيل: هو مبتدأ و ﴿ذلك﴾ مبتدأ آخر و ﴿خير﴾ خبر ﴿ذلك﴾ والجملة خبر الأول، وقيل: هو مبتدأ و ﴿خير﴾ خبره و ﴿ذلك﴾ بدل أو عطف بيان أو صفة، وهذا أنبل الأقوال، ذكره أبو علي في الحجة.

وقوله تعالى: ﴿ذلك من آياتي﴾ إشارة إلى جميع ما أنزل من اللباس والريش، وحكى النقاش أن الإشارة إلى ﴿ولباس التقوى﴾ أي هو في العبد آية أي علامة وأماره من الله أنه قد رضي عنه ورحمه، و ﴿لعلهم﴾ ترخ بحسبهم وبلغهم من المعرفة. وقال ابن جريج: ﴿ولباس التقوى﴾: الإيمان - وقال معبد الجهني: هو الحياة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو العمل الصالح، وقال أيضاً: هو السمّت الحسن في الوجه، وقاله عثمان بن عفان رضي الله عنه على المنبر، وقال عروة بن الزبير: هو خشية الله، وقال ابن زيد: هو ستر العورة والسمت الحسن في الدنيا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

﴿ولباس التقوى﴾: العفة، وقال زيد بن علي: ﴿لباس التقوى﴾ السلاح وآلة الجهاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله وهذه كلها مثل وهي من لباس التقوى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتتصور الصفة التي حكاها أبو علي في قوله ذلك لأن الأسماء توصف بمعنى الإشارة كما تقول: جاءني زيد هذا، كأنك قلت: جاءني زيد المشار إليه، فعلى هذا الحد توصف الأسماء بالمبهمات، وأما قوله فيه: عطف بيان أو بدل، فهما واحد في اللفظ، وإنما الفرق بينهما في المعنى والمقصد، وذلك أنك تريد في البدل كأنك أزلت الأول وأعملت العامل في الثاني على نية تكرار العامل، وتريد في عطف البيان كأنك أبقيت الأول ثم نثيته بعينه في ذكر الثاني، وإنما يبين الفرق بين البدل وعطف البيان في مسألة النداء إذا قلت: يا عبدالله زيد، فالبديل في هذه المسألة هو على هذا الحد برفع (زيد) لأنك تقدر إزالة (عبدالله) وإضافة (يا) إلى (زيد)، ولو عطف عطف البيان لقلت: يا عبدالله زيد، لأنك أردت بيانه ولم تقدر إزالة الأول، وينشد هذا البيت:

إنني وأسطار سطرز سطرأ
لقائل: يا نصر نصرأ نصرأ
ونصر الأول على عطف البيان والثاني على البدل.

(٧٧) - (٧٨) تفسير قوله عز وجل: هذه المخاطبة لجميع العالم، والمقصود بها في ذلك الوقت من

ومُدْخِلِينَ إِلَى الْكُفْرَةِ الَّذِينَ لَا إِيمَانَ لَهُمْ، وذكر الزهراوي أن «جَعَلَ» هنا بمعنى وصف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي نزعة اعتزالية.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا مَكَرُوا﴾ وما بعده داخل في صفة «الذين لا يؤمنون» ليقع التوبيخ بصفة قوم جعلوا مثلاً للمُؤْتَمِرِينَ إِذْ أَشْبَهَ فَعْلَهُمْ فَعَلَ الْمِثْلَ بِهِمْ. ويصح أن تكون هذه الآية مقطوعة من التي قبلها ابتداءً إخبار عن كفار العرب.

والفاحشة في هذه الآية - وإن كان اللفظ عاماً - هي كشف العورة عند الطواف، فقد روي عن الزهري أنه قال: في ذلك نزلت هذه الآيات، وقاله ابن عباس ومجاهد، وكان قول بعض الكفار، إن الله أمر بهذه السنن التي لنا وشرعها فردَّ الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْتُرُ بِالْفَحْشَاءِ﴾، ثم وبخهم على كذبهم، ووقفهم على قولهم ما لا علم لهم به ولا رواية لهم فيه، بل هو دعوى واختلاق.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل: تضمن قوله تعالى: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ أقيسوا، ولذلك عطف عليه قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا﴾ حملاً على المعنى. والقسط: العدل والحق، واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ - فقول: أراد إلى الكعبة، قاله مجاهد، والسدي، والمقصود - على هذا - شرع القبلة والأمر بالتزامها، وقيل: أراد الأمر بإحضار التَّيَّةِ لله في كل صلاة والقصد نحوه

قالوا: «لا أرىك ها هنا»، فظاهر اللفظ نهي المتكلم نفسه، ومعناه نهي الآخر عن الإقامة بحيث يراه. وأضاف الإخراج في هذه الآية إلى إبليس وذلك تجوز بسبب أنه كان ساعياً في ذلك ومسبباً له، ويقال: أب، وللأم: أبة. وعلى هذا قيل: أبوان. و﴿يَزِجُ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿أَخْرَجُ﴾.

وتقدم الخلاف في اللباس من قول من قال: الأظفار، ومن قال: النور، ومن قال: ثياب الجنة، وقال مجاهد: هي استعارة، وإنما أراد لبسة التقى المنزلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ﴾ الآية. زيادة في التحذير وإعلام أن الله عز وجل قد مكَّن الشيطان من ابن آدم في هذا القدر، وبحسب ذلك يجب أن يكون التحذر بطاعة الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والشيطان موجود قد قرره الشريعة، وهو جسم، ﴿وَقِيلَهُ﴾ يريد: نوعه وصفه وذريته. و﴿حَيْثُ﴾ مبنية على الضم، ومن العرب من يبنونها على الفتح، وذلك لأنها تدل على موضع عينه، قال الزجاج: ما بعدها صلة لها وليست بمضافة إليه، قال أبو علي: هذا غير مستقيم، وليست (حيث) بموصولة إذ ليس ثم عائد كما في الموصولات، وهي مضافة إلى ما بعدها.

ثم أخبر عز وجل أنه صير الشياطين أولياء، أي صحابة

كان يطوف من العرب بالبيت عرياناً، فقيل: كان ذلك من عادة قريش، وقال قتادة والضحاك: كان ذلك من عادة قبيلة من اليمن، وقيل: كانت العرب تطوف عراة إلا الحُمْس وهم قريش ومن والاها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصحيح، لأن قريشاً لما سنوا بعد عام الفيل سنناً عظموا بها حرمتهم كانت هذه في ذلك، فكان العربي إما أن يعيره أحد من الحُمْسِ ثوباً فيطوف به، وإما أن يطوف في ثيابه ثم يلقبها، وتمادى الأمر حتى صار عند العرب قُرْبَةً، فكانت العرب تقول: نطوف عراة كما خرجنا من بطون أمهاتنا، ولا نطوف في ثياب قد تدنسنا فيها بالذنوب، ومن طاف في ثيابه فكانت سُنتهم كما ذكرنا أن يرمي تلك الثياب ولا ينتفع بها، وتسمى تلك الثياب اللقى، ومنه قول الشاعر:

كَفَى حَزْناً كَرِيَّ عَلَيْهِ كَأَنَّهُ
لَقِيَ بَيْنَ أَيْدِي الطَّائِفِينَ حَرِيماً
وكانت المرأة تطوف عريانة حتى كانت إحداهن تقول:

الْيَوْمَ يَبْدُو بَعْضُهُ أَوْكُلُهُ
فَمَا بَدَا مِثْلُهُ فَلَا أَجِلُهُ
فنهى الله عز وجل عن جميع ذلك، ونودي بمكة في سنة تسع: لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

والفتنة في هذه الآية: الاستهواء والغلبة على النفس، وظاهر قوله تعالى: ﴿لَا يَغْنَصُكُمْ﴾ نهى الشيطان، والمعنى تَهْتُمُ أَنْفُسَهُمْ عَنِ الاستماع له والطاعة لأمره كما

﴿يَبْقَىٰ آدَمُ عُدُوًّا زَيْنَةً عِنْدَ مَسْجِدِهِمْ وَأَنْشَرُوا وَلَا تَسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نَفَعُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَاللَّغْوَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٤﴾ يَبْقَىٰ آدَمُ مَا بَاتَتْكُمْ رَسُولٌ مِّنْكُمْ يُمْضُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنْ أُنْفِقَ وَأَصْلَمَ فَلَا تُخَفُّ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٦﴾ مَنْ أَظْهَرَ مَنَافِقَتِي عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِي أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٣٧﴾ مَنْ كَذَّبَ بِآيَاتِنَا يَوْمَ يُنْفِقُ الْوَيْلُ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٨﴾ قَالُوا صَلُّوا عَلَيْنَا وَشَهِدُوا عَلَيْنَا أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴿٣٩﴾

والإيمان الذين كتب لهم في الدنيا هم أهلها في الآخرة، لا يتبدل من الأمور التي أحكمها ودبرها وأنفذها شيء، فالوقف - في هذا التأويل - على قوله: ﴿تَمُودُونَ﴾ غير حسن، و ﴿فَرِيقًا﴾ - على هذا التأويل - نصب على الحال، والثاني عطف على الأول. وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿تَمُودُونَ فَرِيقَيْنِ فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةَ﴾.

والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائد على الفريق الذين حق عليهم الضلالة. و

﴿أُولَٰئِكَ﴾ معناه: أنصاراً وأصحاباً وإخواناً، ﴿وَيَعْسُوبُونَ﴾ معناه: يظنون، يقال: حَسِبْتُ أَحْسَبَ جُنُبَانًا وَمَخِيبَةً.

قال الطبري: وهذه الآية دليل على خطي قول من زعم أن الله تعالى لا يُعَذِّبُ أحداً على معصية ارتكبها أو ضلالة اعتقدها إلا أن يأتيها على علم منه بموضع الصواب.

وقرأ العباس بن الفضل، وسهل بن شعيب، وعيسى بن عمر: ﴿أَنْتُمْ اتَّخَلَّوْا﴾ بفتح الألف.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا خطاب عام لجميع العالم، وأمروا بهذه الأشياء بسبب عصيان حاضري ذلك الوقت من مشركي العرب فيها.

والزينة ها هنا الثياب الساترة، قاله

كما تقول: وجهت وجهي لله، قاله الربيع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فلا يؤخذ الوجه على أنه الجارحة، بل هو المقصد والمترع.

وقيل: المراد بهذا اللفظ إباحة الصلاة في كل موضع من الأرض، أي: حيثما كنتم فهو مسجد لكم تلزمكم عند الصلاة إقامة وجوهكم فيه لله عز وجل. قال قوم: سببها أن قوماً كانوا لا يصلون إلا في مساجدهم في قبلتهم، فإذا حضرت الصلاة في غير ذلك من المساجد لم يصلوا فيها. وقوله تعالى:

﴿مُخْلِصِينَ﴾ حال من الضمير في ﴿وَأَدْعُوهُ﴾، و ﴿الَّذِينَ﴾ مفعول به ﴿مُخْلِصِينَ﴾.

وقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وابن عباس، ومجاهد: المراد بقوله تبارك وتعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الإعلام بالبعث، أي: كما أوجدكم واخترعكم كذلك يعيدكم بعد الموت، فالوقف على هذا التأويل - على ﴿تَمُودُونَ﴾. و ﴿فَرِيقًا﴾ نصب بـ ﴿هَدَى﴾، والثاني منصوب بفعل تقديره: وعذب فريقاً أو أضل فريقاً حق عليهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، وأبو العالية، ومحمد بن كعب، ومجاهد أيضاً، وسعيد بن جبير، والسدي، وجابر بن عبدالله، وروي معناه عن النبي ﷺ: المراد بقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ﴾ الإعلام بأن أهل الشقاء والكفر في الدنيا الذين كتب عليهم هم أهل الشقاء في الآخرة، وأهل السعادة

مجاهد والسدي، وقال طاوس: الشملة من الزينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويدخل فيها ما كان من الطيب للجمعة والسواك وبدل الثياب وكل ما وجد استحسانه في الشريعة ولم يتخذ به مستعمله الخيلاء.

و ﴿عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ عند كل موضع سجود، فهي إشارة إلى الصلوات وستر العورة فيها، هذا هو مهم الأمر، ويدخل مع الصلاة مواطن الخير كلها، ومع ستر العورة ما ذكرناه من الطيب للجمعة وغير ذلك، وذكر مكِّي حديثاً أن معنى ﴿عُدُّوا زِينَتَكُمْ﴾ صلوا في النعال، وما أحسبه يصح.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا﴾ نهي عما كانوا التزموه من تحريم اللحم والودك في أيام الموسم، قاله السدي

وابن زيد، وتدخل مع ذلك أيضاً البحيرة والسائبة ونحو ذلك، وقد نص على ذلك قتادة وقال: إن البحيرة وما جانسها هي المراد بقوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسْرِفُوا﴾ معناه: ولا تُفُتِرُوا، قال أهل التأويل: يريد: ولا تُسْرِفُوا بأن تحرموا على أنفسكم ما لم يحرم الله عز وجل، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس في الحلال سرف، إنما في ارتكاب المعاصي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: في الحلال القصد، واللفظ يقتضي النهي عن السرف مطلقاً، فمن تلبس بفعل حرام فتأول تلبسه به حصل من المسرفين وتوجه النهي عليه. ومن تلبس بفعل مباح فإن مشى فيه على القصد وأوساط الأمور فحسن، وإن أفرط حتى دخل الضرر حصل أيضاً من المسرفين وتوجه النهي عليه، مثل ذلك أن يُفُتِرُوا إنسان في شراء ثياب ونحوها ويستنفذ في ذلك جُلَّ ماله، أو يُعطي ماله أجمع ويكابد بعياله الفقر بعد ذلك ونحوه، فالله عز وجل لا يحب شيئاً من هذا، وقد نهت الشريعة عنه، ولذلك وقف النبي ﷺ بالموصي عند الثلث، وقال بعض العلماء: لو حط الناس إلى الربع لقول النبي عليه الصلاة والسلام: «والثلث كثير»، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة.

وأمر الله عز وجل نبيه عليه الصلاة

والسلام أن يسألهم عن حرم ما أحل الله على جهة التوبيخ والتقريب، وليس يقتضي هذا السؤال جواباً، وإنما المراد منه التوقيف على سوء الفعل. وذكر بعض الناس أن السؤال والجواب جاء في هذه الآية من جهة واحدة وتخيل قوله تبارك وتعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ جواباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نظر فاسد، فليس ذلك بجواب السؤال، ولا يقتضي هذا النوع من الأسئلة جواباً، و﴿رَبِّتَهُ اللَّهُ﴾ هي كل ما اقتضته الشهوة وطلب العلو في الأرض كالمال والبنين، وهي الزينة التي فضل الشرع عليها.

وقوله تعالى: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ قال الجمهور: يريد المحللات. وقال الشافعي وغيره: يريد: المستلذات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا أن ذلك يشترط فيه أن يكون من الحلال، وإنما قاد الشافعي إلى هذا تحريمه المستقذرات كالوزغ وغيرها فإنه يقول: هي من الخبائث محرمة. وقوله تعالى: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. قرأ نافع وحده: ﴿خَالِصَةً﴾ بالرفع، والباقون: ﴿خَالِصَةً﴾ بالنصب، والآية تتأول على معنيين.

أحدهما: أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات في الدنيا هي خالصة يوم القيامة للمؤمنين في الدنيا، وخلوصها أنهم لا يعاقبون عليها ولا يعذبون. فقوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ متعلق بـ ﴿آمَنُوا﴾، وإلى هذا يشير تفسير سعيد بن جبیر فإنه

قال: قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا ينتفعون بها في الدنيا ولا يتبعهم إثمها، وقوله: ﴿خَالِصَةً﴾ بالرفع خبر ﴿هِيَ﴾ و﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ للخلوص، ويصح أن يكون ﴿خَالِصَةً﴾ خبراً بعد خبر، و﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يريد به وقت الحساب، وقرأ قتادة والكسائي: ﴿قُلْ هِيَ لِمَنْ آمَنَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾.

والمعنى الثاني: هو أن يخبر أن هذه الطيبات الموجودات هي في الحياة الدنيا للذين آمنوا وإن كانت أيضاً لغيرهم معهم، وهي يوم القيامة خالصة لهم، أي لا يشركهم أحد في استعمالها في الآخرة. وهذا قول ابن عباس، والضحاك، والحسن، وقاتدة، والسدي، وابن جريج، وابن زيد. فقوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ - على هذا التأويل - متعلق بالمحذوف المقدر في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾، و﴿خَالِصَةً﴾ بالرفع خبر بعد خبر، أو خبر ابتداء مقدر تقديره: وهي خالصة يوم القيامة، و﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يراد به استمرار الكون في الجنة. وأما من نصب ﴿خَالِصَةً﴾ فعلى الحال من الذكر الذي في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ والتقدير: هي ثابتة أو مستقرة للذين آمنوا في حال خلوص لهم، والعامل فيها ما في اللام من معنى الفعل في قوله سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾. وقال أبو علي في «الحجة»: ويصح أن يتعلق قوله تعالى: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بقوله: ﴿حَرَمٌ﴾ ولا يصح أن يتعلق بـ ﴿رَبِّتَهُ اللَّهُ﴾ لأنها مصدر قد وصف، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالى:

﴿أَخْرَجَ لِيَادِهِ﴾، ويجوز ذلك وإن فصل بين الصلة والموصول بقوله: ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ لأن ذلك كلام يشد القصة وليس بأجنبي منها جراً كما جاز في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جِزَاءً سَعِيَّةٍ يَبْتَغِيهَا رَبُّهُمْ ذَلَّةً﴾، فقوله تعالى: ﴿وَرَبُّهُمْ ذَلَّةٌ﴾ معطوف على ﴿كَسَبُوا﴾ داخل في الصلة، والتعلق بـ ﴿أَخْرَجَ﴾ هو قول الأخفش، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿وَالطَّيِّبَاتِ﴾، ويصح أن يتعلق بقوله تبارك وتعالى: ﴿بَيْنَ الرَّزْقِ﴾، ويصح أن يتعلق بقوله: ﴿آمَنُوا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الأخير هو أصح الأقوال على التأويل الأول فيما رتبناه هنا، وأما على التأويل الآخر فيضعف معنى الآية هذه المتعلقة التي ذكر أبو علي، وإنما يظهر أن يتعلق بالمحذوف المقدر في قوله: ﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ تقدير الكلام، أي: كما فصلنا هذه الأشياء المتقدمة الذكر فكذلك وعلى تلك الصورة نفصل الآيات، أي نبين الأمارات والعلامات والهدايات لقوم لهم علم ينتفعون به، و ﴿تَقْصِلُ﴾ معناه: تُقسم وتبين لأن بيان الأمور المشبهات إنما هو في تقسيمها بالفصول.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما تقدم إنكار ما حرّمه الكفار بأرائهم اتبعه ذكر ما حرّم الله عز وجل وتقديره:

و ﴿الْفَوَاحِشُ﴾ ما فحش وشنع،

وأصله من القبح في المنظر، ومنه قول امرئ القيس:

وجيد كجيد الريم ليس بفاحش
إذا هي نصّته ولا يمتعطل
ثم استعمل فيما ساء من الخلق
وألفاظ الحرج والرث، ومنه الحديث: «ليس بفاحش» في صفة النبي ﷺ، ومنه قوله لسلمة بن سلامة بن وقش: «أفحشت على الرجل» في حديث السير، ومنه قوله الحزين في كثير عزة:

قَصِيرُ القَمِيصِ فَاحِشٌ عِنْدَ بَيْتِهِ

وكذلك استعمل فيما شنع وقبح في النفوس، والقبح والحسن في المعاني إنما يتلقى من جهة الشرع، والفاحش كذلك، فقوله تعالى هنا: ﴿الْفَوَاحِشُ﴾ إنما هي إشارة إلى ما نص الشرع على تحريمه في مواضع آخر، فكل ما حرّمه الشرع فهو فاحش وإن كان العقل لا ينكره كلباس الحرير والذهب للرجال ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ يجمع النوع كله، لأنه تقسيم لا يخرج عنه شيء، وهو لفظ عام في جميع الفواحش. وذهب مجاهد إلى تخصيص ذلك بأن قال: ما ظَهَرَ: الطواف عرياناً، والبواطن: الزنى، وقيل غير هذا مما يأتي على طريق المثال، و ﴿مَا﴾ بدل من ﴿الْفَوَاحِشُ﴾ وهو بدل بعض من كل، ومجموع القسمين يأتي بدل الشيء من الشيء وهو هو.

والإثم أيضاً لفظ عام لجميع الأفعال والأقوال التي يتعلق بمرتكبها إثم، هذا قول الجمهور، وقال بعض

الناس: هي الخمر، واحتج على ذلك بقول الشاعر:

شَرِبْتُ الإِثْمَ حَتَّى طَارَ عَقْلِي
.....

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مردود لأن هذه السورة مكية ولم تكن الشريعة بتحريم الخمر إلا بالمدينة بعد أحد لأن جماعة من الصحابة اصطحبوها يوم أحد وماتوا شهداء وهي في أجوانهم، وأيضاً فبيت الشعر يقال: إنه مصنوع مختلق، وإن صح فهو على حذف مضاف، وكان ظاهر القرآن - على هذا القول - أن تحريم الخمر من قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وهو في هذه الآية قد حرّم فأتيت من هذا أن الخمر إثمٌ مُحَرَّمٌ فالخمر محرمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن لا يصح هذا لأن قوله: ﴿فِيهِمَا إِثْمٌ﴾ محتمل أن يراد به أنه يلحق الخمر من فساد العقل والافتراء وقتل النفس وغير ذلك آثم فكانه قال: في الخمر هذه الآثام، أي: هي بسببها ومعها، وهذه الأشياء مُحَرَّمَةٌ لا محالة، وخرجت الخمر من التحريم على هذا ولم يترتب القياس الذي ذهب إليه قائل ما ذكرناه، وبعض هذا أننا وجدنا الصحابة يشربون الخمر بعد نزول قوله تعالى: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ﴾، وفي بعض الأحاديث: فتركها قوم للإثم الذي فيها وشرها قوم للمنافع، وإنما حرمت الخمر بظواهر القرآن ونصوص الأحاديث والإجماع.

والبغي: التعدي وتجاوز الحد،

كان الإنسان مبتدئاً بذلك أو متصراً، فإذا جاوز الحد في الانتصار فهو باغ، وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّبَيِّنَاتٍ﴾ زيادة بيان، وليس يتصور بغير بحق، لأن ما كان بِحَقٍّ فلا يُسَمَّى بغيّاً.

﴿وَأَنْ تَشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُزَلِّ بِهِ سُلْطَانٌ﴾ المراد بها الأصنام والأوثان وكل ما عبد من دون الله، والسلطان: البرهان والحجة. ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من أنه حرّم البحيرة والسائبة ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية، يتضمن الوعيد والتهديد، والمعنى: ولكل أمة، أي: فترقة وجماعة، (وهي لفظة تستعمل في الكثير من الناس) أجل مؤقت لمجيء العذاب إذا كفروا وخالفوا أمر ربهم، فأنتم أيها الأمة كذلك، قاله الطبري وغيره. وقرأ الحسن: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَالُهُمْ﴾ بالجمع، وهي قراءة ابن سيرين، قال أبو الفتح: هذا هو الأظهر لأن لكل إنسان أجلاً. فأما الأفراد فلأنه جنس. وإضافته إلى الجماعة حسنت الأفراد، ومثله قول الشاعر:

.....
في حَلْفِكُمْ عَظْمٌ وَقَدْ شَجِينَا
وقوله تعالى: ﴿سَاعَةً﴾ لفظ عَيْنٌ به الجزء القليل من الزمن، والمراد جميع أجزائه، أي: لا يستأخرون ساعة ولا أقل منها ولا أكثر، وهذا نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا لِّدَرَجٍ﴾ فإنما هي عبارة بتمام الجزء فيها مقام الكل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكأنه يظهر بين هذه الآية وبين قوله

تعالى: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ تعارض، لأن تلك تقتضي الوعد بتأخير إن آمنوا والوعيد بمعاجلة إن كفروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحق مذهب أهل السنة أن كل أحد إنما هو بأجل واحد لا يتأخر عنه ولا يتقدم، وقوم نوح كان منهم من سبق في علم الله تعالى أنه يكفر فيعاجل، وذلك هو أجله المحتوم، ومنهم من يؤمن فيتأخر إلى أجله المحتوم، وغيب عن نوح تعيين الطائفتين فندب الكل إلى طريق النجاة وهو يعلم أن الطائفة إنما تعاجل أو تؤخر بأجلها، فكأنه يقول: فإن آمتم علمنا أنكم ممن قضى الله له بالإيمان والأجل المؤخر، وإن كفرتم علمنا أنكم ممن قضى له بالأجل المعجل والكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا الحد هو دعاء محمد عليه الصلاة والسلام إلى طريق الجنة وقد علم أن منهم من يكفر فيدخل النار، وكذلك هو أمر الأسير يقال له: إما أن تؤمن فترك وإلا قتلت.

وقوله تعالى: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّبَيِّنَاتٍ﴾ الآية. الخطاب في هذه الآية لجميع العالم، و (إن) الشرطية دخلت عليها (ما) مؤكدة، ولذلك جاز دخول النون الثقيلة على الفعل، وإذا لم تكن (ما) لم يجز دخول النون الثقيلة. وقرأ أبي بن كعب، والأعرج: ﴿تَأْيِيْتِكُمْ﴾ على لفظ الرسل، وجاء ﴿يَقْضُونَ﴾ على المعنى، وكان هذا الخطاب لجميع الأمم قديمها وحديثها هو متمكن

لهم ومتحصل منه لحاضري محمد عليه الصلاة والسلام أن هذا حكم الله في العالم منذ أنشأه، و ﴿تَأْيِيْتِكُمْ﴾ مستقبل وضع موضع ماض ليفهم أن الإتيان باق وقت الخطاب لتقوي الإشارة بصحة النبوة إلى محمد ﷺ، وهذا على مراعاة وقت نزول الآية. وأسند الطبري إلى أبي سيار السلمي قال: إن الله تعالى جعل آدم وذريته في كفة فقال: ﴿بَيِّنَاتٍ لِّبَيِّنَاتٍ إِنَّمَا يَأْتِيْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ الآية، قال: ثم نظر إلى الرسل فقال: ﴿يَأْتِيْتَا الرُّسُلَ كُتُوبًا مِنَ اللَّطِيئَاتِ وَأَعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿﴾، ثم بنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا محالة أن هذه المخاطبة في الأزل، وقيل: المراد بالرسول محمد عليه الصلاة والسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من حيث لا نبي بعده، فكأن المخاطبين هم المراد ببني آدم لا غير، إذ غيرهم لم ينله الخطاب، ذكره النقاش، و ﴿يَقْضُونَ﴾ معناه: يسردون ويوردون، والآيات لفظ جامع لآيات الكتب المنزلة وللعلامات التي تقترون بالأنبياء، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَتَقَرَّ وَأَسْلَمَ﴾ يصح أن تكون (من) شرطية وجوابه ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾، وهذه الجملة هي في جواب الشرط الأول الذي هو: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيْتِكُمْ﴾، ويصح أن تكون (من) في قوله: ﴿فَمَنْ أَتَقَرَّ﴾ موصولة، وكأنه قصد بالكلام تقسيم الناس فجعل القسم الأول ﴿فَمَنْ

أَتَقَرَّنَ، والقسم الثاني: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾، وجاء هذا التقسيم بجملة جواباً للشرط في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأْتِيَنَّكُمْ﴾ فكأنه قال: إن أتتكم الرسل فالمتقون لا خوف عليهم، والمكذبون أصحاب النار، أي: هذا هو الشمرة وفائدة الرسالة. ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي: ليس ثم نفع للمفتري ولا غرض دنوي، فالآية تبرية للنبي ﷺ من الافتراء، وتوبيخ للمفتريين من الكفار، و (لا) في قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ بمعنى ليس. وقرأ ابن محيصن: ﴿فَلَا خَوْفٌ﴾ دون تنوين، ووجهه إما أن يحذف التنوين لكثرة الاستعمال، وإما حملاً على حذفه مع (لا)، وهي تبرية ناصبة، فشبّه حالة الرفع في البناء بحالة النصب. وقيل: إن المراد: فلا الخوف، ثم حذفت الألف واللام وبقيت الفاء على حالها لتدل على المحذوف، ونفي الخوف والحزن يعم جميع أنواع مكاره النفس وأنكارها، ويشبه أن يكون الخوف لما يستقبل من الأمور، والحزن لما مضى.

﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ هذه حالتان تعم جميع من يصد عن رسالة الرسول ﷺ، إما أن يكذب بحسب اعتقاده، وإما أن يستكبر فيكذب وإن كان غير مصمم في اعتقاده على التكذيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو الكفر عناداً.

﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعيد واستفهام على جهة

التقرير، أي: لا أحد أظلم منه، و ﴿أَفْتَرَىٰ﴾ معناه: اختلق، وهذه وإن كانت متصلة بما قبلها، أي: كيف يجعلون الرسل مفترين ولا أحد أظلم ممن افتري ولا حظ للرسل إلا أن يُرْحَمَ من اهتدى ويُعَذَّبَ من كفر - فهي أيضاً مشيرة بالمعنى إلى كل مفتر، إلى من تقدم ذكره من الذين قالوا: ﴿وَاللَّهُ أَمْرًا بِنَاهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة. وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ الْكُتُبِ﴾ قال الحسن، والسدي، وأبو صالح: معناه: من المقرر في اللوح المحفوظ، فالكتاب عبارة عن اللوح المحفوظ، وقد تقرر في الشرع أن حظهم فيه العذاب والسخط. وقال ابن عباس: وابن جبير، ومجاهد: قوله: ﴿بَيْنَ الْكُتُبِ﴾ يريد: من الشقاء والسعادة التي كتبت له وعليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد هذا القول الحديث المشهور الذي يتضمن أن الملك يأتي إذا خلق الجنين في الرحم فيكتب رزقه وأجله وشقي أو سعيد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: الكتاب يراد به الذي تكتبه الملائكة من أعمال الخليقة من خير وشر، فينال هؤلاء نصيبهم من ذلك وهو الكفر والمعاصي. وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والضحاك: ﴿بَيْنَ الْكُتُبِ﴾ يراد به: من القرآن، وحظهم فيه أن وجوههم تسود يوم القيامة، وقال الربيع بن أنس، ومحمد بن كعب، وابن زيد:

المعنى بالنصيب ما سبق لهم في أم الكتاب من رزق وعمر وخير وشر في الدنيا. ورجح الطبري هذا واحتج له بقوله تعالى بعد ذلك: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا﴾ أي: عند انقضاء ذلك، فكأن معنى الآية على هذا التأويل: أولئك يتمتعون ويتصرفون من الدنيا بقدر ما كتب لهم حتى إذا جاءتهم رسلنا لموتهم. وهذا في تأويل جماعة في مجيء الرسل للتوفي، وعلى هذا يترتب ترجيح الطبري الذي تقدم. وقالت فرقة: ﴿رُسُلُنَا﴾ يريد بهم ملائكة العذاب يوم القيامة، و ﴿يَتَوَفَّوْنَهُمْ﴾ معناه: يستوفونهم عدداً في السوق إلى جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويترتب هذا التأويل مع التأويلات المتقدمة في قوله تعالى: ﴿نُصِيبُهُمْ بَيْنَ الْكُتُبِ﴾ لأن النصيب على تلك التأويلات إنما ينالهم في الآخرة وقد قضى مجيء رسل الموت. وقوله تعالى حكاية عن الرسل: ﴿أَنْ مَّا كُنْتُمْ تَدْعُونَ﴾ استفهام تقرير وتوبيخ وتوقيف على خزي، وهو إشارة إلى الأصنام والأوثان وكل ما عُبد من دون الله، و ﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون وتؤمنون، وقولهم: ﴿سَلُّوا﴾ معناه: هلكوا وتلفوا وفُقدوا، ثم ابتدأ الخبر عن المشركين بقوله سبحانه: ﴿وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾، وهذه الآية وما شاكلها تعارض في الظاهر قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا شُرَكَاءَ﴾، اجتماعهما إما أن يكون في طوائف مختلفة، أو

ولا يسوغ أن يقطعها ارتجالاً فذلك إنما يجيء شأداً في ضرورة الشعر، وفي الاسم أيضاً، لكنه وقف مثل وقفة المستذكر ثم ابتداءً فقطع، وقرأ مجاهد بقطع الألف وسكون الدال بعد الدال بمعنى: أدرك بعضهم بعضاً، وقرأ حميد: ﴿أَفْرُكُوا﴾ بضم الهمزة وكسر الراء أي: أدخلوا في أدراكها، وقال مكي في قراءة مجاهد: إنها ﴿أَفْرُكُوا﴾ بشد الدال المفتوحة وفتح الراء، قال: وأصله (إذ تركوا) وزنها افتعلوا، وقرأ ابن مسعود والأعمش: ﴿تَدَارَكُوا﴾ ورويت عن أبي عمرو، وقرأ الجمهور: ﴿حَتَّىٰ إِذَا آدَارَكُوا﴾ بحذف ألف (إذا) لالتقاء الساكنين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتَهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ﴾ معناه: قالت الأمة الأخيرة التي وجدت ضلالات مقررة وسُنناً كاذبة مستعملة للأولى التي شرعت ذلك وافترت على الله وسلكت سبيل الضلالات ابتداءً: ربنا هؤلاء طرخوا طرق الضلال وسببوا ضلالنا فأتهم عذاباً مضاعفاً، أي ثانياً زائداً على عذابنا إذ هم كافرون ومُسَبِّبون لكفرنا، وتقول: ضاعفت كذا إذا جعلته مثل الأول. واللام في قوله تعالى: ﴿لِأَوْلَادِهِمْ﴾ كأنها لام سبب، إذ القول إنما هو للرب. ثم قال عز وجل مخبراً لهم: ﴿لِكُلِّ صِغْتٍ﴾ أي: العذاب مشدد على الأولى والآخر ﴿وَلَكِنْ لَا تَسْتَوُونَ﴾ أي: المقادير وصور التضعيف، وهذا ردُّ لكلام هؤلاء إذ ليس لهم كرامة فيظهر إسعافهم.

على هذا التعلُّق، أي قد تقدمت ومضى عليها الزمن وعرفها فيما تطاول من الآباد، وقد تستعمل وإن لم يطل الوقت إذ أصلها: فيمن مات من الناس، أي صاروا إلى خلاء من الأرض، وعلى التعليلين الأولين لقوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ فإنما ﴿حَلَّتْ﴾ حكاية عن حال الدنيا، أي: أدخلوا في النار في جملة الأمم السالفة لكم في الدنيا الكافرة. وقدم ذكر ﴿الْجِنِّ﴾ لأنهم أعرق في الكفر، وإبليس أصل الضلال والإغواء، وهذه

الآية نص في أن كفره الجن في النار، والذي يقتضيه النظر أن مؤمنيهم في الجنة لأنهم عقلاء مكلفون مبعوث إليهم آمنوا وصدقوا، وقد بؤب البخاري رحمه الله (باب في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم)، وذكر عبد الجليل أن مؤمني الجن يكونون تراباً كالبهائم، وذكر في ذلك حديثاً مجهولاً، وما أراه يصح، والله أعلم.

والأخوة في هذه الآية أخوة الملة والشريعة، قال السدي: يتلاعن آخرها وأولها.

و ﴿آدَارَكُوا﴾ معناه: تلاحقوا، ووزنه تفاعلوا، أصله: تداركوا أدغم فجلبت ألف الوصل، وقرأ أبو عمرو: ﴿إِدَارَكُوا﴾ بقطع ألف الوصل، قال أبو الفتح: هذا مشكل

قَالَ أَذْخَلُوا فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كَمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَمَنَّتْ أَخْبَهَا حَتَّىٰ إِذَا آدَارَكُوا فِيهَا جِيعًا قَالَتْ أَخْرَبْهُمْ لِأَوْلَادِهِمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلَابُ مَا فَتَنَّا بِهِمُ عَذَابًا صُغْتًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ صِغْتٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَتْ أَوْلَادُهُمْ لِأَخْرَبْتُمْ مَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْهِ تَابِينَ فَضَلَّ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَأَنْفِخَنَّ لَهُمُ أَرْوَابًا لَّيْسَ لَهُمْ فِيهَا حِسَابٌ حَتَّىٰ يَبِيعَ الْجَسَلَ فِي سِرِّ الْجِبَابِ وَكَذَلِكَ تَجْرَى الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ تَجْرَى الظُّلُمَاتِ ﴿٤١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَأَتَّكِلَنَّ فَنَسًا لَّا أَسْمَعُهَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٤٢﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ عَلِيِّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنَّ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رَبَّنَا بِرَبِّنَا الْحَقِّ وَوَدُّوا أَن يَتَّكِلَ الْجَنَّةَ أَوْ رُشْمُوها بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾

في أوقات مختلفة يقولون في حال كذا، وفي حال كذا.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه حكاية ما يقول الله لهم يوم القيامة بوساطة ملائكة العذاب، وعبر عن (يقول) بـ ﴿قَالَ﴾ لتحقيق وقوع ذلك وصدق القصة. وهذا كثير.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَمْرٍ﴾ متعلق بـ ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾، ويحتمل أن يتعلق بمحذوف تقديره: كائنين أو ثابتين في أمم فيكون في موضع الحال من الضمير في ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾، وقيل: ﴿فِي﴾ بمعنى (مع)، وقيل: هي على بابها وهو أصوب. وقوله: ﴿فَدَخَلَتْ﴾ صفة لـ ﴿أَمْرٍ﴾، وقوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ يصح تعلقه بـ ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾، ويصح أن يتعلق بـ ﴿أَمْرٍ﴾ أي: في أمم ثابتة أو مستقرة، ويصح تعلقه بالذكر الذي في ﴿حَلَّتْ﴾، ومعنى ﴿فَدَخَلَتْ﴾

وأما المعنى الذي دعوا فيه فظاهر حديث النبي ﷺ أنه حاصل، وأن كل مَنْ سَنَّ كَفْرًا أو معصية فعلية كفل من جهة كل من عمل بذلك بعده، ومنه حديث أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «ما من داع دعا إلى ضلالة إلا كان عليه وِزْرُهُ وَوِزْرُ مَنْ اتبعه لا ينقص ذلك من أوزارهم شيئاً». الحديث. ذكره الليث بن سعد في آخر الجزء الرابع من حديثه، وذكره مالك في الموطأ غير مستند موصل، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «ما تُقْتَلُ نَسَمَةٌ ظَلَمًا إِلَّا كان على بن آدم الأول كِفْلُ منها»، أما إن هؤلاء عينوا في دعائهم الضعف، وقد يكون الكفر أقل أو أكثر. وعن ابن مسعود أن الضعف ها هنا: الأفاعي والحيات.

وقرأ جميع السبعة غير عاصم في رواية أبي بكر رضي الله عنه: ﴿وَلَكِنْ لَا يَغْلَبُونَ﴾ بالتاء، ويحتمل ذلك أن يكون مخاطبة لهذه الأمة الأخيرة متصلة بقوله تبارك وتعالى لهم: ﴿يَكْفُرُ بِضَعْفٍ﴾، ويحتمل أن يكون مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام وأمنه، وقرأ عاصم وحده في رواية أبي بكر: ﴿وَلَكِنْ لَا يَغْلَبُونَ﴾، وروى حفص عن عاصم مثل قراءة الجماعة، وهذه مخاطبة لأمة محمد عليه الصلاة والسلام وإخبار عن الأمة الأخيرة التي طلبت أن يشدد العذاب على أوليائها، ويحتمل أن يكون خبراً عن الطائفتين حملاً على لفظة (كل) أي: لا يعلم أحد منهم قدر ما أعد لهم من عذاب الله.

وقوله عز وجل: ﴿وَقَالَتْ أُولَئِهِنَّ

لِأَخْرَجَتْهُ﴾ الآية، المعنى: وقالت الأمة الأولى المتبذعة للأمة الأخيرة المثيعة: أنتم لا فضل لكم علينا، ولم تزجروا حين جاءكم النذر والرسل، بل دمتم في كفركم، وتركتم النظر، واستوتت حالنا وحالككم، فذوقوا العذاب باجترامكم. هذا قول السدي وأبو مجلز وغيرهما، فقوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ - على هذا - من كلام الأمة المتقدمة للأمة المتأخرة، وقيل: قوله: ﴿فَذُوقُوا﴾ هو من كلام الله عز وجل لجميعهم. وقال مجاهد: ومعنى قوله تبارك وتعالى: ﴿بِئْسَ فَضْلٌ﴾ أي من التخفيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: معناه أنه لما قال الله عز وجل: ﴿يَكْفُرُ بِضَعْفٍ﴾ قال الأولون للآخرين: لم تبلغوا أملاً في أن يكون عذابكم أخف من عذابنا، ولا فضلتم بالإسعاف والنص عليه.

﴿١٠٠﴾ - ﴿١٠١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية عامة في جميع الكفرة قديهم وحديثهم. وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر: ﴿لَا تُفْتَحُ﴾ بضم التاء الأولى وتشديد الثانية، وقرأ أبو عمرو: ﴿تُفْتَحُ﴾ بضم التاء وسكون الفاء وتخفيف الثانية، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يُفْتَحُ﴾ بالياء من أسفل وتخفيف التاء، وقرأ أبو حيوة، وأبو إبراهيم: ﴿يُفْتَحُ﴾ بالياء وفتح الفاء وشد التاء. ومعنى الآية: لا يرتفع لهم عمل ولا روح ولا دعاة فهي عامة في نفي ما يوجب للمؤمنين بالله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وذكر الطبري في كيفية قبض روح المؤمن والكافر آثاراً اختصرتها إذ ليست بلازمة في الآية، وليلين أسانيداً أيضاً.

ثم نفى الله عز وجل عنهم دخول الجنة وعلق كونه بكون محال لا يكون، وهو أن يدخل الجمل في ثقب الإبرة حيث يدخل الخيط، والجمل كما عهد والسّم كما عهد. وقرأ جمهور المسلمين: ﴿الْجَمَلُ﴾ واحد الجمال، وقال الحسن: هو الجمل الذي يقوم باليزيد، ومرة لما أكثروا عليه قال: هو الأشتر وهو الجمل بالفارسية، ومرة قال: هو الجمل ولد الناقة، وقاله ابن مسعود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة تدل على حرج السائل لارتباب السائلين لا شك باللفظة من أجل القراءات المختلفة. وذكر الطبري عن مجاهد عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: ﴿حتى يبلغ الجمل الأصفر﴾، وقرأ أبو السمال:

﴿الجمل﴾ بسكون الميم، وقرأ ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، وابن جبير، والشعبي، ومالك بن الشخير، وأبو رجاء: ﴿الجمل﴾ بضم الجيم وتشديد الميم وهو جبل السفينة. وقرأ سالم الأقطس، وابن خبير، وابن عامر أيضاً: ﴿الجمل﴾ بتخفيف الميم من (الجمل) وقالوا: هو جبل السفن، وروى الكسائي أن الذي روى تشقيل الميم عن ابن عباس رضي الله عنهما كان أعجمياً فشد الميم لعجمته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لكثرة أصحاب ابن

عباس رضي الله عنهما على القراءة المذكورة، وقرأ سعيد بن جبير فيما روي عنه: ﴿الجُمَّل﴾ بضم الجيم وسكون الميم، وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿الجُمَّل﴾ بضم الجيم والميم.

والسُّمُّ: الثقب من الإبرة وغيرها، ويقال: سَمَّ وَسُمُّ بفتح السين وكسرهما وضمها. وقرأ الجمهور بفتح السين، وقرأ ابن سيرين بضمها، وقرأ أبو حنيفة بضمها ويكسرهما، وروي عنه الوجهان، والخِيَاطُ والمِخْيِطُ: الإبرة، وقرأ ابن مسعود: ﴿في سَمِّ المِخْيِطِ﴾ بكسر الميم وسكون الخاء وفتح الياء، وقرأ طلحة: ﴿في سَمِّ المِخْيِطِ﴾ بفتح الميم، وكذلك أبي على هذه الصفة، وبمثل هذا الحتم وغيره يجزى الكفرة وأهل الجرائم على الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِي جَهَنَّمَ مِهَادٌ﴾ المعنى أن جهنم فراش لهم ومسكن ومضجع يتمهدونه، وهي لهم غواش: جمع غاشية، وهي ما يغطي الإنسان أي يغطيه ويستتره من جهة فوق، قال الضحاك: المهاد: الفرش، والغواشي: اللحف. ودخل التنوين في (غواش) عند سيبويه لتقصانه عن بناء مفاعل، فلما زال البناء المانع من الصرف بأن حذفت الياء حذفاً لا للالتقاء، بل كما حذفت من قوله تعالى: ﴿وَأَنْبِئِ إِذَا يَسِرُّ﴾، ﴿ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ﴾ ومن قول الشاعر:

.....
..... ثُمَّ لَا يَنْفِرُ

زال الامتاع، وهذا كقولهم: ذُلُّذُلٌ بالتنوين وهم يريدون الذلّاذل لما زال البناء. قال الزجاج: والتنوين في (غواش) عند سيبويه عَوَضٌ من الياء المنقوصة، وردّ أبو علي أن يكون هذا هو مذهب سيبويه، ويجوز الوقف بياء وبغير ياء والاختيار بغير ياء.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ الآية. هذه آية وغد مُخْبِرَةٌ أن جميع المؤمنين هم أصحاب الجنة ولهم الخلد فيها، ثم اعترض أثناء القول بعقب الصفة التي شرطها في المؤمنين باعتراض يخفف الشرط ويرجّي في رحمة الله ويُعلم أن دينه يُسر. وهذه الآية نص في أن الشريعة لا يتقرر من تكاليفها شيء لا يطاق. وقد تقدم القول في جواز تكليف ما لا يطاق وفي وقوعه بمغتن عن الإعادة.

والوُسْعُ معناه: الطاقة، وهو القدر الذي يتسع له قدر البشر.

﴿﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار من الله عز وجل أنه يُنْقِي قلوب ساكني الجنة من الغلّ والحقّد، وذلك أن صاحب الغلّ متمدّب به ولا عذاب في الجنة، وورد في الحديث: «الغلّ على باب الجنة كمبارك الإبل قد نزهه الله تبارك وتعالى من قلوب المؤمنين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا الحديث إذا حُمِلَ على حقيقته أن الله عز وجل يخلق جوهرأ يجعله حيث يرى كمبارك الإبل لأن الغلّ عرض لا يقوم بنفسه، وإن قيل: إن هذه استعارة وعبر عن سقوطه عن

نفوسهم فهذه الألفاظ على جهة التمثيل، كما تقول: فلان إذا دخل على الأمير ترك نخوته بالباب ملقاة، فله وجه، والأول أصوب وأجرى مع الشرع في أشياء كثيرة مثل قوله عليه الصلاة والسلام: «يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش فيذبح» وغير ذلك، وروى الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «فينا والله أهل بدر نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَدِّمِينَ﴾»، وروي عنه أيضاً أنه قال: «فينا والله نزلت: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾»، وذكر قتادة أن علياً قال: «إني لأرجو أن أكون أنا وعثمان وطلحة والزبير رضي الله عنهم من الذين قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ﴾».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو المعنى الصحيح، فإن الآية عامة في أهل الجنة، والغلّ: الحقّد والإحنة الخفية في النفس، وجمعه: غلال، ومنه الغلول أخذ في خفاء، ومنه الانغلال في الشيء، ومنه المغلّ بالأمانة، ومنه قول علقمة بن عبدة:

سُلَاةٌ كَعَصَا السُّهْدِيِّ غُلٌّ لَهَا
ذَوْقِيَّةٌ، مِنْ نَوَى قُرْآنٍ مَعْجُومٍ
وقوله تعالى: ﴿مِنْ تَحِيْمِ الْأَنْهَارِ﴾
بيّن لأن ما كان لاطناً بالأرض فهو تحت ما كان منتصباً أخذاً في سماء، و﴿هَدَدَنَا﴾ بمعنى أرشدنا، والإشارة ب﴿هَذَا﴾ تتّجه أن تكون إلى الإيمان والأعمال الصالحة المؤدية إلى دخول الجنة، ويحتمل أن تكون إلى

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ لا على طريق وجوب ذلك على الله، لكن بقريضة رحمته وتغمده، والأعمال أمانة من الله وطريق وإلى قوة الرجاء، ودخول الجنة إنما هو بمجرد رحمة الله تعالى، والقسم فيها على قدر العمل، و (أورثتم) مشيرة إلى الأقسام. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ وكذلك في الزخرف، وقرأ أبو عمرو، والكسائي وحمزة: ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ بإدغام الشاء في التاء، وكذلك في الزخرف.

٤٤ - ٤٥ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار من الله عز وجل عما يكون منهم، وعبر عن معان مستقبلية بصيغة ماضية، وهذا حسن فيما تحقق وقوعه، وهذا النداء من أهل الجنة لأهل النار تقريع وتوبيخ وزيادة في الكرب، وهو بأن يشرفوا عليهم، ويخلق الإدراك في الأسماع والأبصار. وقرأ جمهور الناس: ﴿نِعْمَ﴾ بفتح العين، وقرأ الكسائي: ﴿نِعِمَّ﴾ بكسر العين، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ، وقرأها ابن وثاب، والأعمش، قال الأخفش: هما لغتان، ولم يخك سيبويه الكسر وقال: نعم: جذة وتصديق أي: مرة هذا ومرة هذا. وفي كتاب أبي حاتم

الجنة نفسها، أي: أوردنا إلى طرفها، ولكل واحد من الوجيين أمثلة في القرآن. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿مَا كُنَّا لِنُتَهِدِّيَ﴾ بسقوط الواو من قوله عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا﴾، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، قال أبو علي: وجه سقوط الواو أن الكلام متصل مرتبط بما قبله.

ولما رأوا ما جاءت به الأنبياء عن الله تبارك وتعالى، وعابوا إنجاز المواعيد قالوا: ﴿فَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾، فقصوا بأن ذلك حق قضاء من ينجس، وكانوا في الدنيا يقضون بأن ذلك حق قضاء من يستدل. ﴿وَيُؤَدُّونَا﴾ أي: قيل لهم بصياح، وهذا النداء من قِبَلِ الله عز وجل، و[أن] يحتمل أن تكون مفسرة لمعنى النداء بمعنى (أي)، ويحتمل أن تكون مخففة من الثقيلة وفيها ضمير مستتر تقديره: أنه تلکم الجنة، ونحو هذا قول الأعشى:

في فتية كسوف ألهند قد علموا
أن هالك كل من يخفى ويتعجل
تقديره: أنه هالك. ومنه قول الآخر:

أَكَاثِرُهُ وَأَعْلَمُ أَنْ كِلَانَا
على مأساء صاحب حريص
و ﴿يَتْلُكُمُ اللَّئِنَةُ﴾ ابتداء وصفة، و ﴿أُورِثْتُمُوهَا﴾ الخبر، و ﴿يَتْلُكُمُ﴾ إشارة فيها غيبة، فإنما لأنهم كانوا وعدوا بها في الدنيا فالإشارة إلى تلك، أي: تلکم هذه الجنة وحذفت (هذه)، وإما قبل الدخول، وإما بعد الدخول وهم مجتمعون في موضع منها، فكل غائب عن منزله.

عن الكسائي عن شيخ من ولد الزبير قال: ما كنت أسمع أشياخ قريش يقولون إلا (نعيم) بكسر العين، ثم فقدتها بعده. وفيه عن قتادة عن رجل من خشعم: قال: قلت للنبي ﷺ: أنت تزعم أنك نبي؟ قال: (نعيم). بكسر العين، وفيه عن أبي عثمان النهدي قال: سأل عمر رضي الله عنه عن شيء فقالوا: نعم، فقال عمر: النعم، الإبل والشاء، قالوا: نعم بكسر العين، قال أبو حاتم: وهذه اللغة لا تعرف اليوم بالحرمين.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُوبِ إِنَّكُمْ كُنتُمْ لَعِندَ اللَّهِ لَكَاذِبِينَ﴾ الآية. قال أبو علي الفارسي، والطبري، وغيرهما: ﴿أَذَنَ مَوْذِنًا﴾ بمعنى: أعلم معلّم، قال سيبويه: أذنت: إعلام بتصويت، وقرأ ابن كثير في رواية قنبل، ونافع، وأبو

لهم لما كانوا في تماثيل رجال، وهم ذكور ليسوا بإناث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد سُمي الله رجلاً في الجن.

وقال الجمهور: هم رجال من البشر، ثم اختلفوا - فقال مجاهد: هم قوم صالحون فقهاء علماء، وحكى الزهراوي أنهم عدول القيامة الذين يشهدون على الناس بأعمالهم وهم في كل أمة، وقاله الزجاج، وقال قوم: هم أنبياء، وقال المهدي: هم الشهداء، وقال شرحبيل بن سعد: هم المستشهدون في سبيل الله الذين خرجوا عصاة لآبائهم، وذكر الطبري في ذلك حديثاً عن النبي ﷺ وأنه تعادل عقوبتهم واستشهادهم، وقال ابن مسعود، والشعبي، وحذيفة بن اليمان، وابن عباس، وابن جبير، والضحاك: هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقع في مسند خيشمة بن سليمان في آخر الجزء الخامس عشر حديث عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «توضع الموازين يوم القيامة فتوزن الحسنات والسيئات، فمن رَجَحَتْ حسناته على سيئاته مثقال صؤابة دخل الجنة، ومن رَجَحَتْ سيئاته على حسناته مثقال صؤابة دخل النار»، قيل: يا رسول الله، فمن استوت حسناته وسيئاته؟ قال: «أولئك أصحاب الأعراف لم يدخلوها وهم يطمعون»، وقال حذيفة بن اليمان: هم قوم أبطأت بهم صغارهم إلى آخر الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

عائد على الجنة والنار، ويحتمل على الجمعين إذ يتضمنهما قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكَاذِبٌ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ النَّارِ﴾، والحجاب: هو السور الذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿فَصَرِّبْ بَيْنَهُمْ سُبُورًا لَّهُمْ بَابٌ﴾ قاله ابن عباس، وقال مجاهد: الأعراف: حجاب بين الجنة والنار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: هو تل بين الجنة والنار، وذكر الزهراوي حديثاً أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ أُخْذَ جَبَلٌ يُحْبِنَا وَنُحْبِهَ، وَإِنَّهُ يَقُومُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَمُثِلُ بَيْنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ يَحْتَسِبُ عَلَيْهِ أَقْوَامٌ يَعْرِفُونَ كَلَامًا بِسِمَاهُمْ، هُمْ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، ذكر حديثاً آخر عن صفوان بن سليم أن النبي ﷺ قال: «إِنْ أُخْذَ عَلَى رُكْنٍ مِنْ أَرْكَانِ الْجَنَّةِ». والأعراف: جمع عُرْف وهو المرتفع من الأرض، ومنه قول الشاعر:

كُلُّ كَنَازٍ لَحْمُهُ نِيَّافٌ
كَالْجَبَلِ الْمُؤَوَّفِيِّ عَلَى الْأَعْرَافِ
ومنه قول الشماخ:

وَطَلَّتْ بِأَعْرَافِ تَعَالَى كَأَنَّهَا
رِمَاحٌ نَحَاةَا وَجَهَةَ الرِّيحِ رَاكِزُ
ومنه عُرْفُ الفرس و عُرْفُ الديك لِعُلُوِّهِمَا، وقال السدي: سمي الأعراف أعرافاً لأن أصحابه يعرفون الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عجمة، وإنما المراد بأعراف ذلك الحجاب أعاليه.

وقوله تعالى: ﴿رِيَالٌ﴾. قال أبو مجلز لاحق بن حميد: هم الملائكة، ولفظة (رجال) مستعارة

عمرو، وعاصم: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾ بتخفيف (أَنْ) من الثقيلة ورفع (اللعنة)، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وابن كثير في رواية البري وشبل: ﴿أَنْ لَعْنَةً﴾ بتشكيل (أَنْ) ونصب (اللعنة)، وكلهم قرأ التي في النور: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾، و﴿وَأَنْ حَضَبَ اللَّهِ﴾ بتشديد النون، غير نافع فإنه قرأهما: ﴿أَنْ لَعْنَةً﴾ و﴿أَنْ حَضَبَ اللَّهِ﴾ مخففتين، وروى عصمة عن الأعمش: ﴿مُؤَذَّنٌ بَيْنَهُمْ إِنْ﴾ بكسر الألف على إضمار قال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لما كان الأذان قولاً. والظالمون في هذه الآية: الكافرون.

ثم ابتدأ صفتهم في الدنيا ليكون علامة أن أهل هذه الصفة هم المراد يوم القيامة بقوله: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾، و﴿يَصُدُّونَهُ﴾ معناه: يعرضون، والسبيل: الطريق والمنهج، ويذكر ويؤنث، وتأنيشها أكثر، ﴿رَبُّونَهُ﴾ معناه: يطلبونها أو يطلبون لها، فإن قدرت يطلبونها ف﴿عَوَجٌ﴾ نصب على الحال، ويصح أن يكون من الضمير العائد على (السبيل)، أي: معوجة، ويصح أن يكون من ضمير الجماعة في ﴿رَبُّونَهُ﴾ أي: مُغَوِّجِينَ، وإن قدرت ﴿رَبُّونَهُ﴾: يطلبون لها وهو ظاهر تأويل الطبري رحمه الله، ف﴿عَوَجٌ﴾ مفعول (يبغون)، والعيوج بكسر العين في الأمور والمعاني، والعيوج بفتح العين في الأجرام والمنتصبات.

﴿٤٦﴾ - ﴿٤٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿رَبُّونَهُ﴾

وَلَقَدْ جَنَّبَهُمْ بِكَتَابٍ فَفَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا نَارَ يَوْمِهِ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ فَهَلْ لَنَا مِن شِعْمَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلْ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْرَوْنَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ السَّاعَةَ لَئِن لَّمْ يَظْهَرِ لَكُمْ آيَاتُنَا بِالسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَأَن نُّخَالِقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي يَوْمٍ أَقَلِّتُمْ أَنفُسَكُمُ النَّارُ أَدْخَالِكُمْ فِيهَا وَخَصِيصَةٌ لَّهَا أَنتُمْ لَا تَخْلُصُونَ ﴿٥٩﴾ أَذْعَابُكُمْ مُّثْقَلَةٌ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بِيَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا نُّقَا لَا سَمْعَتْهُ لِيلُهُ رَبِّتْ فَأَنزِلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتِ لِعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٦١﴾

١٥٧

السيما التي عرفوا بها أنهم أهل النار تسويد الوجوه وتشويه الخلق. وقال أبو مجلز: الملائكة تنادي رجالاً في النار، وقال غيره: بل الآدميون ينادون أهل النار، وقيل: ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا أَفْعَى﴾ استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ، وقيل: ﴿مَا﴾ نافية، والأول أصوب. و ﴿جَمَعَكُمْ﴾ لفظ يعم جميع الأجناد والخول وجمع المال؛ لأن المراد بالرجال أنهم جبارون ملوك يُقررون يوم القيامة على معنى الإهانة والخزي، و ﴿مَا﴾ الثانية مصدرية. وقرأت فرقة: ﴿تَسْتَكْفِرُونَ﴾ بالشاء مثناة من الكثرة.

١٥٧ - ١٥٨ تفسير قوله عز وجل:

قال أبو مجلز: أهل الأعراف هم الملائكة وهم القائلون: ﴿هَاتُوا﴾ إشارة إلى أهل الجنة.

فكان الجملة حال من الضمير في ﴿وَنَادُوا﴾. وقرأ أبو رقيش النحوي: ﴿لم يدخلوها وهم طامعون﴾، وقرأ إياذ بن لقيط: ﴿وهم ساخطون﴾، وذكر بعض الناس قولاً وهو أن يقدر قوله تعالى: ﴿وهم يطمئنون﴾ في موضع الحال من ضمير الجماعة في ﴿يَدْخُلُوهَا﴾، ويكون المعنى: لم يدخلوها في حال طمع بها، بل كانوا في حال يأس وخوف، لكنهم عنهم عفو الله عز وجل. وقال ابن مسعود:

إنما طمع أصحاب الأعراف لأن النور الذي كان في أيديهم لم يُطفأ حين يُطفأ كل ما بأيدي المناقين.

والضمير في ﴿أَبْسَرَهُمْ﴾ عائد على أصحاب الأعراف، فهم يَسْلَمُونَ على أصحاب الجنة، وإذا نظروا في النار وأهلها دعوا الله في التخليص منها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة من العلماء. وقال أبو مجلز: الضمير لأهل الجنة وهم لم يدخلوها بعد. وقوله تعالى: ﴿سُرِفَتْ﴾ معطية ما هنالك من هول المطلق. وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَ﴾ يريد من أهل النار، ويحتمل أن يكون هذا النداء وأهل النار في النار، فتكون معرفتهم بعلامات مُعرَّفة بأنهم أولئك الذين عرفوا في الدنيا. ويحتمل أن يكون النداء وهم يُحملون إلى النار، فتكون

واللازم من الآية أن على أعراف ذلك السور - أو على مواضع مرتفعة عن الفريقين حيث شاء الله تعالى - رجالاً من أهل الجنة يتأخر دخولهم ويقع لهم ما وصف من الاعتبار في الفريقين.

﴿وَيَعْرَوْنَ كَلًّا بِسِينَتِهِمْ﴾ أي بعلامتهم، وهي بياض الوجوه وحسنها في أهل الجنة، وسوداها وقبحها في أهل النار إلى غير ذلك في حيز هؤلاء وحيز هؤلاء. والسِيما: العلامة، وهو من وَسَمَ، وفيه قلب، يقال: سيما مقصور، وسيما ممدود، وسيماء بكسر الميم وزيادة ياء، فوزنها عقلاً مع كونها من وسَم. وقيل: هي من سَوَمَ إذا علم فوزنها - على هذا - فعلا. ونداؤهم أصحاب الجنة يحتمل أن يكون وأصحاب الجنة لم يدخلوها بعد، فيكون أيضاً قوله: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَئِنُونَ﴾ محتملاً أن يعني به أهل الجنة، وهو تأويل أبي مجلز إذ جعل أصحاب الأعراف ملائكة، ومحتملاً أن يعني به أهل الأعراف. ويحتمل أن يكون نداؤهم أهل الجنة بالسلام وهم قد دخلوها فلا يحتمل حينئذ قوله تعالى: ﴿لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَئِنُونَ﴾ إلا أهل الأعراف فقط، وهو تأويل السدي، وقتادة، وابن مسعود، والحسن. وقال: والله ما جعل الله ذلك الطمع في قلوبهم إلا الخير أرادهم لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأظهر الأليق، ولا نظر لأحد مع قول النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَطْمَئِنُونَ﴾ هي جملة مقطوعة، أخبر أنهم لم يدخلوها وهم طامعون بدخولها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك يجيء قول من قال: أهل الأعراف أنبياء وشهداء.

وقال غيره: أهل الأعراف بشر مذنبون، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَهْوَلًا﴾ من كلام ملك بأمر الله عز وجل إشارة إلى أهل الأعراف ومخاطبة لأهل النار، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال النقاش: لما ويخهم بقولهم: ﴿مَا آغَىٰ عَنْكُمْ جَمْعَكُمْ﴾ أفسم أهل النار أن أهل الأعراف داخلون النار معهم، فنادتهم الملائكة: ﴿أَهْوَلًا﴾، ثم نادى أصحاب الأعراف: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾. وقال بعض المتأولين: الإشارة بـ (هؤلاء) إلى أهل الجنة، والمخاطبون هم أهل الأعراف، والذين خاطبوا هم أهل النار، والمعنى: هؤلاء الضعفاء في الدنيا الذين حلفت أن الله لا يعاب بهم قيل لهم: ادخلوا الجنة؟ وقد تقدم ما قال النقاش من أن القسَم هو في الآخرة على أهل الأعراف.

وقرأ الحسن، وابن هرمز: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ بفتح الألف وكسر الخاء بمعنى: أدخلوا أنفسكم، أو على أن تكون مخاطبة للملائكة، ثم ترجع المخاطبة بغد إلى البشر في ﴿عَلَيْكُمْ﴾. وقرأ عكرمة مولى ابن عباس: ﴿دَخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ على الإخبار بفعل ماض. وقرأ طلحة بن مصرف، وابن وثاب، والسَّخَعِي: ﴿أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ﴾ خبر مبني للمفعول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وترتيب كل قراءة من هذه على

الأقوال في المخاطب والمخاطب بقوله تعالى: ﴿أَهْوَلًا﴾ ممكن بأيسر تناول فاختصرته بإيجاز، وكذلك ما في الآية من الرجوع من مخاطبة فريق إلى مخاطبة غيره.

وقوله تعالى: ﴿لَا حَوْثَ عَلَيْكُمْ وَلَا أَتَتْكُمْ حَزَنُوكُمْ﴾ معناه: لا تخافون ما يأتي ولا تحزنون على ما فات. وذكر الطبري من طريق حذيفة أن أهل الأعراف يرغبون في الشفاعة فيأتون آدم فيدفعهم إلى نوح، ثم يتدافعهم الأنبياء عليهم السلام حتى يأتوا محمداً ﷺ ليشفع لهم فيشفع فيدخلون الجنة فيلقون في نهر الحياة فيبيضون ويسمون مساكين الجنة. قال سالم مولى أبي حذيفة: ليت أني من أهل الأعراف.

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ أَصْحَابَ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ﴾ الآية. لفظة النداء تتضمن أن أهل النار وقع لهم علم بأن أهل الجنة يسمعون نداءهم، وجائز أن يكون ذلك وهم يرونهم بإدراك يجعله الله لهم على بُعد السفلى من العلوى، وجائز أن يكون ذلك وبينهم السور والحجاب المتقدم الذكر، وزوي أن ذلك النداء هو عند اطلاع أهل الجنة عليهم، و ﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ أَيْضًا﴾ مفسرة بمعنى أي، وفاض الماء إذا سال وانما، وأفاضه غيره. وقوله تعالى: ﴿أَوْ يَمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى الطعام، قال السدي، فيقول لهم أهل الجنة: إن الله حرّم طعام الجنة وشرابها على الكافرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأشنع على الكافرين في هذه

المقالة أن يكون بعضهم يرى بعضاً فإنه أخزى وأنكى للنفس، وإجابة أهل الجنة بهذا الحكم هو عن أمر الله تبارك وتعالى. وذكر الزهراوي أنه روي عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الصدقة بالماء» يعني عند الحاجة إليه إذ هو ألد مشروب وأنعشها للنفس، واستسقى الشعبي عند مصعب فقال له: أي الأثرية تحب؟ فقال: أهونها موجوداً وأعرها مفقوداً. فقال مصعب: يا غلام، هات الماء.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَيْلًا﴾ الآية، أضيف الدين إليهم من حيث قبولهم أن يلتزموه، إذ هو دين الله من حيث أمر به، ودين جميع الناس من حيث أمروا به. ﴿وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ يحتمل أن يكون من كلام أهل الجنة، ويكون ابتداء كلام الله تعالى من قوله: ﴿فَالْيَوْمَ﴾، ويحتمل أن يكون الكلام من أوله من كلام الله عز وجل، ومعنى قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا﴾ أي بالإعراض والاستهزاء لم يدعوهم إلى الإسلام، ﴿وَعَرَّضْتَهُمُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي: خدعتهم بزخرفها واعتقادهم أنها الغاية القصوى، ويحتمل أن يكون اللفظ من العَرَّ وهم ملء الفم. أي: أشبعتهم وأبترتهم.

وأما قوله: ﴿فَالْيَوْمَ نَسْتَهْتُمْ﴾ فهو من إخبار الله عز وجل عما يفعل بهم، والنسيان في هذه الآية هو بمعنى الترك، أن تركهم في العذاب كما تركوا النظر للقاء هذا اليوم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة

من المفسرين. قال قتادة: نسوا من الخير ولم ينسوا من الشر، وإن قدر النسيان بمعنى الذهول من الكفرة فهو في جهة ذكر الله تسمية العقوبة باسم الذنب. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا﴾ عطف على [مَا] من قوله: ﴿كَانُوا سُرًّا﴾، ويحتمل أن تقدر [مَا] الثانية زائدة، ويكون قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا﴾ عطفاً على قوله: ﴿سُرًّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتَهُمْ بِكِتَابٍ﴾ الآية، ذكر الإغذار إليهم إثر ذكر ما يفعل بهم، واللام في قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ﴾ لام قسم، والضمير في ﴿جِئْتَهُمْ﴾ لم تقدم ذكره، وقال يحيى بن سلام: تم الكلام في ﴿يَجْحَدُونَ﴾، وهذا الضمير لمكذبي محمد ﷺ ابتداءً كلام آخر، والمراد بالكتاب القرآن العزيز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون اسم جنس في جميع الكتب المنزلة على تأويل من يرى الضمير في ﴿جِئْتَهُمْ﴾ لمن تقدم ذكره. وقرأ جمهورة الناس: ﴿فَصَلَّتْهُ﴾ من تفصيل الآيات وتبيينها، وقرأ ابن محيصن: ﴿فَضَلَّتْهُ﴾ بضاد منقوطة. و ﴿عَلَى﴾ معناه: عن بصيرة واستحقاق لذلك. وقوله تعالى: ﴿هُدًى وَرَحْمَةً﴾ مصدران في موضع الحال. ﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون، والتأويل - في هذا الموضع - بمعنى المال والعاقبة، قاله قتادة، ومجاهد، وغيرهما. وقال ابن عباس: ﴿تَأْوِيلُهُ﴾: ماله يوم القيامة. وقال

السدي: ذلك في الدنيا وقعة بدر وغيرها ويوم القيامة أيضاً، والمراد: هل ينتظر هؤلاء الكفار إلا مال الحال في هذا الدين وما دعوا إليه وما صدوهم عنه، وهم يعتقدون ماله جميلاً لهم، فأخبر الله أن ماله يوم يأتي يقع معه ندمهم، ويقولون تأسفاً على ما فاتهم من الإيمان: لقد صدقت الرسل وجاءوا بالحق - فالتأويل - على هذا - مأخوذ من آل يؤول. وقال الخطابي: أولت الشيء: رددته إلى أوله، فاللفظة مأخوذة من الأول، حكاه النقاش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد قيل: أولت معناه: طلبت أول الوجوه والمعاني.

و ﴿سُوهُ﴾ في الآية، يحسن أن يكون النسيان من أول الآية بمعنى الترك، ويُقَرَّبُ بالحق ويستفهمون عن وجوه الخلاص في وقت لا مستعجب لهم فيه. وقرأت فرقة: ﴿أَنْزُرُ﴾ برفع الفعل على تقدير: أو هل نرُدُّ، وينصب ﴿فَنَعْمَلُ﴾ في جواب هذا الاستفهام الأخير. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿أَوْ نُرُدُّ فَنَعْمَلُ﴾ بالرفع فيهما على عطف [نَعْمَلُ]، وقرأ ابن أبي إسحق، وأبو حيوة: ﴿أَوْ نُرُدُّ فَنَعْمَلُ﴾، ونصب (نرد) في هذه القراءة إما على العطف على قوله: ﴿فَيَسْفَعُ﴾، وإما بما حكاه الفراء من أن [أَوْ] تكون بمعنى (حتى) كنجو قول امرئ القيس:

.....
أَوْ نَمُوتُ فَنُغْفَرْنَا
ويجيء المعنى: إن الشفاعة تكون

في أن يُرَدُّوا. ثم أخبر تعالى عن خسارتهم أنفسهم واضمحلال افترائهم على الله وكذبهم في جعل الأصنام آلهة.

وقوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الآية. خطاب عام يقتضي التوحيد والحجة عليه بدلائله، والرُّبُّ أصله في اللغة: المصلح من ربِّ ربِّبٌ، وهو يجمع في جهة ذكر الله تبارك وتعالى المالك والسَّيِّد وغير ذلك من استعمالات العرب، ولا يقال: الرَّبُّ مُعْرِفًا إِلَّا الله، وإنما يقال في البشر بإضافة، وروى بكار بن الشقير: ﴿إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ﴾ بنصب الهاء، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ حكي الطبري عن مجاهد أن اليوم كآلف سنة، وهذا كله والساعة اليسيرة سواء في قدرة الله تعالى، وأما وجه الحكمة في ذلك فمما انفرد الله عز وجل بعلمه كسائر أحوال الشرائع، وما ذهب إليه مَنْ أراد أن يوجه هذا كالمهدوي وغيره تَحْرُصُ. وجاء في التفسير وفي الأحاديث أن الله ابتداء الخلق يوم الأحد، وكملت المخلوقات يوم الجمعة، ثم بقي دون خلق يوم السبت، ومن ذلك اختارته اليهود لراحتها، وعلى هذا توالت تفاسير الطبري وغيره، وللإهود لعنهم الله تبارك وتعالى في هذا كلام سوءٍ تعالى الله عما يصفون.

ووقع حديث في كتاب مسلم بن الحجاج، وفي كتاب «الدلائل» لثابت السرقسطي أن الله تعالى خلق

التربة يوم السبت، وذكره مكي في الهداية.

وقوله تعالى: ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ معناه عند أبي المعالي وغيره من حذاق المتكلمين: الملك والسلطان، وخصّ العرش بالذكر تشريفاً له إذ هو أعظم المخلوقات، وقال سفيان الثوري: فَعَلَّ فعلاً في العرش سماه استواء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعرش مخلوق معيّن، جسم ما، هذا الذي قرره الشريعة، وبلغني عن أبي الفضل بن النحوي أنه قال: العرش: مصدر عَرَّشَ يعرّش عرشاً، والمراد بقوله: ﴿أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ الْعَرْشِ﴾ هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خروجٌ كثيرٌ عما فهم من العرش في غير ما حديث عن النبي ﷺ. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يُعْشَىٰ﴾ من أعشى، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر، وحزمة، والكسائي: ﴿يُعْشَىٰ﴾ بالتشديد من عشى، وهما طريقتان في تعدية عشى إلى مفعول ثان، وقرأ حميد: ﴿يُعْشَىٰ﴾ بفتح الباء والشين ونصب ﴿أَيْلَ﴾ ورفع ﴿النَّهَارِ﴾، كذا قال أبو الفتح، وقال أبو عمرو الداني برفع ﴿اللَّيْلِ﴾ ونصب ﴿النَّهَارِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأبو الفتح أثبت.

و ﴿حَيْثُكَ﴾ معناه: سريعاً، و ﴿يَطْلُبُكَ حَيْثُكَ﴾ حال من ﴿أَيْلَ﴾ بحسب اللفظ على قراءة الجماعة، ومن ﴿النَّهَارِ﴾ بحسب المعنى، وأما على قراءة حميد فمن ﴿النَّهَارِ﴾ في

الوجهين، ويحتمل أن يكون حالاً منهما، ومثله قوله تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحِيَّةً﴾، فيصح أن يكون ﴿تَحِيَّةً﴾ حالاً منها، وأن يكون حالاً منه، وأن يكون حالاً منهما. و ﴿مُسَخَّرَاتٍ﴾ في موضع الحال، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بالرفع في جميعها، ونصب الباقي هذه الحروف كلها، وقرأ أيبان بن تغلب: ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ بالنصب، ﴿وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ﴾ بالرفع.

و ﴿آلَ﴾ استفتاح كلام فاستفتح بهذا في هذا الموضوع. هذا الخبر الصادق المرشد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأخذ المفسرون ﴿الْحَقُّ﴾ بمعنى المخلوقات، أي: هي له كلها وملكه واختراعه، وأخذوا ﴿الْأَمْرُ﴾ مصدرًا من أمر يأمر، وعلى هذا قال النقاش وغيره: إن الآية تردّ على القائلين بخلق القرآن لأنه فرق فيها بين المخلوقات وبين الأمر، إذ ﴿الْأَمْرُ﴾ كلامه عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن تؤخذ لفظة ﴿الْحَقُّ﴾ على المصدر من خلق يخلق خلقاً، أي: له هذه الصفة إذ هو الموجد للأشياء بعد العدم، ويؤخذ ﴿الْأَمْرُ﴾ على أنه واحد الأمور إلا أنه يدل على الجنس فيكون بمنزلة قوله تعالى: ﴿وَرِأَيْكَ رُجُوعَ الْأَمْرِ كُلِّهِ﴾، وبمنزلة قوله تعالى: ﴿وَرِأَىٰ اللَّهِ رُجُوعَ الْأُمُورِ﴾، فإذا أخذت اللفظتان هكذا خرجتا عن مسألة الكلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولما تقدم في الآية ﴿خَلَقَ﴾ و ﴿يَأْمُرُ﴾، تأكد في آخرها أن له الخلق والأمر المصدرين حسب تقدمهما، وكيفما تأولت الآية فالجميع لله، وأسند الطبري إلى النبي ﷺ أنه قال: «من زعم أن الله تبارك وتعالى جعل لأحد من العباد شيئاً من الأمر فقد كفر بما أنزل الله لقوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾». قال النقاش: ذكر الله الإنسان في القرآن في ثمانية عشر موضعاً ليس في واحد منها إشارة إلى أنه مخلوق. وقال الشعبي: ﴿الْحَقُّ﴾ عبارة عن الدنيا، و ﴿الْأَمْرُ﴾ عبارة عن الآخرة، و ﴿تَبَارَكَ﴾ لا يتصرف في كلام العرب، لا يقال منه (يتبارك)، وهذا منصوص عليه لأهل اللسان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلة ذلك أن (تبارك) لما لم يوصف بها غير الله تعالى لم تقتض مستقبلاً، إذ الله قد تبارك في الأزل، وقد غلط بها أبو علي القالي فقبل له: كيف المستقبل من (تبارك)؟ فقال: (يتبارك)، فوقف على أن العرب لم تقله. والربُّ: السُّيد المصلح، و ﴿الْمَكْلِبِ﴾ جمع عالم.

٥٥ - ٥٦ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر بالدعاء وتعبّد به، ثم قرن عز وجل بالأمر به صفات تحسن معه.

وقوله تعالى: ﴿نَضْرِبُ﴾ معناه: بخشوع واستكانة، والنضرب لفظة تقتضي الجهر لأن التضرب إنما يكون

الأرض بعد أن أصلحها الله ببعثة الرسل وتقرير الشرائع ووضوح ملة محمد ﷺ، وقائل هذه المقالة قصد إلى أكبر فساد بعد أعظم صلاح فخصه بالذكر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَدْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أمر بأن يكون الإنسان في حالة ترقب وتحزن وتأميل لله عز وجل حتى يكون الرجاء والخوف كالجناحين للطائر يحملانه في طريق استقامة، وإن انفرد أحدهما هلك الإنسان، وقد قال كثير من العلماء: ينبغي أن يغلب الخوف الرجاء طول الحياة فإذا جاء الموت غلب الرجاء، وقد رأى كثير من العلماء أن يكون الخوف أغلب على المرء بكثير، وهذا كله احتياط، ومنه تمنى الحسن البصري أن يكون الرجل الذي هو آخر من يدخل الجنة، وتمنى سالم مولى أبي حذيفة أن يكون من أصحاب الأعراف لأن مذهبه أنهم مذنبون.

ثم أنس قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾، فإنها آية وغد فيها تقييد بقوله: ﴿مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾. واختلف الناس في وجه حذف التاء من ﴿قَرِيبٌ﴾ في صفة الرحمة على أقوال منها أنه على جهة النسب، أي: ذات قرب، ومنها أنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جرت مجرى: كَفَّ خَضِيبٌ، ولخية دهن، ومنها أنها بمعنى مذكر فذكر الوصف لذلك. واختلف أهل هذا القول في تقدير المذكر الذي هي بدل منه - فقالت فرقة: الغفران والعفو، وقالت فرقة: المطر، وقيل

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُكَذِبِينَ﴾ يريد: في الدعاء وإن كان اللفظ عاماً، فالى هذا هي الإشارة، والاعتداء في الدعاء على وجوه، منها الجهر الكثير والصبح كما قال رسول الله ﷺ لقوم - وقد رفعوا أصواتهم بالتكبير -: «أبيها الناس، اربعوا على أنفسكم، إنكم لا تدعون أصم ولا غائباً، ومنها أن يدعو الإنسان في أن تكون له منزلة نبي، أو يدعو في محال ونحو هذا من الشطط، ومنها أن يدعو طالباً معصية، وغير ذلك، وفي هذه الأمثلة كفاية. وقرأ ابن أبي عمير: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْتَلِينَ﴾، والمعتدي هو مجاوز الحد ومرتكب الحظر، وقد يتفاضل بحسب ما اعتدى فيه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: : «سيكون أرقام يعتدون في الدعاء، وحسب المرء أن يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْجَنَّةَ وَمَا قُرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ النَّارِ وَمَا قُرْبَ إِلَيْهَا مِنْ قَوْلٍ وَعَمَلٍ».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُسَيِّرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ الآية. ألفاظ عامة تتضمن كل إفساد قل أو كثر بعد إصلاح قل أو كثر، والقصد بالنهي هو على العموم، وتخصيص شيء دون شيء في هذا تحكّم إلا أن يقال على وجه المثال. قال الضحاك: معناه: لا تُعَوِّزُوا الماء المعين، ولا تقطعوا الشجر المثمر ضرراً، وقد ورد قطع الدينار والدرهم من الفساد في الأرض، وقد قيل: تجارة الحكام من الفساد في الأرض، وقال بعض الناس: المراد: ولا تشركوا في

بإشارات جوارح وهيئات أعضاء تقترن بالطلب. ﴿وَحَفِيَّةٌ﴾ يريد في النفس خاصة، وقد أثنى الله عز وجل على ذلك في قوله: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاهُ حَفِيَّاتًا﴾ ونحو هذا قول النبي ﷺ: «خَيْرَ الذُّكْرِ الْحَفِيَّةُ»، والشريعة مقررة أن السر فيما لم يعترض من أعمال البر أعظم أجراً من الجهر، وتأول بعض العلماء التضرع والخفية في معنى السر جميعاً، فكأن التضرع فعل للقلب، ذكر هذا المعنى الحسن بن أبي الحسن وقال: «لقد أدركتنا أقواماً ما كان على الأرض عمل يقدر أن يكون سرا فيكون جهراً أبداً، ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء فلا يُسمع لهم صوت، إن هو إلا الهمس بينهم وبين ربهم، وذلك أن الله تبارك وتعالى يقول: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ نَضُّعًا وَخَفِيَّةً﴾، وذكر عبداً صالحاً رضي فعله فقال: ﴿إِذْ نَادَى رَبَّهُ يَدَّاهُ حَفِيَّاتًا﴾. وقال الزجاج: ﴿أَدْعُوا رَبَّكُمْ﴾ معناه: اعبدوا ربكم، ﴿نَضُّعًا وَخَفِيَّةً﴾ أي باستكانة واعتقاد ذلك في القلوب.

وقرأ جميع السبعة: ﴿وَحَفِيَّةٌ﴾ بضم الخاء، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر - هنا وفي الأنعام -: ﴿وَحَفِيَّةٌ﴾ بكسرهما، وهما لغتان، وقد قيل: إن حافية بكسر الخاء بمعنى الخوف والرهبه، ويظهر ذلك من كلام أبي علي. وقرأت فرقة: ﴿وَحِيفَةٌ﴾ من الخوف، أي: ادعوه باستكانة وخوف، ذكرها ابن سيده في المحكم ولم ينسبها، وقال أبو حاتم: قرأها الأعمش فيما زعموا.

والشين. وقرأ عاصم: ﴿الرِّيحَ﴾ جماعة ﴿بَشْرًا﴾ بالباء المضومة والشين الساكنة، وروي عنه: ﴿بَشْرًا﴾ بضم الباء والشين، وقرأ بها ابن عباس، والسلمي، وابن أبي عيلة. وقرأ محمد بن السميع، وأبو قُطَيْبٍ: ﴿بَشْرَى﴾ على وزن فُعْلَى بضم الباء، ورويت عن أبي يحيى، وابن نوفل. وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي: ﴿بَشْرًا﴾ بفتح الباء وسكون الشين. قال الزهراوي: ورويت هذه عن عاصم.

ومن جمع الريح في هذه الآية فهو أسعد، وذلك أن (الرياح) حيث وقعت في القرآن فهي مقترنة بالرحمة، كقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَأْتِيهِمْ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرِينَ﴾، وقوله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ﴾، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُنْفِثُ سَحَابًا﴾، وأكثر ذكر (الريح) مفردة إنما هو بقريظة عذاب كقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾، وقوله: ﴿وَأَمَّا عَادُ فَاتَّبَعُوا يَرْيَبَ صَرَّعَ عَلَيْهِمْ﴾، وقوله تبارك وتعالى: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ تُدِيرُ كُلَّ شَيْءٍ پَاثِرَ رَيْبًا﴾. نَحَا هذا المنحى يحيى بن يغمر، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم وفي الحديث أن رسول الله ﷺ كان إذا هبت الرِّيح يقول: «اللَّهُمَّ اجعلها رياحاً ولا تجعلها رياحاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى في هذا كله بين، وذلك أن ريح السُّقْيَا والمطر إنما هي منتشرة لئنة تجيء من ها هنا ومن ها هنا

والاثنين والجمع، وكذلك (بعيد)، فإذا جعلوها صفة بمعنى (مُفْرَبَةٌ) قالوا: قريبة وقربيتان وقربيات. وذكر الطبري أن قوله تعالى: ﴿قَرِيبٌ﴾ إنما يراد به مقاربة الأرواح للأجساد، أي: عند ذلك تنالهم الرحمة.

عز وجل: ﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ تفسير قوله

هذه آية اعتبار واستدلال، وقرأ نافع، وأبو عمرو: ﴿الرِّيحَ﴾ بالجمع ﴿نُشْرًا﴾ بضم النون والشين، قال أبو

حاتم: وهي قراءة الحسن، وأبي عبدالرحمن، وأبي رجاء. واختلف عنهم الأعرج، وأبو جعفر، وعيسى بن عمر، وأبو يحيى، وأبو نوفل الأعرابيين. وقرأ ابن كثير: ﴿الرِّيحَ﴾ واحدة ﴿نُشْرًا﴾ بضمها أيضاً. وقرأ ابن عامر: ﴿الرِّيحَ﴾ جمعاً ﴿نُشْرًا﴾ بضم النون وسكون الشين، قال أبو حاتم: ورويت عن الحسن، وأبي عبدالرحمن، وأبي رجاء، وقتادة، وأبي عمرو. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿الرِّيحَ﴾ واحدة ﴿نُشْرًا﴾ بفتح النون وسكون الشين، قال أبو حاتم: وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وزر بن حبيش، وابن وثاب، وإبراهيم، وطلحة، والأعمش، ومسروق بن الأجدع. وقرأ ابن جني قراءة مسروق: ﴿نُشْرًا﴾ بفتح النون

وَالْبَلَدِ الطَّيِّبِ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ وَالَّذِي خَبثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا تَكْدُماً كَذَلِكَ نَصُفِّرُهُمْ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ ﴿٥٧﴾ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا كُنتُمْ مِنَ اللَّهِ عِندَهُ إِذِي أَحَافَ عَلَيْكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٥٨﴾ قَالَ الْمَلَأَمِينَ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَنَّكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ قَالَ يَتَّقُوا لَيْسَ فِي ضَلَالَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٠﴾ أَلَيْسَ لَكُمْ رَسُولٌ رَبِّي وَأَنصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَوْ عَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى نَسِيءٍ يَسِرٍّ لَّا تَشْعُرُونَ وَلَتَفْقَهُوا وَعِلْمَ رَبِّكُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي سَفَاهَةٍ وَالَّذِينَ مَعَدُّوا فِي الْفَلَكِ وَأَعْرَفْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٢﴾ وَإِلَّا عَادِلِحَامُ هُوَذَا قَالَ يَتَّقُوا اللَّهَ مَا كُنتُمْ مِنَ اللَّهِ عِندَهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ الْمَلَأَمِينَ كَذَّبُوا لَيْسَ فِي سَفَاهَةٍ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾

غير ذلك، وقال الفراء: «الظفة القرب إذا استعملت في التَّسْبِ والقرباية فهي مع المؤنث بناءً ولا بد، وإذا استعملت في قرب المسافة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو الزمن - فقد تجيء مع المؤنث بناءً، وقد تجيء بغير تاء، وهذا منه، ومن هذا قول الشاعر:

عَشِيَّةٌ لَا عَفْرَاءَ مِثْلَكَ قَرِيبَةً
فَتَدْنُو وَلَا عَفْرَاءَ مِثْلَكَ بَعِيدُ
فجمع في هذا البيت بين الوجهين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا قول الفراء في كتابه، وقد مر في بعض كتب المفسرين مقيداً، وردَّ الزجاج على هذا القول. وقال أبو عبيدة: ﴿قَرِيبٌ﴾ في الآية ليس بصفة للرحمة، وإنما هو ظرف لها وموضع، فيجيء هكذا في المؤنث

﴿بُشْرًا﴾ بفتح الباء وسكون الشين مصدر، و﴿بُشْرًا﴾ مصدر أيضاً في موضع الحال. والرحمة في هذه الآية: المطر، و﴿بَيْنَ يَدَيْ﴾ أي أمام رحمته وقدامها، وهي هنا استعارة، وهي حقيقة فيما بين يدي الإنسان من الأجرام.

و﴿أَنْتَلَّتْ﴾ معناه: رفعت من الأرض واستقلَّت بها، ومنه القلَّة، وكان المُقِلُّ يرى ما يرفع قليلاً إذا قدر عليه، و﴿يَقَالَا﴾ معناه: من الماء، والعرب تصف السحاب بالثقل والذَّلج، ومنه قول قيس بن الخطيم:

بِأَحْسَنِ مِثْلَهَا وَلَا مُؤَنَّةَ
ذُلُوحِ نَكَشَفِ أَذْجَائِهَا
والرَّيحُ تسوقُ السحابَ من ورائها
فهو سوق حقيقة، والضمير في
﴿سُقْنَتُهُ﴾ عائد على السحاب،
واستند الفعل إلى ضمير اسم الله
تعالى من حيث هو إنعام. وصفة
البلد بالموت استعارة بسبب شعثه
وجذوبته وتصويح نباته. وقرأ أبو
عمرو، وعاصم والأعمش: ﴿لِيَلْبُدِ
مَيْتٌ﴾ بسكون الياء، وشدها
الباقون. والضمير في قوله تعالى:
﴿فَأَنْزَلْنَا بِهِ﴾ يحتمل أن يعود على
السحاب أي منه، ويحتمل أن يعود
على البلد، ويحتمل أن يعود على
الماء وهو أظهرها.

وقال السدي في تفسير هذه الآية:
إن الله تعالى يرسل الرياح فتأتي
بالسحاب من بين الخافقين طرف
السماء والأرض حيث يلتقيان
فتخرجه من ثم، ثم تنشره فتبسطة
في السماء، ثم تفتح أبواب السماء

أن يكون جمع (نُشُور) بفتح النون
وضم الشين، كرسول ورُسل،
وصبور وضبير، وشكور وشكر،
ويحتمل ﴿نُشْرًا﴾ أن يكون كالمفعول
بمعنى منشور، كركوب بمعنى
مركوب، ويحتمل أن يكون من أبنية
اسم الفاعل لأنها تنشر السحاب،
وأما مثال الأول في قولنا: ناشر
ونُشر فشاهد وشهد ونازل وتُزل،
كما قال الشاعر:

أَوْ تُنْزَلُونَ قَبْلًا مَعْشَرَ نُزُلٍ
وَقَاتِلٍ وَقَتْلٍ، ومنه قول الأعشى:

إِنَّا لَأَمْثَالِكُمْ يَا قَوْمَنَا قُتِلَ
وَأَمَّا من قرأ: ﴿نُشْرًا﴾ بضم النون
وسكون الشين فإنما خفف الشين من
قوله: نُشْرًا، ومن قرأ: ﴿نُشْرًا﴾
بفتح النون وسكون الشين فهو مصدر
في موضع الحال من الريح،
ويحتمل في المعنى أن يراد به النشر
الذي هو خلاف الطي، وكل بقاء
الريح بدون هبوب طي، ويحتمل أن
يكون من النُشْر الذي هو الإحياء كما
قال الأعشى:

يَا عَجَبًا لِلْمَيْتِ النَّاشِرِ
وَأَمَّا من قرأ: ﴿نُشْرًا﴾ بفتح النون
والشين - وهي قراءة شاذة - فهو اسم
وهو على النسب، قال أبو الفتح:
أي ذوات نُشْر، والنُشْر: أن تنتشر
الغنم بالليل فترعى، فشب السحاب
في انتشاره وعمومه بذلك.

وأما: ﴿بُشْرًا﴾ بضم الباء والشين
فجمع بشير، ككثير ونُدْر، و﴿بُشْرًا﴾
بسكون الشين مخفف منه، و

وتتفرق، فيحسن من حيث هي
منفصلة الأجزاء متغايرة المهب يسيراً
أن يقال لها: رياح، وتوصف
بالكثرة، وأما ربح الصرِّ والعذاب
فهي عاصفة صرَّصر جسد واحد،
شديدة المرِّ، مُهْلِكَةٌ بقوتها وبما
تحمله أحياناً من الصرِّ المحرق،
فِيخْسُنُ من حيث هي شديدة
الاتصال أن تُسمى ريحاً مفردة،
وكذلك أفردت الريح في قوله تبارك
وتعالى: ﴿وَجَزَيْنَ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ من
حيث جري السفن إنما تجري بريح
متصلة كأنها شيء واحد فأفردت
لذلك، ووصفت بالطيب لإزالة
الاشتراك بينها وبين الريح
المكروهة، وكذلك ریح سليمان
عليه السلام إنما كانت تجري بأمره
أو تعصف في قوله وهي متصلة.
وبعد، فمن قرأ هذه الآية: ﴿الرَّيحُ﴾
بالإفراد فإنما يريد به اسم الجنس،
وأيضاً فتقيدها بـ ﴿بُشْرًا﴾ يزيل
الاشتراك.

والإرسال في الريح هو بمعنى
الإجراء والإطلاق والإسالة، ومنه
الحديث: «فلرسول الله ﷺ أجود
بالخير من الريح المرسلة». والريح
تجمع في القليل: أرواح، وفي
الكثير: رياح، لأن العين من الريح
واو انقلبت في الواحد ياء للكسر
الذي قبلها، وكذلك في الجمع
الكثير، وصحت في القليل لأنه لا
شيء فيه يوجب الإللال.

وأما ﴿نُشْرًا﴾ بضم النون والشين
فيحتمل أن يكون جمع ناشر على
النسب، أي ذات نشر من الطي، أو
نشور من الحياة، ويحتمل ﴿نُشْرًا﴾

فيسيل الماء على السحاب، ثم تمطر السحاب بعد ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التفصيل لم يثبت عن النبي ﷺ.

وقوله تبارك وتعالى: ﴿كَذَلِكَ نَخْرُجُ الْمَوْتُومَ﴾ يحتمل مقصدين: أحدهما أن يراد: كهذه القدرة العظيمة في إنزال الماء وإخراج الثمرات به من الأرض المجدبة هي القدرة على إحياء الموتى من الأجداث، وهذا مثال لها، ويحتمل أن يراد أن هكذا يصنع بالأموات من نزول المطر عليهم حتى يَخْيُوا به، فيكون الكلام خبيراً لا مثلاً، وهذا التأويل إنما يستند إلى الحديث الذي ذكره الطبري عن أبي هريرة رضي الله عنه «أن الناس إذا ماتوا في النفخة الأولى مطر عليهم مَطَرٌ من ماء تحت العرش يقال له: ماء الحيوان - أربعين سنة، فينبثون كما ينبت الزرع، فإذا كملت أجسادهم نفخ فيهم الروح، ثم تلقى عليهم نومة فينامون، فإذا نفخ في الصور ثانية قاموا وهم يجدون طعم النوم، فيقولون: ﴿يَوَدُّلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْثِيَانًا؟﴾ فيناديهم المنادي: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ﴾ آية متممة للمعنى الأول في الآية قبلها، مُعَرِّفَةٌ لعبادة الله تبارك وتعالى في إنبات الأرضين، فمن أراد أن يجعلها مثلاً لقلب المؤمن وقلب الكافر فذلك كله مرتب، لكن ألفاظ الآية لا تقتضي أن المثال قصد به ذلك، والتمثيل بذلك حكاة

الطبري عن ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدي. وقال النحاس: هو مثال للفهيم وللبلبد. والطيب هو الجيد التراب الكريم الأرض، وخص بإذن ربّه مدحاً وتشريفاً، وهذا كما تقول لمن تغض عنه: «أنت كما شاء الله»، فهي عبارة تعطي مبالغة في مدح أو ذم، ومن هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَلَّ مَا سَلَكَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ على بعض التأويلات. والخبيث هو السباخ ونحوها من رديء الأرض. وقرأ ابن أبي عبله، وأبو حيوة، وعيسى بن عمر: ﴿يُخْرِجُ نَبَاتَهُ﴾ بضم الباء وكسر الراء ونصب التاء. والتكيد: العسير القليل، ومنه قول الشاعر:

لَا تُشْجِرُ الوَعْدُ إِنْ وَعَدْتَ وَإِنْ
أَعْطَيْتَ أَعْطَيْتَ تَأْفِهًا تُكِيدُ
ونكد الرجل إذا سأل إلحافاً
وأخجل، ومنه قول الشاعر:

وَأَعْطِ مَا أَعْطَيْتَهُ طَبِيبًا
لَا خَيْرَ فِي الْمُنْكَوِدِ وَالشَّكِيدِ
وقرأ جمهور الناس وجميع السبعة: ﴿تُكِيدُ﴾ بفتح النون وكسر الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿تُكْدُ﴾ بتخفيف الكاف وفتح النون، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿تُكْدُ﴾ بفتح النون والكاف، وقال الزجاج: وهي قراءة أهل المدينة.

﴿كَذَلِكَ نَصْرَفُ الْأُنِيَّةَ﴾ أي: هكذا نبين الأمور. و ﴿يَشْكُرُونَ﴾ معناه: يؤمنون بالآءِ الله ويثنون.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: اللام لام القسم، قال الطبري: أقسم الله تبارك وتعالى أنه أرسل نوحاً. وقالت فرقة من المفسرين:

سُمِّي نوحاً لأنه كان ينوح على نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

قال سيبويه: نوح ولوط وهود أسماء أعجمية إلا أنها حقيقة فلذلك صرفت. وهذه نذارة من نوح لقومه، دعاهم إلى عبادة الله وحده ورفض آلهتهم المسماة: ودأ وسواعاً ويغوث ويعوق وغيرها مما لم يشتهر. وقرأ الكسائي وحده:

﴿غِيْرَهُ﴾ بالكسر من الراء على النعت لـ ﴿إِلَهِ﴾، وهي قراءة يحيى بن وثاب، والأعمش، وأبي جعفر، وقرأ الباقون: ﴿غِيْرَهُ﴾ بالرفع، وقرأ حمزة والكسائي:

﴿هَلْ مِنْ خَالِقِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ خفضاً، وقرأ الباقون: ﴿غَيْرِ اللَّهِ﴾ رفعاً، والرفع في قراءة الجماعة هنا على البدل من قوله من ﴿إِلَهِ﴾، لأن موضع قوله: ﴿مِنَ إِلَهِ﴾ رفع، وهو الذي رجح الفارسي، ويجوز أن يكون نعتاً على الموضع لأن التقدير: ما لكم إله غيره، أو يقدر (غير) بـ (إلا) فيعرب بإعراب ما يقع بعد (إلا)، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿غِيْرَهُ﴾ بنصب الراء على الاستثناء، قال أبو حاتم: وذلك ضعيف من أجل النفي المتقدم. وقوله تعالى: ﴿عَذَابٌ﴾ يحتمل أن يريد به عذاب الدنيا، ويحتمل أن يريد به عذاب الآخرة.

﴿الْمَلَكِ﴾ الجماعة الشريفة، قال الطبري: لا امرأة فيهم، وحكاة النقاش عن ثعلب في: الملا، والرُّهْط، والثُّقْر، والقوم. وقيل:

هم مأخوذون من أنهم يملؤون النفس والعين، ويحتمل أن يكون من أنهم إذا تماثلوا على أمر تَمَّ، وقال سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري عند فقول رسول الله ﷺ من غزوة بدر: «إنما قتلنا عجائز صُلَعَاء»، فقال له النبي ﷺ: «أولئك الصلأ من قريش لو حضرت أعمالهم لاحترقت ففُلك». والصلأ، صفة غالبية وجمعه أملاء، وليس من باب (رُفط) وإن كانا اسمين للجمع، لأن (رُفط) لا واحد له من لفظه، و (ملأ) يوجد من لفظه (مالى). قال أحمد بن يحيى: المالىء: الرجل الجليل الذي يملأ العين بجهزته، فيجيء كعازب وخادم ورائح فإن أسماء جمعها: عَزَبٌ وَخَدْمٌ وَرَوْحٌ، وإن كانت اللفظة من «تَمَالاً القوم على كذا» فهي مفارقة باب (رُفط)، ومنه قول علي رضي الله عنه: «ما قتلت عثمان ولا مالأث في دمه»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: (الملؤ) بواو، وكذلك هي في مصاحف الشام. وقولهم: «لَوَيْلِكَ» يحتمل أن يُجعل من رؤية البصر، ويحتمل من رؤية القلب وهو الأظهر، و «وَيْلٌ صَلَكٌ» أي في إتلاف وجهاله بما تسلك. وقوله لهم جواباً عن هذا: «لَيْسَ بِي صَلَكٌ» مبالغة في حُسن الأدب والإعراض عن الجفاء منهم، وتناوُل رفيق وسعة صدر حسبما يقتضيه خلق الثبوة، وقوله: «وَلَكِنِّي رَسُولٌ» تعرض لمن يريد النظر والبحث والتأمل في المعجزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتُقَدَّر - ولا بد - أن نوحاً عليه

السلام وكل نبي مبعوث إلى الخلق كانت له معجزة تخرق العادة، فمنهم من عرفنا بمعجزته ومنهم من لم يُعرف.

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو: ﴿أَيُّكُمْ﴾ بشد اللام وفتح الباء، وقرأ أبو عمرو بسكون الباء وتخفيف اللام، وقوله ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وإن كان لفظاً عاماً في كل ما عَلِمَهُ فالمقصود منه هنا المعلومات المخوفات عليهم، لا سيما وهم لم يسمِعوا قَطُّ بأمة عذبت، فاللفظ مضمن الوعيد.

١٣٦ - ١٣٧ تفسير قوله عز وجل:

هذه ألف استفهام دخلت على الواو العاطفة، والاستفهام هنا بمعنى التقرير والتوبيخ، وعجهبم الذي وقع إنما كان على جهة الاستبعاد والاستمحال، هذا هو الظاهر من قصتهم، وقوله تعالى: ﴿عَلَى﴾ قيل: هي بمعنى (مع)، وقيل: هو على حذف مضاف تقديره: على لسان رجل منكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون المعجزة بنفسه في هذا الموضع يصل بـ (على) إذ كل ما يأتي من الله تبارك وتعالى فله حكم النزول، فكأن «جَاءَكُمْ» معناه: نزل، فحُسن معه أن يقال: ﴿عَلَى نَجْوَى﴾، واللام في ﴿يُنذِرَكُمْ﴾ لام كي، وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ تَرُوجُونَ﴾ بحسب حال نوح ومعتقده، لأن هذا الخبر إنما هو من تلقاء نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿تَكَذَّبْتُمْ﴾ الآية.

أخبر الله عنهم أنهم بعد تَلَطُّفه بهم كذبوه فأنجاه الله والمؤمنين به في السفينة، وهي الفُلُك، والفُلُك للجمع والمفرد، وليس على حد جُئِب ونحوه، لكن فُلُك للواحد كُسر على فُلُك للجمع، فضمة الفاء في الواحد ليست هي في الجمع، وفُعل بناء تكسير مثل: أَسَد وأسد، ويدل على ذلك قولهم في الثنية: فُلُكَّان.

وفي التفسير: إن الذين كانوا مع نوح في السفينة أربعون رجلاً، وقيل: ثمانون، وقيل: عشرة، فهم أولاده: يافث وسام وحام، وفي كثير من كتب الحديث للترمذي وغيره: «إن جميع الخلق الآن من ذرية نوح عليه السلام»، وقال الزهري في كتاب النقاش: وفي القرآن: ﴿ذُرِّيَّةً مِّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيحتمل أن يكون سائر العشرة أو الأربعين - حسب الخلاف - حَفدة لنوح ومن ذريته فتجتمع الآية والحديث، ويحتمل أن من كان في السفينة غير بنيه لم ينسل - وقد روي ذلك - وإلا لكان بين الحديث والآية تعارض.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يقتضي أن نوحاً عليه السلام كانت له آيات ومعجزات، وقوله: ﴿عَمِيرٍ﴾ وزنه فعين وهو جمع عَم وزنه قَع، ويريد عمى البصائر، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نوحاً عليه السلام بعث ابن أربعين سنة، قال

﴿وَأَذْكُرُوا﴾ الآية، تعديد للنعم عليهم. و ﴿خَلْقًا﴾ جمع خليف، كظريف وظرفاء، وخليفة جمعه خلانف، والعرب تقول: خليفة وخليف، وأنشد أبو علي:

فَبِإِنْ يَزُلُّ زَائِلٌ يُوجَدُ خَلِيفَتُهُ
وَمَا خَلِيفَ أَبِي وَفِي بَمَوْجُودِ

قال السدي وابن إسحق: والمعنى: جعلكم سكان الأرض بعد قوم نوح. وقوله تعالى: ﴿نُوحٌ رَزَاذِكُمْ فِي الْخَلْقِ﴾ أي في الخلق، والبضطة: الكمال في الطول والعرض، وقيل: زادكم على أهل عصركم، قال الطبري: المعنى: زادكم على قوم نوح، وقاله قتادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللفظ يقتضي أن الزيادة هي على جميع العالم، وهو الذي يقتضي ما يذكر عنهم، وروي أن طول الرجل منهم كان مائة ذراع، وطول أقصرهم ستين، ونحو هذا.

والآلاء: جمع إلى على مثال معي، وأنشد الزجاج:

أَبْيَضُ لَا يَزْهَبُ الْهَزَالُ وَلَا
يَقْطَعُ رَحْمًا وَلَا يَخُونُ إِلَى
وقيل: واحد الآلاء ألى على مثال: قفى، وقيل: واحدها: ألى على مثال: حسا وهي النعمة والمنة. و ﴿تَقْلِيحُونَ﴾ معناه: تدركون البغية والآمال.

قال الطبري: وعاد هؤلاء فيما حدث ابن إسحق من ولد عاد بن إرم بن عوص بن سام بن نوح، وكانت مساكنهم الشجر من أرض اليمن وما إلى حضرموت إلى عمان. وقال السدي: وكانوا بالأحقاف وهي

نصب بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ فهو معطوف على (نوح). وهذه أيضاً نذارة من هود عليه السلام لقومه، وتقدم الخلاف في قراءة ﴿غِيْرُهُ﴾، وقوله: ﴿أَفَلَا تَنْفَرُونَ﴾ استعطاف إلى التقى والإيمان.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الْمَلَأُ﴾ الآية، تقدم القول في مثل هذه المقالة أنفاً، والسفاهة: مصدر عبر به عن الحال المهلهلة الرقيقة التي لا ثبات لها ولا جودة، والسفة في الثوب خفة نسجه، ومنه قول

الشاعر:

مَشِيْنٌ كَمَا افْتَزَتْ رِمَاحٌ تَسْفَهَتْ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَاحِ الشَّوَابِمِ
وقولهم: ﴿لَطَنُكَ﴾ هو ظن على بابه لأنهم لم يكن عندهم إلا ظنون وتخرض، وتقدم الخلاف في قراءة: ﴿أَبْلَيْكُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿أَبْيِنُ﴾ يحتمل أن يريد: على الوحي والذكر النازل من قبيل الله عز وجل، ويحتمل أن يريد أن أمين عليهم وعلى غيبهم وعلى إرادة الخير بهم، والعرب تقول: «فلانٌ لِفُلانٍ ناصح الجيب أمين الغيب»، ويحتمل أن يريد به: أمين من الأمن، أي: جهتي ذات أمن من الكذب الغش.

٦٦ - ٦٧ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدم القول في مثل ﴿أَرْجِيئْتُمْ﴾. والذكر: لفظ عام للمواعظ والأوامر والنواهي. وقوله تعالى:

أَبْلَيْكُمْ رَسَلْنَا رَبِّي وَأَنَا لَكُنَّا نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴿٦٨﴾ أَوْ جِئْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَنَ رَجُلٌ مِنْكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْتُمْ خَلْفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَضْطَةً فَأَذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَلِنِإِيْمَانِنَا قَوْلُكَ إِن كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَعَصَبٌ فَأَنْجِدْ لِنَفْسِي فَمَاتَ أَسْمَاءُ سَمِيَتْهُمَا أَنْثَرُ وَأَبَاؤُكُمْ مَا نَزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَنٍ فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٧١﴾ فَأَجْبَيْتُهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَلْعِنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بَيِّنَاتِنَا وَمَا كَانُوا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِن كُنْتُمْ أَحَادِمٌ صَالِحِينَ قَالُوا يَنْفَرُونَ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنَ الْإِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ بَيِّنَةٌ أَنَّ اللَّهَ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُّوْهَا تَأْكُلُ فِي الْأَرْضِ لَوْلَا تَسْوُهَا يَسُوهُ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾

١٥٩

ابن الكلبي: بعد آدم بشمانمائة سنة، وجاء بتحرير البنات والأخوات والأمهات والخالات والعمات وقال وهب بن منبه: بعث نوح وهو ابن أربعمائة سنة، وقيل: بعث ابن ثلاثمائة سنة، وقيل: ابن خمسين سنة، وروي أنه عمر بعد الغرق ستين سنة، وروي أن الطوفان كان سنة ألف وستمائة سنة من عمره ﷺ، وأتى في حديث الشفاعة وغيره أن نوحاً أول نبي بعث إلى الناس، وأتى أيضاً أن إدريس قبل نوح ومن آياته، وذلك يجتمع أن تكون بعثة نوح مشتهرة لإصلاح الناس وحملهم بالعذاب والإهلاك على الإيمان، فالمراد أنه أول نبي بعث على هذه الصفة.

٦٥ - ٦٨ تفسير قوله عز وجل:

﴿عَادٌ﴾ اسم الحي، و ﴿أَخَانُمْ﴾

والرمال، وكانت بلادهم أخصب بلاد فردّها الله صحار، وقال علي بن أبي طالب: إن قبر هود عليه السلام هنالك في كتيب أحمر يخالطه مدرة ذات أراك ويسدر، وكانوا قد فشوا في جميع الأرض، وملكوا كثيراً بقوتهم وعددهم وظلموا الناس، وكانوا ثلاث عشرة قبيلة، وكانوا أصحاب أوثان منها ما يسمى صداء، ومنها صموداً، ومنها الهيبا، فبعث الله إليهم هوداً من أفضلهم وأوسطهم نسباً فدعاهم إلى توحيد الله وإلى ترك الظلم. قال ابن إسحق: لم يأمرهم فيما يذكر بغير ذلك فكذبوه وعتّوا، واستمر ذلك منهم إلى أن أراد الله إنفاذ أمره، فأمسك عنهم المطر ثلاث سنين فشقوا بذلك، وكان الناس في ذلك الزمان إذا همّهم أمر فزعوا إلى المسجد الحرام بمكة فدعوا الله فيه تعظيماً له، مؤمنهم وكافرهم، وأهل مكة يومئذ العماليق وسيدهم رجل يسمى معاوية بن بكر، فاجتمعت عاد على أن تجهز منهم وفد إلى مكة يستسقون الله لهم، فبعثوا قَيْلَ بن عَيْر، ولقيم بن هزال، وعقيل بن ضد بن عاد الأكبر، ومرثد بن سعد بن عفير، وكان هذا مؤمناً يكتم إيمانه، وجُلْهمة بن الخبيري في سبعين رجلاً من قومهم، فلما قدموا مكة نزلوا على معاوية بن بكر وهو بظاهر مكة خارجاً من الحرم، فأنزلهم وأقاموا عنده شهراً يشربون الخمر وتغنيهم الجرادتان قينتان لمعاوية، فلما رأى معاوية طول إقامتهم وقد بعثهم عاد

للغوث أشفق على عاد، وكان ابن أختهم كلهدة بنت الخبيري جُلْهمة، وقال: هلك أخوالي، وشقّ عليه أن يأمر أضيافه بالانصراف عنه، فشكا ذلك إلى القَيْتَيْنِ، فقالتا له: اصنع شعراً نغني به عسى أن نُتْبَهُم، فقال:

أَلَا يَا قَيْلُ وَيْحَكَ قُمْ فَهَيِّنِمْ
لَعَلَّ اللَّهَ يُسْقِيَنَا غَمَامًا
فَيَسْقِي أَرْضَ عَادِ إِنَّ عَادًا
قَدْ أَمْسُوا لَا يَسِينُونَ الْكَلَامَا
مِنَ الْعَطَشِ الشَّدِيدِ فَلَيْسَ تَرْجُو
بِهِ الشَّيْخَ الْكَبِيرَ وَلَا الْعُلَمَا
وَقَدْ كَانَتْ نِسَاؤُهُمْ بِخَيْرِ
فَقَدْ أَمْسَتْ نِسَاؤُهُمْ عِيَامِي
وَإِنَّ الْوَحْشَ يَأْتِيهِمْ جَهَارًا
وَلَا يَخْشَى لِعَادِي سَهَامَا
وَأَنْتُمْ هَاهُنَا فِيمَا اشْتَهَيْتُمْ
نَهَارَكُمْ وَلَيْلَكُمْ الشَّمَامَا
فَقُبِّحَ وَفُذِّكْتُمْ مِنْ وَفِدِ قَوْمِ
وَلَا تُقُوا الشَّجِيئَةَ وَالسَّلَامَا

فغئت به الجرادتان، فلما سمعه القوم قال بعضهم: يا قوم إنما بعثكم قومكم لما حلّ بهم فادخلوا هذا الحرم وادعوا لعلّ الله يغيثهم، فخرجوا لذلك، فقال لهم مرثد بن سعد: إنكم والله ما تُسْقون بدعائكم، ولكنكم إن أطعتم نبيكم وأمتمت به سقيتم، وأظهر إيمانه يومئذ فخالفه الوفد، وقالوا معاوية بن بكر وأبيه بكر: احبسا عنا مرثداً ولا يدخل معنا الحرم فإنه قد أتبع هوداً، ومضوا إلى مكة فاستسقى قَيْلُ بن عير وقال: يا إلهنا إن كان هود صالحاً فاسقنا فإننا قد هلكنا، فأنشأ الله سحائب ثلاثاً بيضاء

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قصص وقع في تفسير الطبري مطولاً، وفيه اختلاف، فاقتضبت عيون ذلك بحسب الإيجاز، وفي خبرهم أن الريح كانت تدمغهم بالحجارة وترفع الطعينة عليها المرأة حتى تلقى في البحر، وفي خبرهم أن أقوياءهم كان أحدهم يسدّ بنفسه مهبّ الريح حتى تغلبه فتلقيه في البحر فيقوم آخر مكانه حتى هلك الجميع. وقال زيد بن أسلم: بلغني أن ضيعاً ربت أولادها في ججاج عين رجل منهم، وفي خبرهم أن الله بعث - لما هلكت عاد - طيراً - وقيل: أسداً - فنقلت جيفهم حتى

طرحتهم في البحر، فذلك قوله تعالى: ﴿فَأَسْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَكِنَتُهُمْ﴾. وفي بعض ما روي من شأنهم أن الريح لم تبعث قط إلا بمكيال إلا يومئذ فإنها تمت على الخزنة فغلبتهم فذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَقْصِبْ كَأُورِيحَ مَسْرَرِي عَائِيَةً﴾، ورؤي أن هوداً لما هلكت عاد نزلت بمن آمن معه إلى مكة فكانوا بها حتى ماتوا، فانه أعلم أي ذلك كان.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْنَاكَ بِالآية، ظاهر قولهم وحده أنهم أنكروا أن يتركوا أصنامهم ويفردوا العبادة لله مع إقرارهم بالإله الخالق المبدع، ويحتمل أن يكونوا منكرين لله ويكون قولهم: ﴿لِنَسْتَكِدَّ اللَّهُ وَنَحْدُ﴾ أي على قولك يا هود. والتأويل الأول أظهر فيهم وفي عباد الأوثان كلهم، ولا يجحد ربوبية الله تعالى من الكفرة إلا من أفرطت غباوته كإبريد بن ربيعة، وإلا من ادعاه لنفسه كفرعون ونمرود، وقولهم: ﴿فَأَيْنَا﴾ تصميم على التكذيب، واحتقار لأمر النبوة، واستعجال للعقوبة، وتمكن قولهم: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ لما كان هذا الوعد مصرحاً به في الشر، ولو كان ذكر الوعد مطلقاً لم يجيء إلا في خير.

٧١ - ٧٢ - تفسير قوله عز وجل:

أعلمهم بأن القضاء قد نفذ، وحل عليهم الرجز وهو السخط والعذاب، يقال: رجسٌ ورجزٌ بمعنى واحد، قال أبو عمرو بن العلاء، وقال الشاعر: إذا سنة كانت بنجدٍ مُحِيطَةً فكانَ عليهم رَجْسُهَا وَعَذَابُهَا

وقد يأتي الرجز أيضاً بمعنى الثن والقدر، ويقال في الرجيع: رجسٌ وركزٌ، وهذا الرجز هو المستعار للمحرمات، أي ينبغي أن يجتنب كما يجتنب الثن، ونحوه في المعنى قول النبي ﷺ في خبر جهجاه الغفاري وسنان بن وبرة الأنصاري حين دعوا بدعوى الجاهلية: (دعوهما فإنها مئنة).

وقوله: ﴿أَتَجِدُلُونَنِي فِتْ أَسْمَاءَ سَيِّئَتُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ﴾ إنما يريد أنهم يخاصمونه في أن تُسمى آلهة، فالجدل إنما وقع في التسميات لا في المُسمَّيات، لكنه ورد في القرآن: ﴿مَا تَسْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءَ سَيِّئَتُوهَا أَنْتُمْ﴾ فهنا لا يريد إلا ذوات الأصنام، فالاسم يراد به المسمى نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن رأى أن الجدل في هذه الآية إنما وقع في أنفس الأصنام وعبادتها تأول هذا التأويل. والاسم يرد في كلام العرب بمعنى التسمية، وهذا باب الذي استعمله به النحويون، وقد يراد به المسمى ويدل عليه ما قاربه من القول، من ذلك قوله تعالى: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ على أن هذا يتأول، ومنه قول لبيد:

إلى الخول ثم اسمُ السلامِ عليكما

على تأويلات في البيت، وقد مضت المسألة في صدر الكتاب. والسلطان: البرهان، وقوله: ﴿فَأَنْظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْظِرِينَ﴾ الآية وعيد وتهديد. والضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَعْيَبْنَهُ﴾

عائد على هود، أي أخرجه الله تعالى سالماً ناجياً مع من أتبعه من المؤمنين برحمة الله وفضل، وخرج هود ومن آمن معه حتى نزلوا مكة فأقاموا بها حتى ماتوا. ﴿وَقَطَعْنَا دَائِرَةَ﴾ استعارة تستعمل فيمن يُستأصل بالهلاك، والداير: الذي يدبر القوم ويأتي خلفهم، فإذا انتهى القطع والاستصال إلى ذلك لم يبق أحد، وقوله: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ دال على المعجزة وإن لم تعين لها.

وقوله تعالى: ﴿وَالِكِ تَمُودُ﴾ الآية، هو ثمود بن غاشن بن إرم بن سام بن نوح أخو جديس بن غاشن. وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَالِي تَمُودُ﴾ بكسر الدال وتنوينه في جميع القرآن، وصرفه على اسم الحي، وترك صرفه على اسم القبيلة. قاله الزجاج: وقال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَسُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾. فالمعنى: وأرسلنا إلى ثمود أخاهم فهو عطف على نوح، والأخوة هنا أخوة القرابة. وقال الزجاج: يحتمل أن تكون أخوة الآدمية وسمي أخاهم لما بعث إليهم وهم قوم عرب، وهو وصالح عريبان، وكذلك إسماعيل وشعيب، كذا قال النقاش، وفي أمر إسماعيل عليه السلام نظر. وصالح عليه السلام هو صالح بن عبيد بن عامر بن إرم بن سام بن نوح، كذا ذكر مكِّي، وقال وهب: بعثه الله حين راحق الحلم، ولما هلك قومه ارتحل بمن آمن معه إلى مكة فأقاموا بها حتى ماتوا، فقبورهم بين دار الندوة والحجر.

وقوله: ﴿يَبْدُءُ﴾ صفة حذف

الموصوف وأقيمت مقامه، قال سيبويه: وذلك قببح في النكرة أن تحذف وتقام صفتها مقامها، لكن إذا كانت الصفة كثيرة الاستعمال مشتهرة وهي المقصود في الأخبار والأسم زال القببح، كما تقول: «جاءني عبد لبني فلان» وأنت تريد: «جاءني رجل عبد»، لأن عبداً صفة، فكذلك قوله هنا ﴿سَيِّئَةٌ﴾، المعنى: آية أو حجة أو موعظة بيّنة. وقال بعض الناس: إن صالحاً جاء بالناقة من تلقاء نفسه، وقالت فرقة وهي الجمهور: بل كانت مقترحة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أليق بما ورد في الآثار من أمرهم، وروي أن بعضهم قال: يا صالح إن كنت صادقاً فاذع ربك يخرج لنا من هذه الهضبة - وفي بعض الروايات: من هذه الصخرة، لصخرة بالحجر يقال لها الكائبة - ناقةٌ عُشراء قال: فدعا الله فتمخضت تلك الهضبة وتنفضت وانشقت عن ناقة عظيمة. وروي أنها كانت حاملاً فولدت سقياً المشهور، وروي أنه خرج معها فصيلها من الصخرة، وروي أن جملاً من جمال ثمود ضربها فولدت فصيلها المشهور، وقيل: «ناقة الله» تشريفاً لها وتخصيصاً، وهي إضافة خلق إلى خالق. وقال الزجاج: إنها ناقة من سائر النوق وجعل الله لها شرباً يوماً ولهم شرب يوم، وكانت الآية في شربها وحلبها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى النقاش عن الحسن أنه قال:

هي ناقة اعترضها من إبلهم ولم تكن تحلب، والذي عليه الناس أقوى وأصح من هذا. قال المفسرون وكان حلفاً عظيماً، تأتي إلى الماء بين جبلين فيزحمانها من العظم، وقاسمت ثمود في الماء يوماً بيوم، فكانت تردُّ يومها فتستوفي ماء بئر همشريا ويحلبونها ما شاؤوا من لبن، ثم تمكث يوماً وترد بعد ذلك غباً، فاستمر ذلك ما شاء الله حتى ملتها ثمود وقالوا: ما نضع باللبن؟ الماء أحب إلينا منه، وكان سبب الملل فيما روي أنها كانت تصيف في بطن الوادي، وادي الحجر، وتشتو في ظاهره، فكانت مواشيهم تفر منها فتصيف في ظهر الوادي للقيظ وتشتو في باطنه للزمهرير، وفسدت لذلك، فعمالؤوا على قتل الناقة، فقال لهم صالح مرة: إن هذا الشهر يولد فيه مولود يكون هلاككم على يديه فولد لعشرة نفر أولاد فذبح تسعة أولادهم وبقي العاشر وهو سالف أبو قدار، فنشأ قدار أحمر أزرق، فكان التسعة إذا رأوه قالوا: لو عاش بنونا كانوا مثل هذا، فأحفظهم أن قتلوا أولادهم بكلام صالح، فأجمعوا على قتله، فخرجوا وكمنوا في غار لبيته منه، وتقاسموا ﴿لَنَسِيْتَهُ أَهْلَهُ نُرْ لَقَوْلِنَ لِرَبِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ﴾ فسقط الغار عليهم فماتوا فهم الرهط التسعة الذين ذكر الله في كتابه، وهم: قدار بن سالف، ومصدع بن مهزج ضمناً إلى نفسيهما سبعة نفر وعزموا على عقر الناقة. وروي أن السبب في ذلك أن امرأتين من ثمود من

أعداء صالح جعلتا لقدار ومصدع أنفسهما وأموالهما على أن يعقرا الناقة، وكانتا من أهل الجمال. وقيل: إن قدار شرب الخمر مع قوم فطلبوا ماءً يمزجون به الخمر فلم يجدوه لشرب الناقة فعزموا على عقرها حينئذ، فخرجوا وجلسوا على طريقها، وكمن لها قدار خلف صخرة، فلما دنت رماها بالحربة فسقطت فنجرها، ثم اتبعوا الفصيل فهرب منهم حتى علا ربوة ورغا ثلاث مرات واستغاث فلحقوه وعقروه. وفي بعض الروايات أنهم وجدوا الفصيل في رابية من الأرض فأرادوه فارتفعت به حتى لحقت به في السماء فلم يقدروا عليه، فرغا الفصيل مستغيثاً بالله تبارك وتعالى، فأوحى الله إلى صالح أن مزمهم فليتمتعوا في دارهم ثلاثة أيام. وحكى النقاش عن الحسن أنه قال: إن الله تعالى أنطق الفصيل فنادى: أين أمي؟ فقال لهم صالح: إن العذاب واقع بكم في الرابع من عقر الناقة، وروي أنها عقرت يوم الأربعاء، وقال لهم صالح: تخمّر وجوهكم غداً وتصفر في الثاني وتَسود في الثالث وينزل العذاب في الرابع يوم الأحد، فلما ظهرت العلامة التي قيلت لهم أيقنوا واستعدوا ولطخوا أبدانهم بالمن، وحفروا القبور وتحنطوا فأخذتهم الضيحة وخرج صالح ومن آمن معه حتى نزل رملة فلسطين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القصص اقتضته من كثير أورده الطبري رحمه الله رغبة الإيجاز.

أسفل وكسر الحاء، وقرأ أبو مالك بالياء من أسفل وفتح الحاء، وكانوا ينحتون الجبال لطول أعمارهم.

و ﴿تَعْتَرُونَ﴾ معناه: تفسدوا، يقال: عتا يعتي، وعتاً يعْتُو، وعتي يعْتِي كئسي يتسى وعليها لفظ الآية، وقرأ الأعمش: ﴿تَعْتُوا﴾ بكسر التاء، و﴿تفسدوا﴾ حال.

وتقدم القول في ﴿الْمَلَأَ﴾، وقرأ ابن عامر وحده في هذا الموضع:

﴿وَقَالَ الْمَلَأَ﴾ بواو عطف، وهي محذوفة عند الجميع. و ﴿الَّذِينَ أَنْتَكِرُوا﴾ هم الأشراف والعظماء الكفرة، و ﴿أَنْتَكِرُوا﴾ يحتمل أن يكون معناه: طلبوا هيئة لنفوسهم من الكبير، أو يكون بمعنى كبيروا، كبرهم المال والجاه وأعظمهم، فيكون - على هذا - كبير واستكبر بمعنى كعجب واستعجب. والأول هو باب استفعل كاستوقد واستترقد. والذين استضعفوا هم العامة والأغفال في الدنيا، وهم أتباع الرسل.

وقولهم: ﴿أَتَمَلَّوْا﴾ استفهام على معنى الاستهزاء والاستخفاف، فأجاب المؤمنون بالتصديق والصرامة في دين الله فحملت الأنفة الأشراف على مناقضة المؤمنين في مقاتلهم واستمروا على كفرهم.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَمَقَرُّوا﴾ يقتضي - بتشريكهم جميعاً في الضمير - أن عقر الناقة كان على تمالؤ منهم وإصفاق، وكذلك روي أن قداراً لم يعقرها حتى كان يستشير الرجال

﴿أتعمرنون ما هذا؟﴾ قالوا:

لا، قال: ﴿هذا قبر أبي زغال الذي هو أبو ثقيف، كان من ثمود فأصاب قومه البلاء وهو بالحرم فسليم، فلما خرج من الحرم أصابه ما أصابهم فدفن هنا وجعل معه غصن من ذهب﴾ قال: ﴿فابتدر القوم بأسيافهم فحفروا حتى أخرجوا الغصن﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الخبر يؤيد ما في السير من أن أبا زغال هو دليل الفيل وحببسه إلى مكة، والله أعلم.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿رَبِّوْاكُمْ﴾ معناه: مكنتكم، وهي مستعملة في المكان وظروفه، تقول: تبتوأ فلان منزلاً حسناً، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَوَّأُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾، وقال الأعمش:

فَمَا بَوَّأَ الرَّحْمَنُ بَيْتَكَ مَنزِلاً
بشَّرْتِي أَجْيَادِ الصِّفَا وَالْمُحَرَّمِ
والقصور: جمع قصر، وهي الدور التي قصرت على بقاع من الأرض مخصوصة بخلاف بيوت العمود، وقصرت عن الناس قصراً تاماً.

والتحت: التَّجْر والقشر في الشيء الصلب كالحجر والعود ونحوه. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَتَشْحَتُونَ﴾ بفتح الحاء، وقرأ جمهور الناس بكسرها وبالتاء من فوق، وقرأ ابن مصرف بالياء من

وَأَذْكُرُوا إِذْ جَعَلْنَا خَلْفَاءَ مِنْ بَعْدِكَ أَوْبَاءَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْجَثُونَ الْجِبَالَ يَبُوتًا فَآذْكُرُوا آيَةَ اللَّهِ وَلَا تَنْشُرُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴿٧٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْرَبُوا مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ اسْتَضَعَفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَمَلَّوْا أَنْتَ صَدِيقُنَا مَنْ رَّبِّهِمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْرَبُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٧٨﴾ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ وَعَتَا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ وَقَالُوا يُصَلِّحُ أَرْثِنَا مَا تَبَدُّنَا إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧٩﴾ فَأَخَذْتُمُ الرَّجْفَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٨٠﴾ فَتَوَلَّى عَنَّهُمْ وَقَالَ يَقْوَرٌ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رَسُولَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لَا تُحِبُّونَ النَّصِيحَاتِ ﴿٨١﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَجْشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٨٢﴾ إِنَّكُمْ لَأَتُونَ بِالرِّجَالِ شَهْوَةً مِّنْ دُونِ النَّسَاءِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨٣﴾

وقال أبو موسى الأشعري: أتيت بلاد ثمود فدرعت صدر الناقة فوجدته ستين ذراعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبلاد ثمود هي بين الشام والمدينة، وهي التي مر بها رسول الله ﷺ مع المسلمين في غزوة تبوك فقال: ﴿لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن يصيبكم مثل ما أصابهم﴾، ثم اعتجر بعمامته وأسرع السير ﷺ، وروي أن المسافة التي أهلكت الصيحة أهلها هي ثمانية عشر ميلاً، وهي: بلاد الحَجْر ومراتعها الجنب وحسمى إلى وادي القرى وما حوله. وقيل في قدار: إنه ولد زنى من رجل يقال له: ظبيان، وولد على فراش سالف فنسب إليه، ذكره قتادة وغيره. وذكر الطبري أن رسول الله ﷺ مرَّ بقبر فقال:

والنساء والصبيان. فلما أجمعوا تعاطى فَعَقَرُ.

﴿وَعَوَّا﴾ معناه: خشنوا وصلبوا ولم يذعنوا للأمر والشرع وصمموا على تكذيبه واستعجلوا النقمة بقولهم: ﴿أَتَيْنَا بِمَا وَعَدْنَا﴾، وحسن الوعد في هذا الموضوع لما تقيّد بأنه عذاب. قال أبو حاتم: قرأ عيسى وعاصم: ﴿إِيتِنَا﴾ بهمز وإشباع ضم، وقرأ بتخفيف الهمزة كأنها ياء في اللفظ أبو عمرو والأعمش.

و ﴿الْحَجَّةُ﴾ ما تؤثره الصيحة أو الطامة التي يرجف بها الإنسان وهو أن يتزعزع ويتحرك ويضطرب ويرتعد، ومنه قول خديجة رضي الله عنها: (فرجع بها رسول الله ﷺ) يرجف فواده. ومنه قول الأخطل:

إِذَا تَرَيْنِي حَنَانِي الشَّيْبُ مِنْ كِبَرٍ
كَالشَّسْرِ أَرْجُفُ وَالْإِنْسَانَ مَمْدُودٍ
ومنه إرجاف النفوس لكرهه الأخبار أي تحريكها، وروي أن صيحة ثمود كان فيها من كل شيء هائل الصوت، وكانت مفرطة شقت قلوبهم فجشموا على صدورهم، والجائم اللاطيء بالأرض على صدره مع قبض ساقيه كما يرقد الأرنب والطير، فإن جشومها على وجهها، ومنه قول جرير:

عَرَفْتُ الْمُتَنَتَّى وَعَرَفْتُ مِنْهَا
مَطَايَا الْقَدْرِ كَالْجِدِّ الْجُثُومِ

وقال بعض المفسرين: معناه: حَمَمًا محترقين كالرماد الجائم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحيث وجد الرماد الجائم في شعر فإنما هو مستعار لهيئة الرماد قبل

هموده وتفرقه، وذهب صاحب هذا القول إلى أن الصيحة اقترن بها صواعق محرقة.

وأخبر الله عز وجل بفعل صالح في توليه عنهم وقت عقربهم الناقة وقولهم: ﴿أَتَيْنَا بِمَا وَعَدْنَا﴾، وذلك قبل نزول العذاب، وكذلك روي أنه عليه الصلاة والسلام خرج من بين أظهرهم قبل نزول العذاب، وهو الذي تقتضيه مخاطبته لهم، وأما لفظ الآية فيحتمل أنه خاطبهم وهم موتى على جهة التفجع عليهم وذكر

حالهم أو غير ذلك كما خاطب رسول الله ﷺ أهل قليب بدر، قال الطبري: وقيل: لم تهلك أمة وبنيتها معها، وروي أنه ارتحل بمن معه حتى جاء مكة فأقام بها حتى مات، ولفظة (التَّوَلَّى) تقتضي اليأس من خيرهم واليقين في إهلاكهم.

وقوله: ﴿لَا تُجِبُونَ التَّصْوِيرَ﴾ عبارة عن تغليبهم الشهوات على الرأي، إذ كلام الناصح صعب مضاد لشهوة نفس الذي يُنصَح، ولذلك تقول العرب: «أَمَرَ مَيْكِيَاتَكَ لَا أَمَرَ مَضْحَكَاتِكَ».

٨٠ - ٨١ - تفسير قوله عز وجل: لوط عليه السلام بعثه الله إلى أمة تسمى سدوم، وروي أنه ابن أخي إبراهيم عليه السلام، ونصبه إماماً: ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾ المتقدم في الأنبياء، وإما بفعل مضمّر تقديره: «واذكر لوطاً»،

وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ لِأَن قَالُوا أَخْرِجُوهُمْ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ يَنْظُرُونَ ﴿٨٠﴾ فَأَجْبَيْنَاهُ وَأَهْلَاهُ إِلَّا أَمْرًا أَنَّهُ كَانَتْ مِنَ الْفَتَرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَأَنْظَرَكُمْ كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٨٢﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَكُمْ بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٣﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبْخَعُونَهَا عِوَجًا وَأَذًى كَرِهُوا لَذِكُمْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَفَرْتُمْ وَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَتْ عِقَابَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ ءَامَنُوا بِآيَاتِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّا يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٥﴾

١٦١

واستفهامه لهم هو على جهة التوقيف والتوبيخ والتشنيع.

و ﴿التَّحِجَّةُ﴾ هنا: إتيان الرجال في الأديار، وروي أنه لم تكن هذه المعصية في أمم قبلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن كان لفظ الآية يقتضي هذا فقد كانت الآية تحتل أن يراد بها: ما سبقكم إلى لزومها وتشهيرها، وروي أنهم كانوا يأتي بعضهم بعضاً، وروي أنهم إنما كانوا يأتون الغبراء، قاله الحسن البصري، قال عمرو بن دينار: ما نزا ذكر على ذكر قبل قوم

لوط، وحكى النقاش: إن إبليس كان أصل عملهم إذ دعاهم إلى نفسه، وقال بعض العلماء: عامل اللواط كالزاني، وقال مالك رحمه الله وغيره: يُرْجَم - أحصن أو لم يُحصن. وحرق أبو بكر الصديق

رضي الله عنه رجلاً يسمى الفجأة حين عملَ عملَ قوم لوط.

وقرأ نافع، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّكُمْ﴾ على الخير كأنه فسر الفاحشة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم - في رواية أبي بكر، وحمزة: ﴿الَّذِينَ﴾ باستفهام آخر، وهذا لأن الأول استفهام عن أمر مُجمل والثاني عن مفسر. إلا أن حمزة وعاصم قرأ بهمزيين ولم يهزم أبو عمرو وابن كثير إلا واحدة.

و ﴿شَهْوَةً﴾ نصب على المصدر من قولك: شهيت الشيء شهوة، والمعنى: تدعون الغرض المقصود بالوطء وهو ابتغاء ما كتب الله من الولد وتفردون بالشهوة فقط.

وقوله: ﴿بَلْ أَنْتُمْ﴾ إضراب عن الإخبار عنهم أو تقريرهم على المعصية وتزك لذلك، إلى الحكم عليهم بأنهم قد تجاوزوا الحد وارتكبوا الحظر، والإسراف: الزيادة المفسدة.

وقرأ الجمهور: ﴿جَوَابٌ﴾ بالنصب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن ﴿جَوَابٌ﴾ بالرفع، ولم تكن مراجعة قومه باحتجاج منهم ولا بمدافعة عقلية، وإنما كانت بكفر وصرامة وخذلان بحث في قولهم: ﴿أَخْرِجُوهُمْ﴾ وتعليقهم الإخراج بتطهير المخرجين. والضمير عائد على لوط وقومه وإن كان لم يجر لهم ذلك فإن المعنى يقتضيه. وزوي أنه لم يكن معه غير ابنتيه، وعلى هذا عني في الضمير هو وابنتاه، و ﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: يتنزهون عن حالنا وعاداتنا، قال

مجاهد: معناه: يتطهرون عن أذبار الرجال والنساء، قال قتادة: عابوهم بغير عيب وذمموهم بغير ذم، والخلاف في أهله حسبما تقدم.

واستثنى الله امرأة لوط من الناجين، وأخبر أنها هلكت. والغابر: الباقي، هذا المشهور في اللغة، ومنه عُبرَ الحيض كما قال أبو كبير الهذلي:

وَمُبْرَأٌ مِنْ كُلِّ عُبْرٍ حَيْضَةٌ
وَفَسَادٌ مُرْضِعَةٌ وِدَاءٌ مُغْبِلٌ
وَعُبْرُ اللَّبَنِ فِي الضَّرْعِ: بَقِيَّتُهُ، قَالَ
بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ: كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ
فِي الْعَذَابِ وَالْعِقَابِ، أَي: مَعَ
الْبَاقِينَ مِمَّنْ لَمْ يَنْجِ، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ
مَعْمَرٌ: ذَكَرَهَا اللَّهُ بِأَنَّهَا كَانَتْ مَعَّنِ
أَسْنٌ وَيَقِي مِنْ عَصْرِهِ إِلَى عَصْرِ غَيْرِهِ
فَكَانَتْ غَابِرَةً إِلَى أَنْ هَلَكْتَ مَعَ
قَوْمِهَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان قوله: ﴿إِلَّا أَمْرًا﴾ اكتفي به في أنها لم تنج ثم ابتداء وصفها بعد ذلك بصفة لا تتعلق بها النجاة ولا الهلكة، والأول أظهر. وقد يجيء (الغابر) بمعنى الماضي، وكذلك حكى أهل اللغة: عَبَّرَ بمعنى مَضَى وبمعنى بقي وأما قول الأعشى:

عَضُّ بِمَا أَبْقَى الْمَوَاسِي لَهُ
مَنْ أَمَّهُ فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ
فالظاهر أنه أراد الماضي وذلك بالنسبة إلى وقت الهجاء. ويحتمل أن يريد: في الزمن الباقي وذلك بالنسبة إلى الحين الذي هو غابر بعد الإبقاء. ويحتمل أن يُعَلَّقَ «في الزمن» بـ (عَضُّ) فيكون الغابر: الباقي على الإطلاق، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ الآية نص على إبطار، وتظاهرت الآيات في غير هذه السورة أنه بحجارة، وزوي أن الله عز وجل بعث جبريل فاقتلعها بجناحه وهي ست مدن، - وقيل: خمس، وقيل: أربع - فرفعها حتى سمع أهل السماء نهاق الحمير وصراخ الديكة، ثم عكسها ورد أعلاها أسفلها وأرسلها إلى الأرض، وتبعتهم الحجارة مع هذا فأهلكت من كان منهم في سفر أو خارجاً عن البقع المرفوعة، وقالت امرأة لوط حين سمعت الرِّجَّةَ واقوماه، والتفت فأصابتها صخرة فقتلتها.

(٨٥) - (٨٦) تفسير قوله عز وجل:

قيل في ﴿مَذِينٌ﴾ إنه اسم بلد وقَطْر، وقيل: اسم قبيلة، وقيل: هم من ولد مَذِين بن إبراهيم الخليل، وروي أن لوط عليه السلام هو جد شعيب لأمه، وقال مكِّي: كان زوج بنت لوط. ومن رأى (مدين) اسم رجل لم يصره لأنه معرفة أعجمي، ومن رآه اسماً للقبيلة أو الأرض فهو أحرى ألا يصره.

وقوله: ﴿أَنَامٌ﴾ منصوب بقوله تعالى: ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في أول القصص، وهذا يؤيد أن ﴿لوطاً﴾ به انتصب، وأن اللفظ مستمر، وهذه الإخوة في القرابة، وقد تقدم القول في ﴿غَيْرُهُ﴾ و ﴿غَيْرُهُ﴾، والبيئنة إشارة إلى معجزته وإن كان نحن لم يُنص لنا عليها. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿قَدْ جَاءَتْكُمْ آيَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ مكان (بيئنة).

وقوله: ﴿تَأَذُّوا الْكَبِيلَ﴾ أمر لهم

بالاستقامة في الإعطاء وهو بالمعنى: في الأخذ والإعطاء، وكانت هذه المعصية قد فشت فيهم في ذلك الزمن وفحشت مع كفرهم الذي نالتهم الرجفة بسببه، و ﴿يَحْضُرُوا﴾ معناه: تظلموا، ومنه قولهم: فتحسبها حمقاء وهي باخس أي ظالمة خادعة. و ﴿أَشْبَاهَهُمْ﴾ يريد أموالهم وأمتعتهم مما يكال أو يوزن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُقْسِدُوا﴾ لفظ عام لدقيق الفساد وجليله، وكذلك الإصلاح عام، والمفسرون نصوا على أن الإشارة إلى الكفر بالفساد، وإلى النبوات والشرائع بالإصلاح. وقوله: ﴿ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي نافع عند الله مَكْسِبٌ فوزه ورضوانه بشرط الإيمان والتوحيد، وإلا فلا ينفع عمل دون إيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا يَكْفُرُ بِيْرَتِكُمْ﴾ الآية. قال السدي: هذا نهى عن العشارين والمتقبلين ونحوه من أخذ أموال الناس بالباطل. والصرط: الطريق، وذلك أنهم كانوا يكثر من هذا لأنه من قبيل يخسهم ونقصهم الكيل والوزن. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: هو نهى عن السلب وقطع الطريق وكان ذلك من فعلهم، وروى في ذلك حديثاً عن النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما تقدم قبل من النهي في شأن المال في الموازين والأكيال والبخس يؤيد هذين القولين ويشبههما، وفي هذا كله تَوْعُدٌ للناس إن لم يتركوا أموالهم. وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد،

والسدي أيضاً: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا﴾ نهى لهم عما كانوا يفعلونه من رد الناس عن شعيب، فيتوعدون من أراد المجيء إليه ويصدونه ويقولون: إنه كذاب فلا تذهب إليه نحو ما كانت قريش تفعله مع رسول الله ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما بعد هذا من ألفاظ الآية يشبه هذا القول.

وقوله تعالى: ﴿وَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مِمَّنْ آمَنَ﴾ الآية. المعنى: وتفتنون من آمن وتصدونه عن

طريق الهدى وسبيل الله المفضية إلى رحمته. والضمير في ﴿يَدِي﴾ يحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى، وأن يعود على شعيب في قول من رأى أن القعود على الطرق للرد عن شعيب، وأن يعود على السبيل في لغة من يُذَكَّرُ السبيل.

وتقدم القول في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَسْتَوِيهَا عِوَجًا﴾ في صدر السورة. قال أبو عبيدة، والزجاج: كسر العين في المعاني وفتحها في الأجرام.

ثم عدد عليهم نعم الله تبارك وتعالى وأنه كثّرهم بعد قتلهم، وقيل: أغناهم بعد فقرهم، فالمعنى - على هذا - إذ كنتم قليلاً قدركم، ثم حذرهم ومثل بمن امتحن من الأمم السابقة.

﴿٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وإن كنتم يا قوم قد

﴿٨٧﴾ قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ بِشَيْبَةٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ ﴿٨٨﴾ قَدْ أَفْرَأْنَا عَلَى اللَّهِ كَيْدَ بَنِي إِدْنَانَ وَإِيَّاكُمْ بَعْدَ إِذْ جَعَلْنَا اللَّهُ مِيثَاقًا لَّنَا أَن نُّقُودَ فِيهَا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَيُنزِلنَّ عَلَيْنَا حُرُوفًا إِذَا خَيْرُورُونَ ﴿٩٠﴾ فَأَخَذْتُمُ الرِّجْفَةَ فَأَصْحَبُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيًّا ﴿٩١﴾ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبَا كَانُوا يَفْتَوُونَ بِهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعْبَا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٢﴾ فَنُوحِيَ إِلَيْهِمْ أَن لَّيْسَ لَكُم مِّنْهُنَّ عِلْمٌ شَيْءٌ فَاصْبِرُوا لِحُكْمِ اللَّهِ إِنَّهُ لَسَوْفَ يَبْصُرُ عَمَلَكُمْ ﴿٩٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْأَسَاءِ وَالضَّرَّةِ لَعَلَّهُمْ يَضُرَّعُونَ ﴿٩٤﴾ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آلِهَاتُنَا آلُ الضَّرَّةِ وَالسَّرَّةِ فَأَخَذْنَاهُم بِغَنَّةٍ لَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٩٥﴾

١٦٢

اختلفتم علي، وشعبتهم بكفركم أمرى فأمنت طائفة وكفرت طائفة فاصبروا أيها الكفرة حتى يأتي حكم الله بيني وبينكم.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ قوة التهديد والوعيد، هذا ظاهر الكلام، وأن المخاطبة بجميع الآية للكفار.

وحكى منذر بن سعيد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الخطاب بقوله: ﴿فَاصْبِرُوا﴾ للمؤمنين على معنى الوعد لهم، وقاله مقاتل بن حيان. قال النقاش: وقال مقاتل بن سليمان: المعنى: فاصبروا يا معشر الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول الجماعة.

﴿٨٨﴾ - ﴿٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في معنى (المَلَأُ)، وفي معنى الاستكبار. وقولهم: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ

بَشَيْبٍ ﴿ تهديد بالنفي . والقرية : المدينة الجامعة للناس لأنها تَقَرَّتْ أي اجتمعت ، وقولهم : ﴿ أَوْ لَتَعُوذُنَّ فِي يَلِيَّتَانِ ﴾ معناه : أو لتصيرون . (عاد) تجيء في كلام العرب على وَجْهَيْنِ ، أحدهما : عاد الشيء إلى حالٍ قد كان فيها قبل ذلك ، وهي - على هذه الجهة - لا تتعدى ، فإن عُدِيَتْ فبحرف ، ومنه قول الشاعر :
 إِنِ عَادَتِ الْعَفْرَبُ عُدْنَا لَهَا
 وَكَانَتِ السُّغْلُ لَهَا حَاضِرَةً
 ومنه قول الآخر :

أَلَا لَيْتَ أَيَّامَ الشُّبَابِ جَدِيدُ
 وَعَضْرَأُ تَوَلَّى بِأُبْقَيْنُ يَعُوذُ
 ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَلِمَاتُكَ رَدُّوا لَعَادُوا لَنَا نُهْبًا عَنْكَ ﴾ . ومنه قول الشاعر :

فَإِنَّ تَكُنَّ الْأَيَّامُ أَحْسَنَ مَرَّةٍ
 إِلَيَّ فَمَقَدَّ عَادَتِ لَهُنَّ ذُنُوبُ
 والوجه الثاني : أن تكون بمعنى (صار) ، وعاملة عملها ، ولا تتضمن أن الحال كانت متقدمة ، ومن هذه قول الشاعر :

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبِنِ
 شَيْبًا بِمَاءٍ فَعَادَا بَعْدُ أَبُولَا
 ومنه قول الآخر :

وَعَادَ رَأْسِي كَالسُّغَامَةِ
 ومنه قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴾ ، على أن هذه محتملة ، فقوله في الآية : ﴿ أَوْ لَتَعُوذُنَّ ﴾ - وشعيب عليه السلام لم يكن قط كافراً - يقتضي أنها بمعنى صار ، وأما في جهة المؤمنين بعد كفرهم فترتب المعنى الآخر ويخرج عنه شعيب إلا أن يريدوا عودته إلى حال سكوته قبل أن يبعث .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَوْ كُنَّا كَاهِنِينَ ﴾ توقيف منه لهم على شعبة المعصية ، وطلب أن يقرروا بألسنتهم بإكراه المؤمنين بالله على الإخراج ظلماً وغشماً .

والظاهر في قوله تعالى : ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ أنه خبر منه ، أي : لقد كنا نواقع عظيماً ونفتري على الله الكذب في الرجوع إلى الكفر . ويحتمل أن يكون على جهة القسم الذي هو في صيغة الدعاء ، مثل قول الشاعر :

بَقُيْنَتْ وَفَسَّرِي

 وكما تقول : « افتريتُ على الله إن كلمت فلاناً » . (افتترينا) معناه :

شققنا بالقول واختلفنا ، ومنه قول عائشة رضي الله عنها : « من زعم أن محمداً ﷺ رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية » . ونجاة شعيب من ملتهم كانت منذ أول أمره ، ونجاة من آمن معه كانت بعد موافقة الكفر .

وقوله : ﴿ إِلَّا أَنْ يَنْبَأَ اللَّهُ ﴾ يحتمل أن يريد : إلا أن يسبق علينا من الله في ذلك سابق سوء وينفذ منه قضاء لا يرد .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : والمؤمنون هم المجوزون لذلك ، وشعيب قد عصمته النبوة ، وهذا أظهر ما يحتمل القول . ويحتمل أن يريد استثناء ما يمكن أن يتعبد الله تعالى به المؤمنين مما تفعله الكفار من الفُربَات ، فلما قال لهم : إنا لا نعود في ملتكم ، ثم خشي أن يتعبد الله بشيء من أفعال الكفرة

فيعارض مُلحد بذلك ويقول : هذه عودة إلى ملتنا - استثنى مشيئة الله تبارك وتعالى فيما يمكن أن يتعبد به . ويحتمل أن يريد بذلك معنى الاستبعاد كما تقول : لا أفعل كذا حتى يشيب الغراب وحتى يلج الجمل في سم الخياط - وقد علم امتناع ذلك - فهو إحالة على مستحيل .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا تأويل إنما هو للمعتزلة الذين من مذهبهم أن الكفر والإيمان ليسا بمشيئة من الله تعالى ، فلا يترتب هذا التأويل إلا عندهم ، وهذا تأويل حكاه المفسرون ولم يشعروا بما فيه ، وقيل : إن هذا الاستثناء إنما هو تشتر وتأدب .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : ويقلق هذا التأويل من جهة استقبال الاستثناء ، ولو كان في الكلام « إن شاء الله » قوي هذا التأويل .

وقوله : ﴿ وَبِعَ رَبِّنَا كُلِّ شَيْءٍ عَلَمًا ﴾ معناه : وبِعَ علم ربنا كل شيء ، كما تقول : تصبب زيد عرقاً ، أي : تصبب عرق زيد ، و « وبِعَ » بمعنى أحاط .

وقوله : (أفْتَحْ) معناه : احكم ، والفاتح والفتاح : القاضي بلغة حمير ، وقيل : بلغة مراد ، وقال بعضهم :

أَلَا أَبْلِغُ بَنِي عُضْمِ رَسُولَا
 قِيَّاسِي عَنْ فُتَا حَاتِكُمْ غَنِي
 وقال الحسن بن أبي الحسن : إن كل نبي أراد الله هلاك قومه أمره بالدعاء عليهم ثم استجاب له فأهلكهم ، وقال ابن عباس

رضي الله عنهما: ما كنت أعرف
معنى هذه اللفظة حتى سمعت بنت
ذي يزن تقول لزوجها: تعال
أفاتحك، أي: أحاكمك.

وقوله: ﴿عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا﴾
استسلام لله وتمسك بلفظه، وذلك
يؤيد التأويل الأول في قوله: ﴿إِلَّا
أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾.

﴿٩٠﴾ - ﴿٩١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه المقالة قالها المملأ لاتباعهم
وسائر الناس الذين يقلدونهم.

﴿الرَّجَعُكُمُ﴾: الزلزلة الشديدة التي
ينال معها الإنسان اهتزاز وارتعاد
واضطراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويحتمل أن فرقة من قوم شعيب
أهلكت بالرجفة، وفرقة بالظلة،
ويحتمل أن الظلة والرجفة كانتا في
حين واحد. وروي أن الله تبارك
وتعالى بعث شعيباً إلى أهل مدين
وإلى أصحاب الأيكة، وقيل: هما
طانفان، وقيل: واحدة، وكانوا - مع
كفرهم - يبخسون الكيل والوزن
فدعاهم فكذبوه فجرت بينهم هذه
المقابلة المتقدمة، فلما عتوا وطالت
بهم المدة فتح الله عليهم باباً من
أبواب جهنم فأهلكهم الحر من فلم
ينفعهم ظل ولا ماء، ثم إنه بعث
سحابة فيها ريح طيبة فوجدوا بزد
الريح وطيبها فنتادوا: عليكم الظلة،
فلما اجتمعوا تحت الظلة وهي تلك
السحابة انطبقت عليهم فأهلكتهم.

قال الطبري: فبلغني أن رجلاً من
أهل مدين يقال له عمرو بن جهلاً
قال لما رآها:

يَا قَوْمِ إِنَّ شَعِيباً مُرْسَلٌ قَدَرُوا
عَنكُم سَجِيراً وَعِمْرَانُ بِنُّ شَدَادٍ
إِنِّي أَرَى غَيْمَةً يَا قَوْمِ قَدْ طَلَعَتْ
تَدْعُو بِصَوْتٍ عَلَى صَمَانَةِ الْوَادِي
وَإِنكُمُ إِن تَرَوْا فِيهَا ضَحَاةً عَدِيداً
إِلَّا الرِّقِيمَ يُمَشِّي بَيْنَ أَنْجَادِ
وَسَمِيرٍ وَعِمْرَانَ: كَاهِنَاهُمْ،
وَالرِّقِيمَ: كَلْبُهُمْ. وَرَوَى أَنْ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا ذَكَرَ شَعِيباً
قَالَ: «ذَلِكَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ» لِقَوْلِهِ
لِقَوْمِهِ: ﴿وَمَا أَرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا
أَنْهَيْكُمْ عَنْهُ إِن أَرِيدُ إِلَّا الْإِسْلَامَ مَا
أَسْلَمْتُ وَمَا قَوْلِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
يريد: ليحسن مراجعته وجميل
تلفظه.

وحكى الطبري عن أبي عبدالله
الجلبي أنه قال: أبو جاد، وهوز،
وحطبي، وكلمن، وسعقن،
وقرشت: أسماء ملوك مدين، وكان
الملك يوم الظلة (كلمن) فقالت أخته
ترثيه:

كَلَّمُنْ قَدْ هُدُرْ كُنِي
هُلْكُهُ وَسَطُ الْمَجَلَّةِ
سَيِّدُ الْقَوْمِ أَتَاهُ الْـ
خَتَفُ نَارٍ وَسَطُ ظِلَّةِ
جُعِلَتْ نَاراً عَلَيْنِهِمْ
دَارُهُمْ... كَالْمُضْمَجَلَّةِ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه حكاية مظنون بها، والله أعلم.
وقد تقدم معنى ﴿جَحِيبِينَ﴾. وقوله
تعالى: ﴿كَأَنَّ لَمْ يَتَوَّأ فِيهَا﴾ لفظ فيه
الإخبار عن قوّة هلاكهم، ونزول
النقمة بهم، والتنبية على العبرة بهم،
ونحو هذا قول الشاعر:

كَأَنَّ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْحَجْرَيْنِ إِلَى الصَّفَا
.....

﴿يَتَوَّأ﴾ معناه: يقيموا ويسكنوا.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
﴿وَعَنَيْتُ فِي الْمَكَانِ﴾ إنما يقال في
الإقامة التي هي مقترنة بتعمم وعيش
رختي، هذا الذي استقرئت من
الأشعار التي ذكرت العرب فيها هذه
اللفظة، فمن ذلك قول الشاعر:

وَقَدْ نَغَيْتُ بِهَا وَتَرَى عَصُوراً
بِهَا يَفْتَدِنُنَا الْخُرْدُ الْخِذَالُ
ومنه قول الآخر:

وَلَقَدْ نَغَيْتُ بِهَا جِبْرَانِكِ آلِ
مُمْسِكُو مَشِكِ بِعَهْدِ وَوَصَالِ
أَشْدُهُ الطبري، ومنه قول الآخر:

أَلَا حَيٌّ مِنْ أَجْلِ الْحَبِيبِ الْمَعَانِيَا
.....
ومنه قول مهلهل:

عَنَيْتُ دَارَنَا تِهَامَةَ فِي الدَّفْرِ
بِرِّ، وَفِيهَا بَشُومُ مَعْدُ خُلُولَا
ويشبه أن تكون اللفظة من
الاستغناء. وأما قوله تعالى: ﴿كَأَنَّ لَمْ
تَقَنَّ بِالْأَمْسِينَ﴾ ففيه هذا المعنى، لأن
المراد: كأن لم تكن ناعمة نضرة
مستقلة، ولا توجد - فيما علمت -
إلا مقترنة بهذا المعنى، وأما قول
الشاعر:

عَنَيْتَا زَمَاناً بِالتَّصْغُلِكِ وَالنَّغْيِ
وَكَلَّأ سَقَانَاهُ بِكَاسِيهَا الدَّفْرِ
فمعناه: استغنينا بذلك ورضيناها،
مع أن هذه اللفظة ليست مقترنة
بمكان.

وقوله تعالى: ﴿يَقْوَرُ لَقَدْ أَتَقْنَاكُمْ
رِسَالَتِي رَقِي﴾ إلى آخر الآية كلام

وهي السراء والنعمة - وهذا بحسب ما عند الناس، وإلا فقد يجيء الأمر كما قال الشاعر:

قَدْ يُنْعِمُ اللَّهُ بِالْبَلْوَى وَإِنْ عَظُمَتْ
وَيَبْتَلِي اللَّهُ بَعْضَ الْقَوْمِ بِالنِّعَمِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا إنما يصح مع النظر إلى الدار الآخرة والجزاء فيها، والنعمة المطلقة هي التي لا عقوبة فيها، والبلوى المطلقة هي التي لا ثواب عليها.

(وَحَتَّى عَقَرُوا) معناه: حتى كثروا، يقال: عفا الثبات والریش يعفو - إذا كثر نباته، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وَلِكَيْتَا نُخْضَ السَّيْفِ مِنْهَا
بِأَسْوَقِ عَائِيَاتِ الشُّخْمِ كَوْمٍ
وعليه قوله ﷺ: «احفوا الشوارب وأهفوا اللحي»، وغفا أيضاً في اللغة بمعنى ذرَسَ ويَلِي، فقال بعض الناس: هي من الألفاظ التي تستعمل للضدين، وأما قول زهير:

عَلَى آثَارِ مَنْ ذُكِبَ الْعَفَاءُ
فيحتمل ثلاثة معان: الدعاء بالدرس، والإخبار به، والدعاء بالنمو للنبات، كما يقال: جادته الدَيْمُ وسقته العِهَادُ، ولما بدل الله حالهم بالخير لطفاً بهم فنموا رأى الخلق بعد ذلك - للكفر الذي هم فيه - أن إصابة الضراء والسراء إنما هي بالاتفاق، وليست بقصد كما يخبر النبي، واعتقدوا أن ما أصابهم من ذلك إنما هو كالاتفاق الذي كان لأبائهم فجعلوه مثلاً، أي: قد أصاب هذا آباءنا فلا ينبغي لنا أن

وهي لغة، كما يقال: إخال وإيمن قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لا إخاله، وقال ابنه عبدالله بن عبدالله بن عمر في كتاب الحج: لا إيمن، وجميع ذلك في البخاري، وهذه اللغة تطرد في العلامات الثلاث: همزة التكلم ونون الجماعة وتاء المخاطبة. ولا يجوز ذلك في ياء الغائب، كذا قال سيبويه، وأما قولهم من (وَجَلْ): ييجل فلعلّه من غير هذا الباب.

٩٤ - تفسير قوله عز وجل: هذه الآية خبر من الله عز وجل أنه ما بعث نبياً في مدينة - وهي القرية - إلا أخذ أهلها المكذبين له بالبأساء وهي المصائب في الأمال والهموم وعوارض الزمن، والضراء وهي المصائب في البدن كالأمراض ونحوها، هذا قول ابن مسعود رضي الله عنه وكثير من أهل اللغة، وحكي عن السدي ما يقتضي أن اللفظتين تتداخلان فتقال كل واحدة على المعنيين، و ﴿لَمَلَمٌ﴾ ترخ بحسب اعتقاد البشر وظنونهم، و﴿بَصْرَعُونَ﴾ أي ينقادون إلى الإيمان. وهكذا قولهم: «الحمى أضرعتي لك».

ثم قال تعالى إنه بعد إنفاذ الحكم في الأولين بدل للخلق مكان السيئة - وهي البأساء والضراء - الحسنئة -

وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىءِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٤﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىءِ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بِيْتَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٥﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىءِ أَن يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُجًى وَهُمْ يُلْعَبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ أَهْلِهَا أَن لَّوَنَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطَّعَ عَلٰى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٩٨﴾ تِلْكَ الْقُرَىءُ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبِيَآئِهَا وَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَلِكَ يَطِيعُ اللَّهُ عَلٰى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ ﴿٩٩﴾ وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِن عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا لَكُنْهُمُ لَفَاسِقِينَ ﴿١٠٠﴾ ثُمَّ بَعَثْنَا مِن بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِنَارِيبَتَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٠١﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ يُفِرُّونَ مِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾

١٦٣

يقتضي أن شعبياً عليه السلام وجد في نفسه لما رأى هلاك قومه حزناً وإشفاقاً إذ كان أمه فيهم غير ذلك، فلما وجد ذلك طلب أن يشير في نفسه سبب التسلّي عنهم والقسوة عليهم، ففعل يُعَدُّ عليهم معاصيهم وإعراضهم الذي استوجبوا به ألا يتأسف عليهم، فذكر أنه بلغ الرسالة ونصح. والمعنى: فأعرضوا وكذبوا، ثم قال لنفسه لما نظرت في هذا وفكرت فيه: فكيف أسى على هؤلاء الكفرة؟ ويحتمل أن يقول هذه المقالة على نحو قول النبي ﷺ لأهل قليب بدر، وقال مكّي: وسار شعيب بمن معه حتى سكن مكة إلى أن ماتوا بها.

﴿ءَاسِنٌ﴾ أحزن. وقرأ ابن وثاب، وطلحة بن مصرف، والأعمش: ﴿إيسى﴾ بكسر الهمزة

نكره، فأخبر الله تعالى أنه أخذ هذه الطوائف التي هذا معتقدها. وقوله: ﴿بَقْتَهُ﴾ أي فجأة وأخذة أسف ويطشاً للشقاء السابق لهم في قديم علمه. والسرءاء: السرور والخبرة. ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: وهم مكذبون لا يحسسون لشيء منه ولا يشعرونه باستدلال ولا غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا﴾ الآية. المعنى في هذه الآية أنهم لو كانوا ممن سبق في علم الله أن يكتسبوا الإيمان والطاعات ويصوموا بالتقى لتبع ذلك من فضل الله ورحمته وإنعامه ما ذكر من بركات المطر والنبات، ولكنهم لما كانوا ممن سبق كفرهم وتكذيبهم تبع ذلك أخذ الله لهم بسوء ما اجترموه. وكل مقدور، والشواب والعقاب متعلق بكسب البشر، وبسببه أسندت الأفعال إليهم في قوله: ﴿ءَامَنُوا وَأَتَّقَوْا﴾ وفي ﴿كَذَّبُوا﴾.

وقرأ السُّنَّة من القراء السبعة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ بتخفيف التاء، وهي قراءة الناس، وقرأ ابن عامر وحده، وعيسى الثقفي، وأبو عبدالرحمن: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا﴾ بتشديد التاء. وفتح البركات: إنزالها على الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ﴾، ومنه قالت الصوفية: الفتح والبركات: الثمؤ والزيادات. و﴿يَنْزِلُ السَّمَاءَ﴾ لجهة المطر والريح والشمس، ﴿وَالْأَرْضِ﴾ لجهة الإنبات والحفظ لما ينبت، هذا هو الذي يدركه نظر البشر، والله خدام غير ذلك لا يُحصى عددهم، وما في علم الله أكبر.

﴿١٠٠﴾ - تفسير قوله عز وجل: هذه الآية تتضمن وعيداً للكفار المعاصرين لمحمد ﷺ، لأنه لما أخبر عما فعل في الأمم الخالية قال: ومن يؤمن هؤلاء أن ينزل بهم مثل ما نزل بأولئك؟ وهذا استفهام على جهة التوقيف.

والبأس: العذاب، و﴿يَبْتَئُونَ﴾ نصب على الظرف، أي وقت مبيتهم بالليل، ويحتمل أن يكون هذا في موضع الحال.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿أَوْ أَمِينٌ﴾ بسكون الواو وإظهار الهمزتين، وقرأ ورش عن نافع: ﴿أَوْ آمِينَ﴾ بفتح الواو وإلقاء حركة الهمزة الثانية عليها، وهذه القراءة في معنى الأولى ولكنها سهلت. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَدْ﴾ بفتح الواو وإظهار الهمزتين، ومعنى هذه القراءة أنه دخل ألف الاستفهام على حرف العطف، ومعنى القراءة الأولى أنه عطف بد (أو) والتي هي لأحد الشيتين، والمعنى: أفأمنوا هذا أو هذا؟ كما تقول: «أجاء زيد أو عمرو؟» وليست هذه (أو) التي هي للإضراب عن الأول، كما تقول: «أنا أقوم أو أجلس» وأنت تقصد الإضراب عن القيام والإثبات للجلوس وتقريره، وقولنا: التي هي لأحد الشيتين يعم الإباحة والتخير، كقولك: جالس الحسن أو ابن سيرين، أو قولك: جالس الحسن أو جالس ابن سيرين، وقوله: ﴿وَهُمْ﴾ يريد: في غاية الغفلة والإعراض.

و﴿مَكَرَ اللَّهُ﴾ هي إضافة

مخلوق إلى خالق، كما تقول: ناقة الله، وبيت الله، والمراد فعل يعاقب به مرّة الكفار، وأضيف إلى الله لما كان عقوبة الذنب، فإن العرب تسمي العقوبة - على أي وجه كانت - باسم الذنب الذي وقعت عليه العقوبة، وهذا نص في قوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ﴾ وهذا الموضع أيضاً، كأن كفرهم بعد الرسالة وظهور دعوة الله مكر وخديعة واستخفاف. وقيل: عومل - في مثل هذا وغيره - اللفظ دون المعنى في مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ﴾، وإن الله لا يَمَل حتى تملوا وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَوَّلَ يَدٍ يَدَىٰ لِلَّذِينَ يُرِثُونَ الْأَرْضَ﴾ الآية. هذه ألف تقرير دخلت على واو العطف، و﴿يَهْدِي﴾ معناه: يبين ويوضح، والهدى: الصباح، وأنشدوا على ذلك:

حَتَّى اسْتَبْتَحْتُ الْهَدَىٰ وَالْبَيْدُ هَاجِمَةٌ
يَسْبِخُنَ فِي الْأَلْ غُلْفًا أَوْ يَصْلِينَا
ويحتمل أن يكون المبيتين الله تعالى، ويحتمل أن يكون المبيتين الله قوله: ﴿أَنْ لَوْ نَشَاءُ﴾ أي علمهم بذلك. وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: ﴿يَهْدِي﴾ معناه: يبين، وهذه أيضاً وعيد، أي: ألم يظهر لوارثي الأرض بعد أولئك الذين تقدم ذكرهم وما حل بهم أنا نقدر لو شئنا أن نصيبهم إصابة إهلاك بسبب معاصيهم كما فعل بمن تقدم، وكنا نطيع أي نختم عليها بالشقاوة، وفي هذه العبارة ذكر القوم الذين قصد ذكرهم، وتعيد النعمة عليهم فيما

يريد وصفهم بأنهم لم يكونوا ليؤمنوا بما قد سبق في علم الله تبارك وتعالى أنهم مكذبون به، فجعل سابق القدر عليهم بمثابة تكذيبهم بأنفسهم لا سيما وقد خرج تكذيبهم إلى الوجود في وقت مجيء الرسل. وذكر هذا التأويل المفسرون وقرنوه بأن الله عز وجل حتم عليهم التكذيب وقت أخذ الميثاق، وهو قول أبي بن كعب رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِمْ مِنْ عَهْدٍ﴾ الآية. أخبر تعالى أنه لم يجد لأكثرهم ثبوتاً على العهد الذي أخذه على ذرية آدم وقت استخراجهم من ظهره. قاله أبو العالية عن أبي بن كعب. ويحتمل أن يكون الكلام عبارة عن أنهم لم يصرفوا عقولهم في الآيات المنصوية، ولا شكروا نعم الله، ولا قادتهم معجزات الأنبياء، لأن هذه الأمور عهد في رقاب العقلاء كالعهد بنبغي أن يوفى بها، وأيضاً فمن لدن آدم عليه السلام تقرر العهد الذي هو بمعنى الوصية، وبه فسر الحسن هذه الآية، فيجئ المعنى: وما وجدنا لأكثرهم التزام عهد وقبول وصاة. ذكره المهدي. ﴿وَمِنْ﴾ في هذه الآية زائدة، إلا أنها تعطي استغراق جنس العهد، ولا تجيء هذه إلا بعد النفي، و﴿وَإِنْ﴾ هي المخففة من الثقيلة عند سيويه، واللام في قوله: ﴿الْفَاسِقِينَ﴾ للفرق بين (إن) المخففة وغيرها، و﴿وَإِنْ﴾ عند الفراء هي بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إلا)، والتقدير عنده: وما وجدنا أكثرهم إلا فاسقين.

جاء لكل فريق منهم فكذبوه لأول أمره، ثم استبانت حجته، وظهرت الآيات الدالة على صدقه مع استمرار دعوته، فلجأوا هم في كفرهم، ولم يؤمنوا بما تبين به تكذيبهم من قبل. وكأنه وصفهم - على هذا التأويل - باللجاج في الكفر والصرامة عليه، ويؤيد هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطَّبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾. ويحتمل - في هذا الوجه - أن يكون المعنى: ﴿فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا﴾ أي: ما كانوا ليوقفهم الله إلى الإيمان بسبب أنهم كذبوا من قبل فكان تكذيبهم سبباً لأن يمنموا الإيمان بعد.

والثاني من الوجوه أن يريد: فما كان آخرهم في الزمن والعصر ليهتدي ويؤمن بما كذب به أولهم في الزمن والعصر، بل كفر كلهم، ومشى بعضهم على سنن بعض في الكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أشار إلى هذا القول النقاش، فكان الضمير في قوله: ﴿كَانُوا﴾ يختص بالآخرين، والضمير في قوله: ﴿كَذَّبُوا﴾ يختص بالقدماء منهم.

والثالث من الوجوه يحتمل أن يريد: فما كان هؤلاء المذكورون بأجمعهم - لو رُدُّوا إلى الدنيا ومكَّنوا من العودة - ليؤمنوا بما كذبوا في حال حياتهم ودعاء الرسول لهم، قاله مجاهد وقرنه بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لَنَا بُهًا عَنْهُمْ﴾، وهذه أيضاً صفة بليغة في اللجاج والثبوت على الكفر، بل هي غاية في ذلك.

والرابع من الوجوه أنه يحتمل أن

ورثوا، والوعظ يحال من سلف من المهلكين. و﴿وَنَطَّبَعُ﴾ عطف على ﴿أَصْبَنَّا﴾ إذ المراد به الاستقبال، ويحتمل أن يكون ﴿وَنَطَّبَعُ﴾ منقطعاً إخباراً عن وقوع الطبع لا أنه متوعد به، ويبقى التوعد بالإهلاك الذي هو بعداذ كالصيحة والغرق ونحوه، وقرأ أبو عمرو: ﴿وَنَطَّبَعُ عَلَيَّ﴾ بإدغام العين في العين وإشمام الضم، ذكره أبو حاتم.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿تِلْكَ﴾ ابتداء، و﴿الْفَرَى﴾ قال قوم: هو نعت والخبر ﴿نَقُصُّ﴾، ويؤيد هذا أن القصد إنما هو الإخبار بالقصص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر عندي أن ﴿الْفَرَى﴾ هي خبر الابتداء، وفي ذلك معنى التعظيم لها ولمهلكها، وهذا كما قيل في ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾: إنه ابتداء وخبر. وكما قال ﷺ: ﴿أولئك الملاء﴾ وبقول أبي الصلت:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ.....

وهذا كثير. وكان في اللفظ معنى التحسر على القرى المذكورة، والمعنى: نقص عليك من أنبياء الماضين لتبين العبر وتعلم المثلث التي أوقفها الله بالماضين.

ثم ابتداء الخبر عن جميعهم بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا يَمَا كَذَّبُوا مِنْ بَقَلُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الكلام يحتمل أربعة وجوه من التأويل: أحدها أن يريد أن الرسول

﴿١٠٣﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿يُنْزِلُ بِهِمُ﴾ عائد على الأنبياء المتقدم ذكرهم وعلى أممهم، والآيات في هذه الآية - عام في الشنع وغيرها، وقوله تعالى: ﴿فَطَلَمُوا بِهَا﴾ المعنى: فظلموا أنفسهم فيها وبسببها وظلموا أيضاً مظهرها ومتبعي مظهرها. وقيل: لما نُزِلَتْ ﴿فَطَلَمُوا﴾ منزلة (كفروا) و(جحدوا) عدت بالباء، كما قال:

قَدْ قَتَلَ السَّلَّةُ زبَاداً عَنِّي
فَأَنْزَلَ (قَتَلَ) منزلة (صَرَفَ)، ثم حذر الله تعالى من عاقبة المفسدين الظالمين، وجعلهم مثلاً يتوعد به كفره عصر النبي ﷺ.

وفرعون: اسم كل ملك لمصر في ذلك الزمان، فخطبه موسى عليه السلام بأعظم أسمائه وأحبها إليه إذ كان من الفراعنة كالنمارذة في اليونان وقيصر في الروم وكسرى في فارس والنجاشي في الحبشة. وروي أنه موسى بن عمران بن فاهت بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم خليل الرحمن، وروي أن اسم فرعون موسى عليه السلام الوليد بن مصعب، وقيل: هو فرعون يوسف، وأنه عمر نيفاً وأربعمائة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال إن يوسف المبعوث الذي أشار إليه موسى في قوله: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلِ بِالْيَتِيمِ﴾ هو غير يوسف الصديق فليس يحتاج إلى نظر، ومن قال إنه يوسف الصديق فيعارضه ما يظهر من قصة يوسف،

وذلك أنه ملك مصر بعد عزيزها، فكيف يستقيم أن يعيش عزيزها إلى مدة موسى؟ فينفصل أن العزيز ليس بفرعون الملك، إنما كان حاجباً له.

وقرأ نافع وحده ﴿عَلَى﴾ بإضافة (على) إليه، وقرأ الباقون ﴿عَلَى﴾ بسكون الياء، قال الفارسي: معنى هذه القراءة أن (على) وضعت موضع (الباء)، كأنه قال: ﴿حَقِيقٌ بِأَلَا﴾ أقول على الله إلا الحق، كما وضعت (الباء) موضع (على) في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ﴾ فيتوصل إلى المعنى بهذه وبهذه، وكما تجيء (على) أيضاً بمعنى (عن)، ومنه قول الشاعر في صفة قوسه:

أرسي عليها وفي فزع أجمع
وفي ثلاث أذرع وإصبع
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ﴿حَقِيقٌ﴾ - على هذا - معناه: جدير وخليق، وقال الطبري: قال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ معناه: حريص فلذلك وصلت بـعَلَى، وفي هذا القول بُغِدَ، وقال قوم: ﴿حَقِيقٌ﴾ صفة لـ﴿رَسُولٍ﴾، ثم عندهما الكلام، و﴿عَلَى﴾ خير مقدم، و﴿أَن لَّا أَقُولَ﴾ ابتداءً تقدم خبره، وإعراب ﴿أَنَّ﴾ على قراءة من سكن الياء خفض، وعلى قراءة من فتحها مشددة رفع، وقال الكسائي: في قراءة عبدالله: ﴿حَقِيقٌ بِأَلَا أَقُولَ﴾، وقال أبو

حَقِيقٌ عَلَيَّ أَن لَّا أَقُولُ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ
بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٣﴾ قَالَ إِنْ كُنْتُ
جِئْتُ بِبَيِّنَاتٍ فَأَيَّ آلَاءِ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٠٤﴾ فَأَقْرَأْ
عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ شُجَاءٌ مُبِينٌ ﴿١٠٥﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بِيضَاءٌ
لِلنَّظِيرِينَ ﴿١٠٦﴾ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَدِيرٌ
عَلَيْكُمْ ﴿١٠٧﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَأَمَّا تَأْمُرُونَ ﴿١٠٨﴾
قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ خَبِيرِينَ ﴿١٠٩﴾ يَا تُوَكُّ
يَكُلُّ سَدِيرٌ عَظِيمٌ ﴿١١٠﴾ وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ
لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ
لَمِنَ الْمُفْرِقِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّمَا أَنَّا بَشَرٌ لِمِثْلِهِ
وَمَا آتَاكَ مِن شَيْءٍ إِلَّا كَمَا نُحْيِي الْمَوْتَىٰ أَمْ لَكَ
أَعْيُنٌ عَلَىٰ آلَافِ سُدُورٍ ﴿١١٣﴾ وَاسْتَهْوَاهُمْ وَجَاهَهُ وَسِعَرَ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾
﴿١١٥﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا
يَأْفِكُونَ ﴿١١٦﴾ فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١١٧﴾ فغلبوا
هناك وارتقلبوا صغرين ﴿١١٨﴾ وألقى السحرة سحريين ﴿١١٩﴾

عمرو: في قراءة عبدالله: ﴿حَقِيقٌ أَن أَقُولَ﴾ وبه قرأ الأعمش. وهذه المخاطبة - إذا تأملت - غاية في التلطف في القول اللين الذي أمر عليه السلام به.

وقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ الآية. البيئنة هنا إشارة إلى جميع آياته، وهي على المعجزة هنا أدل، وهذا من موسى عرض نبوته، ومن فرعون استدعاءً خرق العادة الدال على الصدق.

وظاهر الآية وغيرها أن موسى عليه السلام لم تثبت شريعته إلا على بني إسرائيل فقط، ولم يدع فرعون وقومه إلا إلى إرسال بني إسرائيل، وذكره لعله يخشى أو يركى ويوحد كما يذكر كل كافر، إذ كل نبي داع إلى التوحيد وإن لم يكن آخذاً به ومقاتلاً عليه، وأما أنه دعاه إلى أن

يؤمن ويلتزم جميع الشرع فلم يرد هذا نصاً، والأمر محتمل، وبالجملة فيظهر فرق ما بين بني إسرائيل وبين فرعون والقيبط، ألا ترى أن بقية القبط وهم الأكثر لم يرجع إليهم موسى عليه السلام أبداً ولا عارضهم، وكان القبط مثل عبدة البقر وغيرهم؟ وإنما احتاج إلى محاوراة فرعون لتملكه على بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ﴾ الآية. روي أن موسى عليه السلام قلق به وبمحاورته، فقال فرعون لأعوانه: خذوه، فألقى موسى العصا فصارت ثعباناً وهمت بفرعون فهرب منها، وقال السدي: إنه أحدث وقال: يا موسى كُفَّ عني فكُفَّه، وقال نحوه سعيد بن جبيرة.

و﴿إِذَا﴾ ظرف مكان في هذا الموضع عند المبرد من حيث كانت خيراً عن جُئته، والصحيح الذي عليه الناس أنها ظرف زمان في كل موضع، ويقال: إن الثعبان وضع أسفل لحيه في الأرض وأعلاه في شرفات القصر. والثعبان: الحية الذكر، وهو أهول وأجراً، قاله الضحاك، وقال قتادة: صارت حية شعراء ذكراً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غرزت ذنبها في الأرض ورفعت صدرها إلى فرعون. وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ معناه: لا تخييل فيه، بل هو بين أنه حقيقة، وهو من أبان بمعنى بان، أو من بان بمعنى سلب عن أجزائه. وقوله: ﴿وَرَفَعَ يَدَيْهِ﴾ معناه: من جيبه أو كُفمه حسب الخلاف في

ذلك، وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ﴾ قال مجاهد: كاللبن أو أشد بياضاً، وروي أنها كانت تظهر منيرة شفافة كالشمس تأتلق، وكان موسى عليه السلام ذا دم أحمر إلى السواد، ثم كان يرُدُّ يده فترجع إلى لون بدنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهاتان الآيتان عرضهما موسى عليه السلام للمعارضة، ودعا إلى الله تعالى بهما، وخرق العادة بهما، وتحدى الناس إلى الدين بهما، فإذا جعلنا التحدي الدعاء إلى الدين مطلقاً فهما تحدي، وإذا جعلنا التحدي الدعاء بعد العجز عن معارضة المعجزة وظهور ذلك فتفرد حينئذ العصا بذلك، لأن المعارضة والعجز فيها وقعا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال: التحدي هو الدعاء إلى الإتيان بمثل المعجزة، فهذا نحو ثالث، وعليه يكون تحدي موسى بالآيتين جميعاً، لأن الظاهر من أمره أنه عرضهما للنظر معاً وإن كان لم ينص على الدعاء إلى الإتيان بمثلهما، وروي عن فرقد السنجي أن فم الحية كان يفتح أربعين ذراعاً.

﴿١١٠﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل: الساحر كان عندهم في ذلك الزمن أعلى المراتب وأعظم الرجال، ولكن وصفهم موسى بذلك مع مدافعتهم له عن النبوة ذمٌ عظيم وحط، وذلك قصدوا إن لم يمكنهم أكثر، وقولهم: ﴿رُبُّدُ أَنْ يُخْرِجَكَ مِنْ أَرْضِكَ﴾ يعنون بأنه يحكم فيكم بنقل رعيتكم في بني إسرائيل فيفضي ذلك إلى خراب دياركم إذا ذهب الخدم

والعمرة، وأيضاً فلا محالة أنهم خافوا أن يقاتلهم، وجالت ظنونهم في كل مجال، وقال النقاش: كانوا يأخذون من بني إسرائيل خرجاً كالجزية فرأوا أن ملكهم يذهب بسزوال ذلك. وقوله: ﴿مَتَانًا تَأْتُرُونَ﴾ الظاهر أنه من كلام الملا بعضهم إلى بعض. وقيل: هو من كلام فرعون لهم، وروي كروم عن نافع ﴿تَأْتُرُونَ﴾ بكسر النون، وكذلك في الشعراء. و﴿مَا﴾ استفهام، و﴿ذَا﴾ بمعنى (الذي)، فهما ابتداء وخبر، وفي ﴿تَأْتُرُونَ﴾ ضمير عائد على (الذي) تقديره: تأمرون به، ويجوز أن تجعل ﴿مَاذَا﴾ بمنزلة اسم واحد في موضع نصب بـ﴿تَأْمُرُونَ﴾ ولا يضم فيه على هذا.

قال الطبري: والسحر مأخوذ من: سَحَرَ المَطَرُ الأرض إذا جادها حتى يقلب نباتها ويقلعه من أصوله، فهو يسحرها سحراً، والأرض مسحورة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما سحر المطر الطين إذا أفسده حتى لا يمكن فيه عمل، والسحر: الأخذة التي تأخذ العين حتى ترى الأمر غير ما هو، وربما سحر الذهن، ومنه قول ذي الرُّمة:

وساجرةُ السُّرابِ مِنَ السَّمَوِي
تُرْقِصُ فِي نَوَاسِرِهَا الأرومُ
أراد أنه يخيل نفسه ماء للعيون.

ثم أشار الملا على فرعون بأن يؤخر موسى وهارون ويدع النظر في أمرهما ويجمع السحرة من كل مكان حتى تكون غلبة موسى بحجة واضحة معلومة بيّنة.

وقرأ ابن كثير: ﴿أَرْجِنُهُو﴾ بواو بعد

الهاء المضمومة وبالهزم قبل الهاء،
وقرأ أبو عمرو: ﴿أَزْجِفُهُ﴾ بالهزم
دون واو بعدها، وقرأ نافع وحده في
رواية قالون: ﴿أَزْجُوهُ﴾ بكسر الهاء،
ويحتمل أن يكون المعنى أخره فسهل
الهمزة، ويحتمل أن يكون من الرجا
بمعنى: أطمئنه ورجه، قاله المبرد،
وقرأ ورش عن نافع: ﴿أَزْجِهِي﴾ بياء
بعد كسرة الهاء، وقرأ ابن عامر:
﴿أَزْجِفُوهُ﴾ بكسر الهاء وبهمزة قبلها.
قال الفارسي: وهذا غلط. وقرأ
عاصم والكسائي: ﴿أَزْجِفُهُ﴾ بضم
الهاء دون همز، وروى أبان عن
عاصم: ﴿أَزْجِيَهُ﴾ بسكون الهاء، وهي
لغة تقف على هاء الكتابة إذا تحرك ما
قبلها، ومنه قول الشاعر:

أَنْحَى عَلَيَّ الدُّمْرُ رَجُلًا وَبَدَأَ
يُقْسِمُ لَا يُضْلِحُ إِلَّا أُنْسِدَا
فِيضْلِحُ الْيَوْمَ وَيُفْسِدُهُ عَدَا
وقال الآخر:

لَمَّا رَأَى أَنْ لَا دَعَا وَلَا شَبَعَ
مَالَ إِلَى أَرْطَاةٍ حَقِيفٍ قَاضِطٍ جَعَجَ
وحكى النقاش أنه لم يكن يجالس
فرعون وَلَدُ غِيَّةٍ وَإِنَّمَا كَانُوا أَشْرَافًا،
ولذلك أشاروا بالإرجاء ولم يسيروا
بالقتل وقالوا: إن قتله دَخَلَتْ عَلَى
الناس شبهة، ولكن اغلبه بالحجة.
﴿الَّذِينَ﴾ جمع مدينة، وزنها فعيلة
من مَدَّنَ، أو مَفْعَلَةٌ من دان يدين،
وعلى هذا يهزم مدائن أو لا يهزم،
﴿حَشِيرِينَ﴾ معناه: جامعين، قال
المفسرون: وهم الشُّرَطُ، وقرأ ابن
كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم،
وابن عامر: ﴿يَكْلُ سَحَارًا﴾ وقرأ
حمزة والكسائي: ﴿يَكْلُ سَحَارًا﴾
على بناء المبالغة، وكذلك في سورة

يونس، وأجمعوا على ﴿سَحَارًا﴾ في
سورة الشعراء، وقال قتادة: معنى
الإرجاء الذي أشاروا إليه: السجن
والحبس.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ﴾
الآية. هنا محذوفات يقتضيها ظاهر
الكلام، وهي أنه بعث إلى السحرة
وأمرهم بالمجيء. وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: إنه بعث غلماناً
فعلموا بالقرآن.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم في
رواية حفص: ﴿إِنَّا لَنَّا لَأَجْرًا﴾ على
جهة الخبر، وقرؤوا في الشعراء:
﴿أَنَّ لَنَا﴾ ممدودة مفتوحة الألف غير
عاصم فإنه لا يمدّها، قال أبو علي:
ويجوز أن تكون على جهة الاستفهام
وحذف ألفها، وقد قيل ذلك في
قوله: ﴿أَنَّ عَبْدًا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، ومنه
قول الشاعر:

أَنْزَحَ أَنْ أَرْزَأَ الْكِرَامَ.....

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة،
والكسائي هنا وفي الشعراء: ﴿أَتَيْنَ﴾
بألف الاستفهام قبل ﴿إِنَّ﴾، وقرأت
فرقة: ﴿أَتَيْنَ﴾ بدون مدّ، وقرأ أبو
عمرو هنا وفي الشعراء: ﴿أَتَيْنَ﴾.

والأجر هنا: الأجرة، فاقترحوها إن
غلبوا، فأنعم فرعون لهم بها وزادهم
المنزلة والجاه، ومعناه: المقربين
مئي. وروي أن السحرة الذين جاؤوا
إلى فرعون كانوا خمسة عشر ألفاً،
قاله ابن إسحق، وقال ابن جريج:
كانوا تسعمائة، وذكر النقاش أنهم
كانوا اثنين وسبعين رجلاً، وقال
عكرمة: كانوا سبعين ألفاً، وقال

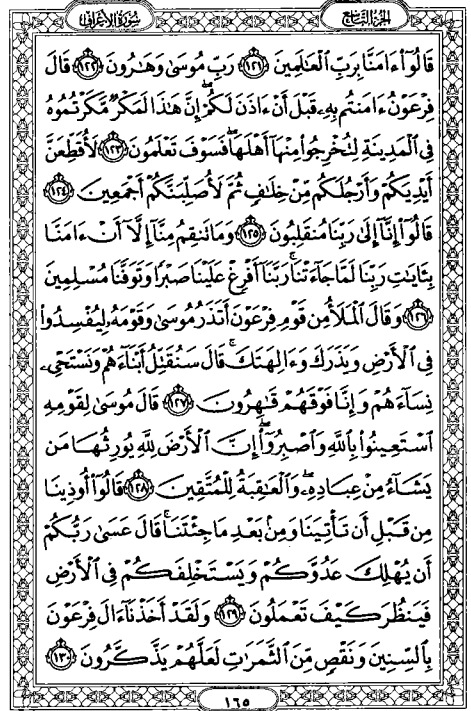
محمد بن المنذر: كانوا ثمانين ألفاً،
وقال السدي: ماتني ألف ونيّفًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه الأقوال ليس لها سند يوقف
عنده، وقال كعب الأحبار: كانوا
اثنى عشر ألفاً، وقال السدي: كانوا
بضعة وثلاثين ألف رجل مع كل
رجل حبل وعصا، وقال أبو ثمامة:
كانوا سبعة عشر ألفاً.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَكُونُ مِنَّا مَنْ
تَلْفَيْ﴾ الآية. ﴿أَنَّ﴾ في قوله: ﴿إِنَّمَا
أَنَّ﴾ في موضع نصب، أي: إما أن
تفعل الإلقاء، ويحتمل أن تكون في
موضع رفع، أي: إما هو الإلقاء.
وخير السحرة موسى في أن يتقدم في
الإلقاء أو يتأخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا فعل المُدِلِّ الواثق بنفسه،
والظاهر أن التقدم في التخيلات
والمخارق والحجج، لأن بديلتها
تمضي بالنفس، فليظهر الله أمر نبوة
موسى قوى نفسه وبقينه، ووثق
بالحق فأعطاهم التقدم، فنشطوا
وسروا حتى أظهر الله الحق وأبطل
سعيهم.

وقوله تعالى: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ
الْبَاطِنِ﴾ نص في أن لهم فعلاً ما
زائداً على ما يحدثونه من التزييف
والآثار في العضا وسائر الأجسام
التي يصرفون فيها صناعتهم.
﴿وَأَسْرَفِيهِمْ﴾ بمعنى: أرهبوهم،
أي: أفزعوهم، فكأن فعلهم اقتضى
واستدعى الرهبة من الناس،
ووصف الله تبارك وتعالى سحرهم
بالعظم، ومعنى ذلك: من كثرت،
وروي أنهم جلبوا ثلاثمائة وستين



وطال حتى جاز مدينة
البحيرة، وقيل: كان
الجمع بمصر وأنه طال
حتى جاز بذنبه بحر
القلزم.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهذا قول
بعيد من الصواب مفرط
الإغراق لا ينبغي أن
يلتفت إليه، وروي أن
السحرة لما ألقوا وألقى
موسى عصاه جعلوا
يرقون، وجعلت حبالهم
وعصيمهم تعظم، وجعلت
عصا موسى تعظم حتى
سدت الأفق وابتلعت الكل
ورجعت بعد ذلك عصاً

بعيراً موقرة بالجمال والعصي فلما
ألقوها تحركت وملأت الوادي يركب
بعضها بعضاً، فاستهول الناس ذلك
واسترهبوا، قال الزجاج: قيل: إنهم
جعلوا فيها الزئبق فكانت لا تستقر.

﴿١١٧﴾ - ﴿١٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَنْ﴾ في موضع نصب ﴿وَأَحْيَا﴾
أي بأن ألقى، ويحتمل أن تكون
مفسرة بمعنى (أي)، فلا يكون لها
موضع من الإعراب.

وروي أن موسى عليه السلام لما
كان يوم الجمع خرج متكئاً على
عصاه ويده في يد أخيه، وقد صُفِّ
له السحرة في عدد عظيم حسبما
ذكر، فلما ألقوا واسترهبوا أوحى الله
تعالى إليه فألقى عصاه فإذا هي ثعبان
مبين، فعظم حتى كان كالجبل،
وقيل: إنه طال حتى جاز النيل،
وقيل: كان الجمع بالإسكندرية

الناس: ﴿تَلْقَفُ﴾، وقرأ عاصم في
رواية حفص: ﴿تَلْقَفُ﴾ بسكون اللام
وفتح القاف، وقرأ ابن كثير في بعض
ما روي عنه: ﴿تَلْقَفُ﴾ بتشديد التاء
على إدغام التائين من (تلقف)،
وهذه القراءة لا تترتب إلا في
الوصل، وأما في الابتداء في الفعل
فلا يمكن، وقرأ سعيد بن جبير:

﴿تَلْقَمُ﴾ بالميم، أي تبتلع كالقمة.
وروي أن الثعبان استوفى تلك
الحبال والعصي أكلاً وأعدمها الله
عز وجل، ومد موسى يده إلى فمه
فعاد عصاً كما كان، فعلم السحرة
حينئذ أن ذلك ليس من عند البشر
فخروا سجداً مؤمنين بالله ورسوله.

وقوله تعالى: ﴿نُوقِعَ الْحَقُّ﴾ الآية.
﴿وَقِعَ﴾ معناه: نزل وجد، و﴿الْحَقُّ﴾
يريد به سطوح البرهان وظهور
الإعجاز واستمرار التحدي إلى الدين
على جميع العالم. و﴿مَا كَانُوا
يَتَمَكَّرُونَ﴾ لفظ يعم سحر السحرة
وسعي فرعون وشيعته. والضمير في
قوله: ﴿فَتَلَيَّأُوا﴾ عائد على جميعهم
من سحرة ومن سعي فرعون
وشيعته، وفي قوله: ﴿وَأَنقَلَبُوا
صَعِيرِينَ﴾ إن قدرنا انقلاب الجمع قبل
إيمان السحرة فهم في الضمير، وإن
قدرناه بعد إيمانهم فليسوا في
الضمير، ولا لحقهم صَعَارٌ
يصفهم الله تبارك وتعالى به لأنهم
آمَنُوا واستشهدوا رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى السَّحْرَةَ
سَاجِدِينَ﴾ الآية - لما رأى
السحرة من عظيم القدرة ما تيقنوا به
نبوة موسى عليه السلام آمنوا
بقلوبهم، وانضاف إلى ذلك

﴿تَلْقَفُ﴾ معناه: تبتلع وتزدد،
﴿وَمَا يَأْكُرُونَ﴾ معناه: ما صوروا فيه
إنفكهم وكذبهم، وقرأ جمهور

الاستهوال والاستعظام والفرع من قدرة الله تبارك وتعالى، فخرُوا سجداً لله تعالى متطارحين، وأمنوا نطقاً بألسنتهم، وتَبَيَّنْهُمْ الرَّبُّ بِذِكْرِ موسى وهارون زوالٍ عن ربوبية فرعون وما كان يتوهم فيه من الجهال من أنه رب الناس، وهارون أخو موسى أَسْنُ مِنْهُ ثَلَاثَ سِنِينَ.

وقول فرعون: ﴿قَبَلْ أَنَا مَدَنٌ لِّكُرٍّ﴾ دليل على وهن أمره، لأنه إنما جعل ذنبهم مفارقة الإذن ولم يجعله نفس الإيمان إلا بشرط. وقرأ عاصم في رواية حفص عنه في كل القرآن: ﴿وَأَمَّنْتُمْ﴾ على الخير، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَأَمَّنْتُمْ﴾ بهمزة ومدة على الاستفهام، وكذلك في طه والشعراء، وقرئ حمزة والكسائي في الثلاثة مواضع: ﴿وَأَمَّنْتُمْ﴾ بهمزتين الثانية ممدودة، ورواها الأعمش عن أبي بكر عن عاصم، وقرأ ابن كثير في رواية أبي الإخريط عنه: ﴿وَأَمَّنْتُمْ﴾ وهي على ألف الاستفهام إلا أنه سهلها وواو فأجرى المنفصل مجرى المتصل في قولهم (تؤذ) في (تؤده). وقرأ قبيل عن القواس: ﴿وَأَمَّنْتُمْ﴾ وهي على القراءة بالهمزتين ﴿وَأَمَّنْتُمْ﴾ إلا أنه سهل ألف الاستفهام وواو، وترك ألف أفعلتم على ما هي عليه.

والضمير في ﴿يَبِي﴾ يحتمل أن يعود على اسم الله تبارك وتعالى، ويحتمل أن يعود على اسم موسى عليه السلام. وعنفهم فرعون على الإيمان قبل إذنه ثم ألزمهم أن هذا كان على اتفاق منهم، وروي في ذلك عن ابن عباس وابن مسعود

رضي الله عنهم أن موسى عليه السلام اجتمع مع رئيس السحرة واسمعه شمعون، فقال له موسى: أَرَأَيْتَ إِنْ غَلَبْتُكُمْ أَتُؤْمِنُونَ بِي؟ فقال له: نعم، فعلم بذلك فرعون، فلذلك قال: ﴿إِنَّ هَذَا لَكُرٌّ مَّكْرُؤُهُ فِي الْكَيْدَيْنِ﴾، ثم قال للسحرة: ﴿لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَنْيُكِلُكُمْ الْآيَةَ﴾ فرجع فرعون في مقالته هذه إلى الخذلان والغشم وعادة ملوك السوء إذا غولبوا.

وقرأ حميد المكي، وابن محيىن، ومجاهد: ﴿لَأَقْطَعَنَّ﴾ بفتح الهمزة والطاء وإسكان القاف، ﴿وَلَأَضْلِبَنَّ﴾ بفتح الهمزة وإسكان الصاد وضم السلام، وروي بكسرهما. و﴿يَنْ خَلْفِي﴾ معناه: يُعْنَى وَيُسْرَى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من هذه الآيات أن فرعون توعد، وليس في القرآن نص على أنه أنفذ ذلك وأوقعه، ولكنه روي أنه صلب بعضهم وقطع. قال ابن عباس رضي الله عنهما: فرعون أول من صلب وقطع من خلاف، وقال ابن عباس وغيره فيهم: أصبحوا سحرة وأمَسَّرُوا شُهَدَاءَ، وأما التوعد فلجميعهم.

هذا تسليم من مؤمني السحرة واتكال على الله وثقة بما عنده.

وقرأ جمهور الناس: ﴿نَيْمٌ﴾ بكسر القاف، وقرأ أبو حيوة، وأبو البرهشم، وابن أبي عبيدة، والحسن بن أبي الحسن: ﴿تَنْقَمٌ﴾ بفتحها، وهما لغتان. قال أبو حاتم: الوجه في القراءة كسر القاف، وكل

العلماء أنشد بيت ابن الرُّقَيَاتِ:

مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمِيَّةٍ ...

بفتح القاف. ومعناه: وما تعد علينا ذنباً وتؤاخذنا به.

وقولهم: ﴿أَفْرِغْ عَلَيْنَا مَبِئْرًا﴾ معناه: عُمْنَا كَمَا يُعْمُ الْمَاءُ مِنْ أَفْرِغِ عَلَيْهِ، وهي هنا استعارة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما آمنت السحرة اتبع موسى ستمائة ألف من بني إسرائيل، وحكى النقاش عن مقاتل أنه قال: مكث موسى بمصر بعد إيمان السحرة عاماً أو نحوه يريهم الآيات.

وقول ملاٍ فرعون: ﴿أَتَدْرُؤُنِي وَقَوْمِي﴾ مقالة تتضمن إغراء فرعون بموسى وقومه، وتحريضه على قتلهم أو تغيير ما بهم حتى لا يكون لهم خروج عن دين فرعون. ومعنى ﴿أَتَدْرُؤُنِي﴾: ؟ أتترك؟ وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَذْرُؤُا﴾، ونصبه على معنيين: أحدهما أن يقدر: «وَأَنْ يَذْرُؤُا فِيهِ وَوَالصَّرْفِ، فكأنهم قالوا: أتذره وأن يذرك؟ أي: أتتركه وتركه؟ والمعنى الآخر أن يعطف على قوله: ﴿يُذْرُؤُا﴾. وقرأ نعيم بن مسيرة، والحسن بخلاف عنه: ﴿وَيَذْرُؤُا﴾ بالرفع عطفاً على قولهم: ﴿أَتَدْرُؤُا﴾، وقرأ أنس بن مالك: ﴿وَيَذْرُؤُا﴾ بالنون ورفع الفعل على معنى توعد منهم، أو على معنى إخبار أن الأمر يؤول إلى هذا، وقرأ أبي بن كعب، وعبدالله: «في الأرض وقد تركوك أن يعبدوك وآلهتك»، قال أبو حاتم: وقرأ الأعمش: «وقد تركك وآلهتك»،

وقرأ السبعة وجمهور من العلماء: ﴿وَاللَّهُ يَهْتَكُ﴾ على الجمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على ما زوي أن فرعون كان في زمنه للناس آلهة من بقر وأصنام وغير ذلك، وكان فرعون قد شرع ذلك وجعل نفسه الإله الأعلى، فقله - على هذا - ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ إنما هو بمناسبة بينه وبين سواه من المعبودات. وقيل: إن فرعون كان يعبد حجراً كان يعلقه في صدره كياقوتة أو نحوها، قال الحسن: كان لفرعون حثانة معلقة في نحره يعبدها ويسجد لها. وقال سليمان التيمي: بلغني أنه كان يعبد البقر، ذكره أبو حاتم.

وقرأ ابن عباس، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود، وأنس بن مالك رضي الله عنهم أجمعين، وجماعة غيرهم: ﴿وَالْإِهْتِكَ﴾، أي: وعبادتك والتذلل لك، وزعمت هذه الفرقة أن فرعون لم يبح عبادة شيء سواه، وأنه في قوله ﴿الْأَعْلَى﴾ إنما أراد: «الأعظم والأكبر» دون مناسبة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان فرعون يُعْبَد ولا يُعْبَد.

وقرأ ابن كثير: ﴿سَنَقُتْلُ﴾ بالتخفيف، ﴿وَيَقْتُلُونَ﴾ بالتشديد، وخففهما جميعاً نافع. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَقْتُلُونَ﴾ - ﴿سَنَقُتْلُ﴾ بالتشديد على المبالغة، والمعنى: سنستمر على ما كنا عليه من تعذيبهم وقطعهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾ يريد: في المنزلة

والتمكن من الدنيا، ﴿قَاهِرُونَ﴾ يقتضي تحقير أمرهم، أي: هم أقل من أن يهتم بهم.

﴿١٢٨﴾ - ﴿١٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل: لما قال فرعون سنقتل أبناءهم وتوعدهم قال موسى عليه السلام لبني إسرائيل يشبههم ويعدهم ما عند الله: ﴿أَسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا﴾، وظاهر هذا الكلام كله وعد بغيب فكأن قوته تقتضي أنه من عند الله، وليس في اللفظ شيء من ذلك، ﴿وَالْأَرْضُ﴾ أرض الدنيا وهو الأطهر، وقيل: المراد هنا أرض الجنة، وأما في الثانية فأرض الدنيا لا غير.

وقرأت فرقة: ﴿يُورِثُهَا﴾ بفتح الراء، وقرأ السبعة: ﴿يُورِثُهَا﴾ ساكنة الواو خفيفة الراء مكسورة، وروى حفص عن عاصم - وهي قراءة الحسن - ﴿يُورِثُهَا﴾ بتشديد الراء على المبالغة. والصبر في هذه الآية يعنى الانتظار الذي هو عبادة والصبر في المناجرات.

وقولهم: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا﴾ يعنون به الذبح الذي كان في المدة التي كان فرعون يتخوف فيها أن يولد المولود الذي يخرب ملكه، والذي من بعد مجيئه يعنون به وعيد فرعون وسائر ما كان خلال تلك المدة من الإخافة لهم. وقال السدي، وابن عباس رضي الله عنهما: إنما قالت بنو إسرائيل هذه المقالة حين اتبعهم فرعون واضطروهم إلى البحر فضاقت صدورهم ورأوا بحراً أمامهم وعدواً كثيراً وراءهم فقالوا هذه المقالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبالجمله هو كلام يجري مع المعهود من بني إسرائيل من اضطرابهم على أنبيائهم وقلة يقينهم وصبرهم على الدين، واستعطاف موسى لهم بقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عِذَّتُكُمْ﴾، ووعدده لهم بالاستخلاف في الأرض يدل على أنه استدعي نفوساً نافرة، ويقوي هذا الظن في بني إسرائيل سلوكهم هذه السبيل في غير قصة. وحكى النقاش أنهم قالوا ذلك بمصر حين كلفهم فرعون من العمل ما لا يطيقون. وزوي أنه كان يكلفهم عمل الطوب ويعنهم التبن ليشق عليهم عمله.

وقوله تعالى: ﴿يَنْظُرَ كَيْفَ تَمْلِكُونَ﴾ تنسيبه وحض على الاستقامة، وإن قدر هذا الوعد أنه من عند الله فيتخرج عليه قول الحسن بن أبي الحسن: (عسى) من الله واجبة، وقد استخلفوا في مصر في زمن داود وسليمان، وقد فتحوا بيت المقدس مع يوشع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَا آلَ فِرْعَوْنَ بِالسِّنِينَ﴾ الآية. أخبر أنه أخذ آل فرعون في تلك المدة التي كان موسى يدعوهم فيها بالسنين وهو: الجدوب والقحوط، وهذه سيرة الله في الأمم، وكذلك فعل بقريش. والسنة وعضة وما جرى مجراها من الأسماء المنقوصة تجمع بالواو والنون ليس على جهة السلامة لكن على جهة العوض مما نقص، وكذلك (أرض) توهموا فيها نقص هاء التأنيث لأنه كان حقها أن تكون (أرضة)، وأما (حرّة وإخرون) فلأن التضعيف أبداً يعتل فتوهموه مثل

فَإِذَا جَاءَ تَهُمْ الْحَسَنَةُ قَالُوا إِنَّا هَلِيلُهُمْ وَإِنْ تُصِيبِهِمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ۗ أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣١﴾ وَقَالُوا مَهْمَا تَأْتِينَا مِنْ آيَةٍ لِنَسْحَرَنَّ بِهَا فَما عَمِنَّا بِكَ يَا مُوسَىٰ ﴿١٣٢﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدمَّ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مَجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾ وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ الرِّجْزُ قَالُوا يَا مُوسَىٰ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ لَئِن كُنْتُمْ عَنَّا رِجْزَ لَئِن تَرْتُدُّونَنَا لَكَ وَلِرَبِّكَ مَعْلَمٌ بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ﴿١٣٤﴾ فَلَمَّا كَسَفْنَا عَنْهُمُ الرِّجْزَ إِلَىٰ أَجَلٍ هُمْ بِلِقَاؤِهِ إِذْ هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿١٣٥﴾ فَأَنْقَسْنَا عَنْهُمُ الْغُرْقَانَ فِي الْيَوْمِ الْآخِرِ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا آيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾ وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضَعُونَ مَشْرِقَ الْأَرْضِ وَمَكْرِبَهَا الَّذِي يَشْرِكُونَ بِهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَرْنَا مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ فِرْعَوْنَ وَفُؤُومَهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ ﴿١٣٧﴾

١٦٦

النقص، وكسر السين من (سينون) وسنين) وزيادة الألف في (إحرين) دليل على أنه ليس بجمع سلامة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَقِصَ يَنْ أَلْتَمَرَاتٍ﴾ زوي أن النخلة كانت لا تحمل إلا ثمرة واحدة، وقال نحوه رجاء بن حيوة، وأراد الله عز وجل أن ينبوا ويزدجروا عما هم عليه من الكفر، إذ أحوال الشدة ترق القلوب وترغب فيما عند الله.

﴿١٣١﴾ - ﴿١٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

كان القصد من إصابتهم بالقحط والنقص في الثمرات أن ينبوا ويرجعوا فإذا بهم قد ضلوا وجعلوها تشاؤماً بموسى، فكانوا إذا اتفق لهم اتفاق حسن في غلات ونحوها قالوا: هذا لنا ويسينا وعلى الحقيقة لنا، وإذا نالهم ضرر قالوا: هذا بسبب موسى وشؤمه، قاله مجاهد وغيره.

وقرأ جمهور الناس بالياء وشد الطاء والياء الأخيرة ﴿يَطَّيَّرُوا﴾، وقرأ عيسى بن عمر، وطلحة بن مصرف بالياء وتخفيف الطاء: ﴿تَطَّيَّرُوا﴾، وقرأ مجاهد: ﴿تَشَاءُمُوا بِمُوسَى﴾ بالياء من فوق ويلفظ الشؤم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا إِنَّمَا طَّيَّرَهُمْ﴾ معناه: حظهم ونصيبيهم، قاله ابن عباس، وهو مأخوذ من زجر الطير، فستى ما عند الله من القدر للإنسان طائر لما كان الإنسان يعتقد أن كل ما يصيبه إنما هو بحسب ما يراه في الطائر، فهي لفظة مستعارة، وقرأ جمهور الناس: ﴿طَّيَّرَهُمْ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿طَّيَّرَهُمْ﴾.

وقال تعالى: ﴿أَكْثَرَهُمْ﴾ وجميعهم لا يعلم إما لأن القليل علم كالرجل

المؤمن وأسبأ امرأة فرعون، وإما أن يراد الجميع وتجاوز في العبارة لأجل الإمكان، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله: ﴿طَّيَّرَهُمْ﴾ لجميع العالم ويجيء تخصيص الأكثر على ظاهره، ويحتمل أن يريد: ولكن أكثرهم ليس قريباً أن يعلم لانغمارهم في الجهل، وعلى هذا فيهم قليل معد لأن يعلم لو وفقه الله.

(ومهما) أصلها عند الخليل (ماما) فبدلت الألف الأولى هاء، وقال سيبويه: هي (مه ما)

خلطتا، وهي حرف واحد، وقال غيره: معناها: (مه وما) جزاء، ذكره الزجاج، وهذه الآية تتضمن طغيانهم وعتوهم وقطعهم على أنفسهم بالكفر البحت.

وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ﴾ الآية. قال الأخفش: الطوفان: جمع طوفانة، وهذه عقوبات وأنواع من العذاب بعثها الله عليهم ليزدجروا وينبوا. والطوفان: مصدر من قولك: طاف يطوف فهو عام في كل شيء يطوف، إلا أن استعمال العرب له كثر في الماء والمطر الشديد، ومنه قول الشاعر:

غَيْرَ الْجِدَّةِ مِنْ آيَاتِهَا
حُرْقُ الرِّيحِ وَطُوفَانُ الْمَطَرِ

ومنه قول أبي النجم:

قَدْ مَدَّ طُوفَانَ قَبْتُ مَدَدًا
شَهْرًا شَائِبًا وَسَهْرًا بَسْرَدًا

وقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: إن الطوفان في هذه الآية المطر الشديد أصابهم وتوالى عليهم حتى هدم بيوتهم وضيع عليهم. وقيل: طم فيض النيل عليهم، وروي في كفيته قصص كثير. وقالت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ: (إن الطوفان المراد في هذه الآية هو الموت)، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه: هو مصدر معى، غني به شيء أطفاه الله تبارك وتعالى بهم.

والجراد معروف، قال الأخفش: هو جمع جرادة للمذكر والمؤنث، فإن أردت الفصل قلت: رأيت جرادة ذكراً، وروي أن الله عز وجل لما والى عليهم المطر غرقت أرضهم ومنعوا الزراعة، فقالوا: يا موسى ادع في كشف هذا عنا ونحن نؤمن، فدعا

فدفعه الله عنهم فأثبتت الأرض إنباتاً حسناً، فطفغوا وقالوا: ما نود أننا لم نمطر، وما هذا إلا إحسان من الله إلينا، فبعث الله حينئذ الجراد فأكل جميع ما أنبتت الأرض، وروى ابن وهب عن مالك أنه روى أنه أكل أبوابهم وأكل الحديد والمسامير، وضيق عليهم غاية التضيق، وترك الله من نباتهم ما يقوم به الرمح فقالوا لموسى: ادع في كشف الجراد ونحن نؤمن، فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم، ورأوا أن ما أقام رمقهم قد كفاهم، فبعث الله عليهم القمل وهي الذبى صغار الجراد الذي يشب ولا يطير، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة. وقيل: هو الحمتان وهو صغار القردان. وقيل: هو البراغيث، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القمل: السوس الذي يخرج من الحنطة. وقيل: القمل: حيوان صغير جداً أسود، وأنه بأرض مصر حتى الآن، قال حبيب بن أبي ثابت: القمل: الجعلان، وقرأ الحسن: **«القمل»** بفتح القاف وسكون الميم، فهي - على هذا - بيئة - إذ هو القمل المعروف. وروى أن موسى مشى بعصاه إلى كتيب أهيل فضربه فانثرت كله قملاً في مصر، ثم إنهم قالوا: ادع في كشف هذا فدعا، ورجعوا إلى طغيانهم وكفرهم.

وبعث الله تبارك وتعالى عليهم الضفادع فكانت تدخل في فرشهم وبين ثيابهم، وإذا هم الرجل أن يتكلم وثب الضفدع في فمه. قال ابن جبير: كان الرجل يجلس إلى ذقنه في الضفادع، وقال ابن عباس

رضي الله عنهما: كانت الضفادع برية فلما أرسلت على آل فرعون سمعت وأطاعت فجعلت تقذف أنفسها في القدر وهي تغلي فأثابها الله بحسن طاعتها برزء الماء، فقالوا: ادع في كشف هذا فدعا فكشف فرجعوا إلى كفرهم وعتوهم فبعث الله عليهم الدم فرجع مأوهم الذي يستقونه ويحصل عندهم دماً، فروي أن الرجل منهم كان يستقي من البئر فإذا ارتفع إليه الدلو عاد دماً، وروي أنه كان يستقي القبطي والإسرائيلي بإناء واحد فإذا خرج الماء كان الذي يلي القبطي دماً والذي يلي الإسرائيلي ماء، إلى نحو هذا وشبهه من العذاب بالدم المنقلب عن الماء، هذا قول جماعة المتأولين. وقال زيد بن أسلم: إنما سلط الله عليهم الرعاف فهذا معنى قوله تعالى: **«وَالدَّمَ»**.

وقوله تعالى: **«لَيْتَ مُنْكَرِي»** التفصيل أصله في الأجرام إزالة الاتصال، فهو تفریق شينين، فإذا استعمل في المعاني فيراد أنه فرق بينها وأزيل اشتراكها وأشكالها، فيجاء من ذلك بيانها، وقالت فرقة من المفسرين: **«مُنْكَرِي»** يراد به مفرقات بالزمن، والمعنى أنه كان العذاب يرتفع ثم يبقون مدة - قيل: شهراً، وقيل: ثمانية أيام - ثم يرد الآخر، فالمراد أن هذه الأنواع من العذاب لم تجيء جملة ولا متصلة. ثم وصفهم الله عز وجل بالاستكبار عن الآيات والإيمان، وبأنهم كان لهم اجترام على الله تبارك وتعالى وعلى عباده.

«لَيْتَ مُنْكَرِي» - تفسير قوله عز وجل:

«لَيْتَ مُنْكَرِي» العذاب، والظاهر من الآية أن المراد بالرجز العذاب المتقدم الذكر من الطوفان والجراد وغيره، وقال قوم من المفسرين: الإشارة هنا بالرجز إنما هي إلى طاعون أنزله فيهم فمات منهم في ليلة واحدة سبعون ألف قبطي، وروي في ذلك أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل بأن يذبخوا كيشاً ويضمخوا أبوابهم بالدم ليكون ذلك فرقاً بينهم وبين القبط في نزول العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وهذه الأخبار وما شاكلها إنما تؤخذ من كتب بني إسرائيل فلذلك ضعفت، وقولهم: **«يَمَّا عَهْدٌ»** يريدون: بزمانك وماتتك إليه، فهي تعم جميع الوسائل بين الله تبارك وتعالى وبين موسى من طاعة موسى ونعم من الله تبارك وتعالى. ويحتمل أن يكون ذلك منهم على جهة القسم على موسى، ويحتمل أن يكون المعنى: ادع لنا ربك ماتاً إليه بما عهد إليك، ويحتمل - إن كان شعر أن بين الله تعالى وبين موسى في أمرهم عهد ما - أن تكون الإشارة إليه. والأول أعم وألزم، والآخر يحتاج إلى رواية.

وقولهم: **«لَيْتَ كَشَفْتِ»** أي بدعائك **«لِنُؤْمِنَنَّ»** **«وَلَنُرْسِلَنَّ»** قسم وجوابه، وهذا عهد من فرعون وملئه الذين إليهم الحل والعقد، ولهم ضمير الجمع في قوله: **«لِنُؤْمِنَنَّ»**.

وَجَزَاءُ بَاقِيَاتِ الصَّالِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالَّذِينَ أُولُوا إِلَهُ رَبِّكَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِالْحَقِّ وَإِن كَانُوا لَيَكْفُرُونَ بِكُرْبَىٰ ﴿١٣٨﴾ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿١٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالَّذِينَ أُولُوا إِلَهُ رَبِّكَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِالْحَقِّ وَإِن كَانُوا لَيَكْفُرُونَ بِكُرْبَىٰ ﴿١٣٨﴾ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿١٣٩﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالَّذِينَ أُولُوا إِلَهُ رَبِّكَ الَّذِينَ لَا يَدْعُونَ اللَّهَ بِالْحَقِّ وَإِن كَانُوا لَيَكْفُرُونَ بِكُرْبَىٰ ﴿١٣٨﴾ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿١٣٩﴾

وقرأ أبو البرهشم، وأبو حيوية: ﴿يَنْكُثُونَ﴾ بكسر الكاف، والثكث: نقض ما أبرم، ويستعمل في الأجسام وفي المعاني، وقرأ ابن محيصن، ومجاهد، وابن جبير: ﴿الرُّجُزُ﴾ بضم الراء في جميع القرآن، قال أبو حاتم: إلا أن ابن محيصن كسر حرفين: ﴿جِزَ الشَّيْطَانِ﴾، و﴿الرُّجُزِ﴾ فأنجز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: رأما بمعنى آخر بمثابة الرُّجُز والثَّن الذي يجب التطهر منه.

و﴿الْبَحْرِ﴾ البحر، ومنه قول ذي الرمة:

دَوْبَةٌ وَدَجَى لَيْلٍ كَأَنَّهُمَا

يَمُ تَراطُنُ فِي حَافَاتِهِ الرُّومُ
والبَاءُ فِي قَوْلِهِ: ﴿يَأْتِيَهُمْ﴾ بَاءُ التَّسْيِيبِ، وَوَصَفَ الْكُفَّارَ بِالْغُفْلَةِ - وَهَمَّ قَدْ كَذَبُوا وَرَدُوا فِي صَدْرِ الْآيَاتِ - مِنْ حَيْثُ غَفَلُوا عَمَّا تَضَمَّنَهُ الْآيَاتُ مِنَ الْهُدَى وَالنَّجَاةِ، فَعَنْ ذَلِكَ غَفَلُوا.

١٣٧ - ١٣٨ - تفسير قوله عز وجل:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَعْمَلُونَ﴾ كناية عن بني إسرائيل لاستعباد فرعون لهم، وغلبته عليهم. وقوله تعالى: ﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾ الْأَرْضِ وَمَكْرِيهَا﴾ قال الحسن، وقاتدة، وغيرهما: يريد أرض الشام، وقال أبو جعفر النحاس: «وقيل: يراد أرض مصر وهو قول الحسن في

وألفاظ هذه الآية تعطي الفرق بين القبط وبين بني إسرائيل في رسالة موسى، لأنه لو كان إيمانهم به على حد إيمان بني إسرائيل لما أرسلوا بني إسرائيل ولا فارقوا دينهم، بل كانوا يشاركون فيه بني إسرائيل. ورؤي أنه لما انكشف العذاب قال فرعون لموسى: اذهب ببني إسرائيل حيث شئت فخالفه بعض ملته فرجع فنكث. وأخبر الله عز وجل أنه لما كشف عنهم العذاب نكثوا عهدهم الذي أعطوه موسى، و﴿إِذَا﴾ هاهنا للمفاجأة، و﴿إِنَّ﴾ متعلقة بـ﴿كُنْتُمْ﴾، والأجل يراد به غاية كل واحد منهم بما يخصه من الهلاك والموت، هذا اللازم من اللفظ كما تقول: أخذت كذا إلى وقت، وأنت لا تريد وقتاً بعينه. وقال يحيى بن سلام: الأجل هنا: الفرق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما قال هذا القول لأنه رأى جمهور هذه الطائفة قد اتفق أن هلكت غرقاً فاعتقد أن الإشارة هنا بالأجل إنما هي إلى الغرق، وهذا ليس بلازم لأنه لا بد أنه مات منهم قبل الغرق عالمٌ وهم يمتن آخر وكشف عنهم العذاب إلى أجل بلغه ودخل في هذه الآية، فأين الغرق من هؤلاء؟ وأين هو يمتن بقي بمصر ولم يغرق؟

وذكر بعض الناس أن معنى الكلام: فلما كشفنا عنهم الرجز المؤجل إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون، ومحصل هذا التأويل أن العذاب كان مؤجلاً، والمعنى الأول أفصح لأنه تضمن توعداً ما.

كتاب النقاش». وقالت فرقة: يريد الأرض كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يتجه إما على المجاز لأنه ملكهم بلاداً كثيرة، وإما على الحقيقة في أنه ملك ذريتهم، وهو سليمان بن داود عليهما السلام، ولكن الذي يليق بمعنى الآية وروي فيها هو أنه ملك أبناء المستضعفين بأعيانهم مشارق الأرض ومغاريها لا سيما بوصفه الأرض بأنها التي بارك فيها، ولا يتصف بهذه الصفة وينفرد بها أكثر من غيرها إلا أرض الشام لما بها من الماء والشجر والنعم والفوائد.

وحكى الطبري عن قائل لم يسته - وذكر الزهراوي أنه الفراء - أن ﴿مُسْتَكْبِرِينَ الْأَرْضِ وَمَكْرِيهَا﴾ نصب على الظرف، أي: يستضعفون في

مشارك الأرض ومغاريها، وأن قوله تبارك وتعالى: ﴿أَلَيْسَ بِرُكْنًا مِنْهَا﴾ معمول لـ ﴿وَأَرْزَأْنَا﴾. وضعفه الطبري، وكذلك هو قول غير متجه. و﴿أَلَيْسَ﴾ في موضع خفض نعت للأرض، ويجوز أن يكون في موضع نصب نعت لـ ﴿مَشْرُفًا﴾ و﴿مَغَارِبًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَكَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحَسَنَى﴾ أي ما سبق لهم في علمه وكلامه في الأزل من النجاة من عدوهم والظهور عليه، قاله مجاهد، وقال المهدي: وهي قوله: ﴿وَرَبُّهُ أَنْ تَمَنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتَفْعَفُوا فِي الْأَرْضِ﴾، وقيل: هي قوله: ﴿عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يَهْلِكَ عُدُوكُمْ﴾ الآية. وروي عن أبي عمرو: ﴿كلمات﴾.

و﴿يَعْرِشُونَ﴾ قال ابن عباس ومجاهد: معناه: يبنون، وعرش البيت: سقفه، والعرش: البناء والتنزيد، وقال الحسن: هي في الكروم وما أشبهها، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: بكسر الراء، وقرأ الباقون ابن عامر، وعاصم فيما روي عنه، والحسن، وأبو رجاء، ومجاهد: بضمها، وكذلك في سورة النحل. وهما لغتان. وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿يَعْرِشُونَ﴾ و﴿يَعْكُونَ﴾ بضم الياء فيهما وفتح العين وتشديد الراء والكاف مكسوريتين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورأيت الحسن البصري أنه احتج بقوله تعالى: ﴿وَكَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية على أنه لا ينبغي أن

يُخرج على ملوك السوء، وإنما ينبغي أن يُصبر عليهم فإن الله تعالى يدمرهم، ورأيت لغيره أنه قال: إذا قابل الناس البلاء بمثله وكلهم الله إليه، وإذا قابلوه بالصبر وانتظار الفرج أتى الله بالفرج. وروي هذا القول أيضاً عن الحسن.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَجَوَزْنَا﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَجَوَزْنَا﴾، ذكره أبو حاتم والمهدي، والمعنى: قطعناه بهم وجزعناه، وهذه الآية ابتداء خير عنهم، قال النقاش: جاوزوا البحر يوم عاشوراء، وأعطى موسى التوراة يوم النحر القابل، فبين الأمرين أحد عشر شهراً، وروي أن قطعهم كان من ضفة البحر إلى الضفة المتأخرة للأولى، وروي أنه قطع من الضفة إلى موضع آخر منها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيما أن يكون ذلك بوحي من الله وأمر لينفذ أمره في فرعون وقومه، وهذا هو الظاهر، وإما بحسب اجتهاد موسى في التخلص بأن يكون بين موضعين أوعار وحالات، ووقع في كتاب النقاش أنه نيل مصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ لا تساعد رواية، ولا يحتمله لفظ إلا على تحامل، وإنما هو بحر القلزم. والقوم المشار إليهم في الآية العرب، وقيل: هم الكنعانيون، وقال قتادة وأبو عمرو الجوني: هم قوم من لحم وجدام. والقوم في الكلام: الرجال خاصة، ومنه قول زهير:

وَلَا أَدْرِي وَسَوْفَ إِخَالُ أَدْرِي
أَقْسُومُ آلَ حِضْنٍ أَمْ نِسَاءً
ومنه قوله عز وجل: ﴿لَا يَخْتَرِقُونَ
مِنْ قَوْمٍ﴾، ﴿وَلَا نِسَاءً مِّنْ نِّسَاءِهِمْ﴾.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَعْكُونَ﴾ بضم الكاف. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو في رواية عبد الوارث عنه: ﴿يَعْكُونَ﴾ بكسرها، وهما لغتان. والعكوف: الملازمة بالشخص لأمر ما، والإكباب عليه، ومنه الاعتكاف في المساجد، ومنه قول الراجز:

عَكَفَ النَّبِيَّ يَلْعَبُونَ الْفَتْرَجَا
والأصنام في هذه الآية قيل: كانت بقرأ على الحقيقة، وقال ابن جريج: كانت تماثيل بقر من حجارة وعيدان ونحوه، وذلك كان أول فتنة العجل. قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من مقالة بني إسرائيل لموسى: ﴿أَجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ أنهم استحسنا ما رأوه من آلهة أولئك القوم، فأرادوا أن يكون ذلك في شرع موسى وفي جملة ما يُتقرب به إلى الله، وإلا فبعيد أن يقولوا لموسى: اجعل لنا صنماً نقرده بالعبادة ونكفر برئك. فعرفهم موسى عليه السلام أن هذا جهل منهم إذ سألوا أمراً حراماً فيه الإشراك في العبادة، ومنه يتطرق إلى أفراد الأصنام بالعبادة والكفر بالله عز وجل. وعلى هذا الذي قلت يقع التشابه الذي قصه النبي ﷺ في قول أبي واقد الليثي له في غزوة حنين إذ مرؤا على دوح سدره خضراء

عظيمة: اجعل لنا يا رسول الله ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، وكانت ذات أنواط سزحة لبعض المشركين يعلقون بها أسلحتهم، ولها يوم يجتمعون إليها فيه، فأراد أبو واقد وغيره أن يشرع ذلك رسول الله ﷺ في الإسلام، فرأى رسول الله ﷺ أنها ذريعة إلى عبادة تلك السزحة فأذكره وقال: «الله أكبر، قلتم والله كما قالت بنو إسرائيل: ﴿اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَكُمْ آلِهَةٌ﴾، لتتبعن سنن من قبلكم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يقصد أبو واقد بمقالته فساداً. وقال بعض الناس: كان ذلك من بني إسرائيل كفراً، ولفظة (الإله) تقتضي ذلك، وهذا محتمل، وما ذكرته أولاً أصح عندي، والله تعالى أعلم.

١٣٩ - ١٤٣ تفسير قوله عز وجل:

أعلمهم موسى عن الله عز وجل بفساد حال أولئك القوم ليزول ما استحسنته من حالهم فقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ إِشَارَةٌ إِلَىٰ أُولَٰئِكَ الْقَوْمِ، ﴿مُتَّبِعٌ﴾ أي مهلك مدمر رديء العاقبة، قاله السدي، وابن زيد. والتبار: الهلاك وسوء العقبى، وإناء متبر أي مكسور وكسارته تبر، ومنه تبر الذهب لأنه كساره، وقوله: ﴿تَأْتِيهِمْ لُغْمٌ يُغْمُّ بِحَالِهِمْ، ﴿وَيُظِلُّ﴾ معناه: فاسد ذاهب مضمحل.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعْيَزَ اللَّهُ﴾ الآية. أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يوقفهم ويقررهم على هذه المقالة، ويحتمل أن يكون القول من تلقائه عليه السلام، و﴿أَبْيَعَكُمْ﴾

معناه: أطلب لكم، من بَغَيْتَ الشيء إذا طلبته، و﴿عَيَّرَ﴾ منصوبة بفعل مضمر، هذا هو الظاهر، ويحتمل أن ينتصب على الحال، كأن تقدير الكلام: قال أبيعكم إلهاً غير الله؟ فهي في مكان الصفة، فلما قدمت نصبت على الحال. و﴿الْمَكِيدِ﴾ لفظ عام يراد به تخصيص عالم زمانهم، لأن أمة محمد ﷺ أفضل منهم بإجماع، ولقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، اللهم إلا أن يراد بالفضل كثرة الأنبياء منهم فإنهم فضلوا في ذلك على العالمين بالإطلاق.

ثم عدد عليهم في هذه الآية التَّعَمُّ التي يجب من أجلها ألا يكفروا به ولا يرغبوا عبادة غيره. وقرأت فرقة: ﴿نَجِّنَاكُمْ﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَجِنَّاكُمْ﴾ وقد تقدم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَإِذْ أَتَجَاكُمْ﴾ أي: أنجاكم الله، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، و﴿يَسْمُونَكُمْ﴾ معناه: يحملونكم ويكلفونكم، تقول: سامة خطة خسف، ونحو هذا، ومساومة البيع ينظر إلى هذا وأن كل واحد من المتساومين يكلف صاحبه إرادته، ثم فسّر سوء العذاب بقوله: ﴿يُقِيلُونَ﴾ - ﴿وَيَسْتَحْيُونَ﴾ و﴿بَلَاءٌ﴾ - في هذا الموضع - معناه: اختبار وامتحان، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى سوء العذاب، ويحتمل أن يشير إلى التنجية، فكأنه قال: وفي تَجْيِينِكُمْ امتحان لكم واختبار، هل يكون منكم وفاة بحسب النعمة؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول أظهر.

وقالت فرقة: هذه الآيات خاطب بها موسى من حضره من بني إسرائيل. وقال الطبري: بل خاطب بهذه الآية من كان على عهد محمد ﷺ تقريباً لهم بما فعل بأوائهم وبما جازوا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر وأبين.

١٣٩ - ١٤٣ تفسير قوله عز وجل:

قرأ أبو عمرو، وأبي بن كعب، وأبو رجاء، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿وَوَعَدْنَا﴾، وقد تقدم في البقرة، وأخبر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يتهاً لمناجاته ثلاثين ليلة ثم زاده في الأجل بعد ذلك عشر ليال، فذكر أن موسى عليه السلام أعلم بني إسرائيل بمغيبه ثلاثين ليلة، فلما زاده العشر في حال مغيبه دون أن تعلم بنو إسرائيل ذلك وجست نفوسهم للزيادة على ما أخبرهم به، فقال لهم السامري: إن موسى قد هلك وليس يرجع وأضلهم بالعجل فأتبعوه، قاله كله ابن جريج. وقيل: بل أخبرهم بمغيبه أربعين، وكذلك أعلمه الله تبارك وتعالى، وهو المراد بهذه الآية، قاله الحسن. وهو مثل قوله تعالى: ﴿فَيَسَاءَ لَنَلَّكَ يَوْمَ فِي لُجِّ وَبَعِيَّةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْكَ عَشْرَةَ كَأَيَّةٍ﴾، وأنهم عدوا الأيام والليالي فلما تم أربعون من الدهر قالوا: قد أخلف موسى فضلوا، قال مجاهد: إن الثلاثين هي شهر ذي القعدة، وإن العشر هي عشر ذي الحجة، وقاله ابن عباس، ومسروق، وروي أن الثلاثين إنما

وعد بأن يصومها ويتبها فيها للمناجاة ويستعد، وأن مدة المناجاة هي العشر، وقيل: بل مدة المناجاة الأربعون، وإقبال موسى على الأمر والتزامه يُحسّن لفظ المواعدة، وحيث ورد أن المواعدة أربعون ليلة فذلك إخبارٌ بجملته الأمر، وهو في هذه الآية إخبار بتفصيله كيف وقع. ﴿وَأَرْبَعِينَ﴾ في هذه الآية وما بعدها في موضع الحال، ويصح أن تكون ﴿أَرْبَعِينَ﴾ ظرفاً من حيث هي عدد أزمنة. وفي مصحف أبي بن كعب ﴿وَوَتَمَّتْهَا﴾ بغير ألف ويتشديد الميم، وذكر الزجاج عن بعضهم قال: لما صام ثلاثين يوماً أنكر خلوف فمه فاستاك بعود خروب، فقالت الملائكة: إنا كنا نستنشق من فيك رائحة المسك فأسدته بالسواك فزيدت عليه عشر ليال، و﴿تَلْتَيْتَ﴾ نصب على تقدير: أجلناه ثلاثين، أو مناجاة ثلاثين، وليست منتصبة على الظرف لأن المواعدة لم تقع في الثلاثين، ثم ردد الأمر بقوله سبحانه: ﴿فَتَمَّ يَمَّتْ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً﴾، قيل: ليبين أن العشر لم تكن ساعات، وبالجملته تأكيد وإيضاح.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِي﴾ الآية. المعنى: وقال موسى حين أراد المضي للمناجاة والمغيب فيها، و﴿أَخْلَقِي﴾ معناه: كن خليفتي، وهذا استخلاف في حياة كالوكالة التي تنقضي بعزل الموكل أو موته ولا يقتضي أنه متماد بعد وفاة، فينحل - على هذا - ما تعلق به الإمامية في قولهم: إن النبي ﷺ

استخلف علياً بقوله: «أنت مني كهارون من موسى»، وقال موسى: اخلفني فيترتب على هذا أن علياً خليفة رسول الله ﷺ. وما ذكرناه يحل هذا القياس.

وأمره في هذه الآية بالإصلاح، ثم من الطريق الآخر في ألا يتبع سبيل مفسد. قال ابن جريج: كان من الإصلاح أن يزجر السامري ويغير عليه.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى عن موسى عليه السلام أنه لما جاء إلى الموضع الذي حُدِّدَ له، وفي الوقت الذي عُيِّنَ له، وكلمه ربه قال تَمَيَّياً منه: ﴿رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿أَرِنِي﴾ بكسر الراء، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿أَرِنِي﴾ بسكون الراء.

والمعنى في قوله تعالى: ﴿كَلِمَةً﴾ أي: خلق له إدراكاً سمع به الكلام القائم بالذات القديم الذي هو صفة ذات. وقال ابن عباس، وابن جبير: أذن الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام حتى سمع صريف الأقدام في اللوح، وكلام الله عز وجل لا يشبه شيئاً من الكلام الذي للمخلوقين ولا في جهة من الجهات، كما هو موجود لا كالموجودات، ومعلوم لا كالمعلومات، كذلك كلامه لا يشبه الكلام الذي فيه علامات الحدوث. والواو عاطفة ﴿كَلِمَةً﴾ على ﴿جَاءَ﴾، ويحتمل أن تكون واو الحال، والأول أئين. وقال وهب بن منبه: كلم الله موسى في ألف مقام، كان يرى نور على وجهه ثلاثة أيام إثر كل مقام، وما قرب موسى النساء

مذ كلمه الله تعالى. وجواب ﴿لَمَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿قَالَ﴾، والمعنى أنه لما كلمه وخصه بهذه المرتبة طمحت همته إلى رتبة الرؤية وتشوق إلى ذلك فسأل ربه أن يريه نفسه، قاله السدي، وأبو بكر الهذلي، وقال الربيع: قربناه نجياً حتى سمع صريف الأقدام.

ورؤية الله عز وجل عند الأشعرية وأهل السنة جائزة عقلاً، لأنه من حيث هو موجود تصح رؤيته، قالوا: لأن الرؤية للشيء لا تتعلق بصفة من صفاته أكثر من الوجود، إلا أن الشريعة قررت رؤية الله تبارك وتعالى في الآخرة نصاً، ومنعت من ذلك في الدنيا بظواهر من الشرع، فموسى عليه السلام لم يسأل ربه محالاً وإنما سأل جائزاً.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ تَرِنِّي وَلَكِنْ أُنْظَرُ إِلَى الْجَبَلِ﴾ الآية. ليس بجواب من سأل محالاً، وقد قال تبارك وتعالى لسوح: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَنْظَرُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، فلو سأل موسى محالاً لكان في الكلام زجرٌ ما وتبيين. وقوله عز وجل: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ نص من الله تعالى على منعه الرؤية في الدنيا، و﴿لَنْ﴾ تنفي الفعل المستقبل، ولو بقينا مع هذا النفي بمجرد لقضينا أنه لا يراه موسى أبداً ولا في الآخرة، لكن ورد من جهة أخرى بالحديث المتواتر أن أهل الإيمان يرون الله تعالى يوم القيامة، فموسى عليه السلام أحرق برؤيته. وقال مجاهد وغيره: إن الله عز وجل قال لموسى: ﴿لَنْ تَرِنِّي﴾ ولكن سأتلجى

قَالَ يَمْؤُوسُ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلِمِي
فَخَذَ مَاءً آتَيْتُكَ وَكَانَ مِنَ الشَّكِرِينَ ﴿١٤٣﴾ وَكَانَ
لَهُ فِي الْأَلْوَابِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةٌ وَتَفْصِيلٌ لِكُلِّ
شَيْءٍ وَفَخَذَهَا بِقُوَّةٍ وَأَمَرَ قَوْمَكَ بِأَخْذِهَا بِأَحْسَنِ مَا أَوْرَىكَ
دَارَ الْفَنَاسِقِينَ ﴿١٤٤﴾ سَأَصْرَفُ عَنْ آيَاتِي الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِنْ يَرَوْا كَلِمَةً آيَةً لَا يُؤْمِنُوا
بِهَا وَإِنْ يَرَوْا سَيْلًا رُشْدًا لَا يَخْذُوهُ سَيْلًا وَإِنْ يَرَوْا
سَيْلًا لَمْ يَخْذُوهُ سَيْلًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٤٥﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ
الْآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَلُهُمْ هَلْ يُحْزَرُونَ إِلَّا مَا كَانُوا
يَعْمَلُونَ ﴿١٤٦﴾ وَأَخَذَ قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ حُلِيِّهِمْ
عِجَالًا حَسَدًا لَمْ يَرَوْا أَنَّهُمْ لَا يَكْفُرُونَ وَلَا يُؤْمِنُونَ
سَيْلًا أَخْذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ ﴿١٤٧﴾ وَكَانَ سَيْطَانُ
فِتْنَةِ أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدَّضُوا أَقْوَالَ الَّذِينَ لَمْ يَرْحَمْنَا
رَبُّنَا وَيَقْفِرُنَا لَنَكْفُرَنَّ وَلَنَكْفُرَنَّ وَلَنَكْفُرَنَّ ﴿١٤٨﴾

١٦٨

السُّتَّةُ إنما يقوله مع اعتقاده
جواز الرؤية، ولكنه
يقول: إنه أليق باللفظ
الآية من أن تحمل الآية
أن الجبل خلق له إدراك
وحياة، وقال الزجاج: من
قال: إن التقدير: «فلما
تجلى أمر ربه» فقد أخطأ،
ولا يعرف أهل اللغة
ذلك. ورد أبو علي في
«الأغفال» عليه.

والذُّكُ: الانسحاق
والتفتت. وقرأ النبي ﷺ،
وابن مسعود، وأنس بن
مالك، والحسن، وأبو
جعفر، وشيبة، ومجاهد،
وابن كثير، وأبو عمرو،

ونافع، وعاصم، وابن عامر:
﴿دَكَاةً﴾. وقرأ حمزة، والكسائي،
وابن عباس، والربيع بن خيثم،
 وغيرهم: ﴿دَكَاةً﴾ على وزن
حمراء، والدكاء: الناقة التي لا سنام
لها، فالمعنى: جعله أرضاً دكاء
تشبيهاً بالناقة. فروي أنه ذهب الجبل
برمته، وقيل: ذهب أعلاه وبقي
أكثره، وروي أن الجبل تفتت
وانسحق حتى صار غباراً تذروه
الرياح، وقال سفيان: روي أنه ساخ
في الأرض وأفضى إلى البحر
الذي تحت الأرضين. قال ابن
الكثير: فهو يهوي فيه إلى يوم
القيامة، وروي أنه انكسر ست فرق،
فوقعت منها ثلاث بمكة: ثبير، وغار
ثور، وحرء، وثلاث بالمدينة:
أحد، وورقان، ورضوى، قاله
النقاش. وقال أبو بكر الهذلي: ساخ

للجبل الذي هو أقوى منك وأشد
فإن استقر وأطاق الصبر لِهَيْبَتِي
فستمكنك أنت رؤيتي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فعلى هذا إنما جعل الله الجبل مثلاً
وقالت فرقة: إنما المعنى: سأتيدي
لك على الجبل فإن استقر لعظمتي
فسوف تراني، وروي في كيفية
وقوف موسى وانتظاره الرؤية قصص
طويل اختصرته لبعده ولكثرة مواضع
الاعتراض فيه.

﴿١٤٦﴾ - ﴿١٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال المتأولون كالقاضي الباقلاني
 وغيره: «إن الله عز وجل خلق
للجبل حياة وحساً وإدراكاً يرى به ثم
تجلى له، أي ظهر وبدا سلطانه،
فانذك الجبل لشدة المطع، فلما
رأى موسى ما بالجبل صعق»، وهذا
المعنى هو المروي عن ابن عباس.
وأسند الطبري عن حماد بن زيد عن
ثابت عن أنس عن النبي ﷺ أنه قرأ:
﴿فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ
دَكَاةً﴾ قال: فوضع الإبهام قريباً
من خنصره، قال: فساخ الجبل،
فقال حميد لثابت: تقول هذا؟ فرفع
ثابت يده فضرب صدره وقال: يقول
رسول الله ﷺ ويقول أنه أنس وأكتمه
أنا؟

وقالت فرقة: المعنى: فلما
تجلى الله للجبل بقدرته وسلطانه
انذك الجبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا التأويل يتمسك به المعتزلة
تمسكاً شديداً لقولهم: إن رؤية الله
عز وجل غير جائزة، وقائله من أهل

في الأرض فلا يظهر إلى يوم
القيامة.

﴿صِحْقًا﴾ معناه: مفضياً عليه كحال
من تصيبه الصعقة وهي الصيحة
المفرطة، قال الخليل: وهي الوقع
الشديد من صوت الرعد، قاله ابن
زيد وجماعة من المفسرين. وقال
قتادة: كان موتاً، قال الزجاج: وهو
ضعيف، ولفظة ﴿أَنَانَ﴾ تقتضي غير
هذا، وقوله: ﴿سَبْحَتِكَ﴾ أي: تنزيهاً
لك، كذا فسره النبي ﷺ، وقوله:
﴿بَيَّتْ إِيَّاكَ﴾ معناه: من أن أسألك
الرؤية في الدنيا وأنت لا تبيحها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويحتمل عندي أنه لفظ قاله عليه
السلام لشدة هول ما اطلع، ولم يعن
به التوبة من شيء معين، ولكنه لفظ
يصلح لذلك المقام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يتحرز منه أهل السُّنة أن تكون توبة من سؤال المحال كما زعمت المعتزلة.

وقرأ نافع: ﴿وَأَنَا﴾ بإثبات الألف في الإدراج، قاله الزهراوي، والأولى حذفها في الإدراج، وإثباتها لغة شاذة خارجة عن القياس. وقوله: ﴿أَوَّلٌ﴾ إما أن يريد: من قومه بني إسرائيل، وهو قول ابن عباس ومجاهد، أو من أهل زمانه إن كان الكفر قد طبق الآفاق، وإما أن يريد أول المؤمنين بأنك لا ترى في الدنيا، قاله أبو العالية.

ثم إن الله تعالى قرز موسى على آلائه عنده على جهة الإخبار وقئعه بها وأمره بالشكر عليها، وكأنه قال: ولا تتعدها إلى غيرها. واصطفى أصله: اصطفى، وهو افتعل من صفا يصفو انقلبت الثاء طاء لمكان الصاد، ومعناه: تخيَّرتك وخصصتك، ولا تستعمل إلا في الخير والمنن، لا يقال: اصطفاه لِسُرٍّ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ عام والمراد الخصوص فيمن شارك موسى في الإرسال، فإن الأنبياء المرسلين كلهم مشاركون له بما هم رسل، والظاهر من الشريعة أن موسى مخصص بالكلام وإن كان قد روي في تكليم الله غيره أشياء بما يشاء، من أعظمها أن رسول الله ﷺ سئل عن آدم فقال: «هو نبي مكرم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا أن ذلك قد تتوول بأنه كان في الجنة فيتحفظ - على هذا - تخصيص موسى. ويصح أن يكون قوله: ﴿عَلَى النَّاسِ﴾ عموماً مطلقاً في مجموع الدرجتين: الرسالة والكلام. وقرأ

حمزة، والكسائي، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿بِرِسَالَتِي﴾ على الجمع، إذ الذي أرسل به ضروب، وقرأ ابن كثير، ونافع، ﴿بِرِسَالَتِي﴾ على الأفراد الذي يراد به الجمع، وتحل الرسالة هاهنا محل المصدر الذي هو الإرسال. وقرأ جمهور الناس: ﴿بِرِسَالَتِي﴾، وقرأ أبو رجاء: ﴿بِرِسَالَتِي وَيَكْلِمِي﴾، وقرأ الأعمش: ﴿بِرِسَالَاتِي وَيَكْلِمِي﴾، وحكى عنه المهدي: ﴿وَتَكْلِمِي﴾ على وزن تفعيلي. وقوله تعالى: ﴿فَتُحَدِّثُكَ مَا تَسْمَعُ وَتَرَى عَالِياً فِي السَّمَاءِ الَّذِي تُرْسِلُ السُّحُوبَ فِيهِ﴾، فإن جميع النعم من عنده بمقدار، وكل الأمور بمراى من الله ومسمع.

وقوله تعالى: ﴿رَكَعَتَنَا لَكَ فِي الْأَلْوَابِ﴾ الآية. الضمير في ﴿لَكَ﴾ عائد على موسى عليه السلام، والألف واللام في ﴿الْأَلْوَابِ﴾ عوض من الضمير الذي يقدر وصلة بين ﴿الْأَلْوَابِ﴾ و﴿موسى﴾ عليه السلام، تقديره: في ألواح، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلَمَّةً هِيَ الْمَأْوَى﴾ أي: مأواه. وقيل: كانت الألواح اثنين، وقيل: سبعة، وقال مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما: كانت الألواح من زمرد، وقال ابن جبير: من ياقوت أحمر، وقال أبو العالية أيضاً: من بَرَد، وقال الحسن: من خشب، وقوله: ﴿بَيْنَ كُلِّ نَسَبٍ﴾ لفظه عموم، والمراد به كل شيء ينفع في معنى الشرع ويحتاج إليه في المصلحة، وقوله: ﴿لِكُلِّ نَسَبٍ﴾

مثله، قال ابن جبير: ما أمروا به ونهوا عنه، وقاله مجاهد، وقال السدي: الحلال والحرام. وقوله: ﴿بِقَوْلِهِ﴾ معناه: بحد وصبر عليها واحتمال لمؤنتها، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والسدي، وقال الربيع بن أنس: ﴿بِقَوْلِهِ﴾ هنا: بطاعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أمر موسى عليه السلام أن يأخذ بأشد مما أمر به قومه، وحذ أصله: أُوخذ، حذف الهزمة التي هي فاء الفعل على غير قياس فاستغني عن الأول، وقوله: ﴿بِأَحْسَنِيَّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما التفضيل، كأنه قال: إذا اعترض فيها مباحان فيأخذون الأحسن منهما كالعفو والقصاص، والصبر والانتصار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا على القول أن أفعل التفضيل لا يقال إلا لما لهما اشتراك في المفضل فيه. وأما على القول الآخر فقد يراد بالأحسن الأمور به بالإضافة للمني عنه لأنه أحسن منه، وذلك كالناسخ بالنسبة للمنسوخ ونحو هذا. وذهب إلى هذا المعنى الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد هذا التأويل أنه تدخل فيه الفرائض وهي لا تدخل في التأويل الأول، وقد يمكن أن يتصور اشتراك في حُسن من الأمور به والمنهي عنه ولو بحسب الملاذ وشهوات النفس الأمانة. والمعنى الآخر الذي يحتمله قوله تعالى: ﴿بِأَحْسَنِيَّ﴾ أن يريد (بأحسن) وصف الشريعة بجملتها، فكأنه قال: قد جعلنا لكم شريعة هي

أحسن، كما تقول: «الله أكبر» دون مقايسة، ثم قال: فمرهم يأخذوا بأحسنها الذي شرعناه لهم، وفي هذا التأويل اعتراضات.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾، قال أبو الفتح: ظاهر هذه القراءة مردود وهو أبو سعيد المأثور فصاحته. فوجهها أن المراد (أريكم) ثم أشيعت ضمة الهمزة ومُطِلَّت حتى نشأت عنها واو، ويحسن احتمال الواو في هذا الموضع أنه موضع وعيد وإغلاظ فمكن الصوت فيه. وقرأ قسامة ابن زهير: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾، قاله أبو حاتم، ونسبها المهدي إلى ابن عباس رضي الله عنهما. وثبت الواو في خط المصحف فلذلك أشكل هذا الاختلاف مع أننا لا نتأول إلا أنها مرويات. فأما من قرأها: ﴿سَأُورِيكُمْ﴾ فالمعنى عنده: سأعرض عليكم وأجعلكم تجسئون لتعتبروا حال دار الفاسقين. والرؤية هنا رؤية العينين إلا أن المعنى يتضمن الوعد للمؤمنين والوعيد للفاسقين. ويدل على أنها رؤية العين تعدي فعلها، وقد عُدِي بالهمزة إلى مفعولين، ولو كان من رؤية القلب لتعدي بالهمزة إلى ثلاثة مفاعيل، ولو قال قائل: المفعول الثالث يتضمن المعنى فهو مقدر، أي: مُدْمَرَةٌ أَوْ خَرِبَةٌ أَوْ مُشْعَرَةٌ - على قول من قال: هي جهنم - قيل له: ولا يُجَوِّزُ حذف هذا المفعول والاقتران دونه أنها داخلة على المبتدئ والخبر، ولو

جُوِّزَ لكان على قبج في اللسان لا يليق بكتاب الله عز وجل.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومقاتل، وقتادة في كتاب النقاش: دار الفاسقين مصر، والمراد آل فرعون. وقال قتادة أيضاً: دار الفاسقين الشام، والمراد العمالقة الذين أمر موسى عليه السلام بقتالهم، وقال مجاهد والحسن: دار الفاسقين جهنم، والمراد الكفرة بموسى عامة، وقال النقاش عن الكلبي: دار الفاسقين دور ثمود وعاد والأمم الخالية، أي: سقنها عليكم فترونها.

تفسير قوله عز وجل:

المعنى: سأمنع وأصد، وقال سفيان بن عيينة: الآيات هنا كل كتاب منزل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمعنى: عن فهمها وتصديقها. وقال ابن جريج: الآيات: العلامات المنصوبة الدالة على الوجدانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمعنى: عن النظر فيها والتفكير والاستدلال بها. واللفظ يعم الوجوهين.

والمتكبرون بغير حق في الأرض هم الكفرة، والمعنى في هذه الآية: سأجعل الصرف عن الآيات عقوبة للمتكبرين على تكبرهم. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا كُفْرًا لَا يُوقِنُوا﴾، حتم من الله عز وجل على الطائفة التي قدر ألا يؤمنوا. وقراءة الجمهور: ﴿يَرَوْا﴾ بفتح الياء، قرأها ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو جعفر، وشيبة، وسبل، وابن وثاب،

وظلحة بن مصرف، وسائر السبعة، وقرأها مضمومة الياء مالك بن دينار.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿الرُّشْدِ﴾، وقرأ ابن عامر - في بعض ما روي عنه - وأبو الرهشم: ﴿الرُّشْدِ﴾ بضم الراء والشين، وقرأ حمزة، والكسائي على أن ﴿الرُّشْدِ﴾ بضم الراء وسكون الشين، و﴿الرُّشْدِ﴾ بفتحهما بمعنى واحد، وقال أبو عمرو بن العلاء: الرُّشْدُ بضم الراء: الصلاح في النظر، والرُّشْدُ بفتحهما: الدين، وأما قراءة ابن عامر بضمهما فأتبع الضمة الضمة.

وقرأ ابن أبي عمير: ﴿لَا يَتَّخِذُوهَا﴾ و﴿يَتَّخِذُوهَا﴾ على تأنيث السبيل. والسبيل توث وتذكر، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الصرف، أي صرَفْنَا إياهم وعقوبتنا لهم هي بكفرهم وتكذيبهم وغفلتهم عن النظر في الآيات والوقوف عند الحجج، ويحتمل أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ خبر ابتداء تقديره: الأمر ذلك، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بفعل تقديره: فعلنا ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِئَآلِ الْأَخِرَةِ﴾ الآية. هذه الآية مؤكدة للتي قبلها، وسوقها في جملة المكذب به. ولقاء الآخرة لفظ يتضمن تهديداً، أي: هنالك يفتضح لهم حالهم. و﴿حِطَّتْ﴾ معناه: سقطت وفسدت، وأصل الحبط فيما تقدم صلاحه، ولكنه قد يستعمل في الذي كان من أول أمره فاسداً، إذ مآل العاملين واحد.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ استفهام بمعنى التقرير، أي: يستوجبون بسوء فعلهم العقوبة، وساغ أن يستعمل ﴿حَبِطَتْ﴾ هنا إذ كانت أعمالهم في معتقداتهم جارية في طريق صلاح، فكأن الحبط فيها إنما هو بحسب معتقداتهم، وأما بحسب ما هي عليه في أنفسها فمفسدة منذ أول أمرها، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «إِنْ مِمَّا بِنَيْتِ الرَّبِيعِ مَا يَقْتُلُ حَبِطًا أَوْ يَلْمُ» أي فساداً لكثرة الأكل بعد الصلاح الذي كان أولاً، وقرأ ابن عباس، وأبو السمال: ﴿حَبِطَتْ﴾ بفتح الباء.

﴿١٤٨﴾ - ﴿١٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

اتَّخَذَ أَسْلَهُ: يَتَّخِذُ، وزنه افتعل، من تَخَذَ. هذا قول أبي علي الفارسي. والضمير في ﴿بَدَّوْهُ﴾ عائذ على موسى، أي بعد مضيئه إلى المناجاة، وأضاف الحلبي إلى بني إسرائيل وإن كان مستعاراً من القبط - إذ كانوا قد تملكوه - إما بأن نفلوه كما روي، وحكى يحيى بن سلام عن الحسن أنه قال: استعار بنو إسرائيل حلبي القبط ليوم الزينة، فلما أمر موسى أن يسري بهم ليلاً تعذر عليهم رد العواري، وأيضاً فخشوا أن يفتضح سرهم، ثم إن الله نفلهم إياه، ويحتمل أن يضاف الحلبي إلى بني إسرائيل من حيث تصرف أيديهم فيه بعد غزو آل فرعون.

ويروى أن السامري - واسمه موسى بن ظفر وينسب إلى قرية

تسمى سامرة - قال لهارون حين ذهب موسى إلى المناجاة: يا هارون إن بني إسرائيل قد بددوا الحلبي الذي استعير من القبط وتصرفوا فيه وأنفقوا منه، فلو جمعته حتى يرى موسى فيه رأيه، قال: فجمعه هارون، فلما اجتمع قال للسامري: أنت أولى الناس بأن يختزن عندك، فأخذ السامري - وكان صائغاً - فصاغ منه صورة عجل، وهو ولد البقرة. ﴿جَسَدًا﴾ أي جثة وجماداً، وقيل: كان جسداً بلا رأس. وهذا تعلق بأن الجسد في اللغة ما عدا الرأس، وقيل: إن الله جعل له لحماً ودماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن الآثار في أن موسى برّده بالمبارد تكذب ذلك.

والخوار: صوت البقر، ويروى أن هذا العجل إنما خار مرة واحدة، وذلك بحيلة صناعية من السامري أو بسحر تركب له من قبضة القبضة من أثر الرسول، أو بأن الله أثار العجل لفتن بني إسرائيل. وقرأت فرقة: ﴿لَهُ جَوَارٍ﴾ بالجيم وهو الصياح، قال أبو حاتم: وشدة الصوت. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وأبو عمرو، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بضم الحاء وكسر اللام، وهو جمع حلبي - على مثال ثذني وثديتي، وأصله: حُلُوي، قلبت الواو ياءً وأدغمت فجاء (حُلُوي) فكسرت اللام لتناسب الياء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بكسر الحاء على ما قدمنا

من التعليل، قال أبو حاتم: إلا أنهم كسروا الحاء إتباعاً لكسرة اللام، قال أبو علي: وقوي التغيير الذي دخل على الجمع على هذا التغيير الأخير، قال: ومما يؤكد كسر الفاء في هذا النحو من الجمع قولهم: قبيبي. قال أبو حاتم: وقرأ هكذا يحيى بن وثاب، وطلحة، والأعمش، وأصحاب عبدالله. وقرأ يعقوب الحضرمي: ﴿مِنْ حُلِيِّهِمْ﴾ بفتح الحاء وسكون اللام، فإما أن يكون مفرداً يراد به الجمع، وإما أن يكون جمع حليّة كخفرة وتثمر. ومعنى الحلبي: ما يتجمل به من حجارة وذهب وفضة.

ثم بين الله تعالى سوء فطرتهم وقرر فساد اعتقادهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلَهُمْ﴾ الآية. وذلك أن الصامت الجمد لا يتصف بالألوهية، والذي لا يرشد إلى خير ولا يكشف غمماً كذلك. والضمير في ﴿اتَّخَذُوهُ﴾ عائذ على العجل. وقوله: ﴿وَكَاوُوا﴾ إخبار لنا عن جميع أحوالهم ماضياً وحالاً ومستقبلاً، ويحتمل أن تكون الواو واو حال، وقد مرّ في سورة البقرة سبب اتخاذ العجل وبسط تلك الحال بما أغنى عن إعادته هنا.

وقرأ جمهور الناس بكسر القاف وضم السين: ﴿سُيِّطَ فِتْ أَيْدِيهِمْ﴾، وقرأت فرقة: ﴿سَقَطَ﴾ بفتح السين والقاف، حكاة الزجاج، وقرأ ابن أبي عملة: ﴿أَسْقَطَ﴾ وهي لغة حكاها الطبري بالهمزة المضمومة وسين ساكنة، والعرب تقول لمن كان ساعياً لوجه أو طالباً غاية ما

فعرض له ما غلبه وصدّه عن وجهته وأوقفه موقف المعجز عن بغيته، وتيقن أنه قد عجز: سَقَطَ في يد فلان، وقال أبو عبيدة: يقال لمن أقدم على أمر وعجز عنه: سَقَطَ في يده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والندم عندي عرض يعرض لصاحب هذه الحال، وقد لا يعرض له، فليس الندم بأصل في هذا، أما إن أشرف أصحاب هذه الحال يصحبهم الندم، وكذلك صحب بني إسرائيل المذكورين في الآية، والوجه الذي يصل بين هذه الألفاظ وبين المعنى الذي ذكرناه هو أن السعي أو الصرف أو الدفاع سقط في يد المشار إليه فصار في يده لا يجاوزها ولا يكون له خارجها تأثير. وقال الزجاج: المعنى أن الندم سقط في أيديهم، ويحتمل أن الخسران والخيبة سقط في أيديهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا كله يلزم أن يكون «سَقَطَ» يتعدى، فإن «سَقَطَ» يتضمن مفعولاً وهو هنا المصدر الذي هو الإسقاط، كما يقال: ذهب يزيد، وفي هذا عندي نظر.

وأما قراءة من قرأ: «سَقَطَ» على بناء الفعل للمفاعل، أو «أَسْقَطَ» على التعدية بالهمزة فبين في الاستغناء عن التعدية. ويحتمل أن يقال: «سقط في يديه» على معنى التشبيه بالأسير الذي تكتف يده، فكأن صاحب هذه الحال يستأسر، ويقع ظهور الغلبة عليه

في يده، أو كأن المراد سقط بالغلب والقهر في يده، وحدثت عن أبي مروان بن سراج أنه كان يقول: قول العرب «سقط في يده» مما أعينني معناه، وقال الجرجاني: هذا مما دثر استعماله مثل ما دثر استعمال قوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰ عَادَاتِهِمُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الكلام ضعف، والسقاط في كلام العرب كثرة الخطأ والندم عليه، ومنه قول سويد بن أبي كاهل:

كَيْفَ يَرْجُونَ سِقَاطِي بَعْدَمَا
لَقِيَ الرَّأْسَ مَشِيْبَ وَصَلَعًا؟
وقول بني إسرائيل: ﴿لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبَّنَا﴾ إنما كان بعد رجوع موسى وتغييره عليهم، ورؤيتهم أنهم قد خرجوا على الدين ووقعوا في الكفر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة بن نصاح، ومجاهد وغيرهم: ﴿قَالُوا لَيْنَ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبَّنَا﴾ بالياء في «يَرْحَمْنَا» وإسناد الفعل إلى الرب تعالى، «وَيَرْحَمْنَا» بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي، والشعبي، وابن وثاب، والجحدري، وطلحة بن مصرف، والأعمش، وأيوب: ﴿تَرْحَمْنَا رَبَّنَا﴾ بالتاء في «تَرْحَمْنَا» ونصب لفظه «رَبَّنَا» على جهة النداء

وَلَنَارِجَ مُوسَىٰ إِذْ قُوِيَ غَضِبْنَا أَيْقَانًا قَالِ بِسْمَا خَلَقْتَنِي
مِنْ بَعْدِي أَصْحَابُ أَمْرِ رَبِّكُمْ وَالْقَى الْأُلُوحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ
أَخِيهِ يَجْرُهُ لِيَهْ فَا لَيْتَهُ قَالَ أَيْنَ أُمُّ الْقَوْمِ اسْتَضْمَعُونِي وَكَادُوا
يَقْتُلُونِي فَلَا تُشْمِتْ بِكَ الْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوِي
الظَّالِمِينَ ﴿١٥٠﴾ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي
رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٥١﴾ إِنَّ الَّذِينَ أَخَذُوا
الْعَهْدَ مِنَّا أَنَّهُمْ غَضِبْنَا مِنْ رَبِّهِمْ وَذَلَّلْنَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ ﴿١٥٢﴾ وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ
تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَأَسْأَلُوا رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَنَنْفِرَنَّ مِنْ رَحْمَتِكَ
﴿١٥٣﴾ وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبَ أَخَذَ الْأُلُوحَ فِي
شُحْبَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةً لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٥٤﴾ وَأَخَذَ
مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا أَلِيمِينَ فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ
قَالَ رَبِّ أَوْسِعْ أَهْلَكَ نَهْمًا مِنْ قَبْلِ وَاسِعِ أَهْلِكَ كَمَا فَعَلَ
السَّهْمَاءُ مِمَّا إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي
مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيْنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ ﴿١٥٥﴾

١٦٦

﴿وَتَغْفِرْ﴾ بالتاء من فوق، وفي مصحف أبي ﴿قالوا ربنا لئن لم تترحمنا وتغفر لنا لتكُونُنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

﴿١٥٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

يريد: رجع من المناجاة. ويروى أنه لما قرب من محلة بني إسرائيل سمع أصواتهم فقال: هذه أصوات قوم لا هين، فلما تحقق عكوفهم على عبادة العجل داخله الغضب والأسف وألقى الألواح، قاله ابن إسحاق، وقال الطبري: أخبره الله تعالى قبل رجوعه أنهم قد فتنوا بالعجل فلذلك رجع وهو غاضب، والأسف قد يكون بمعنى الغضب الشديد، وأكثر ما يكون بمعنى الحزن، والمعنيان مترتبان هاهنا، و(ما) المتصلة ب(بئس) مصدرية، هذا قول الكسائي، وفيها اختلاف قد

تقدم في سورة البقرة، أي: بشس خلافتمكم لي من بعدي. ويقال: خَلَفَهُ بخير أو بشر إذا فعله بمن ترك من بعده، ويقال: عَجَلَ فلان الأمر إذا سبق فيه، فقوله: ﴿أَعَجَلْتُمْ﴾ معناه: أسابقتكم قضاء ربكم واستعجلتم إتياني قبل الوقت الذي قدر به.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى الْأَلْوَابِحَ﴾ الآية. قال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان سبب إلقاءه الألواح غضبه على قومه في عبادتهم العجل وغضبه على أخيه في إهمال أمرهم. وقال قتادة - إن صح عنه -: بل كان ذلك لما رأى فيها من فضيلة أمة محمد ﷺ فرغب أن يكون ذلك لأمته، فلما علم أنه لغيرها غضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول رديء لا ينبغي أن يوصف موسى عليه السلام به، والأول هو الصحيح. وبالجملة فكان في خلق موسى ضيق وذلك مستقر في غير موضع، وروي أنها كانت لوحان وجمع إذ التثنية جَمْعٌ، وروي أنها كانت وقر سبعين بغيراً يُقرأ منها الجزء في سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف مُفْرَط، قاله الربيع بن أنس. وقال ابن عباس: إن موسى لما ألقاها تكسرت فرغ أكثرها الذي فيه تفصيل كل شيء، وبقي الذي في نسخته الهدى والرحمة، وهو الذي أخذ بعد ذلك، وقد تقدّم القول من أي شيء كانت الألواح، وأخذه برأس أخيه ولحيته من الخلق

المذكور، هذا هو ظاهر اللفظ، وروي أن ذلك إنما كان لئسازه فخشي هارون أن يتوهم الناظر إليهما أنه لغضب فلذلك نهاه ورغب إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، والأول هو الصحيح لقوله: ﴿فَرَقَتْ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرَقُبْ قَوْلِي﴾. وقوله: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ استلطاف برحم الأم إذ هو أَلْصَقُ القربيات. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ بفتح الميم، فقال الكوفيون: أصله: ابن أُمَّة - فحذفت تخفيفاً، وقال سيبويه: هما اسمان بنيا على الفتح كاسم واحد لخمسة عشر ونحوها. وقرأ ابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر - وحمزة، والكسائي: ﴿إِنَّ أُمَّ﴾ بكسر الميم، فكان الأصل: ابن أُمِّي فحذفت الياء، إما على حد حذفهم من: لا أبال، ولا أدر تخفيفاً، وإما كأنهم جعلوا الأول والأخر اسماً واحداً ثم أضافوا، كقولك: يا أحد عشر أقبِلوا. قاله سيبويه، وهذا أقيس من الحذف تخفيفاً، ثم أضافوا إلي ياء المتكلم، ثم حذفت الياء من (أُمِّي) على لغة من يقول: يا غلام فيحذفها من المنادى، ولو لم يُقَدَّر جعل الأول والأخر اسماً واحداً لما صح حذفها، لأن الأم ليست بمناداة.

﴿وَأَسْتَمْتُمْ﴾ معناه: اعتقدوا أنني ضعيف. وقوله: ﴿وَكَاذِبًا﴾ قاربوا ولم يفعلوا.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَلَا تَشْمِتْ بِكَ الْأَعْدَاءَ﴾ بضم الشاء وكسر الميم ونصب ﴿الْأَعْدَاءَ﴾ وقرأ

مجاهد - فيما حكاه أبو حاتم -: ﴿فَلَا تَشْمِتْ بِي﴾ بفتح التاء من فوق والميم ورفع ﴿الْأَعْدَاءَ﴾. حكاه أبو حاتم، وقرأ مجاهد أيضاً - فيما حكاه أبو الفتح -: ﴿فَلَا تَشْمِتْ بِي الْأَعْدَاءَ﴾ بفتح التاء من فوق والميم ونصب ﴿الْأَعْدَاءَ﴾ هذا على أن يعذَى شمت يشمت، وقد روي ذلك. قال أبو الفتح: فلا تشمت بي أنت يا رب، وجاز هذا كما قال تعالى: ﴿يَسْتَهْزِئُ بِرَبِّهِمْ﴾. ونحو ذلك. ثم عاد إلى المراد فأضمر فعلاً نصب به ﴿الْأَعْدَاءَ﴾، كأنه قال: لا تشمت بي الأعداء كقراءة الجماعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي كلام أبي الفتح هذا تكلف، وحكى المهدي عن ابن محيصن ﴿تَشْمِتُ﴾ بفتح التاء وكسر الميم و﴿الْأَعْدَاءَ﴾ بالنصب. والشماتة: فرحة العدو بمصاب عدوه. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْمَلْنَ مَعَ الْقَوْرِ الظَّالِمِينَ﴾ يريد عبدة العجل.

(١٥١) - (١٥٢) تفسير قوله عز وجل: استغفر موسى من فعله أخيه، ومن عَجَلْتَهُ في إلقاء الألواح، واستغفر لأخيه من فعله في الصبر لبني إسرائيل، ويمكن أن الاستغفار كان لغير هذا مما لا نعلمه، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا آيَاتِنَا﴾ الآية، مخاطبة من الله تعالى لموسى عليه السلام لقوله تعالى: ﴿سَيَأْتِيَهُمْ﴾، ووقع ذلك التَّيْلُ في عهد موسى عليه السلام، والغضب والذلة هو أمرهم بقتل أنفسهم، هذا هو الظاهر. وقال بعض المفسرين: الذلة: الجزية، ووجه هذا القول أن

الغضب والذلة بقيت في عقب هؤلاء المقصودين بها أولاً، وكأن المراد: سينال أعقابهم. وقال ابن جريج: الإشارة في قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ إلى من مات من عبدة العجل قبل التوبة بقتل النفس، وإلى من قرأ فلم يكن حاضراً وقت القتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغضب - على هذا - والذلة هو عذاب الآخرة، والغضب من الله عز وجل إن أخذ بمعنى الإرادة فهو صفة ذات، وإن أخذ بمعنى العقوبة وإحلال النعمة فهو صفة فعل، وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ المراد أولاً أولئك الذين افتروا على الله في عبادة العجل، وتكون قوة اللفظ تعم كل مفتر إلى يوم القيامة، وقد قال سفيان بن عيينة وأبو قلابة وغيرهما: كل صاحب بدعة أو فرية ذليل، واستدلوا بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الآية. تضمنت هذه الآية الوعد بأن الله عز وجل يغفر للثائبين، والإشارة إلى من تاب من بني إسرائيل، وفي الآية ترتيب الإيمان بعد التوبة، والمعنى في ذلك أنه أراد بقوله: ﴿وَأَيُّهَا﴾ أن التوبة نافعة لهم منجية فتمسكوا بها، فهذا إيمان خاص بعد الإيمان على الإطلاق، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿وَأَيُّهَا﴾ أي وعملوا عمل المؤمنين حتى وافوا على ذلك، ويحتمل أن يريد التأكيد فذكر التوبة والإيمان إذ هما متلازمان، إلا أن التوبة - على هذا - تكون من كُفِّر ولا بد فيجيء ﴿وَأَيُّهَا﴾ - ﴿وَأَيُّهَا﴾ بمعنى واحد،

وهذا لا يترتب في توبة المعاصي، فإن الإيمان متقدم لتلك ولا بُد، وهو وتوبة الكفر متلازمان. وقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ إيجاب ووعد مرجح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل قوله: ﴿تَابُوا﴾ - ﴿وَأَيُّهَا﴾ أن يكون لم تقصد رتبة الفعلين على عرف الواو في أنها لا توجب رتبة، ويكون ﴿وَأَيُّهَا﴾ بمعنى: وهم مؤمنون قبل وبعد. كأنه قال: ومن صفتهم أن آمنوا.

﴿١٥٤﴾ - ﴿١٥٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام لما سكن غضبه أخذ الألواح التي كان ألقى، وقد تقدم ما روي أنه رفع أكثرها أو ذهب في التكسر، وقوله: ﴿سَكَتَ﴾ لفظة مستعارة، شبه خمود الغضب بانقطاع كلام المتكلم وهو سكوته، قال يونس بن حبيب: تقول العرب: «سأل الوادي يومين ثم سكت»، وقال الزجاج وغيره: مصدر قولك: «سَكَتَ الغُضْبُ»: سَكَتَ، ومصدر قولك: «سكت الرجل»: سُكُوتٌ، وهذا يقتضي أنه فعل على حدة وليس من سكوت الناس، وقيل: إن في المعنى قلباً والمراد: ولما سكت موسى عن الغضب، فهو من باب: أدخلت فمي في الحَجْر، وأدخلت القلنسوة في رأسي، وفي هذا أيضاً استعارة، إذ الغضب ليس بتكلم فيوصف بالسكوت، وقرأ معاوية بن قرة: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾، وفي مصحف حفصة: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَلَمَّا صَبِرَ عن موسى الغضبِ﴾. قال النقاش:

وفي مصحف أبي: «ولما اشتق عن موسى الغضب».

وقوله تعالى: ﴿وَفِي شَحَابَةٍ﴾ معناه: وفيما ينسخ منها ويقرأ، واللام في قوله: ﴿لَرَبِّهِمْ﴾ يحتمل وجوهاً - مذهب المبرد أنها تتعلق بمصدر كأنه قال: الذين رهبتهم لربهم، ويحتمل أنه لما تقدم المفعول ضعف الفعل فقوي على التعدي باللام، ويحتمل أن يكون المعنى: هم لأجل طاعة ربهم وخوف ربهم يرهبون العقاب والوعيد ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ مُوسَى قَوْمَهُ﴾ الآية. معنى هذه الآية أن موسى عليه السلام اختار من قومه هذه العدة ليذهب بهم إلى موضع عبادة وإبتهاج ودعاء ليكون منه ومنهم اعتداز إلى الله عز وجل من خطيئ بني إسرائيل في عبادة العجل وطلب لكمال العفو عن بقي منهم. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن اختيارهم كان بسبب قول بني إسرائيل: إن موسى قتل هارون حين ذهب معه ولم يرجع، فاخترنا هؤلاء ليذهبوا فيكلمهم هارون بأنه مات بأجله، وقوله تعالى: ﴿لَمِيقَاتِنَا﴾ يؤيد القول الأول وينافر هذا القول، لأنها تقتضي أن ذلك كان عن ترويت من الله عز وجل وعدة في الوقت والموضع، وتقدير الكلام: «واختار موسى من قومه»، فلما انحذف الخافض تعدى الفعل فنصب، وهذا كثير في كلام العرب.

واختلف العلماء في سبب الرجفة التي حلت بهم - فقيل: كانت عقوبة

﴿أَشْفَهُهُ﴾ إشارة إلى العبد من بني إسرائيل، وكذلك إذا كان سببها قول بني إسرائيل له: قتلنا هارون. وإذا كان سبب الرجفة طلبهم الرؤية وتشططهم في الدعاء أو عبادتهم بأنفسهم العجل فالضمير في قوله: ﴿أَشْفَهُهُ﴾ يريد به نفسه وبني إسرائيل، أي: بالتفرق والكفر والعصيان يكون هلاكهم، ويكون قوله: ﴿أَشْفَهُهُ﴾ إشارة إلى السبعين، وزوي أن السبعين لم يكن فيهم من زاد على الأربعين ولا من قصر عن العشرين، وزوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم أحيوا وجعلوا أنبياء كلهم.

وقالت فرقة: إن موسى عليه السلام لما أعلمه الله عز وجل أن السبعين عبادوا العجل تعجب وقال: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ﴾ أي: الأمور بيدك تفعل ما تريد، وقيل: إن الله تعالى لما أعلم موسى بعبادة بني إسرائيل العجل وبصفته قال موسى: أي رب ومن أخاره؟ قال: أنا، قال موسى: فأنت أضللتهم، إن هي إلا فتنتك، ويحتمل أن يشير به ﴿إِنِّي﴾ إلى قولهم: ﴿أَرَأَيْتَ اللَّهُ﴾ إذ كانت فتنة من الله أوجبت الرجفة، وفي هذه الآية رد على المعتزلة، وأغفر معناه: استر.

﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾

﴿وَأَكْتَبَ﴾ معناه: أثبت واقض، والكتب مستعمل فيما يخلد. ﴿وَحَسَنَةً﴾ لفظ عام في كل ما يحسن في الدنيا من عافية وغنى وطاعة الله تبارك وتعالى وغير ذلك، وحسنة الآخرة الجنة لا حسنة دونها

وعشرته، فاختار السبعين ليمضوا معه حتى يروا برهان ما قال لهم، فلما وصلوا قال له موسى: يا هارون أفقت أم مت؟ فناداه من القبر: بل مت - فأخذت القوم الرجفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: روي أنهم ماتوا في رجفتهم هذه، ويحتمل أن كانت كالإغماء ونحوه. والرجفة: الاهتزاز والتقلقل للهول العظيم، فلما رأى موسى ذلك أسف عليهم، وعلم أن أمر بني إسرائيل سيتشعب

عليه إذا لم يأت بالقوم، فجعل يستعطف ربه، أي رب لو أهلكتهم قبل هذه الحال وإيائي لكان أحق علي. وهذا وقت هلاكهم فيه مُفسد علي مؤذي لي. ثم استغفم على جهة الرغبة والتضرع والتذلل. ويحتمل قوله: ﴿رَبِّ لَوْ بَشِئْتَ أَهْلَكَتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنِّي﴾ أن يريد وقت إغضائهم على عبادة العجل، أي وقت عبادتهم - على القول بذلك -، وفي نفسه هو وقت قتله القبطي. أي: فأنت قد سترت وعفوت حينئذ، فكيف الآن إذ رجوعي دونهم فساد لبني إسرائيل، فمنحي الكلام - على هذا - محض استعطاف، وعلى التأويل الأول منحاه الإدلاء بالحجة في صيغة استعطاف، وإذا قلنا: إن سبب الرجفة كان عبادة العجل كان الضمير في قوله: ﴿أَشْفَهُهُ﴾ له وللسبعين،

﴿وَأَكْتَبْتَ لَنَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُنَا نَايِبُكَ قَالَ عَذَابٌ أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ وَمَسَاكِينُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوزًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَإِنَّ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَا عَصَوْهُ وَفَضَّلَهُمْ وَأَنْجَلَهُمُ الَّذِي أَنْزَلَ مَعَهُ الْوَيْدَ وَالْحَقُّ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَتَّبِعُوا النَّاسَ فِي رَسُولِ اللَّهِ إِنَّكُمْ جَمِيعًا بِالَّذِي لَكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَأَهْلُؤَيْحَى وَيُؤَيِّتُكُمْ فَأَمَّا بِاللَّهِ وَسُوَيْهِ الرَّسُولِ نَبِيٍّ أَلَمْ يَكُنْ الَّذِي تَتَّبِعُونَ فَكَيْفَ لَا يَأْتِيَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالْحَقِّ وَيَهْدِيكُمْ إِلَى سَبِيلِ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلِهِ مِثْلُ بَعْضِ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾

لهم على سكوتهم وإغضائهم على عبادة العجل. وقيل: كانت على عبادتهم العجل بأنفسهم وخفي ذلك عن موسى في وقت الاختيار حتى أعلمه الله، قاله السدي. وقيل: كانت عقوبة لهم لأنهم لما دنوا وعلموا أن موسى يسمع كلام الله قالوا له: «أرنا ربك» فأخذتهم الرجفة. وقيل: كانت عقوبة لتشططهم في الدعاء بأن قالوا: اللهم أعطنا ما لم تعطه أحداً قبلنا ولا تعطيه أحداً بعدنا، فأخذتهم الرجفة، وقيل: إنما أخذتهم لما سمعوا كلام هارون وهو ميت، وذلك أن موسى وهارون ذهبا إلى التعبد أو نحوه فمات هارون فدفنه موسى وجاء، فقالت بنو إسرائيل: أين هارون؟ فقال: مات. فقالوا: بل أنت قتلته لأنك حسدتنا على حسن خلقه

ولا مرمى وراءها، و﴿هَذَا﴾ بضم الهاء معناه: ثبنا، وقرأ أبو وجزة ﴿هَذَا﴾ بكسر الهاء، ومعناه: حركنا أنفسنا وجذبناها لطاعتك، وهو مأخوذ من هاد يهيد إذا حرك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾ الآية. قال الله عز وجل: إن الرجفة التي أنزلت بالقوم هي عذابي أصيب به من شئت، ثم أخير عن رحمته، ويحتمل - وهو الأظهر - أن الكلام قصد به الخبر عن عذابه وعن رحمته من أول ما ابتدأ، ويندرج أمر أصحاب الرجفة في عموم قوله: ﴿عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ﴾. وقرأ الحسن، وطاوس، وعمرو بن فائد: ﴿مَنْ أَشَاءُ﴾ من الإساءة، أي من عمل غير صالح. وللمعتزلة بهذه القراءة تعلق من وجهين: أحدهما إنفاذ الوعيد، والآخر خلق المرء أفعاله، وإن ﴿أشَاء﴾ لا فعل لله فيه، وهذان التعلقان فيهما احتمال ينفصل عنه كما ينفصل عن سائر الظواهر، إلا أن الفراء أطنبوا في التحفظ من هذه القراءة، وقال أبو عمرو الداني: لا تصح هذه القراءة عن الحسن وطاوس، وعمرو بن فائد رجل سوء، وذكر أبو حاتم أن سفيان بن عيينة قرأها مرة واستحسنها فقام إليه عبدالرحمن المقرئ وصاح به وأسمعه، فقال سفيان: لم أدر ولم أظن لما يقول أهل البدع، وهذا إفراط من المقربين، وحملهم على ذلك شحهم على الدين وظنهم أن الانفصال عن تعلق المعتزلة متعذر.

ثم وصف الله تبارك وتعالى رحمته

بأنها وسعت كل شيء، فقال بعض العلماء: هو عموم في الرحمة وخصوص في قوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾، والمراد من قد سبق في علم الله أن يرحمه دون من سواهم.

وقال بعضهم: هو عموم في رحمة الدنيا لأن الكافر والمؤمن والحيوان كله متقلب في رحمة الله الدنياوية. وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ في الرحمة وفي الأشياء لأن المراد من قد تقع منه التوبة. وقال نوف البكالي: إن إبليس لما سمع قول الله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ طمع في رحمة الله، فلما سمع ﴿مَسَاكِينًا لِلَّذِينَ يَقُولُونَ دُونَكَ الْكُفْرَةَ﴾ ينس إبليس وبقيت اليهود والنصارى، فلما تعادت الصفة تبين أن المراد أمة محمد ﷺ وينس اليهود والنصارى من الآية، وقال نحوه قتادة.

وقوله تعالى: ﴿مَسَاكِينًا﴾ أي أقدرها وأقضيها، وقال نوف البكالي: إن موسى عليه السلام قال: يا رب جعلت وفادتي لأمة محمد ﷺ، وقال نوف البكالي: فاحمدوا الله الذي جعل وفادة بني إسرائيل لكم، وقوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ في هذه الآية - قالت فرقة معناه: يتقون الشرك، وقالت فرقة: يتقون المعاصي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال: «الشرك لا غير» خرج إلى قول المرجئة، ويرد عليه من الآية شرط الأعمال بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾، ومسئون قال:

«المعاصي ولا بُدَّ» خرج إلى قول المعتزلة، والصواب أن تكون اللفظة عامة ولكن ليس بأن نقول: «ولا بُدَّ من اتقاء المعاصي»، بل أن نقول: «مع أن مواقع المعاصي في مشيئة الله تعالى»، ومعنى ﴿يَقُولُونَ﴾: يجعلون بينهم وبين المتقى وقاية وحجاباً، فذكر الله تعالى الرتبة العالية ليشابق السامعون إليها.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ الظاهر من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ﴾ أنها الزكاة المختصة بالمال، وخصها هنا بالذكر تشريفاً لها، وجعلها مثلاً لجميع الطاعات، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه: وَيُؤْتُونَ الأعمال التي يزكون بها أنفسهم.

﴿١٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الألفاظ أخرجت اليهود والنصارى من الاشتراك الذي يظهر في قوله: ﴿مَسَاكِينًا لِلَّذِينَ يَقُولُونَ﴾، وخلصت هذه العدة لأمة محمد ﷺ. قاله ابن عباس، وابن جبير، وغيرهما. و﴿يَقُولُونَ﴾ معناه: في شرعه ودينه، و﴿الرَّسُولُ﴾ و﴿النَّبِيُّ﴾ اسمان لمعتنين، فإن الرسول أخص من النبي، هذا في الآدميين لاشتراك الملك في لفظه الرسول. والنبي مأخوذ من النبأ، وقيل: لما كان طريقاً إلى رحمة الله تبارك وتعالى وسبباً شبه بالنبي الذي هو الطريق، وأشدوا:

لأَضْبَحَ رَتْماً دَقَّاقَ الْحَصَى
مَسْكَانَ النَّبِيِّ مِنَ الْكُتَابِ
وأصله الهمز ولكن خفف، كذا قاله سيبويه، وذلك كتخفيفهم خابية

وهي من خبأ، واستعمل تخفيفه حتى قد روي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تنيروا اسمي». وقدم الرسول اهتماماً بمعنى الرسالة عند المخاطبين بالقرآن، وإلا فمعنى النبوة هو المتقدم، وكذلك رد رسول الله ﷺ على البراء بن عازب حين قال: «أمنت بكتابك الذي أنزلت، وبرسولك الذي أرسلت»، فقال له رسول الله ﷺ: «وَبِنَبِيِّكَ الَّذِي أُرْسِلت» ليرتب الكلام كما ترتب الأمر في نفسه، لأنه نبيء ثم أرسل، وأيضاً ففي العبارة المردودة تكرار الرسالة وهو معنى واحد.

﴿وَالْأَنْبِيَاءِ﴾ بضم الهمزة. قيل: نُسب إلى أم القرى وهي مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللفظة - على هذا - مختصة بالنبي ﷺ وغير مضمنة معنى عدم الكتابة. وقيل: هو منسوب - لعدم الكتابة والحساب - إلى الأم، أي: هو على حال الصدور عن الأم في عدم الكتابة. وقالت فرقة: هو منسوب إلى الأمة، وهذا أيضاً مضمن عدم الكتابة لأن الأمة بجملتها غير كاتبة حتى تحدث فيها الكتابة كسائر الصنائع. وقرأ بعض القراء فيما ذكر أبو حاتم: ﴿الْأُمِّيَّ﴾ بفتح الهمزة، وهو منسوب إلى الأم وهو القصد، أي لأن هذا النبي مقصد للناس وموضع أم يؤمنونه بأفعالهم وتشرعهم، قال ابن جنبي: وتحتمل هذه القراءة أن يريد الأمميّ فغير تغيير النسب.

والضمير في قوله: ﴿يَجِدُونَهُ﴾ لبني إسرائيل، والهاء منه

لمحمد ﷺ، والمراد صفته ونعته. ورؤي أن الله عز وجل قال لموسى: قل لبني إسرائيل: أجعل لكم الأرض مسجداً وطهوراً، وأجعل السكينة معكم في بيوتكم، وأجعلكم تقرأون التوراة عن ظهر قلوبكم. فأخبر موسى بني إسرائيل فقالوا: إنما نريد أن نصلي في الكنائس، وأن تكون السكينة كما كانت في التابوت، وأن لا نقرأ التوراة إلا نظراً، فقيل لهم: فنكتبها للذين يتقون يعني أمة محمد ﷺ. وروي عن عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما في البخاري وغيره أن في التوراة من صفة محمد ﷺ: (يَأْتِيهَا النَّبِيُّ، إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً وَحَرِيراً لِلأُمِّيِّينَ، أَنْتَ عَبْدِي وَرَسُولِي، سَمِيَّتْكَ الْمَتَوَكَّلُ، لَيْسَ بِفِظْ وَلَا غَلِيظٌ وَلَا صَخَابٌ فِي الأَسْوَاقِ، وَلَا يَجْزِي بِالسَّيْئَةِ السَّيْئَةَ، وَلَكِنْ يَعْغُو وَيَصْفَحُ، وَلَنْ أَقْبِضَهُ حَتَّى أَقِيمَ بِهِ الْمِلَّةَ الْعَوْجَاءَ بِأَنْ يَقُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَنَقِيمَ بِهِ قُلُوباً غُلْفَاءً، وَأَذَاناً صَمّاً، وَأَعْيُنًا عَمِيّاً). وفي البخاري: (فَنَفْتَحُ بِهِ عَيْوناً عَمِيّاً، وَأَذَاناً صَمّاً، وَقُلُوباً غُلْفَاءً). ونص كعب الأحبار نحو هذه الألفاظ إلا أنه قال: (قلوباً غُلْفَاءً، وَأَذَاناً صَمُوماً) قال الطبري: وهي لغة حميرية، وقد رويت (غلوفيا وصوميا).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأظن هذا وهماً وعجمة.

وقوله تعالى: ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يحتمل أن يريد ابتداء وصف الله تبارك وتعالى النبي ﷺ، ويحتمل أن نجعله متعلقاً

ب﴿يَجِدُونَهُ﴾ في موضع الحال على تجوز، أي: يجدونه في التوراة أمراً بشرط وجوده، فالمعنى الأول لا يقتضي أنهم علموا من التوراة أنه يأمرهم وينهاهم ويحل ويحرم، والمعنى الثاني يقتضي ذلك، فالمعنى الثاني - على هذا - ذم لهم، ونحا إلى هذا أبو إسحاق الزجاج. وقال أبو علي الفارسي في «الأغفال»: ﴿يَأْمُرُهُم﴾ عندي تفسير لما كتب من ذكره، كما أن قوله تعالى: ﴿عَلَّمَهُ مِنْ رَبِّهِ﴾ تفسير للمثل. ولا يجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَجِدُونَهُ﴾ لأن الضمير للذكر والاسم، والذكر والاسم لا يأمران.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما قدمته من التجوز وشرط الوجود يقرب مما منع منه أبو علي، وانظر. و﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ ما عرف بالشرع، وكل معروف من جهة المروءة فهو معروف بالشرع، فقد قال ﷺ: «بعثت لأتمم محاسن الأخلاق»، و﴿الْمُنْكَرِ﴾ مقابله.

و﴿الطَّيِّبَاتِ﴾ قال فيها بعض المفسرين: إنها إشارة إلى البحيرة ونحوها، ومذهب مالك رحمه الله أنها المحللات، فكأنه وصفها بالطيب إذ هي لفظة تقتضي مدحاً وتشريعاً، وبحسب هذا يقول في ﴿الْحَبِيبَاتِ﴾ إنها المحرمات. وكذلك قال ابن عباس رضي الله عنهما: الخبيثات: هي لحم الخنزير والربا وغيره، وعلى هذا حلل مالك المتقدرات كالحبيبات والخنافس والمقارب ونحوها، ومذهب الشافعي

رحمه الله أن الطيبات هي من جهة الطعم إلا أن اللفظة عنده ليست على عمومها لأن عمومها بهذا الوجه من الطعم يقتضي تحليل الخمر والخنزير، بل يراها مختصة فيما حلَّه الشرع، ويرى الخبائث لفظاً عاماً في المحرمات بالشرع وفي المتقدرات فيحرم العقارب والخنائس والوزغ وما جرى هذا المجرى، والناس على هذين القولين إلا أن في تعيين الخبائث اختلافاً ليس هذا موضع تقصيه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾ الآية. ﴿وَيَضَعُ﴾ كان قياسه أن يكون (يضع) بكسر الضاد لكن رده حرف الحلق إلى فتح الضاد، قال أبو حاتم: وأدغم أبو عمرو ﴿يَضَعُ عَنْهُمْ﴾ العين في العين. وأشبهها الرفع وأشبعها أبو جعفر وشيبة ونافع، وقرأ طلحة: ﴿وَيُذْهِبُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ﴾. والإضر: الثقل، وبه فسر - هنا - قتادة، وابن جبير، ومجاهد. والإضر أيضاً: العهد، وبه فسر ابن عباس، والضحاك، والحسن، وغيرهم. وقد جمعت هذه الآية المعنيين، فإن بني إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد ﷺ ذلك العهد وثقل تلك الأعمال. وحكى أبو حاتم عن ابن جبير قال: الإضر: شدة العبادة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والناس: ﴿إِصْرَهُمْ﴾، وقرأ ابن عامر وحده، وأيوب السخيتياني، ويعلى بن حكيم، وأبو سراج

الهلذلي، وأبو جعفر: ﴿أَصَارَهُمْ﴾ بالجمع، لما كانت الأعمال كثيرة كانت أثقالها متغايرة، ومن وخذ الإضر فهو مفرد اسم جنس يراد به الجمع، قال أبو حاتم: في كتاب بعض العلماء: «أصْرَهُمْ» واحد مفتوح الهمزة عن نافع، وعيسى، والزيات، وذلك غلط. وذكرها مكِّي عن أبي بكر عن عاصم وقال: هي لغة.

﴿وَالْأَعْتَلَّ أَلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ عبارة مستعارة أيضاً لتلك الأقال، كقطع الجلد من أثر البول، وأن لا دية، ولا بُدُّ من قتل القاتل، وترك الأشغال يوم السبت، فإنه رُوي أن موسى عليه السلام رأى يوم السبت رجلاً يحمل قصباً فضرب عنقه، هذا قول جمهور المفسرين، وهذا مثل قولك: ﴿طَوَّقَ فُلَانٌ كَذَا﴾ إذا ألزمه، ومنه قول الشاعر:

اذْهَبْ بِهَا اذْهَبْ بِهَا
طَوَّقَتْهَا طَوَّقَ الْحَمَامَةِ
أي: لزمك عارها.

ومن هذا المعنى قول الهلذلي:
فَلَيْسَ كَعَهْدِ الدَّارِ يَا أُمَّ مَالِكٍ
وَلَكِنْ أَحَاطَتْ بِالرَّقَابِ السَّلَامِلُ
وَعَادَ الْفَتَى كَالْكَهْلِ لَيْسَ بِقَائِلِ
سِوَى الْحَقِّ شَيْئاً فَاسْتَرَحَ الْعَوَازِلُ
يريد أوامر الإسلام ولوازم الإيمان الذي قيد الفتك كما قال ﷺ. وقال ابن زيد: إنما المراد هنا بالأغلال قول الله عز وجل في اليهود: ﴿عَلَّتْ أَيْدِيهِمْ﴾، فمن آمن بمحمد ﷺ زالت عنه الدعوة وتغليها.

ثم أخبر تعالى عن حال المؤمنين فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ، وَعَزَّرُوهُ

وَصَكَّرُوهُ﴾، وقرأ الجحدري، وسليمان التيمي، وقاتدة، وعيسى: ﴿عَزَّرُوهُ﴾ بالتخفيف، وجمهور الناس على التشديد في الزاي، ومعناه في القراءتين: وقروه. والتعزيز والنصر مشاهدة خاصة للصحابة، واتباع النور يشترك فيه معهم المؤمنون إلى يوم القيامة. والنور كناية عن جملة الشرع. وقوله: ﴿مَعَهُ﴾ فيه حذف مضاف والتقدير: مع بعثه أو نبوته أو نحو هذا، وشبه الشرع والهدى بالنور إذ القلوب تستضيء به كما يستضيء البصر بالنور. و﴿الْمُتْلِحُونَ﴾ معناه: الفائزون ببغيتهم، وهذا يعم معاني الفلاح فإن من بقي فقد فاز ببغيته.

﴿١٥٨﴾ - ﴿١٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر من الله عز وجل لنبيه بإشهار الدعوة والحض على الدخول في الشرع، وذلك أنه لما رجى الأمة المتبعة للنبي الأمي التي كتب لها رحمته عقب ذلك بدعاء الناس إلى الاتباع الذي تحصل معه تلك المنازل. وهذه الآية خاصة بمحمد ﷺ بين الرسل، فإن محمداً ﷺ يُعَثُّ إلى الناس كافة وإلى الجن، قاله الحسن، وتقضيه الأحاديث، وكل نبي إنما بعث إلى فرقة دون العموم، ثم إنه لما أعلن بالرسالة من عند الله تبارك وتعالى أَرَدَفَ بصفة الله التي تقتضي الإذعان له وهي أنه مالك السموات والأرض بالخلق والإبداع والإحياء والإماتة، لا إله إلا هو ولا معبود سواه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَامُوا بِاللَّهِ رَوَّسُولِهِ﴾ الآية. هو للحض على اتباع

الآية. ﴿يَهْدُونَ﴾ معناه: يرشدون أنفسهم، وهذا الكلام يحتمل أن يريد به وصف المؤمنين المتقين من بني إسرائيل على عهد موسى وما والاها من الزمن، فأخبر أنه كان في بني إسرائيل على عتوهم وخلافهم من اهتدى واتقى وعدل، ويحتمل أن يريد الجماعة التي آمنت بمحمد ﷺ من بني إسرائيل على جهة الاستجلاب لإيمان جميعهم، ويحتمل ما زوي من أن بني إسرائيل لما تقطعوا مرت أمة منهم واعتزلت ودخلت تحت الأرض فمشت في سرب تحت الأرض سنة ونصف سنة حتى خرجوا وراء الصين، فهم هنالك خلف واد من شهد يقيمون الشرع ويهدون بالحق، قاله السدي وابن جريج، وزوي بعضه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حديث بعيد، وقرأ بعض من الناس: ﴿رَقَطْنَهُمْ﴾ بشد الطاء، وقرأ أبو حيوة، وابن أبي عسلة: ﴿وَقَطَعْنَاَهُمْ﴾ بتخفيف الطاء، ورواها أبان عن عاصم، ومعناه: فزقناهم، من القطع، وقرأ جمهور الناس: ﴿عَشْرَةٌ﴾ بسكون الشين، وهي لغة الحجاز، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وطلحة بن سليمان بخلاف: ﴿عَشْرَةٌ﴾ بفتح الشين، وقرأت هذه الجماعة أيضاً،

وطلحة بن مصرف، وأبو حيوة: ﴿عَشْرَةٌ﴾ بكسر الشين، وهي لغة تميم. وقال أبو حاتم: والعجب أن تميمياً يخفون ما كان من هذا الوزن، وأن أهل الحجاز يشعرون، وتناقضوا في هذا الحرف. وقوله: ﴿أَسْبَابًا﴾ بدل من ﴿أَثْنِي﴾، والتمييز الذي بين العدد محذوف مقدر: اثنتي عشرة فرقة أو قطعة أسباطاً، وإما أن يزول عن التمييز ويقدر: وقطعناهم فرقا اثني عشرة، ثم أبدل ﴿أَسْبَابًا﴾، والأول أحسن وأبين. ولا يجوز أن يكون ﴿أَسْبَابًا﴾ تمييزاً لأن التمييز لا يكون إلا مفرداً نكرة، وأيضاً فالسبب مذكر وهو قد عُدَّ مؤنثاً، على أن هذه العلة لو انفردت لمنعت إذ السبب بمعنى الأمة، قال الطبري: وقال بعض الكوفيين: لما كان السبب بمعنى الأمة غلب التأنيث، وهو مثل قول الشاعر:

فإن كلاباً هذو عَشْرُ أَبْطُنٍ
وأنت بريء من قَبَائِلِهَا العَشْرُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأغفل هذا الكوفي جمع الأسباط وأن ما ذهب إليه إنما كان يجوز لو كان الكلام: «اثنتي عشرة سبطاً»، والسبب في ولد إسحق كالقبيلة في ولد إسماعيل، وقد قال الزجاج وغيره: إن السبب من السبب وهو شجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما الأظهر فيه أنه عبراني عَرَبٌ. ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾

وَقَطَعْنَهُمْ اثْنِي عَشْرَةَ أَسْبَابًا أُمَّةً وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَنَهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسْتُمْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عِشًّا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ وَظَلَلْنَا عَلَيْهِمُ الْعِقْمَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَىٰ كُلَّوْا مِنْ طِينَتِ مَا رَزَقْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٠﴾ وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا أَرْضَ الْقَرْيَةِ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا نَعْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ سَتَرِدُ الْمُنْحَسِرُونَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِنْ السَّمَاءِ يَمَّا كَانُوا يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾ وَسَأَلَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ جِثَاثُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبِّئُهُمْ يَمَّا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٣﴾

محمد ﷺ، وقوله: ﴿الَّذِي يُؤْتِي﴾ يريد: الذي يصدق ﴿بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ﴾، والكلمات هنا الآيات المنزلة من عنده كالنوراة والإنجيل. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ بالجمع، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿كَلِمَاتِهِ﴾ بالإفراد الذي يراد به الجمع، وقرأ الأعمش: ﴿الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَآيَاتِهِ﴾ بدل ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾، وقال مجاهد، والسدي: المراد بـ ﴿وَكَلِمَاتِهِ﴾ أو ﴿كَلِمَاتِهِ﴾ عيسى ابن مريم. ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ أي على طمعكم وبحسب ما ترونه، وقوله: ﴿وَأَنْجِبُوا﴾ لفظ عام يدخل تحته جميع إلزامات الشريعة، جعلنا الله من متبعيه على ما يلزم بمنه ورحمته. وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾

التظليل وإنزال المن والسلوى، وذكرنا ذلك بما يغني عن إعادته هنا.

﴿وَأَلْبَسْتَهُمْ﴾ معناه: انفجرت إلا أن الانبجاس أخف من الانفجار، وقرأ الأعمش، وعيسى الهمداني: ﴿كُلُّوا مِن كَيْبَتِ مَا رَزَقْنَكُمْ﴾ بتوحيد الضمير.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر إذ قيل لهم، والمراد من سلف من بني إسرائيل، وذلك أنهم لما خرجوا من الثيِّه قيل لهم: اسكنوا هذه القرية، والقرية في كلام العرب: المدينة مجتمع المنازل، والإشارة هنا إلى بيت المقدس. قاله الطبري، وقيل: إلى أريحا. ﴿وَحَيْثُ شِئْتُمْ﴾ أي: هي ونعما لكم مباحة.

وقرأ السبعة، والحسن، وأبو رجاء، ومجاهد، وغيرهم: ﴿حِطَّةً﴾ بالرفع، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿حِطَّةً﴾ بالنصب. الرفع على خبر ابتداء تقديره: طلبنا حطة، والنصب على المصدر، أي حط ذنوبنا حطة، وهذا على أن يكلفوا قول لفظه معناها: حطة. وقد قال قوم: كلفوا قولاً حسناً مضمناً الإيمان وشكر الله ليكون حطة لذنوبهم، فالكلام - على هذا - كقولك: قل خيراً. وتوفية هذا مذكور في سورة البقرة.

وقرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي: ﴿تَغْفِرُ﴾ بالنون ﴿لَكُمْ﴾ خَطِيئَتِكُمْ بالتاء مهموزاً على الجمع. وقرأ أبو عمرو: ﴿تَغْفِرُ﴾ بالنون ﴿لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ﴾ ونحو

﴿قضاياكم﴾، وهي قراءة الحسن والأعمش. وقرأ نافع: ﴿تَغْفِرُ﴾ بتاء مضمومة ﴿لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ﴾ بالهمز وضم التاء على الجمع، ورواها محبوب عن أبي عمرو. وقرأ ابن عامر: ﴿تَغْفِرُ﴾ بتاء مضمومة ﴿لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ﴾ واحدة مهموزة مرفوعة، قال أبو حاتم: وقرأها الأعرج وفرقة ﴿تَغْفِرُ﴾ بالتاء وفتحها على معنى أن الحطة تغفر إذ هي سبب الغفران.

﴿وَيَذَلُّ﴾ معناه: غير اللفظ دون أن يذهب بجميعة، وأبدل: إذا ذهب به وجاء بلفظ آخر، والإشارة بالقول إلى قول بني إسرائيل: «حبة في شعرة أو حنطة في شعيرة». والرجز الذي أرسل عليهم: طاعون، يقال: مات منه في يوم سبعون ألفاً. وتقدم أيضاً استيعاب تفسير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَسْتَأْتُهُم مِّنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ﴾ الآية. قال بعض المتأولين: إن اليهود المعارضين لمحمد ﷺ قالوا: إن بني إسرائيل لم يكن فيهم عصيان ولا معاندة لما أمروا به، فنزلت هذه الآية مويخة لهم ومقررة ما كان من فعل أهل هذه القرية، فسؤالهم إنما كان على جهة التوبيخ، والقرية هنا: مَدْيَن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: أيلة، قاله ابن عباس، وعبدالله بن كثير، وعكرمة، والسدي، والثوري. وقال قتادة: هي «مقنا» بالقاف ساكنة، وقال ابن زيد: هي مقناة ساحل مدين، ويقال فيها معنى «بالغين مفتوحة ونون مشددة»، وقيل: هي طبرية، قاله الزهري، و﴿حَاضِرَةَ﴾

يحتمل أن يريد معنى الحضور، أي: البحر فيها حاضر، ويحتمل أن يريد معنى الحضارة على جهة التعظيم لها، أي: هي الحاضرة في مدن البحر.

﴿وَإِذْ يَعِدُونَكُمُ﴾ معناه: يخالفون الشرع، من عدا يعدو. وقرأ شهر بن حوشب، وأبو نهبك: ﴿يَعِدُونَكُمُ﴾، قال أبو الفتح: أراد (يعتدون) فأسكن التاء ليدغمها في الدال، ونقل فتحها إلى العين فصار ﴿يَعِدُونَكُمُ﴾ بفتح العين وشد الدال المضمومة.

والاعتداء منهم في السبت هو نفس العمل والاشتغال كان صيداً أو غيره إلا أنه كان في هذه النازلة بالصيد، وكان الله عز وجل ابتلاهم في أمر الحوت بأن يغيب عنهم سائر الجمعة فإذا كان يوم السبت جاءهم في الماء شارعاً، أي مُقبلاً إليهم مصطفاً، كما تقول: أشرعت الرماح إذا مدت مصطفة، وهذا يمكن أن يقع من الحوت بإرسال من الله لإرسال السحاب، أو بوحى وإلهام كالوحي إلى النحل، أو بإشعار في ذلك اليوم على نحو ما يشعر الله الدواب يوم الجمعة بأمر الساعة حسبما يقتضيه قول النبي ﷺ: «ما من دابة إلا وهي مصيخة يوم الجمعة حتى تطلع الشمس فرقاً من الساعة»، ويحتمل أن يكون ذلك من الحوت شعوراً بالسلامة في ذلك اليوم على نحو شعور حمام الحرم بالسلامة. قال رواة هذا القصص: فيقرب الحوت ويكثر حتى يمكن أخذه باليد، فإذا كان ليلة الأحد غاب بجملته، وقيل: غابت كثرته ولم يبق منه إلا القليل

إسرائيل ونهت وجاهرت
بالنهي واعتزلت، والعامل
في قوله: ﴿يَوْمَ لَا
يَسْتَبِيحُونَ﴾ قوله: ﴿لَا
تَأْتِيهِمْ﴾ وهو ظرف
مقدم.

وقرأ عمر بن عبدالعزيز:
«جِئْتَانِهِمْ يَوْمَ إِسْبَاتِهِمْ»،
وقرأ نافع، وأبو عمر،
والحسن، وأبو جعفر،
والناس: ﴿يَسْتَبِيحُونَ﴾
بكسر الباء، وقرأ
عيسى بن عمر، وعاصم
بخلاف: ﴿يَسْتَبِيحُونَ﴾
بضمها، وقرأ الحسن بن
أبي الحسن، وعاصم
بخلاف: ﴿يَسْتَبِيحُونَ﴾ من

(أسبت) إذا دخل في السبت.

ومعنى قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ الإشارة
إلى أمر الحوت وفتنتهم به، هذا
على من وقف على ﴿تَأْتِيهِمْ﴾، ومن
وقف على ﴿كَذَلِكَ﴾ فالإشارة إلى
كثرة الحيتان شُرْعاً، أي: فما أتى
منها فهو قليل، و﴿تَبْلُوهُمْ﴾ أي
نمتحنهم لفسقهم وعصيانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي قصص هذه الآية رواية وتطويل
اختصرته واقتصرت منه على ما لا
تفهم ألفاظ الآية إلا به.

﴿١٦٦﴾ - ﴿١٦٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال جمهور المفسرين: إن بني
إسرائيل افتقرت ثلاث فرق: فرقة
عصت وصادت، وفرقة نهت
وجاهرت وتكلمت واعتزلت، وفرقة
اعتزلت ولم تعص ولم تنه. وإن هذه
الفرقة لما رأت مجاهرة النهاية

وطغيان العاصية وعتوها قالت
للناحية: ﴿لِمَ تَعْتَظُونَ قَوْمًا﴾ يريدون
العاصية ﴿اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ﴾
على غلبة الظن وما عهد من فعل الله
حينئذ بالأمم العاصية، فقالت
الناحية: موعظتنا معذرة إلى الله، ثم
اختلف بعد هذا فقالت فرقة: إن
الطائفة التي لم تعص ولم تنه هلكت
مع العاصية عقوبة على ترك النهي،
قاله ابن عباس، وقال أيضاً: ما
أدري ما فعل بهم. وقالت فرقة: بل
نجت مع النهاية لأنها لم تعص ولا
رضيت. قاله عكرمة والحسن
وغيرهما. وقال ابن الكلبي فيما أسند
عن الطبري: إن بني إسرائيل لم
تفتقر إلا على فرقتين: فرقة عصت
وجاهرت، وفرقة نهت وغيرت
واعتزلت، وقالت للعاصية: إن الله
يهلكهم ويعذبهم، فقالت أمة من
العاصيين للناهين - على جهة
الاستهزاء -: لِمَ تَعْتَظُونَ قَوْمًا قَدْ
عَلِمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ مُهْلِكُهُمْ وَمُعْزِيهِمْ؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والقول الأول أصوب، وتؤيده
الضمائر في قوله: ﴿إِلَى رَبِّكَ
وَلَعَلَّهُمْ﴾، فهذه المخاطبة تقتضي
مخاطباً ومخاطباً ومكناً عنه، وقرأ
ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن
عامر، وحمزة، والكسائي:
﴿مُعْذِرَةً﴾ بالرفع، أي: موعظتنا
معذرة أي إقامة عذر، وقرأ عاصم -
في بعض ما روي عنه - وعيسى بن
عمر، وطلحة بن مصرف:
﴿مُعْذِرَةً﴾ بالنصب، أي: وعظنا
معذرة، قال أبو علي: حجتها أن
سببويه قال: لو قال رجل لرجل:

وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِنْهُمْ لِمَ تَعْتَظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعْزِيهِمْ
عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةٌ إِيَّا رَبِّكُمْ وَعَلَّاهُمْ يَنْقُوتُونَ ﴿١٦٥﴾
فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَاجْتَمَعَ الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ النُّشُورِ
وَآخِذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعِدَابِ بَيْعِهِمْ يَمَّا كَانُوا يَقْسِمُونَ ﴿١٦٦﴾
فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿١٦٧﴾
وَإِذْ تَأَذَّتْ رِبَّكَ لِبَيْعَتِنَا عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْبَيْعَةِ مِنْ
بَيْنِهِمْ سِوَةَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٦٨﴾ وَقَطَعْنَا فِي الْأَرْضِ أُمَّةً مِنْهُمْ
الضَّالِّينَ حَتَّى وَجَّهْتُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَهُمْ بِالْحَسَنَاتِ
وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٩﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَعدِهِمْ خَلْفٌ
وَرَّثُوا أَلْكُتُبَ يَأْخُذُونَ عَرْضَ هَذَا الْأَذَى وَيَعْلَمُونَ سِغْفَرَنَا
وَإِنْ يَأْتِيهِمْ عَرْضٌ مِثْلَهُ بِأَعْدَاءِهِمْ أَلَّا يُؤْخَذَ عَلَيْهِمْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ
أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالذَّاكِرَةُ
حَبْرٌ لِلَّذِينَ يَنْقُوتُونَ فَلَا تَعْلَمُونَ ﴿١٧٠﴾ وَالَّذِينَ تَسْتَكُونُ
بِالْكُتُبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضِيعُ أَجْرَ الْمُضِلِّينَ ﴿١٧١﴾

الذي يتعب صيده، قال قتادة:
ففتنهم ذلك وأضر بهم فطرقوا إلى
المعصية بأن حفرُوا حُفْرًا يخرج إليها
ماء البحر على أخذود، فإذا جاء
الحوت يوم السبت وحصل في
الحفرة ألْقُوا فِي الإِخْدُودِ حَجْرًا
فمنعوا الخروج إلى البحر، فإذا كان
الأحد أخذوه، فكان هذا أول
التطرق، وروى أشهب عن مالك
قال: زعم ابن رومان أنهم كانوا
يأخذ الرجل خيطاً ويصنع فيه وهقة
ويلقيها في ذنب الحوت، وفي
الطرف الآخر من الخيط وتد
مضروب، ويتركه كذلك إلى الأحد،
ثم تطرَّق الناس حين رأوا من صنع
هذا لا يبتلى حتى كثر صيد الحوت
ومشي به في الأسواق، وأعلن
الفسقة بصيده وقالوا: ذهب حرمة
السبت، فنهضت فرقة من بني

معدرة إلى الله وإليك من كذا لنصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الرجل القاتل في هذا المثال معتذر عن نفسه وليس كذلك الناهون من بني إسرائيل، فتأمل. ومعنى ﴿مُتَلَكِّمَهُمْ﴾ في الدنيا ﴿أَوْ مُعَذِّبَهُمْ﴾ في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ يقتضي الترجي المحض لأنه من قول آدميين.

والضمير في قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾ للمنهيين، وهو ترك سمي نسياناً إذ أقوى منازل الترك أن ينسى المتروك. (وما) في قوله: ﴿مَا ذُكِّرُوا بِهِ﴾ بمعنى الذي، ويحتمل أن يراد به الذكر نفسه، ويحتمل أن يراد به ما كان فيه الذكر، والسوء لفظ عام في جميع المعاصي إلا أن الذي يختص هنا بحسب قصص الآية صيد الحوت. و﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم العصاة، وقوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ يَتَذَكَّرُونَ﴾ معناه: مؤلم موجه شديد.

وقرأ نافع وأهل المدينة - أبو جعفر، وشيبة وغيرهما: ﴿بَيْسٍ﴾ بكسر الباء وسكون الياء وكسر السين وتوניהا، وهذا على أنه فعل سُمِّيَ به، كقوله ﷺ: ﴿أَنهَآكُمَ عَن قِيلِ وَقَالَ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بَيْسٍ﴾ كما تقول: بَيْسَ الرجل، وضعفها أبو حاتم، قال أبو عمرو: وروي عن الحسن ﴿بَيْسٍ﴾ بهمزة بين الباء والسين. وقرأ نافع - فيما يروي عنه خارجة - ﴿بَيْسٍ﴾ بفتح الباء وسكون الياء وكسر السين منونة. وروي مالك بن دينار عن نصر بن عاصم ﴿بَيْسٍ﴾ على مثل

جَمَلٍ وَجَبَلٍ، وقرأ أبو عبد الرحمن المقرئ: ﴿بَيْسٍ﴾ بفتح الباء وهمزة مكسورة وسين منونة على وزن فَعِيلٍ، ومنه قول عبيدالله بن قيس الرقيات:

لَيْتَنِي أَلْقَى رُتْبَةَ فِي
خَلْوَةٍ مِّنْ غَيْرِ مَا بَيْسٍ
قال أبو عمرو الداني: هي قراءة نصر بن عاصم، وطلحة بن مصرف. وروي عن نصر ﴿بَيْسٍ﴾ بياء مكسورة من غير همز، قال الزهراوي: وروي عن الأعمش ﴿بَيْسٍ﴾ الباء مفتوحة والهمزة مكسورة مشددة والسين مكسورة منونة. وقرأت فرقة: ﴿بَيْسٍ﴾ التي قبل إلا فتح السين، ذكرها أبو عمرو الداني عما حكى يعقوب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع - في رواية أبي قُرَّة عنه - وعاصم - في رواية حفص عنه - ﴿بَيْسٍ﴾ بياء بعد الهمزة المكسورة والسين المنونة - على وزن فَعِيلٍ. وهذا وصف بالمصدر كقولهم: «عذير الحي» - والنذير والتكير ونحو ذلك. وهي قراءة الأعرج، ومجاهد، وأهل الحجاز وأبي عبد الرحمن، ونصر بن عاصم، والأعمش، وهي التي رجح أبو حاتم، ومنه قول ذي الإصبع الغدواني:

حَنِيقًا عَلَيَّ وَلَا أَرَى
لِي مِثْلَهُمَا شَرًّا بِئْسًا
وقرأ أهل مكة ﴿بَيْسٍ﴾ كالأول إلا كسر الباء، على وزن فَعِيلٍ، قال أبو حاتم: هما لغتان، وقرأ عاصم - في

رواية أبي بكر عنه -: ﴿بَيْسٍ﴾ بفتح الباء وسكون الياء وفتح الهمزة، على وزن فَعِيلٍ، ومعناه: شديد، ومنه قول امرئ القيس بن عابس الكندي:

كِلَاهُمَا كَانَ زَيْسًا بَيْسًا
يَضْرِبُ فِي يَوْمِ الْهَيْجِ الْقَوْنَسَا
فهي صفة كَضَيْعَمٍ وَحَيْدَرٍ، وهي قراءة الأعمش، وقرأ عيسى بن عمر، والأعمش - بخلاف عنه - ﴿بَيْسٍ﴾ كالتي قبل إلا كسر الهمزة على وزن فَعِيلٍ، وهذا شاذ لأنه لا يوجد فَعِيلٌ في الصحيح، وإنما يوجد في المعتل مثل سيد وميت. وقال الزهراوي: روى نصر بن عاصم: ﴿بَيْسٍ﴾ على مثال ﴿مَيْتٍ﴾، وهذا على أنه من البؤس، ولا أصل له في الهمز، قال أبو حاتم: زعم عاصم أن الحسن والأعمش قرأ: ﴿بَيْسٍ﴾ الباء مكسورة والهمزة ساكنة والياء مفتوحة على مثال جَدِيمٍ، وضعفها أبو حاتم، وقرأ ابن عامر من السبعة: ﴿بَيْسٍ﴾ بكسر الباء وسكون الهمزة وتوניהا السين المكسورة، وقرأت فرقة: ﴿بَيْسٍ﴾ بفتح الباء وسكون الألف، وقرأ أبو رجاء ﴿بَيْسٍ﴾ على وزن فاعِلٍ، وقرأت فرقة: ﴿بَيْسٍ﴾ بفتح الباء والياء والسين على وزن فَعَلٍ، وقرأ مالك بن دينار: ﴿بَيْسٍ﴾ بفتح الباء والسين وسكون الهمزة على وزن فَعَلٍ غير مصروف، وقرأت فرقة: ﴿بَيْسٍ﴾ مصروفًا، وحكى أبو حاتم ﴿بَيْسٍ﴾ قال أبو الفتح: هي قراءة نصر بن عاصم، وحكى الزهراوي عن ابن

كثير وأهل مكة «بئس» ويهزم همزاً خفياً.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولم يبين هل الهمزة مكسورة أو ساكنة.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَنْشُرُونَ﴾
أي لأجل ذلك وعقوبة عليه.

والعُتْرُ: الاستعصاء وقلة الطوعية.
وقوله تعالى: ﴿فَتَنَّا لَهُمْ﴾ يحتل أن يكون قولاً بلفظ من مَلَكَ أسمعهم ذلك فكان أذهب في الإغراب والهوان والإصغار، ويحتمل أن يكون عبارة عن المقدرة المكوّنة لهم قردة، و﴿خَيَّبْتِ﴾ مبعدين، كما قال رسول الله ﷺ لابن صياد: «اخْسَأْ»، وكما يقال للكلب: اخْسَأْ، ف﴿خَيَّبْتِ﴾ خبر بعد خبر، هذا اختيار أبي الفتح، وضعف الصفة، وكذلك هو لأن القصد ليس التشبيه بقردة مبعدات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويجوز أن يكون ﴿خَيَّبْتِ﴾ حالاً من الضمير في ﴿كُونُوا﴾، والصفة أيضاً متوجهة مع ضعفها، وروي أن الشباب منهم مُسخوا قردة والرجال الكبار مسخوا خنازير، وروي أن مسخهم كان بعد المعصية في صيد الحوت بعامين، وقال ابن الكلبي:
إن إهلاكهم كان في زمن داود.
وروي أن الناهين قسموا المدينة بينهم وبين العصاة بجدار، فلما أصبحوا ليلة أهلك العصاة لم يفتح باب مدينة العصاة حتى ارتفع النهار، فاستراب الناهون لذلك فطلع أحد الناس على السور فرآهم ممسوخين قردة تتوالت فصاح،

فدخلوا عليهم يعرف الرجل قرابته ويعرف القرد أيضاً كذلك قرابته. وينضمون إلى قرابتهم فيتحسرون، قال الزجاج: وقال قوم: يجوز أن تكون هذه القردة من نسلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتعلق هؤلاء بقول النبي ﷺ: «إِنَّ أُمَّةً مِنَ الْأُمَّمِ فَقَدَتْ، وَمَا أَرَاهَا إِلَّا الْفَأْرَةَ إِذَا قَرَّبَ لَهَا لَبَنٌ لَمْ تَشْرَبْ»، ويقول ﷺ في الضب.

وقصص هذا الأمر أكثر من هذا لكن اختصرته واقتصرت على عيونه.
﴿١٦٧﴾ - ﴿١٦٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

بِنَيْئِ ﴿تَأَذَّنَ﴾ هي التي تقتضي التكسب، من أَدَّنَ أي عَلِمَ، وَأَدَّنَ أي عَلِمَ، مثل كَرَّمْ وَأَكْرَمْ وَتَكْرَمَ، إِلَّا أَنْ تَعْلَمَ (وما جرى مجرى هذا الفعل) إذا كان مسنداً إلى اسم الله عز وجل لم يلحقه معنى التكسب الذي يلحق المُخَدِّثِينَ، وإنما يترتب بمعنى عَلِمَ صفة لا يَتَكَسَّبُ، بل هي قائمة بالذات، وإلى هذا المعنى ينحو الشاعر بقوله:

تَعَلَّمْ أَبَيْتَ السُّلُغْنَ
لأنه لم يأمره بالتعلُّم الذي يقتضي جهالة، وإنما أراد أن يوقفه على قوّة علمه، ومنه قول زهير:

تَعَلَّمْ أَنْ شَرَّ النَّاسِ حَيُّ
يُنَادَى فِي شِعَارِهِمْ يَسَارُ
فمعنى هذه الآية: وإذ عَلِمَ الله ليعثن عليهم، وتقتضي قوة الكلام أن ذلك العلم منه مقترن بإنفاذ وإمضاء، كما تقول في أمر قد عزمت عليه غاية العزم: «علم الله لأفعلن كذا»، نحا إليه أبو علي الفارسي، وقال الطبري وغيره:

﴿تَأَذَّنَ﴾ معناه: أغلَمَ، وهو قلق من جهة التصريف إذ نسبة ﴿تَأَذَّنَ﴾ إلى الفاعل غير نسبة ﴿أَعْلَمَ﴾، وتبين ذلك من التعدي وغيره، وقال مجاهد: ﴿تَأَذَّنَ﴾ معناه: قال، وروي عنه أن معناه: أمر، وقالت فرقة: معنى ﴿تَأَذَّنَ﴾: تَأَلَّى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقادهم إلى هذا القول دخول اللام في الجواب، وأما اللفظة فبعيدة عن هذا.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ لمن بقي من بني إسرائيل لا للضمير في ﴿لَهُمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿مَنْ يَسْأَلُهُمْ﴾ قال سعيد بن جبير: هي إشارة إلى العذاب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي إشارة إلى محمد ﷺ وأمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والصحيح أنها عامة في كل مَنْ حَالَ اليهود معه هذه الحال، و﴿يَسْأَلُهُمْ﴾ معناه: يكلفهم ويحملهم، و﴿سُوءَ الْكُتَابِ﴾ الظاهر منه الجزية والإذلال، وقد حتم الله عليهم هذا وحط ملكهم فليس في الأرض راية ليهودي، وقال ابن المسيب:
فيستحب أن تتعب اليهود في الجزية، ولقد حدث أن طائفة من الروم أمَلَكْتَ في صُفْعِهَا فباعَت اليهود المجاورة لهم الساكنة معهم وتملكوهم.

ثم حسن في آخر هذه الآية - لتضمنها الإيقاع بهم والوعيد - أن ينبه على سرعة عقاب الله ويخوف بذلك تخويفاً عاماً لجميع الناس، ثم

رَجَى ذَلِكَ لُطْفًا مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعْتَهُمْ﴾ معناه:

فرفقناهم في الأرض، قال الطبري

عن جماعة من المفسرين: ما في

الأرض بقعة إلا وفيها معشر من

اليهود، والظاهر في المشار إليهم في

هذه الآية أنهم الذين بعد سليمان

وقت زوال ملكهم، والظاهر أنه قبل

مدة عيسى عليه السلام لأنه لم يكن

فيهم صالح بعد كفرهم بعيسى ﷺ.

وفي التواريخ في هذا الفصل روايات

مضطربة، و﴿الْمُتَلَبِّثِينَ﴾ - و﴿دُونَ﴾

ذَلِكَ ألفاظ محتملة أن يراد بها

صلاح الإيمان، ف﴿دُونَ﴾ بمعنى غير

يراد بها الكفرة، وإن أريد بالصلاح

العباداة والخير وتوابع الإيمان ف﴿دُونَ﴾

ذَلِكَ يحتمل أن يكون في مؤمنين .

﴿وَيَبْلُغُهُمْ﴾ معناه: امتحنأهم،

والحسنات: الصحة والرخاء ونحو

هذا مما هو بحسب رأي ابن آدم

ونظره، والسيئات: مقابلات هذه.

وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ أي بحسب رأيكم

لو شاهدتم ذلك، والمعنى: لعلهم

يرجعون إلى الطاعة ويتوبون من

المعصية.

﴿١٦٩﴾ - ﴿١٧٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿خَلَفَ﴾ معناه: حدث خلفهم

وبعدهم ﴿خَلَفَ﴾ بإسكان اللام،

ويستعمل في الأشهر في الدم، ومنه

قول لبيد:

ذَهَبَ الَّذِينَ يُعَاشُ فِي أَكْثَانِهِمْ

وَبَقِيَتْ فِي خَلْفِ كَجِلْدِ الْأَجْرِبِ

وقد يستعمل في المدح، ومنه قول

حسان:

لَنَا الْقَدَمُ الْأُولَى إِلَيْكَ وَخَلَفْنَا

لَأُولَانَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ

والخلف - بفتح اللام - يستعمل -

في الأشهر - في المدح، قال أبو

عبيدة، والزجاج: وقد يستعمل في

الذم أيضاً، ومنه قول الشاعر:

أَلَا ذَلِكَ الْخَلْفُ الْأَعْوَرُ

وقال مجاهد: المراد بالخلف هاهنا

النصاري، وضغفه الطبري. وقرأ

الحسن البصري: ﴿وَرَوُّوا الْكِتَابَ﴾

بضم الواو وشد الراء، وقوله:

﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى﴾ إشارة إلى

الرشا والمكاسب الخيثة، والقرض:

ما يعرض وَيَعْرَضُ ولا يثبت،

و﴿الْأَدْنَى﴾ إشارة إلى عيش الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾

ذم لهم باغترارهم، وقولهم:

«سيغفر» مع علمهم بما في كتاب الله

من الوعيد على المعاصي وإصرارهم

عليها وأنهم إذا أمكنتهم ثانية

ارتكبوها فهؤلاء عجزرة، كما

قال ﷺ: «والعاجز من أتبع نفسه

هواها وتمنى على الله»، وهم

مُصِرُّون، وإنما يقول سيغفر لنا من

أقلع وندم.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ عَلَيْهِمْ﴾

الآية. تشديد في لزوم قول الحق

على الله في الشرع والأحكام بين

الناس، وأن لا تميل الرشا بالحكام

إلى الباطل. و﴿الْكِتَابَ﴾ يريد به

التوراة، وميثاقها: الشدائد التي فيها

في هذا المعنى، وقوله: ﴿أَنْ لَا

يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ﴾ يمكن أن

يريد بذلك قولهم الباطل في حكومة

مما يقع بين أيديهم، ويمكن أن يريد

قولهم: ﴿سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ وهم قد عَلِمُوا

الحق في نهي الله تبارك وتعالى عن

ذلك. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَقُولُوا﴾

ببإء من تحت، وقرأ الجحدري:

﴿تَقُولُوا﴾ بباء من فوق.

وقوله تعالى: ﴿وَدَرَسُوا﴾ معطوف

على قوله: ﴿أَلَمْ يَأْخُذْ﴾ الآية بمعنى

المضى، ويقدر: أليس قد أخذ

عليهم ميثاق الكتاب ودرسوا ما فيه؟

ويهذين الفعلين تقوم الحجة عليهم

في قولهم الباطل، وقرأ أبو

عبدالرحمن السلمي: «وَأَدْرَسُوا ما

فيه»، وقال الطبري وغيره: قوله:

﴿وَدَرَسُوا﴾ معطوف على قوله:

﴿وَرَوُّوا الْكِتَابَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا نظر لبعد المعطوف عليه،

لأن قوله: ﴿وَدَرَسُوا﴾ يزول منه معنى

إقامة الحجة بالتقدير الذي في قوله:

﴿أَلَمْ﴾. ثم وعظ وذكر تبارك وتعالى

بقوله: ﴿وَالَّذِينَ آخَرَهُ حَتَّىٰ لِلَّذِينَ

يَتَّقُونَ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَفَلَا

تَمَقُّلُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ أبو

عمرو وأهل مكة: ﴿يَتَفَقِّلُونَ﴾ بالياء

من أسفل.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ﴾ عطف

على قوله: ﴿لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾. وقرأ ابن

كثير، ونافع، وحزمة، والكسائي،

وعاصم - في رواية حفص - وأبو

عمرو، والناس: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ بفتح

الميم وشد السين، وقرأ عمر بن

الخطاب رضي الله عنه، وأبو

العالية، وعصام وحده - في رواية

أبي بكر -: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ بسكون

الميم وتخفيف السين، وكلهم خفف

﴿وَلَا تُنْصِرُوا بَعْضَ الْكُوفِرِ﴾، إلا أبا

عمرو فإنه قرأ: ﴿وَلَا تَمْسُكُوا﴾ بفتح

الميم وشد السين، وقرأ الأعمش:

﴿وَالَّذِينَ اسْتَفْسَكُوا﴾ وفي حرف

الدار مثل الظلَّة فيها أمثال المصاييح، فقال النبي ﷺ: «تلك السكينة نزلت للقرآن». فإن قيل: إذا كان الجبل ظلَّة فما معنى ﴿كَانَتْ﴾؟ فالجواب أن البشر إنما اعتادوا هذه الأجرام الأرضية ظللاً إذا كانت على عمُد، فلما كان الجبل على غير عمُد قيل: ﴿كَانَتْ ظلَّة﴾، أي: كأنه على عمُد.

﴿وَطَرًا﴾ قال المفسرون: معناه: أيقنوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس الأمر عندي كذلك، بل هو موضع غلبة الظن مع بقاء الرجاء، وكيف يوقنون بوقوعه وموسى عليه السلام يقول: إن الرمي به إنما هو بشرط أن لا يقبلوا التوراة، والظن إنما يقع ويستعمل في اليقين متى كان ذلك المتيقن لم يخرج إلى الحواس، وقد تبين هذا فيما سلف من هذا الكتاب. ثم قيل لهم في وقت ارتفاع الجبل: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ﴾ فأخذوها والتزموا جميع ما تضمنته من شدة ورخاء فما وفرا. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾، وقرأ الأعمش - فيما حكى أبو الفتح عنه -: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾. وقوله: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ﴾ على ترجيحهم، وهذا تشدُّد في حفظها والتهمُّم بها.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْكُمْ الْبَيْعَ﴾ الآية. التقدير: واذكر إذ أخذ ربك، وقوله: ﴿مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ قال النحاة: هو بدل اشتمال من قوله: ﴿مِنْ بَيْعِ آدَمَ﴾، وألفاظ هذه الآية تقتضي أن الأخذ كان من بني آدم من ظهورهم، وليس لآدم في الآية ذكر بحسب اللفظة، وتواترت الأحاديث في

الحديث، وقد جاء في القرآن بدل هذه اللفظة في هذه القصة بعينها ﴿رفعنا﴾، لكن ﴿تنقنا﴾ و﴿قوتهم﴾ أعطت الرفع بزيادة قرينة هي أن الجبل اقتلعت الملائكة وأمر الله إياها.

وروي أن موسى عليه السلام لما جاءهم بالتوراة فقال عن الله تعالى: هذا كتاب الله، أتقبلونه بما فيه؟ فإن فيه بيان ما أحل لكم وما حرم عليكم وما أمركم وما نهاكم، قالوا: انشر علينا ما فيها، فإن كانت فرائضها يسيرة

وحدها خفيفة قبلناها، قال: اقبلوها بما فيها. قالوا: لا، فراجعهم موسى فراجعوا ثلاثاً فأوحى الله عز وجل إلى الجبل فانقلع وارتفع فوق رؤوسهم، فقال لهم موسى ﷺ: ألا ترون ما يقول ربي؟ لئن لم تقبلوا التوراة بما فيها لأرمينكم بهذا الجبل، قال الحسن البصري: فلما رأوا إلى الجبل خز كل واحد منهم ساجداً على حاجبه الأيسر، ونظر بعينه اليمنى إلى الجبل فرحاً أن يسقط عليه، فلذلك ليس في الدنيا يهودي يسجد إلا على حاجبه الأيسر، يقولون: هذه المسجدة التي رفعت بها عنا العقوبة.

و﴿الظلَّة﴾: ما أظلل، ومنه ﴿في ظلِّ رَبِّكَ﴾، ومنه ﴿عَذَابٌ يَوَّيَّرُ الظِّلَّةَ﴾، ومنه قول أسيد بن حضير للنبي ﷺ: قرأت البارحة فغشي

﴿وَإِذْ نَفَخْنَا الْجِبَلِ قُوَّةً مِّنْهُمُ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ مَوَاقِعُ يَوْمِ عَذَابِ مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَذْكُرُوا مَا فِيهِمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾
﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْ بُنْيَامَ أَدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾
﴿أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾
﴿وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ لَعَلَّكُمْ يَرْجِعُونَ﴾
﴿وَأَتْلُوعَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَاسْتَخَفَّ مِنْهَا فَاتَّبَعَ الشَّيْطَانَ فَكَانَ مِنَ الْخَاطِرِينَ﴾
﴿لَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهَا بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّعَ هُونَهُ فَشَدَّهُ كَمَا لِيَ الْكَلْبِ إِذَا تَحَمَّلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَلَيْسَ لَهُ عِزٌّ﴾
﴿يَلْهَثُ ذَلِكُمْ مِثْلُ خُبْرٍ﴾
﴿إِنَّمَا يَنْتَظِرُ الْفَصَّ لَعَلَّهِمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾
﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسِهِمْ كَانُوا نَظْمُونَ﴾
﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدَىٰ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا لَهُ مَظْهُورٌ﴾

أبني: ﴿والذين مسكوا﴾، وهما لغتان بمعنى واحد، قال كعب بن زهير: فَمَا تَمَسَّكَ بِالْعَهْدِ الَّذِي رَعَمَتْ إِلَّا كَمَا تَمَسُّكَ الْمَاءُ الْعَرَابِيُّلُ أما إن شد السين يجري مع الشعبي بالباء.

﴿١٧١﴾ - ﴿١٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿تنقنا﴾ معناه: اقتلعتنا ورفعنا، فكان النتق اقتلاع الشيء، تقول العرب: نتقت الزبدة من فم القربة، ومنه قول الشاعر:

وَنَتَّقُوا أَخْلَامَنَا الْأَثَاقِلَا
والناتق: الرحم التي تطلع الولد من الرجل. ومنه قول النابغة:

لَمْ يُحْرَمُوا حُسْنَ الْغِذَاءِ وَأَمَهُمْ
دَحَقَّتْ عَلَيْكَ بِنَاتِقِي مِذْكَارٍ
وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «عليكم بتزوج الأبقار فإنهن أنتن أرحاماً وأطيب أفواهاً»

تفسير هذه الآية عن النبي ﷺ من طريق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما أن الله عز وجل لما خلق آدم (وفي بعض الروايات: لما أبط آدم إلى الأرض في دهناء من أرض السند، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وفي بعضها أن ذلك بنعمان وهي عرفة وما يليها، قاله أيضاً ابن عباس رضي الله عنهما وغيره) مسح على ظهره (وفي بعض الروايات يمينه، وفي بعض الروايات ضرب منكمبه) فاستخرج منها - أي من المسحة أو الضربة - نسمة بنيه، ففي بعض الروايات كالذر، وفي بعضها كالخردل. وقال محمد بن كعب: إنها الأرواح جعلت لها مثالات، وروى عبدالله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «أخذوا من ظهره كما يؤخذ بالمشط من الرأس، وجعل الله لهم عقولاً كمنلة سليمان عليه السلام، وأخذ عليهم العهد بأنه ربهم وأنه لا إله غيره، فأقروا بذلك والتزموه، وأعلمهم أنه سيبعث الرسل إليهم مذكرة وداعية، فشهد بعضهم على بعض»، وقال أبي بن كعب: أشهد عليهم السموات السبع، فليس من أحد يولد إلى يوم القيامة إلا وقد أخذ عليه العهد في ذلك اليوم والمقام، وقال السدي: أعطى الكفار يومئذ العهد كارهين على وجه التقية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذه نخيلة مجموع الروايات المطولة، وكان ألفاظ هذه الأحاديث

لا تلتئم مع ألفاظ الآية، وقد أكثر الناس في روم الجمع بينهما، فقال قوم: إن الآية مشيرة إلى هذا التناسل الذي في الدنيا، و«أخذ» بمعنى: أوجد على المعمود، وأن (الإشهاد) هو عند بلوغ المكلف وهو قد أعطي الفهم، ونصبت له هذه الصنعة الدالة على الصانع، ونحا إلى هذا المعنى الزجاج، وهو معنى تحتمله الألفاظ، لكن يرد عليه تفسير عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما بالحدث المذكور، وروايتهما ذلك عن النبي ﷺ.

وطول الجرجاني في هذه المسألة، ومدار كلامه على أن المسح وإخراج الذرية من ظهر آدم حسب الحديث، وقيل في الآية: أخذ من ظهورهم، إذ الإخراج من ظهر آدم الذي هو الأصل إخراج من ظهور بنيه الذين هم الفروع، إذ الفرع والأصل شيء واحد، إلى كلام كثير لا يثبت للنقد.

وقال غيره: إن جميع ما في الحديث من مسح بيمينه وضرب منكمبه ونحو هذا إنما هو عبارة عن إيجاد ذلك النسمة منه، واليمين عبارة عن القدرة، أو يكون الماسح ملكاً بأمر الله عز وجل فتضمن الحديث صدر القصة وإيجاد النسمة من آدم، وهذه زيادة على ما في الآية، ثم تضمنت الآية ما جرى بعد هذا من أخذ العهد والنسمة حضور موجودون. وهي تحتمل معنيين: أحدهما أن يكون «أخذ» عاملاً في «عهد» أو «ميثاق» تقدره بعد قوله:

﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، ويكون قوله: «ين ظهورهم» لبيان جنس البنوة، إذ المراد من الجميع التناسل، ويشركه في لفظة «بني آدم» بنوه لصلبه وبنوه بالشفقة والحنان، ويكون قوله: «ذُرِّيَّتَهُمْ» بدلاً من «بني آدم». والمعنى الآخر أنه لما كانت كل نسمة هنالك لها نسبة إلى التي هي من ظهرها كان تعيين تلك النسبة أخذاً من الظهر إذ استخراج منه، فهي المستأنف، فالمعنى: وإذ عينوا بهذه النسبة وعرفوا بها، فذلك أخذ ما، و«أخذ» - على هذا - عامل في ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ وليس بمعنى مسح وأوجد، بل قد تقدم إيجادهم كما تقدم في الحديث المذكور، فالحديث يزيد معنى على الآية وهو ذكر آدم وأول إيجاد النسمة كيف كان.

وقال الطرطوشي: إن هذا العهد يلزم البشر وإن كانوا لا يذكرونه في هذه الحياة كما يلزم الطلاق من شهد عليه به وهو قد نسيه - إلى غير هذا مما ليس بتفسير ولا من طريقه.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿ذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ جمع جمع، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وحمرزة، والكسائي: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾، والإفراد هنا جمع، وقد تقدم القول على لفظ الذرية في سورة آل عمران.

وروي في قصص هذه الآية أن الأنبياء عليهم السلام كانوا بين تلك النسمة، وأن آدم عليه السلام رأى داود فأعجبه، فقال: من هذا؟ فقيل: نبي من ذريتك، فقال: كم عمره؟ فقيل: ستون سنة، فقال: زيدوه من

عمري أربعين سنة فزيدت، قال: وكان عمر آدم ألفاً، فلما أكمل تسعمائة وستين جاء ملك الموت فقال له آدم: بقي لي أربعون سنة، فرجع ملك الموت إلي ربه فأخبره، فقال له: قل له: إنك أعطيتها لابنك داود، فتوفي عليه السلام بعد أن خاصم في الأربعين. قال الضحاك بن مزاحم: من مات صغيراً فهو على العهد الأول، ومن بلغ فقد أخذ العهد الثاني، يعني الذي في هذه الحياة المعقولة الآن. وحكى الزجاج عن قوم أنهم قالوا: إن هذه الآية عبارة عن أن كل نسمة إذا ولدت وبلغت فنظرها في الأدلة المنصوبة عهد عليها في أن تؤمن وتعرف الله. وقد تقدّم ذكر هذا القول، وهو قول ضعيف منكب عن الأحاديث المأثورة مَطْرَح لها.

وقوله تعالى: ﴿شَهِدْنَا﴾، يحتمل أن يكون من قول بعض النسم لبعض، أي: شهدنا عليكم لثلاث تقولوا يوم القيامة: غفلنا عن معرفة الله والإيمان به، فتكون مقالة من هؤلاء لهؤلاء، ذكره الطبري، وعلى هذا لا يحسن الوقف على قوله تعالى: ﴿بَلَى﴾. ويحتمل أن يكون قوله سبحانه: ﴿شَهِدْنَا﴾ من قول الملائكة فيحسن الوقف على قوله: ﴿بَلَى﴾.

قال السدي: المعنى: قال الله وملائكته: شهدنا، ورواه عبدالله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ.

وقرأ السبعة غير أبي عمرو: ﴿أَنْ تَقُولُوا﴾ على مخاطبة حاضرين، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿أَنْ يَقُولُوا﴾ على الحكاية عن غائبين، وهي قراءة ابن

عباس رضي الله عنهما، وابن جبير، وابن محيصن، والقراءتان تفسران بحسب المعنيين المذكورين. ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على تقدير: مخافة أن.

﴿١٧٣﴾ - ﴿١٧٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: المعنى في هذه الآيات أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولا جاءهم رسول مُذْكَر بما تَضَمَّنَه العهد من توحيد الله وعبادته لكانت لهم حُجَّتَان - إحداهما: كنا غافلين، والأخرى: كنا تبعاً لأسلافنا فكيف نهلك والذنب إنما هو لمن طرَّق لنا وأضلنا، فوقعت شهادة بعضهم على بعض أو شهادة الملائكة عليهم لتنتقطع لهم هذه الحجج، والاختلاف في ﴿تَقُولُوا﴾ أو ﴿يَقُولُوا﴾ بحسب الأول.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُنْصِلُ الْآيَاتِ﴾ تقديره: وكما فعلنا هذه الأمور وأنفذنا هذه المقادير فكذلك نفصل الآيات ونبيئها لمن عاصرك ويُعِثُّ إليه. ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ على ترجيهم وترجيكم وبحسب نظر البشر ﴿يُرْجَعُونَ﴾ إلى طاعة الله، ويدخلون في توحيد وعبادته. وقرأت فرقة: ﴿يُفْضَلُ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. ﴿أَنْتَ﴾ معناه: قُضِّ واسرُد، والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على حاضري محمد ﷺ من الكفار وغيرهم، واختلف المتأولون في الذي أوتي الآيات - فقال عبدالله بن مسعود وغيره: هو رجل من بني إسرائيل بعثه موسى عليه السلام إلى

ملك مدين داعياً إلى الله تعالى وإلى الشريعة، وعلمه من آيات الله ما يمكن أن يدعو به وإليه، فلما وصل رشاه الملك وأعطاه على أن يترك دين موسى ويتابع الملك على دينه ففعل، وفتن الملك به الناس وأضلهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو رجل من الكنعانيين الجبارين اسمه بلعم، وقيل: بلعام بن عابر، وقيل: ابن أبر، وقيل غير هذا مما ذكره تطويل، وكان في جملة الجبارين الذين غزاهم موسى عليه السلام، فلما قرب منهم موسى لجؤوا إلى بلعام وكان صالحاً مستجاب الدعوة، وقيل: كان عنده علم من صحف إبراهيم ونحوها، وقال مجاهد: كان رشح للنبوة وأعطيا فرشاه قومه على أن يسكت ففعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مردود لا يصح عن مجاهد، ومن أعطي النبوة فقد أعطي العصمة ولا بُدَّ، ثبت هذا بالشرع، وقد نص معنى ما قلته أبو المعالي في كتاب الشامل، وقيل: كان يعلم اسم الله الأعظم، قاله ابن عباس أيضاً، وهذا الخلاف في المراد بقوله تعالى: ﴿إِنِّي نَبِيٌّ﴾، فقال له قومه: ادع الله تعالى على موسى وعسكره، فقال لهم: وكيف أدعو على نبي مرسل؟ فما زالوا به حتى فتنوه، فخرج حتى أشرف على جبل يرى منه عسكر موسى، وكان قد قال لقومه: لا أفعل حتى أستأمر ربي، ففعل فسكت عنه فأخبرهم، فقالوا له: إن الله لم يدع نهيك إلا وقد

مصلح العباد، فدعا
بواحدة أن ترجع امرأته
أجمل النساء فكان ذلك،
فلما رأت نفسها كذلك
أبغضته واحتقرته، فدعا
عليها ثانية فمسخت كلبة،
فشفع لها بنوها عنده فدعا
لها الثالثة فعادت كما
كانت، ثم انصرفت إلى
حالتها، فذهبت الدعوات.

وقال عبدالله بن عمرو
بن العاص
رضي الله عنهما: المشار
إليه في الآية أمية بن أبي
الصلت، وكان قد أوتي
علماً، وروي أنه جاء يريد

أراد ذلك، فخرج، فلما أشرف على
العسكر جعل يدعو على موسى،
فتحول لسانه بالدعاء لموسى والدعاء
على قومه، فقالوا له: ما تقول؟
فقال: إني لا أملك إلا هذا وعلم أنه
قد أخطأ، فروي أنه قد خرج لسانه
على صدره، فقال لقومه: إني قد
هلكت ولكن لم يبق لكم إلا العيلة،
فأخرجوا النساء إلى عسكر موسى
على جهة التجرد وغيره ومروهن ألا
تمتنع امرأة من رجل فإنهم إذا زنوا
هلكوا، ففعلوا، فخرج النساء فزنى
بهن رجال بني إسرائيل، وجاء
فناص بن العيزار بن هارون فانتظم
برمحه امرأة ورجلاً من بني إسرائيل
ورفعهما على أعلى الرمح، فوقع في
بني إسرائيل الطاعون فمات منهم في
ساعة واحدة سبعون ألفاً، ثم ذكر
المُغتيمز عن أبيه أن موسى عليه
السلام قتل بعد ذلك الرجل المنسلخ
من آيات الله، قال المهدي: روي
أنه دعا على موسى ألا يدخل مدينة
الجبارين فأجيب، ودعا عليه
موسى ﷺ أن ينسى اسم الله الأعظم
فأجيب، قال الزجاج: وقيل: إن
الإشارة إلى منافقي أهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وصواب هذا أن يقال: إلى كفار أهل
الكتاب لأنه لم يكن منهم منافق،
إنما كانوا مجاهرين، وفي هذه القصة
روايات كثيرة اختصرتها لتعذر
صحتها، واقتصرنا منها على ما
يخص ألفاظ الآية.

وقالت فرقة: المشار إليه في الآية
رجل كان قد أعطي ثلاث دعوات
مستجابات فترك أن يدعو بها في

وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ
لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أذانٌ لَّا يَسْمَعُونَ
بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَقْلُونَ ﴿١٧٦﴾
وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي
أَسْمَائِهِ سَيُحْزَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٧﴾ وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةً
يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٧٨﴾ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا
سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧٩﴾ وَأَمْطَلْ لَهُم بَأْسًا
كَبِيرًا مَّتَىٰ أَوَّلَمِ يُنْفَكُوا أَمْ يَصَاحِبِهِمْ مِنْ جَنَّةٍ إِن
هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مِّمَّنْ أُولَئِكَ يَنْظُرُونَ فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ
أَجَلُهُمْ فِي أَيِّ حَرْبٍ بَعْدَ يَوْمِنَا ﴿١٨٠﴾ مَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَلا
هَادِيَ لَهُ، وَبَدَّ لَهُمْ فِي طَعْنِهِمْ يَهُودُونَ ﴿١٨١﴾ يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ
أَيَّانَ مَرَسَهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُكُمْ فِي لَيْلِيهَا لَوْ قُبِهَا إِلَّا هُوَ نَقَلَتْ
فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمُ اللَّيْلُ إِلَّا بِغَمَةٍ يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَافِيٌّ
عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عَلَّمْتُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾

١٧٤

الإسلام فوصل إلى بدر
بعد الوقعة بيوم أو نحوه فقال: من
قتل هؤلاء؟ فقيل: محمد ﷺ،
فقال: لا حاجة لي بدين من قتل
هؤلاء، فارتد ورجع وقال: الآن
حلت لي الخمر - وكان قد حرّمها
على نفسه - فمرّ حتى لحق بقوم من
ملوك حمير فنادهم حتى مات.

و «انسلخ» عبارة عن البراءة منها
والانفصال والبعد، كالسلخ من
الثياب، والجلد، و«اتّبعت» صيّره
تابعاً، كذا قال الطبري إما لضلالة
رسمها له، وإما لنفسه، وقرأ
الجمهور: «فَاتَّبَعَهُ» بقطع الألف
وسكون التاء، وهي راجحة لأنها
تتضمن أنه لحقه وصار معه، وكذلك
«فَاتَّبَعَهُ يَهَابٌ»، «فَاتَّبَعَهُ زِعُونَ»،
وقرأ الحسن فيما روى عنه هارون
«فَاتَّبَعَهُ» بصلة الألف وشدّ التاء،
وكذلك طلحة بن مصرف بخلاف،

وكذلك الخلاف عن الحسن - على
معنى لازمه وأتبعه بالإغواء حتى
أغواه، و«مِنَ الْقَابِضِ» أي: من
الضالين.

﴿١٧٧﴾ - ﴿١٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:
يقول الله عز وجل: ﴿وَلَوْ شِئْنَا
لَرَفَعْنَاهُ﴾ فقالت فرقة: معناه:
لأخذناه، كما تقول: «رفع الظالم»
إذا هلك، والضمير في «بِهَا» عائد
على المعصية في الانسلاخ، وابتدأ
وصف حاله بقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّهُ
أَخَذَ لِمَا أَلْبَسَ الْأَرْضِ﴾ فهي عبارة عن
إمهاله وإملاء الله له. وقال ابن أبي
نُجَيْج: «لَرَفَعْنَاهُ» معناه: لتوفيناها قبل
أن يقع في المعصية ورفعنا عنها،
والضمير - على هذا - عائد على
الآيات، ثم ابتدأ وصف حاله. وقال
ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة
معه: «لَرَفَعْنَاهُ» أي: لشرفنا ذكره

ورفعنا منزلته لدينا بهذه الآيات التي آتيناه، ﴿وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ﴾ فالكلام متصل دُكِرَ فيه السبب الذي من أجله لم يرفع ولم يشرف كما فعل بغيره يَمُنُّ أوتى هُدَى.

﴿وَأَخْلَدَ﴾ معناه: لازم وتغاعَسَ وَوَقَّيْتُ، والمُخْلِدُ: الذي يثبث شبابه فلا يفشاه الشيب، ومنه المُخْلَدُ، ومنه قول زهير:

لِمَنِ الدُّيَارُ عَشِيَّتَهَا بِالْفَدَقِ
كَالْوَحْيِ فِي حَجَرِ الْمَسِيلِ الْمُخْلِدِ
وقوله تعالى: ﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾
يحتمل أن يريد: إلى شهواتها ولذاتها وما فيها من الملاذ، قاله السدي وغيره، ويحتمل أن يريد بها العبارة عن الأسفل والأخس، كما يقال: فلان في الحضيض، ويتأيد ذلك من جهة المعنى المعقول، وذلك أن الأرض وما ارتكز فيها هي الدنيا، وكل ما عليها فان، من أخلد إليها فقد حُرِمَ حظ الآخرة الباقية.

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَّهُ كَنَلٍ الْكَلْبِ﴾ قال السدي وغيره: إن هذا الرجل عوقب في الدنيا بأنه كان يلهث كما يلهث الكلب فشبّه به صورة وهيئة، وقال الجمهور: إنما شبّه به في أنه كان ضالاً قبل أن يُؤْتَى الآيات، ثم أوتىها فكان أيضاً ضالاً لم تنفعه الآيات، فهو كالكلب في أنه لا يفارق اللَّهْثَ في حال حمل المشقة عليه وتركه دون حمل عليه، وتحريير المعنى: فالشيء الذي تتصوره النفوس من حاله هو كالذي تتصور من حال الكلب، وبهذا التقدير يحسن دخول (الكاف) على

(مَثَلُ)، وَاللَّهْثُ: تنفُسُ بسرعة وتحرك أعضاء الفم معه وامتداد اللسان، وأكثر ما يعترى ذلك مع الحر والتعب، وهو في الفرس: ضَبْحٌ، وَجِلْفَةٌ الكلب أنه يلهث على كل حال، وذكر الطبري أن معنى: ﴿إِنْ تَحِيلَ عَلَيْهِ﴾ أي تَطْرُدْهُ، وحكاه عن مجاهد وابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك داخل في جملة المشقة التي ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ أي: هذا المثل يا محمد مثل هؤلاء القوم الذين كانوا ضالين قبل أن تأتيهم بالهدى والرسالة، ثم جنتهم بذلك فبقوا على ضلالتهم ولم يتنعفوا بذلك، فمثلهم كمثل الكلب. وقوله: ﴿فَأَقْصِرْ الْقَصَصَ﴾ أي: اسرد عليهم ما يعلمون أنه من الغيوب التي لا يعلمها إلا أهل الكتب الماضية ولست منهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ في ذلك فيؤمنون.

وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَثَلًا﴾، قال الزجاج: التقدير: ساء مثلاً مثل القوم، لأن الذي بعد بش ونعم إنما يتفسر من نوعه، كما تقول: بش رجلاً زيدا، ولما انحذف (مثل) أُقِيمَ ﴿الْقَوْمِ﴾ مقامه، والرفع في ذلك بالابتداء، والخبر فيما تقدم. وقرأ الجحدري: ﴿سَاءَ مَثَلُ الْقَوْمِ﴾ ورفع ﴿مَثَلُ﴾ على هذه القراءة بـ ﴿سَاءَ﴾، ولا تجري (ساء) مجرى (بش) إلا إذا كان ما بعدها منصوباً، قال أبو عمرو الداني: قرأ الجحدري ﴿مَثَلُ﴾ بكسر الميم ورفع اللام، وقرأ

الأعمش: ﴿مَثَلُ﴾ بفتح الميم والثاء ورفع اللام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خلاف ما ذكر أبو حاتم، فإنه قال: قرأ الجحدري، والأعمش: ﴿سَاءَ مَثَلُ﴾ بالرفع.

وَحُتِمَتْ هذه الآيات - التي تضمنت ضلال أقوام والقول فيه - بأن ذلك كله من عند الله، الهداية منه وبخلقه واختراعه، وكذلك الإضلال، وفي الآية تعجب من حال المذكورين، ومن أفضل فقد حكم عليه بالخسران. والثواب والعقاب متعلق بكَسْبِ ابن آدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْبَشَرِ الْإِنْسِ﴾ خبر من الله تعالى أنه خلق لِسُكْنَى جهنم والاحتراق فيها كثيراً، وفي ضمنه وعيد للكفار. (وَذَرَأَ) معناه: خلق وأوجد مع بئ ونشر. وقالت فرقة: اللام في قوله تعالى: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ هي لام العاقبة، أي: ليكون أمرهم ومآلهم لجهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ليس بصحيح، ولام العاقبة إنما يتصور إذا كان فعل الفاعل لم يقصد به ما يصير الأمر إليه، وهذه اللام مثل التي في قول الشاعر:

يَا أُمَّ فَرَزُو كَفِي السُّومِ وَاغْتَرَفِي
فَكُلُّهُ وَالِدَةٌ لِّلْمُنْتَأَى تَلِدُ
وأما هنا فالفعل قصد به ما يصير الأمر إليه من سُكْنَاهُمْ جهنم، وحكى الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال: «أولاد الزنى مما ذرأ الله لِجَهَنَّمَ»، ثم أسند فيه حديثاً من طريق عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كَذِبُوا﴾ وإن كان ليس بنص في أن الكفار أكثر من المؤمنين فهو ناظر إلى ذلك في قول النبي ﷺ: «قال الله لأدم: أخرج بعث النار، فأخرج من كل ألف تسعة وتسعين وتسعمائة».

﴿١٧٩﴾ - ﴿١٨٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

وَصِفَتْ هَذِهِ الصُّنْفَةَ الْكَافِرَةَ الْمَعْرُضَةَ عَنِ النَّظَرِ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِأَنَّ قُلُوبَهُمْ لَا تَفْقَهُ، وَأَعْيُنُهُمْ لَا تَبْصُرُ، وَأَذَانُهُمْ لَا تَسْمَعُ، وَلَيْسَ الْغَرَضُ مِنْ ذَلِكَ نَفْسِي هَذِهِ الْإِدْرَاكَاتِ عَنْ حَوَاسِهِمْ جَمَلَةً، وَإِنَّمَا الْغَرَضُ نَفْسِي فِي جِهَةِ مَا كَمَا تَقُولُ: فَلَانِ أَصَمٍ عَنِ الْخَتَا، وَمِنْهُ قَوْلُ مَسْكِينِ الدَّارِمِيِّ:

أَعْمَى إِذَا مَا جَارَتِي خَرَجَتْ
حَتَّى يُوَارِي جَارَتِي السُّنْزُ
وَأَصَمُّ عَمَّا كَانَ بَيْنَهُمَا
عَمْدًا وَمَا بِالسُّنْعِ مِنْ وَثَرٍ
ومنه قول الآخر:

وَعَوَزَاءِ الْكَلَامِ صَمَمْتُ عَنْهَا
وَلَوْ أَنِّي أَشَاءُ بِهَا سَمِيعٌ
وَبَادِرَةٌ وَزَعْتُ النَّفْسَ عَنْهَا
وَقَدْ بَقِيَتْ مِنْ الْغَضَبِ الضُّلُوعُ
ومنه قول الآخر في وصاة من يدخل إلى دار ملك:

وَادْخُلْ إِذَا مَا دَخَلْتَ أَعْمَى
وَاخْرُجْ إِذَا مَا خَرَجْتَ أَخْرَسُ
فكأن هؤلاء القوم لما لم ينفعهم النظر بالقلب ولا بالعين ولا ما سمعوه من الآيات والمواعظ استوجبا الوصف بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون، وفسر مجاهد هذا بأن قال: لهم قلوب لا يفقهون بها شيئاً من أمر الآخرة،

وأعين لا يبصرون بها الهدى، وأذان لا يسمعون بها الحق. و﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى من تقدم ذكره من الكفرة، وشبَّههم بالأنعام في أن الأنعام لا تفقه قلوبها الأشياء، ولا تعقل المقاييس، وكذلك ما تبصره لا يتحصل لها كما يجب، فكذلك هؤلاء ما يبصرونه وسمعونه لا يتحصل لهم منه علم على ما هو به حين أبصر وسمع. ثم حكم عليهم بأنهم أضل، لأن الأنعام تلك هي بَيِّنَتُهَا وَجَلَّتْهَا، لا تقصر في شيء، ولا لها سبيل إلى غير ذلك، وهؤلاء مُعْدُونَ لِلْفَهْمِ، وقد خلقت لهم قوى يُصَرِّفُونَهَا، وأعطوا طرقاً في النظر، فهم - بغفلتهم وإعراضهم - يلحقون أنفسهم بالأنعام، فهم أضل على هذا. ثم بيّن بقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الطريق الذي به صاروا أضل من الأنعام وهو الغفلة والتقصير.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ الآية. السبب في هذه الآية على ما روي أن أبا جهل سمع بعض أصحاب النبي ﷺ يقرأ فيذكر الله في قراءته، ومرة يقرأ فيذكر الرحمن. ونحو هذا فقال: محمد يزعم أن الإله واحد وهو إنما يعبد آلهة كثيرة، فنزلت هذه.

و﴿الْأَسْمَاءُ﴾ هنا بمعنى: التسميات إجمالاً من المتأولين لا يمكن غيره و﴿الْحُسْنَى﴾ مصدر وصف به، ويجوز أن تقدر ﴿الْحُسْنَى﴾ فُغْلَى مؤنثة (أحسن) فأفرد وصف جميع ما لا يعقل، كما قال: ﴿مَنَارِبٌ أُخْرَى﴾، وكما قال: ﴿رَبِّجَالِ أَوْبَى﴾

مَعْمٌ، وهذا كثير. وحسن الأسماء إنما يتوجه بتحسين الشرع لإطلاقها، والنص عليها، وانضاف إلى ذلك أيضاً أنها إنما تضمنت معاني حسناً شريفة.

واختلّف الناس في الاسم الذي يقتضي مدحاً خالصاً ولا يتعلق به شبهة ولا اشتراك إلا أنه لم يَرِ مَنْصُوصاً - هل يطلق ويسمى الله به؟ - فنص ابن الباقلاني على جواز ذلك، ونص أبو الحسن الأشعري على منع ذلك، والفقهاء والجمهور على المنع، وهو الصواب ألا يُسمى الله تعالى إلا باسم قد أطلقته الشريعة ووقفت عليه أيضاً، فإن هذه الشريطة التي في جواز إطلاقه من أن يكون مدحاً خالصاً لا شبهة فيه ولا اشتراك أمر لا يحسنه إلا الأقل من أهل العلوم، فإذا أبيح ذلك تسوّر عليه من يظن بنفسه الإحسان وهو لا يحسن، فأدخل في أسماء الله ما لا يجوز إجمالاً.

واختلّف أيضاً في الأفعال التي في القرآن مثل قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَنْتَهِيئُ بِرَبِّهِ﴾، و﴿مَكَرَ اللَّهُ﴾، ونحو ذلك - هل يطلق منها اسم الفاعل؟ - فقالت فرقة: لا يُطلق ذلك بوجه، وجوّزت فرقة أن يقال ذلك مُقَيِّداً بسببه، فيقال: «الله مستهزئ» بالكافرين، ومما كَرَّ بالذين يمكرون بالدين، وأما إطلاق ذلك دون تقييد فممنوع إجمالاً. والقول الأول أقوى، ولا ضرورة تدفع إلى القول الثاني لأن صيغة الفعل الواردة في كتاب الله تغني، ومن أسماء الله تعالى ما ورد في القرآن، ومنها ما

ورد في الحديث وتواتر، وهذا هو الذي ينبغي أن يُعتمد عليه. وقد ورد في الترمذي حديث عن أبي هريرة ونص في تسعة وتسعين اسماً، وفي بعضها شذوذ، وذلك الحديث ليس بالمتواتر، وإنما المتواتر منه قول النبي ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةَ تِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةٌ إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»، ومعنى أحصاها: عدّها وحفظها، وتضمن ذلك الإيمان بها والتعظيم لها والرغبة فيها والعبرة في معانيها، وهذا حديث البخاري، والمتحصل منه أن الله تبارك وتعالى هذه الأسماء مباحاً إطلاقاً. وورد في بعض دعاء النبي ﷺ: «يَا حَنَّانَ يَا مَنَّانَ»، ولم يقع هذان الاسمان في تسمية الترمذي.

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوهُنَّ﴾ إباحة بإطلاقها، وقوله تعالى: ﴿وَدَّوًّا﴾ أي: دعوهم ولا تحاجوهم ولا تعرضوا لهم، فالآية - على هذا - منسوخة بالقتال، وقيل: معناه الوعيد كقوله تبارك وتعالى: ﴿ذَرِّفْ وَمَنْ خَلَقْتُ رَجِدًا﴾، وقوله: ﴿ذَرَّهْمُ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا﴾. ويقال: أَلْحَدَ وَلَحَدَ بمعنى جاز ومال وانحرف، وأَلْحَدَ: أشهر، ومنه قول الشاعر:

.....

نَيْسَ الْإِمَامُ بِالشُّحَيْحِ الْمُلْجِدِ
قال أبو علي: ولا يكاد يسمع لأحد، وفي القرآن ﴿وَمَنْ يُدْرِ فِيهِ بِالْحِكْمَةِ﴾، ومنه لحد القبر المائل إلى أحد شقيّه.

وقرأ أبو عمرو، وابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَلْحَدُونَ﴾

بضم الياء وكسر الحاء، وكذلك في النحل والسجدة. وقرأ حمزة الأحرف الثلاثة: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ بفتح الياء والحاء، وكذلك ابن وثاب، وطلحة، وعيسى، والأعمش.

ومعنى الإلحاد في أسماء الله عز وجل أن يُسْمُوا اللات نظيراً إلى اسم الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والمزني نظيراً إلى العزيز، قاله مجاهد، ويسْمُونَ الله ربّاً ويسمون أوثانهم أرباباً، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿سَيُجْرَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ وعيد محض بعذاب الآخرة، وذهب الكسائي إلى الفرق بين أَلْحَدَ وَلَحَدَ، وزعم أن أَلْحَدَ بمعنى مال وانحرف، وَلَحَدَ بمعنى ركن وانضوى، قال الطبري: وكان الكسائي يقرأ جميع ما في القرآن بضم الياء وكسر الحاء إلا التي في النحل فإنه كان يقرؤها بفتح الياء والحاء ويزعم أنها بمعنى الركون، وكذلك ذكر عنه أبو علي.

﴿١٨١﴾ - ﴿١٨٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تتضمن الخبر عن قوم مخالفين لمن تقدم ذكرهم في أنهم أهل إيمان واستقامة وهداية. وظاهر لفظ هذه الآية يقتضي كل مؤمن كان من لدن آدم عليه السلام إلى قيام الساعة. قال النحاس: فلا تخلو الدنيا في وقت من الأوقات من داع يدعو إلى الحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: سواء بُعِدَ صوته أو كان خاملاً.

وروي عن كثير من المفسرين أنها في أمة محمد ﷺ، وروي في ذلك

حديث رسول الله ﷺ قال: «هذه الآية لكم، وقد تقدم مثلها لقوم موسى».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ الآية وعيد. والإشارة إلى الكفار، و﴿سَنَسْتَلِيزُهُمْ﴾ معناه:

سنسوقهم شيئاً بعد شيء ودرجة بعد درجة بالنعم عليهم والإمهال لهم حتى يغتروا ويظنوا أنهم لا ينالهم عقاب. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ معناه: من حيث لا يعلمون أنه استدراج لهم، وهذه عقوبة من الله على التكذيب بالآيات، لما حَتَمَ عليهم بالعذاب أملي لهم ليزدادوا إثمًا. وقرأ ابن وثاب، والنخعي: ﴿سَيَسْتَلِيزُهُمْ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لِي﴾ معناه: أَوْخِرْ مُلَأَةً مِنَ الدَّهْرِ، أي مُدَّة. وفيها ثلاث لغات: فتح الميم وضمها وكسرهما. وقرأ عبدالحميد عن ابن عامر: ﴿أَنْ كَيْدِي﴾ على معنى: لأجل أن كيدي، وقرأ جمهور الناس وسائر السبعة: ﴿إِنَّ كَيْدِي﴾ على القطع والاستئناف.

و﴿مَنْ﴾ معناه: قوي، قال الشاعر:

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا وَاجِبٌ لَا تُضْيِعُهُ
مَتَّيْنِ قُوَاهُ غَيْرُ مُتَنَكِّثِ الْخَبْلِ
وروي ابن إسحق في هذا البيت «أمين قواه». وهو من المثن الذي يُحمل عليه لقوته، ومنه قول الشاعر وهو امرؤ القيس:

لَهَا مَثْنَتَانِ حَظَاتَانَا كَمَا
أَكْبَ عَلَى سَاعِدَيْهِ النَّبِيزِ
وهما جنبتا الظهر، ومنه قول الآخر:

عَدَلْنَ عُدُولَ الْيَأْسِ وَافْتَحَ يَبْتَلَى
أَفَانِينَ مِنْ أَهْوَابٍ شَدَّ مَمَاتِنَ
ومنه قول امرئ القيس:

ويُخْدِي عَلَى ضَمِّ صِلَابٍ مَلَاطِيَسٍ
شَدِيدَاتٍ عَقْدَ لَيْنَاتٍ مَيَّانَ
ومنه الحديث في غزوة بني
المُضَطَّلَقِ: ﴿فَمَتَّنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ
بِالنَّاسِ﴾ أي: سار بهم سيراً شديداً
لينقطع الحديث بقول ابن أبي ابن
سلول: ﴿لَيْنَ رَجَمَتَا إِلَى الْمَدِينَةِ﴾
الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا
يَصَاحِبُهُمْ﴾ الآية. تقرير يقارنه توبيخ
للكفار، والوقف على قوله: ﴿أَوَلَمْ
يَتَفَكَّرُوا﴾، ثم ابتداء القول بنفي ما
ذكروه: ﴿مَا يَصَاحِبُهُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي
بمحمد ﷺ، ويحتمل أن يكون
المعنى: أولم يتفكروا أنه ما
بصاحبهم من جنّة؟

وسبب نزول هذه الآية فيما روي
أن رسول الله ﷺ صعد ليلاً على
الصفا فجعل يدعو قبائل قريش: يا
بني فلان، يا بني فلان، يحذرهم
ويدعوهم إلى الله، فقال بعض
الكفار حين أصبحوا: هذا مجنون
بات يصوت حتى الصباح فنفي الله
عز وجل ما قالوه من ذلك في هذا
الموطن المذكور وفي غيره، فإن
الجنون بعض ما رموه به حتى
أظهر الله نوره، ثم أخبر أنه نذير أي
مُحَذَّرٌ مِنَ الْعَذَابِ، ولفظ النذارة إذا
جاء مطلقاً فإنما هو في الشر، وقد
يستعمل في الخير مقيداً به، ويظهر
من رصف الآية أنها باعثة لهم على
الفكرة في أمر محمد ﷺ، وأنه ليس

به جنّة، وكما أحالهم بعد هذه الآية
على النظر ثم بين المنظور فيه كذلك
أحال هنا على الفكرة ثم بين المتفكر
فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي
مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ
مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية. هذا أيضاً توبيخ
للكفار وتقرير، والنظر هنا بالقلب
عبرة وفكراً. ﴿وَمَلَكُوتٍ﴾ بناء عظيمة
ومبالغة، وقوله سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقَ
اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظ يعم جميع ما
ينظر فيه ويُستدل به، من الصنعة
الذالّة على الصانع، ومن نفس
الإنس وحواشيه ومواضع رزقه.
والشيء واقع على الموجودات.
وقوله: ﴿وَأَنْ عَسَىٰ﴾ عطف على
قوله: ﴿فِي مَلَكُوتٍ﴾. ﴿وَأَنْ﴾ الثانية
في موضع رفع بـ﴿عَسَىٰ﴾، والمعنى
توقيفهم على أنه لم يقع لهم نظر في
شيء من هذا، ولا في أنه قربت
آجالهم فماتوا ففات أوان الاستدراك
ووجب عليهم المحذور. ثم وقفهم
بأي حديث أو أمر يقع إيمانهم
وتصديقهم إذا لم يقع بأمر فيه
نجاتهم ودخولهم الجنة؟ ونحو هذا
قول الشاعر:

وعن أي نفسٍ بغدٍ نفسي أقاتل؟
والضمير في قوله سبحانه:
﴿بَعْدِهِ﴾ يراد به القرآن، وقيل:
المراد به محمد ﷺ وقضته وأمره
أجمع، وقيل: هو عائد على الأجل
إذا عمل بعد الموت.

﴿١٨٦﴾ - ﴿١٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذا شرط وجواب مضمونه اليأس
منهم والمقت لهم، لأن المراد

أن هذا قد نزل بهم وأنهم مثال
لهذا.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر،
والحسن، وأبو جعفر، والأعرج،
وشيبة، وأبو عبدالرحمن، وقتادة
﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بالنون ورفع الراء،
وكذلك عاصم في رواية أبي بكر،
وروي عنه حفص ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياء
والرفع، وقرأها أهل مكة، وهذا
على إضمار مبتدأ: «ونحن نذرهم»،
أو على قطع الفعل واستئناف القول.
وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو -
فيما ذكر أبو حاتم - بالياء والجزم،
وقرأها كذلك طلحة بن مصرف،
والأعمش ﴿وَيَذَرُهُمْ﴾ بالياء والجزم
عطفاً على موضع الفاء وما بعدها من
قوله تعالى: ﴿فَلَا هَادِيَ لَكُمْ﴾ لأنه
موضع جزم، ومثله قول أبي داود:

فأبلى نؤسي بلييتكم لعلي
أصاليحكم وأستذبح نؤيا
ومنه قول الآخر:

أنى سلكت فإنني لك كاشح
وعلى اثنيصاك في الحياة وأزدد
قال أبو علي: ومثله في الحمل
على الموضع قوله تعالى: ﴿لَوْلَا
لَأَرْبَبِي لَكِ أَجَلٌ قَرِيبٌ فَأَسَدُّكَ وَأَكُنَّ
مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، لأنك لو لم تلحق
الفاء لقلت (أصدق)، وروي خارجه
عن نافع: ﴿وَنَذَرُهُمْ﴾ بالنون
والجزم. والطحيان: الإفراط في
الشيء، وكأنه مستعمل في غير
الصلاح، والعمة: الحيرة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْآسَةِ﴾
الآية. قال قتادة بن دعامّة: المراد:
يسألك كفار قريش، وذلك أن قريشاً

عَبَّأَ ﴿١٨٨﴾ الآية، قال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: المعنى: يسألونك عنها كأنك حفي، أي: متحف ومهتبل، وهذا ينحو إلى ما قالت قریش: إنا قرابتك فأخبرنا. وقال مجاهد أيضاً، والضحاك، وابن زيد: معناه: كأنك حفي في المسألة عنها والاشتغال بها حتى حصلت على علمها. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - فيما ذكر أبو حاتم -: ﴿كأنك حفي بها﴾، لأن ﴿حَفِيٌّ﴾ معناه: مهتبل مجتهد في السؤال مبلغ في الإقبال على ما يسأل عنه، وقد يجيء (حفي) وصفاً للسؤال، ومنه قول الشاعر:

فَلَمَّا التَّقَيْنَا بَيْنَ السُّيْفِ بَيْنَنَا
لِسَائِلَةٍ عَنَّا حَفِيٌّ سؤَالُهَا
ومن المعنى الأول الذي يجيء فيه (حفي) وصفاً للسائل قول الآخر:

سؤَالُ حَفِيٍّ عَنِّ أَخِيهِ كَأَنَّهُ
بِدُكْرَتِهِ وَسُنَانٍ أَوْ مُتَوَائِسُنْ
ثم أمره ثانية بأن يُسَلِّمَ لعلمه تأكيداً للأمر وتهماً به إذ هو من الغيوب الخمسة التي في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُرْسِلُ الْغَيْبِ﴾ الآية، وقيل: العلم الأول علم قيامها والثاني علم كُنْهها وحالها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ قال الطبري: معناه: لا يعلمون أن هذا الأمر لا يعلمه إلا الله، بل يظن أكثرهم أنه مما يعلم البشر.

﴿١٨٨﴾ - ﴿١٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر في أن يبالي في الاستسلام ويتجرد من المشاركة في قدرة الله وغيبه، وأن يصف نفسه لهؤلاء

قال أبو الفتح: وزن (آيات) بفتح الهمزة: فعلان، ويكسرهما: فعلان، والنون فيهما زائدة. و﴿مُرْسَهَا﴾ رفع بالابتداء، والخبر بالمراد، ومذهب المبرد أن ﴿مُرْسَهَا﴾ مرتفع بلضمار فعل، ومعناه: مثبتها ومنتهاها، مأخوذة من أُرْسِي يُرْسِي. ثم أمر الله عز وجل بالرد إليه والتسليم لعلمه. و﴿يَحِبَّهَا﴾ معناه: يظهرها. والجللاء: البيئة والشهود، وهو مراد زهير بقوله:

يَمِينٌ أَوْ نِفَارٌ أَوْ جِلَاءٌ
وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ قال السدي، ومعمر عن بعض أهل التأويل: معناه: ثقل أن تعلم ويوقف على حقيقة وقتها. قال الحسن بن أبي الحسن: معناه: ثقلت هيئتها والفرع منها على أهل السموات والأرض، كما تقول: خيف العدو في بلد كذا وكذا، وقال قتادة، وابن جريج: معناه: ثقلت على السموات والأرض أنفسها لِتَقَطَّرَ السموات وتبدل الأرض ونسف الجبال، ثم أخبر تعالى خيراً يدخل فيه الكل: إنها لا تأتي إلا بغتة، أي فجأة دون أن يتقدم منها علم بوقتها عند أحد من الناس، و﴿بَعَثَهُ﴾ مصدر في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ

قُلْ لَا آيَاتُ لِي بِنَفْسِي فَعَمَّا لَا ضَرَّ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَاسْتَكْتَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٨٩﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّهَا حَمَلَتْ حَمَلاً حَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَفَلَتْ دَعَا اللَّهُ رَبَّهُمَا لَئِنَّمَا أَصْلَابُهُمَا لَتَكُونُ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿١٩٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمَا أُصْلَابُهُمَا جَعَلَ لَهُمَا شُرَكَاءَ فِيمَا أَنَّهُمَا فَعَدَلَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩١﴾ أَيْشُرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُظَلَمُونَ ﴿١٩٢﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسُهُمْ يَنْصُرُونَ ﴿١٩٣﴾ وَإِنْ نَدَعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوهُمْ سِوَاهُ عَلَيْهِ كَرَاهٍ وَعَنُوتُهُمْ أَمْ أَمْتَرْتُمْ مِثْرًا ﴿١٩٤﴾ إِنْ الَّذِينَ نَدَعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ فَأَدَعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا الْكُفْرَانَ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩٥﴾ أَلَهُمْ أَنْجِلْ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آيَةٌ يَمْشُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يَصُورُونَ بِهَا أَمْ لَهُمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلْ أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٦﴾

قالت: يا محمد إنا قرابتك فأخبرنا بوقت الساعة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد بالآية اليهود، وذلك أن جبل بن أبي قشير، وسمويل بن زيد قال له: إن كنت نبياً فأخبرنا بوقت الساعة فإننا نعرفها، فإن صدقت أمنا بك.

و﴿السَّاعَةَ﴾: القيامة، موت كل شيء كان حينئذ حياً وبعث الجميع هو كله يقع عليه اسم الساعة واسم القيام. و﴿آيَاتٌ﴾ معناه: متى. وهو سؤال عن زمان، ولتضمنها الوقت بُيِّنَتْ، وقرأ جمهور الناس: ﴿آيَاتٌ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ السلمي: ﴿آيَاتٌ﴾ بكسر الهمزة، وشبه أن يكون أصلها «آي أن» وهي مبنية على الفتح. وقال الشاعر:

آيَاتٌ تَفْضِي حَاجَتِي آيَانَا
أَمْ تَأْتِي لِيُغْلِبَهَا إِيَانَا؟

تقول: مارت الريح موراً. و﴿تَنَكَّلَ﴾ دخلت في الثقل، كما تقول: أصبح وأمسى، أي: صارت ذات ثقل، كما تقول: أثمر الرجل وألبن إذا صار ذا تمر ولبن. والضمير في ﴿عَوًّا﴾ يعود على آدم وحواء.

وزوي في قصص هذه الآية أن حواء لما حملت أول حمل لها لم تدر ما هو، وهذا يقوي قراءة من قرأ ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ بتشخيف الراء، فجزعت لذلك فوجد إبليس إليها السبيل، فقال لها: ما يدريك ما في جوفك؟ ولعله خنزير أو حية أو بهيمة في الجملة. وما يدريك من أين يخرج؟ أيتشقق له بطنك فتموتين أو من فمك أو من أنفك؟ ولكن إن أطعنتي وسميته عبدالحارث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: «والحارث اسم إبليس» فسأخلصه لك وأجعله بشراً مثلك، وإن أنت لم تفعلني قتلته لك، قال: فأخبرت حواء آدم فقال لها: ذلك صاحبنا الذي أعوانا في الجنة، لا نطيعه، فلما ولدت سمياه عبدالله، فمات الغلام، ويروى أن الله سلط إبليس على قتله، فحملت بآخر ففعل بها مثل ذلك، فحملت بالثالث، فلما ولدته أطاعا إبليس فسمياه عبدالحارث حرصاً على حياته، فهذا هو الشرك الذي جعل الله، أي في التسمية فقط.

و﴿صَلِيحًا﴾ قال الحسن: معناه: غلاماً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما - وهو الأطهر -: بشراً سورياً سليماً. ونصبه على المفعول الثاني، وفي «المشكل»

وقوله تعالى: ﴿قَوِّ الْأَيِّ خَلَقَكُمْ مِن نَّفْسٍ وَجِدَةٍ﴾ الآية. قال جمهور المفسرين: المراد بالنفس الواحدة آدم عليه السلام، ويقولون تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَهَا زَوْجَهَا﴾ و﴿بَيْنَهَا﴾ يريد: ما تقدم ذكره من أن آدم نام فاستخرجت قصرى أصلاعه وخلقت منها حواء وقوله تعالى: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ أي: لِيَأْتَسَّسَ ويطمئن، وكان هذا كله في الجنة.

ثم ابتدأ بحالة أخرى هي في الدنيا بعد هبوطهما فقال: ﴿فَلَمَّا تَشَنَّهَا﴾ أي: غشيها، وهي كناية عن الجماع، والحمل الخفيف هو المنى الذي تحمله المرأة في فرجها. وقرأ جمهور الناس: ﴿حَمَلًا﴾ بفتح الحاء، وقرأ حماد بن سلمة عن ابن كثير: ﴿جَمَلًا﴾ بكسر الحاء. وقوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ أي: استمرت به، قال أيوب: سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ فقال: لو كنت امرأة عريباً لعرفت ما هي، إنما المعنى: فاستمرت به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقدره قوم على القلب كأن المراد: فاستمر بها، كما تقول: أدخلت القلنسوة في رأسي، وقرأ يحيى بن يعمر، وابن عباس رضي الله عنهما - فيما ذكر النقاش -: ﴿فَمَرَّتْ بِهِ﴾ بتشخيف الراء، ومعناه: فشكت فيما أصابها هل هو حمل أو مرض ونحو هذا. وقرأ ابن عباس: ﴿فَاسْتَمَرَّتْ بِهِ﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿فَاسْتَمَرَّتْ بِحَمْلِهَا﴾، وقرأ عبدالله بن عمرو بن العاص: ﴿فَمَارَتْ بِهِ﴾ ومعناه: أي جاءت به وذهبت وتصرفت كما

السائلين بصفة من كان بها فهو حريراً ألا يعلم غيباً ولا يدعيه، فأخبر أنه لا يملك من منافع نفسه ومضارها إلا ما سئى الله له وشاء ويسر، وهذا الاستثناء منقطع، وأخبر أنه لو كان يعلم الغيب لعمل بحسب ما يأتي ولا استعداد لكل شيء استعداداً من يعلم قدر ما يستعد له، وهذا لفظ عام في كل شيء، وقد خصص الناس هذا فقال ابن جريج، ومجاهد: لو كنت أعلم أجلي لاستكثرت من العمل الصالح، وقالت فرقة: أوقات النصر لتوخيئتها، وحكى مكي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن معنى ﴿لو كنت أعلم﴾ السنة المجدبة لأعددت لها من المخصبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وألفاظ الآية تعم هذا وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا سَنِي﴾ يحتمل وجهين وبكليهما قيل. أحدهما: أن ﴿مَا﴾ معطوفة على قوله: ﴿لَأَسْتَكْثُرُ﴾ أي: ولَمَّا مَسَّنِي السوء. والثاني أن يكون الكلام مقطوعاً تم في قوله: ﴿لَأَسْتَكْثُرُ مِن النَّعِيرِ﴾ وابتدأ يخبر بنفي السوء عنه وهو الجنون الذي رموه به. قال المؤرِّج السُّدوسي: السوء: الجنون بلغة هذيل. ثم أخبر بجُملة ما هو عليه من النذارة والبشارة. و﴿لَقَوِّرٍ يُؤْمِرُونَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: أن يريد أنه نذير ويشير لقوم يُطلب منهم الإيمان ويُذعون إليه وهؤلاء الناس أجمع، والثاني: أن يخبر أنه نذير ويتم الكلام، ثم يبتدئ يخبر أنه بشير للمؤمنين به، ففي هذا وعد لمن حصل إيمانه.

لمكي أنه نعت لمصدر أي: أتيا صالحاً. وقال قوم: إن المعنى في هذه الآية التَّيْبِينُ عن حال الكافرين، فعُدَّ النعم التي نعم الكافرين وغيرهم من الناس، ثم قرن ذلك بفعل المشركين السُّيِّءِ فقامت عليهم الحجة ووجب العقاب، وذلك أنه قال مخاطباً لجميع الناس: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ بَيْنَهُمْ رُوجًا﴾ يريد آدم وحواء، أي: واستمرت حالكم واحداً كذلك، فهذه نعمة تخص كل أحد بجزء منها، ثم جاء قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَشَنَّهَابًا﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً، أي هكذا يفعلون، فإذا آتاهم الله الولد صالحاً سليماً كما أَرَادَهُ صرفاه عن الفطرة إلى الشرك، فهذا فعل المشركين الذي قامت الحجة فيه باقترانه مع النعمة العامة. وقال الحسن بن أبي الحسن - فيما حكى عنه الطبري -: معنى الآية: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ إشارة إلى الروح الذي ينفخ في كل أحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أي: خلقكم من جنس واحد وجعل الإنان منه، ثم جاء قوله تبارك وتعالى: ﴿فَلَمَّا تَشَنَّهَابًا﴾ إلى آخر الآية وصفاً لحال الناس واحداً واحداً على ما تقدم من الترتيب في القول الذي قبله.

١٩٠ - ١٩٣ تفسير قوله عز وجل:

يقال: إن الآية المتقدمة هي في آدم وحواء، وإن الضمير في قوله: ﴿فَلَمَّا تَشَنَّهَابًا﴾ عائد عليهما، ويقال: إن

الشرك الذي جعلاه هو في الطاعة، أي أطاعا إبليس في التسمية بعبد الحارث، لكنهما كانا في غير ذلك مطيعين لله، وأسند الطبري في ذلك حديثاً من طريق سمرة بن جندب. ويحتمل أن يكون الشرك في أن جعلنا عبوديته بالاسم لغيره. وقال الطبري والسدي في قوله تعالى: ﴿فَتَنَكَّلَ اللَّهُ عَنَّا يَشِرُكُونَ﴾: إنه كلام منفصل ليس من الأول، وإن خبر آدم وحواء تم في قوله: ﴿ذِيئًا تَأْتِيهِمَا﴾، وإن هذا كلام يراد به مشركو العرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تحكم لا يساعده اللفظ، ويُنَجَّه أَنْ يَقَالَ: تعالى الله عن ذلك اليسير المتوهم من الشرك في عبودية الاسم، ويبقى الكلام في جهة أبوينا آدم وحواء عليهما السلام. وجاء الضمير في ﴿يَشِرُكُونَ﴾ ضمير جمع لأن إبليس مُذَبَّرٌ معهما تسمية الولد عبد الحارث. ومن قال: «إن الآية المتقدمة إنما الغرض منها تعدد النعمة في الأزواج وفي تسهيل النسل والولادة ثم ذكر سوء فعل المشركين بعقب ذلك» قال في الآية الأخيرة: إنها على ذلك الأسلوب، وإن قوله تعالى: ﴿فَتَنَكَّلَ اللَّهُ عَنَّا يَشِرُكُونَ﴾ المراد بالضمير فيه: المشركون، والمعنى في هذه الآية: فلما أتى الله هذين الإنسانين صالحاً أي سليماً ذهباً به إلى الكفر، وجعلنا الله فيه شركاء، وأخرجاه عن الفطرة. ولفتة الشرك تقتضي نصيبين، فالمعنى: وجعلنا الله فيه

ذا شرك، لأن إبليس أو أصنام المشركين هي المفعولة، والأصل أن الكل لله تعالى. وبهذا حلّ الزجاج اعتراض من قال: ينبغي أن يكون الكلام: «جعلنا لغيره شركاً».

وقرأ نافع، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿يَشِرُكًا﴾ بكسر الشين وسكون الراء على المصدر، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما، وأبي جعفر، وشيبة، وعكرمة، ومجاهد، وعاصم، وأبان بن ثعلب. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم ﴿شِرْكًا﴾ على الجمع، وهي بيّنة على هذا التأويل الأخير، وقلقة على قول من يقول: «إن الآية الأولى في آدم وحواء»، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا أَشْرَكْنَا فِيهِ﴾، وذكر الطبري في قصص آدم وحواء وإبليس في التسمية بعبد الحارث، وفي صورة مخاطبتهم أشياء طويلة لا يقتضي الاختصار ذكرها.

وقرأ نافع، والحسن، وأبو جعفر، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿عَنَّا يَشِرُكُونَ أَشِرُكُونَ﴾ بالياء من تحت فيهما. وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿عَمَّا تُشِرُكُونَ﴾ بالتاء من فوق، ﴿أَتَشِرُكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ﴾ الآية، وروى بعض من قال: «إن الآيات في آدم وحواء» أن إبليس جاء إلى آدم وقد مات له ولد اسمه عبدالله فقال: إن شئت أن يعيشت لك الولد فسمّه عبد شمس، فولد له ولد فسمّه كذلك، وإياه عنى بقوله:

﴿إِن وَلِيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ تَوَكَّلُ الْصَّالِحِينَ﴾
 وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا
 أَنْفُسَهُمْ يَهْزُونَ ﴿١٩٤﴾ وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَسْمَعُوا
 وَتَرْهَبُهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٥﴾ خُذِ الْعَوْفَ مِنْ
 يَدِ الْغَرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْهَيْلِيتِ ﴿١٩٦﴾ وَإِمَائِنُ غَرْفِكَ مِنَ
 الشَّيْطَانِ نَزَعٌ فَأَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٩٧﴾ إِنَّ
 الذِّبْرَ أَنْتَقُوا إِذَا مَسَّهُمْ طَلْفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا
 فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٩٨﴾ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ
 لَا يُبْصِرُونَ ﴿١٩٩﴾ وَإِذْ أَنْتُمْ تَأْتِيهِمْ بَابِقًا قَالَوا أَلَمْ يَأْتِيَتْهُمْ
 قُلُوبًا أَنْبِئَ مَا بُوْحَىٰ إِنْ مِنْ رَبِّي هَذَا بَصِيرَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ
 وَهَذِي وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠٠﴾ وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ
 فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠١﴾ وَادْكُرْ رَبَّكَ
 فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ
 وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٢٠٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ
 لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَسْجِدُونَ لَهُ وَهُمْ سَاجِدُونَ ﴿٢٠٣﴾

ولللكفار فقط على قراءة
 من قرأ بالثاء من فوق على
 جهة التوقيف، أي: إن
 هذه حال الأصنام معكم
 إن دعوتهم لم
 يجيبوكم، إذ ليس لهم
 حواس ولا إدراكات.

وقرأ نافع وحده: ﴿لَا
 يَنْتَبِعُوكُمْ﴾ بسكون التاء
 وفتح الباء، وقرأ الباقون:
 ﴿لَا يَتَّبِعُوكُمْ﴾ بشد التاء
 المفتوحة وكسر الباء،
 والمعنى واحد.

وفي قوله تعالى:
 ﴿ادْعُوهُمْ أَمْ أَنْتُمْ عَظْفُ
 الاسم على الفعل، إذ
 التقدير: أَمْ صَمْتُمْ. ومثل
 هذا قول الشاعر:

سَوَاءَ عَلَيْنِكَ التُّفْرُ أَمْ بِتْ لَيْلَةٌ
 بِأَهْلِ الْقِيَابِ مِنْ تُمَيْرِ بْنِ عَامِرٍ
 ﴿١٩٤﴾ - ﴿١٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّ الَّذِينَ
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ﴾
 بتثقيل ﴿إِنَّ﴾ ورفع ﴿عِبَادًا﴾، وهي
 مخاطبة للكَفَّار في تحقير شأن
 أصنامهم عندهم، أي: إن هذه
 الأصنام مخلوقة محدثة إذ هي أجسام
 وأجرام فهي متعبدة أي متملكة.
 وقال مقاتل: إن المراد بهذه الآية
 طائفة من العرب من خزاعة كانت
 تعبد الملائكة فأعلمهم الله أنهم عباد
 أمثالهم لا آلهة. وقرأ سعيد بن
 جبير: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ﴾ بتخفيف
 النون من ﴿إِنَّ﴾ على أن تكون
 بمعنى (ما) وينصب قوله:

﴿أَشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾. ﴿وَهُمْ
 يَخْلُقُونَ﴾ - على هذا - عائد على آدم
 وحواء والابن المسمى عبد شمس.
 ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه
 في مشركي الكفار الذين يشركون
 الأصنام في العبادة، وإياها أراد
 بقوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾، وعبر عنها
 بـ﴿هُنَّ﴾ كأنها تعقل على اعتقاد
 الكفار فيها وبحسب أسمائها.
 و﴿يَخْلُقُونَ﴾ معناه: يُنْحَتُونَ
 ويصنعون. ويحتمل - على قراءة
 ﴿أَشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت - أن
 يكون المعنى: وهؤلاء المشركون
 يخلقون. أي: كان يجب أن يعتبروا
 بأنهم مخلوقون فيجعلون إلههم
 خالقهم لا من لا يخلق شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾
 الآية. هذه تُخَرَّجُ على تأويل من
 قال: «إن المراد آدم وحواء
 والشمس» على ما تقدم، ولكن
 بقلق وتعسف من المتأول في
 المعنى. وإنما تُنَسَّقُ هذه الآيات
 ويروق نظمها ويتناصر معناها على
 التأويل الآخر، والمعنى: ولا
 ينصرون أنفسهم من أمر الله
 وإرادته، ومن لا يدفع عن نفسه
 فأحرى ألا يدفع عن غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى
 الْهُدَى﴾ الآية. من قال: «إن الآيات
 في آدم عليه السلام» قال: إن هذه
 مخاطبة للنبي ﷺ وأمنه مستأنفة في
 أمر الكفار المعاصرين للنبي ﷺ،
 ولهم الهاء والميم من ﴿تَدْعُوهُمْ﴾،
 ومن قال بالقول الآخر قال: إن هذه
 مخاطبة للمؤمنين والكفار على قراءة
 من قرأ ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت،

﴿عِبَادًا﴾ و﴿أَمْثَلُكُمْ﴾، والمعنى
 بهذه القراءة تحقير شأن الأصنام
 ونفي مماثلتهم للبشر، بل هم أقل
 وأحقر إذ هم جمادات لا تفهم ولا
 تعقل، وسيبويه يرى عن ﴿إِنْ﴾ إذا
 كانت بمعنى (ما) فإنها تضعف عن
 رتبة (ما) فيبقى الخبر مرفوعاً وتكون
 هي داخلة على الابتداء والخبر لا
 تنصبه، فكان الوجه عنده في هذه
 القراءة: «إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ عِبَادًا أَمْثَلُكُمْ. وأبو العباس
 المبرد يجوز أن تعمل عمل (ما) في
 نصب الخبر. وزعم الكسائي أن
 ﴿إِنْ﴾ بمعنى (ما) لا تجيء إلا بعدها
 (إلا) كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْكَاذِبِينَ إِلاَّ
 فِي عُرُوقِهِ﴾. ثم بين تعالى الحجة
 بقوله: ﴿فَادْعُوهُمْ﴾ أي: فاخبروا
 فإن لم يستجيبوا فهم كما وصفنا.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْزِلْ﴾ الآية.

الغرض من هذه الآية: **أَلَهُمْ حَوَاسُ الْحَيِّ وَأَوْصَافُهُ؟** فإذا قالوا: **«لا»** حكما بأنها جمادات، فجاءت هذه التفصيلات لذلك المجمع الذي أريد التقرير عليه، فإذا وقع الإقرار بتفصيلات القضية لزم الإقرار بعمومها وكان بيانها أقوى ولم تقم بها استرابة. قال الزهراوي: المعنى: أنتم أفضل منهم بهذه الجوارح النافعة فكيف تعبدونهم؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتَقْوَى بهذا التأويل قراءة سعيد بن جبير، إذ تقتضي أَنَّ الأوثان ليست عبادة كالشعر.

وقوله في الآية: **«أَمْزُ»** إضراب لكل واحدة عن الجملة المتقدمة لها، وليست (أم) المعادلة للألف في قولك: **«أعدتلك زيد أم عمرو؟»** لأن المعادلة إنما هي في السؤال عن شيئين أحدهما حاصل، فإذا وقع التقدير على شيئين كلاهما منفي **«فأم»** إضراب عن الجملة الأولى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي فرق معنوي، وأما من جهة اللفظ والصناعة النحوية فهي هي.

وقرأ نافع، والحسن، والأعرج **«يَنْطُشُونَ»** بكسر الطاء، وقرأ نافع أيضاً، وأبو جعفر، وشيبة: **«يَنْطُشُونَ»** بضمها.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعجزهم بقوله: **«قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ»** أي استنجدوهم واستنفدوهم إلى إضراري وكيدي ولا تؤخروني، والمعنى: فإن كانوا آلهة فسيظهر فعلهم، وسماهم شركاءهم من حيث

لهم نسبة إليهم بتسميتهم إياهم آلهة وشركاء الله.

وقرأ أبو عمرو، ونافع: **«كَيْلُونِي»** بإثبات الياء في الوصل، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمة والكسائي: **«كَيْدُونِي»** بحذف الياء في الوصل والوقف. قال أبو علي: إذا أشبه الكلام المنفصل أو كان منفصلاً أشبه القافية، وهم يحذفون الياء في القافية كثيراً، وقد التزموا ذلك، كما قال الأعشى:

فَهَلْ يَمْنَعَنِي اِزْتِيَادِي الْبَيْلَا
ذَمَّنْ حَذَرَ الْمَوْتِ أَنْ يَأْتِيَنِي
وقد حذفوا الياء التي هي لام الأمر كما قال الأعشى:

يَلْمَسُ الْأَخْلَاسَ فِي مَشْرِئِهِ
بِيَدَيْهِ كَأَيْهُودِي الْمُضَلِّ
وقوله تعالى: **«فَلَا تُظْهِرْ»** أي لا تؤخرون، ومنه قوله تعالى: **«فَتَنْظَرُ»** إِلَى مَيْسَرَةٍ.

وقوله تعالى: **«إِنَّ وَلِيِّ اللَّهِ»** الآية. لما أحالهم على الاستنجاد بآلهتهم في ضره وأراهم أن الله هو القادر على كل شيء لا تلك - عقب ذلك بالاستناد إلى الله والتوكل عليه والإعلام بأنه وليه وناصره، وقرأ جمهور الناس والقرأة: **«إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ»** بياء مكسورة مشددة وأخرى مفتوحة، وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه: **«إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ»** بياء واحدة مشددة ورفع **«اللَّهُ»**. قال أبو علي:

لا تخلو هذه القراءة من أن تدغم الياء التي هي لام الفعل في ياء الإضافة، أو تحذف الياء التي هي لام الفعل وتدغم ياء فعيل في ياء الإضافة، ولا يجوز أن تدغم الياء

التي هي لام الفعل في ياء الإضافة لأنه إذا فعل ذلك انفك الإدغام الأول، فليس إلا أنه حذف لام الفعل وأدغم ياء فعيل في ياء الإضافة.

وقرأ ابن مسعود: **«الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ»**، وقرأ الجحدري - فيما ذكر أبو عمرو الداني -: **«إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ»** على الإضافة. وفسر ذلك بأن المراد جبريل ﷺ، وذكر القراءة غير منسوبة أبو حاتم وضعفها، وإن كانت ألفاظ هذه الآية تلائم هذا المعنى وتصلح له فإن ما قبلها وما بعدها يدفع ذلك.

(١٩٧) - (١٩٨) تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله: **«مِنْ دُونِهِ»** عائد على اسم الله تعالى، وهذا الضمير مصرح بما ذكرناه من ضعف قراءة من قرأ: **«إِنَّ وَلِيَّ اللَّهِ»** على أنه جبريل ﷺ، وهذه الآية أيضاً بيان لحال تلك الأصنام وفسادها وعجزها عن نصره أنفسها فضلاً عن غيرها.

وقوله تعالى: **«وَأَنْ تَدْعُوهُمْ»** الآية. قالت فرقة: المخاطبة للنبي ﷺ وأمه، والهاء والميم في قوله: **«تَدْعُوهُمْ»** للكفار، ووصفهم بأنهم لا يسمعون ولا يبصرون إذ لم يتحصل لهم عن النظر والاستماع فائدة ولا حصلوا منه بطائل، قاله السدي ومجاهد. وقال الطبري: المراد بالضمير المذكور الأصنام ووصفهم بالنظر كناية عن المحاذاة والمقابلة وما فيها من تخييل النظر كما تقول: دار فلان تنظر إلى دار

فلان، ومعنى الآية على هذا تبيين جمودية الأصنام وصغر شأنها. وذهب بعض المعتزلة إلى الاحتجاج بهذه الآية على أن العباد ينظرون إلى ربهم ولا يرونه، ولا حجة لهم في الآية لأن النظر في الأصنام مجاز محض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما تكرر القول في هذا وترددت الآيات فيه لأن أمر الأصنام وتعظيمها كان متمكناً في نفوس العرب في ذلك الزمن ومستولياً على عقولها فأوعب القول في ذلك لطفاً من الله تعالى بهم.

وقوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَنْوَابَ﴾ الآية. وصية من الله عز وجل لنبيه ﷺ تعم جميع أمته، وأمر بجميع مكارم الأخلاق. وقال الجمهور في قوله سبحانه: ﴿خُذِ الْعَنْوَابَ﴾: إن معناه: اقبل من الناس في أخلاقهم وأقوالهم ومعاشرتهم ما أتى عفواً دون تكلف، فالعفو هنا: الفضل والصفو الذي تهباً دون تحرج، قاله عبدالله بن الزبير في مصنف البخاري، وقاله مجاهد وعروة، ومنه قول حاتم الطائي:

خُذِي الْعَفْوَ مَنِي تَسْتَدِيمِي مَوْدَتِي
وَلَا تَنْطِقِي فِي سَوْرَتِي حِينَ أَعْضَبُ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، والسدي: هذه الآية في الأموال، وقيل: هي قبل فرض الزكاة، أمر بها رسول الله ﷺ أن يأخذ ما سهل من أموال الناس. (عفاً) أي: فضل وزاد، من قولهم: «عفا النبات والشعر» أي كثر، ثم نزلت الزكاة وحدودها فنسخت هذه

الآية، وذكر مكي عن مجاهد أن ﴿خُذِ الْعَنْوَابَ﴾ معناه: خذ الزكاة المفروضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا شاذ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ معناه: بكل ما عرفته النفوس مما لا تردّه الشريعة، وروي أن النبي ﷺ قال لجبريل: «ما هذا العرف الذي أمر به؟ قال: لا أدري حتى أسأل العالم، فرجع إلى ربه فسأله، ثم جاءه فقال له: يا محمد، هو أن تُغْطِي مَنْ حَرَمَكَ، وَتَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ، وتعو عن ظلمك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا نصب غايات، والمراد: فما دون هذا من فعل الخير. وقرأ عيسى الشقفي - فيما ذكر أبو حاتم - ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ بضم الراء، والمعروف والمعروف بمعنى: المعروف.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ حكّم مترتب محكم مستمر في الناس ما بقوا، هذا قول الجمهور من العلماء، وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿خُذِ الْعَنْوَابَ﴾ إلى ﴿الْجَاهِلِينَ﴾: إنما أمر النبي ﷺ بذلك مداراة لكفار قريش، ثم نسخ ذلك بآية السيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحديث الحرّ بن قيس حين أدخل عمّه غَيِّثَةَ بن جِصْنِ على عمر رضي الله عنه دليل على أنها محكمة مستمرة، لأن الحرّ احتجّ بها على عمر رضي الله عنه فقررها ووقف عندها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَنْزِعَنَّكَ مِنَ

الطَّيْبَانِ نَزْعٌ﴾ وصية من الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ تعم أمته رجلاً رجلاً. والنزغ: حركة فيها فساد، وقلماً تستعمل إلا في فعل الشيطان لأن حركته مسرعة مفسدة، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يشر أحدكم على أخيه بالسلاح، لا ينزغ الشيطان في يده».

فالمعنى في هذه الآية: فإِذَا تُلِمَّنْ بِكَ لَمَّةٌ مِنَ الشَّيْطَانِ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ. ونزغ الشيطان عام في الغضب وتحسين المعاصي واكتساب الغوائل وغير ذلك، وفي مصنف الترمذي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنْ لِلْمَلَكِ لَمَّةٌ، وللشيطان لَمَّةٌ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهاتان اللَّمَّتَانِ هما الخواطر من الخير والشر، و﴿سَمِيعٌ﴾ في هذه الآية يصلح مع الاستعانة، ويصلح أيضاً مع ما يقول الكفار فيه من الأقاويل فيغضببه الشيطان لذلك، و﴿عَلِيمٌ﴾ كذلك، وبهذه الآية تعلق ابن القاسم في قوله: «إن الاستعانة عند القراءة: أَعُوذُ بِاللَّهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ».

﴿٢٠١﴾ - ﴿٢٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَتَقْرَأُ﴾ هنا عامة في اتقاء الشرك واتقاء المعاصي بدليل أن اللفظة إنما جاءت في مدح لهم، فلا وجه لقصرها على اتقاء الشرك وحده، وأيضاً فالمتقي العائد قد يمسه طائف من الشيطان إذ ليست العصمة إلا للأنبياء عليهم السلام.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿طَلَيْفٌ﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿طَيْفٌ﴾.

وقرأ سعيد بن جبير: ﴿طَيْفٌ﴾، واللفظة إما من طاف يطوف، وإما من طاف يطيف بفتح الباء، وهي ثابتة عن العرب، وأنشد أبو عبيدة في ذلك:

أَتَى أَلَمَ بِكَ الْحَيَاةُ يَطِيفُ
وَمَطَاةُ لَكَ ذُكْرَةٌ وَسُغُوفُ
فَـ﴿طَيْفٌ﴾ اسم فاعل كقائل من قال يقول، وبائع من باع يبيع. ﴿وَطَيْفٌ﴾ اسم فاعل أيضاً كميت من مات، أو كَبَيْعَ ولين من باع يبيع ولان يلين. وطيْفٌ يكون مخففاً من طَيْفٍ كميت من ميت، وإذا قدرنا اللفظة من طاف يطيف فطيْفٌ مصدر، وإلى هذا مال أبو علي الفارسي، وجعل الطائف كالخاطر والطيْف كالخطرة، وقال الكسائي: الطَيْفُ اللَّئِمُّ، والطائف ما طاف حول الإنسان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكيف هذا وقد قال الأعشى:

وَتُضْبِحُ مِنْ غَيْبِ السَّرَى وَكَأَنَّمَا
أَلَمَ بِهَا مِنْ طَائِفِ الْجِنِّ أَوْلَى
ومعنى الآية: إذا متهم غضب وزين الشيطان معه ما لا ينبغي. وقوله: ﴿تَذَكَّرُوا﴾ إشارة إلى الاستعادة المأمور بها قبل، وإلى ما لله عز وجل من الأوامر والنواهي في النازلة التي يقع تعرض الشيطان فيها. وقرأ ابن الزبير: ﴿مِنَ الشَّيْطَانِ تَأَمَّلُوا فَيَا هُم﴾، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿إِذَا طَافَ مِنَ الشَّيْطَانِ طَائِفٌ تَأَمَّلُوا﴾، وقال النبي ﷺ: ﴿إِنَّ الْغَضْبَ جَنَدٌ مِنْ جَنَدِ الْجِنِّ، أَمَا تَرَوْنَ حُمْرَةَ الْعَيْنِ وَانْتِفَاحَ الْعَرُوقِ؟ فَيَا هُم كَانَ ذَلِكَ فَالْأَرْضُ

الْأَرْضُ﴾، وقوله: ﴿يُضَيَّرُونَ﴾ من البصيرة، أي: فإذا هم قد تبينوا الحق ومالوا إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوهُمْ فِي الْغَيِّ﴾ الآية. في هذه الضمائر احتمالات، قال الزجاج: هذه الآيات متصلة في المعنى بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَمْ نَصْرًا وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَصُدُّونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

وقال الجمهور: إن الآية مقررة في موضعها إلا أن الضمير في قوله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ﴾ عائد على الشياطين، والضمير في قوله: ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾ عائد على الكفار وهم المراد بالإخوان، والشيطان في الآية قَبْلَ هذه للجنس فلذلك عاد عليهم هاهنا ضمير جمع، فالتقدير على هذا التأويل: وإخوان للشياطين يمدونهم الشياطين في الغي، وقال قتادة: إن الضميرين في الهاء والميم للكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتجيء الآية على هذا معادلة للتي قبلها، أي: إن المتقين حالهم كذا وكذا، وهؤلاء الكفار يمدهم إخوانهم من الشياطين ثم لا يُقصدون.

وقوله: ﴿فِي الْغَيِّ﴾ يحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾، وعليه يترتب التأويل الذي ذكرنا أولاً عن الجمهور، ويحتمل أن يتعلق بالإخوان، فعلى هذا يحتمل أن يعود الضميران على الكفار كما ذكرناه عن قتادة، ويحتمل أن يعودا جميعاً على الشياطين، ويكون المعنى: وإخوان

الشياطين في الغي بخلاف الإخوة في الله يمدون الشياطين، أي بطاعتهم لهم وقبولهم منهم، ولا يترتب هذا التأويل على أن يتعلق ﴿فِي الْغَيِّ﴾ بالإمداد، لأن الإنس لا يغون الشياطين، والمراد بهذه الآية وصف حالة الكفار مع الشياطين كما وصف حالة المتقين معهم من قبل.

وقرأ جميع السبعة غير نافع: ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾ من مَدَدْتُ. وقرأ نافع وحده: ﴿يَمِدُّونَهُمْ﴾ بضم الباء من أَمَدَدْتُ، فقال أبو عبيدة وغيره: مد الشيء إذا كانت الزيادة من جنسه، وأمدّه إذا كانت من شيء آخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير مطرد. وقال الجمهور: هما بمعنى واحد إلا أن المستعمل في المحبوب (أمد)، فمنه قوله تعالى: ﴿أَنَّمَا يُدِثُّهُمُ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَيْنَ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَدَدْتَهُمْ بِفِكَهَةٍ﴾، وقوله: ﴿أَتَيْدُوتَنِّي بِمَالٍ﴾، والمستعمل في المكروه (مد)، فمنه قوله تعالى: ﴿وَيَسُدُّكُمْ فِي ظُلُمَاتِهِمْ﴾، ومد الشيطان للكفرة في الغي هو التزيين لهم والإغواء المتتابع. فمن قرأ في هذه الآية ﴿يَمُدُّوهُمْ﴾ بضم الميم فهو على المنهاج المستعمل، ومن قرأ ﴿يَمِدُّونَهُمْ﴾ فهو مقيد بقوله: ﴿فِي الْغَيِّ﴾، كما يجوز أن تقيد البشارة فتقول: ﴿بَشْرُهُ بِشْرًا﴾. وقرأ الجحدري ﴿يَمَادُونَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ﴾ عائد على الجميع، أي: هؤلاء لا يقصرون في الطاعة للشياطين والكفر بالله عز وجل. وقرأ جمهور الناس ﴿يُقْصِرُونَ﴾ من أقصر، وقرأ ابن أبي

عبلة، وعيسى بن عمر: **﴿يَقْضُرُونَ﴾** من قَصَرَ.

وقوله تعالى: **﴿وَإِذَا لَمْ تَأْتِيهِمْ بَيِّنَةٌ﴾**. سببها فيما روي أن الوحي كان يتأخر على النبي ﷺ أحياناً، فكان الكفار يقولون: **﴿هَلْأُاجْتَنِبَتْهَا﴾**، ومعنى اللفظة في كلام العرب: تخيرتها واصطفتيتها. وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وغيرهم: المراد بهذه اللفظة: **﴿هَلْأُاخْتَرْتَهَا وَاخْتَلَقْتَهَا مِنْ قَبْلِكَ وَمَنْ عِنْدَ نَفْسِكَ﴾**، والمعنى: إذ كلامك كله كذلك على ما كانت قريش تزعمه.

وقال ابن عباس أيضاً والضحاك: المراد: **﴿هَلْأُتَلَقَّيْتَهَا مِنْ اللَّهِ وَتَخَيَّرْتَهَا عَلَيْهِ، إِذْ تَزْعَمُ أَنَّكَ نَبِيٌّ وَأَنَّ مَنْزِلَتَكَ عِنْدَهُ مَنْزِلَةُ الرَّسَالَةِ﴾**، فأمره الله عز وجل أن يجيب بالتسليم لله تعالى، وأن الأمر في الوحي إليه ينزله متى شاء لا معقب لحكمه في ذلك فقال: **﴿قَدْ لِمَتْنَا أَنْتِجُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّي﴾**، ثم أشار بقوله: **﴿هَذَا﴾** إلى القرآن، ثم وصفه بأنه **﴿بَصَائِرٌ﴾** أي علامات هدى وأنوار تضيء القلوب. وقالت فرقة: المعنى: هذا ذو بصائر. ويصح الكلام دون أن يُقدَّر حذف مضاف لأن المشار إليه به **﴿هَذَا﴾** إنما هو سُور وآيات وحكم، وجزازت الإشارة إليه به **﴿هَذَا﴾** من حيث اسمه مذكر، وجزاز وصفه به **﴿بَصَائِرٌ﴾** من حيث هو سُور وآيات.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أي لهؤلاء خاصة. قال الطبري: وأما من لا يؤمن فهو عليه عَمَى عقوبة من الله تعالى.

٢٠٤ - ٢٠٦ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الطبري وغيره أن سبب هذه الآية هو أن أصحاب رسول الله ﷺ كانوا بمكة يتكلمون في المكتوبة بحوائجهم، ويصيحون عند آيات الرحمة والعذاب، ويقول أحدهم إذا أتاهم: صليتم؟ وكم بقي؟ فيُخبرونه، ونحو هذا، فنزلت الآية أمراً لهم بالاستماع والإنصات في الصلاة وأما قول من قال: **﴿إِنَّهَا فِي الْخُطْبَةِ﴾** فضعيف لأن الآية مكية والخطبة لم تكن إلا بعد هجرة النبي ﷺ من مكة، وكذلك ما ذكره الزهراوي من أنها نزلت بسبب فتى من الأنصار كان يقرأ في الصلاة والنبي ﷺ يقرأ. فأما الاستماع والإنصات عن الكلام في الصلاة فإجماع، وأما الإمساك والإنصات عن القراءة فقالت فرقة: يمسك المأموم عن القراءة جملة قرأ الإمام جهراً أو سراً، وقالت فرقة: يقرأ المأموم إذا أسر الإمام ويُمسك إذا جهر. وقالت فرقة: يمسك المأموم في جهر الإمام عن قراءة السورة ويقرأ فاتحة الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومع هذا القول أحاديث صحاح عن النبي ﷺ، فهذه الآية واجبة الحكم في الصلاة أن ينصت عن الحديث وما عدا القراءة. وواجبة الحكم أيضاً في الخطبة من السُّنَّة لا من هذه الآية، ويجب من الآية الإنصات إذا قرئ الخطيب القرآن أثناء الخطبة، وحكم هذه الآية في غير الصلاة على الندب، أعني في نفس الإنصات والاستماع إذا سمع الإنسان قراءة

كتاب الله عز وجل، وأما ما تضمنه الألفاظ وتعطيه من توقيير القرآن وتعظيمه فواجب في كل حالة. والإنصات: السكوت، و**﴿لَمَلَكُمْ﴾** على ترجي البشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم نستوعب اختلاف العلماء في القراءة خلف الإمام إذ ألفاظ الآية لا تعرض لذلك، لكن لما عن ذلك في ذكر السبب ذكرنا منه نبذة.

وذكر الطبري عن سعيد بن جبير أنه قال في قوله عز وجل: **﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾** قال: الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام من الصلاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول جمع فيه ما أوجبه هذه الآية وغيرها من السُّنَّة في الإنصات، قال الزجاج: ويجوز أن يكون **﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا﴾**: اعملوا بما فيه ولا تجاوزوه.

وقوله تعالى: **﴿وَأَذَكَّرَ رَبِّكَ فِي نَفْسِكَ﴾** الآية. مخاطبة للنبي ﷺ نعم جميع أمته. وهو أمر من الله عز وجل بتسبيحه وذكره وتقديسه والثناء عليه بمحامده. والجمهور على أن الذكر لا يكون في النفس ولا يراعى إلا بحركة اللسان، ويدل على ذلك من هذه الآية قوله: **﴿وَدُونَ الْعَهَرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾** فهذه مرتبة السُّر والمخافتة باللفظ.

و**﴿فَتَرَعًا﴾** معناه: تذلاً وخُضوعاً. و**﴿خِيفَةً﴾** أصلها: خِوْفَةٌ، بدلت الواو ياء لأجل الكسرة التي تقدمتها. وقوله: **﴿بِالْفَقْدِ وَالْأَصَالِ﴾** معناه:

وهذه الآية نزلت في قصة وقعت بمكة، ويمكن أن تنزل الآية في ذلك بالمدينة، ولا خلاف في هذه السورة أنها نزلت في يوم بدر وأمر غنائمه.

تفسير قوله عز وجل:

الثَّغْل والثَّقْل والثَّفَل والنافلة في كلام العرب: الزيادة على الواجب، وسُمِّيت الغنيمة نَفْلًا لأنها زيادة على القيام بالجهد وحماية الدين والدعاء إلى الله عز وجل، ومنه قول لبيد:

إِنْ تَفْوَى رَيْبًا خَيْرٌ نَفْلٌ

أي خير غنيمة، وقول عترة:

إِنَّا إِذَا أَحْمَرَّ الوَعَى نَرْمِي النِّقَا
وَنَعِفُ عِنْدَ مَقَاسِمِ الأَنْفَالِ

والسؤال في كلام العرب يجيء لاقتضاء معنى في نفس المسؤول، وقد يجيء لاقتضاء مال أو نحوه، والأكثر في هذه الآية أن السؤال إنما هو عن حكم الأنفال فهو من الضرب الأول، وقالت فرقة: إنما سأله الأنفال نفسها أن يعطيهم إياها، واحتجوا في ذلك بقراءة سعد بن أبي وقاص، وعبدالله بن مسعود، وعلي بن الحسين، وأبي جعفر محمد بن علي، وزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وطلحة بن مصرف، وعكرمة، والضحاك، وعطاء: «يسألونك الأنفال»، وقالوا في قراءة من قرأ «عَنِ» إنها بمعنى (من)، فهذا الضرب الثاني من السؤال.

واختلف الناس في المراد بالأنفال في هذه الآية. فقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك،

«الَّذِينَ» يريد

الملائكة، وقوله: «عِنْدَ»

إنما يريد في المنزلة

والتشريف والقرب في

المكانة لا في المكان،

فهم بذلك عنده. ثم

وصف تعالى حالهم من

تواضعهم وإدمانهم للعبادة

والتسبيح والسجود. وفي

الحديث: «أطت السماء

وحنق لها أن تبتط، ما فيها

موضع شبر إلا وفيه ملك

قائم أو راعع أو ساجد،

وهذا موضع سجدة، قال

الثُّخمي في كتاب النقاش:

إِنْ شِئْتَ رَكَعْتَ وَإِنْ شِئْتَ

سجدت.

كملت سورة الأعراف بتوفيق

من الله والحمد لله رب العالمين

(٨) سورة الأنفال

مدنية

وآياتها خمس وسبعون

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى

آله وأصحابه أجمعين.

تفسير سورة «الأنفال» على بركة الله

هي مدنية كلها، كذا قال أكثر

الناس، وقال مقاتل: هي مدنية غير

آية واحدة وهي قوله تعالى: «وَإِذْ

يَبْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا» الآية كلها،

سُورَةُ الأَنْفَالِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

يَسْتَوْنَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ لِلّٰهِ وَالرَّسُولِ قَاتِلُوا اللّٰهَ
وَاصِلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللّٰهُ وَجِلَّتْ
قُلُوبُهُمْ وَإِذَا نُلِيتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَيْدِيهِمْ رَادَّتْهُمْ إِيْمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
يُنْفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ
رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ
مِنَ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَرِهُونَ ﴿٥﴾
يُحَدِّثُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بَيَّنَّ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ
وَهُمْ يَنْظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللّٰهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا
لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ عَهْدَ ذَاتِ الشُّؤْمِ كَذُورٌ لَّكُمْ
وَيُرِيدُ اللّٰهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَع دَابِرَ الْكَافِرِينَ
﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلِتُزْكَرَ الْعَمَلُونَ ﴿٨﴾

١٧٧

دأباً وفي كل يوم وفي أطراف النهار، وقالت فرقة: هذه الآية كانت في صلاة المسلمين قبل فرض الصلوات الخمس، وقال قتادة: «الغدو: الصبح، والأصال: صلاة العصر». والأصال: جمع أصل، والأصل: جمع أصيل وهو العشي. وقيل: الأصال: جمع أصيل دون توسط كأيمان جمع يمين، وأصال أيضاً جمع أصايل فهو جمع الجمع. وقرأ أبو مجلز: «والإيصال» مصدراً كالإصباح والإمساء، ومعناه: إذا دخلت في الأصيل، وفي الطبري: قال أبو وائل لغلامه: هل أصلنا بعد؟ «وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَتَنَيْنِ» تنبيه.

ولمّا قال الله عز وجل: «وَلَا تَكُنْ مِنَ الْفَتَنَيْنِ» جعل بعد ذلك مثلاً من اجتهاد الملائكة ليعت على الجهد في طاعة الله عز وجل. وقوله:

وقتادة، وعطاء، وابن زيد: هي الغنائم مجملة. قالوا: وذلك أن سبب الآية ما جرى يوم بدر، وهو أن أصحاب رسول الله ﷺ افترقوا يوم بدر ثلاث فرق: فرقة أقامت مع رسول الله ﷺ في العريش الذي صنع له وحمته وأنسته، وفرقة أطاحت بعسكر العدو وأسلابهم لما انكشفوا، وفرقة اتبعوا العدو فقتلوا وأسروا. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: وكان رسول الله ﷺ قد حرض الناس قبل ذلك فقال: «من قتل قتيلاً أو أسر أسيراً فله كذا وله كذا»، فسارع الشبان وبقي الشيوخ عند الرايات، فلما انجلت الحرب واجتمع الناس رأت كل فرقة الفضل لنفسها، وقالت: نحن أولى بالمغنم، وساءت أخلاقهم في ذلك، فنزلت الآية بأن الغنائم لله وللرسول فكفوا، فقسمه حينئذ رسول الله ﷺ على السواء.

وأسند الطبري وغيره عن أبي أمامة الباهلي قال: سألت عبادة ابن الصامت عن الأنفال فقال: فينا أهل بدر نزلت حين اختلفنا وساءت أخلاقنا، فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ، وقسمه عليه الصلاة والسلام عن بوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: عن سواء، فكان في ذلك تقوى الله وطاعة رسوله ﷺ وصلاح ذات البين.

ومما جرى أيضاً يوم بدر فقيل إنه سبب ما أسنده الطبري عن سعد بن

أبي وقاص قال: لما كان يوم بدر قُتل أخي عمير، وقتلت سعيد بن العاصي وأخذت سيفه، وكان يسمى ذا الكشيفة، فجئت به إلى رسول الله ﷺ فنقلت: يا رسول الله، هذا السيف قد شفى الله به من المشركين فأعطني، فقال: «ليس هذا لي ولا لك فاطرحه في القَبْضِ فطرحته، فرجعت وبني ما لا يعلمه إلا الله من قتل أخي وأخذ سلمي، قال: فماجاوزت إلا قليلاً حتى نزلت عليه سورة الأنفال، فقال: «اذهب فخذ سيفك فإنك سألتني السيف وليس لي، وإنه قد صار لي فهو لك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي بعض طرق هذا الحديث: قال سعد: فقلت لما قال لي: «ضعه في القَبْضِ»: إني أخاف أن تُعْطيه من لم يبيل بلائي، قال: فإذا رسول الله ﷺ خلفي، قال: فقلت: أخاف أن يكون نزل في شيء، فقال: «إن السيف قد صار لي» فأعطانيه، ونزلت: ﴿يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ﴾. وأسند الطبري أيضاً عن أبي أسيد مالك بن ربيعة قال: أصببت سيف ابن عائد يوم بدر، وكان يسمى المرزبان، فلما أمر رسول الله ﷺ أن يردوا ما في أيديهم من النفل أقبلت به فألقيته في النفل، وكان رسول الله ﷺ لا يمنع شيئاً يسأله، فراه الأرقم المخزومي فسأله رسول الله ﷺ فأعطاه إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيجزي من مجموع هذه الآثار أن نفوس أهل بدر تنافرت، ووقع فيها

ما يقع في نفوس البشر من إرادة الأثرة، لا سيما من أبلي، فأنزل الله عز وجل الآية فرضي المسلمون وسلموا، فأصلح الله ذات بينهم ورد عليهم غنائمهم. وقال بعض أهل هذا التأويل «عكرمة ومجاهد»: كان هذا الحكم من الله لرفع الشغب، ثم نسخ بقوله تعالى: ﴿وَأَطِئُوا أَمْرًا غَسَّطَ مِن شَيْءٍ﴾ الآية. وقال ابن زيد: لم يقع في الآية نسخ، وإنما أخبر أن الغنائم لله من حيث هي ملكه ورزقه، وللرسول من حيث هو مَبِينٌ بها أحكام الله والصادق بها ليقع التسليم فيها من الناس، وحكم القسمة نازل خلال ذلك، ولا شك في أن الغنائم وغيرها والدنيا بأسرها هي لله وللرسول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال ابن عباس أيضاً: الأنفال في الآية: ما يعطيه الإمام لمن رآه من سيف أو فرس أو نحوه، وهذا أيضاً يحسن مع الآية ومع ما ذكرناه من آثار يوم بدر، وقال علي بن صالح، وابن جني، والحسن فيما حكى المهدي: الأنفال في الآية: ما تجيء به سرايا خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول بعيد عن الآية غير ملتئم مع الأسباب المذكورة، بل يجيء خارجاً عن يوم بدر، وقال مجاهد: الأنفال في الآية: الخمس، قال المهاجرون: لم يخرج منا هذا الخمس فقال الله تعالى: هو لله وللرسول، وهذا أيضاً قول قليل التناسب مع الآية. وقال ابن عباس، وعطاء أيضاً: الأنفال في الآية: ما

شدُّ من أموال المشركين إلى المسلمين كالفارس العائر والعبد الأبق وهو للنبي ﷺ يصنع فيه ما يشاء، وقال ابن عباس أيضاً: الأنفال في الآية: ما أصيب من أموال المشركين بعد قسمة الغنيمة وهو لله ورسوله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان لا تخرج بهما الآية عن الأسباب التي رويت في يوم بدر، ولا تختص الآية بيوم بدر على هذا. وكان هاتين المقاتلتين إنما هما فيما ناله الجيش دون قتال وبعد تمام الحرب وارتفاع الخوف. وأولى هذه الأقوال وأوضحها القول الأول الذي تظاهرت الروايات بأسبابه، وناسبه الوقت الذي نزلت الآية فيه. وحكى النقاش عن الشعبي أنه قال: الأنفال: الأسارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما هو على جهة المثال فيعني كل ما يُغنم.

ويحسن في تفسير هذه الآية أن نذكر شيئاً من اختلاف العلماء في تفصيل الإمام لمن رآه من أهل النجدة والغنائم، وما يجوز من ذلك وما يمتنع، وما لهم في السلب من الاختلاف. فقالت فرقة: لا نفل بعد النبي ﷺ، وقال الجمهور: النفل باق إلى يوم القيامة، ينفل إمام الجيش ما رآه لمن رآه لكن بحسب الاجتهاد والمصلحة للمسلمين ليحضر الناس على النجدة، وينشطهم إلى مكافحة العدو والاجتهاد في الحرب، ثم اختلفوا، فقال ابن القاسم عن مالك في «المدونة»: إنما ينفل الإمام من

الخُمس لا من جملة الغنيمة، وينفل في أول المغنم وفي آخره بحسب اجتهاده، وقالت فرقة: إنما ينفل الإمام قبل القتال، وأما إذا جمعت الغنائم فلا نفل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما يكون - على هذا القول - بأن يقول الإمام: من قتل قتيلاً فله كذا أو كذا، أو يقول لسريته: إن وصلتني إلى موضع كذا فلكم كذا. وقال الشافعي وابن حنبل: لا نفل إلا بعد الغنيمة قبل التخميس. وقال إبراهيم التُّخمي: ينفل الإمام متى شاء قبل التخميس. وقال أنس بن مالك، ورجاء بن خنوة، ومكحول، والقاسم، وجماعة منهم الأوزاعي، وأحمد، وإسحق، وعدي بن عدي: لا نفل إلا بعد إخراج الخمس، ثم ينفل الإمام من أربعة الأخماس، ثم يقسم الباقي بين الناس. وقال ابن المسيب: إنما ينفل الإمام من خمس الخمس. وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أن يقول الأمير: من هدم كذا من الحصن فله كذا، ومن بلغ إلي كذا فله كذا، ولا أحب لأحد أن يسفك دماً على مثل هذا. قال سُخْنُون: فإن نزل ذلك لزمه فإنه مباحة. وقال مالك رحمه الله: لا يجوز أن يقول الإمام لسريته: ما أخذتم فلكم ثلثه، قال سُخْنُون: يريد ابتداء، فإن نزل مضى ولهم أنصباؤهم في الباقي. وقال سُخْنُون: إذا قال الإمام لسريته: ما أخذتم فلا خُمس عليكم فيه، فهذا لا يجوز، فإن نزل رددته لأن هذا حكم شاذ لا يجوز ولا يمضي، ويستحب - على

مذهب مالك - إن نفل الإمام - أن ينفل ما يظهر كالعمامة والفارس والسيف. وقد منع بعض العلماء أن ينفل ذهباً أو فضة أو لؤلؤاً أو نحو هذا. وقال بعضهم: النفل جائز من كل شيء.

وأما السلب فقال مالك رحمه الله: الأسلاب من المغنم تقسم على جميع الجيش إلا أن يشرط الإمام، وقاله غيره. وقال الليث، والأوزاعي، والشافعي، وأحمد، وأبو ثور، وأبو عبيد، وابن المنذر: السلب حق للقاتل بحكم النبي ﷺ، قال الشافعي، وأحمد، وأبو عبيد، وابن المنذر: قاله الإمام أو لم يقله. وقال مالك: إذا قال الإمام: «من قتل قتيلاً فله سلبه» فذلك لازم، ولكنه على قدر اجتهاد الإمام وسبب الأحوال والضيقات واستصراخ الأنجاد، وقال الشافعي، وابن حنبل: تخرج الأسلاب من الغنيمة ثم تخمس بعد ذلك وتعطى الأسلاب للقتلة. وقال إسحق بن راهويه: إن كان السلب يسيراً فهو للقاتل، وإن كان كثيراً خُمس، وفعله عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع البراء بن مالك حين بارز المرزبان فقتله فكانت قيمة منقطته وسببته ثلاثين ألفاً، فخمس ذلك، وروي في ذلك حديث عن النبي ﷺ هو حديث عوف بن مالك في مصنف أبي داود. وقال مكحول: السلب مغنم وفيه الخُمس. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: يُخمس على القاتل وحده.

وقال جمهور الفقهاء: لا يعطى القاتل السُّلب إلا أن يقيم البيئة على قتله، قال أكثرهم: ويجزي شاهد واحد بحكم حديث أبي قتادة، وقال الأوزاعي: يعطاه بمجرد دعواه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقال الشافعي: لا يعطى القاتل إلا إذا كان قتيله مقبلاً مبارزاً مضحياً، وأما من قتل منهزماً فلا، وقال أبو ثور، وابن المنذر صاحب «الأشراف»: للقاتل السُّلب منهزماً كان القتيل أو غير منهزم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أصح لحديث سلمة بن الأكوع في أتباعه ربيعة الكفار في غزوة حنين وأخذه بخطام بعيره وقتله إياه وهو هارب، فأعطاه رسول الله ﷺ سلبه. وقال أحمد بن حنبل: لا يكون السُّلب للقاتل إلا في المباراة فقط.

واختلفوا في السُّلب. فأما السلاح وكل ما يحتاج للقتال فلا أحفظ فيه خلافاً أنه من السُّلب، وفرسه إن قاتل عليه وضرع عنه. وقال أحمد بن حنبل في الفرس: ليس من السُّلب. وكذلك إن كان في هِمَيَانِهِ أو مِنطَقَتَيْهِ دنانير أو جوهر أو نحو هذا مما يعده فلا أحفظ خلافاً أنه ليس من السُّلب. واختلف فيما يترزق به للحرب ويهول به فيها كالنجاج والسوارين والأقراط والمناطق المثقلة بالذهب والأحجار، فقال الأوزاعي: ذلك كله من السُّلب، وقالت فرقة: ليس من السُّلب، وهذا مروى عن

سُحْنُون رحمه الله إلا المنطقة فإنها عنده من السُّلب. قال ابن حبيب في «الواضحة»: والسواران من السُّلب، وتردّد الشافعي - هل هذه كلها من السُّلب أم لا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا قال الإمام: «من قتل قتيلاً فله سلبه» فقتل ذمياً قتيلاً فالمشهور ألا شيء له، وعلى قول أشهب: «يُرضخ لأهل الذمة من الغنيمة» يلزم أن يُعطى السُّلب. وإن قتل الإمام بيده بعد هذه المقالة قتيلاً فله سلبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما الصفي فكان خالصاً للنبي ﷺ.

وقوله عز وجل: ﴿فَأَتَوْا اللَّهَ﴾ معناها في الكلام: اجعل بينك وبين المحذور وقاية، وقوله: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ تصريح بأنه شجر بينهم اختلاف، ومالت النفوس إلى التشناع، و﴿ذَاتَ﴾ - في هذا الموضع - يراد بها نفس الشيء وحقيقته.

والذي يفهم من ﴿بَيْنِكُمْ﴾ هو معنى يعم جميع الوصل والالتحامات والمودات، وذات ذلك هي الأمور بإصلاحها، أي: نفسه وعيئه، فحضّ الله عز وجل على إصلاح تلك الأجزاء، فإذا صلحت تلك حصل إصلاح ما يعمها وهو البين الذي لهم، وقد تستعمل لفظة (الذات) على أنها لزيمة ما تضاف إليه وإن لم تكن عينه أو نفسه، وذلك في قوله تعالى: ﴿عَلَيْمٌ ذَاتِ الْأَسْتَدْرِ﴾، و﴿ذَاتِ التَّوَكُّةِ﴾ فإنها هاهنا مؤنثة قولهم: «الذئب مغبوطٌ بذئ بطنه»، وقول أبي بكر رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن

بنت خارجة». ويحتمل «ذات البين» أن تكون هذه، وقد تقال (الذات) أيضاً بمعنى آخر وإن كان يقرب من هذا وهو قولهم: «فعلتُ كذا ذات يوم»، ومنه قول الشاعر:

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة
ذات العشاء ولا تسري أفاعيها
وذكر الطبري عن بعضهم أنه قال:
﴿ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الحال التي لبينكم، كما «ذات العشاء»: الساعة التي فيها العشاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورجحه الطبري، وهو قول بين الانتقاض. وقال الزجاج: البين هاهنا: الوصل، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ نَقَعَ بَيْنَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا كله نظر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ لفظ عام، وسببه الأمر بالوقوف عند ما ينفذه رسول الله ﷺ في الغنائم، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي كاملي الإيمان، كما تقول لرجل: «إن كنت رجلاً فافعل كذا» أي: إن كنت كامل الرجولة، وجواب الشرط في قوله المتقدم ﴿وَأَطِيعُوا﴾، ومذهب أبي العباس أن الجواب محذوف متأخر يدل عليه المتقدم تقديره: إن كنتم مؤمنين أطيعوا، ومذهبه في هذا ألا يتقدم الجواب الشرط.

① - ② تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا﴾ لفظ لا تفارقه المبالغة والتأكيد حيث وقع، ويصلح مع ذلك للخضر، فإذا دخل في قصة وساعد معناها على الانحصار صح ذلك

ومنازلها، ودرجاتها على قدر أعمالهم. وحكى الطبري عن مجاهد أنها درجات أعمال الدنيا. وقوله: ﴿وَرَزَقُ كَرِيمٌ﴾ يريد به مآكل الجنة ومشاربيها، و﴿كَرِيمٌ﴾ صفة تفتضي رفع المذام كقولك: ثوب كريم وحسب كريم.

⑤ - ⑦ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في الشيء الذي تتعلق به الكاف من قوله: ﴿كَمَا﴾ حسبما نيين من الأقوال التي أنا ذاكرها بعد بحول الله، والذي يلتئم به المعنى ويحسن سرد الألفاظ قولان، وأنا أبدأ بهما:

قال الفراء: التقدير: «امض لأمرك في الغنائم ونفل من شئت وإن كرهوا، كما أخرجك ربك»، هذا نص قوله في «هداية مكي»، والعبارة بقوله: «امض لأمرك ونفل من شئت» غير مُحَرَّرَة، وتحريرو هذا المعنى عندي أن يقال: إن هذه الكاف شَبَّهت هذه القصة التي هي إخراجها من بيته بالقصة المتقدمة التي هي سؤالهم عن الأنفال، كأنهم سألوا عن النفل وتشاجروا فأخرج الله ذلك عنهم فكانت في ذلك الخيرة، فتشاجرهم في النفل بمثابة كراهيتهم هنا للخروج، وحُكِمَ الله في النفل بأنه الله ولِلرَّسُولِ دونهم هو بمثابة إخراجها نبيه ﷺ من بيته، ثم كانت الخيرة في القصتين فيما صنع الله، وعلى هذا التأويل يمكن أن يكون قوله: ﴿يَجَادِلُونَكَ﴾ كلاماً مستأنفاً يراد به الكفار، أي: يجادلونك في شريعة

الدلائل، ولهذا قال مالك: الإيمان يزيد ولا ينقص، وتترتب بزيادة الأعمال البرّة على قول من يرى لفظة الإيمان واقعة على التصديق والطاعات، وهؤلاء يقولون: يزيد وينقص.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى رَيْبِهِ يَتَوَكَّلُونَ﴾ عبارة جامعة لمصالح الدنيا والآخرة إذا اعتبرت وعمل بحسبها في أن يمثل الإنسان ما أمر به ويبلغ في ذلك أقصى جهده دون عجز، ويتنظر بعد ما تكفل له به من نصر أو رزق أو غيره.

وهذه أوصاف جميلة وصف الله بها فضلاء المؤمنين فجعلها غاية للأمة ليستبق إليها الأفاضل، ثم أتبع ذلك عَدَمَهُم ووسمهم بإقامة الصلاة، ومدحهم بها حَضّاً على ذلك.

وقوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُقْفُونَ﴾ قال جماعة من المفسرين: هي الزكاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما حملهم على ذلك اقتران الكلام بإقامة الصلاة وإلا فهو لفظ عام في الزكاة ونوافل الخير وصلات المستحقين، ولفظ ابن عباس رضي الله عنهما في هذا المعنى محتمل.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ يريد: كل المؤمنين، و﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد، كذا نص عليه سيبويه، وهو المصدر غير المتقل. والعامل فيه أَحَقُّ ذَلِكَ حَقًّا، وقوله: ﴿دَرَجَاتٍ﴾ ظَاهِرُهُ - وهو قول الجمهور - أن المراد مراتب الجِنَّة

وترتب كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَ إِلَهُكُمْ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وغير ذلك من الأمثلة، وإذا كانت القصة لا تتأني للانحصار بقيت ﴿إِنَّمَا﴾ للمبالغة والتأكيد فقط، كقوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الربا في النسيئة»، وكقولهم: إنما الشجاع عنتره، وأما من قال: «إنما هي لبيان الموصوف» فهي عبارة فاترة، إذ بيان الموصوف يكون في مجرد الإخبار دون ﴿إِنَّمَا﴾. وقوله سبحانه هاهنا: ﴿إِنَّمَا الَّذِينَ تَتَّبَعْتُمْ﴾ ظاهرها أنها للمبالغة والتأكيد فقط، أي: الكاملون.

و﴿وَجِلَّتْ﴾ معناه: فزعت ورقت وخافت، وبهذه المعاني فسرت العلماء. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَوَقَّتْ﴾، وقرأ أبي بن كعب: ﴿فَوَزَعَتْ﴾. يقال: وجل يوجل ويأجل ويَجِلُّ - وهي شاذة - ويوجل بكسر الياء الأولى، ووجه هذه أنهم لما أبدلوا الواو ياء لم يكن لذلك وجه قياس فكسروا الياء الأولى ليجيء بدل الواو ياء العلة - حكي هذه اللغات الأربع سيبويه رحمه الله.

و﴿ثَلَيْتَ﴾ معناه: سُردت وقُرئت. والآيات هنا: القرآن المثلو. وزيادة الإيمان على وجوه كلها خارج عن نفس التصديق، منها أن المؤمن إذا كان لم يسمع حكماً من أحكام الله في القرآن فنزل على النبي ﷺ فسمعه فأمن به زاد إيماناً إلى سائر ما قد آمن به، إذ لكل حكم تصديق خاص به، وهذا يترتب فيمن بلغه ما لم يكن عنده من الشرع إلى يوم القيامة، وتترتب زيادة الإيمان بزيادة

مشركي قريش، ومن قال «للمشركين» جعل الحق شريعة الإسلام. وقوله: ﴿إِلَى الْمَوْتِ﴾ أي: في سوقهم إلى القتال على أن المجادلين المؤمنين، وفي دعائهم إلى الشرع على أنهم المشركون. وقوله: ﴿وَيَوْمَ نُنزِّلُ الْغَيْثَ فِي فِرْعَانَ السُّوقِ وَتَقْضِي شِدَّةَ حَالِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَادَ يَعِدُكُمْ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ﴾ الآية. في هذه الآية قصص حسن أنا أختصره إذ هو مستوعب في كتاب سيرة رسول الله ﷺ لابن هشام، واختصاره أن رسول الله ﷺ لما بلغه - وقيل: أوحى إليه - أن أبا سفيان بن حرب قد أقبل من الشام بالعبير التي فيها تجارة قريش وأموالها قال لأصحابه: إن عير قريش قد عنت لكم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها، قال: فابتعث بمن معه من خف، وثقل قوم وكرهوا الخروج، وأسرع رسول الله ﷺ لا يلوي على من تعذر، ولا ينتظر من غاب ظهره، فسار في ثلاثمائة وثلاثة عشر من أصحابه بين مهاجري وأنصاري، وقد ظن الناس بأجمعهم أن رسول الله ﷺ لا يلقى حرباً فلم يكثر استعدادهم، وكان أبو سفيان في خلال ذلك يستقصي ويحذر، فلما بلغه خروج رسول الله ﷺ بعث ضمضم بن عمرو الغفاري إلى مكة يستنفر أهلها، ففعل ضمضم، فخرج أهل مكة في ألف رجل أو نحو ذلك، فلما بلغ رسول الله ﷺ خروجهم أوحى الله تعالى إليه وخياً غير ملتو يعده إحدى الطائفتين،

وهذا المعنى وضعه هذا المفسر وليس من ألفاظ الآية في ورد ولا صدر.

وقال أبو عبيدة: هو قسم، أي: لهم درجات ومغفرة ورزق كريم كما أخرجك. بتقدير: والذي أخرجك، فالكاف في معنى الواو ﴿مَا﴾ بمعنى الذي.

وقال الزجاج: الكاف في موضع نصب، والتقدير: «الأنفال ثابتة لك ثباتاً كما أخرجك ربك».

وقيل: الكاف في موضع رفع. والتقدير: «لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم هذا وعد حق كما أخرجك».

وقيل: المعنى: «وأصلحوا ذات بينكم ذلك خير لكم كما أخرجك»، والكاف نعت لخير ابتداءً محذوف.

وقيل: التقدير: «قل الأنفال لله والرسول كما أخرجك»، وهذا نحو أول قول ذكرته.

وقال عكرمة: التقدير: «وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين كما أخرجك ربك»، أي: الطاعة خير لكم كما كان إخراجك خيراً لكم.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ بَيْتِكَ﴾ يريد: من المدينة يثرب، قاله جمهور المفسرين. وقال ابن بكير: المعنى: كما أخرجك من مكة وقت الهجرة،

وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا بُيِّنَ﴾ بضم الباء من غير تاء.

والضمير في قوله: ﴿بِعَدْلٍ لَّكَ﴾ قيل: هو للمؤمنين، وقيل: للمشركين، فمن قال «للمؤمنين» جعل الحق قتال

الإسلام من بعد ما تبين الحق فيها كأنما يساقون إلى الموت في الدعاء إلى الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الذي ذكرت من أن ﴿بِعَدْلٍ لَّكَ﴾ في الكفار - منصوص.

والقول الثاني: قال مجاهد والكسائي وغيرهما: المعنى في هذه الآية: كما أخرجك ربك من بيتك على كراهية من فريق منهم كذلك يجادلونك في قتال كفار مكة ويؤدون غير ذات الشوكة من بعدما تبين لهم أنك إنما تفعل ما أمرت به لا ما يريدون هم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتقدير - على هذا التأويل -:

يجادلونك في الحق مجادلة ككراهتهم إخراج ربك إياك من بيتك، فالمجادلة - على هذا التأويل - بمثابة الكراهية، وكذلك وقع التشبيه في المعنى، وقائل هذه المقالة يقول: إن المجادلين هم المؤمنون.

وقائل المقالة الأولى يقول: إن المجادلين هم المشركون، فهذا قولان مطردان يتم بهما المعنى ويحسن رصف اللفظ.

وقال الأخفش: الكاف نعت لـ ﴿حَقًّا﴾ والتقدير: «هم المؤمنون حقاً كما أخرجك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى على هذا التأويل كما تراه لا يتناسق.

وقيل: الكاف في موضع رفع. والتقدير: «كما أخرجك ربك فاتقوا الله»، كأنه ابتداء وخبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

تكون ﴿بإدغام التاء في التاء. ومعنى الآية: وتودون العير وتأبزون قتال الكفار.

وقوله: ﴿وَرِيدُ اللَّهِ﴾ الآية، المعنى: ويريد الله أن يظهر الإسلام ويُعلي دعوة الشرع. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع - بخلاف عنهم - ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ على الأفراد الذي يراد به الجمع، والمعنى في قوله: ﴿بِكَلِمَتِهِ﴾ إما أن يريد: بأوامره للإملاكة والنصرة لجميع ما يظهر الإسلام، وإما أن يريد: بكلماته التي سبقت في الأزل، والمعنى قريب. والدابر: الذي يدبر القوم، أي: يأتي في آخرهم، فإذا قطع فقد أتى على آخرهم بشرط أن يبدأ الإهلاك من أولهم، وهي عبارة في كل من أتى الهلاك عليه.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يُحْيِي الْمَيِّتَ﴾ أي: ليظهر ما يجب إظهاره وهو الإسلام ﴿وَيُبَيِّنُ الْبَاطِلَ﴾ أي الكفر ﴿وَلَوْ كَرِهَ﴾ أي: وكراهيتهم واقعة، فهي جملة في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَفِيئُونَ رَبَّكُمْ﴾ الآية. ﴿إِذْ﴾ متعلقة بفعل تقديره: واذكر إذ، وهو الفعل الأول الذي عمل في قوله: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾، وقال الطبري: هي متعلقة بـ ﴿يُحْيِي﴾ و﴿يُبَيِّنُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يعمل فيها ﴿بِعِدَّتِكُمْ﴾ فإن الرعد كان في وقت الاستغاثة، وقرأ أبو عمرو بإدغام الذال في التاء، واستحسنها أبو حاتم. و﴿تَسْتَفِيئُونَ﴾ معناها: تطلبون، وليس يبين من

المقداد الكندي فقال: لا نقول لك يا رسول الله اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون، ولكن نقول: إنا معكما مقاتلون، والله لو أردت بنا برك الغماد - (قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي مدينة بالحبشة) - لقاتلنا معك من دونها، فسُرَّ رسول الله ﷺ بكلامه ودعا له بخير، ثم قال: أشيروا علي أيها الناس، فكلّمه سعد بن معاذ - وقيل: سعد بن عبادة -.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: «ويمكن أنهما جميعاً تكلماً في ذلك اليوم»، فقال: يا رسول الله، كأنك تريدنا معشر الأنصار؟ فقال النبي ﷺ: «أجل»، فقال: إنا آمننا بك واتبعناك فامض لأمر الله، فوالله لو خضت بنا هذا البحر لخضناه معك، فقال النبي ﷺ: «امضوا على بركة الله، فكأنني أنظر إلى مصارع القوم»، فالتقوا وكانت وقعت بدر.

وقرأ مسلمة بن محارب: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ﴾ بجزم الدال، قال أبو الفتح: ذلك لتوالي الحركات، وقرأ ابن محيصة: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى﴾ بوصول الألف من ﴿إِحْدَى﴾ و﴿صِلَةَ الْهَاءِ بِالْحَاءِ﴾.

و﴿الشُّرُكَةَ﴾ عبارة عن السلاح والحدة، ومنه قول الأعور: «إن العزّج قد أدبني». وقرأ أبو عمرو - فيما حكى أبو حاتم - ﴿الشُّرُكَةَ﴾

إِذْ تَسْتَفِيئُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَكِكُمْ مُرْدِفِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ لَآبِشْرِي وَأَلْطَمِينَ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّا اللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ إِذْ نَفِثَ لَكُمْ الْعَصَا أَنَّهُ مَنُوتُهُ وَيَزُولُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ يُطَهِّرُكُمْ بِهِ وَيُذْهِبُ عَنْكُمْ رِجْسَ الشَّيْطَانِ وَيُرْبِطُ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتُ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١٢﴾ إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَكِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَأَصْرَبُوا فُوقَ الْأَعْتَابِ وَأَصْرَبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَمَنْ يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٤﴾ ذَلِكَ كَقَوْلِهِمْ وَاللَّكْفَرِيِّنَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٥﴾ كَذَلِكَ الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفَافًا فَلَا تُولُوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٦﴾ وَمَنْ يُولُوهُمْ يُوزَعْزَعٌ دُبْرَهُمْ إِلَّا مَتَحَرِّفًا لِقَالِ أَوْ مَتَحَرِّفًا إِلَيْكُمْ فَتَوَقَّذْ بَاءَ يَعْزُبُ مِنَ اللَّهِ وَمَا وَدَّ اللَّهُ جَهَنَّمَ وَيَسُوسُ لِلْمُصْرِفِينَ ﴿١٧﴾

١٧٨

فعرّف رسول الله ﷺ أصحابه بذلك فسروا وودّوا أن تكون لهم العير التي لا قتال معها، فلما علم أبو سفيان بقرب رسول الله ﷺ أخذ طريق الساحل وأبعد وفات، ولم يبق إلا لقاء أهل مكة، وأشار بعض الكفار على بعض بالانصراف وقالوا: غيرنا قد نجت فلننصرف، فحرّض أبو جهل ولجّ حتى كان أمر الوقعة، وقال بعض المؤمنين: نحن لم نخرج لقتال ولم نستعد له، فجمع رسول الله ﷺ أصحابه وهو بواد يُسمّى ذفران وقال: «أشيروا علي أيها الناس» فقام أبو بكر رضي الله عنه وتكلم فأحسن وحرّض على لقاء العدو، فأعاد رسول الله ﷺ الاستشارة، فقام عمر رضي الله عنه بمثل ذلك فأعاد رسول الله ﷺ الاستشارة، فتكلم

ألفاظ هذه الآية أن المؤمنين علموا قبل القتال بكون الملائكة معهم، فإن ﴿استجاب﴾ يمكن أن يقع في غيبه تعالى، وقد روي أنهم علموا بذلك قبل القتال، ومعنى التأنيس وتقوية القلوب يقتضي ذلك، وقرأ جمهور الناس ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف، وقرأ أبو عمرو - في بعض ما روي عنه - وعيسى بن محمد - بخلاف عنه - ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف، أي: قال إني، و﴿مُؤَدِّكُمْ﴾ أي مكشركم ومقويكم، من أمدت، وقرأ جمهور الناس ﴿يَأْتِيَنَّ﴾، وقرأ عاصم الجحدري ﴿بِأَلْفٍ﴾، على مثل فأس وأفأس فهي جمع (ألف)، والإشارة بها إلى الآلاف المذكورة في آل عمران، وقرأ عاصم الجحدري أيضاً ﴿بِأَلْفٍ﴾.

﴿مُرْدِفِينَ﴾ معناه: متبعين، ويحتمل أن يراد بالمردفين، المؤمنين، أي أردفوا بالملائكة، ف﴿مُرْدِفِينَ﴾ - على هذا - حال من الضمير في قوله: ﴿مُؤَدِّكُمْ﴾. ويحتمل أن يراد به: الملائكة، أي أردف بعضهم ببعض. وهذه القراءة بفتح الدال، وهي قراءة نافع وجماعة من أهل المدينة وغيرهم. وقرأ سائر السبعة غير نافع بكسر الدال، وهي قراءة الحسن، ومجاهد، والمعنى فيها: تابع بعضهم بعضاً، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «خلف كل ملك ملك»، وهذا معنى التابع، يقال: ردف وأردف إذا اتبع وجاء بعد الشيء. ويحتمل أن يراد: مُردفين المؤمنين. ويحتمل أن يراد: مردفين بعضهم بعضاً، ومن قال:

﴿مُرْدِفِينَ﴾ بمعنى أن كل ملك أردف ملكاً وراءه، فقول ضعيف لم يأت بمقتضاه رواية. وقرأ رجل من أهل مكة - رواه عنه الخليل - ﴿مُرْدَفِينَ﴾ بفتح الراء وكسر الدال وشدها، وروي عن الخليل أيضاً أنها بضم الراء وكالتي قبلها في غير ذلك. وقرأ بعض الناس بكسر الراء ومثلهما في غير ذلك، حكى ذلك أبو عمرو عن سيبويه، وحكاه أبو حاتم قال: كأنه أراد: «مرتدين» فأدغم وأتبع الحركة، ويحسن مع هذه القراءة كسر الميم ولا أحفظه قراءة. وأنشد الطبري شاهداً على أن (أردف) بمعنى: «جاء تابِعاً» قول الشاعر:

إِذَا الْجَوْزَاءُ أَرْدَفَتْهُ الشُّرْبَا
ظَنَنْتُ بِأَلْ فَاطِمَةَ الظُّنُونَا
والثريا تطلع قبل الجوزاء.

وروي في الأشهر أن الملائكة قاتلت يوم بدر، واختلف - في غيره - من شاهد رسول الله ﷺ، وقيل: لم تقاتل يوم بدر وإنما وقفت وحضرت، وهذا ضعيف. وحكى الطبري عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: نزل جبريل في ألف ملك على ميمنة النبي ﷺ وفيها أبو بكر رضي الله عنه، ونزل ميكائيل في ألف ملك في الميسرة وأنا فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانا في خمسمائة خمسمائة، وقال الزجاج: قال بعضهم: إن الملائكة خمسة آلاف، وقال بعضهم: تسعة آلاف، وفي هذا المعنى أحاديث هي مستوعبة في كتاب السير.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ الآية. الضمير في ﴿جَعَلَهُ﴾ عائد على الوعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي أمكن الأقوال من جهة المعنى. وقال الزجاج: «الضمير عائد على المُمدد»، ويحتمل أن يعود على الإمداد، وهذا يحسن مع قول من يقول: إن الملائكة لم تقاتل، وإنما أتت بحضورها مع المسلمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي ضعيف ترده الأحاديث الواردة بقتال الملائكة، وما رأى من ذلك أصحاب النبي ﷺ كابن مسعود رضي الله عنه وغيره.

ويحتمل أن يعود على «الإرداف» وهو قول الطبري، وهذا أيضاً يجري مجرى القول الذي قبله، ويحتمل أن يعود على «الألف»، وهذا أيضاً كذلك لأن البشرى بالشيء إنما هي ما لم يقع بعد. والبشرى: مصدر من بشرت، والطمأنينة: السكون والاستقرار.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْمَزُوا إِلَّا مَن عِنْدَ اللَّهِ﴾ توقيف على أن الأمر كله لله، وأن تكسب المرء لا يغني إذا لم يساعده القدر وإن كان مُطالباً بالجد، كما ظاهر رسول الله ﷺ بين دِرْعَيْنِ.

وهذه القصة كلها - من قصة الكفار وغلبة المؤمنين لهم - تليق بها من صفات الله عز وجل العزَّة والحكمة إذا تُؤمَّل ذلك.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: العامل في ﴿إِذَا﴾ هو العامل الذي

ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال، وكانت قبل المطر تسوخ فيها الأرجل، فلما نزل الطش تلبّدت، قالوا: فهذا معنى قوله: ﴿يَطْمُرْكُمْ بِهِ﴾ أي من الجنابة ﴿وَيَذْهَبَ عَنْكُمْ بِرِجِّ الشَّيْطَانِ﴾ أي عذابه لكم بوساوسه المتقدمة الذكر. والرّج: العذاب، وقرأ أبو العالية: ﴿رِجْسٌ﴾ بالسين، أي وساوسه التي تمقت وتتقدّر، وقرأ ابن محيصن: ﴿رِجْسٌ﴾ بضم الراء، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿وَيَذْهَبَ﴾ بجزم الباء. ﴿وَيَلْبِطُ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ أي بتنشيطها وإزالة الكسل عنها وتشجيعها على العدو، ومنه قولهم: «رابط الجأش»، أي ثابت النفس عند جأشها في الحرب، ﴿وَيَبِيتُ بِهِنَّ الْأَقْدَامُ﴾ أي في الرملة الدهيسة التي كان المشي فيها صعباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح من القول - وهو الذي في السيرة لابن إسحق وغيرها - أن المؤمنين سبقوا إلى الماء بيدر، وفي هذا وقع كلام حباب بن المنذر الأنصاري حين نزل رسول الله ﷺ على أول ماء، فقال له حباب: (أبوخي يا رسول الله هو المنزل فليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو عندك الرأي والمكيدة؟) الحديث المستوعب في السيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن نزول المطر كان قبل وصولهم إلى الماء، وذلك أن القوم من المؤمنين لحقتهم في سفرهم الجنابات وعدموا الماء قريب بدر فضلّوا كذلك، فوقع في نفوسهم ذلك، ووسوس الشيطان لهم في

الآية أنهم إنما كان بهم خفق في الرؤوس، وقول النبي ﷺ: «إذا نعس أحدكم في صلاته...»، وينص على ذلك قول الشاعر:

وَسَنَانُ أَقْصَدَةِ النَّعَاسِ فَرْتَقَتْ
فِي عَيْنِهِ سِنَّةٌ وَلَيْسَ بِسِنَانِمْ
وقوله: ﴿أَمَنَةٌ﴾ مصدر من أمن الرجل يأمن أمناً وأمانةً، والهاء فيها لتأنيث المصدر كما هي في المساءة والمشقة، وقرأ ابن محيصن: ﴿أَمَنَةٌ﴾ بسكون الميم، وروي عن عبدالله بن مسعود أنه قال: «النعاس عند حضور القتال علامة أمن من العدو، وهو من الله، وهو في الصلاة من الشيطان».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا طريقه الوحي فهو لا محالة إنما يسنده.

وقوله تعالى: ﴿وَيُرِزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ تعديداً أيضاً لهذه النعمة في المطر، فقال بعض المفسرين - وحكاها الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقاله الزجاج -: إن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر فنزلوا عليه، وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فوجست نفوسهم وعطشوا وأجنبوا وصلّوا كذلك، فقال بعضهم في نفوسهم - بإلقاء الشيطان إليهم -: نزعنا أولياء الله وفينا رسول الله ﷺ وحالنا هذه والمشركون على الماء، فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان حتى سالت الأودية، فشرب الناس وتطهروا وسقوا الظهور، وتدثت السبخة التي كانت بينهم وبين المشركين حتى

عمل في قوله: ﴿وَأَذْكُرْكُمْ﴾ بتقدير تكراره، لأن الاشتراك في العامل الأول نفسه لا يكون إلا بحرف عطف، وإنما القصد أن يُعدّد نعمة تبارك وتعالى على المؤمنين في يوم بدر فقال: «واذكروا إذ فعلنا بكم كذا». وقال الطبري: «العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿وَلَطَمْنَاهُ﴾».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مع احتمالها فيه ضعف، ولو جعل العامل في ﴿إِذْ﴾ شيئاً قريباً مما قبلها لكان الأولى في ذلك أن يعمل في ﴿إِذْ﴾ ﴿حَكِيمٌ﴾، لأن إلقاء النعاس عليهم وجعله أمانةً حكمةً من الله عز وجل.

وقرأ نافع: ﴿يُغْشِيكُمْ﴾ بضم الياء وسكون الغين. وهي قراءة الأعرج، وأبي حفص، وابن نصاح. وقرأ عاصم، وحمزة، وابن عامر، والكسائي: ﴿يَغْشِيكُمْ﴾ بفتح الغين وشد الشين المكسورة، وهي قراءة عروة بن الزبير، وأبي رجاء، والحسن، وعكرمة، وغيرهم. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿يُغْشَاكُمْ﴾ بفتح الياء وألف بعد الشين، وهي قراءة مجاهد، وابن محيصن، وأهل مكة ﴿النَّعَاسُ﴾ بالرفع. وحجة من قرأ ﴿يُغْشَاكُمْ﴾ إجماعهم في آية (أحد) على ﴿يَغْشِي طَائِفَةً مِنْكُمْ﴾، وحجة من قرأ ﴿يَغْشِيكُمْ﴾ أن يجيء الكلام متسقاً مع ﴿وَيُرِزُّ﴾. ومعنى ﴿يَغْشِيكُمْ﴾: يغطيكم به ويفرغه عليكم، وهذه استعارة.

والنعاس: أخف النوم، وهو الذي قد يصيب الإنسان وهو واقف أو ماش، وينص على ذلك قصص هذه

ذلك مع تخوفه لهم من كثرة العدو وقتلهم، وهذا قبل الترائي بالأعين، وأيضاً فكانت بينهم وبين ماء بدر مسافة طويلة من رمل دهب لئلا تسوخ فيه الأرجل، وكانوا يتوقعون أن يسبقهم الكفار إلى ماء بدر فتحرضوا هم أن يسبقوهم إليه، فأنزله الله تلك المطرة فسالت الأودية فاغتسلوا وطهرهم الله فذهب رجس الشيطان، ودمت الطريق وتلبدت تلك الرملة فسهل المشي فيها وأمكنهم الإسراع حتى سبقوا إلى الماء، ووقع في السيرة أن ما أصاب المشركين من ذلك المطر بعينه صعب عليهم طريقهم، فسُرُّ المؤمنون وتبيَّنوا من فعل الله بهم قُصد المعونة لهم فطابت نفوسهم واجتمعت وتشجعت، فذلك الرنْبُ على قلوبهم وتثبيت الأقدام منهم على الرملة اللينة، فأمكنهم لحاق الماء قبل المشركين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا أحد ما يحتمله قوله تعالى: ﴿وَيَبِّتْ يَدَ الْأَقْدَامِ﴾، والضمير في ﴿يَدَ﴾ على هذا الاحتمال عائد على الماء، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿يَدَ﴾ على ربط القلوب، فيكون تثبيت الأقدام عبارة عن النصر والمعونة في موطن الحرب، ويبيَّن أن الرابطة الجأش يثبت قدمه عند مكافحة الهول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونزول الماء كان في الزمن قبل تغشية النعاس، ولم يترتب ذلك في الآية إذ القصد فيها تعديد النعم فقط، وحكى أبو الفتح أن الشعبي

قرأ: ﴿وينزل عليكم من السماء ماء﴾ ساكنة الألف ﴿يُنْزِلُكُمْ بِهِ﴾ قال: وهي بمعنى: الذي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف. وقرأ ابن المسيب: ﴿يُنْزِلُكُمْ﴾ بسكون الطاء.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ الآية. العامل في ﴿إِذْ﴾ العامل الأول على ما تقدم فيما قبلها، ولو قدرناه قريباً لكان قوله تعالى: ﴿وَرَبَّيْتِ﴾ على تأويل عود الضمير على الربط، وأما على عوده على الماء فيقلق أن تحمل ﴿وَبَيَّتِ﴾ في ﴿إِذْ﴾.

ووحى الله إلى الملائكة إما بإلهام أو بإرسال بعض إلى بعض. وقرأ عيسى بن عمر - بخلاف عنه - ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ بكسر الألف على استئناف إيجاد القصة، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف على أنها معمولة لـ ﴿يُوحِي﴾، ووجه الكسر أن الوحي في معنى القول.

وقوله تعالى: ﴿فَتَيَّبَرُوا﴾ يحتمل أن يكون بالقتال معهم على ما روي. ويحتمل بالحضور في حيزهم والتأنيس لهم بذلك، ويحتمل أن يريد: فتَيَّبَرُوا بأقوال مؤنسة مقوية للقلب، وروي في ذلك أن بعض الملائكة كان في صورة آدميين، فكان أحدهم يقول للذي يليه من المؤمنين: لقد بلغني أن الكفار قالوا: «لئن حمل المسلمون علينا لننكشيفن»، ويقول آخر: ما أرى الغلبة والظفر إلاننا، ويقول آخر: أقدم يا فلان، ونحو هذا من الأقوال المثبتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أيضاً أن يكون التثبيت الذي أمر به ما يليقيه الملك في قلب الإنسان بلمته من توهم الظفر واحتقار الكفار، ويجري عليه من خواطر تشجيعه، ويقوي هذا التأويل مطابقة قوله تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾، وإن كان إلقاء الرعب يطابق التثبيت على أي صورة كان التثبيت، ولكنه أشبه بهذا إذ هما من جنس واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل يجيء قوله تعالى: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّعْبَ﴾ مخاطبة للملائكة، ثم يجيء قوله سبحانه: ﴿فَأَضْرِبُوا قُورَى الْأَعْنَابِ﴾ لفظه لفظ الأمر ومعناه الخبر عن صورة الحال، كما تقول - إذا وصفت حرباً - لمن تخاطبه: «لقينا القوم وهزمناهم، فاضرب بسيفك حيث شئت واقتل وخذ أسيرك، أي هذه كانت صفة الحال».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون ﴿سَأَلْتِي﴾ إلى آخر الآية خيراً يخاطب به المؤمنين عما يفعله في الكفار في المستقبل كما فعله في الماضي، ثم أمر بضرب الرقاب والبنان تشجيعاً لهم وحضاً على نصرة الدين. وقرأ الأعرج ﴿الرُّعْبَ﴾ بضم العين، والناس على تسكينها.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿قُورَى الْأَعْنَابِ﴾ - فقال الأخفش: ﴿قُورَى﴾ زيادة، وحكاها الطبري عن عطية أن المعنى: فاضربوا الأعناق، وقال غيره: هي بمعنى: على، وقال

عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: هي على بابها وأراد الرؤوس إذ هي فوق الأعناق. وقال المبرد: وفي هذا إباحة ضرب الكافر في الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل أنبلها.

ويحتمل عندي أن يريد بقوله: «فَوْقَ الْأَعْنَاقِ» وصف أبلغ ضربات العنق وأحكمها، وهي الضربة التي تكون فوق عظم العنق ودون عظم الرأس، في المفصل. وينظر إلى هذا المعنى قول دُرَيْدِ بْنِ الصُّمَّةِ الجشمي لابن الدُّعْنَةَ السُّلَمِي حين قال له: «خذ سيفي وازفع عن العظم واخفض عن الدماغ فهكذا كنت أضرب أعناق الأبطال»، ومثله قول الشاعر:

جَعَلْتُ السَّيْفَ بَيْنَ الْجَيْدِ مِنْهُ
وَبَيْنَ أَسِيلِ خَدْيِهِ عِذَارًا
فِيجِيءُ عَلَى هَذَا «فَوْقَ الْأَعْنَاقِ»
متمكناً. وقال ابن قتيبة: «فَوْقَ» في هذه الآية بمعنى: دون. وهذا خطأ بين، وإنما دخل عليه اللبس من قوله تعالى: «مَا بَوْمُضَةٌ كَمَا فَوْقَهَا» أي: فما دونها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليست «فَوْقَ» هنا بمعنى دون، وإنما المراد: فما فوقها في القِلَّةِ والصغر، فأشبه المعنى دون. والبنان: قالت فرقة: هي المفاصل حيث كانت من الأعضاء، فالمعنى على هذا: «واضربوا منهم في كل موضع». وقالت فرقة: البنان: الأصابع، وهذا هو القول الصحيح، فعلى هذا التأويل - وإن كان الضرب

في كل موضع مباحاً - فإنما قصد أبلغ المواضع لأن المقاتل إذا قطع بنانه استأسر ولم ينتفع بشيء من أعضائه في مكافحة وقاتل.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا الخطاب للنبي ﷺ والمؤمنون داخلون فيه بالمعنى، والضمير في «بِأَنَّهُمْ» عائد على الذين كفروا، و«شَأْوًا» معناه: خالفوا ونابدوا وقطعوا، وهو مأخوذ من الشق وهو القطع والفصل بين شيئين، وهذه مفاعلة، فكأن الله لما شرع شرعاً وأمر بأوامر وكذبوا هم وصدّوا تباعد ما بينهم وانفصل وأنشق، والشق مأخوذ من هذا لأنه مع شيقه الآخر تباعداً وانفصلاً. وعبر المفسرون عن قوله تعالى: «شَأْوًا» أي: صاروا في شق غير شيقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وإن كان معناه صحيحاً فتحرير الاشتقاق إنما هو ما ذكرناه، والمثال الأول إنما هو الشق بفتح الشين، وأجمعوا على الإظهار في «يَسَاقِي» اتباعاً لخط المصحف. وقوله: «فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» جواب الشرط تضمن وعيداً وتهديداً.

وقوله تعالى: «ذَلِكُمْ فَذُوقُوهُ» المخاطبة للكفار، أي: ذلکم الضرب والقتل وما أوقع الله بهم يوم بدر، فكأنه قال: الأمر ذلکم فذوقوه، وكذا فسره سيبويه. وقال بعضهم: يحتمل أن يكون «ذَلِكُمْ» في موضع نصب، كقوله: «زيداً فاضربه». وقرأ جمهور الناس: «وَأَنَّكَ» بفتح الألف، فإما على تقدير: «وَحْتَمَ أَنْ»، فيقدر على

ابتداءً محذوف يكون «أَنَّ» خبره، وإمّا على تقدير «واعلموا أَنَّ» فهي - على هذا - في موضع نصب. وروى سليمان عن الحسن بن أبي الحسن: «وَأَنَّ» على القطع والاستئناف.

وقوله تعالى: «يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقَيْتَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحَفًا» الآية. «زَحَفًا» يراد به: مُتَقَابِلِي الصُّفُوفِ والأشخاص، أي: يزحف بعضهم إلى بعض، وأصل الزحف الاندفاع على الآلية ثم سُمي كل ماش إلى آخر في الحرب رويداً زاحفاً، إذ في مشيته من التماهل والتباطؤ ما في مشي الزاحف، ومن الزحف الذي هو الاندفاع قولهم لنار العرفج وما جرى مجراه في سرعة الانتقاد: نار الزحفتين. ومن التباطؤ في المشي قول الشاعر:

كَأَنَّهُنَّ بِأَيْدِي الْقَزْمِ فِي كَيْدٍ
طَبِيرٌ تَكْشَفُ عَنْ جَوْنٍ مَزَاحِفٍ
ومنه قول الفرزدق:

عَلَى عَمَائِمِنَا ثَلَقَى، وَأَزْخُلْنَا
عَلَى زَوَاحِفٍ تُزَجِّحُهَا مَحَاسِيرِ
ومنه قول الآخر:

لِمَنْ الطَّعَائِنُ سَيَّرَهُنَّ تَزْحُفِ

ومن التزحف بمعنى التدافع قول الهذلي:

كَأَنَّ مَزَاحِفَ الْحَيَاتِ فِيهِ
فَبَيْلِ الصُّبْحِ آتَارُ السِّيَاطِ
وأمر الله عز وجل في هذه الآية ألا يُؤَلِّي المؤمنون أمام الكفار، وهذا الأمر مقيد بالشريطة المنصوصة في مثلي المؤمنين، فإذا لَقِيَتْ فِتْنَةٌ من المؤمنين فِتْنَةٌ هي ضعيف المؤمنة من

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتُمْ إِذْ رَمَيْتُمْ
وَلَكِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَإِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ وَمِنَ بَلَاءِ حَسَنَاتِهِ
إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ وَمَنْ أَرَادَ اللَّهُ مُؤْمِنًا كَيْدَ
الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمْ مِنَ الْفَتْحِ
وَإِنْ تَنْتَهُنَا فَهِيَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ نَعُدُّوا نَعُدُّوكُمْ وَإِنْ نُنْفِ عَنكُمْ
فَنَفْتِكُمْ سَيْفًا وَنُلَوِّ كَثْرَتَكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٩﴾ يَا أَيُّهَا
الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عُنْفَهُ وَأَنْتُمْ
تَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ
لَا يَسْمَعُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضَّمُّ الَّذِينَ
الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ
وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ
وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَهُ
مُحْتَشِرُونَ ﴿٢٤﴾ وَاتَّقُوا فَتْنَةَ الْأُنَاقِيبِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
مِنْكُمْ خَاصَّةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾

١٧٤

أخرى، وليس في الآية نسخ، وأما يوم أحد فإنما فر الناس من أكثر من ضعفهم، ومع ذلك عفوا لكون رسول الله ﷺ فيهم وفرارهم عنه، وأما يوم حنين فكذلك من فر إنما انكشف أمام الكثرة، ويحتمل أن عفو الله عمن فر يوم أحد كان عفوا عن كبيرة.

﴿مُتَحَرِّفًا لِقَائِهِ﴾ يراد به الذي يرى أن فعله ذلك أنكى للعدو وأعود عليه بالشر، ونصبه على الحال، وكذلك نصب ﴿مُتَحَرِّفًا﴾. وأما الاستثناء

فهو من المولئين الذين يتضمنهم ﴿وَمَنْ﴾، وقال قوم: الاستثناء هو من أنواع التولي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولو كان كذلك لوجب أن يكون: ﴿إِلَّا تَحَرُّفًا وَتَحْيْرًا﴾.

والفئة - ها هنا -: الجماعة من الناس الحاضرة للحرب. هذا على قول الجمهور في أن الفرار من الزحف كبيرة، وأما على القول الآخر فتكون (الفئة): المدينة والإمام وجماعة المسلمين حيث كانوا، روي هذا القول عن عمر رضي الله عنه، وأنه قال: أنا فتتكم أيها المسلمون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا منه على جهة الحيطة على المؤمنين إذ كانوا في ذلك الزمن يبتون لأضعافهم مرارا، وفي مُسند ابن أبي شيبه من طريق عبد الله بن عمر أن

المشركين فالفرس ألا يفروا أمامهم، فالفرار هناك كبيرة موبقة بظواهر القرآن والحديث وإجماع أكثر الأمة، والذي يُراعى العُدُوَّ حسب ما في كتاب الله عز وجل، وهذا قول جمهور الأمة، وقالت فرقة منهم ابن الماجشون في «الواضحة»: يراعى أيضاً الضعف والقوة والعُدَّة، فيجوز - على قولهم - أن يفر مائة فارس إذا علموا أن عند المشركين من العُدَّة والنجدة والبسالة ضعف ما عندهم، وأمام أقل أو أكثر بحسب ذلك، وأما على قول الجمهور فلا يحل فرار مائة إلا أمام ما زاد على مائتين.

والعبارة بالذُبر في هذه الآية متمكنة الفصاحة لأنها بشيعة على الفاز دائمة له، وقرأ الجمهور: ﴿ذُبْرَةٌ﴾ بضم الباء، وقرأ الحسن ابن أبي الحسن: ﴿ذُبْرَةٌ﴾ بسكون الباء.

واختلف المتأولون في المشار إليه بقوله: ﴿بِوَيْبِزٍ﴾ - فقالت فرقة: الإشارة إلى يوم بدر وما وليه، وفي ذلك اليوم وقع الوعيد بالغضب على من فر، ونسخ - بعد ذلك - حُكْمُ الآية بآية الضَّعْفِ وَبِقِي الْفِرَارِ من الزحف ليس بكبيرة، وقد فر الناس يوم أحد فعفا الله عنهم، وقال الله فيهم يوم حنين: ﴿ثُمَّ وَكُنْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ ولم يقع على ذلك تعنيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال الجمهور من الأمة: الإشارة بـ ﴿بِوَيْبِزٍ﴾ إلى يوم اللقاء الذي يتضمنه قوله: ﴿إِذَا لَيْسَتْ﴾، وحُكْمُ الآية باق إلى يوم القيامة بشرط الضَّعْفِ الَّذِي بَيَّنَّهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةِ

النبي ﷺ قال لجماعة فرت في سريته من سراياه: «أنا فتة المسلمين» حين قدموا عليه. وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: اتقوا السَّبْعَ الموبقات، وعدد فيها الفِرَارَ من الزحف.

﴿بِكَ﴾ بمعنى نهض متحملاً للثقل المذكور في الكلام غضباً كان أو نحوه، والغضب من صفات الله عز وجل إذا أخذ بمعنى الإرادة فهي صفة ذات، وإذا أخذ بمعنى إظهار أفعال الغاضب على العبد فهي صفة فعل، وهذا المعنى أشبه بهذه الآية، والمأوى: الموضوع الذي يأوي إليه الإنسان.

١٧ - ١٨ - تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة للمؤمنين أعلم الله بها أن القتلة من المؤمنين ليسوا هم

مستبدين بالقتل بالإقدار عليه، والخلق والاختراع في جميع حالات القتال إنما هي الله تعالى ليس للقاتل فيها شيء، وإنما يشاركه بتكسبه وقصده. وهذه الألفاظ ترد على من يقول بأن أفعال العباد خلق لهم.

وسبب هذه الآية - فيما روي - أن أصحاب رسول الله ﷺ لما صدروا عن بدر ذكر كل واحد منهم ما فعل فقال: قتلت كذا وفعلت كذا، فجاء من ذلك تفاخر ونحو ذلك فنزلت الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ يراد به ما كان رسول الله ﷺ فعله يومئذ، وذلك أنه أخذ قبضات من حصى وتراب فرمى بها في وجوه القوم وتلقاهاهم ثلاث مرات فانهمزوا عند آخر رمية. ويروى أنه قال يوم بدر: «شاهت الوجوه». وهذه الفعلة أيضاً كانت يوم حنين بلا خلاف، وروي أن التراب الذي رمى به لم يبق كافر إلا دخل في عينيه منه شيء، وزوي أنه رمى بثلاثة أحجار فكانت الهزيمة مع الحجر الثالث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ ما قلناه في قوله سبحانه: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾ وذلك منصوص في الطبري وغيره، وهو خارج عن كلام العرب على معنى: وما رميت الرمي الكافي إذ رميت، ونحو قول العباس بن مرداس:

.....
فلم أعط شيئاً ولم أمتنع

أي: لم أعط شيئاً مرضياً. ويحتمل أن يريد: وما رميت الرعب في قلوبهم إذ رميت حصياتك، ولكن الله رماه، وهذا منصوص في المهدوي وغيره.

ويحتمل أن يريد: وما أغنيت إذ رميت حصياتك، ولكن الله رمى، أي أعانك وأظفرك، والعرب تقول في الدعاء: رمى الله لك، أي أعانك وصنع لك، وحكى هذا أبو عبيدة في كتاب المجاز. وقرأت فرقة: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ بتشديد النون، وفرقة: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ بنخفيفها ورفع الهاء من «الله».

و«لَيْلِي» أي: ليصيبهم ببلاء حسن، فظاهر وصفه بالحسن يقتضي أنه أراد الغنيمة والظفر والعزة، وقيل: أراد الشهادة لمن استشهد يوم بدر وهم أربعة عشر، منهم عبيدة بن الحارث بن عبدالمطلب، ومهجع مولى عمر رضي الله عنه، ومعاذ وعمرو ابنا عفراء، وغيرهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ سَبَّحٌ﴾ لاستغاثتكم «عَلِيمٌ» بوجه الحكمة في جميع أفعاله لا إله إلا هو.

وحكى الطبري أن المراد بقوله سبحانه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ رمي رسول الله ﷺ الحربة على أبي بن خلف يوم أحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن الآية نزلت عقب بدر، وعلى هذا تكون أجنبية مما قبلها وما بعدها وذلك بعيد. وحكى أيضاً أن المراد السهم الذي رمى به رسول الله ﷺ في حصن خيبر فسار في الهواء حتى أصاب ابن أبي

الحقيق فقتله وهو على فراشه. وهذا فاسد، وخبير فثحها أبعد من أحد بكثير، والصحيح في قتل ابن أبي الحقيق غير هذا. فهذان القولان ضعيفان لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قتل الله ورميه إياهم، وموضع ﴿ذَلِكُمْ﴾ من الإعراب رفع. قال سيبويه: التقدير: الأمر ذللكم، وقال بعض النحويين: يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير فعل، ﴿وَأَنَّ﴾ معطوف على ﴿ذَلِكُمْ﴾، ويجوز أن يكون خبر ابتداء مقدر تقديره: وحثم وسابق وثابت ونحو هذا. وقرأت فرقة: ﴿وَأَنَّ﴾ بكسر الهمزة على القطع والاستئناس. و«مُوْهُنٌ» معناه: مُضْعِفٌ مُبْطِلٌ، يقال: وهن الشيء، مثل: وعد يعد. ويقال: وهن مثل: ولي يلي. و«مُسْرِيءٌ» فَمَا وَهَتْوًا لِمَا أَصَابَهُمْ بكسر الهاء. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿مُوْهُنٌ كَيْدٌ﴾ من أوهن، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿مُوْهُنٌ كَيْدٌ﴾ من وهن. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مُوْهُنٌ كَيْدٌ﴾ بكسر الدال والإضافة، وذكر الزجاج أن فيها أربعة أوجه، فذكر هذه القراءات الثلاث، وزاد «مُوْهُنٌ كَيْدٌ» بتشديد الهاء والإضافة إلا أنه لم ينص على أنها قراءة.

① - ② تفسير قوله عز وجل: قال بعض المتأولين: هذه الآية مخاطبة للمؤمنين الحاضرين يوم بدر، قال الله لهم: ﴿إِنْ تَسْتَفِيحُوا فَتَدْرَأَكُمْ فَالْتَمِسْكُمْ﴾ وهو الحكم

بينكم وبين الكافرين، فقد جاءكم وقد حكم الله لكم، ﴿وَإِنْ تَنَبَّأُوا﴾ عما فعلتم من الكلام في أمر الغنائم وما شجر بينكم فيها، وعن تفاخركم بأفعالكم من قتل وغيره ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِنْ تَوَدَّوْا﴾ لهذه الأفعال ﴿نَعُدُّ﴾ لتوبيخكم. ثم أعلمهم أن الفشة - وهي الجماعة - لا تغني وإن كثرت إلا بنصر الله تعالى ومعاونته، ثم آتسهم بقوله وإيجابه أنه مع المؤمنين.

وقال أكثر المتأولين: هذه الآية مخاطبة للكفار أهل مكة، وذلك أنه روي أن أبا جهل كان يدعو أبدأ في محافل قريش ويقول: «اللهم أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأهلكه واجعله المغلوب». يريد محمداً ﷺ وإياهم. وروي أن قريشاً لما عزموا على الخروج إلى حماية العير تعلقوا بأستار الكعبة واستفتحوا، وروي أن أبا جهل قال صبيحة يوم بدر: «اللهم انصر أحب الفتيين إليك، وأظهر خير الدينين عندك، اللهم أقطعنا للرحم فأجئته الغداة، ونحو هذا»، فقال لهم الله: إن تطلبوا الفتح أي كما ترونه عليكم لا لكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا توبيخ. ثم قال لهم: وإن تنتهوا عن كفركم وغيبيكم فهو خير لكم، ثم أخبرهم أنهم إن عادوا للاستفتاح عاد بمثل الواقعة يوم بدر عليهم، ثم أعلمهم أن فنتهم لا تغني شيئاً وإن كانت كثيرة، ثم أعلمهم أنه مع المؤمنين.

وقالت فرقة من المتأولين: قوله تعالى: ﴿إِنْ تَسْتَجِيبُوا فَعَدَّ جَاءَكُمْ﴾

الْفَتْحُ﴾ هي مخاطبة للمؤمنين، وسائر الآية مخاطبة للمشركين، كأنه قال: وأنتم أيها الكفار ﴿إِنْ تَنْتَهُوا﴾ فهو خير لكم.

وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الهمزة على القطع، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الألف، فيما أن يكون في موضع رفع على خبر ابتداء محذوف، وإما في موضع نصب بإضمار فعل، وما ذكره الطبري من أن التقدير: «لكثرتها ولأن الله مع المؤمنين» محتمل المعنى، وفي قراءة ابن مسعود: «وَلَوْ كَثُرَتْ وَاللَّهُ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ»، وهذا يقول قراءة من كسر الألف من ﴿إِنْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية. الخطاب للمؤمنين المصدقين، جدد عليهم الأمر بطاعة الله والرسول، ونهوا عن التولي عنه، وهذا قول الجمهور. ويكون هذا متناصراً مع قول من يقول: ﴿إِنْ تَنْتَهُوا﴾ هو للمؤمنين، فيجيء الكلام من نمط واحد في معناه، وأما على قول من يقول: ﴿إِنْ تَنْتَهُوا﴾ بل إن تنتهوا هي للكفار فيرى أن هذه الآية إنما نزلت بسبب اختلافهم في النفل، ومجادلتهم في الحق، وكراهيتهم خروج رسول الله ﷺ، وتفاخرهم بقتل الكفار والنكابة فيهم. وقالت فرقة: الخطاب بهذه الآية إنما هو للمنافقين، والمعنى: يأيها الذين آمنوا بأستهم فقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا - وإن كان محتملاً على بُعد - فهو ضعيف جداً لأجل أن الله وصف من خاطب في هذه الآية بالإيمان، والإيمان: التصديق والمنافقون لا يتصفون من التصديق بشيء. وقيل: إن الخطاب لبني إسرائيل، وهذا أجني من الآية.

﴿تَوَلَّوْا﴾ أصله: تتولوا، لأن تفعل دخلت عليه تاء المخاطبة بالفعل المستقبل فحذفت الواحدة، والمحذوفة هي تاء تفعل، والباقية هي تاء العلامة، لأن الحاجة إليها هنا أمس ليبقى الفعل مستقبلاً. وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ يريد: دعاءه لكم بالقرآن والمواعظ والآيات.

وقوله: ﴿كَالَّذِينَ قَالُوا﴾ يريد الكفار، فيما من قريش لقولهم: ﴿سَجَعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا﴾، وإما الكفار على الإطلاق الذين يقولون: سمعنا القرآن وعلمنا أنه سحر أو شعر وأساطير بحسب اختلافهم، ثم أخبر الله عنهم خبراً نفى به أنهم سمعوا أي: فهموا ووعوا، لأنه لا خلاف أنهم كانوا يسمعون التلاوة بأذانهم ولكن صدورهم مطبقة لم يشرحها الله عز وجل لتلقي معاني القرآن والإيمان به.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: المقصود بهذه الآية أن يبين أن هذه الصنيفة العاتية من الكفار هي شر الناس عند الله عز وجل، وأنها أحسن المنازل لديه، وعبر بالدواب ليتأكد ذمهم وليفضل عليهم الكلب

العقور والخنزير ونحوهما من السبع والخمسة الفواسق وغيرها. والدواب: كل ما دب فهو يعثم الحيوان بجملته. وقوله تعالى: ﴿أَلْقُمُ الْبُكْمُ﴾ عبارة عما في قلوبهم وقلة انشراح صدورهم وإدراك عقولهم، فلذلك وصفهم بالصمم والبكم وسلب العقل. وروي أن هذه الآية نزلت في طائفة من بني عبد الدار، وظاهرها العموم فيهم وفي غيرهم ممن اتصف بهذه الأوصاف، ثم أخبر تعالى بأن عدم سمعهم وهداهم إنما هو بما علمه الله منهم وسبق من قضائه عليهم فخرج ذلك في عبارة بليغة في ذمهم في قوله سبحانه ﴿وَلَوْ عَلَّمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعْتَهُمْ﴾، والمراد: لأسمعهم إسماع تفهيم وهدى. ثم ابتداء عز وجل الخبر عنهم بما هم عليه من ختمه عليهم بالكفر فقال: ﴿وَلَوْ أَسْمَعْتَهُمْ﴾ أي: ولو أفهمهم ﴿لَتَوَلَّوْا﴾ بحكم القضاء والسابق فيهم، ولأعرضوا عما تبين لهم من الهدى. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: المعنى بهذه الآية المنافقون، وضعفه الطبري، وكذلك هو ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ مَسَّوْا أَسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ﴾ الآية. هذا خطاب للمؤمنين المصدقين بلا خلاف، و﴿أَسْتَجِيبُوا﴾ بمعنى أجيبيوا، ولكن عرف الكلام أن يتعدى (استجاب) بلام ويتعدى (أجاب) دون لام، وقد يجيء تعدي (استجاب) بغير لام، والشاهد قول الشاعر:

وَدَاعَ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الْتَدَى
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
وقوله: ﴿لِمَا يُجِيبُكُمْ﴾ قال مجاهد والجمهور: المعنى: للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواه، وهذا إحياء مستعار، لأنه من موت الكفر والجهل، وقيل: للإسلام، وهذا نحو الأول ويضعف من جهة أن من آمن لا يقال له: ادخل في الإسلام. وقيل: ﴿لِمَا يُجِيبُكُمْ﴾ معناه: للحرب وجهاد العدو، وهو يُخَيُّ بِالْعِزَّةِ وَالغَلْبَةِ وَالظَّفَرِ، فَسُمِّيَ ذَلِكَ حَيَاةً، كَمَا تَقُولُ: حَيِّتْ حَالِ فُلَانٍ إِذَا ارْتَفَعَتْ، وَيُخَيُّ أَيْضًا كَمَا يُخَيُّ الْإِسْلَامَ وَالطَّاعَةَ وَغَيْرَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ يُؤَدِّي إِلَى الْحَيَاةِ الدَّائِمَةِ فِي الْآخِرَةِ. وقال النقاش: المراد: إذا دعاكم للشهادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه صلة حياة الدنيا بحياة الآخرة. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾. يحتمل وجوهاً - منها أنه لما أمرهم بالاستجابة في الطاعة حضهم على المبادرة والاستعجال فقال: وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ بِالْمَوْتِ وَالْقَبْضِ، أي: فبادروا بالطاعات. ويلتزم مع هذا التأويل قوله: ﴿وَأَنََّّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ أي: فسبادروا بالطاعات وتزودوها ليوم الحشر. ومنها أن يقصد بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ إعلامهم أن قدرة الله وإحاطته وعلمه والجة بين المرء وقلبه حاصلة هناك حائلة بينه وبين قلبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فكأن هذا المعنى يحض على المراقبة والخوف لله المطلع على الضمائر، ويشبه - على هذا التأويل - هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ إِلَيْهِ مِنْ حَيْلِ الْوَيْدِيِّ﴾، حكى هذا التأويل عن قتادة.

ويحتمل أن يريد تخويلهم إن لم يمثلوا الطاعات ويستجيبوا لله وللرسول بما حل بالكفار الذين أرادهم بقوله: ﴿وَلَوْ أَسْمَعْتَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ لأن حتمه عليهم بأنهم لو سمعوا وفهموا لم ينتفعوا يقتضي أنه قد كان حال بينهم وبين قلوبهم، فكأنه قال للمؤمنين في هذه الأخرى: استجيبوا لله وللرسول ولا تأمنوا إن لم تفعلوا أن ينزل بكم ما نزل بالكفار من الحول بينهم وبين قلوبهم، فنبه على ما جرى على الكفار بأبلغ عبارة وأعلقها بالنفس.

ومنها أن يكون المعنى ترجية لهم بأن الله يبدل الخوف الذي في قلوبهم من كثرة العدو فيجعله جرأة وقوة، ويضد ذلك للكفار، فإن الله هو مقلب القلوب كما كان في قسم النبي ﷺ، قال بعض الناس: ومنه: «لا حول ولا قوة إلا بالله»، أي: لا حول على معصية ولا قوة على طاعة إلا بالله.

وقال المفسرون في ذلك أقوالاً هي أجنبية من ألفاظ الآية حكاهما الطبري - منها أن الله يحول بين المؤمن والكافر، وبين الكفر والإيمان، ونحو هذا.

وقرأ ابن أبي إسحق: ﴿بَيْنَ الْجُزْءِ﴾ بكسر الميم، ذكره أبو حاتم، قال أبو الفتح: وقرأ الحسن والزبيدي:

وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مَسْتَضْعَمُونَ فِي الْأَرْضِ فَأَخْرَجْنَا
 أَنْ يَخْطِفَكُمْ النَّاسُ فَتَأْوِيلُكُمْ وَأَيْدِيكُمْ بَصُرَ وَرَدَّكُمْ
 مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
 لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ
 ﴿٢٦﴾ وَعَلِمُوا أَنَّ أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ فَتَنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ
 عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنَقَّوْا
 اللَّهُ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ
 لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ
 كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يُنْزِلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ
 اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرٌ الْمَكْرِينَ ﴿٢٩﴾ وَإِذْ أَنْتَ عَلَى آلِهَةٍ
 قَالُوا قَدِ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا
 أَسْطُورٌ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٠﴾ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كُنَّا
 هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابًا مِنَ السَّمَاءِ
 أَوْ آتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ
 وَأَنْتَ أَعْلَمُ بِالْمُؤْمِنِينَ وَمَا كُنَّا اللَّهُ لِنُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
 يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٢﴾

١٨٠

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيجيء قوله: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ - على هذا التأويل - صفة للفتنة، فكان الواجب - إذا قدرنا ذلك - أن يكون اللفظ: (لا تُصيب)، وتلطف لدخول النون الثقيلة في الخبر عن الفتنة، فقال الزجاج: زعم بعض النحويين أن الكلام جزاء فيه طوق من النهي، قال: ومثله قوله تعالى: ﴿أَدْخُلُوا سَنَكُنَّكُمْ لَا يَحْطَمَنَّكُمْ﴾، فالمعنى: إن تدخلوا لا يحطمنكم، فكذلك هذا: إن تنقوا لا تصيبَنَّ. وقال

قوم: هو خير بمعنى الجزاء فلذلك أمكن دخول النون. وقال المهدي: وقيل: هو جواب قَسَمَ مقدر تقديره: «واتقوا فتنة والله لا تُصِيبَنَّ»، ودخلت النون مع (لا) حملاً على دخولها مع اللام فقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول تكرره، لأن جواب القسم إذا دخلته (لا) أو كان منفياً في الجملة لم تدخل النون، وإذا كان موجباً دخلته اللام والنون الشديدة كقولك: «والله لا يقوم زيد، والله ليقوم زيد» هذا هو قانون الباب، ولكن معنى هذه الآية يستقيم مع التكره الذي ذكرناه.

والتأويل الآخر في الآية هو أن يكون قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَقُوا فِتْنَةً﴾ خطاباً عاماً لجميع المؤمنين مستقلاً بنفسه تم الكلام عنده ثم ابتدأ نهي

﴿بَيْنَ الْمَرْءِ﴾ بفتح الميم وشد الراء المكسورة.

و﴿تُخْرِبُونَ﴾ أي: تبعثون يوم القيامة. وروي من طريق مالك بن أنس والنسائي أن رسول الله ﷺ دعا أبي بن كعب وهو في الصلاة فلم يجب وأسرع في بقية صلاته، فلما جاءه قال له رسول الله ﷺ: «أما سمعت فيما أوحى إلي ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾؟» فقال أبي: لا جرم يا رسول الله، لا تدعوني أبداً إلا أجبته. الحديث بطوله واختلاف ألفاظه. وفي البخاري ومسلم أن ذلك وقع مع أبي سعيد بن المَعْلَى، وروي أنه وقع نحوه مع حذيفة بن اليمان في غزوة الخندق.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تحتمل تأويلات. أُسْبِطُهَا إلى التُّفْسِ أن يريد الله أن يُحذِرَ جميع المؤمنين من فتنة إن أصابت لم تخص الظلمة فقط، بل تصيب الكل من ظالم وبريء، وهذا التأويل تأول فيها الزبير بن العوام رضي الله عنه، فإنه قال يوم الجمل: «وما علمت أنا أردنا بهذه الآية إلا اليوم، وما كنت أظنها إلا فيمن خوطب بها ذلك الوقت»، وكذلك تأول الحسن البصري، فإنه قال: «هذه الآية في علي وعمار وطلحة والزبير»، وكذلك تأول ابن عباس، فإنه قال: «أمر الله المؤمنين في هذه الآية ألا يُقِرُّوا المنكر بين أظهرهم فيعمهم العذاب»، وبينه القتيبي فيما ذكره مكى عنه بياناً شافياً.

الظلمة خاصة عن التعرض للظلم فتصيبهم الفتنة خاصة، وأخرج النهي على جهة المخاطبة للفتنة فهو نهي محول، والعرب تفعل مثل هذا كما قالوا: «لا أريئك ها هنا»، يريدون: لا تقم ها هنا فتقع مني رؤيتك، ولم يريدوا نهي الإنسان الرائي نفسه، فكذلك المراد في الآية: لا يقع من ظلمتكم ظلم فتقع من الفتنة إصابتهم، نحا إليه الزجاج، وهو قول أبي العباس المبرد، وحكاة النقاش عن الفراء، ونهي الظلمة ها هنا بلفظ مخاطبة الجمع كما تقول لقوم: «لا يفعل سفهاؤكم كذا وكذا» وأنت إنما تريد نهي السفهاء فقط.

و﴿خَاصَّةٌ﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: إصابة خاصة، فهي نصب على الحال لما انحذف المصدر، وهي من الضمير في ﴿تُصِيبَنَّ﴾،

وهذا الفعل هو العامل. ويحتمل أن تكون ﴿عَاثَةً﴾ حالاً من الضمير في ﴿ظَلَمُوا﴾ ولا يحتاج إلى تقدير مصدر محذوف. والأول أمكن في المعنى.

وقرأ علي بن أبي طالب، وزيد بن ثابت، وأبو جعفر محمد بن علي، والربيع بن أنس، وأبو العالية، وابن جمتاز: ﴿لَتُصِيبَنَّ﴾ باللام على جواب قسم. والمعنى على هذا وعيد الظلمة فقط. قال أبو الفتح: يحتمل أن يراد بهذه القراءة: «لا تصيبَنَّ» فحذف الألف من (لا) تخفيفاً واكتفاء بالحركة، كما قالوا: «أم والله»، ويحتمل أن يراد بقراءة الجماعة ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾: «لَتُصِيبَنَّ» فمطلت حركة اللام فحدثت عنها ألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تنطع في التحميل، وحكى النقاش هذه القراءة عن الزبير بن العوام، وهذا خلاف لما حكى الطبري وغيره من تأويل الزبير رضي الله عنه في الآية. وحكى النقاش عن ابن مسعود أنه قرأ: «وَأَتَقُوا يَفْتَةً أَنْ تُصِيبَ».

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ وعيد يلتزم مع تأويل الزبير والحسن التاماً حسناً، ويلتزم مع سائر التأويلات بوجوه مختلفة.

وزوي عن علي بن سليمان الأخفش أن قوله تعالى: ﴿لَا تُصِيبَنَّ﴾ هي على معنى الدعاء، ذكره الزهراوي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا إِذْ أَنْتَ لَيْلٌ﴾ الآية، هذه آية تتضمن تعديداً

نعم الله على المؤمنين، و﴿إِذْ﴾ ظرف لمعمول ﴿وَأَذْكُرُوا﴾ تقديره: «واذكروا حالكم الكائنة أو الثابتة إذ أنتم قليل»، ولا يجوز أن تكون ﴿إِذْ﴾ ظرفاً للذكر، وإنما يعمل الذكر في ﴿إِذْ﴾ لو قدرناها مفعولة. واختلف الناس في الحال المشار إليه بهذه الآية - فقالت فرقة وهي الأكثر: هي حال مكة في وقت بدأة الإسلام، والناس الذين يخاف تخطفهم: كفاز مكة، والمأوى - على هذا التأويل -: المدينة والأنصار، والتأييد بالنصر: وقعة بدر وما أنجز معها في وقتها، والطيبات: الغنائم وسائر ما فتح الله عليهم به. وقالت فرقة: الحال المشار إليها هي حال رسول الله ﷺ وأصحابه في غزوة بدر، والناس الذين يخاف تخطفهم - على هذا -: عسكر مكة وسائر القبائل المجاورة، فإن رسول الله ﷺ كان يتخوف من بعضهم، والمأوى - على هذا - والتأييد بالنصر هو الإمداد بالملائكة والتغليب على العدو. والطيبات: الغنيمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان يناسبان وقت نزول الآية لأنها نزلت عقب بدر.

وقال وهب بن منبه، وقناة: الحال المشار إليها هي حال العرب قاطبة، فإنها كانت أعرى الناس أجساماً وأجوعهم بطوناً وأقلهم رجالاً ونعماً، والناس الذين يخاف تخطفهم - على هذا التأويل -: فارس والروم، والمأوى - على هذا - هو النبوة والشريعة، والتأييد بالنصر هو فتح

البلاد وغلبة الملوك، والطيبات هي نعم المآكل والمشرب والملابس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يرده أن العرب كانت في وقت نزول هذه الآية كافرة إلا القليل، ولم تترتب الأحوال التي ذكرها هذا المتأول، وإنما كان يمكن أن يخاطب العرب بهذه الآية في آخر زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فإن تمثل أحد بهذه الآية لحالة العرب فتمثله صحيح، وأما أن يكون حالة العرب هي سبب الآية فبعد لما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿لَمَلَكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ ترج بحسب البشر متعلق بقوله سبحانه: ﴿وَأَذْكُرُوا﴾.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا خطاب لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، وهو يجمع أنواع الخيانات كلها قليلها وكثيرها. قال الزهراوي: والمعنى: لا تخونوا بغلول الغنائم، وقال الزهراوي، وعبدالله بن أبي قتادة: سبب نزولها أمر أبي لبيبة، وذلك أنه أشار لبني قريظة - حين سفر إليهم - إلى حلقه، يريد بذلك إعلامهم أنه ليس عند رسول الله ﷺ إلا الذبح، أي: فلا تنزلوا، ثم ندم وربط نفسه بسارية من سواري المسجد حتى تاب الله عليه. الحديث المشهور. وحكى الطبري أنه أقام سبعة أيام لا يدوق شيئاً حتى تيب عليه، وحكى أنه كان لأبي لبيبة عندهم مال وأولاد فلذلك نزلت: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ مَا أَمْرُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ يَفْتَنُ﴾.

وقال عطاء بن أبي رباح عن جابر

بن عبدالله: سببها أن رجلاً من المنافقين كتب إلى أبي سفيان بن حرب بخبر من أخبار رسول الله ﷺ فنزلت الآية، فقوله سبحانه: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ معناه: أظهروا الإيمان، ويحتمل أن يخاطب المؤمنين حقاً ألا يفعلوا فعل ذلك المنافق.

وحكى الطبري عن المغيرة بن شعبة أنه قال: أنزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أن يمثل بالآية في قتل عثمان رحمه الله، فقد كانت خيانة لله وللرسول والأمانات. والخيانة: التَنَقُّصُ للشيء باختفائه، وهي مستعملة في أن يفعل الإنسان خلاف ما ينبغي من حفظ أمر ما، مالا كان أو سراً أو غير ذلك، والخيانة لله تعالى هي في تنقص أوامره في سرّ، وخيانة الرسول تَنَقُّصُ ما استحفظ، وخيانات الأمانات هي تَنَقُّصُها وإسقاطها، والأمانة حال للإنسان يؤمن بها على ما استحفظ، فقد أوْتُمِنَ على دينه وعبادته وحقوق الغير. وقيل: المعنى: وتخونوا ذوي أماناتكم، وأظن الفارسي أبا علي حكاها. ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ يريد أن ذلك لا يضر منه إلا ما كان عن عمد.

وقوله تعالى: ﴿فِتْنَةٌ﴾ يريد: محنة واختباراً وابتلاء ليرى كيف العمل في جميع ذلك. وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ يريد فوز الآخرة، فلا تدعوا حظكم منه للحيلة على أموالكم وأبنائكم فإن المدخور للآخرة أعظم قدراً من مكاسب الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَتَخَوَّنُوا﴾ قال الطبري: يحتمل أن يكون داخلًا في النهي كأنه قال: «لا تخونوا الله والرسول ولا تخونوا أماناتكم»، فمكانه على هذا جزم، ويحتمل أن يكون المعنى: «لا تخونوا الله والرسول فذلك خيانة لأماناتكم»، فموضعه على هذا نصب على تقدير: «وأن تخونوا أماناتكم، قال الشاعر:

لَا تُنْثَ عَنْ خُلُقِي وَتَأْتِي مِثْلَهُ
عَارٌّ عَلَيْكَ إِذَا فَعَلْتَ عَظِيمٌ
وقرأ مجاهد، وأبو عمرو بن العلاء - فيما روي عنه أيضاً - ﴿وَتَخَوَّنُوا أَمَانَتَكُمْ﴾ على أفراد الأمانة.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ إن تَنَقَّوْا اللَّهَ الآية، وعد للمؤمنين بشرط الاتقاء والطاعة له، و﴿يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾ معناه: فرقاً بين حَقِّم وباطل من ينازعكم، أي بالثورة والتأييد عليهم، والفرقان مصدر من فرق بين الشئين حال بينهما أو خالف حكمهما، ومنه قوله: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾. وعِبْرُ قتادة وبعض المفسرين عن الفرقان هاهنا بالنجاة، وقال السدي، ومجاهد: معناه: مخرجاً ونحو هذا مما يعمه ما ذكرناه، وقد يوجد للعرب استعمال الفرقان كما ذكر المفسرون، فمن ذلك قول مزرد بن ضِرَار:

بَادِرِ الْأَفْئِقَ أَنْ يَغْشِيَبَ فَلَمَّا
أَظْلَمَ اللَّيْلُ لَمْ يَجِدْ فُرْقَانًا
وقال الآخر:

مَا لَكَ مِنْ طُولِ الْأَسَى فُرْقَانٌ
بَعْدَ قَطْبَيْنِ رَحَلُوا وَبَسَاتُوا

وقال الآخر:

وَكَيْفَ أُرْجِي الْخُلْدَ وَالْمَوْتَ طَالِي
وَمَالِي مِنْ كَأْسِ الْمَنِيَّةِ فُرْقَانٌ
وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. يشبه أن يكون قوله: ﴿وَإِذْ﴾ معطوفاً على قوله: ﴿إِذْ أَنْتَ نَسِيتَ لَيْلٌ﴾، وهذا تذكير بحال مكة وضيقها مع الكفرة وجميل صنع الله تعالى في جميعها. ويحتمل أن يكون ابتداء كلام، وهذا كله على أن الآية مدنية كسائر السورة، وهذا هو الصواب، وحكى الطبري عن عكرمة ومجاهد أن هذه الآية مكية، وحكى عن ابن زيد أنها نزلت عقب كفاية الله رسوله المستهزئين بما أحله بكل واحد منهم، الحديث المشهور، ويحتمل عندي قول عكرمة ومجاهد: «هذه مكية» أن أشارا إلى القصة لا إلى الآية.

والمكر: المخاتلة والتداهي، تقول: «فلان يمكر بفلان» إذا كان يستدرجه ويسوقه إلى هَوَّةٍ وهو يظهر جميلاً وتَسْتَرُّ بما يريد، ويقال: أصل المكر القتل، قاله ابن فورك، فكأن الماكر بالإنسان يفاتله حتى يوقعه، ومن المكر الذي هو القتل قولهم للجارية المعتدلة للحم: مكمورة، فمكر قريش بالنبي ﷺ كان تديبرهم ما يسوقه، وسعيهم في فساد حاله وإطفاء نوره، وتديبر قريش على رسول الله ﷺ هذه الخصال الثلاث لم يزل قديماً من لدن ظهوره، لكن إعلانهم لا يسمى مكرًا، وما استَسَرُّوا به هو المكر، وقد ذكر الطبري أن أبا طالب قال للنبي ﷺ: يا محمد، ماذا يدبر فيك

قومك؟ قال: «يريدون أن أقتل أو أسجن أو أخرج» قال أبو طالب: من أعلمك هذا؟ قال: «ربي» قال: إن ربك لربُّ صدق فاستوص به خيراً، فقال النبي ﷺ: «بل هو يا صم يستوصي بي خيراً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المكر الذي ذكره الله في الآية هو بإجماع من المفسرين إشارة إلى اجتماع قريش في دار الندوة بمحضر إبليس في صورة شيخ نجدى على ما نص ابن إسحق في سيره. الحديث بطولته، وهو الذي كان خروج النبي ﷺ من مكة بسببه، ولا خلاف أن ذلك كان بعد موت أبي طالب، ففي القصة أن أبا جهل قال: الرأي أن نأخذ من كل بطن في قريش فتى قوياً جلدأ فيجتمعون، ثم يأخذ كل واحد منهم سيفاً ويأتون محمداً في مضجعه فيضربونه ضربة رجل واحد، فلا يقدر بنو هاشم على قتال قريش بأسرها، فيأخذون العقل ونستريح منه، فقال النجدي: صدق الفتى، هذا الرأي لا أرى غيره، فافترقوا على ذلك، فأخبر الله بذلك نبيه ﷺ، وأذن له في الخروج إلى المدينة، فخرج رسول الله ﷺ من ليلته، وقال لعلي بن أبي طالب: التفت في بردي الحضرمي واضطجع في مضجعي فإنه لا يضرك شيء، ففعل علي، وجاء فتيان قريش فجعلوا يرصدون الشخص ويتظنون قيامه فيثورون به، فلما قام رأوا علياً فقالوا له: أين صاحبك؟ قال: لا أدري، وفي السير أن رسول الله ﷺ خرج عليهم وهم في طريقه

فطمس الله عيونهم عنه، وجعل على رأس كل واحد منهم تراباً ومضى لوجهه، فجاءهم رجل فقال: ما تنتظرون؟ قالوا: محمداً، قال: إني رأيته الآن جائياً من ناحيتكم وهو لا محالة وضع التراب على رؤوسكم، فمد كل واحد يده إلى رأسه، وجأؤوا إلى مضجع النبي ﷺ فوجدوا علياً، فركبوا وراهه حينئذ كل صعبٍ وذلول وهو بالغار.

ومعنى ﴿لِيُنَبِّئُكَ﴾: ليسجنوك فَنَبَّئْتُ، قاله السدي، وعطاء، وابن أبي كثير. وقال ابن عباس، ومجاهد: معناه: لِيُؤْتِقُوكَ. وقال الطبري: وقال آخرون: المعنى: ليسحروك.

وقرأ يحيى بن وثاب فيما ذكر أبو عمرو الداني: ﴿لِيُنَبِّئُوكَ﴾، وهذه أيضاً تعدية بالتضعيف، وحكى النقاش عن يحيى بن وثاب أنه قرأ: ﴿لِيُنَبِّئُوكَ﴾ من البيات، وهذا أخذ مع القتل فيضعف من هذه الجهة، وقال أبو حاتم: معنى ﴿لِيُنَبِّئُوكَ﴾ أي بالجراحة، كما يقال: «أُنْبِئْتَهُ الجراحة» وحكاها النقاش عن أهل اللغة ولم يُسمَ أحداً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَمَكُرُ اللَّهُ﴾ معناه: يفعل أفعالاً منها تعذيب لهم، ومنها ما هو إبطال لمكرهم وردُّ له ودفع في صدره حتى لا ينجح، فسمي ذلك كله باسم الذنب الذي جاء ذلك من أجله، ولا يحسن في هذا المعنى إلا هذا، وأما أن ينضاف المكر إلى الله عز وجل على ما يفهم منه في اللغة فغير جائز أن يقال، وقد ذكر ابن فورك في هذا ما يقرب من

هذا الذي ضعفناه، وإنما قولنا: «ويمكر الله» كما تقول في رجل شتم الأمير فقتله الأمير: هذا هو الشتم، فتسمى العقوبة باسم الذنب، وقوله سبحانه: ﴿عَزَّزْنَا الْكَلْبَ﴾ أي: أقدروهم وأعزهم جانباً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه الجهة - أعني القدرة والعزة - يقع التفضيل، لأن مكرَّة الكفار لهم قُدرة ما، فوقع التفضيل لمشاركتهم بها، وأما من جهة الصلاح الذي فيما يعلمه الله تعالى فلا مشاركة للكفار بصلاح، فيتعذر التفضيل على مذهب سيويه والبصريين إلا على ما قد بيناه في ألفاظ العموم مثل: خيرٌ وأحبٌ ونحو هذا، إذ لا يخلو من اشتراك ولو على معتقد من فرقة أو أحد.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على الكفار، والآيات هنا: آيات القرآن خاصة بقريظة قوله: ﴿تَتَلَّأ﴾، و﴿تَدَّ سَيْتَنَا﴾ يريد: وقد سمعنا هذا المتلأ لَوْ نَشَاءُ لَقَلْنَا مثله، وقد سمعنا نظيره، على ما روي أن النضر سمع أحاديث أهل الحيرة من العبادة فلو نشاء لقلنا مثله من القصص والأنبياء، فإن هذه إنما هي أساطير من قد تقدم، أي قصصهم المكتوبة المسطورة. وأساطير: جمع أسطورة، ويحتمل أن يكون جمع أسطار، ولا يكون جمع أسطر كما قال الطبري، لأنه كان يجيء أساطير بدون ياء، هذا هو قانون الباب، وقد شدُّ منه شيء كصيرف، قالوا في جمعه: صياريف. والذي تواترت به الروايات عن ابن جُرَيْج، والسُّدي،

وابن جُبَيْر أن الذي قال هذه المقالة هو النضر بن الحارث، وذلك أنه كان كثير السفر إلى فارس والجزيرة، فكان قد سمع من قصص الرهبان والأنجيل، وسمع من أخبار رستم واسبنديار، فلما سمع القرآن ورأى فيه من أخبار الأنبياء والأمم قال: لو

شئت لقلت مثل هذا، وكان النضر من مَرْدَة قريش النائلين من رسول الله ﷺ، وقلته رسول الله ﷺ صبراً بالصفراء مُنْصَرَف من بدر في وضع يقال له: الأثيل، وكان أسره المقداد، فلما أمر رسول الله ﷺ بضرب عنقه قال المقداد: أسيري يا رسول الله، فقال رسول الله ﷺ: «إِنَّه كَانَ يَقُولُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا عِلْمْتُمْ» ثم أعاد المقداد مقالته حتى قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَهْنِ الْمُقَدَّادَ مِنْ فَضْلِكَ» فقال المقداد: هذا الذي أردت، فضرب عنق النضر.

وحكى الطبري عن سعيد بن جبيرة أن رسول الله ﷺ قَتَلَ يَوْمَ بَدْرٍ صَبْرًا ثَلَاثَةَ نَفَرٍ: الْمُطْعَمُ بْنُ عَدِيٍّ، وَالنُّضْرُ بْنُ الْحَارِثِ، وَعُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وهم عظيم في خبر المُطْعَمِ، فقد كان مات قبل يوم بدر، وفيه قال النبي ﷺ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعَمُ حَيًّا وَكَلَّمْتَنِي فِي هَوْلَاءِ النَّثَى لَتَرَكْتَهُمْ لَهُ» يعني أسرى بدر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذِهِ حَقًّا مِنِّي وَعَيْنِي﴾ الآية. روي عن مجاهد، وابن جُبَيْر، وعطاء، والسدي أن قاتل هذه

المقالة هو النضر بن الحارث الذي تقدم ذكره، وفيه نزلت هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وترتب أن يقول النضر بن الحارث مقالة وينسبها القرآن إلى جميعهم لأن النضر كان فيهم موسوماً بالثُّبُل والفهم مسكوناً إلى قوله، فكان إذا قال قولاً قاله منهم كثير واتبعوه عليه حسبما يفعله الناس أبداً بعلمائهم وفقهائهم. والمشاز إليه به ﴿هَذَا﴾ هو القرآن وشرع محمد ﷺ، والذي حملهم على هذه المقالة هو

الحسد، وذلك أنهم استبعدوا أن يكرم الله عليهم محمداً ﷺ هذه الكرامة، وعميت بصائرهم عن الهدى، وصمموا على أن هذا ليس بحق فقالوا هذه المقالة، كما يقول الإنسان لأمر قد تحقق يزعمه أنه لم يكن: «إِنْ كَانَ كَذَا وَكَذَا فَعَلَّ اللَّهُ بِي وَضَعَّ». وحكى ابن فورك أن هذه المقالة خرجت مخرج العناد مع علمهم بأنه حق، وكذلك ألزم أهل اليمن معاوية بن أبي سفيان القصة المشهورة في باب الأجوبة. وحكاها الطبري عن محمد بن قيس، ويزيد بن رومان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد من التأويل، ولا يقول هذا على جهة العناد عاقل. ويجوز في العربية رفع ﴿الْحَقُّ﴾ على أنه خير ﴿هُوَ﴾، والجملة خبر كان، قال

﴿وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ وَيَهُودِيَّةً وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٣٥﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٣٦﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٣٩﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤١﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤٤﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤٧﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤٨﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٤٩﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥٠﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥١﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥٢﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥٤﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥٥﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥٦﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥٧﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٥٩﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦٠﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦١﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦٢﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦٤﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦٥﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦٦﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦٨﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٦٩﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧٠﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧١﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧٢﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧٤﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧٥﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧٧﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧٨﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨٠﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨١﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨٢﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨٦﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨٧﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨٨﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩٠﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩١﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩٢﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩٤﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩٥﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩٦﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩٧﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩٨﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿٩٩﴾ وَمَا لَهُمْ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَلِيمٍ ﴿١٠٠﴾

الرُّجَّاجِ: وَلَا أَعْلَمُ أَحَدًا قَرَأَ بِهَذَا الْجَائِزِ، وَقِرَاءَةُ النَّاسِ إِنَّمَا هِيَ بِنَصْبِ ﴿الْحَقِّ﴾ عَلَى أَنْ يَكُونَ خَبِيرَ كَانَ، وَيَكُونُ ﴿هُوَ﴾ فَصْلًا، فَهوَ حَيْثُذَ اسْمٌ وَفِيهِ مَعْنَى الْإِعْلَامِ بِأَنَّ الَّذِي بَعْدَهُ خَبِيرٌ لَيْسَ بِصَفَةٍ، (وَأَمَّا نَظْرًا) إِنَّمَا يَسْتَعْمَلُ فِي الْمَكْرُوهِ، (وَمَطْرًا) فِي الرَّحْمَةِ. كَذَا قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعارض هذا قوله سبحانه: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطَّرًا﴾ لأنهم ظنوها سحابة رحمة. وقولهم: ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ﴾ مبالغة وإغراق.

وهذان النوعان اللذان اقترحوهما هما السالفان في الأمم، عافانا الله وعافانا.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: نزلت هذه الآية كلها بمكة، وقالت فرقة: نزلت كلها بعد

وقعة بدر حكاية عما مضى، وقال ابن أبيزي: نزل قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ بمكة إثر قولهم: ﴿أَوْ آتَيْنَا بِذَابِ الْيَسْرِ﴾، ونزل قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ عند خروج النبي ﷺ عن مكة في طريقه إلى المدينة وقد بقي بمكة مؤمنون يستغفرون، ونزل قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ إلى آخر الآية بعد بدر عند ظهور العذاب عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأجمع المتأولون على أن معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ يُعَذِّبُهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ﴾ أن الله عز وجل لم يعذب قط أمة وتبئها بين أظهرها، فما كان ليعذب هذه وأنت فيهم، بل كرامتك لديه أعظم، قال - أراه عن أبي زيد -: سمعت من العرب من يقول: «ما كان الله ليعذبهم» بفتح اللام، وهي لغة غير معروفة ولا مستعملة في القرآن.

واختلفوا في معنى قوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن أبيزي، وأبو مالك، والضحاك ما مقتضاه: إن الضمير في قوله: ﴿مُعَذِّبُهُمْ﴾ يعود على كفار مكة، والضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائد على المؤمنين الذين بقوا بعد رسول الله ﷺ بمكة، أي: وما كان الله ليعذب الكفار والمؤمنون بينهم يستغفرون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويدفع في صدر هذا القول أن المؤمنين الذين رد الضمير عليهم لم

يجر لهم ذكر. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً ما مقتضاه أن يقال: الضميران عائدان على الكفار، وذلك أنهم كانوا يقولون في دعائهم: غفرانك، ويقولون: لبيك لا شريك لك، ونحو هذا مما هو دعاء واستغفار، فجعله الله أمانة من عذاب الدنيا، وعلى هذا تركب قول أبي موسى الأشعري، وابن عباس: إن الله جعل من عذاب الدنيا أمانتين، كون النبي ﷺ مع الناس، والاستغفار، فارتفعت الواحدة وبقي الاستغفار إلى يوم القيامة، وقال قتادة: الضمير للكفار.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال إن لو كانت، فالمعنى: وما كان الله معذبهم وهم بحال توبة واستغفار من كفرهم إن لو وقع ذلك منهم، واختاره الطبري، ثم حسن الزجر والتوقيف - بعد هذا - بقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾.

وقال الزجاج ما معناه: إن الضمير في قوله: ﴿وَهُمْ﴾ عائد على الكفار، والمراد به من سبق له في علم الله أن يُسلم ويستغفر، فالمعنى: وما كان الله ليعذب الكفار وفيهم من يستغفر ويؤمن في ثاني حال، وحكاة الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقال مجاهد في كتاب الزهراوي: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ذرية المشركين يومئذ الذين سبق لهم في علم الله أن يكونوا مؤمنين، فالمعنى: وما كان الله ليعذبهم وذريتهم يستغفرون ويؤمنون، فنسب

الاستغفار إليهم إذ ذريتهم منهم، وذكره مكي ولم ينسبه.

وفي الطبري عن فرقة أن معنى ﴿يَسْتَغْفِرُونَ﴾: يُصَلُّونَ، وعن أخرى: يُسَلِّمُونَ، ونحو هذا من الأقوال التي تقارب مع قول قتادة.

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا لَهُمْ أَلَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ﴾ توعدهم بعذاب الدنيا، فتقديره: وما يُعلمهم أو يُذريهم ونحو هذا من الأفعال التي توجب أن تكون ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب، وقال الطبري: تقديره: وما يمنعهم من أن يعذبوا، والظاهر في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ﴾ أنها استفهام على جهة التقرير والتوبيخ والسؤال، وهذا أفصح في القول وأقطع لهم في الحجة. ويصح أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ويكون القول إخباراً، أي: وليس لهم ألا يعذبوا وهم يصدون.

وقوله: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ﴾ على التأويلين جملة في موضع الحال، و﴿يَصُدُّونَ﴾ في هذا الموضع معناه: يمنعون غيرهم، فهو متعد كما قال:

صَدَدْتُ الْكَأْسَ عَنَّا أَمْ عَمْرٍو

وقد يجيء (صدد) غير متعد، كما أشد أبو علي:

صَدَدْتُ حَلِيدَةَ عَنَّا مَا تُكَلِّمُنَا

والضمير في قوله سبحانه: ﴿أَوْلِيَاءَهُمْ﴾ عائد على الله عز وجل من قوله تعالى: ﴿يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾، أو على المسجد الحرام، كل ذلك جيد، زوي الأخير عن الحسن، والضمير الآخر تابع للأول.

الأنف، يقال: مَكَأَ يَمْكُو إِذَا صَفَرَ،
ومنه قول عترة:

وَحَلِيلَ غَائِبَةٍ تَرَكْتُ مُجَدِّلاً
تَمْكُو فَرِيضَتُهُ كَشِدْقِ الْأَعْلَمِ
ومنه قول الشاعر:

فَكَأَنَّمَا يَمْكُو بِأَعْصَمٍ عَاقِلٌ
.....

يصف رجلاً فزله حيوان، ومنه
قول الطرماح:

فَنَحَا لِأَوْلَاهَا بِطَطْنَةٍ مُخْفِظِ
تَمْكُو جَوَانِبُهَا مِنْ الْإِنهَارِ
ومكت استُ الدَّابَّة إِذَا صَفَرَتْ،
يقال: وَلَا تَمْكُو إِلَّا اسْتُ مَكشُوفَةً،

ومن هذا قيل لِلأَسْتِ: مَكْوَةٌ، قال
أبو علي: فَالهمزة فِيه مَنقَلَبَةٌ عَن
وَإِوِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ومن هذا قيل لِلطَّائِرِ: المَكَاءُ، لِأَنَّهُ
يَمْكُو أَي يُصَفِر فِي تَغْرِيدِهِ، وَوَزَنُهُ
فُعَالٌ بِشَدِّ العَيْنِ كَحُطَّافٍ،
وَالأَصْوَاتُ فِي الأَكْثَرِ تَجِيءُ عَلَيَّ
فُعَالٌ بِتَخْفِيفِ العَيْنِ كَالْبِكَاءِ وَالصُّرَاخِ
وَالدُّعَاءِ وَالجُّوَارِ وَالثَّبَاجِ وَنَحْوِهِ.
وَرُوي عَن قَتَادَةَ أَنَّ المَكَاءَ صَوْتُ
الأَيْدِي، وَذَلِكَ ضَعِيفٌ. وَرُوي عَن
أَبِي عَمْرٍو أَنَّهُ قَرَأَ ﴿إِلَّا مُكَا﴾
بِالقَصْرِ.

والتَّضْيِيقُ عِبْرٌ عَنهَا أَكْثَرُ النَّاسِ بِأَنَّهَا
التَّصْفِيقُ. وَقَتَادَةُ بِأَنَّهَا الضَّجِيجُ
وَالصِّيَاحُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ بِأَنَّهَا
الصُّدُّ وَالْمَنَعُ. وَمَنْ قَالَ «إِنَّهَا
التَّصْفِيقُ» قَالَ: «إِنَّمَا كَانَ لِلْمَنَعِ عَن
ذِكْرِ اللَّهِ وَمَعَارِضَةِ لِقِرَاءَةِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لِلقرآنِ». وَالتَّضْيِيقُ
يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ مِنْ صَدَى يَصْدِي إِذَا

تَلَحَّنَ أَنْتَ؟ قَالَ أَبُو الفَتْحِ: وَقَدْ
رُوي الحَرْفُ كَذَلِكَ عَن أَبَانَ بْنِ
تَغْلِبٍ، قَالَ قَوْمٌ: وَهَذِهِ القِرَاءَةُ خَطَأٌ
لِأَنَّهُ جَعَلَ الأَسْمَ نَكْرَةً وَالحِجْرَ
مَعْرَفَةً، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: فَإِنْ قِيلَ: «إِنْ
(المَكَاءُ وَالتَّضْيِيقُ) أَسْمَ جِنْسٍ وَأَسْمَ
الجِنْسِ مُعْرَفَةً وَمُنْكَرًا وَاحِدٌ فِي
التَّعْرِيفِ» قِيلَ: «إِنْ اسْتَعْمَلَهُ هَكَذَا لَا
يَجُوزُ إِلَّا فِي ضَرُورَةِ الشَّعْرِ، كَمَا
قَالَ حَسَّانُ:

كَأَنَّ سَبِيئَةَ مِنْ بَيْتِ رَأْسٍ
يَكُونُ مِرْأَجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ
وَلَا يُقَاسُ عَلَيَّ ذَلِكَ.

فَأَمَّا أَبُو الفَتْحِ فَوَجَّهَ هَذِهِ القِرَاءَةَ بِمَا
ذَكَرْنَاهُ مِنْ تَعْرِيفِ أَسْمَ الجِنْسِ،
وَبَعْدَ ذَلِكَ يَرْجِعُ قِرَاءَةَ النَّاسِ.

قال أبو علي الفارسي: وَإِنَّمَا ذَهَبَ
مَنْ ذَهَبَ إِلَى هَذِهِ القِرَاءَةِ لَمَّا رَأَى أَنَّ
(الصَّلَاةَ) مُؤَنَّةً، وَرَأَى الفِعْلَ المَسْنَدَ
إِلَيْهَا لَيْسَ فِيهِ عِلْمَةٌ تَأْنِيثُ فَأَرَادَ
تَعْلِيْقَهُ بِمَذْكَرٍ وَهُوَ (المَكَاءُ)، وَأَخْطَأَ
فِي ذَلِكَ، فَإِنَّ العَرَبَ تَعْلِقُ الفِعْلَ لَا
عِلْمَةٌ فِيهِ بِالمُؤَنَّثِ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿وَأَعَدَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا
أَلصَّبْحَةَ﴾، وَقَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿فَأَنْظُرْ
كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ﴾،
و﴿كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾،
وَنَحْوُ هَذَا مِمَّا أُسْنَدَ فِيهِ الفِعْلُ دُونَ
عِلْمَةٍ إِلَى المُؤَنَّثِ.

والمَكَاءُ عَلَيَّ وَزَنُ الفُعَالِ:
الصُّفَيْرِ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَالجُمْهُورُ، فَقَدْ
يَكُونُ بِالفَمِّ، وَقَدْ يَكُونُ بِالأَصْبَاحِ
وَالكُفِّ فِي الفَمِّ، قَالَ مَجَاهِدٌ، وَأَبُو
سَلَمَةَ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: وَقَدْ يَشَارِكُ

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ﴾ معناه: لَا يَعْلَمُونَ أَنَّهُمْ
لَيْسُوا بِأَوْلِيائِهِ، بَلْ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ
أَوْلِيَاؤُهُ. وَقَوْلُهُ: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ وَنَحْنُ
نَجِدُ كُلَّهُمْ بِهَذِهِ الصِّفَةِ لَفْظَ خَارِجٍ إِذَا
عَلِيَ أَنْ تَقُولَ: إِنَّهُ لَفْظٌ خَاصٌّ
أُرِيدُ بِهِ العَمُومُ، وَهَذَا كَثِيرٌ فِي كَلَامِ
العَرَبِ، وَمِنْهُ حِكْمَى سَبِيْبِيهِ قَوْلُهُمْ:
«قُلْ مَنْ يَقُولُ ذَلِكَ»، وَهُمْ يَرِيدُونَ:
لَا يَقُولُهُ أَحَدٌ. وَإِنَّمَا أَنْ تَقُولَ: إِنَّهُ
أَرَادَ بِقَوْلِهِ: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أَنْ يُعْلَمَ
وَيُشْعَرَ أَنَّ بَيْنَهُمْ وَفِي خِلَالِهِمْ قَوْمًا
قَدْ جَنَحُوا إِلَى الإِيْمَانِ، وَوَقَعَ لَهُمْ
عِلْمٌ وَإِنْ كَانَ ظَاهِرَهُمُ الكُفْرُ
فَاسْتَشْنَاهُمُ مِنَ الجَمِيعِ بِقَوْلِهِ:
﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، وَكَذَلِكَ كَانَتْ حَالُ مَكَّةَ
وَأَهْلِهَا، فَقَدْ كَانَ فِيهِمُ العَبَّاسُ، وَأُمُّ
الْفَضْلِ وَغَيْرُهُمَا.

وحكى الطبري عن عكرمة: قال
الحسن بن أبي الحسن: إن قوله:
﴿وَمَا لَهُمْ آلًا يُعَذِّبُهُمُ اللَّهُ﴾ ناسخ
لقوله: ﴿وَمَا كَانَتْ اللَّهُ مُعَذِّبُهُمْ وَهُمْ
يَسْتَفْتِرُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي هذا نظر لأنه خبر لا يدخله
نسخ.

تفسير قوله عز وجل:
﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ﴾
بِالرْفَعِ «عِنْدَ النَّبِيِّ إِلَّا مُكَاةً»
بِالنَّصْبِ «وَتَضْيِيقٌ» كَذَلِكَ. وَرُوي
عَن عَاصِمٍ أَنَّهُ قَرَأَ ﴿صَلَاتُهُمْ﴾
بِالنَّصْبِ «إِلَّا مُكَاةً وَتَضْيِيقَةً»
بِالرْفَعِ، وَرُوي عَن سَلِيمَانَ الأَعْمَشِ
بِخِلَافِ عَنهُ فِيمَا حَكَى أَبُو حَاتِمٍ،
وَذَكَرَ أَبُو عَلِيٍّ عَن الأَعْمَشِ أَنَّهُ قَالَ
فِي قِرَاءَةِ عَاصِمٍ: أَفَإِنَّ لَحْنَ عَاصِمٍ

صَوْتٌ، والصدى: الصوت، ومنه قول الطُّرْمَاح يصف الأزوِّيَّةَ:

لَهَا كُلمًا رِيَعَتْ صَدَاةً وَرَكْدَةً

بِمِضْرَانٍ أَعْلَى ابْنِي شَعَامِ الْبَوَائِنِ
فيلتئم - على هذا الاشتقاق - قول من قال: هو التصفيق، وقول من قال: الضجيج، ولا يلتئم عليه قول من قال: هو الصَّدُّ والمنع إلا أن يُجعل التصويت إنما يقصد به المنع، ففسر اللفظ بالمقصود لا بما يخصه من معناه.

ويمكن أن تكون التصدية من صَدَّ يَصُدُّ، استعمل الفعل مضعفًا للمبالغة والتكثير لا لِيُعَدِّي فقليل: صَدَّدَ، وذلك أن الفعل الذي يتعدى إذا ضَعَفَ فإنما يُضَعَفُ للتكثير، إذ التعدي حاصل قبل التضعيف وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَبْرُؤُ﴾، والذي يُضَعَفُ لِيُعَدِّي هو كقولهم: عَلَّمَ وَعَزَّمُ، فإذا قلنا في صَدَّدَ: صَدَّدَ، ففَعَّلَ في الصحيح يجيء مصدره في الأكثر على تفعيل، وفي الأقل على تَفْعِيلَةٍ، مثل كَمَّلَ تَكْمِيلًا وَتَكْمِيلَةً وغير ذلك، بخلاف المعتل فإنه يجيء في الأكثر على تَفْعِيلَةٍ، مثل عَزَّى تَعَزِّيَةً، وفي الشاذ على تَفْعِيلٍ مثل قول الشاعر:

بَاتَ يُسَرِّزِي ذُلُوءَهُ تَسَرِّزِيًا

.....
وإذا كان فَعَّلَ في الصحيح يتسق فيه الجِثْلَانُ رُقُضَ فيه تفعلة مثل قولنا: تَصُدِّيَّةٌ، وَضِيْرٌ إلى تفعيل لتحول الياء بين المثليين كتخفيف وتشديد، فلما سلكوا في مصدر صَدَّدَ المسنَّك المرفوض أصلح ذلك بأن أبدل أحد الجِثْلَيْنِ ياءً كبدهم

في: تَطَّيَّبْتُ ونحوه، فجاء: تصدية، فعلى هذا الاشتقاق يلتئم قول من قال: التَّصُدِّيَّةُ: الصَّدُّ عن البيت والمنع.

ويمكن أن تكون التَّصُدِّيَّةُ من: صَدَّ يَصُدُّ - بكسر الصاد في المستقبل - إذا ضَجَّ، ويبدل أيضاً على هذا أحد المِثْلَيْنِ، ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ﴾ بكسر الصاد، ذكره النحاس.

وذهب أكثر المفسرين إلى أن المكاء والتَّصُدِّيَّةُ إنما أحدثها الكفار عند مبعث رسول الله ﷺ لتقطع عليه وعلى المؤمنين قراءةتهم وصلاتهم، ويخلط عليهم، فكان المصلي إذا قام يقرأ من المؤمنين اكتنفه من الكفار عن يمينه وشماله من يمكو ويصُدِّي حتى تختلط عليه قراءته، فلما نفى الله ولايتهم للبيت أمكن أن يعترض معترض بأن يقول: وكيف لا تكون أولياءه ونحن نسكنه ونصلي عنده؟ فقطع الله هذا الاعتراض بأن قال: «وما كان صلاتهم إلا المكاء والتَّصُدِّيَّةُ»، وهذا كما يقول الرجل: أنا أفعل الخير، فيقال له: ما فعلك الخير إلا أن تشرب الخمر وتقتل، أي: هذه عادتك وغايتك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي مرَّ بي من أمر العرب في غير ما ديوان أن المُكَّاءَ والتَّصُدِّيَّةُ كان من فعل العرب قديماً قبل الإسلام على جهة التقرب به والتَّشْرُوعُ، ورأيت عن بعض أقوياء العرب أنه كان يمكو على الصفا فيسمع من جبل حراء وبينهما أربعة

أميال. وعلى هذا يستقيم تعبيرهم وتَنَقُّصهم بأن شرعهم وصلاتهم وعبادتهم لم تكن رهبة ولا رغبة، إنما كانت مُكَّاءً وتَّصُدِّيَّةً من نوع اللعب، ولكنهم كانوا يتزايدون فيها وقت النبي ﷺ ليشغلوه وأتمته عن القراءة والصلاة.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرُونَا أَتَقَدَّبَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ إشارة إلى عذابهم ببدر بالسيف، قاله ابن جرير، والحسن، والضحاك، فيلزم من هذا أن هذه الآية الأخيرة نزلت بعد بدر ولا بد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأشبه أن الكل نزل بعد بدر حكاية عما مضى. والله ولي التوفيق برحمته.

﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال بعض الرواة، منهم ابن أبيزيد، وابن جبير، والسدي، ومجاهد: سبب نزول هذه الآية أن أبا سفيان أنفق في غزوة أحد على الأحابيش وغيرهم أربعين أوقية من الذهب أو نحو هذا، وأن الآية نزلت في ذلك. وقال ابن شهاب، ومحمد بن يحيى بن حبان، وعاصم بن عمر بن قتادة، والحصين بن عبد الرحمن بن عمرو بن سعد بن معاذ: إنه لما قُتِلَ من قُتِلَ ببدر اجتمع أبناؤهم وقرباتهم وقالوا لمن خلص ماله في العير: إن محمداً قد نال منا ما ترون، ولكن أعيوننا بهذا المال الذي كان سبب الوقعة، فلعلنا أن ننال منه ثأراً، ففعلوا فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى القولين فإنما أنفق المال في غزوة أحد، فأخبر الله تعالى في هذه الآية خبراً لفظه عام في الكفار، والإشارة به إلى مخصوصين أنهم ينفقون أموالهم يقصدون بذلك الصدء عن سبيل الله والدفع في صدر الإسلام، ثم أخبر خبراً يخص المشار إليهم أنهم ينفقونها ثم تكون عليهم حسرة، إذ لا تتم لهم إرادة وينهب المال باطلاً، والحسرة: التلهف على الفائت، ويحتمل أن تكون الحسرة في يوم القيامة والأول أظهر وإن كانت حسرة القيامة راتبة عليهم، وهذا من إخبار القرآن بالغبوب لأنه أخير بما يكون قبل أن يكون، فكان كما أخبر، قال ابن سلام: بين الله عز وجل أنهم يغلبون قبل أن يقاتلوا بسنة، حكاه الزهراوي.

ثم أخبر تعالى عن الكافرين أنهم يُجمعون إلى جهنم، والحشر: جمع الناس والبهائم إلى غير ذلك مما يُجمع ويُحضر، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا﴾، ومنه في التفسير أن السلوى طائر كانت الجنوب تحشره على بني إسرائيل، والقوم الذين جلتهم أبو سفيان وأنفق المال عليهم هم الأحابيش من كنانة، ولهم يقول كعب بن مالك:

وَجئْنَا إِلَى مَوْجٍ مِنَ الْبَحْرِ وَسَطُهُ
أَحَابِيشٌ مِنْهُمْ حَابِيسٌ وَمَقْتَعُ
ثَلَاثَةَ آلَافٍ وَنَحْنُ نَصِيبُهُ
ثَلَاثُ مِئَتَيْنِ إِنْ كَثُرْنَ فَأَرْبَعُ
وقال الضحاك وغيره: إن هذه الآية نزلت في نفقة المشركين الخارجين

إلى بدر الذين كانوا يذبحون يوماً عشراً ويوماً تسعاً من الإبل، وحكى نحو هذا النقاش.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿لِيَمِيزَ﴾ بفتح الياء وكسر الميم، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وشيبة بن نصاح، وشبل، وأبي عبد الرحمن، والحسن، وعكرمة، ومالك بن دينار. تقول: ميزت الشيء، والعرب تقول: ميزته فلم يَمِيزْ لي، حكاه يعقوب، وفي شاذ القراءة: ﴿وَانْمَازُوا الْيَوْمَ﴾، وأنشد أبو زيد: لَمَّا نَسَى اللَّهُ عَنِّي شَرَّ دَعْوَتِهِ وَانْمَزْتُ لَا مُنْشَأَ ذُفْرًا وَلَا وَجَلًا وَهُوَ مَطَاوِعُ: ماز.

وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لِيَمِيزَ﴾ بضم الياء وفتح الميم وشد الياء، وهي قراءة قتادة، وطلحة بن مصرف، والأعمش، والحسن أيضاً، وعيسى البصري، تقول: مَيِّزْتُ أَمِيزُ إِذَا فَرَقْتُ بَيْنَ شَيْئَيْنِ فَصَاعِدًا، وفي القرآن ﴿تَمِيزَ بَيْنَ الْفَاطِمَةِ﴾ فهو مطاوع مَيِّزٌ ومعناه: تنفصل. وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والسدي: المعنى بالخبيث الكفار، وبالطيب المؤمنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللام - على هذا التأويل - من قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلقة بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾، والمعنى أن الله يحشر الكافرين إلى جهنم ليميز الكافرين من المؤمنين بأن يجمع الكافرين جميعاً فيلقبهم في جهنم. ثم أخبر عنهم أنهم هم الخاسرون،

أي الذين خابت سعائتهم وثبت أيديهم وصاروا إلى النار. وقال ابن سلام، والزجاج: المعنى بالخبيث المال الذي أنفقه المشركون في الصدء عن سبيل الله، والطيب هو ما أنفقه المؤمنون في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللام - على هذا التأويل - من قوله: ﴿لِيَمِيزَ﴾ متعلقة بـ ﴿يُحْشَرُونَ﴾، والمعنى أن الكفار ينفقون أموالهم فتكون عليهم حسرة ثم يغلبون مع نفقتها، وذلك ليميز الله الفرق بين الخبيث والطيب فيخذل أهل الخبيث وينصر أهل الطيب، وقوله تعالى: - على هذا التأويل -: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فِي جَهَنَّمَ﴾ مرتب على ما روي عن رسول الله ﷺ: «إن الله تعالى يخرج من الأموال ما كان صدقة أو قربة يوم القيامة، ثم يأمر بسائر ذلك فيلقى في النار». وحكى الزهراوي عن الحسن أن الكفار يُعذَّبون بذلك المال، فهي كقوله تعالى: ﴿تَكُونُ بِهَا جَاهُهُمْ وَجُودُهُمْ وَظُهُورُهُمْ﴾، وقاله الزجاج، وعلى التأويلين فقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ فَزَكِّمَهُمْ جِيماً﴾ إنما هو عبارة عن جمع ذلك وضمه وتأليف أشناتيه وتكافئه بالاجتماع.

و(يَزَكِّمُهُ) في كلام العرب: يكفئه، ومنه: ﴿سَكَّابٌ تَزَكُّوهُ﴾ وركام، ومنه قول ذي الرُّمة:

رُحٌ بِالرَّمَامِ وَجَوْزُ اللَّيْلِ مَزَكُومٌ
وقوله تعالى: ﴿وَيَجْعَلُ الْخَبِيثَ﴾

بمعنى يُلقني، قاله أبو علي. ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَائِبُونَ﴾ - على هذا التأويل - يُرادُ به المنافقون من الكفار، ولفظة الخسارة تليق بهم من جهة المال وبغير ذلك من الجهات.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ كَفَرُوا﴾ الآية. أمر من الله عز وجل لِنبيه ﷺ أن يقول للكفار هذا المعنى الذي تضمنته ألفاظ قوله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، وسواء قاله النبي ﷺ في هذه العبارة أو غيرها، ولو كان الكلام كما ذكر الكسائي أنه في مصحف ابن مسعود: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَكُمْ﴾ لما تأدت الرسالة إلا بتلك الألفاظ بعينها، هذا بحسب ما تقتضيه الألفاظ. وقوله: ﴿إِنْ يَنْتَهُوا﴾ يريد به: عن الكفر ولا بُدَّ، والحامل على ذلك جواب الشرط بـ ﴿يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ومغفرة ما قد سلف لا تكون إلا لِمُنْتَهَبٍ عن الكفر. وقوله: ﴿وَإِنْ يَعُدُّوا﴾ يريد به: إلى القتال، لأن لفظة (عاد يعود) إذا جاءت مطلقة فإنها تتضمن الرجوع إلى حالة قد كان الإنسان عليها ثم تنقل عنها، ولسنا نجد في هذه الآية لهؤلاء الكفار حالة تشبه ما ذكرنا إلا القتال، ولا يصح أن يُتأول: ﴿وَإِنْ يَعُدُّوا﴾ إلى الكفر لأنهم لم ينفصلوا عنه، وإنما قلنا في (عاد): «إذا كانت مطلقة» لأنها قد تجيء في كلام العرب داخلة على الابتداء والخبر بمنزلة (صار)، وذلك كما تقول: «عاد زيد ملكاً» تريد: صار، ومنه قول أبي الصلت:

تِلْكَ الْمَكَارِمُ لَا قَعْبَانَ مِنْ لَبِينِ
شَيْبَا بِمَاءِ فَعَادَا بَعْدَ أَبْوَالَا
وهذه لا تتضمن الرجوع لحالة قد كان العائد عليها قَبْلُ، لكنها مُقَيِّدَةٌ بخبرها لا يجوز الاقتصار دونه، فحُكْمُ حُكْمِ (صار).

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ مَضَّتْ سُنَّتُ الْأَزْلَمِ﴾ تجمع الوعيد والتهديد والتشثيل بمن هلك من الأمم في سالف الدهر بعذاب الله حين صد في وجه نبيه، ويمتن هلك في يوم بدر بسيف الإسلام والشُّرْع، والمعنى: فقد رأيتم بيدٍ وسمعت من الأمم ما حلَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتخويف عليهم بيوم بدر أشدُّ، إذ هي القرية منهم والمُعَاتَبَةُ عندهم، وعليها نصُّ ابن إسحق، والسدي.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقْبَلُوهُمَ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةً﴾ الآية. أمر من الله عز وجل قَرَضَ به على المؤمنين أن يقاتلوا الكفار، والفتنة: قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناها: الشُّرْك، وقال ابن إسحق: معناها: حتى لا يُفْتَنَ أحدٌ عن دينه كما كانت قريش تفعل بمكة بمن أسلم كِبَالاً وغيره، وهو مقتضى قول عروة بن الزبير في جوابه لعبد الملك بن مروان حين سأله عن خروج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكُونُ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّهِ﴾ أي: لا يُشْرِكُ معه صنم ولا وَتَن، ولا يُعْبَدُ غيره. وقال قتادة: حتى تستويق كلمة الإخلاص «لا إله إلا الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه المعاني تتلازم كلها، وقال الحسن: حتى لا يكون بلاء، وهذا يلزم عليه القتال - في فتن المسلمين - الفتنه الباغية، وعلى سائر ما ذكرناه من الأقوال يكون المعتزل في فسحة، وعلى هذا جَاءَ قول عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «أما نحن فقد قاتلنا حتى لم تكن فتنة، وأما أنت وأصحابك فتريدون أن نقاتل حتى تكون فتنة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فذهب ابن عمر أن الفتنة: الشُّرْك في هذه الآية، وهو الظاهر، وفسر هذه الآية قول النبي ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله». ومن قال: المعنى حتى لا يكون شرك فالآية عنده يراد بها الخصوص فيمن لا تُقبل منه جزية، قال ابن سلام: وهي في مشركي العرب.

ثم قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَنْتَهُوا﴾ أي عن الكفر فإن الله بصير بعملهم مُجَازَ عليه، عنده ثوابه وجميل المقارضة عليه، وقرأ يعقوب بن إسحق، وسلام بن سليمان: ﴿بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ بالباء، أي في قتالكم وجِدِّكم وجلادكم عن دينه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ الآية، معادل لقوله: ﴿وَإِنْ أَنْتَهُوا﴾، والمعنى: فإن انتهوا عن الكفر فإله مجازيهم - أو مجازيكم على قراءة «تَفْعَلُونَ» -، وإن تولوا فاعلموا أن الله ينصركم عليهم، وهذا وعد محض بالنصر والظفر، أي: فجدوا.

والمولى هاهنا: الموالى والمُعِين. والمولى في اللغة على معانٍ هذا هو الذي يليق بهذا الموضع منها، والمولى الذي هو السيد المقترن بالعبد يعم المؤمنين والمشركين.

﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل: موضع ﴿أَنْ﴾ الشانبة رفع، والتقدير: «فحكمه أَنْ»، فهي في موضع رفع خير الابتداء. والغنيمة في الغلة ما يناله الرجل أو الجماعة بسعي، من ذلك قول الشاعر:

وقَدْ طُوِّفَتْ فِي الْأَفَاقِ حَتَّى
رَضِيَتْ مِنَ الْغَنِيْمَةِ بِالْإِيَابِ
وقال آخر:

مُطْعِمِ الْغَنَمِ يَوْمَ الْغَنَمِ مُطْعِمَهُ
أَتَى تَوَجُّهَ وَالْمَحْرُومُ مَحْرُومٌ

ومنه قول النبي ﷺ في الرهن: «له غنمه وعليه مخرجه» وقوله: «الصيام في الشتاء هو الغنيمة الباردة». فالشيء الذي يناله المسلمون من عدوهم بالسعي وإيجاف الخيل والركاب: غنيمة، ولزم هذا الاسم هذا المعنى حتى صار عرفاً له.

والفِيءُ مأخوذ من «فَاءَ يَفِيءُ» إذا رجع، وهو كل ما دخل على المسلمين من غير حرب ولا إيجاف كخروج الأرض، وجزية الجماجم، وخمس الغنيمة، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والزكوات أيضاً مال على جدته، أحكامه منفردة دون أحكام هذين، قال سفيان الثوري، وعطاء بن السائب: «الغنيمة: ما أخذ عتوة، والفيء: ما أخذ صلحاً». وهذا قريب مما بيّناه. وقال قتادة: «الفيء والغنيمة شيء واحد فيهما الخمس،

وهذه الآية التي في الأنفال ناسخة لقوله في سورة الحشر: ﴿مَا آتَاهُ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى﴾ وذلك أن تلك كانت الحُكْمُ أولاً، ثم أعطى الله أهلها الخمس فقط، وجعل الأربعة الأخماس في المقاتلين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف نص العلماء على ضعفه، وأن لا وجه له من جهات: منها أن هذه السورة نزلت قبل سورة الحشر، هذه ببدر، وتلك في بني النضير وقرى

عريثة. ولأن الآيتين متفقتان وحكم الخمس وحكم تلك الآية واحد لأنها نزلت في بني النضير حين جلوا وهربوا، وأهل فدك حين دعوا إلى صلح ونال المسلمين ما لهم دون إيجاف. وحكى ابن المنذر عن الشافعي أن في الفيء الخمس، وأنه كان في قرى عريثة زمن النبي ﷺ، وأن أربعة أخماسها كان للرسول ﷺ خاصة دون المسلمين يضعها حيث يشاء. وقال أبو عبيدة: «هذه الآية ناسخة لقوله تعالى في أول السورة: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ الآية، ولم يخمس رسول الله ﷺ غنائم بدر فنسخ حكمه في ترك التخميس بهذه الآية».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر من قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في البخاري: «كانت

﴿٤١﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ أمانتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أُرْسِلنا عَلَيْهِ نَاطِقِينَ يَوْمَ الْقُرْآنِ يَوْمَ النَّفْيِ الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدُورَةِ الدِّيَارِ وَهُمْ بِالْمُدُورَةِ الْفُصُوزِ وَالرَّكِبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خُفَّيْتُمْ فِي الْبَيْعِ وَلَا لَكِن لِيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكُمْ قَبِيلًا وَقَوْلًا كَثِيرًا لَقَمِيصًا وَلَنَنزِعَنَّ فِي الْأَمْرِ وَلَئِنْ أَرَادَ اللَّهُ بِالنَّاسِ سُلْمًا إِنَّهُ عَلَيْهِمْ ذَاتُ الصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذْ التَّفَيُّتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَبِيلًا وَقَوْلًا كَثِيرًا فِي أَعْيُنِهِمْ يَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٤٤﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾

لي شارف من نصيبي من المغنم ببدر، وشارف أعطانيها رسول الله ﷺ من الخمس حينئذ أن غنيمة بدر خمست، فإن كان ذلك فسد قول أبي عبيدة. ويحتمل أن يكون الخمس الذي ذكره علي بن أبي طالب من إحدى الغزوات التي كانت بين بدر وأحد، فقد كانت غزوة بني سليم، وغزوة السويق، وغزوة ذي أمر، وغزوة بخران، ولم يحفظ فيها قتال ولكن يمكن أن غنمت غنائم. والله أعلم.

وقوله تعالى في هذه الآية: ﴿يَوْمَ النَّفْيِ﴾ ظاهره عام ومعناه الخصوص، فأما النَّافِئُ والمتاع والأطفال والنساء وما لا يؤكل لحمه من الحيوان ويصح تملكه فليس للإمام في جميع ذلك ما كثر منه وما قل كالخيط والمخيط إلا أن يأخذ الخمس ويقسم

الباقى في أهل الجيش، وأما الأرض فقال فيها مالك: يُقَسِّمُهَا الإمام إن رأى ذلك صواباً كما فعل النبي ﷺ بخيبر، ولا يُقَسِّمُهَا إن أذاه اجتهاده إلى ذلك كما فعل عمر رضي الله عنه بأرض مصر وسواد الكوفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن فعل عمر رضي الله عنه ليس بمخالف لفعل النبي ﷺ، إذ ليست النازلة واحدة بحسب قرائن الوقتين وحاجة الصحابة وقتلتهم، وهذا كله انعكس في زمان عمر رضي الله عنه، وأما الرجال ومن شارف البلوغ من الصبيان فالإمام - عند مالك وجمهور العلماء - مُخَيَّرٌ فيهم على خمسة أوجه، منها: القتل، وهو مُسْتَحْسَنٌ في أهل الشجاعة والنكاية، ومنها: الفداء، وهو مُسْتَحْسَنٌ في ذي المنصب الذي ليس بشجاع ولا يُخَافُ منه رأي ولا مكيدة لانتفاع المسلمين بالمال الذي يؤخذ منه، ومنها: المَنُّ، وهو مُسْتَحْسَنٌ فيمن يرجى أن يحتو على أسرى المسلمين ونحو ذلك من القرائن، ومنها الاسترقاق، ومنها: ضرب الجزية والترك في الذمَّة. وأما الطعام والغنم ونحوهما مما يؤكل فهو مباح في بلد العدو يأكله الناس فما بقي كان في المغنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما أربعة أخماس ما غنم فيقسمه الإمام على الجيش، ولا يختص بهذه الآية ذكر القسمة فأنا أختصره هنا، وأما الخمس فاختلف العلماء فيه.

قال مالك رحمه الله: الرأي فيه للإمام يلحقه بيت الفيء، ويعطي من ذلك البيت لقرابة رسول الله ﷺ ما رآه، كما يعطي منه اليتامى والمساكين وغيرهم، وإنما ذكر من ذكر على وجه التنبيه عليهم لأنهم من أهم من يدفع إليه. قال الزجاج محتجاً لمالك: قال الله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنفَقْتُ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسْكِينِ وَآيِنَ السَّبِيلِ﴾، وللإمام بإجماع أن ينفق في غير هذه الأصناف إذا رأى ذلك.

وقالت فرقة: كان الخمس يُقَسَّمُ على ستة أقسام: قسم لله وهو مردود على فقراء المسلمين أو على بيت الله، وقسم للنبي ﷺ، وقسم لقرابته، وقسم لسائر من سمي، حكى القول منذر بن سعيد، وزد عليه، قال أبو العالية الرياحي: كان النبي ﷺ يقبض من خمس الغنيمة قُبْضَةً فيجعلها للكعبة، فذلك لله، ثم يقسم الباقي على خمسة، قسم له، وقسم لسائر من سمي.

وقال الحسن بن محمد، وابن عباس، وإبراهيم النخعي، وقتادة، والشافعي: قوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ حُسْبًا﴾ استفتاح كلام كما يقول الرجل لعبده: «قد أعتقتك الله وأعتقتك» على جهة التبرُّك وتفخيم الأمر، والدنيا كلها لله، وقسم الله وقسم الرسول واحد، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام يقسم الخمس على خمسة أقسام كما تقدَّم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً فيما روى عنه الطبري: الخمس

مقسم على أربعة أقسام، وسهم الرسول ﷺ لقرابته وليس لله ولا للرسول شيء.

وقالت فرقة: قسم الرسول ﷺ بعد موته مردود على أهل الخمس، القرابة وغيرها. وقالت فرقة: هو مردود على الجيش أصحاب الأربعة الأخماس، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: يلي الإمام منهم سهم الله ورسوله. وقالت فرقة: هو موقوف لشراء العُدَّة والكِرَاع في سبيل الله.

وقال إبراهيم النخعي: وهذا الذي اختاره أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فيه.

وقال أصحاب الرأي: الخمس بعد النبي ﷺ مقسوم ثلاثة أقسام: قسم لليتامى، وقسم للمساكين، وقسم لابن السبيل، ورسول الله ﷺ لم يورث فسقط سهمه وسهم ذوي القربى، وحجتهم فيه منع أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم لذوي القربى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يثبت المنع، بل عورض بنو هاشم بأن قريشاً قُزِيبٌ، وقيل: لم يكن في مدة أبي بكر رضي الله عنه مغنم.

وقال الشافعي: يعطى أهل الخمس منه ولا بُدُّ ويُفَضَّلُ الإمام أهل الحاجة ولكن لا يحرم صنفاً منهم حرماناً تاماً. وقول مالك رحمه الله: إن للإمام أن يعطي الأحوج وإن حرم الغير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان رسول الله ﷺ مخصصاً من

الغنيمة بثلاثة أشياء، كان له خمس الخمس، وكان له سهم رجل في سائر الأربعة الأقسام، وكان له صفيّ يأخذه قبل القسمة، دابة أو سيف أو جارية، ولا صفيّ لأحد بعده بإجماع إلا ما قال أبو ثور من أن الصفيّ باق للإمام، وهو قول معدود في شواذ الأفعال.

وذو القربى: قرابة رسول الله ﷺ، فقال علي ابن الحسين، وعبدالله بن الحسن، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم: «هم بنو هاشم فقط»، قال مجاهد: كان آل محمد ﷺ لا تحل لهم الصدقة فجعل لهم خمس الخمس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولكن أبى ذلك علينا قَوْمًا وقالوا: «قريش كلها قريبي». وقال الشافعي رحمه الله: «هم بنو هاشم وبنو المطلب فقط». وقال رسول الله ﷺ لعثمان بن عفان، وجبير بن مطعم في وقت قسمة سهم ذوي القربى من خيبر على بني هاشم وبنو المطلب: «إنما بنو هاشم وبنو المطلب شيء واحد، ما فارقونا في جاهلية ولا في إسلام».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كانوا مع بني هاشم في الشعب. وقالت فرقة: قريش كلها قريبي، وروي عن علي بن الحسين، وعبدالله بن محمد بن علي رضي الله عنهم أنهما قالا: «الآية كلها في قريش»، والمراد يتامى قريش ومساكنها.

وقالت فرقة: سهم القرابة بعد النبي ﷺ موقوف على قرابته، وقد

بعثه إليهم عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه، إلى بني هاشم وبنو المطلب فقط. وقالت فرقة: هو لقرابة الإمام القائم بالأمر، وقال قتادة: كان سهم ذوي القربى طغمة لرسول الله ﷺ ما كان حياً، فلما توفي جعل لولي الأمر بعده، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري. وحكى الطبري أيضاً عن الحسن أنه قال: اختلف الناس في هذين السهمين بعد وفاة النبي ﷺ، فقال قوم: سهم النبي ﷺ للخليفة، وقال قوم: سهم النبي ﷺ لقرابة النبي ﷺ، وقال قوم: سهم القرابة لقرابة الخليفة، فاجتمع رأيهم على أن يجعلوا هذين السهمين في الخيل والعدة، فكان على ذلك مدة أبي بكر رضي الله عنه. قال غير الحسن: وعمر.

واليتامى: الذين فقدوا آباءهم من الصبيان، واليتيم في بني آدم من قبل الآباء، وفي البهائم من قبل الأمهات. والمسكين: الذين لا شيء لهم، وهو مأخوذ من السكون وقلة الحراك. وابن السبيل: الرجل المجتاز الذي قد احتاج في سفر، وسواء كان غنياً في بلده أو فقيراً فإنه ابن السبيل، يُسَمَّى بذلك إما لأن السبيل تبرزه فكانها تلده، وإما لملازمته السبيل كما قالوا: ابن ماء وأخو سفر، ومنه قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة ابن زنى»، وقد تقدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد اقتضيت فقه هذه الآية حسب الاختصار، والله المستعان.

﴿وَمَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا غَنَمْتُمْ﴾ بمعنى الذي، وفي قوله: ﴿غَنِمْتُمْ﴾ ضمير يعود عليها، وحكي عن الفراء أنه جوز أن تكون ﴿وَمَا﴾ شرطية بتقدير: «أنه ما»، وحذف هذا الضمير لا يجوز عند سيبويه إلا في الشعر، ومنه:

إِنْ مَنْ يَدْخُلِ الْكَنْيَسَةَ يَوْمًا

وقرأ الجمهور: ﴿فَأَنَّ لِلَّهِ﴾ بفتح الهمزة، وقرأ الجعفي عن أبي بكر عن عاصم، وحسين عن أبي عمرو: ﴿فَإِنْ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ الحسن: ﴿خُفْصَةَ﴾ بسكون الميم.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ﴾ الآية، قال الزجاج عن فرقة: المعنى: فاعلموا أن الله مولاكم إن كنتم، ف﴿إِنْ﴾ متعلقة بهذا الوعد، وقال أيضاً عن فرقة: إنها متعلقة بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصحيح لأن قوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ يتضمن الأمر بانقياد وتسليم لأمر الله في الغنائم، فعلق ﴿إِنْ﴾ بقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا﴾ على هذا المعنى، أي: إن كنتم مؤمنين بالله فانقادوا وسلموا لأمر الله فيما أعلمكم به من حال قسمة الغنيمة. وقوله: ﴿وَمَا أَرْزَأْنَا﴾ عطف على قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾، والمشار إلي ب﴿وَمَا﴾ هو النصر والظهور الذي أنزله الله تبارك وتعالى يوم بدر على نبيه وأصحابه، أي: إن كنتم مؤمنين بالله وبهذه الآيات والعظامم الباهرة التي أنزلت يوم بدر، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى قرآن نزل يوم بدر أو في

قصة يوم بدر على تكوُّره في هذا التأويل الأخير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون المعنى: واعلموا أما غنيمتكم يوم الفرقان يوم التقى الجمعان فإن حُسمه لكذا أو كذا إن كنتم آمنتم، أي: فانقادوا لذلك وسلموا، وهذا تأويل حسن في المعنى. ويعترض فيه الفصل بين الظرف وما تعلق به بهذه الجملة الكثيرة من الكلام.

﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ معناه: يوم الفرق بين الحق والباطل بإعزاز الإسلام وإذلال الشرك. والفرقان: مصدر من فَرَّقَ يَفْرُقُ. والجمعان: يريد جمع المسلمين وجمع الكفار، وهو يوم الواقعة التي قُتل فيها صناديد قريش ببدر، ولا خلاف في ذلك، وعليه نصُّ ابن عباس، ومجاهد، ومقسم، والحسن بن علي، وقتادة، وغيرهم، وكانت يوم الجمعة السابع عشر من رمضان في السنة الثانية من الهجرة، هذا قول جمهور الناس، وقال أبو صالح: يتسع عشرة، وشك في ذلك عروة بن الزبير وقال: لتسع عشرة أو لسبع عشرة. والصحيح ما عليه الجمهور.

وقوله عز وجل: ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ يعضد أن قوله: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا﴾ يراد به النصر والظفر، أي الآيات والعظائم من غلبة القليل الكثير، وذلك بقدرة الله تعالى الذي هو على كل شيء قدير.

﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل: العامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿التَّقَى﴾، والعدوة: سفير الوادي وحزفه الذي

يتعذر المشي فيه، بمنزلة رجا البئر، لأنها عدت ما في الوادي من ماء ونحوه أن يتجاوز الوادي، أي منته، ومنه قول الشاعر:

عَدْتَنِي عَن زِيَارَتِكَ الْعَوَادِي
وَحَالَتْ دُونَهَا حَزْبُ زَيْونَ
وَلَأَنهَا مَا عَدَا الْوَادِي، أَي جَاوَزَهُ،
وَتُسَمَّى الضُّفَّةَ وَالْفَضَاءَ الْمَسَايِرَ
لِلْوَادِي عُدَّةٌ لِلْمَجَاوِرَةِ، وَهَذِهِ هِيَ
الْعُدَّةُ الَّتِي فِي الْآيَةِ.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمره، والكسائي: ﴿بِالْمُدَوَّةِ﴾ بضم العين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿بِالْعِدْوَةِ﴾ بكسر العين، وهما لغتان، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، وعمرو: ﴿بِالْمُدَوَّةِ﴾ بفتح العين، ويمكن أن تكون تسمية بالمصدر، قال أبو الفتح: الذي في هذا أنها لغة ثالثة كقولهم في اللبن: رُغْوَةٌ وَرِغْوَةٌ وَرِغْوَةٌ، وروى الكسائي: كَلِمَتُهُ بِحَضْرَةِ فَلَانٍ وَحَضْرَتِهِ وَحَضْرَتِهِ، إِلَى سَائِرِ نِظَائِرِ ذَكَرَ أَبُو الْفَتْحِ كَثِيرًا مِنْهَا.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي﴾ و﴿الْفُصْرَيْنِ﴾ إنما هو بالإضافة إلى المدينة، وفي حرف ابن مسعود: ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْمُدَوَّةِ الْعُلْيَا وَهَمَّ بِالْعُدْوَةِ السُّفْلَى﴾، ووادي بدر أخذ بين الشرق والقبلة منحرف إلى البحر الذي هو قريب من ذلك الصُّقْع، والمدينة من الوادي من موضع الواقعة منه في الشرق، وبينهما مرحلتان، حدثني أبي أنه رأى هذه المواضع على ما وصفت. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «بدرٌ بين

مكة والمدينة»، والدنيا من الدنوة، والقُصوى من القُصو وهو البعد، وكان القياس أن تكون القُصيا لكنه من الشاذ، وقال الخليل في «العَيْن»: «شَدَّتْ لَفْظَتَانِ هُمَا الْقُصَوَى وَالْفَتَوَى، وَكَانَ الْقِيَاسُ فِيهِمَا بِالْيَاءِ كَالدُّنْيَا وَالْعُلْيَا».

﴿وَالرَّكْبِ﴾ بإجماع من المفسرين: عَيْرُ أَبِي سَفْيَانَ، وَلَا يُقَالُ «رَكْبٌ» إِلَّا لِرُكَابِ الْإِبِلِ، وَهُوَ مِنْ أَسْمَاءِ الْجَمْعِ، وَقَدْ يَجْمَعُ «رَاكِبٌ» عَلَيْهِ كصاحب وضخ وتاجر وتَجْرٌ، وَلَا يُقَالُ «رَكْبٌ» لِمَا كَثُرَ جَدًّا مِنَ الْجَمْعِ. وقال القتيبي: «الرَّكْبُ: العشرة ونحوها»، وهذا غير جيد لأن النبي ﷺ قد قال: «والثلاثة ركبٌ». وقوله: ﴿أَسْفَلَ﴾ في موضع خفض تقديره: «في مكان أسفل»، كذا قال سيبويه، قال أبو حاتم: «نصب أسفل على الظرف»، ويجوز «الركب أسفل» على معنى: وموضع الركب أسفل، أو الركب مستقر أسفل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان الركب ومُدَبِّرُ أمره أبو سفيان قد نكَّب عن بدر حين نَزِدَ بالنبي ﷺ، وأخذ سيفَ البحر فهو أسفل بالإضافة إلى أعلى الوادي من حيث يأتي، وقال مجاهد في كتاب الطبري: أقبَل أبو سفيان وأصحابه بالشام تجاراً لم يشعروا بأصحاب بدر، ولم يشعر أصحاب (محمد ﷺ) بكفار قريش، ولا كفار قريش بمحمد ﷺ وأصحابه حتى التقوا على الماء ببدر، من يسقي لهم كلهم، فاقتلوا فغلبهم أصحاب محمد ﷺ فأسروهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا تعقب. وكان من هذه الفرق شعور بين من الوقوف على القصة بكمالها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لِاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَاتِ﴾، قال الطبري وغيره: لتواعدتم على الاجتماع ثم علمتم كثرتهم وقتلتكم لخالفتم ولم تجتمعوا معهم. وقال المهدي: المعنى: أي لاختلفتم بالقواطع والعارضات القاطعة بالناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أنبئ وأصح وإيضاحه أن المقصد من الآية تبيين نعمة الله تبارك وتعالى وقدرته في قصة بدر وتيسيره ما يسر من ذلك، والمعنى: إذ هيأ الله لكم هذه الحال، ولو تواعدتم لاختلفتم إلا مع تيسير الله الذي تم ذلك، وهذا كما تقول لصاحبك في أمر سئاه الله دون تعب كثير: لو يتينا على هذا وسعينا فيه لم يتم هكذا. ثم بين تعالى أن ذلك كان بلطف الله عز وجل ليقتضي أمراً، أي ليُنْفِذَ ويُظهِرَ أمراً قد قدره في الأزل مفعولاً لكم بشرط وجودكم في وقت وجودكم، وذلك كله معلوم عنده.

وقوله تعالى: ﴿إِيهَالِكُ مَن هَالِكُ عَن بَيْتِي﴾، قال الطبري: المعنى: ليُقتل من قتل من كفار قريش وغيرهم ببيان من الله وإعذار بالرسالة، ويحيا أيضاً ويعيش من عاش عن بيان منه أيضاً وإعذار لا حجة لأحد عليه، فالهلاك والحياة - على هذا التأويل - حقيقتان. وقال ابن إسحق وغيره: معنى ﴿إِيهَالِكُ﴾ أي ليُكْفَرُ، ﴿وَيَحْيَى﴾ أي ليُؤْمَنَ،

فالهلاك والحياة - على هذا - مستعارتان، والمعنى أن الله تعالى جعل قصة بدر عبرة وآية ليؤمن من آمن عن وضوح وبيان، ويكفر أيضاً من كفر عن مثل ذلك.

وقرأ الناس: ﴿إِيهَالِكُ﴾ بكسر اللام الثانية، وقرأ الأعمش: ﴿لِيَهَالِكُ﴾ بفتح اللام، ورواها عصمة عن أبي بكر عن عاصم. واليئة صفة، أي قضية بيئة، واللام الأولى في قوله: ﴿إِيهَالِكُ﴾ رُدُّ على اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَقْتِي﴾.

وقرأ ابن كثير - في رواية قبيل - وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية حفص -: ﴿مَن حَيٌّ﴾ بياء واحدة مشددة، وقرأ نافع، وابن كثير - في رواية البرقي - وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿مَن حَيِّي﴾ بإظهار الياءين وكسر الأولى وفتح الثانية. فمن قرأ ﴿حَيٌّ﴾: فلأن الياء قد لزمته الحركة فصار الفعل بلزوم الحركة لها مشبهاً بالصحيح مثل عضّ وشتمّ ونحوه، ألا ترى أن حذف الياء من (جوار) في الجزر والرفع لا يطرد في حال النصب إذ قلت: «رأيت جواربي» لمشابقتها بالحركة سائر الحروف الصحاح، ومنه قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا لَكَ مِنَ الْأُذُنِ ﴿١٠﴾﴾، وعلى نحو ﴿حَيٌّ﴾ جاء قول الشاعر:

عَبُوا بِأَمْرِهِمْ كَمَا
عَيَّتْ بِبَيْضَتِهَا الْحَمَامَةُ

ومنه قول لبيد:

سَأَلْتَنِي جَارَتِي عَن أُمَّتِي
وَإِذَا مَا عَيُّ ذُو اللَّبِّ سَأَلْ

وقول المتلمس:

هَذَا أَرَأَى الْعِرْضُ حَيُّ دُبَابُهُ
زُنَابِيرُهُ وَالْأَزْرَقُ الْمُتَلَمَّسُ
ويروي: حَيُّ دُبَابُهُ.

قال أبو علي وغيره: هذا أن كل موضع تلزم الحركة فيه بقاء مستقبله فالإدغام في ماضيه جائز، ألا ترى أن قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنْ يَخْتِي أَلْمُونَ﴾ لا يجوز الإدغام فيه لأن حركة النصب غير لازمة؟ ألا ترى أنها تزول في الرفع وتذهب في الجزم؟ ولا يلتفت إلى ما أنشد بعضهم لأنه بيت مجهول:

وَكَأَنَّهَا بَيْنَ النَّسَاءِ سَيْكَةٌ
تَمُشِي لِسُدَّةٍ بَيْنَتِهَا فَشَعِي
قال أبو علي: وأما قراءة من قرأ: ﴿حَيِّي﴾ فبين ولم يُذغِم، فإن سيبويه قال: أخبرنا بهذه اللغة يونس، قال: وسمعنا بعض العرب يقول: «أحياء»، قال أبو حاتم: القراءة إظهار الياءين والإدغام حسن، فاقراً كيف تعلمت فإن اللغتين مشهورتان في كلام العرب، والخطأ بقاء واحدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذه اللفظة استوعب أبو علي القول فيما تصرف من (حيي) كالحني الذي هو مصدر منه وغيره.

﴿١٢﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قال المهدي: ﴿إِذْ﴾ نصب بتقدير: واذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو بدل من ﴿إِذْ﴾ المتقدمة، وهو أحسن. وتظاهرت الروايات أن هذه الآية نزلت في رؤيا رآها رسول الله ﷺ، رأى فيها عدد الكفار قليلاً فأخبر بذلك أصحابه فقويت نفوسهم،

الأخرى فوق الخلل في التخمين والحزر الذي يستعمله الناس في هذا التجسس كل طائفة على الأخرى وتتسبب أسباب الحرب، وزوي في هذا عن عبدالله بن مسعود أنه قال: لقد قلت ذلك اليوم لرجل إلى جنبي: أنتظهم سبعين؟ قال: بل هم مائة. قال: فلما هزمتهم أسرنا منهم رجلاً قتلنا: كم كنتم؟ قال: ألفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرد على هذا المعنى في التقليل ما روي أن رسول الله ﷺ حين سأل عما ينحرون كل يوم فأخبر أنهم يوماً عشراً ويوماً تسعاً قال: هم ما بين التسعمائة إلى الألف، فإما أن عبدالله ومن جرى مجراه لم يعلم بمقالة رسول الله ﷺ، وإما أن نفرض التقليل الذي في الآية تقليل القدر والمهابة والمنزلة من النجدة. وتقدم القول في مثل قوله تعالى: ﴿لَيَقْضَى اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾، والأمر المفعول المذكور في الآيتين هو القصة بأجمعها، وذهب بعض الناس إلى أنهما المعنيين من معاني القصة، والعموم أولى.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلَى اللَّهِ رُجْعُ الْأُمُورِ﴾ تنبيه على أن الحول بأجمعه لله تبارك وتعالى، وأن كل أمر قلته وإليه. وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، والأعمش: ﴿تَرْجِعُ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم، قال أبو حاتم: وهي قراءة عامة الناس. وقرأ الأعرج، وابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وغيرهم: ﴿تَرْجِعُ﴾ بضم التاء وفتح الجيم.

٤٧ - تفسير قوله عز وجل: هذا أمر فيه داعية إلى النصر وسبب

بخلاف ما علم؟ والظاهر أنه رآهم في نومه قليلاً قذوهم وحالهم وبأسهم مهزومين مصروعين، ويحتمل أنه رآهم قليلاً عددهم فكان تأويل رؤياه انهزامهم، فالقلة والكثرة على الظاهر مستعارة في غير العدد، كما قالوا: «المرء كثير بأخيه» إلى غير ذلك من الأمثلة. والفشل: الحور عن الأمر إما بعد التلبس وإما بعد العزم على التلبس. و«وتنزعنكم» أي: لتخالفتن، و«في الأمر» يريد: في اللقاء والحرب. و«سكنم» لفظ

يعتم كل متخوف اتصل بالأمر أو عرض في وجهه فسلم الله من ذلك كله، وعبر بعض الناس بأن قال: سلم لكم أمركم ونحو هذا مما يندرج فيما ذكرناه، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِ يَدَاتُ الشُّدُورِ﴾ أي: بإيمانكم وكفركم فيجازي بحسب ذلك.

وقرأ الجمهور من الناس: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ سَكَنٌ﴾ بشد النون ونصب المكتوبة، وقرأت فرقة: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ﴾ برفع المكتوبة.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ التَّيَمَّتْ﴾ الآية. ﴿وَإِذْ﴾ عطف على الأولى، وهذه الرؤية هي في اليقظة بإجماع، وهي الرؤية التي كانت حين التقوا ووقعت العين على العين، والمعنى أن الله تعالى لما أراد من إنفاذ قضائه في نُصرة الإسلام وإظهاره قُلل كل طائفة في عيون

وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّجُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيكُوهُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٤٥﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ يَمَّا يَمْلِكُونَ مُحِيطٌ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ زَيْنٌ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَنْعَمَلَهُمْ وَقَالَ لَأَغْلِبَنَّ لَكُمْ يَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَآتِ الْفِيئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٧﴾ إِذْ يَكْفُرُونَ الْمُنْفِقُونَ أَلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّهُ هَوَاهُ وَدِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٨﴾ وَأَلَّذِينَ إِذْ يَبِغُونَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَالْمَلَكَةُ بَصُرِيُونَ وَجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٤٩﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَئْسَ يَظْلِمَ لَعْنَةً ﴿٥٠﴾ كَذَابٌ مَالِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٥١﴾

وحرصوا على اللقاء، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿فِي مَنَائِكَ﴾، أي في نومك، قاله مجاهد وغيره.

وروي عن الحسن أن معنى قوله: ﴿فِي مَنَائِكَ﴾ أي في عينك إذ هي موضع النوم، وعلى هذا التأويل تكون الرؤية في اليقظة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول ضعيف، وعليه فسر النقاش وذكره عن المازني. والضمير على التأويلين من قوله: ﴿يُرِيكُمُوهُمْ﴾ عائد على الكفار من أهل مكة، ومما يضعف ما روي عن الحسن أن معنى هذه الآية يتكرر في التي بعدها لأن النبي ﷺ مخاطب في الثانية أيضاً، وقد تظاهرت الرواية أن النبي ﷺ انتبه وقال لأصحابه: «أبشروا فلقد نظرت إلى مصارع القوم» ونحو هذا، وقد كان علم أنهم ما بين التسعمائة إلى الألف، فكيف يراهم ببصره.

العز، وهي وصية من الله متوجهة بسبب التقيد الذي في آية الضعف. ويجري مع معنى الآية قول النبي ﷺ: «لَا تَتَمَتَّنُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْعَافِيَةَ، فَإِذَا لَقِيتُمُوهُمْ فَانْبِتُوا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهكذا ينبغي أن يكون المسلم في ولاية الإمارة والقضاء لا يطلب ولا يتمنى، فإن ابتلي صبر على إقامة الحق.

والفتنة: الجماعة، أصلها فتوة وهي من فأوت أي جمعت. ثم أمر الله تعالى بإكثار ذكره هنالك إذ هو عصمة المستنجد ووزر المستمين، قال قتادة: افترض الله ذكره عند أشغل ما يكونون، عند الضراب بالسيوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا ذكر خفي لأن رفع الأصوات في موطن القتال رديء مكروه إذا كان ألفاظاً، فأما إن كان من الجميع عند الحملة فحسن فأت في عضد العدو. وقال قيس بن عباد: كان أصحاب رسول الله ﷺ يكرهون الصوت عند ثلاث: عند قراءة القرآن، وعند الجنائز، والقتال. وقال النبي ﷺ: «اطلبوا إجابة الدهاء عند القتال، وإقامة الصلاة، ونزول الغيث»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يكره التلثم عند القتال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولهذا - والله أعلم - تيمّن المرابطون بطرحه عند القتال على ضانتهم به. و«تَلْتُمُونَ»: تنالون بغيتكم

وتبطلون آمالكم، وهذا مثل قول لبيد:

أَلِحَ بِمَا شِئْتَ فَقَدْ يَبْلُغُ بِالضَّعْفِ
وَقَدْ يُخَذُّ الأَرِيْبُ

وقوله تعالى: «وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ» الآية. استمرار على

الوصية والأخذ على أيديهم في اختلافهم في أمر بدر وتنازعهم.

و«نَفْسَلُوا»: نصب بالفاء في جواب النهي، قال أبو حاتم في كتاب

«إبراهيم»: «فَتَفْسَلُوا» بكسر الشين، وهذا غير معروف. وقرأ جمهور

الناس: «وَيَذْهَبُ» بالتاء من فوق ونصب الباء، وقرأ مُبَيَّنَةٌ عن

حفص عن عاصم: «وَيَذْهَبُ» بالتاء وجزم الباء، وقرأ عيسى بن

عمر: «وَيَذْهَبُ» بالياء من تحت ويجزم «يَذْهَبُ»، وقرأ أبو حيو:

«وَيَذْهَبُ» بالياء من تحت ونصب الباء، ورواها أبيان، وعصمة عن

عاصم. والجمهور على أن الريح هنا مستعارة والمراد بها النصر

والقوة، كما تقول: «الريح لفلان» إذا كان غالباً في أمر، ومن هذا

المعنى قول الشاعر وهو عبيد بن الأبرص:

كَمَا حَمَيْتَكَ يَوْمَ الثَّغْبِ مِنْ شَطِيبِ
وَالْفَضْلِ لِلْفُؤْمِ مِنْ رِيحٍ وَمِنْ عَدِيدِ

وقال مجاهد: الريح: النصر والقوة، وذعبت ريح أصحاب

محمد ﷺ حين نازعوه يوم أحد. وقال زيد بن علي: «وَيَذْهَبُ رِيْحَكَ»

معناه: الرعب من قلوب عدوكم. قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا حسن بشرط أن يعلم العدو بالتنازع، وإذا لم يعلم فالذاهب قوة

المتنازعين فينهزمون، وقال شاعر الأنصار:

قَدْ عَوَّدْتُهُمْ طِبَاهِمَ أَنْ تَكُونَ لَهُمْ
رِيْحُ القِتَالِ وَأَسْلَابُ الَّذِينَ لَقُوا

ومن استعارة الريح قول الآخر:

إِذَا هَبَّتْ رِيْحُكَ فَاعْتَمِنْمَهَا
فَإِنَّ لِكُلِّ عَاصِفَةٍ سَكُونًا

وهذا كثير مستعمل. وقال ابن زيد وغيره: الريح على بابها، وروي أن

النصر لم يكن قط إلا بريح تهب فتضرب في وجوه الكفار، واستند بعضهم في هذه المقالة إلى

قوله ﷺ: «فَنَصَرْتُ بِالضَّبَا»، وقال الحكم: «وَيَذْهَبُ رِيْحَكَ» يعني الضبا

إذ بها نصر محمد ﷺ وأمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إنما كان في غزوة الخندق

خاصة، وقوله: «وَأَسْرَدًا» إلى آخر الآية تنميش في الوصية وعدة مؤنسة.

وقوله تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ» الآية. آية

تتضمن الطعن على المشار إليهم وهم كفار قريش، وخُزج ذلك على

طريق النهي عن سلوك سبيلهم، والإشارة هي إلى كفار قريش

بإجماع. والبَطْر: الأشر وعَمَطُ النعمة والشغل بالمرح فيها عن

شكرها، والرِيَاءُ: المباهاة والتصنع بما يراه غيرك، وهو يقال من: رأى

يُرَائِي، سُهَلتَ همزته، وروي أن أبا سفيان لما أحس أنه تجاوز بغيره

الخوف من النبي ﷺ وأصحابه بعث إلى قريش فقال: «إن الله قد سلم

عيركم التي خرجتم إلى نصرتها فأرجعوا سالمين قد بلغتكم مرادكم»، فأتى رأي الجماعة على ذلك، فقال

أبو جهل: «والله لا نفعل حتى نأتي بدرأ - وكانت بدر سوقاً من أسواق العرب لها يوم موسم - فنتحر عليها الإبل، ونشرب الخمر، وتعزف علينا القيان، ويسمع بنا العرب، ويهابنا الناس».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَرَبَّانَا أَنبِئْنَا﴾، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنْ قَرِيشاً أَقْبَلْتَ بِفَخْرِهَا وَخِيَلَتِهَا تَحَاذُكَ وَتَكْذِبُ رَسُولَكَ، اللَّهُمَّ فَأَجْنِئِهَا الْغَدَاةَ»، وقال محمد بن كعب القرظي: خرجت قريش بالقيان والدفوف.

وقوله تعالى: ﴿يَسْئُرُونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي غيرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنهم أحرى بذلك من أن يقتصر صدهم على أنفسهم. وقوله: ﴿وَأَلَّهُ يَمًا يَمْلُونَ مُحِيطًا﴾ آية تتضمن الوعيد والتهديد لمن بقي من الكفار، ونفوذ القدر فيمن مضى بالقتل.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

التقدير: واذكروا إذ، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائذ على الكفار، والشيطان: إبليس نفسه. وحكى المهدي وغيره أن التزيين في هذه الآية وما بعده من الأقوال هو بالوسوسة والمحادثة في النفوس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويضعف هذا القول أن قوله:

﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ ليس مما يلقي بالوسوسة. وقال الجمهور في ذلك بما روي وتظاهر أن إبليس جاء كفار قريش، ففي السير لابن هشام أنه جاءهم بمكة، وفي غيرها أنه جاءهم

وهم في طريقهم إلى بدر وقد لحقهم خوف من بني بكر وكنانة لحروب كانت بينهم، فجاءهم إبليس في صورة سراقه بن مالك بن جعشم وهو سيد من ساداتهم، وقال لهم:

﴿إِنِّي جَارٌ لَّكُمْ، وَلَنْ تَخَافُوا مِنْ قَوْمِي وَهُمْ لَكُمْ أَصْوَانٌ عَلَى مَقْصِدِكُمْ، وَلَنْ يَغْلِبَكُمُ أَحَدٌ، فَسُرُوا عِنْدَ ذَلِكَ وَمَضُوا لِيُطِيبَتْهُمْ، وَقَالَ لَهُمْ: «أَنْتُمْ تَقَاتِلُونَ عَنْ دِينِ الْآبَاءِ وَلَنْ تَعْدِمُوا نَصْرَاءَ»، فروي أنه لما التقى الجمعان كانت يده في يد الحارث بن هشام، فلما رأى الملائكة نكص على عقبيه، فقال له الحارث: أتفرُّ يا سراقه؟ فلم يَلُو عليه، ويروي أنه قال له ما تضمنت الآية. وروي أن عُمير بن وهب - أو الحارث بن هشام - قال له: أين يا سراقه؟ فلم يَلُو ودفع في صدر الحارث وذهب فوقعت الهزيمة، فَتَحَدَّثَ أَنَّ سَرَاقَةَ فَرَّ بِالنَّاسِ فَبَلَغَ ذَلِكَ سَرَاقَةَ بِنِ مَالِكِ فَأَتَى مَكَةَ فَقَالَ لَهُمْ: «وَاللَّهِ مَا عَلِمْتُ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِكُمْ حَتَّى بَلَغْتَنِي هَزِيمَتِكُمْ، وَلَا رَأَيْتَكُمْ وَلَا كُنْتُ مَعَكُمْ».

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: جاء إبليس يوم بدر في جند من الشياطين معه، رأته في صورة رجل من بني مدلج، فسأل: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمْ الْيَوْمَ﴾ الآية.

و﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف والعامل فيه معنى نفي الغلبة، ويحتمل أن يكون العامل متعلق ﴿لَكُمْ﴾، وممتنع أن يعمل ﴿غَالِبَ﴾ لأنه كان يلزم أن يكون: (لا غالباً).

وقوله: ﴿وَإِنِّي جَارٌ لَّكُمْ﴾ معناه: فأنتم في ذمتي وحمائتي. و﴿تَرَكَاتٍ﴾: تفاعلت من الرؤية، أي رأى هؤلاء هؤلاء. وقرأ الأعمش، وعيسى بن عمر: ﴿تَرَائِثُ﴾ مقصورة، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه أمال والراء مرفقة ثم رجع عن ذلك.

وقوله: ﴿تَكْصَعُ عَلَى عَقِبَيْهِ﴾ معناه: رجع من حيث جاء، وأصل النكوص في اللغة: الرجوع الفهقهرى، قال زهير:

هُمُ يَضْرِبُونَ حَيْكَ النَّيْضِ إِذْ لَحِقُوا
لَا يَنْكَبُونَ إِذَا مَا اسْتَلْجَمُوا وَحُمُوا
كذا أنشد الطبري، وفي رواية الأصمعي: استلأموا، وبذلك فسر الطبري هذه الآية، وفي ذلك بُعد، وإنما رجوعه في هذه الآية مُشَبَّهٌ بالنكوص الحقيقي، وقال اللغويون: النكوص: الإحجام عن الشيء، يقال: أراد أمراً ثم نكص عنه، وقال: تَأَبَّطُ شَرًّا:

ليس النكوص على الأذيبار مكرمة
إن المكارم إقدام على الأسئل
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فليس هاهنا فهقهرى، بل هو فرار، وقال مؤرج: نكص هي رجع بلغة سليم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿عَلَّ عَقِبَيْهِ﴾ يبين أنه إنما أراد الانهزام والرجوع في ضد إقباله. وقوله: ﴿إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ﴾ هو خذلانه لهم وانفصاله عنهم، وقوله: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ يريد الملائكة، وهو الخيبت إنما شرط أن لا غالب من الناس فلما رأى

الملائكة وخرق العادة خاف وفرّ. وفي الموطأ وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «ما زُني الشيطان في يوم أقل ولا أحقر ولا أصغر منه في يوم حرفة لما يرى من نزول الرحمة إلا ما رأى يوم بلدر» قيل: وما رأى يا رسول الله؟ قال: «رأى الملائكة يزُونها جبريل»، وقال الحسن: رأى إبليس جبريل عليه السلام يقود فرسه بين يدي النبي ﷺ وهو معتجر ببردة وفي يده اللجام.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ﴾ قيل: إن هذه معذرة كاذبة ولم تلحقه قط مخافة، قاله قتادة، وابن الكلبي. وقال الزجاج وغيره: بل خاف مما رأى من الأمر وقوله، وأنه يومه الذي أنظر إليه، ويقوي هذا أنه رأى خرق العادة ونزول الملائكة للحرب.

وحكى الطبري بسنده أنه لما انهزم المشركون يوم بدر حين رمى رسول الله ﷺ بقبضة من التراب وجوه الكفار أقبل جبريل ﷺ إلى إبليس، فلما رآه إبليس وكانت يده في يد رجل من المشركين انتزع يده ثم ولى مديراً، فقال له الرجل: أي سراقه تزعم أنك لنا جارا؟ فقال: ﴿إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ﴾ الآية، ثم ذهب.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَكُولُ الْمُنْفِقُونَ أَلْوَابَهُمْ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ الآية. العامل في ﴿إِذْ﴾ ﴿رَيْنٌ﴾ أو ﴿نَكْصٌ﴾ لأن ذلك الموقف كان ظرفاً لهذه الأمور كلها، وقال المفسرون: إن هؤلاء الموصوفين بالبنفاق ومرض القلوب إنما هم من

أهل عسكر الكفار لما أشرفوا على المسلمين ورأوا قتلهم وقلة عددهم قالوا مشيرين إلى المسلمين: ﴿عَزَّ هَؤُلَاءَ بِيَهُمْ﴾، أي: اغتروا فأدخلوا أنفسهم فيما لا طاقة لهم به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والبنفاق أخص من مرض القلب، لأن مرض القلب يطلق على الكافر وعلى من اعترضته شبهة وعلى من بينهما، وكنتي بالقلوب عن الاعتقادات إذ القلوب محلها، وزوي في نحو هذا التأويل عن الشعبي أن قوماً ممن كان الإسلام داخل قلوبهم خرجوا مع المشركين إلى بدر، منهم من أكرهه، ومنهم من داجى وداهن، فلما أشرفوا على المسلمين ورأوا قتلهم ارتابوا واعتقدوا أنهم مغلوبون فقالوا: ﴿عَزَّ هَؤُلَاءَ بِيَهُمْ﴾، قال مجاهد:

منهم قيس بن الوليد بن المغيرة، وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة، والحارث بن زمعة بن الأسود، وعلي بن أمية بن خلف، والعاصي بن منبه بن الحجاج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يُذكر أحدٌ ممن شهد بدرًا بنفاق إلا ما ظهر بعد ذلك من معتب بن قشير أخي عمرو بن عوف فإنه القاتل يوم أحد: ﴿لَوْ كَانَتْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قَاتَلْنَا هَهُنَا﴾، وقد يحتمل أن يكون منافقو المدينة لما وصلهم خروج قريش في قوة عظيمة قالوا عن المسلمين هذه المقالة، فأخبر الله بها نبيه في هذه الآية.

ثم أخبر الله عز وجل بأن من توكل على الله واستند إليه فإن عزة الله

تبارك وتعالى وحكمته كفيلة بنصره وشد أعضاده، وخرجت العبارة عن هذا المعنى بأوجز لفظ وأبلغه.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تتضمن التعجب مما حل بالكفار يوم بدر، قاله مجاهد وغيره، وفي ذلك وعيد لمن بقي منهم، وحذف جواب ﴿لَوْ﴾ إبهام بليغ.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿يَتَوَقَّى﴾ بالياء فأسند فعل فيه علامة التذكير إلى مؤنث في اللفظ، وساغ ذلك إذ التأنيث غير حقيقي، وارتفعت ﴿الْمَلَكِيَّةُ﴾ بـ ﴿يَتَوَقَّى﴾، وقال بعض من قرأ هذه القراءة: إن المعنى: إذ يتوقى الله الذين كفروا، و﴿الْمَلَكِيَّةُ﴾ رفع بالابتداء، و﴿يَضْرِبُونَ﴾ خبره، والجملة في موضع الحال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويضعف هذا التأويل سقوط واو الحال، فإنها في الأغلب تلزم مثل هذا. وقرأ ابن عامر من السبعة، والأعرج: ﴿تَتَوَقَّى﴾ بالتاء على الإسناد إلى لفظ ﴿الْمَلَكِيَّةُ﴾، و﴿يَضْرِبُونَ﴾ في موضع الحال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْبَرَكُمُ﴾ قال جمهور المفسرين: يريد أشتأهم، ولكن الله كريم يكني، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد ظهورهم وما أذبر منهم، ومعنى هذا أن الملائكة كانت تلحقهم في حال الإذبار فتضرب أذبارهم، فأما في حال الإقبال فبيتن تمكن ضرب الوجوه. وروى الحسن أن رجلاً قال: يا رسول الله، رأيت في ظهر

يكفروا وأهلكوا مراراً بل لكل أمة مرة واحدة، ويحتمل أن يكون المراد: كعادة الله فيهم، فأضاف العادة إليهم إذ لهم نسبة إليها كما يضاف المصدر إلى الفاعل وإلى المفعول. والكاف من قوله: ﴿كَذَّابٌ﴾ يجوز أن تتعلق بقوله: ﴿رَدُّوهُنَّ﴾، وفيه بُعد، والكاف على هذا في موضع نصب نعت لمصدر محذوف، ويجوز أن تتعلق بقوله: ﴿قَدَّمَتْ أَيُّدِيكُمْ﴾ وموضعها أيضاً - على هذا - نصب كما تقدم، ويجوز أن يكون معنى الكلام: الأمر مثل دأب آل فرعون، فتكون الكاف في موضع خبر الابتداء. وقوله: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ معناه: أهلكهم وأتى عليهم، بقرينة قوله: ﴿يَدُّوهُمْ﴾، ثم ابتداء الإخبار بقوة الله تبارك وتعالى وشدة عقابه.

٥٧ - ٥٦ تفسير قوله عز وجل: ﴿ذَلِكَ﴾ في موضع رفع على خبر الابتداء تقديره عند سبويه: الأمر ذلك. ويحتمل أن يكون التقدير: وجب ذلك، والباء بآء السبب. وقوله: ﴿لَمْ يَكْ مُعْرَاكُ﴾ جزم به ﴿لَمْ﴾ وجزمه بحذف النون، والأصل: (يكون) فإذا دخلت (لم) جاء: (لم يكن)، ثم قالوا: (لم يك) كأنهم قصدوا التخفيف فتوهموا دخول (لم) على (يكن) فحذفت النون للجزم، وحسن ذلك فيها لمشابتها حروف اللين التي تحذف للجزم، كما قالوا: «لم أبال» ثم قالوا: «لم أبيل» فتوهموا دخول (لم) على (أبال).

ومعنى هذه الآية الإخبار بأن الله عز وجل إذا أنعم على قوم نعمة فإنه

ويصح أن تكون في موضع خفض عطفاً على (ما) في قوله سبحانه: ﴿يَمَّا قَدَّمْتُ﴾، وقال مكِّي، والزهرراوي: ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الباء، وتقديره: «بأن»، فلما حذفت الباء حصلت في موضع نصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير متجبه ولا بين إلا أن تنصب بإضمار فعل.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ﴾ قال فرعون: الآية. الدأب: العادة في كلام العرب، ومنه قول امرئ القيس:

كذأبك من أم الحوثرِ قبيلها
وجازتها أم الربابِ بمأسلٍ
ويروى: كدينك، ومنه قول خراش بن زهير العامري:

فَمَا زَالَ ذَاكَ الدُّأْبُ حَتَّى تَخَاذَلَتْ
هُوَازُنُ وَأَزْقَضَتْ سَلِيمَ وَعَامِرُ
وهو مأخوذ من: «دأب على العمل» إذا لزمه، ومنه قوله ﷺ لصاحب الجمل الذي هش إليه وأقبل نحوه وقد ذل ودمعت عيناه: «إنه شكا إلي أنك تجيمه وتُدبئه»، فكان العادة دؤوب ما. وقال جابر بن زيد، وعامر الشعبي، ومجاهد، وعطاء: المعنى: كسُنَّ آل فرعون، ويحتمل أن يراد: كعادة آل فرعون وغيرهم، فتكون عادة الأمم بجملتها لا على انفراد أمة، إذ آل فرعون لم

ذَلِكَ يَا أَيُّهَا اللَّهُ لَمْ يَكْ مُعْرَاكُ نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ مِّنْ بَعْدِهِمْ وَمَا أَنْفَسَهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٧﴾ كَذَّابٌ أَلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٥٨﴾ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنْهُمْ ثُمَّ تَبَيَّنَ عَنْهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ فَإِنَّمَا تَتَّقُونَ فِي الْحَرْبِ فَمُزِّدْ بِهِمْ مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلْفَهُمْ يَدْعُوكُمْ ﴿٦١﴾ وَإِنَّمَا تَخَافُونَ مِنْ قُوَّةِ رَبِّكَ فَانْبِئْذِ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُقَابِلِينَ ﴿٦٢﴾ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ سِعْوَةَ آلِهِمْ لَا يَفْعُرُونَهُمْ ﴿٦٣﴾ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَابِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَأَسْتَفْهِرُوا مِنْ مَّنْ وَرَاءِ سَبِيلِ اللَّهِ يُؤْفَىٰ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٥﴾

أبى جهل مثل الشرك، فقال رسول الله ﷺ: «ذلك ضرب الملائكة». وعبر بجمع الملائكة وملك الموت واحد إذ له على ذلك أعوان من الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿رَدُّوهُنَّ عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ قيل: كانوا يقولون للكفار حينئذ هذا اللفظ فحذف (يقولون) اختصاراً، وقيل: معناه: وحالهم أن يقال لهم هذا. والحريق: فعيل من الحرق.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَمَّا قَدَّمْتُ أَيُّدِيكُمْ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة في وقت توفيتهم لهم على الصورة المذكورة، ويحتمل أن يكون كلاماً مستأنفاً تقریباً من الله عز وجل للكافرين حينئذ وميتهم، ﴿وَأَنَّ﴾ يصح أن تكون في موضع رفع على تقدير: «والحكم أن،

بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغييرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم غير الله نعمته عليهم بنقمة منهم، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ، فكفروا وغيروا ما كان يجب أن يكونوا عليه فغضب الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار، وأحل بهم عقوبته.

وقوله تعالى: ﴿وَأَكْ عَطَفَ عَلَى الْأُولَى، وَسَمِعَ عَلِيًّا﴾ أي لكلل ويكفل ما يقع من الناس في تغيير ما بأنفسهم لا يخفى عليه من ذلك سر ولا جهر.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّابٌ ءَالِ زَيْعُونَ﴾ الآية. الكاف من ﴿كَذَّابٌ﴾ في هذه الآية متعلقة بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْرُؤُوا﴾، وهذا التكرير هو لمعنى ليس للأول، إذ الأول دأب في أن هلكوا لما كفروا، وهذا الثاني دأب في أن لم يغير نعمتهم حتى غيروا ما بأنفسهم، وقد ذكرنا متعلقات الكاف في الآية الأولى، والإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ إلى قوم هود، وصالح، ونوح، وشعيب، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ سَرَّ الْأَوَّابِ﴾ إلى ﴿يَبْتُونَ﴾، المعنى المقصود تفضيل الدواب الذميمة كالخنزير والكلب المقور على الكافرين الذين حتم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وهذا الذي يقتضيه اللفظ، وأما الكافر الذي يؤمن فيما يستأنفه من عمره

فليس بشر الدواب. وقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ﴾ يحتمل أن يريد أن الموصوفين بـ﴿سَرَّ الْأَوَّابِ﴾ هم الذين لا يؤمنون بالمعاهدون من الكفار، فكانوا سر الدواب على هذا بثلاثة أوصاف: الكفر، والموافة عليه، والمعاودة مع النقض. و﴿الَّذِينَ﴾ - على هذا - بدل البعض من الكل. ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ﴾ الذين الأولى، فتكون بدل الشيء من الشيء وهما لعين واحدة، والمعنى - على هذا -: الذين عاهدت فرقة أو طائفة منهم، ثم ابتداء يصف حال المعاهدين منهم بقوله: ﴿فَتَمَّ يَنْفُسُونَ عَاهَدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾، والمعاودة في هذه الآية: المسالمة وترك الحرب.

وأجمع المتأولون أن الآية نزلت في بني قريظة، وهي بغد تعم كل من اتصف بهذه الصفة إلى يوم القيامة. ومن قال: «إن المراد بـ﴿الَّذِينَ عَاهَدْتَ﴾ الناس» فقول لا يستوفي المذمة، ولا مرية في أن (الدواب) تعم الناس وسائر الحيوان، وفي تعميم اللفظة في هذه الآية استيفاء المذمة، وقوله: ﴿فِي كُلِّ مَرَّةٍ﴾ يقتضي أن الغدر قد كان وقع منهم، وتكرر ذلك.

وحديث قريظة هو أنهم عاهدوا رسول الله ﷺ على ألا يحاربوه ولا يعينوا عليه عدوًا من غيرهم، فلما اجتمعت الأحزاب على النبي ﷺ بالمدينة غلب على ظن بني قريظة أن النبي ﷺ مغلوب ومستأصل، وخذع حبيبي ابن أخطلب النضري كعب بن أسد القرظي صاحب عقد بني قريظة

وعهدهم، فغدروا والوا قريشاً وأمدوهم بالسلاح والأدراع، فلما انجلت تلك الحال عن النبي ﷺ أمره الله بالخروج إليهم وحربهم، فاستنزلوا وضربت أعناقهم بحكم سعد بن معاذ، واستيعاب القصة في سير ابن هشام، وإنما اقتضيت منها ما يخص تفسير الآية.

٥٧ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل: دخلت النون مع ﴿إِمًا﴾ تأكيداً، ولتفرق بينها وبين ﴿إِمًا﴾ التي هي حرف انفصال في قولك: جاءني إمام زيد وإمام عمرو. و﴿تَنَقَّطَهُمْ﴾ معناه: تأسرهم وتحصلهم في ثقافك، أو تلقاهم بحال ضعف تقدر عليهم فيها وتغلبهم، وهذا لازم من اللفظ لقوله: ﴿فِي الْحَرْبِ﴾، وقيل: ثَقِفَ: أخذ بسرعة، ومن ذلك قولهم: رجل ثَقِفَ لِقِف. وقال بعض الناس: معناه: تُصَادِقْتُهُمْ، إلى نحو هذا من الأقوال التي لا ترتبط في المعنى، وذلك أن المصَادَفَ قد يُغْلَبَ فيمكن التشريد به وقد لا يُغْلَب. والثَّقَافُ في اللغة: ما تُشَدُّ به القناة ونحوها، ومنه قول الشاعر:

إِنْ قَسَاتِي لَسَبَّعَ مَا يُؤَيِّسُهَا
عَضُّ الثَّقَافِ وَلَا دُفْنٌ وَلَا نَارُ

وقال آخر: تَدْعُو قَعِينًا وَقَدْ عَضَّ الْحَدِيدُ بِهَا
عَضُّ الثَّقَافِ عَلَى صَمِّ الْأَنْبِيَابِ
وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّذَ﴾ معناه: طرَّد وخوف وأبعده عن مثل فعلهم، والشريد: المبعذ عن وطن أو نحوه، والمعنى: بفعل تفعله بهم من قتل أو نحوه يكون تخويفاً لمن خلفهم، أي

لَمَنْ يَأْتِي بَعْدَهُمْ بِمِثْلِ مَا أَتَوْا بِهِ،
وسواء كان معاصراً لهم أم لا .

وما تقدم الشيء فهو بين يديه، وما
تأخر عنه فهو خلفه، فمعنى الآية:
فإن أسرت هؤلاء الناقضين في
حربك لهم فافعل بهم من النعمة ما
يكون تشريداً لمن يأتي خلفهم في
مثل طريقهم، والضمير في ﴿لَعَلَّهُمْ﴾
عائد على الفرقة المُشْرَدَّة. وقال ابن
عباس رضي الله عنهما: المعنى:
نكل بهم من خلفهم. وقالت فرقة:
﴿شَرَّدَ بِهِمْ﴾ معناه: سمع بهم، حكاها
الزهراوي عن أبي عبيدة، والمعنى
متقارب لأن التسميع بهم في ضمن
ما فسرناه أولاً، وفي مصحف
عبدالله: ﴿فَشَرَّدَ﴾ بالذال منقوطة،
وهي قراءة الأعمش، ولم يحفظ
(شرد) في لغة العرب، ولا وجه لها
إلا أن تكون الذال المنقوطة تُبدل من
الذال كما قالوا: لحم خراديل
وخراذيل. وقرأ أبو حيوة - وحكاها
المهدوي عن الأعمش بخلاف
عنه -: ﴿مِنْ خَلْفِهِمْ﴾ بكسر الميم
من قوله: ﴿مِنْ﴾ وخفض الفاء من
قوله: ﴿خَلْفِهِمْ﴾. والترجي في
قوله: ﴿لَعَلَّهُمْ﴾ بحسب البشر،
﴿يَذْكُرُونَ﴾ معناه: يتعظون.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا خَفَافٌ﴾
الآية. قال أكثر المؤلفين في
التفسير: إن هذه الآية هي في بني
قريظة، وحكاها الطبري عن مجاهد،
والذي يظهر من ألفاظ القرآن أن أمر
بني قريظة قد انقضى عند قوله
تعالى: ﴿فَشَرَّدَ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ﴾، ثم
ابتدأ تبارك وتعالى في هذه الآية بأمره
بما يصنعه في المستقبل مع من

يخاف منه خيانة إلى سالف الدهر،
وبنو قريظة لم يكونوا في حد من
تخاف خيافته فترتب فيهم هذه الآية،
وإنما كانت خيانتهم ظاهرة مشتهرة،
فهذه الآية هي عندي فيمن يستقبل
حاله من سائر الناس غير بني قريظة،
وخوف الخيانة أن تبدو جنادع الشر
من قبل المعاهدين، وتتصل عنهم
أقوال، وتُحَسُّ من تلقائهم مبادئ
الغدر، فتلك المبادئ معلومة،
والخيانة التي هي غايتهم مخوفة لا
مُتَيَقَّنَةٌ، وحينئذ ينبذ إليهم على
سواء، فإن التزموا السلم على ما
يجب وإلا حوربوا. وبنو قريظة نبذوا
العهد مرتين، وقال يحيى بن سلام:
﴿تَخَافُ﴾ في هذه الآية بمعنى: تعلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وليس كذلك. وقوله تعالى:
﴿خِيَانَةٌ﴾ يقتضي حصول عهد، لأن
من ليس بينك وبينه عهد فليست
محاربتك لك خيانة، فأمر الله تبارك
وتعالى نبيه محمداً ﷺ إذا أحس من
أهل عهد ما ذكرنا وخاف خيانتهم أن
يلقي إليهم عهدهم، وهو التُّبْدُ،
ومفعول قوله: ﴿فَأَيُّدُ﴾ محذوف
تقديره: فانبذ إليهم عهدهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتقتضي قوة هذا اللفظ الحَضُّ على
حربهم ومناجزتهم إن لم يستقيموا.
وقوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ قيل: معناه:
حتى يكون الأمر في بيانه والعلم به
على سواءٍ منك ومنهم، فتكونون فيه
- أي في استشعار الحرب - سواءً،
وقيل: معنى قوله: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ على
معدلة، أي: فذلك هو العَدْلُ
والاستواء في الحق، وقال

المهدوي: معناه: جهراً لا سراً.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا نحو الأول. وقال الوليد بن
مسلم: ﴿عَلَى سَوَاءٍ﴾ معناه: على
مَهْلٍ، كما قال تعالى: ﴿بِرَأْيِهِ مِنَ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ﴾ فَيَسْبِحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ
أَشْهُرٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
واللغة تأتي هذا القول. وذكر الفراء
أن المعنى: انبذ إليهم على اعتدال
وسواءٍ من الأمر، أي: بين لهم على
قدر ما ظهر منهم، لا تفرط ولا تفجأ
بحرب، بل افعل بهم مثلما فعلوا
بك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
يعني موازنة ومقايضة. وقوله تعالى:
﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَائِزِينَ﴾ يحتمل أن
يكون طعناً على الخائنين من الذين
عاهدتهم النبي ﷺ، ويحتمل أن
يريد: فانبذ إليهم على سواءٍ حتى
تبعد عن الخيانة فإن الله لا يحب
الخائنين، فيكون النبذ - على هذا
التأويل - لأجل أن الله لا يحب
الخائنين.

والسواء في كلام العرب قد يكون
بمعنى العدل والمعدلة، ومنه قوله
تعالى: ﴿إِنَّ كَلِمَةَ سَوَاءٍ بَيْنَنَا
وَبَيْنَكُمْ﴾، ومنه قول الراجز:

فَأَضْرِبْ وَجْهَ الْعُدَّةِ الْأَعْدَاءِ
حَتَّى يُجْبِي سَوْكَ إِلَى السَّوَاءِ
وقد يكون بمعنى الوسط، ومنه
قوله تعالى: ﴿فِي سَوَاءِ الْجَبَرِ﴾،
ومنه قول حسان بن ثابت:

يَا وَنَيْحَ أَنْصَارِ السُّبْيِ وَرَمْطِهِ
بَعْدَ الْمَغْتِيبِ فِي سَوَاءِ الْمُلْحَدِ

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾ بالتاء مخاطبة للنبي ﷺ، ويكسر السنين - غير عاصم فإنها فتحها - و﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مفعول أول، و﴿سَبَقُوا﴾ مفعول ثان، والمعنى: فاتوا بأنفسهم وأنجوها، ﴿إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بكسر ألف ﴿إِنَّ﴾ على القطع والابتداء، و﴿يُعْجِزُونَ﴾ معناه: يُفْلِتُونَ وَيُعْجِزُونَ طالبهم، فهو مُعَذَى (عجز) بالهمزة، تقول: عجز زيد وأعجزه غيره وعجزه أيضاً. قال سويد:

وأعجزنا أبو ليلى طُفَيْلٍ
صحيح الجلود من أثر السلاح
وروي أن الآية نزلت فيمن أفلت
من الكفار في حرب النبي ﷺ،
كقريش في بدر وغيرهم، فالمعنى:
لا تظنهم ناجين بل هم مدركون،
وقيل: معناه: لا يُعْجِزُونَ في الدنيا،
وقيل: المراد: في الآخرة.

قال أبو حاتم: وقرأ مجاهد، وابن كثير، وشبل: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ﴾ بكسر التاء. وقرأ الأعرج، وعاصم، وخالد بن إلياس: ﴿تَحْسِبَنَّ﴾ بفتح التاء من فوق وفتح السين. وقرأ الأعمش: ﴿وَلَا يَحْسَبُ﴾ بفتح السين والياء من تحت وحذف النون. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وأبو عبدالرحمن، وابن محيصن، وعيسى: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ﴾ بياء من تحت وسين مكسورة ونون مشددة. وقرأ حفص عن عاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء على

الكناية عن الغائب وفتح السين، فإما أن يكون في الفعل ضمير النبي ﷺ، أو يكون التقدير: ولا يُحْسِبَنَّ أحد، ويكون قوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ مفعولاً أولاً، و﴿سَبَقُوا﴾ مفعولاً ثانياً، وإما أن يكون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هم الفاعلون، ويكون المفعول الأول مضمراً، و﴿سَبَقُوا﴾ مفعولاً ثانياً، وتقدير هذا الوجه: ولا يحسبن الذين كفروا أنفسهم سبقوا، وإما أن يكون ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هو الفاعل وتُضْمَرُ (أن) فيكون التقدير: ولا يحسبن الذين كفروا أن سبقوا، وتُسَدُّ (أن سبقوا) سدَّ المفعولين. قال الفارسي: ويكون هذا كما تأوله سيبويه في قوله عز وجل: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ اللَّهَ تَأْمُرُونَ عِبَادَهُ﴾، فالتقدير: «أن أعبد».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ونحوه قول الشاعر:
أَلَا أَيُّهَذَا الرَّاجِرِي أَخْضَرُ الْوَعَى
.....

قال أبو علي: وقد حذف (أن) وهي مع صلتها في موضع الفاعل، وأنشد أحمد بن يحيى في ذلك:
وَمَارَاعَتَنَا إِلَّا يَسِيرُ بِشُرْطَةٍ
وعهدي به قيناً يسيرُ بكبير
وقرأ ابن عامر وحده من السبعة:
﴿أَنْهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾ بفتح الألف من ﴿أَنْهُمْ﴾، ووجهه أن يقدر بمعنى: لأنهم لا يعجزون، أي: لا تحسبن عليهم النجاة لأنهم لا ينجون، وقرأ الجمهور: ﴿يُعْجِزُونَ﴾ بسكون العين، وقرأ بعض الناس فيما ذكر أبو حاتم: ﴿يُعْجِزُونَ﴾ بفتح العين وشدَّ الجيم، وقرأ ابن محيصن:

﴿يُعْجِزُونَ﴾ بكسر النون، ومنحأها ﴿يُعْجِزُونَنِي﴾ بإلحاق الضمير، قال الزجاج: الاختيار فتح النون، ويجوز كسرهما على أن المعنى: «إنهم لا يُعْجِزُونَنِي»، وتحذف النون الأولى لاجتماع النونين، كما قال الشاعر:
تراه كالشُغَامِ يُعَلُّ بِسُكَا
يُسُوهُ الْفَالِيَاتِ إِذَا قَلَيْتَنِي
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
البيت لعمر بن معديكرب. وقال أبو الحسن الأخفش في قول مُتَمِّمِ بْنِ نُؤَيْرَةَ:

وَلَقَدْ عَلِمْتُ وَلَا مَحَالَةَ أَنْتَنِي
لِلْحَادِثَاتِ، فَهَلْ تَرَيْنِي أَجْزَعُ؟
هذا يجوز على الاضطرار، فقال قوم: حذف النون الأولى وحذفها لا يجوز لأنها موضع الإعراب، وقال أبو العباس المبرِّد: أرى فيما كان مثل هذا حذف الثانية، وهكذا كان يقول في بيت عمرو بن معد يكرب.

وفي مصحف عبدالله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْهُمْ سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ﴾، قال أبو عمرو الداني: بالياء من تحت وبغير نون في (يحسب).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وذكرها الطبري بثون.

(٦٠ - ٦١) تفسير قوله عز وجل:
المخاطبة في هذه الآية لجميع المؤمنين، والضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على الذين ينبذ إليهم العهد، أو على الذين لا يعجزون على تأويل من تأول ذلك في الدنيا، ويحتمل أن يعود على جميع الكفار المأمور بحزبهم في ذلك الوقت ثم

استمرت الآية في الأمة عامة، إذ الأمر قد توجه بحرب جميع الكفار.

وقال عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: القوة: ذكور الخيل، والرِّباط: الإناث. وهذا قول ضعيف، وقالت فرقة: القوَّة: الرُّمِّي، واحتجت بحديث عقبة بن عامر أن الرسول ﷺ قال: «ألا إنَّ القوَّة الرُّمِّي، ألا إنَّ القوَّة الرُّمِّي»، وقال السدي: القوة: السلاح، وذهب الطبري إلى عموم اللفظة، وذكر عن مجاهد أنه روي يتجهز وعنده جُزائق فقال: هذا من القوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصواب، والخيل والمركوب في الجملة والمحمول عليه من الحيوان والسلاح كله والملابس الباهية والآلات والنفقات كلها داخله في القوة، وأمر المسلمون بإعداد ما استطاعوا من ذلك، ولما كانت الخيل هي أصل الحروب وأوزارها والتي عقد الخير في نواصيها، وهي أقوى القوى وحصون الفرسان خصَّها الله بالذكر تشريفاً، على نحو قوله: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَرُشِدِهِ وَجَبِيلٍ وَمَيْكَلٍ﴾، وعلى نحو قوله: ﴿فِيكُمُ نَجَلٌ وَمَنَّانٌ﴾، وهذا كثير، ونحوه قول رسول الله ﷺ: «جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً»، هذا في البخاري وغيره، وقال في صحيح مسلم: «جعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً» فذكر التراب على جهة التحفي به، إذ هو أعظم أجزاء الأرض مع دخوله في عموم الحديث

الآخر، ولما كانت السهام من أنجع ما يتعاطى في الحرب وأنكاه في العدو وأقربه تناولاً للأرواح خصها رسول الله ﷺ بالذكر والتنبيه عليها، وقد روي عنه ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى يُدخل بالسهم الواحد الثلاثة من المسلمين الجنة، صانعه، والذي يحتسب في صنمته، والذي يرمي به»، وقال عمرو بن عنبه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من رمى بسهم في سبيل الله أصاب العدو أو أخطأ فهو كعتق رقبة»، وقال رسول الله ﷺ: «ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إلي من أن تركبوا».

ورباط الخيل جمع رِبَطٍ ككَلْبٍ وكلاب، ولا يكثر ربطها إلا وهي كثيرة، ويجوز أن يكون الرِّباط مصدرًا من رَبَطَ، كصاح صياحاً ونحوه، لأن مصادر الثلاثي غير المزيد لا تنفاس، وإن جعلناه مصدرًا من رابط فكأن ارتباط الخيل واتخاذها يفعله كل واحد لفعل آخر له فيرابط المؤمنون بعضهم بعضاً، فإذا ربط كل واحد منهم فرساً لأجل صاحبه فقد حصل بينهم رباط، وذلك الذي حُصِّ في الآية عليه، وقد قال ﷺ: «من ارتبط فرساً في سبيل الله فهو كالباسط يده بالصدقة لا يقبضها»، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

وقرأ الحسن، وعمرو بن دينار، وأبو حيوه: «وَمِنْ رِبَطٍ» بضم الراء والباء، وهو جمع رباط ككتاب وكُتِّب، كذا نصّه المفسرون، وفي جمعه وهو مصدر غير مختلف نظر.

و﴿تُرَّهِيُونَ﴾ معناه: تُفزعون وتُخَوِّفون، والرهبة: الخوف، قال طفيل الغنوي:

وَيْلٌ أَمْ حَيٌّ دَفَعْتُمْ فِي نُحُورِهِمْ
بَنِي كِلَابٍ غَدَاةَ الرُّغْبِ وَالرُّهْبِ
ومنه رَاهِبُ النَّصَارَى، يقال: رَبَّهَذَا إِذَا خَافَ، ف﴿تُرَّهِيُونَ﴾ معدى بالهمزة.

وقرأ الحسن، ويعقوب: «تُرَّهِيُونَ» بفتح الراء وشذ الهاء معدى بالتضعيف، ورويت عن أبي عمرو بن العلاء، قال أبو حاتم: وزعم عمرو أن الحسن قرأ: «تُرَّهِيُونَ» بالياء من تحت وخففها، فهو على هذا تعدى بالتضعيف، وقرأ ابن عباس، وعكرمة: «تُخَزَّوْنَ بِهِ عِدُوًّا لِلَّهِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ذكرها الطبري تفسيراً لا قراءة، وأثبتها أبو عمرو الداني قراءة.

وقوله تعالى: ﴿عَدُوًّا لِلَّهِ وَعَدُوًّاكُمْ﴾ ذكر الصفتين وإن كانت متقاربة إذ هي متغايرة المعنى، وبذكرهما يتقوى الذم وتتضح وجوه بغضنا لهما. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿عَدُوًّا لِلَّهِ﴾ بتنوين «عَدُوًّا» وبلام في المكتوبة، والمراد بهاتين الصفتين من قُرْبٍ وصاقبٍ من الكفار وكانت عداوته متحركة بَعْدُ، ويجوز أن يراد بهما جميع الكفار، ويبين هذا من اختلافهم في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْفِتْنَةَ﴾، قال مجاهد: الإشارة بقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ إلى قريظة، وقال السدي: إلى أهل فارس، وقال ابن زيد: الإشارة إلى المنافقين، وقالت فرقة: الإشارة إلى الجن، وقالت

فرقة: هم كل عدو للمسلمين غير الفرقة التي أمر النبي ﷺ أن يُشَرَّدَ بهم من خلفهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الخلاف إنما ينبغي أن يترتب على ما يتوجه من المعنى في قوله تعالى: ﴿لَا تَلْمُزُوهُمْ﴾، فإذا حملنا قوله: ﴿لَا تَلْمُزُوهُمْ﴾ على عمومهم، ونفينا علم المؤمنين بهذه الفرقة المشار إليها جملة واحدة، وكان العلم بمعنى المعرفة لا يتعدى إلا إلى مفعول واحد لم يثبت من الخلاف في قوله: ﴿وَالْآخَرِينَ﴾ إلا قول من قال: «الإشارة إلى المنافقين»، وقول من قال: «الإشارة إلى الجن»، وإذا جعلنا قوله: ﴿لَا تَلْمُزُوهُمْ﴾ مجازاً بيناً أو نحو هذا مما نفيد به نفي العلم عنهم حسنت الأقوال، وكان العلم متعدياً إلى مفعولين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الوجه أشبه عندي، ورجح الطبري أن الإشارة إلى الجن، وأسند في ذلك ما روي من أن سهيل الخيل ينفر الجن، وأن الشيطان لا يدخل داراً فيها فرس للجهاد، ونحو هذا، وفيه - على احتماله - نظر، وكان الأهم في هذه الآيات أن يبرز معناها في كل ما يقوي المسلمين على عدوهم من الإنس وهم المحاربون والذين يدافعون على الكفر، ورهبتهم من المسلمين هي النافعة للإسلام وأهله، ورهبة الجن وفضعهم لا غناء له في ظهور الإسلام، وهو أجنبي جداً، والأولى أن يتأول أن المسلمين إذا ظهروا

وعزوا هابهم من جاورهم من العدو المحارب لهم، فإذا اتصلت حالهم تلك بمن بعد من الكفار داخلته الهيبة وإن لم يقصد المسلمون إرهابهم، فأولئك هم الآخرون. ويحسن أن يقدر قوله: ﴿لَا تَلْمُزُوهُمْ﴾ بمعنى: «لا تعلمونهم فازعين راهبين ولا تظنون ذلك بهم، والله تعالى يعلمهم بتلك الحالة»، ويحسن أيضاً أن تكون الإشارة إلى المنافقين على جهة الطعن عليهن، والتنبيه على سوء حالهم، وليسترب بنفسه كل من يعلم منها نفاقاً إذا سمع الآية، ولفزعهم وزهبتهم غناء كثير في ظهور الإسلام وعلوته.

وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِمْ﴾ بمنزلة قولك: دون أن يكون هؤلاء، «فدون» في كلام العرب و«من دون» يقتضي عدم المذكور بعدها من النازلة التي فيها القول، ومنه المثل: «وأمرٌ دونٌ عبيدة الودم».

ثم تفضل تبارك وتعالى بعبارة المؤمنين على إنفاقهم في سبيل الله بأن النفقة لا بُدَّ أن تُوفى، أي أن تجازى ويثاب عليها. ولزوم هذا هو في الآخرة، وقد يمكن أن يجازي الله تعالى بعض المؤمنين في الدنيا مجازاة مضاعفة إلى مجازاة الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِن جَنْحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَحَّ لَهَا﴾ الآية. الضمير في ﴿جَنْحُوا﴾ هو للذين نبذ إليهم على سواء، وجنح الرجل إلى الأمر إذا مال إليه وأعطى يده فيه، ومنه قيل للأضلاع: جوانح لأنها مالت على الخشوة، وللجناح: جناح، وجنحت

الإبل إذا مالت أعناقها في السير، وقال ذو الرُّمَّة:

إذا مات فوق الرُّخْل أحييت رُوْحَه
بِذِكْرِكَ والعَيْسُ المرابييلُ جُنْحُ
وَجَنَحَ الليلُ إذا أقبل وأمال أطنابه
على الأرض، ومنه قول النابغة:

جوانِحُ قَدْ أَيَقُنْ أَنْ قَبِيلَهُ
إذا ما اتقى الجُنعانِ أوَّلَ غَالِبِ
أي موائل، وقال لبيد:

جُنُوحُ الهالِكِي عَلى يَدَيْهِ
مُكِباً يَجْتَلِي نَقَبَ النُصَالِ
وقرأ جمهور الناس: ﴿لِلسَّلَامِ﴾
بفتح السين وشدها، وقرأ عاصم في
رواية أبي بكر: ﴿لِلسَّلَامِ﴾ بكسرهما
وشدها، وهما لغتان في المسالمة.

ويقال أيضاً: (السَّلَم) بفتح السين واللام، ولا أحفظها قراءة. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَاجْتَحَّ﴾ بفتح النون، وهي لغة تميم، وقرأ الأشهب العقيلي: ﴿فَاجْتَحَّ﴾ بضم النون وهي لغة قيس، قال أبو الفتح: وهذه القراءة هي القياس، لأن فَعَلَ إذا كان غير متعد فمستقبله يَفْعَلُ بضم العين أقيس، فقد يقعد أقيس من جلس يجلس. وعاد الضمير في ﴿لَهَا﴾ مؤنثاً إذ السَّلَم بمعنى المسالمة والهدنة، وقيل: السَّلَم مؤنثة كالحرب، ذكره النحاس. وقال أبو حاتم: يذُكَّرُ السَّلَم.

وقال قتادة، والحسن بن أبي الحسن، وعكرمة، وابن زيد: هذه الآية منسوخة بآيات القتال في (براءة).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يحتمل ألا يترتب نسخها بها بأن يُعنى بهذه من تجوز مصالحته،

الْمُؤْمِنِينَ

سُورَةُ الْاَنْفَالِ

وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي يُدْعَىٰ
بِصُرُوهُ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُخَذَّ
نَبْتُهُمْ مِنَ الْقَبْرِ أَوْ لَيَأْتِيَهُمْ اللَّهُ قَوْلًا مَّا
يُخَالِفُونَ بِحَيْثُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَفَلَتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ
اللَّهَ أَفْهَمُ بِنَبْوَتِهِمْ إِنَّهُ غَزِيْرٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ
اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضَ
الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ
يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا
إِنْ كُنُوا يُدْرِكُونَ أَلْفًا مِنْكُمْ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٥﴾ مَا كَانَتْ لِيَنْبَأَ
أَنَّ كَيْدَهُمْ لَهُمْ آسْرَىٰ إِلَىٰ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ يُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا
وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٦﴾ لَوْلَا كُنْتُمْ مِنَ
اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ مِنْهَا كَذَبٌ عَظِيمٌ ﴿٦٧﴾ كَذَّبُوا بِمَا
أُوتُوا مِنْهَا وَكُنُوا مُكْفَرِينَ ﴿٦٨﴾ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٩﴾

١٨٥

يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ ﴿٦٢﴾ يريد:

بأن يظهروا له السلم
ويبطنوا الغدر والخيانة،
أي فاجنح وما عليك من
نياتهم الفاسدة. ﴿٦٣﴾
حَسْبُكَ اللَّهُ ﴿٦٤﴾ أي كافيك
ومعطيك نصرة وإظهاراً،
وهذا وعد محض.
﴿٦٥﴾ أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ

﴿٦٤﴾ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾ يريد:

بالأنصار بقرينة قوله:
﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَيُخَذَّ
نَبْتُهُمْ مِنَ الْقَبْرِ أَوْ لَيَأْتِيَهُمْ
اللَّهُ قَوْلًا مَّا يُخَالِفُونَ بِحَيْثُ
مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَفَلَتَ
بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ﴿٦٣﴾ وهذه إشارة إلى
العداوة التي كانت بين
الأوس والخزرج في
حروب بعاث، فألف الله
تعالى قلوبهم على

الإسلام، وردهم متحابين في الله،
وعددت هذه النعمة تأنيساً
لمحمد ﷺ، أي: كما لطف بك
ربك أولاً فكذلك يفعل آخراً.

وقال ابن مسعود: نزلت هذه الآية
في المتحابين في الله، وقال مجاهد:
إذا تراءى المتحابان فتصافحا
وتضاحكا تحاثت خطاياهم، فقال له
عَبْدَةُ بن أبي لُبَابَةَ: إن هذا ليسير،
فقال له: لا تقل ذلك، فإن الله
يقول: ﴿لَوْ أَفْلَحْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا
مَا أَفَلَّتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾، قال عَبْدَةُ:
فعرفت أنه أفقه مني.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله تَمَثُّلٌ حَسَنٌ بِالْآيَةِ، لا أن
الآية نزلت في ذلك، بل تظاهرت
أقوال المفسرين أنها في الأوس
والخزرج كما ذكرنا، ولو ذهب
ذاهبٌ إلى عموم المؤمنين في

المهاجرين والأنصار وجعل التأليف
ما كان بين جميعهم من التحاب حتى
تكون ألفة الأوس والخزرج جزءاً من
ذلك لَسَأَغَ ذلك. وكل تألف في الله
تتابع لذلك التألف الكائن في صدر
الإسلام، وقد روى سهل بن سعد
عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن
مألفة، لا خير فيمن لا يألف ولا
يؤلف».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والتشابُه هو سبب الألفة، فمن كان
من أهل الخير أَلِفَ أشباهه وأَلِفُوهُ.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ
اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾.

قال النقاش: نزلت هذه الآية بالبيداء
في غزوة بدر قبل القتال، وحكي عن
ابن عباس رضي الله عنهما أنها
نزلت في الأوس والخزرج خاصة،
قال: ويقال: إنها نزلت حين أسلم
عمر رضي الله عنه وكمل المسلمون
أربعين، قاله ابن عمر، وأنس، فهي
- على هذا - مَكِّيَّة.

﴿حَسْبُكَ﴾ في كلام العرب
(وشرْعك) بمعنى: كافيك ويكفيك،
والمحسب: الكافي. وقالت فرقة:
معنى هذه الآية: يكفيك الله ويكفيك
من أتبعك من المؤمنين، ف﴿مَنْ﴾ -
في هذا التأويل - رفع عطفاً على
اسم الله عز وجل، وقال عامر
الشعبي، وابن زيد: معنى الآية:
حسبك الله وحسب من أتبعك من
المؤمنين، ف﴿مَنْ﴾ - في هذا التأويل
- في موضع نصب عطفاً على موضع
الكاف، لأن موضعها نصب على
المعنى لِيَكْفِيكَ التي سَدَّتْ
﴿حَسْبُكَ﴾ مسدّها، ويصح أن تكون

وتبقى تلك التي في (براءة) في عبدة
الأوثان، وإلى هذا ذهب الطبري،
وقول الجماعة صحيح أيضاً إذ كان
الجنوح إلى سلم العرب مستقراً في
صدر الإسلام فتَسَخَّتْ ذلك آية
(براءة) ونبذت إليهم عهودهم،
وروي عن ابن عباس
رضي الله عنهما أنها منسوخة بقوله
تعالى: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا بِهَا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْوِ
وَأَنْتُمْ الْآخِلُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قول بعيد من أن يقوله ابن
عباس رضي الله عنهما، لأن الآيتين
مدنيّتان. وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾
أمر في ضمنه وعيد.

﴿٦٢﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ
يُرِيدُوا﴾ عائد على الكفار الذين قبل
فيهم: ﴿وَإِنْ جَحَرُوا﴾. وقوله: ﴿وَإِنْ

﴿مَنْ﴾ في موضع خفضٍ بتقدير محذوف كأنه قال: وحسب، وهذا كقول الشاعر:

أَكَلْتُ امْرِيءًا تَحْسَبِينَ امْرَأًا
وَنَارًا تَوَقَّدُ بِاللَّيْلِ نَارًا؟
التقدير: «وكلُّ نارٍ»، وهذا الوجه من حذف المضاف مكرره، بآيه ضرورة الشعر، ويروى البيت «وناراً»، ومن نحو هذا قول الشاعر: إذا كَانَتِ الْهَيْجَاءُ وَأَنْشَقَّتِ الْعَصَا فَحَسْبُكَ وَالضَّحَاكُ سَيْفٌ مُهْتَدٌ يَرُوى «الضحاك» مرفوعاً، و«الضحاك» منصوباً، و«الضحاك» مخفوضاً، فالرفع عطف على قوله: «سيفٌ» بنية التأخير، كما قال الشاعر:

.....
عَلَيْكَ وَرَحْمَةُ اللَّهِ السَّلَامُ
ويكون «الضحاك» - على هذا - محسباً للمخاطب. والتصب عطف على موضع الكاف من قوله: «حَسْبُكَ»، والمُهْتَدُ - على هذا - محسب للمخاطب، و«الضحاك» على تقدير محذوف، كأنه قال: «فحسبك وحسب الضحاك».

⑩ - ⑪ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿حَرَضَ﴾ معناه: حُثُّهُمْ وَحُضُّهُمْ. قال النقاش: وقرئت ﴿حَرَضَ﴾ بالصاد غير منقوطة، والمعنى متقارب، والحارض - الذي هو القريب من الهلاك - لفظه مباينة لهذه ليست منها في شيء. وقالت فرقة من المفسرين: المعنى: حَرَضَ عَلَى الْقِتَالِ حَتَّى يَبِينَ لَكَ فِيمَنْ تَرَكَهُ أَنَّهُ حَرَضٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول غير ملتئم ولا لازم من اللفظ، ونحا إليه الزجاج. والقتال مفترض على المؤمنين بغير هذه الآية، وإنما تضمنت هذه الآية أمر النبي ﷺ بتحريضهم على أمر قد وجب عليهم من غير هذا الموضع.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَكُنْ﴾ إلى آخر الآية في لفظ خبر ضمنه وعد بشرط، لأن قوله: ﴿إِنْ يَكُنْ يَنْكُمُ عَشْرُونَ صَدْرُونَ﴾ بمنزلة أن يقال: إِنْ يَصْبِرُ مِنْكُمْ عَشْرُونَ يَغْلِبُوا، وفي ضمنه الأمر بالصبر، وكسرت العين من ﴿عَشْرُونَ﴾ لأن نسبة عشرين من عشرة نسبة اثنين من واحد، فكما جاء أول اثنين مكسوراً كسرت العين من عشرين، ثم اطرده في جُمُوع أجزاء العشرة، فالمفتوح كأربعة وخمسة وسبعة فُتِحَ أول جمعه، والمكسور كسبته وتسعة كُسِرَ أول جمعه، هذا قول سيبويه، وذهب غيره إلى أن (عشرين) جمع عشر الإبل، وهو ورودها للتسع، فلما كان في عشرة وعشرة عشر وعشرون ويومان من الثالث جمع ذلك على عشرين. كما قال امرؤ القيس:

.....
ثَلَاثِينَ شَهْرًا فِي ثَلَاثَةِ أَحْوَالٍ
لَمَا كَانَ فِي الثَّلَاثِينَ حَوْلًا وَحَوْلًا
وبعض الثالث وتظاهرت الروايات عن ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من الصحابة بأن ثبوت الواحد للعشرة كان فرضاً من الله عز وجل على المؤمنين، ثم لما شق ذلك عليهم حط الفرض إلى ثبوت الواحد للاثين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو النسخ، لأنه رفع حكم مستقر بحكم آخر شرعي، وفي ضمنه التخفيف إذ هذا من نسخ الأثقل بالأخف، وذهب بعض الناس إلى أن ثبوت الواحد للعشرة إنما كان على جهة نذب المؤمنين إليه، ثم حط ذلك حين ثقل عليهم إلى ثبوت الواحد للاثين، وروي أيضاً هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال كثير من المفسرين: وهذا تخفيف لا نسخ إذ لم يستقر لفرض العشرة حكم شرعي، قال مكي: وإنما هو كتخفيف الفطر في السفر وهو لو صام لم يأثم وأجزأه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، ولا يمتنع كون المنسوخ مباحاً من أن يقال: نسخ، واعتبر ذلك في صدقة النجوى، وهذه الآية التخفيف فيها نسخ للثبوت للعشرة، وسواء كان الثبوت للعشرة فرضاً أو نذباً هو حكم شرعي على كل حال، وقد ذكر القاضي ابن الطيب أن الحكم إذا نُسخَ بعضه أو بعض أوصافه أو غير عدده فجائز أن يقال له: نسخ، لأنه حينئذ ليس بالأول، وهو غيره، وذكر في ذلك خلافاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر في ذلك أن النسخ إنما يقال حينئذ على الحكم الأول مقيداً لا بإطلاق، واعتبر ذلك في نسخ الصلاة إلى بيت المقدس.

وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: ﴿وَإِنْ يَكُنْ يَنْكُمُ يَأْتِي﴾

الموضعين بياء على تذكير العلامة، ورواها خارجة عن نافع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب المعنى، لأن الكائن في تلك المائة إنما هم رجال، فذلك في الحمل على المعنى كقوله تعالى: ﴿مِن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾، إذ أمثالها حسنة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿إِنْ تَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةً﴾ بالتاء في الموضعين على تأنيث العلامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب اللفظ والمقصد، كأنه أراد: إن تكن فرقة عددها مائة. وقرأ أبو عمرو بالياء في صدر الآية، وبالتاء في آخرها، ذهب في الأولى إلى مراعاة ﴿يَقْتُلُوا﴾، وفي الثانية إلى مراعاة ﴿صَابِرَةٌ﴾، قال أبو حاتم: وقرأ الأعرج ﴿إِنْ تَكُنْ﴾ بالتاء من فوق ﴿مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ﴾ وجعلها كلها على التاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا قوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ﴾ فإنه لا خلاف في الياء من تحت. وقوله: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون مرادهم ولا مقصد قتالهم، ولا يريدون به إلا الغلبة الدنياوية. فهم يخافون الموت إذا صبر لهم، ومن يقاتل ليغلب أو يستشهد فيصير إلى الجنة أثبت قدماً لا محالة.

وروي المفضل عن عاصم: ﴿وَعَلِيمٌ﴾ بضم العين وكسر اللام على البناء للمفعول. وقرأ ابن كثير،

ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وابن عمرو، والحسن، والأعرج، وابن القعقاع، وقتادة، وابن أبي إسحق: ﴿ضَعْفًا﴾ بضم الضاد وسكون العين. وقرأ عاصم، وحمزة، وشيبة، وطلحة: ﴿ضَعْفًا﴾ بفتح الضاد وسكون العين، وكذلك اختلافهم في سورة الروم. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿ضَعْفًا﴾ بضم الضاد واليمين، ذكره النقاش، وهي مصادر بمعنى واحد، قال أبو حاتم: من ضم الضاد جاز له ضم العين، وهي لغة، وحكى سيبويه الضعف والضعف لغتان بمنزلة الفقر والفقر، حكى الزهراوي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال: ضم الضاد لغة أهل الحجاز، وفتحها لغة تميم، ولا فرق بينهما في المعنى. وقال الثعالبي في كتاب «فقه اللغة» له: الضعف بفتح الضاد في العقل والرأي، والضعف بضمها في الجسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ترده القراءة، وذكره أبو غالب بن التياني غير منسوب. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع أيضاً ﴿ضَعْفًا﴾ بالجمع كظريف وظرفاء، وحكاه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقوله: ﴿وَأَلَّاهُ مَعَ الصَّكِّينَ﴾ لفظ خبر في ضمنه وعدّ وحضّ على الصبر، ويُلاحظ منه وعيد لمن لم يصبر بأنه يُغلب.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن - عندي - معاتبه من الله عز وجل لأصحاب

نبيه ﷺ، والمعنى: ما كان ينبغي لكم أن تفعلوا هذا الفعل الذي أوجب أن يكون للنبي أسرى قبل الإثخان، والإخبار هو لهم، ولذلك استمر الخطاب بـ ﴿يُرِيدُونَ﴾، والنبي ﷺ لم يأمر باستبقاء الرجال وقت الحرب ولا أراد قط عرض الدنيا، وإنما فعله جمهور مباشري الحرب، وجاء ذكر النبي ﷺ في الآية مشيراً إلى دخوله ﷺ في العتب حين لم يتنه عن ذلك حين رآه من العرش وأنكره سعد بن معاذ، ولكنه ﷺ شغله بغت الأمر وظهور النصر فترك النهي عن الاستبقاء، ولذلك بكى ﷺ وأبو بكر حين نزلت هذه الآية، ومز كثير من المفسرين على أن هذا التوبيخ إنما كان بسبب إشارة من أشار على النبي ﷺ بأخذ الفدية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما جمع أسرى بدر استشار فيهم أصحابه، فقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله هم قرابتك، ولعل الله أن يهديهم بغد إلى الإسلام، فإدبهم واستبقهم ويتقوى المسلمون بأموالهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لا يا رسول الله، بل نضرب أعناقهم فإنهم أئمة الكفر، وقال عبدالله بن رواحة: بل نجعلهم في وإد كثير الحطب ثم نضرمه عليهم ناراً، وقد كان سعد بن معاذ قال وهو مع رسول الله ﷺ في العرش وقد رأى الأسر: لقد كان الإثخان في القتل أحب إلي من استبقاء الرجال: فأخذ رسول الله ﷺ يقول

فُحُذَفَ الْمُضَافُ وَأُقِيمَ الْمُضَافُ إِلَيْهِ مَقَامَهُ، وَقُرَأَ ابْنُ جِمَازٍ: ﴿الْآخِرَةُ﴾ بِالْخَفْضِ عَلَى تَقْدِيرِ الْمُضَافِ، وَيَنْظُرُ ذَلِكَ لِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

أَكَلُ أَمْرِي تَخَسُّبِينَ امْرَأَةً
وَنَارًا تَوَقُّدًا بِالسَّلِيلِ نَارًا؟
على تقدير: وكل ناري.

وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لِلنَّاسِ: إِنْ شِئْتُمْ أَخَذْتُمْ فِدَاءَ الْأَسْرَى وَيَقْتُلُ مِنْكُمْ فِي الْحَرْبِ سَبْعُونَ عَلَى عَدَدِهِمْ، وَإِنْ شِئْتُمْ قُتِلُوا وَسَلِمْتُمْ، فَقَالُوا: نَأْخُذُ الْمَالَ وَيَسْتَشْهَدُ مِنَّا سَبْعُونَ. وَذَكَرَ عَبْدُ بَنِ حَمِيدٍ بَسْنَدَهُ أَنَّ جَبْرِيلَ نَزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بِتَخْيِيرِ النَّاسِ هَكَذَا.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعَلَى الرِّوَايَتَيْنِ فَالْأَمْرُ فِي هَذَا التَّخْيِيرِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَإِنَّهُ إِعْلَامٌ بَغِيْبٌ، وَإِذَا خُيِّرُوا فَكَيْفَ يَقَعُ التَّوْبِيخُ بَعْدَ يَقُولِهِ تَعَالَى: ﴿لَسَكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ؟﴾ وَالَّذِي أَقُولُ فِي هَذَا:

إِنَّ الْعَثْبَ لِأَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ يَقُولُهُ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَتْ لِيُنِي﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَظِيمٌ﴾. إِنَّمَا هُوَ عَلَى اسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ وَقْتِ الْهَزِيمَةِ رَغْبَةٌ فِي أَخْذِ الْمَالَ مِنْهُمْ، وَجَمِيعُ الْعَثْبِ إِذَا نَظَرَ فَإِنَّمَا هُوَ لِلنَّاسِ، وَهَنَّاكَ كَانَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَقْتُلُ وَيَحْضُ عَلَى الْقَتْلِ وَلَا يَرَى اسْتِبْقَاءَ، وَحَيْثُ قَالَ سَعْدُ بْنُ مَعَاذٍ: الْإِثْحَانُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ اسْتِبْقَاءِ الرِّجَالِ، وَلِذَلِكَ جَعَلَهُمَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَاجِيَتَيْنِ مِنْ عَذَابِ إِنْ لَوْ نَزَلَ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى حُرُوصِ بَعْضِهِمْ عَلَى الْمَالَ قَوْلُ الْمُقَدِّدِ حِينَ

﴿لِيُنِي﴾، وَقُرَأَ أَبُو عَمْرٍو بِنِ الْعَلَاءِ وَحَدَهُ: ﴿أَنْ تَكُونَ﴾ عَلَى تَأْنِيثِ الْعَلَامَةِ مِرَاعَاةً لِلْفُظِّ الْأَسْرَى، وَقُرَأَ بَاقِي السَّبْعَةِ وَجَمْهُورِ النَّاسِ: ﴿أَنْ يَكُونَ﴾ بِتَذْكِيرِ الْعَلَامَةِ مِرَاعَاةً لِمَنْعِ الْأَسْرَى، وَقُرَأَ جَمْهُورِ النَّاسِ وَالسَّبْعَةِ: ﴿أَسْرَى﴾، وَقُرَأَ بَعْضُ النَّاسِ: ﴿أَسَارَى﴾، وَرَوَاهَا الْمُفْضَلُ عَنْ عَاصِمٍ، وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي جَعْفَرٍ.

وَالْقِيَاسُ وَالْبَابُ أَنْ يَجْمَعَ أُسِيرٌ عَلَى أُسْرَى، وَكَذَلِكَ كُلُّ فَعِيلٍ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ، وَشَبَّهَ بِهِ فَعِيلٌ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ بِمَعْنَى مَفْعُولٍ كَمَرِيضٍ وَمَرَضَى إِذَا كَانَتْ أَيْضاً أَشْيَاءَ سَبِيلِ الْإِنْسَانِ أَنْ يَجْبِرَ عَلَيْهَا وَتَأْتِيهِ غَلْبَةٌ فَهِيَ فِيهَا بِمَنْزِلَةِ الْمَفْعُولِ، وَأَمَّا جَمْعُهُ عَلَى أُسَارَى فَشَبَّهَ بِكَسَالَى جَمْعِ كَسَلَانَ، وَجَمْعُ أَيْضاً كَسَلَانَ عَلَى كَسَلَى تَشْبِيهاً بِأُسْرَى فِي جَمْعِ أُسِيرٍ، قَالَ سَيْبَوِيَّةٌ: وَهَمَّا شَادَانٌ، وَقَالَ الزَّجَّاجُ: أُسَارَى جَمْعُ أُسْرَى، فَهِيَ جَمْعُ الْجَمْعِ.

وَقُرَأَ جَمْهُورِ النَّاسِ: ﴿يُنِيحُ﴾ بِسُكُونِ الشَّاءِ، وَقُرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ، وَيَحْيَى بْنُ يَعْمَرٍ، وَيَحْيَى بْنُ ثَابِتٍ: ﴿يُنِيحُنُ﴾ بِفَتْحِ الشَّاءِ وَشَدِّ الْخَاءِ، وَمَعْنَاهُ فِي الْوَجْهَيْنِ: يَبَالِغُ فِي الْقَتْلِ، وَالْإِثْحَانُ إِنَّمَا يَكُونُ فِي الْقَتْلِ وَالْجِرَاحَةِ وَمَا كَانَ مِنْهُمَا.

ثُمَّ أَمَدَّ مَخَاطِبَةَ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: ﴿رُيْدُوكَ عَرَضَ الدُّنْيَا﴾ أَي: مَالِهَا الَّذِي يَرِيءُ وَيَعْرِضُ، وَالْمُرَادُ مَا أَخْذَ مِنَ الْأَسْرَى مِنَ الْأَمْوَالِ، ﴿وَأَلَّهَ رُيْدُ الْآخِرَةِ﴾ أَي: عَمَلُ الْآخِرَةِ،

أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَمَالَ إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُخْبِرَةً أَنَّ الْأَوَّلَى وَالْأَهْيَبَ عَلَى سَائِرِ الْكُفَّارِ كَانَ قَتْلُ أُسْرَى بَدْرًا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ وَالْمُسْلِمُونَ قَلِيلٌ، فَلَمَّا كَثُرُوا وَاشْتَدَّ سُلْطَانُهُمْ نَزَلَ فِي الْأَسْرِ: ﴿فَإِنَّمَا مَتَّأُ بَدًّا رِمَاقًا فَلَمَّا﴾، وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ وَغَيْرُهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَمَّا تَكَلَّمَ أَصْحَابَهُ فِي الْأَسْرِ بِمَا ذَكَرَ دَخَلَ وَلَمْ يُجِيبَهُمْ، ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُلَيِّنُ قُلُوبَ رِجَالٍ وَيَشْدَدُ قُلُوبَ رِجَالٍ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنْ مِثْلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ مِثْلِي إِبْرَاهِيمَ قَالَ: ﴿فَمَنْ يَعْزِي فَأَلَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾، وَمِثْلَ عِيسَى قَالَ: ﴿إِنْ تَدَبَّرْتُمْ فَلَهُمْ عِبَادَةٌ وَإِنْ تَفَرَّقْتُمْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَرِيْبُ الْحَكِيمُ﴾، وَمِثْلَكَ يَا عَمْرُ مِثْلَ نُوْحٍ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفْرِيْنَ دِيَارًا﴾، وَمِثْلَ مُوسَى قَالَ: ﴿رَبَّنَا أَطَيْسَ عَلَيَّ أَمْوَالُهُمْ وَأَشَدُّ عَلَيَّ قُلُوبُهُمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَنْتُمْ السُّيُومُ فَلَا يُفْلِتُنْ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا بِفِدْيَةٍ أَوْ ضَرْبِ عُنُقٍ» وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ قَالَ عَمْرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «فَهَوِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَلَمْ يَهْوِ مَا قُلْتُ».

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَهَذِهِ حُجَّةٌ عَلَى ذِكْرِ «الْهَوِي» فِي الصَّلَاحِ.

وَقُرَأَتْ فَرْقَةٌ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ﴾ مَعْرِفًا، وَقُرَأَ جَمْهُورِ النَّاسِ:

أمر رسول الله ﷺ بقتل عقبة بن أبي معيط: «أسيري يا رسول الله»، وقول مصعب بن عمير للذي يأسر أخاه: «شُدْ يدك عليه فإن له أمأً موسرة»، إلى غير ذلك من قصصهم. فلما تحصل الأسرى وسيقوا إلى المدينة وأنفذ رسول الله ﷺ القتل في التُّنْضُرِ وعُقْبَةَ، والمَنْ في أبي عَزَّةَ وغيره، وجعل يرتقي في سائرهم نَزَلَ التَّخْيِيرِ من الله تعالى، فاستشار رسول الله ﷺ حينئذ، فمرَّ عمر رضي الله عنه على أول رأيه في القتل، ورأى أبو بكر رضي الله عنه المصلحة في قوة المسلمين بمال الفداء، ومال رسول الله ﷺ إلى رأي أبي بكر رضي الله عنه، وكلا الرأيين اجتهاد بعد تخيير، فلم ينزل على شيء من هذا عتب، وذكر المفسرون أن الآية نزلت بسبب هذه المشورة والآراء، وذلك معترض بما ذكرته، وكذلك ذكروا في هذه الآيات تحليل المغنم لهذه الأمة، ولا أقول ذلك، لأن حكم الله بتحليل المغنم لهذه الأمة قد كان تقدم قبل بدر، وذلك في السَّرِيَّةِ التي قُتِلَ فيها عمرو بن الحضرمي، وإنما المبتدع في بدر استبقاء الرجال لأجل المال، والذي من الله به فيها إلحاق فدية الكافر بالمغنم التي قد تقدم تحليلها.

وَوَجْهٌ ما قال المفسرون أن الناس حُيِّرُوا في أمرين أحدهما غير جيد على جهة الاختيار لهم، فاختراروا المفضول فوق العتب، ولم يكن تخييراً في مستويين، وهذا كما أتى

رسول الله ﷺ ليلة الإسراء بيئاً نين فاختر الفاضل.

وَعَزِيْرٌ حَكِيْمٌ ﴿صفتان من قِبَلِ الآيَةِ لأن بالعزَّة والحكمة يتم مراده على الكمال والتوفية. وقال أبو عمرو بن العلاء: الأسرى هم غير الموثقين عندما يؤخذون، والأسارى هم الموثقون ربطاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى أبو حاتم أنه سمع هذا من العرب، وقد ذكره أيضاً أبو الحسن الأَخْشِ وقال: العرب لا تعرف هذا وكلاهما عندهم سواء.

وقوله تعالى: ﴿لَوْلَا كُنْتُ بِنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ الآية. قالت فرقة: الكتاب السابق هو القرآن، والمعنى: لولا الكتاب الذي سبق فأمنتم به وصدقتم لمستم العذاب لأخذكم هذه المفاداة. وقال سعيد بن جبير، ومجاهد، والحسن أيضاً، وابن زيد: الكتاب السابق هو مغفرة الله لأهل بدر ما تقدم من ذنوبهم أو تأخر. وقال الحسن، وابن عباس، وأبو هريرة، وغيرهم: الكتاب هو ما قد كان الله قضاه في الأزل من إحلال الغنائم والفداء لمحمد ﷺ وأُمَّتِهِ، وكانت في سائر الأمم محرمة. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو عفو الله عنهم في هذا الذنب مُعْتَبِئاً. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو أن الله عزَّ وجلَّ قضى ألا يعاقب أحداً بذنب أتاه بجهالة، وهذا قول ضعيف تعارضه مواضع من الشريعة. وذكر الطبري عن محمد بن علي بن حسين بن

علي بن أبي طالب أن الكتاب السابق هو ألا يعذب أحداً بذنب إلا بعد النهي عنه، ولم يكونوا نُهواً بغد. وقالت فرقة: الكتاب السابق هو ما قضاه الله من محو الصغائر باجتناّب الكبائر. وذهب الطبري إلى دخول هذه المعاني كلها تحت اللفظ وأنه يعمُّها، ونكَّب عن تخصيص معنى دون معنى.

والسلام في ﴿لَسْتُمْ﴾ جواب ﴿لَوْلَا﴾، و﴿كُنْتُ﴾ رفع بالابتداء والخبر محذوف، وهكذا حال الاسم الذي بعد (لولا)، وتقديره عند سيبويه: لولا كتاب سابق من الله تدارككم، و﴿مَا﴾ من قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ يراد بها إمَّا الأسرى وإمَّا الفداء، وهي موصولة. وفي ﴿أَخَذْتُمْ﴾ ضمير عائد عليها، ويحتمل أن تكون مصدرية فلا تحتاج إلى العائد، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «لو نزل في هذا الأمر عذاب لَنَجَا منه عمر بن الخطاب»، وفي حديث آخر: «وسعد بن معاذ»، وذلك أن رأيهما كان أن يقتل الأسرى.

وقوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ﴾، الآية. نصُّ على إباحة المال الذي أخذ من الأسرى وإلحاق له بالغنيمة التي كان تقدم تحليلها. وقوله: ﴿حَلَالًا طَيِّبًا﴾ حالان من ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿بِئْسًا﴾، ويصح أن يكونا من الضمير الذي في ﴿غَنِمْتُمْ﴾. ويحتمل أن يكون ﴿حَلَالًا﴾ مفعولاً بـ﴿كُلُوا﴾. ﴿وَأَقْرَبُوا اللَّهَ﴾ معناه: في التسرع حسب إرادة البشر وشهوته في نازلة أخرى. وجاء قوله:

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ اعتراضاً فصيحاً في أثناء الكلام، لأن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ هو متصل بالمعنى بقوله: ﴿تَكَلُّوا مِمَّا عَيْنْتُمْ حَلَكًا طِبَاءً﴾.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن الأسرى ببدر أعلموا رسول الله ﷺ أنهم لهم ميل إلى الإسلام، وأنهم يؤملونه، وأنهم إن فدوا ورجعوا إلى قومهم التزموا جلبهم إلى الإسلام وسَعَوْا في ذلك، ونحو هذا الغرض، ففي ذلك نزلت هذه الآية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأسرى في هذه الآية عباس وأصحابه، قالوا للنبي ﷺ: أمانا بما جئت به ونشهد أنك لرسول الله، لَنُتَّصَحَّنَّ لك على قومتنا فنزلت هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بِئْسَ الْأَسْرَى﴾، وقرأ أبو عمرو وحده من السبعة: ﴿مِنَ الْأَسَارَى﴾، وهي قراءة أبي جعفر، وقتادة، ونصر بن عاصم، وابن أبي إسحق، واختلف عن الحسن بن أبي الحسن، وعن الجحدري، وقرأ ابن محيصن: ﴿بِئْسَ لَسْرَى﴾ بالإدغام، ومعنى الكلام: إن كان هذا عن جد منكم وعلم الله من نفوسكم الخير والإسلام سيجبر عليكم أفضل مما أعطيتم فدية، وسيغفر لكم جميع ما اجترحتموه، وقرأ الأعمش: ﴿بِئْسَ بَيْتُكُمْ خَيْرًا﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَخَذَ﴾ بضم الهمزة وكسر الخاء، وقرأ شيبه بن نصح، وأبو حيوة ﴿أَخَذَ﴾ بفتحهما.

وروي أن أسرى بدر افتدوا بأربعين

أوقية أربعين أوقية إلا العباس فإنه افتدى بمائة أوقية.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: والأوقية

أربعون درهماً، وقال

قتادة: فادوهم بأربعة

آلاف أربعة آلاف، وقال

عبيدة السلماني: كان فداء

أسرى بدر بمائة أوقية،

والأوقية أربعون درهماً،

ومن الدنانير ستة، وروي

أن العباس بن عبدالمطلب

قال: فني وفي أصحابي

نزلت هذه الآية، وقال

حين أعطاه رسول الله ﷺ

من مال البحرين ما قدر أن

يُقِلَّ: هذا خير مما أخذ مني، وأنا

أرجو أن يغفر الله لي. وأسند

الطبري أيضاً إلى العباس أنه قال:

فني نزلت حين أعلمت

رسول الله ﷺ بإسلامي وسألته أن

يحاسبني بالعشرين أوقية التي أخذت

مني قبل المفاداة فأبى وقال: (ذلك

فدية) فأبدلني الله من ذلك عشرين

عبداً كلهم تاجر بمالي، وروي عن

العباس أنه قال: ما أود أن هذه الآية

لم تنزل ولي الدنيا بأجمعها، وذلك

أن الله قد آتاني خيراً مما أخذ مني،

وأنا أرجو أن يغفر لي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ

فَدَدَ خَانًا اللَّهُ﴾ الآية. قول أمير أن

يقوله للأسرى ويورد معناه عليهم،

والمعنى: إن أخلصوا فعل بهم

كذا، وإن أبطنوا خيانة ما زعموا أن

يؤتمنوا عليه من العهد فلا يسرهم

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾

يَتَأْتِي النَّبِيَّ قُلُوبٌ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ تَرِبَ الْأَسْرَى إِنْ صَلَّى اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أَخَذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرَ لَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٧٠﴾ وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا بِأَمْرٍ لِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَهِجِرُوا مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجَرُوا وَإِنْ أَسْتَضَعْتُمْ كُفْرًا فِي الْإِسْلَامِ فَتَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ لِأَعْلَى قَوْمٍ يَسْتَكْفُرُونَ مِنْكُمْ وَبَيْنَهُمْ يَمِينٌ وَاللَّهُ يَسْمَعُ أُولَئِكَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ لَإِن تَفْعَلُوا تَكُونُوا فِي الْأَرْضِ فَسَادًا كَثِيرٌ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا هُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجْهَهُدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنكُمْ وَأُولَئِكَ الْأَرْحَامُ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٧٤﴾

ذلك ولا يسكنوا إليه، فإن الله بالمرصاد لهم، الذي خانوه من قبل بكفرهم وتركهم النظر في آياته، وهو قد بينها لهم إداركاً يحصلونها به، فصار ذلك كعهد متقرر، فجعل جزاءهم على خيانتهم إياه أن مكّن منهم المؤمنين، وجعلهم أسرى في أيديهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ صفتان مناسبتان، أي عليم بما يطنونه من إخلاص أو خيانة، حكيم فيما يجازيهم به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما تفسير هذه الآية بقصة عبدالله بن أبي سرح فينبغي أن يُحَرَّرَ، فإن جُلبت قصة عبدالله بن أبي سرح على أنها مثال كما يمكن أن تجلب أمثلة في عصرنا من ذلك فحسن، وإن

جُلِبَتِ عَلَى أَنْ آيَةَ نَزَلَتْ فِي ذَلِكَ فَخَطَأً، لِأَنَّ ابْنَ أَبِي سَرْحٍ إِنَّمَا تَبَيَّنَ أَمْرُهُ فِي يَوْمِ فَتْحِ مَكَّةَ، وَهَذِهِ آيَةُ نَزَلَتْ عَقِيبَ بَدْرٍ.

﴿٧٢﴾ تفسیر قوله عز وجل:

مقصد هذه الآية وما بعدها تبيين منازل المهاجرين والأنصار والمؤمنين الذين لم يهاجروا والكفار والمهاجرين بعد الحديبية، وذكر نسب بعضهم من بعض، فقدم أولاً ذكر المهاجرين وهم أصل الإسلام، وانظر تقديم عمر رضي الله عنه لهم في الاستشارة، وهاجر معناه: هجر أهله وقرابته وهجره، و﴿جَهَكَدُوا﴾ معناه: أجهدوا أنفسهم في حرب من أجهد نفسه في حربهم. ﴿وَالَّذِينَ آوُوا وَنَصَرُوا﴾ هم الأنصار، وآوى معناه: هبأ مأوى وهو الملجأ والجزء، فحكم الله على هاتين الطائفتين بأن بعضهم أولياء بعض، فقال كثير من المفسرين: هذه الموالاة هي المؤازرة والمعاونة واتصال الأيدي، وعليه فسر الطبري الآية، وهذا الذي قالوا لازم من دلالة اللفظ. وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وكثير منهم: إن هذه الموالاة هي في الميراث، وذلك أن النبي ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار، وكانت بين الأنصار أخوة النسب، وكانت أيضاً بين بعض المهاجرين، فكان المهاجري إذا مات ولم يكن له بالمدينة مهاجري ورثه أخوه الأنصاري، وإن كان له ولي مسلم لم يهاجر، فكان المسلم الذي لم يهاجر لا ولاية بينه وبين قريبه المهاجري فلا يرثه، قال ابن زيد:

واستمر أمرهم كذلك إلى فتح مكة، ثم توارثوا بعد ذلك لما لم تكن هجرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فذهبت هذه الفرقة إلى أن هذا هو مقصد الآية. ومن ذهب إلى أنها من التآزر والتعاون وإنما يحمل نفي الله تعالى ولايتهم عن المسلمين على أنها صفة الحال، لا أن الله حكم بأن لا ولاية بين المهاجرين وبينهم جملة، وذلك أن حالهم إذا كانوا متباعدي الأقطار تقتضي أن بعضهم إن حزبهم حازب لا يجد الآخر ولا ينتفع به، فعلى هذه الجهة نفي الولاية، وعلى التأويلين ففي الآية حض للأعراب على الهجرة، قاله الحسن بن أبي الحسن. ومن رأى الولاية في الموارثة فهو حكم من الله الولاية في الموارثة، قالوا: ونسخ ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ الآية.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿وَالَّذِينَ﴾ بفتح الواو، ﴿وَالَّذِينَ﴾ أيضاً بفتح الواو، وقرأ الكسائي: ﴿وَالَّذِينَ﴾ بفتح الواو، و﴿الولاية﴾ بكسر الواو، وقرأ الأعمش، وابن وثاب: ﴿ولايتهم﴾ و﴿الولاية﴾ بكسر الواو، وهي قراءة حمزة، قال أبو علي: والفتح أجود لأنها في الدين، قال أبو الحسن الأخفش: «والكسر فيها لغة»، وليست بذلك، ولحن الأصمعي الأعمش، وأخطأ عليه لأنها إذا كانت لغة فلم يلحن.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: لا سيما ولا يُظن به إلا أنه رواها، قال أبو عبيدة: الولاية بالكسر هي من وليت الأمر إليه فهي في السلطان، والولاية هي في المولى، يقال: مولى بين الولاية بفتح الواو.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ اسْتَنْصَرْتُمْ﴾ يعني: إن استدعى هؤلاء المؤمنون الذين لم يهاجروا نصركم على قوم من الكفرة فواجب عليكم نصرهم، إلا إن استنصروكم على قوم كفار قد عاهدتموهم أنتم ووائقتموهم على ترك الحرب فلا تنصروهم عليهم، لأن ذلك غدر ونقض للميثاق وترك لحفظ العهد والوفاء به، والقراءة: ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ برفع الراء، ويجوز ﴿فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ﴾ على الإغراء، ولا أحفظه قراءة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَلَّهَ يَمَّا تَمَلُّونَ﴾ على مخاطبة المؤمنين، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي، والأعرج: ﴿يَمَّا يَمَلُّونَ﴾ بالياء على ذكر الغائب.

﴿٧٣﴾ - ﴿٧٤﴾ تفسیر قوله عز وجل:

هذا حكم بأن الكفار ولايتهم واحدة، وذلك بجمع الموارثة والمعاونة والنصرة، وهذه العبارة ترغيب وإقامة للنفوس، كما تقول لمن تريد أن يستضلع: «عدوك مجتهد»، أي: فاجتهد أنت.

وحكى الطبري في تفسير هذه الآية عن قتادة أنه قال: أبى الله أن يقبل

إيمان من آمن ولم يهاجر، وذلك في صدر الإسلام، وذلك أيضاً مذكور مستوعب في تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفَيْهِمْ قَالُوا فِيهِمْ كُنْتُمْ قَالُوا كَمَا مَسْتَضْمِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضَ اللَّهِ وَرَبْعَةً فَهَاجَرُوا فِيهَا فَأَوْلَيْتَ مَا أَوْلَيْتَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٧٢﴾

والذي يظهر من الشرع أن حكم المؤمن التارك للهجرة مع علمه بوجوبها حكم العصاة لا حكم الكافر، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمُ الْمَلَائِكَةَ ظَالِمِينَ أَلْفَيْهِمْ﴾ إنما هي فيمن قتل مع الكفار، وفيهم قال رسول الله ﷺ: «أنا بريء من مسلم أقام بين المشركين لا تراءى نارهما» الحديث على اختلاف ألفاظه، وقول قتادة إنما هو فيمن كان يقوم مترتباً يقول: مَنْ غَلَبَ كُنْتُ مَعَهُ، وكذلك ذكر في كتاب الطبري والكشي.

والضمير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَعْلَمُوهُ﴾ قيل: هو عائد على الموارثة والتزامها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا تقع الفتنة عنه إلا عن بُعد وبوساطة كثيرة، وقيل: هو عائد على المؤازرة والمعانة واتصال الأيدي، وهذا تقع الفتنة عنه عن قُرب فهو أكد من الأول، ويظهر أيضاً عوده على حفظ العهد والميثاق الذي يتضمنه قوله: ﴿إِلَّا عَلَى قَوْمٍ يَبِيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾، وهذا إن لم يفعل فهو الفتنة نفسها، ويظهر أن يعود الضمير على النصر للمسلمين

المنتصرين في الدين، ويجوز أن يعود الضمير مجملاً على جميع ما ذكر.

والفتنة: المحنة بالحرب وما أنجز معها من الغارات والجلاء والأسر. والفساد الكبير: ظهور الشرك. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَنَصْرًا﴾ بالباء المنقوطة بواحدة، وقرأ أبو موسى الحجازي عن الكسائي بالشاء المنقوطة مثلثة، وروى أبو حاتم المدني أن رسول الله ﷺ قرأ: «وفساد عريض»، وقرأت فرقة: «والذين كفروا بعضهم أولى ببعض».

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا﴾ الآية. آية تضمنت تخصيص المهاجرين والأنصار وتشريفهم بهذا الوصف العظيم. و﴿حَقًّا﴾ نصب على المصدر المؤكد لما قبله، ووَصَفُ الرزق بالكريم معناه أنه لا يستحيل نجواً، والمراد به طعام الجنة، كذا ذكره الطبري وغيره، ولازم اللفظ نفي المذمات عنه، وما ذكروه فهو في ضمن ذلك.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ﴾ يريد به: مِنْ بَعْدِ الحديبية وبيعة الرضوان، وذلك أن الهجرة من بعد ذلك كانت أقل رتبة من الهجرة قبل ذلك، وكان يقال لها: الهجرة الثانية، لأن الحرب وضعت أوزارها نحو عامين، ثم كان فتح مكة، وبه قال ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح»، وقال الطبري: المعنى: من بعد ما بينت لكم حكم الولاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكان الحاجز بين الهجرتين نزول الآية، فأخبر الله تبارك وتعالى في هذه الآية بأنهم من الأولين في المؤازرة وسائر أحكام الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَجَهْدُوا مَعَكُمْ﴾ لفظ يقتضي أنهم تبع لا صدر، وقوله: ﴿فَأَوْلَيْتَ مِنْكَ﴾ كذلك، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «مؤلى القوم منهم»، «وابن أخت القوم منهم».

وقوله تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ﴾ إلى آخر السورة. قال من تقدم ذكره: هي في الموارث، وهي ناسخة للحكم المتقدم ذكره من أن يرث المهاجري الأنصاري، ووجب بهذه الآية الأخيرة أن يرث الرجل قربه وإن لم يكن مهاجراً معه. وقالت فرقة منها مالك بن أنس رحمه الله: إن الآية ليست في الموارث، وهذا فرار عن توريث الخال والعمة ونحو ذلك. وقالت فرقة: هي في الموارث إلا أنها نُسخت بآية الموارث المبيّنة.

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ معناه: القرآن، أي ذلك مثبت في كتاب الله، وقيل: المعنى: في كتاب الله السابق في اللوح المحفوظ، و﴿عَلِيمٌ﴾ صفة مناسبة لنفوذ هذه الأحكام.

كامل تفسير سورة الأنفال بتوفيق من الله والحمد لله رب العالمين

في مدة عثمان رضي الله عنه اختلفوا في الأنفال وبراءة، هل هما سورة واحدة أو هما سورتان؟ فتركوا فضلاً بينهما مراعاة لقول من قال: هما سورتان، ولم يكتبوا ﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ الرَّخِيضَ الرَّجِيحَ﴾ مراعاة لقول من قال منهم: هما واحدة، فرضي جميعهم بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول يضعفه النظر أن يختلف في كتاب الله هكذا. وروي عن أبي بن كعب أنه قال: كان رسول الله ﷺ يأمرنا بوضع ﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ الرَّخِيضَ الرَّجِيحَ﴾ في أول كل سورة، ولم يأمرنا في هذه بشيء، فلذلك لم نضعه نحن. وروي عن مالك أنه قال: بلغنا أنها كانت نحو سورة البقرة ثم نسخ ورفع كثير منها وفيه البسمة، فلم يَرَوْا بغد أن يضعوه في غير موضعه.

وسورة براءة من آخر ما نزل على النبي ﷺ، وحكى عمران بن جذير أن أعرابياً سمع سورة براءة فقال: أظن هذه من آخر ما أنزل الله على رسوله، فقيل له: لِمَ تقول ذلك؟ فقال: أرى أشياء تنقض وعهداً تنبذ.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿بَرَاءَةٌ﴾ رفع على خبر ابتداء مضمّر تقديره: هذه الآيات براءة، ويصح أن ترتفع بالابتداء والخبر في قوله: ﴿إِلَى الَّذِينَ﴾، وجاز الابتداء بالنكرة لأنها موصوفة فتعرفت تعريفاً ما، وجاز الإخبار عنها، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿بِرَاءَةٌ﴾ بالنصب على تقدير: الزموا براءة، ففيها معنى

«ومنهم» ومنهم» حتى ظن أنه لا يبقى أحد، وقال حذيفة: هي سورة العذاب، قال ابن عمر رضي الله عنهما: كنا ندعوها المُقَشَّقَةُ، قال الحارث بن يزيد: كانت تدعى المبعثرة، ويقال لها المشيرة، ويقال لها البحوث.

وقال أبو مالك الغفاري: أول آية نزلت من براءة ﴿تَبَرَّأْنَا بِمَا كُنَّا فَعَمَلْنَا﴾ وقال سعيد بن جبيرة: كانت براءة مثل سورة البقرة في الطول.

واختلف - لم سقط سطر ﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ الرَّخِيضَ الرَّجِيحَ﴾ من أولها - فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: أشبهت معانيها معاني الأنفال، وكانتا تدعيان القرينتين في زمن رسول الله ﷺ، فلذلك قرئت بينهما، ولم أكتب «يَسْمِ اللّٰهِ الرَّخِيضِ الرَّجِيحِ»، ووضعتها في السبع الطول. وقال علي بن أبي طالب لابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَسِّرْهُ اللَّهُ الرَّخِيضَ الرَّجِيحَ﴾ أمان وبشارة، و«براءة» نزلت بالسيف ونبذ المهود، فلذلك لم تبدأ بالأمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعزى هذا القول للْمُبَرِّد وهو لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وهذا كما يبدأ المخاطب الغاضب: «أما بعد» دون تقييد ولا افتتاح بتبجيل، وروي أن كتبة المصحف



(٩) - سورة التوبة

مدنية

وآياتها تسع وعشرون ومائة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تفسير سورة براءة على بركة الله

هذه السورة مدنية إلا آيتين: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخرها، وتسمى سورة التوبة، قاله حذيفة وغيره، وتسمى الفاضحة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وتسمى الحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما زال ينزل:

الإغراء. و﴿بِرَّاءَةٍ﴾ معناها: تخلُّصٌ وتبرُّؤٌ من العهود التي بينكم وبين الكفار البادئين بالنقض، تقول: برئت إليك من كذا، فيرى الله تعالى ورسوله بهذه الآية إلى الكفار من تلك العهود التي كانت ونقضها الكفار. وقرأ أهل نجران: ﴿مِنَ اللَّهِ﴾ بكسر النون.

وهذه الآية حُكِمَ من الله عزُّ وجلُّ بنقض العهود والموادعات التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين طوائف المشركين الذين ظهر منهم أو تُحَسَّنَ مِن جِهَتِهِمْ نقض، ولما كان عهد رسول الله ﷺ لازماً لأمته حسن أن يقول: ﴿عَهْدُكُمْ﴾، قال ابن إسحق وغيره من العلماء: كانت العرب قد واثقها رسول الله ﷺ عهداً عاماً على ألا يُصد أحد عن البيت الحرام، ونحو ذلك من الموادعات، فنُقِضَ ذلك بهذه الآية، وأجل لجميعهم أربعة، فمن كان له مع النبي ﷺ عهد خاص وبقي منه أقل من الأربعة الأشهر بلغ به تمامها، ومن كان أمده أكثر من أربعة أشهر أتم له عهده، إلا إن كان ممن تحسن منه نقض فإنه قصر على أربعة أشهر، ومن لم يكن له عهد خاص فرضت له الأربعة الأشهر يسبح فيها في الأرض، أي يذهب مسرَّحاً آمناً كالسَّيْحِجِ من الماء وهو الجاري المنبسط، ومنه قول طرفة بن العبد:

لَوْ خِفْتُ هَذَا مِنْكَ مَا نِيلْتَنِي
حَتَّى تَرَى خَيْلاً أَمَامِي تَسِيحُ
وهذا يُنبئ عن أن رسول الله ﷺ استشعر من الكفار نقضاً وترتباً به

إلا من الطائفة المستثناة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أول الأشهر الأربعة سُؤالٌ وحينئذ نزلت الآية، وانقضاًؤها عند انسلاخ الأشهر الحرم، وهو انقضاء الحرم بعد يوم الأذان بخمسين يوماً، فكأن أجل من له عهد أربعة أشهر من يوم نزول الآية، وأجل سائر المشركين خمسون ليلة من يوم الأذان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: اعترض هذا بأن الأجل لا يلزم إلا من يوم سُمِعَ، ويحتمل أن البراءة قد كانت سُمِعَت من أول سُؤال، ثم كرر إشهارها مع الأذان يوم الحج الأكبر، وقال السدي وغيره: بل أولها يوم الأذان وآخرها العشرون من ربيع الآخر، وهي الحُرْمُ، استعير لها الاسم بهذه الحرمة والأمن الخاص الذي رسمه الله وألزمه فيها، وهي أجل الجميع ممن له عهد وتحسن منه نقض، وممن لا عهد له.

وقال الضحاك وغيره من العلماء: «كان من العرب من لا عهد بينه وبين رسول الله ﷺ جملة، وكان منهم من بينه وبينهم عهد وتَحَسَّنَ منهم النقض، وكان منهم من بينه وبينهم عهد ولم ينقضوا، فقولته تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ﴾ هو أجل ضربه لمن كان بينه وبينهم عهد وتَحَسَّنَ منهم نقضه، وأول هذا الأجل يوم الأذان، وآخره انقضاء العشر الأول من ربيع الآخر، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرْمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾ هو حُكْمُ مَبَايِنَ لِلأَوَّلِ حَكَمَ به في المشركين الذين لا عهد لهم بالبَّئَةِ، فجاء أجل تأمينهم

خمسین يوماً، أولها يوم الأذان وآخرها انقضاء الحرم، وقوله: ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ﴾ يريد به الذين لهم عهد ولم ينقضوا ولا تُحَسَّنَ منهم نقض، وهم - فيما روي - بنو ضمرة من كنانة، عاهد لهم المحسَّر بن خويلد وكان بقي من عهدهم يوم الأذان تسعة أشهر.

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما أجل الله أربعة أشهر من كان عهده ينصرم عند انقضائها أو قبله، والمعنى: فقل لهم يا محمد: سيحوا. وأما من كان له عهد يتمادى بعد الأربعة الأشهر فهم الذين أمر الله لهم بالوفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّهُمْ عَدُوٌّ مُّجْتَرِيٌّ لِلَّهِ﴾ معناه: واعلموا أنكم لا تغلبون الله ولا تعجزونه هرباً من عقابه، ثم أعلمهم بحُكْمِهِ بخزي الكافرين، وذلك حُكْمٌ إمَّا في الدنيا وإمَّا في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ﴾ الآية. ﴿وَأَذَانٌ﴾ معناه: إعلان وإشهار، والناس هاهنا: عام في جميع الخلق، و﴿يَوْمٌ﴾ منصوب على الظرف، والعامل فيه ﴿وَأَذَانٌ﴾ وإن كان قد وصف فإن راحة الفعل باقية، وهي عاملة في الظرف، وقيل: لا يجوز ذلك إذ قد وُصِفَ المصدر فزال عنه قوة الفعل ويصح أن يعمل فيه فعل مضمر تقتضيه الألفاظ، وقيل: العامل فيه صفة الأذان، وقيل: العامل فيه ﴿مُجْتَرِيٌّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد.

ويوم الحج الأكبر - قال عمر، وابن عمر، وابن المسيب، وغيرهم: هو يوم عرفة، وقال به علي رضي الله عنه، ورؤي عنه أيضاً أنه يوم النحر، وروي ذلك عن أبي هريرة وجماعة. وروي ذلك عن النبي ﷺ، وقال منذر بن سعيد وغيره: كان الناس يوم عرفة مفترقين إذ كانت الحمس تقف بالمزدلفة. وكان الجمع يوم النحر بمعنى، فلذلك كانوا يسمونه «الحج الأكبر» أي: من الأصغر الذي هم فيه مفترقون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا زال في حجة أبي بكر رضي الله عنه لأنه لم يقف أحد بالمزدلفة، وقد ذكر المهدي أن الحمس ومن اتبعها وقفوا بالمزدلفة في حجة أبي بكر رضي الله عنه، والذي تظاهرت به الأحاديث في هذا المعنى أن علياً رضي الله عنه أذن بتلك الآية يوم عرفة إثر خطبة أبي بكر، ثم رأى أنه لم يعلم الناس بالإسراع فتنبعهم بالأذان بها يوم النحر، وفي ذلك اليوم بعث معه أبو بكر من يعينه بالأذان بها كأبي هريرة رضي الله عنه وغيره، وتتبعوا بها أيضاً أسواق العرب كذي المجاز وغيره، فمن هنا يترجح قول سفيان: إن «يوم» في هذه الآية بمعنى «أيام»، وبسبب ذلك قالت طائفة: يوم الحج الأكبر: عرفة حيث وقع أول الأذان، وقالت طائفة أخرى: هو يوم النحر حيث وقع إكمال الأذان، واحتجوا أيضاً بأنه من فاته الوقوف يوم عرفة فإنه يجزيه الوقوف ليلة النحر، فليس

يوم عرفة - على هذا - يوم الحج الأكبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا حجة في هذا.

وقال سفيان بن عيينة: المراد أيام الحج كلها كما تقول: «يوم صفين، ويوم الجمل»، تريد جميع أيامه. وقال مجاهد: يوم الحج الأكبر: أيام منى كلها ومجامع المشركين حيث كانوا بذئ المجاز، وعكاظ، ومجنة، حين نودي فيهم ألا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كما قال عثمان لعمر رضي الله عنهما حين عرض عليه زواج حفصة رضي الله عنها: إني قد رأيت ألا أتزوج يومي هذا، وكما ذكر سيبويه أنك تقول لرجل: ما شغلك اليوم؟ وأنت تريد: في أيامك هذه.

واختلف، لم وصف بالأكبر؟ فقال الحسن بن أبي الحسن، وعبدالله بن الحارث بن نوفل: لأنه حج ذلك العام المسلمون والمشركون وصادف أيضاً عيد اليهود والنصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف أن يصفه الله تعالى في كتابه بالكبر لهذا، وقال الحسن أيضاً: إنما سمي أكبر لأنه حج فيه أبو بكر رضي الله عنه ونبذت فيه العهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو القول الذي يشبه نظر الحسن، وبيانه أن ذلك اليوم كان المفتتح بالحق وإمارة الإسلام بتقديم

رسول الله ﷺ، ونبذت فيه العهود، وعز في الذين وذل الشرك، ولم يكن ذلك في عام ثمان حين ولي رسول الله ﷺ الحج عتاب بن أبيد، بل كان أمر العرب على أوله، فكل حج بعد حج أبي بكر رضي الله عنه فمتركب عليه، فحقه لهذا أن يسمى أكبر. وقال عطاء بن أبي رباح، وغيره: الحج الأكبر بالإضافة إلى الحج الأصغر وهي العمرة. وقال الشعبي: بالإضافة إلى العمرة في رمضان فإنها الحج الأصغر، وقال مجاهد: الحج الأكبر: القرآن، والأصغر: الأفراد، وهذا ليس من الآية في شيء، وقد تقدم ما ذكره منذر بن سعيد، ويتجه أن يوصف بالأكبر على جهة المدح لا بالإضافة إلى أصغر معين، بل يكون المعنى: الأكبر من سائر الأيام، فتأمل.

واختصار ما تحتاج إليه هذه الآية على ما ذكر مجاهد وغيره من صور تلك الحال أن رسول الله ﷺ افتتح مكة سنة ثمان، فاستعمل عليها عتاب بن أبيد، وقضى أمر حنين والطائف وانصرف إلى المدينة فأقام بها حتى خرج إلى تبوك، ثم انصرف من تبوك في رمضان سنة تسع فأراد الحج، ثم نظر في أن المشركين يحجون في تلك السنة ويطوفون عراة فقال: لا أريد أن أرى ذلك، فأمر أبا بكر رضي الله عنه على الحج بالناس وأنفذه، ثم أتبعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه على ناقته العضباء، وأمره أن يؤذن في الناس بأربعة أشياء وهي: (لا يحج بعد

العام مشرك، ولا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة - وفي بعض الروايات: ولا يدخل الجنة كافر - ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدته. وفي بعض الروايات: ومن كان بينه وبين رسول الله ﷺ عهد فأجله أربعة أشهر يسبح فيها، فإذا انقضت فإن الله بريء من المشركين ورسوله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأقول: إنهم كانوا يتادون بهذا كله، فهذا للذين لهم عهد وتحسن منهم نقضه، والإبقاء إلى المدة لمن لم يخبر منه نقض. وذكر الطبري أن العرب قالت يومئذ: نحن نبرأ من عهدك وعهد ابن عمك إلا من الطعن والضرب، فلام بعضهم بعضاً وقالوا: ما تصنعون وقد أسلمت قريش؟ فأسلموا كلهم ولم يسبح أحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحينئذ دخل الناس في دين الله أفواجا، وكان رسول الله ﷺ قد أمر علياً أن يقرأ على الناس الأربعين آية صدر سورة براءة، وقيل: ثلاثين، وقيل: عشرين، وفي بعض الروايات: عشر آيات. وفي بعضها، تسع آيات، ذكرها النقاش. وقال سليمان بن موسى الشامي: ذلك ثمان وعشرون آية، فلحق علي أباً بكر رضي الله عنهما في الطريق، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: أمير أو مأمور؟ فقال: بل مأمور، فنهضا حتى بلغا الموسم، فلما خطب أبو بكر رضي الله عنه بعرفة

قال: قم يا علي فأذ رسالة رسول الله ﷺ، فقام علي رضي الله عنه ففعل، قال: ثم وقع في نفسي أن جميع الناس لم يشاهدوا خطبة أبي بكر فجعلت أتبع الفساطيط يوم النحر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ﴾ بفتح الألف على تقدير: بأن الله. وقرأ الحسن، والأعرج: ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ بكسر الألف على القطع، إذ الأذان في معنى القول. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَرَسُولُهُ﴾ بالرفع على الابتداء وحذف الخبر، وتقديره: ورسوله بريء منهم، هذا وهو عند شيخنا الفقيه الأستاذ أبي الحسن بن الباشر رحمه الله معنى العطف على الموضع، أي تؤنس بالجملة الأولى التي هي ابتداء وخبر فعطفت عليها هذه الجملة، وقيل: هو معطوف على موضع المكتوبة قبل دخول ﴿أَنَّ﴾ التي لا تغير معنى الابتداء بل تؤكدُه وإذ قد قرئت بالكسر، لأنه لا يعطف على موضع (أَنَّ) بالفتح، وانظر فإنه مختلف في جوازه، لأن حكم (أَنَّ) رفع حكم الابتداء إلا في هذا الموضع وما أشبهه، وهذا قول أبي العباس، وأبي علي رحمهما الله. ومذهب الأستاذ على مقتضى كلام سيويه ألا موضع لما دخلت عليه (أَنَّ) إذ هو معرب قد ظهر فيه عمل العامل، ولأنه لا فرق بين (أَنَّ) و(لَيْتَ) و(لَعَلَّ)، والإجماع على ألا موضع لما دخلت عليه هذه. وقيل: هو عطف على الضمير المرفوع الذي في ﴿بَرِيءٌ﴾، وحسن ذلك أن المجرور قام مقام

التوكيد، كما قامت ﴿لَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاءُنَا﴾. وقرأ ابن أبي إسحق، وعيسى بن عمر: ﴿رَسُولُهُ﴾ بالنصب عطفاً على لفظ المكتوبة. وبهذه الآية امتحن معاوية أبا الأسود حتى وضع النحر إذ جعل قارئاً يقرأ بخفض ﴿وَرَسُولُهُ﴾.

والمعنى في هذه الآية: بريء من عهودهم وأديانهم براءة عامة تقتضي المحاربة وإعمال السيف.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَبَتَّمْ﴾ أي: عن الكفر. ووعدهم مع شرط التوبة وتوعدهم مع شرط التولي، وجاز أن تدخل البشارة في المكروه لما جاء مصرحاً به مرفوع الإشكال.

④ - ⑤ تفسير قوله عز وجل: هذا هو الاستثناء الذي تقدم ذكره في المشركين الذين بقي من عهدهم تسعة أشهر وكانوا قد وفوا بالعهد على ما يجب، وقال قتادة: هم قريش الذين عاهدوا زمن الحديبية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود بإسلام قريش في الفتح قبل الأذان بهذا كله، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَدِينِهِمْ﴾: إلى الأربعة الأشهر التي في الآية. وقرأ الجمهور: ﴿يَنْقُضُوكُمْ﴾ بالصاد غير منقوطة، وقرأ عطاء بن يسار، وعكرمة، وابن السمين: ﴿يَنْقُضُوكُمْ﴾ بالضاد، من النقض، وهي متكنة مع العمد. ولكنها قلقة في تعديها إلى الضمير. ويحسن ذلك أن النقض نقض وفاء وحق للمعاهد، وكذلك تعذى ﴿أَتَيْتُوا﴾

الصواب. وقوله: ﴿خَذَوْهُمْ﴾
معناه: الأسر، وقوله: ﴿كُلُّ
مَرَصِدٍ﴾ معناه: في مواضع الغيرة
حيث يُرصدون، وقال النابغة:

أَعَاذِلُ إِنْ الْجَهْلُ مِنْ لَذَّةِ الْفَتَى
وَإِنَّ الْمَنَابِيَا لِلشُّفُوسِ بِمَرَصِدٍ
وَنُصِبَ ﴿كُلُّ﴾ عَلَى الظرف،
وهو اختيار الزجاج، أو بإسقاط
الخافض، التقدير: في كل مرصد،
أو على كل مرصد، وحكى سيبيوه:
ضَرِبَ الظَهْرَ وَالْبَطْنَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا﴾ يريد:
من الكفر، فهي متضمنة الإيمان، ثم
قرن بها إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة
تنبيهاً على مكان الصلاة والزكاة من
الشرع. وقوله: ﴿تَخَلَّوْا سَبِيلَهُمْ﴾
تأمن.

وقال أنس بن مالك: هذا هو
دين الله الذي جاءت به الرسل، وهو
من آخر ما نزل قبل اختلاف
الأهواء، وفيه قال النبي ﷺ: «من
فارق الدنيا مخلصاً لله تعالى مطيعاً له
لقي الله وهو عنه راضٍ»، ثم وعد
بالمغفرة في صيغة الخبر عن أوصافه
تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولم يفسر أكثر من هذا، وقوله هو
الصواب، والآيتان لا يشبه معنى
واحدة معنى الأخرى، وذلك أن هذه
الآية قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾
﴿وَعَذُّوهُمْ وَأَضْرِبُوهُمْ﴾ أفعال إنما تتمثل
مع المحارب المرسل المناضل،
وليس للأسير فيها ذكر ولا حكم،
وإذا أخذ الكافر خرج عن درجات
هذه الآية وانتقل إلى حكم الآية
الأخرى، وتلك الآية لا مدخل فيها
لغير الأسير، فقول ابن زيد هو

وقوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا
الْمُشْرِكِينَ﴾ أمر يقتال
المشركين فخرج الأمر
بذلك بلفظ ﴿فَاقْتُلُوا﴾ على
جهة التشجيع وتقوية
النفس، أي: هكذا يكون
أمركم معهم، وهذه الآية
نسخت كل موادة في
القرآن أو مهادة وما جرى
مجرى ذلك، وهي على
ما ذكر مائة آية وأربع
عشرة آية، وقال
الضحاك، والسدي
وعطاء: هذه الآية
منسوخة بقوله تعالى:
﴿فَإِنَّمَا مَتَا بَدُّ وَإِنَّمَا فِدَاةٌ﴾،

وقالوا: لا يجوز قتل أسير
البيئة صبراً، إما أن يُمنَّ عليه وإما أن
يُفادى، وقال قتادة، ومجاهد،
وغيرهما: قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا مَتَا بَدُّ
وَإِنَّمَا فِدَاةٌ﴾ منسوخ بهذه الآية،
وقالوا: لا يجوز المنُّ على أسير ولا
مفادته، ولا شيء إلا القتل، وقال
ابن زيد: هما محكمتان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولم يفسر أكثر من هذا، وقوله هو
الصواب، والآيتان لا يشبه معنى
واحدة معنى الأخرى، وذلك أن هذه
الآية قوله تعالى: ﴿فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾
﴿وَعَذُّوهُمْ وَأَضْرِبُوهُمْ﴾ أفعال إنما تتمثل
مع المحارب المرسل المناضل،
وليس للأسير فيها ذكر ولا حكم،
وإذا أخذ الكافر خرج عن درجات
هذه الآية وانتقل إلى حكم الآية
الأخرى، وتلك الآية لا مدخل فيها
لغير الأسير، فقول ابن زيد هو

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ
رُسُلِهِ إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا
اسْتَقَمُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ بَحِيثُ الْمُتَّقِينَ
﴿٧﴾ كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا تَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلَّا
وَلَا دِمَةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ
فَيْسِفُونَ ﴿٨﴾ أَشْرَ وَإِن يَأْتِ اللَّهُ فِتْنًا قَلِيلًا فَصَدَّوْا
عَنْ سَبِيلِهِمْ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ لَا يَرْقُبُونَ
فِي مُؤْمِنٍ إِلَّا وَلَا دِمَةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ ﴿١٠﴾
فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَفَخَرَّحْتُمُ
فِي الدِّينِ وَفُضِّلَ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ
أَيْمَنُهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعْنُوا فِي دِينِكُمْ فَقْتُلُوا
أَيْمَةً الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ
﴿١٢﴾ الْآتِفِدِلُوا قَوْمًا كَثُرُوا أَيْمَنُهُمْ وَهَكُمُوا
بِإِخْرَاجِ الرُّسُولِ وَهُمْ بِكُمْ وَأُولَئِكَ مَرَّةٌ
أَخْشَوْهُمْ فَاَللَّهِ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾

١٨٨

﴿إِلَى﴾ لما كان العهد في معنى ما
يؤدى ويبرأ منه وكانهم ينقضون
العهد. ﴿وَيُظَاهِرُوا﴾ معناه:
يعاونوا، فالظهر: المُعين، وأصله
من الظهر، كأن هذا يسند ظهره إلى
الأخر، والآخر كذلك، وقوله: ﴿إِنَّ
اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ تنبيه على أن الوفاء
بالعهد من التقوى.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرُ
الْحُرْمَ﴾ الآية. الانسلاخ: خروج
الشيء عن الشيء المتلبس به،
كانسلاخ الشاة عن الجلد والرجل
عن الشباب، ومنه قوله تعالى:
﴿نَسَلَخْ مِنْهُ النَّهَارَ﴾، فسببه انصرام
الأشهر بأسمائها وأحكامها من الزمن
بذلك. وقد تقدّم القول فيمن يجعل
له انقضاء الأشهر الحُرْمَ أجلاً، وما
المعنى بالأشهر الحُرْمَ بما أغنى عن
إعادته.

منسوخ بقوله تعالى: ﴿فَأَقْزَوْنَا الْمُشْرِكِينَ﴾. وقال غيرهما: هذه الآية إنما كان حكمها مدة الأربعة الأشهر التي ضربت لهم أجلاً.

وقوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلِمَ اللَّهِ﴾ يعني القرآن، وهي إضافة صفة إلى موصوف، لا إضافة خلق إلى خالق، والمعنى: ويفهم أحكامه وأوامره ونواهيته، فذكر السماع بالأذان إذ هو الطريق إلى الفهم، وقد يجيء السماع في كلام العرب مستعملاً بمعنى الفهم، كما تقول لمن خاطبته فلم يقبل منك: «أنت لم تسمع قولي»، تريد: لم تفهمه، وذلك في كتاب الله تعالى في عدة مواضع. و﴿أَعَدَّ﴾ في هذه الآية مرتفع بفعل يفسره قوله تعالى: ﴿أَسْتَجَارَكَ﴾، ويضعف فيه الابتداء لولايه الفعل ل﴿وَلَانَ﴾. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى هذا اللطف في الإجارة والإسراع وتبليغ المأمن. و﴿يَسْمَعُونَ﴾ نفى علمهم بمراشدهم في اتباع محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ﴾ الآية. لفظ استفهام وهو على جهة التعجب والاستبعاد، أي: على أي وجه يكون للمشركين عهد وهم قد نقضوا وجأهروا بالتعدي؟ ثم استثنى من عموم المشركين القوم الذين عاهدوا عند المسجد الحرام، أي: في ناحيته وجهته. وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما روي عنه: المعنى بهذا قريش. وقال السدي: المعنى بنو جذيمة من الدليل. وقال ابن إسحاق: هي قبائل بني بكر،

كانوا دخلوا وقت الحديبية في المدة التي كانت بين رسول الله ﷺ وبين قريش، فلم يكن نقض إلا قريش وبنو الدليل من بني بكر، فأمر المسلمون بإتمام العهد لمن لم يكن نقض. وقال قوم: المعنى خزاعة، قاله مجاهد، وهو مردود بإسلام خزاعة عام الفتح، وقال بعض من قال إنهم قريش: إن هذه الآية نزلت فلم يستقيموا، بل نقضوا فنزل تأجيلهم أربعة أشهر بعد ذلك، وحكى الطبري هذا القول عن ابن زيد، وهو ضعيف متناقض، لأن قريشاً وقت الأذان بالأربعة الأشهر لم يكن منهم إلا مسلم، وذلك بعد فتح مكة بستة، وكذلك خزاعة، قاله الطبري وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد به الموفين بالعهد من المؤمنين، فذلك جاء بلفظ معرف للوفاء بالعهد متضمن للإيمان.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: بعد ﴿كَيْفَ﴾ في هذه الآية فعل مقدر ولا بُدَّ، يدل عليه ما تقدم، فيحسن أن يُقدَّر: وكيف يكون لهم عهد؟ ونحوه قول الشاعر:

وَحَبْرُ ثَمَانِي أَمَّا المَوْتُ فِي القُرَى
فَكَيْفَ وَهَاتَا هَضْبَةً وَكثِيبًا؟
وفي ﴿كَيْفَ﴾ هنا تأكيد للاستيعاب الذي في الأولى، و﴿لَا يَرْجُوا﴾ معناه: لا يراعوا ولا يحافظوا، وأصل الارتقاب بالبصر، ومنه الرقيب في المسير وغيره، ثم قيل لكل من حافظ على شيء ورعاه: راقبه وارتقبه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلَّا﴾، وقرأ

عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما بياء بعد همزة خفيفة اللام: ﴿إِيلاً﴾، وقرأت فرقة: ﴿أَلَا﴾ بفتح الهمزة. فأما من قرأ: ﴿إِلَّا﴾ فيجوز أن يراد به الله عز وجل، قاله مجاهد، وأبو مجلز، وهو اسمه بالسريانية وعُزْب، ومن ذلك قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه حين سمع كلام مسيلمة، فقال: هذا كلام لم يخرج من إل. ويجوز أن يراد به العهد، والعرب تقول للعهد والجلف والجوار ونحو هذه المعاني: إلًا، ومنه قول أبي جهل:

لِإِلٍّ عَلَيْنَا وَاجِبٌ لَا نُضِيغُهُ
مَتَيْنٌ قَوَاهُ غَيْرُ مَثَثَكِ الْحَبْلِ
ويجوز أن يراد به القرابة، فإنها في لغة العرب يقال لها: إل، ومنه قول ابن مقبل:

أَسَدَ النَّاسِ خُلُوفٌ خَلْفُوا
قَطَعُوا الإِلَّ وَأَعْرَاقَ الرُّجْمِ
أنشده أبو عبيدة على القرابة، وظاهره أنه في العهود، ومنه قول حسان:

لَعَمْرُكَ إِنَّ إِلَكَ مِنْ قُرَيْشٍ
كَإِلِّ السَّقْبِ مِنْ رَأْلِ السَّحَابِ
وأما من قرأ: ﴿أَلَا﴾ بفتح الهمزة فهو مصدر من فعل الال الذي هو العهد، ومن قرأ: ﴿إِيلاً﴾ فيجوز أن يراد به الله عز وجل، فإنه يقال: إل وإيل، وفي البخاري: قال الله: جِبْر، ومييك، وسراف: عَيْدُ بالسريانية، وإيل: اللُّهُ عز وجل، ويجوز أن يريد: ﴿إِلَّا﴾ المتقدم فأبدل من أحد المثليين بياء، كما فعلوا ذلك في قولهم: أمَّا وأيما،

ومنه قول سعد بن قرط يهجو أمه:
يَا لَيْتَمَا أُمَّنَا شَأَلَتْ نَعَامَتَهَا
أَيُّمَا إِلَى جَنَّةٍ أَيُّمَا إِلَى نَارٍ
ومنه قول عمر بن أبي ربيعة:
رَأَتْ رَجُلًا أَيُّمَا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ
فَيُضْحَى وَأَمَّا بِالْعَيْشِيِّ فَيُخْضَرُ
وقال الآخر:

لَا تُفِيدُوا أَبَالَكُمْ
إِنَّمَا لَنَا إِنَّمَا لَكُمْ
قال أبو الفتح: ويجوز أن يكون
مأخوذاً من آل يؤول إذا ساس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كما
قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:
«قد أننا وإيل علينا»، فكان المعنى -
على هذا: لا يرقبون فيكم سياسة ولا
مدارة ولا ذمة، وقلبت الواو ياء
لسكونها والكسرة قبلها.

والذمة أيضاً بمعنى المتاب والجلف
والجوار، ونحوه قول الأصمعي:
«الذمة كل ما يجب أن يحفظ
ويحمى»، فمن رأى في (الإل) أنه
العهد جعلهما لفظتين مختلفتين لمعنى
واحد أو متقارب، ومن رأى (الإل)
لغير ذلك فهما لفظان لمعنيين.

«وَأَبَى قُلُوبُهُمْ» معناه: تأبى أن
تدعن لما يقولونه بالألسنة، وأبى يأبى
شاذ، لا يحفظ فعل يفعل بفتح العين
في الماضي والمستقبل، وقد حكي
ركن يركن. وقوله: «وَأَكْرَمَهُمْ» يريد
به الكل، أو يريد استثناء من قضى له
بالإيمان، كل ذلك محتمل.

وقوله تعالى: «أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ
ثَمَنًا قَلِيلًا» الآية. اللازم من ألفاظ
هذه الآية أن هذه الطائفة الكافرة
الموصوفة بما تقدم لما تركت
آيات الله ودينه وآثرت الكفر وحالها

في بلادها، كل ذلك كالشراء والبيع
لما كان تركاً لما قد مكُننا منه وأخذاً
لما يمكن نبذه، وهذه نزعة مالك
رحمه الله في منع اختيار المشتري
فيما تختلف آحاد جنسه ولا يجوز
التفاضل فيه. وقد تقدم ذكر ذلك في
سورة البقرة. وقوله: «فَصَدَّقُوا
سَبِيلَهُ» يريد: صدقوا أنفسهم
وغيرهم، ثم حكم عليهم بأن عملهم
سبىء، و«أَشْتَرُوا» في هذه الآية - إذ
لم يذكر مفعولها - يحتمل أن تكون
مضمنة كبشس، فأما إذا قلت:

«ساءني فعل زيد» فليس بتضمين
بوجه، وإن قدرت في هذه الآية
مفعولاً زال التضمين.

وروي أن أبا سفيان بن حرب جمع
بعض العرب على طعام، وندبهم
إلى وجه من وجوه النقض فأجابوا
إلى ذلك فنزلت الآية، وقال بعض
الناس: هذه في اليهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا القول وإن كانت ألفاظ هذه
الآية تقتضيه فما قبلها وما بعدها يرده
ويتبرأ منه، ويختل أسلوب القول به.
وقوله تعالى: «لَا يَرْفُقُونَ» الآية.

وصف لهذه الطائفة المشتريه يضعف
ما ذهب إليه من قال إن قوله:
«أَشْتَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ» هو في اليهود،
وقوله تعالى: «فِي مُؤْمِنٍ» إعلام بأن
عداوتهم إنما هي بحسب الإيمان
فقط. وقوله أولاً: «فِيكُمْ» كان
يحتمل أن يظن ظان أن ذلك للإحن
التي وقعت فزال هذا الاحتمال
بقوله: «فِي مُؤْمِنٍ»، ثم وصفهم
بالاعتداء والبداءة بالنقض للعهد
والتعمق في الباطن.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿تَأْتُوا﴾: رجعوا عن حالهم،
والتوبة منهم تتضمن الإيمان، ثم
قرن تعالى بإيمانهم إقامة الصلاة
وإيتاء الزكاة، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: حرمت هذه الآية
دماء أهل القبلة، وقال ابن زيد:
قرن الله الصلاة بالزكاة ولم يرض
بإحداهما دون الأخرى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وعلى هذا مر أبو بكر رضي الله عنه
وقت الردة.

والأخوة في الدين هي أخوة
الإسلام، وجمع الأخ منها: إخوان،
وجمعه من النسب: إخوة قاله بعض
اللغويين، وقد قيل: إن الأخ من
النسب يجمع على إخوان أيضاً،
وذلك ظاهر من قوله تعالى: «وَلَا
عَلَيْكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ مَبْرُوكِهِمْ أَوْ
بُيُوتِهِمْ مَبَايِكِهِمْ أَوْ بُيُوتِ
أَخْوَانِهِمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِهِمْ»،

وبين ذلك قوله تعالى في آخر الآية:
«أَوْ صَدِيقِكُمْ»، وكذلك قوله في
هذه السورة: «فَقُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ
وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ
الآية».

فأما الأخ من التوادف في كتاب الله:
«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ». وقال
أبو هريرة في البخاري: «كان إخواني
من المهاجرين يشغلهم الصفق
بالأسواق»، فيصح من هذا كله أن
الأخ يجمع إخوة وإخواناً سواء كان
من نسب أو مودة. وتفصيل الآيات:
بينها وإيضاحها.

وقوله تعالى: «وَأَنْ تَكُونُوا أَيْمَانُهُمْ»
الآية. النكت: النقض، وأصله في كل
ما قبل ثم حُل، فهي في الأيمان

وَقَع الْأَمْرُ بِقِتَالِ أُمَّةِ
النَّاكِثِينَ بِالْمَعْهُودِ مِنَ الْكُفْرَةِ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ دُونَ
تَعْيِينِ، وَاقْتَضَتْ حَالُ
كُفْرَانِ الْعَرَبِ وَمَحَارِبِي
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ تَكُونَ
الْإِشَارَةُ إِلَيْهِمْ أَوْلَى بِقَوْلِهِ:
﴿أَيُّمَّةَ الْكُفْرِ﴾، وَهَمَّ
حَصْلُهَا حِينَئِذٍ تَحْتَ اللَّفْظَةِ
إِذِ الَّذِي يَتَوَلَّى قِتَالَ
النَّبِيِّ ﷺ وَالِدْفَعِ فِي صَدْرِ
شَرِيعَتِهِ هُوَ إِمَامٌ مَنْ يَكْفُرُ
بِذَلِكَ الشَّرْعِ إِلَى يَوْمِ
الْقِيَامَةِ، ثُمَّ تَأْتِي فِي كُلِّ
جَيْلٍ مِنَ الْكُفْرَانِ أُمَّةٌ
خَاصَّةٌ بِجَيْلٍ جَيْلٍ.

وقع الأمر بقتال أئمة
الناكثين بالعهود من الكفرة
إلى يوم القيامة دون
تعيين، واقتضت حال
كفر العرب ومحاربي
رسول الله ﷺ أن تكون
الإشارة إليهم أولاً بقوله:
﴿أَيُّمَّةَ الْكُفْرِ﴾، وهم
حصلوا حينئذ تحت اللفظة
إذ الذي يتولى قتال
النبي ﷺ والدفع في صدر
شريعته هو إمام من يكفر
بذلك الشرع إلى يوم
القيامة، ثم تأتي في كل
جيل من الكفر أئمة
خاصة بجيل جيل.

وقرأ نافع، وابن كثير،
وأبو عمرو: ﴿أَيُّمَّةٌ﴾ بهمزة واحدة
وبعدها ياء مكسورة. وقد روي عن
نافع مذ الهمزة، وروي عنه ابن أبي
أويس ﴿أَيُّمَّةٌ﴾ بهمزتين، وأضلها:
(الأيمة) وزنها أفعل جمع إمام،
كعماد وأعمدة، نقلت حركة الميم
إلى الهمزة التي هي فاء الفعل،
وأدغمت الميم في الميم الأخرى
وقلبت الهمزة ياء لانكسارها
ولاجتماع همزتين من كلمة واحدة.
وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة،
والكسائي ﴿أَيُّمَّةٌ﴾ والتعليل واحد
إلا أنهم لم يقلبوا الهمزة ياء. وقرأ
المسيبي عن نافع: ﴿أَيُّمَّةٌ﴾ بهمزة
مدودة، وقرأ هشام عن أبي عامر
بمدة بين الهمزتين.

وقرأ الناس الجم الغفير: ﴿لَا أَيْمَنَ
لَهُمْ﴾ على جمع يمين، وليس المراد
نفي الأيمان جملة، وإنما المعنى: لا

والعهود مستعارة، وقوله: ﴿وَطَمَرًا فِي
رَيْبِكُمْ﴾ أي بالاستنقص والحرب
وغير ذلك مما يفعله لمشرك، وهذه
استعارة، ومنه قول النبي ﷺ حين أمر
أسامة: «إِنْ تَطَعْتُوا فِي إِمَارَتِهِ فَقَدْ
طَعْتُمْ فِي إِمَارَةِ أَبِيهِ مِنْ قَبْلِ» الحديث.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويلى هنا ذكر شيء من طعن الذي
في الدين، فالمشهور من مذهب
مالك رحمه الله أنه إذا فعل شيئاً من
ذلك مثل تكذيب الشريعة وسب
النبي ﷺ ونحوه قتل، وقيل: إذا
كفر وأعلن بما هو معهود من معتقده
وكفره أذب على الإعلان وترك، وإذا
كفر بما ليس من معهود كفره كالسب
ونحوه قتل، وقال أبو حنيفة في
هذا: إنه يُسْتَنَابُ، واختلف إذا سب
الذمي النبي ﷺ ثم أسلم تقية القتل،
فالمشهور من المذهب أنه يُتْرَكُ،
وقد قال ﷺ: «الْإِسْلَامُ يَجُوبُ مَا
قَبْلَهُ» وفي «العتبية» أنه يقتل ولا
يكون أحسن حالاً من المسلم.

وقوله تعالى: ﴿فَقَاتِلُوا أَيُّمَّةَ
الْكُفْرِ﴾ أي رؤوسهم وأعيانهم
الذين يقودون الناس إليه، وقال
قتادة: المراد بهذا أبو جهل بن
هشام، وعتبة بن ربيعة، وغيرهم.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا - إن لم يتأول أنه ذكرهم على
جهة المثال - ضعيف، لأن الآية نزلت
بعد بدر بكثير، وروي عن حذيفة أنه
قال: لم يجرء هؤلاء بعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
يريد: لم ينقضوا فهم يحيون أبداً
ويقاتلون، وأصوب ما في هذا أن
يقال: إنه لا يُعْنَى بها مُعَيَّنٌ، وإنما

أَيُّمَانٌ لَهُمْ يُؤْتَى بِهَا وَيُتْرَ، وهذا المعنى
يشبه الآية. وقرأ الحسن، وعطاء،
وابن عامر وحده من السبعة: ﴿لَا
إِيْمَانٌ لَهُمْ﴾ وهذا يحتمل وجهين،
أحدهما: لا تصديق، قال أبو علي:
وهذا غير قوي لأنه تكرير، وذلك أنه
وصف أئمة الكفر بأنهم لا إيمان لهم،
فالوجه في كسر الألف أنه مصدر من
أمنه إيماناً، ومنه قوله تعالى:
﴿وَمَا أَمَنَهُمْ مِنْ حَوْفٍ﴾، فالمعنى أنهم
لا يؤمنون كما يؤمن أهل الذمة
الكتابيون، إذ المشركون لم يكن لهم
إلا الإسلام أو السيف. قال أبو حاتم:
فسر الحسن قرأته: لا إسلام لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والتكرير الذي قرأ أبو علي منه متجه
لأنه بيان المبهم الذي يوجب قتلهم.
﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتْلُونَ﴾

عرض وتحضيض، وقوله: ﴿وَهَكَوُا﴾
يُخْرَجُ الرَّسُولُ وَهُمْ بَدُّوكُمْ
أُولَئِكَ مَرَّةٌ ﴿﴾ قال الحسن بن أبي
الحسن: المراد: من المدينة، وهذا
يستقيم كغزوة أحد والأحزاب
وغيرهما، وقال السدي: المراد: من
مكة، فهذا على أن يكون المعنى:
هُمُا وفعلوا، أو على أن يقال:
هُمُا بإخراجه بأيديهم فلم يصلوا إلى
ذلك، بل خرج بأمر الله عز وجل،
وهذا يجري مع إنكار النبي ﷺ على
أبي سفيان بن الحارثة قوله:

وَرَدَّنِي لَلْمَنْ
طَرَدْتُ كُلَّ مُطَرَّدٍ
ولا ينسب الإخراج إليهم إلا إذا
كان الكلام في طريق تذنيهم، كما
قال تعالى: ﴿وَلِإِخْرَاجِ أَهْلِهِ مِنْهُ
أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿بَيْنَ
قَرَيْبِكَ أَلَيَّْ أَخْرَجْتِكَ﴾، والأول على
أن ما فعلوا به من أسباب الإخراج
هو الإخراج.

وقوله: ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ قيل: يراد
أفعالهم بمكة بالنبي ﷺ
وبالمؤمنين، وقال مجاهد، يراد به
ما بدأت به قريش من معونة بني
بكر حلفائهم على خزاعة حلفاء
رسول الله ﷺ، فكان هذا بدء
النقض، وقال الطبري: يعني
فعلهم يوم بدر. وقوله:
﴿أَخْشَوْهُمْ﴾ استفهام على معنى
التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿فَاللَّهُ﴾
مرتفع بالابتداء، و﴿أَخَى﴾ خبره،
و﴿أَنْ تَخْشَوْهُ﴾ بدل من اسم الله،
بدل اشتمال، أو في موضع نصب
على إسقاط خافض تقديره: بأن
تخشوه، ويجوز أن يكون ﴿اللَّهُ﴾

ابتداء، و﴿أَخَى﴾ ابتداء ثان، و﴿أَنْ
تَخْشَوْهُ﴾ خبر الثاني، والجملة خبر
الأول، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ
مُؤْمِنِينَ﴾ كما تقول: افعل كذا
إن كنت رجلاً، أي: رجلاً كاملاً،
فهذا معناه: إن كنتم مؤمنين كاملي
الإيمان، لأن إيمانهم كان قد
استقر.

وقوله تعالى: ﴿فَتَلَوْتُمْ بِمِذَّبِهِمْ
اللَّهُ﴾ الآية. قررت الآيات قبلها
أفعال الكفرة، ثم حَضَّضَ على
القتال مقترناً بذنوبهم لتنبعث
الحمية مع ذلك، ثم جزم الأمر
بقتالهم في هذه الآية مقترناً بوعدهم
وكيد يتضمن النصرة عليهم والظفر
بهم، وقوله: ﴿بِمِذَّبِهِمْ﴾ معناه:
بالقتل والأسر وذلك كله عذاب،
﴿وَيَخْزِيهِمْ﴾ معناه: يذلهم على
ذنوبهم، يقال: خَزَى الرجل يخزي
خزياً إذا ذل من حيث وقع في
عار، وأخزاه غيره، وخَزَى يَخْزِي
خزاية إذا استحيا. وأما قوله:
﴿وَيَنْشِفُ سُودَ قُورٍ مُؤْمِنِينَ﴾ فإن
الكلام يحتمل أن يريد جماعة
المؤمنين، لأن كل ما يهد من
الكفر هو شفاة من هم صدور
المؤمنين، ويحتمل أن يريد
تخصيص قوم من المؤمنين،
وروي أنهم خزاعة، قاله مجاهد
والسدي، ووجه تخصيصهم أنهم
الذين نقض فيهم العهد والتهم
الحرب، وكان يومئذ في خزاعة
مؤمنون كثير، ويقضي ذلك قول
الخزاعي المستنصر بالنبي ﷺ:

.....
نُمت أسلمنا فلم نُنزع يدا

وفي آخر الرجز يقول:

.....
وَقَتَلُونَا رُكْعاً وَسُجْدَا
وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَذِهُبُ
عَيْظٌ قُلُوبِهِمْ﴾ على إسناد الفعل
إلى الله عز وجل. وقرأت فرقة:
﴿وَيَذِهُبُ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ﴾ على إسناد
الفعل إلى الغيظ. وقرأ جمهور
الناس: ﴿وَيَتُوبُ﴾ بالرفع على القطع
مما قبله، والمعنى أن الآية استأنفت
الخبر بأنه قد يتوب على بعض هؤلاء
الكفرة الذين أمر بقتالهم، قال أبو
الفتح: وهذا أمر موجود سواء قوتلوا
أو لم يقاتلوا، فلا وجه لإدخال
التوبة في جواب الشرط الذي في
﴿فَتَلَوْتُمْ﴾ على قراءة النصب،
وإنما الوجه الرفع على الاستئناف
والقطع. وقرأ الأعرج، وابن أبي
إسحق، وعيسى الثقفي، وعمرو بن
عبيد، وأبو عمرو - فيما روي عنه -:
﴿ويُتُوبُ﴾ بالنصب على تقدير:
«وأن يتوب»، ويتوجه ذلك عندي إذا
ذهبت إلى أن التوبة إنما يراد بها هنا
أن قتل الكافرين والجهاد في
سبيل الله هو توبة لكم أيها المؤمنون
وكمال لإيمانكم، فتدخل التوبة -
على هذا في شرط القتال. و﴿عَيْظٌ
حَكِيكٌ﴾ صفتان نسبتُهُمَا إلى الآية
واضحة.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَرَأَيْتَ فِي هَذِهِ آيَةٌ لَيْسَتْ
المعادلة، وإنما هي المتوسط في
الكلام، وهي عند سيبويه التي
تتضمن إضراباً عن اللفظ الأول لا
معناه، واستفهاماً، فهي تُشَدُّ مسدً
«بل وألف الاستفهام»، وهي التي في

قولهم: «إِنَّهَا لِإِبْلِ أُمَّ شَاءَ»، التقدير: بل أهي شاء؟ وقوله: «أَنْ تُتْرَكُوا» يَسُدُّ عند سيبويه مسدَّ مفعولي (حَسِبَ). وقال المبرد: «أَنْ» وما بعدها مفعول أول، والثاني محذوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأن تقديره: مُهْمَلِينَ، أو سُدِّي، ونحو ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا﴾ هي (ما) دخلت على (لم) وفيها مبالغة، ومعنى الآية: أظننتم أن تتركوا دون اختبار وامتحان؟ ﴿وَلَمَّا﴾ في هذه الآية بمنزلة قول الشاعر:

بأيدي رجالٍ لم يشيموا سيوفهم
ولم تكثر الفئلى بها حين سلبت
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والمراد بقوله: ﴿وَلَمَّا يَبْرُكْ﴾ لما يعلم ذلك موجوداً كما علمه أولاً بشرط الوجود، ولما يظهر فعلكم واكتسابكم الذي يقع عليه الثواب والعقاب، ففي العبارة تجوز، وإلا فتحتم أنه قد علم الله في الأزل الذين وصفهم بهذه الصفة مشروطاً وجودهم، وليس يحدث له علم تبارك وتعالى عن ذلك.

﴿وَلِيَبَيِّنَ﴾ معناه: بطلانة ودخيلة، قال عبادة بن صَفْوَانَ النَّعْرِيِّ:

ولا يَجُهِمُ في كلِّ مَبْدَى وَمَخْضِرٍ
إلى كلِّ مَنْ يُزْجَى وَمَنْ يُتَخَوَّفُ
وهو مأخوذ من الولوج، فالمعنى: أمراً باطناً مما ينكره الحق.

وهذه الآية مخاطبة للمؤمنين معناها أنه لا بد من اختبارهم، فهي كقوله

تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْعُلُوا اللَّهَ كَذِبًا وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ﴾، وكقوله: ﴿الْعَمْرُ أَكْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْقَهُونَ﴾، وفي هذه الآية طعن على المنافقين الذين اتخذوا الولائج لا سيما عندما فرض القتال. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا تَتَمَلَّكُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة، وقرأ الحسن، ويعقوب - في رواية رئيس - وسلام بالياء على الحكاية عن الغائب.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية. معناه: ما كان للمشركين بحق الواجب أن يعمرُوا، وهذا هو الذي نفى الله عزَّ وجلَّ، وإلا فقد عمروا مساجده قديماً وحديثاً وتعلُّباً وظُلماً. وقرأ حماد بن أبي سلمة عن ابن كثير، والجحدري: ﴿مَسْجِدَ اللَّهِ﴾ بالإفراد في الموضوعين. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأعرج، وشيبة، وأبو جعفر، ومجاهد، وقتادة، وغيرهم: ﴿مَسْجِدَ﴾ بالجمع في الموضوعين، وقرأ ابن كثير أيضاً، وأبو عمرو: ﴿مَسْجِدَ﴾ بالإفراد في هذا الموضوع الثاني، كأنه ذكر أولاً الذي فيه النازلة ذلك الوقت، ثم عمم المساجد ثانياً في الحكم الثابت ما بقيت الدنيا، ولفظ الجمع يقتضي عموم المساجد كلها، ويحتمل أن يراد به المسجد الحرام في الموضوعين وحده على أن يقدر كل موضع سجود فيه مسجداً ثم

يُجمع، ولفظ الإفراد في الموضوعين يقتضي خصوص المسجد الحرام وحده، ويحتمل أن يراد به الجنس فيعم المساجد كلها، ولا يمنع من ذلك إضافته كما ذهب إليه من لا بصر له، وقال أبو علي: الثاني في هذه القراءة يراد به الأول وسائر المساجد كلها حكمها حكم المسجد الحرام.

وقوله تعالى: ﴿شَهِيدِينَ عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ بِالْكَفْرِ﴾ إشارة إلى حالهم، إذ أقوالهم وأفعالهم تقتضي الإقرار بالكفر والتحلي به، وقيل: الإشارة إلى قولهم في التلبية: «إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك» ونحو ذلك، وحكى الطبري عن السدي أنه قال: الإشارة إلى أن النصراني كان يقول: أنا نصراني، واليهودي كذلك، والثوثي يقول: «أنا مشرك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لم يحفظ. ثم حكم الله عليهم بأن أعمالهم قد حَبِطت، أي: بطلت، ولا أحفظها تستعمل إلا في السعي والعمل، ويشبه أن يكون من الحبط وهو داء قاتل يأخذ السائمة إذا رعث وبيلاً، وهو الذي في قوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ مِمَّا نَبِيتَ الرَّبِيعَ مَا يَقْتُلُ حَبِطًا أَوْ يَلِيمُ» الحديث.

١٨ - ١٩ تفسير قوله عز وجل: المعنى في هذه الآية: إِنَّمَا يَعْمُرُ مساجد الله بالحق لهم والواجب، ولفظ هذه الآية الخبر وفي ضمنها أمر المؤمنين بعمارة المساجد، وقد قال بعض السلف: إذا رأيتم الرجل يعمر المساجد فحسبوا به الظن،

وروى أبو سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان»، وقد تقدم القول في قراءة «سَنَجِدَ». وقوله: «وَالَّذِينَ آخَرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ» يتضمن الإيمان بالرسول إذ لا يتلقى ذلك إلا منه، وقوله: «وَلَا يَخْشَى إِلَّا اللَّهَ» حذف الألف من (بخشى) للجزم، قال سيبويه: «واعلم أن الأخير إذا كان يسكن في الرفع حذف في الجزم لثلاثا يكون الجزم بمنزلة الرفع»، ويريد خشية التعظيم والعبادة والطاعة، وهذه مرتبة العدل بين الناس، ولا محالة أن الإنسان يخشى غيره ويخشى المحافذين الدنيوية، وينبغي أن يخشى في ذلك كله قضاء الله وتصريفه، و«عَسَى» من الله واجبة حيثما وقعت في القرآن، ولم يزوج الله بالاعتداء إلا من حصل في هذه المرتبة العظيمة من العدالة، ففي هذا حوض بليغ على التقوى.

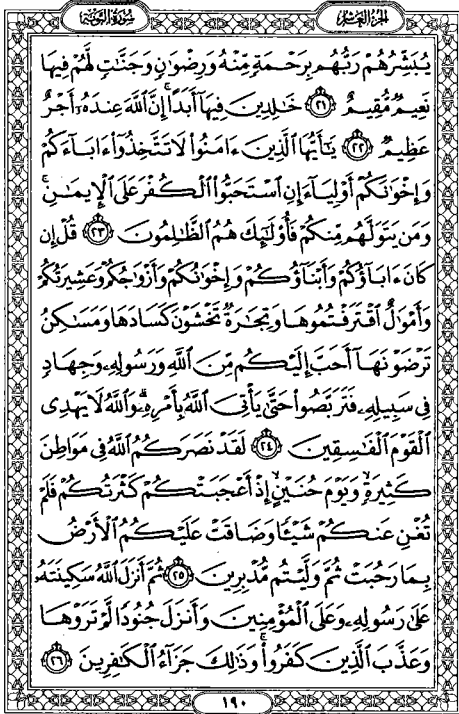
وقرأ الجمهور: «أَجَلْتُمْ بِيَأْتِيَةَ النَّجَّحِ وَصَارَةَ السَّجْدَ لِقَرَارٍ»، وقرأ ابن الزبير، وأبو وجزة، ومحمد بن علي، وأبو جعفر القاري: «أَجَلْتُمْ سُقَاةَ الْحَاجِّ وَعِمْرَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ»، وقرأها كذلك ابن جبير إلا أنه نصب «المنسجد» على إرادة التنوين في «عَمْرَةَ». وقرأ الضحاك، وأبو وجزة، وأبو جعفر القاري «سُقَاةَ» بضم السين، و«عَمْرَةَ». فأما من قرأ «بِيَأْتِيَةَ» و«صَارَةَ» ففي الكلام عنده محذوف إما في

أوله وإما في آخره، فإنما أن يُقَدَّر: أجمعتكم أهل سقاية، وإما أن يُقَدَّر: كفعل من آمن بالله. وأما من قرأ: «سُقَاةَ» و«عَمْرَةَ» فنمط قراءته مستو. وأما قراءة الضحاك فجمع ساقى إلا أنه ضم أوله، كما قالوا: عرق وعرقا وظئر وظؤار، وكان قياسه أن يقال: سُقَاةٌ وَإِنْ أَثْتُ كَمَا أَثْتُ مِنَ الْجَمُوعِ (حجارة) وغيره.

وسقاية الحاج كانت في بني هاشم، وكان العباس يتولاها، قال الحسن: ولما نزلت هذه الآية قال العباس: ما أراني إلا أترك السقاية، فقال النبي ﷺ: «أَكْبِهُوا عَلَيْهَا فَإِنَّهَا لَكُمْ خَيْرٌ». وعمارة المسجد، قيل: هي حفظه من الظلم فيه أو يقال مُجْرَأٌ، وكان ذلك إلى العباس. وقيل: هي السدانة خدمة البيت خاصة، وكانت في بني عبد الدار، وكان يتولاها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة - واسم أبي طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عبد الدار - وشيبة بن عثمان بن أبي طلحة المذكور. هذان هما اللذان دفع إليهما رسول الله ﷺ مفتاح الكعبة في ثاني يوم الفتح بعد أن طلبه العباس وعلي رضي الله عنهما، وقال ﷺ لعثمان وشيبة: «يوم وفاء ويوم، مخلوها مخلدة تالدة لا ينازعكموها إلا ظالم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني السدانة. واختلف الناس في سبب نزول هذه الآية - فقيل: إن كفار قريش قالوا

للإهود: إنا نسقي الحجيج ونعمر البيت، أئمنن أفضل أم محمد ﷺ ودينه؟ فقالت لهم أحبار اليهود: بل أنتم، فنزلت الآية في ذلك. وقيل: إن الكفار اتشخروا بهذه الآية فنزلت الآية في ذلك. وأسند الطبري إلى النعمان بن بشير أنه قال: كنت عند منبر النبي ﷺ في نفر من أصحابه، فقال أحدهم: ما أئمننى بعد الإسلام إلا أن أكون ساقى الحجاج، وقال الآخر: إلا أن أكون خادم البيت وعامره، وقال الثالث: إلا أن أكون مجاهداً في سبيل الله، فسمعهم عمر بن الخطاب فقال: اسكتوا حتى أدخل على النبي ﷺ فأستفتيه، فدخل فاستفتاه، فنزلت الآية في ذلك. وقال ابن عباس، والضحاك: إن المسلمين عثروا أسرى بدر بالكفر، فقال العباس: بل نحن سقاة الحج وعمرة البيت، فنزلت الآية في ذلك، وقال مجاهد: أئبروا بالهجرة فقال العباس: أنا أسقي الحاج، وقال عثمان بن طلحة: أنا حاجب للكعبة فلا نهاجر، فنزلت «أَجَلْتُمْ بِيَأْتِيَةَ النَّجَّحِ» إلى قوله: «حَقَّ يَأْتِيُ اللَّهَ بِأَنْبِيَاءِهِ»، قال مجاهد: وهذا كله قبل فتح مكة. وقال محمد بن كعب: إن العباس، وعلياً، وعثمان بن طلحة تفاخروا، فقال العباس: أنا ساقى الحجاج، وقال عثمان: أنا عامر البيت ولو شئت بثُّ فيه، وقال علي: أنا صاحب جهاد الكفار مع النبي ﷺ، والذي آمنت وهاجرت قديماً، فنزلت الآية في ذلك.



﴿٢٠﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: لما حكم الله تعالى في الآية المتقدمة بأن الصنفين لا يستويان بين ذلك في هذه الآية الأخيرة وأوضحه، فعُدَّ الإيمان، والهجرة، والجهاد بالمال والنفس، وحكم أن أهل هذه الخصال أعظم درجة عند الله من جميع الخلق، ثم حكم لهم بالفوز برحمته ورضوانه، والفوز: بلوغ البغية، إما في نيل رغبة، أو نجاة من مهلكة. وينظر إلى معنى هذه الآية الحديث الذي جاء (دهوالي أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن أصحاب هذه الخصال على سيوفهم اتبني الإسلام، وهم ردوا الناس إلى الشرع.

وقوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمُ﴾ الآية. هذه آية وعد. وقراءة الناس: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بضم الياء وكسر الشين المشددة. وقرأ الأعمش، وطلحة بن مصرف، وحميد بن هلال: ﴿يُبَشِّرُهُمْ﴾ بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين خفيفة. وأسند الطبري إلى جابر بن عبد الله أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا دَخَلَ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَعْطَيْتَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ هَذَا، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا أَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ هَذَا؟ قَالَ: رِضْوَانِي»، وفي البخاري في كتاب السنة من: «فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ أَبَدًا».

وقرأ الجمهور: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بكسر الراء، وقرأ عاصم، وعمرو: ﴿وَرِضْوَانٍ﴾ بضم الراء، وقرأ

الأعمش بضم الراء والضاد جميعاً، قال أبو حاتم: لا يجوز هذا.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آيَاتِهِ كُفْرًا﴾ الآية. ظاهر هذه المخاطبة أنها لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة، وزوت فرقة أن هذه الآية إنما نزلت في الحض على الهجرة ورفض بلاد الكفر، فالمخاطبة - على هذا - إنما هي للمؤمنين الذين كانوا في مكة وغيرها من بلاد العرب، خوطبوا بالأيوالوا الآباء

والإخوة فيكونون لهم تبعاً في سكنى بلاد الكفرة. ولم يذكر الأبناء في هذه الآية إذ الأغلب من البشر أن الأبناء هم التبع للآباء. (والإخوان) في هذه الآية جمع أخ النسب. وكذلك هي في قوله تعالى: ﴿أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ﴾.

وقرأ عيسى بن عمر: ﴿أَنْ أَسْتَحْبُوا﴾ بفتح الألف من «أَنْ»، وقرأ الجمهور: ﴿إِنْ﴾ بكسر الألف على الشرط، و﴿أَسْتَحْبُوا﴾ متضمنة معنى: فَضَلُوا وَأَتَرُوا، ولذلك تعدت بـ﴿عَلَى﴾.

ثم حكم الله تعالى بأن مَنْ والا هم وأتبعهم في أغراضهم فإنه ظالم، أي واضح للشيء غير موضعه، وهذا ظلم المعصية لا ظلم الكفر.

﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية تقوي مذهب من رأى أن

هذه والتي قبلها إنما مقصودها الحض على الهجرة، وفي ضمن قوله: ﴿فَرِضْوَانًا﴾ وعيد بين. وقوله: ﴿بِأَمْرِهِ﴾ قال الحسن: الإشارة إلى عذاب أو عقوبة من الله، وقال مجاهد: الإشارة إلى فتح مكة، والمعنى: فإذا جاء الله بأمره فلم تُسلفوا ما يكون لكم به أجر ومكانة في الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر الأبناء في الآية لما جلبت ذكرهم المحبة، والأبناء صدى في المحبة، وليسوا كذلك في أن يتبعهم أبائهم في آرائهم كما في الآية المتقدمة. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَرِضْوَانًا﴾، وقرأ عاصم وحده بخلاف عنه، وأبو رجاء، وأبو عبدالرحمن، وعصمة: ﴿وَعَشِيرَاتِكُمْ﴾، وحسن هذا الجمع

قال حين رأى جملته اثني عشر ألفاً: ﴿لَنْ نَغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ﴾، وزوي أن رجلاً من أصحابه قالها فأراد الله إظهار العجز فظهر حين فر الناس. ثم عطف القدر بنصره.

وقوله تعالى: ﴿وَصَافَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحَبَتْ﴾، أي: بقدر ما هي رَحْبَةٌ واسعة لشدة الحال وصعوبتها، ف﴿مَا﴾ مصدرية. وقوله: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ يريد فرار الناس عن النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختصار هذه القصة أن رسول الله ﷺ لما فتح مكة وكان في عشرة آلاف من أصحابه وانضاف إليه ألفان من الطلقاء فصار في اثني عشر ألفاً سمع بذلك كفار العرب فشق عليهم، فجمعت له هوازن وألفائها وعليهم مالك بن عوف النصري، وثقيف وعليهم عبد ياليل بن عمرو، وانضاف إليهم أخلاط من الناس حتى كانوا ثلاثين ألفاً، فخرج إليهم رسول الله ﷺ حتى اجتمعوا بِحُثَيْنَ، فلما تصافَّ الناس حمل المشركون من جوانب الوادي فانهزم المسلمون، قال قتادة: ويقال: إن الطلقاء من أهل مكة فرؤوا وقصدوا إلقاء الهزيمة في المسلمين، وكان رسول الله ﷺ على بغلة شهباء، وقال أبو عبد الرحمن الفهري: كنت مع النبي ﷺ يومئذ، وكان على فرس قد اكتنفه العباسُ عمُّه وابنُ عمِّه أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وبين يديه أيمن بن أم أيمن - وثُمَّ قُتِلَ رَحِمَهُ اللهُ - فلما رأى رسول الله ﷺ شدة الحال نزل عن

تسمعي ألحن؟ قال: نعم، في هذا الحرف، وذكر له رفع ﴿أَحَبُّ﴾ فناه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك خارج في العربية على أن يضمر في كان الأمر والشأن، ولم يُقْرَأْ بذلك. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ عموم لفظ يراد به الخصوص فيمن يوافي على فسقه، أو عموم مطلق على أنه لا هداية من حيث الفسق.

تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة لجميع المؤمنين، يعدد الله نعمه عليهم. ﴿مَوَاطِنٌ﴾ جمع موطن بكسر الطاء، والموطن: موضع الإقامة أو الحلول لأنه أول الإقامة، والمواطن المشار إليها بدر، والخندق، والنضير، وقريظة، ولم يصرف ﴿مَوَاطِنٌ﴾ لأنه جمع ونهاية جمع. ﴿وَيَوْمٌ﴾ عطف على موضع قوله: ﴿فِي مَوَاطِنٍ﴾ أو على لفظه بتقدير: ﴿وفي يومٍ﴾، فأنحذف حرف الخفض. ﴿وَحُثَيْنٌ﴾ وإد بين مكة والطائف قريب من ذي المجاز، وصُرف حين أريد به الموضع والمكان، ولو أريد به البقعة لم يصرف، كما قال الشاعر:

نَصَرُوا نَبِيَّهُمْ وَشَدُّوا أَرْزَهُ
بِحُثَيْنٍ يَوْمَ تَوَاكَلِ الْأَنْبَطَالِ
وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَجَبْتُمْ
كُرْتُكُمْ﴾، زوي أن رسول الله ﷺ

تَسْمَعِي أَلْحَنَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فِي هَذَا الْحَرْفِ، وَذَكَرَ لَهُ رَفْعَ ﴿أَحَبُّ﴾ فَنَاهَا. قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: ذَلِكَ خَارِجٌ فِي الْعَرَبِيَّةِ عَلَى أَنَّ يَضْمُرُ فِي كَانَ الْأَمْرُ وَالشَّأْنُ، وَلَمْ يُقْرَأْ بِذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ عُمُومٌ لَفْظٌ يَرَادُ بِهِ الْخُصُوصُ فِي مَنْ يُوَافِي عَلَى فَسَقِهِ، أَوْ عُمُومٌ مُطْلَقٌ عَلَى أَنَّهُ لَا هِدَايَةَ مِنْ حَيْثُ الْفِسْقُ.

تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة لجميع المؤمنين، يعدد الله نعمه عليهم. ﴿مَوَاطِنٌ﴾ جمع موطن بكسر الطاء، والموطن: موضع الإقامة أو الحلول لأنه أول الإقامة، والمواطن المشار إليها بدر، والخندق، والنضير، وقريظة، ولم يصرف ﴿مَوَاطِنٌ﴾ لأنه جمع ونهاية جمع. ﴿وَيَوْمٌ﴾ عطف على موضع قوله: ﴿فِي مَوَاطِنٍ﴾ أو على لفظه بتقدير: ﴿وفي يومٍ﴾، فأنحذف حرف الخفض. ﴿وَحُثَيْنٌ﴾ وإد بين مكة والطائف قريب من ذي المجاز، وصُرف حين أريد به الموضع والمكان، ولو أريد به البقعة لم يصرف، كما قال الشاعر:

نَصَرُوا نَبِيَّهُمْ وَشَدُّوا أَرْزَهُ
بِحُثَيْنٍ يَوْمَ تَوَاكَلِ الْأَنْبَطَالِ
وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَجَبْتُمْ
كُرْتُكُمْ﴾، زوي أن رسول الله ﷺ

إذ لكل أحد عشيرة تختص به، ويحسن الأفراد أن أبا الحسن الأخفش قال: إنما تجمع العرب «عشائر» ولا تكاد تقول «عشيرات». و﴿أَقْرَبْتُمْوهَا﴾ معناه: اكتسبتموها، وأصل الاقتراف والمقارفة: مقارنة الشيء. ﴿وَيَجْرِدُ تَحْتَوْنَ كَسَادَهَا﴾ بيِّن في أنواع المال، وقال ابن المبارك: الإشارة إلى البنات اللواتي لا يتزوجن ولا يوجد لهن خاطب ﴿وَمَسْكِنٌ﴾ جمع مسكن بفتح الكاف، مفعول من السكنى، وما كان من هذا معتل الفاء وإنما يأتي على مفعول بكسر العين كموعِد وموطن، والمساكين: القصور والدور، و﴿أَحَبُّ﴾ خبر ﴿كَانَ﴾، وكان الحجاج بن يوسف يقرؤها «أحب» بالرفع، وله في ذلك خبر مع يحيى بن يعمر، سأله الحجاج: هل

بغلته إلى الأرض - قاله البراء بن عازب - واستنصر الله عز وجل فأخذ قبضة من تراب وحصى فرمى بها وجوه الكفار وقال: «شاهت الوجوه»، وقال أبو عبد الرحمن: تناول من فرسه فأخذ قبضة التراب، ونزلت الملائكة لنصره، ونادى رسول الله ﷺ: «يا للأنصار»، وأمر رسول الله ﷺ العباس أن ينادي: أين أصحاب الشجرة؟ أين أصحاب سورة البقرة؟ فرجع الناس عثقا واحداً وانهمز المشركون، قال يغلى بن عطاء: فحدثني أبناؤهم عن آبائهم قالوا: لم يبق منا أحد إلا دخل في عينيه من ذلك التراب. واستيعاب هذه القصة في كتاب السير.

وظاهر كلام النحاس أن رسول الله ﷺ كان في أربعة عشر ألفاً، وهذا غلط.

وقوله: ﴿مُذْرِبِينَ﴾ نصب علي الحال المؤكدة كقوله: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾، والمؤكدة هي التي يدل ما قبلها عليها كدلالة التولي على الإِدبار.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَرْزَلْنَا اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمُ﴾ الآية. ﴿ثُمَّ﴾ هاهنا على بابها من الترتيب. والسكينة: النصر الذي سكنت إليه ومعها النفوس والحال. والإشارة بالمؤمنين إلى الأنصار على ما زوي، وذلك أن رسول الله ﷺ نادى في ذلك اليوم: «يا معشر الأنصار»، فانصرفوا وهم ردوا الهزيمة. والجنود: الملائكة والرعب. قال أبو حاجر يزيد ابن عامر: «كان في أجوافنا مثل ضربة

الحجر في الطست من الرعب». وعذاب الذين كفروا هو القتل الذي استحر فيهم والأسر الذي تمكن في ذراريهم، وكان مالك بن عوف التُّصري قد أخرج الناس بالعيال والذُراري ليقاتلوا عليها فخطأه في ذلك دُزَيْد بن الصمة وقال لمالك بن عوف: راعي ضأن، وهل يردُّ المنهزم شيء؟ وفي ذلك اليوم قُتل دُزَيْد بن الصمة القتلة المشهورة، قتله ربيعة بن رُفَيْع بن أعبان السلمي، ويقال له ابن الدُّعْثَة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ﴾ إعلام بأن من أسلم وتاب من الكفار الذين نجوا ذلك اليوم فإنهم مقبولون مسلمون موعودون بالغفران والرحمة.

﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال قتادة، ومغمر بن راشد، وغيرهما: صفة المشرك بالنجس إنما كانت لأنه جُئِب، إذ غسله من الجنابة ليس بغسل. وقال ابن عباس وغيره: بل معنى الشرك هو الذي نجسه كنجاسة الخمر، قال الحسن البصري: من صافح مشركاً فليتوضأ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمن قال: «بسبب الجنابة» أوجب الغسل على من يُسلم من المشركين، ومن قال بالقول الآخر لم يوجب الغسل، والمذهب كله على القول بإيجاب الغسل إلا ابن عبد الحكم فإنه قال: ليس بواجب.

وقرأ أبو حيوة: ﴿يَجْسُ﴾ بكسر النون وسكون الجيم.

ونص الله تعالى في هذه الآية على المشركين وعلى المسجد الحرام، فقاس مالك رحمه الله وغيره جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم على المشركين، وقاس سائر المساجد على المسجد الحرام، ومنع من دخول الجميع في جميع المساجد، وكذلك كتب عمر بن عبد العزيز إلى عماله، ونزع في كتابه بهذه الآية، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أُذُنَ اللَّهِ أَنْ تُرْفَعَ﴾، وقال الشافعي: هي عامة في الكفار خاصة في المسجد الحرام، فأباح دخول اليهود والنصارى والوثنيين في سائر المساجد، ومن حُجَّته حديث رُبُط ثمامة بن أثال، وقال أبو حنيفة: هي خاصة في عبدة الأوثان وفي المسجد الحرام، فأباح دخول اليهود والنصارى في المسجد الحرام وغيره، ودخول عبدة الأوثان في سائر المساجد، وقال عطاء: وصف المسجد الحرام ومنع القُرب يقتضي منعهم من جميع الحرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوة قوله: ﴿فَلَا يَقْرَبُوا﴾ تقتضي أمر المسلمين بمنعهم، وقال جابر بن عبدالله، وقاتدة: لا يقرب المسجد الحرام مشرك إلا أن يكون صاحب جزية أو عبداً لمسلم، وعبدة الأوثان مشركون بإجماع. واختلف في أهل الكتاب - فمذهب عبدالله بن عمر وغيره أنهم مشركون، وقال جمهور أهل العلم: ليسوا بمشركين، وفائدة هذا الخلاف تَبَيَّن في فقه مناكحتهم وذبائحهم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿بِمَدِّ عَيْنِهِمْ هَكَذَا﴾

يريد: بعد عام تسع من الهجرة، وهو عام حِجّ فيه أبو بكر بالناس وأذن عليّ بسورة براءة.

وأما قوله تعالى: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَتَكُمْ﴾ قال عمرو بن قائد: المعنى: وإذ خِفْتُمْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عُجْمَة، والمعنى بارِعٌ ﴿بِإِنْ﴾، وكان المسلمون لُمًا - مُنِعَ المشركون من الموسم وهم كانوا يجلبون الأطعمة والتجارات - قذف الشيطان في نفوسهم الخوف من الفقر، وقالوا: من أين نعيش؟ فوعدهم الله بأن يُغْنِيَهُمْ من فضله، قال الضحاك: ففتح عليهم باب أخذ الجزية من أهل السُّدَّةِ بقوله: ﴿فَتَلَبَّسُوا الدِّينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿وَيَمُومُ صَوْرَتَهُمْ﴾. وقال عكرمة: أغناهم بإدراار المطر عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأسلمت العرب فتمادى حُجُّهم وتَجَرُّهم وأغنى الله من فضله بالجهاد والظهور على الأمم.

والعَيْلَةُ: الفقر، يقال: عال الرجل يعيل عَيْلَةً إذا افتقر، قال الشاعر:

وَمَا يَدْرِي الْفَقِيرُ مَتَى غِنَاهُ

وما يدري الغني متى يعيل

وقرأ عُلْمَةً وغيره من أصحاب ابن

مسعود: ﴿عَائِلَةٌ﴾ وهو مصدر

كالقائلة من قال يقلب، وكالعاقبة

والعافية، ويحتمل أن تكون نعتاً

لمحذوف تقديره: «حالا عائلة»،

وحكى الطبري أنه يقال: «عال

يعول» إذا افتقر.

﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

تضمنت هذه الآية قتال أهل الكتاب

من اليهود والنصارى حتى يقتلوا أو

يؤدوا الجزية، قال مجاهد: وعند

نزول هذه الآية أخذ رسول الله ﷺ

في غزو الروم، ومشى نحو تبوك،

ومن جعل أهل الكتاب مشركين فهذه

الآية عنده ناسخة بما فيها من أخذ

الجزية لقوله تبارك وتعالى: ﴿فَاتَّقِلُوا

الشُّرَكِيَّاتِ﴾، ونفى عنهم الإيمان بالله

وباليوم الآخر من حيث تركوا شرع

الإسلام الذي يجب عليهم الدخول

فيه، فصار جميع ما لهم في الله

عز وجل وفي البعث من تخيلات

واعتمادات لا معنى لها، إذ تلقوها

من غير طريقها، وأيضاً فلم تكن

اعتقاداتهم مستقيمة، لأنهم تشعبوا

وقالوا: عزير ابن الله، والله ثالث

ثلاثة، وغير ذلك. ولهم أيضاً في

البعث آراء كثيرة، كشراء منازل الجنة

من الرهبان، وقول اليهود في النار:

نكون فيها أياماً بقَدَدِ، ونحو ذلك.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزِنُونَ مَا

كَرَّمَ اللَّهُ رَسُولَهُ﴾ بيّن ونص على

مخالفتهم لمحمد ﷺ، وأما قوله:

﴿وَلَا يَلْبِثُونَ﴾ فمعناه: ولا يطيعون

ويمتثلون، ومنه قول عائشة

رضي الله عنها: ما عقلت أبوي إلا

وهما يدينان الدين، والدين في اللغة

لفظة مشتركة، وهي هاهنا:

الشريعة، وهي مثل قوله تعالى: ﴿لَإِنَّ

الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾، وأما

قوله: ﴿وَيَنْ الدِّينَ أَوْثُوا الْكُتُبَ﴾

فنص في بني إسرائيل وفي الروم،

وأجمع الناس على ذلك. وأما

المجوس فقال ابن المنذر: لا أعلم

خلافاً في أن الجزية تؤخذ منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «سنا

بهم سنة أهل الكتاب»، فقال كثير

من العلماء: معنى ذلك في أخذ

الجزية منهم، وليسوا أهل كتاب،

فعلى هذا لم يتعد التشبيه إلى

ذبايحهم ومناكحهم، وهذا هو الذي

ذكره ابن حبيب في «الواضحة».

وقال بعض العلماء: معناه: سنا

بهم سنة أهل الكتاب إذ هم أهل

كتاب، فعلى هذا يتجه التشبيه في

ذبايحهم وغيرها، والأول هو قول

مالك وجمهور أصحابه، ورُوي أنه

قد كان بعث في المجوس نبي اسمه

زرادشت، وأما مجوس العرب فقال

ابن وهب: لا تقبل منهم جزية

ولا بد من القتال أو الإسلام، وقال

سحنون، وابن القاسم، وأشهب:

تؤخذ الجزية من مجوس العرب

والأُمم كلها، وأما عبدة الأوثان من

العرب فلم يستثن الله فيهم جزية،

ولا بقي منهم على الأرض بشر،

وقال ابن حبيب: وإنما لهم القتال أو

الإسلام، وهو قول أبي حنيفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويوجد لابن القاسم أن الجزية تؤخذ

منهم، وذلك أيضاً في «الترغيع» لابن

الجلاب، وهو احتمال لا نص. وأما

أهل الكتاب من العرب فذهب مالك

رحمه الله إلى أن الجزية تؤخذ

منهم، وأشار إلى المنع من ذلك

أبو حنيفة. وأما السامرة والصابئة

فالجمهور على أنهم من اليهود

والنصارى تؤخذ منهم الجزية وتؤكل

ذبايحهم، وقالت فرقة: لا تؤكل

ذبايحهم وعلى هذا لا تؤخذ الجزية

منهم، ومنع بعضهم الذبيحة مع

إباحة أخذ الجزية منهم. وأما عبدة الأوثان والنيران وغير ذلك فجمهور العلماء على قبول الجزية منهم، وهو قول مالك في «المدونة»، وقال الشافعي، وأبو ثور: «لا تؤخذ الجزية إلا من اليهود والنصارى والمجوس فقط». ومذهب مالك رحمه الله أن الجزية لا تؤخذ إلا من الرجال البالغين الأحرار العقلاء، وهو قول الشافعي وأبي حنيفة، ولا تضرب على الصبيان والنساء والمجانين، ولا تضرب على رهبان الديارات والصوامع المنقطعين، قال مالك في «الواضحة»: «وأما إن كانت قد ضربت عليهم ثم انقطعوا بعد ذلك فلا تسقط عنهم»، وأما رهبان الكنائس فتضرب عليهم، واختلف في الشيخ الفاني، ومن راعى أن علتها الإذلال أمضاها في الجميع، وقال النقاش: «العقوبة الشرعية تكون في الأموال والأبدان، فالجزية من عقوبات الأموال».

وأما قدرها فذهب مالك رحمه الله وكثير من أهل العلم إلى ما فرضه عمر رضي الله عنه، وذلك أربعة دنانير على أهل الذهب، وأربعون درهماً على أهل الفضة، وفرض عمر رضي الله عنه ضيافة وأرزاقاً وكسوة، قال مالك في «الواضحة»: «ويحط ذلك عنهم اليوم لما حدث عليهم من اللوازم»، فهذا أحد ما ذكر عن عمر، وبه أخذ مالك. قال سفيان الثوري: «رويت عن عمر ضرائب مختلفة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأظن ذلك بحسب اجتهاده

رضي الله عنه في يسرهم وعسرهم. وقال الشافعي، وغيره: قدر الجزية ديناراً على الرأس، ودليل ذلك أمر رسول الله ﷺ معاذاً بذلك، وأخذه جزية اليمن كذلك أو قيمته معافر، وهي ثياب. وقال كثير من أهل العلم: ليس لذلك في الشرع حدٌ محدود، وإنما ذلك إلى اجتهاد الإمام في كل وقت، وبحسب قوم قوم. هذا كله في العنوة، وأما الصلح فهو ما صلحوا عليه من قليل أو كثير، واختلف في المذهب في العبد الذي يعتقه الذمي أو المسلم، هل يلزمه جزية أم لا؟ وقال ابن القاسم: لا ينقص أحد من أربعة دنانير كان فقيراً أو غنياً، وقال أصبغ: يحط الفقير بقدر ما يرى من حاله، وقال ابن الماجشون: لا يؤخذ من الفقير شيء.

والجزية وزنها فغلة من جزى يجزي إذا كافأ عمًا أسدي إليه، فكأنهم أعطوها جزءاً ما منحوا من الأمن، وهي كالقعدة والجلسة، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

يَجْزِيكَ أَوْ يُثْنِي عَلَيْكَ وَإِنْ مِنْ
أَنْتَى عَلَيَّكَ بِمَا فَعَلْتَ كَمَنْ جَزَى

وقوله تعالى: ﴿عَنْ يَدٍ﴾ يحتمل تأويلات، منها أن يريد سوق الذمي لها بيده لا مع رسولٍ ليكون في ذلك إذلالاً له، ومنها أن يريد: عن نعمة منكم قبَلهم في قبولها منهم وتأمينهم، واليَدُ في اللغة: النعمة والصنع الجميل. ومنها أن يريد: عن قوة منكم عليهم وقهر لا تبقى لهم معه راية ولا معقل، واليد في كلام العرب: القوة، يقال: فلان ذو

يد، ويقال: ليس لي بكذا وكذا يد، أي: قوة. ومنها أن يريد: أن ينقدوها ولا يؤخروها، كما تقول: بعته يدأً بيدي. ومنها أن يريد: عن استسلام منهم وانقياد، على نحو قولهم: «ألقي فلان بيده» إذا عجز واستسلم.

وقوله: ﴿وَمِمَّنْ صَبَرْنَا﴾ لفظ يعُمُّ وجوهاً لا تنحصر لكثرتها، دُكر منها - عن عكرمة - أن يكون قابضها جالساً والدافع من أهل الذمة قائم، وهذا ونحوه دأع إلى صغارهم.

﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الذي كثر في كُتُب أهل العلم أن فرقة من اليهود تقول هذه المقالة، وزوي أنه لم يقلها إلا فنحاص. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قالها أربعة من أحبارهم، سلام بن مشكَم، وثعمان بن أبي أوفى، وشاس بن قيس، ومالك بن الصيف، وقال النقاش: لم يبق يهودي يقولها بل انقرضوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإذا قالها واحد فينبغي أن يلزم الجماعة شتعة المقالة لأجل نباهة القائل فيهم، وأقوال النبهاء أبداً مشهورة في الناس يحتج بها، فمن هنا صح أن تقول الجماعة قول نبيها.

وقرأ عاصم، والكسائي: ﴿عَزَّيْرُ ابْنِ اللَّهِ﴾ بتنوين ﴿عَزَّيْرُ﴾ والمعنى أن (ابناً) - على هذا - خير ابتداء عن ﴿عَزَّيْرُ﴾، وهذا هو أصح المذاهب لأنه المعنى المنعني عليهم. و﴿عَزَّيْرُ﴾ - ونحوه - ينصرف عجمياً كان أو عربياً، وقرأ ابن كثير،

ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ﴾ دون تنوين ﴿عَزِيزٌ﴾، فقال بعضهم: ﴿ابْنُ﴾ خبر عن ﴿عَزِيزٌ﴾، وإنما حذف التنوين من ﴿عزير﴾ لاجتماع الساكنين، ونحوه قراءة من قرأ: ﴿أَخَذَ اللَّهُ الصَّمَدُ﴾، قال أبو علي: وهو كثير في الشعر، وأشد الطبري في ذلك:

لَتَجِدَنِي بِالْأَمِيرِ بَرًّا
وَبِالْقَنَاءِ مَدْعَسًا مَكْرًا
إِذَا عَطِيفُ السُّلَمِيِّ فَرًّا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالألف - على هذه القراءة والتأويل - ثابتة في ﴿ابْنُ﴾، وقال بعضهم: ﴿ابْنُ﴾ صفة لـ ﴿عَزِيزٌ﴾ كما تقول: ﴿زيد بن عمرو﴾، وجعلت الصفة والموصوف بمنزلة اسم واحد، وحذف التنوين إذا جاء الساكنان كأنهما التقيا من كلمة واحدة، والمعنى: عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ معبودنا وإِلَهُنَا، أو المعنى: معبودنا أو إِلَهُنَا عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقياس هذه القراءة والتأويل أن يحذف الألف من ﴿ابْنُ﴾ لكنها ثبتت في خط المصحف، فيتدرج من هذا كله أن قراءة التنوين في ﴿عَزِيزٌ﴾ أقواها.

وحكى الطبري وغيره أن بني إسرائيل أصابهم فتن وبلاء - وقيل مرض - وأذهب الله عنهم التوراة في ذلك ونسوها، وكان علماءهم قد دفنوها أول ما أحسوا بذلك البلاء، فلما طالت المدة فقدت التوراة جملة فحفظها الله عزيزاً كرامة منه له،

فقال لبني إسرائيل: إن الله قد حفظني التوراة فجعلوا يدرسونها من عنده، ثم إن التوراة المدفونة وجدت فإذا هي مساوية لما كان عَزِيزُ يدرس، فضلوا عن ذلك وقالوا: إن هذا لم يتهياً إلا وهو ابن الله. وظاهر قول النصارى المسيح ابن الله أنها بُيُوتُ النسل كما قالت العرب في الملائكة، وكذلك يقتضي قول الضحاك والطبري وغيرهما، وهذا أشنع في الكفر، قال أبو المعالي: أطبقت النصارى على أن المسيح إله وأنه ابن الإله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال: إن بعضهم يعتقدان بنية حُتُو ورحمة، وهذا المعنى أيضاً لا يحل أن تطلق البنية عليه، وهو كُفْر لمكان الإشكال الذي يدخل من جهة التناسل، وكذلك كفرت اليهود في قولهم: عَزِيزُ ابْنِ اللَّهِ، وقولهم: نحن أبناء الله، وإنما توجد في كلام العرب استعارة البنية عبارة عن نَسَبٍ وملازمات تكون بين الأشياء إذا لم يُشكَل الأمر وكان أمر النسل من الاستحالة، ومن ذلك قول عبد الملك بن مروان: «وقد زَبَنَّا الحرب وزَبَنَّاها، فنحن بنوها وهي أمنا»، يريد الملازمة، ومن ذلك قول حُرَيْثُ بن محصن:

بَنُو الْمَجْدِ لَمْ تَقْعُدْ بِهِمْ أُمَّهَاتِهِمْ
وَأَبَاؤُهُمْ أَبْنَاءُ صِدْقٍ فَانْتَجَبُوا
ومن ذلك: ابْنُ نَعَشٍ، وابن ماء، وابن السبيل، ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

وَالْأَرْضُ تُخْمِلُنَا وَكَانَتْ أُمَّنَا

ومنه أحد التأويلات في قوله ﷺ:

«لا يدخل الجنة ابن زنى» أي ملازمه، والتأويل الآخر: لا يدخلها مُشكَل الأمر، والتأويلان في قول النصارى: المسيح ابن الله كما تقدم من الصفة والخبر إلا أن شغب التنوين ارتفع هاهنا، وعَزِيزُ نَبِيٍّ من أنبياء بني إسرائيل.

وقوله تعالى: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ يتضمن معنيين، أحدهما: إلزامهم المقالة بالتأكيد في ذلك كما قال: ﴿يَكْفُرُونَ أَكْثَرَ بِأَنفُسِهِمْ﴾، وكقوله: ﴿وَلَا طَلِيحٌ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾، والمعنى الثاني في قوله سبحانه: ﴿بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ أي هو ساذج لا حجة عليه ولا برهان، غاية بيانه أن يقال بالأفواه قولاً مجرداً نفس دعوى.

﴿بِصَفْوَتِهِمْ﴾ قراءة الجماعة، ومعناه: يحاكون ويأرون ويمثلون. وقرأ عاصم وحده من السبعة، وطلحة بن مصرف ﴿بِضَاهِيَتِهِمْ﴾ بالهمز على أنه من (ضاه)، وهي لغة تقيف بمعنى (ضاهي).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال إن هذا مأخوذ من قولهم: «امرأة ضهية» - وهي التي لا تحيض، وقيل: التي لا ندي لها، سُميت بذلك لشبهها بالرجال - فقوله خطأ، قاله أبو علي، لأن الهمزة في (ضاه) أصلية، وفي (ضهية) زائدة كحمرأة، وإن كان الضمير في ﴿بِصَفْوَتِهِمْ﴾ لليهود والنصارى جميعاً فالإشارة بقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ هي إمَّا لمشركي العرب إذ قالوا: «الملائكة بنات الله»، وهم أول كافر، وهو قول الضحاك، وإما لأمم سالفة قبلهما، وإما للمصدر

يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُشِيعَ نُورُهُمْ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣١﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَخْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبِطْلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَلَا يَخْفَوْنَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ نَحْمِي عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتَكُونُ بِهِمَا جَاهَنَّمُ وَجُحُومٌ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَرِهْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَدِيمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَدْ عَلِمُوا أَنَّمْشَرِكِينَ كَأَنَّهُمْ كَمَا يُعْتَلُونَكُمْ كَأَنَّهُمْ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٥﴾

١٩٢

٣١ - ٣٢ تفسير قوله عز وجل:

واحد الأخبار جيز بكسر الحاء، ويقال خبر بفتح الحاء، والأول أفصح ومنه مداد الحبر، والخبر بالفتح: العالم، وقال يونس ابن حبيب: لم أسمعه إلا بكسر الحاء، وقال الفراء: سمعت فتح الحاء وكسرها في العالم، وقال ابن السكيت: الجبر بالكسر: المداد، والخبر بالفتح: العالم. والرهبان: جمع راهب وهو الخائف، من الرهبة،

وسماهم أرباباً وهم لا يعبدونهم ولكن من حيث تلقوا الحلال والحرام من جهتهم وهو أمر لا يتلقى إلا من جهة الله عز وجل، ونحو هذا قال ابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وأبو العالية. وحكى الطبري أن عدي بن حاتم قال: جئت رسول الله ﷺ وفي عنقي صليب ذهب، فقال: يا عدي اطرح هذا الصليب من عنقك، فسمعتة يقرأ: ﴿أَتَكْفُرُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُدُّبَتَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ فقلت: يا رسول الله وكيف ولم نعبدهم؟ فقال: «أليس تستحلون ما أحلوا وتحرمون ما حرموا؟» قلت: نعم، قال: «فذلك». ﴿وَالنَّسِيجِ﴾ عطف على الأخبار والرهبان، ﴿سُبْحَانَكَ﴾ نصب على المصدر والعمل فيه فعل من المعنى لأنه ليس من لفظ (سبحان) فعل،

الأول من كفر اليهود والنصارى، ويكون ﴿يَشْكُرُونَ﴾ لمعاصري محمد ﷺ. وإن كان الضمير في ﴿يَشْكُرُونَ﴾ للنصارى فقط كانت الإشارة بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ﴾ إلى اليهود، وعلى هذا فسر الطبري، وحكاه الزهراوي عن قتادة.

وقوله تعالى: ﴿فَنَلَّهُمُ اللَّهُ﴾ دعاء عليهم عام لأنواع الشر، ومعلوم أن من قاتله الله فهو المغلوب المقتول، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المعنى: لعنهم الله. ﴿وَأَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾ مقصده: أتى توجهاً وأتى ذهبوا، ويذل مكان هذا الفعل المقصود فعل سوء يحل بهم، وذلك فصيح في الكلام كما تقول: «لعن الله الكافر أتى هلك» كأنك تحتم عليه بهلاك، وكأنه حتم عليهم في هذه الآية بأنهم يؤفكون، ومعناه: يحرمون ويصرفون عن الخير، والأرض المأفوكة التي لم يصبها مطر، قال أبو عبيدة: ﴿يُؤَفِّكُونَ﴾ معناه: يحذون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: من قولك «رجلٌ محدود» أي: محروم لا يصيب خيراً، وكأنه من الإفك الذي هو الكذب، فكان المأفوك هو الذي تكذبه أراجيه فلا يلقى خيراً. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿أَنْتَ يُؤَفِّكُونَ﴾ ابتداءً تقرير، أي: بأي سبب ومن أي جهة يصرفون عن الحق بعدما تبين لهم؟

﴿وقاتل﴾ في هذه الآية بمعنى (قتل)، وهي مفاعلة من واحد، وهذا كله بين.

والتقدير: أنزهه تنزيهاً، فمعنى ﴿سُبْحَانَكَ﴾: تنزيهاً له، واحتج من يقول إن أهل الكتاب مشركون بقوله تعالى: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، والغير يقول: إن اتخاذ هؤلاء الأرباب ضرب من الإشراك، وقد يقال في المرثي: إنه أشرك، وفي ذلك آثار.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ﴾ الآية. نور الله في هذه الآية: هداه الصادر عن القرآن، والشرع المثبت في قلوب الناس، فمن حيث سماه نوراً سُمي محاولة إفساده والصد في وجهه إطفاء. وقالت فرقة: النور: القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا معنى لتخصيص شيء مما يدخل تحت المقصود بالنور. وقوله: ﴿يَأْتُوهُمْ﴾ عبارة عن قلة حيلتهم وضعفها، أخبر عنهم أنهم يحاولون

مقاومة أمر جسيم يسعي ضعيف فكان الإطفاء بنفخ الأفواه، ويحتمل أن يراد: بأقوال لا برهان عليها فهي لا تجاوز الأفواه إلى فهم سامع. وقوله: ﴿وَيَأْتِكُمْ﴾ إيجاب يقع بعده أحياناً (إلا) وذلك لوقوعه هو موقع الفعل المنفي، لأن التقدير: ولا يريد الله إلا أن يتم نوره، وقال الفراء: (هو إيجاب فيه طرف من النفي)، ورد الزجاج على هذه العبارة وبيانه ما قلناه.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ﴾ الآية. ﴿رَسُولُهُ﴾ يراد به محمد ﷺ، وقوله: ﴿بِئْسَ الْقُرْآنُ وَجَمِيعِ الشَّرْعِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَدِينِ الْحَقِّ﴾ إشارة إلى الإسلام والجملة بجمعها وهي الحنيفية، وقوله: ﴿يُظْهِرُهُ﴾ قال أبو هريرة، وأبو جعفر محمد بن علي، وجابر بن عبد الله ما معناه: إن الضمير عائد على الدين، وإظهاره عند نزول عيسى ابن مريم وكون الأديان كلها راجعة إلى دين الإسلام، فذلك إظهاره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن هذه الفرقة رأت الإظهار على أتم وجوهه، أي: حتى لا يبقى معه دين آخر. وقالت فرقة: ﴿يُظْهِرُهُ عَلَى الَّذِينَ﴾ أي ليجعله أعلاها وأظهرها، وإن كان معه غيره كان دونه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا لا يحتاج إلى نزول عيسى، بل كان هذا في صدر الأمة وهو حتى الآن إن شاء الله. وقالت فرقة: الضمير عائد على الرسول، ومعنى

﴿يُظْهِرُهُ﴾ ليطلعه ويعلمه الشرائع كلها والحلال والحرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل وإن كان جائزاً صحيحاً فالآخر أبرع منه وأليق بنظام الآية وأجبرى مع كراهية المشركين، وخص المشركون هنا بالذكر لما كانت كراهية مختصة بظهور دين محمد ﷺ، فذكر العظم والأول بمن كرهه وصدف فيه، وذكر الكافرون في الآية قبل لأنها كراهية إتمام نور الله في قديم الدهر وفي باقيه فعمم الكفرة من لدن خلق الدنيا إلى انقراضها إذ قد وقعت الكراهية والإتمام مراراً كثيرة.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل: المراد بهذه الآية بيان نقائص المذكورين، ونهي المؤمنين عن تلك النقائص مترتب ضمن ذلك، واللام في ﴿يَأْكُلُونَ﴾ لام تأكيد، وصورة هذا الأكل هي أنهم يأخذون أموال أتباعهم ضرائب وفروضاً باسم الكنائس والبيع وغير ذلك مما يوهمونهم أن النفقة فيه من الشرع والتزلف إلى الله، وهم خلال ذلك يختصمون تلك الأموال كالذي ذكره سلمان في كتاب السير عن الراهب الذي استخرج كنزه، وقيل: كانوا يأخذون منهم من غلاتهم وأموالهم ضرائب باسم حماية الدين والقيام بالشرع، وقيل: كانوا يرتشون في الأحكام، ونحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿بِالْبَطْلِ﴾ يعم كل ذلك، وقوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ الأشبه هنا أن يكون معدى، أي: يصدون

غيرهم، وهذا الترجيح إنما هو لنباهة منازلهم في قومهم، و(صد) يستعمل واقفاً ومتجاوزاً، ومنه قول الشاعر:

صَدَدَتْ أَلْكَاسَ عَنَا أُمَّ عَمْرٍو
وَكَانَ أَلْكَاسُ مَجْرَاهَا أَلْيَمِينَا
﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾: الإسلام وشرعة محمد عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن يريد: ويصدون عن سبيل الله في أكلهم الأموال بالباطل، والأول أرجح. وقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ ابتداء وخبره ﴿فَبَيَّرْتُمُوهُمْ﴾، ويجوز أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ معطوفاً على الضمير في قوله: ﴿بِالْكُفْرِ﴾ على نظر في ذلك لأن الضمير لم يؤكد، وأسند أبو حاتم إلى علباء بن أحمد أنه قال: لما مر عثمان بكتب المصحف أراد أن ينقص الواو من قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ فأبى ذلك أبي بن كعب وقال: «لنلحقنها أو لأضعن سيفي على عاتقي» فألحقها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى إرادة عثمان بجري قول معاوية: إن الآية في أهل الكتاب، وخالفه أبو ذر فقال: بل هي فينا، فشكاه إلى عثمان فاستدعاه من الشام ثم أخرجه إلى الربيعة، والذي يظهر من الألفاظ أنه لما ذكر بعض الأحبار والرهبان الآكلين المال بالباطل ذكر بعد ذلك مقولة نقص الكانزين المانعين حق المال.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ بغير واو، و﴿يَكْفُرُونَ﴾ معناه: يجمعون ويحفظون في الأوعية. ومنه قول المنخل الهذلي:

لا ذُرُّ ذُرِّيْ إِنْ أَطَعَنْتُ جَائِعَهُمْ
قِرْفَ الْخَيْتِي وَعِنْدِي الْبُرُّ مَكْنُوزٌ
أي محفوظ في أوعيته، وليس من
شروط الكنز الدفن لكن أكثر في
حفظه المال أن يدفنه حتى تعرف
في المدفون اسم الكنز، ومن اللفظة
قولهم: «رَجُلٌ مَكْتَنِزُ الْخَلْقِ» أي
مجتمع، ومنه قول الراجز:

عَلَى شَدِيدِ لَخْمَةٍ كِنَازِ
بَاتَ يُنْزِئِنِي عَلَى أَوْفَازِ

والتَّوَعُدِ فِي الْكَنْزِ إِنَّمَا وَقَعَ عَلَى
مَنْعِ الْحَقُوقِ مِنْهُ، وَلِذَلِكَ قَالَ كَثِيرٌ
مِنَ الْعُلَمَاءِ: الْكَنْزُ هُوَ الْمَالُ الَّذِي لَا
تُؤَدَّى زَكَاتُهُ وَإِنْ كَانَ عَلَى وَجْهِ
الْأَرْضِ، وَأَمَّا الْمَدْفُونُ إِذَا أُخْرِجَتْ
زَكَاتُهُ فَلَيْسَ بِكَنْزٍ كَمَا قَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مَا أُدِّيَتْ زَكَاتُهُ
فَلَيْسَ بِكَنْزٍ»، وَهَذِهِ الْأَلْفَاظُ مَشْهُورَةٌ
عَنْ ابْنِ عَمْرِو بْنِ رَضِيٍّ اللَّهُ عَنْهُمَا،
وَرَوَى هَذَا الْقَوْلَ عَنْ عِكْرَمَةَ،
وَالشَّعْبِيِّ، وَالسَّيِّدِيِّ، وَمَالِكٍ،
وَجُمْهُورِ أَهْلِ الْعِلْمِ. وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ
أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَرْبَعَةٌ
آلَافٌ دِرْهَمٌ فَمَا دُونَهَا نَفَقَةٌ، وَمَا زَادَ
عَلَيْهَا فَهُوَ كَنْزٌ وَإِنْ أُدِّيَتْ زَكَاتُهُ»،
وَقَالَ أَبُو ذُرٍّ وَجُمَاعَةٌ مَعَهُ: «مَا فَضَّلَ
مِنْ مَالِ الرَّجُلِ عَنْ حَاجَةِ نَفْسِهِ فَهُوَ
كَنْزٌ»، وَهَذَانِ الْقَوْلَانِ يَقْتَضِيَانِ أَنَّ
الذَّمَّ فِي حِسِّ الْمَالِ لَا فِي مَنَعِ زَكَاتِهِ
فَقَطُّ، وَلَكِنْ قَالَ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِهِ:
«حُذِّبْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا صَدَقَةً» فَآتَى فِرْضَ
الزَّكَاةِ عَلَى هَذَا كَلِمَةً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كأن مضمن الآية: «لا تجمعوا مالاً
فتعذبوا»، فنسخه التقرير الذي في

قوله: «حُذِّبْنَا مِنْ أَمْوَالِنَا» وَالضَّمِيرُ فِي
قَوْلِهِ: «يُفْقَوْنَا» يَجُوزُ أَنْ يَعُودَ
عَلَى الْأَمْوَالِ وَالْكَنْزُ الَّتِي يَتَضَمَّنُهَا
الْمَعْنَى، وَيَجُوزُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الذَّهَبِ
وَالْفِضَّةِ إِذْ هُمَا أَنْوَاعٌ، وَقِيلَ: عَادَ
عَلَى الْفِضَّةِ وَاتَّكَنِي بِضَمِيرٍ وَاحِدٍ عَنْ
ضَمِيرِ الْآخَرِ إِذْ أَهْمَهُ الْمَعْنَى، وَهَذَا
نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

نَحْنُ بِمَا عِشَدْنَا وَأَنْتَ بِمَا
عِشَدَكَ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلَفٌ
وَنَحْوُ قَوْلِ حُسَّانَ:

إِنْ شَرَخَ الشُّبَابِ وَالشُّعْرُ الْأَنْثَى
وَدَ مَا لَمْ يُعَاصِرْ كَانَ جُنُوناً
وَسَبِيوِيهِ يَكْرَهُ هَذَا فِي الْكَلَامِ، وَقَدْ
شَبَّهَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسِّرِينَ هَذِهِ الْآيَةَ
بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَمَعًا
أَنْفَضُوا إِلَيْهَا»، وَهِيَ لَا تُشَبَّهُ لِأَنَّ
«أَوْ» قَدْ فَصَلَتْ التِّجَارَةَ عَنِ اللَّهْوِ
وَحَسُنَتْ عَوْدُ الضَّمِيرِ عَلَى أَحَدِهِمَا
دُونَ الْآخَرِ.

والذهب يؤنث ويذكر والتأنيث
أشهر، وروى أن أصحاب النبي ﷺ
قالوا: قد ذم الله كسب الذهب
والفضة، فلو علمنا أي المال خير
حتى نكسبه، فقال عمر
رضي الله عنه: أنا أسأل لكم
رسول الله ﷺ عن ذلك فسأله فقال:
«لسان ذاك، وقلب شاكر، وزوجة
تعين المؤمن على دينه»، وروى أن
النبي ﷺ قال لما نزلت الآية: «تَبَأُ
لِلذَّهَبِ تَبَأٌ لِلْفِضَّةِ»، فحينئذ أشفق
أصحابه وقالوا ما تقدم.

والفاء في قوله: «فَنَبِّئْهُمْ»
جواب لما في قوله: «وَالَّذِينَ» مِنْ
معنى الشرط، وجاءت البشارة مع
العذاب لما وقع التصريح بالعذاب،

وذلك أن البشارة تقيد بالخير والشر
فإذا أطلقت لم تحمل إلا على الخير
فقط، وقيل: بل هي أبداً للخير
فمتى نُفِدتْ بِشَرٌّ فَإِنَّمَا الْمَعْنَى: أَيْمٌ
لَهُمْ مَقَامُ الْبِشَارَةِ عَذَاباً أَلِيماً، وَهَذَا
نَحْوُ قَوْلِ الشَّاعِرِ:

وَخَيْلٌ قَدْ دَلَّغَتْ لَهَا بِخَيْلِ
تَحِيَّةً بَيْنَهُمْ صَرْبٌ وَجِيحٌ
وقوله تعالى: «يَوْمَ يَخْتَمَى عَلَيْهِمَا»
الآية. «يَوْمَ» ظرف والعامل فيه
«أَيْدِيَهُمَا». وقرأ جمهور الناس:
«يَخْتَمَى» بالياء بمعنى: تُحْمَى
الوقود، وقرأ الحسن بن أبي
الحسن: «تَحْتَمَى» بالتاء من فوق
بمعنى: تُخْمَى النار، والضمير في
«عَلَيْهَا» عائد على الكنوز أو الأموال
حسبما تقدم. وقرأ قوم «جِبَاهَهُمْ»
بالإدغام وأسموها الضم، حكاه أبو
حاتم.

ووردت أحاديث كثيرة في معنى
هذه الآية من الوعيد لكنها مفسرة في
منع الزكاة فقط لا في كسب المال
الحلال وحفظه، ويؤيد ذلك حال
الصحابة وأموالهم رضي الله عنهم،
فمن تلك الأحاديث قوله ﷺ: «مَنْ
تَرَكَ بَعْدَهُ كَنْزاً لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ مُثَّلٌ لَهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ شِجَاعاً أَمْرَقٌ» الْحَدِيثُ،
وَأَسْنَدُ الطَّبْرِيِّ قَالَ: كَانَ نَغْلُ سَيْفِ
أَبِي هُرَيْرَةَ مِنْ فِضَّةٍ فَفَنَاهَا أَبُو ذُرٌّ
وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ
صَفْرَاءً أَوْ بَيْضَاءً كَوِيَّ بِهَا»، وَأَسْنَدُ
إِلَى أَبِي أَمَامَةَ الْبَاهِلِيِّ قَالَ: (مَاتَ
رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الصُّفَّةِ فَوَجَدَ فِي بَرْدَتِهِ
دِينَارًا فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْفَةً» ثُمَّ
مَاتَ آخَرَ فَوَجَدَ لَهُ دِينَارًا فَقَالَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كَيْتَانِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إما لأنهما كانا يعيشان من الصدقات وعندهما الثَّبر، وإما لأن هذا كان في صدر الإسلام ثم قرر الشرع ضبط المال وأداء حقه، ولو كان ضبط المال ممنوعاً لكان حقه أن يخرج كله لا زكاته فقط، وليس في الأمة من يُلْزم هذا.

وقوله: ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ﴾ إشارة إلى المال الذي يكوى به، ويحتمل أن يكون إلى الفعل النازل بهم، أي: هذا جزاء ما كنزتم، وقال ابن مسعود: والله لا يمس دينار ديناراً، بل يمد الجلد حتى يكوى بكل دينار وبكل درهم، وقال الأحنف بن قيس: دخلت مسجد المدينة وإذا رجل خشن الهيئة زُئها يطوف في الخلق وهو يقول: بشر أصحاب الكنوز بكفي في جباههم وجنوبهم وظهورهم، ثم انطلق يتذمر وهو يقول: وما عسى تصنع في قريش.

تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية - والتي بعدها - تتضمن ما كانت العرب شرعته في جاهليتها من تحريم شهور الحِلِّ، وتحليل شهور الحُرمة، وإذا نُصَّ ما كانت العرب تفعله تبين معنى الآيات. فالذي تظاهرت به الروايات وَيَتَفَكُّ من مجموع ما ذكر الناس أن العرب كانت لا تعيش لأكثرها إلا من الغارات وإعمال سلاحها، فكانوا إذا توالت عليهم حرمة ذي القعدة وذي الحجة والمحرم صعب عليهم وأملقوا، وكان بنو فُقيْم من كنانة أهل دين في العرب وتَمَسَّك بشرع إبراهيم عليه السلام، فانتدب منهم

القلَمْس وهو حذيفة بن عبد فُقيْم فَنَسَأَ الشهور للعرب، ثم خلفه على ذلك ابنه عباد بن حذيفة، ثم خلف ابنه قلع بن عباد، ثم خلفه ابنه أمية بن قلع، ثم خلفه ابنه عوف بن أمية، ثم خلفه ابنه أبو ثمامة جنادة بن عوف، وعليه قام الإسلام، وذكر الطبري وغيره أن الأمر كان في عدوان قبل بني مالك بن كنانة، وكانت صورة فعلهم أن العرب كانت إذا فرغت من حجتها جاء إليهم من شاء منهم مجتمعين فقالوا: أنسنا شهراً، أي: أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر، فيحل لهم المحرم فيغيرون فيه ويعيشون، ثم يلتزمون حرمة صفر ليوافقوا عدة الأشهر الأربعة، قال مجاهد: ويسمون ذلك الصفر المحرم، ثم يسمون ربيعاً الأول صفرأ وربيعاً الآخر ربيعاً الأول، وهكذا في سائر الشهور يستقبلون سنتهم من المحرم الموضوع لهم فيسقط على هذا حكم المحرم الذي حُلَّ لهم، وتجيء السنَّة من ثلاثة عشر شهراً أولها المحرم المحلَّل ثم المحرم الذي هو في الحقيقة صفر ثم استقبال السنَّة كما ذكرنا، ففي هذا قال الله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا﴾ أي: ليست ثلاثة عشر شهراً. قال الطبري: حدثني ابن وكيع عن عمران بن عُبَيْتَةَ بن حصين عن أبي مالك قال: كانوا يجعلون السنة ثلاثة عشر شهراً، قال مجاهد: ثم كانوا يحجون في كل شهر عامين ولاء ثم بعد ذلك يُبَدَلون فيحجون عامين

ولاء، ثم كذلك حتى جاءت حجة أبي بكر رضي الله عنه في ذي القعدة حقيقة وهم يسمونه ذا الحجة، ثم حج رسول الله ﷺ سنة عشر في ذي الحجة حقيقة، فذلك قوله ﷺ: «إِنَّ الزَّمانَ قد استدار كهيته يوم خلق الله السموات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم، ورجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان»، وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ خطب في حجة الوداع فساق الحديث فقال فيه: «أولهن رجب مُضَر الذي بين جمادى وشعبان، وذو القعدة وذو الحجة والمحرم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجيء في أكثر الكتب أنهم كانوا يجعلون حرمة المحرم في صفر وُسكت عن تمام القصة، والذي ذكرناه هو بيانها، وأما كون المحرم أول السنة العربية، وكان حقه - إذ التاريخ من الهجرة - أن يكون أول السنَّة في ربيع الأول، فإن ذلك فيما يروى لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دَوَّن ديوان المسلمين وجعل تاريخه المحرم إذ قبله انقضاء الموسم والحج فكان الحج خاتمة للسنَّة، واعتد بعام الهجرة وإن كان قد نقص من أوله شيء، ولما كانت سنة العرب هلالية بدأ العام من أول شهر، ولم يكن في الثاني عشر من ربيع الذي هو يوم دخول النبي ﷺ المدينة، ولا كان عند تمام الحج لأنه في كسر شهر. وأما الأربعة

الْحُرْمُ فهي: ذو القعدة،
وذو الحجة، والمحرم ورجب.
ومعنى قول النبي ﷺ: «ورجب
مُضْر الذي بين جمادى وشعبان»
قصد التفريق بينه وبين ما كانت تفعله
قبائل ربيعة بأسرها، فإنها كانت
تجعل رجبها رمضان وتحرمه ابتداءً
منها، وكانت قريش ومن تابعها في
ذلك من قبائل مضر على الحق،
فقرر رسول الله ﷺ ذلك ونسبه إلى
مضر إذ كان حكمه وتحريمه إنما
كان من قبَل قريش، وفي المفضليات
لبعض شعراء الجاهلية:

وشهر بنسي أمية والهدايا

البيت. قال الأصمعي: يريد رجباً.
وقرأ أبو جعفر بن القمقاع: «إثنا
عشر شهراً» بسكون العين، وذلك
تخفيف لتوالي الحركات، وذلك
قرأ: «أحد عشر» و«تسعة عشر».

وقوله تعالى: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ أي
فيما كتبه وأثبتته في اللوح المحفوظ
أو غيره، فهي صفة فعل مثل خلقه
ورزقه وليست بمعنى قضائه
وتقديره، لأن تلك هي قبل خلق
السموات والأرض، والكتاب الذي
هو المصدر هو العامل في ﴿يَوْمٍ﴾،
و﴿فِي﴾ من قوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾
متعلقة بـ«مُسْتَقَرَّةً» أو ثابتة، ونحوه،
ويقلق أن يكون الكتاب: القرآن في
هذا الموضع، وتأمل، ولا يتعلق
﴿فِي﴾ بـ«عِدَّةٍ» للتفرقة بين الصلة
والموصول بخبر ﴿إِنَّ﴾. وقوله:
﴿يَهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ﴾ نص على
تفضيل هذه الأربعة وتشريفها، قال
قتادة: «اصطفى الله من الملائكة

والبشر رسلاً، ومن الشهور المحرم
ورمضان، ومن البقع المساجد، ومن
الأيام الجمعة، ومن الليالي ليلة
القدر، ومن الكلام ذكره، فينبغي أن
يُعَظَّم ما عَظَّم الله».

وقوله: ﴿ذَلِكَ الَّذِي أَلَمَّ أَفْوَجٌ﴾ قالت
فرقة: معناه: الحساب المستقيم،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما
فيما حكى المهدي: معناه: القضاء
المستقيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والأصوب عندي أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾
ها هنا على أشهر وجوه، أي: ذلك
الشرع والطاعة لله، ﴿الَّذِينَ﴾ أي:
القائم المستقيم، وهو من «قام يقوم»
بمنزلة «سَيِّد» من «ساد يسود»،
وأصله قِيَوْمٌ. وقوله: ﴿فَلَا تَظَلُّوا
فِيهِمْ أَنُفُسَكُمْ﴾ الضمير عائد على
«الاثنا عشر شهراً» أي: لا تظلموا
أنفسكم بالمعاصي في الزمن كله،
وقال قتادة: الضمير عائد على
«الأربعة الأشهر»، ونهى عن الظلم
فيها تشريفاً لها بالتخصيص والذكر
وإن كان منهاً عنه في كل الزمن،
وزعم النحاة أن العرب تكني عما
دون العشرة من الشهور: «فيهن»،
وعما فوق العشرة: «فيها»، وروي
عن الكسائي أنه قال: إني لأتعجب
من فعل العرب هذا، وكذلك يقولون
فيما دون العشرة من الليالي:
«خَلُون»، وفيما فوقها: «خَلْت».
وقال الحسن: معنى «فيهن» أي
بِسَبِيهِنَّ ومن جزاهن في أن تُجَلُّوا
حرامها وتبدلوه بما لا حرمة له،
وحكى المهدي أنه قيل: «لا
تظلموا فيهن أنفسكم بالقتال» ثم

نسخ بفرض القتال في كل زمن، قال
سعيد بن المسيب في كتاب الطبري:
كان رسول الله ﷺ يحرم القتال في
الأشهر الحرم بما أنزل الله في ذلك
حتى نزلت براءة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقوله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ﴾
معناه: فيهن فأحرى في غيرهن،
وقوله: ﴿كَاكَّةٌ﴾ معناه: جميعاً،
وهو مصدر في موضع الحال، قال
الطبري: كالعاقبة والعافية، فهو -
على هذا - كما تقول: خاصة
وعامة، ويظهر أيضاً أنه من كَفَّ
يكف، أي جماعة تكف من
عارضها، وكذلك تقول: الكافة، أي
تكف من خالفها، فاللفظة - على هذا
- اسم فاعل. وقال بعض الناس:
معناه: يكف بعضهم بعضاً عن
التخلف، وما قدمناه أعم وأحسن،
وقال بعض الناس: كان الفرض بهذه
الآية قد توجه على الأعيان ثم نسخ
ذلك بغد وجعل فرض كفاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا الذي قالوه لم يُعلم قط من
شرع النبي ﷺ أنه ألزم الأمة جميعاً
الثغر، وإنما معنى الآية الحض على
قتالهم والتحزب عليهم وجمع
الكلمة، ثم قيدها بقوله سبحانه:
﴿كَفَا يُقَاتِلُونَكُمْ﴾، فبحسب قتالهم
 واجتماعهم لنا يكون فرض اجتماعنا
لهم، وأما الجهاد الذي يندب إليه
فإنما هو فرض على الكفاية إذا قام به
بعض الأمة سقط عن الغير.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾
خبر في ضمنه أمرٌ بالتقوى ووجد
عليها بالنصر والتأييد.

وقال الآخر:

تَسْتَوُوا الشُّهُورَ بِهَا وَكَانُوا أَهْلِهَا
مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْحِزْمُ لَمْ يَتَحَوَّلْ
وَمِنْهُ قَوْلُ جَدِّهِ الطَّعَانِ:

وَقَدْ عَلِمْتُ مَعَدًا أَنْ قَوْمِي
كَرَامَ النَّاسِ إِنْ لَهُمْ كِرَامًا
فَأَيُّ النَّاسِ فَاتُونَا بِوَتْرٍ؟
وَأَيُّ النَّاسِ لَمْ تَغْلِكْ لِحَامًا؟
أَلَسْنَا الثَّائِبِينَ عَلَى مَعَدٍّ

شهور الجمل نجعلها حرامًا؟
وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
وعاصم، وابن عامر: ﴿يُضِلُّ﴾ بفتح
الياء وكسر الضاد، وقرأ ابن مسعود،
والحسن، ومجاهد، وقتادة،
وعمر بن ميمون: ﴿يُضِلُّ﴾ بضم
الياء وكسر الضاد، فإما على معنى:

يُضِلُّ اللهُ، وإما على معنى: يُضِلُّ بِهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا أَتْبَاعَهُمْ، ف﴿الَّذِينَ﴾
في التأويل الأول في موضع نصب،
وفي الثاني في موضع رفع، وقرأ
عاصم أيضاً، وحزمة، والكسائي،
وابن مسعود - فيما روي عنه -:
﴿يَضَلُّ﴾ بضم الياء وفتح الضاد على
المفعول الذي لم يُسم فاعله، ويؤيد
ذلك قوله تعالى: ﴿زَيْنٌ﴾ للتناسب
في اللفظ، وقرأ أبو رجاء: ﴿يَضَلُّ﴾
من ضلَّ يَضَلُّ، على وزن فعل بكسر
العين يفعل بفتحها، وهما لغتان،
يقال: ضلَّ يَضَلُّ وضلَّ يَضَلُّ والوزن
الذي ذكرناه يفرق بينهما، وكذلك
يروى قول النبي ﷺ: ﴿حَتَّى يَضِلَّ﴾
الرجل أن يدري كم صلى، بفتح
الضاد وكسرها.

وقوله تعالى: ﴿يُحَوِّلُونَ عَمَّا كَانُوا
يُحَرِّمُونَ عَمَّا كَانُوا مَعْنَاهُ: عَمَّا مِنْ
الْأَعْوَامِ، وليس يريد أن تلك كانت

المؤخر زيادة، والمؤخر
الشهر، ولا يكون الشهر
زيادة في الكفر.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وقال أبو
حاتم: هو فعيل بمعنى
مفعول، ويفصل عن إلزام
أبي علي بأن يُقَدَّر
مضاف، كأن المعنى: إنما
إنساء النسبي، وقال
الطبري: هو من معنى
الزيادة، أي زيادتهم في
الأسهر، وقال أبو وائل:
كان «النسبي» رجلاً من
بني كنانة.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهذا ضعيف.

وأما «النسبي» فهو الأول بعينه
خفت الهمزة، وقيل: قلبت الهمزة
ياء وأدغمت الياء في الياء، وأما
«النسب» فهو مصدر من نسا إذا
أخر، وأما «النسبي» فقيل: تخفيف
همزة «النسب»، وذلك على غير
قياس، وقال الطبري: هو مصدر من
نسي ينسى إذا ترك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والنسيء هو فعل العرب في تأخيرهم
الحرمة، وقوله تعالى: ﴿زِيَادَةٌ فِي
الْكُفْرِ﴾ أي: جارٍ مع كفرهم
بالله، وخلاف منهم للحق، فالكفر
متكرر بهذا الفعل الذي هو باطل في
نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ومما وجد في أشعارها من هذا
المعنى قول بعضهم:
ومثلاً منسباً الشهر القلنس

إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا
مُحَوِّلِينَ عَمَّا كَانُوا يَحَرِّمُونَ عَمَّا كَانُوا يَحَرِّمُونَ عَمَّا كَانُوا
فِي جِلْوَاهُمْ مَا حَرَّمَ اللَّهُ لِيُؤْخِرُوا عَنْهَا وَإِنَّهُمْ لَشَاءُونَ
لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٣٧﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ
مَأْمُونًا لَمْ يَكُونُوا قَبْلَ ذَلِكَ كُفْرًا وَإِنِّي لَأَنظُرُهُمْ
إِلَى الْأَرْضِ أَرْضِيًّا وَأَلْحِيهِمُ الْأَرْضَ مِنَ الْأَخْرَجِ
فَمَا مَنَعَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا مِنَ الْأَخْرَجِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾
لِيُؤْخِرُوا بِعَدَابِ اللَّهِ أَلِيمًا وَسَيُجَدِّلُونَ قَوْلًا
غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذَا خَرَبَهُ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَأَنَّى اتَّيْتُمْ إِذَا هُمَا فِي الْفَارِجِ
يَقُولُ لِصَدِيقِهِ لَمَنْ خَرَنَ إِنَّ اللَّهَ مَنَّانٌ فَأَنزَلَ
اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا
وَجَعَلَ لِكَلِمَةِ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى ﴿٤٠﴾
وَكَالِمَةَ اللَّهِ هِيَ الْفَلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤١﴾

﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿النَّسِيءُ﴾ على وزن فعيل مصدر
بمعنى التأخير، تقول العرب:
أنسا الله في أجلك ونسأ في
أجلك، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿مَنْ
سَرَّهُ النَّسَاءُ فِي الْأَجْلِ وَالسَّعَةِ فِي
الرِّزْقِ فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ﴾، وهذه قراءة
الجمهور والسبعة، وقرأ ابن كثير
فيما روي عنه وقوم معه في الشاذ:
﴿النسيء﴾ مشددة الياء، وقرأ فيما
روى عنه جعفر بن محمد،
والزهري: ﴿النسيء﴾، وقرأ أيضاً
فيما روي عنه: ﴿النسب﴾ على
وزن «النسب»، وقرأت فرقة
﴿النسبي﴾. فأما «النسيء» بالمد
والهمز فقال أبو علي: هو مصدر
مثل النكير والتذير وعذير الحي،
ولا يجوز أن يكون فعياً بمعنى
مفعول لأنه يكون المعنى: إنما

مداولة في الشهر بعينه، عام حلال و عام حرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تأول بعض الناس القصة أنهم كانوا إذا شق عليهم توالي الأشهر الحرم أحل لهم المحرم و حرم عليهم صفر بدلاً منه، ثم مشت الشهور مستقيمة على أسمائها الممهودة، فإذا كان من قابل حزم المحرم على حقه وأحل صفر، ومشت الشهور مستقيمة، ورأت هذه الطائفة أن هذه كانت حالة القوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي قدمناه قبلاً أليق بألفاظ الآيات، وقد بينه مجاهد، وأبو مالك، وهو مقتضى قول النبي ﷺ: «إن الزمان قد استدار» مع أن الأمر كله قد تقضى، والله أعلم أي ذلك كان.

وقوله: ﴿لِيُرَاطَبُوا﴾ معناه: ليوافقوا، والمواطأة: الموافقة، تواطأ الرجلان على كذا إذا اتفقا عليه، ومعنى ﴿لِيُرَاطَبُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ﴾: ليحفظوا في كل عام أربعة أشهر في العدد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأزالوا الفضيلة التي خص الله بها الأشهر الحرم وحدها، بمشابهة أن يفطر أحد رمضان ويصوم شهراً من السنة بغير مرض أو سفر، وقوله: ﴿زَيْنٌ﴾ يحتمل هذا التزيين أن يضاف إلى الله عز وجل والمراد به خلقه لكفرهم وإقرارهم عليه وتحببه لهم، ويحتمل أن يضاف إلى مغويهم ومضللهم من الإنس والجن، ثم أخبر تعالى أنه لا يهديهم ولا يرشدهم،

وهو عموم معناه الخصوص في الموافقين أو عموم مطلق لكن لا هداية من حيث هم كفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر أبو علي البغدادي في أمر النسيء أنه كان إذا صدر الناس من (منى) قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة فيقول: أنا الذي لا أعاب ولا يرذ لي قضاء، فيقولون: أتسننا شهراً، أي أخر عنا حرمة المحرم فاجعلها في صفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واسم نعيم لم يعرف في هذا، وما أرى ذلك إلا كما حكى النقاش من بني فُقم، كانوا يسمون القلامس وأحدهم قَلَمَس، وكانوا يفتنون العرب في الموسم، يقوم كبيرهم في الحجر، ويقوم آخر عند الباب، ويقوم آخر عند الركن فيفتنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهم على هذا عِدَّة، منهم نعيم وصفوان ومنهم ذرّة القَلَمَس حذيفة وغيرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال رسول الله ﷺ: «لا عدوى ولا هامة ولا صفر»، فقال بعض الناس: إنه يريد بقوله: «ولا صفر» هذا النسيء، وقيل غير ذلك.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية هي بلا اختلاف نازلة عتاباً على تخلف من تخلف عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، وكانت سنة تسع من الهجرة بعد الفتح بعام، غزا فيها الروم في عشرين ألفاً بين راكب وراجل، وتخلف عنه قبائل من الناس ورجال

من المؤمنين كثير و منافقون، فالعتاب في هذه الآية هو للقبائل وللمؤمنين الذين كانوا بالمدينة، وخص الثلاثة: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية بذلك التذنب الشديد بحسب مكانهم من الصحبة إذ هم من أهل بدر ومن يقتدى بهم، وكان تخلفهم لغير علة كما يأتي.

وقوله: ﴿هَذَا لَكُمْ﴾ استفهام بمعنى التقرير والتوبيخ، وقوله: ﴿ذِينَ﴾ يريد النبي ﷺ إلا أن صرفه الفعل لا يُسمى فاعله يقتضي غلاظاً ومخاشنة ما.

والثُغر هو التنقل بسرعة من مكان إلى مكان لأمر يحدث، يقال في ابن آدم: نُفِرَ إلى الأمر ينفِرُ نفيراً ونُفُراً، ويقال في الدابة: نفرت تنفُر بضم الفاء نُفُوراً، وقوله: ﴿أَتَأْتَلْتُمْ﴾ أصله تئافلتُم، أدغمت التاء في التاء فاحتجج إلى ألف الوصل، كما قال: ﴿فَأَذَرْتُمْ﴾ وكما تقول: «أزّين»، وكما قال الشاعر:

تولي الضجيج إذا ما استأفها خصبراً
عذب المذاق إذا ما أتابع الفيل
وقرأ الأعمش - فيما حكى
المهدوي وغيره -: ﴿تئافلتُم﴾ على الأصل، وذكرها أبو حاتم «تئافلتُم» بتاءين ثم تاء مثلثة، وقال: هي خطأ أو غلط، وصوّب ﴿تئافلتُم﴾ بتاء واحدة وتاء مثلثة إن لو قرىء بها، وقوله: ﴿أَتَأْتَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ عبارة عن تخلفهم ونكولهم وتركهم، الغزو لسكنى ديارهم والتزام نخلهم وظلالهم، وهو نحو من: أخذ إلى الأرض. وقوله: ﴿أَرْضَيْتُمْ﴾ تقرير يقول: أرضيتم نزر الدنيا على خضير

الآخرة وحفظها الأسعد؟ ثم أخبر فقال: إن الدنيا بالإضافة إلى الآخرة قليل نزر، فتعطي قوة الكلام التعجب من ضلال من يرضى النزر بدل الكثير الباقي.

وقوله: ﴿إِلَّا نَسِرُوا﴾ الآية. ﴿إِلَّا نَسِرُوا يَعْنِيكُمْ﴾ شرط وجواب، وقوله: ﴿يَعَذِّبُكُمْ﴾ لفظ عام يدخل تحته أنواع عذاب الدنيا والآخرة، والتهديد بعمومه أشد تخويفاً، وقالت فرقة: يريد: يُعَذِّبُكُمْ بِإِمْسَاكِ المطر عنكم، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: استنفر رسول الله ﷺ قبيلة من القبائل فقعدت فأمسك الله عنها المطر وعذبها به، و«أليّم» بمعنى مؤلم، بمنزلة قول عمرو بن معديكرب:

أَمِنَ رِيحَانَ الدَّاعِي السَّمِيعِ

وقوله: ﴿وَيَسْتَدِيلُ قَوْمًا عَزَّكَمُ﴾ توعد بأن يبدل لرسول الله ﷺ قوماً لا يقعدون عند استنفره إياهم، والضمير في قوله: ﴿وَلَا تَضُرُّهُ شَيْئًا﴾ عائد على الله عز وجل، أي: لا ينقص ذلك من عزه وعز دينه، ويحتمل أن يعود على النبي ﷺ، وهو أليق. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقَدِّرٌ﴾ أي: على كل شيء مقدور، وتبديلهم منه ليس بمحال ممتنع.

﴿٤٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا أيضاً شرط وجواب، والجواب في الفاء من قوله: ﴿فَقَدْ﴾ وفيما بعدها، قال النقاش: هذه أول آية نزلت من سورة براءة، ومعنى الآية: إنكم إن تركتم نصره فالله متكفل به

إذ قد نصره في موضع القلة والانفراد وكثرة العدو، فنصره إياه اليوم أخرى منه حيثنذ. وقوله: ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يريد: فعلوا من الأفاعيل ما أدى إلى خروجه، وأسند الإخراج إليهم إذ المقصود تذنيبهم، ولما كان مقصد أبي سفيان بن الحارث الفخر في قوله: «مَنْ طَرَدْتُ كُلَّ مُطْرِدٍ» لم يقرره النبي ﷺ. والإشارة إلى خروج رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وفي صحبته أبو بكر رضي الله عنه، واختصار القصة أن رسول الله ﷺ كان ينتظر أمر الله عز وجل في الهجرة من مكة، وكان أبو بكر رضي الله عنه حين ترك ذمة ابن الدغنة قد أراد الخروج من مكة فقال له رسول الله ﷺ: «اصبر فلعل الله أن يسهل في الصحبة»، فلما أذن الله لرسوله ﷺ في الخروج تجهز من دار أبي بكر وخرجا فبقيا في الغار الذي في جبل ثور في غربي مكة ثلاث ليال، وخرج المشركون في أثرهم حتى انتهوا إلى الغار، فطمس عليهم الأثر، وقال أبو بكر للنبي ﷺ: «لو نظر أحدهم إلى قدمه لرآنا»، فقال له النبي ﷺ: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟» ويروى أن العنكبوت نسجت على باب الغار، ويروى أن الحمامة عششت عند باب الغار، ويروى أن رسول الله ﷺ أمر أبا بكر رضي الله عنه أن يجعل ثماماً في باب الغار فتحيله المشركون نابتاً وصرفهم الله عنه، ووقع في «الدلائل» في حديث النبي ﷺ أنه نبتت على باب الغار «رأفة» أمرها الله بذلك في الحين، قال الأصمعي:

جمعها «رأفة» وهي من نبات السهل. وروي أن أبا بكر رضي الله عنه لما دخل الغار خرق رداءه فسد به كيواء الغار لئلا يكون فيها حيوان يؤدي النبي ﷺ، وروي أنه بقيت فيه واحدة فسدها برجله فوقى الله تعالى، وكان يروح عليهما باللبن عامر بن فهيرة مولى أبي بكر رضي الله عنه.

وقوله: ﴿ثَلَاثَ أَثْنَيْنِ﴾ معناه: أحد اثنين، وهذا كثالث ثلاثة ورابع أربعة، فإذا اختلف اللفظ فقلت: «رابع ثلاثة» فالمعنى: صير الثلاثة بنفسه أربعة، وقرأ جمهور الناس: ﴿ثَلَاثَ أَثْنَيْنِ﴾ بنصب الياء من «ثلاث»، قال أبو حاتم: لا يعرف غير هذا، وقرأت فرقة: «ثانين اثنتين» بسكون الياء من «ثاني»، قال أبو الفتح: حكاه أبو عمرو بن العلاء، ووجه أنه سكن الياء تشبيهاً لها بالألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه كقراءة: ﴿مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا﴾ وكقول جرير:

هُوَ الْخَلِيفَةُ فَازْضَوْا مَا رَضِيَ لَكُمْ
مَا ضِي الْعَزِيمَةُ مَا فِي حُكْمِهِ جَنْفٌ
وصاحبه أبو بكر رضي الله عنه، وروي أن أبا بكر الصديق قال يوماً وهو على المنبر: أيكم يحفظ سورة التوبة؟ فقال رجل: أنا، فقال: اقرأ، فقرأ فلما انتهى إلى قوله تعالى: ﴿إِذْ يَكُونُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنَ إِنَّ اللَّهَ مَنَّانٌ﴾ بكى وقال: أنا والله صاحبه. وقال الليث: ما صحب الأنبياء مثل أبي بكر الصديق، وقال سفيان بن عيينة: خرج أبو بكر رضي الله عنه

رضي الله عنها: ﴿فَأَنْزَلَ أَلَلَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمَا وَأَيَّدَهُمَا﴾، وقرأ مجاهد: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾، بالفتحة، والجمهور: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ بشد الياء.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يريد بإدحارها ودحسها وإذلالها، ﴿وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ السُّفْلَى﴾ قيل: يريد: «لا إله إلا الله»، وقيل: الشرع بأسره. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَكَلِمَةَ﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن،

بهذه الآية من المعاتبه التي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَضُرُّوهُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أقول: بل خرج منها كل من شاهد غزوة تبوك ولم يتخلف، وإنما المعاتبه لمن تخلف فقط، أما إن هذه الآية منوّهة بأبي بكر حاكمه بتقدمه وسابقته في الإسلام رضي الله عنه.

وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَنَّكَ﴾ يريد به النصر والإنجاء واللفظ، وقوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْكَ﴾ الآية. قال حبيب بن أبي ثابت: الضمير في ﴿عَلَيْكَ﴾ عائذ على أبي بكر لأن النبي ﷺ لم يزل ساكن النفس ثقة بالله عز وجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول من لم ير السكينة إلا سكون النفس والجأش. وقال جمهور الناس: الضمير عائذ على النبي ﷺ، وهذا أقوى، والسكينة عندي إنما هي ما ينزل الله على أنبيائه من الحياطة لهم والخصائص التي لا تصلح إلا لهم، كقوله تعالى: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ لِّرَبِّكُمْ﴾، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ﴾ إلى آخر الآية يراد به ما صنعه الله لنبيه إلى وقت تبوك من الظهور والفتوح، لا أن تكون هذه الآية تختص بقصة الغار والنجاة إلى المدينة، فعلى هذا تكون الجنود الملائكة النازلين ببدر وحنين، ومن رأى أن الآية مختصة بتلك القصة قال: الجنود: ملائكة بشره بالنجاة وبأن الكفار لا ينجح لهم سعي، وفي مصحف حفصة

﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِمَا وَأَيَّدَهُمَا﴾، وقرأ مجاهد: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾، بالفتحة، والجمهور: ﴿وَأَيَّدَهُ﴾ بشد الياء.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى﴾ يريد بإدحارها ودحسها وإذلالها، ﴿وَكَلِمَةَ اللَّهِ هِيَ السُّفْلَى﴾ قيل: يريد: «لا إله إلا الله»، وقيل: الشرع بأسره. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَكَلِمَةَ﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن،

ويعقوب: ﴿وَكَلِمَةَ﴾ بالنصب على تقدير: «وجعل كلمة»، قال الأعمش: ورأيت في مصحف أنس ابن مالك المنسوب إلى أبي بن كعب «وجعل كلمته هي العليا».

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا أمر من الله تعالى لأمة محمد ﷺ بالتغير إلى الغزو، فقال بعض الناس: هذا أمر عام لجميع المؤمنين فغير عنه بالفرض على الأعيان في تلك المدة، ثم نسخه الله عز وجل بقوله: ﴿وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا﴾، روي ذلك عن الحسن وعكرمة. وقال جُلُّ الناس: بل هذا حض، والأمر في نفسه موقوف على فرض الكفاية، ولم يقصد بالآية فرضه على الأعيان.

وأما قوله: ﴿خِفَانًا وَفَقَالًا﴾ فنصب على الحال من الضمير في قوله:

﴿انْفِرُوا﴾، ومعنى الخفة والثقل هنا مستعار لمن يمكنه السفر بسهولة ومن يمكنه بصعوبة، وأما من لا يمكنه كالعُمي ونحوهم فخارج عن هذا، وروي أن ابن أم مكتوم جاء إلى النبي ﷺ فقال: «أعلي أن انفِر؟» فقال له: «نعم» حتى نزلت: ﴿يَسِّرْ عَلَى الْاَعْمَى حَرْجًا﴾، وذكر الناس من معاني الخفة والثقل أشياء لا وجه لتخصيص بعضها دون بعض، بل هي وجوه متفقة، فقيل: الخفيف: الغني، والثقل: الفقير، قاله مجاهد، وقيل: الخفيف: الشاب، والثقل: الشيخ، قاله الحسن وجماعة، وقيل: الخفيف: النشط، والثقل: الكاسل، قاله ابن عباس وقتادة، وقيل: المشغول ومن لا شغل له، قاله الحكم بن عيينة وزيد بن علي، وقيل: الذي له

ضيعة هو الثقل ومن لا ضيعة له هو الخفيف، قاله ابن زيد، وقيل: الشجاع هو الخفيف، والجبان هو الثقيل، حكاة النقاش، وقيل: الراجل هو الثقيل والفراس هو الخفيف، قاله الأوزاعي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان الوجهان الآخران ينعكسان وقد قيل ذلك ولكنه بحسب وطأتهم على العدو، فالشجاع هو الثقيل وكذلك الفارس، والجبان هو الخفيف وكذلك الراجل، وكذلك ينعكس الفقير والغني فيكون الغني هو الثقيل بمعنى صاحب الشغل، ومعنى هذا أن الناس أمروا جملة، وهذه الأقوال إنما هي على معنى المثال في الثقل والخفة، وقال أبو طلحة: ما سمع الله عذر أحد، وخرج إلى الشام فجاهد حتى مات، وقال أبو أيوب: ما أجدني أبداً إلا ثقبلاً أو خفيفاً، وروي أن بعض الناس رأى في غزوات الشام رجلاً سقط حاجبه على عينيه من الكبر فقال له: يا عم، إن الله قد عذرك، فقال: يا ابن أخي إننا قد أمرنا بالنفر خفافاً وثقالاً، وأسند الطبري عمن رأى المقداد ابن الأسود بحمص وهو على تابوت صراف وقد فضل على التابوت من سمنه وهو يتجهز للغزو، فقال له: لقد عذرك الله، فقال: أتت علينا سورة البعوث ﴿أَنْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا﴾، وروي: سورة البحوث.

وقوله تعالى: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّكِ وَأنتِ كَمِمْ﴾ وصف لأكمل ما يكون من الجهاد وأنقعه عند الله تعالى، فحضر على

أكمل الأوصاف، وقدمت الأموال في الذكر إذ هي أول مصرف وقت التجهيز، فرتب الأمر كما هو في نفسه، ثم أخبر أن ذلك لهم خير للفوز برضى الله وغلبة العدو وورثة الأرض، وفي قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ تنبيه وهز للنفس.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا﴾ الآية. ظاهر هذه الآية وما يحفظ من قصة تيبوك أن الله لما أمر رسوله بغزو الروم ندب الناس، وكان ذلك في شدة من الحر وطيب من الشمار والظلال، فنفر المؤمنون، واعتذر منهم لا محالة فريق لا سيما من القبائل المجاورة للمدينة، ويدل على ذلك قوله تعالى في أول هذه الآية: ﴿يَتَأْتِيهَا الْبُيُوتُ مَأْتُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنْتَقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ لأن هذا الخطاب ليس للمنافقين خاصة، بل هو عام، واعتذر المنافقون بأعذار كاذبة، وكانوا بسبيل كسل مفرط وقصد للتخلف، وكانت أعذار المؤمنين حقيقة ولكنهم تركوا الأولى من التحامل، فنزل ما سلف من الآيات في عتاب المؤمنين، ثم ابتدأ من هذه الآية ذكر المنافقين وكشف ضمائرهم، فيقول: لو كان هذا الغزو ليعرض أي لمالٍ وغنيمة تنال قريباً يسفر قاصد يسير لبادروا إليه، لا لوجه الله ولا لظهور كلمته، ﴿وَلَكِنْ بَدَّتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ في غزو الروم، أي المسافة الطويلة. وذكر أبو عبيدة أن أعرابياً قدم البصرة وكان قد حمل حمالة فعجز عنها، وكان معه ابن له يسمى الأحوص،

فبادر الأحوص أباه بالقول فقال: «إنا من تعلمون، وإنا سبيل، وجئنا من شقة، ونطلب في حق، وتثطوننا ويجزيكم الله». فتهياً أبوه ليخطب فقال له: «يا، إياك، إني قد كفيتك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يا: تنبيه، وإياك: نهى. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿الشُّقَّةُ﴾ بكسر الشين، وقرأ الأعرج: ﴿بعيدت﴾ بكسر العين، وحكى أبو حاتم أنها لغة بني تميم في اللفظتين.

وقوله تعالى: ﴿سَيَلِفُونَ بِاللَّهِ﴾ يريد المنافقين، وهذا إخبار غيب، وقوله: ﴿يَهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ يريد عند تخلفهم مجاهرة وكفرهم، فكأنهم يوجبون على أنفسهم الحتم بعذاب الله. ثم أخبر أن الله الذي هو أعدل الشاهدين يعلم كذبهم، وأنهم كانوا يستطيعون الخروج ولكنهم تركوه كفرةً ونفاقاً، وهذا كله في الجملة لا بتعيين شخص، ولو عُين لقتل بالشرع.

وقرأ الأعمش على جهة التشبيه بواو ضمير الجماعة: ﴿لَوْ أَنْتَطَفْنَا﴾ بضم الواو، ذكره ابن جني، ومثله بقوله تعالى: ﴿لَقَدْ أَنْتَفَخْنَا﴾، ﴿فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ﴾، و﴿أَشْرَوْا الضَّلَالَةَ﴾ وما أشبهه.

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية في صنف مبالغ في النفاق واستأذنوا دون اعتذار، منهم عبدالله بن أبي، والجد بن قيس، ورفاعة بن التابوت، ومن اتبعهم، فقال بعضهم: ائذن لي ولا تفتني،

وقال بعضهم: ائذن لنا في الإقامة، فأذن لهم رسول الله ﷺ استبقاءً منه عليهم، وأخذاً بالأسهل من الأمور، وتوكلاً على الله. وقال مجاهد: قال بعضهم: نستأذنه فإن أذن لنا في القعود قعدنا وإلا قعدنا، فنزلت الآية في ذلك. وقالت فرقة: إن رسول الله ﷺ أذن لهم دون أن يؤمر بذلك فعُفي عنه ما يلحق من هذا، وقدم ذكرُ العفو قبل العقاب إكراماً له ﷺ، وقال عمرو بن ميمون الأودي: إن رسول الله ﷺ صلح برأيه في قصتين دون أن يؤمر فيهما بشيء. هذه وأمر أسارى بدر، فعاتبه الله فيهما. وقالت فرقة: بل قوله سبحانه في هذه الآية: ﴿عَمَّا أَثُتَّ﴾ استفتاح كلام، كما تقول: أصلحك الله، وأعزك الله، ولم يكن منه ﷺ ذنب يُعفي عنه، لأن صورة الاستفار وقبول الأعذار مصروفة إلى اجتهاده، وأما قوله سبحانه: ﴿لِمَ أَذْنَتْ﴾ فهي على معنى التقرير.

وقوله: ﴿الَّذِينَ سَدَقُوا﴾ يريد: في استئذانك وأنت لو لم تأذن لهم خرجوا معك، وقوله: ﴿وَتَمَلَّكَ الْكَاذِبِينَ﴾ يريد: في أنهم استأذونك يظهر لك أنهم يقفون عند حدك وهم كذبة قد عزموا على العصيان أذنت لهم أو لم تأذن. وقال الطبري: معناه: حتى تعلم الصادقين في أن لهم عذراً والكافرين في ألا عذر لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل يختلط المعتذرون، وقد قدمنا أن فيهم مؤمنين كالمستأذنين وهم لا يؤمنون

بالله واليوم الآخر، والأول أصوب، والله أعلم. وأدخل الطبري أيضاً في تفسير هذه الآية عن قتادة أن هذه الآية نزلت بعدها الآية الأخرى في سورة النور ﴿فَلَمَّا اسْتَأْذَنُوكَ لِيُعْضِ شَأْنَهُمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غلط لأن آية النور نزلت سنة أربع من الهجرة في غزوة الخندق في استئذان بعض المؤمنين رسول الله ﷺ في بعض شأنهم في بيوتهم في بعض الأوقات، فأباح الله له أن يأذن، فتباينت الآيتان في الوقت والمعنى.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ﴾ الآية. نفى عن المؤمنين أن يستأذنوا رسول الله ﷺ في التخلف دون عذر كما فعل الصنف المذكور من المنافقين.

وقوله: ﴿أَنْ يُجَاهِدُوا﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على معنى: لا يستأذنون في التخلف كراهية أن يجاهدوا، قال سيبويه: ويحتمل أن تكون في موضع خفض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على معنى: لا يحتاجون إلى أن يستأذنوا في أن يجاهدوا، بل يمضون قدماً، أي: فهم أحرى ألا يستأذنوا في التخلف. ثم أخبر بعلمه تعالى بالمتقين وفي ذلك تعبير للمنافقين وطعن عليهم بين.

١٥ - ١٧ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية تنص على أن المستأذنين إنما هم مخلصون للنفق، ﴿وَأَزَابَتْ

قُلُوبُهُمْ﴾ معناه: شكّت، والريب نحو الشك، و﴿يَسْتَرْذُونَ﴾ أي: يتحiron ولا يتجه لهم هدى، ومن هذه الآية نزع أهل الكلام في حدّ الشك إلى أنه تردّد بين أمرين، والصواب في حده أنه توقف بين أمرين. والتردد في الآية إنما هو في ريب هؤلاء المنافقين، إذ كانوا تخطر لهم صحة أمر النبي ﷺ أحياناً، وأنه غير صحيح أحياناً، ولم يكونوا شاكين طالبيين للحق لأنه كان يتضح لهم لو طلبوه، بل كانوا مذنبين لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، كالشاة العائرة بين الغنمين، وأيضاً فبين الشك والريب فرق ما، وحقيقة الريب إنما هو الأمر يستريب به الناظر فيخلط عليه عقيدته، وربما أدى إلى شك وحيرة، وربما أدى إلى علم النازلة التي هو فيها، ألا ترى أن قول الهذلي:

كأئنسي أزننته بريب
لا يتجه أن يفسر بشك.

قال الطبري: وكان جماعة من أهل العلم يرون أن هاتين الآيتين منسوختان بالآية التي ذكرنا في سورة النور. وأسند عن الحسن وعكرمة أنهما قالوا في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَذَدُونَ﴾: منسوخة بآية النور: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ إلى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ رَجِيمٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غلط وقد تقدّم ذكره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوَّلُوا

أَلْحُرُوجُ ﴿الآية، حجة على المنافقين، أي: ولو أرادوا الخروج بنيتهم لنظروا في ذلك واستعدوا له قبل كونه. والعُدَّة: ما يُعَدُّ للأمر ويُرَوَّى له من الأشياء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عُدَّةٌ﴾ بِضَمِّ العين وتاء تأنيث، وقرأ محمد بن عبد الملك بن مروان وابنه معاوية بن محمد: ﴿عُدَّةٌ﴾ بِضَمِّ العين وهاء إضمار، يريد: ﴿عُدَّتُهُ﴾ فحذف تاء التأنيث لما أضاف، كما قال: ﴿وَإِقَامَ الصلاةِ﴾، يريد: ﴿وَإِقَامَةَ الصلاةِ﴾، هذا قول الفراء، وضغفه أبو الفتح وقال: إنما حذف تاء التأنيث وجعل هاء الضمير عوضاً منها، وقال أبو حاتم: هو جمع (عُدَّة) على (عُد) كَبُرَّةٌ وَبُرٌّ وَدُرَّةٌ وَدُرٌّ، والوجه فيه غدد ولكن لا يوافق خط المصحف. وقرأ عاصم فيما روى عنه أبان، وزر بن حبيش: ﴿عُدَّةٌ﴾ بكسر العين وهاء إضمار، وهو عندي اسم لما يُعَدُّ كالذئب والقَتْل، لأن العدو سُمِّي قَتلاً إذ حقه أن يقتل، هذا في معتقد العرب حين سمته.

وإنبأهم: نفوذهم لهذه الغزوة، والتثبيط: التكبيل وكسر العزم، وقوله: ﴿وَقِيلَ﴾ يحتمل أن يكون حكاية عن الله تعالى، أي: قال الله تبارك وتعالى في سابق قضائه: ﴿أَقْمِدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، ويحتمل أن يكون حكاية عنهم، أي: كانت هذه مقالة بعضهم لبعض، إما لفظاً وإما معنى فحكى في هذه الألفاظ التي تقتضي لهم مذمة إذ القاعدون النساء والأطفال، ويحتمل أن يكون عبارة عن إذن محمد ﷺ لهم في

العودة، أي: لما كره الله خروجهم يسر أن قلت لهم: ﴿أَقْمِدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ﴾، والعودة هنا عبارة عن التخلف والتراخي كما هو في قول الشاعر:

.....
واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسي
وليس للهيئة في هذا كله مدخل،
وكراهية الله إنبأهم رفق بالمؤمنين.
وقوله تعالى: ﴿لو خرجوا فيكم﴾ الآية... خبر بأنهم لو خرجوا لكان خروجهم مضرة، وقوله: ﴿لَأَلَّا خَبَالًا﴾ استثناء من غير الأول، وهذا قول من قدر أنه لم يكن في عسكر رسول الله ﷺ خبال فيزيد المنافقون فيه، فكأن المعنى: ما زادوكم قوة ولا شدة لكن خبالاً، ويحتمل أن يكون الاستثناء غير منقطع، وذلك أن عسكر رسول الله ﷺ في غزوة تبوك كان فيه منافقون كثير ولهم لا محالة خبال، فلو خرج هؤلاء لأتأموا مع الخارجين فزاد الخبال. والخبال: الفساد في الأشياء المؤتلفة الملتحمة كالمودات وبعض الأجرام،
ومنه قول الشاعر:

يا بُنَيَّ لُبَيْنِي لَسْتُ مَا يَبِيدُ
إِلَّا يَدَا مَخْبُولَةِ الْعَضُدِ
وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿مَا رَادَكُمْ﴾ بغير واو.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَا رَضُوا﴾ ومعناه: لأسرعوا السير، و﴿وَجَلَلَكُمْ﴾ معناه: فيما بينكم من هنا إلى هنا لسدّ الموضع الخلة بين الرجلين. والإيضاع: سرعة السير، وقال الزجاج: ﴿وَجَلَلَكُمْ﴾ معناه: فيما يخل بكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وماذا يقول في قوله تعالى: ﴿فَبِمَا شَأْنِكَلَّ الذِّيَارِ﴾، وقرأ مجاهد فيما حكى النقاش عنه: ﴿وَلَا رَضُوا﴾، وهو بمعنى الإسراع، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ نَسْفَ يَوْمَئِذٍ﴾، وحكي عن الزبير أنه قرأ: ﴿وَلَا رَضُوا﴾، قال أبو الفتح: هذه من «رَضَّ البعير» إذا أسرع في مشيه رفضاً ورفضاً، ومنه قول حسان بن ثابت:

بِرْجَابَةٍ رَفَضَتْ بِمَا فِي قَفْرِهَا
رَفَضَ الْقَلُوصِ بِرَاكِبٍ مُسْتَعَجِلٍ
ووقعت «وَلَا أَرْضَعُوا» بألف بعد «لا» في المصحف، وكذلك وقعت في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَا ذِي بَعْتَةٍ﴾، قيل: وذلك لخشونة هجاء الأولين. قال الزجاج: وإنما وقعوا في ذلك لأن الفتحة في العبرانية وكثير من الألسنة تكتب ألفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن تمطل حركة اللام فيحدث ألف بين اللام والهمزة التي من «أرضع».

وقوله تعالى: ﴿يَعْمُونَكُمْ الْفِتْنَةَ﴾ أي: يطلبون لكم الفتنة، وقوله: ﴿وَرِيكُ سَعْتُونَ﴾ قال سفيان بن عيينة، والحسن، ومجاهد، وابن زيد: معناه: جواسيس يستمعون الأخبار وينقلونها إليهم، ورجحه الطبري. وقال النقاش: بناء المبالغة يضعف هذا القول. وقال جمهور المفسرين: معناه: وفيكم مطيعون سامعون لهم. وقوله: ﴿وَأَلَّهُ عَلَيْهِ بِالْغَلْبِ﴾ توعدهم ولمن كان من المؤمنين على هذه الصفة.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

في هذه الآية تحقير لهم، وذلك أنه أخبر أنهم قديماً سعوا على الإسلام فأبطل الله سعيهم، ومعنى قوله: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ ما كان من حالهم من وقت هجرة رسول الله ﷺ ورجوعهم عنه في أحد وغيرها، ومعنى ﴿وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ﴾ دبروها ظهراً لبطن. ونظروا في نواحيها وأقسامها، وسعوا بكل حيلة. وقرأ مسلمة بن محارب: ﴿وَقَلَّبُوا لَكَ﴾ بالتخفيف في اللام، و﴿أَمْرُ اللَّهِ﴾: الإسلام ودعوته.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَتَذَن لِي﴾ نزلت في الجذ بن قيس، وذكر أن رسول الله ﷺ لما أمر بالغزو إلى بلاد الروم حرّض الناس فقال للجذ بن قيس: «هل لك العام في جلاذ بني الأصفر؟»، وقال له وللناس: «اغزوا تغنموا بنات الأصفر»، فقال له الجذ بن قيس: ائذن لي في التخلف ولا تفتني بذكر بنات الأصفر، فقد علم قومي أنني لا أملك عن النساء إذا رأيتهن. وذكر ابن إسحق نحو هذا من القول الذي فيه فتور كثير وتخلف في الاعتذار. وأسند الطبري أن رسول الله ﷺ قال: «اغزوا تبوك تغنموا بنات الأصفر» فقال الجذ: ائذن لي ولا تفتني بالنساء، وهذا منزع غير الأول إذا نظر، وهو أشبه بالنفاق والمحادة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن الجذ قال: «ولكنني أعينك بمالي»، وتأول بعض الناس قوله: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ أي: لا تصعب علي حتى أحتاج إلى مواجة

معصيتك ومخالفتك، فسهل أنت علي ودعني غير مجلج. وهذا تأويل حسن واقف مع اللفظ، لكن تظاهرت ما زوي من ذكر بنات الأصفر، وذلك معترض في هذا التأويل. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿وَلَا تَفْتِنِّي﴾ بضم التاء الأولى، قال أبو حاتم: هي لغة بني تميم، والأصفر هو الروم بن عيصو بن إسحق بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وكان أصفر اللون فيقال للروم: بني الأصفر، ومن ذلك قول أبي

سفيان: «أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر»، ومنه قول الشاعر:

ويؤ الأصفر الكرام ملوك الروم
لم يبق منهم مذكور
وذكر النقاش والمهدي أن الأصفر رجل من الحبشة وقع ببلاد الروم فتزوج وأنسل بنات لهز جمال، وهذا ضعيف. وقوله تعالى: ﴿الْأَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ أي في الذي أظهروا الفرار منه بما تبين لك وللمؤمنين من نفاقهم، وصح عندكم من كفرهم، وفسد ما بينكم وبينهم. و﴿سَقَطُوا﴾ عبارة مثبتة عن تمكن وقوعهم، ومنه: «على الخير سقطت»، ثم قال: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ وهذا توسع شديد لهم، أي: هي مآلهم ومصيرهم كيفما تقلبوا في الدنيا

لَقَدْ أَسْعَوْا لِلْفِتْنَةِ مِن قَبْلُ وَكَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَقًّا
حِكْمَةَ الْحَقِّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَرِهُونَ ﴿٤٨﴾
وَمِنْهُمْ مَّن يَقُولُ أَتَذَن لِي وَلَا تَفْتِنِّي الْآلَا فِي الْفِتْنَةِ
سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾
﴿٥٠﴾ إِنَّ نُصَيْبًا حَسَنَةً دَسَّوْهُمْ وَإِنْ نُصَيْبًا
مُصِيبَةً يَقُولُوا أَفَدَأَخَذْنَا أَمْرًا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا
وَهُمْ فَرِحُونَ ﴿٥١﴾ قُل لَّنْ يُصِيبَسَا إِلَّا مَا كَتَبَ
اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾
﴿٥٣﴾ قُلْ هَلْ تَرْتَضُونَ بِنَا إِلَّا أَحَدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَعَن
نَرَبِّصْ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ
أَوْ يَأْتِيَكُمُ بِنَا فَرِيضًا لِّمَا كُنتُمْ تَصْنَعُونَ ﴿٥٤﴾ قُلْ
أَفْتَقَرُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَّنْ يَنْقَلِبَ مِنْكُمْ لَكُمْ كُنُفٌ
قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا سَعَهُمْ أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ
إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ
إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٥٦﴾

١٩٥

فإليها يرجعون، فهي محيطة بهذا الوجه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نُصَيْبًا حَسَنَةً﴾ الآية. أخبر تعالى عن معتقدهم وما هم عليه، والحسنة هنا بحسب الغزوة هي الغنيمة والظفر، والمصيبة الهزم والخيبة، واللفظ عام - بعد ذلك - في كل محبوب ومكروه. ومعنى قوله تعالى: ﴿قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِن قَبْلُ﴾ أي قد حزمنا نحن في تخلفنا ونظرنا لأنفسنا.

وقوله تعالى: ﴿قُل لَّنْ يُصِيبَسَا﴾ الآية. أمر الله عز وجل نبيه في هذه الآية أن يرد على المنافقين ويفسد عليهم فرحهم بأن يعلمهم أن الشيء الذي يعتقدونه مصيبة ليس كما اعتقدوه، بل الجميع مما قد كتبه الله عز وجل للمؤمنين، فلما أن يكون ظفراً وسروراً في الدنيا وإما أن يكون

ذخراً للأخرة. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿قُلْ هَلْ يُصِيبُنَا﴾ ذكره أبو حاتم. وعند ابن جني: وقرأ طلحة بن مصرف، وأعين قاضي الري: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا﴾ بشد الياء الثانية وكسرهما، كذا ذكره أبو الفتح وشرح ذلك، وهو وهم، والله أعلم. قال أبو حاتم: قال عمرو بن شفيق: سمعت أعيان قاضي الري يقرأ: ﴿قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا﴾ النون مشددة، قال أبو حاتم: ولا يجوز ذلك لأن النون لا تدخل مع «لن»، ولو كانت لطلحة بن مصرف لجازت لأنها مع «هل»، قال الله عز وجل: ﴿هَلْ يَدْرِيْنَ كَيْدُكُمْ مَا يَعْطُو﴾. وقوله: ﴿كَتَبَ اللهُ﴾ يحتمل أن يريد ما قضى وقدر، ويحتمل أن يريد ما كتب الله في قرآننا وأنزل علينا من آتانا إما أن نظفر بعدونا وإما أن نستشهد فندخل الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الاحتمال يرجع إلى الأول، وقد ذكرهما الزجاج.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّ اللهُ فُلَيْتَوَكَّلَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ معنائه: مع سعيهم وجدهم إذ لا حول ولا قوة إلا بالله، وهذا قول أكثر العلماء، وهو الصحيح، والذي فعله رسول الله ﷺ مدة عمره، ومنه مظهرته بين درزيين، وتخبط الناس في معنى التوكل في الرزق، فالأظهر والأصح أن الرجل الذي يمكنه التحرف والحلال المضح الذي لا تدخله كراهية ينبغي له أن يمثل منه ما يصونه ويحملة مثل الاحتطاب ونحوه. وقد قرن الله تبارك وتعالى الرزق بالتسبب، ومنه

قوله تعالى: ﴿وَهَزَيْتَ إِلَيْكَ مَجْعَ النَّخْلَةِ سَقَطَ عَلَيْكَ رُطْبًا جَيِّبًا﴾ ومنه قول النبي ﷺ في الطير: ﴿تَغْدُو جِمَاصاً... الحديث، ومنه قوله ﷺ: ﴿قَتَيْدَهَا وَتَوَكَّلْ﴾، ذهب بعض الناس إلى أن الرجل القوي الجلد إذا بلغ من التوكل إلى أن يدخل غاراً أو بيتاً يُجهل أمره فيه، ويبقى في ذكر الله متوكلاً يقول: إن كان بقي لي رزق فسيأتي الله به، وإن كان رزقي قد تمّ ميتاً - إن ذلك حسنٌ بالغ عند قوم. وحدثني أبي رضي الله عنه أنه كان في الحرم رجل ملازم يُخرج من جيبه المرة بعد المرة بطاقة ينظر فيها ثم يصرفها ويبقى على حاله حتى مات في ذلك الموضع، فقرأت البطاقة فإذا فيها مكتوب: ﴿وَأَمْسِرْ لِمَكْرَمَتِكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الطريقة لا يراها جُلُّ أهل العلم، بل ينبغي أن يسعى الرجل لقدر القوت سعياً جميلاً لا يواقع فيه شبهة، فإن تعذر عليه ذلك وخرج إلى حد الاضطراب فحينئذ إن تسامح في السؤال وأكل الميتة وما أمكنه من ذلك فهو له مباح، وإن صبر واحتسب نفسه كان في أعلى رتبة عند قوم. ومن الناس من يرى أنَّ فرضاً عليه إبقاء رمقه. وأما من يختار الإلقاء باليد - والسُّغْيُ ممكن - فما كان هذا قط من خلق الرسول ﷺ ولا الصحابة ولا العلماء، والله سبحانه الموفق للصواب، ومن حُجِّج من يقول بالتوكل حديث النبي ﷺ في قوله:

«يدخل الجنة سبعون ألفاً من أمي بلا حساب، وهم الذين لا يَرْقُونَ ولا يَسْتَرْقُونَ ولا يكتوون ولا يتطببون، وعلى ربهم يتوكلون»، وفي هذا الحديث أن رسول الله ﷺ دعا لِعُكَّاشَةَ بن محصن أن يكون منهم، فقيل: ذلك لأنه عرف منه معداً أنه لذلك، وقال للأخر: سبقك بها عكاشة، وبردت الدعوة، فقيل: ذلك لأنه كان منافقاً، وقيل: بل عرف منه أنه لا يصلح لهذه الدرجة من التوكل.

٥٢ - ٥٣ تفسير قوله عز وجل:

فالمعنى في هذه الآية الرذة على المناققين في معتقدهم في المؤمنين، وإزالة ظنهم أن المؤمنين تنزل بهم مصائب، والإعلام بأنها حسنى كيف تصرفت.

﴿تَرْصُونَ﴾ معناه: تنتظرون، والخُسَيَان: الشهادة والظفر، وقرأ ابن محبصن: ﴿إِلَّا أُخْدَى الْخُسَيْتِينَ﴾ بوصل ألف ﴿إِخْدَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه لغة وليست بالقياس، وهذا نحو قول الشاعر:

يا بالمُغْبِرَةِ رَبِّ أَمْرِ مُغْضِلِ

وقول الآخر:

إِنْ لَمْ أَقَاتِلْ قَالِيَّيْنِي بُرُفَعَا

وقوله: ﴿يَعْدَابِ مِتِّ عِنْدَهُ﴾ يريد الموت بإحداث الأسف، ويحتمل أن يكون توعداً بعذاب الآخرة، وقوله: ﴿أَوْ يَأْيَيْتَا﴾ يريد القتل. وقيل: ﴿يَعْدَابِ مِتِّ عِنْدَهُ﴾ يريد أنواع المصاعب والقوارع. وقوله: ﴿فَرَصَوْنَا إِيَّاكَ﴾

فَلَا تَجِدَكَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ إِنَّمَا رِيَدَ اللَّهُ يُعَذِّبَهُمْ
 فِيهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَفْسُهُمْ وَهُمْ كَيْفُورُونَ ﴿٥٤﴾
 وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِيَّاهُمْ يُبْسِكُمْ وَمَا هُمْ بِسَكْرًا وَلَكِنَّهُمْ
 قَوْمٌ يَفْهَمُونَ ﴿٥٥﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأًا أَوْ مَعْرَبًا
 أَوْ مَدْحَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْحَدُونَ ﴿٥٦﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ لِيُزَكَّ
 فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مَتَاعًا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا
 هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ
 وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ ﴿٥٨﴾ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ
 لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَمِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلُوفَةَ فَلَوْ هُمْ
 فِي الرِّقَابِ وَالْعَنَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ
 فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَمِنْهُمْ
 الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ ذُنَّ قُلْ أَذُنٌ حَرِيرٌ
 لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ
 آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٠﴾

ولو فرضنا أن ذلك بأعماله لم يحتج إلى شفاعه.

وأما أفعال الكافر الفبيحة فإنها تزيد في عذابه، وبذلك تفاضلهم في عذاب جهنم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْفِقُوا﴾ أمر في ضمنه جزاء، وهذا مستمر في كل أمر معه جواب، فالتقدير: إن تنفقوا لن يتقبل منكم، وأما إذا عرّي الأمر من جواب فليس يصبه تضمن الشرط.

٥٤ - ٥٦ - تفسير قوله عز وجل:

يحتمل أن يكون معنى الآية: وما منعهم الله أن تقبل إلا لأجل أنهم كفروا بالله، ف﴿أَنْ﴾ الأولى - على هذا - في وضع خفض نصبها الفعل حين زال الخافض، و﴿أَنْ﴾ الثانية في موضع نصب مفعول من أجله. ويحتمل أن يكون المعنى: وما منعهم الله قبول نفقاتهم إلا لأجل كفرهم، فالأولى - على هذا - في موضع نصب. ويحتمل أن يكون المعنى: وما منعهم قبول نفقاتهم إلا كفرهم، فالثانية في موضع رفع فاعلة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، ونافع - فيما روي عنه -: ﴿أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾، وقرأ الأعرج بخلاف عنه: ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ

مَعَكُمْ مُتْرَبِّصُونَ﴾ وعيد وتهديد. وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾ سببها أن الجد بن قيس حين قال: «اذن لي ولا تفتني» قال: «إني أميئك بمال» فنزلت هذه الآية فيه، وهي عامة بعده. والطنوع والكزة يعمان كل إنفاق. وقرأ ابن وثاب، والأعمش: ﴿أَوْ كَرْهًا﴾ بضم الكاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتصل هنا ذكر أفعال الكافر إذا كانت بزا كصلة القرابة وجبر الكسير وإغاثة المظلوم، هل ينتفع بها أم لا؟ فاختصار القول في ذلك أن في صحيح مسلم عن النبي ﷺ أنه قال:

«إن ثواب الكافر على أفعاله البرة هو في الطعنة يطعمها» ونحو ذلك، فهذا مُنْعَن لا يحتاج معه إلى نظر، وأما أن ينتفع بها في الآخرة فلا دليل، ذلك أن عائشة أم المؤمنين قالت للنبي ﷺ: يا رسول الله، أرأيت عبدالله بن جُدعان، أينفعه ما كان يطعم ويصنع من خير؟ فقال: «لا، إنه لم يقل يوماً: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين». ودليل آخر في قول عمر رضي الله عنه لابنه: «ذاك العاصي بن وائل لا جزاء الله خيراً»، وكان هذا القول بعد موت العاصي، الحديث بطوله، ودليل ثالث في حديث حكيم بن حزام على أحد الثَّوَابِيْن، أعني في قول النبي ﷺ: «أسلمت على ما سلف لك من خير»، ولا حجة في أمر أبي طالب وكونه في ضحاح من نار لأن ذلك إنما هو بشفاعة محمد ﷺ، وبأنه وجده في غمرة من النار فأخرجه،

نَفَقَاتِهِمْ﴾ بالثاء من فوق وإفراد النفقة، وقرأ الأعمش: ﴿أَنْ يُقْبَلَ مِنْهُمْ صَدَقَاتُهُمْ﴾، وقرأت فرقة ﴿أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ﴾ بالنون ونصب النفقة.

﴿كَسَالَى﴾: جمع «كسلان». و«كسلان» إذا كانت مؤنثة «كسلى» لا ينصرف بوجه، وإن كانت مؤنثة «كسلانة» فهو ينصرف في النكرة.

ثم أخبر عنهم تبارك وتعالى أنهم لا ينفقون نفقة إلا على كراهية، إذ لا يقصدون بها وجه الله ولا محبة المؤمنين، فلم يبق إلا فقد المال وهو من مكارههم لا محالة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَجِدَكَ أَمْوَالَهُمْ﴾ الآية. حقر هذا اللفظ شأن المنافقين وعلل إعطاء الله لهم الأموال والأولاد بإرادته تعذيبهم بها،

واختلف في وجه التعذيب، فقال قتادة: في الكلام تقديم وتأخير، فالمعنى: فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم في الحياة الدنيا، إنما يريد الله ليعذبهم بها في الآخرة. وقال الحسن: الوجه في التعذيب أنه بما ألزمهم فيها من أداء الزكاة والنفقة في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالضمير في قوله: ﴿يَا﴾ عائد - في هذا القول - على الأموال فقط. وقال ابن زيد وغيره: التعذيب هو مصائب الدنيا، ورزاياهم هي لهم عذاب إذ لا يؤجرون عليها، وهذا القول وإن كان يستغرق قول الحسن فإن قول الحسن يتقوى تخصيصه بأن تعذيبهم بإلزام الشريعة أعظم من تعذيبهم بسائر الرزايا، وذلك لاقتران الذلة والغلبة بأوامر الشريعة لهم.

وقوله: ﴿وَتَزْهَقَ أَنفُسَهُمْ﴾ يحتمل أن يريد: ويموتون على الكفر، ويحتمل أن يريد: وتزهق أنفسهم من شدة التعذيب الذي ينالهم. وقوله: ﴿وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ جملة في موضع الحال على التأويل الأول، وليس يلزم ذلك على التأويل الثاني.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْلِقُونَ﴾ الآية. أخبر الله تعالى عن المنافقين أنهم يحلقون أنهم من المؤمنين في الدين والشريعة، ثم أخبر تعالى عنهم - على الجملة لا على التعيين - أنهم ليسوا من المؤمنين، وإنما هم يفترون منهم فيظهورون الإيمان وهم يبطنون النفاق، والفرق: الخوف، والفرقة: الجبان، وفي المثل: «فَرَّقَ خَيْرٌ مِنْ حُبَيْنِ».

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ تفسير قوله عز وجل: الْمَلْجَأُ: من لجأ يلجأ إذا أوى واعتصم. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْ مَكْرَهَاتٍ﴾ بفتح الميم، وقرأ سعيد بن عبد الرحمن بن عوف: ﴿أَوْ مَغَارَاتٍ﴾ بضم الميم، وهي الغيران في أعراض الجبال، فَتَنَحَّ الميم من: «غار الشيء» إذا دخل، كما تقول: «غارت العين» إذا دخلت في الحجاج، وضم الميم من: «أغار الشيء غيظه» إذا أدخله، فهذا وجه من اشتقاق اللفظة. وقيل: إن العرب تقول: «غار الرجل وأغار» بمعنى واحد، أي دخل. قال الزجاج: إذا دخل الغور، فيحتمل أن تكون اللفظة أيضاً من هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح في قراءة ضم الميم أن تكون من قولهم: «حبل مغار» أي مفتول، ثم يستعار ذلك في الأمر المحكم المبرم فيجاء التأويل على هذا: لو يجدون غصرة أو أمورا مرتبطة مشددة تعصمهم منكم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَدَّخَلًا لَوْلَا إِيَّاكَ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿مَدَّخَلًا﴾ أصله مُفْتَعَل، وهو بناء تأكيد ومبالغة، ومعناه: الشرب والثَّقُّ في الأرض. وبما ذكرناه في «الملجأ والمغارات والمدخل» فسّر ابن عباس رضي الله عنهما. وقال الزجاج: المدَّخَلُ معناه: قوم يدخلونهم في جملتهم. وقرأ مسلمة بن محارب، والحسن، وابن أبي إسحق، وابن محيصن، وابن كثير بخلاف عنه: ﴿أَوْ مَدَّخَلًا﴾ فهذا من دَخَلَ، وقرأ قتادة، وعيسى بن

عمر، والأعمش: ﴿أَوْ مَدَّخَلًا﴾ بتشديدهما، وقرأ أبي بن كعب: ﴿مُدَّخَلًا﴾ بنون، قال أبو الفتح: هذا كقول الشاعر:

ولا يدي في حميت السمن تندخل
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقال أبو حاتم: قراءة أبي بن كعب: ﴿مُدَّخَلًا﴾ بناء مفتوحة، وروي عن الأعمش، وعيسى: ﴿مُدَّخَلًا﴾ بضم الميم فهو من أدخل. وقرأ الناس: ﴿لَوْلَا﴾، وقرأ جد أبي عبيدة بن قمرل: ﴿لَوْلَا﴾ من الموالاة، وأنكرها سعيد بن مسلم وقال: أظنها: ﴿لَوْلَا﴾ بمعنى «لجئوا». وقرأ جمهور الناس: ﴿يَجْمَعُونَ﴾، ومعناه: يسرعون مصتمين غير متئين، ومنه قول مهلهل:

لَقَدْ جَمَعَتْ جَمَاحاً فِي دِمَائِهِمْ
حَتَّى رَأَيْتُ ذَوِي أَحْسَابِهِمْ حَمْدُوا
وقرأ أنس بن مالك: ﴿يَجْمَعُونَ﴾ ومعناه: يهربون، ومنه قولهم في حديث الرجم: «قَلَمًا أَذْلَقْتَهُ الْحِجَارَةَ جَمْعًا».

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْتَمِزُكَ﴾ الآية. الضمير في قوله: ﴿وَمِنْهُمْ﴾ عائد على المنافقين، وأسند الطبري إلى أبي سعيد الخدري أنه قال: جاء ابن ذي الحُوَيْصِرَةَ التميمي ورسول الله ﷺ يقسم قسماً فقال: «اعدل يا محمد» الحديث المشهور بطوله، وفيه: قال أبو سعيد: فنزلت في ذلك ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْتَمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾. وروى داود بن أبي عاصم أن النبي ﷺ أتى بصدقة فقسّمها ووراءه رجل من الأنصار

فقال: «ما هذا بالعدل» فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه نزعة منافق، وكذلك روي من غير طريق أن الآية نزلت بسبب كلام المنافقين إذ لم يعطوا بحسب شطط آمالهم.

﴿يَلْمِزُكَ﴾ معناه: يعيبك ويأخذ منك في الغيبة، ومنه قول الشاعر: إِذَا لَقَيْتُكَ تُبْدِي لِي مَكَاشِرَةَ وَإِنْ أَعْيَبْتُ فَأَنْتَ الْهَامِيزُ الْلُجُزُ ومنه قول رؤبة:

.....
فِي ظِلِّ عَضْرِي بَاطِلِي وَلَمْزِي
والهمز أيضاً في نحو ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ لِيَكُلَّ هَمَزُورٌ لَمَزُورٌ﴾، وقيل لبعض العرب: أنهمز الفأرة؟ فقال: إنها تهمزها الهرة، قال أبو علي: فجعل الأكل همزاً، وهذه استعارة كما استعار حسان بن ثابت العرث في قوله:

.....
وَتَضْيِغُ عَزْرَتِي مِنْ لُحُومِ الْعَوَافِلِ
تركيباً على استعارة الأكل في الغيبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يجعل الأعرابي الهمز الأكل، وإنما أراد ضربها إياها بالنايب والظفر. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بكسر الميم، وقرأ ابن كثير فيما روى عنه حماد بن سلمة ﴿يَلْمِزُكَ﴾ بضم الميم، وهي قراءة أهل مكة وقراءة الحسن، وأبي رجاء، وغيرهم. وقرأ الأعمش: ﴿يَلْمِزُكَ﴾ وروى أيضاً حماد بن سلمة عن ابن كثير: ﴿يَلْمِزُكَ﴾،

وهي مفاعلة من واحد لأنه فعل لم يقع من النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾ الآية. وصف للحال التي ينبغي أن يكون عليها المستقيمون. يقول تعالى: «ولو أن هؤلاء المنافقين رضوا قسمة الله الرزق لهم وما أعطاهم على يدي رسوله، ورجوا أنفسهم فضل الله ورسوله، وأتروا بالرغبة إلى الله، لكان خيراً لهم وأفضل مما هم فيه». وحذف الجواب من الآية للدلالة ظاهر الكلام عليه، وذلك من فصيح الكلام وإيجازه.

① تفسير قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة تقتضي وقوف الصدقات على الثمانية الأصناف، وإنما اختلف في صورة القسمة - فقال مالك وغيره: ذلك على قدر اجتهاد الإمام وبحسب أهل الحاجة، وقال الشافعي رحمه الله: هي ثمانية أقسام على ثمانية أصناف لا يخل بواحد منها إلا أن المؤلفه انقطعوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقول صاحب هذا القول: إنه لا يجزي المتصدق والقاسم من كل صنف أقل من ثلاثة.

وأما الفقير والمسكين - فقال الأصمعي، وغيره: الفقير أبلغ فاقة، وقال غيرهم: المسكين أبلغ فاقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا طريق إلى هذا الاختلاف ولا إلى الترجيح إلا النظر في شواهد القرآن، والنظر في كلام العرب وأشعارها، فمن حجة الأوليين قول الله

عَزْرُ وَجَلُّ: ﴿أَمَّا السَّائِغَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ واعترض هذا الشاهد بوجوه منها: أن يكون سماعهم مساكين بالإضافة إلى الغاصب وإن كانوا أغنياء على جهة الشفاعة، كما تقول في جماعة: «تظلم مساكين لا حيلة لهم»، وربما كانوا مياسير. ومنها أنه قرئ ﴿لِمَسَاكِينٍ﴾ بشد السين بمعنى: دباغين يعملون المسوك، قاله النقاش وغيره. ومنها أن تكون إضافتها إليهم ليست بالإضافة بل لما كانوا عاملين بها، فهي كما تقول: سرج الفرس، وباب الدار. ومن حجة الآخرين قول الراعي:

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلْوِيَّتُهُ
وَفَقُّ الْعِيَالِ فَلَمْ يُشْرِكْ لَهُ سِبْدُ
وقد اعترض هذا الشاهد بأنه إنما سماه فقيراً بعد أن صار لا حلوبة له، وإنما ذكر الحلوبة بأنها كانت، وهذا اعتراض يرده معنى القصيدة ومقصد الشاعر بأنه إنما يصف سعاية أتت على مال الحي بأجمعه فقال: أما الفقير فاستؤصل ماله فكيف بالغني مع هذه الحالة؟ وذهب من يقول إن المسكين أبلغ فاقة إلى أنه مشتق من السكون، وأن الفقير مشتق من فقار الظهر كأنه أصيب فقاره. وذهب من يقول إن الفقير أبلغ فاقة إلى أنه مشتق من فقرت البئر إذا نزعت جميع ما فيها، وأن المسكين من السكن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومع هذا الاختلاف فإنهما صنفان يعمهما الإقلال والفاقة، فينبغي أن نبحث عن الوجه الذي من أجله

جعلهما الله اثنين والمعنى فيهما واحد، وقد اضطرب الناس في هذا، فقال الضحاك بن مزاحم: الفقراء هم من المهاجرين، والمساكين من لم يهاجر، وقال النخعي نحوه، قال سفيان: لا يعطى فقراء الأعراب منها شيئاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمساكين: السائل يعطى في المدينة وغيرها، وهذا القول هو حكاية الحال وقت نزول الآية. وأما منذ زالت الهجرة فاستوى الناس، وتعطى الزكاة لكل متصف بفقير، وقال عكرمة: الفقراء من المسلمين، والمساكين من أهل الذمة، ولا تقولوا لفقراء المسلمين: مساكين، وقال الشافعي في كتاب ابن المنذر: الفقير: من لا مال له ولا حرفة سائلاً كان أو متعافياً، والمساكين: الذي له حرفة أو مال ولكن لا يغيثه ذلك سائلاً كان أو غير سائل، وقال قتادة بن دعامة: الفقير: الزمين المحتاج، والمساكين: الصحيح المحتاج، وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والزهري، وابن زيد، وجابر بن زيد، ومحمد بن مسلمة: المساكين: الذين يسعون ويسألون، والفقراء هم الذين يتصاونون، وهذا القول الأخير - إذا لخص وحُرِّد - أحسن ما يقال في هذا. وتحريره أن الفقير هو الذي لا مال له إلا أنه لم يذل ولا يذل وجهه، وذلك إما لتعفف مفرط وإما ليُلقَى تكون له كالحلوبة وما أشبهها، والمساكين هو الذي يفتقر بفقره تدلل وخضوع وسؤال، فهذه هي

المسكنة، فعلى هذا كل مسكين فقير وليس كل فقير مسكيناً، ويُقَوَّى هذا أن الله تعالى قد وصف بني إسرائيل بالمسكنة وقرنها بالذلة مع غناهم، وإذا تأملت ما قلناه بان أنهما صنفان موجودان في المسلمين، ويُقَوَّى هذا قوله تبارك وتعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْكًا فِي الْأَرْضِ يَحْتَسِبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاةَ مِنْكَ النَّعْتِ﴾، وقيل لأعرابي: أفقير أنت؟ فقال: إني والله مسكين، وقال النبي ﷺ: «ليس المسكين بهذا الطَّوَّافِ الذي ترؤه اللقمة واللقمتان، ولكن المسكين هو الذي لا يجد غنى يغيثه، ولا يُفْطِنُ له فيتصدَّق عليه، اقرؤوا إن شئتم ﴿لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْثَارًا﴾»، فدلَّ هذا الحديث على أن المسكين في اللغة هو الطَّوَّافُ، وجرى تنبيه النبي ﷺ في هذا الحديث على المتصاون مَجْرَى تقديم الفقراء في الآية لمعنى الاهتمام، إذ هم بحيث إن لم يَهْتَمَّ بهم هلكوا، والمساكين يُلْحَقُ ويُذَكَّرُ بنفسه.

وأما العامل فهو الرجل الذي يستنيه الإمام في السعي على الناس وجمع صدقاتهم، وكل من يصرف من عون لا يستغني عنه فهو من العاملين لأنه يحشر الناس على الساعي، وقال الضحاك: للعاملين ثمن ما عملوا على قسمة القرآن، وقال الجمهور: لهم قدر تعبهم ومؤنته، قاله مالك، والشافعي في كتاب ابن المنذر، فإن تجاوز ذلك ثمن الصدقة فاختلف - فقيل: يتم

لهم ذلك من سائر الأنصبا، وقيل: بل يتم لهم ذلك من خمس الغنيمة. واختلف إذا عمل في الصدقات هاشمي - فقيل: يعطى منها عماله، وقيل: بل يعطاها من الخمس، ولا يجوز للعامل قبول الهدية والمصانعة ممن يسعى عليه، وإن فعل ذلك رُدَّ في بيت المال كما فعل النبي ﷺ بابن النسيبة حين استعمله على الصدقة فقال: «هذا لكم وهذا أودي إلي»، فقال النبي ﷺ: «هلا قدمت في بيت أبيك وأمك حتى تعلم ما يهدى لك؟»، وأخذ الجميع منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتأمل عمالة الساعي هل يأخذها قبل العمل أو بعده؟ وهل هي إجارة أو هي جعل؟ وهل العمل معلوم أو هو يتبع وإنما يعرف قدره بعد الفراغ؟ وأما المؤلفه قلوبهم فكانوا صنفين: مسلمين وكافرين مُسَاتِرِينَ، قال يحيى بن كثير: كان منهم أبو سفيان بن حرب بن أمية، والحارث بن هشام، وصفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، وحكيم بن حزام، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعيينة، والأقرع، ومالك بن عوف، والعباس بن مرداس، والعلاء بن جارية الثقفي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأكثر هؤلاء من الطلقاء الذين ظاهر أمرهم يوم الفتح الكفر، ثم بقوا مُظْهَرِينَ الإسلام حتى وثقه الاستتلاف في أكثرهم، واستتلافهم إنما كان لِجُلْبِ إلى الإسلام منفعة أو تُدْفَع عنه مَضْرَةٌ. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحسن،

والشعبي، وجماعة من أهل العلم: انقطع هذا الصنف بعزة الإسلام وظهوره، وهذا مشهور مذهب مالك رحمه الله. قال عبد الوهاب: إن احتياج إليهم في بعض الأوقات أعطوا من الصدقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول عمر رضي الله عنه - عندي - إنما هو لمُعَيَّنِينَ، فإنه قال لأبي سفيان حين أراد أخذ عطائه القديم: «إنما تأخذ كرجل من المسلمين، فإن الله قد أغنى عنك وعن ضربائك»، يريد: في الاستئلاف، وأما أن ينكر عمر الاستئلاف جملةً وفي ثغور الإسلام فبعيد. وقال كثير من أهل العلم: المؤلفون قلوبهم موجودون إلى يوم القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا تأملت الثغور وجدت فيها الحاجة إلى الاستئلاف. وقال الزهري: المؤلفون: من أسلم من يهودي أو نصراني وإن كان غنياً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد: لتبسط نفسه ويحبب دين الإسلام إليه.

وأما الرقاب فقال ابن عباس، والحسن، ومالك، وغيرهم: هو ابتداء العتق وعون المُكَاتَبِ بما يأتي على حريته، واخْتُلِفَ هل يعان بها المُكَاتَبِ في أثناء نجومه بالمنع والإباحة، واخْتُلِفَ على القول بإباحة ذلك إن عجز، فقيل: بُرَّةٌ ذلك من عند التَّيْدِ، وقيل: يمضي لأنه كان يوم دفعه بوجه مترتب. قال الشافعي: معنى «رَقَابِ» في المُكَاتَبِينَ، ولا يبدأ منها عتق عبد،

وقاله اللَّيْثُ، وإبراهيم النَّخَعِي، وابن جُبَيْرٍ، وذلك أن هذه الأصناف إنما تُعْطَى إما لمنفعة المسلمين أو لحاجة في أنفسها، والعبد ليس له واحدة من هاتين العِلَّتَيْنِ، والمُكَاتَبِ قد صار من ذي الحاجة. وقال الزهري: سهم الرقاب نصفان، نصف للمُكَاتَبِينَ ونصف يعتق منه رقابٌ مسلمون مِنَّ صَلَى، ويفدى منه أسارى المسلمين. وَمَنَعَ ذلك غيره.

وأما الغارم فهو رجل يركبه دينٌ في غير معصية ولا سفه، قال العلماء: فهذا يُؤَدَى عنه دينه وإن كانت له عروض تُقِيم رَمَقَه وتكفي عياله، وكذلك الرجل يتحمل بحمالة في ديابٍ أو إصلاح بين القبائل، ونحو هذا، وهو أحد الخمسة الذين قال فيهم رسول الله ﷺ: «لَا تَجُلُ الصَّدَقَةُ لِفَنِي إِلَّا لِخَمْسَةٍ، لِعَامِلٍ عَلَيْهَا، أَوْ غَارِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، أَوْ رَجُلٍ تَحْمِلُ بِحِمَالَةٍ، أَوْ مِنْ أُهْدِيَتْ لَهُ، أَوْ مِنْ اشْتَرَاهَا بِمَالِهِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد سقط المؤلفون من هذا الحديث، ولا يؤدي من الصدقة دين ميت، ولا يعطى منها من عليه كفارة ونحو ذلك من حقوق الله، وإنما الغارم من عليه دين يسجن فيه، وفيه قيل في مذهبنا وغيره: يُؤَدَى فَيُنَّ السَّمِيَّتِ مِنَ الصَّدَقَاتِ، قال أبو ثور.

وأما في سبيل الله فهو المجاهد، يجوز أن يأخذ من الصدقة لينفقها في غزوه وإن كان غنياً، قال ابن حبيب: ولا يُعْطَى منها الحاج إلا أن يكون فقيراً فيعطى لفقره، وقال ابن

عباس، وابن عمر، وأحمد، وإسحاق: يعطى منها الحاج وإن كان غنياً، والحج سبيل الله، ولا يعطى منها في بناء مسجد ولا قنطرة ولا شراء مصحف ونحو هذا.

وأما ابن السبيل فهو الرجل في الغربة والسرير يُعَدِّم، فإنه يعطى من الزكاة وإن كان غنياً في بلده، وسُمِّيَ المسافر ابن سبيل لملازمته السبيل، كما يقال للطائر: «ابن ماء» لملازمته له، ومنه عندي قولهم: «ابن جلا»، وقد قيل فيه غير هذا، ومنه قولهم: «بنو الحرب وبنو المجد».

ولا يعطى بنو هاشم من الصدقة المفروضة، قال ابن الماجشون، ومطرف، وأصْبَغُ، وابن حبيب: ولا من التطوع، ولا يعطى مواليتهم لأن مولى القوم منهم. وقال ابن القاسم: يُعْطَى بنو هاشم من صدقة التطوع ويعطى مواليتهم من الصدقتين، ومن سأل الصدقة وقال إنه فقير؟ فقالت فرقة: يعطى دون أن يكلف بيته على فقره، بخلاف حقوق الأدميين يُدْعَى معها الفقير فإنه يُكَلِّفُ الْبَيْتَةَ لأنها حقوق الناس يؤخذ لها بالأحوط، وأيضاً فالتناس إذا تعلق بهم حقوق لأدميين محمولون على الغنى حتى يثبت العدم، ويظهر ذلك من قوله تعالى: «وَإِنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ»، أي إن وَكَّعَ كَيْفَطِي هذا أن الأصل الغنى، فإن وقع ذو عسرة فنظرة. وقالت فرقة: الرجل الصحيح الذي لا يعلم فقره لا يُعْطَى إلا أن يعلم فقره. وأما إن ادَّعى أنه غارم أو مُكَاتَبِ أو ابن سبيل أو في سبيل الله أو نحو ذلك مما لم يُعْلم منه فلا

يُغْطَى إِلَّا بَيْتَهُ قَوْلًا وَاحِدًا، وقد قيل في الغارم: تباع عروضه وجميع ما يملك ثم يعطى بالفقر. ويُعطى الرجل قرابته الفقراء، وهم أحق من غيرهم، فإن كان قريبه غائباً في موضع تقصر إليه الصلاة فجاره الفقير أولى، وإن كان في غيبة لا تقصر إليه الصلاة فليل: هو أولى من الجار الفقير، وقيل: الجار أولى، ويُعطى الرجل قرابته الذين لا تلزمه نفقتهم، وتعطى المرأة زوجها، وقال بعض الناس: ما لم ينفق ذلك عليها، ويعطى الرجل زوجته إذا كانت من الغارمين، واختلف في ولاء الذي يُعْتَقُ من الصدقة - فقال مالك: ولاؤه لجماعة المسلمين، وقال أبو عبيد: ولاؤه للمُعْتِقِ، وقال عبيد الله بن الحسن: يجعل ماله في بيت الصدقات، وقال الحسن، وأحمد، وإسحق: ويعتق من ماله رقاب. وإذا كان لرجل على مُعْسِرٍ دينٌ، فليل: يتركه له ويقطع ذلك من صدقته، وقيل: لا يجوز ذلك جملة، وقيل: إن كان ممن لو رفعه للحاكم أمكن أن يؤديه جاز ذلك، وإلا لم يجز لأنه قد توفي.

وأما السبيل فهو الذي قدمنا ذكره، يُغْطَى الرجل الغازي وإن كان غنياً، وقال أصحاب الرأي: لا يُعْطَى الغازي في سبيل الله إلا أن يكون منقطعاً به. قال ابن المنذر: وهذا خلاف ظاهر القرآن وحديث رسول الله ﷺ، أما القرآن فقوله تعالى: ﴿وَرَفَّ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وأما الحديث فقوله: «إِلَّا لخمسة، لعامل عليها، أو غاز في سبيل الله». وأما

صورة التفريق - فقال مالك وغيره: على قدر الحاجة ونظر الإمام، يضعها في أي صنف رأى، وكذلك المتصدق، قاله حذيفة بن اليمان، وسعيد بن جبيرة، وإبراهيم، وأبو العالية. قال الطبري: وقال بعض المتأخرين: إذا قسم المتصدق قسم في ستة أصناف، لأنه ليس ثم عامل، ولأن المؤلف قد انقطعوا، فإن قسم الإمام ففي سبعة أصناف. وقال الشافعي، وعكرمة، والزهري: هي ثمانية أقسام لثمانية أصناف لا يخل بواحد منها، واحتج الشافعي، بقول رسول الله ﷺ للرجل الذي سأله: «إن الله تعالى لم يرخص في الصدقات بقسم نبي ولا غيره حتى قسمها بنفسه فجعلها ثمانية أقسام لثمانية أصناف، فإن كنت واحداً منها أعطيتك».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحديث في مصنف أبي داود. وقال أبو ثور: إذا قسمها الإمام لم يخل بصنف منها، وإن أعطى الرجل صدقته صنفاً دون صنف أجزاء ذلك. وقال النخعي: إذا كان المال كثيراً قسّم على الأصناف كلها، وإذا كان قليلاً أعطاه صنفاً واحداً. وقالت فرقة من العلماء: من له خمسون درهماً فلا يعطى من الزكاة، وقال الحسن، وأبو عبيد: لا يعطى من له أوقية وهي أربعون درهماً، قال الحسن: وهو غني. وقال الشافعي: قد يكون الرجل الذي لا قدر له غنياً بالدرهم مع سغيه وتحيله، وقد يكون الرجل له القدر والعيال ضعيف النفس والحيلة فلا تغنيه آلاف. وقال

أبو حنيفة: لا يأخذ الصدقة من له مائتا درهم، ومن كان له أقل فلا بأس أن يأخذ، قال سفيان الثوري: لا يُدْفَعُ إلى أحد من الزكاة أكثر من خمسين درهماً إلا أن يكون غارماً، وقال أصحاب الرأي: إن أعطى ألفاً وهو محتاج أجراً ذلك. وقال أبو ثور: يعطى من الصدقة حتى يغني ويحول عنه اسم المسكنة، ولا بأس أن يعطى الفقير الألف وأكثر من ذلك. وقال ابن المنذر: أجمع أكثر من يُحفظ عنه من أهل العلم أن لِمَنْ له دار وخادم لا يستغني عنهما أن يأخذ من الزكاة، وللمعطي أن يضمن الدار أو الخادم فضلة عمن يحتاج إليه منهما جاز له الأخذ، وإلا لم يجز. وأما الرجل يعطى الآخر يظنه فقيراً فإذا هو غني، فإنه إن كان تعود ذلك أخذها منه، فإن فاتت نُظِرَ، فإن كان الأخذ غنياً وأخذها مع علمه بأنها لا تحل له ضمنها على كل وجه، وإن كان لم يُغْزِ بل اعتقد أنها تجوز له، أو لم يتحقق مقصد المعطي نُظِرَ، فإن كان ليسها أو أكلها ضمنها، وإن كانت تلفت لم يضمن. واختلف في إجزائها عن المتصدق - فقال الحسن، وأبو عبيدة: تجزيه، وقال الثوري، وغيره: لا تجزيه. وأهل بلد الصدقة أحق بها إلا أن تفضل فضلة فتنتقل إلى غيرها بحسب نظر الإمام، قال ابن حبيب في «الواضحة»: أما المؤلفات فانقطع سهمهم، وأما سبيل الله فلا بأس أن يعطى الإمام الغزاة إذا قل الغنيء في بيت المال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الشرط فيه نظر، قال ابن حبيب: وينبغي للإمام أن يأمر السعاة بتفريقها بالمواضع التي جُيبت منها، ولا يحمل منها شيء إلى الإمام إلا أن يرى ذلك لحاجة أو فاقة نزلت بقوم. قاله مالك. ومن له مزرعة أو شيء في ثمنه إذا باعه ما يغنيه لم يجز له أخذ الصدقة. وهذه جُملة من فقه الآية كافية على شرطنا في الإيجاز، والله الموفق برحمته.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيضَةً يَرْزُقُ اللَّهُ﴾ أي مُوجِبَةً مُحَدَّدَةً، وهو مأخوذ من الفرض في الشيء بمعنى الحز والقطع لثبوت ذلك ودوامه شبه ما يفرض من الأحكام. ونصب ﴿فَرِيضَةً﴾ على المصدر، ثم وصف نفسه تبارك وتعالى بصفتين مناسبتين لحكم هذه الآية لأنه صدر عن علم منه بخلقه، وحكمة منه في القسمة بينهم.

٦١ - ٦٢ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَرِيضَتَهُمْ﴾ عائد على المنافقين، و﴿يُؤَدُّونَ﴾ لفظ يعم جميع ما كانوا يفعلونه ويقولونه في جهة رسول الله ﷺ من الأذى، وخص - بعد ذلك - من قولهم: ﴿هُوَ أَدُّهُ﴾، وروي أن قائل هذه اللفظة هو نبتل بن الحارث وكان من مَرَدَةِ المنافقين، وهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: ﴿مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الشَّيْطَانِ فَلْيَنْظُرْ إِلَى نَبْتَلِ بْنِ الْحَارِثِ﴾، وكان نائر الرأس، منتفش الشعر، أحمر العينين، أسفَع الخدين، مشوَّهاً. وروي عن الحسن البصري، ومجاهد أنهما تأولا أنهم

أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أَدُّهُ﴾ أنه يسمع منا معاذيرنا وتنصلنا ويقبله، أي: فنحن لا نبالي عن آذاه، ولا الوقوع فيه إذ هو سماع لكل ما يقال من اعتذار ونحوه، فهذا تنقص بقله الحزماء والانسداد، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة معه أنهم أرادوا بقولهم: ﴿هُوَ أَدُّهُ﴾ أنه يسمع كل ما ينقل إليه عنا ويصني إليه ويقبله، فهذا تشكك منه ووصف بأنه تسوغ عنده الأباطيل والثمام.

ومعنى ﴿أَدُّهُ﴾: سماع، ويسمى الرجل السَّماع لكل قول أدُّنا إذ كثير منه استعمال الأذن، فهذه تسمية الشيء بالشيء إذا كان منه بسبب، كما يقال للرَّيْبَةُ: عين، وكما يقال للسمينة من الإبل التي قد بزل نابها: ناب، وقيل: معنى الكلام: ذو أذن، أي: ذو سماع، وقيل: إن قوله تعالى: ﴿أَدُّهُ﴾ مشتق من قولهم: ﴿أَذِنَ لِلشَّيْءِ﴾ إذا استمع، كما قال الشاعر وهو عدي بن زيد:

أَيْهَا الْقَلْبُ تَعَلَّلْ بَدَدَنْ
إِنْ هَمِّي فِي سَمَاعٍ وَأَذَنْ
وفي التنزيل: ﴿وَأَذَنْ لِرَبِّهَا وَحَقَّتْ﴾، ومن هذا قول النبي ﷺ: ﴿مَا أَدَّنَ اللَّهُ لشيءٍ كَأَذْنِهِ لِنَبِيٍّ يَتَغْنَى بِالْقُرْآنِ﴾، ومن هذا قول الشاعر:

فِي سَمَاعٍ يَأْدُنُ الشَّيْخُ لَهُ
وَحَدِيثٍ مِثْلَ مَا ذِي مُشَارٍ

يَحْفَوتُ بِاللَّهِ لَكُمْ لِرَضْوَتِكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحْسَنُ
أَنْ يُرَضُّوا إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦١﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ
مَنْ يُكَادِرُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يَكْفُرُ لِنَفْسِهِ خَلِيدًا فِيهَا
ذَلِكَ الْخَيْرِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٦٢﴾ يَحْذَرُ الْمُتَّقُونَ
أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَزِرُوا
إِلَى اللَّهِ مَخْرَجٌ مَا تَحْذَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ
لِيَقُولُوا إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ يَا آلِهَةَ وَآلِدِي
وَرَسُولِي، كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٤﴾ لَآتِيذِرُوا قَدِ كَفَرْتُمْ
بِمَدَائِنِكُمْ إِنْ تَعَفَّ مِنْهَا فَرَادَ غَضَبٌ عَلَيْكُمْ
يَأْتِيهِمْ كَأَنَّهُمْ مَخْرِبُونَ ﴿٦٥﴾ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقِنَاتُ
بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ
عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيحٌ
رَسُولُهُ إِنَّ الْمُتَّقِينَ هُمْ الْمُنْتَفِقُونَ ﴿٦٦﴾ وَعَدَّ اللَّهُ
الْمُنْتَفِقِينَ وَالْمُنْفِقَاتُ وَالْكُفَّارَاتُ رَجِهْتُمْ خَالِدِينَ
فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعْنَةُ اللَّهِ لَالِهَتِهِمْ وَعَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٦٧﴾

ومنه قول الآخر:

ضَمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ
وَإِنْ ذُكِرَتْ بِسُوءٍ عِنْدَهُمْ أَدُّتُوا
وقرأ نافع: ﴿أَذْنُ﴾ بسكون الذال
فيهما، وقرأ الباقون: ﴿أَذْنُ﴾ بضم
الذال فيهما، وكلهم قرأ بالإضافة إلى
﴿خَيْرٍ﴾ إلا ما روي عن عاصم،
وقرأ الحسن بن أبي الحسن،
ومجاهد، وعيسى - بخلاف - ﴿قُلْ
أَذْنُ خَيْرٌ﴾ برفع ﴿خَيْرٍ﴾ وتنوين
﴿أَذْنُ﴾، وهذا يجري مع تأويل
الحسن الذي ذكرناه، أي: من يقبل
معاذيركم خير لكم، ورويت هذه
القراءة عن عاصم، ومعنى ﴿أَذْنُ
خَيْرٍ﴾ على الإضافة، أي سماع خير
وحق.

﴿وَيُؤَيِّنُ بِاللَّهِ﴾ معناه: يصدق بالله
﴿وَيُؤَيِّنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: معناه:
ويصدق المؤمنين، واللام زائدة كما

هي في قوله سبحانه: ﴿رِيفَ لَكُمْ﴾، وقال المبرد: هي متعلقة بمصدر مقدر من الفعل كأنه قال: وإيمانه للمؤمنين، أي تصديقه، ويقال: «أمنت لك» بمعنى صدقتك، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعندي أن هذه التي معها اللام في ضمنها باء، فالمعنى: ويصدق للمؤمنين بما يُخبرونه به، وكذلك: وما أنت بمؤمن لنا بما نقوله لك. والله المستعان.

وقرأ جميع السبعة إلا حمزة: ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالرفع عطفاً على ﴿أَنْتَ﴾، وقرأ حمزة وحده: ﴿وَرَحْمَةً﴾ بالخفض عطفاً على ﴿حَايِرٍ﴾، وهي قراءة أبي بن كعب، وعبدالله، والأعمش، وخصص الرحمة للذين آمنوا إذ هم الذين نجوا بالرسول وفاضوا به، ثم أوجب تبارك وتعالى للذين يؤذون رسول الله العذاب الأليم وحتم عليهم به.

وقوله تعالى: ﴿يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ﴾ الآية. ظاهره هذه الآية أن المراد بها جميع المنافقين الذين يحلفون لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بأنهم منهم في الدين، وأنهم معهم في كل أمر وكل حزب، وهم في ذلك يبطنون النفاق ويتربصون الدوائر. وهذا قول جماعة من أهل التأويل. وقد روت فرقة أنها نزلت بسبب رجل من المنافقين قال: «إن كان ما يقول محمد حقاً فأنا شر من الحمر»، فبلغ قوله رسول الله ﷺ فدعاه ووقف على قوله ووبخه،

فحلف مجتهداً أنه ما فعل، فنزلت الآية في ذلك. وقوله: ﴿وَاللَّهُ﴾. مذهب سيويه أنهما جملتان حذف الأولى لدلالة الثانية عليها، والتقدير عنده: والله أحق أن يرضوه، ورسوله أحق أن يرضوه، وهذا كقول الشاعر:

نَحْنُ بِمَا عِنْدَنَا وَأَنْتَ بِمَا عِنْدَكَ
مَدَّ رَاضٍ وَالرَّأْيُ مُخْتَلِفٌ
ومذهب المبرد أن في الكلام تقديماً وتأخيراً، وتقديره: والله أحق أن يرضوه ورسوله. قال: وكانوا يكرهون أن يجمع الرسول مع الله في ضمير، حكاه النقاش عنه، وليس هذا بشيء. وفي مصنف أبي داود أن النبي ﷺ قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى» فجمع في ضمير وقوله ﷺ في الحديث الآخر: «بئس الخطيب أنت» إنما ذلك لأنه وقف على (ومن يعصهما) فأدخل العاصي في الرشد. وقيل: الضمير في ﴿يَرْضَوهُ﴾ عائد على المذكور كما قال رؤبة:

فِيهَا خُطِرَ طَوْرٌ مِّنْ سَوَادٍ وَيَتَلَقَّ
كَأَنَّهُ فِي الْجِلْدِ تَوَلُّعُ الْبَهَقِ
وقوله: ﴿إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ﴾ أي: على قولهم ودعواهم. وقوله: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ الآية. قوله: ﴿أَلَمْ﴾ تقرير ووعيد، وفي مصحف أبي بن كعب ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ على خطاب النبي ﷺ، وهو وعيد لهم. وقرأ الأعرج، والحسن: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ بالتاء، و﴿يُكَادِرُ﴾ معناه: يخالف ويشاق، وهو أن يعطي هذا حده لهذا وهذا حده لهذا، وقال الزجاج: هو أن يكون هذا في حد وهذا في

حد. وقوله: ﴿فَأَنْتَ﴾ مذهب سيويه أنها بدل من الأولى، وهذا معترض بأن الشيء لا يبدل منه حتى يستوفى، والأولى في هذا الموضع لم يأت خبرها بتعد إذ لم يتم جواب الشرط، وتلك الجملة هي الخبر، وأيضاً فإن الفاء تمنع البدل، وأيضاً فهي في معنى آخر غير الأول فيبطل البدل، وإذا تُلِطِفَ للبدل فهو بدل الاشتمال، وقال غير سيويه: هي جردة لتأكيد الأولى، وقالت فرقة من النحاة: هي في موضع خبر ابتداءً تقديره: «فواجب أن له»، وقيل: المعنى: «فله أن له»، وقالت فرقة: هي ابتداءً والخبر مضمرة تقديره: «فأن له نار جهنم واجب»، وهذا مردود لأن الابتداء بلا (أن) لا يجوز مع إضمار الخبر، قاله المبرد، وحكي عن أبي علي الفارسي قول يقرب معناه من معنى القول الثالث من هذه التي ذكرنا لا أقف الآن على لفظه. وجميع القراء على فتح ﴿أَنْ﴾ الثانية، وحكى الطبري عن بعض نحويي البصرة أنه اختار في قراءتها كسر الألف، وذكر أبو عمرو الداني أنها قراءة ابن أبي عبلة، ووجهه في العربية قوي لأن الفاء تقتضي القطع والاستثناف، ولأنه يصلح في موضعها الاسم ويصلح الفعل، وإذا كانت كذلك وجب كسرها.

٣٦٦ - ٣٦٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿يَحْتَدِرُ﴾ خبر عن حال قلوبهم، وحذرهم إنما هو أن تتلى سورة، ومعتقدهم - هل تنزل أم لا - ليس بنص في الآية لكنه ظاهر، فإن حمل على مقتضى نفاقهم

واعقادهم أن ذلك ليس من عند الله فوجه بين، وإن قيل: إنهم يعتقدون نزول ذلك من عند الله وهم يتناقون مع ذلك فهذا كفر عناد. وقال الزجاج وبعض من ذهب إلى التحرز من هذا الاحتمال: معنى ﴿يَحْدَرُ﴾: الأمر وإن كان لفظه لفظ الخبر، كأنه يقول: لِيَحْدَرُ.

وقرأ أبو عمرو وجماعة معه: ﴿أَنْ تَنْزِلَ﴾ ساكنة النون خفيفة الزاي، وقرأ بفتح النون مشددة الزاي الحسن، والأعرج، وعاصم، والأعمش، وعيسى. و﴿أَنْ﴾ من قوله: ﴿أَنْ تَنْزِلَ﴾ مذهب سيبويه أن ﴿يَحْدَرُ﴾ عامل فيها فهي مفعولة، وقال غيره: (حذر) إنما هي من حيثات النفس التي لا تتعدى، مثل (فزح)، وإنما التقدير: يحذر المنافقون من أن تنزل عليهم سورة.

وقوله تعالى: ﴿أَسْتَهْزِئُ﴾ لفظه الأمر ومعناه التهديد، ثم ابتدأ الإخبار عن أنه يخرج لهم إلى حيز الوجود ما يحذرونه، وفعل ذلك تبارك وتعالى في سورة براءة فهي تسمى الفاضحة لأنها فضحت المنافقين. وقال الطبري: كان المنافقون إذا عابوا رسول الله ﷺ وذكروا شيئاً من أمره قالوا: «لعل الله لا يفشي سرتنا»، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يقتضي كفر العناد الذي قلناه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ﴾ الآية. نزلت - على ما ذكر جماعة من المفسرين - في ودعية بن ثابت، وذلك أنه مع قوم من المنافقين كانوا

يسيرون في غزوة تبوك، فقال بعضهم لبعض: هذا يريد أن يفتح قصور الشام ويأخذ حصون بني الأصفر، هيهات هيهات. فوقفهم رسول الله ﷺ على ذلك وقال لهم: قلتم كذا وكذا، فقالوا: «إنما كنا نخوض ونلعب»، يريدون: كنا غير مُجِدِّين. وذكر ابن إسحق أن قوماً منهم تقدموا النبي ﷺ، فقال بعضهم: كأنكم والله غداً في الحبال أسرى لبني الأصفر، إلى نحو هذا من القول، فقال النبي ﷺ: «أفرك القوم فقد احترقوا، وأخبرهم بما قالوا»، ونزلت الآية. وروي أن ودعية ابن ثابت المذكور قال في جماعة من المنافقين: ما رأيت كفرائنا هؤلاء، لا أرغب بطوناً ولا أكثر كذباً ولا أجبن عند اللقاء، فعنفهم رسول الله ﷺ على هذه المقالة فقالوا: إنما كنا نخوض ونلعب، ثم أمره بتقريرهم: ﴿أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَسُولِيُّ كَسَبْتَ سَهْرَهُونَ﴾، وفي ضمن هذا التقرير وعيد، وذكر الطبري عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: رأيت قائل هذه المقالة ودعية متعلقاً بحَقَب ناقة رسول الله ﷺ يماشيا تنكبه وهو يقول: «إنما كنا نخوض ونلعب»، والنبي ﷺ يقول: ﴿أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَسُولِيُّ كَسَبْتَ سَهْرَهُونَ﴾؟ وذكر النقاش أن هذا المتعلق كان عبدالله بن أبي ابن سلول، وذلك خطأ لأنه لم يشهد تبوك.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَسْتَدْرِبُوا﴾ الآية. المعنى: قل لهم يا محمد: «لا تعذبوا» على جهة التوبيخ، كأنه

قال: لا تفعلوا ما لا ينفع، ثم حكم عليهم بالكفر فقال: قل لهم: ﴿كَلَّزْتُمْ بَدَأَ إِيسُكَ﴾ الذي زعمتموه ونطقتم به. وقوله: ﴿عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ﴾ يريد - فيما ذكر المفسرون - رجلاً واحداً، قيل اسمه مخش بن حُمَيْر، قاله ابن إسحق، وقال ابن هشام، ومقاتل: مخشي، وقال خليفة بن خياط في تاريخه: مُخَاشِن بن حُمَيْر، وذكر ابن عبدالبر: مُخَاشِن الحميري، وذكر جميعهم أنه استشهد باليمامة، وكان قد تاب وتسمى عبدالرحمن، فدعا الله أن يستشهد ويجعل أمره فكان ذلك باليمامة، ولم يوجد جسده، وذكر أيضاً ابن عبد البر: مخشي بن حُمَيْر بضم الحاء وفتح الميم وسكون الياء، ولم يتقن القصة. وكان مخشي مع المنافقين الذين قالوا: «إنما كنا نخوض ونلعب»، فقيل: كان منافقاً ثم تاب توبة صحيحة، وقيل: كان مسلماً مخلصاً إلا أنه سمع كلام المنافقين فضحك لهم ولم ينكر عليهم فعفا الله عنه في كلا الوجهين، ثم أوجب العذاب لباقي المنافقين الذين قالوا ما تقدم.

وقرأ جميع السبعة سوى عاصم: ﴿إِنْ يُعْذِرْ عَنْ طَائِفَةٍ﴾ بالياء ﴿تُعَذِّبُ﴾ بالياء، وقرأ الجحدري: ﴿إِنْ يُعْذِرْ﴾ بالياء المفتوحة على تقدير: إن يعف الله، ﴿يُعَذِّبُ﴾ الله، ﴿طَائِفَةٍ﴾ بالنصب. وقرأ عاصم، وزيد بن ثابت، وأبو عبدالرحمن: ﴿إِنْ تَعَفَّ﴾ بالنون ﴿تُعَذِّبُ﴾ بنون الجميع أيضاً، وقرأ

عزَّ وجلَّ. والقَبْضُ هو عن الصدقة وفعل الخير، وقوله تعالى: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَسَيَسِّرُهُمُ﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيه وشريعته فتركهم حين لم يهدم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يُعتبر بالنسيان عن الترك مبالغة إذ أبلغ وجوه التَّرك الوجه الذي يقترون به نسيان، وعلى هذا يجيء ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَسْأَلْ نَفْسَكَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، ثم حكم عليهم عزَّ وجلَّ بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار. وكان قتادة يقول: ﴿فَتَسِيرُهُمْ﴾ أي: من الخير ولم ينسهم من الشر.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَسَيَسِّرُهُمُ﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيه وشريعته فتركهم حين لم يهدم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يُعتبر بالنسيان عن الترك مبالغة إذ أبلغ وجوه التَّرك الوجه الذي يقترون به نسيان، وعلى هذا يجيء ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَسْأَلْ نَفْسَكَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، ثم حكم عليهم عزَّ وجلَّ بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار. وكان قتادة يقول: ﴿فَتَسِيرُهُمْ﴾ أي: من الخير ولم ينسهم من الشر.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَسَيَسِّرُهُمُ﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيه وشريعته فتركهم حين لم يهدم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يُعتبر بالنسيان عن الترك مبالغة إذ أبلغ وجوه التَّرك الوجه الذي يقترون به نسيان، وعلى هذا يجيء ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَسْأَلْ نَفْسَكَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، ثم حكم عليهم عزَّ وجلَّ بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار. وكان قتادة يقول: ﴿فَتَسِيرُهُمْ﴾ أي: من الخير ولم ينسهم من الشر.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَسَيَسِّرُهُمُ﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيه وشريعته فتركهم حين لم يهدم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يُعتبر بالنسيان عن الترك مبالغة إذ أبلغ وجوه التَّرك الوجه الذي يقترون به نسيان، وعلى هذا يجيء ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَسْأَلْ نَفْسَكَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، ثم حكم عليهم عزَّ وجلَّ بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار. وكان قتادة يقول: ﴿فَتَسِيرُهُمْ﴾ أي: من الخير ولم ينسهم من الشر.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَسَيَسِّرُهُمُ﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيه وشريعته فتركهم حين لم يهدم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يُعتبر بالنسيان عن الترك مبالغة إذ أبلغ وجوه التَّرك الوجه الذي يقترون به نسيان، وعلى هذا يجيء ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَسْأَلْ نَفْسَكَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، ثم حكم عليهم عزَّ وجلَّ بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار. وكان قتادة يقول: ﴿فَتَسِيرُهُمْ﴾ أي: من الخير ولم ينسهم من الشر.

وقوله تعالى: ﴿سَأُوا اللَّهَ فَسَيَسِّرُهُمُ﴾ أي: تركوه حين تركوا نبيه وشريعته فتركهم حين لم يهدم ولا كفاهم عذاب النار، وإنما يُعتبر بالنسيان عن الترك مبالغة إذ أبلغ وجوه التَّرك الوجه الذي يقترون به نسيان، وعلى هذا يجيء ﴿وَلَا تَسْأُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾، ﴿وَلَا تَسْأَلْ نَفْسَكَ نَفْسَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾، ثم حكم عليهم عزَّ وجلَّ بالفسق وهو فسوق الكفر المقتضي للخلود في النار. وكان قتادة يقول: ﴿فَتَسِيرُهُمْ﴾ أي: من الخير ولم ينسهم من الشر.

كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَمُوا بِخُلُقَيْهِمَا فَاسْتَمْتَمَ بِخُلُقَيْهِمَا كَمَا اسْتَمْتَمَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخُلُقَيْهِمَا وَخَضَّعُوا كَالَّذِي خَاضُوا أَوْ لَتَيْكَ حِطَّتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٧﴾ الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمٍ نُوْحٍ وَعَادٍ وَتَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَتَيْنَهُمْ مِرْسَاهُمْ بِأَيُّدِنَا فَمَا كَانَ اللَّهُ يَرْبُطَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٦٨﴾ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٩﴾ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتُ حَتَّى تَخْرُجَ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسْكَنٌ طَيِّبٌ فِي حَتَّى تَعْدَنَّ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٧٠﴾

مجاهد: ﴿إِنْ تُغْفَ﴾ بالتاء المضمومة على تقدير: إن تُغف هذه الذنوب ﴿تُعَذَّبُ﴾ بالتاء أيضاً.

٦٧ - ٦٩ - تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

هذا ابتداء إخبار عنهم وحكم من الله تعالى بما تضمنته الآية. فقوله سبحانه: ﴿بَعْضُهُمْ رِبَا بَعْضٍ﴾ يريد: في الحكم والمنزلة من الكفر، وهذا نحو قولهم: «الأذنان من الرأس» يريدون: في حكم المسح، وإلا فمعلوم أنهما من الرأس، ولما تقدم من قبل: ﴿وَمَا هُمْ بِتَنَكَّرٍ حَسَنٍ﴾ هذا الإخبار.

وقوله: ﴿يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ﴾ يريد: بالكفر وعبادة غير الله، وسائر ذلك من الآية لأن المنافقين الذين نزلت هذه الآيات فيهم لم يكونوا أهل قدرة ولا أفعال ظاهرة وذلك بسبب ظهور الإسلام وكلمة الله

الأوثان والشياطين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَيَقِيمُونَ الصَّلَاةَ﴾ هي الصلوات الخمس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبحسب هذا تكون الزكاة المفروضة، والمدح عندي بالنوافل أبلغ، إذ من يقسم النوافل أخرى بإقامة الفرض. وقوله: ﴿وَيَقِيمُونَ اللَّهَ رَسُولَهُ﴾ جامع للمندوبات، والسين في قوله: ﴿سَيِّئِهِمْ﴾ مدخل في الوعد مهلة لتكون النفوس تنعم برجائه. وفضله تعالى زعيم بالإنجاز.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. وعده في هذه الآية صريح نص في الخير، وقوله: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ إما من تحت أشجارها، وإما من تحت عَلِيَّاتِهَا، وإما من تحت مجالسها بالإضافة إلى هذا، كما تقول في دارين متجاورتين ومتساويتي المكان: هذه تحت هذه. وذكر الطبري في قوله تعالى: ﴿وَسَنَكُنَّ طَائِفَةً﴾ عن الحسن أنه قال: سألت عنها عمران بن الحصين وأبا هريرة فقالا: على الخبير سَقَطَتْ، سألنا عنها رسول الله ﷺ فقال: «قَصَصْنَا فِي الْجَنَّةِ مِنَ اللُّؤْلُؤِ، فِيهِ سَبْعُونَ دَارًا مِنْ ياقوتة حمراء، فِي كُلِّ دَارٍ سَبْعُونَ بَيْتًا مِنْ زمردة خضراء، فِي كُلِّ بَيْتٍ سَبْعُونَ سَرِيرًا»، ونحو هذا مما يشبه هذه الألفاظ أو يقرب منها فاختصرتها طلباً للإيجاز. وأما قوله: ﴿فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ فمعناه: في جنات إقامة وثبوت، يقال: عَدَنَ الشَّيْءُ فِي

بمَنطِقٍ مُسْتَتَبِينَ غَيْرِ مُلْتَبِسِينَ بِهِ اللِّسَانُ وَأَتَى غَيْرُ مُؤْتَفِكٍ أَي: غير منقلب منصرف مضطرب، ومنه يقال للريح: مؤتفكة لِتَضْرِبُهَا، ومنه: ﴿أَلَمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾، والإفك: صرف القول من الحق إلى الكذب. والضمير في قوله: ﴿أَنَّهُمْ رُسُلُهُمْ﴾ عائد على هذه الأمم المذكورة، وقيل: على المؤتفكات خاصة، وجعل لهم رسلاً وإنما كان نبيهم واحداً لأنه كان يرسل إلى كل قرية رسولاً داعياً، فهم رسل رسول الله، ذكره الطبري، والتأويل الأول في عود الضمير على جميع الأمم أبين. وقوله: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ يريد: بالمعجزات، وهي بيينة في نفسها بالإضافة إلى الحق لا بالإضافة إلى المكذبين بها.

ولما فرغ من ذكر المنافقين بالأشياء التي ينبغي أن تصرف عن النفاق وتبني عنه عقب ذلك بذكر المؤمنين بالأشياء التي تُرغَّب في الإيمان وتُنشَطُ إليه تَلطُفاً منه تبارك وتعالى بعبادته لا ربٍّ غيره، وذكرت هنا الولاية إذ لا ولاية بين المنافقين، ولا شفاعة لهم، ولا يدعو بعضهم لبعض، وكان المراد هنا الولاية في الله خاصة. وقوله: ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ يريد: بعبادة الله وتوحيده وكل ما اتبع ذلك، وقوله: ﴿عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ يريد عبادة الأوثان وكل ما اتبع ذلك. وذكر الطبري عن أبي العالية أنه قال: كل ما ذكر الله في القرآن من الأمر بالمعروف فهو دعاء من الشُّرك إلى الإسلام، وكل ما ذكر من النهي عن المنكر فهو النهي عن عبادة

وصفهم بالشدة وكثرة الأموال والاستمتاع بالخلق، والمعنى: وأتم أيضاً يعتریکم بإعراضكم عن الحق، ويحتمل أن يريد بـ ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ المنافقين المعاصرين لمحمد ﷺ، ويكون الخطاب لمحمد ﷺ، وفي ذلك خروج من خطاب إلى خطاب غير الأول. وحبط العمل وما جرى مجراه يَحْبُطُ حَبْطاً إِذَا بَطَلَ بَعْدَ التَّعَبِ، وحبط البطن حَبْطاً يفتح الباء، وهو داء في البطن، ومنه قول النبي ﷺ: «إِنَّ مِمَّا يُنْبِتُ الرَّبِيعَ مَا يَقْتُلُ حَبْطاً أَوْ يُلِيمُ». وقوله: فِي الدُّنْيَا معناه - إذا كان في المنافقين - ما يصيبهم في الدنيا من مقت المؤمنين وفساد أعمالهم وفي الآخرة بألا تنفع ولا يقع عليها جزاء، وَيُسْقَوِي أَنْ الإِشَارَةَ بِـ ﴿أَوْلِيَّكَ﴾ إلى المنافقين قوله تعالى في الآية المستقبلة: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ﴾ فتأمل.

٧١ - ٧٢ تفسير قوله عز وجل:

يقول عز وجل لَنَبِيِّهِ ﷺ: أَلَمْ يَأْتِ هَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ خَيْرُ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ الَّتِي عَصَتْ اللَّهَ بِتَكْذِيبِ رُسُلِهِ فَأَهْلَكُهَا؟ وَعَادَ وَثَمُودَ قَبِيلَتَانِ. وَقَوْمَ إِبْرَاهِيمَ: نَمْرُودَ وَأَصْحَابِهِ وَتَبَاعَ دَوْلَتِهِ. وَأَصْحَابَ مَدْيَنَ: قَوْمَ شَعِيبَ، وَالْمُؤْتَفِكَاتِ: أَهْلَ الْقُرَى الْأَرْبَعَةِ، وَقِيلَ: السَّبْعَةُ الَّذِينَ نَعَتْ إِلَيْهِمْ لُوطٌ ﷺ، وَمَعْنَى الْمُؤْتَفِكَاتِ: الْمُنْصَرَفَاتِ وَالْمُنْقَلِبَاتِ. أَفْكَتْ فَاتَّفَكَتْ لِأَنَّهُ جَعَلَ أَعَالِيهَا أَسْفَلُهَا، وَقَدْ جَاءَتْ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ مُفْرَدَةً تَدُلُّ عَلَى الْجَمْعِ، وَمِنْ هَذِهِ اللَّفْظَةِ قَوْلُ عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانَ:

عن حالهم بسرور وكمال أجود من العبارة عنها بلذة، واللذة أيضاً مستعملة في هذا.

(٧٣) - (٧٤) تفسير قوله عز وجل: قوله: ﴿جَهْدٌ﴾ مأخوذ من بلوغ الجهد، وهي مقصود بها المكافحة والمخالفة، وتتنوع بحسب المجاهد، فجهاد الكافر المغنلن بالسيف، وجهاد المنافق المتستر باللسان والتعنيف والاكفهرار في وجهه ونحو ذلك. ألا ترى أن من ألفاظ الشرع قوله ﷺ: «المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله»، فجهاد النفس إنما هو مصابرتها باتباع الحق وترك الشهوات، فهذا الذي يليق بمعنى هذه الآية، لكننا نجلب أقوال المفسرين نصّاً لتكون معرّضة للنظر، قال الزجاج (وهو متعلق في ذلك بألفاظ ابن مسعود): أمر في هذه الآية بجهاد الكفار والمنافقين بالسيف، وأبيح له فيها قتل المنافقين، قال ابن مسعود: إن قدر وإلاً فباللسان، وإلا فبالقلب والاكفهرار في الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقتل لا يكون إلا مع التّخليج، ومن جُلّح خرج عن رتبة النفاق. وقال ابن عباس: المعنى: جاهد المنافقين باللسان، وقال الحسن ابن أبي الحسن: المعنى: جاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، قال: وأكثر ما كانت الحدود يومئذ تصيب المنافقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووجه ترك النبي ﷺ المنافقين بالمدينة أنهم لم يكونوا مُجْلِحِينَ،

أو حكم عدل، ومدّ بها صوته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تأتي هذا التخصيص إذ قد وعد الله بها جميع المؤمنين.

وأما قوله: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ فروي فيه أن الله عز وجل يقول لعباده إذا استقروا في الجنة: «هل رضيتم؟ فيقولون: وكيف لا نرضى يا ربنا؟ فيقول: إني سأعطيكم أفضل من هذا كله، رضواني، أرضى عليكم فلا أسخط عليكم

أبداء الحديث. وقوله: ﴿أَكْبَرُ﴾ يريد: أكبر من كل ما تقدّم، ومعنى الآية والحديث متفق. وقال الحسن بن أبي الحسن: وصل إلى قلوبهم برضوان الله من اللذة والسرور ما هو ألدُّ عندهم وأقرّ لأعينهم من كل شيء أصابوه من لذة الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر أن قوله تعالى: ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ إشارة إلى منازل المقربين الشاربيين من تسنيم الذين يرون كما يرى النجم الغائر في الأفق، وجميع من في الجنة راض والمنازل مختلفة، وفضل الله تبارك وتعالى متسع. والفوز: النجاة والخلاص ﴿فَمَنْ رُحِّحَ عَنِ النَّكَارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، والمقربون هم في الفوز العظيم، والعبارة عندي

تَأْتِيهَا النَّبِيُّ جِهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْلَظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيَسَّ الْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَخْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بِمَا نَسُوا لهُمْ وَهَمُوا إِيْمَانًا تَلَوْنَهَا وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ تَوَّابًا لِّبِكُمْ تَرْحَمُونَ وَإِنْ مَسَحُوا بِعَدُوِّهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ إِلَهًا بِالْإِسْمَاءِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ شَيْءٍ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٧٤﴾ وَمِنَهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهُ لَنْ لَا يَأْتِيَنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَنْصَرَنَ وَلَنُكُونَ مِنَ الْمَصْلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا أَتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَقَالُوا وَهُمْ مَعْرُضُونَ ﴿٧٦﴾ فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَذَّبُوا ﴿٧٧﴾ الرَّسُولُ أَمَرَ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جِهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾

المكان إذا أقام به وثبت، ومنه المعدن، أي موضع ثبوت الشيء، ومنه قول الأعشى:

وإن يستضيئوا إلى جلمه
يُضَافُوا إِلَى رَاجِحٍ قَدْ عَدَنَ
هذا الكلام اللغوي. وقال كعب الأحبار: جنات عدن هي بالفارسية: جنات الكروم والأعناب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأظن هذا وهماً اختلط بالفردوس. وقال الضحّاك: جنات عدن هي: مدينة الجنة وعظمتها، فيها الأنبياء والعلماء والشهداء وأئمة العدل والناس حولهم بعد والجنات حولها، وقال ابن مسعود: عدن هي بطنان الجنة وسرّتها، وقال عطاء: عدن: نهر في الجنة جناته على حافته، وقال الحسن: عدن: قصر في الجنة لا يدخله إلا نبي أو صديق أو شهيد

بل كان كل مغموص عليه إذا وقف ادعى الإسلام، فكان في تركهم إبقاءً وحيطة للإسلام، ومخافة أن تنفر العرب إذا سمعت أن محمداً ﷺ يقتل من يظهر الإسلام، وقد أوعيت هذا المعنى في صدر سورة البقرة، ومذهب الطبري أن النبي ﷺ كان يعرفهم ويستترهم.

وأما قوله تعالى: ﴿وَأَغْلَطُ عَلَيْهِمْ﴾ فلفظة عامة تتصرف في الأفعال والأقوال واللمحظات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظًا لَّالْقَلْبِ﴾، ومنه قول النسوة لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنت أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ، ومعنى الغلظ: خشونة الجانب، فهي ضد قوله تعالى: ﴿وَأخْفِضْ جَانِحًا لِّمَنْ أَنْجَحَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، ثم خبرت الآية المؤمنين عليهم في عقب الأمر بإخباره أنهم في جهنم، والمعنى: هم أهل لجميع ما أمرت أن تفعل بهم. والمأوى: حيث يأوي الإنسان ويستقر.

وقوله تعالى: ﴿يَجَاهِلُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا﴾ الآية. هذه الآية نزلت في الجلاس بن سويد بن الصامت، وذلك لأنه كان يأتي من قباء ومعه ابن امرأته غمير بن سعد - فيما قال ابن إسحاق - وقال عزوة: اسمه مصعب، وقال غيره: وهما على حمارين، وكان رسول الله ﷺ قد سمى قوماً ممن أتتهمم بالنفاق وقال: «إنهم رجس»، فقال الجلاس للذي كان يسير معه: والله ما هؤلاء الذين سمى محمد إلا كبراًؤنا وسادتنا، ولئن كان ما يقول

محمد حقاً لنحن شر من حمرنا هذه، فقال له ربيبه أو الرجل الآخر: والله إنه لحق، وإنك لشر من حمارك، ثم خشي الرجل أن يلحقه في دينه درك فخرج وأخبر رسول الله ﷺ بالقصة، فأرسل النبي عليه الصلاة والسلام في أثر الجلاس فقرره فحلف بالله ما قال، فنزلت هذه الآية. والإشارة بكلمة الكفر إلى قوله: «إن كان ما يقول محمد حقاً فنحن شر من الحمر» لأن التكذيب في قوة هذا الكلام.

قال مجاهد: وكان الجلاس لما قال له صاحبه: «إني سأخبر رسول الله ﷺ بقولك هذا» هم يقتله ثم لم يفعل عجزاً عن ذلك، فإلى هذا هي الإشارة بقوله: ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَزَّ يَتَّالُوا﴾. وقال قتادة بن دعامة: نزلت هذه الآية في عبدالله بن أبي سلول، وذلك أن سنان بن وبرة الأنصاري والجهجاه الغفاري كسع أحدهما رجل الآخر في غزوة المريسيع، فتشاورا، فصاح جهجاه بالمهاجرين وصاح سنان بالأنصار فتثار الناس فهذن رسول الله ﷺ الأمر، فقال عبدالله بن أبي ابن سلول: ما أرى هؤلاء إلا قد تداعوا علينا، ما مثلنا ومثلهم إلا كما قال الأول: سمن كلبك يأكلك، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فوقه فحلف أنه لم يقل ذلك، فنزلت الآية مكذبة له، والإشارة بكلمة الكفر إلى تمثيله: سمن كلبك يأكلك، قال قتادة: والإشارة

بـ ﴿وَهَمُّوا﴾ إلى قوله: «لئن رجعنا إلى المدينة». وقال الحسن: هم المنافقون من إظهار الشرك ومكابرة النبي ﷺ بما لم ينالوا، وقال تبارك وتعالى: ﴿بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ﴾ ولم يقل: «بعد إيمانهم» لأن ذلك لم يتجاوز ألسنتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَقْوُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَيْتَهُمُ اللَّهُ﴾ معناه أن رسول الله ﷺ أنفذ لعبدالله بن أبي ابن سلول دية كانت قد تعطلت له، ذكر عكرمة أنها كانت اثني عشر ألفاً، وقيل: بل كانت للجلاس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب الخلاف المتقدم فيمن نزلت الآية من أولها، وتقدم اختلاف القراء في ﴿تَقْوُوا﴾ في سورة الأعراف، وقرأها أبو حيوة وابن أبي عميلة بكسر القاف، وهي لغة، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ أَغْنَيْتَهُمُ اللَّهُ﴾ استثناء من غير الأول، كما قال النابغة:

وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سُبُوهُمْ
بِهِنَّ فَلَوْلَ مِنْ قِرَاعِ الْكُتَابِ
فَكَانَ الْكَلَامُ: وما تقموا إلا ما حقه أن يشكر.

وقال مجاهد في قوله تعالى ﴿وَهَمُّوا بِمَا لَزَّ يَتَّالُوا﴾: إنها نزلت في قوم من قريش أرادوا قتل رسول الله ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يناسب الآية. وقالت فرقة: إن الجلاس هو الذي هم بقتل رسول الله ﷺ، وهذا يشبه الآية إلا أنه غير قوي السند، وحكى الزجاج أن اثني عشر من المنافقين هموا بذلك فأطلع الله عليهم، وذكر

رسول الله ﷺ في إغنائهم من حيث كثرت أموالهم من الغنائم، فرسول الله ﷺ سبب في ذلك، وعلى هذا الحد قال رسول الله ﷺ: «كُنْتُمْ عَالَةً فَأَغْنَاكُمْ اللَّهُ بِي». ثم فتح عزَّ وجلَّ لهم باب التوبة رفقا بهم ولطفاً في قوله: ﴿فَإِنْ يَتُوبُوا بِكَ خَيْرًا لَّكُمْ﴾، وروي أن الجلاس تاب من النفاق فقال: «إن الله قد ترك لي باب التوبة»، فاعترف وأخلص وحسنت توبته. والعذاب الأليم اللاحق بهم في الدنيا هو المقت والخوف والهجنة عند المؤمنين.

(٧٥) - (٧٨) تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

هذه الآية نزلت في ثعلبة بن حاطب الأنصاري، وقال الحسن: وفي معتب بن قشير معه، واختصار ما ذكره الطبري وغيره من أمره أنه جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعل لي مالاً فإنني لو كنت ذا مال لقصيت حقوقه وفعلت فيه الخير، فراه رسول الله ﷺ وقال: «قليلٌ تُؤدِّي شكره خير من كثير لا تطيقه»، فعاود فقال له النبي ﷺ: «ألا تريد أن تكون مثل رسول الله، لو دعوت أن تسير الجبال معي ذهباً لسارت؟»، فأعاد عليه حتى دعا له رسول الله ﷺ بذلك، فاتخذ غنماً فتمت كما ينمو الدود حتى ضاقت به المدينة فتتحنى عنها، وكثرت غنمه فكان لا يصلح إلا الجمعة، ثم كثرت حتى تنحى بعيداً ونجم نفاقه، ونزل خلال ذلك فرض الزكاة على رسول الله ﷺ فبعث مصدقين بكتابه في أخذ زكاة الغنم، فلما بلغوا ثعلبة

وقرأ الكتاب قال: هذه أخت الجزية، ثم قال لهم: دعوني حتى أرى رأيي، فلما أتوا رسول الله ﷺ وأخبروه قال: «وَيْحَ ثُعَلْبَةَ ثَلَاثًا، ونزلت الآية فيه، وحضر القصة قريب لثعلبة فخرج إليه فقال: أدرك أمرك فقد نزل فيك كذا وكذا، فخرج ثعلبة حتى أتى رسول الله ﷺ فرغب أن يؤدي زكاته فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: «إن الله أمرني ألا أخذ زكاتك»، فبقي كذلك حتى توفي رسول الله ﷺ، ثم ورد ثعلبة على أبي بكر، ثم على عمر، ثم على عثمان يرغب إلى كل واحد منهم أن يأخذ منه الزكاة، فكلهم رد ذلك وأباه اقتداء برسول الله ﷺ، فبقي ثعلبة كذلك حتى هلك في مدة عثمان.

وفي قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِهِمْ﴾ نص المعاقبة على الذنب بما هو أشد منه، وقوله: ﴿إِنَّ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ﴾ يقتضي موافاتهم على النفاق، ولذلك لم يقبل الخلفاء رضي الله عنهم رجوع ثعلبة لشهادة القرآن عليه بالموافاة، ولولا الاحتمال في أنه نفاق معصية لوجب قتله.

وقرأ الأعمش: ﴿لَتَصَدَّقَنَّ﴾ بالنون الثقيلة مثل الجماعة، ﴿وَلَتَكُونَنَّ﴾ خفيفة النون.

والضمير الذي في قوله: ﴿فَاعْتَبِهِمْ﴾ يعود على الله عزَّ وجلَّ، ويحتمل أن يعود على البخل المضمَّن في الآية، ويضعف ذلك الضمير في ﴿يَلْقَوْنَهُ﴾، وقوله: ﴿يَنفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون نفاق كفر ويكون تقرير ثعلبة بعد هذا

النص والإبقاء عليه لمكان إظهاره الإسلام وتعلقه بما فيه احتمال، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿يَنفَاقًا﴾ يريد به نفاق معصية وقلة استقامة فيكون تقريره صحيحاً، ويكون ترك في أول الزكاة عقاباً له ونكالاً، وهذا نحو ما روي أن عاملاً كتب إلى عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه أن فلاناً يمنع الزكاة، فكتب إليه أن دعه واجعل عقوبته ألا يؤدي الزكاة مع المسلمين، يريد: لما يلحقه من المقت في ذلك.

وقرأ الحسن، والأعرج، وأبو عمرو، وعاصم، ونافع، وسائرهم: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ خفيفة، وقرأ أبو رجاء: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ مشددة.

وذكر الطبري في هذه الآية ما يناسبها من حديث رسول الله ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مَنَافِقًا خَالِصًا، إِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»، وفي حديث آخر: «وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ» ونحو هذا من الأحاديث. ويظهر من مذهب البخاري وغيره من أهل العلم أن هذه الخلال الذميمة منافق من اتصف بها إلى يوم القيامة. وزوي أن عمرو بن العاص لما احتضر قال: «زوجوا فلاناً فإنني قد وعدته، لا ألقى الله بثلاث النفاق»، وهذا ظاهر كلام الحسن بن أبي الحسن، وقال عطاء بن أبي رباح: «قد فعل هذه الخلال إخوة يوسف ولم يكونوا منافقين، بل كانوا أنبياء»، وهذه الأحاديث إنما هي في المنافقين في عصر النبي ﷺ، الذين شهد الله

وَقَرَأَ الْحَسَنُ، وَأَبُو رَجَاءٍ،
ويعقوب، وابن كثير - فيما
زوي عنه - ﴿يَلْمُزُونَ﴾
بضم الميم. و﴿الْمَطْوَعِينَ﴾
لفظة عموم في كل
متصدق، والمراد به
الخصوص فيمن تصدق
بكثير، دل على ذلك قوله
عظماً على ﴿الْمَطْوَعِينَ﴾:
﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ﴾،
ولو كان «الذين لا
يجدون» قد دخلوا في
«المطوعين» لما ساء
عطف الشيء على نفسه،
وهذا قول أبي علي
الفارسي في قوله
عز وجل: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا
لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَنَجِبَيْهِ
وَمَيْكَلٍ﴾ فإنه قال: المراد بالملائكة
من عدا هذين، وكذلك قال في
قوله تعالى: ﴿بِمَا فَكَّرَ وَخَلَّ
رِزْقًا﴾، وفي هذا كله نظر، لأن
التكرار لقصد التشريف يسوغ هذا مع
تجاوز العرب في كلامها. وأصل
«المطوعين» «المطووعين»، فأبدلت
التاء طاءً وأدغم. وأما المتصدق
بكثير الذي كان سبباً للآية فأكثر
الروايات أنه عبدالرحمن بن عوف،
تصدق بأربعة آلاف وأمسك مثلها،
فقال له النبي ﷺ: ﴿بارك الله لك
فيما أمسكت وفيما أنفقت». وقيل
هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه
تصدق بنصف ماله، وقيل:
عاصم بن عدي، تصدق بمائة
وسق، وأما المتصدق بقليل فهو أبو
عقيل حنجاب الأراشي، تصدق

عليهم، وهذه الخصال في سائر
الأمة معاصي لا نفاق، وذكر الطبري
أن الحسن رجع إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا محالة أنها كانت مع التوحيد
والإيمان بمحمد ﷺ معاصي، ولكنها
من قبيل النفاق اللغوي، وذكر
الطبري عن فرقة أنها قالت: كان
العهد الذي عاهد الله عليه هؤلاء
المنافقون شيئاً توفوه في أنفسهم ولم
يتكلموا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا فيه نظر.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَلْمُوا﴾ الآية.
لفظ تعلق به من قال في الآية
المتقدمة: إن العهد كان من المنافقين
بالثبته لا بالقول. وقرأ الجمهور:
﴿يَلْمُوا﴾ بالياء من تحت، وقرأ أبو
عبدالرحمن، والحسن: ﴿أَلَمْ
تَلْمُوا﴾ بالتاء من فوق، وهذه الآية
تناسب حالهم، وذلك أنها تضمنت
إحاطة علم الله بهم وحضره لهم،
وفيها توبيخهم على ما كانوا عليه من
التحدث في نفوسهم من الاجتماع
على ثلب الإسلام، وراحة بعضهم
مع بعض في جهة النبي ﷺ
وشرعه، فهي تم المنافقين أجمع.
وقائل المقالة المذكورة ذهب إلى أنها
تختص بالفرقة التي عاهدت.

٧٩ - ٨٠ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ﴾
رد على الضمائر في قوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾،
وقوله: ﴿أَلَمْ يَلْمُوا﴾، وقوله:
﴿سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾. و﴿يَلْمُزُونَ﴾
معناه: ينالون بالسننهم. وقرأ
السبعة: ﴿يَلْمُزُونَ﴾ بكسر الميم،

بصاع من تمر وقال: يا رسول الله،
جرت البارحة بالحرير وأخذت
صاعين تركت أحدهما لعيالي وأتيت
بالآخر صدقة، فقال المنافقون: الله
غني عن صدقة هذا، وقال بعضهم:
إن الله غني عن صاع أبي عقيل.
وقيل: إن الذي لَمَزَ في القليل أبو
خيشمة. قاله كعب بن مالك صاحب
النبي ﷺ، وتصدق عبدالرحمن بن
عوف بأربعة آلاف، وقيل: بأربعمائة
أوقية من فضة، وقيل: أقل من هذا،
فقال المنافقون: ما هذا إلا رياء
فنزلت الآية في هذا كله.

وقوله تعالى: ﴿يَلْمُزُونَ﴾ معناه:
يستهزئون ويستخفون، وهو معطوف
على ﴿يَلْمُزُونَ﴾، واعترض ذلك
بأن المعطوف على الصلة فهو من
الصلة، وقد دخل بين هذا المعطوف
والمعطوف عليه قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا

يَجِدُونَ»، وهذا لا يلزم، لأن قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ معمول للذي عمل في ﴿الْمُطَّوِّعِينَ﴾ فهو بمنزلة قوله: «جاءني الذي ضرب زيداً وعمراً فقتلها». وقوله: ﴿سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ﴾ تسمية العقوبة باسم الذنب، وهي عبارة عما حلَّ بهم من العقاب والذل في نفوسهم، وقوله: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ معناه: مؤلم، وهي آية وعيد محض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿جَهْدُهُمْ﴾ بضم الجيم، وقرأ الأعرج وجماعة معه: ﴿جَهْدُهُمْ﴾ بالفتح، وقيل: هما بمعنى واحد، قاله أبو عبيدة، وقيل: هما لمعنيين، الضم في المال والفتح في تعب الجسم، ونحوه عن الشعبي.

وقوله: ﴿الَّذِينَ يَلْمُزُونَ﴾ يصح أن يكون خبر ابتداءٍ تقديره: هم الذين، ويصح أن يكون ابتداءً وخبره ﴿سَخِرَ﴾، وفي ﴿سَخِرَ﴾ معنى الدعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً مجرداً عن الدعاء، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ صفة جارية على ما قبل كما ذكرت أول الترجمة.

وقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرَ لَهُمْ أَوْ لَا سَتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما أن يكون لفظ أمر ومعناه الشرط بمعنى: إن استغفرت أو لم تستغفر لن يغفر الله لهم، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْفُوا بِوَعْدِكُمْ أَوْ لَا تَكْفُرُوا إِنَّ يَفْقَهُ مِنْكُمْ﴾، وبمنزلة قول الشاعر:

أسيبي بنا أو أحسيني لأملومة
لدينا ولا مقلية إن تقلت
وإلى هذا المعنى ذهب الطبري

وغيره في معنى الآية، والمعنى الثاني الذي يحتمله اللفظ أن يكون تخبيراً، كأنه قال له: إن شئت فاستغفر، وإن شئت لا تستغفر، ثم أعلمه أنه لا يغفر لهم وإن استغفر سبعين مرة، وهذا هو الصحيح لقول رسول الله ﷺ وتبينه ذلك، وذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سمعه بعد نزول هذه الآية يستغفر لهم فقال: يا رسول الله، أتستغفر للمشركين وقد أعلمك الله أنه لا يغفر لهم، فقال له: «يا عمر إن الله قد خيرني فاخترت، ولو علمت أنني إذا زدت على السبعين يغفر لهم لزدت»، ونحو هذا من مقابلة عمر في وقت إرادة النبي ﷺ الصلاة على عبدالله بن أبي سلول، وظاهر صلاته عليه أن كفره لم يكن يقيناً عنده، ومحال أن يصلي على كافر، ولكنه راعى ظواهره من الإقرار، ووكل سريره إلى الله عز وجل، وعلى هذا كان ستر المنافقين من أجل عدم التعيين بالكفر. وفي هذه الألفاظ التي لرسول الله ﷺ رفض إلزام دليل الخطاب، وذلك أن دليل الخطاب يقتضي أن الزيادة على السبعين يُغفر معها، فقال رسول الله ﷺ: «ولو علمت» فجعل ذلك مما لا يعلمه ومما ينبغي أن يتعلم ويطلب علمه من الله عز وجل، ففي هذا حجة عظيمة للقول برفض دليل الخطاب، وإذا ترتب - كما قلنا - التخبير في هذه الآية صح أن ذلك التخبير هو الذي تُسخ بقوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿سَاءَ عَلَيْهِمْ اسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ

يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ ولمالك رحمه الله مسائل تقتضي القول بدليل الخطاب، منها قوله: «إن المدرك للشهد وحده لا تلزمه أحكام الإمام لأن النبي ﷺ قال: «من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك الصلاة»، فاقترض دليل الخطاب أن من لم يدرك ركعة فليس بمدرك، وله مسائل تقتضي رفض دليل الخطاب، منها قول النبي ﷺ: «وفي سائمة الغنم الزكاة»، فدليل الخطاب أن لا زكاة في غير السائمة، ومالك يرى الزكاة في غير السائمة، ومنها أن الله عز وجل يقول في الصيد: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا﴾، فقال مالك: حكم المخطف والمتعمد سواء، ودليل الخطاب يقتضي غير هذا، وأما تمثيله بالسبعين دون غيرها من الأعداد فلأنه عدد كثيراً ما يجيء غايةً ومقتناً في الكثرة، ألا ترى إلى القوم الذين اختارهم موسى، وإلى أصحاب العقبة. وقد قال بعض اللغويين: إن التصريف الذي يكون من السين والباء والعين فهو شديد الأمر، ومن ذلك السبعة فإنها عدد مقنع، هي في السموات وفي الأرض وفي خلق الإنسان وفي رزقه وفي أعضائه التي بها يطبع الله وبها يعصيه، وبها ترتب أبواب جهنم فيما ذكر بعض الناس، وهي: عيناه وأذناه ولسانه ويطنه وفرجه ويداها ورجلاه، وفي سهام الميسر وفي الأقاليم وغير ذلك، ومن ذلك السبع والعبوس والعنيس ونحو هذا من القول.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى امتناع

الغفران، وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ إما من حيث هم فاسقون، وإما أنه لفظ عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي على كفره.

(٨١) - (٨٢) تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تتضمن وصف حالهم على جهة التوبيخ لهم وفي ضمنها وعيد، وقوله: ﴿الْمُخَلَّفُونَ﴾ لفظ يقتضي تحقيرهم وأنهم الذين أبعدهم الله من رضاه، وهذا أمكن في هذا من أن يقال: «المتخلفون»، ولم يفرح إلا منافق، فخرج من ذلك الثلاثة وأصحاب العُدْر، ومَقْعَد: مصدر بمعنى القعود، ومثله:

مَنْ كَانَ مَشْرُورًا بِمَقْتَلِ مَالِكٍ

وقوله: ﴿خَلْفًا﴾ معناه: بعد، وأنشد أبو عبيدة في ذلك:

عَقَبَ الرَّبِيعُ خِلَافَهُمْ فَكَأَنَّمَا
نَسَطَ السَّوَاطِبُ بَيْتَهُنَّ حَصِيرًا

يريد: بعدهم، ومنه قول الشاعر:

فَقُلْ لِلَّذِي يَبْقَى خِلَافَ الَّذِي مَضَى
تَأْتِبُ لِأُخْرَى مِثْلَهَا فَكَأَنَّ قَدِيدًا
وقال الطبري: هو مصدر خَالَفَ يُخَالِفُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا هو مفعول له، والمعنى: فرح المخلفون بمقعدهم لخلاف رسول الله ﷺ، أو مصدر، ونصبه في القول الأول كأنه على الظرف. وكرهيتهم لما ذكر هي شح إذ لا يؤمنون بالثواب في سبيل الله، فهم يضيئون بالدنيا. وقولهم: ﴿لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ﴾ كان لأن غزوة تبوك كانت في وقت شدة الحر وطيب شمار

والظلال، قاله ابن عباس، وكعب بن مالك، والناس، فأقيمت عليهم الحجة بأن قيل لهم: فإذا كنتم تجزعون من حر القيظ فنار جهنم التي هي أشد أخرى أن تجزعوا منها لو فهمتهم، وقرأ ابن عباس، وأبو حنيفة: ﴿خَلْفًا﴾، وذكرها يعقوب ولم ينسبها، وقرئ: ﴿خَلْفًا﴾ بضم الخاء، ويقوي قول الطبري «إن لفظه الخلاف هي مصدر من خَالَفَ ما تظاهرت به الروايات من أن رسول الله ﷺ أمرهم بالنَّفَر فعصوا وخالفوا وقعدوا مستأذنين، وقال محمد بن كعب: قال: «لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرْبِ» رجل من بني سلمة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: قال رجل: يا رسول الله، الحر شديد فلا تنفر في الحر. قال النقاش: وفي قراءة عبدالله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بدل ﴿يَنْفِرُونَ﴾.

وقال ابن عباس، وأبو رزين، والربيع بن خيثم، وقتادة، وابن زيد: قوله: ﴿فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا﴾ إشارة إلى مدة العُمر في الدنيا، وقوله: ﴿وَلْيَسْكُوا كَثِيرًا﴾ إشارة إلى تأبيد الخلود في النار، فجاء بلفظ الأمر ومعناه الخبر عن حالهم، ويحتم أن يكون صفة حالهم، أي: هم لما هم عليه من الخطر مع الله وسوء الحال بحيث ينبغي أن يكون ضحكهم قليلاً ويكأؤهم من أجل ذلك كثيراً، وهذا يقتضي أن يكون وقت الضحك والبكاء في الدنيا على نحو قوله ﷺ لأمته: «لو تعلمون ما أعلم لبكيتم كثيراً ولضحكتكم قليلاً»، وروي أن رسول الله ﷺ لما قال هذا الكلام

أوحى الله إليه: «يا محمد لا تقنط عبادي».

وقوله: ﴿جَزَاءً﴾ متعلق بالمعنى الذي تقديره: وليبكو كثيراً إذ هم مُعَذَّبُونَ جزاءً، وقوله: ﴿يَكْسِبُونَ﴾ نص في أن التكتسب هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب.

وقوله تعالى: ﴿إِن تَجَمَّكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ﴾ الآية. (رجع) يستوي مجاوزه وغير مجاوزه، وقوله تعالى: ﴿إِن﴾ مبينة أن النبي ﷺ لا يعلم بمستقبلات أمره من أجل وسواه. وأيضاً فيحتمل أن يموتوا هم قبل رجوعه. وأمر الله عز وجل لنبيه ﷺ بأن يقول لهم: ﴿لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ﴾ هو عقوبة لهم، وإظهاراً لدناءة منزلتهم وسوء حالهم. وهذا هو المقصود في قصة ثعلبة بن حاطب التي تقدمت في الامتناع من أخذ صدقته، ولا خزي أعظم من أن يكون إنسان قد رفضه الشرع ورده كالجمل الأجرب. وقوله: ﴿إِلَى طَائِفَةٍ﴾ يقتضي عندي أن المراد رؤوسهم والمتبوعون، وعليها وقع التشديد بأنها لا تخرج ولا تقاتل عدواً، وكرر معنى قتال العدو لأنه عظيم الجهاد وموضع بارقة السيوف التي تحتها الجنة، ولولا تخصيص الطائفة لكان الكلام: «فإن رجعت الله إليهم». ويشبه أن تكون هذه الطائفة قد حُتم عليها بالموافاة على النفاق، وعُتِنوا للنبي ﷺ، وإلا فكيف يترتب ألا يصلي على موتاهم إن لم يعينهم الله. وقوله: ﴿وَمَا تَأْتُواهُمْ نَكِيسًا﴾ نص في موافاتهم، ومما يؤيد هذا ما روي أن النبي ﷺ عيّنهم

ريقه وألبسه قميصه)، وروي في ذلك أن عبدالله بن أبي بعث إلى رسول الله ﷺ في مرضه ورغب إليه أن يستغفر له وأن يصلي عليه. وروي أن ابنه عبدالله بن عبدالله جاء رسول الله ﷺ بعد موت أبيه فرغب في ذلك وفي أن يكسوه قميصه الذي يلي بدنه، ففعل، فلما جاء رسول الله ﷺ ليصلي عليه قام إليه

عمر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله، أتصلي عليه وقد نهاك الله عن الاستغفار لهم؟ وجعل يعدد أفعال عبدالله، فقال له رسول الله ﷺ: «أخبر عني يا عمر فإني خيّر، ولو أعلم أنني إن زدت على السبعين غفر له لذت»، وفي حديث آخر: «إن قميصي لا يغني عنه من الله شيئاً، وإني لأرجو أن يسلم بفعلي هذا ألف رجل من قومي»، كذا في بعض الروايات، يريد: من منافقي العرب، والصحيح أنه قال: «رجال من قومه»، فسكت عمر، وصلى رسول الله ﷺ على عبدالله، ثم نزلت هذه الآية بعد ذلك، وصلى عليه رسول الله ﷺ لموضع إظهاره الإيمان، ومحال أن يصلي عليه وهو يتحقق كفره، ويغد هذا - والله أعلم - عيّن له من لا يصلي عليه، ووقع في معاني أبي إسحق وفي بعض كتب التفسير: فأسلم وتاب بهذه الفعلة من رسول الله ﷺ والرغبة من عبدالله ألف رجل من الخزرج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، قاله من لم يعرف عذة الأنصار.

مردود، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الرجال، وقال الطبري: يحتمل قوله: «مع الخلفين» أن يريد: مع الفاسدين، فيكون ذلك مأخوذاً من: خلف الشيء إذا فسد، ومنه: خلوف فم الصائم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل مقحم، والأول أفصح وأجرى على اللفظة. وقرأ مالك بن دينار، وعكرمة: «مع الخلفين» وهو مقصور من «الخالفين»، كما قال: «عرداً وبردأ»

يريد: عارداً وبارداً، وكما قال الآخر:

مِثْلُ الثَّقَا لَيْدُهُ بَرْدُ الظَّلَلِ
يريد: الظلال.

٨٧ - ٨٤ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية نزلت في شأن عبدالله بن أبي ابن سلول وصلاة رسول الله ﷺ عليه. روى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ لما تقدم ليصلي عليه جاء جبريل عليه السلام، فجذبه بثوبه وتلا عليه هذه الآية، فانصرف رسول الله ﷺ ولم يصل عليه. وتظاهرت الروايات أن رسول الله ﷺ صلى عليه، وأن الآية نزلت بعد ذلك، وفي كتاب الجنائز من البخاري من حديث جابر قال: (أتى رسول الله ﷺ عبدالله بن أبي بعدما أدخل حفرة فأمر به فأخرج ووضعه على ركبته ونفس عليه من

رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لِكُلِّ الرُّسُولِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ جَهْدُ وَإِيَامُ لَهُمْ وَأَنفُسُهُمْ وَأُوَلِّيَاتِكُمْ لَمْ يَخْرِجْتِ وَأُوَلِّيَاتِكُمْ لَمْ يُغْلَبْنَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذِنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَحِذْ مَا أَجْمَلْكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يَنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْيَابٌ رَضُوا بَأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾

لحذيفة بن اليمان، وكانت الصحابة إذا رأوا حذيفة تأخر عن الصلاة على جنازة رجل تأخروا هم عنها. وروي عن حذيفة أنه قال يوماً: بقي من المنافقين كذا وكذا، فقال له عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أنشدك الله أنا منهم؟ فقال: لا، والله لا أمنت منها أحداً بعدك.

وقرأ جمهور الناس: «معي» بسكون الياء في الموضعين، وقرأ عاصم - فيما قال الفضل -: «معي» بحركة الياء في الموضعين، وقوله: «أول» هو بالإضافة إلى وقت الاستئذان.

والخالفون: جميع من تخلف من نساء وصبيان وأهل عذر، غلب المذكور فجمع بالياء والنون وإن كان ثم نساء، وهو جمع خالف. وقال قتادة: الخالفون: النساء، وهذا

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُحِبِّكَ أُمَّؤَلَهُمْ﴾ الآية. تقدم تفسير مثل هذه الآية. والخطاب للنبي ﷺ والمراد أمته إذ هو - بإجماع - ممن لا تفتنه زخارف الدنيا. ويحتمل أن يكون معنى الآية: «ولا تعجبك أيها الإنسان»، والمراد الجنس، ووجه تكريرها تأكيد هذا المعنى وإيضاحه، لأن الناس كان يفتنون بصلاح حال المناققين في دنياهم.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ﴾ الآية. العامل في ﴿وَإِذَا﴾: ﴿أَسْتَنْتَكَ﴾، والسورة المشار إليها هي براءة فيما قال بعضهم، ويحتمل أن تكون إلى كل سورة فيها الأمر بالإيمان والجهاد مع الرسول ﷺ، وسورة القرآن أجمع على ترك همزها في الاستعمال، واختلف هل أصلها الهمز أم لا؟ فقيل: أصلها الهمز، فهي من أسأرا إذا بقيت له قطعة من الشيء، فالسورة: قطعة من القرآن، وقيل: أصلها ألا تُهمز فهي كسورة البناء، وهي ما نبني منه شيئاً بعد شيء، فهي الرتبة بعد الرتبة، ومن هذا قول النابغة:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَغْطَاكَ سُورَةً
تَرَى كُلَّ مَلَكٍ دُونَهَا يَتَذَبَذَبُ؟
وقد مضى هذا كله مستوعباً في صدر هذا الكتاب.

﴿أَنَّ﴾ في قوله: ﴿أَنَّ عَائِشَةَ﴾ يعني أن تكون مفسرة بمعنى أي، فهي - على هذا - لا موضع لها، ويحتمل أن يكون التقدير: بأن، فهي في موضع نصب. ﴿الظُّلُمِ﴾ في هذه الآية: المال، قاله ابن عباس، وابن إسحق، وغيرهما. والإشارة بهذه الآية إلى الحد بن قيس،

وعبدالله بن أبي، ومعتب بن قشير، ونظرائهم. والقاعدون: الزُّمني وأهل العذر في الجملة ومن ترك لضبط المدينة لأن ذلك عذر.

وقوله تعالى: ﴿رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ﴾ الآية. تفرغ وإظهار شناعة كما يقال على وجه التغيير: رضيت يا فلان كذا؟ ﴿الْخَوَالِفِ﴾: النساء، جمع خالفة، هذا قول جمهور المفسرين، وقال أبو جعفر النحاس: يقال للرجل الذي لا خير فيه: خالفة، فهذا جمعه بحسب اللفظ، والمراد أخسة الناس وأخلافهم. وقال النضر بن شميل في كتاب النقاش: الخوالف: من لا خير فيه، وقالت فرقة: الخوالف جمع خالف فهو جار مجرى فوارس ونواكس وهوالك. و﴿طَبَعِ﴾ في هذه الآية مستعار، ولما كان الطبع على الصوان والكتاب مانعاً منه وحافظاً عليه شبه القلب الذي غشيه الكفر والضلال حتى منع الإيمان والهدى منه بالصوان المطبوع عليه، ومن هذا استعارة الغفل والكنان للقلب، و﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ معناه: لا يفهمون.

﴿٨٨﴾ - ﴿٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
الْأَكْثَرُ فِي ﴿لَكِنَّ﴾ أَنْ تَجِيءَ بَعْدَ نَفِي،
وهو هنا في المعنى، وذلك أن الآية السالفة معناها أن المناققين لم يجاهدوا فَحَسَّنْ بَعْدَهَا: ﴿لَكِنَّكَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهِدُوا﴾. والخيرات جمع خيرة، وهو المستحسن من كل شيء، وكثر استعماله في النساء، فمن ذلك قوله عز وجل: ﴿فِيَنْ خَيْرًا جَسَانًا﴾، ومن ذلك قول الشاعر، أنشده الطبري:
وَلَقَدْ طَعَنْتُ مَجَامِعَ الرِّبَلَاتِ
رَبَلَاتٍ هُنْدٍ خَيْرَةَ الْمَلِكَاتِ

﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الذين أدركوا بغيتهم من الجنة، والفلاح أي بمعنى إدراك البغية كقول لبيد:
أَفْلِيحُ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالضُّغْرِ
فِي وَقَدْ يُسْخَدُغُ الْأَرِيْبُ
وقد يأتي بمعنى البقاء كقول الشاعر:

لِكُلِّ هَمٍّ مِنَ الْهَمُومِ سَعَةٌ
وَالْمُسْنَى وَالصُّبْحُ لَا فَلَاحَ مَعَهُ
أَي: لا بقاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويبلغ البغية يعم لفظه الفلاح حيث وقعت فتأمله.

﴿أَعْدُ﴾ معناه: يسر وهياً، وقوله:
﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ يريد: من تحت مبانيها وأعاليتها، و﴿الْفَوْزِ﴾ حصول الإنسان على أمله وظفره ببغيته، ومن ذلك فوز سيهام الأيسار.

وقوله تعالى: ﴿وَيَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كُنْتُمْ تَحِبُّونَ لَاسْتَفْتَحْتُمْ كُفْرًا﴾ الآية. اختلف المتأولون في هؤلاء الذين جاؤوا - هل كانوا مؤمنين أو كافرين؟ فقال ابن عباس وقوم معه منهم مجاهد: كانوا مؤمنين وكانت أعدارهم صادقة، وقرأ: ﴿وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ﴾ بسكون العين، وهي قراءة الضحاك، وحيد الأعرج، وأبي صالح، وعيسى بن هلال. وقرأ بعض قائل هذه المقالة ﴿الْمُعَذِّرُونَ﴾ بشد الذال، قالوا: وأصله «المعتذرون» قلبت التاء ذالاً وأدغمت، ويحتمل «المعتذرون» في هذا القول مغنيين، أحدهما: المعتذرون بأعذار حق، والآخر أن يكون: الذين قد بلغوا عذرهم من الاجتهاد في طلب الغزو معك فلم يقدروا، فيكون مثل قول لبيد:

ومن ينك حولاً كاملاً فقد اعتذر
وقال قتادة وفرقة معه: بل الذين
جاؤوا بكفرة، وقولهم وعذرهم
كذب، وكل هذه الفرقة قرأ:
﴿الْمُعْتَذِرِينَ﴾ بشد الذال، فمنهم من
قال: أصله المعتذرون، نقلت حركة
التاء إلى العين وأدغمت التاء في
الذال، والمعنى: معتذرون بكذب.
ومنهم من قال: هو من التعذير، أي
الذين يعذرون الغزو ويدفعون في
وجه الشرع، فالآية إلى آخرها - في
هذا القول - إنما وصفت صنفاً واحداً
في الكفر ينقسم إلى أعرابي
وحضري، وعلى القول الأول
وصفت صنفين مؤمناً وكافراً. قال
أبو حاتم: وقال بعضهم: سألت
مسلمة فقال: «المعتذرون» بشد العين
والذال، قال أبو حاتم: أراد:
المعتذرين، والتاء لا تدغم في العين
لبعد المخارج، وهي غلط منه أو
عليه. قال أبو عمرو: وقرأ سعيد بن
جبير: «المعتذرون» بزيادة تاء،
وقرأ الحسن - بخلاف عنه - وأبو
عمرو، ونافع، والناس: ﴿كَذَّبُوا﴾
بتخفيف الذال، وقرأ الحسن - وهو
المشهور عنه - وأبي بن كعب،
ونوح، وإسماعيل: ﴿كَذَّبُوا﴾
بتشديد الذال، والمعنى: لم يصدقوه
تعالى ولا رسوله وردوا عليه أمره،
ثم توعد - في آخر الآية - الكافرين
بعذاب أليم، فيحتمل أن يريد في
الدنيا بالقتل والأسر، ويحتمل أن
يريد في الآخرة بالنار.

وقوله: ﴿يَنْهَمُ﴾ يريد أن المعتذرين
كانوا مؤمنين، ويرجحه بعض الترجيح
فتأمله، وضعف الطبري قول من قال
إن «المعتذرين» من التعذير وأنحى

عليه. والقول منصوِّصٌ ووجهه بين
والله المعين. وقال ابن إسحق:
المعتذرون نفر من بني غفار، منهم
خفاف بن إيماء بن رخصة.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا يقتضي أنهم مؤمنون.

﴿٩١﴾ - ﴿٩٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
يقول تعالى: ليس على أهل الأعدار
الصحيحة من ضعف أبدان أو مرض أو
زمانة أو عدم نفقة - إثم. والحرج:
الإثم. وقوله: ﴿إِذَا نَصَحُوا﴾ يريد:
بنياتهم وأقوالهم سراً وجهراً. وقرأ أبو
حوية: ﴿نَصَحُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ بغير
لام وينصب الهاء من المكتوبة. وقوله
تبارك وتعالى: ﴿مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ
سَبِيلٍ﴾ الآية. في لائمة تُناط بهم أو
تذنيب أو عقوبة. ثم أكد الرجاء
بقوله: ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾. وقرأ ابن
عباس رضي الله عنهما: «والله لأهل
الإساءة غفور رحيم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا على جهة التفسير أشبه منه على
جهة التلاوة لخلافه المصحف.

واختلف فيمن المراد بقوله سبحانه:
﴿الَّذِينَ لَا يَحْدُرُونَ مَا يُنْفِقُونَ﴾.

فقال فرقة: نزلت في بني مُقرن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وبنو مُقرن ستة إخوة صحبوا
النبي ﷺ، وليس في الصحابة ستة
إخوة غيرهم، وقيل: كانوا سبعة.
وقيل: نزلت في عبدالله بن
مُعقل المزني، قاله ابن عباس
رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا
آتَاكَ﴾ الآية. اختلف فيمن نزلت هذه
الآية. فقيل: نزلت في عزياض بن
سارية، وقيل: نزلت في عبدالله بن

مُعقل، وقيل: في عائذ بن عمرو،
وقيل: في أبي موسى الأشعري
ورهنه، وقيل: في بني مُقرن، وعلى
هذا جمهور المفسرين، وقيل: نزلت
في سبعة نفر من بطون شتى، فهم
البكاؤون، وهم سالم بن عُمير من
بني عمرو بن عوف، وحرزمي بن
عمرو من بني واقف، وأبو ليلى
عبد الرحمن بن كعب من بني مازن ابن
النجار، وسليمان بن صخر من بني
المعلى، وأبو رُعَيْلة عبدالرحمن بن
زيد من بني حارثة، وهو الذي تصدق
بعرضه فقبل الله منه، وعمرو بن عَتَمَةَ
من بني سلمة، وعائذ بن عمرو
المُزني، وقيل: عبدالله بن عمرو
المزني، قال هذا كله محمد بن كعب
القرظي. وقال مجاهد: البكاؤون هم
بنو بكر من مزينة.

ومعنى قوله: ﴿لِنَحْمَلَهُنَّ﴾ أي على
ظهر يُركب ويُحمل عليه الأثاث،
وقال بعض الناس: إنما استحملوه
النعال، ذكره النقاش عن الحسن ابن
صالح، وهذا بعيد شاذ.

والعامل في ﴿إِذَا﴾ يحتمل أن
يكون: ﴿قُلْتَ﴾ ويكون قوله:
﴿تَوَلَّوْا﴾ مقطوعاً، ويحتمل أن يكون
العامل: ﴿تَوَلَّوْا﴾ ويكون تقدير
الكلام: فقلت، أو يكون قوله:
﴿قُلْتَ لَا آجِدُ مَا أَمْلِكُمْ عَلَيْهِ﴾
بمنزلة: وجدوك في هذه الحال.
وفي الكلام اختصار وإيجاز ولا بُدَّ،
يدل ظاهر الكلام على ما اختصر
منه. وقال الجرجاني في «النظم»: له:
إن قوله ﴿قُلْتَ﴾ في حكم
المعطوف تقديره: وقلت. و﴿حَرَكَا﴾
نصب على المصدر، وقرأ معقل بن
هارون: ﴿لِنَحْمَلَهُنَّ﴾ بنون
الجماعة.

يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُونَ لِي أَن
 تُوْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَأْنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى
 اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْعَلِيِّ
 وَالشَّهِدَةِ فَيُنْفِقُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ سَيَحْلِفُونَ
 بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لَتَعْرَضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا
 عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رَجِسٌ وَمَوتُهُمْ جَهَنَّمَ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
 يَكْسِبُونَ ﴿٩٤﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن
 تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ
 ﴿٩٥﴾ الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا
 حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٩٦﴾ وَفِي
 الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَأْتَبِقًا مَعْرُوفًا وَيَتْرُكُ بِكُمُ الدَّوَابِرَ
 عَلَيْهِنَّ دَابِرَةٌ أَلْسُوهُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٩٧﴾ وَفِي
 الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَتَتَّخِذُ
 مَأْتَبِقًا قَوْلِيكَ عِنْدَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْآنَةٌ
 لَّهُمْ سِيّدُ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩٨﴾

أبي الحسن في زيادة
 (من) في السوابج،
 فالتقدير: قد نبأنا الله
 أخباركم، وهو على
 مذهب سيبويه نعت
 لمحذوف هو المفعول
 الثاني تقديره: قد نبأنا الله
 جليئة من أخباركم.
 وقيل: [تَبَأًا] بمعنى أعلم
 يحتاج إلى ثلاثة مفاعيل،
 فالضمير واحد، و **فِي**
أَخْبَارِكُمْ **ثَانٍ** حسب ما
 تقدم من القولين، والثالث
 محذوف يدل الكلام عليه
 تقديره: قد نبأنا الله من
 إخباركم كذباً، أو نحوه،
 وحذف هذا المفعول مع

٩٣ - ٩٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله في هذه الآية **إِنَّمَا** ليس
 بحصر، وإنما هي للمبالغة فيما يزيد
 تقريره على نحو قولك: **إِنَّمَا**
 الشجاع عنتره، ويقضي بذلك أنا
 نجد **السبيل** في الشرع على غير
 هذه الفرقة **«موجوداً»**، والسبيل قد
 توصل بعلَى وبإلى فتقول: لا سبيل
 على فلان، ولا سبيل إلى فلان، غير
 أن وصولها بعلَى يقتضي أحياناً
 ضعف المتوصل إليه وقلة منفعته،
 فلذلك حسنت في هذه الآية، وليس
 ذلك في **«إلى»**، ألا ترى أنك تقول:
«فلان لا سبيل له إلى الأمر ولا إلى
طاعة الله»، ولا يحسن في شبه هذا
«على»، والسبيل - في هذه الآية -
 سبيل العاقبة. وهذه الآية نزلت في
 المنافقين المتقدم ذكرهم: عبد الله بن
 أبي، والجد بن قيس، ومعتب،
 وغيرهم، وقد تقدم نظير تفسير هذه
 الآية.

وقوله تعالى: **«يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ**
 الآية. هذه المخاطبة للنبي ﷺ،
 واشترك معه المسلمون في بعض
 لأن المنافقين كانوا يعتذرون أيضاً
 إلى المؤمنين، ولأن إنباء الله أيضاً
 تحصل للمؤمنين. وقوله: **«يَتَّخِذُونَ**
 يريد: من غزوة تبوك. وقوله: **«لَن**
تُوْمِنَ لَكُمْ» معناه: لن تصدقكم،
 ولكن لفظة **«تؤمن»** تتصل بلام
 أحياناً كما تقدم في قوله: **«رُدُّونَ**
لِلْمُؤْمِنِينَ»، و **«تَبَأًا»** - في هذه الآية -
 قيل: هي بمعنى عزف لا تحتاج
 إلى أكثر من مفعولين، فالضمير
 مفعول أول، وقوله: **«فِي**
أَخْبَارِكُمْ» مفعول ثان على مذهب

وقوله: **«يَتَّخِذُونَ**
 ممن لا تخفى عليه خافية.

٩٣ - ٩٧ تفسير قوله عز وجل:

قيل: إن هذه الآية من أول ما نزل
 في شأن المنافقين في غزوة تبوك،
 وذلك أن بعض المنافقين اعتدوا
 إلى النبي ﷺ واستأذنه في القعود
 قبل مسيره فأذن لهم، فخرجوا من
 عنده وقال أحدهم: والله ما هو إلا
 شحمة لأول أكل، فلما خرج
 رسول الله ﷺ نزل فيهم القرآن،
 فانصرف رجل من القوم فقال
 للمنافقين في مجلس منهم: والله لقد
 نزل على محمد ﷺ فيكم قرآن،
 فقالوا له: وما ذلك؟ فقال: لا أخطئ
 إلا أنني سمعت وصفكم فيه
 بالرجس، فقال لهم مخشى: والله
 لو دوت أن أجلد بأنة جلدة ولا أكون
 معكم، فخرج حتى لحق

الدلالة عليه جائز بخلاف الاقتصار،
 وذلك أن الاقتصار إنما يجوز إذا
 على المفعول الأول ويسقط الاثنان
 إذ هما الابتداء والخبر، وإما على
 الاثنان الأخيرين ويسقط الأول،
 وأما أن يقتصر على المفعولين
 الأولين ويسقط الثالث دون دلالة
 عليه فذلك لا يجوز، ويجوز حذفه
 مع الدلالة عليه.

والإشارة بقوله سبحانه: **«قَدْ نَبَأْنَا**
 اللَّهُ **إِلَى** قوله: **«مَا زَادَكُمُ إِلَّا**
خِيَالًا وَلَا أَضَعُوا خِلَافَكُمْ يَعْزُبُكُمْ
الْفِتْنَةَ»، ونحو هذا. وقوله:
«وَسَيَرَى اللَّهُ» توعد معناه: وسيراه
 في حال وجوده ويقع الجزاء منه عليه
 إن خيراً فخير وإن شراً فشر. وقوله:
«ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عِلِّيِّهِ الْعَلِيِّ»
 يريد البعث من القبور، والغيب
 والشهادة **يَعْمَان** جميع الأشياء،

برسول الله ﷺ، فقال له: ما جاء بك؟ فقال: وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ تَسْفَعُهُ الرِّيحُ وَأَنَا فِي الْكِبْنِ، فروي أنه ممن تاب.

وقوله سبحانه: ﴿فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ﴾ أَمَرْنَا بَانْتِهَارِهِمْ وَعَقُوبَتِهِمْ بِالْإِعْرَاضِ وَالْوَصْمِ بِالْفِئَاقِ، وهذا مع إجمال لا مع تعيين مصرح من الله ولا من رسوله، بل كان لكل واحد منهم ميدان المغالطة مبسوطاً، وقوله: ﴿يَسْتَعْجِلُ أَي تَتَنُّ وَقَدَّرَ، وناهيك بهذا الوصف محطة دنيوية، ثم عطف بمحطة الآخرة فقال: ﴿وَمَا أُولَئِكَ بِهِمْ جَهَنَّمَ﴾ أي مسكنهم. ثم جعل ذلك جزاءً بتكسبهم المعاصي والكفر مع أن ذلك مما قدره الله وقضاه لا رب غيره ولا معبود سواه.

وأسند الطبري عن كعب بن مالك أنه قال: لما قدم رسول الله ﷺ من تبوك جلس للناس فجاءه المخلفون يعتذرون إليه ويحلفون، وكانوا بضعة وثمانين رجلاً، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم وبإيعهم واستغفر لهم، ووكّل سرائرهم إلى الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ﴾. هذه الآية والتي قبلها مخاطبة للمؤمنين مع الرسول ﷺ، والمعنى: يحلفون لكم مبطلين ومقصدهم أن ترضوا لا أنهم يفعلون ذلك لوجه الله ولا للبر.

وقوله: ﴿فَإِنْ تَرَضَوْا﴾ إلى آخر الآية شرط يتضمن النهي عن الرضى عنهم، وحكم هذه الآية يستمر في كل مغموص عليه ببدعة ونحوها، فإن المؤمن ينبغي أن يبغضه ولا

يرضى عنه لسبب من أسباب الدنيا. وقوله تعالى: ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [الأعراب] لفظة عامة، ومعناها الخصوص فيمن استثناه الله عز وجل، وهذا معلوم بالوجود كيف كان الأمر، وإنما انطلق عليهم هذا الوصف بسبب بعدهم عن الحواضر ومواضع العلم والأحكام والشرع، وهذه الآية إنما نزلت في منافقين كانوا في البوادي، ولا محالة أن خوفهم هناك أقل من خوف منافقي المدينة، فألستهم لذلك مطلقة، ونفاقهم أنجم.

وأسند الطبري أن زيد بن صوحان كان يحدث أصحابه بالعلم وعنده أعرابي، وكان زيد قد أصيبت يده اليسرى يوم نهاوند، فقال الأعرابي: والله إن حديثك ليعجبني وإن يدك لترييني، قال زيد: وما يريك من يدي وهي الشمال؟ فقال الأعرابي: والله ما أدري أَلْيَمِينٍ تَقْطَعُونَ أَمِ الشَّمَالِ؟ فقال زيد: صدق الله، ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ رُسُولِي﴾. و ﴿وَأَجْدَرُ﴾ معناه: أحرى وأقمن، والحدود هنا: الشن والأحكام ومعالم الشريعة.

﴿١٧٧﴾ - ﴿١٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا نص في المنافقين منهم، ومعنى ﴿يَتَخَذُوا﴾ في هذه الآيات أي:

يجعل مقصده ولا ينوي فيه غير ذلك، وأصل المغرم الدين، ومنه تعوذ رسول الله ﷺ من المغرم والمائم، ولكن كثر استعمال المغرم فيما يؤديه الإنسان مما لا يلزمه

بحق، وفي اللفظ معنى اللزوم، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّكَ عَدَابُهَا كَانَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي: مكروهاً لازماً. و ﴿الدَّوَابِّ﴾: المصائب التي لا مخلص للإنسان منها فهي تحيط به كما تحيط الدائرة، وقد يحتمل أن تشتق من دور الزمان والمعنى: ينتظر بكم ما تأتي به الأيام وتدور به. ثم قال على جهة الدعاء: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةٌ أَلْسُو﴾، وكل ما كان بلفظ دعاء من جهة الله عز وجل فإنما هو بمعنى إيجاب الشيء، لأن الله لا يدعو على مخلوقاته وهي في قبضته، ومن هذا قوله سبحانه: ﴿وَلَيْلٌ لِيَكُلَّ هَمَزَةٌ لُزْمَةٌ﴾ و ﴿وَلَيْلٌ لِلطُّفَيْفِينَ﴾، فهي كلها أحكام تامة تضمنها خبره تبارك وتعالى. وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم: ﴿دَائِرَةٌ أَلْسُو﴾ بفتح السين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن محيصن بخلاف عنه، وعاصم والأعمش بخلاف عنهما: ﴿دَائِرَةٌ أَلْسُو﴾ بضم السين، واختلف عن ابن كثير، وقيل: الفتح المصدر والضم الاسم، واختلف الناس فيهما وهو اختلاف يقرب بعضه من بعض، والفتح في السين يقتضي وصف الدائرة بأنها سيئة، وقال أبو علي: معنى (الدائرة) يقتضي معنى (السوء) فإنما هي إضافة بيان وتأكيده، كما قالوا: «شمس النهار» و«لخيا رأسه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يقال: «رجل سوء» إلا بفتح السين، هذا قول أكثرهم، وقد حكى: «رجل سوء» بضم السين، وقد قال الشاعر:

وَالسَّائِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ وَيَمَنْ حَوْلَكُم مِّنَ الْأَعْرَابِ مُنْفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا يَتْلَمَعُونَ عَظِيمٌ ﴿١١٢﴾ وَأَخْرَجُوا عَنَّا زَيْنَبَ فَزَوَّجْنَا زَيْنَبَ بِمَوْلَىِّنَا وَرَضِيَ اللَّهُ عَنَّا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِمَوْلَىِّنَا وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ صَدَقَةٌ تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلَّ عَلَيْنَهُمُ إِن صُلَّوْنَاكَ سَكَنَ لَهُمُ اللَّهُ وَرَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٤﴾ أَن اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الَّذِي يَهْدِي الْبَلَاءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَقُلْ أَعْمَلُوا بِرَأْيِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَمَلِكُمْ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَارِعُوا إِلَىٰ عِلِّيِّ الْعَرْشِ وَالتَّهَنُّدِ فَيُنزِّلُ عَلَيْكُمْ مَائِدَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَتَلْمِيزًا وَاللَّهُ يَمُنُّ بِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٦﴾

٢٠٣

إلى أن انقطعت الهجرة لكان قولاً يقتضيه اللفظ، وتكون ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، و ﴿الَّذِينَ﴾ في هذه الآية عطف على قوله: ﴿وَالسَّائِقُونَ﴾ وقرأ عمر بن الخطاب، والحسن بن أبي الحسن، وقاتدة، وسلام، وسعيد، ويعقوب بن طلحة، وعيسى الكوفي: ﴿وَالسَّائِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ﴾ برفع الراء عطفاً على ﴿وَالسَّائِقُونَ﴾، وكذلك يعطف على كلتا القراءتين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ جعل الاتباع عديلاً للأنصار. وأسند الطبري أن زيد بن ثابت سمعه فراه كعب فسأله فقال أبي بن كعب: ﴿وَالسَّائِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ فقال عمر رضي الله عنه: ما كنا نرى إلا أنا قد

في رَحْمَتِهِ ﴿الآية﴾. وروي أن هذه الآية نزلت في بني مُقَرَّنٍ من مُزَيْنَةَ. وقاله مجاهد. وأسند الطبري إلى عبد الرحمن بن مغفل بن مُقَرَّنٍ أنه قال: كنا عشرة ولد مُقَرَّنٍ فنزلت فينا: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ إلى آخر الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله: ﴿عشرة ولد مُقَرَّنٍ يريد الستة أولاد مُقَرَّنٍ لصلبه أو السبعة على ما في الاستيعاب من قول سويد بن مُقَرَّنٍ وبينهم لأن هذا هو الذي في مشهور دواوين أهل العلم.

﴿١١١﴾ - ﴿١١٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قال أبو موسى الأشعري، وابن المسيب، وابن سيرين، وقاتدة: ﴿وَالسَّائِقُونَ الْأُولُونَ﴾: مَنْ صَلَّى الْقِبْلَتَيْنِ. وقال عطاء: ﴿وَالسَّائِقُونَ الْأُولُونَ﴾: مَنْ شَهِدَ بَدْرًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحولت القبلة قبل بدر شهرين.

وقال عامر بن شراحيل الشعبي: ﴿وَالسَّائِقُونَ الْأُولُونَ﴾: مَنْ أَدْرَكَ بَيْعَةَ الرضوان. ﴿وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ يريد سائر الصحابة، ويدخل في هذا اللفظ التابعون وسائر الأمة لكن بشرطية الإحسان، وقد لزم هذا الاسم الطبقة التي رأت مَنْ رَأَى النَّبِيَّ ﷺ، ولو قال قائل: إن السابقين الأولين هم جميع من هاجر

وكنث كذئب الشوء لما رأى دماً بصاحبه يوماً أحال على الدَّم ولم يختلف القراءة في فتح السين من قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية. قال قتادة: هذه ثبينة الله تعالى من الأعراب، و ﴿يُنَزِّلُ﴾ في هذه الآية أيضاً هي بمعنى: يجعله مقصداً، والمعنى: ينوي بنفقه في سبيل الله القربة عند الله عز وجل واستغنام دعاء الرسول ﷺ، ففي دعائه لهم خير الآخرة في النجاة من النار، وخير الدنيا في أرزاقهم ومنح الله لهم، ف ﴿صَلَّوْتُ﴾ على هذا عطف على ﴿فَرُوتِي﴾. ويحتمل أن يكون عطفاً على ﴿مَا يُؤْتِي﴾، أي: ويتخذ بالأعمال الصالحة صلوات الرسول قربة، والأول أئين.

و ﴿فَرُوتِي﴾ جمع قُرْبَةٍ أو قُرْبَةٍ بسكون الراء وضمها، وهما لغتان، والصلاة في هذه الآية: الدعاء إجماعاً، وقال بعض العلماء: الصلاة من الله رحمة، ومن النبي والملائكة دعاء، ومن الناس عبادة. والضمير في قوله: ﴿إِنَّا﴾ يحتمل أن يعود على النفقة، وهذا في انعطاف الصلوات على القربات، ويحتمل أن يعود على الصلوات، وهذا في انعطافه على ﴿مَا يُؤْتِي﴾. وقرأ نافع: ﴿قُرْبَةٍ﴾ بضم الراء، واختلف عنه وعن عاصم والأعمش، وقرأ الباقون: ﴿قُرْبَةٍ﴾ بسكون الراء، ولم يختلف في ﴿فَرُوتِي﴾. ثم وعد تبارك وتعالى بقوله: ﴿سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ

رفعنا رفعة لا ينالها معنا أحد، فقال أبي: إن مصداق هذا في كتاب الله في أول سورة الجمعة: ﴿وَالْآخِرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ﴾، وفي سورة الحشر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا﴾، وفي سورة الأنفال في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجْهَهُمْ مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ يَنْكُرُكُمْ﴾، فرجع عمر إلى قول أبي، ونبّهت هذه الآية من التابعين وهم الذين أدركوا أصحاب رسول الله ﷺ، كما نبّه من ذكرهم قوله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار» فتأمله.

وقرأ ابن كثير: ﴿مِنْ تَحْتِهَا الْأَشْهَارُ﴾، وقرأ الباقون: ﴿تَحْتِهَا بِإِسْقَاطِ [مِنْ]﴾، ومعنى هذه الآية: الحكم بالرضا عنهم بإدخالهم الجنة وغفر ذنوبهم، والحكم برضاهم عنه في شكرهم وحمدهم على نعمه وإيمانهم به وطاعتهم له، جعلنا الله من الفائزين برحمته ومنه.

وقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ الآية. مخاطبة للنبي ﷺ شرك معه في بعضها أمته، والإشارة بقوله: ﴿وَمَنْ حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ إلى جهينة ومزينة وأنسلم وغفار وعصية ولخيان وغيرهم من القبائل المجاورة للمدينة، فأخبر الله عن منافقيهم، وتقدير الآية: «ومن أهل المدينة قوم أو منافقون»، هذا أحسن ما حمله اللفظ. و﴿مَرَدُّكُمْ﴾ قال أبو عبيدة: معناه: مرّنا عليه ولجّوا فيه، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وقال ابن زيد: أقاموا

عليه لم يتوبوا كما تاب الآخرون. والظاهر من معنى اللفظ أن التمرد في الشيء أو المرود عليه إنما هو اللجاج والاستهتار به والغتو على الزاجر وركوب الرأس في ذلك، وهو مستعمل في الشر لا في الخير، من ذلك قولهم: شيطان مراد ومريد، ومن هذا سميت مراد لأنها تمردت، وقال بعض الناس: يقال: «تمرد الرجل في أمر كذا» إذا تجرد له، وهو من قولهم: «شجرة مرءاء» إذا لم يكن عليها ورق، ومنه: ﴿صَرَخَ مُرَدًّا﴾، ومنه قولهم: «تمرد مراد وعز الأبلق»، ومنه الأمر الذي لا ليحة له، فعنى ﴿مَرَدُّكُمْ﴾ في هذه الآية: لجّوا فيه واستهتروا به وعتوا على زاجرهم. ثم نفى عز وجل علم نبيه بهم على الثعنين، وأسند الطبري عن قتادة في قوله تعالى: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّى تَعْلَمَهُمْ﴾ قال: فما بال أقوام يتكلفون علم الناس، فلان في الجنة، وفلان في النار، فإذا سألت أحدهم عن نفسه قال: لا أدري، أنت لعنري بنفسك أعلم منك بأعمال الناس، ولقد تكلفت شيئاً ما تكلفه الرسل، قال نبي الله نوح ﷺ: ﴿وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَفَرُوا بِمَلَكُوتِ﴾، وقال نبي الله شعيب: ﴿بَقِيَتْ لِلَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾، وقال الله تبارك وتعالى لنبيه ﷺ: ﴿لَا تَعْلَمُهُمْ حَتَّى تَعْلَمَهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿سَمِعْتُهُمْ مِرَّتَيْنِ مُمْرَرَاتٍ﴾ إلى عذاب عظيم. وفي مصحف أنس بن مالك

رضي الله عنه: ﴿سَمِعْتُهُمْ﴾ بالياء، والكلام - على القراءتين - وعيد، واللفظ يقتضي ثلاثة مواطن من العذاب، ولا خلاف بين المتأولين أن العذاب العظيم الذي يُرَدُّون إليه هو عذاب الآخرة، وأكثر الناس أن العذاب المتوسط هو عذاب القبر، واختلف في عذاب المرة الأولى فقال مجاهد وغيره: هو عذابهم بالقتل والجوع، وهذا بعيد لأن منهم من لم يصبه هذا، وقال ابن عباس أيضاً: عذابهم هو بإقامة حدود الشرع عليهم مع كراهيتهم فيه، وقال ابن إسحاق: عذابهم هو هُتْمهم بظهور الإسلام وعلو كلمته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - وهو الأشهر عنه -: عذابهم هو فضيحتهم ووصمهم بالنفاق، وروي في هذا التأويل أن رسول الله ﷺ خطب يوم الجمعة فنذد بالمنافقين وصرح وقال: «أخرج يا فلان من المسجد فإنك منافق، وأخرج أنت يا فلان، وأخرج أنت يا فلان» حتى أخرج جماعة منهم، فرأهم عمر يخرجون من المسجد وهو مقبل إلى الجمعة، فظن أن الناس انتشروا وأن الجمعة فاتته فاختبأ منهم حياة، ثم وصل إلى المسجد فرأى أن الصلاة لم تُقْضَ وفهم الأمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويفعل النبي ﷺ هذا بهم هو على جهة التأديب اجتهاداً منه فيهم، ولم يسلخهم ذلك من الإسلام وإنما هو كما يُخْرِجُ العصاة والمتهمون، ولا عذاب أعظم من هذا. وكان رسول الله ﷺ كثيراً ما يتكلم فيهم

على الإجمال دون تعيين، فهذا أيضاً من العذاب. وقال قتادة وغيره: العذاب الأول هي علل وأدواء أخبر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ أنه يصيبهم بها، وأسند الطبري في ذلك عن قتادة أنه قال: ذكر لنا أن نبي الله ﷺ أسرَّ إلى حذيفة باثني عشر رجلاً من المنافقين، وقال: ستة منهم تكفيهم الدبيلة، سراج من نار جهنم تأخذ في كتف أحدهم حتى تفضي إلى صدره، وستة يموتون موتاً، ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا مات رجل ممن يُظن أنه منهم نظر إلى حذيفة، فإن صلى صلى عمر عليه وإلا ترك، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لحذيفة: أتشدك بالله، أينهم أنا؟ قال: لا، والله ولا أؤمن منها أحداً بعدك. وقال ابن زيد في قوله تعالى: ﴿سَمِعْتَهُمْ مَرْتَبَيْنِ﴾: أما عذاب الدنيا فالأموال والأولاد، لكل صنّف عذاب فهو مرتان، وقرأ قول الله تعالى: ﴿فَلَا تُحِبُّكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقال ابن زيد أيضاً: المرتان هي في الدنيا، الأولى: القتل والجوع والمصائب، والثانية: الموت إذ هو للكفار عذاب. وقال الحسن: الأولى هي أخذ الزكاة من أموالهم، والعذاب العظيم هو جميع ما بعد الموت، وأظن الزجاج أشار إليه.

﴿١٠٢﴾ - ﴿١٠٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ومن هذه الطوائف آخرون اعترفوا بذنوبهم. واختلف في تأويل

هذه الآية فقال ابن عباس - فيما روي عنه - وأبو عثمان: هي في الأعراب، وهي عامة في الأمة إلى يوم القيامة فيمن له أعمال صالحة وسيئة، فهي آية ترج على هذا، وأسند الطبري هذا عن حجاج ابن أبي زينب قال: سمعت أبا عثمان يقول: ما في القرآن آية أرجى عندي لهذه الأمة من قوله: ﴿وَالْآخِرُونَ أَعْرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ﴾، وقال قتادة: بل نزلت هذه الآية في أبي لبابة الأنصاري خاصة في شأنه مع بني قريظة، وذلك أنه كلمهم في النزول على حكم الله ورسوله، وأشار هو لهم إلى حلقه يريد أن النبي ﷺ يذبحهم إن نزلوا، فلما افتضح تاب وندم وربط نفسه في سارية من سواري المسجد، وأقسم ألا يطعم ولا يشرب حتى يعفو الله عنه أو يموت، فمكث كذلك حتى عفا الله عنه ونزلت هذه الآية، وأمر رسول الله ﷺ بحلّه، ذكر هذا القول الطبري عن مجاهد، وذكره ابن إسحاق في كتاب السير أوعب وأتقن.

وقالت فرقة عظيمة: بل نزلت هذه الآية في شأن المتخلفين عن غزوة تبوك، فكان «عملهم السيئ» التخلف بإجماع من أهل هذه المقالة، واختلفوا في «الصالح»؛ فقال الطبري وغيره: الاعتراف والتوبة والندم، وقالت فرقة: بل «الصالح» غزؤهم فيما سلف من غزو النبي ﷺ، ثم اختلف أهل هذه المقالة في عدد القوم الذين عُنوا بهذه الآية؛ فقال ابن عباس

رضي الله عنهما: كانوا عشرة رهط ربط منهم أنفسهم سبعة، وبقي الثلاثة الذين خلفوا دون ربط المذكورين بعد هذا، وقال زيد بن أسلم: كانوا ثمانية منهم كردم، ومرداس، وأبو قيس، وأبو لبابة. وقال قتادة: كانوا سبعة، وقال ابن عباس أيضاً وفرقة: كانوا خمسة، وكلهم قال: كان فيهم أبو لبابة، وذكر قتادة فيهم الجُد بن قيس، وهو - فيما أعلم - وهم لأن الجُد لم تزو له توبة، وأما قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرُونَ﴾ فهو بمعنى «بآخر» وهما متقاربان. ﴿وَعَسَى﴾ من الله واجبة.

وروي في خبر الذين ربطوا أنفسهم أن رسول الله ﷺ لما دخل المسجد فرأهم قال: «ما بال هؤلاء؟» ف قيل له: إنهم تابوا وأقسموا ألا ينحلوا حتى يحلهم رسول الله ﷺ ويعذرهم، فقال رسول الله ﷺ: «وأنا والله لا أحلهم ولا أعذرهم إلا أن يأمرني الله بذلك، فإنهم تخلفوا عني وتركوا جهاد الكفار مع المؤمنين».

وقوله تعالى: ﴿حَدِّثْهُمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ صدقته الآية. روي أن أبا لبابة والجماعة الثابتة التي ربطت أنفسها وهي المقصودة بقوله سبحانه: ﴿حَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا﴾ جاءت رسول الله ﷺ لما تيب عليها فقالت: يا رسول الله، إنا نريد أن تصدق بأموالنا زيادة في توبتنا، فقال رسول الله ﷺ: «إنسي لا أعرض لأموالكم إلا بأمر من الله»، فتركهم حتى نزلت هذه الآية، فهم المراد بهم، فروي أن رسول الله ﷺ أخذ

ثلث أموالهم مراعاة لقوله تعالى: ﴿حُدِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾، فهذا هو الذي تظاهرت به أقوال المتأولين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

وقالت جماعة من الفقهاء: المراد بهذه الآية الزكاة المفروضة، فقوله - على هذا -: ﴿حُدِّ مِنْ أَمْوَالِهِمْ﴾ ضميره لجميع الناس، وهو عموم يراد به الخصوص إذ يخرج من الأموال الأنواع التي لا زكاة فيها كالشباب والرباع ونحوه، والضمير الذي في ﴿أَمْوَالِهِمْ﴾ أيضاً كذلك عموم يراد به خصوص إذ يخرج منه العبيد وسواهم، وقوله: ﴿صَدَقَهُ﴾ مجمل يحتاج إلى تفسير، وهذا يقتضي أن الإمام يتولى أخذ الصدقات وينظر فيها، ﴿وَمِنْ﴾ في هذه الآية للتبعض، هذا أقوى وجوها.

وقوله تعالى: ﴿تَطَهَّرْتُمْ وَزَكَّيْتُمْ﴾ أحسن ما يحتمل أن تكون هذه الأفعال مسندة إلى ضمير النبي ﷺ، ويحتمل أن تكون في موضع الحال من الضمير في ﴿حُدِّ﴾، ويحتمل أن تكون من صفة الصدقة، وهذا مترجح بحسب رفع الفعل، ويكون قوله: ﴿بِهَا﴾ أي بنفسها، أي: يقع تطهيرهم من ذنوبهم بها، ويحتمل أن تكون ﴿تَطَهَّرْتُمْ﴾ صفة للصدقة و﴿وَزَكَّيْتُمْ﴾ مسنداً إلى النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون حالاً من الصدقة، وذلك ضعيف لأنها حال من نكرة، وحكى مكي أن يكون ﴿تَطَهَّرْتُمْ﴾ من صفة الصدقة وقوله: ﴿وَزَكَّيْتُمْ﴾ حالاً من الضمير في ﴿حُدِّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود لمكان واو العطف، لأن

ذلك يتقدر: «خذ من أموالهم صدقة مطهرة ومزكيا بها»، وهذا فاسد المعنى، ولو لم يكن في الكلام واو عطف جاز. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿تَطَهَّرْتُمْ﴾ بسكون الطاء. وقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ معناه: ادع لهم فإن في دعائك لهم سكوناً لأنفسهم وطمأنينة ووقاراً، فهذه عبارة عن صلاح المعتقد. وحكى مكي، والنحاس، وغيرهما أنه قيل: إن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَسْرٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وهم بعيد، وذلك أن تلك في المنافقين الذين لهم حكم الكافرين، وهذه في التائبين من التخلف الذين لهم حكم المؤمنين، فلا تناسخ بين الآيتين.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، ونافع، وابن عامر: ﴿إِنْ صَلَّوْا عَلَيْكَ﴾ بالجمع، وكذلك في (هود) وفي (المؤمنين)، وقرأ حفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿إِنْ صَلَّوْا عَلَيْكَ﴾ بالإنفراد، وكذلك قرأ حمزة والكسائي في (هود) وفي (المؤمنين)، وقرأ عاصم في (المؤمنين) وحدها جمعاً، ولم يختلفوا في سورة (الأنعام) و﴿سَأَلَ سَائِلًا﴾، وهو مصدر أفرده فرقة وجمعه فرقة.

وقوله تعالى: ﴿سَبِّحْ﴾ أي لدعائك، ﴿عَلَيْهِ﴾ أي بمن يهدي ويتوب عليه وغير ذلك مما تقتضيه هاتان الصفتان. وروي أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية فعل ما أمر به من الدعاء والاستغفار لهم، وقال ابن عباس

رضي الله عنهما: ﴿سَكَّنَ لَهُمْ﴾: رحمة لهم، وقال قتادة: ﴿سَكَّنَ لَهُمْ﴾ أي وقار لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما معناه أن من يدعو له النبي ﷺ فإنه تطيب نفسه ويقوى رجاؤه، ويروى أنه قد صحت وسيلته إلى الله تبارك وتعالى، وهذا بين.

١١٣ - ١١٥ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا﴾ على ذكر الغائب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - بخلاف عنه -: ﴿أَلَمْ تَعْلَمُوا﴾ على معنى: قل لهم يا محمد ألم تعلموا؟ وكذلك هي في مصحف أبي بن كعب بالتاء من فوق، والضمير في ﴿يَعْلَمُوا﴾ قال ابن زيد: يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين، وذلك أنه لما تيب على بعضهم قال الغير: ما هذه الخاصة التي حُصَّ بها هؤلاء؟ فنزلت هذه الآية. ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿يَعْلَمُوا﴾ يراد به الذين لم يتوبوا من المتخلفين، وذلك أنه لما تيب على بعضهم قال الغير: ما هذه الخاصة التي حُصَّ بها هؤلاء؟ فنزلت هذه الآية. ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿يَعْلَمُوا﴾ يراد به الذين تابوا وربطوا أنفسهم.

وقوله: ﴿هُوَ﴾ تأكيد لانفراد الله بهذه الأمور وتحقيق ذلك، لأنه لو قال: «أن الله يقبل التوبة» لاحتمل ذلك أن يكون قبول رسوله قبولاً منه، فبيّنت الآية أن ذلك مما لا يصل إليه نبي ولا ملك، وقوله: ﴿وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ معناه: يأمر بها ويُشْرِعُهَا كما تقول: أخذ السلطان

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاسْتَجَابُوا لِرَادَاكَ وَكُنُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ
 وَالْمُؤْمِنِينَ وَرِضَاكَ لِمَنْ حَارَبَكَ اللَّهُ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ
 وَيَخْلِفُونَ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا أَلْحُسْنَ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
 ﴿١٠٦﴾ لَا تَقْعُدُوا فِيهِ أَبَدًا مَسْجِدًا أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ
 يَوْمٍ وَأَقْرَبُ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحْيُونَ أَنْ يَنْظُرُوا
 وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَهِّرِينَ ﴿١٠٧﴾ أَفَمَنْ أَسْسَ بِبَيْتِكُمْ
 عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسْسَ بِبَيْتِكُمْ
 عَلَى شَفَا جُرْئِي هَآءِ فَتَأْتِيهِمْ فِي نَارِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي
 الْقَوْمَ الْفَٰكِرِينَ ﴿١٠٨﴾ لَا يَسْأَلُ بَيْنَهُمُ الَّذِي بَوَّأْتَهُ
 فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٩﴾
 ﴿١١٠﴾ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ
 بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةَ يَفْعَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ
 وَيُقْتَلُونَ وَعَدَّ عَلَيْهِمْ حَافِئُ التُّورَةِ وَالْإِنْجِيلِ
 وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْرَأْ
 بِبَيْتِكُمْ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

٢٠٤

لا يقطع به على الله تعالى، بل يقوى فيه الرجاء، ومن حجتهم أن الإنسان إذا قال في الجملة: إني أغفر لمن ظلمني، ثم جاء من قد سبّه وأذاه، فله تعقب حقه، وبالعفوان لقوم يصدق وعده ولا يلزمه العفوان لكل ظالم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونحو هذا من القول، والقول الأول أرجح، والله الموفق للصواب.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ

عِيَادِهِ﴾ هي بمعنى «من»، وكثيراً ما يتوصل في موضع واحد بهذه وهذه، تقول: لا صدقة إلا عن غنى، ومن غنى، وفعل فلان ذلك من أشره ويطره، وعن أشره ويطره. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَمْلِكُوا﴾ تقرير، والمعنى: حق لهم أن يعلموا، وقوله: ﴿وَدَلَّ أَعْمَلُوا﴾ الآية. صيغة أمر مضمنا الوعيد، وقال الطبري: المراد بها الذين اعتذروا من المتخلفين وتابوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن المراد بها الذين اعتذروا ولم يتوبوا، وهم المتوعدون، وهم الذين في ضمير قوله: ﴿أَلَمْ يَمْلِكُوا﴾ إلا على الاحتمال الثاني من أن الآيات كلها في الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً. ومعنى ﴿سَبَّكَ اللَّهُ﴾ أي موجوداً متعرضاً للجزاء عليه بخير أو شر، وأما الرسول

من الناس كذا، إذا حملهم على أذاته، وقال الزجاج: معناه: ويقبل الصدقات، وقد وردت أحاديث في أخذ الله صدقة من عبيدة، منها قوله ﷺ الذي رواه عبدالله بن أبي قتادة المحاربي عن ابن مسعود عنه: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا تَصَدَّقَ بِصَدَقَةٍ وَقَعَتْ فِي يَدِ اللَّهِ قَبِلَ أَنْ تَقَعَ فِي يَدِ السَّائِلِ»، ومنه قوله الذي رواه أبو هريرة: «إِنَّ الصَّدَقَةَ تَكُونُ قَدْرَ اللَّقْمَةِ يَأْخُذُهَا اللَّهُ بِمِيزَانِهِ فَيُرِيهَا لِأَحَدِكُمْ كَمَا يُرِي أَعْيُنَ قُلُوبِهِمْ أَوْ فَصِيلَهُ حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ». وغير هذا من الأحاديث التي هي عبارة عن القبول والتحفى بصدقة العبد، فقد يحتمل أن تُخْرَجَ لَفْظَةً ﴿وَيَأْخُذُ﴾ على هذا.

ويتعلق بهذه الآية القول في قبول التوبة، وتلخيص ذلك أن قبول التوبة من الكفر يقطع به عن الله عز وجل إجماعاً، وهذه نازلة هذه الآية، وهذه الفرقة الناجية من النفاق تائبة من كفر، وأما قبول التوبة من المعاصي فيقطع بأن الله تعالى يقبل من طائفة من الأمة توبتهم، واختلف هل تقبل توبة الجميع؟ وأما إذا عين إنسان تائب فيرجى قبول توبته ولا يقطع بها على الله. وأما إذا فرضنا تائباً غير معين صحيح التوبة، فهل يقطع على الله بقبول توبته أم لا؟ فأختلف؛ فقالت فرقة فيها الفقهاء والمحدثون - وهو كان مذهب أبي رضي الله عنه -: يقطع على الله بقبول توبته لأنه تعالى أخبر بذلك عن نفسه، وعلى هذا يلزم أن تقبل توبة جميع التائبين. وذهب أبو المعالي وغيره من الأئمة إلى أن ذلك

والمؤمنون فرويتهم رؤية حقيقية لا تجوز، وقال ابن المبارك: رؤية المؤمنين هي شهادتهم على المرء بعد موته، وهي ثناؤهم عند الجنائز. وقال الحسن ما معناه أنهم حذروا من فراسة المؤمن التي قال فيها النبي ﷺ: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللَّهِ».

وقوله تعالى: ﴿وَسَرَّوْنَهُ إِلَىٰ عِلْمِ الْغَيْبِ وَاللَّهِنَّ يَنْتَشِرُ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ يريد البعث من القبور، ومعنى الغيب والشهادة: ما غاب وما شوهد، وهي حالتان تعم كل شيء، وقوله: ﴿فَيُنشِرُكُمْ﴾ عبارة عن حضور الأعمال وإظهارها للجزاء عليها، وهذا وعيد.

﴿١١١﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَأَخْرُونَ﴾ عطف على قوله أولاً: ﴿وَأَخْرُونَ﴾، وقراً

«انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهلها فاهدماه وحرّقاه»، فانطلقا مسرعين ففعلوا وحرّقاه بنار في سعف، وذكر النقاش أن رسول الله ﷺ بعث لهدمه وتحريقه عمار بن ياسر، ووحشياً مولى المطعم بن عدي، وكان بانوه اثني عشر رجلاً: خذام بن خالد ومن داره أخرج مسجد الشقاق، وثغلبة بن حاطب، ومعتب بن قشير، وأبو حبيبة بن الأزعر وعباد بن حنيفة أخو سهل بن حنيف، وجارية بن عمرو، وابناه: مجمع بن جارية وهو كان إمامهم، وحلف لعمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في خلافته أنه لم يشعر بأمرهم، وزند بن جارية، ونبث بن الحارث، ويخرج من بني ضبيعة، ويجاد بن عثمان، ووديعة بن ثابت، ويخرج منهم هو الذي حلف لرسول الله ﷺ: ما أردت إلا الحسنى والتوسعة علينا وعلى من عجز أو ضعف عن المسير إلى مسجد قباء.

وقرأ ابن أبي عبيدة: «ما أردنا إلا الأحسنى».

والآية تقتضي شرح شيء من أمر هذه المساجد، فروي أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة وقت الهجرة بنى مسجداً في بني عمرو بن عوف، وهو مسجد قباء، وقيل: وجده مبنياً قبل وروده، وقيل: وجده موضع صلاة فبناه، وتشرف القوم بذلك فحسدوه من حينئذ رجال من بني عمهم من بني غنم بن عوف وبني سالم بن عوف، فكان فيهم نفاق، وكان موضع مسجد قباء

حاتم، وقال الزهراوي: هي قراءة ابن عامر، وهي في مصاحف أهل الشام بغير واو. فأما من قرأ بالواو فذلك عطف على قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرُونَ﴾ أي: ومنهم الذين اتخذوا، وأما من قرأ بإسقاطها فرفع الذين بالابتداء، واختلف في الخبر؛ فقيل: الخبر: ﴿لَا نَقَرُ فِيهِ أَبَدًا﴾، قاله الكسائي: ويتجه بإضمار إما في أول الآية وإما في آخرها بتقدير: «لا تقم في مسجدهم»، وقيل: الخبر: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَتُهُمْ﴾، قاله النحاس، وهذا أفصح، وقد ذكرت كون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من ﴿الْآخِرُونَ﴾ آنفاً. وقال المهدي: الخبر محذوف تقديره: «مُعَذِّبُونَ» أو نحوه.

وأما الجماعة المرادة «بالذين اتخذوا» فهم منافقو بني غنم بن عوف، وبني سالم بن عوف، وأسند الطبري عن ابن إسحاق عن الزهري وغيره أنه قال: أقبل رسول الله ﷺ من غزوة تبوك حتى نزل بذي أوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - وقد كان أصحاب مسجد الضرار أتوه وهو يتجهز إلى تبوك فقالوا: يا رسول الله إنا قد بنينا مسجداً لذي العلة والحاجة والليله المطيرة، وإنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه، فقال: «إني على جناح سفر وحال شغل، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه»، فلما أقبل ونزل بذي أوان نزل عليه القرآن في شأن مسجد الضرار، فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدخشم، ومغن بن عدي أو أخاه عاصم بن عدي فقال:

نافع، والأعرج، وابن نصاح، وأبو جعفر، وطلحة، والحسن، وأهل الحجاز: ﴿مَرْجُونَ﴾ من أرجى يُرْجَى دون همز، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وأهل البصرة: ﴿مَرْجُونَ﴾ من أرجأ يرجى، بالهمز، واختلف عن عاصم، وهما لغتان، ومعناها التأخير، ومنه المرجئة لأنهم أخرّوا الأعمال، أي أخرّوا حكمها ومرتبها. وأنكر المبرد ترك الهمز في معنى التأخير، وليس كما قال.

والمراد بهذه الآية - فيما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن إسحاق - الثلاثة الذين خلفوا، وهم هلال بن أمية الواقفي، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، ونزلت هذه الآية قبل التوبة عليهم، وقيل: إنها نزلت في غيرهم من المنافقين الذين كانوا معرضين للتوبة مع بنائهم مسجد الضرار، وعلى هذا يكون ﴿الَّذِينَ أَخَذُوا﴾ بإسقاط واو العطف بدلاً من ﴿الْآخِرُونَ﴾ أو خبر ابتداءٍ تقديرهم: هم الذين، فالآية - على هذا - فيها ترج لهم واستدعاء إلى الإيمان والتوبة. و﴿عَلِيمٌ﴾ معناه: بمن يهدي إلى الرشده، و﴿حَكِيمٌ﴾ فيما ينفذه من تنعيم من شاء وتعذيب من شاء لا رب غيره ولا معبود سواه.

وقرأ عاصم، وعوام القراء، والناس في كل قطر إلا بالمدينة: ﴿وَالَّذِينَ أَخَذُوا﴾ وقرأ أهل المدينة، نافع، وأبو جعفر، وشيبة، وغيرهم: ﴿الَّذِينَ أَخَذُوا﴾ بإسقاط الواو، وكذلك هي في مصحفهم، قاله أبو

مربطاً لحمار امرأة من الأنصار اسمها لية، فكان المنافقون يقولون: والله لا نصبر على الصلاة في مربط حمار لية ونحو هذا من الأقوال، وكان أبو عامر عبد عمرو المعروف بالراهب منهم، وكانت أمه من الروم، فكان يتعبد في الجاهلية فسمي الراهب، وهو أبو حنظلة غسيل الملائكة، وكان سيداً نظيراً وقريباً من عبدالله بن أبي ابن سلول فلما جاء الله تبارك وتعالى بالإسلام نافق ولم يزل مجاهراً بذلك فسماه رسول الله ﷺ الفاسق، ثم خرج في جماعة من المنافقين فحزب على رسول الله ﷺ الأحزاب، فلما ردهم الله بغيظهم أقام أبو عامر بمكة مظهراً لعداوته، فلما فتح الله مكة هرب إلى الطائف، فلما أسلم أهل الطائف خرج هارباً إلى الشام يريد قيصر مستنصراً به على رسول الله ﷺ، وكتب إلى قومه المنافقين منهم أن ابنوا مسجداً مَقَامَةً لمسجد قباء وتحقيراً له، فإني سأتي بجيش من الروم أخرج به محمداً وأصحابه من المدينة، فَبَتُّوهُ وقالوا: سيأتي أبو عامر ويصلي فيه ويتخذة معبداً وَيُسْر به، ثم إن أبا عامر هلك عند قيصر. ونزل القرآن في أمر مسجد الضرار، فذلك قوله تعالى: ﴿وَرِضَاكَ لِمَنْ حَارَبَكَ اللَّهُ رَسُولُهُ﴾ يعني أبا عامر وقولهم: «سيأتي أبو عامر». وقرأ الأعمش: ﴿لِلَّذِينَ حَارَبُوا اللَّهَ﴾، وقوله: ﴿بِرَاكًا﴾ أي داعية للخصام بين جماعتين، فلذلك قال: ﴿بِرَاكًا﴾، وهو في الأصل مصدر ما يكون من

اثنتين وإن كان المصدر الملازم لذلك مُفَاعَلَةٌ كما قال سيبويه. ونصب (ضِرَار) وما بعده على المصدر في موضع الحال، ويجوز أن يكون على المفعول من أجله، وقوله: ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: بين الجماعة التي كانت تصلي في مسجد قباء، فإن من جاوز مسجدهم كانوا يصفونهم إليه وذلك داعية إلى صرفه عن الإيمان. وقيل: أراد بقوله: ﴿بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ جماعة مسجد رسول الله ﷺ، وهذا بحسب الخلاف في المسجد المؤسس على التقوى، وسيأتي ذلك. قال النقاش: يلزم من هذا ألا يُصَلَّى في كنيسة ونحوها لأنها بنيت على شر من هذا كله، وقد قيل في هذا: ﴿لَا تُشْرَ فِيهِ أَبَدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفقه غير قوي.

والإرصاد: الإعداد والتهيئة، والذي حارب الله ورسوله: أبو عامر الفاسق، وقوله: ﴿بَيْنَ قَبَلٍ﴾ يريد: في غزوة الأحزاب وغيرها، والحالف المراد في قوله: ﴿وَالْيَحْيَيْنَ﴾ هو بَخْرَجُ ومن حلف من أصحابه، وكَسِرَت الألف من قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ لَكَذِبُونَ﴾ لأن الشهادة في معنى القول.

وأسند الطبري عن شقيق أنه جاء ليصلي في مسجد بني غاضرة فوجد الصلاة قد فاتته، فقيل له: إن مسجد بني فلان لم يصل فيه بعد فقال: لا أحب أن أصلي فيه فإنه بُني على ضرار، وكل مسجد بُني ضراراً ورياءً وسُمعة فهو في حكم مسجد

الضرار، وروي أن مسجد الضرار لما هدم وأحرق اتخذ مزبلة ترمى فيه الأقدار والقمامات.

﴿١٠٨﴾ - ﴿١٠٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

روي أن رسول الله ﷺ لما نزلت: ﴿لَا تَقْرَ فِيهِ أَبَدًا﴾ كان لا يمر بالطريق التي فيها المسجد، وهذا النهي إنما هو لأن البانين لمسجد الضرار قد كانوا خادعوا رسول الله ﷺ وقالوا: بنينا مسجداً للضرورات والسييل الحائل بيننا وبين قومنا فنريد أن تصلي لنا فيه وتدعو بالبركة، فهَمَّ رسول الله ﷺ بالمشي معهم إلى ذلك، واستدعى قميصه لينهض فنزلت الآية: ﴿لَا تَقْرَ فِيهِ أَبَدًا﴾. وقوله: ﴿لَتَسْجِدَ﴾ قيل: إن اللام لام قَسَم، وقيل: هي لام الابتداء كما تقول: لَتَزِيدَ أحسن الناس فعلاً، وهي مقتضية تأكيداً.

وقال ابن عباس، وفرقة من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم: المراد بالمسجد الذي أسس على التقوى: هو مسجد قباء، وروي عن عمر، وأبي سعيد، وزيد بن ثابت أنه مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة، ويليق القول الأول بالقصة، إلا أن القول الثاني روي عن رسول الله ﷺ، ولا نظر مع الحديث، وأسند الطبري في ذلك عن أبي سعيد الخدري أنه قال: اختلف رجل من بني خدره ورجل من بني عمرو بن عوف فقال الخدري: هو مسجد الرسول ﷺ، وقال الآخر: هو مسجد قباء، فأثبا رسول الله ﷺ فسألاه فقال: «هو

فقال رسول الله ﷺ: «فلا تدعوه أبداً».

وقال عبدالله بن سلام وغيره ما معناه: إن الضمير عائد على مسجد قباء، والمراد بنو عمرو بن عوف، وروي أن رسول الله ﷺ إنما قال المقالة المتقدمة لبني عمرو بن عوف، والأول أكثر. واختلف أهل العلم في الأفضل بين الاستنجاء بالماء أو بالحجارة، فقيل هذا وقيل هذا، ورأت فرقة من أهل العلم الجمع بينهما، فينقى بالحجارة ثم يتبع بالماء، وحدثني أبي رضي الله عنه أنه بلغه أن بعض علماء القيروان كانوا يتخذون في متوضياتهم أحجاراً في تراب ينقون بها ثم يستنجون بالماء أخذاً بهذا القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يتصور الخلاف في البلاد التي يمكن فيها أن تنقى الحجارة. وابن حبيب لا يجيز الاستنجاء بالحجارة حيث يوجد الماء، وهو قول شذ فيه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَطْهَرُوا﴾، وقرأ طلحة بن مصرف، والأعمش: ﴿يَطْهَرُوا﴾ بالإدغام، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿الْمُطَهَّرِينَ﴾ بالناء، وأسند الطبري عن عطاء أنه قال: أحدث قوم من أهل قباء الاستنجاء بالماء فنزلت الآية فيهم، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «منهم عويم بن ساعدة» ولم يسم أحداً منهم غير عويم.

وقوله تعالى: ﴿أَقَمْنَا اسْمَكَ﴾ الآية. استفهام بمعنى

زماً فيقدر مضمراً يليق أن تجره (من) كقول الشاعر:

لِمَنِ الدِّيَارُ كَقِسْتِةِ الحِجْرِ
أَقْوَمْنَ مِنْ حَجَجٍ وَمِنْ دَهْرٍ؟
و «مِنْ شَهْرٍ» رواية، فقدروه: «مِنْ مَرْجَجٍ وَمِنْ مَرْ دَهْرٍ»، ولما كان قوله تعالى: ﴿أَوَّلَ يَوْمٍ﴾ يوماً وهو اسم زمان احتاجوا فيه إلى تقدير «مِنْ تَأْسِيسٍ»، ويحسن عندي أن يُستغنى في هذه الآية عن تقدير، وأن تكون (من) تجر لفظة [أَوَّل] لأنها بمعنى البداية، كأنه قال: من مبتدئ الأيام، وهي - هنا - تقوم مقام «المَرَّة» في البيت المتقدم، وهي كما تقول: «جئت من قبلك ومن بعدك» وأنت لا تدل بهاتين اللفظتين إلا على الزمن، وقد حُكي لي هذا الذي اخترته عن بعض أئمة النحو.

ومعنى ﴿أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ أي بصلاتك وعبادتك. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنْ تَقُومَ فِيهِ يَوْمَ يَجَأُ﴾ بكسر الهاء، وقرأ عبدالله ابن زيد: ﴿أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ﴾ بضم الهاء الثانية على الأصل، ويُحَسِّنُهُ تَجَبُّ تَكَرَّرَ لفظ واحد، وقال قتادة وغيره: الضمير عائد على مسجد الرسول ﷺ، والرجال: جماعة الأنصار.

وروي أن رسول الله ﷺ قال لهم: «يا معشر الأنصار إني رأيت الله أنثى عليكم بالطهور فماذا تفعلون؟» فقالوا: يا رسول الله: إنا رأينا جيراننا من اليهود يتطهرون بالماء، (قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريدون الاستنجاء بالماء) ففعلنا نحن ذلك، فلما جاء الإسلام لم ندعه،

مسجدي هذا، وفي الآخر خير كثير إلى كثير من الآثار في هذا عن أبي بن كعب، وسهل بن سعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومسجد رسول الله ﷺ كان في بقعته نخل وقبور مشركين ويريد ليطيبن كانا في حجر أسعد بن زرارة، وبناء رسول الله ﷺ ثلاث مرات: الأولى بالسَّمِيط وهي لبنة أمام لبنة، والثانية بالصعيدة، وهي لبنة ونصف في عرض الحائط، والثالثة بالأُنثى والذكر، وهي لبنتان تعرض عليهما لبنتان، وكان في طوله سبعون ذراعاً، وكان عُمدُه النخل، وكان عريشاً يكشف المطر، وعرض على رسول الله ﷺ بنيانه ورفعته فقال: «لا، بل يكون عريشاً كعريش أخي موسى كان إذا قام ضرب رأسه في سقفه»، وكان رسول الله ﷺ ينقل فيه اللبن على صدره، ويقال إن أول من وضع في أساسه حجراً رسول الله ﷺ، ثم وضع أبو بكر حجراً، ثم وضع عمر حجراً، ثم وضع عثمان حجراً، ثم رمى الناس بالحجارة فتفاءل بذلك بعض الصحابة في أنها الخلافة فصدَّقَ فأله.

وقوله: ﴿مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ قيل: معناه: منذ أول يوم، وقيل: معناه: من تأسيس أول يوم، وإنما دعا إلى هذا الاختلاف أن من أصول النحويين أن (من) لا تُجر بها الأزمان وإنما تُجر الأزمان بمنذ، تقول: ما رأيت منذ يومين أو سنة أو يوم، ولا تقول: من شهر ولا من سنة، ولا من يوم، فإذا وقعت (من) في الكلام وهي تلي

تقرير. وقرأ نافع، وابن عامر، وجماعة: «أَسَسَ بُنْيَانَهُ» على بناء [أَسَسَ] للمفعول ورفع [بُنْيَانًا] فيهما، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وجماعة: «أَسَسَ بُنْيَانَهُ» على بناء الفعل للفاعل ونصب [بُنْيَانًا] فيهما، وقرأ عمارة بن ضبا - رواه يعقوب - الأول على بناء الفعل للمفعول والثاني على بنائه للفاعل. والآية تتضمن معادلة بين شيئين، فإما بين البنائين وإما بين البنائين، فالمعادلة الأولى هي بتقدير: «أبناء من أسس؟». وقرأ نصر بن علي - ورويت عن نصر بن عاصم -: «أَقَمَّنْ أَسْ بُنْيَانَهُ» على إضافة «أَسْ» إلى البنائين، وقرأ نصر بن عاصم، وأبو حيوه أيضاً: «أَسَّسَ بُنْيَانَهُ»، وقرأ نصر بن عاصم أيضاً: «أَسَسَ بُنْيَانَهُ» على وزن (فَعَلَ) بضم الفاء والعين، وهو جمع أساس كقَدَالٍ وقُدْلٍ، حكى ذلك أبو الفتح، وذكر أبو حاتم أن هذه القراءة لنصر إنما هي: «أَسَسَ» بهمزة مفتوحة وسين مفتوحة وسين مضمومة، وعلى الحكايين فالإضافة إلى البنائين، وقرأ نصر بن علي أيضاً: «أَسَّسَ» على جمع «أَسْ»، والبنائين مصدر، يقال: بنى يبني بناءً وبُنْيَانًا كالقُفْرَانِ والطُّغْيَانِ فسمي به المبني مثل الخُلُقِ إذا أردت به المخلوق، وقيل: هو جمعٌ واحدٌ بُنْيَانَةٌ، وأنشد في ذلك أبو علي:

كِبْنِيَانَةَ الْقَارِي مَوْضِعَ رِجْلِهَا
وَأَثَارِ نَسْعِيهَا مِنَ الدَّفِّ أَبْلَقُ
وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: «عَلَى تَقْوَى»، وقرأ

عيسى بن عمر: «عَلَى تَقْوَى» بتنوين الواو، حكى هذه القراءة سيويوه وردها الناس، قال أبو الفتح: قياسها أن تكون الألف للإلحاق كأرطى ونحوه.

وأما المراد بالبُنْيَانِ الذي أسس على التقوى والرضوان فهو - في ظاهر اللفظ وقول الجمهور - المسجد المذكور قبل، ويترد فيه الخلاف المتقدم، وروي عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: المراد بالمسجد المؤسس على التقوى هو مسجد رسول الله ﷺ، والمراد بأنه أسس على تقوى من الله ورضوان هو مسجد قباء، وأما البُنْيَانِ الذي أسس على شفا جرف هار فهو مسجد الضرار بإجماع.

والشُّفَا: الحاشية والشُّفَيْر، والجُرْفُ: الحفير حول البئر ونحوه مما جرفته السيول والثدوة والبلبي، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وجماعة: «جُرْفٍ» بضم الراء، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، وجماعة: «جُرْفٌ» بسكون الراء، واختلف عن عاصم، وهما لغتان، وقيل: الأصل بضم الراء وتخفيفها بعد ذلك مستعمل. و«هَارٍ» معناه: متهدم مُنْهَال، من هَارَ يَهْوِر، ويقال: هَارَ يَهِيرُ ويَهَارُ، وأصله: هَايِرُ أو هَاوِرٌ، فقيل: قلبت رأؤه قبل حرف العلة فجاء هَارِوٌ أو هَارِي، فصنع به ما صنع بِقَاضٍ وغَازٍ، وعلى هذا يقال في حال النصب: هَارِيًا، ومثله «في يوم راح» أصله: رَاتِحٌ، ومثله «شَاكِي السِّلَاحِ» أصله: شَانِكٌ، ومثله قول العجاج:

لَا يَبِهُ الْأَشْيَاءَ وَالْعُنْبُرِي
أصله: لَا يَبُتُّ، ومثله قول الشاعر:

خَفَضُوا أَسِنَّتَهُمْ فَكُلُّ نَاعٍ
على أحد الوجهين، فإنه يحتمل أنه من «نَعَى» والمعنى: والمراد أنهم يقولون: «يا ثارات فلان»، ويحتمل أن يريد: «فكلهم نَاعٍ» أي عايش كما قال عُثَيْرُ بن شَيْمٍ:

... وَالْأَسَلُ النَّيَاعَا
وقيل في «هَارٍ»: إن حرف عله حُذِفَ حذفاً، فعلى هذا يجري بوجوه الإعراب فتقول: هذا جُرْفٌ هَارٌ، ورأيت جُرْفًا هَارًا، ومررت بِجُرْفٍ هَارٍ. واختلف القراءة في إمالة «هَارٍ» و«فَاتَهَارَ».

وتأسس البناء على تقوى إما هو يُحْسِنُ النية فيه وقصد وجه الله تبارك وتعالى وإظهار شرعه، كما صنع في مسجد النبي ﷺ وفي مسجد قباء. والتأسس على شفا جرف هار إنما هو بفساد النية وقصد الرياء والتفريق بين المؤمنين، فهذه تشبيهات صحيحة بارعة. و«خَيْرٌ» في هذه الآية تفضيل، ولا شركة بين الأمرين في خير إلا في معتقد باني مسجد الضرار، فيحسب ذلك المعتقد صح التفضيل.

وقوله تعالى: «فَاتَهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ» الظاهر منه ومما صح من خبرهم وهذم رسول الله ﷺ مسجدهم أنه خارج مخرج المثل، أي: مثل هؤلاء المضارين من المنافقين في قصدهم معصية الله

وحصولهم من ذلك على سخطه كمن ينهار بنيانه في نار جهنم، ثم اقتضب الكلام اقتضاباً يدل عليه ظاهره. وقيل: بل ذلك حقيقة وإن ذلك المسجد بعينه انهار في نار جهنم، قاله قتادة وابن جريج. وروي عن جابر بن عبدالله وغيره أنه قال: رأيت الدخان يخرج منه على عهد رسول الله ﷺ، وروي في بعض الكتب أن رسول الله ﷺ رآه حين انهار حتى بلغ الأرض السابعة ففرغ لذلك رسول الله ﷺ، وروي أنهم لم يصلوا فيه أكثر من ثلاثة أيام، أكملوه يوم الجمعة وصلوا فيه يوم الجمعة وليلة السبت وانهار يوم الاثنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله بإسناد لين، وما قدمناه أصوب وأصح، وكذلك بقي أمره والصلاة فيه من قبل سفر رسول الله ﷺ إلى تبوك إلى أن قفل منها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ طعن على هؤلاء المنافقين وإشارة إليهم. والمعنى: لا يهديهم من حيث هم ظالمون، أو يكون المراد الخصوص فيمن يوافي على ظلمه، وأسند الطبري عن خلف بن ياسين أنه قال: رأيت مسجد المنافقين الذي ذكره الله في القرآن فرأيت فيه مكاناً يخرج منه الدخان، وذلك في زمن أبي جعفر المنصور. وروي شبيه بهذا أو نحوه عن ابن جريج، أسنده الطبري.

﴿١١٠﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿بَنَيْتُهُمْ﴾ عائد على

المنافقين البائين للمسجد ومن شاركهم في غرضهم، وقوله: ﴿الَّذِي بَرَّأ﴾ تأكيد وتصريح بأمر المسجد ورفع للإشكال. والرؤية: الشك، وقد يُسمى رؤيةً فساداً المعتقد واضطرابه والاعتراض في الشيء والتخبط فيه والحزازة من أجله وإن لم يكن شكاً، فقد يرتاب من لا يشك، ولكنها في مُتَعَاد اللغة تجري مع الشك. ومعنى الرؤية - في هذه الآية - أمر يعم الغيظ والحنق ويعم اعتقاد صواب فعلهم ونحو هذا مما يؤدي كله إلى الرؤية في الإسلام، فمقصد الكلام: لا يزال هذا البنيان الذي هدم لهم يُبقي في قلوبهم حزازة وأثر سوء، وبالشك فسر ابن عباس رضي الله عنهما الرؤية هنا، وفسرها السدي بالكفر، وقيل له: أَتَكْفُرُ مجمع بن جارية؟ قال: لا ولكنها حزازة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومُجْمَعُ رحمه الله قد أقسم لعمر رضي الله عنه أنه ما علم باطن القوم ولا قصد سوءاً، والآية إنما عنت من أبطن سوءاً، فليس مجمع منهم. ويحتمل أن يكون المعنى: لا يزالون مريبين بسبب بنائهم الذي اتضح فيه نفاقهم، وجملة هذا أن الرؤية في الآية تعم معاني كثيرة يأخذ كل مناقق منها بحسب قدره من النفاق.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ قُلُوبَهُمْ﴾ بضم التاء وبناء الفعل للمفعول، وقرأ ابن عامر، وحمزة، وعاصم - بخلاف عنه -: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْطَعَ﴾ بفتح التاء على أنها فاعلة، وقرأ

الحسن بن أبي الحسن، ومجاهد، وقاتدة: ﴿إِلَى أَنْ تَقْطَعَ﴾ على معنى: إلى أن يموتوا، وقرأ بعضهم: ﴿إِلَى أَنْ تَقْطَعَ﴾، وقرأ أبو حيوه: ﴿إِلَّا أَنْ يُقْطَعَ﴾ بالياء مضمومة وكسر الطاء ونصب القلوب، أي: بالقتل، وأما على القراءة الأولى فقيل: بالموت، قاله ابن عباس، وقاتدة، وابن زيد وغيرهم. وقيل: بالتوبة، وليس هذا بالظاهر إلا أن يُتَأَوَّل: أو يتوبوا توبة نصوحة يكون معها من الندم والحسرة على الذنب ما يقطع القلوب هماً وفكرة، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَلَوْ قُطِعَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، وكذلك قرأها أصحابه وحكاها أبو عمرو: ﴿وإن قُطِعَتْ﴾ بتخفيف الطاء، وفي مصحف أبي: ﴿حتى الممات﴾، وفيه: ﴿حتى تقطع﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ﴾ الآية. هذه الآية نزلت في البيعة الثالثة وهي بيعة العقبة الكبرى، وهي التي أناف فيها رجال الأنصار على السبعين، وكان أصغرهم سنّاً عقبة بن عمرو، وذلك أنهم اجتمعوا مع رسول الله ﷺ عند العقبة فقالوا: اشترط لك ولربك، والمتكلم بذلك عبدالله بن رواحة، فاشترط رسول الله ﷺ حمايته مما يحمون منه أنفسهم، واشترط لربّه التزام الشريعة وقاتل الأحمر والأسود في الدفع عن الحوزة، فقالوا: ما لنا على ذلك؟ قال: الجنة، فقالوا: نعم، ربح البيع لا تقبل ولا نقال، وفي بعض الروايات: ولا نستقبل، فنزلت الآية في ذلك، ثم الآية - بعد ذلك - عامة في كل من جاهد في

الله ﴿مقطوع ومستأنف، وذلك على تأويل سفيان بن عيينة، وأما على تأويل الجمهور من أن الشراء والبيع إنما هو مع المجاهدين فهو في موضع الحال، وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وأبو عمرو، والحسن، وقتادة، وأبو رجاء، وغيرهم: ﴿يَقْتُلُونَ﴾ على البناء للفاعل، ﴿وَيُقْتَلُونَ﴾ على البناء للمفعول، وقرأ حمزة، والكسائي، والشَّعبي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش بعكس

سبيل الله من أمة محمد ﷺ إلى يوم القيامة، وقال بعض العلماء: ما من مسلم إلا والله في عنقه هذه البيعة وثى بها أو لم يف، وفي الحديث: **إِن فَوْقَ كُلِّ بَرٍّ بَرٌّ حَتَّى يَبْذُلَ الْعَبْدُ دَمَهُ فَإِذَا فَعَلَ ذَلِكَ فَلَا بَرٌّ فَوْقَ ذَلِكَ**، وهذا تمثيل من الله عز وجل جميل صنعه بالمبايعة، وذلك أن حقيقة المبايعة أن تقع بين نفسيين بقصد منهما وتملك صحيح، وهذه القصة وهب الله عباده أنفسهم وأموالهم، ثم أمرهم ببذلها في ذاته، ووعدهم على ذلك ما هو خير منها، فهذا غاية التفضل، ثم شبه القصة بالمبايعة، وأسند الطبري عن كثير من أهل العلم أنهم قالوا: **ثَامَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِبَادَهُ فَأَعْلَى لَهُمْ**، وقال ابن عباس، والحسن بن أبي الحسن، وقال ابن عيينة: معنى الآية: اشترى منهم أنفسهم ألا يُعملوها إلا في طاعة الله، وأموالهم ألا ينفقوها إلا في سبيل الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالآية - على هذا - أعم من القتل في سبيل الله، ومبايعة الخلفاء هي منتزعة من هذه الآية، كان الناس يعطون الخلفاء طاعتهم ونصائحهم وجدهم، ويُعطِيهِم الخلفاء عدلهم ونظرهم والقيام بأمرهم. وحدثني أبي رضي الله عنه أنه سمع الواعظ أبا الفضل ابن الجوهري يقول على المنبر بمصر: **ناهيك من صفقة البائع فيها رب العلاء، والشمن جنة المأوى، والواسطة محمد المصطفى ﷺ**.

وقوله تعالى: ﴿يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ

التَّائِبِينَ الْمُكْفِرِينَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَالْمَنْكُورِ عَنِ النَّكَرِ وَالْمُحْفِطُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَيَنْتَفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولَى قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿١١٢﴾ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ الْإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا أَيَّاهُ فَلَمَّا بَيَّنَّ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٣﴾ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعَالَمِينَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١١٥﴾ لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْفَتْحِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ لَقَدْ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ يَهْتَدِي بِهِمْ رَبُّهُ وَقَدْ نَبِّئُوا

بِرَبِّ اللَّهِ ﴿استفهام على جهة التقرير، أي: لا أحد أوفى بعهده من الله، وقوله: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ فعل جاء فيه استفعل بمعنى أفلح، وليس هذا من معنى طلب الشيء كما تقول: استوقد ناراً، واستهدى مالا، واستدعى نصراً، بل هو كعجب واستعجب، ثم وصف تبارك وتعالى ذلك البيع بأنه ﴿الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، أي أنه الحصول على الحظ الأعظم من حط الذنوب ودخول الجنة بلا حساب.

﴿١١٥﴾ - ﴿١١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الأوصاف هي من صفات المؤمنين الذين ذكر الله أنه اشترى منهم أنفسهم، وارتفعت هذه الصفات لما جاءت مقطوعة في ابتداء آية على معنى: هم التائبون. ومعنى الآية على ما تقتضيه أقوال

ذلك، والمعنى واحد إذ الغرض أن المؤمنين يقاتلون فيوجد فيهم من يُقتل وفيه من يُقتل، وفيهم من يجتمعان له، وفيهم من لا تقع له واحدة منهما، وليس الغرض أن يجتمع ولا بد لكل واحد واحد، وإذا اعتبر هذا بان.

وقوله سبحانه: ﴿وَعَدَّا عَلَيْهِمْ حَتَّى﴾ مصدر مؤكد لأن ما تقدم من الآية هو في معنى الوعد فجاء هذا مؤكداً لما تقدم من قوله: ﴿يَأْتِيَهُمْ الْجَنَّةُ﴾. وقال المفسرون: يظهر من قوله سبحانه: ﴿فِي النَّوْزَةِ وَالْإِيمَانِ وَالْقُرْآنِ﴾ أن كل أمة أمرت بالجهاد ووعدت عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن ميعاد أمة محمد ﷺ تقدم ذكره في هذه الكتب. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرْوَفَ بِمَهْدِيهِ

العلماء والشرع أنها أوصاف الكلمة من المؤمنين ذكرها الله تعالى ليستبق إليها أهل التوحيد حتى يكونوا في أعلى رتبة، والآية الأولى مستقلة بنفسها، يقع تحت تلك المبايعة كل موحد قاتل في سبيل الله لتكون كلمة الله هي العليا وإن لم يتصف بهذه الصفات التي في هذه الآية الثانية أو بأكثرها. وقالت فرقة: بل هذه الأوصاف جاءت على جهة الشرط، والآيتان مرتبطتان فلا يدخل في المبايعة إلا المؤمنون الذين هم على هذه الأوصاف ويبدلون أنفسهم في سبيل الله. وأسد الطبري في ذلك عن الضحاك بن مزاحم أن رجلاً سأله عن قول الله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فَأَقْتَلَ حَتَّىٰ أَقْتَلَ؟ فَقَالَ الضَّحَّاكُ: وَيْلَكَ، أَيْنَ الشَّرْطُ: ﴿التَّائِبُونَ الْمُكْبِرُونَ﴾ الآية؟ وهذا القول تحريج وتضييق والله أعلم، والأول أصوب، والشهادة ماحية لكل ذنب إلا لمظالم العباد، وقد روي أن الله تعالى يحمل عن الشهيد مظالم العباد ويجازيهم عنه، حَتَمَ اللهُ لَنَا بِالْحَسَنِ.

وقالت فرقة: إن رفع التائبين إنما هو على الابتداء وما بعده صفة إلا قوله: ﴿الْأَمِيرُونَ﴾ فإنه خير الابتداء، كأنه قال: هم الأمرون، وهذا حسن إلا أن معنى الآية ينفصل من معنى التي قبلها، وذلك قلق فتأمل. وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿التَّائِبِينَ الْعَابِدِينَ﴾ إلى آخرها، ولذلك وجهان: أحدهما: الصفة

للمؤمنين على اتباع اللفظ، والآخر: النصب على المدح.

و ﴿التَّائِبُونَ﴾ يعم الرجوع من الشر إلى الخير كان ذلك من كفر أو معصية، والرجوع من حالة إلى ما هي أحسن منها وإن لم تكن الأولى شراً بل خيراً، وهكذا كانت توبة النبي ﷺ واستغفاره سبعين مرة في اليوم، والتائب هو المُقْلَعُ عن الذنب العازم على التماسي على الإقلاع التادم على ما سلف، والتائب عن ذنب يسمى تائباً وإن أقام على غيره إلا أن يكون من نوعه فليس بتائب، والتوبة ونقضها دائباً خيراً من الإصرار، ومن تاب ثم نقض ووافى على النقص فإن ذنوبه الأولى تبقى عليه لأن توبته منها علم الله أنها منقوضة، يحتمل الأمر غير ذلك، والله أعلم.

وقال الحسن في تفسير الآية: ﴿التَّائِبُونَ﴾ معناه: من الشرك.

و ﴿التَّكْبِرُونَ﴾ لفظ يعم القيام بعبادة الله تبارك وتعالى والتزام شرعه وملازمة ذلك والمشاركة عليه والدوام، والعايد هو المحسن الذي فسر رسول الله ﷺ في قوله: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، وبأدنى عبادة يؤديها المرء المسلم يقع عليه اسم عابد ويحصل في أدنى رتبة، وعلى قدر زيادته في العبادة يحصل الوصف.

و ﴿الْمُتَذَكِّرُونَ﴾ معناه: الذاكرون الله بأوصافه الحسنى في كل حال وعلى السراء والضراء، وحمده لأنه أهل لذلك، وهو أعم من الشكر إذ الشكر إنما هو على النعم الخاصة بالشاكر.

و ﴿السَّكِينُونَ﴾ معناه: الصائمون، وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «سباحة هذه الأمة الصيام»، أسنده الطبري، وروي أنه من كلام النبي ﷺ، وفي الحديث: «إِنَّ اللَّهَ مَلَائِكَةٌ سَيَّاحِينَ مُشَاطِينَ فِي الْأَفَاقِ يَبْلُغُونِي صَلَاةَ أُمَّتِي عَلَيَّ»، ويروي الحديث «صَيَّاحِينَ» بالصاد من الصيَّاح، والسيَّاح في الأرض مأخوذ من السَّيْح وهو الماء الجاري على الأرض إلى غير غاية، وقال بعض الناس - وهو في كتاب النقشاش -: «السَّكِينُونَ» هم الجائلون بأفكارهم في قدرة الله وملكوته، وهذا قول حسن، وهي من أفضل العبادات، ومن ذلك قول معاذ بن جبل رضي الله عنه: «أقعد بنا نؤمن ساعة»، ويروي أن بعض العباد أخذ القدح ليتوضأ لصلاة الليل، فأدخل إصبعه في أذن القدح وجعل يفكر حتى طلع الفجر، فقيل له في ذلك فقال: أدخلت إصبعي في أذن القدح فتذكرت قول الله تعالى: ﴿إِذِ الْأَعْزَلُ فِي أَعْقَابِهِمُ وَالسَّلِيلُ﴾، وفكرت كيف أتلقى الغلُ وبقيت في ذلك ليلي أجمع.

و ﴿الرَّكَعُونَ السَّجِدُونَ﴾ هم المصلون الصلوات الخمس، كذا قال أهل العلم، ولكن لا يختلف في أن من يكثر من التواقل هو أدخل في الاسم وأغرق في الاتصاف.

وقوله: ﴿الْأَمِيرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالْكَافِرُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ هو أمر فرض على أمة محمد ﷺ بالجملة، ثم يفترق الناس فيه مع التعيين، فأما ولاية الأمر والرؤساء فهو فرض

عليهم في كل حال، وأما سائر الناس فهو فرض عليهم بشروط، منها: ألا تلحقه مضرة، وأن يعلم أن قوله يُسمع ويُعمل به ونحو هذا، ثم من تحمل بعد في ذات الله مشقة فهو أعظم أجراً، وأسند الطبري عن بعض العلماء أنه قال: حيثما ذكر الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الأمر بالإسلام والنهي عن الكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أنه يتناول هذا وهو أحرى أن يتناول ما دونه فتعميم اللفظ أولى. وأما هذه الواو التي في قوله: ﴿وَالكَاثِرُونَ﴾ ولم يتقدم في واحدة من الصفات قبل، فقيل: معناها الربط بين هاتين الصفتين وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ هما من غير قبيل الصفات الأول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الأول فيما يخص المرء، وهاتان فيما بينه وبين غيره، ووجب الربط بينهما لتلازمهما وتناسبهما، وقيل: هي زائدة، وهذا قول ضعيف لا معنى له، وقيل: هي واو الثمانية، لأن هذه الصفة جاءت ثامنة في الرتبة، ومن هذا قوله تعالى في أبواب الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، وقوله: ﴿وَنَامَتْهُمْ كَنَانُهُمْ﴾، ومن هذا قوله: ﴿فَيَسِّرْ وَأَنْكَارًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على أن هذه تعترض حتى لا يلزم أن تكون واو ثمانية لأنها فرقت بين فصلين يعمان بمجموعهما جميع النساء ولا يصح أن يكون ﴿يَسِّرْ وَأَنْكَارًا﴾ فهي فاصلة ضرورة، وواو

الشمانية قد ذكرها ابن خالويه في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وأنكرها أبو علي، وحدثني أبي رضي الله عنه عن الأستاذ النحوي أبي عبدالله الكفيف المالقي - وكان قد استوطن غرناطة وأقرأ فيها في مدة ابن جبوس - أنه قال: «هي لغة فصيحة لبعض العرب، من شأنهم أن يقولوا إذا عدوا: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، عشرة، فهكذا هي لغتهم، ومتى ما جاء في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو».

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْمَنُوا بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ لفظ عام تحته إلزام الشريعة والانتهاء عما نهى الله عنه في كل شيء وفي كل فن، وقوله: ﴿وَيَسِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو لفظ عام أمر به النبي ﷺ أن يبشر أمته جميعاً بالخير من الله، وقيل: بل هذه الألفاظ خاصة لمن لم يغز، أي: لما تقدم في الآية وعد المجاهدين وفضلهم أمر أن يبشر سائر الناس ممن لم يغز بأن الإيمان مخلص من النار، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية. يقتضي التأنيب ومنع الاستغفار للمشركين مع اليأس عن إيمانهم، إما بموافاتهم على الكفر وموتهم، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العاص بن وائل: «لا جزاء الله خيراً»، وإما بنص من الله تعالى على أحد كأبي لهب وغيره فيمتنع الاستغفار له وهو حي.

واختلف المفسرون في سبب هذه الآية؛ فقال الجمهور - ومداره على ابن المسيب وعمرو بن دينار -: نزلت في شأن أبي طالب، وذلك أن رسول الله ﷺ دخل عليه حين احتضر ووعظه وقال: «أبي عم، قل: لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله تعالى»، وكان بالحضرة أبو جهل وعبدالله بن أمية، فقالا له: يا أبا طالب أتغرب عن ملّة عبدالمطلب؟ فقال أبو طالب: يا محمد، والله لولا أنني أخاف أن يعثر بها ولدي من بعدي لأقررت بها عينك، ثم قال: أنا على ملّة عبدالمطلب، ومات على ذلك، إذ لم يسمع منه النبي ﷺ ما قال للعباس، فنزلت: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، فقال رسول الله ﷺ: «والله لأستغفرون لك ما لم أنه عنك»، فكان يستغفر له حتى نزلت هذه الآية فترك رسول الله ﷺ الاستغفار لأبي طالب، وروي أن المؤمنين لما رأوا رسول الله ﷺ يستغفر لأبي طالب جعلوا يستغفرون لموتاهم، فلذلك دخلوا في التأنيب والنهي، والآية - على هذا - ناسخة لفعل النبي ﷺ إذ أفعاله في حكم الشرع المستقر.

وقال فضيل بن عطية وغيره: إن رسول الله ﷺ لما فتح مكة أتى قبر أمه فوقف عليه حتى سخنت عليه الشمس، وجعل يرغب في أن يؤذن له في الاستغفار لهم فلم يؤذن له، فأخبر أصحابه أنه أذن له في زيارة قبرها ومنع أن يستغفر لها، فما رُئي باكياً أكثر من يومئذ، ونزلت الآية في ذلك، وقالت فرقة: إنما نزلت بسبب

عليهم في كل حال، وأما سائر الناس فهو فرض عليهم بشروط، منها: ألا تلحقه مضرة، وأن يعلم أن قوله يُسمع ويُعمل به ونحو هذا، ثم من تحمل بعد في ذات الله مشقة فهو أعظم أجراً، وأسند الطبري عن بعض العلماء أنه قال: حيثما ذكر الله الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو الأمر بالإسلام والنهي عن الكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أنه يتناول هذا وهو أحرى أن يتناول ما دونه فتعميم اللفظ أولى. وأما هذه الواو التي في قوله: ﴿وَالكَاثِرُونَ﴾ ولم يتقدم في واحدة من الصفات قبل، فقيل: معناها الربط بين هاتين الصفتين وهما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذ هما من غير قبيل الصفات الأول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الأول فيما يخص المرء، وهاتان فيما بينه وبين غيره، ووجب الربط بينهما لتلازمهما وتناسبهما، وقيل: هي زائدة، وهذا قول ضعيف لا معنى له، وقيل: هي واو الثمانية، لأن هذه الصفة جاءت ثامنة في الرتبة، ومن هذا قوله تعالى في أبواب الجنة: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾، وقوله: ﴿وَنَامَتْهُمْ كَنَانُهُمْ﴾، ومن هذا قوله: ﴿فَيَسِّرْ وَأَنْكَارًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على أن هذه تعترض حتى لا يلزم أن تكون واو ثمانية لأنها فرقت بين فصلين يعمان بمجموعهما جميع النساء ولا يصح أن يكون ﴿يَسِّرْ وَأَنْكَارًا﴾ فهي فاصلة ضرورة، وواو

الشمانية قد ذكرها ابن خالويه في مناظرته لأبي علي الفارسي في معنى قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ وأنكرها أبو علي، وحدثني أبي رضي الله عنه عن الأستاذ النحوي أبي عبدالله الكفيف المالقي - وكان قد استوطن غرناطة وأقرأ فيها في مدة ابن جبوس - أنه قال: «هي لغة فصيحة لبعض العرب، من شأنهم أن يقولوا إذا عدوا: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، سبعة، وثمانية، تسعة، عشرة، فهكذا هي لغتهم، ومتى ما جاء في كلامهم أمر ثمانية أدخلوا الواو».

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْمَنُوا بِأَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ﴾ لفظ عام تحته إلزام الشريعة والانتهاء عما نهى الله عنه في كل شيء وفي كل فن، وقوله: ﴿وَيَسِّرْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قيل: هو لفظ عام أمر به النبي ﷺ أن يبشر أمته جميعاً بالخير من الله، وقيل: بل هذه الألفاظ خاصة لمن لم يغز، أي: لما تقدم في الآية وعد المجاهدين وفضلهم أمر أن يبشر سائر الناس ممن لم يغز بأن الإيمان مخلص من النار، والحمد لله رب العالمين.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَتْ لِلنَّبِيِّ﴾ الآية. يقتضي التأنيب ومنع الاستغفار للمشركين مع اليأس عن إيمانهم، إما بموافاتهم على الكفر وموتهم، ومنه قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العاص بن وائل: «لا جزاء الله خيراً»، وإما بنص من الله تعالى على أحد كأبي لهب وغيره فيمتنع الاستغفار له وهو حي.

قول النبي ﷺ في المنافقين: «والله لأزیدن على السبعين»، وقال ابن عباس، وقتادة، وغيرهما: إنما نزلت الآية بسبب جماعة من المؤمنين قالوا: نستغفر لموتانا كما استغفر إبراهيم ﷺ لأبيه فنزلت الآية في ذلك، وعلى كل حال ففي ورود النهي عن الاستغفار للمشركين موضع اعتراض بقصة إبراهيم صلى الله على نبينا وعليه، فنزل رفع الاعتراض في الآية التي بعدها.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ بَدَّى مَا بَيَّنَّ﴾ يريد: من بعد الموت على الكفر، فحيثئذ تبين أنهم أصحاب الجحيم، أي سكانها وعمرتها، والاستغفار للمشرك الحي جائز إذ يرجى إسلامه، ومن هذا قول أبي هريرة رضي الله عنه: «رحم الله رجلاً استغفر لأبي هريرة وأمه»، قيل له: ولأبيه، قال: لا إن أبي مات كافراً، وقال عطاء بن أبي رباح: الآية في النهي عن الصلاة على المشركين، والاستغفار لها هنا يراد به الصلاة.

﴿١١٤﴾ - ﴿١١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: لا حجة أيها المؤمنون في استغفار إبراهيم الخليل لأبيه فإن ذلك لم يكن إلا عن موعدة، واختلف في ذلك؛ فقيل: عن موعدة من إبراهيم في أن يستغفر لأبيه، وذلك قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَيًّا﴾، وقيل: عن موعدة من أبيه له في أنه سيؤمن، فكان إبراهيم قد قوي طمعه في إيمانه فحمله على الاستغفار له حتى نهي عنه، وقرأ طلحة: ﴿وَمَا

يَسْتَغْفِرُ إِبْرَاهِيمَ﴾، وروي عنه: ﴿وَمَا اسْتَغْفَرَ إِبْرَاهِيمَ﴾. و ﴿مَوْعِدَةً﴾ مفعلة من الوعد، وأما تبيئه أنه عدو لله؛ فقيل: بموت آزر على الكفر، وقيل: ذلك بأنه نهي عنه وهو حي. وقال سعيد بن جبير: ذلك كله يوم القيامة، وذلك أن في الحديث أن إبراهيم عليه السلام يلقاه فيعرفه ويتذكر قوله: ﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي﴾ فيقول له: إلزم حقوي فلن أدعك اليوم لشيء، فيلزمه حتى يأتي الصراط فيلقت إليه فإذا هو قد مسخ ضِعْبَانًا أَمْدَر، فَيَبْتَرُأُ مِنْهُ حَيْثُذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وربط أمر الاستغفار بالآخرة ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ﴾ ثناء من الله تعالى على إبراهيم، والأواه، قال ابن مسعود: هو الذعاء، وقيل: هو الداعي بتضرع، وقيل: هو الموقن، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: هو الرحيم، قاله ابن مسعود أيضاً، وقيل: هو المؤمن الثواب، وقيل: هو المُسَبِّح، وقيل: هو الكثير الذكر لله عز وجل، وقيل: هو الثلاثة للقرآن، وقيل: هو الذي يقول من خوفه لله عز وجل أبداً: أوَّاه ويكثر ذلك. وروي أن أبا ذر سمع رجلاً يكثر ذلك في طوافه فشكاه إلى رسول الله ﷺ فقال: «دَعَا فَنَائَهُ أَوَّاه»، والثأوه: التفجع الذي يكثر حتى ينطق الإنسان معه بأوَّه، قال المؤلف: ويقال: أوَّه، فمن الأول قول رسول الله ﷺ ليلال في بيع أو شراء أنكره عليه: «أَوَّه»، ذلك الرَبَا بعينه، ومن الثاني قول الشاعر:

فَأَوَّه لِيذِكْرَاهَا إِذَا مَا ذَكَرْتُهَا
وَمَنْ بَعْدُ أَرْضِ بَيْنَنَا وَسَمَاءُ
ومن هذا المعنى قول المُثَقَّب
الغبدي:

إِذَا مَا قُنْتُ أَزْحَلَهَا بِئِيلِ
تَأَوَّهَ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
ويروي: آهَةٌ، ومن ذلك قول
النبي ﷺ: «أَوَّهٌ لِأَفْرَاحِ مُحَمَّدٍ». و
﴿حَلِيمٌ﴾ معناه: صابر محتمل عظيم
العقل، والحلم: العقل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا﴾ الآية. معناه التأنيس للمؤمنين، وقيل: إن بعضهم خاف على نفسه من الاستغفار للمشركين دون أمر من الله تبارك وتعالى فنزلت الآية مؤنسة، أي: ما كان الله - بعد أن هدى إلى الإسلام وأنقذ من النار - ليحبط ذلك ويُضِلَّ أهله لمواقعتهم ذنباً لم يتقدم منه نهي عنه، فأما إذا بين لهم ما يتقون من الأمور ويتجنبون من الأشياء فيحيثئذ من واقع - بعد النهي - استوجب العقوبة. وقيل: إن هذه الآية إنما نزلت بسبب قوم من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا غيباً فحولت القبلة فصلوا - قبل أن يصلهم ذلك - إلى بيت المقدس، وآخرين شربوا الخمر بعد تحريمها قبل أن يصل إليهم، فخافوا على أنفسهم وتكلموا في ذلك فنزلت الآية، والقول الأول أصوب وأليق بالآية.

وذهب الطبري إلى أن قوله سبحانه: ﴿يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ إشارة إلى أنه يجب أيها المؤمنون ألا تجزعوا من عدو وإن كثر، ولا تهابوا أحداً، فإن الموت المخوف والحياة

وَعَلَى الْفَأَنَّةِ الْيَمِينِ كَفُّوا حَتَّىٰ إِذَا صَافَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَصَافَتْ عَلَيْهِمُ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ لَمَلَاجِئَ مِنَ اللَّهِ لَا إِلَيْهِ فَهُم مَأْتِبُونَ وَإِنَّا اللَّهُ هُوَ الْوَارِثُ الرَّحِيمُ ﴿١١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴿١١٨﴾ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مَن حَرَّمَ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يُخَلِّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظُلْمٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْغُورُ مَنْ مَوِطًا يَفِطُّ الْكُفَّارُ وَلَا يَنَالُ الْوَيْلَ مِنَ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٩﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِحَرْبِهِمْ اللَّهُ أَحْسَنُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ وَمَا كَانُوا الْمُؤْمِنِينَ لَيَسْفُرُوا كَأَنَّ الْفِتْيَانَ يَفِئُونَ بِأَنْفُسِهِمْ وَأُولَٰئِكَ نَعْرِفُهُمْ بِكُلِّ فَرْقَةٍ وَبَيْنَهُمْ طَائِفَةٌ لَيْسَتْ نَفَقَةً فِي الَّذِينَ يُسَيِّرُونَ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَمْ يَلْمَهُمْ يَجْعَلُونَ

٢٠٦

اللغة أنه لما قل من الزمن كالقطعة من النهار.

ألا ترى قوله ﷺ في رواح يوم الجمعة في الساعة الأولى وفي الثانية الحديث، فهي هنا تجوز، ويمكن أن يريد بقوله: ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾

الساعة التي وقع فيها عزمهم وانقيادهم لتحمل المشقة إذ السفرة كلها تبع لتلك الساعة وبها وفيها يقع الأجر على الله وترتبط النية، فمن اعتزم على الغزو وهو مفسر فقد أتبع في ساعة العسرة، ولو اتفق أن يطرأ لهم غتي

في سائر سفرتهم لما اختل كونهم متبعين في ساعة عسرة، والعسرة: الشدة وضيق الحال والعدم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَتْ دُوْرُ عُتْرَةٍ﴾، وهذا هو جيش العسرة الذي قال رسول الله ﷺ فيه: «من جهّز جيش العسرة فله الجنة»، فجهزه عثمان بن عفان رضي الله عنه بألف جمل وألف دينار، وروي أن رسول الله ﷺ قلب الدنانير في يده وقال: «وما على عثمان ما عمل بعد هذا؟»، وجاء أيضاً رجل من الأنصار بسبعمائة وُسُق من تمر، وقال مجاهد، وقتادة: إن العسرة بلغت بهم في تلك الغزوة - وهي غزوة تبوك - إلى أن قسموا التمرة بين رجلين، ثم كان النفر يأخذون التمرة الواحدة فيمضغها أحدهم ويشرب عليها الماء

المحبوبة إنما هما بيد الله تبارك وتعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى الذي قال صحيح في نفسه، ولكن قوله: «إِن الْقَصْدُ بِالْآيَةِ إِنَّمَا هُوَ لِهَذَا» قول يبعد، والظاهر في الآية إنما هو لِمَا نَصَّ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ نَعْمَتَهُ وَفَضْلَهُ عَلَى عِبِيدِهِ فِي أَنَّهُ مَتَى مِنْ عَلَيْهِمْ بِهَدَايَةِ فَضْلِهِ أَسْبَغَ مِنْ أَنْ يَصْرِفَهُمْ وَيَضْلَهُمْ قَبْلَ أَنْ تَقَعَ مِنْهُمْ مَعْصِيَةٌ وَمُخَالَفَةٌ أَمْرٌ؛ أَتْبَعَ ذَلِكَ بِأَوْصَافٍ فِيهَا تَمْجِيدُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَعْظِيمُهُ وَبَيْتُ النَّفْسِ عَلَى إِدْمَانِ شُكْرِهِ وَالْإِقْرَارِ بِعِبُودِيَّتِهِ. ﴿١١٧﴾ - ﴿١١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

التوبة من الله رجوعه بعبده من حالة إلى أرفع منها، فقد تكون في الأكثر رجوعاً من حالة المعصية إلى حالة الطاعة، وقد تكون رجوعاً من حالة طاعة إلى أكمل منها، وهذه توبته في هذه الآية على النبي ﷺ لأنه رجع به من حاله قبل تحصيل الغزوة وأجرها وتحمل مشقاتها إلى حاله بعد ذلك كله. وأما توبته على المهاجرين والأنصار فحالها معرضة لأن تكون من تقصير إلى طاعة وجد في الغزو ونصرة الدين، وأما توبته على الفريق الذي كاد أن يزيف فرجوع من حالة محطوطة إلى غفران ورضا.

و ﴿اتَّبَعُوهُ﴾ معناه: دخلوا في أمره واتباعته ولم يرغبوا بأنفسهم عن نفسه، وقوله سبحانه: ﴿فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ يريد: في وقت العسرة، فأنزله الساعة منزلة المدة والوقت والزمن وإن كان عرف الساعة في

ثم يفعل كلهم بها ذلك. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وأصابهم في بعضها عطش شديد حتى جعلوا ينحرون الإبل ويشربون ما في كروشها من الماء ويعصرون الفرس، حتى استسقى لهم رسول الله ﷺ فرفع يديه يدعو، فما رجعهما حتى انسكبت سحابة فشربرا وادّخروا ثم ارتحلوا فإذا السحابة لم تخرج عن العسكر، وحينئذ قال رجل من المنافقين: وهل هذه إلا سحابة مرّت؟ وكانت الغزوة في شدة الحر، وكان الناس كثيراً فقلّ الظهر فجاءتهم العسرة من جهات. ووصل رسول الله ﷺ إلى أوائل بلد العدو فصالحه أهل أذرج وأبيلة وغيرهما على الجزية ونحوها، وانصرف.

وأما الزئبق الذي كادت قلوب فريق منهم أن تواجهه فليل: همت فرقة

وقوله تعالى: ﴿يَمَا رَبَّيْتِ﴾
معناه: برحبها، كأنه قال: على ما
هي في نفسها رغبة، ف[ما]
مصدرية، ﴿وَصَافَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ﴾
استعارة لأن الهم والغم ملاءها،
﴿وَلَطَّوْا﴾ في الآية بمعنى: أيقنوا
وحصل علماء لهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ
لِيَتُوبُوا﴾، لما كان هذا القول في
تعديد نعمه بدأ في تربيته بالجهة التي
هي عن الله عز وجل ليكون ذلك
مُنْتَهَى على تلقي النعمة من عنده لا
رب غير، ولو كان القول في تعديل
ذنب لكان الابتداء بالجهة التي هي
عن المذنب كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا
رَأَوْا آيَاتَ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ﴾، ليكون هذا
أشدّ تقريراً للذنب عليهم، وهذا من
فصاحة القرآن وبدع نظمه ومُعْجَز
أَتَسَاقَه. وبيان هذه الآية ومواقع
ألفاظها إنما يكمل مع مطالعة حديث
الثلاثة الذين خَلَفُوا في الكتب التي
ذكرنا، وإنما عظم ذنبهم واستحقوا
عليه ذلك لأن الشرع يُطالِبهم من
الجد فيه بحسب منازلهم منه
وتقدمهم فيه، إذ هم أسوء وحجة
للمنافقين والطاعنين، إذ كان كعبٌ
من أهل العقبة وصاحبه من أهل
بدر، وفي هذا ما يقتضي أن الرجل
العالم والمُقتدى به أقلّ عذراً
في السقوط من سواه. وكتب
الأوزاعي رحمه الله إلى المنصور أبي
جعفر في آخر رسالة: «واعلم أن
قربتك من رسول الله ﷺ لن تزيد
حق الله عليك إلا عظماً، ولا طاعته
إلا وجوباً، ولا الناس فيما خالف
ذلك منك إلا إنكاراً والسلام». ولقد

والثلاثة هم: كعب بن مالك،
وهلال بن أمية الواقفي، ومُرارة بن
الربيع العامري، ويقال: ابن ربيعة،
ويقال: ابن ربيعي. وقد خرّج
حديثهم بكماله البخاري ومسلم،
وهو في السير، فلذلك اختصرنا
سوقه. وهم الذين تقدم فيهم:
﴿وَأَخْرَجَتْ مُرْجُونَ﴾. ومعنى
﴿خَلَفُوا﴾: أَخْرَجُوا وَتَرَكُوا أمرهم ولم
تقبل منهم معذرة ولا ردّت عليهم،
فكأنهم خَلَفُوا عن المعتذرين،
وقيل: معنى ﴿خَلَفُوا﴾ أي عن غزوة
تبوك، قاله قتادة، وهذا ضعيف وقد
ردّه كعب بن مالك نفسه وقال:
معنى ﴿خَلَفُوا﴾: تَرَكُوا عن قبل
العذر، وليس بتخلفنا عن الغزوة،
ويُقْزَى ذلك جعله ﴿حَجَّ إِذَا صَافَتْ﴾
غاية التخلف، ولم يكن ذلك عن
تخليفهم عن الغزوة، وإنما صاقت
عليهم الأرض عن تخليفهم عن قبول
العذر.

وقرأ الجمهور: ﴿خَلَفُوا﴾ بضم
الخاءِ وشذ اللام المسكورة، وقرأ
عكرمة بن هارون المخزومي،
وزر بن حبيش، وعمرو بن عبيد،
وأبو عمرو أيضاً: ﴿خَلَفُوا﴾ بفتح
الخاءِ واللام غير مشددة، وقرأ أبو
مالك: ﴿خَلَفُوا﴾ بضم الخاءِ
وتخفيف اللام المسكورة، وقرأ أبو
جعفر محمد بن علي، وعلي بن
الحسين، وجعفر بن محمد، وأبو
عبدالرحمن: ﴿خَالَفُوا﴾، والمعنى
قريب من التي قبلها، وقال أبو
جعفر: ولو خلفوا لم يكن لهم
ذنب، وقرأ الأعمش: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ
الْمُخَلَّفِينَ﴾.

بالانصراف لما لقوا من المشقة
والعسرة، قاله الحسن. وقيل: زيغها
إنما كان بظنون لها ساءت في معنى
عزم رسول الله ﷺ على تلك الغزوة
لما رأته من شدة العسرة وقلة الوفر
وبعد المشقة وقوة العدو المقصود.

وقرأ جمهور السبعة، وأبو بكر عن
عاصم: ﴿تَزِيغٌ﴾ بالثاء من فوق على
لفظ القلوب، وروي عن أبي عمرو
أنه كان يدغم الدال في التاء، وقرأ
حمزة، وحفص عن عاصم،
والأعمش، والجحدري: ﴿بَزِيغٌ﴾
بالباء على معنى جَمْع القلوب، وقرأ
ابن مسعود: ﴿مَنْ بَغِدَ مَا زَاغَتْ
قُلُوبُ فَرِيقٍ﴾، وقرأ أبو بن كعب:
﴿مَنْ بَغِدَ مَا كَادَتْ تَزِيغٌ﴾.

وأما ﴿كَادَ﴾ فيحتمل أن يرتفع
بها ثلاثة أشياء، أولها وأقواها:
القصة والشأن، هذا مذهب سيبويه،
وترتفع «القلوب» - على هذا - بـ
﴿تَزِيغٌ﴾. والثاني: أن يرتفع بها ما
يقتضيه ذكر المهاجرين والأنصار
أولاً، ويقدر ذلك: «القوم»، فكأنه
قال: من بعد ما كاد القوم تزيغ
قلوب فريق منهم. والثالث: أن
يرتفع بها «القلوب» ويكون في قوله:
﴿تَزِيغٌ﴾ ضمير القلوب، وجاز ذلك
تشبيهاً بكان في قوله تعالى: ﴿وَكَاكَ
حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وأيضاً
فلأن هذا التقديم للخبر يراد به
التأخير، وشبهت (كاد) بـ (كان)
لِلزُوم الخبر لها، قال أبو علي: ولا
يجوز ذلك في (عسى).

ثم أخبر عز وجل أنه تاب أيضاً
على هذا الفريق وراجع به، وأنس
بإعلامه للأمة بأنه رؤوف رحيم.

أحسن القاضي التوخي في قوله:

وَالْعَيْبُ يَغْلُقُ بِالْكَبِيرِ كَبِيرٌ

وفي بعض طرق حديث الثلاثة أن رسول الله ﷺ كان ليلة نزول توبتهم في بيت أم سلمة، وكانت لهم صالحة، فقال لها رسول الله ﷺ: يا أم سلمة، تيب على كعب بن مالك وصاحبيه، فقالت: يا رسول الله ألا أبعث إليهم؟ فقال: «إِذَا يَحْطَمُكُمُ النَّاسُ سَائِرَ اللَّيْلَةِ فَيَمْنَعُوكُمُ النَّوْمَ».

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، هذا الأمر بالكون مع أهل الصدق حسن بعد قصة الثلاثة حين نفعهم الصدق وذهب بهم عن منازل المنافقين، فجاء هذا الأمر اعتراضاً في أثناء الكلام إذ عُرِّفَ في القصة ما يجب التنبيه على امتثاله، وقال ابن جريج وغيره: الصدق في هذه الآية هو صدق الحديث، وقال نافع، والضحاك ما معناه: إن اللفظ أعم من صدق الحديث، وهو بمعنى الصحة في الدين والتمكن في الخير، كما تقول العرب: «عَوَّدَ صَدَقٌ وَرَجُلٌ صَدَقٌ». وقالت هذه الفرقة: كانوا مع محمد ﷺ، وأبي بكر، وعمر، وأخيار المهاجرين الذين صدقوا الله في الإسلام. و«مَعَ» في هذه الآية تقتضي الصحبة في الحال والمشاركة في الوصف المقتضي للمدح، وقرأ ابن مسعود، وابن عباس: ﴿وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، ورويت عن النبي ﷺ، وكان ابن مسعود يتأول في صدق الحديث، وروي عنه أنه

قال: الكذب لا يصلح منه جد ولا

هزل، اقرؤوا إن شئتم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾.

١٢٠ - تفسير قوله عز وجل:

هذه معاتبه للمؤمنين من أهل يثرب وقبائل العرب المجاورة لها على التخلف عن رسول الله ﷺ في غزوه، وقوة الكلام تعطي الأمر بصحبته إلى توجيه غازياً وبذل النفوس دونه، واختلف المتأولون، فقال قتادة: كان هذا الإلزام خاصاً مع النبي ﷺ ووجوب النفر إلى الغزو إذا خرج هو بنفسه، ولم يبق هذا الحكم في غيره من الخلفاء، وقال زيد بن أسلم: كان هذا الأمر والإلزام في قلة الإسلام والاحتياج إلى اتصال الأيدي ثم نسخ عند قوة الإسلام بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتِ الْمُؤْمِنُونَ لِيَسْتَفِرُّوا كَافَّةً﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله في الانبعاث إلى غزو العدو على الدخول في الإسلام، وأما إذا أَلَمَّ العدو بجهة فمتعين على كل أحد القيام بذته ومكافحته.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْجُوا أَنِّي آتِيهِمْ﴾ فمعناه ألا يتحمل رسول الله ﷺ مشقة وجود بنفسه في سبيل الله فيقع منهم شخ على أنفسهم ويكتفون عما دخل هو فيه، ثم ذكر تعالى لِمَ لَمْ يَكُنْ لَهُمُ التَّخْلُفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بقول: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ﴾ الآية. والنصب: التعب، ومنه قول النابغة:

كَلَيْلِنِي لَهُمْ يَا أَمِيْمَةً نَاصِبٍ

.....

أي: ذي نَصَبٍ، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾.

والمخمصة: مفصلة من خموص البطن وهو ضموره، واستعير ذلك لحالة الجوع إذ الخموص ملازم له، ومن ذلك قول الأعشى:

تَبِيْتُونَ فِي الْمَشْتَى مِلَاءً يُطُونُكُمْ
وجاراتكم عَزَّتِي بِيَشَنَ خَمَائِصًا
ومنه: «أَخْمَصَ الْقَدَمِ»،
والمخفصاة من النساء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَطَّوِّرُكَ مَوَاطِنًا﴾

أي: ولا ينتهون من الأرض منتهى مؤذياً للكفار، وذلك هو الغائط، ومنه في «المدونة»: «كنا لا نتوضأ من مَوَاطِنٍ». من قول ابن مسعود. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ مِنْ عَدُوِّكَ نِيْلًا﴾ لفظ عامٌ لقليل ما يصنعه المؤمنون بالكفرة من أخذ مالٍ أو إيراد هوانٍ وكثيره، والنيل: مصدر نال ينال، وليس من قولهم: نلت أنوله نولاً ونولاً، وقيل: هو منه وبدلت الواو ياءً لخفتها هنا، وهذا ضعيف، والطبري قد ذكر نحوه وضعفه وقال: ليس ذلك المعروف من كلام العرب. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية. قدم الصغيرة فالكبيرة أخرى، والوادي: ما بين الجبلين كان فيه ماءٌ أو لم يكن، وجمعه أودية، وليس في كلام العرب فاعلٌ وأفعلةٌ إلا في هذا الحرف وحده، وفي الحديث: «ما ازداد قوم من أهليهم في سبيل الله بعداً إلا ازدادوا من الله قرباً».

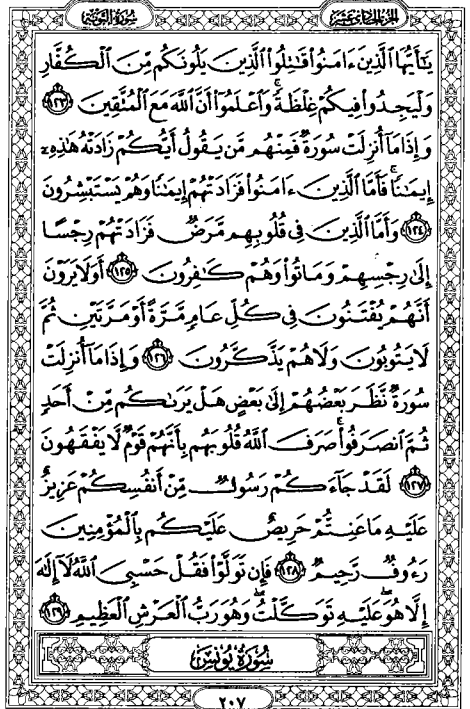
في قوله: ﴿يَسْتَفْهَرُوا﴾ عائد أيضاً - على هذا التأويل - على الطائفة المتخلفة مع النبي ﷺ، وهو على القول الأول في ترتيبنا هذا عائد على الطائفة النافرة، وكذلك يترتب عوده مع بعض الأقوال على هذه، ومع بعضها على هذه.

والجمهور على أن التفقه إنما هو بمشاهدة رسول الله ﷺ وصحبته. وقالت فرقة: يُشبه أن يكون التفقه في الغزو في السرايا لما يرون من نصرة الله لدينه وإظهاره العدد القليل من المؤمنين على الكثير من الكافرين وعلمهم بذلك صحة دين الإسلام ومكانته من الله تعالى، ورجحه الطبري وقواه، والآخر أيضاً قوي. والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَلْيَسْتَفْهَرُوا﴾ عائد على المتفقهين بحسب الخلاف، والإنذار عام للكفر والمعاصي والحذر منها أيضاً كذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُوا الَّذِينَ آمَنُوا فَتَلْبَسُوا عَلَيْهِم مِّنْ لَّيْسَ هَؤُلَاءِ مَبْرُورِينَ﴾. قيل: هذه الآية نزلت قبل الأمر بقتال الكفار كافة فهي من التدرج الذي كان في أول الإسلام. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول يضعفه أن هذه الآية من آخر ما نزل. وقالت فرقة: إنما كان رسول الله ﷺ ربما تجاوز قوماً من الكفار غازياً قوماً آخرين أبعد منهم، فأمر الله تعالى بغزو الأدنى فالأدنى إلى المدينة، وقالت فرقة: الآية مبينة صورة القتال كافة، وهي مترتبة مع الأمر بقتال الكفار كافة، ومعناها أن الله تعالى أمر فيها المؤمنين أن

لذلك مطردة الألفاظ متصلة المعنى من قوله تبارك وتعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُونَ﴾. بين في آخر الآية العموم الذي في أولها إذ هو معرض أن يتأول فيه ألا يتخلف بشر. والتفقه هو من النافرين، والإنذار هو منهم، والضمير في ﴿يَحْذَرُونَ﴾ لهم أيضاً. وقالت فرقة: هذه الآية ليست في معنى الغزو، وإنما سببها أن قبائل العرب لما دعا رسول الله ﷺ على مضر

بالمسنيين أصابتهم مجاعة وشدة، فنفروا إلى المدينة لمعنى المعاش فكدوا أن يفسدوها، وكان أكثرهم غير صحيح الإيمان وإنما أضرعه الجوع، فنزلت الآية في ذلك فقال: وما كان من صفته الإيمان لينفر مثل هذا النفير، أي: ليس هؤلاء المؤمنين. وقال ابن عباس ما معناه: إن هذه الآية مختصة بالبعوث والسرايا، والآية المتقدمة ثابتة الحكم مع خروج رسول الله ﷺ في الغزو، وهذه ثابتة الحكم مع تخلفه، أي: يجب إذا تخلف ألا ينفر الناس كافة فيبقى هو منفرداً، وإنما ينبغي أن تنفر طائفة وتبقى طائفة لتفقه هذه الباقية في الدين وينذروا النافرين إذا رجع النافرون إليهم. وقالت فرقة: هذه الآية ناسخة لكل ما ورد من إلزام الكافة النفير والقتال، والضمير



٢٠٧ - تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: سبب هذا الآية أن المؤمنين الذين كانوا بالبادية سكاناً ومبعوثين لتعليم الشرع لما سمعوا قول الله عز وجل: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِّنْ حَرْفٍ مِّنَ الْأَعْرَابِ﴾ أهمهم ذلك، فنفروا إلى المدينة إلى رسول الله ﷺ خشية أن يكونوا مذنبين في التخلف عن الغزو، فنزلت هذه الآية في نفرهم ذلك. وقالت فرقة: إن المنافقين لما نزلت الآيات في المتخلفين قالوا: هلك أهل البوادي، فنزلت هذه الآية مقيمة لعذر أهل البوادي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيجوز قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ مِّنْ حَرْفٍ﴾ عموماً في اللفظ والمراد به في المعنى الجمهور والأكثر، وتجيء هذه الآية مبينة

يقاتل كل فريق منهم الجنس الذي يصاقبه من الكفرة، وهذا هو القتال لكلمة الله وردّ الناس إلى الإسلام، وأما إذا مال العدو إلى صقع من أصقاع المسلمين ففرض على من اتصل به من المسلمين كفاية عدو ذلك الصقع وإن بعدت الدار ونأت البلاد، وقال قائلوا هذه المقالة: نزلت الآية مشيرة إلى قتال الروم بالشام لأنهم كانوا يومئذ العدو الذي يلي ويقرب، إذ كانت العرب قد عمّها الإسلام وكانت العراق بعيدة، ثم لما اتسع نطاق الإسلام توجه الفرض في قتال الفُرس والذُّبلم وغيرهما من الأمم، وسأل ابن عمر رضي الله عنهما رجل عن قتال الذُّبلم فقال: عليك بالروم، وقال الحسن: هم الروم والذُّبلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني في زمنه ذلك، وقاله علي بن الحسين. وقال ابن زيد: المراد بهذه الآية وقت نزولها: العرب، فلما فرغ منهم نزلت في الروم وغيرهم: ﴿فَتَلَبَّثُوا الْيَوْمَ لَا يَمُوتُونَ بِاللَّهِ وَلَا يُأْوَرُّوْنَ الْآخِرَ﴾ إلى قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْطُغُوا الْجِرْيَةَ عَنِ يَدِهِ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿عَلَّظَةٌ﴾ بكسر الغين، وقرأ المفضل عن عاصم، والأعمش: ﴿عَلَّظَةٌ﴾ بفتحها، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي، وأبان بن ثعلب، وابن أبي عيلة: ﴿عَلَّظَةٌ﴾ بضمها، وهي قراءة أبي خنيرة، ورواها المفضل عن عاصم أيضاً، قال أبو حاتم: رويت الوجوه الثلاثة عن أبي عمرو، وفي هاتين القراءتين شذوذ، وهي لغات.

ومعنى الكلام: وليجدوا فيكم خشونة وبأساً، وذلك مقصود به القتال، ومنه: «العذاب الغليظ»، و﴿عَلَّظَ الْقَلْبَ﴾، و﴿عَلَّظَ شِدَادُ﴾ في صفة الزبانية، و﴿عَلَّظَتْ عَلَيْنَا كُذْيَةَ﴾ في حفر الخندق إلى غير ذلك.

ثم وعد تعالى في آخر الآية، وحضّ على التقوى التي هي ملاك الدين والدنيا وبها يلقي العدو، وقد قال بعض الصحابة: «إنما تقاتلون الناس بأعمالكم». وأهلها هم المجددون في طريق الحق، فوعد تعالى أنه مع أهل التقوى، ومن كان الله معه فلن يُغلب.

﴿١٢٤﴾ - ﴿١٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية نزلت في شأن المنافقين، والضمير في قوله تعالى: ﴿فَعَيْتَهُمْ﴾ عائذ على المنافقين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًوهُ يَسْتَكْبِرُ﴾ يحتمل أن يكون لمنافقين مثلهم، ويحتمل أن يكون لقوم من قراباتهم من المؤمنين يستنيمون إليهم، ويتقون بسترهم عليهم، ويطمعون في ردّهم إلى النفاق. ومعنى ﴿أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هُدًوهُ يَسْتَكْبِرُ﴾ الاستخفاف والتحقير لشأن السورة كما تقول: أي غريب في هذا؟ أو أي دليل؟

ثم ابتدأ عز وجل الردّ عليهم والحكم بما يهدم لبسهم فأخبر أن المؤمنين قد زادتهم إيماناً، وأنهم يستبشرون من ألفاظها ومعانيها برحمة الله ورضوانه. والزيادة في الإيمان موضع تخبط الناس وتطويل، وتلخيص القول فيه أن الإيمان الذي هو نفس التصديق ليس

مما يقبل الزيادة والنقص في نفسه، وإنما تقع الزيادة في المُصدّق به، فإذا نزلت سورة من الله تبارك وتعالى حدث للمؤمنين بها تصديق خاص لم يكن قبل، فتصديقهم بما تضمنته السورة من أخبار وأمر ونهي أمرٌ زائد على الذي كان عندهم قبل، فهذا وجه من زيادة الإيمان، ووجه آخر أن السورة ربما تضمنت دليلاً أو تنبيهاً عليه فيكون المؤمن قد عرف الله بعدة أدلة، فإذا نزلت السورة زادت في أدلته، وهذه أيضاً جهة أخرى من الزيادة، وكلها خارجة عن نفس التصديق إذا حصل تاماً، فإنه ليس يبقى فيه موضع زيادة، ووجه آخر من وجوه الزيادة أن الرجل ربما عارضه شك يسير أو لاحت له شبهة مشغبة فإذا نزلت السورة ارتفعت تلك الشبهة واستراح منها، فهذا أيضاً زيادة في الإيمان إذ يرتقي اعتقاده عن مرتبة معارضة تلك الشبهة إلى الخلوص منها، وأما على قول من يُسمي الطاعات إيماناً - وذلك مجاز عند أهل السنة - فتترتب الزيادة بالسورة، إذ تتضمن أوامر ونواهي وأحكاماً، وهذا حكم من يتعلم العلم في معنى زيادة الإيمان ونقصانه إلى يوم القيامة، فإن تعلم الإنسان العلم بمنزلة نزول سورة القرآن.

و﴿الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ﴾ هم المنافقون، وهذا تشبيه، وذلك أن السالم المعتقد المنشرح الصدر بالإيمان يشبه الصحيح، والفساد المعتقد يشبه المريض، ففي العبارة مجاز فصيح لأن المرض والصحة

إنما هي خاصة في الأعضاء، فهي في المعتقدات مجاز، والرُّجس في هذه الآية عبارة عن حالهم التي جمعت معنى الرجس في اللغة، وذلك أن الرجس في اللغة يجيء بمعنى القذر، ويجيء بمعنى العذاب، وحال هؤلاء المنافقين هي قذر وهي عذاب عاجل كفيل بأجل، وزيادة الرجس إلى الرجس هي عمههم في الكفر وخطبهم في الضلال، يعاقبهم الله على الكفر والإعراض بالختم على قلوبهم والختم بالنار عليهم، وإذا كفروا بسورة فقد زاد كفرهم فذلك زيادة رجس إلى رجسهم.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُشْتَرُونَ﴾ الآية. قرأ الجمهور: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ﴾ بالياء على معنى: ألا يرى المنافقون. وقرأ حمزة: ﴿أَوَلَا تَرَوْنَ﴾ بالتاء على معنى: ألا ترون أيها المؤمنون، فهذا تنبيه للمؤمنين. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، والأعمش: ﴿أَوَلَا تَرَوْنَ﴾ أي أنت يا محمد، وروي عن الأعمش أيضاً: ﴿أَوَلَمْ تَرَوْا﴾، وذكر عنه أبو حاتم: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾. وقال مجاهد: ﴿يُشْتَرُونَ﴾ معناه: يُخْتَبَرُونَ بالسنة والجوع، وحكى عنه النقاش أنه قال: مرضة أو مرضتين، وقال الحسن بن أبي الحسن، وقتادة: معناه: يُخْتَبَرُونَ بالأمر بالجهاد، والذي يظهر مما قبل الآية ومما بعدها أن الفتنة والاختبار إنما هي بكشف الله تعالى أسرارهم وإفشائه عقائدهم، فهذا هو الاختبار الذي تقوم عليه الحجة برؤيته وترك التوبة،

وأما الجهاد أو الجوع فلا يترتب معهما ما ذكرناه، فمعنى الآية على هذا: أفلا يزدجر هؤلاء الذين تفضح سرائرهم كل سنة مرة أو مرتين بحسب واحد واحد، ويعلمون أن ذلك من عند الله فيتوبون ويتذكرون وعد الله ووعيده، وأما الاختبار بالمرض فهو في المؤمنين، وقد كان الحسن ينشد:

أَفِي كُلِّ عَامٍ مَرَضَةٌ ثُمَّ نَشْهَةٌ
فَحَتَّى مَتَى حَتَّى مَتَى وَإِلَى مَتَى؟
وقالت فرقة: المعنى: يفتنون بما يشيعه المشركون على رسول الله ﷺ من الأكاذيب، فكان الذين في قلوبهم مرض يفتنون في ذلك، وحكى الطبري هذا القول عن حذيفة وهو غريب من المعنى.

﴿١٢٧﴾ - ﴿١٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ﴾ الضمير في قوله سبَّحانه: ﴿بِمَضْمُونِهِمْ﴾ عائد على المنافقين، والمعنى: وإذا ما أنزلت سورة فيها فضيحة أسرارهم نظر بعضهم إلى بعض على جهة التقرير، يفهم من تلك النظرة التقرير، هل معكم من ينقل عنكم؟ هل يراكم من أحد حين تدبرون أموركم؟ وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنْصَرَفُوا﴾ معناه: عن طريق الاهداء، وذلك أنهم حينما بين لهم كشف أسرارهم والإعلام بمغيبات أمورهم يقع لهم لا محالة تعجب وتوقف نظر، فلو اهدتوا لكان ذلك الوقت مظنة ذلك، فهم إذ يصممون على الكفر ويرتبكون فيه كأنهم انصرفوا عن تلك الحال التي كانت مظنة للنظر الصحيح والاهداء، وابتدأ بالفعل المسند إليهم إذ هو تعديد ذنب على ما قد بيئناه. وقوله: ﴿مَرَرَكُ اللَّهُ

قُلُوبِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون دعاء عليهم، ويحتمل أن يكون خبراً، أي استوجبوا ذلك ﴿بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ﴾ أي لا يفهمون عن الله ولا عن رسوله. وأسند الطبري في تفسير هذه الآية عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿لَا تَقُولُوا: انصرفنا عن الصلاة، فإن قوماً انصرفوا فصرف الله قلوبهم، ولكن قولوا: قضينا الصلاة﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا النظر الذي في هذه الآية إنما هو إيحاء، وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: ﴿نَظَرَ﴾ في هذه الآية في موضع (قال).

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾ مخاطبة للعرب في قول الجمهور، وهذا على جهة تعديد النعمة عليهم في ذلك، إذ جاء بلسانهم وبما يفهمونه من الأغراض والفصاحة وشرفوا به غابر الأيام. وقال الزجاج: هي مخاطبة لجميع العالم، والمعنى: لقد جاءكم رسول من البشر، والأول أصوب. وقوله: ﴿يَنْ أُنْفُسِكُمْ﴾ يقتضي مدحاً لنسب النبي ﷺ وأنه من صميم العرب وأشرفها، وينظر إلى هذا المعنى قوله ﷺ: ﴿إِن اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قَرِيشاً مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قَرِيشَ، وَاصْطَفَى بَنِي هَاشِمٍ مِنْ قَرِيشَ، وَمِنْهُ قَوْلُهُ ﷺ: ﴿إِنِّي مِنْ نِكَاحٍ وَلَسْتُ مِنْ سِفَاحٍ﴾، معناه أن نسبه ﷺ إلى آدم عليه السلام لم يكن النسل فيه إلا من نِكَاحٍ، ولم يكن فيه زنى. وقرأ عبدالله بن قُسيط المكي: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ بفتح الفاء من النفاسة، ورويت عن النبي ﷺ وعن فاطمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الرَّتْلَاءِ أَيَّتُهَا الْكِتَابُ الْكَبِيرُ ① أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا
 أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رَجُلٌ مِّنْهُمْ أَنْ أَتِيَهُ النَّاسُ وَيَتْلُوهُنَّ أَمْثَلًا
 أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صَدِيقٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكٰفِرُونَ إِنَّ هَذَا
 لَسِحْرٌ مُّبِينٌ ② إِنَّ رَبَّكَ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
 فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدِيرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَيْءٍ
 إِلَّا أَمِنَ بِعَدَايَتِهِ ذَٰلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا
 تَذَكَّرُونَ ③ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا إِنَّهُ
 يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ لِيُعَذِّبَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
 بِالْقِسْطِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ
 أَلِيمٌ كَمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ④ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ
 ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ عِثَارًا لِّيَعْلَمُوا عِدَّةَ الْيَوْمِ
 وَالْحِسَابِ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ⑤ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ
 اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ⑥

٢٠٨

ثابت، «ووقع في البخاري: أو أبي خزيمة، فلما جاء بهما تذكرهما كثير من الصحابة، وقد كان زيد يعرفهما ولذلك قال: «فقدت آيتين من آخر سورة التوبة». ولو لم يعرفهما لم يدر هل فقد شيئاً أم لا، فإنما ثبتت الآيتان بالإجماع لا بخزيمة وحده، وأسند الطبري في كتابه قال: كان عمر لا يثبت آية في المصحف إلا أن يشهد عليها رجلاً، فلما جاء خزيمة بهاتين الآيتين قال: والله لا أسأل عليهما بيئة أبداً فإنه هكذا كان ⑥.

رضي الله عنها، وذكر أبو عمرو أن ابن عباس رضي الله عنهما رواها عن النبي ﷺ.

وقوله: ﴿مَا عَيْنٌ﴾ معناه: عَيْنُكُمْ، ف [ما] مصدرية، وهي ابتداء، و﴿عَيْنٌ﴾ خبر مقدم، ويجوز أن يكون ﴿مَا عَيْنٌ﴾ فاعلاب ﴿عَيْنٌ﴾ و﴿عَيْنٌ﴾ صفة للرسول ﷺ، وهذا أصوب من الأول. والعنت: المشقة، وهي هنا لفظة عامة، أي: ما شق عليكم من كفر وضلال بسبب الحق، ومن قتل أو إسارٍ وامتحان بسبب الحق واعتقادكم أيضاً معه. وقال قتادة: المعنى: عنت مؤمنكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتعميم عنت الجميع أوجه.

وقوله تعالى: ﴿حَرَبِشْ عَلَيْكُمْ﴾ يريد: على إيمانكم وهداكم، وقوله: ﴿رَهْرَهٌ﴾ معناه: مبالغ في الشفقة، قال أبو عبيدة: الرأفة أرق الرحمة، وقرأ ﴿رَهْرَهٌ﴾ دون مذ الأعمش، وأهل الكوفة، وأبو عمرو.

ثم خاطب النبي ﷺ بعد تقريره عليهم هذه النعمة فقال: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ يا محمد، أي أعرضوا بعد هذه الحال المتقررة التي من الله تبارك وتعالى عليهم بها ﴿فَنَقَلَ حَسْبِيَ اللَّهُ﴾ معناه: وأعمالك بحسب قولك من التفويض إلى الله والتوكل عليه والجد في قتالهم. وليست بآية موادة لأنها من آخر ما نزل، وخصص العرش بالذكر إذ هو أعظم المخلوقات. وقرأ ابن محيصن: ﴿الْعَظِيمُ﴾ برفع الميم صفة للرب، ورويت عن ابن كثير.

وهاتان الآيتان لم توجدا حين جمع المصحف إلا في حفظ خزيمة بن

تفسير سورة يونس عليه السلام

هذه السورة هي مكية، قال مقاتل: إلا آيتين وهي قوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ﴾ نزلت بالمدينة، وقال الكلبي: هي مكية إلا قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ﴾ نزلت في اليهود بالمدينة. وقالت فرقة: نزل من أولها نحو من أربعين آية بمكة وباقها بالمدينة.

① - ⑥ تفسير قوله عز وجل:

تقدم في أول سورة البقرة ذكر الاختلاف في فواتح السور، وتلك الأقوال كلها تترتب هنا، وفي هذا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني صفة النبي ﷺ التي تضمنتها الآية، وهذا - والله أعلم - قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه في مدة أبي بكر رضي الله عنه حين الجمع الأول، وحينئذ فقدت الآيتان، ولم يجمع من القرآن شيء في خلافة عمر رضي الله عنه. وخزيمة بن ثابت هو المعروف بذئ الشهادتين، وعرف بذلك لأن رسول الله ﷺ أمضى شهادته وحده في ابتياع فرس وحكم بها لنفسه ﷺ، وهذا خصوص لرسول الله ﷺ. وذكر النقاش عن أبي بن كعب أنه قال: أقرب القرآن عهداً بالله تعالى هاتان الآيتان: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ﴾ إلى آخر السورة.

انتهى بعون الله تعالى وتوفيقه تفسير سورة التوبة والحمد لله رب العالمين

الموضع قول يختص به، قال ابن عباس، وسالم بن عبدالله، وابن جبير، والشعبي: ﴿لَرَّ﴾ و﴿حَدَّ﴾ و﴿تَّ﴾ هو (الرُّحْمَنُ) قطع اللفظ في أوائل هذه السور. واختلف عن نافع في إمالة الراء، والقياس ألا تمال. وكذلك اختلف القراء، وعلّة من أمال الراء أن يدل بذلك على أنها اسم للحرف وليست بحرف في نفسها وإنما الحرف (ر).

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ قيل: هو بمعنى: (هذه)، وقد يشبه أن يتصل المعنى بـ ﴿تِلْكَ﴾ دون أن نقدرها بدل غيرها، والنظر في هذه اللفظة إنما يتركب على الخلاف في فواتح السور فتدبره. و﴿الْكِتَابُ﴾ قال مجاهد، وقاتدة: المراد به التوراة والإنجيل، وقال مجاهد أيضاً وغيره: المراد به القرآن، وهو الأظهر، و﴿الْحَكِيمُ﴾ فعيل بمعنى مُخَكِّم، كما قال تعالى: ﴿هَذَا مَا لَدَيَّ عِبَدٌ﴾، أي: مُعْتَد مُعَد، ويمكن أن يكون ﴿حَكِيمٌ﴾ بمعنى: ذو حكمة فهو على النسب، قال الطبري: «فهو مثل أليم بمعنى مؤلم»، ثم قال: هو الذي أحكمه ويثبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فساق قولين على أنهما واحد.

وقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾ الآية. قال ابن عباس، وابن جرير، وغيرهما: نسبت هذه الآية أن قریشاً استبعدوا أن يبعث الله رسولا من البشر. وقال الزجاج: إنما عجبوا من إخباره أنهم يُبعثون من القبور، إذ النذارة والبشارة تتضمنان ذلك، وكثر كلامهم في ذلك حتى قال بعضهم:

أما وجد الله من يبعث إلا يتيم أبي طالب؟ ونحو هذا من الأقاويل التي اختصرتها لشهرتها، فنزلت الآية. وقوله: ﴿أَكَانَ﴾ تقرير، والمراد ﴿بِالنَّاسِ﴾: قائلوا هذه المقالة. و﴿عَجَبًا﴾ خبر (كَانَ)، واسمها: ﴿أَنَّ أَوْحِيَا﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا﴾، وجعل الخبر في قوله سبحانه: ﴿أَنَّ أَوْحِيَا﴾، والأول أصوب لأن الاسم معرفة والخبر نكرة وهذا القلب لا يصح ولا يجيء إلا شاذاً، ومنه قول حسان:

يَكُونُ مِرْآجُهَا عَسَلٌ وَمَاءٌ
ولفظة العجب هنا ليست بمعنى التعجب فقط، بل معناه: أوصل إنكارهم وتعجبهم إلى التكذيب؟ وقرأت فرقة: ﴿إِلَى رَجُلٍ﴾ بسكون الجيم. ثم فسر الوحي وقسمه على النذارة للكافرين والبشارة للمؤمنين. والقدم - هنا -: ما قُدِّم. واختلف في المراد بها ها هنا؛ فقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس، وابن زيد: هي الأعمال الصالحة من العبادات، وقال الحسن بن أبي الحسن، وقاتدة: هي شفاعة محمد الله ﷺ، وقال زيد بن أسلم، وغيره: هي المصيبة بمحمد ﷺ في موته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، وغيره: هي السعادة السابقة لهم في اللوح المحفوظ، وهذا أليق الأقوال بالآية، ومن هذه اللفظة قول حسان:
لَنَا الْقَدَمُ الْعُلْيَا إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا
لَأَوْلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَسَابُعُ

وقول ذي الرمة:

لَكُمْ قَدَمٌ لَا يَشْكُرُ النَّاسُ أَنَّهَا
مع الحسب العالي طمّت على البحر
ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ في صفة جهنم: «حتى يضع الجبار فيها قدمه فتنقول: قَطُّ قَطُّ أَي ما قدم لها من خلقه، هذا على أن (الجبار) اسم الله تبارك وتعالى، ومن جعله اسم جنس كأنه أراد الجبارين من بني آدم، فالقدم على هذا التأويل: الجارحة. والصدق في هذه الآية بمعنى الصلاح، كما تقول: رجلٌ صدقٌ ورجلٌ سؤءٌ. وقوله سبحانه: ﴿فَقَالَ الْكٰفِرُونَ﴾ يحتمل أن يكون تفسيراً لقوله: ﴿أَكَانَ وَحِينًا إِلَى بَشَرٍ عَجَبًا؟﴾ قال الكافرون عنه كذا وكذا؟ وذهب الطبري إلى أن في الكلام حذفاً يدل الظاهر عليه، تقديره: فلما أنذر ويشر قال الكافرون كذا وكذا. وقرأ الجمهور الناس، وهي قراءة نافع، وأبي عمرو، وابن عامر: ﴿إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وقرأ مسروق بن الأجدع، وابن جبير، والباقون من السبعة، وابن مسعود، وأبو زرّين، ومجاهد، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى بن عمر - بخلاف، وابن محيصن، وابن كثير - بخلاف عنه -: ﴿إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ﴾، والمعنى متقارب. وفي مصحف أبي: ﴿قال الكافرون ما هذا إلا سحرٌ مبين﴾ وقولهم في الإنذار والبشارة سحرٌ إنما هو بسبب أنه فرق بذلك كلمتهم وحال بين القريب وقريبه فأشبه بذلك ما يفعله الساحر فظنوه من ذلك الباب.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء دعاء إلى عبادة الله عز وجل وإعلام بصفاته، والمخاطب بها

لجميع الناس، ﴿وَخَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ هو على ما تقرر أن الله عز وجل خلق الأرض ثم استوى إلى السماء وهي دخان فخلقها ثم دحى الأرض بعد ذلك وقوله: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ قيل: هي من أيام الآخرة، وقال الجمهور - وهو الصواب -: بل من أيام الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك في التقدير، لأن الشمس وجريها لم يتقدم حينئذ، وقول النبي ﷺ في خلق الله المخلوقات: «إِنَّ اللَّهَ ابْتَدَأَ يَوْمَ الْأَحَدِ كَذَا وَيَوْمَ كَذَا وَكَذَا» إنما هو على أن نقدر ذلك الزمان ونعكس إليه التجربة من حين ابتداء ترتيب اليوم والليلة. والمشهور أن الله ابتداء الخلق يوم الأحد، ووقع في بعض الأحاديث في كتاب مسلم، وفي الدلائل أن البداية وقعت يوم السبت، وذكر بعض الناس أن الحكمة في خلق الله تبارك وتعالى هذه الأشياء في مدة محدودة ممتدة وفي القدرة أن يقول كن فيكون إنما هو ليعلم عباده التوادة والتماهل في الأمور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مما لا يوصل إلى تعليله، وعلى هذا هي الأجنة في البطون وخلق شمار وغير ذلك، والله عز وجل قد جعل لكل شيء قدراً وهو أعلم بوجه الحكمة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَمَآ أَسْتَوَىٰ عَلَىٰ السَّرِيِّ﴾ قد تقدم القوم فيه في ﴿وَلَمَّسَ﴾. وقوله: ﴿يَدْبُرُ الْأُمْرَ﴾ يصح أن يريد (بالأمر) اسم الجنس من الأمور، ويحتمل أن يريد الأمر

الذي هو مصدر أمر يأمرُ أمراً، وتديبه لا إله إلا هو الإنفاذ لأنه قد أحاط بكل شيء علماً. وقال مجاهد: ﴿يَدْبُرُ الْأُمْرَ﴾ معناه: يقضيه وحده.

وقوله تعالى: ﴿مَّا مِنْ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْ بَدَأَهُ﴾ رد على العرب في اعتقادها أن الأصنام تشفع لها، وقوله: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى الله تبارك وتعالى، أي هذا الذي صفاته فاعبدوه، ثم قرره على هذه الآيات والعبير فقال: ﴿أَلَا نَذَكُرُونَ﴾ أي: فيكون التذكُّر سبباً للاعتداء.

واختصار القول في قوله سبحانه: ﴿فَمَآ أَسْتَوَىٰ عَلَى السَّرِيِّ﴾ أن يكون استوى بقره وغلبته، وإما أن يكون ﴿أَسْتَوَىٰ﴾ بمعنى استولى - إن صحَّت اللفظة في اللسان، فقد قيل في قول الشاعر:

قد استوى بشرٌ على العِراقِ
من غير سيفٍ ودمٍ مُهزَّاقِ
إنه بيتٌ مصنوع - وإما أن يكون قَعْلٌ فِعْلاً في العرش سماه استوى. واستيعاب القول قد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا﴾ الآية - آية إنباء بالبعث من القبور، وهي من الأمور التي جوزها العقل وأثبت وقوعها الشرع. وقوله: ﴿جَمِيعًا﴾ حال من الضمير في ﴿مَرْجِعُكُمْ﴾، ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر، وكذلك قوله: ﴿حَقًّا﴾، وقال أبو الفتح: ﴿حَقًّا﴾ نعت.

وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الألف على القطع والاستئناف، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، والأعمش، وسهل بن شعيب،

وعبدالله: ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الألف، وموضعها نصب على تقدير: أحق أنه، وقال الفراء: موضعها رفع على تقدير: يحق أنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يجوز عندي أن يكون ﴿أَنَّ﴾ بدلاً من قوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾، قال أبو الفتح: إن شئت قدرت: لأنه يبدأ الخلق، أي: فمن في قدرته فهذا هو غني عن إخلاف الرعد، وإن شئت قدرته: وعد الله حقاً أنه، ولا يعمل فيه المصدر الذي هو ﴿وَعَدَ﴾ لأنه قد وُصف فأذن ذلك بتمامه وقطع عمله. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿حَقًّا﴾ بالرفع، فهو ابتداء وخبره ﴿أَنَّ﴾، وقوله: ﴿يَبْدَأُ الْخَلْقَ﴾ يريد من الشأة الأولى، والإعادة هي البعث من القبور، وقرأ طلحة: ﴿يُبْنِي الْخَلْقَ﴾ بضم الياء وكسر الدال.

وقوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ هي لام كي، والمعنى أن الإعادة إنما هي ليقع الجزاء على الأعمال، وقوله: ﴿بِالْقِسْطِ﴾ أي بالعدل في رحمتهم وحسن جزائهم، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ ابتداء، والحميم: الحار المسخن، وهو فعيل بمعنى مفعول، ومنه الحمام والحممة، ومنه قول العرقش:

في كل يؤم لها مقطرة
وكبابة مُعَدَّة وحميم
وحميم النار - فيما ذكر عن رسول الله ﷺ - إذا أدناه الكافر من فيه تساقطت فروة رأسه، وهو كما وصفه الله تعالى: ﴿شَرِيءٌ زَوِجْرٌ﴾.

① - ② تفسير قوله عز وجل: هذا استمرار على وصف آيات الله

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلَّكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي للفائدة لا ليُلبس والإهمال، فهي إذاً بحق أن تكون كما هي.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم في رواية حفص: ﴿يَقُولُ الْآيَاتِ﴾، وقرأ ابن كثير أيضاً، وعاصم، والباقون، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وأهل مكة، والحسن، والأعمش: ﴿نَفْضُلُ﴾ بنون العظمة.

وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَمْلُكُونَ﴾ إنما خصهم لأن نفع التفصيل فيهم ظهر وعليهم أضاء وإن كان التفصيل إنما وقع مجملاً لكل مُعدداً ليحصله الجميع. وقرأ جمهور السبعة، وقد رويت عن ابن كثير: ﴿ضِيَاءُ﴾ وقرأ ابن كثير وحده فيما روي أيضاً عنه: ﴿ضِيَاءُ﴾ بهمزتين، وأصله ضياء فقلبت فجاءت (ضِيَاءُ)، فقلبت الياء همزة لوقوعها بين ألفين. قال أبو علي: وهي غلط.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي آيَاتِنَا لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْتَبِرُونَ﴾ الآية. آية اعتبار وتنبيه، ولقظة (الاختلاف) تعم تعاقب الليل والنهار وكونهما خلفه وما يتعاورانه من الزيادة والنقص وغير ذلك من لواحق سير الشمس وبحسب أقطار الأرض، وقوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ لفظ عام لجميع المخلوقات، والآيات: العلامات والدلائل، وخصص القوم المتقين تشريعاً لهم إذ الاعتبار فيهم يقع، ونسبتهم إلى هذه الأشياء المنظور فيها أفضل من نسبة من لم يهتد ولا اتقى.

قال أبو عبيدة، وتابعه القتيبي

لا تبقى معها ظلمة، فمعنى الآية: إن الله تبارك وتعالى قد جعل هده في الكفر كالنور في الظلام فيهدي قومه ويضل آخرون، ولو جعله كالضياء لوجب ألا يضل أحد، وبقي الضياء على هذا الانفصال أبلغ في الشروق كما اقتضت آيتنا هذه، والله عز وجل هو ضياء السموات والأرض ونورها وقبومها. ويحتمل أن يعترض هذا الانفصال، والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدَرُوا مَنَازِلَهُمْ يُرِيدُونَ الْمَذْكُورَةَ فِي غَيْرِ هَذِهِ

الآية. وأما الضمير الذي رذّه على القمر وقد تقدم ذكر الشمس معه فيحتمل أن يريد بالضمير القمر وحده لأنه هو المرعى في معرفة عدد السنين والحساب عند العرب، لكنه اجتزأ بذكر الواحد كما قال: ﴿وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرَاضُوا﴾، وكما قال الشاعر:

رمانى بذنّب كثنث منه وإليدي
بريشاً، ومن أجّل الطويّ رمانى
قال الزجاج: وكما قال الآخر:

نحن بما عندنا وأنت بما
عندك راضٍ والرأي مُختلف
وقوله تعالى: ﴿لِعَمَلِكُمْ﴾ المعنى: قدر هذين الثّنين منازل لكي تعلموا بها عدد السنين والحساب رفقا بكم، ورفعا للالتباس في معاشكم وتجرّكم وإجارتكم وغير ذلك مما يضطر فيه إلى معرفة التواريخ.

إِنَّ الْآيَاتِ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَارٍ وَرِضْوَانٍ الْحَيَوَاتِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ يَسَاءَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُولَئِكَ مَا نُهُمُ اللَّهُ عَنْهُمُ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٨﴾ إِنَّ الْآيَاتِ لَمُبْتَلَىٰ ﴿٩﴾ وَاعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمُ بِالْإِيمَانِ تَجْرِبُ مِنْ تَجْرِبِهِمُ الْآيَاتِ فِي حَنَّتِ النَّبِيِّ ﴿١٠﴾ دَعَوْهُمْ فِيهَا سَخِرَكَ اللَّهُمَّ وَيَحْتَسِبُ فِيهَا سَلَامٌ وَأَخْرَجُوا عَنْهُمْ أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتَعْجَالَهُمْ بِالْخَيْرِ لَقَضَىٰ إِلَيْهِمْ أَجْلَهُمْ فَفَدَّرَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَ نَارٍ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذْ أَسَّأَ الْإِنْسَانُ الْأَضْرُوعَانَ لِحَبِيهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ غُضْرَهُ مَرَّكَانَ لِيُرِيدَنَا إِلَىٰ ضَرْبِهِ كَذَلِكَ زَيْنَ لِلْمُشْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ يَجْزَى الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

والتنبيه على صنعته الدالة على الصانع، وهذه الآية تقتضي أن الضياء أعظم من النور وأبهى بحسب الشمس والقمر، ويلحقها هنا اعتراض وهو أننا وجدنا الله تعالى شبه هده ولطفه بخلقه بالنور فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وهذا يقتضي أن النور أعظم هذه الأشياء وأبلغها في الشروق، وإلا فلم ترك التشبيه الأعلى الذي هو الضياء وعدل إلى الأقل الذي هو النور؟ فالجواب عن هذا والانفصال أن تقول: إن لفظة النور أحكم وأبلغ في قوله سبحانه: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وذلك أنه تعالى شبه هده ولطفه الذي نصبه لقوم يهتدون وآخرين يضلون معه بالنور الذي هو أبداً موجود في الليل وأثناء الظلام، ولو شبهه بالضياء لوجب ألا يضل أحد إذ كان الهدى يكون مثل الشمس التي

وغيره: ﴿يَرْجُونَ﴾ في هذه الآية بمعنى يخافون، واحتجوا ببيت أبي ذؤيب:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا
وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ ثُوبٍ عَوَائِلِ
وحكى المهدوي عن بعض أهل اللغة - قال ابن سيده: هو الفراء -:
إِنَّ لَفْظَةَ الرَّجَاءِ إِذَا جَاءَتْ مَنْفِيَةً فَإِنَّهَا
تَكُونُ بِمَعْنَى الْخَوْفِ وَحُكِيَ عَنْ
بَعْضِهِمْ: إِنَّهَا تَكُونُ بِمَعْنَاهَا فِي كُلِّ
مَوْضِعٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ قِرَائِنٌ مَا قَبْلَهُ وَمَا
بَعْدَهُ، فَغَلَى هَذَا التَّأْوِيلَ مَعْنَى الْآيَةِ:
﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يَخَافُونَ لِقَاءَنَا﴾. وقال
ابن زيد: هذه الآية في الكفار،
وقال بعض أهل العلم: الرجاء في
هذه الآية على بابيه، وذلك أن
الكافر المكذب بالبعث ليس يرجو
رحمة الله في الآخرة، ولا يحسن
ظناً بأنه يلقي الله، ولا له في الآخرة
أمل، فإنه لو كان له فيها أمل لقارنه
لا محالة خوف، وهذه الحال من
الخوف المقارن هي الفائدة من
النجاة، والذي أقول: إن الرجاء في
كل موضع على بابيه، وإن بيت
الهدلي معناه: لم يرج فقد لسعها
فهو يبني عليه ويصبر إذ يعلم أنه لا
يُدُّ منه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَضُوا بِأَلْمِيزَةِ الذَّنْبِ﴾
يريد: كانت آخر همهم ومنتهى
غرضهم، وأسند الطبري عن قتادة أنه
قال في تفسير هذه الآية: «إذا شئت
رأيت هذا الموصوف، صاحب دنيا،
لها يغضب، ولها يرضى، ولها
يفرح، ولها يهتم ويحزن». فكأن
قتادة صورها في العصاة، ولا يترتب
ذلك إلا مع تأول الرجاء على بابيه،

إذ قد يكون العاصي المُجْلَحُ
مستوحشاً من آخرته، فأما على
التأويل الأول فمن لا يخاف لقاء الله
فهو كافر، وقوله: ﴿وَأَطْمَأَؤُوا بِهَا﴾
تكميل في معنى القناعة بها والرفض
لغيرها، لأن الطمأنينة بالشيء هي
زوال التحرك إلى غيره. وقوله:
﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ﴾
يحتمل أن يكون ابتداء إشارة إلى
فرقة أخرى من الكفار، وهؤلاء -
على هذا التأويل - أضل صفة لأنهم
ليسوا أهل دنيا بل أهل غفلة فقط،
ثم حتم عليهم بالنار، وجعلها
مأواهم، وهو حيث يأوي الإنسان
ويستقر، ثم جعل ذلك بسبب كسبهم
واجتراحهم، وفي هذه اللفظة ردٌّ
على الجبرية ونص على تعلق العقاب
بالتكسب الذي للإنسان.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾
الآية. لما قرر تبارك وتعالى حالة
الفرقة الهالكة عقب ذلك بذكر حالة
الفرقة الناجية ليتضح الطريقتان ويرى
الناظر فرق ما بين الهدى والضلال،
وهذا كله لطف منه بعباده. وقوله:
﴿يَهْدِيهِمْ﴾ لا يترتب أن يكون معناه:
يرشدهم إلى الإيمان، لأنه قد قرره
مؤمنين، فإنما الهدى في هذه الآية
على أحد وجهين، إما أن يريد أنه
يديمهم ويشتهم، كما قال: ﴿يَأْتِيهَا
الَّذِينَ آمَنُوا آيَاتُوا﴾ فإنما معناه:
اثبتوا، وإما أن يريد به: يرشدهم إلى
طرق الجنان في الآخرة. وقوله:
﴿يَأْتِيهِمْ﴾ يحتمل أن يريد: بسبب
إيمانهم ويكون ذلك مقابلاً لقوله
قبل: ﴿مَأْرَهُهُ كَأَنَّ يَمَّا كَانُوا
يَكْفُرُونَ﴾، ويحتمل أن يكون

الإيمان هو نفس الهدى، أي:
يهديهم إلى طريق الجنة بنور
إيمانهم. قال مجاهد: يكون لهم
إيمانهم نوراً يمشون به، وتركب هذا
التأويل على ما روي عن النبي ﷺ:
«إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا قَامَ مِنْ قَبْرِهِ
لِلْحَشْرِ تَمَثَّلَ لَهُ رَجُلٌ جَمِيلٌ الْوَجْهَ
طَيِّبَ الرَّائِحَةَ، فيقول: من أنت؟
فيقول: أنا عمك الصالح، فيقوده
إلى الجنة» وبعكس هذا في الكافر،
ونحو هذا مما أسنده الطبري وغيره.
وقوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾
يريد: من تحت عليانهم وغرفهم،
وليس التحت الذي هو بالمسامة،
بل يكون إلى ناحية من الإنسان، كما
قال تعالى: ﴿فَدَّ جَمَلٌ رُكَّ تَحْتِكَ
سَرِيًّا﴾، وكما قال حكاية عن
فرعون: ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ
تَحْتِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿دَعْوَتِهِمْ فِيهَا﴾ الآية.
الدعوى بمعنى الدعاء، يقال: دعا
الرجل وأدعى بمعنى واحد، قاله
سيبويه. و﴿سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ﴾ تقديس
وتسبيح وتنزيه لجلاله عن كل ما لا
يليق به، وقال علي بن أبي طالب
رضي الله عنه في ذلك: «هي
كلمات رضيها تعالى لنفسه»، وقال
طلحة بن عبيدالله: قلت: يا
رسول الله، ما معنى «سبحان الله»؟
فقال: «معناها تنزيه الله من السوء»،
وقد تقدم ذكر خلاف النحاة في
بعض ﴿اللَّهُمَّ﴾، وحكي عن بعض
المفسرين أنهم رأوا أن هذه الكلمة
إنما يقولها المؤمن في الجنة عندما
يشتهي الطعام، فإنه إذا رأى طائراً أو
غير ذلك قال: «سبحانك اللهم»

فنزلت تلك الإرادة بين يديه فوق ما اشتهى. رواه ابن جريج، وسفيان بن عيينة.

وقوله: ﴿وَمَيِّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ﴾ يريد: تسليم بعضهم على بعض، والتحية مأخوذة من تمنى الحياة للإنسان والدعاء بها، يقال: حيّاه يُحيّيه، ومنه قول زهير بن جناب:

مَنْ كُلُّ مَا نَالَ السَّفْسَى
قَدِ بَلَّيْتُهُ إِلَّا السُّحْبِيَّةَ

يريد دعاء الناس للملوك بالحياة، وقد سُمّي الملوك تحية بهذا التدرج، ومنه قول عمرو بن معديكرب:

أزورُ أبا قابوس حثى
أنيحَ على تحيّيهِ بجُنْدِي
أراد: على مملكته. وقال بعض العلماء: ﴿وَمَيِّتُهُمْ﴾ يريد تسليم الله عز وجل، والسلام مأخوذ من السلامة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْرُ دَعْوَتِهِمْ﴾ يريد: وخاتمة دعواهم في كل موطن وكلامهم شكر الله تعالى وحمده على سابغ نعمه، وكانت بدايتهم بالتنزيه والتعظيم. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنْ أَلْمَسْتُ اللَّهَ﴾ وهي عند سيبويه (أن) المخففة من الثقيلة، وقرأ ابن محيصن، وبلال بن أبي بردة، ويعقوب، وأبو حيوة: ﴿أَنْ أَلْحَمَدُ لِلَّهِ﴾، وهي - على الوجوهين - رفع على خبر الابتداء، قال أبو الفتح: هذه القراءة تدل على أن قراءة الجماعة هي (أن) المخففة من الثقيلة بمنزلة قول الأعشى:

في فِئْتِي كَسِيْفُ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا
أَنْ هَالِكُ كُلِّ مَنْ يَخْفَى وَيَنْتَعِلُ

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال مجاهد: «نزلت في دعاء الرجل على نفسه أو ماله أو ولده ونحو هذا، فأخبر الله تعالى أنه لو فعل مع الناس في إجابته إلى المكروه مثل ما يريدون فعله معهم في إجابتهم إلى الخير لأهلكهم، ثم حذف بعد ذلك من القول جملة يتضمنها الظاهر تقديرها: ولا يفعل ذلك ولكن يذر الذين لا يرجون، فاقترض القول وتوصل إلى هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، فتأمل هذا التقدير تجده صحيحاً. و«اسْتَعْجَلَهُمْ» نصب على المصدر، والتقدير: مثل استعجالهم، وقيل: التقدير: تعجلاً مثل استعجالهم، وهذا قريب من الأول. وقيل: إن هذه الآية نزلت في قوله تعالى: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ هَذَا هَرُ الْحَقِّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ﴾، وقيل: نزلت في قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا بِمَا تَعِدُنَا﴾ وما جرى مجراه.

وقرأ جمهور القراء: ﴿لَقَضَى﴾ على بناء الفعل للمفعول ورفع (الأجل)، وقرأ ابن عامر وحده، وعوف، وعيسى بن عمر، ويعقوب: ﴿لَقَضَى﴾ على بناء الفعل للفاعل ونصب (الأجل)، وقرأ الأعمش: ﴿لَقَضَيْنَا﴾، والأجل - في هذا الموضع - أجل الموت، ومعنى (قضى) في هذه الآية: أكمل وفرغ، ومنه قول أبي ذؤيب:

وعليهما مسرودتان قضاهما
داود أَوْ صَنَعُ السُّوَابِغِ تُبْعُ

وأشد أبو علي في هذا المعنى: قضيتُ أموراً ثم غادرتُ بعدها فوائح في أكماميها لم تفتق وتعدى (قضى) في هذه الآية بإلى لما كان بمعنى: فرغ، وفرغ يتعدى بإلى وباللام، فمن ذلك قول جرير: الآن ققد فرغت إلى تميم فصرت على جماعتها عذاباً ومن الآخر قوله عز وجل: ﴿سَنُرِيكُمْ آيَةَ الثَّقَلَانِ﴾. وقرأ الأعمش: ﴿فَتَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾، و«يَرْجُونَ» في هذا الموضع على بابها، والمراد الذين لا يؤمنون بالبعث فهم لا يرجون لقاء الله، والرجاء مقترن أبداً بخوف، والطغيان: العُلُو في الأمر وتجاوز الحد، والعَمَةُ: الخبط في ضلال، فهذه الآية نزلت ذاقه لخلق ذميم هو في الناس، يدعون في الخير فيريدون تعجيل الإجابة فيحملهم أحياناً سوء الخلق على الدعاء في الشَّرِّ، فلو عجل لهم لهلكوا.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ مَنِ الْإِنْسَانُ﴾ الآية. هذه الآية أيضاً عتاب على سوء الخلق من بعض الناس، ومضمونه النهي عن مثل هذا، والأمر بالتسليم إلى الله تعالى والضرعة إليه في كل حال، والعلم بأن الخير والشر منه لا رب غيره. وقوله: ﴿يَجْتَبِيهِ﴾ في موضع حال، كأنه قال: مضطجماً، ويجوز أن يكون حالاً من ﴿الْإِنْسَانِ﴾، والعامل فيه ﴿مَنْ﴾، ويجوز أن يكون حالاً من ضمير الفاعل في ﴿دَعَانَا﴾ والعامل فيه (دعا) وهما معنيان متباينان.

وَإِذْ أَنْتَلَّ عَلَيْهِنَّ آيَاتُنَا نَبِيَّتٌ قَالَ الَّذِي لَمْ يَرْجُوا لِقَاءَنَا أَنْتِ بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأَرَادَ الْوَيْدُ أَنْ يُبَدِّلَهُ فُلًا مَائِكُوتٍ لِي أَنْ أَبَدِلَهُمْ مِنْ تِلْقَائِي أَنفُسِهِمْ أَنْ تَجِئُ مِنَ الْأَمَاوِيِّ إِلَى الْإِنِّي أَخَافُ أَنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُلْ أَوْشَاءَ اللَّهِ مَا تَكُونُونَ عَلَيْهِ كُمْ وَلَا أَدْرِي كُمْ بِهِ فَقَدْ لَيْسَتْ فِيكُمْ عُمْرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ أَظْلَمُ مِنْ أَقْرَبِكَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٧﴾ وَصِدْقُكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَبْصُرُهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شَفَعْتُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتَشْعُرُونَ اللَّهُ يَمَّا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سَخِرْتُمْ وَفَعَلْنَا عَمَّا يَشْرُكُونَ ﴿١٨﴾ وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٩﴾ وَيَقُولُونَ لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهِ آيَةً مِنْ رَبِّهِ فَقُلْنَا إِنَّمَا الْأَعْيُنُ لِلَّهِ فَانظُرُوا إِلَى مَعَكُمْ مِنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿٢٠﴾

جعلنا خلفاء لينظر كيف عملنا فأروا الله حسن أعمالكم في السر والعلانية، وكان أيضاً يقول: «قد استخلفت يا ابن الخطاب فانظر كيف تعمل»، وأحياناً كان يقول: «قد استخلفت يا ابن أم عمر».

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَتْ عَلَيْهَا آيَاتُنَا بَيِّنَاتٌ﴾ الآية. هذه الآية نزلت في قريش لأن بعض كفارهم قال هذه المقالة على معنى: ساهلنا يا محمد واجعل هذا الكلام الذي هو من قبيلك على

﴿الصُّرَّةُ﴾ لفظ عام لجميع الأمراض والزياء في النفس والمال والأحبة، هذا قول اللغويين، وقيل: هو مختص بزياء البدن: الهزال والمرض، وقوله: ﴿مَرٌّ﴾ يقتضي أن نزولها في الكفار ثم هي بعد تناول كل من دخل تحت معناها من كافر أو عاص، فمعنى الآية: مر في إشراكه بالله وقلة توكله عليه. وقوله: ﴿زَيْنٌ﴾ إن قدرناه من الله تبارك وتعالى فهو خلقه الكفر لهم واختراعه في نفسهم صحبة أعمالهم الفاسدة ومثابرتهم عليها، وإن قدرنا ذلك من الشيطان فهو بمعنى الوسوسة والمخادعة، ولفظة التزيين قد جاءت في القرآن بهذين المعنيين مرة من فعل الله تعالى، ومرة من فعل الشياطين.

﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعيد للكفار وضرب أمثال لهم، أي: كما فعل هؤلاء فاعلمكم فكذلك يفعل بكم ما فعل بهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا لِيُؤْتُوا﴾ إخبار عن قسوة قلوبهم وشدة كفرهم، وقرأ جمهور السبعة، وغيرهم: ﴿تَجَزَى﴾ بنون الجماعة، وفرقة: ﴿يَجْزِي﴾ بالياء على معنى: يسجزي الله. و﴿تَلْتَمَسُ﴾ جمع خليفة. وقوله: ﴿لِنَنْظُرَ﴾ معناه: لنبين في الوجود ما علمناه أولاً، لكن جرى القول على طريق الإيجاز والفصاحة. وقرأ يحيى بن الحارث وقال: رأيتها في الإمام - مصحف عثمان -: ﴿لِنَنْظُرَ﴾ بإدغام النون في الظاء. وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «إن الله تعالى إنما

روي عنه: ﴿وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ﴾ وهي لام تأكيد دخلت على (أدري)، والمعنى - على هذا - ولأعلمكم به من غير طريقي، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن سيرين، وأبو رجاء، والحسن: ﴿وَلَا أَدْرَانَكُمْ بِهِ﴾، وقرأ ابن عباس أيضاً وشهر بن حوشب: ﴿وَلَا أَنْزَرْتَكُمْ بِهِ﴾، وخرج الفراء قراءة ابن عباس والحسن على لغة بعض العرب منها قولهم: «لَبَأْتُ» بمعنى «لَبَيْتُ»، ومنها قول امرأة منهم: «رَبَأْتُ» زوجي بأبيات، أي: رثيت، وقال أبو الفتح: إنما هي (أدرتكم) قلبت الياء ألفاً لافتح ما قبلها. وروينا عن قطرب: إن لغة عقيل في أعطيتك: أعطأتك، قال أبو حاتم: قلبت الياء ألفاً كما هي في لغة بني الحارث بن كعب: «السلام علاك».

اختيارنا، وأحل ما حرّمته وحرّم ما حللته ليكون أمرنا حينئذ واحداً وكلمتنا متصلة. فذم الله هذه الصنعة وذكرهم بأنهم يقولون هذا للآيات البينات، ووصفهم بأنهم لا يؤمنون بالبعث، ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام أن يرد عليهم بالحق الواضح، وأن يستسلم ويتبع حكم الله تعالى ويُعلم بخوفه ربه. واليوم العظيم: يوم القيامة.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه من كمال الحجة، أي: هذا الكلام ليس من قبلي ولا من عندي، وإنما هو من عند الله، ولو شاء الله ما بعثني به ولا تلوته عليكم ولا أعلمتكم به. و﴿أَدْرِيكُمْ﴾ بمعنى: أعلمكم، يقال: دريت بالأمر وأدرت غيري. وهذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير في بعض ما

وابن القعقاع، وشيبة، وحמיד، وطلحة، والأعمش. وقرأ ابن كثير ونافع هنا وفي النمل فقط: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالتاء على مخاطبة الحاضر. وقرأ حمزة، والكسائي الخمسة الأحرف بالتاء، وهي قراءة أبي عبد الرحمن.

﴿١٩﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: المراد آدم، كان أمة وحده، ثم اختلف الناس بعد، وفي أمر بنيه. وقالت فرقة: المراد نسم بنيه إذ استخرجهم الله من ظهره وأشهدهم على أنفسهم. وقالت فرقة: المراد آدم وبنيه من لدن نزوله إلى قتل أحد ابنيه الآخر. وقالت فرقة: المراد: وما كان الناس إلا أمة واحدة في الضلالة والجهل بالله، فاختلّفوا فرقاً في ذلك بحسب الجهالة. ويحتمل أن يكون المعنى: كان الناس صنفاً واحداً مُعْتَدًا للاهتداء. واستيفاء القول في هذا متقدم في سورة البقرة في قوله سبحانه: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو جعفر، ونافع، وشيبة، وأبو عمرو: ﴿لَقَضَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ بضم القاف وكسر الضاد، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿لَقَضَىٰ﴾ بفتحهما على الفعل الماضي.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ يريد قضاءه وتقديره لبني آدم بالأجل المؤقتة. ويحتمل أن يريد الكلمة في أمر القيامة وأن العقاب والثواب إنما يكون حينئذ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَا أُنزِلَ

بيانها، وذلك أعظم جرم على الله، وأكثر استشراف إلى عذابه، ثم قرر أنه لا يفلح أهل الجرم، و﴿يَلْبِغُ﴾ معناه: يظفر بغيته.

وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ

مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ﴾ الآية. الضمير في ﴿وَيَعْبُدُونَ﴾ عائد على الكفار من قريش الذين تقدمت محاورتهم، و﴿مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ﴾ هي الأصنام، وقولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾ هو مذهب النبلاء منهم، فأمر الله تعالى نبيه عليه

الصلاة والسلام أن يقررهم ويوتخهم: أهم يعلمون الله بأنبياء من السموات والأرض لا يعلمها هو؟ وذكر ﴿الْمَسْتَوِينَ﴾ لأن من العرب من يعبد الملائكة والشعري. وبحسب هذا حسن أن يقول: ﴿هَؤُلَاءِ﴾، وقيل: ذلك على تجوز في الأصنام التي لا تعقل، وفي التوقيف على هذا أعظم غلبة لهم، ولا يمكنهم إلا أن يقولوا: لا نعمل ولا نقدر، وذلك لهم لازم من قولهم: ﴿هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا﴾.

و﴿سُبْحَانَكَ﴾ استئناف تنزيه لله عز وجل. وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر هنا: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بالياء على الغيبة، وفي حرفين في النحل، وحرف في الروم، وحرف في النمل، وذكر أبو حاتم أنه قرأها كذلك نافع، والحسن، والأعرج،

وإذا أدقنا الناس رحمة من بعد ضلالة مستهم إذ لهم مكر في آياتنا قل الله أسرع مكرًا إن رسلنا يكذبون ما تمكروا ﴿١٩﴾ هو الذي يسير مكر في البر والبحر حتى إذا كثر في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتهم هاربع عاصف وجاءهم الموج من كل مكان وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله مخلصين له الدين لين أجمعين من هدوه لنكونن من الشكرين ﴿٢٠﴾ فلما أجمعهم إذا هم يبعون في الأرض بغير الحق يأبوا الناس إنما بغيكم على أنفسكم متنع الحيوة الدنيا ثم ألبناهم جمعكم فنبئكم بما كنتم تعملون ﴿٢١﴾ إنما مثل الحيوة الدنيا كما أنزلت من السماء فأخلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وأزديت وظن أهلها أنهم قديرون عليها آتمها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم ننحأ بالأمس كذلك نفصل لكم لقوم يفتكروا ﴿٢٢﴾ والله يدعو إلى دار السعادة ويهدي من يشاء إلى صراط مستقيم ﴿٢٣﴾

ثم قال: ﴿فَكَذَّبْتَ بِكَ عُمَرَا مِن قَبْلِهِ﴾ أي الأربعين سنة قبل بعثته عليه السلام، ويريد: لم تجربوني في كذب ولا تكلمت في شيء من هذا، ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ أن من كان على هذه الصفة لا يصح منه كذب بعد أن كل عمره وتقاصر أمله واشتدت حنكته وخوفه لربه، وقرأ الجمهور بالبيان في ﴿لَيْسَتْ﴾، وقرأ أبو عمرو: ﴿لَيْسَتْ﴾ بإدغام التاء في التاء.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ الآية. جاء في هذه الآية التوقيف على عظم جرم المفتري على الله بعد تقدم التنصل من ذلك، قيل: فانسق القول واضطردت فصاحته، وقوله: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام وتقرير، أي: لا أحد أظلم ﴿يَمَنِّي أَتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ يَمُنُّ كَذِبًا﴾ يتأنيبه بعد

عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۗ» الآية. يريدون بقولهم: ﴿ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۗ﴾ آية تضطر الناس إلى الإيمان، وهذا النوع من الآيات لم يأت بها نبي قط، ولا هي معجزات اضطرارية، وإنما هي معرضة للنظر ليهتدي قوم ويضل آخرون. وقوله: ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْتَمَبْتُ لِلَّهِ﴾ إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، لا يطلع على غيبه أحد. وقوله: ﴿فَأَنْظِرُوا﴾ وعيد وقد صدقه الله تبارك وتعالى بنصرته محمداً ﷺ، قال الطبري: في بدر وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَدْنَا لِلنَّاسِ﴾ الآية. المراد بالناس في هذه الآية الكفار، وهي بعدُ تتناول من العصاة من لا يؤدي شكر الله تبارك وتعالى عند زوال المكروه عنه، ولا يرتدع بذلك عن معاصيه، وذلك في الناس كثير. والرحمة هنا بعد الضراء كالمطر بعد القحط والأمن بعد الخوف والصحة بعد المرض ونحو هذا مما لا ينحصر. والمكروه: الاستهزاء والطعن عليها من الكفار واطراح الشكر والخوف من العصاة، ووصف مكر الله بالسرعة وإن كان الاستدراج بمهلهم لأنه مَتَيَّنُّنَ به وواقع لا محالة، وكل آت قريب. قال أبو حاتم: قرأ الناس: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا﴾ بضم السين، وخفف السين الحسن، وابن أبي الحسن، وأبو عمرو.

ويقال: [أَسْرَعُ] من: سرع، ولا يكون من: أَسْرَعَ يُسْرَعُ، حكى ذلك أبو علي؛ قال: ولو كان من أَسْرَعَ لكان شاذاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وقد قال رسول الله ﷺ في نار جهنم: «لَهْمِي أَسْوَدُ مِنَ الْقَارِ» وما حفظ للنبي ﷺ فليس بشاذ.

وقرأ الحسن، والأعرج، ونافع، وقتادة، ومجاهد: ﴿تَمَكَّرُونَ﴾ بتاء على المخاطبة، وهي قراءة أهل مكة، وشبل، وأبي عمرو، وعيسى، وطلحة، وعاصم، والأعمش، والجحدري، وأيوب ابن المتوكل، وقرأ الحسن، وقتادة، ومجاهد ورويت أيضاً عن نافع، والأعرج ﴿يَمَكَّرُونَ﴾ على الغيبة. قال أبو حاتم: قال أيوب ابن المتوكل: «في مصحف أبي: يأبها الناس إن الله أسرع مكرأ وإن رسله لديكم يكتبون ما تمكرون».

﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن تعديد النعمة فيما هي الحال بسبيله من ركوب البحر. وركوبه وقت حُسن الظن به للجهاد والحج مُتَّفَقٌ على جوازه، وكذلك لضرورة المعاش بالصيد فيه أو لتصرف التجار، وأما ركوبه لطلب الغنى والاستكثار فمكروه عند الأكثر. وغاية مُبَيِّحُهُ أن يقول: وتركهُ أحسن، وأما ركوبه في ارتجاجه فمكروه ممنوع، وفي الحديث: «من ركب البحر في ارتجاجه فقد برئت منه الذمة»، وقال النبي ﷺ: «البحر لا أركبه أبداً».

وقرأ جمهور القراء من السبعة وغيرهم: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، قال أبو علي: وهو تضعيف مبالغه لا تضعيف تغذية، لأن العرب تقول: سرت الرجل وسيرته، ومنه قول الهزلي:

فلا تُخزَعَن من سيرة أنت سيرتها فأول راض سُنَّةٌ من يسيرها قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وعلى هذا البيت اعتراض حتى لا يكون شاهداً في هذا، وهو أن يجعل الضمير كالظرف، كما تقول: «سرت الطريق»، وهذه قراءة الجمهور من (سَيَّرَ)، وكذلك هي في مصحف ابن مسعود وفي مصحف أبي شيخ. وقال عوف بن أبي جميلة: قد كان يُقرأ: ﴿يُنَشِّرُكُمْ﴾ فغيرها الحجاج بن يوسف ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾، قال سفيان بن أبي الزعل: كانوا يقرؤون: ﴿يُنَشِّرُكُمْ﴾ فنظروا في مصحف ابن عفان رضي الله عنه فوجدوها ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ فأول من كتبها كذلك الحجاج. وقرأ ابن كثير في بعض طرقه: ﴿يُسَيِّرُكُمْ﴾ من أسار، وقرأ ابن عامر وحده من السبعة: ﴿يُنَشِّرُكُمْ﴾ بفتح الياء وضم الشين، من النَّشْرِ والبَثِّ، وهي قراءة زيد بن ثابت، والحسن، وأبي العالية، وأبي جعفر، وعبدالله بن جبير بن جعفر، والفصح، وأبي عبدالرحمن، وشيبة، وروي عن الحسن أنه قرأ: ﴿يُنَشِّرُكُمْ﴾ بضم الياء وكسر الشين وقال: هي قراءة عبدالله، قال أبو حاتم: أظنه غلط.

و ﴿الْفُلُكِ﴾: جمع (فُلِكٍ)، وليس باسم واحد للجميع والفرد، ولكنه فُعلٌ جُمِعَ على فُعلٍ، ومما يدل على ذلك قولهم: (فُلُكَان) في التنشئة، وقراءة أبي الدرداء وأم الدرداء: ﴿في الفُلُكِي﴾ على وزن فُعْلَيْي بياء نَسَبَ، لقولهم: أشقري ودؤاري في دور الدهر، وكقول الصلتان:

أَنَا الصُّلْتَانِي...
.....

وقوله: ﴿وَجَرِينٌ﴾ علامة قليل العدد، وقوله: ﴿بَرٌّ﴾ خروج من الحضور إلى الغيبة، وحسن ذلك لأن قوله: ﴿كُنْتُ فِي أَلْفِكَ﴾ هو بالمعنى المعقول: حتى إذا حصل بعضكم في السفن، والريح إذا أفردت فعزفها أن تستعمل في العذاب والمكروه، لكنها لا يحسن في البحر أن تكون إلا واحدة لا نشراً، فقيدت المفردة بالطيب فخرجت عن ذلك العرف وبرع المعنى. وقرأ ابن أبي عبله: ﴿جَاءَتْهُمْ رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، والعاصف: الشديدة من الريح، يقال: عَصَفَتِ الرِّيحُ، وقوله: ﴿وَطَلَّوْا﴾ على باب في الظن، لكنه ظن غالب مفزع بحسب أنه في محذور، وقوله: ﴿دَعَا اللَّهَ﴾ أي: نسوا الأصنام والشركاء وجردوا الدعاء لله، وذكر الطبري في ذلك عن بعض العلماء حكاية قول المعجم: «ها شراها» ومعناه: يا حي يا قيوم، قال الطبري: جواب قوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُ فِي أَلْفِكَ وَجَرِينٌ﴾: ﴿جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ﴾، وجواب قوله: ﴿وَطَلَّوْا أَنَّهُمْ أَحْيَطَ بِهَدْمِهِ﴾: ﴿دَعَا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾.

﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَبْغُوتُ﴾ أي يفسدون ويكفرون، والبغي: التمدي والأعمال الفاسدة، وأكد ذلك بقوله: ﴿بَغْيَ الْحَقِّ﴾، ثم ابتداء بالزجر وذم البغي في أوجز لفظ. وقوله: ﴿مَتَعُ الْحَيَاةِ﴾ رفع،

وهذه قراءة الجمهور، وذلك على خبر الابتداء، والمبتدأ ﴿بَعِيَّتِكُمْ﴾، ويصح أن يرتفع ﴿مَتَعُ﴾ على خبر ابتداءٍ مضمرة تقديره: ذلك متاع، أو هو متاع وخبر البغي قوله: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾. وقرأ حفص عن عاصم، وهارون عن ابن كثير، وابن أبي إسحاق: ﴿مَتَاعُ﴾ بالنصب، وهو مصدر في موضع الحال من البغي، وخبر البغي - على هذا - محذوف تقديره: مذموم أو مكروه أو نحو هذا، ولا يجوز أن يكون الخبر قوله: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ لأنه كان يحول بين المصدر وما عمل فيه بأجنبي، ويصح أن ينتصب ﴿مَتَاعُ﴾ بفعل مضمرة تقديره: تمتعون متاع الحياة الدنيا. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿مَتَاعاً الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالنصب فيهما، ومعنى الآية: إنما بغيكم وإفسادكم مضر لكم وهو في حال الدنيا ثم تلقون عقابه في الآخرة، قال سفيان بن عيينة: ﴿إِنَّمَا بَعِيَّتِكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ مَتَعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي: تعجل لكم عقوبته في الحياة الدنيا، وعلى هذا قالوا: البغي يصرع أهله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقالوا: الباغي مصروع لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرَهُ اللَّهُ﴾، ولقول النبي ﷺ: «ما من ذنب أسرع عقوبة من بغي». وقرأت فرقة: ﴿فَبَعِيَّتِكُمْ﴾ على ضمير المعظم المتكلم، وقرأت فرقة: ﴿فَبَعِيَّتِكُمْ﴾ على ضمير الغائب، والمراد الله عز وجل.

﴿٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: إنما مثل تفاخر الحياة

الدنيا وزيتها بالمال والبنين إذ يصير ذلك إلى الفناء كمطر نزل من السماء فاختلط. ووقف هنا بعض القراء على معنى: فاختلط الماء بالأرض، ثم استأنف: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الابتداء والخبر المقدم، ويحتمل - على هذا - أن يعود الضمير في ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ على الماء أو على الاختلاط الذي يتضمنه القول. ووصلت فرقة فرغ (النبات) على ذلك بقول: ﴿اِخْتَلَطُوا﴾، أي: اختلط النبات بعضه ببعض بسبب الماء. وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يريد الزروع والأشجار ونحو ذلك، وقوله: ﴿وَالْأَنْعَامُ﴾ يريد سائر العشب المرعي.

و ﴿عَلَّتِ الْأَرْضُ﴾ لفظه كشرت في مثل هذا، كقوله: ﴿عُدُو زَيْنَتَكَ﴾. والزخرف: التزيين بالألوان، وقد يجيء الزخرف بمعنى الذهب إذ الذهب منه. وقرأ مروان بن الحكم، وأبو جعفر، والسبعة، وشيبة، ومجاهد، والجمهور: ﴿وَأَزَيْتَتْ﴾، أصله: تَزَيْتَتْ، سكنت التاء لثدغم فاحتجج إلى ألف وصل. وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وأبي بن كعب: ﴿وَوَزَيْتَتْ﴾ وهذه أصل قراءة الجمهور، وقرأ الحسن، وأبو العالية، والشعبي، وقادة، ونصر بن عاصم، وعيسى: ﴿وَأَزَيْتَتْ﴾ على معنى: حضرت زينتها كما تقول: أحصد الزرع، و ﴿وَأَزَيْتَتْ﴾ على مثال: أَفَعَلْتُ، وقال عوف بن أبي جميلة: كان أشياخنا يقرؤونها: ﴿وَأَزَيْتَتْ﴾ النون شديدة وألف ساكنة قبلها. وهي قراءة أبي عثمان الهندي، وقرأت فرقة: ﴿وَأَزَيْتَتْ﴾،

وهي لغة منها قول الشاعر:

إذا ما الهَوادي بالعبيط اخمأرت
وقرأت فرقة: ﴿وَأَزَائِنَتْ﴾،
والمعنى في هذا كله: ظهرت
زيئتها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَلَكَ أَهْلَهَا﴾
على بابها، والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾
عائد على الأرض، والمراد ما فيها
من نعمة ونبات، وهذا الكلام فيه
تشبيه جملة أمر الحياة الدنيا بهذه
الجملة الموصوفة أحوالها، و﴿حَتَّى﴾
غاية، وهي حرف ابتداء لدخولها
على ﴿إِذَا﴾، ومعناها متصل إلى
قوله: ﴿فَنَدَّرُونَ عَلَيْهَا﴾، ومن بعد
ذلك بدأ الجواب، والأمر الآتي

واحد الأمور كالريح والضرب والسموم
ونحو ذلك، وتقسيمه ليلاً أو نهاراً
تنبيه على الخوف وارتفاع الأمن في
كل وقت. و﴿حَصِيدًا﴾ فعيل بمعنى
مفعول، وعبر بحصيد عن التالف
الهالك من النبات وإن لم يهلك
بحصاد إذ الحكم فيهما واحد، وكان
الآفة حصده قبل أوانه. وقوله:
﴿كَانَ لَمْ تَنْعَمْ﴾ أي: كأن لم تنعم
ولم تنضر ولم تغر بغضارتها. وقرأ
قتادة: ﴿يَنْعُنْ﴾ بالياء من تحت،
يعني الحصيد، وقرأ مروان: ﴿تَكَانُ﴾
لَمْ تَنْعُنْ بتاءين مثل تَنْفَعَلْ،
والمغاني: المنازل المعمورة، ومنه
قول الشاعر:

وقد نَعْنِي بِهَا وَتَرَى عُصُوراً
بِهَا يَفْتَدُنْنَا الحُرَّةُ الحِذَالَا
وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿كَانَ
لَمْ تَنْعَمَ بِالْأَنْسِ﴾ وما كُنَّا لِيُهْلِكَهَا إِلَّا
بِذُنُوبِ أَهْلِهَا ﴿كَذَلِكَ نَقُصِّلُ الْآيَاتِ﴾

رواها عنه ابن عباس
رضي الله عنهما. وقيل:
إِنْ فِيهِ ﴿وَمَا كَانَ اللهُ
لِيُهْلِكَهَا إِلَّا بِذُنُوبِ
أَهْلِهَا﴾، وقرأ أبو
السدرداء: ﴿لِقَوْمٍ
يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ومعنى الآية التحذير من
الاعتزاز بالدنيا إذ هي
معرضة للتلف وأن يصيبها
ما أصاب هذه الأرض
المذكورة بموت أو غيره
من رزايا الدنيا، وخض
المتفكرين بالذكر تشريفاً
للمنزلة، وليتقن التسابق
إلى هذه الرتبة.

٢٥ - ٢٧ تفسير قوله
عز وجل:

نُصِّتَ هذه الآية أن الدعاة على
الشرع عام في كل بشر، والهداية
التي هي الإرشاد مختصة بمن قدر
إيمانه. و﴿السَّلَامُ﴾، قيل: هو
اسم الله عز وجل، فالمعنى: يدعو
إلى داره التي هي الجنة. وإضافتها
إليه إضافة ملك إلى مالك. فقيل:
السلام: بمعنى السلامة، أي: من
دخلها ظفر بالسلامة وأمن الفناء
والآفات، وهذه الآية راحة على
المعتزلة.

وقد وردت في دعوة الله تعالى
عباده أحاديث منها رؤيا النبي ﷺ
جبريل وميكائيل، ومثلاً دعوة الله،
ومحمداً عليه الصلاة والسلام
الداعي، والملة المدعو إليها،
والجنة التي هي ثمرة الغفران بالمأدبة
يدعو إليها ملك إلى منزله. وذكر

الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْسَقٍ وَزِيَادَةَ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ
وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥﴾ وَالَّذِينَ
كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُمْ مِنْ
اللهِ مِنْ عَاصِرٍ كَانَمَا أَغَشِيَتْ وَجُوهَهُمْ قُطْعَانٌ أَسْوَدٌ مِثْلُ مِظْلَمٍ
أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ
جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَمُرْكَأُكُمْ فَزَيَّلْنَا
بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاءُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِنَّا نَتَّبِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَكَفَى بِاللهِ
شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ إِن كُنَّا مِنْ عِبَادِكُمْ لَغَافِلِينَ ﴿٢٨﴾
هَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ وَإِلَى اللهِ مَرْجِعُ كُلِّ نَفْسٍ مَّا أَسْأَلَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللهِ مَوْلَاهُمْ
الْحَقُّ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَّا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ
مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ
الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدْبِرُ الْأُمُورَ
فَسَقُولُونَ اللهُ فَعَلْ أَفَلَا تَنْفَعُونَ ﴿٣٠﴾ فَذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ
فَمَاذَا بَعُدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ ﴿٣١﴾ كَذَلِكَ
حَقَّتْ كَيْمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٢﴾

٢١٢

قتادة في كلامه على هذه الآية: ذكر
لنا أن في التوراة مكتوباً: «يا باغي
الخير هلتم، ويا باغي الشر انته».

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْسَقٍ
وَزِيَادَةَ﴾ الآية. قالت فرقة وهي
الجمهور: الحسنى: الجنة،
والزيادة: النظر إلى وجه الله عز
وجل، وروي في ذلك حديث عن
النبي ﷺ، رواه ضهيب، وروي هذا
القول عن أبي بكر الصديق،
وحذيفة، وأبي موسى الأشعري،
وعامر بن سعد، وعبدالرحمن بن
أبي ليلى. وروي عن علي بن أبي
طالب رضي الله عنه أنه قال:
الزيادة: غرفة من لؤلؤة واحدة.
وقالت فرقة: الحسنى: هي الحسنه،
والزيادة: هي تضعيف الحسنات إلى
سبعمائة فدونها حسبما روي في نص
الحديث وتفسير قوله تعالى: ﴿وَاللهُ

يُكْفِعُ لِمَنْ يَشَاءُ»، وهذا قول بعضه النظر، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول، وطريق ترجيحه أن الآية تتضمن اقتراناً بين ذكر عمال الحسنات وعمال السيئات، فوصف المحسنين بأن لهم - على إحسانهم - حُسْنِي وزيادة من جنسها، ووصف المسيئين بأن لهم بالسيئة مثلها، فتعادل الكلامان. وعبر عن الحسنات بالحسنى مبالغة إذ هي عشرة. وقال الطبري: الحُسْنِي عام في كل حَسْنِي فهي تعم جميع ما قيل، ووعد الله في جميعها بالزيادة، ويؤيد ذلك أيضاً قوله: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾، ولو كان معنى الحُسْنِي الجنة لكان في القول تكرير بالمعنى، على أن هذا ينفصل عنه بأنه وصف المحسنين بأن لهم الجنة وأنهم لا يرهق وجوههم قترًا ولا ذلة، ثم قال: ﴿أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ على جهة المدح لهم، أي: أولئك مستحقوها وأصحابها حقاً وباستحباب.

و ﴿رَهَقَ﴾ معناه: يغشى مع ذلة وتضييق، والقتر: الغبار المسود، ومنه قول الشاعر:

مُتَوَجِّجٌ بَرْدَاءِ الْمُلْكِ يَتَّبِعُهُ
مَوْجٌ تَرَى وَسَطَهُ الرَّاياتِ وَالْقَتْرَا
وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، والأعمش، وأبو رجاء: ﴿قَتْرٌ﴾ بسكون التاء.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ الآية. اختلف النحويون في رفع [جَزَاءٍ] بم هو؟ فقالت فرقة: التقدير: «لهم جزاء سيئة بمثلها»،

وقالت فرقة: التقدير: «جزاء سيئة مثلها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتوجه أن يكون رفع الجزاء على المبتدأ، وخبره في ﴿الَّذِينَ﴾، لأن ﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوف على قوله: ﴿وَالَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ فكأنه قال: «وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جزاء سيئة بمثلها»، وعلى الوجه الآخر فقوله: ﴿وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ﴾ رفع بالابتداء، وتعم السيئات ها هنا الكفر والمعاصي، فمثل سيئة الكفر التخليد في النار، ومثل سيئة المعاصي مصروف إلى مشيئة الله تبارك وتعالى.

والعاصم: المنجي والمجير، ومنه قوله تعالى: ﴿إِلَى جَبَلٍ يَعْصِي مِنْ أَمْرِهِ﴾، و﴿أَغْشَيْتَ﴾: كُسِيت، ومنه الغشاوة، والقطع: جمع قطعة. وقرأ ابن كثير: ﴿قِطْعًا﴾ بسكون الطاء، وقرأ الباقر بفتح الطاء، والقطع: الجزء من الليل، ومنه قوله تعالى: ﴿فَأَنشُرْ بِأَهْلِكَ يَقِطَعُ مِنَ اللَّيْلِ﴾، وهذا يراد به الجزء من زمان الليل، وفي هذه الآية يراد الجزء من سواده. و﴿مُظْلِمًا﴾ نعت لقطع، ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾، فإذا كان نعتاً فكان حقه أن يكون قبل الجملة، ولكن قد يجيء بعدها، وتقدير الجملة: «قطعاً استقر من الليل مظلماً» على نحو قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَكَدًا كُنْتُ أَزْلَمُهُ مَبْرُكًا﴾. ومن قرأ: ﴿قِطْعًا﴾ جمع قطعة فنصب [مُظْلِمًا] على الحال من الليل، والعامل في الحال [مِنَ] إذ هي العامل في ذي الحال. وقرأ

أبي بن كعب: ﴿كَأَنَّمَا يَغْشَى وَجوهَهُمْ قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمٌ﴾. وقرأ ابن أبي عمير: ﴿قِطْعٌ مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمٌ﴾ بتحريك الطاء في «قطع».

قرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والحسن، وشيبة، وغيرهم: ﴿تَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون. وقرأت فرقة: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء. والضمير في ﴿تَحْشُرُهُمْ﴾ عائد على جميع الناس محسنين ومسيئين، و﴿مَكَانَكُمْ﴾ نصب على تقدير: لازموا مكانكم، وذلك مقترن بحال شدة وخزي، و﴿مَكَانَكُمْ﴾ في هذا الموضع من أسماء الأفعال إذ معناه: قفوا واسكنوا، وهذا خير من الله تعالى عن حالة تكون ليعتد الأوثان يوم القيامة، يؤمرون بالإقامة في موقف الخزي مع أصنامهم، ثم يُنطق الله الأصنام بالتبري منهم. وقوله: ﴿وَشُرَكَاءَ الَّذِينَ تَزْعَمُونَ أَنْتُمْ شُرَكَاءُ اللَّهِ، فَأَصْفَاهُمْ إِلَيْهِمْ لَأَنْ كُونَهُمْ شُرَكَاءَ إِيْمَانًا هُوَ يَزْعُمُ هَؤُلَاءِ﴾. وقوله: ﴿فَرَبَّنَا بَيْنَهُمْ﴾ معناه: فرقنا في الحجة والمذهب وهو من زلت الشيء عن الشيء أزيله، وهو تضعيف مبالغة لا تعدية. وكون مصدر زل زللاً يدل على أن زل إنما هو فعل لا فيعمل لأن مصدره كان يجيء على فيعلة. وقرأت فرقة: ﴿فَرَبَّنَا﴾، وروي عن النبي ﷺ أن الكفار إذا رأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب قيل لهم: أتبعوا ما كنتم تعبدون، فيقولون: كنا نعبد هؤلاء، فتقول الأصنام: والله ما كنا نسمع ولا نعقل، وما كنتم إيانا

تعبدون، فيقولون: والله لإياكم كنا نعبد، فتقول الآلهة: ﴿فَكَلَّمَكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدِيدًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر هذه الآية أن محاورتهم إنما هي مع الأصنام دون الملائكة وعيسى ابن مريم بدليل القول لهم: ﴿مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاءُكُمْ﴾، ودون فرعون ومن عبد من الجن بدليل قولهم: ﴿إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ﴾، وهؤلاء لم يغفلوا قط عن عبادة من عبدهم، و﴿أَنْتُمْ﴾ رفع بالابتداء، والخبر: مويخون أو مهبانون، ويجوز أن يكون ﴿أَنْتُمْ﴾ تأكيداً للضمير الذي في الفعل المقدر الذي هو «قفوا» أو نحوه.

و﴿شِهيداً﴾ نصب على التمييز، وقيل: على الحال. و﴿إِنْ﴾ هذه عند سيبويه هي مخففة موحية حرف ابتداء، ولزمتها اللام فرقاً بينها وبين (إِنْ) النافية، وقال الفراء: (إِنْ) بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إِلَّا). و﴿مُنَالِكٌ﴾ نصب على الظرف. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿تَلَوًا﴾ بالياء بواحدة بمعنى: تخيير. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿تَلَوُا﴾ بالتاء بنقطتين من فوق بمعنى: تتبّع، أي تطلب وتتبع ما أسلفت من أعمالها، ويصح أن يكون بمعنى: تقرأ كتبها التي ترفع إليها. وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَرِدُّوْا﴾ بكسر السراء، وقرأ الجمهور: ﴿وَرِدُّوْا إِلَى اللَّهِ﴾ أي رُدُّوا إلى عقاب مالِكهم وشديد بأسه، فهو مولاهم في الملك والإحاطة لا في الرحمة والنصر ونحوه.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا توقيف وتوبيخ واحتجاج لا محيد عن التزامه. و﴿بَيْنَ السَّمَاءِ﴾ يريد: بالمطر، و﴿وَالْأَرْضِ﴾ يريد: بالنبات ونحو ذلك، و﴿يَتَلَكَّ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ﴾ لفظ يعم جملة الإنسان ومعظمه حتى أن ما عداهما تبع، و﴿يُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْجَنِينِ﴾ من النطفة، والظاهر من البيضة، والنبات من الأرض، إذ له نمو شبيه بالحياة، و﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْأَرْحَامِ﴾ مثل البيضة من الطائر ونحو ذلك، وقد تقدم فيما سلف إيجاب القول في هذه المعاني. وتدبير الأمر عام لهذا وغيره من جميع الأشياء، وذلك استقامة الأمور كلها عن إرادته عز وجل، وليس تدبيره يفكر ولا رؤية وتغييرات، تعالى عن ذلك، بل علمه محيط كامل دائم. ﴿تَسْتَلُؤُونَ اللَّهَ﴾ لا مندوحة لهم عن ذلك، ولا تمكنهم المباهمة بسواه، فإذا أقروا بذلك ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ في افتراكم وجعلكم الأصنام آلهة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَلْكَرُّ اللَّهُ رَجُوكُمْ﴾ الآية. يقول: فهذا الذي هذه صفاته ربكم الحق، أي المستوجب للعبادة والألوهية، وإذا كان ذلك فتشريك غيره ضلال وغير حق، وعبرة القرآن في سوق هذه المعاني نفوت كل تفسير براعة وإيجازاً وإيضاحاً، وحكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والضلال منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله، وكذلك هو الأمر في نظائرها وهي مسائل الأصول التي الحق فيها في

طرف واحد، لأن الكلام فيها إنما هو في تقرير وجود ذات كيف هي، وذلك بخلاف مسائل الفروع التي قال الله فيها: ﴿لِكُلِّ جَمَلًا مِنْكُمْ شِرْعَةٌ وَمِنْهَا جَاءَ﴾، وقال النبي ﷺ: «الحلال بين والحرام بين وبينهما أمور متشابهات»، والحق في هذه في الطرفين لأن المتعبدين إنما يُعبدوا بالاجتهاد لا بالتعيين في كل نازلة، ويدلك على أن الحق في الطرفين اختلاف الشرائع بتحليل وتحريم في شيء واحد، والكلام في مسائل الفروع إنما هو في أحكام طارئة على وجود ذات متفرقة لا يُختلف فيها، وإنما يُختلف في الأحكام المتعلقة بالمشروع. وقوله: ﴿فَأَنْ تَصْرُفُونَ﴾ تقرير، كما قال: ﴿فَأَنْ تَذَهَبُونَ﴾. ثم قال سبحانه: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ﴾ أي: كما كانت صفات الله كما وصف، وعبادته واجبة كما تقر، وانصراف هؤلاء كما قدر عليهم وتكسبوا - كذلك حَقَّتْ.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي هنا وفي آخر السورة: ﴿كَلِمَةً﴾ على الأفراد الذي يراد به الجمع، كما يقال للقصيد: كلمة. فعبّر عن وعيد الله بكلمته. وقرأ نافع، وابن عامر في الموضعين المذكورين: ﴿كَلِمَاتٍ﴾، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة بن نصح.

وهذه الآية إخبار أن في الكفار من حتم الله بكفره وقضى بتخليده. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿إِنَّهُمْ﴾ بكسر الألف.

رواية أبي بكر: ﴿يَهْدِي﴾ بكسر الياء
والهاءِ وشَدِّ الدال، وهذا أيضاً إتياع.
وقال مجاهد: الله يهدي من الأوثان
وغيرها ما شاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا ضعيف.

وقرأ يحيى بن الحارث الزُّمَارِي:
﴿إِلَّا أَنْ يَهْدِي﴾ بفتح الهاءِ وشَدِّ
الدال. ووقف القراءة على: ﴿وَمَا
لَكُمْ﴾ ثم يبدأ: ﴿كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَبْعُ أَكْثَرُهُمْ﴾
إخبار عن فساد طرائقهم وضعف
نظرهم وأنه ظن، ثم بين منزلة الظن
من المعارف ويُغده عن الحق.

والظن - في هذه الآية - على بابهِ في
أنهُ معتقد أحد جائزين لكن ثم ميل
إلى أحدهما دون حجة تبطل الآخر.

وجواز ما اعتقده هؤلاء إنما هو
بزعمهم لا في نفسه، بل ظنهم
محال في ذاته. والحق أيضاً على
بابهِ في أنه معرفة المعلوم على ما هو

به، وبهذه الشروط لا يغني الظن من
الحق شيئاً. وأما في طريق الأحكام
التي تتعبدُ الناس بظواهرها فيغني
الظن في تلك الحقائق ويصرف من

طريق إلى طريق. والشهادة إنما هي
مظنونة، وكذلك التُّهْم في الشهادات
تغني، وليس المراد في هذه الآية
هذا النمط. وقرأ جمهور الناس:

﴿يَقْمَلُونَ﴾، وقرأ عبدالله بن مسعود:
﴿تَقْمَلُونَ﴾ بالثاءِ على مخاطبة
الحاضر.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا نفي قول من قال من قريش:
﴿إن محمداً ﷺ يفتري القرآن وينسبه
إلى الله تعالى﴾ وعبر عن ذلك بهذه

وصفها بأوصاف من
يعقل، وذلك مجاز
وموجود في كثير من
القرآن، ذكر ذلك أبو علي

الفارسي، والذي أقول:
إن قراءة حمزة والكسائي
تحتمل أن يكون المعنى:

﴿أمن لا يهدي أحداً إلا أن
يُهدي ذلك الأحد بهداية
من عند الله﴾، وأما على

غيرها من القراءات التي
متقضاها: ﴿أمن لا يَهْتدي
إلا أن يَهْدِي﴾ فينتجه
المعنى على ما تقدم لأبي

علي الفارسي، وفيه تجوز
كثير. وقال بعضهم: هي
عبارة عن أنها لا تنتقل إلا

أن تنتقل. ويحتمل أن يكون ما
ذكر الله تعالى من تسبيح الجمادات
هو اهتداؤها، ويحتمل أن يكون
الاستثناء في اهتدائها إلى منكرة
الكفار يوم القيامة حسبما مضى في
هذه السورة.

وقراءة حمزة والكسائي هي
﴿يَهْدِي﴾ بفتح الياءِ وسكون الهاءِ.
وقرأ نافع، وأبو عمرو، وشيبة،
والأعرج، وأبو جعفر: ﴿يَهْدِي﴾

بسكون الهاءِ وتشديد الدال. وقرأ
ابن كثير، وابن عامر: ﴿يَهْدِي﴾
بفتح الياءِ والهاءِ، وهذه أفصح
القراءات، نقلت حركة تاءِ (يَهْتدي)

إلى الهاءِ وأدغمت التاء في الدال،
وهذه رواية ورش عن نافع. وقرأ
عاصم في رواية حفص: ﴿يَهْدِي﴾
بفتح الياءِ وكسر الهاءِ وشَدِّ الدال،
أتبع الكسرة الكسرة. وقرأ عاصم في

قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَدْعُوُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعْبِدُهُمْ اللَّهُ يَسْأَلُ
الْخَلْقَ ثُمَّ يُعْبِدُهُمْ فَمَا نَزَّلْنَا بِهَدْيٍ مِّنْ هَدْيٍ
إِلَى الْحَقِّ قُلْ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ
يُنْبِئَ أُمَّنَ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يَهْدِيَ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٣﴾
وَمَا يَبْعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ
عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلُ الْكِتَابِ لِأَرْبَبِ
عَالَمِينَ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٥﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَاتُوا سُبُورَ
بَيْتِنَا وَادْعُوا مَنْ اسْتَظَفْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾
بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِبُّوا أَنْ يُعْلِمُوهُمَا يَا أَيُّهَا تَأْوِيلُهُ كَذَلِكَ كَذَّبَ
الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾
وَمِنْهُمْ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَيَوْمَهُمْ مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهِ يُؤْمِنُونَ بِهِ عَلِيمٌ
بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٣٨﴾ وَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلٌ وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ
أَنْتُمْ بَرِيءُونَ بِمَا أَعْمَلُوا وَأَنَا بَرِيءٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ
سَمِعَ عِلْمَ الْبَيْتِ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الضَّمُّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٠﴾

٢١٢

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا توقيف أيضاً على قصور
الأصنام وعجزها، وتنبيه على
قدرة الله عز وجل، وبذء الخلق يريد
به إنشاء الإنسان في أول أمره،
وإعادته هي البعث من القبور.

﴿وَتُؤْفَكُونَ﴾ معناه: تصرفون
وتحرمون، تقول العرب: ﴿أرض
مأفوكة﴾ إذا لم يصبها مطر فهي

بمعنى الخيبة والتلف، كما قال:
﴿وَاللَّؤُؤْفِكَةُ أَمْوِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ
يَهْدِي﴾ الآية. ﴿يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ﴾ يريد
به: يُبَيِّن طرق الصواب ويدعو إلى
العدل ويفصح بالآيات ونحو هذا.

ووصف الأصنام بأنها لا تهدي إلا
أن تهدي، ونحن نجدها لا تهدي
وإن هديت، فوجه ذلك أنه عامل -
في العبارة عنها - معاملتهم في

الألفاظ التي تتضمن تشنيع قولهم وإعظام الأمر، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَقُولَ﴾، وكما قال حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿مَا يَكُونُ لِحَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ﴾، وغير هذا مما يعطي المعنى والقرائن والبراهين استحالته.

و ﴿يَتَرَكَا﴾ معناه: يُخْتَلَقُ وَيُنشَأُ، وكان المرء يفريه من حديثه أي يقطعه ويسممه بسمة، فهو مشتق من (فرنيت) إذا قطعت لإصلاح. و ﴿تَصَدِّقٌ﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمرة، وقال الزجاج: هو خبر كان مضمرة، والتقدير: ولكن كان تصديق الذي بين يديه. وقوله: ﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ يريد التوراة والإنجيل، والذي بين اليد هو المتقدم للشيء، وقالت فرقة في هذه الآية: إن الذي بين يديه هي أشراف الساعة وما يأتي من الأمور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خطأ، والأمر بالعكس، كتاب الله تبارك وتعالى بين يدي تلك، أما أن الزجاج تحفظ فقال: «الضمير يعود على الأشراف والتقدير: ولكن تصديق الذي بين يدي القرآن» فهذا أيضاً قلق، وقيام البرهان على قریش حينئذ إنما كان في أن يصدق القرآن ما في التوراة والإنجيل مع أن الآتي بالقرآن ممن يقطعون أنه لم يطالع تلك الكتب ولا هي في بلده ولا في قومه. وتفصيل الكتاب هو تبيينه. و ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ يريد: هو في نفسه على هذه الحالة، وإن ارتاب مبطل فذلك لا يلتفت إليه.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾

الآية. ﴿أَمْ﴾ هذه ليست بالمعادلة لألف الاستفهام التي في قولك: أزيد قام أم عمرو؟ وإنما هي التي تتوسط الكلام. ومذهب سيبويه أنها بمنزلة «الألف» و «بَلْ» لأنها تتضمن استفهاماً وإضراباً عما تقدم. وهي كقولهم: «إنها لإبل أم شاء؟» وقالت فرقة في ﴿أَمْ﴾ هذه: هي بمنزلة ألف الاستفهام. ثم عجزهم في قوله: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾، والسورة مأخوذة من «سورة البناء»، وهي من القرآن هذه القطعة التي لها مبدأ وختم. والتحدي في هذه الآية وقع بجهتي الإعجاز اللتين في القرآن. إحداهما: النظم والرصف والإيجاز والجزالة، كل ذلك في التعريف بالحقائق، والأخرى: المعاني من الغيب لما مضى ولما يستقبل. وحين تحداهم بعشر مفتريات تحداهم بالنظم وحده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا قول جماعة من المتكلمين، وفيه عندي نظر، وكيف يجيء التحدي بمماثلة في الغيوب رداً على قولهم: «افتراه؟» وما وقع التحدي في الآيتين: - هذه وآية العشر السور - إلا بالنظم والرصف والإيجاز في التعريف بالحقائق، وما أكرموا قط إتياناً بغيب، لأن التَّحْدِي بِالْإِعْلَامِ بِالْغُيُوبِ كَقَوْلِهِ: ﴿وَهُمْ يَتَّبِعُونَ غَيْبَهُمْ سَخِرْنَا لِيَوْمِئَذٍ﴾، وكقوله: ﴿لَتَلَحَّظَنَّ الْمَسَاجِدَ الْحَرَامَ﴾، ونحو ذلك من غيوب القرآن؛ فبين أن البشر مقصرون عن ذلك، وأما التحدي بالنظم فبين أيضاً أن البشر مقصرون عن نظم القرآن إذ الله تعالى قد أحاط بكل شيء

علماً، فإذا قدر الله اللفظة في القرآن علم بالإحاطة اللفظة التي هي أليق بها في جميع كلام العرب في المعنى المقصود حتى كمل القرآن على هذا النظام، الأولى فالأولى، والبشر - مع أن يفرض أفصح العالم - محفوف بنسيان وجهل بالألفاظ والحق، وبغلط وآفات بشرية. فمحال أن يمشي في اختياره على الأولى فالأولى. ونحن نجد العربي ينقح قصيدته - وهي الخوليئات - يبدل فيها ويقدم ويؤخر، ثم يدفع تلك القصيدة إلى أفصح منه فيزيد في التنقيح. ومذهب أهل الصرفة مكسور بهذا الدليل، فما كان قط في العالم إلا من فيه تقصير سوى من يوحى إليه الله تعالى، وميزت فصحاء العرب هذا القدر من القرآن وأذعنن له لصحة فطرتها وخلوص سليقتها، وأنهم يعرف بعضهم كلام بعض ويميزه من غيره، كفعل الفرزدق في أبيات جرير، والجارية في شعر الأعشى، وقول الأعرابي عَزَفَجَكُم، فقطع، ونحو ذلك مما إذا تُشِّع بان. والقدر المعجز من القرآن ما جمع الجهتين: اطراد النظم والسرد، وتحصيل المعاني وتركيب الكثير منها في اللفظ القليل، فأما مثل قوله تعالى: ﴿مُدَّاهَاتَانِ﴾، وقوله: ﴿مَنْ نَقَرَ﴾، فلا يصح التحدي بالإتيان بمثله، لكن بانتظامه واتصاله يقع العجز عنه.

وقوله: ﴿يَتْلُوهُ﴾ صفة للسورة، والضمير عائد على القرآن المتقدم الذكر، كأنه قال: فأتوا بسورة مثل القرآن، أي في معانيه وألفاظه.

بمعنى المال ونحوه، وليس تأنيثها بحقيقي.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يُؤْمِنُ بِهِ﴾ الآية. الضمير في ﴿مِنْهُمْ﴾ عائد على قريش، ولهذا الكلام معنيان: قالت فرقة: معناه: من هؤلاء القوم من سيؤمن في المستقبل، ومنهم من حتم الله أنه لا يؤمن به أبداً. وقالت فرقة: معناه: من هؤلاء القوم من هو مؤمن بهذا الرسول إلا أنه يكتم إيمانه وعلمه بأن نبوة محمد ﷺ وإعجاز القرآن حق، حفظاً لرياسته أو خوفاً من قومه، كالفتية الذين خرجوا إلى بدر مع الكفار فقتلوا فنزل فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمَلَكَةَ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ﴾، وكالعباس ونحو هذا، ومنهم من ليس بمؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفائدة الآية على هذا التأويل التفرقة لكلمة الكفار، وإضعاف نفوسهم، وأن يكون بعضهم على وجل من بعض. وفي قوله: ﴿وَرَبَّكَ أَكْذَرُ بِالْمُنْجِبِينَ﴾ تهديد ووعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيْنَ كَذَّبَ آيَةَ مَنَاجِرَةٍ لَهُمْ وَمَتَارِكَةٍ، وَفِي ضَمْنِهَا وَعِيدِهِ وَتَهْدِيدِهِ، وَهَذِهِ آيَةُ نَحْوِ قَوْلِهِ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ إِلَى آخِرِ السُّورَةِ. وقال كثير من المفسرين منهج ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال لأن هذه مكية، وهذا صحيح.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَن يَسْتَمِرُّ عَلَىٰ الْإِنْتِزَاعِ﴾. جمع ﴿يَسْتَمِرُّ﴾ على معنى ﴿مَنْ﴾ لا على لفظها، ومعنى الآية: ومن هؤلاء الكفار من يستمع إلى ما يأتي به من القرآن بأذنه، ولكن حين

أنه مفتري، ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِإِلَيْهِ﴾، وهذا اللفظ يحتمل معنيين، أحدهما: أن يريد به الوعيد الذي توعدهم الله عز وجل على الكفر، و﴿تَأْوِيلُهُ﴾ على هذا يراد به ما يؤول إليه أمره، كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ﴾، والآية بجملتها - على هذا التأويل - تتضمن وعيداً. والمعنى الثاني: أنه أراد: بل كذبوا بهذا القرآن العظيم المُنْبِئ بالغيوب الذي لم تتقدم لهم به معرفة، ولا أحاطوا بعلم غيوبه وحسن نظمه،

ولا جاءهم تفسير ذلك وبيانه. و﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ يريد من سلف من أُمم الأنبياء. قال الزجاج: ﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب على خبر ﴿كَانَ﴾، ولا يجوز أن يعمل فيها ﴿انظُرْ﴾ لأن ما قبل الاستفهام لا يعمل فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا قانون النحويين لأنهم عاملوا (كيف) في كل مكان معاملة الاستفهام المحض في قولك: «كيف زيد؟» و﴿كَيْفَ﴾ تصرفات غير هذا، تحل محل المصدر الذي هو «كيفية» وتخلع معنى الاستفهام، ويحتمل هذا أن يكون منها، ومن تصرفاتها قولهم: «كن كيف شئت»، وانظر قول البخاري: «كيف كان بدء الوحي»، فإنه لم يستفهم. وذكر الفعل المسند إلى «العاقبة» لما كانت

سُورَةُ الْيُونُسِ

وَمِنْهُمْ مَن يَنْظُرُ إِلَىٰ إِلَهِكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يَبْصُرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنفُسُهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ كَأَن لَّرَبِّبْنَا آلَا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا زَيَّنَّا لَكِ بَعْضَ الَّذِي نَسِيتُ أَنَّكَ فَايْتَنَاهُ جَهَنَّمَ ثُمَّ اللَّهُ شَهِدَ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قَضِيَ بَيْنَهُمُ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يَظْلِمُونَ ﴿٤٣﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٤﴾ قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتُخْرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ تَسْأَلُونَ عَذَابَ بَيْتُنَا أَوْ عَارِئًا مَادًا سَتَكُنَّ مِنَ الْمُعْجَرُونَ ﴿٤٦﴾ أُنزِلَ إِذَا مَا وَقَعَ آمِنُكُمْ بِهِ ؕ الْكَنُوقَ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْغُلَّةِ هَلْ لَّكُمْ شُرَكَاءُ إِلَّا يَمَانُكُمْ تَكْسِبُُونَ ﴿٤٨﴾ وَيَسْتَسْتَوِيكُمُ أَحْقَرُهُمْ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لِحَقِّهِ مَأْتَنٌ مُّعْجِزٌ ﴿٤٩﴾

٢١٤

وخلطت فِرْق في قوله: ﴿بَيْنِهِ﴾ من جهة اللسان، كقول الطبري: ذلك على المعنى، ولو كان على اللفظ لقال: «مثله»، وهذا وهم بين لا يحتاج إليه. وقرأ عمرو بن فائد: ﴿بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ على الإضافة، قال أبو الفتح: التقدير: بسورة كلام مثله، قال أبو حاتم: أمر عبدالله الأسود أن يسأل عمر رضي الله عنه عن إضافة (سورة) أو تونينها، فقال له عمر: كيف شئت.

وقوله: ﴿وَأَدْعُوا مَن اسْتَطَعْتُمْ﴾ إحالة على شركائهم وجنهم وغير ذلك، وهو كقوله في الآية الأخرى: ﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِيَعِيَنَ ظَهْرًا﴾، أي معيناً، وهذا أشد إقامة لنفوسهم وأصح تعجيزاً لهم.

﴿٣٩﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: ليس الأمر كما قالوا في

هذا المعنى فسر الطبري، وقرأ السبعة وجمهور الناس: ﴿تَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش فيما روي عنه: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ بالياء.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَيْرَ الَّذِينَ﴾ إلى آخرها. حكم على المكذبين بالخسارة، وفي اللفظ إغلاظ على المحشورين من إظهار لما هم عليه من الغرر مع الله تعالى، وهذا على أن الكلام إخبار من الله تبارك وتعالى، وقيل: إنه من كلام المحشورين على جهة التوبيخ لأنفسهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ آيَةٍ﴾ الآية. ﴿وَأَيُّ﴾ شرط، وجوابه ﴿فَأَيُّ آيَةٍ﴾ والرؤية في قوله: ﴿رَبِّكَ﴾ رؤية بصر، وقد عدي الفعل بالهمزة فلذلك تعدى إلى مفعولين: أحدهما (الكاف)، والآخر (بعض). والإشارة بقوله: ﴿تَعَمَّرَ الَّذِي﴾ إلى عقوبة الله لهم في بدر وغيرها، ومعنى هذه الآية الوعيد بالرجوع إلى الله تعالى، أي: إن أريناك عقوبتهم أولم نركها، فهم على كل حال راجعون إلينا إلى الحساب والعذاب، ثم مع ذلك فالله شهيد من أول تكليفهم على جميع أعمالهم، ف﴿تَمَّ﴾ ها هنا لترتيب الإخبار لا لترتيب القصص في أنفسها، و﴿وَأَيُّ﴾ هي (إن) زيدت عليها (ما)، ولأجلها جاز دخول النون الثقيلة، ولو كانت (إن) وحدها لم يجز.

٤٧ - ٤٨ تفسير قوله عز وجل: ﴿قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿رَبِّكَ﴾ إخبار مثل قوله تعالى: ﴿كَلَّمَ النَّبِيَّ فِيهَا فَوَجَّ سَلَّمَ حَزَنَهَا أَلَّ بِأَذْكُرَ نَبِيرًا قَالُوا﴾

الكوفيون: قد تدخل اللام في خبر (لكن) المشددة على حد دخولها في (إن)، ومنع ذلك البصريون.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾ الآية، وعيد بالحشر وخزيهم فيه وتعارفهم في التلازم بعضهم لبعض. و﴿وَيَوْمَ﴾ ظرف، ونصبه يصح بفعل مضمرة تقدير: واذكر يوم، ويصح أن ينتصب بالفعل الذي يتضمنه قوله: ﴿كَانَ لَوْ يَلْتَمِثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾، ويصح نصبه بـ ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾، والكاف من قوله: ﴿كَانَ﴾ يصح أن تكون في معنى الصفة لليوم، ويصح أن تكون في موضع نعت للمصدر كأنه قال: ويوم نحشرهم حشراً كأن لم يلبثوا، ويصح أن يكون قوله: ﴿كَانَ لَوْ يَلْتَمِثُوا﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾. وخصص النهار بالذكر لأن ساعاته وقسمته معروفة بيئة للجميع، فكان هؤلاء مُتَحَفِّقُونَ قلة ما لبثوا، إذ كل أمد طويل إذا انقضى فهو واليسير سواء. وأما قوله: ﴿يَتَعَارَفُونَ﴾ فيحتمل أن يكون معادلة لقوله: ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ﴾، كأنه أخبر أنهم يوم الحشر يتعارفون، وهذا التعارف على جهة التلازم والخزي من بعضهم لبعض.

ويحتمل أن يكون من موضع الحال من الضمير في ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ ويكون معنى التعارف كالذي قبله. ويحتمل أن يكون حالاً من الضمير في ﴿يَلْتَمِثُوا﴾ ويكون التعارف في الدنيا، ويجيء معنى الآية: ويوم نحشرهم للقيامة فتنتقطع المعرفة بينهم والأسباب، ويصير تعارفهم في الدنيا كساعة من النهار لا قدر لها، ونحو

لا يؤمن ولا يحصل فكأنه لا يسمع، ثم قال على وجه التسلية للنبي ﷺ: أفأنت يا محمد تريد أن تسمع الصم؟ أي: لا تكثر بذلك، وقوله: ﴿وَلَوْ كَانُوا فِي أَشَدِّ حَالَاتِ الْأَصْمِ، لِأَنَّ الْأَصْمَ الَّذِي لَا يَسْمَعُ شَيْئاً بِحَالٍ فَذَلِكَ لَا يَكُونُ فِي الْأَغْلَبِ إِلَّا مَعَ فِسَادَةِ الْعَقْلِ وَالِدِمَاغِ، فَلَا سَبِيلَ أَنْ يَعْقَلَ حِجَّةً وَلَا دَلِيلًا أَبَدًا.﴾ و﴿وَلَوْ﴾ هذه بمعنى (إن)، وهذا توقيف للنبي ﷺ؛ أي: أزم نفسك هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ مَن يَنْظُرُ إِلَيْكَ﴾ الآية. هي نحو الأولى في المعنى، وجاء ﴿يَنْظُرُ﴾ على لفظ ﴿مَن﴾، وإذا جاء الفعل على لفظها فجائز أن يعطف عليه آخر على المعنى، وإذا جاء أولاً على معناها فلا يجوز أن يعطف عليه آخر على اللفظ، لأن الكلام يلبس حينئذ. وهذه الآية نحو الأولى في المعنى كأنه قال: ومنهم من ينظر إليك ببصره، لكنه لا يعتبر ولا ينظر ببصيرته، فهو لذلك كالأعمى، فهون ذلك عليك، أفتريد أن تهدي العمي والهداية أجمع بيد الله عز وجل!

٤٩ - ٥٠ تفسير قوله عز وجل:

قرأت فرقة: ﴿وَلَكِنَّ النَّاسَ﴾ بتخفيف ﴿وَلَكِنَّ﴾ ورفع ﴿النَّاسَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿وَلَكِنَّ﴾، بالتشديد ونصب ﴿النَّاسَ﴾، وظلم الناس لأنفسهم إنما هو بالتكسب منهم الذي يقارن اختراع الله تعالى لأفعالهم. وعرف (لكن) إذا كان قبلها واو أن تشقل، وإذا عرّيت من الواو أن تخفف، وقد ينخرم هذا. وقال

بَلَىٰ، وقال مجاهد وغيره: المعنى: فإذا جاءهم رسولهم يوم القيامة للشهادة عليهم صُيِّرَ قوم للجنة وقوم للنار، فذلك القضاء بينهم بالقسط، وقيل: المعنى: فإذا جاء رسولهم في الدنيا وبعث صاروا من حتم الله بالعذاب لقوم والمغفرة لآخرين لغاياتهم، فذلك قضاء بينهم بالقسط. وقرن بعض المتأولين هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، وذلك يتفق إِمَّا بأن نجعل ﴿مُعَذِّبِينَ﴾ في الآخرة، وإما بأن نجعل القضاء بينهم في الدنيا بحيث يصح اشتباه الآيتين.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ هُوَ إِلَّا سَعْتٌ مُّبِينَةٌ﴾. الضمير في ﴿وَيَقُولُونَ﴾ يراد به الكفار، وسؤالهم عن الوعد تحديد بزعمهم في الحجة، أي: هذا الذي تُوعِدُنَا حَذُّ لَنَا فِيهِ وَقْتَهُ لِنَعْلَمَ الصِّدْقَ فِي ذَلِكَ مِنَ الْكُذْبِ، وقال بعض المفسرين: قولهم هذا على جهة الاستخفاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يظهر من اللفظة.

ثم أمره تعالى أن يقول لهم: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، المعنى: قل لهم يا محمد رُدًّا للحجة: إني لا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً من دون الله، ولا أنا إلا في قبضة سلطانه ويضمن الحاجة إلى لطفه، فإذا كنت هكذا، فأحرى ألا أعرف غيبه ولا أتعاطى شيئاً من أمره، ولكن لكل أمة أجل انفرد الله تبارك وتعالى بعلم حذو وقته، فإذا جاء ذلك الأجل في موت أو هلاك أمة لم يتأخروا ساعة ولا أمكنهم

التقدم عن حد الله عز وجل. وقرأ ابن سيرين: ﴿أَجَالَهُمْ﴾ بالجمع.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل: يَأْتِيهَا الْكَافِرُونَ الْمُسْتَعْجِلُونَ عَذَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُكُمْ﴾ لَيْلًا وَقَتِ الْمَبِيتِ - يقال: بَيْتَ الْقَوْمِ الْقَوْمُ إِذَا طَرَقَهُمْ لَيْلًا بِحَرْبٍ أَوْ نَحْوِهَا - ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَنْتُمْ عَدَابُكُمْ﴾ لَكُمْ مِنْهُ مَنَعَةٌ أَوْ بِهِ طَاقَةٌ! فَمَاذَا تَسْتَعْجِلُونَ مِنْهُ وَأَنْتُمْ لَا قِيلَ لَكُمْ بِهِ! وَ (مَا) ابْتِدَاءً، (ذَا) خَبْرُهُ، وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ ﴿مَادًّا﴾ بِمَنْزِلَةِ اسْمٍ وَاحِدٍ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ بِالْإِبْتِدَاءِ وَخَبْرِهِ الْجُمْلَةُ الَّتِي بَعْدَهُ، وَضَعْفُ هَذَا أَبُو عَلِيٍّ وَقَالَ: إِنَّمَا يَجُوزُ ذَلِكَ عَلَى تَقْدِيرِ إِضْمَارٍ فِي ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ وَحَذْفِهِ كَمَا قَالَ:

... كُفْلُهُ لَمْ أَضْنَعِ

و «زيد ضربت»، قال: وَيَصِحُّ أَنْ تَكُونَ ﴿مَادًّا﴾ فِي حَالِ نَصْبٍ لـ ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾. وَالضَّمِيرُ فِي ﴿يَسْتَعْجِلُ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَعُودَ عَلَى الْعَذَابِ.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ إِذَا مَا رَقَعْتُمْ﴾ الآية. عطف بقوله: ﴿أَنْتُمْ﴾ جملة القول على ما تقدم، ثم أدخل على الجميع ألف التقرير، ومعنى الآية: إِذَا وَقَعَ الْعَذَابُ وَعَايَنْتُمُوهُ أَنْتُمْ بِهِ حِينَئِذٍ، وَذَلِكَ غَيْرُ نَافِعِكُمْ، بَلْ جَوَابِكُمْ الْآنَ، وَقَدْ كُنْتُمْ تَسْتَعْجِلُونَهُ مَكْذِبِينَ بِهِ. وَرَأَى طَلْحَةَ ابْنَ مَرْصُوفٍ: ﴿أَنْتُمْ﴾ بَفَتْحِ الشَّاءِ، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْتُمْ﴾ بِضَمِّ الشَّاءِ: مَعْنَاهُ: هُنَالِكَ، وَقَالَ: لَيْسَتْ (تُمْ) هَذِهِ الَّتِي تَأْتِي بِمَعْنَى الْعَطْفِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى صحيح على أنها (تُمْ) المعروفة، ولكن إطباقه على لفظ التنزيل هو كما قلنا، وما ادعاه الطبري غير معروف. و ﴿أَنْتُمْ﴾ أصله عند بعض النحاة (أَنْ) فعل ماضٍ دخلت عليه الألف واللام على حذو في قوله:

... الْجِمَارِ الْيُسْجَعُ

ولم يتعرف بذلك كل التعريف، ولكنها لفظة مضمنة معنى حرف التعريف ولذلك بُنيت على الفتح لتضمنها معنى الحرف، ولوقوعها موقع المبهم، لأن معناها: «هذا الوقت»، وقرأ الأعمش، وأبو عمرو، وعاصم، والجمهور: ﴿أَنْتُمْ﴾ بِالْمَدِّ وَالِاسْتِفْهَامِ عَلَى حَذِّ التَّوْبِيخِ، وَكَذَلِكَ ﴿أَنْتُمْ﴾ وَقَدْ عَصَيْتُمْ، وَقَرَأَهَا بِاسْتِفْهَامٍ بِغَيْرِ مَذِّ طَلْحَةَ وَالْأَعْرَجِ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ الآية. هو الوعيد الأعظم بالخلود لأهل الظلم الأخص الذي هو ظلم الكفر لا ظلم المعصية. وقوله: ﴿هَلْ تُحْجَرُونَ﴾ توقيف وتوبيخ. ونصت هذه الآية على أن الجزاء في الآخرة هو على تكسب العبد.

وقوله تعالى: ﴿وَسَيُخَوِّدُكُمْ﴾ معناه: يستخبرونك، وهي - على هذا - تتعدى إلى مفعولين: أحدهما الكاف، والآخر في الابتداء والخبر. وقيل: هي بمعنى يستعلمونك، فهي - على هذا - تحتاج إلى مفاعيل ثلاثة: أحدها الكاف، والابتداء والخبر سَدَّ مَسَدًا الْمَفْعُولِينَ.

و ﴿أَحَقُّ هُوَ﴾ قيل: الإشارة إلى

وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ. وَأَسْرَأُ
الْتِدَادَ لِمَا رَأَى الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ
لَا يُظْلَمُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَا لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْإِن
وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ هُوَ يَحْيِي وَيُمِيتُ
وَاللَّهُ تَرْجُمُونَ ﴿٥٦﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ
مِّن رَّبِّكُمْ وَرِشْقَةٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ
﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ إِنَّا لَنَنصُرُكُمْ هُوًّا هَرَجْتُمْ مَّا
يَجْعَلُونَ ﴿٥٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِّن رِّزْقٍ
فَجَعَلْتُمْ مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ أَلَا لِلَّهِ آذَنُ لِكُمْ أَنْ تَعْبُدَ
تَعْبُوتَ ﴿٥٩﴾ وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكِبْرَ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا اللَّهُ لَدُّوْ فَضْلِي عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ
لَا يَشْكُرُونَ ﴿٦٠﴾ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا مِنْهُ مِن قُرْآنٍ
وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَالِمِيكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ
فِيهِ وَمَا يَهْرَبُ عَنْ رَّبِّكَ مِن شِقَالِ ذُرِّيَّتِكُمْ وَلَا فِي
السَّمَاءِ وَلَا فِي الْأَرْضِ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَيُرِيدُونَ أَن يُنْفِضُوا عَن رَّبِّكَ
وَأَن يَكُونَ لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ
أَلِئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِاللَّهِ
الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسِهِ
وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ
وَالَّذِي يُضِلُّ مَن يَشَاءُ
وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْكٰفِرِينَ

يُحْيِي مِنَ النُّطْفَةِ،
﴿ وَيُمِيتُ ﴾ بالأجل، ثم
يجعل المرجع إليه بالحشر
يوم القيامة. وفي قوة هذه
الآيات ما يستدعي الإيمان
وإجابة دعوة الله عز وجل،
وقرأ ﴿ تَرْجُمُونَ ﴾ بالتاء من
فوق الأعرج، وأبو عمرو،
وعاصم، ونافع، والناس.
وقرأ عيسى بن عمر
﴿ يُزْجَمُونَ ﴾ بالياء من
تحت. واختلف عن
الحسن.

﴿ ٥٧ ﴾ - ﴿ ٥٨ ﴾ تفسير قوله
عز وجل:

هذه آية خطب بها جميع

العالم، والموعظة: القرآن
لأن الوعظ إنما هو بقول يأمر
بالمعروف ويزجر ويرفق ويوعد
ويعد، وهذه صفة الكتاب العزيز،
وقوله: ﴿ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾ يريد: لم
يختلفها محمد ﷺ ولا غيره، بل هي
من عند الله عز وجل، ﴿ وَمَا فِي
الصُّدُورِ ﴾ يريد به الجهل والعُتُو عن
النظر في آيات الله تبارك وتعالى ونحو
هذا مما يدافع الإيمان. وجعله موعظة
بحسب الناس جميعاً، وجعله هُدى
ورحمة بحسب المؤمنين فقط، وهذا
تفسير صحيح المعنى إذا تَوَقَّلَ بَانَ
وجهه.

وقوله سبحانه: ﴿ قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ
وَبِرَحْمَتِهِ ﴾ الباء متعلقة بمحذوف
استغني عن ذكره يدل عليه قوله:
﴿ وَهُدًى وَرَحْمَةً ﴾. قال بعض
المتأولين وهو هلال بن يساف،
وقتادة، والحسن، وابن عباس

الشرع والقرآن، وقيل: إلى الوعيد،
وهو الأظهر، وقرأ الأعمش: ﴿ الْحَقُّ
هُوَ ﴾ بِمَدَّةٍ وِبِلَامِ التَّعْرِيفِ. وقوله:
﴿ إِي ﴾ هي لفظة تتقدم القَسَم، وهو
بمعنى (نعم)، ويجيء بعدها حرف
القَسَم وقد لا يجيء، تقول: إِي
وربي وإي ربي، و﴿ مُعْجِرِينَ ﴾ معناه:
مُفْلِتِينَ، وهذا الفعل أصله تعديّة
(عجز) لكن كثر فيه حذف المفعول
حتى قالت العرب: «أَعْجَرَ فلان» إذا
ذهب في الأرض فلم يقدر عليه.

﴿ ٥٨ ﴾ - ﴿ ٥٩ ﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار للكفار في سياق
إخبارهم بأن ذلك الوعد حق.
و﴿ أَسْرَأُ ﴾ لفظة تجيء بمعنى:
أَخْفُوا، وهي حينئذ من السر،
وتجيء بمعنى: أظهروا، وهي حينئذ
من أسارير الوجه. قال الطبري:
المعنى: وأخفى رؤساء هؤلاء الكفار
الندامة عن سفلتهم ووضعائهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
بل هو عام في جميعهم.

و﴿ أَلَا ﴾ استفتاح وتنبية، ثم
أوجب أن جميع ما في السموات
والأرض ملك لله تبارك وتعالى، قال
الطبري: يقول: فليس لهذا الكافر
يومئذ شيء يقتدي به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وربط الآيتين هكذا يتجه على بعد،
وليس هذا من فصيح المقاصد.
وقوله: ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾
قيد بالأكثر لأن بعض الناس يؤمن
فهم يعلمون حقيقة وعد الله تعالى،
وأكثرهم لا يعلمون فهم لأجل ذلك
يكذبون.

وقوله تعالى: ﴿ هُوَ يَحْيِي ﴾ يريد:

رضي الله عنهما: (الفضل):
الإسلام، (الرحمة): القرآن، وقال
أبو سعيد الخدري: (الفضل):
القرآن، (الرحمة): أن جعلهم من
أهله، وقال زيد بن أسلم،
والضحاك: (الفضل): القرآن،
(الرحمة): الإسلام، وقالت فرقة:
(الفضل): محمد ﷺ، (الرحمة):
القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا وجه عندي لشيء من هذا
التخصيص إلا أن يستند منه شيء إلى
النبي ﷺ، وإنما الذي يقتضيه اللفظ
ويلزم منه أن الفضل هو هداية الله
تعالى إلى دينه، والتوفيق إلى اتباع
شريعته والرحمة هي عفوه وسكنى
جنته التي جعلها جزاء على التَّشَرُّعِ
بالإسلام والإيمان به. ومعنى الآية:
قل يا محمد لجميع الناس:

ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربه. وقوله: ﴿حَزْرًا مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾ يريد: من مال الدنيا وحطامها الغاني المؤذي في الآخرة.

٥٩ - ٦٠ تفسير قوله عز وجل: هذه المخاطبة لكفار العرب الذين جعلوا البحائر والسواحب والنصيب من الحرث والأنعام وغير ذلك مما لم يأذن الله به، وإنما اختلقوه بأمرهم. وقوله تعالى: ﴿أَنْزِلَ﴾ لفظه فيها تجوز، وإنزال الرزق إما أن يكون في ضمن إنزال المطر بالمال أو نزول الأمر به الذي هو ظهور الأثر في المخلوق منه المخترع، ثم أمر الله نبيه بتوقيفهم على أحد القسمين، وهم لا يمكنهم ادعاء إذن الله في ذلك، فلم يبق إلا أنهم افتروه، وهذه الآية نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ﴾، ذكر ذلك الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَنُّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ آية وعيد. لما تحقق عليهم بتقسيم الآية التي قبلها أنهم مفترون على الله عظم في هذه الآية جرم الافتراء، أي: ظنهم في غاية الرداءة بحسب سوء أفعالهم، ثم ثنى بإيجاب الفضل على الناس في الإمهال لهم مع الافتراء والمعصيان، والإمهال داعية إلى التوبة والإنابة. ثم استدرك ذكر من لا يرى حق الإمهال ولا يشكره ولا يبادر فيه على جهة الذم لهم، والآية بعد هذا تعم جميع فضل الله وجميع تقصير الخلق في شكره لا رب غيره.

٦١ - ٦٢ تفسير قوله عز وجل: قصد الآية وصف إحاطة الله بكل

ذكر الغائب، ورويت عن الحسن بالتاء من فوق فيهما. وقرأ أبو التياح، وأبو جعفر، وقتادة - بخلاف عنهم - وابن عامر بالياء في الأولى وبالتاء في الآخرة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وجماعة من السلف، ورويت عن النبي ﷺ بالياء في الأولى وبالتاء في الآخرة، ورويت عن أبي التياح. وإذا تأملت وجوه ذلك بانت على متهيب الفصح من كلام العرب، ولذلك كثر الخلاف من كل قارىء، وفي مصحف

أبي بن كعب: ﴿فبذلك فافرحوا﴾، وأما من قرأ: ﴿فَلْتَفَرَّحُوا﴾ فأدخل اللام في أمر المخاطب فذلك على لغة قليلة، حكى ذلك أبو علي في الحجة، وقال أبو حاتم وغيره: الأصل في كل أمر إدخال اللام إذا كان النهي بحرف، فكذا الأمر إذا كان أمراً لغائب بلام، قال أبو الفتح: إلا أن العرب رفضت إدخال اللام في أمر المخاطب لكثرة ترده. وقرأ أبو التياح، والحسن بكسر اللام من ﴿فَلْتَفَرَّحُوا﴾، فإن قيل: كيف أمر الله بالفرح في هذه الآية وقد ورد ذم في قوله: ﴿فَلْيَفْرَحُوا﴾، وفي قوله: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾، قيل: إن الفرحة إذا ورد مقيداً في خير فليس بمذموم، وكذلك هو في هذه الآية، وإذا ورد مقيداً في شر أو مطلقاً لحقه ذم إذ

الآيات أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٥٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ لَّهُمُ الشَّرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا يَبْدِلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٦١﴾ وَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ آلَ رَبِّكَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٢﴾ الْآيَاتُ لِلَّهِ مِنَ السَّمَوَاتِ وَمِنَ الْأَرْضِ وَمَا يَسْمَعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِن يَسْمَعُونَ إِلَّا الْأَلْطَنَ وَإِن هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿٦٣﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْيَلَّ لَسْتُمْ تُؤْفِقُونَهُ وَالنَّهَارُ مُمِيسِرٌ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ هُوَ الْمَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِن عِنْدَكُمْ مِن سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ قُلْ إِن الَّذِينَ يَقْتُرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْعِلُونَ ﴿٦٦﴾ مَتَّعٌ فِي الدُّنْيَا ثُمَّ إِنَّا مَرَجَعُهُمْ ثُمَّ يَدْعُهُمُ الْعَذَابَ الشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾

بفضل الله وبرحمته فليقع الفرح منكم، لا بأمر الدنيا وما يجمع من حطامها، فالؤمنون يقال لهم: فلْتَفَرَّحُوا، وهم مُتَلَبِّسُونَ بعلة الفرح وسببه، ومُحْضَلُونَ لفضل الله منتظرون الرحمة. والكافرون يقال لهم: بفضل الله وبرحمته فلْتَفَرَّحُوا، على معنى أن لو اتفق لكم، أو لو سعدتم بالهداية إلى تحصيل ذلك.

وقرأ أبي بن كعب، وابن القعقاع، وابن عامر، والحسن - على ما زعم هارون - ورويت عن النبي ﷺ: ﴿فَلْتَفَرَّحُوا﴾ و ﴿تَجْمَعُونَ﴾ بالتاء فيهما على المخاطبة، وهي قراءة جماعة من السلف كبيرة، وعن أكثرهم خلاف. وقرأ السبعة سوى ابن عامر، وأهل المدينة، والأعرج، ومجاهد، وابن أبي إسحاق، وقتادة، وطلحة، والأعمش بالياء فيهما على

شيء، ومعنى اللفظ: وما تكون يا محمد - والمراد هو وغيره - في شأن من جميع الشؤون، ﴿وَمَا تَلَّوْا مِنْهُ﴾ الضمير عائذ على ﴿شَأْنٍ﴾ أي فيه وبسببه من قرآن، ويحتمل أن يعود الضمير على جميع القرآن، ثم عمّ بقوله: ﴿وَلَا تَمَلُّوْا مِنْ عَمَلٍ﴾، وفي قوله: ﴿إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُوَبًا﴾ تحذير وتنبيه. و﴿ثِيَابُونَ﴾: تأخذون وتهضون بجد، يقال: أفاض الرجل في سيره وفي حديثه، ومنه الإفاضة في الحج، ومفيض القِداح، ويحتمل أن (فاض) عُدِّي بالهزمة.

و ﴿يَعْرَبُ﴾ معناه: يغيب حتى يخفى، حتى قالوا للبعيد: عازب، ومنه قول الشاعر:

عواذب لم تسمع ثُبوح مُقَامَةٍ
ولم تر تاراً تم حَوْلِ مُجْرَمٍ
وقيل للغائب عن أهله: عازب، حتى قالوه لمن لا زوجة له، وفي السير أن بيت سعد بن خيشمة كان يقال له: بيت العزاب. وقرأ جمهور السبعة، والناس: ﴿يَعْرَبُ﴾ بضم الزاي، وقرأ الكسائي وحده منهم: ﴿يَعْرَبُ﴾ بكسرهما، وهي قراءة ابن وثاب، والأعمش، وطلحة بن مصرف. قال أبو حاتم: القراءة بالضم والكسر لغة. والمثقال: الوزن، وهو اسم لا صفة كمعطار ومضراب. والذُر: صغار النمل، جعلها الله مثلاً إذ لا يعرف في الحيوان المتغذي المتناسل المشهور النوع والموضع أصغر منه. وقرأ جمهور الناس، وأكثر السبعة: ﴿وَلَا أَصْنَرُ﴾ ﴿وَلَا أَكْبُرُ﴾ بفتح الراء عطفًا

على ﴿ذَرَّوْا﴾ في موضع خفض لكن منع من ظهوره امتناع الصرف. وقرأ حمزة وحده: ﴿وَلَا أَصْفَرُ﴾ ﴿وَلَا أَكْبُرُ﴾ عطفًا على موضع قوله: ﴿يُقَالُ﴾ لأن التقدير: وما يعزب عن ربك مثقال ذرة. والكتاب المبين: اللوح المحفوظ، كذا قال بعض المفسرين، ويحتمل أن يريد تحصيل الكتبة، ويكون القصد ذكر الأعمال المذكورة قبل، وتقديم الأصغر في الترتيب جرياً على قولهم: القمرين والعمرين، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَأْدُرُ صَيْرَةَ وَلَا كِبْرَةَ﴾، والقصد بذلك كله تنبيه الأقل، وأن الحكم المقصود إذا وقع على الأقل فأحرى أن يقع على الأعظم.

و ﴿آلَا﴾ استفتاح وتنبيه، وأولياء الله هم المؤمنون الذين والوه بالطاعة والعبادة، وهذه الآية يعطي ظاهرها أن من آمن واتقى فهو داخل في أولياء الله، وهذا هو الذي تقتضيه الشريعة في الولي، وإنما نبهنا هذا التنبيه حذراً من بعض الصوفية وبعض الملحدين في الولي، وروي عن النبي ﷺ أنه سئل: من أولياء الله؟ فقال: «الذين إذا رأيتهم ذكرت الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وصف لازم للمتقين لأنهم يخشعون ويخشعون، وروي عن النبي ﷺ أيضاً أنه قال: «أولياء الله قوم تحابوا في الله واجتمعوا في ذاته، لم تجمعهم قرابة ولا مال يتعاطونه». وقوله: ﴿لَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ يحتمل أن يكون في

الآخرة، أي: لا يهتمون بهما، ولا يخافون عذاباً ولا عقاباً ولا يحزنون لذلك. ويحتمل أن يكون ذلك في الدنيا، أي: لا يخافون أحداً من أهل الدنيا ولا من أعراضها، ولا يحزنون على ما فاتهم منها، والأول أظهر، والعموم في ذلك صحيح، لا يخافون في الآخرة جملة، ولا في الدنيا الخوف الدنيوي الذي هو في فوت آمالها، وزوال منازلها، وكذلك في الحزن، وذكر الطبري عن جماعة من العلماء مثل ما في الحديث في الأولياء الذين إذا رأهم أحد ذكر الله، وروي فيهم حديث: «إن أولياء الله هم قوم يتحابون في الله، وتجمع لهم يوم القيامة منابر من نور، وتبهر وجوههم، فهم في عرصة القيامة لا يخافون ولا يحزنون». وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن من عباد الله عباداً ما هم بأنبياء ولا شهداء، يغبطهم الأنبياء والشهداء بمكانهم من الله»، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام ولا أموال» الحديث، ثم قرأ: ﴿آلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا حَوْلَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يصح أن يكون في موضع نصب على البدل من (الأولياء)، ويصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء على تقدير: (هم الذين)، وكثيراً ما يفعل ذلك بنعت ما عملت فيه (إن) إذا جاء بعد خبرها، ويصح أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداءً وخبره في قوله: ﴿لَهُمُ الْبَشْرَى﴾، وقوله: ﴿وَكَاوُوا﴾

يَتَّوَكَّلُ ﴿٦٤﴾ لفظ عام في تقوى الشرك والمعاصي.

﴿٦٥﴾ - ﴿٦٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

أما بشرى الآخرة فهي بالجنة قولاً واحداً، وتلك هي الفضل الكبير الذي في قوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيراً﴾، وأما بشرى الدنيا فتظاهرت الأحاديث عن رسول الله ﷺ أنها الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له. وروى ذلك عن رسول الله ﷺ أبو الدرداء، وعمران بن حصين، وعبدالله ابن عباس، وعبدالله بن عمر - رضي الله عنهم جميعاً - وغيرهم على أنه سُئِلَ عن ذلك ففسره بالرؤيا. وعن النبي ﷺ في صحيح مسلم أنه قال: «لم يبق من المبشرات إلا الرؤيا الصالحة»، وروى عنه أم كند الكعبية أنه قال: «ذهبت النبوة وبقيت المبشرات» قال قتادة، والضحاك: البشرية في الدنيا هي ما يُتَّشَرُّ به المؤمن عند موته وهو حي عند المعايضة. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن تكون بشرى الدنيا ما في القرآن من الآيات المبشرات، ويقوى ذلك بقوله تعالى في هذه الآية: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ وإن كان ذلك كله يعارضه قول النبي ﷺ: «هي الرؤيا» إلا إن قلنا: إن النبي ﷺ أعطى مثلاً من البشرية، وهي تعم جميع الناس. وقوله: ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ يريد: لا خلف لمواعيده ولا رد في أمره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد أخذ ذلك عبدالله بن عمر رضي الله عنهما على نحو غير هذا،

وجعل التبديل المنفي في الألفاظ، وذلك أنه زُوي أن الحجاج بن يوسف خطب فأطال خطبته حتى قال: إن عبدالله بن الزبير قد بدل كتاب الله، فقال له عبدالله بن عمر: إنك لا تطبق ذلك أنت ولا ابن الزبير، ﴿لَا يَبْدِيلُ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾، فقال له الحجاج: لقد أعطيت علماً، فلما انصرف إليه في خاصته سكت عنه، وقد زُوي هذا النظر عن ابن عباس في غير مقابلة الحجاج، ذكره البخاري، وقوله: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْعَظِيمُ﴾ إشارة إلى النعيم الذي وقعت به البشرية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ الآية. هذه آية تسلية لمحمد ﷺ، والمعنى: ولا يحزنك يا محمد ويهملك قولهم، أي قول كفار قريش، ولقظة «القول» تعم جحودهم واستهزاءهم وخذاعهم وغير ذلك.

ثم ابتدأ بوجوب أن العزة لله جميعاً، أي: فهم لا يقدرون لك على شيء ولا يؤذونك إلا بما شاء الله، وهو القادر على عقابهم، لا يُعَازُهُ شيء، ففي الآية وعيد لهم. وكسر ﴿إِنَّ﴾ في الاستدعاء ولا ارتباط لها بالقول المتقدم لها. وقال ابن قتيبة: لا يجوز فتح إن في هذا الموضوع وهو كفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله: «وهو كفر» غلُو. وكأن ذلك خرج على تقدير: لأجل أن العزة لله، وقوله: ﴿هُوَ السَّيِّئُ﴾ أي لجميع ما يقولونه، ﴿الْقَلِيمُ﴾ بما في نفوسهم من ذلك، وفي ضمن هذه الصفات تهديد.

ثم استفتح بقوله: ﴿أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي بالملك والإحاطة، وغلب من يعقل في قوله: ﴿مَنْ﴾ إذ لهُ ملك الجميع ما فيها ومن فيها، وإذا جاءت العبارة ب (مَا) فذلك تغليب للكثرة، إذ الأكثر عدداً من المخلوقات لا يعقل، ف ﴿مَنْ﴾ تقع للصفين بمجموعهما، و (مَا) كذلك، ولا تقع لما يعقل إذا تجرد من الصفات والأحوال، ألا ترى لو ذكرت لك قوله في مسألة فأردت أن تسأل عن قائلها، أيجوز في كلام العرب أن تقول: «ما قائل هذا القول؟» هذا ما يتقلده من يفهم كلام العرب.

وقوله: ﴿وَمَا يَبْنِي﴾. يصح أن يكون ﴿مَا﴾ استفهاماً بمعنى التقرير وتوقيف نظر المخاطب، ويعمل ﴿يَبْنِي﴾ في قوله: ﴿شُرَكَاءُ﴾. ويصح أن تكون نافية ويعمل ﴿يَبْنِي﴾ في ﴿شُرَكَاءُ﴾ على معنى أنهم لا يتبعون شركاء حقاً، ويكون مفعول عندي تكلف. وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿تَذْهَبُونَ﴾ بالتاء، وهي قراءة غير متجهة، وقوله: ﴿إِنَّ﴾ نافية، و﴿يَحْزَنُونَ﴾ معناه: يحسدون ويخمنون، لا يقولون بقباس ولا نظر. وقرأت فرقة: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ من أحزن، وقرأت فرقة: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ﴾ من حزن.

﴿٦٧﴾ - ﴿٦٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما نصَّ على عظمة الله تبارك وتعالى في الآية المتقدمة؛ عقب ذلك في هذه بالتنبيه على أفعاله لتبين العظمة المحكوم بها قبل. وقوله: ﴿إِنَّكَ كُنَّا﴾ دال على أن النهار للحركة والتصرف، وكذلك هو في

النبي ﷺ، وقوله: ﴿هُوَ
الَّذِي﴾ صفة على
الإطلاق، أي: لا يفتر
إلى شيء بجهة من
الجهات، والولد جزء مما
هو غني عنه، والحق هو
قول الله تبارك وتعالى:
﴿أَنْتَ الْفَقْرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾،
وقوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ
وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ بالملك
والإحاطة والخلق،
﴿وإن﴾ نافية، والسلطان:
الحجة، وكذلك معناه
حيث تكرر من القرآن، ثم
وقفهم موبخاً بقوله:
﴿أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا
تَعْلَمُونَ﴾.

الوجود، وذلك أن حركة الليل
متعذرة بفقد الضوء. وقوله:
﴿وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ مجاز، لأن النهار
لا يبصر، ولكنه ظرف للإبصار،
وهذا موجود في كلام العرب، إذ
المقصود من ذلك مفهوم، فمن ذلك
قول ذي الرمة:

لَقَدْ لُمْتُنَا يَا أُمَّ عَيْلَانَ فِي السَّرَى

وَنِمْتِ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِثَانِمِ
وليس هذا من باب النسب كعيشة
راضية ونحوها، وإنما ذلك مثل قول
الشاعر:

أَمَا الشَّهَارُ فَنِي قَيْدٍ وَسِلْسِلَةٍ

وَاللَّيْلِ فِي بَطْنٍ مَنَحَوْتِ مِنَ السَّاجِ
فجعل الليل والنهار بهاتين
الحالتين، وليس يريد إلا أنه هو
فيهما كذلك، وهذا البيت لمسجون

كان يبيت في خشبة السجن، وعلى
أن هذا البيت قد ينشد: «أما النهار»
بالنصب، وفي هذه الألفاظ إيجاز
وإحاطة على ذهن السامع لأن العبرة
هي في أن الليل مظلم يسكن فيه،
والنهار مبصر يتصرف فيه. فذكر
طرف من هذا والطرف الآخر من
الجهة الثانية، ودل المذكوران على
المتروكين، وهذا كما في قوله
تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ
الَّذِي يَتَّبِعُ بِمَا لَا يَسْمَعُ﴾. وقوله:

﴿يَسْمَعُونَ﴾ يريد: ويعون. والضمير
في ﴿قَالُوا﴾ للكفار العرب، وذلك
قول طائفة منهم: «الملائكة
بنات الله»، والآية بعدت نعم كل من
قال نحو هذا القول كالنصارى
ومن يمكن أن يعتقد ذلك من الكفرة
و﴿سُجِّنَتْ﴾ مصدر معناه: تنزيهاً
له وبراءة من ذلك، فسره بهذا

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ الَّذِينَ
يَفْقُرُونَ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية. هذا توعد
لهم بأنهم لا يظفرون ببغية ولا يبقون
في نعمة، إذ هذه حال من يصير إلى
العذاب وإن نعم في دنياه يسيراً،
وقوله: ﴿مَتَاعٌ﴾ مرفوع على خبر
ابتداء، أي: ذلك متاع، أو هو
متاع، أو على الابتداء بتقدير: لهم
متاع. وقوله: ﴿ثُمَّ لِيَسْأَلَنَّ مَرْجِعَهُمْ﴾
إلى آخر الآية توعد بحق.

﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم في (الأعراف) الكلام على
لفظة نوح، والمقام: وقوف الرجل
لكلام أو لخطبة أو نحوه، والمقام
بضم الميم: إقامته ساكناً في موضع
أو بلد، ولم يُقرأ هنا بضم الميم،
وتذكيره: وعظه وزجره، والمعنى:
يا قوم، إن كنتم تستضعفون حالي
ودعائي لكم إلى الله فإنني لا أبالي

عنكم لتوكلي على الله تعالى،
فاعملوا ما قدرتم عليه.

وقرأ السبعة، وجمهور الناس:
الحسن، وابن أبي إسحق، وعيسى:
﴿فَأَجْمِعُوا﴾ من أجمع الرجل على
الشيء إذا عزم عليه، ومنه قول
الشاعر:

.....
هَلْ أَغْدُونَ يَوْمًا وَأَمْرِي مُجْمَعٌ؟
ومنه قول الآخر:

أَجْمِعُوا أَمْرَهُمْ بِلَيْلٍ قَلَمًا
أَصْبَحُوا أَصْبَحَتْ لَهُمْ ضَوْضَاءُ
ومنه الحديث: «ما لم يُجمع
مكثاً، ومنه قول أبي ذؤيب:

ذَكَرَ الزُّرُودَ بِهَا فَأَجْمَعَ أَمْرَهُ
شَوْقًا وَأَقْبَلَ حَيْثُ يَتَتَّبِعُ
وقرأ نافع - فيما روى عنه الأصمعي
- وهي قراءة الأعرج، وابن أبي
رجاء، وعاصم الجحدري،

وإنما أجري على الذي بعثني. وقرأ نافع، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿أَجْرِي﴾ بسكون الياء، وقرأ: ﴿أَجْرِي﴾ بفتح الياء الأعرج، وطلحة بن مصرف، وعيسى، وأبو عمرو. وقال أبو حاتم: هما لغتان، والقراءة بالإسكان في كل القرآن. ثم أخبرهم بأن الله أمر بالإسلام والدين الحنيف الذي هو توحيد الله والعمل بطاعته والإعداد للقائه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ الآية. إخبار من الله عز وجل عن حال قوم نوح المكذبين له، وفي ضمن ذلك الإخبار توعد للكفار بمحمد ﷺ وضرب المثال لهم، أي: أنتم بحال هؤلاء من التكذيب فستكونون بحالهم من النعمة والتعذيب، و﴿الْفُلْكَ﴾: السفينة، والمفسرون وأهل الآثار مجمعون على أن سفينة نوح كانت واحدة، والفلك لفظ الواحد منه ولفظ الجمع مستو، وليس به، وقد مضى شرح هذا في (الأعراف)، و﴿حَلَيْفٌ﴾ جمع خليفة، وقوله: ﴿فَأَنْظُرْ﴾ مخاطبة للنبي ﷺ يشاركه في معناها جميع الخلق، وفي هذه الآية أنه أغرق جميع من كذب بآيات الله التي جاء بها نوح عليه السلام، وهي مقتضية أيضاً أنه أنذرهم فكانوا منذرين، فلو كانوا جميع أهل الأرض كما قال بعض الناس لاستوى نوح ومحمد عليهما الصلاة والسلام في البعث إلى أهل الأرض، ويرد ذلك قول النبي ﷺ: ﴿أَعْطَيْتْ خَمْساً لِمَنْ يُعْطَاهُنَّ أَحَدٌ قَلْبِي﴾ الحديث، ويرجع بهذا النظر أن بعثة نوح عليه السلام

من أن يطول الكلام بغير ضمير، ويصح أن يرتفع بالابتداء والخبر مُقَدَّر، تقديره: «وشركاؤكم فليجمعوا»، وقرأ فرقة: ﴿وَشُرَكَائِكُمْ﴾ بالخفض على العطف على الضمير في قوله تعالى: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، والتقدير: «وأمر شركائكم» فهو كقول الشاعر:

وَنَارٍ تَوَقَّدُ بِالْأَيْلِ نَاراً
أَي: وكل نار، والمراد بالشركاء في هذه الآية الأنداد من دون الله، فأضافهم إليه إذ يجعلونهم شركاء بزعمهم.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرَكُمْ عَلَيْكُمْ غِنَةً﴾ أي ملتبساً مشكلاً. ومنه قوله ﷺ في الهلال: ﴿فَإِنْ حُمَّ عَلَيْكُمْ﴾، ومنه قول الراجز:
بَلْ لَوْ شَهِدْتَ النَّاسَ إِذْ تُكْمُوا
بِئْمَةٍ لَوْلَمْ تَفْرَجْ غُمُوا
وقوله: ﴿ثُمَّ أَتَوْا بِكَ﴾ معناه: أنفذوا قضاءكم نحوي، وقرأ السري بن ينعم: ﴿ثُمَّ أَفْضُوا﴾ بالفاء وقطع الألف، ومعناه: أسرعوا، وهو مأخوذ من الأرض الفضا، أي: اسلكوا إليّ بكيدكم واخرجوا معي وبني إلى سعة، وقوله: ﴿وَلَا تُظْهِرُونَ﴾ أي: ولا تؤخرون، والنظرة: التأخير.

﴿٧٢﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: فإن لم تقبلوا على دعوتي وكفرتم بها وتوليتم عنها، والتولي أصله بالبدن، ويستعمل في الإعراض عن المعاني، يقول: فأنا لم أسألكم أجراً على ذلك ولا مالا فيقع منكم قطع لي وتقصير بإرادتي

والزهري، والأعشى: ﴿فَأَجْمَعُوا﴾ بفتح الميم من جمع إذا ضم شيئاً إلى شيء. و﴿أَمْرَكُمْ﴾ يريد به: قدرتكم وحياتكم، ويؤيد هذه القراءة قوله تعالى: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَجَمَعَ كَيْدَهُ﴾، وكل هؤلاء نصب (الشركاء)، ونصب قوله: ﴿شُرَكَاءَكُمْ﴾ يحتمل أن يعطف على قوله: ﴿أَمْرَكُمْ﴾، وهذا على قراءة ﴿فَأَجْمَعُوا﴾ بالوصل، وأما من قرأ: ﴿فَأَجْمَعُوا﴾ بقطع الألف فنصب «الشركاء» بفعل مضمّر كأنه قال: «وادعوا شركاءكم»، فهو من باب قول الشاعر:

شُرَابٌ أَلْبَانٍ وَتَمْرٍ وَأَيْطٍ
ومن قول الآخر:
وَرَأَيْتُ زَوْجَكَ فِي السَّوْعَى
مُتَقَلِّداً سَيْفاً وَرُمَحاً
ومن قول الآخر:

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءً بَارِداً
حَتَّى شَتَّتْ هَمَالَةَ عَيْنَاهَا
وفي مصحف أبي بن كعب:
﴿فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾، قال أبو علي: وقد ينتصب «الشركاء» بواو مع، كما قالوا: «جاء البريد والطيالسة». وقرأ أبو عبدالرحمن، والحسن، وابن أبي إسحاق، وعيسى، وسلام، ويعقوب، وأبو عمرو فيما روي عنه: ﴿وَشُرَكَاءُكُمْ﴾ بالرفع عطفاً على الضمير في: ﴿أَجْمَعُوا﴾، وعطف على الضمير قبل تأكيده لأن الكاف والميم في ﴿أَمْرَكُمْ﴾ ناب مناب «أنتم» المؤكد للضمير، ولطول الكلام أيضاً، وهذه العبارة أحسن

والفرق إنما كان في أهل صقع لا جميع الأرض.

(٧٤) - (٧٥) تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿وَمِن بَعْدِهِمْ﴾ عائذ على نوح عليه السلام، والضمير في ﴿قَوْمَهُمْ﴾ عائذ على الرسل، ومعنى هذه الآيات كلها ضرب المثل لحاضري محمد ﷺ، أي: كما حلَّ بهؤلاءٍ يجلُّ بكم، والبيِّنات: المعجزات والبراهين الواضحة، والضمير في قوله: ﴿كَافِرًا﴾ وفي ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ عائذ على قوم الرسل، والضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ عائذ على قوم نوح عليه السلام، وهذا قول بعض المتأولين، وقال بعضهم: بل يعود الثلاثة على قوم الرسل على معنى أنهم بادروا رسلهم بالكذب كلما جاء رسول، ثم لجأوا في الكفر وتمادوا فلم يكونوا ليؤمنوا بما سبق به تكذيبهم، وقال يحيى بن سلام: ﴿وَمِن قَبْلُ﴾ معناه: من قبل العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول بُعد، ويحتمل اللفظ عندي معنى آخر وهو أن تكون (ما) مصدرية، والمعنى: فكذبوا رسلهم فكان عقابهم من الله أن لم يكونوا ليؤمنوا بتكذيبهم من قبل، أي من سببه ومن جرائه. ويؤيد هذا التأويل قوله: ﴿كَذَلِكَ نَطِّعُ﴾. وقال بعض العلماء: عقوبة التكذيب الطَّعُّ على القلوب. وقرأ جمهور الناس: ﴿نَطِّعُ﴾ بالنون، وقرأ العباس بن الفضل: ﴿يَطِّعُ﴾ بالياء، وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: هذا فعلنا بهؤلاء، ثم ابتدأ: ﴿كَذَلِكَ نَطِّعُ﴾ أي كفعلنا

هذا. و﴿الْمُتَعِدِّينَ﴾ هم الذين تجاوزوا طورهم، واجترحوا ما لا يجوز لهم، وهي ها هنا في الكفر. والضمير في ﴿بَعْدِهِمْ﴾ عائذ على الرسل، والضمير في ﴿وَمِن بَعْدِهِمْ﴾ عائذ على فرعون، والملا: الجماعة من قبيلة وأهل مدينة، ثم يقال للأشراف والأعيان من القبيلة أو البلد ملا، أي: هم يقومون مقام الملا، وعلى هذا الحد هي في قول رسول الله ﷺ في قريش بلدي: «أولئك الملا»، وكذلك هي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمَلَكَ أَتَىٰ نَارُونَ بِالْبَاقِ﴾، وأما في هذه الآية فهي عامة لأن بعثة موسى وهارون كانت إلى فرعون وجميع قومه من شريف ومشروف، وقد مضى في ﴿الَّتَمَسَّ﴾ ذكرهما وما بُعثا إليهم فيه. والآيات: البراهين والمعجزات وما في معناها، وقوله: ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾ أي: تعظموا وكفروا بها، و﴿تَجْرِبِينَ﴾ معناه: يرتكبون ما لم يُبح الله ويجسرون من ذلك على الخطر الصعب.

(٧٦) - (٧٧) تفسير قوله عز وجل:

يريد بالحق آيتي العصا واليد، ويدل على ذلك قولهم عندهما: «هذا سحر»، ولم يقولوا ذلك إلا عندهما، ولم يتعاطوا إلا مقاومة العصا فهي معجزة موسى عليه السلام التي وقع فيها عجز المعارض. وقرأ جمهور الناس: ﴿لَيْسَ شَيْئًا﴾، وقرأ سعيد بن جبيرة، والأعمش: ﴿لَسَاحِرٌ مِّبِينٌ﴾. ثم اختلف المتأولون في قوله: ﴿أَسْحَرُ هَذَا﴾ فقالت فرقة: هو حكاية من موسى عنهم على معنى أن

قولهم كان: «أَسْحَرُ هَذَا»؟ ثم اختلف في معنى قول قوم فرعون: «أَسْحَرُ هَذَا»؟ فقال بعضهم: قالها منهم كل مستفهم جاهل بالأمر فهو يسأل عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا التأويل يضعفه ما ذكر الله قبل عنهم من أنهم صمموا على أنه سحر بقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَيْسَ شَيْئًا﴾. وقال بعضهم: بل قالوا ذلك على معنى التعظيم للسحر الذي رأوه بزعمهم، كما تقول لفرس تراه يجيد الجري: «أفرس هذا؟» على معنى التعجب منه والاستغراب وأنت قد علمت أنه فرس. وقالت فرقة غير هاتين: ليس ذلك حكاية من موسى عنهم، بل القول الذي حكاه عنهم مقدر تقديره: أتقولون للحق لما جاءكم سحر؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو نحو هذا من التقدير، ثم ابتدأ يوقفهم بقوله: «أَسْحَرُ هَذَا»؟ على جهة التوبيخ، ثم أخبرهم عن الله تعالى أن الساحرين لا يفلحون ولا يظفرون ببغية، ومثل هذا التقدير المحذوف على هذا التأويل موجود في كلام العرب، ومنه قول ذي الرمة:

فَلَمَّا لَيْسَ اللَّيْلُ أَوْ حِينَ نَصَبَتْ

لَهُ مِنْ خَذَا أَذَانَهَا وَهُوَ جَانِحٌ
يريد: أو حين قاربين ذلك، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعَدُ الْآخِرَةَ لِيُسْتَفْزَأَ وَجُوهَكُمْ﴾، المعنى: بعثناهم ليسؤوا، ومثل هذا كثير شائع.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْآيَةِ.

وهي بمعنى الذي وصلتها قوله: ﴿جَنَّتْ بِدٍ﴾، والعائد: الضمير في هذه القراءة والتأويل أن في مصحف ابن مسعود: ﴿ما جنتم به سحر﴾، وكذلك قرأها الأعمش، وهي قراءة أبي بن كعب: ﴿ما أتيتم به سحر﴾، والتعريف هنا في ﴿السِّحْرِ﴾ أرتب لأنه تقدم متكرراً في قولهم: «إن هذا لسِحر» فجاء هنا بلام العهد. كما يقال في أول الرسالة: «سلام عليك»، وفي آخرها: «والسلام عليك»، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، و﴿جَنَّتْ بِدٍ﴾ الخبر، و﴿السِّحْرِ﴾ خبر ابتداء مضمّر تقديره: «هو السحر إن الله سيبطله»، ووجه استفهامه هذا هو التقرير والتوبيخ. ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ في موضع نصب على معنى: «أني شيء جنتم به»، و﴿السِّحْرِ﴾ مرفوع على خبر الابتداء، وتقدير الكلام: «أني شيء جنتم به هو السحر إن الله سيبطله». وأما من قرأ بألف الاستفهام والمد قبل ﴿السِّحْرِ﴾ ف﴿ما﴾ استفهام رفع بالابتداء، و﴿جَنَّتْ بِدٍ﴾ الخبر، وهذا على جهة التقرير، وقوله: ﴿السِّحْرِ﴾ استفهام أيضاً كذلك، وهو بدل من الاستفهام الأول، ويجوز أن تكون ﴿ما﴾ في موضع نصب بمضمّر تفسيره في قوله: ﴿جَنَّتْ بِدٍ﴾، وتقديره: «أني شيء جنتم به السحر»، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ﴾ إيجاب عن عِدَّةٍ من الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَيَّ﴾

المتأولين، لأنه أعظم تكبير الدنيا، ومنه قول الشاعر: سُوْدُداً غَيْرَ فَاحِشٍ لَا يُدَا نِيهِ تَجْبَارُهُ وَلَا كِبْرِيَاءُ وقوله: ﴿بِثُؤَيْنٍ﴾ أي: بمصدقين.

٧٧ - ٨١ تفسير قوله عز وجل:

يخبر أن فرعون قال لخدمته ومتصرفه: اتوني بكل ساحر، هذه قراءة جمهور الناس، وقرأ طلحة بن مصرف، ويحيى بن وثاب، وعيسى: ﴿بِكُلِّ سَحَّارٍ﴾ على المبالغة، قال أبو حاتم: لسنا نقرأ:

﴿سَحَّارٍ﴾ إلا في سورة الشعراء، فروي أنهم أتوه بسحرة الفرما وغيرها من بلاد مصر حسبما قد ذكر قبل في غير هذه الآية، فلما ورد السحرة باستعدادهم للمعارضة خيروا موسى كما ذكر في غير هذه الآية، فقال لهم عن أمر الله ﴿الْقَوْمَا مَا أَنْتُمْ ثَلَاثُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَلْقَا الْقَوْمَا﴾ الآية. المعنى: فلما ألقوا حبالهم وعصيهم وختلوا بها وظنوا أنهم قد ظهروا قال لهم موسى هذه المقالة. وقرأ السبعة سوى أبي عمرو. ﴿بِدٍ السِّحْرِ﴾ وهي قراءة جمهور الناس، وقرأ أبو عمرو، ومجاهد، وأصحابه، وابن القعقاع: ﴿به السحر﴾ بألف استفهام قبله ممدودة قبل (السحر)، فأما من قرأ: ﴿السِّحْرِ﴾ بغير ألف استفهام ف﴿ها﴾ في موضع رفع على الابتداء،

وَقَالَ فِرْعَوْنُ أَتُونِي بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٨٠﴾ فَلَمَّا أَلْقَا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيَبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلُّ عَمَلِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحْيِي اللَّهُ الْحَيَّ بِحُكْمِهِ وَيُؤَكِّرُهُ الْمَجْمُورِينَ ﴿٨٢﴾ فَمَاءٌ آمِنٌ لِمُوسَى إِذْ ذُرِيَّتُهُ مِن قَوْمِهِ وَعَلَى خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ لِمَنْ لَّمْ يَأْتِ السِّحْرَ مِنْ قَوْمٍ لَّمْ يَكْتُمْ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ فَعَلَيْهِمْ تَوَكُّلٌ إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَقَالُوا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٤﴾ وَبِحَسْبِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا الْقَوْمَ كَمَا يُبَوَّءُونَ النَّاسَ أَن يَتَّبِعُواكَ بِبَصُرَتَيْنَا وَأَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَابْتِئِنَّا بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَئَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٨٧﴾

٢١٨

المعنى: قال قوم فرعون لموسى: أجتتنا لتصرفنا وتلويثنا وتردنا عن دين آبائنا؟ يقال: «لفت الرجل عن الآخر» إذا لواه، ومنه قولهم: التفت، فإنه افتعل من لفت عنقه، ومنه قول رؤبة:

لَفْتًا وَتَهْزِيعًا سِوَا اللَّفْتِ

وقرأ السبعة سوى أبي عمرو - فإنه اختلف عنه - ﴿وَتَكُونُ﴾ بالتاء من فوق، وهي قراءة جمهور الناس، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - فيما زعم خارجه وإسماعيل - ﴿وَيَكُونُ﴾ بالياء من تحت، ورويت عن أبي عمرو، وعن عاصم، وهي قراءة ابن مسعود. و﴿الْكِبْرِيَاءُ﴾ مصدر مبالغ من الكبر، والمراد به - في هذا الموضع - الملك، وكذلك قال فيه مجاهد، والضحاك، وأكثر

السلام ورذة عليهم وتوبيخهم على قولهم: «هذا سحر»، فذكر الله ذلك عنهم ثم قال: فما آمن لموسى إلا ذرية من قوم فرعون الذين هذه أقوالهم، وروي في ذلك أنه آمنت زوجة فرعون وخازنه وامرأة خازنه وشباب من قومه - قاله ابن عباس رضي الله عنهما - والسحرة أيضاً فإنهم معدودون في قوم فرعون، وتكون القصة - على هذا التأويل - بعد ظهور الآية والتعجيز بالمعصا، وتكون الفاء مرتبة للمعاني التي عطف.

ولا اعتقاد الفراء وغيره عود الضمير على موسى عليه السلام تخطوا في عود الضمير في ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ فقال بعضهم: ذُكر فرعون - وهو الملك - يتضمن الجماعة والجنود، كما تقول: «جاء الخليفة، وسافر الملك» وأنت تريد جيوشه معه، وقال الفراء: المعنى: «على خوف من آل فرعون وملئهم»، وهو من باب: ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التنظير غير جيد لأن إسقاط المضاف في قوله: ﴿وَسَلَّ الْقَرْيَةَ﴾ هو سائق بسبب ما يعقل من أن القرية لا تسأل، ففي الظاهر دليل على ما أضمر، وأما ها هنا فالخوف من فرعون متمكن لا يحتاج معه إلى إضمار، أما إنه ربما احتج بأن الضمير المجموع في ﴿وَمَلَأْنَاهُمْ﴾ يقتضي ذلك، والخوف إنما يكون من الأفعال والأحداث التي للجنة، ولكن لكثرة استعماله ولقصد الإيجاز أضيف إلى الأشخاص.

وإذا آمن قوم بعد موت آبائهم فلا معنى لتخصيصهم باسم الذرية، وأيضاً فما روي من أخبار بني إسرائيل لا يعطي هذا، وهيته قوله: ﴿هَكَأَنَّى﴾ تعطي تقليل المؤمنين به، لأنه نفى الإيمان ثم أوجبه للبعض، ولو كان الأكثر مؤمناً لأوجب الإيمان أولاً ثم نفاه عن الأقل، وعلى هذا الوجه يتخرج قول ابن عباس رضي الله عنهما في الذرية: «إنه القليل»، لا أنه أراد أن لفظة الذرية هي بمعنى القليل كما ظن مكِّي وغيره. وقالت فرقة: إنما سناهم ذرية لأن أمهاتهم كانت من بني إسرائيل وآباءهم من القبط، فكان يقال لهم: الذرية كما قيل لِفُزْسَ اليمن: الأبناء، وهم الفُزْسَ المنتقلون من هرز بسماية سيف بن ذي يزن، والأمر بكماله في السير. وقال السُّدي: كانوا سبعين أهل بيت من قوم فرعون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومما يضعف عود الضمير على موسى عليه السلام أن المعروف من أخبار بني إسرائيل أنهم كانوا قوماً قد تقدمت فيهم النبوات، وكانوا في مدة فرعون قد نالهم ذل مفروط وقد رجوا كشفه على يدي مولود يخرج فيهم يكون نبياً، فلما جاءهم موسى عليه السلام أصفقوا عليه واتبعوه، ولم يحفظ قط أن طائفة من بني إسرائيل كفرت به، فكيف تعطي هذه الآية أن الأقل منهم كان الذي آمن؟ فالذي يترجح - بحسب هذا - أن الضمير عائد على فرعون، ويؤيد ذلك أيضاً ما تقدم من محاوراة موسى عليه

الآية. يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام، ويحتمل أن يكون من إخبار الله عز وجل، وكون ذلك كله من كلام موسى عليه السلام أقرب، وهو الذي ذكره الطبري، وأما قوله: ﴿يَكْفُرُ بِهِ﴾ فمعناه: بكلماته السابقة الأزلية في الوعد بذلك، قال ابن سلام: ﴿يَكْفُرُ بِهِ﴾ بقوله: ﴿لَا تَخَفْ﴾، ومعنى ﴿وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ﴾: وإن كرهه المجرمون. والمجرم: المجترم الراكب للخطر.

٨٣ - ٨٦ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فما صدق موسى، ولفظة ﴿مَلَأْنَاهُمْ﴾ تتعدى بالباء، وتتعدى باللام وفي ضمن المعنى الباء، واختلف المتأولون في عود الضمير الذي في ﴿فَرِيضَةً﴾ فقالت فرقة: هو عائد على موسى عليه السلام، وقالت فرقة: هو عائد على فرعون، فمن قال إن العود على موسى عليه السلام قال: معنى الآية وصف حال موسى عليه السلام في أول مبعثه أنه لم يؤمن به إلا فتیان وشباب أكثرهم أولوا آباء كانوا تحت خوف من فرعون ومن ملأ بني إسرائيل، فالضمير في «الملا» عائد على الذرية، وتكون الفاء - على هذا التأويل - عاطفة جملة على جملة لا مرتبة. وقال بعض القائلين بعود الضمير على موسى عليه السلام: إن معنى الآية أن قوماً أدرَكهم موسى عليه السلام ولم يؤمنوا به، وإنما آمن ذرياتهم بعد هلاكهم لبطول الزمان، قاله مجاهد، والأعمش، وهذا قول غير واضح،

تُسَلِّينَ ﴿٨٧﴾ يريد: أهل طاعة منضافة إلى الإيمان المشروط، فذُكِرَ الإسلام فيه زيادة معنى. ثم ذُكِرَ أنه أجاب بنو إسرائيل بنيتة التوكل على الله والنطق بذلك، ثم دعوا في ألا يجعلهم فتنة للظلمة، والمعنى: لا تنزل بنا بلاء بأيديهم أو بغير ذلك مدة مجاورتنا لهم فيفتنون ويعتقدون أن إهلاكنا إنما هو بقصد منك لسوء ديننا وصلاح دينهم، وأنهم أهل الحق. قاله مجاهد وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا الدعاء - على هذا التأويل - يتضمن دفع فصلين، أحدهما: القتل والبلاء الذي توقعه المؤمنون، والآخر: ظهور الشرك باعتقاد أهله أنهم أهل الحق، وفي ذلك فساد الأرض، ونحو هذا المعنى قول النبي ﷺ: «بئس الميت أبو أمانة ليهود والمشركين، يقولون: لو كان نبياً لم يميت صاحبه»، ويحتمل اللفظ من التأويل، وقد قالته فرقة: إن المعنى: لا تفتنهم وتبطلهم بقتلنا فتعذبهم على ذلك في الآخرة، وفي هذا التأويل قلق بين.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل: روي أن فرعون أخاف بني إسرائيل وهدم لهم مواضع كانوا اتخذوها للصلاة ونحو هذا، فأوحى الله إلى موسى وهارون أن اتخذوا وتخيرا لبني إسرائيل بيوتاً بمصر، قال مجاهد: مصر في هذه الآية: الإسكندرية، ومصر ما بين البحر إلى أسوان، والإسكندرية من أرض مصر، و﴿بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ معناها كما قلنا: تخيراً واتخذوا، وهي لفظة مستعملة في

وتوكل، فقد جعله متوكلاً مع التقييد، والنسبي ﷺ رأس المتوكلين، وقد تسبب عمره كله، وكذلك السلف كله، فإن شدة متوكل فترك التسبب جملة فهي رتبة رفيعة ما لم يُسرف بها إلى حد قتل نفسه وإهلاكها، كمن يدخل غاراً خفياً يتوكل فيه فهذا أو نحوه مكروه عند جماعة من العلماء، وما روي من إقدام عامر بن قيس على الأسد ونحو ذلك كله ضعيف، وللصحيح منه قرائن

تسهله، وللمسلمين أجمعين قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾، ولهم قال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾، وقول النبي ﷺ في مدح السبعين ألفاً من أمته: ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ ليس فيه أنهم يتركون التسبب جملة واحدة، ولا حفظ عن عكاشة أنه ترك التسبب، بل كان يغزو ويأخذ سهامه. وأعني بذلك ترك التسبب في الغذاء، وأما ترك التسبب في الطب فسهل وكثير من الناس جُبِلَ عليه دون نيّة وحسبة، فكيف بمن يحتسب؟ وقال لهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنْتُمْ﴾ مع علمه بإيمانهم على جهة إقامة الحجّة وتنبية الأنفس وإثارة الأنفة، كما تقول: «إن كنت رجلاً فقاتل» تخاطب بذلك رجلاً تريد إقامة نفسه. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ

قَالَ قَدْ أُجِبتَ دَعْوَتُكُمْ مَا فَاسْتَقِيمُوا وَلَا تَبِيعَانِ سَجِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٧﴾ وَجَوْرَ تَابِعِي إِسْرَءِيلَ بِالْبَحْرِ فَأَتَعَهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ بَعِيًّا وَعَدَا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْعَرْفُقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ يَهُودَ إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٨٨﴾ ءَأَلْتَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلَ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٩﴾ فَأَلْوَمُ نُنْتَجِكَ بِدَيْكَ لِكُتُوبِكَ لِمَنْ خَلَقَكَ ءَابَهُ وَإِنْ كَثُرَ مِنَ النَّاسِ عَن ءَابِنَا الْغَفِيلُونَ ﴿٩٠﴾ وَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ يَلِ مِوَاصِدِي وَرَزَقْنَهُمْ مِّنَ الطَّيْبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩١﴾ فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا زَلْنَا إِلَيْكَ فَسْئَلِ الَّذِينَ يُقْرَأُونَ الْكِتَآبَ مِن بَيْنِكَ لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿٩٢﴾ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا تِلْكَ الْكُتُوبُ فَتَكُونُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٩٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَاتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٤﴾ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى بَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٩٥﴾

وقوله: ﴿أَنْ يَفْتَنَهُمْ﴾ بدل من ﴿فِرْعَوْنَ﴾ وهو بدل الاشتمال، فـ ﴿أَنْ﴾ في موضع خفض، ويصح أن تكون في موضع نصب على المفعول من أجله، وقرأ الحسن، والجراح: ﴿أَنْ يَفْتَنَهُمْ﴾ بضم الياء. ثم أخبر عن فرعون بالعلو في الأرض والإسراف في الأفعال والقتل والدعاوي ليتين عذر الخائفين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾. ابتداء حكاية قول موسى عليه السلام لجماعة بني إسرائيل المؤمنين منهم مؤنساً لهم ونادياً إلى التوكل على الله الذي بيده النصر، ومسألة التوكل متشعبة للناس فيها خوصات، والذي أقول: إن التوكل الذي أمرنا به هو مقترن بتسبب جميل على مقتضى الشرع، وهو الذي في قوله ﷺ: ﴿قِيلَهَا

الأمكان وما يشبه بها، ومن ذلك قول الشاعر:

لَهَا أَمْرُهَا حَتَّى إِذَا مَا تَبَوَّأَتْ
لَأَحْفَافِهَا مَرْغَى تَبَوَّأَتْ مَضْجَعاً
وهذا البيت للراعي، وبه سُمي
الراعي، ومنه قول امرئ القيس:

تَبَوَّؤُونَ مَقَاعِدَا لِقِتَالِكُمْ
كَلِيوَتْ غَابَ لَيْلُهُنَّ زَيْرُ
وقرأ الناس: ﴿تَبَوَّأَتْ﴾ بهمزة على
تقدير (...). وقرأ حفص في
رواية هيبرة: ﴿تَبَوَّأَتْ﴾، وهذا تسهيل
ليس بقياسي، ولو جرى على القياس
لكان بين الهمزة والألف، وقوله:

﴿يَقِيلُ﴾ معناه: مساجد، قاله ابن
عباس، والربيع، والضحاك،
والنخعي، وغيرهم، قالوا: خافوا
فأمروا بالصلاة في بيوتهم، وقيل:
يقابل بعضها بعضاً، قاله سعيد بن
جبير، والأول أصوب. وقيل:
معناه: موجهة إلى القبلة، قاله ابن
عباس رضي الله عنهما، ومن هذا
حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «خير
بيوتكم ما استقبل به القبلة»، وقوله:
﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ خطاب لبني
إسرائيل، وهذا قبل نزول التوراة
لأنها لم تنزل إلا بعد إجازة البحر،
وقوله: ﴿وَنَسِيرَ الْتَّوْبِيِّينَ﴾ أمر
لموسى عليه السلام. وقال مكي،
والطبري: هو أمر لمحمد ﷺ،
وهذا غير متمكن.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾
الآية. غضب من موسى عليه السلام
على القبط ودعاء عليهم، فقدم
للدعاء تقرير نعم الله عليهم وكفرهم
بها. و﴿أَنْتَ﴾ معناه: أعطيت
وملكت، وتكرر قوله: ﴿رَبَّنَا﴾

استغاثة، كما يقول الداعي بالله.
وقوله: ﴿لِيُجِئُوا﴾ يحتمل أن يكون
لام كي على بابها، على معنى:
آتيهم الأموال إملاء لهم واستدراجاً،
فكان الإتياء كي يضلوا، ويحتمل أن
تكون لام الصيرورة والعاقبة، كما
قال: ﴿فَاللَّفْطَةُ مَالٌ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ
لَهُمْ عُدُوًّا رَحِيماً﴾، والمعنى: آتيهم
ذلك فصار أمرهم إلى كذا، وروي
عن الحسن أنه قال: هو دعاء،
ويحتمل أن يكون المعنى على جهة
الاستفهام، أي: ربنا ليضلوا فعملت
ذلك؟ وفي هذا تقرير الشعة عليهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
وابن عامر، والحسن، والأعرج،
وشيبة، وأبو جعفر، ومجاهد، وأبو
رجاء، وأهل مكة: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بفتح
الياء على معنى: لِيُضِلُّوا في
أنفسهم. وقرأ عاصم، وحمزة،
والكسائي، والأعمش، وقتادة،
وعيسى، الحسن، والأعرج -
بخلاف عنه -: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بضم
الياء، على معنى: لِيُضِلُّوا غيرهم،
وقرأ الشعبي: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بكسر
الياء.

وقرأ الشعبي أيضاً، وغيره:
﴿اطْمَسْ﴾ بضم الميم، وقرأت
فرقة: ﴿اطْمَسْ﴾ بكسر الميم، وهما
لغتان، يقال: طمس يطمس، وهما
ويطمس، قال أبو حاتم: وقراءة
الناس بكسر الميم، والضم لغة
مشهورة، ومعناه: عَفَّ وغيره، وهو
من طموس الأثر والعين وطمس
الوجوه، ومنه قول كعب بن زهير:
مِنْ كُلِّ نَضَاحَةِ الذُّفْرِيِّ إِذَا عَرِقَتْ
عُرْضَتَهَا طَامِسُ الْأَعْلَامِ مَجْهُولٌ

وروي أنهم حين دعا موسى عليه
السلام بهذه الدعوة رجع سكرهم
حجارة، وزادهم ودنايهم وحبوبهم
من الأطعمة رجعت حجارة، قاله
محمد بن كعب القرظي، وقتادة،
وابن زيد. وقال مجاهد وغيره:
معناه: أهلكها ودمرها، وروي أن
الطمسة كانت من آيات موسى عليه
السلام التسع. وقوله: ﴿وَأَشَدُّ عَلَى
قُلُوبِهِمْ﴾ بمعنى: اطبع واختم عليهم
بالكفر، قاله مجاهد والضحاك، ولما
أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه
على رسول الله ﷺ بقتل أسرى بدر
شبهه بموسى عليه السلام في دعائه
على قومه الذين بعث إليهم في هذه
الآية، وبنوح عليه السلام في قوله:
﴿لَا تَدْرُ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكٰفِرِينَ دَيًّا﴾.
وقوله: ﴿فَلَا يُؤْمِنُ﴾ مذهب الأخفش
وغيره أن الفعل منصوب عطفاً على
قوله: ﴿لِيُضِلُّوا﴾، وقيل: هو
منصب على جواب الأمر، وقال
الفراء والكسائي: هو مجزوم على
الدعاء، ومنه قول الشاعر:

فَلَا يَنْبَسِطُ مِنْ بَيْنِ عَيْنَيْكَ مَا أَنْزَوِي
وَلَا تَلْقَنِي إِلَّا وَأَنْفُكَ رَاغِمٌ
وجعل رؤية العذاب نهاية وغاية،
وذلك ليعلمه من قبل الله تعالى أن
المؤمن عند رؤية العذاب لا ينفعه
إيمانه في ذلك الوقت ولا يخرججه
من كفره، ثم أجاب الله هذه الدعوة
في فرعون نفسه، قال ابن عباس:
العذاب هنا: الفرق، وقرأ الناس:
﴿دَعَوْتُكُمْ﴾، وقرأ السُّدي،
والضحاك: ﴿دَعَوْتُكُمْ﴾، وروي
عن ابن جريح، ومحمد بن علي،
والضحاك أن الدعوة لم تظهر إجابتها

إلا بعد أربعين سنة، وحينئذ كان أمر الغرق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأعلمنا أن دعاءهما صادف مقدوراً، وهذا معنى إجابة الدعاء. وقيل لهما: ﴿وَلَا تَتَّبِعَانَّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، أي في أن تستعجلا قضائي فإن وعدي لا خلف له. وقوله: ﴿ذَعَبْنَاكَ﴾ ولم يتقدم الدعاء إلا لموسى عليه السلام، وروي أن هارون كان يؤمن على دعاء موسى عليه السلام، قاله محمد بن كعب القرظي، فلذلك نسب الدعوة إليهما، وقيل: كنى عن الواحد بلفظ الثنية، كما قال:

قَفَانُ بَيْكِ

ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأن الآية تتضمن بعد مخاطبتهما من غير شيء، قال علي بن سليمان: قول موسى عليه السلام: ﴿رَبَّنَا﴾ دال على أنهما دعوا معاً، وقوله: ﴿فَأَسْتَجِبْنَا﴾ أي على ما أمزمتما به من الدعاء إلى الله. وأمرا بالاستقامة وهما عليها للإدامة والتماذي.

وقرأ نافع والناس: ﴿تَتَّبِعَانَّ﴾ بتشديد التاء والنون على النهي، وقرأ ابن عامر، وابن ذكوان: ﴿تَتَّبِعَانَّ﴾ بتخفيف التاء وشد النون، وقرأ ابن ذكوان أيضاً: ﴿تَتَّبِعَانَّ﴾ بتشديد التاء وتخفيف النون وكسرهما، وقرأت طائفة: ﴿تَتَّبِعَانَّ﴾ بتخفيفها وسكون النون، رواه الأخفش الدمشقي عن أصحابه عن

ابن عامر. فأما شد النون فهي النون الثقيلة حذفت معها نون التشنية للجزم. كما تحذف معها الضمة في «لتفعلن» حيث بُني الفعل معها على الفتح، وإنما كسرت هذه النون الثقيلة بعد ألف الثنية. وأما تخفيفها فيصح أن تكون الثقيلة خففت، ويصح أن تكون نون التشنية ويكون الكلام خيراً معناه الأمر، أي: لا ينبغي أن تتبعا، قال أبو علي: إن شئت جعلته حالاً من ﴿فَأَسْتَجِبْنَا﴾ كأنه قال: غير متبعين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعطف يمانع في هذا فتأمله.

﴿٩٠﴾ - ﴿٩١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿وَجَوْرَانَا﴾ بشد الواو وطرح الألف، ويشبه عندي أن يكون ﴿وَجَوْرَانَا﴾ كتب في بعض المصاحف بغير ألف. وتقدم القول في صورة جوازهم البحر في البقرة والأعراف سورة. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَاتَّبَعْتَهُمْ﴾ لأنه يقال: تَبِعَ وَاتَّبَعَ بمعنى واحد، وقرأ قتادة، والحسن: ﴿فَاتَّبَعْتَهُمْ﴾ بشد التاء، قال أبو حاتم: القراءة «اتَّبَعَ» بقطع الألف لأنها تتضمن الإدراك، «واتَّبَعَ» بشد التاء هي طلب الأثر سواء أدرك أو لم يدرك.

وروي أن بني إسرائيل الذين جاوزوا البحر كانوا ستمائة ألف، وكان يعقوب قد استقر أولاً بمصر في نيف على السبعين ألفاً من ذريته فتناسلوا حتى بلغوا وقت موسى العدد المذكور، وروي أن فرعون كان في ثمانمائة ألف أدهم حاشا ما

بقي من ألوان الخيل، وروي أقل من هذه الأعداد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، والذي تقتضيه ألفاظ القرآن أن بني إسرائيل كان لهم جمع كثير في نفسه قليل بالإضافة إلى قوم فرعون المتبعين.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والكوفيون، وجماعة: ﴿وَعَدُوا﴾ على مثال: غزا غزواً، وقرأ الحسن: وقاتدة: ﴿وَعَدُوا﴾ على مثال: علا علواً. وقوله: ﴿أَدْرَكُهُ الْفَرْقُ﴾ أي في البحر، وروي في ذلك أن فرعون لما انتهى إلى البحر فوجده قد انفرق ومشى فيه بنو إسرائيل قال لقومه: إنما انفلق بأمرى، وكان على فرس ذكر، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام على فرس أنثى وديق فدخل بها البحر، فولج فرس فرعون وراءه وحشت الجيوش خلفه، فلما رأى الانفراق يثبت له استمر، وبعث الله تعالى ميكائيل يسوق الناس حتى حصل جميعهم في البحر، فانطبق عليهم حينئذ، فلما عاين فرعون قال ما حكى عنه في هذه الآية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنْدُ﴾ بفتح الألف، ويحتمل أن تكون في موضع نصب، ويحتمل أن تكون في موضع خفض على إسقاط الباء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو عمرو: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسر الألف، إما على إضمار الفعل، أي: «أمنت فقلت: إنه»، وإما على أن يتم الكلام في قوله: ﴿ءَأَمَنْتُ﴾ ثم يتبدى إيجاب: ﴿إِنَّهُ﴾، وروي عن النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل عليه

السلام قال: «ما أبغضتُ أحداً قط بغضي لفرعون، ولقد سمعته يقول: ﴿ءَأَمَّنتُ﴾ الآية، فأخذت من حال البحر فملاأتُ فمه مخافة أن تلحقه رحمة الله»، وفي بعض الطرُق «مخافة أن يقول لا إله إلا الله فتلحقه رحمة الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فانظر إلى كلام فرعون ففيه مجهلة وتلعثم، ولا عذر لأحد في جهل هذا، وإنما العذر فيما لا سبيل إلى علمه، كقول علي رضي الله عنه: «أهللت بإهلال كإهلال النبي ﷺ والحال الطين»، كذا في الغريب المصنف وغيره، والأثر بهذا كثير مختلف اللفظ والمعنى واحد. وفعل جبريل عليه السلام هذا يشبه أن يكون لأنه اعتقد تجويزه المغفرة للثائب وإن عاين، ولم يكن عنده قبل إعلام من الله تبارك وتعالى أن التوبة بعد المعايعة غير نافعة.

وقوله تعالى: ﴿ءَأَلَّنتِ وَوَدَّ عَصَيْتِ﴾ الآية، قال أبو علي: اعلم أن لام المعرفة إذا دخلت على كلمة أولها الهمزة فخففت الهمزة فإن في تخفيفها وجهين، أحدهما: أن تحذف وتُلْفَى حركتها على اللام وتقر همزة الوصل فيه فيقال: «ألخمر»، وقد حكى ذلك سيبويه، وحكى أبو عثمان عن أبي الحسن أن ناساً يقولون: «ألخمر»، فيحذفون الهمزة التي للوصل، فمن ذلك قول الشاعر:

وَقَدْ كُنْتُ تُخْفِي حُبَّ سَمْرَاءَ حَبِيَّةَ
فَبُحَّ لَأَنَّ مِثْهَا بِالَّذِي أَنْتَ بَائِحٌ
قرأ نافع في رواية ورش لم يختلف

عنه: ﴿الآن﴾ بمد الهمزة وفتح اللام، وقرأ الباقون بمد الهمزة وسكون اللام وهمز الثانية، وقرأت فرقة: ﴿الآن﴾ بقصر الهمزة وفتح اللام وتخفيف الثانية. وقرأ جمهور الناس: ﴿الآن﴾ بقصر الأولى وسكون اللام وهمز الثانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقرئات التخفيف في الهمزة تترتب على ما قال أبو علي، فتأمل، فإن الأولى على لغة من يقول: «ألخمر»، وهذا على جهة التوبيخ له والإعلان بالنقمة منه، وهذا اللفظ يحتمل أن يكون مسموعاً لفرعون من قول ملك موصول عن الله وكيف شاء الله، ويحتمل أن يكون معنى هذا الكلام معنى حاله وصورة خزيه، وهذه الآية نص في رد توبة المعانين.

وقوله تعالى: ﴿نَالِيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾ الآية. يُقَرَى ما ذكرناه من أنها صورة الحال، لأن هذه الألفاظ إنما يظهر أنها قيلت بعد غرقه. وسبب هذه المقالة - على ما زوي - أن بني إسرائيل بعدد عندهم غرق فرعون وهلاكه ليعظيهم عندهم، وكذب بعضهم أن يكون فرعون يموت، فنجي على نجوة من الأرض حتى رآه جميعهم ميتاً كأنه ثور أحمر، وتحققوا غرقه، وقرأت فرقة: ﴿نَالِيَوْمَ نُنَجِّيكَ﴾، وقالت فرقة: معناه: من النجاة، أي من غمرات البحر والماء، وقال جماعة: معناه: نلقيك على نجوة من الأرض وهي ما ارتفع منها، ومنه قول أوس بن حجر:

فَمَنْ بِعَفْوَتِهِ كَمَنْ بِسُجُوتِهِ

والمُسْتَكْبِرُ كَمَنْ يَمُشِي بِقِرْوَانٍ
وقرأ يعقوب: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأ أبي ابن كعب: ﴿نُنَجِّيكَ﴾ بالحاء المشددة من التنحية، وهي قراءة محمد بن السميع اليماني، ويزيد البريدي، وقالت فرقة: معنى ﴿يُنَجِّيكَ﴾: بدرعك، وقالت فرقة: معناه: بشخصك، وقرأت فرقة: ﴿بندائك﴾ أي: بقولك: ﴿ءَأَمَّنتُ﴾ إلى آخر الآية، ويشبه أن يكتب ﴿بندائك﴾ بغير ألف في بعض المصاحف، ومعنى الآية: إنا نجعلك آية مع ندائك الذي لا ينفع. وقرأت فرقة: ﴿خَلَّفَكَ﴾ أي: من أتى بعدك، وقرأت فرقة: ﴿خَلَّفَكَ﴾ والمعنى: يجعلك الله آية له في عباده.

ثم بين عز وجل العظة لعباده بقوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ عَنِ عَذَابِنَا لَذَلُولُونَ﴾، وهذا خبر في ضمنه توعد.

٩٣ - ٩٤ تفسير قوله عز وجل: المعنى: لقد اخترنا لبني إسرائيل أحسن اختيار، وأحللناهم من الأماكن أحسن محل، و﴿سَبَّأً صَدَقِي﴾ أي: يصدق فيه ظن قاصده وسأكيه وأهله، ويعني بهذه الآية إحلالهم بلاد الشام وبيت المقدس. قاله قتادة، وابن زيد، وقيل: بلاد مصر والشام، قاله الضحاك، والأول أصح بحسب ما حفظ من أنهم لن يعودوا إلى مصر، على أن في القرآن: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، يعني ما ترك القبط من جنات وعيون وغير ذلك، وقد يحتمل أن يكون ﴿وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ معناه:

وقرأ: ﴿فَسَلِّ﴾ دون همز الحسن، وأبو جعفر، وأهل المدينة، وأبو عمرو، وعيسى، وعاصم. وقرأ جمهور عظيم بالهمز. ثم جزم الله تبارك وتعالى الخبر بقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾. واللام في ﴿لَقَدْ﴾ لام قَسَم، و﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ معناه: الشاكين الذين يحتاجون في اعتقادهم إلى الممارسة فيها، وقوله: ﴿يَمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾ يريد به: من أن بني إسرائيل لم يختلفوا في أمره إلا من بعد مجيئه، وهذا قول أهل التأويل قاطبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الذي يشبه أن ترتجى إزالة الشك فيه من قبل أهل الكتاب. ويحتمل اللفظ أن يريد: بما أنزلنا جميع الشرع، ولكنه بعيد بالمعنى لأن ذلك لا يعرف ويؤول الشك فيه إلا بأدلة العقل لا بالسمع من مؤمني بني إسرائيل. وقوله: ﴿وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ الآية، مما خوطب به النبي ﷺ والمراد سواه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولهذا فائدة ليست في مخاطبة الناس به، وذلك شدة التخويف، لأنه إذا كان رسول الله ﷺ يحذر من مثل هذا فغيره من الناس أولى يحذر ويتقي على نفسه.

﴿٩٧﴾ - ﴿٩٨﴾ تفسير قوله عز وجل: جاء هذا تحذيراً مرّداً وإعلاماً بسوء حال المحتوم عليهم، والمعنى: إن الله أوجب لهم سخطه في الأزل وخلقهم لعذابه، فلا يؤمنون ولو جاءهم كل بيان وكل وضوح إلا في الوقت الذي لا

يفصل بعقاب من يعاقب ورحمة من يرحم.

وقوله تعالى: ﴿إِن كُنْتَ فِي شكٍ﴾ الآية. قال بعض المتأولين - وروي ذلك عن الحسن - إن ﴿إِن﴾ نافية بمعنى (ما)، والجمهور على ﴿ان﴾ ﴿إِن﴾ شرطية. والصواب في معنى الآية أنها مخاطبة للنبي ﷺ، والمراد بها سواه من كل من يمكن أن يشك أو يعارض. وقال قوم: الكلام بمنزلة قولك: ﴿إِن كُنْتُ ابني فَبِرِّي﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا المثال بجيد، وإنما مثال هذه قوله تعالى لعيسى: ﴿أَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اغْبُدُونِ﴾، وروي أن رجلاً سأل ابن عباس رضي الله عنهما عما يحيك في الصدر من الشك فقال له: ما نجا من ذلك أحد ولا النبي ﷺ حتى أنزل عليه: ﴿إِن كُنْتَ فِي شكٍ يَمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر الزهراوي أن هذه المقالة أنكرت أن يقولها ابن عباس، وبذلك أقول، لأن الخواطر لا ينجو منها أحد، وهي خلاف الشك الذي يحال فيه على الاستشفاء بالسؤال. و﴿الَّذِينَ يَقْرءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ هم من أسلم من بني إسرائيل كعبدالله بن سلام، وروي أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «أنا لا أشك ولا أسأل».

فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً ؕ أَمِنَتْ فَفَعَعَهَا إِعْتَمًا إِلَّا قَوْمٌ يَبُوءُونَ لِمَا ؕ ءَامَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ فِي الْأَرْضِ كَافَّةً هُم جَمِيعًا ؕ أَفَأَنْتَ تَكْفُرُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَعْمَلُ الرَّحْمَنُ عَلَىٰ الذَّرَبِ لَا يُعْقِلُونَ ﴿٩٨﴾ قُلْ أَنْظِرُوا مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُعْنَى الْأَيْدِ وَالنَّجْدُ رَعْنٌ قَوْمٌ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا مِثْلَ آيَاتِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ ؕ قُلْ فَانظُرُوا إِلَىٰ مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَنظِرِينَ ﴿١٠٠﴾ تَرْتَضِي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا سُبْحَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠١﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي شكٍ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي تَوَقَّعْتُمْ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ وَأَنْ أَقْبِ وَجْهَكَ لِلَّذِينَ حَبِطَ وَأَلَا تَكُونُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٣﴾ وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٤﴾

الحالة من التهمة وإن لم يكن في قطر واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْيَأْسُ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: فما اختلفوا في نبوة محمد ﷺ حتى جاءهم وبان علمه وأمره، فاختلَفوا حيثن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص هو الذي وقع في كتب المتأولين، وهذا تأويل يحتاج إلى سند. والتأويل الآخر الذي يحتمله اللفظ: أن بني إسرائيل لم يكن لهم اختلاف على موسى عليه السلام في أول حاله، فلما جاءهم العلم والأوامر وغرق فرعون اختلفوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمعنى الآية مذمة ذلك الصدر من بني إسرائيل. ثم أوجب الله عز وجل بعد ذلك أنه يقضي بينهم

يونس عليه السلام أن العذاب لم ينزل قال: كيف أتصرف وقد وجدوني في كذب؟ فذهب مغاضباً كما ذكر الله تعالى في الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهب الطبري إلى أن قوم يونس عليه السلام خُصُوا من بين الأمم بأن تيب عليهم من بعد معاناة العذاب، ذكر ذلك عن جماعة من المفسرين، وليس كذلك، والمعاناة التي لا تنفع التوبة معها هي تلبس العذاب أو الموت بشخص الإنسان كقصة فرعون. وأما قوم يونس عليه السلام فلم يصلوا هذا الحد.

وقرأ الحسن، وطلحة بن مصرف، وعيسى بن عمر، وابن وثاب، والأعمش: ﴿يُونُسَ﴾ بكسر النون، وفيه للعرب ثلاث لغات: ضم النون وفتحها وكسرها، وكذلك في (يوسف). وقوله: ﴿إِلَّا يَبِينُ﴾ يريد: إلى آجالهم المفروضة في الأزل.

وروي أن قوم يونس عليه السلام كانوا بِنِينْيَوى من أرض الموصل، ويقضي ذلك قول النبي ﷺ لِعَدَّاس حين قال له إنه من أهل نينوى: «من قرية الرجل الصالح يونس بن مئى؟» الحديث الذي في السيرة لابن إسحق.

المعنى: إن هذا الذي تقدم إنما كان جميعه بقضاء الله عليهم ومشيئته فيهم، ولو شاء الله لكان الجميع مؤمناً، فلا تأسف أنت يا محمد على كفر من لم يؤمن بك، وادع ولا عليك، فالأمر محتوم، أفتريد أنت أن تُكْرِهَ الناس بإدخال الإيمان في

يلتبس العذاب بهم فيكون الإيمان نافعا لهم في هذه الحالة، ثم استثنى قوم يونس عليه السلام، فهو بحسب اللفظ استثناء منقطع، وكذلك رسمه النحويون أجمع، وهو بحسب المعنى متصل لأن تقديره: ما آمن من أهل قرية إلا قوم يونس عليه السلام، والنصب في قوله: ﴿إِلَّا قَوْمٌ﴾ هو الوجوه، ولذلك أدخله سيويه في باب «ما لا يكون فيه إلا النصب»، وكذلك مع انقطاع الاستثناء، وتشبه الآية قول النابتة:

إِلَّا الْأَزَارِيَّ

وذلك هو حكم لفظ الآية. وقالت فرقة: يجوز فيه الرفع وهذا مع اتصال الاستثناء، وقال المهدي: والرفع على البدل من ﴿قَرِيْبَةً﴾.

وروي في قصة يونس عليه السلام أن القوم لما كفروا أوحى الله إليه أن أنذرهم بالعذاب لثلاثة، ففعل فقالوا: هو رجل لا يكذب فارقبوه، فإن أقام بين أظهركم فلا عليكم، وإن ارتحل فهو نزول العذاب لا شك، فلما كان الليل تزود يونس عليه السلام وخرج عنهم، فأصبحوا فلم يجدوه، فتابوا ودعوا الله وأمنوا ولبسوا المُسُوْحَ وفرقوا بين الأمتها والأولاد من الناس والبهائم، والعذاب منهم - فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - على ثلثي ميل. ورُوي: عَلَى ميل، وقال ابن جبير: غشيه العذاب كما يغشى الثوب القبر، فرفع الله عنهم العذاب، فلما مضت الثلاثة وعلم

ينفعهم فيه إيمان، كما صنع فرعون وأشباهه من الخلق، وذلك وقت المعاناة، وفي ضمن الألفاظ التحذير من هذه الحال، وبعث الكل على المبادرة إلى الإيمان، والفرار من سخط الله.

وقرأ أبو عمرو، وعاصم، والحسن، وأبو رجاء: ﴿كَلِمَاتٍ﴾ بالإنفراد. وقرأ نافع، وأهل المدينة: ﴿كَلِمَاتٍ﴾ بالجمع. وقد تقدم ذكر هذه الترجمة.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرِيْبَةً مِّمَّنَّتَ﴾ الآية. في مصحف أبي، وابن مسعود: ﴿فَهَلَا﴾، والمعنى فيهما واحد. وأصل (لَوْلَا) في الكلام التحضيض أو الدلالة على منع أمر لوجود غيره، فأما هذه فبعيدة عن هذه الآية، لكنها من جملة التي هي للتحضيض، وحقيقة التحضيض بها أن يكون المحضض يريد من المخاطب فعل ذلك الشيء الذي يحضه عليه. وقد تجيء (لولا) وليس من قصد المخاطب أن يحض المخاطب على فعل ذلك الشيء فيكون حينئذ المعنى توبيخاً، كقول جرير:

... لَوْلَا السَّكْمِيُّ الْمَقْتَنَعَا
وذلك أنه لم يقصد حضهم على عقر الكمي، كقولك لرجل قد وقع في أمر صعب: «لولا تحررت»، وهذه الآية من هذا القبيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومفهوم من معنى الآية نفي إيمان أهل القرى، ومعنى الآية: فَهَلَا آمن أهل القرية وهم على مهل لم

قلوبهم وتضطربهم إلى ذلك والله عز وجل قد شاء غيره؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا التأويل الآية عليه محكمة، أي: ادع وقاتل من خالفك، وإيمان من آمن مصروف إلى المشيئة.

وقالت فرقة: المعنى: أفأنت تكفره الناس بالقتال حتى يدخلوا في الإيمان؟ وزعمت أن هذه الآية في صدر الإسلام وأنها منسوخة بآية السيف، والآية - على كلا التأويلين - رادة على المعتزلة.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ تأكيد وهو من فصيح الكلام، و﴿جَمِيعًا﴾ حال مؤكدة، ونحوه قوله سبحانه: ﴿لَا تَسْخَرُوا مِنَ اللَّهِ لِيُنزِلَ آيَاتٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية. رد إلى الله تعالى، وأن الحول والقوة في إيمان من يؤمن بالله، وكون الرجس على الكفار. وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ﴾ بنون العظمة، وقرأ الباقون، حفص عن عاصم: ﴿وَيَجْمَلُ﴾ بالياء، وقرأ الأعمش: ﴿وَيَجْمَلُ الله الرجس﴾، والرجس يكون بمعنى العذاب كالرجز، ويكون في معنى القدر والنجاسة كالركس، ذكره أبو علي هنا وغيره، وهو في هذه الآية بمعنى العذاب، و﴿لَا يَتَّقُونَ﴾ يريد: آيات الله وحجج الشرع، ومعنى الإذن في هذه الآية: الإرادة والتقدير لذلك، فهو العلم والتكين.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ هذه الآية أمر للكفار بالاعتبار والنظر في مصنوعات الدالة على الصانع وغير

ذلك من آيات السموات وأفلاكها وكواكبها وسحابها ونحو ذلك، والأرض ونباتها ومعادنها وغير ذلك، المعنى: انظروا في ذلك بالواجب يتبهنكم إلى المعرفة بالله والإيمان بوحدانيته. وقرأ أبو عبد الرحمن والعامّة بالبصرة: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا﴾ بكسر اللام، وقرأ نافع وأهل المدينة: ﴿قُلْ أَنْظَرُوا﴾ بضم اللام. ثم أعلم في آخر الآية أن النظر في الآيات والسماع من «النذر» وهم الأنبياء لا يُغني إلا بمشيئة الله، وأن ذلك غير نافع لقوم قد قضى الله أنهم لا يؤمنون، وهذا على أن تكون ﴿وَمَا﴾ نافية، ويجوز أن تُعَدَّ استفهاماً على جهة التقرير الذي ضمنه نفي وقوع الغناء، وفي الآية - على هذا - توبيخ لحاضري رسول الله ﷺ من المشركين، وقوله: ﴿الْأَيْدِ وَالْأَنْدُرُ﴾ حصر طريقي تعريف الله تعالى عباده. ويحتمل أن تكون ﴿وَمَا﴾ في قوله: ﴿وَمَا تَقِي﴾ مفعولة بقوله: ﴿أَنْظَرُوا﴾ معطوفة على قوله: ﴿مَاذَا﴾، أي: تأملوا قدر غناء الآيات والنذر عن الكفار إذ قبلوا ذلك كفعل قوم يونس عليه السلام فإنه يرفع العذاب في الدنيا والآخرة، ويُسْجِي من الهلكات. فالآية - على هذا - تحريض على الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتجوز اللفظ - على هذا التأويل - إنما هو في قوله: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

١٠٢ - ١٠٣ - تفسير قوله عز وجل: هذا وعيد وحض على الإيمان، أي: إذا لجوا في الكفر حل بهم

العذاب، وإذا آمنوا نجوا، هذه سنة الله في الأمم الخالية، فهل عند هؤلاء غير ذلك؟ وهو استفهام بمعنى التوقيف.

وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَنْظَرُوا﴾ مهادنة ما، وهي من جملة ما نسخه القتال.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ نُنجِي رُسُلَنَا﴾ الآية. لما كان العذاب لم تحصر مدته وكان النبي والمؤمنون بين أظهر الكفرة وقع التصريح بأن عادة الله عز وجل سلقت بإنجاء رسله ومُتبعيهم، فالتخويف - على هذا - أشد، وكلهم قرأ: ﴿نُجِّي﴾ مشددة الجيم إلا الكسائي وحفصاً عن عاصم فإنهما قرأ: ﴿نُجِّي﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأ عاصم في سورة الأنبياء في بعض ما روي عنه: ﴿نُجِّي﴾ بضم النون وحذف الثانية وشد الجيم، كأن النون أذغمت فيها، وهي قراءة لا وجه لها، ذكر ذلك الزجاج، وحكى أبو حاتم نحوها عن الأعمش، وخط المصحف في هذه اللفظة ﴿نُجِّي﴾ بجيم مطلقة دون ياء، وكذلك قرأ الكسائي في سورة مريم: ﴿ثُمَّ نُجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم، والباقون فتح النون وشد الجيم، والكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ يصح أن تكون في موضع رفع، ويصح أن تكون في موضع نصب نعتاً لمصدر محذوف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ الآية. مخاطبة عامة للناس أجمعين إلى يوم القيامة، يدخل تحتها كل من اتصف بالشك في دين الإسلام،

وهذه الآية يتسق معناها بمحذوفات يدل عليها هذا الظاهر الوجيز، والمعنى: إن كنتم في شك من ديني فأنتم لا تعبدون الله، كذلك فليس هو بأهل أن يشك فيه، وإنما يشك في دينكم ويؤرض، وأنا لا أعبد أحداً غيره، فاقتضت فصاحة الكلام وإيجازه اختصار هذا كله، ثم صرح بمعبوده وخص من أوصافه ﴿الَّذِي يَتَوَكَّلُكُمْ﴾ لما فيها من التذكير بالموت وفزع النفوس به، والمصير إلى الله بعده، والنقد للأصنام التي كانوا يعتقدونها ضارة ونافعة.

﴿١٠٥﴾ - ﴿١٠٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قيل لي: كن من المؤمنين وأقم وجهك للدين، ثم جاءت العبارة بهذا الترتيب، والوجه في هذه الآية بمعنى المنحى والمقصد، أي: اجعل طريقك واعتمادك للدين والشرع، و﴿حَيِّفًا﴾ معناه: مستقيماً على قول من قال: الحنف: الاستقامة، وجعل تسمية المعوج القدم أحنف على جهة التفاضل، ومن قال: «الحنف: الميل» جعل ﴿حَيِّفًا﴾ ما هنا: مائلاً عن حال الكفرة وطريقهم. و﴿حَيِّفًا﴾ نصب على الحال. وقوله: ﴿وَلَا تَدْعُ﴾ معناه: قيل لي، ولا تدع، فهو عطف على ﴿أَيُّرُ﴾، وهذا الأمر والمخاطبة للنبي ﷺ إذا كانت هكذا فأحرى أن يتحرز من ذلك غيره، و «ما لا ينفع ولا يضر» هو الأصنام والأوثان، والظالم: الذي يضع الشيء في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن يَسْتَسْكِ اللَّهُ يَضُرَّ﴾ الآية. مقصد هذه الآية أن

الحول والقوة لله. ويبين ذلك للناس بما يحسونه من أنفسهم. والضّر لفظ جامع لكل ما يكرهه الإنسان كان ذلك في ماله أو في بدنه، وهذه الآية مظهرة فساد حال الأصنام، لكن كل مُميّز أدنى ميز يعرف يقيناً أنها لا تكشف ضراً ولا تجلب نفعاً.

وقوله: ﴿وَإِن يَرِدْكَ بَحِيرٌ﴾ لفظ تام العموم، وخصص النبي ﷺ الفقه بالذكر في قوله: ﴿مَنْ يرد الله به خيراً يفقهه في الدين﴾، وهذا على جهة التشريف للفقه. وقوله

تعالى: ﴿رَهْوُ الْقَفُورِ الرَّجِيمِ﴾ ترجمة وبسط ووعده ما.

﴿١٠٨﴾ - ﴿١٠٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة لجميع الكفار مستمرة مدى الدهر، و﴿الْحَقُّ﴾ هو القرآن والشرع الذي جاء به محمد ﷺ، ﴿مَنْ أَهْتَدَى﴾ أي اتبع الحق وأدعّن له فإنما يسمى لنفسه لأنه يوجب لها رحمة الله ويدفع عذابه، ﴿وَمَنْ ضَلَّ﴾ أي حاذ عن طريق الحق ولم ينظر بعين الحقيقة، وكفر بالله عز وجل فيضد ذلك. وقوله: ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾ أي: لست بأخذكم ولا بُدّ بالإيمان، وإنما أنا مبلغ، وهذه الآية منسوخة بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ الآية. معناه: أتبع ما رسمه لك شرعك، وما أعلمك الله به من نُضرتك لك، واصبر على شقاء

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَإِن يَسْتَسْكِ اللَّهُ يَضُرَّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بَحِيرٌ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ مَن رَّبِّكُمْ فَمَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِمَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ ﴿١٠٩﴾ وَأَتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَأَصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿١١٠﴾

سُورَةُ الْيُونُسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكْعَةُ أَحْكَمَتْهُ إِنَّهُ نَمَّ فَصَلَّتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَيْرٍ ﴿١﴾ الْأَتْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكَرِيمٌ يَذُرُّ وَيَشِيرُ ﴿٢﴾ وَإِن أَسْتَفِرُّوا رِيكُومٌ تَوَلَّوْا إِلَيَّ وَيُنْفِقُكُمْ مِنِّي فَاحْسِنًا إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَتُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ لَا يَتَّقُونَ أَصْدُقُ وَأَهْدَىٰ أَسْفَرًا إِنَّهُ لَاجِنٌ مُّسْتَشْفِرٌ لِّشَاءِ بَشَرٍ يَتَّبِعُ مَا يُحْسِرُونَ ﴿٥﴾ وَمَا يُؤْمِرُونَكَ وَمَا يُعْلَمُونَ أَنَّهُ عَلَيْهِمْ لِيَذُنَّ السُّدُورُ ﴿٦﴾

٢٢١

الرسالة وما ينالك في الله من الأذى. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾ وعذ للنبي ﷺ بأن يغلبهم - كما وقع - تقتضيه قوة اللفظ. وهذا الصبر منسوخ بالقتال. وهذه السورة مكية، وقد تقدم ذكر هذا في أولها.

انتهى تفسير سورة يونس يعون الله وتوفيقه والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة هود عليه السلام

هذه السورة مكية إلا قوله تعالى: ﴿قَلَمَكَ نَارُكَ بِحُضْرٍ مَّا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَصَافِيكَ يَدُ صَدْرِكَ﴾، وقوله: ﴿أُنْتَبِذَ يُؤْتُونَكَ يَدِي﴾ ونزلت في ابن سلام وأصحابه، وقوله: ﴿إِنَّ الْمُسْتَنْتَبِذَ

يُدْهِنَ الشَّيْبَانَ» الآية، نزلت في شأن شمار. وهذه الثلاث مدنية، قاله مقاتل، عَلَى أَنَّ الْأُولَى تشبه المكي.

وإذا أردت بـ (هود) اسم السورة لم ينصرف، كما تفعل إذا سميت امرأة بـ (عمرو) و (زيد)، وإذا أردت سورة (هود) صرفت.

① - ② تفسير قوله عزَّ وَجَلْ:

تقدم استيعاب القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، وتختص هذه بأن قيل: إن (أَلْرُخْمَن) فرقت حروفه فيها، وفي ﴿حَمَّ﴾ وفي ﴿تِ وَالْقَلْبِ﴾.

و ﴿كَيْتٌ﴾ مرتفع على خبر الابتداء، فمن قال: «الحروف إشارة إلى حروف المعجم» كانت الحروف المبتدأ، ومن تأول الحروف غير ذلك كان المبتدأ: هذا كتاب، والمراد بالكتاب القرآن.

و ﴿أَحْرَكْتُ﴾ معناه: أنقنت وأجيدت شبه ما تحكم من الأمور المتقنة الكاملة، وبهذه الصفة كان القرآن في الأزل، ثم فصل بتقطيعه وتبيين أحكامه وأوامره على محمد ﷺ في أزمنة مختلفة، ف ﴿ثُمَّ﴾ على بابها، وهذه طريقة الإحكام والتفصيل، إذ الإحكام صفة ذاتية، والتفصيل إنما هو بحسب من يُفَصَّلُ له، والكتاب بأجمعه مُخَكَّم ومُفَصَّل، والإحكام الذي هو ضد النسخ والتفصيل الذي هو خلاف الإجمال إنما يقالان مع ما ذكرناه باشتراك. وحكى الطبري عن بعض المتأولين: أحكمت بالأمر والنهي، وفُضِّلَت بالثواب والعقاب، وعن بعضهم: أحكمت من الباطل،

وفُضِّلَت بالحلال والحرام، ونحو هذا من التخصيص الذي هو صحيح المعنى ولكن لا يقتضيه اللفظ. وقال قوم: ﴿فُضِّلْتُ﴾ معناه: فُسِّرَت. وقرأ عكرمة، والضحاك، والجحدري، وابن كثير فيما زوي عنه: ﴿ثُمَّ﴾ فَضَّلْتُ بفتح الفاء والصاد واللام، ويحتمل ذلك معنيين، أحدهما: فَضَّلْتُ أي: نزلت إلى الناس، كما تقول: «فَصَلَّ فلان» لسفره ونحو هذا من المعنى، والثاني: فَضَّلْتُ بين المُجِئِّق والمُجْبِلِّ من الناس.

و ﴿بِئْسَ لُذُنٌ﴾ معناها: من حيث ابتدئت الغاية، كذا قال سيبويه، وفيها لغات. يقال: (لُذُن)، و(لُذْن) بسكون الدال، وقرئ بهما ﴿بِئْسَ لُذُنٌ﴾، ويقال: (لُدُّ) بفتح اللام وضم الدال دون نون، ويقال: (لُدَى) بدال منونة مقصورة، ويقال: (لُدِي) بدال مكسورة منونة. حكى ذلك أبو عبيدة.

و ﴿حَكِيمٌ﴾ أي: مُخَكِّمٌ، و ﴿حَيِّزٌ﴾ أي: ذو خبرة بالأمر أجمع.

﴿أَلَّا تَعْبُدُوا﴾، (أَنَّ) في موضع نصب، إما على إضمار فعل، وإما على تقدير: «بِأَنَّ» وإسقاط الخافض، وقيل: على البدل من موضع «الآيات»، وهذا معترض ضعيف لأنه لا موضع للآيات، وإن نظر موضوع الجملة فهو رفع، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على تقدير: «تفصيله ألا تعبدوا»، وقيل: على البدل من لفظ «الآيات».

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُرْبَةٌ لِلَّذِينَ

وَشَرِبُوا﴾ أي: من عقابه وبثوابه، وإذا أطلقت هاتان اللفظتان فالنذارة في المكروه والبشارة في المحبوب، وقدم «النذير» لأن التحذير من النار هو الأهم، و(أَنَّ) معطوفة على التي قبلها، ومعنى الآية: استغفروا ربكم، أي: اطلبوا مغفرته لكم وذلك بطلب دخولكم في الإسلام، ثم توبوا من الكفر، أي: انسلخوا منه واندموا على سالفه، و ﴿ثُمَّ﴾ مرتبة لأن الكافر أول ما ينب فإنه في طلب مغفرة ربه فإذا تاب وتجرد من الكفر تمَّ إيمانه. وقرأ الجمهور: ﴿بِئْسَ لُذُنٌ﴾ بشد التاء، وقرأ ابن محيصن: ﴿بِئْسَ لُذُنٌ﴾ بسكون الميم وتحفيف التاء. وفي كتاب أبي حاتم: «إن هذه القراءات بالنون»، وفي هذا نظر. و ﴿مَتَاعٌ﴾ مصدر جارٍ على غير الفعل المتقدم مثل: ﴿وَاللَّهُ أَتَبَّكَرُ مِنَ الْأَرْضِ بِأَنَّا﴾، وقيل: نصب بتعدي ﴿بِئْسَ لُذُنٌ﴾ لأنك تقول: مَتَعْتُ زيداً ثوباً. ووصف المتاع بالْحُسْنِ إنما هو لطيب عيش المؤمن برجائه في الله عزَّ وَجَلْ وفي ثوابه، وفرحه بالتقرب إليه بمفترضاته، والسرور بمواعيده، والكافر ليس في شيء من هذا. وأما من قال بأن المتاع الحسن هو فوائد الدنيا وزيتها - فيضعف بأن الكفرة يشاركون في ذلك أعظم مشاركة. والأجل المسمى هو أجل الموت، معناه: إلى أجل مسمى لكل واحد منكم، وهذا ظاهر الآية، والأجل الكبير - على هذا - هو يوم القيامة. وتحتمل الآية أن يكون التوعد بتعجيل العذاب إن كفروا، والتوعد بتمتعهم إن

﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ ﴿١﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ إِنَّكُمْ لَأَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مبعوثون من بعد الموت ليقولن الذين كفروا إن هذا إلا أسحار مبين ﴿٢﴾ وَلَئِنْ أَخْرأنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما نبغسها: الأيام بآبئهم ليس مصروف عنهم وحاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴿٣﴾ وَلَئِنْ أذقنا الإنسان مزارحمة ثم نزعناها منه إنه ليؤس كفور ﴿٤﴾ وَلَئِنْ أذقته نعماء بعد ضلالة مستهة ليقولن ذهب السيات عني إنه لفيح فخور ﴿٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ لَهُمْ مَغْفرةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٦﴾ فَلَمَّا تَرَكَ بَعْضُ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَهُ مَعَهُ الْمَلِكُ إِنَّمَا أَنْزَلْنَاهُ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ وَكَلِمٌ ﴿٧﴾

٢٢٢

القيامة لأنه توعد به، ثم ذكر الطريق إليه من الرجوع إلى الله. والمعنى: إلى عقابه وجزائه رجوعكم، وهو القادر الذي لا يضره شيء، ولا يجير عليه مجير، ولا تنفع من قضائه واقية. وقوله: ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ عموم يراد به الخصوص، دون ما لا يوصف الله بالقدرة عليه من المحالات وغيرها التي هي أشياء. والشيء في اللغة: الموجود، وما يتحقق أنه يوجد كزلزلة الساعة وغيرها.

﴿١﴾ - ﴿٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قيل: إن هذه الآية نزلت في الكفار الذين كانوا إذا لقيهم رسول الله ﷺ تطامنوا وتثؤنوا صدورهم كالمستتر، ورداً إليه ظهورهم، وغشوا وجوههم بشياهم تباعدوا منه وكراهة للقاءه، وهم يظنون أن ذلك يخفى عليه وعلى الله عز وجل، فنزلت الآية في ذلك. و﴿صُدُّوهُمْ﴾ منصوبة - على هذا - بـ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾.

وقيل: هي استعارة للغل والمحدد الذي كانوا ينظرون عليه، كما تقول: «فلان يطوي كشحه على عداوته ويثني صدره عليها». فمعنى الآية: ألا إنهم يسرون العداوة ويتكتمون بها لتخفى - في ظنهم - عن الله، وهو تعالى - حين تغشيهم بشياهم وإبلاغهم في التستر - يعلم ما يسرون.

آمنوا، فتشبه ما قاله نوح عليه السلام، واليوم الكبير - على هذا - كيوم بدر ونحوه، والمجهلة - في أي الأمرين يكون - إنما هي بحسب البشر، والأمر عند الله تعالى معلوم مُحْتَضَل، والأجل واحد.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤَيِّدُ كُلَّ نَفْسٍ فَضْلًا فَضْلًا﴾ أي كل ذي إحسان بقوله أو بفعله أو بقوته أو بماله أو غير ذلك مما يمكن أن يتقرب به، و﴿فَضْلِهِ﴾ يحتمل أن يعود الضمير فيه على ﴿ذِي﴾ أي: ثواب فضله وجزائه. ويحتمل أن يعود الضمير فيه على الله عز وجل، أي: يؤتي الله فضله كل ذي فضل وعمل صالح من المؤمنين، ونحو هذا المعنى ما وعد به الله تبارك وتعالى من تضعيف الحسنة بعشر أمثالها، ومن التضعيف الغير محصور لمن شاء. وهذا التأويل تأوله ابن مسعود وقال: «ويل لمن غلبت آحاده عشراثة»، ويحتمل أن يكون قول ابن مسعود موافقاً للمعنى الأول.

وقرأ الجمهور: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ بفتح التاء واللام، فبعضهم قال: معناه: الغيبة، أي: فقل لهم: إني أخاف عليكم، وقال بعضهم: معناه: «فإن تَوَلَّوْا» فحذفت التاء، والآية كلها على مخاطبة الحاضر، وقرأ اليماني، وعيسى بن عمر: ﴿وَإِنْ تَوَلَّوْا﴾ بضم التاء واللام وفتح الواو.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا عَلَىٰ عَدَابِ يَوْمٍ كَبِيرٍ﴾ توعد بيوم القيامة، ويحتمل أن يريد به يوماً من الدنيا كبدر وغيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ مَرَّجُكُمْ﴾ توعد، وهو يؤيد أن اليوم الكبير يوم

وقرأ سعيد بن جبير: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ بضم الباء والنون، من أتى. وقرأ ابن عباس: ﴿لَيْثُنُونَ﴾، وقرأ ابن عباس أيضاً، ومجاهد، وابن يغمر، وابن أبيزي، ونصر بن عاصم، والجحدري، وابن إسحاق، وأبو رزين، وعلي بن الحسين، وأبو جعفر محمد بن علي، ويزيد بن علي، وجعفر بن محمد، وأبو الأسود، والضحاك: ﴿تَتَّبِعُونَ﴾ بفتح الصاد، وهي تحتمل المعنيين المتقدمين في ﴿يَتَّبِعُونَ﴾، ووزنها تَفْعُولٌ عَلَىٰ بِنَاءِ مبالغة لتكرار الأمر، كما تقول: اعشوشب الأرض، واخلسب الطيري الدنيا، ونحو ذلك، وحكى الطبري عن ابن عباس - على هذه القراءة - أن هذه الآية نزلت في أن قوماً كانوا لا يأتون النساء والحدث إلا

صح الانتفاع به خلافاً للمعتزلة في قولهم: «إِنَّ الْحَلَالَ الْمَمْتَلِكُ».

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ اللَّهِ إِجَابُكَ تَفَضُّلٌ لِأَنَّهُ تَعَالَىٰ لَا يَجِبُ عَلَيْهِ شَيْءٌ عَقْلًا، وَالْمُسْتَوْذَعُ: صَلْبُ الْأَبِ، وَالْمُسْتَوْذَعُ: بطن الأم. وقيل: المستنقَر: المأوى، والمستنقَر: القبر، وهما - على هذا - ظرفان. وقيل: المستنقَر: ما حصل موجوداً من الحيوان، والمستنقَر: ما يوجد بغد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمستنقَر - على هذا - مصدر استنقَر، وليس بمفعول كُستَوذِع، لأن استنقَر لا يتعدى. وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ إشارة إلى اللوح المحفوظ، وقال بعض الناس: هذا مجاز، وهي إشارة إلى علم الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وحمله على الظاهر أولى.

٧ - ٨ - تفسير قوله عز وجل:

قال أكثر أهل التفسير: الأيام هي من أيام الدنيا، وقالت فرقة: هي من أيام الآخرة، يومٌ من ألف سنة، قاله كعب الأحبار، والأول أرجح. وأجزأ ذكر ﴿السَّكَّاتِ﴾ عن كل ما فيها، إذ كل ذلك خُلِقَ في تلك الستة الأيام.

واختلفت الأحاديث في يوم بداية الخلق فروى أبو هريرة - فيما أسند الطبري - أن رسول الله ﷺ أخذ بيده وقال: «خلق الله التربة يوم السبت، والجبال يوم الأحد، والشجر يوم الاثنين، والمكروه يوم الثلاثاء، والنور يوم الأربعاء، وبث الدواب

عَلَىٰ جِبْنَ عَائِثَ الثَّمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا وَقُلْتُ أَلْمَا أَضْحُ وَالثَّمِيبُ وَأَزْعُ؟ و «ذات الصدور»: ما فيها، والذات تتصرف في الكلام على وجوه هذا أحدها، كقول العرب: «الذئب مغبوط بذئ بطنه»، أي بالذي فيه من الفخ، وكقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن بنت خارجة». والذات التي هي حقيقة الشيء ونفسه قلقة في هذا الموضوع، ويحتمل أن يفرق بين «ذئ بطنه» وبين «الذات»، وإنما يجمع بينهما المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ...﴾ الآية. تسماد في وصف الله تبارك وتعالى بنحو قوله: ﴿يَسْلَمُ مَا يُرْوَدُ وَمَا يَمْلِكُونَ﴾. والدابة: ما دب من الحيوان، والمراد جميع الحيوان الذي يحتاج إلى رزق، ويدخل في ذلك الطائر والهوام وغير ذلك، كلها دواب. وقد قال الأعشى:

يَبِيفَ كَعُضْنِ الْبَانِ تَرْتَجُجُ إِنْ مَشَتْ
دَبِيبَ قَطَا الْبَطْحَاءِ فِي كُلِّ مَنَهَلٍ
وقال علقمة بن عبدة لطير:

.....

... لِطَيْرِهِمْ دَبِيبٌ
وفي حديث أبي عبيدة: (فإذا دابة مثل الظرب)، يريد: من حيوان البحر. وتخصيصه بقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ إنما هو لأنه الأقرب لِجِسْمِهِ. والطائر والعائم إنما هو في الأرض، وما مات من الحيوان قبل أن يتغذى فقد اغتذى في بطن أمه بوجه ما.

وهذه الآية تعطي أن الرزق: كل ما

ويتغشون ثيابهم كراهية أن يفضوا بفروجهم إلى السماء، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - فيما روى ابن عُيَيْنَةَ -: «تَتَنَوِي» بتقديم الثاء على النون وبغير نون بعد الواو، قال أبو حاتم: هذه القراءة غلط لا تشجّه. وقرأ نصر بن عاصم، ويحيى بن يَعْمَر، وابن أبي إسحاق: «تَتَنَوِي» بتقديم النون على الثاء، وقرأ عروة، وابن أبي عمير، والأعمش: «تَتَنَوُونَ» بثاء مثلثة بعدها نون مفتوحة بعدها واو مكسورة. وقرأ أيضاً هما ومجاهد فيما روي عنه: «تَتَنِينَ» بهمزة بدل الواو، وهاتان مشتقتان من «الثَّن» وهو العشب المشني بسهولة، فشبّه صدورهم به إذ هي مجيبة إلى هذا الانطواء على المكر والخداع. وأصل «تثنون»: «تثنونين»، سكنت النون المكسورة، ونقلت حركتها إلى الواو التي قبلها، وأدغمت في النون التي بعدها. وأما «تثنثن» فأصلها: «تثنان» مثل «تخماز»، ثم قالوا: «اثنان» كما قالوا: اخمأز وإيأض.

والضمير في «ينته» عائد على الله تعالى، هذا هو الأفصح الأجزل في المعنى، وعلى بعض التأويلات يمكن أن يعود على محمد ﷺ، و«يستغشون» معناه: يجعلونها أغشية وأغطية، ومنه قول الخنساء:

أَزَعَى الثُّجُومَ وَمَا كُفَلْتُ رَغِيَّتَهَا
وتارة أتغشى فضل أطماري
وقرأ ابن عباس: «عَلَى حِينٍ يَسْتَفْشُونَ»، ومن هذا الاستعمال قول النابغة:

يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة، ونحو هذا من أن البداية يوم السبت في كتاب مسلم، وفي الدلائل ثابت: «وكان خلق آدم في يوم الجمعة، لا يعتد به إذ هو بشر كسائر بنيه، ولو اعتد به لكانت الأيام سبعة خلاف ما في كتاب الله». وروي عن كعب الأحبار أنه قال: «بدأ الله خلق السموات والأرض يوم الأحد، وفرغ يوم الجمعة، وخلق آدم في آخر ساعة منه»، ونحو هذا في جل الدواوين أن البداية يوم الأحد، وقال قوم: خلق الله تعالى هذه المخلوقات في ستة أيام مع قدرته على خلقها في لحظة، نهجاً إلى طريق التؤدة والمهلة في الأعمال ليحكم البشر أعمالهم. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كان العرش على الماء، وكان الماء على الريح».

وقوله تعالى: ﴿لَيْبَلُوكُمُ﴾ متعلق بـ ﴿خَلَقَ﴾، والمعنى أن خلقه إياها كان لهذا، وقال بعض الناس: هو متعلق بفعل مضمّر تقديره: أعلم بذلك ليلوكم، ومقصد هذا القائل أن هذه المخلوقات لم تكن لسبب البشر.

وقرأ عيسى الثقفي: ﴿وَلَيْنَ قُلْتُ﴾ بضم التاء، وقرأ الجمهور: ﴿قُلْتُ﴾ بفتح التاء.

ومعنى الآية: إن الله عز وجل هذه صفاته، وهؤلاء يكفروهم في حيز إن قلت لهم: «إنهم مبعوثون» كذبوا وقالوا: «هذا سحر»، أي: فهذا تناقض منكم، إذ كل مفسطور يقر

بأن الله خالق السموات والأرض، فهم من جملة المقربين بهذا، ومع ذلك ينكرون ما هو أيسر منه بكثير، وهو البعث من القبور، إذ البداية أعسر من الإعادة، وإذ خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس. واللام في ﴿لَيْنَ﴾ مؤذنة بأن اللام في ﴿لَيَوْنَنَّ﴾ لام قسم لا جواب شرط.

وقرأ الأعرج، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة، وفرقة من السبعة: ﴿خَلَقَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿سَاجِرَ﴾، وقد تقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْنَ آخَرًا عَنْهُمْ آلْعَذَابِ﴾ الآية. المعنى: ولئن تأخر العذاب الذي توعدتم به عن الله قالوا: ما هذا الحابس لهذا العذاب؟ على جهة التكذيب. و﴿أَثَرَهُ﴾ في هذه الآية: المدة، كما قال: ﴿وَأَذَكَّرَ بَدَأَ أُمَّتِي﴾، قال الطبري: سميت بذلك المدة لأنها تمضي فيها أمة من الناس وتحدث فيها أخرى، فهي - على هذا - المدة الطويلة. ثم استفتح بالإخبار عن أن هذا العذاب يوم يأتي لا يسرّه شيء ولا يصرفه، و﴿وَحَاقَ﴾ معناه: حل وأحاط، وهي مستعملة في المكروه، و﴿يَوْمَ﴾ منتصب بقوله: ﴿مَصْرُوفًا﴾.

① - ② تفسير قوله عز وجل: ﴿أَذَقْنَا﴾ ها هنا مستعارة، لأن الرحمة ها هنا تعم جميع ما ينتفع به من مطعوم وملبوس وجاء وغير ذلك، و﴿الْإِنْسَانَ﴾ ها هنا اسم الجنس. والمعنى: إن هذا الخلق في سجية الناس، ثم استثنى منهم الذين ردتهم الشرائع والإيمان إلى الصبر

والعمل الصالح. و﴿لَيَوْنَنَّ﴾ و﴿كُفُورٍ﴾ بناءان للمبالغة. و﴿كُفُورٍ﴾ ها هنا من كُفِرَ النعمة، والمعنى: إنه يأس ويتحرج ويتسخط، ولو نظر إلى نعمة الله الباقية عليه في عقله وحواسه وغير ذلك، ولم يكفرها، ولم يكن ذلك، فإن اتفق هذا أن يكون في كافر أيضاً بالشرع صح ذلك ولكن ليس من لفظ الآية.

وقال بعض الناس في هذه الآية: ﴿الْإِنْسَانَ﴾ إنما يراد به الكافر، وحمله على ذلك لفظة و﴿كُفُورٍ﴾، وهذا عندي مردود، لأن صفة الكفر لا تطلق على جميع الناس كما تقتضي لفظة الإنسان.

والتَّعْمَاءُ: تشمل الصحة والمال ونحو ذلك، والضَّرَاءُ من الضَّر، وهو أيضاً شامل، وقد يكثر استعمال الضراء فيما يخص البدن. ولفظ ﴿ذَهَبَ السَّيِّئَاتِ عَنِّي﴾ تقتضي بطلاً وجهلاً أن ذلك بإنعام من الله تعالى، واعتقاد أن ذلك باتفاق أو بعقد من الاعتقادات الفاسدة، وإلا فلو قالها من يعتقد أن ذهابها بإنعام من الله وفضل لم يقع ذلك. و﴿السَّيِّئَاتِ﴾ ها هنا: كل ما يسوء في الدنيا.

وقرأت فرقة: ﴿لَفَجَّ﴾ بكسر الراء، وقرأت فرقة: ﴿لَفَجَّ﴾ بضمها. وهذا الفرج مطلق، ولذلك ذم، إذ الفرج انهمال النفس، ولا يأتي الفرج في القرآن ممدوحاً إلا إذا قيّد بأنه في خير.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ الآية. هذا الاستثناء متصل على ما قدمناه من أن ﴿الْإِنْسَانَ﴾ عام يراد به

هو طلبهم آية تضطر إلى الإيمان، والله تبارك وتعالى لم يبعث الأنبياء بآيات اضطرار، وإنما بعثهم بآيات النظر والاستدلال، ولم يجعل آية الاضطرار إلا للأمم التي قدر تعذيبها بكفرها بعد آية الاضطرار، كالناقة لثمود.

ثم اتسأه تعالى بقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ﴾، أي: هذا القدر هو الذي فوض إليك، والله تعالى بعد ذلك هو الوكيل الممضي لإيمان من شاء وكفر من شاء.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ﴾ الآية.

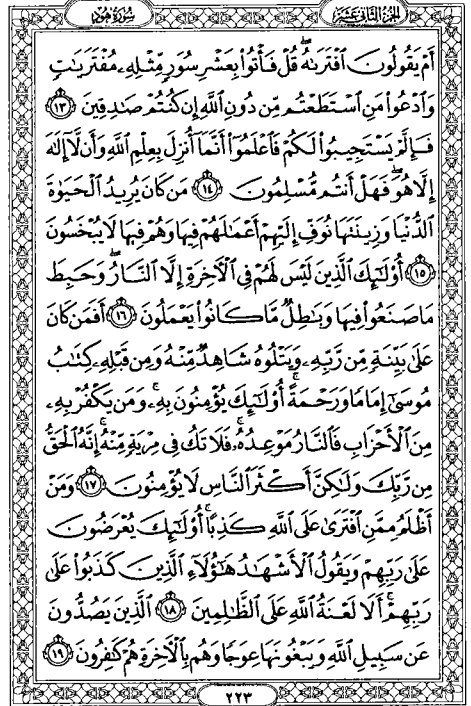
هذه ﴿أَمْ﴾ التي عند سبويه بمعنى «بل وألّف الاستفهام»، كأنه أضرب عن الكلام الأول واستفهم في الثاني

على معنى التقرير، كقولهم: «إنها لإبل أم شاء؟». والافتراء أخص من الكذب، ولا يستعمل إلا فيما بهت به المرء وكابر وجاء بأمر عظيم منكر. ووقع التحدي في هذه الآية بعشر لأنه قيدها بالافتراء، فوسّع عليهم في القدر لتقوم الحجة غاية القيام، إذ قد عجزهم في غير هذه الآية بسورة من مثله دون تقييد، فهذه مماثلة تامة في غيوب القرآن ومعانيه ونظمه ووعده ووعيد، وعجزوا في هذه الآية بأن قيل لهم: عارضوا القدر منه بعشر أمثاله في التقدير والغرض واحد، واجعلوه مفترى لا يبقى لكم إلا نظم، فهذه غاية التوسعة، وليس المعنى: عارضوا عشر سور بعشر، لأن هذه إنما كانت تجيء معارضة سورة بسورة مفتراة ولا يبالى عن تقديم نزول هذه على هذه. ويؤيد هذا

وتسفيه آياتنا لجالسنالك وأثبعتناك. وقالوا: إيت بقرآن غير هذا أو بدله، ونحو هذا من الأقوال، فخطب الله تعالى نبيه ﷺ على هذه الصورة من المخاطبة، ووقفه بها توقيفاً راداً على أقوالهم ومبتلاً لها، وليس المعنى أنه ﷺ هم بشيء من هذا فزجر عنه، فإنه لم يرد قط ترك شيء مما أوحى إليه، ولا ضاق صدره، وإنما كان يضيق صدره بأقوالهم وأفعالهم ويعددهم عن الإيمان.

و ﴿فَلَمَّا كَذَبُوا﴾

بمعنى التوقيف والتقرير، و ﴿مَا يُحِثُّ إِلَيْكَ﴾ هو القرآن والشريعة والدعاء إلى الله تعالى، كان في ذلك سب آلهتهم وتسفيه آياتهم أو غيره. ويحتمل أن يكون النبي ﷺ قد عظم عليه ما يلقي من الشدة فمال إلى أن يكون من الله تعالى إذن في مساهلة الكفار بعض المساهلة، ونحو هذا من الاعتقادات التي تليق به ﷺ كما جاءت آيات المواعدة. وعبر بـ ﴿وَصَائِقُ﴾ دون ﴿صَيِّقُ﴾ للمناسبة في اللفظ مع ﴿تَارِكُ﴾، وإن كان ﴿صَيِّقُ﴾ أكثر استعمالاً لأنه وصف لازم، و ﴿وَصَائِقُ﴾ وصف عارض، فهو الذي يصلح هنا. والضمير في ﴿يُدْعَى﴾ عائد على «البعض»، ويحتمل أن يعود على ﴿مَا﴾. و ﴿أَنْ﴾ في موضع نصب على تقدير: «كراهة أن»، والكنزها هنا: المال، وهذا



الجنس، ومن قال: «إنه مخصص بالكافر» قال ما هنا: إن الاستثناء منقطع، وهو قول ضعيف من جهة المعنى، وأما من جهة اللفظ فجيد، وكذلك قاله من الشحاة قوم، واستثنى الله من الماشين على سجية الإنسان هؤلاء الذين حملتهم الأديان على الصبر على المكروه ومثابرة عبادة الله، وليس شيء من ذلك في سجية البشر، وإنما حمل على ذلك حسب الله وخسوف الدار الآخرة والصبر، والعمل الصالح لا ينفع إلا مع هداية وإيمان. ثم وعد تبارك وتعالى أهل هذه الصفة - تحريضاً عليها وحضاً - بالمغفرة للذنوب والتفضل بالأجر والتعيم.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية أن كفار قريش قالوا: يا محمد لو تركت سب آلهتنا

النظر أن التكليف في آية البقرة إنما هو بسبب الريب، ولا يُزيل الريب إلا العلم بأنهم لا يقدرّون على المماثلة التامة، وفي هذه الآية إنما التكليف بسبب قولهم: «افتراء»، فكلّفوا نحو ما قالوا، ولا يطرد هذا في آية «يونس». وقال بعض الناس: هذه مقدمة في النزول على تلك، ولا يصح أن يُعجزوا في واحدة فيكلّفوا عشراً والتكليفان سواء، ولا يصح أن تكون السورة الواحدة إلا مفترأة، وآية سورة «يونس» في تكليف سورة متركية على قولهم: «افتراء»، وكذلك آية البقرة، إنما ربيهم بأن القرآن مفترى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقائل هذا القول لم يلحظ الفرق بين التكليفين، في كمال المماثلة مرة، ووقوفها على النظم مرة.

و «ين» في قوله: «ين استطعت» يراد بها الآلهة والأصنام والشياطين وكل ما كانوا يعظمونه، وقوله: «إن كنتر صديقين» يريد: في أن القرآن مفترى.

﴿١٤﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

لهذه الآية تأويلان:

أحدهما: أن تكون المخاطبة من النبي ﷺ للكفار، أي: فإن لم يستجب من تدعونه إلى شيء من المعارضة ولا قدر جميعكم عليها فأذعشوا حينئذ واعلموا أنه من عند الله، ويأتي قوله: «فهل أنشئتم سليلون» متمكناً.

والثاني: أن تكون مخاطبة من الله تعالى للمؤمنين، أي: فإن لم يستجب الكفار إلى ما دُعوا إليه من

المعارضة فاعلموا أن ذلك من عند الله. وهذا على معنى: دوموا على علمكم، فإنهم كانوا عالمين بذلك. قال مجاهد: قوله تعالى: ﴿فَهَلْ أَنْشَأْتُمْ سُلَيْمُونَ﴾ هو لأصحاب محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يَلْمِ اللَّهُ﴾ يحتمل معنيين. أحدهما: بإذنه وعلى علم منه. والثاني: أنه أنزل بما علمه الله تعالى من الغيوب، فكأنه أراد: «المعلومات له»، وقوله: ﴿فَهَلْ أَنْشَأْتُمْ سُلَيْمُونَ﴾ تقرير.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْآخِرَةَ﴾ الآية. قالت فرقة: ظاهرها العموم ومعناها الخصوص في الكفرة. هذا قول قتادة والضحاك، وقال مجاهد: هي في الكفرة وفي أهل الرياء من المؤمنين، وإلى هذا ذهب معاوية حين حدثه سيّافه شفي بن ماتع الأصبحي عن أبي هريرة بقول رسول الله ﷺ في الرجل المتصدق، والمجاهد المقتول، والقائم بالقرآن ليله ونهاره - وكل ذلك رياء - أنهم أول من تُسعر به النار يوم القيامة، فلما حدثه شفي بهذا الحديث بكى معاوية وقال: صدق الله ورسوله، وتلا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْآخِرَةَ﴾ الآية إلى قوله: ﴿وَيَزِيلْنَا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فأما من ذهب إلى أنها في الكفرة فمعنى قوله: ﴿يُرِيدُ﴾: يقصد ويعتمد، أي: هي وجهه ومقصده لا مقصد له غيرها، فالمعنى: من كان يريد بأعماله الدنيا فقط إذ لا يعتقد الآخرة فإن الله يجازيه على حسن

أعماله - في الدنيا - بالنعم والحواس وغير ذلك، فمنهم مُضَيِّقٌ عليه، ومنهم مُوسِّعٌ له، ثم حكم عليهم بأنهم لا يحصل لهم يوم القيامة إلا النار، ولا تكون لهم حال سواها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فاستقام هذا المعنى على لفظ الآية، وهو عندي أرجح التأويلات بحسب تقدم ذكر الكفار والمنافقين في القرآن، فإنما قصد بهذه الآية أولئك.

وأما من ذهب إلى أنها في العصاة من المؤمنين فمعنى ﴿يُرِيدُ﴾ عنده: يُحب ويؤثر ويُفَضِّلُ ويقصد وإن كان له مقصد آخر بإيمانه، فإن الله يجازيه على تلك الأعمال الحسان - التي لم يعملها الله - بالنعم في الدنيا، ثم يأتي قوله: ﴿لَيْسَ لَهُمْ﴾ بمعنى: ليس يجب لهم أو يحق لهم إلا النار، وجائز أن يتخمدهم الله برحمته، وهذا هو ظاهر ألفاظ ابن عباس وسعيد بن جبير.

وقال أنس بن مالك: هي في أهل الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا أن أهل الكتاب الكفرة يدخلون في هذه الآية، لا أنها ليست في غيرهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَوْبَىٰ﴾ بنون العظمة، وقرأ طلحة، وميمون بن مهران: ﴿يُؤَفَّ﴾ بياء الغائب.

و ﴿يَبْخَرُونَ﴾ معناه: يعطون أقل من ثوابهم، و ﴿حَبِطَ﴾ معناه: بطل وسقط، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿يقتل حبيطاً أو يلمم﴾، وهي مستعملة في فساد الأعمال، والضمير في قوله:

﴿فِيهَا﴾ عائد على الدنيا في الأوليين، وفي الثالثة عائد على الآخرة، ويحتمل أن يعود في الثلاثة على الدنيا، ويحتمل أن تعود الثانية على الأعمال. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُطَلِّقُ﴾ بالرفع على الاستدعاء والخبر، وقرأ أبي، وابن مسعود: ﴿وَيُطَلِّقُ﴾ بالنصب، قال أبو حاتم: ثبتت في أربعة مصاحف، والعامل فيه ﴿يَمَلُؤُونَ﴾، و﴿مَنَا﴾ زائدة، والتقدير: وباطلاً كانوا يعملون، والباطل: كل ما تقتضي ذاته ألا تُنال به غاية في ثواب ونحوه، وبالله التوفيق.

⑦ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في المراد بقوله: ﴿أَفَمَنْ﴾؛ فقالت فرقة: المراد بذلك المؤمنون بمحمد ﷺ. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ خاصة. وقال علي بن أبي طالب، والحسن، وقتادة، ومجاهد، والضحاك، وابن عباس: المراد بذلك محمد ﷺ والمؤمنون جميعاً.

وكذلك اختلف في المراد بـ «البيئنة»؛ فقالت فرقة: المراد بذلك القرآن، أي: على جلية بسبب القرآن. وقالت فرقة: المراد محمد ﷺ، أي: على جلية بسبب محمد ﷺ، والهاء في «البيئنة» للمبالغة كهاء علامة ونسابة.

كذلك اختلف في المراد بـ «الشاهد»؛ فقال ابن عباس، وإبراهيم النخعي، ومجاهد، والضحاك، وأبو صالح، وعكرمة: هو جبريل عليه السلام. وقال الحسن بن علي: هو محمد ﷺ،

وقال مجاهد أيضاً: هو ملك وكُله الله بحفظ القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد بهذه الألفاظ: جبريل عليه السلام. وقال علي بن أبي طالب، والحسن، وقتادة: هو لسان النبي ﷺ. وقالت فرقة: هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وروي ذلك عنه. وقالت فرقة: هو الإنجيل، وقالت فرقة: هو القرآن، وقالت فرقة: هو إعجاز القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتصرف قوله: ﴿وَيَسْأَلُونَ﴾ على معنيين. بمعنى: يقرؤه، وبمعنى يتبعه. وتصرفه بحسب الخلاف

المذكور في «الشاهد»، ولترتب الآن اطراد كل قول وما يحتمل: فإذا قلنا: إن قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ يراد به المؤمنون، فإذا جعلت - بعد ذلك - «البيئنة» محمداً ﷺ، صح أن يترتب «الشاهد» الإنجيل، ويكون ﴿وَيَسْأَلُونَ﴾ بمعنى: يقرؤه، لأن الإنجيل يُقرأ، شأن محمد ﷺ، وأن يترتب جبريل عليه السلام، ويكون ﴿وَيَسْأَلُونَ﴾ بمعنى: يتبعه، أي في تبليغ الشرع والموعظة فيه. وأن يترتب الملك، ويكون الضمير في ﴿يَسْأَلُونَ﴾ عائداً على «البيئنة» التي قدرناها محمد ﷺ، وأن يترتب القرآن، ويكون ﴿وَيَسْأَلُونَ﴾ بمعنى: يتبعه، ويعود الضمير في ﴿يَسْأَلُونَ﴾ على الرب.

وإن جعلنا «البيئنة» القرآن على أن ﴿أَفَمَنْ﴾ هم المؤمنون صح أن يترتب «الشاهد» محمد ﷺ، وصح أن يترتب الإنجيل، وصح أن يترتب

جبريل والملك، ويكون ﴿وَيَسْأَلُونَ﴾ بمعنى: يقرؤه، وصح أن يترتب «الشاهد» الإعجاز، ويكون ﴿وَيَسْأَلُونَ﴾ بمعنى: يتبعه، ويعود الضمير في ﴿يَسْأَلُونَ﴾ على القرآن.

وإذا جعلنا ﴿أَفَمَنْ﴾ للنبى ﷺ، كانت «البيئنة» القرآن، وترتب «الشاهد» لسان محمد ﷺ، وترتب الإنجيل، وترتب جبريل والملك، وترتب علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وترتب الإعجاز، ويتأول ﴿وَيَسْأَلُونَ﴾ بحسب «الشاهد» كما قلنا، ولكن هذا القول يضعفه قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾، فإننا إذا جعلنا قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ للنبى ﷺ وحده لم نجد في الآية مذكورين يشار إليهم بذلك، ونحتاج إلى الآية إلى تجوز وتشبيه بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا طَلَقَهُ النَّسَاءُ﴾، وهو شبه ليس بالقوي.

والأصح في الآية أن يكون قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾ للمؤمنين، أو لهم وللنبى ﷺ معهم بالأ يترتب «الشاهد» - بعد ذلك - يراد به النبي ﷺ داخلاً في قوله: ﴿أَفَمَنْ﴾، وما تركناه من بسط هذا الترتيب يخرج التدرج بسرعة فتأمله.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كِتَابٍ﴾ بالرفع، وقرأ الكلبي، وغيره: ﴿كِتَابٍ﴾ بالنصب. فمن رفع قدر «الشاهد» الإنجيل، معناه: يقرأ القرآن، أو محمد ﷺ - بحسب الخلاف - والإنجيل، ومن قبل الإنجيل كتاب موسى، إذ في الكتابين ذكر القرآن وذكر محمد ﷺ.

ويصح أن يُقَدَّرَ الرفعُ «الشاهد» القرآن، وتطرد الألفاظ بعد ذلك. ومن نصب ﴿كُتِبَ﴾ قدر «الشاهد» جبريل عليه السلام، أي: يتلو القرآن جبريل، ومن قبل القرآن كتاب موسى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهنا اعتراض. يقال: إذا قال: ﴿وَمَنْ قَتَلَهُ كُتِبَ مُوسَى﴾ أو ﴿كُتِبَ﴾ بالنصب على القراءتين، والضمير في ﴿قَتَلَهُ﴾ عائد على القرآن، فلم لم يذكر الإنجيل - وهو قبله - بينه وبين كتاب موسى؟ فالانفصال أنه خص التوراة بالذكر لأن الملتين مجتمعتان أنهما من عند الله، والإنجيل ليس كذلك، فكان الاستشهاد بما تقوم به الحجة على الطائفتين أولى، وهذا يجري مع قول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُتْرِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى﴾، ومع قول النجاشي: «إن هذا والذي جاء به موسى ليُخْرِجَ من مشكاة واحدة»، فإنما اختصر «الإنجيل» من جهة أن مذهبهم فيه مخالف لحال القرآن والتوراة.

ونصب ﴿إِنَّمَا﴾ على الحال من ﴿كُتِبَ مُوسَى﴾.

و ﴿الْأَحْزَابِ﴾ ها هنا يراد به جميع الأمم، وروى سعيد بن جبير عن أبي موسى الأشعري عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من أحد يسمع بي من هذه الأمة، ولا من اليهود والنصارى، ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار»، فقلت: أين مصداق هذا من كتاب الله؟ حتى وجدته في هذه الآية، وكنت إذا سمعت حديثاً عن

النبي ﷺ طلبت مصداقه في كتاب الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والراجع عندي من الأقوال في هذه الآية أن يكون ﴿أَمَّنَ﴾ للمؤمنين، أولهم وللنبي ﷺ معهم، إذ قد تقدم ذكر الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار، فعُتِبَ ذكرهم بذكر غيرهم، و «البيئته»: القرآن وما تضمن، و «الشاهد» محمد ﷺ أو جبريل عليه السلام إذا دخل النبي ﷺ في قوله: ﴿أَمَّنَ﴾، أو

الإنجيل، والضمير في ﴿وَيَتْلُوهُ﴾ للبيئته، وفي ﴿بِنْتَهُ﴾ للرب تبارك وتعالى، والضمير في ﴿قَتَلَهُ﴾ للبيئته أيضاً، وغير هذا مما ذكرته آنفاً محتمل.

وقرأ الجمهور: ﴿فِي رَيْبِهِ﴾ بكسر الميم، وقرأ السلمي، وأبو رجا، وأبو الخطاب السدوسي: ﴿فِي مُرْتَبَةٍ﴾ بضم الميم، وهما لغتان في الشك، والضمير في ﴿بِنْتَهُ﴾ عائد على كون الكفرة موعدهم النار، وسائر الآية بين.

وفي هذه الآية معادلة محذوفة يقتضيها ظاهر اللفظ تقديرها: أَمَّنَ كان على بيئته من ربه كمن كفر بالله وكذب أنبياءه؟ وتحو هذا - في معنى الحذف - قوله عز وجل ﴿لَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمٌ بِهِ السَّمَوَاتُ لَكُنَّ هَذَا الْقُرْآنَ. ومن ذلك قول الشاعر:

أَوْلَيْكَ لَمْ يَكُونُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَصْنَعُ لَهُمْ الْعَذَابَ مَا كَانُوا يَسْتَظِيلُونَ أَسْمِعْ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ ﴿١٨﴾ أَوْلَيْكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٩﴾ لَأَجْرِمَ أَبْنَاءَ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْآخْسَرُونَ ﴿٢٠﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أَوْلَيْكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢١﴾ مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِذْ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٣﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ الْبُرْجِ ﴿٢٤﴾ فَقَالَ الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا أَنْ يُبَادُوا أَلَمْ يَأْتِيَكُمُ الْبُرْجُ بِالْمَنَادِ ﴿٢٥﴾ أَفَلَا تَتَّقُونَ أَهْلَهُمْ أَنْ يَنْهَوْا عَنْ رَبِّهِمْ وَنَسُوا حَظًّا مِنْ عِزَّةِ اللَّهِ وَفَضْلِهِمْ قَدْ كَذَّبُوا وَعَدُوًّا لَهُمْ يَأْتِيهِمْ أَزْوَاجَهُمْ وَيَخْتَلُونَ بِهِمْ يَوْمَ هُمْ مَبْكُورُونَ ﴿٢٦﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ لِقَوْمٍ أَعْمَى ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا يُصَلُّونَ بِأَعْيُنِهِمْ فَحَسْبُ لَهُمْ صَلَاتُهُمْ إِذْ يَقُولُونَ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأَعْيُنُهُمْ كَالْحِجَابِ وَإِنَّهُمْ كَانُوا بُرْجًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانًا ﴿٢٨﴾

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا رِجْزَ الْبَشَرِ ﴿٢٩﴾ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا التقدير: لردذاته ولم نُصَحْ إليه.

قوله: ﴿وَمَنْ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وكأنه قال: لا أحد أظلم ممن افترى كذباً، والمراد بـ ﴿وَمَنْ﴾ الكفرة الذين يدعون مع الله إلهاً آخر، ويفترون في غير ما شيء، وقسوله: ﴿أَوْلَيْكَ يُرْمَضُونَ عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ عبارة عن الإشادة عليهم والتشهير بخزيهم، وإلا فكل بشر يعرضون على الله يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْأَشْهَدُ﴾. قالت فرقة: يريد الشهداء من الأنبياء والملائكة، فيجوز قوله: ﴿هَتَأَلَاءَ الَّذِينَ كَذَّبُوا عَلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ إخباراً عنهم وشهادة عليهم. وقالت فرقة: ﴿الْأَشْهَدُ﴾ بمعنى الشاهدين،

ويريد جميع الخلائق، وفي ذلك إشارة عليهم، وروي في نحو هذا حديث: «إِنَّهُ لَا يَخْرَى أَحَدٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا وَيَعْلَمُ ذَلِكَ جَمِيعٌ مِنَ شَهِدِ الْمُحْشَرِّ»، فيجيء قوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ - على هذا التأويل - استفهاماً عنهم وثبتاً فيهم، كما تقول إذا رأيت مجرمًا قد عوقب: «هذا هو الذي فعل كذا وكذا؟ وإن كنت قد علمت ذلك، ويحتمل الإخبار عنهم.

وقوله: ﴿الْآءِ﴾ استفتاح كلام، و«اللُّغْتَةُ»: الإبعاد، و«الذِّبِّ» نعت لـ «الْقَلْبِيِّينَ». ويحتمل الرفع على تقدير: «هم الذين». و«يَصُدُّونَ» يحتمل أن يقدر متعدياً على معنى: يَصُدُّونَ النَّاسَ وَيَمْنَعُونَهُمْ مِنْ سَبِيلِ اللَّهِ، ويحتمل أن يقدر غير متعد على معنى: يَصُدُّونَ هَمَّ، أي: يُغْرَضُونَ. و«سَبِيلِ اللَّهِ»: شريعته، و«رَبِّغُرَّتْهَا» معناه: يطلبون لها، كما تقول: بغيتك خيراً أو شراً، أي: طلبت لك، و«عَوَجًا» - على هذا - مفعول، ويحتمل أن يكون المعنى: ويبغون السبيل على عوج، أي: فهم لا يهتدون أبداً، فـ «عَوَجًا» - على هذا - مصدر في موضع الحال. و«العَوَجُ»: الانحراف والميل المؤذي إلى الفساد، وكرر قوله: ﴿وَهُمْ﴾ على جهة التأكيد، وهي جملة في موضع خبر الابتداء الأول، وليس هذا موضع الفصل لأن الفصل إنما يكون بين معرفتين، أو معرفة ونكرة تقارب المعرفة، لأنها تفصل ما بين أن يكون ما بعدها صفة أو خبراً وتخلّصه للخبر.

و «مُتَجَرِّبِينَ» معناه: مُفْلَتِينَ لَا يَقْدِرُ

عليهم، وخصّ ذكر الأرض لأن تصرف ابن آدم وتمتعه إنما هو فيها، وهي قصارها لا يستطيع النفوذ منها. وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِمَنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ يحتمل معنيين، أحدهما: أنه نفى أن يكون لهم ولي أو ناصر كائنًا من كان. والثاني: أن يقصد وصف الأصنام والآلهة بأنهم لم يكونوا أولياء حقيقة، وإن كانوا هم يعتقدون أنهم أولياء، ثم أخبر أنه يُضَاعَفُ لَهُمُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أي يُشَدَّدُ حَتَّى يَكُونَ ضَعْفِي مَا كَانَ، و«يَضَعْفُ» فعل مستأنف وليس بصفة.

وقوله: ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يَبْصُرُونَ﴾ يحتمل خمسة أوجه:

أحدها: أن يصف هؤلاء الكفار بهذه الصفة على معنى أن الله ختم عليهم بذلك، فهم لا يسمعون سماعاً ينتفعون به ولا يبصرون كذلك.

الثاني: أن يكون وصفهم بذلك من أجل بغضتهم في النبي ﷺ، فهم لا يستطيعون أن يحملوا أنفسهم على السمع منه والنظر إليه، وينظر إلى هذا حشو الطفيل بن عمرو أذنيه بالكُرْسُف، وإبابة قريش وقت الحديدية أن يسمعوها ما نقل إليهم من كلام رسول الله ﷺ حتى رذهم عن ذلك مشيختهم.

والثالث: أن يكون وصف بذلك الأصنام والآلهة التي نفى عنها - على التأويل المتقدم - أن تكون أولياء، و«وَمَا» في هذه الوجوه الثلاثة نافية.

والرابع: أن يكون التقدير: يضاعف لهم العذاب بما كانوا يحذف الجار، وتكون ﴿وَمَا﴾ مصدرية، وهذا قول فيه تحامل، قاله الفراء وقرنه بقوله: «أجازيك ما صنعت بي».

والخامس: أن تكون ﴿وَمَا﴾ ظرفية، أي أن العذاب يضاعف لهم مدة استطاعتهم السمع والبصر، وقد أعلمت الشريعة أنهم لا يموتون فيها أبداً، فالعذاب إذا مُتَمَادٍ أَبَدًا.

وقدم السمع على البصر في هذه الآية لأن حاشته أشرف من حاسة البصر، إذ عليه تبنى في الأطفال مَعْرِفَةَ دَلَالَاتِ الْأَسْمَاءِ، وإذ هو كاف في أكثر المعقولات دون البصر، إلى غير ذلك.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿خَيْرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ بوجوب العذاب عليهم، ولا خسران أعظم من خسران النفس. و«وَصَلَّ» معناه: تلى ولم يجوده حيث أمّله. و«لَا جَرَمَ» لفظة مركبة من «لا» ومن «جَرَمَ» بُيُتًا مَعًا، ومعنى «لَا جَرَمَ»: حَقٌّ. هذا مذهب سيويه والخليل. وقال بعض النحويين: معناها: لا شك ولا بُدُّ ولا مَحَالَةٌ، وقد روي هذا عن الخليل. وقال الزجاج: ﴿لَا﴾ رُدُّ عَلَيْهِمْ وَلَمَّا تَقَدَّمَ مِنْ كُلِّ مَا قَبْلَهَا، و«جَرَمَ» معناه: كَسَبَ، أي: كَسَبَ فَعَلُهُمْ ﴿أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ﴾.

فموضع (أن) - على مذهب سيويه - رفع، وموضعها - على مذهب الزجاج - نصب، وقال الكسائي: معناها: لا صد ولا منع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن ﴿جَزَمَ﴾ - على هذا - من معنى القطع، تقول: جَزَمْتُ أَي قَطَعْتُ. وهي على منزع الزجاج من الكَسْب، ومنه قول الشاعر:

جَرِيْمَةٌ نَاهِيْضٌ فِي رَأْسِ نَيْبِي
تَرَى لِعِظَامِ مَا جَمَعَتْ صَلِيْبًا
وجريمةُ القومِ كاسيهم. وأما قول الشاعر:

ولقد طعنتُ أبا أُنَيْمَةَ طَعْنَةً
جَزَمْتُ فَرَازَةَ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا
فيحتمل الوجهين، ويختلف معنى البيت. وفي «لَا جَزَمَ» ثلاث لغات: يقول بعض العرب: «لَا ذَا جَزَمَ»، وبعضهم: «لَا أَنْ ذَا جَزَمَ»، وبعضهم: «لَا عَنَ ذَا جَزَمَ»، وبعضهم: «لَا جَزَمَ»، حذفوا الميم لكثرة استعماله.

و «وَأَخْبَتُوا»، قيل: معناه: خشعوا، قاله قتادة. وقيل: أنابوا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: اطمأنوا، قاله مجاهد، وقيل: خافوا، قاله ابن عباس أيضاً. وهذه الأقوال بعضها قريب من بعض، وأصل اللفظ من «الْخَبْتِ» وهو البراح القفر المستوي من الأرض، فكأن المُخْبِتِ في القفر قد انكشف واستسلم وبقي دون منعة، فشبّه المتذلل الخاشع بذلك، وقيل: إنما اشتق منه لاستوائه وطمأنينته. وقوله: ﴿إِلَّا رَيْبِهِمْ﴾، قيل: هي بمعنى اللام، أي: اخبثوا لربهم، وقيل: المعنى: جعلوا قصدهم بإخباتهم إلى ربهم.

والفريقان: الكافرون والمؤمنون، شبه الكافر بالأعمى وبالأصم، وشبه

المؤمن بالبصير وبالسميع، فهو - على هذا - تمثيل بمثاليين. وقال بعض المتأولين: التقدير: كالأعمى الأصم، والبصير السميع، ودخلت واو العطف، كما تقول: جاءني زيد العاقل والكريم، وأنت تريده بعينه، فهو - على هذا - تمثيل بواحد. و﴿مَثَلًا﴾ نصب على التمييز، ويجوز أن يكون حالاً.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه آية قصص فيه تمثيل لقريش وكفار العرب، وإعلام أن محمداً ﷺ ليس ببدع من الرسل، وروي أن نوحاً عليه السلام أول رسول إلى الناس، وروي أن إدريس أول نبي من بني آدم إلا أنه لم يرسل، فرسالة نوح إنما كانت إلى قومه كسائر الأنبياء، وأما الرسالة العامة فلم تكن إلا لمحمد ﷺ.

وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الألف، فالكسر على إضمار القول، والمعنى: قال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾، ثم يجيء قوله: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا﴾ معمولاً لـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، أي: أرسلنا نوحاً بالآل تعبدوا إلا الله، واعترض أثناء الكلام بقوله: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾. والفتح على إعمال ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في ﴿أَنِّي﴾، أي: بأنني لكم نذير. قال أبو علي: وفي هذه القراءة خروج من الغيبة إلى المخاطبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، وإنما هي حكاية مخاطبته لقومه، وليس هذا حقيقة

الخروج من غيبة إلى خطاب، ولو كان الكلام «أن أنذرهم» أو نحوه لصح ذلك. و «النذير» للتحفظ من المكاره بأن يعرفها ويُنَبِّه عليها، و﴿مُؤْتِيَةً﴾ من: أبان يبين.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾ ظاهر في أنهم كانوا يعبدون الأوثان ونحوها، وذلك بين في غير هذه الآية، و﴿أَلَيْسَ﴾ معناه: مؤلم، ووصف به «اليوم» وحقه أن يوصف به «العذاب» تجوزاً، إذا العذاب في اليوم، فهو كقولهم: «نهار صائم» وليل قائم.

و «الْأَكْلَافِ» الجمع والأكثر من القبيلة والمدينة ونحوه، ويُسمى الأشراف مَلَأً إذ هم عمدة الملأ والسائدون مسند في الآراء والأمور، وكل جماعة كبيرة ملأ. ولما قال لهم نوح: ﴿إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ﴾ قالوا: ﴿مَا رَبُّكَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا﴾، أي: والله لا يبعث رسولاً من البشر، فأحالوا الجائر على الله. و «الأرادل» جمع أرذل، وقيل: جمع أرذل، وأرذل جمع رذل، وكان اللزوم - على هذا - أن يقال: أراديل، وإذا ثبتت الياء في جمع «صنرف» فأحرى ألا تُرَال في موضع استحقاقها وهم سفلة الناس ومن لا خلاق له ولا يبالي ما يقول ولا ما يقال له.

وقرأ الجمهور: ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ بياء دون همز، من: «بَدَأَ يَبْدُو»، ويحتمل أن يكون من «بَدَأَ مَسْهَلًا»، وقرأ أبو عمرو، وعيسى الثقفي ﴿بَادِيَةَ الرَّأْيِ﴾ بالهمز من «بَدَأَ يَدُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

كذبي ﴿﴾ فيحتمل أنهم خاطبوا نوحاً ومن آمن معه من قومه، أي: أنتم كاذبون في تصديقكم هذا الكاذب، وقولكم: إنه نبي مرسل. ويحتمل أنهم خاطبوا نوحاً وحده فيكون من باب قوله: ﴿تَأْتِيهِمُ النَّارُ إِذَا طَلَقْتَهُ﴾.

(٧٨) - (٧٩) تفسير قوله عز وجل: هذه الآية كأنه قال: أرأيتم إن هداني الله وأضلكم، أأجبركم على الهدى وأنتم كارهون له معرضون عنه؟ واستفهامه في هذه الآية أولاً وثانياً على جهة التقرير، وعبارة نوح عليه السلام كانت بِلُغَتِهِ دالّة على المعنى القائم بنفسه، وهذا هو المفهوم من هذه العبارة العربية، فهذا استقام أن يقال كذا وكذا، إذ القول ما أفاد المعنى القائم بنفسه.

وقوله: ﴿عَلَىٰ بَيْنَتَيْنِ﴾. أي: على أمر بين جلبي، والهاء في ﴿بَيْنَتَيْنِ﴾ للمبالغة كعلامة ونسابة. و «إيتاؤه الرُحْمَةَ» هو هدايته للبيّنة، والمشار إليه بهذا كله النبوة والشرع. وقوله: ﴿بَيْنَ عَيْنَيْهِ﴾ تأكيد، كما قال: ﴿يَلْبِثُ بِحَبَابَةِ﴾ ونحوه، وفائدته رفع الاشتراك ولو بالاستعارة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَعَمِيَّتْ﴾، ولذلك وجهان من المعنى: أحدهما: خَفِيَّتْ، ولذلك يقال للسحاب: العماء لأنه يخفي ما فيه، كما يقال له: الغمام لأنه يخمه، ومنه قوله ﷺ: «كان الله قبل أن يخلق الأشياء في عماء». والمعنى الثاني أن تكون الإرادة: ﴿فَعَمِيَّتْ أنتم عنها﴾ لكنه قلب، كما تقول العرب: «أدخلت القلنسوة في رأسي»، ومنه قول الشاعر:

أحدهما: أن يتعلق بـ ﴿رَبِّكَ﴾، أي: وما نراك بأول نظر وأقل فكرة - وذلك هو بادي الرأي - أي: إلا ومثبوك أراذلنا.

والثاني: أن يتعلق بقوله: ﴿اتَّبَعَكَ﴾، أي: وما نراك أتبعك بادي الرأي إلا الأراذل، ثم يحتمل - على هذا - قوله: ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ معنيين: أحدهما: أن يريد: أتبعك في ظاهر أمرهم، وعسى أن بواطنهم ليست معك، والثاني: أن يريد: أتبعوك بأول نظر وبالرأي البادي دون تعقب، ولو تشبثوك

لم يتبعوك، وفي هذا الوجه ذم الرأي الغير المروي.

والوجه الثالث من تعلق قوله: ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ أن يتعلق بقوله: ﴿أَرَادَلْنَا﴾، أي: الذين هم أراذلنا بأول نظر فيهم، وببادي الرأي يُعلم ذلك منهم.

ويحتمل أن يكون قولهم: «بادي الرأي» وصفاً منهم لنوح، أي: تدعي عظيماً وأنت مكشوف الرأي لا حصافة لك، ونصبه على الحال وعلى الصفة.

ويحتمل أن يكون اعتراضاً في الكلام مخاطبة لمحمد ﷺ، ويجيء جميع هذا سته معان، ويجوز التعلق في هذا الوجه بـ ﴿قَالَ﴾.

ومعنى ﴿وَمَا رَأَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ﴾، أي: ما نمت شيء تستحقون به الاتباع والطاعة. ثم قال: ﴿كَلَّ نَظْمُكُمْ﴾

وَتَقُولُوا لَا آتَاكُم بِهِ عَلَيْنَا مَالِ إِنَّا نَأْتِيكُم بِثَمَرٍ لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٢٨﴾ وَتَقُولُوا لَا آتَاكُم بِهِ عَلَيْنَا مَالِ إِنَّا نَأْتِيكُم بِثَمَرٍ لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٢٩﴾ وَتَقُولُوا لَا آتَاكُم بِهِ عَلَيْنَا مَالِ إِنَّا نَأْتِيكُم بِثَمَرٍ لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٣٠﴾

وبين القراءتين اختلاف في المعنى يعطيه التدبر فتركت التطويل ببسطه. والعرب تقول: «أما باديء بذئ فيأني أحمد الله»، و «أما باديء بذئ»، بغير همز فيهما، وقال الراجز:

أضحى ليخالي شبيهي بادي بدي
وصار ليقضل لسانى ويسدي
وقال الآخر:

وقد عاثنى ذرأة بادي بدي
وقرأ الجمهور بهمز: ﴿الرَّأْيِ﴾ وقرأ أبو عمرو بترك الهمز، و﴿بَادِي﴾ نصب على الظرف، وصح أن يكون اسم الفاعل ظرفاً كما يصح في «قريب» ونحوه، وفعليل وفاعل متعاقبان أبداً على معنى واحد في المصدر، كقولك: جهد نفسي محب كذا وكذا.

وتعلق قوله: ﴿بَادِي الرَّأْيِ﴾ يحتمل سته أوجه:

تَرَى الثُّورَ فِيهَا يُدْخِلُ الظِّلَّ رَأْسَهُ
وسائره باد إلى الشمس أجمَعُ
قال أبو علي: وهذا مما يقلب إذ
ليس فيه إشكال، وفي القرآن: ﴿فَلَا
تَحْسَبَنَّ اللَّهَ تَخَلِّفَ وَعْدَهُ رُسُلَهُ﴾.

وقرأ حفص، وحمزة، والكسائي:
﴿فَقَبِيَّتًا﴾ بضم العين وتشديد الميم
على بناء الفعل للمفعول، وهذا إنما
يكون من الإخفاء، ويحتمل القلب
المذكور. وقرأ الأعمش، وغيره:
﴿فَقَمَاهَا عَلَيْنِكُمْ﴾، قال أبو حاتم:
روى الأعمش عن ابن وثاب:
﴿وَعَمِيَّتًا﴾ بالواو خفيفة.

وقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ كُوفًا﴾ يريد إلزام جبر
كالقتال، وأما إلزام الإيجاب فهو
حاصل. وقال النحاس: معناه:
أنوجبها عليكم؟ وقوله في ذلك
خطأ. وفي قراءة أبي بن كعب:
﴿أَنْزَلْنَاهُمْ كُوفًا مِنْ شَطْرِ أَنْفُسِنَا﴾،
ومعناه من تلقاء أنفسنا ورؤي عن ابن
عباس أنه قرأ ذلك ﴿مِنْ شَطْرِ
قُلُوبِنَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَيَنْزِلُ لَكَ أَنْتَلِكُمْ
عَلَيْهِ مَا لَمْ﴾ الآية. الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾
عائد على التبليغ، وقوله: ﴿وَمَا أَنَا
بَطَّارِدُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ يقتضي أنهم
طلبوا منه طرد الضعفاء الذين بادروا
إلى الإيمان به نظير ما اقترحت
قريش على رسول الله ﷺ بطرد
أتباعه بمكة الذين لم يكونوا من
قريش. وقوله: ﴿إِنَّهُمْ مُلْكُوا رَبِّهِمْ﴾
تنبيه على العودة إلى الله ولقاء
جزائه، المعنى: فيوصلهم إلى حقهم
عندي إن ظلمتهم بالطرد، ثم
وصفهم بالجهل في مثل هذا الاقتراح
ونحوه.

وقوله: ﴿وَيَنْزِلُ لَكَ أَنْتَلِكُمْ﴾
الآية. هو استفهام بمعنى تقرير
وتوقيف، أي: لا ناصر يدفع عني
عقاب الله إن ظلمتهم بالطرد عن
الخير الذي قبلوه، ثم وقفهم بقوله:
﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، وعرض عليهم
النظر المؤدي إلى صحة هذا
الاحتجاج.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله: ﴿وَلَا أَوَّلُ﴾ عطف على
قوله: ﴿لَا أَنْتَلِكُمْ عَلَيْهِ مَا لَمْ﴾،
ومعنى هذه الآية: إني لا أموه
عليكم، ولا أتعاطى غير ما
أهلني الله له، فلست أقول: عندي
خزائن الله، يريد: القدرة التي يوجد
بها الشيء بعد حال عدمه. وقد
يمكن أن يكون من الموجودات
كالرياح والماء، ونحوه كثير
باختراع الله له، فإن سمي ذلك -
على جهة التجوز - مختزناً فيشبه، ألا
ترى المروي في أمر ربح عاد أنه فتح
عليهم من الريح قدر حلقة الخاتم،
ولو كان على قدر منخر الثور لأهلك
الأرض، ورؤي أن الريح عتت على
الملائكة الموكلين بتقديرها فلذلك
وصفها الله تعالى بالعتو، وقال ابن
عباس وغيره: عتت على الخزان،
فهذا ونحوه يقتضي أن ثم خزائين.
ثم قال: ﴿وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبِ﴾، ثم
انحط عن هاتين فقال: ﴿وَلَا أَوَّلُ إِنْ
مَلَكَ﴾، وظاهر هذه الآية فضل
الملك على البشر وعلى النبي ﷺ،
وهي مسألة اختلاف، وظاهر القرآن
على ما قلنا. وإن أخذنا قوله: ﴿وَلَا
أَوَّلُ إِنْ مَلَكَ﴾ على حد أن لرو
قال: «ولا أقول إني كوكب أو

نحوه» زالت طريقة التفضيل، ولكن
الظاهر هو ما ذكرنا.

و ﴿تَرَدَّدِي﴾ أصله: «تزتري» -
تفتعل - من: زرى يزري، ومعنى
﴿تَرَدَّدِي﴾: تحتقر، و «الخير» هنا
يظهر فيه أنه خير الآخرة، اللهم إلا
أن يكون ازدراؤهم من جهة الفقر،
فيكون الخير: المال، وقد قال بعض
المفسرين: حيثما ذكر الله الخير في
القرآن فهو المال، وفي هذا الكلام
تحامل، والذي يشبه أن يقال: إنه
حيثما ذكر الخير فإن المال يدخل
فيه.

وقوله: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ﴾
تسليم لله تعالى، أي: لست أحكم
عليهم بشيء من هذا، وإنما يحكم
عليهم بذلك ويخرج حكمه إلى حيز
الوجود الله تعالى الذي يعلم ما في
نفوسهم ويجازيهم بذلك، وقد قال
بعض المتأولين: هي رد على
قولهم: «أنتبعك أراذلنا على ما يظهر
منهم» حسب ما تقدم من بعض
تأويلات تلك الآية آنفاً. فالمعنى:
لست أنا أحكم عليهم بالأل يكون لهم
خير لظنكم بهم أن بواطنهم ليست
كظواهرهم، الله أعلم بما في
نفوسهم. ثم قال: ﴿إِنِّي إِذًا﴾ لو
فعلت ذلك ﴿لَئِنِ الظَّالِمِينَ﴾ الذين
يضعون الشيء في غير موضعه.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَنْزِلُ قَدَّ
جَدَّاتِنَا﴾ الآية. معناه: قد طال
منك هذا الجدل، وهو المراجعة في
الحجة والمخاصمة والمقابلة بالأقوال
حتى تقع الغلبة، وهو مأخوذ من
الجدل، وهو شدة الفتل. ومنه حبل
مجدول، أي: مُمَرَّز، ومنه قيل

للصقر: أجدل، لشدة بُيُته وقتل أعضائه، والجدال: فَعَالٌ مصدر فاعلٌ، وهو يقع من اثنين، ومصدر فاعلٌ يأتي على فَعَالٍ وفِيَعَالٍ ومفاعلة، فتركت الياء من فَيَعَالٍ ورفضت. ومن الجدال ما هو محمود، وذلك إذا كان مع كافر حربي في منعته ويطمع بالجدال أن يهتدي، ومن ذلك هذه الآية، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجِدْ لَهُم يَأْتِي مِنْ أَحْسَنَ﴾، إلى غير ذلك من الأمثلة، ومن الجدال ما هو مكروه، وهو ما يقع بين المسلمين بعضهم في بعض في طلب علل الشرائع، وتصور ما يخبر به الشرع من قدرة الله، وقد نهى النبي ﷺ عن ذلك، وكرهه العلماء، والله المستعان. وقرأ ابن عباس: ﴿قَدْ جَادَلْنَا فَأَكْثَرْتَ جِدْلَنَا﴾ بغير ألف، ويفتح الجيم، ذكره أبو حاتم.

والمراد بقولهم: ﴿فَأَيُّهَا يَمَّا تَمِدُّنَا﴾ العذاب والهلاك. والمفعول الثاني لـ ﴿تَمِدُّنَا﴾ مضمَر تقديره: بما تعدناه. ولما كان الكلام يقتضي العذاب جاز أن يستعمل فيه الوعد.

المعنى: ليس ذلك بيدي ولا إليّ توفيته، وإنما ذلك بيد الله، وهو الآتي به إن شاء وإذا شاء، ولستم من المنعة بحال من يفلت أو يعتصم بمُنْجٍ، وإنما أنتم في قبضة القدرة وتحت ذلّة التملك، وليس نصحي بنافع، ولا إرادتي الخير لكم مغنية إذا كان الله تعالى قد أراد بكم الإغواء والإضلال والإهلاك، والشرط الثاني اعتراض بين الكلام،

وفيه بلاغة في اقتران الإرادتين، وأن إرادة الشر غير مغنية، وتعلق هذا الشرط هو بـ ﴿تَمَجُّرِي﴾، وتعلق الآخر هو بـ ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ والثُّضُحُ هو سَدُّ ثَلَمِ الرَّأْيِ للمنصوح وترقيعُه، وهو مأخوذ من: نَصَحَ الثَّوْبُ إِذَا خَاطَهُ. والمنصوح: الإبرة، والخَيْطُ يقال له مَنْصُحٌ وَنِصَاحٌ.

وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿يُنَوِّبِكُمْ﴾: يضلِّكم، من قولهم: غَوَى الرَّجُلُ يَغْوَى، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسُ أَمْرَهُ

وَمَنْ يَغْوُ لَا يَغْدُمُ عَلَى النَّاسِ لَانِيًا

وإذا كان هذا معنى اللفظة ففي الآية

حجة على المعتزلة القائلين: إن الضلال إنما هو من العبد. وقالت

فرقة: معنى قوله: ﴿يُنَوِّبِكُمْ﴾:

يُهْلِكُكُمْ، والغَوَى: المرض

والهلاك، وفي لغة طيء: أصبح

فلان غاوباً، أي مريضاً، والغَوَى:

بَسَمُ الفصيل، قاله يعقوب في

الإصلاح، وقيل: فقَّده اللبن حتى

يموت جوعاً، قاله الفراء وحكاه

الطبري، يقال: غَوِيَ يَغْوَى. وحكى

الزهراوي أنه الذي قطع عنه اللبن

حتى كاد يهلك ولماً يهلك بعد. فإذا

كان هذا معنى اللفظة زال موضع

النظر بين أهل السُنَّة والمعتزلة، وبقي

الاحتجاج عليهم بما هو أبين من

هذه الآية كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِيدِ

اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾

الآية ونحوها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

واعتمد مكي أن للمعتزلة تعلقاً وحجة

بالغة بهذا التأويل، فردَّ عليه وأفرط

حتى أنكُر أن يكون الغوى بمعنى الهلاك موجوداً في لسان العرب.

وقوله: ﴿هُوَ رَبُّكُمْ﴾ تنبيه على

المعرفة بالخالق. وقوله: ﴿وَالَّذِي

تُرْجَعُونَ﴾ إخبارٌ في ضمنه وعيد

وتخويف.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ أَفَنَنْتَهُ﴾

الآية. قال الطبري وغيره من

المتأولين والمؤلفين في التفسير: إن

هذه الآية اعترضت في قصة نوح

عليه السلام، وهي في شأن

محمد ﷺ مع كفار قريش، وذلك

أنهم قالوا: افتري القرآن وافتري هذه

القصة على نوح، فنزلت الآية في

ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا لو صح بسند وجب الوقوف

عنده، وإلا فهو يحتمل أن يكون في

شأن نوح عليه السلام ويبقى اتساق

الآية مطرداً، ويكون الضمير في

قوله: ﴿أَفَنَنْتَهُ﴾ عائد إلى العذاب

الذي توعدهم به، أو على جميع

أخباره، وأوقع الافتراء على العذاب

من حيث يقع على الإخبار به،

والمعنى: أم يقول هؤلاء الكفرة:

افتري نوح هذا التوعد بالعذاب وأراد

الإرهاب علينا بذلك. ثم يطرد باقي

الآية على هذا.

و ﴿أَنْتُمْ﴾ هي التي بمعنى «بل»، و

«الإجرام» مصدر أجْرَمَ يُجْرِمُ إذا

جَتَّى، يقال: جَرَمَ وَأَجْرَمَ بمعنى،

ومن ذلك قول الشاعر:

طَرِيدٌ عَشِيرَةٌ وَرَهِينٌ ذَنْبٌ

بِمَا جَرَمَتْ يَدِي وَجَتَّى لِسَانِي

قرأ أبو البرهفسم: ﴿وَأُوْحَى﴾ بفتح

الهمزة على إسناد الفعل إلى الله عز وجل، ﴿أَنْتَ﴾ بكسر الهمزة، وقيل لنوح هذا بعد أن طال عليه كفر القرن بعد القرن به، وكان يأتيه الرجل بانه فيقول: يا بَنِي لا تُصَدِّقْ هذا الشيخ فهكذا عهدَه أبي وجدي كذاباً مجنوناً، رواه عبيد بن عمير وغيره. وهذه الآية هي التي أَيْأَسَتْ نوحاً عليه السلام من قومه، فروي أنه لما أوحى إليه ذلك دعا فقال: ﴿رَبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الكَافِرِينَ دَبَّارًا﴾.

و ﴿بَنِيَّسَ﴾ من البؤس تَفْتَعَلُ، ومعناه: لا تحزن نفسك، ومنه قول الشاعر، وهو لبيد بن ربيعة:

فِي مَأْتَمٍ كَسَبَجَ صَا
رَةً يَبْتَسِيْسَنَ بِمَا لَقِبْنَا
صَاة: موضع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي أمر نوح عليه السلام تدافع في ظاهر الآيات والأحاديث ينبغي أن نلخص القول فيه، وذلك أن ظاهر أمره أنه عليه السلام دعا على الكافرين عامة من جميع الأمم، ولم يخص قومه دون غيرهم، وتظاهرت الروايات وكتب التفسير بأن الغرق نال جميع أهل الأرض، وعمّ الماء جميعها، قاله ابن عباس وغيره، ويوجب ذلك أمر نوح بحمل الأرواح من الحيوان، ولولا خوف فناء أجناسها من جميع الأرض ما كان ذلك، فلا يفتق لنا أن نقول: إنه لم يكن في الأرض غير قوم نوح في ذلك الوقت، لأنه يجب أن يكون نوح بعث إلى جميع الناس، وقد صح أن هذه الفضيلة خاصة لمحمد

عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿أُوتِيتْ خُمْسًا لَمْ يُؤْتَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي﴾، فلا بد أن تقدر كثيراً من الأمم كان في ذلك الوقت، وإذا كان ذلك فكيف استحقوا العقوبة في جمعهم ونوح عليه السلام لم يبعث إلى كلهم؟ وكذا تقدر هنا أن الله تبارك وتعالى بعث إليهم رسلاً قبل نوح عليه السلام فكفروا بهم واستمر كفرهم لولا أننا نجد الحديث ينطق بأن نوحاً هو أول الرسل إلى أهل الأرض، ولا يمكن أن نقول: «عذبوا دون رسالة» ونحن نجد في القرآن: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾.

والتأويل المختص من هذا كله هو أن نقول: إن نوحاً عليه السلام هو أول رسول بعث إلى كفار من أهل الأرض ليصلح الخلق وببالغ في التبليغ ويتحمل المشقة من الناس - بحسب ما ثبت في الحديث - ثم نقول: إنه بعث إلى قومه خاصة بالتبليغ والدعاء والتنبيه، وبقي أمم في الأرض كثير لم يكلف القول لهم، فتصح الخاصة لمحمد ﷺ، ثم نقول: إن الأمم التي لم يُبعث ليخاطبها إذا كانت بحال كفر وعبادة أوثان، وكانت الأدلة على الله تعالى منصوبة معرضة للنظر، وكانوا متمكنين من النظر من جهة إدراكهم، وكان الشرع - يبعث نوح - موجوداً مستقراً، فقد وجب عليهم النظر، وصاروا بتركه بحال من يجب تعذيبه، فإن هذا رسول مبعوث وإن كان لم يبعث إليهم معينين، ألا ترى أن لفظ الآية إنما هو: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، أي: حتى

نوجده، لأن بعثة الأنبياء إلى قوم مخصوصين إنما هو في معنى القتال والشدة، وأما من جهة بذل النصيحة وقبول من آمن فالناس أجمع في ذلك سواء، ونوح عليه السلام قد لبث ألف سنة إلا خمسين عاماً يدعو إلى الله، فغير ممكن أن لم تبلغ نبوءته للقريب والبعيد، وبجيء تعذيب الكل بالغرق بعد بعثة رسول وهو نوح ﷺ. ولا يعارضنا مع هذه التأويلات شيء من الحديث ولا الآيات، والله الموفق للصواب.

وقوله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ لَفُلْكِ﴾ عطف على قوله: ﴿فَلَا تَبْتَئِسْ﴾. ولفلك: السفينة، وجمعها أيضاً فُلُكٌ، وليس هو لفظاً للواحد والجمع، وإنما هو فُعْلٌ وجمع على فُعْلٍ، ومن حيث جاز أن يجمع فُعْلٌ على فُعْلٍ كأسد وأسد جاز أن يجمع فُعْلٌ على فُعْلٍ، فظاهر لفظ الجمع فيها كظاهر لفظ الواحد وليس به، تدل على ذلك درجة التشنية التي بينهما، لأنك تقول: فُلُكٌ وفُلُكَانٌ وفُلُكٌ، فالحركة في الجمع نظير ضمة الصاد إذا ناديت: «يا منصو»، تريد: يا منصور، فرخمت على لغة من يقول: «يا حار» بالضم، فإن ضمة الصاد هي في اللفظ كضمة الأصل، وليست بها في الحكم.

وقوله: ﴿يَأْتِيْنَا﴾ يمكن - فيما يتأول - أن يريد به: بمرأى منا وتحت إدراك، فتكون عبارة عن الإدراك والرعاية والحفظ، ويكون جمع الأعين للعظمة لا للتكثير، كما قال تعالى: ﴿فَيَمَمُ الْقَائِدُونَ﴾، فرجع معنى الأعين في هذه وفي غيرها إلى

خمسون ذراعاً وطولها في السماء ثلاثون ذراعاً، ذكره قتادة، ورؤي غير هذا مما لم يثبت فاختصرت ذكره، وذكر الطبري حديث إحياء عيسى ابن مريم لِسَامِ بْنِ نُوحٍ وسؤاله إياه عن أمر السفينة، فذكر أنها ثلاث طبقات: طبقة للناس، وطبقة للبهائم، وطبقة للطير، إلى غير ذلك في حديث طويل.

و «السَّالِمَةُ» هنا: الجماعة، و «سَخِرُوا» معناه: استجهلوه، وهذا الاستجهاال إن كان الأمر كما ذكر أنهم لم يكونوا قبلاً رأوا سفينة ولا كانت فوجه الاستجهاال واضح، وبذلك تظاهرت التفسير، وإن كانت السفائن حينئذ معروفة فاستجهلوه في أن صَنَعَهَا في قرية لا قرب لها من البحر. ورؤي أنهم كانوا يقولون له: صرّت نجاراً بعد النبوة؟

وقوله: «وَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ» قال الطبري: يريد: في الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل الكلام - بل هو الأرجح - أن يريد: إنا نسخر منكم الآن، أي نستجهلكم لعلنا بما أنتم عليه من العزّ والكون بملج عذابه. ثم جاء قوله: «فَسَوَّيْتُمْ لِمَنْ كَفَرْتُمْ» تهديداً. و «السُّخْرَى»: الاستجهاال مع استهزائه، ومصدره: «سُخِرِي» بضم السين، والمصدر من السُّخْرَةِ والتَّسْخُرِ «يسُخِرِي» بكسرهما.

والعذاب «المخزي» هو العرق، و «المقيم» هو عذاب الآخرة. وحكى الزهراوي أنه يُقْرَأُ: «وَيُحْمَلُ»، ويُقْرَأُ: «وَيُحْمَلُ» بكسرهما بمعنى: ويجب. و «مَنْ» في موضع نصب

الحفظ لا سرعة الجري، والحديث الذي تضمن أنها كجوج الطائر أصح ومعناه أظهر، لأنها لو كانت مربعة لم تكن فلكاً، بل كانت وعاءً فقط، وقد وصفها الله تعالى بالجري في البحر، وفي الحديث: «كَانَ رَأَى سَفِينَةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، والراز: القِيمُ بعمل السفن، ومن فسر قوله: «وَرَجِيئًا» أي: «بِأمرنا لك»، فذلك ضعيف، لأن قوله: «وَأَصْنَعُ الْفُلَّكَ» مُغْنٍ عن ذلك.

و «الذِّبْتُ ظَلْمًا» هم قومه الذين أعرضوا عن الهداية حتى عمّتهم النعمة. قال ابن جريج: وهذه الآية تقدم الله فيها إلى نوح ألا يشفع فيهم.

٣٨ - تفسير قوله عزّ وجلّ: التقدير: فشرع يصنع، فحكيت حال الاستقبال إذ في خلالها وقع مرورهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صنع نوح عليه السلام الفلك بيفاع دمشق، وأخذ عودها من لبنان، وعودها من الشمشاد وهو البقص، ورؤي أن عودها من الساج، وأن نوحاً عليه السلام اغترسه حتى كبر في أربعين سنة، ورؤي أن طول السفينة ألف ذراع ومائتان، وعرضها ستمائة ذراع، ذكره الحسن بن أبي الحسن. وقيل: طولها ثلاثمائة ذراع وعرضها

وَيَصْنَعُ الْفُلَّكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَتْ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ سَخِرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوَّيْتُمْ لِمَنْ كَفَرْتُمْ مَنَ بَأْسِهِ عَذَابٌ مُجْتَرِبٌ بِهِ يُجْزَىٰ وَيُجْزَىٰ عَلَيْهِ عَابَتٌ مُّغِيبَةٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ قُلْنَا أَحْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ آثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَنْ آمَنَ مَعَهُ - إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٠﴾ وَقَالَ أَكْبَرُ فِيهَا بِإِسْرَارٍ اللَّهُ يَخْرِجُهَا وَمُرْسَاهَا إِنْ رَدَّيْنَاهُمْ نَرْجُمُوهُمْ فِيهَا وَيَخْرِجُهُمْ بِهَمَّتٍ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ أَرْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُن مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ سَتَأْتِي إِلَىٰ جِبَلِي بَعْضُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمِ مِن أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمْنَا وَحَالِ بَيْنَهُمَا لَمَجْمُومٌ فَكَانَ مِنَ الْمُعْتَرِفِينَ ﴿٤٢﴾ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَنَسْمَأِ أَلْقِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَىٰ الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤٣﴾ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِن أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿٤٤﴾

٢٢٦

معنى (عين) في قوله: «وَيَصْنَعُ عَلَيَّ عَيْبًا»، وذلك كله عبارة عن الإدراك وإحاطته بالمدركات، وهو تبارك وتعالى مُتَزَهٍ عن الحواس والتشبيه والتكييف لأرب غيرهِ. ويحتمل قوله: «وَبِأَعْيُنِنَا» أي: بملائكتنا الذين جعلناهم عيوناً على مواضع حفظك ومعونتك، فيكون الجمع - على هذا - للتكثير. وقرأ طلحة بن مصرف: «بِأَعْيُنِنَا» مدغماً.

وقوله: «وَرَجِيئًا» معناه: وتعليمنا لك صورة العمل بالوحي، ورؤي في ذلك أن نوحاً عليه السلام لما جهل كيفية صنع السفينة أوحى الله إليه أن اصنعها على مثال جوج الطير، إلى غير ذلك مما علمه نوح من عملها، فقد روي أيضاً أنها كانت مربعة الشكل طويلة في السماء ضيقة الأعلى، وأن الغرض منها إنما كان

يحمل من كل نوع أربعة. والزوج يقال - في مشهور كلام العرب - للواحد مما له ازدواج، فيقال: هذا زوج هذا، وهما زوجان، وهذا هو المهيح في القرآن في قوله تعالى: ﴿تَمَكَّنْتَهُ لَأَقْبِرَ فِيهِمَا أَهْلَ الْبَيْتِ الَّتِي لَمْ يَكُنِ بِهَا مِنْ قَبْلُ حَلْفٌ لَآئِنِ عَرَفْتُمْ هَؤُلَاءِ بِذُنُوبِهِمْ لَنَقَرَنَّهُمْ أَيُّهَا الْعَالَمِينَ﴾. قال أبو الحسن الأخفش في كتابه «الحجة»: وقد يقال في كلام العرب للثنين: زَوْجٌ، ومن ذلك قول لبيد:

مِنْ كُلِّ مَحْفُوفٍ يُظِلُّ عِصِيَّهُ
زَوْجٌ عَلَيْهِ، كِلَّةٌ وَقَرَامُهَا
وهكذا يأخذ العديون. والزوج أيضاً في كلام العرب: النوع، كقوله تعالى: ﴿وَأَلْبَسْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾، وقوله عز وجل: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا﴾.

وروي في قصص هذه الآية أن نوحاً عليه السلام كان يأتيه الحيوان فيضع يمينه على الذكر. ويساره على الأنثى، وروي أن أول ما دخل في السفينة الذرّ وآخر ما دخل الحمار، فتمسك الشيطان بذنبه، فزجره نوح عليه السلام فلم ينبعث، فقال له: «ادخل ولو كان معك الشيطان»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: زلت هذه الكلمة على لسانه فدخل الشيطان حينئذ، وكان في كوثل السفينة - أي عند مؤخرها - وقيل: كان على ظهرها، ورؤي أن نوحاً عليه السلام آذاه تنن الزبل والعدرة، فأوحى الله إليه أن امسح على ذنب الفيل ففعل، فخرج من الفيل - وقيل: من أنفه - خنزير وخنزيرة، فكفيا نوحاً وأهله ذلك الأذى، وهذا

وجه الأرض، ويقال له: تُثُورُ الأرض. وقال قتادة: الثُّورُ: أعالي الأرض، وقالت فرقة: الثُّورُ: عين بناحية الجزيرة. وقال الحسن بن أبي الحسن: الثُّورُ: مجتمع ماء السفينة فار منه الماء وهي بعد في اليبس. وقالت فرقة: الثُّورُ هو الفجر، المعنى: إذا طلع الفجر فاركب في السفينة، وهذا قول روي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، إلا أن التصريف يضعفه، وكان يلزم أن يكون التنوير، وقالت فرقة: الكلام مجاز، وإنما أراد غلبة الماء وظهور العذاب، كما قال النبي ﷺ لشدة الحرب: «حمي الوطيس» والوطيس أيضاً مستوقد النار، فلا فرق بين «حَمِيٍّ» و«قَارٍ» إذ يستعملان في النار، قال الله تعالى: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَيْبًا وَهِيَ تَنُورُ﴾ فلا فرق بين الوطيس والثُّور.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَمِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ آتَيْنِ﴾ بتنوين ﴿كُلِّ﴾ وقرأ الباقون: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾ بإضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿زَوْجَيْنِ﴾، فمن قرأ بالتنوين حذف المضاف إليه، التقدير: من كل حيوان أو نحوه، وأعمل «الحمل» في ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وجاء قوله: ﴿آتَيْنِ﴾ تأكيداً، كما قال: ﴿إِلَهُنَّ آتَيْنِ﴾. ومن قرأ بالإضافة فأعمل «الحمل» في قوله: ﴿آتَيْنِ﴾. وجاء قوله: ﴿زَوْجَيْنِ﴾ بمعنى العموم، أي: من كل ماله ازدواج، هذا معنى قوله: ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ﴾، قاله أبو علي وغيره. ولو قدرنا المعنى: أحمل من كل زوجين حاصلين اثنين لوجب أن

بـ ﴿تَمَكَّنْتَهُ﴾، وجائز أن يكون ﴿تَمَكَّنْتَهُ﴾ بمشابة «تعرفون» في التعدي إلى مفعول واحد، وجائز أن تكون التعدية إلى مفعولين واقتصر على الواحد.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أُمَّرُنَا﴾ الآية. الأمر هنا يحتمل أن يكون واحد الأمور، ويحتمل أن يكون مصدر أمر، فمعناه: أمرنا للماء بالفوران، أو للسحاب بالإرسال، أو للملائكة بالتصرف في ذلك. ونحو هذا مما يقدر في النازلة. و﴿وَقَارَ﴾ معناه: انبعث بقوة، واختلف الناس في ﴿الَّتَنُورُ﴾؛ فقالت فرقة - وهي الأكثر - منهم ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: هو تنور الخبز الذي يوقد فيه. وقالت فرقة: كانت هذه أمانة جعلها الله لنوح، أي: إذا فار الثُّورُ فاركب في السفينة، ويشبه أن يكون وجه الأمانة أن مستوقد النار إذا فاز بالماء فغَيَّرَهُ أَشَدُّ فُورَانًا وَأَحْرَى بِذَلِكَ. وروي أنه كان تُثُورُ آدم خَلَصَ إلى نوح عليهما السلام فكان يوقد فيه. وقال النقاش: اسم المستوقد الثُّورُ بكل لغة، وذكر نحو ذلك ابن قتيبة في الأدب عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد.

وقيل: إن موضع تُثُورُ نوح عليه السلام كان بالهند، وقيل: كان في موضع مسجد الكوفة، وقيل: كان في ناحية الكوفة، قاله الشعبي، ومجاهد، وقيل: كان في الجهة الغربية من قبلة المسجد بالكوفة، وقال ابن عباس، وعكرمة: الثُّورُ:

يجيء منه أن نوع الخنازير لم يكن قبل ذلك، وروي أن الفأر أذى الناس في السفينة بقرض حبالها وغير ذلك، فأمر الله نوحاً أن يمسح على جبهة الأسد ففعل، فعطس فخرج منه هراً وهرة، فكفياهم الفأر، وروي أيضاً أن الفأر خرج من أنف الخنزير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله قصص لا يصح إلا لو استند، والله أعلم كيف كان.

وقوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾ عطف على ما عمل فيه ﴿أَتَمَلَّ﴾، والأهل هنا: القرابة، وبشرط من آمن منهم خصصوا تشريفاً، ثم ذكر من آمن وليس من الأهل، واختلف في الذي ﴿سَبَّ عَلَيْهِ الْقَوْلُ﴾ فقليل: هو ابنه يام، وقال النقاش: اسمه كنعان، وقيل: هي امرأته «والعة»، هكذا اسمها بالعين غير منقوطة، وقيل: هو عموم في من لم يؤمن من أهل نوح وعشيرته. و«القول» ها هنا معناه: القول بأن يعذب، وقوله: ﴿وَمَنْ ءَامَنَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَأَهْلَكَ﴾. ثم قال إخباراً عن حالهم: ﴿وَمَا ءَامَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ واختلف في ذلك القليل؛ فقليل: كانوا ثمانين رجلاً وثمانين امرأة، وقيل: كان جميعهم ثلاثة وثمانين، وقيل: كانوا ثمانين في الكل، قاله السدي، وقيل: عشرة، وقيل: ثمانية، قاله قتادة، وقيل: سبعة، والله أعلم. وقيل: كان في السفينة جُزُهُم، وقيل: لم ينج من الغرق أحد إلا عوج بن عنق، وكان في السفينة مع نوح عليه السلام ثلاثة من

بنيه: سام، وحام، ويافث، وغرق يام، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «سام أبو العرب، ويافث أبو الروم، وحام أبو الحبش».

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وقال نوح - حين أمر بالحمل في السفينة - لمن آمن معه: ﴿أَتَكْفُرُ فِيهَا﴾، فأنت الضمير إذ هي سفينة، لأن «الفلك» المذكور مذكراً، وفي مصحف أبي: ﴿على اسم الله﴾، وقوله: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ﴾ يصح أن يكون في موضع الحال من الضمير الذي في قوله: ﴿أَتَكْفُرُ﴾، كما تقول: «خرج زيد بشيابه وسلاحه»، أي: اركبوا متبركين بالله تعالى، ويكون قوله: ﴿يَجْرِيهَا وَتُرْسَنَاهَا﴾ ظرفين، أي: وقت إجرائها وإرسائها، كما تقول العرب: «الحمد لله سبازك وإهلالك، وخفوق النجم، ومقدم الحاج»، فهذه ظرفية للزمان، والعامل في هذا الظرف ما في ﴿يَسِّرْ اللَّهُ﴾ من معنى الفعل. ويصح أن يكون قوله: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ﴾ في موضع خبر، و﴿يَجْرِيهَا وَتُرْسَنَاهَا﴾ ابتداء مصدران كأنه قال: «اركبوا فيها فإن بركة الله إجرائها وإرسائها»، وتكون هذه الجملة - على هذا - في موضع حال من الضمير في قوله: ﴿فِيهَا﴾، ولا يصح أن يكون حالاً من الضمير في قوله: ﴿أَتَكْفُرُ﴾ لأنه لا عائد في الجملة يعود عليه، وعلى هذا التأويل قال الضحاك: إن نوحاً كان إذا أراد جري السفينة قال: «بسم الله» فتجري، وإذا أراد وقوفها قال: «بسم الله» فقف.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن عامر: ﴿مُخْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ بضم الميمين على معنى: إجرائها وإرسائها، وهي قراءة مجاهد، وأبي رجاء، والحسن، والأعرج، وشيبة، وجمهور الناس، ومنه قول لبيد:

وَعَمَرْتُ حَرْسًا قَبْلَ مُجْرَى دَاجِسٍ
لَوْ كَانَ لِلنَّفْسِ اللُّجُوجِ خُلُودٌ
وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿يَجْرِيهَا﴾ بفتح الميم وكسر الراء، وكلهم ضم الميم من ﴿وَمُرْسَاهَا﴾، وقرأ الأعمش، وابن مسعود: ﴿مُخْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ بفتح الميمين، وذلك من الجري والرسو، وهذه ظرفية مكان، ومن ذلك قول عترة:

قَصَبْتُ نَفْسًا عِنْدَ ذَلِكَ حُرَّةً
تَرَسُّو إِذَا نَفْسُ الْجَبَانِ تَطَلَّعُ
واختار الطبري قراءة ﴿يَجْرِيهَا وَتُرْسَنَاهَا﴾ بفتح الميم الأولى وضم الثانية، ورجحها بقوله تعالى: ﴿رَوَى تَجْرَى﴾ ولم يقرأ أحد «تجري»، وهي قراءة ابن مسعود أيضاً، رواها عنه أبو وائل، ومسروق. وقرأ ابن وثاب، وأبو رجاء العطاردي، والشَّعْبِي، والجحدري، والكلبي، والضحاك بن مزاحم، ومسلم بن جندب، وأهل الشام: ﴿مُخْرِيهَا وَمُرْسِيهَا﴾، وهما - على هذه القراءة - صفتان لله تعالى عائدتان على ما ذكره في قوله: ﴿يَسِّرْ اللَّهُ﴾.

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبِّي لَقَوُّرٌ رَّحِيمٌ﴾ تنبيه لهم على قدر نعم الله عليهم ورحمته لهم وستره عليهم وغفرانه ذنوبهم بتوبتهم وإتَابَتَهُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَجَّى بِهَرَمٍ﴾ الآية. روي أن السماء أمطرت بأجمعها حتى لم يكن في الهواء جانب لا مطر فيه، وتفجرت الأرض كلها بالنبع، فهكذا كان التقاء الماء، وروي أن الماء علا على الجبال وأعالي الأرض أربعين ذراعاً، وقيل: خمسة عشرة ذراعاً. وأشار الزجاج وغيره إلى أن الماء انطبق، ماء الأرض وماء السماء فصار الكل كالبحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وأين «كان الموج كالجبال» على هذا؟ وكيف استقامت حياة من في السفينة على هذا؟ وقرأت فرقة: ﴿أَبْنِيهِ﴾ على إضافة «الابن» إلى (نوح)، وهذا قول من يقول: هو ابنه لصلبه، وقد قال قوم: إنه ابن قريب له، ودعاه بالنبوة حناناً منه وتلطفاً، وقرأ ابن عباس: ﴿أَبْنِيهِ﴾ بسكون الهاء، وهذا على لغة لأزد السراة. ومنه قول الشاعر:

.....
وَمِطْوَائِي مُشْتَقَاتَانِ لَهُ أَرْقَابَانِ
وَقَرَأَ السُّدِّيُّ: ﴿إِبْنَاهُ﴾، قال أبو الفتح: ذلك على النداء، وذهبت فرقة إلى أن ذلك على جهة التثنية مَحْكِيَّةٌ، وقرأ عروة بن الزبير، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿إِبْنَاهُ﴾، وتأولوا ذلك على أنه دعا ابن امرأته الكافرة إذ قد تقدم ذكرها في قوله: ﴿وَأَقْلَبْتُ﴾، وعلى هذه القراءة يدخل تأويل من قال: «كانت خاتنة» فيه، وسيأتي ذكر هذا بعد، وقرأ علي بن أبي طالب، وعروة بن الزبير أيضاً، وأبو جعفر، وجعفر بن

محمد: ﴿ابْنَةَ﴾ على تقدير: ﴿إِبْنَاهُ﴾ فحذف الألف تخفيفاً، وهي لغة، ومنها قول الشاعر:

إِمَّا تَقْوُدُ بِهِ شَاءَةً فَتَأْكُلُهَا
أَوْ أَنْ تَبِيَعَةَ فِي بَعْضِ الْأَرَاكِيْبِ
وأشدد ابن الأعرابي على هذا: قَلَسْتُ بِمُذْرِكٍ مَا قَاتَ مِنِّي بِلَهْفٍ وَلَا بِأَيْتٍ وَلَا لَوَائِي يَرِيدُ: بِلَهْفًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وخطأ النحاس أبا حاتم في حذف هذه الألف، وليس كما قال. وقرأ وكيع بن الجراح: ﴿وَنَادَى نُوحٌ ابْنَتَهُ﴾ بضم التنوين، قال أبو حاتم: هي لغة سوء لا تعرف.

وقوله: ﴿وَكَاكَ فِي مَعَزِلٍ﴾، أي: في ناحية، فيمكن أن يريد: في معزل في الدين، ويمكن أن يريد: في معزل من بَعْدِهِ عن السفينة، واللفظ يعمهما. وقال مكي في «المشكل»: «ومن قال: «مَعَزِلٌ» بكسر الزاي أراد الموضوع، ومن قال: «مَعَزَلٌ» بفتحها أراد المصدر». فلم يصرح بأنها قراءة، ولكن يقتضي ذلك لفظه.

وقرأ السبعة: ﴿يَا بَنِي﴾ بكسر الياء المشددة، وهي ثلاث ياءات: أولاها: ياء التصغير، وحقها السكون. والثانية: لام الفعل، وحقها أن تكسر بحسب ياء الإضافة، إذا ما قبل ياء الإضافة مكسور، والثالثة: ياء الإضافة، فحذفت ياء الإضافة إما لسكونها وسكون الراء، وإما إذ هي بمشابة التنوين في الأعلام وهو يحذف في النداء، فكذلك ياء الإضافة،

والحذف فيها كثير في كلام العرب، تقول: يا غلام، يا عبيد، وتبقى الكسرة دالة، ثم أدغمت الياء الساكنة في الياء المكسورة. وقد روى أبو بكر، وحفص عن عاصم أيضاً: ﴿يَبْنِي﴾ بفتح الياء المشددة، وذكر أبو حاتم أن المفضل رواها عن عاصم، ولذلك وجهان: أحدهما: أن يبدل من ياء الإضافة ألفاً، وهي لغة مشهورة، تقول: يا غلاماً، يا عبناً، فانفتحت الياء قبل الألف، ثم حذفت الألف استخفافاً، أو لسكونها وسكون الراء من قوله: ﴿أَرْكَبُ﴾. والثاني: أن الياءات لما اجتمعت استثقلت اجتماع المماثلة، فخفف ذلك الاستثقال بالفتح إذ هو أخف الحركات، هذا مذهب سيبويه، وعلى هذا حمل قوله ﷺ: «وحواري الزبير»، وروي عن ابن كثير أنه قرأ في سورة لقمان: ﴿يَا بَنِي لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ بحذف ياء الإضافة وسكون الياء خفيفة، وقرأ الثانية: ﴿يَبْنِي﴾ بفتح الياء كقراءة الجماعة، وقرأ الثالثة: ﴿يَا بَنِي أَمِّمٌ﴾ ساكنة كالأولى.

وقوله: ﴿وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ﴾ يحتمل أن يكون نهياً محضاً مع علمه أنه كافر، ويحتمل أن يكون خفي عليه كفره فناده ألا يبقى - وهو مؤمن - مع الكفرة فيهلك بهلاكهم. والأول أبين.

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل: ظن ابن نوح أن ذلك المطر والماء على العادة. وقوله: ﴿لَا عَاصِمٌ﴾، قيل فيه: إنه على لفظه «فاعل». وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعًا﴾ يريد:

إلا الله الراحم، ف ﴿مَنْ﴾ كناية عن اسم الله تبارك وتعالى، المعنى: لا عاصم اليوم إلا الذي رحمنا، ف ﴿مَنْ﴾ في موضع رفع. وقيل: قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾ استثناء منقطع كأنه قال: لا عاصم اليوم موجود، لكن من رحم الله موجود، وحسن هذا من جهة المعنى أن نفي العاصم يقتضي نفي المعصوم فهو حاصل بالمعنى، وأما من جهة اللفظ ف ﴿مَنْ﴾ في موضع نصب على حد قول النابتة:

إِلَّا الْأَوَّارِي
.....
ولا يجوز أن تكون في موضع رفع على حد قول الشاعر:

وَبَلَدُهُ لَيْسَ بِهَا أَنْيْسُ
إِلَّا الْيَتَامِيُّ وَإِلَّا الْعَيْسُ
إذ هذان أنيس ذلك الموضع القفر، والمعصوم هنا ليس بعاصم بوجه. وقيل: ﴿عَامِرٌ﴾ معناه: ذو اعتصام، ف ﴿عَاصِمٌ﴾ - على هذا - في معنى «معصوم»، ويجيء الاستثناء مستقيماً، و﴿مَنْ﴾ في موضع رفع، و﴿الْيَوْمَ﴾ ظرف، وهو متعلق بقوله: ﴿وَمَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾، أو بالخبر الذي تقديره: كائن اليوم، ولا يصح تعلقه بـ ﴿عَامِرٌ﴾ لأنه كان يجيء منوناً: «لا عاصماً اليوم»، يرجع إلى أصل النصب لثلاث يرجع ثلاثة أشياء واحداً، وإنما القانون أن يكون الشيطان واحداً: «لا» وما عملت فيه، ومثال النحويين في هذه المسألة: «لا أمراً يوم الجمعة لك»، فإن عملت في «يَوْمَ» لَكَ قَلْتَ: لا أَمَرَ.

و ﴿بَيْنَهُمَا﴾ يريد: بين نوح وابنه، فكان الابن ممن غرق.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَيْ مَاءَكَ﴾ الآية. بناء الفعل للمفعول أبلغ في التعظيم والجبروت، وكذلك بناء الأفعال - بعد ذلك - في سائر الآية. وروي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: «هذا كلام القادرين». والبَلْعُ هو تجرّع الشيء وازدراؤه، فشبه قبض الأرض للماء وتسربه فيها بذلك، وأمريت بالتشبيه، وأضاف الماء إليها إذ هو عليها وحاصل فيها. والسماء في هذه الآية: إما السماء المظلمة، وإما السحاب، والإقلاع عن الشيء: تركه. والمعنى: أقعلني عن الإمطار و﴿وَبَيْضٌ﴾ معناه: نقص، وأكثر ما يجيء فيما هو بمعنى: جفوف، كقوله: ﴿وَبَيْضَ الْمَاءِ﴾، وكقوله: ﴿وَمَا تَبْيِضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾، وأكثر المفسرين على أن ذلك في الحيض، وكذلك قول الأسود بن يَغْفَر:

.....
مَا غِيضَ مِنْ بَصْرِي وَمِنْ أَجْلَادِي؟
وذلك أن الإنسان الهرم إنما تتقصفه بجفوف وقصافة.

وقوله: ﴿وَقَفِيَ الْأَمْرُ﴾ إشارة إلى جميع القصة: بعث الماء، وإهلاك الأمم، وإنجاء أهل السفينة. وروي أن نوحاً عليه السلام ركب في السفينة من عين وردة بالشام أول يوم من رجب، وقيل: في العاشر منه، وقيل: في الخامس عشر، وقيل: في السابع عشر، واستوت السفينة في ذي الحجة، وأقامت على الجودي

شهرأ، وقيل له: اهبط يوم عاشوراء، فصامه وصامه من معه من أناس ووحوش. وذكر الطبري عن ابن إسحاق ما يقتضي أنه أقام على الماء نحو السنة، وذكر أيضاً حديثاً عن النبي ﷺ: «إن نوحاً ركب في السفينة أول يوم من رجب، وصام الشهر أجمع، وجرت بهم السفينة إلى يوم عاشوراء، فقيه أرست على الجودي فصامه نوح ومن معه». وروي أن نوحاً لما طال مقامه على الماء بعث الغراب ليأتيه بخبر كمال الغرق، فوجد جيفة طافية، فبقي عليها فلم يرجع بخبر، فدعا عليه نوح فاسود لونه وخوف من الناس، فهو لذلك مستوحش، ثم بعث نوح الحمام فجاءته بورق زيتونة في فمها ولم تجد تراباً تضع رجلها عليه، فبقي أربعين يوماً ثم بعثها فوجدت الماء قد انحسر عن موضع الكعبة، وهي أول بقعة انحسر الماء عنها، فمست الطين برجليها وجاءته، فلم أن الماء قد أخذ في النضوب، ودعا لها فطوقت وأنست، فهي لذلك تألف الناس، ثم أوحى الله إلى الجبال أن السفينة ترسي على واحد منها فتناولت كلها وبقي الجودي - وهو جبل بالموصل في ناحية الجزيرة - ولم يتناول تواضعاً لله، فاستوت السفينة - بأمر الله - عليه، وبقت عليه أعوادها، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «لقد بقي منها شيء أدركه أوائل هذه الأمة، وقال الزجاج: الجودي هو بناحية أمد، وقال قوم: هو عند باقرذى، وروي أن السفينة لما استقلت من عين

قَالَ يَنْبُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَتَّبِعَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّي أَخْشَاكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَلَا تَعْتَفِرْ لِي وَتَرَحَّمْ لِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٥﴾ قِيلَ يَنْبُوحُ أَهَيْطُ لِسَانَكَ وَمَا وَرَكَتِ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمُورٍ مِمَّا لَمْ تَأْتِ وَآمَمُ سَمْعِهِمْ ثُمَّ يَسْمَعُ مَنَا عَذَابَ الْبَلَاءِ ﴿٤٦﴾ تِلْكَ مِنْ آيَاتِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَقِيبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِلَّا عَادُوا لَحَاكِمُهُمْ هُودًا قَالَ يَنْبُوحُ أَعْبَدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَإِنِ اسْتَفْرَجَ الْأَمْشُرُونَ ﴿٤٨﴾ يَنْبُوحُ لَا اسْتِشْكَاءَ لِعَلِيِّهِ أَجْرًا إِنِ اجْتَرَى عَلَى الْأَعْلَى الَّذِي فَطَرْنَا فَلَا تَقُولُوا ﴿٤٩﴾ وَيَنْبُوحُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ مِمَّا ذُكِّرْتُمْ وَلَا تَتْلُوا جُدًّا بَرِينًا ﴿٥٠﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَاتٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَا نَعْنَاءَ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾

٢٧٧

ظن أن ابنه مؤمن، وذلك أشد الاحتمالين.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْبُوحُ﴾ الآية. المعنى:

قال الله تعالى: يا نوح،

وقالت فرقة: المراد

بقوله: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ

أَهْلِكَ﴾: ليس بولد لك،

وزعمت أنه كان لغيره،

وأن امرأته الكافرة خانته

فيه، هذا قول الحسن،

وابن سيرين، وعبيد بن

عُمير، وقال أبوزي: إنما

قضى رسول الله ﷺ

بالولد للفراس من أجل

ابن نوح، وحلف الحسن

أنه ليس بابنه، وحلف

عكرمة والضحاك أنه ابنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

عول الحسن على قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ

لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾، وعول الضحاك

وعكرمة على قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِي

نُوحٌ ابْنَهُ﴾.

وقرأ الحسن ومن تأول تأويله:

﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ على هذا

المعنى، وهي قراءة السبعة سوى

الكسائي، وقراءة جمهور الناس،

وقال من خالف الحسن بن أبي

الحسن: المعنى: ليس من أهلك

الذين عثمهم الوعد، لأنه ليس على

دينك وإن كان ابنك بالولادة، فمن

قرأ من هذه الفرقة: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ

صَالِحٍ﴾ جعله وصفاً له بالمصدر على

جهة المبالغة فوصفه بذلك، كما

قالت الخنساء تصف ناقه ذهب عنها

ولدها:

وردة جرت حتى جاءت الكعبة فوجدتها قد نَشَرَتْ من الأرض فلم ينلها غرق فطافت بها أسبوعاً، ثم مضت إلى اليمن، ورجعت إلى الجودي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والقصص في هذه المعاني كثير

صعب أن يستوفى، فأشرت منه إلى

بُذ، ويدخله الاختلاف كما ترى في

أمر الكعبة، والله أعلم كيف كان.

﴿وَأَسْرَوْتَ﴾ معناه: تمكنت

واستقرت. وقرأ جمهور الناس:

﴿عَلَى الْجُودِيِّ﴾ بكسر الياء وشدها،

وقرأ الأعمش وابن أبي عبلة: ﴿عَلَى

الْجُودِيِّ﴾ بسكون الياء، وهما

لغتان. وقوله: ﴿وَقِيلَ بَعْدَ﴾ يحتمل

أن يكون من قول الله تعالى عطفاً

على: ﴿وَقِيلَ﴾ الأول، ويحتمل أن

يكون من قول نوح والمؤمنين.

والأول أظهر.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه جملة معطوفة على التي قبلها

دون ترتيب، وذلك أن هذه القصة

كانت في أول ما ركب نوح في

السفينة، ويظهر من كلام الطبري أن

ذلك كان بعد غرق الابن، وهو

محتمل، والأول أليق.

وهذه الآية احتجاج من نوح عليه

السلام، وذلك أن الله أمره بحمل

أهله، وابنه من أهله، فينبغي أن

يحمل، فأظهر الله له أن المراد مَنْ

أَمِنَ مِنَ الْأَهْلِ. ثم حَسَنَ المخاطبة

بقوله: ﴿وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾،

ويقوله: ﴿وَأَنْتَ أَتَمُّ الْمَرْكُوبِينَ﴾، فإن

هذه الأقوال معينة في حُجَّتِهِ، وهذه

الآية تقتضي أن نوحاً عليه السلام

تَزَعُ ما رَتَعَتْ حتى إذا اذْكَرَتْ
فَأَيْمَاهِما هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
أَي: ذات إقبال وإدبار.

وقرأ بعض هذه الفرقة: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ
غَيْرُ صَالِحٍ﴾، وهي قراءة الكسائي،
وروت هذه القراءة أم سلمة وعائشة
عن رسول الله ﷺ. ذكره أبو حاتم،
وضَعَّفَ الطبري هذه القراءة، وطعن
في الحديث بأنه من طريق شهر بن
حوشب. وهي قراءة علي، وابن
عباس، وعائشة، وأنس بن مالك،
ورَجَّحَهَا أبو حاتم. وقرأ بعضهم:
﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ﴾ على قراءة
جمهور السبعة عائد على سؤال نوح
الذي يتضمنه الكلام، وقد فسره آخر
الآية، ويُقَوِّي هذا التأويل أن في
مصحف ابن مسعود: ﴿إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ
صَالِحٍ أَنْ تَسْأَلَنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
عِلْمٌ﴾، وقالت فرقة: الضمير عائد

على ركوب ولد نوح معهم الذي يتضمنه سؤال نوح، المعنى: إن ركوب الكافر مع المؤمنين عملٌ غير صالح. وقال أبو علي: ويحتمل أن يكون التقدير: إن كونك مع الكافرين وتركك الركوب معنا عملٌ غير صالح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل لا يتَّجه من جهة المعنى.

وكل هذه الفرق قال: إن القول بأن الولد كان لغيره وولد فراش خطأ محض، وقالوا: إنه زوي النبي ﷺ أنه ما زنت امرأة نبي قط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الحديث ليس بالمعروف، وإنما هو من كلام ابن عباس رضي الله عنهما، ويُعصده شرف النبوة، وقالوا في قوله عز وجل: ﴿فَمَنَّا هُمْ﴾: إن الواحدة كانت تقول للناس: هو مجنون، والأخرى كانت تنبه على الأضياف، وأما غير هذا فلا. وهذه منازع ابن عباس وحججه، وهو قوله وقول الجمهور من الناس.

وقرأ ابن أبي مليكة: ﴿فَلَا تَسَلَّنِي﴾ بتخفيف النون وإثبات الياء وسكون اللام دون همز، وقرأت فرقة بتخفيف النون وإسقاط الياء وبالهمز ﴿فَلَا تَسَلَّنِي﴾، وقرأ أبو جعفر، وشيبة بكسر النون وشدّها والهمز وإثبات الياء ﴿فَلَا تَسَأَلْنِي﴾، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿فَلَا تَسَأَلُنِي﴾ بفتح النون المشددة، وهي قراءة ابن عباس، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وحزمة،

والكسائي: ﴿فَلَا تَسَلَّنِي﴾ خفيفة النون ساكنة اللام، وكان أبو عمرو يثبت الياء في الوصل، وحذفها عاصم وحزمة في الوصل والوقف. ومعنى قوله: ﴿فَلَا تَسَلَّنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾، أي: إذا وعدتك فاعلم يقيناً أنه لا خلف في الوعد، فإذا رأيت ولدك لم يُحمل فكان الواجب عليك أن تقف وتعلم أن ذلك واجب بحق عند الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن نوحاً عليه السلام حملته شفقة النبوة وسجية البشر على التعرض لفضحات الرحمة والتذكير، وعلى هذا القدر وقع عتابه، ولذلك جاء بتلطف وترفع في قوله: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى لمحمد ﷺ: ﴿فَلَا تَكُونَ﴾، وذلك هنا بحسب الأمر الذي عوتب فيه وعظمته، فإنه لضيق صدره بتكاليف النبوة، وإلا فمقرر أن محمداً ﷺ أفضل البشر وأولاهم بلين المخاطبة، ولكن هذا بحسب الأمرين لا بحسب النبيين. وقال قوم: إنما وقر نوحاً لئسّه، وقال قوم: إنما حمل اللفظ على محمد ﷺ كما يحمل الإنسان على المختص به الحبيب إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف.

ويحتمل قوله: ﴿فَلَا تَسَلَّنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ أي: لا تطلب مني أمراً لا تعلم المصلحة فيه علم يقين. ونحا إلى هذا أبو علي الفارسي وقال: إن ﴿بِهِ﴾ يجوز

أن يتعلق بلفظة ﴿عِلْمٌ﴾ كما قال الشاعر:

كَانَ جَزَائِي بِالْعَصَا أَنْ أُجْلَدَا
ويجوز أن يكون ﴿بِهِ﴾ بمنزلة «فيه» فتعلق الباء بالمستقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختلاف هذين الوجهين إنما هو لفظي، والمعنى في الآية واحد. وزوي أن هذا الابن إنما كان ربيبه، وهذا ضعيف. وحكى الطبري عن ابن زيد أن معنى قوله: ﴿إِنِّي أَعْظَمُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ في أن تعتقد أنني لا أفي لك بوعدٍ وعدتك به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل بشع، وليس في الألفاظ ما يقتضي أن نوحاً اعتقد هذا، وعياداً بالله. وغاية ما وقع لنوح عليه السلام أن رأى ترك ابنه معارضاً للوعد فذكر به، ودعا بحسب الشفقة ليكشف له الوجه الذي استوجب به ابنه الترك في الغرقى.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية فيها إنابة نوح وتسليمه لأمر الله تعالى واستغفاره، والسؤال الذي وقع النهي عليه والاستعادة والاستغفار منه هو سؤال العزم الذي معه محاجة وطلبة ملحة فيما قد حجب وجه الحكمة فيه، وأما السؤال في الأمور على جهة التعلم والاسترشاد فغير داخل في هذا، وظاهر قوله: ﴿فَلَا تَسَلَّنِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ يعم التحوين من السؤال، فلذلك نبهت على أن المراد أحدهما دون الآخر. والخاسرون: هم المغبونون حظوظهم من الخير.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ يٰجُنُودُ أَمِيطْ

بَسَلْتُمْ، كان هذا عند نزوله من السفينة مع أصحابه للانتشار في الأرض، و «السَّلام» هنا: السلامة والأمن ونحوه، و «البركات»: الخير والنمو في كل الجهات. وهذه العِدَّةُ، تم جميع المؤمنين إلى يوم القيامة، قاله محمد بن كعب القرظي. وقوله: ﴿يَمُنُّ مَعَكَ﴾ أي: من ذرية من معك ومن نسلهم، ذ (من) - على هذا - هي لابتداء الغاية، أي: من هؤلاء تكون هذه الأمم، و (من) موصولة، وصلتها مَعَكَ، وما يَقْدَرُ معها نحو قولك: مِمَّنْ اسْتَقَرَّ مَعَكَ، ونحوه. ثم قطع قوله: ﴿وَأُمَّمٌ﴾ على وجه الابتداء إذ كان أمرهم مقطوعاً من الأمر الأول، وهؤلاء هم الكفار إلى يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿يَلَاكُ مِنَ آيَاتِهِ النَّبِيُّ﴾ الآية. إشارة إلى القصة، أي: هذه من الغيوب التي تقادم عهدا ولم يبق علمها إلا عند الله تبارك وتعالى، ولم يكن علمها أو علم أشباهها عندك ولا عند قومك، ونحن نوحينا إليك لتكون لك هداية وأسوة فيما لقيه غيرك من الأنبياء، وتكون لقومك مثلاً وتحذيراً، لئلا يصبهم إذا كذبوك مثل ما أصاب هؤلاء وغيرهم من الأمم المعذبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا المعنى ظهرت فصاحة قولسه: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾، أي: فاجتهد في التبليغ وجد في الرسالة واصبر على الشدائد، واعلم أن العاقبة لك كما كانت لنوح في هذه القصة، وفي

مصحف ابن مسعود: ﴿مَنْ قَبِلَ هَذَا الْقُرْآنَ﴾.

٥٠ - ٥١ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ عَادُوا قَوْمِي﴾ في قصة نوح، و «عاد» قبيلة، وكانت عربياً فيما يذكر، و «هود» عليه السلام منهم، وجعله ﴿أُمَّمٌ﴾ بحسب النسب والقرابة، فإن فرضناه ليس منهم فالأخوة بحسب المنشأ واللسان والجيرة، وأما قول من قال: «هي أخوة بحسب النسب الآدمي» ضعيف.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بِقَوْرٍ﴾ بكسر الميم، وقرأ ابن محيصن: ﴿بِنَا قَوْمٍ﴾ برفع الميم، وهي لغة حكاها سيبويه. وقرأ جمهور الناس: ﴿غَيْرُهُمْ﴾ بالرفع على النعت أو البدل من موضع قوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، وقرأ الكسائي وحده بكسر الراء حملاً على لفظ ﴿إِلَهُ﴾، وذلك أيضاً على النعت أو البدل، ويجوز ﴿غَيْرُهُمْ﴾ نصباً على الاستثناء.

و «مُتَدَلِّكٌ» معناه: كاذبون أفضح كذب في جعلكم الأئوئية لغير الله تعالى. والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على الدعاء إلى الله تبارك وتعالى، والمعنى: ما أجري وجزائي إلا عند الله تعالى، ثم وصفه بقوله: ﴿الَّذِي فَطَرَكُنَّ﴾، فجعلها صفة رادة عليهم في عبادتهم الأصنام، واعتقادهم أنها تفعل، فجعل الوصف بذلك في درج كلامه منبهاً على أفعال الله تعالى، وأنه هو الذي يستحق العبادة، و ﴿نَظَرَ﴾ معناه: اخترع وأنشأ، وقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ توقيف على مجال القول

بأن غير الفاطر إله، ويحتمل أن يريد: أفلا تعقلون إذا لم أطلب عرضاً من أعراض الدنيا أتى إنما أريد النفع لكم والدار الآخرة. والأول أظهر. والاستغفار: طلب المغفرة، وقد يكون ذلك باللسان، وقد يكون بإنابة القلب وطلب الاسترشاد والحرص على وجود المحجة الواضحة، وهذه أحوال يمكن أن تقع من الكفار، فكأنه قال لهم: اطلبوا غفران الله بالإنابة وطلب الدليل في نبوتي، ثم توبوا بالإيمان من كفركم، فيجئ الترتيب - على هذا - مستقيماً، وإلا احتيج في ترتيب التوبة بعد الاستغفار إلى تحيل كثير، فيما أن يكون ﴿تُوبُوا﴾ أمراً بالدوام، و «الاستغفار» طلب المغفرة بالإيمان، وإلى هذا ذهب الطبري، وقال أبو المعالي في «الإرشاد»: التوبة في اصطلاح المتكلمين هي الندم، بعد أن قال: إنها في اللغة الرجوع، ثم ركب على هذا أن قال: إن الكافر إذا آمن ليس إيمانه توبة، وإنما توبته ندمه بعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقول: «إن التوبة عقد في ترك متوب منه يتقدمها علم بفساد المتوب منه وصلاح ما يرجع إليه، ويقترن بها ندم على فارط المتوب منه لا ينفك منه، وهو من شروطها»، فأقول: إن إيمان الكافر هو توبته من كفره لأنه هو نفسه رجوعه.

و «تاب» في كلام العرب معناه: رجع إلى الطاعة والأمثل من الأمور، وتصرّف اللفظة في القرآن بـ «إلى»

عليه البشر... الحديث، وهذا يقتضي بأن هوداً وغيره من الرسل لهم معجزات وإن لم يُعَيِّن لنا بعضها.

وقولهم: ﴿عَنْ قَوْلِكَ﴾، أي: لا يكون قولك سبب تركنا إذ هو مجرد عن آية. وقولهم: ﴿إِنْ نَقُولُ﴾ الآية، معناه: ما نقول إلا أن بعض الآلهة لما سببتنا وصللت عبدتها أصابك بجنون.

يقال: عَرَّ يُعَرِّ، واغترى يعترى إذا أَلَمَ بالشيء، فحينئذ جاهرهم هود عليه السلام بالتبري من أوثانهم، وحضهم على كيدهم وهم وأصنامهم، ويذكر أن هذه كانت له معجزة، وذلك أنه حرض جماعتهم عليه مع انفرادهم وقوتهم وكفرهم فلم يقدرُوا على نياله بسوء. و﴿نُظِّرُونَ﴾ معناه: توخروني، أي: عاجلوني بما قدرتم عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ﴾ الآية. المعنى: إني توكلت على الله الذي هو ربي وربكم مع ضعفي وانفرادي وقوتكم وكثرتكم يمنعي منكم ويحجز بيني وبينكم، ثم وصف قدرة الله تبارك وتعالى وعظم ملكه بقوله: ﴿مَّا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آٰخِذٌ بِأَصْبَاحِكُمْ﴾، وعبر عن ذلك بالناصية إذ هي في العرف حيث يقبض القادر المالك ممن يقدر عليه، كما يقاد الأسير والفرس ونحوه حتى صار الأخذ بالناصية عُرْفاً في القدرة على الحيوان، وكانت العرب تجزئ ناصية الأسير الممنون عليه لتكون تلك علامة أنه

حين رأوا العارض وقولهم: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّظْتَرٌّ﴾، وحضهم على استنزال المطر بالإيمان والإنابة، وتلك عادة الله في عباده، ومنه قول نوح عليه السلام: ﴿اسْتَجِبْ رَأْيَكُمْ إِنَّهُ كَانَ عَفَاكاً يُرْسِلُ السَّمَاءَ عَلَيْكَ يَدْرَأُكَ﴾ ومنه فعل عمر رضي الله عنه حين جعل جميع قوله في الاستسقاء ودعاؤه استغفاراً فسُقي، فسُئِلَ عن ذلك فقال: «لقد استنزلت المطر بمجاديع السماء».

وقوله: ﴿وَزَيَّدَكُمْ قُوَّةً﴾، و﴿زَيَّدَكُمْ قُوَّةً﴾ أي: قُوَّتِكُمْ، ظاهره العموم في جميع ما يُحَسِّنُ الله تعالى فيه إلى العباد، وقالت فرقة: كان الله تعالى قد حبس نسلهم، فمعنى قوله: ﴿وَزَيَّدَكُمْ قُوَّةً﴾ أي: قُوَّتِكُمْ، بالولد. ويحتمل أن خصَّ القوة بالذكر إذ كانوا أقوى العوالم فوعدوا بالزيادة فيما بهروا فيه. ثم نهاهم عن التولّي عن الحق والإعراض عن أمر الله، و﴿مُجْرِمِينَ﴾ حال من الضير في ﴿تَوَلَّوْا﴾.

٥٣ - ٥٤ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ما جئنا بأية تضطرننا إلى الإيمان بك، ونفوا أن تكون معجزاته آية بحسب ظنهم وعماهم عن الحق، كما جعلت قريش القرآن سحراً وشعراً ونحو هذا، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدِ أَوْتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ

إِنْ تَقُولُ إِلَّا أَعْرَضَكَ بَعْضُ الْهَيْبَاتِ سَمِعُوا قَالَ إِنِّي أَشْهَدُ أَنَّ اللَّهَ أَكْبَرُ وَأَشْهَدُ أَنَّ نَبِيَّ بَرِيءٌ مِمَّا تَشْرِكُونَ ﴿٥٣﴾ مِنْ دُونِهِ فَيَكِيدُونِي جَمِيعاً ثُمَّ لَا تُنظِرُونَ ﴿٥٤﴾ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آٰخِذٌ بِأَصْبَاحِكُمْ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٥﴾ إِنْ قَوْلُوا فَهَذَا بَشَرٌ أَتَيْنَاكُمْ مَا أَزِيدُهُمْ إِلَّا كِبْرًا وَسَنُخَلِّفُهُمْ إِنَّ قَوْمًا يَعْبُرُونَ وَلَا تَحْزَنُوا نَسْنَأْ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَحَفِظْهُنَّ وَلَمَّا جَاءَهُمْ أَمْرُنَا نَحْنُ خَيْرٌ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥٦﴾ آمَنُوا مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَنَجِّنَهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ عَادٌ جَعَلُوا بِيَدَيْ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةَ وَيَوْمَ الْيَوْمِ إِلَّا إِنْ عَادَا كَفَرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا بَعْدَ الْعَادِ قَوْمٌ هُودٌ ﴿٥٩﴾ وَإِلَىٰ نُوحٍ أَخَاهُمْ صَدِيقًا قَالِ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِهِ هُوَ أَرْسَلْنَاكَ مِنْ الْأَرْضِ وَأَسْتَعْمِرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُمْ نُوهِوا إِلَيْهِ وَإِنْ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٠﴾ قَالُوا نَصَلِحْ فَذَكَّرْتُ فَمَا مَرْجُوا قَبْلَ هَذَا أَنَّنْهَنَّا أَنْ نَعُدَّ مَا بَعْدَهُ إِنَّا كَارُوا إِنَّا لَنَبِيٍّ لِّسَانِكُمْ فَاسْتَدْعُوا إِلَيْهِ مُخِبِينَ ﴿٦١﴾

يقتضي أنها الرجوع لا الندم، وإنما الندم لاحق لازم التوبة كما قلنا، وحقيقة التوبة ترك مثل ما تيب منه من عزيمة معتقدة على ما فسرناه، والله المستعان.

و﴿يَدْرَأُكَ﴾ هو بناء تكسير، وكان حقه أن تلحقه هاء ولكن حذف على نية النسب، وعلى أن السماء المطر نفسه، وهو من: دَرَّ يَدْرُ، ومفعال قد يكون من اسم الفاعل الذي هو من ثلاثي، ومن اسم الفاعل الذي هو رباعي، وقول من قال: «إِنَّهُ أَلَزَمَ لِلرَّبَاعِيِّ» غير لازم.

ويروى أن «عَاداً» كان الله تعالى قد حبس عنها المطر ثلاث سنين، وكانوا أهل حرب وبساتين وثمار، وكانت بلادهم شرق جزيرة العرب، فلهذا وعدهم بالمطر، ومن ذلك فرحهم

قُدِرَ عليه وقُبِضَ على ناصيته.
والدَّابة: جميع الحيوان، وخص
بالذكر إذ هو صنف المخاطبين
والمتكلم. وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى
صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ يريد أن أفعال الله عزَّ
وجلُّ هي في غاية الإحكام، وقوله
الصدق، ووعدته الحق، فجاءت
الاستقامة في كل ما ينضاف إليه عزَّ
وجلُّ، فعبّر عن ذلك بقوله: ﴿إِنَّ
رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ على تقدير
مضاف.

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

قرأ الجمهور: ﴿تَوَلَّوْا﴾ بفتح اللام
والتاء على معنى «تَوَلَّوْا»، وقرأ
عيسى الثقفي، والأعرج: ﴿تَوَلَّوْا﴾
بضم التاء واللام، و (إن) شرط
والجواب في الفاء وما بعدها من
قوله: ﴿فَقَدْ أَبْلَغْتَ كُفْرَكُمْ﴾، والمعنى: إنه
ما علي كبير هَمٌّ منكم إن توليتم،
فقد برئت ساحتني بالتبليغ، وأنتم
أصحاب الذنب في الإعراض عن
الإيمان، ويحتمل أن يكون ﴿تَوَلَّوْا﴾
فعلاً ماضياً ويجيء في الكلام رجوع
من غيبة إلى خطاب، أي فقل: قد
أبلغتكم.

وقرأ الجمهور: ﴿وَسَيَخْلِفُ﴾ بضم
الفاء على معنى الخير بذلك، وقرأ
عاصم - فيما روى هُبَيْرَةَ عن
حفص -: ﴿وَيَسْتَخْلِفُ﴾ بالجزم
عطفاً على موضع الفاء من قوله:
﴿فَقَدْ﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَصْرُوهُنَّ سَيِّئًا﴾
يحتمل من المعنى وجهين:

أحدهما: ولا تَصْرُوهُنَّ بذهابكم
وهلاككم شيئاً، أي: لا ينتقص ملكه
ولا يختل أمره، وعلى هذا المعنى

قرأ عبدالله بن مسعود: ﴿وَلَا
تَقْصُوهُنَّ شَيْئًا﴾.

والمعنى الآخر: ولا تضره،
أي: ولا تقدرن - إذا أهلككم -
على إضراره بشيء، ولا على
الانتصار منه، ولا تقابلون فعله بكم
بشيء يضره. ثم أخبرهم أن ربه
حفيظ على كل شيء، عالم به.
وفي ترديد هذه الصفات ونحوها
تنبيه وتذكير.

والأمر: واحد الأمور، ويحتمل
أن يكون مصدر أمر يأمر، أي:
أمرنا للريح أو لحزنتها ونحو
ذلك، وقوله: ﴿يَحْتَمِلُ﴾ إما أن
يكون إخباراً مجرداً عن رحمة
من الله لحقتهم، وإما أن يكون
قصداً إلى الإعلام أن النجاة إنما
كملت بمجرد رحمة الله لا
بأعمالهم، فتكون الآية - على هذا
- في معنى قول رسول الله ﷺ:
﴿لَا يَدْخُلُ أَحَدُ الْجَنَّةِ بِعَمَلِهِ﴾،
قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟
قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله
يفضل منه ويرحمته». وقوله:

﴿وَيَجْتَنِبُكُمْ مِنَ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ يحتمل
أن يريد عذاب الآخرة، ويحتمل
أن يريد: وكانت النجاة المتقدمة
من عذاب غليظ، يريد: الريح،
فيكون المقصود - على هذا -
تعديد النعمة. ومشهور عذابهم
بالريح هو أنها كانت تحملهم
وتهدم مساكنهم وتنسفها، وتحمل
الظعينة كما هي، ونحو هذا،
وحكى الزجاج أنها كانت تدخل
في أبدانهم وتخرج من أديبارهم

وتقطعهم عضواً عضواً.

وتعدى: ﴿جَحَدُوا﴾ بحرف جر
لما نُزِّلَ منزلة «كفروا»، وانعكس
ذلك في الآية بعد هذا، وقوله:
﴿وَعَصَوْا رَسُولَهُ﴾ شُنعة عليهم،
وذلك أن في تكذيب رسول واحد
تكذيب سائر الرسل وعصيانهم، إذ
الثبوتات كلها مجمعة على
الإيمان بالله والإقرار بربوبيته،
ويحتمل أن يراد هودٌ وآدم ونوح
عليهم السلام.

و «الْعُنَيْدُ» فِعْلٌ مِنْ عَنَدٍ إِذَا عَنَّا،
ومنه قول الشاعر:

إِنِّي كَبِيرٌ لَا أَطِيقُ الْعُنْدَا

أي الصعاب من الإبل، وكان
التجبر والعناد من خُلِقَ عاد
لقوتهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَعُوا فِي كَذِبِ اللَّهِ نِيًّا
لَتَنذِرْنَا الْآيَةَ. حُكِمَ عليهم بهذا
الحكم لكفرهم وإصرارهم حتى حلَّ
العذاب بهم، واللعنة: الإبعاد
والخزي، وقد تيقن أن هؤلاء وافوا
على الكفر، فيلعن الكافر موافق
على كفره، ولا يلعن معين حي، لا
مِنَ كَافِرٍ وَلَا مِنِ فَاسِقٍ وَلَا مِنِ
بهيمة، كل ذلك مكروه بالأحاديث،
و﴿يَوْمٍ﴾ ظرف معناه أن اللعنة عليهم
في الدنيا وفي يوم القيامة، ثم
ذكرت العلة الموجبة لذلك وهي
كفرهم برّبهم، وتعدى «كَفَرًا» بغير
الحرف إذ هو بمعنى جحدوا، كما
تقول: شكرت لك وشكرتك. وكفر
نعمته وكفر بنعمته، و﴿بَعْدًا﴾
منصوب بفعل مقدر وهو مقام ذلك
الفعل.

فمعنى «مرجؤ» أي: مرجؤ أطراحه
وغلبته ونحو هذا، فيكون ذلك على
جهة الاحتقار، فلذلك فُسر بحقير،
ويشبه هذا المعنى قول أبي سفيان بن
حرب «لَقَدْ أَمْرُ أَمْرِ ابْنِ أَبِي
كَبْشَةَ... الحديث، ثم يجيء
قولهم: «أَتَهَنَّا» على جهة التوعّد
والاستشناع لهذه المقالة منه.

و «مَا يَبْدُءُ أَبَاتًا» يريدون به
الأوثان والأصنام، ثم أوجبوا أنهم
في شك من أمره وأقاييله، وأن ذلك
الشك يرتابون به زائداً إلى مرتبته من
الشك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا فرق بين هذه الحال وبين حالة
التصميم على الكفر. و«ثريب»
معناه: مُلبس مُتهم، ومنه قول
الشاعر:

يَا قَوْمَ مَالِي وَأَبَا ذُو نِبِ
كُنْتُ إِذَا أَتَيْتُهُ مِنْ غَيْبِ
يَسْتُمُّ عِطْفِي وَيَبْزُ ثُرَيْبِي
كَأَنَّي أَرْبُنْتُ بِرَيْبِ

(١٢٧) - (١٢٨) تفسير قوله عز وجل:
قوله: «أَرَيْتَهُ» هو من رؤية
القلب، أي: أتدبرتم؟ والشرط الذي
بعده وجوابه يسد مسد مفعولين لـ
«أَرَيْتَهُ»، والبيّنة: البرهان واليقين،
والهاء في «يَبْزُ» للمبالغة، ويحتمل
أن تكون هاء تأنيث، والرحمة في
هذه الآية: الثبوت وما انضاف إليها،
وفي الكلام محذوف تقديره:
أَيضْرُنِي شُكُّكُمْ؟ أو: أَيْمُكُنِّي
طاعتكم؟ ونحو هذا مما يليق بمعنى
الآية.

وقوله: «فَأَرَيْدُنِي غَيْرَ تَخْيِيرِ»
معناه: فما تُعطينني فيما أقتضيه

وفيها ما يكسر فيه
الوجهان كشمود وسبأ،
فالقراءتان هنا فصيحتان
مستعملتان. وقرأت فرقة:
«غَيْرُهُ» برفع الراء، وقرأ
الكسائي: «غَيْرِهِ» بكسر
الراء، وقد تقدم آنفاً.

و «أَنْتَاكَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ»
أي: اخترعكم وأوجدكم،
وذلك باختراع آدم عليه
السلام، فكان إنشاء آدم
إنشاء لبنيه، «وَأَسْتَعْمَرَكُمْ»
أي: اتخذكم عمّاراً، كما
تقول: استكتب
واستعمل، وذهب قوم
إلى أنها من العُمر، أي
عَمَرَكُمْ، وقد تقدم مثل
قوله: «فَأَسْتَفْرُهُ ثُمَّ تَوَبَّأُ إِلَيْهِ».

«إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ» أي: إجابته
وغفرانه قريب ممن آمن وأتاب،
و«مُجِيبٌ» معناه: بشرط المشيئة.
والظاهر الذي حكاه جمهور
المفسرين أن قوله: «مَرْجُؤًا» معناه:
مُسَوِّدًا، نؤمل فيك أن تكون سيداً
مسدّ الأكابر. ثم قرّره - على جهة
التوبيخ في زعمهم - بقولهم:
«أَتَهَنَّا»، وحكى النقاش عن
بعضهم أنه قال: معناه: حقيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فأما أن يكون لفظ «مَرْجُؤًا» بمعنى
حقير فليس ذلك في كلام العرب،
وإنما يتجه ذلك على جهة التفسير
للمعنى، وذلك أن القصد بقولهم:
«مَرْجُؤًا» يكون: لقد كنت فينا سهلاً
مرامك قريباً ردّ أمرك، وممن لا يظن
أن يستفحل من أمره مثل هذا،

قَالَ يُعْقِرُونَ أَرَهُ يَسْتُرَانِ كُنْتُ عَلَى يَسْرٍ مِنْ رَبِّي وَءَاثَنِي
مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَضُرُّنِي مِنْ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ هَذَا زَيْدُنِي
غَيْرَ تَخْيِيرِ ﴿١٢٧﴾ وَيُعْقِرُونَ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ
فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا وَسُوءَ مَا أَخَذَ كُرْ
عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿١٢٨﴾ فَمَقَرُّوهَا فَقَالَ تَمَعْمُوا فِي دَارِكُمْ
ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعَدَّ عَزْرٌ مَكْدُوبٌ ﴿١٢٩﴾ فَلَمَّا جَاءَهُ
أَمْرًا نَجِيحًا صَلِّحَا وَالذَّبِّ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنْهَا
وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿١٣٠﴾ وَأَخَذَ
الذَّبِّ ظَلَمُوا الصَّبِيحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ حَبِيبِينَ
﴿١٣١﴾ كَانَ لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا الْإِنَّا نَمُودَا كَفَرُوا وَرَأَيْتُمُ الْأَمْعِدَا
لِنَمُودَ ﴿١٣٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبَشْرَى قَالُوا
سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَهُ بِعِجَلٍ حَنِينٍ ﴿١٣٣﴾ فَلَمَّا
رَأَى الْآيَاتِ يَوْمَ لَا تُصَلِّ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً
قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ قَوْمَ لُوطٍ ﴿١٣٤﴾ وَأَمْرًا لَهُ قَائِمَةٌ
فَصَاحَكَ فِشْرَتِهَا إِسْحَاقُ وَمِنْ رَأْيِهِ إِسْحَاقُ يُعْقِبُ ﴿١٣٥﴾

(١٢٧) - (١٢٨) تفسير قوله عز وجل:

التقدير: وأرسلنا إلى نمود، وقد
تقدم القول في مثل هذا وفي معنى
الأخوة في قصة هود. وقرأ
الجمهور: «وَأَيْكَ نَمُودُ» بغير صرف،
وقرأ ابن وثاب، والأعمش: «وَأِلَى
نَمُودُ» بالصرف حيث وقع، فالأولى
على إرادة القبيلة، والثانية على إرادة
الحي، وفي هذه الألفاظ الدالة على
الجموع ما يكسر فيه إرادة الحي
كقريش وثقيف وما لا يقال فيه: بنو
فلان، وفيها ما يكسر فيه إرادة القبيلة
كتميم وتغلب، ألا ترى أنهم
يقولون: «تغلب ابنة وائل»، وقال
الطرمّاح:

.....
إِذَا نَهَلْتِ مِنْهُ تَمِيمٌ وَعَلَيْتِ
وقول الآخر:
تَمِيمٌ بِنُ مَرْ وَأَشْيَاعُهَا

ويمكن أن يُسمى جميع مسكن الحي داراً، والثلاثة الأيام تعجيز قاسٍ الناس عليه الإعذار إلى المحكوم عليه ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك عندي مفترق، لأنها في المحكوم عليه والغارم في الشفعة ونحوه توسعة، وهي هنا توقيف على الخزي والتعذيب. وروى قتادة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لو سعدتم على القارة لرأيتم عظام الفصيل».

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الأمر جائز أن يراد به المصدر من أمر، وجائز أن يراد به واحد الأمور. وقوله: ﴿رَحِمْنَا نَسًا﴾ يحتمل أن يقصد أن الشجبة إنما كانت بمجرد الرحمة، ويحتمل أن يكون وصف حال فقط، أخبر أنه رحمهم في حال الشجبة. وقوله: ﴿مِنَّا﴾ الظاهر أنه متعلق بـ ﴿رَحِمْنَا﴾، ويحتمل أن يتعلق بقوله: ﴿رَحِمْنَا﴾.

وقرأت فرقة: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ﴾ بتنوين ﴿خِزْيِ﴾ وفتح الميم من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وذلك يجوز فيه أن تكون فتحة الميم إعراباً، ويجوز أن يكون ببناء الظرف لما أضيف إلى غير متمكن، فأنت مُخَيَّر في الوجهين، والروايتان في قول الشاعر:

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمُشَيْبَ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ: أَلَمَّا أَضْحَ وَالشَّيْبُ وَازِع؟
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَمِنْ خِزْيِ يَوْمَئِذٍ﴾ بإضافة ﴿خِزْيِ﴾ وكسر الميم من ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وهذا توسع في إضافة المصدر إلى

عليه السلام من رُغَاءِ الفصيل على جبل القارة، وأضاف العقر إلى جميعهم لأن العاقر كان منهم، وكان عن رضى منهم وتمالؤ، وعاقرها «قدار»، ورؤي في خبر ذلك أن صالحاً أوحى إليه أن قومك سيعقرون الناقة وينزل بهم العذاب عند ذلك، فأخبرهم بذلك فقالوا: عياداً بالله أن نفعل ذلك، فقال: إن لم تفعلوا أنتم ذلك أوشك أن يولد فيكم من يفعله، وقال لهم: صفة عاقرها أحمر أزرق أشقر، فجعلوا الشرط مع القَوَائِلِ وأمرهم بتفقد الأطفال، فمن كان على هذه الصفة قُتِل، وكان في المدينة شيخان شريفان عزيزان، وكان لهذا ابن ولهذا بنت، فتصاهروا فولد بين الزوجين «قدار» على الصفة المذكورة، فهم الشرطه يقتله فمنع منه جداه حتى كبر فكان الذي عقرها بالسيف في عراقبها، وقيل: بالسهم في ضرعها، وهرب فصيلها عند ذلك، فصعد على جبل يقاله: القارة، فَرُغَا ثلاثاً، فقال صالح: هذا ميعاد ثلاثة أيام للعذاب، وأمرهم قبل رُغَاءِ الفصيل أن يطلبوه عسى أن يصلوا إليه فيرد العذاب به، فراموا الصعود إليه في الجبل فارتفع الجبل إلى السماء حتى ما تناله الطير، وحينئذ رغا الفصيل.

وقوله: ﴿فِي دَارِكُمْ﴾ هي جمع «دارة» كما تقول: ساحةٌ وساحٌ وسوخٌ، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

لَهُ دَاعٍ بِمَكَّةَ مُشْمِعِلٌ
وَأَخْرُ عَشْدَ دَارَتِهِ يُسْنَادِي

منكم من الإيمان وأمركم به من الإنابة غير تخسير لأنفسكم، وهو من الخسارة، وليس التخسير في هذه الآية إلا لهم وفي حيزهم. وأضاف الزيادة إليه من حيث هو مقتض لأقوالهم مُؤَكَّلٌ بإيمانهم، كما تقول لمن توصيه: «أنا أريد بك خيراً وأنت تُريد بي شراً»، فكان الوجه البين: «وأنت تُريد شراً» ولكن من حيث كنت مُريد خيراً ومقتض ذلك - حسن أن تضيف الزيادة إلى نفسك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَكْفُرُ بِهِ نَاقَةُ اللَّهِ﴾ الآية. اقتضب في هذه الآية ذكر أول أمر الناقة، وذلك أنه رؤي أن قومه طلبوا منه آية تضطرهم إلى الإيمان فأخرج الله جلَّت قدرته لهم الناقة من الجبل، ورؤي أنهم اقترحوا تعيين خروج الناقة من تلك الصخرة، فرؤي أن الجبل تمخض كالحامل وانصدع الحجر وخرجت منه ناقة بفصيلها، ورؤي أنها خرجت عُشراء ووضعت بعد خروجا فوقفهم صالح وقال لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ﴾، ونصب ﴿آيَةٌ﴾ على الحال.

وقرأت فرقة: ﴿تَأْكُلُ﴾ بالجزم على جواب الأمر، وقرأت فرقة: ﴿تَأْكُلُ﴾ على طريق القطع والاستئناف، أو على أنه الحال من الضمير في ﴿فَدَرَوْهَا﴾، وقوله: ﴿وَلَا تَسْهَوْا يَوْمَ﴾ عامٌ في العقر وغيره، وقوله: ﴿فَأَعَدُّ عَدَاةً قَرِيبًا﴾ هذا بوحي من الله إليه أن قومك إذا عقروا الناقة جاءهم عذاب قريب المدة من وقت المعصية، وهي الأيام الثلاثة التي فهمها صالح

وَرَوَى أَن جبريل منهم كان مختصاً بإهلاك قرية لوط، وميكائيل كان مختصاً بتبشير إبراهيم بإسحاق، وإسرافيل مختصاً بإنجاء لوط ومن معه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية تقضي باشتراكهم في الإشارة بإسحاق. وقالت فرقة - وهي الأكثر -: البُشْرَى هي بإسحاق، وقالت فرقة: البُشْرَى هي بإهلاك قوم لوط. وقوله: ﴿سَلَكْنَا﴾ نصب على المصدر، والعامل فيه فعل مضمَر من لفظه كأنه قال: أسلم سلاماً، ويصح أن يكون ﴿سَلَكْنَا﴾ حكاية لمعنى ما قاله لا للفظهم، قاله مجاهد والسدي. فلذلك عمل فيه القول، كما تقول لرجل قال: «لا إله إلا الله»: «قلت حقاً أو إخلاصاً»، ولو حكيت لفظه لم يصح أن تعمل فيه القول، وقوله: تبارك وتعالى: ﴿قَالَ سَلَّمَ﴾ حكاية لِللَّفْظَةِ. و﴿سَلَّمَ﴾ مرتفع إما على الابتداء والخبر محذوف تقديره: عليكم، وإما على خبر ابتداء محذوف تقديره: أمري سلام، وهذا كقوله تعالى: ﴿فَصَبَّرَ جَبِيلًا﴾، إما على تقدير: فأمرني صبر جميل، وإما على تقدير: فصبر جميل أجمل.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿قَالُوا سَلَكْنَا﴾ قَالَ سَلَّمَ، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَّمَ﴾ وكذلك اختلافهم في سورة الذاريات، وذلك على وجهين: يحتمل أن يريد به السلام بعينه، كما قالوا: حلّ وحلالّ

وذكر الفعل المسند إلى الصيحة إذ هي بمعنى الصياح، وتأنيتها غير حقيقي، وقيل: جاز ذلك وهو مؤنثة لما فصل بين الفعل وبينها، كما قالوا: «حضر القاضي اليوم امرأة»، والأول أصوب، والصيحة إنما تجيء مستعملة في ذكر العذاب لأنها فُعْلَةٌ تدل على مرّة واحدة شادة، والصياح مصدر متناول، وشذ في كلامهم قولهم: «لقيته لقاءً واحدة»، والقياس: لقيته و﴿جَبِيلِينَ﴾ أي: باركين قد صعق بهم، وهو تشبيه بجشوم الطير، وبذلك يشبه جشوم الأنثى وجشوم الرماح.

و﴿يَنْتَوًّا﴾ مضارع من غني في المكان إذا أقام فيه في خفض عيش، وهي المغاني، وقرأ حمزة وحده: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودَ﴾ وكذلك في «الفرقان»، والعنكبوت، والنجم»، وصرّفها الكسائي كلها وقوله: ﴿أَلَا بُدَا لَثَمُودَ﴾، واختلف عن عاصم، فروى عنه حفص ترك الإجراء كحمزة، وروى عنه أبو بكر إجراء الأربعة وتزكّه في قوله: ﴿أَلَا بُدَا لَثَمُودَ﴾، وقرأ الباقون: ﴿أَلَا إِنَّ ثَمُودًا﴾ فصرّفت، ﴿أَلَا بُدَا لَثَمُودَ﴾ غير مصروف، والقراءتان فصيحتان، وكذلك صرفوا في «الفرقان»، والعنكبوت، والنجم».

٦٩ - ٧٠ تفسير قوله عز وجل:

الرُّسُلُ: الملائكة، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقالت فرقة بدل إسرائيل: عزرائيل ملك الموت.

الظرف، كما قال: ﴿مَكْرُ أَيْلٍ وَالنَّهَارِ﴾، ونحو هذا. وقياس هذه القراءة أن يقال: «سير عليه يومئذ» برفع الميم، وهذه قراءةهم في قوله تعالى: ﴿مِنَ عَذَابِ يَوْمِيذٍ﴾، و﴿مِنَ فَرَجِ يَوْمِيذٍ﴾. وقرأ عاصم، وحمزة كذلك إلا في قوله: ﴿مِنَ فَرَجِ يَوْمِيذٍ﴾ فإنهما نَوَّنَا العين وفتحوا الميم، واختلفت عن نافع في كسر الميم وفتحها، وهو يضيف في الوجهين، وقرأ الكسائي: ﴿مِنَ خِزْيِ يَوْمِيذٍ﴾ بترك التنوين وفتح الميم من ﴿يَوْمِيذٍ﴾ وهذا جمع بين الإضافة وبناء الظرف، وقرأ: ﴿وَمِنَ فَرَجٍ كَعَاصِمٍ وَحَمْزَةً، وَأَمَّا (إِذٍ) فَكَانَ حَقًّا (إِذٍ) سَاكِنَةً إِلَّا أَنهَا مِنْ حَقِّهَا أَن تَلِيهَا الْجَمَلُ، فَلَمَّا حَذَفَتْ لَهَا هَا هُنَا الْجُمْلَةُ عُوضَتْ بِالتَّنْوِينِ، وَالْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: ﴿يَوْمِيذٍ﴾ إِلَى يَوْمِ التَّعْذِيبِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخَذَ الذَّيْبُ ظَلْمُوا الصَّيْحَةَ﴾ الآية. روي أن صالحاً عليه السلام قال لهم حين رغا الفصيل: ستصفر وجوهكم في اليوم الأول، وتحمر في الثاني، وتسود في الثالث، فلما كان كذلك تكفنا في الأنطاع واستعدوا للهلاك، وأخذتهم صيحة فيها من كل صوت مهول، صدعت قلوبهم وأصابت كل من كان منهم في شرق الأرض وغربها، إلا رجلاً كان في الحرم فمنعه الحرم من ذلك، ثم هلك بعد ذلك، ففي مصنف أبي داود: قيل: يا رسول الله من ذلك الرجل؟ قال: «أبو رغال».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، وخلافه في السير،

وحرم وحرام، ومن ذلك قول الشاعر:

مَرَزْنَا فَعَلْنَا بِهِ سِلْمًا فَسَلَّمَتْ
كَمَا اِكْتَلَّ بِالْبَرْقِ الْعَمَامُ اللُّوَانِخُ
اِكْتَلَّ: اتَّخَذَ اِكْلِيلًا أَوْ نَحْوَ هَذَا،
قال الطبري: وَرُوي: «كَمَا اِكْتَلَّ»،
ويحتمل أن يريد بالسلم: ضد
الحرب، تقول: نحن سِلْمٌ لكم.
وكان سلام الملائكة دعاءً مرجوًّا،
فلذلك نصب، وحيًا الخليل بأحسن
مما حُبِّي وهو الثابت المتقرر،
ولذلك جاء مرفوعاً.

وقوله: ﴿فَمَا لَيْتَ أَنْ جَاءَ﴾، يصح
أن تكون (ما) نافية، وفي ﴿لَيْتَ﴾
ضمير إبراهيم، و﴿أَنْ جَاءَ﴾ في
موضع نصب، أي: بأن جاء.
ويصح أن تكون (ما) نافية، و﴿أَنْ
جَاءَ﴾ بتأويل المصدر في موضع رفع
بـ ﴿لَيْتَ﴾. أي: ما لبث مجيئه،
وليس في ﴿لَيْتَ﴾ - على هذا -
ضمير إبراهيم، ويصح أن تكون (ما)
بمعنى الذي، وفي ﴿لَيْتَ﴾ ضمير
إبراهيم، و﴿أَنْ جَاءَ﴾ خبر (ما)، أي:
فلبث إبراهيم مجيئه بعجل حنيد،
وفي أدب الضيف أن يُعَجَّلَ قِرَاهُ مِنْ
هذه الآية.

وَالْحَنِيدُ بمعنى المحنود، ومعناه:
بعجل مشوي نضج يقطر ماؤه، وهذا
القطر يفصل الحنيد من جملة
المشويات، ولكن هيئة المحنود في
اللغة الذي يُعْطَى بحجارة أو رمل
محمي أو حائل بينه وبين النار يُعْطَى
به، وَالْمُعْرَضُ من الشواء: الذي
يصفى على الجمر، وَالْمُهَضَّبُ:
الشواء الذي بينه وبين النار حائل
يكون الشواء عليه لا مدفوناً به،

والتحنيد في تضمير الخيل هو أن
يُعْطَى الفرس بِجُلٍّ على جُلٍّ ليتصَبَّبَ
عَرَقُهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ﴾
الآية، رُوي أنهم كانوا يتكئون بفداح
كانت في أيديهم في اللحم ولا تصل
أيديهم إليه، وفي هذه الآية من أدب
الطعام أن لصاحب الضيف أن ينظر
من ضيفه هل يأكل أم لا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وذلك ينبغي أن يكون بتلقت
ومسارقة لا بتحديد النظر، فروي أن
أعرابياً أكل مع سليمان بن
عبد الملك، فرأى سليمان في لقمة
الأعرابي شعرة فقال له: أزل الشعرة
عن لقمتك، فقال له: أنتظر إليّ نظر
من يرى الشعرة في لقمتي؟ والله لا
أكلت معك.

و ﴿نَكِرْتُمْ﴾ - على ما ذكر كثير
من الناس - معناه: أنكروهم،
واستشهد لذلك بالبيت الذي نَحَلَهُ
أبو عمرو بن العلاء الأعشى، وهو:
وَأَنْكَرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكِرْتُ
مِنْ الْحَوَادِثِ إِلَّا الشَّيْبَ وَالصَّلْعَا
وقال بعض الناس: (نَكِرَ) هو
مستعمل فيما يُرى بالبصر فينكر،
(وَأَنْكَرَ) هي مستعملة فيما لا يقرر
من المعاني، فكان الأعشى قال:
وَأَنْكَرْتَنِي مَوْدَتِي وَأَذْمَتِي وَنَحْوَهُ، ثم
جاء بـ (نكر) في الشيب والصلع
الذي هو مرئي بالبصر، ومن هذا
قول أبي ذؤيب:

فَنَكِرْتُهُ فَتَفَرَّنَ وَامْتَرَسَتْ بِهِ
هَوِجَاءُ هَادِيَةٌ وَهَادٍ جُرْشَعُ
والذي خاف منه إبراهيم عليه
السلام ما يدل عليه امتناعهم من

الأكل، فَعُرِفَ من جاء بِشَرٍّ أَلَا يَأْكُلُ
من طعام المنزل به، و﴿وَأَوْجَسَ﴾
معناه: أَحْسَنَ في نفسه خيفة منهم،
والوجيس: ما يعترى النفس عند
الحذر وأوائل الفزع، فأمنوه بقولهم:
﴿لَا تَخَفْ﴾، وعلم أنهم الملائكة.

ثم خرجت الآية إلى ذكر المرأة
وبشارتها، فقالت فرقة: معناه: قائمة
خلف ستر تسمع محاوراة إبراهيم مع
أضيافه، وقالت فرقة: معناه: قائمة
في صلاة. وقال السدي: معناه:
قائمة تخدم القوم، وفي قراءة ابن
مسعود: ﴿وهي قائمة وهو جالس﴾.
وقوله: ﴿فَضَحِكْتَ﴾، قال مجاهد:
معناه: حاضت، وأنشد على ذلك
اللغويون:

وِضْحُكَ الْأَرَانِبِ فَوْقَ الصُّفَا
كَمِثْلِ دَمِ الْجَوْفِ يَزُمُ اللَّفَا
وهذا القول ضعيف قليل التمكن،
وقد أنكروا بعض اللغويين أن يكون
في كلام العرب ضحكت بمعنى
حاضت، وقرره بعضهم، ويقال:
ضحك الحوض إذا امتلأ وفاض،
وردة الرُجَاج قول مجاهد، وقال
الجمهور: هو الضحك المعروف،
واختلاف، مِمَّ ضَحِكْتَ؟ فقالت
فرقة: ضحكت من تأميتهم لإبراهيم
بقولهم: ﴿لَا تَخَفْ﴾، وقال قتادة:
ضحكت هزواً من قوم لوط أن
يكونوا على غفلة وقد نفذ من
أمر الله تعالى فيهم ما نفذ، وقال
وهب بن مُثَبِّ: ضحكت من البشارة
بإسحاق، وقال: هذا مقدم بمعنى
التأخير، وقال محمد بن قيس:
ضحكت لظنها بهم أنهم يريدون
عمل قوم لوط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول خطأ لا ينبغي أن يلتفت إليه، وقد حكاه الطبري، وإنما ذكرته لمعنى التنبيه على فساده.

وقالت فرقة: ضحكت من فرغ إبراهيم من ثلاثة وهي تعهده يغلب الأريعين من الرجال، وقيل: الجائفة، وقال السدي: ضحكت من أن تكون تخدم وإبراهيم يحتد ويسعى والأضياف لا يأكلون، وقيل: ضحكت سروراً بصدق ظنها، لأنها كانت تقول لإبراهيم: إنه لا بد أن ينزل العذاب بقوم لوط، ورؤي أن الملائكة مسحت العجل فقام حيًا فضحكت لذلك، وقرأ محمد بن زياد الأعرابي: ﴿فَضَحَكْتُ﴾ بفتح الحاء.

وامرأة إبراهيم هذه هي سارة بنت هارون بن ناحور، وهو إبراهيم بن آزر بن ناحور، فهي ابنة عمه، وقيل: هي أخت لوط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما أظن ذلك إلا أخوة القرابة لأن إبراهيم هو عم لوط فيما روي.

وذكر الطبري أن إبراهيم لما قدم العجل قالوا له: إنا لا نأكل طعاماً إلا بشمن، فقال لهم: ثمنه أن تذكروا الله تعالى عليه في أول وتحمدوه في آخر، فقال جبريل لأصحابه: بحق اتخذ الله هذا خليلاً.

وقوله تعالى: ﴿فَبَشَّرْنَاهَا﴾، أضاف فعل الملائكة إلى ضمير اسم الله تعالى إذ كان ذلك بأمره ووحيه،

ويشر الملائكة سارة بإسحاق وبأن إسحاق سيلد يعقوب، وتسمى ولد الولد الولد من الوراء، وهو قريب من معنى (وراء) في الظرف، إذ هو ما يكون خلف الشيء وبعده، ورأى ابن عباس رجلاً معه شاب، فقال له: من هذا؟ فقال له: ولد ولدي، فقال: هو ولدك من الوراء فغضب الرجل فذكر له ابن عباس الآية.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿يَعْقُوبُ﴾ بالرفع على الابتداء والخبر المقدم، وهو - على هذا - داخل في البشري، وقالت فرقة: رفعه على القطع بمعنى: ومن وراء إسحاق يحدث يعقوب، وعلى هذا لا يدخل في البشارة، وقرأ ابن عامر، وحسمزة: ﴿يَعْقُوبُ﴾ بالنصب، واختلف عن عاصم، فمنهم من جعله معطوفاً على ﴿إِسْحَاقَ﴾ إلا أنه لم ينصرف، واستسهل هذا القائل أن فرق بين حرف العطف والمعطوف بالمجرور، وسيبويه لا يجيز هذا إلا على إعادة حرف الجر، وهو كما تقول: ﴿مَرَّرْتُ بِزَيْدٍ الْيَوْمَ وَأَمْسَ عَمْرُو، فَالْوَجْهَ عِنْدَهُ: وَأَمْسَ بِعَمْرُو، وَإِذَا لَمْ يُعَدِّ فِيهِ كَبِيرٌ قَبْحَ، وَالْوَجْهَ فِي نَصْبِهِ أَنْ يَنْتَصِبَ بِفِعْلِ مَضْمَرٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ الْبِشَارَةُ وَتَقْدِيرُهُ: وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ وَهَبْنَا يَعْقُوبَ، وَهَذَا رَجَّحَ أَبُو عَلِيٍّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورؤي أن سارة كانت في وقت هذه

البشارة بنت تسع وتسعين سنة، وإبراهيم ابن مائة سنة.

وهذه الآية تدل على أن الذبيح هو إسماعيل، وأنه أسن من إسحق، وذلك أن سارة كانت في وقت إعدام الملك الجائر هاجر أم إسماعيل امرأة شابة جميلة حسباً في الحديث، فاتخذها إبراهيم عليه السلام أم ولد فغارت لها سارة، فخرج بها وبابنها إسماعيل من الشام على البراق، وجاء من يومه مكة فتركها - حسبما في السير - وانصرف إلى الشام من يومه ثم كانت البشارة بإسحاق وسارة عجوز مُتَجَالَّة، وأما وجه دلالة الآية على أن إسحاق ليس بالذبيح فهو أن سارة وإبراهيم بُشِّرا بإسحاق وأنه يولد له يعقوب، ثم أمر بالذبح حين بلغ ابنه معه السعي، فكيف يؤمر بذبح وليد قد بُشِّرَ قَبْلُ أنه سيولد لابنه ذلك؟ وأيضاً فلم يقع قط في أثر أن إسحق دخل الحجاز، وإجماع أن أمر الذبيح كان بمنى، ويؤيد هذا الغرض قول رسول الله ﷺ: «أنا ابن الذبيحين» يريد أباه عبدالله وأباه إسماعيل، ويؤيده ما نزع إليه مالك رحمه الله من الاحتجاج برتبة سورة الصفات فإنه بعد كمال أمر الذبيح قال: ﴿وَكَبَّرْتَهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنْ الصَّالِحِينَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا كله موضع معارضات لقائل القول الآخر: إن الذبيح هو إسحاق، ولكن هذا الذي ذكرناه هو الأرجح، والله أعلم.

٧١ - ٧٢ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في الألف التي في قوله: ﴿يَتَوَلَّوْا﴾، وأظهر ما فيها أنها بدل ياء الإضافة، أصلها: «يا وَيَتَوَلَّيْتِي»، كما تقول: يا غلاما ويا غوثا، وقد تردف هذا الألف بهاء في الكلام، ولم يُقرأ بها، وأمال هذه الألف عاصم، والأعمش، وأبو عمرو.

ومعنى ﴿يَتَوَلَّوْا﴾ في هذا الموضع: العبارة عما دهم النفس من العجب في ولادة عجوز، وأصل هذا الدعاء بالويل ونحوه في التمجع لشدة أو مكروه يهيم النفس، ثم استعمل بعد في عجب يدهم النفس، وقال قوم: إنما قالت: «يا وَيَتَوَلَّيْتِي» لما مر بفكرها من ألم الولادة وشدها، ثم رجعت بفكرها إلى التعجب ونطقت بقولها: ﴿هَذَا الَّذِي كُنَّا نَعْبُورُ﴾ الآية.

وقرأت فرقة: ﴿هَذَا الَّذِي﴾ بتحقيق الهمزتين، وقرأت فرقة بتخفيف الأولى وتحقيق الثانية، وفي النطق بهذه عُسْرٌ، وقرأت فرقة بتحقيق الأولى وتخفيف الثانية، والتخفيف هنا مدها، وقرأت فرقة: ﴿هَذَا الَّذِي﴾ بتحقيق الهمزتين ومدّة بينهما.

والعجوز: المُسِنَّةُ، وقد حكى بعض الناس أن العرب تقول: العجوزة. و«البغل»: الزوج، و«تَيَّيْتًا» نصب على الحال، وهي حال من مُشار إليه لا يستغنى عنها لأنها مقصود الإخبار، وهي لا تصح إلا إذا لم يقصد المتكلم التعريف بذي الحال، مثل أن يكون المخاطب يعرفه، وأما إذا قصد التعريف به لزم أن يكون التعريف في الخبر قبل

الحال وتجيء الحال على بابها مستغنى عنها، ومثال هذا قولك: «هذا زيد قائما» إذا أردت التعريف بزيد، أو كان معروفاً وأردت التعريف بقيامه، وأما إن قصد المتكلم أن يزيدته إنما هي ما دام قائما فالكلام لا يجوز.

وقرأ الأعمش: ﴿وهَذَا بَغْلِي شَيْخٌ﴾، قال أبو حاتم: وكذلك في مصحف ابن مسعود، ورفع على وجوه: منها: أنه خبر بعد خبر كما تقول: «هذا حلسو حامض»، ومنها: أن

يكون خبر ابتداءٍ مضمّر تقديره: هو شيخ، وزوي أن بعض الناس قرأه: ﴿وهَذَا بَغْلِي هَذَا شَيْخٌ﴾، وهذه القراءة شبيهة بهذا التأويل، ومنها: أنه بدل من «بغلي»، ومنها، أن يكون قولها: «بغلي» بدلاً من «هَذَا» أو عطف بيان عليه، ويكون (شيخ) خبر «هَذَا»، ويقال: شيخ وشيخة، وبعض العرب يقول في المذكر والمؤنث: شيخ، وزوي أن سارة كانت وقت هذه المقالة من تسع وتسعين سنة، وقيل: من تسعين، قاله ابن إسحاق، وقيل: من ثمانين، وكذلك قيل في سن إبراهيم: إنه كان مائة وعشرين سنة، وقيل: مائة سنة، وغير ذلك مما يحتاج إلى سند.

والضمير في قوله: ﴿قَالُوا﴾ للملائكة، وقوله: ﴿وَبَيْنَ أَمْرِ اللَّهِ﴾

قَالَتْ يَتَوَلَّوْا هَذَا وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَغْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧١﴾ قَالُوا اتَّعَجِبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كَرَامَةِ أَهْلِ الْآيَاتِ إِنَّهُ عَجِيبٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبَشَرُ لَنَادَىٰ فِي قَوْمِهِ لَوْ كُنْتُ مُنَادِيًا بِأَمْرِ رَبِّي لَتَوَسَّلَنَّا إِلَىٰ رَبِّكَ بِأَنْبِيَاءِكَ لَعَلَّكَ تَهْتَدُ فَجَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيقًا إِلَيْهِ وَمُصَافِيًا بِهِمْ ذُرِّيَّتًا قَالَ هَذَا يَوْمَ عَصِيبٍ ﴿٧٣﴾ وَجَاءَتْهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَتَقَوَّمُ عَنْكُمْ لَئِن لَّمْ يَهِتُمْ رَبِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِمَا تَقُولُونَ وَلَا تَحْزَنُونَ فِي صَفْحَةِ النَّسِّ وَكَرِهَ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٤﴾ قَالُوا أَأَلْقَدُ عَلِمْتَ مَا لَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ مِنْ حَتَّىٰ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا تُرِيدُ ﴿٧٥﴾ قَالَ لَوْ أَنِّي رَأَيْتُكُمْ قُوَّةً أَوْ آيَاتٍ إِلَىٰ رَبِّكُمْ شَدِيدًا فَقَالُوا يُدَلُّونَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّكَ إِنَّا نُرِيدُ أَنْ نَمُنَ بِمَا بِأَهْلِكَ يَقْطَعُ مِنَ الْآيَاتِ وَلَا يَلْبَثُ فِيكُمْ أَحَدًا إِلَّا أَصْرَأَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٧٦﴾

يحتمل أن يريد واحد الأمور، أي من الولادة في هذه السن، ويحتمل أن يريد مصدر أمر، أي مما أمر الله به في هذه النازلة. وقوله: ﴿رَحِمْتُ اللَّهُ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كَرَامَةِ أَهْلِ الْآيَاتِ﴾، يحتمل اللفظ أن يكون دعاء وأن يكون إخباراً، وكونه دعاء إنما يقتضي أنه أمر يُتْرَجَى ولم يتحصل بعد، ونصب «أَهْلِ الْآيَاتِ» على الاختصاص، هذا مذهب سيبويه، ولذلك جعل هذا والنصب على المدح في باين كأنه ميّز النصب على المدح بأن يكون المنتصب لفظاً يتضمن بنفسه مدحاً، كما تقول: «هذا زيد عاقل قومه»، وجعل الاختصاص إذا لم يتضمن اللفظة ذلك، كقوله: «إننا معاشر الأنبياء»:

إننا بنى نهشيل

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يكون الاختصاص إلا بمدح أو ذم لكن ليس في نفس اللفظة المنصوبة.

وهذه الآية تعطي أن زوجة الرجل من أهل بيته لأنها خوطبت بهذا، فيقوى القول في زوجات النبي ﷺ بأنهن من أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس، بخلاف ما تذهب إليه الشيعة، وقد قاله أيضاً بعض أهل العلم، قالوا: «أهل بيته: الذين حُرِّموا الصدقة»، والأول أقوى، وهو ظاهر جلِّي من سورة الأحزاب لأنه ناداهن بقوله: ﴿بَيْتَاتِ النَّبِيِّ﴾ ثم بقوله: ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووقع في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «أهل بيته: الذين حرموا الصدقة بعده»، فأراد ابن عباس: أهل بيت النسب الذين قال رسول الله ﷺ فيهم: «إن الصدقة لا تحل لأهل بيتي، إنما هي أوساخ الناس».

والبيت - في هذه الآية، وفي سورة الأحزاب - بيت السكنى، ففي اللفظ اشتراك ينبغي أن يُتَحَسَّنَ إليه، فقاطمة رضي الله عنها من أهل بيت محمد ﷺ بالوجهين، وعلي رضي الله عنه بالواحد، وزوجاته بالآخر، وأما الشيعة فيدفعون الزوجات بغضاً في عائشة رضي الله عنها.

و ﴿حَيْدٌ﴾ أي: أفعاله تقتضي أن يُحْمَدَ، ﴿حَيْدٌ﴾ أي: متصف بأوصاف العلو، ومُجْدُ الشيء: إذا حَسُنَتْ أوصافه.

٧٦ - تفسير قوله عز وجل:

﴿الرِّزْقُ﴾: الفرع والخيفة التي تقدم ذكرها، وكان ذهابه بإخبارهم إياه أنهم ملائكة، و﴿الْبَشْرَى﴾: يحتمل أن يريد الولد، ويحتمل أن يريد البشرية بأن المراد غيره، والأول أبين. وقوله: ﴿بِحُدُودِنَا﴾ فعل مستقبل جائز أن يَسُدَّ مَسَدَ الماضي الذي يصلح لجواب ﴿لَمَّا﴾، لا سيما والإشكال مرتفع بمضني زمان الأمر ومعرفة السامعين بذلك، ويحتمل أن يكون التقدير: «ظَلُّ أو أخذ ونحوه يجادلنا»، فحذف اختصاراً لدلالة ظاهر الكلام عليه، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿بِحُدُودِنَا﴾ حالاً من إبراهيم، أو من الضمير في قوله: ﴿جَاءَتْهُ﴾، ويكون جواب ﴿لَمَّا﴾ في الآية الثانية: «قُلْنَا: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾»، واختار هذا أبو علي. والمجادلة: المقابلة في القول والحُجج، وكأنها أعم من المخاصمة، فقد يجادل من لا يخاصم كإبراهيم.

وفي هذه النازلة وُصِفَ إبراهيم بالحلم، قيل: إنه لم يغضب قط لنفسه إلا أن يغضب لله، والحلم: العقل إذا انضاف إليه أناة واحتمال. والأواه معناه: الخائف الذي يكثر التأوه من خوف الله تعالى، ويروي أن إبراهيم عليه السلام كان يسمع وجيب قلبه من الخشية، قيل: كما تُسمع أجنحة النسر، وللمفسرين في «الأواه» عبارات كلها ترجع إلى ما ذكرته وتلزمه، و«المُنِيبُ»: الرجوع إلى الله تعالى في كل أمره. وصورة جدال إبراهيم عليه السلام

كانت أن قال إبراهيم: إن كان فيهم بأنة مؤمن أتعدبونهم؟ قالوا: لا، قال: أفتتسعون؟ قالوا: لا، قال: أفثمانون؟ فلم يزل كذلك حتى بلغ خمسة ووقف عند ذلك، وقد عد في بيت لوط امرأته فوجدهم ستة بها فطمع في نجاتهم ولم يشعر أنها من الكفرة، وكان ذلك من إبراهيم حرصاً على إيمان تلك الأمة ونجاتها. وقد كثر اختلاف رواة المفسرين لهذه الأعداد في قول إبراهيم عليه السلام، والمعنى كله نحو مما ذكرته، وكذلك ذكروا أن قوم لوط كانوا أربعمائة ألف في خمس قرى، وقالت فرقة: المراد: يجادلنا في مؤمني قوم لوط، وهذا ضعيف، وأمره بالإعراض عن المجادلة يقتضي أنها إنما كانت في الكفرة حرصاً عليهم، والمعنى: قلنا: يا إبراهيم أعرض عن المجادلة في هؤلاء القوم والمراجعة فيهم، فقد نفذ فيهم القضاء و﴿جَاءَ أَمْرٌ رَبِّكَ﴾، والأمر هنا: واحد الأمور بقرينة وصفه بالمجيء، فإن جعلناه مصدر (أمر) قدرنا حذف مضاف، أي: جاء مقتضى أمر ربك ونحو هذا، وقوله: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا﴾: ابتداء وخبر، جملة في موضع خبر [إن]، وقيل: ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾ خبر (إن) فهو اسم فاعل معتمد، و﴿عَدَابٌ﴾ فاعل بـ ﴿يَا إِبْرَاهِيمُ﴾.

وهذه الآية مقتضية أن الدعاء إنما هو أن يوفق الله الداعي إلى طلب المقدور، فأما الدعاء في طلب غير المقدور فغير مُجْد ولا نافع.

﴿٧٧﴾ - ﴿٨٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الرسول هنا هم الملائكة الذين كانوا أضياف إبراهيم عليه السلام، وذلك أنهم لما خرجوا إلى بلد لوط - وبينه وبين قرية إبراهيم ثمانية أميال - وصلوه، فقبل: وجدوا لوطاً في حرث له، وقيل: وجدوا ابنته تستقي ماءً في نهر سدوم - وهي أكبر حواضر قوم لوط - فسألوها الدلالة على من يضيفهم، ورأت هيئتهم فخافت عليهم من قوم لوط، وقالت لهم: مكانكم، وذهبت إلى أبيها فأخبرته، فخرج إليهم، فقالوا له: نريد أن تضيفنا الليلة، فقال لهم: أو ما سمعتم بعمل هؤلاء القوم؟ فقالوا: وما عملهم؟ فقال: أشهد بالله لهم شر قوم في الأرض، وقد كان الله عز وجل قد قال للملائكة: لا تعذبوهم حتى يشهد عليهم لوط أربع شهادات، فلما قال لوط هذه قال جبريل لأصحابه: هذه واحدة، وتكرر القول بينهم حتى كرز لوط الشهادة أربع مرار، ثم دخل لوط بهم المدينة، وحينئذ «سيء» بهم: أي: أصابه سوء و«سيء» فعل بني للمفعول.

والذرعُ: مصدر مأخوذ من الذراع، ولما كان الذراع موضع قوة الإنسان قيل في الأمر الذي لا طاقة له به: ضاق بهذا الأمر ذراع فلان، وذرعُ فلان، أي: حيلته بذراعه، وتوسعوا في هذا حتى قلبوه فقالوا: «فلان رحبُ الذراع» إذا وصفوه بالقدرة، ومنه قول الشاعر:

يا سيِّداً ما أنتَ من سيِّد
موطأ الأكتافِ رحبِ الذراعِ

وقوله: ﴿هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ﴾ أشار به إلى ما كان يتخوفه من تعذي قومه على أضيافه واحتياجه إلى المدافعة مع ضعفه عنها، و﴿عَصِيبٌ﴾ بناء اسم فاعل معناه: يعصب الناس بالشَّرِّ كما يعصب الخابط السلمة إذا أراد خبطها ونفض ورقها، ومنه قول الحجاج في خطبته: «وَأَعَصِيبُكُمْ عَصَبُ السَّلْمَةِ»، فهو من العصابة، ثم كثر وصفهم اليوم بعصيب، ومنه قول الشاعر وهو عددي بن زيد:

وكنتَ ليزازَ خَضِمْكَ لَمْ أُعْرِذْ
وقَدْ سَلَكُوكَ فِي يَوْمٍ عَصِيبِ
ومنه قول الآخر:

فإنكَ لِأُتْرَضِ بَكَرَ بِنِ وَأَيْلِ
يَكُنْ لَكَ يَوْمَ بِالْعِرَاقِ عَصِيبِ
ذ ﴿عَصِيبٌ﴾ بالجملة: في موضع شديد وصعب الوطأة، واشتقاقه كما ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَاءَهُمْ قَوْمُهُ﴾ الآية. روي أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف ورأت جمالهم وهيئتهم خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت: إن لوطاً أضاف الليلة فتية ما رئي مثلهم جمالاً وكذا وكذا، فحينئذ جاءوا يهرعون إليه، ومعناه: يسرعون، والإهرع هو أن يسرع أمر بالإنسان حتى يسير بين الخشب والجمز، فهي مشية الأسير الذي يسرع به، والطامع المبادر إلى أمر يخاف فوته، ونحو هذا، يقال: هرع الرجل وأهرعه طمع أو عدو أو خوف ونحوه. والقراءة المشهورة: ﴿يَهْرَعُونَ﴾ بضم الياء، أي: يهرعون الطمع. وقرأت فرقة: ﴿يَهْرَعُونَ﴾

بفتح الياء، من هرع، ومن هذه اللفظة قول مهلهل:

فَجَاءُوا وَيَهْرَعُونَ وَهُمْ أَسَارَى
تَقُودُهُمْ عَلَى رَغَمِ الْأَنْسُوفِ
وقوله: ﴿وَيَنْ بَيْتٌ كَانُوا يَمْلِكُونَ

النِّبَاتِ﴾ أي: كانت عاداتهم إتيان الفاحشة في الرجال، فجاءوا إلى الأضياف لذلك، فقام إليهم لوط مدافعاً وقال: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾. فقالت فرقة: أشار إلى بنات نفسه وندبهم في هذه المقالة إلى النكاح، وذلك على أن كانت سُنَّتُهُمْ جواز نكاح الكافر المؤمنة، أو على أن في ضمن كلامه أن يؤمنوا، وقالت فرقة: إنما كان الكلام مدافعة لم يرد إمضاءه، روي هذا القول عن أبي عبيدة، وهو ضعيف، وهذا كما يقال لمن ينهى عن مال الغير: «الخنزير أحل لك من هذا»، وهذا التنطع ليس من كلام الأنبياء صلى الله عليهم وسلم، وقالت فرقة: أشار بقوله: ﴿بَنَاتِي﴾ إلى النساء جملة إذ نبئ القوم أب لهم، ويُقوي هذا أن في قراءة ابن مسعود: ﴿النَّبِيِّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ «وهو أب لهم»، وأشار أيضاً لوط - في هذا التأويل - إلى النكاح.

وقرأت فرقة هي الجمهور: ﴿هُنَّ أَطَهَّرَ﴾ برفع الراء على خبر الابتداء. وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، ومحمد بن مروان، وسعيد بن جبير: ﴿أَطَهَّرَ﴾ بالنصب، قال سيبويه: «هو لَحْنٌ»، وقال أبو عمرو بن العلاء: احتبى فيه ابن مروان في لحنه، ووجهه - عند من قرأ بالنصب على الحال - بأن تكون

﴿بَنَاتِي﴾ ابتداءً، و﴿هُنَّ﴾ خبره،
والجملة خبر ﴿هُؤُلَاءِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهو إعراب مروى عن المبرد،
 وذكره أبو الفتح، وهو خطأ في معنى
الآية، وإنما قوم اللفظ فقط،
والمعنى إنما هو في قوله:
﴿أَطَهَّرُ﴾، وذلك قصد أن يُخبر به،
فهي حال لا يُستغنى عنها، كما تقدم
في قوله: ﴿وَهَذَا بَعْلِي شَيْئًا﴾.
والوجه أن يقال: ﴿هُؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾
ابتداءً وخبر، و﴿هُنَّ﴾ فضل،
و﴿أَطَهَّرُ﴾ حال، وإن كان شرط
الفصل، ولما لم يستغ ذلك أبو
عمرو ولا سيبويه لحنًا ابن مروان،
وما كان ليذهب عليهما من ذكر أبو
الفتح.

والضئف: مصدر يوصف به الواحد
والجماعة والمذكر المؤنث. ثم
ويُخبرهم بقول: ﴿أَلَيْسَ يَنْكَرُ رَجُلٌ
رَشِيدٌ﴾، أي: يَزَعُكم ويردعكم.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا
فِي بَنَاتِكُمْ مِن حَيٍّ﴾ الآية. زوي أن قوم
لوط كانوا قد خطبوا بنات لوط
فردّهم، وكانت سُنَّتْهم أن من رُدّ في
خطبة امرأة لا تحل له أبدًا، فلذلك
قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكُمْ مِن
حَيٍّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وبعد ألا تكون هذه الخاصة، فوجه
الكلام: إنا ليس لنا إلى بناتك تعلق،
ولا هُنَّ قصدنا، ولا لنا عادة تطلبها
في ذلك، وقولهم: ﴿وَرَبَّنَا لَكَ نُكْرٌ مَّا
رُئِدُ﴾ إشارة إلى الأضياف، فلما رأى
استمرارهم في غيِّهم وغلبيتهم وضعفه
عنهم قال - على جهة التَّفْجُجِ

والاستكانة -: ﴿أَوَّأَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾،
و (أَنَّ) في موضع رفع بفعل مضمر
تقديره: لو اتفق أو وقع ونحو هذا،
وهذا مطرّد في (أَنَّ) التابعة ل (لَوْ)،
وجواب ﴿لَوْ﴾ محذوف، وحذف
مثل هذا أبلغ لأنه يدع السامع ينتهي
إلى أبعد تخيلاته، والمعنى: لعلتُ
كذا وكذا.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ أَوْيَ﴾
بسكون الياء، وقرأ شيبه وأبو جعفر:
﴿أَوْ أَوْيَ﴾ بالنصب، التقدير: أو أن
أوي، فتكون (أَنَّ) مع (أوي) بتأويل
المصدر، كما قالت مَيْسُون بنت
بحدل:

وَلَبِئْسَ عِبَاءَةٌ وَتَقَرَّرَ عَيْنِي
.....

ويكون ترتيب الكلام: لو أن لي
بكم قوة أو أويًا، وأوي معناه: لجأ
وانضوى. ومراد لوط عليه السلام بـ
«الرُّكن»: العشيرة والمنعة بالكثرة،
وبلغ به قبيح فعلهم إلى هذا مع
علمه بما عند الله تبارك وتعالى،
فيروى أن الملائكة وجدّت عليه حين
قال هذه الكلمات وقالوا: إن ركنك
لشديد، وقال رسول الله ﷺ:
«يرحم الله لوطاً، لقد كان يأوي إلى
ركن شديد، فالعجب منه لم
استكان؟».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا نقد لأن يلفظ لوط هذه
الألفاظ، وإلا فحالة النبي ﷺ وقت
طُرح عليه سَلَى الجزور، ومع أهل
الطائف، وفي غير موطن تقتضي
مقالة لوط، لكن محمداً ﷺ لم
ينطق بشيء من ذلك عزيمة منه
ونجدة، وإنما خشى لوط أن

يمهل الله أولئك العصاة حتى يعصوه
في الأضياف كما أمهلهم فيما قبل
ذلك من معاصيهم فيمن مضى،
فتمنى ركنًا من البشر يعاجلهم به
وهو يعلم أن الله تعالى من وراء
عقابهم، وزوي أن رسول الله ﷺ
قال: «لم يبعث الله تعالى بعد لوط
نبيًا إلا في ثروة من قومه»، أي: في
منعة وعزة.

﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿قَالُوا﴾ ضمير
الملائكة، ويروى أن لوطاً لما غلبه
وهموا بكسر الباب وهو يمسكه
قالت له الرُّسل: تنح عن الباب
فتنحى وانفتح الباب، فضربهم
جبريل عليه السلام بجناحه فطمس
أعينهم وعمّوا، وانصرفوا على
أعقابهم يقولون: النجاء النجاء فعند
لوط قوم سحرة، وتوعدوا لوطاً ففزع
حينئذ من عيدهم، فحينئذ قالوا له:
﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ قَأَمِنَ، ذكر هذا
النقاش. وفي تفسير غيره ما يقتضي
أن قولهم: ﴿إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ كان قبل
طمس العيون. ثم أمروه بالشرى
وأعلموه أن العذاب نازل بالقوم،
فقال لهم لوط: فعذبوهم الساعة،
قالوا له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ﴾،
أي: بهذا أمر الله، ثم آسره في قلقه
بقولهم: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾.

وقرأ نافع وابن كثير: ﴿فَأَسْرَى﴾ من
سَرَى يسري إذا سار في أثناء الليل،
وقرأ الباقون: ﴿فَأَسْرَى﴾ من أسرى إذا
سار أول الليل، والقطع: القطعة من
الليل، ويحتمل أن لوطاً أسرى بأهله
من أول الليل حتى جاوز البلد
المقتلع، ووقعت نجاته بسخر،

فتجتمع هذه الآية مع قوله تبارك وتعالى: ﴿إِلَّا مَالٌ لَّوْطٌ يَّجْتَنِّهُمُ يَسْحَرُونَ﴾، وبيت النابغة جمع بين الفعلين في قوله:

أَسْرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجَوَازِ سَارِيَةٌ
تُزْجِي الشَّمَالَ عَلَيْهِ جَامِدَ الْبَرْدِ
فذهب قوم إلى أن (سرى) و (أسرى) بمعنى واحد، واحتجوا بهذا البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأقول: إن البيت يحتمل أنهما لِمَعْنَيَيْنِ، وذلك أظهر عندي، لأنه قصد وصف هذه الديمة وأنها ابتدأت من أول الليل وقت طلوع الجوزاء في الشتاء.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو: ﴿إِلَّا أَمْرَاتِكُ﴾ بالرفع على البدل من ﴿أَحَدُ﴾، وهذا هو الأوجه إذا استثنى من منفي، كقولك: «ما جاءني أحد إلا زيد»، وهذا هو استثناء من الملتصقين، وقرأ الباقر: ﴿إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾ بالنصب، ورأت ذلك فرقة من النحاة الوجهة في الاستثناء من منفي، إذ الكلام المنفي في هذا مستقل بنفسه كالموجب فإذا هو مثله في الاستقلال، فحكمه حكمه في نصب المستثنى، وتأولت فرقة ممن قرأ: ﴿إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾ بالنصب أن الاستثناء وقع من الأهل كأنه قال: «فأسر بأهلك إلا امرأتك»، وعلى هذا التأويل لا يكون إلا النصب، وقال أبو عبيد القاسم بن سلام: «لو كان الكلام: ولا يلتفت - برفع الفعل - لَصَحَّ الرفع في قوله: ﴿إِلَّا أَمْرَاتُكَ﴾، ولكنه نهى، فإذا استثنيت المرأة» من ﴿أَحَدُ﴾ وجب أن تكون

«المرأة» أبيض لها الالتفات فيفسد معنى الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الاعتراض حسن يلزم الاستثناء من ﴿أَحَدُ﴾ رفعت التاء أو نصبت، والانفصال عنه يترتب بكلام حكيم عن المبرد، وهو أن النهي إنما قصد به لوط وحده، والالتفات منفي عنهم بالمعنى، أي: لا تدع أحدا منهم يلتفت، وهذا كما تقول لرجل: «لا يقم من هؤلاء أحد إلا زيد»، وأولئك لم

يسمعوك، فالمعنى: لا تدع أحدا من هؤلاء يقوم، والقيام بالمعنى منفي عن المشار إليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة هذا أن لفظ الآية هو لفظ قولنا: «لا يقم أحد إلا زيد»، ونحن نحتاج أن يكون معناها معنى قولنا: «لا يقوم أحد إلا زيد»، وذلك اللفظ لا يرجع إلى هذا المعنى إلا بتقدير ما حكيناه عن المبرد فتدبره. ويظهر من مذهب أبي عبيد أن الاستثناء إنما هو من «الأهل»، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «فأسر بأهلك يقطع من الليل إلا امرأتك»، وسقط قوله: «وَلَا يَلْتَفِتُ مِنْكُمْ أَحَدٌ». والظاهر في «يَلْتَفِتُ» أنها من التفات البصر، وقالت فرقة: هي من: لَفَّتِ الشَّيْءَ يَلْفِتُهُ إِذَا ثَنَاهُ وَلَوَاهُ، فمعناها: «وَلَا يَتَّبِعُ»، وهذا شاذ مع صحته، وفي كتاب الزهراوي أن

فَلَمَّا جَاءَ أَمْرًا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَاقِلَهَا وَأَمَطْنَا نَاعِيَهَا
حِكَاةً تَنْ سِيَجِلٍ مَّضُورٍ ﴿٨٢﴾ مُسْوَمَةٌ عِنْدَ رَبِّكَ
وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾ وَإِلَى مَدِينٍ آخَرٍ
شُعْبًا قَالَ يَقُومُ أَعْبُدُ وَاللَّهُ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ عِزَّةً
وَلَا تَنْقُصُوا إِلَيْكَ يَالِ الْوَالِدِينَ إِنِّي أَنزَلْتُكُمْ بِحَقِّ
وَإِلَى آخَفٍ عَلَيْكُمْ عَذَابٌ يَوْمَ يُحِيطُ ﴿٨٤﴾ وَيَقُومُ
أَوْفُوا إِلَيْكَ يَالِ الْوَالِدِينَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا
النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَرَفُوا بِالْأَرْضِ مُقْسِدِينَ ﴿٨٥﴾
بَيَّنَّتْ اللَّهُ خَيْرَ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ
بِحَافِظٍ ﴿٨٦﴾ قَالَ الرَّبُّ شُعْبًا أَصْلُ نَوْتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ
تَتْرَكَ مَا يَعْصِدُ بَابًا وَأَنْ تَفْعَلَ فِي أَمْوَالِكَ مَا دَسْتُوا
إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَقُومُ أَرَى يَسْتُرَانِ
كُنْتُ عَلَى بَيْتِي مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ
أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنهَكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ
مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾

٢٣١

المعنى: «وَلَا يَلْتَفِتُ أَحَدٌ إِلَى مَا خَلْفَ بِلٍ يَخْرُجُ مَسْرِعًا مَعَ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ»، وروي أن امرأة لوط لما سمعت الهدية ردت بصرها وقالت: «واقوما»، فأصابها حجر فقتلها. وقرأت فرقة: «الصُّبْحُ» بضم الباء.

﴿٨٢﴾ - ﴿٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل: «وَرَوَى أَنْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَدْخَلَ جَنَاحَهُ تَحْتَ مَدَائِنِ قَوْمِ لُوطٍ وَاقْتَلَعَهَا وَرَفَعَهَا حَتَّى سَمِعَ أَهْلَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا صُرَاخَ الدِّيَكَةِ وَنُبَاحِ الْكَلَابِ، ثُمَّ أَرْسَلَهَا مَعْكُوسَةً وَأَتْبَعَهُمُ الْحِجَارَةَ مِنَ السَّمَاءِ. وَرَوَى أَنْ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَهُمْ بِخَوَافِي جَنَاحِهِ. وَرَوَى أَنْ مَدِينَةَ مِنْهَا نُجِّيتُ كَانَتْ مَخْتَصَةً بِلُوطٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ يُقَالُ لَهَا: زُغْرٌ.»

و «أَمْرَاتًا» في هذه الآية يحتمل أن يكون مصدرًا من: أَمَرَ، ويكون في

الكلام حذف مضاف تقديره: مُقْتَضِي أمرنا. ويحتمل أن يكون واحد الأمور. والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهَا سَافَلَهَا﴾ للمُذْن، وأجري ﴿وَأَنْطَرْنَا عَلَيْهَا﴾ كذلك، والمراد على أهلها، ورُوي أن الحجارة استوفت منهم من كانوا خارج مدنهم حتى قتلتهم أجمعين، ورُوي أنه كان منهم في الحَرَم رجل فبقي حجره معلقاً في الهواء حتى خرج من الحرم فقتله الحَجَر، (وَأَنْطَرْنَا) أبداً إنما يستعمل في المكروه، و (مطر) يستعمل في المحبوب، هذا قول أبي عبيدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس كذلك، وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُّطِيرٌ﴾ يراد هذا القول، لأنهم إنما ظلّوه معتاد الرحمة.

وقوله: ﴿مَنْ سَجِيلٌ﴾ اختلف فيه، فقال ابن زيد: ﴿سَجِيلٌ﴾: اسم السماء الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، ويردّه وصفه بـ ﴿مَنْصُورٌ﴾. وقالت فرقة: هو مأخوذ من لفظ السَّجَل، أي: هي من أمر كتب عليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد، وقالت فرقة: وهو مأخوذ من السَّجَل إذا أرسل الشيء كما يرسل السَّجَل، كما تقول: قالها مُسَجَّلَةً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وقالت فرقة: ﴿مَنْ سَجِيلٌ﴾ معناه: من جهنم، لأنه يقال: ﴿سَجِيلٌ وَسَجِينٌ﴾، حُفِظَ فِيهَا بَدَلُ النَّوْنِ لَأَمْ، كما قالوا: أُضْيَلَالٌ وَأُضْيَلَانٌ. وقالت فرقة: ﴿سَجِيلٌ﴾

معناه: شديد، وأنشد الطبري في ذلك:

.....

ضرباً تَوَاصَى بِهِ الْأَيْطَالُ سَجِيلًا
والبيت في قصيدة نونية: سَجِينًا.
وقالت فرقة: ﴿سَجِيلٌ﴾ لفظه غير عربية عُتِرَ عنها بالعربية وأصلها: «سَنْجٌ وَجَلٌ»، وقيل غير هذا في أصلها، ومعنى اللفظة: ماء وطِينٌ، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن جُبَيْر، وعكرمة، والسدي، وغيرهم، وذهبت هذه الفرقة إلى أن الحجارة التي رُمُوا بها كانت كالأَجْر المطبوخ، أصلها من طين قد تَحَجَّرَ، نَصَّ عليه الحسن، وهذا قول يشبه، وهو الصواب الذي عليه الجمهور. وقالت فرقة: معنى ﴿سَجِيلٌ﴾: حجر مخلوط بطين، أي حَجَرٌ وَطِينٌ، ويمكن أن يُرَدَّ هذا إلى الذي قبله، لأن الأَجْر وما جرى مجراه يمكن أن يقال فيه: حَجَرٌ وَطِينٌ، لأنه قد أخذ من كل واحد بحظه، هي من طين من حيث هو أصلها، ومن حَجَرٍ من حيث صلبت.

و ﴿مَنْصُورٌ﴾ معناه: بعضه فوق بعض، أي تَتَابَع، وهي صفة لـ ﴿سَجِيلٌ﴾، وقال الربيع بن أنس: نضده: أنه في السماء منضود مُعَدَّ بعضه فوق بعض.

و ﴿سُؤْمَةٌ﴾ معناه: معلمة بعلامة، فقال عكرمة وقتادة: إنه كان فيها بياض وحمرة، ويُحكى أنه كان في كل حجر اسم صاحبه، وهذه اللفظة هي من سُومَ إذا أعلم، ومنه قول النبي ﷺ يوم بدر: «سُومُوا فَقَدْ

سُومَتِ الْمَلَائِكَةُ»، ويحتمل أن تكون ﴿سُؤْمَةٌ﴾ ها هنا بمعنى: مُزَسَّلَةٌ، وسُومُهَا من الهبوط. وقوله: ﴿وَمَا مِنْ أَلْفِيلَةٍ﴾، قيل: يعني قريشاً، وقيل: يريد عموم كل من اتصف بالظلم، وهذا هو الأصح لأنه رُوي عن النبي ﷺ أنه قال: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي خُنُوفٌ وَمَنْخٌ وَقَذْفٌ بِالْحِجَارَةِ». وقد ورد أيضاً حديث: «إِنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِمَنْحَاةٍ مِنْ ذَلِكَ».

وقيل: يعني بـ ﴿مِنْ﴾ المدن، ويكون المعنى الإعلام بأن هذه البلاد قريبة من مكة، والأول أئبن، ورُوي أن هذه البلاد كانت بين المدينة والشام، وحكى الطبري في تسميه هذه المدن: صنعة، وصعوة، وعشرة، ودوما، وسدوم، وسدوم هي القرية العظمى.

٨٤ - ٨٦ تفسير قوله عز وجل:

التقدير: وإلى مدين أرسلنا أخاهم شُعيباً، واختلف في لفظه ﴿مَدْيَنٌ﴾؛ فقيل: هي بُقْعَةٌ، فالتقدير على هذا: «وإلى أهل مدين»، كما قال: ﴿وَمَسَلِ الْقَرْيَةَ﴾، وقيل: كان هذا القطر في ناحية الشام، وقيل: ﴿مَدْيَنٌ﴾ اسم رجل كانت القبيلة من ولده فُسُمِيَتْ باسمه، و﴿مَدْيَنٌ﴾ لا ينصرف في الوجهين، حكى النقاش أن ﴿مَدْيَنٌ﴾ هو ولد إبراهيم الخليل لصلبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد.

وقد قيل: إن ﴿شُعَيْبًا﴾ عربي، فكيف يجتمع هذا وليس للعرب اتصال بإبراهيم إلا من جهة إسماعيل فقط! ودعاء شعيب إلى عبادة الله

و «الحفيظ»: المراقب الذي يحفظ أحوال من يراقب، والمعنى: إنما أنا مبلغ، والحفيظ المحاسب هو الذي يجازيكم بالأعمال.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿أَصَلُّوا تَك﴾ بالجمع، وقرأ ابن وثاب: ﴿أَصَلُّوا تَك﴾ بالإفراد، كذلك قرأ في (بسراة): ﴿إِنَّ صَلَّوْتَك﴾، وفي (المؤمنين): ﴿عَلَّ صَلَّاتِهِمْ﴾، كل ذلك بالإفراد. واختلف في معنى الصلاة المعروفة، وزوي أن شعبياً عليه السلام كان أكثر الأنبياء صلاة، وقال الحسن: لم يبعث الله نبياً إلا فرض عليه الصلاة والزكاة. وقيل: أرادوا: قراءة تَك، وقيل: أرادوا: أمساجدك؟ وقيل: أرادوا: أدعواتك؟ قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأقرب هذه الأقوال الأول والرابع.

وجعلوا «الأمر» من فعل الصلوات على جهة التَّجَوُّز، وذلك أن كل من حصل في رتبة من خير أو شر ففي الأكثر تدعوه رتبة إلى التَّزِيد من ذلك النوع، فمعنى هذا: ألمأ كنت مصلياً تجاوزت إلى ذم شرعنا وحالنا؟ فكان حاله من الصلاة جَسْرْتَهُ على ذلك فقبل: أَمَرْتَهُ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾.

وقولهم: ﴿أَنْ تَرَكَ مَا يَبْغُدُ أَبَاؤَنَا﴾ نص في أنهم كانوا يعبدون غير الله تعالى، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَعَلَّ﴾ و﴿تَشْتَرُوا﴾ بنون الجماعة فيهما، وقرأ الضحاک بن قيس: ﴿تَفْعَلُ﴾ و﴿تَشَاءُ﴾ بتاء المخاطبة

الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يعظ الناس في الكيل والوزن فقال: «اعتبروا في أن الإنسان إذا رفع يده بالميزان فامتدت أصابعه الثلاث والتقى الإبهام والسبابة على ناصية الميزان جاء من شكل أصابعه المكتوبة، فكان الميزان يقول: الله الله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وعظ مليح مُذَكَّر.

و «الْيَسْطُ»: العدل ونحوه، و «الْبَخْسُ»: النقصان، و «تَعْتَرَا»: معناه: تَسْعَرُونَ في فساد، وكرر ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ على جهة التأكيد، يقال: عَتَا يَعْتُو أو عَثَى يَعْثَى، وَعَثٌ يَعْثُ، وَعَاثٌ يَعْيْثُ إذا أفسد ونحوه من المعنى. والعُتَّةُ: الدودة التي تفسد ثياب الصوف.

وقوله: ﴿يَبَيْتُ اللَّهُ﴾ قال ابن عباس: معناه: الذي يُبْقِي الله لكم من أموالكم بعد توفيتكم الكيل والوزن خير لكم مما تستكثرون أنتم به على غير وجهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير يليق بلفظ الآية.

وقال مجاهد: معناه: طاعة الله: وقال ابن عباس أيضاً: معناه: رزق الله. وهذا كله لا يعطيه لفظ الآية، وإنما المعنى عندي: «إبقاء الله عليكم إن أطعتم». وقرأ إسماعيل بن جعفر عن أهل المدينة بتخفيف الياء، وهي لغة.

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ شرط في أن تكون البقية خيراً لهم، وأما مع الكفر فلا خير لهم في شيء من الأعمال، وجواب هذا الشرط متقدم.

يقتضي أنهم كانوا يعبدون الأوثان، وذلك بَيِّنٌ من قولهم فيما بعد، وكُفِّرْهُمْ هو الذي استوجبوا به العذاب لا معاصيهم، فإن الله لم يعذب قط أمة إلا بالكفر، فإن انضافت إلى ذلك معصية كانت تابعة، وأعني بالعذاب عذاب الاستئصال العام. وكانت معصية هذه الأمة الشنيعة أنهم كانوا تواطئوا أن يأخذوا ممن يرد عليهم من غيرهم وافياً ويُعطوا ناقصاً في وزنهم وكيلهم، فنهاهم شعيب بوحى من الله تعالى عن ذلك، ويظهر من كتاب الزُّجَّاج أنهم كانوا تراضوا بينهم بأن يبخر بعضهم بعضاً.

وقوله: ﴿يَحْتَرِبُ﴾ قال ابن عباس: معناه: في رخص من الأسعار. و«عذاب اليوم المحيط» هو حلول الغلاء المُهْلِك، وينظر هذا التأويل إلى قول النبي ﷺ: «ما نقص قوم المكيال والميزان إلا ارتفع عنهم الرزق». وقيل: قوله: ﴿يَحْتَرِبُ﴾ عام في جميع نَعَمَ الله تعالى، و«عذاب اليوم» هو الهلاك الذي حل بهم في آخر. وجميع ما قيل في لفظ «خير» منحصر فيما قلناه. ووَصِفَ اليوم بالإحاطة وهي من صفة العذاب على جهة التجوُّز، إذ كان العذاب في اليوم، وقد يصح أن يوصف اليوم بالإحاطة على تقدير: محيط شره، ونحو هذا.

وكرر عليهم الوصية في «الكيل والوزن» تأكيداً وبياناً وعظلة، لأن ﴿وَلَا تَنْقُصُوا﴾ هو «أزفوا» بعينه لكنهما منحيان إلى معنى واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحدثني أبي رحمه الله أنه سمع أبا

اليهود من بني قريظة حين قال لهم: رسول الله ﷺ: ﴿يَا إِخْوَةَ الْقَرْدَةِ: يَا مُحَمَّدَ مَا عَلِمْنَاكَ جَهولًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والشبه بين الأمرين إنما هو بالمناسبة بين كلام شعيب وتلفظه وبين ما بادر به محمد عليه الصلاة والسلام بني قريظة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَقُولُ أُذَيْبٌ إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ﴾ الآية. هذه مراجعة لفظية واسترسال حسن واستدعاء رفيق، ولهذه الآية ونحوها من محاوره شعيب عليه السلام قال فيه رسول الله ﷺ: ﴿ذَاكَ خَطِيبُ الْأَنْبِيَاءِ﴾. وجواب الشرط الذي في قوله: ﴿إِنْ كُنْتُ عَلَىٰ يَنْبَغٍ مِنْ رَبِّي﴾ محذوف، تقديره: أفضّل كما ضلّتم وأترك تبليغ الرسالة؟ ونحو هذا مما يليق بهذه المحاجة. و﴿يَنْبَغٍ﴾ يحتمل أن تكون بمعنى: بيان أو بين ودخلت الهاء للمبالغة كعلامة، ويحتمل أن تكون صفة لمحذوف فتكون الهاء هاء تأنيث.

وقوله: ﴿وَرَزَقْنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ يريد: خالصاً من الفساد الذي أدخلتم أنفسكم في أموالكم، ثم قال لهم: ولست أريد أن أفعل الشيء الذي أدخلتم أنفسكم في أموالكم، ثم قال لهم: ولست أريد أن أفعل الشيء الذي نهيتكم عنه من نقص الكيل والوزن فأستأثر بالمال لنفسي، وما أريد إلا إصلاح الجميع، و﴿أَنْبَغٍ﴾ معناه: أجمع وأتوب وأستند.

(٨٩) - (٩٢) تفسير قوله عز وجل:

﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ معناه: لا يكسببكم، يقال: جرّمه كذا وكذا وأجرمه إذا

الشرك في قراءة من قرأ بالنون في الفعلين إنما هو بمعنى الرفض غير متنوع، وأما من قرأ بالنون في ﴿تَفْعَلْ﴾ والثناء في ﴿تَشَاءُ﴾ ف﴿أَنْ﴾ معطوفة على الأولى، ولا يجوز أن تنعطف على ﴿مَا﴾ لأن المعنى أيضاً ينقلب فتدبره.

وظاهر فعلهم هذا الذي أشاروا إليه هو بخس الكيل والوزن الذي تقدم ذكره، وروي أن الإشارة هي إلى قرضهم الدينار والدرهم وإجراء ذلك مع الصحيح على جهة

التدليس، قاله محمد بن كعب، وغيره. وروي عن سعيد بن المسيب أنه قال: قطع الدنانير والدرهم من الفساد في الأرض، فتأول ذلك بهذا المعنى المتقدم، وتؤوّل أيضاً بمعنى أنه تبادل السكك التي يقصد بها أكل أموال الناس.

واختلف في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْكَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾؛ فقيل: إنما كانت ألفاظهم: ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْجَاهِلُ السُّفِيه﴾ فكفى الله عن ذلك، وقيل: بل هذا لفظهم بعينه إلا أنهم قالوه على جهة الاستهزاء، قاله ابن جريج، وابن زيد، وقيل: المعنى: إنك لأنت الحليم الرشيد عند نفسك، وقيل: بل قالوه على جهة الحقيقة وأنه اعتقادهم فيه، فكأنهم فئدوه أي: أنت حليم رشيد فلا ينبغي لك أن تأمرنا بهذه الأوامر، ويشبه هذا المعنى قول

وَيَقُولُ لَا يُجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمَ لُوطٍ بِصِحِّكُمْ يَعْزِبُ ﴿٨٩﴾ وَأَسْتَغْفِرُ لَكُمْ وَأَرْبَابَكُمْ ثُمَّ نُوبُوا إِلَيَّ إِنَّ رَبِّي رَجِيمٌ وَذُوْدٌ ﴿٩٠﴾ قَالُوا أَيْسَعِبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا لِمَا نَقُولُ وَإِنَّا لَنَرِيكَ فِتْنًا ضَعِيفًا وَلَا نَؤَلِّرُكَ لِرَهْطِكَ لِرَجْمِكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ قَالَ يَقُولُ أَرْهَطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَأَتَّخِذُكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِي إِنِّي كَرِهْتُ لِمَا تَعْمَلُونَ مِحْطٌ ﴿٩٢﴾ وَيَقُولُ أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَا كَانَتْكُمْ لِي عَيْلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مِنْ بَأْسِهِ عَذَابٌ يُعْزِزُهُ وَمَنْ هُوَ كَذِيبٌ وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَبِّي ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا حَاجَهُ أَمْرًا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جِثْمِينَ ﴿٩٤﴾ كَانُوا لَمْ يَعْرِفُوا فِيهَا إِلَّا بَعْدَ الْمَلَكِ كَمَا بَدَأَتْ سُحُودٌ ﴿٩٥﴾ وَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمَا فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾

٣٣٢

فيهما، ورويت عن أبي عبد الرحمن، ﴿تَفْعَلْ﴾ بالنون ﴿مَا تَشَاءُ﴾ بالثناء، ورويت عن ابن عباس رضي الله عنهما. فأما من قرأ بالنون فيهما ف﴿أَنْ﴾ الثانية عطف على ﴿مَا﴾ لا على ﴿أَنْ﴾ الأولى، لأن المعنى يصير: أصلواتك تأمرك أن تفعل في أموالنا ما تشاء؟ وهذا قلب ما قصدوه، وأما من قرأ بالثناء فيهما فيصح عطف ﴿أَنْ﴾ الثانية على ﴿أَنْ﴾ الأولى، قال بعض النحويين: ويصح عطفها على ﴿مَا﴾ ويتم المعنى في الوجهين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجيء ﴿تَذَكَّرْ﴾ في الأوّل بمعنى: نرفض، وفي الثاني بمعنى: تُقرّر، فيتعذر عندي هذا الوجه لما ذكرته من تنوع الشرك على الحكم اللفظي، أو على حذف مضاف، ألا ترى أن

أكسبه، كما يقال: كسب وأكسب
بمعنى، ومن ذلك قول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتُ أَبَا عَيْنِيَّةَ طَعْنَةً
جَزَمْتُ فَرَارَةَ بَعْدَهَا أَنْ يَغْضِبُوا
وقرأ الجمهور: ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بفتح
الياء، وقرأ الأعمش، وابن وثاب:
﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾ بضمها، و﴿شَقَاتِي﴾
معناه: مُشَاقَّتِي وعداوتي، و﴿أَنْ﴾
مفعولة بـ ﴿يَجْرِمَنَّكُمْ﴾. وكانت قصة
قوم لوط أقرب القصص عهداً بقصة
قوم شعيب، وقد يحتمل أن يريد:
وما منازل قوم لوط منكم ببعيد،
فكأنه قال: وما قوم لوط منكم ببعيد
في المسافة، ويتضمن هذا القول
ضربَ المثل لهم بقوم لوط.

وقرأ الجمهور: ﴿يَنْزِلُ﴾ بالرفع على
أنه فاعل ﴿يُصِيبُكُمْ﴾، وقرأ
مجاهد، والجحدري، وابن أبي
إسحاق: ﴿يَنْزِلُ﴾ بالنصب، وذلك
على أحد وجهين: إما أن يكون
﴿يَنْزِلُ﴾ فاعلاً وفتحة اللام فتحة بناءٍ
لما أضيف لغير متمكن، فإن ﴿يَنْزِلُ﴾
قد يجري مجرى الظروف في هذا
الباب وإن لم يكن ظرفاً محضاً، وإما
أن يقدر الفاعل محذوفاً يقتضيه
المعنى، ويكون ﴿يَنْزِلُ﴾ منصوباً على
النعته لمصدر محذوف تقديره:
إصابة مثل.

وقوله: ﴿وَأَسْتَفِرُّوا رَبَّكُمْ﴾
الآية. تقدم القول في مثل هذا من
ترتيب هذا الاستغفار قبل التوبة،
و﴿وَرُدُّوا﴾ معناه أن أفعاله ولطفه
بعباده لما كانت في غاية الإحسان
إليهم كانت كفعل من يتوَدَّد ويود
المصنوع له.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَسْعَى﴾
الآية. ﴿سَعَى﴾ معناه: نفهم، وهذا
نحو قول قريش: ﴿قُلُونَا فِي
أَكْثَرِ﴾، ومعنى ﴿مَا نَقَعُ كَثِيرًا مِنَّا
نَقُولُ﴾: أي ما نفقه صحة قولك،
وأما فقههم لفظه ومعناه فمتحصل.
وروي عن ابن جبير، وشريك
القاضي في قولهم: ﴿سَعِينًا﴾ أنه
كان ضرير البصر أعمى، وحكى
الزهراوي أن جَنِيْرَ تقول للأعمى:
ضعيف، كما يقال له: ضرير،
وقيل: كان ناحل البدن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله ضعيف ولا تقوم عليه
حجة بضعف بصره أو بدنه، والظاهر
من قولهم: ﴿سَعِينًا﴾ أنه ضعيف
الانتصار والقدرة، وأن رهطه الكفرة
كانوا يراعون فيه.

والرُّهْطُ: جماعة الرجل، ومنه
الراهطاء لأن اليربوع يعتصم به كما
يفعل الرجل برهطه. و﴿لِرَجْمَانِكَ﴾
قيل: معناه: بالحجارة، وهو
الظاهر، وقاله ابن زيد. وقيل:
معناه: لرجمناك بالسُّب، وبه فسر
الطبري، وهذا أيضاً تستعمله
العرب، ومنه قوله تعالى: ﴿لَأَرْجَمَنَّكَ
وَأَهْجُرَنَّهُ مَلِيًّا﴾، وقولهم: ﴿بِعَزِيْرٍ﴾
أي: بذئ منعه وعزرة ومنزلة في
نفوسنا.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَنْقُورِ أَرْهَطِي﴾
الآية. «الظُّهْرِي»: الشيء الذي يكون
وراء الظهر، وقد يكون الشيء وراء
الظهر بوجهين في الكلام: إما بأن
يُطرح، كما تقول: جعلت كلامي
وراء ظهرك ودَبَّرَ أذُنكَ، ومنه قول
الفرزدق:

تَمِيْمٌ بِنَ زَيْدٍ لَا تَكُوْنُنَّ حَاجَتِي
بِظَهْرٍ فَلَا يَعِيَا عَلَيَّ جَوَابَهَا
وإما بأن يُسند إليه وتُلجأ، ومن هذا
قول النبي ﷺ في دعائه: «وَأَلْجَأْتُ
ظَهْرِي إِلَيْكَ»، فقال جمهور
المتاولين في معنى هذه الآية: إنه
«واتخذتم الله ظهرياً - أي غير مُراعِي
- وراء الظهر» على معنى الاطراح،
ورجحه الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهو عندي على حذف مضاف ولا
بَد.

وقال بعضهم: الضمير في قوله:
﴿وَأَعْتَدْتُمُوهُ﴾ عائد على أمر الله
وشرعه، إذ يتضمنه الكلام، وقالت
فرقة: المعنى: أترونها رهطياً أعز
عليكم من الله وأنتم تتخذون الله
سند ظهوركم وعماد آمالكم؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فقول الجمهور على أن كان كُفِّرَ قوم
شعيب جحداً بالله تعالى وجهلاً به،
وهذا القول الثاني على أنهم كانوا
يقرون بالخالق الرازق ويعتقدون
الأصنام وسائط ووسائل، ونحو
هذا، وهاتان الفرقتان موجودتان في
الكفرة، ومن اللفظة: الاستظهار
بالبينة، وقد قال ابن زيد: الظُّهْرِي:
الفضل مثل الجمال يخرج معه بإيل
ظهارية يُعدها إن احتاج إليها وإلا فيه
فضلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
هذا كله مما يُسْتَدَّ إليه.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرٌ﴾ خبر في ضمنه توعد،
ومعناه: محيط علمه وقُدْرَتُهُ.

ونحو هذا، وفارقت هذه قولهم: «سلام عليك»، لأن هذا كأنه إخبار عن شيء قد وجب وتحصل، وتلك إنما هي دعاء مُتَرَجِّي، ومعنى البعد في قراءة من قرأ: «بَيَدَتْ» بكسر العين: الهلاك، وهي قراءة الجمهور، ومنه قول جرّزق بنت هثان:

لَا يَبْعِدُنْ قَوْمِي الَّذِينَ هُمُ
سُمُّ الْعُدَاةِ وَأَقَّةُ الْجُزْرِ
ومنه قول مالك بن الربيع:
يقولون لَا تَبْعِدْ وَهُمْ يَذْفُونَنِي
وَأَيِّنْ مَكَانَ الْبُعْدِ إِلَّا مَكَانِيَا؟
وأما من قرأ: «بَعْدَتْ» وهو السلمي، وأبو حيوة فهو من البُعد الذي ضده القرب، ولا يُدعى به إلا على مبهوض.

٩٦ - ٩٧ - تفسير قوله عز وجل:
الآيات: العلامات، والسُلطان: البرهان والبيان في الحُجَّة، قيل: هو مشتق من السُّلِط الذي يُسْتَضَاءُ به، وقيل: من أنه مسلط على كل جبار ومخاصم. والمَلَأُ: الجمع من الرجال، والمعنى: أرسلناه إليهم ليؤمنوا بالله تعالى فصدهم فرعون فاتبعوا أمره ولم يؤمنوا وكفروا. ثم أخبر تبارك وتعالى عن أمر فرعون أنه ليس برشيد، أي: ليس بمصيب في مذهبه ولا مفارق للسفاهة.

وقوله تعالى: «يَبْدَأُ تَوَمُّهُ يَوْمَ أَلْقَيْكُمُ الْآيَةَ». أخبر الله تعالى في هذه الآية عن فرعون أنه يأتي يوم القيامة المُتَرَقِّين معه وهو يَفْدُمُهُمْ إلى النار، وأوقع الفعل الماضي في «فَأَوْرَدَهُمْ» موقع المستقبل لوضوح الأمر وارتفاع الإشكال عنه، وَوَجَّهَ

عليها موصولة لا محالة، والصحيح أن الوقف في قوله: «إِنِّي عَائِلٌ» ثم ابتداء الكلام بالوعد، و«مَنْ» معمولة لـ «مُتَلَمِّئُونَ» وهي موصولة. وقوله: «وَأَرْتَبُوا» كذلك تهديد أيضاً.

وقوله تعالى: «وَلَنَّا جَاءَ أَمْرُنَا» الآية. الأمر هنا يصح أن يكون مصدر أمر، ويصح أن يكون واحد الأمور، وقوله: «بِرَحْمَةٍ مِنَّا» إما أن يقصد الإخبار عن الرحمة التي لحقت شعبياً لنبوته وخسن عمله وعمل مُتَّبِعِيه، وإما أن يقصد أن التنجية لم تكن إلا بمجرد رحمة لا بعمل من أعمالهم. وأما «الضَّيْبَةُ» فهي صيحة جبريل عليه السلام، ورؤي أنه صاح بهم صيحة جثم لها كل واحد منهم في مكانه حيث سمعها ميتاً قد تقطعت حجب قلبه. والجُثُوم أصله في الطائر إذا ضرب بصدره إلى الأرض، ثم يستعمل في غيره إذا كان منه بِشَبَه.

وقوله تعالى: «كَأَنَّمْ يَنْتَوَى إِلَيْهَا» الآية. الضمير في قوله: «يَبْدَأُ» عائد على «الديار»، و«يَنْتَوَى» معناه: يقيمون بنعمة وخفض عيش، ومنه المغانبي، وهي المنازل المعمورة بالأهل، وقوله: «أَلَا» تنبيه للسامع، وقوله: «بَدَأَ» مصدر دَعَا بِهِ، وهذا كما تقول: «سقى لك، ورعى لك، وسحقاً للكافرين»

يَبْدَأُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَيَسْ أَلْوَرْدُ ٩٣ وَأَتَّبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَتَهُ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَسْ أَلْوَرْدُ الْمَرْفُودُ ٩٤ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ الْقُرْآنِ فَتَضَعُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ٩٥ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُهُمْ عِزًّا تَنْبِيءُ ٩٦ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرْآنَ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ٩٧ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَلِكَ يَوْمٌ مَسْهُودٌ ٩٨ وَمَا نُفِخُ فِيهِ إِلَّا بِالْأَسْبَلِ مَعْدُودٍ ٩٩ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمَنْهُمْ سَخِفٌ وَسَعِيدٌ ١٠٠ فَأَمَّا الَّذِينَ سَخِفُوا فِي النَّارِ فَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَسَهْقٌ ١٠١ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ١٠٢ وَأَمَّا الَّذِينَ سَعِدُوا فِي الْجَنَّةِ خَلِيلِيكَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاةٌ غَيْرُ مَجْدُوفٍ ١٠٣

٢٣٢

٩٣ - ٩٤ - تفسير قوله عز وجل:
«عَلَى مَكَانِكُمْ» معناه: على حالاتكم، وهذا كما تقول: مكانة فلان في العلم فوق مكانة فلان، يستعار من البقاع إلى المعاني، وقرأ الحسن، وأبو عبد الرحمن، وعاصم: «مَكَانَاتِكُمْ» بالجمع، والجمهور على الأفراد.

وقوله: «أَعْتَلُوا» تهديد ووعد، وهو نحو قوله: «أَعْتَلُوا مَا شِئْتُمْ». وقوله: «مَنْ يَأْتِي» يجوز أن تكون «مَنْ» مفعولة بـ «تَمَلُّونَ»، والثانية عطف عليها، قال الفراء: ويجوز أن تكون استفهاماً في موضع رفع بالابتداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الأول أحسن لأنها موصولة ولا توصل في الاستفهام، ويقضي بصلتها أن المعطوفة عليها معطوفة

الفصاحة من العرب في أنها تضع أحياناً الماضي موضع المستقبل أن الماضي أدل على وقوع الفعل وحصوله. و «الزُورِد» في هذه الآية هو زُورِد الدخول، وليس بوزود الإشراف على الشيء والإشفاء لقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾، وقال ابن عباس: «في القرآن أربعة: ﴿وَلَمَّا يَنْزَلُ الْأَنْزِلُ﴾، وقوله: ﴿رَسُوقَ الْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَرِذَاءً﴾، وهذه في مريم، وفي الأنبياء: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ أَنتَر لَهَا وَرِذْوَتٌ﴾. قال: وهي كلها زُورِدٌ دخول، ثم يُنجي الله الذين اتَّقوا. و«الزُورِدُ» صفة لمكان «الزُورِدُ» على أن التقدير: وبش مكان الزُورِد الموزود. وقيل: «الزُورِدُ» ابتداء والخبر مقدم، والمعنى: الموزود بش الزُورِدُ.

وقوله: ﴿فِي هَذِهِ﴾ يريد دار الدنيا، و«اللجنة»: إبعادهم بالفرق والاستئصال وقبيح الذكر غابر الدهر، وقوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي: يُلعنون أيضاً بدخولهم جهنم، قال مجاهد: «فهما لغتان، وذهب قوم إلى أن التقسيم هو أن لهم في الدنيا لعنة، ويوم القيامة بش ما يُرقدون به، فهي لعنة واحدة أولاً، وقبيح إرفاد آخراً». وقوله: ﴿يَتَسَّ الْأَرْقَدُ الْأَرْقُدُ﴾ أي: بش العطاء المعطى لهم، والرُفد في كلام العرب: العطية، وسُمِّي العذاب هنا رُفداً لأن هذا هو الذي حل لهم محل الرُفد، وهذا كما تقول: يا فلان لم يكن خبيرك إلا أن تضربني، أي: لم يكن

الذي حل محل الخير منك. والإزفاد: المعونة، ومنه رفادة قرش، معونتهم لفقراء الحاج بالطعام الذي كانوا يطعمونه في الموسم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِن آيَاتِهِ الْفُرَى﴾ الآية. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من ذكر العقوبات النازلة بالأُمم المذكورة، والأنبياء: الأخيار، و«الْفُرَى» يحتمل أن يراد بها الفُرى التي ذكرت في الآيات المتقدمة خاصة، ويحتمل أن يريد القرى عامة، أي: هذه الأنبياء المقصودة عليك هي عوائد المدن إذا كفرت، فيدخل - على هذا التأويل - فيها المدن المعاصرة، ويسجى قوله: ﴿مِنهَا قَائِدٌ رَّحِصِدٌ﴾ منها عامرٌ ودائر، وهذا قول ابن عباس، وعلى التأويل الأول - في أنها تلك القرى المخصوصة - يكون قوله: ﴿قَائِدٌ رَّحِصِدٌ﴾ بمعنى: قائم الجدران ومتهدم لا أثر له، وهذا قول قتادة وابن جريج، والآية بجملتها متضمنة التخويف وضرب المثل للحاضرين من أهل مكة وغيرهم.

المعنى: وما وضعنا عندهم من التعذيب ما لا يستحقونه، لكنهم ظلموا أنفسهم بوضعهم الكفر موضع الإيمان، والعبادة في جنب الأَصنام، فما نفعهم تلك الأَصنام، ولا دفعت عنهم حين جاء عذاب الله.

والتثيب: الخسران، ومنه ﴿بَيَّتَ بِدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، ومنه قول جرير:

عَرَاةٌ مِنْ بَقِيَّةِ قَوْمِ لُوطٍ
أَلَا تَبَا لِمَا عَمِلُوا تَبَا
أي: خساراً، وصورة زيادة الأَصنام التثيب إنما تُتصوَر: إمَّا بأن تأملها والثقة بها والتعب في عبادتها شغلت نفوسهم وصرفتها عن النظر في الشرع وعاقبتها، فلحق عن ذلك عَنَّتْ وخُسِران، وإمَّا بأن عذابهم على الكفر يُزاد عليه عذاب على مجرد عبادة الأوثان.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾، الإشارة إلى ما ذكر من الأحداث في الأُمم، وهذه آية وعيد تعم قُرى المؤمنين، فإن ﴿ظَلِمَةٌ﴾ أعم من «كافرة»، وقد يسهل الله تبارك وتعالى بعض الكفرة، وأمَّا الظلمة - في الغالب - فمُعاجلون، أما إنه يملئ لبعضهم، وفي الحديث - من رواية أبي موسى - أن رسول الله ﷺ قال: «إِن الله يُنْزِلُ لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَم يُفْلِتْهُ»، ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَلِيمَةٌ﴾ الآية.

وقرأ أبو رجاء العطاردي، وعاصم الجحدري: ﴿رَبِّكَ إِذْ أَخَذَ الْقُرَىٰ﴾، والجمهور الأعظم: ﴿إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ﴾ وأثنى الطبري على قراءة عاصم هذه، وقرأ طلحة بن مصرف كذلك، وهي قراءة متمكنة المعنى، ولكن قراءة الجماعة تعطي بقاء الوعيد واستمراره في الزمان، وهو الباب في وضع المستقبل موضع الماضي.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً﴾، المعنى: إن في أمر هذه القُرى وما حل بها لعبرة وعلامة اهتداء لمن خاف أمر الآخرة، وتوقع

رضي الله عنه: «فَإِنَّ الْأَمَانَةَ الْيَوْمَ فِي النَّاسِ قَلِيلٌ».

ومعنى قوله تعالى: ﴿لَا تَكْفُرْمْ﴾ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ: وصف المهابة يوم القيامة وذهول العقل وهو القيامة، وما ورد في القرآن من ذكر كلام أهل الموقف في السلاوم والتساؤل والتجادل، فإمّا أن يكون بإذن، وإمّا أن تكون هذه هنا مختصة في تكلم شفاعة أو إقامة حجة.

وقوله: ﴿فَمِنْهُمْ﴾ عائد على الجميع الذي تضمنه قوله: ﴿نَفْسٌ﴾ إذ هو اسم جنس يراد به الجميع.

﴿١٠٦﴾ - ﴿١٠٧﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ شَقَّوْا﴾ على بعض التأويلات في الاستثناء الذي في آخر الآية؛ يُراد به كل من يعذب من كافر وعاص، وعلى بعضها كل من يخلد، وذلك لا يكون إلا في الكفرة خاصة.

والزفير: صوت شديد خاص بالمحزون أو الموحج أو المعذب ونحوه، والشهيق كذلك، كما يفعل الباكي الذي يصيح خلال بكائه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الزفير: صوت حاد، والشهيق: صوت ثقيل، وقال أبو العالية: الزفير من الصدر، والشهيق من الحلق، وقيل: بالعكس، وقال قتادة: الزفير: أول صوت الحمار والشهيق آخره، فصياح أهل النار كذلك، وقيل: الزفير مأخوذ من الزفر وهو الشدة، والشهيق من قولهم: جبل شاهق أي عال، فهما - على هذا المعنى - واحد أو متقارب، والظاهر ما قال أبو العالية، فإن الزفرة هي

يأتون»، وقرأ بها الأعمش، ووجه حذفها في الوقف التشبيه بالفواصل، وإثباتها في الوجهين هو الأصل، ووجه حذفها في الوصل التخفيف، كما قالوا في «لَا أَبَالَ وَلَا أَذْرُ» وأشد الطبري:

كَمَا كَفَّ مَا تُلِيَقُ دِرْهَمًا
جوداً وأخرى تُغَطُّ بِالسِّنْفِ الدَّمَ
وقوله: ﴿لَا تَكْفُرْمْ﴾ يصح

أن تكون جملة في موضع الحال من الضمير الذي في «يَأْتِي» وهو العائد على قوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ﴾، ولا يجوز أن يعود على قوله: ﴿يَوْمٌ يَأْتِي﴾، لأن اليوم المضاف إلى الفعل لا يكون فاعل ذلك الفعل، إذ المضاف متعرف بالمضاف إليه، والفعل متعرف بفاعله وليس في نفسه شيئاً مستقلاً دون الفاعل، وقولهم: «سيد قومه، ومولى أخيه، وواحد أمه» مفارق لما لا يستقل، فلذلك جازت الإضافة فيها، ويكون قوله: ﴿يَوْمٌ يَأْتِي﴾ - على هذا - في موضع الرفع بالابتداء وخبره: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِئٌ وَسَيِّئٌ﴾، وفي الكلام - على هذا - عائد محذوف تقديره: «لَا تَكْفُرْمْ نَفْسٌ فِيهِ إِلَّا»، ويصح أن يكون قوله: ﴿لَا تَكْفُرْمْ نَفْسٌ﴾ صفة لقوله: ﴿يَوْمٌ يَأْتِي﴾ والخبر قوله: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِئٌ وَسَيِّئٌ﴾، ويصح أن يكون قوله: ﴿لَا تَكْفُرْمْ نَفْسٌ﴾ خبراً عن قوله: ﴿يَوْمٌ يَأْتِي﴾. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ﴾ يُراد به اليوم الذي قبل ليلته، وقوله: ﴿يَوْمٌ يَأْتِي﴾ يُراد به الحين والوقت لا النهار بعينه، فهو كما قال عثمان: «إِنِّي رَأَيْتُ أَتْرُوجَ يَوْمِي هَذَا»، وكما قال الصديق

أن يناله عذابها فنظر وتأمل، فإن نظره يؤديه إلى الإيمان بالله تعالى، ثم عظم الله أمر يوم القيامة بوصفه بما تُلَيِّسُ بأجنبي منه للسبب المتصل بينهما ويعود الضمير عليه، ﴿وَالنَّاسِ﴾ - على هذا - مفعول لم يُسَمِّ فاعله، ويصح أن يكون ﴿النَّاسِ﴾ رفعا بالابتداء، و﴿مَعْمُوحٌ﴾ خير مقدم.

وهذه الآية خبر عن الحشر، و﴿مَشْهُودٌ﴾ عام على الإطلاق يشهده الأولون والآخرون من الإنس والملائكة والجن والحيوان في قول الجمهور وفيه - أعني الحيوان الصامت - اختلاف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهد: محمد عليه الصلاة والسلام، والمشهود: يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ﴾ الآية. المعنى: وما نؤخر يوم القيامة عجزاً عن ذلك، ولكن القضاء السابق قد نفذ فيه بأجل محدود لا يتقدم عنه ولا يتأخر. وقرأ الجمهور: ﴿نُؤَخِّرُهُ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش: ﴿يُؤَخِّرُهُ﴾ بالياء.

وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة: ﴿يَوْمٌ يَأْتِي﴾ بحذف الياء من يأتي في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير بإثباتها في الوصل والوقف، وقرأ نافع، وأبو عمرو، والكسائي بإثباتها في الوصل وحذفها في الوقف، ورويت أيضاً كذلك عن ابن كثير، والياء ثابتة في مصحف أبي بن كعب، وسقطت في إمام عثمان، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿يَوْمٌ

التي يعظم معها الصدر والخوف، والشهقة هي الوقعة الأخيرة من الصوت المندفعة معها النَّفْسُ أحياناً، فقد يشهق المحتضر ويشهق المغشي عليه.

وأما قوله: ﴿هَٰذَا دَٰمَتْ اَلْأَرْضُ وَالْأَرْضُ﴾ فقيل: معناه أن الله تبارك وتعالى يبذل السموات والأرض يوم القيامة، ويجعل الأرض مكاناً لجهنم والسماء مكاناً للجنة، ويتأبد ذلك، فترت الآية خلود هؤلاء ببقاء هذه، ويروى عن ابن عباس أنه قال: «إن الله خلق السموات والأرض من نور العرش، ثم يردهما إلى هنالك في الآخرة، فلَهُمَا ثَمٌّ بقاء دائم». وقيل: معنى قوله: ﴿هَٰذَا دَٰمَتْ اَلْأَرْضُ وَالْأَرْضُ﴾: العبارة عن التأييد بما تعهده العرب، وذلك أن من فصيح كلامها إذا أرادت أن تخبر عن تأييد شيء أن تقول: «لا أفعل كذا وكذا مدى الدهر، وما ناح الحمام، وما دامت السموات والأرض»، ونحو هذا مما يريدون به طولاً من غير نهاية، فأفهمهم الله تعالى تخليد الكفرة بذلك وإن كان قد أخرج بزوال السموات والأرض.

وأما قوله: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ فقيل فيه: إن ذلك على طريق الاستثناء الذي ندب الشرع إلى استعماله في كل كلام، فهو على نحو قوله تعالى: ﴿لَتَنخَلْنَ اَلْسِنَدَ اَلْحَرَامِ اِنْ شَاءَ اَللّٰهُ عَٰمِرَاتٍ﴾ استثناء في واجب، وهذا الاستثناء في حكم الشرط، كأنه قال: «إن شاء الله»، فليس يحتاج إلى أن يوصف بمُتَّصِل ولا بمنقطع، ويؤيد هذا قوله تعالى:

﴿عَطَلَةٌ غَيْرَ يُجَدِّدُ﴾، وقيل: هو استثناء من طول المدة، وذلك على ما روي من أن جهنم تخرب ويعدم أهلها وتخفق أبوابها، فهم - على هذا - يخلدون حتى يصير أمرهم إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مختل، والذي روي وثقل عن ابن مسعود وغيره إنما هو الدرك الأعلى المختص بعصاة المؤمنين، وهو الذي يُسمى جهنم، وسمي الكل به تجوزاً.

وقيل: إنما استثنى ما يلطف الله تعالى به للعصاة من المؤمنين في إخراجهم بعد مدة من النار، فيجيء قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ أي: لقوم ما، وهذا قول قتادة، والضحاك، وأبي سنان، وغيرهم، وعلى هذا فيكون قوله: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُّوا﴾ عاماً في الكفرة والعصاة كما قدمنا، ويكون الاستثناء من ﴿خَالِدِينَ﴾. وقيل: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو، فمعنى الآية: «وما شاء الله زائداً على ذلك»، ونحو هذا قول الشاعر:

وَكُلُّ أَحْ مُفَارِقُهُ أَخُوهُ
لَعَمْرُ أَبِيكَ إِلَّا اَلْفَرْقَدَانِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا البيت يصح الاستشهاد به على معتقدنا في فناء الفرقدين وغيرهما من العالم، وأما إن كان قائله من ذفرية العرب فلا حجة فيه، إذ يرى ذلك مؤبداً فأجرى «إلا» على بابها.

وقيل: ﴿إِلَّا﴾ في هذه الآية بمعنى «سوى»، والاستثناء منقطع، كما

تقول: «لي عندك ألفا درهم، إلا الألف التي كنت أسلفتك»، بمعنى: سوى تلك، فكأنه قال: «خالدین فيها ما دامت السموات والأرض سوى ما شاء الله زائداً على ذلك»، ويؤيد هذا التأويل قوله بعد: ﴿عَطَلَةٌ غَيْرَ يُجَدِّدُ﴾، وهذا قول الفراء، فإنه يقدر الاستثناء المنقطع بـ «سوى»، وسيبويه يقدره بـ «الكن». وقيل: «سوى ما أعده لهم من أنواع العذاب مما لا يُعرف كالزهرير ونحوه»، وقيل: استثناء من مدة السموات والأرض، المدة التي فرطت لهم في الحياة الدنيا، وقيل: في البرزخ بين الدنيا والآخرة، وقيل: في المسافات التي بينهم في دخول النار، إذ دخولهم إنما هو زمرأ بعد زمرأ، وقيل: الاستثناء من قوله: ﴿فَنِي اَلنَّارِ﴾، كأنه قال: «إلا ما شاء ربك من تأخير قوم عن ذلك»، وهذا قول رواه أبو نضرة عن جابر أو عن أبي سعيد الخدري، ثم أخبر مُتَّبِعاً على قدرة الله تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر - «سَعِدُوا» بفتح السين، وهو فعل لا يتعدى، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية حفص -: «سُودُوا» بضم السين، وهي شاذة ولا حجة في قولهم: «مسعود» لأنه «مفعول» من «أسعد» على حذف الزيادة، كما يقال: «محبوب» من «أحب» و «مجنون» من «أجنته الله»، وقد قيل في مسعود: إنما أصله الوصف للمكان،

به معاصري محمد ﷺ، وأن يعمهم اللفظ أحسن عندي، ويؤكد ذلك قوله: ﴿وَإِنْ كَلَّمَا﴾، والكلمة ها هنا عبارة عن الحكم والقضاء، ومعنى ﴿لَقِصَّ بَيْنَهُمْ﴾: لفصل بين المؤمن والكافر بتعظيم هذا وعذاب هذا. ووضف الشك بالمريب تقوية لمعنى الشك.

وقرأ الكسائي، وأبو عمرو: ﴿وَإِنْ كَلَّمَا﴾ بتشديد النون وتخفيف الميم من ﴿لَمَّا﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، بتخفيفهما، وقرأ حمزة بتشديدهما، وكذلك حفص عن عاصم، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - بتخفيف ﴿وَإِنْ﴾ وتشديد الميم من ﴿لَمَّا﴾، وقرأ الزهري، وسليمان بن أرقم: ﴿وَإِنْ كَلَّمَا﴾ بتشديد الميم وتثنيها، وقرأ الحسن بخلاف: ﴿وَإِنْ كَلَّمَا﴾ بتخفيف ﴿وَإِنْ﴾ ورفع ﴿كَلَّمَا﴾، وشد ﴿لَمَّا﴾، وكذلك قرأ أبان بن تغلب إلا أنه خفف ﴿لَمَّا﴾، وفي مصحف أبي وابن مسعود: ﴿وَإِنْ كَلَّمَا﴾ لِئَوْفَيْتُهُمْ، وهي قراءة الأعمش، قال أبو حاتم: الذي في مصحف أبي: ﴿وَإِنْ مِنْ كَلَّمَا﴾ لِئَوْفَيْتُهُمْ أعمالهم.

فأما الأول فـ ﴿وَإِنْ﴾ فيها على بابها، و﴿كَلَّمَا﴾ اسمها، وعرفها أن تدخل على خبرها لام، وفي الكلام قسم تدخل لامة أيضاً على خبر «إِنْ»، فلما اجتمع لاما فصل بينهما بـ (ما)، هذا قول أبي علي، والخير في قوله: ﴿لِئَوْفَيْتُهُمْ﴾. وقال بعض النحاة: يصح أن تكون (ما) خبر (إن)، وهي لمن يعقل لأنه موضع

١٠٩ - ﴿وَإِنْ﴾ تفسير قوله عز وجل:

لفظ الخطاب للنبي ﷺ، والمعنى له ولأمته، ولم يقع لأحد شك فيقع عنه نهى، ولكن من فصاحة القول في بيان ضلالة الكفرة إخراجها في هذه العبارة، أي حالهم أوضح من أن يُمتزى فيها، والميزنة: الشك، و﴿هُؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى كفار العرب عبدة الأصنام، ثم قال: ﴿مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾، المعنى: إنهم مقلدون لا برهان عندهم

ولا حجة، وإنما عبادتهم تشبهاً منهم بآبائهم لا عن بصيرة، وقوله: ﴿وَإِنَّا لَمُؤْفِقُهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَشْهُورٍ﴾ وعيد، ومعناه: العقوبة التي تقتضيها أعمالهم، ويظهر من قوله: ﴿غَيْرَ مَشْهُورٍ﴾ أن على الأولين كيفاً من كُفْر الآخرين. وقرأ الجمهور: ﴿لَمُؤْفِقُهُمْ﴾ بفتح الواو وشد الفاء، وقرأ ابن محيصن: ﴿لَمُؤْفِقُهُمْ﴾ بسكون الواو وتخفيف الفاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ الآية. تسلياً لمحمد ﷺ، وذكر قصة موسى مثل ما: أي: لا يعظم عليك أمر من كذبك فهذه هي سيرة الأمم، فقد جاء موسى بكتاب فاختلف الناس عليه.

وقوله: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ إلى آخر الآية يحتمل أن يريد به أمة موسى، ويحتمل أن يريد

فَلَا تَكُ فِي مَرْيَمَ إِمَامًا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُؤْفِقُهُمْ نَصِيْبُهُمْ غَيْرَ مَشْهُورٍ ﴿١٠٩﴾

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاتَّخِذْ فِيهِ ذِكْرًا وَلَا كَلِمَةً سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقِصَّ بَيْنَهُمْ وَأَنْتُمْ لَنْبِي شَاكٍ مِنْهُ مَرْيَمَ ﴿١١٠﴾ وَإِنْ كَلَّمَا لَيْفَيْتُهُمْ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ جَمْعًا مَعْمُولُونَ ﴿١١١﴾

حَبِيرٌ ﴿١١٢﴾ فَاسْتَوَيْتُمْ كَمَا أَمَرْتُ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٣﴾ وَلَا تَزْكُرُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ﴿١١٤﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَرِغْلَيْمَنِ الْيَوْمِ إِنَّ أَعْيُنَ النَّاسِ عَلَىكَ وَاللَّهُ يُؤْفِكُ لِلَّذِينَ يُحِبُّونَ ﴿١١٥﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٦﴾ قَالُوا لَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةً يَبْهَتُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ يُبْهَتُونَ الظَّالِمِينَ مَا ظَلَمُوا مَا أَتَوْا بِهِ وَكَانُوا شُرَكَاءَ ﴿١١٧﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلِهَا مُصْرِحُونَ ﴿١١٨﴾

٢٢٤

يقال: مكان مسعود فيه، ثم نقل إلى التسمية به، وذكر أن الفراء حكى أن هذيلًا تقول: سَعَدَ اللهُ، بمعنى: أسعده، ويضم السين قرأ ابن مسعود، وطلحة بن مصرف، وابن وثاب، والأعمش.

والأقوال المترتبة في استثناء التي قبل هذه تترتب ها هنا إلا تأويل من قال: «هو استثناء المدة التي تخرب فيها جهنم» فإنه لا يترتب مثله في هذه الآية، ويزيد هنا قول أن يكون الاستثناء في المدة التي يقيمها العصاة في النار، ولا يترتب أيضاً تأويل من قال في تلك: إن الاستثناء هو من قوله تعالى: ﴿فَبِئْسَ النَّارُ﴾.

وقوله: ﴿عَطَاةٌ غَيْرَ مَجْدُوزَةٍ﴾ نصب على المصدر، والمجدوذ: المقطوع، والجذ: القطع، وكذلك الجذ، وكذلك الحز.

عَلَيْهَا حَافِظٌ»، ومن قرأ: ﴿إِلَّا﴾
مصرحةً فمعنى قراءته واضح. وهذه
الآية وعيد.

وقرأ الجمهور: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بياء
على ذكر الغائب، وقرأ الأعرج:
﴿تَعْمَلُونَ﴾ بياء على مخاطبة
الحاضر.

﴿١١٢﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمرُ النبي ﷺ بالاستقامة وهو عليها
إنما هو أمرٌ بالدوام والثبات، وهذا
كما تأمر إنساناً بالمشي والأكل
ونحوه وهو متلبس به، والخطاب
بهذه الآية للنبي عليه الصلاة والسلام
وأصحابه الذين تابوا من الكفر
ولسائر أمته بالمعنى، وزوي أن
بعض العلماء رأى النبي ﷺ في
النوم فقال له: يا رسول الله بلغنا
عنك أنك قلت: «شَيْبَتِي هود
وأخواتها»، فما الذي شَيْبَكَ من
هود؟ قال له: قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَوِمَّ
كَمَا أَمَرْتُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والتأويل المشهور في قوله ﷺ:
«شَيْبَتِي هود وأخواتها» أنها إشارة
إلى ما فيها مما حلَّ بالأُمم السابقة،
فكأن حذره على هذه الأمة مثل ذلك
شيبه عليه الصلاة والسلام.

وقوله: ﴿أَمَرْتُ﴾ مخاطبة تعظيم،
وقوله: ﴿وَمَنْ﴾ معطوف على
الضمير في قوله: ﴿فَأَسْتَوِمَّ﴾،
وحسن ذلك دون أن يؤكد لطول
الكلام بقوله: ﴿كَمَا أَمَرْتُ﴾. «وَلَا
تَقْرَأُ» معناه: ولا تتجاوزوا
حدود الله تبارك وتعالى، والظغيان:
تجاوز الحد، ومنه قوله: ﴿لَمَّا

وَأَشَمَّتْ الْعِدَاءُ بِنَاءً فَأَضْحَرُوا
لَدُنِّي يَتَّبِعُونَ بِمَا لَقِينَا
قال أبو علي: وهذا ضعيف، وقد
اجتمع في هذه السورة ميمات أكثر
من هذه في قوله: ﴿أَمْرٌ مِمَّنْ
تَمَلَّكَ﴾ ولم يدغم هناك فأحرى ألا
يدغم هنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقال بعض الناس: أصلها «لَمَنْ
ما»، فـ «مَنْ» خبر (إِنَّ)، و (ما)
زائدة، وفي التأويل الذي قبله أصله:
«لَمَنْ مَا»، ف (ما) هي الخبر دخلت
عليها «مِنْ» على حد دخولها في قول
الشاعر:

وَأَنَا لِمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبِشَ ضَرْبَةً
على رأسه تُلْقِي اللَّسَانَ مِنَ الْقَمِّ
وقالت فرقة: ﴿لَمَّا﴾ أصلها «لَمَّا»
منونة، والمعنى: وإن كلاً عاماً
حصراً شديداً، فهو مصدر: لَمْ يَلَمْ،
كما قال: ﴿وَتَأْكُلُونَ التَّرَاتِ أَكْلاً
لَمَّا﴾، أي: شديداً، قلت:
ولكنه ترك تنوينه وصرفه وبَيَّنَّ منه
(فَعَلَى) كما فعل في (تَشْرَى)،
فقرئ: ﴿تَرَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي هذا نظير، حكي عن الكسائي
أنه قال: لا أعرف وجه التثقيب في
﴿لَمَّا﴾. قال أبو علي: وأما من قرأ
﴿لَمَّا﴾ بالتثوين وشذ الميم فواضح
الوجه كما بيَّنا.

وأما من قرأ: ﴿وَإِنْ كُلُّ لَمَّا﴾ فهي
المخففة من الثقيلة، وحققها في أكثر
لسان العرب أن يرتفع ما بعدها،
و﴿لَمَّا﴾ هنا بمعنى: «إِلَّا»، كما قرأ
جمهور القراء: ﴿وَإِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا

جنس وصنف، فهي بمنزلة «مَنْ»،
كأنه قال: «وَإِنْ كُلاً لَخَلَقَ
لِيُؤْفِقِينَهم»، ورجح الطبري هذا
واختاره، أما إنه يلزم القول أن تكون
(مَا) موصوفة إذ هي نكرة، كما
قالوا: «مررت بما معجب لك»،
وينفصل بأن قوله: ﴿لِيُؤْفِقِينَهم﴾ يقوم
معناه مقام الصفة، لأن المعنى:
«وَإِنْ كُلاً لَخَلَقَ مَوْفَى عمله».

وأما من حَقَّقَهَا - وهي القراءة الثانية
في ترتيبنا - فحكم ﴿وَإِنْ﴾ وهي
مخففة حكمها مثقلة، وتلك لغة
فصيحة، حكي سيويه أن الثقة أخبره
أنه سمع بعض العرب يقول: «إِنْ
عَمراً لَمُنْطَلِقِي»، وهو نحو قول
الشاعر:

وَوَجْهٌ مُشْرِقُ السُّخْرِ
كَأَنَّ تَذِينَهُ حُقَانِ
رواه أبو زيد، ويكون القول في
فصل (مَا) بين اللامين حسباً تقدم،
ويدخلها القول الآخر من أن تكون
(مَا) خبر ﴿وَإِنْ﴾.

وأما من شدها أو حَقَّفَ ﴿وَإِنْ﴾
وشدَّ الميم ففي قراءتهما إشكال،
وذلك أن بعض الناس قال: «إِنْ (لَمَّا)
بمعنى «إِلَّا»، كما تقول: «سألتك
لَمَّا فعلت كذا وكذا»، بمعنى: إلا
فَعَلْتَ، قال أبو علي: وهذا ضعيف
لأن (لَمَّا) هذه لا تفارق القسم.
وقال بعض الناس: أصلها «لَمَنْ ما»
فقلبت النون ميماً وأدغمت في التي
بعدها فبقي «لَمَمَّا» فحذفت الأولى
تخفيفاً لاجتماع الأمثلة، كما قرأ
بعض القراء: ﴿وَوَالَّذِينَ يَعْبُدُكُمْ﴾
بحذف الياء مع الياء، وكما قال
الشاعر:

الْمَلَأَ، وقوله في فرعون: ﴿إِنَّهُ
طَغَى﴾، وقيل في هذه: معناه: ولا
تطغيتكم النعم، وهذا كالأول. وقرأ
الجمهور: ﴿تَمَلَّوْكَ﴾ بتاء، وقرأ
الحسن، والأعمش: ﴿يُغْمَلُونَ﴾ بياء
من تحت.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَزْكُوا﴾ بفتح
الكاف، وقرأ طلحة بن مصرف،
وقتادة، والأشهب العقيلي، وأبو
عمرو - فيما روى عنه هارون -
بضمها، وهو لغة، يقال: زَكِنَ يَزْكُنُ
ورَكِنَ يَزْكُنُ، ومعناه: السكون إلى
الشيء والرِّضَا به، قال أبو العالية:
الرَّكُونُ: الرِّضَا، قال ابن زيد:
الرَّكُونُ: الإذعان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فالركون يقع على قليل هذا المعنى
وكثيره، والنهي هنا يترتب من معنى
الركون على المَيْل إليهم بالشرك
معهم إلى أقل الرتب من ترك
التغيير عليهم مع القدرة، و﴿الَّذِينَ
ظَلَمُوا﴾ هنا هم الكفار، وهو النُّص
للمتأولين، ويدخل بالمعنى أهل
المعاصي.

وقرأ الجمهور: ﴿فَتَسَكَّمُ﴾، وقرأ
يحيى بن وثاب، وعلقمة،
والأعمش، وابن مصرف، وحمزة -
فيما روى عنه -: ﴿فَتَمَسَّكُمْ﴾ بكسر
التاء، وهي لغة في كسر العلامات
الثلاث دون الباء التي للغائب، وقد
جاء في الباء «يَبْجَلُ» و«يَبْبِي»،
وعللت هذه بأن الباء التي وليت
الأولى رَدَّتْهَا إِلَى الكسر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَى الْفَلَاحَةَ﴾
الآية. لم يختلف أحد في أن الصلاة

في هذه الآية يراد بها الصلوات
المفروضة، واختلف في «طَرَفِي»
النهار و«رُفَّ الليل»، فقيل: الطرف
الأول: الصبح، والثاني: الظهر
والعصر، والرُّفَّ: المغرب
والعشاء، قال مجاهد، ومحمد ابن
كعب الفرظي. وروى أن النبي ﷺ
قال في المغرب والعشاء: «هما رُفَّتَا
الليل». وقيل: الطرف الأول:
الصبح، والثاني: العصر، قاله
الحسن، وقتادة، والضحاك.

والرُّفَّتَا: المغرب والعشاء، وليست
الظهر في هذه الآية - على هذا القول -
بل هي في غيرها. وقيل:
الطرفان: الصبح والمغرب، قاله ابن
عباس، والحسن أيضاً، والرُّفَّتَا:
العشاء، وليست الظهر والعصر في
الآية، وقيل: الطرفان: الظهر
والعصر، والرُّفَّتَا: المغرب والعشاء
والصبح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
كأن هذا القائل راعى جهه القراءة،
والأول أحسن هذه الأقوال عندي،
ورجح الطبري أن الطرفين: الصبح
والمغرب، وأنه الظاهر إلا أن عموم
الصلوات الخمس بالآية أولى.

وقرأ الجمهور: ﴿رُؤُفًا﴾ بفتح
اللام، وقرأ طلحة بن مصرف، وابن
محيصن، وعيسى، وابن إسحاق،
وأبو جعفر: ﴿رُؤُفًا﴾ بضم اللام كأنه
اسم مفرد، وقرأ: ﴿رُؤُفًا﴾ بسكون
اللام مجاهد، وقرأ أيضاً: ﴿رُؤُفِي﴾
على وزن «فُعُلِي»، وهي قراءة
ابن محيصن، والرُّؤُفَا: الساعات
القريب بعضها من بعض ومنه قول
العجاج:

نَاجِ طَوَاهِ الْأَيْنِ مِمَّا وَجَفَا
طَيِّ السَّيَالِي رُؤُفًا فَرُؤُفًا
سَمَاوَةِ الْهَلَالِ حَتَّى اخْتَوَقَفَا
وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذَيَّبْنَ
السَّيِّئَاتِ﴾ ذهب جمهور المتأولين من
صحابه وتابعين إلى أن «الْحَسَنَاتِ»
يراد بها الصلوات الخمس، وإلى
هذه الآية ذهب عثمان رضي الله عنه
عند وضوئه على المقاعد، وهو
تأويل مالك، وقال مجاهد:
الحسنات؛ قول الرجل:
سبحان الله، والحمد لله، ولا إله
إلا الله، والله أكبر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله إنما هو على جهة المثال
في الحسنات، ومن أجل أن
الصلوات الخمس هي أعظم
الأعمال. والذي يظهر أن لفظ الآية
عام في الحسنات خاص في السيئات
لقوله عليه الصلاة والسلام: «مَا
اجْتُنِبَتِ الْكَبَائِرُ». وروى أن هذه
الآية نزلت في رجل من الأنصار،
قيل: هو أبو اليَسْرِ بن عمرو،
وقيل: اسمه عبَّاد، خلا بامرأة فقبلها
وتلذذ بها فيما دون الجماع، ثم
جاء إلى عمر رضي الله عنه فشكا
إليه، فقال: قد ستر الله عليك فاستر
على نفسك، فقلق الرجل فجاء أبا
بكر رضي الله عنه فشكا إليه، فقال
له مثل مقالة عمر، فقلق الرجل
فجاء رسول الله ﷺ فصلى معه ثم
أخبره وقال: أفض في ما شئت،
فقال الرسول ﷺ: «لعلها زوجة
غاز في سبيل الله»، قال: نعم،
فوبَّخه رسول الله ﷺ وقال: «ما

أفري»، فنزلت هذه الآية، فدعاه رسول الله ﷺ فتلاها عليه، فقال معاذ بن جبل رضي الله عنه: يا رسول الله، خاصة؟ قال: «بيل للناس عامة».

وروي أن الآية كانت نزلت قبل ذلك واستعملها رسول الله ﷺ في ذلك الرجل، وروي أن عمر بن الخطاب قال ما حكي عن معاذ.

وروي أن رسول الله ﷺ قال: «الجمعة إلى الجمعة، والصلوات الخمس، ورمضان إلى رمضان - كفارة لما بينهما إن اجْتَنِبْتَ الكبائر»، فاختلف أهل السنة في تأويل هذا الشرط في قوله: «إِنْ اجْتَنِبْتَ الكبائر» فقال جمهورهم: هو شرط في معنى الوعد كله، أي: إِنْ اجْتَنِبْتَ الكبائر كانت العبادات المذكورة كفارة للذنوب، فإن لم تُجْتَنَبْ لم تكفر العبادات شيئاً من الصغائر، وقالت فرقة: معنى قوله: «إِنْ اجْتَنِبْتَ» أي: هي التي لا تحطها العبادات، فإنما شرط ذلك ليصح بشرطه عموم قوله: «ما بينهما»، وإن لم تُجْتَنَبْ لم تحطها العبادات وحطت الصغائر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذا أقول، وهو الذي يقتضيه حديث خروج الخطايا مع قطر الماء وغيره، وذلك كله بشرط التوبة من تلك الصغائر وعدم الإصرار عليها، وهذا نصُّ حدّاق الأصوليين، وعلى التأويل الأول تجيء هذه مخصوصة في مجتبي الكبائر فقط.

وقوله: «ذَلِكَ» إشارة إلى الصلوات، ووصفها بـ «ذَكَرَى»،

أي: هي سبب ذكر وموضع ذكري، ويحتمل أن يكون «ذَلِكَ» إشارة إلى الإخبار بأن الحسنات يذهبن السيئات، فتكون هذه الذكري تحضُّ على الحسنات، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى جميع ما تقدم من الأوامر والنواهي في هذه السورة، وهو تفسير الطبري.

ثم أمره تعالى بالصبر.

وجاءت هذه الآيات في نمط واحد: أعلمه الله تعالى أنه يوفي جميع الخلائق أعمالهم، المسية والمحسن، ثم أمره بالاستقامة والمؤمنين معه، ثم أمره بإقامة الصلوات ووعد على ذلك، ثم أمره بالصبر على التبليغ والمكاره في ذات الله تبارك وتعالى، ثم وعد بقوله: «إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ».

١١٦ - ١١٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿لَوْلَا﴾ هي التي للتحضض، لكن يقترن بها هنا معنى التذجع والتأسف الذي ينبغي أن يقع من البشر على هذه الأمم التي لم تهتد، وهذا نحو قوله: «يَتَحَسَّرُ عَلَى الْبِئْسَاءِ»، و﴿الْفُرُوقَ﴾ من قبلنا هم قوم نوح وعاذٍ وثمود ومن تقدم ذكره، والقرن من الناس: المقترنون في زمان طويل أكثره - فيما حدّ الناس - مائة سنة، وقيل: ثمانون، وقيل غير ذلك إلى ثلاثين سنة، والأرجح الأول لقول النبي ﷺ: «أرأيتكم ليلتكم هذه فإن إلى رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد»،

قال ابن عمر رضي الله عنهما: يريد أنها تخرم ذلك القرن، و «البقية» هنا

يراد بها الشظُرُ والعقل والحزم والثبوت في الدين، وإنما قيل «بقية» لأن الشرائع والدول ونحوها قوتها في أولها ثم لا تزال تضعف، فمن ثبت في وقت الضعف فهو بقية الصدر الأول، وقرأت فرقة: «بِقِيَّة» بتخفيف الياء، وهو ردّ فَعِيلَةٍ إلى فَعِيلَةٍ، وقرأ أبو جعفر، وشيبة: «بِقِيَّة» بضم الباء وسكون القاف على وزن فُعَلَةٍ.

و «الْفَسَادُ فِي الْأَرْضِ» هو الكفر وما اقترن به من المعاصي، وهذه الآية فيها تنبيه لأمة محمد ﷺ وحضُّ على تغيير المنكر والنهي عن الفساد ثم استثنى الله تعالى القوم الذين نجاهم مع أنبيائهم وهم قليل بالإضافة إلى جماعاتهم، و﴿قَلِيلًا﴾ نصب على الاستثناء، وهو منقطع عند سيبويه، والكلام عنده موجب، وغيره يراه منفيًا من حيث معناه أنه لم يكن فيهم أولو بَقِيَّةٍ.

وقرأ جمهور الناس: «وَأَنْبِئَ» على بناء الفعل للفاعل، وقرأ جعفر بن محمد: «وَأَنْبِئَ» على بنائه للمفعول، ورويت عن أبي عمرو: «مَا أَنْبِئُوا فِيهِ» أي: عاقبة ما نعموا به - على بناء الفعل للمفعول -، والمُتَرَفُّ: المتعم الذي شغله ترفه عن الحق حتى هلك، ومنه قول الشاعر:

تُهْدِي رُؤُوسَ الْمُتَرَفِّينَ الصُّدَّادَ
إِلَى أَيْبِرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمُتَشَادَ
يريد: المسؤول، يقال: مَادَهُ إِذَا سَأَلَهُ.

وقوله تعالى: «يُظَلِّرُ» يحتمل أن يريد: يظلم منه لهم - تعالى عن

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فجاءت الإشارة بـ (ذلك) إلى الأمرين معاً: الاختلاف والرحمة، وقد قاله ابن عباس واختاره الطبري، ويحيى عليه الضمير في ﴿خَلَقَهُمْ﴾ للضننين، وقال مجاهد، وقتادة: (ذَلِكَ) عائد على الرحمة التي تضمنها قوله: ﴿إِلَّا مَنْ رَجَعُوا﴾ أي: وللرحمة خلق المرحومين، قال الحسن: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الاختلاف الذي في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُخَلِّقُونَ﴾.

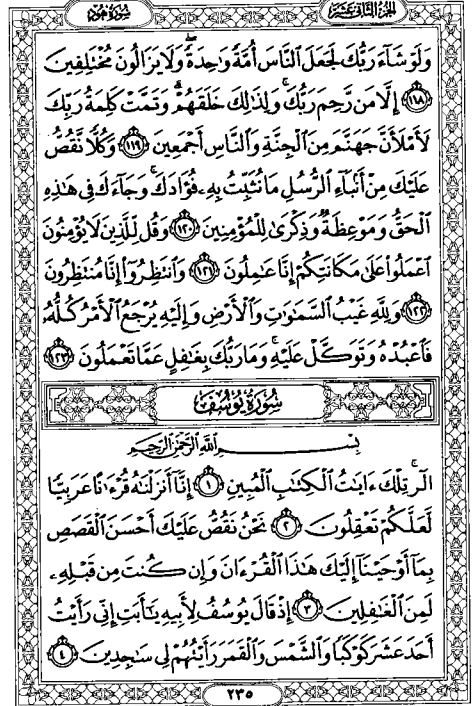
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعترض هذا بأن يقال: كيف خلقهم للاختلاف؟ وهل معنى الاختلاف هو المقصود بخلقهم؟ فالوجه في الانفصال أن نقول: إن قاعدة الشرع أن الله عز وجل خلق خلقاً للسعادة وخلقاً للشقاوة، ثم يسر كلأ لما خلق له، وهذا نص في الحديث الصحيح، وجعل بعد ذلك الاختلاف في الدين على الحق هو أمانة الشقاوة، وبه تعلق العقاب، فيصح أن يحمل قوله هنا: ﴿وَلَاخْتِلَافَ خَلْقِهِمْ﴾ أي: لشمرة الاختلاف وما يكون عنه من الشقاوة.

ويصح أن تجعل اللام في قوله: ﴿وَلَدَلَاكَ﴾ لام الصيرورة، أي: وخلقهم ليصير أمرهم إلى ذلك وإن لم يقصد بهم الاختلاف. ومعنى قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونَ﴾، أي: لأمرهم بالعبادة وأوجبها عليهم، فعبء عن ذلك بشمرة الأمر ومقتضاه.

مختلفين في الأديان والآراء والمِلل. هذا تأويل الجمهور. قال الحسن، وعطاء، ومجاهد، وغيرهم: المرحومون المستثنون هم المؤمنون ليس عندهم اختلاف، وقالت فرقة: لا يزالون مختلفين في السعادة والشقاوة، وهذا قريب المعنى من الأول، إذ هي شمرة الأديان والاختلاف فيها ويكون الاختلاف - على هذا التأويل - يدخل فيه المؤمنون إذ هم مخالفون للكفرة، وقال الحسن للکفرة، لا يزالون مختلفين في الغنى والفقر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول بعيد معناه من معنى الآية. ثم استثنى الله تعالى من الضمير في ﴿يَزَالُونَ﴾ مَنْ رَحِمَهُ مِنَ النَّاسِ بِأَنْ يَهْدَاهُ إِلَى الْإِيمَانِ وَوَقَّعَهُ لَهُ. وقوله: ﴿وَلَدَلَاكَ خَلَقَهُمْ﴾ اختلف فيه المتأولون؛ فقالت فرقة: ولشهود اليوم المشهود - المتقدم ذكره - خلقهم، وقالت فرقة: (ذلك) إشارة إلى قوله قبيل: ﴿فَيَنْهَرُ شَقِيحًا وَرَسِيحًا﴾ أي: لهذا خلقهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان المعنيان وإن صحا فهذا المؤد المتباعد ليس بجيد، وروى أشهب عن مالك أنه قال: (ذلك) إشارة إلى أن يكون فريق في الجنة وفريق في السعير.



ذلك -، قال الطبري: ويحتمل أن يريد: يشرك منهم وهم مصلحون في أعمالهم وسيرهم، وعدل بعضهم في بعض، أي أنه لا بُد من معصية تقترن بكفرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وإنما ذهب قائله إلى نحو ما قيل: «إن الله تعالى يُنهل الدول على الكفر ولا يُنهلها على الظلم والجور». ولو عكس لكان ذلك متجهاً، أي: ما كان الله ليعذب أمة بظلمهم في معاصيهم وهم مصلحون في الإيمان، والاحتمال الأول في ترتيبنا أصح إن شاء الله.

١١٨ - ١١٩ تفسير قوله عز وجل: المعنى: لجعلهم أمة واحدة مؤمنة - قاله قتادة - حتى لا يقع منهم كفر ولا تنزل بهم مثلة، ولكنه عز وجل لم يشأ ذلك، فهم لا يزالون

تفسير

سورة يوسف
عليه السلام

هذه السورة مكية، ويُرْوَى أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فنزلت السورة بسبب ذلك، ويُرْوَى أن اليهود أمروا بكفار مكة أن يسألوا رسول الله ﷺ عن السبب الذي أحلَّ بني إسرائيل بمصر فنزلت السورة، وقيل: سبب نزولها تسليية رسول الله ﷺ عما يفعله به قومه بما فعل إخوة يوسف بيوسف، وسورة يوسف لم يتكرر من معناها شيء في القرآن كما تكررت قصص الأنبياء، ففيها حجة على من اعترض بأن الفصاحة تمكنت بترداد القول، وفي تلك القصص حجة على من قال في هذه: لو كررت لَفَتَّرَتْ فصاحتها.

(١) - (٢) تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

تقدم القول في فواتح السور، و﴿الْكِتَابُ﴾: القرآن، وصفه ب﴿الْحَيِّينِ﴾ - قيل: من جهة أحكامه وحلاله وحرامه، وقيل: من جهة مواعظه وهداه ونوره، وقيل: من جهة بيان اللسان العربي وجودته إذ فيه ستة أحرف لم تجتمع في لسان - روي هذا القول عن معاذ بن جبل - ويحتمل أن يكون مُبِيناً لنبوة محمد ﷺ بإعجازه. والصواب أنه مبين بجميع هذه الوجوه، والضمير في قوله: ﴿أُنزِلَتْهُ﴾ للكتاب، والإنزال إمَّا بمعنى الإنبات، وإمَّا أن تتصف به التلاوة والعبارة، وقال

﴿الْحَقُّ﴾ إنما تخصص بما تضمنت من وعيد للكفرة.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الآية. هذه آية وعيد، أي: اعملوا على حالاتكم التي أنتم عليها من كفركم. وقرأ الجمهور هنا: ﴿مَكَانِكُمْ﴾ واحدة دالة على جمع، وألفاظ هذه الآية تصلح للمواعدة، وتصلح أن تقال على جهة الوعيد المحض والحرب قائمة.

وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. هذه آية تعظم وانفراد بما لا حظ لمخلوق فيه، وهو علم الغيب، وتبيين أن الخير والشَّرُّ وجليل الأشياءٍ وحقيرها مصروف إلى أحكام مالكة، ثم أمر النبي ﷺ بالعبادة والتوكل على الله تبارك وتعالى، وفيها زوال همِّه وصلأحه ووصوله إلى رضوان الله.

وقرأ السبعة غير نافع: ﴿يَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وقرأ نافع، وحفص عن عاصم: ﴿يَرْجِعُ الْأُمُورُ﴾ على بنائه للمفعول، ورواها ابن أبي الزناد عن أهل المدينة. وقرأ: ﴿تَمْلُؤُونَ﴾ بالثاء من فوق نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وهي قراءة الأعرج، والحسن، وأبي جعفر، وشيبة، وعيسى بن عمرو، وقتادة، والجحدري، واختلف عن الحسن، وعيسى. وقرأ الباقون: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بإياء على كناية الغائب.

تم بتوفيق من الله تبارك وتعالى تفسير سورة هود والحمد لله رب العالمين

وقوله: ﴿وَوَدَّعْتُمْ كَلِمَاتٍ رَبِّكَ﴾ أي نفذ قضاؤه وحق أمره، واللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ لام قسم، إذ «الكلمة» تتضمن القسم، والجرُّ: جمع لا واحد له من لفظه، وهو من أجزء إذا ستر، والهاء في ﴿الْحَيِّينِ﴾ للمبالغة، وإن كان الجرُّ يقع على الواحد ف﴿الْحَيِّينِ﴾ جمعه.

(٣) - (٤) تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

قوله: ﴿وَوَدَّعْتُمْ﴾ مفعول مقدم بـ ﴿نَفْسُ﴾، وقيل: هو منصوب على الحال، وقيل: على المصدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان ضعيفان.

و﴿مَا﴾ بدل من قوله: ﴿كَلِمَاتٍ﴾، و﴿تَنَبَّأَ بِهِ فُؤَادُكَ﴾ أي: نُؤَنِّسُكَ فيما تلقاه، ونجعل لك الأسوة فيمن تقدمك من الأنبياء، وقوله: ﴿فِي هَلْدُودٍ﴾، قال الحسن: هي إشارة إلى دار الدنيا، وقال ابن عباس: إلى السورة والآيات التي ذكر فيها قصص الأمم. وهذا قول الجمهور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووجه تخصيص هذه السورة بوصفها بـ ﴿الْحَقِّ﴾ - والقرآن كله حَقٌّ - أن ذلك يتضمن معنى الوعيد للكفرة والتنبية للناظر، أي: جاءك في هذه السورة الحق الذي أصاب الأمم الظالمة، وهذا كما يقال عند الشدائد: «جاء الحق»، وإن كان الحق يأتي في غير شدة وغير ما وجه، ولا يستعمل في ذلك «جاء الحق» - ثم وصف أيضاً أن ما تضمنته السورة هو موعظة وذكرى للمؤمنين، فهذا يؤيد أن لفظة

البيامة، فردوا لفظة الأهل ولم يعتدوا بها.

وقرأ أبو جعفر، والحسن، وطلحة بن سليمان: ﴿أَخَذَ عَشْرَ كَوْكَبًا﴾ بسكون العين لتوالي الحركات، وليظهر أن الاسمين قد جُعلا واحداً، وقيل: إنه رأى كواكب حقيقة والشمس والقمر فتأولها يعقوب إخوته وأبويه، وهذا قول الجمهور، وقيل: الإخوة والأب والخالة، لأن أمه كانت ميتة، وقيل: إنما كان رأى إخوته وأبويه فعبّر عنهم بالكواكب والشمس والقمر، وهذا ضعيف، ترجم به الطبري ثم أدخل عن قتادة والضحاك وغيرهما كلاماً محتملاً أن يكون كما ترجم وأن يكون مثل قول الناس.

وقال المفسرون: القمر تأويله: الأب، والشمس تأويلها: الأم، فانتزع بعض الناس من تقديمها وجوب ير الأم وزيادته على بز الأب، وحكى الطبري عن جابر بن عبدالله أن يهودياً اسمه بستانة جاء إلى رسول الله ﷺ فقال: أخبرني عن أسماء الكواكب التي رآها يوسف عليه السلام، فسكت عنه رسول الله ﷺ، ونزل جبريل عليه السلام فأخبره بأسمائها، فدعا رسول الله ﷺ اليهودي، فقال: «هل أنت مؤمن إن أخبرتك بذلك؟» قال: نعم، قال: «جبرئيل، والطارق، والذئبال، وذو الكتفين، وقابس، ووئاب، وعمودان، والفيلق، والمضبح، والضروح، وذو الفرغ، والضياء، والثور»، فقال اليهودي: أي والله إنها لأسمائها.

﴿الْقُرْآنُ﴾ جعل ﴿لَيْنَ الْقَفِيلِ﴾ في معنى قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ﴾، أي: على طريق غير هذا الدين الذي بعثت به، ولم يكن عليه الصلاة والسلام في ضلال الكفار ولا في غفلتهم، لأنه لم يشرك قط، وإنما كان مستهدياً ربه عز وجل وموحداً، والسائل عن الطريق المتخير يقع عليه - في اللغة - اسم ضال.

﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل:

العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر تقديره: اذكر إذ، ويجوز أن يعمل فيه ﴿نَفْسُ﴾، كأن المعنى: نفص عليك الحال إذ، وحكى مكّي أن العامل فيه ﴿لَيْنَ الْقَفِيلِ﴾، وهذا ضعيف.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿يُؤَسَفُ﴾ بالهمز وفتح السين، وفيه ست لغات: (يوسف) بضم الياء وسكون الواو ويفتح السين ويضمها وبكسرها، وكذلك بالهمز، وقرأ الجمهور: ﴿يَأْتِي﴾ بكسر التاء، حذف الياء من (أبي) وجعلت التاء بدلاً منها، قاله سيبويه. وقرأ ابن عامر وحده، وأبو جعفر، والأعرج: ﴿يَأْتِي﴾ بفتحها، وكان ابن كثير، وابن عامر يقفان بالياء، فأما قراءة ابن عامر بفتح التاء فلها وجهان: إما أن يكون «يا أبتا» ثم حذف الألف تخفيفاً وبقيت الفتحة دالة على الألف، وإما أن يكون جارياً مجرى قولهم: «يا طلحة أقبل»، رخموه ثم ردوا العلامة ولم يعتد بها بعد الترخيم، وهذا كقولهم: «اجتمعت البيامة»، ثم قالوا: «اجتمعت أهل

الزجاج: الضمير في ﴿أَنْزَلْتَهُ﴾ يراد به خبير يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بـ ﴿أَنْزَلْتَهُ﴾، أي: أنزلناه لعلكم، ويحتمل أن تتعلق بقوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾، أي: جعلناه عربياً لعلكم تعقلون إذ هو لسانكم، و﴿قُرْآنًا﴾ حال، و﴿عَرَبِيًّا﴾ صفة له، وقيل: إن ﴿قُرْآنًا﴾ بدل من الضمير، وهذا فيه نظر، وقيل: ﴿قُرْآنًا﴾ توطئة للحال، و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وهذا كما تقول: «مررت بزيد رجلاً صالحاً».

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ نَقَصْ عَلَيْكَ﴾ الآية. روى ابن مسعود أن أصحاب رسول الله ﷺ ملؤا ملة فقالوا: لو قصصت علينا يا رسول الله، فنزلت هذه الآية، ثم ملؤا ملة أخرى فقالوا: لو حدثتنا يا رسول الله، فنزلت: ﴿اللَّهُ زَرَّلَ أَحْسَنَ لَلَّذِيهِ كِتَابًا﴾ و﴿الْقَمَرِ﴾: الإخبار بما جرى من الأمور، كأن الأنبياء تتبع بالقول كما يُقَصُّ الأثر. وقوله: ﴿يَبَأً أَرْحَبًا إِلَيْكَ﴾ أي: بؤخينا، و﴿الْقُرْآنُ﴾ نعت لـ ﴿هَذَا﴾، ويجوز فيه البدل، وعطف البيان فيه ضعيف. و﴿وَرَانَ﴾ هي المخففة من الثقيلة، واللام في خبرها لام التأكيد، هذا مذهب البصريين، ومذهب أهل الكوفة أن (إن) بمعنى (ما)، و (اللام) بمعنى (إلا)، والضمير في ﴿قَبْلِهِ﴾ للقصص العام لما في جميع القرآن منه، و﴿لَيْنَ الْقَفِيلِ﴾ أي عن معرفة هذا القصص. ومن قال: إن الضمير في ﴿قَبْلِهِ﴾ عائد على

وتكرر ﴿رَأَيْتُمْ﴾ لطول الكلام، وجزئي ضمائر هذه الكواكب في هذه الآية مجرى ضمائر من يعقل إنما كان لَمَّا وُصِفَتْ بأفعال هي خاصة بمن يعقل.

وزوي أن رؤيا يوسف كانت ليلة القدر ليلة جمعة، وأنها خرجت بعد أربعين سنة، وقيل: بعد ثمانين سنة.

١٠ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

تقتضي هذه الآية أن يعقوب عليه السلام كان يُجس من بنيه حسد يوسف وبغضته، فنهاه عن قصص الرؤيا عليهم خوف أن يشعل بذلك غل صدورهم، فيعملوا الحيلة على هلاكه، ومن هنا ومن فعلهم بيوسف - الذي يأتي ذكره - يظهر أنهم لم يكونوا أنبياء في ذلك الوقت. ووقع في كتاب الطبري لابن زيد أنهم كانوا أنبياء، وهذا يرده القطع بعصمة الأنبياء عن الحسد الدنياوي، وعن عقوق الآباء، وعن تعريض مؤمن للهلاك والتراقر في قتله. ثم أعلمه أن الشيطان للإنسان عدو مبین، أي: هو يدخلهم في ذلك ويحضمهم عليه.

وأمال الكسائي ﴿رُءْيَاكَ﴾ والرؤيا حيث وقعت، وزوي عنه أنه لم يُعلم ﴿رُءْيَاكَ﴾ في هذه السورة وأمال الرؤيا حيث وقعت، وقرأ: ﴿رُؤْيَاكَ﴾ بغير همز - وهي لغة أهل الحجاز - ولم يُعلمها الباقون حيث وقعت. والرؤيا مصدر كثر وقوعه على هذا المَتَخِيل في النوم حتى جرى مجرى الأسماء كما فعلوا في الدَّر في قولهم: «الله ذرُّك» فخرجا

من حكم عمل المصادر، وكشروها رؤى بمنزلة ظلم، والمصادر في أكثر الأمر لا تُكسر.

وقوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَيَّنَّاكَ﴾ الآية. فـ ﴿بَيَّنَّاكَ﴾ معناه: يختارك ويصطفيك، ومنه: جيئت الماء في الحوض، ومنه: جباية المال. وقوله: ﴿وَيُؤْتِيكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، قال مجاهد، والسدي: هي عبارة الرؤيا، وقال الحسن، هي عواقب الأمور، وقيل: هي عامة لذلك وغيره من المغيبيات. وقوله: ﴿وَيُؤْتِيكَ﴾

يُعَمِّتُ يريد النبوة وما انضاف إليها من سائر النعم، وقوله: ﴿وَالَّذِي يُعَقِّبُ﴾ يريد - في هذا الموضع - الأولاد والقرباة التي هي من نسله، أي يجعل فيهم النبوة، ويروي أن ذلك إنما علمه يعقوب من دعوة إسحاق له حين تشبه له بعبصو، والقصة كاملة في كتاب النقاش لكني اختصرتها لأنه لم يثبت ألفاظها، وما أظنه انتزعها إلا من كتب بني إسرائيل فإنها قصة مشهورة عندهم، وبقي هذه الآية بين.

والنعمة على يوسف كانت تخليصه من السجن وعصمته والمُلْك الذي نال، وعلى إبراهيم هي اتخاذه خليلاً، وعلى إسحق فديته بالذبح العظيم مضافاً ذلك كله إلى النبوة. و﴿عَلَّمَ حِكْمًا﴾ مناسبتان لهذا الوعد.

فَالْبَيْتُ لَا تَقْصُرُ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ فَيَكِيدُ وَآلِكَ كَيْدًا ۚ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠﴾ وَكَذَلِكَ بَيَّنَّاكَ رُؤْيَاكَ وَعَلَّمْنَاكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُؤْتِيكَ نِعْمَةً مِمَّنْ عَدَلْنَا وَعَلَّمَ آلَ يَعْقُوبَ كَمَا آتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلِ الْإِبْرَاهِيمَ وَاسْتَفْهَىٰ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١﴾ لَقَدْ كَانَ فِي رُؤْيَاكَ وَإِبْرَاهِيمَ آيَاتٍ لِلِّسَّالِمِينَ ﴿١٢﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا وَإِنَّمَا تَأْوِيلُ مَا رَأَيْتُمْ أَن تَبُوءَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ يَوْمَ تُبْعَثُ ۖ يُؤَسِّفُ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَبْعَثُ لَكُمْ وَجْهًا أَيْكَمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١٣﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْقَاهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١٤﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَنَنصَحُونَ ﴿١٥﴾ أَرْسَلَهُ مَسَاعِدًا يَرْتَعِ وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَنَحْفَظُوهٗ ﴿١٦﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزَنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَسْأَلُ عَنْهُ عَنُقَلُوبُ ﴿١٧﴾ قَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنْ لَدُنَّا رَبٌّ وَنَحْنُ عَصِيْبَةُ إِثْرًا لَآخِضِرُونَ ﴿١٨﴾

٢٣٦

٧ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿بَيَّنَّاكَ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿آيَةً﴾ بالإنفراد، وهي قراءة مجاهد، وشبل، وأهل مكة، فالأولى على معنى أن كل حال من أحواله آية آية فجمعها، والثانية على أنه بجملته آية، وأن تفصل بالمعنى. ووزن آية فَعَلَهُ أو فَعَلَهُ أو فاعلة على الخلاف فيه، وذكر الزجاج أن في غير مصحف عثمان «عِبْرَةٌ لِلِّسَّالِمِينَ»، قال أبو حاتم: هو في مصحف أبي بن كعب.

وقوله: ﴿لِّسَّالِمِينَ﴾ يقتضي حضاً ما على تعلم هذه الأنبياء، لأنه إنما المراد: «آية للناس»، فوصفهم بالسؤال إذ كل واحد ينبغي أن يسأل عن مثل هذه القصص، إذ هي مقر العبر والاتعاظ، ويصح أيضاً أن

يصف الناس بالسؤال من حيث كان سبب نزول السورة سؤال سائل كما روي. وقولهم: ﴿وَأَخُوهُ﴾ يريدون به: «بنيامين»، وهو أصغر من يوسف، ويقال له: «يامين»، وقيل: كان شقيق يوسف وكانت أمهما ماتت، ويدل على أنهما شقيقان تخصيص الإخوة لهما بـ «أخوه» وهي دلالة غير قاطعة، وكان حُب يعقوب ليوسف عليه السلام وبنيامين لصغرهما وموت أمهما، وهذا من «حُب الصغير فطرة البشر»، وقد قيل لابنة الحسن: أي بنيك أحب إليك؟ قالت: الصغير حتى يكبر، والغائب حتى يقدم، والمرضى حتى يئتي.

وقولهم: ﴿وَمَنْ عَصَبَةٌ﴾ أي: نحن جماعة تضر وتنفع، وتحمي وتخذل، أي: لنا كانت تنبغي المحبة والمراعاة. والعصبة في اللغة: الجماعة، قيل: من عشرة إلى خمسة عشر، وقيل: من عشرة إلى أربعين، وقال الزجاج: العشرة ونحوهم، وفي الزهراوي: الثلاثة: نفر، فإذا زادوا فهم رهط إلى التسعة، فإذا زادوا فهم عصبة، ولا يقال لأقل من عشرة: عصبة.

وقولهم: ﴿لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ أي: لفي اختلاف وخطإ في محبة يوسف وأخيه، وهذا هو معنى الضلال، وإنما يصغر قدره أو يعظم بحسب الشيء الذي فيه يقع الائتلاف، و﴿مُتَّبِعِينَ﴾ معناه: يظهر للمتأمل، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿مُتَّبِعِينَ أَقْتُلُوا﴾ بكسر التنوين في الوصف لالتقاء ساكن التنوين والقاف. وقرأ نافع، وابن

كثير، والكسائي: ﴿مُتَّبِعِينَ أَقْتُلُوا﴾ بكسر النون وضم التنوين إتباعاً لضمة التاء ومراعاة لها. وقوله: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ﴾ الآية. كانت هذه مقالة بعضهم، ﴿أَوْ أَطْرَحُوهُ﴾ معناه: أبعدوه، ومنه قول عروة بن الورد:

وَمَنْ نِكَ مِثْلِي ذَا عِيَالٍ وَمُقْتِرًا
يُغَرِّزُ وَيَطْرَحُ نَفْسَهُ كُلُّ مَطْرَحٍ
وَالثَّوْرِي الطَّرُوحُ: البعيدة، و﴿أَرْسَا﴾ مفعول ثان بإسقاط حرف الجر، لأن «طَرَحَ» لا يتعدى إلى مفعولين إلا كذلك. وقالت فرقة: هو نصب على الظرف، وذلك خطأ لأن الظرف ينبغي أن يكون مبهماً، وهذه ليست كذلك، بل هي أرض مقيدة بأنها بعيدة أو قاصية ونحو ذلك، فزال بذلك إبهامها، ومعلوم أن يوسف لم يخل من الكون في أرض فيتن أنها أرض بعيدة غير التي هو فيها قريب من أبيه.

وقوله: ﴿يَحْزَنُ لَكُمْ وَيَهُدِيكُمْ﴾ استعارة، أي: إذا فقد يوسف رجعت إليكم محبته، ونحو هذا قول العربي حين أحبته أمه لما قُتِلَ إِخْوَتُهُ وكانت قبيل لا تُحِبُّهُ: «الشُّكْلُ أَرْزَمَهَا»، أي عطفها عليه. والضمير في ﴿يَهْدِيكُمْ﴾ عائد على «يوسف» أو «قتله» أو «طرحه»، و﴿مُتَّبِعِينَ﴾، قال السدي، ومقاتل بن سليمان: إنهم أرادوا صلاح الحال عند أبيهم، وهذا يشبه أن يكون قصدهم في تلك الحال، ولم يكونوا حينئذ أنبياء، وقال الجمهور: ﴿مُتَّبِعِينَ﴾ معناه بالتوبة، وهذا هو الأظهر من اللفظ، وحالهم أيضاً تعطيه، لأنهم مؤمنون

بنوا على عظمة وعملوا أنفسهم بالتوبة، والقائل منهم، قيل: هو روبيل - أسنهم -، قاله قتادة، وابن إسحق. وقيل: يهوذا - أحلمهم -، وقيل: شمعون - أشجعهم - قاله مجاهد، وهذا عطف منه على أخيه لا محالة لما أراد الله من إنفاذ قضائه، و«الغَيَابَةُ»: ما غاب منك من الأماكن أو غيب عنك شيئاً آخر. وقرأ الجمهور: ﴿غَيْبَتِ الْمُنَى﴾، وقرأ نافع وحده: ﴿غَيْبَاتِ الْجُبِّ﴾، وقرأ الأعرج: ﴿غَيْبَاتِ الْجُبِّ﴾ بشد الياء، قال أبو الفتح: «هو اسم جاء على (فَعَالَة)، كان أبو علي يلحقه بما ذكر سيبويه من الفَيَاد ونحوه، ووجدت أنا من ذلك: الثَّيَار للموج، والفَخَّار للخزف».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي شبه «غَيَابَة» بهذه الأمثلة نظر لأن «غَيَابَة» جارية على فعل. وقرأ الحسن: ﴿فِي غَيْبَةِ الْجُبِّ﴾ على وزن (فَعْلَة)، وكذلك خطت في مصحف أبي بن كعب، ومن هذه اللفظة قول الشاعر، وهو المَخْل:

فَإِن أَنَا يَوْمًا غَيْبَتْنِي غَيْبَاتِي
فَسِيرُوا بِسِيرِي فِي الْعَشَائِرِ وَالْأَهْلِ
و﴿الْجُبِّ﴾: البشر التي لم تُطَوَّر لأنها جُتَّت من الأرض فقط.

وقرأ الجمهور: ﴿يَلْتَقِطُهُ بَعْضٌ﴾ بالياء من تحت على لفظ ﴿بَعْضٌ﴾، وقرأ الحسن البصري، ومجاهد، وقاتة، وأبو رجاء: ﴿تَلْتَقِطُهُ﴾ بالياء، وهذا من حيث أضيف ﴿بَعْضٌ﴾ إلى «السَّيَّارَةِ» فاستفاد منها تأنيث العلاقة، ومن هذا قول الشاعر:

أَرَى مَرَّ السَّنِينِ أَخَذَنْ مِثِّي
كما أَخَذَ السَّرَاوِي مِنَ الْهَلَالِ
ومنه قول الآخر:
إِذَا مَاتَ مِنْهُمْ سَيِّدٌ قَامَ سَيِّدٌ
فَذَلَّتْ لَهُ أَهْلُ الْقُرَى وَالْكَثَائِصُ
وقول كعب:

ذَلَّتْ يَوْفَعَتِهَا جَمِيعُ نَزَارِ
حين أراد بـ «نزار» القبيلة، وأمثلة
هذا كثير. وروي أن جماعة من
الأعراب التقطت يوسف عليه
السلام. و«النَّيَّارَةُ» جمع سيار،
وهو بناء للمبالغة.

وقيل في هذا الجُبِّ: إنه بئر بيت
المقدس، وقيل: غيره، وقيل: لم
يكن حيث طرحوه ماء، ولكن
أخرجه الله فيه حتى قصده الناس
للاستقاء، وقيل: بل كان فيه ماء
يفرق يوسف فنشز حجر من أسفل
الجُبِّ حتى ثبت عليه يوسف،
وروي أنهم رموه بحبل في الجب
فتماسك بيديه حتى ربطوا يديه
ونزعوا قميصه ورموه حينئذ، وهُمُوا
يرضخه بالحجارة فمنعهم أخوهم
المشير بطرحه من ذلك.

١١ - ١٥ تفسير قوله عز وجل:
الآية الأولى تقتضي أن أباهم قد
كان علم منهم إرادتهم الخبيثة في
جهة يوسف، وهذه تقتضي أنهم
علموا منه بعلمه ذلك.
وقرأ الزهري، وأبو جعفر: «لَا
تَأْتِنَا» بالإدغام، دون إشمام،
ورواها الحلواني عن قالون. وقرأ
السبعة بالإشمام للضم، وقرأ
طلحة بن مصرف: «لَا تَأْمَنَّا»،
وقرأ ابن وثاب، والأعمش: «لَا

تِيْمَنًا» بكسر تاء العلامة.
و«عَدَا» ظرف،
أصله: «عَدُوٌّ» فلزم اليوم
كله وبقي العُدُوُّ والعُدُوَّةُ
اسمين لأول الثمار، وقال
النضر بن شميل: ما بين
الفجر إلى الإسفار يقال
فيه: عُدُوَّةٌ وَيَكْرَةٌ.

وقرأ أبو عمرو، وأبو
عامر: «تَرْزَعٌ وَتَلْعَبٌ»
بالنون فيهما وإسكان العين
والباي، و«تَرْزَعٌ» - على
هذا - من الرزوع وهي
الإقامة في الخصب
والمرعى في أكل وشرب،
ومنه قول الغضبان بن
القبعثري: «الْقَيْدُ وَالرِّزْعَةُ
وقلة التمتع»، ومنه قول الشاعر:

.....
وَيَعْدُ عَطَائِكَ الْمَائَةَ الرَّتَاعَا؟
ولعيبهم هذا داخل في اللعب المباح
كاللعب بالخيل والرمي ونحوه، فلا
وصم في ذلك عليهم، وليس باللعب
الذي هو ضد الحق وقرين اللهو،
وقيل لأبي عمرو بن العلاء: كيف
يقولون: «تلعب» وهم أنبياء؟ قال:
لم يكونوا حينئذ أنبياء، وقرأ ابن
كثير: «تَرْزَعٌ وَتَلْعَبٌ» بالنون فيهما،
ويكسر العين وجزم الباء، وقد روي
عنه، و«وَيْلَعَبٌ» بالياء، وهي قراءة
جعفر بن محمد، و«بَرْزَعٌ» - على
هذا - من رعاية الإبل، وقال
مجاهد: هي من المراعاة، أي:
يراعي بعضنا بعضاً ويحرسه، وقرأ
عاصم، وحزمة، والكسائي: «بَرْزَعٌ

فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَأَجْمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيْبَتِ الْجَبِّ وَأَوْحَيْنَا
إِلَيْهِ لَتَأْتِنَنَّهُمْ بَأْمُرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ وَجَاءَهُ
أَبَاهُ عَشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٢﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا أَأَنذَرْتَنِي سَيِّئُ
وَزَرَكَ نَأْوُسُفَ عِنْدَ مَتْلَعِنَا فَكَلِمَةَ الذَّنْبِ وَمَأْتَتْ
بِعُومِرٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٣﴾ وَجَاءَهُ وَعَلَى فَيْصِيهِ
يَدٌ مَرْكُوبٌ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ حَسِيلٌ
وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٤﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا
وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَوْلَاهُ فَالَ يَبْسُرَى هَذَا عَالِمٌ وَأَسْرُهُ بَضْعَةٌ
وَاللَّهُ عَلَيْهِمْ بِمَا عَمِلُوا كَافٍ ﴿١٥﴾ وَسَرُوهُ بِسَعْبٍ يُجْرِبُونَ
دِرْهَمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿١٦﴾ وَقَالَ
الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مَقْرَأٍ بِأَمْرِ أَبِيكَ بِكَ مَتَوْنَةٌ مَعِي
أَنْ يَفْعَلْنَا أَوْ تَنْجِدُهُ وَوَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي
الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ عَلِيمٌ
أَمْرُهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ وَلَمَّا بَلَغَ
أَشُدَّهُ مَاتَتَّ بَنَاتُهُ حُكَمَا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْمِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٨﴾

٢٢٧

وَيْلَعَبٌ» بإسناد ذلك كله إلى
يوسف، وقرأ نافع: «بَرْزَعٌ وَتَلْعَبٌ»
بالياء فيهما وكسر العين وجزم الباء،
فـ «بَرْزَعٌ» - على هذا - من رعي
الإبل، قال ابن زيد: المعنى:
يتدرب في الرعي وحفظ المال،
ومن الارتعاب قول الأعشى:

تَرْزَعِي السُّفْحَ فَالْكُثَيْبُ قَدَا
رِ قَرُوضِ الْقَطَا قَدَاتِ الرِّثَالِ
قال أبو علي: وقراءة ابن كثير:
«تَرْزَعٌ» بالنون، و«تَلْعَبٌ» بالياء
منزعاها حسن لإسناد النظر في المال
والرعاية إليهم، واللعب إلى يوسف
لصباه. وقرأ العلاء بن سبابة: «بَرْزَعٌ
وَيْلَعَبٌ» برفع الباء على القطع، وقرأ
مجاهد، وقتادة: «تَرْزَعٌ» بضم النون
وكسر التاء، و«تَلْعَبٌ» بالنون
والجزم. وقرأ ابن كثير - في بعض
الروايات عنه -: «تَرْزَعِي» بإثبات

الياء، وهي ضعيفة لا تجوز إلا في الشعر كما قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْجِي
بِمَا لَأَقْتُ لَبُونَ بِنِي زِيَادٍ؟
وقرأ أبو رجاء: ﴿يُرْتَعُ﴾ بضم الياء
وجزم العين، و ﴿يَلْعَبُ﴾ بالياء
والجزم.

وَعَلَّلُوا طلبه والخروج به بما يمكن
أن يستهوي يوسف لصباه من الرتوع
واللعب والنشاط.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَيَحْزُنُّنِي﴾
الآية. قرأ عاصم، وابن كثير،
والحسن، والأعرج، وعيسى، وأبو
عمرو، وابن محيصن: ﴿لَيَحْزُنُّنِي﴾
بفتح الياء وضم الزاي، قال أبو
حاتم: وقرأ نافع بضم الياء وكسر
الزاي والإدغام، ورواية ورش عن
نافع بيان التونين مع ضم الياء وكسر
الزاي في جميع القرآن، و (أَنْ)
الأولى فاعلة، والثانية مفعولة
بـ ﴿أَخَافُ﴾.

وقرأ الكسائي وحده: ﴿الذَّبِيبُ﴾
دون همز، وقرأ الباقون بالهمز وهو
الأصل، ومنه جمعهم إياه على:
«ذُؤْبَان»، ومنه: تذاءبت الريح
والذئاب إذا أتت من ها هنا وها هنا.
وروي ورش عن نافع ﴿الذَّبِيبُ﴾ بغير
همز، وقال نصر: سمعت أبا عمرو
لا يهمز، قال: وأهل الحجاز
يهمزون.

وإنما خاف يعقوب الذئب دون
سواه وخصصه لأنه كان الحيوان
العادي المنبت في القطر، وروي أن
يعقوب كان رأى في منامه ذئباً يشتد
على يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا عندي ضعيف لأن يعقوب لو
رأى ذلك لكان حياً، فإما أن يخرج
على وجهه وذلك لم يكن، وإما أن
يعرف يعقوب فلمعرفته بالعبرة مثل
هذا المرثي، فكان يشكاه بعينه،
اللهم إلا أن يكون قوله: ﴿وَإِخْوَانُ
أَنْ يَأْكُلَهُ الذَّبُّ﴾ بمعنى: أخاف أن
يصيبه مثل ما رأيت من أمر الذئب،
وهذا بعيد، وكذلك يقول الربيع بن
ضبع:

وَالذَّبُّبُ أَخْشَاهُ...
.....

إنما خصصه لأنه كان حيوان قطره
العادي، ويحتمل أن يخصصه
يعقوب عليه السلام لصغر يوسف،
أي: أخاف عليه هذا الحقيقير فما
فوقه، وكذلك خصصه الربيع
لحقارته وضعفه في الحيوان، وباقي
الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ﴾
الآية. أسند الطبري إلى السدي قال:
ذهبوا بيوسف وبه عليهم كرامة، فلما
برزوا في البرية أظهروا له العداوة،
وجعل أخوه يضربه فيستغيث بالآخر
فيضربه، فجعل لا يرى منهم
رحيماً، فضربوه حتى كادوا يقتلونه،
فجعل يصيح ويقول: يا أبتاه، يا
يعقوب لو تعلم ما صنع بابنك بنو
الإماء، فقال لهم يهوذا: ألم تعطوني
موثقاً ألا تقتلوه؟ فانطلقوا به إلى
الجُب، فجعلوا يدلونه فيتعلق
بالشفير، فربطوا يديه ونزعوا
قميصه، فقال: يا إخوتاه زدوا علي
قميصي أتوارى به في الجُب،
فقالوا: ادع الشمس والقمر
والكواكب تؤنسك، فدلوه حتى إذا

بلغ نصف الجُب ألقوه إرادة أن
يموت، فكان في الجُب ماء فسقط
فيه ثم قام على صخرة يبكي، فنادوه
فظن أنهم رحموه فأجابهم: فأرادوا
أن يرضخوه بصخرة فمنعهم يهوذا،
وكان يأتيه بالطعام.

وجواب ﴿فَلَمَّا﴾ محذوف تقديره،
فلما ذهبوا به وأجمعوا أجمعوا، هذا
مذهب الخليل وسيبويه وهو نص
لهما، ومن ذلك قول امرئ القيس:
فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاخَةَ النَّحْيِ وَانْتَحَى

ومثل هذا قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا
أَنْلَمَا وَكَلَّمَا لِلنَّبِيِّينَ﴾، وقال بعض
النحاة في مثل هذا: إن الواو زائدة،
وقوله مردود لأنه ليس في القرآن
شيء زائد لغير معنى.

﴿وَأَجْمَعُوا﴾ معناه: عزموا واتفق
رأيهم عليه، ومنه قول النبي ﷺ في
المسافر: ﴿مَا لَمْ يَجْمَعْ مَكْتَبًا﴾، على
أن إجماع الواحد قد يتفرد بمعنى
العزم والشروع، ويَتَصَوَّرُ ذلك في
إجماع إخوة يوسف وفي سائر
الجماعات، وقد يجيء إجماع
الجماعة فيما لا عزم فيه ولا شروع،
ولا يَتَصَوَّرُ ذلك في إجماع الواحد.
والضمير في ﴿إِيَّاهُ﴾ عائذ على
يوسف، وقيل: على يعقوب،
والأول أصح وأكثر، ويحتمل أن
يكون الوحي حينئذ إلى يوسف
برسول، ويحتمل أن يكون بإلهام أو
بنوم، وكل ذلك قد قيل، وقال
الحسن: أعطاه الله النبوة وهو في
الجُب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا بعيد.

وقرأ الجمهور: ﴿تَلْتَلَيْتَهُمْ﴾ بالتاء، وفي بعض مصاحف البصرة بالياء، وقرأ سلام بالنون، وهذا كله في العلامة التي تلي اللام.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ قال ابن جريج: «وَقَتَّ التَّنْبِيهِ أَنْك يوسف»، وقال قتادة: «لا يشعرون بوحينا إليه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيكون قوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ - على التأويل الأول - مما أوحى إليه، وعلى التأويل الثاني - خبرٌ لمحمد ﷺ.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأت فرقة: ﴿عِشَاءً﴾، أي: وقت العشاء. وقرأ الحسن: ﴿عُشَى﴾ على مثال ذُجَى، أي جمع «عاش»، قال أبو الفتح: عِشَاءٌ كعاش ومشاة، ولكن حذف الهاء تخفيفاً كما حذف من «مألكة»، وقال عدي:

أبْلِغِ الثُّغْمَانَ عُنَى مَأْلَكًا
أَنَّهُ قَدْ طَالَ حَبْسِي وَأَنْتِظَارِي
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى ذلك أصابهم عشا من البكاء أو شبه العشا إذ كذلك هي هيئة عين الباكى لأنه يتعاشى، ومثل شريح في امرأة بكت وهي مُبْطَلَةٌ ببكاءٍ هَوْلَاءٍ وقرأ الآية، ورؤي أن يعقوب لَمَّا سمع بكاءهم قال: ما بالكُم؟ أجزى في الغنم شيء؟ قالوا: لا، قال: فأين يوسف؟ قالوا: ذهبن نستبق. . . فبكى وصاح وقال: أين قميصه؟ وسيأتي قصص ذلك.

و ﴿سَتَيْتِي﴾ معناه: على الأقدام، أي: نجري غلاباً، وقيل: بالرمي،

أي: ننتضل، وهو نوع من المسابقة، قاله الزجاج.

وقولهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ﴾ أي: بمصدق، ومعنى الكلام: أي: لو كنا موصوفين بالصدق وقيل: المعنى: ولو كنت تعتقد ذلك فينا في جميع أقوالنا قديماً لما صدقتنا في هذه النازلة خاصة لما لحقك فيها من الحزن ونالك من المشقة ولما تقدم من نُهْمَتِكَ لنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ذكره الزجاج وغيره، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ بمعنى: وإن كنا صادقين، قاله المبرد، كأنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم صادقون في هذه النازلة، فهو تمادٍ منهم في الكذب، ويكون بمنزلة قوله تعالى: ﴿أَوْلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾، بمعنى: وإن كنا كارهين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا المثال عندي نظر، وتخطب الرُّمَّانِي في هذا الموضع وقال: «ألزمو أباهم عناداً» ونحو هذا مما لا يلزم لأنهم لم يقولوا: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين في معتقدك. بل قالوا: وما أنت بمصدق لنا ولو كنا صادقين فيما نعتقد نحن، وأما أنت فقد غلب عليك سوء الظن بنا، ولا يُنْكَرُ أن يعتقد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام صدق الكاذب وكذب الصادق ما لم يُوحَ إليهم، فإنما هم بشر، كما قال ﷺ: «إنما أنا بشر، وإنكم تختصمون إلي، فلعل بعضكم أن يكون ألحنَّ بحجته من بعض فأقضي له على نحو ما أسمع منه. . . الحديث، فهذا

يقتضي أنه جوز على نفسه أن يُصدَّق الكاذب، وكذلك قد صدَّق عليه الصلاة والسلام عبدالله بن أبي حنيفة حلف على مقالة زيد بن أرقم وكذب زيدا، حتى نزل الوحي فظهر الحق، فكلام إخوة يوسف إنما هو مغالطة ومحاجة لا إلزام عناد.

وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَهُ عَنَّا قَمِيصُهُ يَدِيهِ كَذِبٌ﴾ الآية. رؤي أنهم أخذوا سَخْلَةً أو جَذِيًّا فذبحوه ولطخوا به قميص يوسف، وقالوا ليعقوب: هذا قميصه، فأخذه ولطخ به وجهه وبكى، ثم تأمله فلم يَرَ خَرْقًا ولا أثر ناب فاستدل بذلك على كذبهم وقال: متى كان الذئب حليماً يأكل يوسف ولا يخرق قميصه؟ قص هذا القصص ابن عباس وغيره، وأجمعوا على أنه استدلال على كذبهم لصحة القميص، واستند الفقهاء إلى هذا في إعمال الأمارات في مسائل كالقسامة وغيرها في قول مالك، إلى غير ذلك، قال الشعبي: كان في القميص ثلاث آيات: دلالتُه على كذبهم، وشهادته في قده، وردُّ بصر يعقوب به، ورؤي أنهم ذهبوا فأخذوا ذئباً فلطخوا فاه بالدم وساقوه وقالوا ليعقوب: هذا أكل يوسف، فدعاه يعقوب فأقموه وتكلم بتكذيبهم.

ووضف الدم بـ ﴿كَذِبٌ﴾ إمَّا على معنى: بدم ذي كذب، وإمَّا أن يكون بمعنى: مكذوب عليه، كما قد جاء «المعقول» بدل «العقل» في قول الشاعر: حَسْبِي إِذَا لَمْ يَشْرُكُوا الْعِظَابِي
لَحْمًا وَلَا يُفْؤِدِيهِ مَغْفُولًا
فكذلك يجيء «التكذيب» مكان «المكذوب».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا كلام الطبري، ولا شاهد له فيه عندي، لأن نفي «المعقول» يقتضي نفي «العقل» ولا يحتاج إلى بدل، وإنما الذم الكذب عندي وصف بالمصدر على جهة المبالغة. وقرأ الحسن: ﴿يَدْمُ كَذِبٍ﴾ بَدَالٍ غير معجمة، ومعناه: الطرقي ونحوه، وليست هذه القراءة قوية.

ثم قال لهم يعقوب لما بان كذبهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ أي: رضيت وجعلت سؤلاً ومُرَاداً. ﴿أَمْراً﴾ أي: صنعاً قبيحاً بيوسف، وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ رفع إما على حذف الابتداء وإما على حذف الخبر، إما على تقدير: فَشَأْنِي صَبْرٌ جَمِيلٌ، وإما على تقدير: فَصَبْرٌ جَمِيلٌ أَمْثَلٌ. وذكر أن الأشهب، وعيسى بن عمر قرأ بالنصب: ﴿فَصَبْرًا جَمِيلًا﴾ على إضمار فعل، وكذلك هي في مصحف أبي ومصحف أنس بن مالك، وهي قراءة ضعيفة عند سيويه، ولا يصلح النصب في مثل هذا إلا مع الأمر، ولذا يحسن النصب في قول الشاعر:

صَبْرًا جَمِيلًا فَكِلَانًا مُبْتَلَى
وينشد أيضاً بالرفع، ويروي: «صَبْرٌ جَمِيلٌ» على نداءِ الْجَمَلِ المذكور في قوله:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طَوَلَ السَّرَى
يَا جَمَلِي لَيْسَ إِلَيَّ الْمُشْتَكَى
صَبْرٌ جَمِيلٌ فَكِلَانًا مُبْتَلَى
وإنما تصح قراءة النصب على أن يقدر أن يعقوب عليه السلام رجح إلى مخاطبة نفسه أثناء مخاطبة بنيه،

وجميل الصبر ألا تقع شكوى إلى بشر، وقال النبي ﷺ: «من بث لم يصبر صبراً جميلاً» وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَلْسُنَتَانِ عَلَى مَا يَصِفُونَ﴾ تسليماً لأمر الله تعالى وتوكل عليه، والتقدير: على احتمال ما تصفون.

١٩ - ٢٠ تفسير قوله عز وجل:

قيل: إن السيارة جاءت في اليوم الثاني من طرحه في الجب، والسيارة: جمع سيار، كما قالوا: بغال وبغالة، وهذا بعكس تمره وتثمر، والسيارة بناء مبالغة للذين يرددون السير في الطرق، وروي أن هذه السيارة كانوا قوماً من أهل مدين، وقيل: قوم أعراب، والوارد هو الذي يأتي الماء ليسقي منه لجماعته، ويروي أن مذلي الدلو كان يسمى مالك بن ذعر، والوارد هنا يمكن أن تقع على الواحد وعلى الجماعة. ويروي أن هذا الجب كان بالأردن على ثلاثة فراسخ من منزل يعقوب، ويقال: أذلي الدلو إذا ألقاه في البئر ليستقي الماء، وذلاء يدلوه إذا استقاه من البئر، وفي الكلام هنا حذف تقديره: فتعلق يوسف بالجل، فلما بصر به المذلي قال: يا بشراي. وروي أن يوسف كان يومئذ ابن سبع سنين، ويرجح هذا لفظة «غلام» فإنه ما بين الحولين إلى البلوغ، فإن قيلت فيما فوق ذلك فعلى استصحاب حال وتجاوز، وقيل: كان ابن سبع عشرة سنة، وهذا بعيد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ بإضافة البشري إلى المتكلم ويفتح الياء على

ندائها كأنه يقول: احضري فهذا وقتك، وهذا نحو قوله: ﴿يَحْضَرُهُ عَلَى أَلْبَادٍ﴾، وروى ورش عن نافع: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ بسكون الياء، قال أبو علي: وفيها جمع بين ساكنين على حد دابة وشابئة، ووجه ذلك أنه يجوز أن تختص بها الألف لزيادة المد الذي فيها على المد الذي في أختيها، كما اختصت في القوافي بالتأسيس، واختصت في تخفيف الهمزة نحو هبأة، وليس شيء من ذلك في الياء والواو. وقرأ أبو الطفيل، والجحدري، وابن أبي إسحق، والحسن: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ تقلب الألف ياء ثم تدغم في ياء الإضافة، وهي لغة فاشية، ومن ذلك قول أبي ذؤيب:

سَبَقُوا هَوِيَّ وَأَعْتَقُوا لِهَوَاهُمُ
فَشَحْرَمُوا وَلِكُلِّ جَنْبٍ مَضْرَعٌ
وأشد أبو الفتح وغيره في ذلك: يُطَوِّفُ بِي كَعَبْدِي فِي مَعَدِّ
وَيَطْمُنُّ بِالصُّمْلَةِ فِي قَفِيَا
فَبِإِنْ لَمْ تَشَأْرُوا لِي فِي مَعَدِّ
فَمَا أَرْوَيْتُمْ أَبَدًا صَدْيَا
أراد: هَوَايَ، وَقَفَايَ، وَصَدَايَ.

وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَا بُشْرَايَ﴾ بالإمالة يُمِيلَانِ ولا يضيفان، وقرأ عاصم كذلك إلا أن يفتح الراء ولا يُمِيلُ، واختلف في تأويل هذه القراءة - فقال السدي: كان في أصحاب هذا الوارد رجل اسمه بشري، فناداه وأعلمه بالغلام، وقيل: هو على نداءِ البشري كما قدمنا.

والضمير في ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ ظاهر الآيات أنه لُوْرَادِ الماءِ، قاله مجاهد،

وقال: إنهم خَشُوا أمر تجار الرقعة - إن قالوا وجدناه - أن يشاركوهم في الغلام الموجود، - هذا إن كانوا فسقة - أو يمنعوهم من تملكه إن كانوا مؤمنين، فأَسْرُوا بينهم أن يقولوا: أَبْصَعَهُ معنا بعض أهل المصر. و﴿بِضْعَةٍ﴾ حال، والبِضَاعَةُ: القطعة من المال يُتَّجَرُ فيها بغير نصيب من الربح، مأخوذة من قولهم: بَضَعْتُ، أي: قطعت، وقيل: إنهم أَسْرُوا في أنفسهم أنهم يتخذونه بضاعة لأنفسهم أي متجرراً، ولم يخافوا من أهل الرقعة شيئاً، ثم يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ لهم أيضاً، أي: باعوه بضمن قليل، إذ لم يعرفوا حقه ولا قدره، بل كانوا زاهدين فيه، وروي - على هذا - أنهم باعوه من تاجر، وقال مجاهد: الضمير في ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ لأصحاب الدلو، وفي ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ لإخوة يوسف الأحد عشر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل الضمير في ﴿وَأَسْرُوهُ﴾ وإخوة يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أنه رُوي أن إخوته لما رجعوا إلى أبيهم وأعلموه رجع بعضهم إلى الجب ليتحققوا أمر يوسف، ويقفوا على الحقيقة من فقدته، فلما علموا أن الوزاد قد أخذوه جاؤهم فقالوا: هذا عبد أبق لأمتنا ووهبته لنا ونحن نبيعه منكم، فقاؤهم يوسف على هذه المقالة خوفاً منهم ولينفذ أمر الله، فحينئذ أسره إخوته إذ جحدوا أخوته فأَسْرُواها واتخذوه بضاعة، أي متجرراً لهم ومكسباً،

وَسَرَّوَهُ أيضاً بضمن بَخْس، أي باعوه. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَتَكَلَّمُونَ﴾، إن كانت الضمائر لإخوة يوسف ففي ذلك توعد، وإن كانت الضمائر للواردين ففي ذلك تنبيه على إرادة الله تبارك وتعالى ليوسف، وسوق الأقدار بحسب بناء حاله، فهو - حينئذ - بمعنى قول النبي ﷺ: ﴿يُدَبِّرُ ابن آدم والقضاء يضحك﴾. وفي الآية أيضاً تسلية للنبي ﷺ عما يجري عليه من جهة قريش، أي: العاقبة التي هي للمتقين هي المراعاة والمنتظرة.

و﴿وَسَرَّوَهُ﴾ هنا بمعنى باعوه، وقد يقال: شرى بمعنى اشترى، ومن الأول قول يزيد بن مَعْرُف الجَمْرِي: وَسَرَّوَتْ بُرْدًا لَيْسَنِي مِنْ بَغْدِيدٍ كُنْتُ هَامَةً و﴿بُرْدَه﴾ اسم غلام له ندم على بيعه، والضمير يحتمل الوجهين المتقدمين.

والبَخْسُ: مصدر وصف به الثمن، وهو بمعنى النقص، وهذا أشهر معانيه، فكأنه القليل الناقص، وهو قول الشعبي، وقال قتادة: البَخْسُ هنا بمعنى الظلم، ورجحه الزجاج من حيث أن الحُرَّ لا يحل بيعه، وقال الضحاك: هو بمعنى الحرام، وهذا أيضاً بمعنى أنه لا يحل بيعه.

وقوله تعالى: ﴿دَرَاهِمَ مَدْرُودَةٍ﴾ عبارة عن قلة الثمن لأنها دراهم لم تبلغ أن توزن لقلتها، وذلك أنهم كانوا لا يَزِنُونَ ما دون الأوقية وهي أربعون درهماً. واختلف في مبلغ ثمن يوسف عليه السلام؛ فقيل: باعوه بعشرة دراهم، وقال ابن

مسعود: بعشرين، وقال مجاهد: بائتين وعشرين، أخذها إخوته درهمين درهمين وقال عكرمة: بأربعين درهماً دفعت ناقصة فهذا كان بَخْسُها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا فِيهِ رَبِّانٌ﴾ وصف يترتب في وزاد الماء، أي: كانوا لا يعرفون قدره، فهم - لذلك - قليل اغتباطهم به، لكنه أرتب في إخوة يوسف، إذ حقيقة الزهد في الشيء إخراج حبه من القلب ورفضه من اليد، وهذه كانت حال إخوة يوسف في يوسف، وأما الوزاد فتمسكهم به وتخبرهم يمانع زهدهم إلا على تجوز. وقوله: ﴿فِيهِ﴾ ليست بصلة له ﴿الزَّهْدِيَّتِ﴾، قاله الزجاج، وفيه نظر، لأنه يقتضي وصفهم بالزهد على الإطلاق وليس قصد الآية هذا، بل قصدها الزهد الخاص في يوسف، والظروف يجوز فيها من التقديم ما لا يجوز في سائر الصلوات، وقد تقدم القول في عود ضمير الجماعة الذي في قوله: ﴿وَسَرَّوَهُ﴾.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل: رُوي أن مُبْتَاعَ يوسف - وهو الوارد من إخوته أو التاجر من الوزاد حسبما تقدم من الخلاف - ورد به مصر - البلد المعروف ولذلك لا ينصرف - فعرضه في السوق، وكان أجمل الناس، فوقعت فيه مزايده حتى بلغ ثمناً عظيماً، فقيل: وزنه من ذهب، ومن فضة، ومن حرير. فاشتراه العزيز وكان حاجب الملك وخازنه، واسم الملك الرُّيَّان بن الوليد،

كان كما في المثاليين الآخرين، فإن ما تفرس خرج بعينه.

والأشدُّ: استكمال القوة وتناهي بنية الإنسان، وهما أشدُّان: أولهما البلوغ وقد عبّر عنه مالك وربيعه بأشدُّ، وذكره مُنذر بن سعيد. والثاني الذي يستعمله العرب، وقيل: هو من ثماني عشرة سنة إلى يثني عشر سنة، وهذا قول ضعيف. وقيل: الأشدُّ: بلوغ الأربعين، وقيل: بل سبعة وثلاثون، وقيل: ثلاث وثلاثون، وهذا هو أظهر الأقوال فيما نحسبه، وقيل: عشرون سنة، وهذا ضعيف، وقال الطبري: الأشدُّ لا واحد له من لفظه، وقال سيبويه: الأشدُّ: جمع شِدَّة نحو نغمة وأنعم، وقال الكسائي: أشدُّ جمع شدُّ نحو قد وأقد، وشدُّ النهار: معظمه وحيث تستكمل نهاره.

وقوله تعالى: ﴿مَكَّا﴾ يحتمل أن يريد الحكمة والثبوت، وهذا على الأشدُّ الأعلى، ويحتمل العلم والحكمة دون الثبوت، وهذا أشبه إن كانت قصة المرادة بعد هذا. ﴿وَعَلَّمَ﴾ يريد تأويل الأحاديث وغير ذلك، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿حَكْمًا﴾ أي سلطاناً في الدنيا وحكماً بين الناس بالحق، وتدخل الثبوت وتأويل الأحاديث وغير ذلك في قوله: ﴿وَعَلَّمَ﴾.

﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ ألفاظ فيها وعد للنبي ﷺ، فلا يهولئك فعل الكفرة بك وعثوهم عليك، فالله تعالى يصنع المحسنين أجمل صنع.

(٢٣) - (٢٤) تفسير قوله عز وجل: المُرَادَةُ: الملاحظة في السوق إلى غرض، وأكثر استعمال هذه اللفظة

ذلك من وجوه النفع، وقوله: ﴿أَوْ نَنجِدْهُمُ وَاذًا﴾ أي نَجَّاهُ، وكان - فيما يقال - لا ولد له.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ أي: كما وصفنا ﴿مَكَّا﴾ ليُؤسَفَ في الأَرْضِ وَلِيُعَلِّمَهُمُ فَعَلْنَا ذَلِكَ، و﴿الْأَحَادِيثُ﴾: الرؤيا في النوم، قاله مجاهد، وقيل: أحاديث الأنبياء والأمم. والضمير في ﴿أَنْبِيَاءٍ﴾ يحتمل أن يعود على يوسف، قاله الطبري، ويحتمل أن يعود على الله عز وجل، قاله ابن جبير، فيكون إخباراً مُتَّبِعاً على قدرة الله عز وجل

ليس في شأن يوسف خاصة بل عاماً في كل أمر، وكذلك الاحتمال في قول الشاعر:

رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ - وَرَبُّكَ غَالِبٌ
عَلَى أَمْرِهِ - يَبْغِي الْجِلَافَةَ بِالشَّمْرِ
وأكثر الناس الذين نفى عنهم العلم هم الكفرة، وفيهم الذين زهدوا في يوسف وغيرهم ممن جهل أمره، وروي عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: أصحُّ الناس فِرَاسَةَ الثَّلَاثَةِ: العزير حين قال لامرأته: ﴿أَكْرِي مَثْوًى﴾، وابنة شَعْبِ حِينَ قَالَتْ: ﴿أَسْتَجِرُّهُ إِنَّكَ خَيْرٌ مَنِ اسْتَجَرَّتِ النَّوْىَ الْأَيْمِينَ﴾، وأبو بكر حين استخلف عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفِرَاسَةُ العزير إنما كانت في نفس نجابة يوسف، لا أنه تفرس الذي

وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِيهَا مَن نَفْسِهِ، وَعَلَّقَتْ الْأَبْرَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوًى إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِنَّ رَهْمَ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأً بَرَهْنَ رَبُّهُ، كَذَلِكَ لِيَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُم مِّنْ عِبَادِنَا الْمُخَلَّصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْبَقَ الْبَابَ وَقَدَّتْ قَيْصُوهُ، مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيْهَا سَيْدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَوَدْتَنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَتْ قَيْصُوهُ قَدْ مَن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَتْ قَيْصُوهُ قَدْ مَن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَى قَيْصُوهُ قَدْ مَن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ أَنْ كِيدَنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفَرَ لِذُنُوبِكُنَّ إِنَّكَ كُنْتَ مِنَ الْغَاطِطِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ يَسُوءُ فِي الْمَدِينَةِ أَمْرَاتُ الْعَزِيزِ تَرُودُ فَنَسَهَا عَنْ نَفْسِهِ، فَدَشَعَهَا حَيًّا إِنَّمَا لَرَبِّهَا فِي صَلَافِ ثِيَابِ ﴿٣٠﴾

وقيل: مصعب بن الزَّيَّان، وهو أحد الفراعنة، وقيل: هو فرعون موسى عمراً إلى زمانه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وذلك أن ظهور يوسف عليه السلام لم يكن في مدة كافر يخدمه يوسف. واسم العزير المذكور: قطفير، قاله ابن عباس، وقيل: أظفير، وقيل: قنطور، واسم امرأته: راعيل، قاله ابن إسحاق، وقيل: ربيعة، وقيل: زليخا، وظاهر أمر العزير أنه كان كافراً، ويدل على ذلك كون الصنم في بيته - حسبما نذكره في البرهان الذي رأى يوسف - وقال مجاهد: كان العزير مُسْلِماً.

والمَثْوَى: مكان الإقامة، والإكرام إنما هو لذِي المَثْوَى، ففي الكلام استعارة. وقوله: ﴿عَسَى أَنْ يَنْعَمَ﴾ أي: بأن يُعِينَنَا في أبواب دنيانا وغير

إنما هو في هذا المعنى الذي هو بين الرجال والنساء، ويشبه أن يكون من «راد يَرُوذُ» إذا تقدم لاختبار الأرض والمرعى، فكأن المراءوذ يختبر أبدأ بأقواله وتلطفه حال المراءوذ من الإجابة أو الامتناع.

وفي مصحف ابن مسعود: «وقرعت الأبواب»، وكذلك رويت عن الحسن، و«أَلَى هُوَ فِي بَيْنَهُمَا» هي زليخا امرأة العزيز، وقوله: «عَن نَّفْسِهَا» كناية عن غرض الواقعة، وقوله: «وَعَلَّقَتِ» تضعيف مبالغة لا تعديية. وظاهر هذه النازلة أنها كانت قبل أن يُنَبِّأ عليه السلام.

وقرأ ابن كثير وأهل مكة: «هَيْثُ» بفتح الهاء وسكون الياء وضم التاء، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحاق، وابن محيصن، وأبو الأسود، وعيسى بفتح الهاء وكسر التاء، وقرأ ابن مسعود، والحسن، والبصريون: «مِنْ» بفتح الهاء والتاء وسكون الياء، ورويت عن ابن عباس، وقتادة، وأبي عمرو، قال أبو حاتم: لا يعرف أهل البصرة غيرها، وهم أقل الناس عُلوًّا في القراءة، قال الطبري: وقد رويت عن رسول الله ﷺ، وقرأ نافع، وابن عامر: «هَيْثُ» بكسر الهاء، وسكون الياء وفتح التاء وهي قراءة الأعرج، وشيبة، وأبي جعفر، وهذه الأربع بمعنى واحد واختلفت باختلاف اللغات فيها، ومعناه: الدعاء، أي: تعال وأقبل على هذا الأمر، قال الحسن: معناها: هَلُمَّ، ويحسن أن تتصل بها «لك» إذ حَلَّت محل قولها: إقبالاً أو قريباً، فَجَرَّت

مجرى «سقياً لك ورعياً لك»، ومن هذا قول الشاعر يخاطب علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

أَبْلِغْ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ
بِنَ أَخَا الْعِرَاقِ إِذَا أَتَيْتَا
إِنَّ الْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ
عُنُقُ إِلَيْكَ فَهَيْثُ هَيْتَا
ومن ذلك على اللغة الأخرى قول طرفة:

لَيْسَ قَوْمِي بِالْأَبْعَدِينَ إِذَا مَا
قَالَ دَاعٍ مِنَ الْعَشِيرَةِ هَيْثُ
ومن ذلك أيضاً قول الشاعر:
قَدْ زَابَنِي أَنْ الْكِرْبِيِّ أَسْكَتَا
وَلَوْ عَدَا يُغْنِي بِنَا لَهَيْتَا

أَسْكَتَ: دخل في السكون، و«هَيْثُ» معناه: قال: هَيْثُ، كما قالوا: أَفَّفْ إِذْ قَالَ: أَفْ أَفْ، ومنه: سَبَّحَ وَكَبَّرَ وَدَعَّدَعَ إِذَا قَالَ: دَاعٍ دَاعٍ. والتاء على هذه اللغات كلها مَبْنِيَّةٌ، فهي في حال الرفع مثل قَبْلُ وَبَعْدُ، وفي الكسر على الباب لالتقاء الساكنين، وفي حال النصب ككَيْفُ ونحوها. قال أبو عبيدة: و«هَيْثُ» لا تُثْنَى ولا تُجْمَع، تقول العرب: هَيْثُ لَكَ، وهَيْثُ لَكُمْ، وهَيْثُ لَكُمْ.

وقرأ هشام بن عامر: «هَيْثُ» بكسر الهاء والهمز وضم التاء، وهي قراءة علي بن أبي طالب، وأبي وائل، وأبي رجاء، ويحيى، ورويت عن أبي عمرو، وهذا يحتمل أن يكون من: «هَاءُ الرَّجُلِ يَهِيءُ» إِذَا أَحْسَنَ هَيْثَتَهُ عَلَى مِثَالِ: «جَاءَ يَجِيءُ»، ويحتمل أن يكون بمعنى: تَهَيَّأْتُ، كما يقال: «فُتْتُ وَتَفَيَّأْتُ» بمعنى واحد، قال الله عز وجل:

«يَنْتَفِئًا ظِلُّهُ»، وقال: «حَيْثُ نَفَيْتَ لَكَ أَمْرَ اللَّهِ». وقرأ ابن أبي إسحاق أيضاً هكذا إلا أنه سهل الهمزة، وقرأ ابن عباس أيضاً: «هَيْثُ لَكَ»، وقرأ الحلواني عن هشام: «هَيْثُ» بكسر الهاء والهمزة وفتح التاء، قال أبو علي: ظاهر أنه هذه القراءة وهم، لأنه كان ينبغي أن تقول: «هَيْثُ لِي» وسياق الآيات يخالف هذا، وحكى النحاس أنه يقرأ: «هَيْثُ» بكسر الهاء وسكون الياء وكسر التاء.

و«مَعَادٌ» نصب على المصدر، ومعنى الكلام: أعوذ بالله، ثم قال: «إِنَّهُ رَبِّي» فيحتمل أن يعود الضمير في «إِنَّهُ» على الله عز وجل، ويحتمل أن يريد العزيز سيده، أي: فلا يصلح لي أن أخونه وقد أكرم مشواي واقتنمني. قال مجاهد، والسدي: «رَبِّي» معناه: سيدي، وقاله ابن إسحاق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا حفظ الأدمي لإحسانه فهو عمل زاك وأحرى أن يحفظ ربه.

ويحتمل أن يكون الضمير للأمر والشأن، ثم يبتدىء: «رَبِّي أَحْسَنَ مَوْلَايَ». والضمير في قوله: «إِنَّهُ لَا يُبْلِغُ» مراد به الأمر والشأن فقط.

وحكى بعض المفسرين أن يوسف عليه السلام لما قال: «مَعَادُ اللَّهِ» ثم دافع الأمر باحتجاج وملاينة امتحنه الله تعالى بالهمم بما هم به، ولو قال: «لا حول ولا قوة إلا بالله» ودافع بعنف وبغير شيء من ذلك ما ابتلي بالمكروه.

وقرأ الحجدري: «مَفْوِي»، وكذا

قرأها أبو الطفيل، وروي عن النبي ﷺ: ﴿فَمَنْ آتَيْعَ هُدْيً﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ يَوْءُ﴾ الآية. لاشك أن همَّ زليخا كان في أن يواقعها يوسف، واختلف في همَّ يوسف عليه السلام فقال الطبري: قالت فرقة: كان مثل همها، واختلفوا كيف يقع من مثل يوسف وهو نبي؟ فقيل: ذلك لِيُرِيَهُ اللهُ تعالى موقع العفو والكفاية، وقيل: الحكمة في ذلك أن يكون مثلاً للمذنبين لِيُرَوْا أن توبتهم ترجع بهم إلى عفو الله كما رجعت بمن هو خير منهم ولم يوبقه القرب من الذنب. وذلك كله على أن همَّ يوسف بلغ - فيما روت هذه الفرقة - إلى أن جلس بين رجلي زليخا وأخذ في حل ثيابه وتكته ونحو هذا، وهي قد استلقت له، قاله ابن عباس وجماعة من السلف. وقالت فرقة في همَّ: إنما كان بخبرات القلب التي لا يقدر البشر على التحفظ منها، ونزع عن ذلك ولم يتجاوز، فلا يبعد هذا على مثله عليه السلام، وفي الحديث: ﴿إِنْ مِنْ هُمْ بَسِيئَةٌ وَلَمْ يَعْمَلْهَا فَلَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ﴾، وفي حديث آخر «حسنة»، فقد يدخل يوسف في هذا الصنف، وقالت فرقة: كان همَّ يوسف بضرهبا ونحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف البتة.

والذي أقول في هذه الآية: إن كون يوسف نبياً في وقت هذه النازلة لم يصح ولا تظاهرت به رواية، وإذا كان ذلك فهو مؤمن قد أوتي حكماً

وعلماً ويجوز عليه الهمُّ الذي هو إرادة الشيء دون مواقفته، وأن يستصحب الخاطر الرديء على ما في ذلك من الخطيئة، وإن فرضناه نبياً في ذلك الوقت فلا يجوز عليه عندي إلا الهمُّ الذي هو الخاطر، ولا يصح عليه شيء مما ذكر من حلُّ تكَّة ونحو ذلك، لأن العصمة مع النبوة، وما زوي من أنه قيل له: «تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء» فإنما معناه العدة بالنبوة فيما بعد، وللهمُّ بالشيء مرتبتان: فالأولى تجوز عليه مع النبوة، والثانية الكبرى لا تقع إلا من غير نبي، لأن استصحاب خاطر المعصية والتلذذ به معصية في نفسها تكتب، وقول النبي ﷺ: ﴿إِنْ اللهُ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ نَفْسُهَا مَا لَمْ تَنْطِقْ بِهِ أَوْ تَعْمَلْهُ مَعْنَاهُ: مِنَ الْخَوَاطِرِ، وَأَمَا اسْتِصْحَابُ الْخَاطِرِ فَمَحَالٌ أَنْ يَكُونَ مَبَاحاً، فَإِنْ وَقَعَ فَهُوَ خَطِيئَةٌ مِنَ الْخَطَايَا، لَكِنَّهُ لَيْسَ كَمَوَاقِعِ الْمَعْصِيَةِ الَّتِي فِيهَا الْخَاطِرُ، وَمَا يُؤَيِّدُ أَنْ اسْتِصْحَابُ الْخَاطِرِ مَعْصِيَةٌ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَرِيصاً عَلَى قَتْلِ صَاحِبِهِ، وَقَوْلُ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّكَ بَمَشْرِ الظَّنِّ إِتْرٌ﴾، وهذا منتزع من غير موضع من الشرع، والإجماع متعقد على أن الهمُّ بالمعصية واستصحاب التلذذ بها غير جائز ولا داخل في التجاوز.

واختلف في البرهان الذي رأى يوسف. وقيل: نودي. واختلف فيما نودي به فقيل: ناداه جبريل عليه السلام. يا يوسف، تكون في ديوان الأنبياء وتفعل فعل السفهاء؟ وقيل:

نودي: يا يوسف، لا توافق المعصية فتكون كالطائر الذي عصى فتساقط ريشه فبقي ملقى، ناداه بذلك يعقوب، وقيل غير هذا مما هو في معناه. وقيل: كان البرهان كتاباً رآه مكتوباً، فقيل: في جدار المجلس الذي كان فيه، وقيل: بين عيني زليخا، وقيل: في كف من الأرض خرجت دون جسده، واختلف في المكتوب فقيل: قوله تعالى: ﴿أَفَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾، وقيل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا أَرْزَاقَهُ إِذْ كَانَ فِي حِجْرَةٍ وَسَاةً سَبِيلًا﴾، وقيل غير هذا. وقيل: كان البرهان أن رأى يعقوب عليه السلام ممثلاً معه في البيت عاصراً على إبهامه، وقيل: على شفته، وقيل: بل انفرج السقف فرآه كذلك، وقيل: إن جبريل عليه السلام قال له: لئن واقعت المعصية لأمحنوك من ديوان النبوة، وقيل: إن جبريل ركضه برجله فخرجت شهوته على أنامله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقيل: بل كان البرهان فكرته في عذاب الله ووعيده على المعصية، وقيل: بل كان البرهان الذي اعظم به أن زليخا قالت له: مكانك حتى أُنشَرُ هذا الصنم - ليصنم كان معها في البيت - فإني أستحي منه أن يراني على هذا الحال، وقامت إليه فسترته بثوب، فاتعظ يوسف وقال: من يسترنني أنا من الله القائم على كل شيء؟ وإذا كنت أنت تفعلين هذا لما لا يعقل فإني أولى أن أستحي من الله.

والبرهان في كلام العرب: الشئ الذي يعطي القطع واليقين لأنه مما يُعلم ضرورة أو بخبر قطعي أو بقياس نظري، فهذه التي رويت فيما رآه يوسف براهين.

و ﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا أَنْ رَكَا﴾ في موضع رفع، التقدير: لولا رؤيته برهان ربه، وهذه ﴿لَوْلَا﴾ التي يحذف معها الخبر، تقديره: لفاعل أو لارتكب المعصية، وذهب قومٌ إلى أن الكلام تم في قوله: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِرَبِّهِ﴾، وأن جواب ﴿لَوْلَا﴾ في قوله: ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾، وأن المعنى: لولا أن رأى البرهان لهم، أي: فلم يهتم عليه السلام، وهذا قول يرويه لسان العرب وأقوال السلف، قال الزجاج: ولو كان الكلام: ﴿وَلَهْمَ بِهَا لَوْلَا﴾ لكان بعيداً، فكيف مع سقوط اللام؟

والكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ متعلقة بمضمر تقديره: جرت أفعالنا وأقدارنا كذلك لنصرف، ويصح أن تكون الكاف في موضع رفع بتقدير: عَضَمْنَا لَهُ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ. وقرأ الجمهور: ﴿لِنَصْرِفَ﴾ بالنون، وقرأ الأعمش: ﴿لِنِصْرِفَ﴾ بالياء على الحكاية عن الغائب.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاء: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بكسر اللام في كل القرآن، وكذلك ﴿مُخْلِصًا﴾ في سورة مريم، وقرأ نافع: ﴿مُخْلِصًا﴾ كذلك بكسر اللام، وقرأ سائر القرآن ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ بفتح اللام، وقرأ حمزة، والكسائي، وجمهور من القراء: ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾

بفتح اللام، و﴿مُخْلِصًا﴾ كذلك في كل القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَبْنَا﴾ الآية. ﴿وَأَسْتَبْنَا﴾ معناه: سابق كل واحد منهما صاحبه إلى الباب، هي لترده إلى نفسها، وهو ليهرب عنها، فقبضت في أعلى قميصه من خلفه، فتخرق القميص عند طوقه ونزل التخريق إلى أسفل القميص، والقُد: القطع، وأكثر ما يستعمل فيما كان طولاً، والقَطُّ يستعمل فيما لو كان عرضاً، وكذلك هي اللفظة في قول النابغة:

تَقْدُ السُّلُوقِي ...

فإن قوله: «وَتُوْقِدُ بِالضَّفْحِ» يقتضي أن القطع بالطول.

و ﴿وَأَلْيَا﴾: وجداً، والسَيْدُ: الزوج، قاله زيد بن ثابت، ومجاهد. فيروى أنهما وجدا العزيز ورجلاً من قرابة زليخا عند الباب الذي استبقا إليه، قاله السُّدِّي، فلما رأت الفضيحة فزعت إلى مطالبة يوسف والبغي عليه، فأرت العزيز أن يوسف أرادها، وقالت: ﴿مَا جَرَاءَ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يَسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وتكلمت في الجزاء، أي أن الذنب ثابت ومقرر.

وهذه الآية تقتضي تعظيم موقع السجن من النفوس لا سيما بذوي الأقدار إذ قد قرُنَ بأليم العذاب.

٢٦ - ٢٧ تفسير قوله عز وجل:

قال نوف الشامي: كان يوسف عليه السلام لم يبين على كشف القصة، فلما بغت عليه غضب فقال الحق، فأخبره أنها هي زاودته عن نفسه،

فروي أن الشاهد كان الرجل ابن عمها، قال: انظر إلى القميص، فإن كان قد من دُبُرٍ فكذبت، أو من قُبُلٍ فصدقت، قاله السُّدِّي: وقال ابن عباس: كان رجلاً من خاصة الملك، قاله مجاهد وغيره. وقيل: إن الشاهد كان طفلاً في المهد فتكلم بهذا، قاله أيضاً ابن عباس، وأبو هريرة، وابن جبير، وهلال بن يساف، والضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومما يضعف هذا أن في صحيح البخاري، ومسلم: «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وابن السوداء الذي تمت له أن يكون كالفاجر الجبار» فقال: «لم يتكلم»، وأسقط صاحب يوسف منها، ومنها أن الصبي لو تكلم لكان الدليل نفس كلامه دون أن يحتاج إلى الاستدلال بالقميص، وأسند الطبري إلى ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «تكلم في المهد أربعة» فذكر الثلاثة وزاد صاحب يوسف، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ابن ماشطة فرعون تكلم في المهد فهم - على هذا - خمسة، وقال مجاهد أيضاً: الشاهد القميص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف لأنه لا يوصف بأنه من الأهل.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مِنْ قُبُلٍ﴾ و﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ بضم الباءين وبالفتحة، وقرأ ابن يغمر، والجارود بن أبي سبرة، ونوح، وابن أبي إسحاق: ﴿مِنْ قُبُلٍ﴾ و﴿مِنْ دُبُرٍ﴾ بثلاث

وامرأة حاجبه، وامرأة بوابه،
و﴿الْعَزِيزُ﴾: الملك، ومنه قول
الشاعر:

دُرَّةٌ غَاصَ عَلَيْنَهَا تَاجِرٌ
جَلِيثٌ عِنْدَ عَزِيزِ يَوْمِ طُلُ
و «الْفَتَى»: الغلام، وعرفه في
المملوك، وقد قال رسول الله ﷺ:

«لا يقل أحدكم: عبدي، وأمتي،
وليقُل: فتاي وفتاتي» ولكنه قد يقال

في غير المملوك، ومنه: «رَدَا فَكَ
مُرْسِي لَيْتَنَهُ»، وأصل الفتى في

اللغة: الشاب، ولكنه لما كان جل
الخدمة شباباً استعير لهم اسم الفتى.

و﴿شَعْفَهَا﴾ معناه: بلغ حتى صار
من قلبها موضع الشُّغاف، وهو على

أكثر القول غلاف من أغشية القلب،
وقيل: الشُّغاف: سويداء القلب،

وقيل: الشُّغاف: داء يصل إلى
القلب.

وقرأ أبو رجاء، والأعرج،
وعلي بن أبي طالب، والحسن -

بخلاف - ويحيى بن يعمر، وقتادة -
بخلاف - وثابت، وعوف،

ومجاهد، وغيرهم: «قَدْ شَعْفَهَا»
بالعين غير منقوطة، ولذلك وجهان:

أحدهما أنه علا بها كل مرتبة من
الحب، وذهب بها كل مذهب، فهو

مأخوذ - على هذا - من شُغف الجبال
وهي رُؤوسها وأعاليتها، ومنه قول

النبي ﷺ: «يوشك أن يكون خير
مال المسلم فغماً يتبع بها شُغف

الجبال ومواقع القَطْرِ يفرُّ يدينه من
القيتن»، والوجه الآخر أن يكون

الشُغف لذةً يَحْرَقُةً يوجد من
الجراحات والجرب ونحوها، ومنه

قول امرئ القيس:

﴿إِنَّهُ﴾ يريد مقالها المتقدم
في الشكوى بيوسف.

ونزع لهذه الآية من يرى
الحكم بالأمانة من

العلماء، فإنها معتمدهم،
و﴿يُؤَسِّفُ﴾ في قوله:

﴿يُؤَسِّفُ أَعْرَضَ عَن هَذَا﴾
منادى - قاله ابن عباس -

ناداه الشاهد، وهو الرجل
الذي كان مع العزيز

و﴿أَعْرَضَ عَن هَذَا﴾ معناه:
عن الكلام به، أي: اكتنمه

ولا يتحدث به، ثم رجع
إليها فقال: «وَأَسْتَفْرِى

لِلدَّيْكَ﴾ أي: استغفري
زوجك وسيدك، وقال:

﴿مِنَ الْفَاطِيَيْنِ﴾ ولم
يقُل: «من الخاطئات» لأن الخاطئين

أعم، وهو من: خطيء يَخْطَأُ خَطْئاً
وخطأً، ومنه قول الشاعر:

لَعَمْرُكَ إِثْمَا خَطْطِي وَصَوْبِي
عَلَيَّ، وَإِنْ مَا أَتَلَفْتُ مَا

وينشد بيت أمية بن أبي الصلت:
عِبَادُكَ يَخْطِئُونَ وَأَنْتَ رَبُّ

بِكُفَيْكَ الْمَنَابِ وَالْحُسُومُ
﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذَكَرَ الْفِعْلُ الْمَسْنَدُ إِلَى النَّسْوَةِ
لتذكير اسم الجمع، و «النسوة» جمع

قلة لا واحد له من لفظه، وجمع
التكثير نساء، و﴿نِسْوَةٌ﴾ فِعْلَةٌ، وهو

أحد الأبنية الأربعة التي هي لأدنى
العدد، وقد نظمها القائل بيت شعر:

بِأَفْعُلٍ وَأَفْعَالٍ وَأَفْعِلَّةٍ
وَفِعْلَةٌ يُعْرَفُ الْأَدْنَى مِنَ الْعَدَدِ

وَيُرْوَى أَنَّ هَوْلَاءِ النَّسْوَةِ كُنَّ أَرْبَعًا،
امرأة خباز الملك، وامرأة ساقية،

فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكَاوِئًا وَأَتَتْ
كُلَّ وَجْهٍ مِّنْهُنَّ سِرْكِينًا وَقَالَتْ أَعْرَضَ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْتهُ أَكْرَهْتُهُ
وَقَطَعَنْ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَسْبُ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ
كَرِيمٌ ﴿٣٠﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ الَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ وَلَقَدْ رُودْنَاهُ عَنِ
نَفْسِهِ فَأَسْتَعْصَمَ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا آمُرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا
مِّنَ الصَّاغِرِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي
إِلَيْهِ وَإِلَّا نَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْمُجَاهِلِينَ
﴿٣٢﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ عَنِ كَيْدِهِمْ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ ﴿٣٣﴾ ثُمَّ بَدَأْ لَهُمْ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا الْعَذَابَ لَئِن سَجَدُوا
لِيَّ هُنَّ ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٌ قَالَ أَحَدُهُمَا
إِنِّي أَرَأَيْتَ أَصْبَرُ حَمْرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أَرَأَيْتَ أُحْمِلُ فَوْقَ
رَأْسِي خَبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنَهُ نَبْتُنَا تِأْوِيلُهُ وَإِنَّا لَنَرَاهُ لَمَنِ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ قَالَ لَا يَا بُدَّ لَنَا غَدَاةٌ مِّنْ قَابِئِهِ لَئِن تَأْتَيْنَا كُنَّا
بِتَأْوِيلِهِ قِيلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكُمَا سَمَاعِي رَبِّي إِنِّي فَرَّخْتُ
مِثْلَهُ قَوْمًا لَا يَوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَثِيرُونَ ﴿٣٦﴾

ضمات من غير تنوين، قال أبو
الفتح: هما غايتان بنيتا كقوله تعالى:

﴿مِن قَبْلِ وَمِنْ بَعْدٍ﴾، قال أبو
حاتم: وهذا ردية في العربية جدا،

وإنما يقع هذا البناء في الظروف،
وقرأ الحسن: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ و ﴿مِنْ

ذُبْرِ﴾ بإسكان الباءين والتنوين،
ورويت عن أبي عمرو، وروي عن

نوح القاري أنه أسكن الباءين وضم
الأواخر ولم ينون، ورواها عن أبي

إسحاق عن يحيى بن يعمر.

وسُمِّي المتكلم بهذا الكلام شاهداً
من حيث دل على الشاهد، ونفس

الشاهد هو تخريق القميص.

وقرأت فرقة: ﴿فَلَمَّا رَأَى قَمِيصَهُ
قَطُّ مِنْ ذُبْرِ﴾، والضمير في ﴿رَبَا﴾

هو للعزيز، وهو القائل: ﴿إِنَّهُ مِنْ
كَبِدِكَ﴾، قاله الطبري، وقيل: بل

الشاهد قال ذلك، والضمير في

أَيْفَشُلْنِي وَقَدْ شَعَفْتُ فُرَادَهَا
كَمَا شَعَفَ الْمَهْتُوءَةُ الرَّجُلَ الطَّالِي
والمشعوف في اللغة: الذي أحرق
الحب قلبه، ومنه قول الأعشى:

تَعْصِي الوُشَاةَ وَكَانَ الْحُبُّ أَوْتَةً
مِمَّا يُزَيِّنُ لِلْمَشْعُوفِ مَا صَنَعَا

وروي عن ثابت البناني، وأبي
رجاءٍ أنهما قرآ: ﴿قَدْ شَعَفَهَا﴾ بكسر
العين غير منقوطة، قال أبو حاتم:
المعروف فتح العين، وهذا قد قرئ
به. وقرأ ابن مَحْنِصَن: ﴿قَدْ شَعَفَهَا﴾
أدغم الدال في الشين.

وروي أن مقالة هؤلاء النسوة إنما
قصدن بها المكر بامرأة العزيز
لِيُغَضِبَنَّهَا حتى تعرض عليهن يوسف
لِيَبِينَ عِذْرَهَا أو يحق لومها، وقد قال
ابن زيد: الشغف في الحب والشغف
في بغض، وقال الشعبي: الشغف
والمشغوف بالغبين منقوطة في
الحب، والشغف: الجنون،
والمشغوف: المجنون، وهذان
القولان ضعيفان.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ﴾
الآية. إنما سُمِّي قولهن مكرأ من
حيث أظهرن إنكار منكر وقصدن
إثارة غيظها عليهن، وقيل: مَكْرُهُنَّ
أنهن أفشين ذلك عنها وقد كانت
أطلعتن على ذلك واستكتمتهنَّ إياه،
وهذا لا يكون مكرأ إلا بأن يظهرن
لها خلاف ذلك ويقصدن بالإفشاء
أذاها.

ومعنى ﴿أَرْسَلَتْ إِلَيْنَّ﴾ أي
ليخضرن، ﴿وَأَعَدَّتْ﴾ معناه: أعدت
ويَسَّرت، و﴿مُنْكَأً﴾: ما يُتَكَأُ عليه
من فرش ووسائد، وعبر بذلك عن
مجلس أعد لكرامة، ومعلوم أن هذا

النوع من الكرامات لا يخلو من
الطعام والشراب، فلذلك فسر
مجاهد وعكرمة المنكأ بالطعام. قال
ابن عباس: ﴿مُنْكَأً﴾ معناه: مجلساً،
ذكره الزهرواي، وقال القتيبي: يقال:
اتكأنا عند فلان، أي أكلنا.

وقوله: ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاجِدٍ رِجْلَهُنَّ
سِكِّينًا﴾ يقتضي أنه كان في جملة
الطعام ما يقع بالسكاكين، فقيل:
كان لحمأ، وكانوا لا ينتهسون اللحم
وإنما كانوا يأكلونه حراً بالسكاكين،
وقيل: كان أثرُجاً، وقيل: كان
زُماوُرد - وهو من نحو الأثرُج - موجود
في تلك البلاد - وقيل: هو
مصنوع من سكر ولوز وأحلاط.
وقرأ ابن عباس، ومجاهد،
والجحدري، وابن عمر، وقتادة،
والضحاك والكلبي، وأبان بن
تغلب: ﴿مُنْكَأً﴾ بضم الميم وسكون
التاء وتنوين الكاف، واختلف في
معناه؛ فقيل: هو الأثرُج، وقيل: هو
اسم يعم جميع ما يقع بالسكين من
الفواكه كالأثرُج والتفاح وغيره،
وأند الطبري:

نَشْرَبُ الإِثْمَ بِالصُّوَاعِ جِهَاراً
وَتَرَى المُنْكَأَ بَيْنَنَا مُسْتَعَاراً
وقرأ الجمهور: ﴿مُنْكَأً﴾ بشد التاء
المفتوحة والهمز والقصر، وقرأ
الزهري: ﴿مُنْكَأً﴾ مشددة التاء من
غير همز، وهي قراءة أبي جعفر بن
القعقاع، وشيبة بن نصاح، وقرأ
الحسن: ﴿مُنْكَأً﴾ بالمد على إشباع
الحركة. والسكين: تذكر وتؤنث،
قاله الكسائي والفراء، ولم يعرف
الأصمعي إلا التذكير.

وقولها: ﴿أَخْرَجَ﴾ أمرٌ ليوسف،

وأطاعها بحسب الملك، وقال
مكي، والمهدي: قيل: إن في الآية
تقديماً وتأخيراً في القصص، وذلك
أن قصة النسوة كانت قبل فضيحتها
في القميص للسيد، وباشتجار الأمر
للسيد انقطع ما بينها وبين يوسف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا محتمل إلا أنه لا يلزم من
ألفاظ الآية. بل يحتمل أن كانت
قصة النساء بعد قصة القميص،
وذلك أن العزيز كان قليل الغيرة، بل
قومه أجمعون، ألا ترى أن الإنكار
في وقت القميص إنما كان بأن قيل:
﴿إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾؟
وهذا يدل على قلة الغيرة، ثم سكن
الأمر بأن قال: ﴿يُوشِفُ أَعْرَضَ عَنْ
هَذَا﴾ وأنت ﴿وَأَسْتَفْرِى﴾ وهي لم
تبق حينئذ إلا على إنكارها وإظهار
الصحة، فلذلك تغافل عنها بعد
ذلك، لأن دليل القميص لم يكن
قاطعاً، وإنما كان أمارة ما، هذا إن
لم يكن المتكلم طفلاً.

وقوله: ﴿أَكْبَرْتَهُ﴾ معناه: أعظمته
واستهولن جماله، هذا قول
الجمهور، وقال عبدالصمد بن علي
الهاشمي عن أبيه عن جده: معناه:
جِضْن، وأند بعض الناس حجة
لهذا التأويل:

يَأْتِي النِّسَاءَ عَلَى أَطْهَارِهِنَّ وَلَا
يَأْتِي النِّسَاءَ إِذَا أُكْبِرْنَ إِجْبَاراً
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قول ضعيف، ومعناه منكور،
والبيت مصنوع مختلق، كذلك
قال الطبري وغيره من المحققين،
وليس عبدالصمد من رُواة العلم،
رحمه الله.

وقوله تعالى: ﴿وَقَطَعَنَ أَيْدِيَهُمْ﴾ أي: أكثرن فيها حَزَّ السكاكين، وقال عكرمة: الأيدي هنا: الأكمام، وقال مجاهد: هي الجوارح وقطعناها حتى ألقينها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فظاهر هذا أنه بانت الأيدي، وذلك ضعيف من معناه، وذلك أن قطع العظم لا يكون إلا بشدة، ومحال أن يسهو أحد عينا، والقطع على المفصل لا يتبها إلا بتلطف لا بُدَّ أن يُقصد، والذي يشبه أنهم حملن على أيديهن الحمل الذي كن يحملنه قبل المثك فكان ذلك حَزًّا، وهذا قول الجماعة، وضوعفت الطاء في ﴿قَطَعَنَ﴾ لكشرتهم وكثرة الحَزِّ، وربما كان مراراً.

وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿حَاشَاَ لِلَّهِ﴾ بألف، وقرأ أبي وابن مسعود: ﴿حَاشَىَ لِلَّهِ﴾، وقرأ سائر السبعة: ﴿حَشَىَ لِلَّهِ﴾، وفرقة: ﴿حَشَىَ لِلَّهِ﴾، وهي لغة، وقرأ الحسن: ﴿حَاشَىَ لِلَّهِ﴾ بسكون الشين، وهي ضعيفة، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿حَاشَىَ إِلَهِهُ﴾ محذوفاً من «حاشى». فأما «حاشى» فهي حيث جرت حرف معناه الاستثناء، كذا قال سيبويه، وقد ينصب به، تقول: «حاشى زيدٌ وحاشى زيداً»، قال المبرد: النصب أولى إذ قد صح أنها فعلٌ بقولهم: «حاشى ليزيد»، والحرف لا يحذف منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يظهر من مجموع كلام سيبويه والمبرد أن الحرف يُحْفَضُ به لا غير، وأن الفعل هو الذي يُنْصَبُ به،

فهذه اللفظة تستعمل فعلاً وحرفاً، وهي في بعض المواضع فعل وزنه فاعل، وذلك في قراءة من قرأ: ﴿حَاشَىَ لِلَّهِ﴾، معناه مأخوذ من معنى الحرف وهو إزالة الشيء عن معنى مقرون به، وهذا الفعل مأخوذ من «الحشى»، أي: هذا في حشى وهذا في حشى، ومن ذلك قول الشاعر:

يَقُولُ الَّذِي يَمْشِي إِلَى الْجِرْزِ أَهْلُهُ
بَأَيِّ الْحَشَى صَارَ الْخَلِيْطُ الْمُبَايِنُ؟
ومنه الحاشية، كأنها مباينة لسائر ما هي له، ومن المواضع التي «حاشى» فيها فعلٌ هذه الآية، يدل على ذلك دخولها على حرف الجر، والحروف لا يدخل بعضها على بعض، ويدل على ذلك حذف الياء منها في قراءة الباقيين: ﴿حَاشَى﴾ على نحو حذفهم من: «لا أَسَالِي» و«لا أَذِرُ» و«لَسُو تَرَّ»، ولا يجوز الحذف من الحروف إلا إذا كان فيها تضعيف مثل: «لَعَلَّ» فيحذف وتزجج «عَلَّ»، ويُعْتَرَضُ فِي هَذَا الشَّرْطِ بِـ «مُنْذُ» و«مُنْذُ» فَإِنَّهُ حَذَفَ دُونَ تَضْعِيفٍ، فَتَأْمَلُهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن ذلك في حديث خالد يوم مُؤْتَةَ: «فَحَاشَىَ بِالنَّاسِ»، فمعنى ﴿حَشَىَ لِلَّهِ﴾ ما هنا: حاش يوسف لطاعته لله، أو لمكاتبه من الله، أو لترفع الله له أن يرمى بما رَمِيَتْ بِهِ أَوْ يُدْعَى إِلَى مِثْلِهِ، لِأَنَّ تِلْكَ أَعْمَالَ الْبَشَرِ وَهُوَ لَيْسَ مِنْهُمْ، إِنَّمَا هُوَ مُلْكٌ، هَكَذَا رَتَّبَ أَبُو عَلِيٍّ الْفَارَسِيُّ مَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ عَلَى هَاتَيْنِ الْقَرَأَتَيْنِ اللَّتَيْنِ فِي السُّنَنِ، وَأَمَّا قِرَاءَةُ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَابْنِ مَسْعُودٍ فَقَالِي أَنْ

(حَاشَى) حرف استثناء، كما قال الشاعر:

حَاشَى أَبِي تَسْوِيَانٍ إِنْ بِهِ
ضِيًّا عَلَى الْمَلْحَاءِ وَالشُّنْمِ
وتسكين الشين في إحدى قراءتي الحسن ضعيف، جمع بين ساكنين، وقراءته الثانية محذوفة الألف من (حاشى).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتشبيه بالملك هو من قبيل التشبيه بالمستعظمت وإن كانت لا تُرى. وقرأ أبو الحويرث الحنفي، والحسن: ﴿مَا هَذَا بَشَرًا إِنْ هَذَا إِلَّا مَلِكٌ كَرِيمٌ﴾ بكسر اللام في ﴿مَلِكٌ﴾، وعلى هذه القراءة فالكلام فصيح، لما استعظمت حسن صورته قلن: ما يصلح أن يكون هذا عبداً بشراً، إنما يصلح أن يكون ملكاً كريماً. ونصب ﴿بَشَرًا﴾ على لغة الحجاز، شبهت ﴿مَا﴾ بـ «ليس»، وأما تميم فرفع، ولم يقرأ به.

وروي أن يوسف عليه السلام أعطي ثلث الحسن، وعن النبي ﷺ أنه أعطي نصف الحسن، ففي بعض الأسانيد هو وأمه، وفي بعضها هو وسارة جدّة أبيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على جهة التمثيل، أي: لو كان الحسن مما يقسم لكان حُسن يوسف يقع في نصفه، فالقصد أن يقع في نفس السامع عظم حُسنه، على نحو التشبيه بربّوس الشياطين وأنياب الأغوال.

٣٢ - ٣٣ تفسير قوله عز وجل: قال الطبري: المعنى: فهذا الذي كُنْتُ فِيهِ، أي: هذا الذي قطعتم

أبيدكن بسببه هو الذي جعلتني ضالةً في هواه، والضمير عائذ على يوسف في ﴿فِيهِ﴾، ويسجوز أن تكون الإشارة إلى حُبِّ يوسف والضمير عائذ على الحب، فيكون ذلك إشارة إلى غائب على بابه.

ثم أَقْرَتِ امرأة العزيز للنسوة بالمرادة، واستأمنت إليهن في ذلك إذ قد علمت أنهن قد عذرنها، و﴿فَأَسْتَعِمَّ﴾ معناه: طلب العصمة وتمسك بها وعصاني، ثم جعلت تنوعده - وهو يسمع - بقولها: ﴿وَلَكِنَّ لَمْ يَفْعَلْ مَا مَأْمُرُهُ لِئَسْجَنَ وَلِيَكُونَ مِنَ الصَّغِيرِينَ﴾ إلى آخر الآية.

واللام في قوله: ﴿لِيَسْجَنَ﴾ لام القسم، واللام الأولى هي المؤذنة بمجيء القسم، والنون هي الثقيلة والوقوف عليها بشدها، و﴿لِيَكُونَ﴾ نونه هي النون الخفيفة، والوقف عليها بالألف، وهي مثل قوله تبارك وتعالى: ﴿لَتَسْتَأْذِنَ﴾، ومثلها قول الأعشى:

وَصَلَّ عَلَى حِينِ الْعَشِيَّاتِ وَالضُّحَى
وَلَا تُعْبِدُ الشَّيْطَانَ وَاللَّهَ فَاعْبُدَا
أَرَادَ: فَاعْبُدْنَا. وقرأت فرقة:
﴿وَلِيَكُونَ﴾ بالنون الشديدة،
والصاغرون الأذلاء الذين لِحِقْهِمُ
الصُّغَارُ.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ آلَيْتُ أَحَبَّ إِلَيَّ﴾. روي أنه لما توعدته امرأة العزيز قال له النسوة: «أطع مولاتك، وافعل ما أمرتك به»، فلذلك قال: ﴿يَمَّا يَدْعُونَكَ إِلَيْهِ﴾، قال نحوه الحسن، ووزن «يدعون» في هذه الآية: يَفْعُلْنَ، بخلاف قولك: «الرجال يدعون».

وقرأ الجمهور: ﴿الْيَجْنُ﴾ بكسر السين، وهو الاسم. وقرأ الزهري، وابن هرمز، ويعقوب، وابن أبي إسحاق: ﴿السُّجْنُ﴾ بفتح السين، وهي قراءة عثمان رضي الله عنه وطارق مولاة، وهو المصدر، وهو كقولك: الجذع والجذع.

وقوله: ﴿وَلَا تَصْرَفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصَبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْعَاهِلِينَ﴾ إلى آخر الآية، استسلام لله تبارك وتعالى، وربة إليه، وتوكل عليه، المعنى: وإن لم تُنجني أنت هلكت، هذا مقتضى قرينة كلامه وحاله، والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ عائذ على الفاحشة المعنية بـ (ما) في قوله: ﴿يَمَّا﴾.

و﴿أَصَبُ﴾ مأخوذ من الصبوة، وهي أفعال الصبا، ومن ذلك قول الشاعر - أنشده الطبري -:

إِلَى هَيْدٍ صَبَا قَلْبِي
وَهَيْدٌ مِثْلُهَا يُضِي
ومن ذلك قول ذريرد بن الصمة:

صَبَا مَا صَبَا حَتَّى عَلَا الشَّيْبُ رَأْسَهُ
فَلَمَّا عَلَا قَالَ لِلْبَاطِلِ: ابْعُدِ
والجاهلون: هم الذين لا يراعون حدود الله تعالى ونواهي.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ﴾ الآية. قول يوسف عليه السلام: ﴿رَبِّ آلَيْتُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ كلام يتضمن التشكي إلى الله عز وجل من حاله معهن، والدعاء إليه في كشف بلواه، فلذلك قال - بعد مقالة يوسف -: ﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُ﴾، أي: أجابه إلى إرادته، وصرف عنه كيدهن في أن حال بينه وبين المعصية، وقوله: ﴿السَّيِّئُ﴾

الْيَلِيمُ﴾ صفتان لائقتان بقوله: ﴿فَأَسْتَجَابَ﴾.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: لما أبى يوسف المعصية وبنت منه امرأة العزيز طالبتة بأن قالت لزوجها: إن هذا الغلام العبراني قد فضحني في الناس، وهو يعتذر إليهم ويصف الأمر بحسب اختياره، وأنا محبوسة محجوبة، فإما أذنت لي فخرجت إلى الناس فاعتذرت وكذبت، وإما حبسته كما أنا محبوسة، فحينئذ بدا لهم سجنه. قال ابن عباس: فأمر به فحمل على حمار، وضرب بالطليل، ونودي عليه في أسواق مصر: إن يوسف العبراني أراد سيده، فهذا جزاؤه أن يسجن، قال أبو صالح: ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى.

و﴿بَدَأَ﴾ معناه: ظهر، والفاعل بـ ﴿بَدَأَ﴾ محذوف تقديره: بذؤ، أو رأي، وجمع الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ والساجن الملك وحده من حيث كان في الأمر تشاور، و﴿لِيَسْجَنَهُ﴾ جملة دخلت عليها لام القسم، ولا يسجوز أن يكون الفاعل بـ ﴿بَدَأَ﴾ ﴿لِيَسْجَنَهُ﴾ لأن الفاعل لا يكون جملة بوجه، هذا صريح مذهب سيبويه، وقيل: الفاعل: ﴿لِيَسْجَنَهُ﴾، وهو خطأ، وإنما هو مفسر للفاعل.

و﴿الآيَاتِ﴾ ذكر فيها أهل التفسير أنها قد القميص - قاله مجاهد وغيره - وخمش الوجه الذي كان مع قد القميص - قاله عكرمة - وحز النساء أيديهن، قاله السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ومقصد الكلام إنما هو أنهم رأوا سجنه بعد بدو الآيات المبرئة له من التهمة، فهكذا تبين ظلمهم له، وخمش الوجه وحز النساء أيديهن ليس فيهما تبرية ليوسف، ولا تصور تبرية إلا في خبر القميص، فإن كان المتكلم طفلاً - على ما روي - فهي آية عظيمة، وإن كان رجلاً فهي آية فيها استدلالاً ما، والعادة أنه لا يُعَبَّرُ بآية إلا فيما ظهوره في غاية الوضوح، وقد تقع «الآيات» أيضاً على «المبينات» كانت في أي حدٍ اتفق من الوضوح، ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿يَنْ بَعْدَ مَا رَأَى الْآيَاتِ﴾ أي: من بعد ما ظهر لهم من وجوه الأمر وقرائنه أن يوسف بريء، فلم يرد تعيين آية، بل قرائن جميع القصة.

و «الحين» في كلام العرب وفي هذه الآية: الوقت من الزمن غير محدود، يقع للقليل والكثير، وذلك بين من مواده في القرآن، وقال عكرمة: الحين هنا يراد به سبعة أعوام، وقيل: بل يراد بذلك ستة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب ما كشف الغيب في سجن يوسف. وسمع عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقرأ: «عَتَى جِين» بالعين - وهي لغة هذيل - فقال له: من أقرأك؟ قال: ابن مسعود، فكتب عمر إلى ابن مسعود: «إن الله أنزل القرآن عربياً بلغة قريش، فيها أقرىء الناس، ولا تقرنهم بلغة هذيل». وروي عن ابن عباس أنه قال: «عَثَرُ يوسف عليه السلام ثلاث عشرات: هَمَّ

فُسَجِنَ، وقال: اذكرني عند رَبِّكَ فأنساه الشيطان ذكر ربِّه فطول سجنه، وقال: إنكم لسارقون، فروجع: إن يسرق فقد سَرَقَ أَخٌ له من قبل».

وقوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ﴾ الآية. المعنى: فسجنوه فدخل معه السجن غلامان أيضاً، وهذه «مع» تحتمل أن تكون باقتران وقت الدخول، وألا تكون بل دخلوا أفذاذاً، وروي أنهما كانا للملك الأعظم، الوليد بن الريان، أحدهما: خبَّازُه، والآخر: ساقِيه.

والفتى: الشاب، وقد تقع اللفظة على المملوك وعلى الخادم الحر، ويحتمل أن يتصف هذان بجميع ذلك، واللفظة من ذوات البياء، وقولهم: «الْفُتُوَّة»: شاذٌ، وروي أن الملك اتهمهما بأن الخابز منهما أراد سُمَّه، ووافقه على ذلك الساقى فسجنهما، قاله السدي، فلما دخل يوسف السجن استعمال الناس فيه بحسن حديثه وفضله ونبله، وكان يسألُ حزينتهم، ويعود مريضهم، ويسأل لفقيرهم، ويندبهم إلى الخير، فأحبه الفَتَيَانُ ولزمناه، وأحبه صاحب السجن والقيم عليه، وقال له: كن في أي البيوت شئت، فقال له يوسف: لا تُجِئني يرحمك الله، فلقد أدخلت عليَّ المحبة مضرات: أحببتي عمتي فامتحننت لمحببتها، وأحببني أبي فامتحننت لمحبته لي، وأحببتي امرأة العزيز فامتحننت لمحببتها بما ترى، وكان يوسف عليه السلام قد قال لأهل السجن: إني أغبُرُ الرؤيا وأجيد، فروي عن ابن

مسعود أن الفَتَيَيْنِ استعملا هذين التَمَائِنِ ليحزياه، وروي عن مجاهد أنهما رأيا ذلك حقيقة فأرادا سؤاله، فقال أحدهما واسمه «نبو» فيما روي: إني رأيت حَبَلَةً من كرم لها ثلاثة أغصان حسان، فيها عناقيد عنب حسان، فكتت أعصرها وأسقي المملك، وقال الآخر واسمه «مجلت»: كنت أرى أنني أخرج من مطبخة الملك وعلى رأسي ثلاث سلاسل فيها خبز والطيور تأكل من أعلاه.

وقوله: ﴿أَعَصِرُ خَمْراً﴾ قيل: إنه سُمِّي العنب خمرًا بالمأل، وقيل: هي لغة أزد عمان، يسمون العنب. خمرًا، وقال الأصمعي: حدثني المعتمر قال: لقيت أعرابياً يحمل عنباً في وعاء، فقلت: ما تحمل؟ قال: خمرًا، أراد العنب. وفي قراءة أبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعَصِرُ عَنبًا﴾، ويجوز أن يكون وصف الخمر بأنها معصورة، إذ العصر لها ومن أجلها.

وقوله: ﴿خَبْرًا﴾ يروى أنه رأى ثريداً فوق رأسه، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿فوق رأسي ثريداً تأكل الطير منه﴾.

وقوله: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ قال الجمهور: يريدان: في العلم، وقال الضحاک وقتادة: المعنى من المحسنين في عشرته مع أهل السجن وإجماله معهم، وقيل: أرادوا إخباره أنهما يريان له إحساناً عليهما ويداً إذا تأول لهما ما رأياه، ونحا إليه ابن إسحاق.

(٣٧) - (٣٨) تفسير قوله عز وجل:

روي عن السدي وابن إسحاق أن يوسف عليه السلام لما علم شدة تعبير منامة رائي الخبز وأنها تؤذن بقتله ذهب إلى غير ذلك من الحديث عسى ألا يطالباه بالتعبير، فقال لهما - معلماً بعظيم علمه بالتعبير -: إنه لا يجيئكما طعام في نومكما تريان أنكما رزقتما إلا أعلمتكما بتأويل ذلك الطعام، أي: بما يؤول إليه أمره في اليقظة قبل أن يظهر ذلك التأويل الذي أعلمكما به، فروي أنهما قالا: ومن أين لك ما تدعيه من العلم وأنت لست بكاهن ولا منجم؟ فقال لهما: ﴿ذَلِكُمَا مِنَّا عَلَّمَنِي رَبِّي﴾، ثم نهض ينحي لهما على الكفر ويحسن لها الإيمان بالله، فروي أنه قصد في ذلك وجهين: أحدهما: تنسيتهما أمر تعبير ما سألا عنه، إذ في ذلك النذارة بقتل أحدهما، والآخر: الطماعية في إيمانها، ليأخذ المقتول بحظه من الإيمان وتسلم له آخرته، وقال ابن جريج: أراد يوسف عليه السلام: لا يأتيكما طعام ترزقانه في اليقظة إلا نبأتكما منه بعلم، وبما يؤول إليه أمركما قبل أن يأتيكما ذلك المال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا إنما أعلمهم بأنه يعلم مغيبات لا تعلت لها برويا، وقصد بذلك أحد الوجهين المتقدمين، وهذا على ما روي أنه نبىء في السجن، فإخباره كإخبار عيسى عليه السلام، وقال ابن جريج: كانت عادة ذلك الملك إذا أراد قتل أحد ممن في سجنه بعث إليه طعاماً

بجعله علامة لقتله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله لا يقتضيه اللفظ ولا ينهض به إسناد.

وقوله: ﴿زَكَّكُ﴾ مع أنه لم يتشبه بها جائز صحيح، وذلك أنه عبر عن تجنبه من أول بالترك، وساق لفظة الترك استجلاباً لهما عسى أن يتوكأ الترك الحقيقي الذي هو بغد الأخذ في الشيء، والقوم المتروك ملتهم: الملك وأتباعه، وكرر قوله: ﴿هُمُ﴾ على جهة التأكيد، وحسن ذلك للفاصلة التي بينهما.

وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ﴾ الآية. تماد من يوسف عليه السلام في دعائهما إلى الملة الحنيفة، وزوال مواجهة «مجلت» بما تقتضيه رؤياه. وقرأ: ﴿أبائني﴾ بالإسكان في الياء، الأشهب العقيلي وأبو عمرو، وقرأ الجمهور: ﴿أبائي﴾ بياء مفتوحة، قال أبو حاتم: هما حسنتان فافراً كيف شئت، وأما طرح الهمزة فلا يجوز، ولكن تخفيفها جيد، فنصير ياء مكسورة بعدها ياء ساكنة أو مفتوحة.

وقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ملتهم وشرعهم، وكون ذلك فضلاً عليهم، بين، إذ خصهم الله تعالى بذلك، وجعلهم أنبياء، وكونه فضلاً على الناس هو إذ يدعون به إلى الدين، ويساقون إلى النجاة من عذاب الله

وَأَتَّبَعَتْ مَلَأَةً أَبَاءَ عَائِشَةَ وَوَلَّيَتْهُمُ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَلَّتْ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ يَصْحَجِي السَّجْنَ، أَرْيَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَوْ اللَّهُ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿٣٨﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْشُرَ وَءَابَاءُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ أَلْهَمَكُمْ إِلَّا اللَّهُ أَمْرًا تَعْبُدُونَهُ وَالْإِنْيَاءُ ذَلِكَ الَّذِينَ الْقَمِيمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾ يَصْحَجِي السَّجْنَ أَمَا أَحَدُكُمْ أَيَّامًا فَيَسْتَفِي رِيهَ حَمْرًا وَأَمَّا الْآخِرُ فَيُصَلِّبُ فَتَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْ رَأْسِهِ فَطُي الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ الَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَجَا مِنْهُمَا أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ السَّيْطَانُ ذَكَرَ رَبِّهِ فَلَمَّعَتْ فِي السَّجَنِ بِضَعُ سَبِينِ ﴿٤١﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَعَةَ بَعْرَتِ سِمَانَ يَأْكُلُهُنَّ سَعَةُ عَجَافٍ وَسَعَةُ سُبُلَكَيْتِ خَضِرٍ وَأَخْرَجَ يَابِسَتِ يَأْتِيهَا الْمَلَأُ أَقْتُونِي فِي رَأْيِي إِنْ كُنْتُ لِلرَّءِ بَاتَعْبُرُونَ ﴿٤٢﴾

عز وجل. وقوله: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ هي (من) الزائدة المؤكدة التي تكون مع الجحد، وقوله: ﴿لَا يَشْكُرُونَ﴾ يريد الشكر الثام الذي فيه الإيمان.

(٣٩) - (٤٢) تفسير قوله عز وجل:

وضفه لهما بـ ﴿يَصْحَجِي السَّجَنِ﴾ هو: إما على أن ينسبهما بصحبتهما للسجن من حيث سكنانه، كما قال تعالى: ﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ و﴿أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ ونحو هذا، وإما أن يريد صخبتهما له في السجن، فأضافهما إلى السجن لذلك، كأنه قال: يا صاحبي في السجن، وهذا كما قيل في الكفار: إن الأصنام شركاؤهم. وعرضه عليهما بطول أمر الأوثان بأن وصفها بالفرق، ووصف الله تعالى بالوحدة والقهر تلطف حسن وأخذ بيسير الحجة قبل كثيرها الذي ربما نفرت منه طباع الجاهل وعاندته،

وهكذا الوجه في مُحاجة الجاهل، أن يؤخذ بدرجة يسيرة من الاحتجاج يقبلها، فإذا قبلها لزمته عنها درجة أخرى فوقها، ثم كذلك أبداً حتى يصل إلى الحق، وإن أخذ الجاهل بجميع المذهب الذي يساق إليه دفعةً أباه للحين وعانده، وقد ابتلي بأرباب متفرقين من يخدم أبناء الدنيا ويؤملهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَسْمَاءَ﴾، وذهب بعض المتكلمين إلى أنه أوقع في هذه الآية الأسماء على المسميات وعبر عنها بها إذ هي ذوات أسماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والاسم الذي هو: (ألف وسين وميم) قد يجري في اللغة مجرى النفس والذات والعين، فإن حُملت الآية على ذلك صح المعنى، وليس الاسم - على هذا - بمنزلة التسمية التي هي: رجلٌ وحجر، وإن أريد بهذه الأسماء التي في الآية أسماء الأصنام التي هي بمنزلة اللات والعزى ونحو ذلك من تسميتها آلهة، فيحتمل أن يريد: إلا ذوات أسماء، وحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه. ويحتمل - وهو الراجح المختار إن شاء الله - أن يريد: ما تعبدون من دونه ألوهية، ولا لكم تعلق بآله إلا بحسب أن سميت أصنامكم آلهة، فليست عبادتكم لآله إلا باسم فقط لا بالحقيقة، وأما الحقيقة فهي وسائر الحجارة والخشب سواء، فإنما تعلق عبادتكم بحسب الاسم الذي وضعت، فذلك هو معبودكم إذا حُصل أمركم، فعبر عن هذا المعنى

باللفظ المسرود في الآية. ومن هذه الآية وهم من قال: «في قولنا: رجل وحجر»: إن الاسم هو المسمى في كل حال، وقد بانَت هذه المسألة في صدر التعليق.

ومفعول (سَمَّيْتُمْ) الثاني محذوف، تقديره: آلهة، هذا على أن الأسماء يراد بها ذوات الأصنام، وأما على المعنى المختار من أن عبادتهم إنما هي لمعان تعطيها الأسماء وليست موجودة في الأصنام؛ فقله: ﴿سَمَّيْتُمُوها﴾ بمنزلة: وضعتها، فالضمير للتسميات، وأكد الضمير ليعطف عليه.

والسلطان: الحُجَّة، وقوله: ﴿إِنَّ أَلْعَمَكُمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أي: ليس لأصنامكم التي سميتها آلهة من الحكم والأقدار والأرزاق شيء، أي: فما بالها إذن؟ ويحتمل أن يريد الرد على حُكمهم في نصبهم آلهة دون الله تعالى، وليس لهم تعدي أمر الله في ألا يُعبد غيرُه. و﴿الْقَيْمُ﴾ معناه: المستقيم، و﴿أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ لجهالتهم وغلبة الكفر.

ثم نادى ﴿بِصَاحِبِ السِّجْنِ﴾ ثانية لتجتمع أنفسهما لسماع الجواب، فروي أنه قال لبنو: أما أنت فتعود إلى مرتبتك وسقاية ريك، وقال لمجلى: أما أنت فتصلب، وذلك كله بعد ثلاث، فروي أنهما قالا له: ما رأينا شيئاً وإنما تحالمننا لنجربك، وروى أنه لم يقل ذلك إلا الذي حدثه بالصلب، وقيل: كانا رأيا ثم أنكرا.

وقرأت فرقة: ﴿فَسَقَى رَبَّهُ﴾ من سَقَى، وقرأت فرقة: ﴿فَيَسْقَى﴾ من

أسقى، وهما لغتان لمعنى واحد، وقرأ عكرمة، والجحدري: ﴿فَيَسْقَى﴾ بضم الياء وفتح القاف، أي: ما يرويه. وأخبرهما يوسف عليه السلام - عن غيب عليمه من قبل الله تعالى - أن الأمر قد قضي ووافق القدر.

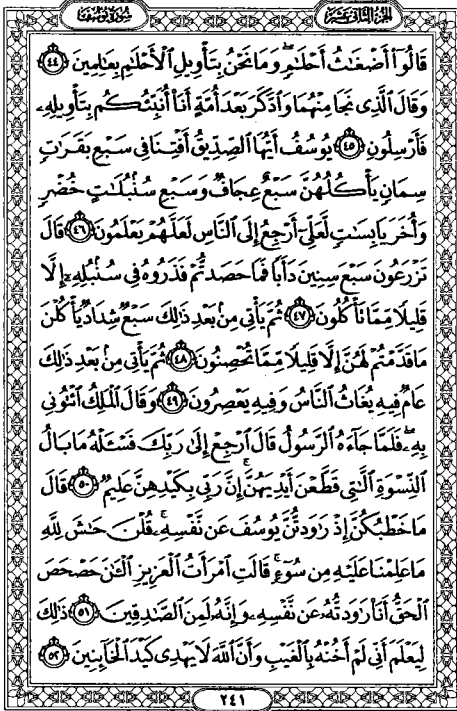
وقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ﴾ الآية. الظن هنا بمعنى اليقين، لأن ما تقدم من قوله: ﴿فَيَقِضَ الْأَمْرَ﴾ يلزم ذلك، وهو يقين فيما لم يخرج بعد إلى الوجود، وقال قتادة: الظن هنا على بابه لأن عبارة الرؤيا ظن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقول يوسف عليه السلام: ﴿فَيَقِضَ الْأَمْرَ﴾ دالٌ على وحي، ولا يترتب قول قتادة إلا بأن يكون معنى قوله: ﴿فَيَقِضَ الْأَمْرَ﴾، أي: قضي كلامي وقلت ما عندي والله أعلم بما يكون بعد.

وفي الآية تأويل آخر، وهو أن يكون ﴿ظَنَّ﴾ مستنداً إلى الذي قيل له: إنه يسقي ربه خمراً، لأنه دخلته أبهة السرور بما بُشِّر به، وصار في رتبة من يؤمل حين ظنٌ وغلب على معتقده أنه ناج، وذلك بخلاف ما نزل بالآخر المُعَرَّف بالصلب.

ومعنى الآية: قال يوسف لساقى الملك حين علم أنه سيعود إلى حاله الأولى مع الملك: اذكرني عند الملك، فيحتمل أن يريد أن يذكره بعلمه ومكانته، ويحتمل أن يذكره بمظلمته وما امتحن به بغير حق، أو يذكره بهما.

والضمير في ﴿فَأَسْنَهُ﴾ قيل: هو



سنين، فكانت مدة سجنه
اثنتي عشرة سنة، وقيل:
عوقب ببقاء سنتين، وقال
الحسن: قال
رسول الله ﷺ: «الولا
كلمته ما لبث في السجن
طول مما لبث»، ثم بكى
الحسن وقال: نحن إذا
نزل بنا أمر فزعنا إلى
الناس.

عز وجل: ﴿٤٣﴾ - ﴿٤٥﴾ تفسير قوله

المعنى: وقال الملك
الأعظم: ﴿إِنِّي أَرَىٰ﴾

يريد: في منامه، وقد جاء
ذلك مبيّناً في قوله تعالى:

﴿إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي

أَذْحِكُ﴾، وحكي حال ماضية بـ
﴿أَرَىٰ﴾ وهو مستقبل من حيث
يستقبل النظر في الرؤيا.

و ﴿سَبَّحَ بِقُرْبَتِ سَيِّدَانِ﴾، يروي أنه
قال: رأيتها خارجة من نهر،
وخرجت وراءها سبع عجاف،
فرايتها أكلت تلك السماء حتى

حصلت في بطونها، ورأى السنابل
أيضاً كما ذكر، والعجاف: التي
بلغت غاية الهزال، ومنه قول

الشاعر:

.....

ورجال مَكَّةَ مُسْتَسْتَوْنَ عَجَافٌ
ثم قال لجماعته وحاضريه: ﴿يَأْتِيهَا

الْمَلَأُ أَتَوْنِي﴾. قرأت فرقة بتحقيق
الهمزتين، وقرأت فرقة بأن لفظت

بالف ﴿أَتَوْنِي﴾ واولاً. وقوله:
﴿لِلرَّيْبِ﴾ دخلت اللام لمعنى التأكيد

والربط، وذلك أن المفعول إذا تقدم

عائد على يوسف عليه السلام، أي:
نسي في ذلك الوقت أن يشتكي
إلى الله، وجنح إلى الاعتصام
بمخلوق، فروي أن جبريل عليه
السلام جاءه فعاتبه عن الله عز وجل
في ذلك، وطوّل سجنه عقوبة على
ذلك، وقيل: أوحى إليه: يا يوسف
اتخذت من دوني وكيلاً لأطيلن
حبسك، وقيل: إن الضمير في
﴿فَأَسْنَهُ﴾ عائد على الساقى، قاله
ابن إسحاق، أي: نسي ذكر يوسف
عند ربّه، فأصاف الذكر إلى ربّه إذ
هو عنده، والرّبُّ على هذا التأويل:
الملك.

والبضع في كلام العرب اختلف
فيه؛ فالأكثر على أنه من الثلاثة إلى
العشرة، قاله ابن عباس. وعلى هذا
هو فقه مالك رحمه الله في الدعوي
والإيمان، وقال أبو عبيدة: البضع لا
يبلغ العقد ولا نصف العقد، وإنما
هو من الواحد إلى الأربعة، وقال
الأخفش: البضع من الواحد إلى
العشرة، وقال قتادة: البضع من
الثلاثة إلى التسعة، ويقوي هذا ما
روى من أن النبي ﷺ قال لأبي بكر
الصديق في قصة خطره مع قريش في
غلبة الروم لفارس: «أما علمت أن
البضع من الثلاث إلى التسع»، وقال
مجاهد: من الثلاثة إلى السبعة. قال
الفراء: ولا يذكر البضع إلا مع
العشرات، لا يذكر مع مائة ولا مع
ألف، والذي روي في هذه الآية أن
يوسف عليه السلام سجن خمس
سنين، ثم نزلت له قصة الفَتَيَيْنِ،
وعوقب على قول: ﴿أَذْكُرُنِي عِنْدَ
رَبِّكَ﴾ بالبقاء في السجن سبع

حسُن في بعض الأفعال أن تدخل
عليه لام الجر، وإذا تأخر لم يحتج
الفعل إلى ذلك، و «عبارة الرؤيا»: مأخوذة من: عبر النهر، وهو تجاوز من شط إلى شط، فكأن عابر الرؤيا يتهي إلى آخر تأويلها.

وقوله: ﴿قَالُوا أَصْنَعَتْ أَخْلِي﴾ الآية. الضمّت - في كلام العرب - أقل من الحزمة وأكثر من القبضة من النبات والعشب ونحوه، وربما كان من جنس واحد، وربما كان من أخلاط النبات، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَخَذَ يَدَا رَبِّكَ ضِعْمًا﴾، وروي أنه أخذ «عشكلاً» من النخل، وروي أن النبي ﷺ فعل نحو هذا في حدّ أقامه على رجلٍ زمنٍ، ومن ذلك قول ابن مَثْبُل:

خَوَذَ كَأَن فَرَأْسَهَا وَضَعَتْ بِهِ
أَضْعَاكَ رِيحَانٍ عُدَّةَ شَمَالٍ

ومن الأخلاط قول العرب في أمثالها: «ضَغْتُ عَلَى إِبَالَةٍ»، فيشبه اختلاط الأحلام باختلاط الجملة من النبات، والمعنى أن هذا الذي رأيت أيها الملك اختلاط من الأحلام بسبب النوم، ولسنا من أهل العلم بذلك، أي: بما هو مختلط وردية، فإنما نقوا عن أنفسهم عبر الأحلام لا عبر الرؤيا على الإطلاق، وقد قال النبي ﷺ: «الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَالْحُلْمُ مِنَ الشَّيْطَانِ»، وقال للذي كان يرى رأسه يُقَطَّعُ ثم يردّه فيرجع: «إِذَا لَعِبَ الشَّيْطَانُ بِأَحْدَاكُمُ فِي النَّوْمِ فَلَا يَحْدُثُ بِذَلِكَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالأحلام وحدثان النفس مُلغاة، والرؤيا هي التي تعبر ويلتمس علمها. والباء في قوله: «بِإِبَالَيْنِ» للتأكيد، وفي قوله: «بِتَأْوِيلِ» للتعدي، وهي متعلقة بقوله: «بِإِبَالَيْنِ».

و «الأحلام»: جمع حَلْمٍ، يقال: حَلَمَ الرَّجُلُ - بفتح اللام - يحلُمُ إذا خيل إليه في منامه، والأحلام مما أُنبتت الشريعة، وقال رسول الله ﷺ: «الرُّؤْيَا مِنَ اللَّهِ، وَهِيَ الْمُبَشِّرَةُ، وَالْحُلْمُ الْمَحْزَنُ مِنَ الشَّيْطَانِ، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيُشْفَلْ عَنْ يَسَارِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَلْيَقُلْ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّ مَا رَأَيْتَ، فَإِنَّهَا لَا تَضُرُّهُ»، وما كان عن حديث النفس في اليقظة فإنه لا يلتفت إليه.

ولما سمع الساقى الذي نجا هذه المقالة من الملك ومراجعة أصحابه تذكّر يوسف وعلمه بتأويل الأحلام والرؤى، فقال مقالته في هذه الآية.

و «وَأَذْكُرُ» أصله: أَذْكَرُ، افتعل من الذكر، قلبت التاء دالاً وأدغم الأول في الثاني، ثم بدلت دالاً غير منقوطة لقوة الدال وجلدها، وبعض العرب يقول: «أذكرك»، وقرئ: «فَهَلْ مِنْ مُذَكِّرٍ» بالنقط، و«بِإِبَالَيْنِ» على اللغتين، وقرأ جمهور الناس: «بَعْدَ أُمَّةٍ» وهي المدة من الدهر، وقرأ ابن عباس وجماعة: «بَعْدَ أُمَّةٍ» وهو النسيان، وقرأ مجاهد، وشبيل بن عَزْرَةَ: «بَعْدَ أُمَّةٍ» بسكون الميم، وهو مصدرٌ من «أُمَّةٌ» إذا نسي، وقرأ الأشهب العقيلي: «بَعْدَ إِمَّةٍ» بكسر الهمزة، والإمَّة: النعمة، والمعنى: بعد نعمة أنعمها الله على يوسف في تقريب إطلاقه وعزّته. ويقول: «وَأَذْكُرُ» يقوي قول من يقول: إن الضمير في «فَأَسْأَلُهُ» عائد على الساقى، والأمر محتمل.

وقرأ الجمهور: «أَنَا أَنْتُكُمْ»، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «أَنَا أَنْتِكُمْ»، وكذلك في مصحف أبي بن كعب، وقوله: «فَأَرْسِلُونِ» استئذان في الماضي، فقيل: كان السجن في غير مدينة الملك، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: كان فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرسم الناس اليوم سجن يوسف في موضع على النيل بينه وبين القسطنطين ثمانية أميال.

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل: المعنى: فجاء الرسول - وهو الساقى - إلى يوسف فقال له: يا يوسف، «إِنِّي أَلْصِدِّيقُ»، وسماه

صديقاً من حيث كان جرب صدقه في غير شيء، وهو بناء مبالغة من (صَدَقَ)، وسُمِّيَ أبو بكر رضي الله عنه صديقاً من «صَدَقَ» غيره، إذ مع كل تصديق صدق، فالصدق بالحقائق صادق أيضاً، وعلى هذا الأساس سُمِّيَ المؤمنون صديقين في قوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ آلَتْكَ لَهُمُ الصِّدِّيقُونَ». ثم قال: «أَتَيْنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ» أي: فيمن رأى في المنام سبع بقرات، وحكى النقاش حديثاً روى فيه أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف في السجن وبشّره بعطف الله تعالى عليه، وأخرجه من السجن، وأنه قد أحدث للملك منامة جعلها سبباً لفرج يوسف، ويروى أن الملك كان يرى سبع بقرات سمان يخرجن من النهر، وتخرج وراءها سبع عجاف، فتأكل العجاف السمان، فكان يعجب كيف غلبتها؟ وكيف وسعت السمان بطون العجاف؟ وكان يرى سبع سنبلات خضر وقد التفت بها سبع يابسات حتى كانت تغطي خضرتها فعجب أيضاً لذلك.

وقوله: «لَعَلَّهُمْ يَتْلُونَ» أي تأويل هذه الرؤيا فيزول همُّ الملك لذلك وهمُّ الناس، وقيل: لعلمهم يعلمون مكانتك من العلم وكُنْه فضلك فيكون ذلك سبباً لتخلصك.

وقوله تعالى: «فَالْزُرْعُونَ» الآية. تضمن هذا الكلام من يوسف عليه السلام ثلاثة أنواع من القول: أحدها: تعبير بالمعنى وباللفظ. والثاني: عرض رأي وأمر به وهو

قوله: ﴿فَذَرُوهُ فِي سُجُودِهِ﴾، والثالث: الإغلام بالغيب في أمر العام الثامن، قاله قتادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل هذا ألا يكون غيباً، بل علم العبارة أعطى انقطاع الجذب بعد سبع، ومعلوم أنه لا يقطعها إلا خصب شاف، كما أعطى أن النهر مثال للزمان إذ هو أشبه شيء به فجاءت البقرات مثلاً للسنين.

و ﴿دَابَّ﴾ معناه: ملازمة لعادتكم في الزراعة، ومنه قول امرئ القيس:

كَدَّابِكِ مِنْ أُمِّ الْحَوْنِ رِثٍ قَبْلَهَا
..... السبيت

وقرأ جمهور السبعة: ﴿دَابَّ﴾ بإسكان الهمزة، وقرأ عاصم وحده: ﴿دَابَّ﴾ بفتح الهمزة، وأبو عمرو يُسهّل الهمزة عند درج القراءة، وهما مثل: نَهْرٍ وَنَهْرٍ، والناصب لقوله: ﴿دَابَّ﴾ ﴿تَزْرَعُونَ﴾ عند أبي العباس المبرد، إذ في قوله: ﴿تَزْرَعُونَ﴾ ﴿تَدَابُّونَ﴾، وهي عنده مثل: ﴿قعد القرفصاء﴾، و «اشتمل الصماء»، وسيبويه يرى نصب هذا كله بفعل مضمّر من لفظ المصدر يدل عليه هذا الظاهر، كأنه قال: «تزرعون تدابون داباً».

وقوله: ﴿فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ﴾ هي إشارة برأي نبيل نافع بحسب طعام مصر وحنطتها التي لا تبقى عامين بوجه إلا بحيلة إبقائها في السنبل، فإن الحبة إذا بقيت في خبائها انحفظت، والمعنى: اتركوا الزرع في السنبل إلا ما لا غنى عنه للأكل، فيجتمع الطعام هكذا ويتركب،

ويؤكل الأقدم فالأقدم، فإذا جاءت السنون الجذبة تقوّت الناس الأقدم فالأقدم من ذلك المدخر، وأذخرو أيضاً الشيء الذي يصاب في أعوام الجذب على قلته، وحملت الأعوام بعضها بعضاً حتى يتخلص الناس، وإلى هذه السنين أشار النبي عليه الصلاة والسلام في دعائه على قريش: «اللَّهُمَّ اعْنِي عَلَيْهِمْ بِسَبْعِ كَسْبِ يَوْسُفَ»، فابتدأ ذلك بهم، ونزلت سنة حصّت كل شيء، حتى دعا لهم النبي عليه الصلاة والسلام فارتفع ذلك عنهم ولم يتماد سبع سنين، ورؤي أن يوسف عليه السلام لما خرج ووصف هذا الترتيب للملك وأعجبه أمره، قال له الملك: قد أسندت إليك تولّي هذا الأمر في الأطعمة هذه السنين المقبلة، فكان هذا أول ما ولي يوسف.

وأسند الأكل إلى السنين في قوله: ﴿يَأْكُلْنَ﴾ اتساعاً من حيث يؤكل فيها، كما قال تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مَبِيناً﴾، وكما يقال: «نهارك بطال» وليلك قائم»، وهذا كثير في كلام العرب، ويحتمل أن يُسمّى فعل الجذب وإيباس البالات أكلا، وفي الحديث: «فأصابتهم سنة حصّت كل شيء»، وقال الأعرابي في السنة: «جَمَشَتِ النَّجْمَ، وَالْحَبِيتِ اللَّحْمَ، وَأَجَجَتِ الْعَظْمَ».

و ﴿تُحْزَنُونَ﴾ معناه: تُحْرَزُونَ وتُحْزَنُونَ، قاله ابن عباس، وهو مأخوذ من الحصن، وهو الحرز والملجأ، ومنه تحصن النساء لأنه بمعنى التحرز.

وقوله تعالى: ﴿يُنَادُ﴾ جائز أن

يكون من الغيث وهو قول ابن عباس، ومجاهد، وجمهور المفسرين أي: يُمَطَّرُونَ، وجائز أن يكون من: «أغاثهم الله» إذا فرج عنهم، ومنه الغوث وهو الفرج.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿يَعْمُرُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الصاد، وقرأ حمزة، والكسائي ذلك بالتاء على المخاطبة، وقال جمهور المفسرين: هي من عُضِرَ النباتات كالزيتون والعنب والقصب والسَّمْسَمِ والفجل وجميع ما يُعَصَّر، ومَصْرٌ بلد عُضِرَ لأشياء كثيرة، وروي أنهم لم يعصروا شيئاً مدة الجذب، والحلب منه لأنه عصر للضرع، وقال أبو عبيدة وغيره: ذلك مأخوذ من العُضْرَةِ والعُضْر وهو الملجأ، ومنه قول أبي زيد في عثمان رضي الله عنه:

صَادِباً يَسْتَنْفِيْتُ غَيْرَ مُعَاتٍ
ولقد كان عُضْرَةَ المنجود
ومنه قول عدي بن زيد:

لَوْ بَغَيْرِ الْمَاءِ خَلَقِي شَرِقٍ
كُنْتُ كَالْعُضْصَانِ بِالْمَاءِ اغْتِصَارِي
ومنه قول ابن مقبل:

وَصَاحِبِي وَهُوَ مُسْتَوْهَلٌ زَعَلٌ
يَحُولُ بَيْنَ جِمَارِ الْوُحْشِ وَالْعُضْرِ
ومنه قول لبيد:

فَبَاتَ وَأَسْرَى الْقَوْمِ آخِرَ لَيْلِهِمْ
وما كان وَقَافاً يَبْغِي مُعَصِّرِ
أي: بغير ملتجئ، فالآية على معنى: يتجون بالعضرة.

وقرأ الأعرج، وعيسى، وجعفر بن محمد: ﴿يُعْمَرُونَ﴾ بضم الياء وفتح الصاد، وهذا مأخوذ من العصرة،

أي: يؤتون بعصرة، ويحتمل أن يكون من: عَصْرَتِ السحاب ماءها عليهم، قال ابن المستنير: معناها: يُمَطَّرُونَ، وحكى النقاش أنه قُرِيء: ﴿يُعْصِرُونَ﴾ بضم الياء وكسر الصاد وشذها وجعلها من عصر الليل، ورد الطبري على من جعل اللفظة من العُصْرَة رداً كثيراً بغير حجة. ﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

في تضاعيف هذه الآية محذوفات يعطيها ظاهر الكلام ويدل عليها، والمعنى هنا: فرجع الرسول إلى الملأ والملك فقص عليهم مقالة يوسف، فرأى الملك وحاضروه نبيل التعبير وحسن الرأي وتضمن الغيب في أمر العام الثامن، مع ما وصفه به الرسول من الصدق في المنامة المتقدمة، فعظم يوسف في نفس الملك، وقال: ﴿أَتَتُونِي بِدُؤْمٍ﴾، فلما وصل الرسول في إخراجه إليه وقال: إن الملك قد أمر بأن تخرج فقال له: ﴿أَنْجِعْ لِي رَيْبَكَ﴾ أي الملك وقل له: ﴿مَا بَالُ الْيَسْوَةِ﴾ ومقصد يوسف عليه السلام إنما كان: وقل له يستقصي عن ذنبي وينظر في أمري، هل سجننت بحق أو بظلم؟ فرسم قصته بطرف منها إذا وقع النظر عليه بأن الأمر كله، ونكب عن ذكر امرأة العزيز حسن عشرة ورعاية لزمأم الملك العزيز له.

وقرأ أبو بكر عن عاصم، وأبو حية: ﴿الْيَسْوَةُ﴾ بضم النون، وقرأ الباقون: ﴿الْيَسْوَةُ﴾ بكسر النون، وهما لغتان في تكسير «نساء» الذي هو اسم جمع لا واحد له من لفظه، وقرأت فرقة: ﴿الْيَلَامِي﴾ بالياء،

وقرأت فرقة: ﴿الْيَتِي﴾ بالتاء، وكلاهما جمع «التي».

وكان هذا الفعل من يوسف عليه السلام أنأة وصبراً وطلباً لبراءة الساحة، وذلك أنه - فيما روي - خشي أن يخرج وينال من الملك مرتبة ويسكت عن أمر ذنبه صفحاً، فيراه الناس بتلك العين أبداً، ويقولون: هذا الذي راود امرأة مولاه، فأراد يوسف عليه السلام أن تبين براءته وتحقق منزلته من العفة والخير وحينئذ يخرج للأخطاء والمنزلة. وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «يرحم الله أخي يوسف، لقد كان صابراً حليماً، ولو لبثت في السجن لبثته لأجبت الداعي ولم ألتمس العذر حينئذ»، وروي نحو هذا الحديث من طريق عبد الرحمن بن القاسم صاحب مالك في كتاب التفسير من صحيح البخاري، وليس لابن القاسم في الديوان غيره.

وهنا اعتراض ينبغي أن ينفصل عنه، وذلك أن النبي ﷺ إنما ذكر هذا الكلام على جهة المدح ليوسف، فما باله هو يذهب بنفسه عن حالة قد مدح بها غيره؟ فالوجه في ذلك أن النبي ﷺ إنما أخذ لنفسه وجهاً آخر من الرأي له جهة أيضاً من الجودة، أي: لو كنت أنا لبادرت بالخروج ثم حاولت بيان عذري بعد ذلك، وذلك أن هذه القصص والنوازل إنما هي معرضة ليقنتي بها الناس إلى يوم القيامة، فأراد رسول الله ﷺ حمل الناس على الأحزم من الأمور، وذلك أن

المتعرق في مثل هذه النازلة التارك فرصة الخروج من مثل ذلك السجن ربما ينتج له من ذلك البقاء في سجنه، وانصرفت نفس مخرجه عنه، وإن كان يوسف عليه السلام أين من ذلك بعلمه من الله فغيره من الناس لا يأمن ذلك، فالحالة التي ذهب إليها النبي ﷺ بنفسه حالة حزم ومدح، وما فعله يوسف عليه السلام صبر عظيم وجلد.

وقوله: ﴿إِنَّ رَبِّي يَكْفِيهِمْ عَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يريد بالرب الله عز وجل، وفي الآية وعيد - على هذا - وتهديد، ويحتمل أن يريد بالرب العزيز مولاه، ففي ذلك استشهاد به وتقرع له. والضمير في ﴿كَيْدَهُنَّ﴾ للنسوة المذكورات لا للجنس لأنها حالة توقيف على ذنب.

﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فجمع الملك النسوة وامرأة العزيز معهن، وقال لهن: ﴿مَا كَفَّيْكُنَّ﴾ الآية، أي: أي شيء كانت قصتكن؟ فهو استدعاء منه أن يعلمنه القصة، فجاوب النساء بجواب جيد تظهر منه براءة أنفسهن جملة، وأعطين يوسف بعض براءة، وذلك أن الملك لما قرّر لهن أنهن راودته قلن - جواباً عن ذلك -: ﴿حَسَنٌ لِلَّهِ﴾، وقد يحتمل - على بعد - أن يكون قولهن: ﴿حَسَنٌ لِلَّهِ﴾ في جهة يوسف عليه السلام، وقولهن: ﴿مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِنَّ مِنْ سُوءٍ﴾ ليس بإبراء تام، وإنما كان الإبراء التام وصف القصة على وجهها حتى يتقرر الخطأ في جهتهن، ولو قلن: «ما علمنا عليه إلا خيراً» لكان أدخل في التبرئة،

﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي أَنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشَّرِّ إِنْ أَمَرَ حَمْدٌ ﴾
 ﴿ وَإِنْ رَدِّيْ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ قَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِي بِدِينِ اسْتِخْلَافِهِ
 نَفْسِي قُلْنَا كَلِمَةً قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿ قَالَ
 أَجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَوِيضٌ عَلَيْكَ ﴿ وَكَذَلِكَ
 مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ أَيَّتُمْ يَشَاءُ فَصَدِيقُ
 بَرِحْمِيئًا مِّنْ نَّسَاءِ وَلَا تَضِيعُ أَمْرُ الْمُحْسِنِينَ ﴿ وَلَا جَبْرُ
 الْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿ وَجَاءَتْ إِخْوَتُهُ
 يُوسُفَ فَمَا حَلَّوْا عَلَيْهِ فَعَرَفُوهُ وَهُمْ لَمُسْكِرُونَ ﴿ وَلَمَّا
 جَهَرُوا بِهِمْ يَجْحَازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتِي بِأَجْرٍ مِّنْ أَيْدِيكُمْ أَلَا تَتُورُونَ
 أَنْ أَوْفَى الْكَيْلِ وَأَنَّا عَمِلُوكُمُ الْيَوْمَ ﴿ فَإِنْ لَّمْ تَأْتُوا بِهِ فَلَا
 كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونَنِي ﴿ قَالُوا سَوَدُّ وَعْدُهُ آبَاءَهُ
 وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿ وَقَالَ لِيُوسُفَ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ
 لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿
 ﴿ لَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ قَالُوا يَا بَنَاتِنَا مَنَعَ مِنَّا الْكَيْلُ
 فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَنَانًا فَكَفَّلُوا لَنَا اللَّهُ لِيَحْفَظُونَا ﴿

٢٤٢

أي: هذا ليُعلم سيدي أنني لم أخنه، وقال بعضهم: إنما قال يوسف هذه المقالة حين قالت امرأة العزيز كلامها إلى قولها: ﴿ وَإِنَّهُ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾، فالإشارة - على هذا - إلى إقرارها وصنيع الله تعالى فيه، وهذا يضعف لأنه يقتضي حضوره مع النسوة عند الملك، وبعد هذا يقول الملك: ﴿ أَتُؤْتِي بِدِينِ ﴾.

وقالت فرقة من أهل التأويل: هذه الآية من قول امرأة العزيز، وكلامها متصل، أي: قولي هذا

وقد بوب البخاري على هذه الألفاظ على أنها تزكية، وأدخل قول أسامة ابن زيد في حديث الإفك: «أهلك ولا نعلم إلا خيراً»، وأما مالك رحمه الله فلا يقنع بهذا في تزكية الشاهد، لأنه ليس بإثبات العدالة.

قال بعض المفسرين: فلما سمعت زوجة العزيز مقالاتهن وحيدتهن عن الوقوع في الخزي حضرتها نيفة وتحقيق فقالت: ﴿ الْكَيْلُ حَصَصَ الْحَقَّ ﴾. و﴿ حَصَصَ ﴾ معناه: تبين بعد خفائه، كذا قال الخليل وغيره، وقيل: مأخوذة من الحصّة، أي بانت حصته من حصّة الباطل، ثم أقرت على نفسها بالمرادة، والتزمت الذنب، وأبرأت يوسف البراءة التامة.

﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال جماعة من أهل التأويل: هذه المقالة هي من يوسف عليه السلام، أي: ذلك ليُعلم العزيز سيدي أنني لم أخنه في أهله وهو غائب، وليُعلم أيضاً أن الله تعالى لا يهدي كيد خائن ولا يرشد سعيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والهدى للكيد مستعار، بمعنى: لا يكمله ولا يعضيه على طريق إصابة، ورُبُّ كَيْدٍ مَهْدِيٌّ إِذَا كَانَ مِنَ تَقِيٍّ فِي مصلحة.

واختلفت هذه الجماعة فقال ابن جريج: هذه المقالة من يوسف عليه السلام هي متصلة بقوله للرسول: ﴿ إِنَّ رَبِّي يَكْفِيهِنَّ عِلْمٌ ﴾ وفي الكلام تقديم وتأخير، فالإشارة بقوله: ﴿ ذَلِكَ ﴾ - على هذا التأويل - هي إلى بقاءه في السجن والتماسه البراءة،

وروي أن المرأة قالت له ذلك، قاله السدي، وروي أن يوسف تذكر من تلقائه ما كان هم به فقال: ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي إِنْ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالشَّرِّ ﴾، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً.

ومن قال: «إن المرأة قالت: ﴿ وَمَا أُبْرِيئُ نَفْسِي ﴾» فوجه كلامها الاعتذار عن وقوعها فيما يقع فيه البشر من الشهوات، كأنها قالت: وما هذا ببدع ولا ذلك بنكير على البشر فأبْرِيئُ أَنَا مِنْهُ نَفْسِي، والنفس أمارات بالسوء مائلة إليه.

و﴿ لَأَمَّارَةٌ ﴾ بناء مبالغة، و [ما] في قوله: ﴿ إِلَّا مَا رَجَعُ ﴾ مصدرية، هذا قول الجمهور فيها، وهو - على هذا - استثناء منقطع، أي: إلا رحمة ربي. ويجوز أن تكون بمعنى «من»، وهذا على أن تكون ﴿ النَّفْسُ ﴾ يراد

وإقراره ليُعلم يوسف أنني لم أخنه في غيبته بأن أكذب عليه أو أرميه بذنوب وهو بريء منه، والتقدير - على هذا التأويل -: توتيتي وإقراره ليُعلم أنني لم أخنه بالغيب وأن الله لا يهدي... وعلى أن الكلام من يوسف يجيء التقدير: وليُعلم أن الله لا يهدي كيد الخائنين.

﴿٥٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه أيضاً مختلف فيها - هل هي من كلام يوسف أم من كلام المرأة حسب التي قبلها؟

فمن قال: «من كلام يوسف»، روى في ذلك عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «لما قال يوسف: ﴿ أَنِّي لَمَ أَخُنَّ بِالنَّيْبِ ﴾ قال له جبريل: «ولا حين هممت وحللت سراويلك؟»، وقال نحوه ابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، والضحاك.

بها النفوس، إذ النفس تجري صفة لمن يعقل كالعين والسمع، كذا قال أبو علي، فتقدير الآية: إلا النفوس التي يرحمها الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا ﴿الْفَنَسُ﴾ اسم جنس، فصح أن تقع «ما» مكان «مَنْ» إذ هي كذلك في صفات من يعقل وفي أجناسه، وهو نص في كلام المبرد، وهو - عندي - معنى كلام سيبويه، وهو مذهب أبي علي، ذكره في «البتديات».

ويجوز أن تكون [ما] ظرفية، والمعنى: إن النفس لأثمارة بالسوء إلا مدة رحمة الله العبد وذهابه عن اشتها المعاصي.

ثم ترجى في آخر الآية بقوله: ﴿إِنَّ رَبِّيَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

٥٤ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: إن الملك لما تبينت له براة يوسف مما نسب إليه، وتحقق في القصة أمانته، وفهم أيضاً صبره وجلده - عظمت منزلته عنده، وتيقن حسن خلاله فقال: ﴿أَتُوْنِي بِهِ﴾ أَسْتَحْلِيضُهُ لِنَفْسِي. وهذا السذي أم يوسف عليه السلام - بَتَّبَعْتِي فِي السُّجُنِ - أن يرتقي إلى أعلى المنازل، فتأمل أن الملك قال أولاً - حين تحقق علمه -: ﴿أَتُوْنِي بِهِ﴾ فقط، فلما فعل يوسف ما فعل، فظهرت أمانته وصبره وعلو همته وجودة نظره قال: ﴿أَتُوْنِي بِهِ﴾ أَسْتَحْلِيضُهُ لِنَفْسِي، فلما جاءه وكلمه قال: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَبْكِيْنٌ أُوْبِيْنٌ﴾، فدل ذلك على أنه رأى من كلامه وحسن منطق ما صدق به الخبر أو

أزبى عليه، إذ المرء مخبوء تحت لسانه، ثم لما زاول الأعمال مشى القَدِيْمَةَ حتى ولي خطة العزيز.

و ﴿أُوْبِيْنٌ﴾ من الأمانة، وقالت فرقة: هو بمعنى أَمِيْنٌ. وهذا ضعيف، لأنه يخرج من نمط الكلام، وينحط إكرام يوسف كثيراً.

ويروى أن الملك لما أدنى يوسف قال له: إني أشارك في كل شيء إلا أني أحب ألا تشاركني في أهلي، وألا تأكل عندي، فقال له يوسف: أتأنف أن أكل معك؟ أنا أحق أن

آنف، أنا ابن إبراهيم الخليل، وابن إسحق الذبيح، وابن يعقوب الصديق، وفي هذا الحديث بُعْدُ وضعف. وقد قال ابن ميسرة: إنما جرى هذا في أول أمره، كان يأكل مع العزيز، فلما جرت قصة المرأة قالت للعزيز: أتدع هذا يؤاكلك؟ فقال له: اذهب فكل مع العبيد، فأنف وقال ما تقدم. أما إن الظاهر من قصته وقت محاوراة الملك أنه كان على عبودية، وإلا كان اللائق به أن يَتَنَحَّى بنفسه عن عمل الكافر، لأن القوم كانوا أهل أوثان، ومحاوراة يوسف لصاحبي السجن تقضي بذلك.

وسمى الله تعالى فرعون مصر ملكاً إذ هي حكاية اسم مضي حكمه وتصرم زمنه، ولو كان حياً لكان حكماً له إذا قيل لكافر: «ملك أو أمير»، ولهذا كتب النبي ﷺ إلى هرقل فقال: «عظيم الروم»، ولم يقل: ملكاً أو أميراً، لأن ذلك حكم، والحق أن يسلم ويسلموا، وأما كونه عظيمهم فتلك صفة لا

تفارقه كيفما تقلب، ولو كتب له النبي ﷺ: «أمير الروم» لتمسك بتلك الحجة على نحو تمسك زياد في قوله: «شهد - والله - لي أبو الحسن».

وقوله تعالى: ﴿أَجْمَعْنَ عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ﴾ الآية. فهم يوسف عليه السلام من الملك أنه على تصرفه والاستعانة بنظره في الملك، فألقى يده في الفعل الذي يمكنه فيه المغدلة، ويترتب له الإحسان إلى من يجب، ووضع الحق على أهله وعند أهله.

قال بعض أهل التأويل: في هذه الآية ما يُبَيِّن للرجل الفاضل أن يعمل للرجل الفاجر بشرط أن يعلم أنه يفوض إليه في فعل ما لا يعارض فيه، فيصلح منه ما يشاء، وأما إن كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهوته وفجوره فلا يجوز له ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطلب يوسف للعمل إنما هي حسيبة منه عليه السلام لرغبته في أن يقع العدل، ونحو هذا هو دخول أبي بكر الصديق في الخلافة مع نهيه المستشار له من الأنصار أن يتأمر على اثنين، الحديث بكامله، فجانز للفاضل أن يعمل وأن يطلب العمل إذا رأى ألا عَوْضَ منه، وجائز أيضاً للمرء أن يشي على نفسه بالحق إذا جهل أمره.

والخزائن لفظ عام لجميع ما تختزنه المملكة من طعام ومال وغيره، و ﴿حَاطِطٌ عَلَيْهِ﴾ صفتان تعم وجوه التشريف والحيطه لا خلل معهما لعامل، وقد خصص الناس بهاتين

الصفيتين أشياء مثل قولهم: حفيظ بالحساب عليم بالألسن، وقول بعضهم: حفيظ لما استودعني عليم بسني الجوع، وهذا كله تخصيص لا وجه له، وإنما أراد باتصافه أن يعرف الملك بالوجه الذي به يستحق الكون على خزائن الأرض، فاتصف بأنه يحفظ المُخْبَى من كل جهة تحتاج إلى الحفظ، ويعلم التناول أجمع، ورؤي عن مالك بن أنس أنه قال: «مصر خزانة الأرض»، واحتج بهذه الآية. وقوله: ﴿خَزَائِنَ الْأَرْضِ﴾ يريد أرض مصر إذ لم تكن مملكة فرعون إلا بها فقط، ويؤكد أن تسمى خزانة الأرض بصيتها في بلاد الأرض وتوسطها، فمنها ينتقل الناس إلى أقطار الأرض، وهي محل كل جالب.

وقوله تعالى: ﴿رَكَدَكَ مَكَّنًا لِيُؤَسِّفَ﴾ الآية. الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى ما تقدم من جميل صنع الله به، أي: ولهذه الأفعال المنصوصة درجناه في الرتب ونقلناه فمكنا له في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فروي أن العزيز مات في تلك الليالي، وقال ابن إسحق: بل عزله الملك، ثم مات قظفير فولاه الملك مكانه وزوجه زوجته، فلما دخلت عليه عروساً قال لها: أليس هذا خيراً مما كنت أردت؟ فقالت له: أيها الصديق، كنت في غاية الجمال وكنت شابة عذراء، وكان زوجي لا يظأ، فغلبتني نفسي في حبك، فدخل يوسف بها فوجدها بكرأ، وولدت له ولدين، ورؤي أن الملك

عزل العزيز وولاه موضعه، ثم عظم مُلك يوسف وتغلب على حال الملك أجمع، قال مجاهد: وأسلم الملك آخر أمره، ودرّس أمر العزيز وذهبت دنياه ومات وافتقرت زوجته وزمنت وشاخت، فلما كان في بعض الأيام لقيت يوسف في طريق والجنود حوله ووراءه، وعلى رأسه بنود مكتوب عليها ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعِيَ وَسُخِنَ اللَّهُ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، فصاحت به وقالت: سبحان من أعز العبيد بالطاعة، وأذل الأرباب بالمعصية، فعرّفها، وقالت له: تعطف علي وارزقني شيئاً فدعاها وكلمها، وأشفق لحالها، ودعا الله تعالى فردّ عليها جمالها وتزوجها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورؤي في نحو هذا من القصص ما لا يوقف على صحته، ويطول الكلام بسوقه.

وقرأ الجمهور: ﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ على الإخبار عن يوسف، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿حَيْثُ نَشَاءُ﴾ بالنون على ضمير المتكلم، أي حيث يشاء الله من تصرف يوسف على اختلاف تصرفه، وحكى أبو حاتم هذه القراءة عن الحسن، وشيبة، ونافع، وأبي جعفر - بخلاف عن الثلاثة المدنيين - قال أبو علي: إما أن يكون تقدير هذه القراءة: «حيث يشاء من المحارِبِ والمتعبِدة»، وأحوال الطاعات قُرْبُ يريدُها الله تبارك وتعالى ويشاؤها، وإما أن يكون معناها: «حيث يشاء يوسف»،

لكن أضاف الله عز وجل المشيئة التي ليوسف إليه من حيث هو عبد من عبيده، وكانت مشيئته بقوة الله تعالى وقدرته، كما قال: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله من أبي علي نزعة اعتزالية وتحفظ من أن أفعال العباد من فاعلين، فتأمله.

واللام في قوله: ﴿مَكَّنًا لِيُؤَسِّفَ﴾ يجوز أن تكون على حد التي في قوله تعالى: ﴿رَدِّفْ لَكُمْ﴾، و﴿لِلرَّيْبِا تَمَبَّرُونَ﴾ وقوله: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ في موضع نصب على الحال، و﴿حَيْثُ يَشَاءُ﴾ نصب على الظرف، أو على المفعول به، كما قال الشماخ:

.....
..... حيثُ تُكْوَى السَّوَاجِرُ
وباقى الآية بين.

ولما تقدم في هذه الآية أن الإحسان من العبد والجري على طريق الحق لا يضيع عند الله، ولا بُد من حُسن عاقبته في الدنيا - أعقب ذلك بأن حال الآخرة أحمد، وأحرى أن يُجعل غرضاً ومقصداً، وهذا هو الذي ينتزع من الآية بحسب التقيد بين الإيمان والتقوى من الناس، وفيها - مع ذلك - إشارة إلى أن حاله من الآخرة خير من حاله العظيمة في الدنيا.

٥٨ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل: قال السدي وغيره: سبب مجيئهم أن المجاعة التي أنذر بها يوسف أصابت البلاد التي كان بها يعقوب، ورؤي أنه كان في العربات من أرض فلسطين بغور الشام، وقيل: كان

بالأدلاج من ناحية الشعب، وكان صاحب بادية، له إبل وشاة، فأصابهم الجوع، وكان أهل مصر قد استعدوا وادخروا من السنين الخصبية، فكان الناس يمتارون من عند يوسف وهو في رتبة العزيز المتقدم، وكان لا يعطي الوارد أكثر من حمل بعير، يُسوي بين الناس، فلما ورد إخوته عرفهم يوسف عليه السلام ولم يعرفوه هم لبعد العهد وتغير سنه، ولم يقع لهم - بسبب ملكه ولسانه القبطي - ظن عليه، ورؤي في بعض القصص أنه لما عرفهم أراد أن يُخبروه بجميع أمرهم، فباحثهم بأن قال لهم (بترجمان): أظنكم جواسيس، فاحتاجوا حينئذ إلى التعريف بأنفسهم فقالوا: نحن أبناء رجل صديق، وكنا اثني عشر، ذهب واحد منا في البرية، وبقي أصغرنا عند أبينا، وجئنا نحن للميرة، وسقنا بعير الباقي منا، وكانوا عشرة ولهم أحد عشر بعيراً، فقال لهم يوسف: ولم تخلف أخوكم؟ قالوا: لمحبة أبينا فيه، قال: فافتنوني بهذا الأخ حتى أعلم حقيقة قولكم، وأرى: لم أحبه أبوكم أكثر منكم إن كنتم صادقين. ورؤي في القصص أنهم وردوا مصر، واستأذنوا على العزيز وانتسبوا في الاستئذان، فعرفهم وأمر بإنزالهم، وأدخلهم في ثاني يوم على هيئة عظيمة لملكه وأبيه شيقة، ورؤي أنه كان متلثماً أبداً سترأ لجماله، وأنه كان يأخذ الصواع فينقره، ويفهم من طنينه صدق ما يُحدّث به أو كذبه، فسُئلوا عن

أخبارهم، فكلما صدقوا قال لهم يوسف: صدقتم، فلما قالوا: وكان لنا أخ أكله الذئب طنّ يوسف الصواع وقال: كذبتم، ثم تغير لهم وقال: أراكم جواسيس، وكلفهم سوق الأخ الباقي ليظهر صدقهم. وفي ذلك قصص طويل جاءت الإشارة إليه في القرآن وجيزة.

والجهاز: ما يحتاج إليه المسافر من زاد ومتاع وكل ما يحمل، وكذلك جهاز العروس وجهاز الميت.

وقول يوسف عليه السلام: ﴿آلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ﴾ الآية. يرغبهم في نفسه آخرأ ويؤنسهم ويستميلهم، ﴿وَالْمُزِيلِينَ﴾: يعني المُضيفين في قُطره ووقته. والجهاز المشار إليه: الطعام الذي كان حمله لهم، ثم توعدهم إن لم يجيئوا بالأخ بأنه لا يكيل لهم عنده في المستأنف، وأمرهم ألا يقربوا له بلداً ولا طاعة، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ نهي لفظاً ومعنى، ويجوز أن يكون لفظه الخبر ومعناه النهي، وتحذف إحدى النونين، كما قرئ: ﴿فِيمَ تُبْشِرُونَ﴾ بكسر النون، وهذا خبر لا غير، وخلط النحاس في هذا الموضع، وقال مالك رحمه الله: هذه الآية - وما يليها - تقتضي أن كيل الطعام على البائع، وكذلك هي الرواية في الشركة والتولية أنها بمنزلة البيع، والرواية في القرض أن الكيل على المستقرض، ورؤي أنه حبس منهم شمعون رهينة حتى يجيئوه ببنيامين، قاله السدي، ورؤي أنه لم يحبس منهم أحداً، ورؤي عن النبي ﷺ أنه قال: «كان يوسف يلقي حصاة في

إناء فضة مخوص بالذهب فيطن، فيقول لهم: إن هذا الإناء يخبرني أن لكم أبا شيخاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنها حيلة وإيهام لهم، ورؤي أن ذلك الإناء به كان يكيل الطعام إظهاراً لعزته بحسب غلاته في تلك المدة، ورؤي أن يوسف عليه السلام استوفى في تلك السنين أموال الناس ثم أملاكهم، فمن هناك ليس لأحد في أرض مصر ومزارعها ملك، وظاهر كل ما فعله يوسف معهم أنه بوحى وأمر، وإلا فكان برُّ يعقوب يقتضي أن يبادر إليه ويستدعيه، لكن الله تبارك وتعالى أعلمه بما يصنع ليكمل أجر يعقوب ومحنته وتفسر الرؤيا الأولى.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم معنى «المراودة»، أي: سنفائل أباه في أن يتركه يأتي معنا إليك، ثم شدّدوا هذه المقالة بأن التزموها لهم في قولهم: ﴿رَبَّنَا كَتِّمْنَا﴾، وأراد يوسف عليه السلام المبالغة في استمالتهم بأن ردّ مال كل واحد منهم في رحله بين طعامه، وأمر بذلك فتيانه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿لِفَتْنَيْهِ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لِفِتْنَائِهِ﴾، واختلف عن عاصم، ففتيان للكثرة - على مراعاة المأمورين، وفتية للقلّة - على مراعاة الوصف للحر والعبد، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وقال لفتيانه وهو يكاليهم﴾.

وقوله: ﴿لَمَّا هَمَّ بِمِرْيَتِهَا﴾ يريد:

وقولهم: ﴿مُنِعَ بِنَا﴾
ظاهره أنهم أشاروا إلى
قوله: ﴿فَلَا كَيْلَ لَكُمْ﴾
عندي ﴿فَهُوَ مُنِعَ فِي﴾
المستأنف، وقيل: أشاروا
إلى بغير يامين الذي لم
يَمْتَر، والأول أرجح، ثم
تضمنوا له حفظه وحيطته.

١٦ - ١٧ ﴿تفسير قوله عز وجل﴾:

قوله: ﴿مَلَّ﴾ توقيف
وتقرير، وتالم يعقوب
عليه السلام من فرقة
يامين، ولم يصرح بمنعهم
من حمله لما رأى في
ذلك من المصلحة، لكنه
أعلمهم بقلة طمأنينته

إليهم، وأنه يخاف عليه من كيدهم،
ولكن ظاهر أمرهم أنهم كانوا ثبوا
وانتقلت حالهم فلم يخف مثل ما
خاف على يوسف من قبل، لكن
أعلم بأن في نفسه شيئاً ثم
استسلم لله تعالى، بخلاف عبارته في
قصة يوسف.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي
بكر -: ﴿خَيْرٌ حِفْظًا﴾، وقرأ حمزة،
والكسائي، وحفص - عن عاصم -:
﴿خَيْرٌ حِفْظًا﴾ ونصب ذلك - في
القرءاتين - على التمييز، وقال
الزجاج: يجوز أن ينصب ﴿حِفْظًا﴾
على الحال، وضعف ذلك أبو علي
الفارسي، لأنها حال لا بُد للكلام
والمعنى منها، وذلك بخلاف شرط
الحال، وإنما المعنى أن حافظ الله
خير من حافظكم، ومن قرأ:

لعلمهم يعرفون لها بدأ أو تكريمة يرون
حقها فيرغبون فينا فلعلمهم يرجعون
حينئذ، وأما مَيِّزُ البضاعة فلا يقال
فيه: «لَعَلَّ»، وقيل: قصد يوسف
بِرْدُ البضاعة أن يخرجوا من أخذ
الطعام بلا ثمن فيرجعوا لدفع الثمن،
وهذا ضعيف من وجوه، وسرورهم
بالبضاعة وقولهم: ﴿هَدِيَهُ بَضَعْنَا
رَدَّتْ إِلَيْنَا﴾ يكشف أن يوسف عليه
السلام لم يقصد هذا، وإنما قصد أن
يستميلهم ويصلبهم فيرغبهم في نفسه
كالذي كان. وحض البضاعة دون أن
يعطيهم غيرها من الأموال لأنها أوقع
في نفوسهم، إذ يعرفون حلها، وماله
هو وإنما كان عندهم ما لا مجهول
الحال، غايته أن يُسْتَجَازَ على نحو
استجارتهم قبول الميرة، ويظهر أن
ما فعل يوسف من صلتهم وجبرهم
في تلك الشدة كان واجباً عليه، إذ
هو ملك عدل، وهم أهل إيمان
ونبوة. وقيل: علم عدم البضاعة
والدراهم عند أبيه فرد البضاعة إليهم
لثلا يمنعهم العدم من الانصراف
إليه، وقيل: جعلها توطئة لجعل
السقاية في رحل أخيه بعد ذلك ليبيِّن
أنه لم يسرق لمن يتأمل القصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والظاهر من القصة أنه أراد
الاستلاف وصلة الرحم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
وعاصم، وابن عامر: ﴿نَكْتَلُ﴾
بالنون على مراعاة: ﴿مُنِعَ بِنَا﴾،
ويقويه: ﴿وَيَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ و﴿وَرَزَدَادُ﴾،
وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَكْتَلُ﴾
بالياء، أي: يكتل يامين كما ائكتنا،
وأصل «نكتل»: نكتيل، وزنه نقتعل.

قَالَ هَلْ أَمِنَكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ
قَبْلِ اللَّهِ خَيْرٌ حِفْظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٦﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا
مَعَهُمْ وَجَدُوا بِضَعَتَهُمْ رَدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا بَنَا
مَائِي هَلْ هَدِيَهُ بَضَعْنَا رَدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَحِفْظٌ
أَخَانَا وَرَزَدَادٌ كَيْلٌ بَعِيرٌ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿١٧﴾ قَالَ لَنْ
أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُوا مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنِّي بِهِ إِلَى
أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ
﴿١٨﴾ وَقَالَ يَسْبِي لَأَنْدَحُلُوا مِنْ أَبِي وَجِدْرٍ وَأَدْحُلُوا مِنْ أَبِي
مُنْقَرِفَةً وَمَا غَفَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ وَإِنْ لَأُنْكَرَنَّ مِنَ اللَّهِ
عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَمَّا
دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ
مِنْ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ
لُدَّوْعٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ
﴿٢٠﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَىٰ أَخِيهِ قَالَ
إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئَسْ بِمَا كَانَ أَوْ يَعْملُونَ ﴿٢١﴾

﴿حِفْظًا﴾ فهو مع قولهم: ﴿وَحِفْظٌ﴾
أَخَانًا، ومن قرأ: ﴿حَافِظًا﴾ فهو مع
قولهم: ﴿وَرِئًا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾،
فاستسلم يعقوب عليه السلام لله
وتوكل عليه، قال أبو عمرو الداني:
قرأ ابن مسعود: ﴿فَالله خَيْرُ حَافِظٍ﴾
وهو خير الحافظين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي هذا بُعد.

وقوله: ﴿فَتَحُوا مَعَهُمْ﴾ سُمِّيَ
المشدد المربوط بجملته متاعاً
فلذلك حَسَنُ الفتح فيه، وقرأ جمهور
الناس: ﴿رَدَّتْ﴾ بضم الراء على
اللغة الفاشية عند العرب، وتليها لغة
من يُبِش، وتليها لغة من يكسر، وقرأ
علقمة، ويحيى بن وثاب: ﴿رَدَّتْ﴾
بكسر الراء على لغة من يكسر، وهي
في بني ضبَّه، قال أبو الفتح: وأما
المعتل نحو قيل وبيع فالفاشي فيه

الكسر، ثم الإشمام، ثم الضم، فيقولون: قَوْلٌ وَيُوعُ، وأشدُّ ثعلب:

وَقَوْلٌ لَا أَفْلَلَ لَهُ وَلَا مَانَ
قال الزجاج: من قرأ: ﴿رِدَّتْ﴾
بكسر الراء جعلها منقولة من الدال،
كما فعل في قيل وبيع لِتَدُلُّ على أن
أصل الدال الكسرة.

وقوله: ﴿مَا تَبَيَّنَى﴾ يحتمل أن تكون
﴿مَا﴾ استفهاماً، قاله قتادة،
و﴿تَبَيَّنَى﴾ من التَّبَيَّنَى، أي: ما نطلب
بعد هذه التكرمة؟ هذا ما لئنا رُدُّ إلينا
مع ميرتنا. قال الزجاج: ويحتمل أن
تكون ﴿مَا﴾ نافية، أي: ما بقي لنا ما
نطلب، ويحتمل أيضاً أن تكون نافية
و﴿تَبَيَّنَى﴾ من التَّبَيَّنَى، أي: ما تعدُّبنا
فَكَذَّبْنَا على هذا المليك ولا في
وصف إجماله وإكرامه، هذه البضاعة
مردودة. وقرأ أبو حيوة: ﴿مَا تَبَيَّنَى﴾
بالتاء على مخاطبة يعقوب، وهي
بمعنى: ما تريد؟ وما تطلب؟ قال
المهدوي: وروتها عائشة
رضي الله عنها عن النبي ﷺ.

وقرأت فرقة: ﴿وَنَمِيرٌ﴾ بفتح
النون، من: مار يميز إذا جلب
الخير، ومن ذلك قول الشاعر:
بَعَثْتُكَ مَائِراً فَمَكَّثْتَ حَوْلَا
مَتَى يَأْتِي غِيَاثُكَ مِنْ تُغَيْثٍ؟
وقرأت عائشة رضي الله عنها:
﴿وَنَمِيرٌ﴾ بضم النون، وهي من
قراءة أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ،
وعلى هذا يقال: مار وأمَّاز بمعنى.

وقولهم: ﴿وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ﴾
يريدون بعير أخيه، إذ كان يوسف
إنما حمل لهم عشرة أبعرة ولم
يحمل الحادي عشر لغيبه صاحبه،

وقال مجاهد: ﴿كَيْلَ بَعِيرٍ﴾ أزداد:
كيل حمار، قال: وبعض العرب،
يقول للحمار: بعير. وهذا شاذ.

وقولهم: ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ بَعِيرٌ﴾
تقرير بغير ألف، أي: أذلك كيلٌ
يسير في مثل هذا العام فيحمل أمره؟
وقيل: معناه: يسير على يوسف أن
يعطيه، وقال الحسن البصري: وقد
كان يوسف وعدهم أن يزيدهم حمل
بعير بغير ثمن، وقال السدي: معنى
ذلك: كيل يسير أي سريع لا نجس
فيه ولا نمطل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فكأنهم - على هذا - أنسوه بقرب
العودة.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
أراد يعقوب عليه السلام أن يتوثق
منهم، والمَثْوِثُ «مَفْعَلٌ» من الوثاق،
فلما عاهدوه أشهد الله بينه وبينهم
بقوله: ﴿اللَّهُ عََلَ مَا نَقُولُ وَكَيْلٌ﴾
والوكيل: القِيمُ الحافظ.

وقرأ ابن كثير: ﴿تَوْتُونِي﴾ بياء في
الوصل والوقف، وروي عن نافع أنه
وصل بياء ووقف دونها، والباقون
تركوا الياء في الوجيهين.

وقوله: ﴿لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابِ وَجِدٍ﴾
قيل: خشي عليهم العين لكونهم
أحد عشر لرجل واحد، وكانوا أهل
جَمال وبسطة، قاله ابن عباس،
والضحاك، وقاتدة وغيرهم، والعين
حق، وقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ
العين لشدخل الرجل القبر والجمل
القِذْر»، وفي تعوذه عليه الصلاة
والسلام: «أعوذ بكلمات الله التامة
من كل شيطان وهامة وكل عين
لامة»، وقيل: خشي أن يُسْتَرَابَ بهم

لقول يوسف قبل: «أنتم جواسيس»،
ويضعف هذا ظهورهم قتل بمصر،
وقيل: طمع بافتراقهم أن يتسمعوا
ويتطلعوا خير يوسف، وهذا ضعيف
يسرُّه ﴿وَمَا أَغْنَى عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ
شَيْءٍ﴾ فإن ذلك لا يتركب على هذا
المقصد.

وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَمْلَأَ بِكُمْ﴾ لفظ
عام لجميع وجوه الغلبة والفسر،
والمعنى: تعممك الغلبة من جميع
الجهات حتى لا تكون لكم حيلة ولا
وجه تخلُّص، وقال مجاهد:
المعنى: إلا أن تهلكوا جميعاً، وقال
قتادة: إلا ألا تطيقوا ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا يرجحه لفظ الآية.

وانظر أن يعقوب عليه السلام قد
توثق في هذه القصة، وأشهد الله
تعالى، ووصى بنيه، وأخبر بعد ذلك
بتوكله، فهذا توكل مع تسبب، وهو
توكل جميع المؤمنين إلا من شد في
رفض السعي، وقنع بالماء وبقل
البرية ونحوه، فتلك غاية التوكل،
وعليها بعض الأنبياء عليهم السلام،
والشارعون منهم مثبتون سُنن التسبب
الجانز، وما تجاوز ذلك من الإلقاء
باليد مختلف في جوازه، وقد فضله
بعض المجيزين له، ولا أقول
بذلك، وباقي الآية بين.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أنهم لما ودعوا أباهم قال
لهم: «بلغوا ملك مصر سلامي،
وقولوا له: إنا أبانا يصلي عليك،
ويدعو لك، ويشكر صنيعك معنا».
وفي كتاب أبي منصور المهراني أنه

وهذا لا يعطيه اللفظ، أما إنه صحيح في نفسه يربحه المعنى وما تقتضيه منزلة يعقوب عليه السلام، قال أبو حاتم: قرأ الأعمش: ﴿لَنُو عَلِمَ مِمَّا عَلَّمْنَا﴾. ويحتمل أن يكون جواب [لَمَّا] في هذه الآية محذوفاً مقدرًا، ثم يخبر عن دخولهم أنه ﴿مِمَّا كَانَتْ يُغْنِي...﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ﴾ الآية. المعنى أنه لما دخل إخوة يوسف عليه ورأى أخاه شكر ذلك لهم - على ما

خاطبه بكتاب قرء على يوسف بكي.

وقوله: ﴿مِمَّا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ بمثابة قوله: لم يكن في ذلك دفع قَدَّر الله، بل كان أزيماً ليعقوب قضاها، وطيباً لنفسه تمسك به وأمر بحسبه، فجواب [لَمَّا] في معنى قوله: ﴿مِمَّا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾، و﴿إِلَّا حَاجَةً﴾ استثناء ليس من الأول، والحاجة هي أن يكون طيب النفس بدخولهم من أبواب متفرقة خوف العين، قال مجاهد: الحاجة: خيفة العين، وقاله ابن إسحق، وفي عبارتهما تجوز، وفي نظير هذا الفعل أن النبي ﷺ سَدَّ كَوَّةَ فِي قَبْرِ بِحَجَرٍ وَقَالَ: «إِنْ هَذَا لَا يُغْنِي شَيْئاً وَلَكِنَّهُ تَطْيِيبٌ لِّنَفْسِ الْحَيِّ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قوله - عندي -: ﴿مِمَّا كَانَتْ يُغْنِي عَنْهُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ معناه: ما يرد عنهم قدرًا، لأنه لو قضى أن تصيبهم عين لأصابتهم مفترقين أو مجتمعين، وإنما طمع يعقوب أن تصادف وصيته قَدَّرَ السلامة فوصى، وقضى - بذلك - حجة نفسه في أن يَنْتَعِمَ بِرَجَائِهِ أَنْ تصادف وصيته القدر في سلامتهم.

ثم أثنى الله عز وجل على يعقوب بأنه لققن ما علمه الله من هذا المعنى، واندرج غير ذلك في العموم، وقال: إن أكثر الناس ليس كذلك، وقيل: معناه: إنه لعامل بما علمناه، قاله قتادة. وقال سفيان: من لا يعمل لا يكون عالماً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رِجْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَتَتْهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسِرْقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقَدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا تَفْقَدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلَمْ نَكُنْ بِهٖ بِرَجُلٍ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَّا جِئْتَنَا لِنُقْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سِرْقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَمَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مِمَّا وَجَدْنَا فِي رِحْلِهِ فهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ قَبِدْ أَبَا يَعْقِبَ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرِجْهُمَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كَدَّبَ أَيُّوسُفُ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّنْ نَّشَاءُ وَتُوقَى كُلُّ ذِي عِلْمٍ عَلَيْهِ ﴿٧٦﴾ قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلِ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرٌّ مَّكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَا أَبَا نَسْرَةَ إِنَّا لَنَرِيكَ فِي دِينِنَا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾

وقال وهب بن منبه: إنما أخبره أنه أخوه في الود مقام أخيه الذاهب، ولم يكشف له الأمر بل تركه تجوز عليه الحيلة كسائر إخوته.

و﴿يَبْتَغِينَ﴾ تفتعل، من البؤس، أي: لا تحزن ولا تهتم، وهكذا عبر المفسرون.

﴿٧٥﴾ - ﴿٧٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا من الكيد الذي يسره الله ليوسف عليه السلام، وذلك أنه كان في دين يعقوب أن يستعبد السارق، وكان في دين ملك مصر أن يضرب ويضاعف عليه الغرم، فلم يعلم يوسف أن إخوته - لثقتهم ببراءة ساحتهم - سيدعون في السرقة إلى حكمهم، فتحيل لذلك، واستسهل الأمر على ما فيه من رمي أبرياء بالسرقة وإدخال الهمة على يعقوب عليه السلام وعليهم، لما علم في ذلك من

شكر ذلك لهم - على ما روي - وضم إليه أخاه وأواه إلى نفسه، ومن هذه الكلمة: المأوى، وكان بنيامين شقيق يوسف فأواه. وصورة ذلك - فيما روي عن ابن إسحق وغيره - أن يوسف عليه السلام أمر صاحب ضيافته أن ينزلهم رجلين رجلين، فبقي بنيامين وحده، فقال يوسف: أنا أنزل هذا مع نفسي، ففعل وبات عنده، وقال له: ﴿إِنَّ أَنَا لَأَخْوَفُ﴾، واختلف المتأولون في هذا اللفظ - فقال ابن إسحق وغيره: أخبره بأنه أخوه حقيقة استكتمه، وقال له: لا تبال بكل ما تراه من المكروه في تحيل في أخذك منهم، وعلى هذا التأويل يحتمل أن يشير بقوله: ﴿يَا كَاؤُا يَمْلُونُ﴾ إلى ما يعمله فتیان يوسف في أمر السقاية ونحو ذلك، ويحتمل أن يشير إلى ما عمله الإخوة قديماً.

الصلاح في الآجل، ويسوحى لا محالة وإرادة من الله محنتهم بذلك. هذا تأويل قوم، ويَقْوِيه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَذَّبْنَا لِيُوسُفَ﴾.

وقيل: إنما أوحى إلى يوسف أن يجعل السقاية فقط، ثم إن حافظها فقدما، فنادى برأيه على ما ظهر إليه، ورجحه الطبري، وتفتيش الأوعية يرُدُّ عليه.

وقيل: إنهم لما كانوا قد باعوا يوسف استجاز أن يقال لهم هذا، وأنه عوقب على ذلك بأن قالوا: ﴿فَقَدْ سَرَّكَ أَحٌ لَّمْ مِنْ بَيْتٍ﴾.

وقوله: ﴿جَعَلَ﴾ أي أمر خدمه وفتيانه، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَجَعَلَ﴾ بزيادة واو.

وو ﴿النِّقَابَةَ﴾: الإناء الذي يشرب به الملك، وبه كان يكيل الطعام للناس، هكذا نص جمهور المفسرين: ابن عباس، والحسن، ومجاهد، والضحاك، وابن زيد، وفي كتب من حرر أمرها أنها شكل له رأسان ويصل بينهما مَقْبَضٌ يمسك بالأيدي، فيُكَالُ الطعام بالرأس الواحد، ويشرب بالرأس الثاني أو بهما، فيشبه أن يكون لِشْرَابِ أَضيافِ الملك وفي أطعمته الجميلة التي يحتاج فيها إلى عظم الأواني.

وقال سعيد بن جبير: الصُّوَاعُ مثل المَكُوكِ الفارسي، وكان إناء يوسف الذي يشرب فيه، وكان إلى الطول ما هو، قال: وحدثني ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان للعباس مثله يشرب به في الجاهلية.

وقال ابن جبير أيضاً: الصُّوَاعُ: المَكُوكِ الفارسي الذي يلتقي طرفاه،

كانت تشرب فيه الأعاجم، وزوي أنها كانت من فضة، وهذا قول الجمهور، وزوي أنها كانت من ذهب، قال الزجاج: وقيل: كان من مَسْكَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد زوي هذا بفتح الميم.

وقيل: كان يشبه الطاس، وقيل: من نحاس، قاله ابن عباس أيضاً، وليعزّة الطعام في تلك الأعوام قَصِير كيلها على ذلك الإناء. وكان هذا الجَعْلُ بغير علم يامين. قاله السدي، وهو الظاهر.

فلما فصلت العير بأوقارها، وخرجت من مصر فيما زوي - وقالت فرقة: بل قبل الخروج من مصر - أمر بهم فحبسوا، ﴿أَدَّانَ مُؤَدَّنَ﴾، ومخاطبة العير تَجْوُزُ، والمراد أربابها، وإنما المراد: أيتها القافلة أو الرفقة، وقال مجاهد: كانت دوابهم حميراً، ووصفهم بالسرقة من حيث سرق - في الظاهر - أحدهم، وهذا كما تقول: ابنو فلان قتلوا فلاناً وإنما قتله أحدهم. فلما سمع إخوة يوسف هذه المقالة أقبلوا عليهم، وساءهم أن يُزَمُّوا بهذه المنقبة، وقالوا: ﴿مَاذَا تَقْوَدُونَ؟﴾ ليقع التفتيش فتظهر براءتهم، ولم يلوذوا بالإنكار من أول، بل سألوا إكمال الدعوى عسى أن يكون فيها ما تَبْطُلُ به فلا يحتاج إلى خصام. وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿تَفْقِدُونَ﴾ بضم التاء، وضعفها أبو حاتم.

﴿قَالُوا نَفَقَدْ صَوَّاعَ الْمَلِكِ﴾ وهو المكيال، وهو السقاية، رسمه أولاً بإحدى جهتيه وآخرها بالثانية. وقرأ

جمهور الناس: ﴿صَوَّاعَ﴾ ضم الصاد وبألف، وقرأ أبو خيثوة: ﴿صِوَّاعَ﴾ بكسر الصاد وبألف، وقرأ أبو هريرة، ومجاهد: ﴿صَاعَ الْمَلِكِ﴾ بفتح الصاد دون واو، وقرأ عبدالله بن عوف: ﴿صُوعَ﴾ بضم الصاد، وقرأ أبو رجاء: ﴿صُوعَ﴾.

وهذه لغات في المكيال، قاله أبو الفتح وغيره، وتؤنث هذه الأسماء وتذكر، وقال أبو عبيد: يؤنث الصاع من حيث سمي سقاية، ويذكر من حيث هو صاع، وقرأ يحيى بن يغمر: ﴿صُوعَ﴾ بالغين منقوطة، وهذا على أنه الشيء المصوغ للملك على ما زوي أنه كان في ذهب أو فضة، فهو مصدر سُيَّ به، ورويت هذه القراءة عن أبي رجاء، قال أبو حاتم: وقرأ سعيد بن جبير، والحسن: ﴿صَوَّاعَ﴾ بضم الصاد وألف وغين معجمة.

وقوله: ﴿وَلَمَنْ جَاءَ بِهِ جَدَّ بَعِيرٍ﴾ أي: لمن دلَّ على سارقه وفضحه وجبر الصواع على الملك، وهذا جُعْلٌ. وقوله: ﴿وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ﴾ حَمَالَةٌ، وذلك أنه لما كان الطعام لا يوجد إلا عند الملك فهم عن المؤذن أنه إنما جعل عن غيره، فلخوفه ألا يوثق بهذه الجعالة - إذ هي عن الغير - تحمل هو بذلك. قال مجاهد: الزعيم هو المؤذن الذي قال: ﴿يَأْتِيهَا الْعَيْرُ﴾، والزعيم: الضامن في كلام العرب، ويسمى الرئيس زعيماً لأنه يتضمن حوائج الناس.

وقوله: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ﴾ الآية. زوي أن إخوة يوسف كانوا رُدوا البضاعة الموجودة في الرحال، وتخرجوا من

أخذ الطعام بلا ثمن، فلذلك قالوا: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ﴾، أي: لقد علمتمهم منا التحري، وزوي أنهم كانوا قد اشتهروا في مصر بصلاح وتعفف، وكانوا يجعلون الأكمة في أفواه إبلهم لثلاث تنال زرع الناس، فلذلك قالوا: لقد علمتم ما جئنا لفساد وما نحن أهل سرقة. والتاء في ﴿تَاللَّهِ﴾ بدل من واو، كما أبدلت في ﴿ثَرَاثٍ﴾، وفي «التوراة» و«تخمة»، ولا تدخل التاء في القسم إلا في المكتوبة من بين أسماء الله تعالى لا في غير ذلك، لا تقول: «تالرحمن» ولا «تالرحيم».

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا قَمًا جَرَّوْهُ﴾ الآية. قال فتيان يوسف: فما جزاء السارق إن كنتم كاذبين في قولكم: ﴿وَمَا كُنَّا سَرَفِينَ﴾؟ فقال إخوة يوسف: جزاء السارق الحكم الذي تتضمنه هذه الألفاظ ﴿مَنْ يُبَدِّ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَرَّوْهُ﴾، فـ ﴿جَرَّوْهُ﴾ الأول مبتدأ، و﴿مَنْ﴾ مبتدأ ثان، و- ﴿مَنْ﴾ شرط أو بمعنى الذي - وقوله: ﴿فَهُوَ جَرَّوْهُ﴾ خبر ﴿مَنْ﴾، والجملة خبر قوله: ﴿جَرَّوْهُ﴾ الأول، والضمير في قوله: ﴿قَالُوا جَرَّوْهُ﴾ للسارق، ويصح أن تكون ﴿مَنْ﴾ خبراً على أن المعنى: «جزاء السارق من وجد في رحله»، والضمير في ﴿رَحْلِهِ﴾ عائد على ﴿مَنْ﴾، ويكون قوله: ﴿فَهُوَ﴾ زيادةً بياناً وتأكيذاً، وليس هذا الموضع عندي من مواضع إبراز الضمير على ما ذهب إليه بعض المفسرين. ويحتمل أن يكون التقدير: «جزاؤه استرقاق من وجد في رحله»، ثم يؤكد بقوله:

﴿فَهُوَ جَرَّوْهُ﴾، وقولهم هذا قول من لم يَشْرَبْ بنفسه، لأنهم التزموا إرقاق من وجد في رحله، وهذا أكثر من موجب شرعهم، إذ حق شرعهم ألا يؤخذ إلا من صحت سرقة، وأمر يامين في السقاية كان محتلاً، لكنهم التزموا أن من وجد في رحله فهو مأخوذ على أنه سارق.

وقولهم: ﴿كَذَلِكَ يَجْزِي الظَّالِمِينَ﴾ أي: هذه سُنَّتُنَا وديننا في أهل السرقة، أن يَمْلِكُ السارق كما تَمْلِكُ هو الشيء المسروق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحكى بعض الناس أن هذا الحكم كان في أول الإسلام ثم نسخ بالقطع، وهذا ضعيف، ما كان قط فيما علمت. وحكى الزهراوي عن السدي أن حكمهم إنما كان أن يُستخدم السارق على قدر سرقة، وهذا يضعفه رجوع الصواع، فكان ينبغي ألا يؤخذ يامين إذ لم يبق فيما يخدم.

﴿٧٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

بدؤه أيضاً بأوعيتهم تمكين للحيلة، وإيعاذ لظهور أنها حيلة. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَعَاءٍ﴾ كسر الواو، وقرأ الحسن: ﴿وَعَاءٍ﴾ بضمها، وقرأ ابن جبير: ﴿إِعَاءٍ﴾ بهمزة بدل الواو، وهذا شائع في الواو المكسورة، وهو أكثر في المضمومة، وقد جاء في المفتوحة أحد في وحد.

وأضاف الله تعالى الكيد إلى ضميره لما أخرج القدر الذي أباح به ليوسف أخذ أخيه مخرج ما هو في اعتياد الناس كَيْدًا. وقال السدي،

والضحك: ﴿كَذَنًا﴾ معناه: صَنَعْنَا. و﴿رَيْنَ الْمَلِكِ﴾ فسره ابن عباس رضي الله عنهما بسلطانه، وفسره قتادة بالقضاء والحكم. وهذا متقارب، والاستثناء في هذه الآية حكاية حال، التقدير: «إلا أن شاء الله ما وقع من هذه الحيلة»، ويحتمل أن يقدر أنه تَسَنَّنْ لما قرر النفي.

وقرأ الجمهور: ﴿نَرَعٌ﴾ على ضمير المعظم، و﴿نَشَاءٌ﴾ كذلك، وقرأ الحسن، وعيسى، ويعقوب بالياء، أي الله تعالى، وقرأ أبو عمرو، ونافع، وأهل المدينة: ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْ﴾ إضافة «الدرجات» إلى ﴿مِّنْ﴾، وقرأ عاصم، وابن محيصن: ﴿دَرَجَاتٍ مِّنْ﴾ بتنوين الدرجات، وقرأ الجمهور: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عَالِمٍ﴾، والمعنى أن البشر في العلم درجات، فكل عالم فلا بُدَّ من أعلم منه، فإما من البشر، وإما الله عز وجل، وأما على قراءة ابن مسعود فقول: ﴿ذِي﴾ زائدة، وقيل: ﴿عِلْمٍ﴾ مصدر كالباطل.

وزوي أن المفتش كان إذا فرغ من رَحْل رجل فلم يجد منه شيئاً استغفر الله عز وجل تائباً من فعله ذلك، وظاهر الكلام قتادة وغيره أن المستغفر كان يوسف لأنه كان يفتشهم ويعلم أين الصواع، حتى فرغ منهم وانتهى إلى رحل بنيامين فقال: ما أظن هذا الفتى رضي بهذا، ولا أخذ شيئاً، فقال له إخوته: والله لا نبرح حتى تفتشه فهو أطيب لنفسك ونفوسنا، ففتش حينئذ

فأخرج السقاية، وهذا التفتيش من يوسف يقتضي أن المؤذُن إنما سرّقهم برأيه، وإما أن يقال: جميع ذلك كان بأمر الله تعالى، ويُقَوَّى ذلك قوله: ﴿كَذَنَّا﴾، وكيف لا يكون برأي يوسف وهو مضطر في محاولته لأن يلزمهم حكم السرقة لِيَتِمَّ له أخذ أخيه.

والضمير في قوله: ﴿أَسْتَخْرَجَهَا﴾ عائد على السقاية، ويحتمل أن يعود على السرقة.

وزوي أن إخوة يوسف لما رأوا ذلك قالوا: يَا بَنِيَامِينَ بْن رَاحِيلَ، قَبِّحْكَ اللَّهُ، ولدت أمك أخوين لِصَيْنِ، كيف سرّقت هذه السقاية؟ فرفع يديه إلى السماء وقال: والله ما فعلت، فقالوا له: فمن وضعها في رحلك؟ قال: الذي وضع البضاعة في رحالك.

وما ذكرناه من المعنى في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ كَيْفَ دِي بَعَثَ لِي صَبْرًا﴾ هو قول الحسن وقتادة، وقد روي عن ابن عباس، وزوي أيضاً عنه رضي الله عنه أنه حدث يوماً بحديث عجب، فتعجب منه رجل ممن حضر وقال: «الحمد لله وفوق كل ذي علم عليم»، فقال له ابن عباس: «بئس ما قلت، إنما العليم الله، وهو فوق كل ذي علم». قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبين هذا وبين قول الحسن فرق.

﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لإخوة يوسف، والأخ الذي أشاروا إليه هو يوسف، ونكروه تحقيراً للأمر، إذ كان مما لا علم للحاضرين به، ثم

أصقوه بنيامين إذ كان شقيقه.

ويحتمل قولهم: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ تأويلين:

أحدهما: أنهم حققوا السرقة في جانب بنيامين ويوسف عليهما السلام بحسب ظاهر الحكم، فكأنهم قالوا: إن كان قد سرق فغير بدع من ابنتي راحيل، لأن أخاه يوسف كان قد سرق، فهذا من الإخوة إنحاء على ابنتي راحيل: يوسف وبنيامين.

والوجه الآخر الذي يحتمله لفظهم يتضمن أن السرقة في جانب يوسف وبنيامين مظنونة، كأنهم قالوا: إن كان هذا الذي رمي به بنيامين حقاً في نفسه فالذي رُمِيَ به يوسف قبْلُ حق إذاً، وكأن قصة يوسف والظن به قوياً عندهم أقوى مما ظهر في جهة بنيامين.

وقال بعض المفسرين: «التقدير: فقد قيل عن يوسف إنه سرق»، ونحو هذا من القول الذي لا ينطبق معناه على لفظ الآية.

وهذه الأقوال منهم عليهم السلام إنما كانت بحسب الظاهر وموجب الحكم في التازلين، فلم يعنوا غيبة ليوسف، وإنما قصدوا الإخبار بأمر جرى لِيَتَزُولَ بعض المعرة عنهم ويختص بها هذان الشقيقان.

وأما ما روي في سرقة يوسف فثلاثة وجوه: الجمهور منها على أن عمته كانت ربته، فلما شب أراد يعقوب أخذه منها، فولعت به وأشفتت من فراقه، فأخذت مِنطَقة إسحق - وكانت متوارثة عندهم - فَنَطَّقَتْهُ بها من تحت ثيابه، ثم صاحت وقالت: إني قد فقدتُ

المِنطَقة ويوسف قد خرج بها، فَنَشَّسَ فوجدت عنده، فاسترقته - حسبما كان في شرعهم - وبقي عندها حتى ماتت فصار عند أبيه، وقال ابن إدريس عن أبيه: إِنَّمَا أَكَلَ بنو يعقوب طعاماً فأخذ يوسف عَرَقاً فخبأه فرموه لذلك بالسرقة، وقال سعيد بن جبير، وقتادة: إنما أمرته أمه أن يسرق صنماً لأبيها فسرقه وكسره، وكان ذلك - منها ومنه - تغييراً للمنكر، وفي كتاب الزَّجَّاج أنه كان صنم ذهب.

والضمير في قوله: ﴿فَأَسْرَهَا﴾ عائد يُرَادُ به الحزاة التي حدثت في نفس يوسف من قولهم، والكلام يتضمنها، وهذا كما تضمن الكلام الضمير الذي في قول حاتم:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الثَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى
إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَصَاقَ بِهَا الصَّدْرُ
وهذا كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَدَايَا مَا فَتَنَّاكَ مِنْ جِهَتِهِمْ وَعَصَبُوا بِكَ مِنْ بَدَايَاهَا لَعَفُورٌ رَجِيحٌ﴾ فهو مراد به الحالة المتحصلة من هذه الأفعال المذكورة في الآية.

وقال قوم: أسرَّ المجازاة، وقال قوم: أسرَّ الحجة. وما قدمناه أليق. وقرأ ابن أبي عبله: ﴿فَأَسْرُهُ يُوَسِّفُ﴾ بضمير تذكير.

وقوله: ﴿أَنَّهُ سَرٌّ مَكَّانًا﴾ الآية. الظاهر منه أنه قالها إِنْصَاحاً، فكأنه أسرَّ لهم كراهية مقاتلتهم ثم ويخبرهم بقوله: ﴿أَنَّهُ سَرٌّ مَكَّانًا﴾ أي لسوء أفعالكم، والله يعلم إن كان ما وصفتموه حقاً، وفي اللفظ إشارة

قَالَ مَكَادُ اللَّهِ أَنْ تَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدَنَا مَتَّعْنَا عَنْدَهُ وَإِنَّا إِذَا أَطَّلَعْنَا لَمُوتَ ﴿٧٨﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ حَكَصُوا عَجَبًا قَالَ كَيْبُرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ آبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلَ مَا فَرَطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَنْبَحَ الْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْتِيَ لِي آيَاتُ رَبِّكُمْ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٧٩﴾ أَرْجِعُوا إِلَىٰ آبَائِكُمْ فَقُولُوا إِنَّا بَنَاءُ آبَائِكُمْ سَرَقْنَا وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا الْيَمَاعِلَ وَمَا كُنَّا بِالْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٠﴾ وَسَتَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨١﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٢﴾ وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَا سَفِينُ عَلَىٰ يُوسُفَ وَأَبِصَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٨٣﴾ قَالَ وَأَنَا لِلَّهِ تَقَرُّوْا تَذَكَّرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَصًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٨٤﴾ قَالَ إِنَّمَا أَشْكُوا بِنَاتِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

خاطبوه باسم العزيز إذ كان في تلك اللحظة بعزل الأول أو موته، على ما روي في ذلك. وقولهم: ﴿فَخَذَ أَحَدًا مَكَانَهُ﴾ يحتمل أن يكون مجازاً وهم يعلمون أنه لا يصح أخذ حُرٍّ لِيُسْتَرْقَ بدل من أحكمت السنة رقه، وإنما هذا كما تقول لمن تكره فعله: «اقتلني ولا تفعل كذا وكذا»، وأنت لا تريد أن يقتلك ولكن تبالغ في استنزاه، وعلى هذا يتجه قول يوسف: ﴿مَكَادُ اللَّهِ﴾ لأنه تعوذ من غير جائز، ويحتمل أن يكون قولهم: ﴿فَخَذَ أَحَدًا مَكَانَهُ﴾ حقيقة، ويعيد عليهم - وهم أنبياء - أن يريدوا استرقاق حُرٍّ، فلم يبق إلا أن يريدوا بذلك طريق الحمالة، أي: خذ أحدا حتى ينصرف إليك صاحبك، ومقصدهم بذلك أن يصل بنيامين إلى أبيه، ويعرف يعقوب جلية الأمر، فمنع يوسف عليه السلام من ذلك، إذ الحمالة في الحدود ونحوها بمعنى إحضار المضمون جائزة مع التراضي غير لازمة إذا أبى الطالب، وأما الحمالة في مثل هذا - على أن يلزم الحميل ما كان يلزم المضمون من عقوبة - فلا يجوز ذلك إجماعاً، وفي «الواضحة» أن الحمالة في الوجه فقط في جميع الحدود جائزة إلا في النفس.

إلى تكذيبهم، وما يَقْوِي هذا عندي أنهم تركوا الشفاعة بأنفسهم وعدلوا إلى الشفاعة بالشيخ عليه السلام، وقالت فرقة - وهو ظاهر كلام ابن عباس رضي الله عنهما -: لم يقل يوسف عليه السلام هذا الكلام إلا في نفسه، وإنما هو تفسير للذي أسر في نفسه، أي: هذه المقالة هي التي أسر. فكأن المراد: قال في نفسه: ﴿أَنْتُمْ...﴾.

وذكر الطبري هنا قصصاً اختصاره أنه لما استخرجت السقاية من رحل بنيامين قال إخوته: يا بني راحيل. ألا يزال البلاء ينالنا من جهتك؟ فقال بنيامين: بل بنو راحيل ينالهم البلاء منكم: ذهبتم بأخي فأهلكتموه، ووضع هذا الصواع في رحلي الذي وضع الدراهم في رحالكم، فقالوا: لا تذكر الدراهم وإلا أخذنا بها، ثم دخلوا على يوسف فأخذ الصواع فنقره فطُرُقَ، فقال: إنه يخبر أنكم ذهبتم بأخ لكم فبعتموه، فسجد بنيامين وقال: أيها العزيز، سل صواعك هذا يخبرك بالحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونحو هذا من القصص الذي آثرنا اختصاره، وروي أن روبيل غضب ووقف شعره حتى خرج من ثيابه، فأمر يوسف بنتياً له فمسه فسكن غضبه، فقال روبيل: لقد مسني أحد من ولد يعقوب، ثم إنهم تشاوروا في محاربة يوسف - وكانوا أهل قوة لا يدانون في ذلك - فلما أحس يوسف بذلك قام إلى روبيل فلجبه وصرعه، فأروا من قوته ما استعظموه عند ذلك، وقالوا: أيها العزيز.

وقولهم: ﴿إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ يحتمل أن يريدوا وصفه بما رأوا من إحسانه في جميع أفعاله معهم ومع غيرهم، ويحتمل أن يريدوا: إنا نرى لك إحساناً علينا في هذه اليد إن أسديتها إلينا، وهذا تأويل ابن إسحق.

و ﴿مَكَادُ﴾ نصب على المصدر، ولا يجوز إظهار الفعل معه، والظلم في قوله: ﴿لَطَّلَعْنَا لَمُوتَ﴾ على حقيقته، إذ هو وضع الشيء في غير موضعه، وذكر الطبري أنه روي أن يوسف لما أتأسهم بلطفه هذا قال لهم: إذا أتيتم آباكم فاقروا عليه السلام، وقولوا له: إن ملك مصر يدعو لك ألا تموت حتى ترى ولدك يوسف، ليعلم أن في أرض مصر صديقين مثله.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ﴾

الآية. يقال: يثنس واستثنأس بمعنى واحد، كما يقال: سخر واستسخر، ومنه قوله تعالى: ﴿يَسْتَجِرُونَ﴾، وكما يقال: عجب واستعجب، ومنه قول أوس ابن حجر:

مُسْتَعْجِبٍ مُمَا يَرَى مِنْ أُنَاتِنَا
وَلَوْ زَيْتُنَةُ الْحَرْبِ لَمْ يَسْتَرْفَمِ
ومنه: نوك واستنوك، وعلى هذا يجيء قول الشاعر في بعض التأويلات:

.....
وَأَسْتَنُوكَتْ وَلِلشَّبَابِ نُوكُ
وهذه قراءة الجمهور، وقراء ابن كثير: «استائسوا» و «لَا تَائِسُوا»، و «لَا يَائِسُ» و «حَتَّى إِذَا اسْتَائِسَ الرُّسُلُ»، أصله: استئأسوا على قلب الفعل من (يئس) إلى (أيس)، وليس هذا كجذب وجذب، بل هذان أصلان والأول قلب، دل ذلك على أن المصدر من (يئس وأيس) واحد وهو (اليأس)، ولجذب وجذب مصدران.

وقوله تعالى: ﴿حَاصُوا حَيْثًا﴾ معناه: انفردوا عن غيرهم يناجي بعضهم بعضاً، والنَّجِي لفظ يوصف به من له نجوى، واحداً أو جماعة، مُؤَنَّثاً أو مُذَكَّراً، فهو مثل عدو وعدل، وجمعه أنجية، قال لبيد:

وَسَهَدْتُ أَنْجِيَةَ الْأَفَاقَةِ عَالِيَا
كَنْعَبِي وَأَزْدَانَ الْمُلُوكِ شَهُودًا
و «كَنْعِبِي» قال مجاهد: هو شمعون، لأنه كان كبيرهم رأياً وتدبيراً وعلماً، وإن كان روبييل أسنهم، وقال قتادة: هو روبييل لأنه أسنهم، وهذا أظهر ورجحه الطبري،

وقال السدي: معنى الآية: وقال كبيرهم في العلم، وذكرهم آخرهم الميثاق في قول يعقوب: ﴿لَكَأَنَّي بِهِ إِلَّا أَنْ يَحَاطَ بِكُمْ﴾.

وقوله: ﴿مَا فَرَّطْتُمْ﴾، يصح أن تكون [مَا] صلة في الكلام لا موضع لها من الإعراب، ويصح أن تكون في موضع رفع بالابتداء، والخبر قوله: ﴿فِي يُوشَعَ﴾، كذا قال أبو علي، ولا يجوز أن يكون قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾ متعلقاً بـ ﴿مَا فَرَّطْتُمْ﴾، وإنما تكون - على هذا - مصدرية، التقدير: «من قبل تفريطكم في يوسف واقع أو مستقر»، وبهذا المقدر يتعلق قوله: ﴿مِنْ قَبْلُ﴾. ويصح أن تكون في موضع نصب عطفاً، على أن التقدير: «وتعلموا تفريطكم» أو «وتعلموا الذي فرطتم»، فيصح - على هذا الوجه - أن تكون بمعنى الذي، ويصح أن تكون مصدرية.

وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ﴾، أراد أرض القطر أو الموضع الذي ناله فيه المكروه المؤدي إلى سخط أبيه، والمقصد بهذا اللفظ التحريج على نفسه والتزام التضييق، كأنه سجن نفسه في ذلك القطر ليبلي عدواً.

وقوله: ﴿أَوْ بِحَكْمِ اللَّهِ لِي﴾ لفظ عام لجميع ما يمكن أن يرد من القدر كالموت أو النصره وبلوغ الأمل، وغير ذلك، وقال أبو صالح: أو يحكم الله لي بالسيف، ونصب ﴿بِحَكْمِ﴾ بالعطف على ﴿بِأَذْنِ﴾، ويجوز أن تكون ﴿أَوْ﴾ في هذا الموضع بمعنى «إلا أن»، كما تقول:

«لأزمنك أو تقضييني حقي»، فنصب على هذا ﴿بِحَكْمِ﴾ بـ ﴿أَوْ﴾.

وزوي أنهم لما وصلوا إلى يعقوب بكى وقال: «يا بني، ما تذهبون عني مرة إلا نقصتم، ذهبتم فنقصتم يوسف، ثم ذهبتم فنقصتم شمعون حيث ارتهن، ثم ذهبتم فنقصتم بنيامين وروبييل».

① - ② تفسير قوله عز وجل:

الأمر بالرجوع - قيل: هو من قول كبيرهم، وقيل: بل هو من قول يوسف لهم، والأول أظهر، وقرأ الجمهور: ﴿سَرَقَ﴾ على تحقيق السرقة على «بنيامين» بحسب ظاهر الأمر، وقرأ ابن عباس، وأبو رزين: ﴿سُرِقَ﴾ بضم السين وكسر الراء وتشديدها، وكان في هذه القراءة لهم تحر ولم يقطعوا عليه بسرقة، وإنما أرادوا: جعل سارقاً بما ظهر من الحال، ورويت هذه القراءة عن الكسائي، وقرأ الضحاك: ﴿إِنْ أَبْنُكَ سَارِقٌ﴾ بالالف وتنوين القاف، ثم تحروا بعد - على القراءةتين - في قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾، أي: وقولنا لك: ﴿إِنَّكَ أَبْنُكَ سَرِقٌ﴾ إنما هي شهادة عندك بما علمناه من ظاهر ما جرى، والعلم في الغيب إلى الله، ليس ذلك في حفظنا، هذا قول ابن إسحق.

وقال ابن زيد: قولهم: ﴿وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا﴾ أرادوا به: وما شهدنا عند يوسف بأن السارق يُسْتَرَقُ في شرعك إلا بما علمنا من ذلك، وما كنا للغيب حافظين أن السرقة تخرج من رحل أحدنا، بل

حسبنا أن ذلك لا يكون البتة، فشهدنا عنده - حين سألتنا - بعلمنا. وقرأ الحسن: ﴿وما شهدنا عليه إلا بما علمنا﴾ بزيادة «عليه».

ويحتمل قوله: ﴿وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ﴾، أي حين واثقناك إنما قصدنا ألا يقع منا نحن من جهته شيء يكرهه، ولم نعلم الغيب في أنه سيأتي هو بما يوجب رقة، وروى أن معنى ﴿لِلْغَيْبِ﴾ أي: للليل، والغيب: الليل بلغة حمير، فكأنهم قالوا: وما شهدنا عندهك إلا بما علمناه من ظاهر حاله، وما كنا بالليل حافظين لما يقع من سرقة هو أو التدليس عليه.

ثم استشهدوا بأهل القرية التي كانوا فيها، وهي مصر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وهذا مجاز، والمراد أهلها، وكذلك قوله: ﴿وَالْعَمِيرِ﴾، هذا قول الجمهور وهو الصحيح، وحكى أبو المعالي في التلخيص عن بعض المتكلمين أنه قال: هذا من الحذف وليس من المجاز، وإنما المجاز لفظه تستعار لغير ما هي له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحذف المضاف هو عين المجاز وعظمه، هذا مذهب سيويه وغيره من أهل النظر، وليس كل حذف مجازاً، ورجح أبو المعالي في هذه الآية أنه مجاز، وحكى أنه قال الجمهور أو نحو هذا، وقالت فرقة: بل أحالوه على سؤال الجمادات والبهائم حقيقة، ومن حيث هو نبي فلا يبعد أن يُخبره بالحقيقة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا وإن جُوِّز فبعيد، والأول أقوى.

وهنا كلام مقدر يقتضيه الظاهر، تقديره: فلما قالوا هذه المقالة لأبيهم قال: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ﴾، وهذا على أن يتصل كلام كبيرهم إلى هنا، ومن يرى أن كلام كبيرهم تم في قوله: ﴿إِنَّكَ أَنتَكَ سَرَقٌ﴾ فإنه يجعل الكلام هنالك تقديره: فلما رجعوا قالوا: ﴿إِنَّكَ أَنتَكَ سَرَقٌ﴾ الآية، والظاهر أن قوله: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسَكُمْ أَمْراً﴾ إنما هو ظن سنيء بهم، كما كان في قصة يوسف قبل، فاتفق أن صدق ظنه هناك ولم يتحقق هنا.

و ﴿سَوَّلَتْ﴾ معناه: زَيَّنَتْ وَخَيَّلَتْ وجعلته سولاً، والسؤل: ما يتمناه الإنسان ويحرص عليه.

وقوله: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ إما ابتداء وخبره: أمثل وأولى، وحسن الابتداء بالنكرة من حيث وصفت، وإما خبر ابتداء تقديره: فأمرني، أو شأني، أو صبري صبرٌ جميل، وهذا أليق بالنكرة، أن تكون خبراً، ومعنى وصفه بالجمال أنه ليس فيه شكوى إلى بشر ولا ضجر بقضاء الله تعالى.

ثم ترجى عليه السلام من الله أن يجبرهم عليه، وهم: يوسف وبنيامين وروبيل الذي لم يبرح الأرض، ورجاؤه هذا من جهات:

إحداها: الرؤيا التي رأى يوسف، فكان يعقوب ينتظرها. والثانية: حسن ظنه بالله تعالى في كل حال، والثالثة: ما أخبروه به عن ملك مصر أنه يدعو له برؤية ابنه، فوقع له - من هنا - تحسُّن ورجاء، والوصفُ

بالعلم والإحكام لائق بما يرجوه من لقاء بنيه، وفيها تسليم لحكم الله تعالى في جميع ما جرى عليه.

﴿٨٤﴾ - ﴿٨٦﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى أنه لما ساء ظنه بهم ولم يصدق قولهم بل استراب به ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِمْ﴾ أي زال بوجهه عنهم، وجعل يتفجع ويتأسف. قال الحسن: خُصَّتْ هذه الأمة بالاسترجاع. ألا ترى إلى قول يعقوب: ﴿يَكْسِفُنِي؟﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمراد: يا أسفي، لكن هذه لغة من يردُّ ياء الإضافة ألفاً نحو: يا أبنا ويا غلاما. ونادى الأسف على معنى: احضر فهذا من أوقاتك، وقيل: قوله: ﴿يَكْسِفُنِي﴾ على جهة التذبة وحذف الهاء التي هي في التذبة علامة المبالغة في الحزن تجلداً منه عليه السلام، إذ كان قد ارتبط إلى الصبر الجميل، وقيل: قوله: ﴿يَكْسِفُنِي﴾ نداء فيه استغاثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يبعد أن يجتمع «الاسترجاع» و «يا أسفاً» لهذه الأمة وليعقوب عليه السلام.

﴿وَأَيَّضَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزَنِ﴾ أي: من ملازمة البكاء الذي هو ثمرة الحزن، وروى أن يعقوب عليه السلام حَزِنَ حُزْنًا سَبْعِينَ نَكْلًا، وأعطى أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله قط، رواه الحسن عن النسبي رحمته الله. وقرأ ابن عباس، ومجاهد: ﴿مِنْ الْحُزَنِ﴾ بفتح الحاء والزاي، وقرأ قتادة بضمهما، وقرأ الجمهور بضم الحاء وسكون الزاي.

﴿وَمَوْ كَظِيمٌ﴾ بمعنى: كاظم، كما قال: ﴿وَالْكَاظِمِينَ الْفَيْضَ﴾، ووصف يعقوب بذلك لأنه لم يشك إلى أحد، وإنما كان يكمد في نفسه، ويُمسك همُّه في صدره، وكان يكظمه أي يردُّه إلى قلبه ولا يرسله بالشكوى والغضب والضحجر، وقال ناس: ﴿كَظِيمٌ﴾ بمعنى: مكظوم. وقد وصف الله تعالى يونس عليه السلام بمكظوم في قوله: ﴿إِذْ نَادَى دَوْمًا مَّكْظُومًا﴾، وهذا إنما يتجه على تقدير أنه مليء بحزنه، فكأنه كظم بثه في صدره، وجزى ﴿كَظِيمٌ﴾ على باب «كاظم» أبيت، وفسر ناس «الكظيم» بالمكروب وبالمكذور، وذلك كله متقارب. وقال منذر بن سعيد: الأسف إذا كان من جهة من هو أقل من الإنسان فهو غضب، ومنه قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَصَابُوا أَنْفُسَهُمْ يَتَهَمُوا﴾، ومنه قول الرجل الذي ذهب لخادمه الشاة من الغنم: «فأسفت فلطمتها»، وإذا كان من جهة لا يطيقها فهو همٌّ وحزنٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير هذا المنزوع أن الأسف يقال في الغضب ويقال في الحزن، وكل واحد من هذين يحزر حاله التي يقال عليها.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتُونَ﴾ الآية. المعنى: تالله لا نقتأ، فتحذف (لا) في هذا الموضع من القسم لدلالة الكلام عليها، فمن ذلك قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ يَمِينُ اللَّهِ أَبْرَحُ قَاعِدًا
وَلَوْ قَطَعُوا رَأْسِي لَدَيْكَ وَأَوْصَالِي

ومنه قول الآخر:

تَالله يَبْنَى عَلَى الْأَيَّامِ دُو جِيدٍ
بِمُشْمَجِرْبِهِ الظَّيَّانُ وَالْأَسْ
أراد: لا يبرح، ولا يبنى. وقال الرُّجَاجِي: وقد تحذف أيضاً (ما) في هذا الموضع، وخطأه بعض النحويين، ومن المواضع التي حذفت فيها (لا) ويدل عليها الكلام قول الشاعر:

فَلَا - وَأَبِي دَهْمَاءَ - زَالَتْ عَزِيْرَةٌ
عَلَى قَوْمِيهَا مَا فَتَّلَ الزُّنْدَ قَادِحُ
وقوله: «مَا قَتَلَ الزُّنْدَ قَادِحُ» يوجب أن المحذوف (لا)، وليست (ما). و (فتىء) بمنزلة زال وبرح في المعنى والعمل، تقول: «والله لا فئتت قاعدًا» كما تقول: «لا زلت ولا برخت»، ومنه قول أوس بن حجر:

فَمَا قَتَيْتُ حَتَّى كَأَنَّ عُبَارَهَا
سُرَادِقُ يَزُومُ ذِي رِيحٍ تَرْفَعُ
و «الْحَرْضُ»: الذي قد نهكه الهرم أو الحب أو الحزن إلى حال فساد الأعضاء والبدن والجس، وعلى هذا المعنى قراءة الجمهور: ﴿حَرْضًا﴾ بفتح الراء والحاء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضمهما، وقرأت فرقة: ﴿حَرْضًا﴾ بضم الراء وسكون الراء، وهذا كله المصدر يوصف به المذكور والمؤنث والمفرد والجمع بلفظ واحد، كعذلي وعذو، وقيل في قراءة الحسن: إنه فتات الأشتان، أي: بالياً متفتتاً، ويقال من هذا المعنى الذي هو شن الهمِّ والهرم: «رجل حارض»، ويؤنث هذا البناء ويُجمع ويؤنث ويذكر، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

إِنِّي امْرُؤٌ لَجَّ بِي حُبٌّ فَأَحْرَضَنِي
حَتَّى بَلَيْتُ وَحَتَّى شَفَنِي السَّقْمُ
وقد سمع من العرب «رجل مُحْرَضٌ»، قال الشاعر وهو امرؤ القيس:

أرى المَرَّةَ ذَا الْأَزْوَادِ يُضْبِحُ مُحْرَضًا
كإخراض بكرٍ في الديار مريضٍ
والحرَض - بالجملة -: الذي فسد ودنا موته، قال مجاهد: الحرَض: ما دون الموت، قال قتادة: الحرَض: البالي الهرم، وقال نحوه الضحاک والحسن، وقال الحسن: ﴿حَرْضًا﴾: معناه: فاسد لا عقل له، فكأنهم قالوا على جهة التعنيف له: أنت لا تزال تذكر يوسف إلى حال القرب من الهلاك، أو إلى الهلاك، فأجابهم يعقوب عليه السلام راذا عليهم: إني لست ممن يجزع ويضجر فيستحق التعنيف، وإنما أشكوا بئي وحزني إلى الله.

و «البث»: ما في صدر الإنسان مما هو معتمز أن يبته وينشره، وأكثر ما يستعمل البث في المكروه، وقال أبو عبيدة وغيره: البث: أشد الحزن، وقد يستعمل البث في المخفي على الجملة، ومنه قول المرأة في حديث «أُمُّ رَزْحٍ»: «وَلَا يُوَلِّجُ الكَفَّ لِيَعْلَمَ البِثُّ»، ومنه قولهم: «أبثك حديثي».

وقرأ عيسى: ﴿وَحَرَضَنِي﴾ بفتح الحاء والزاي.

وحكى الطبري بسند أن يعقوب دخل على فرعون وقد سقط حاجباه على عينيه من الكبر، فقال لفرعون: ما بلغ بك هذا يا إبراهيم؟ فقالوا: إنه يعقوب، فقال: ما بلغ بك هذا يا

يعقوب؟ قال له: طول الزمان وكثرة الأحران، فأوحى الله إليه: يا يعقوب، أتشكوني إلى خلقي؟ قال: يا رب، خطيئة فاغفرها لي. وأسند الطبري إلى الحسن قال: كان بين خروج يوسف عن يعقوب إلى دخول يعقوب على يوسف ثمانون سنة لم يفارق الحزن قلبه، ولم يزل يبكي حتى كف بصره، وما في الأرض يومئذ أكرم على الله من يعقوب.

وقوله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ يحتمل أنه أشار إلى حسن ظنه بالله وجميل عادة الله عنده، ويحتمل أنه أشار إلى الرؤيا المنتظرة، أو إلى ما وقع في نفسه عن قول ملك مصر: إني أدعوك لبرؤية ابنة قبل الموت، وهذا هو حسن الظن الذي قدمناه.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: اذهبوا إلى الأرض التي جنتم منها وتركتم أخويكم بنيامين وروبييل، ﴿فَتَحْسَبُوا﴾، أي: استقصوا وتفروقا، والتحسبن: طلب الشيء بالحواس، ويستعمل في الخير والشر، فمن استعماله في الخير هذه الآية، وفي الشر فهي النبي ﷺ في قوله: ﴿وَلَا تَحْسَبُوا﴾.

وقوله: ﴿مِن يُّوسُفَ﴾ يتعلق بمحذوف يعمل فيه ﴿فَتَحْسَبُوا﴾، التقدير: فَتَحْسَبُوا نَبَأَ أَوْ حَقِيقَةَ مِنْ أَمْرِ يَوْسُفَ، لكن يحذف ما يدل ظاهر القول عليه إيجازاً.

وقرأت فرقة: ﴿تَأْتِسُوا﴾ وقرأت فرقة: ﴿تَأْيِسُوا﴾ على ما تقدم، وقرأ الأعرج: ﴿يَتَسُوا﴾ بكسر التاء، وخص يوسف وبنيامين بالذكر لأن

روبييل إنما بقي مختاراً، وهذا قد مُنعا الآية.

والرؤخ: الرحمة، ثم جعل اليأس من رحمة الله وتفريجه من صفة الكافرين، إذ فيه: إما التكذيب بالربوبية، وإما الجهل بصفات الله تبارك وتعالى. وقرأ الحسن، وقتادة، وعمر بن عبد العزيز: ﴿مِنْ رُوحِ اللَّهِ﴾ بضم الراء، وكان معنى هذه القراءة: لا تياسوا من حيي معه رُوحُ الله الذي وهبه، فإن من بقي رُوحه فيرجي، ومن هذا قول الشاعر:

وَفِي غَيْرِ مَنْ قَدَوَاتِ الْأَرْضِ فَاطْمَعِ

ومن هذا قول عبيد:

وَكُلُّ ذِي غَيْبَةٍ يَؤُوبُ

وِغَائِبُ الْمَوْتِ لَا يَؤُوبُ

ويظهر من حديث الذي قال: «إذا

مُتَّ فَأَحْرَقُونِي ثُمَّ اسْحَقُونِي ثُمَّ

فَرُونِي فِي الْبَحْرِ وَالْبَرْ فِي يَوْمِ رَاحٍ،

فَلْتَنْ قَدَّرَ اللَّهُ عَلَيَّ فَلْيُعَذِّبْنِي عَذَاباً

مَا عَذَّبَهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ»: إنه

يشس من روح الله، وليس الأمر

كذلك لأن قول النبي ﷺ في آخر

الحديث: «فغفر الله له» يقتضي

أنه مات مؤمناً إذ لا يغفر الله للكافر،

فبقي أن يتأول الحديث، إما على أن

(قَدَّرَ) بمعنى: ضيق وناقش

الحساب، فذلك معنى بين، وإما أن

تكون من «القدرة» ويكون خطؤه في

أن ظن أن الاجتماع بعد السحق

والنذرية مُحال لا يوصف الله تعالى

يَسْبِيْ اَذْهَبُوا فَتَحْسَبُوا مِنْ يُّوسُفَ وَآخِيهِ وَلَا تَأْتِسُوا
مِنْ رُوحِ اللَّهِ اِنَّهُ لَا يَأْتِسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ اِلَّا الْقَوْمُ الْكٰفِرِيْنَ
﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوْا عَلَيْهِ قَالُوْا يَا أَيُّهَا الْعَزِيْزُ مَسْنَا وَاهْلَانَا الضَّرُّ
وَجِسْمَانَا يَبْضَعُوْا مَرْجَلَنَا فَآوْفِنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا
اِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُصْدِقِيْنَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ
بِيُّوسُفَ وَآخِيهِ اِذْ اَسْرَجْتُمْ لَهٗمُوْا ﴿٨٩﴾ قَالُوْا اِنَّكَ
لَاَنْتَ يُّوسُفُ قَالَ اَنَا يُّوسُفُ وَهٰذَا اَخِيْ قَدَمْتُ مِنَ اللَّهِ
عَلَيْنَا اِنَّهُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ فَارْتَأَى اللَّهُ لَا يَضِيْعُ اَجْرَ
الْمُحْسِنِيْنَ ﴿٩٠﴾ قَالُوْا اِنَّ اللَّهَ لَقَدَّءَا نَتْرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا
وَإِنْ كُنَّا لَخٰطِيْبِيْنَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَتْرِبْ عَلَيْكُمُ
الْيَوْمَ يَعْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ اَرْحَمُ الرَّاحِمِيْنَ ﴿٩٢﴾
اَذْهَبُوا بِصِيْحِيْ هٰذَا فَاَقْرُوْهُ عَلَيَّ وَجِهِيْ يَا بَصِيْرًا
وَأَتُوْفِيْ بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِيْنَ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا فَصَلَّتِ
الْعِيْرُ قَالَتْ اَبُوهُمُ اِنِّيْ لَأَجِدُ رِيْحَ يُّوسُفَ لَوْلَا اَنْ
تُعْقِدُوْنَ ﴿٩٤﴾ قَالُوْا اِنَّ اللَّهَ اِنَّكَ لَفِيْ ضَلٰلِكَ مُّقْتَدِرٍ ﴿٩٥﴾

٢٤٦

بالقدرة عليه، فغلط في أن جعل الجائز محالاً، ولا يلزمه بهذا الكفر.

قال النقاش: وقرأ ابن مسعود: ﴿مِنْ فَضْلِ﴾، وقرأ أبي بن كعب: ﴿مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ الآية. في هذا الموضع اختصار محذوفات يعطيها الظاهر، وهي أنهم نفذوا من الشام إلى مصر ووصلوها، والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على يوسف. و﴿الضَّرُّ﴾ أرادوا به المسغبة التي كانوا يسبيلها، وأمر أخيه الذي أهم أباهم وغم جميعهم، و«البضاعة»: القطعة من المال يقصد بها شراء شيء، ولزمها عرف الفقه فيما لاحظ لحاملها من الربح، و«المزجأة» معناها: المدفوعة المتحيل لها، ومنه: إزجاء

السحاب، ومنه: إزجاء الإبل، كما قال الشاعر:

على زواجف تُزجى مُخها ريرُ

وكما قال النابغة:

وهبَّت الرِّيحُ مِنْ تَلْقَاءِ ذِي أَرْلٍ
تُزجى مع اللَّيْلِ مِنْ صُرَّارِهَا صَرِمًا
وقال الأعشى:

الْوَاهِبُ الحِائَةُ ألهجان وعبدما
عودًا تُزجى خَلْفَهَا أَطْفَالُهَا
وقال الآخر:

وَحَاجَةٌ غَيْرُ مُزجَاةٍ مِنَ الحَاجِ

وقال حاتم:

لِيَبْكُ عَلَى مَلْحَانَ ضَيْفٍ مُدْفَعٍ
وَأَزْمَلَةٌ تُزجى مع اللَّيْلِ أَرْمَلًا

فجملة هذا أن من يسوق شيئاً ويتلطف في تسييره فقد أزجاه، فإذا كانت الدارهم المدفوعة نازلة القدر تحتاج أن يعتذر معها ويشفع لها فهي مُزجاة، فقيل: كان ذلك لأنها كانت زيوفاً، قاله ابن عباس، وقال الحسن: كانت قليلة، وقيل: كانت ناقصة، قاله ابن جبير، وقيل: كانت بضاعتهم عروضاً فلذلك قالوا هذا، واختلف في تلك العروض - ما كانت؟ فقيل: كانت السُّنن والصفوف، قاله عبدالله بن الحارث، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كانت قديد وخش، ذكره النقاش، وقال أبو صالح، وزيد بن أسلم: كانت الصنوبر والحية الخضراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: «وهي الفستق»، وقيل: كانت المثل، وقيل: كانت القطن، وقيل: كانت الحبال والأعدال والأقتاب.

وحكى مكي أن مالكا رحمه الله قال: المزجاة: الجائزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا أعرف لذلك وجهاً، والمعنى يأباه، ويحتمل أنه صحف على مالك، وأن لفظه بالحاء غير منقوطة وبالراء، واستند مالك رحمه الله في أن الكيل على البائع إلى هذه الآية، وذلك ظاهر منها وليس بنص.

وقولهم: ﴿وَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ معناه:

بما بين الدراهم الجياد وهذه المزجاة، قاله السدي وغيره، وقيل: كانت الصدقة غير مُحَرَّمة على أولئك الأنبياء، وإنما حرمت على محمد ﷺ، قاله سفيان بن عيينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف يزده حديث النبي ﷺ في قوله: «نحن معاشر الأنبياء لا تحل لنا الصدقة».

وقالت فرقة: كانت الصدقة عليهم محرمة ولكن قالوا هذا تجوزاً واستعظافاً منهم في المبايعه، كما تقول لمن تساومه في سلعة: هبني من ثمنها كذا وخُذْ كذا، فلم تقصد أن يهبك، وإنما حسنت له الانفعال حتى يرجع معك إلى سومك. وقال ابن جريج: إنما خصوا بقولهم: ﴿وَصَدَّقَ عَلَيْنَا﴾ أمر أخيههم (بنيامين)، أي: أوف لنا الكيل في المبايعه، وتصدق علينا بصرف أخينا إلى أبيه.

وقولهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُصَدِّقِينَ﴾.

قال النقاش: يُقال: هو من المعارض التي هي مندوحة عن الكذب، وذلك أنهم كانوا يعتقدونه ملكاً كافراً على غير دينهم، ولو

قالوا: «إن الله يجزيك بصدقتك في الآخرة» كذبوا، فقالوا له لفظاً يوهمه أنهم أرادوه، وهم يصح لهم إخراجه منه بالتأويل.

﴿٨٩﴾ - ﴿٩٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن يوسف عليه السلام لما قال له إخوته: ﴿مَسْنَا وَأَهْلَنَا الْفَرُّ﴾ واستعطفوه - رفقاً ورحمهم، قال ابن إسحق: وازفَضْ دمه باكباً، فشرع في كشف أمره إليهم، فيروى أنه حَسَرَ قناعه وقال لهم: ﴿هَلْ عَلِمْتُمْ﴾ الآية.

وقوله: ﴿مَا كَفَلْتُمْ يَوْسُفَ وَأَخِيهِ﴾ يريد: من التفريق بينهما في الصغر، والتمرس بهما، وإذاية (بنيامين) بعد مغيب يوسف، فإنهم كانوا يذلونه ويشتمونه، ولم يشر إلى قصة (بنيامين) الأخيرة لأنهم لم يفعلوا هم فيها شيئاً، ونسبهم إنما إلى جهل المعصية، وإنما إلى جهل الشباب وقلة الحنكة، فلما خاطبهم هذه المخاطبة - وشبه أن يكون قد اقترن بها من هيته وبشره وتسمه ما ذلهم - تنبهوا ووقع لهم من الظن القوي أنه يوسف، فخاطبوه مستفهمين استفهام تقرير.

وقرأت فرقة: ﴿أَوَلَيْكَ لَأَنَّ يَوْسُفَ﴾ بتحقيق الهمزتين، وقرأت فرقة بإدخال ألف بين الهمزتين وتحقيقهما: ﴿أَيْتُكَ﴾، وقرأت فرقة بتسهيل الثانية: ﴿أَيْتُكَ﴾، وقرأ ابن مُحَيِّصن، وقتادة، وابن كثير: ﴿أَيْتُكَ﴾ على الخبر وتأكيده، وقرأ أبي بن كعب: ﴿[أَيْتُكَ] أَوْ أَنْتَ يَوْسُفَ﴾، قال أبو الفتح: ينبغي أن يكون هذا على حذف خبر (إن)،

معهما من سوء معتقد ونحوه، وقد عبّر بعض الناس عن التشريب بالتعمير، ومنه قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إذا زنت أمة أحدكم فليجلدها ولا يقرّب»، أي: لا يعبر، أخرج الشبخان في الحدود.

ووقف بعض القرّاء: ﴿عَلَيْكُمْ﴾، وابتدأ: ﴿الْيَوْمَ يَنْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ووقف أكثرهم: [اليوم]، وابتدأ: ﴿يَنْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ على جهة الدعاء، وهو تأويل ابن إسحق والطبري، وهو الصحيح، و [اليوم] ظرف، وعلى هذا فالعامل فيه ما يتعلق به ﴿عَلَيْكُمْ﴾، تقديره: لا تثريب ثابت أو مستقر عليكم اليوم. وهذا الوقف أرجح في المعنى، لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله، اللهم إلا أن يكون ذلك بوحى.

﴿٩٣﴾ - ﴿٩٤﴾ تفسير قوله عز وجل: حُكْمُهُ - بعد الأمر بإلقاء القميص على وجه أبيه - بأن أباه يأتي بصيراً ويوزل عماه - دليل على أن هذا كله بوحى وإعلام من الله تبارك وتعالى، قال النقاش: وزوي أن هذا القميص كان لإبراهيم كساه الله إياه حين خرج من النار، وكان من ثياب الجنة، وكان بعد لإسحق، ثم ليعقوب، ثم كان دفعه ليوسف فكان عنده في حفاظ من فضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله يحتاج إلى سند، والظاهر أنه قميص يوسف الذي هو بمنزلة قميص كل أحد، وهكذا تبين الغرابة في أن وجد ريحه من بعد، ولو كان من قمص الجنة لما كان في ذلك غرابة ولوجه كل أحد.

مَا تَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا الآية. هذا منهم استنزال ليوسف، وإقراء بالذنب في ضمنه استغفاراً منه، و﴿مَا تَرَكَ﴾ لفظ يعم جميع التفضيل وأنواع العطايا، والأصل فيها همزتان وحُفَّت الثانية، ولا يجوز تحقيهما، والمصدر: إيثاز.

وخاطئين: من خَطِيءٍ يَخْطَأُ، وهو المتعمد للخطي، والمُخْطِئُ: من أخطأ وهو الذي قصد الصواب فلم يوفق إليه، ومن ذلك قول الشاعر - وهو أمية بن الأسكر -:

وَإِنْ مُهَاجِرِينَ تَكْتَفَأُ
عُدَاةً عَدَلْتُ خَطَاً وَخَابَا
وقوله: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ عفو جميل، وقال عكرمة: «أوحى الله إلى يوسف: بعفوك عن إخوتك رفعت لك ذكرك». وفي الحديث أن أبا سفيان بن الحارث، وعبدالله بن أمية لما وردا مهاجرين على رسول الله ﷺ أعرض عنهما ليقبح فعلهما معه قبل، فشق ذلك عليهما وأتيا أبا بكر رضي الله عنه فكلفاه الشفاعة، فأبى، وأتيا عمر رضي الله عنه فكدلك، فذهب أبو سفيان بن الحارث إلى ابن عمه علي رضي الله عنه، وذهب عبدالله إلى أخته أم سلمة، فقال علي رضي الله عنه: الرأي أن تلتقيا رسول الله ﷺ في الحفل فتصيحان به: «تالله لقد أترك الله علينا وإن كنا لَخَاطِئِينَ»، فإنه لا يرضى أن يكون دون أحد من الأنبياء، فلا بد لذلك أن يقول: «لا تشريب عليكم»، فعلا ذلك، فقال لهما رسول الله ﷺ: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ﴾ الآية.

والتشريب: اللوم والمعقوبة وما جرى

كأنه قال: أَيْتُكَ لَعْنَةُ يَوْسُفَ أَوْ أَنْتَ يَوْسُفَ؟ وحكى أبو عمرو الداني: إن في قراءة أَبِي بِن كعب: ﴿أَوْ أَنْتَ يَوْسُفَ﴾. وتأولت فرقة ممن قرأ: ﴿إِنَّكَ﴾ أنها استفهام بإسقاط حرف الاستفهام، فأجابهم يوسف كاشفاً أمره، قال: ﴿أَنَا يَوْسُفُ وَهَذَا أَحِي﴾، وقال مجاهد: أراد: من يتق في ترك المعصية ويصبر في السجن، وقال إبراهيم النخعي: من يتق الزنى ويصبر على العزوبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقصد اللفظ إنما هو العموم في العظائم، وإنما قال: «هذان ما خصصنا» لأنها كانت من نوازل، ولو فرضنا نزول غيرها به لاتفى وصبر.

وقرأ الجمهور: ﴿يَتَّقِي﴾ بغير ياء، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿يَتَّقِي﴾ بإثبات الياء، واختلف في وجه ذلك - فقيل: قدر الياء متحركة وجعل الجزم في حذف الحركة، كما قال الشاعر:

أَلَمْ يَأْتِيكَ وَالْأَنْبَاءُ تَنْجِي
بِمَا لَأْتَتْ لَبِوُنُ بَنِي زِيَادٍ؟
قال أبو علي: وهذا مما لا نحمله عليه، لأنه يجيء في الشعر لا في الكلام، وقيل: ﴿مَنْ﴾ بمعنى الذي، و﴿يَتَّقِي﴾ فعل مرفوع، و﴿وَيَصْبِرُ﴾ عطف على المعنى، لأن ﴿مَنْ﴾ وإن كانت بمعنى الذي ففيها معنى الشرط، ونحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ذَلِكَ وَكَأَنَّ﴾، وقيل: أراد: «يصبر» بالرفع، لكنه سكن الراء تخفيفاً، كما قرأ أبو عمرو: ﴿وَيَأْتِرْكُمْ﴾ بإسكان الراء.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا تَأَلَّوْا لَقَدْ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتفتيد يقع إما لجهل المفتد، وإما لهوى غلبه، وإما لكذبه، وإما لضعفه وعجزه لذهاب عقله وهرمه، فلهذا فسر الناس التفتيد في هذه الآية بهذه المعاني، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَوْ هَرِمًا مُفْتَدًا»، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: تُسْفَهون، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: تُجْهَلُونَ، وقال ابن جبير، وعطاء: معناه: تُكْذِبُونَ، وقال ابن إسحق: معناه: تُضَعَّفُونَ، وقال ابن زيد، ومجاهد: معناه: تقولون ذهب عقلك، وقال الحسن: معناه: تهرمون.

والذي يشبه أن تفتيدهم ليعقوب عليه السلام إنما كان لأنهم كانوا يعتقدون أن هواه قد غلبه في جانب يوسف عليه السلام، قال الطبري: أصل التفتيد الإفساد.

وقولهم: ﴿لَيْ سَكَايَا﴾ يريدون: ائْتِكَايَا وتَحْيِرِكَ، وليس هو بالضلال الذي هو في العرف ضد الرشاد، لأن ذلك من الجفاء الذي لا يسوغ لهم مواجهته به، وقد تأوله بعض الناس على ذلك، ولهذا قال قتادة رحمه الله: قالوا لوالدهم كلمة غليظة لم يكن ينبغي لهم أن يقولوها لوالدهم ولا لنبي الله عليه السلام. وقال ابن عباس: المعنى: لقي خطئك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان حزن يعقوب قد تجدد بقصة (بنيامين)، فلذلك يقال له: ذو الحزينين.

﴿٩٦﴾ - ﴿٩٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما

وروي أنه كان بينهما ثمانون فرسخاً، قاله الحسن، وابن جريج، قال: وقد كان فارقه قبل ذلك سبعاً وسبعين سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قريب من الأول. ورُوي أنه كان بينهما مسيرة ثلاثين يوماً، قاله الحسن بن أبي الحسن، ورُوي عن أبي أيوب الهوزني أن الريح استأذنت في أن توصل عرف يوسف إلى يعقوب، فأذن لها في ذلك، وكانت مخاطبة يعقوب هذه لحاضريه، ورُوي أنهم

كانوا حَفَدَتَهُ، وقيل: كانوا بعض بنيه، وقيل: كانوا قرابته.

﴿تَفْتِدُونَ﴾ معناه: تُرْذُونَ رأيي وتُدفعون في صدري، وهذا هو التفتيد في اللغة، ومن ذلك قول الشاعر:

يا عاذلِّي ذعا لؤمي وتفتيدي
فليس ما فات من أمري بمزدود
ويقال: «أفتد الدهر فلاناً» إذا أفسده، قال ابن مقبل:

ذع الدهر يفعل ما أراد فيأته
إذا كلف الإفساد بالناس أفتدا
ومما يعطي أن الفتد: الفساد في الجملة قول النابغة:

إلا سُلَيْمَانَ إذ قال الإله له
فم في البرية فاخذها عن الفتد
وقال منذر بن سعيد: يقال: شيخ مُفْتَدٌ، أي قد فسد رأيه، ولا يقال: عجوز.

فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرَ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بِصِرَافٍ قَالِ
لَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا
يَتَّبَعْنَا مَا نَتَّبِعُكَ لِنُؤْيِبَكَ إِنَّا كُنَّا حُطْبَيْنِ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ
أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا
دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبْوِيهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ
إِن شَاءَ اللَّهُ ءَايِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبْوِيهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا
لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا
رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكَ
مِنَ اللَّيْلِ وَمِنَ عَدَنِ النَّجْعِ السِّطْرَ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ
رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ رَبِّ
قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي
مُسْلِمًا وَالْحَقِّي بِالصَّلَاحِينَ ﴿١٠١﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ
نُوْحِيَ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ
﴿١٠٢﴾ وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾

٢١٧

وأما «أهلهم» فُرُوي أنهم كانوا ثمانين نسمة، وقيل: ستة وسبعين نفساً بين رجالٍ ونساء، وفي هذا العدد دخلوا مصر ثم خرج منها أعقابهم مع موسى في ستمائة ألف، وذكر الطبري عن السدي أنه لما كشف أمره لإخوته سألهم عن أبيهم: ما حاله؟ فقالوا: ذهب بصره من البكاء، فحينئذ قال لهم: «أَذْهَبُوا بِمِصْرِي» الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ﴾ الآية. معناه: فصلت العير من مصر متوجهة إلى موضع يعقوب حسبما اختلف فيه، فقيل: كان على مقربة من بيت المقدس، وقيل: كان بالجزيرة، والأول أصح، لأن آثارهم وقبورهم حتى الآن هناك، ورُوي أن يعقوب وجد ريح يوسف وبينه وبين القميص مسيرة ثمانية أيام، قاله ابن عباس، وقال: هاجت ريح فحملت عُرْفَه،

أن البشير كان يهوداً لأنه كان جاءه بقميص الدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: حدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري على المنبر بمصر يقول: إن يوسف عليه السلام لما قال: ﴿أَدْخِلُوا بِيَمِينِي هَذَا فَاَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي﴾ قال يهوداً: قد علمت أنني ذهبت إليه بقميص الترحمة فدعوني أذهب إليه بقميص الفرحة، فتركوه وذلك. وقال هذا المعنى السدي.

و ﴿فَأَزِيدَهُ﴾ معناه: رجع هو، يقال: ارتد الرجل ورده غيره، و﴿بَصِيرًا﴾ معناه: مبصرًا. ثم وقفهم على قوله لهم: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾، وهذا - والله أعلم - هو انتظاره لتأويل الرؤيا، ويحتمل أن يشير إلى حسن ظنه بالله تعالى فقط. وروي أنه قال للبشير: على أي دين تركت يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الحمد لله، الآن تمت النعمة. وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿فلما أن جاء البشير من بين يدي العير﴾، وحكى الطبري عن بعض النحويين أنه قال: ﴿أَنْ﴾ في قوله: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ﴾ زائدة، والعرب تزيدها أحياناً في الكلام بعد (لما) وبعد (حتى) فقط، تقول: لما جئت كان كذا، ولما أن جئت، وكذلك تقول: ما قام زيد حتى قمت، وحتى أن قمت.

وقوله: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَفْزِرْنَا دُونََنَا إِنَّا كُنَّا خَطِيئِينَ﴾. روي

أن يوسف عليه السلام لما غفر لإخوته وتحققوا أيضاً أن يعقوب يغفر لهم قال بعضهم لبعض: ما يغني عنا هذا إن لم يغفر الله لنا، فطلبوا حينئذ من يعقوب أن يطلب لهم المغفرة من الله تعالى، واعترفوا بالخطأ، فقال لهم يعقوب: ﴿سَوْفَ أَسْتَفْزِرُ لَكُمْ رَبِّي﴾، قالت فرقة: سَوْفَهُمْ إِلَى السُّحْرِ، وروي عن محارب بن دثار أنه قال: كان لي عم يأتي المسجد، فسمع إنساناً يقول: «اللهم دعوتني فأجبت، وأجبتني فأطعت، وهذا سحرٌ فاغفر لي»، فاستمع الصوت فإذا هو من دار عبدالله بن مسعود، فسئل عبدالله بن مسعود عن ذلك فقال:

إن يعقوب عليه السلام آخر بنه إلى السُّحْرِ، وَيُقوي هذا التأويل قولُ النبي ﷺ: «ينزل ربنا كل ليلة إذا كان الثلث الآخر إلى سماء الدنيا فيقول: من يدعوني فأستجيب له؟ من يستغفرني فأغفر له...»، الحديث، ويقويه قوله تبارك وتعالى: ﴿رَالسُّنَّيْنِ بِالْأَسْحَارِ﴾. وقالت فرقة: إنما سَوْفَهُمْ يعقوب إلى قيام الليل، وقالت فرقة - منهم سعيد بن جبير -: سَوْفَهُمْ يعقوب إلى الليالي البيض، فإن الدعاء فيهن يستجاب، وقيل: إنما أخرجهم إلى ليلة الجمعة، وروي ابن عباس هذا التأويل عن النبي ﷺ، قال: «أخرجهم يعقوب حتى تأتي ليلة الجمعة».

ثم رجَّاهم يعقوب عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾.

وقوله: ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا﴾ الآية. ها هنا محذوفات يدل عليها الظاهر، وهي: فرحل يعقوب بأهله أجمعين وساروا حتى بلغوا يوسف، فلما دخلوا عليه. و﴿أَوْكَى﴾ معناه: ضَمَّ وأظهر الحفاوة بهما، وفي الحديث: «أما أحدهم فأوى إلى الله فأواه الله». وقيل: أراد بالأبوين أباه وأمه، قاله ابن إسحق، والحسن، وقال بعضهم: أباه وجدته أم أمه، حكاه الزهراوي، وقيل: أباه وخالته، لأن أمه قد كانت ماتت، قاله السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر بحسب اللفظ، إلا لو ثبت بسند أن أمه قد كانت ماتت، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿أوى إليه أبويه وإخوته﴾.

وقوله: ﴿أَدْخَلُوا بَصْرًا﴾ معناه: تمكنوا واسكنوا واستقروا، لأنهم قد كانوا دخلوا عليه، وقيل: بل قال لهم ذلك في الطريق حين تلقاهم، قاله السدي، وهذا الاستثناء هو الذي ندب إليه القرآن أن يقوله الإنسان في جميع ما ينفذه بقوله في المستقبل، وقال ابن جريج: هذا مؤخر في اللفظ وهو متصل في المعنى بقوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَفْزِرُ لَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا التأويل ضعف.

و ﴿الْمَرْثَى﴾: سرير المُلْك، وكل ما عُرِّش فهو عريش وعرش، وخصصت اللغة العرش لسرير المُلْك. و﴿خُرَّأً﴾ معناه: تصوبوا نحو الأرض، واختلف في هذا

النعمة بسكون الحاضرة، وكان منزل يعقوب عليه السلام بأطراف الشام في بادية فلسطين، وكان ربّ إبل وغنم وبادية.

﴿نَزَعَ﴾ معناه: فَعَلَ فعلاً أنسد به، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يُشْرُخُ أحدكم على أخيه بالسلاح، لا ينزغ الشيطان في يده»، وإنما ذكر يوسف هذا القدر من أمر إخوته ليبيّن حسن موقع النعم، لأن النعمة إذا جاءت إثر شدة وبلاء فهي أحسن موقعاً.

وقوله: ﴿لَمَّا بَشَأَ﴾ أي: من الأمور أن يفعله.

واختلف الناس في: كم كان بين رؤيا يوسف وبين ظهورها؟ فقالت فرقة: أربعون سنة، هذا قول سليمان الفارسي، وعبدالله بن شداد، وقال عبدالله بن شداد: ذلك آخر ما تبطئ الرؤيا، وقالت فرقة - منهم الحسن، وحسن بن فرقد، وفضيل بن عياض -: ثمانون سنة، وقال ابن إسحق: ثمانية عشر، وقيل: اثنان وعشرون، قاله النقاش، وقيل: ثلاثون، وقيل: خمس وثلاثون، وقيل: إن يوسف عليه السلام عمّر مائة وعشرين سنة، وقيل: إن يعقوب بقي عند يوسف نيفاً على عشرين سنة ثم توفي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا وجه في ترك تعريف يوسف أباه بحاله منذ خرج من السجن إلى العيزة إلا الوحي من الله تعالى لما أراد أن يمتهن به يعقوب وبنيه، وأراد من

من لا يضررك ولا ينفعك؟ قال: يا ربّ، ذنب فاغفره. وقال أبو عمرو الشيباني: تقدم يوسف يعقوب في المشي في بعض تلك المواطن، فهبط جبريل فقال له: أنتقدم أباك؟ إن عقوبتك لذلك ألا يخرج من ذُرَّتِكَ نبي.

﴿١٠٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قال يوسف ليعقوب: هذا السجود الذي كان منكم هو ما آلت إليه رؤياي قديماً في الأحد عشر كوكباً وفي الشمس والقمر.

وقوله: ﴿قَدْ جَمَلْنَا رَبِّ حَقًّا﴾ ابتداءً تعديد نعم الله تعالى عليه، وقوله: ﴿وَقَدْ أَحْسَنَ بِي﴾ أي: أوقع وناط إحسانه بي، فهذا منحى في وصول الإحسان بالباء، وقد يقال: أَحْسَنَ إِلَيَّ، وأحسن في، ومنه قول عبدالله بن أبي ابن سلول: يا محمد، أحسن في مواليتي، وهذه المناحي مختلفة المعنى، وأليقها بيوسف قوله: ﴿بِي﴾ لأنه إحسان خُرج فيه دون أن يقصد هو الغاية التي صار إليها.

وذكر يوسف إخراجه من السجن وترك إخراجه من الجب لوجهين:

أحدهما أن في ذكر إخراجه من الجب تجديد فعل إخوته وحزيبهم بذلك وتقليع نفوسهم وتحريك تلك الغوائل وتخييب النفوس.

والوجه الآخر أنه خرج من الجب إلى الرق ومن السجن إلى الملك، فالنعمة هنا أوضح.

وقوله: ﴿وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ﴾ يعم جمع الشمل والتنقل من الشقاوة إلى

السجود، فقيل: كان كالمعهود عندنا من وضع الجبهة بالأرض، وقيل: بل دون ذلك كالركوع البالغ ونحوه مما كان سير تحياتهم للملوك في ذلك الزمان. وأجمع المفسرون أن ذلك السجود - على أي هيئة كان - فإنما كان تحية لا عبادة، قال قتادة: هذه كانت تحية الملوك عندهم، وأعطى الله هذه الأمة السلام تحية أهل الجنة، وقال الحسن: الضمير في ﴿لَكُمْ﴾ لله عز وجل. ورُدَّ على هذا القول.

وحكى الطبري أن يعقوب لما بلغ مصر في جملته كلم يوسف عليه السلام فرعون في تلقيه، فخرج إليه وخرج الملوك معه، فلما دنا يوسف من يعقوب - وكان يعقوب يمشي متوكئاً على يهودا - قال: فنظر يعقوب إلى الخيل والناس فقال: يا يهودا، هذا فرعون مصر، قال: لا، هو ابنك، قال: فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه ذهب يوسف يبدأ بالسلام، فمنعه يعقوب من ذلك، وكان يعقوب أحق بذلك منه وأفضل، فقال: السلام عليك يا مُذْهِبَ الأَحْزَانِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونحو هذا من القصص.

وفي هذا الوقت قال يوسف ليعقوب: إن فرعون قد أحسن إلينا فادخل عليه شاكرأ، فدخل عليه، فقال فرعون: يا شيخ، ما صيرك إلي ما أرى؟ قال: تتابع البلاء عليّ، قال: فما زالت قدمه حتى نزل الوحي: يا يعقوب، أتشكوني إلى

صورة جمعهم، لا إله إلا هو، وقال النقاش: كان ذلك الوحي في الجب، وهو قوله تعالى: ﴿وَأَرْحَمَنَا إِلَهِو لَتُنَبِّئَهُنَّ بِأَمْرِهِمْ هَكَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾، وهذا محتمل.

ومما روي في أخبار يعقوب عليه السلام: قال الحسن: لما ورده البشير لم يجد عنده شيئاً يشبه به، فقال له: والله ما أصبت عندنا شيئاً، وما خبزنا منذ سبع ليال، ولكن: ﴿هَوْنُ اللَّهِ عَلَيْكَ سَكَرَاتِ الْمَوْتِ﴾. ومن أخباره أنه لما اشتد بلاؤه قال: يا رب، أعميت بصري وغيبت عني يوسف، أما ترحمني؟ فأوحى الله إليه: سوف أرحمك وأرُدُّ عليك ولدك وبصرك، وما عاقبتك بذلك إلا أنك طبخت في منزلك حملاً، فشمه جاز لك، ولم تساهمه بشيء، قال: فكان يعقوب بغد يدعو إلى غذائه وعشائه. وحكى الطبري أنه لما اجتمع شمله كلفه بنوه أن يدعو الله لهم حتى يأتي الوحي بأن الله قد غفر لهم، قال: فكان يعقوب يصلي ويوسف وراءه وهم وراء يوسف، ويدعو لهم، فلبث كذلك عشرين سنة ثم جاءه الوحي: إني قد غفرت لهم وأعطيتهم موثيق النبوة بعدك.

ومن أخباره أنه لما حضرته الوفاة أوصى إلى يوسف أن يدفنه بالشام، فلما مات نفخ فيه المرَّ وحمله إلى الشام، ثم مات يوسف فدفن بمصر، فلما خرج موسى عليه السلام - بعد ذلك - من أرض مصر احتمل عظام يوسف حتى دفنها بالشام مع آبائه.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن مسعود: ﴿آتَيْتَنِي﴾ و

﴿عَلَّمْتَنِي﴾ بحذف الياء على التخفيف، وقرأ ابن ذرُّ وحده: ﴿رَبِّ آتَيْتَنِي﴾ بغير «قد».

وذكر كثير من المفسرين أن يوسف عليه السلام لما عدَّد في هذه الآية نعم الله عنده تشوَّق إلى ربه ولقاءه الجِلَّة من صالحى سلفه وغيرهم من المؤمنين، ورأى أن الدنيا كلها قليلة، فتمنى الموت في قوله: ﴿وَوَفَّىٰ مُسْلِمًا وَالْحَقَّ بِالْمَلْئِكِينَ﴾.

وقال ابن عباس: «لم يتمن الموت نبي غير يوسف»، وذكر المهدي تأويلاً آخر - وهو الأقوى عندي - : إنه ليس في الآية تمنى موت، وإنما عدَّد يوسف عليه السلام نعم الله عنده، ثم دعا أن يتم عليه النعم في باقي عمره، أي: توفني - إذا حان أجلي - على الإسلام، واجعل لحاتي بالصالحين، وإنما تمنى الموافاة على الإسلام لا الموت. وورد عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَتَمَنَّيَنَّ أَحَدُكُمْ الْمَوْتَ لِيُضْرَ نَزْلَ بِهِ...» الحديث بكامله، ورُوي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال في بعض دعائه: «وإذا أردت في الناس فتنة فاقبضني إليك غير مفتون»، ورُوي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «اللَّهُمَّ قَد رُقَّ عَظْمِي، وَاسْتَشْرَتْ رَغْبَتِي، فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَقْصُرٍ وَلَا عَاجِزٍ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيشبه أن قول النبي ﷺ: «لِيُضْرَ نَزْلَ بِهِ» إنما يريد به ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك، ويبقى تمنى الموت مخافة فساد الدين مباحاً، ويدل ذلك على ذلك قول النبي ﷺ:

«يأتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول: يا ليتني مكانه، ليس به الدين ولكن ما يرى من البلاء والفتن»، فقوله: «ليس به الدين» يقتضي إباحة ذلك إن لو كان عن الدين، وإنما ذكر رسول الله ﷺ حالة الناس كيف تكون.

وقوله: ﴿هَاتَيْتَنِي مِنَ الْكُلِّ﴾، قيل: ﴿مِنَ﴾ للتبعيض، وقيل: لبيان الجنس، كذلك في قوله: ﴿مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ﴾، والمراد بقوله: ﴿الْأَحَادِيثِ﴾: الأحلام، وقيل: قصص الأنبياء والأمم.

وقوله: ﴿فَاطِرَ﴾ منادى، وقوله: ﴿أَنْتَ وَرَبِّي﴾ أي القائم بأمرى، الكفيل بنصرتي ورحمتي.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنَ أَنْبَاءِ النَّبِيِّ﴾ الآية. ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما تقدم من قصة يوسف، وهذه الآية ترميز لقريش، وتنبه على آية صدق محمد ﷺ، وفي ضمن ذلك الطعن على مكذبيه. والضمير في ﴿لَدَيْهِ﴾ عائد إلى إخوة يوسف، وكذلك الضمائر إلى آخر الآية. و﴿أَجْمَعُوا﴾ معناه: عزموا وجزموا، و«الأمر» هنا هو إلقاء يوسف في الجب، و«المكز» هو أن تدبر على الإنسان تدبيراً يضره ويؤذيه، والخديعة هي أن تفعل بإنسان وتقول له ما يوجب أن يفعل هو فعلاً فيه عليه ضرر. وحكى الطبري عن أبي عمران الجوني أنه قال: «والله ما قصَّ الله نبأهم ليعيرهم بذلك، إنهم لأنبياء من أهل الجنة، ولكن قصَّ الله علينا نبأهم لثلا يقنط عيده».

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ﴾ الآية. قال ابن عباس: هي في أهل الكتاب الذين يؤمنون بالله ثم يشركون من حيث كفروا بنبيه، أو من حيث قالوا: عزير ابن الله، والمسيح ابن الله، وقال عكرمة، ومجاهد، وقناة، وابن زيد: هي في كفار العرب، وإيمانهم هو إقرارهم بالخالق والرازق والمميت، فسماه إيماناً وإن أعقبه إشراكهم بالأوثان والأصنام، فهذا الإيمان لغوي فقط من حيث هو تصديق ما. وقيل: هذه الآية نزلت بسبب قول قريش في الطواف والتلبية: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك، وروي أن النبي ﷺ كان إذا سمع أحدهم يقول: «لا شريك لك»، يقول له: «قط قط»، أي: قف هنا ولا تزد: «إلا شريك هو لك».

و «الغاشية»: ما يغشى ويغطي ويغم، وقرأ أبو حفص، وبشر بن عبيد: ﴿أَوْ يَأْتِيهِمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ بالياء و «بَغْتَةً» معناها: فجأة، وذلك أصعب.

وهذه الآية من قوله: ﴿وَكَايْنٍ﴾ وإن كانت في الكفار بحكم ما قبلها، فإن العصاة يأخذون من ألفاظها بحظ، ويكون الإيمان والشرك لغوياً كالرياء، فقد قال ﷺ: «الرياء الشرك الأصغر».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي﴾ الآية، إشارة إلى دعوة الإسلام والشريعة بأسرها، قال ابن زيد: المعنى: هذا أمري وسئتي ومنهاجي. وقرأ ابن مسعود: ﴿قُلْ

لجميع العالم، نفعنا الله به، ووفر حفظنا منه بعزته. وقرأت الجماعة: ﴿وَكَايْنٍ﴾ بهمز الألف وشد الياء، قال سيويه: هي كافي التشبيه اتصلت بـ (أي)، ومعناها معنى (كم) في التكشير، وقرأ ابن كثير: ﴿وَكَايْنٍ﴾ بمد الألف وهمز الياء، وهو اسم الفاعل من (كان) فهو كائن، ولكن معناه معنى (كم) أيضاً. وقد تقدم استيعاب القراءات في هذه الكلمة في قوله: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَهُ﴾.

و «الآية» هنا: المخلوقات المنصوبة للاعتبار، والحوادث الدالة على الله سبحانه في مصنوعاته، ومعنى ﴿يَمْزُورَ عَلَيْهَا﴾ الآية: إذا جاء منها ما يحس أو يعلم في الجملة لم يتعظ الكافر به، ولا تأمله، ولا اعتبر به بحسب شهوته وعمه، فهو - لذلك - كالمغرض، ونحو هذا المعنى قول الشاعر:

تَمُرُ الصَّبَا صَفْحًا يَسَاكِينُ ذِي الْعَضَا
وَيَضْدَعُ قَلْبِي أَنْ يَهْبُ هَبُوبُهَا
وقرأ السدي: ﴿وَالْأَرْضُ﴾ بالنصب بإضمار فعل، والوقف - على هذا - في ﴿السَّمَوَاتِ﴾، وقرأ عكرمة، وعمرو بن فائد: ﴿وَالْأَرْضُ﴾ بالرفع على الابتداء، والخبر قوله: ﴿يَمْزُورَ﴾، وعلى القراءة بخفض ﴿الْأَرْضِ﴾ فـ ﴿يَمْزُورَ﴾ نعت لـ «الآية»، وفي مصحف عبدالله: ﴿وَالْأَرْضُ يَمْشُونَ عَلَيْهَا﴾.

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٠٢﴾
وَكَايْنٍ مِنَ آيَاتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمْزُورَ عَلَيْهَا
وَهُمْ عَنْهَا مَعْرِضُونَ ﴿١٠٣﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا
وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٤﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ
أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٥﴾ قُلْ هَذِهِ
سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ
اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ
إِلَّا رِجَالًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَا يَنْبَغِي أَنَّ
الْأَرْضَ يَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَقِيبَةَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٠٧﴾ حَتَّى
إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ
نَصْرُنَا فَنُجِّى مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَلَى الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ
﴿١٠٨﴾ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةً لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ
حَدِيثًا يَفْتَرُونَ وَلَكِنْ تَصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ
وَتَفْصِيلٌ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾

١٠٢ - ١٠٨ تفسير قوله عز وجل:

هاتان الآيتان تدلان على أن الآية التي قبلها فيها تعريض لقريش ومعاصري محمد ﷺ، كأنه قال: فأخبارك بالغيوب دليل قائم على نبوتك، ولكن أكثر الناس لا يؤمنون وإن كنت أنت حريصاً على إيمانهم، أي: إنما يؤمن من شاء الله، وقوله: ﴿وَلَوْ حَرَصْتَ﴾ اعتراض فصيح.

وقوله: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾ الآية، توبيخ للكفرة، وإقامة للْحُجَّةِ عليهم، أي: ما أسفهم في أن تدعوهم إلى الله دون أن تبتغي منهم أجراً فيقول: قائل: بسبب الأجر يدعوهم، وقرأ مبشر بن عبيد: ﴿وَمَا تَسْأَلُهُمْ﴾ بالنون.

ثم ابتدأ الله تبارك وتعالى الإخبار عن كتابه العزيز أنه ذكر وموعظة

هَذَا سَبِيلِي»، والسبيل: المسلك، وتَوَثُّتْ وتَذَكَّرَتْ، وكذلك الطريق.

و «الْبَصِيرَةُ»: اسم لمعتقد الإنسان في الأمر من الحق واليقيين، والبصيرة أيضاً - في كلام العرب -: الطريقة من الدَّم، وفي الحديث المشهور: «تَنْظُرُ فِي النَّصْلِ فَلَا تَرَى بَصِيرَةً»، وبها فسَّرَ بعض الناس قول الأشعر الجعفي:

رَاحُوا بِصَايِرِهِمْ عَلَى أَكْتَاْفِهِمْ
وَبَصِيرَتِي يَغْدُو بِهَا عَيْدٌ وَأَيُّ
يُصِفُ قَوْمًا بَاعُوا دَمَ وَوَلِيَّهُمْ، فَكَأَنَّ
دَمَهُ حَصَلَتْ مِنْهُ طَرَائِقُ عَلَى أَكْتَاْفِهِمْ
إِذْ هُمْ مُوسِمُونَ عِنْدَ النَّاسِ بِبَيْعِ
ذَلِكَ الدَّمِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجوز أن تكون البصيرة في بيت الأشعر على المعتقد الحق، أي: جعلوا اعتقادهم طلب الشار وبصيرتهم في ذلك وراء ظهورهم، كما تقول: طرح فلان أمري وراء ظهره.

وقوله: «أَنَا وَمَنْ أَتَّبَعْتِي» يحتمل أن يكون تأكيداً للضمير في «أَدْعُوا»، ويحتمل أن تكون الآية كلها أمارة بالمعروف داعية إلى الله الكفرة به والعصاة. و«سَبَّحَنَ اللَّهُ» تنزيه لله، أي وقل: سبحان الله، وقل متبرئاً من الشرك.

وروي أن هذه الآية «قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي» إلى آخرها كانت مرقومة على رايات يوسف عليه السلام.

١٠٩ - (١١٠) تفسير قوله عز وجل: هذه الآية تتضمن الرد على مستغربي إرسال الرسل من البشر،

كالطائفة التي قالت: «أَمَتَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا»، والطائفة التي اقترحت ملكاً، وغيرهما.

وقرأ الجمهور: «يُوْحَىٰ إِلَيْهِمْ» بالياء وفتح الحاء، وهي قراءة عاصم في رواية أبي بكر، وقرأ في رواية حفص: «فُوْحَىٰ» بالنون وكسر الحاء، وهي قراءة أبي عبدالرحمن، وطلحة.

و «الْقُرَى»: المدن، وخصصها دون القوم المنتوين أهل العمود، فإنهم في كل أمة أهل جفاء وجهالة مفرطة، قال ابن زيد: أهل القرى أعلم وأحلم من أهل العمود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإنهم قليل نبيلهم، ولم يُنْبِئْهُ اللهُ منهم قط رسولاً. وقال الحسن: لم يبعث الله رسولاً قط من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتَّبْدِي مكرهه إلا في الفتن وحين يُفَرُّ بالدين، كقوله عليه الصلاة والسلام: «يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً...» الحديث. وفي ذلك أذن رسول الله ﷺ لِسَلْمَةَ بن الأَكْوَع. وقد قال ﷺ: «لَا تَعْرُبُ فِي الإِسْلَامِ»، وقال: «مَنْ بَدَا جَفَاً»، وروى عنه معاذ بن جبل رضي الله عنه أنه قال: «الشيطان ذئب الإنسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية، فيأياكم والشعاب، وعليكم بالمساجد والجماعات والعامّة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويعترض هذا يبدو يعقوب، وينفصل عن ذلك بوجهين:

أحدهما: أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود، بل هو بَشَرٌ وفي منازل وربوع، والثاني: أنه إنما جعله بدواً بالإضافة إلى مصر، كما هي بنات الحواضر بدو بالإضافة إلى الحواضر.

ثم أحالهم على الاعتبار في الأمم السالفة في أقطار الأرض التي كذبت رسلها فحاق بها عذاب الله، ثم حضَّ على الآخرة والاستعداد لها والاتقاء من الموبقات فيها، ثم وقفهم موبخاً بقوله: «أَفَلَا تَعْقِلُونَ».

وقوله: «وَلَدَارُ الْآخِرَةِ» زيادة في وصف إنعامه على المؤمنين، أي: عذب الكفار ونجى المؤمنين ولدار الآخرة أحسن لهم.

وأما إضافة الدار إلى الآخرة فقال الفراء: هي إضافة الشيء إلى نفسه، كما قال الشاعر:

فإنك لو خللت ديار عَنَسٍ
عرفت السدل عرْفان اليقين
وفي رواية: «فَلَوْ أَفْوَتْ عَلَيْكَ دِيَارُ عَنَسٍ» - وكما يقال: «مسجد الجامع» ونحو هذا، وقال البصريون: هذه على حذف مضاف تقديره: «ولدار الحياة الآخرة»، أو «المدّة الآخرة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الأسماء التي هي للأجناس كمسجد وثوب وحق وجبل ونحو ذلك - إذا نطق بها الناطق لم يُدْرَ ما يريد بها فتضاف إلى مُعْرِفٍ مُخَصَّصٍ للمعنى

المقصود، فقد تضاف إلى جنس آخر كقولك: «تَوْبُ خَزْءٍ»، و «جَبَلُ تَرَابٍ»، وقد تضاف إلى صفة كقولك: «مَسْجِدُ الْجَامِعِ» و «حَقُّ الْيَقِينِ»، وقد تضاف إلى اسم خاص كقولك: «جَبَلُ أُخْدٍ» ونحوه.

وقرأ الحسن، والأعمش، والأعرج، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وعلقمة: «يَنْقَلِبُونَ» بالياء، واختلف عن الأعمش، قال أبو حاتم: قراءة العامة: «أَفَلَا تَمَقَّلُونَ» بالياء من فوق.

ويتضمن قوله: «أَفَلَا يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ» أن الرسل الذين بعثهم الله من أهل القرى دعوا أممهم فلم يؤمنوا بهم حتى نزلت بهم الملائك، فصاروا في حيز من يُعتبر بعاقبته، فلهذا المُضْمَن حَسَنٌ أَنْ تَدْخُلَ «حتى» في قوله: «حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ».

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، وعائشة - بخلاف - وعيسى، وقتادة، ومحمد بن كعب، والأعرج، وأبو رجاء، وابن أبي مَلَيْكَةَ: «كُذِّبُوا» بتشديد الذال وضم الكاف، وقرأ الباقون: «كُذِّبُوا» بضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها، وهي قراءة علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطلحة، والأعمش، وابن جبير، ومسروق، والضحاك،

وإبراهيم، وأبي جعفر، ورواها شيبه بن نصح عن القاسم عن عائشة، وقرأ مجاهد، والضحاك، وابن عباس، وعبدالله بن الحارث - بخلاف عنهم -: «كُذِّبُوا» بفتح الكاف والذال.

فأما الأولى فتحتمل أن يكون الظن بمعنى اليقين، ويكون الضمير في «ظَنُّوا» وفي «كُذِّبُوا» الرسل، ويكون المكذوبون مشركي من أرسل إليه، والمعنى: وتيقن الرسل أن المشركين كذبوهم وصمموا على ذلك، وأن لا انحرف عنه. ويحتمل أن يكون الظن على بابه، والضميران للرسل، والمكذوبون مؤمنو من أرسل إليه، أي: لما طالت المواعيد حسب الرسل أن المؤمنين أولاً قد كذبوهم وارتابوا بقولهم.

وأما القراءة الثانية - وهي ضم الكاف وكسر الذال وتخفيفها - فيحتمل أن يكون المعنى: حتى إذا استيسس الرسل من النصر، أو من إيمان قومهم - على اختلاف تأويل المفسرين في ذلك - وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادَّعَوْهُ من النبوة، أو فيما توعدوهم به من العذاب، لما طال الإمهال واتصلت العافية، فلما كان المرسل إليهم - على هذا التأويل - مكذبين، بني الفعل للمفعول في قوله: «كُذِّبُوا»، هذا مشهور قول ابن عباس، وابن جبير. وأسند الطبري أن مسلم بن يسار قال لسعيد بن جبير: يا أبا عبدالله، آية بلغت مني كل مَبْلَغ،

«حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا»، فهذا هو أن تظن الرسل أنهم قد كُذِّبُوا مخففة، فقال له ابن جبير: «يا أبا عبدالله الرحمن، إنما يسر الرسل من قومهم أن يجيبوهم، وظن قومهم أن الرسل قد كُذِّبُوا، فحينئذ جاء النصر»، فقام مسلم إلى سعيد فاعتنقه وقال: فَرَّجْتَ عَنِّي فَرْجَ اللَّهِ عَنكَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فرضي الله عنهم، كيف كانت خلقهم في العلم، وقال بهذا التأويل - في هذه القراءة - ابن مسعود ومجاهد، ورجح أبو علي الفارسي هذا التأويل، وقال: إن ردَّ الضمير في «ظَنُّوا» وفي «كُذِّبُوا» على المرسل إليهم - وإن كان لم يتقدم لهم ذكْرٌ صريح - جائز لوجهين:

أحدهما: أن ذكر الرسل يقتضي ذكر مرسل إليه.

والآخر: أن ذكرهم قد أشير إليه في قوله: «عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ».

وتحتمل هذه القراءة أيضاً أن يكون الضمير في «ظَنُّوا» وفي «كُذِّبُوا» عائد على الرسل، والمعنى: كُذِّبُوا من أخبرهم عن الله، والظن على بابه، وحكى هذا التأويل قوم من أهل العلم، والرُّسُلُ بشرٌ، فضعفوا وساء ظنهم، قاله ابن عباس: وابن مسعود أيضاً: وابن جبير وقال: ألم يكونوا بشرأ؟ وقال ابن مسعود لمن سأله عن هذا: «هو الذي نكَّره»، وردت هذا التأويل عائشة أم المؤمنين

رضي الله عنها وجماعة من أهل العلم، وأعظموا أن توصف الرسل بهذا، وقال أبو علي الفارسي: «هذا غير جائز على الرسل».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصواب، وأين العصمة والعلم؟

وأما القراءة الثالثة، وهي فتح الكاف والذال، فالضمير في ﴿ظَنُّوا﴾ للمرسَل إليهم، والضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ للرسل. ويحتمل أن يكون الضميران للرسل، أي: ظن الرسل أنهم قد كذبوا من حيث نقلوا الكذب وإن كانوا لم يتعمدوه، فيرجع هذا التأويل إلى المعنى المردود الذي تقدم ذكره.

وقوله: ﴿جَاءَهُمْ نَصْرًا﴾ أي: تعذيب أممهم الكافرة.

ثم وصف حال مجيء العذاب في أنه ينجي الرسل وأتباعهم، وهم الذين شاء رحمتهم، ويحل بأسه بالمجرمين الكفرة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿فَتُنَجِّي﴾

بنونين، من أنجى. وقرأ الحسن:

﴿فَتُنَجِّي﴾، النون الثانية مفتوحة والجيم مشددة، وهو من نجى يُنَجِّي. وقرأ أبو عمرو أيضاً وقتادة: ﴿فَتُنَجِّي﴾ بنون واحدة وشُدَّ الجيم وسكون الياء، فقالت فرقة: إنها كالأولى أدغمت النون الثانية في الجيم، ومنع بعضهم أن يكون هذا موضع إدغام لتنافر النون والجيم في الصفات لا في المخارج، وقال: إنما حذفت

النون في الكتابة لا في اللفظ، وقد حكيت هذه القراءة عن الكسائي، ونافع، وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿فَتُنَجِّي﴾ بفتح الياء، على وزن فُعَلْ، وقرأت فرقة: ﴿فَتُنَجِّي﴾ بنونين وفتح الياء، رواها هبيرة عن حفص عن عاصم، وهي غلط من هبيرة.

وقرأ ابن محيصن، ومجاهد: ﴿فَتُنَجَّا﴾ فعل ماض بتخفيف الجيم، وهي قراءة نصر بن عاصم، والحسن بن أبي الحسن، وابن السميع، وأبي حنيفة. قال أبو عمرو الداني: «وقرأت لابن محيصن: ﴿فَتُنَجِّي﴾ بشد الجيم»، على معنى: فَتُنَجِّي النَّصْرَ.

و«البأس»: العذاب، وقرأ أبو حنيفة: ﴿مَنْ يَشَاءُ﴾ بالياء، وجاء الإخيار عن هلاك الكافرين بقوله: ﴿وَلَا يَرْدُّ بَأْسَنَا﴾ الآية، إذ في هذه الألفاظ وعيد بين، وتهديد لمعاصري محمد عليه الصلاة والسلام، وقرأ الحسن: ﴿بِأْسُهُ﴾ بالهاء.

﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿فَصَمِّمَهُمْ﴾ عام ليوسف وأبويه وإخوته وسائر الرسل الذين ذكروا على الجملة، ولما كان ذلك كله في القرآن قال عنه: ﴿مَا كَانَ حَويِبًا يَفْتَرُونَ﴾، فإذا تأملت قصة يوسف ظهر أن في غرائبها، وامتحان الله فيها لقوم في مواضع، ولطيفه لقوم في مواضع، وإحسانه لقوم في مواضع - معتبراً لمن له لبٌ وأجاد النظر

حتى يعلم أن كل أمر من عند الله تبارك وتعالى وإليه.

وقوله: ﴿مَا كَانَ﴾ صيغة منع، وقرينة الحال تقتضي أن البرهان يقوم على أن ذلك لا يُفْتَرَى، وذلك بأدلة النبوة وأدلة الإعجاز.

و«الحديث» هنا واجد الأحاديث، وليس للذي هو خلاف القديم ما هنا مدخل.

ونصب ﴿تَصَدِّقَ﴾ إما على إضمار معنى كان، وإما على أن تكون ﴿لَكِنَّ﴾ بمعنى (لكن) المشددة. وقرأ عيسى الثقفي: ﴿تَصَدِّقَ﴾ بالرفع، وكذلك كل ما عطف عليه، وهذا على حذف المبتدأ، والتقدير: «هو تصديق»، وقال أبو حاتم: النصب على التقدير: «ولكن كان»، والرفع على تقدير: «ولكن هو»، ويُشَدُّ بيت ذي الرمة بالوجهين:

وما كان مالي من تراث ورثته
ولا دية كانت ولا كسب مائمه
ولكن عطاء الله من كل رحمة
إلى كل مخجوب الشراذم خضرم
رفع «عطاء الله» والنصب أجود.

و﴿الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ هو التوراة والإنجيل، والضمير في ﴿يَدَيْهِ﴾ عائد على القرآن، وهو اسم [كان]، وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يعني من العقائد والأحكام والحلال والحرام. وباقي الآية بين.

تم بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام والحمد لله رب العالمين

وذكره مكِّي بن أبي طالب .

١ - ٢ تفسير قوله عز وجل :

تقدم القول في فواتح السور وذكر التأويلات في ذلك، إلا أن الذي يخصه هذا الموضوع من ذلك ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «إن

هذه الحروف من قوله: أنا الله أعلم وأرى، ومن قال: «إن حروف أوائل السور هي مثال لحروف المعجم» قال: الإشارة هنا بـ «تِلْكَ» هي إلى حروف المعجم، ويصح -

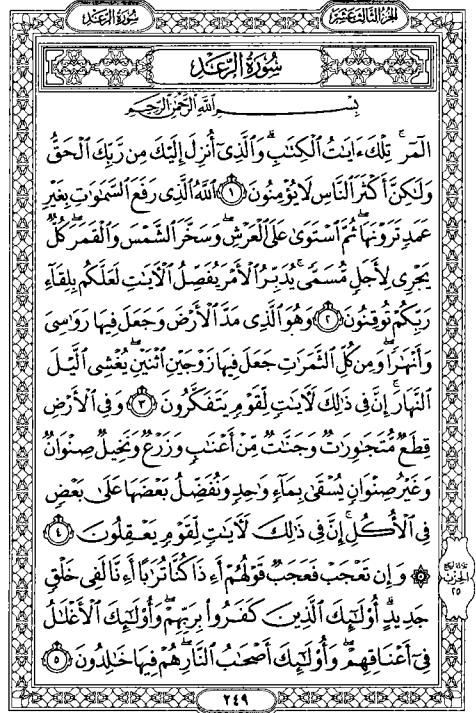
على هذا - أن يكون «الْكِتَابُ» يراد به القرآن، ويصح أن يراد به التوراة والإنجيل، و«التَّرُّ» - على هذا - ابتداء، و«تِلْكَ» ابتداء ثان، و«ءَايَاتِهِ» خبر الثاني، والجملة خبر الأول. وعلى قول ابن عباس في «التَّرُّ» تكون «تِلْكَ» ابتداء، و«ءَايَاتِهِ» بدلاً منه، ويصح في «الْكِتَابُ» التأويلات اللذان تقدماً.

قوله تعالى: «وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ» . «الَّذِي» رفوعه بالابتداء، و«الْحَقُّ» خبره، وعلى هذا تأويل من يرى «التَّرُّ تِلْكَ» حروف المعجم، و«تِلْكَ» و«ءَايَاتِهِ» ابتداء وخبر، وعلى قول ابن عباس يكون «الَّذِي» عطفاً على «تِلْكَ»، و«الْحَقُّ» خبر «تِلْكَ»، وإذا أريد بـ «الْكِتَابُ»

القرآن فالمراد بـ «الَّذِي أُنزِلَ» جميع الشريعة، ما تضمنه القرآن منها وما لم يتضمنه. ويصح في «الَّذِي» أن يكون في موضع خفض عطفاً على «الْكِتَابُ»، فإن أردت - مع ذلك - بـ «الْكِتَابُ» القرآن كانت الواو عطف صفة لشيء واحد، كما تقول: جاءني الطريف والعافل وأنت تريد شخصاً واحداً، ومن ذلك قول الشاعر:

إِلَى الْمَلِكِ الْقُرْمِ وَابْنِ الْهَمَامِ
وَأَيْتِ الْكَتِيبَةِ فِي الْمُرْدَحَمِ
وإن أردت - مع ذلك - بـ «الْكِتَابُ» التوراة والإنجيل فذلك بين، فإن تأولت - مع ذلك - «التَّرُّ» حروف المعجم رفعت قوله: «الْحَقُّ» على إضمار مبتدأ تقديره: هو الحق، وإن تأولتها كما قال ابن عباس رضي الله عنهما فـ «الْحَقُّ» خبر «تِلْكَ». ومن رفع «الْحَقُّ» بإضمار ابتداء وقف على قوله: «مِن رَّبِّكَ» وياقي الآية ظاهر إن شاء الله.

وقوله تعالى: «اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ» الآية. لما تضمن قوله: «وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ» توبيخ الكفرة عقب ذلك بذكر الله تبارك وتعالى الذي ينبغي أن يؤمن به، ويذكر الأدلة الداعية إلى الإيمان به. والضمير في قوله: «تَرَوْنَهَا» قالت فرقة: هو عائد على «السَّمَوَاتِ» فـ «تَرَوْنَهَا» - على هذا - في موضع الحال، وقال جمهور الناس: لا عمد للسماوات، وقالت فرقة: الضمير عائد على «العَمَد»، فـ «تَرَوْنَهَا» - على هذا - صفة



تفسير

سورة الرعد

هذه السورة مكية، قاله سعيد بن جبّير، وقال قتادة: هي مدينة غير آيتين: قوله تعالى: «وَلَا يَرَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا» ، وقوله تعالى: «وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا» الآية، حكاة الزهراوي، وحكى المهدوي عن قتادة أن السورة مكية إلا قوله تعالى: «وَلَا يَرَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا نُصِيبُهُم مِّمَّا صَنَعُوا قَارِعَةً أَوْ نَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ» ، وقوله: «وَمَن عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ» ، والظاهر عندي أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل، وإريد بن ربيعة فهو مدني، وقيل: السورة مدنية، حكاة مُنذِر بن سعيد البُلوطي،

للعمد، وقالت هذه الفرقة: للسموات عمدٌ غير مرتبة، قاله مجاهد، وقتادة. وقال ابن عباس: وما يدريك أنها بعمد لا تُرى، وحكى بعضهم أن العمد جبل كاف المحيط بالأرض، والسماء عليه كالقبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، والحق ألاَّ عمد جملة، إذ العمدة تحتاج إلى عمد، ويتسلل الأمر فلا بُدَّ من وقوفه على القدرة، وهذا هو الظاهر من قوله تعالى: ﴿وَتَسِيكُ السَّمَاءُ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِي﴾، ونحو هذا من الآيات. وقال إياس بن معاوية: السماء مقبية على الأرض مثل القبة. وفي مصحف أبي ﴿تَرَوْنَهُ﴾ بتذكير الضمير.

و «العمد» اسم جمع عمود، والباب في جمعه «عمد» بضم الحروف الثلاثة، كرسول ورُسل وشهاب شُهَب، وغيره. ومن هذه الكلمة قول النابغة:

وَحَبِيرُ الْجِنِّ أَنِّي قَدْ أَذْنْتُ لَهُمْ
يَبْنُونَ تَذْمُرًا بِالصُّفْحِ وَالْعُمْدِ
وقال الطبري: «العمد (بفتح العين) جمع عمود، كما جمع الأديم أديماً»، وليس كما قال. وفي كتاب سيبويه أن الأدم اسم جمع، وكذلك نص اللغويون على العمد، ولكن أبا عبيدة ذكر الأمر غير مُتَيَقِّنٍ فأتبعه الطبري. وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿بَغَيْرِ عُمْدٍ﴾ بضم العين.

وقوله: ﴿ثُمَّ﴾ هي هنا لعطف الجمل لا للترتيب، لأن الاستواء على العرش قبل رفع السموات، ففي

الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبل، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السموات والأرض».

وقد تقدم القول في كلام الناس في الاستواء، واختصاره أن أبا المعالي رجح أنه استوى بقره وغلبته، وقال القاضي ابن الطيب وغيره: ﴿أَسْتَوَى﴾ في هذا الموضع بمعنى: استولى، والاستيلاء قد يكون دون قهر، فهذا فرق ما بين القولين، وقال سفيان: فعل فعلاً سَمَاهُ استواء، وقال الفراء: ﴿أَسْتَوَى﴾ - في هذا الموضع - كما تقول العرب: «فعل زيد كذا ثم استوى إليّ يكلمني»، بمعنى أَقْبَلَ وقَصَدَ، وحكي لي عن أبي الفضل بن النحوي أنه قال: ﴿العرش﴾ - في هذا الموضع - مصدر (عمرش)، فكأنه أَرَادَ جميع المخلوقات، وذكر أبو منصور عن الخليل أن العرش: المُلك، وهذا يؤيد منزع أبي الفضل بن النحوي إذ قال: «العرش مصدر»، وهذا خلاف ما مشى عليه الناس من أن ﴿العرش﴾ هو أعظم المخلوقات، وهو الشخص المشهور الذي كان على الماء، والذي بين يديه الكرسي، وأيضاً فيبقى النظر على أبي الفضل في معنى الاستواء قريباً مما هو على قول الجميع. وفي البخاري عن مجاهد أنه قال: «المعنى: علا على العرش»، وكذلك هي عبارة الطبري، والنظر الصحيح يرفع هذه العبارة.

وقوله: ﴿وَسَخَّرَ﴾ تنبيه على القدرة، و﴿أَسْمَسَ وَالْقَمَرُ﴾ في ضمن

ذكرهما ذَكَرَ الكواكب، ولذلك قال: ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾، أي كل ما هو في معنى الشمس والقمر من التسخير، و (كُلٌّ) لفظة تقتضي الإضافة ظاهرة أو مقدره.

والأجل المُسَمَّى هو انقضاء الدنيا وفساد هذه البنية، وقيل: يريد بقوله: ﴿لِأَجْلِ مَسْئَةٍ﴾ الحدود التي لا تتعدها هذه المخلوقات، أي: تجري على رسوم معلومة.

وقوله: ﴿يُدِيرُ﴾ بمعنى يبرم ويفقد، وعبر بالتدبير تقريباً للأفهام، إذ التدبير إنما هو النظر في أبعاد الأمور وعواقبها، وذلك من صفة البشر، و﴿الأمْرُ﴾ عامٌ في جميع الأمور ومما ينقضي في كل أوان في السموات والأرض. وقال مجاهد: ﴿يُدِيرُ الْأَمْرَ﴾ معناه يقضيه وحده. وقرأ الجمهور: ﴿يَقْعِلُ﴾ بالياء، وقرأ الحسن بنون العظمة، ورواه الخفاف وعبد الوهاب عن أبي عمرو، وهبيرة عن حفص، قال المهدي: ولم يختلفا في ﴿يُدِيرُ﴾، وقال أبو عمرو الداني: إن الحسن قرأ بالنون فيهما، والنظر يقتضي أن قوله: ﴿يَقْعِلُ الْأَيْدِيَّ﴾ ليس على حدِّ قوله: ﴿يُدِيرُ﴾ من تعديد الآيات، بل لما تعددت الآيات وفي جملتها تدبير الأمر أخبر أنه يُفْضَلُ الآيات لعل الكفرة يوقنون بالبعث، و﴿الْأَيْدِيَّ﴾ هنا إشارة إلى ما ذكر في الآية وبعدها.

③ - ④ تفسير قوله عز وجل: لما فرغت آيات السماء ذكر آيات الأرض. وقوله: ﴿هَذَا الْأَرْضُ﴾ يقتضي أنها بسيطة لا كروية، وهذا

هو ظاهر الشريعة. والرواسي: الجبال الثابتة، يقال: «رسا يرسو» إذا ثبت، ومنه قول الشاعر:

به خالدات ما يُرْتَننَ وهامدٌ
وأشعث أرسثه الوليدة بالفهر
والزُّوجُ في هذه الآية هو الصنف والنوع، وليس بالزوج المعروف في المتلازمين الفردين من الحيوان وغيره، ومنه قوله: «سُبْحَنَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا» الآية، ومثل هذه الآية: «وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا» الآية في (ق)، وهذه الآية تقتضي أن كل ثمرة فموجود منها نوعان، فإن اتفق أن وُجد من ثمرة أكثر من نوعين فغير ضار في معنى الآية.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «يُنْتَقَى» بسكون الغين وتخفيف الشين، وقرأ حمزة والكسائي وعاصم - في رواية أبي بكر - بفتح الغين وشد الشين، وكفى ذكر الواحد ذكر الآخر، وباقى الآية بين. ويشبه أن الأزواج التي يراد بها الأنواع والأصناف والأجناس إنما سُمِّيت بذلك من حيث هي اثنان اثنان في كل ثمرة ذكر أو أنثى، وأشار إلى ذلك الفراء عند المهدي، وحكى عنه غيره ما يقتضي أن المعنى تم في قوله: «الْمَثْرَبِ»، ثم ابتداءً أنه جعل في الأرض من كل ذكر وأنثى زوجين.

وقوله: «وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ» جمع قطعة، وهي الأجزاء، وقيد منها في هذا المثال ما تجاور وقرب بعضه من بعض لأن اختلاف ذلك في القرب أعرب، وقرأ الجمهور: «وَجَنَّاتٌ»

بالرفع عطفاً على «قِطْعٌ»، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «وَجَنَّاتٌ» بالنصب بإضمار فعل، وقيل: هو عطف على «رَبَّيْ» وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: «وَزَّرَعَ وَيَخِيلُ صِنَوَانٌ وَيَبْرُ صِنَوَانٌ» بالرفع في الكل عطفاً على «قِطْعٌ»، وقرأ الباقر بالخفض في الكل عطفاً على «أَعْنَابٍ»، وجعل الجنة من الأعناب، ومن رفع «الزُّرْعُ» فالجنة حقيقة هي الأرض التي فيها الأعناب، وفي ذلك تجوز، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّ عَيْنِي فِي غَرْبِي مُقْتَلَةٌ
مِنَ الثَّوَابِخِ تَسْقِي جَنَّةً سَحْقًا
أي: نخيل جنة، إذ لا يوصف بالسحق إلا النخيل، ومن خفض الزرع فالجنتان من مجموع ذلك لا من الزرع وحده، لأنه لا يقال للمزرعة جنة إلا إذا خالطها شجرات.

و «صِنَوَانٌ» جمع صِنُو وهو الفرع تكوّن مع الآخر في أصل واحد، وربما كان أكثر من فرعين، قال البراء بن عازب: الصنوان: المجتمع، وغير صنوان: المتفرق فرداً فرداً، ومنه قول النبي ﷺ: «الْعَمُّ صِنُو الْأَبِ»، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أسرع إليه العاص في ملاحاة، فجاء إلى النبي ﷺ فقال: أردت يا رسول الله أن أقول للعاص فذكرت مكانه منك فسكت، فقال رسول الله ﷺ: «يرحمك الله يا عمر، العم صنو الأب»، وجمع الصنو صنوان، وهو جمع مكسر،

قال أبو علي: وكسرة الصاد في الواحد ليست التي في الجمع، وهو جار مجرى فُلُك، وتقول: صنو وصنوان في الجمع بتنوين النون وإعرابه. وقرأ عاصم - في رواية القواس - عن حفص: «صِنَوَانٌ» بضم الصاد، قال أبو علي: هو مثل ذئب وذؤبان، وهي قراءة ابن مَرْزُف، وأبي عبد الرحمن السلمي، وهي لغة تميم وقيس، وكسر الصاد لغة أهل الحجاز، وقرأ الحسن، وقتادة: «صِنَوَانٌ» بفتح الصاد، وهو اسم جمع لا جمع، ونظير هذه اللفظة قَبُو وقَبُونان، وإنما نص على الصنوان في هذه الآية لأنها بمثابة التجاور في القطع تظهر فيها غرابية اختلاف الأكل. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والحسن، وأبو جعفر، وأهل مكة: «نُسْقَى» بالتاء، وأمال حمزة، والكسائي القاف، وقرأ عاصم، وابن عامر: «يُنْتَقَى» بالياء على معنى: يُنْتَقَى ما ذُكِر. وقرأ الجمهور: «وَيُنْفِضُ» بالنون، وقرأ حمزة، والكسائي: «وَيُنْفِضُ» بالياء، وقرأ ابن محيصن: «يُنْتَقَى» و «يُنْفِضُ» بالياء فيهما، وقرأ يحيى بن يَعْمَر، وأبو حيوة: «وَيُنْفِضُ» بالياء وفتح الصاد «يُنْفِضُهَا» بالرفع، قال أبو حاتم: وجدته كذلك في لفظ يحيى بن يَعْمَر في مصحفه، وهو أول من نقط المصاحف.

و «الْأَكْلُ» اسم ما يؤكل بضم الهمزة والكاف، والأكل المصدر، وقرأت فرقة: «فِي الْأَكْلِ» بضم

الهمزة والكاف، وقد تقدم هذا في البقرة.

وحكى الطبري عن غير واحد - ابن عباس وغيره -: ﴿يَطْعُ مَشْجُورَاتٌ﴾ أي: واحدة سبخة والأخرى عذبة ونحو هذا من القول، وقال قتادة: المعنى: قُرئ متجاورات، وهذا وجه من العبرة، كأنه قال: وفي الأرض قطع مختلفات بتخصيص الله لها بعمان فهي تسقى بماء واحد ولكن تختلف فيما تخرجه، والذي يظهر من وصفه لها بالتجاور إنما هو: من تربة واحدة ونوع واحد، والعبرة في هذا أبين، لأنها مع اتفاقها في التربة والماء تفضل القدرة والإرادة بعض أكلها على بعض، كما قال النبي ﷺ حين سئل عن هذه الآية فقال: «الدَّقَلُ والفارسي والحلو والحامض»، وعلى المعنى الأول قال الحسن: هذا مثل ضربه الله لقلوب بني آدم، كانت الأرض في يد الرحمن طينة واحدة، فسطحها الله فصارت قطعاً متجاورة ينزل عليها ماء واحد من السماء، فتخرج هذه زهرة وثمرة، وتخرج هذه سبخة وملحاً وخبثاً، فكذلك الناس خلقوا من آدم فنزلت عليهم من السماء تذكرة فرقت قلوب وخشعت، وقست قلوب، ولهت قلوب، ووجفت قلوب، قال الحسن: فوالله ما جالس أحد القرآن إلا قام عنه بزيادة أو نقصان، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾،

والتفضيل في الأكل [يشمل] الأذواق والألوان والملبس وغير ذلك.

عز وجل: ﴿٧﴾ - ﴿٧﴾ تفسير قوله آية توبيخ للكفرة، أي: إن تعجب يا محمد من جهالتهم وإعراضهم عن الحق فهم أهل ذلك، وعجب غريب، والمراد به قولهم: «أعود بعد كوننا تراباً خلقاً جديداً؟» ويحتمل اللفظ منزعاً آخر، أي: إن كُنت تزيد عجباً فهلُم فإن من أعجب العجب قولهم.

واختلف القراءة في قراءة

قوله: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرَابًا﴾ - فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿أَيْدَا كُنَّا تَرَابًا﴾ أيضاً لَفِي خَلْقِي جَدِيدًا جميعاً بالاستفهام، غير أن أبا عمرو مدّ الهمزة ثم يأتي بياء ساكنة، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مدّ، وقرأ نافع: ﴿أَيْدَا كُنَّا تَرَابًا﴾ مثل أبي عمرو واختلف عنه في المدّ، وقرأ: ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ مكسورة على الخبر، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأول من الثاني، غير أنه كان يهزم همزتين، وقرأ عاصم وحمزة: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرَابًا أَوَدَا﴾ بهمزتين فيهما، وقرأ ابن عامر: ﴿إِذَا كُنَّا تَرَابًا﴾ مكسورة الألف من غير استفهام ﴿أَوَدَا﴾ بهمز ثم بمد ثم بهمز. فمن قرأ بالاستفهامين فذلك للتأكيد والتحفى والاهتبال بهذا التقرير، ومن استفهم

وَسَتَّعَلُّونَا بِالسَّبَيْثَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَقْنَا مِن قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَقْفَرٍ لِّالنَّاسِ عَلَى ظُهُورِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٨﴾ اللَّهُ يَسْمَعُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيصُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزِدَّادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٩﴾ عَذَابُ الْقَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرِ الْمُتَعَالِ ﴿١٠﴾ سِوَاةً مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَلْسِنِهِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١١﴾ لَهُ مَعْشِرَتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُعَذِّبَهُمْ وَأَمَّا أَنْفُسُهُمْ إِذَا أَرَادَ اللَّهُ يَقُومَ سُوءًا فَلَا مَرَدَ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ أَنْزِلَ الْغُيُوبِ وَأَطْمَعَا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٣﴾ وَنَسِجَ الرِّعْدِ يَحْمَدُوهُ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُحَدِّثُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْحَالِ ﴿١٤﴾

في الأول فقط فإنما القصد بالاستفهام الموضع الثاني، و﴿إِذَا﴾ ظرف له، و﴿إِذَا﴾ في موضع نصب بفعل مضمّر تقديره: أُنْبِثَتْ أو نُخْشِرَ إِذَا؟ ومن استفهم في الثاني فقط فهو بَيِّن، والإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى القوم القائِلين: ﴿أَوَدَا كُنَّا تَرَابًا﴾، وتلك المقالة إنما هي تقرير وتصميم على الجحد والإنكار للبعث فلذلك حكم عليهم بالكفر.

وقوله: ﴿وَأُولَئِكَ الْأَنْفُلُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما الحقيقة وأنه أخبر عن كون الأعدال في أعناقهم في الآخرة، فهي كقوله تعالى: ﴿إِذْ الْأَنْفُلُ فِي أَصْنَافِهِمْ وَالسَّلَاسِلُ﴾، ويحتمل أن يكون مجازاً وأنه أخبر عن كونهم مُغَلِّين عن الإيمان، فهي إذا تجرّى مجرى الطبع والختم على القلوب، وهي كقوله تعالى: ﴿إِنَّا

جَعَلْنَا فِي أَعْيُنِهِمْ أَغْلَاقًا فَيَسَىٰ إِلَىٰ
الْآذَانِ فَنُحْمًا يُمَسِّحُونَ ﴿٥﴾، وباقى
الآية بيّن. وقال بعض الناس:
الأغلال هنا عبارة عن الأعمال،
أي: أعمالهم الفاسدة في أعناقهم
كالأغلال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتحرير هذا هو في التأويل الثاني
الذي ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَجِيبُكَ بِالسَّيِّئَةِ
بِقَبْلِ الْحَسَنَةِ﴾ الآية، هذه الآية تبيّن
لخطئهم في أن يتمنوا المصائب
ويطلبوا سقوط كسف من السماء أو
ججارة تمطر عليهم ونحو هذا مع
حلول ذلك في الأمم ونزوله بأناس
كثير، ولو كان ذلك لم ينزل قط
لكان لهم العذر.

و ﴿الْمُنْتَلَثُ﴾ جمع مُثْلَةٌ كَسَمْرَةٌ
وَسَمْرَاتٌ وَصَدَقَةٌ وَصَدَقَاتٌ، وقرأ
الجمهور: ﴿الْمُنْتَلَثُ﴾ بفتح الميم
وضم الشاء، وقرأ مجاهد بفتح الميم
والشاء، وذلك جمع مُثْلَةٌ في الآخرة
بمعنى العدة بالعقوبة. وقرأ
عيسى بن عمر: ﴿الْمُنْتَلَثُ﴾ بضم
الميم والشاء، ورويت عن أبي
عمرو، وقرأ يحيى بن وثاب:
﴿الْمُنْتَلَثُ﴾ بضم الميم وسكون
الشاء، وهاتان جمع مُثْلَةٌ، وقرأ
طلحة بن مصرف: ﴿الْمُنْتَلَثُ﴾ بفتح
الميم وسكون الشاء.

ثم رجى تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ
لَدُوٌّ مِّنْزَوْرٌ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُهُبِهِمْ﴾. قال
الطبري: معناه: في الآخرة، وقال
قوم: المعنى: إذا تابوا، و «شديدُ
العقاب» إذا كفروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والظاهر من معنى المغفرة هنا إنما
هو: ستره في الدنيا وإمهال للكفرة،
ألا ترى التنكير في لفظ ﴿مَغْفِرَةٌ﴾،
وأنها مُنْكَرَةٌ مُقْلَلَةٌ وليس فيها مبالغة
كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَفَنَاءً لِّمَن
تَابَ وَءَامَنَ﴾، ونمط الآية يُعْطِي هذا،
ألا ترى حكمه عليهم بالنار ثم قال:
﴿وَيَسْتَجِيبُكَ﴾، فلما ظهر سوء فعلهم
وجب في نفس السامع تعذيبهم
فأخبر بسيرته في الأمم وأنه يمهل مع
ظلم الكفر؟ ولم يرد في الشرع
أن الله تعالى يغفر ظلم العباد.

ثم خوف بقوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ
الْعِقَابِ﴾، قال ابن المسيب: لما
نزلت هذه الآية قال رسول الله ﷺ:
«لولا عفو الله ومغفرته لما تمنى أحد
عيشاً، ولولا عقابه لا تكل كل أحد»،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
«ليس في القرآن أزجى من هذه
الآية»، و ﴿الْمُنْتَلَثُ﴾ هي العقوبات
المُنْتَلَكات التي تجعل الإنسان مثلاً
يُمْتَلِئُ به، ومنه التمثيل بالقتلى، ومنه
المُتَلَّة بالعبد.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا
الآية. هذه آية غَضٌ من اقتراحاتهم
المُنْتَسِطَّة التي لم يُجْر الله بها عادة
إلا للامة التي حتم بعذابها
واستئصالها، والآية - هنا - يراد بها
الأشياء التي سمّتها قريش كالمُتْلُك
والكُتْر وغير ذلك، ثم أخبره الله بأنه
منذر، وهذا الخبر مُقْصِدٌ هُوَ بلفظه
والناس أجمعون بمعناه.

واختلف المفسرون في قوله:
﴿رَبِّكَ قَوْرٌ هَادٍ﴾ - فقال عكرمة،
وأبو الضحى: المراد بالهاد محمد
عليه الصلاة والسلام، و ﴿هَادٍ﴾

عطف على ﴿مُنْذِرٌ﴾ كأنه قال: «إنما
أنت منذر وهاد لكل قوم»، فيكون
هذا المعنى يجري مع قوله عليه
الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ
وَالْأَسْوَدِ»، و ﴿هَادٍ﴾ - على هذا في
هذه الآية - دأج إلى طريق الهدى.
وقال مجاهد، وابن زيد: المعنى:
«إنما أنت منذر، ولكل أمة سلفت
هاد، أي نبي يدعوهم، والمقصد:
فليس أمرك يا محمد ببذع ولا
بمنكر»، وهذا يشبه غرض الآية.
وقالت فرقة: «الهادي - في هذه الآية
- الله عز وجل»، روي ذلك عن ابن
عباس، ومجاهد، وابن جبير.
و ﴿هَادٍ﴾ - على هذا - معناه: مخترع
للرشاد، والألفاظ تطلق بهذا
المعنى، ويعرف أن الله تعالى هو
الهادي من غير هذا الموضع. وقالت
فرقة: «الهادي علي بن أبي طالب»،
وردت عن النبي ﷺ من طريق ابن
عباس رضي الله عنهما أنه قرأ هذه
الآية وعليّ حاضر فأومأ بيده إلى
منكب عليّ وقال: «أنت الهادي يا
علي، بك يهتدي المهتدون من
بعدي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والذي يشبه - إن صح هذا - أن
النبي ﷺ إنما جعل علياً مثلاً من
علماء الأمة وهداتها إلى الدين، كأنه
قال: يا عليّ أنت وصنّفك، فدخل
في هذا أبو بكر وعمر وعثمان وسائر
علماء الصحابة - عليهم رضوان الله
أجمعين - ثم كذلك من كل عصر،
فيكون المعنى - على هذا - إنما
أنت يا محمد منذر، ولكل قوم في
القديم والحديث دعاة وهداة إلى

هذه الياء تحذف مع التنوين حَسُنَ أَنْ
تحذف مع معاقبها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويتصل بهذه الآية فقه يحسن ذكره.

فمن ذلك اختلاف الفقهاء في الدم
الذي تراه الحامل - فذهب مالك
وأصحابه والشافعي وأصحابه
وجماعة إلى أنه حيض. وقالت فرقة
عظيمة: ليس بحيض، ولو كان
حيضاً لما صح استبراء الأمة بحيض
وهو إجماع. وروي عن مالك في
كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس
بحيض، ومن ذلك أن الأمة مجمعة
على أن أقل مدة الحمل ستة أشهر،
وذلك منتزع من قوله: ﴿وَحَمَلٌ
وَفَصْلٌ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ مع قوله تعالى:
﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ
كَامِلَيْنِ﴾ وهذه الستة الأشهر هي
بالأهله كسائر أشهر الشريعة، ولذلك
قد روي في المذهب عن بعض
أصحاب مالك - وأظنه في كتاب ابن
الحارث - أنه إن نقص من الأشهر
الستة ثلاثة أيام فإن الولد يلحق لعله
نقص الشهور وزيادتها.

واختلف في أكثر الحمل - فقيل:
تسعة أشهر، وهذا ضعيف، وقالت
عائشة - رضي الله عنها - وجماعة
من العلماء: أكثره حولان، وقالت
فرقة: ثلاثة أعوان، وفي المدونة:
أربعة أعوام وخمسة أعوام، وقال ابن
شهاب وغيره: سبعة أعوام، وروي
أن ابن عجلان ولدت امرأته لسبعة
أعوام، وروي أن الضحاح بن
مزاحم بقي حولين، قال: فولدت
وقد نبست ثناياي، وروي أن

يكمل فيها من جسمه وصحته ما
نقص بهراقة الدم، فهذا هو معنى
قوله: ﴿وَمَا تَنِيصُ الْأَرْكَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾.

وجمهور المتأولين على أن غيض
الرحم إرسال الدم على الحمل،
وذهب بعض الناس إلى أن غيضه هو
نضوب الدم فيه وإمساكه بعد عادة
إرساله بالحيض، فيكون قوله: ﴿وَمَا
تَزْدَادُ﴾ بعد ذلك جارياً مجرى
«غيض» على غير مقابلة، بل غيض
الرحم هو بمعنى الزيادة فيه. وقال
الضحاح: غيض الرحم أن تسقط
المرأة الولد، والزيادة أن تضعه لمدة
كاملة تاماً في خلقه. وقال قتادة:
الغَيْضُ السَّقْطُ، والزيادة البقاء فوق
تسعة أشهر.

وقوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ لفظ
عام في كل ما يدخله التقدير.

و ﴿الغَيْبِ﴾: ما غاب عن
الإدراكات، و ﴿الشَّهَادَةِ﴾: ما
شوهده من الأمور، ووضع المصادر
موضع الأشياء التي كل واحد منها لا
بد أن يتصف بإحدى الحاليتين.

وقوله: ﴿الْكَبِيرِ﴾ صفة تعظيم
على الإطلاق، و ﴿الْمُتَعَالِ﴾ من
العُلُوِّ، واختلف القراءة في الوقف
على (الْمُتَعَالِ) - فأثبت ابن كثير،
وأبو عمرو - في بعض ما روي عنه -
الياء في الوصل والوقف، ولم يثبتها
الباقون في وصل ولا وقف، وإثباتها
هو الوجه والباب، واستسهل سيبويه
حذفها في الفواصل كهذه الآية قياساً
على القوافي في الشعر، ويقبح
حذفها في غير فاصلة ولا شعر،
ولكن وجهه أنه لما كان التنوين
يعاقب الألف واللام أبداً، وكانت

الخير، والقول الأول أرجح ما تؤول
في هذه الآية.

﴿﴾ - ﴿﴾ تفسير قوله عز وجل:
لما تقدم تعجب الكفار واستبعادهم
البعث من القبور نص الله في هذه
الآيات الأمثال المنبهة على قدرة الله
تبارك وتعالى القاضية بتجويز البعث،
فمن ذلك هذه الواحدة من الخمس
التي هي مفاتيح الغيب، وهي أن الله
تبارك وتعالى انفرد بمعرفة ما تحمل
كل الإنث من الأجنة في كل
نوع من الحيوان، وهذه البداية تُبَيِّنُ
أنه لا يتعذر على القادر عليها
الإعادة.

و ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا
تَحْمِلُ﴾ يصح أن تكون بمعنى الذي
مفعولة بـ ﴿يَمَلُّكُمْ﴾، ويصح أن تكون
مصدرية مفعولة أيضاً بـ ﴿يَمَلُّكُمْ﴾،
ويصح أن تكون استفهاماً في موضع
رفع بالابتداء، والخبر ﴿تَحْمِلُ﴾،
وفي هذا الوجه ضعف. وفي
مصحف أبي بن كعب: ﴿مَا تَحْمِلُ
كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَضَعُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنِيصُ
الْأَرْكَامُ﴾ معناه: ما تنقص، وذلك
من معنى ﴿وَعَيْضُ أَلْمَاءُ﴾ وهو من
معنى النضوب، فهي ها هنا بمعنى
زوال الشيء عن الرُّحْمِ وذهابه، فلما
قابله قوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ فُسِّرَ بمعنى
النقصان، ثم اختلف المتأولون في
صورة الزيادة والنقصان - فقال
مجاهد: غَيْضُ الرَّجْمِ أَنْ تَهْرِيقَ دَمًا
عَلَى الْحَمَلِ، فإذا كان ذلك ضعف
الولد في البطن وشحب، فإذا
أكملت الحامل تسعة أشهر لم تَضَعُ،
ويبقى الولد في بطنها زيادة من الزمن

عبدالمملك بن مروان ولد لسته أشهر.

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ مِّنْكُمْ﴾ الآية.

سواء مصدر، وهو يطلب بعده شيئين يتماثلان، ورفع على خير الابتداء الذي هو [مَنْ]، والمصدر لا يكون خيراً إلا بإضمار كما قالت الخنساء:

فَأَيْنَمَا هِيَ إِقْبَالٌ وَإِدْبَارٌ
أي: ذات إقبال وإدبار، فقالت

فرقة: هنا المعنى: «ذو سواء»، قال الزجاج: كثر استعمال (سواء) في كلام العرب حتى جرى مجرى اسم الفاعل فلا يحتاج إلى إضمار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو عندي كعدلٍ وزورٍ وضيقٍ.

وقالت فرقة: المعنى: «مُستَوٍ منكم»، فلا يحتاج إلى إضمار، وضعف هذا سببويه بأنه ابتداءً بنكرة. ومعنى هذه الآية: مُغتدلاً منكم في إحاطة الله تعالى وعلمه مَنْ أَسْرَ قولُه فهمس به في نفسه وَمَنْ جهر به فأسمع، لا يخفى على الله تعالى شيء.

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَيْتِلٍ﴾ معناه: من هو بالليل في غاية الاختفاء ومن هو متصرف بالنهار ذاهبٌ لوجهه سواءً في علم الله تبارك وتعالى وإحاطته بهما. وذهب ابن عباس، ومجاهد إلى معنى مقتضاه أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار هو راجل واحد مريب بالليل ويظهر بالنهار البرائة في التصرف مع الناس، فهذا قسم واحد جعل الليل نهار راحة، والمعنى: هذا والذي أمره كله واحد بريء من

الرئب سواءً في اطلاع الله تعالى على الكل. ويؤيد هذا التأويل عطف السارب دون تكرار «مِنْ»، ولا يأتي حذفها إلا في ضرورة الشعر.

والسارب في اللغة المتصرف كيف شاء، ومن ذلك قول الشاعر:

أَرَى كُلَّ قَوْمٍ كَانُوا فَيَدَّ فُخْلِهِمْ
وَنَحْنُ حَلَلْنَا قَيْدَهُ فَهُوَ سَارِبٌ

أي متصرف غير مدفوع عن جهة، وهذا رجل يفخر بعزة قومه، ومن ذلك قول الآخر:

أَتَى سَرْنَبٍ وَكُنْتُ غَيْرَ سَرُوبٍ
وَتَقَرَّبُ الْأَخْلَامُ غَيْرَ قَرِيبٍ

وتحتمل الآية أن تتضمن ثلاثة أصناف، فالذي يُبْرِ طرف، والذي

يجهر طرف مضاد للأول، والثالث متوسط مُتَلَوِّنٌ يعصي بالليل مستخفياً

ويظهر البرائة بالنهار، والقول في الآية يطرد معناه في الأعمال، وقال

قطرب - فيما حكى الزجاج -:
﴿مُسْتَخْفٍ﴾ معناه: ظاهر، من

قولهم: «خَفَيْتُ الشَّيْءَ» إذا أظهرته، قال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا
خَفَاهُنَّ وَذَقَّ مِنْ عَيْشِي مُجَلِّبٍ

قال: و﴿سَارِبٌ﴾ معناه: مُتَوَارٍ في سرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول وإن كان متعلقاً باللغة فضعيف، لأن اقتران الليل بالمستخفي والنهار بالسارب يردُّ على هذا القول.

﴿١١﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في عود الضمير من ﴿لَهُ﴾ - فقالت فرقة: هو عائد على اسم الله تعالى المتقدم ذكره، و

﴿الْمُعْتَبَاتُ﴾ - على هذا - الملائكة الحفظة على العباد أعمالهم، والحفظة لهم أيضاً، قاله الحسن، وروى فيه عثمان بن عفان عن النبي ﷺ حديثاً، وهو قول مجاهد، والثَّغَمِي، والضمير - على هذا - في قوله: ﴿يَدِّي﴾ وما بعده من الضمائر عائد على العبد المذكور في قوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَيْتِلٍ﴾، و﴿مَنْ أَسْرَ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يكون صفة للمُعْتَبَاتِ، ويحتمل أن يكون المعنى: يحفظونه من كل ما جرى القدر باندفاعه، فإذا جاء المقدور الواقع أسلم المرء إليه.

وقال ابن عباس أيضاً: الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على المذكور في قوله:

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِأَيْتِلٍ﴾ وكذا باقي الضمائر التي في الآية، قالوا: و

﴿الْمُعْتَبَاتُ﴾ - على هذا - حرس الرجل وجلاوزته الذين يحفظونه، قالوا: والآية - على هذا - في

الرؤساء الكافرين، واختار هذا القول الطبري، وهو قول عكرمة وجماعة، قال عكرمة: هي المواكب خلفه وأمامه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويصح على التأويل الأول الذي قبل هذا أن يكون الضمير في ﴿لَهُ﴾ للعبد المؤمن على معنى: جعل الله له، وهذا التأويل عندي أقوى، لأن

غرض الآية إنما هو التنبيه على قدرة الله، فذكر استواء من هو مُسْتَخْفٍ ومن هو سارب وأن له

معقبات من الله يحفظه في كل حال، ثم ذكر أن الله لا يُغَيِّرُ هذا الحالة من

الحفظ للعبد حتى يغيّر ما بنفسه،

وعلى كلا التأويلين ليست الضمائر لمُعَيَّنِينَ من البشر.

وقال عبدالرحمن بن زيد: الآية في النبي ﷺ، ونزلت في حفظ الله له من أربد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل في القصة التي تأتي بعد هذا في ذكر الصواعق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية وإن كانت ألفاظها تنطبق على معنى القصة فيُضَعَّف القول أن النبي ﷺ لم يتقدم له ذكر فيعود الضمير في ﴿لَهُ﴾ عليه.

و «المُعَقَّبَات»: الجماعات التي يعقب بعضها بعضاً، فعلى التأويل الأول هي الملائكة، وينظر هذا إلى قول النبي ﷺ: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة المغرب والصبح»، وعلى التأويل الثاني هي الحرس والوزعة الذين للملوك.

والمُعَقَّبَات جمع مُعَقَّبَةٍ، وهي الجماعة التي تأتي بعد الأخرى، والتعقيب بالجملة أن تكون حالٌ تَعْقِبُهَا حالٌ أخرى من نوعها، وقد تكون من غير النوع، ومنه معاقبة الركوب، ومعقب عقبه القدر، والمعاقبة في الأزواج، ومنه قول سلامة بن جندل:

وَكُرْنَا الْخَيْلَ فِي آثَارِهِمْ رُجْعاً
كُسُّ السَّنَابِكِ مِنْ بَدْيٍ وَتَعْقِيبِ
وقرأ عبدالله بن زياد على المنبر: ﴿لَهُ الْمَعَاقِبِ﴾، قال أبو الفتح: هو تكسير معقب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يسكون العين وكسر القاف كمطعم ومطاعيم ومقدم ومقاديم، وهي قراءة

أبي البرهسم، فكأن معقياً جمع على معاقبة ثم جعلت الياء في معاقيب عوضاً من الهاء المحذوفة في معاقبة.

والمُعَقَّبَةُ ليست جمع مُعَقَّبٍ كما ذكر الطبري وشبه ذلك برجل ورجال ورجالات، وليس الأمر كما ذكر لأن تلك كَجَمَلٍ وَجَمَالٍ وجمالات، ومُعَقَّبَةٌ وَمُعَقَّبَاتٌ إنما هي كضاربٍ وضاربات.

وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿مَنْ بَيْنَ يَدَيْهِ وَرَقِيبٌ مِنْ خَلْفِهِ﴾، وقرأ ابن عباس: ﴿وَرَقِيباً مِنْ خَلْفِهِ﴾، وذكر عنه أبو حاتم أنه قرأ: ﴿مُعَقَّبَاتٌ مِنْ خَلْفِهِ وَرَقِيبٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون بمعنى يحرسونه ويذُبُّونَ عنه، فالضمير معمول الحفظ، والمعنى الثاني أن يكون بمعنى حفظ الأقوال وتحصيلها، ففي اللفظة حينئذ حذف مضاف تقديره: يحفظون أعمالهم، ويكون هذا حينئذ من باب ﴿وَسَلِّ الْقَرْيَةَ﴾، وهذا قول ابن جزيج.

وقوله: ﴿مَنْ جَعَلَ يَحْفَظُونَهُ﴾ بمعنى يحرسونه كان معنى قوله: ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ يَرَادُ بِهِ الْمُعَقَّبَات، فيكون في الآية تقديم وتأخير، أي: له معقبات من أمر الله يحفظونه مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ، قال أبو الفتح: ذ ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ في موضع رفع لأنه صفة لمرفوع وهي «المُعَقَّبَات»، ويحتمل هذا التأويل في قوله: ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ مع التأويل الأول في ﴿يَحْفَظُونَهُ﴾، وَمَنْ تَأْوَلِ

الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على العبد وجعل «المعقبات» الحرس وجعل الآية في رؤساء الكافرين جعل قوله: ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ بمعنى: يحفظونه بزعمه من قَدَّرَ الله ويدفعونه في ظنه عنه، وذلك لجهالة بالله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذا التأويل جعلها المتأولون في الكافرين، قال أبو الفتح: ذ ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ - على هذا - في موضع نصب، كقولك: «حفظت زيدا من الأسد»، ذ ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ ل «حفظت»، وقال قتادة: معنى ﴿مَنْ أَمَرَ اللَّهُ﴾ أي يحفظونه مما أمر الله، وهذا تحكم في التأويل، قال قوم: المعنى: الحفظ من أمر الله، وقد تقدم نحو هذا. وقرأ علي ابن أبي طالب، وابن عباس، وعكرمة، وجعفر بن محمد - رضي الله عنهم -: «يَحْفَظُونَهُ بِأَمْرِ اللَّهِ».

ثم أخبر تعالى أنه لا يَغَيِّرُ ما يقوم بأن يعذبهم ويمتنحهم معاقباً حتى يقع منهم تكسب للمعاصي وتغيير ما أمروا به من طاعة الله، وهذا موضع تأمل، لأنه يداخل هذا الخبر ما قررت الشريعة من أخذ العامة بذنوب الخاصة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنقَرُوا يَنْتَهَ لَا نُصِيحَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام - وقد قيل له: يا رسول الله أَنهْلِكُ ومنا الصالحون؟ - قال: «نعم، إذا كثر الخبث» إلى أشياء كثيرة من هذا، فقوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْيُزُّوا﴾ معناه: حتى يقع تغيير إما منهم وإما من الناظر لهم أو ممن هو منهم بسبب، كما عبر تعالى

بالمهزمين يوم أحد بسبب تغيير الرماة ما بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثال الشريعة، فليس معنى الآية أنه ليس ينزل بأحد عقوبة إلا بأن يتقدم منه ذنب، بل قد تنزل المصائب بذنوب الغير، وثم أيضاً مصائب يريد الله بها أجر المصاب فتلك ليست تغييراً.

ثم أخبر تبارك وتعالى بأنه إذا أراد بقوم سوءاً فلا مَرَدَّ له، ولا حفظ منه، وهذا أجري في مقام التنبيه على عادة الله تعالى وقدرته، والشُّرُّ والخير بمنزلة واحدة إذا أرادهما الله يعبد لم يُزَد، لكنه خصَّ السوء بالذكر ليكون في الآية تخويف.

واختلف القراء في ﴿وَالْي﴾ - فأماله بعضهم ولم يُعَلِّمْ بعضهم، والوالي الذي يلي أمر الإنسان كالولي، وهما من الولاية كعليم وعالم من العلم.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ﴾ الآية. هذه آية تنبيه على القدرة، «والبرق» روي فيه عن النبي ﷺ أنه مخراق بيد ملك يزجر به السحاب، وهذا أصح ما روي فيه، ورُوي عن بعض العلماء أنه قال: البرق: اصطكاك الأجرام، وهذا عندي مردود، وقال أبو الجلد في هذه الآية: البرق: الماء، وذكره مكِّي عن ابن عباس، ومعنى هذا القول أنه لما كان داعية الماء وكان خوف المسافر من الماء وطمع المقيم فيه عُبر في هذا القول عنه بالماء.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَأً﴾، من قال ذلك في الماء فهو على ما تقدم، والظاهر أن الخوف إنما هو من صواعق البرق، والطمع في المطر

الذي يكون معه، وهو قول الحسن، و﴿السَّحَابُ﴾ جمع سحابة، ولذلك جَمَعَ الصفة، و﴿الْقَالَ﴾ معناه: يحمل الماء، وبذلك فسَّر قتادة ومجاهد، والعربُ تصفها بذلك، ومنه قول قيس بن الخطيم:

فَمَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْقَطَا
كَأَنَّ الْمَصَابِيحَ حَوْرَانِهَا
بِأَحْسَنَ مِنْهَا وَلَا مُرْتَنَةً
ذُلُوحَ تَكْشُفُ أَذْجَانِهَا
والدُّلُوحُ: المُثَقَّلَةُ.

و﴿الرُّعْدُ﴾ مَلَكٌ يزجر السحاب بصوته، وصوته هذا المسموع تسيخ، والرعد اسم المَلَك، وقيل: الرُّعد اسم صوت الملك، وروي عن النبي ﷺ أنه كان إذا سمع الرعد قال: «اللَّهُمَّ لَا تُهْلِكُنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تَقْتُلْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ».

ورُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره أنهم كانوا إذا سمعوا الرُّعد قالوا: «سبحان الذي سُبِّحَ له»، وروي أبو هريرة أن النبي ﷺ كان إذا سمع الرُّعد قال: «سبحان من سُبِّحَ الرعد بحمده»، وقال ابن أبي زكريا: «من قال إذا سمع الرُّعد: سبحان الله ويحمده لم تصبه صاعقته»، وقيل في الرعد أيضاً: إنه ريح يختنق بين السحاب، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي لا يصح لأنها نزعات الطبيعيين وغيرهم من الملحدة، ورُوي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الملك إذا غضب وزجر السحاب اضطربت من

خوفه فيكون البرق، وتحتك فتكون الصواعق.

قوله تعالى: ﴿وَرُسُلُ الْقَوَاصِقِ﴾ الآية. قيل: إنه أدخلها في التنبيه على القدرة بغير سبب ساق ذلك، وقال ابن جريج: كان سبب نزولها قصة أُرَيْدَ أَخِي لبيد بن ربيعة، وعامر بن الطفيل، وكان من أمرهما فيما روي أنهما قدما على رسول الله ﷺ فدعواه أن يجعل الأمر بعده إلى عامر بن الطفيل ويدخلا في دينه فأبى، فقال عامر: فتكون أنت على أهل المدر وأنا على أهل الوبر فأبى، فقال له عامر: فماذا تعطيني؟ فقال النبي ﷺ: «أعطيك أعتة الخيل فإنك رجل فارس»، فقال له عامر: والله لأملأنها عليك خيلاً ورجلاً حتى آخذك، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله ذلك وأبناء قيلة»، فخرجا من عنده، فقال أحدهما لصاحبه: لو قتلناه ما انتطح فيها عتزان، فتأمرا في الرجوع لذلك، فقال عامر لأريد: أنا أشغله لك بالحديث واضربه أنت بالسيف، فجعل عامر يحدثه وأريد لا يصنع شيئاً، فلما انصرفا قال له عامر: والله يا أريد لا خفتك أبداً، ولقد كنت أخافك قبل ذلك، فقال له أريد: والله لقد أردت إخراج السيف فما قدرتُ على ذلك، ولقد كنت أراك بيني وبينه أفأضربك؟ فمضيا للحشد على النبي ﷺ، فأصابت أُرَيْدَ صاعقة فقتلته، ففي ذلك يقول لبيد بن ربيعة أخوه:

أَخْشَى عَلَى أُرَيْدَ الْحُثُوفَ وَلَا
أَرْهَبُ نَوْءَ السَّمَائِكَ وَالْأَسَدِ

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبُذِّبَتْ هُمُومُهُمْ إِلَى الْمَاءِ يَلْبِغُهُمْ وَأَمَّا دَعْوَةُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٤﴾ وَاللَّهُ يَسْتَجِدُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَيُطَلِّئُهُم بِالْعَذَابِ وَالْأَسْوَاطِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِإِسْفِيعِ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلْقًا كَخَلْقِهِ فَتَشْبِهَهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَحِيدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ وَبَدَّ بِهَا كَذَابًا يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَبْتَغِ النَّاسُ فَيَمُكِّتُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَاقْتَدُوا بِرِيسَ أُولَئِكَ هُمْ سَوَاءٌ الْحِسَابِ وَأَمْوَانُهُمْ جَهَنَّمُ وَمِنْهَا يُهَادُّونَ ﴿١٨﴾

أصلية، وإذا فتحت زائدة، ويقال: مَحَلَّ الرجل بالرجل: مَكَرَّ به وأخذه بسعاية شديدة.

﴿١٤﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائذ على اسم الله تبارك وتعالى، وقال ابن عباس: ﴿دَعْوَةُ لِقَافٍ﴾ لا إله إلا الله، وما كان من الشريعة في معناه، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «هي التوحيد»، ويصح أن يكون معناها: له دعوة العباد بالحق ودعاء غيره من الأوثان باطل.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ من دون الله، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ لكفار قريش ونحوهم من العرب، وروى اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاء: ﴿تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ بالياء من فوق، و﴿يَسْتَجِيبُونَ﴾ بمعنى يُجِيبُونَ، ومنه قول الشاعر:

وَدَاعِ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الثَّدْيِ
قَلَمَ يَسْتَجِبُهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
ومعنى الكلام: والذين يدعونهم الكفار في حوائجهم ومنافعهم لا يجيبون بشيء.

ثم مثل تعالى مثلاً لإجاباتهم بالذي يبسط كَفَيْهِ نحو الماء ويشير إليه بالإقبال إلى فيه، فهو لا يبلغ فمه أبداً، فكذلك إجابة هؤلاء والانتفاع بهم لا يقع. وقوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ يريد به الماء وهو البالغ، والضمير في

فَجَعَلَنِي الْبَرْقُ وَالصَّوَاعِقُ بِأَدْ فَارِسَ يَوْمَ الْكَرْبِيهَةِ التُّجْدِ فنزلت الآية في ذلك، وروي عن عبدالرحمن بن صحرار العبدى أنه بلغه أن جباراً من جبابرة العرب بعث إليه النبي ﷺ ليُسَلِّمَ، فقال: أخبروني عن إله محمد، من لؤلؤ هو أو من ذهب؟ فنزلت عليه صاعقة ونزلت الآية فيه، وقال مجاهد: إن بعض اليهود جاء إلى النبي ﷺ يناظره، فبينما هو كذلك إذ نزلت صاعقة فأخذت قحف رأسه فنزلت الآية فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾، يجوز أن تكون إشارة إلى جدال اليهود المذكور وتكون الواو واو حال، أو إلى جدال الجبار المذكور، ويجوز - إن كانت الآية على غير سبب - أن يكون قوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ إشارة إلى جميع الكفرة من العرب وغيرهم الذين جُلِبَتْ لَهُمْ هذه التنبهات.

و ﴿لِحَالٍ﴾: القوة والإهلاك، ومنه قول الأعشى:

فَرَحٌ نَبَعٌ يَهْتَرُ فِي غُصْنِ الْمَجْدِ
بِدَعْظِيمِ الثَّدْيِ شَدِيدِ الْمَحَالِ
ومنه قول عبدالمطلب:

لَا يَغْلِبُنَّ صَلِيبُهُمْ
وَمَحَالُهُمْ عَذْوًا مَحَالُكَ
وقرأ الأعرج، والضحاك:

﴿الْمَحَالُ﴾ بفتح الميم بمعنى المحالة، وهي الحيلة، ومنه قول العرب في [ذكر] المثل: «المرء يعجز لا محال»، وهذا كالأستدرج والمكر ونحوه، وهذه استعارات في ذكر الله تعالى، والميم إذا كُسِرَتْ

﴿يَلْبِغُهُمْ﴾ للغم، ويصح أن يكون ﴿مِنْ دُونِهِ﴾ يراد به الفم وهو البالغ أيضاً، والضمير في ﴿يَلْبِغُهُمْ﴾ للماء، لأن الفم لا يبلغ الماء أبداً على تلك الحال، ثم أخبر تعالى عن دعاء الكافرين أنه في ضلال ولا يفيد شيئاً ولا يغني.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْتَجِدُّ﴾ الآية. يحتمل ظاهر هذه الألفاظ أنه جرى في طريق التشبيه على قدرة الله وتسخير الأشياء له فقط، ويحتمل أن يكون في ذلك طعن على كفار قريش وحاضري محمد ﷺ، أي: إن كنتم أنتم لا توقنون ولا تسجدون فإن جميع من في السموات والأرض لهم سجود لله تعالى، وإلى هذا الاحتمال نحا الطبري، و﴿مِنْ دُونِهِ﴾ تقع على الملائكة عموماً وسجودهم طوعاً بلا خلاف، وأما أهل الأرض

فالمؤمنون منهم داخلون في مَنْ سجدتهم طَوْعًا، وأما سجود الكفرة فهو الكَرْه، وذلك على نحوين من هذا المعنى، فإن جعلنا السجود هنا الهيئة المعمودة فالمراد من الكفرة من يضمه السيف إلى الإسلام - كما قال قتادة - فيسجد كرهًا، إمَّا نفاقًا، وإمَّا أن يكون الكره أول حاله فتستمر عليه الصفة وإن صحَّ إيمانه بعد، وإن جعلنا السجود الخضوع والتذلل على حسب ما هو في اللغة كقول الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَفَ فِيهَا سَجْدًا لِلْحَوَافِرِ
فِيَدْخُلُ الْكُفَّارَ أَجْمَعُونَ فِي ﴿مَنْ﴾،
لأنه ليس من كافر إلا ويلحقه من التذلل والاستكانة بقدره الله أنواع أكثر من أن تُحصى بحسب رزايه واعتباراته، وقال النحاس، والزجاج: إن الكره يكون في سجود عصاة المسلمين وأهل الكسل منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن كان اللفظ يقتضي هذا فهو قلق من جهة المعنى المقصود بالآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَلْمُهُمُ الْفَلْسُفُ
وَالْأَمْسَالُ﴾ إخبار عن أن «الظلال» لها سجود لله تعالى بالبكر والعشيات، قال الطبري: وهذا كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ تَحْتِ
يَدَيْهِ ظِلَالًا عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ
سُدًّا لِلَّهِ﴾، قال: وذلك هو فيئته بالعشي، وقال مجاهد: «ظل الكافر يسجد طوعاً وهو كاره»، وقال ابن عباس: «يسجد ظل الكافر حين

يفيء عن يمينه وشماله»، وحكى الزجاج أن بعض الناس قال: إن «الظلال» هنا يُراد بها الأشخاص، وضعفه أبو إسحق. و«الأمسال» جمع أصيل، وقرأ أبو مجلز: ﴿وَالْإِصْيَالُ﴾، قال أبو الفتح: هو مصدر أصلنا، أي: دخلنا في الأصل، كأصبحنا وأمسينا. وروي أن الكافر إذا سجد لصلته فإن ظله يسجد لله حيثنذ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبِّ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضِينَ﴾ الآية. جاء السؤال والجواب في هذه الآية من ناحية واحدة، إذ كان السؤال والتقرير عن أمر واضح لا مدافعة لأحد فيه ملتزم للحجة، فكان السبق إلى الجواب أفصح في الاحتجاج وأسرع في قطعهم من انتظار الجواب منهم، إذ لا جواب إلا هذا الذي وقع اليدار إليه. وقال مكِّي: جهلوا الجواب وطلبوه من جهة السائل فأعلمهم به السائل، فلما تقيد من هذا كله أن الله تعالى هو رب السموات والأرض وقع التوبيخ على اتخاذهم من دونه أولياء مُتَّصِفِينَ بأنهم لا ينفعون أنفسهم ولا يضرونها، وهذه غاية العجز، وفي ضمن هذا الكلام: «وتركتموه وهو الذي بيده ملكوت كل شيء»، ولفظة «مِن دُونِهِ» تقتضي ذلك.

ثم مثل الكفار والمؤمنين - بعد هذا - بقوله: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى
وَالْبَصِيرُ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿سَتَوَى الظُّلُمَاتُ﴾ بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو

بكر عن عاصم: ﴿يَسْتَوِي﴾ بالياء، فالتأنيث أحسن لأنه مؤنث لم يُفصل بينه وبين فاعله بشيء، والتذكير شائع لأنه تأنيث غير حقيقي والفعل مقدم، وشبهت هذه الآية الكافر بالأعمى والكفر بالظلمات، وشبهت المؤمن بالبصير والإيمان بالنور. ثم وفقهم بغد، هل رأوا خلقاً لغير الله فحملهم ذلك وأشتباهه بما خلق الله على أن جعلوا إلهاً غير الله. ثم أمر محمداً عليه الصلاة والسلام بالإفصاح بصفات الله تعالى في أنه خالق كل شيء، وهذا عموم في اللفظ يراد به الخصوص في كل ما هو خلق لله تعالى، ويخرج عن ذلك صفات ذاته لا ربَّ غيره، ووصف نفسه بالوحدانية من حيث لا موجود إلا به، وهو في وجوده مستغن عن الموجودات، لا إله إلا هو العلي العظيم.

﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

صدر هذه الآية تنبيه على قدرة الله تعالى وإقامة الحجة على الكفر به، ثم لما فرغ ذكر ذلك جعله مثلاً للحق والباطل والإيمان والكفر والشك في الشرع واليقين به.

و«الماء»: يريد به المطر، و«الأودية»: ما بين الجبال من الانخفاض والخنادق، وقوله سبحانه: ﴿يَقْدِرُهَا﴾ يحتمل أن يريد: بما قَدَّر لها من الماء. ويحتمل أن يريد: بقدر ما تحمله على قدر صغرها وكبرها، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَقْدِرُهَا﴾ بفتح الدال، وقرأ الأشهب العقيلي بسكونها.

و«الزُّبْدُ»: ما يحمله السيل من

غشاء ونحوه وما يرمي به ضفتيه من الحجاب الملتصق به، ومنه قول حسان بن ثابت:

والبخر حين تهب الريح شاميةً
فباطل يزمي العيزر بالزبد
و «الرأيي»: المنتفخ الذي قد زنا، ومنه الرئوة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا خَيْرِ ابْتِدَاءِ، والابتداء قوله: ﴿زَيْدٌ﴾ و﴿مَثَلِهِ﴾ نعت لـ «الزبد»، والمعنى: ومن الأشياء التي توقدون عليها ابتغاء الحلي - وهي الذهب والفضة - أو ابتغاء الاستمتاع بها في المرافق - وهي الحديد والرصاص والنحاس ونحوها من الأشياء التي توقدون عليها، فأخبر تعالى أن من هذه أيضاً

- إذا أحمي عليها - تكون زبداً مماثلاً للزبد الذي يحملها السيل، ثم ضرب تعالى ذلك مثلاً للحق والباطل، أي أن الماء الذي تشربه الأرض فيقع النفع به هو كالحق، والزبد الذي يخفو وينفث ويذهب هو كالباطل، وكذلك ما يخلص من الذهب والفضة والحديد ونحوها هو كالحق، وما يذهب في الدخان هو كالباطل. وقوله: ﴿فِي النَّارِ﴾ متعلق بمحذوف تقديره: كائناً كذا، قال مكي وغيره: ومنعوا أن يتعلق بقوله: ﴿يُوقَدُونَ﴾ لأنهم زعموا أنه ليس يوقد على شيء إلا وهو في النار، وتعلق حرف الجر بـ ﴿يُوقَدُونَ﴾ يتضمن تخصيص حال من حال أخرى.

وذهب أبو علي الفارسي إلى تعلقه بـ ﴿يُوقَدُونَ﴾، وقال: قد يوقد على شيء وليس في النار كقوله تعالى: ﴿فَأَقْوَصُ كَيْدَ النَّارِ﴾، فذلك

البناء الذي أمر به أن يوقد عليه ليس في النار ولكن يصيبه لهيبها، وقوله: ﴿جَفَاءً﴾ مصدر من قولك: «جفأت القدر» إذا غلت خرج زبدها وذهب. وقرأ رؤية: ﴿جَفَالاً﴾ من قولهم: «جفلت الريح السحاب» إذا حملته وفرقته، قال أبو حاتم: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن.

وقوله: ﴿مَا بَنَعَ النَّاسَ﴾ يريد الخالص من الماء ومن تلك الأحجار، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر،

وعاصم في رواية أبي بكر، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، والحسن: ﴿تُوقَدُونَ﴾ بالياء، أي أنتم أيها الموقدون، وهي صفة لجميع أنواع الناس. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن محيصن، ومجاهد، وطلحة، ويحيى، وأهل الكوفة: ﴿يُوقَدُونَ﴾ بالياء على الإشارة إلى الناس، و﴿جَفَاءً﴾ مصدر في موضع الحال، وروي عن ابن عباس أنه قال: قوله تعالى: ﴿يُنَادِي السَّمَاءَ﴾ يريد به الشرع والدين، وقوله تعالى: ﴿نَسَّاتٌ أَوْزِيَةٌ﴾ يريد به القلوب، أي: أخذ النبيل بحظه والبليد يحظه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يصح والله أعلم عن ابن عباس لأنه ينحو إلى قول أصحاب الرموز، وقد تمسك به

﴿أَمَّنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾ إِنَّمَا يُنذِرُ
أُولَئِكَ الَّذِينَ يُوقِنُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُصُونَ إِلَهِيَّتَهُ
﴿١٨﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ
وَيُحَافِظُونَ سُوَةَ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ
وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ
بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَمْ يُعْطِ الدَّارَ ﴿٢٠﴾ حَتَّىٰ تَدْخُلَوهَا
وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ
عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢١﴾ سَلَامٌ عَلَيْهِمْ بِمَا صَبَرُوا فِيمَا كُنْتُمْ فِي الدَّارِ
﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُصُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا
أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ الْعَذَابُ
وَهُمْ فِي سُوَةِ الدَّارِ ﴿٢٣﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَهُوَ
بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا لَمْتَعَةٌ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُ
الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ
مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٥﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ
قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٦﴾

الغزالي وأهل ذلك الطريق، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير علة تدعو إلى ذلك، والله الموفق للصواب برحمته، وإن صح هذا القول عن ابن عباس فإنما قصد أن قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ معناه: الحق الذي يتقرر في القلوب، والباطل الذي يعترها.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا﴾ هم المؤمنون الذين دعاهم الله على لسان رسوله عليه الصلاة والسلام فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من اتباع دينه.

و ﴿الْحَسَنَى﴾ هي الجنة، ويدخل في هذا النصر في الدنيا ونحو ذلك من البشارات التي تكون للمؤمن وكل ما يختص به المؤمنون من نعم الله عز وجل.

﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا﴾ هم الكفرة، و﴿سَوْءُ الْحِسَابِ﴾ هو التَّقْصِي على المحاسب، ولا يقع في حسابه شيء من التجاوز. قاله حوشب، وإبراهيم النَّخَعِي، وفرَّقَ السَّبْخِي وغيره. و«المأوى» حيث يأوي الإنسان ويسكن، و﴿لِلْمَآءِ﴾ ما يُفْتَرَش ويُلْبَس بالجلوس والرقاد.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنْ يَمَلِكُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، والمعنى: أَيْسْتَوِي مَنْ هداه الله تعالى فأمن بك وعلم صدق نبوتك ومن لم يهتد ولا رُزِق بصيرة فبقي على كفره؟ فمثل عز وجل ذلك بالعمى، ورُوي أن هذه نزلت في حمزة بن عبدالمطلب وأبي جهل بن هشام، وقيل: في عمار بن ياسر وأبي جهل، وهي - بعد هذا - مثال في جميع العالم. و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة، أي: إنما يتذكر فيؤمن ويراقب الله مَنْ له لب وتحصيل.

ثم أخذ تبارك وتعالى في وصف هؤلاء الذين يَسْرَهُم للإيمان فقال: ﴿الَّذِينَ يُؤْتُونَ يَمَّهْدُ اللَّهُ﴾، وقوله: ﴿يَمَّهْدُ اللَّهُ﴾ اسم للجنس، أي بجميع عهده، وهي أوامره ونواهيها التي وصى بها عبده، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض وتجنب جميع المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَتَّقُونَ الْيَتِيمَ﴾ يحتمل أن يريد به جنس الموثيق، أي: إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقضوه، قال قتادة: وتقدم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في

بضع وعشرين آية، ويحتمل أن يشير إلى ميثاق معين وهو الذي أخذه الله على عباده وقت مسحه على ظهر أبيهم آدم عليه السلام.

وَوَضِلُّ ما أمر الله به أن يُوصَلَ ظاهرة في القرابات، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات، وسوء الحساب هو أن يَتَّقَى، ولا يقع فيه مسامحة ولا تغمد.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

الصبر لوجه الله يدخل في الرزايا والأسقام والعبادات، وعن الشهوات ونحو ذلك. و﴿أَيْتَاكَ﴾ نصب على المصدر، أو على المفعول من أجله، و«الرجه» في هذه الآية ظاهره الجهة التي تقصد عند الله تعالى بالحسنات لتقع عليها المثوبة، وهذا كما تقول: خرج الجيش لوجه كذا، وهذا أظهر ما فيه، مع احتمال غيره، و«إقامة الصلاة» هي الإتيان بها على كمالها، والصلاة هنا هي المفروضة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا﴾ يريد مواساة المحتاج، و«السُّرُّ» هو فيما أنفق تطوعاً، والعلاية فيما أنفق من الزكاة المفروضة، لأن التطوع كله الأفضل فيه التكتسب. وقوله: ﴿وَيَذَرُونَ بِالْحَسَنَةِ الْيَتِيمَةَ﴾ أي: ويدفعون من رأوا منه مكروهاً بالتي هي أحسن، وقيل: يدفعون بقول «لا إله إلا الله» شركهم، وقيل: يدفعون بالسلام غوائل الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبالجملة لا يُكافئون الشرُّ بالشرُّ، وهذا بخلاف خُلِقَ الجاهلية. ورُوي أن هذه الآية

نزلت في الأنصار ثم بقيت عامة - بعد ذلك - في كل من اتصف بهذه الصفات.

وقوله: ﴿عُقَى الدَّارِ﴾ يحتمل أن تكون عُقَى دار الدنيا، ثم فسر «العقبى» بقوله: ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾ إذ العقبى تُعَمُّ حالة الخير وحالة الشر، ويحتمل أن يريد: عقبى دار الآخرة لدار الدنيا، أي: العقبى الجنة في الدار الآخرة هي لهم، وقرأ الجمهور: ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾، وقرأ السَّخَعِي: ﴿جَنَّةٌ عَدْنٌ يُدْخَلُونَهَا﴾ بضم الباء وفتح الخاء، و﴿جَنَّتْ﴾ بدلٌ من ﴿عُقَى﴾ وتفسير لها. و﴿عَدْنٌ﴾ هي مدينة الجنة ووسطها، ومنها «جنت الإقامة»، من «عَدَنَ بالمكان» إذا أقام فيه طويلاً، ومنه المعادن، و«جنت عَدْنٌ» يقال: هي سكن الأنبياء والشهداء والعلماء فقط، قاله عبدالله بن عمرو بن العاص، ويروي أن لها خمسة آلاف باب.

وقوله: ﴿وَمَنْ صَلَحَ﴾ أي: من عمل صالحاً وآمن، قاله مجاهد وغيره، ويحتمل: أي مَنْ صلح لذلك بقدر الله تعالى وسابق علمه، وحكى الطبري في صفة دخول الملائكة أحاديث لم نطول بها لضعف أسانيدها، والمعنى: يقولون: سلام عليكم، فحذف «يقولون» تخفيفاً وإيجازاً لدلالة ظاهر الكلام عليه، والمعنى: هذا بما صيرتم، والمعنى في ﴿عُقَى الدَّارِ﴾ على نحو ما تقدم من المعنيين، وقرأ الجمهور: ﴿يَنَمُّ﴾ بكسر النون وسكون العين، وقرأ

اللَّيْلِ ﴿٢٥﴾ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَتَابٍ ﴿٢٦﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَا فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَسْتَلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ ربي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٍ ﴿٢٧﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْبَانَ إِهْرَافَ أَهْلَ الْجِبَالِ أَوْ قُطِيعَتِ يَدِ الْأَرْضِ أَوْ كُمْ بِهِ الْعَوْفَىٰ بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْتِيسَ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَوْ يَسَاءَ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ آسَأْتَنِي بَرَسُولٍ مِنْ قِبَلِكَ فَاتَّلَمْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢٩﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ يَظُنُّوْنَ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ رِزْقِ اللَّهِ يَكْفُرُوا مَكْرَهُمْ وَضَعُوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٠﴾ لَقَدْ عَلِمْتُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابَ الْآخِرَةَ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقِفٍ ﴿٣١﴾

٢٥٣

أنحى بعد ذلك على أغنيائهم، وحقّر شأنهم، وشأن أموالهم، والمعنى أن هذا كله بمشيئة الله، يهب الكافر المال ليهلكه به، ويقدر على المؤمن ليعظم بذلك أجره وذخيره. وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ من التقدير، فهو مناقض لـ ﴿يَبْسُطُ﴾، ثم استجملهم في قوله تعالى: ﴿وَيَرْجُوا بِالْحَيَوةِ الدُّنْيَا﴾ وهي بالإضافة إلى الآخرة متاع ذاهب مضمحل، يستمتع به قليلاً ثم يفنى، و «المتاع»: ما يَتَمَتَّعُ به مما لا يبقى، قال الشاعر:

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه صفة مضادة للمقدمة، وقال ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَيَقْتَضُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُؤْتَلَ﴾ أنه زوي: «إذا لم تمش إلى قريبك برجلك ولم تواسه بمالك فقد قطعته»، وقال مصعب بن سعد: سألت أبي عن قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَبِيلَهُمْ فِي الْحَيَوةِ الدُّنْيَا أُمَمٌ الْحَرُورِيَّةُ؟ قال: لا، ولكن الحرورية هم الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه، وتلا هذه الآية، فكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يجعل فيهم الآيتين. و﴿الْكُفَّةُ﴾: الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن الخير جملة، و﴿سَوْءُ الدَّارِ﴾ ضد ﴿عَفَى الدَّارِ﴾، والأظهر في الدار هنا أنها دار الآخرة، ويحتمل أن تكون الدنيا على ضعف.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ﴾ الآية. لما أخبر تعالى عن تقدمت صفته بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار

ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ على القرآن الكريم، أو على محمد ﷺ.

و ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿مَنْ﴾ في ﴿مَنْ أَنَابَ﴾، وطمأنينة القلوب هي الاستكانة والسرور بذكر الله والسكون به كمالاً به، ورضى بالشواب عليه، وجودة اليقين. ثم استفتح الإخبار بأن طمأنينة القلوب بذكر الله تعالى، وفي هذا الإخبار حضٌ وترغيبٌ في الإيمان، والمعنى: إن بهذا تقع الطمأنينة لا بالآيات المقترحة، بل ربما كفر بعدها قوم فنزل العذاب كما سلف في بعض الأمم.

و ﴿الَّذِينَ﴾ الثاني ابتداءً وخبره ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، ويصح أن تكون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من الأولى. و﴿طُوبَىٰ﴾ ابتداءً و﴿لَهُمْ﴾ خبره.

تَمَتَّعَ بِمَا مُشِعْتُ إِنَّ شَيْئًا سَبَقَتْ بِهِ الْمَمَاتَ هُوَ الْمَتَاعُ وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، هذا ردٌ على مقترحي الآيات من كفار قريش، كسقوط السماء عليهم كسفاً، ونحو ذلك من قولهم: سِيرَ عَنَا الْأَخْشَبِينَ، واجعل لنا البطاح محارث ومغترساً كالأردن، وأخي لنا مضيئنا وأسلافنا، فلما لم يكن ذلك بحسب أن آيات الاقتراح لم تجر عادة الأنبياء بالإتيان لها إلا إذا أراد الله تعذيب قوم قالوا هذه المقالة، فردَّ الله عليهم، أي أن نزول الآية لا تكون معه ضرورة إيمانكم ولا هداكم، وإنما الأمر بيد الله يُضِلُّ من يشاء ويهدي من يشاء إلى طاعته والإيمان به من أناب إلى الطاعة وآمن بالآيات الدالة،

وطوبى اسم، ويدل على ذلك كونه ابتداءً، وهي فُعلَى من الطيب في قول بعضهم، وذهب سيبويه بها مذهب الدعاء، وقال: هي في موضع رفع، ويدل على ذلك رفع ﴿رَحْسُنُ﴾، قال ثعلب: وقرئ: ﴿وَحْسُنُ﴾ بالنصب، ف ﴿طُوبَى﴾ - على هذا - مصدر، كما قالوا: سقياً لك، ونظيره من المصادر: الرجعى والعُقْسى. قال ابن سيدة: والطوبى جميع طيبة - عن كراع - ونظيره كُوسَى في جمع كيسة، وُصُوفَى في جمع صيفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي قرأ: ﴿وَحْسُنُ﴾ بالنصب هو يحيى بن يَعْمَر، وابن أبي عبله.

واختلف في معنى ﴿طُوبَى﴾ - ف قيل: معناه: خير لهم، وقال عكرمة: معناه: نعم لهم، وقال الضحاك: معناه: غبطة لهم، وقال ابن عباس: طوبى اسم الجنة بالحبشية، وقال سعيد بن مشجوح: اسم الجنة طوبى بالهندية، وقيل: طوبى اسم شجرة في الجنة، وبهذا تواترت الأحاديث، قال رسول الله ﷺ:

«طوبى شجرة في الجنة، يسير الراكب المجدُّ في ظلها مائة عام مجداً لا يقطمها، اقرؤوا إن شتمت: ﴿وَيْطَلِّ تَدْوِيرُ﴾»، وحكى الطبري عن أبي هريرة، وعن مغيث بن سَمِيٍّ، وعتبة بن عبد يرفعه أخباراً مقتضاها أن هذه الشجرة ليست في الجنة دار إلا وفيها من أغصانها، وأنها تثمر ثياب أهل الجنة، وأنها تخرج منها الخيل بسُرُجِها

وَلُجْمِها، ونحو هذا مما لا يثبت سنده.

و ﴿الْمَأْتَابُ﴾: المرجع والمآل، من أب يؤوب، ويقال في طوبى: طيبى.

③ - ③ تفسير قوله عز وجل:

الكاف في قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ متعلقة بالمعنى الذي في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾، أي: كما أنفذ الله هذا كذلك أرسلناك، هذا قول، والذي يظهر لي أن المعنى: كما أجرينا العادة بأن الله يضل من يشاء ويهدي، لا الآيات المقترحة، فكذلك أيضاً فعلنا في هذه الأمة، أرسلناك إليها بوحي لا بالآيات المقترحة، فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالْآخِرِينَ﴾، قال قتادة، وابن جريج: نزلت في قريش حين عاهدهم رسول الله ﷺ عام الحديبية، فكتب الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال قائلهم: نحن لا نعرف الرحمن ولا نقر اسمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والسذي أقول في هذا: إن ﴿الْآخِرِينَ﴾ هنا يراد به الله تعالى وذاته، ونسب إليهم الكُفْرَ به على الإطلاق، وقصة الحديبية وقصة أمية بن خلف مع عبدالرحمن بن عوف إنما هي عن إيابة الاسم فقط، وهروب عن هذه العبارة التي لم يعرفوها إلا من قبل محمد ﷺ، ثم أمر الله نبيّه بالتصريح بالدين والإنصاح بالدعوة في قوله تعالى:

﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابُ﴾، و ﴿الْمَتَابُ﴾: المرجع كالمآب، لأن التوبة: الرجوع.

ويحتمل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية أن يكون متعلقاً بقوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالْآخِرِينَ﴾ فيكون معنى الآية الإخبار عنهم أنهم لا يؤمنون ولو نزل قرآن سُيِّرَتْ به الجبال أو قُطِعَتْ به الأرض، هذا تأويل الفراء وفرقة من المتأولين. وقالت فرقة: بل جواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف تقديره: ولو أن قرآنًا يكون صفته كذا لما آمنوا بوجه، قال أهل التأويل: ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: إن الكفار كانوا قالوا للنبى ﷺ: أرح عنا، أو سيّر عنا جبلي مكة فقد ضيقا علينا، واجعل لنا أرضاً قطع غراسه وحرث، وأخي لنا آباءنا وأجدادنا وفلاناً وفلاناً، فنزلت الآية في ذلك مُعْلِمة أنهم لا يؤمنون ولو كان ذلك كله. وقالت فرقة: جواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف ولكنه ليس في هذه المعنى، بل تقديره: لكان هذا القرآن الذي يصنع به هذا، وتتضمن الآية - على هذا - تعظيم القرآن، وهذا قول حسن يحرق فصاحة الآية. وقوله تعالى: ﴿بَلِ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ يعضد التأويل الأخير ويرتّب مع الآخرتين.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتَيْنِ﴾ بمعنى: يعلم، وهي لغة هوازن، قاله القاسم بن معن، وقال ابن الكلبي: هي لغة «هنبيل» حي من النخع، ومنه قول سُحَيْمِ بن وثيل الرياحي:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشُّعْبِ إِذْ يَنْبَسِرُونَ نِي
أَلَمْ تَيْتَأَسُّوا أَنِّي ابْنُ فَارِسٍ زَهْدِم؟
ويحتمل أن يكون «الْيَأْسُ» في هذه
الآية على بابهِ، وذلك أنه لما أبعد
إيمانهم في قوله: ﴿وَلَوْ أَن قُرْآنَا﴾
الآية، على التأويلين في المحذوف
المقدر قال في هذه: أفلم ييأس
المؤمنون من إيمان هؤلاء الكفرة
علماً منهم أن لو شاء الله لهدى
الناس جميعاً؟

وقرأ ابن كثير، وابن محيصة:
﴿يَأْسِ﴾، وقرأ ابن عباس،
وعلي بن أبي طالب، وابن أبي
مليكة، وعكرمة، والجحدري،
وعلي بن حسين، وزيد بن علي،
وجعفر بن محمد: ﴿أَقْلَمَ يَتَبَيَّنُ﴾.

ثم أخبر تعالى عن كفار قريش
والعرب أنهم لا يزالون تصيبهم
قوارع من سرايا رسول الله ﷺ
وغزواته، وقرأ ابن مسعود ومجاهد:
﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾، ثم قال:
﴿أَوْ تَحُلْ﴾ أنت يا محمد قريباً من
دارهم، هذا تأويل فرقة منهم
الطبري، وعزاه إلى ابن عباس،
ومجاهد، وقتادة، وقال الحسن بن
أبي الحسن: المعنى: أو تحل
القارعة قريباً من دارهم، وقرأ
سعيد بن جبيرة، ومجاهد: ﴿أَوْ تَحُلْ
قريباً مِنْ دِيَارِهِمْ﴾ بالجمع.

ووغد الله - على قول ابن عباس
وقوم - فتح مكة، وقال الحسن بن
أبي الحسن: الآية عامة في الكفار
إلى يوم القيامة، وإن حال الكفار
هكذا هي أبداً، ووعد الله قيام
الساعة، و«القارعة»: الرزية التي
تقرع قلب صاحبها بظفاعتها كالقتل

والأنسر ونهب المال
وكشف الحرم ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ
اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلِنَا بَيْنَ قَبَائِكُمْ﴾.

هذه الآية تأنيس
للنبي ﷺ، أي: لا يضيغ
صدرك يا محمد بما ترى
من قومك وتلقى منهم،
فليس ذلك ببدع ولا
كبير، قد تقدم هذا في
الأمم، و«أَمَلَيْتُمْ لَهُمْ»:
أي: مَذَذْتُمُ الْمُدَّةَ
وَأَطَلْتُمْ، والإملاء:
الإمهال على جهة
الاستدراج، وهو من
الملاوة من الزمن، ومنه:
تَمَلَيْتُمْ حُسْنَ الْعَيْشِ.

وقوله: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾؟
تقرير وتعجيب، وفي ضمنه وعيد
الكفار المعاصرين لمحمد عليه
الصلاة والسلام.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذه الآية بالمعنى راجعة إلى قوله:
﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾، والمعنى:
أفمن هو هكذا أحق بالعبادة أم
الجمادات التي لا تضر ولا تنفع؟
هذا تأويل، ويظهر أن القول مرتبط
بقوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾، كأن
المعنى: أفمن له القدرة والوحدانية
ويجعل له شريك أهمل أن ينتقم
ويعاقب أم لا؟ و«الْأَنْفُسُ» من
مخلوقاته وهو قائم على الكل أي
محيط به ليقرب المرعظة من حس
السامع، ثم خص من أحوال الأنفس
حال كسبها ليتفكر الإنسان عند نظر
الآية في أعماله وكسبه.

﴿٣٣﴾ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
أَكْثَرُ مَا دَأَبُوا بِهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ أَتَقُوا وَعَقْبَى
الْكُفْرِينَ النَّارُ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ أَكْثَرُ الْكُتُبِ يَفْرَحُونَ
بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ
أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أَشْرِكُ بِهِ إِلَهًا أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ مَتَابِ ﴿٣٥﴾
وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حَكَمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَيْتُمْ أَهْوَاءَ هُمْ بَعْدَ مَا
جَاءَكُمْ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاكِفٍ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ
لِرُسُلِنَا أَنْ يَأْتِيَ بِنَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ ﴿٣٧﴾
يَعْلَمُ اللَّهُ مَا تَشَاءُ وَيُخَيِّرُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٨﴾
وَإِنْ مَا نُرِيدُكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّتْكَ فَأَمَّا عَلَيْكَ
الْبَلْعُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٣٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ
مِنَ أَمْطَرِافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ
الْحِسَابِ ﴿٤٠﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا
يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسِعِلْمُ الْكُفْرِ لِمَنْ عُقْبَى النَّارِ ﴿٤١﴾

وقوله: ﴿قُلْ سَمِعْتُمْ﴾ أي: سَمِعُوا
من له صفات يستحق بها الألوهية،
ثم أضرب عن القول وقُرِّر: هل
تُعلمون الله بما لا يعلم، وقرأ
الحسن: ﴿تَشْبِيهُوْتَهُ﴾ بإسكان النون
وتخفيف الباء. و«آم» بمعنى «بل»
و«ألف الاستفهام»، هذا مذهب
سيبويه، وهي كقولهم: «إنها لإبل أم
شاة». ثم قرههم بعد، هل يريدون
تجوير ذلك بظاهر من الأمر؟ لأن
ظاهر الأمر له إلباس ما وموضع من
الاحتمال، وما لم يكن إلا بظاهر من
القول فقط فلا شبهة له. وقرأ
الجمهور: ﴿زَيْنَ﴾ على البناء
للمفعول «مَكْرَهُمْ» بالرفع، وقرأ
مجاهد: ﴿زَيْنَ﴾ على بناء الفاعل
«مَكْرَهُمْ» بالنصب، أي: زَيْنَ اللَّهُ،
و«مَكْرَهُمْ» لفظ يعم أقوالهم
وأفعالهم التي كانت بسبيل مناقضة

الشرع، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَصُدُّوا﴾ بضم الصاد، وهذا على تعدي الفعل، وقرأ الباقون هنا وفي «حتم المؤمن» ﴿وَصُدُّوا﴾ بفتحها، وذلك يحتمل أن يكون: صدوا أنفسهم أو صدوا غيرهم، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وِصْدُوا﴾ بكسر الصاد.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّ عَذَابٌ﴾ الآية وعيدٌ، أي: لهم عذاب في دنياهم بالقتل والأسر والجذوب والبلايا في أجسامهم وغير ذلك مما امتحنهم الله به، ثم لهم عذاب أشق من هذا كله وهو الاحتراق بالنار. و﴿أَشَقُّ﴾: أصعب، من المشقة، و«الواقى» هو الساتر على جهة الحماية، من الوقاية.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾ الآية. قال قوم: (مثل) معناه: صفة، وهذا من قولك: «مثلت الشيء» إذا وصفته لأحد وقربت عليه فهم أمره، وليس بضرب مثل لها، وهو كقوله سبحانه: ﴿وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ أي الوصف الأعلى، ويظهر أن المعنى الذي يتحصل في النفس مثلاً للجنة هو جزئ الأنهار وأن أكلها دائم، ورافعه عند سيبويه مُقَدَّر، قيل: تقديره: فيما يُثَلَى عليكم أو يُنصَّ عليكم مثل الجنة، ورافعه عند الفراء قوله: ﴿تَجْرِي﴾، أي: صفة الجنة أنها تجري من تحتها الأنهار، ونحو هذا موجود في كلام العرب، وتأول عليه قومٌ أن ﴿يَمَلُّ﴾ مُفْحَم، وأن التقدير: الجنة التي وعد المتقون بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قلق، وقرأ علي بن إبي طالب، وابن مسعود: ﴿أَمْشَالُ الْجَنَّةِ﴾، وقد تقدم غير مرة معنى قوله: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾.

وقوله: ﴿أَكْهَلَهَا﴾ معناه: ما يُؤْكَل فيها، «والمُعْبَى» والعاقبة والعاقب: حال تتلو أخرى قبلها. وباقى الآية بين، وقيل: التقدير في صدر الآية: «مثل الجنة جنة تجري»، قاله الزجاج، فتكون الآية - على هذا - ضَرْبٌ مثل لجنة النعيم في الآخرة. ﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون فيمن عني بهذه الآية - فقال ابن زيد: عني به من آمن من أهل الكتاب، كعبدالله بن سلام وشبهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى مذمهم بأنهم لشدة إيمانهم يُسرون بما يرد على النبي ﷺ من مباحات الشرع، وقال قتادة: عني به جميع المؤمنين و﴿الِكْتَبُ﴾ هو القرآن، و﴿مَا أُرِئِلَ إِلَيْكَ﴾ يراد به جميع الشرع، وقالت فرقة: المراد «بالذين آتيناهم الكتاب» اليهود والنصارى، وذلك أنهم لهم فرح بما ينزل على النبي ﷺ من تصديق شرائعهم وذكر أوائلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وُضِعَ هذا التأويل بأن همهم به أكثر من فرحهم فلا يُغتد بفرحهم، ويُضَعَفُ أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه وقد فرّق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه وبين الذين آتيناهم الكتاب.

و﴿الْأَخْرَابِ﴾ قال مجاهد: هم

اليهود والنصارى والمجوس، وقالت فرقة: أحزاب الجاهلية من العرب، وأمره الله تعالى أن يطرح اختلافهم، وأن يصدق بأنه إنما أمر بعبادة الله وترك الإشراك والدعاء إليه، واعتقاد المآب إليه، وهو الرجوع عند البعث يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَكَذَلِكَ﴾، المعنى: كما يسرنا هؤلاء للفرح وهؤلاء لإنكار البعض، كذلك ﴿أَنْزَلْنَا حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾، ويحتمل المعنى: والمؤمنون الذين آتيناهم الكتاب يفرحون به لفهمهم له وسرعة تلقّيههم، ثم عدّد النعمة بقوله: كذلك جعلناه، أي: سَهَّلْنَا عَلَيْهِمْ في ذلك وَتَقَضَّلْنَا. و﴿حُكْمًا﴾ نصب على الحال، والحُكْمُ: ما تضمنه القرآن من المعاني، وجعله عربياً لما كانت العبارة عنه بالعربية. ثم خاطب النبي ﷺ محذراً من اتباع أهواء هذه الفرق الضالة، والخطاب لمحمد عليه الصلاة والسلام وهو بالمعنى يتناول المؤمنين إلى يوم القيامة. ووقف ابن كثير وحده على: ﴿وَأَبٍ﴾ و﴿هَادِي﴾ و﴿وَأَلٍ﴾ بالياء، قال أبو علي: «والجمهور يقفون بغير ياء، وهو الوجه»، وبقاى الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية. في صدرها تأنيس للنبي ﷺ، وردّ على المقترحين من قريش بالملائكة، المتعجبين من بعثة الله بشراً رسولاً، فالمعنى: إن بعثك يا محمد ليس ببدع، فقد تقدم هذا في الأمم، ثم جاء قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ الآية، لفظه لفظ النهي والزجر،

والمقصد به إنما هو النفي المحض، لكنه نفي تأكيد بهذه العبارة، ومتى كانت هذه العبارة عن أمر واقع تحت قدرة المنهي عنه فهي زجرٌ، ومتى لم يقع ذلك تحت قدرته فهو نفيٌّ مؤكَّد. و﴿يَاذِنِ اللَّهُ﴾ معناه: إلا أن يأذن الله في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لفظ عام في جميع الأشياء التي لها آجال، وذلك أنه ليس كائن فيها إلا وله أجل في بدنه وفي خاتمته، وكل أجل مكتوب محصور، فأخبر الله تعالى عن كتبه الآجال التي للأشياء عامة، وقال الضحاك، والفراء: المعنى: لكل كتاب أجل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا العكس غير لازم، ولا وجه له، إذ المعنى تام في ترتيب القرآن، بل يمكن هدم قولهما بأن الأشياء التي كتبها الله أزلية باقية كنعيم أهل الجنة وغيره يوجد كتابها ولا أجل له.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّئُ﴾، قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿وَيُنَبِّئُ﴾ بتشديد الباء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم بتخفيفها، وقد تخبط الناس في معنى هذه الألفاظ، والذي يتلخص من مسلكها أن الأشياء التي قدرها الله تعالى في الأزل، وعلمها بحال ما، لا يصح فيها محوٌ ولا تبديل، وهي التي كتبت في أم الكتاب، وسبق بها القضاء، وهذا مروى عن ابن عباس وغيره من أهل العلم، وأما الأشياء التي أخبر الله تعالى أنه يبذل فيها

وينقل كغفر الذنوب بعد تقريرها، وكنسخ آية بعد تلاوتها واستقرار حكمها ففيها يقع المحو والتثبيت فيما يقيد الحفظه ونحو ذلك، وأما إذا رُدَّ الأمر إلى القضاء والقدر فقد محا الله ما محا وثبت ما ثبت، وجاءت العبارة مستقبلة لمحي الحوادث وهذه الأمور فيما يستأنف من الزمان، فيتظر البشر ما يمحو أو ما يثبت، وبحسب ذلك خوفهم ورجاؤهم ودعاؤهم، وقالت فرقة منهم الحسن: هي في آجال بني آدم، وذلك أن الله تعالى في ليلة القدر - وقيل: ليلة نصف شعبان - يكتب آجال الموتى، فيُمحى ناس من ديوان الأحياء ويُنبتون في ديوان الموتى، وقال قيس بن عباد: العاشر من رجب هو يوم يمحو الله ما يشاء ويثبت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص في الآجال وغيرها لا معنى له، وإنما يحسن من الأقوال هنا ما كان عاماً في جميع الأشياء، فمن ذلك أن يكون معنى الآية: إن الله تعالى يغير الأمور عن أحوالها، أعني ما من شأنه أن يُغيَّر على ما قدمناه، فيمحو من تلك الحالة ويثبت في التي نقله إليها، وزوي عن عمر، وابن مسعود أنهما كانا يقولان في دعائهما: «اللهم إن كنت كتبتنا في ديوان الشقاوة فامحنا وأثبتنا في ديوان السعادة، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت»، وهذا دعاء في غفران الذنوب وعلى جهة الجزع منهما، أي: اللهم إن كنا شقينا بمعصيتك، وكتبت علينا ذنوب

وشقاوة بها فامحها عنا بالمغفرة والطاعة، وفي لفظ عمر رضي الله عنه - في بعض الروايات - بعض من هذا، ولم يكن دعاؤهما البتة في تبديل سابق القضاء، ولا يتأول عليهما ذلك.

وقيل: إن هذه الآية نزلت لأن قريشاً لما سمعت قول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِبَيِّنَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ قالوا: ليس لمحمد في هذا الأمر قدرة ولا حظ، فنزلت ﴿يَسْأَلُ اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّئُ﴾ أي: ربما أذن الله من ذلك كما تكرهون بعد أن لم يكن بإذن الله.

وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: يمحو الله ما يشاء ويثبت من أمور عباده، إلا السعادة والشقاوة والآجال فإنه لا محو فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو ما أصلناه أولاً في الآية.

وحكى عن فرقة أنها قالت: يمحو الله ما يشاء ويثبت من كتاب حاشى أم الكتاب الذي عنده لا يغير منه شيئاً، وقالت فرقة: معناه: يمحو كل ما يشاء ويثبت كل ما أراد، ونحو هذه الأقوال التي هي سهلة المعارضة. وأسند الطبري عن إبراهيم النخعي أن كعباً قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية في كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة، قال: وما هي؟ قال: قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ اللَّهَ مَا يَشَاءُ وَيُنَبِّئُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾، وذكر أبو المعالي في التلخيص أن علياً رضي الله عنه هو الذي قال هذه

﴿الْأَرْضِ﴾ يريد به اسم الجنس، وقيل: يريد أرض الكفار المذكورين، وهذا بحسب الاختلاف في قوله: ﴿نَفْسَهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾. وقرأ الجمهور: ﴿نَفْسَهَا﴾ وقرأ الضحاك: ﴿نَفْسُهَا﴾، وقوله: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾، مَنْ قَالَ: «إِنهَا أَرْضُ الْكُفَّارِ الْمَذْكُورِينَ» قال: معناه: أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي أَرْضَ هَؤُلَاءِ بِالْفَتْحِ عَلَيْكَ فَتَنْقُصُهَا بِمَا يَدْخُلُ فِي دِينِكَ مِنَ الْقَبَائِلِ وَالْبِلَادِ الْمَجَاوِرَةِ لَهُمْ، فَمَا يُؤْمِنُهُمْ أَنْ نَمَكِّنَكَ مِنْهُمْ أَيْضاً كَمَا فَعَلْنَا بِمَجَاوِرِهِمْ؟ قاله ابن عباس، والضحاك، وهذا القول لا يتأتى إلا بأن يُقَدَّرَ نزول هذه الآية بالمدينة. ومن قال: «إِنَّ [الْأَرْضَ] اسْمُ جِنْسٍ» جعل الانتقاص من الأطراف بتخريب العمران الذي يُجَلِّهُ اللهُ بِالْكَفْرَةِ، وهذا قول ابن عباس أيضاً ومجاهد، وقالت فرقة: الانتقاص هو بموت البَشَرِ، وهلاك الشمرات، ونقص البركة، قاله ابن عباس أيضاً والشعبي، وعكرمة، وقتادة. وقالت فرقة: الانتقاص بموت الأخيار والعلماء، قال ذلك ابن عباس أيضاً ومجاهد، وكلُّ ما ذكر يدخل في لفظ الآية. والطرف من كل شيء: خياره، ومنه قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «العلوم أودية، في أي وادٍ أخذت منها خسرت، فخذوا من كل شيء طرفاً»، يعني خياراً. وجملة معنى هذه الآية الموعظة وضرب المثل، أي: أَلَمْ يَرَوْا فَيَقَعْ مِنْهُمْ اتِّعَاطُ، وَأَلْيَقُ مَا يَقْصِدُ لَفْظُ الْآيَةِ هُوَ تَنْقِصُ الْأَرْضَ بِالْفَتْحِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ.

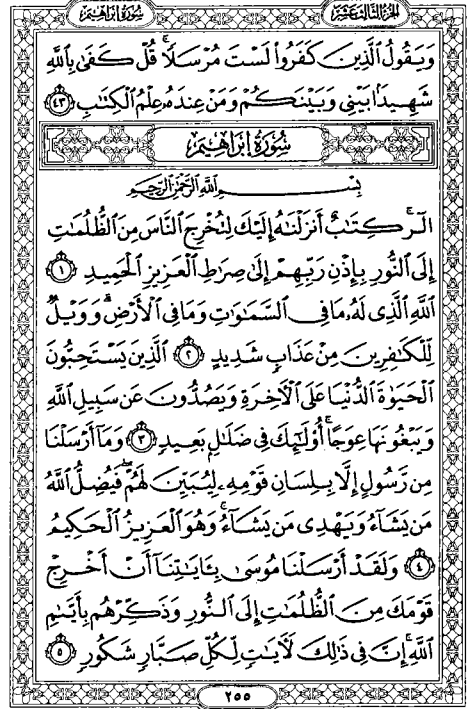
وهي قبل الفعل، فصارت بعد في ذلك بمنزلة اللام المؤكدة في القسم التي تكون قبل الفعل في قولك: «والله لتخرجن»، فلذلك يحسن أن تدخل النون الثقيلة في قولك «تُرِيَّتْكَ» لحلولها هنا محل اللام هناك، ولو لم تدخل «ما» لما جاز ذلك إلا في الشعر.

وخص «البعض» بالذكر إذ مفهوم أن الأعمار تقصر عن إدراك جميع ما تأتي به الأقدار مما يُوعَدُ به الكفار، وكذلك أعطى الوجود، ألا ترى أن أكثر

الفتوح إنما كان بعد النبي ﷺ، ﴿أَوْ﴾ عاطفة.

وقوله: ﴿فَاتَّخَذَ﴾ جواب الشرط، ومعنى الآية: إِنْ تَبَقَّ يَا مُحَمَّدُ لِتَرَى، أَوْ تَوَفَّيْتُكَ فَعَلَى كِلَا الْوَجْهَيْنِ إِنَّمَا يَلْزَمُكَ الْبَلَاغُ فَقَطْ. وقوله: ﴿تَوَدَّعْتُمْ﴾ يحتمل أن يريد به المضار التي توعد الله بها الكفار، فأطلق فيها لفظه الوعد لما كانت تلك المضار معلومة مصرحاً بها، ويحتمل أن يريد الوعد لمحمد عليه الصلاة والسلام في إهلاك الكفرة، ثم أضاف الوعد إليهم لما كان في شأنهم.

والضمير في قوله: ﴿يَرَوْا﴾ عائذ على كفار قريش، وهم المتقدم ضميرهم في قوله: ﴿تَوَدَّعْتُمْ﴾، وقوله: ﴿فَاتَّخَذَ الْأَرْضَ﴾ معناه: بِالْقُدْرَةِ وَالْأَمْرِ، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَاتَّخَذَ اللهُ بَيْنَهُمْ رِبْعًا أَلْقَاوَعِيدَ﴾،



المقالة المذكورة عن كعب، وذلك - عندي - لا يصح عن علي.

واختلفت أيضاً عبارة المفسرين في تفسير «أَلَمْ أَكْتُبِ» - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو الذكور، وقال كعب: هو علم الله ما هو خالق وما خلقه عاملون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأصوب ما يُفَسَّرُ به «أَلَمْ أَكْتُبِ» أنه ديوان الأمور المحدثه التي قد سبق القضاء فيها بما هو كائن، وسبق ألا يُبدَّل، ويبقى المحو والتثبيت في الأمور التي سبق في القضاء أن تُبدَّل وتُحمى وتثبت، قال نحوه قتادة، وقالت فرقة: معنى «أَلَمْ أَكْتُبِ»: الحلال والحرام، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن.

٤٠ - ٤١ تفسير قوله عز وجل:

«إِنْ شَرَطَ دَخَلَتْ عَلَيْهَا «مَا»،

ورفع (الكتاب)، وهذه القراءات يراد فيها الله تعالى، لا يحتمل لفظها غير ذلك.
تم تفسير سورة الرعد والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد رسول الله وعلى آله وصحبه

تفسير

سورة إبراهيم عليه السلام

هذه السورة مكية إلا آيتين، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا﴾ إلى آخر الآيتين، ذكره مكّي، والنقاش.

تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، و﴿كَيْتَبُ﴾ رفع على خير ابتداء مضمّر، تقديره: هذا كتاب، وهذا على أكثر الأقوال في الحروف المقطعة، وأما مَنْ قال فيها: إنها كناية عن حروف المعجم، ذ ﴿كَيْتَبُ﴾ مرفوع بقوله: ﴿الرَّحْمَٰنُ﴾، أي: هذه الحروف كتاب أنزلناه إليك، وقوله: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ في موضع الصفة لـ «الكتاب»، قال القاضي ابن الطيب، وأبو المعالي، وغيرهما: إن الإنزال لم يتعلق بالكلام القديم الذي هو صفة الذات، لكن بالمعاني التي أفهمها الله جبريل عليه السلام من الكلام.

وقوله تعالى: ﴿لَنْ نَجْعَلَ﴾ أسند الإخراج إلى النبي ﷺ من حيث له

وتوحيد الله تبارك وتعالى، يريد مَنْ آمن منهم، كعبدالله بن سلام، وتميم الدّاري، وسلمان الفارسي الذين يشهدون بتصديق محمد عليه الصلاة والسلام. وقال مجاهد: يريد عبدالله بن سلام خاصة، قال هو: فني نزلت ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان الأخيران لا يستقيمان إلا أن تكون الآية مدنية والجمهور على أنها مكية، قاله سعيد بن جبير، وقال: لا يصح أن تكون الآية في عبدالله بن سلام لكونها مكية، وكان يقرأ: ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾.

وقيل: يريد الله تعالى، كأنه استشهد بالله سبحانه، ثم ذكره بهذه الألفاظ التي تتضمن صفة تعظيم، ويعترض هذا القول بأن فيه عطف الصفة على الموصوف وذلك لا يجوز وإنما تعطف الصفات بعضها على بعض، ويحتمل أن تكون [مَنْ] في موضع رفع بالابتداء والخبر محذوف والتقدير: أعدل أو أمضى قولاً، ونحو هذا مما يدل عليه لفظة «شاهد»، ويراد بذلك الله تعالى.

وقرأ علي بن أبي طالب، وأبي بن كعب، وابن عباس، وابن جبير، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، والحكم، وغيرهم: ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ بكسر الميم من [مِنْ] وخفض الدال، قال أبو الفتح: ورؤيت عن النبي ﷺ، وقرأ علي بن أبي طالب أيضاً، والحسن، وابن السميع: ﴿وَمِنْ عِنْدِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ بكسر الميم والدال، وبضم العين وكسر اللام على ما لم يسم فاعله

وقوله: ﴿لَا مَعْقَبَ﴾ أي: لا راد ولا مناقض يتعقب أحكامه، أي: ينظر في أعقابها، أمصيبة هي أم لا؟ وسُرعة حساب الله واجبة لأنها بالإحاطة وليست بعدد.

و «المَكْرُ»: ما يتمرس بالإنسان ويسعى عليه، علم بذلك أو لم يعلم، فوصف الله تعالى الأمم السالفة التي سعت على أنبيائها، كما فعلت قريش بمحمد ﷺ بالمكر، وقوله: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا﴾، أي المعقوبات التي أحلها بهم، وسماها مكرأ على عرف تسمية المعاقبة باسم الذنب، كقوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ﴾

ونحو هذا، وفي قوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ تنسيبه وتحذير في طي إخبار. ثم توعدهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ لِمَنْ عُنُقُ الدَّارِ﴾، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿الكافر﴾ على الإفراد، هو اسم الجنس، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿الكَافِرُ﴾ وقرأ ابن مسعود: ﴿الكافرون﴾، وقرأ أبي بن كعب: ﴿الذين كفروا﴾، وتقدم القول في ﴿عُنُقِ الدَّارِ﴾ قبل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية. المعنى: ويكذبك يا محمد هؤلاء الكفرة، ويقولون: لست مرسلأ من الله، وإنما أنت مُدْع، قل لهم: ﴿كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، و﴿بِاللَّهِ﴾ في موضع رفع، التقدير: كفى الله، و «شاهد» بمعنى: شاهد، وقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾، قيل: يريد اليهود والنصارى الذين عندهم الكتب السابقة برفض الأصنام

فيه المشاركة بالدعاء والإنذار، وحقيقته إنما هي لله تعالى بالاختراع والهداية، وفي هذه اللفظة تشريف للنبي ﷺ، وعمّ «الناس» إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نُقل تواتراً من دعوته عليه الصلاة والسلام العالم كُله، وفي بعثه إلى الأحمر والأسود، علم ذلك الصحابة مشاهدة، ونقل عنهم تواتراً، فعلم قطعاً والحمد لله. واستعير الظلمات للكفر والنور للإيمان تشبيهاً، وقوله: ﴿يَا ذِينَ رَبِّهِمْ﴾ أي بعلمه وقضائه وتمكينه لهم، و﴿إِلَّا﴾ في قوله: ﴿إِلَّا مِرْيَئًا﴾ بدل من الأول في قوله: ﴿إِلَّا أَلْتَرِي﴾، أي المحجّة المؤدية إلى طاعة الله والإيمان به ورحمته، فأصافها إلى الله بهذه المتعلقة، و﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ صفتان لائقتان في هذا الموضع، فالعزة من حيث الإنزال للكتب، وما في ضمن ذلك من القدرة واستيجاب الحمد من حيث بثّ هذه النعم على العالم في هدايتهم.

وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿اللَّهُ الَّذِي﴾ برفع اسم الله على القطع والابتداء، وخبره ﴿الَّذِي﴾، ويصح رفعه على تقدير: «هو الله الذي»، وقرأ الباقون بكسر الهاء على البدل من قوله: ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾، وروى الأصمعي وحده هذه القراءة عن نافع، وعبر بعض الناس عن هذا بأن قال: التقدير: «إلى صراط الله العزيز الحميد»، ثم قدم الصفات وأبدل منها الموصوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وإذا كان هذا فليست بغدٌ بصفات على طريقة صناعة النحو، وإن كانت بالمعنى صفاته ذكر معها أو لم يذكر.

وقوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾ معناه: وشدة وبلاء ونحوه، أي يلقونه من عذاب شديد ينالهم الله به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد: في الدنيا، هذا معنى قوله: ﴿وَوَيْلٌ﴾، وقال بعض الناس: ﴿وَيْلٌ﴾ اسم واد في جهنم يسيل من صديد أهل النار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا خبر يحتاج إلى سند يقطع العذر، ثم لو كان هكذا لقلق تأويل هذه الآية لقوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾، وإنما يحسن تأويله في قوله: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ وما أشبهه، وأما هنا فإنما يحسن في ﴿وَيْلٌ﴾ أن يكون مصدرأ، ورفع على نحو رفعهم «سَلَامٌ عَلَيْكَ» وشبهه.

و ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من ﴿الْكافِرِينَ﴾، وقوله: ﴿يَسْتَجِزُونَ﴾ من صفة الكافرين الذين توعدهم قبل، والمعنى: يؤثرون دنياهم وكفرهم وترك الإذعان للشرع على رحمة الله تعالى وسكنى جنته، وقوله: ﴿يَصُدُّونَ﴾ يحتمل أن يتعدى وأن يقف، والمعنى على كلا الوجهين مستقل، تقول: «صد زيد» و «صدّه غيره»، ومن تعديته قول الشاعر:

صَدَدْتُ الْكَأْسَ عَنَّا أَمْ عَمِرُوا
وَكَانَ الْكَأْسُ مَجْرَاهَا الْيَمِينَا
و ﴿سَبِيلِ اللَّهِ﴾ طريقة هداة وشرعه الذي جاء به رسوله ﷺ.

وقوله: ﴿رَبِّنَا عِوَجًا﴾ يحتمل ثلاثة أوجه من التأويل: أظهرها أن يريد:

ويطلبونها في حالة عوج منهم، ولا يُراعى إن كانوا بزعمهم على طريق نظر وبسبيل اجتهاد واتباع الأحسن، فقد وصف الله تعالى حالهم تلك بالعوج، كأنه قال: ويصدون عن سبيل الله التي هي بالحقيقة نبيلة، ويطلبونها على عوج في النظر.

والتأويل الثاني أن يكون المعنى: ويطلبون لها عوجاً يظهر فيها، أي: يسمعون على الشريعة بأقوالهم وأفعالهم، ف ﴿عِوَجًا﴾ مفعول.

والتأويل الثالث أن تكون اللفظة من البغي على معنى: ويبغون عليها أو فيها عوجاً، ثم حذف الجار، وفي هذا بعض القلق.

وقال كثير من أهل اللغة: العوجُ - بكسر العين - في الدّين والأمر، وبالجملة في المعاني، والعوجُ - بفتح العين في الأجرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعترض هذا القانون بقوله تعالى: ﴿قَبَلُهَا قَائِمًا مَمْدُومًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾، وقد تتداخل اللفظة مع الأخرى، ووضف الضلالة بالبعد عبارة عن تعمقهم فيه وصعوبة خروجهم منه.

① - ② تفسير قوله عز وجل: هذه الآية ردّ وطعن على المُستغربين أمر محمد ﷺ، أي: لست يا محمد ببدع من الرسل، وإنما أرسلناك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور على عادتنا في رسلنا في أن نبعثهم بالسنّة أمهم ليقع التكلم بالبيان والعبارة المتمكنة، ثم يكون تبأين الناس من غير أهل اللسان عيلاً في التبيين على

أهل اللسان الذي يكون للنبي عليه الصلاة والسلام، وجعل الله العلة في إرسال الرسل بالسنة قومهم طلب البيان، ثم قطع قوله: ﴿فِيضِلُّ﴾، أي أن النبي عليه الصلاة والسلام إنما غايته أن يُبْلَغ وَيُبَيِّن، وليس فيما كلف أن يهدي ويضل، ذلك بيد الله ينفذ فيه سابق قضائه، وله في ذلك العزّة التي لا تعارض، والحكمة التي لا تُعَلَّل، لا ربّ غيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإن اعترض أعجمي بأن يقول: من أين يبيّن هذا الرسول لي الشريعة وأنا لا أفهمه؟ قيل له: أهل المعرفة باللسان يعبرون لك، وفي ذلك كفايتك، وإن قال: من أين يتبين لي المعجزة وأفهم الإعجاز وأنا لا أفهم اللغة؟ قيل له: الحجة عليك إذعان أهل الفصاحة والذين كانوا يُظُنُّ بهم أنهم قادرون على المعارضة، وبإذعانهم قامت الحجة على البشر، كما قامت الحجة في معجزة موسى بإذعان السحرة، وفي معجزة عيسى بإذعان الأطباء.

و «اللسان» - في هذه الآية - يُراد به اللغة، وقرأ أبو السّمّال: «بِلِسْنِ قَوْمِهِ» بسكون السين دون الألف، كرينش ورياش، ونقول: لِسْنٌ ولسانٌ في «اللغة»، فأما العضو فلا يقال فيه: لِسْنٌ بسكون السين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى﴾ الآية. آيات الله هي العصا، واليد، وسائر الشّع، وقوله: ﴿أَتَأْتِ أَخْرَجَ قَوْمَكَ﴾، تقديره: بأن أخرج، ويجوز أن تكون ﴿أَتِ﴾ مفسّرة لا موضع لها من الإعراب، وأما «الظلمات

والثور» هنا فيحتمل أن يراد بها: من الكفر إلى الإيمان، وهذا على ظاهر أمر بني إسرائيل في أنهم كانوا قبل بعث موسى فيهم أشياء متفرقين في الدين ففرع مع القبط في عبادة فرعون، وكلهم على غير شيء، وهذا مذهب الطبري، وحكاه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإن صحّ أنهم كانوا على دين إبراهيم وإسرائيل أو نحو هذا فالظلمات: الذل أو العبودية، والنور: العزّة بالدين والظهور بأمر الله تبارك وتعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر هذه الآية وأكثر الآيات في رسالة موسى عليه السلام أنها إنما كانت إلى بني إسرائيل خاصة في معنى الشرع لهم، وأمرهم ونهيهم بفروع الديانة، وإلى فرعون وأشرف قومه في أن ينظروا ويعتبروا في آيات موسى فيقرؤا بالله تعالى ويؤمنوا به وبموسى وبمعجزته، ويتحققوا نبوته، ويرسلوا معه بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يترتب هذا منهم إلا بالإيمان به. وأما أن تكون رسالته إليهم بمعنى أتباعه والدخول في شرعه فليس هذا بظاهر القصة، ولا كشف الغيب ذلك، ألا ترى أن موسى عليه السلام خرج عنهم ببني إسرائيل، فلو لم يُتبع لمضى بأمته؟ وألا ترى أنه لم يَدْعُ القبط بجملتهم وإنما كان يحاور أولي الأمر؟ وأيضاً فليس دعاؤه لهم على حدّ دعاء نوح وهود وصالح - عليهم السلام - أمهم في معنى كفرهم ومعاصيهم، بل في الاهتداء

والتزكي وإرسال بني إسرائيل، ومما يؤيد هذا أنه لو كانت دعوته لفرعون والقبط على حدّ دعوته لبني إسرائيل فلم كان يطلب بأمر الله أن يرسل معه بني إسرائيل؟ بل كان المطلوب أن يؤمن الجميع ويتشروعوا بشرعه ويستقرّ الأمر، وأيضاً فلو كان مبعوثاً إلى القبط لرّده الله إليهم حين أغرق فرعون وجنوده، ولكن لم يكونوا أمته فلم يُرَدِّ إليهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واحتج من ذهب إلى أن موسى عليه السلام بُعث إلى جميعهم بقوله تعالى في غير آية: ﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَمَلَأِيهِ﴾ و﴿إِلَّا فِرْعَوْنَ وَفُؤَادِي﴾ والله أعلم.

وقوله: ﴿وَدَكَّرْتُمْ بِأَيْمَنِ اللَّهِ﴾ الآية. أمر الله عزّ وجلّ موسى أن يعظ قومه بالتهديد بنقم الله التي أحلّها بالأمم الكافرة قبلهم، وبالاعتد لنعمة عليهم في المواطن المتقدمة، وعلى غيرهم من أهل طاعته. ليكون جزئهم على مناهج الذين أنعم الله عليهم، وهزبهم، من طريق الذين حلّت بهم النقمات، وعبر عن النعم والنقم بالأيام إذ هي في أيام، وفي هذه العبارة تعظيم هذه الكوائن المُذَكَّر بها، ومن هذا المعنى قولهم: يومٌ عصيب، ويومٌ عبوسٌ، ويومٌ بسامٌ، وإنما الحقيقة وصف ما وقع فيه من الشدة أو السرور، وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: أيام الله: نَعْمُهُ، وعن فرقة أنها قالت: أيام الله: نَقْمُهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظة «الأيام» تعم المعنيين، لأن

طاعتي، وضعفه الطبري، وليس كما قال، بل هو قوي حسن فتأمله، وقوله: ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ﴾ هو جواب قسم يتضمنه الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ الآية. في هذه الآية تحقير للمخاطبين بشرط كفرهم وتوبيخ، وذلك بين في الصفتين اللتين وصف بهما نفسه تبارك وتعالى في آخر الآية، وقوله: ﴿لَنُنَيِّئَنَّ﴾ يتضمن تحقيرهم وعظمتهم، وقوله: ﴿جِدِّدْ﴾ يتضمن توبيخهم، وذلك أنه بصفة توجب المحامد كلها دائماً كذلك في ذاته لم يزل ولا يزال، فكفركم أنتم بإله هذا حاله غاية التخلف والخذلان، وقوله أيضاً: ﴿جِدِّدْ﴾ يتضمن أنه ذو الإلء عليكم أيها الكافرون به كان يستوجب بها حمدكم، فكفركم به مع ذلك أذهب في الضلال، وهذا توبيخ بين.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ الآية. هذا من التذكير بأيام الله في النعم من الأمم الكافرة، وقوله: ﴿لَا يَلْمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ﴾ من نحو قوله: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا﴾، وفي مثل هذا قال رسول الله ﷺ: «كذب التائبون من فوق عدنان»، وروي عن ابن عباس أنه قال: «كان بين زمن موسى وبين زمن نوح قرون ثلاثون لا يعلمهم إلا الله»، وحكى عنه المهدي أنه قال: «كان بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أباً لا يعرفون».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الوقوف على عدتهم بعيد، ونفي العلم بها جملة أصح، وهو لفظ القرآن.

محيصن: ﴿وَيَذَّبُحُونَ﴾ يفتح الباء والباء مخففة. و «الْبَلَاءُ» في هذه الآية يحتمل أن يريد به المحنة، ويحتمل أن يريد به الاختبار، والمعنى متقارب.

و «تَذَابَّتْ» بمعنى: أذن، أي: أعلم، وهو مثل: أكرم وتكرم، وأوعد وتوعد، وهذا الإعلام منه مقترن بإنفاذ وقضاء قد سبقه، وما في «تَفَعَّلَ» هذه من المحاولة والشروع إذا أسندت إلى البشر منفى في جهة الله تعالى، وأما قول العرب:

تَعَلَّمَ بمعنى: أعلم فمرفوض الماضي على ما ذكر يعقوب، كقول الشاعر: تَعَلَّمْتُ - أَبَيْتُ اللَّغْنَ -

وَأَذَابُ مُوسَى لِقَوْمِهِ أَذْكُرُ وَرِيقَمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أُنجَيْنَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيَذَّبَحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكَ بَلَاءٌ لِمَنْ رَزَقْتُمْ عَظِيمٌ ﴿١﴾ وَإِذْ تَذَابَّتْ رِيبِكُمْ لَمِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَمِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَقَالَ مُوسَى إِنَّ تَكْفُرًا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ جَمِيدٌ ﴿٣﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبُوءُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَلْيَدَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِنَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلًا مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٤﴾ قَالَتْ رُسُلُهُمْ إِنَّا نَحْنُ شَاكِرٌ فَأَطِئِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كُنَّا يَعْبُدُ آبَاءَنَا فَأَنْتُمْ بِنِسْطِكُمْ مُبِينٌ ﴿٥﴾

التذكير يقع بالوجهين جميعاً. وقوله سبحانه: ﴿لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ إنما أراد: لكل مؤمن ناظر لنفسه، فأخذ من صفات المؤمن صفتين تجمعان أكثر الخصال، وتعمان أجمل الأفعال.

١ - ٢ تفسير قوله عز وجل: هذا من التذكير بأيام الله في النعم، وكان يوم الإنجاء عظيماً لعظم الكائن فيه، وقد تقدم تفسير هذه الآية وقصصها بما يغني عن إعادته، غير أن في هذه الآية زيادة الواو في قوله: ﴿وَيَذَّبَحُونَ﴾ وفي البقرة: ﴿يَذَّبَحُونَ﴾ بغير واو عطف، فهناك فسر «سوء العذاب» بأنه التذبيح والاستحياء، وهنا دلل بـ «سوء العذاب» على أنواع غير التذبيح والاستحياء، وعطف التذبيح والاستحياء عليها. وقرأ ابن

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَوْهَامِهِمْ﴾ بحسب احتمال اللفظ، و «الأيدي» في هذه الآية قد تُتأول بمعنى الجوارح، وقد تُتأول بمعنى أيدي النعم فيما ذكر، وعلى أن «الأيدي» هي الجوارح يكون المعنى: زدوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم عضا عليها من الغيظ على الرُّسل، ومبالغة في التكذيب، هذا قول ابن مسعود، وابن زيد، وقال ابن عباس: عجبوا ففعلوا ذلك، والعض من الغيظ مشهور، وفي كتاب الله عز وجل: ﴿عَضُوا عَلَيْكُمْ الْأَنْبِيَاءَ مِنَ الْقَبِيلِ﴾، وقال الشاعر:

قَدْ أَقْنَسِي أَنْبِيَاءَهُ أَرْمَةً
فَأَضْحَى يَعْضُ عَلَيَّ الْوُضَيْفَا
وقال الآخر:

لَوْ أَنَّ سَلَمَى أَبْصَرَتْ تَحْدُرِي
وَدِقَّةً فِي عَظْمِ سَاقِي وَيَدِي
وَيُبْغِدُ أَهْلِي وَجَفَاءَ عُوْدِي
عَضَّتْ مِنْ الْوُجْدِ بِأَطْرَافِ الْيَدِ
ومما ذكر أن يكون المعنى أنهم زدوا أيدي أنفسهم في أفواه أنفسهم إشارة على الأنبياء بالسكوت، واستبشاعاً لما قد قالوه من دعوى النبوة، ومما ذكر أن يكون المعنى: وزدوا أيدي أنفسهم في أفواه الرُّسل تسكيناً لهم، ودفعا في صدر قولهم، قاله الحسن، وهذا أشنع في الرد وأذهب في الاستطالة على الرسل والنيل منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتمل الألفاظ معنى رابعاً، وهو أن يُجَوِّزَ في لفظ الأيدي، أي أنهم زدوا أقوالهم ومكافحتهم ومدافعتهم

فيما قالوه بأفواههم من التكذيب، فكان المعنى: زدوا جميع مدافعتهم في أفواههم، أي في أقوالهم، وعبر عن جميع المدافعة بالأيدي إذ الأيدي موضع أشد المدافعة والمرادة، وحكى المهدي قولاً ضعيفاً، وهو أن المعنى: أخذوا أيدي الرسل فجعلوها في أفواه الرسل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي لا وجه له.

ومما ذكر على أن «الأيدي» أيادي النعم ما ذكره الزجاج، وذلك أنهم

زدوا الأيدي من الرسل في الإنذار والتبليغ بأفواههم، أي بأقوالهم، فوصل الفعل ب (في) عوض وصوله ب (الباء)، وزوي نحوه عن مجاهد، وقادة. والمشهور جمع «يد» النعمة على «أياد»، ولا يجمع على «أيدي»، إلا أن جمعه على «أيدي» لا يكسر باباً ولا ينقض أصلاً، وبحسبنا أن الزجاج قدره وتأول عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل اللفظ - على هذا - معنى ثانياً، أن يكون المقصود: زدوا إنعام الرسل في أفواه الرسل، أي لم يقلوه، كما تقول لمن لا يعجبك كلامه: أمسيك يا فلان كلامك في فيك، ومن حيث كانت أيدي الرسل أقوالاً ساغ هذا فيها، كما تقول: كسرتُ كلام فلان في فمه، أي: ردذته عليه وقطعته بقلة القبول

قَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ إِنَّمَا أُنزِلَ مِنَ رَبِّكَ الْقُرْآنُ لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ نَسُوا أَنَّهُمْ كَانُوا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ عَائِدِينَ ﴿١٠﴾ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِآيَاتِنَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١١﴾ وَمَا آتَاكَ اللَّهُ نَوْحًا عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَبْنَا مُوسَىٰ نُوحًا وَأَصْرَكَ عَلَىٰ مَاءٍ آدِيمًا وَتَمُوتُوا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الرَّسُولُ أُنزِلَ إِلَيْنَا مِن سَمَاءٍ آتِيْنَا قَآؤُحًا وَجِئْنَا بِهَمٍّ مِّمَّنْ كُنَّا كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَلَسْتَ تَكُونَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤﴾ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَابِلِي وَمَا كَانَ لِيَُجِيبَهُ وَمَا هُوَ بِمُسْتَسْجَبٍ ﴿١٥﴾ وَأَسْتَفْهِمُ مَن مَّآءٍ صَدِيدٍ ﴿١٦﴾ يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ يَسْتَفْهِمُ وَأَيُّهُ أَعْمَرُنَّ مِنَ كُفْرٍ وَكَانَ مَاهُ يُسَمِّيْتُ وَيَمْنُ رِآيَهُ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿١٧﴾ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَلَهُمُ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الصَّلْوَالُ الْعَبِيدُ ﴿١٨﴾

٢٥٧

وبالرد، وحكى المهدي عن مجاهد أنه قال: معناه: زدوا نعم الرسل في أفواه أنفسهم بالتكذيب والنجھ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَيْ شَكَرْتُمْ إِنَّمَا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ﴾ يقتضي أنهم شكوا في صدق نبوتهم وأقوالهم وكذبوها، وتوقفوا في إمضاء أحد المعتقدين، ثم ارتابوا بالمعتقد الواحد في صدق نبوته، فجاءهم شك مؤكد بارتباب، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَمَا تَدْعُونَنَا﴾ بنون واحدة مشددة.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله: ﴿أَفَلَيْ شَكَرْتُمْ﴾ مُقَدَّرٌ فِيهِ ضَمِيرٌ، تقديره عند كثير من النحويين: أفلي إلهيتك شك؟ وقال أبو علي الفارسي: أفلي وحدانيته شك؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وزعم بعض الناس أن أبا علي إنما فرغ إلى هذه العبارة حفظاً للاعتزال،

وزوالاً عما تحمله لفظة «الإلهية» من الصفات بحسب عمومها، ولفظة الوجدانية مخلصة من ذلك الاحتمال.

و «الْفَاطِرُ»: المخترع المبتدئ، وسوقُ هذه الصفة احتجاج على الشَّاكِّين، أي الشك فيمن هذه صفته، فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك، وقوله: ﴿يَنْ ذُؤِبِكُمْ﴾، ذهب بعض النحاة إلى أنها زائدة، وسيبويه يأبى أن تكون زائدة في الواجب، ويراهما للتبعيض، وهو معنى صحيح، وذلك أن الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي، وبقي ما يستأنف أحدهم بعد إيمانه من المعاصي مسكوتاً عليه ليبقى معه في مشيئة الله تعالى، فالغفران إنما يقدمه الوعد في البعض، فصَحَّ معنى [مِنْ].

وقوله: ﴿وَيُخَوِّضَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، قد تقدم القول فيه في سورة الأعراف في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ﴾ الآية، وجلبت هذه هناك بسبب ما يظهر بين الآيتين من التعارض، ويليق هنا أن نذكر مسألة المقتول: هل قطع أجله أم ذلك هو أجله المحتوم عليه؟ فالأول قول المعتزلة، والثاني قول أهل السنة، فنقول: قول المعتزلة: «إنه لو لم يقتله لعاش، وهذا سبب القود»، وقالت فرقة من أهل السنة: «لو لم يقتله لمات حتف أنفه»، قال أبو المعالي: «وهذا كله تخييط، وإنما هو أجله الذي سبق في القضاء أنه يموت فيه على تلك الصفة، فمحال أن يقع غير ذلك، فإن فرضنا أنه لم

يقتله، وفرضنا مع ذلك أن علم الله تعالى سبق بأنه لا يقتله بقي أمره في حيز الجواز في أن يعيش أو يقتل أو كيف ما كان علم الله تعالى سبق فيه».

وقول الكفرة: ﴿إِن أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ فيه استبعاد لبعثة البشر، وقال بعض الناس: بل أرادوا إحالته، وذهبوا مذهب البراهمة أو من يقول من الفلاسفة: إن الأجناس لا يقع فيها هذا الثبائن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر كلامهم لا يقتضي أنهم أعضوا هذا الإغماض، ويدل على ما ذكرت أنهم طلبوا منهم الإتيان بأية وسلطان مبين، ولو كانت بعثتهم عندهم محالاً لما طلبوا منهم حجة، ويحتمل أن طلبهم منهم السلطان إنما هو على جهة التعجيز، أي: بعثتكم محال وإلا فأتوا بسلطان مبين، أي: إنكم لا تفعلون ذلك أبداً، فيتقوى بهذا الاحتمال منحاهم إلى مذهب الفلاسفة.

قوله عز وجل: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، المعنى: صدقتم في قولكم: «إنا بشر» في الأشخاص والخلفة، لكن تبانياً بفضل الله تعالى ومثله الذي يختص به من يشاء، ففارقوهم بالمعنى، بخلاف قوله تعالى: ﴿كَانَهُمْ حُجْرٌ مُّسْتَبِيرَةٌ﴾ فإن ذلك في المعنى لا في الهيئة.

وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَنٍ إِلَّا بِآيَاتِنَا﴾، هذه العبارة إذا قالها الإنسان من نفسه، أو قيلت

له فيما يقع تحت مقدوره فمعناها النهي والحظر، وإن كان ذلك فيما لا قدرة له عليه فمعناه نفي ذلك الأمر جملة، وكذلك هذه الآية.

وقال المهدوي: لفظها لفظ الحظر ومعناها النفي، واللام في قوله: ﴿فَلْيَتَوَكَّلْ﴾ لام الأمر، وقرأها الجمهور ساكنة، وقرأها الحسن مكسورة، وتحريكها بالكسر هو أصلها، وتسكينها طلب للتخفيف، ولكثرة استعمالها، وللفرق بينها وبين لام كي التي ألزمت الحركة إجماعاً.

وقوله: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَىٰ اللَّهِ﴾ الآية، وقفهم الرسل على جهة التوبيخ على تعليل في ألا يتوكلوا على الله وهو قد أنعم عليهم، وهداهم طريق النجاة، وفضلهم على خلقه، ثم أفسموا أن يقع منهم الصبر على الإذابة في ذات الله تعالى، و [مَا] في قوله: ﴿مَا آذَيْتُمُونَا﴾ مصدرية، وهي حرف عند سيبويه بانفرادها، إلا أنها اسم مع ما اتصل بها من المصدر، وقال بعض النحويين: «ما» المصدرية بانفرادها اسم، ويحتمل أن تكون [مَا] في هذا الموضع بمعنى الذي، فيكون في ﴿مَا آذَيْتُمُونَا﴾ ضمير عائد تقديره: آذيتمونا، ولا يجوز أن يضم به بسبب إضمار حرف الجر، هذا مذهب سيبويه، والأخفش يُجيز ذلك.

١٢ - ١٣ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿أَوْ لَتَعُودَنَّ فِي يَأْتِيَنَّ﴾، قالت فرقة: [أَوْ] هنا بمعنى: «إلا أن»، كما هي في قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبِكْ عَيْنِكَ إِنَّمَا
نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتُ فَنُعَذَّرَا
وتحتمل [أَوْ] في الآية أن تكون
على بابها لوقوع أحد الأمرين، لأنهم
حملوا رسلهم على أحد الوجهين،
ولا يحتمل بيت امرئ القيس ذلك
لأنه لم يحاول أن يموت فيعذر،
فتخلصت بمعنى «إِلَّا أَنْ» ولذلك
نصب الفعل بعدها. وقالت فرقة:
هي بمعنى «حَتَّى» في الآية، وهذا
ضعيف، وإنما يترتب ذلك في قوله:
«لَأَكْرَمَنَّكَ أَوْ تَقْضِيَنِي حَقِّي»، وفي
قوله: «لَا يَقُومُ زَيْدٌ أَوْ يَقُومُ عَمْرُو»،
وفي هذه المثل كلها يحسن تقدير
«إِلَّا أَنْ». والعمدة أبداً إنما هي إلى
حالة قد كانت، والرُّسُل ما كانوا قط
في ملّة الكفر، فإنما المعنى: أو
لتعودن إلى سكوتكم عنّا إغفالاً،
وذلك عند الكفار كونٌ في ملّتهم،
وخصّص تعالى الظالمين من الذين
كفروا إذ جائز أن يؤمن من الكفرة
الذين قالوا المقالة ناسٌ، وإنما توعّد
بإهلاك من خلص للظلم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَسَخِّنَّاكُمْ﴾
الخطاب للحاضرين والمراد هم
وذريتهم، ويترتب هذا المعنى في
قوله: ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ
مُّسَمًّى﴾، أي: يؤخركم وأعقابكم،
وقرأ أبو حنيفة: ﴿لَسِيَهْلِكُنَّ﴾ و
﴿لَيْسَكِنَّتِكُمْ﴾ بالياء فيهما، وقوله:
﴿مَقَائِي﴾ يحتمل أن يريد به المصدر
من القيام على الشيء بالقدرة،
ويحتمل أن يريد به الظرف لقيام
العبد بين يديه في الآخرة، فإضافته
إذا كان مصدراً إضافة المصدر إلى
الفاعل، وإضافته إذا كان ظرفاً إضافة

الظرف إلى حاضره، أي: مقام
حسابي، فجائز قوله: ﴿مَقَائِي﴾،
وجائز لو قال: «مقامه»، وجائز لو
قال: «مقام العرض والحساب»،
وهذا كما تقول: «دار الحاكم، ودار
الحُكْم، ودار المحكوم عليه»، قال
أبو عبيدة: ﴿مَقَائِي﴾ مجازٌ، حيث
أقيمه بين يدي للحساب.

و «الاستفتاح»: طلب الحُكْم،
والفتّاح: الحاكم، والمعنى: إن
الرُّسُل استفتحوا، أي: سألوا الله
تعالى إنفاذ الحكم بنصرهم وتعذيب
الكفرة، وقيل: بل استفتح الكفارُ
على نحو قول قريش: «عَجَلْنَا
قَطْنَا»، وعلى نحو قول أبي جهل في
بدر: «اللَّهُمَّ أَقْطَعْنَا لِلرَّحْمِ، وَأَتَانَا
بَمَا لَا نَعْرِفُ فَاجْنُ الْغَدَاةَ» هذا
قول ابن ذرئد، وقرأت فرقة:
﴿وَاسْتَفْتِحُوا﴾ بكسر التاء على
معنى الأمر للرسل، قرأها ابن
عباس، ومجاهد، وابن محيصن.
﴿خَابَ﴾ معناه: خسر ولم ينجح،
و «الَجَبَّارُ»: المتعظّم في نفسه الذي
لا يرى لأحد عليه حقاً، وقيل:
معناه: الذي يجبر الناس على ما
يكرهون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا هو المفهوم من اللفظ. وعبر
قتادة وغيره عن «الجبار» بأنه الذي
يأبى أن يقول: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، و
«العنيد»: الذي يعاند ولا يتقأ.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ رِجْلَيْهِ﴾، ذكر
الطبري وغيره من المفسرين أن
معناه: «من أمامه»، وعلى ذلك
حملوا قوله تعالى: ﴿وَكَانَ رِجْلَهُ
مَلِكًا﴾، وأنشد الطبري:

أَتُوْعِدُونِي وِرَاءَ بَنِي رِيَاحٍ
كَذَبْتِ لَشَقْصُرُنْ يَدَاكَ دُونِي
وليس الأمر كما ذكر، و «الوراء»
ها هنا على بابه، أي: هو ما يأتي
بعد في الزمان، وذلك أن التقدير في
هذه الحوادث بالأمام والوراء إنما هو
بالزمان، وما تقدم فهو أمام، وهو
بين اليد، كما يقال في التوراة
والإنجيل: إنهما بين يدي القرآن،
والقرآن وراءهما على هذا، وما تأخر
في الزمان هو وراء المتقدم، ومنه
قولهم لولّد الولد: الوراثة، وهذا
الجبار العنيد وجوده وكفره وأعماله
في وقت ما، ثم بعد ذلك في الزمان
يأتيه أمر جهنم، قال: وتلخص هذا
أن يُشَبَّه الزمان بطريق تأتي الحوادث
من جهته الواحدة متتابعة، فما تقدم
فهو أمام، وما تأخر فهو وراء
المتقدم، وكذلك قوله: ﴿وَكَانَ
رِجْلَهُ﴾ أي غَضِبَهُ وَتَغَلَّبَهُ يأتي بعد
حذرهم وتحفظهم.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسْقَىٰ مِنَ تَلَوِّهِ﴾،
وليس بِمَاءٍ، لكن لما كان بدل الماء
في العُرف عندنا. ثم نعت به
[صديدي]، كما تقول: هذا خاتم
حديد. و «الصديد»: الفَيْحُ والذَّمُّ،
وهو ما يسيل من أجساد أهل النار،
قاله مجاهد والضحاك.

وقوله: ﴿بِتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَاذُ
يُشِيئُهُ﴾ عبارة عن صعوبة أمره
عليهم، وَيُرَوَّى أن الكافر يؤتى
بالشرية من شراب أهل النار
فيتكرهها، فإذا أذُنيت منه شوت
وجبه وسقطت فيها فروة رأسه، فإذا
شربها قطعت أمعاءه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و﴿الضَّلُّ الْبَیْدُ﴾: الذي قد تعمق فيه صاحبه وأبعد عن لاحب النجاة. وقرأ ابن أبي إسحق، وإبراهيم التَّحَمِّي، وابن أبي بكر: ﴿فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ بإضافة «يوم» إلى «عاصف»، وهذا بين.

وقرأ السُّلَمِيُّ: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بسكون الراء، بمعنى: «ألم تعلم»، من رؤية القلب، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿حَالِقِ السَّمَوَاتِ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿خَالِقِ السَّمَوَاتِ﴾، فوجه الأول أنه فعل قد مضى فذكر ذلك، ووجه الثاني أنه كـ ﴿فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، و﴿فَالِقِ الْإِصْبَاحِ﴾، وقوله: ﴿يَالْحَقُّ﴾ أي: بما يحق في وجوده من جهة مصالح عباد، وإيفاد سابق قضائه، ولتدُل عليه وعلى قدرته، ثم تَوَعَّدُ تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنْ يَشَاءُ يَدْهَبْكُمْ﴾ أي يعدمكم ويطمس آثاركم. وقوله: ﴿يَخْلُقِ الْجَدِيدَ﴾ يصح أن يريد: من فرق بني آدم، ويصح غير ذلك. وقوله: ﴿وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾، أي بممتنع.

﴿تفسير قوله عز وجل:﴾

قوله تعالى: ﴿وَيُرْوَىٰ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ معناه: صاروا بالبراز، وهي الأرض المتسعة كالتراب والعرَاء والخَبَار، فاستعير ذلك ليوم القيامة، وقوله: ﴿تَبَّأً﴾ يحتمل أن يكون مصدراً فيكون على نحو قولهم: «يوم عدل ويوم حرب»، ويحتمل أن يكون جمع «تابع» على نحو «غائب» و«غيب»، وهو تأويل الطبري. وفسر الناس «الضَّمَعَاءَ» بالاتباع،

والتقدير عندهم: مثل الذين كفروا كرماً، وقد حكي عن الفراء أنه يرى إِنْشَاءً، وإنّ المعنى: الذين كفروا أعمالهم كرماً، وقيل: هو ابتداء، و﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ ابتداء ثاب، و﴿كِرَامًا﴾ خبر الثاني، والجملة خبر الأول، وهذا عندي أرجح الأقوال، وكأنك قلت: الْمُتَحَصِّلُ في النفس الذين كفروا، هذه الجملة المذكورة، وهي: أعمالهم كرماً، وهذا يطرد عندي في تقدير قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ﴾، وشبَّهت

أعمال الكفرة ومساعيهم - في فسادها وقت الحاجة وتلاشيها - بالرماد الذي تدره الريح وتفرقه لشدته، حتى لا يبقى أثر، ولا يجتمع منه شيء، ووصف اليوم بالعَصُوف وهي من صفة الريح بالحقيقة لما كانت في اليوم، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وَقَدْ لَمْتُنَا يَا أُمَّ غِيلَانَ فِي السَّرَى

وَنَسَبَ وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِشَائِمٍ
ومنه قول الآخر:

يَوْمَيْنِ غَيْمَيْنِ وَوَمَأْ شَمْساً

فأعمال الكفرة لتلاشيها لا يقدرון منها على شيء، وقرأ نافع وحده، وأبو جعفر: ﴿الرِّيَاحِ﴾، والباقون: ﴿الرَّيحِ﴾ بالإفراد، وقد تقدم هذا ومعناه مستوفى بحمد الله.

وقوله: ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى كونهم بهذه الحالة، وعلى مثل هذا القَرَرِ،

الَّذِينَ كَفَرُوا
اللَّهُ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَاءُ يَدْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٨﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٩﴾ وَيُرْوَىٰ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالِ الضُّعِفَاءُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنْ آتَيْنَا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُّقْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهْدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرَعْنَا أَمْ سَوَّيْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجُوبٍ ﴿٢٠﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِ حَاجَتِكُمْ إِنْ كَفَرْتُمْ بِمَا أَشْرَكْتُم مِّن قَبْلُ إِنْ أَنتُمْ مُّؤْمِنُونَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا يَأْتِينَ زَيْجَرًا يُحْمَلُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٢﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيْبَةً كَشَجَرَةٍ طَيْبَةٍ أَصْلُهَا نَابِتٌ وَفُرْعَاهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٣﴾

٢٥٨

وهذا الخبر مفروق في آيات من كتاب الله.

وقوله: ﴿وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي من كل شعرة في بدنه، قاله إبراهيم التيمي، وقيل: من جميع جهاته الست، وقوله: ﴿وَمَا هُوَ يَسْتَكْبِرُ﴾، أي: لا يزأخ بالموث، وباقي الآية كأولها، ووصف العذاب بالغليظ بمبالغة، وقال الفضيل بن عياض: العذاب الغليظ: حبس الأنفاس في الأجساد، وقيل: إن الضمير في ﴿وَلَا يَبُوءُ﴾ هنا هو العذاب المتقدم.

﴿تفسير قوله عز وجل:﴾

اِخْتَلَفَ فِي الشَّيْءِ الَّذِي ارْتَفَعَ بِهِ ﴿مَثَلٌ﴾، فمذهب سيبويه أن التقدير: فيما يُتَلَىٰ عليكم، أو يُقَصُّ مثل الذين كفروا، ومذهب الكسائي والفراء أنه ابتداء وخبره ﴿كِرَامًا﴾،

و «المستكبرين» بالقيادة وأهل الرأي، وقولهم: ﴿مُتَّوْنٌ عَنَّا﴾ من العناء، وهي المنفعة التي تكون من الإنسان للآخر في الدفاع وغيره.

والألف في قوله: ﴿أَجْرَعْنَا﴾ ألف التسوية وليست بألف استفهام، بل هي كقولهم: ﴿أَنْدَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْزِرْهُمْ﴾، و «المَجِيضُ»: المَقْرُ والمَلْجَأُ، مأخوذ من «حاص يحيص» إذا نَفَرُ وفَرَّ، ومنه في حديث هرقل: ﴿فَحَاصِبُوا حَيْضَةَ حُمْرِ اللُّوحِشِ إِلَى الأَبْوَابِ﴾، وروي عن ابن زيد، وعن محمد بن كعب أن أهل النار يقولون: إنما نال أهل الجنة الرحمة بالصبر على طاعة الله تعالى، فلنصبر، فيصبرون خمسمائة سنة فلا ينتفعون، فيقولون: فلنجزع، فيضججون ويصيحون ويبكون خمسمائة سنة أخرى فلا ينتفعون، فيقولون هذا القول الذي في الآية، وظاهر الآية أنهم يقولونها في موقف العرض وقت البروز بين يدي الله تبارك وتعالى.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

المراد ما هنا «بالشيطان» إبليس الأقدم نفسه، وروي في حديث عن النبي عليه الصلاة والسلام من طريق عقبة بن عامر أنه قال: «يقوم يوم القيامة خطيبان: أحدهما إبليس، يقوم في الكفرة بهذه الألفاظ، والثاني عيسى ابن مريم عليه السلام، يقوم بقوله: ﴿مَا قُلْتُ لَكُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾» الآية وقال بعض العلماء: يقوم إبليس خطيب السوء الصادق بهذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فعلى معنى هذه الروايات يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَقُضِيَ الأَمْرُ﴾ أي: تعين قومٌ لدخول النار، وقومٌ لدخول الجنة، وذلك كله في الموقف.

وروي في حديث أن إبليس إنما يقوم بهذه الألفاظ في النار على أهلها عند قولهم: ﴿مَا لَنَا مِنْ مَّحِيصٍ﴾ في الآية المتقدمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذه الرواية يكون معنى قوله تعالى: ﴿فَقُضِيَ الأَمْرُ﴾، أي: حصل أهل النار في النار، وأهل الجنة في الجنة، وهو تأويل الطبري. و «فَقُضِيَ» قد يُعْبَرُ بها في الأمور عن فعل كقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ الأَمْرُ وَأَسْوَرَتِ عَلَى المُؤْمِنِينَ﴾، وقد يُعْبَرُ بها عن عزم على أن يفعل كقوله: ﴿فَقُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾.

و «الْوَعْدُ» في هذه الآية على بابه في الخير، أي أن الله وعدهم النعيم إن آمنوا، وعدهم إبليس الظفر والأمل إن كذبوا، ومعلوم اقتران وعد الله بوعيده، واتفق أن لم يتبعوا طلب وعد الله فوقعوا في وعيده، وجاء من ذلك كأن إبليس أخلفهم.

والسلطان: الحُجَّةُ البَيِّنَةُ، وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ﴾ استثناء منقطع، و «أَنْ» في موضع نصب، ويصح أن تكون في موضع رفع على معنى: إلا أن النائب عن السلطان أن دعوتكم، فيكون هذا في المعنى كقول الشاعر:

تَحِيَّةٌ بَيْنِيهِمْ ضَرَبَتْ وَجِيحُ
ومعنى قولهم: ﴿فَأَسْتَجِيبُ لِي﴾ أي:

رأيتم ما دعوتكم إليه ببصيرتكم، واعتقدتموه الرأي، وأتى نظركم عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر بعض الناس أن هذا المكان يبطل منه التقليد، وفي هذه المقالة ضعف على احتمالها، والتقليد وإن كان باطلاً ففساده من غير هذا الموضع.

ويحتمل أن يريد بالسلطان في هذه الآية الغلبة والقدرة والملك، أي: ما اضطرتكم ولا خوفتكم بقوة مني، بل عرضت عليكم شيئاً فأتى رأيكم عليه.

وقوله: ﴿فَلَا تَلْمُزْنِي﴾ يريد بزعمه: إذ لا ذنب لي، ﴿وَلَوْ مَوَّأَ أَنفُسَكُمْ﴾ في سوء نظركم وقلة تثبتكم، فإنكم إنما أنيتم اتباعي عن بصيرة منكم وتكسب، و «المُضْرَخُ»: المغيث، والصارخ: المستغيث. ومنه قول الشاعر:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِخٌ فَنَزَغُ
كَانَ الصَّرَاخُ لَهُ فَرَزُغُ الظَّنَابِيصِ
فيقال: «صرخ الرجلُ وأصرخ غيره»، وأما «الصارخ» فهو مصدر بمنزلة البريح، ويوصف به كما يقال: رجلٌ عدلٌ ونحوه.

وقرأ حمزة، والأعمش، وابن وثاب: ﴿بِمُضْرَخِي﴾ بكسر الياء تشبيهاً ببياء الإضمار في قوله: بمصرخيه، وردّ الزجاج هذه القراءة وقال: هي رديئة مردولة، وقال فيها القاسم بن معن: إنها صواب، ووجهها أبو علي، وحكى أبو حاتم أن أبا عمرو حسنها، وأنكر أبو حاتم ذلك على أبي عمرو.

وغيره: الكلمة الطيبة هي «لا إله إلا الله»، مثلها الله بالشجرة الطيبة وهي النخلة في قول أكثر المتأولين، فكان هذه الكلمة أصلها ثابت في قلوب المؤمنين، وفضلها وما يصدر عنها من الأفعال الزكية والخبيثة وما يتحصل عليها من عفو الله ورحمته هو فرعها يصعد إلى السماء من قبل العبد، ويتزل منها من قبل الله تبارك وتعالى. وقرأ أنس بن مالك: «ثابت أصلها»، وقالت فرقة: إنما مثل الله بالشجرة الطيبة المؤمن نفسه، إذا الكلمة الطيبة لا تقع إلا منه، فكان الكلام: كلمة طيبة قائلها، وكان المؤمن ثابت في الأرض، وأفعاله وأقواله صاعدة، فهو كشجرة فرعها في السماء، وما يكون أبداً من المؤمن من الطاعة أو على الكلمة من الفضل والأجر والغفران هو بمثابة الأكل الذي تأتي به كل حين، وقوله عن الشجرة: «وَرَعَهَا فِي السَّمَاءِ» أي: في الهواء نحو السماء، وهذا كما تقول عن المستطيل: نحو الهواء، وفي الحديث: «خَلَقَ اللهُ آدَمَ طُولَهُ فِي السَّمَاءِ سِتُونَ ذِرَاعاً»، والقيدودة: الطويل في غير سماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه انقاد وامتد، وقال أنس بن مالك، وابن مسعود، ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة، والضحاك، وابن زيد: الشجرة الطيبة في هذه الآية: النخلة، وروي في ذلك أحاديث، وقال ابن عباس أيضاً: هي شجرة في الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

و«الخلود» في هذه الآية على بابه في الدوام، و«الإذن» هنا عبارة عن القضاء والإمضاء، وقوله: «يَحْيِيهِمْ» مصدر مضاف إلى الضمير، فجائز أن يكون الضمير للمفعول، أي: تحييتهم الملائكة، وجائز أن يكون الضمير للفاعل، أي: يحيي بعضهم بعضاً، و«يَحْيِيهِمْ» رفع بالابتداء، و«سَلَّمَ» ابتداء ثانٍ وخبره محذوف تقديره: عليكم، والجملة خبر الأول، والجميع في موضع الحال من الضمير

في «خَلَّيْنِ»، أو يكون صفة لـ «جَنَّتِ».

٢٤ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ» بمعنى: ألم تعلم، و«مَثَلًا» مفعول لـ «ضَرَبَ»، و«كَلِمَةً» مفعول أول بها، و«ضَرَبَ» هذه تتعدى إلى مفعولين، لأنها بمنزلة «جَعَلَ» ونحوه، إذ معناها، جعل ضربها، وقال المهدي: «مَثَلًا» مفعول، و«كَلِمَةً» بدل منها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أنها تتعدى إلى مفعول واحد، وإنما أوهم في هذا قلة التحرير في «ضرب» هذه. والكاف في قوله: «كَشَجَرَةٍ» في موضع الحال، أي: مشبهة بشجرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال ابن عباس - رضي الله عنهما -

تُوقُّ أَكْلَهَا كُلِّ حَيْنٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَشْجَالَ لِلنَّاسِ لِأَعْلَانِ بَدَاغِكُرُوتٍ ۝ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ۝ ثَبِثَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كَفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبُورِ ۝ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا مِنْ مَوْبِقِ الْقَرَارِ ۝ وَجَعَلُوا اللهُ أَدَاةَ لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ۝ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا أُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَسَرُّوا عِلَاقَةَ الَّذِينَ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمَ لَا يَسْمَعُونَ فِيهِ وَلَأَخْلَقُ اللهُ لِيُذِي خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْلَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝

وقوله: «يَمَّا أَثْرَكْتُمُونَ» أي: مع الله في الطاعة التي ينبغي أن يُفرد الله بها، ف[ما] مصدرية، وكأنه يقول: إني الآن كافر بإشراككم إياي مع الله قبل هذه الوقت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا تَبَيَّنَ منه، وقد قال الله تعالى: «وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ»، ويحتمل اللفظ أن يكون إقراراً على نفسه بكفره الأقدم، فتكون [ما] بمعنى الذي، يريد «الله» تعالى، أي: خطيئتي قبل خطيئتك فلا إصراخ عندي، وباقى الآية يَبَيَّن.

وقرأ الجمهور: «وَأَدْخَلَ» على بناء الفعل للمفعول، وقرأ الحسن: «وَأَدْخَلَ» على فعل المتكلم، أي: يقولها الله تعالى، وقوله: «مِنْ تَحْتِهَا» أَنَّهُنَّ» أي: من تحت ما علا منها كالشرف والمباني والأشجار وغيره،

ويحتمل أن تكون شجرة غير معينة إلا أنها كل ما أتصف بهذه الصفات فيدخل فيه النخلة وغيرها، وقد شبه الرسول عليه الصلاة والسلام المؤمن الذي يقرأ القرآن بالأترجة، فلا يتعذر أن يُشبه أيضاً بشجرتها، و «الأكل»: الثمر، وقرأ عاصم وحده: ﴿أَكَلَهَا﴾ بضم الكاف.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، الحين في اللغة: القطيع من الزمان غير محدود، كقوله تعالى: ﴿مَدَّ أَنْ عَكَ الْأَسْنِ حِينَ بَيْنَ الدَّهْرِ﴾، وقوله: ﴿وَلَمَّا كُنَّ نَبَاً بَعْدَ حِينٍ﴾، وقد تقتضي لفظه «الحين» بقرينتها تحديداً كقوله في هذه الآية: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، وقال ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والحَكَمُ، وحمَّاد، وجماعة من الفقهاء، قالوا: من حلف لا يفعل شيئاً حيناً فإنه لا يفعله سنة، واستشهدوا بهذه الآية: ﴿تَوَرَّأَ أَكَلَهَا كُلَّ حِينٍ﴾ أي: كل سنة، وقال ابن عباس، وعكرمة، والحسن: أي كل سنة أشهر، وقال ابن المسيب: الحين: شهران، لأن النخلة تدوم مشمرة شهرين، وقال ابن عباس أيضاً والضحاك، والربيع بن أنس: ﴿كُلَّ حِينٍ﴾، أي: كل غدوة وعشية ومتى أريد جناها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهكذا يشبهها المؤمن الذي هو في جميع أيامه في عمل، والكلمة التي أخرجها والصادر عنها من الأعمال مستمر، فيشبه أن الله تعالى إنما شبه المؤمن أو الكلمة بالشجرة في حال إثمارها، إذ تلك أفضل أحوالها، وتأويل الطبري في ذلك أن أكل

الطلع في الشتاء، وأن أكل الثمر في كل وقت من أوقات العام هو إتيان أكل وإن فارق النخل، وإن فرضنا التشبيه بها على الإطلاق وهي إنما تؤتي في وقت دون وقت فالمعنى: كشجرة لا تخل بما جعلت له من الإتيان بالأكل في الأوقات المعلومة، فكذلك هو المؤمن لا يخل بما يُسر له من الأعمال الصالحة، أو الكلمة لا تغيب بركتها والأعمال الصادرة عنها، بل هي في حفظ النظام كالشجرة الطيبة في حفظ وقتها المعلوم، وباقي الآية بين.

ومن قال: «الحين سنة» راعى أن ثمر النخلة وجناها إنما يأتي كل سنة، ومن قال: «سنة أشهر» راعى من وقت جداد النخلة إلى حملها من الوقت المقبل، وقيل: إن التشبيه وقع بالنخل الذي يشمر مرتين في العام، ومن قال: «شهرين» قال: هي مدة الجنى في النخل، وكلهم أفتى بقوله في الإتيان على الحين.

وحكى الكسائي والفراء أن في قراءة أبي بن كعب: «وضرب الله مثل كلمة خبيثة»، والكلمة الخبيثة هي كلمة الكفر وما قاربها من الكلام السوقي في الظلم ونحوه، ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾، قال أكثر المفسرين: شجرة الحنظل، قاله أنس بن مالك، ورواه عن النبي ﷺ، وهذا عندي على جهة المثال، وقالت فرقة: هي الثرم، وقال الزجاج: هي الكشوثا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذه الأقوال من الاعتراض أن هذه كلها من النجم، وليست من الشجر، والله تعالى إنما مثل

بالشجرة، فلا تسمى هذه بشجرة إلا بتجوز، فقد قال عليه الصلاة والسلام في الثوم والبصل: «من أكل من هذه الشجرة»، وأيضاً فإن هذه كلها ضعيفة وإن لم تخبث، اللهم إلا أن نقول: اجثت بالخلقة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «هذا مثل ضربه الله تبارك وتعالى ولم يخلق هذه الشجرة على وجه الأرض». والظاهر عندي أن التشبيه وقع بشجرة غير معينة إذا وجدت فيها هذه الأوصاف، فالخبث هو أن تكون كالعضة أو كشجرة السموم ونحوها إذا اجثت، أي اقتلعت جثتها بنزع الأصول، وبقيت في غاية الوهن والضعف فتقلبها أقل ربح، فالكافر يرى أن بيده شيئاً، وهو لا يستقر ولا يغني عنه، كهذه الشجرة التي يُظن بها على بعد - أو للجهل بها - أنها شيء نافع، وهي خبيثة الجنى غير باقية.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة كلمة الإخلاص والنجاة من النار «لا إله إلا الله» والإقرار بالنبوة، وهذه الآية تعم العالم من لدن آدم عليه السلام إلى يوم القيامة. وقال طائوس، وقتادة، وجمهور العلماء: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هي مدة حياة الإنسان، ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ هي وقت سؤاله في القبر، وقال البراء بن عازب وجماعة: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ هي وقت سؤاله في قبره، ورواه البراء عن النبي ﷺ في لفظ مُتَأَوَّلٍ، لأن ذلك في مدة وجود الدنيا، وقوله: ﴿وَفِي الْآخِرَةِ﴾ هو

أنها تخص من فعل فعل جَبَلَتْه إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ﴾ أي: من أطاعهم وكان معهم في التبديل، فكان الإشارة والتعنيف إنما هو للرؤوس والأعلام، و﴿الْبُورِ﴾ الهلاك، ومنه قول سفيان بن الحارث بن عبدالمطلب:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي
رَاتِقٌ مَا فَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورٌ

قاله الطبري، وقال هو وغيره: إنه يُزوى لابن الزُرعي، ويحتمل أن يريد بـ﴿الْبُورِ﴾ الهلاك في الآخرة ففسره حينئذ بقوله: ﴿جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا﴾، أي: يحترقون في حرها ويحتملونه، ويحتمل أن يريد بـ﴿الْبُورِ﴾ الهلاك في الدنيا بالقتل والخزي فتكون «الدار» قَلِيْبَ بدر ونحوه. وقال عطاء بن يسار: نزلت هذه الآية في قتلى بدر، فيكون قوله: ﴿جَهَنَّمَ﴾ نصباً على حد قولك: «زيداً ضربته» بإضمار فعل يقتضيه الظاهر، و﴿الْفَرَاقِ﴾ موضع استقرار الإنسان.

و «الأنداد» جمع نَدٌ، وهو المثل والشبيه المناوئ، والمراد الأصنام، واللام في قوله: ﴿لِيُضَلُّوا﴾ بضم الياء لام كي، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿لِيُضِلُّوا﴾ بفتح الياء، أي هم أنفسهم، فاللام - على هذا - لام عاقبة وصيرورة، وقرأ الباكون بضمها، أي: يُضِلُّوا غيرهم. وأمرهم بالتمتع هو وعيد وتهديد على حد قوله: ﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

العباد: جمع عبد، وعرفه في التكرمة بخلاف العبيد، وقوله:

هذا جائز في قدرة الله تعالى، غير أن في الأحاديث أنه يسمع خلق النعال، ومنها أنه يرى الضوء كالشمس دنت للغروب، وفيها: أنه يراجع، وفيها: فتعاد روحه إلى جسده، وهذا كله يتضمن الحياة، فشبحان رب هذه القدرة.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ تَرَى إِلَى اللَّهِ بَدَلًا يُدْعُوا لِلَّهِ كُفْرًا﴾، هذا تنبيه على مثال من الظالمين، والتقدير: بدلوا شكر نعمته الله كُفْرًا، وهذا كقوله سبحانه: ﴿وَيَجْعَلُونَ

رِزْقَكُمْ أَنْكُمْ تَكْفُرُونَ﴾، ونعمة الله المشار إليها في هذه الآية هو محمد عليه الصلاة والسلام، وأنعم الله به على قريش فكفروا النعمة ولم يقبلوها وتبدلوا بها الكفر، والمراد بالذين كفروا قريش جملة، وهذا بحسب ما اشتهر من حالهم، وهو قول جماعة من الصحابة والتابعين رضوان الله عليهم. وروي عن عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب أنها نزلت في الأفجرتين من قريش: بني مخزوم وبني أمية، قال عمر: فأما بنو المغيرة فكفروا يوم بدر، وأما بنو أمية فمُتَعَمَّرُوا إلى حين، وقال ابن عباس: هذه الآية في جَبَلَتْه بن الأيهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يُرد ابن عباس أنها فيه نزلت، لأن نزول الآية قبل قصته، وإنما أراد

وَمَا آتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آيَةً وَاجْعَلْنِي وَمَنْ يُؤْتِي الْأَصْنَامَ رَبِّ إِيَّاهُنَّ أَشْرَكُ كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ فَمن يَتَّبِعْ فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَافِرٌ رَحِيمٌ ﴿٣٢﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَتَّكُفُّ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٣﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعَلَّمَ مَاتَخْفَى وَمَاتَعَلَّمَ وَمَاتَعَلَّمَ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٤﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٥﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِي ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ ﴿٣٧﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهُ عَنِيلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٣٨﴾

يوم القيامة عند العرض. والأول أحسن، ورجحه الطبري.

و «الظالمون» في هذه الآية: الكافرون، وبدليل أنه عادل بهم المؤمنون، وعادل الثيبت بالإضلال، وقوله: ﴿وَيَتَعَلَّ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ تقرير لهذا التقسيم المتقدم، وكان امرأة رأى التقسيم فطلب في نفسه علته فقيل له: ﴿وَيَتَعَلَّ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ بحق الملك، وفي هذه الآية رد على القدورية. وذكر الطبري في صفة مُسَاءَلَةِ العبد في قبره أحاديث منها ما وقع في الصحيح، وهي من عقائد الدين، وأنكرت ذلك المعتزلة، ولم تقل بأن العبد يُسأل في قبره، وجماعة السنة تقول: إن الله يخلق له في قبره إدراكات وتحصيلات، إما بحياة كالتعارف وإما بحضور النفس وإن لم تتلبس بالجسد كالعرف، كل

﴿يَبِيئُوا الْفَلَكَ﴾، قالت فرقة من النحويين: جزمه بإضمار لام الأمر على حد قول الشاعر:

مُحَمَّدٌ تَفْدِي نَفْسَكَ كُلُّ نَفْسٍ

.....

أنشد سيبويه، إلا أنه قال: إن هذا لا يجوز إلا في الشعر، وقالت فرقة - أبو علي وغيره -: هو فعل مضارع - جزم لما كان في معنى فعل أمر، لأن المراد: أقيموا، وهذا كما يبنى الاسم المتمكن في النداء في قولك: «يا زيد» لما شُبّه بـ «قبل وبعد»، وقال سيبويه: هو جواب شرط مقدر يتضمنه صدر الآية، تقديره: إن تقل لهم: أقيموا يقيموا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون جواب الأمر الذي يعطينا معناه قوله: ﴿قُلْ﴾، وذلك بأن تجعل ﴿قُلْ﴾ في هذه الآية بمعنى بَلِّغْ وأدّ الشريعة يقيموا الصلاة، وهذا كله على أن المقول هو الأمر بالإقامة والإنفاق، ويظهر أن المقول هو الآية التي بعد، أعني قوله: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ و«السُّرُّ» صدقة الثفل، والعلاية الصدقة المفروضة، هذا هو مقتضى الأحاديث، وفسر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية بزيادة الأموال مجملًا، وكذلك فسر الصلاة بأنها الخمس، وهذا عندي منه تقريب للمخاطب.

و«الْجَلَالُ» مصدر من خَالَكَ إذا وَاذَّ وصافى، ومنه الخَلَّةُ والخَلِيلُ، قال امرؤ القيس:

صَرَفْتُ الْهَوَى عَنْهُمْ مِنْ خَشْيَةِ الرَّذَى
وَلَسْتُ بِمَقْلَبِي الْجَلَالِ وَلَا قَالَ

وقال الأخفش: الجَلَالُ جمع خَلَّة. وقرأ نافع، وعاصم، وحمرزة والكسائي، وابن عامر: ﴿لَا يَبِيعُ نَبِيَّهُ وَلَا يَخْلُدُ﴾ بالرفع على الإغناء ﴿لَا﴾، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وابن كثير: ﴿لَا يَبِيعُ فِيهِ وَلَا يَخْلُدُ﴾ بالنصب على التبرية، وقد تقدم هذا والمراد بهذا اليوم يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية تذكير بالألوهية، وتنبية على قدرته التي فيها إحسانٌ إلى البشر لتقوم الحجة من وجهين، و﴿اللَّهُ﴾ مبتدأ، و﴿الَّذِي﴾ خبره، ومن أخبر بهذه الجملة وتقررت في نفسه آمن وصلّى وأنفق، و﴿السَّمَوَاتِ﴾ هي الأربعة السبعة، وقوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ يَرِيدُ السَّحَابِ﴾. وقوله: ﴿مِنْ السَّمَوَاتِ﴾ يجوز أن تكون [مِنْ] للتبعيض، فيكون المراد بعض جنى الأشجار، ويسقط ما كان منها سُمًّا أو مجرداً للمضرات، ويجوز أن تكون [مِنْ] لبيان الجنس كأنه قال: فأخرج به رزقاً لكم من السموات، وقال بعض الناس: [مِنْ] زائدة، وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الجواب، ويجوز عند الأخفش، و«الْفُلُكُ» جمع فُلُك، وقد تقدم القول فيه مراراً.

وقوله: ﴿يَأْتُرِيهِ﴾ مصدر من أمر يأمر، وهذا راجع إلى الكلام القائم بالذات، كقوله تعالى للبحار وللأرض وسائر الأشياء: «كن» عند الإيجاد، إنما معناه: كن بحال كذا، أو على وتيرة كذا، وفي هذا تدرج دوران الفلك وغيره، وفي تسخير

الْفُلُك ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح، وأما تسخير الأنهار فتجويرها في كل بلد وانقيادها للسقي وسائر المنافع.

و﴿ذَابِبِينَ﴾ معناه: متمادين، ومنه قول النبي ﷺ لصاحب الجمل الذي بكى وأجهش إليه: «إن هذا الجمل شكاك إلي أنك تجيعه وتدببه» أي تديمه في الخدمة والعمل، وظاهر الآية أن معناه: ذَابِبِينَ في الطلوع والغروب وما بينهما من المنافع للناس التي لا تُحصى كثرة، وحكى الطبري عن مقاتل بن حيان - يرفعه عن ابن عباس - أنه قال: معناه: داببين في طاعة الله، وهذا قول إن كان يُراد به أن الطاعة انقياد منهما في التسخير فذلك موجود في قوله: ﴿سَخَّرَ﴾، وإن كان يُراد أنها طاعة مقصودة كطاعة العباد من البشر فهذا بعيد، والله أعلم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا سَأَلْتَهُمْ مِنْ كَلِمَةٍ أَنْ يَنْتَبِهُوا﴾ للجنس من البشر، أي أن الإنسان بجملته قد أوتي من كل ما شأنه أن يُسأل ويُنتفع به، ولا يطرد هذا في واحد من الناس، وإنما تفرقت هذه النعم في البشر، فيقال بحسب هذا للجميع: «أوتيتهم كذا» على جهة التعديد للنعمة، وقيل: المعنى: وآتاكم من كل ما سألتموه إن لو سألتموه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قريب من الأول، و [مَا] في قوله سبحانه: ﴿وَمَا سَأَلْتَهُمْ﴾ يصح أن تكون مصدرية، ويكون الضمير في قوله: ﴿سَأَلْتَهُمْ﴾ عائداً على الله تبارك وتعالى، ويصح أن تكون [مَا]

بمعنى «الذي»، ويكون الضمير عائداً على «الذي»، وقرأ الضحاك بن مزاحم، وابن عباس: ﴿مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ بتنوين [كُلِّ]، وهي قراءة الحسن، وقتادة، وسلام، ورويت عن نافع، والمعنى: وآتاكم من كل هذه المخلوقات المذكورات قبل ما شأنه أن يسأل لمعنى الانتفاع به، ف [مَا] في قوله: ﴿مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ مفعول ثانٍ بـ ﴿سَأَلْتُمُوهُ﴾. وقال بعض الناس: [مَا] نافية على هذه القراءة، أي: أعطاكم من كُلِّ شيئاً، ما سألتموه، والمفعول الثاني هو قولنا: «شيئاً»، فعُدِّد - على هذه - النعمة في تفضله بما لم يسأله البشر من النعم، وكان ما سأله لم يعرض له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير الضحاك. وأما القراءة الأولى بإضافة ﴿كُلِّ﴾ إلى ﴿مَا﴾ فلا بُدَّ من تقدير المفعول الثاني: جُزءاً أو شيئاً أو نحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَسُدُّوا سَبِيلَ اللَّهِ لَا تَحْضُرُوا﴾ أي: لكثرتها وعظمتها في الحواس والقوى والإيجاد من العدم إلى الهداية إلى الإيمان وغير ذلك. وقال طلق بن حبيب: إن حقَّ الله أثقل من أن يقوم به العباد، ونعمه أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وأسوا توابين. وقال أبو الدرداء: من لم ير نعمة الله عليه إلا في مطعمه ومشربه فقد قلَّ علمه وحُضِرَ عذابه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانُ﴾ يريد به النوع والجنس، المعنى: توجد فيه هذه الخلال، وهي الظلم والكفر، فإن كانت هذه الخلال من

جاحد فهي بصفة، وإن كانت من عاص فهي بصفة أخرى.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر إذ قال إبراهيم، ﴿وَالْبَلَدُ﴾: مكة، و﴿أُمَّتًا﴾ معناه: فيه أمن، فوصفه بالأمن تجوزاً، كما قال: ﴿فِي يَوْمٍ عَصِيبٍ﴾، وكما قال الشاعر:

.....

... وَمَا لَيْلُ الْمَطِيِّ بِسَائِمٍ

و ﴿وَأَجْنِبِي﴾ معناه: امنعني، يقال: جَنَّبَهُ كذا وَجَنَّبَهُ وَأَجْنَبِيهِ إِذَا مَنَعَهُ مِنَ الْأَمْرِ وَحَمَاهُ مِنْهُ، وقرأ الجحدري، والثقفى: ﴿وَأَجْنِبِي﴾ بقطع الألف وكسر النون. و﴿يَبِي﴾ أراد بني ضلَّه، ولذلك أُجيبَت دعوته فيهم، وأما باقي نسله فقد عبدوا الأصنام، وهذا الدعاء من الخليل عليه الصلاة والسلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته، فكيف يخاف أن يعبد صنماً؟ لكن هذه الآية ينبغي أن يُقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة.

و «الأصنام» هي المنحوتة على خلقة البشر، وما كان منحوتاً على غير خلقة البشر فهي أوثان، قاله الطبري عن مجاهد، ونسب إلى الأصنام أنها أضلت كثيراً من الناس تجوزاً إذ كانت عرضة الإضلال والأسباب المنصوبة للغي، وعليها منشأ الأعمال، وحقيقة الإضلال إنما هي لمخترعه.

قوله: ﴿وَمَنْ عَصَانِي﴾ ظاهره بالكفر لمعادلة قوله: ﴿فَنَنْبَعِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾، وإذا كان ذلك، كذلك فقوله: ﴿فَإِنَّكَ عَقُورٌ رَجِيمٌ﴾ معناه: بتويتك على

الكفرة حتى يؤمنوا، لا أنه أراد أن الله يغفر لكافر، ولكن حمله على هذه العبارة ما كان يأخذ نفسه به من القول الجميل والنطق الحسن وجميل الأدب ﷺ، قال قتادة: اسمعوا قول الخليل، والله ما كانوا طعانين ولا لعانين، وكذلك قال نبي الله عيسى عليه السلام: ﴿وَإِنْ تَقَفَرُ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْمَرْبِزُ الْمَكِيدُ﴾، وأسند الطبري عن عبدالله بن عمرو حديثاً عن النبي ﷺ أنه تلا هاتين الآيتين، ثم دعا لأمته فبُشِّرَ فيهم، وكان إبراهيم التيمي يقول: من يأمن على نفسه بعد خوف الخليل على نفسه من عبادة الأصنام؟

وقوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ يريد إسماعيل عليه السلام، وذلك أن سارة لما غارت لهاجر بعد أن ولدت إسماعيل تعذَّب إبراهيم عليه السلام بهما، فركب البراق هو وهاجر والطفل، فجاء في يوم واحد من الشام إلى بطن مكة، فنزل ونزل ابنه وأُمَّتُهُ هنالك، وركب منصرفاً من يومه ذلك، وكان هذا كله بوحى من الله تبارك وتعالى، فلما ولى دعا بمضمن هذه الآية، وأما كيفية بقاء هاجر وما صنعت وسائر خبر إسماعيل ففي كتاب البخاري والسَّير وغيره، و [مِنْ] في قوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ للتبويض، لأن إسحق كان بالشام. و «الوادي»: ما بين الجبلين، وليس من شرطه أن يكون فيه ماء، وهذه الآية تقتضي أن إبراهيم عليه السلام قد كان عليمً من الله تعالى أن الله لا يُضَيِّعُ هاجر وابنها في ذلك الوادي، وأنه يرزقهما الماء، وإنما نظر النظر

البعيد للعاقبة فقال: ﴿عَبَّرَ ذِي ذَرِّعٍ﴾، ولو لم يعلم ذلك من الله لقال: «غير ذي ماء» على ما كانت عليه حال الوادي عند ذلك.

وقوله: ﴿عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ إما أن يكون البيت قد كان قديماً على ما روي قبل الطوفان، وكان علمه عند إبراهيم، وإما أن يكون قالها لما كان قد أعلمه الله تعالى أنه سيبنى هنالك بيتاً لله تعالى فيكون محزوماً، والمعنى: محزوماً على الجبابرة أن تثتلك حرمة ويستخف بحقه، قاله قتادة وغيره، وجمعه الضمير في قوله: ﴿لِيُقِيمُوا﴾ يدل على أن الله قد أعلمه أن ذلك الطفل سيعقب هنالك ويكون له نسل. واللام في قوله: ﴿لِيُقِيمُوا﴾ هي لام «كي»، هذا هو الظاهر فيها، على أنها متعلقة بـ ﴿أَشْكُتُ﴾، والنداء اعتراض، ويصح أن تكون لام أمر، كأنه رغب إلى الله أن يوفقهم لإقامة الصلاة، ثم ساق عبارة ملزمة لهم إقامة الصلاة، وفي اللفظ - على هذا التأويل - بعض تجوز يربطه المعنى ويصلحه.

و «الأئيدة»: القلوب، جمع فواد، سمي بذلك لانفاده، مأخوذ من: فأد، ومنه المَفْتَاد وهو مستوقد النار حيث يشوى اللحم، وقرأ ابن عامر بخلاف عنه: ﴿فَاجْعَلْ أَقِيدَةً﴾ بياء بعد الهمزة. وقوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ تبعيض، ومراده: المؤمنون، قال مجاهد: لو قال إبراهيم: «أفئدة الناس» لازدحم على البيت فارس والروم، وقال سعيد بن جبير: «لَحَجَّجْتَهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى».

﴿تَهْوَى﴾ معناه: تسير بجذ وقصد مستعجل، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا رَمَيْتَ بِهِ الْفَجَاحَ زَأَيْتَهُ
يَهْوِي مَخَارِمَهَا هُوِي الْأَجْدَلِ
ومنه البيت المروي:

تَهْوِي إِلَى مَكَّةَ تَبْغِي الْهُدَى
مَا مُؤْمِنُوا الْجَنُّ كَأَجْنَاسِهَا
وقرأ سلمة بن عبدالله: ﴿تَهْوِي﴾ بضم التاء، من أهوى، وهو الفعل المذكور معدى بالهمزة، وقرأ علي بن أبي طالب، ومحمد بن علي، ومجاهد: ﴿تَهْوَى﴾ بفتح التاء والواو، ويُعدى هذا الفعل - وهو من الهوى - بـ «إلى» لما كان مقترناً بـ تسير وقصد، وروي عن مسلم بن محمد الطائفي أنه لما دعا عليه السلام بأن يرزق سكان مكة من الشمرات بعث الله جبريل عليه السلام فاقطلع بجناحه قطعة من أرض فلسطين، وقيل - من الأردن - فجاء بها وطاف حول البيت بها سبعاً ووضعها قريب مكة، فهي الطائف، وبهذه القصة سُميت، وهي موضع ثقيف، وبها أشجار وثمرات.

﴿١٧٧﴾ - ﴿١٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل: مقصد إبراهيم عليه السلام التنبية على اختصاره في الدعاء، وتفويضه إلى ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم، وغير ذلك. ثم انصرف إلى الشناء على الله تعالى بأنه علام الغيوب، وإلى حمده على هباته، وهذه من الآيات المعلمة أن علم الله تبارك وتعالى بالأشياء هو على التفصيل التام.

وروي في قوله: ﴿عَلَى الْكَبِيرِ﴾ أنه ولد له إسماعيل وهو ابن مائة وسبعة عشر عاماً، وروي أقل من هذا، وإسماعيل أسن من إسحق فيما روي، وبحسب ترتيب هذه الآية، وروي عن سعيد بن جبير أنه قال: بَشُرَ إِبْرَاهِيمَ وَهُوَ ابْنُ مِائَةٍ وَسَبْعَةٍ عَشْرًا عَامًا.

وقوله: ﴿رَبِّ اجْعَلْنِي مُبَشِّرَ الصَّالِينَ وَمِن ذُرِّيَّتِي﴾، دعا إبراهيم عليه السلام في أمر كان مثابراً عليه، متمسكاً به، ومتى دعا الإنسان في مثل هذا فإنما المقصد إدامة ذلك الأمر واستمراره، وقرأ طلحة والأعمش: ﴿ذَهَاءَ رَيْثًا﴾ بغير ياء، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿ذَهَائِي﴾ بياء ساكنة في الوصل، وأثبتها بعضهم في الوصل دون الوقف، وقرأ نافع، وابن عامر، وحزمة، والكسائي بغير ياء في وصل ولا وقف، وروي ورش عن نافع إثبات الياء في الوصل، وقرأت فرقة: ﴿وَلَوْلَاذِي﴾ واختلف في تأويل ذلك، فقالت فرقة: كان هذا من إبراهيم قبل يأسه من إيمان أبيه وتبئبه أنه عدو لله، فأراد أباه وأمه لأنها كانت مؤمنة، وقيل: أراد أمه ونوح عليه السلام، وقيل: أراد آدم وحواء لأن أمه لم تكن مؤمنة، وقيل: أراد آدم ونوحاً عليهما السلام، وقرأ سعيد بن جبير: ﴿وَلَوْلَاذِي﴾ بإفراد الأب وحده، وهذا يدخله ما تقدم من التأويلات، وقرأ الزهري، وإبراهيم النخعي: ﴿وَلَوْلَاذِي﴾ على أنه دعاء لإسماعيل وإسحق، وأنكرها عاصم

مُهْطِعِينَ مُتَعَبِينَ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٤٢﴾
 هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا آخِرْنَا إِنَّ الْجَدِلَ فَرِيبٌ حَيْثُ دَعَوْنَاكَ وَتَسْبِيحِ الرَّسُولِ أَوْلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَتُمْ فِي مَسْجِدِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِيفَ وَعْدِهِ ۗ وَرُسُلَهُ ۗ وَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُدْعَى الْأَرْضُ بِأَرْضِهَا وَالسَّمَاءُ بَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الَّذِينَ كَفَرُوا هُمْ بِمَوَازِينٍ مُتَقَرِّبِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَّابِلُهُمْ مِنْ طَرَانٍ وَتَفَنَّنَى وَجُوهَهُمْ النَّسَارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ ۗ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَالِغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۗ وَيَعْلَمُوا أَنَّ مَا هُوَ لِلَّهِ وَحْدَهُ ۗ وَلِيَذَّكَّرُوا الَّذِينَ كَفَرُوا ﴿٥٢﴾

٢١١

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية بجملة فيها وعيد للظالمين، وتسليية للمظلومين، وتسليية للمظلومين، والخطاب بقوله: ﴿تَحْسَبَنَّ﴾ لمحمد ﷺ، والمراد بالنهي غيره معن تلبس به أن يحسب مثل هذا، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَلَا تَحْسَبِ اللَّهَ غَافِلًا﴾ بإسقاط النون، وكذلك: ﴿فَلَا تَحْسَبِ اللَّهَ مُخْلِيفًا وَغَدِيهِ﴾، وقرأ أبو حيرة، وعبد الرحمن، والحسن، والأعرج: ﴿تَوَخَّرُوهُمْ﴾

بنون العظمة، وقرأ الجمهور: ﴿يُوَخَّرُهُمْ﴾ بالياء، أي الله تعالى، و﴿تَتَخَصَّصُ﴾ معناه: تُجَدُّ النظر لفرع، ولفرط ذلك يشخص المحضر.

و «المُهْطِعُ»: المُسْرَعُ في مشيه، قاله ابن جبير، وفتادة، وذلك بِذِلَّةٍ واستكانة، كإسراع الأسير الخائف ونحوه، وهذا هو أرجح الأقوال، وقد توصف الإبل بالإهطاع على معنى الإسراع، وقلما يكون إسراعها إلا خوف السوط ونحوه، فمن ذلك قول الشاعر:

وَبِمُهْطِعِ سُرْحٍ كَأَنَّ عَنَاتَهُ
 فِي رَأْسِ جِلْعِ مِنْ أَوَالِ مُشَدِّبٍ
 وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ عِمْرَانَ بْنِ حِطَّانٍ:
 إِذَا دَعَانَا فَأَهْطَعْنَا لِذَعْوَتِهِ
 دَاعٍ سَمِيعٍ فَلَقُونَا وَسَأَفُونَا

ومنه قول ابن مفرغ:

بِدَجَلَةٍ دَارُهُمْ وَلَقَدْ أَرَاهُمْ
 بِدَجَلَةٍ مُهْطِعِينَ إِلَى السَّمَاعِ
 وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُ الْآخَرِ:

بِمُسْتَهْطِعِ رَسَلٍ كَأَنَّ جَدِيدَهُ
 بِقَيْدُومِ زَعْنٍ مِنْ صَوَامٍ مَمْنَعٍ
 وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو الضَّحَى:
 الْإِهْطَاعُ: شِدَّةُ النَّظَرِ مِنْ غَيْرِ أَنْ
 يَطْرَفَ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الَّذِي لَا
 يَرْفَعُ رَأْسَهُ، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: وَقَدْ
 يَكُونُ الْإِهْطَاعُ لِلْوَجْهِينِ جَمِيعًا:
 الْإِسْرَاعُ وَإِدَامَةُ النَّظَرِ.

و «المُتَعَبِينَ» هو الذي يرفع رأسه قداماً بوجهه نحو الشيء، ومن ذلك قول الشاعر:

يُبَاكِرُونَ الْعِضَاةَ بِمُقْتَنَعَاتِ
 نَوَاجِدُهُنَّ كَالْحِدَايِ الزُّوقِيعِ
 يَصِفُ الْإِبِلَ بِالِاقْتِنَاعِ عِنْدَ رَعِيهَا
 أَعَالِي الشَّجَرِ. وَقَالَ الْحَسَنُ فِي
 تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ: وَجْهُ النَّاسِ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ إِلَى السَّمَاءِ، لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ إِلَى
 أَحَدٍ، وَذَكَرَ الْمِرْدُ فِيمَا حَكَى عَنْهُ أَنَّ
 الْإِقْتِنَاعَ يَوْجَدُ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ،
 بِمَعْنَى خَفْضِ الرَّأْسِ مِنَ الذُّلَّةِ،
 وَالْأَوَّلُ أَشْهُرُ.

وقوله: ﴿لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ﴾ أي: لا يطفرون من الحذر والجزع وشدة الحال.

وقوله: ﴿وَأَنْذِرْتَهُمْ هَوَاءً﴾ تشبيهه محض، لأنها ليست بهواء حقيقة، وجهة التشبيه يحتمل أن تكون في فراغ الأفتدة من الخير والرجاء والطمع في الرحمة، فهي منحرفة مشبهة الهواة في تفرغه من الأشياء وانخراقه، ويحتمل أن يكون في اضطراب أفئدتهم وجيشانها في

الجحدري وقال: إن في مصحف أبي بن كعب: ﴿وَلَا بُؤْيٍ﴾، وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿وَلَوْلُدِي﴾ بضم الواو وسكون اللام، وهي لغة في الولد، ومنه ما أسند أبو علي وغيره:

قَلْبِي زَيْدًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
 وَإِيَّتْ زَيْدًا كَانَ وَوَلَدَ جَمَارِ
 وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْوَلَدُ جَمْعُ وَوَلَدٍ
 كَأَسَدٍ فِي جَمْعِ أَسَدٍ.

وقوله: ﴿يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ﴾، يعني: يوم يقوم الناس للحساب، فأُسند القيام إلى الحساب إيجازاً إذ المعنى مفهوم، ويتوجه أن يريد قيام الحساب نفسه، ويكون القيام بمعنى ظهوره وتلبس العباد بين يدي الله به كما تقول: قامت السوق، وقامت الصلاة، كما قال: وقامت الحرب على ساق.

صدورهم، وإنما تجيء وتذهب وتبلغ - على ما زوي - حناجرهم، فهي في ذلك كالهواء الذي هو أبداً في اضطراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هاتين الجهتين يشبه قلب الجبان وقلب الرجل المضطرب في أمره بالهواء، فمن ذلك قول الشاعر:

ولا تَكُ مِنْ أَخْدَانِ كُلِّ بَرَاغَةِ
هَوَاءٍ كَسَقَبِ الْبَابِ جُوفِ مَكَايِرَةِ
ومن ذلك قول حسان:

ألا أبلغ أبا سُفْيَانَ عَنِّي
فَأَنْتَ مُجْرِفٌ نَجِبٌ هَوَاءٌ
ومن ذلك قول زهير:

كَأَنَّ الرَّحْلَ مِنْهَا فَوْقَ صَفْلِ
مِنَ الظُّلْمَانِ جُوجُؤُهُ هَوَاءٌ
فالمعنى أنه في غاية الخفة في إيفاله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ﴾ الآية. المراد باليوم يوم القيامة، ونصبه على أنه مفعول بـ ﴿أَنْذِرِ﴾، ولا يجوز أن يكون ظرفاً لأن القيامة ليست بموطن إنذار. وقوله: ﴿فَبَعُولٌ﴾ رفع عطفاً على قوله: ﴿بِأَيِّهِمْ﴾. وقولته: ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا﴾ إلى آخر الآية معناه: يقال لهم، فحذف ذلك إيجازاً إذ المعنى يدل عليه، وقوله: ﴿مَا لَكُمْ بِنِزَالِ﴾ هو المقسم عليه نقل المعنى، و﴿زَوَالِ﴾ معناه: من الأرض بعد الموت، أي: لا بعث من القبور، وهذه الآية ناظرة إلى ما حكى عنهم في قوله: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ﴾.

٤٥ - ٤٨ - تفسير قوله عز وجل:

يقول عز وجل: أيها المعرضون عن آيات الله من جميع العالم سكتتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم بالكفر من الأمم السالفة فنزلت بهم المثلات، فكان قولكم الاعتبار والانتعاض، وقرأ الجمهور: ﴿رَبِّكَ﴾ بتاء، وقرأ السلمي - فيما حكى المهدي -: ﴿وَتُبَيِّنُ﴾ بنون عظمة مضمومة وجزم على معنى: أو لم تُبَيِّنْ، عطف على ﴿أَوَلَمْ تَكُونُوا﴾، قال أبو عمرو: وقرأ أبو عبدالرحمن بضم النون الأولى ورفع النون الأخيرة.

وقوله: ﴿وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرَهُمْ﴾ هو على حذف مضاف تقديره: وعند الله عقاب مكرهم، أو جزاء مكرهم، ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَقَدْ مَكْرُوا مَكْرَهُمْ﴾ أن يكون خطاباً لمحمد عليه الصلاة والسلام والضمير لمعاصريه، ويحتمل أن يكون مما يقال للظلمة يوم القيامة، والضمير للذين سكن في منازلهم.

وقرأ السبعة سوى الكسائي: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُهُمْ لِيَرْزُلُنَا الْجِبَالَ﴾ بكسر اللام الأولى وفتح الثانية، وهي قراءة علي بن أبي طالب وجماعة، وهذا على أن تكون [إِن] نافية بمعنى (ما)، ومعنى الآية تحقير مكرهم، وأنه ما كان لتزول منه الشرائع والنبوت وأقدار الله بها التي هي كالجبال في ثبوتها وقوتها، وهذا تأويل الحسن وجماعة المفسرين. وتحتمل عندي هذه القراءة أن تكون بمعنى تعظيم مكرهم، أي: وإن كان

شديداً إنما يفعل لتذهب به عظام الأمور، وقرأ الكسائي: ﴿لَتَرْزُلُنَّ﴾ بفتح اللام الأولى ورفع الثانية، وهي قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن وثاب، وهذا على أن تكون [إِن] مخففة من الثقيلة، ومعنى الآية تعظيم مكرهم وشدته، أي أنه مما يُشقى به، ويزيل الجبال من مستقراتها بقوته، ولكن الله تعالى أبطله، ونصر أوليائه، وهذا أشد في العبرة.

وقرأ علي بن أبي طالب، وابن مسعود، وعمر بن الخطاب، وأبي بن كعب: ﴿وَإِنْ كَادَ مَكْرُهُمْ﴾، ويترتب مع هذه القراءة في ﴿لَتَرْزُلُنَّ﴾ ما تقدم، وذكر أبو حاتم أن في قراءة أبي بن كعب: ﴿وَلَوْ لَا كَلِمَةُ اللَّهِ لَزَالَتْ مِنَ مَكْرِهِمْ الْجِبَالُ﴾، وحكى الطبري عن بعض المفسرين أنهم جعلوا هذه الآية إشارة إلى ما فعل نمرود، إذ علّق التابوت بين الأنسر ورفع لها اللحم في أطراف الرماح بعد أن أجاعها، ودخل هو وحاجبه في التابوت ففعلت بهما الأنسر حتى قال له النمرود: ماذا ترى؟ قال: أرى بحراً وجزيرة، يريد الدنيا المعمورة، ثم قال: ما ترى؟ قال: أرى غماماً ولا أرى جبلاً، فكأن الجبال زالت عن نظر العين بهذا المكر، وذكر ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك عندي لا يصح عن علي، وفي هذه القصة كلها ضعف من طريق المعنى، وذلك أنه غير ممكن أن تصعد الأنسر كما وصف، وبعيد أن يُعزَّر أحد بنفسه في مثل هذا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ﴾ الآية. تثبیت للنبي ﷺ ولغيره من أمته، ولم يكن النبي ﷺ ممن يحسب مثل هذا، ولكن خرجت العبارة هكذا، والمراد بما فيها من الزجر من شارك النبي ﷺ في أن قصد تثبيته. وقرأ جمهور الناس: ﴿تُخَلِّفَ وَعَدُوهُ﴾ بالإضافة ﴿رُسُلَهُ﴾ بالنصب، وأضاف ﴿تُخَلِّفَ﴾ إلى «الوَعْدِ» إذ للإخلاف تعلق بالوعد على تجوز، وإنما حقيقة تعلقه بالرسل، وهذا نحو قول الشاعر:

تَرَى الثُّورَ فِيهَا مُدْخِلَ الظِّلِّ رَأْسَهُ
وَسَائِرُهُ بَادٍ إِلَى الشَّمْسِ أَجْمَعِ
وكتقولك: «هذا مُغْطِي زَيْدٍ درهماً»، وقرأت فرقة: «مُخَلِّفٍ وَعَدَهُ رُسُلِهِ» بنصب «الوعد» وخفض «الرسل» على الإضافة، وهذه القراءة ذكرها الزجاج وضمها، وهي تحول بين المضاف والمضاف إليه بالمفعول، وهو كقول الشاعر:

فَرَجَجْتُهَا بِمَرْجَةٍ
رَجَّ الْقَلُوصُ أَبِي مُزَادَةَ
وأما إذا حِيلَ في مثل هذا بالظرف فهو أشهر في الكلام كقوله:

لِللَّهِ ذُرِّيَّةٌ مِمَّنْ لَمَّهَا
وقال آخر:

كَمَا خَطَّ الْكِتَابُ بِكَفِّ يَوْمًا
يَهُودِي يُقَارِبُ أَوْ يُزِيلُ
والمعنى: لا تحسب يا محمد أنت ومن اعتبر بالأمر من أمتك وغيرهم أن الله لا يُنَجِّزُ وعده في نصر رسله وإظهارهم، ومعاقبة من كفر بهم في

الدنيا والآخرة، فإن الله عزيز لا يمتنع منه شيء، ذو انتقام من الكفرة، ولا سبيل إلى عفوهم.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْدَلُ الْأَرْضُ﴾ الآية. ﴿يَوْمَ﴾ ظرف للانتقام المذكور قبله، وروي في «تبدیل الأرض» أقوال: منها في الصحيح أن الله يدل هذه الأرض بأرض عفراء بيضاء كأنها فُرْصَةُ الثَّقِيِّ، وفي الصحيح أن الله يدلها خيزة يأكل المؤمن منها من تحت قدميه، وروي أنها تبدل أرضاً من فضة، وروي أنها أرض كالفضة في بياضها، وروي أنها تبدل أرضاً من نار وقال بعض المفسرين: تبدل الأرض هو نفس جبالها، وتفجير بحارها، وتغييرها حتى لا ترى فيها عوجاً ولا أمثاً، فهذه حال غير الأولى، وبهذا وقع التبدل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وسمعت من أبي رضي الله عنه أنه روي أن التبدل يقع في الأرض، ولكن يُبدل لكل فريق بما يقتضيه حاله، فالمؤمن يكون على خبز يأكل منه بحسب حاجته إليه، وفريق يكون على فضة - إن صحَّ السند بها - وفريق الكفرة يكونون على نار، ويجوز هذا مما كله واقع تحت قدرة الله تعالى. وأكثر المفسرين على أن التبدل يكون بأرض بيضاء عفراء لم يُعْصَ الله فيها، ولا سُفِكَ فيها دم، وليس فيها معلم لأحد. وروي فيها عن النبي ﷺ أنه قال: «المؤمن وقت التبدل في ظل العرش»، وروي عنه أنه قال: «الناس وقت التبدل على الصراط»،

وعنه أنه قال: «الناس حينئذ أضياف الله فلا يعجزهم ما لديه».

﴿وَيَزُولُ﴾ مأخوذ من البراز، أي: ظهروا بين يديه لا يوارهم بناءً ولا حِصْن. وقوله: ﴿الْوَجْدُ الْقَهَّارُ﴾ صفتان لاقتان بهذه الحال.

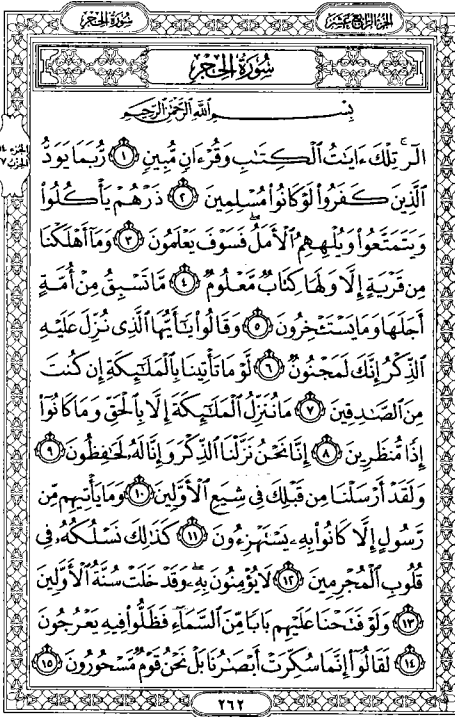
٣٩ - ٣٧ تفسير قوله عز وجل:

المجرمون هم الكفار، و﴿مُفْرِّقِينَ﴾ مربوطين في قرآن وهو الحبل الذي يُشَدُّ به رؤوس الإبل والبقر، ومنه قول الشاعر:

وَابْنُ اللَّبُونِ إِذَا مَا لَزِيَ فِي قَرْنِ
لَمْ يَسْتَطِعْ صَوْلَةَ الْبُزْلِ الْقَنَاعِيْسِ
و﴿الْأَصْفَادِ﴾ الأغلال، واحدها صَفْدٌ، يقال: صَفَدَهُ وَأَصْفَدَهُ وَصَفَدَهُ إِذَا عَلَّمَهُ، والاسم الصفاد، ومنه قول سلامة بن جندل:

وَزَيْدُ الْحَيْلِ قَدْ لَأَى صِفَادًا
يَعْتَصُ بِسَاعِدِ وَيَعْتَظُمُ سَاقِي
وكذلك يقال في العطاء، ومنه قول النابغة:

.....
فَلَمْ أَعْرِضْ - أَبَيْتُ اللَّعْنَ - بِالصَّفْدِ
و«السَّرَابِيلِ»: القُمُص، و«الْقَطْرَانِ» هو الذي تُهْتَأُ به الإبل، وللنار فيه اشتعال شديد، فلذلك جعل الله قُمُص أهل النار منه، ويقال بفتح القاف وكسر الطاء، وبكسر القاف وسكون الطاء، وفتح القاف وسكون الطاء، وقرأ عَمْرُ، وعلي، والحسن - بخلاف - وابن عباس، وأبو هريرة، وعلقمة، وسنان بن سلمة، وعكرمة، وابن سيرين، وابن جُبَيْر، والكَلْبِيُّ،



إشارة إلى القرآن والوعيد الذي تضمنه، ووصفه بالمصدر في قوله: ﴿بَلَّغٌ﴾، والمعنى: هذا ذو بلاغ للناس، وهو لينذروا به، وقرأ الجمهور: ﴿وَلْيُنذِرُوا﴾ بضم الياء وفتح الذال على بناء الفعل للمفعول، وقرأ يحيى بن عمارة، وأحمد بن يزيد بن أسيد: ﴿وَلْيُنذِرُوا﴾ بفتح الياء والذال، تقول العرب: نذرت بكذا إذا أشعرت به، وتحرزت منه، وأعددت له.

وروي أن قوله سبحانه: ﴿وَلْيُنذِرُوا أُولَئِي الْأَنْبِيَاءِ﴾ نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

انتهى تفسير سورة إبراهيم عليه الصلاة والسلام والحمد لله كثيراً، وصلى الله على سيدنا محمد المبعوث بشيراً ونذيراً وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير سور الحجر

هذه السورة مكية.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

﴿الرَّتِلَّكَ﴾، تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، و﴿رَتِلَّكَ﴾ يمكن أن تكون إشارة

وقتادة، وعمرو بن عبيد: ﴿قَطِرٍ أَنْ﴾، والقَطِرُ: القصدير، وقيل: النحاس. وروي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: ليس بالقطران، ولكنه النحاس يُسْرَبُونَهُ، و [أَنْ] صفة، وهو الذائب الحار الذي قد تناهى حره، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: يعذبون به، وقال الحسن: قد سَعُرَتْ عليه جهنم منذ خلقت فتناهى حره. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَجُوهَهُمْ﴾ بالنصب ﴿النَّارِ﴾ بالرفع، وقرأ ابن مسعود بالعكس، فالأول على نحو: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا يَتَّبِعُونَ فِيهِ حَقِيقَةُ الْعَشِيَانِ، والثاني على نحو قول الشاعر:

يُغْشَوْنَ حَتَّى مَا تَهْرُ كِلَابُهُمْ
لَا يَسْأَلُونَ عَنِ السَّوَادِ الْمُقْبِلِ
فهو يتجوز في العشيان، كأنه ورود الوجه على النار غشيان.

وقوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ﴾ أي: لكي يجزي الله، واللام متعلقة بفعل مضمّر تقديره: أنفذ على المجرمين هذا العقاب ليكون في ذلك جزاء المسيء على إساءته، وجاء من لفظة الكسب بما يعم المسيء والمحسن لِيُنْتَبَهُ عَلَى أَنْ الْمُحْسِنَ أَيْضاً يَجَازَى بِإِحْسَانِهِ خَيْرًا.

وقوله تعالى: ﴿سَرِيحُ الْجَسَابِ﴾ أي: فاصله بين خلقه بالإحاطة التي له بدقيق أمورهم وجليلها، لا إله غيره، وقيل ليعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: كيف يحاسب الله العباد في وقت واحد مع كثرتهم؟ قال: كما يرزقهم في وقت واحد. وقوله: ﴿هَذَا بَلَّغٌ لِلنَّاسِ﴾ الآية

إلى حروف المعجم بحسب بعض الأقوال، ويحتمل أن تكون إشارة إلى الحكيم والعبر ونحوها التي تضمنتها آيات التوراة والإنجيل، وعطف القرآن عليه، قال مجاهد، وقتادة: ﴿الْكِتَابُ﴾ في هذه الآية ما نزل من الكتب قبل القرآن، ويحتمل أن يراد بـ ﴿الْكِتَابِ﴾ القرآن، ثم تعطف الصفة عليه.

وقرأ نافع، وعاصم: ﴿رُبَّمَا﴾ بتخفيف الباء، وقرأ الباقون بشدها، إلا أن أبا عمرو قرأها على الوجهين، وهما لغتان، وروي عن طلحة بن مصرف ﴿رُبَّمَا﴾ بزيادة التاء، وهي لغة، و ﴿رُبَّمَا﴾ للتقليل، وقد تجيء شاذة للكثير، وقال قوم: إن هذه من تلك، ومنه:

رُبَّ كَأْسٍ هَرَقْتِ يَا بِنْتُ لُؤَيِّ

.....

وَأَنْكَرَ الرُّجُاجَ أَنْ تَجِيءَ «رُبُّ»
للتكثير.

و «ما» التي تدخل عليها «رُبُّ» قد تكون اسماً نكرة بمنزلة «شيء»، وذلك إذا كان في الكلام ضمير عائد عليه كقول الشاعر:

رُبَّمَا تَكْرَهُهُ السُّفُوفُ مِنْ الْأَمْرِ
بِرَّ لَهْ فَزَجَجَتْ كَحَلِّ الْعُقَالِ

التقدير: رُبُّ شيء، وقد تكون حرفاً كافاً لـ «رُبُّ» وموطئاً لتدخل على الفعل، إذ ليس من شأنها أن تدخل إلا على الأسماء، وذلك إذا لم يكن ثم ضمير عائد، كقول الشاعر:

رُبَّمَا أَوْفَيْتُ فِي عِلْمِ
تَرْفَعَنْ نُزُوبِي شَمَالَاتُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك تدخل «ما» على «مِنْ» كافة في نحو قوله: «وكان رسول الله ﷺ مِمَّا يُحْرِكُ شَفْتَيْهِ». ونحو قول الشاعر:

وَأِنَّمَا لِمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبِشَ ضَرْبَةً
عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ الْقَمِ

قال الكسائي، والفراء: الباب في «رُبَّمَا» أن تدخل على الفعل الماضي، ودخلت هنا على المستقبل إذ هذه الأفعال المستقبلية في كلام الله تعالى لما كانت صادقة واقعة ولا بُدَّ تجري مجرى الماضي الواقع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تدخل «رُبُّ» على الماضي الذي يراد به الاستقبال، وتدخل على العكس.

والظاهر في «رُبَّمَا» في هذه الآية أن «ما» حرف كاف، هكذا قال أبو

علي، قال: ويحتمل أن تكون اسماً، ويكون في «يُودُّ» ضمير عائد عليه، التقدير: رُبُّ وُدٍّ، أو شيء يوده الذين كفروا لو كانوا مسلمين، ويكون «لَوْ» كَأَوْ مُتَّيِّبِينَ بدلاً من [ما]. وقالت فرقة: تقدير الآية: ربما كان يود الذين كفروا، قال أبو علي: وهذا لا يجيزه سيبويه، لأن «كان» لا تضمر عنده.

واختلف المتأولون في الوقت الذي يود فيه الذين كفروا لو كانوا مسلمين - فقالت فرقة: هو عند معاينة الموت في الدنيا، حكى ذلك الضحاك، وفيه نظر؛ إذ لا يقين للكافر حينئذ بحسن حال المسلمين، وقالت فرقة: هو عند معاينة أهوال يوم القيامة، قاله مجاهد، وهذا بين؛ لأنَّ حَسَنَ حال المسلمين ظاهر فيوُدِّ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وأسن بن مالك رضي الله عنه: هو عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة، واحتج لهذا القول بحديث زوي في هذا من طريق أبي موسى الأشعري، وهو أن الله تعالى إذا أدخل عصاة المسلمين النار نظر إليهم الكفار فقالوا: أليس هؤلاء من المسلمين؟ فماذا أغنت عنهم لا إله إلا الله؟ فيغضب الله تعالى لقولهم، فيقول: أخرجوا من النار كل مسلم؟ قال رسول الله ﷺ: «فحينئذ يودُّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين».

وهذا يقينهم فيه متمكن بحسن حال المسلمين، فمن حيث هذا كله موطن واحد في كل قول فـ [رُبَّمَا] للتقليل، لأنهم كانوا في الدنيا لا يودون الإسلام في كل أوقاتهم،

ومن حيث موطن الآخرة يدوم ودُّهم فيه جعل بعض الناس «رُبَّمَا» هذه للتكثير، إذ كلما تذكر أمره ودُّ أن لو كان مسلماً.

و «لَوْ» في هذه الآية هي التي للتمني، ويدخلها الامتناع من الشيء لامتناع غيره بإضمار يوضحه المعنى، وذلك أنهم ودُّوا لو كانوا مسلمين فينجون النجاء الذي مانعه أن لم يكونوا مسلمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن العجَب في هذه الآية حديث الواصي الذي في ذيل الأمالي، ومقتضاه أنه ارتد ونسي القرآن إلا هذه الآية.

وقوله تعالى: «ذَرَهُمْ يَأْكُفُوا وَتَسْتَعْوَأُ» الآية، وعيد وتهديد، وما فيه من المهادنة منسوخ بآية السيف، وقوله: «فَسَوْفَ يَمْلِكُونَ» وعيد ثان، وحكى الطبري عن بعض العلماء أنه قال: الأول في الدنيا، والثاني في الآخرة، فكيف تطيب حياة بين هذين الوعدين؟ ومعنى قوله: «وَيَلْبِغُهُمُ الْأَمَلُ» أي يشغلهم أملهم في الدنيا والتزُّيد فيها عن النظر والإيمان بالله ورسوله.

وقوله تعالى: «وَمَا أَهْلَكَآ بَيْنَ قَرَبَيْهِ إِلَّا رَهْآ» الآية، أي: لا تستنبطن هلاكهم، فليس من قرية إلا مهلكة بأجل وكتاب، ومعنى «تَمْلَأُ» محدد، والواو في قوله: «وَمَا» هي واو الحال، وقرأ ابن أبي عبلة: «إِلَّا لَهَا» بغير واو، وقال منذر بن سعيد: هذه الواو هي التي تعطي أن الحالة التي بعدها هي في الزمان قبل الحالة التي قبل الواو، ومنه قوله

تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهَا وَقِيحَتْ
أُوتِيَهَا﴾. وباقى الآية بين.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
الضمير في ﴿قَالُوا﴾ يُراد به كفارُ
قريش، ويروى أن القائلين كانوا:
عبدالله بن أبي أمية، والنضر بن
الحارث وأشباههما، وقرأ الأعمش:
﴿يَأْتِيهَا الَّذِي أُلْقِيَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾.
وقولهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ
الذِّكْرُ﴾ كلام على جهة الاستخفاف،
أي بزعمك ودعواك، وهذه المخاطبة
كما تقول لرجل جاهل أراد أن يتكلم
فيما لا يخسب: يأتيا العالم أنت لا
تُخسب تنوضاً.

و ﴿لَوْ مَا﴾ بمعنى «لولا» فتكون
تخصيصة كما هي في هذه الآية،
وقد تكون دالة على امتناع شيء
لوجوب غيره، كما قال ابن مقبل:
لَوْلَا الْحَيَاءُ وَلَوْ مَا الدِّينُ عَيْشَكُمْ
بِتَعْصِ مَا فِيكُمْ إِذْ عَيْشًا عَوْرِي
وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
وابن عامر: ﴿مَا تُنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ﴾
يفتح التاء والرفع، وقرأ عاصم في
رواية أبي بكر كذلك إلا أنه ضم
التاء، وهي قراءة يحيى بن وثاب،
وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص:
﴿نُزِّلُ﴾ بنون العظمة ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾
نصباً، وهي قراءة طلحة بن
مصرف.

وقولهم: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، قال
مجاهد: المعنى: بالرسالة والعذاب.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والظاهر أن معناه: كما يجب ويحق
من الوحي والمنافع التي أراها الله
لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا
باختيار معترض. ثم ذكر عادة الله

في الأمم من أنه لم يأتهم بآية اقتراح
إلا ومعها العذاب في أثرها إن لم
يؤمنوا، وكأن الكلام: ما نُنَزَّلُ
الملائكة إلا بالحق واجب لا
باقتراحكم، وأيضاً فلو نزلت لم
يُنظروا بعد ذلك بالعذاب، أي: لم
يؤخروا، والنُّظرة: التأخير،
والمعنى: فهذا لا يكون أبداً إذ كان
في علم الله أن منهم من يؤمن، أو
يلد من يؤمن.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا
الذِّكْرَ﴾ رد على المستخفين في
قولهم: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ
الذِّكْرُ﴾، وهذا كما يقول لك رجل
على جهة الاستخفاف: «يا عظيم
القدر»، فتقول له على جهة الرُدِّ
والثَّجَّة: نعم أنا عظيم القدر، ثم
تأخذ في قولك، فتأمله. وقوله:
﴿وَأِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾، قالت فرقة:
الضمير في ﴿لَهُ﴾ عائد على محمد
عليه الصلاة والسلام، أي: نحفظه
من أذاكم، ونحوطه من مكرهم
وغيره، ذكر الطبري هذا القول ولم
ينسبه، وفي ضمن هذه العدة كان
رسول الله ﷺ حتى أظهر الله به
الشرع وحن أجله، وقالت فرقة -
وهي الأكثر -: الضمير في ﴿لَهُ﴾
عائد على القرآن، وقاله مجاهد،
وقتادة، والمعنى: لحافظون من أن
يبدل أو يغير كما جرى في سائر
الكتب المنزلة، وفي آخر ورقة من
البيخاري عن ابن عباس
رضي الله عنهما أن التبدل فيها إنما
كان في التأويل، وأما في اللفظ فلا،
وظاهر آيات القرآن أنهم بدلوا
اللفظ، ووَضِعَ اليَدَ على آية الرجم

هو في معنى تبديل الألفاظ. وقيل:
لحافظون باختزانه في صدور
الرجال، والمعنى متقارب، وقال
قتادة: هذه الآية نحو قوله تعالى:
﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَطْلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ
خَلْفِهِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ
قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية للنبي عليه الصلاة
والسلام، وعرض أسوة، أي: لا
يضق صدرك يا محمد بما يفعله
قومك من الاستهزاء في قولهم:
﴿يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ﴾ وغير
ذلك، فقد تقدم منا إرسال الرسل في
شيع الأولين، وكانت تلك سيرتهم
في الاستهزاء بالرسل، و «الشَّيْعُ»
جمع شَيْعَةٍ، وهي الفرقة التابعة
لرأس، إما مذهب أو رجل أو
نحوه، وهي مأخوذة من قولهم:
شيعت النار إذا استدمت وقدما
بحطب أو غيره، فكأن الشيعة تصل
أمر رأسها وتظهره وتمده بمعونة.
وقوله: ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ تقتضي
«رُسُلًا»، ثم اختصر ذكرهم للدلالة
ظاهر القول على ذلك.

﴿١٧﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
الضمير عائد على الاستهزاء أو
الشرك ونحوه، وهو قول الحسن،
وقتادة، وابن جريج، وابن زيد،
ويكون الضمير في ﴿يَدِي﴾ يعود على
ذلك بعينه، وتكون باء السبب، أي:
لا يؤمنون بسبب شُرْكهم
واستهزائهم، ويكون قوله: ﴿لَا
يُؤْمِنُونَ بِدِي﴾ في موضع الحال.
ويحتمل أن يكون الضمير في
﴿نَسَلُكُمْ﴾ عائد على «الذِّكْرُ»
المحفوظ المتقدم الذكر وهو

القرآن، أي: مكذباً به مردوداً مُسْتَهْزَئاً به ندخله في قلوب المجرمين، ويكون الضمير في ﴿بِهِ﴾ عائداً عليه أيضاً، أي: لا يصدقون به، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿سَأَلَكُمْ﴾ عائداً على الاستهزاء والشرك، والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود على القرآن، فيختلف على هذا عَوْدُ الضميرين، والمعنى في ذلك كله ينظر بعضه إلى بعض.

و ﴿سَأَلَكُمْ﴾ معناه نُدخله، يقال: سلكتُ الرجل الأمر إذا أدخلته فيه، ومن هذا قول الشاعر:

وَكُنْتُ لِرِزَازِ خَضِيمِكَ لَمْ أَعْرِذْ
وَقَدْ سَلَكُوكَ فِي أَمْرِ عَصِيبٍ
ومنه قول الآخر:

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَتَائِدَةٍ
شَلًّا كَمَا تَطْرُدُ الْجَمَالَ الشُّرَدَا
ومنه قول أبي وجزة يصف حُمُرَ وَخِشٍ:

حَتَّى سَلَكَنَ الشَّوَى مِنْهُنَّ فِي مَسَكٍ
مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْأَقَا فِي مَهْدَاجٍ
قال الرَّجَاجُ: ويُقرأ: ﴿تُسَلِكُهُ﴾ بضم النون وكسر اللام. و﴿الْمَجْرِبِينَ﴾ في هذه الآية يُراد بهم كفار قريش ومعاصري رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ عموم معناه الخصوص فيمن ختم عليه. وقوله: ﴿وَقَدْ حَلَّتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: على هذه الوتيرة، وتقول: سلكتُ الرجل في الأمر وأسلكتُهُ بمعنى واحد، ويُروى:

حَتَّى إِذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قَتَائِدَةٍ
البيت.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمُ الضمير عائذ على قريش وكفرة العصر المختوم عليهم، والضمير في قوله: ﴿فَنظَّلُوا﴾ يحتمل أن يعود عليهم، وهو أبلغ في إصرارهم، وهذا هو تأويل الحسن. و﴿يَمْرُجُونَ﴾ معناه: يصعدون، وقرأ الأعمش، وأبو حيوة: ﴿يَمْرُجُونَ﴾ بكسر الراء، والمعارج: الأدرج، ومنه المِعْرَاجُ، ومنه قول كثير:

إِلَى حَسْبِ عَوْدِ بَنِي الْمَرْزَةِ قَبْلَهُ
أَبْوَهُ لَهُ فِيهِ مَعَارِجُ سُلْمٍ
ويحتمل أن يعود على الملائكة لقولهم: ﴿أَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكِيَّةِ﴾، فكأن الله تعالى قال: «ولو رأوا الملائكة يصعدون ويتصرفون في باب مفتوح في السماء لما آمنوا»، وهذا هو تأويل ابن عباس رضي الله عنهما.

وقرأ السبعة سوى ابن كثير: ﴿سَكَّرَتْ﴾ بضم السين وشد الكاف، وقرأ ابن كثير وحده بتخفيف الكاف، وهي قراءة مجاهد وقرأ الزهري بفتح السين وتخفيف الكاف، على بناء الفعل للفاعل، وقرأ أبان بن تغلب: ﴿سُحَّرَتْ أَبْصَارُنَا﴾، ويجيء قوله: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ انتقالاً إلى درجة عَظْمَى من سحر العقل. وتقول العرب: «سَكَّرَتْ الرِّيحُ تُسَكِّرُ سُكُوراً» إذا ركدت ولم تنفذ لما كانت بسبيله أولاً، وتقول: «سَكِرَ الرَّجُلُ مِنَ الشَّرَابِ يَسْكُرُ سُكْرًا» إذا تغيرت حاله وركد ولم ينفذ فيما للإنسان أن ينفذ فيه، ومن هذا المعنى «سُكْرَانٌ لَا يَبِيْتُ»، أي: لا

يقطع أمراً، وتقول العرب: «سَكَّرَتْ الفَتَقُ في مجاري الماء سُكْرًا» إذا طمسته وصرفت الماء عنه فلم ينفذ لوجهه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه اللفظة: [سَكَّرَتْ] بشد الكاف، إن كانت من سُكْرِ الشَّرَابِ، أو من سُكُورِ الرِّيحِ فهي فعل عُذِي بالتضعيف، وإن كانت من سُكْرِ مجاري الماء فتضعيفها للمبالغة لا للتعدي، لأن المخفف من فعله مُتَعَدٌّ، ورجح أبو حاتم هذه القراءة، لأن «الأبصار» جمع، والتثقيل مع الجمع أكثر، كما قال: ﴿ثُمَّ نَمَّةٌ لَّهُمُ الْأَبْصَارُ﴾، ومن قرأ: ﴿سَكَّرَتْ﴾ بضم السين وتخفيف الكاف، فإن كانت اللفظة من سُكْرِ الماء فهو فعل مُتَعَدٌّ، وإن كانت من سُكْرِ الشَّرَابِ، أو من سُكُورِ الرِّيحِ فتضمن أن الفعل بني للمفعول إلى أن ننزله متعدياً، ويكون هذا الفعل من قبيل: رجع زَيْدٌ وَرَجَعَهُ غَيْرُهُ، وغارت العين وغارها الرجلُ، فتقول - على هذا -: سَكِرَ الرَّجُلُ وَسَكَّرَهُ غَيْرُهُ، وسَكَّرَتْ الرِّيحُ وَسَكَّرَهَا شَيْءٌ غَيْرُهَا، ومعنى هذه المقالة منهم: أي غُيِّرَتْ أَبْصَارُنَا عما كانت عليه، فهي لا تعطينا حقائق الأشياء كما كانت تفعل.

وعبر بعض المفسرين عن هذه اللفظة بقوله: غشي على أبصارنا، وقال بعضهم: عميت أبصارنا، وهذا ونحوه تفسير بالمعنى لا يرتبط باللفظ، ويقال أيضاً: هؤلاء المبصرون عروج الملائكة أو عروج أنفسهم بعد قولهم: ﴿سَكَّرَتْ أَبْصَارَنَا﴾ بل سُجِّرْنَا حَتَّى لَا نَعْقِلَ

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَرَازِبَاتٍ لَّهَا لَظْفَرٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾
 وَحَافِظَاتٍ لِّهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ
 قَائِمَةٌ سَهَابٌ مُمْسِكَتٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدُ نَهَارٍ وَأَلْفَيْ نَهَارٍ ﴿١٩﴾
 رَوَّيْتُمْ وَأَبْتَنَاتٍ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا لِكُلِّ مَكْرُمٍ
 مَعِيشًا وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُمْ رِزْقِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَعَدْنَا
 خِزْيَانَهُ وَمَا تُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ
 لُوفُجًا فَاذْهَبَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَاسْتَفْتَتُ كُفُومًا وَمَا أَنْشَرْنَاهُ
 بُحْرَيْنِ ﴿٢٣﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِيهِ وَنُمِيتُهُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٤﴾
 وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ ﴿٢٥﴾
 وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ
 مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٧﴾ وَاللَّيْلَانَ خَلْقَتْهُ مِنْ قَدَلٍ مِنْ نَارِ
 السُّمُورِ ﴿٢٨﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَلِقُ بَشَرًا مِنْ
 صَلْصَلٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٩﴾ إِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ
 رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٣٠﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ
 أَجْمَعُونَ ﴿٣١﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ ابْتَدَأَ أَنْ يَكُونَ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾

٢٦٣

بمعنى مرجوم، فعيل
 بمعنى مفعول، فإِذَا مِنْ
 رَجْمِ الشَّهَبِ، وإِذَا مِنْ
 الرَّجْمِ الَّذِي هُوَ الشَّتْمُ
 وَالذَّمُّ. وَيَقَالُ: تَبِعْتَ
 الرَّجُلَ وَأَتَّبَعْتَهُ بِمَعْنَى
 وَاحِدٍ، ﴿إِلَّا﴾ بِمَعْنَى
 لَكِنْ، هَذَا قَوْلٌ، وَالظَّاهِرُ
 أَنَّ الْاسْتِنَاءَ مِنَ الْحِفْظِ،
 وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنِ
 أَبِيهِ: إِلَّا مِنْ اسْتَرْقَى السَّمْعَ
 فَإِنَّهَا لَمْ تَحْفَظْ مِنْهُ، ذَكَرَهُ
 الزَّهْرَاوِيُّ.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ
 مَدَدُ نَهَارٍ﴾ روي في الحديث
 أَنَّ الْأَرْضَ كَانَتْ تَتَكَفَّأُ
 بِأَهْلِهَا كَمَا تَتَكَفَّأُ السَّفِينَةُ
 فَنَبَتْهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِالْجِبَالِ،
 وَيَقَالُ: رَسَا الشَّيْءُ يَرِسُو إِذَا رَسَخَ
 وَثَبِتَ، وَقَوْلُهُ: ﴿تَوَزَّوْنَ﴾، قَالَ
 الْجُمْهُورُ: مَعْنَاهُ: مُقَدَّرٌ مُحَدَّدٌ بِقَصْدٍ
 وَإِرَادَةٍ، فَالْوِزْنُ عَلَى هَذَا مُسْتَعَارٌ،
 وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: الْمُرَادُ مَا يَوْزَنُ حَقِيقَةً
 كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا
 يَوْزَنُ.
 قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:
 وَالْأَوَّلُ أَعْمٌ وَأَحْسَنُ.

و «المعاش» جمع معيشة، وقرأها
 الأعرج بالهمز، وكذلك روى خارجة
 عن نافع، والوجه ترك الهمز، لأن
 الأصل في باء «معيشة» الحركة،
 فيردها الأصل إلى الجمع، بخلاف
 «مدينة ومدائن»، وقوله: ﴿وَمَنْ لَسْتُمْ
 لَهُمْ رِزْقِينَ﴾ يحتمل أن تكون [مَنْ]
 في موضع نصب على ثلاثة أوجه:
 أحدها أن يكون عطفاً على

الآشياء كما يجب، أي صرف فينا
 السحر.

﴿١٦﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:
 لما ذكر أنهم لو رأوا الآية المذكورة
 قبل في السماء لعاندوا فيها عقب
 ذلك بهذه الآية، كأنه قال: وإن في
 السماء لغيراً منصوبة غير هذه
 المذكورة، وكفرهم بها وإعراضهم
 عنها إصراراً منهم وعتو، والبروج:
 المنازل، واحدها بُرْجٌ، وسُمِّيَ
 بذلك لظهوره ووضوحه، ومنها تَبْرُجُ
 المرأة ظهورها وبدوها، والعرب
 تقول: «برج الشيء» إذا ظهر
 وارتفع.

وحفظ السماء هو بالرجم بالشهب
 على ما تضمنته الأحاديث الصحاح،
 قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الشَّيَاطِينَ
 تَقْرُبُ مِنَ السَّمَاءِ أَفْوَاجًا، قَالَ:
 فَيَنْفَرُ الْمُرَادُ مِنْهَا فَيَعْمَلُوا فَيَسْمَعُ
 فَيَرْمِي بِالشَّهَابِ، فَيَقُولُ لِأَصْحَابِهِ
 وَهُوَ يَلْهَثُ: إِنَّهُ مِنَ الْأَمْرِ كَذَا وَكَذَا،
 فَيَزِيدُ الشَّيْطَانُ فِي ذَلِكَ، وَيَلْقُونَ إِلَى
 الْكَهْنَةِ، فَيَزِيدُونَ مَعَ الْكَلِمَةِ مِائَةً،
 وَنَحْوُ هَذَا الْحَدِيثِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ الشَّهْبَ تَجْرُحٌ
 وَتَوْذِيٌّ وَلَا تَقْتُلُ، وَقَالَ الْحَسَنُ:
 تَقْتُلُ، وَفِي الْأَحَادِيثِ مَا يَدُلُّ عَلَى
 أَنَّ الرَّجْمَ كَانَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَلَكِنَّهُ
 اشْتَدَّ فِي وَقْتِ الْإِسْلَامِ، وَحَفِظَ
 السَّمَاءَ حَفِظًا تَامًا، وَقَالَ الزُّجَاجُ: لَمْ
 يَكُنْ إِلَّا بَعْدَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
 وَالسَّلَامُ؛ بِدَلِيلِ أَنَّ الشُّعْرَاءَ لَمْ
 يَشْبَهُوا بِهِ فِي السَّرْعَةِ إِلَّا بَعْدَ
 الْإِسْلَامِ، وَذَكَرَ الزَّهْرَاوِيُّ عَنِ أَبِي
 رَجَاءٍ الْعَطَارِدِيِّ: كُنَّا لَا نَرَى الرَّجْمَ
 بِالنَّجْمِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ، ﴿وَتَجَرَّحٌ﴾

﴿مَعْيَشًا﴾، كَانَ اللَّهُ تَعَالَى عَدَدَ النَّعْمِ
 فِي الْمَعَايِشِ وَهِيَ مَا يُؤْكَلُ وَيُلْبَسُ،
 ثُمَّ عَدَدَ النَّعْمِ فِي الْحَيَوَانَ وَالْعَبِيدِ
 وَالضِّيَاعِ وَغَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يَنْتَفِعُ بِهِ
 النَّاسُ وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ رِزْقُهُمْ، وَالْوَجْهُ
 الثَّانِي أَنْ تَكُونَ [مَنْ] مَعْطُوفَةٌ عَلَى
 مَوْضِعِ الضَّمِيرِ فِي «لَكُمْ»، وَذَلِكَ
 أَنَّ التَّقْدِيرَ: وَأَعَشْنَاكُمْ وَأَعَشْنَا أُمَّمًا
 غَيْرَكُمْ مِنَ الْحَيَوَانَ، وَكَأَنَّ الْآيَةَ -
 عَلَى هَذَا - فِيهَا اعْتِبَارٌ وَعَرْضُ آيَةٍ،
 وَالْوَجْهُ الثَّلَاثُ أَنْ تَكُونَ [مَنْ]
 مَنْصُوبَةٌ بِإِضْمَارِ فِعْلِ يَقْتَضِيهِ الظَّاهِرُ
 وَتَقْدِيرُهُ: وَأَعَشْنَا مَنْ لَسْتُمْ لَهُ
 بَرَازِقِينَ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ تَكُونَ [مَنْ] فِي
 مَوْضِعِ خَفْضِ عَطْفًا عَلَى الضَّمِيرِ فِي
 «لَكُمْ»، وَهَذَا قَلِقٌ فِي النَّحْوِ، لِأَنَّهُ
 الْعَطْفُ عَلَى الضَّمِيرِ الْمَجْرُورِ فِيهِ
 قُبْحٌ، فَكَأَنَّهُ قَالَ: وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ
 بَرَازِقِينَ وَأَنْتُمْ تَنْتَفِعُونَ بِهِ.

وقوله: ﴿وَأَنَّ مِنْ سَحَابِهِ لَأَنْزِلَ عَلَيْكَ حَزَائِبًا﴾، قال ابن جريج: هو المطر خاصة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينبغي أن يكون أعم من هذا في كثير من المخلوقات، و «الخرائن» المواضع الحاوية، وظاهر هذا أن الماء والرياح ونحو ذلك موجود مخلوق، وهو ظاهر قولهم في الرياح: «عنت على الخرائن»، وانفتح منها قدر حلقة الخاتم، ولو كان قدر منخر الشور لأهلك الأرض، إلى غير ذلك من الشواهد، وذهب قوم إلى أن كونها في القدرة هو خزئها، فإذا شاء الله أوجدها، وهذا أيضاً ظاهر في أشياء كثيرة، وهو لازم في الأعراس إذا عمننا لفظه «شيء»، وكيفما كان الأمر فالقدرة تسعه وتنتقه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَنْزِيلُهُ﴾، ما كان من المطر ونحوه فالإنزال فيه متمكن، وما كان من غير ذلك فإيجاده والتمكن من الانتفاع به إنزال على تجوز، وقرأ الأعمش: ﴿وَمَا تَنْزِيلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾، وقوله: ﴿بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ﴾ روي فيه ابن مسعود وغيره أنه ليس عام أكثر مطراً من عام، ولكن ينزل الله في مواضع دون مواضع.

١٢ - ١٣ تفسير قوله عز وجل:

يقال: لقت الناقة والشجرة فهي لاقحة إذا حملت، والرياح تلتق الشجر والسحاب، فالوجه في الرياح أنها ملقحة لا لاقحة، ونتجه صفة الرياح بـ ﴿لَوَائِحٍ﴾ على أربعة أوجه: أولها وأزلاها أن جعلها لاقحة

حقيقة؛ وذلك أن الريح منها ما فيه عذاب أو ضر أو نار، ومنها ما فيه رحمة أو مطر أو نصر أو غير ذلك، فإذا هي تحمّل ما حمّلتها القدرة، أو ما علقته من الهواء أو التراب أو الماء الذي مرت عليه، فهي لاقحة بهذا الوجه، وإن كانت أيضاً تلتق غيرها وتصير إليه نفعها، والعرب تسمي الجنوب الحامل واللاقحة، وتسمي الشمال الحابل والعقيم ومخوة لأنها تمحو السحاب، روى أبو هريرة أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «الرياح الجنوب من الجنة، وهي اللواقح التي ذكر الله، وفيها منافع للناس»، ومن هذا قول الطرمح:

قَلِبْتُ لِأَقْسَانِ الرَّيَا
ح لِيَلْقِحِ مِنْهَا وَحَائِلِ
وقول أبي وجزة:

.....
مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْأَفَاقِ ..
فجعلها حاملاً بنس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويخرج هذا على أنها ملقحة فلا حجة فيه.

والثاني أن يكون وصفها بـ ﴿لَوَائِحٍ﴾ من باب قولهم: «ليل نائيم»، أي: فيه نوم ومعها، «ويوم عاصف» ونحوه، فهذا على طريق المجاز. والثالث أن توصف الرياح بـ ﴿لَوَائِحٍ﴾ على جهة النسب، أي: ذات لقع، كقول النابتة:

كَلَيْسِنِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبِ
.....

أي: ذي نصب. والرابع أن يكون ﴿لَوَائِحٍ﴾ جمع «ملقحة» على حذف زوائده، فكأنه «لقحة» فجمعها كما

تجمع «لاقحة»، ومثله قول الشاعر: لَيْسِنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ وَأَسَعَتْ بِمَنْ طَوَّحَتْهُ الطَّوَائِحُ وَإِنَّمَا طَوَّحَتْهُ الْمَطَارِحُ، وعلى هذا النحو فسرها أبو عبيدة في قوله: «لواقح ملاقح»، وكذلك العبارة عنها في كتاب البخاري: «لواقح ملاقح ملقحة».

وقرأ الجمهور: ﴿الْوَيْحِ﴾ بالجمع، وقرأ الكوفيون: حمزة، وطلحة بن مصرف، والأعمش، ويحيى بن وثاب: ﴿الرَّيْحِ﴾ بالإفراد، وهي للجنس فهي في معنى الجمع، ومثلها الطبري بقولهم: «قميص أخلاق، وأرض أغفال».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله من حيث هو أجزاء كثيرة تجمع صفتها، وكذلك «رياح لواقح» لأنه متفرقة الهبوب، وكذلك «داز بلاقع»، أي: كل موضع منها بلقع. وقال الأعمش: إن في قراءة عبدالله: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرُّيْحَ تَلْقُخًا﴾، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «الرياح من نفس الرحمن». ومعنى الإضافة هنا إضافة خلق إلى خالق، كما قال: «من روعي»، ومعنى «من نفس الرحمن» أي من تنفيسه وإزالته الكرب والشدائد، فمن التنفيس بالرياح النَّصْرُ بالصبا، ودُورُ الأرزاق بها، وما لها من الخدمة في الأرزاق وجلب الأمطار وغير ذلك مما يكثر عدّه، ولقد حدثت أن ابن أبي قحافة رحمه الله فسّر هذا الحديث نحو هذا، وأنشد في تفسيره:

فإن الصباريح إذا ما تنفست
على نفس مهموم تجلت همومها

وهذا من جملة التنفيس.

والعرب تقول: أسقى وسقى بمعنى واحد، قال لبيد:

سَقَى قَوْمِي بَنِي مَجْدٍ وَأَسْقَى
نَمِيرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هِلَالِ
فَجَاءَ بِاللغتين، وقال أبو عبيدة: أما إذا كان من سقى الشفة خاصة فلا يقال إلا سقى، وأما إن كان لسقى الأرض والشمار وجملة الأشياء فيقال: أسقى، وأما الداعي لأرض أو غيرها بالسقى فإنما يقال فيه: أسقى، ومنه قول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى رَسْمٍ لِمَيَّةٍ نَاقَتِي
فَمَا زِلْتُ أَبْكِي عِنْدَهُ وَأَخَاطِبُهُ
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَتَيْتُهُ
تُكَلِّمُنِي أَحْجَازُهُ وَمَلَاعِبُهُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

على أن بيت لبيد دعاء وفيه اللغتان. وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ﴾ الآية. هذه الآية مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة الله تعالى، وما يوجب توحيدة وعبادته، فمعنى هذه الآية: وإنا نحن نحى من نشأ بإخراجه من العدم إلى وجود الحياة، ونردّه عند البعث من مرقد ميتاً، ونميت بإزالة الحياة عمن كان حياً. ﴿وَنَحْنُ أَلْوَدُونَ﴾ أي: لا يبقى شيء سوانا، وكل شيء هالك إلا وجهه، لا رب غيره.

ثم أخبر تعالى بإحاطة علمه بمن تقدم من الأمم وبمن تأخر في الزمن، من لدن أهبط آدم إلى الأرض إلى يوم القيامة، وأعلم أنه هو الحاشر لهم، الجامع ليعرض يوم القيامة على تباعدهم الأقطار

والأزمان، وَأَنَّ حِكْمَتَهُ وَعِلْمَهُ يَأْتِيَانِ
بهذا كله على أتم غاياته التي قدرها وأرادها. وقرأ الأعرج: ﴿يَخْشِرُهُمْ﴾ بكسر الشين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا سياق معنى الآية، وهو قول جمهور المفسرين. وقال الحسن: معنى قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا النَّسْتَقِيينَ﴾ أي: في الطاعة والبدار إلى الإيمان والخيرات، و﴿النَّسْتَقِرِينَ﴾ بالمعاصي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن كان اللفظ يتناول كل من تقدم وتأخر على جميع وجوهه، فليس يطرد سياق معنى الآية إلا كما قدمناه. وقال ابن عباس، ومروان بن الحكم، وأبو الجوزاء: نزله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلَّمْنَا النَّسْتَقِيينَ﴾ الآية في قوم كانوا يصلون مع النبي ﷺ، وكانت امرأة جميلة تصلي وراءه، فكان بعض القوم يتقدم في الصفوف لثلاثتته، وكان بعضهم يتأخر ليسرق النظر إليها في الصلاة، فنزلت الآية فيهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما تَقَدَّمَ الآية من قوله: ﴿وَنَحْنُ أَلْوَدُونَ﴾ وما تأخر من قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَخْشِرُهُمْ﴾ يضعف هذه التأويلات، لأنها تُذهب إيصال المعنى، وقد ذكر ذلك محمد بن كعب القرظي لعون بن عبد الله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ الآية. ﴿الْإِنْسَانَ﴾ هنا للجنس، والمراد آدم عليه السلام، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سُمي بذلك لأنه عُهد إليه فنسي، ودخل

من بعده في ذلك إذ هو من نسله. و«الصلصال» الطين الذي إذا جف صَلَّصَل، هذا قول فرقة، ومنها من قال: هو طين الخزف، ومنها قول الفراء: هو الطين الحر يخالطه رمل دقيق، وقال ابن عباس: خلق من ثلاثة: من طين لازب، وهو اللازق الجيد، ومن صلصال، وهو الأرض الطيبة يقع عليها الماء ثم ينحسر فتتشقق وتصير مثل الخزف، ومن حملاً مسنون، وهو الطين فيه الحماة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان الوجه - على هذا المعنى - أن يقال: «صلال»، لكن ضعف الفعل من فائه، وأبدلت إحدى اللامين من «صلال» صاداً، وهذا مذهب الكوفيين، وقاله ابن جنبي، والزبيدي، ونحوهما على نحو البصرة، ومذهب جمهور البصريين أنهما فعلان متباينان، وكذلك قالوا في تَرَارٍ وتَرْتَارَةٍ، قال بعضهم: تقول: صَلَّ الخزف ونحوه إذا صوت بتمديد، فإذا كان في صوته ترجيع كالجرس ونحوه قلت: صَلَّصَل، ومنه قول الكمي:

فِيهَا الْعَنَاجِيحُ تُرْدِي فِي أَعْيُنِهَا
شَغْبًا تُصَلِّصِلُ فِي أَشْدَاقِهَا اللَّجْمُ
وقال مجاهد وغيره: ﴿مَصَلِّصِلِي﴾ هنا إنما هو من: «صَلَّ اللَّخْمُ» إذا أَتَّسَنَ، فجعلوا معنى ﴿مَصَلِّصِلِي﴾ و﴿حَمَلِي﴾ في لزوم التسن شيئاً واحداً.

و«المَسْنُون»، قال معمر: معناه: المنتن، وهو من «أَسِنَ الماء» إذا تغير، والتصريف يَرُدُّ هذا القول، وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

﴿٢٨﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
 ﴿وَإِذْ نَسَبَ بِإِضْمَارٍ فَعَلَّ مَقْدَرًا،
 تَقْدِيرِهِ: واذكر إذ قال ربك،
 والبشر» ها هنا آدم، وهو مأخوذ من
 البشرية، وهي وجه الجلد في الأشهر
 من القول، ومنه قول النبي ﷺ:
 «وَأَنْقُوا الْبَشْرَةَ». وقيل: البشرية ما
 يلي اللحم، ومنه قولهم في المثل:
 «إِنَّمَا يُعَاتَبُ الْأَدِيمُ ذُو الْبَشْرَةِ»؛ لأن
 تلك الجهة هي التي تبشر،
 وأخبر الله تعالى الملائكة بعجب
 عندهم، وذلك أنهم كانوا مخلوقين
 من نور، فهي أجسام لطاف،
 فأخبرهم أنه يخلق جسماً حياً ذا
 بشرة، وأنه يخلقه من صلصال،
 والبشر والبشارة أيضاً أصلهما البشرة
 لأنهما فيها يظهران.

و ﴿سَوَّيْتُهُ﴾ معناه: كملته وأتقنته
 حتى إذا استوت أجزاءه على ما
 يجب، وقوله: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ إضافة
 خلق وملك إلى خالق مالك، أي:
 من الروح الذي هو لي، ولفظ الروح
 هنا للجنس، وقوله: ﴿مَقْتَرًا﴾ من
 وقع يَقَع، وفتحت القاف لأجل
 حرف الحلق، وهذه اللفظة تقوى أن
 سجود الملائكة إنما كان كالمعهود
 عندنا، لا أنه خضوع وتسليم وإشارة
 كما قال بعض الناس، وشبهوه بقول
 الشاعر:

فَكَلَّمْتَاهُمَا حَزْرًا وَأَسْجَدَ رَأْسَهَا
 كَمَا سَجَدَتْ نَضْرَانَةٌ لَمْ تَحْتَفِ
 وهذا البيت يشبه أن يكون السجود
 فيه كالمعهود عندنا، وحكى الطبري
 في تفسير هذه الآية عن ابن عباس
 رضي الله عنهما أنه قال: «خلق الله
 ملائكة وأمرهم بالسجود لآدم فأبوا،

مأخوذ من كونه على سُنَّة
 الطريق، لأنه إنما يتغير إذا
 فارق الماء، فمعنى الآية
 على هذا: من حملي
 مصبوب يوضع بعضه فوق
 بعض على مثال وصورة.

﴿وَالْجَانَّ﴾ يراد به جنس
 الشياطين، وَيُسَمَّوْنَ جِنَّةً
 وَجَانًّا وَجِنًّا لاستراهم عن
 العين، وسئل وهب بن
 مُثَنَّب عنهم فقال: هم
 أجناس، فأما خالص
 الجن فهم ريح لا يأكلون
 ولا يشربون ولا يموتون
 ولا يتوالدون، ومنهم
 أجناس تفعل هذا كله،

منها السعالى والغول
 وأشباه ذلك. وقرأ الحسن بن أبي
 الحسن: «الجان» بالهمز، والمراد
 بهذه الخلقة إبليس أبو الجن، وفي
 الحديث: «إن الله تعالى خلق آدم من
 جميع أنواع التراب، الطيب
 والخبيث، والأسود والأحمر»، وفي
 سورة البقرة إيعاب هذا. وقوله:
 ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ لأن إبليس خلق قبل آدم
 بمدة، وخلق آدم آخر الخلق.
 و«السُّمُومُ» في كلام العرب إفراط
 الحر حتى يقتل، من نار أو شمس أو
 ريح، وقالت فرقة: السُّمُومُ بالليل،
 والحرور بالنهار، وأما إضافة النار
 إلى السموم في هذه الآية فيحتمل أن
 تكون النار أنواعاً ويكون السموم أمراً
 يختص بنوع منها فتصح الإضافة
 حينئذ، وإن لم يكن هذا فَيُخْرِجُ هذا
 على قولهم: «مسجد الجامع» و«دار
 الآخرة» على حذف مضاف.

﴿٢٨﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ
 لَأَسْجُدْ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ
 فَأَخْرَجْ مِنْهَا وَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣١﴾ وَإِنْ عَلَيَّ اللَّعْنَةُ لَأَكِيدَنَّ
 الَّذِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَإِنَّكَ
 مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٣٤﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ يَا
 أَغْوَيْتَنِي لِأُرْسِنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٦﴾
 لِأَعْبَادِكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ
 مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٨﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ
 اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾
 هَاسِبَةً أُولِي لُكُلٍ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤١﴾ إِنَّ
 الْمُنْفِقِينَ فِي جَهَنَّمَ وَعِوِينَ ﴿٤٢﴾ أَذْخَلُوهَا سِلْكَهٖ أَمِينٌ ﴿٤٣﴾
 وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ ﴿٤٤﴾
 لَا يَمْسُهُمْ فِيهَا حَرٌّ وَلَا بُرْدٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يَمْحَرُونَ ﴿٤٥﴾
 ﴿٤٦﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٧﴾ وَأَنْ عَادَايَ
 هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٤٨﴾ وَيُنَبِّئُهُمْ عَنْ صِيبٍ إِتْرَاهِيمَ ﴿٤٩﴾

المسنون: الرطب، وهذا تفسير
 لا يخص اللفظة، وقال الحسن:
 المعنى: سن ذريته على خلقه،
 والذي يترتب في ﴿مَسْنُونٌ﴾ إما أن
 يكون: مخكوك مخكم العمل أملس
 السطح، فيكون من معنى المسنن
 والسنان وقولهم: «سنتت السكين،
 وسنتت الحجر» إذا أحكمت ملسه،
 ومن ذلك قول الشاعر:

ثُمَّ دَافَعْتُهَا إِلَى الْقُبَّةِ الْخَضْرِ
 رَاءَ تَمَشِي فِي مَرْمَرٍ مَسْنُونٍ
 أي: مخكم الإملاس، وإما أن
 يكون بمعنى المصنوب: تقول:
 «سنتت التراب والماء» إذا صبتته شيئاً
 بعد شيء، ومنه قول عمرو ابن
 العاص رضي الله عنه لمن حضر
 وفاته: «إِذَا أَدْخَلْتُمُونِي فِي قَبْرِي
 فَسْتُوا عَلَيَّ التُّرَابَ سُنًّا»، ومن هذا
 سن الغارة. وقال الزجاج: هو

حيث النار تأكل الطين، ففاس وأخطأ في قياسه، وجهل أن الفضائل إنما هي حيث جعلها المالك للجميع، لا رب غيره.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿مِنَهَا﴾ للجنة وإن لم يجر ذكرها، فالقصة تتضمنها، ويحتمل أن يعود الضمير على صيغة الملائكة. و«الرجيم» المشثوم، أي: المرجوم بالقول والشتم، و«يَوْمَ الدِّينِ» يوم الجزاء، ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْغُدُو
بِ دُأَاهُمْ كَمَا ذَأَوْا

وسأل إبليس النظرة إلى يوم البعث فأعطاه الله إياها إلى وقت معلوم، واختلف فيه - فقيل: إلى يوم القيامة، أي يكون آخر من يموت من الخلق، قاله الطبري وغيره. وقيل: إلى وقت غير معين ولا مرسوم بقيامة ولا غيرها، بل علمه عند الله وحده. وقيل: بل أمره كان إلى يوم بدر، وأنه قتل يوم بدر، وهذا - وإن كان زوي - فهو ضعيف. والمُنْظَرُ: المؤخَّر. وقوله: ﴿رَبِّ﴾ مع كفره يخرج على أنه يَقْرُ بالروبية والخلق، وهو الظاهر من حاله وما تقتضيه فيه الآيات والأحاديث، وهذا لا يدفع في صدر كفره.

وقوله: ﴿يَا أَغْوَيْتَنِي﴾، قال أبو عبيدة، وغيره: «أَقْسَمَ بِالْإِغْوَاءِ»، كأنه جعله بمنزلة قوله: «رَبِّ بقدرتك علي وقضائك»، ويحتمل أن يكون بالسبب، كأنه قال: «رَبِّ والله لأغوينهم بسبب إغوائك لي ومن أجله وكفاء له»، ويحتمل أن يكون

الأحاديث ومن هذه الآية أنه من الملائكة، وذلك أن الله تعالى أمر الملائكة بالسجود، ولو لم يكن إبليس من الملائكة لم يذنب في ترك السجود، وقد روي عن الحسن بن أبي الحسن أن إبليس إنما كان من قبيل الجن، ولم يكن قط ملكاً، ونسب ابن فورك القول إلى المعتزلة، وتعلق من قال هذا بقوله تعالى في صفته: ﴿كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾، وقالت الفرقة الأخرى: لا حجة في هذا لأن الملائكة قد تُسَمَّى جِنًّا لاستتارها، وقد قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَبَاً﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ﴾، قيل: إنه حينئذ سُمِّي إبليس، وإنما كان اسمه قَبْلَ عَزَازِيلَ، وهو من الإبلِاس، وهو الإيْتَاد، أي: يا مُبْتَد. وقالت طائفة: إبليس كان اسمه، وليس باسم مشتق، بل هو أعجمي، ويقضي بذلك أنه لا ينصرف، ولو كان عربياً مشتقاً لكان كإجفيل، من أجفل، وغيره، وكان منصرفاً، قاله أبو علي الفارسي. وقوله: ﴿أَلَا تَتُوبُ﴾، [أَنْ] في موضع نصب، وقيل: في موضع خفض، والأصل: «مالك في ألا تكون»، وقول إبليس: «لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِشَيْءٍ» ليس هذا موضع كفره عند الحذاق، لأن إبايته إنما هي معصية فقط، وأما تعليقه فإنما يقتضي أن الله خلق خلقاً مفضولاً وكَلَّفَ خلقاً أفضل منه أن يدلَّ له، فكأنه قال: «وهذا جور»، وذلك أن إبليس لما ظن أن النار أفضل من الطين ظن أن نفسه أفضل من آدم من

فأرسل عليهم ناراً فأحرقتهم، ثم خلق آخرين فكذلك، ثم خلق آخرين فأمرهم بالسجود فأطاعوا إلا إبليس فإنه كان من الأولين»، وقوله: «من الأولين» يحتمل أن يريد: من الأولين في حالهم وكفرهم، ويحتمل أن يريد أنه بقي منهم.

وقوله: ﴿كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴾ هو عند سيبويه تأكيد بعد تأكيد، يتضمن الآخر ما تضمن الأول، وقال غيره: ﴿كُلُّهُمْ﴾ لَوْ وَقَفَ عليه لصلحت للاستثناء، وصلحت على معنى المبالغة مع أن يكون البعض لم يسجد، وهذا كما يقول القائل: «كلُّ الناس يعرف كذا»، وهو يريد أن المذكور أمر مشتهر، فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ رفع الاحتمال في أن يبقى منهم أحد، واقتضى الكلام أن جميعهم سجد، وقال المبرد: لو وَقَفَ على ﴿كُلُّهُمْ﴾ لاحتمال أن يكون سجودهم في مواطن كثيرة، فلما قال: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ دلَّ على أنهم سجدوا في موضع واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واعترض قول المبرد بأنه جعل قوله تعالى: ﴿أَجْمَعُونَ﴾ حالاً بمعنى «مُجْتَمِعِينَ»، ويلزمه - على هذا - أن يكون ﴿أَجْمَعُونَ﴾ هنا على أن يقرب من التنكير إذ هو معرفة لكونه يلزم إتباع المعارف، والقراءة بالرفع تأتي قوله.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، قيل: إنه استثناء من الأول، وقيل: إنه ليس من الأول، وهذا متركب على الخلاف في إبليس، هل هو من الملائكة أم لا؟ والظاهر من كثير من

المعنى تجلداً منه ومبالغة في الجد، أي: «بحالي هذه وبعدي من الخير والله لأفعلن ولأفعلن» ومعنى ﴿لَأَذْرَبَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي الشهوات والمعاصي، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ لذرية آدم وإن كان لم يجر لهم ذكر، فالقصة بجملتها حيث وقعت كاملة تَنَضُّمُهُمْ، والإغواء: الإضلال. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأعرج: ﴿الشُّكْرَيْنِ﴾ بفتح اللام، أي الذين أخلصتهم أنت لعبادتك وتقواك، وقرأ الجمهور بكسر اللام، أي الذين أخلصوا الإيمان بك وبرسولك.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾، القائل هو الله تبارك وتعالى، ويحتمل أن يكون ذلك بواسطة، وقرأ الضحاك، وخميد، والنخعي، وأبو رجا، وابن سيرين، وقتادة، وقيس بن عباد، ومجاهد، وغيرهم: ﴿عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ﴾ من العلو والرفعة، والإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ - على هذه القراءة - إلى الإخلاص، لما استثنى إبليس من أخلص قال الله له: هذا الإخلاص طريق رفيع مستقيم لا تنال أنت بإغوائك أهله. وقرأ جمهور الناس: ﴿عَلَيَّ﴾ بـياء مشددة مفتوحة، والإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ - على هذه القراءة - إلى انقسام الناس إلى غاو ومخلص، لما قسم إبليس الناس هذين القسمين قال الله له: هذا طريق إليّ، أي: هذا أمر مصيره إليّ، والعرب تقول: «طريقك في هذا الأمر على فلان»، أي: إليه يصير النظر في أمرك. وهذا نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ

لِيَائِزَاصَ﴾، والآية - على هذه القراءة - خبر تتضمن وعيداً.

ثم ابتدأ الإخبار عن سلامة عباده المتقين من إبليس، وخاطبه بأنه لا حجة له عليهم ولا ملكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر في قوله: ﴿عِبَادِي﴾ الخصوص في أهل الإيمان والتقوى لا عموم الخلق، وبحسب هذا يكون ﴿إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ﴾ مستثنى من غير الأول، والتقدير: لكن من اتبعك من الغاوين لك عليهم سلطان، وإن أخذنا العباد عاماً في عباد الناس، إذ لم يقدر الله لإبليس سلطاناً على أحد، فإننا نقدر الاستثناء في الأقل في القدر من حيث لا قدر للكفار، والنظر الأول أصوب، وإنما الغرض ألا نقع في استثناء الأكثر من الأقل وإن كان الفقهاء قد جوزوه، وقال أبو المعالي: ليس معروفاً في استعمال العرب، وهذه الآية أمثل ما احتج به مجوزوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا حجة لهم في الآية على ما بيئته.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ جَهَنَّمَ لَمُرِيدَةٌ﴾ أي موضع اجتماعهم، والموعود يتعلق بزمان ومكان، وقد يذكر المكان ولا يحدد زمان الموعود. و﴿أَجْمِينَ﴾ تأكيد، وفيه معنى الحال، وقوله: ﴿لَمَّا سَبَعَهُ أَبْرَاقٌ﴾ قيل: إن النار بجملتها سبعة أطباق، أعلاها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم وفيه أبو جهل، ثم الهاوية، وإن في كل طبق منها باباً، فالأبواب - على هذا - بعضها فوق بعض، وعبر في هذه الآية عن النار جملة بجهنم، إذ هي أشهر منازلها

وأولها، وهي موضع عصاة المؤمنين الذين لا يخلدون، ولهذا روي أن جهنم تحرب وتبلى. وقيل: إن النار أطباق كما ذكرنا، لكن الأبواب السبعة كلها في جهنم على خط استواء، ثم ينزل من كل باب إلى طبقة الذي يفضي إليه. واختصرت ما ذكر المفسرون في المسافات بين الأبواب، وفي هواء النار، وفي كيفية الحال، إذ هي أقوال كثيرة أكثرها لا يستند، وهي في حيز الجائر، والقدرة أعظم منها، عافانا الله من ناره، وتعدنا برحمته بيته.

وقوله: ﴿جُزْءٌ﴾، قرأ الجمهور بالهمز، وقرأ ابن شهاب بضم الزاي، وقرأت فرقة: ﴿جُزْءٌ﴾ بشد الزاي دون همز، وهي قراءة ابن القعقاع.

﴿١٠﴾ - ﴿٩٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله تعالى ما أعد لأهل الجنة عقب ذكره ما أعد لأهل النار ليظهر التباين، وقرأ الجمهور: ﴿رَعِيونَ﴾ بضم العين، وقرأ نبيح، والجراح، وأبو واقد، ويعقوب - في رواية زؤيس - بكسر العين، مثل بيوت وشيوخ.

وقرأ الجمهور: ﴿أَدْخُلُوها﴾ على الأمر بمعنى يقال لهم: ادخلوها، وقرأ رويس عن يعقوب: ﴿أَدْخُلُوها﴾ على بناء الفعل للمفعول بضم الهمزة وكسر الخاء وضم التنوين في ﴿عِيونَ﴾ ألقى عليه حركة الهمزة. و«السَّلام» ها هنا يحتمل أن يكون السلامة، ويحتمل أن يكون التحية، و«الْغُلُ»: الحقد، وذكر الله تعالى في هذه الآية أنه ينزع الغل من قلوب أهل الجنة، ولم يذكر لذلك موطناً،

ذَخَلُوا عَلَيْهِ فَمَا لُؤْسًا قَالَ إِنَّمَا يَنْتَهِمُ وَيَحْلُونَ ﴿٥١﴾ قَالُوا
لَا نُحِلُّ إِلَّا نَبَشْرَكَ بِعَلْمِكَ عَلِيمٍ ﴿٥٢﴾ قَالَ أَشْتَرُ شُرُوفِي عَلَّ أَنْ
سَمَّيْتُ الْكَبِيرَ فَيَدُ بَشْرُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا أَشْتَرُ نَبَشْرِكَ بِالْحَقِّ
فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَنَاطِيرِ ﴿٥٤﴾ قَالَ وَمَنْ يَفْضُلُ مِنْ رَحْمَةِ
رَبِّي إِلَّا الصَّالُونَ ﴿٥٥﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ
﴿٥٦﴾ قَالُوا إِنَّمَا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ إِلَّا ءَالَ لُوطٍ
إِنَّمَا لَسْنَا لَهُمْ أَجْعِبِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا أَمْرًا نَهَى فَعَدَرْنَا نَهَا لِكُنْ
الْقَبْرِيِّ ﴿٥٩﴾ فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦٠﴾ قَالَ
إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُتَكَبِّرُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ
يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٦٢﴾ وَإِنَّكَ بِالْحَقِّ رِئَاسٌ صِدْقٌ ﴿٦٣﴾ فَأَشْرِكُ
بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَنَائِعٍ أَبَدْتَهُمْ وَلَا تَلْنَفْتَ مِنْكَ أَحَدٌ
وَأَمْتُرًا حَيْثُ تُوْمَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَفَضَيْتَ إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأُمُورَاتِ
وَأَبْرَهُنَّ لَوْلَا مَقْطُوعٌ مُصْحِحِينَ ﴿٦٥﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ
يَسْتَشِيرُونَ ﴿٦٦﴾ قَالُوا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ فَلَا تَنْصَحُونَ ﴿٦٧﴾ وَأَنْقَرُوا
اللَّهَ وَلَا تَحْزَنُونَ ﴿٦٨﴾ قَالُوا أَوَلَمْ نَسْهَكْ عَنْ الْعَالَمِينَ ﴿٦٩﴾

و «السُّرُورُ»: جمع سرير،
و «مُنْقَلِبِينَ» الظاهر أن
معناه: في الوجوه، إذ
الأميرة متقابلة، فيه أحسن
في الزينة، قال مجاهد:
لا ينظر أحدهم في قفا
صاحبه، وقيل: متقابلين
في المودة، وقيل:
غير هذا مما لا يعطيه
اللفظ.

و «النَّصْبُ»: التَّعْبُ،
يقع على القليل من ذلك
والكثير، ومن الكثير قول
موسى عليه السلام: «لَقَدْ
لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا
نَصْبًا»، ومنه قول
الشاعر:

كَلَيْبِنِي لَهُمْ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِبٍ

وقوله تعالى: ﴿نَبِيٌّ﴾ معناه: أعلم،
و «عِبَادِي» مفعول بـ ﴿نَبِيٌّ﴾، وهي
تتعدى إلى ثلاثة مفاعيل، فـ
﴿عِبَادِي﴾ مفعول، و «وَأَنَّ» تسد
مسدَّ المفعولين الباقيين، واتفق ذلك
وهي مع ما عملت فيه بمنزلة اسم
واحد، ألا ترى أنك إذا قلت:
«أعجبني أن زيداً منطلقاً» إنما
المعنى: أعجبني انطلاق زيد، لأن
دخولها إنما هو على جملة ابتداء
وخير، فسدت تلك مسدَّ المفعولين،
وقد يتعدى «نَبِيٌّ» إلى مفعولين فقط،
ومنه قوله تعالى: ﴿مَنْ أَيْتَاكَ هَذَا﴾،
وتكون في هذا الموضع بمعنى:
أخبر وعرف، وفي هذا كله نظر.

وهذه آية ترجية وتخويف، وروي
في هذا المعنى عن النبي عليه الصلاة

وجاء في بعض الحديث أن ذلك
على الصراط، وجاء في بعضها أن
ذلك على أبواب الجنة، وفي لفظ
بعضها أن الغل ليبقى على أبواب
الجنة كمعاطن الإبل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا على أن الله تعالى يجعل ذلك
تمثيلاً يكون يخلقه هناك ونحوه،
وهذا كحديث ذبح الموت، وقد
يمكن أيضاً أن يُسَلَّ من الصدور،
ولذلك جواهر سود فيكون كمبرك
الإبل، وجاء في بعض الأحاديث أن
نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم
في الجنة، والذي يقال في هذا
أن الله ينزعه في موطن من قوم،
وفي موطن من آخرين، وقال
علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

«إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة
والزبير ممن قال الله فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا
مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ إِخْرُكًا عَلَى سُورٍ
مُنْقَلِبِينَ﴾»، وذكر أن ابناً لطلحة
كان عنده، فاستأذن الأشر فحبسه
مدة، ثم أذن له فدخل، فقال: ألهذا
حبستني؟ وكذلك لو كان ابن عثمان
حبستني له؟ فقال علي: نعم، إني أنا
وعثمان وطلحة والزبير ممن قال الله
فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ
غَلٍّ﴾ الآية. وقد روي أن المستأذن
غير الأشر.

و «إِخْرُكًا» نصب على الحال، وهذه
أخوة الدين الوُد. والأخ من ذلك
يجمع على إخوان وإخوة، والأخ من
النسب يجمع إخوة وأخاء، ومنه قول
الشاعر:

.....
وَأَيُّ بَنِي الْإِخَاءِ تَضَفُّوْا مَذَاهِبُهُ؟

والسلام أنه قال: «لو يعلم العبد قدر
عفو الله لما تورع من حرام، ولو
يعلم قدر عذابه لبتع نفسه»، وروي
في هذه الآية أن سببها أن
رسول الله ﷺ جاء إلى جماعة من
أصحابه عند باب بني شيبه في الحرم
فوجدهم يضحكون، فزجرهم
ووعظهم، ثم ولى، فجاهه جبريل
عن الله فقال: يا محمد، أتقنط
عبادي؟ وتلا عليه الآية، فرجع بها
رسول الله ﷺ إليهم وأعلمهم. ولو
لم يكن هذا السبب لكان ما قبلها
يقضيها، إذ قد تقدم ذكر ما في النار
وما في الجنة فأكد تعالى تبييه الناس
بهذه الآية.

(٥١) - (٥٦) تفسير قوله عز وجل:
قرأ أبو حية: «وَبَشْرِهِمْ» بضم الهاء
من غير همز، وهذا ابتداء قصص
بعد انصرام الغرض الأول،

و«الضيف» مصدر وُصف به فهو للواحد وللثنين والجمع والمذكر والمؤنث بلفظ واحد، قال النحاس وغيره: التقدير: عن أصحاب ضيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويغني عن هذا أن هذا المصدر عومل معاملة الأسماء، كما فعل في «رهن» ونحوه، والمراد بالضيف هنا بالملائكة الذين جاءوا لإهلاك قوم لوط وبشروا إبراهيم - عليهما السلام -، وقد تقدم قصصهم.

وقوله: ﴿سَكَنَّا﴾ مصدر منصوب بفعل مضمّر تقديره: سلّمنا، أو تُسَلِّمُ سلاماً، والسلام هنا التحية، وقوله: ﴿سَكَنَّا﴾ حكاية قولهم، فلا يعمل القول فيه، وإنما يعلم إذا كان ما بعده ترجمة عن كلام ليس يحكى بعينه، كما تقول لمن قال: «لا إله إلا الله»، قُلْتُ: حَقًّا، ونحو هذا.

وقوله: ﴿إِنَّا بِنكُمْ رِجْلُونَ﴾ أي: فزعون، وإنما وجل إبراهيم عليه السلام منهم لما قدم إليهم العجل الحنيذ فلم يرهم يأكلون، وكان عندهم العلامة المؤمّنة أكل الطعام، وكذلك هو في غابر الدهر أمّنة للنازل والمنزول به.

وقرأ الجمهور: ﴿وَجَلَّ﴾ مستقبل «وَجَلَّ»، وقرأ الحسن بضم التاء على بناء الفعل للمفعول من «أوجل»، لأن «وَجَلَّ» لا يتعدى، وكانت هذه الإشارة بإسحاق، وذلك بعد مولد إسماعيل بمدة، وقول إبراهيم: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ﴾ ليس يقتضي أنه

حينئذ وهبهما، بل قبل الحمد بكثير.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنْشَرْتُمُونِي﴾ بألف استفهام، وقرأ الأعرج: ﴿بَشَّرْتُمُونِي﴾ بغير ألف، وقوله: ﴿عَلَىٰ أَنْ مَسَّيَ﴾ أي: في حالة قد مسني الكبر فيها، وقرأ ابن محيصن: ﴿الْكَبْرُ﴾ بضم الكاف وسكون الباء، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿بَشَّرْتُمُونِي﴾ بفتح النون التي هي علامة الرفع، والفعل - على هذه القراءة - غير مُعَدَّى، وقرأ الحسن البصري: ﴿بَشَّرْتُمُونِي﴾ بنون مشددة وياؤه، وقرأ ابن كثير بشد النون دون ياء، وهذه القراءة أدغمت فيها نون العلامة في النون التي هي للمتكلم موطئة للياء، وقرأ نافع: ﴿بَشَّرْتُمُونِي﴾ بكسر النون، وغلط أبو حاتم نافعاً في هذه القراءة، وقال: إن شاهد الشعر في هذا اضطرار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حمل منه، وتقدير هذه القراءة أنه حُذفت النون التي للمتكلم، وكُسرت النون التي هي علامة الرفع بحسب الياء، ثم حذفت الياء للدلالة الكسرة عليها، ونحو هذا قول الشاعر - أنشده سيويه -:

تَرَاهُ كَالسَّعَامِ يُعَلُّ مَسْكَاً
يَسُرُّ الْقَالِيَاتِ إِذَا قَلْبِي

ومنه قول الآخر:
أَبَالْمَوْتِ الَّذِي لَا بُدَّ أُنِّي
مُلَاقٍ - لَا أَبَاكَ - تُخَوِّفِينِي؟
ومن حذف هذه النون قول الشاعر:

قَدْنِي مِنْ نَضْرِ الْخُبَيْبِيِّ قَدِي

يريد عبدالله ومصعباً ابني الزبير، وكان عبدالله يكنى أبا خبيب. وقرأ الحسن: ﴿قِيمَ تَبَشَّرُونَ﴾ بفتح التاء وضم الشين. وقول إبراهيم: ﴿بَشَّرْتُمُونِي﴾ بفتح النون على جهة التعجب والاستبعاد لكبرهما، أو على جهة الاحتقار وقلة المبالاة بالمسرات لمضي العمر واستيلاء الكبر. قال مجاهد: عجب من كبره وكبر امرأته، وقد تقدم ذكر سنه وقت البشارة.

وقولهم: ﴿بَشَّرْتَنكَ يَا لَحَيَّ﴾ فيه شدة ما، أي: أبشّر بما بُشرت به ودع غير ذلك، وقرأ جمهور الناس: ﴿الْقَنَاطِينَ﴾ والقنوط: أتم اليأس، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وابن مصرف، ورويت عن أبي عمرو: ﴿الْقَنَاطِينَ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ﴾ بفتح النون في كل القرآن. وقرأ أبو عمرو، والكسائي بكسرها، وكلهم قرأ: ﴿مَنْ يَغْدِي مَا قَنَطُوا﴾ بفتح النون، ورد أبو عبيدة قراءة أهل الحرمين، وأنكر أن يقال: «قَنَطُ» بكسر النون، وليس كما قال، لأنهم لا يُجمعون إلا على قوي في اللغة مرويًا عندهم، وهي قراءة فصيحة، يقال: قَنَطَ يَقْنِطُ، وَقْنِطَ يَقْنِطُ، مثل: نَقَمَ يَقْنِطُ، وقرأ الأعمش هنا: ﴿يَقْنِطُ﴾ بكسر النون، وقرأ: ﴿مَنْ يَغْدِي مَا قَنَطُوا﴾ بكسر النون أيضاً، فقرأ باللغتين، وقرأ الأشهب: ﴿يَقْنِطُ﴾ بضم النون، وهي قراءة الحسن، والأعمش أيضاً، وهي لغة تميم.

٥٧ - ٥٨ - تفسير قوله عز وجل:

القائل هنا إبراهيم عليه السلام، وقوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ؟﴾ سؤال فيه عنف مأ، كما تقول لمن تنكر حاله: ماذا دهاك؟ وما مصيبتك؟ وأنت إنما تريد استفهاماً عن حاله فقط، لأن «الخطب» لفظة إنما تستعمل في الأمور الشداد، على أن قول إبراهيم: ﴿إِنِّي أَرْسَلُونَ﴾، وكونهم أيضاً قد بشروه، يقتضي أنه قد كان عرف أنهم ملائكة حين قال: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ؟﴾ فيحتمل قوله: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ؟﴾ مع هذا أنه أضاف الخطب إليهم من حيث هم حملته إلى القوم المعذنين. أي: ما هذا الخطب الذي تحملونه؟ وإلى أي أمة؟

و «القوم المجرمون» يراد بهم أهل مدينة سدوم الذين بعث فيهم لوط عليه السلام، والمجرم: الذي يجزئ الجرائم ويرتكب المحظورات، وأصل جرم وأجرم: كسب، ومنه قول الشاعر:

جَرِيْمَةٌ نَاهِيضٌ فِي رَأْسِ نَيْقٍ
.....

أي: كسب عقاب في قنّة شامخ، ولكن اللفظة خُصّت في عرفها بالشر، لا يقال لكاسب الأجر مجرم.

وقولهم: ﴿إِلَّا ءَالَ﴾ استثناء منقطع، و«الآل»: القوم الذين يؤول أمرهم إلى المضاف إليه، كذا قال سيويه، وهذا نص في أن لفظه «آل» ليست لفظه «أهل» كما قال النحاس، ويجوز - على هذا - إضافة «آل» إلى الضمير وأما «أهليل» فتصغير «أهل»، واحترزوا به عن تصغير «آل»،

فرفضوا «أويلا». وقرأ جمهور السبعة: ﴿لَمَنجُوهُمْ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي بالتخفيف، والضمير في «مَنجُوهُمْ» في موضع خفض بالإضافة، وانحذفت النون للمعاينة هذا قول جمهور النحويين، وقال الأخفش: الضمير في موضع نصب، وانحذفت النون لأنه لا بُد من اتصال هذا الضمير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَرْأَيْتُمْ﴾ استثناء بعد استثناء، وهما منقطعان فيما حكى بعض النحاة، لأنهم لم يجعلوا امرأته الكافرة من آله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، لأنها قبل الاستثناء داخله في اللفظ الذي هو «الآل»، وليس كذلك «الآل» مع المجرمين، فيظهر الاستثناء الأول منقطعاً، والثاني متصلًا، والاستثناء بعد الاستثناء يرذ المستثنى الثاني في حكم الأمر الأول، ومثّل بعض الناس في هذا بقولك: «عندي مائة درهم إلا عشرة دراهم» أو «عندي مائة درهمين»، فرجعت الدرهمان في حكم التسعين درهماً. وقال المبرد: ليس هذا المثال بجيد، لأنه من خلف الكلام وردّه، إذ له طريق إلى أداء المعنى بأجمل من هذا التحليق، وهو أن يقول: «عندي مائة إلا ثمانية»، وإنما ينبغي أن يكون مثلاً للآية قولك: «ضربت بني تميم إلا بني دارم إلا حاجباً»، لأن «حاجباً» من بني دارم، فلما كان المستثنى الأول في ضمنه مالا يجري الحكم

عليه، والضرورة تدخله في لفظه، ولا يمكننا العبارة عنه دون ذلك الذي لا يجري الحكم عليه، اضطرت إلى استثناء ثان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونزعة المبرد في ذلك نبيلة. وقرأ جميعهم سوى عاصم في رواية أبي بكر: ﴿فَقَدْزَنَا﴾ بتشديد الذال في كل القرآن، وقرأ عاصم بتخفيفها ونقل في رواية حفص، والتخفيف يكون بمعنى التثقل، كما قال الهذلي أبو ذؤيب:

مُفْرِهَةً عَنَسَ قَدَزْتُ لِسَاقِهَا
فَخَزْتُ كَمَا تَتَأَنِّجُ الرِّيحُ بِالْقَفْلِ
يريد: قَدَزْتُ ضربي لساقها، وكقول النبي ﷺ في الاستخارة: «وَأَقْدُرْ لِي الْخَيْرِ حَيْثُ كَانَ»، وَيَكُونُ أَيْضاً بِمَعْنَى: يَسِرُ وَوَقْفٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

بِقُنْدُهُ هَارَ وَمَنْ تُقَدِّرَ مَيْبُتُهُ
بِقُنْدُهُ هَارَ يَرْجِمُ دُونَهُ الْخَبِيرُ
وكسرت الألف من [إنها] بسبب اللام التي في قوله تعالى: ﴿لَكِنَّ﴾، و«العابرة»: الباقي في الدهر وفي غيره. وقالت فرقة - منهم النحاس -: هو من الأضداد، يقال في الماضي وفي الباقي، وأما في هذه الآية فهي للبقاء، أي: من الغابرين في العذاب.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاءَ ءَالَ لُوطٍ آلُ ثَرْسُلُونَ﴾ الآيات. تقدم القول وذكر القصص في أمر لوط، وصورة لقاء الرسل له، وقيل: إن الرسل كانوا ثلاثة: جبريل وميكائيل وإسرافيل، وقيل: كانوا اثني عشر. وقوله: ﴿مُنْكَرُونَ﴾ أي لا تعرفون

أَمْضِيَاءَ وَحَتْمَانَهُ، ثُمَّ أَدْخَلَ فِي الْكَلَامِ ﴿إِيَّاهُ﴾ مِنْ حَيْثُ أَوْحَى إِلَيْهِ ذَلِكَ وَأَعْلَمَهُ اللَّهُ بِهِ، فَجَلَبَ هَذَا الْمَعْنَى بِإِيجَازٍ، وَحَذَفَ مَا يَدُلُّ الظَّاهِرُ عَلَيْهِ. وَ﴿أَنَّ﴾ فِي مَوْضِعِ نَصَبٍ، قَالَ الْأَخْفَشُ: هِيَ بَدَلٌ مِنْ ﴿ذَلِكَ﴾، وَقَالَ الْفَرَّاءُ: التَّقْدِيرُ: «بِأَنَّ دَابِرَهُ» فَحَذَفَ حَرْفَ الْجَرِّ، وَالْأَوَّلُ أَصُوبٌ.

و «الدَّابِرَةُ»: الَّذِي يَأْتِي فِي آخِرِ الْقَوْمِ، أَيْ فِي أَدْبَارِهِمْ، وَإِذَا قَطَعَ ذَلِكَ وَأُنِيَ عَلَيْهِ فَقَدْ أَتَى الْعَذَابَ مِنْ أَوْلَاهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ، وَهَذِهِ أَفْظَاءٌ دَالَّةٌ عَلَى الْإِسْتِثْصَالِ وَالْهَلَاكِ التَّامِ، يُقَالُ: «قَطَعَ اللَّهُ دَابِرَهُ»، وَاسْتَأْصَلَ شَأْفَتَهُ، وَ«أَسَكَّتْ نَأْمَتَهُ»، بِمَعْنَى. وَ﴿مُسَيَّبِينَ﴾ مَعْنَاهُ: إِذَا أَصْبَحُوا وَدَخَلُوا فِي الصَّبَاحِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَاءَ أَقْلُ الْكَافِرِينَ بِسَبْتِيَّوْرُونَ﴾ يَحْتَمَلُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى وَصْفِ أَمْرِ جَرِي قَبْلَ إِعْلَامِ لُوطَ بِهَلَاكِ أُمَّتِهِ، وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا أَنْ مُحَاجَّةَ لُوطَ لِقَوْمِهِ فِي الْأَضْيَافِ تَقْتَضِي ضَعْفَ مَنْ لَمْ يَعْلَمْ إِهْلَاكَهُمْ وَأَنَّ الْأَضْيَافَ مَلَانِكَةٌ. وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ قَوْلُهُ: ﴿وَجَاءَ أَقْلُ الْكَافِرِينَ﴾ بَعْدَ عِلْمِهِ بِهَلَاكِهِمْ، وَكَانَ قَوْلُهُمْ مَا يَأْتِي مِنَ الْمُحَاوَرَةِ عَلَى جِهَةِ التَّكْتُمِ عَنْهُمْ، وَالْإِمْلَاءِ لَهُمْ، وَالتَّرْتِيبُ بِهِمْ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَالْإِحْتِمَالُ الْأَوَّلُ عِنْدِي أَرْجَحُ، وَهُوَ الظَّاهِرُ مِنْ آيَاتٍ غَيْرِ هَذِهِ السُّورَةِ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِسَبْتِيَّوْرُونَ﴾ أَيْ: بِالْأَضْيَافِ طَمَعاً مِنْهُمْ بِالْفَاحِشَةِ، وَالضَّيْفُ مَصْدَرٌ وَصُفَّ بِهِ فَهُوَ

فِرْقَةٌ: ﴿بِقِطْعٍ﴾ بِفَتْحِ الطَّاءِ، حَكَاهُ مَنْذَرُ بْنُ سَعِيدٍ.

وَقَوْلُهُ: ﴿وَاتَّبَعُوا أَدْبَارَهُمْ﴾ أَيْ: كُنْ خَلْفَهُمْ وَفِي سَائِهِمْ حَتَّى لَا يَبْقَى مِنْهُمْ أَحَدٌ وَلَا تَلْوِي. وَ«حَيْثُ» فِي مَشْهُورِهَا ظَرْفُ مَكَانٍ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: أَمْرٌ لُوطُ أَنْ يَسِيرَ إِلَى زُعْرٍ، وَقِيلَ: إِلَى مَوْضِعِ نَجَاةٍ غَيْرِ مَعْرُوفٍ عِنْدَنَا، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: «حَيْثُ» قَدْ تَكُونُ ظَرْفُ زَمَانٍ، وَأَنْشَدَ أَبُو عَلِيٍّ فِي هَذَا بَيْتٍ طَرْفَةً:

لِلْمَفْتَى عَقْلٌ يَعْيشُ بِهِ
حَيْثُ تَهْدِي سَاقَهُ قَدَمُهُ

كَأَنَّهُ قَالَ: مُدَّةٌ مَشْبِيهِ وَتَنْقَلُهُ، وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ حَيْثُ أَمْرٌ أَنْ يَسْرِيَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُ: «حَيْثُ ثَوْرٌ»، وَنَحْنُ لَا نَجِدُ فِي الْآيَةِ أَمْرًا إِلَّا فِي قَوْلِهِ: ﴿بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ﴾ أَمْكَنُ أَنْ تَكُونَ «حَيْثُ» ظَرْفُ زَمَانٍ. وَ«بِلَيْفَتٍ» مَاخُودٌ مِنَ الْإِلْتِفَاتِ الَّذِي هُوَ نَظَرُ الْعَيْنِ، قَالَ مُجَاهِدٌ: الْمَعْنَى: لَا يَنْظُرُ أَحَدٌ وِرَاءَهُ، وَتُهَوِّأُ عَنِ النَّظَرِ مَخَافَةَ الْغَفْلَةِ وَتَعَلُّقِ النَّفْسِ بِمَنْ خَلْفَ، وَقِيلَ: بَلْ لَثَلَا تَتَفَطَّرُ قُلُوبُهُمْ مِنْ مَعَايِنَةِ مَا جَرَى عَلَى الْقَرِيَةِ فِي رَفْعِهَا وَطَرْحِهَا، وَقِيلَ: ﴿بِلَيْفَتٍ﴾ مَعْنَاهُ: يَلْوِي، مِنْ قَوْلِكَ: «لَقَعْتُ الْأَمْرَ» إِذَا لَوَيْتَهُ، وَمَنْهَ قَوْلُهُمْ لِلْقَصِيدَةِ: لَقَيْتَهُ، لِأَنَّهَا مَلُوءَةٌ بِبَعْضِهَا عَلَى بَعْضٍ.

(٦٦) - (٦٧) تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: الْمَعْنَى: وَقَضَيْنَا ذَلِكَ الْأَمْرَ، أَيْ:

قَالَ هُوَذَا يَا بَنِيَّ إِنَّ كَثُرَ فَعْلِينِ ﴿٦٧﴾ لَمَعْرَكٌ لَأَنَّهُمْ لَمْ يَسْكُرْهُمْ يَعْصُونَ ﴿٦٧﴾ فَأَخَذَهُمُ الضَّيْفَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٦٧﴾ فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمَنْ شَاءَ ﴿٦٧﴾ إِنَّهَا لِسَبِيلٌ مُقِيمٌ ﴿٦٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ كَانَ أَحَبُّ إِلَيْنَا لَطَّافِينَ ﴿٦٧﴾ فَانْقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّمَا لِيَا أَمْرٌ مِثْلِي ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَحَبُّ الْعَجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٧﴾ وَءَايَاتُهُمْ ءَالَيْنَا فَكَأَنُوعًا مُّضْرِبِينَ ﴿٦٧﴾ وَكَأَنُوعًا يُجْحُونَ مِنَ الْجِبَالِ يَوْمًا ءَامِينِينَ ﴿٦٧﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الضَّيْفَةُ مُضْضِبِينَ ﴿٦٧﴾ لَمَّا أَتَى عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآيَةٌ فَاصِّحْ أَصْفَحْ الْجَمِيلِ ﴿٦٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَالِقُ الْعَلِيمُ ﴿٦٧﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا سَبْعًا مِنَ الثَّمَانِي وَالْفُرْقَانَ الْعَظِيمِ ﴿٦٧﴾ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنِيَ إِلَى مَآ مَتَعْنَاهُ أَرْوَاهَا مِن مَّاءٍ وَلَا تَحْرَنَّ عَلَيْهِمْ وَأَخْفَضْ جَنَاحَكَ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعَمِيمُ ﴿٦٧﴾ كَمَا أَنزَلْنَا عَلَى الْمُعْتَابِينَ ﴿٦٧﴾

فِي هَذَا الْقَطْرِ، وَفِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ تَحْذِيرٌ، وَهُوَ مِنْ نَمَطِ ذَمِّ لِقَوْمِهِ، وَجَرِيهِ أَلَّا يَنْزِلَ هُوَذَا الْقَوْمِ فِي تِلْكَ الْمَدِينَةِ خَوْفًا مِنْهُ أَنْ يَظْهَرَ سُوءُ فَعْلِهِمْ وَطَلِبُهُمُ الْفَوَاحِشَ، فَقَالَتْ الرِّسَالُ لِلُّوطِ: بَلْ جِنَّاتِكَ بِمَا وَعَدَكَ اللَّهُ مِنْ تَعْذِيبِهِمْ عَلَى كُفْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، وَهُوَ الَّذِي كَانُوا يَشْكُونَ فِيهِ وَلَا يَحْقُوقُهُ.

وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ: «فَاسْرِي» بِوَصْلِ الْأَلْفِ، وَفِرْقَةٌ بِقَطْعِهَا، يُقَالُ: سَرَى وَأَسْرَى بِمَعْنَى إِذَا سَارَ لَيْلًا، قَالَ النَّابِغَةُ:

أَسْرَتَ عَلَيَّهِ مِنَ الْجَوَازِءِ سَارِيَةٌ
.....

فَجَمَعَ بَيْنَ اللَّغَتَيْنِ، وَقَرَأَ الْيَمَانِيُّ: «فَسِرْ بِأَهْلِكَ»، وَهَذَا الْأَمْرُ بِالسُّرَى هُوَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، أَيْ: يُقَالُ لَكَ، وَ«الْقِطْعُ»: الْجُزْءُ مِنَ اللَّيْلِ، وَقَرَأَتْ

يقع للواحد والجميع والمذكر والمؤنث.

وقولهم: ﴿أَوَلَمْ تَنْهَكْ عَنِ الْقَتْلِ﴾، روي أنهم كانوا قد تقدموا إليه في الأضياف أحداً ولا يجيره، لأنهم لا يراعونه ولا يكفون عن طلب الفاحشة فيه، وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّ ذَابِرَ﴾ بكسر الهمزة، وروي أن في قراءة عبدالله: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ وَقُلْنَا إِنَّ ذَابِرَ هَؤُلَاءِ﴾، وذكر السدي أنهم كانوا يفعلون الفاحشة مع الغرباء ولا يفعلونها بعضهم ببعض، فكانوا يتعرضون الطرق.

وقول لوط عليه السلام: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ اختلف في تأويله - فقيل: أراد نساء أمته، لأن زوجات النبي أمهات الأمم وهو أبوهم، فالنساء بناته في الحرمة، والمراد بالتزوج، ويلزم من هذا التأويل أن يكون في شرعه جواز زواج الكافر للمؤمنة، وقد ورد أن المؤمنات به قليل جداً. وقيل: إنما أراد بنات صلبه، ودعا إلى التزويج أيضاً، قال قتادة، ويلزم هذا التأويل ما لزم المتقدم في ترتيبنا. ويحتمل أن يريد عليه السلام بقوله: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ بنات صلبه، ويكون ذلك على طريق المجاز، وهو لا يحقق في إباحة بناته، وهذا كما تقول لإنسان تراه يريد قتل آخر: اقتلني ولا تقتله، فإنما ذلك على جهة التشنيع عليه، والاستنزال من جهة ما، واستدعاء الحياء منه، وهذا كله من مبالغة القول الذي لا يدخله معنى الكذب، بل الغرض منه مفهوم، وعليه قول النبي ﷺ: ﴿وَلَوْ

كَمَفْحَصٍ قَطَاةٍ﴾ إلى غير هذا من الأمثلة.

و «العَمْرُ» و «العُمُرُ» بفتح العين وضمها واحد، وهما عُمُر الحياة ومدتها، ولا يستعمل في القَسَم إلا بالفتح، وفي هذه الآية شرف لمحمد ﷺ تعالى أقسم بحياته، ولم يفعل ذلك مع بشر سواه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والقَسَم بـ «لَعَمْرِكُ» في القرآن ويد «لَعَمْرِي» ونحوه في أشعار العرب وفصح كلامها في غير موضع، كقوله:

لَعَمْرِي وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهَيِّينِ
.....

وقول الآخر:

لَعَمْرُ أَبِيكَ مَا نَسِبَ الْمُعَلَّى
.....

وكقول الآخر:

لَعَمْرُكَ إِنَّ الْمَوْتَ مَا أَخْطَأَ الْفَتَى
لَكَالطَّوْلِ الْمُرْحَى وَثِيئًا بِالْيَدِ
والعرب تقول: «لعمرك الله»، ومنه قول الشاعر:

إِذَا رَضِيَتْ عَلَيَّ بِنَوْ قُشَيْرِ
لَعَمْرُ اللَّهِ أَعْجَبَنِي رِضَا مَا
وقال الأعمش:

وَلَعَمْرُ مَنْ جَعَلَ الشُّهُورَ عَلَامَةً
فِيْنَا فَبَيِّنٍ نِضْفَهَا وَكَمَالَهَا

وقال بعض أصحاب المعاني: لا يجوز هذا لأنه لا يقال: لله تعالى عُمُر، وإنما يقال: بقاء أزلِّي، ذكره الزهراوي، وكره إبراهيم النخعي أن يقول الرجل: «لعمري»، لأنه حلف بحياة نفسه، وذلك من كلام ضعفة الرجال، ونحو هذا. وقول مالك في «لعمري ولعمرك» أنها ليست بيمين،

وقال ابن حبيب: ينبغي أن تصرف «لعمرك» في الكلام اقتداءً بهذه الآية.

و «يَمْعُونُ» أي يَزْتَكُونَ ويتحiron، والضمائر في «سُكْرَتِهِمْ» يراد بها قوم لوط المذكورون، وذكر الطبري أن المراد قريش، وهذا بعيد لأنه ينقطع مما قبله ومما بعده. وقوله: ﴿لَيْلٍ سُكْرَتِهِمْ﴾ مجازٌ وتشبيه، أي: في ضلالتهم وغفلتهم عن الحق ولهوهم، و «يَمْعُونُ» معناه: يترددون في حيرتهم، و «مُشْرِقِينَ» معناه: قد دخلوا في الإشراق، وهو سطوع ضوء الشمس وظهوره، قاله ابن زيد، وهذه الصيغة هي صيغة الوجبة، وليست كصيغة نمود، وأهلكتوا بعد الفجر مصبحين، واستوفاهم الهلاك مشرقين وخبر قوله: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ محذوف تقديره: لعمرك قسمي أو يميني، وفي هذا نظر. وقرأ ابن عباس: ﴿وَعَمْرُكَ﴾، وقرأ الأشهب العقيلي: ﴿لَفِي سُكْرَتِهِمْ﴾ بضم السين، وقرأ ابن أبي عمير: ﴿سُكْرَاتِهِمْ﴾، وقرأ الأعمش: ﴿لَفِي سُكْرِهِمْ﴾ بغير تاء، وقرأ أبو عمرو في رواية الجهضمي: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الهمزة «في سُكْرَتِهِمْ».

وروي في معنى قوله: ﴿فَجَعَلْنَا عَلَيْهَا سَائِلًا﴾ أن جبريل عليه السلام اقتلع المدينة بجناحه ورفعها حتى سمعت ملائكة السماء صراخ الديكة ونباح الكلاب، ثم قلبها وأرسل الكل، فمن سقط عليه شيء من ردم المدينة مات، ومن أفلت منهم أصابته حجارة من سجيل، و «سَجِيلٌ» اسم من أسماء سماء الدنيا، وقيل:

هي لفظة فارسية، وهي الحجارة المطبوخة من الطين كالأجر ونحوه، وقد تقدم القول في هذا.

و«الْمُتَوَسُّمُونَ» قال مجاهد: المتفرسون، وقال الضحاك: الناظرون، وقال قتادة: المعتبرون، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وهذا كله تفسير لها بالمعنى، وإنما تفسيرها باللفظ، فإن المعاني التي تكون في الإنسان وغيره من خير أو شر يلوح عليه وسم على تلك المعاني كالسكون والديانة والهيبة التي تكون عن الخير ونحو هذا، فالمتوسم هو الذي ينظر في وسم المعنى ليستدل به على المعنى، وكان معصية هؤلاء أبقت من العذاب والإهلاك وسمًا، فمن رأى الوسم استدل على المعصية به، واقتاده النظر إلى تجنب المعاصي لثلاث ينزل به ما نزل بهم، ومن الشعر في هذه اللفظة قول الشاعر:

تَوَسَّسْتُهُ لَمَّا رَأَيْتُ مَهَابَةً
عَلَيْهِ وَقُلْتُ الْمَرْءُ مِنْ آلِ هَاشِمٍ

وقال آخر:

وظَلَلْتُ فِيهَا وَإِقْفًا أَتَوَسَّمُ

وقال آخر:

إِنِّي تَوَسَّمْتُ فِيكَ الْخَيْرَ نَافِلَةً

والضمير في قوله: ﴿وَأَنبَأَ﴾ يحتمل أن يعود على المدينة المهلكة، أي: أنها في طريق ظاهر للمعتبر، وهذا تأويل مجاهد، وقاتدة، وابن زيد، ويحتمل أن يعود على الآيات، ويحتمل أن يعود على الحجارة، ويقوي هذا التأويل ما روي أن

النبي ﷺ قال: «إِنَّ حِجَارَةَ الْعَذَابِ معلقة بين السماء والأرض منذ أَلْفِي عام لعصاة أمتي».

وقوله: ﴿لَايَكَةَ﴾ أي أمارة وعلامة، كما تقول: آية ما بيني وبينك كذا وكذا.

﴿٧٨﴾ - ﴿٨٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الْأَيْكَةَ﴾: الغيضة والشجر الملتف المخضر، يكون السدر ونحوه، قال قتادة: رُوي أن أَيْكَةَ هؤلاء كانت من شجر الدوم، وقيل: من العقل، وقيل: من السدر، وكان هؤلاء قومًا يسكنون غِيضَةً ويرتفقون بها في معاشهم، فبعث الله إليهم شعيباً عليه السلام فكفروا، فسَلَطَ الله عليهم الحر فدام عليهم سبعة أيام، ثم رأوا سحابة فخرجوا فاستظلوا تحتها فاضطرت عليهم ناراً، وحكى الطبري قال: بُعث شُعَيْبٌ إلى أمتين كفرتا فعدبنا بعدائين مختلفين: أهل مدين عذبوا بالصيحة، وأصحاب الأيكة عذبوا

بالظلة، ولم يختلف القراء في هذا الموضوع في إدخال الألف واللام على «أَيْكَةَ»، وأكثرهم همز ألف «أَيْكَةَ» بعد اللام، وروي عن بعضهم أنه سَهَّلَهَا ونقل حركتها إلى اللام فقرأ: ﴿الْأَيْكَةَ﴾ دون همز، واختلفوا في سورة الشعراء، وفي سورة ص.

و﴿وَرَانَ﴾ هي المخففة من الثقيلة على مذهب البصريين، وقال الفراء: ﴿وَرَانَ﴾ بمعنى «ما»، واللام في قوله: ﴿لَطَلَّيَيْنِ﴾ بمعنى «إلا»، قال أبو علي: الأَيْكَةُ: جمع أَيْكَةَ كَثْمَرَةٍ وَثَمْرَةٍ، ومن الشاهد على اللفظة قول أمية بن أبي الصلت:

كُبِكَا الْحَمَامَ عَلَى غُصْوِ
نِ الْأَيْكِ فِي الطَّيْرِ الْجَوَائِحِ

وقول جرير:

وَقَفْتُ بِهَا فَهَاجَ الشُّوقَ مِنِّي
حَمَامُ الْأَيْكِ يَسْعِدُهَا حَمَامُ

ومنه قول الآخر:

أَلَا إِنَّمَا الدُّنْيَا غَضَارَةٌ أَيْكَةَ
إِذَا اخْضَرَّتْ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانِبٌ

ومنه قول الهذلي:

مُوسَّحَةً بِالطَّرْتِينِ دَنَا لَهَا
جَنَى أَيْكَةَ يَضْفُو عَلَيْهَا قِصَارُهَا

وأشد الأصمعي:

وَمَا خَلِيجٌ مِنْ... ذُو حَدَبٍ
يَزِيهِ الصَّعِيدُ بِخُشْبِ الْأَيْكِ وَالضَّالِ
وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَأَنبَأَ﴾

يحتمل أن يعود على المدينتين اللتين تقدم ذكرهما، مدينة قوم لوط، ومدينة أصحاب الأيكة، ويحتمل أن يعود على النبيين لوط وشعيب في أنهما على طريق من الله وشرع مبين.

و«الإمام» في كلام العرب: الشيء الذي يهتدى به ويؤتم، يقولونه لخيط البناء، وقد يكون الطريق، وقد يكون الكتاب المفيد، وقد يكون القياس الذي يعمل عليه الصناع، وقد يكون الرجل المُقَدِّدُ به، ونحو هذا، ومن رأي عود الضمير في ﴿إِنبَأَ﴾ على المدينتين قال: الإمام: الطريق، وقيل على ذلك: الإمام: الكتاب الذي سبق فيه إهلاكهما.

و«أَصْنَبُ الْحَجَرِ» ثمود، وقد تقدم قصصهم، و«الْمَعْرَجُ» مدينتهم، وهي ما بين المدينة وتبوك، وقال: ﴿الْمُرْسَلَيْنِ﴾ من حيث يجب بتكذيب



المكتسبين الدنيا الذين لم يغن عنهم اكتسابهم ليسوا في شيء، فإن السموات والأرض وجميع الأشياء لم تخلق عبثاً ولا سدى ولا لتكون طاعة الله كما فعل هؤلاء ونظراؤهم، وإنما خلقت بالحق، ولواجب مقصود وأغراض لها نهايات من عذاب ونعيم، وإن الساعة آتية على جميع أمور الدنيا، أي: فلا تهتم يا محمد بأعمال قومك، فإن الجزاء لهم بالمرصاد، فاصفح عن أعمالهم، أي: ولها صفحة عنقك بالإعراض

عنها، وأكد الصفح بتغث الجمال إذ المراد منه أن يكون لا عتب فيه ولا تعرض. وهذه الآية تقتضي مهادنة، ونسختها آية السيف، قاله قتادة.

ثم سلاه في آخر الآيات بأن الله تعالى يخلق ما شاء لمن شاء، ويعلم تعالى وجه الحكمة في ذلك، لا هذه الأوثان التي تعبدونها. وقرأ جمهور الناس: ﴿الْمَلَأْنِي﴾ وقرأ الأعمش والجحدري: ﴿الْمَخَالِقِي﴾.

٨٧ - ٩٣ تفسير قوله عز وجل: قال ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود، وابن عمر، ومجاهد، وابن جبير: السبع هنا هي السبع الطول: البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والمص، والأنفال مع براءة، وقال ابن جبير: بل السابعة يونس، وليست الأنفال وبرائة منها.

رسول واحد تكذيب الجميع، إذ القول في المعتقدات واحد للرسول أجمع، فهذه العبارة أشنع على المكذبين.

والآيات التي آتاهم الله في الناقة وما اشتملت عليه من خرق العادة حسب ما تقدم تفسيره ويسطه، وقرأ أبو حنيفة: ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتَنَا﴾ مفردة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَاثُرًا يَّجْتَنُونَ﴾ الآية. يصف قوم صالح بشدة النظر للدنيا والكسب منها، فذكر من ذلك مثلاً أن بيوتهم كانوا ينحتونها في حجر من الجبال، والنحت: النقر بالمعاول ونحوها في الحجارة والعود ونحوه، وقرأ جمهور الناس بكسر الحاء، وقرأ الحسن بفتحها وذلك لأجل حرف الحلق، وهي قراءة أبي حنيفة وقوله: ﴿مَائِنِيكَ﴾، قيل: معناه: من انهدامها، وقيل: من حوادث الدنيا، وقيل: من الموت لاغترارهم بطول الأعمار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، وأصح ما يظهر في ذلك أنهم كانوا يأمنون عواقب الآخرة، فكانوا لا يعملون بحسبها، بل كانوا يعملون بحسب الأمن منها.

ومعنى ﴿مُسَيِّرِينَ﴾ أي عند دخولهم في الصباح، وذكر أن ذلك كان يوم سبت، وقد تقدم قصص عذابهم وميعادهم وتغير ألوانهم، ولم تغن عنهم شدة نظرهم للدنيا وتكسبهم شيئاً، ولا دفع عذاب الله. و[ما] الأولى للنفي، وتحتل التقرير، والثانية مصدرية.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية. المراد أن هؤلاء

و﴿الْمَلَأْنِي﴾ - على قول هؤلاء - القرآن كله، كما قال تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ مُّسْتَدْبِرَاتٍ﴾، وسُمي بذلك لأن القصص والأخبار تُنتى فيه وتُرَدَّد.

وقال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس أيضاً، وابن مسعود، والحسن، وابن أبي مليكة، وعبيد بن عمير وجماعة: السبع هنا هي آيات الحمد، قال ابن عباس: هُنَّ سبع بالبسمة، وقال غيره: هُنَّ سبع دون البسمة، وروى في هذا الحديث أبي بن كعب ونُصّه: قال أبي: قال رسول الله ﷺ: «ألا أعلمكم يا أبي سورة لم ينزل في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها؟» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «إني لأرجو ألا تخرج من ذلك الباب حتى تعلمها»، فقام رسول الله ﷺ وقمت معه،

ويدي في يده، وجعلت أبطيء؛ مخافة أن أخرج، فلما دنوت من المسجد قلت: يا رسول الله، السورة التي وعدتنيها؟ فقال: «كيف تقرأ إذا قمت في الصلاة؟» قال: فقرأت: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتى أكملت فاتحة الكتاب، فقال: «هي هي، وهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيت»، كذا أو نحوه، ذكره مالك في الموطأ، وهو مروى في البخاري، ومسلم عن أبي سعيد بن المعلى أيضاً. وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ «أنها السبع المثاني، وأم القرآن، وفاتحة الكتاب»، وفي كتاب الزهراوي: «وليس فيها بسملة»، و«المثاني» - على قول هؤلاء - يحتمل أن تكون القرآن، ف «مِنْ» للتبعيض، وقالت فرقة: بل أراد الحمد نفسها، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ مِنْ الْأَنْدَانِ﴾ ف [مِنْ] لبيان الجنس، وسميت بذلك لأنها تشنى في كل ركعة، وقيل: سميت بذلك لأنها يشنى بها على الله تبارك وتعالى، جوّزه الزجاج، وفي هذا القول من جهة التصرف نظر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: سميت بذلك لأن الله تعالى استثنى هذه الأمة ولم يعطها لغيرها، وقال نحوه ابن أبي مُلَيْكَةَ. وقرأت فرقة: ﴿وَالْقُرْآنَ﴾ بالخفض عطفاً على «التَّائِيَةَ»، وقرأت فرقة: «القرآن» بالنصب عطفاً على قوله: ﴿سَبْعًا﴾.

وقال زياد بن أبي مريم: المراد بقوله: ﴿سَبْعًا﴾ أي سبع معانٍ من القرآن حوّلناك فيها شرف المنزلة في

الدنيا والآخرة، وهي: مُز، وائنة وبِشْر، وأنذِر، واضرب الأمثال، واعدد النعم، وقُض الغيوب.

وقال أبو العالية: السبع المثاني هي أي فاتحة الكتاب، وقد نزلت هذه السورة وما نزل من السبع الطُول شيء.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَدْنَنَّ عَيْنَكَ﴾ الآية. حكى الطبري عن سفيان بن عُيَيْنَةَ أنه قال: هذه الآية أمر بالاستغناء بكتاب الله عن جميع زينة الدنيا، وهي ناظرة إلى قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس منا من لم يتغن بالقرآن»، أي: يستغني به، فكأنه قال: ولقد آتيناك عظيماً خطيراً، فلا تنظر إلى غير ذلك من أمور الدنيا وزينتها التي متعنا بها أنواعاً من هؤلاء الكفرة، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أعطي أفضل مما أعطي فقد عظم صغيراً وصغر عظيماً»، وكأن مد العين يقترن به تَمَنُّ، ولذلك عبّر عن الميل إلى زينة الدنيا بِمَدِّ العَيْن. و«الأزواج» هنا: الأنواع والأشياء.

وقوله: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، أي: لا تتأسف لكفرهم وهلاكهم، واصرف وجهك وتَحَفِّيكِ إلى من آمن بك، واخفض لهم جناحك، وهذه استعارة بمعنى: لئِن جانبك ووطيء أكنافك، و«الجناح»: الجانب والجنب، ومنه قوله: ﴿وَأَضْمْت يَدَكَ إِكَّ جَنَاحِكَ﴾، فهو أمر بالميل إليهم، والجَنُوحُ: الميل.

وقوله: ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْبَشِيرُ﴾، أي: تمسك بهذا القدر العظيم الذي

وهيناك، والكاف في قوله: ﴿كَمَا﴾ متعلقة بفعل محذوف تقديره: وقل إني أنا النذير بعذاب كالذي أنزلناه على المقتسمين، والكاف اسمٌ في موضع نصب، هذا قول المفسرين، وهو عندي غير صحيح؛ لأن ﴿كَمَا﴾ ليست مما يقوله محمد ﷺ، بل هو من قول الله تعالى له، فينفضل الكلام، وإنما يترتب هذا القول بأن يقدر أن الله تعالى قال له: تنذر عذابكما، والذي أقول في هذا: إن المعنى: وقل إني أنا نذير كما قال قبلك رسلنا، وأنزلنا عليهم كما أنزلنا عليك. ويحتمل أن يكون المعنى: وقل أنا النذير كما أنزلنا في الكتب أنك ستأتي نذيراً، وهذا على أن «الْمُقْتَسِمِينَ» أهل الكتاب.

واختلف الناس في «الْمُقْتَسِمِينَ». من هم؟ - فقال ابن زيد: هم قوم صالح الذين اقتسموا بالله لثبتيته وأهله، فالمقتسمون - على هذا - من القسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقلق هذا التأويل مع قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾.

وقال ابن عباس، وسعيد بن جبيرة: المقتسمون هم أهل الكتاب الذين فرقوا دينهم، وجعلوا كتاب الله أعضاء، آمنوا ببعض وكفروا ببعض، وقال نحوه مجاهد.

وقالت فرقة: المقتسمون هم من كفار قريش الذين اقتسموا الطرق وقت المواسم ليعرفوا الناس بحال محمد ﷺ، وجعلوا القرآن سحراً وشعراً وكهانة، فعضوه بهذا وعضوه أعضاء بهذا التقسيم.

وقال عكرمة: المقتسمون هم قوم كانوا يستهزئون بسُور القرآن، ويقول الرجل منهم: هذه السورة لي، ويقول الآخر: وهذه لي.

وقوله: ﴿عَصِيْبٌ﴾ مفعول ثان، و﴿جَلَلًا﴾ بمعنى «صَيَّرُوا»، أي بالستهم ودعواهم، وأظهر ما فيه أنه جمع عَصَ، وهي الفرقة من الشيء، والجماعة من الناس كَثْبَةٌ وتُبِين، وعِزَّةٌ وعِزِينَ، وأصلها عَصَبةٌ وتُوبَةٌ، فالياء والنون عوض من المحذوف، كما قالوا: سَنَّةٌ وسَنُونَ، إذ أصلها سَنَّةَةٌ. وقال ابن عباس وغيره: ﴿عَصِيْبٌ﴾ مأخوذ من الأَعْصَاءِ، أي عَصُوهُ فجعلوه أَسْمَاءً وأَعْصَاءَ، ومن ذلك قول الراجز:

وَأَيْسَ دَيْسُ اللَّهِ بِالْمَعْصَى

وهذا هو اختيار أبي عبيدة. وقال قتادة: ﴿عَصِيْبٌ﴾ مأخوذ من العَصَهِ وهو السُّبُّ المَفْحَشُ، فقريش عَصَهُوا كتاب الله بقولهم: هو شعر، هو سحر، هو كهانة، وهذا هو اختيار الكسائي، وقالت فرقة: ﴿عَصِيْبٌ﴾ جمع عَصَبة، وهو اسم للسُّخْرِ خاصة بلغة قريش، ومنه قول الراجز:

لِلْمَاءِ مِنْ عِصَابِيهِمْ زِمْرَمَةٌ

قال هذا القول عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: العَصَبة: السُّخْر، وهم يقولون للساحرة: العاصِبة، وفي الحديث: «لعمرك الله العاصِبة والمُسْتَعْصِبة»، وهو اختيار الفراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال: «جعلوه أَعْصَاءَ» فإنما

أراد: قَسَمُوهُ كما يُقَسَّمُ الجزور أعضاء.

وقوله تعالى: ﴿تَوْرِيْكٌ لَّتَنَلْنَهُنَّ أَمْجِيْنٌ﴾ ﴿٩٤﴾ إلى آخر الآية، ضمير عام، ووعيد محض يأخذ كل أحد منه بحسب جرمه وعصيانه، فالكافر يُسأل عن «لا إله إلا الله»، وعن الرسل، وعن كفره وقصده، والمؤمن العاصي يُسأل عن تضييعه، والإمام عن رعيته، وكلُّ مكلف عما كلف القيام به، وفي هذا أحاديث.

وقال أبو العالية في تفسير هذه الآية: يسأل العباد كلهم عن خَلْتين يوم القيامة: عما كانوا يعبدون، وبماذا أجابوا المرسلين. وقال في تفسيرها أَسُّ بن مالك، وابن عمر، ومجاهد: إن السؤال عن «لا إله إلا الله»، وذكره الزهراوي عن النبي ﷺ.

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿تَوْرِيْكٌ لَّتَنَلْنَهُنَّ أَمْجِيْنٌ﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾، قال: يقال لهم: لِمَ عملتم كذا وكذا؟ قال: وقوله تعالى: ﴿تَوْرِيْكٌ لَا يُشْكَلُ عَنْ ذُلِيْبِهِ لِأِنَّهُ وَلَا جَبَّارٌ﴾ ﴿٩٥﴾ معناه: لا يقال له: ما أذنبت؟ لأن الله تعالى أعلم بذنبه منه، ونفي السؤال هو نفي الاستفهام المحض، وإيجاب السؤال هو على جهة التقرير لهم والتوبيخ.

﴿٩٤﴾ - ﴿٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل: «أصْدع»: معناه: أنفذ وصرح بما بعثت به، والصدع: التفريق بين مُلْتَمَحٍ، كصدع الزجاج ونحوه، فكأن المصْرَحَ يقول يُرْجَعُ إليه يصدع به ما سواه مما يضادّه، والصدعُ: الصُّبْحُ، لأنه يصدع الليل. وقال

مجاهد: نزلت في أن يجهر بالقرآن في الصلاة.

وفي ﴿تَوْرَمٌ﴾ ضمير عائذ على [مَا]، تقديره: توْرَمُ به، أو توْرَمُه، وفي هذين تنازع. وقوله: ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْمُشْرِكِيْنَ﴾ من آيات المهادنات التي نسختها آية السيف، قاله ابن عباس، ثم أعلمه تعالى أنه كفاه المستهزئين به من كفار مكة ببوائق من الله أصابتهم، لم يسع بها محمد، ولا تكلف فيها مشقة.

وقال عروة بن الزبير، وسعيد بن جبيرة: المستهزئون خمسة نفر: الوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب أبو زمعة، والأسود بن عبد يغوث، ومن خزاعة الحارث بن الطلائطة، وهو ابن غيطة، وهو ابن قيس. قال أبو بكر الهذلي: قلت للزهري: إن ابن جبيرة، وعكرمة اختلفا في رجل من المستهزئين، فقال ابن جبيرة: هو الحارث بن غيطة، وقال عكرمة: هو الحارث بن قيس، فقال الزهري: صدقاً، أمه غيطة وأبوه قيس، وذكر الشَّعْبِيُّ في المستهزئين هَبَّارَ بن الأسود، وذلك وهم، لأن هَبَّارَ أسلم يوم الفتح ورحل إلى المدينة. وذكر الطبري عن ابن عباس أن المستهزئين كانوا ثمانية، كلهم مات قبل بسدر، وروي أن رسول الله ﷺ كان في المسجد، فأتاه جبريل، فجاز الوليد فأوماً جبريل بإصبعه إلى ساقه وقال: كُفَيْتَ، ثم جاء العاصي فأوماً إلى أخصيه وقال: كُفَيْتَ، ثم جاء أبو زمعة فأوماً إلى عينه، ثم مرَّ

قوله تعالى: ﴿وَأَسْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، وغير قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَئِيكَ لِدَلِيلِكَ هَاجِرُونَ﴾ الآية، وأما قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْ مَا ظَلَمُوا﴾ فمكي في شأن هجرة الحبشة.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن رسول الله ﷺ لما قال جبريل عليه السلام في سرد الوحي: ﴿أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ﴾ وثب رسول الله ﷺ قائماً، فلما قال: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ سكن.

وقوله: ﴿أَمَرَ اللَّهُ﴾ قال فيه جمهور المفسرين: إنه يريد القيامة، وفيه وعيد للكفار، وقيل: المراد نصر محمد ﷺ، وقيل: المراد تعذيب كفار مكة بقتل محمد عليه الصلاة والسلام لهم وظهوره عليهم، ذكر نحو هذا النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: المراد فرائض الله وأحكامه في عباده وشرعه لهم، هذا قول الضحاک، ويُعبده قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، لأننا لا نعرف استعجالاً إلا ثلاثة: اثنان منها للكفار في القيامة وفي العذاب، والثالث للمؤمنين في النصر وظهور الإسلام، وقوله: ﴿أَنَّ﴾ - على هذا القول - إخبار عن إتيان ما سيأتي، وصح ذلك على جهة التأكيد، وإذا كان الخبر حقاً يُؤكّد المستقبل بأن يخرج في صيغة الماضي، أي كأنه لوضوحه والثقة به قد وقع، ويحسن ذلك في خبر الله تبارك وتعالى لصدق وقوعه.

وقال قوم: ﴿أَنَّ﴾ بمعنى قُرْب، وهذا نحو ما قلت، وإنما يجوز

الصلاة حالة القرب من الله تعالى وهي السجود، وهي أكرم حالات الصلاة وأقمنها بنيل الرحمة، وفي الحديث: «كان رسول الله ﷺ إذا حَزَبَهُ أَمْرٌ فَرَفَعَ إِلَى الصَّلَاةِ»، فهذا منه عليه الصلاة والسلام أخذ بهذه الآية.

و ﴿الْيَقِينُ﴾: الموت، بذلك فسره هنا ابن عمر، ومجاهد، وقتادة، والحسن، وابن زيد، ومنه قول النبي ﷺ عند موت عثمان بن مظعون: «أما هو فقد رأى اليقين»، ويروى: «فقد جاءه اليقين»، وليست اليقين من أسماء الموت، وإنما العلم به يقين لا يمتري فيه عاقل، فسماه هنا يقيناً تجوّزاً، أي: يأتيك الأمر اليقين علمه ووقوعه، وهذه الغاية معناها: مُدَّة حياتك، ويحتمل أن يكون المعنى: حتى يأتيك اليقين في النصر الذي وَعَدْتَهُ.

نجز تفسير سورة الحجج، والله الحمد والمنة وصى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير

سورة النحل

هذه السورة كانت تُسمى سورة النعم بسبب ما عدّد الله فيها من نعمه على عباده، وهي مكية غير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَابِثَةَ لَمَأْجُورًا يَمِينًا مَا عَوَّبَتْهُ بَيْتُ﴾ الآية، نزلت بالمدينة في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه وقتلى أحد، وغير

الأسود بن عبد يغوث فأوماً إلى رأسه وقال: كفيت، ثم مرّ الحارث فأوماً إلى بطنه وقال: كفيت، وكان الوليد قد مرّ بقين في خزاعة فتعلق سهم من نبله بإزاره فجرح ساقه، ثم برى، فانقض به ذلك الخدش بعد إشارة جبريل عليه السلام فقتله، وقيل: إن السهم قطع أكله، قاله قتادة: ومقسم. وركب العاصي بغلة في حاجة، فلما جاء ينزل وضع أخمصه على شبرقة، فورمت قدمه فمات، وعمي أبو زمعة، وكان يقول: دعا عليّ محمد بالعمى فاستجيب له، ودعوت عليه بأن يكون طريداً شريداً فاستجيب لي، وتمخض رأس الأسود بن عبد يغوث قبحاً فمات، وامتلأ بطن الحارث ماء فمات حيناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي ذكر هؤلاء وكفايتهم اختلاف بين الرواة، وفي صفة أحوالهم وما جرى لهم جلبت أصحّه مختصراً طلباً للإيجاز.

ثم قرر الله تبارك وتعالى ذنبهم في الكفر، واتخاذ الأصنام آلهة مع الله، ثم توعدّهم بعذاب الآخرة الذي هو أشق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَزَّلْنَاكَ بِبَيِّنٍ مَدْرَكٍ يَا بَقُولُونَ﴾ آية تأنيس للنبي ﷺ وتسلية عن أقوال المشركين وإن كانت مما يقلق، وضيق الصدر يكون من امتلأه غيظاً بما يكره الإنسان، ثم أمر تعالى بملازمة الطاعة، وأن تكون مثلاته عند الهموم. وقوله: ﴿يَوْمَ السَّجِدِينَ﴾ يريد: من المصلين، فذكر من

الكلام بهذا عندي لمن يعلم قرينة التأكيد ويفهم المجاز، وأما إن كان المخاطب لا يفهم القرينة فلا يجوز وضع الماضي موضع المستقبل، لأن ذلك يفسد الخبر ويوجب الكذب، وإنما جاز في الشرط لوضوح القرينة بـ (إن)، ومن قال: «إن الأمر القيامة» قال: إن قوله: «فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» ردُّ على القائلين: «عَجَلْنَا وَقَلْنَا» ونحوه من العذاب، أو على مستبطني النصر من المؤمنين في قراءة من قرأ بالتاء - وهي قراءة الجمهور - على مخاطبة المؤمنين، أو على مخاطبة الكافرين، بمعنى: قُلْ لهم: فلا تستعجلوه.

وقرأ سعيد بن جبير بالياء على غيبة المشركين، وقرأ حمزة، والكسائي: «تَشْرِكُونَ» بالتاء من فوق، وجميع الباقيين قرءوا بالياء، ورجح الطبري القراءة بالتاء من فوق في الحرفين، قال أبو حاتم: قرأ «تَشْرِكُونَ» بالياء من تحت في هذه والتي بعدها الأعرج، وأبو جعفر، ونافع، وأبو عمرو، وابن نضاح، والحسن، وأبو رجاء، وقرأ عيسى الأولى بالتاء من فوق، والثانية بالياء من أسفل، وقرأهما جميعاً بالتاء من فوق أبو العالية، وطلحة، والأعمش، وأبو عبد الرحمن، ويحيى بن وثاب، والجحدري، وقد روي الأصمعي عن نافع التاء في الأولى.

وقوله: «سُبْحٰنَكَ وَبِحَمْدِكَ» معناه: تنزيهاً له، وحكى الطبري عن ابن جريج قال: لما نزلت «أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ» قال رجال من الكفار: إن هذا يزعم أن أمر الله قد أتى، فأمسكوا عما أنتم بسبيله حتى ننظر،

فلما لم يروا شيئاً عادوا، فنزلت «أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ» فقالوا مثل ذلك، ثم عادوا فنزلت «وَلَيْنَ آخِرُنَا عَنْهُمْ الْمَذَابَ إِلَّا أَمْرٌ مَّعْدُودٌ لِّقَوْلِكَ مَا يَحْسِبُهُ» الآية. وقال أبو بكر بن حفص: لما نزلت «أَنَّ أَمْرَ اللَّهِ» رفعوا رؤوسهم فنزلت «فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ»، وحكى الطبري عن أبي صادق أنه قرأ: «يا عبادي أتى أمر الله فلا تستعجلوه»، و«سُبْحٰنَكَ» نصب على المصدر، أي: تنزيهاً له.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «بِزَلِّ الْمَلَائِكَةِ» بالياء وشد الزاي، ورجحها الطبري لما فيها من التكثر، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بتخفيف الزاي مكسورة وسكون النون، وقرأ ابن أبي عبلة بالنون للعظمة وشد الزاي، وقرأ قتادة بالنون وتخفيف الزاي وسكون النون، وفي هذه والتي قبلها شذوذ كثير، وقرأ أبو بكر عن عاصم: «تُنزَّلُ» بضم التاء وفتح النون والزاي وشدها ورفع «الْمَلَائِكَةَ» على ما لم يسم فاعله، وهي قراءة الأعمش، وقرأ الجحدري بالياء مضمومة وسكون النون وفتح الزاي، وقرأ الحسن، وأبو العالية، وعاصم، والجحدري، والأعرج بفتح التاء ورفع «الْمَلَائِكَةَ» على أنها فاعلة، ورواها المفضل عن عاصم، و«الْمَلَائِكَةَ» ها هنا جبريل عليه السلام.

واختلف المتأولون في «الزُّوجِ» -

فقال مجاهد: الروح: النبوة، وقال ابن عباس: الوحي، وقال قتادة: بالرحمة والوحي، وقال الربيع بن أنس: كل كلام الله روح، ومنه قوله تعالى: «أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا»، وقال ابن جريج: الروح: شخص له صورة كصورة بني آدم، ما نزل جبريل قط إلا وهو معه، وهم كثير، وهم ملائكة. وهذا قول ضعيف لم يأت به سند، وقال الزجاج: الروح: ما تحيا به القلوب من هداية الله تعالى لها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن، وكأن اللفظة على جهة التشبيه بالمقايسة، أي: إن هذا الذي أمر الأنبياء أن يندروا به الناس من الدعاء إلى التوحيد هو بالمقايسة إلى الأوامر التي هي في الأفعال والعبادات كالروح للجسد، ألا ترى قوله تعالى: «أَوْ مِّنْ كَانَ مِثْلًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا»، و«مِّنْ» في هذه الآية - على هذا التأويل الذي قدرناه - للتبعيض، وعلى سائر الأقوال لبيان الجنس. و«مِّنْ» في قوله: «عَلَىٰ مَن يَشَاءُ» هي للأنبياء، و«أَنَّ» في موضع خفض بدل من [الرُّوحِ]، ويصح أن تكون في موضع نصب بإسقاط الخافض، على تقدير: بأن أنذروا، ويحتمل أن تكون مفسرة بمعنى «أي». وقرأ الأعمش: «لِيُنذِرُوا»، وحسنت النذارة هنا وإن لم يكن في اللفظ ما فيه خوف من حيث كان المُنذَرُونَ كافرين بالألوهية، ففي ضمن أمرهم مكان خوف، وفي ضمن الإخبار بالوحدانية نهي عمّا كانوا عليه ووعيد.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ﴾ و «الْمَنَافِع»: ألبائها وما تصرف منها، ودهونها وحرثها والنضج عليها، وغير ذلك، ثم ذكر «الأكل» الذي هو من جميعها.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾ أي: في النظر، ﴿حِينَ تَرِيحُونَ﴾ معناه: حين تردونها وقت الرواح إلى المنازل فتأتي بطاء متلثة الضروع، و «تَرِيحُونَ» معناه: تخرجونها غدوة إلى السرح، تقول: «سَرَحْتُ السائمة» إذا أرسلتها تسرح، فسرحت هي، كَرَجَع وَرَجَعْتُهُ، وهذا الجمال لمالكها ولْمُجَبِّيه وعلى حسدته، وهذا في المعنى كقوله تعالى: ﴿أَنَالَ وَالْيَتُونَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقرأ عكرمة، والضحاك: ﴿حِينًا تَرِيحُونَ وَحِينًا تَسْرَحُونَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿حِينًا تَرِيحُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي ضعيفة، وأظنها تصحيفاً.

و «الْأَنْفَالُ»: الأمتعة، وقيل: المراد هنا الأجسام، كقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، أي بني آدم، واللفظ يحتمل المعنيين، قال النقاش: ومنه سمي الإنس والجن الثقلان. وقوله: ﴿إِلَّا بَلَدًا﴾ أي: إلى أي بلد توجهتم بحسب اختلاف أعراض الناس، وقال عكرمة، وابن عباس، والربيع بن أنس: المراد مكة، وفي الآية - على هذا - حض ما على الحج. و «السُّقْنُ»: المشقة، ومنه قول الشاعر:

وذي إبل ينسني ويخسبها له
أخي نَصَبٍ من شِقِّهَا ودُوبٍ

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ﴾ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ ﴿ يراد بالإنسان الجنس، وأخذ له الغائتين ليظهر البعد بينهما بقدرة الله، ورُوي أن الآية نزلت لقول أبي بن خلف: «مَنْ يُخَيِّبُ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ» وقوله: ﴿حَصِيرٌ﴾ يحتمل أن يريد به الكفرة الذين يختصمون في الله، ويجادلون في توحيدهِ وشرعه، ذكره ابن سلام عن الحسن البصري، ويحتمل أن يريد أعم من هذا، على أن الآية تعديد نعمة الذهن والبيان

على البشر، ويظهر أنها إذ تقرر في خصام الكافرين بنضاف إلى العبرة وعيد ما.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الْأَنْفَالُ﴾: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقال: نَعَم وَأَنْعَامٌ لِلإِبِلِ، ويقال للجموع، ولا يقال للغنم مفردة، ونصبها إما عطفاً على ﴿الْإِنْسَانَ﴾، وإما بفعل مقدر، وهو أوجه.

و «الدَّفءُ»: السخانة وذهاب البرد بالأكسية، وذكر النحاس عن الأموي قال: الدفء في لغة بعضهم: تناسل الإبل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نسل كل شيء، والمعنى الأول هو الصحيح. وقرأ الزهري، وأبو جعفر: «دِف» بضم الفاء وشدها وتوניהا.

وَيَخْلُقُ أَنْفَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّيْسَ تَكُونُونَ فِيهِ إِلَّا يَسِقُ الْإِنْفُسَ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾ وَالْجِبِلَّ وَالْعَالِ وَالْحَمِيرَ لِرَكْبِهِمْ وَهِيَ زِينَةٌ وَتَخْلُقُ مَا لَا تَقْلَمُونَ ﴿٢﴾ وَعَلَىٰ اللَّهِ قَسْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَيْكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٤﴾ يُبْدِي لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الشَّجَرِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٥﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِ رَبِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦﴾ وَمَا ذَرَأْتُمْ فِي الْأَرْضِ حَبْلًا لَّو تَعَارَفْتُمْ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿٧﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْيَمِينَ لَكُمْ لَأَمْنًا لِّحِمَاطِ رِيَاءٍ وَتَسْخَرُونَ مِنْهُ حَلِيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَركَ الْفَلَاحَ مَا خَرَفِيهِ وَلَسْتُمْ لَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاَعْلَمُكُمْ شُكْرُونَ ﴿٨﴾

٢٦٨

ثم ذكر تعالى ما يقال للأنبياء بالروحي على المعنى، ولم يذكره على لفظه، لأنه لو ذكره على اللفظ لقال: أن أنذروا أنه لا إله إلا الله، ولكنه إنما ذكر ذلك على معناه، وهذا شائع في كل الأقوال إذا حكيت أن تحكى على لفظها، أو تحكى بالمعنى فقط.

وقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ آية تنبيه على قدرة الله تعالى، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي بالواجب اللائق، وذلك أنها تدل على صفات يحق لمن كانت له أن يخلق ويخترع ويعيد، وهي الحياة والعلم والقدرة والإرادة النافذة، بخلاف شركائهم الذين لا يحق لهم شيء من صفات الربوبية. وقرأ الأعمش بزيادة فاء: ﴿فَتَعَالَى﴾.

أي: من مشقتها. ويقال فيها: **يَشُقُّ** وشُقُّ، أي: **مَشَّقَةٌ**، وقرأ أبو جعفر القاري، وعمرو بن ميمون، وابن أرقم، ومجاهد، والأعرج: **«يَشُقُّ»** بفتح الشين، ورويت عن نافع، وأبي عمرو، وذهب الفراء إلى أن معنى **«يَشُقُّ الْآتُسِينَ»** أي: بذهاب نصفها، كأنها قد ذابت تبعاً ونصباً، كما تقول لرجل: لا **تَقْدُرْ** على كذا إلا **بذهاب جُلِّ** نفسك، ويقطعة من كِبِدٍ لك، ونحو هذا من المجاز، وذهبوا في فتح الشين إلى أنه مصدر: **شُقُّ يَشُقُّ**. ثم أوجب الله رأفته ورحمته في هذه النعم التي أذهبت المشقات ورفعت الكلف.

وقوله تعالى: **«وَاللَّيْلِ وَالنَّجْمِ وَالْخَيْلِ وَالْحَيْرِ عَطْفٌ، أَي: وَخَلَقَ الخَيْلَ، وقرأ ابن أبي عبلة: «وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ»** بالرفع في كلها، وسميت الخيل خيلاً لاختيالها في المشية، أفهمه أعرابي لأبي عمرو بن العلاء. وقوله: **«وَزَيْتَةً»** نصبت بإضمار فعل تقديره: **«وجعلناها زيتة»**، وقرأ أبو عياض: **«لَتَرْكَبُوهَا زَيْتَةً»** دون واو، والنصب حينئذ على الحال من الهاء في **«لَتَرْكَبُوهَا»**. وقوله: **«وَيَخْلُقُ مَا لَا تَحْسَبُونَ»** عبرة منصوبة على العموم، أي أن مخلوقات الله تعالى من الحيوان وغيره لا يحيط بعلمها بشر، بل ما يخفى عنه أكثر مما يعلم وقد روي أن الله تعالى خلق ألف نوع من الحيوان، منها في البر أربعمائة، وبشها بأعيانها في البحر، وزاد فيه مائتين ليستا في البر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل من خصص في هذه الآية شيئاً - كقول من قال: **سُوس الثياب** وغير ذلك - فإنما هو على جهة المثال، لا أن ما ذكره هو المقصود في نفسه، وقال الطبري: **«مَا لَا تَحْسَبُونَ»** هو ما أعد في الجنة لأهلها، وفي النار لأهلها، مما لم تره عين، ولا سمعته أذن، ولا خطر على قلب بشر. واحتج بهذه الآية مالك ومن ذهب مذهبه في كراهية لحوم الخيل والبيغال والحمير وتحريمها بحسب الاختلاف في ذلك، وذكره الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال ابن جبير: **سُئِلَ** ابن عباس عن لحوم الخيل والبيغال والحمير فكرهها واحتج بهذه الآية، وقال: جعل الله الأنعام للأكل وهذه للركوب، وكان الحكم بن عيينة يقول: الخيل والبيغال والحمير حرام في كتاب الله تعالى، ويحتج بهذه الآية، وهذه الحجة غير لازمة عند جماعة من العلماء، قالوا: إنما ذكر الله تعالى عظم منافع الأنعام، وذكر عظم منافع هذه وأهم ما فيها، وليس يقضي ذلك بأن ما ذكره لهذه لا تدخل هذه فيه، قال الطبري: وفي إجماعهم على جواز ركوب ما ذكر للأكل دليل على جواز أكل ما ذكر للركوب.

وقوله تعالى: **«وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ»** الآية. هذه أيضاً من أجل نعم الله تبارك وتعالى، أي: على الله تقويم طريق الهدى وتبيينه، وذلك بتوضيح الأدلة وبعث الرسل، وإلى هذا ذهب المتأولون، ويحتمل أن يكون المعنى: إن من سلك السبيل القاصد فعلى الله رحمته ونعيمة وطريقه، وإلى ذلك مصيره، فيكون هذا مثل قوله تعالى: **«هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ»** وقول النبي ﷺ: **«وَالشُّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»**، أي: لا يُفْضَى إلى رحمتك، و**«طَرِيقٌ قَاصِدٌ»** معناه: **بَيِّنٌ** مستقيم قريب، ومنه قول الراجز:

فَصَدَّ عَنْ نَهْجِ الطَّرِيقِ الْقَاصِدِ
وَالْأَلْفِ وَالسَّلَامِ فِي **«السَّبِيلِ»**
للعهد، وهي سبيل الشرع، وليست للجنس، ولو كانت للجنس لم يكن فيها جائز.
قوله: **«وَمِنْهَا جَائِرٌ»** يريد طريق اليهود والنصارى وغيرهم كعباد الأصنام، والضمير في **«مِنْهَا»** يعود على **«السَّبِيلِ»** التي يتضمنها معنى

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، ولحوم الخيل عند كثير من العلماء حلال، وفي جواز أكلها حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما، وحديث جابر بن عبد الله: **«كنا نأكل الخيل في عهد النبي عليه الصلاة والسلام»** والبيغال

الآية، كأنه قال: «ومن السُّبُل جائر»، فأعاد عليها وإن كان لم يجز لها ذكر لتَضْمُن لفظة [السُّبُل] بالمعنى لها، ويحتمل أن يعود الضمير في «يُنْبِتُ» على سبيل الشرع المذكورة، وتكون [من] للتبعض، ويكون المراد فِرْق الضلالة من أمة محمد ﷺ، كأنه قال: «ومن بُنِيَات الطريق في هذه السبيل ومن شَعَبها جابر».

وقوله: «وَلَوْ سَاءَ لَدُنَّكُمْ أَجْمِيكُ» معناه: لَخَلَق الهداية في قلوب جميعكم ولم يضل أحد، وقال الزجاج: معناه: لو شاء لعرض عليكم آية تضطركم إلى الإيمان والاهتداء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول سوء لأهل البدع الذين يرون الله لا يخلق أفعال العباد لم يُحصَله الزجاج، ووقع فيه رحمة الله عليه من غير قصد، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: «ومنكم جائر»، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «فمنكم جائر»، والسبيل تُذَكَّر وتؤنث.

(١٧) - (١٦) تفسير قوله عز وجل:

هذا تعديد نعمة الله في المطر، وقوله: «وَمِنْهُ شَجَرٌ» أي: يكون منه بالتدرج، إذ يسقي الأرض فينبت عن هذا السقي الشجر، وهذا من التَّجَوُّز، كما قال الشاعر:

أَسْنِمَةُ الْأَبَالِ فِي رَبَابَةٍ
وكما سُمِّيَ الْآخِرُ الْغَيْثُ سَمَاءً فِي
قوله:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ
رَعِيْنَاءُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابِيَا

قال أبو إسحق: يقال لكل ما ينبت على الأرض: شَجَرٌ، وقال عكرمة: لا تأكلوا ثمر الشجر فإنه مسحت، يعني الكلاً.

و «شَيْمُونُ» معناه: ترعون أنعامكم، وسؤمها من الرعي، وتسرحونها، ويقال للأنعام: السائمة، قال رسول الله ﷺ: «في سائمة الغنم الزكاة»، يقال: أسام الرجل ماشيته إسامة إذا أرسلها ترعى، وسؤمها أيضاً فسامت هي، ومن ذلك قول الأعشى:

وَمَشَى الْقَوْمُ بِالْعِمَادِ إِلَى الرَّزْزِ
حَى، وَأَعْيَا الْمُسِيمُ أَيْنَ الْمَسَاقُ
ومنه قول الآخر:

مِثْلُ ابْنِ بَزْعَةَ أَوْ كَاخَرَ مِثْلِهِ
أَوْلَى لَكَ ابْنُ مُسِيمَةَ الْأَجْمَالِ
أي: راعية الأجمال. وفسر المتأولون «شَيْمُونُ» بـ «تَرْعُونَ».

وقرأ الجمهور: «يُنْبِتُ» بالياء، على معنى: يُنْبِتُ الله، يقال: نبت الشجر وأنبتته الله، ويقال: أنبت الشجر بمعنى نبت، وكان الأصمعي يأبى ذلك ويتهم قصيدة زهير التي فيها:

.....

... حَتَّى إِذَا أَنْبَتَ الْبَقْلُ
وقرأ أبو بكر عن عاصم: «نُنْبِتُ» بنون العظمة، وخصَّ عزَّ وجلَّ ذكر هذه الأربعة لأنها أشرف ما يُنْبِتُ وأجمعها للمنافع، ثم عمَّ بقوله: «وَمِنْ كُلِّ الْكَلْبَرِيَّةِ»، ثم أحال القول على الفكرة في تصاريف النبات والأشجار، وهي موضع عبرة في ألوانها واطرد خلقها وتناسب أظفارها فسيحان الخلاق العظيم.

وقوله تعالى: «وَسَخَّرَ لَكُمْ أَنْبِلٌ وَالْقَهَّارُ» الآية. قرأ الجمهور بإعمال «وَسَخَّرَ» في جميع ما ذكر، ونصب «مُسَخَّرَاتٍ» على الحال المؤكدة، كما قال تعالى: «وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا»، وكما قال الشاعر:

أَنَا أَبِينُ دَارَةٍ مَعْرُوفًا بِهَا نَسَبِي
.....

ونحو هذا، وقرأ ابن عامر: «وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ» برفع هذا كله، وقرأ حفص عن عاصم: «وَالنَّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ» بالرفع، ونصب ما قبل ذلك، والمعنى في هذه الآية أن هذه المخلوقات مُسَخَّرَاتٌ على رتبة قد استمر بها انتفاع البشر من السكون بالليل والمعاش وغير ذلك بالنهار، وأما منافع الشمس والقمر فأكثر من أن تُحصى، وأما النجوم فهدايات، ولهذا الوجه اعتدت في جملة النعم على بني آدم، ومن النعمة بها ضيائها أحياناً، قال الزجاج: وعلم عدد السنين والحساب بها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر.

وقرأ ابن مسعود، والأعمش، وطلحة بن مصرف: «وَالرِّيَّاحُ مُسَخَّرَاتٌ» في موضع «والنجوم». ثم قال: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ» لعظم الأمر، لأن كل واحد مما ذكر آية في نفسه لا يشترك مع الآخر، وقال في الآية قَبْلُ: [لآيَةً] لأن شيئاً واحداً يعم تلك الأربعة وهو النبات، وكذلك في ذكر ما ذُكِرَ لِإِسْمَارَتِهِ بالإضافة، وأيضاً فإنه بمعنى «آيات»، واحد يراد به الجمع.

وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوِيًا أَنْ يَنْبِذَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا
لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٣﴾ وَعَلَّمَتِ الْبُحْرَانُ أَنْ تَحْمِلَ حِمْلَهُنَّ
وَأَنَّ يَخْلُقَنَّ كَمَا لَا يَخْلُقُ أَفْئِدَةً تَكَوِّرُونَ ﴿١٤﴾ وَإِنْ
تَعَدَّوْا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تَحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَعَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٥﴾
وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٦﴾ وَالذِّبْنَ يَدْعُونَ
مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٧﴾ أَمْزَتْ غَيْرَ
أَنْحَاءٍ وَمَا يُشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهَا لَكُلِّ لَهِيبَةٍ
فَالذِّبْنَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿١٩﴾
لَا حَرَمَ أَنْتَ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ إِنَّهُ
لَاحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ رَبُّكُمْ
قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً
يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الذِّبْنَ يُضَلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلَّا
سَاءَ مَا يَزِيدُونَ ﴿٢٢﴾ قَدْ مَكَرَ الذِّبْنَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَأَفَى اللَّهُ بَنِيَّانَهُمْ مِنَ الْفَوَاحِشِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ
مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَتْهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٣﴾

٢٦٦

وصف بريقها ومائيتها
فشيبه بماء الفرات، ولم
يذهب إلى الغرض الذي
خطف فيه. واللحم
الطري: السمك،
والحلية: ما تقدم،
والموخر: هنا جمع،
ماخرة، والمخر: في
اللغة الصوت الذي يكون
من هبوب الريح على
شيء يشق، أو يصحب
في الجملة الماء، فيترتب
منه أن يكون المخر من
الريح، وأن يكون من
السفينة ونحوها، وهو في
هذه الآية من السفن،

﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿وَمَا ذَرَأَا لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾
معناه: بث ونشر، والذرية: من هذا
أحد الأقوال في اشتقاقها، وقوله:
﴿الذرة﴾ معناه: أصنافه، كما تقول:
هذه ألوان من الثمر ومن الطعام،
ومن حيث كانت هذه المبتوات في
الأرض أصنافاً عذت في النعمة،
وظهر الانتفاع بها أنه على وجوه،
ولا يظهر ذلك من حيث هي متلونة
حمرة وصفرة وغير ذلك، ويحتمل
أن يكون التبييه على اختلاف الألوان
حمره وصفرة، والأول أئين.
وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي سَخَّرَ
الْبَحْرَ﴾ الآية، تعديد نعم الله،
وتسخير البحر هو تمكين البشر من
التصرف فيه، وتذليله للركوب
والأرفاد وغيره.

والبحر: الماء الكثير ملحاً كان أو
عذباً، كله يسمى بحراً، والبحر هنا
اسم جنس، وإذا كان كذلك فمنه
أكل اللحم الطري، ومنه استخراج
الحلية، وأكل اللحم يكون من ملحه
وعذبه، وإخراج الحلية إنما هو -
فيما عرف - من الملح فقط، ومما
عرف من ذلك اللؤلؤ والمرجان
والصدف البحري، وقد يوجد في
العذب لؤلؤ لا يلبس إلا قليلاً، وإنما
يتداوى به، ويقال: إن في الزمرد
بحرياً، وقد خطف الهذلي في قوله
في وصف الذرة:

فجاء بها من ذرة لطمية
على وجهها ماء الفرات يموج
فجعلها من الماء الحلو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتأمل قوله: «يموج» على أنه أراد

الأرياح والجنن، وقال الطبري:
«المخر» في اللغة: صوت هبوب
الريح، ولم يقيد ذلك بكونه في ماء،
وقال: إن من ذلك قول واصل مولى
أبي عبيدة، إذا أراد أحدكم البول
فليتمخر الريح، أي: لينظر في
صوتها في الأجسام من أين تهب
فيتجنب استقبالها لئلا ترد عليه بوله.

وقوله: ﴿وَلَسْتَنُزُّوا﴾ عطف على
قوله: ﴿تَأْكُلُوا﴾، وهذا ذكر نعمة لها
تفاصيل لا تخصي، وفيه ركوب
البحر للتجارة وطلب الأرياح، فهذه
ثلاثة أسباب في تسخير البحر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ﴾
الآية. قال المتأولون: ﴿اللقى﴾
بمعنى خلق وجعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهي عندي أخص من خلق وجعل،
وذلك أن ألقى تقتضي أن الله أحدث

ويقال للسحاب: «بنات مخر»
تشبيهاً، إذ في جريها ذلك الصوت
الذي هو عن الريح، والماء الذي في
السحاب وأمرها يشبه أمر البحر،
على أن الزجاج قد قال: «بنات
البحر»: سحاب بيض لا ماء فيها،
وقال بعض اللغويين: المخر في
كلام العرب: الشق، يقال: مخر
الماء في الأرض، فهذا بين أن يقال
فيه للفتك: مواخر، وقال قوم:
«مواخر» معناه: تجيء وتذهب
بريح واحدة، وهذه الأقوال ليست
تفسيراً للفظ، وإنما أرادوا بها أنها
مواخر لهذه الأحوال، فنصروا على
هذه الأحوال؛ إذ هي موضع النعم
المعدودة؛ إذ نفس كون الفتك
ماخرة لا نعمة فيه، وإنما النعمة في
مخرها بهذه الأحوال في التجارات،
والسفر فيها، وما يمنح الله فيها من

الجبال ليس من الأرض، لكن من قدرته واختراعه، ويؤيد هذا النظر ما رُوي في القصص عن الحسن عن قيس بن عباد أن الله تعالى لما خلق الأرض جعلت تمور، فقالت الملائكة: ما هذه بمقرّة على ظهرها أحداً، فأصبحت ضحى وفيها رواسيها، «والرّواسي»: الثوابت، رسّاً الشيء يرسو إذا ثبت، ومنه قول الشاعر في وصف الوتد:

.....
وَأَشَعَتْ تُرْسِيهِ الْوَلِيدَةُ بِالْفَيْهْرِ
و [أَنَّ] مَفْعُولٌ مِنْ أَجْلِهِ،
و«الْمَيْدُ»: الاضطراب، وقوله:
«أَنْهَرَكَ» منصوب بفعل مضمر،
تقديره: وَجَعَلَ أَوْ خَلَقَ أَنهَاراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإجماعهم على إضمار هذا الفعل دليل على خصوص «الْفَيْهْرِ»، ولو كان «الْفَيْهْرِ» بمعنى «خَلَقَ» لم يحتاج إلى الإضمار. و«السُّبُلُ»: الطرق، وقوله: «لَمَلَكْتُمْ تَهْتَدُونَ» يحتمل أن يكون: لعلكم تهتدون في مشيكم وتصرفكم في السُّبُلِ، ويحتمل لعلكم تهتدون بالنظر في دلالة هذه المصنوعات على صانعها، وهذا التأويل هو البارح، أي: سَخَّرَ وألقى وجعل أنهاراً وسُبُلًا لعلَّ البشر يعتبرون ويرشدون، ولتكون علامات.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَعَلَّمَكُم مَّا كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ نصب على المصدر، أي: فعل هذه الأشياء لعلكم تعتبرون بها، وعلامات، أي عبرة وإعلاماً في كل سلوك، فقد يُهتدى بالجبال والأنهار والسُّبُلِ، واختلف

الناس في معنى قوله: ﴿وَعَلَّمَكُم﴾ على أن الأظهر عندي ما ذكرته - فقال ابن الكلبي: العلامات: الجبال، وقال إبراهيم السُّخَّعي ومجاهد: العلامات: النجوم، منها ما سُمِّيَ علامات، ومنها ما يهتدى بها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العلامات: معالم الطرق بالنهار، والنجوم هداية بالليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الصواب - إذا قدرنا الكلام غير معلق بما قبله - أن اللفظة تعم هذا وغيره، وذلك أن كل ما دلَّ على شيءٍ أو علم به فهو علامة، وأحسن الأقوال المذكورة قول ابن عباس رضي الله عنهما لأنه عموم بالمعنى فتأمله، وحدثني أبي رحمه الله أنه سمع بعض أهل العلم بالمشرق يقول: إن في بحر الهند الذي يجري فيه من اليمن إلى الهند حيتاناً طويلاً رفاقاً كالحيات في ألوانها وحركتها والتواتها، وأنها تُسَمَّى العلامات، وذلك أنها علامة الوصول إلى بلاد الهند، وأمانة النجاة والانتهاية إلى الهند لطول ذلك البحر وصعوبته، وأن بعض الناس قال: إنها التي أراد الله تعالى في هذه الآية، قال أبي رضي الله عنه: وأنا ممن شاهد تلك العلامات في البحر المذكور وعابنها، فحدثني منهم عدد كثير.

وقرأ الجمهور: ﴿وَيَا لَيْلَجُ﴾ على أنه اسم الجنس، وقرأ يحيى ابن وثاب: ﴿وَيَا لَيْلَجُ﴾ بضم اللين وإسكان الجيم على التخفيف من ضمها، وقرأ الحسن بضمها،

وذلك جمع، كسَقَفَ وسُقِفَ، ورَمَنَ ورُمُنَ، ويحتمل أن يراد به النجوم، فحذف الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي توجيه ضعيف.

وقال الفراء: المرادُ الجذني والفرقدان، وقال غيره: المراد القطب الذي لا يجري، وقال قوم غير هذا، وقال قوم: هو اسم الجنس، وهذا هو الصواب.

ثم قرره تعالى على التفرقة بين ما يخلق الأسماء ويخترعها وبين من لا يقدر على شيءٍ من ذلك، وعبر عن الأضنام بـ [مَنْ] لوجهين: أحدهما أن الآية تضمنت الرُّدَّ على جميع من عبد غير الله، وقد عبدت طوائف ممن تقع عليه العبارة بـ «من»، والآخر أن العبارة جرت في الأضنام بحسب اعتقاد الكفرة فيها من أن لها تأثيراً وأفعالاً، ثم ويخهم بقوله: ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَدُّوا يَمَنَّتْ إِلَهُ لَّا تَحْصُواهَا﴾، أي: إن حاولتم إحصاءها عدداً حتى لا يشدَّ منها شيءٌ لم تقدرُوا على ذلك، ولا أتفق لكم إحصاؤها؛ إذ هي في كل دقيقة من أحوالكم، و«الْتَفُّمَةُ» هنا مفردة يراد بها الجمع، وبحسب المعجز عن عدد نعم الله تبارك وتعالى يلزم أن يكون الشكر لها مقصراً عن بعضها، فلذلك قال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَمَفْعُودٌ بِشُكْرِكُمْ﴾ أي تقصيركم في الشكر عن جميعها، نحا هذا المنحى الطبري، ويرد عليه أن نعمة الله في قول العبد: «الحمد لله ربِّ الْعَالَمِينَ» مع شرطها من النيَّة

والطاعة يوازي جميع النعم، ولكن أين قولها بشروطها؟ والمخاطبة: ﴿إِنَّ تَعْدُوا يَمَنَّا اللَّهُ لَا تَحْضَرُونَ﴾ عامة لجميع الناس.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُوتُ وَمَا تُنْفِثُونَ﴾ الآية متصل بما قبله، أي: إن الله الغفور الرحيم في تقصيركم عن شكر ما لا تحصونه من نعم الله، وإن الله تعالى يعلم سرركم وغلنكم، فيغني ذلك عن التزامكم بشكر كل نعمة، هذا على قراءة من قرأ: ﴿تُسْرُونَ﴾ بالثاء مخاطبة للمؤمنين، فإن جمهور القراء قرأ: ﴿تُسْرُونَ﴾ بالثاء من فوق، و﴿تُنْفِثُونَ﴾ و﴿تَذْهَبُونَ﴾ كذلك، وهي قراءة الأعرج، وشيبة، وأبو جعفر، ومجاهد، على معنى: قل يا محمد للكفار. وقرأ عاصم: ﴿تُسْرُونَ﴾ و﴿تُنْفِثُونَ﴾ بالثاء من فوق، و﴿يَذْعُونَ﴾ بالياء من تحت على غيبة الكفار، وهي قراءة الحسن بن أبي الحسن، وروى هيرة عن حفص عن عاصم كل ذلك بالياء على غيبة الكفار، وروى عن الكسائي، وأبي بكر عن عاصم كل ذلك بالثاء من فوق، وقرأ الأعمش وأصحاب عبدالله: ﴿يَعْلَمُ الَّذِي تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ﴾ و﴿تَذْهَبُونَ﴾ بالثاء من فوق في الثلاثة، وقرأ طلحة: ﴿مَا تُخْفُونَ وَمَا تُنْفِثُونَ﴾ و﴿تَذْهَبُونَ﴾ بالثاء من فوق في الثلاثة. و﴿يَذْعُونَ﴾ معناه: يدعوهم إليها، وعبر عن الأصنام بـ ﴿الَّذِينَ﴾ على ما قدمناه من أن ذلك يعم الأصنام ومن عبد من دون الله من غيرها.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ

يَخْلُقُونَ﴾ أجمع عبارة في أحوال الربوبية عنهم، وقرأ محمد اليماني: ﴿وَالَّذِينَ يُذْعُونَ﴾ بضم الياء وفتح العين على ما لم يسم فاعله.

و﴿أَمْوَاتٌ﴾ يراد به الذين يدعون من دون الله، ورفع على ابتداء خبر مضمّر تقديره: هم أموات، ويجوز أن يكون خيراً لقوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ بعد الخبر في قوله: ﴿لَا يَخْلُقُونَ﴾، ووصفهم بالموت مجازاً، وإنما المراد أنهم لم يقبلوا حياة قط ولا اتصفوا بها، وعلى قراءة من قرأ: ﴿وَالَّذِينَ يَذْعُونَ﴾ بالياء على غيبة الكفار يجوز أن يراد بالأموات الكفار الذين ضميرهم في ﴿يَذْعُونَ﴾، شبههم بالأموات غير الأحياء من حيث هم ضلال غير مهتدين، ويستقيم - على هذا - فيهم قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ والبعث هنا هو الحشر من القبور. و﴿أَيَّانَ﴾ ظرف زمان مبني، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي: ﴿إِيَّانَ﴾ بكسر الهمزة، والفتح فيها والكسر لغتان، وقالت فرقة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي الكفار ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ الضميران لهم، وقالت فرقة: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ أي الأصنام أيان يبعث الكفار، ويحتمل أن يكون الضميران للأصنام الأمانة، كما تقول: «بعث النائم من نومه» إذا نبهته، وكما تقول: «بعث الراعي سهمه»، فكأنه وصفهم بغاية الجمود، أي: وإن طلبت حركاتهم بالتحريك لم يشعروا بذلك، وعلى تأويل من يرى الضميرين للكفار ينبغي أن يعتقد في الكلام الوعيد، أي: وما يشعر الكفار متى يُبعثون

إلى التعذيب، ولو اختصر هذا المعنى لم يكن في وصفهم بأنهم لا يشعرون أيان يُبعثون طائل؛ لأن الملائكة والأنبياء والصالحين كذلك هم في الجهل بوقت البعث. وذكر بعض المفسرين أن قوله: ﴿أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ ظرف لقوله: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، وأن الكلام تم في قوله: ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، ثم أخبر عن يوم القيامة أن الإله فيه واحد، وفي هذا توعد.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما تقدم وصف الأصنام جاء الخبر الحق بالوحدانية، وهذه مخاطبة لجميع الناس معلمة بأن الله تعالى متحد وحدانية تامة، لا يحتاج لكمالها إلى مضاف إليها، ثم أخبر عن إنكار قلوب الكافرين، وأنهم يعتقدون إلهية أشياء أخر، ويستكبرون عن رفض معتقدهم فيها، وأطراح طريقة آباءهم في عبادتها، ووسمهم بأنهم لا يؤمنون بالأخرة، إذ هي أقوى رتب الكفر، أعني الجمع بين التكذيب بالله تبارك وتعالى وبالبعث، لأن من صدق بالبعث فمحال أن يكذب بالله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿لَا جَزْمَ﴾ عبرت فرقة من اللغويين عن معناها بـ «لا بُدَّ، ولا محالة»، وقالت فرقة: معناها: «حق أن الله»، ومذهب سيبويه أن (لا) نفي لما تقدم من الكلام، و (جَزَمَ) معناه: وجب أو حق، ونحو هذا من مذهب الزجاج، ولكن مع مذهبهما (لا) ملازمة لـ (جَزَمَ)، لا تفك هذه من هذه، وفي

لم يقصدوا بقولهم: «أساطير الأولين» أن يحملوا الأوزار، ويحتمل أن تكون صريح لام كني على معنى: قَدَّرَ هذا، ويحتمل أن تكون لام الأمر على معنى الحتم عليهم بذلك والصغار الموجب لهم. و«الأوزار»: الأثقال، وقوله: «وَمِنْ» للتبعيض، وذلك أن هذا

الرأس المضل يحمل وزر نفسه كاملاً، ويحمل وزراً من أوزار كل من ضل بسببه، ولا تنقص أوزار أولئك. وقوله: «يَغَيِّرُ عَلَيْهِ» يجوز أن يريد بها المضل، أي: أضلّ بغير برهان قام عنده، ويجوز أن يريد: بغير علم من المقلّدين الذين يضلونهم. ثم استفتح الله تعالى الإخبار عن سوء ما يتحملونه للأخرة، وأسند الطبري وغيره في معنى هذه الآية حديثاً نصه: «أَيْمًا داع دعا إلى ضلالة فاتبع فإن عليه مثل أوزار من أتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيء، وأيماً داع دعا إلى هدى فاتبع فله مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيء»، و«سَاءَ» فعل مسند إلى [مَا]، ولا يحتاج في ذلك هنا إلى صلة.

(٢٦) - (٢٧) تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره من المفسرين: الإشارة بـ «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» إلى نمرود الذي بنى الصرح ليصعد به إلى السماء على زعمه، فلما أفرط في غلوه وطوله في السماء فرسخين على ما حكى النقاش بعث الله عليه ريحاً فهدمه، وخرّ سقفه عليه وعلى

الحسن بن عليّ أنه كان يجلس مع المساكين ويحدثهم ثم يقرأ: «إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُتَكَبِّرِينَ»، وروي في الحديث أنه «من سجد لله سجدة من المؤمنين فقد برىء من الكبر».

وقوله تعالى: «وَلِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنزِلَ لَكُمْ فِي الصُّمُورِ» الآية. الضمير في «لَهُمْ» لكفار مكة، ويقال: إن سبب الآية كان أن النضر بن الحارث سافر عن مكة إلى الحيرة وغيرها، فجاء إلى مكة وكان قد اتخذ كتب التاريخ «كليلة ودمنة،

وأخبار اسفنديار ورستم»، فكان يقول: وإنما يحدث محمد بأساطير الأولين، وحديثي أجمل من حديثه. وقوله: «مَاذَا» يجوز أن تكون [مَا] استفهاماً و [ذَا] بمعنى: الذي، وفي «أُنزِلَ» ضمير عائد، ويجوز أن يكون [مَا] و [ذَا] اسماً واحداً مركباً، كأنه قال: أي شيء؟ وقولهم: «أساطير الأولين» ليس بجواب عن السؤال الأول، لأنهم لم يريدوا أنه نزل شيء، ولا أن ثم منزلاً، ولكنهم ابتدءوا الخير بأن هذه أساطير الأولين، وإنما الجواب عن السؤال قول المؤمنين في الآية المستقبلية: خيراً، وقولهم: «أساطير الأولين» إنما هو جواب بالمعنى. فأما على السؤال وبحسبه فلا. والسلام في قوله: «لِيَحْمِلُوا» يحتمل أن تكون لام المعاقبة، لأنهم

تُدْرِيومَ الْعَيْمَةِ يُجْزِيهِمْ وَيَقُولُ إِن شَرَكَاةَ عَالِي الدِّينِ كُنْتُمْ تُشْتَقِرُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أَوْرَأُ الْعَمْرَانَ الْجَزْيُ الْيَوْمَ وَالسُّوءُ عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ لَمَّا كُنْتُمْ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا سَلَامَهُ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِ يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ فَأَذْخَلُوا الْأَنْبِيَاءَ مِنْهُمْ خَلْدِيكَ فِيهَا فَلَيْسَ مَشَى الْمُتَكَبِّرِينَ وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلِلَّذِينَ تَابُوا خَيْرٌ وَلَهُمْ دَارُ الْمَقْبُورِينَ جَنَّتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ الَّذِينَ تَوَفَّيْتُمْ لَمَّا كُنْتُمْ طَاهِرِينَ يَقُولُونَ سَلِّمْ عَلَيْنَا إِذْ دَخَلْنَا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٌ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ

جزم لغات قد تقدم ذكرها في سورة هود، وأنشد أبو عبيدة:

جَزَمَتْ قَزَازَةٌ . . .

وقال: معناها: حقت عليهم وأوجبت أن يغضبوا. و [أَنَّ] على مذهب سيبويه فاعلة بـ [جَزَمَ]. وقرأ الجمهور: «أَنَّ» مفتوحة، وقرأ عيسى الثقفي: «إِنَّ» بكسر الألف على القطع، قال يحيى بن سلام، والنقاش: المراد هنا بـ «مَا يُبْرَزُونَ» تشاورهم في دار الندوة في قتل النبي ﷺ. وقوله: «إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُتَكَبِّرِينَ» عام في الكافرين والمؤمنين، يأخذ كل واحد منهم بقسطه، وفي الحديث: «لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال حبة من كبر»، وفيه «إِنَّ الْكِبْرَ مَنَعَ الْحَقَّ وَغَمَطَ النَّاسَ»، ويروى عن

أباعه، وقيل: إن جبريل عليه السلام هدمه بجناحه، وألقى أعلاه في البحر، وانجفع من أسفله. وقالت فرقة أخرى: المراد بـ ﴿الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ جميع من كفر من الأمم المتقدمة ومكر، ونزلت به عقوبة من الله تعالى، وقوله - على هذا - : ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ بُيُوتَهُمْ مِنَ السَّمَاوَاتِ﴾ إلى آخر الآية تمثيل وتشبيه، أي: حالهم كحال من فعل به هذا. وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَنَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفَ مِنْ قَوَائِمِهِمْ﴾ أي: جاءهم العذاب من قيل السماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ينحو إلى اللغز.

ومعنى قوله: ﴿وَمِنْ قَوَائِمِهِمْ﴾ رفع الاحتمال في قوله: ﴿وَنَحَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفَ﴾، فإنك تقول: انهدم على فلان بناؤه، وهو ليس تحته، كما تقول: انفسد عليه متاعه. وقوله: ﴿وَمِنْ قَوَائِمِهِمْ﴾ أزم أنهم كانوا تحته.

وقوله: ﴿فَأَنزَلَ اللَّهُ وَسَلَّمَ سُلْطَانَهُ﴾ وقرأ الجمهور: ﴿بُيُوتَهُمْ﴾ وقرأت فرقة: ﴿بُيُوتِهِمْ﴾ وقرأ جعفر بن محمد: ﴿بُيُوتِهِمْ﴾، وقرأ الضحاک: ﴿بُيُوتَهُمْ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿السَّقْفَ﴾ بسكون القاف، وقرأت فرقة بضمها، وهي لغة فيه، وقرأ الأعرج بضم السين والقاف، وقرأ مجاهد بضم السين وسكون القاف.

وقوله: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية، لما ذكر الله تعالى في الآية المتقدمة حال هؤلاء الماكرين في الدنيا، ذكر في هذه حالهم في الآخرة، وقوله: ﴿بِحُزْنٍ﴾ لفظ يعم جميع المكاره

التي تنزل بهم، وذلك راجع إلى إدخالهم النار، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْرَجْتَهُ﴾. وقوله: ﴿أَيُّ شُرَكَائِكَ﴾ توبيخ لهم، وأضافهم إلى نفسه في مخاطبة الكفار، أي: على زعمكم ودعواكم، قال أبو علي: وهذا كما قال تعالى حكاية: ﴿ذَقَّ إِنَّكَ أَلْتَمِزَ الْكَبِيرَ﴾، وكما قال تعالى: ﴿بِتَابَةِ السَّجِرِ﴾ لَأَنزَلْنَا رَبِّكَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والإضافات تترتب مغزولة وملفوظاً بها بأرق سبب، وهذا كثير في كلامهم، ومنه قول الشاعر:

إِذَا قُلْتُ قَدْ بَدَىٰ قَالَ بِاللَّهِ حَلْفَةً
لَشَغْنِي عَنِّي ذَا إِنَائِكَ أَجْمَعًا
فَأَضَافَ الْإِنَاءَ إِلَىٰ حَاسِيهِ. وقرأ البزري عن ابن كثير: ﴿شُرَكَائِي﴾ بقصر الشركاء وفتح الياء، مثل هداي، وقرأ الجمهور بالمد وفتح الياء بعد الهمزة، وقرأت فرقة بالمد وياء ساكنة.

وقوله: ﴿تَشَقُّوقٌ﴾ معناه: تحاريون وتحاجون، أي: تكونون في شقِّ والحق في شقِّ، وقرأ الجمهور: ﴿تَشَقُّوقٌ﴾ بفتح النون، وقرأ نافع وحده بكسرهما، ورويت عن الحسن بخلاف، وضعف هذه القراءة أبو حاتم، وقد تقدم القول في مثله في «الججر» في ﴿بُيُوتَهُمْ﴾، وقرأت فرقة: ﴿تَشَقُّوقِي﴾ بشد النون وكسرهما وياء بعدها. و﴿الَّذِينَ أَوْلُوا إِلَهًا﴾ هم الملائكة فيما قال بعض المفسرين، وقال يحيى بن سلام: «هم

المؤمنون، وهذا الخطاب منهم يوم القيامة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أن يعم جميع من آتاه الله علم ذلك من جميع من حضر الموقف من ملك وإنسي وغير ذلك، ويبقى الآية بين:

﴿الَّذِينَ﴾ نعت لـ ﴿الْكَاذِبِينَ﴾ في قول أكثر المتأولين، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ مرتفعاً بالابتداء منقطعاً مما قبله، وخبره في قوله: ﴿فَأَلْفَوْا السَّمَاءَ﴾ فزبدت السماء في الخبر، وقد يجيء مثل هذا.

﴿وَالَّذِينَ﴾ يريد بهم القابضين لأرواحهم، وقوله: ﴿ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ﴾ حال. و﴿السَّالِمِينَ﴾ هنا: الاستسلام، أي: رموا بأيديهم وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَمَسُّ مِنْ سُوءٍ﴾ فحذف «قالوا» لدلالة الظاهر عليه، قال الحسن: هي مواطن، فمزة يقرون على أنفسهم، كما قال: ﴿وَتَهْدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنهَزَ كَاوُوا كَثِيرًا﴾، ومزة يجحدون كهذه الآية، ويحتمل قولهم: ﴿مَا كُنَّا نَمَسُّ مِنْ سُوءٍ﴾ وجهين: أحدهما أنهم كذبوا وقصدوا الكذب اعتصاماً منهم به، على نحو قولهم: ﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾، والآخر أنهم أخبروا عن أنفسهم أنهم لم يكونوا يعملون سوءاً، فأخبروا عن ظنهم بأنفسهم، وهو كذب في نفسه، وحسن الرد عليهم في الوجهين جميعاً بـ ﴿بَلَىٰ﴾، أي يقال لهم: بلى، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ بِمَا كُنْتُمْ تَمَلُّونَ﴾ وعيد وتهديد، وظاهر الآية أنها عامة في جميع

الكفار. وإلقاؤهم السلم ضد مُشاققتهم قَبْلُ، وقال عكرمة: نزلت في قوم من أهل مكة آمنوا بقلوبهم ولم يهاجروا، فأخرجهم كفار مكة مكرهين إلى بدر فقتلوا هنالك، فنزلت فيهم هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما اشبهت عليه بالآية الأخرى التي نزلت في أولئك باتفاق من العلماء، وعلى هذا القول يحسن قطع ﴿الذِّينَ﴾ ورفعها بالابتداء، فتأمله. والقانون أن «بلى» تجيء بعد النفي، و«نعم» تجيء بعد الإيجاب، وقد تجيء بعد التقرير، كقولك: أليس كذا؟ ونحوه، ولا تجيء بعد نفي سوى التقرير. وقرأ الجمهور: ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ بالثاء من فوق، وقرأها حمزة بالياء، وهي قراءة الأعمش، قال أبو زيد: أدغم أبو عمرو: ﴿السَّلْمَ مَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَادْخُلُوا﴾ من كلام الذي يقول: [بلى]، و«أبواب جهنم» مفضية إلى طباقها التي هي بعض على بعض، والأبواب كذلك باب على باب، و﴿خَلِيدِينَ﴾ حال، واللام في قول: ﴿فَلْيَسَّرْ﴾ لام التأكيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكره سيبويه، وهو إجماع من النحويين فيما علمت أن لام التأكيد لا تدخل على الفعل الماضي، وإنما يدخل عليه لام القسم، ولكن دخلت على «بئس» لأنها لما لم تصرف أشبهت الأسماء ويعدت عن حال الفعل في هذا، وهي بعيدة أيضاً عن حال الفعل من جهة أنها لا تدخل على زمان. و«المثوى»: موضع

الإقامة، ونعم وبئس إنما يدخلان على معرف بالالف واللام، أو مضاف إلى معرف بذلك، و«المثوى» هنا محذوف تقديره: ولبئس المثوى مثوى المتكبرين، والمتكبر هنا هو الذي أفضى به كيده إلى الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ﴾ الآية. لما وصف الله تعالى مقالة الكفار الذين قالوا: «أساطير الأولين» عادل ذلك بذكر مقالة المؤمنين من أصحاب النبي ﷺ، وأوجب لكل فريق ما يستحق لتباين المنازل بين الكفر والإيمان، و [مأذا] تحتل ما ذكر في التي قبلها، وقولهم: ﴿خَيْرٌ﴾ جواب بحسب السؤال، واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾ إلى آخر الآية - فقالت فرقة: هو ابتداء كلام من الله تعالى مقطوع مما قبله، ولكنه بالمعنى وغد متصل بذكر إحسان المتقين من مقالته، وقالت فرقة: هو من كلام الذين قالوا: ﴿خَيْرٌ﴾، وهو تفسير للخير الذي أنزل، أي: أنزل الله في الوحي على نبيينا خيراً، أي من أحسن في الدنيا بالطاعة فله حسنة في الدنيا ونعيم في الآخرة بدخول الجنة، وروى أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ لَا يظلم المؤمن حسنة، يثاب عليها الرزق في الدنيا، ويُجزى بها في الآخرة»، وقد تقدم القول في إضافة الدار إلى الآخرة، وباقى الآية بين.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

يحتمل أن يرتفع ﴿جَنَّاتٍ﴾ على خبر ابتداءٍ مضمرة بتقدير: هي جنات

عدن، ويحتمل أن ترتفع بقوله: ﴿وَلَيْسَ دَارُ الْمُتَّقِينَ جَنَّتٍ عَدْنٍ﴾، ويحتمل أن يكون التقدير: لهم جنات عدن، ويحتمل أن تكون ﴿جَنَّاتٍ﴾ مبتدأ، وخبره: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾، وقرأ زيد بن ثابت، وأبو عبد الرحمن: ﴿جَنَّاتٍ﴾ بالنصب، وهذا على نحو قوله: «زيداً ضربته»، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ وقرأ إسماعيل عن نافع: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ بضم الياء وفتح الخاء، ولا يصح هذا عن نافع، ورويت عن أبي جعفر، وشيبة بن نصاح. وقوله: ﴿تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ في موضع الحال، وباقى الآية بين.

وقرأ الجمهور: ﴿يَتَوَفَّاهُمْ﴾ بالثاء، وقرأ الأعمش، وحمزة: ﴿يَتَوَفَّاهُمْ﴾ بالياء من تحت، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿تَوَفَّاهُمْ﴾ بياء واحدة في الموضعين. و﴿طَيِّبِينَ﴾ عبارة عن صلاح حالهم واستعدادهم للموت، وهذا بخلاف ما قال في الكفرة: ﴿طَالِحٍ أَنْسِيهِمْ﴾، والطيب: الذي لا خبث معه، ومنه قوله تعالى: ﴿يَلْبَسُهُ﴾ فَاذْخُلُوا خَالِدِينَ، وقول الملائكة: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ بشارة من الله تعالى، وفي هذا أحاديث صحاح يطول ذكرها. وقوله: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: بما كان في أعمالكم من تكسبكم، وهذا على التجوز، علقت دخولهم الجنة بأعمالهم من حيث جعل الأعمال أمانة لإدخال العبد الجنة، ويعترض في هذا قول رسول الله ﷺ: «لا يدخل أحد الجنة بعمله»، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا، إلا أن

يتغمدني الله بفضل منه ورحمة»، وهذه الآية تُرَدُّ بالتأويل إلى معنى الحديث، ومن الرحمة والتغمد أن يوفق الله العبد إلى أعمال برة، ومقصد الحديث نفي وجوب ذلك على الله تعالى بالعقل كما ذهب إليه فريق من المعتزلة.

(٣٣) - (٣٥) تفسير قوله عز وجل:

﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه ينتظرون، و﴿نَظَرًا﴾ متى كانت من رؤية العين فإنما تعدّيها العرب بإلى، ومتى لم تعدّ بإلى فهي بمعنى انتظر، كما قال امرؤ القيس:

فإني كما إن تنظراني ساعة
من الدهر تنفخني لدى أم جندب
ومنه قوله تعالى حكاية: ﴿انظرونا
نفتيس من نوركم﴾، وقد جاء شأداً
نظرت بمعنى الرؤية متعدياً بغير إلى
كقول الشاعر:

بَاهِرَاتِ الْجَمَالِ وَالْحُسْنِ يَنْظُرُ
نَ كَمَا يَنْظُرُ الْأَرَاكُ الظُّبَاءُ
وقرأ الجمهور: ﴿بَأْيَيْهِمْ﴾ بالتاء من
فوق، وقرأ حمزة والكسائي:
﴿بَأْيَيْهِمْ﴾ بالياء، وهي قراءة
يحيى بن وثاب، وطلحة،
والأعمش، ومعنى الكلام أن تأتيهم
الملائكة لتقبض أرواحهم ظالمي
أنفسهم، وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِي أُنْرُ
رَيْكُ﴾ وعيد يتضمن قيام الساعة أو
عذاب الدنيا. ثم ذكر تعالى أن هذا
كان فعل أسلافهم من الأمم، أي:
فمقبوا، ولم يكن ذلك ظلماً لأنه لم
يوضع ذلك العقاب في غير موضعه،
ولكن هم ظلموا أنفسهم بأن وضعوا
كفرهم في جهة الله تعالى، وميلهم
إلى الأصنام والأوثان، فهذا وضع

الشيء في غير موضعه.
وظلموا أنفسهم، أي:
آذوا بنفس فعلهم وإن
كانوا لم يقصدوا ظلمها
ولا إذابتها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ
سَيِّئَاتٌ مَّا عَمِلُوا﴾، أي جزاء
ذلك في الدنيا والآخرة،
﴿وَمَا كَفَّ﴾ معناه نزل
وأحاط، وهنا محذوف
يدل عليه الظاهر من
الكلام، تقديره: جزاء بما
كانوا به يستهزئون.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ
الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ الآية جدل
من الكفار، وذلك أن أكثر
الكفار كانوا يعتقدون

وجود الله تعالى، وأنه خالقهم
ورازقهم، فإن كان أهل هذه الآية
من هذا الصنف فكأنهم قالوا: يا
محمد، نحن من الله بمرأى في
عبادتنا الأوثان، واتخاذها لتنفع
وتقرب زلفى، ولو كره الله فعلنا
لغيره منذ مدة، إما بإهلاكنا وإما
بهدايتنا. وكان من الكفار فريق لا
يعتقدون بوجود الله، فإن كان أهل
هذه الآية من هذا الصنف فكأنهم
أخذوا الحجة على النبي عليه الصلاة
والسلام من قوله، أي: إن الربُّ
الذي تشبته يا محمد وهو على ما
تصفه يعلم ويقدر، ولا شك أنه
يعلم حالنا، ولو كرهها لغيرها.
والرُّدُّ على هذين الفريقين هو أن الله
تعالى ينهى عن الكفر وقد أراداه
بقوم، وإنما نصب الأدلة وبعث
الرسول ويسرّ كلاً لما حتم عليه،

وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ مِّن دُونِ اللَّهِ وَلَا نَأْتِيكُم بِآيَاتِنَا وَلَا حَرَمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ كَمَا كَفَرْنَا بِكَ قَوْلَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ هَلْ عَلَّ الرَّسُولُ إِلَّا الْبَلَاغُ النَّبِيُّ
﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ بعثنا في كل أمّة رسولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصُّلُوبَ فَمِنَهُمْ مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنَهُمْ مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الصُّلُوبَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٣٤﴾ إِن تَحْسَبْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِن نَّاصِرِينَ ﴿٣٥﴾ وَأَنسَبُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَآ يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلْ وَوَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَر النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ لَيْسَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلَفُونَ فِيهِ وَلِعَلَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّمَا أَوَّلَتْنَا لُحُومًا إِذَا أُرِدْتُمْ أَن تَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مِّمَّا كَانُوا عَلَيْهِ لَعَنَّ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوءَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جَزَاءَ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ صَدَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٩﴾

٢٧١

وهذا الجدل - بين أي الصنفين
فرضته - ليس فيه استهزاء، لكن أبا
إسحق الزجاج قد قال: إن هذا
الكلام على جهة الهُزء، فذهب أبو
إسحق - والله أعلم - إلى أن الطائفة
التي لا تقول بالإلثم، ثم أقامت
الحجة من مذهب خصمها كأنها
مستهزئة في ذلك، وهذا جدالٌ
محض، والرُّدُّ عليه كما ذكرناه،
وقوله: ﴿هَلْ عَلَّ الرَّسُولُ إِلَّا الْبَلَاغُ
النَّبِيِّ﴾ يُشير إلى ما ذكرناه.

وقوله: ﴿وَلَا حَرَمًا﴾ يريدون
البحيرة والسائبة والوصيلة وغير ذلك
مما حرّمه، وأخبر الله تبارك وتعالى
أن هذه النزعة قد سبقهم الأولون من
الكفار إليها، وكأنه قال: والأمر ليس
على ما ظنوه من أن الله تعالى إذا
أراد الكفر لا يأمر بشركه، بل قد
نصب الله لعباده الأدلة، وأرسل

الرسول منذرين، وليس عليهم إلا البلاغ.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿لَمَّا أَشَارَ قَوْلُهُ: ﴿فَهَلْ عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَسُكَ اللَّيْسِينَ﴾ إِلَى إِقَامَةِ الْحُجَّةِ حَسَبَ مَا ذَكَرْنَاهُ بَيِّنَ ذَلِكَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، أَي أَنَّهُ بَعَثَ الرَّسُولَ آيْرًا بِعِبَادَتِهِ وَتَجَنَّبَ عِبَادَةَ غَيْرِهِ. وَ«الطَّاغُوتُ» فِي اللُّغَةِ كُلُّ مَا عُيِدَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ آدَمِيٍّ رَاضٍ بِذَلِكَ أَوْ حَجَرٍ أَوْ خَشَبٍ، ثُمَّ أُخْبِرَ أَنَّ مِنْهُمْ مَنْ اعْتَبَرَ وَهَدَاهُ اللَّهُ وَنَظَرَ بِبَصِيرَتِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَضَ وَكَفَرَ فَحَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ، وَهِيَ مُؤَدِيَةٌ إِلَى النَّارِ حَتْمًا، وَمِنْهُمْ مَنْ أَذَنَ إِلَى عَذَابِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ أَحَالَهُمْ فِي عِلْمِ ذَلِكَ عَلَى الطَّلَبِ فِي الْأَرْضِ، وَاسْتِقْرَاءِ الْأُمَمِ، وَالْوُقُوفِ عَلَى عَوَاقِبِ الْكَافِرِينَ الْمَكْذِبِينَ.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَحَرَّضَ﴾ الحزض: أبلغ الإرادة في الشيء، وهذه تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام، أي أن حرصك لا ينفع، فإنها أمور محتومة. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، ومجاهد، وشبل، ومزاحم الخراساني، وأبو رجاء العطاردي، وابن سيرين: ﴿لَا يَهْدِي﴾ بضم الياء وفتح الدال، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿لَا يَهْدِي﴾ بفتح الياء وكسر الدال، وهي قراءة ابن مسعود، وابن المسيب، وجماعة، وذلك على معنيين: أي أن الله لا يهدي من قضى بإضلاله، والمعنى الآخر أن العرب تقول: ﴿يَهْدِي

الرجل﴾ بمعنى «اهتدى»، حكاه الفراء، وفي القرآن: ﴿لَا يَهْدِي إِلَّا آتَا أَنْ يَهْدَى﴾، وجعله أبو علي وغيره بمعنى «يهدي»، وقرأ فرقة بفتح الياء وكسر الهاء والدال، وقرأت فرقة: ﴿يَهْدِي﴾ بضم الياء وكسر الدال، وهي ضعيفة، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا هَادِيَ لِمَنْ هَادِيَ لِمَنْ أَنْصَلُ﴾، وحكاها أبو حاتم: ﴿فَإِنَّهُ لَا هَادِيَ لِمَنْ أَنْصَلُ﴾، قال أبو علي: «الراجع إلى اسم [إِنْ] مقدر في [يُضِلُّ] على كل قراءة إلا قراءة [يَهْدِي] بفتح الياء وكسر الدال، أي: يهدي الله، فإنَّ الراجع مقدر في [يَهْدِي]». وقوله: ﴿وَمَا لَهُمْ بَيْنَ كَثِيرٍ﴾ ضمير على معنى [مَنْ]، وتقول العرب: حَرَّضَ يَحْرِضُ يَحْرِضُ وَحَرَّضَ يَحْرِضُ، والكسر في المستقبل لغة أهل الحجاز، وقرأ الحسن، وإبراهيم، وأبو حيوه بفتح الراء في قوله: ﴿تَحْرِضُ﴾ وقرأ إبراهيم: ﴿وَأَنْ تَحْرِضُ﴾ بزيادة واو.

والضمير في قوله: ﴿وَأَنْصَلُوا﴾ لكفار قريش، وذكر أن رجلاً من المسلمين جاور رجلاً من المشركين، فقال في حديثه: «لا والذي أرجوه بعد الموت»، فقال له الكافر: «أو تبعث بعد الموت؟» قال: «نعم»، فأقسم الكافر مجتهداً في يمينه أن الله لا يبعث أحداً بعد الموت، فنزلت الآية بسبب ذلك، و﴿جَهَدٌ﴾ مصدر، ومعناه: بغاية تجهدهم، ثم ردَّ تعالى عليهم بقوله: ﴿بِكَلِّ﴾ فأوجب بذلك البعث. وقوله: ﴿وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ مصدران

مؤكدان، وقرأ الضحاك: ﴿بَلَى وَغَدَا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ بالرفع في المصدرين، وأكثر الناس في هذه الآية الكفار المكذبون بالبعث، والبعث من القبور مما يُجَوِّزُه العقل، وأثبته خير الشريعة على لسان جميع النبيين، وقال بعض الشيعة: إن الإشارة بهذه الآية لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وإن الله سيبعثه في الدنيا، وهذا هو القول بالرجعة، وقولهم هذا باطل وافتراء على الله، وبهتان من القول ردَّه ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: اللام في قوله: ﴿لِئَلَّيْسِينَ﴾ متعلقة بما في ضمن قوله: ﴿بِكَلِّ﴾، لأن التقدير: بلى يبعث لبيين، وقيل: هي متعلقة بقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾، والأول أصوب في المعنى، لأن به يتصور كذب الكفار في إنكار البعث.

وقوله: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا﴾ الآية. «إِنَّمَا» في كلام العرب هي للمبالغة وتحقيق وتحضيض على المذكورين، وقد تكون - مع هذا - حاصرة إذا دل على ذلك المعنى، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ﴾، وأما قول النبي عليه الصلاة والسلام: «إِنَّمَا الربا في التسيئة»، وقول العرب: «إِنَّمَا الشجاع عترة» فبقي فيها معنى المبالغة فقط، و﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية هي للحصر، وقاعدة القول في هذه الآية أن نقول: إن الإرادة والأمر اللذين هما صفتان من صفات الله تبارك وتعالى القديمة هما قديمان أزليان، وإن ما في ألفاظ

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَهُمْ لَأَبْلَهٌ﴾
 ﴿الذِّكْرُ إِن كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^{٤١} ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ
 الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾
 ﴿٤٢﴾ ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ
 أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾^{٤٣} ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ
 فِي تَغْلِبِهِمْ فَأَهْلِكَهُمْ بِمَعْجِزَاتٍ﴾^{٤٤} ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ
 رَبَّكُمْ لَبَرُّوهُمُ رَحِيمٌ﴾^{٤٥} ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ
 يَتَّبِعُهُ ظِلٌّ لَهُ مِنَ الْيَمِينِ وَالشَّمْسُ بِحَسْبِ اللَّهِ وَهَرْدٌ ذُرْوَانٌ
 ﴿٤٦﴾ ﴿وَاللَّهُ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ
 وَالْمَلَائِكَةِ وَهُمْ لَا يُسْتَكْبَرُونَ﴾^{٤٧} ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ
 وَيَتَعَلَّقُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^{٤٨} ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا لِلْأَنْهَادِ
 اثْنَيْنِ إِذَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَازَهُونَ﴾^{٤٩} ﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ وَلَهُ الَّذِينَ وَأَصْبَا أَفْعِدَا اللَّهُ نَتَقُونَ﴾^{٥٠} ﴿وَمَا يَكُفُّ مِنْ
 نَعْمِهِ فَمَنْ لَّهُ إِذَا مَسَّكُمْ الضَّرَفُ فَإِلَيْهِ تَجْتَرُونَ﴾^{٥١} ﴿ثُمَّ
 إِذَا كُشِفَ الضَّرَعُ عَنْكُمْ إِذَا فِرْقٌ يُسَكِّرُ بِرَبِّهِمْ يُسَكِّرُونَ﴾^{٥٢}

ولكن «أَنْ» مع الفعل
 تعطى استثناءً ليس في
 المصدر في أغلب أمرها،
 وقد تجيء في مواضع لا
 يلحظ فيها الزمن كهذه
 الآية، وكقوله تعالى:
 ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ
 السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾
 وغير ذلك. وقوله:
 ﴿وَلَهُ﴾ ذهب أكثر الناس
 إلى أن «الشيء» هو الذي
 يقال له كالمخاطب،
 وكأن الله تبارك وتعالى
 قال في الأزل لجميع ما
 خلق: «كُنْ» بشرط الوقت
 والصفة، وقال الزجاج:
 ﴿وَلَهُ﴾ بمعنى: من أجله،

هذه الآية من معنى الاستقبال
 والاستئناف إنما هو راجع إلى المراد
 لا إلى الإرادة، وذلك أن الأشياء
 المرادة المكوّنة في وجودها استئناف
 واستقبال، لا في إرادة ذلك، ولا
 في الأمر به، لأن ذينك قديمان،
 فمن أجل المراد عبّر بـ [إِذَا] و
 [تَقُولُ]. ونرجع الآن على هذه
 الألفاظ فنوضح الوجه فيها واحدة
 واحدة: أما قوله: ﴿لِيُخْشِيَ﴾
 فيحتمل وجهين: أحدهما أن هذه
 الأشياء التي هي مُرادة وقيل لها:
 [كُنْ] معلوم أن الوجود يأتي على
 جميعها بطول الزمن وتقدير الله
 تعالى، فلما كان وجودها حتمًا جاز
 أن تسمى «أشياء» وهي في حالة
 عدم، والوجه الثاني أن يكون قوله:
 ﴿لِيُخْشِيَ﴾ تنبيهًا لنا على الأمثلة التي
 ننظر فيها، أي أَنَّ كل ما تأخذونه
 من الأشياء الموجودة فإنما سبيله أن
 يكون مرادًا وقيل له: «كُنْ» فكان،
 ويكون ذلك الشيء المأخوذ من
 الموجودات مثالاً لما يتأخر من
 الأمور وما تقدم، فهذا نتخلص من
 تسمية المعدوم شيئاً، وقوله: ﴿إِذَا
 أَرَدْتَهُ﴾ مَنزُول منزلة مراد، ولكنه أتى
 بهذه الألفاظ المستأنفة بحسب أن
 الموجودات تجيء وتظهر شيئاً بعد
 شيء فكانه قال: «إِذَا ظهر المراد
 منه»، وعلى هذا الوجه تخرج قوله
 تعالى: ﴿فَسَبَّحُوا اللَّهَ عَمَّا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾،
 وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا﴾، ونحو هذا مما معناه: ويقع
 منكم من رآه الله تعالى في الأزل
 كَلَهُ وَعَلِمَهُ. وقوله: ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ نزل
 منزلة المصدر، كأنه قال: «قولنا»،

على الله تعالى وقربه في قدرته،
 لَا رَبَّ غَيْرَهُ.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ:

لَمَّا ذَكَرَ اللهُ تَعَالَى كُفْرَ مَكَّةَ الَّذِينَ
 أَقْسَمُوا أَنَّ اللهُ لَا يَبْعَثُ مِنْ يَمُوتِ
 وَرَدَّ عَلَيْهِمْ قَوْلَهُمْ ذَكَرَ مُؤْمِنِي مَكَّةَ
 الْمَعَارِضِينَ لَهُمْ، وَهُمْ الَّذِينَ هَاجَرُوا
 إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ، هَذَا قَوْلُ
 الْجُمْهُورِ، وَهُوَ الصَّحِيحُ فِي سَبَبِ
 هَذِهِ الْآيَةِ، لِأَنَّ هِجْرَةَ الْمَدِينَةِ لَمْ
 تَكُنْ وَقْتُ نَزُولِ الْآيَةِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ:
 سَبَبُ الْآيَةِ أَبُو جَنْدَلِ بْنِ سَهِيلِ بْنِ
 عَمْرِو، وَهَذَا ضَعِيفٌ، لِأَنَّ أَمْرَ أَبِي
 جَنْدَلِ إِذَا كَانَ وَالنَّبِيَّ ﷺ بِالْمَدِينَةِ،
 وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: نَزَلَتْ فِي عَمَّارِ
 وَصَهْبِ وَخُبَّابِ وَأَصْحَابِهِمُ الَّذِينَ
 أُودُوا بِمَكَّةَ وَخَرَجُوا عَنْهَا، وَعَلَى
 كُلِّ قَوْلٍ فَلَايَةٌ تَتَنَاوَلُ بِالْمَعْنَى كُلِّ مَنْ
 هَاجَرَ أَوَّلًا وَآخِرًا.

وهذا ممكن أن يُرَدَّ بالمعنى إلى
 الأول، وذهب قومٌ إلى أن قوله:
 ﴿أَنْ تَقُولَ﴾ مجاز، كما تقول: قال
 برأسه فرفعه، وقال بيده فضرب
 فلاناً، وردد على هذا المنزع أبو
 منصور، وذهب إلى أن الأول هو
 الأول. وقرأ الجمهور: ﴿فَيَكُونُ﴾
 برفع السنون، وقرأ ابن عامر،
 والكسائي هنا وفي «يسر» ﴿فَيَكُونُ﴾
 بنصبها، وهي قراءة ابن مجيßen.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 والأول أبعد على التعقيب الذي
 يصحب الفاء في أغلب حاله،
 فتأمل.

وفي هذه التبعة ما يُطَّلَعُ مِنْهُ عَلَى
 عِيُونِ هَذَا الْمَسْأَلَةِ، وَشَرْطُ الْإِيجَازِ
 مَنَعُ مِنَ بَسْطِ الْعَرَضَاتِ
 وَالْإِنْفِصَالَاتِ، وَالْمَقْصُودُ بِهِذِهِ الْآيَةِ
 إِعْلَامُ مُنْكَرِي الْبِعْثِ بِهَوَانِ أَمْرِهِ

وقرأ الجمهور: ﴿لَتُؤْتِنَهُمْ﴾ وقرأ ابن مسعود، ونعيم بن ميسرة، والربيع بن خنيتم، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿لَتُؤْتِنَهُمْ﴾، وهاتان اللفظتان معناهما التقرير في موضع، فقالت فرقة: «الْحَسَنَةُ» عِدَّةٌ ببقعة شريفة كشف الغيب أنها كانت بالمدينة، وإليها كانت الإشارة بقوله: ﴿حَسَنَةٌ﴾، وقالت فرقة: الْحَسَنَةُ هنا لسانُ الصدق الباقي عليهم في غابر الدهر، وفي قوله: ﴿لَتُؤْتِنَهُمْ﴾ أو ﴿لَتُؤْتِنَهُمْ﴾ على هذا التأويل في لسان الصدق تَجَوُّزٌ كثير واستعارة بعيدة، وهذا على أن «الحسنة» هي الحياة والمثوى، وأن الفعل الظاهر عامل فيها، وقال أبو الفتح: نصبها على معنى: «نُحْسِنُ إليهم في ذلك إحساناً»، وجعلت ﴿حَسَنَةٌ﴾ موضع «إحساناً»، وذهبت فرقة إلى أن الحسنة عامة في كل أمر مستحسن يناله ابن آدم، وتخف الاستعارة المذكورة على هذا التأويل، وفي هذا القول يدخل ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان يعطي المال وقت القسمة الرجل من المهاجرين ويقول له: خُذْ ما وعدك الله في الدنيا ولأجر الآخرة أكبر، ثم يتلو هذه الآية، ويدخل في هذا القول النصُّ على العدو وفتح البلاد وكل أمل بلغه المهاجرون، و«أجر الآخرة» هنا إشارة إلى الجنة، والضمير في ﴿يَكُونُونَ﴾ عائد على كفار قريش، وجواب ﴿لَنْ﴾ مقدر محذوف، ومفعول ﴿يَكُونُونَ﴾ كذلك، وفي هذا نظر.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ من صفة المهاجرين الذين وعدهم الله، والصبر يَجْمَعُ: عن الشهوات، وعلى المكاره في الله تعالى، والتوكل بتفاصيل مراتبه، فَمُطِيلٌ فيه وذلك مباحٌ حَسَنٌ ما لم يُغْلَ حتى يُسَبِّبَ الهلاك، ومتوسط يسعى جميلاً ويتوكل، وهذا مع قول النبي ﷺ: ﴿قِيلَهَا وَتَوَكَّلْ﴾، ومقصر لا نفع في تقصيره، وإنما لَهُ مَا قَدَّرَ له.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية، هي ردُّ على كفار قريش الذين استبعدوا أن يكون البشر رسولاً من الله تعالى، فأعلمهم الله مخاطباً لمحمد ﷺ أنه لم يرسل إلى الأمم إلا رجلاً، ولم يرسل ملكاً ولا غير ذلك، و﴿يَا أَيُّهَا﴾ منصوب بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾، و﴿إِلَّا﴾ إيجابٌ، وقرأ الجمهور: ﴿يُوحَى﴾ بضم الياء وفتح الحاء، وقرأت فرقة بضم الياء وكسر الحاء، وقرأ عاصم من طريق حفص وحده ﴿يُوحَى﴾ بالنون وكسر الحاء، وهي قراءة ابن مسعود، وطلحة بن مصرف، وأبي عبد الرحمن. ثم قال تعالى: ﴿تَسْتَأْذِنُ﴾، أي: قل هم فاسألوا، و«أهل الذكْرِ» هنا اليهود والنصارى، قاله ابن عباس، ومجاهد، والحسن. وقال الأعمش، وسفيان بن عيينة: المراد من أسلم منها، وقال أبو جعفر، وابن زيد: «أهل الذكْرِ»: أهل القرآن، وهذان القولان فيهما ضعف؛ لأنه لا حجة على الكفار في إخبار المؤمنين بما ذكر، لأنهم يكذبون هذه الصنائف،

وقال الزجاج: «أهل الذكْرِ» عام في كل ما يُعزى إلى علم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر في هذا كله قول ابن عباس رضي الله عنهما أن يكون أهل الذكْرِ هنا أحبار اليهود والنصارى الذين لم يسلموا، وهم في هذه النازلة خاصة إنما يُخْبِرُونَ بأن الرسل من البشر، وأحبارهم حجة على هؤلاء، فإنهم لم يزالوا مُصَدِّقِينَ لهم، ولا يتمون بشهادة لنا لأنهم مدافعون في صدر ملة محمد ﷺ قاتلهم الله، وهذا هو كسر حجتهم من مذهبهم، لا أننا افتقرنا إلى شهادة هؤلاء، بل الحق واضح في نفسه، وقد أرسلت قريش إلى يهود يثرب يسألونهم ويُسَيِّدُونَ إليهم.

وقوله تعالى: ﴿بِالْبَيِّنَاتِ﴾ متعلق بفعل مضمر تقديره: أرسلناهم بالبيِّنات، وقالت فرقة: إنها متعلقة بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ في أول الآية، والتقدير - على هذا -: وما أرسلنا من قبلك بالبيِّنات والزُّبُرِ إلا رجلاً، ففي الآية تقديم وتأخير، و«الزُّبُرُ»: الكتب المؤبَّرة، تقول: «زبرت ودبرت» إذا كتبت، و﴿الذِّكْرِ﴾ في هذه الآية القرآن. وقوله: ﴿لِيُثَبِّتَ﴾ يحتمل أن يريد: لِيُثَبِّتَ سَبْذُكْ نص القرآن ما نزل، ويحتمل أن يريد: لِيُثَبِّتَ بتفسيرك المجمل ويشرك ما أشكل مما نُزِّلَ، فيدخل في هذا ما تُثَبِّتُهُ السُّنَّةُ من أمر الشريعة، وهذا قول مجاهد.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تهديد لأهل مكة، وهم المراد بـ ﴿الَّذِينَ﴾ في قول

الأكثرين، وقال مجاهد: المراد نمرود بن كنعان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر، ونصب ﴿السِّنَاتِ﴾ يحتمل وجهين، أحدهما أن ينصب بقوله: ﴿أَفَأَيْنَ الَّذِينَ﴾، وتكون السينات - على هذا - العقوبات التي تسوء من تنزل به، ويكون قوله: ﴿أَنْ يَخِيفَ﴾ بدلاً منها، والوجه الثاني أن تنصب بـ ﴿مَكْرُوا﴾، وعُدِّي ﴿مَكْرُوا﴾ لأنه في معنى «عملوا» أو «فعلوا»، و﴿السِّنَاتِ﴾ - على هذا - معاصي الكفر وغيره، قاله قتادة. ثم توعدهم بما أصاب الأمم قبلهم من الخسف، وهو أن تبتلع الأرض المخسوف به ويقعد إلى أسفل، وأسند النقاش عن بعض أهل العلم أن قوماً في هذه الأمة أقيمت الصلاة فتدافعوا الإمامة وتصلفوا في ذلك، فما زالوا كذلك حتى خيف بهم.

و﴿تَقْلِبُهُمْ﴾: سفرهم ومحاولتهم المعاش بالسفر والرعاية وغيرها، و﴿الْمُعْجِزِ﴾: المُفْلِتِ هرباً، كأنه عجز طالبه، وقوله: ﴿عَلَى تَخَوُّفِي﴾، أي: على جهة التَّخَوُّفِ، والتَّخَوُّفِ: التَّنْقِصِ، ومنه قول الشاعر يصف ناقته:

تَخَوُّفِ السَّيْرِ مِنْهَا تَامِكاً قِرداً
كما تَخَوُّفِ عُوْدِ التُّبَعَةِ السَّفْنِ
فالسَّفْنِ: الجيِّرد، ويروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خفي عليه معنى «التَّخَوُّفِ» في هذه الآية، وأراد الكتب إلى الأمصار يسأل عن ذلك حتى سمع هذا البيت، ويروى أنه جاء فتى من العرب وهو قد أشكل عليه أمر لفظة

التخوف، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن أبي يتَخَوَّفني مالي، فقال عمر رضي الله عنه: الله أكبر، ﴿أَوْ يَأْخُذُهُ عَلَى تَخَوُّفِي﴾، ومنه قول طرفة: وَجَائِلِ خَوْفٍ مِنْ نَيْبِهِ
زَجْرُ الْمُعَلَى أَصْلاً وَالسَّفِيحِ
ويروى: من نفسه، ومنه قول الآخر:

أَلَمْ عَلَى الْهَجَاءِ وَكُلِّ يَوْمٍ
يُلَاقِينِي مِنَ الْجِيرَانِ غَوْلُ
تَخَوُّفِ عَذُوْمِهِ مَالِي وَأَهْدَى
سَلَاسِلَ فِي الْخُلُوقِ لَهَا صَلِيلُ
يريد الأهاجي. ومنه قول النابغة:

تَخَوُّفُهُمْ حَتَّى أَدَلَّ سَرَائِهِمْ
بَطْعِنِ ضِرَارٍ بَعْدَ نَفْحِ الصَّفَائِحِ
وهذا التقيص يتجه الوعيد به على معنيين: أحدهما: أن يهلكهم ويخرج أرواحهم على تخوف، أي أفذاذاً، يتنقصهم بذلك الشيء بعد الشيء، وهذا لا يدعي أحد أنه يأمنه، وكأن هذا الوعيد إنما يكون بعذاب ما يلقون بعد الموت، وإلا فهكذا تهلك الأمم كلها، ويؤيد هذا قول: ﴿فَإِنَّ رَبَّكَ لِرُؤُوفٍ رَحِيمٌ﴾، أي أن هذه الرتبة من الوعيد فيها رأفة ورحمة وإمهال ليتوب التائب ويرجع الراجع، والآخر: ما قال الضحاك: أن يأخذ بالعذاب طائفة أو قرية ويترك أخرى، ثم كذلك حتى يهلك الكل. وقالت فرقة: التَّخَوُّفُ هنا من الخوف، أي: يأخذهم بعد تخوف ينالهم يعذبهم به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا تكلف ما.

وقوله: ﴿أَوْ لَرَبِّكَ إِذْ مَا خَلَقَ اللَّهُ
بِئْسَ مَا كَفَّلَ مَا﴾، قرأ ابن كثير،

ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿أَوْ لَرَبِّكَ إِذْ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾، وبالبياء، على لفظ الغائب، وكذلك في العنكبوت، فهي جارية على قوله: ﴿أَوْ يَأْخُذُهُمْ﴾ وقوله: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ﴾ وقوله: ﴿لَا يَتَّبِعُونَ﴾، ورجحها الطبري. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿أَوْ لَمْ تَرَوْا﴾ بالتاء من فوق في الموضعين، وهي قراءة الحسن، والأعرج، وأبي عبد الرحمن، وذلك يحتمل من المعنى وجهين: أحدهما على معنى: قل لهم يا محمد أو لم تَرَوْا، والوجه الثاني أن يكون خطاباً عاماً لجميع الخلق ابتداءً به القول آنفاً، وقرأ عاصم في النحل بالتاء من فوق، واختلف عنه في العنكبوت.

وقوله: ﴿بِئْسَ مَا كَفَّلَ مَا﴾ لفظ عام في كل ما اقتضته الصفة في قوله: ﴿بِئْسَ مَا كَفَّلَ مَا﴾ لأن ذلك صفة لما عرض للعبارة في جميع الأشخاص التي لها ظل، والرؤية هنا هي رؤية القلب، ولكن الاعتبار برؤية القلب هنا إنما تكون في مربيات بالعين، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿تَنْقِيًا﴾ بالتاء من فوق، وهي قراءة عيسى ويعقوب، وقرأ الجمهور: ﴿بِئْسَ مَا كَفَّلَ مَا﴾ علي: إذا تقدم الفعل المسند إلى مثل هذا الجمع فالتذكير والتأنيث فيه حسان. و«فاء الظل»: رجع بعكس ما كان بكرة إلى الزوال، وذلك أن الشمس من وقت طلوعها إلى وقت الزوال إنما هي في نسخ الظل العام قبل طلوعها، فإذا زالت ابتداءً رجوع الظل العام، ولا يزال ينمو حتى تغيب الشمس فيعم، والظل الممدود في الجنة لم يذكر الله له فينا لأنه لم

يرجع بعد أن ذهب، وكذلك قول حميد بن ثور الهلالي:

فَلَا الظَّلُّ مِنْ بَرْدِ الضَّحَى تَسْتَطِيعُهُ
وَلَا الفَيءُ مِنْ بَرْدِ العَشِيِّ تَذوقُ
فهو على المهيع، وكذلك قول علقمة بن عبدة:

تَتَّبِعُ أَفْيَاءَ الظُّلَالِ عَشِيَّةً
عَلَى طَرَفِ كَأَنَّهُنَّ سُبُوبٌ
وكذلك قول امرئ القيس:

.....
يَفِيءُ عَلَيْهَا الظِّلُّ.....
وأما النابغة الجعدي فقال:

فَسَلَامُ الإِلَهِ يَغْدُو عَلَيْهِنَّ
وَقُبُوءُ الفِرْدَوْسِ ذَاتِ الظُّلَالِ
فَتَجَوَّزُ فِي أَنْ جَعَلَ الفَيءُ حَيْثُ لَا
رجوع، وقال رؤبة بن العجاج: يقال بعد الزوال: فيءٌ وظلٌّ، ولا يقال قبله إلا ظلٌّ فقط، ويقال: فاء الظلُّ إذا رجع من النقصان إلى الزيادة، ويُعدى (فاءً) بالهمزة، كقوله تبارك وتعالى: ﴿مَّا آفَاءَ اللَّهِ عَلَى رَسُولِهِ﴾، ويُعدى بالضعيف، فيقال: آفأه الله وقتياً، وتَقَيًّا مضارع قَيًّا، ولا يقال الفَيءُ إلا من بعد الزوال في مشهور كلام العرب، لكن هذه الآية الاعتبار فيها من أول النهار إلى آخره، فكأن الآية جارية في بعض التأويلات على تجوز كلام العرب واقتضائه وضع (تَتَقَيًّا) مكان (تَتَقَلَّلُ) و (تميل)، وأصاف الظلال إلى ضمير مفرد حملاً على لفظ [ما]، أو لفظ [شيء]، وهو بالمعنى لجميع، وقرأ الثَّقَفِيُّ: ﴿ظَلَّلُهُ﴾ بفتح اللام الأولى وضم الثانية وضم الطاء.

وقوله تعالى: ﴿عَنِ الْيَمِينِ

وَالشَّمَائِلِ﴾، أفرد ﴿الْيَمِينِ﴾ وهو يراد به الجمع فكأنه للجنس، والمراد عن الأيمان والشمائيل، كما قال الشاعر:

الوَارِدُونَ وَتَيْمٌ فِي دُرَى سَبِيلِ
قَدْ عَضَّ أَغْثَاهُمْ جِلْدَ الْجَوَامِيسِ
وقال الآخر:

يَفِي الشَّامِتِينَ الضُّخْرُ إِنْ كَانَ هَذَا
رَزِيئَةُ شَيْبَانِي مُخَدَّرٍ فِي الضَّرَاغِمِ
والمنصوب للعبارة في هذه الآية هو كل شخص وجرم له ظل كالجبال والشجر وغير ذلك، والذي يترتب فيه أيمان وشمائيل إنما هو البشر فقط، ولكن ذكر الأيمان والشمائيل هنا هو على جهة الاستعارة لغير البشر، أي: تُقَدَّرُهُ ذات يمين وشمال، وتُقَدَّرُهُ أي يستقبل أي جهة شئت ثم تنظر ظله فتراه يميل إما إلى جهة اليمين وإما إلى جهة الشمال، وذلك في كل أقطار الدنيا، فهذا وجه يعمم لك ألفاظ الآية، وفيه تجوز واتساع، ومن ذهب إلى أن اليمين من غدوة النهار إلى الزوال، ثم يكون من الزوال إلى المغرب عن الشمال - وهو قول قتادة، وابن جريج - فإنما يترتب له ذلك فيما قدره مستقبل الجنوب والاعتبار في هذه الآية عندي إنما هو في مستقبل الجنوب، وما قاله بعض الناس من «أن اليمين أول دفعة للظل بعد الزوال، ثم الآخر إلى الغروب هي عن الشمائيل، ولذلك جمع الشمائيل وأفرد اليمين» فتخليط من القول يبطل من جهات، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا صليت الفجر كان ما بين مطلع الشمس إلى مغربها

ظلاً، ثم جعل الله عليه الشمس دليلاً فقبض إليه الظل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا فأول ذرور الشمس فالظل عن يمين مستقبل الجنوب، ثم يبدأ الانحراف فهو عن الشمائيل، لأنها حركات كثيرة وظلال مقطعة، فهي شمائل كثيرة، وكان الظل عن اليمين متصلاً واحداً عاماً لكل شيء، وفي هذا القول تجوز في ﴿يَنْفَرُونَ﴾، وعلى ما قدرنا من استقبال الجنوب يكون الظل أبداً مندفعاً عن اليمين إلى الزوال، فإذا تحرك بعد فارق الأيمان جملة وصار اندفاعه عن الشمائيل، وقالت فرقة: الظلال هنا: الأشخاص، وهي المراد أنفسها، والعرب تُعَبِّرُ أحياناً عن الأشخاص بالظلال، ومنه قول عبدة بن الطيب:

إِذَا نَزَلْنَا نَصَبْنَا ظِلُّ أَخِيَّةِ
وَقَارَ لِلْقَوْمِ بِاللَّحْمِ المَرَاجِيلُ
وإنما تُنصب الأخبية، ومنه قول الآخر:

تَتَّبِعُ أَفْيَاءَ الظُّلَالِ عَشِيَّةً
.....

أي أفياء الأشخاص، وهذا كله محتمل غير صريح، وإن كان أبو علي قد قرره.

واختلف المتأولون في هذا السجود - فقالت فرقة: هو سجود عبادة حقيقية، وذكر الطبري عن الضحاک قال: إذا زالت الشمس سجد كل شيء قِبَلِ القِبلة من بيتٍ أو شجر، ولذلك كان الصالحون يستحبون الصلاة في ذلك الوقت، وقال مجاهد: إنما تسجد الظلال لا

الأشخاص، وقالت فرقة - منهم الطبري -: عبّر عن الخضوع والطاعة وميلان الظلال ودورانها بالسجود، كما يقال للمشير برأسه نحو الأرض على جهة الخضوع: ساجد، ومنه قول الشاعر:

فَكَلَّمْتَاهُمَا حَرْثًا وَأَسْجَدَ رَأْسَهَا
كَمَا سَجَدَتْ نَصْرَانَةٌ لَمْ تَخْنَفِ
و «الدأخر»: المتصاغر المتواضع، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

قَلَّمْ يَبْقُ إِلَّا دَاخِرٌ فِي مُحْخِيسٍ
وَمُنْجِحٌ فِي غَيْرِ أَرْضِكَ فِي جُحْرِ
٤٩ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل:

وقعت [ما] في هذه الآية لما يعقل، قال الزجاج: قوله: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾ يعم ملائكة السماء وما في السحاب وما في الجو من حيوان، وقوله: ﴿وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ﴾ يبيّن، ثم ذكر ملائكة الأرض في قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَالْمَلَائِكَةَ﴾ هو الذي يعم ملائكة السموات والأرض، وما قبل ذلك لا يدخل فيه ملك، إنما هو الحيوان أجمع. وقوله: ﴿مِنْ قُوَّهِمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما الفوقية التي يوصف الله بها تعالى، فهي فوقية القدر والعظمة والقهر والسلطان، والآخر أن يتعلق قوله: ﴿مِنْ قُوَّهِمْ﴾ بقوله: ﴿يَخَافُونَ﴾، أي: يخافون عذاب ربهم من فوقهم، وذلك أن عادة عذاب الله للأمم إنما يأتي من جهة فوق. وقوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَا بُرِّمُونَ﴾، أمّا المؤمنون فيحسب الشرع والطاعة، وأما غيرهم من

الحيوان فبالتسخير والقدر الذي يسوقهم إلى ما تقدم من أمر الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ﴾ نهي من الله تبارك وتعالى عن الإشراف به، ومعناها: لا تتخذوا إلهين اثنين فصاعداً بما ينصه قوله: ﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَجِدٌ﴾،

قالت فرقة: المفعول الأول لـ ﴿تَتَّخِذُوا﴾ قوله: ﴿إِلَهَيْنِ﴾، وقوله: ﴿إِثْنَيْنِ﴾ تأكيد وبيان بالعدد، وهذا معروف في كلام العرب، أن يبيّن

المعدود بذكر عدده تأكيداً، ومنه قوله: ﴿إِلَهُ وَجِدٌ﴾، لأن لفظة الإله تقتضي الانفراد، وقال قوم منهم: المفعول الثاني محذوف، تقديره: مفرداً، أو معبوداً، أو مطاعاً، ونحو هذا، وقالت فرقة: المفعول الأول قوله: ﴿إِثْنَيْنِ﴾، والثاني قوله: ﴿إِلَهَيْنِ﴾، وتقدير الكلام: لا تتخذوا اثنين إلهين، ولا يحتاج إلى اعتذار بالتأكيد، ومثله قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي ذُرِّيَّةً وَكَيْلًا مِّنْ حَسْبِنَا مَعَ نُوحٍ﴾، ففي هذه الآية - على بعض الأقوال - تقديم المفعول الأول لـ ﴿تَتَّخِذُوا﴾، وقوله: ﴿وَإِنِّي﴾ منصوب بفعل مضمر تقديره: فارهبوا إِيَّايَ فارهبون، ولا يعمل فيه الفعل الظاهر، لأنه قد عمل في الضمير المتصل به.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَأْتِ السَّمَوَاتِ﴾

لِيَكْفُرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَمُوتُوا مِمَّا قَسَمْتُمْ لَمَّا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَفَعْتُمْ تَاللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكْتُمُوا فَعَرُونَ ﴿٤٩﴾ وَيَعْلَمُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سَوَاءً وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِذْ أَبَشَرْنَا أَعْدَهُمْ بِالْأُنثَىٰ كُلِّهَا وَوَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ﴿٥١﴾ يَتَوَرَّى مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ أَيَسْكَرُ عَلَىٰ هُونٍ أَوْ يَسْتَكْبِرُ فِي الْغُرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٢﴾ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مِثْلُ الْسَّوءِ وَلِلَّهِ الْعَمَلُ الْأَعْلَىٰ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٣﴾ لَوْ رُؤِبُوا جِدَّ النَّانَا مِنْ بَطْنِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى إِذْ أَجَاءَهُمْ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَجِرُّونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِرُونَ ﴿٥٤﴾ وَيَعْلَمُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْمُشْرِكِينَ لَاجِرِمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّكْرَمُونَ ﴿٥٥﴾ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ آلِ عَمْرٍؤَ مِنْ قَبْلِكَ فَرِيقَ مِّنْهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلْتُمْ لَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾

الآية، الواو في قوله: ﴿وَلَمْ﴾ عاطفة على قوله: ﴿إِلَهُ وَجِدٌ﴾، وجائز أن تكون واو ابتداء، و [ما] عامة لجميع الأشياء مما يعقل وما لا يعقل، والسموات هنا كل ما ارتفع من الخلق في جهة فوق، فيدخل فيه العرش والكرسي. و «الذبت»: الطاعة والملك كما قال زهير:

.....
في دين عمرو وحالت بيننا قدك
في طاعته وملكه. و «الواصب»: الدائم، قاله ابن عباس، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك، وقال الشاعر:
لا أبتغي الحمد القليل بقاؤه
يؤمأ بذم الذمير أجمع واصبا
ومنه قول حسان بن ثابت:

عَبَّرْتُهُ السَّرِيحُ تَسْنِفِي بِهِ
وَهَزَيْمٌ رَّغْدُهُ وَاصِبٌ
وقالت فرقة: هو من الوصب وهو

التعب: أي: وله الدين على تعبه
وَمَشَقَّتِيهِ، فـ «واصب» - على هذا -
جارٍ على النسب، أي: ذَا وَصَبٍ،
كما قال:

... أَضْحَى فُوَادِي بِهِ فَايْتَنَا
وهذا كثير، وقال ابن عباس -
رضي الله عنهما - أيضاً: الواصبُ:
الواجب، وهذا نحو قوله:
الواصب: الدائم.

وقوله تعالى: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ﴾ توبيخ
في لفظ استفهام، ونصب ﴿عَيَّرَ﴾ بـ
﴿تَنفُونَ﴾، لأنه فعل لم يعمل في
سوى ﴿عَيَّرَ﴾ المذكورة.

والواو في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَكُمُ﴾
يجوز أن تكون واو ابتداء، ويجوز
أن تكون واو الحال ويكون الكلام
متصلاً بقوله: ﴿أَفَعَيَّرَ اللَّهُ نَفُونَ﴾،
كأنه يقول على جهة التوبيخ: أَتَنْفُونَ
غير الله ولا يُنعم عليكم سواء؟ والباء
في قوله: ﴿بِكُمُ﴾ متعلقة بفعل
تقديره: وما نزل أو ألم، ونحو هذا،
و﴿وَمَا﴾ بمعنى «الذي»، والفاء في
قوله: ﴿فِيَنَّ اللَّهُ﴾ دخلت بسبب
الإبهام الذي في [مَا] التي هي بمعنى
«الذي»، فأشبه الكلام الشرط،
ومعنى الآية التذكير بأن الإنسان في
جليل أمره ودقيقه إنما هو في
نعمة الله وأفضاله، إيجاده داخل في
ذلك فما بعده، ثم ذكر تعالى بأوقات
المرض لِيَكُونَ الإنسان الجاهل يُحسُّ
فيها قدر الحاجة إلى لطف الله،
و«الضُرُّ» - وإن كان يعُمُّ كل مكروه -
فأكثر ما يجيء عبارة عن أرزاء
البدن. و﴿يَجْتَرُونَ﴾ معناه ترفعون
أصواتكم باستغاثة وتضرع، وأصله

من جوار الثور والبقرة وصياحهما،
وهو عند جهد يلحقهما، أو في أثر
دم يكون من بقر يُذبح، فذلك
الصراخ يشبه به انتحاب الداعي
المستغيث بالله إذا رفع صوته، ومنه
قول الأعشى:

يُرَاوِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيحِ
لِكَ طَوْرًا سُجُودًا وَطَوْرًا جُؤَارًا
وأشد أبو عبيدة:

بِأَيْبِلِ كَلَّمَا صَلَّى جَا زُ
والأصوات تأتي غالباً على فعال أو
فَعِيل. وقرأ الزهري: ﴿تَجْرُونَ﴾
بفتح الجيم دون همز، حذف
وألقيت حركتها على الجيم، كما
خُفِّفَ تَسَلُونَ من تَسَالُونَ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ
عَنكُمُ﴾، قرأ الجمهور: ﴿كَشَفَ﴾
وقرأ قتادة: ﴿كاشف﴾، وَوَجَّهَهَا أَنَّهُ
فاعل من واحد بمعنى «كشف»،
وهي ضعيفة. و«الفریق» هنا يراد به
المشركون الذين يرون أن للأصنام
أفعالاً من شفاء المرضى وجلب
الخير ودفع الضر، فهم إذا
شفاهم الله عظموا أصنامهم وأضافوا
ذلك الشفاء إليها.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ يجوز أن
تكون اللام لام الصيرورة، أي:
فصار أمرهم ليكفروا، وهم لم
يقصدوا بأفعالهم تلك أن يكفروا،
ويجوز أن تكون لام أمرٍ على معنى
التهديد والوعيد، كقوله تعالى:
﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، والكفر هنا
يحتمل أن يكون كفر الجحد بالله
والشرك، ويؤيده قوله: ﴿رَبِّهِمْ
يُشْرِكُونَ﴾، ويحتمل أن يكون كفر

النعمة، وهو الأظهر؛ لقوله: ﴿يَمَّا
ءَآيَشْتَهُرُ﴾، أي: بما أنعمنا عليهم،
وقرأ الجمهور: ﴿فَتَتَعَوَّا فَسَوْفَ
تَعْلَمُونَ﴾ على معنى: قل لهم يا
محمد، وروى أبو رافع عن
النبي ﷺ: ﴿فَيَمْتَعُوا فَسَوْفَ
يَعْلَمُونَ﴾ بياء من تحت مضمومة، و
﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ على معنى ذكر
الغائب، وكذلك في الروم، وهي
قراءة أبي العالية، وقرأ الحسن:
﴿فَتَتَعَوَّا﴾ كالجماعة على الأمر
﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ بالياء على ذكر
الغائب، كقراءة أبي رافع، فيكون
﴿يَمْتَعُوا﴾ في قراءة أبي رافع في
موضع نصب عطفاً على
﴿يَكْفُرُونَ﴾ إن كانت اللام لام
(كفي)، ونصباً بالفاء في جواب الأمر
إن كانت لام الأمر، ومعنى «التمتع»
في هذه الآية: بالحياة الدنيا التي
مصيرها إلى الفناء والزوال.

٥٦ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل:
الضمير في ﴿يَعْلَمُونَ﴾ للكفار،
ويريد بـ ﴿لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾ الأصنام،
أي: لا يعلمون فيها حجة ولا
برهاناً، ويحتمل أن يريد بقوله:
﴿يَعْلَمُونَ﴾ الأصنام، أي: يجعلون
للجمادات - وهي لا تعلم شيئاً -
نصيلاً، فالمفعول محذوف، ثم عيّر
عنهم بعبارة من يعقل بحسب مذهب
الكفار الذين يسندون إليها ما يسند
إلى من يعقل، وبحسب أنه إسناد
منفي، وهذا الاحتمال كله ضعيف.
و«النصيب» المشار إليه هو ما كانت
العرب سنّته من الذبح لأصنامها،
والإهداء إليها، والقسم لها من
الغلات.

ثم أمر الله تبارك وتعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يُقسم لهم أنهم سيُسنألون عن افتراءهم في أن تلك الشئ هي الحق الذي أمر الله به كما قال بعضهم، و«الفريضة» اختلاق الكذب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُونَ لِرَبِّهِمْ كَيْدًا﴾ الآية. هذا تعديد لتبقيح قول الكفار: «الملائكة بنات الله»، وردة عليهم من وجهين: أحدهما نسبة النسل إلى الله تعالى عن ذلك، والآخر أنهم نسبوا من النسل الأخص المكره عندهم، و [ما] في قوله: ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ مرتفعة بالابتداء، والخبر في المجرور، وأجاز الفراء أن تكون في موضع نصب عطفاً على ﴿الْبَنَاتِ﴾، والبصريون لا يجيزون هذه الآية من باب: ضربني، وكان يلزم عندهم أن يكون: «ولأنفسهم ما يشتهون»، والمراد بـ ﴿مَا يَشْتَهُونَ﴾ الذُّكْرَانُ من الأولاد.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بُرِّرَ أَحَدُهُمْ﴾ الآية. لما صرح بالشيء المبشر به حسن ذكر البشارة فيه، وإلا فالبشارة مطلقة لا تكون إلا في خير. وقوله: ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ مُسَوِّدًا﴾ عبارة عن العبوس والقطوب الذي يلحق وجه المغموم، وقد يعلو وجه المغموم سواد وزيد، وتذهب شراقة، فلذلك يذكر له السواد. و﴿كَظِيمًا﴾ بمعنى كاظم كعليم وعالم، والمعنى أنه يخفي وجهه وهمة بالأشئ.

وقوله: ﴿يَتَوَزَّى مِنَ الْقَوْرِ﴾ الآية، هذا التوارى الذي ذكره الله تعالى إنما هو بعد البشارة بالأشئ، وما يحكى أن الرجل منهم كان إذا أصاب امرأته الطلق توارى حتى يُعبر

بأحد الأمرين فليس المراد في الآية، ويُشبه أن ذلك كان لكي: إن أخبر بسأز خرج، وإن أخبر بسوء بقي على تواريه ولم يحتج إلى إحدائه، ومعنى ﴿يَتَوَزَّى﴾: يتغيب، وتقدير الكلام: يتوارى من القوم مدبراً أينسكه أم يدسه؟ وقرأت فرقة: ﴿أَيْسِيكُهُ﴾ على لفظ [ما]، ﴿أَرَّ يَدْسُهُ﴾ على معنى الأنثى، وقرأ الجحدري: ﴿أَيْسِيكُهَا﴾ ﴿أَرَّ يَدْسُهُ﴾ على معنى الأنثى في الموضعين. وقرأ الجمهور: ﴿عَلَى هُونٍ﴾ بضم الهاء، وقرأت فرقة بفتحها، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿عَلَى هَوَانٍ﴾ وهي قراءة عاصم الجحدري، وقرأ الأعمش: ﴿عَلَى سُوءٍ﴾، ومعنى الآية: يُدَبَّر: أينسك هذه الأنثى على هوان يتحملة وهم يتخذ له أم يئدها فيدفنها حيّة، فهو الدُسُّ في التراب. ثم استفتح الله تعالى الإخبار عن سوء فعلهم وحكمهم بهذا في بناتهم ورزق الجميع على الله.

﴿٦٠﴾ - ﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: ﴿يَتَلَّ﴾ هنا بمعنى صفة، أي: لهؤلاء صفة السوء، والله الوصف الأعلى، وهذا لا تضطر إليه؛ لأنه خروج عن اللفظ، بل قوله: ﴿يَتَلَّ﴾ على حاله، وذلك أنهم إذا قالوا: «إن البنات لله» فقد جعلوا له مثلاً فالبنات من البشر، وكثرة البنات عندهم مكروه ذميم، فهو المثل السوء الذي أخبر الله تعالى أنه لهم وليس في البنات فقط، لكن لما جعلوه هم في البنات جعله هو لهم على الإطلاق في كل سوء، ولا غاية بعد عذاب النار.

وقوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَى﴾ على الإطلاق أيضاً، أي: الكمال المستقر، وقال قتادة: المثل الأعلى: لا إله إلا الله. وباقي الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَوَازِدُ اللَّهُ النَّاسَ﴾ الآية. ﴿يَوَازِدُ﴾ هو يُفَاعِلُ من أخذ، كأن أحد المؤاخذين يأخذ من الآخر مأخذاً كما هي في حق الله تعالى، أو بإذابة من جهة المخلوقين، فيأخذ الآخر من الأول بالمعاقبة والجزاء، وهي لغتان: وَآخَذَ، وَآخَذَ، وَيُوَازِدُ يصح أن تكون من آخذ، وأما كونها من واخذ فبين، والضمير في ﴿عَلَيْهَا﴾ عائد على الأرض، ويمكن ذلك مع أنه لم يجر لها ذكر لشهرتها، ويمكن الإشارة إليها كما قال لبيد في الشمس:

حَتَّى إِذَا أَلْقَتْ يَدَا فِي كَافِرٍ
وَأَجَسَ عَوْرَاتِ الْبِلَادِ ظَلَامُهَا
ومنه قوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، ولم يجر للشمس ذكر. وقوله: ﴿بَيْنَ دَابَّةٍ﴾، ﴿بَيْنَ﴾ دخلت لاستغراق الجنس، وظاهر الآية أن الله تعالى أخبر أنه لو أخذ الناس بعقاب يستحقونه بظلمهم في كفرهم ومعاصيهم لكان ذلك العقاب يهلك عنه جميع ما يدب على الأرض من حيوان، فكأنه بالقحوظ أو بأمر يصيبهم من الله تعالى، وعلى هذا التأويل قال بعض العلماء: كاد أن يجعل أن يهلك بذنوب بني آدم، ذكره الطبري، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليَهْزُلُ الحوت في السماء والطير في الهواء بذنوب

﴿جَمْرًا﴾، وقرأ الجمهور: ﴿أَنَّ لَهُمْ﴾ بفتح الهمزة، وإعرابها بحسب تقدير ﴿جَمْرًا﴾، فمن قَدَرها بـ «كسب فعلهم» فهو نصب، ومن قَدَرها بـ «وجب» فهو رفع، وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر: ﴿إِنَّ﴾ بكسرة الهمزة، وقرأ السبعة سوى نافع: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بفتح الراء خفيفة، ومعناه: مقدمون إلى النار والعذاب، وهي قراءة الحسن، والأعرج، وأصحاب ابن عباس، وقد رويت عن نافع، وهو مأخوذ من «فرط الماء» وهم القوم الذين يتقدمون إلى المياه لإصلاح الذلاء والأرشاء، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿أنا فرطكم على الحوض﴾، ومنه قول القطامي:

واستعجلونا وكانوا من صحابتنا
كما تَعَجَّلَ فَرَطٌ لِيُورِّدَا
وقالت فرقة: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ معناه: مُخْلَفُونَ متروكون في النار مُشْتَبِهُونَ فيها، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد، وابن هند، وقال آخرون: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ معناه: مُبْعَدُونَ في النار، وهذا قريب من الذي قبله، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بكسر الراء وتشديدها وفتح الفاء، ومعناه: مُقَصَّرُونَ في طاعة الله تبارك وتعالى، وقد روي فتح الراء مع شُدْها، وقرأ نافع وحده: ﴿مُفْرَطُونَ﴾ بكسر الراء وخفتها، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وأبي رجاء، وشيبة بن نصاح، وأكثر أهل المدينة، أي: متجاوزون للحُدِّ في معاصي الله.

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية ضرب مثل لهم بمن تقدم، وفي ضمنها وعيد لهم وتأنيس

ظلموا منكم خاصة، وقيل للنبي ﷺ: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث. ثم لا بد من تعلق ظلم ما بالأبرياء؛ وذلك بترك التغيير ومداجنة أهل الظلم ومدامرة جوارهم، و«الأجل المُسمَى» في هذه الآية هو بحسب شخص شخص، وفي معنى الآية ضمائر كثيرة تركتها اختصاراً وإيجازاً.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَكْرَهُونَ﴾ يريد البنات، و[ما] في هذا الموضع تقع

لمن يعقل من حيث هو صنّف، وقرأ الحسن: ﴿الْأَسْتَهْمُ الْكُذِبُ﴾ بسكون التون خوفاً من توالي الحركات، وقرأ الجمهور: ﴿الْكَذِبُ﴾ بكسر الذال وفتح الباء، ف[أَنَّ] بدل منه، وقرأ معاذ بن جبل رضي الله عنه وبعض أهل الشام بضم الكاف والذال والباء على صفة الألسنة، و[أَنَّ] مفعولة بـ «تَصِفُ». و﴿الْمَسِيُّ﴾ قال مجاهد، وقتادة: يريد المذكور من الأولاد، وهو الأسبق من معنى الآية، وقالت فرقة: يريد الجئة، ويؤيد هذا قوله: ﴿لَا جَرَءَ أَنْ لَمْ تَنَارَ﴾، ومعنى الآية على هذا التأويل: يجعلون لله المكروه ويدعون مع ذلك أنهم يدخلون الجنة، كما تقول لرجل: أنت تعصى الله وتقول - مع ذلك - إنك تنجو، أي: إن ذلك لبعيد مع هذا، ثم حكم عليهم بعد ذلك بالنار، وقد تقدم القول في «لا

وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٦٣﴾ وَإِنَّ لِكُلِّ فِرْقٍ لَأَنْفَعٍ لِعَمَلِهِمْ فِئْتِمٌ كَرِيمًا فِي طُوبَىٰ مِنْ بَيْنِ فِرْقٍ وَدَمِيرًا خَالِصًا سَائِبًا لِلشَّرِّ بَيْنَ ﴿٦٤﴾ وَمِنْ نَمْرَاتٍ النَّجِيلِ وَالْأَعْنَبِ لِنُحْدُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٥﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ اللَّيْلِ مَبُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ طُوبَىٰ بِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَفْكُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يُؤَوِّقُكُمْ وَمُنكِرٌ بِرَبِّكَ أَزْدَلُ الْعُمُرِ لِمَن لَّا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٦٨﴾ وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَأْدِي رِزْقِهِمْ عَلَيَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهَرِفَ فِيهِ سَوَاءٌ أَلْفَيْعَمَةٍ أَللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٦٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْوَابِكُمْ بَيْنَ وَبَيْنَ وَحَفَدةً وَرَزَقَكُمْ مِنْ الطَّيِّبَاتِ أَلْيَا لِنِطْلٍ يُؤْمِنُونَ وَيَعْتَمِدُونَ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

٢٧٤

العصاة»، وسمع أبو هريرة رجلاً يقول: «إن الظالم لا يهلك إلا نفسه»، فقال أبو هريرة: «إن الله ليهلك الجباري في وكورها هزراً بالذنوب الظلمة»، وقد نطقت الشريعة في أخبارها بأن الله أهلك الأمم بزها وعاصيها بذنوب العصاة منهم. وقالت فرقة: قوله: ﴿مِنْ دَابَّتٍ﴾ يريد: من أولئك الظلمة فقط، وبدل على هذا التخصيص أن الله تعالى لا يعاقب أحداً بذنوب أحد، واحتجت بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِدُ وَازِرَةً وَتَزِدُ أُخْرَىٰ﴾، وهذا كله لا حجة فيه؛ وذلك أن الله تعالى لا يجعل العقوبة تقصد أحداً بسبب إذناب غيره، ولكنه إذا أرسل عذاباً على أمة عاصية لم يمكن البريء التخلص من ذلك العذاب، فأصابه العذاب لا بأنه له مجازاة، ونحو هذا قوله: ﴿وَأَنفَعُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبُ الَّذِينَ

للنبي ﷺ، وقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ يحتمل أن يريد به يوم الإخيار بهذه الآية، وهو بعد موت أولئك الأمم المذكورة، أي: لا ولي لهم مذ ماتوا واحتاجوا إلى الغوث إلا الشيطان، ويحتمل أن يريد يوم القيامة، والألف واللام فيه للعهد، أي: هو وليهم في اليوم المشهود، وهو وقت الحاجة والفصل، ويحتمل أن يريد: فهو وليهم مدة حياتهم ثم انقطعت ولايته بموتهم، وعبر عن ذلك بقوله: ﴿الْيَوْمَ﴾ تمثيلاً للمخاطبين بمدة حياتهم، كما تقول لرجل شاب تحضه على طلب العلم: يا فلان لا يدرس أحد من الناس إلا اليوم، تريد: في مثل سنك هذه، فكأنه قال لهؤلاء: فهو وليهم في مثل حياتكم هذه، وهي التي كانت لهم، وسائر الآية وعيد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ يريد القرآن، وقوله: ﴿إِلَّا لِإِثْنَيْنِ﴾ في موضع المفعول من أجله، وقوله: ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً﴾ عطف عليه، كأنه قال: إلا للبيان، أي لأجل البيان، وقوله: ﴿الَّذِي أَخْلَقُوا بِهِ﴾ لفظ عام لأنواع كفر الكفرة من الجحد بالله تعالى وبالقيامة، أو بالثبوت وغير ذلك، ولكن الإشارة في هذه الآية إنما هي لجحدهم الربوبية، وتشريكهم الأصنام في الإلهية، يدل على ذلك أخذه بعد هذا في إثبات العبر الدالة على أن الأنعام وسائر الأفعال إنما هي من الله تعالى لا من أصنام.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ الآية. لما أمر تبيين ما اختلف

فيه نص العبر المؤدية إلى بيان أمر الربوبية، فبدأ بنعمة المطر التي هي أبين العبر، وهي ملاك الحياة، وفي غاية الظهور، لا يخالف فيها عاقل، وحياة الأرض وموتها استعارة وتشبيه بالحيوان؛ إذ هي هامة غبراء غير مثبتة فهي كالصبي، وإذ هي مثبتة مخضرة مهترئة رابية فهي كالحي.

وقوله: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ يدل على ظهور هذا المعبر فيه وبيانه؛ لأنه لا يحتاج إلى تفكير ولا نظر قلب، وإنما يحتاج المنبه إلى أن يسمع القول فقط.

﴿وَالْأَنْعَامِ﴾ هي الأصناف الأربعة: الإبل والبقر والضأن والمعز، والعبرة: الحال المعبر فيها، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن مسعود - بخلاف - والحسن، وأهل المدينة: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾ بفتح النون، من أسقى يسقي، وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم بضم النون، وهي قراءة الكوفيين وأهل مكة، وقال بعض أهل اللغة: هما لغتان بمعنى واحد، وقالت فرقة: تقول لمن سقيته بالسفة أو من مرة واحدة: سَقَيْتُهُ، وتقول لمن تُجِرُ سَقِيَهُ أو تمنحه شرباً: أَسَقَيْتُهُ، وهذا قول من قرأ: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾، لأن ألبان الأنعام من المُسْتَجِرِ للبشر، وأنشد من قال: «إنهما لغتان بمعنى» قول لبيد:

سَقَى قَوْمِي بَنِي بَدْرٍ وَأَسَقَى
نَسِيرًا وَالْقَبَائِلَ مِنْ هَلَالِ
وذلك لازم؛ لأنه لا يدعو لقومه بالقليل. وقرأ أبو رجاء: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾ بالياء، أي: يسقيكم الله، وقرأت

فرقة: ﴿نَسْقِيكُمْ﴾ بالتاء، وهي ضعيفة، وكذلك اختلف القراء في سورة المؤمنين، وقوله: ﴿يَتَأْتِي الْبُحْرَيْنِ﴾ الضمير عائد على الجنس، وعلى المذكور، كما قال الشاعر:

مِثْلُ الْفَرَاخِ نُسِفَتْ حَوَاصِلُهُ
وهذا كثير، كقوله سبحانه: ﴿كَلَّا إِنَّمَا تَدْكُرُ ۖ فَمَنْ شَاءَ ذَكَّرْهُ﴾، وقيل: إنما قال: ﴿بُحْرَيْنِ﴾ لأن الأنعام والتعم واحد فرد، والضمير على معنى التعم، وقالت فرقة: الضمير عائد على «البعض»؛ لأن الذكور لا ألبان فيها، فكأن العبرة إنما هي في بعض الأنعام. و«الْفَرْثُ»: ما ينزل إلى الأمعاء، و«السَائِغُ»: المُسَهَّلُ في الشرب اللذيذ، وقرأت فرقة: ﴿سَيْغًا﴾ بشد الياء، وقرأ عيسى الشفقي: ﴿سَيْغًا﴾ بسكون الياء، وهي تخفيف من «سَيْغ» كَمَيْتٍ وَهَيْزٍ، وليس وزنها فعلاً؛ لأن اللفظة آوية، ففعل منها «سَوَّغ»، ورُوي أن اللبن لم يشرق به أحد قط، روي ذلك عن النبي ﷺ.

(١٧) - (١٨) تفسير قوله عز وجل: قال الطبري: التقدير: ومن ثمرات النخيل والأعناب ما تتخذون. وقالت فرقة: التقدير: ومن ثمرات النخيل والأعناب شيء تتخذون منه، ويجوز أن يكون قوله: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ عِطْفًا﴾ على ﴿الْأَنْعَامِ﴾، أي: ولكم من ثمرات النخيل والأعناب عبرة، ويجوز أن يكون عطفًا على [بمأ]، أي: ونسقيكم أيضاً مشروبات من ثمرات. و«السُكَّرُ»: ما يُسَكَّرُ، هذا هو المشهور في اللغة، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت هذه

الآية قبل تحريم الخمر، وأراد «بالسُّكْرِ» الخمر، و«بالرزق الحسن» جميع ما يُشرب ويؤكل حلالاً من هاتين الشجرتين، فالحَسَنُ ها هنا الحلال، وقال هذا القول ابن جبير، وإبراهيم، والشعبي، وأبو رزين، وقال الحسن بن أبي الحسن: ذكر الله نعمته في السُّكْرِ قبل تحريم الخمر، وقال الشعبي، ومجاهد: السُّكْرُ: المايح من هاتين الشجرتين كالخَلِّ والرُّبِّ والثَّيْبِذِ، والرزق الحسن: العنب والتمر، قال الطبري: والسُّكْرُ أيضاً في كلام العرب: ما يطعم، ورجح الطبري هذا القول. ولا يدخل الخمر فيه، ولا نسخ من الآية شيء، وقال بعض الفرقة التي رأَت السُّكْرَ الخَمْرَ: إن هذه الآية منسوخة بتحريم الخمر، وفي هذه المقالة درك؛ لأن النسخ إنما يكون في حكم مستقر مشروع، وزوي عن النبي ﷺ أنه قال: «حُرِّمَتِ الخَمْرُ لِمَينِها، والسُّكْرُ من غيرِها»، هكذا روي، والرواية الصحيحة بفتح السين والكاف، أي: جميع ما يُسكِر منه حُرِّمَ على حدِّ تحريم الخمر. قليله وكثيره، ورواه العراقيون و«السُّكْرُ» بضم السين وسكون الكاف، وهو مبني على فقههم من أن ما أسكر كثيره من غير خمر العنب قليله حلال، وباقى الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ الْأَقْلَامِ﴾ الآية. الوحي في كلام العرب إلقاء المعنى من الموجي إلى الموحى إليه في خفاء، فمنه الوحي إلى الأنبياء برسالة الملك، ومنه

وحي الرؤيا، ومنه وحي الإلهام وهو الذي ها هنا باتفاق المتأولين، والوحي أيضاً بمعنى الأمر، كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا﴾، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿إِلَى النَّحْلِ﴾ بفتح الحاء، و﴿أَنَّ﴾ في قوله: ﴿أَنَّ أَنْجِدِي﴾ مفسرة. وقد جعل الله بيوت النحل في هذه الثلاثة: إمَّا في الجبال وكواها، وإمَّا في متجوف الأشجار، وإمَّا فيما يعرش ابن آدم من الأجاج والحيطان ونحوها. «وعَرَشَ» معناه: هيأ، وأكثر ما يستعمل فيما يكون من اتفاق الأغصان والخشب وترتيب ظلالها، ومنه العريش الذي صُنِعَ لرسول الله ﷺ يوم بدر، ومن هذا هي لفظة العَرَشِ، ويقال: عَرَشَ يَغْرِشُ ويَغْرِشُ بكسر الراء وضمها، وقرأ ابن عامر بالضم، وسائرهم بالكسر، واختلف عن عاصم، وجمهور الناس على الكسر، وقرأ بالضم أبو عبد الرحمن، وعُبَيْدُ بن نضلة، وقال ابن زيد في قوله: ﴿بِئْرَثُونَ﴾ قال: الكروم، وقال الطبري: ﴿وَمِمَّا بِيْرَثُونَ﴾ يعني: ما بينون من السقوف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا منهما تفسير غير مُتَقَنَّ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ كَلِمَةٌ مِنْ كُلِّ الْأَثَرِ﴾ الآية. المعنى: ثم ألهمها أن كَلِمَةٍ، بعطف ﴿كَلِمَةٍ﴾ على ﴿أَنْجِدِي﴾، و﴿وَمِنْ﴾ للتبعيض، أي: كلِّي جزءاً أو شيئاً من كل الثمرات، وذلك أنها إنما تأكل الثَّوَارَ من الأشجار. و«السُّبُلُ»: الطُّرُقُ، وهي مسالكها في الطيران وغيره، وأضافها إلى الرَّبِّ من حيث هي ملكة

وحلقه، أي: التي يسر لك ربك. وقوله: ﴿ذَلَّلًا﴾ يحتمل أن يكون حالاً من ﴿أَقْلَامِ﴾، أي: مطبوعة منقادة لما يُسْرَتُ له، قاله قتادة، وقال ابن زيد: فهُم يخرجون بالنحل ينتجعون، وهي تتبعهم، وقرأ: ﴿أَوْ لَمْ يَزُوا أَنَا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا﴾ إلى قوله: ﴿يَأْكُلُونَ﴾، ويحتمل أن يكون حالاً من «السُّبُلِ»، أي: مُسَهَّلَةً مستقيمة، قال مجاهد: لا يتوغر عليها سبيل تسلكه.

ثم ذكر تبارك وتعالى - على جهة تعديد النعمة والتنبيه على العبرة - أمر العسل في قوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا﴾، وجمهور الناس على أن العسل يخرج من أفواه النحل، ورد عن علي بن أبي طالب طالسب رضي الله عنه أنه قال في تحقيره للدنيا: «أشرف لباس ابن آدم فيها لعاب دودة، وأشرف شرابه رجيع نحلة». فظاهر هذا أنه من غير الفم، واختلاف الألوان في العسل بحسب اختلاف النحل والمراعي، وقد يختلف طعمه بحسب اختلاف المرعي، ومن هذا المعنى قول زينب رضي الله عنها للنبي ﷺ: «جَرَسَتْ نَحْلُهُ الْمَرْفُطُ»، حين شبهت رائحته برائحة المغافير.

وقوله: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾، الضمير للعسل، قاله الجمهور: ولا يقتضي العموم في كُلِّ عِلَّةٍ، وفي كُلِّ إنسان، بل هو خبر عن أنه يشفي كما يشفي غيره من الأدوية في بعض، وعلى حالٍ دون حال، ففي الآية إخبارٌ منبّه على أنه دواءٌ لما كثر الشفاء به وصار خليطاً ومعيناً للأدوية

والأشربة والمعاجن، وقد روي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه كان لا يشكو شيئاً إلا تداوى بالعسل، حتى أنه كان يدهن به الدممل والقرصة ويقرأ: ﴿فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يقتضي أنه يرى الشفاء به على العموم، وقال مجاهد: الضمير للقرآن، أي: فيه شفاء، وذهب قوم من أهل الجهالة إلى أن هذه الآية إنما يراد بها أهل البيت من بني هاشم، وأنهم النحل، وأن الشراب القرآن والحكمة، وقد ذكر بعضهم هذا في مجلس المنصور أبي جعفر العباسي، فقال له رجل ممن حضر: جعل الله طعامك وشرابك ما يخرج من بطون بني هاشم، فأضحك الحاضرين وأبهت الآخر، وظهرت سخافة قوله، وباقي الآية بين:

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا تنبيه على الاعتبار في إيجادنا بعد العدم وإماتتنا بعد ذلك، ثم اعترض بمن ينكس من الناس لأنهم موضع عبرة، و«أردل العمر»: آخره الذي تفسد فيه الحواس ويختل النطق، وخص ذلك بالرديلة - وإن كانت حالة الطفولة كذلك - من حيث كانت هذه لا رجاء معها، والطفولة إنما هي بدأة الرجاء معها متمكن، وقال بعض الناس: أول أردل العمر خمس وسبعون سنة، روي ذلك عن علي رضي الله عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا في الأغلب، وهو لا ينحصر إلى مدة معينة، وإنما هو بحسب إنسان وإنسان. والمعنى: ومنكم من

يرتد إلى أردل عمره، ورُب من يكون ابن خمسين سنة وهو في أردل عمره، ورُب ابن مائة أو تسعين وليس في أردل عمره، واللام في ﴿يَكْبَلًا﴾ يشبه أن تكون لام صيرورة، وليس بيّن، والمعنى: ليصير أمره بعد العلم بالأشياء إلى ألا يعلم شيئاً، وهذه عبارة عن قلة علمه، لا أنه لا يعلم شيئاً البتة، ولم تحل (لا) بين كي ومعمولها لتصرفها، وأنها قد تكون زائدة. ثم قرر تبارك وتعالى علمه وقدرته التي لا تتبدل، ولا تحيلها الحوادث، ولا تتغير.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ﴾ إخبار يراد به العبرة، وإنما هي قاعدة بني المثل عليها، والمثل هو أن المفضلين لا يصح منهم أن يساهموا ممالئهم فيما أعطوا حتى تستوي أحوالهم، فإذا كان هذا في اليسير فكيف تنسبون أنتم أيها الكفرة إلى الله تعالى أنه يسمح بأن يشرك في ألوهيته الأوثان والأنصاب وهم خلقه، وغير هذا مما عُد كالملائكة والأنبياء وهم عبده وخلقته؟ هذا تأويل الطبري، وحكاة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وحكي عنه أن الآية مشيرة إلى عيسى عليه السلام. قال المفسرون: هذه الآية كقوله تعالى: ﴿حَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية، ثم وقفهم على جردهم بنعمة الله في تنبيههم لهم على مثل هذا من مواضع النظر المؤدي إلى الإيمان. وقرأ الجمهور، وحفص عن عاصم:

﴿يَجْمَدُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأها أبو بكر عن عاصم بالتاء، وهي قراءة أبي عبدالرحمن، والأعرج - بخلاف عنه -، وهي على معنى: قل لهم يا محمد، قال قتادة: لا يكون الجحد إلا بعد معرفة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ﴾ الآية آية تعدد نعم، و«الأزواج»: الزوجات، ولا يترتب في هذه الآية الأنواع ولا غير ذلك، وقوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ يحتمل أن يريد خلقه حواء من نفس آدم وجسمه، فمن حيث كان مبتدأ الجميع ساغ حمل أمرهما على الجميع حتى صار الأمر كأن النساء خلقن من أنفس الرجال، وهذا قول قتادة، والأظهر عندي أن يزيد بقوله: ﴿مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ أي: من نوعكم وعلى خلقكم، كما قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ بَيْنًا﴾ ظاهر في تعدد النعمة في الأبناء، واختلف الناس في قوله: ﴿وَحَفْدَةً﴾ - قال ابن عباس: الحفدة: أولاد البنين، وقال الحسن: هم بنوك وبنو بنيك، وقال ابن مسعود، وأبو الضحى، وإبراهيم، وسعيد بن جبير: الحفدة: الأصهار، وهم قرابة الزوجة، وقال مجاهد: الحفدة: الأنصار والأعوان والخدم، وحكى الزجاج أن الحفدة البنات في قول بعضهم، قال الزهراوي: لأنهن خدم الأبوين، ولأن لفظه «البنين» لا تدل عليهن، ألا ترى أنهن لسنن في قول الله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَآلَاتُهُنَّ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وإنما

لمحمد عليه الصلاة والسلام على إيمانهم بالباطل وكفرهم بنعمة الله، وقرأ أبو عبدالرحمن بالتاء من فوق، ورويت عن عاصم، على معنى: قل لهم يا محمد، ويجيء قوله بعد ذلك: ﴿وَيَنْمَتَ اللَّهُ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ إخباراً مجرداً عنهم، وحكماً عليهم لا توقيفاً، وقد يحتمل التوقيف أيضاً على قلة اطراد في القول.

(٧٣ - ٧٥) تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تقريع للكفار وتوبيخ، وإظهار لفساد نظرهم، ووضع لهم من الأصنام في الجهة التي فيها سعي الناس وإليها مهمهم، وهي طلب الرزق، وهذه الأصنام لا تملك إنزال المطر ولا إنبات نعمة، مع أنها لا تملك ولا تستطيع أن تحاول ذلك من مُلك الله تعالى. وقوله: ﴿رِزْقًا﴾ مصدر، ونصبه على المفعول به ﴿يَمَلِكُ﴾.

وقوله: ﴿شَيْئًا﴾ ذهب كثير من النحويين إلى أنه منصوب على البدل من قوله: ﴿رِزْقًا﴾، و﴿رِزْقًا﴾ اسم، وذهب الكوفيون - وأبو علي معهم - إلى أنه منصوب بالمصدر في قوله: ﴿رِزْقًا﴾، ولا نقدره اسماً، وهو كقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ جَعَلَ الْآرَضَ كَفَانًا﴾ ﴿أَحْيَا وَأَمَاتَا﴾، ومنه قوله: ﴿أَرَأَيْتَ إِذْ يَدْعُ الْوَدَّاعِيَ بِاسْمِهِ﴾، فنصب [يَتِيمًا] بـ [إِطْعَامًا]، ومنه قول الشاعر:

فَلَوْلَا رَجَاءُ النَّصْرِ مِثْكَ وَرَهْبَةٌ
عِقَابِكَ قَدْ صَارُوا لَنَا كَالْمَوَارِدِ
والمصدر يعمل مضافاً بانفاق؛ لأنه في تقدير الانفصال، ولا يعمل إذا دخله الألف واللام؛ لأنه قد توغل

عندي أن قوله: ﴿يَمَلِكُ﴾ إنما هو على العموم والاشتراك، أي: إن من أزواج البشر جعل الله لهم البنين، ومنهم جعل الخدمة، فمن لم يكن له زوجة فقد جعل الله له حفدة وحصل تلك النعمة، وأولئك الحفدة هم من الأزواج، وهكذا ترتب النعمة التي تشمل جميع العالم، وتستقيم لفظه «الحفدة» على مجراها في اللغة، إذ البشر بجملتهم لا يستغني أحد منهم عن حفدة. وقالت فرقة: الحفدة هم

وَعَبْدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَكُمْ بِأَعْيُنِكُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَصْرُوهَ لِلَّهِ أَمْثَالًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِمَّا رَزَقْنَا حَسَنًا فَهُوَ يَفِيقُ مِنْهُ سِيرًا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوِي الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْسَارًا يُوجِّهُهُ لَأَيَاتِ بَحْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَاللَّهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطْنِ أُمِّهِتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ أَلَمْ يَرْوِا إِلَى الطَّنِينِ مُسْحَرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا مَيَسَّ كَهْنٌ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾

٢٧٥

البنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يستقيم على أن تكون الواو عاطفة صفة لهم، كما لو قال: جعلنا لهم بنين وأعراناً، أي: وهم لهم أعران، فكأنه قال: وهم حفدة.

وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ يريد: المُلْدُ من الأشياء التي تطيب لمن يُوزقها، ولا يقتصر هنا على الحلال؛ لأنهم كفار ولا يكتسبون بشرع، وفي هذه الآية رد على من قال من المعتزلة: «إن الرزق إنما يكون الحلال فقط»، ولهم تعلق في لفظه [من] إذ هي للتبويض، فيقولون: ليس الرزق المعدد عليهم من جميع ما بأيديهم إلا ما كان حلالاً.

وقرأ الجمهور: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ وتجيء الآية - على هذه القراءة - توقيفاً

الزينة في الذكور، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: الحفدة: أولاد زوجة الرجل من غيره، ولا خلاف أن معنى «الحفدة» هو الخدمة والبر والمشي في الطاعة مسرعاً، ومنه في القنوت: «وإليك نسعي ونحفد»، والحفدان: حَبَبٌ فوق المشي، ومنه قول الشاعر وهو جميل بن معمر:

حَفَدَ الْوَلَايِدُ بَيْنَهُنَّ وَأَسْلِمَتْ
بِأَكْفِهِنَّ أَرْمَةُ الْأَجْمَالِ
ومنه قول الآخر:

كَلَّفْتُ مَجْهُولَهَا نَوْقًا يَمَانِيَّةً
إِذَا الْخُدَاةُ عَلَى أَكْسَائِهَا حَفَدُوا
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه المَثَرِقُ التي ذكرت أقوالها إنما بنت على أن كل أحد يجعل له من أزواجه بنين وحفدة، وهذا إنما هو في الغالب وعظم الناس، ويحتمل

في حال الأسماء، ويُعد عن الفعيلة، وتقدير الانفصال في الإضافة حسن عمله، وقد جاء عاملاً مع الألف واللام في قول الشاعر:
ضَعِيفُ السُّكَايَةِ أَعْدَاءُهُ
.....
وقوله:

... عَنِ الضَّرْبِ بِسَمَاعَا
وقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُكَ﴾ على لفظ [ما]، وقوله: ﴿بَسْتَلِبُونَ﴾ على معناها بحسب اعتقاد الكفار في الأصنام أنها تعقل، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿بَسْتَلِبُونَ﴾ للذين يعبدون، والمعنى: لا يستطيعون ذلك ببرهان يظهرهونه وحُجَّةٌ يَبْتُونَهَا.
وقوله: ﴿فَلَا تَقْرَبُوا﴾ أي: لا تُثَمِّلُوا الله الأمثال، وهو مأخوذ من قولك: «هذا ضريب هذا» أي مثيله، والضرب: النوع، تقول: الحيوان على ضروب، وهذا من ضرب واحد، وباقي الآية بين.

قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا﴾ الآية. الذي هو مثال في هذه الآية هو عبد بهذه الصفة مملوك، لا يقدر على شيء من المال ولا من أمر نفسه، وإنما هو مُسَخَّرٌ بِإِرَادَةِ سَيِّدِهِ مدبّر، ولا يلزم من الآية أن العبيد كلهم بهذه الصفة كما انتزع بعض من ينتحل الفقه، وقد قال في المثل الثاني: ﴿لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ﴾، فيلزم - على هذا الانتزاع - أن يكون البكم لا شيء لهم، وإلزام العبد في المثال رجل مُوسَّعٌ عليه في المال فهو يتصرف فيه بإرادته، ولا يلزم من نفس المثال أن يكون مؤمناً ينفق

بحسب الطاعة، أما إنه أشرف أن يكون مثلاً.

و «الرِّزْقُ»: ما صحَّ الانتفاع به، وقال أبو منصور في عقيدته: «الرِّزْقُ ما وقع الاغتذاء به»، وهذه الآية تردُّ على هذا التخصيص، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، و﴿أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ﴾، وغير ذلك من قول النبي ﷺ: «وَجُعِلَ رِزْقِي فِي ظِلِّ زُمَاجِي»، وقوله: «أَرْزَأَقُ أُمَّتِي فِي سَنَابِكِ خَيْلِهَا وَأَسِنَّةِ رِمَاحِهَا»، فالغنيمة كلها رزق، والصحيح أن ما صح الانتفاع به هو الرزق، وهو مراتب، أعلاها ما تُعْذَى به، وقد حصر رسول الله ﷺ وجوه الانتفاع في قوله: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفانيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأَمْضَيْت؟». وفي معنى اللباس يدخل الركوب.

واختلف الناس في الذي له هذا المثل - فقال قتادة، وابن عباس: هو مثل الكافر والمؤمن، فكأن الكافر مملوك مصروف عن الطاعة، فهو لا يقدر على شيءٍ لذلك، ويشبه العبد المذكور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتمثيل - على هذا التأويل - إنما وقع في جهة الكافر فقط، جعل له مثلاً، ثم قرن بالمؤمن المرزوق، إلا أن يكون المرزوق ليس بمؤمن، وإنما هو مثال للمؤمن، فيقع التمثيل من جهتين، وقال مجاهد، والضحاك: هذا المثال، والمثال الآخر الذي بعده إنما هو الله تعالى والأصنام، فتلك هي كالعبد المملوك

الذي لا يقدر على شيء، والله تعالى تتصرف قدرته دون معقب، وكذلك فسّر الزجاج على نحو قول مجاهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل أصوب؛ لأن الآية تكون من معنى ما قبلها وما بعدها في تبيين أمر الله تبارك وتعالى والرّد على الأصنام. وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: نزلت هذه الآية في عثمان بن عفان رضي الله عنه وعبد كان له، وروي تعيين غير هذا لا يصح إسناده، والمثال لا يحتاج إلى تعيين أحد، وقوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ شكر على بيان الأمر بهذا المثال، وعلى إذعان الخصم له، كما تقول لمن أذعن لك في حجةٍ وسلّم ما يبنى عليه قولك: الله أكبر، وعلى هذا يكون كذا وكذا، فلما قال هنا: ﴿هَلْ يَسْتَوُونَ﴾ فكأن الخصم قال له: لا، فقال: الحمد لله، ظهرت الحجة، وقوله: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد: لا يعلمون أبداً ولا يداخلهم إيمان، ويتمكن على هذا قوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأن الأقل من الكفار هو الذي يؤمن، وهو الذي آمن من أولئك، ولو أراد بقوله: ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي الآن لكان قوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ بمعنى الاستيعاب؛ لأنه لم يكن أحد منهم يعلم قوله.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا مثل الله تعالى وللأصنام، فهي كالأبكم لا نطق له ولا يقدر على شيء، وهو عيال على من والا من قريب أو صديق، و«الكُلُّ»: الثقل والمؤونة، وكل محمول فهو كل،

لا ينكرها عاقل، وهي نعمة يقبح معها كفرها وتصريفها في الإشراك بالذي وهبها، فالله تعالى أخبر أنه أخرج ابن آدم لا يعلم شيئاً، ثم جعل حواشيه التي قد وهبها له في البطن سُلماً إلى إدراك المعارف ليشكر على ذلك ويؤمن بالمنعم عليه. و«أمهات» أصله أمات، وزيدت الهاء مبالغة وتأكيذاً، كما زادوا الهاء في «أمقرت الماء»، قاله أبو إسحق. وفي هذا المثال نظر، وقيل غير هذا، وقرأ حمزة، والكسائي: «أمهات» بكسر الهمزة، وقرأ الأعمش: «في بطون مهاتكم» بحذف الهمزة وكسر الميم، وقرأ ابن أبي ليلى بحذف الهمزة وفتح الميم مُشَدَّدة، قال أبو حاتم: «حذف الهمزة رديء، ولكن قراءة ابن أبي ليلى أصوب»، والتَّرجِي الذي في «لَعْلُ» هو بحسبها، وهذه الآية تعديد نِعَم وموضع اعتبار.

وقوله تعالى: «أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الظَّيْرِ» الآية، قرأ طلحة بن مصرف، والأعمش، وابن هرمز: «أَلَمْ تَرَوْا» بالياء، وقرأ أهل مكة والمدينة: «أَلَمْ يَرَوْا» بالياء على الكناية عنهم، واختلف عن الحسن، وعاصم، وأبو عمرو، وعيسى الشقفي. و«النَّجْوَى»: مسافة ما بين السماء والأرض، وقيل: هو ما يلي الأرض منها، وما فوق ذلك هو اللوح، والآية عبرة بيئة المعنى، تفسيرها تكلف بحت.

تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تعديد نعمة الله على الناس في البيوت، فذكر أولاً بيوت التمدن

وَالْآيَاتِ» الآية، أخبر تعالى أن الغيب له يملكه ويعلمه، وقوله: «وَمَا أَسْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَنَجِّجِ النَّصْرِ» إخباراً بالقدرة، وحجة على الكفار، والمعنى على ما قال قتادة وغيره: «ما تكون الساعة وإقامتها في قدرة الله تعالى إلا أن يقول لها: كن»، فلو اتفق أن يقف على ذلك محض من البشر لكانت من السرعة بحيث يقول: هل هي كلمح البصر أو هي أقرب من ذلك؟ ف«أَوْ» - على هذا - على بابها للشك،

وقيل: هي للتخيير، و«لَمُخِ النَّصْرِ» هو وقوعه على المرئي، وقوى هذا الإخبار بقوله: «إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ»، يريد: على كل شيء مقدور، ومن قال: «وَمَا أَسْرُ السَّاعَةِ» أي: وما إتيانها ووقوعها بكم، على جهة التخويف من حصولها - ففيه بُعد وتجوُّز كثير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من قول النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ»، ومن ذكره ما ذكر من أشراط الساعة ومهلتها، ووجه التأويل أن القيامة لما كانت آتية ولا يُدْجَعَل من القرب كلمح البصر، كما يقال: ما السنة إلا لحظة، إلا أن قوله: «أَوْ هُوَ أَقْرَبُ» يرُدُّ أيضاً هذه المقالة.

وقوله تعالى: «وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ» الآية تعديد نعمة بيئة

وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَاوُ مِثْقَالِ حَبِّ خَبثٍ ۗ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْبَصْرَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٨٠﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمَيِّتُ ۗ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يَنسُوكَ رُءُوسَهُمْ وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨١﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٨٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يَخْفَفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٨٣﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شَرِكَاءَ هُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَالْقَوْلُ إِلَى اللَّهِ يُؤْمِدُ السَّعْرَ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٨٥﴾

وسُمِّي البيتيم كلاً، ومنه قول الشاعر:

أَكُولُ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ سَبَابِهِ
إِذَا كَانَ عَظْمُ الْكَلِّ غَيْرَ شَدِيدِ
كما أن الأصنام تحتاج إلى أن تنقل وتخدم ويُتَعَدَّب بها ثم لا يأتي من جهتها خير البتة، هذا قول قتادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو مثل للكافر، وقرأ ابن مسعود: «يُؤَجِّجُهُ»، وقرأ علقمة: «يُؤَجِّجُهُ»، وقرأ الجمهور: «لَا» وهي خط المصحف، وقرأ يحيى بن وثاب: «تُؤَجِّجُهُ»، وقرأ ابن مسعود أيضاً: «تُؤَجِّجُهُ» على الخطاب، وضعف أبو حاتم قراءة علقمة لأن الجزم لازم، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى، وقال ابن عباس: هو المؤمن، «والصراط»: الطريق.

وقوله تعالى: «وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ

وهي التي للإقامة الطويلة، وهي عَظْمُ بيوت الإنسان، وإن كان الوصف بالسكْنِ يعم جميع البيوت، و«السكْنُ» مصدر يوصف به الواحد، ومعناه: يسكن فيها وإليها، ثم ذكر تعالى بيوت النقلة والرحلة.

وقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا﴾ يحتمل أن يعم به بيوت الأدم وبيوت الشعر وبيوت الصوف؛ لأن هذه من الجلود لكونها ثابتة فيها، نحا إلى ذلك ابن سلام، ويكون قوله: ﴿وَمِنَ امْرَأَتِهَا﴾ ابتداء كلام، كأنه قال: «جعل أنثاء»، يريد الملابس والوظة وغير ذلك، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿مِنَ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾ بيوت الأدم فقط، ويكون ﴿وَمِنَ امْرَأَتِهَا﴾ عطفاً على قوله: ﴿مِنَ جُلُودِ الْأَنْعَامِ﴾، أي: جعل بيوتاً أيضاً، ويكون قوله: ﴿أَنْثَاكُم﴾ نصيباً على الحال، و«تَسْتَجِدُّونَهَا» أي تجدونها خفافاً، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿ظَعَنِكُمْ﴾ بفتح العين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي بسكون العين، وهما لغتان وليس بتخفيف، و«ظَعَنَ» معناه رَحَلَ، والأصواف للغنم، والأوبار للإبل، والأشعار للمعز والبقر، ولم تكن بلادهم بلاد قطن وكتان، ولذلك اقتصر على هذا، ويحتمل أن ترك ذكر القطن والحريز والكتان إعرافاً عن السرف؛ إذ ملبس عباد الله الصالحين إنما هو الصوف، وأيضاً فقد أشير إلى القطن والكتان في لفظة السراويل. و«الأنثاء»: متاع البيت، واحدها أنثاء، هذا قول أبي زيد الأنصاري، وقال غيره: الأنثاء:

جميع أنواع المال، ولا واحده من لفظه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والاشتقاق يقوي هذا المعنى الأعم؛ لأن حال الإنسان تكون بالمال أنثاء، كما تقول: «شعر أنثيث، ونبات أنثيث» إذا كثر والتف. وقوله: ﴿إِنَّكَ حَيٌّ﴾ يريد به وقتاً غير معين، وهو بحسب كل إنسان، إم بموته، وإمّا بفقد تلك الأشياء التي هي أثاث، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

أَهَاجَشَكَ الطَّعَائِنُ يَوْمَ بَأثُوا
بِذِي الرِّزِيِّ الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ؟
قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا﴾ الآية. نعم عددها عليهم بحسب أحوالهم وبلادهم، وأنها الأشياء المباشرة لهم؛ لأن بلادهم من الحرارة وصهر الشمس بحيث للظل غنى عظيم ونفع ظاهر. وقوله: ﴿مِمَّا خَلَقَ﴾ يعم جميع الأشخاص المظلمة. و«الأكنان»: جمع كِنٌّ، وهو الحافظ من المطر والريح وغير ذلك. و«السراويل»: جميع ما يلبس على البدن كالقميص والقُرْقُل والمجول والدرع والجَوْشَن والحفتان ونحوه. وذكر وقاية الحرِّ إذ هو أَمْسُ في تلك البلاد على ما ذكرنا، والبُرْدُ فيها معدوم في الأكثر، وإذا جاء في الشتوات فإنما يَتَوَقَّى بما هو أكثر من السربال من الأثاث المتقدم الذكر، فبقي السراويل لتوقي الحرِّ فقط، قاله الطبري عن عطية الخراساني، ألا ترى أن الله تعالى قد نههم إلى العبرة في البرد ولم يذكر لهم الثلج لأنه ليس في بلادهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إن

الثلج شيء أبيض ينزل من السماء ما رأته قط، وأيضاً فذكر أحدهما يدل على الآخر، ومنه قول الشاعر:

وَمَا أَذْرِي إِذَا يَمُنْتُ أَرْضاً
أُرِيدُ الْخَيْرَ أَيُّهُمَا يَلِينِي؟
وهذه التي ذكرناها هي بلاد الحجاز، وإلا ففي بلاد العرب ما فيه بردٌ شديد، ومنه قول مَتَمُّ:

.....
إِذَا الْقَشْعُ مِنْ بَرْدِ الشَّتَاءِ تَقَعَّقَا
وقول الآخر:

فِي لَيْلَةٍ مِنْ جُمَادَى ذَاتِ الْأُنْدِيَةِ
.....

البيتين، وغير هذا، والسراويل التي تقي البأس هي الدروع، ومنه قول كعب بن زهير:

شُمُ الْعَرَابِيِّينَ أَبْطَالَ لَبُوسُهُمْ
مِنْ نَسْجِ دَاوُدَ فِي الْهَنْجَا سَرَابِيلِ
وقال أوس بن حجر:

.....
وَلَيْتِمُمْ حَشْوُ الدُّنْعِ وَالسُّرْبَالِ
فهذا يراد به القميص.

و«البأس»: من الحديد في الحرب. وقرأ الجمهور: ﴿يُبِيدُ يَمْتَدُّ﴾ وقرأ ابن عباس: ﴿تَيْمُّ يَفْتَمُّهُ﴾، على أن النعمة هي التي تتم، وزوي عنه ﴿تَيْمُّ نِعْمَةً﴾ على الجمع. وقرأ الجمهور: ﴿تَسْلُمُونَ﴾ من الإسلام، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿تَسْلُمُونَ﴾ من السلامة، فتكون اللفظة مخصوصة في بأس الحرب، وما في «لَعْلُ» من التَرْجِي والتَوْقُّع فهو في حيز البشر المخاطبين، أي: لو نظر الناظر في هذه الحالة لترجى منها إسلامهم.

الرجوع إلى الدنيا فلا يعطون فيقع منهم توبة وعمل.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾، أخبر الله تعالى في هذه الآية أن هؤلاء الكفرة الظالمين في كفرهم إذا أراهم الله عذاب النار وشارفوها وتحققوا كُنه شدتها فإن ذلك الأمر الهائل الذي نزل بهم لا يُخفف بوجه ولا يُؤخر عنهم، وإنما مقصد الآية الفرق بين ما يحل بهم وبين رزايا الدنيا، فإن الإنسان لا يتوقع أمراً من خطوب الدنيا إلا وله طمع في أن يتأخر عنه، وأن يجيئه في أخف ما يتوهم برجائه، وكذلك متى حلَّ به كان طامعاً في أن يخف، وقد يقع ذلك في خطوب الدنيا كثيراً، فأخبر الله تعالى أن عذاب الآخرة - إذا عاينه الكافر - لا طمعية فيه بتخفيف ولا تأخير.

﴿٨٢﴾ - ﴿٨٣﴾ تفسير قوله عز وجل: أخبر سبحانه وتعالى أنهم إذا رأوا يوم القيامة بأبصارهم الأوثان والأصنام وكل معبود من دون الله - لأنها تُخسر معهم توبيخاً لهم على رؤوس الأشهاد - أشاروا إليهم وقالوا: هؤلاء كنا نعبدهم من دون الله، كأنهم أرادوا بذلك تذنب المعبودين وإدخالهم في المعصية، وأضافوا الشركاء إلى أنفسهم من حيث هم جعلوهم شركاء، وهذا كما يصف رجل آخر خَيْرٍ فَيَقُولُ لَهُ أَتَيْتَ: ما فعل خيرك؟ فأصفتَه إليه من حيث وصفه هو بتلك الصفة، والضمير في «القول» عائد على الشركاء، فمن كان من المعبودين من البشر ألقى القول المعهود بلسانه، وما كان من

بالتكذيب، ورجَّحه الطبري، ثم حتم على أكثرهم بالكفر وهم أهل مكة؛ لأنه كان فيهم من قد داخله الإسلام ومن أسلم بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبَعَتْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ﴾ آية وعيد، التقدير: واذكر يوم نبعث شهيداً على كفرهم وإيمانهم، فـ «شاهد» بمعنى «شاهد»، وذكر الطبري أن المعنى: ثم ينكرونها اليوم، ويوم نبعث، أي: ينكرون كفرهم فيكذبهم الشهيد.

وقوله: ﴿ثُمَّ لَا يُوَدِّتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي في المعذرة، وهذا في موطن دون موطن؛ لأن في القرآن ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجُودِلٍ عَنِ نَفْسِهَا﴾، ويترتب أن تجيء كل نفس تجادل، فإذا استقرت أقوالهم بعث الله الشهود من الأمم فتكذب الكفار فلا يؤذن للكاذبين بعد في معذرة، ﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى: يُعْتَبُونَ، تقول: «عَتَبْتُ الرجل» إذا كفيته ما عتب فيه، كما تقول: «أشكيتُه ما شكاه»، كأنه قال: ولا هم يكفون ما يُعْتَبُونَ فيه ويشق عليهم، والعرب تقول: استفعل بمعنى أفعال، تقول: أدنيت الرجل واستدنيته، وقال قوم: لا يسألون أن يرجعوا عما كانوا عليه في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا استعتاب معناه طلب عتياه، وقال الطبري: معناه: يطلبون

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا وَعَنْ سَبِيلِ اللَّهِ يَزِدُّهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَبَعَتْ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدٌ عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَؤُلَاءِ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكَتَابَ بُيِّنًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٣﴾ إِنَّ اللَّهَ بِأَمْرٍ أَلَدَّلَ وَأَلْحَسَنَ وَإِذَا يَأْتِي ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يُعْطِكُمْ لِمَا كُنْتُمْ تَدْكُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهُمْ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا تَتَخَدُّونَ آمِنَكُمُ دَخَلًا يَبْتغِيكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يُلْوَكُمُ اللَّهُ بِهِ وَيَلْبِغُنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ تَتَخَلَّفُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَتَسْلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٧﴾

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية فيها موادة نسختها آية السيف، والمعنى: إن أعرضوا فلست بقادر على خلق الإيمان في قلوبهم، وإنما عليك أن تبلغ أمر الله ونهيه، ثم قرعهم ووبَّخهم بأنهم يعرفون نعمة الله في هذه الأشياء المذكورة، ويقولون إنها من عنده ثم يكفرون به تعالى، وذلك فعل المنكر للنعمة الجاحد لها. هذا قول مجاهد، فسامهم منكرين للنعمة تجزوا؛ إذ كانت لهم أفعال المنكرين من الكفر بزب النعم، ولشركهم في النعم الأوثان على جهة ما، وهو ما كانوا يعتقدون للأوثان من الفعل في النفع والضر، وقال السدي: «رحمة هنا: محمد عليه الصلاة والسلام. ووصفهم تبارك وتعالى بأنهم يعرفون معجزاته وآيات نبوته وينكرون ذلك

الجمادات تكلمت بقدرة الله بتكذيب المشركين في وصفهم بأنهم آلهة وشركاء لله، ففي هذا وقع الكذب لا في العبادة. وقال الطبري: المعنى: إنكم لكاذبون، ما كنا ندعوكم إلى عبادتنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنهم كذبوهم في التذنب لهم.

وقوله: ﴿وَأَلْقُوا إِلَى اللَّهِ﴾، الضمير في ﴿أَلْقُوا﴾ عائد على المشركين، والمعنى: ألقوا إليه الاستسلام، وألقوا بأيديهم وذلوا لحكمه ولم تكن لهم حيلة ولا دفع، ﴿وَالْيَسِيرَ﴾: الاستسلام، وقرأ الجمهور: ﴿السَّلَامَ﴾ بفتح اللام، وروى يعقوب عن أبي عمرو سكون اللام، وقرأ مجاهد: ﴿السُّلْمَ﴾ بضم السين واللام.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية في ضمن قوله: ﴿وَمَسَدًا عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ أنه حل بهم عذاب الله وباشروا نعمته، ثم فسره فأخبر أن الذين كفروا ومنعوا غيرهم من الدخول في الدين وسلوك سبيل الله زادهم عذاباً أجل من العذاب العام لجميع الكفار عقوبة على إفسادهم، فيحتمل أن يكون قوله: ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَفْتَرُونَ﴾ و﴿رَدَّتْهُمْ﴾ فعل مستأنف إخباره، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداء وخبره ﴿رَدَّتْهُمْ﴾، وروي في ذلك أن الله تعالى سلط عليهم عقارب وحيات لها أنياب كالنخل الطوال، قاله: ابن مسعود، وقال عبيد بن عمير: حيات لها أنياب كالنخل، وعقارب كالبغال الدلثم، ونحو هذا،

وروي عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن لجهنم سواحل فيها هذه الحيات وهذه العقارب، فيفر الكفار إلى السواحل من النار فتتلقاهم هذه الحيات والعقارب، فيفرون منها إلى النار، فتتبعهم حتى تجد حر النار فترجع، قال: وهي في أسراب.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبِئْتُ﴾ الآية، في ضمنها وعيد، والمعنى: واذكر يوم نبئت في كل أمة شاهداً عليها، وهو رسولها الذي شاهد في الدنيا تكذيبها وكفرها وإيمانها وهداها، ويجوز أن يبعث الله شهيداً من الصالحين مع الرسل، وقد قال بعض الصحابة: إذا رأيت أحداً على معصية فأنهه، فإن أطاعك وإلا كنت شهيداً عليه يوم القيامة.

وقوله: ﴿مِنْ أَنْسِهِمْ﴾ بحسب أن بعثة الرسل كذلك هي في الدنيا، وذلك أن الرسول الذي يمن نفس الأمة في اللسان والسيرة وفهم الأغراض والإشارات متمكن له إفهامهم والرد على معاندتهم، ولا يتمكن ذلك من غير من هو من الأمة، فذلك لم يبعث الله نبياً قط من الأمة المبعوث إليهم. وقوله: ﴿هَؤُلَاءِ﴾ إشارة إلى هذه الأمة. و﴿الْكِتَابِ﴾: القرآن، وقوله: ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ اسم وليس بمصدر، كالتقصان، والمصادر في مثل هذا التأويل منها مفتوحة كالترداد والتكرار، ونصب ﴿بَيِّنَاتٍ﴾ على الحال، وقوله: ﴿لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما نحتاج في الشرع ولا بُد منه في الجملة، كالحلال والحرام والدعاء

إلى الله والتخويف من عذابه، وهذا حصر ما اقتضته عبارات المفسرين، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «أُنزِلَ فِي الْقُرْآنِ كُلُّ عِلْمٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ قَدْ بَيَّنَّ لَنَا فِي الْقُرْآنِ»، وتلا هذه الآية.

﴿٩١﴾ - ﴿٩٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: أجمع آية في كتاب الله آية في سورة النحل، وتلا هذه الآية، وروي عن عثمان بن مظعون رضي الله عنه أنه قال: لما نزلت هذه الآية قرأتها على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فعجب وقال: «يا آل غالب أتبعوه تفلحوا، فوالله إن الله أرسله إليكم ليأمر بكمارم الأخلاق»، وحكى النقاش قال: كان يقال: «زكاة العدل الإحسان، وزكاة القدرة العفو، وزكاة الغنى المعروف، وزكاة الجاه كتب الرجل إلى إخوانه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: العدل هو فعل كل مفروض من عقائد وشرائع، وسيّر مع الناس في أداء الأمانات وترك الظلم، والإنصاف وإعطاء الحق، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه، فمن الأشياء ما هو كله مندوب إليه، ومنها ما فرض إلا أن أحد الأجزاء منه داخل في العدل، والتكميل الزائد على حد الأجزاء داخل في الإحسان، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيما حكى الطبري: العدل: لا إله إلا الله، والإحسان: أداء الفرائض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وفي هذا القسم الأخير نظر؛ لأن أداة الفرائض هي الإسلام حسب ما فسره رسول الله ﷺ في حديث سؤال جبريل عليه السلام، وذلك هو العدل، وإنما الإحسان: التكميلات والمندوب إليه حسب ما يقتضيه تفسير النبي ﷺ لسؤال جبريل عليه السلام بقوله: «أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»، فإن صح هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما فإنما أراد أداة الفرائض مكتملة.

﴿وَيَتَىٰ ذِي الْقُرْبَىٰ﴾ لفظه تقتضي صلة الرحم، وتعمُّ جميع إسداء الخير إلى القرابة. وتركه مبهماً أبلغ؛ لأن كل من وصل وفي ذلك إلى غاية - وإن علّت - يرى أنه مقصّر، وهذا المعنى المأمور به في جانب ذي القربى داخل تحت العدل والإحسان، لكنه تعالى خصّه بالذكر اهتماماً به وحنماً عليه.

﴿وَالْفَحْشَاءَ﴾: الرُّسَى - قاله ابن عباس - وغيره من المعاصي التي شتمتها ظاهرة، وفاعلها أبدأ مستتر بها، وكأنهم خصوها بمعاني الفروج، ﴿وَالنُّكْرَ﴾ أعم منه؛ لأنه يعم جميع المعاصي والبرذائل والإدانات على اختلاف أنواعها، ﴿وَالَّذِينَ﴾ هو إنشاء ظلم الإنسان والسعاية فيه، وهو داخل تحت المنكر، لكنه تعالى خصّه بالذكر اهتماماً لشدة ضرره بين الناس، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «لا ذنب أسرع عقوبة من يغيي»، وقال عليه الصلاة والسلام: «الباضي مصروع»، وقد وعد الله من يغيي عليه بالصر، وفي بعض الكتب

المنزلة: «لو بغي جبل على جبل لجعل الله الباغي منهما دكاً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتغيير المنكر فرض على الولاة، إلا أن المغيّر لا يعين لمستور، ولا يعمل ظناً، ولا يتجسس، ولا يغيّر إلا ما بدت صفحته، ويكون أمره ونهيّه بمعروف، وهذا كله لغير الولاة ألزم، وفرض على المسلمين عامة، ما لم يخف المغيّر إذابة أو ذلاً، ولا يغير المؤمن بيده ما وجد سلطاناً، فإن عدمه غير بيده، إلا أنه لا يصل إلى نصب القتال والمدارة وإعمال السلاح إلا مع الرياسة والإمام المتبع، وينبغي للناس أن يغيّر المنكر كل أحد منهم، تقي وغير تقي، ولو لم يغير إلا تقي لم يتغير منكر في الأغلب، وقد ذمّ الله قوماً بأنهم لم يتأهوا عن منكر فعلوه، فقد وصفهم بفعله، وذمهم بأنهم لم يتأهوا عنه، وكل منكر فيه مدخل للنظر فلا مدخل لغير حملة العلم فيه، فهذه نبذة من القول في تغيير المنكر تضمنت ثمانية شروط، وروي أن جماعة من الصحابة رفعت على عاملها إلى أبي جعفر المنصور، فحاجّها العامل وغلها بأنهم لم يثبتوا عليه كبير ظلم ولا جورّه في شيء، فقام فتى من القوم فقال: يا أمير المؤمنين، إن الله يأمر بالعدل والإحسان، وإنه عدلٌ ولم يُحسن، قال: فعجب أبو جعفر من إصابته وعزل العامل.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْثِرْنَا بِمَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ﴾ الآية. يتضمن قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ الآية التي

قبلها: «افعلوا كذا واتهوا عن كذا»، فعطف على ذلك التقدير قوله: ﴿وَأَوْثِرْنَا﴾، وعهد الله لفظ لجميع ما يعقد باللسان ويلزمه الإنسان، من بيع أو صلة أو مؤاقفة في أمر موافق للديانة، وقوله: ﴿وَلَا تُنْفِرُوا الْآيَةَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ خصّ في هذه الآية الألفاظ المعهودة التي يقرن بها أيماناً تهنئاً بها وتنبهياً عليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله فيما كان الثبوت فيه على اليمين طاعة لله تعالى، وما كان الانصراف عنه أصوب في الحق فهو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «من حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليكفر عن يمينه وليأت الذي هو خيراً»، ويقال: توكيد وتأكيد، ووكّد وأكّد، وهما لغتان، وقال الزجاج: الهمزة مبدلة من الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير بين؛ لأنه ليس في وجود تصرفه ما يدل على ذلك.

﴿وَكَيْلًا﴾ معناه: متكفلاً بوفائكم، وباقى الآية وعيد في ضمن خبر يعلم الله تعالى بأفعال عباده، وقالت فرقة: نزلت هذه الآية في الذين يابعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، رواه أبو ليلى عن بريدة، وقال قتادة، ومجاهد، وابن زيد: نزلت فيما كان من تحالف الجاهلية في أمر بمعروف أو نهي عن منكر، فزادها الإسلام شدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كما قال ﷺ: «لَا حِلْفَ فِي الْإِسْلَامِ وَمَا كَانَ مِنْ حِلْفٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَلَمْ يَزِدِ الْإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»، وهذا حديث معنى، وإن كان السبب بغض هذه

الاشياء فألفاظ الآية عامة على جهة مخاطبة العالمين أجمعين .

﴿٩٧﴾ - ﴿٩٢﴾ تفسير قوله عز وجل :

شبهت هذه الآية الذي يحلف أو يعاهد ويبرم عقده بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً، وشبه الذي ينقض عهده بعد الإحكام بتلك الغازلة إذا نقضت قوي ذلك الغزل فحلته بعد إبرامه، ويروى أن امرأة كانت بمكة تُسمى رِبْطَةَ بنت سعد كانت تفعل ذلك، فَبِهَا وقع التشبيه، قاله عبدالله بن كثير، والسُّدِّي، ولم يُسَمِّها المرأة، وقيل: كانت امرأة موسوسة تسمى خطية تغزل عند الحجر وتفعل ذلك، وقال مجاهد، وقتادة: ذلك ضرب مثل لا على امرأة معينة. و﴿أَنْكَرًا﴾ نصب على الحال، والنكث: التُّقُضُ. و﴿الْقُوَّةُ﴾ في اللغة واحدة قُوَى الغَزَل والحبل وغير ذلك مما يضر، ومنه قول الأغلب الراجز:

حَبْلٌ عَجُوزٌ فَتَلَّتْ سَبْعَ قُوَى
ويظهر لي أن المراد بالقُوَّة في الآية الشدَّة التي تحدث من تركيب قُوَى الغزل، ولو قدرناها واحدة القُوَى لم يكن معها ما ينتقض أُنكاثاً، والعرب تقول: انتكثت الحبل إذا انتقضت قواه، أما إن عرف الغزل أنه قوة واحدة ولكن لها أجزاء كأنها قُوَى كثيرة له، قال مجاهد: المعنى: من بعد إمرار قوة.

و «الدُّخْل»: الدُّغْل بعينه، وهي الدُّرَائِع إلى الخدع والغدر، وذلك أن المحلوف له مطمئن فيتمكن الحالف من ضرته بما يريد.

وقوله: ﴿إِنْ تَكُونُ أَنْتَ﴾، قال المفسرون:

نزلت هذه الآية في العرب الذين كانت القبيلة منهم إذا حالفت أخرى، ثم جاءت إحداهما قبيلة كبيرة قوية فداخلتها غدرت الأولى ونقضت معها ورجعت إلى هذه الكبرى، فقال الله تعالى: لا تنقضوا العهود من أجل أن تكون قبيلة أزيد من قبيلة في العُدَّة والعُدَّة، والزيادة، ويحتمل أن يكون القول معناه: لا تنقضوا الأيمان من أجل أن تكونوا أزيد من غيركم، أي: أزيد

خيراً، فمعناه: لا تطلبوا الزيادة بعضكم على بعض بنقض العهود. و﴿يَبْلُوكُكُمْ﴾ معناه: يختبركم، والضمير في ﴿يَبْلُوكُكُمْ﴾ يرجع إلى الله الذي أمر الله به، ويحتمل أن يعود على الربأ، أي أن الله ابتلى عباده بالتحاسد وطلب بعضهم الظهور على بعض، واختبرهم بذلك ليرى من يجاهد نفسه ممن يُتَّبِعها هواها، وباقي الآية وعيدٌ بيوم القيامة.

وقوله: ﴿يَوْمَ آرَبِّكَ﴾، موضع ﴿آرَبِّكَ﴾ عند البصريين رفع، وعند الكوفيين نصب و﴿يَوْمَ﴾ عماد، ولا يجوز العماد هنا عند البصريين؛ لأنه لا يكون مع النكرة، و [أمة] نكرة، وحجة الكوفيين أن [أمة] وما جرى مجراها من أسماء الأجناس تنكيرها قريب من التعريف، ألا ترى أن إدخال الألف واللام عليها لا يخصها كبير

﴿٩٧﴾

﴿٩٢﴾

وَلَا تَنْجِدُوا الْإِيمَانُكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرُلُ بَدْرًا بِتَرُوتِهَا
وَيَذَرُوا السُّوَى مَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلِكُلِّ عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴿٩٧﴾ وَلَا تَشْرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَبْنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ حَرُّ لَكَرْهَانَ كَسْتُمْ تَقْلَمُونَ ﴿٩٨﴾ مَا عِنْدَ كَرْتَمَقْدٍ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنْجَزِينَ الَّذِينَ صَبَرُوا وَأَجْرُهُمْ بِأَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّا زَكَرْنَا أَنَّهُ لَكُمْ وَأَنْتُمْ وَهُوَ مَوْتٌ فَلَنْجَزِيَنَّهُ حَيَوًا طَيِّبَةً وَلَنْجَزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٠١﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَنٌ عَلَى الذُّبُرِ ؕ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّمَا سُلْطَنُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٣﴾ وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَأَنَّهُ وَهَّ آعْمَهُمْ بِمَا يَكْفُرُونَ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُقَرَّبٌ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٠٦﴾

٢٧٨

تخصيص؟ وفي هذا نظر.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَبَتَّكُمُ أَنْتُمْ وَجِدَّةً﴾ الآية. أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يبتلي عباده بالأوامر والنواهي ليذهب كل واحد إلى ما يُسِّر له، وذلك منه تعالى بحق الملك، ولا يُسأل عما يفعل، ولو شاء لكان الناس كلهم في طريق واحد، إمَّا في هدى وإمَّا في ضلالة، ولكنه تعالى شاء أن يفرق بينهم، ويخص قوماً بالسعادة وقوماً بالشقاوة. و﴿يُنَزِّلُ﴾ «يُنَزِّلُ» معناه: «يخلق ذلك في القلوب»، خلافاً لقول المعتزلة، ثم توعد في آخر الآية بسؤال كل أحد يوم القيامة عن عمله، وهذا سؤال توبيخ، وليس ثم سؤال تفهيم، وذلك هو المنفي في آيات.

﴿٩٧﴾ - ﴿٩٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

كُرُّ النَّهْيِ عَنِ اتِّخَاذِ الْإِيمَانِ تَهْمًا

قال: نزلت هذه الآية بسبب قوم من أهل الجبل تفاخروا، وقال كل منهم: بلتي أفضل، فعرفهم الله في هذه أفضل الجبل.

(٩٨) - (١٠٣) تفسير قوله عز وجل:

الفاء في ﴿فَإِذَا﴾ واصله بين الكلامين، والعرب تستعملها في مثل هذا، وتقدير الآية: فإذا أخذت في قراءة القرآن، كما قال تعالى: ﴿إِذَا قُتِلْتُمْ إِلَى الْكَلْبَةِ فَاقْتُلُوا وَجوهكم﴾، وكما تقول لرجل: إذا أكلت فقل بسم الله. والاستعانة ندب عند الجميع، وحكى النقاش عن عطاء أن التعوذ واجب، ولفظ الاستعانة هو على رتبة هذه الآية، وقد ذكرت الخلاف الذي قيل فيه في صدر هذا الكتاب. و﴿الزَّجْرِ﴾: المرجوم باللعنة، وهو إبليس.

ثم أخبر تبارك وتعالى أن إبليس ليس له ملكة ولا رياسة، هذا ظاهر «السلطان» عندي في هذه الآية، وذلك أن السلطان إن جعلناه الحجة فليس لإبليس حجة في الدنيا على أحد، لا مؤمن ولا كافر، اللهم إلا أن يتأول متأول: «ليس له سلطان يوم القيامة»، فيستقيم أن يكون بمعنى الحجة، لأن إبليس له حجة على الكافرين أنه دعاهم بغير دليل فاستجابوا له من قبل أنفسهم، وهؤلاء الذين لا سلطان ولا رياسة لإبليس عليهم هم المؤمنون أجمعون؛ لأن الله تعالى لم يجعل سلطانه إلا على المشركين الذين يتولونه، والسلطان منفي ها هنا في الإشراف؛ إذ له عليهم ملكة ما في المعاصي، وهم الذين قال الله فيهم:

علي، وقال أبو حاتم: إن نافعاً زوي عنه: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بالياء. و﴿صَبْرًا﴾ معناه: عن الشهوات وعلى مكاره الطاعة، وهذه إشارة إلى الصبر عن شهوة كسب المال بالوجوه المذكورة، وقوله: ﴿بِأَحْسَنَ﴾ أي: بقدر أحسن ما كانوا يعملون.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا يُمْرُكُمْ جميع أعمال الطاعة، ثم قيده بالإيمان، واختلف الناس في الحياة الطيبة - فقال ابن عباس، والضحاك: هو الرزق الحلال، وقال الحسن، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي القناعة، وهذا أطيب عيش الدنيا، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: هي السعادة، وقال الحسن البصري أيضاً: الحياة الطيبة هي حياة الآخرة ونعيم الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هناك هو الطيب على الإطلاق، ولكن ظاهر هذا الوعد أنه في الدنيا، والذي أقول: إن طيب الحياة اللازم للمصالحين إنما هو بنشاط نفوسهم وبئلبها وقوة رجائهم، والرجاء للنفس أمر ملبد، فبهذا تطيب حياتهم، وبأنهم احتقروا الدنيا فزالتمومها عنهم، فإن انضاف إلى هذا مال حلال وصحة أو قناعة فذلك كمال، وإلا فالطيب فيما ذكرناه راتب، وجاء قوله: ﴿فَلْيَحْيِيَنَّاهُ حَيوةً طَيِّبَةً﴾ على لفظ ﴿مَنْ﴾، وجاء قوله: ﴿وَلْيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ على معناها، وهذا وعد بنعيم الجنة، وباقي الآية بين.

وحكى الطبري عن أبي صالح أنه

بذلك، ومبالغة في النهي عنه لعظم موقعه من الدين، وتردده في معاشرات الناس، و«الدُّخْلُ» - كما قلنا - الغوائل. وقوله: ﴿فَنَزَّلْنَا قَدَمًا بَدًّا ثَوِيًّا﴾ استعارة للمستقيم الحال يقع في شر عظيم ويسقط فيه؛ لأن القدم إذا زلت نقلت الإنسان من حال خير إلى حال شر، ومن هذا المعنى قول كثير:

.....
فَلَمَّا تَوَافَيْنَا ثَبَّتْ وَزَلَّتْ
أي: تنقلت من حال إلى حال، فاستعار لها الزلل، ومنه يقال لمن أخطأ في الشيء: زل فيه. ثم توعد بغد بعذاب في الدنيا وعذاب عظيم في الآخرة. وقوله: ﴿يَمَّا سَدَدْتُهُ عَنْ سَكْبِلِ اللَّهِ﴾ يدل على أن الآية فيمن باع رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْرَوْا بِمَهْدِ اللَّهِ تُمْنًا قَلِيلًا﴾ الآية. هذه آية نهى عن الرشا وأخذ الأموال على فعل ما يجب على الآخذ تركه، أو ترك ما يجب عليه فعله، فإن هذه هي التي عهد الله إلى عباده فيها، فمن أخذ على ذلك مالا فقد أعطى عهد الله وأخذ قليلاً من الدنيا، ثم أخبر تبارك وتعالى أن ما عنده من نعيم الجنة ومواهب الآخر خير لمن أتقى وعلم واهتدى، ثم بين الفرق بين حال الدنيا وحال الآخرة بأن هذه تنفذ وتنقضي عن الإنسان أو ينقضي عنها، وأن الآخرة باقية دائمة. وقرأ ابن كثير، وعاصم: ﴿وَلْيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بنون، وقرأ الباقون: ﴿وَلْيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ بالياء، ولم يختلفوا في قوله: ﴿وَلْيَجْزِيَنَّهُمْ﴾ أنه بالنون، كذا قال أبو

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾، وهم الذين قال فيهم إبليس: ﴿إِلَّا عَسَاكَ مِنْهُمْ الْغَايِبِينَ﴾.

و ﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ معناه: يجعلونه ولياً، والضمير في ﴿يَتَوَلَّوْنَهُ﴾ يرجع إلى إبليس، يحتمل أن يعود على اسم الله عز وجل، والظاهر أنه يعود على اسم إبليس، بمعنى: من أجله وبسببه، كما تقول لمعلمك: أنا أعلم بسببك، فكأنه قال: والذين هم بسببه مشركون بالله، وهذه الأخبار بأن لا سلطان للشيطان على المؤمنين بعقب الأمر بالاستعاذة تقتضي أن الاستعاذة تصرف كيده كأنها متضمنة للتوكل على الله والانتفاع إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَأْنَا آيَةً نُّكَاتٍ آيَةً﴾، كان كفار مكة إذا نسخ الله لفظ آية بلفظ أخرى أو معناها وإن بقي لفظها - لأن هذا كله يقع عليه التبديل - يقولون: لو كان من عند الله لم يتبدل، وإنما هو من افتراء محمد، فهو يرجع من خطإٍ يبدو له إلى صواب يراه بغد، فأخبر الله تعالى أعلم بما يصلح للعباد برهة من الدهر، ثم ما يصلح لهم بعد ذلك، وأنهم لا يعلمون هذا. وقرأ الجمهور: ﴿يَتَرَكُ﴾ بفتح التنوين وشد الزاي، وقرأ أبو عمرو بسكون النون وتخفيف الزاي، وعبر بالأكثر مراعاة لما كان عند قليل منهم من موقف وقلة مبالغة في التكذيب وظن، ويحتمل أن يكون هذا اللفظ قرر على قليل منهم أنهم يعلمون ويكفرون تمرؤداً وعناداً.

وأمر نبيه أن يخبر أن القرآن ناسخه

ومنسوخه إنما نزله جبريل عليه السلام، وهو روح القدس، لا خلاف في ذلك، و﴿الْقُدْرِينَ﴾: الموضع المطهر، فكأن جبريل أضيف إلى الأمر المطهر بإطلاق، وسُمي روحاً إما لأنه ذور روح من حملة روح الله الذي بثه في خلقه، وخُصَّ هو بهذا الاسم، وإما لأنه يجري من الهدايات والرسالات ومن الملائكة أيضاً مجرى الروح من الأجساد لشرفه ومكانته، وقرأ ابن كثير: ﴿الْقُدْسُ﴾ بسكون الدال، وقرأ الباقر بضمها، وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: مع الحق في أوامره ونواهيه وأحكامه ومصالحه وأخباره، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ بمعنى حقاً، ويحتمل أن يريد بالحق في أن ينزل، أي أنه واجب لمعنى المصلحة أن ينزل، وعلى هذا الاحتمال اعتراضات عند أصحاب الكلام على أصول الدين، وباقى الآية بين.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَمَرْنَا أَنَّهُمْ يَقُولُونَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان في مكة غلام أعمى لبعض قريش يقال له بلعام، فكان رسول الله ﷺ يكلمه ويعلمه الإسلام ويرومه عليه، فقالت قريش: هذا يعلم محمداً من جهة الأعاجم، فنزلت الآية بسببه، وقال عكرمة وسفيان: كان اسم الغلام يعيش، وقال عبد الله بن مسلم الحضرمي: كان بمكة غلامان، أحدهما اسمه جبر، والثاني يسار، وكانا يقرآن بالرومية، وكان رسول الله ﷺ يجلس إليهما، فقالت قريش ذلك،

ونزلت الآية، وقال ابن إسحق: الإشارة إلى جبر، وقال الضحاك: الإشارة إلى سلمان الفارسي، وهذا ضعيف، لأن سلمان إنما أسلم بعد الهجرة بمكة. وقرأت فرقة: ﴿لِسَانَ الَّذِي﴾ وقرأ الحسن البصري: ﴿اللِّسَانَ الَّذِي﴾ بالتعريف وبغير تنوين في راء ﴿نَسْرُ﴾. وقرأ نافع، وابن كثير: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ بضم الياء، من ﴿الْحَدَّ﴾ إذا مال، وهي قراءة أبي عمرو، وعاصم، وابن عامر، وأبي جعفر بن القعقاع، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَلْحَدُونَ﴾ بفتح الياء والحاء، من ﴿لَحَدَّ﴾، وهي قراءة عبدالله، وطلحة، وأبي عبد الرحمن، والأعمش، ومجاهد، وهما بمعنى، ومنه قول الشاعر:

قَدْرِي مِنْ نَضْرِ الْخَبِيبِينَ قَدِي
لَيْسَ أَمِيرِي بِالسُّحَيْحِ الْمُلْجِدِ
يريد: المائل عن الجود وحال
الرياسة.

وقوله: ﴿أَعْجَبِي﴾ إضافة إلى «أَعْجَمَ» لا إلى «الْعَجَمِ»؛ لأنه كان يقول: «عَجَبِي»، والأعجم: هو الذي لا يتكلم بعربية، وأما العجمي فقد يتكلم بالعربية ونسبته قائمة. وقوله: ﴿وَهَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، والتقدير: وهذا سرُّ لسان، أو نُظْفُ لسان، فهو على حذف مضاف، وهذا على أن نجعل اللسان هنا الجارحة، واللسان - في كلام العرب -: اللغة، ويحتمل أن يراد في هذه، واللسان: الخبر، ومنه قول الأعمش:

إِنِّي أَتَشْنِي لِسَانَ غَيْرِ كَادِيَةٍ
.....

إذ الصفةُ بالشيءِ أبلغُ من الخبرِ به؛ لأن الصفة تقتضي الدوام أكثر مما يقتضيه الخبر، فبدأ في هذه الآية بالخبر ثم أكد بالصفة، وقد اعترض هذا النظر مكّي، وليس اعتراضه بالقوي. و [مَنْ] في قوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ﴾ بدل من قوله: ﴿الْكَاذِبُونَ﴾، ولم يُجزِ الزجاج غير هذا الوجه؛ لأنه رأى أن هذا الكلام إلى آخر الاستثناء غير تام، فعلقه بما قبله، والذي أبى الزجاج سائح على ما أورده الآن إن شاء الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يتأيد بما روي من أن قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ يراد به عبدالله بن أبي سرح، ومقبس بن صبابه وأشباههما ممن كان آمن برسول الله ﷺ ثم ارتد، فلما بين في هذه الآية أمر الكاذبين بأنهم الذين كفروا بعد الإيمان أخرج من هذه الصفة القوم المؤمنين المعديين بمكة وهم بلال وعمار وسُمَيَّةُ أمُّه وخبّاب وصُهَيْب وأشباههم، وذلك أن كفار مكة كانوا في صدر الإسلام يؤذون من أسلم من هؤلاء لضعفه، ويُعذّبونهم ليرتدوا، فربما سامحهم بعضهم بما أرادوا من القول، روي أن عمار بن ياسر فعل ذلك فاستثناه الله في هذه الآية، وبقيت الرخصة عامة في الأمر بعده. ثم ابتدأ في الإخبار بأن ﴿مَنْ سَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا تَعْلِيهَةً﴾، وهذا الضمير على معنى [مَنْ] لا على لفظها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا من الاعتراض أن أمر ابن أبي سرح وأولئك إنما كان

القول يضعف؛ لأن الكاتب المشهور الذي ارتد لهذا السبب ولغيره من نحوه هو عبدالله بن أبي سرح العامري، ولسانه ليس بأعجمي، فتأمل.

﴿١٠٤﴾ - ﴿١٠٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعهود من الوجود أن الذين لا يهديهم الله لا يؤمنون بآياته، ولكنه قدم في هذا الترتيب وأخر تهمماً بقبح فعلهم والتشنيع بخطئهم، وذلك كقوله: ﴿لَمَّا رَأَوْا آرَاءَ اللَّهِ فَلُوهُهُمْ﴾، والمراد ما

ذكرناه، فكأنه قال: إن الذين لم يؤمنوا لم يهدهم الله.

وقوله تعالَى: ﴿إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَاذِبُ﴾ بمعنى: إنما يكذب، وهذه مقاومة للذين قالوا لمحمد ﷺ: «إنما أنت مُفْتَرٌ»، و﴿إِنَّمَا﴾ حاصرة أبدأ، لكن حصرها يختلف باختلاف المعاني التي تقع فيها، فقد يربط المعنى أن يكون حصرها حقيقياً، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا اللَّهُ وَحْدَهُ﴾، وقد يقتضي المعنى أن يكون حصرها تجزؤاً ومبالغة، كقولك: «إنما الشجاع عنترة»، وهكذا هي في هذه الآية، قال الزجاج: يفترى هذا الصنف لأنهم إذا رأوا الآيات التي لا يقدر عليها إلا الله كذبوا بها، فهذا أفحش الكذب. وكرر المعنى في قوله: ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ لفائدة إيقاع الصفة بالكذب عليهم،

وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجِبُكُمْ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ ثَبِيثٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٥﴾ إِنَّمَا يَقْرَأُ الْكَاذِبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٦﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ لَا مَنْ أَكْفَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ سَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ عَذَابٌ مِنْ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحْبَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٨﴾ وَأُولَئِكَ الَّذِينَ طَمِعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعَهُمْ وَأَبْصَرَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفٰطِنُونَ ﴿١٠٩﴾ لَا جَرَمَ لَهُمْ مِنَ الْآخِرَةِ هُمُ الْخٰسِرُونَ ﴿١١٠﴾ ثُمَّ آتٰ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فَتَنَّا أَشْرَ حَنَهُدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبُّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١١﴾

ومنه قول الآخر:

لِسَانُ السُّوءِ تُهْدِيهَا إِلَيْنَا
وَجِئْتُ وَمَا حَسِبْتُكَ أَنْ تَجِيئَا
وحكى الطبري عن سعيد بن المسيب أن الإشارة بقولهم: ﴿بَشَرٌ﴾ إنما هي إلى كاتب كان يكتب لرسول الله ﷺ، فيقول له رسول الله صلوات الله وسلامه في أواخر الآيات: ﴿سَبِّحْ عَلَيَّ﴾، فيكتب هو «عزير حكيم» أو نحو هذا، ثم يشتغل باستماع الوحي فيبدل هو بـ «غفور رحيم» أو نحوه، فقال له عليه الصلاة والسلام في بعض الآيات: هو ما كتبت، ففتن وقال: أنا أعلم محمداً وارتد ولحق بمكة فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا نصراني أسلم وكتب ثم ارتد ومات فلفظته الأرض، وإلا فهذا

ورسول الله ﷺ بالمدينة، والظاهر من هذه الآيات أنها مكّية، وقالت فرقة: [مَنْ] في قوله: ﴿مَنْ كَفَرَ﴾ ابتداءً، وقوله: ﴿مَنْ شَرَحَ﴾ تخصيص منه، ودخل الاستثناء لما ذكرنا من إخراج عَمَّار وشبيهه، ودنا من الاستثناء الأول الاستدراك ولكن. وقوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ﴾ خبر عن [مَنْ] الأولى والثانية؛ إذ هو واحد بالمعنى؛ لأن الإخبار في قوله إنما قصد به الصنف الشارح بالكفر، ف﴿صَدْرًا﴾ نصب على التمييز، وقوله: ﴿شَرَحَ بِالْكَفْرِ صَدْرًا﴾ معناه: انبسط للكفر باختياره، ويُزوي أن عَمَّار بن ياسر شكّا إلى رسول الله ﷺ ما صنع به من العذاب، وما سمح به من القول، فقال له: «كيف تجد قلبك؟» قال: أجده مطمئنًا بالإيمان، قال: «فَأَجِبْهُمْ بِلِسَانِكَ فَإِنَّهُ لَا يَضُرُّكَ، وَإِنْ عَادُوا فَعُدْ»، ويتعلق بهذه الآية شيء من مسائل الإكراه، أمّا من عدّبه كافر قادر عليه ليكفر بلسانه، وكان العذاب يؤدي إلى قتله فله الإجابة باللسان قولاً واحداً فيما أحفظ، فإن أراد منه الإجابة بفعل كالسجود للصنم ونحو ذلك ففي هذا اختلاف - فقالت فرقة وهي الجمهور: يجيب بحسب الشّقيّة، وقالت فرقة: لا يجيب، ويسلم نفسه، وقالت فرقة: إن كان الصنم نحو القبلة أجاب واعتقد السجود لله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما أحره أن يسجد لله حيثنذ حيثما توجه، وهذا مباح في السفر لتعب النزول عن الدابة في الثقل، فكيف

بهذا؟ واحتجت فرقة على التفريق في المنع بقول ابن مسعود: «ما من كلام يدرأ عني سوطين من ذي سلطان إلا كنت متكلماً به»، فقصر الرخصة على القول دون الفعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بحجة، لأنه يحتمل أن جعل الكلام مثلاً وهو يريد أن الفعل في حكمه، وأمّا الإكراه في البيع والطلاق والعتق والفطر في رمضان وشرب الخمر ونحو هذا من المعاصي التي بين العبد وبين الله تبارك وتعالى فلا يلزم المكروه شيء من ذلك، قاله مطرف، ورواه مالك، وقاله ابن عبدالحكم وأصبخ، ورواه عن ابن القاسم عن مالك، وفرق ابن عباس رضي الله عنهما بين ما منها قول كالعتق والطلاق فجعل فيها الشّقيّة، وقال: لا تقيّة فيما كان فعلاً كشرب الخمر والفطر في رمضان، ولا يحل فعلهما لمكروه، وأمّا المظلوم فيضغط حتى يبيع متاعه، فذلك بيع لا يجوز عليه، وهو أولى بمتاعه يأخذه رجع بضمنه أو بقيمته - بالأكثر من ذلك - على الظالم إذا كان المشتري غير عالم بظلمه، قال مطرف: ومن كان من المشتري يعلم حال المكروه فإنه ضامن لما ابتاع من رقيقه وعروضه كالغاصب، وأمّا من لا يعلم فلا يضمن العروض والحيوان، وإنما يضمن ما كان تلفه بسببه، مثل طعام أكله، أو ثوب لبسه، والغلّة - إذا عليم أو لم يعلم - ليست له بحال، هو لها ضامن كالغاصب، وقال أصبخ وعبدالحكم: قال مطرف:

وكل ما أحدث المبتاع في ذلك من عتق أو تدبير أو تحبيس فلا يلزم المكروه، وله أخذ متاعه. وأمّا الإكراه على قتل مسلم أو جلده وأخذ ماله أو بيع متاعه فلا عذر فيه، ولا استكراه في ركوب معصية تُنتهك من أحد كالزنى والقتل ونحوه، قال مطرف، وأصبخ، وابن عبدالحكم: لا يفعل أحد ذلك وإن قُتل إن لم يفعل، فإن فعله فهو آثم ويلزمه الحد والقود، وقال مالك: القيد إكراه، والسجن إكراه، والوعيد المخوف إكراه وإن لم يقع إذا تحقق ظلّم ذلك المُتعدّي وإنفاذه لما يتوعدّ به، ويعتبر الإكراه عندي بحسب هيئة المُكروه وقدره في الدين، وبحسب الشيء الذي يُكروه عليه، فقد يكون الضرب إكراهاً في شيء دون شيء، فلهذه النوازل فقه الحال، وأمّا يعين المُكروه كما قلنا فهي غير لازمة، فلهذه النوازل فقه الحال، وأمّا يعين المُكروه كما قلنا فهي غير لازمة، قال ابن الماجشون: وسواء حلف فيما هو لله تبارك وتعالى طاعة أو معصية إذا أكره على اليمين، قاله أصبخ، وقال مطرف: إن أكره على اليمين فيه ساقطة، وإن أكره على اليمين فيما هو طاعة - مثل أن يأخذ الوالي رجلاً فاسقاً فيكفره على أن يحلف بالطلاق لا يشرب خمرًا، أو لا يفسق، أو لا يغش في عمله، أو الوالد يحلف ولده في مثل هذا تأديباً له - فإن اليمين تلزم وإن كان المُكروه قد أخطأ فيما تكلف من ذلك، وقال به ابن حبيب. وأمّا إن أكره رجل على أن يحلف وإلا أخذ له مال -

فجمعت الآية بين الأمرين، وعلى هذا مرّت عقيدة أهل السنة. وقوله: ﴿لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ عموم على أنه لا يهديهم من حيث هم كفار في نفس كفرهم، أو عموم يراد به الخصوص فيمن يوافي.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَجَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، عبارة عن صرف الله لهم عن طريق الهدى، واختراع الكفر المظلم في قلوبهم، وتغليب الإعراض على نظرهم، فكأنه سدّ بذلك طرق هذه الحواس حتى لا تنفع في اعتبار وتأمل، وقد تقدم القول وذكر الاختلاف في الطبع والختم في سورة البقرة، وهل هو حقيقة أو مجاز. «والسمع»: اسم جنس، وهو مصدر في الأصل، فلذلك، وحُد، وثبّه على تكسبهم الإعراض عن النظر فوصفهم بالغفلة، وقد سبق شرح ﴿لَا جِمْ﴾ في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ رَبُّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قُتِلُوا﴾ الآية. قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قوم من أهل مكة أسلموا، وكانوا يستخفون بالإسلام، فأخرجهم المشركون يوم بدر معهم، فأصيب بعضهم، فقال المسلمون: كان أصحابنا هؤلاء مسلمين وأكروها فاستغفروا لهم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَدَّعْتُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِينَ أَنفُسِهِمْ﴾ إلى آخر الآية، قال: فكتب بها إلى من بقي من المسلمين بمكة، وأن لا عذر لهم، فخرجوا فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة، فنزلت فيهم ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ

خوف ورجاء النجاة من ظلمه فقد دخل في الإكراه ولا شيء عليه، وإن لم يحلف على رجاء النجاة فهو حانث، وإذا أتهم الوالي أحداً بفعل أمر فقال له: لا بُدَّ من عقوبتك إلا أن تحلف لي، فإن كان ذلك الأمر مما لذلك المكروه فعله - إما أن يكون طاعة، وإما أن يكون لا طاعة ولا معصية - فالثقة في هذا، وأما إن كان الأمر مما لا يحلّ له فعله ويكون حنث الوالي فيه صواباً فلا ثنية في اليمين، وهو حانث، قاله مالك،

وابن الماجشون، فهذه ثبذة من مسائل الإكراه.

١٠٧ - ١١١ تفسير قوله عز وجل:

﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الغضب والعذاب الذي توعد به قبل هذه الآية، والضمير في ﴿أَنَّهُمْ﴾ لمن شرح بالكفر صدرأ، ولما فعلوا فعل من استحبب الزموا ذلك وإن كانوا غير مصدقين بالآخرة، لكن الأمر في نفسه بيّن، فمن حيث أعرضوا عن النظر فيه كانوا كمن استحبب غيره، وهذه الآية علّق فيها العقاب بتكسبهم، وذلك أن استحبابهم زينة الدنيا ولذات الكفر هو التكسب.

وقوله: ﴿وَأَنَّكَ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ إشارة إلى اختراع الله الكفر في قلوبهم، ولا شك أن كفر الكافر الذي تعلق به العقاب إنما هو باختراع من الله وتكسب من الكافر،

يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ مُّجِدِّلٌ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٠٧﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرِيبَةً كَانَتْ ؤَامِنَةً مّطْمَئِنَّةً بِأَيْتِمَارِ رِزْقِهَا رَعِدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَقَهَا اللَّهُ لِيَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١٠٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٠٩﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمْ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا لِعِنْمَتِ اللَّهِ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ لَشَاكِرُونَ ﴿١١٠﴾ وَإِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَيْزُرِ وَإِنَّمَا أَهْلُ بَيْتِ اللَّهِ بِهِ فَفَمِنَ أَهْلِ بَيْتِ اللَّهِ لَا عَادِلِينَ لَهُ فِي شَيْءٍ مِّنَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿١١١﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا صِفَّاكَ لَسْنَا بِكُمُ الْكَاذِبِينَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِنَفْسِنَا عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكُذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٢﴾ مَتَّعَ قَلِيلٌ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٣﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَمًا مَّا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلٍ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٤﴾

كأصحاب المكس، وظلمة السعاة، وأهل الاعتداء - فقال مطرف: لا ثنية في ذلك، وإنما يدرأ المرء يمينه عن بدنه لا عن ماله، وقال ابن الماجشون: لا يحنث وإن درأ عن ماله ولم يخف على بدنه. وقال ابن القاسم: يقول مطرف، ورواه عن مالك رحمه الله، وقاله ابن عبدالحكم، وأصيح، وابن حبيب. وقال مطرف، وابن الماجشون، وإن يدرأ الحالف يمينه للوالي الظالم قبل أن يسأله ليذّب بها عما خاف عليه من بدنه وماله فحلف بها فإنها تلزمه، وقاله ابن عبدالحكم وأصيح، وقال أيضاً ابن الماجشون فيمن أخذه ظالم فحلف له بالطلاق البتة من غير أن يحلفه وتركه وهو كاذب، وإنما حلف خوفاً من ضربه وقتله أو أخذ ماله، فإن كان إنما يتبرع باليمين غلبة

المثل مكئة، كانت بهذه الصفة التي ذكر الله؛ لأنها كانت لا تُغزى ولا يُغير عليها أحد، وكانت الأزواق تجلب إليها، وأنعم الله عليها برسوله ﷺ، والمراد بهذه الضمائر كلها أهل القرية فكفروا بأنهم الله في ذلك وفي جملة الشرع والهداية، فأصابتهم السنون والخوف وسائر سرايا رسول الله ﷺ وغزواته، هذا إن كانت الآية مدنية، وإن كانت مكئية فجوع السنين وخوف العذاب من الله بسبب الكفر والتكذيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا كانت هي التي ضربت مثلاً فإنما ضربت لغيرها مما يأتي بعدها ليحذر أن يقع فيما وقعت هي فيه، وحكى الطبري عن حفصة أم المؤمنين رضي الله عنه: ما صنع الناس؟ وهي صادرة من الحج من مكة، فقيل لها: قتل، فقالت: والذي نفسي بيده إنها للقرية - تعني المدينة - التي قال الله فيها: ﴿وَتَرَبَّ اللَّهُ مَثَلًا﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأدخل الطبري هذا على أن حفصة رضي الله عنها قالت: إن الآية نزلت في المدينة وإنما هي التي ضربت مثلاً، والأمر عندي ليس كذلك، وإنما أرادت أن المدينة قد حصلت في محذور المثل، وحل بها ما حلّ بالتي جعلت مثلاً، وكذلك يتوجه عندي في الآية أنها قصد بها قرية غير معينة جعلت مثلاً، لكنه على معنى التحذير لأهلها ولغيرها من القرى إلى يوم القيامة.

و ﴿رَعَدًا﴾ نصب على الحال،

فقتلوا أنفسهم بما أعطوا المشركين من القول، كما فعل عمار بن ياسر، وأما على قراءة الجمهور فإن كان الضمير للمعذبين فهو بمعنى: من بعد ما فتنهم المشركون، وإن كان الضمير للمشركين فهو بمعنى: من بعد ما فتنهم الشيطان. والضمير في ﴿مَثَلًا﴾ عائذ على الفتنة، أو على الفعل، أو الهجرة، أو التوبة، والكلام يعطيها وإن لم يجر لها ذكر صريح.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ بِجَدِيدٍ﴾، المعنى: لغفور رحيم يوم، وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ أَيْ: لكل ذي نفس. ثم أجرى الفعل على المضاف إليه المذكور فأثت العلامة، و﴿نَفْسٌ﴾ الأولى هي النفس المعروفة، والثانية هي بمعنى الذات، كما تقول: نفس الشيء وعينه، أي ذاته. ﴿وَيَوْمَ كُلُّ نَفْسٍ أَيْ: تُجَازَى، كُلُّ مِنْ أَحْسَنَ بِإِحْسَانِهِ، وَكُلُّ مِنْ أَسَاءَ بِإِسَاءَتِهِ.

وظاهر الآية أن كل نفس تجادل، مؤمنة كانت أو كافرة، فإذا جادل الكفار بكذبهم وجحدهم الكفر شهدت عليهم الجوارح والرسول وغير ذلك بحسب الطوائف، فحينئذ لا ينطقون، ﴿وَلَا يُؤَدِّنُكُمْ فَيَقْدِرُ اللَّهُ﴾، فتجتمع آيات القرآن باختلاف المواطنين، وقالت فرقة: قول كل أحد من الأنبياء وغيرهم: نفسي نفسي، وهذا ليس بجدل ولا احتجاج، وإنما هو مجرد رغبة.

قال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وقتادة: القرية المضروب بها

مَثَلًا بِاللَّهِ﴾ إلى آخر الآية، فكتب المسلمون إليهم بذلك، فخرجوا ويشوا من كل خير، ثم نزل فيهم: ﴿شَرُّ إِيْتِ رَبِّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا قَسَبُوا﴾ فكتبوا إليهم بذلك أن الله قد جعل لكم مخرجاً، فخرجوا فلحقهم المشركون فقاتلوهم حتى نجا من نجا، وقُتل من قُتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: جاءت الرواية هكذا أنهم بعد نزول الآية خرجوا، فيجئ الجهاد الذي ذكر في الآية جهادهم مع رسول الله ﷺ على الإسلام، وروت طائفة أنهم خرجوا وأتبعوا وجاهدوا متبعيهم، فقتل من قُتل، ونجا من نجا، فنزلت الآية حينئذ، فمعنى الجهاد المذكور جهادهم لمُتَّبِعِيهِمْ.

وقال ابن إسحاق: نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر، وعيَّاش بن أبي ربيعة، والوليد بن الوليد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويذكر عمار في هذا عندي غير قويم، فإنه أرفع من طبقة هؤلاء، وإنما هؤلاء من تاب بمن شرح بالكفر صدراً، فتح الله عليهم باب التوبة في آخر الآية.

وقال عكرمة، والحسن: نزلت هذه الآية في شأن عبد الله بن أبي سرح وأشبابه، فكأنه قال: من بعد ما فتنهم الشيطان. وهذه الآية مدنية، ولا أعلم في ذلك خلافاً، وإن وُجد فهو ضعيف.

وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَسَبُوا﴾ بضم الفاء وكسر التاء، وقرأ ابن عامر وحده بفتحهما، فإن كان الضمير للمعذبين فتجئ بمعنى:

كذا، على معنى إقامة نفسه، وروى الطبري أن بعض الناس قال: نزلت هذه خطاباً للكفار عن طعام كان رسول الله ﷺ بعثه إليهم في جوعهم، وأنحى الطبري على هذا القول، وكذلك هو فاسد من غير وجه.

﴿١١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

حصرت ﴿إِنَّمَا﴾ هذه المحرمات وقت نزول الآية، ثم نزلت المحرمات بعد ذلك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿الْيَسَّةُ﴾ مخففاً، وشدها أبو جعفر بن القعقاع، وهو الأصل، والتخفيف طارئ عليه، والعامل في نصبها ﴿حَرَّمَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿الْمَيْتَةُ﴾ بالرفع على أن تكون [مَا] بمعنى «الذي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكون [مَا] متصلة بـ [إِنَّ] يضعف هذا ويحكم بأنها حاصرة و [مَا] كافة، وإذا كانت بمعنى «الذي» فيجب أن تكون منفصلة، وذلك خلاف خط المصحف. وقرأ الجمهور: ﴿حَرَّمَ﴾ على معنى: حَرَّمَ اللهُ، وقرأت فرقة: ﴿حَرَّمَ﴾ على ما لم يُسَمَّ فاعله، وهذا برفع ﴿الْيَسَّةُ﴾ ولا بُدَّ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والميتة المحرمة هي ما مات من حيوان البر الذي له نفس سائلة حتف أنفه، وأما ما ليس له نفسه سائلة كالجراد والذباب والبراغيث ودود التين وحيوان الفول وما مات من الحوت حتف أنفه وطفا على الماء ففيه قولان في المذهب، وما مات حتف أنفه من الحيوان الذي يعيش

فهو الجوع فقط، وذكر الطبري أنه القتل ببدر، وهذا يقتضي أن الآية نزلت بالمدينة، وإن كان التمثيل بمدينة قديمة غير معينة فيحتمل أن يكون الضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ لأهل تلك المدينة، ويكون هذا مما جرى كمدينة شعيب وغيره، ويحتمل أن يكون الضمير المذكور لأهل مكة، فتأمل.

قوله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ﴾ الآية. هذا ابتداء كلام آخر

ومعنى حُكْم، والفاء في قوله: ﴿فَكُلُوا﴾ لصلة الكلام واتساق

الجمل، خرج من ذكر الكافرين

والمثل عليهم إلى أمر المؤمنين بشرح

ما فوصل الكلام بالفاء، وليست

المعاني موصلة. هذا قول، والذي

عندي أن الكلام متصل بالمعنى،

أي: وأنتم أيها المؤمنون لستم كهذه

القرية، فكلوا واشكروا الله على

تباين حالكم من حال الكفرة، وهذه

الآية بسبب أن الكفار كانوا قد سئوا

في الأنعام سنناً، وأحلوا بعضاً

وحرموا بعضاً، فأمر الله المؤمنين

بأكل جميع الأنعام التي رزقها عباده.

واختلف العلماء في قوله: ﴿طَيِّبًا﴾،

والصحيح أنه مُسْتَلَدٌ بعد قوله:

﴿حَلَالًا﴾، ووقع النص في هذا على

المُستَلَدِ إذ فيه ظهور النعمة، وهو

عظم النعم، وإن الحلال قد يكون

غير مُستَلَدٍ، ويحتمل أن يكون

الطيب بمعنى الحلال، كزره مبالغة

وتوكيداً، وباقى الآية بين:

وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ إقامة للنفس، كما تقول

لرجل: إن كنت من الرجال فافعل

﴿وَأَنْتُمْ﴾ جمع نعمة، كشيده وأشد، كما قال سيبويه، وقال قطرب: أَنْعُم: جمع نُعْم، وهو بمعنى النعيم، يقال: هذه أيام نُعْمٍ وطُعم، وقوله تعالى: ﴿فَأَذَقْنَا اللهُ لِإِسَاءَةِ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ استعارات، أي: لما باشروهم ذلك صار كاللباس، وهذا كقول الأعشى:

إِذَا مَا الضَّجِيعُ نَسَى جِيدهَا
تَشْتَتِ عَلَيْهِ فَصَارَتْ لِإِسَاءَةِ
ونحوه قوله تعالى: ﴿هُنَّ لِإِسَاءَةِ كُفْرِهِمْ وَأَنْتُمْ لِإِسَاءَةِ كُفْرِهِمْ﴾، ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ لَبِستُ بَعْدَ الزُّبَيْرِ مُجَابِيعَ
ثِيَابِ الَّتِي حَاصَتْ وَلَمْ تُغَيِّلِ الدِّمَا
كأن العار لما باشروهم وألصق بهم جعلهم لبسوه.

وقوله: ﴿فَأَذَقَهَا﴾ نظير قوله: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، ونظير قول الشاعر:

دُونَكَ مَا جَنَيْتَهُ فَاخْشَ وَذُقْ

وقرأ الجمهور: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ عطفاً

على ﴿الْجُوعِ﴾ وقرأ أبو عمرو -

بخلاف عنه -: ﴿وَالْخَوْفِ﴾ عطفاً

على قوله: ﴿لِإِسَاءَةِ﴾ وفي مصحف

أبي بن كعب رضي الله عنه:

﴿لِإِسَاءَةِ الخوف والجوع﴾، وقرأ ابن

مسعود رضي الله عنه: ﴿فَأَذَقَهَا اللهُ

الخوف والجوع﴾، ولا يذكر

«لباس».

والضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ لأهل مكة،

والرسول محمد عليه الصلاة

والسلام، و«العذاب»: الجوع وأمر

بدر ونحو ذلك إن كان التمثيل بمكة

وكانت الآية مدنية، وإن كانت مكية

في الماء وفي البر كالسلاحف ونحوها ففيه قولان، والمنع هنا أظهر، إلا أن يكون الغالب عليه العيش في الماء.

والدم المحرم هو المنسفع الذي يسيل إن ترك مفرداً، وأما ما خالط اللحم وسكن فيه فحلال طبع ذلك اللحم به، ولا يكلف أحد تتبّعه، ودم الحوت مختلف في تحليله وإن كان ينسفع لو ترك.

ولحم الخنزير هو معظمه والمقصود الأظهر فيه، فلذلك خصّه بالذكر، وأجمعت الأمة على تحريم شحمه وغضاريفه، ومن تخصيصه استدلت فرقة على جواز الانتفاع بجلده إذا ذُبغ ولبسه، والأولى تحريمه جملة، وأما شغره فالانتفاع به مباح، وقالت فرقة: ذلك غير جائز، والأول أرجح.

﴿وَمَا أَيْلَ لَيْتَرَ اللَّهُ بِهِ﴾، يريد كل ما نوي بذبحه غير التقرب إلى الله والقرب إلى سواه، وسواء تكلم بذلك على الذبيحة أو لم يتكلم، لكن خرجت العبارة عن ذلك بـ ﴿أَهْلٍ﴾، ومعناه صحيح على عادة العرب، وقصد الغصّ منها، وذلك أنها كانت إذا ساق ذبيحة إلى صنم جهرت باسم ذلك الصنم وصاحت به.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾، قالت فرقة: معناه: أكرهه، وقال الجمهور: معناه: اضطره جوع واحتياج، وقرأت فرقة: ﴿فَمَنْ﴾ بضم النون ﴿أَضْطَرَّ﴾ بضم الطاء، وقرأت فرقة: ﴿فَمَنْ﴾ بكسر النون ﴿أَضْطَرَّ﴾ بكسر الطاء على أن الأصل:

﴿أَضْطَرَّ﴾، فنقلت حركة الراء إلى الطاء وأدغمت الراء في الراء. [وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾] قالت فرقة:

هو صاحب البغي على الإمام، أو في قطع الطريق، وبالجملة في سفر المعاصي، والعادي بمعناه في أنه من ينوي المعصية، وقال الجمهور:

﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾ معناه: غير مستعمل لهذه المحرمات مع وجود غيرها، ﴿وَلَا عَادٍ﴾ معناه: لا يعدو حدود الله في هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أرجح وأعم في الرخصة.

وقالت فرقة: باغ وعادٍ في الشَّبع والتزود، واختلف الثَّام في صورة الأكل من الميتة - فقالت فرقة: الجائز من ذلك ما يُمسك الرُّمق فقط، وقالت فرقة: بل يجوز الشَّبع الثَّام، وقالت فرقة - منهم مالك رحمه الله -: يجوز الشَّبع والتزود، وقال بعض النحويين في قوله: ﴿عَادٍ﴾: إنه مقلوب من عايد، فهو كشاكي السلاح، وكيوم راج، وكقول الشاعر:

لَا بُدَّ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالْعُنْبُرِيِّ
وقوله: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ يقتضي منه الإباحة للمضطر، وخرجت الإباحة في هذه الألفاظ تخرجاً فيها وتضييقاً في أمرها، ليدل الكلام على عظم الحظر في هذه المحرمات، فغاية هذا المرخض له

﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾، فنقلت حركة الراء إلى الطاء وأدغمت الراء في الراء. [وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾] قالت فرقة: هو صاحب البغي على الإمام، أو في قطع الطريق، وبالجملة في سفر المعاصي، والعادي بمعناه في أنه من ينوي المعصية، وقال الجمهور: قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أرجح وأعم في الرخصة.

﴿وَمَا أَيْلَ لَيْتَرَ اللَّهُ بِهِ﴾، يريد كل ما نوي بذبحه غير التقرب إلى الله والقرب إلى سواه، وسواء تكلم بذلك على الذبيحة أو لم يتكلم، لكن خرجت العبارة عن ذلك بـ ﴿أَهْلٍ﴾، ومعناه صحيح على عادة العرب، وقصد الغصّ منها، وذلك أنها كانت إذا ساق ذبيحة إلى صنم جهرت باسم ذلك الصنم وصاحت به.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾، قالت فرقة: معناه: أكرهه، وقال الجمهور: معناه: اضطره جوع واحتياج، وقرأت فرقة: ﴿فَمَنْ﴾ بضم النون ﴿أَضْطَرَّ﴾ بضم الطاء، وقرأت فرقة: ﴿فَمَنْ﴾ بكسر النون ﴿أَضْطَرَّ﴾ بكسر الطاء على أن الأصل:

﴿أَضْطَرَّ﴾، فنقلت حركة الراء إلى الطاء وأدغمت الراء في الراء. [وقوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ﴾] قالت فرقة: هو صاحب البغي على الإمام، أو في قطع الطريق، وبالجملة في سفر المعاصي، والعادي بمعناه في أنه من ينوي المعصية، وقال الجمهور: قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أرجح وأعم في الرخصة.

﴿وَمَا أَيْلَ لَيْتَرَ اللَّهُ بِهِ﴾، يريد كل ما نوي بذبحه غير التقرب إلى الله والقرب إلى سواه، وسواء تكلم بذلك على الذبيحة أو لم يتكلم، لكن خرجت العبارة عن ذلك بـ ﴿أَهْلٍ﴾، ومعناه صحيح على عادة العرب، وقصد الغصّ منها، وذلك أنها كانت إذا ساق ذبيحة إلى صنم جهرت باسم ذلك الصنم وصاحت به.

وقوله: ﴿فَمَنْ أَضْطَرَّ﴾، قالت فرقة: معناه: أكرهه، وقال الجمهور: معناه: اضطره جوع واحتياج، وقرأت فرقة: ﴿فَمَنْ﴾ بضم النون ﴿أَضْطَرَّ﴾ بضم الطاء، وقرأت فرقة: ﴿فَمَنْ﴾ بكسر النون ﴿أَضْطَرَّ﴾ بكسر الطاء على أن الأصل:

غفران الله له، وخطه عنه ما كان يلحقه من الإثم لولا ضرورته، وهذا التخريج الذي ذكرناه يفهمه الفصحاء من اللفظ، وليس في المعنى منه شيء، وإنما هو إيحاء، وكذلك جعل غايته في موضع آخر أن لا إثم عليه، وإن كان «لا إثم عليه» وقوله: «هو له مباح» يرجعان إلى معنى واحد فإن في هيئة اللفظتين خلافاً.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه مخاطبة للكفار الذين حرّموا البحائر والسوائب وأحلّوا ما في بطون بعض الأنعام وإن كان ميتة، يدل على ذلك قوله حكاية عنهم: ﴿وَإِنْ يَكُنْ مَيِّتَةً فَفَرِّ فِيهِ شُرَكَاءُ﴾، والآية تقتضي كل ما كان لهم من تحليل وتحريم، فإنه كلّ افتراء منهم، ومنه ما فعلوه في الشهر. وقرأت السبعة وجمهور

هي ضد العلم تصحب هذه الأخرى كثيراً، ولكن يخرج منها المتعمد، وهو الأكثر، وقُلما يوجد في العُصاة من لم يتقدم له علم بحظر المعصية التي تُواقع. والضمير في ﴿بَعْدَهَا﴾ عائد على التوبة.

﴿١٢٠﴾ - ﴿١٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا كَشَفَ اللَّهُ فِعْلَ الْيَهُودِ وَتَحَكَّمَهُمْ فِي شَرْعِهِمْ بِذِكْرِ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِمْ أَرَادَ أَنْ يُبَيِّنَ بُعْدَهُمْ عَنِ شَرْعِ إِبْرَاهِيمَ وَالدَّعْوَى فِيهِ، وَأَنْ يَصِفَ حَالِ إِبْرَاهِيمَ لِتُبَيِّنَ الْفَرْقَ بَيْنَ حَالِهِ وَحَالِهِمْ قَرِيضاً.

والأمة في اللغة لفظة مشتركة تقع للخير، والعامّة، والجمع الكثير من الناس، ثم يُشَبَّه الرجل العالم أو الملك أو المنفرد بطريقة وحده بالناس الكثير فيسمى أمة، وعلى هذا الوجه سُمي إبراهيم عليه السلام أمة، قال ابن مسعود رضي الله عنه: الأمة: مُعَلِّمُ الْخَيْرِ، وقال في بعض أوقاته: إن معاذ بن جبل رضي الله عنه كان أمة قانتاً، فقال له: أبو قُرَّة الكندي، أو فروة ابن نوفل: ليس كذلك، إنما هو أن إبراهيم كان أمة قانتاً، فقال: أندري ما الأمة؟ هو مُعَلِّمُ الْخَيْرِ، وكذلك كان معاذ يُعَلِّمُ الْخَيْرَ وَيَطِيعُ اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وقال مجاهد: سُمي إبراهيم أمة لانفراده بالإيمان في وقته مدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي البخاري أنه قال لسارة: ليس على الأرض اليوم مؤمن غيري وغيرك، وقال بعض النحويين - أظنه أبا الحسن الأَخْفَشُ -: الأمة فُعْلَةٌ مِنْ

عِشْتَهُمْ فِي الدُّنْيَا، ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ بعد ذلك في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا﴾ الآية، لما قصَّ الله تبارك وتعالى على المؤمنين ما حَرَّمَ أَغْلَمَ أيضاً بما حَرَّمَ على اليهود: لبيّن تبديلهم الشرع فيما استحلوا من ذلك وفيما حَرَّموا من تلقاء أنفسهم. وقوله: ﴿مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾ إشارة إلى ما في سورة الأنعام من ذي الظفر والشحوم. وقوله: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾ أي: لم نضع العقوبة عليهم بتحريم تلك الأشياء عليهم في غير موضعها، بل هم طرَقوا إلى ذلك، وجاء من تَشَبُّههم بالمعاصي ما أوجب ذلك.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنْ رَأَيْكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهْلَةٍ﴾ الآية. هذه آية تأنيس لجميع العالم، أخبر الله تعالى فيها أنه يغفر للثائب، والآية إشارة إلى الكفار الذين افتروا على الله، وفعلوا الأفاعيل المذكورة، فهم إذا تابوا من كفرهم بالإيمان، وأصلحوا بأعمال الإسلام - غفر الله لهم، وتناولت هذه - بعد ذلك - كل واقع تحت لفظها من كافر وعاص، وقالت فرقة: الجهالة: العَمْدُ، والجهالة عندي في هذه الموضع ليست ضد العلم، بل هي تعدي الطور وركوب الرأس، ومنه قول النبي ﷺ: «أَوْ أَجْهَلُ أَوْ يُجْهَلُ عَلَيَّ»، وهي التي في قول الشاعر:

أَلَا يَجْهَلُنْ أَحَدَ عَلَيْنَا
فَنَجْهَلُ فَوْقَ جَهْلِ الْجَاهِلِينَا
ومنه لفظة الجاهلية، والجهالة التي

الثاس: ﴿الْكَذِبُ﴾ بفتح الكاف والباء وكسر الذال، و [ما] مصدرية، فكأنه قال: لو وصف أَلَسْتُمْكُمْ. وقرأ الأعرج، وطلحة، وأبو معمر، والحسن: ﴿الْكَذِبُ﴾ بخفض الباء على البدل من [ما]. وقرأ بعض أهل الشام، ومعاذ بن جبل، وابن أبي عبلة: ﴿الْكَذِبُ﴾ بضم الكاف والذال والباء، على صفة الألسنة. وقرأ مسلمة بن محارب: ﴿الْكَذِبُ﴾ بفتح الباء على أنه جمع كذاب ككُتِبَ وكتاب.

وقوله: ﴿هَذَا حَلَلٌ﴾ إشارة إلى ميتة بطون الأنعام وكل ما أحلوا، وقوله: ﴿وهَذَا حَرَامٌ﴾ إشارة إلى البحائر والسوائب وكل ما حَرَّمَ، وقوله: ﴿لِيُقَاتِلُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾ إشارة إلى قولهم في فواحشهم التي هذه إحداهما: ﴿وَجَدْنَا عَلَيْهَا أَبَاءَنَا وَاتَّخَذْنَا أُمَّتَنَا﴾، ويحتمل أن يريد أنه كان شرعهم لاتباعهم سُنتاً لا يرضاهم الله افتراءً عليه، لأن من شرع أمراً فكأنه قال لأتباعه: هذا هو الحق، وهذا مراد الله. ثم أخبرهم الله أن الذين يفترون على الله الكذب لا يبلغون الأمل، والفلاح: بلوغ الأمل، فتارة يكون في البقاء، كما قال الشاعر:

والمُسْنِي وَالصُّبْحُ لَابْقَاءَ مَعَنَ
ويشبهه أن هذه الآية من هذا المعنى، يُقَوِّي ذلك قوله: ﴿مَنْعٌ قَلِيلٌ﴾، وقد يكون في نجح المساعي، ومنه قول عبيد:

أَفْلِيحُ بِمَا شِئْتُ فَقَدْ يُبْلَغُ بِالِ
ضَغْبٍ وَقَدْ يُخْدَعُ الْأَرِيبُ
وقوله: ﴿مَنْعٌ قَلِيلٌ﴾ إشارة إلى

أَمْ يُؤْم، فهو كالهَمْزة والضُّحْكة، أي: يُؤْمُّ به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ف [أُمَّة] - على هذا - صفة، وعلى القول الأول اسمٌ ليس بصفة. و«الْقَانِتُ»: المطيع الدائم على العبادة، و«الْحَنِيفُ»: المائل إلى الخير والإصلاح، وكانت العرب تقول لمن يَخْتَنِي وَيَحُجُّ البيت: حَنِيفًا، وحذف النون من ﴿وَلَوْ يَكُ﴾ لكثرة الاستعمال، كحذفهم من: لا أَبَالٍ ولا أذِر، وهو أيضاً لشبه النون في حال سكنها حروف العلة لغنتها وخفتها وأنها قد تكون علامة وغير ذلك، فكان (لَمْ) هنا دخلت على (يَكُنْ) في حال جزم، ولا تحذف النون إذا لم تكن ساكنة في نحو قوله تعالى: ﴿لَوْ يَكُنُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، ولا تحذف من مثل هذا إلا في الشعر فقد جاءت محذوفة، وقوله: ﴿بِتِ الشُّرَكِيِّنَ﴾ مُشْبِرٌ إلى حال تَبْرِي إِبْرَاهِيمَ عليه السلام من حال مشركي العرب ومشركي اليهود، إذ كلهم أدعاه، ويلزم الإشراك اليهود من جهة تجسيمهم.

و «شَاكِرًا» صفةٌ لإبراهيم تابعة ما تقدم، و«الآتِعُ»: جمع نعمة، و«أَجَبَكُ» معناه: تَخَيَّره، وباقي الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبَعُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾، الحَسَنَةُ: لسانُ الصدق وإمامته لجميع الخلق، هذا قول جميع المفسرين، وذلك أن كل أُمَّة متشرعة فهي مُقَرَّةٌ أن إيمانها إيمانُ إبراهيم، وأنه قُدوتها، وأنه كان على الصواب. وقوله: ﴿لَيْنَ الْقَلِيلِينَ﴾

بمعنى: المُتَعَمِّع عليهم، أي: من الصالحين في أحوالهم ومراتبهم، أو بمعنى أنه في الآخرة مَمَّنٌ يُحْكَمُ له بحكم الصالحين في الدنيا، وهذا على أن الآية وصف حالِهِ في الدارين، ويحتمل أن يكون المعنى: في أعمال الآخرة، فعلى هذا وصف حالته في الأعمال الدنيوية والأخروية.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوَّحَيْنا إِلَيْكَ﴾ الآية. الوحي إلى محمد ﷺ بهذا من جملة الحسنات التي أتاه الله إبراهيم عليه السلام، قال ابن فورك: وأمر الفاضل باتباع المفضل لما تقدم إلى قول الصواب والعمل به، و«أَنَّ» في قوله: ﴿أَنِ اتَّبَعِ﴾ مفسرة، ويجوز أن تكون مفعولة، و«المِلَّةُ»: الطريقة في عقائد الشرع، و«حَنِيفًا» حال، والعامل فيها الفِعْلِيَّةُ التي في قوله: ﴿مِلَّةً لِإِبْرَاهِيمَ﴾، ويجوز أن تكون حالاً من الضمير المرفوع في ﴿اتَّبَعِ﴾، قال مكسي: ولا يكون حالاً من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾؛ لأنه مضاف إليه، وليس كما قال؛ لأن الحال قد تعمل فيها حروف الخفض. إذا عملت في ذي الحال، كقولك: مررت بزيد قائماً.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جُعِلَ لِكَلْبِكَ﴾، أي: لم يكن من ملَّة إبراهيم، وإنما جعله الله فرضاً عاقب به القوم المختلفين فيه، قاله ابن زيد، وذلك أن موسى عليه السلام أمر بني إسرائيل أن يجعلوا من الجمعة يوماً مختصاً بالعبادة، وأمرهم أن يكون يوم الجمعة، فقال جمهورهم: بل يكون يوم

السبت لأن الله فرغ فيه من خلق مخلوقاته، وقال غيرهم: بل نقبل ما أمر به موسى عليه السلام، فراجعهم الجمهور، فتابعهم الآخرون، فألزمهم الله يوم السبت إلزاماً قوياً عقوبة منه لهم، فلم يكن منهم ثبوت، بل عصوا فيه وتعدوا فأهلكهم.

وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّمَا نَزَلْنَا السَّبْتَ﴾، وهي قراءة ابن مسعود، وقرأ أبو حيوية: ﴿جَعَلَ﴾ بفتح الجيم والعين، وورد في الحديث أن اليهود والنصارى اختلفوا في اليوم الذي يختص من الجمعة، فأخذ هؤلاء السبت، وهؤلاء الأحد، فهدانا الله إلى يوم الجمعة، قال رسول الله ﷺ: «فهذا يومهم الذي اختلفوا فيه». فليس الاختلاف المذكور في الآية هو الاختلاف الذي في الحديث، وباقي الآية وعيدٌ وبين.

﴿١٢٥﴾ - ﴿١٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: نزلت بمكة في وقت الأمر بمهادنته للمشركين، أمره الله تعالى أن يدعو إلى دين الله وشرعه بتلطف، وهو أن يُسمع المدعو حكمة، وهو الكلام الصواب القريب الواقع في النفس أجمل موقع، و«الْمَوْعِظَةُ الْحَسَنَةُ»: التخويف والتوجيه والتلطف بالإنسان، بأن يُجِله وَيُنشِطُه ويجعله بصورة من يقبل الفضائل ونحو هذا، فهذه حالة من يُدعى، وحالة من يُجادل دون مخاشنة فتظهر عليه دون قتال، والكلام يعطي أن جدك وهنك وتعبك لا يغني؛ لأن الله قد علم من يؤمن منهم ويهتدي، وعلم

من يَفْضِل، فجملة المعنى: اسلك هذه السبيل ولا تلجأ للمخاشنة فإنها غير مجدية، لأن علم الله قد سبق بالمهتدي منهم والضال. وقالت فرقة: هذه الآية منسوخة بأية القتال، وقالت فرقة: هي مُحْكَمَةٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر لي أن الاختصار على هذه الحال، وألا يتعدى مع الكفرة متى احتيج إلى المخاشنة وهو منسوخ لا محالة. وأما من أمكنت معه هذه الأحوال من الكفار، ويرجى إيمانه بها دون قتال، فهي فيه محكمة إلى يوم القيامة، وأيضاً فهي محكمة في جهة العصاة، فهكذا ينبغي أن يوعظ المسلمون إلى يوم القيامة.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَابَتْكُمْ فَمُجَابِرُوا﴾ الآية، أطبق أهل التفسير أن هذه الآية مدنية نزلت في شأن التمثيل بحمزة رضي الله عنه في يوم أحد، ووقع ذلك في صحيح البخاري، وفي كتاب السير، وذهب النحاس إلى أنها مكية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى متصل بما قبلها من المكى اتصالاً حسناً، لأنها تدرج الرتب من الذي يُدعى ويوعظ، إلى الذي يجادل، إلى الذي يُجَارَى على فعله، ولكن ما رَوَى الجمهور أثبت، وأيضاً فقوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ صَبَرْتُمْ﴾ تعلق بمعنى الآية على ما روى الجمع أن كفار قريش لما مثلوا بحمزة رضي الله عنه وقع ذلك من نفس رسول الله ﷺ فقال: ﴿لَيْسَ أَنْظَرَنِي اللَّهُ بِهِمْ لَأَمْتًا ثَلَاثِينَ﴾ وفي كتاب النحاس وغيره - بسبعين منهم، فقال الناس: إن ظفرنا

لنفلن ولنفلن، فنزلت هذه الآية.

ثم عزم على رسول الله ﷺ في الصبر في الآية بعدها وسُمِّي الإذايات في هذه الآية عقوبة، والعقوبة حقيقة إنما هي الثانية، وإنما فعل ذلك ليستوي اللفظان وتتناسب ديباجة القول، وهذا بعكس قوله تعالى: ﴿وَمَكْرُورًا وَمَكْرَ أَلَلَةٍ﴾، وقوله: ﴿اللَّهُ يَنْتَهِزُ بِرَبِّهِمْ﴾، فإن الثاني هو المجازي، والأول هو الحقيقية. وقرأ ابن سيرين: ﴿وَإِنْ عَقَبْتُمْ فَعَقِبُوا﴾.

وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما نزلت هذه الآية فيمن أصيب بظلامه ألا يزال من ظالميه إذا تمكن إلا مثل ظلامته، لا يتعداه إلى غيره، واختلف أهل العلم فيمن ظلمه رجل في أخذ مال، ثم ائتمن الظالم والمظلوم على مال، هل يجوز له خيانتته في القدر الذي ظلمه؟ - فقالت فرقة: «له ذلك»، ومنهم ابن سيرين، وإبراهيم النخعي، وسفيان، ومجاهد، واحتجت بهذه الآية وعموم لفظها، وقال مالك - رحمه الله - وفرقة معه: «لا يجوز له ذلك»، واحتجوا بقول رسول الله ﷺ: «أَدْ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخَنْ مِنْ خَانَكَ»، ووقع في مسند ابن إسحق أن هذا الحديث إنما ورد في رجل زنا بامرأة آخر، ثم تمكن الآخر من زوجة الثاني بأن تركها عنده وسافر، فاستشار ذلك الرجل رسول الله ﷺ في الأمر، فقال له هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَيَنْقَرُوْا فِي أَمْرِ الْمَالِ قَوْلُ مَالِكِ

رحمه الله؛ لأن الخيانة لاحقة في ذلك، وهي رذيلة لا انفكاك عنها، ولا ينبغي للمرء أن يتأذى بغيره في الرذائل، وإنما ينبغي أن يتجنبها لنفسه، وأما الرجل يظلم في المال، ثم يتمكن من الانتصاف دون أن يؤتمن فيشبهه أن ذلك جائز، يرى أن الله حكم له كما لو تمكن له بالحكم من الحاكم.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾، هذه عزيمة على رسول الله ﷺ في الصبر على المجازاة على التمثيل بالقتلى، وقال ابن زيد: هذه الآية منسوخة بالقتال، وجمهور الناس على أنها محكمة، ويروى أنه ﷺ قال لأصحابه: «أَنَا أَنَا فَأَصْبِرْ كَمَا أَمَرْتُ، فَمَاذَا تَصْنَعُونَ؟»، قالوا: نصبر يا رسول الله كما ندبنا. وقوله: ﴿وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أي: بمعونة الله وتأيدته لك على ذلك، والضمير في قوله: ﴿عَلَيْهِمْ﴾، قيل: يعود على الكفار، أي: لا تتأسف على أن لم يُسَلِّمُوا، وقالت فرقة: بل يعود على القتلى: حمزة وأصحابه رضوان الله عليهم الذين حزن عليهم رسول الله ﷺ، والأول أصوب؛ إذ يكون عود الضمائر على جهة واحدة.

وقرأ الجمهور: ﴿صَبْرِي﴾ بفتح الصاد، وقرأ ابن كثير: ﴿فِي ضَيْقِي﴾ بكسرهما، ورويت عن نافع، وهو غَلَطَ مِمَّنْ رَوَاهُ، قال بعض اللغويين: الكسر والفتح في الضاد لغتان في المصدر، وقال أبو عبيدة: الضَيْقُ مصدر، والضَيْقُ مخفف من

رسول الله ﷺ وفدُ
ثقيف، وحين قالت
اليهود: «ليست هذه
بأرض الأنبياء»، وقوله عزُّ
وجلُّ: ﴿وَقُلْ رَبِّ ادْخُلْنِي
مُدْخَلَ صِدْقٍ﴾، وقوله عزُّ
وجلُّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ
مِن قَبْلِهِ﴾ الآية، وقال ابن
مسعود: في بني إسرائيل
والكهف: «إنهن من
العتاق الأول، وهن في
تلادي»، يريد أنهن من
قديم كسبه.

﴿١﴾ تفسير قوله عزُّ
وجلُّ:

لفظ الآية يقتضي أن الله
عزُّ وجلُّ أسرى بعبده،

صَيْقٍ، كَمَيْتٍ وَمَيْتٍ، وَهَيْنٍ وَهَيْنٍ،
وقال أبو علي الفارسي: والصواب
أن يكون الصَيْقُ لغة في المصدر؛
لأنه إن كان مخففاً من صَيْقٍ لزم أن
تقام الصفة مقام الموصوف، وليس
هذا موضع ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
إنما تقوم الصفة مقام الموصوف إذا
تخصص الموصوف من نفس
الصفة، كما تقول: «رَأَيْتُ
ضاحكاً»، فإنها تخصص الإنسان،
ولو قلت: «رَأَيْتُ بارداً» لم يَخْسُنْ،
وإِبَارِدُ مَثَلُ سَيُوبِهِ رَحِمَهُ اللَّهُ،
و«صَيْقٍ» لا تخصص الموصوف.
وقال ابن عباس، وابن زيد: إن ما
في هذه الآيات من الأمر بالصبر
منسوخ.

وقوله: ﴿مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي:
بالنصر والمعونة والتأييد، و﴿اتَّقَوْا﴾
يريد: المعاصي، و﴿تَحْسِبُونَ﴾
معناه: يزيدون فيما نَدَبَ إِلَيْهِ مِنْ
فعل الخير.

نجز تفسير سورة النحل والحمد لله
رب العالمين والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير سورة الإسراء

هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات:
قوله عزُّ وجلُّ: ﴿وَإِنْ كَادُوا
لَيَقْتُلُونَكَ﴾، وقوله: ﴿وَإِنْ كَادُوا
لَيَسْتَفِزُّوكَ﴾، نزلت حين جاء

سُورَةُ الْإِسْرَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَنَى كَاهِلَهُ لِبُرِيهِ مِنْ مَابَيْنَ آيَاتِهِ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَأَتَيْنَا مُوسَى الْكُتُبَ وَحَمَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ أَنْزَلْنَا مِنْ دُونِ وَكَيْلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْكَ فِي هَذِهِ أَسْرَةَ يَدِ الْكُتُبِ لِنُفِيسَ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَنَعْلَمَنَّ عُلُوكَ كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولَى بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرْسِيَّ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَ أَسْنَنِ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَسْمُرُوا بِهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَفْزُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أُولَ الْأَمْرَةِ وَلِيُتَبَرُوا مَا عَلِمُوا نَفِيرًا ﴿٧﴾

٢٨٢

﴿أَسْرَى﴾ بمعنى: (سرى) على حذف مضاف، كنحو قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ اللَّهُ يَسُورَهُمْ﴾. ووقع الإسراء في مُصَنَّفَاتِ الحديث، وروى عن الصحابة في كل أقطار الإسلام، فهو من المتواتر بهذا الوجه. وذكر النقاش ممن رواه عشرين صحابياً، فروى جمهور الصحابة، وتلقى جل العلماء منهم أن الإسراء كان بشخصه ﷺ، وأنه ركب البراق من مكة ووصل إلى بيت المقدس وصلى فيه. وروى حذيفة وغيره أن رسول الله ﷺ لم ينزل من البراق في بيت المقدس ولا دخله، - قال حذيفة: ولو صلى فيه لكتب عليكم الصلاة فيه - وأنه ركب البراق بمكة ولم ينزل عنه حتى انصرف إلى بيته إلا في صعوده إلى السماء. وقالت عائشة ومعاوية: إنما أسرى بنفس

وهو محمد ﷺ، قال المفسرون: معناه: سرى بعبده، ويظهر أن ﴿أَسْرَى﴾ مُعَدَّةٌ بِالْهَمْزِ إِلَى مَفْعُولٍ محذوف، تقديره: أسرى الملائكة بعبده، وذلك لأنه يعلق أن يُسند ﴿أَسْرَى﴾ - وهو بمعنى (سرى) - إلى الله عزُّ وجلُّ، إذ هو فعل يُعْطَى النقلة كَمَشَى وَجَرَى وَأَحْضَرَ وَانْتَقَلَ، فلا يحسن إسناد شيء من هذا ونحن نجد مندوحة، فإذا صرحت الشريعة بشيء من هذا النحو كقوله تعالى في الحديث: ﴿أَتَيْتُهُ سَعِيًّا، وَأَتَيْتُهُ هَرَوَلَةً﴾ حُمِلَ ذَلِكَ بِالتَّأْوِيلِ عَلَى الْوَجْهِ الْمُخْلِصِ مِنْ نَفْيِ الْحَوَادِثِ، و﴿أَسْرَى﴾ - في هذه الآية - تخرج فصيحة كما ذكرنا، ولا تحتاج إلى تَجَوُّزٍ قَلْقٍ فِي هَذَا اللَّفْظِ، فَإِنَّهُ أَلْزَمٌ لِلنَّقْلَةِ مِنْ (أَتَيْتُهُ) و﴿فَأَنَّى اللَّهُ بِبَيْنَهُمْ﴾. ويحتمل أن يكون

رسول الله ﷺ، ولم يفارق شخصه مضجعه، وإنما كانت رؤيا رأى فيها الحقائق من ربه عز وجل. وجوزه الحسن وابن إسحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحديث مطول في البخاري ومسلم وغيرهما فلذلك اختصرنا نصه في هذا الكتاب، وركوب البراق على قول هؤلاء يكون من جملة ما رُئي في النوم، قال ابن المسيب، وأبو سلمة بن عبد الرحمن في كتاب الطبري: البراق هو دابة إبراهيم عليه السلام الذي كان يزور عليه البيت الحرام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريدان: يجيء من يومه ويرجع، وذلك من مسكنه بالشام. والصحيح ما ذهب إليه الجمهور، ولو كانت منامية ما أمكن قريش أن تُشنع، ولا فضل أبو بكر رضي الله عنه بالتصديق، ولا قالت له أم هانئ: لا تحدث الناس بهذا فيكذبوك، إلى غير هذا من الدلائل.

واحتج لقول عائشة رضي الله عنهما بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّيَا الَّتِي أُرْسِلَتْكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحتمل القول الآخر؛ لأنه يقال لرؤية العين: رؤيا. واحتج أيضاً بأن في بعض الأحاديث: «فاستيقظت وأنا في المسجد الحرام»، وهذا يحتمل أن يُرد من الإسراء إلى نوم. واعترض قول عائشة بأنها كانت صغيرة لم تشاهد ولا حدثت عن النبي ﷺ، وأما معاوية فكان كافراً

في ذلك الوقت، غير مشاهد للحال، صغيراً، ولم يحدث عن النبي عليه الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَنَ﴾ مصدر غير متمكن؛ لأنه لا يجري بوجوه الإعراب، ولا تدخل عليه الألف واللام، ويجيء منه فعل، وسبح معناه: قال سبحان الله، فلم تستعمل سبِح إلا إشارة إلى سبحان، ولم يتصرف لأن في آخره زائدتين، وهو معرفة بالعلمية، وإضافته لا تزيده تعريفاً، هذا كله مذهب سيويه فيه. وقالت فرقة: نصبه على النداء، كأنه قال: يا سبحان الذي أسرى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، ومعناه: تنزيهاً لله. وروى طلحة بن عبيد الله الفيض أحد العشرة أنه قال للنبي ﷺ: ما معنى (سبحان الله)؟ فقال: ﴿تَثْرِيهِ اللهُ مِنْ كُلِّ سُوءٍ﴾، والعامل فيه على مذهب سيويه الفعل الذي هو من معناه لا من لفظه إذ لم يجز من لفظه فعل، وذلك مثل: ﴿قَعَدَ الْفُرْقُصَاءَ وَاشْتَمَلَ الصَّمَاءَ﴾، فالتقدير عنده: أنزه الله تنزيهاً، فوقع ﴿سُبْحَنَ﴾ مكان قولك: تنزيهاً. وقال قوم من المفسرين: ﴿أَسْرَى﴾ فعلٌ غير مُتَعَدٍّ، عداه هنا بحرف الجر، تقول: أسرى الرجل وسرى إذا سار بالليل بمعنى. وقد ذكرت ما يظهر في اللفظة من جهة العقيدة. وقرأ حذيفة وابن مسعود: ﴿أسرى بعبد من الليل من المسجد الحرام﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ النَّبِيِّ﴾ الكركري. قال أنس بن مالك: أراد المسجد المحيط بالكعبة نفسها،

ورجحه الطبري، وقال: هو الذي يُعرف إذا ذكر هذا الاسم، وروى الحسن بن أبي الحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «بينما أنا عند البيت بين النائم واليقظان»، وذكر عبد بن حميد الكمشي في تفسيره، عن سفيان الثوري أنه قال: أسرى بالنبي ﷺ من شغب أبي طالب. وقالت فرقة: «المسجد الحرام» مكة كلها، واستندوا إلى قوله تعالى: ﴿لَتَنظُرُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾، وعظم المقصد هنا إنما هو مكة. ورؤى بعض هذه الفرقة عن أم هانئ أنها قالت: كان رسول الله ﷺ ليلة الإسراء في بيتي، وروى بعضها عن النبي ﷺ أنه قال: «فُرج سقف بيتي»، وهذا يلتزم مع قول أم هانئ رضي الله عنها.

وكان الإسراء فيما قال مقاتل قبل الهجرة بعام، وقاله قتادة، وقيل: بعام ونصف، قاله عروة عن عائشة رضي الله عنها، وكان ذلك في رجب، وقيل: في ليلة سبع عشرة من ربيع الأول، والنبي ﷺ ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر وعشرين يوماً، والمتحقق أن ذلك كان بعد شق الصحيفة، وقيل: بيعة العقبة، ووقع في الصحابين لشركك بن أبي نمر وهم في هذا المعنى، فإنه روى حديث الإسراء وقال فيه: «وذلك قبل أن يوحى إليه». ولا خلاف بين المحدثين أن هذا وهم من شريك.

و «المسجد الأقصى» مسجد بيت المقدس، وسماه «الأقصى» أي في ذلك الوقت، كان أقصى بيوت الله

الفاضلة من الكعبة، ويحتمل أن يريد بـ ﴿الْأَقْصَا﴾: البعيد، دون مفاضلة بينه وبين سواه، ويكون المقصد إظهار العجب في الإسراء إلى هذا البُعد في ليلة.

والبِرَّةُ حوله من جهتين: إحداهما النبوة والشرايع والرسل الذين كانوا في ذلك القطر وفي نواحيه ونواديه، والأخرى التَّعَمُّ من الأشجار والمياه والأرض المفيدة التي خصَّ الله الشَّام بها، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله بارك فيما بين العريش والفرات»، وخصَّ فلسطين بالتقديس.

وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّهِمْ مِنْ آيَاتِنَا﴾ يريد: لنري محمداً بعينه آياتنا في السموات، والملائكة، والجنة، والسُدرة، وغير ذلك مما رآه تلك الليلة من العجائب، ويحتمل أن يريد: لنري محمداً ﷺ للناس آية، أي: يكون النبي ﷺ آية في أن يصنع الله لشيء هذا الصُّنع، وتكون الرؤية - على هذا - رؤية قلب.

ولا خلاف أن في هذا الإسراء فُرِضت الصلوات الخمس على هذه الأمة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ وعيدٌ من الله تبارك وتعالى للكفار على تكذيبهم محمداً ﷺ في أمر الإسراء، فيه إشارة لطيفة بليغة إلى ذلك، أي: هو السميع لما تقولون، البصير بأفعالكم.

② - ① تفسير قوله عز وجل:

عطف قوله تعالى: ﴿وَمَا آتَيْنَا﴾ على ما في قوله: ﴿أَنْتَرَى بِعَيْنَيْكَ﴾ من تقدير الخير، كأنه قال: أَسْرَيْنَا بَعْدَنَا وَأَرْسِنَاهُ آيَاتِنَا، و﴿الْكِتَابِ﴾:

التوراة، والضمير في ﴿حَمَلْتَهُ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿الْكِتَابِ﴾، ويحتمل أن يعود على ﴿مُوسَى﴾ عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ يجوز أن يكون في موضع نصب بتقدير: كراهية، وأن يكون في موضع خفض بتقدير: بألَّا تَتَّخِذُوا، ويجوز أن تكون [أَن] مفسرة بمعنى: أي، كما قال: ﴿لَنْ أَسْأَلَ وَاصِرِيلاً﴾، فهي في هذا مع أمر، وهي في آيتنا هذه مع نهي، والمعنى في هذه التقديرات: جعلنا ذلك لئلا تتخذوا يا ذُرِّيَّةُ، ويحتمل أن تكون ﴿ذُرِّيَّةُ﴾ مفعولاً، ويحتمل أن تكون ﴿لَنْ﴾ زائدة، ويضمير في الكلام قول تقديره: قلنا لهم: لا تتخذوا، وأما أن يُضمَر القول ولا تجعل ﴿أَن﴾ زائدة فلا يتَّجه؛ لأن ما بعد القول إما أن يكون جملة يُحكِّي، وإما أن يكون ترجمة عن كلام لا هو بعينه، فيعمل القول في الترجمة، كما تقول - لمن قال لا إله إلا الله -: قلت حقاً، وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ ليس بواحد من هذين، قاله أبو علي. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ على المخاطبة، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا﴾ بالياء على لفظ الغائب، وهي قراءة ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعيسى، وأبي رجاء. و«الوكيل» هنا فعيل من التوكل، أي: مُتَوَكِّلاً عليه في الأمور، فهو يؤلِّه بهذا الوجه، قال مجاهد: ﴿وَكَيْلًا﴾: شريكاً.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ذُرِّيَّةُ﴾ بضم الذال، وقرأ عامر بفتحها، وقرأ زيد بن ثابت، وأبان بن عثمان،

ومجاهد أيضاً بكسرهما، وكل هذا بشد الراء والياء، ورويت عن زيد بن ثابت بفتح الذال وتسهيل الراء وشد الياء، على وزن فعيلة، و (ذُرِّيَّةُ) وزنها فعولة، أصلها (ذُرْوَرَةٌ)، أبدلت الراء الثانية ياءً وأدغمت ثم كسرت الراء لتناسب الياء. وكل هؤلاء قرؤوا: ﴿ذُرِّيَّةُ﴾ بالنصب، وذلك مُتَّجه، إما على المفعول بـ ﴿تَتَّخِذُوا﴾، ويكون المعنى: ألا تتخذوا بشراً إلهاً من دون الله، وإما على النداء، أي: يا ذُرِّيَّةُ، فهي مخاطبة للعالم - قال قوم: وهذا لا يتَّجه إلا على قراءة من قرأ: ﴿أَلَّا تَتَّخِذُوا﴾ بالتاء من فوق، ولا يجوز على قراءة من قرأ بالياء من تحت؛ لأن الفعل لغائب والنداء لمخاطب، والخروج من الغيبة إلى الخطاب إنما يُستَسهل مع دلالة الكلام على المراد، وفي النداء لا دلالة إلا على غاية التكلف.. وإما على النصب بإضمار أعني، وإما على البدل من قوله: ﴿وَكَيْلًا﴾، وهذا أيضاً فيه تكلف. وقرأت فرقة: ﴿ذُرِّيَّةُ﴾ بالرفع على البدل من الضمير المرفوع في ﴿تَتَّخِذُوا﴾، وهذا أيضاً يتوجه على القراءة بالياء، ولا يجوز على القراءة بالتاء؛ لأنه لا يبدل من ضمير مخاطب، لو قلت: «ضربتك زيداً» على البدل لم يجز. وقوله: ﴿ذُرِّيَّةُ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ إنما عبّر بهذه العبارة عن الناس الذين عناهم في الآية بحسب الخلاف المذكور، ولأن في هذه العبارة تعديد النعمة على الناس في الإنجاء المؤدِّي إلى وجودهم، ويقبح الكفر والمصيان مع

هذه النعمة، والذين حُمِلوا مع نوح عليه السلام وأنسلوا هم بنوه لصلبه؛ لأنه آدم الأصغر، وكل من على الأرض من نسله، هذا قول الجمهور، وذكره الطبري عن قتادة ومجاهد، وإن كان معه غيره فلم يُنسل. قال النقاش: اسم نوح عبد الجبار، وقال ابن الكلبي: اسمه فرج، ووصفه بالشكر لأنه كان يحمد الله في كل حال، وعلى كل نعمة، على المطعم والمشرب والملبس والبراز وغير ذلك ﷺ. قاله سلمان الفارسي، وسعيد بن مسعود، وابن أبي مريم، وقاتدة.

قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ الْآيَةَ، قال الطبري: معنى ﴿قَضَيْنَا﴾: فرغنا، وحكى عن غيره أنه قال: ﴿قَضَيْنَا﴾ هنا بمعنى: أخبرنا، وحكى عن آخرين أنهم قالوا: ﴿قَضَيْنَا﴾ معناه: في أم الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يُلبس في هذا المكان تعدية ﴿قَضَيْنَا﴾ بـ ﴿إِلَى﴾، وتلخيص الكلام عندي أن هذا الأمر هو ما قضاه الله تعالى في أم الكتاب على بني إسرائيل وألزمهم إياه، ثم أخبرهم به في التوراة على لسان موسى، فلما أراد هنا الإعلام بالأمرين جميعاً في إيجاز جعل ﴿قَضَيْنَا﴾ دالة على النفوذ في أم الكتاب، وقَرَنَ بها ﴿إِلَى﴾ دالة على إنزال الخبر بذلك إلى بني إسرائيل، والمعنى المقصود مفهوم خلال هذه الألفاظ، ولهذا فسّر ابن عباس رضي الله عنه مرةً بأن قال:

﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ معناه: أعلمناهم، وقال مرةً: معناه: قضينا عليهم و«الكتاب» هنا التوراة؛ لأن القَسَمَ في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَقَدْ كُنَّا﴾ غير متوجه مع أن يجعل «الكتاب» هو اللوح المحفوظ. وقرأ سعيد بن جبير، وأبو العالية الرياحي: ﴿فِي الْكُتُبِ﴾ على الجمع، قال أبو حاتم: قراءة الناس على الأفراد. وقرأ الجمهور: ﴿لَقَدْ كُنَّا﴾ بضم التاء وكسر السين، وقرأ عيسى الثقفني: ﴿لَقَدْ كُنَّا﴾ بفتح التاء وضم السين والذال، وقرأ ابن عباس، ونصر بن عاصم، وجابر بن زيد: ﴿لَقَدْ كُنَّا﴾ بضم التاء وفتح السين وضم الدال. وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنَّا﴾ أي: لَنَتَكَبَّرُونَ عن طاعة الأمرين بطاعة الله، وتطلبون في الأرض العلو والفساد، وتظلمون من قدرتم على ظلمهم، ونحو هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومقتضى هذه الآيات أن الله تعالى أعلم بني إسرائيل في التوراة أنه سيقع منهم عصيان وطغيان وكفر لنعم الله تعالى عندهم في الرُّسل والكتب وغير ذلك، وأنه سيرسل عليهم أمةً تغلبهم وتقتلهم وتذلهم، ثم يرحمهم بعد ذلك ويجعل لهم الكثرة ويردُّهم إلى حالهم الأولى من الظهور، فتقع منهم المعاصي وكُفِّرَ النعم، والظلم والقَتْلُ، والكُفْرُ بالله من بعضهم، فيبعث الله عليهم أمةً أخرى تخرب ديارهم وتقتلهم وتجليهم جلاءً مبرحاً، وأعطى الوجود بعد ذلك هذا الأمر كله، وقيل: كان بين المرَّتين: آخر الأولى

وأول الثانية مائتا سنة وعشر سنين ملكاً مُؤيداً بأنبياء، وقيل: سبعون سنة.

﴿٥﴾ - ﴿٦﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ﴾ عائد على قوله: ﴿مُرَّتَيْنِ﴾، وعبر عن الشَّرِّ بالوعد لأنه قد صرَّح بذكر المعاقبة، وإذا لم يجيء الوعد مطلقاً فجاز أن يقع في الشَّرِّ.

وقرأ علي بن أبي طالب، والحسن بن أبي الحسن: ﴿قَبِيداً﴾، واختلف الناس في العبيد المبعوثين وفي صورة الحال اختلافاً شديداً متباعداً. عُيُونُهُ أن بني إسرائيل عصوا وقتلوا زكريا عليه السلام فغزاهم سَحَارِبُ مَلِكِ بَابِلَ، كذا قال ابن إسحق، وابن جبير. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غزاهم جالوت من أهل الجزيرة، وروي عن عبدالله بن الزبير أنه قال في حديث طويل: غزاهم آخراً ملك اسمه خردوش، وتولَّى قتلهم على دم يحيى بن زكريا قائد لخردوش اسمه هورزادان، وكف عن بني إسرائيل وسكن برعاية دم يحيى بن زكريا عليهما السلام، وقيل: غزاهم أولاً صحابيين ملك رومة، وقيل: بختنصر، وروي أنه دخل قَبْلُ في جيش من الفرس وهو خامل يسير في مطبخ الملك، فاطلع من جور بني إسرائيل على ما لم تعلمه الفرس؛ لأنه كان يُدْخِلُهُمْ، فلما انصرف الجيش ذكر ذلك للملك الأعظم، فلما كان بعد مدة جعله رئيس الجيش وبعثه، فخرَّب بيت المقدس وقتلهم وجلاهم، ثم انصرف فوجد الملك قد مات فملك

موضعه، واستمرت حاله حتى ملك الأرض بعد ذلك.

وقالت فرقة: إنما غزاهم بختنصر في المرة الأخيرة حين عصوا وقتلوا يحيى بن زكريا عليهما السلام، وصورة قتله أن الملك أراد أن يتزوج بنت امرأته، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك، فعز ذلك على امرأته، فزينت بنتها وجعلتها تسقي الملك الخمر، وقالت لها: إذا ارودك عن نفسك فتمتعني حتى يعطيك ما تتمتني، فإذا قال لك: تمتني علي ما أردت فقول لي له: رأس يحيى بن زكريا، ففعلت الجارية ذلك، فردها الملك مرتين، وأجابها في الثالثة، فجيء بالرأس في طست ولسانه يتكلم ويقول: لا تحل لك، وجرى دم يحيى عليه السلام فلم ينقطع، فجعل الملك عليه التراب حتى ساوى سور المدينة والدم ينبعث، فلما غزاهم الملك الذي بعث الله عليهم - بحسب الخلاف فيه - قتل منهم على الدّم حتى سكن بعد قتل سبعين ألفاً. وهذا مقتضى هذا الخبر، وفي بعض رواياته زيادة أو نقص، فَرَوَتْ فرقة أن أشعياء النبي عليه السلام وَعَظَّمَهُمْ وَذَكَرَهُمُ اللهُ وَنَعِمَ فِي مَقَامٍ طَوِيلٍ نَصَهُ الطَّبْرِي، وَذَكَرَ أَشْعِيَاءَ فِي آخِرِهِ مُحَمَّدًا ﷺ وَبَشَّرَ بِهِ، فَابْتَدَرَهُ بَنُو إِسْرَائِيلَ، فَفَرَّ مِنْهُمْ، فَلَقِيَ شَجْرَةً فَتَلَقَّتْ لَهُ حَتَّى دَخَلَهَا فَالتَأَمَّتْ عَلَيْهِ، فَعَرَضَ الشَّيْطَانُ عَلَيْهِمْ هُدْبَةً مِنْ ثَوْبِهِ، فَأَخَذُوا مِنْشَارًا فَنَشَرُوا الشَّجْرَةَ وَقَطَعُوهُ فِي وَسْطِهَا فَقَتَلُوهُ، وَحِينَئِذٍ بَعَثَ اللهُ عَلَيْهِمُ فِي الْمَرَّةِ الْآخِرَةِ.

وذكر الزهراوي عن قتادة قصصاً أن زكريا هو صاحب الشجرة، وأنهم لما حملت مريم قالوا: ضيّع بنت سيدنا حتى زنت، فطلبوه فهرب منهم حتى دخل في الشجرة فنشروه. وروى فرقة أن بختنصر كان حفيد سنجاريب الملك الأول، وروى فرقة أن الذي غزاهم آخراً هو سابور ذو الأكتاف. وقال أيضاً ابن عباس رضي الله عنهما: سلط الله عليهم حين عادوا ثلاثة أملاك من فارس: سَنَدْبَادَانُ وَشَهْرَبَاذَانُ وَآخَرُ. وقال مجاهد: إنما جاءهم في الأولى عسكر من فارس فجاس خلال الديار وتقلب، ولكن لم يكن قتال ولا قتل في بني إسرائيل، ثم انصرف عنهم الجيوش، وظهروا وأمدوا بالأموال والبنين حتى عصوا وطغوا، فجاءهم في المرة الثانية من قتلهم وغلبهم على بيضتهم وأهلكهم آخر الدهر.

قوله تعالى: ﴿فَبَاشَأُوا عِزْلَةَ الدِّيَارِ﴾، وهي المنازل والمسكن، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يرد على قول مجاهد: إنه لم يكن في المرة الأولى غلبة ولا قتال، وهل يدخل المسجد إلا بعد غلبة وقتال؟ وقد قال مؤرج: جاسوا خلال الأزقة. وقد ذكر الطبري في هذه الآية قصصاً طويلاً، منه ما يخص الآيات، وأكثره لا يخص، وهذه المعاني ليست بالثابتة فلذلك اختصرتها.

وقوله تعالى: ﴿بَنَاتًا﴾، يحتمل أن يكون الله تعالى بعث إلى ملك تلك الأمة رسولاً يأمره بغزو بني

إسرائيل، فتكون البعثة بأمر، ويحتمل أن يكون عبّر بالبعث عمّا ألقى في نفس الملك الذي غزاهم. وقرأ الناس: ﴿فَبَاشَأُوا﴾ بالجيم، وقرأ أبو السّمّال: ﴿فَحَاسُوا﴾ بالحاء، وهما بمعنى الغلبة والدخول قسراً، ومنه الحؤس، وقيل لأبي السّمّال: إما القراءة ﴿جَاسُوا﴾ بالجيم، فقال: جاسوا وحاسوا واحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا يدل على تخيير لا على رواية، ولهذا لا تجوز الصلاة بقراءته وقراءة نظرائه.

وقرأ الجمهور: ﴿عِزْلَةَ﴾ وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿عِزْلَةَ﴾، ونصبه في الوجيهين على الظرف.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ الآية عبارة عما قال الله تعالى لبني إسرائيل في التوراة، وجعل ﴿رَدَدْنَا﴾ في موضع (نَزُدُ) إذ وقت إخبارهم لم يقع الأمر بعد، لكنه لما كان وعد الله في غاية الشقة أنه يقع عبّر عن مستقبله بالماضي، وهذه الكرّة هي بعد الجلوة الأولى كما وصفنا، فغلبت بنو إسرائيل على بيت المقدس وملكوا فيه، وحسنت حالهم برهة من الدهر، وأعطاهم الله الأموال والأولاد وجعلهم إذا نفروا إلى أمر أكثر الناس، قال الطبري: وصيرناكم أكثر عدد نافر منهم. قال قتادة:

كانوا أكثر نفيراً في زمن داود عليه السلام. و﴿فَبَاشَأُوا﴾ يحتمل أن يكون جمع نَفَرٍ، ككَتَبَ وكَلِيبٍ، وعَبْدٌ وعبيد، ويحتمل أن يكون فعلاً

﴿٨﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

يقول الله تعالى لبقية بني إسرائيل: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ﴾، إن أطعتم في أنفسكم واستقمتم ﴿أَن يَرْمَكُمْ﴾، و﴿عَسَىٰ﴾ ترج في حقهم، وهذه العدة ليست برجوع دولة، وإنما بأن يرحم المطيع منهم، وكان من الطاعة اتباعهم لعيسى عليه السلام، ولمحمد ﷺ، فلم يفعلوا، وعادوا إلى الكفر والمعصية، فعاد عقاب الله تعالى، فضرب عليهم الذل وقتلهم، وأذلهم بيد كل أمة، وهنا قال ابن عباس رضي الله عنهما: سلط عليهم ثلاثة ملوك.

و﴿الْحَصِيرِ﴾ فعيل من الحصر، فهي بمعنى السجن، أي: تخضروهم، وينحو هذا فسر مجاهد وقتادة وغيرهما، ويقال: الحصير أيضاً من الحضر للملك، ومنه قول لبيد:

وَمَقَامَةٌ غُلِبَ الرِّقَابِ كَأَنَّهُمْ
جَنُّ لَدَىٰ بَابِ الْحَصِيرِ قِيَامٌ
ويقال لجنبي الإنسان: حصيران لأنهما يحصرانه، ومنه قول الطرماح:

قَلِيلًا تَتَلَّىٰ حَاجَةً ثُمَّ عَوْلَيْتَ
عَلَىٰ كُلِّ مَفْرُوشِ الْحَصِيرَيْنِ بَادِنِ
وقال الحسن: «الْحَصِيرُ» في الآية أراد به ما يُفْتَرَسُ وَيُبْسَطُ كَالْحَصِيرِ المعروف عند الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك الحصير مأخوذ من الحصر.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي﴾ الآية. ﴿يَهْدِي﴾ في هذه الآية بمعنى: يُرشد، ويتوجه فيها أن تكون بمعنى: يدعو، و﴿أَلَيْ﴾ يريد

﴿لِيَسْتَفْأَوْجُوهَكُمْ﴾، اللام لام أمر، وقيل: المعنى: بعثناهم ليسوءوا، فهي لام (كفي) كلها، والضمير للشديد، وقرأ الجمهور: ﴿لِيَسْتَفْأَوْ﴾ بالياء، جمع وهمزة بين واوين، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -، وابن عامر: ﴿لِيَسْءَوْ﴾ بالياء وهمزة مفتوحة على الإفراد، وقرأ الكسائي - وهي مروية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه -: ﴿لِيَسْءَوْ﴾ بنون العظمة، وقرأ أبي بن كعب:

﴿لِيَسْءَوْنَ﴾ بنون خفيفة، وهي لام الأمر، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿لِيَسْءَوْنَ﴾ بفتح السلام - وهي لام القسم - والفاعل الله عز وجل، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿لِيَسْءِءُ﴾ بياء مضمومة بغير واو، وفي مصحف أنس: ﴿لِيَسْءَوْ وَجْهَكُمْ﴾ على الإفراد، وخص بالذكر الوجوه لأنها المواضع الدالة على ما بالإنسان من خير أو شر. و«المسجد»: مسجد بيت المقدس. و«تبر»: معناه: أُنسد وأهلك بغشم، وقوله: ﴿مَا عَوْلَا﴾ أي: ما تغلبوا عليه من الأقطار وملكوه من البلاد، وقيل: [ما] ظرفية، والمعنى: مدة غلؤهم وغلبتهم على البلاد. و«تبر»: تحريره: رد الشيء فتاتاً كثير الذهب والحريز ونحوه، وهو تفتيته.

عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْمَكُمْ وَإِنَّ عِدَّتُمْ عِدَانَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّذِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ الْمُتُومِينَ الَّذِينَ يَمْعَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنْ هُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَهْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا آليماً ﴿١٠﴾ وَيَدْعُ الْإِنْسَانَ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَن فَمَحْوَاةَ آيَةٍ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّمَن تَبْتَغُوا فَضَلَا مَن رَّبِّكُمْ وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ النَّيِّبِ وَالْحِسَابِ وَكُلُّ شَيْءٍ فَضَلْنَاهُ نَفْصِيلاً ﴿١٢﴾ وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عَقِبِهِ وَنُخْرِجُهُ لَكُم يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَيْتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كَأْمَعِدِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نَّهْلِكَ قَوْمًا فَرَيْنَاهُمْ فَنَقَسُوا فِيهَا فَنَحَّيْنَا عَنْهَا الْقَوْمَ فَذَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكُنْ بِرَبِّكَ ذَلُولًا مُّذْنِبًا عَابِدًا وَخَيْرًا لِّصَاحِبِ رِبِّكَ ﴿١٧﴾

بمعنى فاعل، أي: وجعلناكم أكثر نافرأ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعندي أن التفسير اسم للجمع الذي يفتقر، سمي بالمصدر، وقد قال تبع الحميري:

فَأَكْرَمَ بِقَحْطَانٍ مِّنَ وَالِدِ
وَبِالْجَنَفِيرَيْنِ أَكْرَمَ تَفْسِيرًا
وقالوا: «لَا فِي الْعَيْرِ وَلَا فِي النَّفِيرِ»، يريدون جمع قريش الخارج من مكة إلى بدر.

فَلَمَّا قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ لَهُمْ: إِنِّي سَأَفْعَلُ بِكُمْ هَكَذَا عَقِبَ ذَلِكَ بَوْصِيَّتِهِمْ فِي قَوْلِهِ سَبَّحَانَهُ: ﴿إِنَّ أَحْسَنَ أَحْسَنَتِ الْإِنْسَانِ﴾، والمعنى: إنكم بعملكم تؤخذون، ولا يكون ذلك ظلماً ولا تشريعاً إليكم، و﴿وَعَدُ الْآخِرَةِ﴾ معناه: من المرتين المذكورتين، وقوله تعالى:

بها الحالة والطريقة. وقالت فرقة: ﴿لَيْلِي مِنْ أَوْفٍ﴾ هي لا إله إلا الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أعم، وكلمة الإخلاص وغيرها من الأقوال والأفعال داخلة في الحال التي هي أوف من كل حال تجعل بإزائها، والاختصار على ﴿أَوْفٍ﴾ ولم يذكر: «من كذا» إيجازاً، والمعنى مفهوم، أي: ليلى هي أوف من كل ما غيرها، فهي النهاية في القوام، وقيد المؤمنين بعمل الصالحات إذ هو كمال الإيمان وإن لم يكن في نفسه، والمؤمن المفرط في العمل له بإيمانه حظ في عمل الصالحات، و«الأجر الكبير»: الجنة، وكذلك حيث وقع في كتاب الله تعالى: «فُضِّلَ كَبِيرٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ» فهو الجنة.

وقوله تعالى: ﴿أَنَّ﴾ الأولى في موضع نصب بـ ﴿يَسْتُرُ﴾، و﴿أَنَّ﴾ الثانية عطف على الأولى، وهي داخلة في جملة بشارة المؤمنين. بَشَّرَهُمُ الْقُرْآنَ بِالْجَنَّةِ وَبِأَنَّ الْكُفَّارَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ، وذلك أن علم المؤمنين بهذا مسرة لهم، وفي هذه البشارة وعيد للكفار بالمعنى، وهذا الذي تقتضيه ألفاظ الآية. وقرأ الجمهور: ﴿وَيَسْتُرُ﴾ بضم الباء وفتح الباء وكسر الشين، وقرأ ابن مسعود، ويحيى بن وثاب، وطلحة: ﴿وَيَسْتُرُ﴾ بفتح الباء وسكون الباء وضم الشين. و﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: أحضرنا وأعدنا، ومنه العتاد. و«الأليم»: الموجع.

قوله تعالى: ﴿وَيَبِّغُ الْإِنْسَانَ بِالنَّشْرِ﴾

دَعَاَهُ بِالنَّشْرِ. سقطت الواو من ﴿يَبِّغُ﴾ في خط المصحف لأنهم كتبوا المسموع، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: هذه الآية نزلت دأمة لما يفعله الناس من الدعاء على أموالهم وأولادهم في وقت الغضب والضجر، فأخبر الله تعالى أنهم يدعون بالنشر في ذلك الوقت كما يدعون بالخير في وقت الثبوت، فلو أجاب الله دعاءهم لأهلكهم، ولكن الله تعالى يصفح ولا يجيب دعاء الضجر المستعجل. ثم عذر بعض العذر في أن الإنسان له عجلة فطرية، و﴿الإنسن﴾ هنا، قيل: يراد به الجنس بحسب ما في الخلق من ذلك. قاله مجاهد وغيره. وقال سلمان الفارسي، وابن عباس: إشارته إلى آدم عليه السلام في أنه لما نفخ الروح في رأسه عطس وأبصر، فلما مشى الروح في بدنه قبل ساقه أعجبه نفسه فذهب يمشي مستعجلاً لذلك فلم يقدر، فأشارت ألفاظ الآية إلى ذلك. والمعنى: فأنتم ذوو عجلة موروثه من أبيكم، ويروى أن رسول الله ﷺ جعل أسيراً في قيد في بيت سودة بنت زمعة، فسمعت سودة أئنيه فأشفقت، فقالت له: ما بالك؟ فقال: ألم القيد، فقامت فأرخت من ربطه فسكت، ثم نامت، فتَحِيلُ في الانحلال وفر، فطلبه النبي ﷺ عند الصبح فأخبر الخبر، فقال: «قطع الله يديها»، فزرعت سودة ورفعت يديها نحو السماء وهي تخاف الإجابة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الله قد جعل

دعائي في مثل هذا رحمة على المدعو له؛ لأنني بشر أغضب وأعجل، فلتزد سودة يديها».

وقالت فرقة: هذه الآية نزلت في شأن قريش، قالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِنْ كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَنْطِرْ عَلَيْنَا حِكَاةً مِنْ أَلْسَمَاءِ﴾ الآية، وكان الأولى أن يقولوا: «فاهدنا إليه وارحمنا به»، فذمهم الله تعالى في هذه الآية.

وقالت فرقة: معنى هذه الآية معاتبية الناس على أنهم إذا نالهم شرٌ وضرٌ دعوا ولجؤا في الدعاء الذي كان يجب أن يدعو في حالة الخير ويلزمه الكل، من ذكر الله تعالى وحمده والرغبة إليه، لكن الإنسان يقصر حينئذ، فإذا مسه الضرُّ ألح واستعجل الفرج، فالآية - على هذا - نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ قَالِمَا أَكْفَرْنَا عَنْهُ ضُرُّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرِّهِ مَسْرَةً﴾.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: «الآية»: العلامة المنصوبة للنظر والعبرة، وقوله تعالى: ﴿فَحَوَّنَا﴾، قالت فيه فرقة: سبب تعقيب الفاء أن الله تعالى خلق الشمس والقمر مضيين، فَمَحَا بعد ذلك القمر، محاه جبريل عليه السلام بجناحه ثلاث مرات، فمن هنالك كلفه وكونه منيراً فقط وقالت فرقة - وهو الظاهر -: إن قوله تعالى: ﴿فَحَوَّنَا﴾ إنما يريد: في أصل خلقته، وهذا كما تقول: «بنيت داري فبدأت بالأس ثم تابعت»، فلا تريد بالفاء التعقيب، وظاهر لفظ الآية يقتضي

أربع آيات، لا سيما لمن بنى على أن القمر هو المَمْحُو، والشمس هي المبصرة، فأما من قَدَّر أن المَمْحُو في ظلام الليل والإبصار في ضوء النهار أمكن أن تتضمن الآية آيتين فقط، على أن يكون فيها طرف من إضافة الشيء إلى نفسه. وقوله تعالى: ﴿ثَبِيرَةٌ﴾ مثل قولك: «ليل نائم وقائم»، أي: يُنَام ويُقَام فيه، وكذلك: «آية مُبْصِرَة» أي: يبصر فيها ومعها.

وحكى الطبري عن بعض الكوفيين أنه قال: قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سَلُوا عما شئتم، فقال ابن الكواء: ما السواد الذي في القمر؟ فقال له علي: قاتلك الله، هلاً سألت عن أمر دينك وآخرتك؟ ذلك مَمْحُو الليل.

وجعل الله تعالى النهار مبصراً ليبتغي الناس الرزق وفضل الله، وجعل القمر مخالفاً لحال الشمس ليعلم به العدد من السنين والحساب للأشهر والأيام، ومعرفة ذلك في الشرع إنما هو من جهة القمر لا من جهة الشمس.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّ شَيْءٍ﴾ منصوب بفعل مضمَر يدل عليه الظاهر، تقديره: وفصلنا كل شيء تفصيلاً، وقيل: ﴿وَكَلَّ﴾ عطف على ﴿وَالْحَسَابِ﴾، فهو معمول ﴿يَسْأَلُونَ﴾، و«التفصيل»: البيان بأن تُذكر فصول ما بين الأشياء وتُرآل أسبابها حتى يتميز الصواب من الشبهة العارضة فيه.

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّ إِنْسَانٌ أَلْمَنَةً﴾

طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ» الآية. قوله: ﴿وَكَلَّ﴾ منصوب بفعل مقدر، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وابن مجاهد: ﴿طَيْرُهُ فِي عُنُقِهِ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: «طَائِرُهُ»: ما قُدِّرَ عليه وله، وخاطب الله تبارك وتعالى العرب في هذه الآية بما تعرف، وذلك أنه كان من عاداتها التَّيْمُنُ والتَّشَاؤُمُ بالطير في كونها سائحة وبارحة، وكثر ذلك حتى فعلته بالطيِّبِ وحيوان الفلوات، وسُمَّت كل ذلك تطيراً، وكانت تعتقد أن تلك الطَيْرَةُ قاضية بما يلقي الإنسان من خير وشر، فأخبرهم الله تعالى في هذه الآية في أوجز لفظ وأبلغ إشارة أن جميع ما يلقي الإنسان من خير أو شر قد سبق به القضاء، وألزم حفظه وعمله وتكسبه في عنقه، وذلك في قوله عز وجل: ﴿وَكَلَّ إِنْسَانٌ أَلْمَنَةً طَلَبَهُ فِي عُنُقِهِ﴾، فعبّر عن الحظ والعمل - إذ هما متلازمان - بالطائر، قاله مجاهد وقاتدة، بحسب معتقد العرب في التطيُّر، وقولهم في الأمور: «على الطائر الميمون»، و«بأسعد طائر»، ومنه ما طار في المحاصة والشُّهُم، كقول أمّ العلاء الأنصارية: «فطار لنا من القادمين مع رسول الله ﷺ في الهجرة عثمان بن مظعون»، أي: كان ذلك حظنا، وأصل هذا كله من الطير التي تقضي عندهم بقاء الخير والشر، وأبطل ذلك قول النبي ﷺ: «لا عدوى ولا طيرة».

وقوله تعالى: ﴿فِي عُنُقِهِ﴾ جرى أيضاً على مقطع العرب في أن تنسب ما كان إلزاماً، وقلادةً، وأمانةً،

ونحو هذا - إلى العُنُق، كقولهم: «دسي في عُنُق فلان»، وكقول الأعشى:

قَلْدَتْكَ الشُّغْرُ يَا سَلَامَةً ذَا
تَفْضَالٍ، وَالشَّيْءُ حَيْثُمَا جُعِلَا
وهذا كثير، ونحوه جَعَلَهُم ما كان تكسباً وجنايةً وإثماً منسوباً إلى اليد؛ إذ هي الأضَلُّ في التَّكْسِبِ.

وقرأ أبو جعفر، ونافع، والناس: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بنون العظمة ﴿كِتَابًا﴾ بالنصب، وقرأ الحسن، ومجاهد، وابن محيصن: ﴿يُخْرِجُ﴾ بفتح الياء وضم الرّاء على الفعل المستقبل - [كِتَابًا]، أي: طائرُهُ الذي كُنِيَ به عن عمله يُخْرِجُ له ذا كتاب، وقرأ الحسن - من هؤلاء -: ﴿كِتَابٌ﴾ بالرفع، وقرأ أبو جعفر أيضاً: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بضم الياء وفتح الرّاء - على ما لم يُسَمِّ فاعله - [كِتَابًا]، أي: طائِرُهُ. وقرأ أيضاً: ﴿كِتَابٌ﴾ وقرأت فرقة: ﴿وَيُخْرِجُ﴾ بضم الياء وكسر الرّاء، أي: يُخْرِجُ الله، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿فِي عُنُقِهِ يقرأه يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾. وهذا الكتاب هو عمل الإنسان وخطباته.

وقرأ الجمهور: ﴿يَلْقَاهُ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وخفة القاف، وقرأ ابن عامر وحده: ﴿يُلْقَاهُ﴾ بضم الياء وفتح اللام وتشديد القاف، وهي قراءة الحسن - بخلاف - وأبي جعفر الجحدري. وقوله: ﴿أَقْرَأَ كِتَابَكَ﴾ حَذَفَ من الكلام «يُقَالُ لَهُ» اختصاراً لدلالة الظاهر عليه. و«الحاسب»: الحاسب، ونصبه على التمييز،

وأسند الطبري، عن الحسن أنه قال: «يا بن آدم، بُسِطت لك صحيفة، ووكل بك مَلَكَانِ كَرِيمَانِ، أحدهما عن يمينك يكتب حسناتك، والآخر عن شمالك يحفظ سيئاتك، فأمَّا ما شئت أو أَقْبَلُ أو أَكْثَرُ، حتَّى إذا مَتَّ طويت صحيفتك فجعلت في عنقك معك في قبرك، حتى تخرج يوم القيامة كتاباً تلقاه منشوراً، اقرأ كتابك، كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً، قد عدل والله فيك مَنْ جَعَلَكَ حَسِيبَ نَفْسِكَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذه الألفاظ التي ذكر الحسن يكون الطائر ما يتحصل مع ابن آدم من عمله في قبره، فتأمل لفظه، وهذا هو قول ابن عباس رضي الله عنهما. وقال قتادة في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ كِتَابَكَ﴾: إنه سيقراً يومئذ من لم يكن يقرأ.

(١٥) - (١٧) تفسير قوله عز وجل:

معنى هذه الآية أن كل أحد إنما يحاسب عن نفسه لا عن غيره، وزوي أن سببها أن الوليد بن المغيرة المخزومي قال لأهل مكة: اكفروا بمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وإثمكم عليّ، فنزلت هذه الآية، أي: إن الوليد لا يحمل آثامكم، وإنما إثم كل أحد عليه. وقالت فرقة: نزلت الإشارة في الهدى إلى أبي سلمة بن عبدالأسد، والإشارة بالضلال إلى الوليد بن المغيرة.

و «وَزَّرَ» معناه: حَمَلَ، و«الْوَزْرُ»: الثَّقَلُ، ومنه: وزير السلطان، أي:

الذي يحمل ثقل دولته، وبهذه الآية نزع عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها في الرد على من قال: إن الميت يُعَذَّبُ ببكاء الحي عليه، ونكتة ذلك المعنى إنما هي أن التعذيب إنما يقع إذا كان البكاء من سئة الميت وتَسبُّبه، كما كانت العربُ تفعل.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبَيِّنَ رَسُولًا﴾، قالت فرقة هي الجمهور: وهذا في حكم الدنيا، أي أن الله لا يهلك أمة بعذاب إلا من بعد الرسالة والإنذار، وقالت فرقة: هذا عام في الدنيا والآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتلخيص هذا المعنى أن مقصد الآية في هذا الموضع الإعلام بعبادة الله تعالى مع الأمم في الدنيا، وبهذا يقرب الوعيد من كفار مكة. ويؤيد هذا ما يجيء باند من وصفه ما يكون عند إرادة الله إهلاك قرية، ومن إعلامه بكثرة ما أهلك من القرون، ومع هذا فالظاهر من كتاب الله تعالى في غير هذا الموضع، ومن النظر، أن الله تعالى لا يعذب في الآخرة إلا بعد بعثة الرسل، كقوله تعالى: ﴿كُنَّا أَنبِيَاءَ فِيهَا نُرَاجِعُ صَالِحَ أَعْمَارِنَا وَنُبَيِّنُ لَهَا آيَاتِنَا لَعَلَّهَا تَلْمِيزًا﴾، وظاهر ﴿كُنَّا﴾ الحضر، وكقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ هَمَّه النَّظَرُ فَإِن بَعَثَ أَهْلَهُ خَالِدًا عَلَيْهِ سَلَامًا مِنَ رَبِّهِ، وَنُصِبَ إِلَيْهِ الْبَصِيرُ﴾، ومع سلامة البصر، يوجب على كل أحد من العالم الإيمان واتباع شريعة الله، ثم

تجدد ذلك من مدة نوح عليه السلام بعد غرق الكفار، وهذه الآية أيضاً يُعطي احتمال ألفاظها نحو هذا، ويجوز مع الفرض وجود قوم لم تصلهم رسالة، ومنهم أهل الفترات الذين قد قَدَّرَ وجودهم بعض أهل العلم، وأما ما زوي أن الله تعالى يبعث إليهم يوم القيامة وإلى المجانين والأطفال، فحديث لم يصح، ولا يقتضيه ما تقتضيه الشريعة من أن الآخرة ليست دار تكليف.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَآهٖ أَن تَنبَٰهَ رَبِّهٖ﴾ الآية. هي في مصحف أبي بن كعب: ﴿بَعَثْنَا أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾، و«الْفَرِيقَةُ»: المدينة المجتمعة، مأخوذة من: قَرِيتُ الماء في الحوض، إذا جمعته، وليست من (قرأ) الذي هو مهموز، وإن كان فيهما جميعاً معنى الجمع. وقرأ الجمهور: ﴿أَمْرًا﴾ على صيغة الماضي، من: أَمَرْتُ نَهْيًا، وقرأ نافع، وابن كثير - في بعض ما زوي عنهما -: ﴿أَمْرُنَا﴾ بمدّ الهمزة، بمعنى: كَثُرْنَا، ورويت عن الحسن، وهي قراءة علي بن أبي طالب، وابن عباس - بخلاف عنه - وعن الأعرج، وقرأ بها ابن أبي إسحق، وتقول العرب: ﴿أَمَرَ الْقَوْمَ﴾ إذا كثرُوا، وَأَمَرَهُمُ اللهُ فَيَتَعَدَّى بِالْهَمْزَةِ. وقرأ أبو عمرو - بخلاف -: ﴿أَمْرُنَا﴾ بتشديد الميم، وهي قراءة أبي عثمان النهدي، وأبي العالية، وابن عباس رضي الله عنهما، ورويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقال الطبري: القراءة الأولى معناها: أمرناهم بالطاعة فعصوا وفسقوا فيها، وهو قول ابن عباس، وابن جبير، والثانية معناها: كثرناهم، والثالثة هي من الإمارة، أي: ملكناهم على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال أبو علي الفارسي: «الجيد في أمرنا» أن تكون بمعنى: كثرنا، يتعدى الفعل بلفظ غير متعدد، كما تقول: رَجَع وَرَجَعْتُهُ، وَشَرِزْتُ عَيْنَهُ وَشَرِزْتُهَا، فتقول: أمر القوم وأمرهم الله، أي كثرهم، وأمرنا مبالغة في أمرنا بالهمزة، وأمرنا مبالغة فيه بالتضعيف، ولا وجه لكون أمرنا من الإمارة؛ لأن رياستهم لا تكون إلا واحداً بعد واحد، والإهلاك إنما يكون في مدة واحد منهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينفصل عن هذا الذي قاله أبو علي بأن الأمر وإن كان يعم المتترف وغيره، فخص المتترف بالذكر إذ فسقه هو المؤثر في فساد القرية، وهم عظم الضلالة وسواهم تبع لهم. وأما أمرنا من الإمارة فمتوجه على وجهين: أحدهما ألا يريد إمارة المملك، بل كونهم يأمرن ويؤتمرن لهم؛ فإن العرب تقول لمن يأمر الإنسان: وإن لم يكن ملكاً: هو أمير، ومنه قول الأعشى:

إذا كان هادي الفتى في البلا
د صدر القناة أطاع الأميرا
ومنه قول معاوية لعمر
رضي الله عنه حين أمر بالاستقادة

من لطف عمرو بن العاص: إن علي أميراً لا أقطع أمراً دونه، أراد معاوية أباه، وأراد الأعشى أنه إذا شاخ الإنسان وعمي واهتدى بالعصى أطاع كل من يأمره، ومنه قول الآخر:

والشاس يَلْحَونَ الأميرَ إذا هم
حَطُّوا الصَّوابَ ولا يَلَامُ المرشدُ
وأيضاً فلو أراد إمارة المملك في الآية لحسن المعنى؛ لأن الأمة إذا ملك الله تعالى عليها مترفاً ففسق، ثم ولي مثله بعده، ثم كذلك، عظم الفساد وتوالى الكفر واستحقوا العذاب فنزل بهم على رجل الأخير من ملوكهم، وقرأ الحسن، ويحيى بن يعمر: «أمرنا» بكسر الميم، وحكاها النحاس عن ابن عباس رضي الله عنهما، ولا أتحقق وجهاً لهذه القراءة؛ إلا إن كان (أمر القوم) يتعدى بلفظه، فإن العرب تقول: «أمر بنو فلان» إذا كثروا، ومنه قول لبيد:

إن يُغَبِّطُوا يُهَبِّطُوا وإن أمرُوا
يؤمأ يصيروا للقل والنفس
ومنه: (لقد أمر أمير ابن أبي كبشة)، ورد الفراء هذه القراءة، وقد حكى (أمر) متعدياً عن أبي زيد الأنصاري، و«المترف»: الغني من المال المتنعّم، والثرف: الثغمة، وفي مصحف أبي بن كعب: «قربة بعثنا أكابر مجرميها فمكروا فيها».

وقوله تعالى: «نَحَى عَلَيَا الْقَوْلَ» أي وعيد الله لها الذي قاله رسولهم. و«التدمير»: الإهلاك مع طمس الآثار وهدم البناء، ومنه قول الفرزدق:

وَكَانَ لَهُمْ كَبِيرٌ تَمُودٌ لَمَّا
رَعَا ظَهْرًا قَدَّمَرُهُمْ دَمَارًا
قوله تعالى: «وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن
الْقُرُونِ» الآية، [كم] في موضع نصب بـ [أهلكتنا]، وهذا الذكر لكثرة من أهلك الله من القرون مثال لقريش ووعيد، أي: لستم ببعيد مما حصلوا فيه من العذاب إذا أنتم كذبتهم نبيكم، واختلف الناس في القرن - فقال ابن سيرين عن النبي ﷺ: «أربعون»، وقيل غير هذا مما هو قريب منه، وقال عبدالله بن أبي أوفى: القرن مائة وعشرون سنة، وقالت طائفة: القرن مائة سنة، وهذا هو الأصح الذي يعضده الحديث في قوله ﷺ: «خير الناس قرني».

وروي محمد بن القاسم في ختته عبدالله بن بسير قال: وضع رسول الله ﷺ يده على رأسي وقال: «سيعيش هذا الغلام قرناً»، قلت كم القرن؟ قال: «مائة سنة»، قال محمد بن القاسم: فما زلنا نعد له حتى أكمل مائة سنة، ثم مات رحمه الله، والباء في قوله تعالى: «بِرَبِّكَ» زائدة، والتقدير: كفى ربك، وهذه الباء إنما تجيء في مدح أو ذم، وكأنها تعطي معنى: اكتف بربك، أي: ما أكفاه في هذا، وقد تجيء (كفى) بدون باء، كقول الشاعر:

كفى الشيب والإسلام للمرء ناهياً
وكقول الآخر:

ويخبرني عن غائب المرء هذبي
كفى الهذي عما غيب المرء مخبراً

١٧ - ٢٢ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: من كان يريد الدنيا العاجلة، ولا يعتقد غير هذا، ولا يؤمن بآخرة، فهو يُفْرَغُ أملة ومعتقده للدنيا، فإن الله تعالى يعجل لمن يريد من هؤلاء ما يشاء هذا المرید، أو ما يشاء الله تعالى - على قراءة من قرأ: ﴿نَشَاءُ﴾ بالنون - وقوله سبحانه: ﴿لَنْ تُرِيدَ﴾ شرط كاف على القراءتين، ثم يجعل الله تعالى جهنم لجميع من يريد العاجلة - على جهة الكفر - مَنْ أَعْطَاهُ فِيهَا مَا يَشَاءُ وَمَنْ حَرَمَهُ. وقال أبو إسحق الفزاري: لمن نريد هلكته. وقرأ الجمهور: ﴿نَشَاءُ﴾ بالنون، وقرأ نافع أيضاً: ﴿نِشَاءُ﴾ بالياء. و«المُدْحُورُ»: الْمُهَانُ الْمُتَعَدِّ الْمَذَلُّ المسخوط عليه.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ﴾ الآية. المعنى: ومن أراد الآخرة إرادة يقين بها وبالله وبرسالته. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك كله مرتبط بتلازم.

ثم شرط في مُرِيدِ الآخرة أن يسعى لها سعيها، وهو ملازمة أعمال الخير وأقواله على حكم الشرع وطرقه، فأولئك يشكر الله سعيهم، ولا يشكر الله تعالى عملاً ولا سعياً إلا إذا أتاب عليه وغفر بسببه، ومنه قول النبي ﷺ في حديث الرجل الذي سقى الكلب العاطش، فشكر الله له، فغفر له.

قوله تعالى: ﴿كَلَّا تُبَدُّ﴾ الآية. نصب ﴿كَلَّا﴾ بـ ﴿تُبَدُّ﴾. وأمددت الشيء إذا زدت فيه من غير نوعه، ومددت إذا زدت فيه من نوعه،

وقيل: هما بمعنى واحد، يقال: مَدَّ وَأَمَدَّ. و«هَؤُلَاءِ» بدل من ﴿كَلَّا﴾، فهو في موضع نصب، وقوله تعالى: ﴿مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ﴾ يحتمل أن يريد: من الطاعات لمن يريد الآخرة، والمعاصي لمن يريد العاجلة، وزوي هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد بالعتاء رزق الدنيا، وهذا هو تأويل الحسن بن أبي الحسن، وقتادة، أي أن الله تبارك وتعالى يرزق في الدنيا مُرِيدِي الآخرة

المؤمنين، ومُرِيدِي العاجلة الكافرين، ويؤمدهم بعتائه منها، وإنما يقع التفاضل والتباين في الآخرة، ويتناسب هذا المعنى مع قوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْطُورًا﴾، أي أن رزقه في الدنيا لا يضيق عن مؤمن ولا كافر وقلما، تصلح هذه العبارة لمن يُمد بالمعاصي التي تُوقفه. و«المَحْطُورُ»: الممنوع.

وقوله تعالى: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ آية تدل دلالة على أن العطاء في الآية التي قبلها هو الرزق، وفي ذلك يترتب أن ينظر محمد ﷺ إلى تفضيل الله تبارك وتعالى لبعض على بعض في الرزق ونحوه من الصور والشرف والجاه والحظوظ، ويبيّن أن يكون التفضيل الذي ينظر إليه النبي ﷺ أن

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلِيهَا مِذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٨﴾ كَلَّا نُمَدِّ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ كَيْفَ نَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَالْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿١٩﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنقَضَ مَذْمُومًا مَحْدُولًا ﴿٢٠﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا الْإِلَٰهَ وَآلَؤِلَٰدِينَ إِحْسَانًا إِنَّمَا يَبْغِينَ عِنْدَكَ الْكِبْرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لِمَا أُنزِلَ وَلَا تُنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢١﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيْتَنِی صَغِيرًا ﴿٢٢﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِ غَفُورًا ﴿٢٣﴾ وَءَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ رِيبًا ﴿٢٤﴾ إِنْ أَلْمَدِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيْطَانِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٥﴾

٢٨٤

أعطى الله قوماً الطاعة المؤدية إلى الجنة، وأعطى آخرين الكفر المؤدي إلى النار، وهذا قول الطبري، وهذا النظر في تفضيل فريق على فريق، وعلى التأويل الآخر فالنظر في تفضيل شخص على شخص من المؤمنين والكافرين كيفما قرنتهما. ثم أخبر عز وجل أن التفضيل الأكبر إنما يكون في الآخرة، وقوله: ﴿أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ﴾ ليس في اللفظ: «من أي شيء»، لكنه في المعنى - ولا بد - أكبر درجات من كل ما يضاف بالوجود أو بالفرض إليها، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورأى بعض العلماء أن هذه الدرجات والتفضيل إنما هو فيما بين المؤمنين، وأسند الطبري في ذلك حديثاً نصه: «إِنَّ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ

درجة وأسفلهم كالنجم يُرى في مشارق الأرض ومغاربها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قيل: وقد رضى الله الجميع فما يغبط أحد أحداً ولا يتمنى ذلك بدلاً.

قوله تعالى: ﴿لَا تَجْمَدُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية. الخطاب لمحمد ﷺ، والمراد: جميع الخلق، قاله الطبري وغيره، و«الدم» هنا لا حق من الله تعالى ومن ذوي العقول في أن يكون الإنسان يجعل عوداً أو حجراً أفضل من نفسه، ويخصه بالكرامة، وينسب إليه الألوهية، ويشركه مع الله الذي خلقه ورزقه وأنعم عليه.

و«الخذلان» في هذا يكون بإسلام الله تعالى، وألا يكفل له النصر، و«المخذول»: الذي لا ينصره من يجب أن ينصره. و«الخاذل» من الظباء التي تترك ولدها، ومن هذه اللفظة قول الراعي:

فَتَلُّوا ابْنَ عَمَّانَ الْخَلِيفَةَ مُحْرِمًا
وَدَعَا قَلَمٌ أَوْ مِثْلَهُ مَخْذُولًا
(١٣) - (٢٥) تفسير قوله عز وجل:

﴿فَصَّحَّ﴾ في هذه الآية بمعنى: أمر وألزم وأوجب عليكم، وهكذا قال الناس. وأقول: المعنى: وقضى ربك أمره ﴿أَلَّا تَتَّبِعُوا إِلَّا مَا يَأْتِيكُم﴾، وليس في هذه الألفاظ إلا أمر بالانقصار على عبادة الله، فذلك هو المَقْضِيُّ، لا نفس العبادة. و (قَضَى) في كلام العرب: أتمَّ المَقْضِيُّ محكماً، والمَقْضِيُّ هنا هو الأمر، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَوُضِيَ﴾، وهي قراءة أصحابه

وقراءة ابن عباس، والشَّخْمِي، وسعيد بن جُبَيْر، وميمون بن مهران، وكذلك عند أبي بن كعب. وقال الضحاك: تصحَّف على قوم (وَوُضِيَ) ب (قَضَى) حين اختلطت الواو بالصاد وقت كتب المصحف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وإنما القراءة مَرْوِيَّةٌ بسند، وقد ذكر أبو حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما مثل قول الضحاك، وقال عن ميمون بن مهران: إنه قال: «إِنَّ عَلَى قَوْلِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِنُورًا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾». ثم ضَعَّفَ ابن حاتم أن يكون ابن عباس رضي الله عنهما قال ذلك، وقال: «لو قلنا هذا لطمن الزنادقة في مصحفنا». والضمير في ﴿تَمَيِّذًا﴾ لجميع الخلق، وعلى هذا التأويل مضى السلف والجمهور، وسأل الحسن بن أبي الحسن رجل فقال: إنه طلق امرأته ثلاثاً، فقال له الحسن: عصيت ربك وبنات منك امرأتك ثلاثاً، فقال له الرجل: قضى الله ذلك علي، فقال له الحسن - وكان فصيحاً -: ما قَضَى الله، أي: ما أمر الله، وقرأ هذه الآية، فقال الناس، تكلم الحسن في القدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن تكون ﴿فَصَّحَّ﴾ على مشهورها في الكلام، ويكون الضمير في ﴿تَمَيِّذًا﴾ للمؤمنين من الناس إلى يوم القيامة، لكن على التأويل الأول يكون قوله تعالى: ﴿وَيَا أُولِي

إِحْسَانًا﴾ عطفاً على [أَنَّ] الأولى، أي: أمر الله ألا تعبدوا إلا إياه وأن تحسنوا بالوالدين إحساناً، وعلى هذا الاحتمال الذي ذكرناه يكون قوله: ﴿وَيَا أُولِي إِحْسَانًا﴾ مقطوعاً من الأول؛ فإنه أخبرهم بقضاء الله تبارك وتعالى، ثم أمرهم بالإحسان إلى الوالدين.

و [إِمَّا] شَرْطِيَّةٌ، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ وروى عن ابن ذكوان ﴿يَبْلُغَنَّ﴾ بتخفيف النون، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَبْلُغَانَّ﴾، وهي قراءة أبي عبد الرحمن، ويحيى، وطلحة، والأعمش، والجحدري، وهي النون الثقيلة دخلت مُؤَكَّدَةً، وليست بنون تشنية، فعلى القراءتين الأولىين يكون قوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعلاً، وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ معطوفاً عليه، وعلى هذا القراءة الثالثة يكون قوله: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَبْلُغَنَّ﴾، وهو بدل مُقَسَّم كقول الشاعر:

وَكُنْتُ كَذِي رَجُلَيْنِ: رَجُلٌ صَاحِبَةٌ
وَرَجُلٌ رَمَى فِيهَا الزَّمَانَ فَنَسَلَتْ
ويجوز أن يكون: ﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعلاً، وقوله: ﴿أَوْ كِلَاهُمَا﴾ عطف عليه، ويكون ذلك على لغة من قال: «أكلوني البراغيث»، وقد ذكر هذا في هذه الآية بعض النحويين، وسيبويه لا يرى لهذه اللغة مدحلاً في القرآن الكريم.

وقرأ أبو عمرو: ﴿أَب﴾ بكسر الفاء وترك التنوين، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية أبي

قال: «من أدرك أبويه أو أحدهما فلم يفر له».

قوله تعالى: ﴿مِنَ الرَّحْمَةِ﴾، ﴿مِنَ﴾ هنا لبيان الجنس، أي: إن هذا الخفض يكون من الرحمة المستكنة في النفس، لا بأن يكون ذلك استعمالاً، ويصح أن تكون لابتداء الغاية.

ثم أمر الله تعالى عباده بالترحم على آباؤهم، وذكر مئنيهما على الإنسان في التربية؛ ليكون تذكر تلك الحالة مما يزيد الإنسان إشفاقاً لهما، وحناناً عليهما، وهذا كله في الأبوين المؤمنين، وقد نهى القرآن عن الاستغفار للمشركين الأموات ولو كانوا أولى قُربى، وذكر عن ابن عباس هنا لفظ النسخ، وليس هذا موضع نسخ.

قوله تعالى: ﴿ذُنُوبَكُمْ أَغْفِرَ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾، أي: من اعتقاد الرحمة بهما والحنو عليهما، أو من غير ذلك، ويجعلون ظاهر برهما رياءً. ثم وعد سبحانه وتعالى في آخر الآية بالغفران مع شرط الصلاح والأوبة إلى طاعة الله. واختلفت عبارة الناس في «الأوابين» - فقالت فرقة: هم المصلحون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم المسبوحون، وقال أيضاً: هم المطيعون والمحسنون، وقال ابن المنكدر: هم الذين يصلون بين المغرب والعشاء، وذلك أن رسول الله ﷺ سئل عن الصلاة في ذلك الوقت فقال: «تلك صلاة الأوابين». وقيل غير ذلك من المستغفرين ونحوه. قال عَوْن القَيْلِي: هم الذين يصلون صلاة

التي في هذه الآية مأخوذة من ذلك، وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَى﴾: معناه: إذا رأيت منهما في حال الشيخ الغائط والبول الذي رأياه منك في الصغر، فلا تَقْدِرْهُمَا، ولا تقل: أف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية أعم من هذا القول، وهو داخل في جملة ما تقتضيه. قال أبو السراج التَّجِيبِي: قلت لسعيد بن المسيب: كل ما في القرآن من برِّ الوالدين قد عرفته إلا قوله: ﴿وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، ما هذا القول الكريم؟ قال ابن المسيب: قول العبد المذنب للسيد لفظ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ استعارة، أي: أقطعهما جانب الذل منك، وديث لهما نفسك وحلقتك. ويؤلف بذكر الدُّلِّ هنا ولم يذكر في قوله تعالى: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِإِنِّ أَبْعَكَ مِنَ التَّؤْمِينِ﴾، وذلك بحسب عظم الحق هنا. وقرأ الجمهور: ﴿الذَّلِيلِ﴾ بضم الذال، وقرأ سعيد بن جبير، وابن عباس، وعروة بن الزبير: ﴿الذَّلُّ﴾ بكسر الذال، ورويت عن عاصم ابن أبي النجود، و«الذَّلُّ» في الدواب ضد «الصُّعُوبَةِ»، ومنه: الجَمَلُ الذَّلُولُ، والمعنى يتقارب.

وينبغي بحكم هذه الآية أن يجعل الإنسان نفسه مع أبويه في حيز ذلَّة في أقواله وسكنايته ونظره، ولا يجد لهما بصره، فإن تلك هي نظرة الغاضب. وفي الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «أبعده الله وأسحقه»، قالوا: من يا رسول الله؟

بكر، وقرأ نافع، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وعيسى: ﴿أَفَى﴾ بالكسر والتنوين، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿أَفَى﴾ بفتح الفاء، وقرأ أبو السَّمال: ﴿أَفَى﴾ بضم الفاء، وقرأ ابن عباس: ﴿أَفَى﴾ خفيفة، وهذا كله بناء، إلا أن قراءة نافع تعطي التنكير، كما تقول: «إيه». وفيها لغات لم يُقرأ بها: «أَفَى» بالرفع والتنوين، على أن هرون حكاها قراءة - و«أَفَا» بالنصب والتنوين، و«أَفِي» بياء بعد الكسرة، حكاها الأَخْفِضُ الكبير، و«أَفَا» بألف بعد الفتحة، و«أَفَى» بسكون الفاء المشددة، و«أَفَى» مثل رَبِّ، ومن العرب من يُميل «أَفَا»، ومنهم من يزيد فيها هاء السَّكْتِ فيقول: «أَفَاة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى اللفظة أنها اسم فعل، كأن الذي يريد أن يقول: أَضَجِرُّ، أو: أَتَقَدَّرُ، أو: أَكْرُهُ، أو نحو هذا، يُعْبَرُ إيجازاً بهذه اللفظة فتعطي معنى الفعل المذكور، وجعل الله تعالى هذه اللفظة مثلاً لجميع ما يمكن أن يقابل به الآباء بما يكرهون، فلم تَرُدْ هذه اللفظة في نفسها وإنما هي مثال الأعظم منها والأقل، فهذا هو مفهوم الخطاب الذي المسكوت عنه حكمه حكم المذكور.

و«الانتهاز»: إظهار الغضب في الصوت واللفظ. و«القول الكريم»: الجامع للمحاسن، من اللَّيْنِ وجودة المعنى وتَضَمُّنِ البر، وهذا كما تقول: ثوب كريم، تريد أنه جَمُّ المحاسن. و«الأَفَى»: وسخ الأظفار، فقالت فرقة: إن هذه اللفظة

وكذلك ثبت في مصحف أس بن مالك، ثم ذكر تبارك وتعالى كُفِّر الشيطان ليقع التحذير من الشُّبُه به في الإفساد مستوعباً يئباً.

قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا قُرْصَنَ﴾ الآية. الضمير في ﴿عَنَّهُمْ﴾ عائد على من تقدم ذكره من المساكين وبنو السبيل، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه الآية - إذا سأله منهم أحد فلم يجد عنده ما يعطيه، فقابله رسولُ الله ﷺ بالإعراض تأدباً منه في أن يرده تصریحاً، وانتظاراً لرزق

من الله تعالى يأتي فيُعطي منه - أن يكون يُؤنسه بالقول الميسور، وهو الذي فيه الترجية بفضل الله، والتأنيس بالميعاد الحسن، والدعاء في توسعة الله تعالى وعطائه. وروي أنه عليه الصلاة والسلام كان يقول بعد نزول هذه الآية - إذا لم يكن عنده ما يعطي :- «يرزقنا الله وإليكم من فضله»، فالرُخمة - على هذا التأويل - الرزق المنتظر، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقال ابن زيد: الرُخمة: الأجر والثواب، وإنما نزلت الآية في قوم كانوا يسألون رسول الله ﷺ فيأبى أن يعطيهم، لأنه كان يعلم منهم نفقة المال في فساد، فكان يعرض عنهم رغبة الأجر في منعهم، لئلا يعينهم على فسادهم، فأمره الله تبارك وتعالى بأن يقول لهم قولاً ميسوراً يتضمن الدعاء في الفتح لهم والإصلاح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال بعض أهل التأويل الأول: نزلت الآية في عمار بن ياسر

في هذه الآية ما يتعين له من صلة الرُحِم، وسُدَّ الخُلَّة، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكل وجه، قال بنحو هذا الحسن، وعكرمة، وابن عباس، وغيرهم. وقال علي بن الحسين في هذه: هم قرابة النبي ﷺ، أمر رسول الله ﷺ بإعطائهم حقوقهم في بيت المال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أبين، ويعضده العطف بالمسكين وابن السبيل.

و«ابنُ السبيل» هنا يعم الغني والفقير؛ إذ لكل واحد منهما حق وإن اختلفا، و«ابنُ السبيل» في آية الصدقة أخص.

و«التبذير»: إنفاق المال في إفساد، أو في سرف في مباح، وهو من البذر، ويحتمل قوله تعالى: ﴿الْمُبْدِرِينَ﴾ أن يكون اسم جنس، ويحتمل أن يعني أهل مكة مُعَيَّنِينَ، وذكره النقاش، وقوله تعالى: ﴿إِخْرَانٌ﴾ يعني: في حكمهم؛ إذ المبذر ساع في فساد، والشيطان أبدأ ساع في فساد، والإخوان: جمع أخ من غير النسب، وقد يشد، ومنه قوله تعالى في سورة النور: ﴿أَزْوَاجَهُنَّ أَوْ إِخْوَانَهُنَّ﴾، والإخوة: جمع أخ في النسب، وقد يشد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْكُفْرَانُ إِخْوَةٌ﴾، وقرأ الحسن، والضحاك: ﴿إِخْوَانُ الشَّيْطَانِ﴾ على الأفراد،

وَأَمَّا تَعْرِضْنَ عَنْهُمْ أَيَعَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَتَسَوِّرًا ﴿٢٦﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا ﴿٢٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ بِبَسْطِ الرِّزْقِ لَمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشِيَةً لِمَنْ يَمُنُّ عَنْ رَبِّكُمْ وَإِنَّا كُنَّا مِنْهَا نَازِلِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الرِّزْقَ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيَّهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْفَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالْأَيْبِ هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَتْ مَسْئُولًا ﴿٣٢﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كَلَّمْتُمْ مِيزَانًا لِتَقْسُطُوا لِنَفْسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٣٤﴾ وَلَا تَنْسِفِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٥﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٦﴾

الضحى. وحقية اللفظة أنها من: آبٌ يُؤوَّبٌ إذا رَجِعَ، وهو لأٍ كلمهم لهم رجوع إلى طاعة الله تبارك وتعالى، ولكنها لفظة لزم عرفها أهل الصلاح. قال ابن المسيب: هو العبد يتوب ثم يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب. وفسر الجمهور «الأوابين» بالراجعين إلى الخير، وقال ابن جبير: أراد بقوله: «عَفُورًا» للأوابين» الرُّلَّةُ والفَلْتَةُ تكون من الرجل لأحد أبويه، وهو لم يُصِرَّ عليها بقلبه، ولا علمها الله من نفسه. وقالت فرقة: «خَفَضَ الجناح» هو ألا يمتنع من شيء يريدانه.

٢٦ - ٣٠ - تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في «ذي القربى» - فقال الجمهور: الآية وصية للناس كلهم بصلة قرابتهم، خوطب بذلك النبي ﷺ والمراد الأمة. و«الحق»

وصفه، و«الْمَيْسُورُ» مفعولٌ من لفظة
الْيَسْرِ، تقول: يَسْرُتُ لك كذا إذا
أعدته.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً﴾
الآية، رُوي عن قالون: ﴿كُلُّ
الْبُصِطِ﴾ بالصاد، ورواه الأعمش عن
أبي بكر، واستعير لليد المقبوضة
جملة عن الإنفاق المتَّصِفَةِ بالخل
الغلُّ إلى العنق، واستعير لليد التي
تستفد جميع ما عندها غاية البسط،
ضد الغل، وكل هذا في إنفاق
الخير، وأما إنفاق الفساد فقليله
وكثيره حرام.

وهذه الآية ينظر إليها قول
النبي ﷺ: «مَثَلُ الْبَخِيلِ
وَالْمُتَصَدِّقِ...» الحديث بكماله.

والملامة هنا لاحقة ممن يطلب من
المستحقين فلا يجد ما يُعطى.
و«الْمَخْسُورُ»: المقعد الذي قد
استنفذت قُوَّته، تقول: حَسْرَتُ
البعير إذا اتَّعَبْتَهُ حَتَّى لم يبق له قوة،
فهو حسير، ومنه قول الشاعر:

لَهْنُ الْوَجَائِمِ كُنَّ عَوْنًا عَلَى السُّرَى
وَلَا زَالَ مِنْهَا طَالِعٌ وَحَسِيرٌ
ومنه: البصر الحسير، وهو الكأل.
وقال ابن جريج وغيره في معنى هذه
الآية: لا تُنْسِكُ عن النفقة فيما
أمرتك به من الحق، ولا تبسطها كل
البسط فيما نهيتك عنه. وقال قتادة:
التبذير: التَّفَقُّةُ في معصية، وقال
مجاهد: لو أنفق الإنسان ماله كله في
حق لم يكن تبذيراً، ولو أنفق مِداً في
باطل كان تبذيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا فيه نظر، ولا يُعطي البَسْطُ
معنى لم يُحِبَّ فيما نهى عنه، ولا يقال

في المعصية: «وَلَا تُبْذِرْ»، وإنما
يُقال: «ولا تُنْفِقْ ولو باقتصاد
وقوام»، والله ذو ابن عباس، وابن
مسعود رضي الله عنهما فإيهما قالا:
«التبذير: الإنفاق في غير حق»،
فهذه عبارة تُعْمُ المعصية والسرف
المباح، وإنما نَبَهَتْ في الآية على
استفراغ الجهد فيما يطرأ أولاً من
سؤال المؤمنين؛ لئلاً يبقى من
يأتي بعد ذلك لا شيء له، أو لئلاً
يُضَيِّعُ المنفق عياله، ونحوه من كلام
الحكمة: «ما رأيتُ سرفاً قط
إلاً ومعه حق مضيع»، وهذا من
آيات فقه الحال، ولا يبين حكمها
إلاً باعتبار شخص شخص من
الناس.

قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْهُتُ الرِّزْقَ﴾،
المعنى: كن أنت يا محمد على ما
رسم لك من الاقتصاد وإنفاق
القوام، ولا يهمنك فقر من تراه
كذلك، فإنه يَمْرَأَى من الله
وَيَمْسَمَعُ، ويمشيتته. و﴿يَبْهُتُ﴾
معناه: يُضَيِّقُ. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ
كَانَ يَبْأُوهَ خَيْرًا مِمَّا يَكْفُرُ﴾، أي: يعلم
مصلحة قوم في الفقر، ويعلم
مصلحة آخرين في الغنى. وقال
بعض المفسرين - وحكاها الطبري -:
إِنَّ الآية إشارة إلى حال العرب التي
كانت يُصلحها الفقر، وكانت إذا
شبت طغت وقتلت غيرها وأغارث،
وإذا كان الجوع والقحط شغلهم.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الأعمش، وابن وثاب: ﴿وَلَا
تَقْتُلُوا﴾ بتضعيف الفعل. وهذه الآية
نهى عن الوأد الذي كانت العرب
تفعله، وهو قوله تعالى: ﴿وَرِثًا﴾

الْمَوَدَّةُ سَيَّتٌ ﴿٣١﴾، ويقال: كان
جهلهم يبلغ إلى أن يُعَزَّ واحدٌ منهم
كلبه ويقتل ولده، و﴿خَشِيَّةٌ﴾
منصوب على المفعول لأجله،
و«الإملاق»: الفقر وعدم المال،
أَمَلَقَ الرجلُ: لم يبق له إلا
المَلَقَاتُ، وهي الحجارة العظام
المُلْسُ السُّودُ. وقرأ الجمهور:
﴿خَطَأٌ﴾ بكسر الخاء وسكون
الطاء، وبالهمز والقصر، وقرأ ابن
عامر: ﴿خَطَأٌ﴾ بفتح الخاء والطاء
والهمزة مقصورة، وهي قراءة أبي
جعفر، وهاتان قراءتان مأخوذتان
من: خَطِئَ إِذْ أَتَى الذَّنْبَ عَلَى
عَمْدٍ، فهي: كجذُرٍ وَحَدَّرَ ومِثْلُ
وَمَثَلُ وَشِبُهَ وَشَبِهَ اسم مصدر، ومنه
قول الشاعر:

الْخِطْءُ فَاجِحَةٌ وَالْبِرُّ نَافِلَةٌ
كَعَجْوَةِ غُرْسَتْ فِي الْأَرْضِ تُؤْتَبِرُ
قال الزجاج: خَطِئَ الرجلُ يَخْطِئُ
خِطْئًا، مثل: أَيْمٌ يَأْتُمُ إِثْمًا، فهذا هو
المصدر، وخطأ اسمٌ منه، وقال
بعض العلماء: خَطِئَ معناه واقع
الذنب مع التعمد، وأخطأ إذا واقعه
من غير تعمد، ومنه قوله تعالى:
﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ
أَخْطَأْنَا﴾، وقال أبو علي الفارسي:
قد يقع هذا موضع هذا، وهذا
موضع هذا، فأخطأ بمعنى تعمد في
قول الشاعر:

عِبَادُكَ يُخْطِئُونَ وَأَنْتَ رَبُّ
كَرِيمٌ لَا تَلِيْقُ بِكَ الدُّمُومُ
وخطيء بمعنى لم يتعمد في قول
الآخر:

وَالنَّاسُ يَلْحَوْنَ الْأَمِيرَ إِذَا هُمْ
خَطِئُوا الصَّوَابَ وَلَا يَلَامُ الْمُرْشِدُ

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿خَطَأٌ﴾ بفتح الخاء وسكون الطاء وهمزة، وقرأ ابن كثير: ﴿خِطَاءٌ﴾ بكسر الخاء وفتح الطاء ومدّ الهمزة، وهي قراءة الأعرج - بخلاف - وطلحة، وشبل، والأعمش، وعيسى، وخالد بن إلياس، وقتادة، والحسن - بخلاف -، قال النحاس: ولا أعرف لهذه القراءة وجهاً، وكذلك جعلها أبو حاتم غَلَطًا، قال أبو علي الفارسي: هي مصدر خاطأ يخاطيء، وإن كنا لم نجد خاطأً، ولكن وجدنا تخاطأً، وهو مضارع خاطأً، فدلنا عليه، ومنه قول الشاعر:

تَخَطَّأَتِ النَّبْلُ أَخْشَاءَهُ
وَأَخْرَى يَوْمِي فَلَمْ أَعْجَلِ
وقال الآخر في صفة كماءة:

تَخَطَّأَهُ الْقَنَاصُ حَتَّى وَجَدْتُهُ
وَخَرَطُوهُ فِي مَنَقَعِ الْمَاءِ زَائِبُ
فكان هؤلاء الذين يقتلون أولادهم يخاطئون الحق والعدل. وقرأ الحسن

- فيما روي عنه -: ﴿خَطَأٌ﴾ بفتح الخاء والطاء والمد في الهمزة. قال أبو حاتم: لا يُعرف هذا في اللغة، وهي غلط غير جائز، وليس كما قال أبو حاتم. قال أبو الفتح: الخطأ من «أخطأت» بمنزلة العطاء من «أعطيت»، هو اسم بمعنى المصدر. وقرأ الحسن - بخلاف -: ﴿خَطَأً﴾ بفتح الخاء والطاء متوثةً من غير همز. وقرأ أبو رجاء، والزهري: ﴿خِطَاءٌ﴾ بكسر الخاء وفتح الطاء كالتي قبلها، وهاتان مخففتان من: خَطَّيْ وَخِطَّيْ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَةَ﴾

تحريم، والزنى يُمدُّ ويُقصر، فمن قَصُرِهِ الآية، وهي لغة جميع كتاب الله، ومن مَدَّهُ قول الفرزدق: أبا حازم مَن يَزِنُ يُعْرِفُ زَنَاؤُهُ
وَمِن يَشْرَبِ الْخُرْطُومَ يُضِيحُ مُسَكَّرًا
ويُرَوِّى: أبا خالد، و«الفاحشة»: ما يُستتر به من المعاصي لقبه. و﴿سَيِّئًا﴾ نصب على التمييز، والتقدير: وساء سيئه سيئاً، أي لأنه يؤدي إلى النار. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا﴾ وما تقدم قبله من الأفعال جزم بالنهي. وذهب الطبري إلى أنها عطف على قوله: ﴿وَقَتْلَى رَبِّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، والأول أصوب وأبصر للمعنى.

والأنف واللام التي في ﴿النَّفْسِ﴾ هي للجنس، و«الحق» الذي تقتل به النفس هو ما فسره النبي ﷺ في قوله: ﴿لَا يُجِلُّ دَمَ الْمُسْلِمِ إِلَّا إِحْدَى ثَلَاثَ خِصَالٍ: كَفْرٌ بَعْدَ إِيمَانٍ، أَوْ زَنَى بَعْدَ إِحْصَانٍ، أَوْ قَتَلَ نَفْسَ أُخْرَى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتتصل بها أشياء هي راجعة إليها، فمنها قَطَعُ الطريق لأنه في معنى قتل النفس، وهي الجزاء، ومن ذلك الزندقة، ومسألة ترك الصلاة لأنها في معنى الكفر بعد الإيمان، ومنه قَتَلَ أَبِي بكر رضي الله عنه مَنَعَةَ الزكاة، وقتل من امتنع في المدن من فروض الكفاية. وقوله: ﴿مَظْلُومًا﴾ نصب على الحال، ومعناه: بغير هذه الوجوه المذكورة. و«الولي»: القائم بالدم وهو من وَلَدَ المَيْتَ، أَوْ وَلَدَهُ المَيْتَ، أَوْ جَمَعَهُ وإياه أب، ولا

مدخل للنساء في ولاية الدم عند جماعة من العلماء، ولهن ذلك عند آخرين. و«السُّلْطَانُ»: الحجة والملك الذي جعل الله إليه من التَّخْيِيرِ في قبول الدية أو العفو، قاله ابن عباس والضحاك. وقال قتادة: السلطان: القود.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿فَلَا يُسْرِفُ﴾ بالياء، وهي قراءة الجمهور، أو الولي، لا يتعدى أمر الله، والتَّعْدِي هو أن يقتل غير قاتل وليه من سائر القبيلة، أو يقتل اثنين بواحد، وغير ذلك من وجوه التعدي، وهذا كله كانت العرب تفعله، فلذلك وقع التحذير منه، وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ مِنْ أَغْتَى النَّاسِ ثَلَاثَةٌ: رَجُلٌ قَتَلَ غَيْرَ قَاتِلِ وَلِيهِ، أَوْ قَتَلَ بَدْخَنَ الْجَاهِلِيَّةِ، أَوْ قَتَلَ فِي حَرَمِ اللَّهِ». وقالت فرقة: المراد بقوله تعالى: ﴿فَلَا يُسْرِفُ﴾ القاتل الذي يتضمنه الكلام، والمعنى: فلا يكن أحد من المسرفين بأن يقتل نفساً، فإنه يحصل في سياق هذا الحكم. وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿فَلَا تُسْرِفُ﴾ بالتاء من فوق، وهي قراءة حذيفة، ويحيى بن وثاب، ومجاهد - بخلاف - والأعمش، وجماعة. قال الطبري: على معنى الخطاب للنبي ﷺ ولأُمَّته بعده، أي: فلا تقتلوا غير القاتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يراد به الولي، أي: فلا تسرف أيها الولي في قتل أحد متحصل في هذا الحكم. وقرأ أبو مسلم السراج صاحب الدعوة

ونحو هذا مما يخدمه، ويلوط الحوض، ويجذُ النخل، وينشد الضالة، يأكل غير مُضْرَبٍ بِسُلِّ، ولا ناهك في الحلب، وقال زيد بن أسلم: يأكل منه بأطراف أصابعه بُلْغَةً من العيش بتعبيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا استعارة للتقليل، وقال مالك رحمه الله، وغيره: يأخذ منه أجرة بقدر تعب، فهذه كلها تدخل فيما هو أحسن. وكما تفسير هذه المعاني في سورة النساء بحسب ألفاظ تلك الآيات، وفي الخبر عن قتادة أن هذه الآية لما نزلت شقت على المسلمين، وتجنبوا الأكل معهم في صحفة، فنزلت: ﴿ذَلِكَ تَخَالُطُهُمْ فَأَخَوْنَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ غاية الإمساك عن مال اليتيم، ثم بعد الغاية قد سئته آية أخرى، وما بعد هذه الغايات أبداً موقوف حتى يقوم فيه دليل شرعي، أو يقتضي ذلك الإنصاف في النازلة، ومثل هذا قول عائشة رضي الله عنها: «أنا قتلْتُ قلائد هذِي رسول الله ﷺ بيدي، وبعثت بها، فلم يحرم على رسول الله ﷺ شيء أحله الله له حتى نحر الهدي».

و «الأشدة»: جمع (شد) عند سيبويه، وقال أبو عبيدة: لا واحد من لفظه، ومعناها: قُوَاهُ في العقل والتجربة والنظر لنفسه، وذلك لا يكون إلا مع البلوغ، فالأشد في مذهب مالك إقران البلوغ بالاحتلام أو ما يقوم مقامه حسب الخلاف في

وشهيد وأشهاد، ويُجمع يتامى كأسير وأسارى، كأنها في الأمور المكروهة التي تدخل على المرء غلبة. قال ابن سيدة: وحكى ابن الأعرابي (يَثْمَان) في (يتيم)، وأنشد في ذلك:

فَبِتْ أَشْوِي صَبِيَّتِي وَحَلِيلَتِي
طَرِيًّا وَجَزُوْ الدُّنْبِ يَثْمَانُ جَانِعُ
ويجوز أن يكون (يتامى) جمع (يَثْمَان). وفي الحديث: «لَا يَثْمُ بَعْدَ حُلْمٍ».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ يريد: إلا بأحسن الحالات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك في الوصي الغني، أن يُثْمَر المال ويحوطه، ولا يحبس منه شيئاً على جهة الانتفاع به. هذا هو الورع، والأولى ألا يكون يشتغل في مال اليتيم ويشح عليه، فالفقه أن تفرض له أجرة. وأما الوصي الفقير الذي يشغله مال اليتيم عن معاشه، فاختلف الناس في أكله منه بالمعروف، كيف هو؟ فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يتسلف منه، فإذا أيسر رد فيه، وقال ابن المسيب: لا يشرب الماء من مال اليتيم، قيل: فما معنى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾؟ قال: إنما ذلك لخدمته وغسل ثوبه، وقال مجاهد: لا يقرب إلا بتجارة ولا يستقرض منه، قال: وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ من مال نفسه. وقال أبو يوسف: لعل قوله: ﴿فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ منسوخ بقوله: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبُطْلِ﴾. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يأكل منه الشربة من اللبن، والطزفة من الفاكهة،

العباسية: ﴿فَلَا يَسْرِفْ﴾ بضم الفاء، على معنى الخبر لا على معنى النهي. والمراد - على هذا التأويل - الولي فقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي الاحتجاج بأبي مسلم في القراءة نظر. وفي قراءة أبي بن كعب ﴿فَلَا تُسْرِفُوا فِي الْقَتْلِ إِنْ وَلِيَّ الْمَقْتُولِ كَانَ مَنصُورًا﴾. والضمير في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ﴾ عائد على الولي، وقيل: على المقتول، وهو عندي أرجح الأقوال؛ لأنه المظلوم ولفظة النصر تقابل أبداً الظلم، كقوله عليه الصلاة والسلام: «وَنُصِرَ الْمَظْلُومُ وَإِنْرَارَ الْقَسَمِ»، وكقوله ﷺ: «انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً»، إلى كثير من الأمثلة. وقيل: على القتل، وقال أبو عبدة: على القاتل؛ لأنه إذا قُتِلَ في الدنيا وخلص بذلك من عذاب الآخرة فقد نُصِرَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف بعيد المقصد.

وقال الضحاك: هذه أول ما نزل من القرآن بشأن القتل، وهي مكيّة. ﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب في هذه الآية للأوصياء الذين هم معدون لفزب مال اليتيم، ثم هي لمن تلبس بشيء من أمرهم من غير وصي، و«اليتيم»: الفزْد من الأبناء، واليُثم: الانفراد، يقال: يثم الصبي يثم إذا فقد أباه. وقال ابن السكيت: اليُثم في البشر من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم. وفي كتاب الماوردي: إن اليُثم في البشر من قبل الأم أيضاً، وجمع اليتيم أيتام، كشريف وأشرف،

ذلك، والرُّشد في المال. واختلف، هل من شروط ذلك الرُّشد في الدين على قولين: فابن القاسم لا يراعيه إذا كان ضابطاً لماله، وراعه غيره من أصحاب مالك، ومذهب أبي حنيفة أن الأشد هو البلوغ فقط، فلا حجر عنده على بالغ إلا أن يعرف منه السُّفَه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولستُ من هذا التقييد في قوله على ثقة.

وقال أبو إسحق الزجاج: الأشد في قول أن يأتي على الصبي ثمان عشرة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما أراد أنه بعض ما قيل في حدّ البلوغ لمن لا يحتلم، وأمّا أن يكون بالغاً رشيداً فلا يدفع إليه ماله حتى يبلغ هذه المدة فشيء لا أحفظ من يقوله.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ﴾ لفظ عام لكل عهد وعقد بين الإنسان وبين ربه، أو بينه وبين المخلوقين في طاعة، وقوله: ﴿إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ أي: مطلوباً ممن عهد إليه أو عوهد، هل وفى به أم لا؟

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ﴾ الآية. أمر الله تعالى في هذه الآية أهل الشجر والوزن والكيل أن يعطوا الحق في كيلهم ووزنهم، وروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقف في السوق ويقول: يا معشر الموالي، إنكم وليتم أمرين بهما هلاك الناس قبلكم، هذا المكيال وهذا الميزان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وتقتضي هذه الآية أن الكيل على البائع؛ لأن المشتري لا يقال له: «أوف الكيل»، هذا هو ظاهر والسابق منه، و«الْقِسْطَاسُ»: قال الحسن: هو القَبَان، ويقال فيه: القَفَان، وهو القاسطون، ويقال القَرْطُسُون، وقيل: القِسْطَاسُ الميزان كان صغيراً أو كبيراً، وقال مجاهد: القِسْطَاسُ: العَدْلُ، وكان يقول: هي لغة رومية، فكأنَّ الناس قيل لهم: زَنُوا بمعدلة في وزنكم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ بضم القاف، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ وهما لغتان، واللفظة منه للمبالغة من القِسْط، والمراد بها في الآية جنس الموازين العذلة على أي صفة كانت. قال أبو حاتم: «إنما قرأ بكسر القاف أهل الكوفة، وكلُّ قراءة لا تجاوز الكوفة إلى الحرمين والبصرة فاقراً بغيرها». وقرأت فرقة: ﴿بِالْقِسْطَاسِ﴾ بالصاد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان مذهب مجاهد في هذا، وفي ميزان القيامة، وكل ذلك، أنها استعاراتٌ للعادل، وقوله: «ميزان القيامة» مردود، وعقيدة أهل السنة أنه ميزان له عمود وكفتان. وسمعت أبي رضي الله عنه يقول: رأيت الواعظ أبا الفضل بن الجوهري في جامع عمرو بن العاص يعظ الناس في الوزن، فقال في جملة كلامه: إن في هيئة اليد بالميزان عظة، وذلك أن الأصابع يجيء منها صورة

المكتوبة: أَلِفٌ ولامان وهاء، فكان الميزان يقول: الله الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وعظٌ جميلٌ.

و«التَّأْوِيلُ» في هذه الآية: المَالُ، قاله قتادة، ويحتمل أن يكون «التَّأْوِيلُ» مصدر تأوَّل، أي: يتأوَّل عليكم الخبر في جميع أموركم إذا أحسستم في الكيل والوزن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرض من الكيل والوزن تحزُّرِي الحق، فإن غلب الإنسان بعد تحزُّرِيه لشيءٍ من تطفيف شأؤ، أو لم يقصده، فذلك نزرٌ موضوعٌ عنه إنَّمه، وذلك ما لا يكون الانفكاك عنه في وُسع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ معناه: وَلَا تَقُلْ وَلَا تَتَّبِعْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لكنها لفظة تستعمل في القذف والعظة، ومنه قول النبي ﷺ: «نحن بنو النضر لا نَقْفُو أمتنا ولا ننثني من أبنينا»، وتقول: فلان قَفَوْتِي، أي:

موضع تُهْمَتِي، وتقول: «رُبُّ سامع عذرتي ولم يسمع قَفَوْتِي» أي: ما رميت به، وهذا مثل للذي يُفْشي سرَّه ويعتذر من ذنب لم يسمعه المُعْتَذِرُ إليه. وقد قال ابن عباس أيضاً، ومجاهد: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ معناه: لا تَزِمْ، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

وَمِثْلُ الدَّمَى شُمُّ الْعَرَابِينَ سَاكِنٌ
بِهِنَّ الْحَيَاءُ لَا يُشْفِنُ التَّقَافِيَا
وقال الكمي:

وَلَا أَرْمِي الْبِرِّيَّ بِغَيْرِ ذَنْبٍ
وَلَا أَتَقْفُو الْحَوَاصِنَ إِنْ قُفِينَا
وأصل هذه اللفظة من اتَّباع الأثر،

ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا
 آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٧﴾ أَفَأَصْفَكَ رُشُكًا
 بِالْبَيْنِ وَآخِذًا مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِننَّا لَنُكَلِّمُ الْقُلُوبَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٣٨﴾
 وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٣٩﴾
 قُلْ لَوْ كُنَّا مَعَهُ ءَالِهَةٌ مَا يَقُولُونَ إِذًا لَأَنْبَغُوا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا
 ﴿٤٠﴾ سُبْحٰنَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ عَلُوا كِبِيرًا ﴿٤١﴾ سُبْحٰنَ لَدَىٰ السَّمَوٰتِ
 السَّبْعِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا أَسْبِغْ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ
 لَأَنْفَعُونَ نَسِيبَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٢﴾ وَإِذَا قُرَأَتْ
 الْقُرْآنُ أَنْ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا
 مَسْتُورًا ﴿٤٣﴾ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ
 وَقْرًا وَإِذَا ذُكِرْتُ بِكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوْ أَنَّ ذُنُوبَهُمْ نُفُورًا
 ﴿٤٤﴾ لَمَنْ أَعْرَبَهُمَا سَمِعُوا بِهِ يُدْعَىٰ سَمِعُوا إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ
 إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا لِحِيلَةٍ أَلْبَسْتُمْ ﴿٤٥﴾ أَنْظِرْ
 كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٤٦﴾
 وَقَالُوا أَوْذَا كُنَّا عِظَمًا وَرَفْنَا ءَاثًا لَمَبْعُورُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٧﴾

٢٨٦

تقول: فَتَوَاتُ الْأَثْرَ، وَيُشْبِهُ أَنْ هَذَا
 مأخوذ من «الْقَفَا»، ومنه قافية الشعر
 لأنها تقفو البيت، وتقول: «فُقْتُ
 الأثر»، ومن هذا: هو القائف،
 وتقول: «فُقْتُ الأثر» بتقديم الفاء
 على القاف، ويشبه أن يكون هذا من
 تلُثب العرب في بعض الألفاظ، كما
 قالوا: «رَعْمَلِي» في «لَعَمْرِي»،
 وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت:
 قَفَا وَقَافٌ، مثل عَتَا وَعَاتٌ، فمعنى
 الآية: ولا تتبع لسانك من القول ما
 لا علم لك به، وذهب مُنذر بن
 سعيد إلى أن قفا وقاف مثل جَذَبَ
 وجَبَذَ، فهذه الآية بالجملة تنهى عن
 قول الزور والقذف وما أشبه ذلك من
 الأقوال الكاذبة الرديئة. وقرأ
 الجمهور: ﴿وَلَا تَقْفُ﴾ وقرأ بعض
 الناس - فيما حكى الكسائي -: ﴿وَلَا
 تَقْفُ﴾ بضم القاف وسكون الفاء.

حواه سمعه وبصره وفؤاده، فكأنه
 قال: كل هذه كان الإنسان عنه
 مستولاً، أي عما حصل لهؤلاء من
 الإدراكات، ووقع منها من الخطايا،
 فالتقدير: «عن أعمالها مستولاً»، فهو
 على حذف مضاف.

﴿٣٧﴾ - ﴿٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿مَرِحًا﴾ بفتح
 الراء، مصدرٌ من: مَرِحَ يَمْرَحُ إِذَا
 تَبَخَّرَ مسروراً بديناه مقبلاً على
 راحته، فهذا هو الْمَرْحُ، فَشَبِهَ
 الإنسان في هذه الآية أن يكون مشبه
 في الأرض على هذا الوجه، ثم قيل
 له: إنك لن تقطع الأرض وتمسحها
 بمشيك، ولن تبلغ أطوال الجبال
 فتنالها طولاً، فإذا كنت لا تستوي
 في الأرض بمشيك فقصرك نفسك
 على ما يوجب الحق من المشي
 والتصرف أولى وأحق. وخوطف

وقرأ الجراح: ﴿وَالْفُؤَادُ﴾ بفتح
 الفاء، وهي لغة، وأنكرها أبو حاتم
 وغيره، وعبر عن «السَّمْع والبصر
 والفؤاد» بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ لأنها حواس
 لها إدراك، وجعلها في هذه الآية
 مستولة فهي حالة من يعقل، فلذلك
 عبر عنها بـ ﴿أُولَئِكَ﴾، وقد قال
 سيبويه رحمه الله في قوله تعالى:
 ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَيِّدِينَ﴾: إنه إنما قال:
 ﴿رَأَيْتُمْ﴾ في نجوم لأنه لما وصفها
 بالسجود وهو من فعل من يعقل عبر
 عنها بكناية من يعقل. وحكى
 الزجاج أن العرب تعبر عما يعقل
 وعما لا يعقل بالإدراك، وأنشد هو
 والطبري:

ذَمُّ الْمَنَازِلِ بَعْدَ مَنَزَلَةِ السُّوَى
 وَالْعَيْشِ بَعْدَ أَوْلَيْكَ الْأَيَّامِ

النبي ﷺ بهذه الآية والمراد الناس
 كلهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وإقبال الإنسان على الصيد ونحوه
 تنزهاً دون حاجة إلى ذلك داخل في
 الآية، وأما الرجل يستريح في اليوم
 النادر والساعة من يومه فيجثم فيها
 نفسه في التفرج والراحة ليستعين
 بذلك على شغل من البر كقراءة علم
 أو صلاة، فليس ذلك بداخل في
 هذه الآية. وقرأت فرقة - فيما حكى
 يعقوب -: ﴿مَرِحًا﴾ بكسر الراء على
 بناء اسم الفاعل، وهذا المعنى يترتب
 على هذه القراءة، ولكن يحسن معها
 معنى آخر ذكره الطبري مع القراءة
 الأولى، وهو بهذه القراءة أَلَيْقٌ، وهو
 أن قوله: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَخَرَّقَ الْأَرْضَ وَرَأَىٰ
 تَبَلَّغَ لِحَالِهِ طَوْلًا﴾ أراد بذلك: أيها
 المرح المختال الفخور، لا تخرق

الأرض، ولا تطاول الجبال بفخرك وكبرك، وذهب بالألفاظ إلى هذا المعنى، ويحسن ذلك مع القراءة بكسر الراء من المرح؛ لأن الإنسان نهي حينئذ عن التخلُّق بالمرح في كل أوقاته؛ إذ المشي في الأرض يفارقه، فلم يُثَبِّهْ إلا عن أن يكون مرحاً، وعلى القراءة الأخرى إنما نهي من ليس بمرح عن أن يمسي في بعض أوقاته مرحاً، فيترتب في المرح - بكسر الراء - أن يؤخذ بمعنى المتكبر المختال.

وَحَزَقُ الْأَرْضِ: قطعها، والخرق: السواسع من الأرض، ومنه قول الشاعر:

وَحَزَقِي تَجَاوَزْتُ مَجْهُولَةً
بِوَجْنَاءِ حَزَقِي تَشْكِي الْكَلَالَا
ويقال لثقب الأرض: حَزَق، وليس هذا المعنى في الآية، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

وَقَاتِمِ الْأَعْمَاقِ حَاوِي الْمُخْتَرَقِ
وقرأ الجراح، والأعرابي: ﴿لَنْ تَحْزُقَ الْأَرْضُ﴾ بضم الراء، قال أبو حاتم: لا تُعرف هذه اللغة.

قوله تعالى: ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبو جعفر، والأعرج: ﴿سَيِّئَةٌ﴾، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحزمة، والكسائي، والحسن، ومسروق: ﴿سَيِّئُهُ﴾ على إضافة (سَيِّئُهُ) إلى الضمير، والإشارة - على القراءة الأولى إلى ما تقدم ذكره مما نهي عنه، كقول: أَفْ، وَقَذَفَ النَّاسَ، والمرح، وغير ذلك، والإشارة - على القراءة الثانية - إلى جميع ما ذكر في هذه الآيات من

بِرٍّ وَمَغْصِيَةٍ، ثم اختص ذكر السَيِّئِ منه بأنه مكروه عند الله تعالى، فأما من قرأ: ﴿سَيِّئُهُ﴾ بالإضافة إلى الضمير فإعرابُ قراءته بِيْنٌ، و[سَيِّئُهُ] اسم [كَانَ]، و﴿مَكْرُوهًا﴾ خبره، وأما من قرأ: ﴿سَيِّئَةٌ﴾ فهي الخبر ل [كَانَ]. واختلف الناس في إعراب ﴿مَكْرُوهًا﴾ - فقالت فرقة: هو خبر ثان ل [كَانَ] حمله على لفظ ﴿كُلُّ﴾، و [سَيِّئَةٌ] محمول على المعنى في جميع هذه الأشياء المذكورة قبل، وقال بعضهم: هو نعت ل [سَيِّئَةٌ] لأنه لما كان تأنيثها غير حقيقي جاز أن توصف بمذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وضعفه أبو علي الفارسي، وقال: إن المؤنث إذا ذكر فإنما ينبغي أن يكون ما بعده وفقه، وإنما التساهل أن يتقدم الفعل المسند إلى المؤنث وهو في صيغة ما يسند إلى المذكر، ألا ترى أن قول الشاعر:

فَلَا مُرْزَنَةٌ وَذَقْتُ وَذَقَهَا
وَلَا أَرْضٌ أَبْقَلَ إِنْقَالَهَا
مُسْتَشْفِحَ عندهم؟ ولو قال قائل:

أَبْقَلَ أَرْضٌ لَمْ يَكُنْ قَبِيحًا. قال أبو علي: ولكن يجوز في قوله تعالى: ﴿مَكْرُوهًا﴾ أن يكون بدلاً من قوله: ﴿سَيِّئَةٌ﴾، قال: ويجوز أن يكون حالاً من الذكر الذي في قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾، ويكون قوله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ في موضع الصفة ل [سَيِّئَةٌ]. وقرأ عبدالله بن مسعود، ﴿كَانَ سَيِّئَاتُهُ﴾، وروي ﴿كَانَ سَيِّئَاتُ﴾ بغير هاء، وروي عنه ﴿كَانَ حَيْثُهَا﴾. وذهب الطبري إلى أن هذه النواهي كلها معطوفة على قوله أولاً: ﴿وَقَصَّ رَبُّكَ

أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، وليس ذلك بالبين.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنَّا آوْحٌ إِلَيْكَ رَبُّكَ﴾ الآية. الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى هذه الآداب التي تضمنتها هذه الآيات المتقدمة، أي: هذه من الأفعال المحكمة التي تقتضيها حكمة الله تبارك وتعالى في عباده وخلقهم لهم محاسن الأخلاق. و«الحكمة»: قوانين المعاني المحكمة والأفعال الفاضلة، ثم عطف قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ﴾ على ما تقدم من النواهي. والخطاب للنبي ﷺ والمراد كل من سمع الآية من البشر، و«الْمَذْخُورُ»: الْمُهَانُ الْمُتَبَعِد.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَصْفَكَ رَبُّكُمْ بِالْبَيْنِ﴾ الآية، خطاب للعرب التي كانت تقول: الملائكة بنات الله، فقرَّزهم الله تعالى على هذا الحجة، أي: أنتم أيها البشر لكم الأعلى من النسل والله البنات؟ فلما ظهر هذا التباعد الذي في قلوبهم عظم الله عليهم فساد ما يقولونه وشنته، ومعناه: عظيماً في المنكر والوخامة. و﴿أَفَأَصْفَكَ﴾ معناه: جعلكم أصحاب الصفوة. وحكى الطبري عن قتادة عن بعض أهل العلم أنه قال: نزلت هذه الآية في اليهود لأنهم قالوا هذه المقالة، من أن الملائكة بنات الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول هو الذي عليه جمهور المفسرين.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ الجمهور: ﴿صَرَفًا﴾ بتشديد

الراء، على معنى: صرفنا فيه الحكيم والمواعظ. وقرأ الحسن: ﴿صَرَفْنَا﴾ بتخيف الراء، على معنى: صَرَفْنَا فيه الناس إلى الهدى بالدعاء إلى الله، وقال بعض من شدد الراء: إن قوله: ﴿وَنِي﴾ زائد، والتقدير: صَرَفْنَا هذا القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقرأ الجمهور: ﴿لِيَكْرُوا﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لِيَكْرُوا﴾ بسكون الدال وضم الكاف، وهي قراءة طلحة، ويحيى، والأعمش. وما في ضمن الآية من ترجُ وطماعية فهو في حق البشر وبحسب ظنهم فيمن يفعل الله معه هذا.

و«الثَّفُورُ» عبارة عن شِدَّة الإعراض، تشبيهاً بنفور الدابة، وهو في هذه الآية مصدرٌ لا غير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورُوي أن في الإنجيل في معنى هذه الآية: «يا بني إسرائيل، شوقناكم فلم تشاقوا، ونُحنا لكم فلم تكوا».

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ إِلَهٌ﴾ الآية، إخبار بالحجة. واختلف الناس في معنى قوله: ﴿لَا بُتُّوا إِلَهَ إِلَّا ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ - فحكي الطبري وغيره من المفسرين أن معناه: لَطَلَبَ هؤلاء الآلهة الزُلْفَى إِلَى ذِي الْعَرْشِ، والقُرْبَةَ إِلَيْهِ بطاعته، فيكون «السَّبِيلُ» - على هذا التأويل - بمعناها في قوله تعالى: ﴿وَكُنْ سَاءَ أَعَدَّ لَكَ رَبُّكَ سَبِيلًا﴾، وقال سعيد بن جبَّير، وأبو علي الفارسي، والنقاش - وقاله المتكلمون، أبو منصور وغيره - : إن معنى الكلام:

لَا بُتُّوا إِلَيْهِ سَبِيلًا في إفساد مُلْكِهِ ومُضَاهَاة في قدرته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل تكون الآية بياناً للتمانع، وجارية مع قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ لَسَدَّتْ﴾، وَتَقْتَضِبُ شيئاً من الدليل على أنه لا يجوز أن يكون مع الله تبارك وتعالى غيره، وذلك على ما قال أبو المعالي وغيره: إِنَّا لَوْ فَرَضْنَا لَفَرَضْنَا أَنْ يَرِيدَ أَحَدُهُمَا تَسْكِينَ جِسْمٍ، وَالْآخَرَ تَحْرِيكَ، وَمَسْتَحِيلٌ أَنْ تَنْفِذَ الْإِرَادَتَانِ، وَمَسْتَحِيلٌ أَلَّا تَنْفِذَا جَمِيعًا، فَيَكُونُ الْجِسْمُ لَا مَتَحْرِكًا وَلَا سَاكِنًا، فَإِذَا تَمَّتْ إِرَادَةُ أَحَدُهُمَا دُونَ الْآخَرِ فَإِنَّ الَّذِي لَمْ تَتَمَّ إِرَادَتُهُ لَيْسَ بِإِلَهٍ، فَإِنَّ قَلْنَا بِفَرْضِهِمَا لَا يَخْتَلِفَانِ، قَلْنَا: اخْتِلَافُهُمَا جَائِزٌ غَيْرُ مَمْتَنِعٍ عَقْلًا، وَالْجَائِزُ فِي حُكْمِ الْوَاقِعِ. وَدَلِيلٌ آخَرَ، لَوْ كَانَ الْإِثْنَانِ لَمْ يَمْتَنِعْ أَنْ يَكُونَا ثَلَاثَةً، وَكَذَلِكَ إِلَى مَا لَا نَهَايَةَ لَهُ، وَدَلِيلٌ آخَرَ: إِنَّ الْجِزَةَ الَّذِي لَا يَتَجَزَأُ مِنَ الْمَخْتَرَعَاتِ لَا تَتَلَقَّ بِهِ إِلَّا قُدْرَةٌ وَاحِدَةٌ لَا يَصِحُّ فِيهَا اشْتِرَاكٌ، وَالْآخَرُ كَذَلِكَ، وَالْآخَرُ كَذَلِكَ دَابًّا، فَكُلُّ جِزَةٍ إِنَّمَا يَخْتَرَعُهُ وَاحِدٌ، وَهَذِهِ نُبْدَةٌ شَرَحْنَا بِحَسَبِ التَّقْصِي يَطُولُ.

وقرأ ابن كثير، وحفص عن عاصم: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجمهور: ﴿كَمَا يَقُولُونَ﴾ بالتاء.

و«سُبْحَنَهُ» مصدرٌ لفعل متروك إظهاره، فهو بمعنى التخزيه، فموضعها هنا موضع (تَنَزَّهَ)، فلذلك عطف الفعل عليه في قوله:

﴿وَتَمَنَّيَ﴾. و«التَّعَالِي» تفاعلٌ، أما في المشاهد في الأجرام فهو من اثنين؛ لأنَّ الإنسان إذا صعد في منزلة أو في جبل، فكأنَّ ذلك يُعَالِيه وهو يُعَالِي ويرتقي، وأما في جهة الله عزَّ وجلَّ فالتعالي هو بالقدر لا بالإضافة إلى شيءٍ آخر. وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ بالياء، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿عَمَّا يَقُولُونَ﴾ بالتاء من فوق. و«عَلَّوْا» مصدرٌ على غير الفعل، فهو كقوله سبحانه: ﴿وَأَلَّهَ أَنْتَكُم مِّنَ الْأَرْضِ بَنَاتًا﴾، وهذا كثير.

قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. المعنى: يُتَزَّهَى عَنْ هذه المقالة التي لكم، والإشراك الذي أنتم بسبيله، السموات السبع والأرض، ثم أعاد على السموات والأرض ضمير من يعقل لما أسند إليها فعل العاقل وهو التسبيح، وقوله: ﴿وَمَنْ فِيهَا﴾ يريد الملائكة والإنس والجن، ثم عمَّ بعد ذلك الأشياء كلها في قوله: ﴿وَرَأَى مِنْ شَيْءٍ إِلَّا سُبْحَانَ اللَّهِ﴾، أي: يُنَزَّهُ اللهُ ويمجده.

واختلف أهل العلم في هذا التسبيح - فقالت فرقة: هو تجوُّز، ومعناه أن كل شيءٍ تبدو فيه صنعة الصانع الدالة عليه، فتدعو رؤية ذلك إلى التسبيح من المُعْتَبِرِ، ومن حُجَّةِ هذا التأويل قوله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّا سَخَرْنَا الْإِنْسَانَ مَعَهُ حِينًا بِالْعَيْنِ﴾.

وقالت فرقة: قوله تعالى: ﴿مِنْ شَيْءٍ﴾ لفظ عموم ومعناه الخصوص في كل حيٍّ ونام، وليس ذلك في

الجمادات البحتة، فمن ذلك قول
عكرمة: الشجرة تُسَبِّحُ، والاسطوانة
لا تُسَبِّحُ. وقال يزيد الرقاشي للحسن
وهما في طعام وقد قدم الخوان:
أَيْسَبِّحُ هذا الخوان يا أبا سعيد؟ قال:
قد كان يُسَبِّحُ مرة، يريد أن الشجرة
في زمان نموها واعتدالها كانت
تسبح، فمذ صارت خواناً مدهوناً
ونحوه صارت جماداً.

وقالت فرقة: هذا التسبيح حقيقة،
وكل شيء على العموم يسبح تسبيحاً
لا يسمعه البشر ولا يفقهونه، ولو
كان التسبيح ما قاله الآخرون من أنه
أثر الصنعة لكان أمراً مفهوماً، والآية
تنطق بأن هذا التسبيح لا يُفْقَهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وينفصل عن هذا الاعتراض بأن يريد
بقوله سبحانه: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ الكفار
والعَفَلَةَ، أي أنهم يُعرضون عن
الاعتبار فلا يفقهون حكمة الله تبارك
وتعالى في الأشياء.

وقال الحسن: بلغني أن معنى هذه
الآية في التوراة، ذكر فيه ألف شيء
مما يُسَبِّحُ، سبحت له السموات،
وسبحت له الأرض، سبَّحَ كذا،
سَبَّحَ كذا.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم -
في رواية أبي بكر - وابن عامر:
﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ بالياء، وقرأ أبو عمرو،
وعاصم - في رواية حفص - وحمزة
والكسائي: ﴿يُسَبِّحُ لَهُ﴾ بالتاء.
والقراءتان حسنتان. وقرأ عبدالله بن
مسعود، وطلحة، والأعمش:
﴿سَبَّحَتْ لَهُ السَّمَوَاتُ﴾. وقوله
تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَوْرًا﴾ فيه
تنبيه على إملائه لهم، وَصَفَّحَهُ عنهم

في الدنيا، وإمهاله لهم، مع شنيع
هذه المقالة، أي: تقولون قولاً يُتَزَهَهُ
عنه كل شيء من المخلوقات، إنه
كان حلماً غفوراً، فلذلك أمهلكم.
﴿٤٥﴾ - ﴿٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تحتل معنيين: أحدهما
أن الله تعالى أخبر نبيه ﷺ أنه يحميه
من الكفرة أهل مكة الذين كانوا
يؤذونه في وقت قراءته القرآن
وصلاته في المسجد، ويريدون مذ
اليد إليه، وأحوالهم في هذا المعنى
مروية مشهورة. والمعنى الآخر أنه
تعالى أعلمه أنه يجعل بين الكفرة
وبيين فهم ما يقرؤه محمد ﷺ
حجاباً، فالآية - على هذا التأويل -
في معنى التي بعدها، وعلى التأويل
الأول هما آيتان لمعنيين.

وقوله: ﴿مَسْتُورًا﴾ أظهر ما فيه أن
يكون نعتاً للحجاب، أي مستوراً
على أعين الخلق، فلا يدركه أحد
برؤية كسائر الحُجُبِ، وإنما هو من
قدرة الله وكفايته أو إضلاله بحسب
التأويلين المذكورين، وقيل:
التقدير: مستوراً به، على حذف
العائد، وقال الأخفش: «مَسْتُور»
بمعنى: ساتر، كَمَشْتُومٍ وميمون،
بمعنى: شائم ويامن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا - لغير داعية إليه - تكلف،
وليس مثاله بمُسَلَّم. وقيل: هو على
جهة المبالغة، كما قالوا: شعِرٌ
شاعرٌ، وهذا معترض بأن المبالغة
أبدأ إنما تكون باسم الفاعل ومن
اللفظ الأول، فلو قال تعالى:
«حجاباً حاجباً» لكان التنظير
صحيحاً.

قوله تعالى: ﴿وَجَمَلْنَا عَلَ قُلُوبِهِمْ
أَكْتَفَى﴾ الآية. «الأكْتَفَى»: جمع كنان،
وهو ما غطى الشيء، ومنه كنانة
النبل، و«الوَفْرُ»: الثقل في الأذن
المانع من السمع، فهو الصمم،
وهذه كلها استعارات للإضلال الذي
حفظهم الله به، فعبر عن كثرة ذلك
وعظمه بأنهم بمثابة من غطى قلبه
وصمّت أذنه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ﴾
الآية، يريد: إذا جاءت مواضع
التوحيد في القرآن أثناء قراءتك فز
كفار مكة من سماع ذلك إنكاراً له
واستبشاعاً؛ إذ فيه رفض ألهمتهم
واطراحها. وقال بعض العلماء: إن
ملا قريش دخلوا على أبي طالب
يزورنه، فدخل عليهم
رسول الله ﷺ، فقرأ ومز بالتوحيد،
قال: يا معشر قريش: قولوا: ﴿لَا إِلَهَ
إِلَّا اللَّهُ﴾ تملكون بها العرب، وتدين
لكن العجم، فَوَلَّوْا ونفروا، فنزلت
هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وأن تكون الآية وصف حال الفارين
عنه في وقت توحيده في قراءته آيين
وأجرى مع اللفظ.

وقوله تعالى: ﴿شُورًا﴾ يصح أن
يكون مصدرأ في موضع الحال،
ويصح أن يكون جمع نافر،
كشاهد وشهود؛ لأن فعولاً من
أبنية فاعل في الصفات، ونصبه
على الحال، أي: نافرين. وقوله
تعالى: ﴿أَنْ يَفْقَهُوْا﴾، [أن] نصب
على المفعول، أي: كراهة أن، أو
منع أن، والضمير في ﴿يَفْقَهُوْا﴾

﴿مَسْحُورًا﴾ معناه: ذا سحر، وهي الرئة، يقال لها: «سحر وسُحِر» بضم السين، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ بين سَحْرِي وَنَحْرِي»، ومنه قولهم للجبان: «انْتَفَخَ سَحْرُهُ» لأن الجازع تنتفخ رتته، فكان مقصد الكفار بهذا التشبيه على أنه بشر، أي: ذا رئة، قال: ومن هذا يقال لكل من يأكل ويشرب من آدمي وغيره: «مَسْحُورٌ وَمُسْحَرٌ»، ومنه قول امرئ القيس:

﴿مَسْحُورًا﴾ معناه: ذا سحر، وهي الرئة، يقال لها: «سحر وسُحِر» بضم السين، ومنه قول عائشة رضي الله عنها: «توفي رسول الله ﷺ بين سَحْرِي وَنَحْرِي»، ومنه قولهم للجبان: «انْتَفَخَ سَحْرُهُ» لأن الجازع تنتفخ رتته، فكان مقصد الكفار بهذا التشبيه على أنه بشر، أي: ذا رئة، قال: ومن هذا يقال لكل من يأكل ويشرب من آدمي وغيره: «مَسْحُورٌ وَمُسْحَرٌ»، ومنه قول امرئ القيس:

مسحور، ساحر، مجنون، متكهن؛ لأنه لم يكن عندهم مُتَيَقِّنًا بأحد هذه، فإنما كانت منهم على جهة التشبيه، ثم رأى الوليد بن المغيرة أن أقرب الأمور على تخيل الطارئين عليهم هو أنه ساحر، ثم حكم الله تبارك وتعالى عليهم بالضلال.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: لا يستطيعون سبيلاً إلى الهدى والنظر المؤدّي إلى الإيمان، فتجري الآية مجرى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾ ونحو هذا. والآخر: لا يستطيعون سبيلاً إلى إفساد أمرك، وإطفاء نور الله بضرّهم الأمثال لك، واتباعهم كل حيلة في جهتك.

وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة وأصحابه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا آوَدْنَا كُنَّا عِظْمًا

وَنُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ

وقول لييد:

فَبِإِنَّا تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَبِإِنَّا عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنَامِ الْمَسْحُورِ ومنه: السحور، وهو إلى هذه اللفظة أقرب منه إلى السُحْر، ويشبه أن يكون من السُحْر كالصُبُوح من الصباح، والآية التي بعد هذا تُقَوِّي أن اللفظة التي في الآية من السُحْر بكسر السين؛ لأن (...). حينئذ في قولهم ضَرْبٌ مثل له، وأما على أنها من السُحْر الذي هو الرئة، ومن التَّغْذِي، وأن تكون الإشارة إلى أنه بشر، فلم يُضْرَبْ له في ذلك مثل، بل هو صفة حقيقية له.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

ضَرْبٌ الْمِثْلُ لَهُ هُوَ قَوْلُهُمْ:

عائد على القرآن. وحكى الطبري عن فرقة أنها قالت: إنما عنى بقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَكْبَرَهُمْ قُوْرًا﴾ الشياطين، وأنهم يفرون من قراءة القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد أن المعنى يدل عليهم وإن لم يجر لهم ذكر في اللفظ، وهذا نظير قول النبي ﷺ: «إِذَا نُوْدِيَ بِالصَّلَاةِ أَدْبِرَ الشَّيْطَانُ لَهُ حُصَاصٌ».

قوله تعالى: ﴿عَنْ أَكْثَرِ مَا يُسْمَعُونَ﴾ الآية. هذا كما تقول: فلان يستمع بحرص وإقبال، أو بإعراض وتغافل واستخفاف، فالضمير في ﴿يَسْمَعُونَ﴾ عائد على [ما] وهي بمعنى (الذي)، والمراد بالذي ما ذكرناه من الاستخفاف والإعراض، فكأنه قال:

نعم أعلم بالاستخفاف والاستهزاء الذي يستمعون به، أي هو ملازمهم، يفضح الله بهذه الآية سرهم، والعامل في [إِذَا] الأولى وفي المعطوف عليها ﴿يَسْمَعُونَ﴾ الأولى، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى مُمْ تَجْرِي﴾ وصفهم بالمصدر، كما قالوا: قوم رضئ وعدل، وقيل: المراد بقوله تعالى: ﴿وَرَأَى مُمْ تَجْرِي﴾ اجتماعهم في دار الندوة، ثم انتشرت عنهم.

وقوله تعالى: ﴿مَسْحُورًا﴾ الظاهر فيه أن يكون من السُحْر، فشبهوا الخبال الذي عنده بزعمهم وأقواله الوخيمة برأيهم بما يكون من المَسْحُور الذي قد خبل السُحْر عقله، وأفسد كلامه. وتكون الآية - على هذا - شبيهة بقول بعضهم: ﴿يَبِهَ جَنَّتُهُ﴾ ونحو هذا، وقال أبو عبيدة:

وَرَفْنَا ﴿الآية. هذه الآية في إنكارهم البعث، وهذا منهم تعجب وإنكار واستبعاد. و«الرَّفَات» من الأشياء: ما مر عليه الزَّمَن حتى بلغ به غاية البلى، وقرَّبته من حالة التراب، يقال: رِفَتْ رَفَاتًا فهو مَرْفُوتٌ، ورفَعَالُ بناء لهذا المعنى، كالحطام والفتات والرضاض والدقاق. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَرَفْنَا﴾: غباراً، وقال مجاهد: تراباً.

واختلف القراء في هذين الاستفهامين، فقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿أَوَدَا أَلَدِينَا﴾ جميعاً بالاستفهام، غير أن أبا عمرو يمدُّ الهمزة ثم يأتي بياء ساكنة، وابن كثير يأتي بياء ساكنة بعد الهمزة من غير مدِّ. وقرأ نافع في الأولى مثل أبي عمرو، واختلف عنه في المدِّ، وقرأ الثانية: ﴿إِنَّا﴾ مكسورة على الخبر، ووافقه الكسائي في اكتفائه بالاستفهام الأول من الثاني، غير أنه كان يهزم بهمزتين، وقرأ عاصم، وحمزة: ﴿أَوَدَا أَلَدِينِ كُنَّا أَوَدَا﴾ بهمزتين فيهما، وقرأ ابن عامر: ﴿إِذَا كُنَّا﴾ مكسورة الألف من غير استفهام ﴿إِنَّا﴾ يهزم ثم يمد ثم يهزم، وروي عنه مثل قراءة حمزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي سورة الرعد توجييه هذه القراءات.

و«جديداً» صفة لما قرب حدوده من الأشياء، وهكذا يوصف به المذكر والمؤنث، فيقال: ملحفة جديد، وقولهم: جديدة لغة ضعيفة، كذا قال سيويه.

قوله تعالى: ﴿قُلْ كُونُوا حِبْرَةً

أَوْ حَيْدِيًّا ﴿...﴾ الآية. المعنى: قل لهم يا محمد: كونوا إن استطعتم هذه الأشياء الصعبة الممتنعة الثأني لا بُدَّ من بعثكم، وقوله: ﴿كُونُوا﴾ هو الذي يسميه المتكلمون التعجيز، من أنواع لفظة: أفعل، وبهذه الآية مثل بعضهم، وفي هذا عندي نظر، وإنما التعجيز حيث يقضي بالأمر فعل ما لا يقدر عليه المخاطب، كقوله تعالى: ﴿فَادْرَهُوا عَن أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ﴾ ونحوه، وأما هذه الآية فمعناها: كونوا بالتروم والتقدير كذا وكذا، الذي فطركم كذلك هو يعيدكم. وقال مجاهد: أراد بالخلق الذي يكبر في الصدور السموات والأرض والجبال، وقال ابن عباس، وعبدالله بن عمر، والحسن، وابن جبیر، والضحاك: أراد الموت، وقال قتادة ومجاهد: بل أحال على فطرتهم عموماً، ورجحه الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأصح؛ لأنه بدأ بشيء صلب، ثم تدرج القول إلى أقوى منه، ثم أحال على فطرتهم إن شاء، وفي أشد من الحديد فلا وجه للتخصيص بشيء دون شيء. ثم احتج عليهم عز وجل في الإعادة بالفطرة الأولى من حيث خلقهم واخترعهم من تراب، وكذلك يعيدهم إذا شاء، لا ربَّ غيره. وقوله: ﴿تَسْتَفْتُونَ﴾ معناه: يرفعون ويخفزون على جهة التكذيب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: والاستهزاء. قال الزجاج: تحريك من يُبطل الشيء ويستبطئه، ومنه قول الشاعر:

أَنْعَضَ نَحْوِي رَأْسَهُ وَأَقْتَمَا
كَأَنَّمَا أَبْصَرَ شَيْئاً أَطْمَعَا
ويقال: نَعَضَتِ السُّنُّ إِذَا تَحَرَّكَتْ،
وقال ذو الرُّمَّة:

ظَعَائِنُ لَمْ يَسْكُنْ أَكْثَافَ قَرْيَةٍ
بِسَيْفٍ وَلَمْ تَنْغُضْ يَهْنَ الْقَنَاظِرُ
وقال الطبري: وابن سلام:
﴿عَسَى﴾ من الله واجبة، فالمعنى:
وهو قريب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذه إنما هي من النبي ﷺ، ولكنها
بأمر الله تعالى له، فيقربها ذلك من
الوجوب، ولذلك قال عليه الصلاة
والسلام: «بعثت أنا والساعة
كهاتين»، وفي ضمن اللفظة توعدُّ
لهم.

﴿يَوْمَ﴾ بدل من قوله تعالى:
﴿قَرِيبًا﴾، ويظهر أن يكون المعنى:
هو يوم، جواباً لقولهم: ﴿مَتَى يَوْمُ﴾،
ويريد: يدعوكم من قبوركم بالنفخ
في الصور لقيام الساعة. وقوله:
﴿تَسْتَفْتُونَ﴾ أي: بالقيام والعودة
والنهوض نحو الدعوة، وقوله:
﴿يَحْتَدُونَ﴾، حكى الطبري عن ابن
عباس رضي الله عنهما أنه قال:
معناه: بأمره، وكذلك قال ابن
جريج، وقال قتادة: معناه: بطاعته
ومعرفته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله تفسير لا يعطيه اللفظ، ولا
شك أن جميع ذلك بأمر الله تعالى،
وإنما معنى ﴿يَحْتَدُونَ﴾: إما أن
جميع العالمين - كما قال ابن جبیر -
يقومون وهم يحمدون الله تعالى
وَيَمَجِّدُونَهُ لما يظهر لهم من قدرته،

وإِذَا أَنْ قَوْلُهُ: ﴿بِحَسْبِهِ﴾ هو كما تقول لرجل إذا خاصمته أو حاورته في علم: قد أخطأت بحمد الله، وكان النبي ﷺ يقول لهم في هذه الآيات: «هَيَّ أَنْ السَّاعَةَ قَرِيبَةً يَوْمَ تُدْعُونَ فَنُتَقَوْمُونَ، بِخِلَافِ مَا تَعْتَقِدُونَ الْآنَ، وَذَلِكَ بِحَمْدِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى صِدْقِ خَبْرِي»، نَحَا هَذَا النُّحُو الطَّبْرِي، وَلَمْ يُلْخِصْ.

وقوله تعالى: ﴿وَتَقَلُّونَ إِنْ لَبَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أنه أخبر أنهم لما رجعوا إلى حالة الحياة وتصرف الأجساد، وقع لهم ظن أنهم لم ينفصلوا عن حال الدنيا إلا قليلاً، لمغيب علم مقدار الزمن عنهم؛ إذ مَنْ فِي الْآخِرَةِ لَا يَقْدِرُ زَمَنَ الدُّنْيَا؛ إِذْ هُمْ لَا مَحَالَةَ أَشَدُّ مَفَارِقَةَ لَهُمْ مِنَ النَّائِمِينَ، وَعَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ عَوَّلَ الطَّبْرِي، وَاحْتَجَّ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَمْ لَبَّيْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ﴾ قَالُوا لَبَّيْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ. وَالْمَعْنَى الْآخِرُ أَنْ يَكُونَ الظن بمعنى اليقين، فكأنه قال لهم: يَوْمَ تُدْعُونَ فَتُسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ، وَتَتَيَقَّنُونَ أَنْكُمْ إِنَّمَا لَبَّيْتُمْ قَلِيلًا، مِنْ حَيْثُ هُوَ مُنْقَضٌ مُتَّخِرٌ، وَهَذَا كَمَا يَقَالُ فِي الدُّنْيَا بِأَسْرِهِا: مَتَاعٌ قَلِيلٌ، فَكَأَنَّهُ قَلَّةٌ قَدْرٌ، عَلَى أَنَّ الظَّنَّ بِمَعْنَى اليقين يُلْقَى هَا هُنَا؛ لِأَنَّهُ شَيْءٌ قَدْ وَقَعَ. وَإِنَّمَا يَجِيءُ الظن بِمَعْنَى اليقين فِيمَا لَمْ يَخْرُجْ بَعْدَ إِلَى الكُومِ الوجود، وَفِي الكون تقوية للبعث كَأَنَّهُ يَقُولُ: أَيُّهَا الْمَكْذُوبُ بِالْحَشْرِ الَّذِي تَعْتَقِدُ أَنَّكَ لَا تَبْعَثُ أَبَدًا لَا بُدَّ لَكَ أَنْ تُدْعَى لِلْبَعثِ فَتَقُومَ وَتَرَى أَنَّكَ إِنَّمَا لَبَّيْتَ قَلِيلًا مُنْقَضِيًا مُتَصَرِّمًا،

وحكى الطبري عن قتادة أنهم لما رأوا هول يوم القيامة احتقروا الدنيا فظنوا أنهم لبثوا فيها قليلاً.

قوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِيَا بَادِي يَقُولُوا أَلَيْسَ مِنِّي أَحْسَنُ﴾. اختلف النحويون في قوله سبحانه: ﴿يَقُولُوا﴾، فمذهب سيبويه أنها جواب شرط مقدر، تقديره: «وقل لعبادي، إنك إن تقل لهم يقولوا»، وهذا على أصله في أن الأمر لا يُجَاب، وإنما يجاب معه شرط مقدر، ومذهب الأخفش أن الأمر يُجَاب، وأن قوله تعالى ها هنا: ﴿يَقُولُوا﴾ إنما هو جواب ﴿وَقُلْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يصح المعنى على هذا بأن يجعل «قُلْ» مختصة بهذه الألفاظ، على معنى أن يقول لهم النبي ﷺ: «قولوا التي هي أحسن»، وإنما يصح بأن يكون ﴿وَقُلْ﴾ أمراً بالمحاوراة في هذا المعنى بما أمكن من ألفاظ، كأنه قال: «بَيِّنْ لعبادي»، فيكون ثمرة ذلك القول والبيان قولهم التي هي أحسن، وهذا المعنى يُجَوِّزُهُ مذهب سيبويه الذي قدمنا. ومذهب أبي العباس أن ﴿يَقُولُوا﴾ جوابٌ لأمر محذوف، تقديره: «وقل لعبادي قولوا التي هي أحسن يقولوا» فحذف وطوي الكلام. ومذهب الزجاج أن ﴿يَقُولُوا﴾ جزم بالأمر، بتقدير: «قُلْ لعبادي يقولوا»، فحذفت اللام لتقدير الأمر، وحكى أبو علي في «الحليتان» في تضاعيف كلامه أن مذهب أبي عثمان المازني في ﴿يَقُولُوا﴾ أنه فعل مبني؛ لأنه مضارع حل محل المبني الذي هو فعل

الأمر؛ لأن المعنى: «قل لعبادي: قولوا».

واختلف الناس في «أَلَيْسَ مِنِّي أَحْسَنُ» فقالت فرقة: هي «لا إله إلا الله»، ويلزم - على هذا - أن يكون قوله تعالى: ﴿لِيَا بَادِي﴾ يريد به جميع الخلق؛ لأن جميعهم مدعو إلى «لا إله إلا الله»، وحيء قوله سبحانه بعد ذلك: ﴿إِنَّ الشَّاكِرِينَ يَتَزَكَّىٰ﴾ غير مناسب للمعنى إلا على تكروه، بأن يجعل ﴿بَيِّنْ﴾ بمعنى «خلاصهم وأثناءهم»، ويجعل «التزكُّ» بمعنى الوسوسة والإضلال. وقال الجمهور: التي هي أحسن هي المحاوراة الحسنى، بحسب المعنى معنى، قال الحسن: «يقول: يغير الله لك، ويرحمك الله».

وقوله تعالى: ﴿لِيَا بَادِي﴾ خاص بالمؤمنين، فكأن الآية بمعنى قوله ﷺ: «وكونوا عباد الله إخواناً»، ثم اختلفوا - فقالت فرقة: أمر الله تعالى المؤمنين فيما بينهم بحسن الأدب، وخفض الجناح، وإلانة القول، وأطراح نزغات الشيطان. وقالت فرقة: إنما أمر الله تبارك وتعالى في هذه الآية المؤمنين بالإلانة القول للمشركين بمكة أيام المهادة.

وسبب الآية أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه شتمه بعض الكفرة، فسبه عمر وهم بقتله، فكاد أن يثير فتنة، فنزلت الآية، وهي منسوخة بآية السيف.

وقرأ الجمهور: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ بفتح الزاي، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿يَتَزَكَّىٰ﴾ بكسر الزاي، على الأصل، قال أبو حاتم: «لعلها لغة، والقراءة

لاقتضى أنه ليس بأعلم بغير ذلك.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا لا يلزم، ويصح تعلقها بـ
﴿أَعْلَمُ﴾، ولا يلتفت إلى دليل
الخطاب.

وقرأ الجمهور: ﴿زُبُورًا﴾ بفتح
الزاي، وهو فَعُولٌ بمعنى مَفْعُول،
وهو قليل، لم تجيء إلا في قُرُوعٍ
وزَكُوبٍ وحَلُوبٍ، وقرأ حمزة،
ويحيى، والأعشى: ﴿زُبُورًا﴾ بضم
الزاي، وله وجهان: أحدهما أن
يكون جمع زُبور بحذف الزائد، كما
قالوا في جمع طريق: طُرُوق،
والآخر أن يكون جمع زَبْرٍ، كأن ما
جاء به داود جُزْيءٌ أجزاءً، كل جزءٍ
منهم زَبْرٌ، سُمي بمصدر زَبَرَ يَزْبُرُ،
ثم جمع تلك الأجزاء على زُبُور،
فكأنه قال: «آتيننا داود كتاباً»،
ويحتمل أن يكون جمع (زَبْر) الذي
هو العَقْل وسَدَادُ التُّظْهِرِ، لأن داود
أوتي من المواعظ والوصايا كثيراً،
ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ في
آخر كتاب مسلم: «وأهل النار
خمس: الضعيف الذي لا زَبْرَ له»،
قال قتادة: زبور داود مواعظ وحكم
ودعاء، ليس به حلالٌ ولا حرام.

٥٦ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:
الذين أمر رسول الله ﷺ أن يقول
لهم في هذه الآية ليسوا عبدة
الأصنام، وإنما هم عبدة من يعقل،
واختلف في ذلك - فقال ابن عباس
رضي الله عنهما: هي في عبدة
العزير والمسيح وأمه ونحوهم، وقال
ابن عباس أيضاً، وابن مسعود: هي
في عبدة الأوثان والقمر والكواكب
وعزير والمسيح وأمه وأي ذلك كان.

الكفر، قاله ابن جريج
وغيره. ثم قال
للنبي ﷺ: فإنما عليك
البلاغ، ولست بوكيل على
إيمانهم ولا بد، فتناسب
الآيات بهذا التأويل.

ثم قال تبارك وتعالى
لنبيّه عليه الصلاة
والسلام: ربك أعلم بمن
في السموات والأرض،
وهو الذي فضل بعض
الأنبياء على بعض بحسب
علمه فيهم، فهذه إشارة
إلى محمد ﷺ، وإلى
استبعاد قريش أن يكون
الرسول بشراً، والمعنى:
لا تذكروا أمر محمد وأن

أوتي قرآناً، فقد فضل النبيون،
وأوتي داود زبوراً، فالله أعلم حيث
يجعل رسالاته.

وتفضيل بعض الرسل إماماً بهذا
الإخبار المجمل دون أن يُسَمَّى
المفضول، وعلى هذا يتجه لنا أن
نقول: محمد أفضل البشر، وقد نهى
عليه الصلاة والسلام عن تعيين أحد
منهم في قصة موسى ويونس عليهما
السلام، وإما أن يكون التفضيل
مُقَسِّماً بينهم: أعطي هذا التكليم،
وأعطي هذا الخُلة، ومحمد
الخمس، وعيسى الإحياء، فكلهم
مفضولٌ في وجه، فاضل على
الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿يَسِّنْ فِي السَّنَوَاتِ﴾.
الباء متعلقة بفعل تقديره: «علم بمن
في السموات»، ذهب إلى هذا أبو
علي؛ لأنه لو علقها بـ ﴿أَعْلَمُ﴾

وَمَا مَعْنَى أَنْ تُرْسِلَ بِالْأَيْتِ إِلَّا أَنْ كَذَبَ بِهَا الْأَوْلُونَ
وَمَا إِنَّا مُؤَدُّو النَّاقَةِ مُبِيعَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا تُرْسِلُ بِالْأَيْتِ
إِلَّا تَخْوِيفًا ﴿٥٦﴾ وَإِذْ قُلْنَا لَنْ إِذْ رَبِّكَ أَحَاطَ بِأَنْتَاسٍ وَمَا
جَعَلْنَا الرُّبَا الَّتِي أَرَيْتَكَ الْإِفْسَةَ لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ
فِي الْقُرْآنِ وَتَخَوَّفُوهُمْ فَمَا يَرِيدُهُمْ إِلَّا ظَنَنَّا كَيْدًا ﴿٥٧﴾
وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ
قَالَ مَا أَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقَ طِينًا ﴿٥٨﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي
كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أُخْرَتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَسِبَنَّ
ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٩﴾ قَالَ أَذْهَبَ مَنْ تَبِعَ مِنْهُمْ فَإِنَّ
جَهَنَّمَ جَزَاءُ كَرِهُوا مُؤَفَّرًا ﴿٦٠﴾ وَأَسْفَرْنَا مَنْ سَطَعَتْ
مِنْهُمْ بِصُورِكَ وَأَطْبَعَتْ عَلَيْهِمْ بِحَيْلِكَ وَرَجَلِكَ وَشَارِكُهُمْ
فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا
غُرُورًا ﴿٦١﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿٦٢﴾ تَزَكُّوا الَّذِي يُرِيحُ لَكُمْ الْفَلَاحَ
فِي الْبَحْرِ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهَ كَاذِبٌ كَرِيمًا ﴿٦٣﴾

بالفتح. ومعنى التزغ حركة الشيطان
بسرعة ليجوب فساداً، ومنه قول
النبي ﷺ: «لا يُشْرُ أحدكم على
أخيه بالسلاح لا ينزغ الشيطان في
يده»، فهذا يخرج اللفظة عن
الوسوسة، وعداوة الشيطان البيئة هي
من قصته مع آدم عليه السلام فيما
بعد.

قوله تعالى: ﴿زَيْكُرٌ أَعْلَرُ بِكَرٌ﴾
الآية. هذه الآية تُقَوِّي أن التي قبلها
هي ما بين العباد المؤمنين وكفار
مكة، وذلك أن هذه المخاطبة في
قوله سبحانه: ﴿زَيْكُرٌ أَعْلَرُ بِكَرٌ﴾ هي
لكفار مكة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾، فكأن الله
عز وجل أمر المؤمنين ألا يخاشنوا
الكفار في الدين، ثم قال للكفار: إنه
أعلم بهم، ورجاهم وخوفهم،
ومعنى ﴿زَيْكُرٌ﴾ بالفتح بالتوبة عليكم من

لوقال ابن عباس أيضاً، وابن مسعود: هي في عبدة الملائكة، وقال ابن مسعود أيضاً: هي في عبادة شياطين كانوا في عهد رسول الله ﷺ، فأسلم أولئك الشياطين، وبقي عبدهم يعبدونهم، فنزلت الآية في ذلك].

فمعنى الآية: قُلْ لَهُوَالِئِ الْكُفْرَةِ: ادعوا عند الشدائد والضر هؤلاء المعبودين فإنهم لا يملكون كشفه ولا تحويله عنكم، ثم أخبرهم - على قراءة ابن مسعود، وقراءة: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء -، أو أخبر النبي ﷺ - على قراءة الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء من تحت - أن هؤلاء المعبودين يطلبون التقرب إلى الله والتزلف إليه، وأن هذه حقيقة حالهم، وقرأ ابن مسعود: ﴿إِلَى رَبِّكَ﴾. والضمير في ﴿رَبِّهِمْ﴾ للمتبعين أو للجميع.

و «الْوَسِيلَةَ» هي القرية وسبب الوصول إلى البغية، وتوسل الرجل إذا طلب الدنو والنيل لأمر ما، وقال عترة:

إِنَّ الرَّجَالَ لَهُمُ إِلَيْكَ وَسِيلَةٌ

ومنه قول النبي ﷺ: «من سأل الله لي الوسيلة... الحديث». و﴿أَيُّهُمْ﴾ ابتداء، و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، و﴿أَوْلِيَّكَ﴾ يراد به المعبودون. وهو ابتداء خبره ﴿يَبْتَغُونَ﴾، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ للكفار، وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾ للمعبودين، والتقدير: نظرهم ووكدتهم أيهم أقرب، وهذا كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في حديث

الزاية بخبير: «بات الناس يدوكون أيهم يعطاهم»، أي: يتبارون في طلب القرب، وطفف الزجاج في هذا الموضع فتأمله. وقال ابن فورك، وغيره: إن الكلام من قوله تبارك وتعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ راجع إلى النبيين المتقدم ذكرهم، و﴿يَدْعُونَ﴾ - على هذا - من الدعاء بمعنى الطلبة إلى الله تعالى، والضمائر لهم في ﴿يَدْعُونَ﴾ وفي ﴿يَبْتَغُونَ﴾. وبقي الآية بين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ﴾ الآية. أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه ليس مدينة من المدن إلا هي هالكة قبل يوم القيامة بالموت والفناء، وهذا مع السلامة وأخذها جزءاً جزءاً، أو هي معذبة مأخوذة مرة واحدة، فهذا عموم في كل مدينة، و﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، وقيل: المراد الخصوص، [والتقدير:] وإن من قرية ظالمة. وحكى النقاش أنه وجد في كتاب الضحاک بن مزاحم في تفسير هذه الآية استقراء البلاد المعروفة اليوم، وذكر لهلاك كل قطر منها صفة، ثم ذكر نحو ذلك عن وهب بن منبه، فذكر فيه أن هلاك الأندلس وخرابها يكون بسنابك الخيل واختلاف الجيوش فيها، وتركت ساثرها لعدم الصحة في ذلك، والمعلوم أن كل قرية تهلك إما من جهة القحوط والخسف غرقاً، وإما من جهة الفتن، أو منهما، وصور كثيرة لا يعلمها إلا الله تعالى فإما ما هلك بالفتنة فمن ظلم ولا بد، إما في كفر أو معاص أو تقصير في دفاع، وأما

القحط فيصيب الله به من يشاء وكذلك الخسف. وقوله تعالى: ﴿نَهْلِكُهَا﴾ الضمير لها وفي ضمن ذلك الأهل. وقوله: ﴿أَوْ مُعَذِّبُهَا﴾ هو على حذف مضاف، فإنه لا يعذب إلا الأهل. وقوله سبحانه: ﴿فِي الْكُتُبِ﴾ يريد: في سابق القضاء وما خطه القلم في اللوح المحفوظ. و«الْمَسْطُورُ»: المكتوب أسطواراً.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ﴾ الآية. هذه العبارة في ﴿مَنَعَنَا﴾ هي على ظاهر ما تفهم العرب، فسمى سبق قضائه بتكذيب من كذب وتعذبه منعاً. و﴿أَنْ﴾ الأولى في موضع نصب، والثانية في موضع رفع، والتقدير: ما منعتنا الإرسال إلا التكذيب.

وسبب هذه الآية أن قريشاً اقترحوا على رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، واقترح بعضهم أن يزيل عنهم الجبال حتى يزرعوا الأرض، فأوحى الله تعالى إلى محمد ﷺ: إن شئت أفعل ذلك لهم، فإن تأخروا عن الإيمان عاجلتهم العقوبة، وإن شئت استأنيت بهم عسى أن أختبي منهم مؤمنين، فقال رسول الله ﷺ: «بل تستأنني بهم يا رب»، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لم يمنعه من إرسال الآيات المقتوحة إلا الاستيناء؛ إذ أنه قد سلفت عادته بمعالجة الأمم الذين جاءتهم الآية المقتوحة فلم يؤمنوا. قال الزجاج: أخبر الله تعالى أن موعد كفار هذه الأمة الساعة، لقول سبحانه: ﴿بَلِ الْآيَةُ مَرِيضَةٌ﴾، فهذه الآية تنظر إلى ذلك.

ثم ذكر الله تعالى أمر ثمود احتجاجاً إن قال منهم قائل: نحن كنا نؤمن لو جاءتنا آية اقترحتها ولا نكفر بوجهه، فذكر الله تعالى ثمود، بمعنى: لا تأمنون أن تظلموا بالآية كما ظلمت ثمود بالناقاة. وقرأ الجمهور: ﴿ثَمُودٌ﴾ بغير تنوين، قال هارون: أهل الكوفة يُثَوِّنُونَ (ثَمُوداً) في كل وجه، قال أبو حاتم: لا تُثَوِّنُ العامة والعلماء بالقرءات (ثَمُودٌ) في وجه من الوجوه، وفي أربعة مواطن أُلِفَ مكتوبة، ونحن نقرؤها بغير أَلَفٍ.

وقوله تعالى: ﴿مُبِصْرَةٌ﴾ على جهة النسب، أي: معها إبصار، كما قال سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا آيَةَ الْبَحْرِ مُبْصِرَةً﴾، أي: معها إبصار لمن ينظر، وهذه عبارة عن بيان أمرها ووضوح إعجازها. وقرأ قوم: ﴿مُبْصِرَةٌ﴾ بضم الميم وفتح الصاد، حكاة الزجاج، ومعناه: مُتَبَيَّنَةٌ. وقرأ قتادة: ﴿مُبْصِرَةٌ﴾ بفتح الميم والصاد، وهي مُفَعَّلَةٌ من البصر، ومنه قول عترة:

.....
والكُفْرُ مَحْبَبَةٌ لِتَنْفُسِ الْمُشْجِمِ
وقوله تعالى: ﴿فَلَقَلَّمُوا بَيْتًا﴾، أي: وضعوا الفعل غير موضعه، أي: بقفروها، وقيل: بالكفر في أمرها. ثم أخبر تعالى أنه إنما يرسل بالآيات غير المُفْتَرَّحَةِ تخويلاً للعباد، وهي آيات معها إنهال لا معاجلة فمن ذلك الكسوف والرعد والزلزلة وقوس قزح وغير ذلك. قال الحسن: والموت الذريع، وروي أن الكوفة رجفت في مدة عبدالله بن

مسعود فقال: أيها الناس، إن ربكم يستعجبكم فأعجبوه، ومن هذا قول النبي ﷺ في الكسوف: ﴿فَأَفْرَضُوا إِلَى الصَّلَاةِ الْحَدِيثِ، وَأَيَّاتُ اللَّهِ الْمُعْتَبَرُ بِهَا ثَلَاثَةٌ أَتْسَامُ: فَقَسَمَ عَامٌ فِي كُلِّ شَيْءٍ؛ إِذْ حَيْثَمَا وَضَعْتَ نَظْرَكَ وَجَدْتَ آيَةً، وَهَنَا فِكْرَةُ الْعُلَمَاءِ، وَقَسَمَ مَعْتَادٌ غَيْبًا كَالرَّعْدِ وَالْكَسُوفِ وَنَحْوِهِ، وَهَنَا فِكْرَةُ الْجَهْلَةِ فَقَطْ، وَقَسَمَ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ، وَقَدْ انْقَضَى بِانْقِضَاءِ الثَّبْوَةِ، وَإِنَّمَا يُعْتَبَرُ بِهِ تَوْهَمًا لِمَا سَلَفَ مِنْهُ.

﴿٦٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال الطبري: معنى قوله: ﴿وَرَأَى قَلْبًا لَكَ إِذْ رَكَعَ أَحْمَاطُ الْبَلَّائِينَ﴾ أي: في منعك يا محمد وحياطتك وحفظك، فالآية إخبار له بأنه محفوظ من الكفرة، آمين أن يقتل أو ينال بمكروه عظيم، أي: فُلْتَبَلَّغَ رسالة ربك ولا تهيب أحداً من المخلوقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل بين جار مع اللفظ، وقد روي نحوه عن الحسن بن أبي الحسن، والسدي، إلا أنه لا يناسب ما بعده مناسبة شديدة، ويحتمل أن يجعل الكلام مناسباً لما بعده، توطئة له، فأقول: اختلف الناس في الرؤيا - فقال الجمهور: هي رؤيا عين ويقظة، وهي ما رآه رسول الله ﷺ في ليلة الإسراء، قالوا: فلما أخبر رسول الله ﷺ بصيحة الإسراء بما رأى تلك الليلة من العجائب، قال الكفار: إن هذا لعجيب، تخبُّ الحُدَاةُ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ شَهْرَيْنِ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا، ويقول محمد - عليه الصلاة والسلام - إنه جاءه من ليلته

وانصرف عنه، فافتتن بهذا التلبيس قوم من ضعفة المسلمين فارتدوا، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، فنزلت هذه الآيات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى هذا يحسن أن يكون معنى قوله: ﴿وَرَأَى قَلْبًا لَكَ إِذْ رَكَعَ أَحْمَاطُ الْبَلَّائِينَ﴾، أي: في إضلالهم وهدايتهم، وأن كل واحد ميسر لما خلق له، أي: فلا تهتم أنت بكفر من كفر، ولا تحزن عليهم، فقد قيل لك: لا تحزن عليهم، إن الله محيط بهم، مالك لأمرهم، وهو جعل هذه فتنة ليكفر من سبق عليه الكفر. وسُميت الرؤية في هذا التأويل رؤيا إذ هما مصدران من: رأى.

قال النقاش: جاء ذلك على اعتقاد من اعتقد أنها منامة وإن كانت الحقيقة غير ذلك.

وقالت عائشة رضي الله عنها: الرؤيا في الإسراء رؤيا منام، وهذا قول الجمهور على خلافه، وهذه الآية تقتضي بفساده، وذلك أن رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحد لينكرها، وقد ذكر هذا مستوعباً في صدر السورة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرؤيا التي في هذه الآية هي رؤيا رسول الله ﷺ أن يدخل مكة، فعجل في سنة الحديبية، فرُدُّ، فافتتن المسلمون لذلك، فنزلت الآيات.

وقال سهل بن سعد: إنما هذه الرؤيا أن رسول الله ﷺ كان يرى بني أمية ينزون على منبره نزو القردة، فاهتم لذلك وما استجمع ضاحكاً من يومئذ حتى مات. فنزلت

الآية مخبرة أن ذلك من تملكهم وصعودهم على المنابر، وإنما يجعلها الله فتنة للناس وامتحاناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويجيء قوله تعالى: ﴿أَطَاطُ وَالنَّارِ﴾، أي: بإقذاره، وأن كل ما قدره نافذ، فلا تهتم بما يكون بعدك من ذلك. وقد قال الحسن بن علي في خطبته في شأن بيعته لمعاوية: **«وَلِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَى جِينٍ»**.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا التأويل نظر، ولا يدخل في هذه الرؤيا عثمان بن عفان رضي الله عنه، ولا عمر بن عبدالعزيز، ولا معاوية.

وقوله تعالى: ﴿وَالشَّجَرَةَ الَّتِي كَانَتْ فِي الْبَلَدِ مَعْرُوفَةً﴾، أي: جعلنا الرؤية والشجرة فتنة، والشجرة هي شجرة الزقوم، وذلك أن أمرها لما نزل في سورة الصافات قال أبو جهل وغيره: هذا محمد يتوعدكم بنار تحرق الحجارة ثم يزعم أنها تنبت الشجر، وما نعرف الزقوم إلا التمر بالزبد، ثم أمر أبو جهل جارية له فأحضرت تمرأ وزيداً وقال لأصحابه: **«تَرَوْمُوا، فافتتن أيضاً بهذه المقالة بعض الضعفاء»**، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ أنه إنما جعل الإسراء وذكّر شجرة الزقوم اختباراً ليكفر من سبق عليه الكفر، ويصدق من سبق له الإيمان، كما زوي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قيل له صبيحة الإسراء: إن صاحبك يزعم أنه جاء

البارحة بيت المقدس وانصرف منه، فقال: إن كان قال ذلك فقد صدق، فقيل له: أتصدق قيل أن تسمع منه؟ فقال: أين عقولكم؟ أنا أصدقه بخبر بيت المقدس، والسماء أبعد منها بكثير؟

وقالت فرقة: الشجرة إشارة إلى القوم المذكورين قبل في الرؤيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف مُخَدَّث، وليس هذا عن سهل بن سعد ولا مثله. وقال الطبري - عن ابن عباس رضي الله عنهما -: إن الشجرة الملعونة: يعني: الملعون أكلها لأنها لم يجيء لها ذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يراد: الملعونة هنا، فأكد الأمر بقوله: ﴿فِي النَّارِ﴾، وقالت فرقة: الملعونة: المُبْعَدَةُ المكروهة، وهذا أراد؛ لأنه لَعَنَهَا بلفظ اللعنة المتعارف، وهذا قريب في المعنى من الذي قبله. وأيضاً فما ينبت في أصل الجحيم فهو في نهاية البعد من رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿وَتَرَوْهُم﴾، يريد: **«إِنَّمَا كُفَّارَ مَكَّةَ، وإمَّا الملوك من بني أمية بعد الخلافة التي قال فيها النبي ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون، ثم تكون ملكاً عضوداً»، والأول منهما أصوب كما قلنا قبل»**.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ يريد كُفْرَهُمْ وانهماكهم فيه، كقول أبي جهل في

الزقوم والتزؤم، فقد قال النقاش: إن في ذلك نزلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي نحوه، وقرأ الأعمش: ﴿وَيَحْوِفُهُمْ﴾ بالياء، وقرأ الجمهور: ﴿وَيَحْوِفُهُمْ﴾ بالنون.

٦١ - ٦٥ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر إذ قلنا، وكذلك ﴿وَأَذِّنْ﴾ في الآية المتقدمة هي منصوبة بفعل مضمر، وقد تقدم في غير موضع ذكر خلق آدم عليه السلام وأمر السجود له. واختلف في قوله: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾ - فقيل: هو استثناء منقطع؛ لأن إبليس لم يكن من الملائكة، وقيل: هو متصل؛ لأن إبليس من الملائكة. وقوله: ﴿طُغْيَانًا﴾ يصح أن يكون تمييزاً، ويصح أن يكون حالاً. وقاس إبليس في هذه النازلة فأخطأ؛ وذلك أنه رأى الفضيلة لنفسه من حيث رأى أن النار أفضل من الطين، وجهل أن الفضائل في الأشياء إنما تكون حيث خصصها الله تبارك وتعالى، ولا ينظر إلى أصولها.

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن إبليس هو الذي أمره الله تعالى، فأخذ من أديم الأرض طينة، فخلق آدم، والمشهود أنه ملك الموت. وكفر إبليس في أن جهل صفة العدل من الله تعالى حين لحقته الأنفة والكبر، وكان أصل ذلك الحسد ولذلك قيل: «أول ما عُصِيَ الله تعالى بالحسد»، وظهر ذلك من إبليس من قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾ و«أنا خير

يَنَّهُ ﴿حَسْبَمَا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي آيَةٍ أُخْرَى، فَهَذَا هُوَ النَّصُّ بِأَنَّ فَعْلَكَ غَيْرَ مُسْتَقِيمٍ.

والكاف في قوله: ﴿أَرَأَيْتَكَ﴾ هي كاف خطاب ومبالغة في التثنية، لا موضع لها من الإعراب؛ فهي زائدة. ومعنى «أَرَأَيْتَ»: «أَتَأَمَّلْتَ»، ونحوه. كأن المخاطب بها يُثَبِّهُ المخاطبَ ليستجمع لما يُنصِّه عليه بعدُ. وقال سيبويه: هي بمعنى: أخبرني، ومثل بقوله: «أَرَأَيْتَكَ زَيْدًا أَيُؤْمِنُ هُوَ؟»

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال الزجاج في آيتنا، ولم يُمَثَّلْ، وقول سيبويه صحيح حيث يكون بعدها استفهام كمثلها، وما في هذه فهي كما قُلْتُ، وليست الذي ذكره سيبويه رحمه الله.

وقرأ ابن كثير: ﴿أَخْرَجْتَنِي﴾ بالياء في الوصل والوقف، وهذا هو الأصل، وليس هذا الموضع كالمقافية التي يحسن فيها الحذف، كمثل قول الأعشى:

فَهَلْ يَمْنَعَنِي اِرْتِيَادِي أَلْبِلَا
ذِمِّنْ حَذْرَ الْمَوْتِ أَنْ يَأْتِيَنِي؟
وقرأ نافع، وأبو عمرو بالياء في الوصل ويحذفها في الوقف، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَخْرَجْتَنِي﴾ بحذف الياء في الوصل والوقف، وهذا تشبيه بياء (قاضٍ) ونحوه، لكونها ياء متطرفة قبلها كسرة، ومنها قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾.

وقوله: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ معناه: لأميلنن ولأجرتن، وهو مأخوذ من تحنيك الدابة، وهو أن يُشَدَّ على حنكها

بحبل أو غيره فتقاد، والسنة تحنك المال، أي: تجتره، ومنه قول الشاعر:

نَشْكُرُ إِلَيْكَ سَنَةً فَمَا أَجَحَفْتُ
جَهْدًا إِلَى جَهْدٍ بِنَا فَأَضَعَفْتُ
وَاحْتَنَكْتُ أَمْوَالَنَا وَجَحَفْتُ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن هذا الشعر قال الطبري في ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾: «لَأَسْتَأْصِلَنَّ»، وعبر ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك بـ «لَأَسْتَوْلِيَنَّ»، وقال ابن زيد: «لَأُصِلَنَّ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بدل اللفظ لا تفسير.

وحكم إبليس بهذا الحكم على ذرية آدم عليه السلام من حيث رأى الخلقة مجوفة مختلفة الأجزاء، وما اقترب بها من الشهوات والحوارض كالغضب ونحوه، ثم استثنى القليل لعلمه أنه لا بد أن يكون في ذريته من يصلب في طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿آتَقَّبَ﴾ وما بعده من الأوامر هي صيغة أفعَل، بمعنى التهديد، كقوله تعالى: ﴿أَحْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ و﴿يَمَكَّ﴾ معناه: في طريق الكفر الذي تدعو إليه. فالآية في الكفار وفيمن ينفذ عليه الوعيد من العصاة. وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ﴾ مصدر في موضع الحال، و«المؤفور»: المكتمل.

و﴿وَأَسْتَفْزِرُ﴾ معناه: استخيف وأخذخ حتى يقع في إرادتك، تقول: استفزرتني فلان في كذا، إذا خدعت حتى تقع في أمر أرادته، ومن الخفة قيل لولد البقرة: قرز، ومنه قول زهير:

كَمَا اسْتَفَعَتْ بِسَنِيءٍ قَرَزٌ غَيَطَلَةٌ
خَافَ أَلْعَيُونَ فَلَمْ يُنْظَرْ بِهِ أَحْسَكُ
و«الصُّوْتُ» هنا قيل: هو الغناء والمزامير والملاهي؛ لأنها أصوات كلها مختصة بالمعاصي، فهي مضافة إلى الشيطان، قال مجاهد، وقيل: معناه: بدعائك إياهم إلى طاعتك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صوته دعاء كل عاصٍ إلى معصية الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أن يكون «الصُّوْتُ» يعمُ جميع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَيْتَ﴾ أي: هؤل، والجلبة: الصوت الكثير المختلط الهائل، وقرأ الحسن: ﴿وَأَجْلَبَ﴾ بوصل الألف وضم اللام. وقوله سبحانه: ﴿بِحَبْلِكَ وَرَجُلِكَ﴾، قيل: هذا مجاز واستعارة بمعنى: اشع سعيك وابلغ جهدك، وقيل: معناه أن له من الجن خيلاً ورجلاً، قاله قتادة، وقيل: المراد فرسان الناس ورجالهم المتصرفون في الباطل، فإنهم كلهم أعوان لإبليس على غيرهم، قاله مجاهد. وقرأ الجمهور: ﴿وَوَرَجُلِكَ﴾ بسكون الجيم، وهو جمع (راجل)، كناجر وتاجر، وصاحب وصخب، وشارب وشرب، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَوَرَجُلِكَ﴾ بكسر الجيم، على وزن فَعِيل، وكذلك قرأ الحسن، وأبو عمرو - بخلاف عنه - وهي صفة، تقول: فلان يمشي رجلاً، أي غير راكب، ومنه قول الشاعر:

أَمَا أَقَاتِلُ عَنْ دِينِي عَلَى قَرَسِي
وَلَا كَذَا رَجُلًا إِلَّا بِأُصْحَابٍ؟
وقرأ قتادة وعكرمة: ﴿بِخَيْلِكَ
وَرِجَالِكَ﴾.

وقوله: ﴿وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ﴾ عامٌّ لكل معصية يصنعها الناس بالمال، فإن ذلك المصروف في المعصية هو حظ إبليس، فمن ذلك السجائر وشبهها، ومن ذلك مهر البغي وثمن الخمر وحلوان الكاهن والرُّبَا وغير ذلك مما يوجد في الناس دأباً، وقوله: ﴿وَالْأَوْلَادِ﴾ عامٌّ لكل ما يصنع في أمر الذرِّية من المعاصي، فمن ذلك الإيلاء بالزَّنى، ومن ذلك تسميتهم عبد شمس، وعبدالحارث، وأبا الكويفر، وكل اسم مكروه، ومن ذلك الوأد الذي كانت العرب تفعله، ومن ذلك صبغهم في أديان الكفر، وغير هذا، وما أدخل النقاش من وطء الجن وأنه يحيل المرأة من الإنس فضعيف كله.

وقوله تعالى: ﴿وَعِدْتُمْ﴾ أي: منَّهم بما لا يتم لهم، وبأنهم غير مبعوثين، فهذا مشاركة في النفوس، ثم أخبر الله تعالى أنه إنما يعدهم غروراً منه؛ لأنه لا يعني عنهم شيئاً. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ﴾ قولٌ من الله تبارك وتعالى لإبليس، وقوله: ﴿عِبَادِي﴾ يريد المؤمنين في الكفر، والمُتَّقِينَ في المعاصي، وخصَّهم بأنهم العباد وإن كان اسماً عاماً لجميع الخلق من حيث قصد تشریفهم والتنويه بهم، كما يقول رجلٌ لأخيه بئيه إذا رأى منه ما يحب: «هذا ابني»، على معنى التَّبْيِيهِ والتشريف له، ومنه قول

النبي ﷺ لسعد بن أبي وقاص: «هذا خالي، فليُبرني امرؤ خاله». و«السُّلْطَانُ»: الملكية والتغلب، وتفسيره هنا بالحُجَّة قليق. ثم قال تعالى لئبَّيه عليه الصلاة والسلام: وكفى بِرَبِّكَ يا محمد حافظاً للمؤمنين وقيماً على هدايتهم.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: «الإزجاء»: سوق الثَّقِيلِ السَّيْرِ؛ إمَّا لضعف أو ثقل حمل أو غيره، فالإبل الضعاف تُزجى، ومنه قول الفرزدق:

.....
عَلَى زَوَاجِفٍ تُزَجِّيهِمَا مَحَاسِيرِ
وَالسُّحَابُ تُزَجِّي، ومنه قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا﴾ والبضاعة المُزْجَاءُ هي التي تحتاج لاختلالها أن تُسَاقَ بشفاعةٍ وتُدْفَعَ بمعاونٍ إلى الذي يقبضها، وإزجاء الفُلُكِ سوقه بالريح اللَّيِّنَةِ والمجاديف. و«الْفُلُكُ» هنا جمع. و«البَحْرُ»: الماء الكثير عذباً كان أو بلحاً، وقد غلب الاسم على هذا المشهور والفلك تجري فيه، وقوله: ﴿لِيَتَّقُوا مِن فَضْلِي﴾ لفظ يعم البحرَ وطلب الأجر في حجٍّ أو غزْوٍ أو نحوه، ولا خلاف في جواز ركوبه للحجِّ والجهاد والمعاش، واختلف في وجوبه للحجِّ، أعني الكثير منه. واختلف في كراهيته للثروة وتزديداً لجمال، وقد أخبر رسول الله ﷺ

وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهَهُ فَلَمَّا جَنَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٦﴾ أَفَأَمْسَرْتُمْ أَنْ يَخْفَى بِكُمْ جَانِبُ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَسِيلاً ﴿١٧﴾ أَمْ أَمْسَرْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ يَغْفِرْكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْوَرْدِ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿١٩﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِيمَانِهِمْ فَمَنْ أُوْفِيَ كِتَابُهُ سَيَّسِرُهُ فَأُولَئِكَ يَفْرَهُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يَظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ كَانَتْ فِي هَلْدِيهِ أَعْمَى فَهَوِيَ الْآخِرَةَ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً ﴿٢١﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِينَ أُوحِيَ إِلَيْكَ لَيَقْتُلْنَ عَلَيْكَ عَصَا غَدَاةٍ وَإِذَا لَخَذُوا وَدَكَ خَيْلًا ﴿٢٢﴾ وَلَوْلَا أَنْ تَبَسَّنَّاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَبُنَّ إِلَهُهمُ شَيْئًا قَلِيلاً ﴿٢٣﴾ إِذَا لَأَذْنُكَ يَضَعُفُ الْحَبْوَةَ وَضَعْفُ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُكَ عَلَيْنَا نَصِيراً ﴿٢٤﴾

بركوبه للغزو في حديث أم حرام، وقد روي عنه أنه قال: «البحر لا أركبه أبداً»، وهو حديث يحتمل أنه رأي رآه لنفسه، ويحتمل أنه أوحى إليه ذلك، وهذه الآية توقيف على آلاء الله تعالى وفضله على عباده.

و«الضُّرُّ» لفظ يعمُّ خوف الغرق، والإمساك عن المشي، وأهول حالاته اضطرابه وتموجه. وقوله تعالى: ﴿ضَلَّ﴾ معناه: تلف وفقد، وهي عبارة تحقير لمن يدعي إلهاً من دون الله تبارك وتعالى. والمعنى في هذه الآية أن الكفار إنما يعتقدون في أصنامهم أنها شافعة، وأن لها فضلاً، وكل واحد منهم بالفطرة يعلم علماً لا يقدر على مدافعتة أن الأصنام لا فعل لها في الشدائد العظام، فَوَقَفَهُمُ اللهُ مِنْ ذَلِكَ عَلَى حَالَةٍ

البحر، وقوله تعالى: ﴿كَثُورًا﴾ أي بالنعم. و﴿الْإِنْسَانُ﴾ هنا للجنس، وكل واحد لا يكاد يؤدي شكر الله تعالى كما يجب. وقال الزجاج: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ يراد به الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير بارع.

وقوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتُمْ أَنْ يَخْفَى بِكُمْ جَانِبَ آلِ رَبِّكُمُ الْآيَةِ. الْمَعْنَى: أَفَأَنْتُمْ أَيهَا الْمَعْرُوضُونَ النَّاسُونَ الشُّدَّةَ حِينَ صِرْتُمْ إِلَى الرَّخَاءِ أَنْ يَخْفَى اللَّهُ بِكُمْ مَكَانَكُمْ مِنَ الْبِرِّ؛ إِذْ أَنْتُمْ فِي قُبْضَةِ الْقُدْرَةِ فِي الْبَحْرِ وَفِي الْبِرِّ.

و«الحاصب»: العارض الرامي بالبرد والحجارة ونحو ذلك، ومنه قول الشاعر:

مُسْتَقْبِلِينَ سَمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا
بِحَاصِبِ كَتْدِيفِ الْقُطْنِ مَشْهُورِ
ومنه قول الأخطل:

تَزِمِي الْعِضَاءَ بِحَاصِبٍ مِنْ ثُلْجِهَا
حَتَّى يَبِيَّتْ عَلَى الْعِضَاءِ جِفَالًا
ومنه الحاصب الذي أصاب قوم لوط. والحصب: الرمي بالحصباء، وهي الحجارة الصغار.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَخْفَى﴾ بالياء، على معنى: يخسف الله، وكذلك ﴿بُرْسِلَ﴾ و﴿بُيْدَكُمْ﴾ و﴿فُرْسِلَ﴾ و﴿فَيُرْقِكُمْ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو ذلك كله بالنون، وقرأ أبو جعفر، ومجاهد: ﴿فَنُفِرْقِكُمْ﴾ بالتاء، أي الريح. وقرأ حميد: ﴿فَنُفِرْقِكُمْ﴾ بالنون خفيفة، وأدغم القاف في الكاف، ورويت عن أبي عمرو، وابن محيصن، وقرأ

الحسن، وأبو رجاء: ﴿فَنُفِرْقِكُمْ﴾ بشدّ الراء. و«الْوَكِيلُ»: القائم بالأمر، و«القاصف»: الذي يكسر كل ما يلقي ويقصفه. و«تأدة»: جمعها تارات وتير، ومعناها: مرة أخرى، وقرأ أبو جعفر: ﴿مِنْ الرِّيحِ﴾ بالجمع. و«التبيغ»: الذي يطلب ثأراً أو ديناً أو نحو هذا، ومنه قول الشاعر:

عَدَاؤًا وَعَدَتْ غِزْلَانَهُمْ فَكَأَنَّهَا
ضَوَامِنْ غَزْمٍ لَزْمَنْ تَبِيغٍ
ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: «إِذَا تَبِعَ أَحَدَكُمْ عَلَى مِثْلِي فَلْيَتَّبِعْ»، فالمعنى: لا تجدون من يتبع فعلنا بكم ويطلب نصرتكم.

﴿٧٠﴾ - ﴿٧١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿كَرَّمْنَا﴾ تضعيف (كرم)، فالمعنى: جعلنا لهم كرمًا، أي شرفاً، وفضلاً، وهذا هو كرم نفي نقصان، لا كرم المال، وإنما هو كما تقول: «ثوب كريم»، أي: جمّة محاسنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية عدّد الله تعالى فيها على بني آدم ما خصّهم به من دون سائر الحيوان، والجن هو الكثير المفضل، والملائكة منهم الخارجون عن الكثير المفضل. وحنّ لهم في البر والبحر مما لا يصح لحيوان سوى بني آدم أن يكون يتحمّل بإرادته وقصده وتدبيره في البر والبحر جميعاً. والرزق من الطيبات لا ينتفع به حيوان انتفاع بني آدم؛ لأنهم يكسبون المال خاصة دون الحيوان، ويلبسون الثياب، ويأكلون المركبات من الأطعمة، وغاية كل حيوان أن يأكل لحمًا نيئًا،

أو طعاماً غير مركب. و«الرزق»: كل ما صح الانتفاع به، وحكى الطبري عن جماعة أنهم قالوا: التفضيل هو أن يأكل بيديه وسائر الحيوان بالفم، وقال غيره: وأن ينظر من إشراف أكثر من كل حيوان، ويمشي قائماً، ونحو هذا من التفضيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله غير محذوق، وذلك أن للحيوان من هذا النوع ما كان يفضل به ابن آدم، كجري الفرس وسمعه وإبصاره، وقوة الفيل وشجاعة الأسد وكرم الديك، وإنما التكريم والتفضيل بالعقل الذي به يملك الحيوان كله، وبه يعرف الله تعالى، ويفهم كلامه ويوصل إلى نعيمة. وقالت فرقة: هذه الآية تقضي بفضل الملائكة على الإنس من حيث هم المستثنون، وقد قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير لازم من الآية، بل التفضيل بين الإنس والجن لم تكن له الآية، بل يحتمل أن الملائكة أفضل، ويحتمل التساوي، وإنما صحّ تفضيل الملائكة من مواضع أخرى من الشرع.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِأَنبِهِمْ﴾ الآية. يحتمل قوله: ﴿يَوْمَ﴾ أن يكون منصوباً على الظرف، والعامل فيه فعل مضمر تقديره: أذكر، أو فعل يدل عليه قوله: ﴿وَلَا يُظَلَّمُونَ﴾، تقديره: ولا يُظلمون يوم ندعو، ثم فسره ﴿يَقْلِبُونَ﴾ الآخر، ويجوز أن يعمل فيه ﴿وَقَسَّطْنَاهُمْ﴾،

يُضْرَبُ بِهِ الْمَثَلُ فِي الْقَلَّةِ وَتَفَاهَةِ الْقَدْرِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي هَلِيلِهِ أَعْيُنٌ﴾ الآية. قال محمد بن أبي موسى: الإشارة بـ ﴿هَلِيلِهِ﴾ إشارة إلى النعم التي ذكرها سبحانه وتعالى في قوله: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، أي: مَنْ عَمِيَ عَنْ شُكْرِ هَذِهِ النِّعَمِ وَالْإِيمَانَ بِمُسْتَدْبِهَا فَهُوَ فِي أُمُورِ الْآخِرَةِ وَشَأْنِهَا أَعْمَى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل ﴿أَعْيُنٌ﴾ الثاني أن يكون بمنزلة الأول، على أنه تشبيه بأعمى البصر، ويحتمل أن يكون صفة تفضيل، أي: أشد عمى، والعمى في هذه الآية هو عمى القلب في الأول والثاني، وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: الإشارة بـ ﴿هَلِيلِهِ﴾ إلى الدنيا، أي: من كان في هذه الدار أعمى عن النظر في آيات الله تبارك وتعالى وعجبه والإيمان بآياته ﴿فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾، إما أن يكون على حذف مضاف، أي: في شأن الآخرة، وإما أن يكون: فهو في يوم القيامة أعمى، على معنى أنه حيران لا يتوجه إليه صواب، ولا يلوح له نصح. قال مجاهد: في الآخرة أعمى عن حجته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن الإشارة بـ ﴿هَلِيلِهِ﴾ إلى الدنيا، أي: من كان في دنياه هذه ووقت إدراكه وفهمه أعمى عن النظر في آيات الله تعالى، فهو في الآخرة أشد حيرة وأعمى؛ لأنه قد باشر الخيبة، ورأى مخايل العذاب. وبهذا

تجيء كل أمة معها إمامها من هادٍ أو مُضِلٍّ، واختلف المفسرون في الإمام - فقال مجاهد، وقتادة: نبئهم، وقال أبو زيد: كتابهم الذي أنزل عليهم، وقال ابن عباس، والحسن: كتابهم الذي فيه أعمالهم، وقالت فرقة: مُتَّبِعُهُمْ مِنْ هَادٍ وَمُضِلٍّ. ولفظة «الإمام» نعمٌ هذا كله؛ لأن الإمام هو ما يُؤْتَمُّ بِهِ وَيُهْتَدَى بِهِ فِي الْقَصْدِ، وَمِنْهُ قِيلَ لَخَيْطِ الْبَيْتَاءِ: إِمَامٌ، وَقَالَ الشَّاعِرُ يَصِفُ قَدْحًا:

وَقَوْمُنَهُ حَتَّى إِذَا تَمَّ وَاسْتَوَى
كَمُخَّةٍ سَاقٍ أَوْ كَمَشْنِ إِمَامٍ
ومنه قيل للطريق: إمام؛ لأنه يُؤْتَمُّ بِهِ فِي الْمَقَاصِدِ حَتَّى يَنْتَهِيَ إِلَى الْمَرَادِ.

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ أَوْقَى كَيْبَهُ يَيْبِسْهُ﴾ حقيقة في أن في القيامة صحائف تتطابق وتوضع في الأيمان لأهل الإيمان، وفي الشماثل لأهل الكفر، وتوضع في أيمان المذنبين الذين ينفذ عليهم الوعيد فيستفيدون منها أنهم غير مخلدين في النار. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يَقْرَأُونَ كِتَابَهُمْ﴾، عبارة عن السرور بها، أي: يُرَدِّدُونَهَا وَيَتَنَاقَلُونَهَا، وقوله: ﴿وَلَا يَظْلُمُونَ فَيْلًا﴾، أي: ولا أقل ولا أكثر، فهذا هو مفهوم الخطاب، حُكْمُ الْمَسْكُوتِ عَنْهُ كَحُكْمِ الْمَذْكُورِ، كقوله تعالى:

﴿فَلَا تَقُلْ لِمَا آتَى﴾ وكقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ شَيْئًا عِظِيمًا﴾، وهذا كثير. ومعنى هذه الآية أنهم لا يبخسون من جزاء أعمالهم الصالحة شيئاً، وال«فَيْلٌ» هو الخيط الذي في شق نواة التمر،

وذلك أن فضل البشر على سائر الحيوان يوم القيامة بين؛ لأنهم الْمُتَعَمِّمُونَ الْمُكَلِّمُونَ الْمُحَاسِبُونَ الَّذِينَ لَهُمُ الْقَدْرُ، إِلَّا أَنَّ هَذَا يَرُدُّهُ أَنَّ الْكُفَّارَ يَوْمَئِذٍ أَحْسَنُ مِنْ كُلِّ حَيْوَانٍ؛ إِذْ يَقُولُ الْكَافِرُ: ﴿يَلْبَسْتَنِي كَتُّنٌ تَرِيًّا﴾، وَلَا يَعْمَلُ فِيهِ ﴿يَوْمَ﴾ لِأَنَّهُ مُضَافٌ إِلَيْهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ منصوباً على البناء لما أضيف إلى غير متمكن، ويكون موضعه رفعاً بالابتداء، والخبر في التقسيم الذي أتى بغد في قوله: ﴿فَمَنْ أَوْقَى﴾ إلى قوله: ﴿وَمَنْ كَانَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿يَوْمَ﴾ بنون العظمة، وقرأ مجاهد: ﴿يَذْعُو﴾ بالياء، على معنى: يدعو الله، ورويت عن عاصم، وقرأ الحسن: ﴿يَذْعُو﴾ بضم الياء وسكون الواو، وأصلها: يُذْعَى، ولكنها لغة لبعض العرب، يقلبون هذه الألف وأواً فيقولون: أَذْعُو، وَحُبْلُو. ذكر هاتين أبو الفتح وأبو علي في ترجمة أعمى بعد، وقرأ الحسن: ﴿كُلُّ﴾ بالرفع، على معنى: يُذْعَوُ كُلُّ. وذكر أبو عمرو الداني عن الحسن أنه قرأ: ﴿يُذْعَى كُلُّ﴾، و«الأناس» اسم جمع لا واحد له من لفظه.

وقوله: ﴿بِإِيمَانِهِمْ﴾ يحتمل أن يريد: باسم إمامهم، ويحتمل أن يريد: مع إمامهم، فعلى التأويل الأول يقال: يا أمة محمد - عليه الصلاة والسلام - ويا أتباع فرعون، ونحو هذا، وعلى التأويل الثاني

التأويل تكون معادلةً للتي قبلها من ذكر من يؤتى كتابه بيمينه، وإذا جعلنا قوله تعالى: ﴿فِي الْآخِرَةِ﴾ بمعنى: «في شأن الآخرة» لم تطرد المعادلة بين الاثنين.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿أَعْمَى﴾ في الموضوعين بغير إمالة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - بخلاف عنه - في الموضوعين بإمالة، وقرأ أبو عمرو بإمالة الأول وفتح الثاني، وتأول بمعنى: «أشد عمى»، ولذلك لم يُمله. قال أبو عمرو: لأن الإمالة إنما تحسن في الأواخر، و﴿أَعْمَى﴾ ليس كذلك؛ لأن تقديره: أعمى من كذا، فليس يتم إلا في قولنا: «من كذا» على ما هو شبيه به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما جعله في الآخرة أضل سبيلاً لأن الكافر في الدنيا ممكن أن يؤمن فينجو، وهو في الآخرة لا يمكنه ذلك، فهو أضل سبيلاً، وأشد حيرة، وأقرب إلى العذاب. وقول سيبويه: «لا يقال أعمى من كذا، كما لا يقال: ما أيداه» إنما هو في عمى العين الذي لا تفاضل فيه، وأما في عمى القلب فيقال ذلك لأنه يقع فيه التفاضل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر مكى في هذه الآية أن العمى الأول هو عمى العين عن الهدى. وهذا بين الاختلال، والله المعين.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَقْتُلُونَكَ عَنِ الْيَمِينِ أَوْحِينَآ إِلَيْكَ﴾ الآية. ﴿وَإِنْ﴾ هذه عند سيبويه المحققة من الشقيلة، واللام في قوله سبحانه:

﴿لَيَقْتُلُونَكَ﴾ لام تأكيد، و﴿وَإِنْ﴾ هذه عند الفراء بمعنى (ما)، واللام بمعنى (إنما)، والضمير في قوله تعالى: ﴿كَادُوا﴾ قيل: هو لقريش، وقيل: لثقيف، فأما لقريش فقال ابن جبير، ومجاهد: نزلت الآية لأنهم قالوا لرسول الله ﷺ: لا ندعك تستلم الحجر الأسود حتى تمس أوثاننا، على جهة التشريع بذلك، قال الطبري وغيره: فهم رسول الله ﷺ أن يظهر لهم ذلك وقلبه له منكر، فنزلت الآية في ذلك، قال الزجاج: وقال رسول الله ﷺ في نفسه: «وما علي أن أفعل لهم ذلك والله تعالى يعلم ما في نفسي؟» وقال ابن إسحق وغيره: إنهم اجتمعوا ليلة فعظموه وقالوا له: أنت سيدنا، ولكن: أقبل على بعض أمرنا وتقبل على بعض أمرك، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهي في معنى قوله تعالى: ﴿وَدَا كَرُؤُهُنَّ بِيَدَيْهِنَّ﴾. وحكى الزجاج أن الآية قيل: إنما هي فيما أرادوه من طرد فقراء أصحابه.

وأما لثقيف فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره: لأنهم طلبوا من رسول الله ﷺ أن يؤخرهم بعد إسلامهم سنة يعيدون فيها اللأت، وقالوا: إنا نريد أن نأخذ ما يهدى لها، ولكن إن خفت أن تنكر ذلك عليك العرب فقل: أوحى الله ذلك إلي، فنزلت الآية في ذلك. ويلزم قائل هذا القول أن يجعل الآية مدنية، وقد روي ذلك، وروى قائلوا الأقوال الأخر أنها مكية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وجميع ما أريد من النبي ﷺ بحسب هذا الاختلاف قد أوحى الله تعالى إليه خلافه، إما في مُعْجَز. وإما في غير معجز، وفعله هو - إن لو وقع - افتراء على الله، إذ أفعاله وأقواله إنما هي كلها شرع.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا لَأَخَذُواكَ عَسَاكًا﴾ توقيف على ما نجاه الله تعالى منه من مخالفته الكفار والولاية لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ نَبُنَّاكَ﴾ الآية... تعديد نعمة على النبي ﷺ، وروي أن رسول الله ﷺ لما نزلت هذه الآية قال: «اللَّهُمَّ لا تَكَلِّبْنِي إلى نفسي طرفة عين».

«الرُّكُونُ»: شد الظهر إلى الأمر، أو الجزم على جهة السكون إليه، كما يفعل الإنسان بالركن من الجدران، ومنه قوله تعالى حكاية: ﴿أَوَّأَىٰ إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿تَرَكَّنْ﴾ بفتح الكاف، وقرأ ابن مصرف، وقتادة، وعبدالله بن أبي إسحق: ﴿تَرَكَّنْ﴾ بضم الكاف، ورسول الله ﷺ لم يركن، ولكنه كاد بحسب همّه بموافقتهم طمعاً منه في استئلافهم، وذهب ابن الأنباري إلى أن معناه: لقد كاد أن يخبروا عنك أنك ركنت، ونحو هذا، ذهب في ذلك إلى نفي الهمم بذلك عن النبي ﷺ، فحمل اللفظ ما لم يحتمل. وقوله تعالى: ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ يبطل ذلك. وهذا الهمم من النبي ﷺ إنما كان حطرةً مما لا يمكن دفعه، ولذلك قيل: ﴿كَيْدٌ﴾، وهي تُعْطَى أنه لم يكن ركون، ثم قيل: ﴿شَيْئًا قَلِيلًا﴾ إذ كانت المقاربة التي

كتاب يعتمد عليه، وذو الحليفة ليس في طريق الشام.

وقالت فرقة: الضمير في ﴿كَادُوا﴾ هو لقريش، وحكى الزجاج أن استفزازهم هو ما كانوا أجمعوا عليه في دار الندوة من قتله، و﴿الْأَرْضِ﴾ - على هذا - عامة في الدنيا، كأنه قال:

يخرجوك من الدنيا، وعلى سائر الأقوال هي أرض مخصوصة، إما مكة وإما المدينة، كما قال تعالى: ﴿أَوْ يُقَاتُوا بِرِجْلِ الْأَرْضِ﴾، وإنما معناه:

من الأرض التي بها تصرفهم وتمتعهم. وقال ابن عباس، وقتادة: استفزاز قريش هو ما كانوا ذهبوا إليه من إخراج رسول الله ﷺ من مكة، كما ذهبوا قبل إلى حصره في الشعب. ووقع استفزازهم هذا بعد نزول الآية، وضيقوا عليه حتى خرج واتبعوه إلى الغار وغير ذلك، ونفذ عليهم الوعيد في أن لم يلبثوا خلفه إلا قليلاً يوم بدر. وقال مجاهد: ذهبت قريش إلى هذا ولكنه لم يقع منها؛ لأنه لما أراد الله تعالى استيقاظ قريش وألا يستأصلها أذن لرسول الله ﷺ في الهجرة، فخرج من الأرض بإذن الله تعالى لا بقهر قريش، واستبقت قريش يسلم منها ومن أعقابها من أسلم، قال: ولو أخرجته قريش لعذبوا، فذهب مجاهد رحمه الله إلى أن الضمير في

تتضمنها ﴿كَيْدٌ﴾ قليلة، خَطَرَةٌ لم تتأكد في النفس، وهذا الهم هو كَهَم يوسف عليه السلام، والقول فيهما واحد. وقوله تعالى: ﴿إِذَا لَأَذَقْنَاكَ﴾ يبطل أيضاً ما ذهب إليه ابن الأباري.

وقوله تعالى: ﴿ضَمَفَ الْحَيَاةَ وَضَمَفَ الْمَمَاتِ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك: يريد: ضعف عذاب الحياة وضعف عذاب الممات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على معنى أن ما يستحقه هذا الذنب من عقوبتنا في الدنيا والآخرة كنا نضعفه لك، وهذا التضعيف شائع مع النبي ﷺ في أجره وألمه وعقاب أزواجه. وباقى الآية بين:

(٧٦) - (٧٧) تفسير قوله عز وجل:

قال حضرمي: الضمير في ﴿كَادُوا﴾ ليهود المدينة وناحيتها، كَحَيِّي بن أخطب وغيره، وذلك أنهم ذهبوا إلى المكر برسول الله ﷺ فقالوا: إن هذه الأرض ليست بأرض أنبياء، وإنما أرض الأنبياء الشام، ولكنك تخاف الروم، فإن كنت نبياً فاخرج إليها فإن الله سيحميك كما حمى غيرك من الأنبياء، فنزلت الآية في ذلك، وأخبر الله تعالى أن رسوله لو خرج لم يلبثهم بعد إلا قليلاً.

وحكى النقاش أن رسول الله ﷺ خرج بسبب قولهم، وعسكر بذي الحليفة، وأقام ينتظر أصحابه، فنزلت الآية عليه فرجع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، لم يقع في سيرة ولا

سورة الإسراء

سورة الإسراء

وإن كَادُوا لَيَسْتَفْرِزُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَكَ خَلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةٌ مِنْ قَدِّ أَرْسَلْنَا قَلْبَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا يَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ أَفَوَيْهِ الصَّلَاةُ لِذُلُوكِ السَّمْسِ إِلَى عَسَى اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ الْفَجْرِ كَانَتْ مَشْهُودًا ﴿٧٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ فَتْحُ جَدِّ بِهِ نَافِلَةٌ لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَعًا مَتَحْمُودًا ﴿٧٩﴾ وَقَوْلُ رَبِّي إِنَّ عَلَيَّ مَظْلَمًا ﴿٨٠﴾ وَنَزْلُ مِنَ الْقُرْءَانِ أَن مَاهُوَ شِفَاءً وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨١﴾ وَإِذْ آتَيْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَاضًا وَتَجَافِيَةً وَإِذْ أَسْمَهُ الشُّرَكَاءَ نِسْوًا ﴿٨٢﴾ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَن شَاكِلِيهِ فَرِيضَةً مِّمَّنْ أَعْلَمُ بَيْنَ هُوَاهُدَى سَبِيلًا ﴿٨٣﴾ وَتَسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٤﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَيَجِدَنَّكَ بِهِ بَعِيضًا وَمَكِيلًا ﴿٨٥﴾

٢١٠

﴿يَلْبَثُونَ﴾ عامٌ في جميعهم. وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ﴾ بحذف النون وإعمال ﴿وَإِذَا﴾، وسائر القراء أَلْفَوْهَا وَأَثَبُوا النون. وقرأ عطاء بن أبي رباح: ﴿يَلْبَثُونَ﴾ بضم الياء وشد الباء وفتح اللام، وروي مثله عن يعقوب إلا أنه كسر الباء. وقرأ عطاء: ﴿بِنَدِّكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وقرأ الجمهور: ﴿خَلْفَكَ﴾، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿خَلْفَكَ﴾ والمعنى واحد، ومنه قول الشاعر:

عَقَبَ الرُّدَادُ خَلْقَهَا فَكَأَنَّمَا
بَسَطَ الشَّوَابِطُ بَيْنَهُنَّ حَصِيرًا
ومنه قوله تعالى: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خَلْفَ رَسُولِ اللَّهِ﴾، على بعض تأويلاته، أي: بعد خروج رسول الله ﷺ، وهذه اللفظة قد لزم فيها حذف المضاف؛ لأن التقدير في

آيتنا: «خلاف خروجك»، وفي بيت الشاعر: «خلاف انبساط الشمس» أو نحوه.

قال أبو علي: أصابوا هذه الظروف تضاف إلى الأسماء الأعيان التي ليست أحداثاً، فلم يَسْتَجِبُوا إِضَافَتَهَا إلى غير ما جرى عليه كلامهم، كما أنها لما جرت منصوبة في كلامهم تركوها على حالها إذا وقعت في موقع النصب، كقوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ الْيَقِينِ يَبْصُرُ بَيْنَكُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿سَكَّرَ﴾ نصب على المصدر، وقال الفراء: نصبه على حذف الخافض؛ لأن المعنى: «كَسَّرَهُ»، فحذف الكاف ونصب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزمه على هذا ألا يقف في قوله: ﴿قِيلًا﴾.

ومعنى الآية الإخبار أن سُئِنَ الله تعالى في الأمم الخالية وعادته أنها إذا أخرجت نبيها من بين أظهرها نالها العذاب، واستأصلها الهلاك، فلم تلبث بعده إلا قليلاً.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَى الصَّلَاةَ إِذْ يُدْعَى النَّاسَ إِلَى اللَّهِ فِي هَذِهِ بِلِغَةِ الْعَرَبِ مَفْرُوضَةً﴾ الآية. هذه بإجماع من المفسرين إشارة إلى الصلوات المفروضة.

فقال ابن عمر، وابن عباس، وأبو بزة، والحسن، والجمهور: ﴿دُلُوكُ الشَّمْسِ﴾: زوالها، والإشارة إلى الظهر والعصر، و«عَسَقَ الليل» أشير به إلى المغرب والعشاء، و«قرآن الفجر» أريد به صلاة الصبح، فالآية - على هذا - تعُمُّ جميع الصلوات،

وروى ابن مسعود أن النبي ﷺ قال: «أَتَانِي جِبْرِيلُ لِلدُّلُوكِ الشَّمْسِ حِينَ زَالَتْ فَصَلَّى بِي الظُّهْرَ»، وروى جابر أن النبي ﷺ خرج من عنده وقد طعم وزالت الشمس، فقال: «اُخْرَجَ يَا أَبَا بَكْرٍ فَهَذَا حِينَ دَلَّكَتِ الشَّمْسُ».

وقال ابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن أسلم: «دُلُوكُ الشَّمْسِ»: غروبها، والإشارة بذلك - إلى المغرب، و«عَسَقَ الليل»: اجتماع ظلمته، فالإشارة إلى العتمة، و«قرآن الفجر»: صلاة الصبح، ولم تقع إشارة - على هذا التأويل - إلى الظهر والعصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أصوب لعمومه الصلوات، وهما من جهة اللغة حَسَنَانِ، وذلك أن «الدُّلُوكَ» هو المَيْلُ في اللغة، فأوَّلُ الدُّلُوكِ هو الزوال، وآخره هو المغرب، ومن وقت الزوال إلى الغروب يُسَمَّى دُلُوكًا، لأنها في حالة ميل، فذكر الله الصلوات التي تكون في حالة الدُّلُوكِ وعنده، فيدخل في ذلك الظهر والعصر والمغرب، ويصح أن تكون المغرب داخله في «عَسَقَ الليل»، ومن الدُّلُوكِ الذي هو المَيْل قول الأعرابي للحسن بن أبي الحسن: أَيَدَاكَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ؟ يريد: أيميل بها إلى المَظَلِّ في دَيْتِهَا؟ فقال له الحسن: نعم إذا كان ملحقاً، أي: عديماً، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللُّوَاتِي تَقُودُنَا
نُجُومٌ وَلَا بِالْأَقْلَابِ الدُّوَالِكِ

ومن ذلك قول الشاعر:

هَذَا مَكَانٌ قَدَمَنِي زَبَاحُ
غَدُوَّةٍ حَتَّى دَلَّكَتِ بَزَاحُ
ويروى (بزاح) بكسر الباء، قال أبو عبيدة، والأصمعي، وأبو عمر الشيباني: معناه: براحة الناظر يستكف بها أبداً لينظر كيف ميلها وما بقي لها، وهذا نحو قول العجاج:

وَالشَّمْسُ قَدْ كَادَتْ تَكُونُ دَنَفَا
أَذْفَعُهَا بِالرَّاحِ كَيْ تَزْخَلْفَا
وذكر الطبري عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «دَلَّكَتِ بَزَاحُ، يعني: بزاح مكاناً»، قال: فإن كان هذا من تفسير ابن مسعود فهو أعلم، وإن كان من كلام رابٍ فأهل الغريب أعلم بذلك.

ويُروى البيت الأول: (غَدُوَّةٍ حَتَّى هَلَّكَتِ بَزَاحُ) بفتح الباء، على وزن قَطَامٍ وَحَزَامٍ، وهو اسم من أسماء الشمس.

و«عَسَقَ الليل»: اجتماعه وتكاثف ظلمته، قال الشاعر:

أَبَ هَذَا اللَّيْلِ إِذْ عَسَقَا
.....

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: عَسَقَ الليل: بدؤه.

ونُصِبَ قوله تعالى: ﴿قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾ بفعل مضمر، تقديره: وقرأ قرآن، ويصح أن يُنْصَبَ عطفاً على ﴿الصَّلَاةِ﴾، أي: وأقِمَّ قرآنَ الفجر، وعَبِّرَ عن صلاة الصبح خاصةً بالقرآن لأن القرآن هو عَظْمُهَا؛ إِذْ قَرَأَتْهَا طَوِيلَةً مَجْهُودًا بِهَا، وَيَصِحُّ أَنْ يَنْصَبَ قَوْلُهُ:

﴿قُرْآنَ﴾ على الإغراء. وقوله: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُورًا﴾ معناه:

يشهده حفظة النهار وحفظة الليل من الملائكة حسبما ورد في الحديث المشهور من قوله عليه الصلاة والسلام: «يَتَمَاقِبُونَ فِيكُمْ ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في الصبح وصلاة العصر» الحديث بطوله من رواية أبي هريرة وغيره. وعلى القول بذلك مضى الجمهور.

وذكر الطبري حديثاً عن ابن عسكر، من طريق أبي الدرداء في قوله تعالى: ﴿كَانَ مَشْهُودًا﴾، قال محمد بن سهل بن عسكر: (يشهده الله وملائكته)، وذكر في ذلك الحديث أن الله تبارك وتعالى ينزل في آخر الليل، ونحو هذا مما ليس بقوي.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَأْتِيهِم مِّنَ اللَّيْلِ، وَوَقْتُاً مِنَ اللَّيْلِ، وَأَيُّمْ وَقْتُاً مِنَ اللَّيْلِ، وَالضَّمِيرُ فِي «يَوْمَ» عائد على هذا المقدر، ويحتمل أن يعود على القرآن وإن كان لم يجز له ذكر مطلق، كما هو الضمير مطلق، لكن جرى مضافاً إلى الفجر.

و «تَهْجُدُ» معناه: اطرح الهجود عنك، والهجود: النوم، يقال: هَجَدَ يَهْجُدُ - بضم الجيم - هُجُودًا إِذَا نَامَ، ومنه قول الشاعر:

أَلَا طَرَقَتْشَا وَالرَّفَاقُ هُجُودُ
فَبَاتَتْ بِعَلَاتِ السُّوَالِ تَجُودُ
ومنه قول الحطيئة:

فَحَيَّاكَ وَدُمَا هَذَاكَ لِفَتْحِيَّةِ
وَخُوصِ بِأَعْلَى ذِي طَوَالَةِ هُجُودِ
وهذا الفعل جار مجرى: تحرَّب وتحرَّج وتأتَّم وتَحَثَّ، ومثله ﴿فَنَلَّزْتُمْ نَفْسَكُمْ﴾، فمعناه: تَنَدَّمُونَ،

أي تطرحون الفاكحة عن أنفسكم، وهي انبساط النفس وسرورها، يقال: رَجُلٌ فِكَةٌ إِذَا كَانَ كَثِيرَ السُّرُورِ والضحك، فالمعنى: وَوَقْتُاً مِنَ اللَّيْلِ اسْتَهْزَ بِهِ فِي صَلَاةٍ وَقِرَاءَةٍ، وقال الأسود، وعلقمة، وعبد الرحمن بن الأسود: التَّهْجُدُ بَعْدَ نَوْمَةٍ، وقال الحجاج بن عمرو: إِنَّمَا التَّهْجُدُ بَعْدَ رَقْدَةٍ، وقال الحسن: التَّهْجُدُ مَا كَانَ بَعْدَ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ.

وقوله تعالى: ﴿نَافِلَةٌ لَّكَ﴾، قال ابن عباس وغيره: معناه: زيادة لك في الفرض، قالوا: وكان قيام الليل فرضاً على النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتمل الآية أن يكون هذا على جهة الندب في التَّنْفُلِ، ويكون الخطاب للنبي ﷺ والمراد هو وأُمَّتُهُ، كخطابه في قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ لَكُمُ الْمَلَائِكَةُ لِيُدْعُونَ أَتْسِنِينَ﴾. وقال مجاهد: إنما هي نافلة للنبي ﷺ؛ لأنه مغفور له، والناس يحطون بمثل هذا خطاياهم، ويبيِّن أن النبي ﷺ منذ عُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ عام الحديبية، فإنما كانت نوافله واستغفاره فضائل من العمل، وقُرْباً أَشْرَفَ مِنْ نَوَافِلِ أُمَّتِهِ؛ لِأَنَّ هَذِهِ إِمَّا أَنْ تَجِيءَ بِهَا فَرَاتِضَهُمْ، وَإِمَّا أَنْ تَحِطَ بِهَا خَطِيئَاتِهِمْ، وَقَدْ يَتَّصِرُ مِنْ لَا ذَنْبَ لَهُ يَتَنَفَّلُ، فَيَكُونُ تَنَفُّلُهُ فَضْلاً، كَنَصْرَانِي يَسْلَمُ وَصَبِي يَحْتَلِمُ، وَضَعْفُ الطَّبْرِيِّ قَوْلُ مُجَاهِدٍ.

وقوله تعالى: ﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّخْمُودًا﴾ عِدَّةٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ، وهو أمر

الشفاعة الذي يتدافعه الأنبياء حتى ينتهي إليه عليه الصلاة والسلام، والحديث بطوله في البخاري ومسلم فلذلك اختصرناه، ولأجل ذلك الاحتمال الذي له في مرضات جميع العالم مؤمنهم وكافرهم قال: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ»، و «عَسَىٰ» من الله واجبة، و «مَقَامًا» نصب على الظرف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن غريب حديث الشفاعة اقتضابه المعنى، وذلك أن صدر الحديث يقتضي أن النبي ﷺ يُسْتَنْهَضُ لِلشَّفَاعَةِ فِي أَنْ يُحَاسِبَ النَّاسَ، وَيَنْطَلِقُونَ مِنَ الْمَوْقِفِ، فَيَذْهَبُ لِذَلِكَ، وَيَنْصَبُ بِأَثَرِ ذَلِكَ عَلَى أَنَّهُ شَفَعُ فِي إِخْرَاجِ الْمَذْنِبِينَ مِنَ النَّارِ، فَمَعْنَاهُ الْاِقْتِضَابُ وَالِاخْتِصَارُ؛ لِأَنَّ الشَّفَاعَةَ فِي الْمَذْنِبِينَ لَمْ تَكُنْ إِلَّا بَعْدَ الْحِسَابِ وَالزُّوَالِ مِنَ الْمَوْقِفِ وَدُخُولِ قَوْمِ الْجَنَّةِ وَدُخُولِ قَوْمِ النَّارِ، وَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الثَّانِيَةُ لَا يَتَدَافَعُهَا الْأَنْبِيَاءُ، بَلْ يَشْفَعُونَ وَيَشْفَعُ الْعُلَمَاءُ، وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ هُوَ الْمَقَامُ الَّذِي أَشْفَعُ فِيهِ لِأُمَّتِي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وينبغي أن يُتَأَوَّلَ هَذَا عَلَى مَا قُلْنَا: لِأُمَّتِهِ وَغَيْرِهَا، أَوْ يُقَالَ: كُلُّ مِنْهُمْ مَقَامٌ مَحْمُودٌ. وقال النقاش: لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ثَلَاثُ شَفَاعَاتٍ: الْعَامَّةُ، وَشَفَاعَةُ فِي السَّبْقِ إِلَى الْجَنَّةِ، وَشَفَاعَةُ فِي أَهْلِ الْكِبَايَرِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمشهور أنهما شفاعتان فقط.

وحكى الطبري عن فرقة منها مجاهد أنها قالت: المقام المحمود هو أن الله عز وجل يُجْلِسُ محمداً - عليه الصلاة والسلام - معه على عرشه، وروت في ذلك حديثاً، وعُضِدَ الطبري جواز ذلك بِشَطِطٍ من القول، وهو لا يخرج إلا على تَلَطُّفٍ في المعنى، وفيه بُعْدٌ، ولا يُشْكِرُ مع ذلك أن يُرْوَى، والعلم يتأوله. وقد ذكر النقاش عن أبي داود السجستاني أنه قال: من أنكر هذا الحديث فهو عندنا متهم، ما زال أهل العلم يتحدثون بهذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من أنكر جوازه على تأويله.

﴿٨٠﴾ - ﴿٨١﴾ تفسير قوله عز وجل:

ظاهر هذه الآية والأحسن فيها أن تكون دعاءً في أن يُحَسِّنَ الله حالته في كل ما يتناول من الأمور، ويحاول من الأسفار والأعمال، وينتصر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فهي على أتم عموم، ومعناها: رب أصلح لي وزدي في كل الأمور وصدري، وذهب المفسرون إلى أنها في غرض مخصوص، ثم اختلفوا في تعيينه - فقال ابن عباس، والحسن، وقتادة: أراد: أدخلني المدينة وأخرجني من مكة، وتقدم في التأويل المتأخر في الموضوع، فإنه متقدم في القول لأن الإخراج من مكة هو المتقدم، اللهم إن مكان الدخول والفرار هو الأهم. قال أبو صالح، ومجاهد: أدخلني في أمر تبليغ الشرع، وأخرجني منه بالإعداد التام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإدخال بالموت

في القبر، والإخراج البعث. وما قدمت من العموم التام الذي يتناول هذا كله أصوب.

وقرأ الجمهور: ﴿مَدْخَلٌ﴾ و﴿مَخْرَجٌ﴾ بضم الميم، فهو جرى على: أدخلني وأخرجني. وقرأ أبو حيو، وقتادة، وحמיד: ﴿مَدْخَلٌ﴾ و﴿مَخْرَجٌ﴾ بفتح الميم، فهو غير جار على: أدخلني، ولكن التقدير: «أدخلني فأدخل مَدْخَلٌ» لأنه إنما يجري على دخل، و«الصدق» هنا صفة تقتضي رفع المذام واستيعاب المدح، كما تقول: «رجل صدق» أي: جامع للمحاسن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطٰنًا نٰصِرًا﴾، قال مجاهد وغيره: حُجَّةٌ، يريد: تنصرتي ببيانها على الكفار، وقال الحسن وقتادة: يريد: مَنَعَةً ورياسةً وسيفياً ينصر دين الله تعالى، فطلب رسول الله ﷺ ذلك بأمر الله إياه رغبةً في نصر الدين، فزوي أن الله تعالى وعده بذلك، ثم أنجز له في حياته وتَمَّمه بعد وفاته.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبٰطِلُ﴾ الآية. قال قتادة: ﴿الْحَقُّ﴾: القرآن، و﴿الْبٰطِلُ﴾: الشيطان، وقالت فرقة: الحق: الإيمان، والباطل: الكفر، وقال ابن جريج: الحق: الجهاد، والباطل: الشرك، وقيل غير ذلك، والصواب تعميم اللفظ بالغاية الممكنة، فيكون التعبير: جاء الشرع بجميع ما انطوى فيه، وزهق الكفر بجميع ما انطوى فيه، و«الباطل»: كل ما لا ينال به غاية نافعة. وقوله سبحانه: ﴿كَانَ رَءُوفًا﴾، ليست [كَانَ] إشارة إلى زمن

مضى، بل المعنى: كان وهو يكون، وهذا كقولك: كان الله عالماً قادراً، ونحو هذه.

وهذه الآية نزلت بمكة، ثم إن رسول الله ﷺ كان يستشهد بها يوم فتح مكة، وقت طعنه الأصنام، وسقوطها لضعفه إياها بمخصرة حسبما في السيرة لابن هشام وغيرها. وقرأ الجمهور: ﴿وَنُنزِّلُ﴾ بالنون، وقرأ مجاهد: ﴿وَيُنزِّلُ﴾ بالياء خفيفة، ورواها المروزي عن حفص. وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَلْقُرٰنٍ﴾، يصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، ويصح أن تكون لبيان الجنس، كأنه قال: ونُنزِّلُ ما فيه شفاء من القرآن، وأنكر بعض المتأولين أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتبويض، لأنه تحفظ من أن يلزمه أن بعضه لا شفاء فيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس يلزمه هذا، بل يصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ للتبويض بحسب أن إنزاله إنما هو مُبْعَضٌ، فكأنه قال: ونُنزِّلُ من القرآن شيئاً شيئاً ما فيه كله شفاء. واستعارته الشفاء للقرآن هو بحسب إزالته الريب، وكشفه غطاء القلب لفهم المعجزات والأمور الدالة على الله تعالى، المقررة لشرعه. ويحتمل أن يراد بالشفاء نفعه من الأمراض والرُقي والتعويد ونحوه وكونه رحمة ظاهرة. وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَزِيدُ الْظٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ بمعنى أنه عليهم عَمَى؛ إذ هم معرضون بحالة من لا يفهم ولا يلقن.

وقوله تعالى: ﴿رٰدًا اٰتَمٰنًا عَلٰى الْاِنْسٰنِ﴾ الآية. «الإنسان» في هذه

إِلَّا رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَإِبراهيمَ ﴿٨٥﴾ قُلْ لِيِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بَشِيرًا هَذَا الْقُرْآنَ لَا يَأْتُونَ بِشَيْءٍ. وَلَوْ كَانَتْ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنُ لَكَ حَتَّىٰ تَنْزِلَ عَلَيْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَائِدَةٌ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن تَحْتِهَا عِجَابٌ أَوْ تَأْتِي بِنُورٍ أَوْ تُنَزَّلُ عَلَيْكَ الْكُتُبُ فَتَقْرَأُهَا أَوْ تُخْرَجُ مِن رَّبِّكَ كِتَابًا فَتَقْرَأُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا ﴿٨٨﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ﴿٨٩﴾ قُلْ لَوْ كُنَّا فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يُّنصِتُونَ لَمَطَّيْنًا لَنزَلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا ﴿٩٠﴾ قُلْ كَفَىٰ بِإِلَهِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٩١﴾

٢١١

ثم قال عز وجل: ﴿قُلْ يَا مُحَمَّد: ﴿كُلُّ مَثَلٍ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾، أي: طريقته وبحسب نبيته ومذهبه الذي يشبهه. وهو شكل له، وهذه تدل دلالة على أن «الإنسان» أولاً لم يُزِد به العموم، أي أن الكفار بهذه الصفات، والمؤمنون بخلافها، وكلُّ منهم يعمل على ما يليق به، والرُّبُّ تعالى أعلم بالمهتدي. وقال مجاهد: ﴿عَلَىٰ شَاكِلَتِهِ﴾ معناه: على طبيعته، وقال أيضاً: معناه: على جذته، وقال

ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: على ناحيته، وقال قتادة: معناه: على حدته وعلى ما ينوي، وقال ابن زيد: معناه: على دينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأرجح هذه العبارات قول ابن عباس وقرناده. وقوله تعالى: ﴿فَرَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَن هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا﴾ توعد بين ﴿٨٥﴾ - ﴿٨٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿تَشْتَاوُونَ﴾ قيل: هو لليهود وأن الآية مدنية، وروى عن عبدالله بن مسعود أنه كان مع رسول الله ﷺ، فَمَرَّ عَلَى حَرث بالمدينة - ويروى على خرب - وإذا فيه جماعة من اليهود، فقال بعضهم لبعض: سلوه عن الروح فإن أجاب فيه عرفتم أنه ليس بنبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أنه كان عندهم في التوراة أن

الآية لا يُزَادُ به العموم، وإنما يراد به بعضه وهم الكفرة، وهذا كما تقول عند غضب: «لا خير في الأصدقاء ولا أمانة في الناس»، فأنت تعم مبالغته، ومرادك البعض، وهذا بحسب ذكر الظالمين والخساسة في الآية، قيل: فأتصل ذكر الكفرة، ويحتمل أن يكون «الإنسان» في هذه الآية عامًا للجنس، على معنى: إن هذا الخلق الذميمة في سجيته، فالكافر يبالغ في الإعراض، والعاصي يأخذ بحظه منه. وقد قال رسول الله ﷺ في مؤمن: «فَأَعْرَضَ فَأَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ». ومعنى [أَعْرَضَ] وَلَأْنَا عَرَضَهُ، ﴿وَرَبَّنَا﴾ أي: بعد، وهذه استعارة، وذلك أنه يفعل أفعال المغرِّض الثاني في تركه الإيمان بالله وشكر نعمه عليه. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿وَنَاءً﴾، ومعناه: نهض متباعدًا، هذا قول طائفة، وقالت أخرى: هو قلب الهمزة بعد الألف في (نأى) بعينه، وهي لغة كَرَأَى وَرَاءً، ونحو هذه اللفظة قول الشاعر في وصف رام:

حَتَّىٰ إِذَا مَا أَلْتَأَمْتُ مَفَاصِلُهُ
وَنَاءً فِي شَيْئِ الشَّمَالِ كَاهِلُهُ
أي: نهض مُتَوَرِّكًا على شماله.

والذي عندي أن نَاءً ونَأَى فعلان متباينان، و﴿وَرَبَّنَا بِحَايِرَةٍ﴾ عبارة عن التَّحِيرِ، والاستبداد، و (نَاءً) عبارة عن البُعد والفراق.

ثم وصف الله تعالى الكفرة بأنهم إذا مَسَّهُمْ شَرٌّ من مرض أو مصيبة في مال أو غير ذلك يَتَسَوَّأُوا من حيث لا يؤمنون بالله، ولا يرجون تصرف أقداره.

الروح مما انفرد الله بعلمه، ولا يُطَّلَعُ عليه أحدًا من عباده. قال ابن مسعود: وقال بعضهم: لا تسألوه لئلا يأتي فيه بشيء تكَرَهُونَهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يعني - والله أعلم - من أنه لا يفسره فتقوى الحجة عليهم في نبوته، قال: فسألوه، فوقف رسول الله ﷺ مُتَوَكِّفًا على عسيب، فظننت أنه يوحى إليه، ثم تلا عليهم الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقيل: الآية مكية، والضمير لقريش، وذلك أنهم قالوا: نسأل عن محمد - عليه الصلاة والسلام - أهل الكتاب من اليهود فأرسلوا إليهم إلى المدينة الثَّضْر بن الحارث وعُقبية بن أبي مُعَيْط، فقال اليهود: جربوا بثلاث مسائل، سلوه عن أهل الكهف وعن

ذي القرنين وعن الرُّوح، فإن فسّر الثلاثة فهو كذاب، وإن سكت عن الرُّوح فهو نبي، فسألته قريش عن الرُّوح، فيروى أن النبي ﷺ قال لهم: «هَذَا أَخْبِرْكُمْ بِهِ»، ولم يقل: «إِنْ شَاءَ اللَّهُ»، فاستمسك الوحي عنه خمسة عشر يوماً معاتباً على وعده لهم دون استثناء، ثم نزلت هذه الآية.

واختلف الناس في الرُّوح المستول عنه، أي روح هو؟ فقالت فرقة هي الجمهور: وقع السؤال عن الأرواح التي في الأشخاص الحيوانية، ما هي؟ فالرُّوح اسمُ جنس على هذا، وهذا هو الصواب، وهو المشكل الذي لا تفسير له. وقال قتادة: الرُّوح المستول عنه جبريل عليه السلام، قال: وكان ابن عباس يكتمه. وقالت فرقة: هو عيسى ابن مريم عليهما السلام، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: مَلَكَ له سبعون ألف وجه، في كل وجه سبعون ألف لسان، لكل لسان سبعون ألف لغة، يسبح الله لسانه بكل تلك اللغات، فيخلق من كل تسيحة مَلَكَ يطير مع الملائكة إلى يوم القيامة، ذكره الطبري. وما أظن القول يصح عن علي رضي الله عنه. وقالت فرقة: الرُّوح القرآن، وهذه كلها أقوال مفسّرة، والأول أظهرها وأصوبها.

وقوله: «مِنْ أَمْرِ رَبِّي» يحتمل تأويلين: أحدهما أن يكون «الأمْر» اسم جنس للأُمُور، أي: الرُّوح من جملة أمور الله التي استأثر بعلمها، فهي إضافة خلق إلى خالق، والثاني

أن يكون مصدراً، من أمر يأمرُ، أي: الرُّوح بِمَا أَمَرَ اللهُ تعالى أمراً بالكَوْن فكان. وقرأ ابن مسعود، والأعمش: «وَمَا أَوْثُوا»، ورواها ابن مسعود عن النبي ﷺ، وقرأ الجمهور: «وَمَا أُرِيْتُمْ».

واختلف فيمن خاطب بذلك - فقالت فرقة: السائلون فقط، ترجم الطبري بذلك، ثم أدخل تحت الترجمة عن قتادة أنهم اليهود. وقالت فرقة: المراد اليهود بجملتهم، وعلى هذا في قراءة ابن مسعود. وقالت فرقة: العالم كله، وهذا هو الصحيح؛ لأن قول الله تعالى له: «قُلِ الرُّوحُ» إنما هو أمر بالقول لجميع العالم؛ إذ كذلك هي أقواله كلها، وعلى ذلك تمت الآية من مخاطبة الكل. ويحتمل أيضاً أن تكون مخاطبة من الله تعالى للنبي ﷺ ولجميع الناس. ويصنف ما عند جميع الناس من العلم بالقِلَّة بإضافته إلى علم الله عز وجل الذي هو بهذه الأمور التي عندنا من علمها طرف يسير جداً، كما قال الخضر عليه السلام لموسى عليه السلام: «ما نقص علمي وعلمك وعلم الخلاق من علم الله إلا كما نقص هذا العصفور من البحر»، وأراد الخضر علم الله بهذه الموجودات التي عند البشر من علمها طرف يسير جداً نِسْبَةً إلى ما يخفى عنهم، نِسْبَةً النقطة إلى البحر، وأما علم الله تبارك وتعالى على الإطلاق فغير مُتَنَاهٍ، ويحتمل أن يكون التجوز في قول الخضر عليه السلام: «كما نقص هذا

العصفور»، أي: إننا لا ينقص علمنا شيئاً من علم الله تعالى على الإطلاق، ثم مثل بنقرة العصفور في عدم النقص؛ إذ نقصه غير محسوس فكأنه معدوم، فهذا احتمال، ولكن فيه نظر، وقد قالت اليهود لرسول الله ﷺ: كيف لم نُؤْت من العلم إلا قليلاً وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ومن أوتي الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً؟ فعارضهم رسول الله ﷺ بعلم الله فغلبوا، وقد نصّ رسول الله ﷺ في بعض الأحاديث بقوله: «كُلُّهُ»، يعني أن المراد بـ «أُوتِيتُمْ» جميع العالم، وذلك أن يهود قالت له: أَلَمْ نُحْنُ عينت أم قومك؟ فقال: «كُلُّهُ»، وفي هذا المعنى نزلت: «وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَدٌ»، حكى ذلك الطبري رحمه الله.

وقوله تعالى: «وَلَكِنْ شِئْنَا لَنُدَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» الآية، آية فيها شدة على النبي ﷺ، وهي عتاب على قوله: «هَذَا أَهْلِكُمْ»، فأمر أن يقول: «الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي»، فيُدْعَن بالتسليم لله في أنه يُعَلِّم بما شاء، ويُتَمَسَك عن عباده ما شاء، ثم قيل له: «وَمَا أُوتِيتُمْ يا محمد وجميع الخلاق من العلم إلا قليلاً، فالله تعالى يُعَلِّم من علمه بما شاء، ويدع ما شاء، ولئن شاء لذهب بالوحي الذي أتاك، ثم لا ناصر لك منه، فليس بعظيم ألا تجيء بتفسير في الرُّوح الذي أردت تفسيره للناس ووعدتهم بذلك. وروى ابن مسعود أنه سخرج ريح حمراء من قِبَلِ الشَّام فتزِيل القرآن من المصاحف ومن

الصدر، وتذهب به، ثم يتلو هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أراد ابن مسعود بتلاوة الآية أن يُبدي أن الأمر جائز الوقوع ليظهر مصداق خبره من كتاب الله عز وجل. و«الوكيل»: القائم بالأمر في الانتصار أو المخاصمة ونحو ذلك من وجوه النفع.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾ استثناء منقطع، أي: لكن رحمة من ربك يمسك ذلك عليك، وهذا الاستثناء المنقطع يُخَصِّصُ تَخْصِيصاً مَآ، وليس كالممتصل؛ لأن المتصل يُخَصِّصُ من الجنس أو الجملة، والمنقطع يُخَصِّصُ أجناباً من ذلك، ولا ينكر وقوع المنقطع في القرآن إلا أعجمي، وقد حُكي ذلك عن ابن خوزير مقداد. ثم عدّد عليه عز وجل كَيْرَ فضله في اختصاصه بالنبوّة، وحمايته من المشركين، إلى غير ذلك مما لا يحصى.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِيَنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ﴾ الآية.

سبب هذه الآية أن جماعة من قريش قالت لرسول الله ﷺ: يا محمد، جننا بأية غريبة غير هذا القرآن فإننا نغير نحن على المجيء بمثل هذا، فنزلت هذه الآية المصّرحة بالتمجيز، المعلّمة بأن جميع الخلائق إنساً وجرناً لو اجتمعوا على ذلك لم يقدروا عليه.

والعجز عن معارضة القرآن إنما وقع في النظم والرصف لمعانيه، وعلّة ذلك الإحاطة التي لا يتّصف بها إلا الله تعالى، والبشر مقصّر

ضرورة بالجهل والنسيان والغفلة وأنواع النقص، فإذا نظم كلمة خفي عنه - لِلْعِلَلِ التي ذكرنا - أليق الكلام بها في المعنى، وقد ذكرت هذه المسألة في صدر هذا الديوان.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَ﴾ في موضع رفع، و﴿لَا﴾ مُلْتَقِيَةٌ قَسَمًا، واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَن﴾ مؤذنة غير لازمة، قد تحذف أحياناً، وقد تجيء هذه اللام مؤكدة فقط ويجيء الفعل المنفي مجزوماً، وهذا اعتماداً على الشرط، ومنه قول الأعشى:

لَيْنٌ مُّبَيَّتٌ بِنَا عَنْ غَيْبٍ مَعْرُكَةٍ
لَا تُلْفِنَا عَنْ دِمَائِ الْقَوْمِ نَسْتَفِلُ
و «الظهير»: المغيّب، ومنه قوله عز وجل: ﴿وَأَن تَظْهَرَ عَلَيْنَا﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفهمت العرب بخلوص فهمها في مَيَزِ الكلام ودزيتها به ما لا نفهمه نحن ولا كل من خالطته حضارة، ففهموا العجز عنه ضرورة ومُشاهدة، وَعَلِمَهُ النَّاسُ بعدهم استدلالاً ونظراً، ولكلّ حصل علم قطعي لكن ليس في مرتبة واحدة، وهذا كما علمت الصحابة شَرَعَ النبي عليه الصلاة والسلام وأعماله مشاهدة علم ضرورة، وعلّمنا نحن المتواتر من ذلك بنقل التواتر، فحصل للجميع القَطْعُ، لكن في مرتبتين، وفهم إعجاز القرآن أرباب الفصاحة الذين لهم غرائب في مَيَزِ الكلام. ألا ترى إلى فهم الفرزدق شعر جرير في شعر ذي الرُّمّة في قوله:

يَعُدُّ النَّاسِيبُونَ إِلَى تَجِيمِ
.....

الآيات كلها، وألا ترى قصة جرير

في توارده مع الفرزدق في قول الفرزدق:

عَلَامٌ تَلْفُتَيْنِ

وفي قوله:

تَلْفُتٌ أَتَهَا تَحْتِ ابْنِ قَيْنِ

وألا ترى قول الأعرابي: «عزّ فحكم فقطع؟» وألا ترى إلى الاستدلال الآخر على البعث بقوله

تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾،

فقال: إن الزيارة تقتضي الانصراف.

ومنه علم بشار بقول أبي عمرو بن العلاء في شعر الأعشى:

وَأَتَكَّرْتَنِي وَمَا كَانَ الَّذِي نَكَّرْت

ومنه قول الأعرابي للأصمعي: مَنْ أَخَوَجَ الْكَرِيمِ إِلَى أَنْ يَقْسِمَ؟

ومن فهمهم أنهم بيدائهم يلقون بكلمة منشورة تفضل المُتَفَحُّ من الشعر، وأمثلة ذلك محفوظة، ومن ذلك أجوبتهم المُسَكَّتة، إلى غير ذلك من براعتهم في الفصاحة

وكونهم فيها النهاية، كما كان السحر في زمن موسى عليه السلام، والطب في زمن عيسى عليه السلام، فهم مع هذه الأفهام أقرّوا بالعجز، ولجأ

المُحَادُّ منهم إلى السيف، ورضي بالقتل والسبأ وكشف الحُرْمِ، وهو كان يجد المنذوحة عن ذلك بالمعارضة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك التحدي بالعشر السور،

والتحدي بالسورة، إنما وقع كله على حدّ واحد في النظم خاصة،

وقيد العشر بالافتراء لأنهم قالوا: إن

القرآن مفترى، فدعاهم بعقب ذلك إلى الإتيان بعشر سُورٍ مفتريات، ولم يذكر الافتراء في السُورة لأنهم لم يجز عنهم ذكر ذلك قَبْلَ، بل قال: ﴿وَلَنْ كُنْتُمْ فِي رَبِّ يَسَاءَ زَلَّكَآ عَلَىٰ عِبَادِنَا قَاتُوا سُورَةٌ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، على أنه قد جاء ذكر السُورة مع ذكرهم الافتراء في سورة هود، وقد اختلف الناس في هذا الموضع - فقيل: دُعُوا إلى السورة المماثلة في النظم والغيوب وغير ذلك من الأوصاف، وكان ذلك من تكليف ما لا يطاق، فلما عسر عليهم خُفِّفَ بالدعوة إلى المفتريات، وقيل غير هذا مما ينحل عند تحصيله.

﴿٨٩﴾ - ﴿٩٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تنبيه على فضل الله تعالى في القرآن على العالم، وتوبيخ للكفار منهم على قبيح فعلهم. وتضريف القول هو ترديد البيان عن المعنى. وقرأ الجمهور: ﴿صَرَفْنَا﴾ بتشديد الراء، وقرأ الحسن: ﴿صَرَفْنَا﴾ بفتح الراء خفيفة.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ يجوز أن تكون ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، ويكون المفعول بـ ﴿صَرَفْنَا﴾ مقدراً، تقديره: ولقد صرَفْنَا في هذا القرآن التنبيه والعبارة من كل مثل ضربناه، ويجوز أن تكون مؤكدة زائدة، والتقدير: ولقد صرَفْنَا كلُّ مثل، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَأَيُّدُوا مِنْ مَقَادِرِ إِزْهَاتٍ مُصَلِّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَلَّىٰ﴾ عبارة عن تكسب الكفار الكفر، وإعراضهم عن الإيمان، وفي العبارة بـ [أبي] تغليظ، والكفر بالخلق والاختراع هو من

فعل الله تعالى، وبالكسب والدُّعُوب هو من الإنسان. و﴿كَقَوْلٍ﴾ مصدر الخروج.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ﴾ الآية. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿حَتَّىٰ نُنْفِجَ لَنَا﴾، وقرأ عاصم، وحمة، والكسائي: ﴿حَتَّىٰ نَنْفِجَ﴾ بفتح التاء وضم الجيم، وفي القرآن ﴿فَانفَجَرْتُمْ﴾، وانفَجَرَ مطاوع فَجَرَ، فهذا مما يقوي القراءة الثانية، وأما الأولى فتقتضي المبالغة في التفجير. والينبوع: الماء النابع، وهي صفة مبالغة إنما تقع للماء الكثير.

وطلبت قريش هذا من رسول الله ﷺ بمكة، وإياها عنوا بـ ﴿الْأَرْضِينَ﴾، وإنما يراد بإطلاق لفظة الأرض هنا الأرض التي يكون فيها المعنى المتكلم فيه، كقوله تعالى: ﴿أَوْ يُنْفَخُوا مِنْ أَلْأَرْضِينَ﴾، فإنما يراد: من أرض تصرّفهم وقطعهم السبل ومعاشهم، وكذلك أيضاً اقتراحهم بالجنة إنما هو بمكة لامتناع ذلك فيها، وإلا ففي سائر البلاد كان ذلك يمكنه، وإنما طالبوه بأمر إلهي في ذلك الموضع الجذب. وقرأ الجمهور: ﴿جَنَّةٌ﴾ وقرئ: ﴿حبة﴾، ذكره المهدي. وقوله تعالى: ﴿نَنْفِجَ﴾ تضعيف مبالغة لا تضعيف تعدية، كقوله سبحانه: ﴿وَوَلَقَّتْ الْأَبْرَابَ﴾، و﴿جَلَلَهَا﴾ ظرف، ومعناه: أثناءها وفي داخلها.

وروي في قول هذه المقالة لرسول الله ﷺ حديث طويل، مقتضاه أن عتبة وشيبة ابني ربيعة، وعبدالله بن أبي أمية، والنضر بن

الحارث، وغيرهم من مشيخة قريش وساداتها اجتمعوا فعرضوا عليه أن يُملَكوه - إن أراد - المُلْك، وجمَعُوا له كثيراً من المال إن أراد الغنى، أو يُطَبِّوه إن كان به داء، ونحو هذا من الأقاويل، فدعاهم رسول الله ﷺ عند ذلك إلى الله، وقال: إنما جئتكم من عند الله بأمر فيه صلاح دينكم وديناكم، فإن سمعتم وأطعتم فحسن، وإلا صبرت لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم بما شاء، فقالوا له حينئذ: فإن كان ما تزعمه حقاً فنَجْر ينبوعاً ونؤمن لك، ولتكن لك جنة، إلى غير ذلك مما كلفوه، فقال لهم رسول الله ﷺ: «هذا كله إلى الله، ولا يلزميني اقتراح هذا ولا غيره، وإنما أنا مستسلم لأمر الله تعالى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا هو معنى الحديث، وفي الألفاظ اختلاف وروايات متشعبة يطول سؤق جميعها، فاختصرت بذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ تُسَوِّطَ السَّمَاءُ﴾ الآية. قرأ الجمهور: ﴿أَوْ تُسَوِّطَ﴾ بضم التاء ﴿السَّمَاءُ﴾ بالنصب، وقرأ مجاهد: ﴿أَوْ تُسَقِّطُ السَّمَاءُ﴾ برفع ﴿السَّمَاءُ﴾ وإسناد الفعل إليها، وقوله: ﴿كَمَا رَعَمْتَ﴾ إشارة إلى ما تلا عليهم قبل ذلك في قوله عز وجل: ﴿إِنْ نَشَأْ خَصِيفَ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ تُسَوِّطَ عَلَيْهِمُ كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمة، والكسائي: ﴿كِسْفًا﴾ بسكون السين، إلا في الرُوم فإنهم حرَكوها، ومعناها: قطعاً واحداً، قال مجاهد: السماء جميعاً، وتقول العرب:

وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَمَا يَجِدُ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ
مِنْ دُونِهِ، وَيُخَشِرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عِمَاءٌ وَكَمَا
وَصَمًا مَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا ﴿٩٧﴾
ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا إِنَّ كَأَعْظَمَنَا
وَرَفَاتَنَا أَهْلًا الْمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٩٨﴾ أَوْلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ
الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ
وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾
قُل لَّوِ تَوَسَّعَتْ أَرْضُكَ يَوْمَ تَكُونُ خُرَابًا رِجًا إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ
الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَفُورًا ﴿١٠٠﴾ وَقَدْءَأَلْنَا مَوْسَىٰ تِسْعَ
آيَاتٍ يَبْتَغِي قَسْبَ لَيْلٍ إِسْرَءِيلَ بِرَبِّهِمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
إِنِّي لَأظُنُّكَ يَمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَمَا نَزَّلَ
هُنَا آيَةَ الْإِرْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَافِرٍ وَإِنِّي لَأظُنُّكَ
بِفِرْعَوْنَ مُشْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَنْفِرَ بِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ
فَاعْرَفْنَاهُ وَمِنْ مَعَهُ جِجَعًا ﴿١٠٣﴾ وَقَلْنَا مَنْ بَعْدَهُ لَبِئْسَ إِسْرَءِيلَ
أَسْكَنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَهُ وَعْدُ الْآخِرَةِ جُنَابًا لِكَمَلِيفًا ﴿١٠٤﴾

٢١٢

ويزوي أن قائل هذه المقالة هو عبدالله بن أبي أمية، فإنه قال لرسول الله ﷺ: إنا لا نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب - أراد هنا كتابه - فيه: من الله عز وجل إلى عبدالله بن أبي أمية. وزوي أن جماعتهم طلبت هذا النحو منه، فأمره الله تعالى أن يقول: ﴿سُبْحَانَ رَبِّي﴾، أي: تنزيهاً له من الإتيان إليكم مع الملائكة قبيلًا، ومن أن يخاطبكم بكتاب كما أردتم، ومن أن أفترح عليه هذه الأشياء، وهل أنا إلا بشر

لنفرت طبايعهم من رؤيته، ولم تحتمله أبصارهم، ولا تجلّدت له قلوبهم، وإنما الله أجرى أحوالهم على معتادها.

٩٧ - ٩٨ - تفسير قوله عز وجل:

زوي أن الملائكة من قريش قالوا لرسول الله ﷺ المقالات التي تقدم ذكرها، من عرض الملائكة عليه والغنى وغير ذلك، وقالوا له في آخر قولهم: فلتجزيء معك طائفة من الملائكة تشهد لك بصدقك في نبوتك. قال المهدي: زوي أنهم قالوا له: فمن يشهد لك؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى أقوالهم إنما هو طلب شهادة دون أن يذكرها، ففي ذلك نزلت هذه الآية، أي: الله يشهد بيني وبينكم، الذي له الخبر والبصر بجمعنا، صادقنا وكاذبنا. ثم رد

منكم أرسلت إليكم بالشرعة، فإنما عليّ التبليغ فقط. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿قال سبحانه ربي﴾ على معنى الخبر عن رسول الله ﷺ أنه سبح عند قولهم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا﴾. هذه الآية على معنى التوبيخ والتلّف من النبي ﷺ، كأنه يقول متعجباً منهم: ما شاء الله كان، ما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا هذه العلة النزرة والاستبعاد الذي لا يستند إلى حجة، ويعتد البسّر رسلًا غير بدع ولا غريب، فبها يقع الإفهام والتكمن من النظر، كما لو كان في الأرض ملائكة يسكنونها ﴿مُطَمِّئِينَ﴾ أي: وادعين فيها مقيميين لكان الرسول إليهم من الملائكة، ليَقَعَ الإفهام، وأما البشر فلو بُعث إليهم ملك

﴿كَسَفَتْ الثُّوبَ﴾ ونحوه: قطعته، فالكسف - بفتح السين - المصدر، والكسف: الشيء المقطوع، قال الزجاج: المعنى: أو تُسقط السماء علينا طبقًا، واشتقاقه من: كَسَفْتُ الشيء إذا غَطَيْتُهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس بمعروف في دواوين اللغة (كسَفَ) بمعنى (غَطَى)، وإنما هو بمعنى (قَطَعَ)، وكان كسوف الشمس والقمر قطع منهما، وقرأ نافع، وعاصم - في رواية أبي بكر - ﴿كَسَفًا﴾ بفتح السين، أي: قطعًا، جمع (كِسْفَةٌ).

وقوله: ﴿قَبِيلًا﴾ معناه: مقابلة وعيانًا، وقيل: معناه: ضامنًا وزعيمًا بتصديقك، ومنه القبالة، وهي الضمان، والقَبِيلُ: الْمُتَقَبِّلُ الضامن، وقيل: معناه: نوعًا وجنسًا لا نظير له عندنا. وقرأ الأعرج: ﴿قَبِيلًا﴾ وهو بمعنى المقابلة.

٩٧ - ٩٨ - تفسير قوله عز وجل:

قال المفسرون: «الزُّخْرُفُ»: الذهب في هذا الموضع، والزخرف: ما تُزَيَّن به، كان بذهب أو غيره، ومنه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَنْزَلْنَا الرُّسُلَ نُرُوقَهَا﴾، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ ذَهَبٍ﴾. وقوله: ﴿فِي السَّمَاءِ﴾ يريد: في الهواء علوًا، والعرب تسمي الهواء علوًا سما، لأنه في حيز السمو، ويحتمل أن يريد السماء المعروفة، وهو الظاهر؛ لأنه أعلمهم أن إله الخلق فيها، وأنه يأتيه خبرها. و﴿تَرَفًا﴾ معناه: تصعد، والرؤي: الصعود.

الأمر إلى خلق الله واختراعه الهدى والضلال في قلوب البشر، أي: ليس بيدي من أمركم أكثر من التبليغ، وفي قوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لَكُمْ آيَاتٍ مِنْ دُونِنَا﴾ وعيد.

ثم أخبر تعالى أنهم يحشرون على الوجوه غمياً وبُكماً وضماً، وهذا قد اختلف فيه - فقيل: هي استعارات، إما لأنهم من الحيرة والهَمُّ والذهول يشبهون أصحاب هذه الصفات، وإما من حيث لا يرون ما يسرهم، ولا يسمعون، ولا ينطقون بحجة. وقيل: هي حقيقة كلها، وذلك عند قيامهم من قبورهم، ثم يردُّ الله تعالى إليهم أبصارهم وسمعهم ونطقهم، فعند ردِّ ذلك إليهم يرون النار، ويسمعون زفيرها، ويتكلمون بكل ما حكى عنهم في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال للمنصرف عن أمرٍ خائباً مهوماً: انصرفت على وجهه، ويقال للبعير: كأنما يمشي على وجهه، ومن قال ذلك في الآية حقيقة قال: أقدرهم الله تعالى على الثقلة على الوجوه كما أقدرهم في الدنيا على النقلة على الأقدام، وفي هذا المعنى حديث، قيل: يا رسول الله، كيف يمشي الكافر على وجهه؟ قال: «أليس الذي أمشاه في الدنيا على رجلين قادر أن يمشيه في الآخرة على وجهه؟» قال قتادة: بلى وعزة ربنا.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا حَبَسَ﴾ أي: كلما فرغت من إحراقهم، فيسكن اللهب القائم عليهم قدر ما

يعادون ثم يثور، فلك زيادة السعير، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالزيادة في حيزهم، وأما جهنم فعلى حالها من الشدة لا يصيبها فتور. و«حَبَسَتِ النَّارُ» معناها: سكن اللهب والجمر على حاله، و«حَمَدَتِ» معناها: سكن الجمر وضعف، و«هدمت» معناها: طفيت جملة، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

لَمَنْ نَارٌ قَبِيلُ الصُّبِّ
حِ عِنْدَ الْبَيْتِ مَا تَخْبُو
إِذَا مَا أَخْمَدَتْ يُلْقَى
عَلَيْهَا الْمَسْدَلُ الرُّطْبُ؟

ومنه قول عدي بن زيد:

وَسَطُهُ كَأَلْبَرِاحٍ أَوْ سُرْجِ الْمَجْدِ
بِذَلِكَ حِينًا يَخْبُو وَحِينًا يُبَيِّرُ

ومنه قول القطامي:

.....
فَيَخْبُو سَاعَةً وَيَهْبُ سَاعَةً
قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ جَزَاءُكُمْ﴾، الآية إشارة إلى الوعيد المتقدم بجهنم. وقوله: ﴿يَبَايِنَانَا﴾ يعُمُّ الدلائل والحجج التي جاء بها محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ويعُمُّ آيات القرآن الكريم وما تضمن من خبر وأمر ونهي. ثم عظم عليهم أمر إنكار البعث، وخضه بالذكر مع كونه في عموم الكفر بآيات القرآن الكريم، ووجه تخصيصه التعظيم له، والتنبيه على خطارة الكفر في إنكاره، وقد تقدم اختلاف القراء في الاستفهامين في غير هذا الموضع.

و«الرُفَاتُ»: بقية الشيء التي

قد أصارها البلى إلى حالة التراب، و«الْبُعْثُ»: تحريك الشيء الساكن، وهذا الاستفهام منهم على جهة الإنكار والاستبعاد للمُحال بزعمهم.

٩٩ - ١٠١ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية احتجاج عليهم فيما استبعدوه من البعث، وذلك أنهم قُروا على خلق الله واختراعه لهذه الجملة التي البشر جزء منها، فهم لا ينكرون ذلك، فكيف يصح لهم أن خمول العدم وينكرون إعادته للبعث؟ فحصل الأمر في حيز الجواز. وأخبر الصادق الذي قامت دلائل معجزاته بوقوع ذلك الجائز. والرؤية في هذه الآية رؤية القلب، و«الأجل» ما هنا يحتمل أن يريد القيامة، ويحتمل أن يريد أجل الموت، والأجل - على هذا التأويل - اسم جنس؛ لأنه وضعه موضع الأجال. ومقصد هذا الكلام بيان قدرة الله عز وجل وملكه لخلقه، وبتقدير ذلك يقوى جواز بعثه لهم حين يشاء لا إله إلا هو. وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ﴾ عبارة عن تكسبهم وجنوحهم، وقد مضى تفسير هذه الآية آنفاً.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ الآية. حكم (لَوْ) أن يليها الفعل، إما مظهرأ وإما مضمراً يفسره الظاهر بعد ذلك، فالتقدير هنا: قل لو تملكون أنتم تملكون خزائن، ف«أَنْتُمْ» رفع على تبع الضمير. و«الرُّحْمَةُ» في هذه الآية: المال والنعم التي تصرف في الأرزاق، ومن هذا سميت

رحمة. و«الإنفاق» المعروف: إذهاب المال. وهو مؤد إلى الفقر، فكأن المعنى: خشية عاقبة الإنفاق. وقال بعض اللغويين: «أنفق الرجل» معناه: انفق.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ معناه: مُنْسَكًا، يريد أن في طبعه ومنتهى نظره أن الأشياء تتناهى وتفنى، فهو لو مَلَكَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى لِأَمْسَكَ خَشِيَةَ الْفَقْرِ، وكذلك يظن أن قدرة الله تبارك وتعالى تقف دون البعث، والأمر ليس كذلك، بل قدرته لا تتناهى، فهو يخترع من الخلق ما يشاء، ويختزن من الرحمة الأزراق، فلا يخاف نفاذ خزائن رحمته، وبهذا النظر تلتبس هذه الآية بما قبلها، والله ولي التوفيق برحمته، ومن الإقتار قول أبي ذؤاد:

لَا أَعْدُ الْإِقْتَارَ عُدْمًا وَلَكِنْ
فَقَدْ مَن قَدْ زُرْتُهُ الْإِعْدَامُ
قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى
تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾. اتفق المتأولون
والرواة أن الآيات الخمس التي في
سورة الأعراف هي من بين هذه
التسع، وهي: الطوفان، والجراد،
والقمل، والضفادع، والدم.
واختلفوا في الأربع - فقال ابن
عباس رضي الله عنهما: هي يده،
ولسانه حين انحلت عقده،
وعصاه، والبحر. وقال محمد بن
كعب القرظي: هي: البحر،
والعصا، والطمنسة، والحجر،
وقال: سألتني عن ذلك عمر بن
عبد العزيز رضي الله عنه فأخبرته،

فقال: وما الطمنسة؟ فقلت: دعا
موسى وأمن هارون عليهما السلام،
فطمس الله أموالهم وردّها حجارة.
فقال عمر: وهل يكون الفقه إلا
هكذا؟ ثم دعا بخريطة فيها غرائب
كانت لعبد العزيز بن مروان جمعها
بمصر، فاستخرج منها الحوزة
والبيضة والعدسة، وهي كلها أحجار
كانت من بقايا أموال فرعون، وقال
الضحاك: هي إلقاء العصا مرّتين،
واليد وعقدة لسانه. وقال عكرمة،
ومطر السوراق، والشعبي: هي
العصا، واليد، والسنون، ونقص
الثمرات. وقال الحسن: هي العصا
في كونها ثعباناً، واليد، والسنون،
وتلقف العصا ما يأفكون. وقال ابن
عباس رضي الله عنهما: هي السنون
في بواديهما، ونقص الثمرات في
قراهم، واليد، والعصا. وروى
مصرف عن مالك أنها العصا،
واليد، والجبل إذ نتق، والبحر.
وروى ابن وهب عنه مكان البحر
الحجر، والذي يلزم من الآية
أن الله تعالى خصّ من آيات موسى
- إذ هي كثيرة تنيف على أربع
وعشرين - تسعاً بالذكر، ووصفها
بالبیان ولم يعينها، واختلف العلماء
في تعيينها بحسب اجتهادهم في
بيانها، أو رواياتهم التوفيقية في
ذلك. وقالت فرقة: آيات موسى
عليه السلام إنما أريد بها آيات
التوراة التي هي أوامر ونواه، وروى
في هذا صفوان بن عسال أن يهودياً
من يهود المدينة قال لآخر: سيز بنا
إلى هذا النبي نسأله عن آيات موسى
- عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام -،

فقال الآخر: لا تقل إنه نبي، فإنه
لو سمعك صار له أربعة أعين،
قال: فساروا إلى رسول الله ﷺ:
فسألوه، فقال: «هي ألا تشركوا بالله
شيئاً، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا
تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا
بالحق، ولا تمشوا ببيري، إلى
سلطان ليقته، ولا تسخروا، ولا
تأكلوا الربا، ولا تقذفوا المحصنة،
ولا تفرّوا يوم الزحف، وعليكم
خاصة يهود: ولا تعدوا في
السبت».

وقرأ الجمهور: ﴿فَسَأَلَ بَنِي
إِسْرَائِيلَ﴾، وروى عن الكسائي:
﴿فَسَلَّ﴾ على لغة من قال: ﴿سَأَلَ
يَسْأَلُ﴾، وهذا كله على معنى الأمر
لمحمد ﷺ، أي: أسأل معاصريك
عما أعلمناك به من غيب القصة، ثم
قال: ﴿إِذْ جَاءَهُمْ﴾، يريد: آباءهم،
وأدخلهم في الضمير إذ هم منهم،
ويحتمل أن يريد: فاسأل بني
إسرائيل الأولين الذين جاءهم موسى
عليه السلام، وتكون إحالته إياه على
سؤالهم بطلب أخبارهم والنظر في
أحوالهم وما في كتبهم، نحو قوله
تعالى: ﴿وَسَتَلَّ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ
رُسُلِنَا﴾، وهذا كما تقول لمن تعظه:
سَلِ الْأُمَمَ الْخَالِيَةَ هَلْ بَقِيَ مِنْهَا
مُخَلَّدٌ؟ ونحو هذا مما يجعل النظر
فيه مكان السؤال. قال الحسن:
سؤالك إياهم نظرك في القرآن. وقرأ
ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَسَأَلَ
بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، أي: سأل موسى بني
إسرائيل، أي طلبهم لينجيهم من
العذاب.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرْنَا﴾، اختلف

فيه المتأولون - فقالت فرقة: هو مفعول على بابيه، أي: إنك قد سحرت فكلامك مختل وما تأتي به غير مستقيم. وقال الطبري: هو مفعول بمعنى فاعل، كما قال تعالى: ﴿جِبَابًا مَسْتُورًا﴾، وكما قالوا: مَشْتَوْمٌ وَمَمِيمُونَ، وإنما هو: شائِمٌ ويامن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يتخرج إلا على النسب، أي: ذا سِحْرِ مَلَكْتَهُ وَعَلِمَتَهُ، فأنت تأتي بهذه الغرائب لذلك. وهذه مخاطبة تَنْقُصُ، فيستقيم أن يكون ﴿مَسْحُورًا﴾ مفعولاً على ظاهره، وعلى أن يكون بمعنى: ساحر يعارضنا، (أما ما حُكِيَ عنهم أنهم قالوا له - على جهة المدح -: ﴿يَبَاءُ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾، فإما أن يكون القائلون هنالك ليس فيهم فرعون، وإما أن يكون فيهم لكنه تنقل من تَنْقُصُهُ إلى تعظيمه. وفي هذا نظر.

﴿١٠٢﴾ - ﴿١٠٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وغيره، أنه قرأ: ﴿عَلِمْتُ﴾ ببناء المتكلم مضمومة، وقال: «وما علم عدو الله قط، وإنما علم موسى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتتقوى هذه القراءة لمن تأول ﴿مَسْحُورًا﴾ على بابيه، فلما رمأه فرعون بأنه قد سحر فَمَسَدَ نظره وعقله وكلامه، ردَّ هو عليه بأنه يعلم آيات الله تعالى، وأنه ليس بمسحور، بل مُحَرَّرٌ لما يأتي به.

وهي قراءة الكسائي. وقرأ الجمهور: ﴿لَقَدْ عَلِمْتُ﴾ ببناء المخاطب مفتوحة، فكأن موسى عليه السلام رمأه بأنه يكفر عناداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن قال بوقوع الكفر عناداً فله تعلق بهذه الآية، وجعلها كقوله عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا آيَاتِنَا آسَافًا مُّذْتَبِثًا وَاسْتَبَقْتَهَا أَنفُسُهُمْ﴾، وقد حكى الطبري ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ونحا إليه الزجاج وهي، بعد معرضة للاحتمال على أن يكون قول موسى عليه السلام إبلاغاً على فرعون في التوبيخ، أي: أنت بحال من يعلم هذا، وهي من الوضوح بحيث تعلمها، ولم يكن ذلك على جهة الخبر عن علم فرعون.

وقوله تعالى: ﴿بَصَائِرُ﴾ جمع بصيرة، وهي الطريقة، أي طرائق يهتدى بها، وكذلك غلب على البصيرة أنها تستعمل في طريقة النفس في نظرها واعتقادها، ونصب ﴿بَصَائِرُ﴾ على الحال.

والمشهور: المَهْلِكُ، قاله مجاهد، وقال ابن عباس، والضحاك: هو المغلوب، وقال ابن زيد: هو المخبول، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه فسره بالملعون. وقال بعض العلماء: كان موسى عليه السلام في أول أمره يجزع، ويؤمر بالقرول اللئيم، ويطلب الوزير، فلما تقوت نفسه بقوى النبوة وتجلد قابل فرعون بأكثر مما أمر به، بحسب اجتهاده الجائز له. قال ابن زيد: اجترأ موسى أن يقول له فوق ما

أمره الله به. وقالت فرقة: بل المشبور: المغلوب المُخْرَعُ، وما كان موسى عليه السلام ليكون لعناً، ومن اللفظة قول عبدالله بن الزُّبَيْرِي:

إذ أُجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ الْعَمِي وَمَنْ مَالٌ مِّنْهُ مَسْتَبِيرُ
وقوله تعالى: ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَنْزِلَهُمْ مِّنَ الْأَرْضِ﴾ الآية. ﴿يَسْتَبِيرُهُمْ﴾ معناه: يَسْتَحْفَهُمْ وَيُقْلِقُهُمْ، إما بقتل أو بإجلاء، و﴿الْأَرْضِ﴾ هي أرض مصر، وقد تقدم أنه متى ذكرت «الأرض» عموماً فإنما يراد بها ما يناسب القصة المتكلم فيها، وقد يحسن عمومها في بعض القصص.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واقتضت هذه الآية قصص بني إسرائيل مع فرعون، وإنما ذكرت عَظَمَ الأمر وخطيره، وذلك طَرَفَاهُ: أراد فرعون غلبتهم وقتلهم، وهذا كان بدء الأمر، فأغرقه الله تبارك وتعالى وأغرق جنوده، وهذا كان نهاية الأمر. ثم ذكر الله تعالى بني إسرائيل بعد إغراق فرعون بسكنى أرض الشَّامِ.

و﴿وَتَدَّ الْأَخْزِرُ﴾ هو يوم القيامة. و﴿الْقَيْفُ﴾: الجمع المختلط الذي قد لُفَّ بعضه ببعض، فليس ثم قبائل ولا انحياز. وقال بعض اللغويين: هو من أسماء الجموع، ولا واحد له من لفظه، وقال الطبري: هو بمعنى المصدر كقول القائل: لَفَقْتُه لُفًّا ولقيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر فتأمله.

﴿وَيَلْحَقُ أَنْزَلَهُ وَبَلَّغَ نَزْلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾
 ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى حُكْمٍ﴾ وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا ﴿قُلْ ءَأَمْرًا يُؤْتَىءُ أَوْ لَا تُوْتَىءُ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِذْ بَايَعُوا أَنَّهُمْ غَنِيْمَةً حَتَّىٰ يُصَلُّوا عَلَيْهِمْ يُخْرَجُونَ لِأَذْقَانِ سَجْدًا ﴿١٠٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٠٨﴾ وَيُخْرَجُونَ لِأَذْقَانِ يَسْكُرُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٠٩﴾ قُلْ أَدْعُوا اللَّهَ أَدْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرُوا بِصَلَاتِكُمْ وَلَا تَخَافُوهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١١٠﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ يَمِينٌ مِنَ الذَّلِّ وَكَرِهَ تَكْبِيرًا ﴿١١١﴾

سورة الكافران
 بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لِمَنْ عَرَفَهُ قِيمًا لِيُذِرَ بِأَسَدِيْدٍ آمِنٍ لِدُنَّةِ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿١﴾ تَكْبِيرًا ﴿٢﴾ فِيهِ أُنبِءٌ لِلَّذِينَ قَالُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا نَدْرِكُ

٢٩٣

هذا المعنى مع قوله تعالى: ﴿لِيَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى حُكْمٍ﴾، وهذا كان بما أراد الله تعالى من نزوله بأسباب تقع في الأرض من أقوال وأفعال في أزمان محدودة معينة.

واختلف أهل العلم، في كم نزل القرآن من المدة؟ فقول: في خمس وعشرين سنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: في ثلاث وعشرين، وقال قتادة: في عشرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بحسب الخلاف في سن رسول الله ﷺ، وذلك أن الوحي جاء وهو ابن أربعين سنة، وتم بموته. وحكى الطبري عن الحسن البصري أنه قال: نزل القرآن في ثماني عشرة سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مختل، لا يصح عن الحسن، والله أعلم.

وتأولت فرقة قوله تعالى: ﴿عَلَى حُكْمٍ﴾، أي: على ترسل في التلاوة وترتيل، هذا قول مجاهد، وابن عباس، وابن جريج، وابن زيد. والتأويل الآخر، أي: على حُكْمٍ وتطاول في المدة شيئاً بعد شيء. وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَاهُ نَزِيلًا﴾ مبالغة وتأکید بالمصدر للمعنى المتقدم ذكره في ألفاظ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأجمع القراء على ضم الميم من

﴿١٠٧﴾ - ﴿١٠٨﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ عائد على القرآن المذكور في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، وسجوز أن يكون الكلام أنفياً، وأشار بالضمير إلى القرآن على غير ذلك متقدم لشهرته، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، وهذا كثير.

قال الزهراوي: معناه: بالواجب الذي هو المصلحة والسداد للناس والحق في نفسه، وقوله سبحانه: ﴿وَالْحَقِّ نَزْلًا﴾ يريد: بالحق في أوامره ونواهيه وأخباره، فهذا التأويل يكون تكرار اللفظ لمعنى غير الأول، وذهب الطبري إلى أنهما بمعنى واحد، أي: بأخباره وأوامره، وبذلك نزل.

وقوله تعالى: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾. مذهب سيبويه أن نصبه بفعل مضمير يفسره الظاهر بعد، أي: وفرقنا قرآناً، ويصح أن يكون معطوفاً على الكاف في ﴿أَرْسَلْنَاكَ﴾، من حيث كان إرسال هذا وإتزال هذا لمعنى واحد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بتخفيف الراء، ومعناه: بيئناه وأوضحناه وجعلناه فرقاناً، وقرأ ابن عباس، وقتادة، وأبو رجاء، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وأبي بن كعب، والشعبي، والحسن - بخلاف - وحُمَيد، وعمرو بن فائد: ﴿فَرَقْنَاهُ﴾ بشد الراء، إلا أن في قراءة ابن مسعود، وأبي بن كعب: ﴿فَرَقْنَاهُ عَلَيْنَا لِيَقْرَأَهُ﴾، أي: أنزلناه شيئاً بعد شيء، لا جملة واحدة، ويتناسق

﴿حُكْمٍ﴾، ويقال: حُكْمٌ وَمُكْتٌ بضم الميم ويفتحها، ويكْتُ بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمْرًا يُؤْتَىءُ﴾ الآية. هذه آية تحقير للكفار، وفي ضمنه ضرب من التوعّد، والمعنى: إنكم لستم بحجة، فسواء علينا أمتم أو كفرتم، وإنما ضرر ذلك على أنفسكم، وإنما الحجة أهل العلم من قبله، وهم بالصفة المذكورة.

واختلف الناس في المراد بالذين أوتوا العلم من قبله - فقالت فرقة: هم مؤمنو أهل الكتاب. وقالت فرقة: هم ورقة بن نوفل، وزيد ابن عمرو بن نفيل، ومن جرى مجراهما، وقيل: إن جماعة من أهل الكتاب جلسوا وهم على دينهم فتذاكروا أمر النبي عليه الصلاة والسلام وما أنزل عليه، وقرئ

عليهم منه شيء فخشعوا وسبحوا الله
وسجدوا له، وقالوا: هذا وقت نبؤة
المذكور في التوراة، وهذه صفته،
ووغد الله به واقع لا محالة،
وجنحوا إلى الإسلام هذا الجنوح،
فنزلت الآية فيهم، وقالت فرقة:
المراد بالذين أوتوا العلم من قبله
محمد ﷺ، والضمير في ﴿قَبْلِهِ﴾
عائد على القرآن، حَسَبَ الضمير في
﴿بِهِ﴾، وَيَبَيِّنُ ذلك قوله: ﴿إِنَّا يَسْأَلُ
عَلَيْهِمْ﴾. وقيل: الضميران
لمحمد ﷺ، واستأنف ذكر القرآن
في قوله: ﴿إِنَّا يَسْأَلُ عَلَيْهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَجْزُونَ لِلَّذِينَ﴾،
أي: لِنَاجِيَتِهَا، وهذا كما تقول:
ساقطٌ لزيد والقم، أي: لناحيتهما
وعليهما، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: المعنى: للوجوه،
وقال الحسن: للئحى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والأذقان أسافل الوجوه حيث يجتمع
اللحيان، وهي أقرب ما في رأس
الإنسان إلى الأرض لا سيما عند
سجوده، وقال الشاعر:

فَخَرُّوا لِلأَذْقَانِ الوُجُوهَ تَشْوِشُهُمْ
سِبَاعَ مِنَ الطَّيْرِ العَوَادِي وَتَشْفِيفُ
و ﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنْ كَانَ
وَعَدَّ رَبًّا﴾ هي عند سيويه المخففة
من الثقيلة. واللام بعدها لام
التأكيد، وهي عند الفراء النافية
واللام بمعنى: إلا. ويتوجه في هذه
الآية معنى آخر، وهو أن يكون
قوله: ﴿قُلْ مَا يَشْرَأُ بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا﴾
مخلصاً للوعيد دون التحقير.
والمعنى: فَتَسْتَرُونَ مَا تُجَاوِزُونَ بِهِ، ثم

ضرب لهم المثل - على جهة التقرير
- بمن تقدم من أهل الكتاب، أي:
إن الناس لم يكونوا كما أنتم في
الكفر، بل كان الذين أوتوا التوراة
والإنجيل والزبور والكتب المنزلة في
الجملة إذا تلى عليهم ما نزل عليهم
خشعوا وأمنوا.

﴿١١٧﴾ - ﴿١١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مبالغة في صفتهم، ومذخ
لهم، وحضٌ لكل من توسم بالعلم
وحصل منه شيئاً أن يجري إلى هذه
الرؤية. وحكى الطبري عن الثبيتي أنه
قال: إن من أوتي من العلم ما لم
يُنَبِّهْ لخليق ألا يكون أوتي علماً
ينفعه؛ لأن الله تعالى نَعَت العلماء
فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا العِلْمَ مِن
قَبْلِهِ...﴾ إلى آخر الآيتين.

وقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللهَ أَوْ
ادْعُوا الرَّحْمَنَ﴾ الآية.

سبب نزول هذه الآية أن المشركين
سمعوا رسول الله ﷺ يدعو:
«يا الله، يا رحمن»، فقالوا: كان
محمد يأمرنا بدعاء إله واحد، وهو
يدعو إلهين. قاله ابن عباس
رضي الله عنهما. وقال مكي:
تهجد رسول الله ﷺ ليلته، فقال في
دعائه: «يا رحمن يا رحيم»، فسمعه
رجل من المشركين - وكان باليمامة
رجلٌ يسمى الرحمان - فقال ذلك
السامع: ما بال محمد يدعو رحمان
اليمامة، فنزلت الآية مبيته أنها أسماء
لشيء واحد، فإن دعوتهم بالله فهو
ذلك، وإن دعوتهم بالرحمن فهو
ذلك.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَيَا مَنْ

تَدْعُو قُلَّةَ الأَسْمَاءِ الحُسْنَى﴾، أي:
وله سائر الأسماء الحسنى، أي التي
تقتضي أفضل الأوصاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهي بتوقيف، لا يصح وضع
اسم الله تعالى إلا بتوقيف من القرآن
والحديث. وقد روي: «إِنَّ الله تَسَعَةٌ
وتسعين اسماً...» الحديث، ونصها
كلها الترمذي وغيره بسند صحيح.
وتقدير الآية: أَي الأسماء تدعو به
فأنت مصيب، له الأسماء الحُسْنَى.

ثم أمر رسول الله ﷺ ألا يجهر
بصلاته، وألا يخافت بها، وهو
الإشراز الذي يسمعه المتكلم به،
هذه هي حقيقته، ولكنه في الآية
عبارة عن خفض الصوت وإن لم يثنه
إلى ما ذكرناه.

واختلف المتأولون في «الصلاة»،
ما هي؟ فقال ابن عباس، وعائشة
رضي الله عنهما، وجماعة: هي
الدعاء. وقال ابن عباس أيضاً: هي
قراءة القرآن في الصلاة، فهذا على
حذف مضاف، والتقدير: ولا تجهر
بقراءة صلاتك، قال: والسبب أن
رسول الله ﷺ جهر بالقراءة فسمعه
المشركون فسبوا القرآن ومن أنزله،
فأمر رسول الله ﷺ بالوسط، ليُسمع
أصحابه المصلين معه ويذهب عنه
أذى المشركين. وقال ابن سيرين:
كان الأعراب يجهرون بتشهدهم
فنزلت الآية في ذلك، وكان أبو بكر
رضي الله عنه يُسِرُّ قراءته، وكان
عمر رضي الله عنه يجهر بها، ف قيل
لهما في ذلك، فقال أبو بكر: إنما
أناجي ربي وهو يعلم حاجتي، وقال
عمر: أنا أطرح الشيطان وأوقظ

بطريق الذل، وعلى جهة الانتصار؛ إذ ولايته موجودة بتفضله ورحمته لمن وإلى من صالح عباده. قال مجاهد: المعنى: لم يُخالف أحداً، ولا ابتغى نصر أحد.

وقوله: ﴿ذِكْرٌ نَكِيرٌ﴾ أبلغ لفظة للعرب في معنى التعظيم والإجلال، ثم أكدها بالمصدر تحقيقاً لها، وإبلاغاً في معناها. وروى مُطَرِّفٌ عن عبدالله بن كعب قال: «افتتحت التوراة بفاتحة سورة الأنعام، وختمت بخاتمة هذه السورة».

الوسنان، فلما نزلت هذه الآية قيل لأبي بكر رضي الله عنه: ارفع أنت قليلاً، وقيل لعمر رضي الله عنه: اخفض أنت قليلاً. وقالت عائشة أيضاً رضي الله عنها: الصلاة يُراد بها في هذه الآية التشهد، وقال ابن عباس، والحسن: المراد: لا تُحَسِّنْ صلاتك في الجهر، ولا تُسَيِّئْها في السر، بل اتَّبِعْ طريقاً وسطاً يكون دائماً في كل حالة. وقال ابن زيد: معنى الآية النهي عما يفعله أهل الإنجيل والتوراة من رفع الصوت أحياناً فيرفع الناس معه، ويخفض أحياناً فيسكت من خلفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية: إن معناها: ولا تجهر بصلاة النهار، ولا تخافت بصلاة الليل، واتبع سبيلاً من امتثال الأمر كما رسم لك، ذكره يحيى بن سلام، والزهراوي. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: لم يخافت من أسمع أذنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما زوي من أنه قيل لأبي بكر رضي الله عنه: «ارفع أنت قليلاً» يرُدُّ هذا، ولكن هذا الذي قال ابن مسعود رضي الله عنه هو أصل اللُغة، ويستعمل الخفوت بعد ذلك في أرفع من ذلك.

وقوله تعالى: ﴿رَقُلْ لَمَعَدُ لِلَّهِ الْآزِي لَرَبِّ نَجِدْ دَلَاً﴾. هذه الآية رادة على اليهود والنصارى والعرب في قولهم أفذاذاً: «عزَّير وعيسى والملائكة ذرية الله»، سبحانه وتعالى عن أقوالهم، وراثة على العرب في قولهم: «لولا أولياء الله لذل»، وقيد لفظ الآية نفي الولاية لله عز وجل

مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا يَلْبِئُهُمْ كِبَارُ كَلِمَةٍ تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ﴿١﴾ فَلَمَّا كَثُرَ نَفْسَكَ عَلَيَّ أَتَيْنَهُمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَسْلُوهُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُثًا ﴿٤﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٥﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةَ إِلَى الْكَهْفِ فَعَالُوا رَبَّنَا إِنَّا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهِيَ خَيْرٌ لَنَا مِنْ آمْرِنَا وَرَشِيدًا ﴿٦﴾ فَقَضَيْنَا إِلَهُمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿٧﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَبِّئَ الَّذِينَ فِي الْأَرْضِ بِمَا عَصَوْا رَبَّهُمْ لِمَا نَسُوا أَمَّا لِيُحَيِّوهُمْ فَتُحْيِيَهُمْ وَرَدَّ لَهُمْ هُدًى ﴿٨﴾ وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ الْأَرْضِ لَنَنْدَعُوهُمْ مِنْ دُونِهِمْ إِنَّا لَشَطَطًا ﴿٩﴾ هُنَالِكَ قَوْمًا تَمَّخَدُوا مِنْ دُونِهِمْ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفِتْيَةً أَلْفَاظُهَا نَكِيرًا ﴿١٠﴾

من قرأ بها يوم الجمعة غفر له ما بين الجمعة إلى الجمعة الأخرى - وزيادة ثلاثة أيام في رواية أنس -، ومن قرأ بها أعطي نوراً بين السماء والأرض، ووفى بها فتنة القبر.

١ - تفسير قوله عز وجل: كان حفص عن عاصم يسكت عند قوله تعالى: ﴿عَوْبًا﴾ سكتة خفيفة، وعند مَرْقَدِيَّاتٍ ﴿فِي يَسَنٍ﴾، وسبب هذه البُداءة في هذه السورة أن رسول الله ﷺ لما سأله قريش عن المسائل الثلاث: الروح والكهف وذو القرنين - حسبا أمرتهم به يهود - قال لهم رسول الله ﷺ: «عُدًّا» أخبركم بجواب سؤالكم، ولم يقل: «إن شاء الله»، فعاتبه الله تعالى بأن أسك عنه الوحي خمسة عشر يوماً، فأرجف به كنفار قريش، وقالوا: إن محمداً قد تركه رثيه الذي

نجز تفسير سورة الإسراء والله الحمد والمنة وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلّم

تفسير سورة الكهف

هذه السورة مكّية في قول جميع المفسرين، وزوي عن فرقة أن أول السورة نزل بالمدينة، إلى قوله تعالى: ﴿جُرُثًا﴾، والأول أصح. وهي من أفضل سور القرآن، زوي أن النبي ﷺ قال: «الآ أخبركم بسورة (ملاً) عظمتها ما بين السموات والأرض، ولمن جاء بها من الأجر مثل ذلك؟ قالوا: أي سورة هي يا رسول الله؟ قال: (سورة الكهف)،

كان يأتيه من الجن، وقال بعضهم: قد عجز عن أكاذيبه، إلى غير ذلك، فشق ذلك على رسول الله ﷺ، وبلغ منه، فلما أن قضى الأمر الذي أراد الله تعالى عتاب محمد - ﷺ - عليه، جاء الوحي من الله تعالى بجواب الأسئلة وغير ذلك، فافتتح الوحي بحمد الله الذي أنزل على عبده الكتاب، أي: بزعمكم أنتم يا قريش، كما تقول لرجل يحب مساءةً لك فلا يرى إلا نعمتك: الحمد لله الذي أنعم عليّ وفعل بي كذا، على جهة النعمة عليه. و«الكتاب» هو القرآن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَوَجًا﴾ أي: لم يُزَلِّه عن طريق الاستقامة، و«العوج» فقد الاستقامة، وهو بكسر العين في الأمور والطرق وما لا يحسّ منتصباً شخصاً، و«العوج» بفتح العين في الأشخاص، كالعصا والحائط ونحوه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يجعله مخلوقاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَوَجًا﴾ يعمُّ هذا وجميع ما ذكر من أنه لا تناقض فيه، ومن أنه لا خلل ولا اختلاف فيه.

وقوله تعالى: ﴿يَتِيمًا﴾ نصب على الحال من «الِكِتَابِ»، فهو بمعنى التقديم مؤخّر في اللفظ، أي: أنزل الكتاب قيماً، واعترض بين الحال وذو الحال قوله: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ عَوَجًا﴾. ذكر الطبري هذا التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويجوز أن يكون [مَنْصُوبًا] بفعل مضمر

تقديره: أنزله، أو جعله قيماً، وفي بعض مصاحف الصحابة: ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عَوْجًا وَلَكِنْ جَعَلَهُ قِيَمًا﴾، قاله قتادة. ومعنى «قيّم» مستقيم، هذا قول ابن عباس، والضحاك، وقيل: معناه أنه قيّم على سائر الكتب بتصرفها. ذكره المهدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا محتمل، وليس من الاستقامة. ويحتمل أن يكون معنى «قيّم» قيامه بأمر الله تبارك وتعالى على العالم، وهذا المعنى يؤيده ما بعده من النذارة والشارة للَّذِينَ عَمَّا الْعَالَمِ. و«البأس الشديد»: عذاب الآخرة، ويحتمل أن يندرج معه في النذارة عذاب الدنيا ببذر وغيرها، ونصبه على المفعول الثاني، والمعنى: لِيُنْذِرَ الْعَالَمَ، وقوله تعالى: ﴿وَيَنْ لَدُنَّ﴾ أي: من عنده ومن قبّله، والضمير عائد على الله تعالى. وقرأ الجمهور: ﴿وَيَنْ لَدُنَّ﴾ بضم الدال وسكون النون وضم الهاء، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿مِنْ لَدُنِهِ﴾ بسكون الدال وإشمام الضم فيها وكسر النون والهاء. وفي (اللدن لغات، يقال: لدن مثل سبّح، ولدن بسكون الدال، ولدن بضم اللام، ولدن بفتح اللام والدال، وهي لفظة مبنية على السكون، ويلحقها حذف النون مع الإضافة، وقرأ عبدالله، وطلحة: ﴿وَيَنْبُشْرُ﴾ بفتح الياء وسكون الباء وضم الشين. وقوله تعالى: ﴿أَنَّ لَكُمْ أَجْرًا﴾ تقديره: بأن لهم أجراً، و«الأجر الحسن»: نعيم الجنة، ويتقدّمه خير الدنيا.

﴿تَتَكَيَّمُونَ﴾ حال من الضمير في ﴿لَهُمْ﴾، و«أبدًا» ظرف؛ لأنه دال على زمن غير متناه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد أشرنا في تفسير هذه الآية إلى أمر اليهود قريشاً بسؤال رسول الله ﷺ عن المسائل الثلاث، وينبغي أن ننصّ كيف كان ذلك.

ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس رضي الله عنهما بسند أنه قال: بعثت قريش النضر بن الحارث، وعقبه بن أبي معيط، إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهما: سلاهم عن محمد - عليه الصلاة والسلام -، وصفاً لهم صفته، فإنهم أهل الكتاب الأول، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله ﷺ، فقالت لهما أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول قزواً فيه رأيكم، سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم؟ فإنهم كان لهم حديث عجيب، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح، فأقبل النضر وعقبه إلى مكة، وسألوا رسول الله ﷺ عن ذلك، وكان من الأمر ما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا أَخَذَ اللَّهُ لَدُنَّا﴾ الآية. أهل هذه المقالة هم بعض اليهود في عزير، والنصارى في المسيح، وبعض العرب في الملائكة. والضمير في

﴿يَه﴾ يحتمل أن يعود على القول الذي يتضمنه ﴿قَالَوَا﴾ المتقدم، وتكون جملة قوله: ﴿مَا لَكُمْ بِهِ مِنْ عَلِيمٍ﴾ في موضع الحال، أي: قالوا جاهلين. ويحتمل أن يعود على «الولد»، أي: لا علم لهم بهذا الولد الذي ادَّعَوْهُ، فتكون الجملة صفةً لقوله: «وَوَلَدًا»، قاله المهدي، وهو معترض؛ لأنه لا يصفه إلا القائل، وهم ليس في مقصدهم أن يصفوه. والصواب عندي أنه نفي مؤنث، أخبر الله تعالى به بجهلهم في ذلك، فلا موضع للجملة من الإعراب، ويحتمل أن يعود على الله تعالى، وهذا التأويل أدُّمُّ لهم، وأفضى بالجهل الثَّامُّ عليهم، وهو قول الطبري. وقوله تعالى: ﴿وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾، يريد الذين أخذ هؤلاء هذه المقالة عنهم.

وقرأ الجمهور: ﴿كَرَّتْ كَلِمَةً﴾ بنصب [كَلِمَةً]، كما تقول: نعم رجلاً زيد، وفُسر الكلمة وضُفها بالخروج من أفواههم، وقال بعضهم: نصبها على التفسير، على حدِّ نصب قوله: ﴿وَسَاءَتْ مُرْتَقَاً﴾، وقالت فرقة: نصبها على الحال، والتقدير: كبر فُرَيْتُهُمْ - أو نحو هذا - كلمة، وسُمِّيت هذه الكلمات كلمةً من حيث هي مقالة واحدة، كما يقولون للقصيدة: كلمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه المقالة قائمة هي في التفسير معنى واحداً فيحسُن أن تُسَمَّى كلمة. وقرأ الحسن، ويحيى بن يعمر، وابن محيصن، والقواس عن ابن كثير: ﴿كَلِمَةً﴾ بالرفع على أنها

فاعلةٌ بـ ﴿كَرَّتْ﴾. وقوله تعالى: ﴿إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾، أي: ما يقولون إلا كذباً، فهي النافية.

﴿٦﴾ - ﴿٧﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه آية تسلية للنبي ﷺ، قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا كُنْتُمْ تَقْرُونَ﴾ تقرير وتوقيف بمعنى الإنكار عليه، أي: لا يكن كذلك. و«الباخِعُ نَفْسُهُ» هو مُهلِكها وُجداً وحزناً على أمر ما، ومنه قول الشاعر:

أَلَا أَيُّهَذَا الْبَاخِعُ الرَّجْدُ نَفْسُهُ
لِشَيْءٍ نَحْنُهُ عَنِ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ
يريد: (نَحْنُهُ) فخفف.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّاءَ الَّذِينَ﴾ استعارة فصيحة، من حيث لهم إديارٌ وتباعده عن الإيمان، وإعراض عن الشرع، فكأنهم من فرط إديارهم قد بعدوا فهو في آثارهم يحزن عليهم. وقوله سبحانه: ﴿بِهَذَا الْحَدِيثِ﴾، أي: بالقرآن الذي نحدثك به، و﴿أَيْسًا﴾ نصب على المصدر، قال الزجاج: والأسف: المبالغة في حُزن أو غضب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأسف - في هذا الموضع - الحزن؛ لأنه على من لا يملك ولا هو تحت يد الأييف، ولو كان الأسف من مُقتدرٍ على من هو في قبضته ومُلْكِه لكان غضباً، كقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا سَأَلْتُنَا﴾، أي: أغضبونا، وإذا تأملت هذا في كلام العرب أطرد، وذكره منذر بن سعيد، وقال قتادة هنا: ﴿أَيْسًا﴾: غضباً، وقال مجاهد: ﴿أَيْسًا﴾: جَزَعاً، وقال قتادة أيضاً: حُزناً، ومن هذه اللفظة قول الأعشى:

أَرَى رَجُلًا مِنْكُمْ أَيْسِيًّا كَأَنَّ مَا
يَضُمُّ إِلَى كَشْحِيهِ كَمَا مُخَضَّبًا
يريد: حزناً كأنه مقطوع اليد.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا﴾ الآية بسنط في التسلية، أي: لا تهتم للدنيا وأهلها، فأمرها وأمرهم أقل لفنائها وذهابها، فإنما إنما جعلناها على الأرض زينة أو امتحاناً وخبرة.

واختلف في المراد بها - فقال ابن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهم: أراد الرجال، وقاله مجاهد. وروي عن عكرمة عن ابن عباس أن الزينة الخلفاء والعلماء والأمرء. وقالت فرقة: أراد النعم والملابس والثمار والخضرة والمياه ونحو هذا مما فيه زينة، ولم تدخل في هذا الجبال الصم وكل ما لا زين فيه كالحيات والعقارب. وقالت فرقة: أراد كل ما على الأرض، وليس شيء إلا وفيه زينة من جهة خلقه وصنعتة وإحكامه، وفي معنى الآية قول النبي ﷺ: «الدنيا حلوة خضيرة، وإن الله مستخلفكم فيها فناظر كيف تعملون، فاتقوا الدنيا، واتقوا النساء». و﴿زِينَةً﴾ مفعول ثان، أو مفعول من أجله بحسب معنى (جعل).

وقوله تعالى: ﴿لِنَلَوَهُمْ أَيْمَهُمْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ معناه: لنختبرهم، وفي هذا وعيدٌ ما. قال سفيان الثوري: أحسنهم عملاً: أزهدهم فيها، وقال أبو عصام السقلاني: أحسنُ عَمَلًا: أترك لها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان أبي رحمه الله يقول: أحسنُ

العمل: أَخَذَ بِحَقِّ، وَإِنْفَاقٌ فِي حَقِّ
مَعَ الْإِيمَانِ، وَأَدَاءُ الْفَرَائِضِ،
وَاجْتِنَابُ الْمَحَارِمِ، وَالْإِكْشَازُ مِنْ
الْمَنْدُوبِ إِلَيْهِ.

وقوله تعالى: ﴿وَأِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا
صَمِيدًا جُرُزًا﴾، أي: يرجع كلُّ
ذلك تريباً غير مُتَزَيِّنِ بِنَبَاتٍ وَنَحْوِهِ،
وَالْجُرُزُ: الْأَرْضُ الَّتِي لَا شَيْءَ فِيهَا
مِنْ عِمَارَةٍ وَزَيْتَةٍ، وَهِيَ الْبَلْقَعُ، وَهِيَ
حَالَةُ الْأَرْضِ الْعَامِرَةِ بِالزَّيْتِ، لَا بُدَّ
لَهَا مِنْ هَذَا فِي الدُّنْيَا جِزْءًا جِزْءًا مِنْ
الْأَرْضِ، ثُمَّ يَعْمُرُهَا ذَلِكَ بِأَجْمَعِهَا عِنْدَ
الْقِيَامَةِ، يُقَالُ: جَرَزْتُ الْأَرْضَ بِقِحْطٍ
أَوْ جِرَادٍ وَنَحْوِهِ إِذَا ذَهَبَ نَبَاتُهَا
وَبَقِيَتْ لَا شَيْءَ فِيهَا وَلَا نَفْعَ.
وَأَرْضُونَ أَجْرَازَ. وَقَالَ الزَّجَاجُ:
الْجُرُزُ: الْأَرْضُ الَّتِي لَا تُثْبِتُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وإنما ينبغي أن يقول: التي لم تُثبت.
وَالصُّعِيدُ: وَجْهُ الْأَرْضِ، وَقِيلَ:
الصُّعِيدُ: التُّرَابُ خَاصَّةً، وَقِيلَ:
الصُّعِيدُ: الْأَرْضُ الطَّيْبَةُ، وَقِيلَ:
الصُّعِيدُ: الْأَرْضُ الْمَرْتَفِعَةُ مِنَ
الْأَرْضِ الْمُنْحَفِضَةِ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ﴾ الآية.
مذهب سيبويه في (أم) إذا جاءت
قبل أن تتقدمها ألف استفهام أنها
بمعنى (بئ) و (ألف الاستفهام)،
كأنه قال: بئ أحييت؟ إضراباً عن
الحديث الأول واستفهاماً عن الثاني.

وقال بعض النحويين: هي بمنزلة
ألف الاستفهام، وأما معنى الكلام
فقال الطبري: هو تقرير للنبي ﷺ
على حسابه أن أصحاب الكهف أتوا
عجياً، بمعنى إنكار ذلك عليه، أي:
لا تُعْظَمُ ذَلِكَ بِحَسَبِ مَا عَظَّمَهُ عَلَيْكَ

السائلون من الكفرة، فإن سائر
آيات الله أعظم من قصتهم وأشنع،
وهو قول ابن عباس، ومجاهد،
وقتادة، وابن إسحق. وذكر
الزهراوي أن الآية تحتل معنى
آخر، وهو أن تكون استفهاماً له،
هل عليم أن أصحاب الكهف كانوا
عجياً؟ بمعنى إثبات أنهم عجب،
وتكون فائدة تقريره جمع نفسه
للأمر؛ لأن جوابه أن يقول: لم
أحسب ذلك ولا علمته، فيقال له
وَضَفُّهُمُ عِنْدَ ذَلِكَ، وَالتَّجَوُّزُ فِي هَذَا
التَّأْوِيلِ هُوَ فِي لَفْظَةِ [حَسِبْتَ]،
فَتَأَمَّلْهُ.

و «الْكَهْفُ»: الثُّقْبُ الْمُتَّسِعُ فِي
الْجَبَلِ، وَمَا لَمْ يَتَّسِعْ مِنْهَا فَهُوَ غَارٌ.
وحكى النحاس عن أنس بن مالك
أنه قال: الكَهْفُ: الْجَبَلُ، وَهَذَا غَيْرُ
شَهِيرٍ فِي اللُّغَةِ. واختلف الناس في
«الرُّقِيمِ» - فقال كعب: الرُّقِيمُ: الْقَرْيَةُ
الَّتِي كَانَتْ بِإِزَاءِ الْكَهْفِ، وَقَالَ ابْنُ
عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ: الرُّقِيمُ: الْوَادِي
الَّذِي كَانَ بِإِزَائِهِ، وَهُوَ وَادٍ كَانَ بَيْنَ
غَضْبَانَ وَأَيْلَةَ دُونَ فِلَسْطِينَ. وَقَالَ
ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً: هُوَ الْجَبَلُ الَّذِي فِيهِ
الْكَهْفُ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: الرُّقِيمُ:
الصَّخْرَةُ الَّتِي كَانَتْ عَلَى الْكَهْفِ،
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا:
الرُّقِيمُ: كِتَابٌ مَرْقُومٌ كَانَ عِنْدَهُمْ،
فِي الشَّرْعِ الَّذِي تَمَسَّكُوا بِهِ مِنْ دِينِ
عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقِيلَ: مِنْ دِينِ
قَبْلِ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَ ابْنُ
زَيْدٍ: كِتَابٌ عَمِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْنَا
أَمْرُهُ وَلَمْ يَشْرَحْ قِصَّتَهُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ:
الرُّقِيمُ: كِتَابٌ فِي لَوْحٍ مِنْ نَحَّاسٍ،
وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فِي لَوْحَيْنِ مِنْ

رصاص كَتَبَ فِيهِمَا الْقَوْمُ الْكُفْرَ
الَّذِينَ فَرَّ الْفَتْيَةَ مِنْهُمْ قَصَّتْهُمْ،
وَجَعَلُوهَا تَارِيخاً لَهُمْ، ذَكَرُوا وَقَتَ
فَقَدَّمَهُمْ، وَكَمْ كَانُوا، وَبَنِي مَنْ كَانُوا.
وقال سعيد بن جبيرة: الرُّقِيمُ: لَوْحٌ
مِنْ حِجَارَةٍ كَتَبُوا فِيهَا قِصَّةَ أَصْحَابِ
الْكَهْفِ، وَوَضَعُوهُ عَلَى بَابِ
الْكَهْفِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويظهر من هذه الروايات أنهم كانوا
قوماً مؤرخين للحوادث، وذلك من
قبل المملكة، وهذا أمر مفيد، وهذه
الأقوال مأخوذة من الرُّقِيمِ، ومنه:
﴿كَيْتَبُ رَقِيمٌ﴾، ومنه «الرُّقِيمُ»
لِتَحْطِيطِهِ مِنْهُ: «رَقَمْتُ الرَّادِي»:
أي: مكان جزى الماء وانعطافه،
يقال: عليك بالرقمة وحلِّ الضِّفَّةِ.

وقال النقاش عن قتادة: الرُّقِيمُ:
دِرَاهِمُهُمْ، وَقَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ،
وَالشَّعْبِيُّ: الرُّقِيمُ: الْكَلْبُ، وَقَالَ
عُكْرَمَةُ: الرُّقِيمُ: الدَّوَاءُ، وَقَالَتْ
فِرْقَةٌ: الرُّقِيمُ كَانَ لِفِتْيَةٍ آخِرِينَ جَرَى
لَهُمْ مَا جَرَى لِأَهْلِ الْكَهْفِ. وروى
عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه
قال: ما أدري ما الرُّقِيمُ، أَكْتَابٌ أَمْ
بُيُوتَانٌ؟ وروى أنه قال: كلُّ الْقُرْآنِ
أَعْلَمُهُ إِلَّا: الْحَنَانَ، وَالْأَوَّاهَ،
وَالرُّقِيمَ.

﴿١١﴾ - ﴿١٠﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿الْيَتِيمَ﴾ فيما روي: قومٌ من أبناءِ
أشراف مدينة دقيوس الملك الكافر،
ويقال فيه: دَقْلِيُوسُ، وَيُقَالُ:
دَقْيُونُوسُ. وروى أنهم كانوا: مُطَوَّقِينَ
مُسَوَّرِينَ بِالذَّهَبِ، وَهُمْ مِنَ الرُّومِ،
وَاتَّبَعُوا دِينَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ،
وقيل: كانوا قبل عيسى، وأما

أسماءهم فهي أعجمية والسند في معرفتها واه، ولكن التي ذكر الطبري هي هذه: مَكْسِيَلَمِينَا، وهو أكبرهم والمتكلم عنهم، وَمَجْسِيَلَمِينِيَا، وتثليخا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو الذي مضى بالورق إلى المدينة عند بعثهم من رقدتهم. ومَرْطُوس، وَكَسُوطُوقِش، وَبَيْرُونِس، وَيِيْمُوس، وَيُطُونِس.

واختلف الرواة في قصص هؤلاء الفتية، وكيف كان اجتماعهم وخرجهم إلى الكهف، وأكثر المؤرخون في ذلك، ولكن نختصر من حديثهم، ونذكر ما لا تستغني الآية عنه، ونذكر من الخلاف عيونه بحول الله.

روى مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هؤلاء الفتية كانوا في دين ملك يعبد الأصنام، ويذبح لها، ويكفر بالله سبحانه وتعالى، وقد تابعه على ذلك أهل المدينة، فوقع للفتية علم من بعض الحواريين - حسبما ذكره النقاش - أو من بعض مؤمني الأمم قبلهم - بحسب الخلاف الذي ذكرناه -، فآمنوا بالله، ورأوا ببصائرهم قبيح فعل الناس، فأخذوا نفوسهم بالترام الدين وعبادة الله تعالى، فرفع أمرهم إلى الملك، وقيل له: إنهم فارقوا دينك، واستخفوا بالكهتك وكفروا بها، واستحضرهم الملك في مجلسه، وأمره باتباع دينه والذبح لآلهته، وتوعدهم على فراق ذلك بالقتل، فقالوا له - فيما روي -: ﴿رَبَّنَا رَبِّ السَّعْوَةِ وَالْأَرْضِينَ﴾ الآية،

إلى قوله تعالى: ﴿وَرَادَ أَنْزَلْتَهُمْ﴾. وروي أنهم قالوا نحو هذا الكلام، وليس به، فقال لهم الملك: إنكم شباب أغمار، لا عقول لكم، وأنا لا أعجل بكم بل أشتأني، فاذهبوا إلى منازلكم فديروا أمركم وارجعوا إلى أمري، وضرب لهم في ذلك أجلاً، ثم إنه سافر خلال الأجل، فتشاور الفتية في الهروب بأديانهم، فقال لهم أحدهم: إني أعرف كهفاً في جبل كذا كان أبي يدخل فيه غنمه، فلنذهب إليه فنختفي فيه حتى يفتح الله لنا، فخرجوا - فيما روي - يلعبون بالصولجان والكرة، وهم يدحرجونها إلى نحو طريقهم لثلاثين يوماً، يشعر الناس بهم، وقيل: إنهم كانوا متخفين فحضر عيد خرجوا له فركبوا في جملة الناس، ثم أخذوا في اللعب بالصولجان حتى خلصوا بذلك.

وروت فرقة أن أمر أصحاب الكهف إنما كان أنهم كانوا من أبناء الأشراف، فحضر عيد لأهل المدينة، فرأى الفتیان ما يمثله الناس في ذلك العيد من الكفر وعبادة الأصنام والذبح لها، فوقع الإيمان في قلوبهم، وأجمعوا على مفارقة الناس لئلا يتألمهم العذاب معهم، فزابلوا الناس وذهبوا إلى الكهف.

وروي وهب بن منبه أن أمرهم إنما كان أن حوارياً لعيسى ابن مريم عليه السلام جاء إلى مدينة أصحاب الكهف يريد دخولها، فأجر نفسه من صاحب الحمام، فكان يعمل فيه، فرأى صاحب الحمام في أعماله بركة عظيمة، فألقى إليه بكل أمر، وعرف

ذلك الرجل فتیان من أهل المدينة، فنشر فيهم الإيمان، وعرفهم الله تعالى، فآمنوا واتبعوه على دينه، واشتهرت خلطتهم به، فأتى يوماً إلى ذلك الحمام ولد الملك بامرأة بنيي أراد الخلوة بها، فنهاء ذلك الحواري فانتهى، ثم جاء مرة أخرى فنهاء وشتمه، فأمضى عزمه على دخول الحمام مع البنيي، فدخل فماتا به جميعاً، فأتهم ذلك الحواري وأصحابه بقتله، ففروا جميعاً حتى دخلوا الكهف.

وقال عبيد بن عمير: إن أصحاب الكهف كانوا فتية من أبناء العظماء مطوقين مسورين ذوي ذوائب، قد داخلهم الإيمان أفضاً. وأزمع كل واحد منهم الفرار بدينه من بلد الكفر، فأخرجهم الله في يوم واحد لما أراد بهم، فخرج أحدهم فجلس في ظل شجرة على بعد من المدينة، فخرج ثان، فلما رأى الجالس جلس إليه، ثم الثالث، ثم الباقون حتى كمل جمعهم في ظل الشجرة، فألقى الله في نفوسهم أن غرضهم واحد، فتساءلوا، ففزع بعضهم من بعض وتكتموا، ثم تراضوا برجلين منهم، وقالوا: انقروا وتواتقا وليؤش كل واحد منكما سره إلى صاحبه، فإن اتفقنا كئنا معكما، فنهضاً بعيداً فأفصحا بالإيمان والهروب بالدين، فرجعا وفضحا الأمر، وتابعهما الآخرون، ونهضوا إلى الكهف.

وأما الكلْبُ فزوي أنه كان كلب صيد لبعضهم، وزوي أنهم وجدوا في طريقهم راعياً له كلب، فأتبعهم الراعي على رأيهم، وذهب الكلب

معهم، واسم الكلب حمران، وقيل: قطمير. فدخلوا الغار على جميع هذه الأقوال.

فروت فرقة أن الله تعالى ضرب على آذانهم عند ذلك لِمَا أَرَادَ مِنْ سِتْرِهِمْ، وخفي على المملكة مكانهم، وعجب الناس من غرابة فقدهم فَأَرْخُوا ذَلِكَ وَرَقَمُوهُ فِي لَوْحِينَ مِنْ رِصَاصٍ أَوْ نَحَاسٍ، وجعلوه على باب المدينة، فيه أسماءؤهم وأسماء آبائهم وذكر شرفهم، وأنهم فقدوا بصورة كذا في وقت كذا. وقيل: إن الذي كتب هذا وتَهَمَّتْ بِهِ رَجُلَانِ قَاضِيَانِ مُؤْمِنَانِ يَكْتُمَانِ إِيمَانَهُمَا مِنْ أَهْلِ بَيْتِ الْمَمْلُوكَةِ، وَتَسْتَرَا بِذَلِكَ وَدَفَنَا اللُّوْحِينَ عِنْدَهُمَا، وقيل على هذه الرواية: إن الملك أتى باب الغار، وأنهم دفنوا ذلك في بناء الملك على الغار.

وروت فرقة أن الملك لما ذهب الفتية أمر بَقْصِ آثَارِهِمْ، فانتهى ذلك لِمُتَّبِعِيهِمْ إِلَى بَابِ الْغَارِ، فعرف الملك فركب في جنده حتى وقف عليه، فأمر بالدخول عليهم، فهاب الرجال ذلك، فقال له بعض وزرائه: أَلَسَتْ أَبْهَا الْمَلِكِ إِنْ أَخْرَجْتَهُمْ قَتَلْتَهُمْ؟ قال: نعم، قال: فأَيُّ قَتْلَةٍ أَبْلَغُ مِنَ الْجُوعِ وَالْعَطَشِ، ابن عليهم باب الغار ودعهم يموتوا فيه، ففعل، وضرب الله تعالى على آذانهم قبل ذلك لما أَرَادَ مِنْ تَأْمِينِهِمْ، وَأَرْخَ النَّاسُ أَمْرَهُمْ فِي اللُّوْحِينَ، أَوْ أَرْخَهُ الرَّجُلَانِ بِحَسَبِ الْخِلَافِ، واسم أحد الرجلين - فيما ذكر الطبري - نيدروس، واسم الآخر روقاس.

وزوي أن هذا الملك الذي فرّ الفتية من دينه كان قد امتحن الله به المؤمنين حيث أحس بهم، يقتلهم ويُعَلِّقُهُمْ أَشْخَاصاً وَرُءُوساً عَلَى أَسْوَارِ مَدِينَتِهِ، وكان يريد أن يذهب في ذلك - كما ذكر - دين عيسى عليه السلام، وكان هو وقومه من الرُّوم.

ثم أخبر الله تعالى عن الفتية أنهم لما أَوَّأُوا إِلَى الْكَهْفِ، أَي: دخلوه وجعلوه مأوى لهم وموضع اعتصام، دعوا الله تعالى بَأَنْ يُؤْتِيَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ، وَهِيَ الرِّزْقُ فِيمَا ذَكَرَهُ الْمَفْسُرُونَ، وَأَنْ يُهَيِّئَ لَهُمْ مِنْ أَمْرِهِمْ رِشْدًا، أَي: خلاصاً جميلاً، وقرأ الجمهور: ﴿رَشْدًا﴾ بفتح الراء والشين، وقرأ أبو رجاء: ﴿رُشْدًا﴾ بضم الراء وسكون الشين، والأول أرجح لشبهها بفواصل الآيات قبل وبعد. وهذا الدعاء منهم كان في أمر دنياهم، وألفاظه تقتضي ذلك، وقد كانوا على ثقة من رشد الآخرة ورحمتها.

وينبغي لكل مؤمن أن يجعل دعاءه في أمر دنياه هذه الآية فقط، فإنها كافية. ويحتمل ذكر الرحمة أن يُرَادَ بِهَا أَمْرُ الْآخِرَةِ. وقد اختصرت هذا القِصَصَ، ولم أَغْفِلْ مِنْ مُهِمَّةِ شَيْئاً بِحَسَبِ اجْتِهَادِي. والله المعين برحمته.

وقوله تعالى: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ الآية، عبارة عن إلقاء الله تعالى النوم عليهم، ويُعْتَبَرُ عَنْ هَذَا وَنَحْوِهِ بِالضَّرْبِ لِتَبَيُّنِ قُوَّةِ الْمَبَاشِرَةِ وَشِدَّةِ اللَّصُوقِ فِي الْأَمْرِ الْمَتَكَلِّمِ فِيهِ وَالْإِلْزَامِ. ومنه ضُزِبُ الذَّلِّ وَالْمَسْكَنَةِ، ومنه ضُزِبُ الْجَزِيَةِ

وضُزِبُ الْبِعْثِ، ومنه قول الفرزدق: ضَرَبْتَ عَلَيْنِكَ الْعَنْكَبُوتَ بِسُجْحَا وَقَضَى عَلَيْكَ بِه الْكِتَابَ الْمُنْزَلُ فهو يستعمل في اللزوم البلغ.

وأما تخصيص الآذان بالذكر فلأنها الجارحة التي منها عظم فساد النوم، وقلما ينقطع نوم نائم إلا من جهة أذنه، ولا يستحكم النوم إلا مع تعطل السمع، ومن ذُكِرَ الْأَذُنُ فِي النُّوْمِ قَوْلُهُ ﷺ: «ذَلِكَ رَجُلٌ بِأَلِ الشَّيْطَانِ فِي أُذُنِهِ»، أشار عليه الصلاة والسلام إلى رجل طويل النوم، لا يقوم بالليل.

وقوله تعالى: ﴿عَدَدًا﴾ نعته لِسُنَيْنٍ، والقصد به العبارة عن الكثير، أي: تحتاج إلى عدد، وهي ذات عدد. قال الزجاج: ويجوز أن يكون نصب ﴿عَدَدًا﴾ على المصدر.

و «الْبَعْثُ»: التحريك بعد سكون، وهذا مطرد مع لفظة البعث حيث وقعت، وقد يكون السكون في الشخص، أو عن الأمر المبعوث فيه وإن كان الشخص متحركاً. وقوله تعالى: ﴿لِنَقِمَنَّ﴾ عبارة عن خروج ذلك الشيء إلى الوجود، وهذا على نحو كلام العرب، أي: لنعلم ذلك موجوداً، وإلّا فقد كان الله تعالى عَلِيمٌ أَيُّ الْحَزِينِ أَحْصَى الْأَمْدَ. وقرأ الزهري: ﴿لِيَفْلَسَمَنَّ﴾ بالياء.

و«الْحَزْبَانِ»: الفريقان، والظاهر من الآية أن الحزب الواحد هم الفتية إذ ظنوا لبثهم قليلاً، والحزب الثاني هم أهل المدينة الذين بُعث الفتية على عهدهم حتى كان عندهم التاريخ بأمر الفتية. وهذا قول الجمهور من المفسرين. وقالت فرقة: هما حزبان

من الكافرين اختلفا في مدة أصحاب الكهف. وقالت فرقة: هما حزبان من المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لا يرتبط من ألفاظ الآية.

وأما قوله تعالى: ﴿أَحْسَنُ﴾ فالظاهر الجيد فيه أنه فعل ماضٍ، و﴿أَمَدًا﴾ منصوب به على المفعول، و﴿الْأَمَدُ﴾: الغاية، ويأتي عبارة عن المدة من حيث للمدة غاية هي أمدها على الحقيقة، وقال الزجاج:

﴿أَحْسَنُ﴾ هو أفعل، و﴿أَمَدًا﴾ - على هذا - نصب على التفسير، ويلحق هذا القول من الاختلال أن (أَفْعَلٌ) لا يكون من فعل رباعي إلا في الشاذ، و﴿أَحْسَنُ﴾ فعل رباعي. ويحتاج لقول

أبي إسحق بأن (أَفْعَلٌ) من الرباعي مذكر، كقولك: ما أعطاه للمال وآتاه للخير، وقال النبي ﷺ في صفة جهنم: «هي أسود من القار»، وقال في صفة حوضه عليه الصلاة والسلام: «أبيض من اللبن»، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «فهو لما سواها أضيغ»، وهذه كلها (أَفْعَلٌ) من الرباعي، وقال مجاهد: ﴿أَمَدًا﴾ معناه: غاية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير بالمعنى، وعلى جهة التقريب، وقال الطبري: نصب ﴿أَمَدًا﴾ بـ ﴿إِسْرًا﴾، وهذا غير منجبه.

١٢ - ١٣ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا اقْتَضَى قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لِنَنْتَرُ أَيُّ الْمُرْتَابِينَ أَحْسَنُ لِمَا إِسْرًا أَمَدًا﴾ اختلفا وقع في أمر الفتية عقب بالخبر عن أنه عز وجل يعلم من أمرهم

بالحق الذي وقع. وفي مجموع هذه الآيات جواب قريش عن سؤالهم الذي أمرتهم به بنو إسرائيل. و«القصص»: الإخبار بأمر يسرد، لا بكلام يزوى شيئاً شيئاً، لأن تلك المخاطبة ليست بقصص. وقوله تعالى: ﴿وَرِذْنَهُمْ هُنْدَى﴾ أي: يسزناهم للعمل الصالح، والانقطاع إلى الله عز وجل، ومباعدة الناس، والزهدة في الدنيا، وهذه زيادات على الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبَّيْنَاكَ

عَلَى قُلُوبِهِمْ﴾ عبارة عن شدة عزم وقوة صبر أعطاها الله لهم، ولما كان الفزع وخور النفس يشبه بالتناسب الانحلال، حسن في شدة النفس وقوة التصميم أن يشبه الرَبْطُ، ومنه يقال: «فلان رابط الجأش» إذا كان لا تفرق نفسه عند الجزع والحرب وغيرها، ومنه الرَبْطُ على قلب أم موسى. وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَقَالُوا﴾ يحتمل معنيين:

أحدهما أن يكون وصف مقامهم بين يدي الملك الكافر؛ فإنه مقام يحتاج إلى الرَبْطِ على القلب، حيث طلبوا عليه، وخالفوا دينه، ورفضوا في ذات الله هيبته. والمعنى الثاني أن يُعَبَّرَ بالقيام عن انبعاثهم بالعزم إلى الهروب إلى الله تعالى ومنابذة الناس، كما تقول: «قام فلان إلى أمر كذا» إذا عزم عليه بغاية الجد، وبهذه الألفاظ التي هي: ﴿قَامُوا

سورة الكهف

وَإِذْ أَعْرَضْنَا عَنْ قَوْمِهِمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْرَأَهُنَا إِلَى الْكَهْفِ لِنَنْتَرُ لَكُمْ رَبِّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّئَ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرْفَقًا ﴿١٢﴾ وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَرْتَوِعُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرَّبُ مِنْهُمْ ذَاتَ الشَّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ اللَّهُ مِنْ يَهْدِي اللَّهُ فَمَا لَهُ مَهْتَدٍ وَمَنْ يَضِلْ فَلَنْ يُجَدِّدَهُ وَلَا يَأْتِيَنَّ مَرْشِدًا ﴿١٣﴾ وَتَحْسَبُهُمْ آيَةً أَنْ يَأْتِيَهُمْ رُفُودٌ وَيَقُولُ هُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشَّمَالِ وَكَلِمَتُهُمْ بِسَطْرٍ ذَرَأْتَهُ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلَّئْتَ مِنْهُمْ رِجْسًا ﴿١٤﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِسَاءَةٍ أَوْ بَيْنَهُمْ قَالِ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمَ لَيْتَكُمْ قَالُوا لَيْتَنَا بَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبِّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَيْتَكُمْ قَابِعُوا أَحَدَكُمْ بِوَرْقِكُمْ هَذَا إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٥﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعَذِّبُوكُمْ فِي بِلَادِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذْ أَبْكَا ﴿١٦﴾

٢٩٥

فَقَالُوا﴾ تعلقت الصوفية في القيام والقول، وقرأ الأعمش: ﴿إِذْ قَامُوا قِيَامًا فَقَالُوا﴾.

وقولهم: ﴿لَنْتَرُ قُلْنَا إِذَا سَطَطْنَا﴾، أي: لو دعونا من دون ربنا إليها، و«السَطَطُ»: الجور وتعدي الحد والغلو بحسب أمر أمر، ومنه: «اشتط الرجل في السؤم» إذا طلب في سلعته فوق قيمتها، ومنه: شطوط الثوى والبعد، ومنه قول الشاعر:

أَلَا يَا لِقَوْمِي قَدْ أَشْطَطَتْ عَوَازِلِي
وَوَزَعَمَنْ أَنْ أَوْذَى بِحَقِّي بَاطِلِي
وقوله تعالى: ﴿هَتُوْلَاءَ قَوْمَنَا﴾ مقالة يصلح أن تكون مما قالوه في مقامهم بين يدي الملك، ويصح أن تكون من قول بعضهم لبعض عند قيامهم للأمر الذي عزموا عليه. وقولهم: ﴿أَوْلَا يَا تَوَكُّبَ﴾ تخضيض بمعنى

التمجيز؛ لأنه تَخْضِضٌ على ما لا يمكن؛ وإذا لم يمكنهم ذلك لم يجب أن يُلْتَفِتَ إلى دعواهم. و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّةُ، وقال قتادة: المعنى: بِعُدْرِ بَيْنَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة محلقة.

ثم عَظُمَ جُزْمُ الداعين مع الله آلهة وظَلَمَهُمْ بقوله - على جهة التقرير -: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَنْزَلْنَاهُمْ﴾ الآية. إِنْ كَانَ «القيام» في قوله سبحانه: ﴿إِذْ قَامُوا﴾ عَزْمًا - كَمَا تَضْمَنُ التَأْوِيلُ الواحد، وكان «القول» منهم فيما بينهم - فهذه المقالةُ يصح أن تكون من قولهم الذي قالوه عند قيامهم؛ وإن كان «القيام» المذكور مقامهم بين يدي الملك فهذه المقالة لا ترتب أن تكون من «مقالهم» بين يدي الملك، بل يكون في الكلام حذف تقديره: وقال بعضهم لبعض. وبهذا يترجح أن قوله تعالى: ﴿إِذْ قَامُوا فَتَلَاوا﴾ إنما المراد به: إِذْ عَزَمُوا ونفذوا لأمرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾، إن فرضنا الكفار الذين قَرَأَ أهل الكهف منهم لا يعرفون الله تعالى، ولا عَلِمَ لهم به، إِنَّمَا يَعْتَقِدُونَ الألوهية في أصنامهم فقط، فهو استثناء منقطع ليس من الأول، وإن فرضناهم يعرفون الله تعالى ويعظمونه كما كانت تفعل العرب، لكنهم يشركون أصنامهم معه في العبادة، فالاستثناء متصل؛ لأن الاعتزال وقع في كل ما

يعبد الكفار إلا في جهة الله تعالى. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَمَا يَغْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، قال قتادة: هذا تفسيرها، قال هارون: وفي بعض مصاحفه: ﴿وَمَا يَغْبُدُونَ مِنْ دُونِنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فعلى ما قال قتادة تكون ﴿إِلَّا﴾ بمنزلة «غَيْرِ»، و﴿وَمَا﴾ من قوله: ﴿وَمَا يَسْبُدُونَ﴾ في موضع نصب عطفاً على الضمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُمْ﴾.

وَمُضْمِنُ هذه الآية أن بعضهم قال لبعض: إِذْ فَارَقْنَا الكفار وانفردنا بالله تعالى فَلْتَجْعَلُ الكهف مأوى، وتكفل على الله تعالى، فإنه يبسط لنا رحمته، وينشرها علينا، ويهيئ لنا من أمرنا مرفقاً، وهذا كله دعاء بحسب الدنيا، وعلى ثقة كانوا من الله تعالى في أمر آخرتهم.

وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿مَرْفِقًا﴾ بفتح الميم وكسر الفاء، وهو مصدر كالرَفِقَ فيما حكى أبو زيد، وهي قراءة أبي جعفر، والأعرج، وشيبة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي، والحسن، وطلحة، والأعمش، وابن أبي إسحق: ﴿بِرَفِقًا﴾ بكسر الميم وفتح الفاء، ويقالان جميعاً في الأمر وفي الجارحة، حكاه الزجاج، وذكر مكِّي عن الفراء أنه قال: لا أعرف في الأمر وفي اليد وفي كل شيء إلا كسر الميم، وأنكر الكسائي أن يكون «المرفق» من الجارحة إلا بفتح الميم وكسر الفاء، وخالفه أبو حاتم وقال: «المرفق» بفتح الميم الموضع كالمسجد، وهما بعد لفتان.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

بين هاتين الآيتين اقتضاب بَيْنُهُمَا تقدم من الآيات، وتقديره: فَأَوَّأُوا وَضَرَبَ اللهُ عَلَى آذَانِهِمْ، ومكشوا كذلك.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿تَرَاوَرُّوا﴾ بتشديد الزاي وإدغام التاء، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿تَرَوَّرُوا﴾ بتخفيفها، بتقدير: تَتَرَاوَرُّوا، فحذفت إحدى التاءين، وقرأ ابن عامر، وابن أبي إسحق، وقتادة: ﴿تَرَوَّرُوا﴾ على وزن تحمير، وقرأ الجحدري، وأبو رجاء: ﴿تَرَوَّرُوا﴾ بألف بعد الواو. ومعنى اللفظة على كل هذا التصريف: تَغْدِيلٌ وتزويجٌ وتميل، وهذه عباراتُ المفسرين، أما إن الأخفش قال: ﴿تَرَوَّرُوا﴾ معناه: تَثْقِيبُ، والزُّورُ: التَّيْلُ، والأزورُ في العين: المائل النظر إلى ناحية، ويستعمل في غير العين، كقول ابن أبي ربيعة:

.....
وجنبي خيفة القوم أزور

ومن اللفظة قول عترة:

فأزور من وقع القسا بلبانيه

.....

ومنه قول بشر بن أبي خازم:

تؤم بها الحداة مياة نخيل
وفيهما عن أبنائين أزوراً
وفي حديث غزوة مؤتة أن النبي ﷺ رأى في سرير عبدالله بن رواحة أزوراً عن سريري جعفر وزيد بن حارثة.

وقرأ الجمهور: ﴿تَقَرَّضَهُمْ﴾ بالتاء، وقرأت فرقة: ﴿يَقْرِضُهُمْ﴾ بالياء، أي الكهف، كأنه من القرض وهو

القطع، أي: يَقْطَعُهُم الكهفُ بظله من ضوء الشمس. وجمهور من قرأ بالتاء فالمعنى أنهم كانوا لا تصيبهم شمس البتة، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، فيتأولون ﴿تَقْرَأُهُمْ﴾ بمعنى: تتركهم، أي: كأنها عنده تقطع كل ما لا تناله عن نفسها، وفرقة ممن قرأ بالتاء تأولت أنها كانت بالعشي تنالهم فكأنها تقرضهم، أي تقطعهم مما لا تناله، وقالوا: كان في مسألهم بالعشي صلاح لأجسامهم. وحكى الطبري أن العرب تقول: قرضت موضع كذا، أي قطعتة، ومنه قول ذي الرمة:

إلى ظعنٍ يقرضن أجوازاً مشرف
شمالاً وعن أيمانهن القوارس
ومنه: أقرضني درهماً، أي: اقطعه لي من مالك. وهذه الصفة مع الشمس تقتضي أنه كان لهم حاجب من جهة الجنوب، وحاجب من جهة الدبور، وهم في زاويته. وحكى الزجاج وغيره قال: كان باب الكهف ينظر إلى بنات نعش، وقال عبدالله بن مسلم، وهذا نحو ما قلناه، غير أن الكهف كان مستور الأعلى من المطر. وذهب الزجاج إلى أن فعل الشمس كان آية من الله تعالى دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك.

وقوله تعالى: ﴿ذَاتَ اللَّيْلِ﴾ و﴿ذَاتَ النَّهَالِ﴾ يحتمل أن يريد: ذات يمين الكهف، بأن تقدر باب الكهف بمشابهة وجه إنسان، فإن الشمس تجيء منه أول النهار عن يمين وآخره عن شمال، ويحتمل أن

يريد: ذات يمين الشمس وذات شمالها، بأن تقدر الشعاع الممتد منها إلى الكهف بمشابهة وجه الإنسان. والوجه الأول أوضح.

و «الْفَجْوَةُ»: الْمُتَّسِعُ، وَجَمَعَهَا فِجَاءً، قَالَ قَتَادَةُ: فِي فِجَاءٍ مِنْهُ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَبْسِرُ الْعَتَقَ، فَإِذَا وَجَدَ فِجْوَةَ نَصَّ. وَقَالَ ابْنُ جَبْرِ: ﴿فِي فِجْوَةٍ مِنْهُ﴾: فِي مَكَانٍ دَاخِلٍ.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ﴾ إشارة إلى الأمر بجملته، وعلى قول الزجاج «إن الشمس كانت تزاور وتقرض دون حجاب» تكون الإشارة إلى هذا المعنى خاصة. ثم تابع بتعظيم الله عز وجل والتسليم له وما يقتضي صرف الآمال إليه.

وقوله تعالى: ﴿وَتَحْسِبُهُمْ أَيَّكَاطًا وَهُمْ رُفُودٌ﴾ الآية... صفة حال قد انقضت، وجاءت أفعالها مستقبلة تجوزاً واتساعاً. و «أَيَّكَاطًا» جمع يَظُّ، كَعَضِدٍ وَأَعْضَادٍ، وَهُوَ الْمُتَّسِبُ. قَالَ أَهْلُ التَّفْسِيرِ: كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ مَفْتُوحَةً وَهَمَّ نَائِمُونَ، فَلِذَلِكَ كَانَ الرَّائِي يَحْسِبُهُمْ أَيَّكَاطًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يحسب الرائي ذلك لشدة الحفظ الذي كان عليهم، وقلة التغير، وذلك أن الغالب على النوم أن يكون لهم استرخاء وهيئات تقتضي النوم، ورُبَّ نائم على أحوال لم تتغير عن حالة اليقظة، فيحسبه الرائي يقظاً وإن كان مسدود العين، ولو صح فتح أعينهم بسند يقطع العذر كان أتيين في أن يحسب عليهم التيقظ.

وقرأ الجمهور: ﴿وَتَقْلِبُهُمْ﴾ بنون العظمة، وقرأ الحسن: ﴿وَتَقْلِبُهُمْ﴾ بالتاء المفتوحة وضم اللام والباء، وهو مصدر مرتفع بالابتداء، قاله أبو حاتم. وحكى ابن جني القراءة عن الحسن بفتح التاء وضم اللام وفتح الباء، وقال: هذا نصب بفعل مقدر، كأنه قال: وَتَرَى، أَوْ تُشَاهِدُ تَقْلِبُهُمْ. قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَأَبُو حَاتِمٍ أَثَبَتَ.

ورأت فرقة أن الثقلب هو الذي من أجله كان الرائي يحسبهم أيقاظاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا - وإن كان الثقلب لمن صادف رؤيته دليلاً على ذلك - فإن ألفاظ الآية لم تُسَفِّهْ إِلَّا خَبِراً مُسْتَأْنَفًا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: كَانَ هَذَا التَّقْلِبُ مَرَّتَيْنِ فِي السَّنَةِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كُلُّ سَنَةٍ مَرَّةً، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: كُلُّ سَبْعِ سِنِينَ مَرَّةً، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: إِنَّمَا قُلُّبُوا فِي السَّبْعِ الْأَوَاخِرِ، وَأَمَّا الثَّلَاثِمِائَةُ فَلَا. وَذَكَرَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ أَنَّ تَقْلِبَهُمْ إِنَّمَا كَانَ حِفْظًا مِنَ الْأَرْضِ، وَرَوَى عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ قَالَ: لَوْ مَسَّتْهُمُ الشَّمْسُ لِأَحْرَقَتْهُمْ، وَلَوْلَا التَّقْلِبُ لَأَكَلَتْهُمُ الْأَرْضُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وآية الله تعالى في نومهم هذه المدة الطويلة وحياتهم دون تغذ أذهب في الغرابة من حفظهم من مس الشمس ولزوم الأرض، ولكنها روايات تختلف وتؤتمل بعد، وظاهر كلام المفسرين أن الثقلب كان بأمر الله تعالى وفعل ملائكته. ويحتمل أن يكون ذلك بإقدار الله إياهم على

وإنما الصحيح في أمرهم أن الله عز وجل حفظ لهم الحالة التي قاموا عليها لتكون لهم ولغيرهم فيها آية، فلم يبيل لهم ثوب، ولا تغيّرت صفة، ولا أنكر الناهض إلى المدينة إلا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهم، ولروي ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿رُفِعَا﴾ بسكون العين، وقرأ: ﴿رُفِعَا﴾ بضمها أبو جعفر وعيسى، قال أبو حاتم: هما لغتان.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الأمر الذي ذكره الله تعالى في جهتهم والعيرة التي جعلت فيهم. و﴿الْبَغْتُ﴾: التحريك عن سكون، واللام في قوله تبارك وتعالى: ﴿لَيْسَآءَ لِرَأْسِ لَام الصيرورة؛ لأن بعثهم لم يكن لنفس تسأولهم، وقول القائل: ﴿كَمْ لَيْسَتْ﴾ يقتضي أنه هجس بخاطره طول نومهم، واستشعر أن أمرهم خرج عن العادة بعض الخروج، وظاهر أمرهم أنهم انتبهوا في حال من الوقت والهواء الزمني لا تباين التي ناموا فيها، وأما أن يُحَدِّدَ الأمر جداً فذلك بعيد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿بِرِّقِكُمْ﴾ بكسر الراء، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: ﴿بِرِّقِكُمْ﴾ بسكون الراء، وهما لغتان، وحكى الزجاج قراءة ﴿بِرِّقِكُمْ﴾ بكسر الواو وسكون الراء دون إدغام، وروي عن أبي عمرو الإدغام، وإنما هو إخفاء؛ لأن

الوجه للتطلع هي هيئة الربيثة المستخفي بنفسه، ويحتمل أن يريد بالكالب الكلب. وقوله تعالى: ﴿بَسِطَ ذِرَاعَيْهِ﴾ أعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضي لأنها حكاية، ولم يقصد الإخبار عن فعل الكلب. و﴿الْوَصِيدُ﴾: العتبة التي لباب الكهف، أو موضعها حيث ليست،

وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير: الوصيد: الفناء. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: الوصيد: الباب، وقال ابن جبير أيضاً: الوصيد: التراب، والقول الأول أصح، والباب الموصد هو المغلق، أي: وقف على وصيده.

ثم ذكر الله تعالى ما حَقَّهم من الرُعب واكتنفهم من الهيبة، وقرأ: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ﴾ بكسر الواو جمهور القراء، وقرأ الأعمش، وابن وثاب: ﴿لَوْ أَطَّلَعْتَ﴾ بضمها، وقد ذكر ذلك عن نافع، وشيبة، وأبي جعفر، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عباس رضي الله عنهما، وأهل مكة والمدينة: ﴿وَلَمَّيْنَتْ﴾ بشد اللام على تضعيف المبالغة، أي: مُلِئَتْ ثم مُلِئَتْ، وقرأ الباقون: ﴿لَمَّيْنَتْ﴾ بتخفيف اللام، والتخفيف أشهر في اللغة، وقد جاء التشديد في قول المُخَبِّلِ السعدي:

وَإِذْ قَتَلَ الثُّغَمَانُ بِالنَّاسِ مُخْرِمًا
فَمَلَى مِنْ كَعْبِ بْنِ عَزْوَ سَلَابِلَهُ
وقالت فرقة: إنما حَقَّهم هذا الرعب لطول شعورهم وأظفارهم، ذكره المهدوي والزجاج، وهذا قول بعيد، ولو كانت حالهم هكذا لم يقولوا: ﴿لَيْسَنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾،

ذلك وهم في غمرة النوم وهم لا ينتبهون كما يعترى كثيراً من النوم؛ لأن القوم لم يكونوا موتى. وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّهْمُ﴾. أكثر المفسرين على أنه كَلَبٌ حقيقة، كان لصيد أحدهم فيما رُوي، وقيل: كان لراع مرؤوا عليه فصحبهم وتبعه الكلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ أبا الفضل بن الجوهري في جامع مصر يقول على منبر وعظه سنة تسع وستين وأربعمائة: إن من أحب أهل الخير نال من بركتهم، كَلَبٌ أحب أهل فضل وصحبهم فذكره الله تعالى في محكم تنزيله. وقيل: كان أنمر، وقيل: كان أحمر، وقالت فرقة: كان رجلاً طباحاً لهم، حكاة الطيري ولم يُسَمَّ قائله، وقالت فرقة: كان أحدهم، وكان قعد عند باب الغار طليعة لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قَسَمِي باسم الحيوان الملازم لذلك الموضع من الناس، كما سُمِّي النجم التابع للجوزاء كلباً لأنه منها كالكلب من الإنسان، ويقال له: كلب الجبار. أما إن هذا القول يضعفه ذكر بسط الذراعين فإنها في العرف في صفة الكلب حقيقة، ومنه قول النبي ﷺ: «ولا ييسط أحدكم ذراعيه في السجود انبساط الكلب»، وقد حكى أبو عمرو المطرُّ في كتاب اليواقيت أنه قرئ: «وَكَلَّيْهُمُ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ»، فيحتمل أن يريد بالكالب هذا الرجل على ما رُوي؛ إذ يُسَطُّ الذراعين واللصوق بالأرض مع رفع

الإدغام مع سكون الراء متعذر، وأدغم ابن محيصن القاف في الكاف، قال أبو حاتم: وذلك إنما يجوز مع تحريك الراء، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿بِوَالِقِكُمْ﴾، اسم جمع كالجائل والباقر، وقرأ أبو رجاء: ﴿بِوَالِقِكُمْ﴾ بكسر الواو والراء والإدغام.

ويروى أنهم انتهوا أحياناً، وأن المبعوث هو تَمْلِيخًا، وروي أنهم صلوا كأنهم ناموا ليلة واحدة وبعثوا تَمْلِيخًا في صبيحتها. وروي أن باب الكهف انهدم بناء الكفار منه لطول السنين، وروي أن راعياً هدمه ليدخل فيه غنمه. فأخذ تَمْلِيخًا ثياباً منكورة رثّة ولبسها وخرج من الكهف فأنكر ذلك البناء المهدم؛ إذ لم يعرفه بالأمس، ثم مشى فجعل يذكر الطريق والمعالم ويتحير، وهو في ذلك لا يشعر شعوراً تاماً، بل يكذب ظنه فيما تغير عنده، حتى بلغ باب المدينة، فرأى على بابها أمانة الإسلام فزادت حيرته وقال: كيف هذا ببلدة دقنيوس وبالأمس كنا معه حيثما كنا؟ فنهض إلى باب آخر فرأى نحواً من ذلك حتى مشى الأبواب كلها، فزادت حيرته ولم يميز بشراً، وسمع الناس يقسمون باسم عيسى فاستراب بنفسه وظن أنه جُنٌّ وانفسد عقله، فبقي حيران يدعو الله تعالى، ثم نهض إلى بائع الطعام الذي أراد شراؤه، فقال: يا عبدالله بعني من طعامك بهذا الورق، فدفع إليه دراهم كأخفاف الرُّبْع فيما يذكر، فعجب لها البياع ودفعاها إلى آخر يُعَجِّبُهُ، وتعاطاها الناس وقالوا

له: هذه دراهم عهد فلان الملك، من أين أنت؟ وكيف وجدت هذا الكنز؟ فجعل يبهت ويعجب، وقد كان بالبلدة مشهوراً هو وفتيته، فقال: ما أعرف غير أنني وأصحابي خرجنا بالأمس من هذه المدينة، فقال الناس: هذا مجنون، اذهبوا به إلى الملك، ففزع عند ذلك، فذهب به حتى جيء به إلى الملك، فلما لم ير دقنيوس الكافر تأنس، وكان ذلك الملك مؤمناً فاضلاً يُسْمَى تَيْرُوسيس، فقال له الملك: أين وجدت هذا الكنز؟ فقال له: إنما خرجت أنا وأصحابي أمس من هذه المدينة، فأوتينا إلى الكهف الذي في جبل أنجلوس، فلما سمع الملك ذلك قال - في بعض ما روي -: لعل الله قد بعث لكم أيها الناس آية، فلنسر إلى الكهف معه حتى نرى أصحابه، فسار. وروى أنه أو بعض جلسائه قال: هؤلاء هم الفتية الذين أُرِخَ أمرهم على عهد دقنيوس الملك وكتب لوح النحاس بباب المدينة، فسار الملك إليهم وسار الناس معه، فلما انتهوا إلى الكهف قال تَمْلِيخًا: أَدْخُلْ عليهم لثلا يربعوا، فدخل عليهم وأعلمهم بالأمر وأن الأمة أمة إسلام، فيروى أنهم سُرُّوا وخرجوا إلى الملك وعظموه وعظّمهم، ثم رجعوا إلى كهفهم، وأكثر الروايات على أنهم ماتوا حين حدثهم تَمْلِيخًا، فانظرهم الناس، فلما أبطأ خروجهم دخل الناس إليهم، فرعب كل من دخل، ثم أقدموا فوجدوهم موتى، فتنازعوا بحسب ما يأتي في الآية التي بعد هذه.

وفي هذا القصص من اختلاف الروايات والألفاظ ما تضيق به الصحف، فاختصرته وذكرته المهم الذي تتفسر به ألفاظ هذه الآية، واعتمدت الأصح، والله المعين برحمته.

وفي هذه البعثة بالوَرِقِ الوكالة وَصَحَّتْهَا، وقد وكل علي بن أبي طالب رضي الله عنه أخاه عقيلاً عند عثمان رضي الله عنهم.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ بسكون لام الأمر، وقرأ الحسن: ﴿فَلْيَنْظُرْ﴾ بكسرها. و﴿أَنْذَكُ﴾ معناه: أكثر، فيما ذكر عكرمة، وقال قتادة: معناه: خير، وقال مقاتل: المراد: أطيب، وقال ابن جبير: المراد: أحل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من جهة ذبائح الكفرة وغير ذلك، فروى أنه أراد شراء زبيب، وقيل: بل شراء تمر.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَنْظُرْ﴾، أي: في اختفائه وتَحْيَلِهِ، وقرأ الحسن: ﴿وَلْيَنْظُرْ﴾ بكسر اللام.

والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائد على الكفار آل دقنيوس، و﴿يَنْظُرُوا عَلَيْكُمْ﴾ معناه: يتقفوكم بعلومهم وغلبتهم، وقوله تعالى: ﴿يَرْجُمُونَكَ﴾، قال الزجاج: معناه: بالحجارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو الأصح؛ لأنه كان عازماً على قتلهم لو ظفر بهم. والرجم فيما سلف هي كانت - على ما ذكر - قِتْلَةٌ مخالفة دين الناس، إذ هي أشقى لجملة ذلك في الدين، ولهم فيها

في أن اطلعوا عليهم فقال بعضهم: أموات، وقال بعضهم: أحياء، وزوي أن بعض القوم ذهب إلى طمس الكهف عليهم وتركهم فيه مغيبين، فقالت الطائفة الغالبة على الأمر: ﴿لَتَنحِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾ فاتخذوه، وقال قتادة: الذين غلبوا هم الولاة. وقرأ الحسن، وعيسى الثقفى: ﴿غَلَبُوا﴾ بضم الغين وكسر اللام، والمعنى: إن الطائفة التي أرادت المسجد كانت أولاً تريد ألا يبني عليهم شيء وألا يعرض لموضعهم. وزوي أن طائفة أخرى مؤمنة أرادت ولا بُدُ طمس الكهف، فلما غلبت الأولى على أن يكون بنيان ولا بُدُ قالت: يكون مسجداً، فكان. وروي أن الطائفة التي دعت إلى البنيان إنما كانت كافرة أرادت بناء بيعة أو مصنع لكفرهم، فمانعهم المؤمنون وقالوا: ﴿لَتَنحِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا﴾. وزوي عن عبيد بن عمير أن الله تعالى عمى على الناس حينئذ أمرهم وحجبتهم عنهم، فذلك دعا إلى بناء البنيان ليكون معلماً لهم.

٢١ - ٢٢ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ﴾ يراد به أهل التوراة من معاصري محمد ﷺ، وذلك أنهم اختلفوا في عدد أهل الكهف هذا الاختلاف المنصوص.

وقرأ الجمهور: ﴿ثَلَاثَةٌ﴾ وقرأ ابن محيصن: ﴿ثَلَاثٌ﴾ بإدغام التاء في الشاء، وقرأ شبل عن ابن كثير: ﴿خَمْسَةٌ﴾ بفتح الميم إتباعاً لعشرة، وقرأ ابن محيصن: ﴿خَمِيسَةٌ﴾ بكسر الخاء والميم.

ويقي حيران لا يدري كيف يبين أمره لهم حتى لبس المسوح وقعد على الرماد، وتضرع إلى الله في حجة وبيان، فأعثر الله على أهل الكهف، فلما بعثهم الله تعالى وتبين الناس أمرهم سرُ الملك، ورجع من كان شك في بعث الأجسام إلى اليقين به، وإلى هذا وقعت الإشارة بقوله: ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ على هذا التأويل. ويحتمل أن يعمل في ﴿إِذْ﴾ - على هذا التأويل - ويحتمل أن يعمل فيه ﴿يَعْلَمُوا﴾.

والضمير في قوله: ﴿يَعْلَمُوا﴾ يحتمل أن يعود على أصحاب الكهف، أي: يجعل الله تعالى أمرهم آية لهم دالة على بعث الأجساد من القبور. وقوله: ﴿إِذْ يَتَنَزَّعُونَ﴾ - على هذا التأويل - ابتداء خبر عن القوم الذين بعثوا على عهدهم، والعامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمّر تقديره: واذكر، ويحتمل أن يعمل فيه: ﴿فَقَالُوا﴾، ويكون المعنى: فقالوا إذ يتنازعون: ابنا عليهم، والتنازع - على هذا التأويل - إنما هو في أمر البناء والمسجد لا في أمر القيامة. والربُّب: الشك، والمعنى: إن الساعة في نفسها وحقيقتها لا شك فيها، وإن كان الشك وقع لبناسٍ لذلك لا يلحقها منه شيء. وقد قيل: إن التنازع إنما هو

وَكَذَلِكَ أَعْرَضْنَا عَنْهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأَرْبَابٌ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ مِنْهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِمْ بُيُوتًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَأَيْنَاهُمْ كَذِبًا وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلِمَةً مِنْهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبًا قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَهَرَ وَلَا اسْتَفْتِيَ فِيهِمْ فَمَنْ مَثَلُ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَذَكَرَ رَبُّكَ إِذْ أَنْسَيْتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِّي رَبِّي لِأَقْرَبٍ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾ وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثٌ مِائَةً سِتِينَ وَارْتَدَادًا وَإِنَّمَا آيَاتُنَا لِقَوْمٍ يُعَذِّبُهُمْ أَلَّا يَعْلَمُوا لِمَا لَهُمْ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٥﴾ وَأَنْزَلْنَا مَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ كِتَابٍ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٦﴾

مشاركة، وقال حجاج: ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾ معناه: بالقول. وباقي الآية بين.

٢١ تفسير قوله عز وجل:

الإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ﴾ إلى بعثهم ليشاءوا، أي: كما بعثناهم أعثرنا عليهم. و (أعثر) تغذية (عثر) بالهمزة، وأصل العثار في القوم، فلما كان العائر في الشيء مُشبهاً له شُبه به، من شبه العلم بشيء عن له وشار بعد خفائه.

والضمير في ﴿يَعْلَمُوا﴾ يحتمل أن يعود على الأمة المسلمة الذين بعث أهل الكهف على عهدهم، وإلى هذا ذهب الطبري، وذلك أنهم - فيما روي - دخلتهم حينئذ فتنة في أمر الحشر وبعث الأجساد من القبور، فشك في ذلك بعض الناس واستبعدوه، وقالوا: إنما تحشر الأرواح، فشق ذلك على ملكهم،

وقوله تعالى: ﴿رَبِّمَا بِاللَّيْلِ﴾
معناه: ظنًا، وهو مستعار من
الرجم، كأن الإنسان يرمي الموضع
المُشكَل المجهول عنده بِظَنِّهِ المرَّة
بعد المرَّة، يرجمه به عسى أن
يصيب، ومن هذا: الترجمان،
وترجمة الكتب، ومنه قول زهير:

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ
وَمَا هُرَّ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمُرْجَمِ
والواو في قوله تعالى: ﴿وَتَأْتِيَهُمْ
كَلِمَاتٌ﴾ طريق النحويين فيها أنها
واو عطف دخلت في آخر إخبار عن
عدهم، لتفصل أمرهم، وتدل على
أن هذا نهاية ما قيل، ولو سقطت
لصح الكلام، [ولو كانت فيما قبل
من قوله: ﴿رَأَيْبُهُمْ﴾ و﴿سَادُسُهُمْ﴾
لصح الكلام]، وتقول فرقة منها ابن
خالويه: هي واو الثمانية، وذكر ذلك
الثعلبي عن أبي بكر بن عياش، وأن
قريباً كانت تقول في عددها: ستة،
سبعة، وثمانية، تسعة، فتدخل الواو
في الثمانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وقد تقدم شرحها، وهي في القرآن
في قوله تعالى: ﴿الْأَمْرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَالنَّكَاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، وقوله:
﴿وَتُحِبَّتْ آثَرُهَا﴾، وأما قوله تعالى:
﴿يَتَّبِعُونَ آيَاتِكَ﴾، وقوله: ﴿سَجَّ لِبَالٍ
وَمَكِّيَّةً آيَاتِكَ﴾ فتوهم في هذين
الموضعين أنها واو الثمانية وليست
بها، بل هي لازمة لا يستغني الكلام
عنها.

وقد أمر الله تعالى نبيه ﷺ في هذه
أن يَزِدَّ عِلْمَ عِدَّتِهِمْ إِلَيْهِ عَزَّ وَجَلَّ، ثم
أخبر أن عالم ذلك من البشر قليل،
والمراد به قومٌ من أهل الكتاب،

وكان ابن عباس رضي الله عنهما
يقول: «أنا من ذلك القليل، وكانوا
سبعة وثامنهم كلهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وُستدل على هذا من الآية، فإن
القرآن لما حكى قول من قال ثلاثة
وخمسة قرّن بالقول أنه رَجِمَ
بالغيب، وقدم ذلك فيهما، ثم
حكى هذه المقالة ولم يقدح فيها
بشيء، بل تركها مسجلة، وأيضاً
فَتَقَوَّى ذلك على القول بأنها واو
الثمانية لأنها إنما تكون حيث عدد
الثمانية صحيح.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا
رِمَّةٌ ظَهَرَ﴾ معناه على بعض
الأقوال، أي: بظاهر ما أوحينا إليك
وهو رد علم عِدَّتِهِمْ إلى الله تبارك
وتعالى، وقيل: معنى الظاهر أن
يقول: ليس كما تقولون، ونحو
هذا، ولا يحتج هو على أمرٍ مقدَّرٍ
في ذلك، فإن ذلك يكون مرأه في
باطن من الأمر، وقال التبريزي:
﴿ظَهَرَ﴾ معناه: ذاهباً، وأشد:

.....
وَتِلْكَ شِكَاةٌ ظَاهِرَةٌ عَنْكَ عَارِهَا
ولم يُبِحْ له في هذه الآية أن
يماري، ولكن قوله: ﴿إِلَّا رِمَّةٌ﴾
استعارة، من حيث يماريه أهل
الكتاب سُمِّيت مراجعته لهم مرأه،
ثم قُيِّدَ بأنه ظاهر ففارق المرأه
الحقيقي المذموم. و«المِرَاء» مشتق
من المِرْيَة، وهي الشُّك، فكأنه
المُشَاكِكَةُ. والضمير في قوله تعالى:
﴿فِيهِمْ﴾ عائد على أهل الكهف،
وفي قوله سبحانه: ﴿وَيُنْهَمُ﴾ عائد
على أهل الكتاب المعاصرين.

وقوله: ﴿فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ﴾ يعني: في
عِدَّتِهِمْ، وَحَدَّثَتِ الْعِدَّةُ لِدلالة ظاهر
القول عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِيْشَاءُ﴾
الآية. عاتب الله تعالى نبيه ﷺ على
قوله للكفار: عَدَا أَخْبِرْكُمْ بجواب
أسئلتكم، ولم يستثن في ذلك،
فاحتبس عنه الوحي خمسة عشر يوماً
حتى شق ذلك عليه، وأرجف الكفار
به، فنزلت عليه هذه السورة مفرجة،
وأمر في هذه الآية ألا يقول في أمر
من الأمور: إني أفعل غداً كذا وكذا
إِلَّا وَأَنْ يُعَلِّقَ ذلك بمشيئة الله عزَّ
وجلَّ. واللام في قوله تعالى:
﴿لِيْشَاءُ﴾ بمنزلة (في)، أو كأنه
قال: لأجل شيء. وقوله: ﴿إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ﴾، في الكلام حذف
يقتضيه الظاهر وَوَحَّسَنَهُ الإيجاز،
تقديره: إِلَّا أَنْ تَقُولَ: «إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ»، أو إِلَّا أَنْ تَقُولَ: «إِنْ
شَاءَ اللَّهُ». فالمعنى: إِلَّا أَنْ تَذْكَرَ
مشيئة الله، فليس ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ﴾ من القول الذي نُهي عنه.
وقالت فرقة: قوله: ﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ
اللَّهُ﴾ استثناء من قوله: ﴿وَلَا
تَقُولَنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قولٌ حكاه الطبري ورُدَّ عليه،
وهو من الفساد بحيث كان من
الواجب ألا يُحْكِي.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكَرَ رَبِّكَ إِذَا
نَسِيتَ﴾، قال ابن عباس، والحسن:
معناه والإشارة به إلى الاستثناء،
أي: وَلَمْ تَنْسَ إِذْ تَنْسَى بعد مُدَّةٍ إِذَا نَسِيتَ
الاستثناء أولاً لتخرج من جملة من
لم يعلّق فعله بمشيئة الله، وقال

عكرمة: المعنى: واذكر ربك إذا غضبت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتكلم الناس في هذه الآية في الاستثناء في اليمين، والآية ليست في الأيمان، وإنما هي في سنة الاستثناء في غير اليمين، ولكن من حيث تكلم الناس فيها ينبغي أن تذكر شيئاً من ذلك.

أما مالك رحمه الله وجميع أصحابه - فيما علمت - وكثير من العلماء فيقولون: لا ينفع الاستثناء ويسقط الكفارة إلا أن يكون متصلاً باليمين. وقال عطاء: له أن يستثنى في قدر حَلَبِ الثَّاقَةِ الغزيرة. وقال قتادة: إن استثنى قبل أن يقوم فَلَهُ ثُنْيَاهُ، وقال ابن حنبل: له الاستثناء ما دام في ذلك الأمر، وقاله ابن راهويه. وقال طاوس، والحسن: ينفع الاستثناء ما دام الحالف في مجلسه. وقال ابن جبير: ينفع الاستثناء بعد أربعة أشهر فسقط، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ينفع الاستثناء ولو بعد سنة. وقال مجاهد: بعد سنتين، وقال أبو العالية: ينفع أبداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختلف الناس في التأويل عن ابن عباس رضي الله عنهما، فقال الطبري وغيره: إنما أراد ابن عباس أنه ينفع في أن يجعل الحالف في رتبة المستثنى بعد سنة من حلفه، وأما الكفارة فلا تسقط عنه، قال الطبري: ولا أعلم أحداً يقول: (ينفع الاستثناء بعد مدة) يقول بسقوط الكفارة، قال: ويَرُدُّ ذلك قولُ النبي ﷺ: «من حلف على

يعين ثم رأى غيرها خيراً منها فَلْيَكْفُرْ وَلَيَأْتِ الذي هو خيراً»، فلو كان الاستثناء يسقط الكفارة لكان أخف على الأمة، ولم يكن لذكر الكفارة فائدة.

وقال الزهراوي: إنما تكلم ابن عباس رضي الله عنهما في أن الاستثناء بعد سنة لمن قال: أنا أفعل كذا، لا الحالف أراد حلَّ يمينه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهبت فرقة من الفقهاء إلى أن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما سقوط الكفارة، وألزموا كل من يقول: (ينفع الاستثناء بعد مدة) إسقاط الكفارة، وردوا على القول بعدم إلزامه، وليس الاستثناء إلا في اليمين بالله، لا يكون في طلاق ونحوه، ولا في مشي إلى مكة، وهذا قول مالك وجماعة.

وقال الشافعي رحمه الله، وأصحاب الرأي، وطاوس، وحامد: الاستثناء في ذلك جائز، وليس في اليمين الغموس استثناء ينفع، ولا يكون الاستثناء بالقلب، وإنما يكون قولاً ونطقاً.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنَا رَبِّيَ﴾ الآية. قال محمد الكوفي المفسر: إنها بألفاظها مما أمر أن يقولها كل من لم يستثن، وإنها كفارة لنسيان الاستثناء. وقال الجمهور: هو دعاء مأمور به دون هذا التخصيص.

وقرأ الجمهور: ﴿يَهْدِيَنِي﴾ بإثبات الياء، وهي قراءة ابن كثير، ونافع، وأبي عمرو. وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿يَهْدِيَنِي﴾ دون ياء في

الوصل، وهي قراءة ابن عامر، وعاصم، وحزمة، والكسائي.

والإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ إلى الاستدراك الذي يقع من ناسي الاستثناء. وقال الزجاج: المعنى: عسى أن يُسِّرَ الله من الأدلة على نبوتي أقرب من دليل أصحاب الكهف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما قدَّمته أصوب، أي: عسى أن يرشدني فيما أستقبل من أمري. وهذه الآية مخاطبة للنبي ﷺ، وهي بعد تَعَمُّ جميع أمته، لأنه حكم يتردد في الناس بكثرة وقوعه، والله الموفق.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قال قتادة: ومطر الوراق، وغيرهما: ﴿وَلَيَأْتُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية حكاية عن بني إسرائيل أنهم قالوا ذلك، واحتجاً بأن في قراءة عبدالله بن مسعود وفي مصحفه: ﴿وَقَالُوا لَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾، وذلك عند قتادة - على غير قراءة عبدالله - عطف على ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ﴾، ذكره الزهراوي.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بأن يَرُدُّ العلم إليه رداً على مقالتهم وتفنيدها لهم، قال الطبري: «وقال بعضهم: لو كان ذلك خيراً من الله لم يكون لقوله: ﴿قُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا لَبِثُوا﴾ وجبة مفهوم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أين ذهب بهذا القائل؟ وما الوجه المفهوم البارح إلا أن تكون الآية خيراً عن لبثهم، ثم قيل لمحمد ﷺ: ﴿قُلِ اللَّهُ أَكْبَرُ بِمَا لَبِثُوا﴾ بخبره، هذا هو الحق من

عالم الغيب، فليزل اختلافكم أيها المتخصبون.

وقال المحققون: بل قوله تعالى: ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ الآية خبر من الله تعالى عن مدة لبثهم، ثم اختلف في معنى قوله بعد الإخبار: ﴿قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَيْسُوا﴾ - فقال الطبري: إن بني إسرائيل اختلفوا فيما مضى لهم من المدة بعد الإخبار عليهم إلى مدة النبي ﷺ، فقال بعضهم: إنهم لبثوا ثلاثمائة سنة وتسع سنين، وأخبر الله تعالى نبيه ﷺ أن هذه المدة في كونهم نياماً، وأن ما بعد ذلك مجهول للبشر، فأمره الله تعالى أن يرُد علم ذلك إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقله تعالى - على هذا التأويل -: ﴿لَيْسُوا﴾ الأول يريد: في نوم الكهف، و﴿لَيْسُوا﴾ الثاني يريد: بعد الإخبار موتي إلى مدة محمد ﷺ، أو إلى وقت عدمهم بالبلد، على الاختلاف الذي سنذكره بعد. وقال بعضهم: إنه لما قال: ﴿وَأَزْدَادُوا سَعًا﴾ لم تَدْرِ النَّاسُ أَمِي سَاعَاتِ أَمْ أَيَّامِ أَمْ جَمْعِ أَمْ شَهْرٍ أَمْ أَعْوَامٍ، واختلف بنو إسرائيل بحسب ذلك، فأمره الله تعالى برَد العلم إليه؛ يريد: في التسع، فهي - على هذا - مبهمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر كلام العرب والمفهوم عنه أنها أعوام، والظاهر من أمرهم أنهم قاموا ودخلوا الكهف بعد عيسى عليه السلام بيسير، وقد بقيت من الحوارين بقية. وحكى النقاش ما

معناه أنهم لبثوا ثلاثمائة سنة شمسية بحساب الأمم، فلما كان الإخبار هنا للنبي العربي ﷺ ذكرت التسع؛ إذ المفهوم عنده من السنين القمرية، فهذه الزيادة هي ما بين الحسابين.

وقرأ الجمهور: ﴿تَلَكَّ يَأْتَرُ سِينِكْ﴾ بتنوين ﴿مَائَةً﴾ ونصب ﴿سِينِكْ﴾ على البدل من ﴿تَلَكَّ يَأْتَرُ﴾، أو عطف البيان، وقيل: على التفسير والتمييز، وقرأ حمزة، والكسائي، ويحيى، وطلحة، والأعمش بإضافة [مَائَةً] إلى «السنين» وترك التنوين، وكأنهم جعلوا ﴿سِينِكْ﴾ بمنزلة [سِنَّةٍ]؛ إذ المعنى بهما واحد. قال أبو علي: إذ هذه الأعداد التي تضاف في الشهور إلى الأحاد نحو ثلاثمائة رجل أو ثوب قد تضاف إلى المجموع، وانحى أبو حاتم على هذه القراءة، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿ثَلَاثَمِائَةَ سَنَةٍ﴾، وقرأ الضحاك: ﴿ثَلَاثَمِائَةَ سَنُونَ﴾ بالواو. وقرأ أبو عمر - بخلاف -: ﴿تَسْعًا﴾ بفتح التاء، وقرأ الجمهور: ﴿تَسْعًا﴾ بكسر التاء.

وقوله تعالى: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعُ﴾، أي: ما أبصره وأسمعه، قال قتادة: لا أحد أبصر من الله تعالى ولا أسمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارات عن الإدراك، ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿أَبْصَرَ بِهِ﴾ أي: بسوحيه وإرشاده، هداك وحججك والحق من الأمور، وأسمع به العالم، فيكونان أمرين لا على وجه التعجب. وقوله تعالى:

﴿مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ﴾ يحتمل أن يعود الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ على أصحاب الكهف، أي: هذه قدرته وحده، لم يؤلِّهم غيره بتلطف لهم، ولا اشترك معه أحد في هذا الحكم. ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ على معاصري رسول الله ﷺ من الكفار ومُشَاقِيهِ، وتكون الآية اعتراضاً بتهديد.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا يَشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ بالياء من تحت، على معنى الخبر عن الله تبارك وتعالى، وقرأ ابن عامر، والحسن، وأبو رجاء، وقتادة، والجحدري: ﴿وَلَا يَشْرِكُ﴾ بالتاء من فوق، على جهة النهي للنبي ﷺ، ويكون قوله: ﴿وَلَا تَشْرِكُ﴾ عطفاً على قوله سبحانه: ﴿أَبْصَرَ بِهِ وَأَسْمِعُ﴾. وقرأ مجاهد: ﴿وَلَا يَشْرِكُ﴾ بالياء من تحت وبالجزم، قال يعقوب: لا أعرف وجهه.

وحكى الطبري عن الضحاك بن مزاحم أنه قال: نزلت هذه الآية ﴿وَلَيْسُوا فِي كَهْفِهِمْ تَلَكَّ يَأْتَرُ﴾ فقط، قال الناس: أهَيَّ أَشْهَرُ أَمْ أَيَّامُ أَمْ أَعْوَامُ؟ فنزلت ﴿سِينِكْ وَأَزْدَادُوا سَعًا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما هل دام أهل الكهف وبقيت أشخاصهم محفوظة بعد الموت؟ فاختلفت الروايات في ذلك - فروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه مر بالشام في بعض غزواته مع ناسٍ على موضع الكهف وجبله، فمشى الناس إليه فوجدوا عظاماً، فقالوا: هذه عظام أصحاب الكهف، فقال

يفسد قوله: ﴿لَا مُبَدَّلَ لِكَلِمَتِهِ﴾ أمر النسخ؛ لأن المعنى إما أن يكون: لا مُبَدَّلَ سِوَاهُ، فتبقى الكلمات على الإطلاق، وإما أن يكون أراد من «الكلمات» الخَبِير ونحوه مما لا يدخله النسخ، والإجماع أن الذي لا يتبدل هو الكلام القائم بالذات الذي يحسبه يجري القدر، فأما الكتب المنزلة فمذهب ابن عباس رضي الله عنهما أنها لا تبدل إلا بالتأويل، ومن العلماء من يقول: إن بني إسرائيل بدّلوا ألفاظ التوراة.

٢٨ - ٢٩ تفسير قوله عز وجل: سبب هذه الآية أن عظماء الكفار قيل: من أهل مكة، وقيل: غَيَّبَتْهُ بن حصن وأصحابه، والأول أصوب لأن السورة مكية - قالوا لرسول الله ﷺ: لو أبعدت هؤلاء عن نفسك لجالسناك وصحبناك، يريدون: عمار بن ياسر، وصهيب بن سنان، وسلمان الفارسي، وعبدالله بن مسعود، وغيرهم من الفقراء كبلال ونحوه، وقالوا: إن ريح جنابهم تؤذي، فنزلت الآية بسبب ذلك، وروي أن رسول الله ﷺ خرج إليهم، وجلس بينهم وقال: «الحمد لله الذي جعل من أمتي من أمرت أن أصبر نفسي معه»، وروي أنه قال لهم: «مرحباً بالذين عاتبني فيهم ربي»، وروي سلمان أن المؤلفلة قلوبهم، غَيَّبَتْهُ بن حصن، والأقرب، وذويهم قالوا ما دُكِرَ فنزلت الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالآية - على هذا - مدنية، ويُسَبَّه أن

ولم نجد من علم شأنهم إثارة، ويزعم ناس أنهم أصحاب الكهف، دخلت إليهم ورأيتهم سنة أربع وخمسمائة وهم بهذه الحالة، وعليهم مسجد، وقريب منهم بناء رومي يسمى الرقيم مما يلي القبلة، وأثار مدينة قديمة رومية يقال لها دقنيوس، وجدنا في أثارها غرائب في قبور ونحوها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما استسهلت ذكر هذا مع بُعْده لأنه عجب يتخلد ذكره ما شاء الله عز وجل.

قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ﴾ الآية. من قرأ: ﴿وَلَا تُشْرِكْ﴾ بالنهي عطف قوله: ﴿وَأَتْلُ﴾ عليه، ومن قرأ: ﴿وَلَا يُشْرِكْ﴾ جعل هذا أمراً بُدِئَ به كلام آخر ليس من الأول، وكأن هذه الآية في معنى العتاب للنبى ﷺ عقب العتاب الذي كان على تركه الاستثناء، كأنه يقول: هذه أجوبة الأسئلة، فائل وخي الله إليك، أي: اتبع في أعمالك، وقيل: اسرُد بتلاوتك ما أوحى إليك من كتاب ربك، لا نقص في قوله، ولا مبدل لكلماته، وليس لك سواه جانب تميل إليه وتستند.

و «المُلْتَحَذُ»: الجانب الذي يمال إليه، ومنه اللُّحْدُ، كأنه الميل في أحد شقي القبر، ومنه: الإلحاد في الحق، وهو الميل عن الحق، ولا

وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدْوَةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدَ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تَطْعَمْ مِنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ دِينِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا ﴿٢٨﴾ وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَعِينُوا يَأْتُوا بِنِجَاءٍ كَأَلْمِهْلِ يَشْرِي الْوُجُوهُ بِنَسْكَ النَّارِ وَسَاءَتْ مَرْتَفَعًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِفِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّرَوَاتُ ﴿٣١﴾ وَحَسْبَتْ مَرْتَفَعًا ﴿٣٢﴾ وَأَصْرَبَتْ لَهُمْ مَثَلًا لِمَنْ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٣﴾ كُنَّا الْجَنَّتَيْنِ مَانَتًا لَهَا وَلَهُ ظُلْمُ لُؤْتِهِ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلْفَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٤﴾ وَكَانَ لَهُمْ فِيهَا عَمَلٌ لِيُحْجَبُوا وَهُوَ يُجَاوِرُهُ وَأَنَا كَاتِبٌ فَكُلُوا مَا لَمْ يَأْمُرْ أَنْ تَكْفُرُوا

لهم ابن عباس رضي الله عنهما: لا، أولئك فنوا وعدموا منذ مدة طويلة، فسمعه راهب فقال: ما كنت أحسب أن أحداً من العرب يعرف هذا، فقبل له: هذا ابن عم نبينا ﷺ. وقالت فرقة: إن رسول الله ﷺ قال: لِيُحْجَبَنَّ عَيْسَى ابن مريم ومعه أصحاب الكهف فإنهم لم يحجوا بعد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبالشام - على ما سمعت من ناس كثير - كهف كان فيه موتى يزعم مجاوروه أنهم أصحاب الكهف، وعليه مسجد وبناء يُسَمَّى الرقيم، ومعهم كلب رمة، وبالأندلس في جهة غرناطة بقرب قرية تُسَمَّى لوشة كهف فيه موتى ومعهم كلب رمة، وأكثرهم قد انجرد لحمه، وبعضهم متماسك، وقد مضت القرون السالفة

تكون الآية مكية وقَعَلَ المؤلفُ فعل قريش فردُّ عليهم بالآية.

و ﴿أَمِيرٌ﴾ معناه: اخيس، ومنه المصبورة التي جاء فيها الحديث (نهى رسول الله ﷺ عن صبر الحيوان)، أي حسبه للرُمي ونحوه.

وقرأ الجمهور: ﴿بِالْفُدُوَّةِ﴾ وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بِالْفُدُوَّةِ﴾، وهي قراءة نصر بن عاصم، ومالك بن دينار، وأبي عبدالرحمن، والحسن، وهي في الخطِّ على القراءتين بالواو، فمن يقرأ ﴿بِالْفُدُوَّةِ﴾ فيكتبها كما تكتب الصَّلُوةَ والزُّكُوةَ، وفي قراءة من قرأ: ﴿بِالْفُدُوَّةِ﴾ ضعف؛ لأن (فُدُوَّة) اسم معرّف فحقّه ألا يدخل عليه الألف واللام، ووجه القراءة بذلك أنهم ألحقوها ضرباً من التنكير؛ إذ قالوا: «جثت فُدُوَّة»، يريدون: من العُدُوات، فحَسُن دخول الألف واللام، كقولهم: الفَيْتَةُ، وفَيْتَةُ اسم مُعَرَّف. والإشارة لقوله تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْفُدُوَّةِ وَالْمِيَّةِ﴾ إلى الصلوات الخمس، قاله ابن عمر، ومجاهد، وإبراهيم. وقال قتادة: المراد صلاة الفجر وصلاة العصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويدخل في الآية من يدعو في غير صلاة، ومن يجتمع لمذاكرة علم. وقد روي عن عبدالله بن عمر، عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿لَذَكَرَ اللهُ بِالْفُدُوَّةِ وَالْعَشِيِّ أَفْضَلَ مِنْ حِطْمِ السُّيُوفِ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَمَنْ إِعْطَاءَ الْمَالِ سِحَاً.﴾ وقرأ أبو عبدالرحمن: ﴿بِالْفُدُوَّةِ﴾ دون هاء، وقرأ ابن أبي عبلة:

﴿بِالْعُدُواتِ وَالْعَشِيَّاتِ﴾ على الجمع.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ﴾، أي: لا تتجاوز إلى أبناء الدنيا والملابس من الكفار. وقرأ الحسن: ﴿وَلَا تَقْدُ﴾ بضم التاء وفتح العين وشدّ الدال المكسورة، أي: لا تُجاوزها أنت عنهم، ورُوي عنه: ﴿وَلَا تُغْدِي﴾ بضم التاء وسكون العين. وقوله: ﴿مَنْ أَغْفَلْنَا﴾، قيل: إنه أراد بذلك مُعْتَبِئاً وهو عُيَيْتَةُ بن حصن، والأقرع، قاله خُباب، وقيل: إنما أراد من هذه صفته، وإنما المراد أولاً كفار قريش لأن الآية مكية. وقرأ الجمهور: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾ بنصب الباء، على معنى: جعلناه غافلاً، وقرأ عمرو بن فائد، وموسى الأسواري: ﴿أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ﴾، على معنى: أهمل ذكرنا وتركه، قال ابن جني: المعنى: من ظننا غافلين عنه، وذكر أبو عمرو الداني: إنها قراءة عمرو بن عبيد.

و «الْفُرْطُ» يحتمل أن يكون بمعنى التفريط والتضييع، أي أمره الذي يجب أن يلتزم، ويحتمل أن يكون بمعنى الإفراط والإسراف، أي أمره وهواه الذي هو بسبيله، وقد فسّر المتأولون بالعبارتين، أعني التضييع والإسراف، وعبر عنه خُباب بالهلاك، وداود بالندامة، وابن زيد بالخلاف للحق، وهذا كله تفسير بالمعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ الآية. المعنى: وقل لهم يا محمد: هذا الحقُّ من ربكم، أي: هذا القرآن، أو هذا الإعراض

عنكم، وتترك الطاعة لكم، وصبرُ النفس مع المؤمنين. وقرأ قُتَيْبُ أبو السَّمَالِ: ﴿وَقُلِ﴾ بفتح اللام، قال أبو حاتم: وذلك رديء في العربية. وقوله: ﴿مَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنِ﴾ الآية، تَوَعَّدُ وتهديد، أي: فليختر كل امرئ لنفسه ما يجده غداً عند الله عزَّ وجلَّ. وتأولت فرقة: فمن شاء الله إيمانه فليؤمن، ومن شاء كفره فليكفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا متوجه، أي: فحقه الإيمان وحقه الكفر، ثم عبر عن ذلك بلغة الأمر إلزاماً وتحريضاً من حيث للإنسان في ذلك التَّكْسُبُ الذي يتعلق به ثواب الإيمان وعقاب الكفر. وقرأ الحسن، وعيسى الشقفي: ﴿فَلْيُؤْمِنِ... وَلْيُكْفِرْ﴾ بكسر اللامين.

و «أَعْتَدْنَا» مأخوذ من العتاد، وهو الشيء المُعَدُّ الحاضر. و«السُّرَادِقُ» هو الجدار المحيط كالحجارة التي تدور وتحيط بالفسطاط، وقد تكون من نوع الفسطاط أديماً أو ثوباً أو نحوه، ومنه قول رؤبة:

يَا حَكَمَ بْنَ الْمُثَنِّرِ بْنِ الْجَارُودِ
سُرَادِقُ الْمَسْجِدِ عَلَيْكَ مَسْدُودُ

ومنه قول سلامة بن جندل:
هُوَ الْمَوْلِجُ الثُّغْمَانُ بَيْنَتَا سَمَاوَهُ
صُدُورُ الْقُيُولِ بَعْدَ بَيْتِ مُسَرْدَقِ
وقال الزجاج: السُّرَادِقُ: كلُّ ما أحاط بالشيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي أخصُّ مما قاله الزجاج. واختُلف في سرداق النار - فقال ابن

عباس رضي الله عنهما: سرادقها حائط من نار، وقالت فرقة: سرادقها دخان محيط بالكفار، وهو قوله تعالى: ﴿أَطْلَقْنَا إِلَى ظِلِّ ذِي تِلْكَ شَعْبٍ﴾. وقالت فرقة: الإحاطة هي في الدنيا، والسرادق: البحر، ورؤي هذا المعنى من طريق يعلی بن أمية عن النبي ﷺ، فيجاء قوله تعالى: ﴿أَحَاطَ بِهِمْ﴾، أي: بالبشر، ذكر الطبري الحديث عن يعلی، قال: قال رسول الله ﷺ: «البحر هو جهنم»، وتلا هذه الآية، ثم قال: «والله لا أدخله أبداً، أو ما دُمْتُ حياً»، وروي عنه أيضاً عليه الصلاة والسلام من طريق أبي سعيد الخدري أنه قال: «لسرادق النار أربعة جُدُرٍ كُثُف، عرض كل جدار مسيرة أربعين سنة».

وقوله تعالى: ﴿بَعَثْنَا﴾ أي يكون لهم مقام الغوث، وهذا نحو قول الشاعر:

تَجِيئةً بَيْنِهِمْ صَرَبٌ وَجِيْعٌ
أي: القائم مقام التحية.

و ﴿كَالْمُهْلِ﴾، قال أبو سعيد عن النبي ﷺ: «هو دُرْدِي الزيت إذا انتهى حره»، وقالت فرقة: هو كل مائع سخن حتى انتهى حره، وقال ابن مسعود وغيره: كل ما أذيب من ذهب أو فضة أو رصاص أو نحو هذا من الفلز حتى تَمَّع، وروي أن عبدالله بن مسعود أهديت إليه سقاية من ذهب أو فضة، فأمر بها فأذيت حتى تَمَّعَتْ وتلَوَّت ألواناً، ثم دعا مَنْ يبابه من أهل الكوفة فقال: ما رأيت في الدنيا شيئاً أدنى شبيهاً

بالمُهْل من هذا، يريد: أدنى شبيهاً بشراب أهل النار. وقالت فرقة: المُهْل: الصديد والدم إذا اختلطا، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في الكفن: «إنما هو للمهلة»، يريد: لما يسيل من الميت في قبره، ويقوي هذا بقوله تعالى: ﴿مِنْ مَّاءٍ صَٰكِبٍ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿يَشْوَى الْجُودَى﴾ روي في معناه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «تَقْرُبُ الشَّرْبَةُ مِنَ الْكَافِرِ، فَإِذَا دَنَتْ تَكَرَّهَهَا، فَإِذَا دَنَتْ أَكْثَرَ شُوتِ وَجْهِهِ وَسَقَطَتْ فِيهَا فِرَّةٌ وَجْهِهِ، وَإِذَا شَرِبَ تَقَطَّعَتْ أَمْعَاؤُهُ». والمُرْتَفَقُ: الشيء الذي يَرْتَفِقُ به، أي يطلب رفقه، والمُرْتَفَقُ الذي هو الْمُتَكَا أَحْضُ من هذا الذي في الآية؛ لأنه في شيء واحد من معنى الرُفْق، على أن الطبري قد فسّر الآية به، والأظهر عندي أن يكون «المُرْتَفَقُ» بمعنى الشيء الذي يطلب رفقه بِاتِّكَاءٍ وغيره. وقال مجاهد: المرتفق: المجتمع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه ذهب بها إلى موضع الرُفَاقَة، ومنه الرفقة، وهذا كله راجع إلى الرُفْق، وأنكر الطبري أن يعرف لقول مجاهد معنى، والقول بين الوجه، والله المعين.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله عز وجل: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ اعتراضٌ مُؤَكِّدٌ للمعنى، مذكّر بأفضال الله تعالى، مُتَّبِعٌ على حُسن جزائه، بين قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ وقوله: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ

يَجَنَّبْكُمْ﴾، فقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ لَمْ يَجَنَّبْكُمْ﴾ ابتداءً وخبرٌ، جملة هي خبر ﴿إِنَّا﴾ الأولى، ونحو هذا من الاعتراض قول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ - إِنْ اللَّهُ أَلْبَسَهُ
سِرْبَالَ مُلْكٍ - بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ
قال الزجاج: ويجوز أن يكون خبر [إِنَّا] في قوله: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾؛ لأن المحسنين هم المؤمنون، فكأن المعنى: لا نضيع أجرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومذهب سيويه أن الخبر في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ﴾ على حذف العائد، وتقديره: من أحسن عملاً منهم.

و «العَدْنُ»: الإقامة، ومنه المَعْدُنُ؛ لأن حَجْرَهُ مَقِيمٌ فيه ثابت، وقوله تعالى: ﴿مِنْ تَعْنِيمٍ﴾ يريد: تحت عُرْفِهِمْ ومبانيهم. وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ أَسَاوِرَ﴾ وروي أبان عن عاصم: ﴿مِنْ أَسْوَرَةٍ﴾ بغير ألف وبزيادة هاء، وواحدة الأَسَاوِرِ: إسوارٌ وحذفت الياء من الجمع؛ لأن الباب: أساور، وهي ما كان في الذراع من الحلبي، وقيل: أساور جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، وإنما الإسوار بالفارسية القائد ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقال في حُلِيِّ الذراع: إسوارٌ، ذكره أبو عبيدة معمر، ومنه قول الشاعر:

وَاللَّهِ لَوْلَا قَسِيَّةٌ صَعَّارُ
كَأَنَّهَا وَجُوهُهُمْ أَقْمَارُ
تَضُّسُهُمْ مِنَ الْعَتِيكِ دَارُ
أَخَافُ أَنْ يُصِيبَهُمْ إِفْتَارُ

عِيْرَهُ الْآخِرَ، فَجَرَتْ بَيْنَهُمَا هَذِهِ
الْمَحَاوِرَةَ، فَفَرَّقَهَا اللَّهُ فِي لَيْلَةٍ،
وإِيَّاهَا عَنِ بَيْتِهِ الْآيَةَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي بسط قصصهما طول فاختصرته
واقترصت على معناه لقلّة صحتة،
ولأن في هذا ما يفي بفهم الآية.

وتأمل هذه الهيئة التي ذكر الله
تعالى، فإن المرة لا يكاد يتخيل
أجلّ منها في مكاسب الناس: جئنا
عنب أحاط بها نخّل بينهما فسحة
هي مزدرعٌ لجميع الحبوب، والماء
الغَيْلُ يسقي جميع ذلك من النهر
الذي جمّل هذا المنظر، وعظّم
النتع، وقرب الكد، وأغنى عن
النواضح وغيرها.

وقرأ الجمهور: ﴿كُنَّا﴾ وفي
مصحف عبدالله: ﴿كِلَا﴾، والتاء في
(كُنَّا) منقلبة عن واو عند سيبويه،
وهو بالتاء أو بغير التاء اسم مفرد
واقع على الشيء المُثْنَى، وليس
باسم مُثْنَى، ومعناه: كل واحدة
منهما، و﴿الْأَكْلُ﴾: ثمرها الذي يؤكل
منها، قال الفراء: وفي قراءة ابن
مسعود: ﴿كُلُّ الْجَنَّتَيْنِ أَتَى أَكْلَهُ﴾.
وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَطَّلَرْتُمْ أَتَى شَيْئًا﴾،
أي: لم تنقص عن العرف، ومنه
قول الشاعر:

تَطَّلَمْنِي مَالِي كَذَا وَلَوْ يَدِي
لَوْ يَدَهُ اللَّهُ الَّذِي هُوَ غَالِبٌ
وقرأ الجمهور: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بتشديد
الجيم، وقرأ سلامٌ، ويعقوب،
وعيسى بن عمر: ﴿وَفَجَّرْنَا﴾ بفتح
الجيم دون شد. وقرأ الجمهور:
﴿هَرَا﴾ بفتح الهاء، وقرأ أبو
السَّمَالِ، والفياض بن غزوان،

النبي ﷺ أن يطرد فقراء المؤمنين
الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي،
وعلى أولئك الداعين أيضاً، فالمثل
مضروب للظانفتين؛ إذ الرجل الكافر
صاحب الجنّين هو بإزاء متجبري
قريش، أو بني تميم، على الخلاف
المذكور أولاً، والرجل المؤمن المقر
بالربوبية هو بإزاء بلالٍ وعمّارٍ
وضهّيبٍ وأقرانهم.

و﴿وَحَفَّتْنَا﴾ بمعنى: جعلنا ذلك
لها من كل جهة، تقول: حَفَّكَ اللهُ
بخير، أي: عمّك به من جميع
جهاتك، والجفاف: الجانب من
السري ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وظاهر هذا المثل أنه بأمر وقع وكان
موجوداً، وعلى هذا فسره أكثر أهل
التأويل، ويحتمل أن يكون المثل
مضروباً بمن هذه صفته وإن لم يقع
ذلك في وجود قط. والأول أظهر.

وروي في ذلك أنهما كان أخوين
من بني إسرائيل ورثا أربعة آلاف
دينار، فصنع أحدهما بماله ما ذكر،
واشترى عبيداً وتزوَّج وأثرى، وأنفق
الآخر ماله في طاعة الله تعالى حتى
افتقر، والتقيا ففخر الغني وبيخ
المؤمن، فجرت بينهما هذه
المحاوره، وروي أنهما كانا شريكين
حدّادين كسبا مالا كثيراً وصنعا نحو
ما روي في أمر الأخوين، فكان من
أمرهما ما قصّ الله في كتابه. وذكر
إبراهيم بن القاسم الكاتب في كتابه
(في عجائب البلاد) أن بحيرة تيسس
كانت ما بين الجنّتين، وكانت
للأخوين، فباع أحدهما نصيبه من
الآخر، وأنفق في طاعة الله حتى

أَوْ لَاطِمٌ لَيْسَ لَهُ إِسْوَارٌ
لَمَّا رَأَى مَلِكٌ جَبَّارٌ
بِبَابِهِ مَا وَضَحَ الشَّهَارُ
أنشده أبو بكر بن الأنباري حاشية
في كتاب أبي عبيدة.

و«السُّنْدُسُ»: رقيق الديداج،
و«الإِسْتَبْرَقُ»: ما غلظ منه، وقال
بعض المفسرين: هي لفظة أعجمية
عربت، وأصلها: استبره، وقال
بعضهم: هو الفعل العربي سُمِّيَ به،
فهو إسْتَبْرَقَ، من البريق، فغُبِرَ حين
سُمِّيَ به بقطع الألف، ويُقَوَّى هذا
القول أن ابن محيصن قرأ: ﴿مِنْ
سُنْدُسٍ وَأِسْتَبْرَقٍ﴾، فجاء به موصول
الهمزة حيث وقع، ولا يَجْرُهُ بل
يفتح القاف، ذكره الأسواري، وذكره
أبو الفتح وقال: هذا سهوٌ أو
كالتسهو.

و«الأَرَايِكُ»: جمع أريكة، وهو
السري في الحجال، والضمير في
قوله: ﴿وَمَسَّنَتْ﴾ للجنات، وحكى
التقاش عن أبي عمران الجوني أنه
قال: الإسْتَبْرَقُ: الحرير المنسوج
بالذهب، وحكى مكي والزهرراوي
وغيرهما حديثاً مُضْمَنَةً أن قوله
تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ﴾ الآية نزلت في أبي بكر،
وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله
تعالى عنهم، سأل أعرابي
رسول الله ﷺ عن الآية، فقال
النبي ﷺ للأعرابي: «أعلم قومك
أنها نزلت في هؤلاء الأربعة» وهم
حضور.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ عائد على
الطائفة المتحيرة التي أرادت من

من الكِبَرِ والرَّهْوِ والاعتِرَارِ ما بيانه
يغني عن القول فيه. وهذه المقالة
بإزاء مقالة عُيَيْنَةَ والأقْرَعِ
للنبي ﷺ: نحن سادات العرب،
وأهل الوَبَرِ والمَدْرِ، فَتَحَّ عُنَّا
سلمان وقرناه.

٢٥ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل:

أفرد الجنة من حيث الوجود،
كذلك إذ لا يدخلهما معاً في وقت
واحد، وظلمه لتفسيه: كفره وعقائه
الفاصلة في الشك في البعث، فقد
نص على ذلك قتادة، وابن زيد،
وفي شكه في حدوث العالم وإن
كانت إشارته بـ ﴿هَذِهِ﴾ إلى الهيئة
في السموات والأرض وأنواع
المخلوقات، وإن كانت إشارته إلى
جنته فقط فإنما في الكلام تسخف
واغترار وقلة تحصيل، كأنه من شدة
العجب بها والسرور أفرط في وصفها
بهذا القول، ثم قاس أيضاً الآخرة
على الدنيا، وظن أنه لم يُعَلِّ له في
الدنيا إلا لكرامة يستوجبها في نفسه،
قال: فإن كان ثم رجوع كما تزعم
فسيكون حالي كذا وكذا، وليست
مقالة العاصي بن وائل لخباب على
حد هذه، بل قصد العاصي
الاستخفاف على جهة التصميم على
التكذيب.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر،
وابن الزبير، وثبت في مصاحف
المدينة ﴿مِنْهُمْ﴾ يريد الجنتين
المذكورتين أولاً، وقرأ أبو عمرو،
وعاصم، وحمزة، والكسائي،
والعامة، وكذلك هو في مصحف
البصرة: ﴿مِنْهَا﴾ يريد الجنة
المدخولة.

ويستشهدون لهذا القول
بييت الثابتة:

وَمَا أَثْمُرُ مِنْ مَالٍ وَمِنْ وَلَدٍ
وقال مجاهد: يراد بها
الذهب والفضة خاصة،
وقال ابن زيد: الثمر هي
الأصول التي فيها الثمر.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: كأنها ثمار
وثمر، ككتاب وكُتِبَ.
وأما من قرأ بفتح الشاء
والميم فلا إشكال في أن
المعنى ما في رؤوس
الأشجار من الأكل،
ولكن فصاحة الكلام

تقتضي أن يعبر بإيجازاً عن
هلاك الثمر والأصول بهلاك الثمر
فقط، خصها بالذكر إذ هي مقصد
المستغل، وإذ هلاك الأصول إنما
يسوء منه هلاك الثمر الذي كان
يُرجى في المستقبل، وكما يقتضي
قوله ﴿إِنَّ لَهُ ثَمْرَهُ﴾ أن له أصولاً،
كذلك يقتضي الإحاطة المطلقة
بالثمرات والأصول قد هلكت. وفي
مصحف أبي: ﴿وَأْتِيَاهُ ثَمراً كثيراً﴾.
وقرأ أبو رجاء: ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ﴾
بفتح الشاء وسكون الميم.
والمُحَاوَرَةُ: مراجعة القول، وهو
من: حَارَ يحور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
واستدل بعض الناس من قوله
سبحانه: ﴿وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ على أنه لم
يكن أخاه. وقال المناقض: أراد
بالنفر العبيد والحوال: إذ هم الذين
ينفرون في رغبته، وفي هذا الكلام

وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ
أَبَدًا ﴿٢٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودَتْ إِلَى رَبِّي
لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٢٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ
أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفٍ ثُمَّ سَوَّاهُ رَجُلًا
﴿٢٧﴾ لَيْسَ كَمِثْلِكَ هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٢٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ
دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ سَكْرَانَ أَنَا
أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٢٩﴾ فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ
جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حَسْبًا مِمَّنْ فِي السَّمَاءِ فَيُصْبِحُ صَعِيدًا
زَلْفًا ﴿٣٠﴾ أَوْ يُصْبِحُ مَا وَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٣١﴾
وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَتِفَهُ عَلَى مَا أَفْرَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ
عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ لِلَّذِينَ هُمْ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٢﴾ وَلَوْ تَكَّنْ لَهُ
فِتْنَةٌ بَصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِرًا ﴿٣٣﴾ هَذَا لِكِ الْوَالِدَةِ
لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ نُوَابًا وَخَيْرٌ عَقَبًا ﴿٣٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَّةِ
الَّتِي كَانَتْ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ
فَأَصْبَحَ حُشْبًا لَذَرُوهُ الرِّيحَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا ﴿٣٥﴾

٢٩٨

وطلحة بن سليمان: ﴿نَهْرًا﴾ بسكون
الهاء، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن
عامر، وحمزة، والكسائي، وابن
عباس، ومجاهد، وجماعة قراء
المدينة ومكة: ﴿ثَمْرٌ﴾ وأُحِيطَ
بِثَمَرِهِ بضم الشاء والميم، جمع
ثمار، وقرأ أبو عمرو، والأعمش،
وأبو رجاء بسكون الميم فيها
تخفيفاً، وهي في المعنى كالأولى،
ويشج أن يكون جمع ثَمْرَةٍ، كَبَدَنَةٍ
وَبُذْنٍ، وقرأ عاصم: ﴿ثَمْرٌ﴾
﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ﴾ بفتح الميم والشاء
فيهما، وهي قراءة أبي جعفر،
والحسن، وجابر بن زيد،
والحجاج.

واختلف المتأولون في «الثمر» بضم
الشاء والميم، فقال ابن عباس،
وقتادة: الثمر: جميع المال من
الذهب والفضة وغير ذلك،

وقوله: ﴿قَالَ لَمْ صَاحِبُهُ﴾ حكاية أن المؤمن من الرجلين لما سمع كلام الكافر وَقَفَهُ - على جهة التوبيخ - على كفره بالله تعالى، وقرأ أبي بن كعب: ﴿وهو يخاصمه﴾، وقرأ ثابت البناني: ﴿وَيْبُكَ أَكْفَرْتَ﴾، ثم جعل يعظم الله تعالى عنده بأوصاف تضمنت النعم والدلائل على جواز البعث من القبور. وقوله: ﴿بَيْنَ رَبِّي﴾ إشارة إلى آدم ﷺ. وقوله: ﴿ثُمَّ سَوَّكَ رَبِّي﴾ كما تقول: سَوَّكَ شخصاً أو حياً أو نحو هذا من التأكيدات، وقد يحتمل أنه قصد تخصيص الرجولة على وجه تعدد النعمة في أن لم يكن أنثى ولا خثى، وذكر الطبري نحو هذا.

واختلفت القراءة في قوله: ﴿لَكِنَّا﴾، فقرأ ابن عامر، ونافع - في رواية المَسِيلِيَّ -: ﴿لَيْكِنَّا﴾ في الوصل والوقف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمره، والكسائي، ﴿لَيْكِن﴾ في الوصل، و﴿لَيْكِنَّا﴾ في الوقف، ورجحها الطبري، وهي رواية ورش، وقالون عن نافع. وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، والحسن: ﴿لَيْكِن أَنَا هُوَ اللهُ رَبِّي﴾، وفي قراءة عيسى الثقفى، والأعمش - بخلاف - ﴿لَيْكِن هُوَ اللهُ رَبِّي﴾، فأما هذه الأخيرة فَبَيَّنَّ على الأمر والشأن، وأما الذي قبلها فعلى معنى: لكن إنما أقول. ومن هذه الفرقة من قرأ: ﴿لَيْكِنَّا﴾ على حذف الهمزة وتخفيف التنوين، وفي هذا نظر، وأما من قرأ: ﴿لَيْكِنَّا﴾ فأصله عنده «لَيْكِن أَنَا» حذفت الهمزة على غير قياسٍ وأدغمت النون في

النون، وقال بعض النحويين: نُقِلت حركة الهمزة إلى النون فجاء «لَيْكِنَّا» ثم أدغمت بعد ذلك فجاء «لَيْكِنَّا»، فرأى بعض القراء أن بالإدغام استغني عن الألف الأخيرة، فمنهم من حذفها في الوصل، ومنهم من أثبتها في الوصل والوقف لتدل على أصل الكلمة. ويتوجه في «لَيْكِنَّا» أن تكون «لَيْكِن» لحقتها نون الجماعة التي في «خَرَجْنَا وَضَرَبْنَا»، ووقع الإدغام لاجتماع المثلين، ووحد في «رَبِّي» على المعنى، ولو اتبع اللفظ لقال: «رَبُّنَا»، ذكره أبو علي. ويترجح بهذا التعليل قول من أثبت الألف في حالي الوصل والوقف. ويتوجه في «لَيْكِنَّا» أن تكون المشهورة من أخوات «إِن»، والمعنى: «لَكِن قَوْلِي هُوَ اللهُ رَبِّي»، إلا أنني لا أعرف من يقرأ بها وصلاً ووقفاً، وذلك يلزم من يُوجِّه هذا الوجه. وَرَوَى هَارُونَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو ﴿لَيْكِنُّهُ هُوَ اللهُ رَبِّي﴾ بضمير لِحِق «لَيْكِن». وباقى الآية بَيَّنَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ﴾ الآية. وصية من المؤمن للكافر، و﴿وَلَوْلَا﴾ تحضيض بمعنى: هَلَا، و [مَا] يحتمل أن تكون بمعنى «الذي»، بتقدير: «الذي شاء الله كائن»، وفي «شَاءَ» ضمير عائد، ويحتمل أن تكون شَرْطِيَّة بتقدير: «ما شاء الله كان»، ويحتمل أن تكون خبر ابتداءٍ محذوف تقديره: «هو ما شاء الله، أو الأمر ما شاء الله»، وقوله: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ تسليماً وصدراً لقول الكافر: ﴿مَا أظُنُّ أَنْ يُبَدِّدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾، وروي عن النبي ﷺ

أنه قال لأبي هريرة: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كَلِمَةٍ مِنْ كُنْزِ الْجَنَّةِ؟» قال: بلى يا رسول الله، قال: «لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ، إِذَا قَالَهَا الْعَبْدُ قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَسْلَمَ عَبْدِي وَاسْتَسْلَمَ». وفي حديث أبي موسى أن النبي ﷺ قال له: «يا عبدالله بن قيس: أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى كُنْزٍ مِنْ كُنْزِ الْجَنَّةِ؟» قال: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

واختلفت القراءة في حذف الباء من «نَكْرِن» وإثباتها، فأثبتها ابن كثير وصلاً ووقفاً، وحذفها ابن عامر، وعاصم، وحمره فيهما، وأثبتها نافع، وأبو عمرو في الوصل فقط. وقرأ الجمهور: «أَقْلُ» بالنصب على المفعول الثاني، وقوله: ﴿أَنَا﴾ فاصلة مُلْتَفَاةً، وقرأ عيسى بن عمر: «أَقْلُ» بالرفع على أن يكون «أَنَا» مبتدأ و﴿أَقْلُ﴾ خبره، والجملة في موضع المفعول الثاني، والرؤية رؤية قلب في هذه الآية.

﴿٤٠﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا الشَّرْجِي بِ (عَسَى) يحتمل أن يريد به: في الدنيا، ويحتمل أن يريد: في الآخرة، وتمني ذلك في الآخرة أشرف مقطوعاً، وأذهب مع الخير والصلاح، وأن يكون ذلك يراد به في الدنيا أذهب في نكايه هذا المخاطب، وأشد إيلاماً لنفسه.

و«الْحُسْبَانُ»: العذاب كالبرد والصر ونحوه، وإِحْدِ الْحُسْبَانِ: حُسْبَانَةٌ، وهي المرامي من هذه الأنواع المذكورة، وهي سهام تُرمى دفعة بآلة لذلك. و«الصَّعِيدُ»: وجه الأرض، و«الزَّلْزَلُ»: الذي لا يثبت

فِعْلَةٌ «فَيْئَةٌ» حذفت العين تخفيفاً، وقد قال أبو علي وغيره: هي من فَأَوْتُ وليست من فاء، وهذا الذي قالوه أدخل في التصريف، والأول أحكم في المعنى. وقرأ ابن أبي عجلة: ﴿فَيْئَةٌ تَنْضُرَةٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مُنَافِقٌ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً لقوله: ﴿مُنَافِقٌ﴾، ويحتمل أن تكون ﴿الزَّالِيَةُ﴾ مبتدأ و﴿مُنَافِقٌ﴾ خبره، وقرأ حمزة، والكسائي، والأعمش، ويحيى بن وثاب: ﴿الْوَالِيَةُ﴾ بكسر الواو، وهي بمعنى الرياسة والزعامة ونحوه، وقرأ الباقون: ﴿الزَّالِيَةُ﴾ بفتح الواو، وهي بمعنى الموالاة والصلة ونحوه. وحكي عن أبي عمرو، والأصمعي أن كَسَرَ الواو هنا لحن؛ لأن (فِعْلَةٌ) إنما تجيء فيما كان صنعة أو معنى متقلداً، وليس هنا تولي أمر.

وقرأ أبو عمرو، والكسائي: ﴿الْحَقُّ﴾ بالرفع على جهة النعت لـ ﴿الْوَالِيَةُ﴾، وقرأ الباقون: ﴿الْحَقُّ﴾ بالخفض على النعت لله عز وجل، وقرأ أبو حبيوة: ﴿الله الْحَقُّ﴾ بالنصب. وقرأ الجمهور: ﴿عُقْبًا﴾ بضم العين والقاف، وقرأ عاصم، وحمزة، والحسن: ﴿عُقْبًا﴾ بضم العين وسكون القاف وتنوين الباء، وقرأ عاصم أيضاً: ﴿عُقْبِي﴾ بياء التأنيث. و العُقْبُ والعُقْبُ بمعنى المعاقبة.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٨﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿الْحَيَوَةُ الدُّنْيَا﴾ يريد حياة الإنسان بما يتعلق بها من نعم وثروة، وقوله: ﴿كَلَاءُ أَرْزَلْتَهُ﴾ يريد: هي كماء، وقوله: ﴿فَاتَخَلَّفَ بِوَيْءٍ﴾

إحاطة العذاب بحال هذا المُمْتَلِ به، وقد تقدم القول في الثمر، غير إن الإحاطة كناية عن عموم العذاب والفساد. و﴿يَقْلُبُ كَتَبَهُ﴾ يريد: يضع بطن إحداهما على ظهر الأخرى، وكذلك فعل المتلطف المتأنف على فائت أو خسارة أو نحوهما، ومن عبّر بـ «يُصَفِّقُ» فلم يُتَقَنَّ. وقوله: ﴿خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا﴾ يريد أن السقوف وقعت، وهي العروش، ثم تهذمت الحيطان عليها فهي خاوية والحيطان على

العروش. ﴿وَيَقُولُ بَلَيْنِقُ لَئِنْ أَشْرَكَ رَبِّيَ أَحَدًا﴾، قال بعض المفسرين: هي حكاية عن قول الكافر هذه المقالة في الآخرة، ويحتمل أن يريد أنه قالها في الدنيا على جهة التوبة بعد حُلُولِ المصيبة، ويكون فيها زجر للكفرة من قرئش أو غيرهم؛ لثلاث تجيء لهم حال يؤمنون فيها بعد نَقْمِ تحل بهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو عمرو، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿وَلَمْ تَكُنْ﴾ بالياء على لفظ الفَيْئَةِ، وقرأ حمزة، والكسائي، ومجاهد، وابن وثاب: ﴿وَلَمْ يَكُنْ﴾ بالياء على المعنى، نصرها، وقال مجاهد: هي العشييرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي من: فاء يفيء، وزنها

أَمَالٌ وَالنُّونُ رِيْسَةُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَالْبَيْئَةُ الصَّلِيْحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ تَوَابًا وَخَيْرًا مِمَّا ۝٤٦ وَيَوْمَ نَسِفُ الْجِبَالَ وَنَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نَجِدْ مِنْهُمْ أَحَدًا ۝٤٧ وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًا لَقَدْ حِشْمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكَ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتَ ۝٤٨ أَنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ۝٤٩ وَرُضِعَ الْكُتُبُ فَتَرَى الْمُنْجِرِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لَ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّ رَبُّكَ أَحَدًا ۝٥٠ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۝٥١ أَفَتَسَخَّرُوهُ وَجَدْرًا حَرُّهُ أُولَئِكَ مِنَ الدُّوْنِ وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ يَسَّ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ۝٥٢ مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُتَعَدِّ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥٣ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَاءِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ۝٥٤ وَرَأَى الْمُنْجِرُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاعِمُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَلَيْهَاَصْرًا ۝٥٥

فيه قدم، يعني أنه تذهب أشجاره ونباته، ويبقى أرضاً قد ذهبت منافعها حتى منفعة المشي، فهي وحل لا تثبت ولا تثبت فيها قدم.

و «الْعَوْرُ» مصدر يوصف به الماء المفرد والمياه الكثيرة، كقولك: رجل عدل وامرأة عدل ونحوه، ومعناه: ذاهباً في الأرض لا يُسْتَطَاع تناوله، وقرأت فرقة: ﴿عَوْرًا﴾ بضم الغين، وقرأت فرقة: ﴿عَوْرًا﴾ بضم الغين وهمز الواو، و«عَوْرٌ» مثل «نَوْحٌ» يوصف به الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، ومنه قول الشاعر:

تَظَلُّ جِيَادَهَا نَوْحاً عَلَيْهِ
مُقَلَّدَةً أَعْتَتْهَا صُفُونَا

وهذا كثير، وباقي الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَجِطَ يَنْبَرِيهِ﴾ الآية. هذا خبر من الله تعالى عن

أي: فاختلط الثبات بعضه ببعض بسبب الماء، فالباء في ﴿يَوْمٍ﴾ باء السبب؛ فـ ﴿أَمْسَحَ﴾ عبارة عن صيرورته إلى ذلك، لا أنه أراد اختصاصاً بوقت الصباح، وهذا كقول الربيع بن ضُعب:

أَضْبَحْتَ لَا أَحْمِلُ السَّلَاحَ وَلَا
أَمْلِكُ رَأْسَ السَّعِيرِ إِنْ نَفَرَا
و «الَهَشِيمُ»: المتفتت من يابس العشب، ومنه قوله تعالى: ﴿كَهَشِيرِ
الْمُحْطَرِّ﴾، ومنه: هشم الشريد، و﴿تَذْرُؤُهُ﴾ بمعنى: تُفَرِّقُهُ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «تَذْرِيبُهُ» والمعنى: تقلعه وترمي به. وقرأ الحسن: «تَذْرُؤُهُ الرِّيحُ» بالإنفراد، وهي قراءة طلحة، والثخمي، والأعمش.

وقوله: ﴿وَكَاكَ اللَّهُ﴾ عبارة للإنسان عن أن الأمر قبل وجود الإنسان هكذا كان إذ كان، إذ نفسه حاکمة بذلك في حال غفلة، هذا قول سيبويه، وهو معنى صحيح. وقال الحسن: ﴿كَانَ﴾ إخبارٌ عن الحال قبل إيجاد الموجودات، أي أن القدرة كانت، وهذا أيضاً حسن. وقوله: ﴿كُلِّ شَيْءٍ﴾ يريد: من الأشياء المقدرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا المُحَالَات وغيرها من الأشياء التي لا يوصف الله تبارك وتعالى بالقدرة عليها، ولا بالعجز عنها، وهذا على تسمية المحال شيئاً، من حيث هو معقول لا واقع، وقد جاء أن زلزلة الساعة شيء.

فمعنى هذا المثال تشبيه حال المرء في حياته وماله وعزته وزهوه وبطوره

بالنبات الذي له خُضرة ونُضرة عن المطر النَّازل، ثم يعود بعد ذلك هشياً، ويصير إلى عدم، فمن كان له عمل صالح يبقى في الآخرة فهو الفائز، فكأن الحياة بمثابة الماء، والخضرة والنضارة بمنزلة النعيم والعزة ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ لفظه لفظ الخير، لكن معه قرينة الضمة للمال والبنين؛ لأنه في المثل قبل حَقْر أمر الدنيا وبيئته، فكأنه يقول في هذه: المال والبنون زينة هذه الحياة الدنيا المحقَّرة، فلا تُتَّبِعُوها أنفسكم. وقوله: ﴿زِينَةٌ﴾ مصدرٌ، وقد أُخبر به عن أشخاص، فإما أن يكون على تقدير محذوف، تقديره: مَفَرَّ زينة الحياة، وإما أن يضع المال والبنين بمنزلة الغنى والكثرة.

واختلف الناس في «الْبَاقِيَاتِ الصَّالِحَاتِ» - فقال ابن عباس، وابن جبير، وأبو ميسرة، وعَمْرُو بن شَرْحَبِيل: هي الصلوات الخمس. وقال الجمهور: هي الكلمات المأثور فضلها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قُوَّة إلا بالله العلي العظيم. وروى في هذا الحديث: «أكثرها من الباقيات الصالحات». وقال ابن عباس أيضاً، وروى عن رسول الله ﷺ من طريق أبي هريرة وغيره أن هذه الكلمات هي الباقيات الصالحات. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: الباقيات الصالحات: كلُّ عمل صالح من قول أو فعل يبقى للأخرة،

ورجحه الطبري، وقول ابن عباس رضي الله عنهما لكل الأقوام دليل على قوله بالعموم.

وقوله تعالى: ﴿خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمْلاً﴾، أي: صاحبها ينتظر الثواب وينبسط أمُّه على خير من حال ذي المال والبنين دون عمل صالح.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَسِيتُ الْجِبَالَ﴾ الآية. التقدير: واذكر يوم، وهذا أفصح ما يُتَأَوَّل في هذا هنا. وقرأ نافع، والأعرج، وشيبة، وعاصم، وابن مصرف، وأبو عبد الرحمن: ﴿نَسِيتُ﴾ بنون العظمة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن، وشبل، وقتادة، وعيسى: ﴿نَسِيتُ﴾ بالتاء وفتح الياء المشددة «الْجِبَالَ» بالرفع. وقرأ الحسن: ﴿يُسِيتُ﴾ بياء مضمومة والثانية مفتوحة مشددة «الْجِبَالَ» رفعاً. وقرأ ابن محيصن: ﴿تَسِيتُ﴾ بياء مفتوحة وسين مكسورة، أسند الفعل إلى الجبال، وقرأ أبو أيُّوب بن كعب: ﴿وَيَوْمَ سِيتُ الْجِبَالَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بَارِئَةٌ﴾، إما أن يريد أن الأرض لذهب الجبال والظراب والشجر برزت وانكشفت، وإما أن يريد بروز أهلها والمحشورين من سكان بطنها. و﴿وَحَرَّتْهُمْ﴾ أي أقمناهم من قورهم وجمعناهم لعرضة القيامة. وقرأ الجمهور: ﴿تَغَايَرُ﴾ بنون العظمة، وقرأ قتادة: ﴿تَغَايَرُ﴾ على الإسناد إلى القدرة أو إلى الأرض. وروى أبان بن زيد عن عاصم: ﴿يُغَايَرُ﴾ بياء مضمومة وفتح الدال «أَخَذُ»

بالرفع. وقرأ الضحاك: ﴿فَلَمْ نُغَمِّزْ﴾ بنون مضمومة وكسر الدال وسكون الغين. والمغادرة: التَّزْكُ، ومنه: غدِير الماءِ، وهو ما تركه السيل.

وقوله تعالى: ﴿صَفًّا﴾ إفراد نَزَلَ منزلة الجمع، أي: صفوفاً، وفي الحديث الصحيح: «يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً يسمِعُهُم الداعي وَيَنْفَعُهُم البَصْرُ» الحديث. وفي حديث آخر: «أهل الجنة يوم القيامة مائة وعشرون صفًا، أنتم منها ثمانون صفًا». وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ إلى آخر الآية، مقابلة للكفار والمنكرين للبعث، ومُضْمَنُهَا التفرغ والتوبيخ. والمؤمنون المعتقدون في الدنيا أنهم يبعثون يوم القيامة لا تكون هذه المخاطبة لهم بوجه، وفي الكلام حذف يقتضيه القول ويَحْسُنُهُ الإيجاز، تقديره: يقال للكفرة منهم. ﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يُفَسِّرُهُ قول النبي ﷺ: «إنكم تحشرون إلى الله حفاةً حرةً غُرلاً»، ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ يُبِيدُهُ﴾.

(٤٩) - (٥٠) تفسير قوله عز وجل:

﴿الْكِتَابُ﴾ اسم جنس يراد به كُتُبُ الناس التي أحصتها الحفظة لواحدٍ واحدٍ، ويحتمل أن يكون الموضوع كتاباً واحداً حاضراً، و«إِشْفَاقُ الْمُجْرِمِينَ»: فزعهم من كشفه لهم وقضحه، فشكاية المجرمين إنما هي من الإحصاء، لا من ظلم ولا حيف. وقدم «الصغيرة» اهتماماً بها لِئِنَّهُ منها ويدل أن الصغيرة إذا أحصيت فالكبيرة أخرى بذلك، والعرب أبداً تقدم في الذكر

الأقل من كل مقترنين، ونحو هذا قولهم: القمران والعمران، سَمُوا باسم الأقل تنبيهاً منهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الصغيرة: الضحك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال، وباقى الآية يَبَيِّنُ.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ﴾ الآية، هذه الآية مُضْمَنُهَا تفرغ الكفرة وتوقيفهم على خطابهم في ولايتهم العدو دون الذي أنعم بكل نعمة على العموم، صغيرها وكبيرها، وتقدير الكلام: واذكر إذ قلنا، وتكررت هذه العبارة حيث تكررت هذه القصة إذ هي توطئة النازلة، فأما ذكر النازلة هنا فمقدمة للتوبيخ، وذكرها في البقرة لإعلام بمبادئ الأمور.

واختلف المتأولون في السجود لآدم - فقالت فرقة: هو السجود المعروف ووضع الوجه بالأرض، جعله الله تعالى من الملائكة عبادة له وتكريماً لآدم، فهذا كالصلاة للكعبة.

وقالت فرقة: بل كان إيماءاً منهم نحو الأرض، وذلك يُسَمَّى سجوداً؛ لأن السجود في كلام العرب عبارة عن غاية التواضع، ومنه قول الشاعر:

.....

تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا جائز أن يكلفه الخالق للفاضل، وجائز أن يتكلفه الفاضل للفاضل، ومنه قول النبي ﷺ: «قوموا إلى سيديكم»، ومنه تقبيل أبي

عبيدة بن الجراح يد عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنهما حين تلقاه في سفر إلى الشام، ذكره سعيد بن منصور في مُصَنَّفِهِ.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ﴾، قالت فرقة: هو استثناء منقطع؛ لأن إبليس ليس من الملائكة، بل هو من الجن وهم الشياطين المخلوقون من مارج من نار، وجميع الملائكة إنما خلقوا من نور، واختلفت هذه الفرقة - فقال بعضها: إبليس من الجن، وهو أولهم وبدأتهم، كآدم من الإنس، وقالت فرقة: بل كان إبليس وقبيله جئاً، لكن جميع الشياطين اليوم من ذريته، فهو كنوح في الإنس، واحتجوا بهذه الآية، وتعنيف إبليس على عصيانه يقتضي أنه أمر مع الملائكة.

وقالت فرقة: بل الاستثناء متصل، وإبليس من قبيل من الملائكة خلقوا من نار، فإبليس من الملائكة، وغير عن الملائكة بالجن من حيث أنهم مستترون، فهي صفة نعم الملائكة والشياطين، وقال بعض هذه الفرقة: كان في الملائكة صنف يُسَمَّى الجن، وكانوا في السماء الدنيا وفي الأرض، وكان إبليس مدبر أمرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا خلاف أن إبليس كان من الملائكة في المعنى؛ إذ كان متصرفاً بالأمر والنهي مرسلًا، والمَلَكُ مشتق من المَلَأَكَةُ وهي الرسالة، فهو في عداد الملائكة يتناوله قوله: ﴿آتَجِدُوا﴾، وفي سورة البقرة وسورة الأعراف استيعاب هذه الأمور.

وَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ أَكْثَرِ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥١﴾ وَمَا نَعَى النَّاسُ أَنْ يُؤْمِنُوا
 إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةٌ
 الْأُولَىٰ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٢﴾ وَمَا رُسُلُ الْمُرْسَلِينَ
 إِلَّا الْمُبَشِّرُونَ وَالْمُنذِرُونَ وَمَجْدِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالنَّبِيِّينَ
 لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آلِيئِي وَمَا أَنْذَرُوا هَؤُلَاءِ وَمَنْ
 أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَكَرَ يُتَابِعُ رَبَّهُ فَأَعْرَضَ عَنْهَا لِنَبِيِّ مَا قَدِمَتْ بِهَا
 إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا
 وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٣﴾ وَرَبُّكَ
 الْعَزِيزُ ذُو الرِّحْمَةِ لَوْ يَرَا خُدْمَهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَ لَهُمْ
 الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْعِدًا ﴿٥٤﴾
 وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ
 مَوْعِدًا ﴿٥٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ لَاقُوا رَبَّكُمْ
 وَأَبْلِغْ مَجْمَعِ الْكَافِرِينَ أَوْ أَمْضِ حُقُبًا ﴿٥٦﴾ فَلَمَّا بَلَغَا
 مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَبَيْسًا حَوَّضَهُمَا فَاخْتُدَ سَبِيلُهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٥٧﴾

٣٠٠

وقوله تعالى: ﴿فَسَقَّ﴾ معناه: فخرج وانتزع، وقال رؤبة:

يَهْوِينَ فِي نَجْدٍ وَعُزْرٍ غَايِرًا
 قَوَائِمًا عَنِ قُضَيْهَا جَوَائِرًا
 ومنه يقال: ﴿فَسَقَّتِ الرُّطْبَةُ﴾ إذا خرجت عن قشرتها، و﴿فَسَقَّتِ الفَأْرَةُ﴾ إذا خرجت من جحرها، وجميع هذا الخروج المستعمل في هذه الأمثلة إنما هو في فساد، وقول النبي ﷺ: «خمس فواسق يقتلن في الجحلم والحرم» إنما هن مفسدات.

وقوله تعالى: ﴿عَنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، يحتمل أن يريد: خرج عن أمر ربه إياه، أي فارقه، كما يفعل الخارج عن طريق واحد، أي: منه، ويحتمل أن يريد: فخرج عن الطاعة بعد أمر ربه بها، و﴿عَزَّ﴾ قد تجيء بمعنى (بغد) في مواضع كثيرة، كقولك: «أطعمته عن جوع»، ونحوه، فكأن المعنى: فسق بسبب أمر ربه بأن يطيع، ويحتمل أن يريد: فخرج بأمر ربه، أي مشيئته ذلك له، ويعبر عن المشيئة بالأمر؛ إذ هي أحد الأمور، وهذا كما تقول: فعلت ذلك عن أمرك، أي بجذك وبحسب مرادك.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية: كان إبليس من أشرف صنم، وكان له سلطان السماء وسلطان الأرض، فلما عصى صارت حاله إلى ما تسمعون. وقال بعض العلماء: إذا كانت خطيئة المرء من الخطأ فلترجحه كآدم، وإذا كانت من الكفر فلا ترجحه كإبليس.

ثم وقف عز وجل الكفرة - على جهة التوبيخ - بقوله: ﴿أَفَتَنْتَجِدُونَهُ﴾، يريد: أفنتجدون إبليس، وقوله:

﴿وَذَرِيَّتَهُ﴾ ظاهر اللفظة يقتضي المؤمنين من الشياطين الذين يأمرون بالمنكر ويحملون على الباطل. وذكر الطبري أن مجاهدًا قال: ذرية إبليس الشياطين، وكان يعدهم: «زَلْتَبُور» صاحب الأسواق، يضع رايته في كل سوق، و«ثَبْن» صاحب المصائب، و«الأعوز» صاحب الرياء، و«مُسْوَط» صاحب الأخبار، يأتي بها فيلقبها في أفواه الناس ولا يجدون لها أصلًا، و«ذاسيم» الذي إذا دخل

الرجل بيته فلم يسلم ولم يذكر اسم الله بصره من المتاع ما لم يرفع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وما جاسه مما لم يأت به خير صحيح فلذلك اختصرته. وقد طوّل النقاش في هذا المعنى، وجلب حكايات تبعد من الصحة، فتركها إيجازًا، ولم يمر بي في هذا صحيح إلا ما في كتاب مسلم من أن للوضوء والوسوسة شيطانًا يُسمى «خُنزب»، وذكر الترمذي أن للوضوء شيطانًا يسمى «الولهان»، والله أعلم بتفاصيل هذه الأمور، لا رب غيره.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ﴾ أي: أعداء، فهو اسم الجنس. وقوله: ﴿يَسِّرْ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾، أي: بدل ولاية الله عز وجل بولاية إبليس وذريته، وذلك هو التعوض من الحق

بالباطل، وهذا هو نفس الظلم لأنه وضع الشيء في غير موضعه.

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿أَنْتَهُدُّهُمْ﴾ عائد على الكفار وعلى الناس بالجملة، فتتضمن الآية الرد على طوائف المنجمين وأهل الطبائع والمتحكمين من الأطباء وسواهم من كل متخخص في هذه الأشياء. وحدثني أبي رضي الله عنه قال: سمعتُ الفقيه أبا عبدالله محمد بن معاذ المهدي بالمهدي يقول: سمعتُ عبدالحق الصقلّي يقول هذا القول، ويتأول هذا التأويل في هذه الآية، وأنها رادة على هذه الطوائف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر هذا بعض الأصوليين. وقيل: الضمير في ﴿أَنْتَهُدُّهُمْ﴾ عائد على ذرية إبليس، فهذه الآية - على هذا -

تتضمن تحقيرهم. والقول الأول أعظم فائدة، وأقول: إن الغرض المقصود أولاً بالآية هم إبليس وذريته، وبهذا الوجه يتجه الرد على الطوائف المذكورة، وعلى الكهان والعرب المصدقين لهم والمعظمين للجن حين يقولون: أعوذ بعزير هذا الرادي، إذ الجميع من هذه الفرق متعلقون بإبليس وذريته، وهم أضلوا الجميع، فهم المراد الأول بالمُضِلِّين، وتدرج هذه الطوائف في معناهم.

وقرأ الجمهور: ﴿أَشْهَدُهُمْ﴾، وقرأ أبو جعفر وعوف العقيلي، وأيوب السخيتاني: ﴿أَشْهَدْنَاَهُمْ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ وقرأ أبو جعفر الجحدري، والحسن - بخلاف -: ﴿وَمَا كُنْتُ﴾ والصفة بـ ﴿الْمُضِلِّينَ﴾ تترتب في الطوائف المذكورة وفي ذرية إبليس لعنه الله. و«العُصْدُ» استعارة للمعين والمؤازر، وهو تشبيه بعُصْدِ الإنسان الذي يستعين به. وقرأ الجمهور: ﴿عَضُدًا﴾ بفتح العين وضم الضاد، وقرأ أبو عمرو، والحسن بضمهما، وقرأ الضحَّاك بكسر العين وفتح الضاد، وقرأ عكرمة: ﴿عَضُدًا﴾ بضم العين وسكون الضاد، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿عَضُدًا﴾ بفتح العين والضاد، وفيه لغات غير هذا لم يُقرأ بها.

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ﴾، الآية وعيد، والمعنى: واذكر يوم، وقرأ طلحة، ويحيى، والأعمش، وحمزة: ﴿نَقُولُ﴾ بنون العظمة، وقرأ الجمهور بالياء، أي: يقول الله

تعالى للكفار الذين أشركوا به من الدنيا سواه: ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ على وجه الاستغاثة بهم، وقوله: ﴿شُرَكَائِيَ﴾، أي: على دعواكم أيها المشركون، وقد بيّن هذا بقوله: ﴿الَّذِينَ دَعَّمْتُمْ﴾. وقرأ ابن كثير وأهل مكة: ﴿شُرَكَائِي﴾ بياء مفتوحة، وقرأ الجمهور: ﴿شُرَكَائِيَ﴾ بهمزة، فمنهم من حَقَّقَهَا، ومنهم من خَفَّفَهَا، وَالزُّعْمُ، إنما هو مستعمل أبدأ في غير اليقين، بل أغلبه في الكذب، ومنه هذه الآية، وأرفع مواضعه أن تستعمل «زعم» بمعنى «أخبر» حيث تلقي عهدة الخبر على المخبر، كما يقول سيبويه رحمه الله: «زعم الخليل»، وقوله تعالى: ﴿فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾ ظاهره أن ذلك يقع حقيقة، ويحتمل أن يكون استعارة، كأن فكرة الكفار ونظرهم في أن تلك الجمادات لا تغني شيئاً ولا تنفع هي بمنزلة الدعاء وترك الإجابة، والأول أبين.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿مُؤَيَّبًا﴾ - قال عبدالله بن عمر، وأنس بن مالك، ومجاهد: هو واد في جهنم يجري بدم وصديد، قال أنس رضي الله عنه: يحجز بين أهل النار وبين المؤمنين، فقوله - على هذا -: ﴿يَبْتَهُمُ﴾ ظرف. وقال الحسن: ﴿مُؤَيَّبًا﴾: عداوة و﴿يَبْتَهُمُ﴾ - على هذا - ظرف وبعض هذه الفرقة يرى أن الضمير في قوله تعالى: ﴿يَبْتَهُمُ﴾ يعود على المؤمنين والكافرين، ويحتمل أن يعود على المشركين ومعبوداتهم في الدنيا، وأما التأويل الأول فالضمير فيه عائد

على المشركين ومعبوداتهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مُؤَيَّبًا﴾ معناه: مهلكاً، بمنزلة: موضع، وهو من قولك: وَيَبُّ الرَّجُلُ وَأُؤَيَّبُهُ غَيْرُهُ إِذَا أَهْلَكَهُ، فقوله تعالى: ﴿يَبْتَهُمُ﴾ - على هذا التأويل - يصح أن يكون ظرفاً، والأظهر فيه أن يكون اسماً بمعنى: وجعلنا تواصلهم أمراً مهلكاً لهم، ويكون ﴿يَبْتَهُمُ﴾ مفعولاً أولاً لـ ﴿جَعَلْنَا﴾. وعبر بعضهم عن «المؤيب» بالوعيد، وهذا ضعيف.

ثم أخبر عزَّ وجلَّ عن رؤية المجرمين النار ومعاينتهم لها، ووقوع العِلم لهم بأنهم مُبَاشِرُوها، وأطلق الناس أن «الظن» هنا بمعنى اليقين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولو قال تعالى بدل «ظنوا»: «أيقنوا» لكان الكلام مُتَّسِقاً على مبالغة فيه، ولكن العبارة بالظن لا تجيء أبدأ في موضع يقين تام قد ناله الحس، بل أعظم درجاته أن يجيء في موضع علم متحقق لكنه لم يقع ذلك المظنون، وإلا فما يقع ويُحسُّ لا يكاد يوجد في كلام العرب العبارة عنه بالظن، وتأمل هذه الآية، وتأمل قول دُرَيْد:

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِالْفِي مُدَجِّجٍ

وقرأ الأعمش: ﴿فَظُنُّوا أَنَّهُمْ مُلَاقُوها﴾، وكذلك في مصحف ابن مسعود، وحكى أبو عمرو الداني عن علقمة أنه قرأ: ﴿مُلَاقُوها﴾ بالفاء مشددة، من لَفَّت. وروى أبو سعيد

الخديري أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ الْكَافِرَ لَيُرَى جَهَنَّمَ وَيظنُّ أَنَّهَا مَواقِعُهُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً». و«الْمَصْرِفُ»: الْمَعْدِلُ، ومنه قول أبي كبير الهذلي:

أَرْهَبُ هَلْ عَن شَيْبَةَ مِنْ مَصْرِفٍ
أَمْ لَا خُلُودَ لِإِذِلِّ مُتَكَلِّفٍ؟
وهذا مأخوذ من الانصراف من شيءٍ إلى شيءٍ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾ الآية. المعنى: ولقد حَوَّنَا وَرَجَّيْنَا وبالغنا في البيان، وهذا كله يتمثيل وتقريب للأذهان. وقوله: ﴿مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾، أي: من كلِّ مثل له نفعٌ في الغرض المقصود بهم وهو الهداية، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا﴾ خبرٌ مُقْتَضِبٌ في ضمنه: فلم ينفع فيهم تصريف الأمثال، بل هم قوم منحرفون يجادلون بالباطل. وقوله تعالى: ﴿الْإِنْسَانُ﴾ يريد به الجنس، وروى أن سبب الآية هو النضر بن الحارث، وقيل: ابن الزبير، وروى أن رسول الله ﷺ دخل على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وقد نام عن صلاة الليل فأيقظه وعاتبه، فقال له علي: إنما نفسي بيد الله، ونحو هذا، فخرج رسول الله ﷺ وهو يضرب فخذه بيده ويقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا﴾. فقد استعمل الآية على العموم في جميع الناس، و«الْجَدَلُ»: الخصام والمدافعة بالقول، فالإنسان أكثر جدلاً من كلِّ ما يجادل من ملائكةٍ وجرنٍ وغير ذلك إن فرض. وفي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا﴾ تعليمٌ تَفْجِعُ مآعلى الناس، وَيَبَيِّنُ فيما بعد.

٥٥ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تأسف عليهم، وتنبية على فساد حالهم؛ لأن هذا المنع لم يكن يقصد منهم أن يمتنعوا ليجيئهم العذاب، وإنما امتنعوا هم مع اعتقادهم أنهم مصيبون، لكن الأمر في نفسه يسوقهم إلى هذا، فكأن حالهم يقتضي التأسف عليهم، و«النَّابِ» يُرَادُ بِهِ كِفَارُ عَصْرِ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ تَوَلَّوْا دَفْعَ الشَّرِيعَةِ وَتَكْذِيبَهَا.

و«الْمَكْدِيُّ» هو شرع الله تعالى، والبيان الذي جاء به محمد ﷺ، و«الْأَسْتِغْفَارُ» هنا هو طلب المغفرة على فارط الذنب كُفْرًا وغيره. و«سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ» هي عذاب الأمم المذكورة من العزق والصيحة والظلة والريح وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾، أي: مقابلة عياناً، والمعنى عذاب غير المعهود، فتظهر فائدة التقسيم، وكذلك صدق هذا الوعيد في بدر. وقال مجاهد: ﴿قُبُلًا﴾ معناه: فجأة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، ومجاهد، وعيسى بن عمر: ﴿قُبُلًا﴾ بكسر القاف وفتح الباء، وقرأ عاصم، والكسائي، وحمزة، والحسن، والأعرج: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف والباء، ويحتمل مَعْنَيَيْنِ: أحدهما أن يكون بمعنى: (قَبِيلَ): لأن أبا عيسى حكاهما بمعنى واحد في المقابلة، والآخر أن يكون جمع (قَبِيلِ)، أي: يجيئهم العذاب أنواعاً وألواناً. وقرأ أبو رجاء، والحسن أيضاً: ﴿قُبُلًا﴾ بضم القاف وسكون الباء.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يُزِيلُ الْعَذَابَ إِلَّا اللَّهُ﴾ الآية. كأنه لما تفجع عليهم وعلى ضلالهم ومصيرهم بأرائهم إلى الخسار - قال: وليس الأمر كما ظنوا، والرسل لم نبعثهم ليجادلوا، ولا ليشتمى عليهم الاقتراحات، وإنما بعثناهم مبشرين من آمن بالجنة، ومُنذِرِينَ من كفر بالنار. و«يُدْحِضُوا» معناه: يزهقوا، والدَّحْضُ: الطين الذين يُزَلَّقُ فِيهِ، ومنه قول الشاعر:

رَدِيتُ وَتَجَى النَّشْكِرِيُّ جَدَاؤُهُ
وَخَادَ كَمَا خَادَ النَّبِيعُ عَنِ الدَّخْضِ
وفي قوله تعالى: ﴿وَأَخَذُوا عَائِي﴾ إلى آخر الآية توعد. و«الآيات» تجمع آيات القرآن والعلامات التي تظهر على لسان محمد ﷺ. وقوله: ﴿وَمَا أَنْذَرُوا هَزْؤًا﴾ يريد: من عذاب الآخرة، والتقدير: وما أنذروه، فحذف الضمير. و«الهزء»: السخر والاستخفاف، كقولهم: «أساطير الأولين»، وقولهم: «لو نشأ لقلنا مثل هذا».

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾ استفهام بمعنى التقرير، وهذا من أفصح التقرير، أن يُوقَفَ المرءُ على ما لا جواب له فيه إلا الذي يريد خضمه، فالمعنى: لا أحد أظلم ممن هذه صفته، أن يُعرض عن الآيات بعد الوقوف عليها بالتذكير، وينسى ويُطرح كباره التي أسلفها، هذه غاية الإهمال. ونسب السيئات إلى اليتيم من حيث كانت اليدان آلة التكبُّب في الأمور الجرمية، فجعلت كذلك في المعاني استعارة.

ثم أخبر الله تعالى عنهم وعن فعله بهم جزاءً عن اعتراضهم وتكسبهم

القبیح بأن الله تعالى جعل على قلوبهم أكنة، وهي جمع كنان، وهو الغلاف الساتر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختلف الناس في هذا وما أشبهه من الختم والطبع ونحوه، هل هو حقيقة أو مجاز؟ والحقيقة في هذا غير مستحيلة، والتجوُّز أيضاً فصيح، أي: لما كانت هذه المعاني مانعة في الأجسام وحائلة استعيرت للقلوب التي قد أنساها الله تعالى وأقصاها عن الخير. وأما «الْوَقْرُ فِي الْأَذَانِ» فاستعارة بيّنة لأن الكفرة يسمعون الدعاء إلى الشرع سماعاً تاماً، ولكن لما كانوا لا يؤثرون ذلك فيهم إلا كما يؤثر في الذي به وقر فلا يسمع، شُبِّهوا به، وكذلك العمى والصمم والبكم كلها استعارات، وإنما الخلاف في أوصاف القلب، هل هي حقيقة أو مجاز؟ و«الْوَقْرُ»: الثقل في السمع.

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم وإن دُعُوا إلى الهدى فإنهم لا يهتدون أبداً، وهذا يُخْرَجُ على أحد تأويلين: أحدهما أن يكون هذا اللفظ العام يراد به الخاص ممن حتم الله عليه أنه لا يؤمن ولا يهتدي أبداً، ويخْرَجُ عن العموم كل من قضى الله بهداه في ثاني حال، والآخر أن يزيد: وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يُؤْمِنُوا جميعاً أبداً، أي: إنهم ربما آمن منهم الأفراد، ويضطرنا إلى أحد هذين التأويلين أننا نجد المُخْبِرَ عنهم بهذا الخبر قد آمن منهم واهتدى كثير.

﴿٥٨﴾ ﴿٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنِ الْقَوْمِ الَّذِينَ حَتَمَ بِكُفْرِهِمْ أَنَّهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَبَدًا،

عُقِبَ ذَلِكَ بِأَنَّهُ لِلْمُؤْمِنِينَ الْغُفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ، ويتحصل للكفار من صفته تبارك وتعالى بالغفران والرحمة تَزُكُّ المُعَاجِلَةُ، ولو أخذوا بحسب ما يستحقونه لبادرهم بالعذاب المُبَسَّرَ لهم، ولكنه تعالى أخرهم إلى موعد لا يجدون منه منجى، قالت فرقة: هو أجل الموت، وقالت فرقة: هو عذاب الآخرة، وقال الطبري: هو يوم بدر والحشر، و«الْمَوْتِئَلُ»: المُنْجَى، يقال: وَأَلَّ الرَّجُلُ يَيْئَلُ إِذَا نَجَا، ومنه قول الشاعر:

لَا وَأَلَّتْ نَفْسُكَ خَلَيْتَهَا
لِلْغَايِرِيِّينَ وَلَمْ تُكَلِّمْ
ومنه قول الأعشى:

فَقَدَّ أَخَالِيسُ رَبَّ الْبَنِيَّتِ غَفَلَتَهُ
وَقَدْ يُحَاذِرُ مَنِيَّ نَمَّ مَا يَيْئَلُ
ثم عُقِبَ تعالى توعدهم بذكر الأمثلة من القرى التي نزل بها ما توعد هو لا بمثله.

وفي قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَقْرَى﴾ حذف مضاف، تقديره: وتلك أهل القرى، و«الْقُرَى»: المدن، وهذه الإشارة إلى عاد وثمود ومدين وغيرهم، و«تِلْكَ» ابتداء، و«الْقُرَى» صفة، و«أَهْلَكْنَهُمْ» خبر، ويصح أن تكون «تِلْكَ» منصوباً بفعل يدل عليه «أَهْلَكْنَهُمْ».

وقرأ الجمهور: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ بضم الميم وفتح اللام، وهو من: (أَهْلَكَ)، ومفعل في مثل هذا يكون لزمن الشيء، ومكانه، ويكون مصدرًا، فالمصدر - على هذا - مضاف إلى المفعول. وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ بفتح الميم واللام، وقرأ - في رواية

حفص -: ﴿لِمَهْلِكِهِمْ﴾ بفتح الميم وكسر اللام، وهذا مصدر من: (هَلَكَ)، وهو في مشهور اللغة غير مُتَعَدٍّ، فالمصدر - على هذا - مضاف إلى الفاعل، لأنه بمعنى: وجعلنا لأن هلكوا موعداً، وقالت فرقة: إن (هَلَكَ) يتعدى، تقول: أَهْلَكْتُ الرَّجُلَ وَهَلَكَتُهُ بمعنى واحد، وأنشد أبو علي في ذلك:

وَمَهْمَهُ هَالِكٌ مَنْ تَعَرَّجَا

فعلى هذا يكون المصدر في كل وجه مضافاً إلى المفعول.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ الآية... ابتداء قصة ليست من الكلام الأول، والمعنى: واذكر أو أتى، و«مُوسَىٰ» هو موسى بن عمران بمقتضى الأحاديث والتواريخ، وبظاهر القرآن؛ إذ ليس في القرآن موسى غير واحد، وهو ابن عمران، ولو كان في هذه الآية موسى غيره لَبَيَّنَتْهُ. وقالت فرقة منها نواف أليكالي: إنه ليس ابن عمران، وهو موسى بن مشى، ويقال: موسى بن مثنى، وأما فتاه فعلى قول من قال هو موسى بن عمران فهو يوشع بن نون بن إفرائيل بن يوسف بن يعقوب، وأما من قال هو موسى بن مثنى فليس الفتى يوشع ابن نون، ولكنه قول غير صحيح رده ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. و«الفتى» في كلام العرب: الشاب، ولما كان الخدمة - أكثر ما يكون - فتياً قيل للخادم: فتى على جهة حسن الأدب، وإن أسن، وندبت الشريعة إلى ذلك في قول النبي ﷺ: لَا يَنْقُلُ أَحَدُكُمْ عِبْدِي وَلَا أُمَّتِي،

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا نَعْلَمُ مَا لَقَدْ لَيْسَانَا مِنْ سَفَرِنَا
هَذَا نَصَبًا ﴿١٧٠﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْرَثْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ
الْمَوْتَ وَمَا أَنْسِيئُهُ إِلَّا السَّحْطُنُ أَنْ أَذْكُرَهُ، وَأَخَذَ سَبِيلَهُ
فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ﴿١٧١﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِغُ فَأَرْتَدَّاعْرَاءُ أَنَارِهِمَا
فَصَصَا ﴿١٧٢﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ
عَيْنِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿١٧٣﴾ قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ آتَيْتُكَ
عَلَىٰ أَنْ تَعْلِمَ مِنْ مَعَا عَلِمْتَ رَشْدًا ﴿١٧٤﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ
مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٧٥﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلٰٓى مَا لَمْ تُحِطْ بِمَثْرَءٍ ﴿١٧٦﴾ قَالَ
سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿١٧٧﴾ قَالَ
فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْتَلِنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّىٰ أَحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا
﴿١٧٨﴾ فَأَطْلَقَا حَقَّ إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخْرَقْتُهَا
لِيُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿١٧٩﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ
لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿١٨٠﴾ قَالَ لَا تُؤْخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا
تُهِتْ مِنِّي مِنْ أَمْرِي عَسَىٰ ﴿١٨١﴾ فَأَطْلَقَا حَقَّ إِذَا أَلَمَا عَلَّمَا فَقَتَلَهُ
قَالَ أَفَلَيْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً يَعْرِفُ نَفْسَ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا ثُكْرًا ﴿١٨٢﴾

٣٠١

الميمين، وقرأ الضحاك:
﴿مَجْمَعٌ﴾ بكسر الميم
الثانية.

واختلف الناس في
﴿مَجْمَعُ الْبَحْرَيْنِ﴾، أين
هو؟ فقال مجاهد،
وقتادة، هو مجمع بحر
فارس وبحر الروم.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهو ذراع
يخرج من البحر المحيط
من شمال إلى جنوب في
أرض فارس من وراء
أذربيجان، فالركن الذي
لا اجتماع البحرين ممّا يلي
بِرّ الشام، وهو مجمع
البحرين على هذا القول،

وليل فتاي وفتاتي»، فهذا ندب إلى
التواضع، و«الفتى» في الآية هو
الخادم، ويوشع بن نون يقال: هو
ابن أخت موسى عليه السلام.

وسبب هذه القصة فيما روي عن
النبي ﷺ أن موسى جلس يوماً في
مجلس لبني إسرائيل، وخطب فأبلغ،
فقبل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟
قال: لا، فأوحى الله تعالى إليه:
بلى، عبدنا خضر، فقال: يا رب،
دلني على السبيل إلى لقيته، فأوحى الله
تعالى إليه أن يسير بطول سيف البحر
حتى يبلغ مجمع البحرين، فإذا فقدت
الحوت فإنه هنالك، وأمر أن يتزود
ويرتقب زواله عنه، ففعل موسى
ذلك، وقال لفتاه على جهة إمضاء
العزيمة: لا أَبْرَحَ السَّيْرَ، أي: لا
أزال، وإنما قال هذه المقالة وهو
سائر، ومن هذا قول الفرزدق:

فَمَا بَرِحُوا حَتَّىٰ تَهَادَتْ نِسَاؤُهُمْ
بِبَطْحَاءِ ذِي قَارِ عِيَابِ السُّلْطَانِ
وذكر الطبري عن ابن عباس
رضي الله عنهما أنه قال: لما ظهر
موسى عليه السلام وقومه على مصر
أنزل قومه بمصر، فلما استقر الحال
خطب يوماً فذكر بالآء الله وأيامه عند
بني إسرائيل، ثم ذكر نحو ما تقدّم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وما مرّ بي قط أن موسى عليه السلام
أنزل قومه بمصر إلا في هذا الكلام،
وما أراه يصح، بل المتظاهر أن موسى
عليه السلام مات بفحص التيه قبل فتح
ديار الجبارين، وفي هذه القصة من
الفقه الرحلة في طلب العلم،
والتواضع للعالم.

وقرأ الجمهور: ﴿مَجْمَعٌ﴾ بفتح

وقالت فرقة منهم محمد بن كعب:
مجمع البحرين هو عند طنجة، وهو
حيث يجتمع البحر المحيط والبحر
الخارج منه السائر من دبور إلى
صبا، وروي عن أبي بن كعب أنه
قال: مجمع البحرين بأفريقية، وهذا
يقرب من الذين قبله. وقال بعض
أهل العلم: هو بحر الأندلس من
البحر المحيط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله واحد، حكاة النقاش، وهذا
مما يُذكر كثيراً. ويذكر أن القرية التي
أبت أن تضيفهما هي الجزيرة
الخضراء، وقالت فرقة: مجمع
البحرين، يريد بحراً ملحاً وبحراً عذباً.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فعلى هذا إنما كان الخضر عند موقع
نهر عظيم في البحر. وقالت فرقة:
البحران إنما هما كناية عن موسى عليه

السلام والخضر؛ لأنهما بحرًا علم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قول ضعيف، والأمر بين من
الأحاديث أنه إنما رُسم له بحرًا ما.
وقوله: ﴿أَوْ أَمْضَىٰ حُقْبًا﴾ معناه: أو
أمضي على وجهي زماناً، واختلف
القراء - فقرأ الحسن، والأعمش،
وعاصم: ﴿حُقْبًا﴾ بسكون القاف،
وقرأ الجمهور: ﴿حُقْبًا﴾ بضمه،
وهو ثقيل (حُقْبٍ)، وجمع الحُقْبِ
أحُقَابٌ، واختلف في الحُقْبِ - فقال
عبدالله بن عمرو: ثمانون سنة، وقال
مجاهد: سبعون سنة، وقال القراء:
الحُقْبِ: سنة واحدة، وقال ابن
عباس وقتادة: الحُقْبِ أزمان غير
محدودة، وقالت فرقة: الحُقْبِ جمع
حقة وهي السنة.

﴿١٧٠﴾ - ﴿١٧١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿بَيْنَهُمَا﴾ للبحرين،

قاله مجاهد، وقيل: هو لموسى والخضر، والأول أصوب. وقرأ عبدالله بن مسلم: ﴿مَجْمَعٌ﴾ بكسر الميم الثانية: وقال: ﴿نَيْبًا﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده، نسي أن يعلم موسى عليه السلام بما رأى من حاله من حيث كان لهما زاداً، وكان بسبب منه، فنسب فعل الواحد فيه إليهما، وهذا كما يقال: فَعَلَ بِنُو فلان الأمر، وإنما فعله منهم بعض. وروى في الحديث أن يوشع رأى الحوت قد حشر من المَكْتَلِ إلى البحر، فراه قد أتخذ السرب، وكان موسى عليه السلام نائماً، فأشفق أن يوقظه، وقال: أَوْخِرْ حَتَّى يَسْتَيْقِظَ، فلما استيقظ نسي يوشع أن يعلمه، ورحلا حتى جاوزا، و«السَّبِيلُ»: الْمَسْلُكُ، و«السَّرْبُ»: الْمَسْلُكُ فِي جَوْفِ الْأَرْضِ، فشبه به مسلك الحوت في الماء حين لم ينطبق الماء بعده كَالطَّاقِ، وهذا الذي ورد في الحديث عن النبي ﷺ، وقاله جمهور المفسرين، إن الحوت بقي موضع سلوكه ماء جامداً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل صار موضع سلوكه حجراً صلباً، وقال ابن زيد: إنما أتخذ سبيله سرباً في البر حتى وصل إلى البحر ثم عام على العادة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهؤلاء يتأولون ﴿سَرَبًا﴾ بمعنى: تصرفاً وجولاناً، من قولهم: فَحَلَ سَارِبٌ أَي مُهْمَلٌ يَرعى من حيث يشاء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَسَارِبًا يَلْتَهَرِ﴾، أي متصرف. وقالت فرقة: اتَّخَذَ سَرِبًا فِي الثَّرَابِ من المَكْتَلِ إلى

البحر، وصادف في طريقه حجراً فنتبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الأمر أن السَّرْبَ إنما كان في الماء، ومن غريب ما روي في البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما في قصص هذه الآية أن الحوت إنما حَيَّبَ لِأَنَّهُ مَسَهُ ماءً عَيْنَ هُنَاكَ تَدعى عين الحياة، ما مَسَتْ شَيْئًا قَطٍ إِلَّا حَيَّى. ومن غريبه أيضاً أن بعض المفسرين ذكر أن موضع سلوك الحوت عاد حجراً طريقاً، وأن موسى عليه السلام مشى عليه تبعاً للحوت حتى أفضى به ذلك الطريق إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الكتاب والروايات أنه إنما وجد الخضر في ضفة البحر، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَأَرْتَدَّا عَنِ عَائِنَاهِمَا فَمَصَبًا﴾، وروي في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَاؤَا﴾ أن موسى عليه السلام نزل عند شجرة عظيمة في ضفة البحر فنسي يوشع الحوت هنالك، ثم استيقظ موسى، ورحلا مرحلة بقية الليل وصَدَرَ يومهما، فجاج موسى ولحقه تعب الطريق فاستدعى الغداة.

قال لي أبي رضي الله عنه: وسمعت أبا الفضل بن الجوهري يقول في وعظه: مشى موسى إلى المناجاة فبقي أربعين يوماً لم يحتج إلى طعام، ولما مشى إلى بشر لحقه الجوع في بعض يوم. و«النَّصْبُ»: الشعب والمشقة. وقرأ عبدالله بن عبيد بن عمير: ﴿نُصْبًا﴾ بضم النون

والصناد، ويشبه أن يكون جمع (نُصِبَ)، وهو تخفيف (نُصِبَ).

قوله تعالى: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوْتَيْنَا﴾ الآية. حكى الطبري عن فرقة أنها قالت: الصخرة هي بالشام عند نهر الذيب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم ذكر الخلاف في موضع هذه القصة.

وقوله تعالى: ﴿نَسِيتُ الْخَوْتَ﴾، يريد: نسيت ذكر ما جرى فيه لك، وأمال الكسائي وحده «أَنْسَانِيَّةً». وقرأ ابن كثير في الوصل: ﴿أَنْسَانِيهِ﴾ بياء بعد الهاء، وفي مصحف عبدالله: ﴿وَمَا أَنْسَانِيَّةُ أَنْ أذْكَرَهُ لَهُ إِلَّا الشَّيْطَانُ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَنْ أذْكَرَهُ﴾ بدل من «الْخَوْتَ»، بدل اشتمال. وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ يحتمل أن يكون من قول يوشع لموسى عليه السلام، أي: أتخذ الحوت سبيله عجباً للناس، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَأَتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ﴾ تمام الخبر، ثم استأنف التعجب فقال: من قَبِلَ نَفْسَهُ -: «عَجَبًا» لهذا الأمر، وموضع العجب أن يكون الحوت قد مات وأكل شِقَّهُ الأيسر، ثم حيي بعد ذلك، قال أبو شجاع في كتاب الطبري: رأيت، أوتيت به فإذا هو شقة حوت وعين واحدة، وشق آخر ليس فيه شيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأنا رأيت، والشق الذي ليس فيه شيء عليه قشرة رقيقة يشق تحتها شوكة وشقه الآخر.

ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَأَتَّخَذَ

بضم الدال وتخفيف النون، قال أبو حاتم: هما لغتان.

﴿٦٦﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة المستنزل المبالغ في حُسن الأدب. المعنى: هل يُثَقِّق لك ويخفُّ عليك؟ وهذا كما في الحديث: هل تستطيع أن تُرَبِّني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ؟ وعلى بعض التأويلات يجيء كذلك قوله تعالى: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَاءً دُونَ السَّمَاءِ؟﴾

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم: ﴿رُشْدًا﴾ بتخفيف الشين، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وقرأ ابن عامر: ﴿رُشْدًا﴾، وقرأ أبو عمرو: ﴿رُشْدًا﴾ بفتح الراء والشين. ونصبه على وجهين: أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً بـ ﴿تَمَلِّينَ﴾، والآخر أن يكون حالاً من الضمير في قوله: ﴿أَتَمِّعُكَ﴾.

ثم قال الخضر: ﴿إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، أي: إنك يا موسى لا تُطِيق أن تصبر على ما تراه من عملي؛ لأن الظواهر التي هي علمك لا تعطيه، وكيف تصبر على ما تراه خطأ ولم تُخَبِّر بوجه الحكمة فيه ولا وجه الصواب؟ فقرب له موسى الأمر بوعده أنه سيجده صابراً، ثم استثنى حين حكم على نفسه بأمر، فقوى الخضر وصاته، وأمره بالإسماك عن السؤال والإكثار لما يراه حتى يبتدئه الخضر بشرح ما يجب شرحه.

وقرأ نافع: ﴿فَلَا تَسْأَلْنِي﴾ بفتح اللام وتشديد النون وإنبات الياء، وقرأ ابن عامر كذلك إلا أنه حذف الياء فقال: ﴿فَلَا تَسْأَلُنْ﴾، وقرأ ابن

موسى بنى إسرائيل؟ قال: نعم، قال له: ألم يكن لك في بني إسرائيل ما يشغلك عن السفر إلى هنا؟ قال: بلى، ولكني أحببت لقاءك وأن أعلم منك، قال له: إنني على علم من علم الله علمنيه ولا تعلمه أنت، وأنت على علم من علم الله علمه الله لا أعلمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كان علم الخضر معرفة بواطن قد أوحيت إليه لا تعطي ظواهر الأحكام أفعاله بحسبها، وكان علم موسى عليه السلام علم الأحكام والفُتْيَا بظواهر أقوال الناس وأفعالهم. وزوي أن موسى وجد الخضر قاعداً على ثبج البحر، وسُمي الخضر خضراً لأنه جلس على فروة يابسة فاهتزت تحته خضراء، زوي ذلك عن النبي ﷺ، و﴿الرَّحْمَةُ﴾ - في هذه الآية - الثبوة. وقد ذكرنا الحديث المُضْمَن أن سبب هذه القصة أن موسى عليه السلام قيل له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟ قال: لا. وحكى الطبري حديثاً آخر مُضْمَنه أن موسى عليه السلام قال من قِيلَ نفسه: أي رَبِّ، أي عبادك أعلم؟ قال: الذي يبتغي علم الناس إلى علمه عسى أن يصيب كلمة خير تهديه، قال: رب، فهل في الأرض أحد؟ قال: نعم، فسأل السبيل إلى لُفَيْهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحديث الأول في صحيح البخاري.

وقرأ الجمهور: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾ بتشديد النون، وقرأ أبو عمرو: ﴿مِنْ لَدُنَّا﴾

سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا﴾ إخباراً من الله تعالى، وذلك على وجهين: إما أن يُخبر عن موسى أنه اتخذ سبيل الحوت من البحر عجباً، أي: تعجَّب منه، وإما أن يخبر عن الحوت أنه اتخذ سبيله عجباً للناس، وقرأ أبو حيوة: ﴿وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ﴾، فهذا مصدر معطوف على الضمير في ﴿أَنْ أَذْكَرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبِيًّا﴾ الآية. المعنى: قال موسى لفتاه: أمر الحوت وفقده هو الذي كُنَّا نطلب، فإن الرجل الذي جئنا له ثم، فرجما يُفْضَانُ أثرهما لثلا يخطنا طريقيهما. وقرأ الجمهور: ﴿فَنَبِيًّا﴾ بشبوت الياء، وقرأ عاصم وقوم: ﴿نَبِيًّا﴾ دون ياء، وكان الحسن يشبها إذا وصل ويحذفها إذا وقف. و﴿قُصُّ الأَثَرِ﴾: اتِّباعه وتطلبه في موضع خفية.

والتعبُّد هو الخضر في قول الجمهور بمقتضى الأحاديث، وخالف من لا يعتد بقوله فقال: ليس صاحب موسى بالخضر، بل هو عالم آخر، والخضر نبي عند الجمهور، وقيل: هو عبد صالح غير نبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تشهد بنبوته؛ لأن بواطن أفعاله هل كانت إلا بوحي إليه؟ وزوي في الحديث أن موسى وجد الخضر عليهما السلام مُسَجِّي في ثوبه مستلقياً على الأرض، فقال له: السلام عليك، فرفع الخضر رأسه وقال: وَأَنْتَى بَأَرْضِكَ السَّلَامُ؟ ثم قال له: من أنت؟ قال: أنا موسى، قال:

كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿فَلَا تَتَّخِذْ﴾ بسكون اللام وثبوت الياء، وقرأ الجمهور: ﴿خَيْرًا﴾ بسكون الباء، وقرأ الأعرج: ﴿خَيْرًا﴾ بضمها.

وقوله تعالى: ﴿تَأْتَلَفًا﴾، روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنهم انطلقا ماشيين على سيف البحر حتى مرّت بهما سفينة، فعرف الخضر فحَمَلًا بغير نول إلى مقصد أمة الخضر. وعُرِفَت السفينة بالألف واللام تعريف الجنس لا لعهد عَيْتِهَا. فلما ركبوا عمد الخضر إلى وتد فجعل يضرب به في جنب السفينة حتى بلغ به - فيما روي - لوحين من ألواحها، فذلك هو معنى ﴿حَرَفَهَا﴾، فلما رأى ذلك موسى عليه السلام غلبه ظاهر الأمر على الكلام حين رأى فعلاً يُؤدِّي إلى غرق من في السفينة. فوقفه بقوله: ﴿أَخْرَجَهَا؟﴾ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿لِيَفْرَقَ أَهْلَهَا﴾ بالياء، وقرأ أبو رجاء: ﴿لِيَفْرَقَ أَهْلَهَا﴾ بشدّ الراء وفتح الغين، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿لِيَفْرَقَ أَهْلَهَا﴾ برفع الأهل وإسناد الفعل إليهم.

و «الإمر»: السُّنْبُغُ من الأمور كالداهية والإد ونحوه، ومنه: «أَمِرٌ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ»، ومنه «أَمِرُ الْقَوْمِ» إذا كثروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و«الإمرُ أَحْصُ من النَّكْرِ».

فقال الخضر مجاوباً لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، فتنبّه

موسى لما أتى معه فاعتذر بالنسيان، وذلك أنه نسي العهد الذي كان بينهما، هذا قول الجمهور، وفي كتاب التفسير من صحيح البخاري أن النبي ﷺ قال: «كانت الأولى من موسى نسياناً»، وفيه عن مجاهد قال: كانت الأولى نسياناً، والثانية شرطاً، والثالثة عمداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الكلام معترض؛ لأن الجميع شرط، ولأن العمدة يبعد على موسى عليه السلام، وإنما هو التأويل إذ جنب صيغة السؤال والنسيان. وروي الطبري عن أبي بن كعب أنه قال: إن موسى عليه السلام لم ينس، ولكنها من معاريف الكلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا القول صحيح، والطبري لم يُبَيِّنْه، ووجهه عندي أن موسى عليه السلام إنما رأى العهد في أن يسأل، ولم ير إنكار هذا الفعل الشنيع سؤالاً، بل رآه واجباً، فلما رأى الخضر قد أخذ العهد على أعمّ وجوه فضمنه السؤال والمعارضة والإنكار وكلّ اعتراض - إذ السؤال أخف من هذه كلها - أخذ معه في باب المعاريف التي هي مندوحة عن الكذب، فقال له: ﴿لَا تُؤَايِدُنِي بِمَا نَبَيْتُ﴾، ولم يقل: «إني نسيت العهد»، بل قال لفظاً يعطي للمتأول أنه نسي العهد، ويستقيم أيضاً تأويله وطلبه مع أنه لم ينس العهد؛ لأن قوله تعالى: ﴿لَا تُؤَايِدُنِي بِمَا نَبَيْتُ﴾ كلام جيد طلبه، وليس فيه للعهد ذكر، هل نسيه أم لا، وفيه تعريض أنه نسي العهد، فجمع في

هذا اللفظ بين العذر والصدق وما يخل بهذا القول إلا أن الذي قاله وهو أبي روى عن النبي ﷺ أنه قال: «كانت الأولى نسياناً». و﴿تَوَهَّنِي﴾ معناه: تكلفني وتضيق عليّ.

ومِمَّا قُصِرَ من أمرهما أنهما لما ركبوا السفينة وجرت نزل عصفور على جنب السفينة، فنقر في الماء نقرة، فقال الخضر لموسى: ماذا ترى هذا العصفور نقص من ماء البحر؟ قال موسى: قليلاً، فقال: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا ما نقص هذا العصفور من ماء البحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقيل: معنى هذا الكلام وضع العلم موضع المعلومات، وإلّا فَعِلْمُ الله تبارك وتعالى لا يُشْبَهُ بمتناه، إذ لا يشناهي، والبحر لو فرضت له عصفير على عدد نقطه لأنتهى، وعندني أن الاعتراض يحتمل أن يريد: من علم الله الذي أعطاه العلماء قبلهما وبعدهما إلى يوم القيامة، فنجيء نسبة علمه إلى علم البشر نسبة تلك النقطة إلى البحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن لولا أن في بعض طرق الحديث: «ما علمي وعلمك وعلم الخلائق في علم الله إلا كنقرة هذا العصفور»، فلم يبق مع هذا إلا أن يكون التشبيه بتجوّز؛ إذ لا يوجد في المحسوسات أقوى في القلّة من نقطة بالإضافة إلى البحر، فكأنها لا شيء؛ إذ لا توجد لها إلى البحر نسبة معلومة.

﴿٧٤﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

انطلقا في موضع نزولهما من السفينة، فمراً بغلمان يلعبون، فعمد الخضر إلى غلام حسن الهيئة وضيء فاقطع رأسه، ويقال: رضها بحجر، ويقال: ذبحه، وقال بعض الناس: كان هذا الغلام لم يبلغ الحلم، ولذلك قال موسى: ﴿رَكِيكٌ﴾، أي: لم تذب، وقالت فرقة: بل كان غلاماً شاباً، والعرب ثبتي على الشاب اسم الغلام، ومنه قول ليلي الأخيلية:

غُلامٌ إِذَا هَزَّ الْقِنَاءَ سَقَاهَا
وهذا في صفة الحجاج. وفي الخبر أن هذا الغلام كان يفسد في الأرض ويقسم لأبويه ما فعل فيقسمان على قَسَمِهِ ويحميانه ممن يطلبه، وقرأ ابن عباس، والأعرج، وأبو جعفر، ونافع، والجمهور: ﴿رَاكِيكٌ﴾، وقرأ الحسن، وعاصم، والجحدري: ﴿رَكِيكٌ﴾ والمعنى واحد، وقد ذهب قوم إلى الفَرْق، وليس بَيِّن. وقوله: ﴿يَعْرِتُ نَفْسِي﴾ يقتضي أنه لو كان عن قتل نفس لم يكن به بأس، وهذا يدل على كبر الغلام؛ وإلا فلو كان لم يحتمل لم يجب قتله بنفس ولا بغير نفس، وقرأ الجمهور: ﴿نُكْرًا﴾ وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿نُكْرًا﴾ بضم الكاف، واختلف عن نافع، ومعناه: شيء يُنْكَرُ.

واختلف الناس أيهما أبلغ؟ قوله: ﴿إِمْرًا﴾ أو قوله: ﴿نُكْرًا﴾ - فقالت فرقة: هذا قتل بَيِّنٌ وهنالك مُتْرَقِبٌ، و﴿نُكْرًا﴾ أبلغ، وقالت فرقة: هذا

قتل واحد وذلك قتل جماعة، ف ﴿إِمْرًا﴾ أبلغ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعندي أنهما لِمَعْنِيَيْنِ: قوله: ﴿إِمْرًا﴾ أقطع وأهول من حيث هو متوقع عظيم، و﴿نُكْرًا﴾ أبين في الفساد لأن مكروهه قد وقع، [ونصف القرآن بعد الحرف ن أو ينتهي إلى النون من قوله: ﴿نُكْرًا﴾].

وقوله: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَقْلَ لَكَ﴾ فيه زجر وإغلاظ ليس في قوله أولاً: ﴿أَلَمْ تَرَ أَقْلَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾، وقوله: ﴿بَعْدَهَا﴾

يريد: بعد هذه القصة، فأعاد الضمير عليها وإن كانت لم يتقدم لها ذكر صريح من حيث كانت في ضمن القول.

وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا تُصْحِبْنِي﴾ ورواها أبي عن النبي ﷺ، وقرأ عيسى، ويعقوب: ﴿فَلَا تُصْحِبْنِي﴾، وقرأ عيسى أيضاً: ﴿فَلَا تُصْحِبْنِي﴾ بضم التاء وكسر الحاء، ورواها سهل عن أبي عمرو، والمعنى: فلا تُصْحِبْنِي علمك، وقرأ الأعرج: ﴿فَلَا تُصْحِبْنِي﴾ بفتح التاء والياء وشد النون. وقوله: ﴿قَدْ بَلَّغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا﴾، أي: قد أعذرت إليّ وبلغت إلى العذر من قبلي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن تكون هذه القصة أصلاً للأجال في الأحكام التي هي ثلاثة أيام، وأيام التلوم ثلاثة، فتأمله. وقرأ

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَقْلَ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٧٤﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ مِنْ بَعْدِهَا فَلَا تُصْحِبْنِي قَدْ بَلَّغْتَ مِنْ لَدُنِّي عَذْرًا ﴿٧٥﴾ فَأَنْظِرْهُ حَتَّى إِذَا نَبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَظْعَمَ أَهْلُهَا فَأَبَوْا أَنْ يُصَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَتَّقِصَّ فَاقْتَامَهُ ﴿٧٦﴾ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا ﴿٧٧﴾ قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأَيْتُكَ بِنَاءٍ وَإِلَى مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِيَ لَهُمَا زَهْرَةَ مِنْ رُكْوَةٍ وَأَقْرَبَ رَحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَتْ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُمْ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْتَطِيعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ وَيَتْلُونَهُ عَنْ ذِي الْقُرْسِيِّ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

٣٠٢

ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بفتح اللام وضم الدال وشد النون، وهي (لَدُن) اتصلت بها نون الكناية التي في «ضربني» ونحوه، فوقع الإدغام، وهي قراءة النبي ﷺ، وقرأ نافع، وعاصم: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ كالأولى إلا أن النون مُخَفَّفَةٌ، فهي (لَدُن) اتصلت بها ياء المتكلم التي في «غلامي» وكثير ما قبل الياء كما كُسر في هذه، وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بفتح اللام وسكون الدال وتخفيف النون، وهو تخفيف [لَدُنِّي] التي ذكرناها قبل هذه، وزوي عن عاصم: ﴿مِنْ لَدُنِّي﴾ بضم اللام وسكون الدال، قال مجاهد: وهي غلط، قال أبو علي: هذا التغليظ يشبه أن يكون من جهة الرواية، فأما

على قياس العربية فهي صحيحة. وقرأ الحسن: ﴿وَمِن لَّدُنِّي﴾ بفتح اللام وسكون الدال.

وقرأ الجمهور: ﴿عُدْرًا﴾ وقرأ أبو عمرو، وعيسى: ﴿عُدْرًا﴾ بضم الذال، وحكى الداني أن أبيًا روى عن النبي ﷺ: ﴿عُدْرِي﴾ بكسر الراء وإياء بعدها، وأسند الطبري قال: كان رسول الله ﷺ إذا دعا لأحد بدأ بنفسه، فقال يوماً: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لو صبر على صاحبه لرأى العجب، ولكنه قال: ﴿فَلَا تُصِغِي قَدْ بَلَّغْتَ مِن لَّدُنِّي عُدْرًا﴾». وفي البخاري عن النبي ﷺ: «يرحم الله موسى، لو ددنا أنه صبر حتى يقص علينا من أمرهما». وروي في تفسير هذه الآية أن الله تعالى جعل هذه الأمثلة التي وقعت لموسى مع الخضر حجة على موسى وعجبا له، وذلك أنه لما أنكر خزق السفينة نودي: يا موسى أين كان تدبيرك هذا وأنت في الثابت مطروحا في اليم؟ فلما أنكر أمر الغلام قيل له: أين إنكارك هذا من وكرك للقطي وقضائك عليه؟ فلما أنكر إقامة الجدار نودي: أين هذا من رفعك حجر البئر لبنات شعيب دون أجر؟

وقوله: ﴿فَأَسْأَلَنَّ﴾، يريد: انطلق الخضر وموسى يمشيان لارتياح الخضر أمرا ينفذ فيه ما عنده من علم الله تعالى، فمرا بقية فطلبا من أهلها أن يطعموهما فأبوا. وفي الحديث أنهما كان يمشيان على مجالس أولئك القوم يستطعمانهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه عبارة مصرحة بهوان الدنيا على الله عز وجل.

واختلف الناس في القرية - فقال محمد بن سيرين: هي الأبله، وهي أبخل قرية وأبعدها من السماء، وقالت فرقة: هي أنطاكية. وقالت فرقة: هي بركة، وقالت فرقة: هي بجزيرة الأندلس، روي ذلك عن أبي هريرة، ويذكر أنها الجزيرة الخضراء. وقالت فرقة: هي أبو جردان، وهي بناحية أذربيجان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله بحسب الخلاف في أي ناحية من الأرض كانت قصة موسى عليه السلام، والله أعلم بحقيقة ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿يُضَيِّفُونَهَا﴾ بفتح الضاد وشد الياء، وقرأ أبو رجاء: ﴿يُضَيِّفُونَهَا﴾ بكسر الضاد وسكون الياء، وهي قراءة ابن محيصن، والزبير، وأبي رزين. والضميَّفُ مأخوذ من: ضاف إلى المكان إذا مال إليه، ومنه الإضافة وهي إمالة شيء إلى شيء. وقرأ الأعمش: ﴿فَأَبَوْا أَنْ يُطْعِمُوهُمَا﴾.

وقوله تعالى في الجدار: ﴿يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ﴾ استعارة، وجميع الأفعال التي حثها أن تكون للحجى الناطق متى أسندت إلى جماد أو بهيمة فإنما هي استعارة، أي: لو كان مكان الجماد إنسان لكان متمثلا لذلك الفعل، فمن ذلك قول الأعشى:

هَلْ تَنْتَهُونَ؟ وَلَا يَنْهَى دَوِي شَطَطِ
كَالطَّعْنِ يَذْهَبُ فِيهِ الرِّئِثُ وَالْقَتْلُ
فَأَسْنَدَ النَّهْيَ إِلَى الطَّعْنِ، وَمِنْ ذَلِكَ
قَوْلُ الشَّاعِرِ:

يُرِيدُ الرُّمُحُ صَدْرَ أَبِي بَرَاءٍ
وَتَزَعَبُ عَنِ دِمَاءِ بَنِي عُقَيْلٍ
ومنه قول عترة:

.....
وَسَكَا إِلَيَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحْمُحِ
وَقَسَّرَ هَذَا الْمَعْنَى بِقَوْلِهِ:

لَوْ كَانَتْ يَذْرِي مَا الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى
..... البيت.

ومنه قول الناس: «داري تنظر إلى دار فلان»، ومنه قول النبي ﷺ: «لا تراءى ناراهما» وهذا كثير جدا.

وقرأ الجمهور: ﴿يَنْقَضَ﴾ أي: يسقط. وقرأ النبي ﷺ - فيما روي عنه - ﴿أَنْ يُنْقَضَ﴾ بضم الياء وتخفيف الضاد، وهي قراءة أبي، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وعكرمة: ﴿أَنْ يُنْقَاصَ﴾ بالصاد غير منقوطة، بمعنى: ينشق طولاً، يقال: انقاص الجدار وطى البئر، وانقاصت السن إذا انشقت طولاً، وقيل: إذا تصدعت كيف كان، ومنه قول أبي ذؤيب:

فِرَاقٌ كَقَيْصِ السَّنِّ فَالضُّبْرُ إِنَّهُ
لِكُلِّ نَاسٍ عَشْرَةٌ وَجُبُورُ
ويروي البيت: عبرة وجبور بالياء والحاء. وقرأ ابن مسعود، والأعمش: ﴿يُرِيدُ لِيَنْقَضَ﴾.

واختلف المفسرون في قوله: ﴿فَأَقَامَهُ﴾ - فقالت فرقة: هدمه وقعد بينه، ووقع هذا في مصحف ابن مسعود، ويؤيد هذا التأويل قول موسى عليه السلام: ﴿لَوْ شِئْتَ

لَنَحْذَرَ عَلَيْهِ أَجْرًا؛ لأنه فعلٌ يستحق أجراً. وقال سعيد بن جبير: بل مَسَّحَهُ بيده وأقامه فقام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَرَوَى فِي هَذَا حَدِيثٍ، وَهُوَ الْأَشْبَهُ بِفِعْلِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ. فَقَالَ مُوسَى لِلْخَضِرِ: ﴿لَوْ شِئْتَ لَنَحْذَرَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ أَي: طَعَامًا نَأْكُلُهُ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿لَنَحْذَرَ﴾ وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو: ﴿لَنَحْذَرْتُ﴾، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَالْحَسَنِ، وَقَتَادَةَ، وَأَدْعَمَ بَعْضُ الْقِرَاءِ الدَّالِّ فِي الثَّاءِ، وَلَمْ يَدْغِمَهَا بَعْضُهُمْ، وَمِنْ قَوْلِهِمْ: (تَخَذَ) قَوْلُ الشَّاعِرِ:

وَقَدْ تَخَذْتُ رَجُلِي إِلَى جَنْبِ غَرْزِهَا
نَسِيْفًا كَأَنْحُوصِ الْقَطَاةِ الْمُطْرِقِ
وَفِي حَرْفِ أَبِي: ﴿لَوْ شِئْتَ لِأَوْتَيْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾.

ثم قال الخضر لموسى بحسب شرطهما: ﴿هَذَا فِرَاقٌ بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾، واشترط الخضر، وأعطاه موسى أُلًّا يقع سؤالٌ عن شيء، والسؤال أقلُّ وجوه الاعتراضات، فالإنكار والتخطئة أعظم منه، وقوله: ﴿لَوْ شِئْتَ لَنَحْذَرَ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ - وَإِنْ لَمْ يَكُنْ سَوْألاً - ففِي ضَمْنِهِ الْإِنْكَارُ لِفِعْلِهِ وَالْقَوْلُ بِتَصْوِيبِ أَخْذِ الْأَجْرِ، وَفِي ذَلِكَ تَخَطُّةٌ تَرُكُ الْأَجْرَ، وَأَمَّا فَضْلُهُ وَتَكْرِيهُهُ ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكَ﴾ وَعُدُولُهُ عَنِ «بَيْنِنَا» فَلِمَعْنَى التَّأْيِيدِ، وَالسُّيْنُ فِي قَوْلِهِ: ﴿سَأْنَيْتُكَ﴾ مُفْرَقَةٌ بَيْنَ الْمُحَاوِرَتَيْنِ وَالصَّحْبَتَيْنِ، وَمُؤَدَّةٌ بَأَنَّ الْأُولَى قَدْ انْقَطَعَتْ.

﴿٧٩﴾ تفسیر قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿لِمَسْكِينٍ﴾ بتخفيف السين، جمع مسكين، واختلف في

صفتهم - فقالت فرقة: كانت لقوم تجار، ولكنهم من حيث هم مسافرون على قَلْبٍ وفي لجة بحر وبِحَالٍ ضعف عن مدافعة غضب جائر، عبَّر عنهم بـ [مَسَاكِينٍ]؛ إذ هم فِي حَالٍ يُشْفَقُ عَلَيْهِمْ بِسَبَبِهَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كما تقول لرجل غني - إذا وقع فِي وَهْلَةٍ أَوْ خَطْبٍ -: مِسْكِينٍ. وقالت فرقة: كانوا عشرة إخوة أهل عاهات، خمسة منهم عاملون في السفينة، وخمسة لا قدرة بهم على العمل.

وقرأ فرقة: ﴿لِمَسَاكِينٍ﴾ بشد السين، واختلف في تأويل ذلك - فقالت فرقة: أراد بالمسكين ملاحى السفينة، وذلك أن المساك هو الذي يُمسك رجل المركب، وكل الخدمة يصلح لإمساكه، فسمي الجميع مساكين، وقالت فرقة: أراد بالمسكين ذبغة المُسوك وهي الجلود واحداً مَسْكٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر في ذلك القراءة الأولى، وأن معناها أن السفينة لقوم ضعفاء ينبغي أن يشفق عليهم، واحتج الناس بهذه الآية في أن المسكين الذي له البلغة من العيش، كالسفينة لهؤلاء، وأنه أصلح حالاً من الفقير، واحتج من يرى خلاف هذا بقول الشاعر:

أَمَّا الْفَقِيرُ الَّذِي كَانَتْ حَلْوِيَّتُهُ
وَفَقُّ الْعِيَالِ فَلَمْ يُشْرِكْ لَهُ سَبْدٌ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحرير هذا عندي أنهما لفظان يدلان على ضعف الحال جداً، ومع المسكنة انكشافٌ وذلٌ بسؤال، ولذلك

جعلهما الله تعالى صنفين في قسم الصدقات، فأما حديث النبي ﷺ الذي هو: «ليس المسكين بهذا الطَّوَّافِ» فجعل المساكين في اللغة أهل الحاجة الذين كشفوا وجوههم، وأما قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فجعل الفقراء الذين لم يكشفوا وجوههم. وقد تقدم القول في هذه المسألة بأوعب من هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَائِكَةٌ﴾ قال قوم: معناه: أمامهم، وقالوا: (وراء) من الأضداد. وقال ابن جبير، وابن عباس: وكان أمامهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَالِحَةٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله: ﴿وَرَاءَهُمْ﴾ هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعى بها الزمن، وذلك أن الحادث المقدم الوجود هو الأمام، وبين اليد لما يأتي بعده من الزمن، والذي يأتي بعد هو الورا، وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر بباديء الرأي، وتأمل هذه الألفاظ في مواضعها حيث وردت تجدها تطرد، فهذه الآية معناها: إن هؤلاء وعملهم وسعيهم يلي بعده في الزمن غَضَبٌ مِنَ الْمَلِكِ، وَمِنْ قَرَأَ: ﴿أَمَامَهُمْ﴾ أراد: في المكان، أي أنهم كانوا يسيرون إلى بلده. وقوله تعالى في التوراة والإنجيل إنهما «بين يدي القرآن» مطرد على ما قلنا في الزمان، وقوله سبحانه: ﴿يَوْمَ نَدْعَاهُمْ

جَهَنَّمَ مطرد كما قلنا من مراعاة الزمان، وقول النبي ﷺ: «الصلاة أمامك» يريد في المكان، وإلّا فكونهم في ذلك الوقت كان أمام الصلاة في الزمن، فتأمل هذه المقالة فإنها مريحة من شغب هذه الألفاظ ووقع لقتادة في كتاب الطبري: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلَكٌ﴾، قال قتادة: أمامهم، ألا ترى أنه يقول: ﴿بَيْنَ رِجْلَيْهِمْ جَهَنَّمَ﴾ وهي بين أيديهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول غير مستقيم، وهذه هي العجمة التي كان الحسن ابن أبي الحسن يضحّ منها. قاله الزجاج. ويجوز أن كان رجوعهم في طريقهم على الغاصب فكان وراءهم حقيقة. وقيل: اسم هذا الغاصب هُذد بن بُدَد، وقيل: الجَلَنْدِي، وهذا كله غير ثابت. وقوله تعالى: ﴿كُلَّ سَنَةٍ﴾ عموم معناه الخصوص في الجياد منها الصحاح المازّة به.

٨٠ - ٨١ تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في الغلام والخلاف في بلوغه أو صغره، وفي الحديث أن ذلك الغلام طبع يوم طبع كافراً، وهذا يؤيد ظاهره أنه كان غير بالغ، ويحتمل أن يكون خيراً عنه مع كونه بالغاً، وقيل: اسم الغلام جَيْسُور بالراء، وقيل: جَيْسُون بالنون، وهذا أمر كله غير ثابت. وقرأ أبي بن كعب: ﴿فَكَانَ كَافِرًا وَكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنِينَ﴾، وقرأ أبو سعيد الخدري: ﴿فَكَانَ آبَاؤُهُ مُؤْمِنَانِ﴾، فجعلها (كان) التي فيها الأمر والشأن.

وقوله: ﴿فَخَشِيئًا﴾ قيل: هو في جهة الخضر، فهذا متخلص،

والضمير عندي للخضر وأصحابه الصالحين الذين أهمهم الأمر وتكلموا فيه، وقيل: هو في جهة الله تعالى وعبر عنه الخضر. قال الطبري: معناه: فَعَلِمْنَا، وقال غيره: فَكَّرَهَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي في توجيه هذا التأويل - وإن كان اللفظ يدافعه - أنها استعارة، أي: على ظن المخلوقين والمخاطبين لو علموا حاله لوقعت منهم خشية الرهق للأبوين. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَخَافَ رُبُّكَ﴾، وهذا بين في الاستعارة، وهذا نظير ما يقع في القرآن في جهة الله تعالى من «لَعَلَّ وَعَسَى»، فإن جميع ما في هذا كله من تَرْجُحٍ وَتَوَقُّعٍ وخوف وخشية إنما هو بِحَسَبِكُمْ أيها المخاطبون. و﴿يُرِيهُمَا﴾ معناه: يُجَسِّمُهُمَا ويُكَلِّفُهُمَا بشدة، والمعنى أن يلقيهما جُهِمًا في أتباعه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنْ يَبْدُلَهُمَا﴾ بفتح الباء وشدّ الدال، وقرأ ابن محيصن، والحسن، وعاصم: ﴿أَنْ يَبْدِلَهُمَا﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال. و«الزُّكَاةُ»: شرف الخُلُقِ والوقار والسكينة المنظوية على خير، و«الرُّحْمُ»: الرحمة، والمراد - عند فرقة - أي: يرحمهما، وقيل: أي: يرحمهما، ومنه قول رؤبة بن العجاج:

يَا مُنْزَلَ الرُّحْمِ عَلَيَّ إِذْ رَسَا
وَمُنْزَلَ السُّنَنِ عَلَيَّ إِذْ لَسَا
وقرأ ابن عامر: ﴿رُحْمًا﴾ بضم الحاء، وقرأ الباقر: ﴿رُحْمًا﴾ بسكونها، واختلف عن أبي عمرو.

وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿رُؤْيُهُمَا أَزْكَى مِنْهُ وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلَا غلاماً مسلماً»، وروي عن ابن جريج «أنهما بُدِّلَا جارية»، وحكى النقاش أنها ولدت هي وذريتها سبعين نبياً، وذكره المهدي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهو بعيد، ولا تعرف كثرة الأنبياء إلا في بني إسرائيل، وهذه المرأة لم تكن فيهم، وروي عن ابن جريج أن أم الغلام يوم قتل كانت حاملاً بغلام مسلم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ﴾. هذان الغلامان صغيران بقرينة وصفهما باليُثْمِ، وقد قال النبي ﷺ: «لا يُثْمُ بَعْدَ بُلُوغٍ»، هذا الظاهر، وقد يحتمل أن يبقى عليهما اليُثْمُ بعد البلوغ، أي: كانا يتيمين، على معنى الشفيق عليهما. واختلف الناس في الكنز - فقال قتادة، وعكرمة: كان مالا جسيماً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان علماً في صحف مدفونة، وقال عمر مولى عُفْرَةَ: كان لوحاً من ذهب قد كتب فيه: «عجياً للموقن بالرزق يتعب، وعجياً للموقن بالحساب كيف يغفل، وعجياً للموقن بالموت كيف يفرح»، وروي نحو هذا مما هو في معناه.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا﴾، ظاهر اللفظ والسابق منه أنه والدهما ذئبة، وقيل: الأب السابع، وقيل: العاشر فحفظا فيه وإن لم يذكر بصراح، وفي الحديث: «إن الله تعالى يحفظ الرجل الصالح في ذريته».

وَقَوْلِ الْخَضِرِ: ﴿وَمَا فَكَّرْتُ عَنْ أَمْرِي﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه - فقيل: هو نبي، وقيل: هو عبد صالح وليس نبي. وكذلك جمهور الناس علسى أن الخضر مات ﷺ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره،

وَقَوْلِ الْخَضِرِ: ﴿وَمَا فَكَّرْتُ عَنْ أَمْرِي﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه - فقيل: هو نبي، وقيل: هو عبد صالح وليس نبي. وكذلك جمهور الناس علسى أن الخضر مات ﷺ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره،

وَقَوْلِ الْخَضِرِ: ﴿وَمَا فَكَّرْتُ عَنْ أَمْرِي﴾ يقتضي أن الخضر نبي، وقد اختلف الناس فيه - فقيل: هو نبي، وقيل: هو عبد صالح وليس نبي. وكذلك جمهور الناس علسى أن الخضر مات ﷺ، وتقول فرقة: إنه حيٌّ لأنه يشرب من عين الحياة، وهو باقٍ في الأرض، وأنه يحج البيت وغير هذا، وقد أطنب النقاش في هذا المعنى، وذكر في كتابه أشياء كثيرة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وغيره،

وجاء في أنباء الخضر عليه السلام في أول قصة ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا﴾، وفي الثانية ﴿فَأَرَدْتُ أَنْ يُبَدِّلَهَا﴾، وفي الثالثة ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا﴾، وإنما انفرد أولاً في الإرادة لأنها لفظة غيب فتأدب بأن لم يسند الإرادة فيها إلا لنفسه، كما تأدب إبراهيم عليه السلام في قوله: ﴿وَلَا مَرِضْتُ فَهْوَ يَشْفِينِ﴾، فأسند الفعل قبل وبعد إلى الله تعالى، وأسند المرض إلى نفسه؛ إذ هو معنى نقص ومصيبة، وهذا المنزوع يطرد في فصاحة القرآن كثيراً، ألا ترى إلى تقديم فعل البشر في قوله تعالى: ﴿نَلَّكَ رَاغِبًا أَرَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وتقديم فعل الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيُتُوبُوا﴾، وإنما قال الخضر في الثانية: ﴿فَأَرَدْتُ﴾ لأنه أمل كان قد رزاه هو وأصحابه الصالحون، وتكلم فيه في معنى الخشية على الوالدين وتمنى التبديل لهما، وإنما أسند الإرادة في الثالثة إلى الله تعالى لأنها في أمرٍ مستأنف في الزمن طويل غيب من الغيوب، فحسن أفراد هذا الموضع بذكر الله تعالى، وإن كان الخضر قد أراد أيضاً ذلك الذي أعلمه الله تعالى أنه يريده، وهذا توجيه فصاحة هذه العبارة بحسب فهمنا المقصّر، والله أعلم.

وَالْأَشْدُّ: كَمَا الْخُلُقُ وَالْعَقْلُ، واختلف الناس في قدر ذلك من السنين - فقيل: خمسة وثلاثون، وقيل: ستة وثلاثون، وقيل: أربعون، وقيل غير هذا مما فيه ضعف.

تهتم بإملاء الله لهم، وإجراء النعم لهم على ظاهرها، فإن البواطن سائرة إلى الانتقام منهم، ونحو هذا مما هو محتمل لكن بتعسف ما، فتأمل.

(٨٢) - (٨٣) تفسير قوله عز وجل:

اختلف فيمن سأله عن هذه القصة - فقيل: سأله طائفة من أهل الكتاب، وروى في ذلك عقبه بن عامر حديثاً ذكره الطبري، وقيل: إنما سأله قريش حين دلتها اليهود على سؤاله عن الروح والرُّجُلِ الطُّوُوفِ وفتية ذهبوا في الدهر ليقع امتحانه بذلك.

وذو القرنين هو الإسكندر اليوناني المقدوني، وقد تشدد فاهه فيقال: المقدوني، وذكر ابن إسحق في كتاب الطبري أنه يوناني، وقال وهب بن منبه: هو رومي، وذكر الطبري حديثاً عن النبي ﷺ أن ذا

كلها لا تقوم على ساق، ولو كان الخضر عليه السلام حياً يحج لكان له في ملّة الإسلام ظهور، والله العليم بتفاصيل الأشياء لا رب غيره. ومما يقضي بموت الخضر الآن قول النبي ﷺ: ﴿أَرَأَيْتُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ، فَإِنَّهُ لَا يَبْقَى مَعْنَى هُوَ الْيَوْمَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ﴾.

وقوله: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلٌ﴾ أي مآل، وقرأت فرقة: ﴿تَسْتَطِيعُ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿تَسَطَّعُ﴾ قال أبو حاتم: كذا تُقرأ، تتبع المصحف.

وانتزع الطبري من اتصال هذه القصة بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْتُمْ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَرْجَةٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْجِلًا﴾ أن هذه القصة إنما جلبت على معنى المثل للنبي ﷺ في قومه، أي: لا

القرنين شاب من الروم، وهو حديث واهي السند، عن شيخين من تجيب.

واختلف الناس في وجه تسميته بذي القرنين، فأحسن الأقوال أنه كان ذا صغيرتين من شعرٍ هما قرناه، فسُمي بهما، ذكره المهدي وغيره، والصفائر قرون الرأس، ومنه قول الشاعر:

فَلَسَّمْتُ قَاهَا آخِذًا بِقُرُونِهَا
شُرْبُ الشَّرِيفِ لِيَزِدَ مَاءَ الْحَشْرِجِ
ومنه الحديث في غسل بنت النبي ﷺ، قالت أم عطية: «فَضَّرْنَا رَأْسَهَا ثَلَاثَةَ قُرُونٍ»، وكثيراً تجيء تسمية النواصي قروناً.

وروي أنه كان في أول ملكه يرى في نومه أنه يتناول الشمس وممسك قرنين لها بيديه، فقَصَّ ذلك، ففسر أنه سيغلب على ما دُرَّت عليه وسُمي ذا القرنين، وقالت فرقة: سُمي ذا القرنين لأنه بلغ المغرب والمشرق، فكأنه حاز قرني الدنيا، وقالت فرقة: إنه لما بلغ مطلع الشمس كشف بالرؤية قرنيها فسُمي بذلك، أو قرني الشيطان بها، وقال وهب بن منبه: سُمي بذلك لأن جَبَّيْتِي رأسه كانتا من نحاس، وقال وهب بن منبه أيضاً: كان له قرنان تحت عمامته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله بعيد، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما سُمي ذا القرنين لأنه ضُرب على قَرْنِ رأسه فمات، ثم حيي، ثم ضرب على قرن رأسه الآخر فمات، فسُمي بذلك لأنه جُرح على قرني رأسه

جرحين عظيمين في يومين عظيمين من أيام حربه، فسُمي بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قريب.

والتَّمَكِينُ له في الأرض أنه ملك الدنيا ودانت له الملوك كلها، فزوي أن جميع ملوك الدنيا أربعة: مؤمنان وكافران، فالؤمنان سليمان بن داود عليه السلام، والإسكندر، والكافران نمرود وبختنصر. وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّنَهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ معناه: علماً في كل أمر، وأقْبَسَةَ يتوصل بها إلى معرفة الأشياء. وقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ مَتَّعَ﴾ عموم معناه الخصوص في كل ما يمكن أن يعلمه ويحتاج إليه، ومَمَّ لا محالة أشياء لم يؤت منها سبباً يعلمها به.

واختلف في ذي القرنين، ف قيل: هو نبي، وهذا ضعيف، وقيل: هو ملك - بفتح اللام -، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يدعو آخر: يا ذا القرنين، فقال: أما فكناكم أن تسميتهم بأسماء الأنبياء حتى تسميتهم بأسماء الملائكة؟ وروي عن النبي ﷺ أنه سئل عنه فقال: «مَلِكٌ مَسَّحَ الْأَرْضَ مِنْ تَحْتِهَا بِالْأَسْبَابِ»، وقيل: هو عبد ملك - بكسر اللام - صالح نصح الله فأيدته، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال: «فيكم اليوم مثله»، وعنى بذلك نفسه، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿فَأَنْبِئْ سَبِيًّا﴾ الآية. قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿فَأَنْبِئْ سَبِيًّا﴾ بشد التاء، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة،

والكسائي: ﴿فَأَنْبِئْ سَبِيًّا﴾ بسكون التاء، على وزن أفعل، قال بعض اللغويين: هما بمعنى واحد، وكذلك (تَبِيعَ)، وقالت فرقة: (أَنْبِيعَ) بقطع الألف عبارة عن المَجْدِ المُسْرَعِ الحثيث الطلب، و (أَنْبِيعَ) إنما يتضمن معنى الاقتفاء دون هذه القرائن، قاله أبو زيد وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واستقرأ هذا القائل هذه المقالة من القرآن، كقوله عز وجل: ﴿فَأَنْبِئْهُ بِشَهَابٍ نَاقِبٍ﴾، وكقوله تعالى: ﴿فَأَنْبِئْهُمْ فِرْعَوْنَ وَجُنُودَهُ﴾، وكقوله تعالى: ﴿فَأَنْبِئْهُ الشَّيْطَانَ﴾، وهذا قول حكاه النقاش عن يونس بن حبيب، وإذا تأملت (أَنْبِيعَ) بشد التاء لم يرتبط لك هذا المعنى ولا بُدَّ. و«السَّبَبُ» في هذه الآية: الطريق المسلوك؛ لأنها سبب الوصول إلى المقصد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿فِي عَرَبٍ حَنَزَةٍ﴾ على وزن فِعْلَةٍ، أي: ذات حمأة، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -، والباقون: ﴿فِي عَيْنٍ حَامِيَةٍ﴾، أي حارّة، وقد اختلف في قراءة ذلك معاوية وابن عباس، فقال ابن عباس رضي الله عنهما ﴿حَنَزَةٍ﴾ وقال معاوية: ﴿حَامِيَةٍ﴾، فبعث إلى كعب الأحبار ليخبرهم بالأمر كيف هو في التوراة، فقال لهما: أما العربية فأنما أعلم بها مني، ولكنني أجد في التوراة أنها تغرب في عين ناط، والثأط: الطين، فلما انفصلا قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما: لَوِ دِدْتُ يَا أَبَا الْعَبَّاسِ فَكُنْتُ

أنجدك بشعر تُبَع الذي يقول فيه في ذكر ذي القرنين:

فَدَكَانَ ذُو الْقَرْنَيْنِ جَدِي مُسْلِمًا
مَلِكًا تَدِينُ لَهُ الْمُلُوكُ وَتُخْشَدُ
بَلَّغَ الْمَشَارِقَ وَالْمَغَارِبَ يَبْتَغِي
أَسْبَابَ أَمْرٍ مِنْ حَكِيمٍ مُرْشِدٍ
فَرَأَى مَغِيبَ الشَّمْسِ عِنْدَ غُرُوبِهَا
فِي عَيْنٍ ذِي حُلْبٍ وَثَأطٍ حَزْمِدٍ
فَالْحُلْبُ: الطين، والثأط: الحمأة،
والحزمد: الأسود. ومن قرأ:
﴿حَامِيَةٌ﴾ وجُهِهَا إِلَى الْحَرَارَةِ،
وروي عن عبدالله بن عمر
رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ
نظر إلى الشمس وهي تغيب فقال:
«فِي نَارِ اللَّهِ الْحَامِيَةِ، لَوْلَا مَا يَزَعُهَا
مِنَ اللَّهِ لَأَحْرَقَتْ مَا عَلَى الْأَرْضِ».

وروي أبو ذرُّ أن رسول الله ﷺ نظر
إلى الشمس عند غروبها فقال:
«أَتَدْرِي أَيْنَ تَغْرُبُ يَا أَبَا ذَرُّ؟» قلت:
لا، قال: «إِنهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنِ
حَامِيَةٍ، فَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْعَيْنَ
هُنَاكَ حَارَّةٌ، وَ﴿حَامِيَةٌ﴾ هِيَ قِرَاءَةٌ
طَلَحَها بِنِ عَبْدِ اللَّهِ، وَعَمَرُو بِنِ
الْعَاصِ، وَابْنَهُ، وَابْنَ عَمْرٍ، وَذَهَبَ
الطَّبْرِيُّ إِلَى الْجَمْعِ بَيْنِ الْأَمْرَيْنِ
فَقَالَ: يَحْتَمَلُ أَنَّ تَكُونُ الْعَيْنُ حَارَةً
ذَاتَ حَمَاءَةٍ، فَكُلُّ قِرَاءَةٍ وَصِفَ بِصِفَةِ
مِنِ أَحْوَالِهَا، وَذَهَبَ بَعْضُ الْبَغْدَادِيِّينَ
إِلَى أَنَّ [فِي] بِمَنْزِلَةِ (عِنْدَ)، كَأَنَّهَا
مَسَامَتَةٌ مِنَ الْأَرْضِ فِيمَا يَرَى الرَّائِي
لَعَيْنٍ حَمْتَةً. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَوْلُهُ:
﴿فِي عَيْنٍ﴾ إِنَّمَا الْمُرَادُ أَنَّ ذَا الْقَرْنَيْنِ
كَانَ فِيهَا، أَي: هِيَ آخِرُ الْأَرْضِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وظاهر هذه الأقوال محتمل، والله
أعلم. قال أبو حاتم: وقد يمكن أن

تكون [حَامِيَةٌ] مهموزة، بمعنى:
ذات حمأة، فتكون القراءتان بمعنى
واحد. واستدل بعض الناس على أن
ذا القرنين نبيُّ بقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا يَدَّا
الْقَرْنَيْنِ﴾، ومن قال إنه ليس بنبي
قال: كانت له هذه المقالة من الله
بإلهام.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَنْ تَدْبِبَ﴾ معناه:
بالقتل على الكفر، ﴿وَمَا أَنْ تَنْجِدَ
فِيهِمْ حُسْنًا﴾ بِالْحَمَلِ عَلَى الْإِيمَانِ
وَاتِّبَاعِ الْهَدْيِ، فَكَأَنَّهُ قِيلَ لَهُ: هَذِهِ لَا
تَعْطُهَا إِلَّا إِحْدَى خَطَّتَيْنِ: إِمَّا أَنْ
تَكْفُرَ فَتَعَذِّبَهَا، وَإِمَّا أَنْ تُوْمِنَ فَتَحْسِنَ
إِلَيْهَا. وَذَهَبَ الطَّبْرِيُّ إِلَى أَنَّ «اتِّخَاذَ
الْحُسْنِ» هُوَ الْأَسْرُ مَعَ كُفْرِهِمْ،
فَالْمَعْنَى - عَلَى هَذَا - أَنَّهُمْ كَفَرُوا وَلَا
يُدُّ، فَخِيَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَ قَتْلِهِمْ أَوْ
أَسْرِهِمْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويحتمل أن يكون «الأتخاذ» ضرب
الجزية. ولكن تقسيم ذي القرنين
بعد هذا الأمر إلى كفر أو إيمان يزُدُّ
هذا القول بعض الرَّدِّ، فتأمل.

(٧٧) - (٧٨) تفسير قوله عز وجل:
﴿ظَلَر﴾ في هذه الآية بمعنى:
كفر، ثم توعد الكافرين بتعذيبه إياهم
قبل عذاب الله، وعقَّب لهم بذكر
عذاب الله لأن تعذيب ذي القرنين
هو الأحق عندهم، المحبوس لهم،
الأقرب نكايته. فلما جاء وعد
المؤمنين قدَّم تنعيم الله تعالى الذي
هو الأحق عند المؤمنين، والآخر
بإزائه حقير، ثم عقَّب أخيراً بذكر
إحسانه في قول اليسر، وجعله قولاً
إذ الأفعال كلها خلق لله تعالى،
فكأنه سلَّمها ولم يراع نكسبه.

وقرأت فرقة: ﴿نُكْرًا﴾ بضم
الكاف، وقرأت فرقة: ﴿نُكْرًا﴾
بسكون الكاف، ومعناه: المنكر
الذي تنكره الأوهام لعظمته
وتستهويه. وقرأ ابن كثير، ونافع،
وعاصم - في رواية أبي بكر - وأبو
عمرو، وابن عامر: ﴿جَزَاءَ
الْحُسْنَى﴾ بإضافة الجزاء إلى
الحسنى، وذلك يحتمل معنيين:
أحدهما أن يريد بـ ﴿الْحُسْنَى﴾ الجنة،
والجنة هي الجزاء، فأضاف ذلك،
كما قال: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾ والآخره
هي الدار، والثاني أن يريد بـ
﴿الْحُسْنَى﴾ أعمالهم الصالحة في
إيمانهم، فوعدهم بجزاء الأعمال
الصالحة. وقرأ حمزة، والكسائي،
وحفص عن عاصم: ﴿جَزَاءَ لِحُسْنَى﴾
بنصب «الجزاء» على المصدر في
موضع الحال، و﴿لِحُسْنَى﴾ ابتداءً،
وخبره في المجرور، ويراد بها
الجنة، وقرأ عبدالله بن أبي إسحق:
﴿جَزَاءَ﴾ بالرفع والتنوين
﴿الْحُسْنَى﴾، وقرأ ابن عباس
رضي الله عنهما، ومسروق:
﴿جَزَاءَ﴾ بالنصب بغير تنوين
﴿لِحُسْنَى﴾ بالإضافة. قال المهدي:
يجوز حذف النون لالتقاء الساكنين،
ووعدهم بعد ذلك بأنه يُيسَّر عليهم
أمر دنياهم. وقرأ ابن القعقاع:
﴿يُسْرًا﴾ بضم السين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أُنْبِئْ سَيِّئًا﴾،
المعنى: ثم سلك ذو القرنين الطرق
المؤدية إلى مقصده، فهي سبب
الوصول، فكان ذو القرنين - على ما
وقع في كتب التاريخ - يدوس
الأرض بالجيوش الثقال، والسيرة

الحميدة، والإعداد الموقى، والحزم المستيقظ المتقصد، والتأييد المتواصل، وتقوى الله عز وجل، فما لقي أمة ولا مراً بمدينة إلا دانت له ودخلت في طاعته، وكل من عارضه وتوقف عن أمره جعله عظة وآية لغيره، وله في هذا المعنى أخبار كثيرة، وغرائب كرهت التطويل بها لأنها علم تاريخ. وقرأ الجمهور: ﴿مَطْلَعٌ﴾ بكسر اللام، وقرأ الحسن - بخلاف -، وابن كثير، وأهل مكة: ﴿مَطْلَعٌ﴾ بفتح اللام.

و «القوم»: الزنج، قال قتادة، وهم الهنود وما وراءهم. وقال الناس في قوله: ﴿لَوْ جَعَلَ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ معناه: إنهم ليس لهم بنيان؛ إذ لا تحتمل أرضهم البناء، وإنما يدخلون من حرّ الشمس في أسراب، وقيل: يدخلون في ماء البحر، قاله الحسن، وقتادة، وابن جريج. وكثر النقاش وغيره في هذا المعنى، والظاهر من الألفاظ أنها عبارة بليغة عن قرب الشمس منهم، وفعلها بقدرة الله تبارك وتعالى فيهم، وتبليها منهم، ولو كان لهم أسراب تغني لكان سِتْرًا كشيافاً، وإنما هم في قبضة القدرة سواء كان لهم أسراب أو دُور أو لم يكن، ألا ترى أن السُّرَّ عندنا بحق إنما هو من السحاب والغمام ويؤد الهواء، ولو سلط الله علينا الشمس لأحرقتنا، فسبحان المنفرد بالقدرة التامة.

وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ معناه: فَعَلْ معهم كِفَعْلُهُ مع الأولين أهل المغرب، فأوجز بقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾. ثم أخبر الله تعالى عن إحاطته بجميع

ما لدى ذي القرنين، وما تصرف من أفعاله، ويحتمل أن يكون ﴿كَذَلِكَ﴾ استئناف قول، ولا يكون راجعاً على الطائفة الأولى، فتأمل، والأول أصوب.

﴿٩٢﴾ - ﴿٩٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأت فرقة: ﴿اتَّبَعُ﴾ بشد التاء، وقرأت فرقة بتخفيفها، وقد تقدم. وهذا يقتضي أنه لما بلغ مطلع الشمس أتبع بعد ذلك سبباً، أي: طريقاً آخر، فهو - والله أعلم - إما يَمَنَّة وإما يسرة من مطلع الشمس. و«السُدَّان» - فيما ذكر أهل التفسير -: جيلان سدّاً مسالك تلك الناحية من الأرض، وبين طريقي الجبلين فَتَحَ هو موضع الرُوم. قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجبلان اللذان بينهما السُدُّ أرمينية وأذربيجان. وقالت فرقة: هما من وراء بلاد الترك، ذكره المهدوي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله غير متحقق، وإنما هما في طرف الأرض مما يلي المشرق، ويظهر من ألفاظ التواريخ أنهما إلى ناحية الشمال، وأما تعيين موضع فضيف.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿السُّدَّيْنِ﴾ بضم السين، وكذلك (سُدّاً) حيث وقع، وقرأ حفص عن عاصم بفتح ذلك كله في جميع القراءات، وهي قراءة مجاهد، وعكرمة، وإبراهيم النخعي، وقرأ ابن كثير: ﴿السُّدَّيْنِ﴾ بفتح السين، وضم ﴿سُدّاً﴾ في (يسن). واختلف بعد - فقال الخليل وسيبويه: الضم هو الاسم، والفتح المصدر، وقال

الكسائي: الضم والفتح لغتان بمعنى واحد، وقال: عكرمة، وأبو عمرو بن العلاء، وأبو عبيدة: ما كان من خلقه الله تعالى لم يشارك فيه أحد بعمل فهو بالضّم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزم أهل هذه المقالة أن نقرأ: ﴿بَيْنَ السُّدَّيْنِ﴾ بالضم، وبعد ذلك ﴿سُدّاً﴾ بالفتح، وهي قراءة حمزة، والكسائي. وحكى أبو حاتم عن ابن عباس وعكرمة عكس ما قال أبو عبيدة، وقال ابن إسحق: ما رأته عينك فهو (سُدٌّ) بضم السين، وما لا يرى فهو (سُدٌّ) بالفتح. والضمير في ﴿دُونِهَا﴾ عائد على الجبلين، أي: وجدهم في الناحية التي تأتي إلى المغرب. واختلف في «القوم» - فقيل: هم بشر، وقيل: جن، والأول أصح من وجوه. وقوله: ﴿لَا يَكَادُونَ يَنْهَوْنَ قَوْلًا﴾ عبارة عن بعد لسانهم عن أسنة الناس، لكنهم فقهوا أو فهموا بالترجمة ونحوها. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَنْفَقَهُونَ﴾ من أفقه، وقرأ الباقون: ﴿يَنْهَوْنَ﴾ من فقه.

والضمير في ﴿قَالُوا﴾ للقوم الذين من دون السُّدَّيْنِ، وأجوج وأجوج قبيلتان من بني آدم، لكنهم يتقسمون أنواعاً كثيرة اختلفت في عددها، فاختصرت ذكره لعدم الصحة، وفي خَلْفَهُم تشويه، منهم المفرط الطول، ومنهم المفرط القصر على قدر الشبر وأقل وأكثر، ومنهم صنف عظيم الأذان، الأذن الواحدة وبرة والأخرى زعراء، يضيّف في الواحدة ويشتو

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدِي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدِي حَقًّا ﴿١٨٨﴾ وَرَكَعًا بَعْضُهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوحُ فِي بَعْضٍ وَيَفْخُ فِي الشُّورِ فَمِنْهُمْ مَعْزِفَةٌ ﴿١٨٩﴾ وَعَرْضًا جَعَلَهُمْ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غَطَاوَةٍ عَنِ ذِكْرِي وَكَأَنُومًا لَا يَسْتَفِيدُونَ سَمْعًا ﴿١٩١﴾ فَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن سَخِطْنَا وَعِبَادِي مِن دُونِ أَوْلِيَاءِ إِنَّا أَعْتَدْنَا لَهُمْ لِّلْكَافِرِينَ نَزْلًا ﴿١٩٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٩٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيمُهُمُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِنُونَ آمَهُمْ يُحْسِنُونَ سَمْعًا ﴿١٩٤﴾ وَلِلَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِن تَدْرِكُهُمْ سَخَابَةُ السَّمَاءِ فَغُلَّتْ أَعْيُنُهُمْ فَلا تَرَوْنَ لَهُم نَوْمَ الْيَوْمِ نَوْمًا إِنَّكَ بِرَأْسِ عَرْشِكَ جَاهِدُ مَنَافِرَهُمْ وَتَأْتِيهِمُ السَّخَابَةُ وَهُمْ يُحْسِنُونَ آمَهُمْ وَتَعْمَلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزْلًا ﴿١٩٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَدْخُلُونَهَا إِلاَّ مَن يَشَاءُ اللَّهُ قُلْ لَوْ كُنَّا الْبَحْرَ مِدَادًا لَكُنَّ كِتَابِي رَبِّي لَنَفَعْنَا الْبَحْرَ قَوْلًا أَن نَفَعْنَا كِتَابِي رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِبَيْتِلِهِ مَدَدًا ﴿١٩٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِرِيعَادَةِ رَبِّهِ إِنَّهَا صَوْتُ زَيْبٍ مِّن مَّوْجٍ يَنْفَخُ فِي يَوْمِئِذٍ بَنِينَ ﴿١٩٧﴾

٣٠٤

من التنين يرزقونها ويمطرونها، ونحو هذا مما لا يصح، وزوي أيضاً أن الذكر منهم لا يموت حتى يولد له ألف ولد، والأنثى لا تموت حتى يخرج من بطنها ألف، فهم ذلك إذا بلغوا العدد ماتوا، وزوي أيضاً يتناكحون في الطرق كالبهائم، وأخبارهم تضيق بها الصحف فاختصرتها لضعف صحتها.

قوله تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَبْرٌ فَأَيْسُرُونِي يِقُوهُ أَجْمَلٌ يَنْفِكُ وَيَنْبَغُ رَدْمًا﴾، المعنى: قال لهم ذو القرنين: ما بسط الله لي من القدرة والمُلك خير من خَزجكم وأمواكم، ولكن أعينوني بقوة الأبدان، ويعمل منكم بالأيدي. وقرأ ابن كثير وحده: ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ بنونين، وقرأ الباقون: ﴿مَا مَكَّنِّي﴾ بإدغام النون الأولى في الثانية. وهذا من تأييد الله تعالى لذي القرنين، فإنه تهذى في هذه المحاوراة إلى الأنفع والأنزه، فإنهم لو جمعوا له خراجاً ومالاً لم يُعنه منهم أحد وَلَوْ كَلَّوْهُ إِلَى الْبِنْيَانِ، ومعونتهم له بالقوة أجمل به، وأمرٌ يطاول مدة العمل، وربما أذنب على الخرج.

والرُذْمُ، أبلغ من السُدَّة؛ إذ كل ما يُسَدُّ به، والرُذْمُ وضع الشيء على الشيء من حجارة أو تراب أو نحوه حتى يقوم من ذلك حجاب منيع،

في الأخرى وهي تعمه. واختلف القراء - فقرأ عاصم وحده: ﴿يَأْجُجَ وَيَأْجُجَ﴾ بالهمز، وقرأ الباقون بغير همز، فأما من همز فاختلف فيه - فقالت فرقة: هو أعجمي، علته في منع الصرف التعريف والتأنيث، وأما من لم يهمز فإما أن يراها اسمين أعجميين، وإما أن يُسهل من الهمز، وقرأ رؤبة بن العجاج: ﴿أَجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ بهمزة بدل الياء.

واختلف الناس في إفسادهم الذي وصفوهم به - فقال سعيد بن عبدالعزيز: إفسادهم أكل بني آدم، وقالت فرقة: إفسادهم إنما كان عندهم مُتَوَقِّعاً، أي: سيفسدون، فطلبوا وجه التحرز منهم، وقالت فرقة: إفسادهم هو الظلم والغشم والقتل وسائر وجوه الإفساد المعلوم من البشر، وهو أظهر الأقوال؛ لأن الطائفة الشاكية إنما شكت من ضُرِّ قد نالهم. وقولهم: ﴿فَهَلْ يَحْسَدُ لَكَ خَيْرًا﴾ استفهامٌ على جهة حسن الأدب.

و«الْخَرْجُ»: المُجْبَى، وهو الخراج، وقال قوم: «الْخَرْجُ»: المال يخرج مرة، و«الْخَرْجُ»: المُجْبَى المتكرر، فعرضوا عليه أن يجمعوا له أمراً يقيم بها أمر السد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «خَرْجًا»: أجراً. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم: «خَيْرًا» وقرأ حمزة، والكسائي: «خَرَجًا»، وهي قراءة طلحة بن مصرف، والأعمش، والحسن - بخلاف عنه -، وزوي في أمر يأجوج ومأجوج أن أرزاقهم

ومنه: رَدْمٌ ثوبه إذا رَقَعَهُ بَرَقَاعٌ متكاتفة بعضها فوق بعض، ومنه قول عترة:

هَلْ غَادَرَ الشُّعْرَاءُ مِن مُتَرَدِّمٍ؟

أي: من قول يركب بعضه على بعض.

(٣١) - (٣٢) تفسير قوله عز وجل:

قرأ عاصم، وحمزة: ﴿إِيْثُونِي﴾ بمعنى: جيثوني، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: ﴿آتُونِي﴾ بمعنى: أعطوني، وهذا كله متقارب، إنما هو استدعاء المناولة لا استدعاء العطية والهبية؛ لأنه قد ارتبط من قوله ألا يأخذ منهم الخَرْجُ، فلم يبق إلا استدعاء المناولة وأعمال القرة، و﴿إِيْثُونِي﴾ أشبه بقوله: ﴿فَأَعْيُونِي﴾

يَقْرَأُ، ونصب «الزُّبَيْرَ» على نحو قول الشاعر:

أَمْرُتُكَ الْخَيْرُ

حذف الجار فنصب الفعل. وقرأ الجمهور: ﴿زُبَيْرٌ﴾ بفتح الباء، وقرأ الحسن بضمها، وكل ذلك جمع (زُبَيْرَةٌ)، وهي القطعة العظيمة منه.

والمعنى: قَرَضَهُ وَبَنَاهُ حَتَّى إِذَا سَاوَى بَيْنَ الصُّدْفَيْنِ، فاختصر ذلك لدلالة الظاهر عليه. وقرأ الجمهور:

﴿سَاوَى﴾ وقرأ قتادة: ﴿سَوَى﴾، و«الصُّدْفَانِ»: الجبلان المتناوحيان،

ولا يقال للواحد: صدف، وإنما يقال (صدفان) لاثنتين أحدهما

يصادف الآخر. وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: ﴿الصُّدْفَيْنِ﴾ بفتح الصاد

وشدها، وهي قراءة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعمر بن

عبد العزيز رضي الله عنه، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو:

﴿الصُّدْفَيْنِ﴾ بضم الصاد والدال، وهي قراءة مجاهد، والحسن، وقرأ

عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿الصُّدْفَيْنِ﴾ بضم الصاد وسكون

الدال، وهي قراءة أبي رجاء، وأبي عبد الرحمن السُّلَمي، وقرأ الماجشون

بفتح الصاد وضم الدال، وقرأ قتادة: ﴿بَيْنَ الصُّدْفَيْنِ﴾ بفتح الصاد وسكون

الدال. وكل ذلك بمعنى واحد، وهما الجانيان المتناوحيان، وقيل:

الصُّدْفَانِ: السطحان الأعلىان من الجبلين، وهذا نحو من الأول.

وقوله: ﴿قَالَ أَنْشُرُوا﴾ الآية، معناه أنه كان يأمر بوضع طاقة من الزُّبَيْرِ

والحجارة، ثم يوقد عليه حتى

تحمي، ثم يُؤْتَى بالنحاس المذاب أو بالرصاص أو بالحديد - بحسب الخلاف في «القَطْرُ» - فيفرغه على تلك الطاقة المنضدة، فإذا التأم واشتد استأنف رصف طاقة أخرى إلى أن استوى العمل، وقرأ بعض الصحابة: ﴿بِقَطْرِ أَنْرُغٍ عَلَيْهِ﴾.

وقال أكثر المفسرين: «القَطْرُ»: النحاس المذاب، ويؤيد هذا ما روي

عن رسول الله ﷺ، جاء رجل فقال: يا رسول الله، إني رأيت سُدَّ

يأجوج ومأجوج، قال: كيف رأيت؟ قال: رأيت كالْبُرْدِ الْمُحْبَّرِ، طريقة

صفراء، وطريقة حمراء، وطريقة سوداء، فقال رسول الله ﷺ: قد

رأيتَه. وقالت فرقة: «القَطْرُ»: الرصاص المذاب، وقالت فرقة:

«القَطْرُ»: الحديد الذائب. وهو مشتق من قَطَرَ يَقْطُرُ.

والضمير في قوله: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ ليأجوج ومأجوج. وقرأت فرقة:

﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾ بسكون السين وتخفيف الطاء، وقرأت فرقة بشد

الطاء، وفيها تكلف للجمع بين الساكنين. و«يَظْهَرُهُ» معناه: يَقْلُوهُ

بصعود فيه، ومنه قوله في الموطأ: «والشَّمْسُ فِي حُجْرَتِهَا قَبِيلُ أَنْ تَظْهَرُ». و«مَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا» لُبْدُ

عرضه وقوته، ولا سبيل سوى هذين، إما ارتقاء وإما نَقْبٌ. وروي

أن في طوله ما بين طرفي الجبلين مائة فرسخ وعرضه خمسون فرسخاً،

وَرُوي غير هذا مما لا ثبوت له فاخصرناه إذ لا غاية للتخرص،

وقوله في هذه الآية: ﴿أَنْشُرُوا﴾ أي بالأكوار، وقوله: ﴿اسْتَطَاعُوا﴾

بتخفيف الطاء على قراءة الجمهور، قيل: هي لغة بمعنى: استطاعوا،

وقيل: استطاعوا بعينه كثر في كلام العرب حتى حذف بعضهم منه التاء

فقال: اسْطَاعَ، وحذف بعضهم الطاء فقال: اسْتَاعَ يستيع، بمعنى استطاع

يستطيع، وهي لغة مشهورة. وقرأ حمزة وحده: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا﴾

بتشديد الطاء، وهي قراءة ضعيفة الوجه. قال أبو علي: هي غير

جائزة، وقرأ الأعمش: ﴿فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾ بالتاء في الموضعين.

قوله تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي﴾ الآية. القائل هو ذو القرنين، وأشار

بهذا إلى الردم والقوة عليه والانتفاع به، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿هَلِيهِ

رَحْمَةٌ﴾. و«الْوَعْدُ» يحتمل أن يريد به يوم القيامة، ويحتمل أن يريد به

وقت خروج يأجوج ومأجوج. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن

عامر: ﴿دَكَاةً﴾ مصدر دَكَ يَدُكُ إِذَا هدم ورض، وقرأ عاصم، وحمزة،

والكسائي: ﴿دَكَّةً﴾ بالمد، وهذا على التشبيه بالناقة الدكاء، وهي التي

لا سنام لها، وفي الكلام حذف تقديره: جعله مثل دكء، وأما

النصب في ﴿دَكَّةً﴾ فيحتمل أن يكون مفعولاً ثانياً بـ ﴿جَمَلٌ﴾،

ويحتمل أن يكون ﴿جَمَلٌ﴾ بمعنى خَلَقَ وينصب ﴿دَكَّةً﴾ على الحال، وكذلك أيضاً النصب في

قراءة من مدَّ يحتمل الوجهين.

والضمير في ﴿تَرَكْنَا﴾ لله تعالى، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يريد به

يوم القيامة لأنه قد تقدم ضميره،

فالضمير في قوله: ﴿بَتَّعْتُهُمْ﴾ - على ذلك - لجميع الناس، ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم كمال السُدِّ، فالضمير في قوله: ﴿بَتَّعْتُهُمْ﴾ ليأجوج ومأجوج، واستعارة «المَوْج» لهم عبارة عن الحَيَزة وَتَرَدَّد بعضهم في بعض كالوالهين من هم وخوف، فَشَبَّهَهُمْ بموج البحر الذي يضطرب بعضه في بعض.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّعْ فِي الصُّورِ﴾ الآية. المعنى به يوم القيامة، فلا احتمال لغيره، فَمَنْ تَأوَّل الآية كُلَّهَا في يوم القيامة اتَّسَق تَأويله، ومن تَأوَّل الآية إلى قوله: ﴿يَبْعُجُ فِي بَعْرٍ﴾ في أمر يأجوج ومأجوج تَأوَّل القول: «وتركناهم يمجرون» دأباً على مَرِّ الدهر وتناسل القرون بينهم وقيامهم، ثم نفخ في الصُّور فيجتمعون. و«الصُّورُ» في قول الجمهور وظاهر الأحاديث الصحاح هو القرن الذي ينفخ فيه للقيامة، وفي الحديث: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقط القرن وحتى الجبهة وأصغى بالأذن متى يؤمر»، فسق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فقال: «قولوا: حسينا الله، وعلى الله توكلنا، ولو اجتمع أهل منى ما أجلوا ذلك القرن» وأما النسخات فأسند الطبري رحمه الله إلى أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «الصُّور قرن عظيم ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى نفخة الفزع، والثانية نفخة الصعق، والثالثة نفخة القيام»، وقال بعض الناس: النسخات اثنتان: نفخة الفزع وهي نفخة

الصعق، ثم الأخرى التي هي للقيام. ومَلَك الصُّور هو إسرئيل عليه السلام. وقالت فرقة: الصُّور جمع صورة، فكأنه أراد صور البشر والحيوان نفخ فيه الروح. والأول أبين وأكثر في الشريعة.

وقوله: ﴿وَعَرَّضْنَا جَهَنَّمَ﴾ معناه: أبرزناها لهم لتجمعهم وتحطمهم، ثم أكد بالمصدر عبارة عن شدة الحال، وروى الطبري في هذا حديثاً مضمناً أن النار ترفع لليهود والنصارى كأنها السراب، فيقال لهم: هل لكم في الماء حاجة؟ فيقولون: نعم، ونحو هذا مما لا صحة له.

﴿١٠١﴾ - ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿أَعْيَنَهُمْ﴾ كناية عن البصائر؛ لأن عين الجارحة لا نسبة بينها وبين الذُّكْر، والمعنى: الذين فكَّروهم بينها وبين ذكَّري والنُّظَرِ في شرعي حجابٍ وعليها غطاء، ثم قال: إنهم كانوا لا يستطيعون سماعاً، يريد: لإعراضهم وبنفاهم عن دعوة الحق.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ﴾ بكسر السين، بمعنى: أظنوا، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن البصري، وابن يَغمَر، ومجاهد، وابن كثير - بخلاف عنه - ﴿أَفَحَسِبُ الَّذِينَ﴾ بسكون السين وضم الباء، بمعنى: أكافيههم ومنتهى غرضهم؟ وفي مصحف ابن مسعود: ﴿أَنْظَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، وهذه حجة لقراءة الجمهور. وقال جمهور المفسرين: يريد كل من عبَّد من دون الله تبارك

وتعالى، كالملائكة، وعزَّير، وعيسى، فيدخل في ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بعض العرب واليهود والنصارى، والمعنى: إن ذلك ليس كظنهم، بل ليس لهم من الولاية هؤلاء المذكورين شيء، ولا يجدون عندهم متنعاً.

و ﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: يسرنا، و«التُّرُلُ»: موضع النزول، و«التُّرُلُ» أيضاً: ما يُقَدَّم للضيف والقادم من الطعام عند نزوله، ويحتمل أن يراد بالآية هذا المعنى، إن المُعَدَّ لهم بدل التُّرُل جهنم، كما قال الشاعر:

.....
تَحِيَّةً بَيْنَهُمْ ضَرَبَتْ وَجِيحُ
ثم قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ الآية. المعنى: قل لهؤلاء الكفرة - على جهة التوبيخ - : هل نخبركم بالذين خسر عملهم وضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا، وهم - مع ذلك - يظنون أنهم يحسنون فيما يصنعون؟ فإذا طلبوا ذلك فقل لهم: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ كَفَرُوا يَأْتِيَتْ رَبِّهِمْ لِقَائِهِمْ حَمِلَتْ أَعْمَالَهُمْ فَلَا يُنَبِّئُهُمْ لَمَّ يَوْمَ يَلِينَهُمْ رَبُّنَا﴾. وقرأ ابن وثاب: ﴿قُلْ سَنُنَبِّئُكُمْ﴾، وهذه صفة المخاطبين من كفار العرب المكذبين بالبعث، و«حَمِلَتْ» معناه: بطلت، و«أَعْمَالَهُمْ» يريد: ما كان لهم من عمل خير، وقوله تعالى: ﴿فَلَا يُنَبِّئُهُمْ لَمَّ يَوْمَ يَلِينَهُمْ رَبُّنَا﴾ يحتمل أنه لا حسنة لهم توزن في موازين القيامة، ومن لا حسنة له فهو في النار لا محالة، ويحتمل أن يريد المجاز والاستعارة كأنه يقول: لا قدر لهم عندنا يومئذ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا معنى الآية عندي، وروى أبو هريرة أن النبي ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالْأَكُولِ الشُّرُوبِ الطَّوِيلِ فَلَا يَزِنُ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ»، ثم قرأ: «فَلَا يُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا»، وقالت فرقة: إن الاستفهام تَمَّ في قوله تعالى: «أَعْتَلًا»، ثم قال: هم الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا، فقال: سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: هم عبادة اليهود والنصارى وأهل الصوامع والديارات، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هم الخوارج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إن صحَّ عنه فهو على جهة مثال فيمن ضلَّ سعيه في الحياة الدنيا وهو يحسب أنه محسن. وروى أن ابن الكواء سأله عن «الأخسرين أعمالاً» فقال له: أنت وأصحابك، ويضعف هذا كله قوله تبارك وتعالى بعد ذلك: «أَتْلَيْتَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَيَّاتٍ رَبَّهُمْ وَقَالُوا بَلَقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا هَذِهِ صَفَةٌ مُشْرِكِي عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ، فَاتَّجِهْ بِهَذَا مَا قَلْنَا أَوْلَى، وَعَلِيِّ وَسَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا ذَكَرَا قَوْمًا أَخَذُوا بِحِظْلِهِمْ مِنْ صَدْرِ الْآيَةِ. وقوله: «أَعْتَلًا» نصب على التمييز، وقرأ الجمهور: «عَطَلَتْ» بكسر الباء، وقرأ ابن عباس، وأبو السَّمَّالِ: «فَحَبَطَتْ» بفتح الباء، وقرأ كعب بن عُجْرَةَ، والحسن، وأبو عمرو، ونافع، والناس: «فَلَا

نُقِيمُ» بنون العظمة، وقرأ مجاهد: «فَلَا يُقِيمُ» بياء الغائب، يريد: فلا يقيم الله عزَّ وجلَّ، وقرأ عبید بن عمير: «فَلَا يَقُومُ»، ويلزمه أن يقرأ: (وَزَنًا)، وكذلك قرأ مجاهد: «فَلَا يَقُومُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزَنًا».

وقوله تعالى: «ذَلِكَ» إشارة إلى ترك إقامة الوزن، و«جَزَأْتُمْ» خبر الابتداء في قوله: «ذَلِكَ»، وقوله: «جَهَنَّمَ» بدل منه، و«مَا» في قوله: «بِمَا كَفَرْتُمْ» مصدرية. و«الهُزَّة»: الاستخفاف والسخرية.

(١١٧) - (١١٨) تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

لما فرغ من ذكره الكفرة والأخسرين أعمالاً عقب بذكر حالة المؤمنين ليظهر التباين، وفي هذا بعث النفوس على أتباع الحسن القويم.

واختلف المفسرون في «الْفِرْدَوْسِ» - فقال قتادة: إنه أعلى الجنة وربوتها، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: إنه جبل تتفجر منه أنهار الجنة، وقال أبو أمامة: إنه سُرَّةُ الجنة ووسطها، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه يتفجر منه أنهار الجنة، وقال عبدالله بن الحارث بن كعب: إنه جنات الكروم والأعناب خاصة من الثمار، وقاله كعب الأحبار، واستشهد قومٌ لذلك بقول أمية بن أبي الصلت:

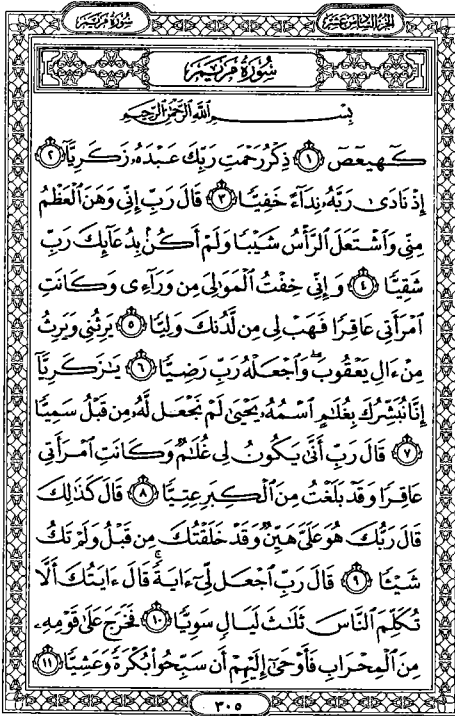
كَانَتْ مَنَارًا لَهُمْ إِذْ ذَاكَ ظَاهِرَةٌ
فِيهَا الْقَرَادِيسُ وَالْقَوْمَانُ وَالْبَصْلُ
وقال الزجاج: قيل: إن الفردوس سريانية، وقيل: رومية، ولم يسمع بالفردوس في كلام العرب إلا في بيت حسان بن ثابت:

وإن ثواب الله كسل مؤخر
جنان من الفردوس فيها يُخْلَدُ
وروي أن النبي ﷺ قال: «إذا سألت الله فاسأله الفردوس»، وقالت فرقة: الفردوس: البستان بالرومية. وهذا اقتضاب القول في «الْفِرْدَوْسِ» ويعون ما قيل فيه.

وقوله تعالى: «تَزَلَّجَ» يحتمل الوجهين اللذين قدمناهما قبل. و«الجَوْلُ» بمعنى: التحول. وقال مجاهد: مُتَحَوِّلاً، ومنه قول الشاعر:

لِكُلِّ ذَوْلَةٍ أَجْلٌ
ثُمَّ يُتَّحَ لَهَا جَوْلٌ
وكانه اسم جمع، وكان هذا واحد جواله، وفي هذا نظر. وقال الزجاج عن قوم: هو بمعنى الجيلة في الشغل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف متكلف. وأما قوله تعالى: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا» الآية، فروي أن سبب الآية أن اليهود قالت للنبي ﷺ: كيف تزعم أنك نبيُّ الأمم كلها ومبعوث إليها، وأنتك أعطيت ما يحتاجه الناس من العلم، وأنت مُقَصَّرٌ قد سُئِلَتْ في الروح ولم تجب فيه، ونحو هذا من القول، فنزلت الآية مُغْلَمَةً باتساع معلومات الله عزَّ وجلَّ، وأنها غير متناهية، وأن الوقوف دونها ليس ببدع ولا نكبر، فعبر عن هذا بتمثيل ما يستكثرونه وهو قوله: «قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلَّمْتُ رَبِّي». و«الْكَلِمَاتُ» هي المعاني القائمة بالنفوس، وهي المعلومات، ومعلومات الله سبحانه



بالخوف كان المعنى تأمناً على جهة التخويف والتحذير، وإذا عبّر بالرجاء فعلى جهة الإطعام ونسب النفوس إلى إحسان الله سبحانه وتعالى. أي: من كان يرجو النعيم المؤبد من ربه فليعمل عملاً صالحاً، وباقى الآية بين في الشرك بالله تبارك وتعالى. وقال سعيد بن جبيرة في تفسيرها: لا يراني في عمله، وقد زوي حديث أنها نزلت في الرباء حين سئل رسول الله ﷺ عن من يجاهد ويحمده الناس.

وقال معاوية بن أبي سفيان: هذه آخر آية نزلت من القرآن. كمل تفسير سورة الكهف، والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة مريم

هذه السورة مكيّة بإجماع، إلا السجدة منها، فقالت فرقة: هي مكيّة، وقالت فرقة: هي مدنية. ① - ② تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في الحروف التي في أوائل السور على قولين: فقالت فرقة: هي سر الله تبارك وتعالى في القرآن، لا ينبغي أن يُعرض له، يؤمن بظاهره ويترك باطنه. وقال

وتعالى لا تتناهي، والبحر متناه ضرورة.

وقرأ الجمهور: ﴿تَنْفَذَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ عمرو بن عبيد: ﴿يَنْفَذَ﴾ بالياء، وقرأ عبدالله بن مسعود، وطلحة بن مصرف: ﴿قَبْلَ أَنْ تَقْضَى﴾ كلمات ربي.

وقوله: ﴿يَدَاكَ﴾ أي: زيادة، وقرأ الجمهور: ﴿مِدَادًا﴾، وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، والأعمش، ومجاهد، والأعرج: ﴿مِدَادًا﴾ فالمعنى: لو كان البحر مِدَادًا تكتب به معلومات الله عز وجل لنفذ قبل أن يستوفيهما، وكذلك إلى ما شئت من العدد؛ لأن ما لا يتناهي أكثر منه، فليس يبدع أن أجهل شيئاً من معلوماته تعالى، وإنما أنا بشر مثلكم لم أعط إلا ما أوحى إليّ وكُشف لي. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يَنْفَذَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الباقر بالتاء من فوق.

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ الآية. المعنى: إنما أنا بشر ينتهي علمي إلى حيث يوحى إليّ، ومهمّ ما يوحى إليّ إنما إلهكم إله واحد، وكان كفرهم بعبادة الأصنام فلذلك خصص هذا الفصل مما أوحى إليه، ثم أخذ في الموعظة والوصايا البيّنة الرشد. ﴿رَبِّحُوا﴾ على بابها، وقالت فرقة: ﴿رَبِّحُوا﴾: يخاف، وقد تقدم القول في هذا إذ المقصد: ممن كان يؤمن ببقاء ربه، وكل مؤمن ببقاء ربه فلا محالة أنه بحالتي خوف ورجاء، فلو عبّر

الجمهور: بل ينبغي أن يتكلّم فيها وتطلب معانيها؛ فإن العرب قد تأتي بالحرف الواحد دالاً على كلمة، وليس في كتاب الله تبارك وتعالى ما لا يفهم، ثم اختلف هذا الجمهور على أقوال قد استوفينا ذكرها في سورة البقرة، ونذكر الآن ما يختص بهذه السورة.

قال ابن عباس، وابن جبيرة، والضحاك: هي حروف دالة على أسماء من أسماء الله عز وجل، الكاف من (كبير)، وقال ابن جبيرة أيضاً: هي من (كاف)، وقال أيضاً: هي من (كريم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فمقتضى أقواله أنها دالة على اسم فيه كاف من أسماء الله تبارك وتعالى. قالوا: والهاء من (هاد)، والياء من (علي)، وقيل: من (حكيم)، وقال

الربيع بن أنس: هي من: «يا من يُجير ولا يُجازُ عليه». قال ابن عباس رضي الله عنهما: والعين من (عزيز)، وقيل: من (عليم)، وقيل: من (عدل)، والصاد من (صادق). وقال قتادة: بل ﴿كَهَيْصَ﴾ بجملته اسم السورة، وقالت فرقة: بل هي اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان يقول: «يا كَهَيْصَ اغفر لي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا يحتمل أن تكون الجملة اسماً من أسماء الله تعالى، ويحتمل أن يريد علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينادي الله تعالى بجميع الأسماء التي تضمَّنها ﴿كَهَيْصَ﴾، كأنه أراد أن يقول: يا كريم يا هادي يا علي يا عزيز يا صادق اغفر لي، فجمع هذا كله باختصار في قوله: «يا كَهَيْصَ». وقال ابن المستنير وغيره: ﴿كَهَيْصَ﴾ عبارة عن حروف المعجم، ونسبه الزجاج إلى أكثر هذه اللغات، أي: هذه الحروف من ذكُرَ رحمة ربك عبده زكرياً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا يتركب قول من يقول: ارتفع ﴿ذَكَرَ﴾ بأنه خبر عن ﴿كَهَيْصَ﴾، وهي حروف تهج يوقف عليه بالسكون.

وقرأ الجميع: ﴿كَافٍ﴾ بإثبات الألف والفاء، وقرأ نافع: ﴿الهاء والياء﴾ بين الكسر والفتح، ولا تدغم الدال في الذال، وقرأ ابن

كثير، ونافع أيضاً بفتح الهاء والياء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضم الهاء وفتح الياء، وقد روي عنه بضم الياء، وروي عنه أنه قرأ: ﴿كَافٍ﴾ بضم الفاء، قال أبو عمرو الداني: معنى الضم في الهاء والياء إشباع التفخيم، وليس بالضم الخالص الذي يوجب القلب. وقرأ أبو عمرو بكسر الهاء وفتح الياء، وقرأ عاصم بكسرهما، وقرأ فرقة بإظهار النون من ﴿عَمِينَ﴾، وهي قراءة حفص عن عاصم، وهو القياس؛ إذ هي حروف منفصلة، وقرأ الجميع: ﴿عَمِينَ﴾ بإخفاء النون، جعلوها في حكم الاتصال، وقرأ الأكثر بإظهار الدال من (صاد)، وقرأ أبو عمرو بإدغامه في الذال من قوله: ﴿ذَكَرَ﴾، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإظهار هذه الحروف كلها وتخليص بعضها من بعض.

وارتفع قوله: ﴿ذَكَرَ﴾ - فيما قالت فرقة - بقوله: ﴿كَهَيْصَ﴾، وقد تقدم وجه ذلك. وقالت فرقة: ارتفع على خير مبتدأً تقديره: هذا ذكر. وقالت فرقة: ارتفع بالابتداء والخبر مُقَدَّرٌ، تقديره: «فيما أوحى إليك ذكرك»، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن يَعمَرَ: ﴿ذَكَرَ رَحْمَةَ رَبِّكَ﴾، بفتح الذال والكاف [المشددة] والراء، على معنى: هذا المثلُّ ذَكَرَ رحمة ربك عبده، ومن قال: «في الكلام تقديم وتأخير» فقد تعسف. وقرأ الجمهور: ﴿ذَكَرِيَاءَ﴾ بالمد، وقرأ الأعمش، ويحيى، وطلحة: ﴿ذَكَرِيَاءَ﴾ بالقصر، وهما لغتان، وفيه لغات غيرهما.

وقوله تعالى: ﴿نَادَى﴾ معناه: بالدعاء والرغبة. واختلف في معنى إخفائه هذا النداء - فقال ابن جريج: ذلك لأن الأعمال الخفية أفضل وأبعد من الرياء، ومنه قول النبي ﷺ: «خَيْرُ الذُّكْرِ الْخَفِيُّ»، وقال غيره: يستحب الإخفاء بين العبد ومولاه في الدعاء الذي هو في معنى القبول والمغفرة، لأنه يدل من الإنسان على أنه خير، فإخفاؤه أبعد من الرياء، وأما دعاء زكريا وطلبه فكان في أمر دنيا وهو طلب الولد فإنما أخفاه لئلا يلومه الناس في ذلك، وليكون على أوَّل أمره، إن أُجيب نال بُغيته، وإن لم يُجِبْ لم يعرف أحد بذلك. ويقال: وصف بالخفاء لأنه كان في جوف الليل.

و ﴿وَهَنَ﴾ معناه: ضَعُفَ، والوَهْنُ في الشخص والأمر: الضَعْفُ. وقرأ الأعمش: ﴿وَهِنَ﴾ بكسر الهاء. و ﴿وَأَشْتَعَلَ﴾ مستعارٌ للشيب من اشتعال النار، على التشبيه به، و ﴿سَيِّئًا﴾ نصب على المصدر في قول من رأى ﴿وَأَشْتَعَلَ﴾ في معنى شَابَ، وعلى التمييز في قول من لا يرى ذلك، بل رآه فعلاً آخر، فالأمر عنده كقولهم: امتلأت غيظاً.

وقوله: ﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ شُكِرَ الله تعالى على سالف أياديه عنده، معناه: قد أحسنت إليّ فيما سلف، وسعدت بدعائي إياك، فالإنعام يقتضي أن يشفع آخره أوله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي﴾ الآية. اختلف الناس في المعنى الذي من أجله خاف الموالي - فقال ابن عامر، ومجاهد، وقتادة،

وأبو صالح: خاف أن يرثوا ماله وأن ترثه الكلاله، فأشفق من ذلك، وروى قتادة، والحسن عن النبي ﷺ أنه قال: «يرحم الله أخي زكريا، ما كان عليه بمن يرث ماله»، وقالت فرقة: إنما كان مواليه مهملين للدين، فخاف بموته أن يضيع الدين فطلب ولياً يقوم بالدين بعده، حكى هذا القول الزجاج، وفيه أنه لا يجوز أن يسأل زكريا من يرث ماله إذ الأبياء لا تورث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يؤيده قول النبي ﷺ: «إننا معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة»، ويؤيده ذكر العاقِر، والأكثر من المفسرين على أنه أراد وراثه المال، ويحتمل قول النبي ﷺ: «إننا معشر الأنبياء لا نورث» ألا يريد به العموم، بل على أنه غالب أمرهم، فتأمل. والأظهر الأئيق بزكريا عليه السلام أنه يريد وراثه العلم والدين، فتكون الوراثة مستعارة، ألا ترى أنه إنما طلب ولياً ولم يخصص ولداً فبلغه الله أمله على أكمل الوجوه؟ وقال أبو صالح وغيره: قوله: «يرثي» يريد المال، وقوله: «ويرث من آل يعقوب» يريد به العلم والنبوة، وقال السدي: رغب زكريا في الولد.

و «خفت» من الخوف، وهي قراءة الجمهور، وعليه هو هذا التفسير، وقرأ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وزيد بن ثابت، وابن عباس، وسعيد بن العاص، وابن يَعمَر، وابن جُبَيْر، وعلي بن الحسين، وغيرهم: «خفت» بفتح

الخاءِ وفتح الفاءِ وشدّها وكسر التاءِ، وعلى إسناد الفعل إلى «المولّي»، والمعنى - على هذا - انقطع أوليائي وماتوا، وعلى هذه القراءة فإنما طلب ولياً يقوم بالدين. و«المولّي»: بنو العمّ والقراة الذين يُلون بالنسب. وقوله: «ومن وآلهي» أي: من بغدي في الزمن، فهم الوراثة على ما بيّناه في سورة الكهف، وقال أبو عبيدة في هذه الآية: أي من بين يدي ومن أمامي، وهذا قلة تحريير. وقرأ ابن كثير: «ومن وآلهي» بالمدّ والهمز وفتح الياء، وقرأ أيضاً ابن كثير: «ومن وآلهي» بالياء المفتوحة مثل (عصاي)، والباقون همزوا ومدّوا وسكنوا الياء.

و «العاقِر» من النساء التي لا تلد من غير كبر، وكذلك العاقِر من الرجال، ومنه قول عامر بن الطفيل: لَيْسَ الْفَتَى إِنْ كُنْتُ أَعْوَزَ عَاقِرًا جَبَانًا فَمَا عُدْرِي لَدَى كُلِّ مَحْضَرٍ؟ وزكريا عليه السلام لما رأى من حاله إنما طلب ولياً، ولم يصرح [بالولد] يُغد ذلك بسبب المرأة، ثم وصف الولي بالصفة التي هي قصده، وهي أن يكون وارثاً، وقالت فرقة: بل طلب الولد، ثم طلب أن تكون الإجابة في أن يعيش حتى يرثه، تحفظاً من أن تقع الإجابة في الولد ثم يُخترم فلا يتحصل منه الغرض المقصود.

وقرأ الجمهور: «يرثي ويرث» برفع الفعلين على معنى الصفة للولي، وقرأ أبو عمرو، والكسائي: «يرثني ويرث» بجزم الفعلين، وهذا على

مذهب سيبويه ليس هو جواب «هب»، إنما تقديره: إن تهبه يرثني، والأول أصوب في المعنى؛ لأنه طلب وارثاً موصوفاً، ويضعف الجزم أنه ليس كل موهوب يرث. وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما، وغيرهما: «يرثني وارث من آل يعقوب»، قال أبو الفتح: وهذا معناه التجريد، والتقدير: يرثني منه أو به وارث، قرأ مجاهد: «يرثني أو يرث» على التصغير، وقوله تعالى: «ومن آل يعقوب» يريد: يرث منهم الحكمة والعلم والنبوة، والميراث في هذا كله استعارة. و«رَضِي» معناه: مَرَضِي، فهو فاعل بمعنى مفعول.

٧ - ٨ تفسير قوله عز وجل: المعنى: قيل له بآثر دعائه: إننا نَشْرِكُ بَغْلَامٍ يُولَدُ لَكَ اسْمُهُ يَحْيَى، وقرأ الجمهور: «نَبَشْرَكَ» بفتح الباء وكسر الشين مشددة، وقرأ أصحاب ابن مسعود: «نَبَشْرَكَ» بسكون الباء وضم الشين.

قال قتادة: سُمِّي يحيى لأن الله تعالى أحياه بالنبوة والإيمان؛ وقال بعضهم: سُمِّي لأن الله أحياه به الناس بالتدين، وقوله: «سَيِّئًا» معناه في اللغة: لم نجعل له مشاركاً في هذا الاسم، أي: لم يسَم قبل بيحيى، وهذا قول قتادة، وابن عباس، وابن أسلم، والسدي، وقال مجاهد وغيره: «سَيِّئًا» معناه: مثلاً ونظيراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كأنه من المسامة والسُمُو، وفي هذا بُغْد؛ لأنه لا يفضل على

إبراهيم وموسى عليهما السلام إلا أن يفضل في السؤدد والحصر وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: لم تلد العواقر مثله.

وقول زكريا: ﴿أَنْ يَكُونُ لِي عِلْمٌ﴾: ﴿أَنْ يَكُونُ لِي عِلْمٌ﴾: اختلف الناس فيه فقالت فرقة: إنما طلب الولي دون تخصيص ولد، فلما بُشِّر بالولد استفهم عن طريقه مع هذه الموانع منه، وقالت فرقة: إنما كان طلب الولد وهو بحال يوجد الولد فيها بزواج غير العاقر، أو بُشِّر ولم تقع إجابته إلا بعد مدة طويلة صار فيها إلى حال من لا يولد له، فحينئذ استفهم وأخبر عن نفسه بالكبير والعُتُو فيه، وقالت فرقة: بل طلب الولد فلما بُشِّر به لحين الدعوة استفهم على جهة السؤال لا على جهة الشك. كيف طريق الوصول إلى هذا؟ وكيف نفذ القدر به؟ لا أنه بعد عنده هذا في قدرة الله.

والعَيْتِيُّ والعَيْبِيُّ: المبالغة في الكبير وينسب العود أو شيب الرأس ونحو هذا، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿عَيْتِيًّا﴾ بكسر العين، والباقون بضمها، وقرأ ابن مسعود: ﴿عَيْتِيًّا﴾ بفتح العين، وحكى أبو حاتم أن ابن مسعود قرأ: ﴿عَيْبِيًّا﴾ بضم العين وبالسین، وحكاها الداني عن ابن عباس أيضاً، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: لا أدري، أكان رسول الله ﷺ يقرأ في الظهر والعصر، ولا أدري أكان يقرأ: ﴿عَيْبِيًّا﴾ أو ﴿عَيْبِيًّا﴾ بالسین، وحكى الطبري عن السدي أنه قال: نادى جبريل زكريا «إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ

أَسْمُهُ يَخِيءُ»، فلقية الشيطان فقال له: إن ذلك الصوت لم يكن لِمَلَكٍ وإنما كان لشیطان، فحينئذ قال زكريا: ﴿أَنْ يَكُونُ لِي عِلْمٌ﴾؟ لِيَتَّبِعَتْ أَنْ ذَلِكَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وزكريا هو من ذرية هارون عليه السلام، وقال قتادة: جرى له هذا الأمر وهو ابن بضع وسبعين سنة، وقيل: ابن سبعين، وقال الزجاج: ابن خمس وستين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فقد كان غلب على ظنه ألا يولد له.

وقوله: ﴿قَالَ كَذَلِكَ﴾، قيل: إن المعنى: قال له المَلَكُ: كذلك فليكن الوجود، كما قيل لك: قال رَبُّكَ: خَلَقَ الْعُلَامَ عَلِيَّ هَيْئًا، أَي: غَيْرُ بَدْعٍ، وكما خلقتك قبل وأخرجتك من عدم إلى وجود كذلك أفعل الآن. وقال الطبري: معنى قوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي: الأمران اللذان ذكرت من المرأة العاقر والكبير هو كذلك ولكن قال ربك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى عندي: قال الملك كذلك، أي: على هذه الحال قال ربك هو عليَّ هَيْئًا.

وقرأ الجمهور: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿وَقَدْ خَلَقْنَاكَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَنَمَكِّتَنَّكَ﴾، أي: موجوداً. قال زكريا: ﴿رَبِّ أَعْجَلْ لِي آيَةً﴾، أي: علامة أعرف بها صِحَّة هذا وكونه من عندك، وروي أن زكريا عليه السلام لما عَرَفَ ثُمَّ طَلَبَ الْآيَةَ بعد ذلك عاقبه الله بأن أصابه بذلك السكوت

عن كلام الناس، وذلك وإن لم يكن عن مرض - خرس أو نحوه - ففيه على كل حال عقاب ما، وروي عن ابن زَيْدٍ أن زكريا عليه السلام لما حملت زوجته منه بيحيى أصبح لا يستطيع أن يكلم أحداً، وهو مع ذلك يقرأ التوراة، ويذكر الله، فإذا أراد مناداة أحد لم يُطْفِئ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل مع هذا أن يكون قوله: ﴿أَعْجَلْ لِي آيَةً﴾ معناه: علامة أعرف بها أن الحمل قد وقع، وبذلك فسّر الزجاج.

ومعنى قوله: ﴿سَوِيًّا﴾ فيما قال الجمهور: صحيحاً من غير علة ولا خَرَسٍ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - أيضاً: ذلك عائد على الليالي، أراد: كاملاتٍ مستوياتٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ﴾ المعنى أن الله تعالى أظهر الآية بأن خرج زكريا من محرابه وهو موضع الصلاة، والمخرابُ: أرفع المواضع والمباني؛ إذ هي تحارب من نواها، ثم خص بهذا الاسم مبنى الصلاة، وكانوا يتخذونها فيما ارتفع من الأرض، واختلف الناس في اشتقاقه - فقالت فرقة: هو مأخوذ من الحَرْبِ، كأن مُلَاذِمَهُ يحارب الشيطان والشهوات، وقالت فرقة: هو مأخوذ من الحَرْبِ - بفتح الراء -، كأن مُلَاذِمَهُ يلقى فيه حرباً وتعباً ونصباً، وفي اللفظ بعد هذا نظر.

وقوله: ﴿فَأَرْحَى﴾، قال قتادة، وابن منبه: كان ذلك بإشارة، وقال مجاهد: بل بأن كتبه في التراب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكلا القولين وحي. وقوله: ﴿أَنْ سَيِّحُوا﴾، «أَنْ» مفسرة، بمعنى أي، و«سَيِّحُوا» قال قتادة: معناه: صلوا، والسيحة: الصلاة، وقالت فرقة: بل أمرهم بذكر الله وقول: سبحان الله. وقرأ طلحة: ﴿أَنْ سَيِّحُوهُ﴾ بضمير، وباقي الآية بين.

المعنى: «فَوَلَدَ لَهُ»، وقال الله للمولود: يا يحيى. وهذا اختصار ما يدل الكلام عليه. و«الكتاب»: التوراة بلا خلاف؛ لأنه ولد قبل عيسى عليه السلام ولم يكن الإنجيل موجوداً عند الناس، وقوله: ﴿يَعْقُوبُ﴾، أي: العلم به، والحفظ له، والعمل به، والالتزام للوازمه.

ثم أخبر الله تعالى فقال: ﴿وَأَيَّتَهُ الْمَلَأَكُمْ صَيِّبًا﴾، واختلف في «الحكم» - فقالت فرقة: الأحكام والمعرفة بها، و«صَيِّبًا» يريد: شاباً لم يبلغ حد الكهولة، وقال الحسن رحمه الله: الحُكْمُ: الثبوت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي لفظة (صَيِّبٍ) - على هذا - تجوز واستصحاب حال. وقالت فرقة: الحُكْمُ: الحكمة، وروى معمر في ذلك أن الصبيان دَعَوْهُ وهو طفل إلى اللعب فقال لهم: إني لم أخلق للعب، فتلك الحكمة التي آتاه الله عز وجل وهو صبي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: من قرأ القرآن قبل أن يحتلم فقد أوتي الحُكْمَ صيباً.

وقوله تعالى: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾ عطف على قوله: ﴿الْحُكْمُ﴾،

و«زَكَاةً» عطف عليه، أعمل في جميع ذلك «ءَاتَيْنَا»، ويجوز أن يكون «وَحَنَانًا» عطف على «صَيِّبًا»، أي: وبحال حنانٍ ما وتزكية له. و«الْحَنَانُ»: الرحمة والشفقة والمحبة، قاله جمهور المفسرين، وهو تفسير اللغة، وهو فعل من أفعال النفس، ويقال: حنانك وحنانك، قيل: هما لغتان بمعنى واحد، وقيل: حنانيك تشنية الحنان، وقال عطاء بن أبي رباح: ﴿وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا﴾: تعظيماً من لدنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والحنان في كلام العرب أيضاً ما عظم من الأمور في ذات الله، ومنه قول زيد بن عمرو بن نفيل في خبر بلال بن رباح رضي الله عنه: «والله لئن قتلتم هذا العبد لأتخذن فيه حناناً»، وقد روي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «والله ما أدري ما الحنان». و«الزكاة» التّطهير والتنمية في وجوه الخير والبر، و«التّقي» فعيل من تقوى الله عز وجل، وروي في تفسير هذه الآية من طريق عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «كل ابن آدم يأتي يوم القيامة وله ذنّب، إلا ما كان من يحيى بن زكريا صلوات الله عليه»، وقال قتادة رحمه الله: «إن يحيى بن زكريا

يَبِيحَى خُذِ الْكِتَابَ بِعُزْوِهِمْ إِنَّهُ لَمَلَكٌ صَيِّبًا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّنْ لَّدُنَّا وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾ وَسَلَّمْ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٥﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انبَدَتْ مِنْ أهلكها مكاناً شرقياً ﴿١٦﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنَّ ابْنُ سَوْءِئٍ مُّرْتَابٍ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ كَذَّابٌ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَهنا وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً وَمَنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢٠﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢١﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِوْعِ النَّحْلِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا ﴿٢٢﴾ فَوَدَّعْنَاهَا مِنْ حَمِيٍّ أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحَمُّلًا سَرِيًّا ﴿٢٣﴾ وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجِوْعِ النَّحْلِ تُسْقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَلِيًّا ﴿٢٤﴾

عليه السلام لم يعص الله قط بكبيرة ولا صغيرة ولا هم بامرأة، قال قتادة: وكان طعامه صلوات الله عليه العشب، وكان للدع في حذو مجارٍ ثابتة. ومن الشواهد في الحنان قول امرئ القيس:

ويمنحها بنو شَمَجِي بن جزم
معيّزهم، حنّانك ذا الحنّان
وقول النابغة:

أبا مُنْذِرٍ أَفْتَنَيْتَ فَاسْتَبَقِ بَعْضَنَا
حَنَانِيكَ بَعْضُ الشَّرِّ أَوْهَنُ مِنْ بَعْضِ
وقول الآخر:

فقالت: حنان ما أتى بك ها هنا؟
أذو نَسَبٍ أم أنت بالحي عارِف؟
قوله تعالى: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَوْ يَكُنْ جَبَّارًا عَصِيًّا﴾، «البر»: الكشير البر، والجبار: المتكبر، كأنه يجبر الناس على أخلاقه، والجبارة: النخلة العالية العظيمة، والعصية

أَصْلُهُ عَصُويٌّ، فعولٌ بمعنى فاعل، وروي أن يحيى عليه السلام لم يواقع مصعية صغيرة ولا كبيرة.

قوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَيْهِ﴾، قال الطبري وغيره: معناه: أمانٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي أنها التحية المتعارفة، فهي أشرف وأشبه من الأمان؛ لأن الأمان متحصل له فيبقى العصيان عنه، وهي أقلُّ درجاته، وإنما الشرف في أن سلم الله عليه وحيَّاه في المواطن التي الإنسان فيها في غاية الضعف والحاجة وقلة الحيلة والفقير إلى الله وعظيم الهول. وذكر الطبري عن الحسن رحمه الله أن عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا صلوات الله عليهما التقيَا، وهما أبناء الخالة، فقال يحيى لعيسى: ادع لي فأنت خير مني، فقال له عيسى: بل أنت ادع لي فأنت خير مني، سلم الله عليك وأنا سلمت على نفسي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال لي أبي رحمه الله: انتزع بعض العلماء من هذه الآية في التسليم فضل عيسى بأن قال: إذلاله في التسليم على نفسه ومكانته من الله تعالى التي اقتضت ذلك حين قرر وحكى في محكم التنزيل أعظم في المنزلة من أن يسلم عليه. ولكل وجه.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء قصة ليست من الأولى، والخطاب لمحمد ﷺ، و«الكتاب»: القرآن، و«مريم» ابنة عمران أم عيسى أخت أم يحيى. واختلف

الناس، لم انتبذت، والانتباز: التَّخِي - فقال السدي: انتبذت لتطهر من حيض، وقال غيره: لتعبد الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أحسن؛ وذلك أن مريم كانت وفقاً على سدانة المتعبد وخدمته والعبادة فيه، فتنحت عن الناس لذلك، وقوله: ﴿مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾ يريد جهة الشرق من مساكن أهلها، وسبب كونه في الشرق أنهم كانوا يُعَظِّمُونَ جهة الشرق من حيث تطلع الأنوار، وكانت الجهات الشرقية من كل شيء أفضل من سواها، حكاها الطبري رحمه الله. وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: إني لأعلم الناس لِمَ اتَّخَذَ النصارى المشرق قبلة؛ لِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِذْ أَنْبَأْتَ مِنَ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾، فاتخذوا ميلاد عيسى قبلة. وقال بعض الناس: الحجاب هي اتَّخَذَتْهُ لِتَسْتَتِرَ بِهِ عَنِ النَّاسِ لِعِبَادَتِهَا، وقال السدي: كان من جذران، وقيل: من ثياب، وقال بعض المفسرين: اتخذت المكان بشرفي المحراب.

و«الروح»: جبريل عليه السلام، وقيل: عيسى، حكى الزجاج القولين، فمن قال إنه جبريل قدر الكلام: فتمثل هو لها، ومن قال إنه عيسى قدر الكلام: فتمثل لها المَلَكُ. قال النقاش: ومن قرأ: ﴿رُوحًا﴾ بتشديد النون جعله اسم ملك من الملائكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم أر هذه القراءة لغيره.

واختلف الناس في نُبُوَّةِ مريم - فقيل: كانت نَبِيَّةً بهذا الإرسال

وبالمحاورة مع الملك، وقيل: لم تكن نبيَّةً، وإنما كلَّمَهَا مِثْلَ بَشَرٍ، ورُوِّيَتْهَا لِلْمَلَكِ كَمَا رُوِّيَ جَبْرِيلُ فِي صِفَةِ دَحِيَّةٍ، وَفِي سِوَالِهِ عَنِ الْإِيمَانِ وَالْإِسْلَامِ، وَالْأَوَّلُ أَظْهَرُ.

قوله تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ قَاتِلًا﴾، المعنى: قالت مريم للملك الذي تمثّل لها بشراً لِمَا رَأَتْهُ قَدْ خَرَقَ الْحِجَابَ الَّذِي اتَّخَذَتْهُ فَاسَاءَتْ بِهِ الظن، قالت: إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ ذَا تَقَى، قال أبو وائل: علمت أن التَّقِيَّ ذُو نُهْيَةٍ، وقال وهب بن منبه رضي الله عنه: تعنى اسم رجل فاجر كان في ذلك الزمان في قومها، فلما رأته مُتَسَوِّراً عليها ظننت إياه فاستعادت بالرحمن منه، حكى هذا مكِّي رحمه الله وغيره. وهو ضعيف ذاهب مع التَّخْرُصِ. قال لها جبريل عليه السلام: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ﴾، جعل الهبة من قبله لِمَا كان الإعلام بها من قبله.

وقرأ الجمهور: ﴿لَأَهَبَ لَكِ﴾ كما تقدم، وقرأ نافع، وأبو عمرو: ﴿لِيَهَبَ لَكِ﴾ بالياء، أي: ليهب لك الله، واختلف عن نافع رحمه الله، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿لِيَهَبَ اللهُ لَكَ﴾.

فلما سمعت مريم بذلك واستشعرت ما طرأ عليها، استفهمت عن طريقه، وهي لم يمسهما بشر بنكاح ولم تك زانية. و«البغي»: المجاهرة المشتهرة في الزنى، فهي طالبة له، أصله بئوي على وزن فعول كبتول، ولو كانت فعيلًا لقوي

أن تلحقها هاء التأنيث فيقال: بَيْعَةٌ.

(٢١) - (٢٣) تفسير قوله عز وجل:

قال لها المَلَكُ: كذلك هو كما وصفتِ، ولكن قال ربك، ويحتمل أن يريد: على هذه الحال قال ربك، والمعنى متقارب، و«الآيَةُ»: العبرة المعرضة للنظر، والضمير في قوله: ﴿رَبَّنَا عَلَّمَكُمَ﴾ للسلام، و«رَحْمَةً مِنَّا»، أي: طريق هُدَى لعالم كثير، فينالون الرحمة بذلك. ثم أعلمها بأن الأمر قد قضي وانتجز، و«الأمر» هنا واحد الأمور، وليس بمصدر: أَمَرَ يَأْمُرُ، وروي أن جبريل عليه السلام - حين قال لها هذه المقالة - نفخ في جيب دِرْعِهَا، فَسَرَتِ النَّفْخَةَ بِإِذْنِ اللَّهِ تَعَالَى حَتَّى حَمَلَتْ مِنْهَا، قاله وهب بن منبه وغيره. وقال ابن جُرَيْجٍ: نفخ في جيب دِرْعِهَا وكَفَّهَا، وقال أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه: دخل الرُّوحُ المنفوخ من فمها، فذلك قوله: ﴿فَحَمَلَتْهَا﴾، أي: فحملت الغلام.

ويُذكر أنها كانت بنت ثلاث عشرة سنة، فلما أَحَسَّتْ بذلك وخافت تعنيف الناس وأن يَظُنُّ بها البشر انتبذت به، أي: تَنَحَّتْ مكاناً بعيداً حياةً وفزارةً على وجهها، وروي في هذا أنها فَرَّتْ إلى بلاد مصر ونحوها، قاله وهب بن منبه، ويروي أيضاً أنها خرجت إلى موضع يعرف ببيت لحم، بينه وبين إيلياء أربعة أميال.

و «فَأَجَاءَهَا» معناها: اضطرها، و (أَجَاءَ) هو تعدية (جاء) بالهمزة، وقرأ شُبَيْلُ بْنُ عَزْرَةَ - ورويت عن عاصم -: «فَأَجَاءَهَا» من المفاجأة،

وفي مصحف أُبَيِّ بن كعب: ﴿فَلَمَّا

جَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾، وقال زهير:

وجارٍ سارٍ مُتَعَمِّداً إِلَيْكُمْ
أَجَاءَتْهُ الْمَخَافَةُ وَالرَّجَاءُ
وقرأ الجمهور: «الْمَخَاضُ» بفتح الميم، وقرأ ابن كثير - فيما روي عنه - بكسرها، وهو الطَّلُوعُ وشِدَّةُ الولادة وأوجاعها، وروي أنها بلغت إلى موضع كان فيه جذع نخلة بالِ يابسٍ في أصله مدود بقرة على جرية ماء، فاشتد بها الأمر هناك، واحتضنت الجذع لشدة الوجع، فولدت عيسى عليه السلام، وقالت عند ولادته - لما رأتها من الآلام والتغرب وإنكار قومها وصعوبة الحال من غير ما وَجَّهَ -: يا ليتني متُّ ولم ينجر عليّ هذا القَدْرُ.

وقرأ الحسن، وأبو جعفر، وشيبة، وعاصم، وأبو عمرو، وجماعة: ﴿مَتُّ﴾ بضم الميم، وقرأ الأعرج، وطلحة، ويحيى، والأعمش بكسرها، واختلف عن نافع. وتمنت مريم الموت من جهة الدين؛ إذ خافت أن يُظنَّ بها الشُّرُفُ في دينها، وتُعَيَّرَ فيفتنها ذلك، وعلى هذا الحدُّ تمناه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من الصالحين، ونَهَى النبي ﷺ عن تمنى الموت إنما هو لِضُرِّ نَزْلِ بِالْبَدَنِ، وقد أباحه ﷺ في قوله: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ يَمُرُّ الرَّجُلُ بِقَبْرِ الرَّجُلِ فيقول: يا ليتني مكانه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنه زمن يَتَنُّ تتصل بالدين.

وقالت: ﴿وَكُنْتُ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾، أي: شيئاً متروكاً محترقاً، والنَّسِيُّ

في كلام العرب: الشيءُ الحَقِيرُ الذي من شأنه أن يُنسى فلا يُتَأَلَّمُ لفقده كالوتد والحبل للمسافر ونحوه، يقال: نَسِيَ ونَسِيَ بفتح النون وكسرها، وقرأ الجمهور بالكسر، وقرأ حمزة وحده بالفتح، واختلف عن عاصم، وكقراءة حمزة قرأ طلحة، والأعمش، ويحيى، وقرأ محمد بن كعب القُرظي: «نَسِيًّا» بالهمز وكسر النون، وقرأ نوف البكالي: «نَسِيًّا» بفتح النون، وحكاه أبو الفتح، وأبو عمرو الداني عن محمد بن كعب القُرظي، وقرأ بكر بن حبيب: «نَسِيًّا» بشد السين وفتح النون دون همز، وقال الشُّفَرِيُّ:

كأن لها في الأرض نسيًّا تُقْضِيهِ
إذا ما عَدَّتْ وَإِنْ تُحَدِّثُكَ تَبَلَّتِ
وحكى الطبري رحمه الله في قصتها أنها لما حملت بعيسى حملت أيضاً أختها بيحيى، فجاءتها أختها زائرة فقالت: يا مريم، أشعرت أُنِي حملت؟ فقالت لها مريم: أشعرت أُنِي أنتِ أُنِي حملت؟ قالت لها: وأُنِي أجد ما في بطني يسجد لما في بطنك، وذلك أنه رُوي أنها أَحَسَّتْ جنينها يخرُّ برأسه إلى ناحية بطن مريم، قال السُّدِّيُّ: فذلك قوله تعالى: ﴿مَمْسُورًا بِكُمُورٍ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا كله ضعف، فتأمل. وكذلك ذكر الطبري في قصصها أنها خرجت فارةً مع رجل من بني إسرائيل يقال له يوسف النجار كان يخدم معها المسجد، وطول الطبري في ذلك فاخترته لضعفه، وهذه

وقرأ علقمة، وزر بن حبيش: ﴿فَخَاطَبَهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَنَادَاهَا مَلَكٌ مِنْ تَحْتِهَا﴾.

وقوله: ﴿أَلَا تَحْزَنُ﴾ تفسير للنداء، فـ [أَنْ] مفسرة بمعنى: أي، و«السري» من الرجال: العظيم الخصال السيد، و«السري» أيضاً: الجدول من الماء، وبحسب هذا اختلف الناس في هذه الآية - فقال قتادة، وابن زيد: أراد: جعل تحتك عظيماً من الرجال له شأن، وقال الجمهور: أشار لها إلى الجدول الذي كان قرب جذع النخلة، وزوي أن الحسن فسّر الآية فقال: أجل، لقد جعله الله سرياً كريماً، فقال حميد بن عبدالرحمن الحميري: يا أبا سعيد، إنما نعني بالسري الجدول، فقال: لهذه وأشباهها أحبّ قربك، ولكن غلبتنا عليك الأُمراء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن الشاهد في السري قول لبيد: فَتَوَسَّطَا عُرْضَ السَّرِيِّ وَصَدَعَا مَسْجُورَةً مُتَجَاوِرًا قُلَامُهَا ثم أمرها بهزّ الجذع اليابس لتري آية أخرى في إحياء موات الجذع، فقالت فرقة: كانت النخلة مطعمة رطباً، وقال السدي: كان الجذع مقطوعاً، وأجري تحتها النهر لحيته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من الآية أن عيسى هو المكلّم لها، وأن الجذع كان يابساً، وعلى هذا تكون آية تسليها وتسكن إليها، والباء في قوله: ﴿يَجْنَعُ﴾ زائدة مؤكدة، قال أبو علي: كما

ومجاهد، والجحدري، وجماعة: ﴿فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا﴾ على أن «من» فاعل بـ [نَادَى]، والمراد بـ «من» عيسى، أي: ناداه المولود، قاله مجاهد، والحسن، وابن جبير، وأبي بن كعب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد جبريل عليه السلام، ولم يتكلم عيسى حتى أتت به قومها، وقال علقمة، والضحاك، وقاتدة: ففي هذا آية لها وأماره أن هذا من الأمور الخارقة للعادة التي لله فيها مرادٌ عظيم،

لا سيما والمنادي عيسى، فإنه يبين به عذر مريم، ولا تبقى به استرابة، فذلك كان النداء ألا يقع حُزن.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والبراء بن عازب، والضحاك، وعمرو بن ميمون، وأهل المدينة، وأهل الكوفة، وعبدالله بن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً، والحسن: ﴿مِنْ تَحْتِهَا﴾ بكسر الميم على أنها لا ابتداء الغاية، واختلفوا - فقال بعضهم: هو عيسى عليه السلام، وقالت فرقة: المراد جبريل المجاور لها قبل، قالوا: وكان في بقعة من الأرض أخفض من البقعة التي كانت هي عليها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر، وعليه كان الحسن بن أبي الحسن يقسم.

كُلِّي وَأَمْرِي وَقَرِي عَيْتًا فَأَمَّا تَرِينِ مِنَ النَّشْرِ أَحَدًا فَقَوْلِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٢٤﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ فَأُلْوُوا بِنَمْرِيمَ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا قَرِيبًا ﴿٢٥﴾ تَأَخَّتْ هُذُرًا مَا كَانَ أَبُوكَ أَمْرًا سَوًّا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٢٦﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْأَمْعِدَانِ ﴿٢٧﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَنِي الْكَتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٢٨﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٢٩﴾ وَبِرَّآبَائِي وَإِلَىٰ جِبْرَائِيلَ إِسْقِيًّا ﴿٣٠﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣١﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٢﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٣﴾ وَإِنَّ لِلَّهِ مِنْ رُؤُوسِهِ قَاعًا مُدَوِّدًا هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٤﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَسْجِدِ يَوْمِ عِظِيمٍ ﴿٣٥﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٦﴾

٣٠٧

القصة تقتضي أنها حملت واستمرت حاملاً على عرف البشر، واستحيت من ذلك وفزت بسببه وهي حامل، وهو قول جمهور المتأولين، وروي عن عبدالله بن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ليس إلا أن حملت فوضعت في ساعة واحدة، والله أعلم. وظاهر قوله تعالى: ﴿فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ﴾ يقتضي أنها كانت على عرف النساء، وتظاهرت الروايات أنها ولدته لثمانية أشهر؛ ولذلك لا يعيish ابن ثمانية أشهر حفظاً لخاصية عيسى عليه السلام، وقيل: ولدته لسبعة أشهر، وقيل: لبيسة أشهر.

﴿٢٤﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر، وابن عباس، والحسن، وزر بن حبيش،

يقال: ألقى بيده، أي: ألقى يده.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وفي هذا المثال نظر، وأنشد الطبري
رحمه الله:

بِرَوَادِ يَمَانٍ يُثْبِتُ السُّدْرَ صَدْرُهُ
وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشَّبَهَانِ
وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
والكسائي، وأبو بكر عن عاصم،
والجمهور من الناس: ﴿تَسَاقَطُ﴾
بفتح التاء وشُدَّ السين، يريد النخلة
وقرأ البراء بن عازب رضي الله عنه،
والأعمش رحمه الله: ﴿يَسَاقَطُ﴾
يريد الجذع، وقرأ حمزة وحده:
﴿تَسَاقَطُ﴾ بفتح التاء وتخفيف
السين، وهي قراءة مسروق،
ويحيى بن وثاب، وطلحة بن
مصرف، وأبي عمرو - بخلاف -
وقرأت فرقة: ﴿يَسَاقَطُ﴾ بالياء على
ما تقدم من إرادة النخلة أو الجذع،
وقرأ عاصم - في رواية حفص -:
﴿تَسَقَطُ﴾ بضم التاء وفتح السين
وتخفيفها، وقرأ أبو حيو: ﴿يَسَقَطُ﴾
بضم الياء، وحكى أبو علي في
الحجة أنه قرئ: ﴿يَتَسَاقَطُ﴾ بياء
وتاء، وروي عن مسروق: ﴿تَسَقَطُ﴾
بضم التاء وكسر القاف، وكذلك عن
أبي حيو، وقرأ أبو حيو أيضاً:
﴿يَسَقَطُ﴾ بفتح الياء وضم القاف
﴿رُطِبَ جَنِيًّا﴾. ونصب ﴿رُطِبًا﴾
يختلف بحسب معاني القراءات
المذكورة، فمرة يستند الفعل إلى
الجذع، ومرة إلى الهز، ومرة إلى
النخلة، و﴿جَنِيًّا﴾ معناه: قد طاب
وصلح للاجتماع، وهو من جنيت
الثمرة، وقرأ طلحة بن سليمان:
﴿جَنِيًّا﴾ بكسر الجيم، وقال

عمرو بن ميمون: ما من شيء خير
للنفساء من التمر والرطب، وقال
محمد بن كعب: ﴿رُطِبًا﴾: عجوة.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
واستدل بعض الناس من هذه الآية
على أن الرزق وإن كان محتوماً
فإن الله تعالى قد وكل ابن آدم إلى
سعي ما فيه، لأنه أمر مريم بهز
الجذع لترى آية، وكانت الآية تكون
بالأ تهز.

وحكى الطبري عن ابن زيد أنه قال
لها عيسى: ﴿لَا تَحْزَنِي﴾، فقالت:
وكيف لا أحزن وأنت معي، لا ذات
زوج [فأقول من زوج، ولا مملوكة
فأقول من سيدي، أي شيء عذري
عند الناس؟] ﴿بَلَّتَنِي مِثْ قَلِّ هَذَا
وَكَعْنَتْ نَسِيًّا نَسِيًّا﴾، فقال لها
عيسى: أنا أكفيك الكلام].

قوله تعالى: ﴿كَلِمَاتٍ وَأَشْرَى وَقَرَى
عَيْنًا﴾ الآية. قرأ الجمهور:
﴿وَقَرَى﴾ بفتح القاف، وحكى
الطبري قراءة ﴿وَقَرَى﴾ بكسر
القاف، وقُرَّة العين مأخوذة من القَر،
وذلك أنه يحكى أن دمع الفرح بارد
ودمع الحزن سخن، وضعت فرقة
هذا وقالت: الدمع كله سخن، وإنما
معنى قُرَّة العين أن البكاء الذي
يسخن ارتفع، أي: لا حزن من
الأمر الذي قرت به العين، وقال
الشيباني: ﴿وَقَرَى عَيْنًا﴾ معناه:
نامي، حضها على الأكل والشرب
والنوم، وقوله: ﴿عَيْنًا﴾ نصب على
التمييز، والفعل في الحقيقة إنما هو
للعين، فنقل ذلك إلى ذي العين،
وينصب الذي كان فاعلاً في الحقيقة
على التفسير، ومثله: طبث نفساً،

وتفقت شحمًا، وتصببت عرقًا،
وهذا كثير.

وقرأ الجمهور: ﴿تَرَيْنَ﴾ وأصله:
(تَرَائِينَ)، حذفت النون للجزم، ثم
نقلت حركة الهمزة إلى الراء، ثم
قلبت الياء الأولى ألفاً لتحركها
وانفتاح ما قبلها، فاجتمع ساكنان،
الألف [المنقلبة عن الياء]، والياء،
فحذفت الألف فصار (تَرَيْنِ)، وعلى
هذا النحو قول الأفوه:

إِنَّا تَرَيْنِي رَأْسِي أَرْزَى بِسِ
البيت

ثم دخلت النون الثقيلة، وكسرت
الياء لاجتماع ساكنين منها ومن
النون، وإنما دخلت النون هنا
توطئة، كما توطئ لدخولها أيضاً
لام القسم. وقرأ أبو عمرو - فيما
رُوي عنه -: ﴿تَرَيْنِ﴾ بالهمزة، وقرأ
طلحة، وأبو جعفر، وشيبة:
﴿تَرَيْنِ﴾ بسكون الياء وفتح النون
خفيفة، قال أبو الفتح: «وهي
شاذة».

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى
أمرها - على لسان جبريل أو ابنها
عليهما السلام، على الخلاف
المتقدم - بأن تمسك عن مخاطبة
البشر، وتحيل على ابنها في ذلك،
ليرفع عنها خجلها وتبين الآية فيقوم
عُذرها، وظاهر الآية أنها أبيع لها أن
تقول هذه الكلمات التي في الآية،
وهو قول الجمهور، وقالت فرقة:
معنى ﴿فَقُولِي﴾ بالإشارة لا بالكلام،
وإلا كان التناقض بيناً في أمرها.

وقرأ ابن عباس، وأنس بن مالك:
﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ وَضَعْتُ﴾،
وقال قوم: معناه: صوماً عن

الكلام؛ إذ أصل الصيام الإمساك،
ومنه قول الشاعر:
خَيْلٌ صِيَامٌ ...

وقال ابن زيد، والسدي: كانت
سنة الصيام عندهم الإمساك عن
الأكل والكلام، وقرأت فرقة: ﴿إِنِّي
نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا يجوز في شرعنا أن يندثر أحد
صوماً، ولقد أمر ابن مسعود من فعل
ذلك بالنطق والكلام، وقالت فرقة:
أمرت مريم بهذا ليكفيها عيسى
الاحتجاج.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
رُوي أن مريم عليها السلام لما
اطمأنت بما رأت من الآية، وعلمت
أن الله تعالى سيبين عذرها، أتت به
تحمله من المكان القصبي الذي
انتبذت فيه، وروي أن قومها خرجوا
في طلبها فلقوها وهي مقبلة.
و«الْقَرْيُ»: العظيم الشنيع، قاله
مجاهد والسدي، وافتراه: اختلقه
وهو من الفِرْيَةِ، وقَرَاه يَفْرِيه: شَفَّه
وأفْسَدَه، وأفْرَأه: أصلحه، من
قولهم: فريت الأديم: قطعته على
جهة الإصلاح، وأما قولهم في
المثل: «فلان يفري القري» فمعناه:
جاء بعمل عظيم من العمل، أو...
قصد ضرب المثل له، وهو مستعمل
فيما يختلق ويفعل، والقَرْيُ من
الأسقية الجديد، وقرأ أبو حيوة:
﴿شَيْئًا قَرِيًّا﴾ بسكون الراء.

واختلف المفسرون في معنى قوله
عز وجل: ﴿يَتَأَخَذُ هَوْنًا﴾ فقالت
فرقة: كان لها أخ اسمه هارون؛ لأن

هذا الاسم كان كثيراً في بني إسرائيل
تبركاً باسم هارون أخي موسى
عليهما السلام، وروي المغيرة بن
شعبة أن رسول الله ﷺ أرسله إلى
نجران في أمر من الأمور، فقالوا:
إن صاحبك يزعم أن مريم هي أخت
هارون، وبينهما في المدة ستمائة
سنة، قال المغيرة: فلم أدر ما أقول،
فلما قدمت على رسول الله ﷺ
ذكرت له، فقال: «ألم يعلموا أنهم
كانوا يُسْمُونُ بأسماء الأنبياء
والصالحين؟»

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فالمعنى أنه اسم وافق اسماً، وقال
السدي وغيره: بل نسبوا إلى
هارون أخي موسى لأنها كانت من
نسله، وهو كما تقول لرجل من
قبيلة: يا أخا فلانة، ومنه قول
النبي ﷺ: «إِن أَخَا صَدَاءِ أَدْنِ، وَمَنْ
أَدْنُ فَهُوَ يَقِيمُ»، وقال كعب الأحبار
بحضرة عائشة أم المؤمنين
رضي الله عنها: «لَيْسَتْ بِأَخْتِ
هارون أخي موسى»، فقالت عائشة:
كذبت، فقال لها: يا أم المؤمنين،
إن كان رسول الله ﷺ قاله فهو
أصدق وأخبر، وإلا فإني أجد بينهما
من المدة ستمائة سنة، قال:
فسكتت، وقال قتادة: كان في ذلك
الزمن في بني إسرائيل رجل عابد
منقطع إلى الله عز وجل يُسمى
هارن، فنسبوا إلى أخوته من حيث
كانت على طريقتة، قيل: إذ كانت
موقوفة على خدمة البيع، أي: يا
هذه المرأة الصالحة ما كنت أهلاً لما
أتيت به، وقالت فرقة: بل كان في
ذلك الزمن فاجر اسمه هارون،

فنسبوا إليه على جهة التغيير
والتوبيخ، ذكره الطبري ولم يُسَمَّ
قائله، والمعنى: ما كان أبوك ولا
أُمُّك أهلاً لهذه الفعلة، فكيف جئت
بها أنت؟ و«الْبَغْيُ»: التي تبغي
الزنى، أي تطلبه، أضلها: بغوي،
فعل، وقد تقدم ذلك.

﴿٧٩﴾ - ﴿٨٠﴾ تفسير قوله عز وجل:
الْتَزَمَتْ مريم عليها السلام ما أمرت
به من ترك الكلام، ولم يرد في هذه
الآية أنها نطقت بـ ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ
صَوْمًا﴾، وإنما ورد أنها أشارت،
فيقوى بهذا قول من قال: إن أمرها
في ﴿فَقَوْلُ﴾ إنما أريد به الإشارة،
ويزوي أنهم - لما أشارت إلى الطفل
- قالوا: استخفافها بنا أشد علينا من
زناها، ثم قالوا لها - على جهة
التقريب - ﴿كَيْفَ نَكَلُّمُ مَنْ كَانَتْ فِي
الْمَهْدِ صَبِيًّا؟﴾

و «كَانَ» هنا ليس يراد بها
المضي؛ لأن كل واحد قد كان في
المهد صبيًا، وإنما هي في معنى:
هو «الْقَرْيُ»، ويحتمل أن نكون
الناقصة، والأظهر أنها التامة، وقد
قال أبو عبيدة: [كَانَ] هنا لغو. وقال
الزجاج والفراء: [مَنْ] شرطية في
قوله تبارك وتعالى: ﴿مَنْ كَانَتْ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ونظير «كان» هذه قول رؤبة:
والرأسُ قد كان له قَسِيرُ

و «صَبِيًّا» إما خبر [كَانَ] على
تجوُّز وتخييل في كونها ناقصة، وإما
حال [إِذَا قُدِّرَتْ زائدة أو تامة] لـ
للاستقرار المقدر في الكلام.

وروي أن المهد يراد به حجر أمه،
قال لهم عيسى من مرقدته: ﴿إِنِّي عَبْدُ

اللَّهِ﴾ الآية، وزوي أنه قام متكئاً على يساره، وأشار إليهم بسبأته اليمنى. و﴿الْكِتَابُ﴾: التوراة، ويحتمل التوراة والإنجيل، و﴿آتَيْنِي﴾ معناه: قضى بذلك وأنفذه في سابق حكمه، وهذا نحو قوله عز وجل: ﴿أَنزَلْنَا أُنزُورًا﴾ وغير هذا، وأمال الكسائي ﴿آتَانِي﴾ و﴿وَأَوْصَيْنِي﴾ والباقون لا يُميلون، قال أبو علي: الإمالة في ﴿آتَانِي﴾ أحسن لا في ﴿وَأَوْصَيْنِي﴾ و﴿مُبَارَكًا﴾ قال مجاهد: معناه: نفعاً، وقال سفيان الثوري: معناه: معلم خَيْر، وقيل: أميراً بالمعروف ناهياً عن المنكر، قال رجل لبعض العلماء: ما الذي أغلبن من علمي؟ قال: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ فإنه دين الله الذي بعث به أنبياءه، وأسند النقاش عن الضحاك أنه قال: ﴿مُبَارَكًا﴾ معناه: قضاء للحوائج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿مُبَارَكًا﴾ يعُمُّ هذه الوجوه وغيرها.

و «الصَّلَاةُ وَالزَّكَاةُ» قيل: هما المشروعتان في البدن والمال، وقيل: زكاة البدن في الفِطْر، وقيل: الصلاة الدعاء، والزكاة التطهر من كل عيب وتفصيل ومعصية. وقرأ: ﴿دُمْتُ﴾ بضم الدال عاصم وجماعة، وقرأ: ﴿دِمْتُ﴾ بكسرهما أهل المدينة، وابن كثير، وأبو عمرو، وجماعة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَبَرًّا﴾ بفتح الباء - وهو الكثير البر - ونصبه عطفًا على قوله: ﴿مُبَارَكًا﴾، وقرأ أبو نهيك، وأبو مجلز، وجماعة: ﴿وَبِرًّا﴾ بكسر

الباء، فقال بعضهم: نصبه على العطف على قوله: ﴿مُبَارَكًا﴾، كأنه قال: ذا برٍّ، فاتصف بالمصدر كمدل ونحوه، وقال بعضهم: نصبه بقوله: ﴿وَأَوْصَيْنِي﴾، أي: وأوصاني برًّا بوالدتي، حذف الجار، يريد: وأوصاني ببرِّ والدتي، وحكى الزهراوي في هذه القراءة ﴿وَبِرًّا﴾ بالخفض عطفًا على ﴿الزَّكَاةُ﴾، وقوله: ﴿وَبِرًّا﴾ بيان لأنه لا والد له، وبهذا القول برأها قومها.

و «الْجَبَّارُ»: المتعظم، وهي خلق مقرونة بالشقاء لأنها مناقضة لجميع الناس فلا يلقى صاحبها من أحد إلا مكروهًا، وكان عيسى صلوات الله عليه في غاية التواضع، يأكل الشجر، ويلبس الشجر، ويجلس على التراب، ويأوي حيث جنة الليل إذ لا مسكن له، قال قتادة: وكان عيسى عليه السلام يقول: سلوني فإنني لئن القلب صغير في نفسي، وقد تقدم ذكر تسليمه على نفسه وإدلاله في ذلك، وذكر المواطن التي خصَّها لأنها أوقات حاجة الإنسان إلى رحمة الله.

وقال مالك بن أنس رضي الله عنه في هذه الآية: ما أشدها على أهل القدر، أخبر عيسى بما قضى من أمره وبما هو كائن إلى أن يموت، وفي قصص هذه الآية عن ابن زيد وغيره أنهم لما سمعوا كلام عيسى وهو في المهد أذعنوا وقالوا: إن هذا لأمرٌ عظيم، وزوي أن عيسى عليه السلام إنما تكلم في طفولته بهذه الآية ثم عاد إلى حالة الأطفال حتى نشأ على عادة البشر، وقالت فرقة:

إن عيسى عليه السلام كان أوتي ذلك الكتاب وهو في ذلك السن، وكان يصلي ويصوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا في غاية الضعف، مُصْرَحٌ بجهالة قائله.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: قل يا محمد لمعاصريك من اليهود والنصارى: ذلك الذي هذه قصته عيسى ابن مريم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما قدَرنا في الكلام «قُلْ» لأنه يجيء في الآية بعد ﴿وَلَدَّ اللَّهُ رَبِّي وَرَزَقَنِي﴾، وهذه مقالة بشر، وليس يقتضي ظاهر الآية قائلًا من البشر سوى محمد ﷺ، وقد يحتمل أن يكون قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى﴾ إلى قوله: ﴿فَيَكُونُ﴾ إخبارًا لمحمد ﷺ واعتراضًا أثناء كلام عيسى، ويكون قوله: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الألف عطفًا على قوله: ﴿الْكِتَابُ﴾، وقال وهب بن منبه: عهد عيسى عليه السلام إليهم أن الله ربِّي وربكم، ومن كسر الألف عطف على قوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة، والكسائي، وعامة الناس: ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾، وقرأ عاصم، وابن عامر، وابن أبي إسحق: ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾ بنصب «القول» على المصدر، وقال أبو عبدالرحمن المقرئ: كان يجالسني ضريرة ثقة، فقال: رأيت النبي ﷺ في النوم يقرأ: ﴿قَوْلُ الْحَقِّ﴾ نصيبًا، قال أبو عبدالرحمن: وكنت أقرأ بالرفع فحسب، فصرت أقرأ بهما جميعًا، وقرأ عبدالله بن

مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَفُوا،
وإِنَّمَا تعجيز كقوله تعالى:
﴿مَا كَانَتْ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا
شَجَرَةً﴾، وإِنَّمَا تبرئة
كهذه الآية، وقوله: ﴿مِنَ
وَلَدِي﴾ دخلت ﴿مِنَ﴾
مؤكدة للجدد، لينفي
الواحد فما فوقه مما
يحتمله نظير هذه العبارة
إذا لم تدخل (مَن)،
وقوله: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ أي:
واحدًا من الأمور، وليس
بمصدر «أَنْزَلَ بِأَمْرٍ»،
فمعنى قَضَى وأوجد
وأخرج من العدم وهذه
التصارييف في هذه الأفعال
من مُضِيٍّ واستقبال هي

بحسب تجوز العرب وأتساعها، وقد
تقدم القول في قوله تعالى: ﴿كُنْ
فَيَكُونُ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو:
﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ بفتح الألف، وذلك
عطف على قوله: ﴿ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ
مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ﴾ و﴿وَأَنَّ اللَّهَ رُبِّي﴾
كذلك، وقرأ ابن عامر، وعاصم،
وحمزة، والكسائي: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾
بكسر الألف، وذلك بيِّن على
الاستئناف، وقرأ أبي بن كعب
رضي الله عنه: ﴿إِنَّ اللَّهَ رُبِّي
وَرُبُّكُمْ﴾ بكسر الألف دون واو.

وقوله: ﴿فَأَعْبُدُوهُ﴾، وقف ثم ابتداءً:
﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾، أي: ما
أعلمتكم به عن الله تعالى من
وحدانية، ونفي الولد عنه، وغير
ذلك مما يتنزه عنه، طريق واضح
مُضِيٍّ إلى النجاة ورحمة الله تعالى.

وَأَنْزَلْنَاهُمْ يَوْمَ الْمَعْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ لَهُمْ فِي عَقْفِهِمْ وَهُمْ لَا يُوْثِقُونَ
﴿٣٧﴾ إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِنَّا بِرُحْمَنٍ ﴿٣٨﴾ وَأَذْكُرُ
فِي الْكِتَابِ إِلَهُهُمْ إِنَّهُ كَانَ صِدْقًا نَبِيًّا ﴿٣٩﴾ إِذْ قَالَ لِأبيه يَا أَبَتِ
لِمَ تَعْبُدُنِي وَمَا لِي أَعْبُدُكَ إِنَّ أَلْبَابِي مُغْلِقَةٌ ﴿٤٠﴾ يَا أَبَتِ
إِنِّي فَدَّجَيْتُكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا
سَوِيًّا ﴿٤١﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشُّطْرَانَ إِنَّ الشُّطْرَانَ كَانُوا لِلرَّحْمَنِ
عِصْيَانًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ
فَتَكُونَ لِلشُّطْرَانِ رِيشًا ﴿٤٣﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنِ الْهَيْبَةِ
يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ لِمَ تَدْعُونَ رَبَّكَ لِأَنْ تَرْجِعَ فِي مِثْلِي ﴿٤٤﴾ قَالَ
سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ فِي حَيْثُ ﴿٤٥﴾
وَأَعَزَّ لَكُمْ وَوَدَّعُوهُ مِنَ دُونِ اللَّهِ وَادْعُوا رَبِّي عَسَى
أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٦﴾ لَمَّا أَعْرَضْتُمْ وَاعْبُدْكُمْ
مِنَ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِيحَاءً وَيُعْقِبُوكُمْ وَلَا جَعَلْنَا لِيَدَيْهِ ﴿٤٧﴾
وَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلَيْكُمْ ﴿٤٨﴾
وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَوْسَى إِنَّهُ كَانَ خَلِصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا ﴿٤٩﴾

٣٠٨

مسعود: ﴿قَالَ اللَّهُ﴾ بمعنى:
كلمة الله، وقرأ عيسى: ﴿قَالَ
الْحَقُّ﴾.

وقرأ نافع والجمهور: ﴿يَسْتَدْرُونَ﴾
بالياء على الكناية عنهم، وقرأ نافع
أيضاً وأبو عبدالرحمن السلمي،
وداود بن أبي هند: ﴿تَمْتَرُونَ﴾ بالناء
على الخطاب لهم، والمعنى:
تختلفون أيها اليهود والنصارى،
فيقول بعضهم: هو لِرِزْيَةٍ ونحو هذا،
ويقول بعضهم: هو ابن الله تعالى،
فهذا هو امتراؤهم، وسيأتي شرح
ذلك من بعد هذا.

وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ
مِنَ وَلَدٍ سُبْحَانَ﴾ معناه النفي، وهذا
هو معنى هذه الألفاظ حيث وقعت،
ثم يضاف إلى ذلك بحسب المذكور
فيها، إما زجر ونهي كقوله تعالى:
﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُ

﴿٣٧﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء خبر من الله عز وجل
لمحمد ﷺ بأن بني إسرائيل اختلفوا
أحزاباً، أي: فرقاً، وقوله: ﴿رُبِّي
بَيْنَهُمْ﴾ معناه أن الاختلاف لم يخرج
عنهم، بل كانوا المختلفين، وروي
في هذا عن قتادة أن بني إسرائيل
جمعوا من أنفسهم أربعة أجناس غاية
في المكانة والجلالة عندهم،
وطالبوهم بأن يبيِّنوا أمر عيسى عليه
السلام، فقال أحدهم: عيسى
هو الله نزل إلى الأرض فأحيا من
أحيا وأمات من أمات ثم صعد،
فقال له الثلاثة: كذبت، وأتبعه
اليعقوبية، ثم قيل للثلاثة، فقال
أحدهم: عيسى هو ابن الله، فقال
له الاثنان: كذبت، وأتبعه
النسطورية، ثم قيل للثنتين، فقال
أحدهما: عيسى أحد ثلاثة، عيسى
إله، ومريم إله، والله إله، فقال له
الرابع: كذبت، وأتبعه الإسرائيلية،
فقيل للرابع، فقال: عيسى روح الله
وكلمته ألغاه إلى مريم، فأتبع كل
واحد من الأربعة فريق من بني
إسرائيل، ثم اقتتلوا فغلب المؤمنون
وقتلوا، وظهرت اليعقوبية على
الجميع. وروي أن في ذلك نزلت:
﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَأْتِيَتُ اللَّهُ
وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَغْتَابُونَ خَوَافًا وَيَقْتُلُونَ
الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْطِ مِنَ
النَّاسِ فَيَتَّبِعُهُمُ بَدَابٍ أَسِيًّا﴾.

وَالْوَيْلُ: الحُزْنُ والشُّور، وقيل:
الْوَيْلُ وإد في جهنم. ومشهد اليوم
العظيم هو مشهد يوم القيامة،
ويحتمل أن يريد بـ﴿مَشْهَدٍ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾
يوم قتل المؤمنين حين اختلف

الأحزاب، وقد أشار إلى هذا المعنى قتادة رحمة الله.

وقوله تعالى: ﴿أَتَجِيبُهُمْ وَأُصْرِهِمْ﴾ أي: ما أسمعهم وأبصرهم يرجعون إلينا ويرون ما نصنع بهم من العذاب، فإن إعراضهم حينئذ يزول، ويقبلون على الحقيقة حيث لا ينفعهم الإقبال عليها وهم في الدنيا صم غمي؛ إذ لا ينفعهم النظر مع إعراضهم، ثم قال: لكنهم اليوم في الدنيا في ضلال، وهو جهل المسلك، والمؤمنين: الذين في نفسه وإن لم يتبين لهم، وحكى الطبري عن أبي العالية أنه قال: ﴿أَتَجِيبُهُمْ وَأُصْرِهِمْ﴾ بمعنى الأمر لمحمد ﷺ، أي: أسمع الناس اليوم وأبصرهم بهم ويحدثهم، ماذا يصنع بهم من العذاب إذا أتوا محشورين مغلولين.

واختلف في ﴿يَوْمَ الْآسْرِ﴾ فقال الجمهور: هو يوم ذبح الموت، وفي هذا حديث صحيح، وقع في البخاري وغيره أن الموت يجاء به في صورة كبش أملح، وقال عبيد بن عمير: كأنه دابة، فيذبح على الصراط بين الجنة والنار، وينادي: يا أهل الجنة خلود لا موت، ويا أهل النار خلود لا موت. ويروى أن أهل النار يشربون إليه رجاء أن يخرجوا مما هم فيه، وأن أهل الجنة يشربون خوفاً على ما هم فيه، والأمر المقضي هو ذبح الكبش الذي هو مثال الموت، وهذا عند حذاق العلماء كما يقال: تدين العوامل ويجعل التراب تحت القدم ونحو ذلك، وعند ذلك تصيب أهل

النار حسرة لا حسرة مثلها.

وقال ابن زيد وغيره: يوم الحسرة هو يوم القيامة، وذلك أن أهل النار قد حصلوا من أول أمرهم في سخط الله وأمارته، فهم في حال حسرة، والأمر المقضي - على هذا - هو الحتم عليهم بالعذاب وظهور إنفاذ ذلك عليهم. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: يوم الحسرة حين يرى الكفار مقاعدهم التي فاتتهم من الجنة لو كانوا مؤمنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون يوم الحسرة اسم جنس لأن هذه حسرات كثيرة في مواطن عدة، ومنها يوم القيامة، ومنها وقت أخذ الكتاب بالشمال، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي عَقْلٍ﴾ يريد: في الدنيا الآن وهم لا يؤمنون كذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ رَبُّ الْأَرْضِ﴾ تجوزُ وعبارة عن فناء المخلوقات وبقاء الخالق، فكانها ورائة، وقرأ عاصم، ونافع، وأبو عمرو، والحسن، والأعمش: ﴿يَرْجُونَ﴾ بالياء، وقرأ الأعرج: ﴿تَرْجُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ أبو عبد الرحمن، وابن أبي إسحق، وعيسى: ﴿يَرْجُونَ﴾ بالياء مفتوحة وكسر الجيم، وحكى عنهم أبو عمرو: ﴿تَرْجُونَ﴾ بالتاء.

٤١ - ٤٢ تفسير قوله عز وجل:

وقوله تعالى: ﴿وَأَذَكَّرُ﴾ معناه: وأتلى وتلغ، لأن الله تعالى هو الذاكر، والكتاب هو القرآن، وهذا وما

أشبهه من لسان الصدق الذي ألقاه الله عليهم، والصدق فعيل، بناءً مبالغة من الصدق، وقرأ أبو البرهه: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقًا﴾، والصدق عرفه في اللسان، وهو مطردة في الأفعال والخلق إلا أنه يستعار لما لا يعقل، يقال: صدقني الطعام كذا وكذا قفيماً، ويقال: عود صدق للصلب الجيد. فكان إبراهيم عليه السلام يوصف بالصدق على العموم في أقواله وأفعاله، وبذلك يفترق صدق اللسان الذي يصاد الكذب، وأبو بكر رضي الله تعالى عنه وصف بصدق لكثرة ما صدق في تصديقه بالحقائق، وصدق في مبادرته إلى الإيمان وما يقرب من الله تبارك وتعالى. وللصدق مراتب، ألا ترى أن المؤمنين صدقون لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾.

وقوله: ﴿يَتَأْتُونَ﴾، اختلف النحاة في التاء من ﴿لِيَمَّ﴾ - فذهب سيبويه إلى أنها عوض من ياء الإضافة، فالوقوف عليها عنده بالهاء، ومذهب الفراء أن يوقف عليها بالتاء لأن الياء التي للإضافة عنده مؤنثة، وجمهور الفراء على كسر التاء، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ﴿وَأَبْتٌ﴾ بواو النداء، وقرأ ابن عامر، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿يَا أَبْتُ﴾ بفتح التاء، ووجهها أنه أراد: يَا أَبْتَا، فحذف الألف وترك الفتحة دالةً عليها، ووجه آخر أن تكون التاء المقحمة كالتي في قولهم: يَا طَلْحَةَ أَقْبَلُ، وفي هذا نظر، وقد لحن هارون هذه القراءة. والذلي

معناه: سليماً سوياً، فهو حالٌ من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتلخيص هذا أن يكون بمعنى قوله: مُسْتَبِدًّا بحالك عني غنياً، مَلِيًّا بالاكْتِفَاءِ.

﴿٤٧﴾ - ﴿٥٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ أبو البرهسم: ﴿سَلَامًا﴾ بالنصب. واختلف أهل العلم في معنى تسليمه عليه - فقال بعضهم: هي تحية مفارق، وجوزوا تحية الكافر، وأن يُبَدَأَ بها، وقال الجمهور: ذلك التسليم بمعنى المُسَالَمَةِ لا بمعنى التحية، وقال الطبري: معناه: أَمَنَةٌ مَنِي لكَ، وهذا قول الجمهور، وهم لا يرون ابتداء الكافر بالسلام. وقال النقاش: حلیم خاطب سفيهاً، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، ورفع «السلام» بالابتداء، وجاز ذلك مع كونه نكرة لأنه نكرة مُخَصَّصَةٌ، فقربت من المعرفة، ولأنه في موضع المنصوب الذي هو: سلمت سلاماً، وهذا كما يجوز ذلك فيما هو في معنى الفاعل، كقولهم: «شراً ما أهرَّ ذا ناب»، وهذا مشال سيبويه رحمه الله.

وقوله: ﴿سَأَسْتَفِيئُ لَكَ﴾ معناه: سأدعو الله تعالى في أن يهديك، فيغفر لك بإيمانك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أظهر من أن يُتَأَوَّلَ على إبراهيم الخليل صلوات الله عليه أنه لم يعلم أن الله تعالى لا يغفر لكافر، وقد يجوز أن يكون إبراهيم عليه السلام

تكون عنه. وقوله: ﴿رَاغِبٌ﴾ رفع بالابتداء، و﴿أَنْتَ﴾ فاعل يسد مسد الخبر، وحسن ذلك وقربه اعتماداً [رَاغِبٌ] على ألف الاستفهام، ويجوز أن يكون [رَاغِبٌ] خبراً مقدماً، و [أَنْتَ] مبتدأ، والأول أصوب، وهو مذهب سيبويه.

وقوله: ﴿عَنْ ءَالِهَتِي﴾ يريد الأصنام، وكان - فيما زوي - ينحتها وينجزها بيده ويبعها ويحض عليها، فقرر ابنه إبراهيم عليه السلام على رغبته عنها على جهة الإنكار عليه، ثم أخذ يتوعده.

وقوله: ﴿لَأَرْجَمَنَّكَ﴾ اختلف فيه المتأولون - فقال السدي، وابن جريج، والضحاك: معناه: بالقول، أي: لأشتمنك واهجرني أنت إذا شئت مدة من الدهر، أو سألماً، حسب الخلاف الذي سنذكره، وقال الحسن بن أبي الحسن البصري رحمه الله: معناه: لأرجمنك بالحجارة، وقالت فرقة: معناه: لأقتلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان بمعنى واحد، وقوله: ﴿مَلِيًّا﴾ - على هذا التأويل - إنما يترتب على أنه أمر على حياته، كأنه قال: إن لم تنته تقتلك بالرجم، ثم قال له: واهجرني، أي: مع انتهائك، كأنه جزم الأمر بالهجرة، وإلّا فمع الرجم لا تترتب الهجرة. و﴿مَلِيًّا﴾ معناه: دهرأ طويلاً، مأخوذ من الملوئين، وهما الليل والنهار، هذا هو قول الجمهور: الحسن، ومجاهد، وغيرهما، فهو ظرفٌ وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَلِيًّا﴾

لا يُبصر ولا يسمع هو الصنم، ولو سمع وأبصر كما هي حال الملائكة وغيرهم ممن عُيِدَ لم تحسن عبادتها، ولكن بين إبراهيم عليه السلام بِئْسَ السمع والبصر شُنْعَةَ الرَّأْيِ في عبادتها وفسادها.

وقوله: ﴿قَدْ جَاءَنِي﴾ يدل أن هذه المقالة بعد أن نُبِيءَ، و﴿الصِّرَاطُ السُّوِيُّ﴾ معناه: المستقيم، وهو طريق الإيمان.

وقوله: ﴿يَتَأَبَّى لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ﴾ مخاطبة برّ واستعطاف على حالة كفره، وقوله: ﴿لَا تَعْبُدُ الشَّيْطَانَ﴾ يحتمل أن يكون أبوه ممن عبد الجن، ويحتمل أن يجعل طاعة الشيطان المُغْوِي في عبادة الأوثان والكفر بالله عبادةً له. و﴿العَصِيءُ﴾ فَعِيلٌ من عَصَى يعصي إذا خالف الأمر.

وقوله: ﴿إِنِّي أَخَافُ﴾، قال الطبري وغيره: ﴿أَخَافُ﴾ بمعنى: أعلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر عندي أنه خوفٌ على بابه؛ وذلك أن إبراهيم عليه السلام لم يكن في وقت هذه المقالة آيساً من أبيه، فكان يرجو ذلك، وكان يخاف ألا يؤمن ويتمادى على كفره إلى الموت فيمسه العذاب. و﴿الْوَلِيُّ﴾: الخالص المصاحب القريب بنسب أو مودة.

قال آزر - وهو تارخ -: ﴿رَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ ءَالِهَتِي﴾، والرغبة: مَيْلُ النَّفْسِ، فقد تكون الرغبة في الشيء، وقد

أول نبي أوحى الله إليه أن الله لا يغفر لكافرًا؛ لأن هذه العقيدة إنما طرقتها السمع، فكانت هذه المقالة منه لأبيه قبل أن يوحى إليه ذلك، وإبراهيم عليه السلام إنما تبين له في أبيه أنه عدو لله بأحد وجهين: إما بموته على الكفر كما روي، وإما بأن أوحى الله إليه الحتم عليه. وقال مكِّي عن السدي: آخره بالاستغفار إلى السحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تعسف، وإنما ذكر ذلك في أمر يعقوب وبنيه، وأما هذا فوعد باستغفار كثير مؤتلف، فالسن متمكنة.

و «الْحَفِي» : المهتل المتلطف، وهذا شكر من إبراهيم عليه السلام لنعم الله تعالى عليه ثم أخبره أن يعتزلهم، أي: يصير عنهم بمعزل، ويروى أنهم كانوا بأرض كوثا، فانتقل إبراهيم عليه السلام إلى الشام، وفي هجرته تلك لقي الجبار الذي أخدم هاجر لسارة... الحديث بطوله. و «تَدْعُونَ» : تعبدون. وقوله: «عَسَى» تَرَجَّحَ وفي ضمته خوف شديد.

وقوله: «فَلَمَّا عَتَقَهُمْ وَمَا يُعِيدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ» الآية إخبار من الله تبارك وتعالى لنتيجه محمد ﷺ أن إبراهيم عليه السلام لما رحل عن بلد أبيه وبلد قومه عوضه الله من ذلك ابنه إسحق وابن ابنه يعقوب عليهما السلام، وجعل له الولد تسليية وشذا لعضده، وإسحق أصغر من إسماعيل عليهما السلام، ولما حملت هاجر

بإسماعيل غارت سارة فحملت بإسحق فيما روي.

قوله تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾، يريد العلم والمنزلة والشرف في الدنيا والنعيم في الآخرة، كل ذلك من رحمة الله، و«لِسَانَ الصِّدِّيقِ» هو الشئء الباقي عليهم آخر الأبد، قاله عبدالله بن عباس رضي الله عنهما. واللسان في كلام العرب القالة الذائعة كانت في خير أو شر، ومنه قول الشاعر:

إِنِّي أَتَّخِذِي لِسَانَ لَا أُسْرِبُهَا
مِنْ عَلْوٍ لَا كِذِبَ فِيهَا وَلَا سَخْرُ
وقال آخر:

تَدِمْتُ عَلَى لِسَانِ قَاتِ مِثِّي
.....

وإبراهيم عليه السلام - وذريته - معظَّم في جميع الأمم والممالك، صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين.

هذا أمر من الله تعالى بذكر موسى بن عمران صلوات الله عليه على جهة التشريف، وأعلمه بأنه كان مُخْلِصًا، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم: «مُخْلِصًا» بكسر اللام، وهي قراءة الجمهور، أي: أخلص نفسه لله تعالى، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم: «مُخْلِصًا» بفتح

وَتَدْبِئْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَفَرَّغَتْهُ يُحْيَا ﴿٥١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٢﴾ وَأَذْكَرَ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِذْ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٣﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٤﴾ وَأَذْكَرَ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٥﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٦﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذْ نَادَىٰ عَلِيمٌ ءَايَاتِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ وَرُكِّيًّا ﴿٥٧﴾ خَلَفَ مِنْ بَنِي إِدْرِيسَ خَلْفَ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشُّهُورَ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٨﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظَلَمُونَ شَيْئًا ﴿٥٩﴾ جَنَّتْ عَدْنُ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْآيَاتِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦٠﴾ لَا تَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿٦١﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٢﴾ وَمَا نُنزِّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿٦٣﴾

السلام، وهي قراءة أبي رزين، ويحيى، وقتادة، أي: أخلصه الله تعالى للنبوَّة والقيادة، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْخَضْتُم بِجَالِمَةٍ﴾ والرسول من الأنبياء: الذي يكلف تبليغ أمته، وقد يكون نبي غير رسول.

وقوله تعالى: ﴿وَتَدْبِئْتَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ هو تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام، و«الطور»: الجبل المعروف بالشام، وقوله: ﴿الْأَيْمَنِ﴾ صفة للجانب، وكان على يمين موسى عند وقوفه، وإلا فالجبل نفسه لا يمنة له ولا يسرة، ولا يوصف بشيء من ذلك إلا بالإضافة إلى ذي يمين ويسار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون «الْأَيْمَنِ» مأخوذ من اليمين، كأنه قال: الأبرك

والأسعد، فصح على هذا أن يكون صفة للجانب وللجبل بجملة. وقوله: ﴿وَرَفَعْتَهُ يَتِجًا﴾ هو التقريب بالتشريف بالكلام والنبوة. وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: بل أدني موسى للملكوت، ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقدام، وقاله ميسرة رحمه الله، وقال سعيد: أردفه جبريل عليه السلام، والتَّجِيُّ، قيل: من المناجاة وهي المسارة بالقول، وقال قتادة: معناه: نجا بصدقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا محتمل، وإنما التَّجِيُّ المنفرد بالمناجاة، وكان هارون أسن من موسى عليهما السلام فطلب من الله أن يشدُّ أزره بشبوتته ومعونته فأجابته الله إلى ذلك، وعدّها في نعمه عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ هو أيضاً من لسان الصدق والشرف المضمون بقاؤه على آل إبراهيم عليه السلام. وإسماعيل عليه السلام هو أب العرب اليوم، وذلك أن اليمينية والمضرية ترجع إلى ولد إسماعيل عليه السلام، وهو الذي أسكنه أبوه بوادٍ غير ذي زرع، وهو الذبيح في قول الجمهور، وقالت فرقة: الذبيح إسحق عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول يترجح بجهات: منها قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ذُرِّيَّتِهِ يُبْرَأَهُ يُعْقَبُ﴾، فَوَلَدٌ قَدْ بُشِّرَ أَبَوَاهُ أَنَّهُ سَيَكُونُ مِنْهُ وَلَدٌ هُوَ حَفِيدٌ لَهُمْ كَيْفَ يُؤْمَرُ بَعْدَ ذَلِكَ بِذَبْحِهِ وَهَذِهِ الْعِدَّةُ قَدْ

تقدمت؟ وجهة أخرى هي أن أمر الذبيح لا خلاف بين العلماء أنه كان بمنى عند مكة، وما زوي قط أن إسحق دخل تلك البلاد، وإسماعيل بها نشأ، وكان أبوه يزوره بها مراراً كثيرة يأتي من الشام على البراق ويرجع من يومه، والبراق هو مركب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وجهة أخرى وهي قول النبي ﷺ: «أنا ابن الذبيحين»، وهما أبوه عبدالله بن عبدالمطلب، لأنه فُدي بالإيل من الذبيح، والذبيح الثاني هو أبوه إسماعيل عليه السلام، وجهة أخرى وهي الآيات في سورة (الصافات)، وذلك أنه لما فرغ من ذكر الذبيح وحاله قال: ﴿وَيَذُرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ﴾، فترتيب تلك الآيات يكاد ينص على أن الذبيح غير إسحق عليه السلام.

ووصف الله تعالى إسماعيل بصدق الدعوة لأنه كان مبالغاً في ذلك، زوي أنه وعد رجلاً أن يلقاه في موضع، فجاء إسماعيل عليه السلام وانتظر الرجل يومه وليته، فلما كان في اليوم الآخر جاء الرجل، فقال له: ما زلت في انتظارك هنا منذ أمس، وفي كتاب ابن سلام أنه انتظره سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد غير صحيح، والأول أصح، وقد فعل مثله نبينا محمد ﷺ قبل بعثه، ذكره النقاش، وخرجه الترمذي، وغيره، وذلك في مبايعة وتجارة، وقيل: وصفه بصدق الدعوة لوفائه بنفسه في أمر الذبيح؛ إذ قال: ﴿سَيَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنْ

الْمَنِينِ﴾. قال سفيان بن عيينة رحمه الله: أسوأ الكذب إخلاف الوعد ورمي الأبرياء بالثهم، وقد قال رسول الله ﷺ: «الْعِدَّةُ دِينٌ»، فناهيك بفضيلة الصدق في هذا.

قوله تعالى: ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ آلَهُ﴾، يريد قومه وأمه، قاله الحسن، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «وَكَانَ يَأْمُرُ قَوْمَهُ»، وقوله: ﴿مَرْيَمًا﴾ أصله: مَرْضُوي، لقيت الواو وهي ساكنة الياء فأبدلت ياء، وأدغمت، ثم كسرت الضاد للتناسب في الحركات، وقرأ ابن أبي عمير: ﴿وَكَانَ عِنْدَ رَبِّهِ مَرْضُؤًا﴾.

٥٦ - ٥٧ - تفسير قوله عز وجل:

إدريس عليه السلام هو من أجداد نوح، وهو أول نبي بُعث إلى أهل الأرض فيسما زوي بسعد آدم صلوات الله عليه، وهو أول من خط بالقلم، وكان خياطاً، ووصفه الله تعالى بالصدق، والوجه أن يُحمل ذلك على العموم في الأحاديث والأعمال، قال ابن مسعود رضي الله عنه: هو إلياس، بعث إلى قومه بأن يقولوا لا إله إلا الله، ويعملوا ما شاءوا، فأبوا فأهلكوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأشهر أنه لم يبعث بإهلاك أمة، وأنه نبي فقط.

واختلف الناس في قوله: ﴿وَرَفَعْتَهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ - فقال جماعة من العلماء: هذا هو رفع بالبنة والتشريف والمنزلة، وهو في السماء كسائر الأنبياء. وقالت فرقة: بل رُفِعَ إلى السماء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ذلك بأمر الله

كما رفع عيسى عليه السلام، وهنالك مات إدريس عليه السلام، وكذلك قال مجاهد إلا أنه قال: ولم يموت، وكذلك قال وهب بن منبه، وقال كعب الأحبار لابن عباس: كان له خليل من الملائكة فحملة على جناحه وصعد به حتى بلغ السماء الرابعة، فلقي هناك مَلَك الموت. فقال له: إنه قيل لي: اهبط إلى السماء الرابعة فاقبض روح إدريس، وإني لأعجب كيف يكون هذا، فقال له المَلَك الصاعد: هذا إدريس معي، فقبض روحه. وروي أن هذا كله كان في السماء السادسة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وكذلك هي رتبته في حديث الإسراء في بعض الروايات، وحديث أنس بن مالك وأبي هريرة رضي الله عنهما في الإسراء يقتضي أنه في السماء الرابعة.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ آمَنَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ الذُّبْنِ مِنْ ذُرِّيَةِ مَادَمَ﴾ الآية. الإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ﴾ إلى من تقدم ذكره، وقوله: ﴿مِنْ ذُرِّيَةِ مَادَمَ﴾ يريد إدريس ونوحاً عليهما السلام، و﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ يريد إبراهيم عليه السلام، و﴿وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ يريد إسماعيل وإسحق ويعقوب عليهم السلام، و﴿إِسْرَائِيلَ﴾ يريد موسى وهارون وزكريا ويحيى ومريم عليهم السلام. وقوله: ﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَابْتَدَيْنَا﴾ معناه: اخترنا واصطفينا، وكأنه من: ﴿جَبَّيْتُ الْمَاءَ إِذَا جَمَعْتَهُ، وَمِنْهُ جَبَايَةُ الْمَالِ، وَكَأَنَّ جَبَايَةَ يَصْطَفِيهِ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: إِذَا تُتْلَى﴾ بالتاء من فوق، وقرأ نافع،

وشيبة، وأبو جعفر: ﴿إِذَا يُتْلَى﴾ بالياء. و«الآيات» هنا الكُتُب المنزلة، و﴿سُبْحَانَكَ﴾ نصب على الحال لأن مبدأ السجود سجود، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والجمهور: ﴿وَبِكَيْتَا﴾ قالت فرقة: هو جمع بك، كما يُجْمَع عَاتٍ وَجَاثٌ عَلَى: عُتِيٌّ وَجُثِيٌّ، وقالت فرقة: هو مصدرٌ بمعنى البكاء، والتقدير: وَبِكُوا بِكَيْتَا، واحتج الطبري ومكي لهذا القول بأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه زوي أنه قرأ سورة مريم فسجد ثم قال: هذا السجود فأين البكي؟ يعني البكاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واحتجاجهما بهذا فاسد؛ لأنه يحتمل أن يريد عمر رضي الله عنه: فأين الباكون؟ فلا حجة فيه لهذا، وهذا الذي ذكره عن عمر رضي الله عنه ذكره أبو حاتم عن النبي ﷺ. وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، ويحيى، والأعمش: ﴿وَبِكَيْتَا﴾ بكسر الباء، وهو مصدر على هذه القراءة لا يحتمل غير ذلك.

٥٩ - ٦٣ تفسير قوله عز وجل: ﴿الْخَلْفَ﴾ - بفتح اللام -: الْقَرْنُ يأتي بعد آخر يمضي، والابن بعد الأب، وقد يستعمل في سائر الأمور، و«الْخَلْفَ» - بسكون اللام - إذا كان الآتي مدموماً، وهذا مشهور كلام العرب، وقد ذكر عن بعضهم أن الْخَلْفَ وَالْخَلْفَ بمعنى واحد، وحجة ذلك قول الشاعر:

لَنَا الْقَدَمُ الْأُولَى إِلَيْكَ وَخَلْفُنَا
لَأَوْلِنَا فِي طَاعَةِ اللَّهِ تَابِعُ
وقرأ الجمهور: ﴿أَضَاعُوا الْقِسْرَةَ﴾

بالإفراد، وقرأ الحسن: ﴿أَضَاعُوا الْقِسْرَةَ﴾ بالجمع، وهو كذلك في مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، والمراد بـ «الْخَلْفِ» من كفر وعصى بَعْدَ من بني إسرائيل، وقال مجاهد: المراد النصارى، خلفوا بعد اليهود، وقال محمد بن كعب القرظي، ومجاهد، وعطاء: هم قوم من أمة محمد ﷺ في آخر الزمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أي: يكون في هذه الأمة مَنْ هذه صفته، لا أنهم المراد بهذه الآية، وروي أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «يكون الخلف بعد ستين سنة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عرف إلى يوم القيامة.

واختلف الناس في «إِضَاعَةَ الصَّلَاةِ» منهم، فقال محمد بن كعب القرظي وغيره: كانت إِضَاعَةً كُفْرٍ وَجَحْدٍ بها، وقال القاسم بن مخيمرة، وعبدالله بن مسعود: كانت إِضَاعَةً أوقاتها، و [عدم] المحافظة على أوقاتها، وذكره الطبري عن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه في حديث طويل. و«الشَّهَوَاتُ» عموم، وكل ما ذُكِرَ من ذلك فمثال.

و «الْعَيُّ»: الْخُسْرَانُ والحصول في الورطات، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَى خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ
وَمَنْ يَغْوِ لَا يَتَعَدَّمُ عَلَى الْعَيِّ لَأَيَّمَا
وبه فسر ابن زيد رحمه الله هذه الآية. وقد يكون الْعَيُّ أيضاً الضَّلَالُ، فيكون هذا هنا على حذف

عند انسدادها، وقال مجاهد رحمه الله: ليس بُكْرَةٌ ولا عَشِيًّا، ولكن يُؤْتون به على ما كانوا يشتهون في الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد ذكر نحوه قتادة، أن تكون مخاطبة بما تعرفه العرب وتستغربه من رفاة العيش، وجعل ذلك عبارة عن أن رزقهم يأتي على أكمل وجوه. قال الحسن: خوطبوا على ما كانت العرب تعلم من أفضل العيش، وذلك أن كثيراً من العرب إنما كان يجد الطعام المرّة في اليوم، وهي غايته، وكان أكثر عيشهم من شجر البرّية، ومن الحيوان، ونحوه، ألا ترى قول الشاعر:

أَوْ وَجِبَةً مِنْ جِنَاةٍ أَشْكَلَةٍ
إِنْ لَمْ يُرِغْهَا بِالْقَوْسِ لَمْ تُنْصَلِ
الوجه: الأكلة في اليوم.

وقرأ الجمهور: ﴿ثَوْرٌ﴾ بسكون الواو، وقرأ الحسن، والأعرج، وقاتدة: ﴿ثَوْرٌ﴾ بفتح الواو وشذّ الرء.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: قرأ الجمهور: ﴿وَمَا نُنْزَلُ﴾ بالنون، كأن جبريل عليه السلام عنى نفسه والملائكة، وقرأ الأعرج: ﴿وَمَا نُنْزَلُ﴾ بالياء على أنه خبر من الله تعالى أن جبريل لا ينزل، قال هذا التأويل بعض المفسرين، ويرده قوله: ﴿لَمْ يَأْتِ الْيَتِيمَ﴾ لأنه لا يطرد معه، وإنما يتّجه أن يكون خبراً من جبريل عليه السلام أن القرآن لا ينزل إلا بأمر الله تبارك وتعالى في الأوقات التي يقدرها، ورؤيت قراءة الأعرج بضم الياء،

ينصب الجنّات على البدل من ﴿يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ﴾، وقرأ الحسن، وعيسى بن عمر، وأبو حيوة برفعها على تقدير: ذلك، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿جَنَّةٌ﴾ على الإفراد والنصب، وكذلك في مصحف عبدالله بن مسعود، وقرأها الأعمش. و«العذن»: الإقامة المستمرة، وقوله: ﴿بِالنَّبِيِّ﴾ أي: أخبرهم من ذلك بما غاب عنهم، وفي هذا مدح لهم على سرعة إيمانهم وقرارهم إذ لم يعاينوا، و«المأتي»

مفعول على بابه، والأتي هو الإنجاز والفعل الذي تضمنه الوعد، وكان إتيانه إنما يقصد به الوعد الذي تقدمه، وقالت جماعة من المفسرين: هو مفعول في اللفظ بمعنى: أت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد، والنظر الأول أصوب.

و«اللغو»: السقط من القول، وهو أنواع مختلفة كلها ليست في الجنة، وقوله: ﴿إِلَّا سَلْمًا﴾ استثناء منقطع، والمعنى: لكن يسمعون سلاماً، وهو تحية الملائكة لهم في كل الأوقات، وقوله: ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ يريد في التقدير، أي: يأتيهم طعامهم مرتين في مقدار اليوم واللييلة من الزمان، ويروى أن أهل الجنة تتسّد لهم الأبواب بقدر الليل في الدنيا، فهم يعرفون البكرة عند افتتاحها والعشي

رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿١١﴾ وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُنْفَخُ حَيًّا ﴿١٢﴾ أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَرَبِّكَ شَيْئًا ﴿١٣﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثًّا ﴿١٤﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عُنِيًّا ﴿١٥﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِمَا صِلَانَا ﴿١٦﴾ وَإِنْ يَنْكُرُوا لِآوَارِدْهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿١٧﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ أَنْقَرُوا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثًّا ﴿١٨﴾ وَإِذَا نُنْفِلُ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا يَسْتِغِيثُ الَّذِينَ كَفَرُوا الَّذِينَ آمَنُوا أَيْ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿١٩﴾ وَكَرِهْنَا أَنُفِلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنَاءَ رِيَّةٍ ﴿٢٠﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدَادًا وَإِذَا رَأَوْا مَوْعِدَهُمْ إِذَا الْعَذَابُ وَإِنَّمَا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٢١﴾ وَيُرِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتِ الصَّلَاةُ حَيْثُ عِنْدَ رَبِّكَ نَوَابِغٌ وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٢٢﴾

مضاف تقديره: «يلقون جزاء الغي»، وبه فسر الزجاج. وقال عبدالله بن عمرو، وعبدالله بن مسعود: العيُّ وإد في جهنم، وبه وقع التوعد في هذه الآية. وقيل: العيُّ والآثام نهران في جهنم، رواه أبو أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ استثناءة يحتمل الاتصال والانفصال، وقوله: ﴿وَأَمِنْ﴾ يقتضي أن الإضاعة أولاً هي إضاعة كفر، هذا مع اتصال الاستثناء، وعليه فسر الطبري. وقرأ الجمهور: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ الحسن كل ما في القرآن: ﴿يَدْخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضم الخاء.

قوله تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾ قرأ جمهور الناس: ﴿جَنَّاتٍ عَدْنٍ﴾

وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه:
﴿إِلَّا يَقُولُ رَبُّكَ﴾.

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: سبب هذه الآية أن النبي ﷺ عنه جبريل مرة، فلما جاءه قال له: يا جبريل قد اشتقت إليك، أفلا تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزلت هذه الآية. وقال مجاهد، والضحاك: سببها أن جبريل عليه السلام تأخر عن النبي ﷺ عند قوله في الأسئلة المتقدمة في سورة الكهف: «فأخبركم» حتى فرح بذلك المشركون، واهتم رسول الله ﷺ، ثم جاءه جبريل عليه السلام، فنزلت هذه الآية في ذلك المعنى، فهي كالتي في الضحى.

وهذه الواو التي في قوله: ﴿وَمَا نَنْزَلُ﴾ هي عاطفة جملة كلام على أخرى، وواصلت بين القولين، وإن لم يكن معناهما واحداً، وحكى النقاش عن قوم أن قوله تعالى: ﴿وَمَا نَنْزَلُ﴾ متصل بقول: ﴿إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا قولٌ ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿لَمْ يَأْتِكُمْ آيَاتُنَا وَمَا حَلَلْنَا وَمَا يَبْدَأُ ذَلِكَ﴾ لفظٌ يحتاج إلى ثلاث مراتب، واختلف المفسرون فيها - فقال أبو العالية: ما بين الأيدي: الدنيا بأسرها إلى النفخة الأولى، وما حَلَلْنَا: الآخرة إلى وقت البعث، وما بين ذلك: ما بين النفختين. وقال ابن جريج: ما بين الأيدي هو ما مرَّ من الزمن قبل إيجاد من في الضمير، وما حَلَلْنَا هو

ما بعد موتهم إلى استمرار الآخرة، وما بين ذلك هو مدة الحياة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية إنما المقصد بها الإشعار بملك الله تعالى لملائكته، وأن قليل تصرفهم وكثيره إنما هو بأمره، وانتقالهم من مكان إلى مكان إنما هو لخدمته؛ إذ الأمكنة له وهُم له، فلو ذهب بالآية إلى أن المراد بما بين الأيدي وما خلف الأمكنة التي تصرفهم فيها، وأن المراد بما بين ذلك هُم أنفسهم ومقاماتهم - لكان وجهاً، كأنه قال: نحن مُقْبِدُونَ بالقدرة، لا تنتقل ولا تنتزل إلا بأمر ربك.

وقال ابن عباس، وقتادة - فيما روي وما أراه صحيحاً عنهما: ما بين الأيدي هي الآخرة، وما خلف هي الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا محتمل المعنى إلا على التشبيه بالمكان، كأن ما بين اليد إنما هو ما تقدم وجوده في الزمان بمثابة التوراة والإنجيل من القرآن، وقول أبي العالية إنما يتصور في بني آدم، وهذه المقالة هي للملائكة، فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي مَن يلحقه نسيان لِيُنَسِّئْنَا إِلَيْكَ في وقت المصلحة به، فإنما ذلك عن قدر له، أي: فلا تطلب أنت يا محمد من الزيارة أكثر مما شاء الله، هذا على ما تقتضيه قوة الكلام على التأويل الواحد، أو فلا تهتم يا محمد بتأخري، ولا تلتفت إلى فرح المشركين بذلك على التأويل الثاني. و﴿نَسِيًّا﴾ فعيلٌ من النسيان والذهول

عن الأمور، وقالت فرقة: ﴿نَسِيًّا﴾ معناه: تاركاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ضعف لأنه إنما نسي النسيان مطلقاً، فيتمكن ذلك في النسيان الذي هو نص، وأما التزكُّ فلا ينتفي مطلقاً، ألا ترى قوله تبارك وتعالى: ﴿وَرَكَّبَهُمْ فِي سُلُكُنَا﴾، وقوله: ﴿وَرَكَّبْنَا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ يَوْمَ الَّذِي فِيهِ يَنْصُرُونَ أُوْلِي الْأَعْيُنِ﴾، فلو قال: نَسِيًّا، أو نحوه من التقييد لم يصح حمله على الترك، ولا حاجة بنا إلى أن نقول: إن التقييد في النسيان لأن المعنى الآخر أظهر. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا نَسِيَّتْ رَبُّكَ﴾، وروى أبو الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ فَاقْبَلُوا»، ثم تلا هذه الآية.

قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ الآية. ﴿رَبُّ﴾ بدل من قوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ﴾، وقوله: ﴿فَاعْتَدِهِ وَاسْتَظِرَّ لِيُنذِرَكُمْ﴾ أمرٌ بحمل تكاليف الشرع وإشعاراً بما بصعوبتها، كالجهاد والحج والصدقات، فهي شريعة تحتاج إلى اصطبار، أمأنا الله عليها. وقرأ الجمهور: ﴿هَلْ تَنْتَهُرُ﴾ بإظهار اللام، وقرأ علي بن نصر عن أبي عمرو بإدغام اللام في التاء، وهي قراءة عيسى، والأعمش، والحسن، وابن محيصن. قال أبو علي: سببويه يجيز إدغام اللام في الطاء والتاء والذال والشاء والصاد والزاي والسين، وقرأ أبو عمرو: ﴿هَلْ تُؤْتِبُ﴾ بإدغامها في الشاء

وإدغامها في التاء أحق لأنها أدخل معها في الفم، ومن إدغامها في التاء ما روي من قول مزاحم العقيلي: قَدْزَذَا وَلَكِنْ هَشْعَيْنِ مُتَّيماً عَلَى صَوِّهِ بَزِقَ آخِرَ اللَّيْلِ نَاصِبٍ؟ وقوله: ﴿سَيِّئًا﴾ قال قوم - وهو ظاهر اللفظ -: معناه: موافقاً في الاسم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحسن فيه أن يريد بالاسم ما تقدم من قوله: ﴿رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: هل تعلم من يُسَمَّى بهذا ويوصف بهذه الصفة؟ وذلك أن الأمم لا يُسَمُّون بهذا الاسم وثناً ولا شيئاً سوى الله تعالى، وأما الألوهية والقدرة فقد يوجد السمي فيها، وذلك باشتراك لا بمعنى واحد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿سَيِّئًا﴾ معناه: مثيلاً أو شبيهاً أو نحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن، وكان السمي بمعنى المسامي والمضاهي، فهو من السُمُو، وهذا القول يحسن في هذه الآية ولا يحسن فيما تقدم في ذكر يحيى عليه السلام.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الْإِنْسَانُ﴾ اسم للجنس يُراد به الكافرون، ورُوي أن سبب هذه الآية هو أن رجلاً من قريش كانوا يقولون هذا ونحوه، ورُوي أن القائل هو أبي بن خلف، جاء إلى النبي ﷺ بعظم رفات ونفخ فيه وقال: أيبعث هذا؟ وكذب وسخر، وقيل: إن القائل هو العاصي بن وائل، وقرأ الأعرج، وأبو عمرو: ﴿وَأَذًا﴾

بالاستفهام الظاهر، وقرأت فرقة: ﴿إِذَا﴾ دون ألف استفهام، وقد تقدم هذا مستوعباً. وقرأت فرقة: ﴿مِثُّ﴾ بكسر الميم، وقرأت فرقة بضمها. واللام في قوله: ﴿لَسَوْفَ﴾ مجلوبة على الحكاية لكلام معلّم بهذا المعنى، كأن قاتلاً قال لكافر: إذا مِثُّ يا فلان لسوف تخرج حياً، فقرّره الكافر على جهة الاستبعاد، وكرر الكلام حكاية للقول الأول. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَخْرَجَ﴾ بضم الهمزة، وقرأ الحسن - بخلاف - وأبو حيوة: ﴿أَخْرَجَ﴾ بفتح الهمزة وضم الراء.

وقوله تعالى: ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ الآية احتجاج، خاطب الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ راداً على مقالة الكافر. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَوَّلًا يَذْكُرُ الْإِنْسَانَ﴾ وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿أَوْ لَا يَذْكُرُ﴾ بشد الذال والكاف، وقرأ أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿أَوْ لَا يَتَذَكَّرُ﴾، والنشأة الأولى والإخراج من العدم إلى الوجود أوضح دليل على جواز البعث من القبور، ثم قرّر ذلك وأوجبه السمع، وفي قوله سبحانه: ﴿وَلَرَّكَ يَكْ سَيِّئًا﴾ دليل على أن المعدوم لا يُسَمَّى شيئاً، قال أبو علي الفارسي: أراد شيئاً موجوداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه نزعة اعتزالية فتأملها.

وقوله تعالى: ﴿فَوَرَّيْكَ لَنَحْتَرِيَهُمْ﴾ الآية وعيدٌ يكون ما بعده على أصعب وجوهه، والضمير في قوله: ﴿لَنَحْتَرِيَهُمْ﴾، عائد على الكفار

القائلين ما تقدم، ثم أخبر أن يقرن بهم الشياطين المُغْوِيْنَ لهم، وقوله: ﴿سَيِّئًا﴾ جمع جاثٍ كقاعد وقعود وجالس وجلوس، وأصله: جُثُوًّا، وليس في كلام العرب واو متطرفة قبلها ضمة فوجب أن تُعَلَّ، ولم يُعْتَدَ ها هنا بالساكن الذي بينهما لِخَفْتِهِ وَقَلَّةِ حَوْلِهِ فَقَلِبْتَ يَاءَ فِجَاءِ جُثُوًّا، فاجتمع الواو والياء وسبقت إحداهما بالسكون قلبت ياء، ثم أذغمت الياء في الياء ثم كسرت التاء للتناسب بين الكسر والياء. وقرأ الجمهور: ﴿جُثِيًّا﴾ و﴿صَلِيًّا﴾ بضم الجيم والصاد، وقرأ ابن وثاب والأعمش: ﴿جُثِيًّا﴾ و﴿صَلِيًّا﴾ بكسر الجيم والصاد. وأخبر الله تعالى أنه يُحْضِرُ هَوْلًا مِنَ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ مَعَ الشَّيَاطِينِ فَيَجْثُونَ حَوْلَ جَهَنَّمَ، وهي قعدة الخائف الذليل على ركبته كالأسير ونحوه، وقال قتادة: ﴿جُثِيًّا﴾ معناه: على ركبهم، وقال ابن زيد: الجثي شُرُّ الْجُلُوسِ.

و﴿السَّيِّئَةُ﴾: الفرقة المرتبطة بمذهب واحد، المتعانة فيه، كأن بعضهم يشيع بعضاً، أي يئنه منه، ومنه تشيع النار بالحطب، وهو وَقْدُهَا بِالْحَطَبِ شَيْئًا بَعْدَ شَيْءٍ، ومنه قيل للشجاع: مشيع القلب، فأخبر الله تعالى أنه ينزع من كل شيعة أعتاها وأولاها بالعذاب فتكون تلك مقدمتها إلى النار، وقال أبو الأحوص: المعنى: نبدأ بالأكابر جُزْماً. ثم أخبر تعالى في الآية بِعَدُوِّهِ أَنَّهُ أَعْلَمُ بِمَسْتَحْقِي ذَلِكَ وَأَبْصَرُ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَخْفَ عَلَيْهِ حَالُهُمْ مِنْ أَوْلِيَّهَا إِلَى آخِرِهَا.

وقرأ بعض الكوفيين، ومعاذ بن مسلم، وهارون القاريء: ﴿أَيْهَمُ﴾ بالنصب، وقرأ الجمهور: ﴿أَيْهَمُ﴾ بالضم، إلا أن طلحة والأعمش سكتا ميم ﴿أَيْهَمُ﴾ واختلف الناس في وجه رفع (أي) - فقال الخليل: رَفَعَهُ على الحكاية بتقدير: الذي يُقال فيه من أجل عُنُوهُ: أَيْهَمُ أَشَدُّ، وقرنه بقول الشاعر:

وَلَقَدْ أَبَيْتُ مِنَ الْفَتَاةِ بِمَنْزِلِ
فَأَبَيْتُ لَا حَرْجَ وَلَا مَحْرُومَ
أي: فأبَيْتُ يُقال في: لا حَرْجَ ولا محروم، ورجح الزجاج قول الخليل، وذكر عنه النحاس أنه غلط سيبويه في هذه المسألة، قال سيبويه: ويلزم على هذا أن يجوز: «اضرب السارق الخبيث»، أي الذي يقال له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس بلازم؛ من حيث هذه أسماء مفردة والآية جملة، وتسلب الفعل على المفرد أعظم منه على الجملة، ومذهب سيبويه أن ﴿أَيْهَمُ﴾ مبني على الضم؛ إذ هي أخت لـ «الذي» ولـ «ما»، وخالفتُهما في جواز الإضافة فيها فأعربت لذلك، فلما حذف من صلتها ما يعود عليها ضعفت فرجعت إلى البناء، وكان التقدير: أَيْهَمُ أَشَدُّ. وقال أبو علي: حذف ما الكلام مفتقر إليه فوجب البناء، وقال يونس: عُلِقَ عنها الفعل فارتفعت بالابتداء، قال أبو علي: معنى ذلك أنه يعمل في موضع ﴿بِنِ شَيْعَةَ﴾ إلا أنه ملغى لأنه تعلق جملة، إلا أفعال الشك كظننت ونحوها مما لم يتحقق وقوعه. وقال

الكسائي: ﴿لَتَنْزِعَنَّ﴾ معناه: لَتُنْزِعَنَّ، فعومل معاملة الفعل المراد فلم يعلم في ﴿أي﴾. وقال المبرد: ﴿أَيْهَمُ﴾ متعلق بـ ﴿شَيْعَةَ﴾ فلذلك ارتفع، والمعنى: من الذين تشايعوا أَيْهَمُ أَشَدُّ، كأنهم يتبارون إلى هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزمه أن يقدر مفعولاً لـ ﴿نَنْزِعَنَّ﴾ محذوفاً.

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَيْهَمُ أَكْبَرُ﴾. و﴿عِيَّتًا﴾ مصدر، وأصله: عتروا، أُعِلَّ بما أُعِلَّ به ﴿عِيَّتًا﴾، وروى أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: ينزلق عُتُقُ من النار فيقول: إني أمرت بكل جبار عنيد، فتلفظهم... الحديث.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

أي: نحن في ذلك النَّزْعِ لا نضع شيئاً في غير موضعه؛ لأننا قد أحطنا علماً بكل أحد، والأولى بصلي النار نعرفه، و«الصِّلِيُّ» مصدرٌ صِلِي يَصْلِي إذا باشر. قال ابن جريج: المعنى: أولى بالخلود.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْكُرَ لِأَلَّا وَرِدَهَا﴾ حَشَمٌ، والواو تقتضيه، ويفسره قول النبي ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم تمسه النار إلا تجلته القسم». وقرأ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وجماعة: ﴿وَأِنْ مِنْهُمْ﴾ بالهاء، على إرادة الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فلا شَغَبَ في هذه القراءة.

وقالت فرقة من الجمهور القارئين ﴿مِنْكُمْ﴾: المعنى: قل لهم يا

محمد، فإنما المخاطب بـ ﴿مِنْكُمْ﴾ الكفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتأويل هؤلاء أيضاً سهل التناول.

وقال الأكثر: المخاطبُ العالمُ كله، ولا بُدَّ من ورود الجميع، واختلفوا في كيفية ورود المؤمنين -

فقال عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وخالد بن معدان، وابن جريج، وغيرهم: ورود دخول، لكنها لا تعدو على المؤمنين، ثم يخرجهم الله منها بعد معرفتهم بحقيقة ما نَجَّوا منه. وروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في هذه

المسألة لنافع بن الأزرق الخارجي: أمّا أنا وأنت فلا بُدَّ أن نردها، أمّا أنا

فينجيني الله منها، وأمّا أنت فما أظنه يُنجيك، وقالوا: في القرآن أربعة

أوراد معناها الدخول، هذا أحدها، وقوله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾، وقوله تعالى:

﴿وَسَوْفَ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ رَدًّا﴾،

وقوله سبحانه: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ

أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ﴾، وقالوا:

كان دعاء بعض السلف: «اللهم أدخلني النار سالماً، وأخرجني منها غانماً»، وروى جابر بن عبدالله عن النبي ﷺ أنه قال: «الورود في هذه الآية هو الدخول»، وأشفق كثير من العلماء من تحقيق الورود والجهل بالصدور.

وقالت فرقة: بل هو ورود إشراف وإطلاع وقرب، كما تقول: «وردت الماء» إذا جشته، وليس يلزم أن تدخل فيه، قالوا: وحسب المؤمنين

وقالت فرقة من الجمهور القارئين

﴿مِنْكُمْ﴾: المعنى: قل لهم يا

محمد، فإنما المخاطب بـ ﴿مِنْكُمْ﴾ الكفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتأويل هؤلاء أيضاً سهل التناول.

وقال الأكثر: المخاطبُ العالمُ كله، ولا بُدَّ من ورود الجميع، واختلفوا في كيفية ورود المؤمنين -

فقال عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن عباس، وخالد بن معدان، وابن جريج، وغيرهم: ورود دخول، لكنها لا تعدو على المؤمنين، ثم يخرجهم الله منها بعد معرفتهم بحقيقة ما نَجَّوا منه. وروى عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال في هذه

بهذا هولاً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ﴾.

وروت فرقة أن الله تعالى يجعل النار يوم القيامة خادمة الأعلى كأنها إهالة، فيأتي الخلق كلهم برؤم وفاجرهم، فيقومون عليها، ثم تسوخ بأهلها، ويخرج المؤمنون الفائزون ولم ينلهم ضرر، فقالوا: هذا هو الورود.

وروت حفصة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل النار أحد من أهل بدر والحديبية»، قالت: فقلت: يا رسول الله، وأين قول الله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَنْزَكُ إِلَا وَارِدُهَا؟﴾ فقال رسول الله ﷺ: «قَمَهُ»، ثُمَّ نَجَّى الَّذِينَ اتَّقَوْا»، ورجح الزجاج هذا القول بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾.

وذكر النقاش عن بعضهم أنه قال: نسخ قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَنْزَكُ إِلَا وَارِدُهَا﴾ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنَّا مُبْعَدُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وليس هذا موضع نسخ.

وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ورودهم هو جوازهم على الصراط، وذلك أن الحديث الصحيح تضمن أن الصراط مضروب على جسر جهنم، فيمر الناس كالبرق الخاطف، وكالريح، وكالجواد من الخيل، وعلى مراتب، ثم يسقط الكفار في جهنم وتأخذهم كلاليب، قالوا: فالجواز على

الصراط هو الورود الذي تضمنته هذه الآية.

وقال مجاهد: ورود المؤمنين هو الحمى التي تصيبهم في دار الدنيا، وفي الحديث «الحمى من فيح جهنم، فأبردوها بالماء»، وفي الحديث أيضاً «الحمى حظ كل مؤمن من النار»، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال لرجل عاده من الحمى: «إن الله يقول: هي ناري أسلطها على عبدي المؤمن لتكون حظه من نار الآخرة»، فهذا هو الورود.

و «الْحَتْمُ»: الأمر المتخذ المجذوم، وقرأ أبي بن كعب، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهما: «قَمْ» بفتح الشاء على الظرف، وقرأ ابن أبي ليلى: «قَمَهُ» بفتح الشاء وهاء السكت، وقرأ نافع وابن كثير، وجمهور الناس: «نَجَّى» بفتح النون الثانية وشد الجيم، وقرأ يحيى، والأعمش: «نَجَّي» بسكون النون الثانية وتخفيف الجيم، وقرأت فرقة: «نَجَّي» بضم النون الواحدة وشد الجيم وكسرها، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «نَمَّ» بفتح الشاء «نَحَى» بالحاء غير منقوطة.

و «الَّذِينَ اتَّقَوْا» معناه: اتقوا الكفر. وقال بعض العلماء: «لا يضيع أحد بين الإيمان والشفاعة»، و«وَنَذَرُ» دالة على أنهم كانوا فيها، و«الظلم» هنا هو ظلم الكفر. وقد تقدم القول في قوله: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «نَمَّ» نَجَّي الَّذِينَ اتَّقَوْا مِنْهَا وَتَشْرِكُ الظَّالِمِينَ».

﴿٧٣﴾ - ﴿٧٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الأعرج، وابن محيصن، وأبو حيوة: «وَإِذَا يُثَلَّىٰ» بالياء من تحت.

وسبب هذه الآية أن كفار قريش لما كان الرجل منهم يكلم المؤمن في معنى الدين فيقرأ المؤمن عليه القرآن، ويهره بآيات النبي ﷺ، كان الكافر منهم يقول: إن الله إنما يحسن لأحب الخلق إليه، وإنما يتم على أهل الحق، ونحن قد أنعم علينا دونكم، فنحن أغنياء وأنتم فقراء، ونحن أحسن مجلساً وأجمل شارة، فهذا المعنى ونحوه هو المقصود بالتوقيف في قوله تعالى: ﴿أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ؟﴾

وقرأ نافع، وابن عباس رضي الله عنهما: «مَقَامًا» بفتح الميم، و«لَا مَقَامَ لَكُمْ» بالفتح أيضاً، وهو المصدر من قام، أو الظرف منه في موضع القيام. وهذا يقتضي لفظ المَقَام، إلا أن المعنى في هذه الآية يجوز أنه واقع على الظرف فقط، وقرأ أبي رضي الله عنه: «في مقام أمين»، بضم الميم، وقرأ ابن كثير: «مَقَامًا» بضم الميم، وهو ظرف من أقام، وكذلك أيضاً في المصدر منه مثل «يَجْرِيهَا وَمِرْسَهَا»، وقرأ: «في مقام أمين» و«لَا مَقَامَ لَكُمْ» بالفتح، وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم جميعهم بالفتح، وروى حفص عن عاصم: «مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا» بالضم. و «الثديي» والثادي: المجلس فيه الجماعة، ومنه قول حاتم الطائي:

رواها أشهب عن نافع،
وقرأ أبو بكر عن عاصم:
﴿وَرِيثًا﴾ بياء ساكنة بعدها
همزة، وهو على القلب،
وزنها فِلْعًا، وكأنه من
راء، وقال الشاعر:

وَكُلُّ خَلِيلٍ رَائِيٍّ فَهَوَّ قَائِلٌ
مِنْ أَجْلِكَ: هذا هامة اليوم أو غِد
فأما القراءةان المهموزتان
فهما من رؤية العين،
الرئي اسم المرئي الظاهر
للعين كالطحن والسقي،
قال ابن عباس: الرئي:
المنظر، قال الحسن:
ريباً بمعناه، وأما المشددة
الياء فقييل: هي بمعنى

المهموزة إلا أن الهمزة
خفت لتستوي رؤوس الآي. وذكر
منذر بن سعيد عن بعض أهل العلم
أنه من الرئي في السقيا، كأنه أراد
أنهم خير منهم بلاداً وأطيب أرضاً
وأكثر نعماً؛ إذ جملة النعم إنما هي
من المطر، وأما القراءة المخففة الياء
فضعيفة الوجه، وقد قيل: هي
لحن، وقرأ: سعيد بن جبير، ويزيد
البربري، وابن عباس أيضاً: ﴿وَرِيثًا﴾
بالزاي، وهي بمعنى المليس وهيته،
تقول: رَيْثٌ بمعنى رَيْثٌ.

وأما قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ فِي
الْفُتُلَةِ﴾ فقولٌ يحتمل معنيين:
أحدهما أن يكون بمعنى الدعاء
والابتهال، كأنه يقول: الأضل منا
ومنكم مد الله له حتى يؤول ذلك
إلى عذابه. والمعنى الآخر أن يكون
بمعنى الخبر كأنه يقول: من كان

وَدُعِيَتْ فِي أُولَى السُّدِيِّ وَلَمْ
يُنْظَرْ إِلَيَّ بِأَعْيُنِ خُزُرٍ
وقوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ﴾
مخاطبة من الله تبارك وتعالى لنبيه
محمد ﷺ، خبر يتضمن كسر
حُجَّتَهُمْ واحتقار أمرهم؛ لأن
التقدير: هذا الذي افتخروا به لا قدر
له عند الله، وليس بمنج لهم، فكم
أهلك الله من الأمم لما كفروا وهم
أشد من هؤلاء وأكثر أموالاً وأجمل
منظراً. و«القرن»: الأمة يجمعها
العصر الواحد، واختلف الناس في
قدر المدة التي إذا اجتمعت أمة
سُميت تلك الأمة قرناً - فقيل: مائة
سنة، وقيل: ثمانون سنة، وقيل:
سبعون، وقد تقدم القول في هذا غير
مرة. و«الأثاث»: المال العين
والعروض والحيوان، وهو اسم عام،
واختلف، هل هو جمع أو إفراد؟
فقال الفراء: هو اسم جمع لا واحد
له من لفظه كالمتاع، وقال خلف
الأحمر، هو جمع واحد أثاثه،
كحمامة وحمام، ومنه قول الشاعر:
أَسَاقَتِكَ الطَّعَائِنُ يَوْمَ بَانُوا
بِذِي الرُّثِيِّ الْجَمِيلِ مِنَ الْأَثَاثِ؟
وأشدد أبو العباس:

لَقَدْ عَلِمْتُ عُرْبِيَّةً حَيْثُ كَانُوا
بَانَا نَحْنُ أَكْثَرُهُمْ أَثَاثًا
وقرأ نافع - بخلاف - وأهل
المدينة: ﴿وَرِيثًا﴾ بياء مشددة، وقرأ
ابن عباس رضي الله عنه فيما روي
عنه، وطلحة: ﴿وَرِيثًا﴾ بياء مخففة،
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو،
وعاصم، وحمزة، والكسائي:
﴿وَرِيثًا﴾ بهمزة بعدها ياء، على وزن
رغياً، ورويت عن نافع، وابن عامر،

أَفْرَوَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بَيْنَيْنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّكَ مَا لَوْ وُلِدْنَا
﴿٧٥﴾ أطلع القيت أراءخذ عند الرحمن عهداً ﴿٧٦﴾ كلاً
سكنب مايقول ومثله من العذاب مدا ﴿٧٧﴾ وترثه
مايقول ويأيننا فرداً ﴿٧٨﴾ واتخذوا من دون الله الهمة
ليكونوا لهم عدا ﴿٧٩﴾ كلاً سكرورين بعبادتهم ويكفرون
عليهم ضداً ﴿٨٠﴾ الزر أرتنا أرتنا الشيطان على الكافرين
توزهم أراً ﴿٨١﴾ فلا تعجل عليهم إنما نعد لهم عدا ﴿٨٢﴾
يوم تحشر المتقين إلى الرحمن وقد ﴿٨٣﴾ ويسوق المجرمين
إلى جهنم ورداً ﴿٨٤﴾ لا يملكون الشفاعة إلا من أخذ عند
الرحمن عهداً ﴿٨٥﴾ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴿٨٦﴾ لقد
حشمت شيئاً إذا ﴿٨٧﴾ تكاد السموات ينظرن منه
وتنشئ الأرض ونحو الجبال هذا ﴿٨٨﴾ أن دعوا للرحمن ولداً
﴿٨٩﴾ وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ﴿٩٠﴾ إن كل من في
السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً ﴿٩١﴾ لقد أحصاهم
وعدهم عداً ﴿٩٢﴾ وكلهم آتية يوم القيمة فرداً ﴿٩٣﴾

ضالاً من الأمم فعادة الله فيه أن يمد
له ولا يعاجله حتى يفضي ذلك إلى
عذابه في الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فاللام في قوله تعالى: ﴿يَلْمِذَّة﴾ على
المعنى الأول لأم رغبة في صيغة
أمر، وعلى المعنى الثاني لأم أمر
دخلت على معنى الخير ليكون أركد
وأقوى، وهذا موجود في كلام
العرب وفصاحتها.

﴿٧٥﴾ - ﴿٧٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿حَتَّى﴾ في هذه الآية حرف ابتداء
دخلت على جملة، وفيها معنى
الغاية، و«إذا» شرط، وجوابها في
قوله تعالى: ﴿سَيَمْلِكُونَ﴾، و«الرؤية»
رؤية العين، و«الكتاب» و«النسأة»
بدل من «نا» التي وقعت عليها
«وأوا». و«إنما» هي المدخلة

للسك في أول الكلام، والثانية عطف عليها. و﴿الْعَذَابُ﴾ يريد به عذاب الدنيا ونُصْرَةُ الْمُؤْمِنِينَ عليهم، و﴿الْجُنْدُ﴾ الثُّبْرَةُ والقائمون بأمر الحرب، و﴿شَرٌّ مَكَانًا﴾ بإزاء قولهم: ﴿حَيْرٌ مَقَامًا﴾، و﴿وَأَضَعُ جُنْدًا﴾ بإزاء قولهم: ﴿وَأَحْسَنُ نَيْبًا﴾.

ولما ذكر ضلالة الكفرة، وارتباكهم في الامتحان بنعم الدنيا وعماهم عن الطريق المستقيم، عقب ذلك بذكر نعمته على المؤمنين، في أنه يزيدهم هدى في الارتباط إلى الأعمال الصالحة، والمعرفة بالدلائل الواضحة، وزيادة العلم دأباً، قال الطبري عن بعضهم: المعنى: بناسخ القرآن ومنسوخه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال.

و﴿وَأَلْبَيْتُنَا أَلْبَيْتَهُ﴾ إشارة إلى ذلك الهدى الذي يزيدهم الله، وهذه النعم على هؤلاء خيرٌ عند الله ثواباً وخير مرجعاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول في زيادة الهدى سهلٌ بيِّنٌ الوجوه.

و﴿وَأَلْبَيْتُنَا أَلْبَيْتَهُ﴾ كلُّ عملٍ صالح يرفع الله به درجة عامله، وقال الحسن: هي الفرائض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الصلوات الخمس، وروى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنها الكلمات المشهورات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فقد قال ﷺ لأبي الدرداء رضي الله عنه: ﴿خُذْهُنَّ قَبْلَ أَنْ يَحَالَ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُنَّ، فَهُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ، وَهُنَّ مَنْ كُنُوهُنَّ الْجَهَنَّةُ،

وروي عنه ﷺ أنه قال يوماً: ﴿خُذُوا جُنَّتَكُمْ﴾، قالوا: يا رسول الله، أَمِنَ عَدُوَّ حَضْرَى؟ قال: ﴿مِنَ النَّارِ﴾، قالوا: ما هي يا رسول الله؟ قال: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ، هُنَّ الْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ﴾، وكان أبو الدرداء رضي الله عنه إذا ذكر هذا الحديث يقول: ﴿لَأَهْلَلَنَّ وَأَكْبِرَنَّ اللَّهُ وَأُسَبِّحُنَّهُ حَتَّى إِذَا رَأَى الْجَاهِلَ ظَنَّنِي مَجْنُونًا﴾.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآبَائِنَا﴾. الفاء في قوله: ﴿أَفَرَأَيْتَ﴾ عاطفة بعد ألف الاستفهام، وهي عاطفة جملة على جملة، و﴿الَّذِي كَفَرُ﴾ يعني به العاصي بن وائل السهمي، قاله جمهور المفسرين، وخبره أن حَبَابَ بْنِ الْأَرْثَ كَانَ قَيْنًا فِي الْجَاهِلِيَّةِ، فَعَمِلَ لَهُ عَمَلًا، فَاجْتَمَعَ لَهُ عِنْدَهُ دِينَ، فَجَاءَهُ يَتَقَاضَاهُ، فَقَالَ لَهُ الْعَاصِي بْنُ وَائِلٍ: لَا أَنْصَفُكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ، فَقَالَ حَبَابٌ: لَا أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - حَتَّى يَمِيتَكَ اللَّهُ ثُمَّ يَبْعَثُكَ، قَالَ الْعَاصِي: أَوْ مَبْعُوثٌ أَنَا بَعْدَ الْمَوْتِ؟ قَالَ حَبَابٌ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِذَا كَانَ ذَلِكَ فَسَيَكُونُ لِي مَالٌ وَوَلَدٌ، وَعِنْدَ ذَلِكَ أَقْضِيكَ دِينَكَ، فَزَلَّتِ الْآيَةُ فِي ذَلِكَ.

وقال الحسن: نزلت في الوليد بن المغيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد كانت للوليد أيضاً أقوالاً تشبه هذا الغرض.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿وَوَلَدًا﴾ على معنى اسم الجنس، بفتح الواو واللام، وكذلك كل ما في سائر القرآن، إلا في سورة نوح فإنهما قرأ

بضم الواو وسكون اللام. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر بفتح الواو في كل القرآن، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿وَوَلَدًا﴾ بضم الواو وسكون اللام، وكذلك في جميع القرآن، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَوَلَدًا﴾ بكسر الواو وسكون اللام، واخْتَلَفَ مَعَ ضَمِّ الْوَاوِ - فَقَالَ بَعْضُهُمْ: هُوَ جَمْعٌ وَلَدٌ كَأَسَدٍ وَأَسَدٌ، وَاجْتَنَبُوا بِقَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَلَسَقَدَ رَأَيْتُ مَعَاشِرًا
قَدَ تَمَرُوا مَالًا وَوَلَدًا
وقال بعضهم: هو مفرد، واحتجوا بقول الشاعر:

فَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ فِي بَطْنِ أُمِّهِ
وَلَيْتَ فُلَانًا كَانَ وُلْدَ حِمَارٍ
قال أبو علي رحمه الله: وفي قراءة حمزة والكسائي ما كان مفرداً قصد به المفرد، وما كان جمعاً قصد به الجمع، وقال الأخفش: الولد: الابن، والوُلْدُ: الأهل والوالد، وقال غيره: الولد: بطن الرجل الذي هو منه، حكاه أبو علي في الحجة.

وقوله تعالى: ﴿أَطَّلَعَ الْغَيْبَ﴾ توقيف، والألف للاستفهام، وحذفت في الوصل للاستغناء عنها. و﴿وَأَتَّخِذُ الْعَهْدَ﴾ معناه: بالإيمان والأعمال الصالحة. و﴿كَلًّا﴾ زجرٌ وردعٌ، ثم أخبر تعالى أن قول هذا الكافر سيكتب، على معنى جَفَظَهُ عَلَيْهِ وَمَعَاتَبَهُ بِهِ، وقرأ عاصم، والأعمش: ﴿سَيَكْتُبُ﴾ بياءٍ مضمومة، وقرأ: ﴿سَتَكْتُبُ﴾ بالنون أبو عمرو، والحسن، وعيسى. و﴿مَدَّ الْعَذَابَ﴾ هو إطالته وتعظيمه، وقوله تعالى: ﴿مَّا يَقُولُ﴾، أي: هذه الأشياء التي سماها وقال إنه يؤتاها في الآخرة يَرِثُ اللَّهُ

ماله منها في الدنيا بإهلاكه وتركه لها، فالوراثة مستعارة، ويحتمل أن تكون خيبته في الآخرة كوارثة ما أُمِّل. وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: **﴿وَنُرْتَهُ مَا عِنْدَهُ﴾**، وقال النحاس: **﴿وَنُرِيئُهُ مَا يَقُولُ﴾** معناه: نَحْفَظُهُ عَلَيْهِ فَعَاقِبُهُ، ومنه قول النبي ﷺ: «العلماء ورثة الأنبياء»، أي حفظه ما قالوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن هذا الجُزْم يورث هذه المقالة. وقوله تعالى: **﴿وَوَيْلٌ لِّنَّاسٍ فَرَدَّا﴾** يتضمن ذلك.

٨١ - ٨٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿اتَّخَذُوا﴾ افتعل من (أخذ) لكنه يتضمن إغداداً من المتَّخِذ للمُتَّخِذِ، وليس ذلك في (أخذ)، والضمير في **﴿اتَّخَذُوا﴾** لِعِبَادَةِ الأوثان، و«الآلهة»: الأصنام وكُلُّ من عُبِدَ من دون الله تبارك وتعالى، ومعنى **﴿عِبْرًا﴾** العموم في النَّصْرَة والمنفعة وغير ذلك من أوجه الخير.

وقوله تعالى: **﴿كَلَّا﴾** زَجْرٌ وَرَدٌّ، وهذا المعنى لازم لـ (كَلَّا)، فإن كان القول المردود منصوصاً عليه بان المعنى، وإن لم يكن منصوصاً عليه فلا بد من أمر مردود يتضمنه القول كقوله عز وجل: **﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٍ﴾**، فإن قوله: **﴿عَلَى الْإِنْسَانِ مَا لَرَبِّهِ﴾** يتضمن، مع ما قبله أن الإنسان يزعم من نفسه ويرى أن له حولاً ما ولا يتفكر جداً في أن الله علمه ما لم يعلم وأنعم عليه بذلك.

وقرأ الجمهور: **﴿كَلَّا﴾** على ما فسزناه، وقرأ أبو نهيك: **﴿كَلَّا﴾** بفتح الكاف والتثنية، حكاه عنه أبو الفتح، وهو نعت للآلهة. وحكى

عنه أبو عمرو الداني **﴿كَلَّا﴾** بضم الكاف والتثنية، وهو منصوب بفعل مضمر يدل عليه **﴿سَيَكْفُرُونَ﴾**، تقديره: يرفضون أو يتركون أو يجحدون ونحوه.

واختلف المفسرون في الضمير الذي في **﴿سَيَكْفُرُونَ﴾** وفي **﴿يَمَادَتِهِمْ﴾** - فقالت فرقة: الأول للكفار والثاني للمعبودين، والمعنى أنه سيجيء يوم القيامة من الهول على الكفار والشدة ما يدفعهم إلى جحد الكفر وعبادة الأوثان، وذلك كقوله تعالى حكاية عنهم: **﴿وَاللَّهُ رَبَّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾**.

وقالت فرقة: الأول للمعبودين والثاني للكفار، والمعنى أن الله تعالى يجعل للأصنام حياة تنكر بها ومعها عبادة الكفار وأن يكون لها هي من ذلك ذنب، وأما المعبدون من الملائكة وغيرهم فهذا منهم بَيِّنٌ، وقوله تعالى: **﴿تَوَزَّهُمْ﴾** معناه: يجيئهم منه خلاف ما أُمِّلوه فيؤول بهم ذلك إلى ذلٍّ ضد ما أُمِّلوه من العز، - وهذه صفة عامة، وقال قتادة: معناه: قُرْآنًا، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: أعوانًا، وقال الضحاك: أعداء، وقال ابن زيد: بلاء وقيل غير هذا مما لفظ القرآن أعم منه وأجمع للمعنى المقصود، و«الضد» هنا مصدرٌ يوصف به الجمع كما يوصف به الواحد.

وحكى الطبري عن ابن نهيك أنه قرأ: **﴿كُلُّ﴾** بالرفع، ورفعت بالابتداء.

قوله تعالى: **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ﴾** الآية. الرؤية رؤية قلب، و**﴿أَرْسَلْنَا﴾** معناه: سلطنا، أو لم نُحَلِّ بينهم وبينهم فهو تسليط، وهو

مثل قوله تعالى: **﴿نَقِصَ لَهُ شَيْطَانًا﴾**، وتعديته بـ **﴿عَلَى﴾** دالة على أنه تسليط. و**﴿تَوَزَّهُمْ﴾** معناه: تُثَلِّقُهُمْ وتحرِّكُهُمْ إلى الكفر والضلال، وقال قتادة: تزعجهم إزعاجاً، وقال ابن زيد: تُثَلِّقُهُمْ إِشْلَاءً، ومنه أزيز القيدر، وهو غَلِيَانُهُ، ومنه ما في الحديث: أتيت رسول الله ﷺ فوجدته يصلي وهو يبكي، ولصدره أزيز كأزيز الرجل.

قوله تعالى: **﴿فَلَا تَعَجَّلْ عَلَيْهِمْ﴾**، أي: فلا تستبسط عذابهم وتُحِبِّعْهُم، وقوله: **﴿نَعُدُّ لَهُمْ عَذَابًا﴾** أي مدة نعمتهم وقبيح أعمالهم لتصير بهم إلى العذاب إما في الدنيا، وإلا ففي الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعد أنفاسهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما تضمنته هذه الألفاظ من الوعيد بعذاب الآخرة هو العامل في قوله تعالى: **﴿يَوْمَ﴾**، ويحتمل أن يعمل فيه فعل مقدر، تقديره: واذكر، أو اخذر، ونحو هذا. و«الحشر»: الجمع، وقد صار في عرف ألفاظ الشرع: البعث من القبور، وقرأ الحسن: **﴿يَوْمَ يُخَشِرَةُ الِّمُتَّقُونَ وَيُسَاقِ الْمُجْرِمُونَ﴾**، وروي عنه: **﴿ويسوق المجرمين﴾**، و«المتقون»: المؤمنون الذين غفر لهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر هذه الروايات أنها بعد انقضاء الحساب، وإنما هي النهوض إلى الجنة، وكذلك «سوق المجرمين» إنما هو لدخول النار. و«وقفاً» قال المفسرون: معناه: رُكْبَانًا، وهي عادة الوفود؛ لأنهم سراة الناس وأحسنهم

الاستثناء متصلاً، وقد قال رسول الله ﷺ: «لا أزال أشفع حتى أقول: يا رب شفني فيمن قال لا إله إلا الله، فيقول الله: يا محمد ليست لك، ولكنها لي».

وقالت فرقة: الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْكُونَ﴾ للمتقين، وقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أي: إلا من كان له عمل صالح مُبْرَز يحصل به في حيز من يشفع، وقد تظاهرت الأحاديث أن أهل العلم والفضل والصلاح يَشْفَعُونَ فَيُشْفَعُونَ، روي عن النبي ﷺ أنه قال: «في أمتي رجل يدخل الله بشفاعته الجنة أكثر من بني تميم»، قال قتادة رحمه الله: وكنا نحدث أن الشهيد يشفع في سبعين.

وقال بعض هذه الفرق: معنى الكلام: إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهداً، أي: لا يملك المتقون الشفاعة إلا لهذه الصنعة فتجيء [من] في التأويل الواحد للشافعين، وفي الثاني للمشفوع فيهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتل الآية أن يراد بـ ﴿مَنْ﴾ محمد ﷺ وبـ (الشفاعة) الخاصة له ﷺ لعامة الناس، ويكون الضمير في ﴿يَلْكُونَ﴾ لجميع أهل الموقف، ألا ترى أن سائر الأنبياء يتدافعون الشفاعة حتى تصير إليه فيقوم إليها ﷺ، فالعهد - على هذا - النص على أمر الشفاعة في قوله تعالى:

﴿عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

(٨٨) - (٩٦) تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكفار من العرب في قولهم: الملائكة

هريرة، والحسن، رضي الله عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهم القوم الذين ينحفزون من عطشهم لورود الماء، ويحتمل أن يكون المصدر، والمعنى: نوردهم وزداً، وهكذا يجعله من رأى أن في القرآن أربعة أوراد، وقد تقدم ذكر ذلك.

واختلف المتأولون في الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يَلْكُونَ﴾ - فقالت فرقة: هو عائذ على ﴿الْمُجْرِمِينَ﴾، أي: لا يملكون أن يُشْفَعَ لهم ولا

سبيل لهم إليها، وعلى هذا التأويل فهم مشركون خاصة، ويكون قوله سبحانه: ﴿إِلَّا مَنْ أَخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ استثناء منقطعاً، أي: لكن من اتخذ عهداً يُشْفَع له، و«العهد» - على هذا - الإيمان، قال ابن عباس رضي الله عنهما: العهد لا إله إلا الله، وفي الحديث: «يقول الله تعالى يوم القيامة: من كان له عندي عهد فليقم»، وفي الحديث: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد، فمن جاء بهن تامات كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة»، و«العهد» أيضاً الأمان، وبه فُسِّر قوله تبارك وتعالى: ﴿لَا يَتَأَلَّ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون «المجرمون» يغم الكفرة والعصاة، ثم أخبر أنهم لا يملكون الشفاعة إلا العصاة من المؤمنين فإنه يُشْفَع فيهم، فيكون

سُورَةُ مَرْيَمَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

١ مَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْفَىٰ ۖ إِلَّا تَذَكُّرًا لِّمَنْ يَخْشَىٰ ۚ تَبَرَّأْنَا مِنَّا خَلْقَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَىٰ ۗ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَىٰ ۗ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَىٰ ۗ وَإِن يَجْمَعُوا قَوْلًا فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَ وَأَخْفَىٰ ۗ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ۗ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ۗ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ أَحَدٌ عَلَى النَّارِ هُدًى ۗ فَلَمَّا أَنهَاهُ رُؤْيَىٰ بِمُوسَىٰ ۗ إِنِّي آنَأْتُكَ فَأَخْلَعُ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِأَلْوَابِ الْمُقَدَّسِينَ طُورِ ۗ

٣١٢

شكلاً، فشبّه أهل الجنة بأولئك، لا أنهم في معنى الوفاة إذ هو مُضْمَن الانصراف، وإنما المراد تشبيههم بالوفد هيئة وكرامة. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنهم يجيئون رُكباناً على الثور المُحَلَاة بحلية الجنة، حُطْمها من ياقوت وزبرجد ونحو هذا. وروي عمرو بن قيس المُلَائِي أنهم يركبون على تماثيل من أعمالهم الصالحة هي في غاية الحسن، وروي أنهم يركب كل واحد منهم ما أحب، فمنهم من يركب الخيل، ومنهم من يركب الشفن فتجيء عائمة بهم، وقد وُزِد في الضحايا (إنها مطاياكم إلى الجنة)، وفي أكثر هذا بُعد لكن ذكرناه بحسب الجمع للأقوال. و«السوق» يتضمن هواناً لأنهم يُخْفَرُونَ من ورائهم. و«الوزد»: العِطَاش، قاله ابن عباس، وأبو

بنات الله، وللنصارى، ولكل من كفر بهذا النوع من الكفر، وقوله: ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ﴾ - بعد الكناية عنهم - بمعنى: قل لهم يا محمد، والإدء: الأمر الشنيع الصعب، وهي الدواهي والشنوع العظيمة، ويروى عن النبي ﷺ أن هذه المقالة أول ما قيلت في العالم شاك الشجر واستعرت جهنم وغضبت الملائكة. وقرأ الجمهور: ﴿إِدَاءٌ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿أِدَاءٌ﴾ بفتح الهمزة، ويقال: إدء، وأدء، وأدء، وقرأ ابن كثير هنا، وفي ﴿عَسَقَ﴾: ﴿تَكَادَ﴾ بالتاء ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ بياء وتاء وفتح الطاء وشدها، ورواها حفص عن عاصم، وقرأ أبو عمرو، وعاصم - في رواية أبي بكر: ﴿تَكَادَ﴾ بالتاء ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ بياء ونون وكسر الطاء، وقرأ نافع، والكسائي: ﴿يَكَادَ﴾ بالياء وإزالة علامة التأنيت ﴿يَنْفَطِرْنَ﴾ بالياء والتاء وشدها الطاء وفتحها في الموضعين، وقرأ حمزة، وابن عامر في مريم مثل أبي عمرو، وفي ﴿عَسَقَ﴾ مثل ابن كثير، وقال أبو الحسن، والأخفش: ﴿يَكَادَ﴾ بمعنى: يريد، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَكَادُ أَنْفِيخُهَا﴾، وأنشد على أن (كاد) بمعنى (أراد) قول الشاعر: كَادَتْ وَكِدَتْ وَتِلْكَ حَيْثُ زَادَتْ لَوْ عَادَ مِنْ زَمَنِ الصَّبَابَةِ مَا مَضَى قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا حجة في هذا البيت، وهذا قول قَلْبِي.

وقال الجمهور: إنها استعارة لشئمة الأمر، أي: هذا حقه لو فهمت

الجمادات قدره، وهذا المعنى مهتج العرب، فمته قول جرير: لَمَّا أَتَى خَبْرَ الزُّبَيْرِ تَوَاضَعَتْ سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشُوعَ ومته قول الآخر: أَلَمْ تَرَ صَدْعًا فِي السَّمَاءِ مُبِينًا عَلَى ابْنِ لُبَيْنَى الْحَارِثِ بْنِ هِشَامٍ؟ وقال الآخر: وَأَصْبَحَ بَطْنُ مَكَّةَ مُفْشِرًا كَأَنَّ الْأَرْضَ لَيْسَ بِهَا هِشَامٌ و«الانْفِطَارُ»: الانشقاق على رتبة غير مقصودة، و«الهدء»: الانهدام والتفرق في سرعة، قال محمد بن كعب: كاد أعداء الله أن يقيموا علينا الساعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَبْنِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ لَدُنْكَ﴾ نفي على جهة التنزيه له عن ذلك، وقد تقدم ذكر هذا المعنى وأقسام هذا اللفظ في هذه السورة.

وقوله: ﴿إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية. ﴿إِنْ﴾ نافية بمعنى (ما)، وقرأ الجمهور: ﴿مَا فِي الرَّحْمَنِ﴾ بالإضافة، وقرأ طلحة: ﴿أَبْتِ الرَّحْمَنِ﴾ بتثوين والنصب في النون، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿لَمَّا أَتَى الرَّحْمَنَ﴾، واستدل بعض الناس بهذه الآية على أن الولد لا يكون عبداً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا انتزاع بعيد، و«عبداء» حال. ثم أخبر تعالى عن إحاطته ومعرفته بعبيده، فذكر «الإحصاء»، ثم كرر المعنى بغير اللفظ، وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ كَتَبَهُمُ

وَعَدْتُهُمْ﴾، وفي مصحف أبي رضي الله عنه: ﴿لَقَدْ أَحْصَاهُمْ فَأَجْمَلَهُمْ عِدَاءً﴾. وقوله: ﴿عَدَاءُ﴾ توكيد للفعل وتحقيق له. وقوله: ﴿كَرَدًا﴾ يتضمن معنى قلة النصير والحوال والقوة، فلا مجير له مما يريده الله به.

قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ لَكُمْ الرِّحْنَ وَدَاءً﴾. ذهب أكثر المفسرين إلى أن هذا هو القبول الذي يضعه الله لمن يحبه من عباده حسب ما في الحديث المأثور، وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه: إنها بمنزلة قول النبي ﷺ: «من أسر سريرة ألبسه الله رداءها»، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلى الله وآله وسلم: «ما من عبد إلا وله في السماء صيت، فإن كان حسناً وضع في الأرض حسناً، وإن كان سيئاً وضع كذلك».

وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: إن الآية نزلت فيه، وذلك أنه لما هاجر من مكة استوحش بالمدينة، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية في ذلك، أي: ستستقر نفوس المؤمنين ويؤدون حالهم ومنزلتهم، وذكر النقاش أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، قال ابن الحنفية: «لا يوجد مؤمن إلا وهو يحب علي بن أبي طالب وأهل بيته رضي الله عنهم».

وقرأ الجمهور: ﴿وَدَاءً﴾ بضم الواو، وقرأ أبو الحارث الحنفي بفتح الواو. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتل الآية أن تكون متصلة بما

تقول: «أ، ب، ج»، فإنه لا يترتب هاهنا؛ لأن ما بعد ﴿طه﴾ من الكلام لا يصح أن يكون خبراً عن ﴿طه﴾.

واختصت ﴿طه﴾ بأقوال لا تترتب في أوائل السور المذكورة، فمنها قول من قال: ﴿طه﴾ اسم من أسماء محمد ﷺ، وقول من قال: ﴿طه﴾ معناه: «يا رجل» بالسريانية، وقيل: بغيرها من لغات العجم، وروي أنها لغة يمنية في عك، وأشد الطبري في ذلك:

دَعَوْتُ طَهَةَ فِي الْقِتَالِ فَلَمْ يُجِبْ
فَحَفِضْتُ عَلَيْهِ أَنْ يَكُونَ مُؤَاوِلًا
ويروي: مزيلاً. وقال الآخر:

إِنَّ السَّفَاةَ طَهٌ مِنْ خَلَائِقِكُمْ
لَا بَارَكَ اللَّهُ فِي الْقَوْمِ الْمَلَاعِينِ
وقالت فرقة: سبب نزول هذه الآية إنما هو ما كان رسول الله ﷺ يتحملة من مشقة الصلاة حتى كانت قدماء تتورم وتحتاج إلى الترويح، فقيل له: طأ الأرض، أي: لا تتعب حتى تحتاج إلى الترويح، فالضمير في ﴿طه﴾ للأرض، وحُففت الهمزة فصارت ألفاً ساكنة.

وقرأت فرقة: ﴿طه﴾، وأصله: طأ، فحذفت الهمزة وأدخلت هاء السكت، وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿طه﴾ بفتح الطاء والهاء، وروي ذلك عن قالون عن نافع، وروي يعقوب عنه كسرهما، وروي بين الفتح والكسر، وأمالت فرقة، وفخمت فرقة، والتفخيم لغة الحجاز والنبوي ﷺ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿طه﴾ بكسر الطاء والهاء، وقرأ أبو عمرو: ﴿طه﴾ بفتح

فمثل لهم بإهلاك من قبلهم ليحتقروا أنفسهم ويتبين صغر شأنهم، وعبر المفسرون عن «اللُد» بالفجرة وبالظلمة، وتلخيص معناها ما ذكرناه.

و «الْقَرْزُ»: الأئمة، و«الرُّكُزُ»: الصوت الخفي دون نُطْق بحروف ولا فم، وإنما هو صوت الحركات وحُففتها، ومنه قول لبيد:

وَتَوَجَّسَتْ رُكُزَ الْأَنْبِيَاءِ فَرَاغَهَا
عَنْ ظَهْرِ غَيْبِ الْأَنْبِيَاءِ سَقَامَهَا
فكأنه قال: أو تسمع من أخبارهم قليلاً أو كثيراً، أو طرفاً خفياً ضعيفاً، وهذا يُراد به من تقدم أمره من الأمم ودرَسَ حَبْرَهُ، وقد يحتمل أن يريد: هل بقي لأحد منهم كلام أو تصويت بوجه من الوجوه؟ فيدخل في هذا من عُرف هلاكه من الأمم.

تم تفسير سورة مريم والحمد لله رب العالمين

(٢٠) تفسير

سورة طه

مكية

وآياتها خمس وثلاثون ومائة

هذه السورة مكية.

١ - ٨ تفسير قوله عز وجل: اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿طه﴾ بحسب اختلافهم في كل الحروف المتقدمة في أوائل السور، إلا قول من قال هناك: «إن الحروف إشارة إلى حروف المعجم، كما

قبلها في المعنى، أي أن الله تبارك وتعالى لما أخبر عن إتيان كل من في السموات والأرض في حال العبودية والانفراد، آس المؤمنين بأنه سيجعل لهم في ذلك اليوم وُداً وهو ما يظهر عليهم من كرامته؛ لأن محبة الله للعبد هي ما يظهر عليه من نعمه وأمارات عُفرانه له.

٩٧ - ٩٨ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿يَسْرَتَهُ﴾ للقرآن، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾؛ لأن المعنى يقتضي المراد وإن لم يتقدم ذكره، ووقع التيسير في كونه بلسان محمد ﷺ، وبلغته المفهومة المبينة. وبشارة المثقين هي بالجنة والتعظيم الدائم والعز في الدنيا. و«الْقَوْمُ اللُدُّ» هم قريش، ومعناه: مجادلين ومخاصمين بباطل، والألد: المُخَاصِمُ المبالغ في ذلك. وقال مجاهد: ﴿لُدًّا﴾ معناه: فُجَارًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي فجور الخصومة، ولا يلد إلا المبطل. وفي الحديث: «أَبْغَضُ الرِّجَالِ إِلَى اللَّهِ الْأَلْدُ النَّخِصُ».

ثم لما وصفهم تعالى بأنهم لُدُّ - وهي صفة سوء بحكم الشرع والحق - وجب أن يفسو عليهم بالوعيد والتمثيل بإهلاك من كان أشد منهم وألُدُّ وأعظم قُدْرًا ما كان يسرهم في أنفسهم من الوصف بـ [لُدًّا]، فإن العرب بجهالتها وعثوها وكفرها كانت تتمدح باللُدِّد، وتراه إذراكاً وشهامة، فمن ذلك قول الشاعر:

إِنْ تَخَتَّ الشَّرَابُ عَزْمًا وَحَزْمًا
وَخَصِيمًا أَلُدُّ ذَا مِسْطَلَقِي

الطاء وكسر الهاء، وزوي عن الضحاك وعمرو بن فائد أنهما قرأ: ﴿طَاوِي﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَتَن﴾ معناه التبليغ من نفسك في العبادة والقيام في الصلاة، وقالت فرقة: إنما سبب الآية أن قريشاً نظرت إلى عيش رسول الله ﷺ وشظفه وكثرة عياله، فقالت: إن محمداً مع ربه في شقاء، فنزلت الآية رادة عليهم، أي: إن الله تعالى لم ينزل القرآن ليجعل محمداً شقيماً، بل ليجعله أسعد بني آدم في النعيم المقيم في أعلى المراتب، فالشقاء الذي رأيتم هو تنعم النفس، ولا شقاء مع ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا التأويل أعم من الأول في لفظ الشقاء.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا تَذَكُّرَةً لِّمَن يَخْتَرُ﴾ يصح أن ينصب على البدل من موضع ﴿لَيْسَتَن﴾، ويصح أن ينصب بفعل مضمّر تقديره: لكن أنزلناه تذكراً. و﴿يَخْتَرُ﴾ يتضمن الإيمان والعمل الصالح؛ إذ الخشية باعثة على ذلك. وقوله: ﴿تَزِيلًا﴾ نصب على المصدر، وقوله: ﴿مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْفُلَى﴾ صفة أقامها مقام الموصوف، وأفاد ذلك العبرة والتذكرة وتحقير الأوثان وبعث النفوس على النظر. و﴿الْعُلَى﴾ جمع عُليا، فُعلى.

وقوله: ﴿الزَّحْنُ﴾ رفع بالابتداء، ويصح أن يكون بدلاً من الضمير المستقر في ﴿خَلَقَ﴾. وقوله: ﴿أَسْتَوَى﴾ قالت فرقة: هو بمعنى:

استولى، وقال أبو المعالي وغيره من المتكلمين: هو بمعنى استواء القهر والغلبة، وقال سفيان الثوري: فَعَلَ فعلاً في العرش سماه استواء، وقال الشعبي وجماعة غيره: هذا من متشابه القرآن، نؤمن به ولا نعرض لمعناه، وقال مالك بن أنس لرجل سأله عن هذا الاستواء، فقال هل مالك: «الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة، والسؤال عن هذا بدعة، وأظنك رجل سوء، أخرجوه عني»، فأدبر السائل وهو يقول: يا أبا عبدالله، لقد سألت عنها أهل الشام وأهل العراق فما وُفق فيها أحد توفيقك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وضَعَفَ أبو المعالي قول من قال: «لا يتكلم في تفسيرها»، فإن قال: «إن كل مؤمن يجمع على أن لفظة الاستواء ليست على عرفها في معهود الكلام العزيز»، فإذا فعل هذا فقد فسره ضرورة ولا فائدة في تأخره عن طلب الوجه والمخرج البين، بل في ذلك إلباس على الناس، وإيهام لِعَمَومٍ، وقد تقدم القول في مسألة الاستواء.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ تماذج في الصفة المذكورة المُثَبِّهة على الخالق المنعم، وفي قوله: ﴿وَمَا تَحْتُ الْأَرْضِ﴾ قصص في أمر الحوت ونحوه اختصرته لعدم صحته. والآية مُضْمِنَةٌ أن كل موجود مُخَدَث فهو لله بالملك والاختراع، ولا قديم سواه تعالى. و﴿التراب﴾: التراب الندي.

وقوله تعالى: ﴿وَإِن تَجَهَّرَ بِأَقْوَلِ﴾ الآية، معناه: وإن كنتم أيها الناس إذا أردتم إعلام أحد بأمر، أو مخاطبة أوثانكم وغيرها، فأنتم تجهرون بالأقول، فإن الله الذي هذه صفاته يعلم السر وأخفى، فالمخاطبة ب﴿تَجَهَّرَ﴾ لمحمد ﷺ، وهي مراد بها جميع الناس إذ هي آية اعتبار.

واختلف الناس في ترتيب السر وما هو أخفى منه؛ فقالت فرقة: السر هو الكلام الخفي الخافت كقراءة السر في الصلاة، والأخفى ما هو في النفس متحصل. وقالت فرقة: السر هو ما في نفوس البشر وكل ما يمكن أن يكون فيها في المستأنف بحسب الممكنات من معلومات البشر، والأخفى ما هو من معلومات الله تعالى، ولا يمكن أن يعلمه البشر البتة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا كله معلوم لله عز وجل، وقد تؤوّل على بعض السلف أنه جعل ﴿وَأَخْفَى﴾ فعلاً ماضياً، وهذا ضعيف.

و﴿الْأَسْمَاءُ الْمُسَمَّيَاتُ﴾ يراد بها المُسَمَّيات التي تضمنت المعاني التي هي في غاية الحُسن، ووحد الصفة مع جَمْع الموصوف لما كانت المُسَمَّيات لا تعقل، وهذا جار مجرى ﴿مَنَارِبِ أُخْرَى﴾، و﴿يَجِبَالُ أُورِشَيمَ﴾ وغيره، وذكر أهل العلم أن هذه الأسماء هي التي قال فيها رسول الله ﷺ: «إن الله تسعة وتسعين اسماً، يائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة».

يَعْمُ هذا كله، وإنما رجا موسى عليه السلام هُدَى نازِلِيهِ فصادف الهدى على الإطلاق.

وفي ذكر قصة موسى عليه السلام بأسرها في هذه السورة تسليية للنبي ﷺ عَمَّا لَقِيَ فِي تَبْلِيغِهِ مِنَ الْمَشَقَاتِ وَكُفْرِ النَّاسِ، فَإِنَّمَا هِيَ لَهُ عَلَى جِهَةِ التَّمْثِيلِ فِي أَمْرِهِ، وَرُوي عَنْ نَافِعٍ وَحَمْرَةَ ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ أَمْكُثُوا﴾ بِضَمِّ الْهَاءِ، وَكَذَلِكَ فِي الْقِصَصِ، وَكَسَرَ الْبَاقُونَ الْهَاءَ فِيهَا.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنهَا﴾، الضمير عائد على النار، وقوله: ﴿نُودِيَ﴾ كناية عن تكليم الله له، وفي ﴿نُودِيَ﴾ ضمير يقوم مقام الفاعل، وإن شئت جعلته موسى إذ قد جرى ذكره، وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف على الابتداء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿إِنِّي﴾ بفتح الألف على معنى: لأجل أني أنا ربك فأخلك نعليك. و﴿نُودِيَ﴾ قد توصل بحرف الجر، وأنشد أبو علي:

نَادَيْتُ بِاسْمِ رَبِيْعَةَ بْنِ مُكْدَمٍ
إِنَّ الْمَنُوَّةَ بِاسْمِهِ الْمَوْثُوقُ
واختلف المتأولون في السبب الذي من أجله أمر بخلع الثعلين؛ فقالت فرقة: كانتا من جلد حمار ميت، فأمر بطرح النجاسة، وقالت فرقة: بل كانت نعلاه من جلد بقرة دُكِّي، ولكن أمر بخلعهما لينال بركة الوادي المقدس وتمس قدماه تربة الوادي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتمل الآية معنى آخر هو الأليق

أين يطلبه، فينا هو كذلك - وقد قذح زنده فلم يُور شيئاً - إذ رأى ناراً، فقال لأهله: امكثوا، أي أقيموا، وذهب هو إلى النار فإذا هي مضطربة في شجرة خضراء يانعة، قيل: كانت من عُثَابٍ، وقيل: من عوسج، وقيل: من عُليقة، فكلمنا دنا منها تباعدت منه ومشت، فإذا رجع عنها اتبعته، فلما رأى ذلك أيقن أن هذا أمر من أمور الله تعالى الخارقة للعادة، ونودي وانقضى أمره في تلك الليلة، هذا

قول الجمهور، وهو الحق، وحكى النقاش عن ابن عباس أنه أقام في ذلك الأمر حولاً، ومكث أهله، قالوا: وهذا أمر غير صحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما وضعيف في نفسه.

و﴿ءَأَنْتَ﴾ معناه: أحسننت، ومنه قول الحارث بن حلزة:

أَنْتَ نَبِيَّةٌ وَأَنْزَعَهَا الْمُنْتِ

نَاصَ عَضْرًا وَقَدْ ذُنَا الْإِنْسَاءَ
والنار على البعد لا تُحَسُّ إِلَّا بالبصر، ولذلك فسّر بعضهم اللفظة بـ«رَأَيْتَ»، و«أَنْتَ» أَعْمٌ مِنْ «رَأَى» لأنك تقول: أَنْتَ مِنْ فُلَانٍ خَيْرًا أَوْ شَرًّا. و«الْقَبَسُ»: الجذوة من النار على رأس العود أو القصبه أو نحوه، و«الهُدَى» أراد هدي الطريق، أي: لعلني أجد ذا هدى مرشداً لي أو دليلاً وإن لم يكن فخبيراً، و«الهُدَى»

وَأَنَا أَخْرَجْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى ﴿٩﴾ إِنْجِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِرِّمِ الصَّلَاةَ لِلِكَبْرِ ﴿١٠﴾ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا الْكَبْرَى كُلَّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١١﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٢﴾ وَمَا تَلَكَ بِسَيْمِيكَ يَمُوسَى ﴿١٣﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَنْتَ كَوْنُ عَلِيَّهَا وَأَهْشُ بِمَا عَلَيَّ عَنِّي وَلِي فِيهَا مَارِبٌ أُخْرَى ﴿١٤﴾ قَالَ أَلَيْسَ بِمُوسَى ﴿١٥﴾ فَأَلْفَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿١٦﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَتُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿١٧﴾ وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ فَخَرَجَ بِيضَاءً مِنْ عَرَسٍ مَاءِ أُخْرَى ﴿١٨﴾ لِيُرِيكَ مِنْهُ إِنِّي أَنَا الْكَبْرَى ﴿١٩﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢١﴾ وَبَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٢﴾ وَأَحْلِلْ عُقْدَةَ مِنِّ لِسَانِي ﴿٢٣﴾ لِقَفْهِمْ أَقُولِي ﴿٢٤﴾ وَأَجْعَلْ لِي زُرِّيًّا مِنْ أَهْلِ هَرُونَ أَخِي ﴿٢٥﴾ أَشَدُّ دَيْهًا أَرَى ﴿٢٦﴾ وَأَشْرَكُ فِي أَمْرِي ﴿٢٧﴾ كَيْ سَجَّكَ كَثِيرًا ﴿٢٨﴾ وَتَذَكَّرَكَ كَثِيرًا ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِمَا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَمُوسَى ﴿٣١﴾ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٢﴾

٩ - تفسير قوله عز وجل:

هذا الاستفهام هو توقيف مضمنه تنبيه النفس إلى ما يُورد عليها، وهذا كما تبدأ الرجل إذا أردت إخباره بأمر غريب فتقول: أعلمت كذا وكذا؟ ثم تبدأ تخبره، والعامل في ﴿إِذْ﴾ ما تضمنه قوله سبحانه: ﴿حَلِيثٌ مُوسَى﴾ من معنى الفعل، وتقديره: وهل أتاك ما فعل موسى إذ رأى ناراً، ونحوه.

هذا، وكان من قصة موسى عليه السلام أنه رحل من مدين بأهله بنت شعيب وهو يريد أرض مصر، وقد طالت مدة جنائته هنالك، فرجا خفاءً أمره، وكان - فيما يزعمون - رجلاً غيوراً، فكان يسير الليل بأهله ولا يسير النهار مخافة كشفه الناس، فضل عن طريقه في ليلة مظلمة ندية، ويروى أنه فقد الماء فلم يدر

بها عندي، وذلك أن الله تعالى أمره أن يتواضع لعظيم الحال التي حصل فيها، والعرف عند الملوك أن تخلع النعلان ويبلغ الإنسان إلى غاية تواضعه، فكأن موسى عليه السلام أمر بذلك على هذا الوجه، ولا تبالي كانت نعلاه من مية أو غيرها.

و﴿المقدس﴾ معناه: المَطْهَرُ، و﴿طَوَى﴾ معناه: مرّتين مرّتين، فقالت فرقة: معناه: قدس مرتين، وقالت فرقة: معناه: طويته أنت، أي سرت فيه، أي طويت لك الأرض مرتين من ظنك. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿طَوَى﴾ بالتنوين على أنه اسم المكان، وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو: ﴿طَوَى﴾ على أنه اسم البقعة، بدون تنوين، وقرأ هؤلاء كلهم بضم الطاء، وقرأ ابن زيد عن أبي عمرو بكسر الطاء، وقرأت فرقة: ﴿طواوي﴾، قالت فرقة: هو اسم الوادي، و﴿طَوَى﴾ على التاويل الأول بمنزلة قولهم ثنى وثنى، أي: مثنيًا.

وقرأ السبعة غير حمزة: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾، ويؤيد هذه القراءة تناسبها مع قوله تعالى: ﴿أَنَا رَبُّكَ﴾، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿وَأِنِّي أَخْتَرْتُكَ﴾، وقرأ حمزة وحده: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾ بالجمع وفتح الهمزة وشذ النون، والآية على هذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾، ثم قال: ﴿وَمَا آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾، فخرج من أفراد إلى جمع، وقرأت فرقة: ﴿وَأَنَا أَخْتَرْتُكَ﴾ بكسر الألف، وحدثني

أبي رحمه الله يقول: سمعت أبا الفضل الجوهري يقول: ﴿لَمَّا قِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿فَاسْتَجِبْ لَنَا إِذْ قِيلَ وَقِفْ عَلَى حَجْرٍ، وَاسْتَدِّ عَلَى حَجْرٍ، وَوَضِعْ يَمِينَهُ عَلَى شِمَالِهِ، وَأَلْقِ ذِقْنَهُ إِلَى صَدْرِهِ، وَوَقِفْ يَسْتَمِعُ، وَكَانَ كُلُّ لِبَاسِهِ صَوْفًا﴾، وقرأت فرقة: ﴿بِالْوَادِي الْمَقْدِسِ طَاوي﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرِ السَّلَاةَ لِلذِّكْرِ﴾ يحتمل أن يريد: لتذكرني فيها، أو يريد: لأذكرك في عليين بها، فالمصدر - على هذا - يحتمل الإضافة إلى الفاعل أو إلى المفعول، واللام لام السبب. وقالت فرقة: قوله: ﴿لِلذِّكْرِ﴾ أي عند ذكرني، أي إذا ذكرتني وأسرني لك بها، فاللام - على هذا - بمنزلتها في قوله تعالى: ﴿أَقْرِ السَّلَاةَ لِلذِّكْرِ النَّسَمِ﴾. وقرأت فرقة: ﴿لِلذِّكْرِ﴾، وقرأت فرقة: ﴿لِلذِّكْرِ﴾ بغير تعريف، وقرأت فرقة: ﴿لِلذِّكْرِ﴾.

﴿١٥﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: في قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ﴾ تحذيرٌ ووعيدٌ، أي: اعبدي فإن عقابي وثوابي بالمرصاد، و﴿السَّاعَةَ﴾ في هذه الآية: القيامة بلا خلاف.

وقرأ ابن كثير، والحسن، وعاصم: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ بفتح الهمزة، بمعنى: أظهرها، أي أنها من صيحة وقوعها وتيقن كونها تكاد تظهر، لكن تمنحجب إلى الأجل المعلوم، والعرب تقول: «أخفيت الشيء» بمعنى: أظهرته، ومنه قول امرئ القيس:

خَفَاءُ مِنْ أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا
خَفَاءُ مِنْ دَقِّ مِنْ عَيْشِي مُجَلِّبٍ
ومنه قوله أيضاً:

فَإِنْ تَذَفَّنُوا الدَّاءَ لَا تَخْفِهِ
وَإِنْ تَبَعَّشُوا الْحَزْبَ لَا تَقْعُدْ
قال أبو علي: المعنى: أزيل خفاءها وهو ما تُلَفُّ به القرية ونحوها.

وقرأ الجمهور: ﴿أَكَادُ أَخْفِيهَا﴾ بضم الهمزة، واختلف المتأولون في معنى الآية؛ فقالت فرقة: معناها أظهرها، و«أخفيت» من الأضداد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مختل.

وقالت فرقة: معناها أكاد أخفيها من نفسي، على معنى العبارة عن شدة غموضها على المخلوقين، وقالت فرقة: ﴿إِنَّ السَّاعَةَ آيَةٌ أَكَادُ﴾ وتم الكلام، بمعنى: أكاد أنفذها لقبورها وصحة وقوعها، ثم استأنف الإيجاز بأنه يخفيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول قلق.

وقالت فرقة: ﴿أَكَادُ﴾ زائدة لا دخول لها في المعنى، بل تضمنت الآية الإخبار بأن الساعة آتية، وأن الله يخفي وقت إتيانها عن الناس.

وقالت فرقة: ﴿أَكَادُ﴾ بمعنى: أريد، فالمعنى: أريد إخفاءها عنكم ليُحْجَزَى كل نفس بما تسعى، واستشهد قائل هذه المقالة بقول الشاعر:

كَادَتْ وَكَذَّتْ وَتَلَّكَ خَيْرُ إِزَادَةٍ
.....

وقد تقدم هذا المعنى.

وقالت فرقة: ﴿أَكَادُ﴾ على بابها، بمعنى أنها لمقاربة ما لم يقع، لكن الكلام جارٍ على استعارة العرب ومجازها، فلما كانت الآية عبارة عن شدة خفاء أمر القيامة وقتها، وكان القطع بإتيانها مع جهل الوقت أهيب على النفوس، بالغ قوله تعالى في إغتمام وقتها فقال: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾ حتى لا تظهر البتة، ولكن ذلك لا يقع، ولا بُد من ظهورها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا تلخيص هذا المعنى الذي أشار إليه بعض المفسرين، وهو الأقوى عندي. وروى بعض القائلين بأن المعنى: «أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي» ما في القول من القلق، فقالوا: معنى «من نفسي»: من تلقائي ومن عندي. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا رفض للمعنى الأول ورجوع إلى هذا القول الذي اخترناه أخيراً، فتأمل.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ متعلقة بقوله: ﴿إِيَّائِهِ﴾، وهكذا يترتب الوعيد، و﴿تَتَوَّى﴾ معناه: تكتسب وتجترح. والضمير في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ عائد على (الساعة)، يريد: عن الإيمان بالساعة، فأوقع الضمير عليها، ويحتمل أن يعود على الصلاة، وقالت فرقة: على «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا منجّه، والأولان أبين وجهاً.

وقوله تعالى: ﴿فَرَدَدَى﴾ معناه: تَهَلَّكْ، والرَدَى: الهلاك، ومنه قول دُرَيْدِ بْنِ الصَّمَّةِ:

تَنَادَا وَقَالُوا: أَرَدَدْتَ الْخَيْلَ فَارَسَا

فقلت: أَعْبُدُ اللَّهَ ذَلِكَكُمْ الرَّدَى وهذا الخطاب كله لموسى عليه السلام، وكذلك ما بعده، وقال النقاش: الخطاب في قوله تعالى: ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا﴾ لمحمد ﷺ، وهذا بعيد، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَكَادُ أُخْفِيهَا مِنْ نَفْسِي﴾، وعلى هذه القراءة ترُكِبُ ذلك القول المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿رَمَّا يَلَيْكَ بَيِّنَاتٌ يَنْبُؤِينَ﴾ تقديره ومُضْمَنُهُ التنبيه وجمع النفس لتلقي ما يورد عليها، وإلا فقد علم الله تعالى ما هي في الأزل. وقوله: ﴿بَيِّنَاتٌ﴾ من صلة ﴿يَلَيْكَ﴾، وهذا نظير قول الشاعر:

عَدَسٌ مَا لِعَبَادِ عَلَيْنِكَ إِسَارَةٌ
تَجَزَتْ وَهَذَا تَحْمِيلَيْنِ طَلِيئُ

قال ابن الجوهري: زوي في بعض الآثار أن الله تعالى عتب على موسى إضافة العصا إلى نفسه في ذلك الموطن، فقال له: ﴿أَلَيْهَا﴾ ليري منها العجب فيعلم أنه لا ملك له عليها ولا تضاف إليه.

وقرأ الحسن، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿عَصَايَ﴾ بكسر الياء مثل غلامي، وقرأت فرقة: ﴿عَصِيَّ﴾، وهي لغة مُذَبَّل، ومنه قول أبي ذؤيب:

سَبَقُوا قَوِيَّ وَأَعْتَقُوا لِهَوَاهُمُ

.....
وقرأ الجمهور: ﴿عَصَايَ﴾ بفتح الياء، وكذلك ابن أبي إسحق قرأ: ﴿عَصَايَ﴾ بياء ساكنة.

ثم ذكر موسى عليه السلام من منافع عصاه عظمها وجمهورها، وأجمل سائر ذلك. وقرأ الجمهور:

﴿وَأَهْسُ﴾ بضم الهاء والشين المنقوطة، ومعناه: أخطب بها الشجر حتى ينتشر الورق للغنم، وقرأ إبراهيم الشَّعْبِي: ﴿وَأَهْسُ﴾ بكسر الهاء، والمعنى كالذي تقدم، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأَهْسُ﴾ بضم الهاء والسُّن غير منقوطة، ومعناه: أزجرها وأخوف، وقرأت فرقة: ﴿عَلَّ عَنِّي﴾ بالجر، وقرأت فرقة: ﴿فَلَمَّا فَتَمَحَّى﴾ فأوقعوا الفعل على الغنم، وقرأت فرقة: ﴿عَنَّمِي﴾ بسكون النون، ولا أعرف لها وجهاً. وقوله: ﴿أَخْرَجَ﴾ - فوُجِدَ مع تقدم الجمع - هو المَهْتَج في توابع جمع ما لا يعقل والكناية عنه، فإن ذلك يجري مجرى الواحدة المؤنثة، كقوله: ﴿الْأَنْهَاءَ الْمُسْتَقَى﴾، وكقوله: ﴿يَجِيئُ أَرْبَى مَعَهُ﴾، وقد مر القول في هذا المعنى غير مرة.

وعصا موسى عليه السلام هي التي كان أخذها من بيت عَصِي الْأَنْبِيَاء الذي كان عند شعيب عليه السلام حين اتفقا على الرعية، وكانت عصا آدم عليه السلام هبط بها من الجنة، وكانت من العيين الذي في ورق الرياحان، وهو الجسم المستطيل في وسطها، وقد تقدم شرح أمرها فيما مضى.

(١٩) - (٢٥) تفسير قوله عز وجل:

لما أراد الله تبارك وتعالى أن يُدْرِبَهُ فِي تَلْقَى النبوّة وتكاليفها أمره بإلقاء العصا، فألقاها موسى عليه السلام، فقلب الله أوصافها وأغراضها، وكانت عصا ذات شعبتين، فصارت الشعبتان لها فماً، وصارت حيّة

وأحرق لسانه لثلاثا يقول موسى:
مكانتى. وموسى عليه السلام إنما
طلب من حل العقدة قدر أن يُفقه
قوله، فجاز أن يكون ذلك كله زال،
وجائز أن يكون بقي منه القليل،
فيجتمع أن يُؤتى سؤله وأن يقول
فرعون: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾، ولو
فرضناه زال جملةً لكان قول فرعون
سبباً لموسى عليه السلام لحالته
القديمة.

و(الْوَزِيرُ): المُعين القائم بوزر
الأمر، وهو ثقلها، ويحتمل الكلام
أن طلب الوزير من أهله على
الجملة، ثم أبدل هارون من الوزير
المطلوب، ويحتمل أن يريد:
واجعل هارون وزيراً، فإنما ابتداء
الطلب فيه، فيكون - على هذا -
مفعولاً أولاً بـ ﴿أَجْعَلْ﴾. وكان هارون
عليه السلام أكبر من موسى عليه
السلام بأربعة أعوام.

وقرأ ابن عامر وحده: ﴿أَشْدُدْ﴾
بفتح الهمزة ﴿وَأَشْرِكْ﴾ بضمها على
أن موسى عليه السلام أسند هذه
الأفعال إلى نفسه، ويكون الأمر هنا
لا يريد به النبوة بل يريد تدبيره
ومساعيه، لأن النبوة لا يكون
لموسى عليه السلام أن يشرك فيها
بشراً، وقرأ الباقون: ﴿أَشْدُدْ﴾ بضم
الهمزة ﴿وَأَشْرِكْ﴾ على معنى الدعاء
في شد الأزر وتشريك هارون عليه
السلام في النبوة، وهذه هي الوجهة
لأنها تناسب ما تقدم من الدعاء،
وبعضها آيات غير هذه تقضي بطلبه
تصديق هارون إياه. و(الأزر)
يعني الظهر، قاله أبو عبيدة، كأنه
قال: شد به عوني، واجعله مقاومي

يحتمل أن يريد وصف الآيات بالكبر
على ما تقدم من قوله: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى﴾ و﴿مَتَّارِبٌ آخَرَى﴾ ونحوه،
ويحتمل أن يريد تخصيص هاتين
الآيتين بأتهما أكبر الآيات، كأنه
قال: لِتُرِيكَ الكبرى من آياتنا، فيما
معنيان. ثم أمره الله تبارك وتعالى
بالذهاب إلى فرعون، وهو
مصعب بن الرِّثَّان في بعض ما قيل،
وقيل غير هذا، ولا صحة لشيء من
ذلك. و﴿طَفَى﴾ معناه: تجاوز الحد
في فساد.

قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ اشْحَجْ لِي
مَدْرِي﴾ الآية، لما أمره الله
تعالى بالذهاب إلى فرعون علم أنها
الرسالة، وفهم قدر التكليف،
فدعا الله في المعونة إذ لا حول له
إلا به، وقوله: ﴿اشْحَجْ لِي مَدْرِي﴾
معناه: لفهم ما يرد علي من الأمور،
و(العُقْدَةُ) التي دعا في حلها هي التي
اعتزته من الحجرة التي جعلها في فمه
حين جرَّبه فرعون، وروي في ذلك
أن فرعون أراد قتله وهو طفل حين
مدَّ يده إلى إحية فرعون، فقالت له
امرأته: إنه لا يعقل، فقال: بلى،
وهو يعقل وهو عدو لي، فقالت له:
تجرِّبه، قال: أفعل، فدعت بجمرات
من نارٍ وطبق فيه ياقوت، فقالت: إن
أخذ الياقوت علمنا أنه يعقل، وإن
أخذ النار طردناه، فمدَّ موسى يده
إلى جمرة فأخذها فلم تُعدَّ على يده
فجعلها في فيه فأحرقته وأورثت
لسانه عقدة في كِبَره، أي حَبْسَة
مُلْبَسَة في بعض الحروف. قال ابن
الجوهرى رحمه الله: كفَّ الله النار
عن يده لثلاثا تقول النار: طبعي،

تسعى، أي تنتقل وتمشي وتلتقم
الحجارة، فلما رآها موسى عليه
السلام رأى عبرة فولى مُذْبِراً ولم
يُعَقِّب، فقال الله له: خذها ولا
تحف، وذلك أنه أوجس في نفسه
خيفة، أي لحقه ما يلحق البشر،
وروي أن موسى عليه السلام تناولها
بِكُمِّي جَبْتِه، فنهى عن ذلك فأخذها
بيده فصارت عصا كما كانت أول
مرة، وهي سيرتها الأولى.

ثم أمره الله تعالى أن يضم يده إلى
جَبْتِه، وهو الجناح استعارة ومجازاً،
ومنه قول الراجز:

أَضْمُهُ لِلصُّدْرِ وَالْجَنَاحِ
وبعض الناس يقول: «الجناح»:
اليد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا كله صحيح على طريق
الاستعارة، ألا ترى أن جعفر بن أبي
طالب رضي الله تعالى عنه سُمِّي
ذا الجناحين بسبب يديه حين أُقيمت
له الجناحان مقام اليد، شبه بجناح
الطائر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وكل مرعوبٍ من ظُلْمَة أو نحوها
فإنه إذا ضَمَّ يده إلى جناحه قَتَرَ رعيه
وجمع جأشه، فجمع الله تبارك
وتعالى لموسى عليه السلام تفتير
الرعب مع الآية في اليد. وروي أن
يد موسى عليه السلام خرجت بيضاء
تَشِفُّ وتقضي كالشمس.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي:
من غير بَرَص ولا مُثَلَّة، بل هو أمر
يُنْحَسِر ويعود بحكم الحاجة إليه،
وقوله: ﴿لِرُبِّكَ مِن بَيْنِنَا الْكَبْرَى﴾

راقداً في فراش، ثم قذفته في بئر النيل، وكان فرعون جالساً في موضع يشرف على النيل إذ رأى الثابوت، فأمر به فسيق إليه وامرأته معه، ففتح فرأه، فرحمته امرأته وطلبت له لتتخذة ابناً فأباح لها ذلك.

وروي أن الثابوت جاء في الماء إلى المشرعة التي كان جوارى امرأة فرعون يستقن فيها الماء، فأخذن الثابوت وحملته إليها، فأخرجته وأعلمت فرعون وطلبت منه، ثم إنها عرضته للرضاع فلم يقبل امرأة، فجعلت تنادي عليه في المدينة ويُطاف به يعرض للمراضع، فكلما عرضت عليه امرأة أباه. وكانت أمه حين ذهب عنها في النيل بقيت مغنومة وفؤادها فارغ إلا من همة، فقالت لأختها: «اطلبي أثره في المدينة عسى يقع إلينا منه خير». فبينما الأخت تطوف إذ بصرت به وفهمت أمره، فقالت لهم: «أنا أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم وهم له ناصحون»، فتعلقوا بها وقالوا لها: «أنت تعرفين هذا الصبي»، قالت: «لا، غير أنني أعلم من أهل هذا البيت الحرص على التقرب إلى الملكة والجد في خدمتها وإرضائها»، فتركوها وسألوها الدلالة. فجاءت بأُم موسى، فلما قرئته شرب ثديها، فسرت أسية امرأة فرعون، وقالت لها: «كوني معي في القصر»، فقالت لها: «ما كنت لأدع بيتي وولدي، ولكنه يكون عندي»، فأحسنت إلى أهل ذلك البيت غاية الإحسان، واعتز بنو إسرائيل بهذا الرضاع، والسبب من الملكة.

الأفعال، وإيتاء هذا السؤال مئة من الله عز وجل، فقرن إليها قديم مئة عنده على جهة التوقيف عليها ليُعظم اجتهاده وتقوى بصيرته.

وكان من قصة موسى عليه السلام - فيما روي - أن فرعون ذكر له أن خراب ملكه يكون على يدي غلام من بني إسرائيل، فأمر بقتل كل ولد يولد لبني إسرائيل، ثم إنه رأى مع أهل مملكته أن فناء بني إسرائيل يعود على القبط بالضرر؛ إذ هم كانوا عملة

الأرض والصناع ونحو هذا، فعزم على أن يقتل الولدان سنة ويستحييهم سنة، فولد هارون عليه السلام في سنة الاستحياء فكانت أمه آمنة، ثم ولد موسى عليه السلام في العام الرابع سنة القتل، فخافت أمه عليه الذبح فبقيت مهتمة، فأوحى الله إليها، قيل: بملك جاءها فأخبرها وأمراها، قال بعض من روى هذا: ولم تكن نبيّة؛ لأننا نجد في الشرع ورواياته أن الملائكة قد كلمت من لم يكن نبيّاً، وقال بعضهم: بل كانت أم موسى عليه السلام نبيّة بهذا الوحي، وقال بعضهم: بل كان هذا الوحي رؤياً رأتها في النوم. وقالت فرقة: بل هو وحي إلهام وتسديد كوحي الله إلى النحل وغيرها، فألهمها الله تبارك وتعالى إلى أن أخذت تابوتاً فقدت فيه موسى

إِذْ أَحْبَبْنَا إِلَىٰ أَيْكُ مَا يُوحَىٰ ﴿٣٦﴾ أَنْ أَقْدِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْدِفِيهِ فِي الْبَيْرِ فَلْيَلْقِهِ يَوْمَ يَأْتِ السَّاحِلَ يَأْخُذُهُ عَدُوِّي وَعَدُوْلُهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلَمْ يَضَعِ عَلَىٰ عَيْنِي ﴿٣٧﴾ إِذْ تَسْحَبُ أَحْتَابُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أَيْكُ كِي تَفْرَعِيهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَلَلْتَ نَفْسًا فَجَجَسْنَاكَ مِنَ الْعَرِيِّ فَذَكَرْنَا فَوَلَّيْنَا سِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَيْنَا بَدْرًا ﴿٣٨﴾ وَاصْطَلَمْتَكَ لِنَفْسِي ﴿٣٩﴾ أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَحْوَكُ بِتَابِي وَلَا نَبِيًّا فِي ذِكْرِي ﴿٤٠﴾ أَذْهَبَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴿٤١﴾ فَقَوْلَاهُ قَوْلًا لِّأَيِّهَا لَعْنَةُ رَبِّكَ ذُرِّيَّتُكَ وَأَوْعَدْنِي ﴿٤٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُقْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطَّغِي ﴿٤٣﴾ قَالَ لَا تَخَفَا إِنِّي مَعَكُمْ مَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿٤٤﴾ فَأَنبَأَهُ قَوْلًا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بِنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَدُّهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِبَيِّنَاتٍ مِن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيْنَا مِمَّا آتَيْتُكَ هُدًى ﴿٤٥﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيْنَا مِمَّا كَذَبْنَا وَتَوَكَّلْ ﴿٤٦﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يُسْئَلُ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ ﴿٤٩﴾

٣١٤

فيما أحاول من الأمور، وقال امرؤ القيس:

بِمَحْنَبِيَّةٍ قَدْ آزَرَ الضَّالَّ نَبْئُهَا
مَجْرَجٌ جُبُوشٍ غَائِمِينَ وَحُبِيبٍ
أَي: فَأَوْعَدَهُ وَصَارَ فِي طَوْلِهِ. وفتح أبو عمرو وابن كثير الياء من ﴿أَيُّ﴾ وسكنها الباقون.

وروي عن نافع ﴿وَأَشْرِكُهُو﴾ بزيادة واو في اللفظ بعد الهاء. ثم جعل موسى عليه السلام ما طلب من نعم الله تعالى سبباً يلزم كثرة العبادة والاجتهاد في أمر الله. وقوله: ﴿كَثِيرًا﴾ نعت لمصدر محذوف، تقديره: تسبيحاً كثيراً.

٣٦ - ٣٩ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قال الله تعالى: قد أعطيتك يا موسى طلبتك في شرح الصدر وتيسير الأمر وحل العقدة، إما بالكل وإما على قدر الحاجة في

وهذان القولان فيهما ضعف، وأقوى الأقوال أنه القبول.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلِئْلُضْخَعِ عَلَيَّ﴾ بكسر اللام وضم التاء على معنى: ولئلتنذى ولتطعم وتربى، وقرأ أبو نُهَيْك: ﴿وَلِئْلُضْخَعِ﴾ بفتح التاء، قال ثعلب: معناه: لتكون حركتك وتصرفك على عين مني، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿وَلِئْلُضْخَعِ﴾ بالياء وكسر اللام على الأمر للغائب، وذلك مُتَّجِه. وقوله: ﴿عَلَيَّ عَيْتِي﴾ معناه: بمرأى مني وأمر مدرك مبصر مراعى.

١٠٠ - ١٠١ تفسير قوله عز وجل: العامل في ﴿إِذْ﴾ فعل مضمر تقديره: ومثلاً إذ، وتقدم تفسير هذه الآية في القصص المذكورة آنفاً، وقرأت فرقة: ﴿كَيْ تَقْرَأَ﴾ بفتح القاف، وقرأت فرقة: ﴿كَيْ تَقْرَأَ﴾ بكسر القاف، والنفس التي قتلها هي نفس القبطي الذي كان يقاتل الإسرائيلي فوكزه موسى فقتل عليه. (والنفس): هم النفس، وكان هم موسى عليه السلام بأمر من طلبه ليأثر به.

وقوله تعالى: ﴿وَفَلَنَكَّ فُؤَادًا﴾ معناه: خَلَصْنَاكَ تَخْلِيصًا، هذا قول جمهور المفسرين، وقالت فرقة: معناه: اختبرناك، وعلى هذا التأويل لا يراد إلا ما اختبر به موسى عليه السلام بعد بلوغه وتكليفه، وما كان قبل ذلك فلا يدخل في اختبار موسى عليه السلام.

وعِدَّة سنين في أهل مدين عشرة أعوام؛ لأنه إنما قضى أوفى الأجلين، وقوله تبارك وتعالى: ﴿عَلَيَّ﴾

لطف الله به في كل فضل، وتخليصه له من قصة إلى أخرى، وهذه الفتون التي فتنه بها، أي اختبره وخلصه حتى صلح للنبوة وسلم لها.

وقوله تعالى: ﴿هَٰذَا يُؤْتِيهِمَ﴾ يتضمن عظم الأمر وجلالته في النعم، وهذا نحو قوله سبحانه: ﴿إِذْ يَنْتَقِي آلِ يَدْنَٰةٍ مَا يَنْتَقِي﴾، وهو كثير في القرآن والكلام، و﴿أَنْتَدِيهِ﴾ بدل من ﴿هَٰذَا﴾، والضمير الأول في ﴿أَنْتَدِيهِ﴾ عائد على موسى، وفي الثاني على التابوت، ويجوز أن يعود على موسى عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَلْفِيهِ أَلِيمٌ﴾ خبر خرج في صيغة الأمر مبالغة، إذ الأمر أقطع الأنفال وأوجب، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿قوموا فلاضل لكم﴾، فأخرج الخبر في صيغة الأمر لنفسه مبالغة، وهذا كثير، ومن حيث خرج الفعل مخرج الأمر حسن جوابه كذلك. و(العدو) الذي كان الله تبارك وتعالى ولموسى عليه السلام هو فرعون، ولكن أم موسى أخبرت به على الإيهام، ولذلك قالت لأخته: قُضِيه، وهي لا تدري أين.

ثم أخبر الله تعالى موسى عليه السلام أنه ألقى عليه مَحَبَّةً منه، فقال بعض الناس: أراد محبة آسية، لأنها كانت من الله وكانت سبب حياته، وقالت فرقة: أراد القبول الذي يضعه الله في الأرض لخيار عباده، وكان حظ موسى عليه السلام منه غاية الرجل، فقالت فرقة: أعطاه إجلالاً يُجِبُّه به كل من رآه، وقالت فرقة: أعطاه ملاحظة العينين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وأقام موسى حتى كمل رضاعه، فأرسلت إليها آسية أن جيئي بولدي ليوم كذا، وأمرت خدمها ومن لها أن يَلْقَيْنَه بالثحف والهدايا واللباس، فوصل إليها على ذلك وهو بخير حال وأجمل شباب، فسُرَّت به ودخلت به على فرعون ليراه ويحبه، فرآه وأعجبه وقربه، فأخذ موسى عليه السلام بلحية فرعون وجَبَدَهَا، فاستشاط فرعون وقال: «هذا عدو لي»، وأمر بقتله، فناشدته فيه امرأته وقالت: «إنه لا يعقل»، فقال فرعون: «بل يعقل»، فاتفقا على تجربة بالجمرة والياقوت حسبما ذكرنا آنفاً في حل العُقْدَة، فنجاه الله من فرعون وردّه إلى أمه. فَشَبَّ عندها إلى أن ترعرع، وكان فتى جلدًا فاضلاً. فاعزت به بنو إسرائيل بظاهر ذلك الرضاع، وكان يحميمهم ويكون ضلعه معهم وهو يعلم من نفسه أنه منهم ومن صميمهم، فكانت بصيرته في حمايتهم، وكان يعرف ذلك أعيان بني إسرائيل.

ثم إن قصة القبطي المقاتل مع الإسرائيلي نزلت، وذكُرَهَا في موضعها مُسْتَوْعَب؛ فخرج موسى عليه السلام من مصر حتى وصل إلى مدين، فكان من أمره مع شعيب عليه السلام ما هو مُسْتَوْعَب في موضعه، من أنه تزوج ابنته الصغرى على رعيه الغنم عشر سنين، ثم اعترم الرحيل بزوجته إلى بلاد مصر، فجاء في طريقه فَضَّل في ليلة مظلمة فرأى النار حسبما تقدم ذكره. فعَدَّد الله تبارك وتعالى على موسى في هذه الآية ما تضمنته هذه القصة من

قَدَرٍ ﴿٤٢﴾ أي: بميقات محدود للنبوة التي قد أرادها الله بك، ومنه قول الشاعر:

نَالَ الْخَلَافَةَ أَوْ كَانَتْ لَهُ قَدْرًا
كَمَا أَتَى رَبُّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرٍ
وقوله تعالى: ﴿رَأْسُكَ نَتَأَكُّ
لِنَفْسِي﴾ معناه: جعلتك موضع
الصنعة ومقرَّ الإجمال والإحسان،
وقوله: ﴿لِنَفْسِي﴾ إضافة تشريف،
وهذا كما تقول: «بيت الله» ونحوه،
«والصِّيَامُ لِي وَأَنَا أُجْزِي بِهِ»، وعبر
بالنفس عن شدة القرب وقوة
الاختصاص.

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
أمر الله تعالى موسى وهارون
عليهما السلام في هذه الآية بالنفوذ
إلى دعوة فرعون، وخطب موسى
وحده تشريفاً له، ويحتمل أن هارون
أوحى إليه مع ملك أن ينفذ،
﴿يَا قَتِين﴾ معناه: بعلاماتي التي
أعطيتكما من معجزة وآية وحي وأمر
ونهي كالنوراة، و﴿يَا﴾ معناه:
تضعفاً وتبطناً، تقول: وتى فلان في
أمر كذا إذا تباطأ فيه عن ضعف،
ومنه قول الشاعر:

فَمَا أَنَا بِالْوَانِي وَلَا الضَّرْعُ الثَّمَرِ
وَالْوَتَى: الكلال والفشل في البهائم
والإنس، وفي مصحف ابن مسعود:
﴿وَلَا تَهْتَا فِي ذِكْرِي﴾، ومعناه: وَلَا
تليتا، من قولك: هين ليِّنٌ.

﴿وَالْقَوْلُ اللَّيِّنُ﴾، قالت فرقة:
معناه: كُنِيَاءُ، وقالت فرقة: بل
أمرهما بتحسين الكلمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا هو الوجه، وذلك أن كل من

يريد دعاء إنسان إلى أمر يكرهه،
فإنما الوجه أن يحزر في عبارته
المعنى الذي يريد حتى لا يخل به
ولا يُجزئه، ثم يجتهد بعد ذلك في
أن تكون عبارته لطيفة ومقابلته ليثة،
فذلك أجلب للمراد، فأمر الله تعالى
موسى وهارون عليهما السلام أن
يَسْلُكَا مع فرعون إكمال الدعوة في
لين من القول.

وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ معناه: على
رجائكما وطمعكما، فالتوقع فيها إنما
هو راجع إلى جهة البشر، وقرأ
الجمهور: ﴿يَقْرَبُ﴾ بفتح الياء وضم
الراء، ومعناه: يَجْعَلُ ويتسرع
بمكرهه فينا، ومنه الفارط في الماء،
وهو الذي يتقدم القوم إليه، قال
الشاعر:

فَأَسْتَعْجِلُونَا وَكَانُوا مِنْ صَحَابَتِنَا
كَمَا تَقَدَّمَ قُرَاطٌ لِيُورَادِ
وقرأت فرقة: ﴿يُقْرِطُ﴾ بضم الياء
وكسر الراء، ومعناه: يَشْتَطُ، وقرأ
ابن محيصن: ﴿يُقْرِطُ﴾ بضم الياء
وفتح الراء، ومعناها أن يحمل حائل
على التسرع إلينا.

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ﴾ أي
بالنصر والمعونة والقدرة على
فرعون، وهذا كما تقول: «الأمير مع
فلان» إذا أردت أنه يحميه. ﴿أَسْعُ
وَأَرَكُ﴾ عبارة عن الإدراك الذي لا
تخفى معه خافية، تبارك الله رب
العالمين.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:
المعنى: فأتيا فرعون فأغلاماه أنكما
رسولان إليه، وعبر لفرعون
ب﴿رَبِّكَ﴾ تحقيراً له؛ إذ كان يدعي
الربوبية، ثم أمر بدعوته إلى أن يَتَّبَعَ

معهما بني إسرائيل ويُخرجهم من دُلِّ
خدمة القبط، وقد تقدم في هذه الآية
دعاؤه إلى الإيمان، وهذه جملة ما
دُعي إليه فرعون «الإيمان وإرسال
بني إسرائيل»، والظاهر أن رسالته
إليه ليست على حد إرساله إلى بني
إسرائيل، وتعذيب بني إسرائيل كان
ذبح أولادهم وإذلالهم. (والآية)
التي أحالاً عليها هي العصا واليد.
وقال: ﴿جِنَّتِكَ﴾ - والجائي بهما
موسى - تجوزاً من حيث هما
مشتركان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسَلْتُمُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ
أَهْلِيكَ﴾ يحتمل أن يكون آخر كلام
وقضله، فيقوى أن يكون (السلام)
بمعنى التحية، كأنما رغبا بها عنه،
وجزياً على العرف في التسليم عند
الفراغ من القول فسلماً على من اتبع
الهدى، وفي هذا توبيخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وعلى هذه الجملة استعمال الناس
هذه الآية في مخاطبتهم
ومحاوراتهم. ويحتمل أن يكون في
درج القول متصلاً بقوله سبحانه:
﴿إِنَّا قَدْ أَرْجَى إِلَيْتَا﴾ فيحتمل - على
هذا - أن يكون خبيراً بأن السلامة
للمهتدين، وهذان المعنيان قالت كل
واحد منهما فرقة لكن دون هذا
التلخيص، وقالوا: ﴿وَأَسَلْتُمُ﴾
بمعنى: السَّلامَة، و﴿عَلَيَّ﴾ بمعنى
«اللام»، أي: السَّلامَة لمن أتبع
الهدى.

ولما فرغا من المقالة التي أمرا بها
عند قوله: ﴿وَتَوَلَّى﴾ خاطبهما
فرعون، وفي سرد هذه الآية حذف
يدل عليه ظاهر الكلام، تقديره:

قَالَ عَلِمَهَا عِنْد رِبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَبْصُلُ رِبِّي وَلَا يَنْسَى ﴿٥٣﴾
 الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَوَّكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ
 مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٤﴾ كَلُوا
 وَأَرْعَوْا وَاعْلَمُوا أَنَّ فِي ذَلِكَ لَأَوَّلَى النَّبِيِّ ﴿٥٥﴾ وَمِنْهَا
 خَلَقْنَاكُمْ وَمِنْهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى ﴿٥٦﴾ وَلَقَدْ
 آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ﴿٥٧﴾ قَالَ أَجَعَلْتُمَا التَّخْرَجَاتَا
 مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكُمْ يَا مَعْشَرَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٥٨﴾ فَلَمَّا آتَيْنَاكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ
 فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا
 سَوِيًّا ﴿٥٩﴾ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحَشِّرَ النَّاسَ حُشْرِي
 ﴿٦٠﴾ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُمْ أَنْ يَأْتِيَهُمْ مِثْلُ
 مُوسَى وَيَلِكُمْ لَأَقْتِرَنَّ عَلَيْنَا اللَّهُ كَيْدًا فَاسْتَجَبْنَا بِعَذَابٍ
 وَقَدْحَاتٍ مِنْ آفَاتِنَا ﴿٦١﴾ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرَأُوا
 التَّجْوِيزَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ
 مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقِكُمْ الْمَثَلِيَّ ﴿٦٣﴾ فَاجْمَعُوا
 كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ أَسْتَعَانَ ﴿٦٤﴾

٢١٥

موسى عن سلف من
 الناس روغاناً في الحجة
 وحيدة، وقيل: (النبال):
 الحال، كأنه سأله عن
 حالهم، كما جاء في
 الحديث: «يهديكم الله
 ويصلح بالكم»، قال
 النقاش: إنما قال فرعون:
 ﴿هَمَّا بِالْأَلْوَالِ الْأُولَى﴾ لَمَّا
 سمع مؤمن آله يقول:
 ﴿تَقْوَى إِلَهٍ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
 يَمَثَلُ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ مثل
 ذاب قور فوج وعاد الآيه،
 ورد موسى العلم إلى الله
 لأنه لم تأت التوراة بعد.
 وقوله: ﴿فِي كِتَابٍ﴾ يريد
 اللوح المحفوظ، أو فيما
 كتبه الملائكة من أحوال البشر.

وقرأت فرقة: ﴿لَا يَبْصُلُ﴾ بفتح
 الباء وكسر الضاد، واختلف في
 معنى هذه القراءة؛ فقالت فرقة:
 هو ابتداء كلام، تنزيه لله تبارك
 وتعالى عن هاتين الصفتين، وقد
 كان الكلام تم في قوله: ﴿فِي
 كِتَابٍ﴾، و﴿يَبْصُلُ﴾ معناه: يتلف،
 وقالت فرقة: بل قوله: ﴿لَا يَبْصُلُ
 رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ من صفة الكتاب،
 أي أن الكتاب لا يغيب عن الله
 تعالى، تقول العرب: «صَلَّنِي
 الشَّيْءُ» إذا لم أجده، و«أَضَلَّنِي»
 أنا، ومنه قول النبي ﷺ حكاية
 عن الإسرائيلي الذي طلب أن
 يحرق بعد موته: «العلي أضل الله»
 الحديث، و﴿وَلَا يَنْسَى﴾ أظهر ما
 فيه أن يعود ضميره إلى الله
 تعالى، ويحتمل أن يعود إلى

فأتياه فلما قال جميع ما أمرا به قال
 لهما فرعون: فمن ربكما؟ وقوله:
 ﴿يَسْمُوسَى﴾ بغير جمعه مع «هارون»
 في الضمير نداه له بمعنى التخصيص
 والتوقيف؛ إذ كان صاحب عظم
 الرسالة ولزيم الآيات.

استبد موسى عليه السلام بجوابه
 من حيث خصه بالسؤال، ثم أعلمه
 من صفات الله بالتي لا تشريك
 لفرعون فيه ولا بوجه مجاز.
 واختلف المفسرون في قوله تعالى:
 ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾؛ فقالت
 فرقة: أعطى الله الذكور من كل
 حيوان نوعه وخلقته أنثى، ثم هدى
 للإتيان. وقالت فرقة: أعطى الله كل
 موجود من مخلوقاته خلقته
 وصورته، أي أكمل ذلك له وأتقنه،
 ثم هدى أي: يسر كل شيء لمنافعه
 ومرافقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وهذا القول أشرف معنى وأعم في
 الموجودات.

وقرأت فرقة: ﴿خَلَقَهُ﴾ بفتح اللام،
 ويكون المفعول الثاني به ﴿أَعْطَى﴾
 مقدراً، تقديره: كماله أو مصلحته.

وقول فرعون: ﴿هَمَّا بِالْأَلْوَالِ
 الْأُولَى﴾ يحتمل أن يريد محاجته
 بحسب ما تقدم من القول ومناقضته
 فيه، فليس يتجه على هذا أن يريد
 إلا: ما بال القرون الأولى لم تبعث
 إليها ولم يوجد أمرك عندها؟ فرد
 موسى عليه السلام علم ذلك إلى الله
 تعالى. ويحتمل أن يريد فرعون قطع
 الكلام الأول والرجوع إلى سؤال

الكتاب في بعض التأويلات، يصفه
 بأنه لا ينسى، أي: لا يدع شيئاً،
 فالنسيان هنا استعارة، كما قال في
 موضع آخر: ﴿إِلَّا أَحْصَاهَا﴾،
 فوصفه بالإحصاء من حيث
 حصرته في الحوادث.

٥٣ - ٥٤ - تفسير قوله عز وجل:

انظر هذه الأشياء التي ذكرها موسى
 عليه السلام، هي مما تقضي بداية
 العقول أن فرعون وكل بشر بعيد
 عنها؛ لأنه لو قال: هو الرزاق القادر
 المريد العالم ونحوه من العبارات
 لأمكن فرعون أن يغالط ويقول: أنا
 أفعل هذا كله، فإنما أتاه موسى عليه
 السلام بصفات لا يمكن فرعون أن
 يقول إن ذلك له.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
 وابن عباس: ﴿مِهَادًا﴾ بكسر الميم
 وبألف، و(المِهَادُ) هو جمع مهدي،

وقيل: هو اسم مفرد كَفَرَشَ وِفْرَاشَ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿مَهْدًا﴾ بفتح الميم وسكون الهاء، وقوله: ﴿وَسَاكًا﴾ بمعنى: نَهَجَ وَلَحَبَ، و(السُّبُلُ): الطَّرِيقُ. وقوله: ﴿فَاخْرَجْنَا يَدَيْهِ﴾ يحتمل أن يكون من كلام موسى عليه السلام، على تقدير: يقول عز وجل: ﴿فَاخْرَجْنَا﴾، ويحتمل أن يكون كلام موسى تمَّ عند قوله: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ ثم وصل الله تعالى كلام موسى بإخباره لمحمد ﷺ، والمراد الخلق أجمع بهذه الآيات المنبئة عليها. و(الأزواج) بمعنى: الأنواع، وقوله: ﴿سَيِّئًا﴾ نعت للأزواج، أي: مختلفات.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَارْعَوْا أَنْفُسَكُمْ﴾ بمعنى هي صالحة أن يؤكل منها وترعى النعم فيها، فأخرج العبارة في صيغة الأمر؛ لأنه أوحى الأفعال وأهزأها للنفس. و(الأنف) جمع نهيئة، والنهيئة: العقل الناهي عن القبائح.

قوله تعالى: ﴿وَبِنَا حَلَفْنَاكُمْ﴾، أي: من الأرض، وهذا من حيث خلق آدم عليه السلام من تراب، ﴿وَبِنَا نُمِدَّكُمْ﴾ يريد: بالموت والدفن والقيامة كيف كان، وقوله: ﴿وَبِنَا نَحْرَجُكُمْ﴾ يريد: بالبعث يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آرَيْنَهُ آيَاتِنَا﴾ إخبار من الله تعالى لمحمد ﷺ عن فرعون، وهذا يؤيد أن الكلام من قوله تعالى: ﴿فَاخْرَجْنَا يَدَيْهِ﴾ إنما هو خطاب لمحمد ﷺ، وقوله:

﴿كُلَّمَا﴾ عائد على الآيات التي رآها، لا أنه رأى كل آية الله، وإنما المعنى أن الله أراه آيات ما، وهي العصا واليد والطمسة وغير ذلك، وكانت رؤيته لهذه الآيات مستوعبة، يرى الآية كلها كاملة، كأنه قال: «لقد آريناه آياتنا بكمالها»، وأضاف الآيات إلى ضمير العظمة تشريفاً لها. وقوله تعالى: ﴿وَأَيْنَ﴾ يقتضي تَكْسِبَ فرعون، وهذا هو الذي يتعلق به الثواب والعقاب.

٥٧ - ٥٩ تفسير قوله عز وجل: هذه المقالة من فرعون تدل على أن أمر موسى عليه السلام قد كان قَوِيًّا، وكَثُرَ مَتَّبِعُوهُ من بني إسرائيل، ووقع أمره في نفوس الناس، وذلك أنها مقالة من يحتاج إلى الحجة لا من يصدع بأمر نفسه. وأرضهم هي أرض مصر.

وقرأت فرقة: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ بالرفع، وقرأت فرقة: ﴿لَا تُخْلِفُهُ﴾ بالجزم حملاً على جواب الأمر، و﴿نَحْنُ﴾ تأكيد للضمير من حيث احتاج الكلام إلى العطف عليه أكد. و﴿مَوْعِدًا﴾ مفعول أول لـ ﴿أَجْمَلًا﴾، و﴿مَكَانًا﴾ مفعول ثانٍ. وهذا الذي اختار أبو علي، ومنع أن يكون ﴿مَكَانًا﴾ معمولاً لقوله: ﴿مَوْعِدًا﴾ لأنه قد وُصِفَ، وهذه الأسماء العاملة عمل الفعل إذا نعتت أو عطف عليها أو أخبر عنها أو صُفِّرَتْ أو جُمِعَتْ وتوغلت في الاسمية بمثل هذا لم تعمل ولا تعلق بها شيء هو منها، وقد يتوسع في الظروف فتعلق بعد ما ذكرناه، كقوله تعالى: ﴿يَسَادُونَ لَمَقَّتْ اللَّهُ أَكْبَرُ مِنْ مَفَاتِحِكُمْ أَنْفُسَكُمْ﴾

إِذْ تَدْعُونَ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ﴾، فقوله: ﴿إِذْ﴾ معلق بقوله: ﴿لَمَقَّتْ اللَّهُ﴾ وهو قد أخبر عنه، وإنما جاز هذا في الظرف خاصة، وكذلك منع أبو علي أن يكون ﴿مَكَانًا﴾ نصب على الظرف السَّادُّ مَسَدُ المفعول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا نظر، ومنع قوم أن يكون ﴿مَكَانًا﴾ نصباً على المفعول الثاني بـ ﴿تُخْلِفُهُ﴾، وجوزه كثير من النحاة، ووجهه أن يتسع في أن يخلف الموعود. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿سَيِّئًا﴾ بكسر السين. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة: ﴿سَوِيًّا﴾ بضمها، والجمهور نون النون. وقرأ الحسن: ﴿سَيِّئًا﴾ بكسر السين غير منون الواو، قال أبو الفتح: «ترك الصرف هنا مشكل، والذي ينبغي أن يكون محمولاً على الوقف»، وقرأت فرقة: ﴿سَوَاءً﴾، ذكره أبو عمرو عن ابن أبي عبله، ومعنى ﴿سَوِيًّا﴾ أي: عدلاً وتصفه، قال أبو علي: فكانه قال: مكاناً قريباً مما قرأه منكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما أراد: حالنا فيه مستوية، فيعُم ذلك القُرْبَ، وأن تكون المنازل فيه واحدة في تعاطي الحق، أي: لا تعترضكم فيه الرياسة، وإنما بقصد الحجة، و﴿سَوِيًّا﴾ لغة في (سوي)، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

وإن أباناً كان حلَّ ببلدة
سوي بين قيس قيس عيلان والفرز

وقالت فرقة: معناه: مستويًا من الأرض لا وَهْدَ فيه ولا نُجْد، وقالت فرقة: معناه: سوى مكاننا هذا.

فقال موسى عليه السلام: ﴿مَوْعِدِكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ﴾، أُنسج في الظرف من قرأه برفع ﴿يَوْمٌ﴾ فجعله خبراً. وقرأ الحسن، والأعمش، والثقفى: ﴿يَوْمٌ﴾ بالنصب على الظرف، والخبر مقدر. وزوي أن يوم الزينة كان عيداً لهم ويوماً مشهوداً، وصادف يوم عاشوراء، وكان يوم سبت، وقيل: هو كسر الخليج الباقي إلى اليوم. وقوله: ﴿وَأَنْ يُحْشَرَ﴾ عطف على ﴿الزَّيْنَةِ﴾ فهو في موضع خفض، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على تقدير: موعدهم أن يُحشَرَ، وتعلق عطفه على ﴿يَوْمٌ﴾، وفيه نظر. وقرأ الجمهور: ﴿يُحْشَرُ﴾ برفع الياء، وقرأ ابن مسعود، وأبو سعيد الخدري: ﴿يُحْشَرُ﴾ بفتح الياء وضم الشين ونصب ﴿النَّاسِ﴾، وقرأت فرقة: ﴿تُحْشَرُ﴾ بالنون، و﴿الْحَشْرُ﴾: الجمع، ومعناه: نحشر الناس لمشاهدة المعارضة والتَّهْيُؤُ لِقَبُولِ الحق حيث كان.

١٢٥٥ - تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فجمع السحرة ووعدهم وأمرهم بالإعداد لموسى، فهذا هو كيده، ثم أتى فرعون بجمعه وأهل دولته، والسحرة معه، وكانت عصابة لم يخلق الله تعالى أسحر منها، وجاء أيضاً موسى عليه السلام ببني إسرائيل معه، فقال موسى عليه السلام للسحرة:

﴿وَيْلَكُمْ﴾، وهذه مخاطبة مُخَذَّرٌ، وندبهم في هذه الآية إلى قول الحق إذا رأوه، وألأ يباهتوا بكذب.

وقرأ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿فَيَسْحَرُكُمْ﴾ بفتح الياء. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿فَيَسْحَرُكُمْ﴾ بضم الياء، وهما لغتان بمعنى واحد، يقال: سَحَتَ وَأَسْحَتَ بمعنى: أَهْلَكَ وَأَذْهَبَ، ومنه قول الفرزدق:

وَعَضَّ زَمَانٌ يَا ابْنَ مَرْوَانَ لَمْ يَدْعُ
مِنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا أَوْ مُجْلَفًا
فهذا من أَسْحَتَ.

فلما سمع السحرة هذه المقالة هالهم هذا المنزع، ووقع في نفوسهم من مهابته رعب شديد، وتنازعوا أمرهم. و﴿التَّنازع﴾ يقتضي اختلافاً كان بينهم في السُّرِّ، أي: قال بعضهم لبعض: هو محق، وقال بعضهم: هو مبطل، وقال بعضهم: إن كان من عند الله فَسَيَغْلِبُنَا، ونحو هذا من الأقوال التي تعهد من الجموع الكثيرة في وقت الخوف كالحرب ونحو هذا، ومعلوم أن جميع تناجيبهم إنما كان في أمر موسى عليه السلام، وقالت فرقة: إنما كان تناجيبهم بالآية التي بعد هذا ﴿إِنَّ هَذَا لَسَجْرَانٌ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر أن تلك قيلت علانية، ولو كان تناجيبهم ذلك لم يكن ثم تنازع. و﴿التَّجْوِي﴾: السُّرُّ والمُسَارَةُ، أي:

كان كل رجل منهم يناجي من يليه، ثم جعلوا ذلك سراً مخافة فرعون أن يتبين فيهم ضعفاً؛ لأنهم حينئذ لم يكونوا مُصْمَمِينَ على غلبة موسى عليه السلام، بل كان ظناً من بعضهم.

قوله تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ هَذَا لَسَجْرَانٌ﴾ الآية. قرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿إِنْ﴾ مُشَدَّدة النون ﴿هَذَا﴾ بِالْفِ وَنُونٍ مخففة للثنية، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿إِنْ هَذَيْنِ لَسَاجِرَانِ﴾، وقرأ ابن كثير: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاجِرَانِ﴾ بتخفيف نون ﴿إِنْ﴾ وتشديد نون ﴿هَذَا لَسَاجِرَانِ﴾، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿إِنْ﴾ خفيفة ﴿هَذَا﴾ خفيفة أيضاً ﴿لَسَاجِرَانِ﴾، وقرأت فرقة: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاجِرَانِ﴾، وقرأت فرقة: ﴿إِنْ هَذَا لَسَاجِرَانِ﴾، وقرأت فرقة: ﴿مَا هَذَا إِلَّا سَاجِرَانِ﴾، وقرأت فرقة: ﴿إِنْ هَذَا﴾ بتشديد النون من ﴿هَذَا﴾.

فَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الْأُولَى، فقالت فرقة: ﴿إِنْ﴾ بمعنى: نعم، كما روي أن رسول الله ﷺ قال في خطبة: ﴿إِنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ برفع (الحمد)، وقال عبدالله بن الزبير رضي الله عنه: ﴿إِنْ وَرَاكِبَهَا﴾ حين قال له رجل: لعن الله ناقةً حملتني إليك، ويدخل في هذا التأويل أن اللام لا تدخل في خبر الابتداء، وهو مما يجوز في الشعر، ومنه قول الشاعر:

أُمُّ الْحُلَيْسِ لَعَجُوزٌ شَهْرِيَّةٌ
تَرْضَى مِنَ اللَّحْمِ بِعَظْمِ الرُّقْبَةِ
ودهبت فرقة إلى أن هذه الآية بلغة بني الحارث بن كعب، وهي إيقاع

بعض، وقرأ ابن كثير: ﴿ثُمَّ﴾ بفتح الميم ﴿إِنْتُوا﴾ بسكون الياء، وقرأ أيضاً في رواية شبل عنه: ﴿ثُمَّ إِنْتُوا﴾ بكسرهما، قال أبو علي: وهذا غلط، ولا وجه لكسر الميم من ﴿ثُمَّ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿ثُمَّ أَنتُوا﴾ بفتح الميم وهمزة بعد الألف. وقوله تعالى: ﴿صَفًّا﴾ حال، أي: مُضْطَفِّين، وتداعوا إلى هذا لأن أَفْتَبَ وأظهر لهم. و﴿أَفْلَحَ﴾ معناه: ظفر ببغيته، و﴿أَسْتَقَلَّ﴾: طلب الغلُو في أمره وسعى سعيه.

١٥ - ٦٩ تفسير قوله عز وجل:

خَيْرَ السَّحَرَةِ موسى عليه السلام في أن يبتدىء بالإلقاء أو يتأخر بعدهم، وزوي أنهم كانوا سبعين ألف ساحر، وزوي أنهم كانوا ثلاثين ألفاً، وزوي أنهم كانوا خمسة عشر ألفاً، وروي أنهم كانوا تسعمائة ألف، ثلاثمائة من الفيوم، وثلاثمائة من الفرما، وثلاثمائة من الإسكندرية، وكان مع كل رجل منهم حبل وعصي قد استعمل فيها السحر.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا﴾ هي للمفاجأة، كما تقول: خرجت فإذا زيد، وهي التي تليها الأسماء. وقرأت فرقة: ﴿وَعَصِيْبُهُمْ﴾ بكسر العين، وقرأت فرقة بضمها، وقرأت فرقة: ﴿يَحْيَلُ﴾ على بناء الفعل للمفعول، فقوله: ﴿أَنَّهُ﴾ في موضع رفع على ما لم يُسَمَّ فاعله. وقرأ الحسن، والثقيفي: ﴿فُحْيَلُ﴾ بضم الثاء المنقوطة من فوق وكسر الياء، وإسناد الفعل إلى الحبال والعصي، فقوله: ﴿أَنَّهُ﴾ في موضع نصب.

﴿هَذَانِ﴾ مُشَبَّهَةٌ هنا بألف تفعلان، وقال ابن كيسان: لما كان بحال واحدة في رفعه ونصبه وخفضه تركت تشبيته هنا كذلك. وقالت جماعة - منهم عائشة رضي الله عنها، وأبو عمرو -: هذا مما لَحَنَ الكاتب فيه وأقيم بالصواب وهو تخفيف النون من ﴿إِنْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الأقوال مُعْتَرِضَةٌ، إلا ما قيل من أنها لغة، و﴿إِنْ﴾ بمعنى: أجل ونعم، أو إِنْ في

قَالُوا يَمْشُونَ إِيْمَانًا تَلْفِي وَإِيْمَانًا تَكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْفَى ۖ قَالَ نَبِيُّ الْقُرْآنِ إِذَا دَجَّاهُمْ وَعَصِيْبُهُمْ يَحْيَلُ إِلَيْهِمْ سِحْرَهُمْ أَنَّهُ اسْتَعَى ۖ وَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةَ مُوسَى ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ۖ وَالَّذِي مَاتَ بِبَيْتِكَ لَنَلْفِقَنَّ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدَ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَقْبَلَ ۖ قَالُوا نَأْتِي السَّحَرَةَ حَيْدًا قَالُوا أَمَا مَنَّا رَبِّ هَرُونَ وَمُوسَى ۖ قَالَ أَمْنَمُ لَهُ قَبْلَ أَنْ أَدْنَى لَكُمْ إِنَّهُ لَكَيْدِكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُفْلِحُونَ ۖ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ ۖ وَلَا صِلَتِكُمْ فِي جُدُوعِ النَّهْلِ ۖ وَلَنَعْلَمَنَّ إِنَّمَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَذَى ۖ قَالُوا لَنْ نُؤَدِّكَ عَلَيَّ مَا جَاءَنَا مِنْ بَيْنَتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ إِنَّمَا مَنَّا رَبَّنَا لِيُفَرِّقَنَا خَطِئَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْكَ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهِ خَيْرٌ وَأَذَى ۖ إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ بِحِجْرٍ مَاءٍ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ۖ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْتًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَىٰ ۖ حَيْثُ عَدُوٌّ يُجْرَىٰ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّىٰ ۖ

٣١٦

ألف التثنية في حالي النصب والخفض، فمن ذلك قول الشاعر: تَزَوَّدَ مِنَّا بَيْنَ أَذْنَاءِ طَغْنَةَ دَعَتْهُ إِلَىٰ هَابِي الثَّرَابِ عَقِيمٍ

وقول الآخر:

فَأَطْرَقَ إِطْرَاقَ الشُّجَاعِ وَلَوْ يَزِي مَسَاغًا لِنَابِةِ الشُّجَاعِ لَصَمَّمَا وَتَعَزَىٰ هَذِهِ اللُّغَةُ لِكِنَاةِ، وَتَعَزَىٰ لِيَحْتَمِمَ. وقال الفراء: الألف في ﴿هَذَانِ﴾ دعامة وليست مجلوبة للتثنية، وإنما هي ألف (هذا) تُرِكَت في حال التثنية، كما تقول: (الذي) ثم في الجمع نزيد نوناً ونترك الياء في حال النصب والرفع والخفض، وقال الزجاج: في الكلام ضمير تقديره: إِنَّهُ هَذَانِ لَسَاحِرَانِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا التأويل دخول اللام في الخبر، وقال بعض النحاة: أَلِفٌ

الكلام ضمير. وأما من قرأ ﴿إِنْ﴾ خفيفة، فهي عند سيبويه المخففة من الثقيلة ويرتفع بعدها الاسم، ويقول الفراء: هي بمعنى (ما) واللام بمعنى (إِلَىٰ). وَوَجْهٌ سَائِرُ الْقَرَاءَاتِ بَيِّنٌ.

وعبر كثير من المفسرين عن «الطريقة» بـ«السادة»، وإنما يراد أهل العقل والسنن والحججى، وحكى أن العرب تقول: «فلان طريقة قومه»، أي: سيدهم، والأظهر في الطريقة هنا أنها السيرة والمملكة والحال التي هم عليها، و«الئلى» تأنيت الأمثل، أي: الفاضلة الحسنة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿فَأَجْمَعُونَ﴾ بقطع الألف وكسر الميم، على معنى: اعزموا، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿فَأَجْمَعُوا﴾ مِنْ (جَمَعَ)، أي: ضَمُّوا سِحْرَهُمْ بَعْضَهُ إِلَىٰ

وقرأت فرقة: ﴿تَخِيلُ﴾ بفتح التاء والياء وإسناد الفعل إلى الحبال والعصي، فقوله: ﴿أَنهَا﴾ مفعول من أجله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من الآيات والقصاص في كتب المفسرين أن الحبال والعصي كانت تتحرك وتنتقل بحيل السحر، ويدس الأجسام الثقيلة المياعة فيها، وكان تحركها يشبه تحرك الذي له إرادة كالحيوان، وهو السغي، فإنه لا يوصف بالسغي إلا من يمشي من الحيوان. وذهب قوم إلى أنها لم تتحرك، ولكنهم سحروا أعين الناس وكان الناظر يُخِيل إليه أنها تتحرك وتنتقل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والله أعلم أي ذلك كان.

وقوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ﴾ عبارة عما يعترى نفس الإنسان إذا وقع ظنه في أمر على شيء سيء. وظاهر الأمر كله الصلاح، فهذا الفعل من أفعال النفس يسمى الوجيس، وعبر المفسرون عن ﴿أَوْجَسَ﴾ بأَضْمَرَ وهذه العبارة أعم بكثير من الوجيس. و﴿خِيفَةُ﴾ يصح أن يكون أصلها (خَوْفَةٌ) فقلبت الواو ياءً للتناسب، ويحتمل أن يكون (خَوْفَةٌ) بفتح الخاء، قلبت الواو ياءً ثم كسرت الخاءً للتناسب. وخوف موسى عليه السلام إنما كان على الناس أن يضلوا لهول ما رأى. والأول أصوب؛ لأنه أوجس في نفسه على الجملة وبقي ينتظر الفرج. وقوله: ﴿أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ أي الغالب لمن ناوأك في هذا المقام.

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَلْقَفُ﴾ بالجزم وشذ القاف على جواب الأمر. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿تَلْقَفُ﴾، وهو في موضع الحال، ويصح أن يكون من المُلقِي على الاتساع، ويصح أن يكون من المُلقَى وهي العصا، وهذه حال وإن كانت لم تقع بعد، كقوله تعالى: ﴿هَدْبًا يَلْبِغُ الْكَمْبَةَ﴾، وهذا كثير. وقرأ حفص عن عصام: ﴿تَلْقَفُ﴾ بسكون الفاء وتخفيف القاف، وأثت الفعل وهو مسند إلى ما في اليمين من حيث كانت العصا مُرَادَةً بذلك. وزوى البيزي عن قتيل أنه كان يشدد الفاء من ﴿تَلْقَفُ﴾، كأنه أراد: تلتقف فأدغم، وأنكر أبو علي هذه القراءة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن قارئها إنما يَلْتَزِمُها في الوصل حيث يستغني عن جلب ألف.

وقرأ الجمهور: ﴿كَيْدٌ﴾ بالرفع، وقرأت فرقة: ﴿كَيْدٌ﴾ بالنصب، وهذا على أن ﴿مَأً﴾ كافة و﴿كَيْدٌ﴾ منصوب ب﴿صَنَعُوا﴾، ورفع ﴿كَيْدٌ﴾ على أن ﴿مَأً﴾ بمعنى الذي. و﴿يُلْبِغُ﴾ معناه: يظفر ببيغته، وقالت فرقة: معناه أن الساحر يقتل حيث تقف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا جزء من عدم الفلاح، وقرأت فرقة: ﴿أَيْنَ أَتَى﴾، والمعنى فيها مقارب.

وزوي من قصص هذه الآية أن فرعون لعنه الله، جلس في عليه له طولها ثمانون ذراعاً، والناس تحته

في بسيط، وجاء سبعون ألف ساحر فألقوا من حبالهم وعصيهم ما فيه وقر ثلاثمائة بعير، فقال الأمر. ثم إن موسى عليه السلام ألقى عصاه من يده فاستحالت ثعباناً، وجعلت تنمو حتى زوي أنها عبرت النهر بذنبها، وقيل: البحر، وفرعون في هذا يضحك ويرى أن الاستواء حاصل. ثم أقبلت تأكل الحبال والعصي حتى أفنتها، ثم فغرت نحو فرعون، ففزع عند ذلك وقال: يا موسى، فمد موسى عليه السلام يده إليها فرجعت عصاً كما كانت فظفر السحرة وعلموا الحق ورأوا عدم الحبال والعصي فأمنوا رضي الله عنهم.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

في خلال هذه الآية تقدير وحذف يدل عليه ظاهر القول، فالمقدر من ذلك هنا: «فألقي موسى عصاه فألقت كل ما جاءوا به، أو نحو هذا. وروي أن السحرة لما رأَت العصا لا أثر فيها للسحر ثم رأَت انقلابها حيَّةً وأكلها الحبال والعصي ثم رجوعها إلى حالتها وعدم الحبال والعصي، أيقنوا بنبوَّة موسى عليه السلام، وأن الأمر من عند الله تعالى. وقدم ﴿هَزُونٌ﴾ قبل ﴿رُؤُوسٍ﴾ لتستوي رؤوس الآي بنقل معنى قول السحرة، وهذا مثل قوله عز وجل: ﴿أَرْوَبَا مِنْ تَبَاتِ شَقٍّ﴾، فتأخير ﴿شَقٍّ﴾ إنما هو لتعتدل رؤوس الآي، وكذلك قوله تعالى: ﴿رُؤُوسًا كَلِمَةً سَمَّتَ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾، فتأخير قوله: ﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ إنما هو لتستوي رؤوس الآي.

السلام، والأول أذهب مع
مخرقة فرعون.

عز وجل: ﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله

قال السحرة لفرعون لما
توعدهم: ﴿لَنْ نُؤْمِرَكَ﴾،

أي: لن نفضلك ونفضل
من حجة الله تعالى وآياته

المبينات وعلى الذي
فطرنا، هذا على قول

جماعة إن الواو في قوله:

﴿وَالَّذِي﴾ عاطفة. وقالت

فرقة: هي واو القسم،
﴿فَطَرْنَا﴾ معناه: خلقنا

واخترنا، فافعل يا فرعون
ما شئت، وإنما قضاؤك في

هذه الحياة الدنيا، والآخرة من وراء
ذلك لنا بالنعيم ولك بالعذاب.

وهؤلاء السحرة اختلف الناس هل
نفذ فيهم وعيد فرعون؟ فقالت

طائفة: صلبهم على الجذوع كما
قال، فأصبح القوم سحرة وأمسا

شهداء بلطف الله ورحمته. وقالت

فرقة: إن فرعون لم يفعل ذلك، وقد
كان الله تعالى قد وعد موسى عليه

السلام أنه ومن معه الغالبون.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا كله محتمل، وصلب السحرة
وقطع أيديهم لا يدفع في أن موسى

عليه السلام ومن معه غلب إلا بظاهر
العموم، والانفصال عن ذلك بين.

وقوله: ﴿وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ﴾،
قالت فرقة: أرادوا ما ضمهم إليه من

معارضة موسى عليه السلام وحملهم
عليه من ذلك. وقالت فرقة: بل كان

فرعون قديماً يأخذ ولدان الناس بتعليم
السحر ويجبرهم على ذلك، فأشار

السحرة إلى ذلك. وقولهم: ﴿وَاللَّهُ
خَبِيرٌ وَابْقِين﴾ رد على قوله: ﴿إِنَّا أَشَدُّ

عَذَابًا وَأَبْقِين﴾. ﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: هذه الآية بجملتها هي
من كلام السحرة لفرعون على جهة

الموعظة له والبيان فيما فعلوه.
وقالت فرقة: بل هي من كلام الله

تبارك وتعالى لمحمد ﷺ تنبيهاً على
قبح ما فعل فرعون. وحسن ما فعل

السحرة، وموعظة وتحذيراً. وقد
تضمنت القصة المذكورة مثاله

والمجرام الذي اكتسب الجرائم
والخطايا.

وقوله: ﴿لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾
مختص بالكافر، فإنه معذب عذاباً

ينتهي به إلى الموت، ثم لا يُجهز
عليه فيستريح، بل يُعَادُ جِلْدُهُ وَيُجَدِّدُ

عَذَابُهُ، فهو لا يحيا حياة هنية. وأما
من يدخل النار من المؤمنين

بالمعاصي فهم قبل أن تخرجهم
الشفاعة في غمرة قد قاربوا الموت

إلا أنهم لا يُجهز عليهم ولا يُجدد
عذابهم، فهذا فرق ما بينهم وبين

الكفار، وفي الحديث الصحيح أنهم
يموتون إمامة، وهذا هو معناها؛ لأنه

لا موت في الآخرة.
﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ هي القرب

من الله تعالى، و﴿كَرَّوْنًا﴾ معناه:
أطاع الله وأخذ بأزكى الأمور، وتأمل

التكسب في لفظة ﴿كَرَّوْنًا﴾ فإنه بين.
﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا استئناف إخبار عن شيء من
أمر موسى، بينه وبين مقال السحرة

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْتِرْ لَهُمْ طَرِيقًا
فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا مَخْشَىٰ ﴿٧٦﴾ فَأَتَيْنَهُمُ فِرْعَوْنُ
مُجْتَوِيًّا وَقَفَّسِهِمْ مِنَ النَّارِ مَا عَشِيبِهِمْ ﴿٧٧﴾ وَأَصْلُ فِرْعَوْنَ فِرْعَوُ
وَمَا هَدَىٰ ﴿٧٨﴾ يَبْنِي إِسْرَهُ بَلْ قَدْ أَحْبَبْنَاكَ مِنَ عَدُوِّكَ وَوَعَدْنَاكَ
جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْمَنَ وَالسَّوَابِي ﴿٧٩﴾ كَلِمًا
مِنْ طِبْيَاتِ مَارَزَقْتَكُمْ وَلَا تَطْعَمُوا فِيهِ فَيَجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي
وَمَنْ يَجِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوِيَ ﴿٨٠﴾ وَإِنِّي لَأَعْلَمُ لِمَنْ تَابَ
وَمَنْ لَمْ يَتَّخِذْ مَعِي مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ أَرْضٍ وَهُوَ يُعْذِرُ عَنْ
قَوْلِكَ بِمُوسَىٰ ﴿٨١﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَىٰ أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ
رَبِّ لِأَرْضِي ﴿٨٢﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ
السَّامِرِيُّ ﴿٨٣﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ
يَتَّبِعُوا آلَ بَعْدِكُمْ وَبِعْدَكُمُ زَكَاةً وَسَعَةً فَاطَّاعُوا آلَ بَعْدِكُمْ
أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدَّ أَحْسَنَ أَطْوَالٍ عَلَيْكُمْ
أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ أَنْ يُجِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمُ
مُوعِدِي ﴿٨٤﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَا كَلِمَانَا
أَوْ آرَادَ مِنْ رَبِّنَا الْفُورِ فَقَدْ فَتَنَّا فَكَذَلِكَ أَلْفَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٥﴾

وقرأ ابن كثير، وحفص عن
عاصم، وورش عن نافع: ﴿ءَأَمْنْتُمْ﴾

على الخبر، وقرأ نافع، وأبو عمرو،
وابن عامر: ﴿أَمْنْتُمْ﴾ بهمزة بعدها

مدة. وقرأ حمزة، والكسائي،
وأبو بكر عن عاصم: ﴿أَمْنْتُمْ﴾

بهمزتين. وقوله: ﴿قَبْلَ أَنْ مَادَنَّ
لَكَ﴾ مقاربة منه وبعض إذعان.

وقوله: ﴿مِنْ خَلْفٍ﴾ يريد قطع
اليد اليمنى مع الرجل الشمال،

وقوله: ﴿فِي جُدُوعِ النَّخْلِ﴾ أتساع من
حيث هو مربوط في الجذع، وليست

على حد قولك: زيد في الدار،
ويصلح في هذا المعنى (على) من

حيث هو مربوط في أعلاها، وليست
على حد قولك: ركبت على

الفرس. وقوله: ﴿إِنَّا﴾ يريد نفسه
ورب موسى عليه السلام. وقال

الطبري: يريد نفسه وموسى عليه

المتقدم مدة من الزمان حدث فيها لموسى وفرعون حوادث. وذلك أن فرعون لما انقضى أمر السحرة وغلب موسى وقوي أمره، وعدّه فرعون أن يرسل معه بني إسرائيل، فأقام موسى عليه السلام على وعده حتى غدره فرعون ونكث وأعلمه أنه لا يرسلهم معه. فبعث الله تعالى حينئذ الآيات المذكورة في غير هذه الآية: الجراد والقمل إلى آخرها، وكلما جاءت آية وعد فرعون أن يرسل بني إسرائيل عند انكشاف العذاب، فإذا انكشف العذاب نكث حتى تأتي أخرى. فلما كانت الآيات أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل من مصر في الليل سارياً، (وَالسَّرَى): سير الليل، و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ أْتِرَ﴾ يجوز أن تكون مفسّرة لا موضع لها من الإعراب، كقوله تعالى: ﴿وَأَنطَلَقَ الْكَلْبُ مِنْهُمْ أَنْ أَسْتَوَى﴾، ويجوز أن تكون الناصبة للأفعال، وتكون في موضع نصب بـ ﴿أَوْحَيْتَا﴾. وقوله: ﴿يَبَادِي﴾ إضافة تشريف لبني إسرائيل، وكل الخلق عباد الله، ولكن هذا كقوله تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾.

وروي في قصص هذه الآية أن بني إسرائيل لما أشعرهم موسى عليه السلام بليلة الخروج استعاروا من معارفهم من القبط حلياً وثياباً. ويروي أن موسى عليه السلام أذن لهم في ذلك وقال لهم: إن الله سينفلكموها، ويروي أنهم فعلوا ذلك دون رأيه، وهو الأنبياء به ﷺ، وسيأتي في جمع الحلبي ما يؤيد

ذلك. ويروي أن بني إسرائيل عجنوا زادهم ليلة سراهم ووضعوه ليختم، فأعجلهم موسى عليه السلام في الخروج، فطبخوه فطيراً، فهي سُنْتهم في ذلك الوقت من العام إلى هَلْم. ويروي أن موسى عليه السلام نهض ببني إسرائيل وهم ستمائة ألف إنسان، فسار بهم من مصر يريد بحر القلزم، فاتصل الخبر بفرعون، فجمع جنوده وحشروهم ونهض وراءه. فأوحى الله إلى موسى أن يقصد البحر، فجزع بنو إسرائيل، رأوا أن العدو من ورائهم والبحر أمامهم، وموسى عليه السلام يثق بصنع الله تعالى، فلما رآهم فرعون قد نهضوا نحو البحر طمع فيهم؟ وكان مقصدهم إلى موضع تنقطع فيه الفحوص والطرق الواسعة.

واختلف الناس في عدد جنود فرعون؛ فقيل: كان في خيله سبعون ألف أدهم، ونسبة ذلك من سائر الألوان، وقيل أكثر من هذا مما اختصرته لقلة صحته.

فلما وصل موسى إلى البحر وقارب فرعون لحاقه وقوي فزع بني إسرائيل، أوحى الله تبارك وتعالى إلى موسى عليه السلام أن اضرب بعصاك البحر. ويروي أن الوحي إليه بذلك كان متقدماً بمصر وهو ظاهر الآية. ويروي أنه إنما أوحى إليه بذلك في موطن وقوعه، واتصل الكلام في هذه الآية على جهة وصف الحال وضم بعض الأمور إلى بعض فضرب موسى عليه السلام البحر فانفرد اثنتي عشرة فرقة، طُرْقاً واسعة بينها حيطان ماء واقف،

فدخل موسى عليه السلام بعد أن بعث الله تعالى ريح الصبا فجفت تلك الطرق حتى ييست، ودخل بنو إسرائيل، ووصل فرعون إلى المدخل وبنو إسرائيل كلهم في البحر، فرأى الماء على تلك الحال، فجزع قومه واستعظموا الأمر، فقال لهم لعنه الله: إنما انفلق من هيبتي، وها هنا كمل إضلاله لهم، وحمله الله على الدخول، وجاء جبريل عليه السلام راكباً على فرس أنثى فاتبعها فرس فرعون، وتابعه الناس حتى تكاملوا في البحر فانطبق عليهم، وسمع بنو إسرائيل انطباق الماء وهم قد خرجوا بأجمعهم من البحر فعجبوا، فأخبرهم موسى عليه السلام أن فرعون وقومه قد هلكوا فيه، فطلبوا مصداق ذلك فلفظ البحر الناس، وألقى الله تعالى فرعون على نجوة من الأرض يدزعه المعروفة له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا اختصار قصص هذه الآية بحسب ألفاظها، وقد مضى أمر فرعون بأوعب من هذا في موضع اقتضاه.

وقوله تعالى: ﴿يَبَادِي﴾ مصدر وصف به، وقرأ بعض الناس: ﴿يَابَسًا﴾، وأشار إلى ذكره الزجاج. وقرأ حمزة وحده: ﴿لَا تَخَفْ﴾ إمّا على جواب الأمر، وإمّا على نهي مستأنف. وقرأ الجمهور: ﴿لَا تَخَفْ﴾ على أن يكون حالاً من موسى عليه السلام، ويحتمل أن يكون صفة للطريق على تقدير: لا تخاف فيه، أي يكون بهذه الصفة،

ومعنى هذا القول: لا تخاف دركاً من فرعون وجنوده، ولا تخشى غرقاً من البحر. وقرأ أبو عمرو - فيما روي عنه -: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ بشد التاء، وتبع وأتبع وإنما يتعدى إلى مفعول واحد، كقولك: شويت واشتويت، وفديت وافتديت، وحفرت واحفرت.

وقوله: ﴿يَجُودُونَ﴾، إما أن تكون الباء مع ما جرَّ بها في موضع الحال، كما تقول: خرج زيد بسلاحه، وإما أن يكون لتعدي الفعل إلى مفعول ثانٍ إذ لا يتعدى دون حرف جرٍّ إلا إلى واحد. وقرأ الجمهور: ﴿فَاتَّبَعَهُمْ﴾ بسكون التاء، وهذا يتعدى إلى مفعولين، فالباء - على هذا - إما زائدة، والتقدير: فأتبعهم فرعون وجنوده، وإما أن تكون باء الحال، ويكون المفعول الثاني مقدرًا، كأنك قلت: رؤساءه أو عزمه، ونحو هذا، والأول أظهر. وقرأت فرقة: ﴿فَغَشِيَهُمْ﴾، وقرأت فرقة: ﴿فَغَشَاهُمْ اللَّهُ﴾. وقوله: ﴿مَا غَشِيَهُمْ﴾ إيهامُ أهول من اللص على قدر ما، وهذا كقوله تعالى: ﴿إِذْ يَنْشَى اللَّيْلَ مَا يَنْشَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا فِرْعَوْنُ فَرَعَوَيْ﴾ يريد: من أول أمره إلى هذه النهاية، ثم أكد تعالى بقوله: ﴿وَمَا هَذَا﴾ مقابلة لقول فرعون لعنه الله: ﴿وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾.

٨٠ - ٨١ تفسير قوله عز وجل:

ظاهر هذه الآيات أن هذا القول قيل لبني إسرائيل حينئذ عند حلول هذه النعم التي عندها الله تعالى عليهم، ويبين خروجهم من البحر وبين هذه

المقالة مُدَّةٌ وحوادث، ولكن يخص الله بالذكر ما يشاء من ذلك. ويحتمل أن تكون هذه المقالة خوطب بها معاصرو رسول الله ﷺ، فالمعنى: هذا فعلنا بأسلافكم، ويكون قوله سبحانه: ﴿كُلُّوا﴾ بتقدير: قيل لهم: كُلُّوا، وتكون الآية - على هذا - اعتراضاً في أثناء قصة موسى عليه السلام الفُضدُ به توبيخ هؤلاء الحضور إذ لم يصبر سلفهم على أداء شكر نعم الله تبارك وتعالى، والمعنى الأول أظهر وأبين. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وأبو عمرو: ﴿أَتَجِيبْنَا﴾، ﴿وَوَاعَدْنَا﴾، ﴿وَوَرَّعْنَاكُمْ﴾، إلا أن أبا عمرو قرأ: ﴿وَعَدْنَاكُمْ﴾ بغير ألف في كل القرآن، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿أَتَجِيبْتُ﴾، ﴿وَوَاعَدْتُ﴾، ﴿وَوَرَّعْتُكُمْ﴾. وقوله: ﴿وَوَعَدْنَاكُمْ﴾ قيل: هي لغة في (وَعَدَ) لا تقتضي فعل اثنين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن حُجِلَتْ على المعهود فلأن الثَّقَلِيَّ والعهد والعزم على ذلك يقوم مقام المُوَاعَدَةِ.

وقصص هذه الآية أن الله تعالى لما أنجى بني إسرائيل وعرق فرعون، وعد سبحانه وتعالى بني إسرائيل وموسى عليه السلام أن يسيروا إلى جانب طور سيناء ليكلّم فيه موسى ويناجيه بما فيه صلاحهم بأوامرهم ونواهيهم، فلما أخذوا في السير تعجل موسى عليه السلام ليلقاء ربّه حسبما يأتي ذكره بعد.

وقالت فرقة: هذا الطور الذي

كلّم الله تعالى فيه موسى أولاً حيث رأى الثار وكان في طريقه من الشام إلى مصر، وقالت فرقة: ليس به. (الطور): الجبل الذي لا شغراء فيه. وقوله: ﴿الْأَيْنِ﴾، إما أن يريد به اليمين، وإما أن يريد به اليمين فالإضافة إلى «ذي يمين»، إنسان أو غيره. (الْمَنْ وَالسَّلْوَى) طعامهم، وقد مضى في سورة البقرة استيعاب تفسيرهما.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ طَيْبَتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ يريد الحلال المِلْكُ؛ لأن المعنى في هذا الموضع قد جمعهما. واختلف الناس ما المقصود الأول بلفظ (الطَّيِّب) في القرآن؛ فقال مالك رحمه الله: الحلال، وقال الشافعي رحمه الله: ما يطيب للنفوس، وساق إلى هذا الخلاف تَفَقُّههم في الخشاش والمستقدر من الحيوان.

وقوله تعالى: ﴿تَطْفَؤُا فِيهِ﴾ معناه: تتعدون الحد وتتعسفون كالذي فعلوا. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَبِئَلَّ﴾ بكسر الحاء، و﴿يَخْلَلُ﴾ بكسر اللام، وقرأ الكسائي وحده: ﴿فَيَخْلَلُ﴾ بضم الحاء، و﴿يَخْلَلُ﴾ بضم اللام، ومعنى الأول: فيجب ويحق، ومعنى الثاني: فيقع ويتزلزل. وقوله تعالى: ﴿فَقَدَّ هَوًى﴾ معناه: سقط من علو إلى سفلى، ومنه قول خنافر:

فَهَوًى هُسُويُّ الْعُقَابِ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن لم يكن سقوطاً فهو تشبيه بالساقط، والسقوط حقيقة قول الآخر:

.....
 هَوَى الَّذِي يُقَع فِي طَائِمَةٍ أَوْ وَرْطَةٍ
 وَشَبَّهَ الَّذِي يَقَع فِي طَائِمَةٍ أَوْ وَرْطَةٍ
 بِعَدِّ أَنْ كَانَ بِنَجْوَةٍ مِنْهَا بِالسَّاقَطِ،
 فَلَا يَأْتِي مِنْ هَذَا، أَي: هَوَى فِي جَهَنَّمَ
 وَفِي سَخَطِ اللَّهِ، وَقِيلَ: أَخَذَ الْفِعْلُ
 مِنَ الْهَوَايَةِ وَهِيَ قَعْرُ جَهَنَّمَ.

ولما حذّر الله تبارك وتعالى غضبه
 والطغيان في نعمه فَتَحَّ باب الرَّجَاءِ
 لِلتَّائِبِينَ. والتوبة فرض على جميع
 الناس لقوله تعالى في سورة النور:
 ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
 الْمُؤْمِنُونَ﴾، والناس فيها على
 مراتب: أمّا مواقع الذنب وقدرته
 على ذلك باقية فتوبته الندم على ما
 مَضَى والإقلاع الثام عن مثله في
 المستقبل، وأمّا الذي واقع الذنب ثم
 زالت قدرته على ذلك مِن شَيْخٍ أَوْ
 بَاقَةٍ فتوبته الندم واعتقاد الترك إن لو
 كانت قُدرة، وأمّا من لم يواقع ذنباً
 فتوبته العزم على ترك كل ذنب،
 والتوبة من ذنب تصحّ مع الإقامة
 على غيره، وهي توبة مقيدة، وإذا
 تاب العبد ثم عاود الذنب بعينه بعد
 مُدَّة فيحتمل عند خُذَاق أهل السُنَّةِ
 ألا يعيد الله تعالى عليه الذنب
 الأول؛ لأن التوبة قد كانت محضة،
 ويحتمل أن يعيده لأنها توبة لم يُوفَّ
 بها.

واضطرب الناس في قوله تعالى:
 ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾ من حيث وجدوا الهدى
 ضَمَّنَ الإيمان والعمل؛ فقالت فرقة:
 معناه: ثم لزم الإسلام حتى يموت
 عليه، وقالت فرقة: معناه: لم يشك
 في إيمانه، وقالت فرقة: معناه: ثم
 استقام، وقالت فرقة: ثم أخذ بسُنَّةِ

نبيه ﷺ، وقالت فرقة: معناه: ثم
 أصاب العمل، وقالت فرقة: معناه:
 ثم عرف أمر مشيبه، وقالت فرقة:
 معناه: وآلى أهل البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وهذه كلها تخصيص واحد منها دون
 ما هو من نوعه بعيد ليس بالقوي،
 والذي يقوى في معنى ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾
 أن يكون: ثم حفظ معتقداته من أن
 يخالف الحق في شيء من الأشياء،
 فَإِنَّ الْإِهْتِدَاءَ - عَلَى هَذَا الْوَجْهِ - غَيْرُ
 الْإِيمَانِ وَغَيْرُ الْعَمَلِ، وَرُبَّ مُؤْمِنٍ
 عَمِلَ صَالِحًا قَدْ أَوْبِقَهُ عَدَمُ الْإِهْتِدَاءِ
 كَالْقَدْرِيَّةِ وَالْمُرْجِيَّةِ وَسَائِرِ أَهْلِ الْبِدْعِ
 وَالْخَوَارِجِ، فَمَعْنَى ﴿ثُمَّ أَهْتَدَى﴾: ثُمَّ
 مَشَى فِي عَقَائِدِ الشَّرْعِ عَلَى طَرِيقِ
 قَوْمٍ، جَعَلْنَا اللَّهَ تَعَالَى مِنْهُمْ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وفي حفظ المعتقدات ينحصر عظم
 أمر الشرع.

(٨٣) - (٨٤) تفسير قوله عز وجل:
 قصص هذه الآية أن موسى عليه
 السلام لما شرع في الشهور بني
 إسرائيل إلى جانب الطور الأيمن
 حيث كان الموعد أن يكلم الله
 موسى بما فيه لهم شرف العاجل
 والآجل، رأى - على جهة الاجتهاد -
 أن يتقدم وحده مبادرة إلى الله
 عز وجل، وحرصاً على القرب،
 وشوقاً إلى مناجاته، واستخلف
 هارون عليه السلام على بني
 إسرائيل، وقال لهم موسى عليه
 السلام: تسيرون إلى جانب الطور،
 فلمّا انتهى موسى عليه السلام وناجى
 ربه، زاده في الأجل عَشْرًا، وحينئذ
 وقفه على معنى استعجاله دون القيام

ليخبره موسى أنهم على الأثر فيقع
 الإعلام له بما صنعوا.

وقرأت فرقة: ﴿أُولَآئِي﴾، وقرأت
 فرقة أخرى: ﴿أُولَآئِي﴾ بفتح الباء.
 وقوله: ﴿عَلَى آثَرِي﴾ يحتمل أن يكون
 في موضع رفع خبراً بعد خبر،
 ويحتمل أن يكون في موضع نصب
 على الحال. وقرأت فرقة: ﴿عَلَى
 آثَرِي﴾ بفتح الهمزة والثاء، وقرأت
 فرقة: ﴿عَلَى إِثَرِي﴾ بكسر الهمزة
 وسكون الثاء.

وأعلمه موسى عليه السلام أنه إنما
 استعجل طلب الرضا، فأعلمه الله
 تعالى أنه قد قُتِنَ بني إسرائيل، أي
 اختبرهم بما صنع السامري.
 ويحتمل أن يريد: ألقيناهم في فتنة،
 أي في مَبْتَلٍ مع الشهوات، ووقوع
 في اختلاف كلمة. وقوله: ﴿وَمِنْ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ أي من بعد فراقك لهم.
 وقرأت فرقة: ﴿وَأَضَلُّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾
 بإسناد الفعل إلى السامري، وقرأت
 فرقة: ﴿وَأَضَلُّهُمُ السَّامِرِيُّ﴾ بضم
 اللام على الابتداء والخبر عن
 السامري أنه أضلّ القوم.

وَالسَّامِرِيُّ رجلٌ من بني
 إسرائيل، ويقال: إنه كان ابن خال
 موسى عليه السلام، وقالت فرقة: لم
 يكن من بني إسرائيل، بل كان أضله
 من العجم من أهل كرمان، والأول
 أصح. وكان من قصص السامري أنه
 كان منافقاً عنده جِئَلٌ وسحرٌ، وقبض
 القبضة من أثر جبريل عليه السلام،
 وعلم بما أقدره الله عليه لِفِتْنَةِ الْقَوْمِ
 أَنَّهُ يَتَهَيَّأُ لَهُ بِتِلْكَ الْقَبْضَةِ مَا يَرِيدُ مِمَّا
 يَجُوزُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى، لِأَنَّهُ لَوْ ادَّعَى
 النبوّة مع ذلك العجل لما صحّ ولا

جاز أن يجوز ولا أن تتم الحيلة فيه، لكنه لما ادعى له الربوبية وعلامات كذبه قائمة لائحة صحت الفتنة به وجاز ذلك على الله تعالى، كقصة الدجال الذي تخرق له العادات لأنه مدعي الربوبية، ولو كان مدعي النبوة لما صح شيء من ذلك. فلما رأى السامري موسى قد غاب ورأى بقية بني إسرائيل في طلبهم من موسى آلهة حين مروا على قوم يعبدون أصناماً على صفة البقر - وقيل: كانت بقرأ حقيقة - علم أنه سيفتنهم من هذا الطريق. فيروى أنه قال لهم: إن الحلبي الذي عندكم من مال القبط قبيح بكم حبسه، ولكن اجمعوه عندي حتى يحكم الله لكم فيه. ويروى أن هارون عليه السلام أمر بجمعه ووضعه في حفرة حتى يجيء موسى ويستأذن فيه ربه، وقيل: بل كان المال الذي جمعهو للسامري ممّا لفظ البحر من أموال القبط الغارقين مع فرعون. فيروى - مع هذا الاختلاف - أن الحلبي اجتمع عند السامري، وأنه صنع العجل وألقى القبضه فيه فخار. وروي - وهو الأصح والأكثر - أنه ألقى الناس الحلبي في حفرة أو نحوها، وألقى هو عليها القبضه فتجسد العجل، وهذا هو وجه فتنة الله تعالى لهم، وعلى هذا نقول: انخرقت للسامري عادة، وأما على أن يصوغه فلم ينخرق له عادة، وإنما فتنوا حينئذ بخواره فقط، وذلك الصوت قد يولد في الأجرام بالصنعة، فلما أخبر الله تعالى موسى عليه السلام بما وقع رجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً

عليهم من حيث له قدرة على تغيير منكرهم.

وقوله: ﴿أَيْسًا﴾ أي حزينا، من حيث علم أنه موضع عقوبة لا يد له يدفعها، ولا يد منها، والاسف في كلام العرب متى كان من ذي قدرة على من دونه فهو غضب، ومتى كان من الأقل على الأقوى فهو حزن، وتأمل ذلك فهو مظهر إن شاء الله.

﴿٨٦﴾ - ﴿٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل: وَيَخُ موسى عليه السلام قومه بهذه المقالة. والوعد الحسن هو ما وعدهم من الوصول إلى جانب الطور الأيمن، وما بعد ذلك من الفتح في الأرض، والمغفرة لمن تاب وآمن، وغير ذلك مما وعد الله به أهل طاعته. وقوله: ﴿وَعَدًا﴾ إما أن يكون نصيباً على المصدر والمفعول الثاني مقدر، وإما أن يكون بمعنى الموعد ويكون هو المفعول الثاني بعينه.

ثم وقفهم على أعذار لم تكن ولا تصح لهم، وهي طول العهد حتى يتبين لهم خلف في الموعد، وإرادة غضب الله تعالى، وذلك كله لم يكن ولكنهم عملوا عمل من لم يتدين. وسُمي العذاب غضباً من حيث هو ناشئ عن الغضب، والغضب إن جعل بمعنى الإرادة فهو صفة ذات، وإن جعل ظهور النعمة والعقاب فهو صفة فعل، فهو من التردد بين الحالين.

وقرأ نافع، وعاصم: ﴿يَمْلِكَا﴾ بفتح الميم. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يَمْلِكَا﴾ بضمها. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر:

﴿يَمْلِكَا﴾ بكسرها، قال أبو علي: هذه لغات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ظاهر الكلام أنها بمعنى واحد، ولكن أبا علي - وغيره - فرق بين معانيها، فأما ضم الميم فمعناه - على قول أبي علي - لم يكن لنا مُلك فتخلف موعده بقوته وسلطانه، وإنما أخلفناه بنظر أدى إليه ما فعل السامري، وليس المعنى أن لهم مُلكاً، وإنما هو كقول ذي الرمة:

لَا يُشْتَكِي سَقَطَةً مِنْهَا وَقَدْ رَقِصَتْ
بِهَا الْمَقَارِيزُ حَتَّى ظَهَرُهَا حَبِيبٌ
أَي: لا يكون منها سَقَطَةٌ فَشْتَكِي،
قال: وهذا كقوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ الْنَّاسَ إِلَّا كِتَابًا﴾، أي: ليس منهم سؤال فيكون منهم إلحاف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله في هذه الأمثلة غير متقن من قول أبي علي، وإنما مشى في ذلك على أثر الزجاج دون تعقب، وقد شرحنا هذا المعنى في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَأْذِنُ الْنَّاسَ إِلَّا كِتَابًا﴾، وتبين أن هذه الآية ليست كهذه الأمثلة لأنهم لم يرفعوا الاختلاف، والأمثلة فيها رفع الوجهين.

وأما فتح الميم فهو مصدر من ملك، والمعنى: ما فعلنا ذلك بأننا ملكنا الصواب ولا وقفتنا له، وإنما غلبت أنفسنا.

وأما كسر الميم فقد كثر استعماله فيما تحوزه اليد، ولكنه يستعمل في الأمور التي يُبْرَمها الإنسان، ومعناها كمنعنى التي قبلها، والمصدر مضاف

فَأَخْرَجَ لَهُمْ جِبَدًا جَسَدًا اللَّهُ خَوَّارٌ فَقَالَ أَلَا هَذَا إِلَهُكُمْ
وَاللَّهُ مَوْتٌ فَتَسَى ﴿٨٨﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ الْأَرْجَحَ إِلَهُهُمْ قَوْلًا وَلَا
يَعْلَمُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٨٩﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونَ مِنْ قَبْلُ
يَتَقَوْمَ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا
أَمْرِي ﴿٩٠﴾ فَقَالُوا لَنْ نَتَّبِعَ عَلَيْهِ عِبَادَكُمْ كَيْفَ تَحَدِّثُ يَا مَعْشَرَ
الَّذِينَ آمَنُوا ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْتَدُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنَّ
أَفْعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي
إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ
قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِعُ ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ
بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِإِيهِ فَقَضَيْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ
فَنَسِيتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ
فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ
مَوْعِدًا لَنْ نَغْفِرَهُ، وَأَنْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ
عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّكُمْ
إِلَهُكُمْ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

٣١٨

﴿٨٨﴾ - ﴿٩١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿فَقَالُوا﴾ لبني إسرائيل، أي: ضلُّوا حين قال كبارهم لصغارهم، و﴿هَذَا﴾ إشارة إلى العجل، وقوله تعالى: ﴿فَتَسَى﴾ يحتمل أن يكون من كلام بني إسرائيل، أي: فنسي موسى عليه السلام ربه وإلهه وموضعه، ويحتمل أن يكون ﴿فَتَسَى﴾ إخباراً من الله تعالى عن السامري أنه نسي دينه وطريق الحق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالنسيان في التأويل الأول بمعنى الذهول، وفي الثاني بمعنى الترك.

ثم قرن الله تعالى موضع خطابهم بقوله: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾، والمعنى: ألقم يتبين هؤلاء الذين ضلُّوا أن هذا العجل إنما هو جماد لا يتكلم ولا يرجع قولاً ولا يضر ولا ينفع؟ وهذه خلال لا يخفى معها الحدوث والعجز؛ لأن هذه الخلال لو حصلت له أوجبت كونه إلهاً. وقرأت فرقة: ﴿أَلَا يَرْجِعُ﴾ بضم العين، وأن - على هذه القراءة - مخففة من الثقيلة، والتقدير: أنه لا يرجع، وقرأت فرقة: ﴿أَلَا يُرْجِعُ﴾، وأن - على هذه القراءة - هي الناصبة.

وأخبر عز وجل أن هارون عليه

في الوجهين إلى الفاعل، والمفعول مُقَدَّرٌ، أي: يَمَلِكُنَا الصواب، وهذا كما قد يضاف أحياناً إلى المفعول والفاعل مُقَدَّرٌ، كقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ نَجِيكَ إِنْ يَأْمُرُ بِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مِنْ دَعَاؤِ الْحَايِرِ﴾.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿جَمَلًا﴾ بضم الحاء وشد الميم، وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي: ﴿جَمَلًا﴾ بفتح الحاء والميم. و(الْأَوْزَارُ): الأثقال، ويحتمل أن تكون هذه التسمية من حيث هي ثقيلة الأجرام، ويحتمل أن تكون من حيث تأثموا في قذفها وظهر لهم أن ذلك هو الحق فكانت آثاماً لمن حملها. وقوله: ﴿فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾ أي: فكما قذفنا نحن فكذلك ألقى السامري ما كان بيده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الألفاظ تقتضي أن العجل لم يصفه السامري.

ثم أخبر الله تعالى عن فعل السامري بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ جِبَدًا جَسَدًا﴾، ومعنى ﴿جَسَدًا﴾ أي شخصاً لا روح فيه، وقيل: معنى ﴿جَسَدًا﴾: لا يتغذى، و(الْخَوَّارُ): صوت البقر، وقالت فرقة: كان هذا العجل يخور ويمشي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهكذا تكون الفتنة من قبل الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقالت فرقة: إنما خاز مرة واحدة ثم لم يعد، وقالت فرقة: إنما كان خواره بالريح، كانت تدخل من ذبوره وتخرج من فمه فيصوت لذلك.

السلام قد كان قال لهم في أول حال العجل: إنما هو فتنة وبلاء وتمويه من السامري، وإن ربكم الرحمن الذي له القدرة والعلم والخلق والاختراع، فأتبعوني إلى الطور الذي واعدكم الله تعالى إليه، وأطيعوا أمري فيما ذكرته لكم. وقرأت فرقة: ﴿إِنَّمَا﴾، و﴿وَأَنَّ رَبَّكَ الرَّمْنُ﴾ بكسر الهمزتين، وقرأت فرقة: ﴿أَنَّمَا﴾، و﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الهمزة، وقرأت فرقة: ﴿إِنَّمَا﴾ بالكسر و﴿أَنَّ﴾ بالفتح، والقراءة الوسطى ضعيفة.

فقال بنو إسرائيل حين وعظهم هارون عليه السلام وتذبههم إلى الحق: لن نبرح عابدين لهذا الإله، عاكفين عليه، أي: ملازمين له، و(العكوف): الانحناء على الشيء من شدة ملازمته، ومنه قول الراجز:

عَكَفَ النَّبِيَطُ يَلْعَبُونَ الْمُنَزَّجَا

﴿٩٢﴾ - ﴿٩٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

في سرد القصص اقتضاب يدل عليه ما ذكر تقديره: فرجع موسى عليه السلام فوجد الأمر كما ذكر الله تعالى له، فجعل يؤنب هارون بهذه المقالة. وقرأ الجمهور: ﴿أَلَّا تَتَّبِعِينَ﴾ بحذف الياء. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بإثباتها في الوصل، ويقف ابن كثير بالياء وأبو عمرو بغير الياء. ويحتمل قوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعِينَ﴾ أي بني إسرائيل نحو جبل الطور، فيجيء اعتذار هارون عليه السلام بمعنى: إني لو فعلت ذلك مشيت معي طائفة وأقامت طائفة على عبادة العجل، فتفرق الجمع، فحفت لومك على التفريق. ويحتمل قوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعِينَ﴾ أي ألا تسير بسيرتي وعلى طريقي في الإصلاح والتسديد، فيجيء اعتذار هارون عليه السلام بمعنى: إن الأمر كان متفاعماً، فلو تقويت عليه وقع القتال واختلاف الكلمة فكان تفرقاً بين بني إسرائيل، وإنما لا يثبت جهدي.

وقوله: ﴿أَلَّا تَتَّبِعِينَ﴾ بمعنى: ما منعك أن تتبعني، واختلف الناس في وجه دخو (لا)؛ فقالت فرقة: هي زائدة، وذهب حذاق النحاة إلى أنها مؤكدة، وأن في الكلام فعلاً مقدرًا، كأنه قال: ما منعك ذلك، أو خصك، أو نحو هذا على ألا تتبعني؟ وما قبل وما بعد يدل على هذا ويقضيه.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾، فيحتمل أن يريد: «يائبن أم» فحذف الألف تخفيفاً، ويحتمل أن يجعل

الاسمين اسماً واحداً وبناء كخمسة عشر. وقرأ أبو بكر عن عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿يَائِبْنَ أُمَّ﴾ بالكسر على حذف الياء تخفيفاً، وهو شاذ لأنها ليست كالياء في قولك: يا غلامي، وإنما هي كالياء في قولك: يا غلام غلامي، وهذه ياء لا تحذف، ويحتمل أن يجعل الاسمين اسماً واحداً ثم أضاف إلى نفسه حذف الياء كما تحذف من الأسماء المفردة إذا أضيفت نحو: يا غلام، وقالت فرقة: لم يكن هارون أخا موسى عليهما السلام إلا من أمه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، وقالت فرقة: كان شقيقه، وإنما دعاه بأمه لأن التداعي بالأُم أشفق وأشد استرحاماً، وأخذ موسى عليه السلام بلحية هارون غضباً، وكان حديد الخلق عليه السلام.

﴿٩٤﴾ - ﴿٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قال موسى عليه السلام مخاطباً للسامري: فما خطبك؟ وقوله: ﴿فَمَا خَطْبُكَ﴾ كما تقول: ما شأنك؟ وما أمرُك؟ ولكن لفظه الخطب تقتضي انتهاراً؛ لأن الخطب مستعمل في المكاره، فكأنه قال: ما نَحْسُكَ؟ وما شؤمك؟ وما هذا الخطب الذي جاء من قبلك؟ و«السامري» قيل: هو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل، ويقال: إلى قرية يقال لها: سامرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي معروفة اليوم ببلاد مصر، وقيل: كان اسمه موسى بن ظفر.

قوله تعالى: ﴿بَصُرْتُ﴾، قرأت فرقة بضم الصاد على معنى: صارت بصيرتي بصورة ما، فهو كَطَرَفْتُ وشرُفْتُ، وقرأت فرقة: ﴿بِصْرْتُ﴾ بكسر الصاد، فيحتمل أن يريد من البصيرة، ويحتمل أن يريد من البَصْر، وذلك أن في أمر السامري ما زاد على الناس بالبصر، وهو وجه جبريل عليه السلام وفرسه، وبالبصيرة، وهو ما علمه من أن القبضة إذا نبذها مع الحلي جاءه من ذلك ما يريد. وقرأ الجمهور: ﴿يُبْصِرُوا بِهِ﴾ بالياء، يريد بني إسرائيل، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تُبْصِرُوا بِهِ﴾ بالتاء من فوق، يريد موسى عليه السلام مع بني إسرائيل.

وقرأ الجمهور: ﴿قَبْضَةً﴾ بالصاد منقوطة، بمعنى: أخذت بكفي مع الأصابع. وقرأ عبدالله بن مسعود، وعبدالله بن الزبير، وأبي بن كعب رضي الله عنهم، وغيرهم: ﴿فَقَبْضَتْ قَبْضَةً﴾ بالصاد غير منقوطة، بمعنى: أخذت بأطراف أصابعي فقط، وقرأ الحسن - بخلاف عنه - ﴿قَبْضَةً﴾ بضم القاف. و«الرَسُول» هو جبريل عليه السلام، و«الْأَثَرُ» هو تراب تحت حافر فرسه.

وسبب معرفة السامري لجبريل عليه السلام وميَّزه فيما رُوي أن أم السامري ولدته عام الذئح فطرحته في مغارة، فكان جبريل عليه السلام يغذوه فيها ويحميه حتى كبر وشب، فميَّزه لذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقوله: ﴿قَبَدْتَهَا﴾ أي على الحلبي فكان منها ما تراه، وهذا محذوف من اللفظ يقتضيه الحال والمخاطبة. ثم قال: ﴿وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ أي: كما وقع وحدث قربت لي نفسي وجعلته لي سؤالاً ورأياً حتى فعلته. وكان موسى عليه السلام لا يقتل بني إسرائيل إلا في جد أو وحي، فعاقبه باجتهاد نفسه بأن أبعدته ونحاه عن الناس، وأمر بني إسرائيل باجتنابه واجتناب قبيلته، وألاً يُؤاكلوا ويُناكلوا، ونحو هذا، وعلمه مع ذلك، وجعل له أن يقول مدة حياته: ﴿لَا مَسَاسَ﴾، أي: لا مَمَاسَة ولا إذابة، وقرأ الجمهور: ﴿لَا مَسَاسَ﴾ بكسر الميم وفتح السين، على النصب بالتثنية، وهو اسم ينصرف، ومنه قول الثابتة:

فَأَصْبَحَ مِنْ ذَلِكَ كَالسَّامِرِيِّ
إِذْ قَالَ مُوسَى لَهُ لَا مَسَاسَا
ومنه قول رؤبة:

حَتَّى تَقُولَ الْأَزْدُ لَا مَسَاسَا
واستعماله على هذا كثير. وقرأ أبو حيوة: ﴿لَا مَسَاسَ﴾ بفتح الميم وكسر السين، وهو معدول عن المصدر كَفَجَارٍ ونحوه. وشبهه أبو عبيدة وغيره بِتَزَالٍ وَذَرَاكِ ونحوه، والشَّبه صحيح من حيث هي معدولات، وفارقه في أن هذه عدلت عن الأمر، و(مَسَاسٍ) و(فَجَارٍ) عدلت عن المصدر، ومن هذا قول الشاعر:

تَمِيمٌ كَرَهَطِ السَّامِرِيِّ وَقَوْلِهِ
أَلَا لَا يَرِيدُ السَّامِرِيُّ مَسَاسٍ
وقرأ الجمهور: ﴿تُخَلِّفُهُ﴾ بفتح

اللام، على معنى: أن يقع فيه خُلف. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿لَنْ تُخَلِّفَهُ﴾ بكسر اللام، على معنى: لن تستطيع الزوغان عنه والحيدة، فتزول عن موعد العذاب. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿لَنْ تُخَلِّفَهُ﴾ بالنون، قال أبو الفتح: المعنى: لن نصادفه مُخَلِّفًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكلها بمعنى الوعيد والتهديد.

ثم وَبَّخَهُ عليه السلام بقوله: ﴿وَأَنْظُرْ إِلَيَّ إِلَهَكَ﴾ الآية أي: انظر صنيعك وتغيرنا له وردنا الأمر فيه إلى الواجب. وقرأت فرقة: ﴿ظَلَّتْ﴾ بفتح الظاء، على حذف اللام الواحدة، وقرأت فرقة: ﴿ظَلَّتْ﴾ بكسر الظاء على نقل حركة اللام إلى الظاء ثم حذفها بعد ذلك، نحو قول الشاعر:

خَلَا أَنْ الْعِتَاقَ مِنَ الْمَطَايَا
أَحْسَنَ بِهِ قَهْنٌ إِلَيْهِ شُوسُ
أراد: أحسنن، فنقلت حركة السين إلى الحاء ثم حذفنا تخفيفاً، وفي بعض الروايات: حَسِين. وقرأت فرقة: ﴿ظَلَّتْ﴾، و(ظَلَّ) معناه: أقام يفعل الشيء نهاراً، ولكنه قد يستعمل في الدائب ليلاً ونهاراً، بمشابهة طَفِقَ. و﴿عَاكَلًا﴾ معناه: ملازماً.

وقرأت فرقة: ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ﴾ بتخفيف الراء بمعنى: بالنار، وقرأ علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عباس رضي الله عنهم: ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ﴾ بفتح النون وضم الراء خفيفة، بمعنى: لَتُبْرَدَنَّهُ بِالْمَبْرَدِ، وقرأ نافع وغيره: ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ﴾ بضم النون وكسر الراء

وشدّها، وهذا تضعيف مبالغة لا تعدية، وهي قراءة تحتل الحرق بالنار، وتحتل بالمبرد، وفي مصحف أبي بن كعب، وعبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنهما ﴿لَتُنْبِئَنَّهُ ثُمَّ لَنَحْرِقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ﴾، وهذه القراءة مع رواية من روى أن العجل صار لحماً ودماً، وعلى هذه الرواية يتركب أن يكون هناك حرق بنار، وإلاً فإذا كان جماداً من ذهب فإنما هو حرق بالمبْرَدِ، اللهم إلا أن يكون أذابه، ويكون السُف مستعاراً لتفريقه في اليم مذاباً. وقرأت فرقة: ﴿لَتَنْسِفَنَّهُ﴾ بكسر السين، وقرأت فرقة: ﴿لَتَنْسِفَنَّهُ﴾ بضم السين، و(السُف): تفريق الريح العُجْبَارِ، وكل ما هو مثله كتفريق الغربال ونحوه فهو نسف. و(الْيَمُ): غمر الماء من بحر أو نهر، وكل ما غمر الإنسان من الماء فهو يَم. و﴿سَفَا﴾ تأكيد بالمصدر واللام في قوله: ﴿لَتُحْرِقَنَّهُ﴾ لام القسم.

وفي هذه الآية من القصص أن موسى عليه السلام بَرَدَ العِجْلَ حتى رَدَّهُ كالغبار ثم ذَرَاهُ فِي الْبَحْرِ، ثم أمر بني إسرائيل أن يشرب جميعهم من الماء، فمن شرب ممن كان في قلبه حُب العجل خرج على شاربه من الذهب فضيحة له، وقال مكِّي رحمه الله - وأسنَد -: إن موسى عليه السلام كان مع السبعين في المناجاة، وحينئذ وقع أمر العجل، وإن الله تبارك وتعالى أعلم موسى بذلك فكتمه عنهم، وجاء بهم حتى سمعوا لغط بني إسرائيل حول العجل، فحينئذ أعلمهم موسى.

القرن الذي يفتح فيه إسرئيل، وبهذا جاءت الأحاديث، وقالت فرقة: الصُور: جمع صورة، كتمرة وتُمر، وقرأ عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿في الصُّور﴾ بفتح الواو، وهذه صريحة في بعث الأجساد من القبور. وقرأت فرقة هي الجمهور: ﴿وتُحْشَرُ﴾ بالنون، وقرأت فرقة: ﴿وتُحْشَرُ﴾ بالياء، وقرأت فرقة: ﴿وتُحْشَرُ﴾ بضم الياء المفعول الذي لم يسم فاعله، وهي قراءة مخالفة لخط المصحف.

وقوله: ﴿رُزِقًا﴾: اختلف الناس في معناه؛ فقالت فرقة: يحشرهم أول قيامهم سود الألوان رُزق العيون، فهو تشويهٌ ما، ثم يعمون بعد ذلك، وهي موطن. وقالت فرقة: إنهم يحشرون عطاشاً، والعطش الشديد يردُّ سواد العيون إلى البياض، فكأنهم يبييضُ سواد عيونهم من شدة العطش. وقالت فرقة: أراد: رُزق الألوان، وهي غاية في التشويه لأنهم يجيئون كلون الرماد، ومهتج في كلام العرب أن يُسمى هذا اللون أزرق، ومنه رزقة الماء، قال الشاعر:

قَلَمًا وَرَذَنَ أَلْمَاءَ رُزِقًا جَمَامُهُ
وَصَغَنَ عِصِيَّ الْحَاضِرِ الْمُتَحَيِّمِ
ومنه قولهم: «سنان أزرق» لأنه نحو ذلك اللون.

﴿يَتَخَفَتُونَ﴾: يتخافتون المجرمون بينهم؛ يتساورون، المعنى أنهم لهول المطلع وشدة ذهاب أذهانهم قد عزب عنهم قَدْرُ المدة التي لبسوها، واختلف

على التمييز. وقرأ مجاهد، وقتادة: ﴿وَيَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ بفتح السين وشدها، بمعنى: خلق الأشياء وكثرها بالاختراع فوسعها موجودات.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ﴾ مخاطبةً لمحمد صلى الله عليه وآله وسلم، أي: كما قصصنا عليك نبأ بني إسرائيل هذا في خبر العجل كذلك نقص عليك، فكأنه قال: هكذا نقص عليك، فكأنها تعديد نعمة، وقوله: ﴿مَا قَدْ سَبَقَ﴾ يريد به ما قد

سبق مدة محمد ﷺ. (والذُّكْرُ):

القرآن. وقرأت فرقة: ﴿يَجْعَلُ﴾ بكسر الميم، وقرأت فرقة أخرى: ﴿يَجْعَلُ﴾ بفتح الميم وشدها

وقوله: ﴿مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ يريد: بالكفر به والتكذيب له، و«الوزر»: الثقل، وهو هنا ثقل العذاب بدليل قوله: ﴿خَلْدَيْنِ فِتْنَةٍ﴾ و«جَلَا» تمييز، و«يَوْمَ» ظرف، و«يَوْمَ» الثاني بدل منه. وقرأ الجمهور:

﴿يَنْفُخُ﴾ بضم الياء وبناء الفعل للمفعول، وقرأت فرقة: ﴿يَنْفُخُ﴾ بفتح الياء وإسناد الفعل للفاعل، أي ينفخ المَلَكُ، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿تَنْفُخُ﴾ بالنون، أي: بأمرنا وإذنتنا، وهذه القراءة تناسب قوله: ﴿تُحْشَرُ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿في الصُّورِ﴾ بسكون الواو، مذهب الجمهور أنه

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿٩٨﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَجْعَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَرْدًا ﴿٩٩﴾ خَلْدَيْنِ فِتْنَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ﴿١٠٠﴾ يَوْمَ يَنْفُخُ فِي الصُّورِ وَتُحْشَرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠١﴾ يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٢﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٣﴾ وَيَسْتَأْذِنُكَ عَنِ الْعَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٤﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٥﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٠٦﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَأَوْجَاعُهُمْ وَسَخَّطَ الْآمُورَاتِ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٠٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفِيعَةُ إِلَّا مَنْ أُوذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرِضِيَ لَهُ ﴿١٠٨﴾ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَخَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ عِندَهُمْ ﴿١١٠﴾ وَعَسَى أَنْ يَكُونَ لَكُمْ مِنَ الصُّورِ حَابٌ مِمَّنْ حَمَلَ طَلَمًا ﴿١١١﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحَدِّثُهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾

٣١٩

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه رواية الجمهور على خلافها، وإنما تعجل موسى وحده فوقع أمر العجل، ثم جاء موسى عليه السلام وصنع بالعجل ما صنع، ثم خرج بعد ذلك بالسبعين على معنى الشفاعة في ذنب بني إسرائيل، وأن يطلعهم أيضاً على أمر المناجاة، فكان لموسى عليه السلام نهضان، والله أعلم.

﴿٩٨﴾ - ﴿١١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة من موسى عليه السلام لجميع بني إسرائيل مبيّناً لهم، وقوله تعالى: ﴿وَيَسَّعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ بمعنى: وسع علمه كل شيء، و«عِلْمًا» تمييز، وهذا كقولهم: «تفكأت شحماً» وتصببت عرقاً، والمصدر في الأصل فاعل، ولكن يسند الفعل إلى غيره وينصب هو

الناس في هذا؛ فقالت فرقة: في دار الدنيا ومدة العمر، وقالت فرقة: في الأرض مدة البرزخ، وقالت أخرى: ما بين النفتين في الصور.

﴿أَمَلَهُمْ طَرِيقَةً﴾ معناه: أثبتهم نفساً وأعلمهم بالحقيقة بالإضافة إليهم، فهم في مدة المقالة يظنون أن هذا قدر لئبهم.

والضمير في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَكَ﴾، قيل: إن رجلاً من ثقيف سأل رسول الله ﷺ عن الجبال، ما يكون أمرها يوم القيامة؟ وقيل: بل سأله عن ذلك جماعة من المؤمنين. وقد تقدم معنى التُسْف، وروي أن الله تعالى يرسل على الجبال ريحاً فيكدها حتى تكون كالعهن المنفوش، ثم تتوالى عليها حتى تعيدها كالهباء المنبث، فذلك هو التُسْف، وقوله تعالى: ﴿فَيَذَرُهَا﴾، يحتمل أن يريد مواضعها، ويحتمل أن يريد ذلك التراب الذي نسفه؛ لأنه إنما يقع على الأرض باعتدال حتى تكون الأرض كلها مستوية. و(الْقَاعُ): المستوي من الأرض المعتدل الذي لا تُشَرُّ فيه، ومنه قول ضرار بن الخطاب:

لَتَكُونَنَّ بِالْبِطَاحِ قُرَيْشٌ
بُقْعَةَ الْقَاعِ فِي أَكْفِ الْأِمَاءِ
(والصَّفْصَفُ) نحوه في المعنى.

و(الْعُوجُ) ما يعتري اعتدال الأرض من الأخذ بيمينه ويسرة بحسب الشئز من جبل وظرب وكذية ونحوه، و(الأمث): ما يعتري الأرض من ارتفاع وانخفاض، يقال: مدَّ جبله

حتى ما ترك فيه أمتاً، فكأن الأمث في الآية العوج في السماء تجاه الهواء، والعوج في الآية مختص بالخفض، وفي هذا نظر.

﴿-﴾ - ﴿تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ﴾
المعنى: يوم تُنسف الجبال يتبع الخلائق داعي الله تعالى إلى المحشر، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ وقوله: ﴿لَا عِوَجَ لَكُمْ﴾، يحتمل أن يريد الإخبار به، أي: لا شك فيه، ولا يخالف وجوده خبره، ويحتمل أن يريد: لا محيد لأحد عن اتباعه، والمشي نحو صوته. و(الخُشُوعُ): التُّطامن والتواضع، وهو في الأصوات استعارة بمعنى الخفاء والاستسراء، ومعنى: ﴿لِلرَّحْمَنِ﴾: لِهَيْبَتِهِ وهول مطلع قدرته. و(الهُمْسُ): الصَّوْتُ الخفي الخافت، وقد يحتمل أن يريد «بالهُمْسِ المسموع» تخافتهم بينهم وكلامهم السُّرَّ، ويحتمل أن يريد صوت الأقدام، وأن أصوات النطق ساكنة.

﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَدْنَى لَهُ الرُّحْمَنُ﴾، يحتمل أن يكون الاستثناء متصلاً، ويكون ﴿مَنْ﴾ في موضع نصب يُراد بها المشفوع له، فكأن المعنى: إلا من أدنى له الرُّحْمَنُ في أن يشفع له، ويحتمل أن تكون استثناء منقطعاً على تقدير: لكن من أدنى له الرُّحْمَنُ يشفع، ف﴿مَنْ﴾ في موضع نصب بالاستثناء، ويصلح أن يكون في موضع رفع، كما يجوز الوجهان في قولك: «ما في الدارِ أحدٌ إلا حماراً، وإلا حماراً»، والنصب أوجه، و﴿مَنْ﴾ - على هذه

التأويلات - للشافع، ويحتمل أن تكون للمشفوع فيه.

وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾، قالت فرقة: يريد الملائكة، وقالت فرقة: يريد خلقه أجمع، وقد تقدم القول في ترتيب ما بين اليد وما خلفه في غير موضع، على أن جماعة من المفسرين قالوا في هذه الآية: ما خلفهم: الدنيا، وما بين أيديهم: أمر الآخرة والثواب والعقاب، وهو بأن يعرضها حالة وقوف حتى يجعلها كالأجرام، وأما إن قدرناها في نسق الزمان فالأمر على العكس بحكم ما بيَّناه قَبْلُ.

وقوله تعالى: ﴿وَعَنَتِ الرُّؤُوسُ﴾ معناه: ذلَّت، والعاني: الأسير، ومنه قول النبي ﷺ في أمر النساء: «هُنَّ عوان عندكم»، وهذه حالة الناس يوم القيامة. قال طلق بن حبيب: أراد تعالى سجودَ الناس على الوجوه والآداب السبعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إن كان روى هذا أن للناس يوم القيامة سجوداً وجعل هذه الآية إخباراً عنه فقوله مستقيم، وإن كان أراد سجود الدنيا فقد أفسد المعنى. و(الْقِيُومُ) بناء مبالغة من قيامه عزَّ وجلَّ على كل شيء بما يجب فيه. و﴿حَابٌ﴾ معناه: لم ينجح ولا ظَفِرٌ بمطوليه، و(الظُّلْمُ) يعم الشرك والمعاصي، وخيبة كل حامل بقدر ما حمل من الظلم، فخيبة المشرك على الإطلاق، وخبية العاصي مقيدة بوقت واحد في العقوبة.

وقالت فرقة أخرى: سبب هذه الآية أن النبي ﷺ كان إذا أوحى إليه القرآن أمر بكتبه للحين، فأمر الله تعالى في هذه الآية أن يتأني حتى تُفسر له المعاني وتقرر عنده.

وقالت فرقة: سبب الآية أن امرأة شكت إلى رسول الله ﷺ أن زوجها لطمها، فقال لها رسول الله ﷺ: «بينكما القصاص»، ثم نزلت «الرجال قوامون»، ونزلت هذه الآية بمعنى التثبت في الحكم بالقرآن حتى يتبين، والله أعلم. وقرأ الجمهور: «مِن قَبْلِ أَنْ يُفْضَى إِلَيْكَ وَخِيَةَ»، وقرأ عبدالله بن مسعود: «مِن قَبْلِ أَنْ يُفْضَى إِلَيْكَ وَخِيَةَ»، وباقي الآية بين، رغبة في خير.

(١١٦) - (١١٧) تفسير قوله عز وجل:

قال الطبري رحمه الله: المعنى: وإن يعرض - يا محمد - هؤلاء الكفرة عن آياتي ويخالفوا رُسلي ويطيعوا إبليس، فقدموا فعل ذلك أبوهم آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل ضعيف؛ وذلك أن كون آدم مثلاً للكفار الجاحدين ليس بشيء، وادم إنما عصى بتأويل، ففي هذا غضاضة عليه ﷺ. وإنما الظاهر في هذه الآية إما أن يكون ابتداء قصص لا تعلق له بما قبله، وإنما أن يجعل تعلقه أنه لما عهد إلى محمد ﷺ ألا يعجل بالقرآن مثل له بنبي قبله عهد إليه فنسي فعوقب ليكون أشد في التحذير وأبلغ في العهد إلى محمد ﷺ. والعهد هنا في معنى الوصية، (ونسي) معناه: ترك، ونسيان الذهول لا يمكن هنا

عربياً، وتوعدنا فيه بأنواع من الوعيد، لعلهم - بحسب توقع البشر وترجيهم - يتقون ويخشون عقابه فيؤمنون ويتذكرون نعمه عندهم وما حذرهم من أليم عقابه، هذا تأويل فرقة في قوله: «أَوْ يُحَدِّثْ لَهُمْ ذِكْرًا»، وقالت فرقة: معناه: أو يكسبهم شرفاً، ويبقى عليهم إيمانهم وذكراً صالحاً في الغابرين. وقرأ الحسن البصري: «أَوْ يُحَدِّثْ» ساكنة اللام، وقرأ مجاهد: «أَوْ تُحَدِّثْ» بالنون وسكون اللام، ولا وجه

للجزم إلا على تسكين حرف الإعراب استقلالاً لحركته، وهذا نحو قول جرير:

.....

..... وَلَا تُعْرِفُكُمْ الْعُرْبُ
وقوله تعالى: «فَتَعَلَّى اللَّهُ الْبَنَاتِ الْحَقِّ» فتح للقول؛ لأنه لما قدم صفة سلطانه يوم القيامة وعظمت قدرته وذلة عبيده وتلطفه بهم، ختم ذلك بهذه الكلمات، وجعل بعد ذلك الأمر بنوع آخر من القول. وقوله سبحانه: «وَلَا تَعْبَلْ بِالْقُرْآنِ»، قالت فرقة: سببه أن النبي ﷺ كان يخاف وقت تكليم جبريل عليه السلام له أن ينسى أول القرآن، فكان يقرأ قبل أن يستتم جبريل عليه السلام الوحي، فنزلت الآية في ذلك، وهي بمعنى قوله تعالى: «لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ»،

فَتَعَلَّى اللَّهُ الْمَلِكِ الْحَقِّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَخِيَةَ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا، وَلَقَدْ عاهدنا إِيْنَ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عِزْمًا، وَإِذْ قلْنَا لِلْمَلَكِ مَكَّةَ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ، فقلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَزَوْجُكَ فَلَا تَخْرُجْ مَعَهَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشقىٰ، إِنَّ لَكَ الْأَمْوَجَ فِيهَا وَلَا تَعْرِىٰ، وَأَنْتَ لَا تَنْظُرُ فِيهَا وَلَا تَنْصَحِي، فوسوسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَتَّعِدُمَ هَلْ أَتَىٰكَ عَلَى شَجَرَةٍ مُّغَالِيَةٍ وَمَا لِيَ بِلَيْلٍ، فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَّتْ لِمَا سَوَّاهُمَا وَطَافَا بِحِصْفَانٍ عَلَيْهِمَا مِنْ رِيقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ، ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ، فَجَابَ عَلَيْهِ وَهْدَىٰ، قَالَ أَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا بَأْسَ بَعْضِكُمْ بِبَعْضٍ هَدَىٰ فَمَنْ أَنْعَمَ هَدَىٰ فَلَا يَبْضِلُ وَلَا يَشقىٰ، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَىٰ، قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا،

٣٢٠

(١١٦) - (١١٧) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: «وَمَنْ يَمَلَّ» معادل لقوله: «مَنْ حَمَلَ حُلْمًا»، وفي قوله سبحانه: «مِنَ الْفُرْقَانِ» تيسير في الشرع؛ لأنها «مِن» التي للتبعض، (والظلم) أعم من (الهُضْم)، وهما متقاربان في المعنى ويتداخلان، ولكن من حيث تناسق في هذه الآية ذهب قوم إلى تخصيص كل واحد منهما بمعنى، فقالوا: الظلم أن تُعْظَمَ عليه سيئاته وتكثر أكثر مما يجب، والهضم أن يُنْقَصَ من حسناته ويُخَسَّسها، وكلهم قرأ: «فَلَا يَخَافُ» على الخبر، غير ابن كثير فإنه قرأ: «فَلَا يَخْفُ» على النهي.

ثم قال تعالى: «وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ، أَي: كما قدرنا هذه الأمور وجعلناها حقيقة بالمرصاد للعباد، كذلك حذرنا هؤلاء أمرها، وأنزلنا قرآناً

وَأَنْ رَكُوبَ الْخَيْلِ لِلصَّيْدِ وَغَيْرِهِ مِنْ
الذُّدَاتِ يَنَاسِبُ تَبَطُّنَ الْكَاعِبِ. وَمِنْ
الصُّجِيِّ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

رَأَتْ رَجُلًا أَمَّا إِذَا الشَّمْسُ عَارَضَتْ
فَيَضْحَى وَأَمَّا بِالْعَشِيِّ فَيُخَصِّرُ
(وَسَوْسَ الشَّيْطَانِ) قَالُوا: كَانَتْ
دُونَ مَشَافَهَةِ إِلقاءِ فِي النَّفْسِ، وَقِيلَ:
بَلْ كَانَتْ بِالْمَشَافَهَةِ وَالْمَخَاطَبَةِ، وَهُوَ
ظَاهِرُ الْقِصَّةِ مِنْ غَيْرِ مَا مَوْضِعٍ.
وَكَانَ دَخُولُهُ إِلَى الْجَنَّةِ - فِيمَا رُوِيَ -
فِي فَمِ الْحَيَّةِ، وَكَانَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ
قَدْ قَالَ اللَّهُ لَهُ: لَا تَأْكُلْ مِنْ هَذِهِ
الشَّجَرَةِ، وَعَيْنُ لَهُ شَجَرَةٌ قَدْ تَقَدَّمَ
الْخِلَافُ فِي جِنْسِهَا، فَلَمَّا وَصَفَهَا لَهُ
إِبْلِيسُ أَنَّهَا شَجَرَةُ الْخُلْدِ الَّتِي مِنْ
أَكْلِهَا كَانَ مَلَكًا مَخْلُدًا، عَمَدَ آدَمُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى غَيْرِ تِلْكَ الَّتِي نَهَى
عَنْهَا مِنْ جِنْسِهَا فَأَكَلَهَا بِتَأْوِيلِ أَنْ
النَّهْيَ كَانَ عَلَى الشُّدْبِ لَا عَلَى
التَّحْرِيمِ، وَسَارَعَتْ إِلَى ذَلِكَ حَوَاءُ
وَكَانَتْ مَعَهُ فِي النَّهْيِ، فَلَمَّا رَأَاهَا آدَمُ
عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ أَكَلَتْ أَكَلًا، فَطَارَتْ
عَنْهَا ثِيَابُهَا، وَظَهَرَ تَبَرُّؤُهَا الْأَشْيَاءِ
مِنْهَا، وَبَدَتْ سَوَاتِمُهَا. وَقَوْلُهُ:
﴿ وَطَيْفًا بِحَصْنَانِ ﴾ مَعْنَاهُ: جَعَلَا
يُفْعَلَانِ ذَلِكَ دَائِمًا، وَ﴿ بِحَصْنَانِ ﴾
مَعْنَاهُ: يَلْفَقَانِ وَيَضْمَانِ شَيْئًا إِلَى
شَيْءٍ، فَكَانَا يَسْتَتِرَانِ بِالْوَرَقِ، وَرُوِيَ
أَنَّهُ كَانَ مِنْ وَرَقِ التَّيْنِ.

ثُمَّ نَصَّ تَعَالَى عَلَى آدَمَ أَنَّهُ عَصَى،
وَ﴿ فَنَوَى ﴾ مَعْنَاهُ: ضَلَّ، مِنَ الْغَيِّ
الَّذِي هُوَ ضِدُّ الرَّشْدِ، وَمِنْهُ قَوْلُ
الشَّاعِرِ:

فَمَنْ يَلْقُ خَيْرًا يَحْمَدُ النَّاسَ أَمْرَهُ
وَمَنْ يَلْقُ لَا يَعْدَمُ عَلَى الْغَيِّ لِأَنَّ

أَي: لَا يَقَعُ مِنْكُمْ طَاعَةٌ لَهُ فِي إِغْوَاثِهِ
فَيَكُونُ ذَلِكَ سَبَبَ خُرُوجِكُمْ مِنْ
الْجَنَّةِ. ثُمَّ خَصَّصَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
بِقَوْلِهِ: ﴿ فَتَنَّفَقَ ﴾ مِنْ حَيْثُ كَانَ
الْمَخَاطَبُ أَوَّلًا الْمَقْصُودَ فِي الْكَلَامِ،
وَقِيلَ: بَلْ ذَلِكَ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى جَعَلَ
الشُّقَاءَ فِي مَعِيشَةِ الدُّنْيَا فِي حَبِيزِ
الرُّجَالِ. وَرُوِيَ أَنَّ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
لَمَّا أَهْبَطَ أَهْبَطَ مَعَهُ ثَوْرٌ أَحْمَرٌ، فَكَانَ
يَحْرَثُ وَيَسْمَحُ الْعَرَقَ، فَهَذَا هُوَ
الشُّقَاءُ الَّذِي خُوفُ مِنْهُ.

﴿ ١١٨ ﴾ - ﴿ ١١٩ ﴾ تفسیر قوله عز وجل:

المعنى: إِنْ لَكَ يَا آدَمُ نِعْمَةٌ تَامَةٌ
وَعَطِيَّةٌ مُسْتَمِرَّةٌ أَلَّا يَصِيْبِكَ جُوعٌ وَلَا
عَرِيٌّ وَلَا ظَلْمٌ وَلَا بَرُوزٌ لِلشَّمْسِ
تَوْذِيكٌ، وَهُوَ الصُّجِيُّ.

وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَعَاصِمٌ - فِي رِوَايَةٍ
أَبِي بَكْرٍ -: ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ بِكَسْرِ الْأَلِفِ،
وَقَرَأَ الْبَاقُونَ وَحَفْصٌ عَنْ عَاصِمٍ:
﴿ وَأَنَّكَ ﴾ بِفَتْحِ الْأَلِفِ، وَجَعَلَ اللَّهُ
تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي هَذِهِ آيَةِ الْجُوعِ مَعَ
الْعَرِيِّ، وَالظَّمَا مَعَ الضَّحَى؛ وَكَانَ
عَرَفَ الْكَلَامَ أَنَّ يَكُونُ الْجُوعُ مَعَ
الظَّمَا لِلتَّنَاسُبِ، وَالْعُرْيُ مَعَ الضَّحَى
لِأَنَّهَا لَا تَتَضَادُّ، وَالْعَرِيُّ يَمَسُّ بِسَبَبِهِ
الْبَرْدُ فَيُؤْذِي، وَالْحَرُّ يَفْعَلُ ذَلِكَ
بِالضَّاحِي، وَهَذِهِ الطَّرِيقَةُ مَهِيغٌ فِي
كَلَامِ الْعَرَبِ أَنْ تَفْرُقَ النَّسَبَ، وَمِنْهُ
قَوْلُ امْرِئِ الْقَيْسِ:

كَأَنِّي لَمْ أَزْكَبْ جَوَادًا لِيَلْدَةَ
وَلَمْ أَتَبَطَّنْ كَاعِبًا ذَاتَ خَلْخَالٍ
وَلَمْ أَسْبِبِ الرُّقَّ الرُّوِّيَّ وَلَمْ أَقْلُ
لِيَحْنِلِي كَرِيَّ كَرَّةً تَعْدُ إِجْفَالٍ
وَذَهَبَ بَعْضُ الْأَدْبَاءِ إِلَى أَنَّ بَيْتِي
امْرِئِ الْقَيْسِ فِيهِمَا مَحَافِظَةٌ لِلنَّسَبِ،

لِأَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ بِالنَّاسِي عِقَابٌ. وَقَرَأَ
الْأَعْمَشُ: ﴿ فَتَنِّي ﴾ بِسُكُونِ الْبَاءِ،
وَوَجْهَهَا طَلَبُ الْخَفَّةِ. وَالْعَزْمُ):
الْمُضِيِّ عَلَى الْمَعْتَقَدِ فِي أَيِّ شَيْءٍ
كَانَ، وَآدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَدْ كَانَ
مَعْتَقِدَهُ أَلَّا يَأْكُلُ مِنَ الشَّجَرَةِ، لَكِنَّهُ
لَمَّا وَسَّوسَ إِلَيْهِ إِبْلِيسُ لَمْ يَعْزَمْ عَلَى
مَعْتَقَدِهِ، وَعَبَّرَ بَعْضُ الْمَفْسِرِينَ عَنْ
الْعَزْمِ هُنَا بِالصَّبْرِ وَالْحَفْظِ وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا هُوَ أَعْمٌ مِنْ حَقِيقَةِ الْعَزْمِ.
وَالشَّيْءُ الَّذِي عَهْدَ لِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
هُوَ أَلَّا يَقْرُبَ الشَّجَرَةَ، وَأَعْلَمَ مَعَ
ذَلِكَ أَنَّ إِبْلِيسَ عَدُوُّ لَهُ. وَقَالَ أَبُو
أَمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَوْ أَنَّ أَحْلَامَ
بَنِي آدَمَ جُمِعَتْ مِنْذُ خَلَقَ اللَّهُ الْخَلْقَ
إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَوَضَعَتْ فِي كَفَّةٍ
مِيزَانَ وَوَضَعَ حِلْمَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ
فِي كَفَّةٍ أُخْرَى لِرَجْحَمِهِمْ، وَقَدْ
قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ وَلَمْ يَجِدْ لَهُ
عَزْمًا ﴾.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَكَةِ
أَسْجُدُوا لِآدَمَ ﴾ الْآيَةُ ابْتِدَاءُ قِصَّةِ
وَالْعَامِلِ فِي ﴿ إِذْ ﴾ فَعْلٌ مُضْمَرٌ. وَقَدْ
تَقَدَّمَ اسْتِعَابُ هَذِهِ الْقِصَّةِ، وَلَكِنْ
نَذَرَ مِنْ ذَلِكَ مَا تَقْتَضِيهِ أَلْفَاظُ هَذِهِ
الْآيَةِ. فَالْمَلَأَكَةُ قَبِيلٌ كَانَ جَمِيعُهُمْ
مَأْمُورًا بِذَلِكَ، وَقِيلَ: بَلْ فِرْقَةٌ فَاضِلَةٌ
مِنْهُمْ عَدَدُهُمْ اثْنَانِ وَعِشْرُونَ.
(وَالسُّجُودُ) الَّذِي أَمَرُوا بِهِ سَجُودَ
كِرَامَةِ لِآدَمَ صَلَوَاتِ اللَّهِ عَلَيْهِ،
وَعِبَادَةِ اللَّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿ إِلَّا
إِبْلِيسَ ﴾ اسْتِثْنَاءٌ مُتَّصِلٌ فِي قَوْلٍ مِنْ
جَعَلَ إِبْلِيسَ مِنَ الْمَلَأَكَةِ، وَمَنْقَطِعٌ
فِي قَوْلٍ مِنْ قَالَ: هُوَ مِنْ قَبِيلَةٍ غَيْرِ
الْمَلَأَكَةِ يُقَالُ لَهَا الْجَنُّ. وَقَوْلُهُ:
﴿ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَنَّنِي ﴾،

وَحَمَلَ هَذِهِ الْفِرْقَةَ عَلَى هَذَا التَّوْبِيلِ
أَنَّ لَفْظَ الْآيَةِ يَقْتَضِي أَنَّ الْمَعِيشَةَ
الضَّنْكَ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِقَوْلِهِ:
﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾،
ويقوله تعالى: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَشَدُّ
وَأَبْقَى﴾. وقالت فرقة: بل المعيشة
الضنك في الآخرة، وهي عذابهم في
جهنم وأكلهم الرزقوم وغيره،
وذكر الله تعالى ذلك من وعيده لهم،
ثم أخبر عن حالة أخرى هي أيضاً
يوم القيامة وهي حشرهم عمياً، ثم
يجيء قوله: ﴿وَالْعَذَابُ الْآخِرُ أَشَدُّ
وَأَبْقَى﴾ بمعنى هذا الذي ذكرناه من
المعيشة الضنك والعمى ونحوه هو
عذابه في الآخرة، وهو أشد وأبقى
من كل ما يقع عليه الظن والتخيل،
فكانه ذكر نوعاً من عذاب الآخرة
ثم ذكر أن عذاب الآخرة أشد
وأبقى.

وقرأت فرقة: ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ بالنون،
وقرأت فرقة: ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾، وقرأت
فرقة: ﴿وَنَحْشُرُهُ﴾ بسكون الراء.
وقرأت فرقة: ﴿أَعْمَى﴾ بفتح الألف،
وقرأت فرقة: ﴿أَعْمَى﴾ بالإمالة،
وقالت فرقة: العمى هنا عمى
البصيرة عن الحجة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولو كان هذا لم يحسن الكافر بذلك؛
لأنه مات أعمى البصيرة ونحشر
كذلك، وقالت فرقة: العمى هنا
عمى البصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا هو الأوجه، مع أن عمى
البصيرة حاصل في الوجيين، وأما
قوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ
رُزْقًا﴾ فمن رآه «في العين» فلا بد أن

يَأْتِيَنكُمْ ﴿ شَرْطًا، وجوابه
في قوله: ﴿مَنْ أُنْبِئَ
هُدًى﴾ وما بعده إلى
آخر القسم الثاني،
والهدى معناه دعوة
ترعى. ثم أعلمهم أن
من أتبع هداه وأمن به
فإنه لا يضل في الدنيا
ولا يشقى في الآخرة،
وأن من أعرض عن
ذكر الله وكفر به فإن له
معيشة ضنكاً،
(والضنك): الكيد الشاق
من العيش في المنازل
أو في مواطن الحرب
ونحوها، ومنه قول
عنترة:

.....
..... وَإِنْ تَزَلُّوا يَوْمًا بِضَنْكِ أَنْزَلِ
يوصف به الواحد والجمع
والمؤنث. وقرأت فرقة:
﴿ضَنْكِي﴾، أتبع بالصفة لفظة
(المعيشة). واختلف الناس في
المعيشة الضنك، متى هو الوقت
الذي هي فيه؛ فقالت فرقة: هي
الدنيا، ومعنى ذلك عندهم أن الكافر
وإن كان متسع الحال والمال فمعه
من الحرص والأمل والتعذيب بأمر
الدنيا والرغبة واتساع صفاء العيش
بذلك ما يصير معيشته ضنكاً، وقالت
فرقة: هي ضنك بأكل الحرام،
وقالت فرقة: بل المعيشة الضنك هي
في البرزخ، وهو أن يرى مقعده من
الثَّارِ غُدُوًّا ورواحاً، وبالجملة عذاب
القبر على ما روي فيه.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

قَالَ كَذَلِكَ أَنْتَكَ أَيَّتَا فَتَسْبِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْشِي ﴿١٢٢﴾ وَكَذَلِكَ
نَجْرِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ
وَأَبْقَى ﴿١٢٣﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِي مَسْجِدِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٢٤﴾ لَوْلَا كَلِمَةٌ
سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزِمَامِ الْجَنَّةِ لِمَنْ شَاءَ فَاصْبِرْ عَلَىٰ
مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا
وَمِنْ أَنَا فِي الْبَيْتِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٢٥﴾ وَلَا
تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْتَهُمْ مِنْ زِينَةٍ وَمَنْزِلٍ هُمْ كَالْحَيَّةِ الَّتِي لَا
يَلْفِتُهَا مَا فِي بَيْتِهَا مِنْ زِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْبَأَهُمْ اللَّهُ لِيَلْفِتُنَّهَا إِنَّ صَوْلَةَ
الرُّسُلِ لَتَصْرِفُهَا عَنْهَا إِنَّ لَآتِيَنَّكُمُ الرَّزْزَاقُ وَالْعَقِيْبَةُ لِلْفُقَرَىٰ ﴿١٢٦﴾
وَقَالُوا لَوْلَا يَا أَيُّهَا بَنِي آدَمَ مِنْ رَبِّهِ ؕ أَوْلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي
الضُّحُفِ الْأُولَىٰ ﴿١٢٧﴾ وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ
لَقَالُوا إِنَّا لَوَالِدَاتُ لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنُتِّعَ بِآيَاتِكَ مِنْ
قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَحْزَىٰ ﴿١٢٨﴾ قُلْ كُلُّ مَرْصُومٍ فَارْتَبِصُوا
فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَىٰ ﴿١٢٩﴾

وقرأت فرقة: ﴿وَأَنْتَ لَا تَنْظُمُ﴾
بفتح الألف عطفاً على قوله: ﴿أَلَا
تَجْعَلُ﴾، وقرأت فرقة: ﴿وَأَنْتَ لَا
تَنْظُمُ﴾ عطفاً على قوله تعالى: ﴿إِنَّ
لَكَ﴾.

﴿١٢٢﴾ - ﴿١٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿أَجْبَلُهُ﴾ معناه: تخيره واصطفاه،
﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ معناه: رجع به من
حال المعصية إلى حال التدم وهداه
لصالح الأقوال والأعمال، وأمضى
عقوبته عز وجل في إهباطه من
الجنة.

وقوله تعالى: ﴿أَهْبَطَا﴾ مخاطبة
لآدم وحواء، ثم أخبرهما بقوله:
﴿جَعِيْعًا﴾ أن إبليس والحية يهبطان
معهما، وأن العداوة بينهم وبين
أنسآلهم إلى يوم القيامة. ﴿وَعَدُوًّا﴾
يوصف به الواحد والآنسان
والجمع. وقوله تعالى: ﴿فَاتَّابَا﴾

يتأولها مع هذا إما أنها في طائفتين وإما في موطنين.

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ أَنْتَكَ مَا بَيْنَنَا﴾، (ذَلِكَ) إشارة إلى العَمَى الذي حُلَّ به، أي مثل هذا في الدنيا أن أنتك آياتنا فنسيتها، و(النُسِيَان) في هذه الآية بمعنى الترك، ولا مدخل للذهول في هذا الموضوع، و﴿نُسِي﴾ بمعنى: تُتْرَك في العذاب، وزوي أن هذه الآية نزلت في القرشي.

﴿١٢٧﴾ - ﴿١٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وكما وصفنا من أليم الأفعال نجزي المسرفين المعتدين الكفَّار بالله عز وجل. وقوله سبحانه: ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ إن كانت معيشة الضنك في الدنيا أو في البرزخ فجاء هذا وعيداً بعذاب الآخرة بعد وعيد، وإن كان المعيشة (الضنك) في الآخرة فأكد الوعيد بعينه بهذا القول الذي جعل به عذاب الآخرة فوق كل عذاب يتخيله الإنسان أو يقع في الدنيا.

ثم ابتدأ يوبخهم ويذكر العبر بقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾. وقرأت فرقة: ﴿يَهْدِي﴾ بالياء بمعنى: يبيِّن، واختلفت هذه الفرقة في الفاعل؛ فقال بعضهم: الفاعل (كَمْ)، وهذا قول كوفي، ونسحة البصرة لا يجيزونه؛ لأن (كَمْ) لها صدر الكلام، وفي قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ مَنْ أَهْلَكُنَا﴾، فكان هذه القراءة تناسب ذلك التأويل في (كَمْ). وقال بعضهم: الفاعل اللُّهُ عز وجل، والمعنى: أفلم يهد لهم ما جعل الله

لهم من الآيات والعيبر، فأضاف الفعل إلى الله تعالى بهذا الوجه، قاله الزجاج. وقال بعضهم: الفاعل مقدر، الهدى أو الأمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو النظر والاعتبار، وهذا أحسن ما يُقدَّر به عندي.

وقرأت فرقة: ﴿نَهْدِي﴾ بالثون، وهذه القراءة تناسب تأويل من قال في التي قبلها: الفاعل الله، و(كَمْ) - على هذه الأقوال - نصب بـ ﴿أَهْلَكُنَا﴾. ثم قيد (القرُونَ) بأنهم يمشي هؤلاء الكفرة في مساكنهم، فإنما أراد عاداً وثمود والطوائف التي كانت قريش تجوز على بلادهم في المرور إلى الشام وغيره. وقرأت فرقة: ﴿يَمْشُونَ﴾ بفتح الياء، وقرأت فرقة: ﴿يَمْشُونَ﴾ بضم الياء وفتح الميم وشد الشين، و(النهي) جمع نهيّة، وهو ما ينهى الإنسان عن فعل القبيح.

ثم أعلم عز وجل أن العذاب كان يصير لهم لزاماً لولا كلمة سبقت من الله عز وجل في تأخيره عنهم إلى أجل مسمى عنده، فتقدير الكلام: ولولا كلمة سبقت في التأخير لأجل مسمى لكان العذاب لزاماً، كما تقول: لكان حتماً وواجباً وإقياً، لكنه قدّم وأخر ليشابه رؤوس الآي.

واختلف الناس في الأجل؛ فيحتمل أن يريد يوم القيامة، والعذاب المتوعد به - على هذا - هو عذاب جهنم، ويحتمل أن يريد بالأجل موت كل واحد منهم، فالعذاب - على هذا - ما يلقى في

قبره وما بعده، ويحتمل أن يريد بالأجل يوم بدر، فالعذاب - على هذا - هو قتلهم بالسيف، وبكل احتمال مما ذكرناه قالت فرقة، وفي صحيح البخاري أن يوم بدر هو اللزام، وهو البطشة الكبرى.

ثم أمره تبارك وتعالى بالصبر على أحوالهم: إنه ساحر، إنه كاهن، إنه كذاب، إلى غير ذلك، والمعنى: لا تعجل بهم فهم بمدرجة المهلكة، وكون اللزام يوم بدر أبلغ في آيات نبينا ﷺ.

قوله تعالى: ﴿وَسَيَحْمَدُ رَبَّكَ﴾، قال أكثر المتأولين: هذه إشارة إلى الصلوات الخمس: ﴿فَيَكُلُّ طُلُوعِ الشُّمُسِ﴾: صلاة الصبح، ﴿وَيَكُلُّ غُرُوبِهَا﴾: صلاة العصر، ﴿وَمِنَ آتَائِي اللَّيْلِ﴾: العتمة، ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾: المغرب والظهر. وقالت فرقة: ﴿مِنَ آتَاءِ اللَّيْلِ﴾: المغرب والعشاء، ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾: الظهر وحدها، ويحتمل اللفظ أن يُراد به قول: «سبحان الله وبحمده» من بعد صلاة الصبح إلى ركعتي الضحى، وقبل غروب الشمس؛ فقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَبَّحَ عِنْدَ غُرُوبِ الشَّمْسِ تَسْبِيحِيَّةً غَرِبَتْ بِذَنُوبِهِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وسَمَى الطَّرْفَيْنِ أطرافاً على أحد وجهين: إما على نحو قوله: ﴿فَقَدَّ صَعَتَ قُلُوبِكُنَا﴾، وإما على أن يجعل النهار للجنس في كل يوم طرف، وهي التي جمع. وأما من قال: ﴿وَأَطْرَافِ النَّهَارِ﴾ لصلاة الظهر وحدها فلا بُدَّ له من أن يتمسك بأن يكون النهار

للجنس كما قلنا، أو يقول: إن النهار ينقسم قسمين فصلهما الزوال، ولكل قسم طرفان، فعند الزوال طرفان، الآخر من القسم الأول، والأول من القسم الآخر، فقال عن الطرفين: أطرافاً على نحو ﴿فَنَدَّ صَعَتَ قُلُوبِكُمْ﴾، وأشار إلى هذا النظر أبو بكر بن فورك في «المشكل».

و(الآناء) جمع (إني) وهي الساعة من الليل، ومنه قول الهذلي:

حُلُوٌّ وَمُرٌّ كِعِطْفِ الْقِدْحِ مِرْوَتُهُ
فِي كُلِّ إِنِّي قَضَاءُ اللَّيْلِ يُنْتَجِلُ
وقالت فرقة: الآية إشارة إلى نوافل، فمنها آناء الليل، ومنها قبل طلوع الشمس، وركعتا الفجر والمغرب أطراف النهار. وقرأ الجمهور: ﴿لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ بفتح التاء، أي: لعلك تثاب على هذه الأعمال بما ترضى به. وقرأ الكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿لَعَلَّكَ تُرَضَى﴾، أي: لعلك تُعطى ما يُرضيك.

﴿١٣١﴾ - ﴿١٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قال بعض الناس: سبب هذه الآية أن رسول الله ﷺ نزل به ضيف فلم يكن عنده شيء، فبعث إلى يهودي ليسلفه شعيراً، فأبى اليهودي إلا برهن، فبلغ الرسول ذلك إلى النبي ﷺ فقال: «والله إني لأمين في السماء أمين في الأرض»، فرهنه دزعه، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مُعْتَرَضٌ أن يكون سبباً؛ لأن الثورة مكيّة والقصة المذكورة مدنية في آخر عُمر النبي صلى الله عليه وآله وسلم؛ لأنه مات ودرعه

مرهونة بهذه القصة التي ذكرت، وإنما الظاهر أن الآية متناسقة مع ما قبلها، وذلك أن الله تعالى ويخهم على ترك الاعتبار بالأُمم السابقة، ثم توعدهم بالعذاب المؤجل، ثم أمر نبيه ﷺ بالاحتقار لشأنهم والصبر على أقوالهم والإعراض عن أموالهم وما في أيديهم من الدنيا؛ إذ ذلك منصرف عنهم، صائر بهم إلى خزي.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ أبلغ من (ولا تنظر)، لأن الذي يمد بصره إنما يحمله على ذلك حرص مقترن، والذي ينظر قد لا يكون ذلك معه. و(الأزواج): الأنواع، فكأنه قال: إلى ما متعنا به أقواماً منهم وأصنافاً، وقوله: ﴿زَهْرَةَ الْحَبِيبَةِ النَّبِيِّ﴾ شبه نعيم هؤلاء الكفار بالزهر، وهو ما اصفر من الثور، وقيل: الزهر: الثور جملة؛ لأن الزهر له منظر ثم يضمحل، فكذلك حال هؤلاء. ونصب ﴿زَهْرَةَ﴾ يجوز أن يكون بإضمار فعل تقديره: جعلناه زهرة، ويجوز أن ينصب على الحال، وذلك أن تعريفها ليس بمحض. وقرأت فرقة: ﴿زَهْرَةَ﴾ بالتنوين، وقرأت فرقة: ﴿زَهْرَةَ﴾ بالهاء مُسَكَّنَةً، وقرأت فرقة: ﴿زَهْرَةَ﴾ بفتح الهاء. ثم أخبر تعالى نبيه ﷺ أن ذلك إنما هو ليختبرهم به، ويجعله فتنة لهم وأمرأ يجازون عليه بالسوء لفساد قلوبهم فيه، ورزق الله تعالى الذي أحله للمتقين من عباده خيراً وأبقى، أي: ورزق الدنيا خيراً، ورزق الآخرة أبقى، وبين أنه خير من رزق الدنيا.

ثم أمره تبارك وتعالى بأن يأمر أهله بالصلاة ويمثلها معهم ويصطر عليها ويلازمها، وتكفل هو برزقه، لا إله إلا هو، وأخبره أن العاقبة لأولي التقوى وفي خيضاها. فتم نصر الله في الدنيا ورحمته في الآخرة. وهذا الخطاب للنبي ﷺ، ويدخل في عمومه جميع أمته. وزوي أن عروة بن الزبير رضي الله عنه كان إذا رأى شيئاً من أخبار السلاطين وأحوالهم يادر إلى منزله ودخله وهو يقرأ هذه الآية ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ ما مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقَ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٣١﴾، ثم يُنادي: الصلاة الصلاة يرحمكم الله، ويصلي.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يوقظ أهل داره لصلاة الليل ويصلي ويتمثل بهذه الآية. وقرأ الجمهور: ﴿فَنَزَّلْنَا نَزْلًا﴾ بضم القاف، وقرأت فرقة: ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا﴾ بسكونها.

ثم أخبر تعالى عن طوائف من الكفار قالوا عن محمد ﷺ: ﴿لَوْلَا بَاتِنَا بَاتِيًا مِنْ رَبِّهِ﴾ أي بعلامة مما اقترحناها عليه، أو ممّا يبهر ويضطر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورسَل الله تعالى إنما اقترنت معهم آيات معرضة للنظر، محفوفة بالبراهين العقلية، ليضلل من سبق علم الله ضلاله، ويهتدي من سبق هداة، فوئخهم الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ يعني التوراة، أعظم شاهد وأكبر آية له. وقرأ نافع، وأبو

سُورَةُ الْأَنْبِيَاءِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾
 مَا مِنْ آيَةٍ مِنْ دُكُرَيْنَ رَبِّهِمْ تُخَدِّثُ إِلَّا أَسْمَعُوهُ وَهُمْ
 يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَا يَمَسُّهُمْ أَصَابٌ مِنْ سُلُوفِ الَّذِينَ ظَلَمُوا
 هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلَكُمُ أَتَى تُورَكُ السَّيْحَرِ وَأَنْتَ
 بُصَيْرٌ ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
 وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضَلَّتْ أَعْيُنُنَا بِكَلِمَ
 آفَرْتَهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَاتٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَرْسُلُ
 مَا أَهْمَتْ قَلْبَهُمْ مِنْ قَرِينٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يَوْمِئِذٍ ﴿٥﴾
 وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَتَلَوْا أَهْلَ
 الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا
 لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٧﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمْ
 الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٨﴾
 لَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَقُرَّانًا وَكُتُبًا مُبِينًا ﴿٩﴾

٢٢٢

(٢١)

سورة الأنبياء

مكية

وآياتها اثنتا عشرة ومائة

هذه السورة مكية بإجماع، وكان عبد الله بن مسعود يقول: «الكهف ومريم وطه والأنبياء من العتاق الأول، وهن من تلادي»، يريد: من قديم ما كسبت وحفظت من القرآن، كالمال التلاذ.

﴿١﴾ - ﴿٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن رجلاً من أصحاب رسول الله ﷺ كان يبني جداراً، فمر به آخر في يوم نزول هذه السورة، فقال الذي كان يبني الجدار: ماذا نزل اليوم من القرآن؟ فقال له

عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿تَأْتِيهِمْ﴾ على لفظ ﴿يَبْتِئُهُ﴾، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَأْتِيهِمْ﴾ بالياء على المعنى. وقرأت فرقة: ﴿يَبْتِئُهُ مَا فِي الصُّحُفِ﴾ بالإضافة إلى ﴿مَا﴾. وقرأت فرقة: ﴿يَبْتِئُهُ﴾ بالتنونين، و﴿مَا﴾ بدل على هذه القراءة. وقرأت فرقة: ﴿يَبْتِئُهُ مَا﴾ بالنصب، و﴿مَا﴾ - على هذه القراءة - فاعلة بـ ﴿تَأْتِي﴾. وقرأ الجمهور: ﴿فِي الصُّحُفِ﴾ بضم الحاء، وقرأت فرقة: ﴿فِي الصُّحُفِ﴾ بسكونها.

﴿١٣٤﴾ - ﴿١٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: أخبر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أنه لو أهلك هذه الأمة الكافرة قبل إرساله إليهم محمداً ﷺ لقامت لهم حجة وقالوا: ﴿لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾، الآية. وروي أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم، قال: «يحتج على الله تعالى يوم القيامة ثلاثة: الهالك في الفترة، والمغلوب على عقله، والصبي الصغير، فيقول المغلوب على عقله: رَبِّ، لِمَ لَمْ تَجْعَلْ لي عقلاً؟ ويقول الصبي نحوه، ويقول الهالك في الفترة: يَا رَبِّ، لِمَ لَمْ تُرْسِلْ إِلَيَّ رَسُولًا؟ ولوجاءني لكنت أطوع خلقك لك، قال: فترفع لهم ناز، ويقال لهم: رُدُّوْهَا، قال: فَيَرُدُّوْهَا من كان في علم الله أنه سعيد، ويكف عنها الشقي، فيقول الله تبارك وتعالى: إِيَّايَ عَصَيْتُمْ، فكيف برسلي لَوْ أَتَيْتُكُمْ؟».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما الصبي والمغلوب على أمره فَيَبْتِئُ

إلا أن يشذ في أطراف الأرض المنقطعة عن العمران، والذلل والخزي مقترنان بعذاب الآخرة.

ثم أمر الله تعالى نبيه محمداً ﷺ أن يتوعدهم ويجلبهم ونفسه على التربص وانتظار الفرج. و﴿التَّبْرُصُ﴾: الشائي، و﴿الصُّرَاطُ﴾: الطريق.

وقرأت فرقة ﴿مَنْ آمَنَ حَبُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ﴾، وقرأت فرقة: ﴿الصُّرَاطِ السَّوِيِّ﴾. فكان هذه الآية قسمت الفريقين، أي: سَتَعْلَمُونَ هذا من هذا. وقرأت فرقة: ﴿الصُّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ بشذ الواو وفتحها، وقرأت فرقة: ﴿الصُّرَاطِ السَّوِيِّ﴾ بضم السين وهمزة على الواو، على وزن فُعْلَى. و﴿مَنْ آمَنَ حَبُ﴾: معناه: رشد.

كامل تفسير سورة طه والحمد لله رب

العالمين

الآخر: نزل اليوم ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ ، فنفض يده من البنيان وقال: والله لا بنيت أبداً وقد اقترب الحساب.

وقوله تعالى: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾ عام في جميع الناس وإن كان المشار إليه في ذلك الوقت كفار قريش، ويدل على ذلك ما بعده من الآيات، وقوله: ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ﴾ يريد الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتجه من هذه الآية على العصاة من المؤمنين قسطهم.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ﴾ وما بعده مختص بالكفار. وقوله: ﴿وَيَنْذِكُرِينَ رَبَّهُمْ﴾، قالت فرقة: المراد ما ينزل من القرآن، وقوله: ﴿مُخَدِّثِينَ﴾ يريد نزوله وإتيانه إليهم، لا هو في نفسه. وقالت فرقة: المراد بالذكر أقوال النبي ﷺ في أمر الشريعة، ووعظه وتذكيره، فهو مُخَدِّثٌ على الحقيقة. وجعله (مِنْ رَبِّهِمْ) من حيث أن النبي ﷺ لا ينطق عن الهوى، ولا يقول إلا ما هو من عند الله، وقالت فرقة: (الدُّكْرُ) الرُّسُولُ نفسه، واحتجت على ذلك بقوله تبارك وتعالى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُكُمْ ذِكْرًا﴾ رُسُلًا يَتْلُوا عَلَيْكُمْ مَا بَدَأَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ، فهو محدث على الحقيقة، ويكون معنى ﴿أَسْمَعُوهُ﴾ بمعنى: استمعوا إليه. وقوله: ﴿وَهُمْ يَلْمِزُونَ﴾ جملة في موضع الحال، أي: استماعهم في حال لعب، فهو غير نافع ولا واصل النفس.

٢ - ١ تفسير قوله عز وجل:

قوله: ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ حال بعد حال،

واختلف النحاة في إعراب قوله سبحانه: ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾؛ فمذهب سيويه أن الضمير في قوله: ﴿وَأَسْرَأُ﴾ فاعل، وأن ﴿الَّذِينَ﴾ بدلٌ منه، وأن لفظة «أكلوني البراغيث» ليست في القرآن. وقال أبو عبيدة وغيره: الواو والألف علامة أن الفاعل مجموع، كالتاء في قولك: «قامت هند»، و﴿الَّذِينَ﴾ فاعل بـ﴿أَسْرَأُ﴾، وهذا على لغة من قال: «أكلوني البراغيث». وقالت فرقة: الضمير فاعل، و﴿الَّذِينَ﴾ مرتفع بفعل تقديره: أسرها الذين، أو قالها الذين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والوقوف على ﴿النَّجْوَى﴾ في هذا القول وفي القول الأول أحسن، ولا يحسن في الثاني. وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ مرتفع على خبر ابتداء مضمرة، تقديره: هم الذين ظلموا، والوقف مع هذا حسن. وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع نصب بفعل تقديره: أعني الذين. وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ في موضع خفض بدل من (النَّاسِ) في قوله: ﴿أَقْرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه أقوال ضعيفة.

ومعنى: ﴿وَأَسْرَأُ النَّجْوَى﴾: تكلموا بينهم بالسُّرِّ والمناجاة بعضهم لبعض. وقال أبو عبيدة: (أسرأوا): أظهروا، وهو من الأضداد، ثم بين تعالى الأمر الذي تناجوا به وهو قول بعضهم لبعض: ﴿هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ﴾، ثم قال بعضهم لبعض على جهة التوبيخ في الجهالة :-

﴿أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ﴾، أي ما يقول، شبهوه بالسحر، المعنى: أفتتبعون السحراً؟ ﴿وَأَنْتُمْ تَبْصِرُونَ﴾، أي تدركون أنه سحر، وتعلمون ذلك، كأنهم قالوا: تضلون عن بيئته ومعرفة. ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم وللناس جميعاً: ﴿رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾، أي: يعلم أقوالكم هذه وهو بالمرصاد في المجازاة عليها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿قُلْ رَبِّي﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿قَالَ رَبِّي﴾ على معنى الخبر عن نبيه صلى الله عليه وآله وسلم، واختلف عن عاصم، قال الطبري رحمه الله: وهما قراءتان مستفيضتان في قراءة الأمصار.

٣ - ١ تفسير قوله عز وجل:

لما اقتضت الآية التي قبل هذه أنهم قالوا إن ما عنده سحر، عدد الله تعالى في هذه الآية جميع ما قالته طوائفهم، ووقع الإضراب بكل مقالة عن المتقدمة لها ليبين اضطراب أمرهم، فهو إضراب عن جحد متقدم لأن الثاني ليس بحقيقة في نفسه. و(الأضغاث): الأخطا، وأصل الضغث: القبضة المختلطة من العشب والحشيش، فشبهت تخاليف الحلم بذلك، وهو ما لا يتفسر ولا يتحصل. ثم حكى قول من قال: إنه مُفْتَرٍ قاصد للكذب، ثم حكى قول من قال: شاعر، وهي مقالة فرقة عامية منهم، لأن نبلاء العرب لم يخف عليهم بالبدية أن مباني القرآن ليست مباني شاعر. ثم حكى اقتراحهم وتمنيهم آية تضطرهم

وتكون في غاية الوضوح كثافة صالح عليه السلام وغيرها. وقوله: ﴿كَمَّا أُرْسِلَ الْأُولُونَ﴾ دال على معرفتهم بإتيان الرُّسل الأمم المتقدمة.

وقوله تعالى: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبٍ أَهْلَكْنَاهَا﴾ قبله كلام مقدر يدل عليه المعنى، تقديره: والآية التي طلبوها عادتنا أن القوم إن كفروا بها عاجلناهم، وما آمنت قرية من القرى التي نزلت بها هذه النازلة، فهذه كانت تؤمن؟ وقوله: ﴿أَهْلَكْنَاهَا﴾ جملة في موضع الصفة للقرية، والجُمْلُ إذا أتبعَت النكرات فهي صفات لها، وإذا أتبعَت المعارف فهي أحوال منها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا﴾ رد على فرقة منهم كانوا يستبعدون أن يبعث الله من البشر رسولا يشف على نوعه من البشر بهذا القدر من الفضل، فمثل الله تعالى في الرد عليهم بمن سبق من الرُّسل من البشر. وقرأ الجمهور: ﴿يُوْحَى﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿نُوْحَى﴾ بالنون، ثم أحالهم على سؤال أهل الذُّكر من حيث لم يكن عند قريش كتاب ولا أثاره من علم.

واختلف الناس في أهل الذُّكر، من هم؟ فروي عن عبدالله بن سلام أنه قال: أنا من أهل الذُّكر، وقالت فرقة: هم أجبار أهل الكتاب، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: أنا من أهل الذُّكر، وقالت فرقة: هم أهل القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا موضع ينبغي أن يتأمل؛ وذلك أن الذُّكر هو كل ما يأتي من تذكير الله عباده، فأهل القرآن أهل ذُّكر، وهذا أراد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأما المحال على سؤالهم في هذه الآية فلا يصح أن يكونوا أهل القرآن في ذلك الوقت؛ لأنهم كانوا خصومهم، وإنما أحيلوا على سؤال أجبار أهل الكتاب من حيث كانوا موافقين لهم على ترك الإيمان بمحمد ﷺ،

فتجئء شهادتهم - بأن الرُّسل قديماً من البشر لا مطعن فيها - لازمة لكفار قريش.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا﴾، قيل: الجسد من الأشياء يقع على ما لا يتغذى، ومنه قوله سبحانه: ﴿عِبَادًا جَسَدًا﴾، فمعنى هذا: ما جعلناهم أجساداً لا تتغذى. وقيل: الجسد يعم المتغذى من الأجسام وغير المتغذي، فالمعنى: ما جعلناهم أجساداً وجعلناهم مع ذلك لا يأكلون الطعام كالجمادات أو كالملائكة، فجعلناهم جَسَدًا على التأويل الأول منقضي، وعلى الثاني موجب والنفي واقع على صفته، وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث، ثم نفى عنهم الخُلْد لأنه من صفات القديم، وكل محدث فغير خالد في الدنيا.

وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرِيْبٍ كَانَتْ طَالِمَةً وَأَشْنَا نَابِدَهَا قَوْمًا آخِرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَاتِئِهِمْ مِنْهَا رَكَضُوْنَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسْكَنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُوْنَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَنْبَغِي لَنَا إِنْ كُنَّا طَالِبِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زِلْنَا تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَبِيدِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلْبَيْنِ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَهُمْ قُلُوبًا لِأَخَذْنَاهُ مِنْ أَيْدِيهِمْ كَمَا نَفَعْنَا لِمُقِيٍّ عَلَى الْبَطْلِ فِدْمَةً فَإِذَا هُمْ رَاكِعُونَ ﴿١٧﴾ وَلَكُمْ الْوَيْلُ بِمَا نَصَّبُوْنَ ﴿١٨﴾ وَلَهُمْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُمَا لَاسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ. وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ لَيْلًا وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾ أَوْ اتَّخَذُوا آلَ الْهَيْمَةِ مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُبَشِّرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كُنَّا فِيهَا آلَ آلهَةٍ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتْنَا فَسِحْنَاللَّهِ الرَّبُّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُبَشِّرُونَ ﴿٢٣﴾ أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلَ آلهَةٍ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ عَنِّي وَذِكْرٌ مِنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

٢٢٢

١١ - ١٢ - ١٣ تفسير قوله عز وجل:

هذه وعيد في ضمن وصفه تعالى سيرته في الأنبياء عليهم السلام من أنه يصدق مواعيدهم، فكذلك يصدق لمحمد ﷺ ولأصحابه ما وعدهم من النصر وظهور الكلمة. وقوله: ﴿وَمَنْ نَشَاءُ﴾ يعني من المؤمنين، والمسرفون: الكفار المفرطون في غيهم وكفرهم، وكل من ترك الإيمان مسرف.

ثم وبخهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾، والكتاب: القرآن. وقوله: ﴿يَبِيْرُ ذِكْرُكُمْ﴾ يحتمل أن يريد: فيه الذُّكر الذي أنزله الله إليكم بأمر دينكم وآخرتكم ونجاتكم من عذابه، فأضاف الذُّكر إليهم من حيث هو في أمرهم، ويحتمل أن يريد: فيه شرفكم وذكركم آخر الدهر كما تُذكر

ولمّا فرغ وصف هذه الحال وعظ الله تعالى السّامعين بقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعِبَادٍ﴾، أي: كما ظنّ هؤلاء الذين نزل بهم ما نزل، وكما تظنون أيها الكفرة الآن، ففي الآية وعيد بهذا الوجه، والمعنى: إنّما خلقنا هذا كله ليُعْتَبَر به ويُظَنر فيه ويُؤْمَن بالله بِحَسْبِهِ.

قال بعض الناس: ﴿سُتَلُونَ﴾ معناه: تفهمون وتفقهون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير لا يعطيه اللفظ، وقالت فرقة: ﴿سُتَلُونَ﴾ معناه: شيئاً من أموالكم وعرض دنياكم، على جهة الهُزء.

١٧ - تفسير قوله عز وجل:

ظاهر هذه الآية الرُّدُّ على من قال من الكفار أمر مريم وما ضارعه من الكفر، تعالى الله عن قول المبطلين، و(اللَّهُو) في هذه الآية: المرأة، وروى أنها في بعض لغات العرب تقع على الزوجة. و﴿إِنْ﴾ في قوله: ﴿إِنْ كُنَّا نَعْلَمُ﴾، يحتمل أن تكون الشرطية، بمعنى: لَوْ كُنَّا فَاعِلِينَ، وَلَسْنَا كَذَلِكَ، وللمتكلّمين هنا اعتراض وانفصال، ويحتمل أن تكون نافية، بمعنى (ما)، وكل هذا قد قيل.

و(الْحَقُّ) عامٌ في القرآن والرّسالة والشّرع وكل ما هو حق، و(الْبَاطِلُ) أيضاً عامٌ كذلك، و﴿فَيَدْمَغُهُ﴾ معناه: يصيب دماغه، وذلك مُهْلِك في البشر، فكذلك الحق يهلك الباطل. و(الْوَيْلُ): الخزي والهم، وقيل: هو اسم وإد في جهنم فهو

إلى آخر الآية أن يكون من قول رجال يختصر على الرواية المتقدمة، فالمعنى على هذا أنهم خدعهم واستهزؤوا بهم بأن قالوا للهاربين منهم: لا تفزؤوا وارجعوا إلى مواضعكم لعلكم تسألون صلحاً أو جزية أو أمراً يتفق عليه، فلما انصرفوا أمر يختصر أن ينادى فيهم: يا ثارات النبي المقتول، فقتلوا بالسيف عن آخرهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله مروى. ويحتمل أن يكون ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾ إلى آخر الآية من كلام ملائكة العذاب على التاويل الآخر، أن الآيات وصف قصة كل قرية، وأنه لم يُرد تعيين خضوراء ولا غيرها، فالمعنى على هذا أن أهل هذه القرى كانوا باغترارهم يرون أنهم من الله بمكان، وأنه لو جاءهم عذاب أو أمر لم ينزل بهم حتى يخاصموا أو يسألوا عن وجه تكذيبهم لنبيهم، فيحتجون هم عند ذلك بِحُجَج تنفعهم في ظنهم، فلما نزل العذاب دون هذا الذي أمّلوه وركضوا فازرين نادتهم الملائكة - على وجه الهُزء بهم -: لا تركضوا وارجعوا لعلكم تُسألون كما كنتم تطمعون بسفه رأيكم. ثم يكون قوله: ﴿حَصِيدًا﴾ أي بالعذاب تُركوا كالحصيد. و(الإِثْرُف): التّنعيم، و﴿دَعْوَاهُمْ﴾ معناه: دعاؤهم وكلامهم، أي: لم ينطقوا بغير التأسف. و(الحَصِيدُ) يشبه بحصيد الزرع بالمنجل، أي ردهم الهلاك كذلك، و﴿خَبِيرِينَ﴾ أي موتى دون أزواج، مشبهين بالنّار إذا طفت.

عظام الأمور، وفي هذا تحريض، ثم أكد التحريض بقوله: ﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، وحركهم بذلك إلى النظر. ثم مثل لهم على جهة التوعّد بمن سلف من الأمم المعذّبة، و﴿وَكَمْ﴾ للتكثير، وهي في موضع نصب بـ﴿فَصَنَّا﴾. و﴿فَصَنَّا﴾ معناه: أهلكنا، وأصل القضم: الكسر في الأجرام، فإذا استعير للقوم والقرية ونحوه فهو ما يشبه الكسر، وهو إهلاكهم، فأوقع هذه الأمور على القرية والمراد أهلها، وهذا متهيج كثير، ومنه: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرِيْبَةٍ﴾، وقوله: ﴿وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا الْمُهْلَكَةَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسَآئِ﴾ وصف عن قرية من القرى المجملة أولاً، قيل: كانت باليمن تسمى خضوراء بعث الله تعالى إلى أهلها رسولاً فقتلوه، فأرسل إليهم يختصر صاحب بني إسرائيل، فهزموا جيشه مرتين، فنهض في الثالثة إليهم بنفسه، فلما هزمهم وأمل القتل فيهم ركضوا هاربين. ويحتمل ألا يريد بالآية قرية بعينها، وأنه واصف كل قرية من القرى المعذّبة، وأن أهل كل قرية كانوا إذا أحسوا العذاب من أي نوع كان أخذوا في الفرار. و(أَحْسَوْا): باشروا بالحوائس. و(الرُّكْضُ): تحريك القدم على الصفة المعهودة، والفأز والجاري بالجملة راکض، إمّا دابة وإمّا الأرض تشبيهاً بالدابة.

١٨ - تفسير قوله عز وجل: يحتمل قوله تعالى: ﴿لَا تَرْكُضُوا﴾

المراد في هذه الآية، وهذه مخاطبة للكفار الذين وصفوا الله تبارك وتعالى بما لا يجوز عليه وما لا يليق به، تعالى الله وتبارك وتقدس وتنزهه عن قولهم، بل هو كما وصف نفسه، وفوق ما نعته به خلقه، لا رب غيره.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ﴾ يحتمل أن يكون ابتداء كلام، ويحتمل أن يكون معادلاً لقوله: ﴿وَلَكُمْ الْوَيْلُ﴾، كأنه تقسيم الأمر في نفسه، أي: للمختلفين هذه المقالة الويل وله تعالى من في السموات والأرض. واللأم في (لئة) لام الملك، ﴿وَمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ يعم الملائكة والنبیین وغيرهم، ثم خصص من هذا العموم من أراد تشريفه من الملائكة بقوله: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ﴾؛ لأن (عند) هنا ليست في المسافات، وإنما هي تشريف في المنزلة، فوصفهم تعالى بأنهم لا يستكبرون عن عبادة الله، ولا يسأمونها ولا يكلون فيها. (والْحَسِيرُ) من الإبل: المُغْيِي، ومنه قول الشاعر:

لَهُنَّ الْوَجَى كَمْ كُنَّ عَوْنًا عَلَى النَّوَى
وَلَا زَالَ مِثْهَا ضَالِّعٌ وَحَسِيرُ
و«حَسَرَ» و«اشْتَحَسَرَ» بمعنى واحد، وهذا موجود في كثير من الأفعال، وإن كان في استفعل لطلب الشيء.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّقُونَ﴾، روي عن كعب الأحبار رحمه الله تعالى أنه قال: جعل الله لهم التسبيح كالثفس وطرف العين للبشر، يقع منهم دائماً دون أن تلحقهم فيه سامة. وقال قتادة رحمه الله: ذكر لنا

أن رسول الله ﷺ بينما هو جالس مع أصحابه إذ قال: «تسمعون ما أسمع؟» قالوا: ما نسمع من شيء يا رسول الله. قال: «إِنِّي لَأَسْمَعُ أُطِيطُ السَّمَاءِ، وَحَقٌّ لَهَا أَنْ تَطُتْ، لَيْسَ فِيهَا مَوْضِعٌ رَاحَةٍ إِلَّا وَفِيهَا مَلَكٌ سَاجِدٌ أَوْ قَائِمٌ».

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه ﴿أَرْ﴾ التي هي بمنزلة ألف الاستفهام، وهي هنا تقرير وتوقيف، ومذهب سيبويه أنها بمنزلة (بل) مع ألف الاستفهام، كأن في القول إضراباً عن الأول ووقفهم الله تعالى بقوله: هل اتخذوا إلهة يخيون ويخترعون؟ أي: ليست إلهتهم كذلك، فهي غير إلهة؛ لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة. وقرأت فرقة: ﴿يُبَشِّرُونَ﴾ بضم الباء، بمعنى: يُخَيِّونُ غيرهم، وقرأت فرقة أخرى: ﴿يُنَشِّرُونَ﴾ بمعنى يَخَيِّونُ هم وتدوم حياتهم، يقال: نَشَرَ الميثُ وأنشره الله.

ثم بين تبارك وتعالى أمر التمانع بقوله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، وذلك بأنه كان ينبغي بعضهم على بعض ويذهب بما خلق. واقتضاب القول في هذا أن إلهين لو فرضا فزق بينهما الاختلاف في تحريك جزم وتسكينه، فمحال أن تتم الإرادتان، ومحال ألا تتما جميعاً، وإذا تمت الواحدة كان صاحب الأخرى عاجزاً، وهذا ليس بإله، وجواز الاختلاف عليهما بمنزلة وقوعه منهما، ونظر آخر، وذلك أن كل جزء يخرج من العدم إلى الوجود فمحال أن تتعلق به قدرتان، فإذا

كانت قدرة أحدهما توجد بقي الآخر فضلاً لا معنى له في ذلك الجزء، ثم يتمادى النظر هكذا جزءاً جزءاً. ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عما وصفه به أهل الجهالة والكفر.

ثم وصف تعالى نفسه بأنه ﴿لَا يُسْتَلَّ عَمَّا يَفْعَلُ﴾، وهذا وصف

يحتمل معنيين: إما أن يريد أنه بحق ملكه وسلطانه لا يعارض ولا يسأل عن شيء يفعل؛ إذ له أن يفعل في ملكه ما يشاء، وإما أن يريد أنه مُحَكَّمُ الأفعال وواضع كل شيء في موضعه، فليس في أفعاله سؤال ولا اعتراض. وهؤلاء من البشر يسألون لهاتين العلتين؛ لأنهم ليسوا مالكين، ولأنهم في أفعالهم خلل كثير.

ثم قرّهم تعالى ثانية على اتخاذ الآلهة، وفي تكرار هذا التقرير مبالغة في نكيره وبيان فساد، وفي هذا التقرير زيادة على الأول، وهي قوله: ﴿مِنْ دُونِهِ﴾، فكأنه قرّهم هنا على قصد الكفر بالله عز وجل، ثم دعاهم إلى الحجّة والإتيان بالبرهان.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ نَّبِيِّ وَاذْكُرْ مِّنْ قَبْلِهِ﴾ يحتمل أن يريد به ﴿هَذَا﴾ جميع الكتب المنزلة قديمها وحديثها، أي: ليس فيها برهان على اتخاذ الآلهة من دون الله، بل فيها ضد ذلك. ويحتمل أن يريد بقوله: ﴿هَذَا﴾ القرآن، والمعنى: فيه ذكر الأولين وذكر الآخرين، فذكر الآخرين بالدعوة وبيان الشرح لهم وردهم على طريق النجاة، وذكر الأولين بقص أخبارهم وذكر الغيوب في أمورهم. ومعنى الكلام - على

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَ اللَّهِ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا تَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كَانَا تَرْفًا فَفَقَطَّنَهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رِوْاسٍ أَنْ نَبْشَدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَدْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرَضُونَ ﴿٣٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِلشَّرِّينَ قِبَلِكِ الْخَلْدَ أَفَإِنْ مِتَّ فَمَنْ خَلَّدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَّوْكُمْ بِالْمَسْئَرِ الْغَيْرِ وَفِتْنَةً وَالنَّاسُ تَرْجِعُونَ ﴿٣٥﴾

٣٢٤

معرضون ولذلك لا يعلمون الحق، وقرأ الحسن، وابن محيصن: ﴿الْحَقُّ﴾ بالرفع على معنى: هذا القول هو الحق، والوقف في هذه القراءة على ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾.

عز وجل: ﴿٢٥﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله

لَمَّا أَخْبَرَهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عَنْهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ لِإِعْرَاضِهِمْ أَتَيْعَ ذَلِكَ بِإِعْلَامِهِ أَنَّهُ مَا أَرْسَلَ رَسُولًا قَطُّ إِلَّا أَوْحَىٰ إِلَيْهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ فَرَدَّ صَمَدًا وَهَذِهِ عَقِيدَةٌ لَمْ تَخْتَلَفْ

فِيهَا الثُّبُوتَاتُ، وَإِنَّمَا ااخْتَلَفَتْ فِي الْأَحْكَامِ. وَقَرَأَ حَمْزَةً، وَالْكَسَاةَ: ﴿نُوحِي﴾ بنون مضمومة، وقرأ الباقون: ﴿يُوحَىٰ﴾ بياء مضمومة، واختلف عن عاصم.

ثُمَّ عَدَّدَ اللَّهُ تَعَالَىٰ بَعْدَ ذَلِكَ نَوْعًا آخَرَ مِنْ كُفْرِهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّهُمْ مَعَ اتِّخَاذِهِمْ آلِهَةً كَانُوا يُقْرُونَ بِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَىٰ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ إِلَّا أَنَّهُمْ قَالُوا بَعْضُهُمْ: اتَّخَذَ الْمَلَائِكَةُ بَنَاتًا، وَقَالَ نَحْوُ هَذِهِ الْمَقَالَةُ النَّصَارَىٰ فِي عِيسَىٰ ابْنِ مَرْيَمَ، وَالْيَهُودَ فِي عَزْرَىٰ، فَجَاءَتْ هَذِهِ الْآيَةُ رَادَّةً عَلَىٰ جَمِيعِهِمْ مُنْهَةً عَلَيْهِمْ. ثُمَّ نَزَّهَ تَعَالَىٰ نَفْسَهُ عَنِ مَقَالَةِ الْكُفْرَةِ، وَأَضْرَبَ عَنِ مَقَالِهِمْ، وَنَصَّ مَا هُوَ الْأَمْرُ فِي نَفْسِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾، وَهَذِهِ عِبَارَةٌ تَشْمَلُ الْمَلَائِكَةَ وَعِيسَىٰ وَعَزْرَىٰ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ﴾

بِالْقَوْلِ﴾ عبارة عن حُسن طاعتهم وعبادتهم ومراعاتهم لامثال الأمر. وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ أي: ما تقدم من أفعالهم وأعمالهم والحوادث التي لها إليهم تسبب، وما تأخر، ثم أخبر أنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى الله أن يشفع لهم، قال بعض المفسرين: لأهل السماء لا إله إلا الله. (والمُشْفِقُونَ): المبالغ في الخوف المحترق النفس من الفزع على أمر ما.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: من يُقَالُ مِنْهُمْ كَذَا إِنْ لَوْ قَالَهُ، وَلَيْسَ مِنْهُمْ مَنْ قَالَ هَذَا، وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ: الْمُرَادُ بِقَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ يَقُلْ﴾ الْآيَةَ... إِبْلِيسُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف؛ لأن إبليس لم يُرَوِّ قَطُّ أَنَّهُ ادَّعَىٰ رُبُوبِيَّةً.

وقرأ الجمهور: ﴿نَجْزِيهِ﴾ بفتح النون، وقرأ أبو عبد الرحمن عبد الله بن يزيد: ﴿نَجْزِيهِ﴾ بضم النون والهاء، ووجهها أن المعنى: نجعلها تكتفي به، من قولك: أجزأني الشيء، ثم خفت الهمزة ياء. وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ أي كجزائنا هذا القائل جزأونا الظالمين.

ثُمَّ وَقَفَّهْمَ تَعَالَىٰ عَلَىٰ عِبْرَةٍ دَالَّةً عَلَىٰ وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ جَلَّتْ قُدْرَتُهُ. (وَالرُّتُّونُ): الملتصق ببعضه ببعض الذي لا صدع فيه ولا فتح، ومنه: «امرأة رتقاء». واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿كَانَا تَرْفًا فَفَقَطَّنَهُمَا﴾، فقالت فرقة: كانت السماء ملتصقة بالأرض ففتقنها الله بالهواء، وقالت فرقة: كانت السماء

هذا التأويل - عرض القرآن في معرض البرهان، أي: هاتوا برهانكم فهذا برهاني أنا ظاهر في ذكر من معي وذكر من قبلي. وقرأت فرقة: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي﴾ بالإضافة فيهما، وقرأت فرقة: ﴿هَذَا ذِكْرٌ مِّنْ مَّيِّ﴾ بالإضافة «وَذِكْرٌ مِّنْ قَبْلِي» بتنوين «ذِكْرٌ» الثاني وكسر الميم في قوله: ﴿مِّنْ قَبْلِي﴾، وقرأ يحيى بن سعيد، وابن مصرف بالتنوين في «ذِكْرٌ» من المَوْضِعَيْنِ وكسر الميم في «مِّنْ» في المَوْضِعَيْنِ، وَضَعَفَ أَبُو حَاتِمٍ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ، كَسَرَ الْمِيمَ فِي الْأَوَّلِ، وَلَمْ يَرَ لَهَا وَجْهًا.

ثم حكم عليهم تعالى بأن أكثرهم لا يعلمون الحق لإعراضهم عنه، وليس المعنى: فهم معرضون لأنهم لا يعلمون، بل المعنى: فهم

ملتصقة بعضها ببعض والأرض كذلك ففتقها الله سبعا سبعا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذين القولين فالرؤية الموقفة عليها رؤية القلب.

وقالت فرقة: السماء قبل المطر رتق، والأرض قبل النبات رتق، ففتقها الله تعالى بالمطر والنبات، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَأَنْشَأَ دَاتٍ أَرْبَعًا وَالْأَرْضِ دَاتٍ أَلْبَعَةَ﴾، وهذا قول حسن يجمع العبرة وتعدد النعمة والحجة بمحسوس بين، ويناسب قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا﴾، أي: من الماء الذي أوجده الفتق، فيظهر معنى الآية ويتوجه الاعتبار. وقالت فرقة: السماء والأرض رتق بالظلمة ففتقها الله تعالى بالضوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والرؤية على هذين القولين رؤية العين، والأرض هنا اسم للجنس، فهو جمع.

وقرأ الجمهور: ﴿رَتَقًا﴾ بسكون التاء، والرتق: مصدر وُصف به كالزور والعذل. وقرأ الحسن، والشعبي، وأبو حية: ﴿كَانَتَا رَتَقًا﴾ بفتح التاء، وهو اسم المرتوق كالنفض والنفض والخيط والخيط، وقال: ﴿كَانَتَا﴾ من حيث هما نوعان، ونحوه قول عمرو بن شبيب: أَلَمْ يَخْرُزْنَا أَنْ جَبَالَ قَيْسٍ وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَنَتَا انْقِطَاعًا

وقوله: ﴿كَانَتَا﴾ في القولين بمنزلة قولك: «كان زيد حياً»، أي: ثم لم يكن، وفي القولين الآخرين بمنزلة قولك: «كان زيد عالماً»،

أي: وهو كذلك. وقرأ ابن كثير وحده: ﴿أَلَمْ يَزَ﴾ بإسقاط الواو.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَ الْمَاءِ كُلِّ شَيْءٍ حَيًّا﴾ بيّن أنه ليس على عمومه، فإن الملائكة والجن قد خرجوا من ذلك، ولكن الوجه أن يُحمل على أعم ما يمكن، فالحيوان أجمع والثبات - على أن الحياة فيه مستعارة - داخل في هذا. وقالت فرقة: المراد بالماء المني الذي في جميع الحيوان. ثم وقفهم على ترك الإيمان تويحاً وتقريباً.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الرّواصي جمع راسية، أي ثابتة، يقال: رسا يرسو إذا ثبت واستقر، ولا يستعمل إلا في الأجرام الكبار كالجبال والسفينة ونحوها. ويروى أن الأرض كانت تكفأ بأهلها حتى ثقلها الله بالجبال فاستقرت. والتميد: التحرك، والنفجاج: الطرق المتسعة في الجبال وغيرها و﴿سُبُلًا﴾: جمع سبيل، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ يحتمل أن يعود على الرّواصي، ويحتمل أن يعود على الأرض، وهو أحسن. و﴿يَتَدُونُ﴾ معناه: في مسالكهم وتصرفهم.

والسقف: ما علا، والجفظ هنا عام في الجفظ من الشياطين ومن الوهي والسقوط وغير ذلك من الآفات.

و(آياتها): كواكبها وأطارها والرعد والبرق والصواعق وغير ذلك مما شبهه. وقرأت فرقة: ﴿عَنْ آيَاتِهَا﴾ بالإفراد الذي يراد به الجنس. و(الفلك): الجسم الدائر دورة

اليوم والليلة، فالكل في ذلك سابع متصرف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعن بعض المفسرين إلى الكلام فيما هو الفلك، فقال بعضهم: كحديدة الرّوح، وقال بعضهم: كالطّاحونة، وغير هذا مما لا ينبغي التّسوّر عليه، غير أننا نعرف أن الفلك جسم مستدير، و﴿يَسْبَحُونَ﴾ معناه: يتصرفون، وقالت فرقة: الفلك موج مكشوف، ورأوا قوله: ﴿يَسْبَحُونَ﴾ من السّباحة وهي العموم.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل: قيل: إن سبب هذه الآية أن بعض المسلمين قال: إن محمداً لن يموت وإنما هو مخلّد، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنكره، ونزلت هذه الآية. والمعنى: لم تُخلّد أحداً، ولا أنت نخلّدك، وينبغي ألا يتنم أحد من المشركين عليك في هذا أفهم مخلّدون إن مت أنت فيصح لهم انتقام؟

وقيل: إن سبب الآية أن كفار مكة طعنوا على النبي ﷺ بأنه بشر، وأنه يأكل الطعام ويموت، فكيف يصح إرساله؟ فنزلت الآية رادة عليهم.

وألف الاستفهام داخلة في المعنى على جواب الشرط، وقدمت في أول الجملة لأن الاستفهام له صدر الكلام، والتقدير: أفهم الخالدون إن ميت؟ والفاء في قوله تعالى: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ عاطفة جملة على جملة، وقرأت فرقة: ﴿مُتٌ﴾ بضم الميم، وقرأت فرقة: ﴿مِتٌ﴾ بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ يُرَادُ بِهِ الْخِصُوصُ، وَالْمُرَادُ كُلُّ نَفْسٍ

ثم رد عليهم بأن قرن بإنكارهم ذكر الأصنام كُفَرَهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ، أي: فهم أحق باللام، وهم المخطئون. وقوله تعالى: ﴿يَذِكُرُ﴾ أي: بما يجب أن يذكر به، ولا إله إلا الله منه. وقوله سبحانه: ﴿يَذِكُرِ الرَّحْمَنَ﴾، روي أن الآية نزلت حين أنكروا هذه اللفظة وقالوا: ما نعرف الرَّحْمَنَ إلا باليمامة، وظاهر الكلام أن ﴿الرَّحْمَنَ﴾ قصد به العبارة عن الله تعالى، كما لو قال: وهم بذكر الله، وهذا التأويل أغرق في ضلالهم وخطئهم.

وقوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ توطئة للرد عليهم في استعجالهم العذاب، وطلبهم آية مقترحة، وهي مقرونة بعذاب مُجَهِّزٍ إن كفروا بعد ذلك. ووَصَفَ تعالى الإنسان الذي هو اسم الجنس بأنه خُلِقَ مِنْ عَجَلٍ، وهذا على جهة المبالغة، كما تقول للرجل البَطَّالُ: أنت من لعب ولهُو، وكما قال رسول الله ﷺ: «لَسْتُ مِنْ قَدٍ وَلَا ذَدٍّ مِنِّي». وهذا نحو قول الشاعر:

وَأَنَا لِمِمَّا نَضْرِبُ الْكَبِشَ ضَرْبَةً
عَلَى رَأْسِهِ تُلْقِي اللِّسَانَ مِنَ الْقَمِ
كَأَنَّهُمْ لَمَّا كَانُوا أَهْلَ ضَرْبٍ لِلْهَامِ
وملازمة للحرب قال: إنهم من الضرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يتم به معنى الآية المقصود في أن ذمت عَجَلَتِهِمْ وقيل لهم على جهة الوعيد: إن الآيات ستأتي فلا تستعجلون، وقال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾: إنَّه من

وخير البَدَنِ وشَرُّه، وخير الدنيا في الحياة وشَرُّها، وأما الهدى والضلال فغير داخل في هذا، ولا الطاعة والمعصية؛ لأن من هُدي فليس نفسُهُ هُداة اختاراً، بل قد تَبَيَّنَ خيره، فعلى هذا ففي الخير والشَّرِّ ما ليس فيه اختبَارٌ، كما يوجد أيضاً اختبَارٌ بالأوامر والنواهي وليس بداخل في هذه الآية.

﴿وَفِتْنَةً﴾ معناه: امتحاناً وكشفاً. ثم أخبر عَزَّ وَجَلَّ عن الرجعة إليه والقيام من القبور، وفي قوله سبحانه: ﴿وَاللَّيْتَا تَرْجِعُونَ﴾

وعبذ. وقرأت فرقة: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بضم التاء، وقرأت فرقة: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بفتحها، وقرأت فرقة: ﴿يَنْزَجِعُونَ﴾ بالياء مضمومة، على الخروج من الخطاب إلى الغيبة.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: رُوي أن أبا سفيان وأبا جهل بن هشام رأيا رسول الله ﷺ في المسجد فاستهزءا به فنزلت الآية بسببها، وظاهر الآية أن كفار قريش وعظماؤهم يعمهم هذا المعنى من أنهم يتكرون أخذ رسول الله ﷺ في أمر آلهتهم، وذكره لهم بفساد. و﴿إِن﴾ بمعنى (ما)، وفي الكلام حذف تقديره: يقولون: أهذا الذي؟ وقوله: ﴿يَذِكُرُ﴾ لفظ يعم المدح والذم لكن قرينة المقال أبدأ تدل على المراد من الذكر، وتَمَّ ما حكى عنهم في قوله: ﴿إِلَهُكُمْ﴾.

وَأَذَارَ الْكَافِرِينَ كَفَرُوا وَإِن يَسْخَرُواكَ مِنَ الْإِسْلَامِ
أَهْدِ الَّذِي يَذْكُرُ الْإِسْلَامَ وَهُمْ يَذِكُرُ الرَّحْمَنَ
هُمْ كَفَرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَوْكُمْ
مَا بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوا بِهِ وَتَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ
إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٧﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينٍ
لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَن ظُهُورِهِمْ وَلَا
هُم يُبْصَرُونَ ﴿٣٨﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا
يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ أَسْتَشْرَفَ
بِرُّسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَخَافَ بِالَّذِينَ سَخَّرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَمْتِرُونَ ﴿٤٠﴾ قُلْ مَنْ يَكْفُرْكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنْ
الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ
لَهُمْ آلِهَةٌ تَتَّبِعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ
أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ يَتَّخِذُونَ ﴿٤٢﴾ بَلْ مَعْنَاهُ هَؤُلَاءِ
وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ فَالَّذِينَ كَفَرُوا أَنَا أَنَا فِي
الْأَرْضِ نَقُصُّهَا مِنْ أَمْثَلِهَا فَهِيَ الْغَالِبُ ﴿٤٣﴾

مخلوقة. (والذوق) هاهنا مستعار، و﴿وَيَتْلُوكُمْ﴾ معناه: نختركم، وقدم الشَّرُّ لأن الابتلاء به أكثر، ولأن العرب من عاداتها أن تقدم الأقل والأرذأ، فمنه قوله تعالى: ﴿لَا يَبْأُذُرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿فَيَنْهَرُ ظَالِمًا لِنَفْسِهِ، وَيَنْهَرُ مَقْتَصِدًا وَمِنْهُمْ سَائِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾، فيبدأ بتقسيم أمة محمد ﷺ بالظلم. وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنه جعل الخير والشَّرُّ هاهنا عاماً في الغنى والفقير والصحة والمرض والطاعة والمعصية والهدى والضلالة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن المراد من الخير والشَّرُّ هنا كلُّ ما يصح أن يكون فتنةً وابتلاءً، وذلك خير المال وشَرُّه،

المقلوب، كأنه أراد: خُلِقَ الْعَجَلُ من الإنسان، على معنى أنه جعل طبيعة من طباعته وجزءاً من أخلاقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل ليس فيه مبالغة، وإنما هو إخبارٌ مجرد، وإنما حمل قائله عليه عَدَمُهُم وجه التجوُّز والاستعارة في أن يبقى الكلام على ترتيبه، ونظير هذا القلب الذي قاله قولُ العرب: «إِذَا طَلَعَتِ الشَّعْرَى اسْتَوَتْ الْعُودُ عَلَى الْجِزْبَاءِ»، وكما قالوا: «عَرَضَتِ الثَّاقَةُ عَلَى الْحَوْضِ»، وكما قال الشاعر:

حَسَرْتُ كَفِّي عَنِ السُّزْبَالِ أَخَذُهُ
فَزَادَ يُجْرُ عَلَى أَيْدِي الْمُفْدِينَا
وأما المعنى في تأويل من رأى الكلام من المقلوب فكالمعنى الذي قدّمناه، وقالت فرقة من المفسرين: قوله: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ إنما أراد أن آدم عليه السلام خلقه الله تعالى في آخر ساعة من يوم الجمعة فتعجل به قبل مغيب الشمس، وروى بعضهم أن آدم عليه السلام قال: يا ربِّ اكمل خلقي فإنَّ الشمس على الغروب أو قد غربت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قولٌ ضعيف، ومعناه لا يناسب معنى الآية. وقالت فرقة: العَجَلُ: الطَّيْنُ، والمعنى: خُلِقَ آدَمُ مِنْ طِينٍ، وأنشد النقاش:

.....
وَالتُّخْلُ يُثْبِتُ بَيْنَ الْمَاءِ وَالْعَجَلِ
وهذا أيضاً ضعيف مغايرٌ لمعنى الآية. وقالت فرقة: معنى ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾ أي بقوله تعالى: ﴿كَانَ﴾، فهو بحال عَجَلَةٍ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أيضاً ضعيف، وفيه تخصيص ابن آدم بشيء كل مخلوق يشاركه فيه، وليس في هذه الأقوال ما يصح معناه ويلتئم مع الآية إلا القول الأول.

وقرأت فرقة: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأت فرقة: ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ﴾ على معنى: خَلَقَ اللَّهُ الْإِنْسَانَ، فمعنى الآية بجملتها ﴿خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ﴾، على معنى التعجب من تعجل هؤلاء المقصودين بالردِّ. ثم توعدهم بقوله: ﴿سَأُوبِيكُمْ آتِيًّا﴾، أي: سيأتي ما يسوؤكم إذا مُثِمَّ على كفركم، يريد يوم بدر وغيره، ثم فسّر تعالى استعجالهم بقوله: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾ وكان استفهامهم على جهة الهُزءِ والتكذيب، وقولهم: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ يريدون محمداً ﷺ ومَن آمنَ به؛ لأنَّ المؤمنين كانوا يتوعدونهم على لسان الشَّرع، وموضع ﴿مَتَى﴾ رفع عند البصريين، وقال بعض الكوفيين: موضعه نصب على الظرف، والعامل فعل مُقَدَّرٌ تقديره: يكون أو يجيء، والأول أصوب.

﴿٣٩﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل:
حُذِفْ جَوَابُ ﴿لَوْ﴾ إيجازاً للدلالة الكلام عليه، وأبهم قدر العذاب لأنه أبلغ وأهيب من النَّصِّ عليه، وهذا محذوف نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَةٌ مِنْ آيَاتِهِ، وتقدير المحذوف في جواب هذه الآية: لَمَا اسْتَعْجَلُوا، ونحوه. وقوله

تعالى: ﴿حِينَ لَا يَكْفُرُونَ عَنْ وُجُوهِهِمْ النَّارَ﴾ يريد يوم القيامة، وذكر الوجوه خاصة لشرفها من الإنسان وأنها موضع حواسه وهو أحرص على الدِّفاع عنها، ثم ذكر الظهور ليُبَيِّنَ عموم النار لجميع أبدانهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ تَأْتِيهِمْ﴾ استدراك مُقَدَّرٌ قبله نفى تقديره: إنَّ الآيات لا تأتي بحسب اقتراحهم بل تأتيهم بغتة، والضمير للساعة التي تُصِيرُهُم إلى العذاب، ويحتمل أن يكون للنار. وقرأت فرقة: ﴿بَلْ يَأْتِيهِمْ﴾ بالياء على أن الضمير للوعد، ﴿فَتَبَيَّنَتْهُمْ﴾ بالياء على أن الضمير للوعد أيضاً. و(الْبَغْتَةُ): الفجأة عن غير مقدّمة، و﴿يُنظُرُونَ﴾ معناه: يُؤخَّرُونَ.

ثم آتس الله تعالى محمداً ﷺ بما جرى على سائر الأنبياء من استهزاء قومهم بهم وحلول العذاب بالمستهزئين، وحاقَّ معناه: نَزَلَ وحلَّ، وهي مستعملة في العذاب والمكارة. وقوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا﴾ فيه محذوف تقديره: جزاء ما كانوا، ونحوه، ومع هذا التأنيس الذي لمحمد ﷺ وعيدٌ للكفرة وضربٌ مثلٍ لهم بمن سلف من الأمم.

﴿٤٢﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة المستهزئين بك وبما جئت به، الكافرين بذكر الرحمن، الجاهلين به، قل لهم على جهة التقرير والتوبيخ: من يحفظهم؟ و«كَلَأَ»

يَسْمَعُ ﴿٤٥﴾ بالياء وإسناد الفعل إلى ﴿الْقَصْرِ﴾ وقرأ ابن عامر وحده: ﴿وَلَا يُسْمَعُ﴾ بضم الياء وكسر الميم ونصب ﴿الْقَصْمِ﴾. وقرأت فرقة: ﴿وَلَا تُسْمَعُ﴾ بالياء مضمومة وفتح الميم وبناء الفعل للمفعول، والفرقتان نصبتا ﴿الدُّعَاءَ﴾، وقرأت فرقة: ﴿وَلَا يُسْمَعُ الْقَصْمُ الدُّعَاءَ﴾ بإضافة ﴿الْقَصْمِ﴾ إلى ﴿الدُّعَاءِ﴾، وهي قراءة ضعيفة وإن كانت متوجهة. ثم خاطب الله تعالى محمدا ﷺ متوعدا لهم بقوله: ﴿وَلَكِنَّ مَسْتَهْرَفَةً مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ﴾، والثفحة: الخطرة والمسة، كما تقول: نفع بيده إذا مال بها هكذا ضاربا إلى جهة، ومنه «تَفْحَةٌ الطَّيْبِ» كأنه يخطر خطرات على الحاسة، ومنه: «تَفَحَّحَ لَهُ مِنْ عَطَايَاهُ» إذا أخذ منها نصيبا، ومنه: «تَفَحَّحَ الْفَرَسُ بِرِجْلِهِ» إذا ركض، والمعنى: ولئن مس هؤلاء الكفرة صدمة عذاب في دنياهم لَيُنْذَمْنَ وَلَيُتْرَكْنَ بِظَلْمِهِمْ. ﴿٤٦﴾ - ﴿٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا تَوَعَّدَهُمْ بِنَفْحَةٍ مِّنْ عَذَابِ الدُّنْيَا عَقَّبَ ذَلِكَ بِتَوْعُدٍ بَوْضِعِ الْمَوَازِينِ مِنْ حَيْثُ الْقِسْطِ، وإنما جمعها وهي ميزان واحد لأن لكل أحد وزن يخصه، ووحد ﴿الْقِسْطُ﴾ وهو قد جاء بلفظ الموازين مجموعاً من حيث «الْقِسْطُ» مصدرٌ وصف به، كما تقول: «قَوْمٌ عَدْلٌ وَرَضَى». وقرأت فرقة: ﴿الْقِسْطُ﴾ بالصاد. وقوله سبحانه: ﴿لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي: لحساب يوم القيامة، أو لحكم يوم القيامة، فهو بتقدير حذف مضاف. والجمهور على أن الميزان في يوم

أن حالهم لا يبدو، والمعنى: طال العمر في رخاء.

ثم وقفهم تعالى على مواضع العبرة في الأمم وفي البشر بحسب الخلاف في الأطراف، و(الرؤية) في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾ رؤية العين تتبعها رؤية القلب. و﴿نَأْيٍ﴾ معناه: بالقدرة والبأس، و﴿الْأَرْضِ﴾ عامة في الجنس، وقوله سبحانه: ﴿مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ إما أن يريد: فيما يخرب من المعمور فذاك بعض الأرض، وإما أن يريد

موت البشر فهو تَنَقُّصٌ للقرون، ويكون المراد حينئذ أهل الأرض، وقال قوم: النقص من الأطراف موت العلماء، ثم وقفهم - على جهة التوبيخ - أنهم يغلبون من غلب جميع أهل الأرض وقهر الكل بسلطانه وعظمته؟ أي إن ذلك محال تبين، بل هم مغلوبون مقهورون.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل يأيها المُقْتَرِحُونَ المتشططون إنما أنذركم بوحى يوحى الله إليّ، وبدلالات على العبر التي نصبها الله تعالى ليُنظر فيها، كتنقصان الأرض من أطرافها وغيره، ولم أبعث بآية مُطَرِّدة ولا بما تقتريه. ثم قال: ﴿وَلَا يَسْمَعُ﴾ بمعنى: وأنتم معرضون عما أنذرت به، فهو غير نافع لكم، ومثل أمرهم بالْقَصْمِ. وقرأ جمهور القراء: ﴿وَلَا

قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَكِنَّ مَسْتَهْرَفَةً مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيُؤَلَّفُكَ نَوَاتِلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَضَحَّ الْمَوْتُونَ أَلْقَسَطَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا ظِلْمَ لِنَفْسٍ شَيْئًا وَإِنْ كَانَتْ مِنكُمُ حَبِيبَةٌ مِّنْ خَرَدَلٍ أَيْسَأُ بِهَا وَكُفَى بِمَا حَسِبْتُمْ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَّةً وَذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنْ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مَّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ الْقَوْمِ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ فَأَلَّوْا بِهِمْ وَبَدَّلُوا فَضْلَهُمْ فِي حَيْثُ يَنْتَقِلُونَ ﴿٥٢﴾ فَالْقَوْمِ الَّذِينَ كَانُوا عَلَى الْكُفْرِ وَهُمْ كَانُوا سَاقِطِينَ ﴿٥٣﴾ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْكَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٥٥﴾ فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمُنْكَرُونَ ﴿٥٦﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٥٧﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٥٨﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٥٩﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦٠﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦١﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦٢﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦٣﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦٤﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦٥﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦٦﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦٧﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦٨﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٦٩﴾ وَكَانُوا يَحْسَبُونَ أَنَّ اللَّهَ مُنْكَرٌ كَتُمٌ ﴿٧٠﴾

معناه حَفِظَ، ومنه قول النبي ﷺ: «أَكَلْنَا لَنَا الْفَجْرَةَ»، وفي آخر الكلام تقدير محذوف، كأنه قال: ليس لهم مانع ولا كالياء، وعلى هذا المعنى تركبت ﴿بَلْ﴾ في قوله سبحانه: ﴿بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ﴾. ثم يقضي عليهم التقرير في أنه لا مانع لهم من الله بأن كشف أمر الكهنتهم، والمعنى: يظنون أن الكهنتهم التي بهذه الصفة تمنعهم من دوننا، بل لا يمنعهم أحد إلا نحن. وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يَنبَأُ بِصَحْبِهِمْ﴾. يحتمل تأويلين: أحدهما: يُجَاوِزُونَ وَيُتَمَنَعُونَ، والآخر: وَلَا هُمْ مِمَّا يُصْحَبُونَ بخير ولا بركة ونحو هذا، وفي الكلام تقدير محذوف، كأنه قال: ليس ثم شيء من هذا كله، بل ضل هؤلاء لأننا متعنهم ومتعنا آباءهم فنسوا عقاب الله وظنوا

فَجَعَلَهُمْ جُودًا إِذْ كَبُرَ الْإِيمَانُ لِمَا لَهُمْ إِلَهُ يَرْجُمُونَ ﴿٥١﴾
 قَالُوا لَوْلَا فَعَلَ هَذَا بِإِنَّا الْهَيْبَةُ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٢﴾
 قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَدْعُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٣﴾ قَالُوا قَاتُوا أَوْلِيَاءَهُ
 عَلَى آعِينَ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ
 هَذَا بِالْهَيْبَةِ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ نَعْبُدُكَ كَمَا رَبُّهُمْ
 هَذَا فَاسْتَوْهَمُوا إِنْ كَانُوا يَنْظُرُونَ ﴿٥٦﴾ فَرَجَعُوا إِلَى
 أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا لَكُمْ أَنْتُمْ الظَّالِمُونَ ﴿٥٧﴾ ثُمَّ تَكْسَبُوا عَلَى
 رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هُمْ بِأَعْدَاءُ يَنْظُرُونَ ﴿٥٨﴾ قَالَ
 أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا
 يَضُرُّكُمْ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ يَكُنْ لَهُ الْكُوفُورُ لَمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا
 تَتَّقُونَ ﴿٦٠﴾ قَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِدُ بِإِنَّا كُنَّمُ
 فَعَلِينَ ﴿٦١﴾ قُلْنَا إِنَّا نُكْفِي ذَٰلِكُمْ وَعَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ
 وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٦٢﴾ وَجَعَلْنَاهُ
 وِلْدَانًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ وَهَبْنَا
 لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَجَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٦٤﴾

٣٢٧

ذلك مما فرَّق بين أمره وبين أمر فرعون لَعَنَهُ اللهُ، و(الضَّيَاءُ)، السُّورَةُ، و(الدُّكْرُ) بمعنى التَّدَكُّرِ. وقوله: ﴿بِالْقَيْبِ﴾ يحتمل ثلاثة تأويلات: أحدها في غيبهم وخلواتهم وحيث لا يُطَّلَعُ عليهم أحد، وهذا أرجحها، والثاني أنهم يخشون الله على أن أمره تعالى غائب عنهم، وإنما استدلسوا بدلائل لا بمشاهدة، والثالث أنهم يخشون الله ربهم بما أعلمهم به مما غاب عنهم من أمر آخرتهم وديارهم. و(الإِسْفَاقُ): أَشَدُّ

القيامة بعمود وكفَّتَيْنِ توزن به الأعمال، ليبين للناس المحسوس المعروف عنده، والخفة والشغل متعلقة بأجسام يقرنها الله تعالى يوم القيامة بالأعمال، فإِذَا أن تكون صحف الأعمال أو مثالات تُخْلَقُ أو ما شاء الله تبارك وتعالى.

وقرأ نافع وحده: ﴿مِثْقَالُ﴾ بالرفع على أن تكون مستأنفة، وقرأ جمهور الناس: ﴿مِثْقَالُ﴾ بالنصب على معنى: وإن كان الشيء أو العمل مثقال. وقرأ الجمهور: ﴿أَيْتَانَا﴾ على معنى: جئنا، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما: ﴿أَيْتَانَا﴾ على معنى: وَأَيْتَانَا من المواتاة، ولا يقدر ولا يفسر ﴿أَيْتَانَا﴾ بأعطينا لَمَّا تعدَّت بحرف جر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويوهن هذه القراءة أن تبديل الواو المفتوحة بهمزة ليس بمعروف، وإنما يعرف ذلك في المضمومة أو المكسورة. وفي قوله تبارك وتعالى: ﴿وَكُنَّا بِمَا حَسِبِينَ﴾ تَوَعَّدُ.

ثُمَّ عَقَّبَ سبحانه وتعالى بأمر موسى عليه السلام.

و(الْفُرْقَانُ) فيما قالت فرقة: الثَّورَةُ، وهي الضَّيَاءُ والدُّكْرُ. وقرأ ابن كثير، وحمزة: ﴿ضِيَاءُ﴾ بهمزتين قبل الألف وبعدها، وقرأ الباقون: ﴿ضِيَاءُ﴾ بهمزة واحدة بعد الألف، وقرأ ابن عباس: ﴿الْفُرْقَانُ ضِيَاءُ﴾ بغير واو، وهي قراءة عكرمة والضحاك، وهذه القراءة تؤيد قول من قال: المراد بذلك كله الثوراة، وقالت فرقة: (الفرقان) هو ما رزقه الله من نصر وظهور حُجَّةٍ وغير

قبل كما هي نسبة نوح عليه السلام منه، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾ مدح لإبراهيم عليه السلام، أي أنه يستحق ما أهل له، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾، والعامل في ﴿إِذْ﴾ قوله: ﴿أَيْتَانَا﴾، و(الشمائيل): الأصنام؛ لأنها كانت على صورة الإنسان من خشب، و(العُكُوفُ): المُلَازمة للشئ. وقوله: ﴿فَطَرَهُنَّ﴾ عبارة عنها كأنها تعقل، وهذه من حيث لها طاعة وانقياد، وقد وصفت في مواضع بما يوصف به من يعقل.

قوله تعالى: ﴿وَنَالَهُ لَأَكِيدَنَّ﴾ الآية. رُوي أنهم حضروهم عيداً لهم عليه السلام معهم طمعاً منهم أن يستحسن شيئاً من أخبارهم، فمشى معهم، فلما كان في الطريق عزم

الخشية، و(السَّاعَةُ): القيامة. وقوله تعالى: ﴿وَهَذَا﴾ إشارة إلى القرآن، و﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ إِمَّا أن يكون بمعنى أثبتناه، كما تقول: أنزل الشيطان فلاناً بمكان كذا إذا أثبتته، وإمَّا أن يتعلَّق النزول بالملك. ثم وقفهم تبارك وتعالى تقريراً وتوبيخاً، هل يصح لهم إنكار بركته وما فيه من الدعاء إلى الله تعالى وإلى صالح العمل؟

٥١ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل:

الرُّشْدُ عام في هدايته إلى رفض الأصنام، وفي هدايته في أمر الكوكب والشمس والقمر وغير ذلك من النُبُوتِ فما دونها، قال بعضهم: معناه: وُفِّقَ للخير صغيراً، وهذا كله متقارب. وقوله سبحانه: ﴿بِئْسَ مِثْقَالُ﴾ معناه: من قبيل موسى وهارون عليهما السلام، فبهذه الإضافة هو

وقوله: ﴿يَتَّهَدُونَ﴾. يحتمل أن يراد به الشهادة عليه، يريدون بفعله أو بقوله: ﴿لَا كَيْدَ لَكُمْ﴾، ويحتمل أن يراد به المشاهدة، أي: يشاهدون عقوبته أو غلبته المؤدية إلى عقوبته، المعنى: فجاء إبراهيم عليه السلام حين أتى به فقالوا له: آئت فعلت هذا بالألوهة؟ فقال لهم إبراهيم عليه السلام: بل فعله كبيرهم هذا، على جهة الاحتجاج عليهم، أي أنه غار من أن يُعبد هو ويُعبد الصغار معه ففعل هذا بها لذلك. وقالت فرقة هي الأكثر: إن هذا الكلام قاله إبراهيم عليه السلام لأنها كذبة في ذات الله تؤدي إلى خزي قوم كافرين، والحديث الصحيح يقتضي ذلك وهو قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ وقوله: ﴿بَلْ كَذَّبْتُمْ بِهَذَا كَذِبًا عَظِيمًا﴾، وقوله: ﴿لَمَّا دَخَلْتُم بِهَذَا الْبَلَدَ الْأَمِينِ لَوِيتُمْ مِثْلَ نَبْتِكُمْ إِنْ أَنتُمْ شَائِرَةٌ﴾. ثم تطرق إلى موضع خزيهم بقوله: ﴿نَسْتَأْذِنُ بَلَدًا آمِنًا﴾ على جهة التوقيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهبت فرقة إلى نفي الكذب عن هذه المقالات، وقالت فرقة: معنى قول النبي ﷺ: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات...» أي لم يقل كلاماً ظاهره الكذب، أو يشبه الكذب، وذهبت إلى تخريج هذه المقالات، فخرجت هذه الآية على معنى أنه أراد تعليق فعل الكبير بنطق الآخرين، كأنه قال: بل هو الفاعل إن نطق هؤلاء، ولم يجزم الخير على أن الكبير فعل هذا، وفي الكلام

ما حدث بالهتيم فأكبروا ذلك، وحينئذ قالوا: ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا﴾ على جهة البحث والإنكار، و﴿قَالُوا﴾ الثانية الضمير فيها يعود للقوم الضعفة الذين سمعوا إبراهيم عليه السلام حين قال: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾، واختلف الناس في وجه رفع قوله: ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾؛ فقالت فرقة: هو مرتفع بتقدير النداء، كأنهم أرادوا: الذي يقال له عندما يدعي: يا إبراهيم، وقالت فرقة: رفعه على إضمار الابتداء، تقديره: هو إبراهيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أرجح. وقال الأستاذ أبو الحجاج الأشبيلي الأعمى: هو رفع على الإهمال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لما رأى وجوه الرفع كأنها لا توضح المعنى الذي قصدوه ذهب إلى رفعه بغير شيء، كما قد يرفع التجرد والغرور عن العوامل ابتداءً..

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والوجه عندي أنه مفعول لم يُسم فاعله، على أن تجعل ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ غير دال على الشخص، بل تجعل النطق به دالاً على بناء هذه اللفظة، وهذا كما تقول: ﴿زَيْدٌ وَزَن فَعَلَ﴾، أو زيد ثلاثة أحرف، فلم تدل بوجه على الشخص بل دللت بنطقها على نفس اللفظة، وعلى هذه الطريقة تقول: ﴿قلت إبراهيم﴾، ويكون مفعولاً صحيحاً أنزلته منزلة قول وكلام فلا يتعذر بعد ذلك أن يبني الفعل فيه للمفعول.

وقوله: ﴿عَلَىٰ آعْيُنِ النَّاسِ﴾ يريد: في المحفل وبمحضر الجمهور،

على التخلف عنهم، فقعد وقال لهم: إِنِّي سَقِيمٌ، فمَرَّ بِهِ جَمُورُهُمْ، ثُمَّ قَالَ فِي خُلُوةٍ مِنْ نَفْسِهِ: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَانَكُمْ﴾، وسمعه قوم من ضعفتهم ممن كان يسير في آخر الناس. وقوله: ﴿بَعْدَ أَنْ تُولَوا مُدْبِرِينَ﴾ معناه: إلى عيدهم، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام إلى بيت أصنامهم وحده فدخل ومعه قدم، فوجد الأصنام قد وقفت، أكبرها في الأول ثم الذي يليه فالذي يليه، وقد جعلوا أطعماتهم في ذلك اليوم بين يدي الأصنام تبركاً بها لينصرفوا من ذلك العيد إلى أكله، فجعل عليه السلام يقطعها بذلك القدم ويهشمها حتى أنفسد أشكالها كلها حاشى الكبير فإنه تركه بحاله وعلق القدم في يده وخرج عنها. و﴿جَدَاذًا﴾ معناه قطعاً صغاراً، والجد: القطع، وقرأ الجمهور: ﴿جَدَاذًا﴾ بضم الجيم، وقرأ الكسائي وحده بكسرهما، وقرأ ابن عباس، وأبو نهيك، وأبو السمال بفتحها، وهي لغات، والمعنى واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَجَحَلَهُمْ﴾ ونحوه معاملةً للأصنام بحال من يعقل من حيث كانت تُعبد وتُزَلَّ منزلة من يعقل، والضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ أظهر ما فيه أنه عائد على إبراهيم عليه السلام، أي فعل هذا كله توخيماً منه أن يعقب ذلك منهم رجعة إليه وإلى شرعه، ويحتمل أن يعود الضمير إلى الكسر المتروك، ولكن يضعف ذلك دخول الترجي في الكلام.

٥٩ - (١٣) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فانصرفوا من عيدهم فرأوا

تقديم - على هذا التأويل - في قوله: ﴿تَسْكُرُهُمْ﴾. وذهب الفراء إلى جهة أخرى بأن قال: قوله: ﴿فَعَلَّكُمُ﴾ ليس من الفعل، وإنما هو: ﴿فَلَعَلَّهُ﴾ على جهة التوضع، حذف اللام، على قولهم: ﴿عَلَّهُ﴾ بمعنى ﴿لَعَلَّهُ﴾ ثُمَّ خُفِّتِ اللام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تكلف.

﴿٧٧﴾ - ﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فظهر لهم ما قال إبراهيم عليه السلام من أن الأصنام التي أهللها للعبادة ينبغي أن تسأل وتُسْتَفْسَر، فقالوا: إنكم أنتم الظالمون في توقيف هذا الرجل على هذا الفعل وأنتم معكم من تسألون، ثم ارتبكوا في ضلالهم ورأوا بالفكرة وبديهة العقل أن الأصنام لا تنطق فساقهم ذلك حين نطقوا عنه إلى موضع قيام الحجّة عليهم. وقوله: ﴿يَكْسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ﴾ استعارة للذي يرتطم في غيّه كأنه منكوس على رأسه، فهي أقبح هيئة للإنسان، وكذلك هذا هو في أسوأ حالات النظر، فقالوا لإبراهيم عليه السلام حين نكسوا في حيرتهم: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَمَا هَؤُلَاءِ يَنْطِفُونَ﴾، أي: فما بالك تدعو إلى ذلك؟ فوجد إبراهيم عليه السلام عند هذه المقالة موضع الحجّة فوقفهم موثقاً على عبادتهم تماثيل لا تنفع بذاتها ولا تضر، ثم حَقَّرَ شأنها وأزرى بها في قوله: ﴿أَيُّ لَكُمْ﴾.

وقرأ ابن كثير: ﴿أَفْ لَكُمْ﴾ بالفتح، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية

أبي بكر -: ﴿أَفْ لَكُمْ﴾ بالكسر وترك التنوين فيها، وقرأ نافع وحفص عن عاصم: ﴿أَيُّ لَكُمْ﴾ بالكسر والتنوين. و(أف) لفظه تقال عند المستذترات من الأشياء فيستعار ذلك للمكروه من المعاني كهذا وغيره.

فلما غلبهم إبراهيم عليه السلام من جهة النظر والحجّة نكسوا رؤوسهم وأخذتهم عزّة بإثم وانصرفوا إلى طريق الغشم والغلبة فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ﴾، وروي أن قائل هذه المقالة هو رجل من الأكراد من أعراب فارس، أي من باديتها، فحسف الله به الأرض فهو يتلجلج فيها إلى يوم القيامة. وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ فَعَالِينَ﴾ تحريض، كما تقول: اعزم على كذا إن كنت عازماً.

وروي أنهم لما اجتمع رأيهم على تحريقه حبسه نمرود الملك، وأمر بجمع الحطب فجمع في مدة أشهر. وكان المريض يجعل على نفسه نذراً إذا هو برىء أن يجمع كذا وكذا حزمة حتى اجتمع من الحطب - ممّا تبرّع به الناس وممّا جلب للملك من أهل الرساتيق - كالجبل من الحطب. ثم أضرم ناراً، فلما أرادوا طرح إبراهيم عليه السلام فيه لم يقدرُوا على القرب منه، فجاءم إبليس في صورة شيخ فقال لهم: أنا أصنع لكم آلة يلقى بها في النار، فعلمهم صنعة المنجنيق، ثم أخرج إبراهيم عليه السلام فشُدَّ برباط ووضِع في كفة المنجنيق ورمي به فوضع في النار، وقد قيل للنار: ﴿كُوِّي بَرَكًا وَسَلْمًا عَلَيَّ إِبراهيمَ﴾ فاحترق الجبل الذي رُبط به

فقط. وروي أن جبريل عليه السلام جاءه وهو في الهواء فقال له: ألك حاجة؟ فيروى أنه قال: أمّا إليك فلا، ويروى أنه قال له: إنني خليل، وإنما أطلب حاجتي من خليلي لا من رسوله، فقال الله تعالى: يا إبراهيم قطعت الواسطة بيني وبينك لا قطعتها بيني وبين النار، يا نار كوني برداً وسلاماً. وروي أنه حين خوطبت النار خمدت كل نار في الأرض. وروي أن الغراب كان ينقل الحطب إلى نار إبراهيم عليه السلام، وروي أن الوزغة كانت تنفخ عليه لتضرم، وكذلك البغل، وروي أن العصفور قط والخطاف والضفدع كانوا ينقلون الماء لتطفأ النار، فألقى الله على هذه الوقاية وسلط على تلك الأخرى النوائب والأيدي، وقال بعض العلماء فيما روي: إن الله تعالى لو لم يقل: ﴿وَسَلْمًا﴾ لهلك إبراهيم من برد النار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد أكثر الناس في قصص حرق إبراهيم عليه السلام، وذكروا تحديد مدة بقائه في النار وصورة بقائه فيها ممّا رأيت اختصاره لقلّة صحته، والصحيح من ذلك أنه ألقى في النار فجعلها الله تعالى عليه برداً وسلاماً فخرج منها سالماً، وكانت أعظم آية. وروي أنهم قالوا: إنها نار مسحورة لا تحرق، فرموا فيها شيخاً منهم فاحترق، وروي أن إبراهيم عليه السلام كان له بسطة وطعام في تلك النار، كل ذلك من الجنة، وروي أن العيدان أُنعت وأُمرت له هنالك ثمارها التي كانت أصولها.

إلأ وأصله وخروجه من تحت صخرة بيت المقدس .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا ضعيف . وهي أرض المحشر ، وفيها يجمع الناس ، وفيها ينزل عيسى ابن مريم عليه السلام ، وبها يهلك المسيح الدجال ، وروى عن النبي ﷺ أنه قال يوماً في خطبة : «إنه يكون بالشام جند ، وبالعراق جند ، وباليمن جند» ، فقال رجل : يا رسول الله ، خزل لي ، فقال : «عليك بالشام فإن الله قد تكفل لي بالشام وأهله ، ومن بقي فليلحق بأمنه» ، وقال عمر رضي الله تعالى عنه لكعب الأحبار : ألا تتحول إلى المدينة؟ فقال : يا أمير المؤمنين إني أجد في كتاب الله المنزل أن الشام كنز الله من أرضه ، وبها كنزه من عباده . وروى أن إبراهيم ولوطاً عليهما السلام هاجرا من كوثا ومرا بمصر ، وليست بالطريق ولكئهم نكبوا خوف الاتباع حتى جاؤوا الشام ، فنزل إبراهيم السبع من أرض فلسطين وهي برية الشام ، ونزل لوط بالموتفة .

و(إسحاق) هو ابن إبراهيم عليهما السلام ، و(يعقوب) ولد إسحاق عليهما السلام ، و(الثافلة) : العطية ، كما تقول : نفلني الإمام كذا ، ونافلة الطاعة كأنها عطية من الله تعالى لعباده يُبهيهم عليها ، وقالت فرقة : الموهوب إسحاق ، والثافلة يعقوب عليهما السلام ، والأول أبين . و«يهدرك» معناه : يرشدون غيرهم ، و«واقم» مصدر ، وفي هذا نظر .

خرج من النار أحضره السمروود وكلّمه ، ثم حتم الله عليه بالكفر فلجّ وقال لإبراهيم في بعض قوله : يا إبراهيم أين جنود ربك الذي تزعم؟ فقال له : سيربك فعل أضعف جنوده ، فبعث الله تعالى على نمرود وأصحابه سحابة من بعوض فأكلتهم عن آخرهم ودوابهم حتى كانت العظام تلوح بيضاً ، ودخلت منها بعوضة في رأس نمرود فكان رأسه يضرب بالعيدان وغيرها ، ودام تعذيبه بها زمناً طويلاً وهلك منها . وخرج إبراهيم عليه السلام وابن أخيه لوط عليه السلام من تلك الأرض مهاجرين ، وهي كوثا من العراق ، ومع إبراهيم عليه السلام ابنة عمه سارة زوجه ، وفي تلك السفارة لقي الجبار الذي رام أخذها منه .

واختلف الناس في الأرض التي بورك فيها ونجى الله إليها إبراهيم ولوطاً عليهما السلام؛ فقالت فرقة : هي مكة ، وذكروا قول الله عز وجل : «لَلَّذِي بَكَرَتْ مَبَارَكًا» ، وقال الجمهور : هي أرض الشام ، وهي الأرض التي بارك الله فيها ، أما من جهة الآخرة فبالثبوة والإيمان ، وأما من جهة الدنيا فهي أطيب بلاد الله أرضاً ، وأعذبها ماءً ، وأكثرها ثمرة ونعمة ، وهو الموضع المعروف بسكنى إبراهيم وعقبه ، وروى أنه ليس في الأرض ماء عذب

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ ﴿٧١﴾ وَلَوْ طَءَ أُمَّتَهُ حُكَمَا وَعِلْمًا وَبِحِسَبِ مَنْ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْفَبْتِحِثُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَسَقِينَ ﴿٧٢﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٣﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا آيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوَاءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٥﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَمَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٦﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكَلَّمْنَا دَاوُدَ وَكَلَّمْنَا سَاحِرَنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالَ يَسْبِخْنَ وَأَطْرَفُوكُنَّا فَعَلِمَاتِ ﴿٧٧﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ لِيُخْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٧٨﴾ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَخْتَصِمُ بِالْحَرْثِ بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَنَرْنَا فَبِهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٧٩﴾

٣٢٨

وقوله : «وَسَلَّمْنَا» معناه : وسلامة ، وقال بعضهم : هي تحية من الله تعالى لإبراهيم عليه الصلاة والسلام . قال القاضي أبو محمد رحمه الله : وهذا ضعيف ، وكان الوجه أن يكون مرفوعاً .

و(الْكَيْدُ) هو ما أرادوا من حرقه ، وكانوا في خسارة من كفرهم وغلبته لهم وحرق الشيخ الذي جربوا به النار ، وروى أن الملك بنى بنياناً وأطلع منه على النار فرأى إبراهيم عليه السلام ومعه ناسٌ فعجب وسأل : هل طرح معه أحد؟ فقيل له : لا ، فناده فقال : من أولئك؟ فقال : هم ملائكة ربّي .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله : والمروي في هذا كثير غير صحيح .

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل :

روي أن إبراهيم عليه السلام لما

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

التقدير: وآتينا لوطاً، فهو منصوب بفعل مضمَر يدل عليه الظاهر، (والحكم) فصل القضاء بين الناس، و(الخبائث) إتيان الرجال وضراطهم في مجالسهم إلى غير ذلك من كفرهم. وقوله في نوح عليه السلام: ﴿وَيَنْبَغُ﴾ بالإضافة إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام، و(الكَزْبُ الْعَظِيمُ) هو الغرق وما نال قومه من الهلكة بدعائه عليهم الذي استجيب، وقوله سبحانه: ﴿وَنَصَرْتَهُ﴾ لَمَا كَانَ جَلْ نُصْرَتِهِ النجاة وكانت غلبة قومه بغير يده بل بأمر أجنبي منه حسن أن يقول: ﴿وَنَصَرْتَهُ مِنْ﴾، ولا تتمكّن هنا «علَى» كما تتمكّن في أمر محمد ﷺ مع قومه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذكر هؤلاء الأنبياء عليهم السلام ضَرْبٌ مِثْلُ لِقِصَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَعَ قَوْمِهِ، وَنَجَاةِ الْأَنْبِيَاءِ وَهَلَاكِ مَكْذِبِيهِمْ ضَمْنَهَا تَوَعُّدٌ لِكُفَّارِ قَرِيشٍ.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر داود وسليمان، هكذا قدره جماعة من المفسرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل عندي ويقوى أن يكون المعنى: (وآتينا داود) عطفاً على قوله: ﴿وَنُوحًا﴾، وذلك عطف على قوله: ﴿وَلُوطًا مَا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، والمعنى على هذا التأويل مُتَّسِقٌ.

وسليمان هو ابن داود عليهما السلام من بني إسرائيل، وكان ملكاً عدلاً نبياً يحكم بين الناس فوَقَّعت بين يديه هذه السَّالِة، وكان ابنه إذ ذاك قد كبر، وكان يجلس على

الباب الذي يخرج منه الخصوم، وكانوا يدخلون إلى داود عليه السلام من باب آخر، فتخاصم إلى داود عليه السلام رجل له زرع، وقيل: كَرْمٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و(الْحَرْثُ) يقال فيهما، وهو في الزُّرْعِ أبعد عن الاستعارة، دخلت حَرْثُهُ غنم رجل آخر فأفسدته، فرأى داود عليه السلام أن يدفع الغنم إلى صاحب الحرث، فقالت فرقة: على أن يبقى كَرْمُهُ بيده، وقالت فرقة: بل دفع الغنم إلى صاحب الْحَرْثِ والْحَرْثُ إلى صاحب الغنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيشبهه على القول الواحد أنه رأى الغنم تقاوم الغلة التي أفسدت، وعلى القول الثاني رآها تقاوم الحرث وغلته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يُظَنُّ بِدَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَّا أَنْ حَكَمَهُ بِنَظَرٍ مُتَوَجِّهٍ. فلما خرج الخصمان على سليمان عليه السلام تشكى صاحب الغنم، فجاء سليمان إلى داود فقال: يا نبي الله، إنك حكمت بكذا، وإني رأيت ما هو أرفق بالجميع، قال: وما هو؟ قال: أن يأخذ صاحب الغنم الحرث فيقوم عليه ويصلحه حتى يعود كما كان، ويأخذ صاحب الحرث الغنم في تلك المدة ينتفع بمراقبتها من لبن وصوف ونسل وغير ذلك، فإذا كَمُلَ الحرث وعاد إلى حاله صرف كل واحد مَالاً صاحبه، فرجعت الغنم إلى ربها والْحَرْثُ إلى ربِّه، فقال داود عليه

السلام: وَوَقَّتْ يَا بَنِيَّ، وقضى بينهما بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أن سليمان عليه السلام رأى ما يتحمّله صاحب الغنم من فقد مرافق غنمه تلك المدة ومن مؤونة إصلاح الحرث يُوازِي ما فسد في الحرث، وفضل حُكْمِهِ حُكْمَ أَبِيهِ فِي أَنَّهُ أَحْرَزَ أَنْ يَبْقَى مَلِكٌ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَلَى مَتَاعِهِ وَتَبَقِيَ نَفْسُهُ بِذَلِكَ طَيِّبَةً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهبت فرقة إلى أن هذه السَّالِة لم يكن الحُكْمُ فِيهَا بِاجْتِهَادٍ، وَإِنَّمَا حَكَمَ دَاوُدُ بِوَحْيٍ، وَحَكَمَ سُلَيْمَانُ بِوَحْيٍ نَسَخَ اللَّهُ بِهِ حُكْمَ دَاوُدَ، وَجَعَلَتْ فِرْقَةٌ - مِنْهَا ابْنُ فُورَكٍ - قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ أَي فَفَهَّمْنَاهُ الْقَضَاءَ الْفَاصِلَ النَّاسِخَ الَّذِي أَرَادَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنْ يَسْتَقِرَّ فِي السَّالِةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وتحتاج هذه الفرقة في هذه اللَّفْظَةِ إِلَى هَذَا التَّعَبُّ وَيَبْقَى لَهَا الْمَعْنَى قَلْبًا.

وقال جمهور الأمة: إن حكمهما كان باجتهاد، وأدخل العلماء هذه الآية في كتبهم على مسألة اجتهاد العالمين، فينبغي أن يُذكَرَ هُنَا تَلْخِيصٌ مَسْأَلَةَ الْاجْتِهَادِ. واختلف أهل السُّنَّةِ فِي الْعَالَمِينَ - فَمَا زَادَ - يُفْتِيَانِ مِنَ الْفُرُوعِ وَالْأَحْكَامِ فِي الْمَسْأَلَةِ فَيَخْتَلِفَانِ؛ فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: الْحَقُّ فِي مَسَائِلِ الْفُرُوعِ فِي طَرَفٍ وَاحِدٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، وَقَدْ نَصَبَ عَلَى ذَلِكَ أَدْلَةً وَحَمَلَ الْمُجْتَهِدِينَ

على البحث عنها والنظر فيها، فمن صادف العين المطلوبة في المسألة فهو المصيب على الإطلاق، وله أجران، أجر في الاجتهاد وأجر في الإصابة، ومن لم يصادفها فهو مصيب في اجتهاده مخطيء في أن لم يُصَبِّب العين، فله أجر وهو غير معذور، وهذا هو الذي قال النبي ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْعَالِمُ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ»، وكذلك أيضاً يدخل في قوله ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْعَالِمُ فَأَخْطَأَ» العالم يجتهد فيخالف نصاً لم يُمرَّ به، كقول سعيد بن المسيب في النكاح: إنه العقد في مسألة التحليل للزوج المطلق ونحوه، وهذا يجمع بين قوله ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْعَالِمُ فَأَخْطَأَ» وبين قوله: «كُلُّ مَجْتَهِدٍ مَصِيبٌ أَيْ أَخْطَأَ الْعَيْنَ الْمَطْلُوبَةَ وَأَصَابَ فِي اجْتِهَادِهِ، وَرَأَتْ هَذِهِ الْفَرْقَةَ أَنَّ الْعَالِمَ الْمَخْطِئَ لَا إِثْمَ عَلَيْهِ فِي خَطئِهِ وَإِنْ كَانَ غَيْرَ مَعْذُورٍ وَقَالَتْ فَرْقَةٌ: الْحَقُّ فِي طَرَفٍ وَاحِدٍ وَلَمْ يَنْصَبِ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ دَلِيلًا، بَلْ وَكُلَّ الْأَمْرِ إِلَى نَظَرِ الْمَجْتَهِدِينَ، فَمَنْ أَصَابَهُ أَصَابٌ، وَمَنْ أَخْطَأَهُ فَهُوَ مَعْذُورٌ وَمَأْجُورٌ، وَلَمْ تُتَعَبَّدْ بِإِصَابَةِ الْعَيْنِ بَلْ تَعَبَّدْنَا بِالْاجْتِهَادِ قَطُّ. وَقَالَ جَمْهُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ - وَهُوَ الْمَحْفُوظُ عَنْ مَالِكٍ وَأَصْحَابِهِ -: الْحَقُّ فِي مَسَائِلِ الْفُرُوعِ فِي الطَّرْفَيْنِ، وَكُلُّ مَجْتَهِدٍ مَصِيبٌ، وَالْمَطْلُوبُ إِذَا هُوَ الْأَفْضَلُ فِي الظَّنِّ، فَكُلُّ مَجْتَهِدٍ قَدْ أَدَّاهُ نَظَرُهُ إِلَى الْأَفْضَلِ فِي نَظَرِهِ، وَالِدَلِيلُ عَلَى هَذِهِ الْمَقَالَةِ أَنَّ الصَّحَابَةَ فَتَمَّنَ بَعْدَهُمْ قَرَّرَ بَعْضُهُمْ خِلَافَ بَعْضٍ وَلَمْ يَرَ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَنْ يَقَعَ

الاعتماد على قوله دون قول مخالفه. ومنه رد مالك رحمه الله للمنصور أبي جعفر عن حمل الناس على الموطأ إلى كثير من هذا المعنى. وإذا قال العالم في أمرٍ ما: حلال، فذلك هو الحق فيما يختص بذلك العالم عند الله تعالى ويكُلُّ من أخذ بقوله، وإذا قال آخر: حرام - وكلُّ ذلك باجتهاد - فذلك أيضاً حقٌّ عند الله تعالى فيما يختص بذلك العالم ويكُلُّ من أخذ بقوله. فأما من قال إنَّ الحقَّ في طرف فرأى مسألة داود وسليمان عليهما السلام مطردة على قوله، وأن سليمان عليه السلام صادف العين المطلوبة وهي التي فهم، ومن رأى أنَّ الحقَّ في الطرفين رأى أن سليمان عليه السلام فهم القضية المثلثى والتي هي أرجح، لا أن الأولى خطأ، وعلى هذا يحملون قول النبي ﷺ: «إِذَا اجْتَهَدَ الْعَالِمُ فَأَخْطَأَ» أي: أَخْطَأَ الْأَفْضَلَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكثيراً ما يكون بين الأقوال في هذه المسائل قليل تباين إلا أن ذلك الشُّوف يشرف القول وكثيراً ما يتبين الفضل بين القولين بأدنى نظر، ومسائل الفروع تخالف مسائل الأصول في هذا، ومسألة المجتهدين في نفسها مسألة أصل. والفرق بين مسائل الفروع ومسائل الأصول أن مسائل الأصول الكلام فيها إنما هو في وجود شيءٍ ما، كيف هو؟ كقولنا: «يُرَى اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فقالت المعتزلة: «لَا يُرَى»، وكقوله: «الله واحد»، وقالت النصارى: «ثلاثة»، وهكذا هل للمسائل عينٌ مطلوبة؟

ومسائل الفروع إنما الكلام فيها على شيءٍ مقرر الوجود، كيف حُكِمَ من تحليل أو تحريم ونحو هذا؟ والأحكام خارجة عن ذاته ووجوده، وإنما هي بمقاييس واستدلالات، وتعتبر مسائل الفروع بأنها كل ما يمكن أن يتَّسَخَّ بعضه بعضاً، ومسائل الأصول ما لو تقرر الوجه الواحد لم يصح أن يطرأ عليه الآخر ناسخاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومسألة الاجتهاد طويلة ومتشعبة، إلا أن هذه النبذة تليق بالآية وتقتضيها حرصاً على الإيجاز.

ويتعلَّقُ بالآية فصلٌ آخر لا بد من ذكره وهو رجوع الحاكم بعد قضائه من اجتهاد إلى اجتهاد آخر أرجح من الأول، أن داود عليه السلام فعل ذلك في هذه النازلة. واختلف فقهاء المذهب المالكي في القاضي يحكم في قضية، ثم يرى بعد ذلك أن غير ما حكم به أصوب، فيريد أن ينقض الأول ويقضي بالثاني؛ فقال عبد الملك ومطرف في (الواضحة): ذلك له ما دام في ولايته، فأما إذا كانت ولاية أخرى فليس ذلك له، وهو بمنزلة غيره من القضاة، وهذا هو ظاهر قول مالك رحمه الله في (المدونة). وقال سحنون في رجوعه من اجتهاد فيه قول إلى غيره مما رآه أصوب: ليس له ذلك. وقال ابن عبد الحكم، ويستأنف الحكم بما قوي عنده آخراً، قال سحنون: إلا أن يكون نسي الأقوى عنده أو وهم فحكم بغيره فله نُقْضُهُ، وأما إن حكم بحكم وهو الأقوى عنده في ذلك الوقت ثم توجَّه عنده غير ذلك

فلا سبيل له إلى نقض الأول، قاله سحنون في كتاب ابنه. وقال أشهب في كتاب ابن المواز: إن كان رجوعه إلى الأصوب في مالٍ فله نقض الأول، وإن كان في طلاق أو نكاح أو عتق فليس له نقضه، وقد تقدم القول في الحرث، وروت فرقة أنه كان زرعاً، وروت فرقة أنه كان كرمًا.

و(التَّمَشُّ): تسرُّب البهائم في الزروع وغيرها بالليل. و(الَهْمَلُ): تسرُّبها في ذلك بالنهار والليل، وقال ابن سيدة: لا يقال الَهْمَلُ في الغنم، وإنما هو في الابل. ومضى الحكم في الإسلام بتضمين أرباب الغنم ما أفسدت بالليل لأن على أهلها أن يتقفوها، وعلى أهل الزروع وغيرها حفظها بالنهار، وهذا هو مقتضى الحديث في ناقة البراء بن عازب، وهذا مذهب مالك وجمهور الأمة. ووقع في كتاب ابن سحنون أن الحديث إنما جاء في أمثال المدينة التي هي حيطان مُحَدِّقَةٌ، وأمَّا البلاد التي هي زروع متصلة غير محظرة وبساتين كذلك فيضمن أرباب الثعم ما أفسدت من ليل أو نهار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه ذهب إلى أن ترك تشقيف الحيوان في مثل هذه البلاد تَعَدُّ لأنها ولا بد تفسد. وقال أبو حنيفة في ذلك: لا ضمان، وأدخله في عموم قول النبي ﷺ: «جرح العجماء جِيَارًا»، ففاس جميع أفعالها على جروحها.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّأْنَا حَكْمًا وَعِلْمًا﴾ تأول قوم منه أن داود عليه

السلام لم يخطيء في هذه النازلة، بل فيها أوتي الحُكْم والعِلْم، وقالت فرقة: بل لأنه لم يصب العين المطلوبة في هذه النازلة مدحه الله تعالى بأن له حُكْمًا وَعِلْمًا يُرْجَع إليه في غير هذه النازلة.

وقوله تعالى: ﴿وَكَلَّأْنَا فَاعِلِينَ﴾ ومبالغة في الخير وتحقيق له. وفي اللَّفْظ معنى: وكان ذلك في حقه وعند مستوجه مآ، فكأنه قال: وكَلَّأْنَا فاعلين لأجل استجابة ذلك، وحذف اختصاراً لدلالة ظاهر القول على ما حُذِفَ منه. وقوله: ﴿لِحُكْمِهِمْ﴾ يريد داود وسليمان والخصمين، لأن الحكم ينضاف إلى جميعهم وإن اختلفت جهات الإضافة، وقرأت فرقة: ﴿لِحُكْمِهِمَا﴾.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿يَسْبِخْنَ﴾؛ فذهبت فرقة - وهي الأكثر - إلى أنه قول «سبحان الله»، وذهبت فرقة منها منذر بن سعيد إلى أنه بمعنى: يَصَلِّينَ معه بصلاته.

(٨٠) - (٨١) تفسير قوله عز وجل: عَدَّدَ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْبَشَرِ أَنْ عَلَّمَ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ صِنْعَةَ الدَّرُوعِ وَالْأَنْ لِهَ الْحَدِيدِ فَكَانَ يَصْنَعُهَا أَحْكَمَ صِنْعَةٍ لَتَكُونَ وَقَايَةً فِي الْحَرْبِ وَسَبَبَ نَجَاةٍ مِنَ الْعَدُوِّ وَاللَّبُوسِ فِي اللُّغَةِ: السلاح، فمنه الدرع والسيف والرُمح وغير ذلك، ومنه قول الشاعر: وَمَخِي لَبُوسٌ لِلْبَيْتِيسِ كَأَنَّهُ زَوْقٌ بِجَنَبَتِهِ ذِي نَعَاجٍ مُجْفَلٍ يعني الرُمح.

وقرأ نافع والجمهور: ﴿لِيُخَصِّنْكُمْ﴾ بالياء على معنى: لِيُخَصِّنْكُمْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوِ اللَّبُوسِ. وقرأ ابن

عاصم، وحفص عن عاصم: ﴿لِيُخَصِّنْكُمْ﴾ بالتاء على معنى: لِيُخَصِّنْكُمْ الصِنْعَةَ أَوِ الدَّرُوعَ الَّتِي أَوْقَعَ عَلَيْهَا اللَّبُوسُ. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿لِيُخَصِّنْكُمْ﴾ بالنون على معنى رد الفعل لله تعالى. ويروى أنه كان الناس يَتَّخِذُ القوي منهم لباساً من صفائح الحديد، فكان ثقله يقطع بأكثر الناس. وقرأت فرقة: ﴿الرِّيحُ﴾ بالنصب على معنى: وَسَخَّرْنَا الرِّيحَ، وقرأت فرقة: ﴿الرِّيحُ﴾ بالرفع على الابتداء والخبر في المجرور قبله. ويروى أن الرِّيحَ العاصفة كانت تهب على سرير سليمان عليه السلام الذي فيه بساطة، وقد مَدَّ حَوْلَ البساط بالخشب والألواح حتى صنع سريراً يحمل جميع عسكره وأقواته فَتَقَلَّه من الأرض في الهواء ثم تتلاه الرِّيحَ الرِّخَاءَ بعد ذلك فتحمله إلى حيث أراد سليمان عليه السلام.

وقوله: ﴿إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾، اختلف الناس فيها؛ فقالت فرقة: هي أرض الشام وكانت مسكنه وموضع مُلْكِهِ، وخصَّصَ في هذه الآية انصرافه من سفراته إلى أرضه لأن ذلك يقتضي سفره إلى المواضع التي سافر إليها. والبركة في أرض الشام بيَّنة الوجوه. وقد قال بعضهم: إن العاصفة هي في القبول على عادة البشر والدواب في الإسراع إلى الوطن، والرِّخَاءُ في البداية حيث أصاب، أي حيث يقصد؛ لأن ذلك وقت تَأَنُّ وتدبير وتقلب رأي. وقال منذر بن سعيد: في الآية تقديم وتأخير، والكلام تام عند قوله:

﴿يَتَوَضَّرُونَ﴾ جمع على معنى ﴿مَنْ﴾ لا على لفظها. (والغوص): الدخول في الماء والأرض، والعمل دون ذلك البنيان وغيره من الصنائع والخدمة ونحوه. وقوله: ﴿رَكْنَا لَهُمْ حَفِظِينَ﴾، قيل: معناه: من إفسادهم ما صنعوه، فإنهم كان لهم حرص على ذلك لولا ما حال الله بينهم وبين ذلك، وقيل: معناه: عادلين وحاضرين، أي لا يشذ عن علمنا وتسخيرنا أحد منهم.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ﴾، أحسن ما فيه النصب بفعل مضمّر تقديره: واذكر أيوب. وفي قصص أيوب عليه السلام طول واختلاف من المفسرين، وتلخيص ذلك أنه زوي أن أيوب عليه الصلاة والسلام كان نبياً مبعوثاً إلى قوم، وكان كثير المال من الإبل والبقر والغنم، وكان صاحب البئنية من أرض الشام، فغير كذلك مدة. ثم إن الله تبارك وتعالى لما أراد محنته وابتلاه أذن لإبليس في أن يفسد ماله، فاستعان بذريته فأحرقوا ماله ونعمته أجمع، فكان كلما أخبر بشيء من ذلك حَمَدَ الله تعالى وقال: هي عارية استردها صاحبها والمُنعَم بها. فلما رأى إبليس ذلك جاء فأخبر بعجزه عنه، فأذن الله له في إهلاك بنيه وقرابته ففعل ذلك أجمع فدام أيوب عليه السلام على شكره.

فأخبر إبليس بعجزه، فأذن الله تعالى له في إصابته في بدنه، وحجر عليه لسانه وعينيه وقلبه، فجاء إبليس وهو ساجد فنفخ في أنفه نفخة احترق بدنه منها، وجعلها الله أكلة في بدنه، فلما عظمت وتقطع أخرجه الناس من بينهم وجعلوه على سبابة، ولم يبق معه بشر حاشا زوجته، ويقال: كانت بنت يوسف الصديق، وقيل: اسمها رحمة. وقيل في أيوب: إنه من بني إسرائيل، وقيل: إنه من الروم من ذرية عيصو، فكانت زوجته تسعى عليه وتأتيه بما يأكل وتقوم عليه، فدام في هذا العذاب مدة طويلة، قيل: ثلاثين سنة، وقيل: ثمانين عشرة سنة، وقيل: اثنتي عشرة سنة، وقيل: تسعة أعوام، وقيل: ثلاثة، وهو في كل ذلك صابر شاكر حتى جاءه - فيما زوي - ثلاثة مُمّن كان آمن به فوقروه بالقول وأبوه ونَجَّهوه وقالوا: ما صنع بك ربك هذا إلا لخبيث باطنه فيك، فراجعهم أيوب في آخر قولهم بكلام مقتضاه أنه ذليل لا يقدر على إقامة حُجَّة ولا بيان ظلامة، فخطبه الله تعالى معاتباً على هذه المقالة ومُبَيِّناً أنه لا حُجَّة لأحد مع الله، ولا يسأل عما يفعل، ثم عرّفه سبحانه وتعالى بأنه قد أذن في صلاح حاله، وعاد عليه بفضله، فدعا أيوب عليه السلام عند ذلك فاستجيب له.

ويُروى أن أيوب عليه السلام لم يزل صابراً لا يدعو في كشف ما به، وكان - فيما زوي - يقع الدود منه فيرذّه بيده حتى مرّ به قوم كانوا

وَمِنَ الشَّيْطَانِ مَن يَتَوَضَّرُ لَهُ وَيَعْمَلُ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَرَكْنَا لَهُمْ حَفِظِينَ ﴿٨٢﴾ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَأَنْتَنَّا أَهْلَهُ وَشَاءَ لَهُمْ مَعْمَرٌ رَمَحًا وَمِن عِبَادِنَا ذِكْرَى الْعَصِيدِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْتَضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَجَّعْنَاهُ مِنَ الْعَرَمِ وَكَذَلِكَ نُشَجِّي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَذِكْرَىٰ إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ إِنَّهُ رَوَّحٌ وَإِنَّهُمْ كَانُوا أَتَسْوَعُونَ فِي الْخَيْدَاتِ وَيَدْعُونَ نَارَ عِبَادِ وَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَشِيعِينَ ﴿٩٠﴾

﴿إِلَى الْأَرْضِ﴾، وقوله: ﴿الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا﴾ صفة للريح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد الأرض التي يسير إليها سليمان عليه السلام كائنة ما كانت، وذلك أنه لم يكن يسير إلى أرض إلا أصلحها، وقتل كفارها، وأثبت فيها الإيمان، وبث فيها العدل، ولا بركة أعظم من هذا، فكأنه قال: إلى أي أرض باركنا فيها فبعثنا سليمان إليها.

﴿٨٢﴾ - ﴿٨٣﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَتَوَضَّرُونَ﴾ في موضع نصب على معنى: وسخرنا من الشياطين، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على الابتداء، ويتناسب هذا مع القراءتين المتقدمتين في قوله سبحانه: ﴿وَلَسَلِمْنَ إِلَىٰ﴾ بالنصب والرفع. وقوله:

يعادونه فشمتموا به فتألم لذلك ودعا حينئذ فاستجيب له، وكانت امرأته غائبة عنه في بعض شأنها فأتبع الله له عيناً وأمر بالشرب منها فبرء باطنه، وأمر بالاغتسال فبرء ظاهره ورُدَّ إلى أفضل حاله، وأُتِيَ بأحسن الثياب، وهبَّ عليه رجلٌ من جراد من ذهب فجعل يحثو منها في ثوبه، فناداه الله تعالى: يا أيوب ألم أكن أغنيتك عن هذا؟ قال: بلى يا رب ولكن لا غنى لي عن بركتك، فبينما هو كذلك إذ جاءت امرأته فلم تره على السبابة فجزعته وظننت أنه أزيل عنها وجعلت تتوَلَّهُ. فقال لها: ما شأنك أيتها المرأة؟ فهابته لحسن هيئته، فقالت: إني فقدتُ مريضاً كان لي في هذا المرضع، ومعالم المكان قد تغيرت، وتأمّلت في أثناء المقالة فرأت أيوب، فقالت له: أنت أيوب؟ فقال لها: نعم، فاعتنقها وبكى، فروي أنه لم يفارقها حتى أراه الله جميع ماله حاضراً بين يديه. واختلف الناس في أهله وولده الذين أتاه الله، فقيل: كان ذلك كله في الدنيا، فردَّ الله عليه بصره وولده بأبائهم، وجعل مثلهم عدّة له في الآخرة، وقيل: بل أُوتِيَ جميع ذلك في الدنيا من أهل ومال.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرْنَا لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وتذكّرت وموعظة، ولا يعبد الله إلا مؤمن. والذكرى إنما هي في محنته، والرحمة في زوال ذلك. وقوله: ﴿أَيُّ مَسْئَلٍ أَلْتَمَرُ﴾ تقديره: بأيّ مسني، فحذف الجار وبقيت ﴿أَيُّ﴾ في موضع نصب. وروى أن سبب محنة أيوب عليه السلام أنه

دخل مع قوم على ملكٍ جارٍ عليهم فأغلظ له القول ولين له أيوب القول خوفاً منه على ماله، فعاقبه الله على ذلك. وروى أنه كان يقال له: ما لك لا تدعو في العافية؟ فكان يقول: إني لأستحي من الله تعالى أن أسأله زوال عذابه حتّى يمرَّ عليّ فيه ما مرَّ من الرخاء، وأصابه البلاء - فيما روي - وهو ابن ثمانين سنة.

﴿٨٥﴾ - ﴿٨٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر إسماعيل، وهو إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما السلام، وهو أبو العرب المعروفين اليوم في قول بعضهم. وإدريس هو خنوخ، وهو أول نبي بعث الله من بني آدم، وروى أنه كان خياطاً يسبح الله عند إدخال الإبرة ويحمده عند إخراجها. وذو الكفل كان نبياً، وروى أنه بُعث إلى رجل واحد، وقيل: لم يكن نبياً ولكنه كان عبداً صالحاً. وروى أن (اليسع) جمع بني إسرائيل فقال: من يتكفل لي بصيام النهار وقيام الليل وألا يغضب وأوليه النظر للعباد بعدي؟ فقام إليه شاب فقال: أنا لك بذلك، فراجعته ثلاثاً في ذلك يقول: أنا لك بذلك، فاستعمله، فلما مات (اليسع) قام بالأمر فجاء إبليس ليغضبه - وكان لا ينام إلا في القائلة - فكان يأتيه وقت القائلة أياماً فيوقظه ويشكي ظلامته ويقصد تضيق صدره، فلم يضق به صدرأ، ومضى معه لينصفه بنفسه، فلما رأى إبليس ذلك أبلس عنه، وكفاه الله شره، وسُمِّي (ذا الكفل) لأنه تكفل بأمر فوقه به، وباقى الآية بين.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

التقدير: واذكر ذا النون، والنون: الحوت، وصاحبه يونس بن متى عليه السلام، ونسب إلى الحوت الذي التقمه على الحالة التي يأتي ذكرها في موضعها الذي تقتضيه، وهو نبي من أهل نينوى، وهذا هو الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «مَنْ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى فَقَدْ كَذَبَ»، وفي حديث آخر: «لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ أَنَا خَيْرٌ مِنْ يُونُسَ بْنِ مَتَّى»، وهذا الحديث وقوله: «لَا تَفْضُلُونِي عَلَى مُوسَى» يتوهم أنهما يعارضان قوله عليه الصلاة والسلام على المنبر: «أنا سيّد ولد آدم ولا فخر»، والانفصال عن هذا بوجهين: أحدهما ذكره الناس وهو أن يكون قوله: «أنا سيّد ولد آدم» يتأخر في التاريخ، وأنها منزلة أعلمه الله تعالى بها لم يكن عليمها وقت تلك المقالات الأخر، والوجه الثاني وهو عندي أجرى مع حال النبي ﷺ أنه إنما نهى عن التفضيل بين شخصين المذكورين وذهب مذهب التواضع ولم يزل سيّد ولد آدم، ولكنه نهى أن يفضّل على موسى كراهة أن يغضب لذلك اليهود فيزيد نفاها عن الإيمان، وسبب الحديث يقتضي هذا، وذلك أن يهودياً قال: لا والذي فضل موسى على العالمين، فقال له رجل من الأنصار: أتقول هذا ورسول الله ﷺ بين أظهرنا؟ فسرى الأمر وارتفع إلى النبي ﷺ فنهى عن تفضيله عن موسى، ونهى عليه الصلاة والسلام عن تفضيله على يونس لثلاثا يظن أحد بيونس

عليه السلام نقص فضيلة بسبب ما وقع له، فنهيه ﷺ عن التفضيل على شخص معين، وقوله عليه الصلاة والسلام في حديث ثالث: «لا تفضلوا بين الأنبياء» هذا كله مع قوله: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر» وإطلاق الفضل له دون اقتران بأحد بين صحيح. وتأمل هذا فإنه يلوح، فقد قال عمر رضي الله عنه للحطية: امدح ممدوحك ولا تفضل بعض الناس على بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظه «سيد» ولفظة «خير» سيان، هذا مبدأ جمع آخر بين الأحاديث يذهب ما يُظن من التعارض.

وقوله تعالى: ﴿مُنْضِبًا﴾، قيل: إنه غاضب قومه حين طال عليه أمرهم وتعنتهم فذهب فازاً بنفسه، وقد كان الله تعالى أمره بملازمتهم والصبر على دعائهم، فكان ذنبه في مخالفة هذا الأمر، وروى أنه كان شاباً ولم يحتمل أثقال الثبوة وتفسخ تحتها كما يتفسخ الرُبْع تحت الحمل، ولهذا قيل للنبي ﷺ: ﴿وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْكُوَيْبِ﴾ أي: فاصبر ودم على الشقاء بقومك، وقالت فرقة: إنما غاضب الملك الذي كان على قومه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو من الأول فيما يلحق منه يونس عليه السلام. وقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: إنما ذهب مغاضباً ربّه واستغزّه إبليس، وروى في ذلك أن يونس عليه السلام لمّا طال عليه أمر قومه طلب من الله عذابهم، فقيل له: إن العذاب

يجيئهم يوم كذا، فأخبرهم يونس عليه السلام بذلك، فقالوا: إن رحل عنّا فالعذاب نازل، وإن أقام بيننا لم نبال، فلمّا كان سحر ذلك اليوم قام يونس فرحل فأيقنوا بالعذاب فخرجوا بأجمعهم إلى البرّاز، وفرّقوا بين صغار البهائم وأمهاتها وتضرّعوا وتابوا فرفع الله عنهم العذاب، وبقي يونس في موضعه الذي خرج إليه ينتظر الخبر، فلمّا عرف أنهم لم يُعذبوا ساءه أن عدوه كاذباً، وقال: والله لا انصرفت إليهم أبداً، وروى أنه كان من دينهم قتل الكذاب، فغضب حينئذ على ربه وخرج على وجهه حتى دخل في سفينة في البحر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا القول من الضعف ما لا خفاء به مما لا يتّصف به نبي.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿فَطَرْنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ فقالت فرقة: استغزّه إبليس ووقع في ظنّه إمكان أن لن يقدر الله عليه بمعاينة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول مردود.

وقالت فرقة: معنى ﴿فَطَرْنَ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾ أن لن نُضَيّقَ عليه في مذهبه، من قوله تعالى: ﴿يَسْطُرُ الْأَرْزَقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، وقالت فرقة: هو من القدر، أي ظن أن لن يقضي الله عليه بعقوبة. وقالت فرقة: الكلام بمعنى الاستهزام، أي: أفطن أن لن نقدر عليه؟ وحكى منذر بن سعيد أن بعضهم قرأ: ﴿أَفْظَنُ﴾ بالألف، وقرأ الزهري: ﴿نَقْدِرُ﴾ بضم النون وفتح القاف وشد الدال، وقرأ الحسن:

﴿فَطَرْنَ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْهِ﴾، وعنه أيضاً: ﴿نَقْدِرُ﴾، وبعد هذا الكلام حذف كثير اقتضب لبيانه في غير هذه الآية. المعنى: فدخل البحر وكذا وكذا حتى التقمه الحوت وصار في ظلمة جوفه.

واختلف الناس في جمع (الظلمات) ما المراد به؟ فقالت فرقة: ظلمة الليل، وظلمة البحر، وظلمة الحوت، وقالت فرقة: ظلمة البحر، وظلمة حوت التقم الحوت الأول، وظلمة الحوت الأول الذي التقم يونس عليه السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يعبر بالظلمات عن جوف الحوت الأول فقط، كما قال: ﴿فِي غَيْبَتِ الْبُيْتِ﴾، وكل جهاته ظلمة فجمعها سانح. وروى أن يونس عليه السلام سجد في جوف الحوت حين سمع تسبيح الحيتان في قعر البحر، ثم قال في دعائه: «اللهم إني قد اتخذت لك مسجداً في موضع لم يتخذ أحد قبلي». و﴿أَنْ﴾ مفسرة نحو قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْشَأَ﴾، وفي هذا نظر، وقوله: ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾ يريد: فيما خالف فيه من ترك مداومة قومه والصبر عليهم، هذا أحسن الوجوه، وقد تقدم ذكر غيره، فاستجاب الله له وأخرجه إلى البرّ، ووصف هذا يأتي في موضعه. و﴿الْعَمِّ﴾ ما كان ناله حين التقمه الحوت.

وقرأ جمهور القراء: ﴿نُجِّي﴾ بنونين الثانية ساكنة، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿نُجِّي﴾ بنون واحدة مضمومة وشد الجيم،

وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا
وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾ إِنَّ هَذِهِ
أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٢﴾
وَقَطِّعُوا أَرْحَامَهُمْ بَيْنَهُمْ كَقِلِّ السَّيَّارِ جَعَلُونَ ﴿٩٣﴾
فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ
لِسُلْبِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُوبٌ ﴿٩٤﴾ وَحَرَامٌ عَلَى قَرْبَيْهِ
أَهْلَ كِتَابِهِمْ أَنْ يَنْبَغِ جَعَلُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّى إِذَا فُجِئَتْ
بِالْحُجُوجِ وَمَأْوَجِمْ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَأَقْرَبُ الْوَعْدِ الْحَقِّ لِأُولَى الْأَرْحَامِ أَشَدُّ لِلَّذِينَ
كَفَرُوا يُؤْتُونَ مَا لَمْ يَرْغَبُوا مِنْهَا وَمَنْ يَفْعَلْ
ذَلِكَ فَإِنَّ يَهُودِيَّاتِهِمْ لَمَنْعُونَ ﴿٩٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ
سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿٩٨﴾

٣٣٠

سورة مريم، وإصلاح
الزوجة، قيل: بأن جعلها
تحمل وهي عاقرة،
فحاضت وحملت، وهذا
هو الذي يشبه الآية،
وقيل: بأن أزيل بذاء كان
في لسانها.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وهذا ضعيف،
وعوم اللفظة يتناول كل
وجوه الإصلاح.

وقرأت فرقة:
﴿رَبِّدْعُونَنَا﴾، وقرأت
فرقة: ﴿وَيَذْعُونَنَا﴾،
وقرأت فرقة: ﴿رَعْبًا﴾
بفتح الراء والغين،
و﴿وَرَهْبًا﴾ كذلك،

وقرأت فرقة بضم الراء وفيهما وبسكون
العين والهاء، وقرأت فرقة بفتح الراء
وسكون العين والهاء، والمعنى أنهم
يدعون في وقت تعبدهم وهم بحال
رغبة ورجاء ورهبة وخوف في حال
واحدة؛ لأن الرغبة والرهبنة
متلازمتان، وقال بعض الناس: الرغب
أن ترفع بطون الأكتف نحو السماء،
والرهب أن ترفع ظهورهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتلخيص هذا أن عادة كل داع من
البشر أن يستعين بيديه، فالرغب -
من حيث هو طلب - يحسن معه أن
يوسع باطن الراح نحو المطلوب
منه؛ إذ هو موضع الإعطاء، وبها
يتملك، والرهب - من حيث هو دفع
مضرة - يحسن معه طرح ذلك
والإشارة إلى ذهابه وتوقيه بنفض
اليدين ونحوه.

ورويت عن أبي عمرو، وقرأت
فرقة: ﴿نُنَجِّي﴾ بنونين الأولى
مضمومة والثانية مفتوحة والجيم
مشددة، فأما القراءة الأولى والثالثة
فَبَيْنَتَانِ، الأولى فعلها معدى
بالحمزة، والأخرى بالتضعيف. وأما
القراءة الوسطى التي هي بنون واحدة
مضمومة وجيم مشددة وباء ساكنة
فقال أبو علي: لا وجه لها، وإنما
هي وهم من السامع، وذلك أن
عاصماً قرأ: ﴿نُنَجِّي﴾ والنون الثانية
لا يجوز إظهارها لأنها تخفى مع هذه
الحروف، يعني الجيم وما جرى
مجراها، فجاء الإخفاء يشبهها
بالإدغام، ويمتنع أن يكون الأصل
(ننجي) ثم يدعو اجتماع النونين إلى
إدغام إحداهما في الجيم؛ لأن
اجتماع المثليين إنما يدعو إلى ذلك
إذا كانت الحركة فيهما متفقة،
ويمتنع أن يكون الأصل (ننجي)
وتسكن الباء ويكون المفعول الذي
لم يُسَمِّ فاعله المصدر، كأنه قال:
نُجِّي النجاء المؤمنين؛ لأن هذه لا
تجيء إلا في ضرورة، وليست في
كتاب الله تعالى، والشاهد فيها قول
الشاعر:

وَلَوْ وُلِدَتْ قُنَيْرَةٌ جَزَوْا كَلْبًا
لَسَبَّ بِذَلِكَ الْجَزْوِ الْكِلَابُ
وأيضاً فإن الفعل الذي بني
للمفعول إذا كان ماضياً لم يسكن
آخره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والمصاحف فيها نون واحدة كتبت
كذلك من حيث النون الثانية مخفاة.
﴿٩١﴾ - ﴿٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
تقدم أمر زكريا عليه السلام في

و(الْخُشُوعُ): التذلل بالبدن
المتركب على التذلل بالقلب.

﴿٩١﴾ - ﴿٩٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر التي أحصنت
فرجها، وهي مريم بنت عمران أم
عيسى عليهما السلام. و(الْفَرْجُ) -
فيما قال الجمهور - وهو ظاهر
القرآن -: الجارحة المعروفة، وفي
إحصانها هو المدح. وقالت فرقة:
الْفَرْجُ هنا فرج ثوبها الذي منه نفخ
الملء، وهذا ضعيف. وأما نفخ
الولد فيها فقال كثير من العلماء:
إنما نفخ من جيب درعها،
وأضاف (الروح) إضافة الملء إلى
المالك، و(ابنها): عيسى ابن مريم
مجموع قصة عيسى وقصة مريم
عليهما السلام من أولها إلى
آخرها آية لمن اعتبر في ذلك.

﴿لِلْمَلَكَيْنِ﴾ يريد: لمن عاصر
فما بعد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾
يحتمل الكلام أن يكون مُتَقَطِعاً
خطاباً لمعاصري محمد عليه الصلاة
والسلام، ثم أخبر عن الناس أنهم
تقطعوا، ثم وَعَدَ وَأَوْعَدَ، ويحتمل
أن يكون متصلاً، أي: جعلنا مريم
وابنها آية للعالمين بأن بُعِثَ لهم
بمَلَّةٍ وكتاب، وقيل لهم: ﴿إِنَّ
هَذِهِ أُمَّتُكُمْ﴾، أي دعا الجميع
إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى
وعبادته، ثم أخبر تعالى بعد ذلك
أنهم اختلفوا وتقطعوا أمرهم، ثم
فُورق بين المحسن والمسيء فذُكر
المحسن بالوعد، أي: فمن عمل
من الصالحات وهو مؤمن فهو بِسَعِيهِ
يُجَازَى، وذُكر المسيء بالوعيد
في قوله: ﴿وَحَرَّمَ عَلَى قَرِيْبِهِ
أَهْلَكْنَاهَا﴾ الآية، فتأمل الوعيد فيها
على كل قول تذكره فإنه بَيِّنٌ،
و(الْكُفْرَانُ) مصدرٌ كالكفر، ومنه
قول الشاعر:

رَأَيْتُ أَنَسًا لَا تَنَامُ خُدُودُهُمْ
وَخُدْيٌ وَلَا كُفْرَانٌ لِّلَّهِ نَائِمٌ

واختلف القراء في قوله تعالى:
﴿وَحَرَّمَ﴾ فقرأ عكرمة وغيره:
﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء وكسر الراء،
وقرأ جمهور السبعة: ﴿وَحَرَّمَ﴾،
وقرأ حمزة والكسائي، وحفص عن
عاصم: ﴿وَجَزَمَ﴾ بكسر الحاء
وسكون الراء، وقرأ ابن عباس
رضي الله عنهما - بخلاف عنه -:
﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء وسكون الراء،
وقرأت فرقة: ﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء
والراء وشد الراء، وقرأت فرقة:

﴿وَحَرَّمَ﴾ بضم الحاء وكسر الراء
وشدها، وقرأ قتادة، وطمر الوراق:
﴿وَحَرَّمَ﴾ بفتح الحاء وضم الراء.
والمستفيض من هذه القراءات قراءة
من قرأ: ﴿وَجَزَمَ﴾، وقراءة من قرأ:
﴿وَحَرَّمَ﴾، وهما مصدران مثل
«حَلَّ وَحَلَّالٌ».

وأما معنى الآية فقالت فرقة: حرامٌ
وجزَمَ معناه: جَزَمَ وَحَثَمَ على قرية
أهلكتها أنهم لا يرجعون إلى الدنيا
فيتوبون ويستعيبون، بل هم صائرون
إلى العذاب، وقال بعض هذه
الفرقة: «الإهلاك» هو بالطَّبع على
القلوب ونحوه، و«الرُّجُوعُ» هو إلى
التوبة والإيمان. وقالت طائفة:
المعنى: وَحَرَّمَ، أي ممتنع - وجزَمَ
كذلك - على قرية أهلكتها أنهم لا
يرجعون، وقالوا: لا زيادة في
الكلام. واختلفوا في «الإهلاك»
والرجوع» بحسب القولين
المذكورين، قال أبو علي: يحتمل
أن يرتفع ﴿وَحَرَّمَ﴾ بالابتداء،
والخبر رجوعهم، و﴿لَا﴾ زائدة،
ويحتمل أن يرتفع ﴿وَحَرَّمَ﴾ على
خبر الابتداء، كأنه قال: والإقالة
والتوبة حرام ثم يكون التقدير بأنهم
لا يرجعون، فتكون ﴿لَا﴾ على
بابها، كأنه قال: هذا عليهم ممتنعٌ
بسبب كذا، فالتحريم في الآية
بالجملة ليس كتحریم الشرع الذي إن
شاء المنهي عنه ركه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويتَّجِه في الآية معنى ضمنه وعيدٌ
بَيِّنٌ، وذلك أنه ذكر من عمل صالحاً
وهو مؤمن، ثم عاد إلى ذكر الكفرة
الذين من كفرهم ومعتقدهم أنهم لا

يُحْشرون إلى ربِّ، ولا يرجعون إلى
مَعَادٍ، فهم يظنون بذلك أنه لا عقاب
ينالهم، فجاءت الآية مكذبة لظن
هؤلاء، أي: «مُتَنَبِّحٌ على الكفرة
المهلكين أنهم لا يرجعون، بل هم
راجعون إلى عقاب الله وأليم
عذابه»، فتكون ﴿لَا﴾ على بابها،
والحرام على بابه، وكذلك الجزم
فتأمله.

﴿٩٦﴾ - ﴿٩٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
تحتمل ﴿حَرَّمَ﴾ - في هذه الآية - أن
تكون متعلقة بقوله: ﴿وَتَقَطَّعُوا﴾،
وتحتمل - على بعض التأويلات
المتقدمة - أن تتعلَّق بِ﴿يَرْجِعُونَ﴾،
وتحتمل أن تكون حرف ابتداء: وهو
الأظهر بسبب ﴿إِذَا﴾؛ لأنها تقتضي
جواباً هو المقصود ذكره.

واختلف هنا في الجواب؛ فقالت
فرقة: الجواب قوله: ﴿وَأَقْرَبَ
آرَعَدُ﴾ والواو زائدة، وقالت فرقة -
منها الزجاج وغيره -: الجواب في
قوله تعالى: ﴿يَبُولِنَا﴾، والتقدير:
قالوا يا ويلنا، وليست الواو بزائدة.
والذي أقول: إن الجواب في قوله
تعالى: ﴿فَإِذَا هِيَ شَنِيْضَةٌ﴾، وهذا
هو المعنى الذي قصد ذكره لأنه
رجوعهم الذي كانوا يكذبون به
وَحَرَّمَ عليهم امتناعه.

وقرأ الجمهور: ﴿فُيْحَتْ﴾
بتخفيف التاء، وقرأ ابن عامر وحده:
﴿فُتِحَتْ﴾ بتثنيها. وزوي أن يأجوج
ومأجوج يشرفون في كل يوم على
الفتح فيقولون: غَدَا يُفْتَحُ، ولا
يرُدُّون المشيئة إلى الله تعالى، فإذا
كان الغد وجدوا الرُّؤْمَ كأوله، حتى
إذا أذن الله في فتحه قال قائلهم:

غداً نفتحه إن شاء الله، فيجدونه كما تركوه قريب الانفتاح فيفتحونه حينئذ. وقرأ عاصم وحده: ﴿يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ بالهمز، وقرأ الجمهور بالتسهيل، وقد تقدّم في سورة الكهف توجيه ذلك وكثير من حال يأجوج ومأجوج فغنيا هنا عن إعادة ذلك.

و(الْحَدَبُ) كلُّ مُسْتَمٍّ من الأرض كالجبل والطَّرب والكُذبة والقبر ونحوه، وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ﴾ يأجوج ومأجوج، يعني أنهم يطلعون من كل ثنية ومرتفع ويؤمنون الأرض، وذلك أنهم من الكثرة بحيث قال رسول الله ﷺ: «يقول الله تعالى يوم القيامة: يا آدم أخرج بعث النار من ذرّتك، فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين» قال: ففزع الناس، فقال رسول الله ﷺ: «إن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألف رجل»، ويروى أن الرجل منهم لا يموت حتى يولد له ألف ولد بين رجل وامرأة. وقالت فرقة: المراد بقوله: ﴿وَهُمْ﴾، جميع العالم، وإنما هو تعريف بالبعث من القبور. وقرأ ابن مسعود: ﴿مِنْ كُلِّ جَدَثٍ﴾، وهذه

القراءة تؤيد هذا التأويل. و﴿يَسْلُونُ﴾ معناه: يُسرعون في تطامن، ومنه قول الشاعر: عَسَلَانَ الذُّئْبِ أُنْسَى قَارِبَا
بَرَدَ اللَّيْلِ عَلَيْهِ فَنَسَلْ
وقرأت فرقة بكسر السين، وقرأت فرقة بضمها.

وأسند الطبري عن أبي سعيد قال: (يخرج يأجوج ومأجوج فلا يتركون

أحدًا إلا قتلوه إلا أهل الحصون، فيمرون على بحيرة طبرية، فيمر آخرهم فيقول: كان هاهنا ماء، فيبعث الله عليهم الثغف حتى يكسر أعناقهم، فيقول أهل الحصون: لقد هلك أعداء الله، فيدلون رجلاً ينظر فيجدهم قد هلكوا، قال: فينزل الله ماء من السماء فيقذف بهم في البحر فيطهر الأرض منهم)، وفي حديث حذيفة نحو هذا، وفي آخره: (قال: وعند ذلك طلوع الشمس من مغربها) وروى أن ابن عباس رضي الله عنهما رأى صبياناً يلعبون ويتزود بعضهم على بعض فقال: هكذا خروج يأجوج ومأجوج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَبَ وَوَعْدُ أَحَقُّ﴾ يريد يوم القيامة، وروى في الحديث «إن الرجل ليتخذ القللو من بعد يأجوج ومأجوج فلا يبلغ منفته حتى تقوم الساعة»، وقوله: ﴿هِيَ﴾ مذهب سيبويه أنها ضمير القصة، كأنه قال: فإذا القصة أو الحادثة شاخصة أبصار، وجوز الفراء أن تكون ضمير (الأبصار) تقدمت دلالة الكلام، ويجيء ما يفسرها، وأنشد على ذلك:

فَلَا وَأَبِيهَا لَا تَقُولُ خَلِيلَتِي
أَلَا قَرَّ عَشِي مَالِكِ بْنِ أَبِي كَعْبٍ
والشخص بالعين: إحداد النظر دون أن يطرف، وذلك يعترى من الخوف المفترط أو علة أو نحوه.

وقوله: ﴿يَبُولْنَا﴾ تقديره: يا ويلنا لقد كانت بنا غفلة عما وجدنا الآن وتبيننا من الحقائق، ثم تركوا الكلام الأول ورجعوا إلى نقد ما كان يُدخلهم من تعمّد الكفر وقصد

الإعراض فقالوا: ﴿بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾.

(٩٨) - (٩٩) تفسير قوله عز وجل: هذه مخاطبة لكفار مكة، أي: إنكم وأصنامكم حسب جهنم، و(الْحَصْبُ): ما توقد به النار، إنما لأنها تُحصب به أي تُزَمَى، وإنما أن تكون لغة في الحطب إذا رمي، وأما قبل أن تُزَمَى فلا يُسمى حصباً إلا بتجوُّز.

وقرأ الجمهور: ﴿حَصْبٌ﴾ بالصاد مفتوحة، وسكنها ابن السميّع؛ وذلك على إيقاع المصدر موقع اسم المفعول. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبي بن كعب، وعائشة، وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم: ﴿حَطَبٌ جَهَنَّمَ﴾ بالطاء، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ﴿حَصْبٌ جَهَنَّمَ﴾ بالضاد منقوطة مفتوحة، وسكنها كثير غيره. والحَصْبُ أيضاً ما يُرمى به في النار لتوقد به، والمِحْضُ العود الذي تُحرّك به النار أو الحديد ونحوه، ومنه قول الأعشى:

فَلَا تَكُ فِي حَرْبِنَا مِحْضَابًا
لِيَخْعَلَ قَوْمَكَ شَيْئًا شُعُوبًا

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ يريد الأصنام، وحرقتها بالنار على جهة التوبيخ لعابدها، ومن حيث تقع ﴿مَا﴾ لمن يعقل في بعض المواضع اعترض في هذه الآية عبدالله بن الزبير على رسول الله ﷺ فقال:

إن عيسى وعزير ونحوهما قد عبدا من دون الله فيلزم أن يكونا حصباً لجهنم، فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَى﴾ الآية، ثم قرر

يحزنهم الشيء الذي هو عند أهل النار فزع أكبر، فأما إن كان فزعاً للجميع فلا بد مما قلنا من أنه قبل دخول الجنة.

وقد ذهب بعض الناس إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ يعُم كل مؤمن، وروى عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: عثمان منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا مزية أنها مع نزولها في خصوص مقصود تتناول كل من سعد في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَلَقْنَهُمْ أَلْمَاحِكَةَ﴾ يريد بالسلام عليهم والتبشير لهم، أي: هذا يومكم الذي وعدتم فيه الثواب والتعظيم.

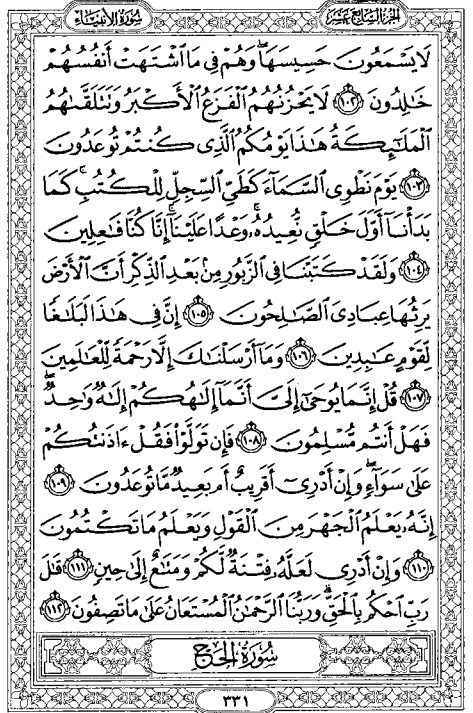
﴿١٢٧﴾ - ﴿١٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأت فرقة: ﴿نَطْوَى﴾ بسنون العظيمة، وقرأت فرقة: ﴿نَطْوِي﴾ بياء مفتوحة على معنى: يَطْوِي اللهُ: وقرأت فرقة: ﴿نَطْوَى﴾ ببناء مضمومة ويرفع ﴿السَّمَاءَ﴾ على ما لم يُسَمِّ فاعله.

واختلف الناس في ﴿السَّجِلِ﴾؛ فقالت فرقة: السَّجِلُ: مَلَكٌ يطوي الصحف، وقالت فرقة: السَّجِلُ: رجل كان يكتب للنبي ﷺ. وهذا كله وما شاكله ضعيف. وقالت فرقة: السَّجِلُ: الصحيفة التي يكتب فيها، المعنى: ﴿كَلِمَاتِ السَّجِلِ﴾ أي: كما يطوى السجل من أجل الكتاب الذي فيه، فالمصدر مضاف إلى المفعول، ويحتمل أن يكون المصدر مضافاً إلى الفاعل، أي: كما يطوي السَّجِلُ الكتاب الذي هو فيه، فكأنه

عيسى ابن مريم وعزير نزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ مُبَيَّنَةٌ أن هؤلاء ليسوا تحت المراد لأنهم لم يرضوا ذلك ولا دعوا إليه، و﴿الْحُسْنَىٰ﴾ يريد كلمة الرِّحْمَةِ وَالْحَنَمِ بالفضل. و﴿الْحَسِينِ﴾: الصوت، وهو بالجملة ما يتأدى إلى الجِسِّ من حركة الأجرام، وهذه صفة لهم بعد دخولهم الجنة، لأن الحديث يقتضي أن في الموقف تفرج جهنم زفرة لا يبقى نبي ولا ملك إلا جثا على ركبته.

و﴿الْفَرْعُ الْأَكْبَرُ﴾ عام في كل هول يكون في يوم القيامة، فكأن يوم القيامة بجملة هو الفرع الأكبر، وإن خصص شيء من ذلك فيجب أن يقصد الأعظم هوله. قالت فرقة في ذلك: هو ذبح الموت، وقالت فرقة: هو وقوع طبق جهنم على جهنم، وقالت فرقة: هو الأمر بأهل النار إلى النار، وقالت فرقة: هو وقت النفخة الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وما قبله من الأوقات أشبه أن يكون فيها الفرع لأنها وقت لرجم الظنون وتعرض الحوادث، فأما وقت ذبح الموت ووقوع طبق جهنم فوقت قد حصل فيه أهل الجنة في الجنة، لذلك فزع بين أنه لا يصيب أحداً من أهل الجنة فضلاً عن الأنبياء، اللهم إلا أن يريد: لا



الأمر بالإشارة إلى الأصنام التي أرادها في قوله: ﴿وَمَا تَسْمَعُونَ﴾ فقال: ﴿لَوْ كَانَتْ هَذِهِ آلهةً مَا رَدَدْنَاهَا﴾، وعبر عن الأصنام بـ﴿هَذِهِ﴾ من حيث هي عندهم بحال من يعقل، و﴿الزُّرُودُ﴾ في هذه الآية زُرُودٌ الدخول.

﴿١٢٩﴾ - ﴿١٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ عائد على من يعقل ممن تُوعَد. و﴿الزُّفَيْرُ﴾: صوتُ المعدب، وهو كشهيق الحمير وشبهه إلا أنه من الصدر، وقوله: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ قالت فرقة: معناه: لا يسمعون خيراً ولا ساراً من القول، وقالت فرقة: إن عذابهم أن يُجعلوا في توابيت في داخل توابيت آخر فيصيرون هنالك لا يسمعون شيئاً.

ولمّا اعترض ابن الزُّبَيْرِي بأمر

قال: يوم نظوي السجل كالهينة التي فيها طي السَّجَل للكتاب، ففي التشبيه تجوز.

وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿السَّجَل﴾ بشد السين وسكون الجيم وتخفيف اللام، وفتح أبو السَّمال (السين) فقرأها: ﴿السَّجَل﴾، وقرأ أبو زرعة بن عمرو بن جرير: ﴿السَّجَل﴾ بضم السين وشدها وضم الجيم، وقرأ الجمهور: ﴿لِلْكِتَابِ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿لِلْكِتَابِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون خبراً عن البعث، أي: كما اخترعنا الخلق أولاً على غير مثال كذلك نُثَبِّئُهُمْ تارة أخرى فنبعثهم من القبور، والثاني أن يكون خبراً عن أن كل شخص يُبعث يوم القيامة على هيئته التي خرج بها إلى الدنيا، ويؤيد هذا التأويل أن رسول الله ﷺ قال: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِفَاةً حِرَاةً غُرَاةً غُرْلًا، كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ». والكاف في قوله: ﴿كَمَا بَدَأْنَا﴾ متعلقة بقوله: ﴿نُعِيدُهُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ تأكيدٌ للأمر، بمعنى أن الأمر واجب فيه ذلك.

وقالت فرقة: (الزُّبُور): اسمٌ يُعمُّ جميع الكتب المُنزَّلة لأنه مأخوذ من «زَبُرْتُ الْكِتَابَ»: إذا كَتَبْتَهُ. قالت فرقة: (الذُّكْرُ) أراد به السُّوح المحفوظ، وقال بعضهم: الذُّكْر الذي في السماء. وقالت فرقة: الزُّبُور هو زبور داود عليه السلام، والذُّكْر أراد به التوراة، وقالت فرقة:

الزُّبُور ما بعد التوراة من الكُتُب، والذُّكْر التوراة. وقرأ حمزة وحده: ﴿الزُّبُور﴾ بضم الزاي.

وقالت فرقة: (الأَرْضُ) أراد بها أرض الدنيا، أي كل ما يناله المؤمنون من الأرض. وقالت فرقة: أراد أرض الجنة، واستشهدوا بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَالُوا أَلَمْ نَكُنْ لَهِ أَهْلًا مِمَّنْ بَدَأَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وقالوا: فرقة: إنما أراد بهذه الآية الإخبار عما كان صنعه مع بني إسرائيل، أي: فاعلموا أننا كُنَّا وَوَيْتْنَا لَهُمْ بما وعدناهم، فكذاك نُنجِزْ لَكُمْ ما وعدناكم من النُصرة.

وقالت فرقة: الإشارة بقوله تعالى: ﴿فِي هَذَا﴾ إلى هذه الآيات المتقدمة، وقالت فرقة: الإشارة إلى القرآن بجملته، والعبادة تتضمن الإيمان بالله تعالى. وقوله: ﴿إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قالت فرقة: عمُّ العالمين وهو يُريد من آمن فقط، وذلك أن النبي ﷺ ليس برحمة على من كفر به ومات على كفره، وقالت فرقة: العالمون عامٌ ورحمته للمؤمنين بيَّنة، وهي للكافرين بأن الله تعالى رفع عن الأمم أن يُصيَّبهم ما كان يصيب القرون قبلهم من أنواع العذاب المستأصلة كالطوفان وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل الكلام أن يكون معناه: وما أرسلناك للعالمين إلا رحمةً، أي: هو رحمة في نفسه وهدي، أخذ به من أخذ، وأعرض عنه من أعرض. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا عَلَيْنَا﴾

سَوَاءٌ﴾ معناه: عرَّفْتكم بنذارتني، وأردت أن تُشاركونني في معرفة ما عندي من الخوف عليكم من الله.

ثم أعلمهم بأنه لا يعرف تعيين وقت لعقابهم، بل هو مُتَرَقِّبٌ في القرب والبعد، وهذا أهول وأخوف. ﴿١١١﴾ - ﴿١١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿إِنَّا﴾ عائد على الله تعالى، وفي هذه الآية تهديد، أي: يعلم جميع الأشياء الواقعة منكم، وهو بالمرصاد في الجزاء عليها.

وقرأ يحيى بن عامر: ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ﴾ ﴿وَإِنْ أَدْرِي أَقْرِبُ﴾ بفتح الياء فيهما، وأنكر ابن مجاهد فتح هذه الياء، ووجَّه أبو الفتح.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُ﴾ الضمير فيه عائد على الإملاء لهم، وصفح الله تعالى عن عذابهم، وتمادي النعمة عليهم. و﴿يَسْتَعِذُّ﴾ معناه: امتحانٌ وابتلاء، و(الْمَتَاعُ) ما يُسْتَمْتَعُ به مدة الحياة الدنيا.

ثم أمره الله تعالى أن يقول على جهة الدعاء: ﴿رَبِّ أَسْكُرْ بِالْمُنِيِّ﴾، والدعاء بهذا هنا فيه توعد، أي: إن الحق هو نصرتي عليكم، وأمر الله تعالى لهم بهذا الدعاء دليل على الإجابة والعدَّة بها.

وقرأت فرقة: ﴿رَبِّ أَسْكُرْ﴾، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿رَبِّ﴾ بالرفع على المنادى المفرد، وقرأت فرقة:

﴿رَبِّي أَحْكَمُ﴾ على وزن أَفْعَل، وذلك على الابتداء والخبر، وقرأت فرقة: ﴿رَبِّي أَحْكَمُ﴾ على أنه فعل ماضٍ، ومعاني هذه القراءات بيَّنة.

ثم توكَّل في آخر الآية واستعان بالله تعالى، وقرأ جمهور القراء: ﴿قُلْ

سماها شيئاً لأنها حاصلةٌ مُتَيَقِّنٌ وقوعها يُستسهل لذلك أن تُسمى شيئاً وهي معدومة؛ إذ اليقين بها يشبه الموجودات، وإما على المال، أي هي إذا وقعت شيء عظيم، فكأنه لم يُطلق الاسم الآن، بل المعنى: إنها إذا كانت فهي حينئذ شيء عظيم.

(وَأَلزَّزَلَّةُ): التحريك العظيم، وذلك مع نفخة الفزع، ومع نفخة الصعق حسبما تضمن حديث أبي هريرة من ثلاث نفخات. ومن لفظة الزلزلة قول الشاعر:

يَعْرِفُ الْجَاهِلُ الْمُضَلُّ أَنَّ الدُّهْرَ

رَفِيهِ التُّكْرَاءُ وَالرُّزْزَالُ
فيحتمل أن تكون الزلزلة في الآية عبارة عن أحوال يوم القيامة، كما قال: ﴿مَسَّيْتُمُ الْبِئْسَاءَ وَالْقَرْزَاءَ وَرَزَزَلُوا﴾، وكما قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ اهْزِمِهِمْ وَزَلِزَلِهِمْ»، على أن زلزلة الساعة هي كالمعهودة في الدنيا إلا أنها في غاية الشدة.

واختلف المفسرون في الزلزلة المذكورة، هل هي في الدنيا على القوم الذين تقوم عليهم القيامة، أم هي في يوم القيامة على جميع العالم؟ فقال الجمهور: هي في الدنيا، والضمير في ﴿تَرَزَزْتُمْ﴾ عائد على الزلزلة، وقوى قولهم أن الرضاع والحمل إنما هو في الدنيا. وقالت فرقة: الزلزلة في يوم القيامة، واحتجت بحديث أنس المذكور آنفاً؛ إذ قرأ رسول الله ﷺ الآية ثم قال: «إِنَّه اليوم الذي يقول فيه لادم: أخرج بعث النار».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

تمام ثلاث آيات، قاله ابن عباس ومجاهد، وروي أيضاً عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه من أربع آيات، إلى قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ أَلْحَرِيقٌ﴾، وقال الضحاك: هي مدنية، وقال قتادة: سورة الحج مدنية إلا أربع آيات، من قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّيَ الْفُلِيُّ الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتَيْهِ﴾، إلى قوله: ﴿عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيبٍ﴾، فهن مكيات، وعدد النقاش ما نزل

بالمدينة عشر آيات، وقال الجمهور: السورة مختلطة، منها مكِّي ومنها مدني، وهذا هو الأصح - والله أعلم - لأن الآيات تقتضي ذلك، وروي عن أنس بن مالك أنه قال: نزل أول السورة في السفر على رسول الله ﷺ، فنادى بها فاجتمع الناس إليه، فقال: أتندرون أي يوم هذا؟ فبهتوا، فقال: يوم يقول الله: يا آدم أخرج بعث النار، فيخرج من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين، فقال: فاغتم الناس، فقال رسول الله ﷺ: «أبشروا، فمنكم رجل ومن يأجوج ومأجوج ألف رجل... الحديث».

① - ② تفسير قوله عز وجل:

صدر الآية تحذير لجميع العالم، ثم أوجب الخبر وأكده بأمر زلزلة القيامة، وهي إحدى شرائطها،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَأْتِيهَا النَّاسُ أَتْفَاقًا يَكْتُمُونَ ﴿١﴾ زَلْزَلَةً الْأَسَافَةُ شَوْءٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمَلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَاهُمْ بِسُكْرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعِيدُ فِي اللَّهِ بَغْيًا عَلِيمٌ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مُّرِيدٍ ﴿٤﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مِنْ تَوَلَاةٍ فَآثَمَ فَنُصِبْهُ وِيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٥﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نَظْفٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّفَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّفَةٍ لِنَسِينَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ لِكُلِّ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بِنِعْمَةِ رَبِّهِ إِذَا تُبْعِثَ فِي الْأَرْضِ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْعَثُ ﴿٦﴾

٣٢٢

رَبِّ أَحْكُمُ﴾، وقرأ عاصم - فيما روي عنه -: ﴿قُلْ رَبِّ أَسْكُرْ﴾. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون والناس: ﴿عَلَىٰ مَا يَصِفُونَ﴾ بالتاء من فوق على المخاطبة.

كامل تفسير سورة الأنبياء والحمد لله رب العالمين

(٢٢)

سورة الحج
مدنية

وآياتها ثمان وسبعون

هذه السورة مكية إلا ثلاث آيات، قوله تعالى: ﴿هَذَانِ حَصَنَانِ﴾ إلى

وهذا الحديث لا حُجَّةَ فيه؛ لأنه يحتمل أن النبي ﷺ قرأ الآية الْمُتَضَمِّنَةَ ابتداءً أمر الساعة ثم قصد في تذكيره وتخويله إلى فصل من فصول يوم القيامة فنص ذكره، وهذا من الفصاحة، والضمير عند هذه الفرقة عائد على الساعة، أي: يوم يرون ابتداءها في الدنيا، فيصح لهم بهذا التأويل ألا يلزمهم وجود الرضاع والحمل في يوم القيامة، وإن أعادوه على الزلزلة فسد قولهم بما يلزمهم. على أن النقاش ذكر أن المراد بـ ﴿كُلِّ ذَاتِ حَمَلٍ﴾ من مات من الإناث ولدها في جوفها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وال(ذُهول): الغفلة عن الشيء بطوره ما يشغل عنه من هم أو وجع أو غيره، قال ابن زيد: المعنى: تترك ولدها للكرب الذي نزل بها. وقرأ ابن أبي عبله: ﴿تَذْهِلُ﴾ بضم التاء وكسر الهاء ونصب ﴿كُلِّ﴾، وألحق الهاء في ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ لأنه أراد فاعلات ذلك في ذلك اليوم فأجراه على الفعل، وأما إذا أخبرت عن المرأة بأن لها طفلاً ترضعه فإنما تقول: ﴿مُرْضِعٌ﴾ مثل «حامل»، قال علي بن سليمان: هذه الهاء في ﴿مُرْضِعَةٍ﴾ ترد على الكوفييين قولهم: إن الهاء لا تكون فيما لا تلبس له بالرجال، وحكى الطبري أن بعض نحويي الكوفة قال: أم الصبي مرضعة، والمُستأجرة له مرضع.

وال(أَلْحَمَلُ) بفتح الحاء: ما كان في بطن أو على رأس شجرة. وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى﴾ تشبيه

لهم، أي: من الهم، ثم نفى عنهم السكر الحقيقي الذي هو من الخمر، قاله الحسن وغيره.

وقرأ جمهور القراء: ﴿سُكَرَى﴾ بضم السين وثبوت الألف، وكذلك في الثاني، وهذا هو الباب، فمرة جعله سيبويه جمعاً، ومرة جعله اسم جمع، وقرأ أبو هريرة بفتح السين فيهما وهذا أيضاً قد يجيء في هذه الجموع، قال أبو الفتح: هو تكسير، وقال أبو حاتم: هي لغة تميم، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿سُكَرَى﴾ في الموضوعين، ورواه عمران بن حصين، وأبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ، وهي قراءة ابن مسعود، وحذيفة، وأصحاب عبدالله. قال سيبويه: وقوم يقولون «سُكَرَى»، جعلوه مثل «مُرْضَى» لأنهما شيان يدخلان على الإنسان، ثم جعلوا «رُؤْيَى» مثل «سُكَرَى» وهم المستثقلون نوماً من شرب الرائب. وقال أبو علي: ويصح أن يكون ﴿سُكَرَى﴾ جمع «سُكِرَ» كَرَمْتَى وَرَمِنَ، وقد حكى سيبويه: رجل سُكِرٌ بمعنى سكران، فيجيء سُكَرَى حينئذ لتأنيث الجمع، كما العلامة في «طائفة» لتأنيث الجمع.

وقرأ سعيد بن جبير: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾ بالضم والألف. وحكى المهدي عن الحسن أنه قرأ: ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَى وَمَا هُمْ بِسُكَرَى﴾، وقرأ الحسن، والأعرج، وأبو زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير في الموضوعين: ﴿سُكَرَى﴾ بضم السين، قال أبو الفتح: «هو اسم مفرد كالبُشْرَى،

وبهذا أفناني أبو علي، وقد سأله عن هذا. وقرأ أبو زُرْعَةَ بن عمرو بن جرير، وأبو هريرة، وأبو نُهَيْك: ﴿وَتَرَى﴾ بضم التاء، «النَّاسَ» بالنصب، قال: وإنما هي بحسبه، ورويت هذه القراءة «وَتَرَى النَّاسَ» بضم التاء والسين، أي: ترى جماعة الناس.

٢ - ٣ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ أَتَيْنَا﴾ الآية. قال ابن جرير: نزلت في النضر بن الحارث، وأبي بن خلف، وقيل: في أبي جهل بن هشام، ثم هي بتعد تناول كل من يتصف بهذه الصفة. وال(مُجَادَلَةٌ): المُحَاجَّةُ، والمادة مأخوذة من «الجدل» وهو الفتل، والمعنى: «يُجَادِلُ» في قدرة الله وصفاته. وكان سبب الآية كلام من ذكر في أن الله تبارك وتعالى لا يبعث الموتى، ولا يقيم الأجساد من القبور. وال(الشيطان) هنا هو مغويهم من الجن، ويحتمل أن يكون الشيطان من الإنس، والانحاء على مُتَّبِعِيهِ. وال(المريد): المتجرد من الخير إلى الشر، ومنه الأمرد، وشجرة مرداء أي عارية من الورق، وصرخ مُمرَّد أي مُملَس من زجاج، وصخرة مرداء أي ملساء. والضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على (الشيطان)، قاله قتادة، ويحتمل أن يعود على «المُجَادِلِ». و﴿أَنَّهُ﴾ في موضع رفع على المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله، و﴿أَنَّهُ﴾ الثانية عطف على الأولى مؤكدة مثلها، وقيل: هي مكررة للتأكيد فقط، وهو معترض بأن الشيء لا يؤكد إلا بعد تمامه وتمام

رواية المفضل هذه هي بالياء في
﴿يُقِرُّ﴾ و﴿يُخْرِجُكُمْ﴾، والرفع على
هذا التأويل شائع، ولا يجوز النصب
على التأويل الأول. وقرأ ابن وثاب:
﴿مَا نِشَاءُ﴾ بكسر النون. و(الأجلُ
المُسَمَّى) هو مختلف بحسب جنين
جنين، فثَمُّ من يسقط، وثَمُّ من
يُكْمَلُ أمرُه ويخرج حيًّا.

واختلف الناس في (الأشدُّ) من
ثمانية عشر إلى ثلاثين، إلى اثنين
وثلاثين، إلى ستة وثلاثين، إلى
أربعين، إلى خمسة وأربعين،
واللفظة تُقال باشتراك، فأشدُّ الإنسان
على العموم غير أشدُّ اليتيم الذي هو
الاحتلام. و(الأشدُّ) في الآية يحتمل
المعنيين، والرصدُ إلى أرذل العمر
هو حصول الإنسان في زمانة
واختلال قوة حتى لا يقدر على إقامة
الطاعات، واختلال عقل حتى لا
يقدر على إقامة ما يلزمه من
المعتقدات، وهذا أبداً يلحق مع
الكبير، وقد يكون أرذل العمر في
قليل من السن بحسب شخص ما
لحقته زمانة، وقد ذكر عن علي بن
أبي طالب رضي الله عنه أن أرذل
العمر خمسة وسبعون سنة، وهذا فيه
نظير، وإن صحَّ عن علي
رضي الله عنه فلا يتوجه إلا أن
يريد: على الأكثر، فقد نرى كثيراً
أبناء ثمانين سنة ليسوا في أرذل
العمر. وقرأ الجمهور: ﴿الْمُؤْمِرِ﴾
مشبعة، وقرأ نافع: ﴿الْمُعْمِرِ﴾ مخففة
الميم، واختلف عنه.

وقوله تعالى: ﴿لَيْكَ لَا يَبْرَأُ﴾ أي:
لينسى معارفه وعلمه الذي كان معه
فلا يعلم من ذلك شيئاً، فهذا مثال

و(العلقُ): الدَّم العبيط، وقيل:
(العلقُ): الشديد الحمرة، فسمي
الدَّم لذلك، وقوله: ﴿ثَدَّ مِنْ
مُضَغَّرٍ﴾ يريد بضعة لحم على قدر ما
يُمضغ، وقوله: ﴿مُخْلَقَةٍ﴾ معناه:
مُتَمِّمَةُ البَيْتَةِ ﴿وَعَبْرٌ مُخْلَقَةٍ﴾ غير
مُتَمِّمَةُ، أي التي تسقط، قاله
مجاهد، وقتادة، والشعبي، وأبو
العالية، فاللفظة بناء مبالغة من
﴿حَلَقَ﴾. ولما كان الإنسان فيه أعضاء
متباينة وكلُّ منها مختص بخَلْقٍ حَسَنٍ
في جملة تضعيف الفعل لأن فيه
خَلْقاً كثيرة، وقرأ ابن أبي عمير:
﴿مُخْلَقَةٌ﴾ بالنصب ﴿وَعَبْرٌ﴾ بالنصب
في الرأى.

ويتصل بهذا الموضوع من الفقه أن
العلماء اختلفوا في أم الولد إذا
أسقطت بضعة لم تُصَوِّر، هل تكون
أم ولد بذلك؟ فقال مالك،
والأوزاعي، وغيرهما: هي أم ولد
بالمضغة إذا علم أنها مضغة الولد،
وقال الشافعي، وأبو حنيفة: حتى
يتبين فيه خلق ولو عضو واحد.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَكُمْ﴾، قالت
فرقة: معناه: لتبين أمر البعث، فهو
اعتراض بين الكلامين. وقرأت هذه
الفرقة بالزُّفْع في ﴿نُقِرُّ﴾، والمعنى:
ونحن نُقِرُّ، وهي قراءة الجمهور.
وقالت فرقة: ﴿لَيْسَ لَكُمْ﴾ معناه:
تكون المضغة غير مُخْلَقَةٍ وطرح
النساء إياها كذلك تُبَيِّن للناس أن
المنال في الرُّجْم هي هكذا، وقرأت
هذه الفرقة: ﴿وَنُقِرُّ﴾ بالنصب،
وكذلك قرأت: ﴿نُخْرِجُكُمْ﴾
بالنصب، وهي رواية المفضل عن
عاصم، وحكى أبو عمرو الداني أن

﴿أَنَّهُ﴾ الأولى إنما هو بصلتها في
قوله: ﴿السَّعِيرِ﴾، وكذلك لا يُعطف
عليه، وليسبويه في مثل هذا أنه
بدلٌ، وقيل ﴿أَنَّهُ﴾ الثانية خبر ابتداء
محذوف تقديره: فشأنه أنه يضل،
وقدره أبو علي: فله أن يُضِلَّهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويظهر لي أن الضمير في ﴿أَنَّهُ﴾
الأولى للشيطان، وفي الثانية لمن
الذي هو المتولى. وقوله: ﴿وَيَهْدِي﴾
بمعنى: يذله على طريق ذلك،
وليست بمعنى الإرشاد على
الإطلاق. وقرأ أبو عمرو: ﴿إِنَّهُ مَنْ
تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ﴾ بالكسر فيها.

وقوله تعالى: ﴿بِتَأْيِيدِهَا أُنَاسٌ إِنْ
كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْآيَةِ﴾. هذا
احتجاج على العالم بالبداة الأولى،
وضرب الله تعالى في هذه الآية
مثلين إذا اعتبرهما الناظر جوز في
العقل البعثة من القبور، ثم ورد خبر
الشرع بوجوب ذلك ووقوعه.
و(الرَّيْبُ): الشك، وقوله: ﴿إِنْ
كُنْتُمْ﴾ شرط مضمنه التوقيف، وقرأ
الحسن بن أبي الحسن: ﴿الْبَعْثِ﴾
بفتح العين، وهي لغة في «البعث»
عند البصريين، وهي عند الكوفيين
تخفيف «بعث».

وقوله: ﴿خَلَقْتُمْ مِّن رُّبَابٍ﴾ يريد
آدم ثم سَلَط الفعل عليهم من حيث
هم ذريته. وقوله: ﴿ثُمَّ مِّن نَّفْثَةٍ﴾
يريد المنى الذي يكون من البشر،
و«النَّفْثَةُ» تقع على قليل الماء
وكثيره، وقال النقاش: المراد نطفة
آدم. وقوله: ﴿ثَدَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ يريد
من الدَّم الذي تعود النطفة إليه في
الرُّجْم، أو المقارن للنطفة.

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّمُ الْمَوْتُ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١١﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١٢﴾ ثَانِي عَطْفِهِ: لِضَلِّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَيَذِيقُهُ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ بَدَأَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعَادُّ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نِفْعَةَ: ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٦﴾ يَدْعُوا لَمَن ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِن نَّفْعِهِ لَيْسَ الْمَوْلَىٰ وَلَيْسَ الْعَشِيرُ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٨﴾ مَنْ كَانَتْ يَطْنُ أَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِئَ كَيْدَهُ مَا يَغْتَبِطُ ﴿١٩﴾

٢٣٢

مجاهد وأهل مكة: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بفتح الياء، وكذلك قرأ أبو عمرو. والخزني الذي ثُوِّعَدَ به النضر بن الحارث صدق في أسره يوم بدر، وقتلَه صَبْرًا، (والْحَرِيقُ): طبقة من طبقات جهنم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ﴾ بمعنى: يقال له، ونسب التقديم إلى اليمين إذ هما آلة الاكتساب. واختلف في الوقف على ﴿يَدَاكَ﴾؛ فقيل: لا يجوز لأن التقديم: «وبأن الله»، أي أَنَّ هذا هو العدل فيك بجرائمك، وقيل: يجوز بمعنى: والأمر أن الله تعالى ليس بظلام. (والْعَبِيدُ) ذكر هنا في معنى مسكنتهم وقلة قدرتهم، فلذلك جاءت هذه الصيغة.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات نزلت في أعراب وقوم

الله الآية. الإشارة بقوله سبحانه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ إلى القوم المتقدم ذكرهم، وحكى النقاش، عن محمد بن كعب أنه قال:

نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق، وكرر هذه على جهة التوبيخ، فكأنه يقول: وهذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان، ومن الناس مع ذلك من يجادل، فكأن الواو واو الحال، والآية المتقدمة الواو فيها واو عطفت جملة الكلام على ما قبلها، والآية على معنى الإخبار، وهي هاهنا

مكررة للتوبيخ. و﴿ثَانِي﴾ حال من الضمير في ﴿يُجَادِلُ﴾، ولا يجوز أن يكون من ﴿مَن﴾ لأنها ابتداء، والابتداء عمله الرفع لا النصب، وإضافة ﴿ثَانِي﴾ غير مُعْتَدٍ بها؛ لأنها في معنى الانفصال إذ تقديرها: ثانياً عَطْفُهُ. وقوله سبحانه: ﴿ثَانِي عَطْفِهِ﴾ عبارة عن المتكبر المُفْرَض، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أن صاحب الكبر يردُّ وجهه عما يتكبر عنه، فهو يردُّ وجهه بصغر خده ويلوي عنقه، وشي عطفه، وهذه هي عبارات المفسرين. و(العطفُ): الجانب. وقرأ الحسن: ﴿عَطْفِهِ﴾ بفتح العين، والعطفُ: السيف؛ لأن صاحبه يتعطفه، أي يصله بجنبه. وقرأ الجمهور: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء، وقرأ

واحد يقضي للمُعْتَدِّ به أن القادر على هذه المناقل المُتَّقِنِ لها قادرٌ على إعادة تلك الأجساد التي أوجدها بهذه المناقل إلى حالها الأولى.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا هو المثال الذي يعطي للمعتبر فيه جواز بعث الأجساد، وذلك أن إحياء الأرض بعد موتها بَيِّنٌ، وكذلك الأجساد. و﴿هَامِدَةٌ﴾ معناه: ساكنة ودارسة بالية، ومنه قيل: همد الثوب إذا بلي، قال الأعشى:

قَالَتْ قَتِيلَةٌ مَا لِي جِسْمِكَ شَاجِبًا
وَأَرَى نِيَابِكَ بِأَلْيَاتٍ هُمْدًا
(واهتزاز الأرض) هو حركتها بالنبات وغير ذلك مما يعتريها بالماء، و﴿وَرِيَّتٌ﴾ معناه: نشرت وارتفعت، ومنه الربوة، وهي المكان المرتفع. وقرأ أبو جعفر بن القَعْقَاعُ: ﴿وَرِيَّاتٌ﴾ بالهمز، ورويت عن أبي عمرو، وقرأها عبدالله بن جعفر، وخالد بن إلياس، وهي غير وجيهة، ووجهها أن تكون من: ﴿رِيَّاتُ الْقَوْمِ﴾ إذا علوت شرفاً من الأرض طليعة، فكأن الأرض بالماء تتطاول وتعلو. و(الزَّوْجُ): النوع، و(الْبَهِيحُ) فَعِيلٌ من البهجة وهي الحُسن، قاله قتادة وغيره.

وقوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ إشارة إلى ما تقدم ذكره، ف﴿ذَلِكَ﴾ ابتداء، وخبره ﴿يَأَنَّ﴾، أي: هو بأن الله حقُّ مُحْيِي قَائِدٌ. وقوله: ﴿وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ﴾ ليس بسبب لما ذكر، لكن المعنى أن الأمر مرتبط ببعثه ببعض، أو على تقدير: والأمر أن الساعة.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعَادُّ

فيوقف على هذا. قال أبو علي: ويحسن أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ بمعنى «الذي»، أي: الذي هو الضلال البعيد يدعو، فيكون قوله: ﴿ذَلِكَ﴾ موصولاً بقوله: ﴿هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ﴾، ويكون ﴿يَدْعُوا﴾ عاملاً في قوله: ﴿ذَلِكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كون ﴿ذَلِكَ﴾ بمعنى «الذي» غير سهل، وشبهه المهدي بقوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بَيِّنَاتٌ﴾. وقد يظهر في الآية أن يكون قوله: ﴿يَدْعُوا﴾ متصلاً بما قبله، ويكون فيه معنى التوبيخ، كأنه قال: يدعو من لا يضر ولا ينفع، ثم كرر ﴿يَدْعُوا﴾ - على جهة التوبيخ - غَيْرَ مُعَدِّي؛ إذ قد عُدِّي في أول الكلام، ثم ابتداء الإخبار بقوله: ﴿لَمَنْ ضَرَّهُ﴾ واللام مؤذنة بمجيء القسم، والثانية التي في ﴿لَيْسَ﴾ لام القسم وإن كان أبو علي مال إلى أنها لام الابتداء والثانية لام اليمين، ويظهر أيضاً في الآية أن يكون المراد: ﴿يَدْعُو مَنْ ضَرَّهُ﴾، ثم علق الفعل باللام، ويصح أن يقدر هذا الفعل من الأفعال التي تعلق وهي أفعال النفس كظننت وحسبت، وأشار أبو علي إلى هذا ورد عليه.

و(الْعَشِيرُ): القريب المعاصر في الأمور، وذهب الطبري إلى أن المراد بـ«المَوْلَى» و«الْعَشِيرِ» هو الوثن الذي ضَرَّهُ أقرب من نفعه، وهو قول مجاهد، والله أعلم.

⑩ - ⑪ - ⑫ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى مِنْ يَعْبُدُ اللَّهُ عَلَى حَرْفٍ وَسَفَّهُ رَأْيِهِمْ وَتَوَعَّدَهُمْ

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ﴾

يريد الأوثان، ومعنى ﴿يَدْعُوا﴾ يعبد، ويدعو أيضاً في مُلِمَاتِهِ. واختلف الناس في قوله تبارك وتعالى: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرَّهُ﴾ فقالت فرقة من الكوفيين: اللام مُقدِّمة على موضعها، وإنما التقدير: يدعو من يضره، ويؤيد هذا التأويل أن عبدالله بن مسعود قرأ: ﴿يَدْعُوا لَمَنْ ضَرَّهُ﴾، وقال الأخفش: ﴿يَدْعُوا﴾ بمعنى يقول. و﴿مَنْ﴾ مبتدأ، و﴿ضَرَّهُ﴾ مبتدأ،

و﴿أَقْرَبُ﴾ خبره، والجملة صلة، وخبر ﴿مَنْ﴾ محذوف، والتقدير: يقول: لمن ضَرَّهُ أقرب من نفعه إليه، وشبه هذا يقول عترة:

يَدْعُونَ عَنَتَرَ وَالرَّمَاخَ كَأَنَّهَا

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول فيه نظر، فتأمل إفساده للمعنى إذ لم يعتقد الكافر قط أن ضرر الأوثان أقرب من نفعها، واعتذار أبي علي هنا موهوم، وأيضاً فهو لا يشبه البيت الذي استشهد به. وقيل: المعنى في ﴿يَدْعُوا﴾ يُسْمَى، وهذا كالقول الذي قبله إلا أن المحذوف آخر مفعول تقديره: إليها. وقال الزجاج: يجوز أن يكون ﴿يَدْعُوا﴾ في موضع الحال وفيه هاء محذوفة، والتقدير: ذلك هو الضلال البعيد يدعو، أي: يدعو،

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يُذَكِّرُ بِهَا الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِقِينَ وَالنَّصِرَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ فِي مَنِ السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالذُّوَابُ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ هَذَانِ حَصَمَانِ أَحْضَمُوا فِي رِيهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقْعٌ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا أَحْبَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَاكِمُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيُلَوَّلُونَ عَلَيْهَا تَابَعَاتٍ مِنْ حَبِيبٍ

٣٣٤

لا يقين لهم، كان أحدهم إذا أسلم فانفتحت له اتصالات حسان من نُمو مالٍ وولد ذَكَرٌ يُرْزَقُه وغير ذلك قال: هذا دين جيد، وتمسك به لهذه المعاني، وإن كان الأمر بخلاف تشاءم به وارتد كما صنع العرثيون وغيرهم، قال هذا المعنى ابن عباس، ومجاهد، وقادة، وغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿عَلَى حَرَبٍ﴾ معناه: على انحراف منه عن العقيدة البيضاء، أو على شفا منها مُعَدُّ للزهوق. و(الْفَيْسَةُ): الاختبار. وقوله: ﴿انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ﴾ عبارة للمَوْلَى عن الأمور. و(حَسَارَتِهِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةُ)؛ أما الدنيا بالمقادير التي جرت عليه، وأما الآخرة فبازتداد وسوء معتقده. وقرأ مجاهد، وحمزة، والأعرج: ﴿خَاسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ نصباً على الحال.

بخسارة الآخرة، عَقِبَ ذلك بذكر حالة مخالفيهم من أهل الإيمان، وذَكَرَ ما وعدهم به من إدخاله إِيَّاهم الجنة، ثم أخذت الآية في توبيخ أولئك الأولين وإسلامهم إلى رأيهم وإحالتهم على ما فيه عنتهم وليس فيه راحتهم، كأنه يقول: هؤلاء العابدون على حرف صحبهم القَلَقَ وظَنُّوا أن الله تعالى لن ينصر محمداً عليه الصلاة والسلام وأتباعه، ونحن إنما أمرناهم بالصبر وانتظار وعدنا، فمن ظنَّ غير ذلك فليمدد بسبب وليختنق وينظر هل يذهب بذلك غيظه؟ قال هذا المعنى قتادة، وهو على جهة المثل السائر، قولهم: «دونك الحبل فاختنق»، يقال ذلك للذي يريد من الأمر ما لا يمكنه.

و(السَّبَبُ): الحبل، والسُّبْرُ معروف، إلا أن أبا عبيدة ذهب به إلى معنى الرُّزْقِ، كما قالوا: «أرض منصور» أي ممطورة، وكما قال الشاعر:

وَإِنَّكَ لَا تُعْطِي امْرَأَةً قَوْقَ حَقِّهِ
وَلَا تَمْلِكُ الشُّقُّ الَّذِي الْعَيْثُ نَاصِرُهُ

وقال: وقف بنا سائل من بني أبي بكر فقال: من ينصرني ينصره الله. و(السَّمَاءُ) - على هذه الأقوال - : الهواءُ عُلْوًا، فكأنه أراد: سقفاً أو شجرةً أو نحوه، وقال ابن زيد: السماء هي المعروفة، وذهب إلى معنى آخر، كأنه قال لمن يظن أن الله لا ينصر محمداً: إن كنتَ تظن ذلك فامدد سبباً إلى السماء واقطعه إن كنت تقدر على ذلك، فإن عجزت فكذا لا تقدر على قطع سبب

محمد عليه الصلاة والسلام من السماء؛ إذ نصرته من هنالك، والوحي الذي يأتيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و(الْقَطْعُ) - على هذا التأويل - ليس بالاختناق، بل هو جَزَمَ السبب، وفي مصحف ابن مسعود: «ثُمَّ لَيَقْطَعَنَّ بِهَا»، والجمهور على أن القطع هنا هو الاختناق. قال الخليل: «وَقَطَعَ الرَّجُلُ» إذا اختنق بحبل أو نحوه، ثم ذكر الآية.

وتحتمل الآية معنى آخر، وهو أن يراد به الكفار وكل من يغتاظ بأن ينصره الله ويطمع ألا يُنْصَرَ، قيل لهم: من ظنَّ أن هذا لا يُنْصَرُ فليمت كمدأ، هو منصور لا محالة، فليختنق هذا الظانُّ غِظاً وكمدأ، ويؤيد هذا أن الطبري والنقاش قالوا: ويقال: نزلت في نفر من بني أسد وغطفان قالوا: نخاف أن يُنْصَرَ محمد فينقطع الذي بيننا وبين حلفائنا من يهود من المنافع.

والمعنى الأول الذي قيل للعابدين على حرف ليس بهذا، ولكنه بمعنى: مَنْ قَلِقَ واستبطأ النصر وظن أن محمداً عليه الصلاة والسلام لا يُنْصَرُ فليختنق سفاهاً إذ تعدى الأمر الذي حُدَّ له في الصبر وانتظار صنع الله تعالى. وقال مجاهد: الضمير في «يُنْصَرُ» عائذ على «مَنْ»، والمعنى: من كان من القلقين من المؤمنين.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: والضمير في التأويل الذي ذكرناه في أن يُراد الكفار لا يعود إلا على النبي ﷺ فقط. وقالت فرقة: الضمير عائذ على الدين والقرآن.

وقرأ أبو عمرو وابن عامر: «لَيَقْطَعَنَّ فَلَيَنْظُرَنَّ» بكسر اللام فيهما على الأصل، وهي قراءة الجمهور. وقرأ عاصم، وحزمة، والكسائي بسكون اللام فيهما وفي لام الأمر في كل القرآن مع الواو والفاءِ وُثْمٌ. واختلف عن نافع، وهي قراءة الحسن، وأبي عمرو، وعيسى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما الفاء والواو - إذا دخلت (إحدهما) على لام الأمر - فحكى سيبويه أنهم يرونها كأنها من الكلمة فسكون اللام تخفيف، وهو أفصح من تحريكها، وأما «ثُمَّ» فهي كلمة مستقلة فالوجه تحريك اللام بعدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد رأى بعض النحويين الميم من «ثُمَّ» بمنزلة الفاء والواو.

وقوله: «مَا يَبْقِيْطُ» يحتمل أن تكون «مَا» بمعنى الذي، وفي «يَبْقِيْطُ» عائذ عليها، ويحتمل أن تكون مصدرية حرفاً فلا عائذ عليها، و(الكَيْدُ) هو مدة السبب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأبَيِّنَ وجوه هذه الآية أن تكون مثلاً، ويكون النصر المعروف، والقطعُ الاختناقُ، والسماءُ الارتفاعُ في الهواءِ بسقف أو شجر أو نحوه فتأمل.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ يَتَذَكَّرُ فِيهَا مَن يَخْتَضِرُ﴾ والمعنى: وكما وعدنا بالنصر وأمرنا بالصبر كذلك أنزلنا القرآن آية بيّنة لمن نظر واهتدى، لا ليقترح معها ويستعجل القدر. وقال الطبري: المعنى: كما بيّنت حجّتي على من جحد قدرتي على إحياء الموتى كذلك أنزلناه. والضمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ عائد على القرآن، وجاءت هذه الضمائر هكذا وإن لم يتقدّم لها ذكر لشهرة المشار إليه نحو قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ وغيره.

وقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ﴾ في موضع خبر الابتداء، والتقدير: والأمر أن الله يهدي من يريد، وهداية الله تبارك وتعالى هي خلقه الرّشاد والإيمان في نفس الإنسان.

ثم أخبر الله تعالى عن فعله بالفِرَق المذكورين وهم المؤمنون بمحمد ﷺ وغيره، واليهود، والصابئون، وهم قوم يعبدون الملائكة ويستقبلون القبلة ويوحدون الله ويقرؤون الزبور قتادة، والنصاري، والمجوس، وهم عبدة النار والشمس والقمر، والمشركون، وهم عبدة الأوثان. قال قتادة: الأديان ستة، خمسة للشيطان وواحد للرحمن. وخبر ﴿إِنَّ﴾ قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَقْبَلُ مِنِّيهِمْ﴾، ثم دخلت ﴿إِنَّ﴾ على الخبر مؤكدة، وحسن ذلك لطول الكلام فهي وما بعدها خبر ﴿إِنَّ﴾ الأولى، وقرن الزجاج هذه الآية بقول الشاعر:

إِنَّ الْخَلِيفَةَ إِنْ لَمْ سَرِنَلَهُ
سِرِنَالُ مُلْكٍ بِهِ تُرْجَى الْخَوَاتِيمُ
نقله الطبري.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا البيت كالأية لأن الخبر في البيت قوله: «به تُرْجَى الخواتيم»، و(إن) الثانية وجملتها معترضة بين الكلامين. ثم تمّ الكلام في قوله تعالى: ﴿الْفَيْئَمَةُ﴾، واستأنف الخبر عن أن الله تبارك وتعالى على كل شيء شهيد وعالم به، وهذا خير مناسب للفصل بين الفِرَق، وفُضِّلَ اللهُ تعالى بين هذه الفِرَق هو بإدخال المؤمنين الجنة والكافرين النار.

﴿١٨﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ تنبيه، من رؤية القلب، وهذه آية إعلام بتسليم المخلوقات جميعها لله تعالى وخضوعها. وذكر في الآية كل ما عبد الناس إذ في المخلوقات أعظم ممّا ذكر كالبحار والرياح والهواء، ﴿مَنْ فِي السَّمَوَاتِ﴾: الملائكة، ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ من عبد من البشر. و(الشمس) كانت تعبد حمير، وهم قوم بليقيس، و(القمر) كانت كنانة تعبد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكانت تميم تعبد الدبران، وكانت لخم تعبد المشتري، وكانت طي تعبد الثريا، وكانت قريش تعبد الشعري، وكانت أسد تعبد عطار، وكانت ربيعة تعبد المرزم. و(الجبال والشجر) منها النار وأصنام الحجارة والخشب، و(الدواب) منها البقر

وغير ذلك ممّا عبد من الحيوان كالديك ونحوه.

و(السجود) في هذه الآية هو بالخضوع والانقياد للأمر، وهذا كما قال الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهَا سُجْدًا لِلْخَوَافِرِ
وهذا مما يتعذر فيه السجود المتعارف. قال مجاهد: سجود هذه الأشياء هو بظلالها، وقال بعضهم: سجودها هو بظهور الصنعة فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وهم، وإنما خلط هذه الآية بآية التسبيح، وهناك يحتمل أن يقال: هي بآثار الصنعة.

وقوله: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ يحتمل أن يكون معطوفاً على ما تقدّم، أي: وكثير حق عليه العذاب سجّد، أي كراهيةً وعلى رُغمه، إمّا بظلمه وإمّا بخضوعه عند المكاره ونحو ذلك، قاله مجاهد، وقال: سجوده بظلمه، ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداء مقطوعاً ممّا قبله، وكان الجملة معادلةً لقوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾ لأن المعنى أنهم مرحومون بسجودهم، ويؤيد هذا قوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَمَنْ يُرِنِ اللَّهُ﴾ الآية.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَمَا لَهُ مِنْ مَّكْرٍ﴾ بكسر الراء، وقرأ ابن أبي عبلة بفتح الراء على معنى: من موضع، أو على أنه مصدر كمدخل. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَالدَّوَابِّ﴾ مشددة الباء، وقرأ الزهري وحده

مخففة الباء، وهي قليلة ضعيفة، وهي تخفيف على غير قياس كما قالوا: ظَلْتُ وَأَحْسْتُ، وكما قال علقمة:

كَأَنَّ إِبْرِيْقَهُمْ ظَنَبِي عَلَيَّ شَرَفٍ
مُقَدَّمٌ بِسَبَابِ الْكَثَّانِ مَلْتُومٌ
أراد: بِسَبَابِ الْكَثَّانِ، وأنشد أبو علي في مثله:

حَتَّى إِذَا مَا لَمْ أَجِدْ غَيْرَ الشَّرِّ
كُنْتُ امْرَأً مِنْ مَالِكِ بْنِ جَعْفَرٍ
وهذا باب إنما استعمل في الشعر لذلك ضَعُفَتْ هذه القراءة.

قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ أَخَصَمَا فِي رِيبٍ﴾ الآية. اختلف الناس في المشار إليه بقوله: ﴿هَذَانِ﴾؛ فقال قيس بن عباد، وهلال بن يساف: نزلت هذه الآية في المتبارزين يوم بدر، وهم سئة: حمزة، وعلي. وعبيدة بن الحارث، برزوا لعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والوليد بن عتبة. وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: أنا أول من يجشور للخصومة بين يدي الله يوم القيامة، وأقسم أبو ذر رضي الله عنه على هذا القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووقع أن الآية فيهم في صحيح البخاري رحمه الله.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإشارة إلى المؤمنين وأهل الكتاب، وذلك أنه وقع بينهم تخاصم، فقالت اليهود: نحن أقدم ديناً منكم ونحو هذا، فنزلت الآية. وقال عكرمة:

المخاصمة بين الجنة والنار. وقال مجاهد، وعطاء بن أبي رباح، والحسن بن أبي الحسن، وعاصم، والكلبي: الإشارة إلى المؤمنين والكفار على العموم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول تعضده الآية، وذلك أنه تقدم قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ﴾، المعنى: فهم مؤمنون ساجدون، ثم قال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾، ثم أشار إلى هذين الصنفين بقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ﴾، والمعنى أن الإيمان وأهله والكفر وأهله خصمان مذ كانا إلى قيام الساعة بالعداوة والجدال والحرب. وقوله: ﴿خَصْمَانِ﴾ يريد: طائفتين لأن لفظة خَصْم هي مصدر يوصف به الجمع والواحد، ويدل على أنه أراد الجمع قوله تعالى:

﴿أَخَصَمُوا﴾، فإنها قراءة الجمهور، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿أَخَصَمَا فِي رِيْبِهِمْ﴾. وقوله: ﴿فِي رِيْبِهِمْ﴾ معناه: في شأن ريبهم وصفاته وتوحيده، ويحتمل أن يريد: في رضى ريبهم، وفي ذاته. ثم بين حكم الفريقين، فتوعد تبارك وتعالى الكفار بعذاب جهنم، و﴿قُلِعَتْ﴾ معناه: جعلت لهم بتقدير كما يفصل الثوب، وروي أنها من نحاس، وقيل: ليس شيء من الحجارة أحر منه إذا حمي. وروي في صب الحميم - وهو الماء المغلي - أنه تُضْرَبُ رؤوسهم بالمقاع فتتكشف أدمغتهم فيُصَبُّ الحميم حينئذ، وقيل: بل يصب

الحميم أولاً فيفعل ما وصف ثم تُضْرَبُ بالمقاع بعد ذلك. و(الْحَمِيمُ): الماء المغلي. و﴿يُضْهِرُّ﴾ معناه: يُذَابُ، وقيل: معناه: يُعْضِرُ، وهذه العبارة قلقة، وقيل: معناه: ينضح، ومنه قول الشاعر:

تَضْهِرُهُ الشَّمْسُ وَلَا يَنْضَهْرُ
وإنما يُضْهِرُهُ - فيمن قال: يعصر - أنه أراد أن الحميم بحرارته يهبط - كُلَّمَا يُلْقَى - في الجوف ويكشطه وَيَسْلُتُهُ، وقد روى أبو هريرة نحوه عن النبي ﷺ (أنه يَسْلُتُهُ وَيَبْلُغُ به قدميه ويديه ثم يعاد كما كان). وقرأ الجمهور: ﴿يُضْهِرُّ﴾، وقرأت فرقة: ﴿يُضْهِرُّ﴾ بفتح الصاد وشذو الهاء. و(الْمِقْمَعَةُ) - بكسر الميم - مقرعة من حديد يُقْمَعُ بها المضروب.

وقوله تعالى: ﴿أَرَادُوا﴾ روي فيه أن لهب النار إذا ارتفع رفعهم فيصلون إلى أبواب النار فيريدون الخروج فيُضْرَبُونَ بالمقاع وترُدُّهُمْ الزبانية. و مِنْ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمِنَهَا﴾ لا ابتداءً الغاية، وفي قوله: ﴿مِنْ عَيْرٍ﴾ يحتمل أن تكون لبيان الجنس، ويحتمل أن تكون لا ابتداءً غاية أيضاً، وهي بدلٌ من الأولى. وقوله: ﴿وَدَوَّقُوا﴾ هنا حذف تقديره: ويقال لهم: ذوقوا. و(الْأَحْرِيقُ) قَيْلٌ بمعنى مُفْعَل، أي: محرق.

وقرأ الجمهور: ﴿هَذَانِ﴾ بتخفيف السنون، وقرأ ابن كثير وحده:

دون الأخرى جائز كله. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما:

﴿ثَلَاثًا﴾ بكسر اللامين.

وأخبر الله تعالى عنهم بلباس الحرير لأنها من أكمل حالات الآخرة، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة». وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تشبه أمور الآخرة أمور الدنيا إلا في الأسماء فقط، وأما الصفات فمتباينة.

و«الطَّيِّبُ من القول»: لا إله إلا الله وما جرى معها من ذكر الله تبارك وتعالى وتسبحيه وتقديسه، وسائر كلام أهل الجنة من محاوراة وحديث طيب؛ فإنها لا تسمع فيها لاغية. و(صِرَاطُ الْحَمِيدِ) هو طريق الله تعالى الذي دعا عباده إليه، ويحتمل أن يريد به «الْحَمِيدُ» نفس الطريق، فأضاف إليه على حِدِّ إضافته في قوله تعالى: ﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ﴾ الآية. قوله: ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ تقديره: وهم يصدون، وبهذا حَسَنَ عطف المستقبل على الماضي، وقالت طائفة: الواو زائدة، و﴿يَصُدُّونَ﴾ خبر ﴿إِنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مفسد للمعنى المقصود، وإنما الخبر محذوف مقدرٌ عند قوله: ﴿وَالْبَادِيَ﴾ تقديره: حَسِبُوا أو هلكوا، وجاء ﴿يَصُدُّونَ﴾ مستقبلاً إذ هو فعل يُدِيمونه، كما جاء قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ﴾ ونحوه.

وهذه الآية نزلت عام الحديبية حين صُدَّ رسولُ الله صلى الله عليه وآله

جمع أسوِرة، وأسورة جمع سِوَار. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «من أسوِرة من ذهب».

و(اللؤلؤ): الجوهر، وقيل: صفاره، وقيل: كباره، والأشهر أنه اسم للجوهر. وقرأ نافع، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ بالنصب عطفاً على موضع (الأساور)؛ لأن التقدير: يُحَلُونَ فيها أساور، وهي قراءة الحسن، والجحدري، وسلام،

ويعقوب، والأعرج، وأبي جعفر، وعيسى، وابن عمر، وحمل أبو الفتح نصبه على إضمار فعل. وقرأ الباقون من السبعة: ﴿وَلَوْلُؤًا﴾ بالخفض عطفاً إما على لفظه (الأساور)، ويكون (اللؤلؤ) في غير الأساور، وإما على «الذهب» لأن الأساور تكون أيضاً من ذهب ولؤلؤ قد جمع بعضها إلى بعض، ورويت هذه القراءة عن الحسن بن أبي الحسن، وطلحة، وابن وثاب، والأعمش، وأهل مكة، وثبتت في (الإمام) ألف بعد الواو، قاله الجحدري، وقال الأصمعي: ليس فيها ألف، وروى يحيى عن أبي بكر، عن عاصم بهمز الواو الثانية دون الأولى، وروى المعلّى بن منصور، عن أبي بكر، عن عاصم ضد ذلك، قال أبو علي: فهمزها وتخفيفها وهمز إحداهما

وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْكَرِيمِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَدُوِّ فِيهِ وَالْبَادِي وَمَنْ يُضِدْ فِيهِ بِالْحُكْمِ يُضَلُّ عَنَّا مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٤﴾ وَإِذْ ذُكِّرُوا لَا يَتَذَكَّرُونَ أَن لَنْ نُرْسِلَ فِيهِ شَيْئًا وَظَهَرَ يَتَنَبَّيْ لِلظَّالِمِينَ وَالْفَاقِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٥﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٦﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكَلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْأَبْيَاسَ الْفَقِيرَ ﴿٢٧﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُدُورَهُمْ وَلِيَطَّوَفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٨﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظِمْ حُرْمَتَ اللَّهِ فَهُوَ حُرْمَةٌ لِنُبِيِّهِ وَأُجِّلَتْ لَكُمْ أَنْتُمْ مِنَ الْأَمَانَتِ عَلَيْكُمْ فَأَحْسِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٢٩﴾

٣٣٥

﴿هَذَانُ﴾ بتشديد النون، وقرأها شبل، وهي لغة لبعض العرب في المبهمات كالأذنان وهذان، وقد ذكر ذلك أبو علي.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآية معادلة لقوله تعالى: ﴿قَالَتِ الَّذِينَ كَفَرُوا قَطِعَتْ لَهْمٌ نَبَاتٌ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿بِحَكَاةٍ﴾ بضم الياء وشد اللام من الحلبي، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يَحْلُونَ﴾ بفتح الياء واللام وتخفيفها، يقال: حَلَيْ الرجل وحَلَيْت المرأة إذا صارت ذات حَلْي. وقيل: هي من قولهم: «لم يَحْل فلانٌ بطائل». و﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ اسَاوِرَ﴾ هي لبيان الجنس، ويحتمل أن تكون للتبعيض. و(الأساور) جمع سِوَارٍ وإسوارٍ بكسر الهمزة، وقيل: أساور

وسلم عن المسجد الحرام، وذلك أنه لم يُعلم لهم صدق قبل ذلك الجمع، إلا أن يراد صدهم الأفراد من الناس فقد وقع ذلك في صدر المبعث. وقالت فرقة: (المسجد الحرام) أراد به مكة كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا صحيح لكنه قصد بالذكر المهم المقصود من ذلك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرفع، وهو على الابتداء، و﴿الْمَكْكُفُ﴾ خبر، وقيل: الخبر ﴿سَوَاءٌ﴾ وهو مقدم، وهو قول أبي علي. والمعنى: الذي جعلناه للناس قِبْلَةً أَوْ مُتَعَبِّدًا. وقرأ حفص عن عاصم: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب، وهي قراءة الأعمش، وذلك يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون مفعولاً ثانياً لِلاَجْعَلِ) ويرتفع ﴿الْمَكَاكِفُ﴾ به لأنه مصدر في معنى «مُسْتَوٍ» أعمل عمل اسم الفاعل، والوجه الثاني أن يكون حالاً من الضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾، وقرأت فرقة: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب ﴿الْمَكَاكِفُ﴾ بالخفض عطفاً على النَّاسِ، و(الْمَكَاكِفُ): المقيم في البلد، و(الْبَادِي): القادم عليه من غيره. وقرأ ابن كثير في الوصل والوقف: ﴿الْبَادِي﴾ بالياء، ووقف أبو عمرو بغير ياءٍ وَوَصَلَ بالياء، وقرأ نافع: ﴿وَالْبَادِي﴾ بغير ياءٍ في الوصل والوقف في رواية المسيبي، وأبو بكر وإسماعيل بن أبي أويس، وروى ورش الوصل بالياء، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بغير ياءٍ وصلًا ووقفًا، وهي في «الإمام» بغير ياءٍ.

وأجمع الناس على الاستواء في المسجد الحرام واختلفوا في مكة؛ فذهب عمر بن الخطاب، وابن عباس، ومجاهد، وجماعة معهم إلى أن الأمر كذلك في دور مكة، وأن القادم له النزول حيث وُجِدَ، وعلى ربّ المنزل أن يُؤويه شاء أو أبي، وقال ذلك سفيان الثوري وغيره. وكذلك كان الأمر في الصدر الأول، قال ابن سابط: وكانت دورهم بغير أبواب حتى كثرت السرقة فاتخذ رجل باباً فأنكر عليه عمر رضي الله عنه وقال: أتغلق باباً في وجه حاج بيت الله؟ فقال: إنما أردت حفظ متاعهم من السرقة، فتركه فاتخذ الناس الأبواب. وقال جمهور من الأمة منهم مالك رحمه الله: ليست الدور كالمسجد، ولأهلها الامتناع بها والاستبداد، وعلى هذا هو العمل اليوم.

وهذا الخلاف متركب على الاختلاف في مكة، هل هي عتوة كما روي عن مالك والأوزاعي؟ أو صلح كما روي عن الشافعي؟ فمن رآها صلحاً فإن الاستواء عنده في المنازل بعيد، ومن رآها عتوة أمكنه أن يقول: الاستواء فيها قدره الأئمة الذين لم يُقطعوا أحداً وإنما سُكنى من سكن من قِبَل نفسه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر قول النبي ﷺ: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً» يقتضي الاستواء، وأنها مُتَمَلِّكَةٌ ممنوعة على التأويلين في قوله ﷺ؛ لأنه تَوَوَّلُ بمعنى أنه ورث جميع منازل أبي طالب وغيره، وتَوَوَّلُ بمعنى أنه باع منازل بني

هاشم حين هاجروا. ومن الحجة لتملك أهلها دورهم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى من صفوان بن أمية داراً للسجن بأربعة آلاف، ويصح مع ذلك أن يكون الاستواء في وقت الموسم للضرورة والحاجة فيخرج الأمر حينئذ عن الاعتبار بالعتوة والصلح. وقوله تعالى: ﴿بِالْحَكَاكِبِ﴾، قال أبو عبيدة: الباء زائدة، ومنه قول الشاعر:

بِوَادِ يَمَانٍ يُنْبِئُ الشُّتَّ صَدْرُهُ
وَأَسْفَلُهُ بِالْمَرْخِ وَالشُّبَّهَانِ
ومنه قول الأعشى:

ضَمِنْتُ بِرِزْقِ عِيَالِنَا أَرْحَاخَنَا
.....

وهذا كثير. ويجوز أن يكون التقدير: ومن يرد فيه الناس بإلحاد. و(الإلحاد): المثل، وهذا الإلحاد والظلم يجمع جميع المعاصي من الكفر إلى الصغائر. فَلْيُعْظَم حُرْمَةُ المكان تواعد الله تعالى على نيّة السيئة فيه، ومن نوى سيئة ولم يعملها لم يحاسب بذلك إلا في مكة، هذا قول ابن مسعود رضي الله تعالى عنه وجماعة من الصحابة وغيرهم. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الإلحاد في هذه الآية: الشُّرْكُ، وقال أيضاً: هو استحلال الحرام وحرمته، وقال مجاهد: هو العمل السيئ فيه، وقال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: وَقَوْلُ «لَا وَاللَّهِ، ويلي والله» بمكة من الإلحاد، وقال حبيب بن أبي وثاب: الحكرة بمكة من الإلحاد بالظلم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعموم يأتي على هذا كله.

وقرأت فرقة: ﴿وَمَنْ يَرُدَّ﴾ من الزُّرُود، حكاية الفراء، والأول أبتن وأعم وأمدح للبقعة. و﴿مَنْ﴾ شرط جازمة للفعل، وذلك منع من عطفها على ﴿الَّذِينَ﴾. والله المستعان.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر إذ بؤانا، وبؤأ هي تعدية بالتضعيف، و(باء) معناه: رجع، فكان المَبْؤَىء يردُّ المَبْؤَأ إلى المكان، واستعملت اللفظة بمعنى (سَكَنَ)، ومنه قوله تعالى: ﴿تَنْبِؤًا مِنْكَ الْجَنَّةُ﴾، وقال الشاعر:

كَمْ صَاحِبٍ لِي صَالِحٍ
بِؤَاتِهِ بِيَدِي لِحَدَا
والسلام في قوله تعالى: ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾ قالت فرقة: هي زائدة، وقالت فرقة: ﴿بِؤَاتِكَ﴾ نازلة منزلة فعل يتعدى باللام نحو جعلنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر أن يكون المفعول الأول بـ ﴿بِؤَاتِكَ﴾ محذوفاً تقديره: (الناس) أو (العالم)، ثم قال: ﴿لِإِبْرَاهِيمَ﴾، بمعنى: له كانت هذه الكرامة وعلى يديه بؤءوا.

(وَأَلْبِيتُ) هو الكعبة، وكان - فيما زوي - قد جعله الله تعالى مُتَعَبِّدًا لآدم عليه السلام، ثم درس بالطوفان وغيره، فلمَّا جاءت مدة إبراهيم عليه السلام أمره الله تعالى ببناؤه، فجاء إلى موضعه وجعل يطلب أثرًا، فبعث الله ريحاً فكشفت له عن أساس آدم فرتب قواعده عليه.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا﴾ هي مخاطبة لإبراهيم عليه

الصلاة والسلام في قول الجمهور حُكِيَتْ لَنَا، بمعنى قيل له: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا﴾، وقرأ عكرمة: ﴿أَنْ لَا يُشْرِكُ بِي﴾ بـ (ياء) على معنى نقل معنى القول الذي قيل له، قال أبو حاتم: ولا بُدَّ مِنْ نَصْبِ الْكَافِ عَلَى هَذِهِ الْقِرَاءَةِ، بِمَعْنَى: لِئَلَّا يُشْرِكُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾ في قراءة الجمهور مفسرة، ويحتمل أن تكون مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ.

وفي الآية طعن على من أشرك من قُطَانِ الْبَيْتِ، أي: هذا كان الشرط عَلَى أَيِّكُمْ فَمَنْ بَعْدَهُ وَأَنْتُمْ، فلم تفروا بل أشركتم. وقالت فرقة: الخطاب من قوله: ﴿أَنْ لَا تُشْرِكُوا﴾ لمحمد ﷺ، وأمر بتطهير البيت والأذان بالحج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والجمهور على أن ذلك لإبراهيم عليه السلام، وهو الأصح.

(وَتَطْهِيرِ الْبَيْتِ) عامٌ في الكفر والبِدْعِ وجميع الأتجاس والدماء وغير ذلك. و(القائمون) هم المصلون، وذكر الله تعالى من أركان الصلاة أعظمها وهي: القيام والركوع والسجود.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَذِّنْ﴾ بشد الذال، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن مُحَيْصِن: ﴿وَأَذِّنْ﴾ بـمُدَّةٍ وتخفيف الذال، وتصحف هذا على ابن جني؛ فإنه حكى عنهما ﴿وَأَذِّنْ﴾ على أنه فعل ماض وأعرب على ذلك بأن جعله عطفاً على ﴿بِؤَاتِكَ﴾. وزوي أن إبراهيم عليه السلام لما

أمر بالأذان بالحج قال: يا رب وإذا ناديت فمن يسمعي؟ قيل له: ناد يا إبراهيم، فعليك النداء وعلينا البلاغ، فصعد على أبي قُبَيْس - وقيل: على حجر المقام - ونادى: أَيُّهَا النَّاسُ؛ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَمَرَكَم بِحَجِّ هَذَا الْبَيْتِ فَحُجُّوا وَاخْتَلَفَتِ الرِّوَايَاتُ فِي أَلْفَاظِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَاللَّازِمُ أَنْ يَكُونَ فِيهَا ذِكْرُ الْبَيْتِ وَالْحَجِّ. وزوي أنه يوم نادى أسمع كل من يحج إلى يوم القيامة في أصلاب الرجال، وأجابه كل شيء في ذلك الوقت من جمادٍ وغيره: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، فجرت التلبية على ذلك، قاله ابن عباس وابن جبير.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بِالْحَجِّ﴾ بفتح الحاء، وقرأ ابن أبي إسحاق في كل القرآن بكسرهما. و﴿رُجَالًا﴾ جمع راجلٍ كتاجرٍ وتجارٍ، وصاحب وصحاب. وقرأ عكرمة، وابن عباس، وأبو مجلز، وجعفر بن محمد: ﴿رُجَالًا﴾ بضم الراء وشد الجيم، ككتابٍ وكُتَّابٍ.

وقرأ عكرمة أيضاً، وابن أبي إسحاق: ﴿رُجَالًا﴾ بضم الراء وتخفيف الجيم، وهو قليل في أبنية الجمع، ورويت عن ابن مجاهد، وقرأ مجاهد: ﴿رُجَالِي﴾ على وزن فُعَالِي، فهو مثل كَسَالِي.

(وَالضَّمِيرُ) قالت فرقة: أراد بها الناقه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أنه يقال: ناقه ضامر، ومنه قول الأعشى:

عَهْدِي بِهَا فِي الْحَيِّ قَدْ دُرُعَتْ
هَيْفَاءَ مِثْلَ الْمُهْرَةِ الضَّمِيرِ

فيجيء قوله تعالى: ﴿يَأْتِينَ﴾ مستقيماً على هذا التأويل. وقالت فرقة: (الضامير) كل ما اتصف بذلك من جمل وناقة وغير ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأظهر، لكنه يتضمن معنى الجماعات أو الرفاق، فيحسن لذلك قوله: ﴿يَأْتِينَ﴾. وقرأ أصحاب ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿يَأْتُونَ﴾، وهي قراءة ابن أبي عبله، والضحاك.

وفي تقديم ﴿رِجَالًا﴾ تفضيل للمشاة في الحج، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما آسى على شيء فاتني إلا أن أكون حَجَّجْتُ مَاشِيًا، فإني سمعت الله تعالى يقول: ﴿يَأْتُونَكَ رِجَالًا﴾. وقال ابن أبي نجيج: حج إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ماشيين، واستدل بعض العلماء بسقوط ذكر البحر في هذه الآية على أن فرض الحج بالبحر ساقط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال مالك في المَوَازِيَةِ: لا أسمع للبحر ذكراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأني، لا أنه يلزم من سقوط ذكر البحر سقوط الفرض. وذلك أن مكة ليست في ضفة بحر فيأتيها الناس في السفن، ولا بد لمن ركب البحر أن يصير في إتيان مكة إما راجلاً وإما على ضامر، فإثماً ذكرت حالتا الوصول، وإسقاط فرض الحج بمجرد عدم ذكر البحر ليس بالكثير ولا بالقوي، فأما إذا اقترن به عدو أو خوف أو هول شديد أو مرض يلحق

شخصاً ما فمالك والشافعي وجمهور الناس على سقوط الوجوب في ذلك، وأنه ليس بسبيل يُستطاع، وذكر صاحب كتاب (الاستظهار) في هذا المعنى كلاماً ظاهره أن الوجوب لا يسقطه شيء من هذه الأعذار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

و(الفَجْ): الطريق الواسعة، و(العَمِيْقُ) معناه: البعيد، قال الشاعر:

إِذَا الْخَيْلُ جَاءَتْ مِنْ فِجَاجٍ عَمِيْقَةٍ
يَمُدُّ بِهَا فِي السَّيْرِ أَشْعَثُ شَاجِبٌ
(وَالْمَنَافِعُ) في هذه الآية: التجارة في قول أكثر المتأولين، ابن عباس رضي الله عنهما وغيره. وقال أبو جعفر محمد بن علي: أراد الأجر ومنافع الآخرة، وقال مجاهد بعموم الوجوهين.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ اللَّهُ﴾، يصح أن يريد بالاسم هاهنا المُسَمَّى، بمعنى: وَيَذْكُرُوا اللَّهَ، على تجوز في هذه العبارة، إلا أن يقصد ذكر القلوب. ويحتمل أن يريد بالاسم التسميات، وذكر الله تعالى إنما هو بذكر أسمائه، ثم يذكر القلب السلطان والصفات، وهذا كله على أن يكون الذكر بمعنى حمده وتقديسه شكراً على نعمته في الرزق، ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام: «إنها أيام أكل وشرب وذكر الله». وذهب قوم إلى أن المراد ذكر اسم الله تعالى على النحر والذبح، وقالوا: إن في ذكر الأيام دليلاً على أن الذبح في الليل لا يجوز، وهو مذهب مالك وأصحاب الرأي. وقال ابن عباس

رضي الله تعالى عنهما: الأيام المعلومات هي أيام العشر ويوم النحر وأيام التشريق، وقال ابن سيرين: هي أيام العشر فقط، وقالت فرقة: بل أيام التشريق، ذكره القتيبي، وقالت فرقة فيها مالك وأصحابه: بل الأيام المعلومات يوم النحر، ويومان بعده، وأيام التشريق الثلاثة هي المعدودات، فيكون يوم النحر معلوماً لا معدوداً، واليومان بعده معلومات ومعدودات والرابع معدود لا معلوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحمل هؤلاء على هذا التفصيل أنهم أخذوا «ذكر اسم الله» هنا على الذبح للأضاحي والهدي وغيره، فاليوم الرابع لا يُضْحَى فيه عند مالك وجماعة، وأخذوا التَّعَجُّل والتأخر بالتَّعَرُّق في الأيام المعدودات، فتأمل هذا يبين لك قصدهم، ويظهر أن تكون المعلومات والمعدودات بمعنى، أي تلك الأيام الفاضلة كلها، ويبقى أمر الذبح وأمر الاستعجال لا يتعلق بمعدود ولا بمعلوم، وتكون فائدة قوله: ﴿مَمْلُوءَةً﴾ و﴿مَمْدُودَةً﴾ التحريض على هذه الأيام وعلى اغتنام فضلها؛ إذ ليست كغيرها، فكأنه قال: هي مخصوصات فلتغتنم.

وقوله تعالى: ﴿تَكَلُّأً﴾ ندب، واستحب أهل العلم للرجل أن يأكل من هديه أو ضحيته مع التصدق بأكثرها، مع تجويزهم الصدقة بالكل وأكل الكل. و(البَائِسُ): الذي قد مسه ضرر الفاقة ويؤسها، يقال: بأس الرجل بيؤس، وقد يستعمل فيمن

سُمِّيَ عتيقاً لأنه لم يُملك موضعه قط، وقالت فرقة: سُمِّيَ عتيقاً لأن الله تعالى يعتق فيه رقاب المذنبين من العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يرذهُ التصريف. وقيل: سُمِّيَ عتيقاً لأنه أعتق من غرق الطوفان، قاله ابن جبير، ويحتمل أن تكون صفة مدح تقتضي جودة الشيء، كما قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حَمَلْتُ عَلَى فِرْسٍ عَتِيقٍ» الحديث، ونحوه قولهم: «كلام حر».

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع رفع بتقدير: فَرَضْنَا ذَلِكَ، أو الواجب ذلك، ويحتمل أن يكون في موضع نصب بتقدير: امتثلوا ذلك ونحو هذا الإضمار، وأحسن الأشياء مضمراً أحسنها مظهرأ، ونحو هذه الإشارة البليغة قول زهير:

هَذَا وَلَيْسَ كَمَنْ يَغِيَا بِحُطْبَتِهِ
وَسَطَ الثُّدِي إِذَا مَا نَاطِقٌ نَطَقَا
وَالْحُرْمَاتُ الْمَقْصُودَةُ هَاهُنَا هِيَ
أَفْعَالُ الْحَجِّ الْمَشَارِ إِلَيْهَا فِي قَوْلِهِ
سَبْحَانَهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَيَقْسُزُوا
فَعَتَهُمْ وَلَيُؤْثِرُوا نُدُورَهُمْ﴾، ويدخل في ذلك تعظيم المواضع، قاله ابن زيد وغيره، ووعد على تعظيمها بعد ذلك تحريضاً وتحريضاً، ثم لفظ الآية - بعد ذلك - يستناول كل حرمة الله تعالى في جميع الشرع. وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ حَبْرٌ﴾ ظاهره أنها ليست للتفضيل، وإنما هي عِدَّةٌ بخير ويحتمل أن يجعل ﴿حَبْرٌ﴾ للتفضيل على تجوُّز في هذا الموضوع.

وحده - في رواية أبي بكر -: ﴿وَلَيُؤْثِرُوا﴾ بفتح الواو وشدّ الفاء، و(أوفى) لغتان مستعملتان في كتاب الله تعالى، و(أوفى) أكثر. و(الثُّور) ما معهم من هدي وغيره، و(الطُّوفَانُ) المذكور في هذه الآية هو طواف الإفاضة الذي هو من واجبات الحج، قال الطبري: لا خلاف بين المتأولين في ذلك. قال مالك: هو واجب يرجع تاركه من وطنه إلا أن يطوف طواف وداع فإنه يجزيه منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل بحسب الترتيب أن تكون الإشارة إلى طواف الوداع إذ المستحسن أن يكون ولا بد، وقد أسند الطبري عن عمرو بن أبي سلمة قال: سألت زهيراً عن قوله تعالى: ﴿وَلَيُطَوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ فقال: هو طواف الوداع. وقال مالك في الموطأ: واختلف المتأولون في وجه وصف البيت بالعتيق؛ فقال مجاهد، والحسن: العتيق: القديم، يقال: سيف عتيق، وقد عتق الشيء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول يعضده النظر؛ إذ هو أول بيت وضع للناس، إلا أن الزبير قال: سُمِّيَ عتيقاً لأن الله تعالى أعتقه من الجبابرة بمنعه إياه منهم، وروى في هذا حديثاً عن النبي ﷺ، ولا نظر مع الحديث. وقالت فرقة:

حُفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ، وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا حَرَّمَ
السَّمَاءَ فَتُحَطَّفُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ
﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شُكْرُ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ
﴿٣٠﴾ لِكُرْفِهَا مِنْهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ يَحْمِلُهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ
الْعَتِيقِ ﴿٣١﴾ وَلَا كَلِمَ أَمْوَجَعْنَا مَسْكَانًا يَذْكُرُوا اسْمَ
اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ الْأَنْعَامِ فَالْيَهُكُمُ إِلَهُ وَجِدْ
فَالَهُ أَسْلَمُوا وَبَشِّرِ الْحَسْبَيْنِ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّت
قُلُوبُهُمْ وَالصَّادِقِينَ عَلَىٰ مَا آصَابَهُمُ وَالْمُقْبِلِينَ الصَّلَاةَ وَعَمَّا
رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ ﴿٣٣﴾ وَابْدَأْتَ جَعَلْنَاهَا لِكُرْمٍ شَعْبِيرٍ
اللَّهُ لِكُرْفِهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجِلَّتْ
جُوبُهُمْ فَاكْرَأُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْقَاعَ الْمَعْتَدِ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا
لِكُرْمٍ لَكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٤﴾ لَنْ يَبَالَ اللَّهُ لِحُومِهِمْ وَلَا دِمَائِهِمْ
وَلَكِنْ يَبَالُ اللَّهُ النَّفْسَ بِكُمْ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لِكُرْمٍ لَكُمْ وَرَأَى
اللَّهُ عَلَىٰ مَا هَدَيْتَهُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٥﴾ رَبَّنَا اللَّهُ
يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَلْحَبِيبَ كُلِّ حَوَّانٍ كَنُومٍ ﴿٣٦﴾

نزلت به نازلة دهر وإن لم تكن فقراً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «لكن البائس سعد بن خولة»، والمراد في هذه الآية أهل الحاجة.

اختلقت القراءة في سكون اللام من قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَيَقْسُزُوا نَفْسَهُمْ وَلَيُؤْثِرُوا نُدُورَهُمْ وَلَيُطَوَّفُوا﴾، وفي تحريك جميع ذلك بالكسر، وفي تحريك ﴿لَيَقْسُزُوا﴾ وتسكين الاثنين، وقد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَلَيَمْدُدُ يَسْبِ إِلَى السَّمَاءِ﴾ توجيه جميع ذلك.

و(الْتَفَّتْ) ما يفعله المُحْرَم عند حلّه من تقصير شعره وحلقه وإزالة شعث ونحوه من إقامة الخمس من الفطرة حسب الحديث، وفي ضمن ذلك قضاء جميع مناسكه إذ لا يقضي التَّفَتُّ إلا بعد ذلك. وقرأ عاصم

وقوله تعالى: ﴿وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْآفَاقُ﴾ إشارة إلى ما كانت العرب تفعله من تحريم أشياء برأيها كالبحيرة والسائبة، فأذهب الله تعالى جميع ذلك وأحلَّ لهم جميع الأنعام إلا ما يُتلى عليهم في كتاب الله تبارك وتعالى في غير موضع، ثم أمرهم باجتناب الرُّجس من الأوثان، والكلام يحتمل معنيين: أحدهما أن تكون ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس فيقع نبيه عن رجس الأوثان فقط، وتبقى سائر الأرجاس تُهَيِّئها في غير هذا الموضع، والمعنى الثاني أن تكون ﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية، فكأنه نهاهم عن الرُّجس عامًّا ثم عيَّن لهم مبدأه الذي منه يلحقهم؛ إذ عبادة الوثن جامعة لكل فساد ورجس، ويظهر أن الإشارة إلى الذبائح التي كانت للأوثان، فيكون هذا مما يتلى عليهم. ومن قال: إن ﴿مِنْ﴾ للتبعيض قلب معنى الآية وأفسده، والمروي عن ابن عباس، وابن جريج أن الآية نهى عن عبادة الأوثان.

والرُّور) عامٌّ في الكذب والكفر، وذلك أن كلَّ ما عدا الحق فهو كذب وباطل وزور. وقال ابن مسعود، وأيمن بن خُزَيْم: إن رسول الله ﷺ قال: «عدلت شهادة الرُّور بالشرك» وتلا هذه الآية، والرُّور) مشتق من الزُّور وهو الميل، ومنه: في جانب فلان زورٌ، ويظهر أن الإشارة إلى زور أقوالهم في تحريم وتحليل ما كانوا قد شرَّعوه في الأنعام.

﴿حُنْفَاءَ﴾ معناه: مستقيمين أو

مائلين إلى الحق بحسب أن لفظة «الحنْف» من الأضداد، تقع على استقامة وتقع على الميل. و﴿حُنْفَاءَ﴾ نصب على الحال. وقال قوم: ﴿حُنْفَاءَ﴾ معناه: حُجَّاجًا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تخصيص، لا حُجَّة معه.

﴿عَبْرَ شُرَكَيْنَ﴾ يجوز أن تكون حالاً أخرى، ويجوز أن تكون صفة لقوله: ﴿حُنْفَاءَ﴾.

ثم ضرب الله تعالى مثلاً للمشرك بالله سبحانه وتعالى أظهره به في غاية السقوط ويحتمل الهول والانتبات من النجاة، بخلاف ما ضرب للمؤمن في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِرْ بِاللَّهِ﴾، ومثله قول علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ فلتن أجزء من السماء إلى الأرض أهون علي من أن أكذب عليه» الحديث.

وقرأ نافع وحده: ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ بفتح الخاء وشد الطاء على حذف تاء التفعّل، وقرأ الباقون: ﴿فَتَخَطَّفَهُ الطَّيْرُ﴾ بسكون الخاء وتخفيف الطاء، وقرأ الحسن - فيما روي عنه: ﴿فَتَيَخَطَّفُهُ﴾ بكسر التاء والحاء وفتح الطاء مشددة، وقرأ الحسن أيضاً، وأبو رجاء بفتح التاء وكسر الخاء والطاء وشدّها، وقرأ الأعمش: ﴿مِنْ السَّمَاءِ تَخَطَّفَهُ﴾ بغير فاء وعلى نحو قراءة الجماعة. وعطف المستقبل على الماضي لأنه بتقدير: فهو تَخَطَّفَهُ الطير. وقرأ أبو جعفر: ﴿الرِّيَّاحُ﴾.

﴿السَّحِيقُ﴾: البعيد، ومنه قولهم:

أَسْحَقَهُ اللَّهُ، ومنه قوله ﷺ: «فأقول سُحْقًا سُحْقًا»، ومنه: «نَخْلَةٌ سحوق» للبعيدة في السماء.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل: التقدير في هذا الموضع: الأمر ذلك. و﴿السَّعَائِرُ﴾ جمع شعيرة، وهو كلُّ شيءٍ لله تعالى فيه أمرٌ أشعر به وأعلم. وقالت فرقة: قصد بالشعائر في هذه الآية الهذلي والأنعام المشعرة، ومعنى (تعظيمها) التسمين والاهتيال بأمرها والمغالة بها، قاله ابن عباس، ومجاهد، وجماعة. وعود الضمير في ﴿فَأَنهَاهَا﴾ على التعظمة والفعللة التي تضمنها الكلام، وقرىء ﴿الْقُلُوبُ﴾ بالرفع على أنها فاعلة بالمصدر الذي هو ﴿تَقَوُّوا﴾. ثم اختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿لَكُلِّ فِيهَا مَنَافِعٌ﴾ الآية؛ فقال مجاهد وقادة: أراد أن للناس في أنعامهم منافع من الصوف واللبن وغير ذلك ما لم يبعثها رُبُّها هدياً، فإذا بعثها فهو (الأجلُ المُسَمَّى)، وقال عطاء بن أبي رباح: أراد: لكم في الهذلي المبعوث منافع من الركوب والاحتلاب من اضطر، و(الأجلُ المُسَمَّى): نحرها، وتكون ﴿تُدَّ﴾ لترتيب الجمل، لأن (المَجْلُ) قبل (الأجل)، ومعنى الكلام عند هاتين الفرقتين: ثمَّ مَجَّلُهَا إلى موضع النحر، فذكر البيت لأنه أشرف الحرم وهو المقصود بالهذلي وغيره. وقال ابن زيد، وابن عمر، والحسن: تلك الشعائر في هذه الآية مواضع الحج كلها ومَعَالِمُه بمنى وعرفة والمزدلفة والصفاء

والمروة والبيت وغير ذلك، وفي الآية التي تأتي أن البُذُن من الشعائر، و(الْمَنَافِعُ): التجارة وطلب الرُّزْق، ويحتمل أن يريد كسب الأجر والمغفرة، وبكل احتمال قالت فرقة. و(الأَجَلُ): الرجوع إلى مكة وطواف الإفاضة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَجَعْنَا﴾ مأخوذة من إخلال المُخْرِم معناه، ثم أخرج هذا كله إلى طواف الإفاضة بالبيت العتيق، فالبيت - على هذا التأويل - مراد بنفسه، قاله مالك في «الموطأ».

ثم أخبر تعالى أنه جعل لكل أمة من الأمم مَنَسَكًا، أي موضع نُسُك وعبادة، على أن المَنَسُك ظرف كالمذبح ونحو هذا، ويحتمل أن يريد المصدر، كأنه قال: عبادة ونحوها. والثَّايِبُ: العابد، وقال مجاهد: سُنَّة في إراقة دمائه الذبائح.

وقرأ معظم القراء: ﴿مَنَسَكًا﴾ بفتح السين، وهو من: نَسَكَ يَنسُك بضم السين في المستقبل. وقرأ حمزة والكسائي: ﴿مَنَسِكًا﴾ بكسر السين، قال أبو الفتح: «الفتح أولى؛ لأنه إما المصدر وإما المكان وكلاهما مفتوح، والكسر في هذا من الشاذ في اسم المكان أن يكون (مَفْعَل) من: فَعَّلَ يَفْعُل، مثل مَسَجَد، من: سَجَدَ يَسْجُدُ، ولا يسوغ فيه القياس، ويشبه أن الكسائي سمعه من العرب».

وقوله تعالى: ﴿يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ معناه: أمرناهم عند ذبائحهم

بذكر الله، وأن يكون الذبح له لأنه رازق ذلك، ثم رجح اللفظ من الخبر عن الأمم إلى إخبار الحاضرين بما معناه: فالإله واحد لجميعكم، فذلك الأمر في الذبيحة إنما ينبغي أن تخلص له، و﴿أَسْلِمُوا﴾ معناه: لِحَقِّهِ وَلِوَجْهِهِ وَإِنْتَائِيهِ آمَنُوا وَأَسْلِمُوا، ويحتمل أن يريد الاستسلام.

ثم أمر تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يبشِّر ببشارة على الإطلاق، وهي أبلغ من المفسرة لأنها مرسله مع نهاية التخيل. و﴿الْمُحَيِّتِينَ﴾: المتواضعين الخاشعين من المؤمنين، و«الخبث»: ما انخفض من الأرض، والمُخَيَّبُ: المتواضع الذي مشيه متظامن كأنه في حدود من الأرض، وقال عمرو بن أوس: الْمُخَيَّبُونَ: الذين لا يَظْلِمُونَ وَإِنْ ظَلِمُوا لم يتصروا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مثال شريف من خلق المؤمن الهَيِّن اللَّيِّن، وقال مجاهد: هم المعطمثون بأمر الله تعالى، ووصفهم تعالى بالخوف والوجل عند ذكر الله، وتلك لِقْوَةٌ يقينهم ومراعاتهم لرُبهم وكأنهم بين يديه، ووصفهم تبارك وتعالى بالصبر والصلاة وإقامة الصلاة وإدامتها، وقرأ الجمهور: ﴿الْمَلَكُونَ﴾ بالخفض، وقرأ ابن أبي إسحاق، والحسن: ﴿الصَّلَاةُ﴾ بالنصب على توهم النون وأن حذفها للتخفيف، ورويت عن أبي عمرو. وقرأ الأعمش: ﴿وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةُ﴾ بالنون والنصب في (الصلاة)، وقرأ الضحاک:

﴿وَالْمُقِيمِ الصَّلَاةُ﴾. وروي أن هذه الآية - قوله تعالى: ﴿وَدَشِّرِ الْمُحَيِّتِينَ﴾ - نزلت في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي رضي الله تعالى عنهم.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

(البُذُنُ): جمع بَذَنَة، وهي ما أشعر من ناقة أو بقرة، قاله عطاء وغيره، وسميت بذلك لأنها تَبْدُن، أي تَسْنُن، وقيل: بل هذا الاسم خاص بالإبل. وقالت فرقة: (البُذُنُ): جمع بَدَن بفتح الباء والدال، ثم اختلفت، فقال بعضها: البُذُن مفردٌ اسْمٌ جنس يُراد به العظيم السمين من الإبل والبقرة، ويقال للسمين من الرجال: بَدُن، وقال بعضها: البُذُن جمع بَذَنَة كَقَمَرَة وَثُمُر، وقرأ الجمهور: ﴿وَالْبَدَنُ﴾ ساكنة الدال، وقرأ ابن جعفر، وشيبة، والحسن، وابن أبي إسحاق: ﴿وَالْبَدَنُ﴾ بضم الدال، فيحتمل أن يكون جمع بَذَنَة كَثُمُر. وعدد الله تعالى في هذه الآية بضعه على الناس في هذه البُذُن، وقد تقدم القول في الشعائر. و(الْحَيِّزُ) قيل فيه ما قيل في (المنافع) التي تقدم ذكرها، والصواب عمومها في خير الدنيا والآخرة. وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾ يريد: عند نحرها.

وقرأ جمهور الناس: ﴿صَوَاتٍ﴾ بفتح الصاء وشدها، جمع صَافِيَة، أي: مطيعة في قيامها. وقرأ الحسن، ومجاهد، وزيد بن أسلم، وأبو موسى الأشعري، وشقيق،

وسليمان التيمي، والأعرج: ﴿صَوَافِي﴾ جمع صافية، أي: خالصة لوجه الله تعالى، لا شركة فيها لشيء كما كانت الجاهلية تشرك، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿صَوَافِي﴾ بكسر الفاء وتوينها مخففة، وهي بمعنى التي قبلها لكن حذفت الياء تخفيفاً على غير قياس، وفي هذا نظر. وقرأ ابن مسعود، وابن عمر، وابن عباس، وأبو جعفر محمد بن علي: ﴿صَوَافِيْنَ﴾ بالنون جمع صَافِيَّةٌ، وهي التي قد رفعت إحدى يديها بالعقل لثلاث تطرب، والصَّافِنُ من الخيل: الرافع لفراسته إحدى يديه، وقيل: إحدى رجليه، ومنه قوله تعالى: ﴿الْفَوَيْتُ أَخْبَدُوا﴾، وقال عمرو بن كلثوم:

تَرَكْنَا الْخَيْلَ عَاكِفَةً عَلَيْهِ
مُقَلَّدَةً أَعْيَتْهَا صُفُونَا
و﴿وَجَّتْ﴾ معناه: سقطت بعد نحرها، ومنه: وجبت الشمس، ومنه قول أوس بن حجر:

أَلَمْ تُكْسِفِ الشَّمْسُ وَالْبَدْرُ وَالْ
كَوَاكِبُ لِلْجَبَلِ الْوَاجِبِ
وقوله تعالى: ﴿فَكُنُوا﴾ ندب، وكل العلماء يستحب أن يأكل الإنسان من هديه، وفيه أجرٌ وامتثال إذ كان أهل الجاهلية لا يأكلون من هديهم، وقال مجاهد، وإبراهيم، والطبري: هي إباحة.

و(القَائِعُ): السائل، يقال: قَنَعَ الرجل يَفْتَعُ قَنوعاً إذا سأل، بفتح النون في الماضي، وقنع بكسر النون يَفْتَعُ قناعة فهو قَنِعٌ إذا تَعَفَّفَ واستغنى بِبُلْغَتِهِ،

قاله الخليل، ومن الأول قول الشماخ:

لَمَّا لَ الْمَرْءُ يُضْلِحُهُ فَيُغْنِي
مَفَايِرَهُ أَعْفُ مِنْ الْقُسُوعِ
فَمُحَوِّزُوا الْقَوْلَ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ
قالوا: القانع: السائل.

و(الْمُعْتَرُ): المعترض من غير سؤال، قاله محمد بن كعب القرظي، ومجاهد، وإبراهيم، والكلبي، والحسن بن أبي الحسن، وعكست فرقة هذا القول، حكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: القانع: المستغني بما أعطيته، والمُعْتَرُ هو المعترض، وحكى عنه أنه قال: القانع: الْمُتَعَفِّفُ، والمُعْتَرُ: السائل، وحكى عن مجاهد أنه قال: القانع: الجارُ وإن كان غنياً، وقرأ أبو رجاء ﴿الْقَنِيعُ﴾، فعلى هذا التأويل معنى الآية: أطمعوا المتعفف الذي لا يأتي معترضاً، وذهب أبو الفتح ابن جني إلى أنه أراد «القَائِعُ» فحذف الألف تخفيفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد؛ لأن توجيهها على ما ذكرته آنفاً أحسن، وإنما يلجأ إلى هذا إذا لم توجد مندوحة، وقرأ أبو رجاء، وعمرو بن عبيد: ﴿الْمُعْتَرِي﴾، والمعنى واحد، ويروى عن أبي رجاء ﴿وَالْمُعْتَرِي﴾ بتخفيف الراء، وقال الشاعر:

لَمَمْرُكَ مَا الْمُعْتَرِي يُغْسِي بِلَادَنَا
لِنَمْتَعَهُ بِالضَّائِعِ الْمُتَهَضِّمِ
وذهب ابن مسعود رضي الله عنه

إلى أن الهدى أثلاث، فقال جعفر بن محمد عن أبيه: أطمع القانع والمُعْتَرُ ثلاثاً، والبائس الفقير ثلاثاً، وأهلي ثلاثاً، وقال ابن المسيب: ليس لصاحب الهدى منه إلا الرُّبْعُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله على جهة الاستحسان لا على الفرض، ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾، أي: كما أمرتكم فيها بهذا كله سخرناها لكم، و﴿لَمَلِكُمْ﴾ تَرَجَّحَ في حقنا وبالإضافة إلى نظرنا.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأَلَّ﴾ عبارة مبالغة وتوكيد، وهي بمعنى: لن يرتفع عنده ويتحصل سبب ثواب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إن أهل الجاهلية كانوا يُضَرِّجُونَ البيت بالدماء فأراد المؤمنون فعل ذلك فنهى الله تعالى عن ذلك ونزلت هذه الآية، والمعنى: ولكن ينال الرفعة عنده والتحصل حسنة لديه التقوى، أي الإخلاص وعمل الطاعات. وقرأ مالك بن دينار، والأعرج، وابن يَغمَر، والزهري: ﴿لَنْ تَنَالُ﴾، و﴿وَلَكِنْ تَنَالُهُ﴾ بناءً فيهما.

والتسمية والتكبير على الهدى والأضحية أن يقول الذابح: باسم الله والله أكبر، وروي أن قوله تعالى: ﴿وَيَذِّرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ نزلت في الخلفاء الأربعة رضي الله تعالى عنهم حسبما تقدم في التي قبلها، فأما ظاهر اللفظة فيقتضي العموم في كل محسن.

والأعمش إلا أنهما فتحا همزة ﴿أُذِنَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتَهُمْ ظُلْمًا﴾^١ معناه: كان الإذن بسبب أنهم ظلموا، قال ابن جريج: وهذه الآية أول ما نقض الموادعة. قال ابن عباس، وابن جبير: نزلت عند هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: لما سمعتُ علمتُ أنه سيكون قتال، وقال مجاهد: الآية في مؤمنين بمكة أرادوا الهجرة إلى المدينة فمنعوا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما بعد هذه الآية يردُّ هذا القول؛ لأن هؤلاء مُنَعُوا الخروج لا أُخْرِجُوا. ثم وعد تعالى بالنصر في قوله سبحانه: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَهْيِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ يريد كلُّ من نبتَّ به مكة وآذاه أهلها حتى أُخْرِجوه بإذيتهم، طائفة إلى الحبشة وطائفة إلى المدينة، ونسب الإخراج إلى الكفار لأن الكلام في معرض تقرير الذنب والزامه. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ استثناء منقطع ليس من الأول، هذا قول سيبويه، ولا يجوز عنده في البدل، وجوزّه أبو إسحاق، والأول أصوب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ﴾ الآية تقوية للأمر بالقتال، وذكر الحجة بالمصلحة فيه، وذكر أنه متقدم في الأمم، وبه صلحت الشرائع واجتمعت المتعبّادات، فكأنه قال: أذن في القتال فليقاتل

الاخفش: أكثر الكلام أن الله يدفع، ويقولون: دفع الله عنك إلا أن دفع أكثر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يحسن في الآية ﴿يُدْفَعُ﴾ لأنه قد عنَّ للمؤمنين من يدفعهم ويؤذيهم فتجئ معارضته ودفعه مدافعة عنهم، وحكى الزهراوي أن (دفاعاً) مصدر (دَفَع)، كحسبت حساباً.

ثم أذن الله تعالى في قتال المؤمنين لمن قاتلهم من الكفار بقوله:

﴿أُذِنَ﴾، وصورة الإذن

مختلفة بحسب القراءات، فبعضها أقوى من بعض. فقرأ نافع، وحفص عن عاصم: ﴿أُذِنَ﴾ بضم الألف. ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ بفتح التاء، أي: في أن يقاتلوه، فالإذن في هذه القراءة ظاهر أنه في مجازاة. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، والحسن، والزهري: ﴿أُذِنَ﴾ بضم الألف ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ بكسر التاء، فالإذن في هذه القراءة في ابتداء القتال. وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: ﴿أُذِنَ﴾ بفتح الألف ﴿يُقَاتِلُونَ﴾ بكسر التاء، وقرأ ابن عامر بفتح الألف والتاء جميعاً، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ بكسر التاء، وفي مصحف أبي ﴿أُذِنَ﴾ بضم الهمزة ﴿لِلَّذِينَ قَاتَلُوا﴾، وكذلك قرأ طلحة

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَهْيِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ هَدَمْتَ صَوْمِعَ وَيَسَّعَ وَصَلَوْتَ وَمَسْجِدًا يُذَكِّرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيْسَ صِرَاطُ اللَّهِ مِنْ بَصِيرَةٍ ﴿٣٩﴾ وَإِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَقِيبُهُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يَكْفُرْ بِكَ فَكُذِّبَتْ قِبَلَهُمْ قَوْمٌ نُوحٌ وَعَادٌ وَمُؤَمَّدٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمٌ آخَرِهِمْ وَقَوْمٌ لُوطٌ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلْنَا لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَمَنَّا كَانِ تَكْوِينًا ﴿٤٤﴾ فَكَايِنٌ مِنْ قَرِينَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فِيهَا تَارِيحٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَبْرِ مَعْطَلٍ وَفَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّمَا لَا تَعْمَىٰ الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾

٣٣٧ - تفسير قوله عز وجل:

روي أن هذه الآية نزلت بسبب المؤمنين، لما كثروا بمكة وآذاهم الكفار وهاجر من هاجر إلى أرض الحبشة أراد بعض مؤمني مكة أن يقتل من أمكنه من الكفار ويغتال ويغدر ويحتال، فنزلت هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿كُفِّرُوا﴾، ووعد فيها بالمدافعة، ونهى أفصح نهي عن الخيانة والغدر. وقرأ نافع، والحسن، وأبو جعفر: ﴿يُدْفَعُ﴾ ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿يُدْفَعُ﴾، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿يُدْفَعُ﴾، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ﴾. قال أبو علي: أُجريت (دَفَع) في هذه القراءة مجرى (دَفَع)، كعاقبت اللصَّ وطارت النعل، فجاء المصدر دَفَعًا، قال أبو الحسن

المؤمنون، ولولا القتال والجهاد لَتُغْلَبَ على الحق في كل أمة. هذا أصوب تأويلات الآية. ثم ما قيل بَعْدُ من مُثْلِ الدفاع تبع للجهاد. وقال مجاهد: ولولا دفع الله ظلم قوم لشهادة العدول ونحو هذا، وقالت فرقة: ولولا دفع الله ظلم الظلمة بعدل الولاة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ولولا دفع الله بأصحاب محمد ﷺ الكفار عن التابعين فمن بعدهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله فيه دفع قوم يقوم إلا أن معنى القتال أليق بما تقدم من الآية. وقالت فرقة: ولولا دفع الله العذاب بدعاء الفضلاء والأخيار ونحوه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا وما شاكله مفسد لمعنى الآية، وذلك أن الآية تقتضي ولا بُدَّ مدفوعاً من الناس ومدفوعاً عنه، فتأمل.

وقرأ نافع، وابن كثير: ﴿لَهْدِمَتْ﴾ مخففة الدال، وقرأ الباقون: ﴿مَلَّيَتْ﴾ مشددة الدال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه تَحْسُنُ من حيث هي صوامع كثيرة ففي هدمها تكرار وكثرة، كما قال تعالى: ﴿فِي رُبُوعٍ مُّسْتَدِيرَةٍ فَتَقِلَّ السَّيَاءُ، وَقَالَ: ﴿وَقَصَّرَ مُشِيدٍ﴾ فخفف لكونه فرداً، ومنه ﴿وَعَلَّقَتِ الْأَيْتَانَ﴾، و﴿مُنْتَمَعَةً لِّمِ الْأَيْتَانَ﴾.

و(الصَّوْمُعَةُ): موضع العبادة، وزنها فَوْعَلَةٌ، وهي بناء مرتفع منفرد حديد الأعلى، والصَّوْمُعُ من الرجال: الحديد القلب، وكانت قبل الإسلام مختصة برهبان النصراني

ويُعْبَاد الصابئين - قاله قتادة - ثم استعمل في مثذبة المسلمين. و(السَّبِيحُ): كنانيس النصراني، واحدتها سَبِيحَةٌ، وقال الطبري: «وقيل: هي كنانيس اليهود».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم أدخل عن مجاهد ما لا يقتضي ذلك.

و(الصَّلَوَاتُ) مشتركة لكل ملة، واستعير الهدم للصلوات من حيث تُعْطَلُ، أو أراد: موضع صلوات، وذهبت فرقة إلى أن (الصَّلَوَاتُ) اسم لكنائس اليهود، وأن اللَّفْظَةَ عبرانية عُرِبَتْ، وليست بجمع صلاة. وقال أبو العالية: الصَّلَوَاتُ مساجد الصابئين. واختلقت القراءة؛ فقرأ

جمهور الناس: ﴿صَلَوَاتُ﴾ بفتح الصاد واللام وبالتاء بنقطتين، وذلك إما بتقدير: مواضع صلوات، وإما على أن تعطيل الصلوات هدمها.

وقرأ جعفر بن محمد: ﴿صَلَوَاتُ﴾ بفتح الصاد وسكون اللام. وقرأت فرقة: ﴿صَلَوَاتُ﴾ بكسر الصاد وسكون اللام، حكاهما ابن جنِّي.

وقرأ الجحدري - فيما روي عنه - : ﴿وَصَلَوَاتُ﴾ بنقطتين من فوق وبضم الصاد واللام، على وزن فُعُول، قال: وهي مساجد النصراني. وقرأ

الجحدري، والحجاج بن يوسف: ﴿وَصَلُوبُ﴾ بضم الصاد واللام وبالباء، على أنه جمع صليب. وقرأ الضحاك والكلبي: ﴿وَصَلُوتُ﴾ بضم الصاد واللام والشاء منقوطة ثلاثاً، قالوا: وهي مساجد اليهود.

وقرأت فرقة: ﴿صَلَوَاتُ﴾ بفتح الصاد وسكون اللام، وقرأت فرقة:

﴿وَصَلَوَاتُ﴾ بضم الصاد واللام. حكاهما ابن جنِّي، وقرأت فرقة: ﴿صَلَوَاتُ﴾ بضم الصاد واللام وقصر الألف بعد التاء، وحكى ابن جنِّي أن خارج باب الموصل بيوت تدفن فيها النصراني يقال لها: صَلَوَات. وقرأ عكرمة، ومجاهد: ﴿صِلَوَاتُ﴾ بكسر الصاد وسكون اللام وكسر الواو وقصر الألف بعد التاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهب خصيف إلى أن هذه الأسماء قصدتها تقسيم متعبدات الأمم، فالصوامع للرهبان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقيل: للصابئين، والبيعُ للنصراني، والصلوات لليهود، والمساجد للمسلمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر أنه قصد بها المبالغة في ذكر المتعبدات، وهذه الأسماء تشترك الأمم في مُسَمِّيَاتِهَا إِلَّا الْبَيْعَةَ فَإِنَّهَا مختصة بالنصراني في عرف لغة العرب، ومعاني هذه الأسماء هي في الأمم التي لهم كتاب على قديم الدهر، ولم يذكر في هذه الآية المجوس ولا أهل الشرك لأن هؤلاء ليس لهم ما تجب حمايته، ولا يوجد ذكر الله تعالى إلا عند أهل الشرائع.

وقوله تعالى: ﴿يَذَكَّرُ فِيهَا أَسْمَ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ الضمير عائد على ما تقدّم. ثم وعد الله تبارك وتعالى بنصره ونصر دينه وشرعه، وذلك حضُّ على القتال والجدِّ فيه، ثم الآية تُمُّ كُلُّ من نصر حقاً إلى يوم القيامة.

أوعبت القول في معنى هذه اللفظة وقراءتها في سورة آل عمران، في قوله تعالى: ﴿وَكَايِنٌ مِّن نَّبِيٍّ﴾، وهي لفظة إخبار، وقد تجيء استفهاماً، حكى الفراء: كأيّن مالك؟ أي: كم مالك؟ وقرأت فرقة: ﴿أَفَلَا نَكْنَاهَا﴾، وقرأت فرقة: ﴿أَفَلَا نَكْنَاهَا﴾، والإفراد، والمراد أهل القرية. و﴿ظَالِمَةٌ﴾ معناه: بالكفر، و﴿خَاوِبَةٌ﴾ معناه: خالية، ومنه: خوى النجم إذا خلا من القوة، ونحوه «ساقطة على عروشها»، و(العروش) السقوف، فالمعنى أن السقوف سقطت ثم وقعت الحيطان عليها فهي على العروش.

وقوله تعالى: ﴿وَيَبْرُؤُا مُعَظَلَةٍ﴾، قيل: هو معطوف على (العروش)، وقيل: على (القرية)، وهو أصوب. وقرأت فرقة: ﴿وَيَبْرُؤُا﴾ بهمزة على الياء، وسهّلها الجمهور. وقرأت فرقة: ﴿مُعَظَلَةٍ﴾ بفتح الميم وسكون العين وفتح الطاء وتخفيفها، والجمهور على ﴿مُعَظَلَةٍ﴾ بضم الميم وفتح العين وشد الطاء. و(المشيد): المنيب بالشيد وهو الجص، وقيل: المشيد: المعلّى بالأجر ونحوه فمن المشيد قول عدي بن زيد:

شَادَةٌ مَزْمَرًا وَجَلَّلَهُ كِلْدًا
سَأْفَلِطِيْرٍ فِي ذُرَاةٍ وَكُوْرُ
شَادَةٌ: بناء بالشيد، والأظهر في البيت أنه أراد: علاه بالمرمر. وقالت فرقة في هذه الآية: إن (مشيداً) معناه: معلّى مُحَصَّنًا، ومعنى الآية يقتضي أنه كان كذلك قبل خرابه.

ثم وبّخهم على الغفلة وترك الاعتبار بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَسِيرُوا

الناس، وهذا على أن ﴿الَّذِينَ﴾ بدل من قوله تبارك وتعالى: ﴿يَقْتُلُونَ﴾. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أو على أن ﴿الَّذِينَ﴾ تابع لـ ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَبْغُضْهُ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمُ الْأُنُورِ﴾ توعدّ للمخالف عن هذه الأوامر التي تقتضيها الآية لمن مكن.

قوله تعالى: ﴿وَأَن يَكْذِبُوا﴾ يعني قريشاً، وهذه آية تسلية للنبي ﷺ ووعيد لقريش، وذلك أنه مثلهم بالأسم المكذبة

المعدّبة. وأسند فعلاً فيه علامة التأنيث إلى ﴿قَوْمٌ﴾ من حيث أراد الأمة والقبيلة ليطرد القول في عاد وثمود، وقوم نوح هم أول أمة كذبت نبيها. ثم أسند التكذيب في موسى عليه السلام إلى ما لم يُسَمَّ فاعله من حيث لم يكذبه قومه بل كذبه القبط وقومه مؤمنون به. و﴿فَأَمَلَيْتُ﴾ معناه: أمهلت، وكان الإملة أن تُمهّل من تنوي فيه المعاقبة وأنت في حيز إمهالك عالم بفعله. و(التكبير) مصدر كالغدير بمعنى الإنكار والإعذار، وهو في هذه المصادر بناءً مبالغة، فمعنى هذه الآية: فكما فعلت بهذه الأمم كذلك أفعّل بقومك.

١٥١ - ١٥٢ تفسير قوله عز وجل:

﴿فَكَأَيِّنْ﴾ هي كاف التشبيه دخلت على «أي»: قاله سيبويه، وقد

وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ وَلَنُخَلِّفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِن يَوْمًا
عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مَّا نَعُدُّونَ ﴿١٥١﴾ وَكَأَيِّنْ مِن
قَرِيْبَةٍ أَمَلَيْتُهَا وَهُيَ ظَالِمَةٌ تَأْتِي الْوَالِدَ الْمَصِيْبُ
﴿١٥٢﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَلْهَىٰكُمْ فِرْعَوْنُ وَإِ
مَّاوَأَعْمَلُوا الصَّنَائِعَ لَمْ يَغْفِرْ لَكُمْ فِرْعَوْنُ وَرِزْقُ كُرَيْبٍ
وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيْمِ
﴿١٥٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُوْلٍ وَلَا نَبِيٍّ إِذًا تَتَخَفُ
أَتَى الشَّيْطٰنُ فِيْ أَمْنِيَّتِهِ، فَيَسْخُ اللَّهُ مَا يَلْقَى الشَّيْطٰنُ
ثُمَّ يَحْكُمُ اللَّهُ لَهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيْمٌ حَكِيْمٌ ﴿١٥٤﴾ لِيَجْعَلَ
مَا يَلْقَى الشَّيْطٰنُ فِتْنَةً لِّلَّذِيْنَ فِي قُلُوْبِهِمْ مَّرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ
قُلُوْبُهُمْ وَإِن كَانَ الظَّالِمِيْنَ لَنِي شِقَاقِيْ بَعِيْدٍ ﴿١٥٥﴾ لِيَعْلَمَ
الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَتُؤْمِنُوْا بِهِ
فَتَحِيْبٌ لَهُ قُلُوْبُهُمْ وَإِن لِّلَّهِ لَهَادٍ لِّلَّذِيْنَ ءَامَنُوْا لِيَصْرَطُوْا
مُسْتَقِيْمِيْنَ ﴿١٥٦﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي رِيْبٍ مِّنْهُ حَتَّى
تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ يَعْقِبُ ﴿١٥٧﴾

٢٣٨

١٥١ - ١٥٢ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: هذه الآية في الخلفاء الأربعة رضي الله عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا التخصيص أن هؤلاء خاصة مكنوا في الأرض من جملة الذين يقتلون المذكورين في صدر الآية، والعموم في هذا كله آيين، ويتجّه الأمر في جميع الناس، وإنما الآية آخذة عهداً على كل من مكنته الله تعالى، كل على قدر ما مكن. فأما الصلاة والزكاة فكل مأخوذ بإقامتها، وأما الأسر بالمعروف والنهي عن المنكر فكل بحسب قوته، والآية أمكن ما هي في الملوك، والمعروف والمنكر يعثمان الإيمان والكفر فما دونهما.

وقالت فرقة: نزلت هذه الآية في أصحاب محمد ﷺ خاصة من

الجحيم، وهذا كله مما أمر أن يقوله، أي: هذا معنى رسالتي لا ما تمنون أنتم.

وقوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾ معناه: تحيلوا وكادوا، من السعاية، و(الآيات): آيات القرآن، أي: كادوا بالتكذيب وسائر أقوالهم. وقرأت فرقة: ﴿مُعْجِزِينَ﴾، معناه: مغالين، كأنهم طلبوا عجز صاحب الآيات، والآيات تقتضي تعجزهم، فصارت مُفاعلة. وعبر بعض الناس في تفسير ﴿مُعْجِزِينَ﴾ بِظَانِّينَ أَنَّهُمْ يَغْلِبُونَ اللَّهَ تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفسير خارج عن اللفظة. وقرأت فرقة: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ بغير ألف وبشد الجيم، ومعناه: معجزين الناس عن الإيمان، أي جاعلوهم بالشيط عجزة عن الإيمان. وقال أبو علي: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ معناه: ناسبين أصحاب النبي ﷺ إلى العجز، كما تقول: فَسَمْتُ فُلَانًا وَرَبَّتُهُ، أي نَسَبْتُهُ إلى ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ﴾ الآية تسلية للنبي ﷺ عن النازلة التي ألقى الشيطان فيها في أمنية النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

﴿وَتَمَنَّيْ﴾ معناه المشهور: أراد وأحب، وقالت فرقة: هو معناها في الآية، والمراد أن الشيطان ألقى ألفاظه بسبب ما تمناه رسول الله ﷺ من مقارنة قومه وكونهم متبعين له، قالوا: فلما تمنى رسول الله ﷺ من ذلك ما لم يقضه الله تبارك وتعالى وجد الشيطان السبيل، فحين قرأ

فهذا التأويل يقتضي أن عشرة آلاف سنة إلى ما لا نهاية من العدد في حكم الألف، ولكنهم قالوا: ذكر الألف لأنها منتهى العدد دون تكرار فاقصر عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل لا يناسب الآية. وقالت فرقة: إن المعنى أن اليوم عند الله تعالى ألف سنة من هذا العد، فمن ذلك قول النبي ﷺ: ﴿إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ تُوَخَّرَ أُمَّتِي نِصْفَ يَوْمٍ﴾، وقوله: «يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، وذلك خمسمائة سنة»، ومنه قول ابن عباس رضي الله عنهما: «مقدار الحساب يوم القيامة ألف سنة»، فكأن المعنى: وإن طال الإمهال فإنه في بعض يوم من أيام الله.

وكرر قوله تعالى: ﴿وَكَايْنٍ﴾ لأنه جلب معنى آخر، ذكر أولاً القرى المهلكة دون إملاء بل بعقب التكذيب، ثم نثى بالمهلة لئلا يفرح هؤلاء بتأخر العذاب عنهم. وقرأت فرقة: ﴿تَعْدُونَ﴾ بالثاء، وقرأت فرقة: ﴿تَعْدُونَ﴾ بالياء على الغائب.

﴿٤٩﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل يا محمد: إنما أنا نذير عذاب الله، ليس إلي أن أعجل عذاباً ولا أن أؤخره عن وقته. ثم قسم حالة المؤمنين والكافرين بأن للمؤمنين سُزْرَةٌ ذنوبهم وبرزقه إياهم في الجنة. و(الكريم) صفة نفي المذام، كما تقول: ثوب كريم، وبأن للكافرين المعاجزين عذاب

في الأرض، أي: في البلاد فينظروا في أحوال الأمم المكذبة المعذبة. وهذه الآية تقتضي أن العقل في القلب، وذلك هو الحق، ولا ينكر أن للدماغ اتصالاً بالقلب يوجب فساد العقل إذا اختل الدماغ. وقوله تعالى: ﴿تَكْفُرُونَ﴾ نصب بالفاء في جواب الاستفهام، صُرف الفعل من الجزم إلى النصب.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ﴾ لفظة مبالغة كأنه قال: ليس العمى عمى الأبصار وإنما العمى حق العمى عمى القلب، ومعلوم أن الأبصار تغمى ولكن المقصود ما ذكرناه، وهكذا قوله عليه الصلاة والسلام: «ليس الشديد بالضُرعة»، و«ليس المسكين بهذا الطَّوْفِ». والضمير في ﴿فَإِنَّهَا﴾ للقصة ونحوها من التقدير. وقوله تعالى: ﴿الَّتِي فِيهَا الْكُفْرُ﴾، وكما تقول: نظرت إليه بعيني، ونحو هذا.

والضمير في ﴿وَسَتَجِدُنَّكَ﴾ لقريش، وقوله: ﴿وَلَنْ يَخْلَفَ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ وعيد وإخبار بأن كل شيء إلى وقت محدود، والوعد هنا مقيد بالعذاب لذلك ورد في مكروه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ﴾، قالت فرقة: وإن يوماً من أيام عذاب الله تعالى كألف سنة مما تعدون من هذه لطول العذاب وبؤسه، فكأن المعنى: فما أجهل من يستعجل هذا، وقالت فرقة: وإن يوماً عند الله لإحاطته به وعلمه وإنفاذ قدرته كألف سنة عندهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

رسول الله ﷺ سورة النجم في مسجد مكة وقد حضر المسلمون والمشركون بلغ إلى قوله: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١﴾ وَمَوَدَّةَ الثَّاَلَةِ الْآخَرَىٰ ﴿٢﴾﴾ ألقى الشيطان تلك الغرائقة العلى وإن شفاعتهن لَتُرْتَجَى، فقال الكفار: هذا محمد يذكر أهتنا بما نريد، وفرحوا بذلك، فلما انتهى إلى السجدة سجد الناس أجمعون إلا أمية بن خلف، فإنه أخذ قبضة من تراب فرفعها إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، قال البخاري: هو أمية بن خلف، وقال بعض الناس: هو الوليد بن المغيرة، وقال بعض الناس: هو أبو أحيحة سعيد بن العاصي، ثم اتصل بمهاجرة الحبشة أن أهل مكة اتبعوا محمداً ﷺ وفرحوا لذلك، وأقبل بعضهم فوجدوا ألقى الشيطان قد نسخت وأهل مكة قد افتنوا.

وقالت فرقة: ﴿تَمَنَّى﴾ معناه: تلا، والأمنية: التلاوة، ومنه قول الشاعر: تَمَنَّى كِتَابَ اللَّهِ أَوَّلَ لَيْلَةٍ وَأَخْرَجَهَا لِأَقْسَى حِمَامِ الْمَقَادِرِ ومنه قول الآخر:

تَمَنَّى دَاوُدَ الرَّبُّورِ عَلَى رِشْلِ وَتَأْوَلُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا مَنَاقِبُ﴾، أي: إلا تلاوة. وقالت هذه الفرقة في معنى سبب إلقاء الشيطان في تلاوة النبي ﷺ ما تقدم أنفاً من ذكر الآلهة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا الحديث الذي فيه هذه الغرائقة وقع في كتب التفسير ونحوها، ولم يدخله البخاري ولا مسلم، ولا ذكره

- في علمي - مصنف مشهور، بل يقتضي مذهب أهل الحديث أن الشيطان ألقى، ولا يُعِينون هذا السبب ولا غيره، ولا خلاف أن إلقاء الشيطان إنما هو لألفاظ مسموعة بها وقعت الفتنة. ثم اختلف الناس في صورة هذا الإلقاء؛ فالذي في التفاسير - وهو مشهور القول - أن النبي ﷺ تكلم بتلك الألفاظ، وأن الشيطان أوهمه ووسوس في قلبه حتى خرجت تلك الألفاظ على لسانه، وزوي أنه نزل إليه جبريل عليه السلام بعد ذلك فدارسه سورة النجم، فلما قالها رسول الله ﷺ قال له جبريل: لم آتت بهذا، فقال رسول الله ﷺ: افتريت على الله وقلت ما لم يقل لي، وجعل يتفجع ويغتم، فنزلت هذه الآية: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وحدثني أبي رحمه الله أنه لقي بالمشرق من شيوخ العلماء والمتكلمين من قال: هذا لا يجوز على النبي ﷺ وهو المعصوم في التبليغ، وإنما الأمر أن الشيطان نطق بلفظ أسمعه الكفار عند قول النسبي ﷺ: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١﴾ وَمَوَدَّةَ الثَّاَلَةِ الْآخَرَىٰ ﴿٢﴾﴾، وقرب صوته من صوت النبي صلى الله عليه وآله وسلم حتى التبس الأمر على المشركين وقالوا: محمد قرأها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ﴿تَمَنَّى﴾ - على هذا التأويل - بمعنى: (تلا) ولا بُدُّ، وقد ورد هذا

التأويل عن الإمام أبي المعالي رحمه الله وغيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والرَسُولُ أخص من النبي، وكثير من الأنبياء لم يُرسلوا، وكل رسول نبي. (والشَّخْخُ) في هذه الآية: الإذهاب، كما تقول: نسخت الشمس الظل، وليس برفع ما استقر من الحكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وطُوف الطبري وأشبع الإسناد في أن إلقاء الشيطان على لسان النبي ﷺ، واختلفت الروايات في الألفاظ ففي بعضها: «تلك الغرائقة»، وفي بعضها: «وإن شفاعتهن»، وفي بعضها: «منها الشفاعة تُرْتَجَى».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرائيق: السادة العظام الأقدار، ومنه قول الشاعر:

أَفَلَا بِصَّائِدَةِ الْغُرَايِقِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَجْعَلُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ﴾ الآية. اللام في قوله تعالى: ﴿يَجْعَلُ﴾ متعلقة بقوله: ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ﴾، (والفتنة): الامتحان والاختبار، (والأذنين في قلوبهم مَرَضٌ) هم عامة الكفار، (والقاسية جهل، والنضر، وعقبة. والشقاق): البعد عن الخير، والضلال، والكون في شق غير شق الصلاح، و﴿بَيِّرٌ﴾ معناه أنه انتهى بهم وتعمق فَرَجَعْتُهُمْ منه غير مرجوة.

و﴿الَّذِينَ أَرَادُوا الْوِعَادَ﴾ هم أصحاب محمد ﷺ، والضمير في ﴿أَنَّهُ﴾ عائد على القرآن، و﴿فَتَحَّتْ﴾ معناه: تتطامن وتخضع، وهو مأخوذ من الحَبَّتْ، وهو المطمئن من

فَأَمَّا مَنْ تَأَوَّلَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَاتَسْتَقْ لَهُ قَوْلُهُ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، وَمَنْ تَأَوَّلَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ وَنَحْوِهِ جَعَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ابْتِدَاءً خَيْرَ عَنْ حَالِهِمُ الْمَتْرَكَةِ عَلَى حَالِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَقِيمِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية ابتداءً معني آخر، وذلك أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: مَنْ قَتَلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلَ مِمَّنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُسَوِّبَةً بَيْنَهُمْ فِي أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرْزُقُ جَمِيعَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا، وَلَيْسَ هَذَا بِقَاضٍ بِتَسَاوِيهِمْ فِي الْفَضْلِ، وَظَاهِرُ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْمَقْتُولَ أَفْضَلُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْمَقْتُولُ وَالْمَيِّتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدَانِ، وَلَكِنْ لِلْمَقْتُولِ مَرْئِيَّةٌ مَا أَصَابَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. (وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ) يَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ رِزْقُ الشَّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي الْبَرَزِخِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ بَعْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي الْجَنَّةِ.

وقرأت فرقة: ﴿مُدْخَلًا﴾ بفتح الميم من (دَخَلَ)، فهو محمول على فعل مقدر تقديره: فَيَدْخُلُونَ مَدْخَلًا، وقرأت فرقة: ﴿مُدْخَلًا﴾ بضم الميم من (أَدخَلَ).

فَأَمَّا مَنْ تَأَوَّلَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ فَاتَسْتَقْ لَهُ قَوْلُهُ: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿عَذَابٌ مُهِينٌ﴾، وَمَنْ تَأَوَّلَ فِي يَوْمِ بَدْرٍ وَنَحْوِهِ جَعَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ ابْتِدَاءً خَيْرَ عَنْ حَالِهِمُ الْمَتْرَكَةِ عَلَى حَالِهِمْ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ الْعَقِيمِ مِنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية ابتداءً معني آخر، وذلك أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: مَنْ قَتَلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلَ مِمَّنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُسَوِّبَةً بَيْنَهُمْ فِي أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرْزُقُ جَمِيعَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا، وَلَيْسَ هَذَا بِقَاضٍ بِتَسَاوِيهِمْ فِي الْفَضْلِ، وَظَاهِرُ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْمَقْتُولَ أَفْضَلُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْمَقْتُولُ وَالْمَيِّتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدَانِ، وَلَكِنْ لِلْمَقْتُولِ مَرْئِيَّةٌ مَا أَصَابَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. (وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ) يَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ رِزْقُ الشَّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي الْبَرَزِخِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ بَعْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي الْجَنَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية ابتداءً معني آخر، وذلك أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: مَنْ قَتَلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلَ مِمَّنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُسَوِّبَةً بَيْنَهُمْ فِي أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرْزُقُ جَمِيعَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا، وَلَيْسَ هَذَا بِقَاضٍ بِتَسَاوِيهِمْ فِي الْفَضْلِ، وَظَاهِرُ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْمَقْتُولَ أَفْضَلُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْمَقْتُولُ وَالْمَيِّتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدَانِ، وَلَكِنْ لِلْمَقْتُولِ مَرْئِيَّةٌ مَا أَصَابَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. (وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ) يَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ رِزْقُ الشَّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي الْبَرَزِخِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ بَعْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي الْجَنَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية ابتداءً معني آخر، وذلك أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: مَنْ قَتَلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلَ مِمَّنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُسَوِّبَةً بَيْنَهُمْ فِي أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرْزُقُ جَمِيعَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا، وَلَيْسَ هَذَا بِقَاضٍ بِتَسَاوِيهِمْ فِي الْفَضْلِ، وَظَاهِرُ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْمَقْتُولَ أَفْضَلُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْمَقْتُولُ وَالْمَيِّتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدَانِ، وَلَكِنْ لِلْمَقْتُولِ مَرْئِيَّةٌ مَا أَصَابَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. (وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ) يَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ رِزْقُ الشَّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي الْبَرَزِخِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ بَعْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي الْجَنَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الآية ابتداءً معني آخر، وذلك أنه لما مات بالمدينة عثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد قال بعض الناس: مَنْ قَتَلَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ أَفْضَلَ مِمَّنْ مَاتَ حَتْفَ أَنْفِهِ، فَتَزَلَّتْ هَذِهِ الْآيَةُ مُسَوِّبَةً بَيْنَهُمْ فِي أَنْ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَرْزُقُ جَمِيعَهُمْ رِزْقًا حَسَنًا، وَلَيْسَ هَذَا بِقَاضٍ بِتَسَاوِيهِمْ فِي الْفَضْلِ، وَظَاهِرُ الشَّرِيعَةِ أَنَّ الْمَقْتُولَ أَفْضَلُ. وَقَدْ قَالَ بَعْضُ النَّاسِ: الْمَقْتُولُ وَالْمَيِّتُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ شَهِيدَانِ، وَلَكِنْ لِلْمَقْتُولِ مَرْئِيَّةٌ مَا أَصَابَ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى. (وَالرِّزْقُ الْحَسَنُ) يَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ رِزْقُ الشَّهَدَاءِ عِنْدَ رَبِّهِمْ فِي الْبَرَزِخِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ بَعْدَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ فِي الْجَنَّةِ.

الأرض. وقرأت فرقة: ﴿لَهَادٍ﴾ بغير ياء بعد الدال، وقرأت فرقة: ﴿لَهَادِي﴾ بياء، وقرأت فرقة: ﴿لَهَادٍ﴾ بالتثوين وترك الإضافة، وهذه الآية معادلة لقوله تعالى قبل: ﴿وَإِنَّ أَظْلَمِينَ لَيَسْئَلُنِي عَنِّي﴾.

٥٦ - ٥٧ - تفسير قوله عز وجل:

(الْمَرْئِيَّةُ): الشُّكُّ، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿بَيْنَهُ﴾ قَالَتْ فِرْقَةٌ: هُوَ عَائِدٌ عَلَى الْقُرْآنِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: عَلَى مَا أَلْقَى الشَّيْطَانُ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ أَيْضًا: عَلَى سَجُودِ النَّبِيِّ ﷺ فِي سُورَةِ النَّجْمِ، وَ«السَّاعَةُ» قَالَتْ فِرْقَةٌ: أَرَادَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ (وَالْيَوْمِ الْعَقِيمِ) يَوْمَ بَدْرٍ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: «السَّاعَةُ» سَاعَةٌ مَوْتُهُمْ أَوْ قَتْلُهُمْ فِي الدُّنْيَا كَيَوْمِ بَدْرٍ وَنَحْوِهِ، (وَالْيَوْمِ الْعَقِيمِ) يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان جيدان لأنهما أحزما التقسيم (أو)، ومن جعل «الساعة» واليوم العقيم» يوم القيامة فقد أفسد رتبة (أو)، وسمي يوم القيامة أو يوم الاستئصال عقيماً لأنه لا ليلة بعده ولا يوم، والأيام كأنها نتائج؛ لمجيء واحد إثر واحد، فكان آخر يوم قد عمق، وهذه استعارة، وجملة هذه الآية توعد.

وقوله تعالى: ﴿الْمَلَأْتُ بَوْمِيذِ اللَّهِ﴾ السابق منه أنه يوم القيامة حيث لا ملك فيه لأحد، ويجوز أن يريد به يوم بدر ونحوه من حيث ينفذ قضاء الله وحده ويبطل ما سواه، ويمضي حكمه فيمن أراد تعذيبه،

وأسد الطبري عن سلمان بن عامر قال: كان فضالة برؤيس أميراً على أرباع، فخرج بجنازتي رجلين أحدهما قتيل والآخر متوفى، فرأى ميل الناس مع جنازة القتيل، فقال: أراكم أيها الناس تميلون مع القتيل وتفضلونه، فوالذي نفسي بيده ما أبالي من أي حفرتيها بعثت، اقرؤوا قول الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ إِلَى ﴿لَعَلَّهُمْ حَلِيمٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ المعنى: الأمر ذلك. ثم أخبر تعالى عن عاقب من المؤمنين من ظلمته من الكفرة، ووعد المبغى عليه بأنه ينصره، وسمى الذنب في هذه الآية باسم العقوبة كما تسمى

ذكرناه. وقرأت فرقة: ﴿تَذْعُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأت فرقة: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ بالإشارة بما يدعى من دونه، قالت فرقة: هي إلى الشيطان، وقالت فرقة: هي إلى الأصنام، والعموم هاهنا أحسن. ﴿٦٣﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ تنبيهاً وبعده خبر أن الله أنزل من السماء ماء فظلت الأرض تخضر عنه. وقوله: ﴿فَتَضْبِحْ﴾ بمنزلة قوله: فتضحى أو فتصير، عبارة عن استعجالها أثر نزول الماء واستمرارها كذلك عادة، ووقع قوله: ﴿تَضْبِحْ﴾ من حيث الآية خبراً، والفاء عاطفة وليست بجواب لأن كونها جواباً لقوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ فاسد المعنى، ورؤي عن عكرمة أنه قال: هذا لا يكون إلا بمكة أو تهامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذا أنه أخذ قوله: ﴿تَضْبِحْ﴾ مقصوداً به صباح ليلة المطر، وذهب إلى أن ذلك الاخضرار في سائر البلاد يتأخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد شاهدت هذا في السوس الأقصى، نزل المطر ليلاً بعد قحط وأصبحت تلك الأرض الرملة التي نسفتها الرياح قد اخضرت بنبات ضعيف دقيق. وقرأ الجمهور:

الزَّيْرَانَ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَآءَ الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ يَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٣﴾ وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٤﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُهُ فَلَا يُنْزِعُ عَنْكَ فِي الْأَمْرِ وَاذْعَ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَإِنْ جَدَلُوكَ فَقُلْ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٦٦﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَا كُتِبَ فِيهِ فَمَا تُخْتَلَفُ فِي ﴿٦٧﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦٨﴾ وَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَئِن نَزَّلَ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْتَسَّ لَمْ يَكُ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٦٩﴾ وَإِذْ أَنْشَأَ عَلَيْهِمُ آيَاتِنَا بَيْنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَلْمَنُوكَ بِكَادُوكَ يُسْطُورُ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ كُمُوتُ بَشَرِينَ ذَلِكُمْ الْتَارَ وَعَدَّاهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَسَّ الْمَاصِرِ ﴿٧٠﴾

٣٤٠

العقوبة كثيراً باسم الذنب، وهذا كله تجوزٌ وأوسع.

وذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين لقيهم كفار في الشهر الحرام، فأبى المؤمنون من قتالهم، وأبى المشركون إلا القتال، فلما اقتتلوا جد المؤمنون ونصرهم الله تعالى فنزلت الآية فيهم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُمُ اللَّهُ يُرْسِلُ الْآتِلَ فِي السَّمَاءِ﴾ معناه: نصر الله تعالى أوليائه ومن بُغي عليه بأنه القادر على العظامم، الذي لا تُضاهى قدرته، فأوجز العبارة بأن أشار به ﴿ذَلِكَ﴾ إلى النصر، وعبر عن القدرة بتفصيلها، فذكر منها مثلاً لا يُدعى لغير الله تعالى، وجعل تقصير الليل وزيادة النهار وعكسها إيلاجاً تجوزاً وتشبيهاً. وقوله: ﴿ذَلِكَ يَأْتِكُمُ اللَّهُ هُوَ الْخَبْرُ﴾ معناه نحو ما

﴿مُخَضَّرَةٌ﴾، وقرأت فرقة: ﴿مُخَضَّرَةٌ﴾. (واللطف): المُحْكِمُ للأمر برفق، واللام في ﴿لَمْ﴾ لام الملك، و﴿الْفَرْقِ﴾ الذي لا حاجة به إلى شيء، هكذا هو على الإطلاق.

وقوله تعالى: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَآءَ فِي الْأَرْضِ﴾ يريد: من الحيوان والمعادن وسائر المرافق. وقرأ الجمهور: ﴿وَالْفُلْكَ﴾ بالنصب، وذلك يحتمل وجهين من الإعراب: أحدهما أن يكون عطفاً على ﴿مَآءَ﴾ بتقدير: وسُخَّرَ الْفُلْكَ. والآخر أن يكون عطفاً على المكتوبة، بتقدير: وأن الفُلْكَ، وقوله: ﴿يَجْرِي﴾ على الإعراب الأول في موضع الحال، وعلى الإعراب الثاني في موضع الخبر. وقرأت فرقة: ﴿وَالْفُلْكَ﴾ بالرفع، ف﴿يَجْرِي﴾ خبر على هذه القراءة.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ يحتمل أن يريد يوم القيامة، كأن طي السماء ونقص هذه الهيئة كوقوعهما، ويحتمل أن يريد بذلك الوعيد لهم في أنه إن أذن في سقوط السماء عليكم سقطت، ويحتمل أن يعود قوله: ﴿إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ على (الإمساك)؛ لأن الكلام يقتضي: بغير عَمَدٍ ونحوه، فكأنه أراد: إِلا بِإِذْنِهِ فِيهِ تُمَسِّكُهَا. وباقي الآية بين.

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل: الإحياء والإماتة في هذه الآية ثلاث مراتب، وسقط منها الموت الأول الذي نصَّ عليه في غيرها، إلا أنه بالمعنى في هذه. (وَالْمُنْسَكُ)

المصدر، فهو بمعنى العبادة والشرية، وهو أيضاً موضع التمسك، وقرأت فرقة بفتح السين وفرقة بكسرهما، وقد تقدم القول فيه في هذه السورة. وقوله تعالى: ﴿هُم نَائِكُونَ﴾ يعطي أن (الْمَسْكَ) المصدر، ولو كان الموضوع لقال: هم ناسكون فيه.

وروت فرقة أن هذه الآية نزلت بسبب جدال الكفار في أمر الذبائح، وقولهم للمؤمنين: تأكلون ما ذبحتم وهو من قتلكم، ولا تأكلون مما قتل الله من الميتة، فنزلت الآية بسبب هذه المنازعة. قوله تعالى: ﴿فَلَا يَنْزِعَنَّكَ فِي الْأَمْرِ﴾. هذه البيئة من الفعل والنهي تحتل معنى التخويف وتحتل معنى احتقار الفاعل وأنه أقل من أن يُفاعل، وهذا هو المعنى في هذه الآية، وقال أبو إسحاق: المعنى: فلا تنازعهم فينازعوك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التقدير الذي قدّر إنما يحسن مع معنى التخويف، وإنما يحسن أن يُقدّر هنا المعنى: فلا تبدأهم بمنازعتك، فالنهي إنما يراد به معنى من غير اللفظ، كما يراد في قولهم: لا أرينك هاهنا، أي: لا تكن هاهنا.

وقرأت فرقة: ﴿فَلَا يَنْزِعَنَّكَ﴾. وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَمْرِ﴾ معناه - على تأويل أن «الْمَسْكَ» الشريعة - لا ينازعنك في الدين والكتاب ونحوه، وعلى أن «الْمَسْكَ» موضع الذبح على ما روت الفرقة المذكورة من أن الآية نزلت في الذبائح،

فيكون ﴿الْأَمْرُ﴾ الذبح. و(الهُدَى) في هذه الآية: الإرشاد.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ جَدَلُوكَ﴾، الآية موادة محضة ونسختها آية السيف، وباقي الآية وعيد.

٧١ - ٧٢ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا بِأَنَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ، اتَّبَعَ ذَلِكَ الْخَبِيرَ بِأَنَّ عِنْدَهُ عِلْمُ كُلِّ شَيْءٍ لِيَقَعَ الْحُكْمُ فِي مَعْلُومٍ، فَخَرَجَتِ الْعِبَارَةُ عَلَى طَرِيقِ التَّشْبِيهِ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى وَإِحَاطَتِهِ، وَأَنَّ ذَلِكَ كَلِمَةٌ فِي كِتَابٍ وَهُوَ اللَّوْحُ الْمَحْفُوظُ.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾. يحتمل أن تكون الإشارة إلى كون ذلك في كتاب وكونه معلوماً، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى الحكم في الاختلاف.

ثم ذكر تعالى - على جهة التوبيخ - فعل الكفرة في أنهم يعبدون من الأصنام من دون الله ما لم ينزل الله فيه حجة ولا برهاناً، و(السُّلْطَانُ): الحجة حيث وقع في القرآن الكريم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ توعد.

والضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائد على كفار قريش، والمعنى أنهم كانوا إذا سمعوا القرآن من النبي ﷺ، أو من أحد أصحابه، وسمعوا ما فيه من رفض آلهتهم والدعاء إلى التوحيد، عرفت المساءة في وجوههم. و(الْمُنْكَرُ) من معتقدهم وعداوتهم وأنهم يدبرون ويسرعون إلى السطوة بالتالي، والمعنى أنهم يكادون

يسطون دهرهم أجمع، وأما في الشأذ من الأوقات فقد يُسْطَى بالتالين نحو ما فعل بعباد الله بن مسعود وبالنبي ﷺ حين أغاثه وحل الأمر أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ويعمر رضي الله عنه حين أجاره العاصي بن ائثل، وبأبي ذر رضي الله عنه وغير ذلك، و(السُّطُو) إيقاع بمباطشة أو أمر بها.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهم على جهة التوعد والتقريع: أَلَنْتَبَّكُمْ، أي أخبركم بشر من ذلك، والإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى السُّطُو، ثم ابتداءً ببنىء، كأن قائلاً قال له: وما هو؟ قال التار، أي نار جهنم، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَهَا اللَّهُ الْذِّبَةَ كَفْرًا﴾. يحتمل أن يكون أراد أن الله وعدهم بالنار، فيكون الوعد بالشر ونحو ذلك لَمَّا نَصَّ عَلَيْهِ ولم يجيء مطلقاً، ويحتمل أن يكون أراد أن الله تعالى وعد النار بأن يطعمها الكفار، فيكون الوعد على بابه الذي يقتضيه تسرعها إلى الكفار وقولها: ﴿هَلْ بِن مَزِيدٍ﴾. ونحو ذلك من مساوئها. و(الْمَصِيرُ) مَفْعَلٌ من (صار) إذا تحوّل من حال إلى حال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقتضي كلام الطبري في هذه الآية أن الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ هي إلى أصحاب محمد ﷺ التالين، ثم قال: ألا أخبركم بأثرة إليكم من هؤلاء أنتم الذين وعدتم النار، وأسند نحو هذا القول إلى قائل لم يُسمه، وهذا كله ضعيف.

﴿صَعَفَ الطَّالِبُ وَالطَّلُوبُ﴾؛ قالت فرقة: أراد بالطالب الأصنام وبالطلوب الذباب، أي أنهم ينبغي أن يكونوا طالبين لما سلب من طيبهم على معهود الأنفة في الحيوان. وقالت فرقة: معناه صَغَفَ الكفار في طلبهم الصواب والفضيلة من جهة الأصنام، وَصَغَفَ الأصنام عن إعطاء ذلك وإثاته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد: صَعَفَ الطَّالِبُ وهو الذباب في استلابه ما على الأصنام، وَصَغَفَ الأصنام في ألا منعة لهم، وعلى كل قول فدلَّ صَعَفَ الذباب الذي هو محسوسٌ مُجْمَعٌ عليه وَصَغَفَ الأصنام في ألا منعة لهم عن هذا المُجْمَعِ على ضعفه على أن الأصنام في أحط رُثْبَةٍ وَأَخْسَ منزلة.

وقوله تعالى: ﴿مَا فَكَّرُوا اللَّهَ حَقَّ فِكْرَةٍ﴾ خطابٌ للناس المذكورين، والضمير في ﴿فَكَّرُوا﴾ للكفار، والمعنى: ما وقَّره حَقُّهُ من التعظيم والتوحيد. ثم أخبر بقوَّة الله تعالى وعزَّته، وهما صفتان مناقضتان لعجز الأصنام.

﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

روي أن هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿الْأَمْوَالُ﴾ نزلت بسبب قول الوليد بن المغيرة: ﴿أَنْزَلَ عَلَيَّ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنَا﴾ الآية، فأخبر الله تعالى أنه ﴿يَمْسُطِي﴾ أي يختار ﴿مِنْ الْمَلَكِيَّةِ رُسُلًا﴾ إلى الأنبياء وغيرهم حسبما ورد في الأحاديث، ﴿رَيْنَ

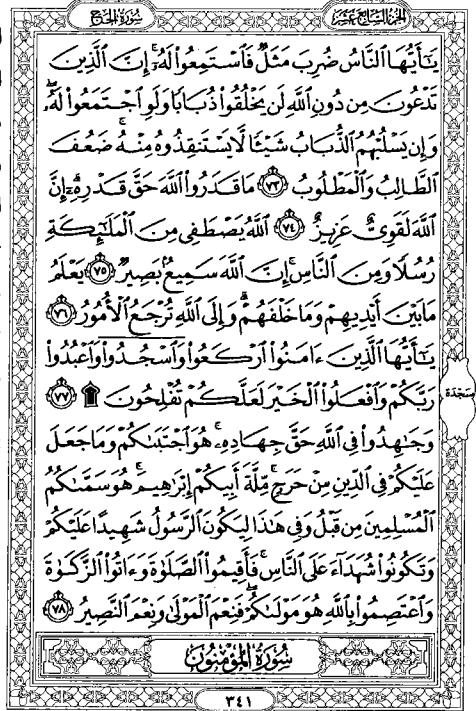
المثال الله تعالى، والمثال الذي في التأويل الثاني هو في الذباب وأمره، والذي جعل له هي الأصنام. ومعنى ﴿صُرِبَ﴾ أنبت وألزم، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَصُرَّتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ﴾، وقولنا: صُرِبَتِ الحزبية وصرِبَ البعث، ويحتمل أن يكون «صُرِبَ المثل» من الصَّرْبِ الذي هو المثل، ومن قولك: «هَذَا صُرْبٌ هَذَا»، فكأنه قال: مَثَلٌ مَثَلٌ.

وقرأت فرقة: ﴿يُدْعَوْنَ﴾

بالياء من تحت والضمير للكفار، وقرأت فرقة: ﴿يُدْعَوْنَ﴾ بضم الياء وفتح العين على ما لم يُسَمِّ فاعله والضمير للأصنام.

وبدأ تعالى ينفي الخلق والاختراع عنهم من حيث هي صفة ثابتة له مختصة به، فكأنه قال: ليس لهم صفتي، ثم ثنى بالأمر الذي بلغ بهم غاية التعجيز، وذكر تعالى أمر سلب الذباب لأنه كان كثيراً محسوساً عند العرب، وذلك أنهم كانوا يُضَمِّحُونَ أوثانهم بأنواع الطيب فكان الذباب يذهب بذلك، وكانوا متألِّمين من هذه الحجة فجعلت مثلاً. والذباب جمعه أذبة في القليل وذبان في الكثير كغراب وأعرية وعزبان، ولا يقال ذبابات إلا في الذبول لا في الحيوان.

واختلف المتأولون في قوله تعالى:



﴿٧٦﴾ - ﴿٧٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَتَأَيُّهَا النَّاسُ﴾ قيل: هو خطاب يعم جميع العالم، وقيل: هو خطاب للمؤمنين حينئذ الذين أراد الله تعالى أن يبين عندهم خطأ الكافرين، ولا شك أن المخاطب هم ولكنه خطاب يعم جميع الناس، متى نظره أحد في أمر عبادة الأوثان توجه له الخطاب.

واختلف المتأولون في فاعل (صُرِبَ)، من هو؟ فقالت فرقة: المعنى: صُرِبَ أهل الكفر مثلاً لله أصنامهم وأوثانهم، فاستمعوا أنتم أيها الناس لأمر هذه الآلهة، وقالت فرقة: المعنى: صُرِبَ الله تعالى مثلاً لهذه الأصنام وهو كذا وكذا، فالمثال والمثل في القول الأول هي الأصنام، والذي جعل له

أَتَائِينَ ﴿ وهم الأنبياء المبعوثون لإصلاح الخلق الذين اجتمعت لهم النبوة والرسل.

وقوله تعالى: ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ عبارة عن إحاطة علمه بهم، وحقيقتها: ما قبلهم من الحوادث وما بعدهم، و﴿الْأُمُورُ﴾ جمع أمر، ليس يراد به المصدر.

ثم أمر الله تعالى بعبادته، وخصّ الرُكُوع والسُّجُود بالذكر تشريفاً للصلاة.

واختلف الناس، هل في هذه الآية سجدة؟ ومذهب مالك رحمه الله ألا يُسجد هاهنا. وقوله تعالى: ﴿وَأَعْمَلُوا الْخَيْرَ﴾ نذبت فيما عدا الواجبات التي صحّ وجوبها من غير هذا الموضع. وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَمَّا كَرِهَ لِقَالِهِمْ أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ فَتَبَدَّلَ الْآيَةَ﴾ كقوله سبحانه: ﴿لَمَّا يَدْعُرُ وَرَجُلٌ مِنَ الْقَوْمِ يَسْتَسْتَجِيبُ﴾، و﴿الْفَلَاحُ﴾ في هذه الآية تِلْ الْبَيْعَةِ وبلوغ الأمل.

﴿٧٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: هذه الآية أمر الله تعالى فيها بالجهاد في سبيله، وهو قتال الكفار، وقالت فرقة: هي أعم من ذلك، وهو جهاد النفس، وجهاد الكافرين، وجهاد الظلمة، وغير ذلك، أمر الله عباده بأن يفعلوا ذلك في ذات الله حق فعله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعموم حسن، وبَيِّنَ أن عرف اللفظة يقتضي الجهاد في سبيل الله. وقال هبة الله وغيره: إن قوله تعالى: ﴿حَقَّ جِهَادُهُ﴾ وقوله في الأخرى:

﴿حَقَّ تَقَالِيهِ﴾ منسوخ بالتخفيف إلى الاستطاعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى الاستطاعة في هذه الأوامر هو المراد من أول الأمر، فلم يستقر تكليف بلوغ الغاية شرعاً ثابتاً فيقال إنه نُسِخ بالتخفيف، وإطلاقهم النسخ في هذا غير محذوق. و﴿أَخْتَبِكُمْ﴾ معناه: تخيركم.

قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ﴾ معناه: من تضييق، يريد: في شرعة الجلمة، وذلك أنها حنيفة سَمَّحَة، ليست كشدائد بني إسرائيل وغيرهم، بل فيها التوبة والكفارات والرخص ونحو هذا ممّا كثر عدّه. و﴿الْحَرْجَةُ﴾: الشجر المُلْتَفُّ المتضايق، ورفع الحرج صحّ لجمهور هذه الأمة ولمن استقام على منهاج الشرح، وأما السَّلَابَةُ والسُّرَّاقُ وأصحاب الحدود فعليهم الحرج، وهم جاعلوه على أنفسهم بمفارقتهم الدين، وليس في الشرع أعظم حرجاً من إلزام ثبوت رجلٍ لائتين في سبيل الله تعالى، ومع صحّة اليقين وجودة العزم ليس بِحَرَجٍ.

وقوله: ﴿مَلَّةٌ﴾ نصب بفعل مضمر تقديره: بل جعلها، أو نحوه من أفعال الإغراء، وقال الفراء: هو نصب على تقدير حذف الكاف، كأنه قال: «كَمَلَّة»، وقيل: هو كما ينصب المصدر. وقوله: ﴿هُوَ سَنَّكُمْ﴾، قال أبو زيد: الضمير لإبراهيم والإشارة إلى قوله: ﴿وَرَيْنَ دُرَيْتًا أَنَّهُ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾. وقال ابن

عباس، وقتادة، ومجاهد: الضمير لله تعالى، و﴿مِنْ قَبْلُ﴾ معناه: في الكتب القديمة، و﴿رَفِي هَذَا﴾: في القرآن، وهذه اللفظة تضعف قول مَنْ قال: الضمير لإبراهيم، ولا يتوجّه إلا على تقدير محذوف من الكلام مستأنف. وقوله تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ﴾ أي بالتسليخ، وقوله: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي بتبليغ رسالهم إليهم على ما أخبركم نبيكم.

وأسند الطبري إلى قتادة أنه قال: أعطيت هذه الأمة ما لم يُعْطَها إلا نبي، كان يقال للنبي: أنت شهيد على أمّتك، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، وكان يقال للنبي: ليس عليك حرج، وقيل لهذه الأمة: ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكَ فِي الَّذِينَ مِنْ حَرَجٍ﴾، وكان يقال للنبي: سَلْ تُنْطَ، وقيل لهذه الأمة: ﴿أَتَعْرَفِي أَسْتَجِبَ لَكَ﴾.

ثم أمر الله تعالى بالصلاة المفروضة أن تُقام ويُداوم عليها بجميع حدودها، وبالزكاة أن تُؤدّى، كما أنعم عليكم فافعلوا كذا، ثم أمر بالاعتصام بالله تعالى، أي بالتعلّق به والخُلُوص له وطلب النجاة منه ورَفْضِ التوكّل على سواه. و﴿الْمَوْلَى﴾ في هذه الآية معناه: الذي يُليكم نصره وحفظه، وباقى الآية يبيّن.

كامل تفسير سورة الحج بحمد الله تعالى وعونه

تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَرْجَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ الآية، يقتضي تحريم الزنى والاستمناء ومواقعة البهائم، وكل ذلك في قوله سبحانه: ﴿وَرَاءَ ذَلِكَ﴾، ويريد: وراء هذا الحد الذي حُدَّ، ومعنى ﴿مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ من النساء، ولما كان ﴿حَافِظُونَ﴾ بمعنى (محموزون) حَسُن استعمال ﴿عَلَىٰ﴾، و(العادي): الظالم.

(٨) - (١١) تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿لَا مَنَئِيهَ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير: ﴿لَأَمَانِيهِمْ﴾ بالإفراد، والأمانة والعهد يجمع كل ما يحمله الإنسان من أمر دينه ودنياه قولاً وفعلاً، وهذا يعم معاشرته الناس والمواعيد وغير ذلك، ورعاية ذلك: حفظه والقيام به. والأمانة أعم من العهد؛ إذ كل عهد فهو أمانة فيما تَعَيَّنَ الأمانة فيما لم يعهد فيه تقدم، وهذا إذا أخذناهما بنسبتهما إلى العبد، فإن أخذناهما من حيث هُما - عهد الله إلى عباده وأمانته التي حَمَلَهُم - كانا في رتبة واحدة.

وقرأ الجمهور: ﴿صَلَّوْتِهِمْ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿صَلَّاتِهِمْ﴾ بالإفراد، وهذا الإفراد اسم جنس فهو بمعنى الجمع، والمحافظة على الصلوات تَرَقُّبُ أوقاتها والمبادرة إلى وقت الفضل فيها. و﴿الْوَارِثُونَ﴾ يريد: الجنة. وروى في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أن الله تعالى جعل لكل إنسان مسكناً في الجنة ومسكناً في النار، فأما المؤمنون فيأخذون منازلهم ويرثون الكفار، ويحصل

عنه ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾

بضم الهمزة وكسر اللام.

ثم وصف تعالى هؤلاء المفلحين فقال: ﴿الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ﴾، والخشوع: التَّطَامُنُ والاعضاء والوقار، وهذا إنما يظهر في الأعضاء لمن في قلبه خوف واستكانة. وروى عن بعض العلماء أنه رأى رجلاً يعبت بلحيته في الصلاة فقال: لو خشع هذا خشعت جوارحه.

وروي أن سبب هذه الآية أن المسلمين كانوا يلتفتون في صلاتهم بئسرة، فنزلت هذه الآية، وأمروا أن يكون بصر المصلِّي حذاء قبلته أو بين يديه، وفي الحرم إلى الكعبة، وروي عن ابن سيرين وغيره أن رسول الله ﷺ كان يلتفت في صلاته إلى السماء فنزلت الآية في ذلك.

(واللغو): سقط القول، وهذا يعم جميع ما لا خير فيه، ويجمع آداب الشرع، وكذلك كان النبي ﷺ وأصحابه، وكان الآية فيها موادة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾، ذهب الطبري وغيره إلى أنها الزكاة المفروضة في الأموال، وهذا بين، ويحتمل اللفظ أن يريد بالزكاة الفضائل، كأنه أراد الأزكى من كل فعل، كما قال تعالى: ﴿حَبِيبًا بَيْنَهُ زَكَاةٌ وَأَقْرَبًا رَحْمًا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ حَافِظُونَ﴾، صفة العفة، وقوله

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَشِعُونَ ﴿٢﴾
وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْتَابِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ وَإِلَّا عَلَىٰ أَرْجَائِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ أَتَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ رِعْهَدِيهُمْ زَعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْسًا فِي قَرَارٍ مُّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النَّفْسَ عَاقَةً فَخَلَقْنَا الْعَاقَةَ مَضْجَعًا فَخَلَقْنَا الْمَضْجَعَةَ عِظْمًا فَكَسْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ أَنْزَلْنَاكَ بَعْدَ ذَلِكَ لَيْلِيًّا ﴿١٥﴾ تَرَىٰ نَجْمَكُم مِّنَ الْعِصْمَةِ تُعْتَوُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ ﴿١٧﴾

٢٤٢

(٢٣) تفسير

سورة المؤمنون

مكية

وآياتها ثمان عشرة ومائة

(١) - (٧) تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تبارك وتعالى عن فلاح المؤمنين وأنهم نالوا البئية وأحرزوا البقاء الدائم. وروي عن كعب الأخبار أن الله تعالى لما خلق جنة عدن قال لها: تكلمي، فقالت: «قد أفلح المؤمنون»، وروي عن مجاهد أن الله تعالى لما خلق الجنة وأتقن حسنها قال: «قد أفلح المؤمنون».

وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بضم الحاء، يريد: قد أفلحوا، وهي قراءة مردودة، وروي

الكفار على منازلهم في النار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يسمى الله تعالى الحصول على الجنة ورائته من حيث حصلوها دون غيرهم، فهو اسم مستعار على الوجهين. و(الْفِرْدَوْسُ): مدينة الجنة، وهي جنة الأعتاب، واللفظة - فيما قال مجاهد - روميّة عُرِّبَتْ، وقيل: هي فارسية عُرِّبَتْ، والعرب تقول للكروم: فراديس، وقال رسول الله ﷺ: «لَأَمْ حَارِثَةٌ: إِنَّهَا جَنَاتُ كَثِيرَةٍ، وَإِنَّ ابْنَكَ قَدْ أَصَابَ الْفِرْدَوْسَ».

١٢ - ١٣ - تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء كلام، والواو في أوله عاطفة جملة الكلام على جملة وإن تباينت في المعاني. واختلف المفسرون في قوله: «أَلَيْسَنَّ؟» فقال قتادة وغيره: أراد آدم عليه السلام لأنه استل من الطين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحيى الضمير في قوله تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَاهُ عَائِدًا عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ - وَإِنْ كَانَ لَمْ يَذْكُرْهُ - لشهرة الأمر، وأن المعنى لا يصلح إلا له، نظير ذلك: «حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» وغيره. وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره: المراد بقوله: «أَلَيْسَنَّ؟» ابن آدم. و«سُلَّالَتَيْنِ طِينٍ» صفوة الماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا على أنه اسم الجنس، ويترتب عليه أنه سلالة من حيث كان الكل عن آدم عليه السلام أو عن الأبوين المتقدمين بما يكون من الطين،

وذلك السبع التي جعل الله تعالى رزق ابن آدم فيها، وسيجيء قول ابن عباس رضي الله عنهما فيها إن شاء الله، وعلى هذا يجيء قول ابن عباس رضي الله عنهما: إن السلالة هي صفوة الماء، يعني المني. وقال مجاهد: «سُلَّالَتَيْنِ طِينٍ»: بني آدم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بين؛ إذ آدم من طين وذريته من سلالة، وما يكون عن الشيء فهو سلالته، وتختلف وجوه ذلك الكون، فمنه قولهم للخمير: «سلالة»؛ لأنها سلالة العنب، ومنه قول الشاعر:

إِذَا أَنْتَجَتْ مِنْهَا الْمَهَارَى تَشَابَهَتْ
عَلَى الْعَزْدِ إِلَّا بِالْأَنْوَفِ سَلَالِيئُهُ
ومن اللفظة قول هند بنت النعمان بن بشير:

سَلِيلَةُ أَفْرَاسٍ تَجَلَّلَهَا بَغْلٌ
ومنه قول الآخر:

فَجَاءَتْ بِهِ عَضْبُ الْأَدِيمِ غَضْنَفَرًا
سَلَالَةٌ فَرَجَ كَأَنَّ غَيْرَ حَصِينٍ
وهذه الفرقة يترتب مع قولها عود الضمير في «جَمَلَتَهُ» و«أَنْشَأَتْهُ».

و(الطُّفَّةُ) تقع في اللغة على قليل الماء وكثيره، وهي هنا لمني ابن آدم، و(الْفَرَازُ الْمَكِينُ) من المرأة هو موضع الولد، و«الْمَكِينُ»: المتكن، فكأن «القرار» هو المتمكن في الرحم. و(العَلَقَةُ): الدم العريض، و(المُضْغَةُ): بضعة اللحم قَدْرَ مَا يُمَضَّغ.

وقرأ الجمهور: «عَظْمًا» في الموضعين. وقرأ ابن عامر، وعاصم

- في رواية أبي بكر -: «عَظْمًا» بالإفراد في الموضعين، وقرأ سلمة، وقتادة، والأعرج، والأعمش بالإفراد أولاً وبالجمع في الثاني. وقرأ مجاهد، وأبو رجاء، وإبراهيم بن أبي بكر بعكس ذلك، وفي قراءة ابن مسعود: «ثُمَّ جَعَلْنَا الْمُضْغَةَ عَظْمًا وَعَصَبًا فَكُنُونَا لِحْمًا».

واختلف الناس في الخلق الآخر؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، والشعبي، وأبو العالية، والضحاك، ابن زيد: هو نفخ الروح فيه، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: خروجه إلى الدنيا، وقال قتادة - عن فرقة -: نبات شعره، وقال مجاهد: كمال شبابه، وقال ابن عباس أيضاً: تصرفه في أمور الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التخصيص كله لا وجه له، وإنما هو عام في هذا، وغيره من وجوه النطق والإدراك وحسن المحاولة هو بها آخر، وأول رتبة من كونه آخر هو نفخ الروح فيه، والطرف الآخر من كونه آخر تحصيله المعقولات إلى أن يموت.

و(تَبَارَكَ) هو مطاوع «بارك»، كأنها بمنزلة «تعالى وتقدس»، من معنى البركة. وهذه الآية يروى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما سمع صدر الآية إلى قوله: «ءَاخِرٌ» قال: «فتبارك الله أحسن الخالقين» فقال رسول الله ﷺ: «هكذا أنزلت». ويروى أن قائل ذلك معاذ بن جبل رضي الله عنه، ويروى أن قائل ذلك عبدالله بن أبي سرح، وبهذا السبب ارتد وقال: أنا آتي بمثل ما يأتي به

﴿لَمَائِثُونَ﴾ بالألف. و﴿يَعْتُونَ﴾
معناه: من قبوركم أحياء، وهذا خير
بالبعث والنشور، و(الطرائق) كل ما
كان من طبقات بعضه فوق بعض،
ومنه: طارت نعلي، ويريد بالسبع
الطرائق السموات، ويجوز أن تكون
(الطرائق) بمعنى المبسوطات، من:
طرقت الشيء، وقوله تعالى: ﴿وَمَا
كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ﴾ نفي عام، أي:
في إتقان خلقهم وعن مصالحهم
وعن أعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿مَاءً يَقَدِّرُ﴾ قال
بعض العلماء: أراد المطر، وقال
بعضهم: إنما أراد الأنهار الأربعة:
سحيان وجيحان والفرات والنيل.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والصواب أن هذا كله داخل تحت
الماء الذي أنزل الله تعالى.

وقال مجاهد: ليس في الأرض ماء
إلا وهو من السماء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويمكن أن يقيد هذا بالعذب، وإلا
فالأجاج ثابت في الأرض مع
القحط، والعذب يقل مع القحط،
وأيضاً فالأحاديث تقتضي الماء الذي
كان قبل خلق السموات والأرض،
ولا محالة أن الله تعالى قد جعل في
الأرض ماء وأنزل من السماء ماء.

وقوله تعالى: ﴿يَقَدِّرُ﴾ أي على
مقدار مصلح؛ لأنه لو كثير أهلك.

﴿فَأَنْشَأْنَا﴾ معناه: أوجدنا وخلقنا،
وذكر تعالى النخيل والأعناب لأنها
ثمرة الحجاز بالطائف والمدينة
وغيرهما، قاله الطبري، ولأنها أيضاً
أشرف الثمار، فذكرها مثلاً لا
تشريعاً لها وتنبهاً عليها.

الاختراع والإيجاد من
العدم، ومن هذه الآية قال
ابن عباس لعمر بن
الخطاب رضي الله عنهما
حين سأل مشيخة الصحابة
عن ليلة القدر فقالوا: الله
أعلم، فقال عمر
رضي الله عنه: ما تقول يا
ابن عباس؟ فقال: يا
أمير المؤمنين، إن الله
تعالى خلق السموات سبعاً
والأرض سبعاً، وخلق ابن
آدم من سبع، وجعل رزقه
في سبع، فأراها في ليلة
سبع وعشرين، فقال
عمر: أعجزكم أن تأتوا
بمثل ما أتى به هذا الغلام
الذي لم تجتمع شؤون رأسه. وهذا
الحديث بطوله في مسند ابن أبي
شيبه، فأراد ابن عباس
رضي الله عنهما بقوله: «خلق ابن
آدم من سبع» هذه الآية، ويقوله:
«وجعل رزقه في سبع» قوله تعالى:
﴿فَأَنْشَأْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِّنْ دُونِهَا
وَنَخَّالًا ﴿١٥﴾ وَمَدَائِنَ غَلِيًّا ﴿١٦﴾ وَرَبْوَاتًا
﴿١٧﴾ وَمَا تَدْرَأْنَ أَفْئِدًا يُّرْسِلْنَ
رِجَالَهُمْ فِيهَا وَنِجَابًا مُّدْبِرِينَ
﴿١٨﴾﴾ الآية، السبع منها لابن آدم،
والأب للأنعام، والقضب يأكله ابن
آدم وتسمن به النساء، وهذا قول،
وقيل: القضب: القصب: البقول لأنها
تقضب، فهي رزق ابن آدم، وقيل:
القضب والأب للأنعام والسنة الباقية
لابن آدم، والسابعة هي الأنعام إذ
هي من أعظم رزق ابن آدم.

﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾
معناه: أحسن الصانعين، يقال لمن
صنع شيئاً: خلقه، ومنه قول
الشاعر:
ولأنت تفري ما خلقت وبعث
ض القوم يخلق ثم لا يفري
وذهب بعض الناس إلى نفي هذه
اللفظة عن الناس، فقال ابن جريج:
إنما قال: ﴿الْخَالِقِينَ﴾ لأنه تبارك
وتعالى قد أذن لعيسى عليه السلام
في أن يخلق، واضطرب بعضهم في
ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا تنفي اللفظة عن البشر في معنى
الصنع، وإنما هي منفية بمعنى

﴿الْخَالِقِينَ﴾
﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقَدِّرُ فَأَسَكَّتْهُ فِي الْأَرْضِ وَأَنزَلَ عَلَٰ ذَهَابٍ
بِهِ لِقَدْرُونَ ﴿١٥﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ حَبْلٍ مِّنْ حَبْلٍ وَأَعْتَبْنَا
لَكُمْ فِيهَا فَوْجَكُمُ كَثِيرَةً وَمِفْهَاتًا كَلُونَ ﴿١٦﴾ وَسُجَّرَ نَخْلٌ مِّنْ
طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتٌ بِالدَّهْنِ وَصَبِغٌ لِّلْأَكْلِينَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ لَّكَ فِي
الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ لِّتُفَكَّرَ مَا فِي بَطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ
وَمِفْهَاتًا كَلُونَ ﴿١٨﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ
أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ لِّقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ
عِندَهُ إِلَّا نُنقِذُكُم بِرَحْمَتِنَا ﴿٢٠﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا
إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَفْضَلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنزَلَ
مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢١﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا
رَجُلٌ بِرٌّ جَدٌّ فَارْتَضُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٢﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي
يَسَٰكِرَ ذَبَّوْنَ ﴿٢٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ يَا عِيسَىٰ
وَوَحَّيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُورَ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ
كُلِّ زَوْجٍ مِّنْ نَّسَبٍ وَأَهْلِكَ إِلَّا مَنْ سَخَّرَ لَدَيْكَ الْقَوْلَ
مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطَبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُّغْرَقُونَ ﴿٢٤﴾

وقوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا﴾ يحتمل أن يعود الضمير على (الجئات) فيريد حينئذ جميع أنواع الفواكه، ويحتمل أن يعود على (النخيل والأعناب) خاصة إذ فيها مراتب وأنواع، والأول أعم لسائر الثمرات.

وقوله تعالى: ﴿وَشَجَرَةً﴾ عطف على قوله: ﴿جَنَّتٍ﴾، ويريد بها الزيتون، وهي كثيرة في طور سيناء من أرض الشام، وهو الذي كلم الله تعالى فيه موسى عليه السلام، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره. (والطُور): الجبل في كلام العرب، وقيل: هو مما عُرِبَ من كلام العجم. واختلف في «سَيِّئَةً» فقال قتادة: معناه: الحسن، ويلزم على هذا التأويل أن ينون «الطُور»، وقال مجاهد: معناه: مبارك، وقال معمر عن فرقة: معناه: ذو شجر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلزمهم أن يُنَوْنَ (الطُور).

وقال الجمهور: هو اسم الجبل، كما تقول: جبل أحد، و«سَيِّئَةً» اسم مضاف إليه الجبل.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير: ﴿سَيِّئَةً﴾ بكسر السين، وقرأ الباقون وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿سَيِّئَةً﴾ بفتح السين، وكلهم بالمد، فعلى فتح السين لا ينصرف الاسم بوجه، وعلى كسر السين فالهمزة كهزمة جرياء، ولم ينصرف في هذه الآية لأنه جعل اسم بقعة أو أرض.

وقرأ الجمهور: ﴿تُنْبِتُ﴾ بفتح التاء وضم الباء، فالتقدير: تُنْبِتُ ومعها الدهن، كما تقول: خرج زيد

بسلاحه، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿تُنْبِتُ﴾ بضم التاء وكسر الباء. واختلف في التقدير على هذه القراءة، فقالت فرقة: الباء زائدة، وهكذا قوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾، وهذا المشال عندي معترض وإن كان أبو علي قد ذكره، كقول الشاعر:

نَحْنُ نُنُو جَعْدَةَ أَزْبَابِ الْفَلَجِ
نُضْرِبُ بِالْبَيْضِ وَنُرْجُو بِالْفَرْجِ
ونحو هذا، وقالت فرقة: التقدير: تُنْبِتُ جناها ومعها الدهن، فالمفعول محذوف، قاله أبو علي الفارسي أيضاً، وقد قيل: تُنْبِتُ وأُنْبِتُ بمعنى، فيكون المعنى كما مضى في قراءة الجمهور، والأصمعي يُنكر أنبت ويثهم قصيدة زهير التي فيها:

.....
..... أَنبَتَ الْبَقْلُ

وقرأ الزهري، والحسن، والأعرج: ﴿تُنْبِتُ﴾ برفع التاء ونصب الباء، قال أبو الفتح: هي باء الحال، أي: تُنْبِتُ ومعها دهنها، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿تُخْرِجُ بِالْدُهْنِ﴾، وهي أيضاً باء الحال، وقرأ زُرُّ بن حُبَيْش: ﴿تُنْبِتُ﴾ بضم التاء وكسر الباء ﴿الْدُهْنِ﴾ بحذف الباء ونصبه، وقرأ سليمان بن عبد الملك، والأشهب: ﴿بِالدَّهَانِ﴾. والمراد في هذه الآية تعديد نعمة الزيت على الإنسان، وهي من أركان التعم التي لا غنى للصحة عنها، ويدخل في معنى الزيتون شجر الزيت كله على اختلافه بحسب الأمصار.

وقرأت فرقة: ﴿وَصَيْخٍ﴾، وقرأت

فرقة: ﴿وَأَصْبَاغٍ﴾ بالجمع، وقرأ عامر بن قيس: ﴿وَمَتَاعًا لِلْكَالِبِينَ﴾.

(٢١) - (٢٢) تفسير قوله عز وجل: (الْأَعْتَامُ) هي الإبل والبقر والضأن والمعز، (والعبرة) في خلقها وسائر أخبارها.

وقرأ الجمهور: ﴿تُسْقِيكُمْ﴾ بضم النون من «أسقي»، ورويت عن عاصم. وقرأ نافع، وعاصم وابن عامر: ﴿تُسْقِيكُمْ﴾ بفتح النون من «سقى»، فمن الناس من قال: هما لغتان بمعنى، ومنهم من قال: سَقَيْتُهُ إِذَا أَعْطَيْتَهُ لِلشَّيْءِ، وَأَسْقَيْتُهُ إِذَا جَعَلْتَ لَهُ سَقِيًّا لِأَرْضٍ أَوْ ثَمَرَةً أَوْ نَحْوَهُ، فَأَنَّ اللَّهَ جَعَلَ الْأَنْعَامَ لِعِبَادِهِ سَقِيًّا يَشْرَبُونَ وَيَتَجَعَعُونَ. وقرأ أبو جعفر: ﴿تُسْقِيكُمْ﴾ بالتاء من فوق، أي: تسقيكم الأنعام.

(والمنافع): الحَمْلُ عليها، وجلودها، وأصوافها، وأوبارها، وغير ذلك مما يطول عدّه.

(والفُلُكُ): السفن، واحدها فُلُكٌ، الحركات في الواحد كحركات فُكُلٍ وِبُرْدٍ، والحركات في الجمع كحركات أُسْدٍ وَكُتُبٍ.

(٢٣) - (٢٤) تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء تمثيل لكفار قريش بأمم كفرت بأنبيائها فأهلكوا، وفي ضمن ذلك الوعيد بأن يحل بهم بلاء نحو ما حلّ بأولئك.

ونوح عليه السلام أول نبي أرسل إلى الناس، وإدريس عليه السلام أول من نُبِيء ولم يُرْسَل.

(والمَلَأُ): الأشراف لأنهم عنهم يصدر الملأ، وهو جمع القوم، وفي

حَتَّى سَلَكَنَ الشُّوْرَى مِنْهُ فِي مَسْكِ
مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْآفَاقِ مَهْدَاجٍ
وقال الآخر:

وَكُنْتُ لِرِزَازٍ خَضِيكَ لَمْ أُعْرِذْ
وَقَدْ سَلَكَوكَ فِي يَوْمِ عَصِيْبٍ
يقال: سَلَكَ وَأَسْلَكَ بمعنى.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿مِنْ
كُلِّ﴾ بتنوين ﴿كُلِّ﴾، وقرأ
الباقون وأبو بكر عن عاصم بإضافة
﴿كُلِّ﴾ دون تنوين. وال(رُؤُوجَانِ) كل
ما شأنه الاصطحاب من كل شيء
كالذكر والأنثى من الحيوان ونحو
الشعال وغيرها كل واحد زوج
للآخر، هذا موقع اللفظة في اللغة،
والعددديون يوقعون الزوج على
الاثنين، على هذا أمر استعمال العامة
للزوج.

وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلِكَ﴾ يريد
قربته، ثم استثنى من سبق عليه
القول بأنه كافر وهو ابنه وامرأته. ثم
أمر نوحاً عليه السلام ألا يراجع ربه
ولا يخاطبه شافعاً في أحد من
الظالمين، والإشارة إلى من استثنى
إذ العرف من البشر الحنؤ على
الأهل، ثم أمره تعالى بأن يحمد ربه
على النجاة من الظلمة عند استوائه
وتمكنه في الفلك، ثم أمره بالدعاء
في بركة المنزل. وقرأ عاصم في
رواية أبي بكر: ﴿مُنْزِلاً﴾ بفتح الميم
وكسر الزاي، وهو موضع النزول،
وقرأ الباقون وحفص عن عاصم:
﴿مُنْزِلاً﴾ بضم الميم وفتح الزاي،
وهو مصدر بمعنى الإنزال، ويجوز
أن يراد به موضع النزول.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ﴾ خطاباً لمحمد ﷺ، أي:

﴿رَبِّ أَنْصُرْنِي﴾ برفع
الباء، وكذلك ﴿رَبِّ
أَحْكَمْ﴾ وشبهه.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله
عز وجل:

قد تقدم القول في صفة
السفينة وقدرها في سورة
هود، وال(فُلُك) هنا مفرد
لا جمع.

وقوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾
عبارة عن الإدراك على
مذهب الحذاق، ووقفت
الشريعة على أعين وعين،
ولا يجوز أن يقال: عينان
من حيث لم توقف
الشريعة على التثنية،
و﴿وَوَحَّيْنَا﴾ معناه: في

كيفية العمل ووجه البيان، وذلك أن
جبريل عليه السلام نزل إلى نوح
عليه السلام فقال له: اصنع كذا وكذا
لجميع حكم السفينة وما يحتاج إليه.
واستجّن الكفار نوحاً لادعائه النبوة
بزعمهم أنها دعوى، وسخروا منه
لعمله السفينة على غير مجرى، أو
لكونها أول سفينة إن صح ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَنْزَلْنَا﴾ يحتمل أن
يكون مصدراً بمعنى أن نأمر الماء
بالفيض، ويحتمل أن يريد واحد
الأمر، أي إهلاكنا للكفرة، وقد
تقدم القول في معنى قوله تعالى:
﴿وَرَأَى النَّوْرُ﴾. والصحيح من
الأقوال أنه ثور الخبز، وأنه أمانة
كانت بين الله تبارك وتعالى وبين
نوح عليه السلام.

وقوله تعالى: ﴿فَأَسْلَفْ﴾ معناه:
فأذخِل، ومنه قول الشاعر:

فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَمْتٌ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفَلَائِكِ فَقُلْ لِمَعْدُ اللَّهِ الَّذِي جَعَلَنَا
مِنْ الْقَوَمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٧﴾ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنزَلاً مَبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ
الْمُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَبَشِيرِينَ ﴿٢٩﴾ وَرَأَيْنَا
مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٣٠﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا
اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ
الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا الْآخِرَةَ وَآرَفْتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا
مَا هَذَا إِلَّا الْبَشَرُ مِثْلُكُمْ أَيُّهَا كُلُّ مَمَاتٍ كُلُّونَ مِنْهُ وَشَرِبُوا مِنْهُ
شَرِبُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَئِنْ أَعْطَيْنَاكَ إِسْرًا إِذْ أَنْتَ إِذَا الْخَيْسِرُونَ ﴿٣٣﴾
أَيُّدُهُمْ أَكْرَهُ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَكْرَهُ تُخْرَجُونَ ﴿٣٤﴾
هَيَاتَ هَيَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٥﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الَّذِي نَسَمُوتُ وَحَيَاتًا وَمَا نَحْنُ بِمُعْسِرِينَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ
أَفْرَقَ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٧﴾ قَالَ رَبِّ
أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِحَّ مِنْ نَدِيمٍ ﴿٣٩﴾
فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةَ الْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غَسَّاقًا فَبَعَدَ الْقَوْمِ
الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٤١﴾

٣٤٤

قَوْل هُوَ إِذْ اسْتَبْعَادُ بَعْثَةِ الْبَشَرِ، وَهَمْ
قَوْمٌ مُقْرُونَ بِالْمَلَانِكَةِ، وَذَلِكَ لَا شَكَّ
مُسْتَقَرٌّ عِنْدَهُمْ مِنْ بَقَايَا نَبْوَةِ آدَمَ
وَإِدْرِيسَ عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَغَيْرَهُمَا،
وَلَمْ يَكُنْ ذَلِكَ عَنْ عِلْمٍ صَحِيحٍ وَلَا
مَعْرِفَةٍ بِأَخْبَارِ نَبْوَةٍ.

و(الْحَيَاتُ): الجنون، و﴿فَتَرَضُّوا﴾
معناه: اصبروا وانتظروا هلاكه،
و﴿حَتَّى حِينٍ﴾ معناه: إلى وقت، ولم
يُعَيِّشُوهُ، وَإِنَّمَا أَرَادُوا: إلى وقت
يربحكم القدر منه.

ثم إن نوحاً عليه السلام دعا على
قومه حين يش منهم وإن كان دعاؤه
في هذه الآية ليس بنص، وإنما هو
ظاهر من قوله: ﴿يِمَا كَذَّبِينَ﴾،
فهو يقتضي طلب العقوبة، وأما
الثمرة بمجرد ما فكانت تكون بزعمهم
إلى الإيمان.

وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن:

إن فيما جرى على هذه الأمم لعبراً أو دلائل لمن له نظر وعقل، ثم أخبر تعالى أنه يتبلي عباده الزمن بعد الزمن على جهة الوعيد لكفار قريش بهذا الإخبار ﴿إِنَّ﴾ عند سيبويه هي المخففة من الثقيلة، واللام لام تأكيد، والفراء يقول: ﴿إِنَّ﴾ نافية واللام بمعنى «إلا»، و﴿كَيْتَابٍ﴾ معناه مصيبن ببلادٍ ومُخْتَبَرِينَ اختباراً يؤدي إلى ذلك.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال الطبري رحمه الله: إن هذا القَرْنُ هم ثمود، ورسولهم صالح عليه السلام، وفي الروايات ما يقتضي أن قوم عادٍ أقدم إلا أنهم لم يهلكوا بصيحة، وفي هذا احتمالات كثيرة، والله أعلم.

﴿وَلَذَرْنَاهُمْ﴾ معناه: نعمناهم ووسطنا لهم الآمال والأرزاق، ومقالة هؤلاء أيضاً تقتضي استبعاد بعثة البشر، وهذه الطائفة وقوم نوح لم ظهرت لهم وأنهم كذبوا بعد وضوحها، ولكن ذلك مقدر معلوم وإن لم يعين لنا المعجزة، والعقاب لا يتعلق بأحد إلا بعد تركه الواجب عليه، ووجوب الاتباع إنما هو بعد قيام الحججة على المرء أو على من هو المقصد والجمهور، كالعرب في معجزة القرآن، والأطباء لعيسى، والسحرة لموسى، فقيام الحججة على هؤلاء قامت على جميع من ورائهم.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَيُّدْرِكُ﴾ استفهام بمعنى التوقيف، على جهة

الاستبعاد، وبمعنى الهزء بهذا الوعد، و﴿أَنْتُمْ﴾ الثانية بدل من الأولى عند سيبويه، وفيها معنى تأكيد الأول، وكُرِّرت لطول الكلام، وإن كان المبرد أبى عبارة البدل لكونه غير مستقل إذ لم يذكر خبر «أَنْ» الأولى، والخبر عند سيبويه محذوف وتقديره: «أنكم تبعثون إذا متم»، وهذا المقدر هو العامل في ﴿إِذَا﴾، وفي قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَيُّعِدُّكُمْ إِذَا متم وكنتم تراباً وعظاماً أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ﴾ بحذف «أَنْتُمْ» الأولى. ويعنون بالإخراج النشور من القبور.

وقولهم: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ استبعاد، وهذه كلمة لها معنى الفعل، التقدير: بَعُدْ كذا، فطوراً تلي الفاعل دون لام، تقول: هيهات مجيء زيد، أي: بَعُدْ ذلك، ومنه قول جرير:

فَهَيْهَاتَ هَيْهَاتَ الْعَقِيقُ وَمَنْ بِهِ
وَهَيْهَاتَ خَلٌّ بِالْعَقِيقِ تُوَاوِصُهُ
وأحياناً يكون الفاعل محذوفاً، وذلك عند اللام كهذه الآية، والتقدير: بَعُدْ الوجود لما توعدون، ومن حيث كانت هذه اللفظة بمعنى الفعل أشبهت الحروف مثل (مَ) وغيرها، فلذلك بنيت على الفتح، وهذه قراءة الجماعة بفتح التاء، وهي مفرد سُمِّيَ به الفعل في الخبر، أي: بَعُدْ، كما أن (سَتَانٌ) اسم (افترق)، وعُزف تسمية الفعل أن تكون في الأمر كَصَهْ وَهَسْ.

وقرأ أبو جعفر: ﴿هَيْهَاتَ﴾ بكسر التاء غير منونة. وقرأها عيسى بن عمر، وأبو حيوه - بخلاف عنه - بتاء

مكسورة منونة، وهي على هاتين القراءتين عند سيبويه جمع «هَيْهَاتَ»، وكان حقها أن تكون «هَيْهَاتَاتٍ» إلا أن ضعفها لم يقتضِ إظهار الياء، وقال سيبويه رحمه الله: هي مثل «بَيْضَاتٍ»، أراد: «في أنها جمع»، وظن بعض النحاة أنه أراد: «في اتفاق المفرد» فقال: واحد «هَيْهَاتَ»: «هَيْهَ»، وليس كما قال، وتونين عيسى أراد التنكير، وترك أبي جعفر التنوين على إرادة التعريف. وقرأ عيسى الهمداني: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ﴾ بتاء ساكنة، وهي - على هذا - جماعة لا مفرد، وقرأها كذلك الأعرج، ورويت عن أبي عمرو. وقرأ أبو حيوه: ﴿هَيْهَاتَ﴾ بتاء مرفوعة منونة، وهذا على أنه اسم معرب مستقل وخبره ﴿لِمَا تُوعَدُونَ﴾، أي: البُعْد لوعدكم، كما تقول: النجم لسعيكم. وروي عن أبي حيوه ﴿هَيْهَاتَ﴾ بالرفع دون تنوين، وقرأ خالد بن إلياس: ﴿هَيْهَاتَا هَيْهَاتَا﴾ بالنصب والتنوين. والوقف على ﴿هَيْهَاتَ﴾ من حيث هي مبنية بالهاء، ومن قرأ بكسر التاء وقف بالتاء، وهي في اللفظة لغات: هَيْهَاتَا، وَهَيْهَاتَا، وَهَيْهَاتَا، وَهَيْهَاتَا، وَهَيْهَاتَا، وَهَيْهَاتَا، قال رؤية:

هَيْهَاتَ مِنْ مُنْخَرِقِ هَيْهَاتُوهُ
وقرأ ابن أبي عبله: ﴿هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ بغير لام.

وقولهم: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا
الْأَدْنَى﴾ أرادوا أنه لا وجود لنا غير هذا الوجود، وإنما تموت منا طائفة فتذهب وتجيء طائفة جديدة، وهذا

مما جرى بعد الخروج من البحر فليست تلك لفرعون بل هي خاصة ببني إسرائيل.

و (المَلَأَ): هاهنا: الجمع، يعمُ الأشراف وغيرهم، و ﴿فَأَسْتَكْبَرُوا﴾ معناه: عن الإيمان بموسى وأخيه عليهما السلام لأنهم أنفوا من ذلك. و ﴿عَالِينَ﴾ معناه: قاصدين العُلُوَّ بالظلم والكبرياء.

وقوله تعالى: ﴿عَبِيدُونَ﴾ معناه: خادمون مُتَذَلُّونَ، ومن هذا قيل لعرب الحيرة: العبياد؛ لأنهم دخلوا من بين العرب في طاعة كسرى، وهذا أحد القولين في تسميتهم، والطريق المُعَيَّد: المدلَّل، وعلُوُّ هؤلاء هو الذي ذكر الله تعالى في قوله: ﴿تِلْكَ الْأَمْثَلُ حَقَّ الْحَقِّ لِيَذَرَ الْآخِرَةَ لِيُعْطِيَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾. وقولُه: ﴿يَوْمَ الْمُهَلَّكِينَ﴾ يريد: بالغرق.

٤٩ - ٥١ تفسير قوله عز وجل: ﴿الْكِتَابَ﴾ هو التوراة، و ﴿لَعَلَّكُمْ﴾ يريد بني إسرائيل لأن التوراة إنما نزلت بعد هلاك فرعون والقبط، والترجي في «لعل» في حيز البشر. أي: كان من فعلنا معهم ما يرجو معه ابن آدم إيمانهم وهداهم، والقضاء قد حكم بما حكم.

و (ابن مَرْيَمَ) عيسى عليه السلام، وقصتهما كلها آية عظمى بمجموعها، وهي آيات مع التفصيل، وأخذها من كلا الوجهين متمكن، و «أوى» معناه: ضَمَّ، واستعمال اللفظة في الأماكن، أي أقرناهما، و «الرُّبُوعَة»: المرتفع من الأرض، وقرأ جمهور الناس: ﴿زُبُورًا﴾، وقرأ

و ﴿تَنَزَّأَ﴾ مصدر بمنزلة فعل مثل الدعوى والعدوى ونحوهما، وليس ﴿تَنَزَّأَ﴾ بفعل، وإنما هو مصدر من: تَوَاتَرَ الشيء، وقرأ الجمهور: ﴿تَنَزَّأَ﴾ كما تقدم، ووقفهم بالألف، وحمزة والكسائي يميلانها، قال أبو حاتم: هي ألف تأنيث، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿تَشْرَى﴾ بالتسوين، ووقفهما بالألف، وهي ألف إلحاق، قال ابن سيده: يقال: جاءوا تشرى وتشرى، أي متواترين،

التاء مُبْدَلَةٌ من الواو على غير قياس؛ لأن قياس إبدال الواو تاء إنما هو في «افْتَعَلَ» وما تَصَرَّفَ منها إذا كانت ياؤه واوًا، فإن فاءه تنقلب تاءً وتُدغم في تاءٍ «افْتَعَلَ»، وذلك نحو «اتَزَّنَ» واتَّجَعَهُ.

وقوله تعالى: ﴿فَأَتَيْنَاهُمُ بِالْحَقِّ﴾ أي: في الإهلاك. وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ يَرِيدُ أَحَادِيثَ﴾ مثل، وقلما يستعمل الجعل حديثاً إلا في الشر.

٥٥ - ٥٨ تفسير قوله عز وجل: ﴿ثُمَّ﴾ هنا على بابها لترتيب الأمور واقتضاء المهلة، و «الآيات» التي جاء بها موسى وهارون هي اليد والعصا اللتان اقترن بهما التحدي، وهما «السُّلْطَانُ الْمُبِينُ»، ويدخل في عموم اللفظ سائر آياتهما كالبحر والمرسلات السَّت، وأما غير ذلك

مَاتَسِقِينَ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَاهَا وَمَا سَتَرْنَا عَنْ قَوْمِهَا كَذِبَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ عِبَادًا مَنصُورِينَ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولَنَا نُتَدِّئُ كُلَّ مَاجَاءٍ أُمَّةٍ رَسُولًا كَذِبُوهُ فَاظْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٤٢﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ. فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٣﴾ فَقَالُوا أَأَنْتُمْ لِمَنْزِلَتِنَا مَقَالَتًا ﴿٤٤﴾ وَقَوْمُهُمَا لَنَا عَبِيدُونَ ﴿٤٥﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهَلَّكِينَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٧﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّةً عَادِيَةً وَإِنَّ مِنْهُمْ لَبِغِيًّا ﴿٤٨﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي صُورٍ مُّجْتَمِعِينَ ﴿٤٩﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي صُورٍ مُّجْتَمِعِينَ ﴿٥٠﴾ وَإِنَّا لَنَرَاهُمْ فِي صُورٍ مُّجْتَمِعِينَ ﴿٥١﴾

كفر الدهرية. و ﴿بِعُورِيَّتِكَ﴾ معناه: بِمُصَدِّقِينَ، ثم دعا عليهم نبيهم وطلب عقوبتهم على تكذيبهم.

٤١ - ٤٤ تفسير قوله عز وجل: المعنى: قال الله تعالى لهذا النبي الداعي: عَمَّا قَلِيلٍ يَنْدِمُ قَوْمُكَ عَلَىٰ كُفْرِهِمْ حِينَ لَا يَنْفَعُهُمُ النَّدْمُ. وَمِنْ ذِكْرِ الصَّيْحَةِ ذَهَبِ الطَّبْرِيِّ إِلَىٰ أَنَّهُمْ قَوْمٌ ثَمُودٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بما استحَقُّوا بأفعالهم وبما حقُّ منا في عقوبتهم. و (العُنَاءُ): ما يحمله السيل من زَبَدِهِ ومعناه الذي لا يُنْتَفَعُ بِهِ، فَبَسَّطَهُ كُلَّ هَامِدٍ وَتَالَفَ بِذَلِكَ. و ﴿فَبَعَثْنَا﴾ منصوب بفعل متروك إظهاره.

ثم أخبر تعالى عن أنه أنشأ بعد هؤلاء أُمَّةً كثيرة، كل أُمَّةٌ بأجل وفي كتاب لا تتعداه في وجودها وعند موتها.

عاصم، وابن عامر بفتحها، وهي قراءة الحسن وأبي عبدالرحمن، وقرأ ابن عباس، ونصر عن عاصم بكسرها. وقرأ محمد بن إسحاق: ﴿رُبَاوَةٌ﴾ بضم الراء، وقرأ الأشهب العقيلي بفتحها، وقرأت فرقة بكسرهما، وكلها لغات قرأ بها. و«الْقَرَارُ»: المتمكن، فمعنى هذا أنها مستوية بسيطة للحرث والغراسة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال قتادة: القرار هنا: الشمار والحبوب.

ومعنى الآية أنها من البقاع التي كملت خصالها فهي أهل أن يُسْتَقَرَّ فيها، وقد يمكن أن يُسْتَقَرَّ على الكمال في البقاع التي ماؤها آبار، فَيَبِينُ بَعْدُ أَنَّ مَاءَ هَذِهِ الرُّبُوعَةِ يُرَى مَعِينًا جَارِيًا عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا كمال الكمال.

و (المعين): الظاهر الجري للعين، فالميم زائدة، وهو الذي يُعَايِنُ جريه، لا كالبشر ونحوه، وكذلك أدخل الخليل هذه اللفظة في باب (ع ي ن)، وقد يحتمل أن يكون من قولهم: «مَعَنَ الْمَاءُ» إذا كَثُرَ، ومن قولهم: المعن المعروف والوجود، فالميم فاء الفعل، وأشد الطبري على هذا قول عبيد بن الأبرص:

وَإِهْيَئَةُ أَوْ مَعِينٌ مُسْعِنٌ
أَوْ مُضْبَةٌ دَوْنَهَا لُهُوبٌ
وقد قال رسول الله ﷺ:

«يرحم الله هاجر لو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً»، وهذا يحتمل الوجهين، وهذه الرُبُوعَةُ هي الموضع الذي فرت إليه مريم حين استحيت

في قصة عيسى عليه السلام، وهو الذي قيل لها فيه: ﴿قَدْ جَمَلَ رَبُّكَ تَحَاكُّكَ سَرِيًّا﴾، هذا قول بعض المفسرين.

واختلف الناس في موضع الرُبُوعَةِ - فقال ابن المسيب سعيد: هي الغوطة بدمشق. وهذا أشهر الأقوال لأن صفة الغوطة أنها ذات قرار ومعين على الكمال. وقال أبو هريرة رضي الله عنه: هي الرملة في فلسطين، وأسند الطبري، عن كريب، عن مُرَّةَ الْبَهْرِيَّةِ، عن النبي ﷺ، ويعارض هذا القول أن الرملة ليس يجري بها ماء البئة، ذكره الطبري وضَعَفَ القول به، وقال كعب الأحبار: الرُبُوعَةُ بَيْتُ الْمَقْدِسِ، وزعم أن في التوراة أن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء، وأنه يزيد على الأرض ثمانية عشر ميلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويرجع أن الرُبُوعَةُ في بيت لحم من بيت المقدس لأن ولادة عيسى هنالك كانت، وحينئذ كان الإيواء، وقال أبو زيد: الرُبُوعَةُ بِأَرْضِ مِصْرَ، وذلك أنها رُبِيَّ يجري فيض النيل إليها فيملاً الأرض ولا ينال تلك الرُبِيَّ وفيها القرى وبها نجاتها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويضعف هذا القول أنه لم يَزِدْ أَنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمَرِيَمَ كَانَا بِأَرْضِ مِصْرَ وَلَا حَفِظْتَ لِهَمَا بِهَا قِصَّةً.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ﴾ يحتمل أن يكون معناه: وقلنا يأتيها الرسل، فتكون هذه بعض القصص التي ذكر، وكيف كان قول المعنى، فلم يخاطبوا قط مجتمعين وإنما

خوَّطَبَ كُلُّ وَاحِدٍ فِي عَصْرِهِ. وقالت فرقة: الخطابُ بقوله: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ﴾ لمحمد ﷺ، ثم اختلف - فقال بعضهم: أقامه مقام الرسل، كما قال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَبَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ﴾، وقيل غير هذا مما لا يثبت مع النظر. والوجه في هذا أن يكون الخطاب لمحمد ﷺ، وخرج بهذه الصيغة ليفهم وجيزاً أن هذه المقالة قد خوَّطَبَ بِهَا كُلُّ نَبِيٍّ، أو هي طريقتهم التي ينبغي لهم الكون عليها، وهذا كما تقول لثاجر: يا تُجَّارُ ينبغي أن تجانبوا الرُّبَا، فأنت تخاطبه بالمعنى، وقد اقترن بذلك أن هذه المقالة تصلح لجميع صنفه وقال الطبري: الخطاب بقوله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الرُّسُلُ﴾ لعيسى عليه السلام، وروي أنه كان يأكل من غزل أمه، والمشهور أنه كان يأكل من بقل البرية، ووجه خطابه لعيسى عليه السلام ما ذكرناه من تقدير لمحمد ﷺ.

و(الطَّيَّاتِ) هنا: الحلال بلذة وبغير ذلك.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنِّي يَمَّا تَمَلُّونَ عَلَيْهِمُ﴾ تنبيه على التحفظ، وضرب من الوعيد بالمباحة، صلى الله على جميع أنبيائه ورسله، وإذا كان هذا معهم فما ظن كل الناس بأنفسهم.

٥٢ - ٥٦ تفسير قوله عز وجل:

قرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿رَبَّنْ هَذِهِ﴾ بكسر الألف وشدّ النون. وقرأ ابن عامر: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ﴾ بفتح الألف وتخفيف «أَنَّ». وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿وَأَنَّ

ثم ذكر تعالى أن كل فريق منه معجب برأيه وضلالته، هذا غاية الضلال؛ لأن المرتاب بما عنده ينظر إلى طلب الحق، ومن حيث كان ذكر الأمم في هذه الآية مثلاً لأقرش خاطب محمداً عليه الصلاة والسلام في شأنهم متصلاً بقوله: ﴿فَذَرَهُمْ﴾، أي: فذر هؤلاء الذين هم بمنزلة من تقدم. (والعمره): ما عمهم من ضلالهم وقعل بهم فعل الماء العمر بما حصل فيه، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَاتِهِمْ﴾. و﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي إلى وقت فتح فيهم غير محدود. وفي هذه الآية مودعة منسوخة بآية السيف.

ثم وقفهم على خطأ رأيهم في أن نعمة الله عندهم بالمال ونحوه إنما هي لرضاه عن حالهم، وبين تعالى أن ذلك إنما هو إملاء واستدرج، وخبر ﴿أَنَّ﴾ في قوله: ﴿سَارِعًا﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿سَارِعًا﴾ بنون العظمة، وفي الكلام - على هذه القراءة - ضمير عائد تقديره: ﴿لَهُمْ﴾ به. وقرأ عبد الرحمن بن أبي بكره: ﴿يُسَارِعُ﴾ بالياء وكسر الراء بمعنى أن إمدادنا يسارع، ولا ضمير مع هذه القراءة إلا ما يتضمن الفعل.

وروي عن أبي بكره المذكور ﴿يُسَارِعُ﴾ بفتح الراء، وقرأ الحرز النحوي: ﴿نُسْرِعُ﴾ بالنون وسقوط الألف، (والخيزات) هنا تعم الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ لَا يَشْكُرُونَ﴾ وعيد وتهديد، (الشعور) مأخوذ من الشعار وهو ما يلي الإنسان من الثياب.

٥٧ - ٦١ تفسير قوله عز وجل:

لما فرغ من ذكر الكفرة وتوعددهم عقب ذلك بذكر المؤمنين ووعددهم،

﴿يَأْتِيَا أَرْسُلًا﴾ إنما هو مخاطبة لجميعهم، وأنه بتقدير حضورهم، وتجيء هذه الآية بعد ذلك بتقدير:

وقلنا للناس، وإذا قدرت

﴿يَأْتِيَا أَرْسُلًا﴾ مخاطبة لمحمد ﷺ قليل اتصال

هذه واتصال قوله:

﴿فَنَقَطُوا أَمْرَهُمْ﴾، أما إن

قوله: ﴿وَأَنَا رِيضٌ فَأَقْرُبُ﴾

وإن كان قيل للأنبياء

فأمهم داخلون فيه بالمعنى

فيحسن بعد ذلك اتصال

﴿فَنَقَطُوا﴾. ومعنى

(الأمة) هنا الإملة والشرعة،

والإشارة بـ ﴿هَلِيدٍ﴾ إلى

الحنيفية السمحة ملية

إبراهيم عليه السلام وهو دين الإسلام.

وقوله: ﴿فَنَقَطُوا﴾ يريد الأمم،

أي: افترقوا، وليس بفعل مطاوع

كما تقول «نقطع الثوب»، بل هو

فعل متعد بمعنى «قطعوا»، ومثله

تجهمني الليل، وتخوفني الشئير،

وتعرفني الزمن.

وقرأ نافع: ﴿زُبْرًا﴾ بضم الزاي

وبالباء، جمع زبور. وقرأ الأعمش،

وأبو عمرو - بخلاف -: ﴿زُبْرًا﴾ بضم

الزاي وفتح الباء. فأما الأولى فتحتمل

معنيين: أحدهما أن الأمم تنازعت

أمرها كُتُبا منزلة، فاتبعت فرقة

الصحف وفرقة التوراة وفرقة الإنجيل،

ثم حَرَفَ الكل ويذل، وهذا قول

قتادة. والثاني أنهم تنازعوا أمرهم كُتُبا

وضعوها وضلالات ألقوها، وهذا

قول ابن زيد، وأما القراءة الثانية

فمعناها: فرقا كزبر الحديد.

وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ رِجْلَةٌ أَلَيْسَ لَهُمْ رِجْمُونَ ﴿٥٧﴾
 أَوْلَيْكَ بِشُرْعَةٍ فِي الْحَرْبِ وَهُمْ هَاسِبُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَكْفُرْ
 نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدِينَا كِتَابٌ بِطَاقٍ بَاطِنٍ وَمَنْ لَا يَرْكَبْهُ
 بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمَرَاتٍ مِنْ هَذَا وَهُمْ أَصْحَابُ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا
 عَابِدُونَ ﴿٥٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذْ هُمْ يُخْرَجُونَ
 ﴿٦٠﴾ لَا تَجْعَلْ لِكُلِّ أُمَّةٍ أُمَّةً لَهَا نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ فَكَانَتْ آيَاتِنَا
 تُنزلُ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ غَمَلٍ مُرْتَبِئِينَ كَرِهْتُمْ لَكُمْ ﴿٦١﴾ سَمَّيْتُمْ
 بِهِ سُمًّا تَنْجُرُونَ ﴿٦٢﴾ أَفَلَمْ يَذَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا أُرِيتُ
 أَمْ آيَاتُهُمْ الْأُولَىٰ ﴿٦٣﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُتَكَبِّرُونَ
 ﴿٦٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ بَوَّءَ جَنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَأَكْفَرَهُم بِالْحَقِّ
 كَرِهُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ
 وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ
 ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٦﴾ أَمْ قَسَمْتَ لَهُمْ خَرَجًا خَرَجَ رَبِّكَ فَتَرَىٰ
 هُوَ حَرًّا لِرَبِّكَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّكَ لَنَدْعُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٨﴾
 وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَعَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَرِبُونَ ﴿٦٩﴾

٣٤٦

هَلِيدٍ بفتح الألف وتشديد ﴿أَنَّ﴾. فالقراءة الأولى تبيته على القطع، وأما فتح الألف وتشديد النون فمذهب سيبويه أنها متعلقة آخرأ بـ ﴿فَأَقْرُبُ﴾ على تقدير: «لأن»، أي: فأقرب لأن أمتكم أمة واحدة وأني ربكم، وهذا عنده نحوه قوله عز وجل: ﴿رَأَى الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أُخْرَىٰ﴾، و﴿رَأَى﴾ عنده في موضع خفض، وهي عند الخليل في موضع نصب لما زال الخافض، وقد عكس هذا الذي نسبت إليهما بعض الناس. وقال الفراء: ﴿رَأَى﴾ متعلقة بفعل مضمرة تقديره: واعلموا أو احفظوا.

وقرأ الحسن، وابن أبي إسحاق: ﴿أُمَّةٌ نَجِدَةٌ﴾ بالرفع على البدل. وقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ﴾ بالنصب على الحال، وقيل على البدل من ﴿هَلِيدَةٍ﴾، وفي هذا نظر.

وهذه الآية تقوي أن قوله تعالى:

وذكر ذلك بأبلغ صفاتهم. (وَالْإِشْفَاقُ) أبلغ التوقع والخوف، و﴿يَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَنْ خَشْيَةَ﴾ لبيان جنس الإشفاق، والإشفاق إنما هو من عذاب الله تعالى، و﴿يَنْ﴾ في قولنا: ﴿يَنْ عذاب الله﴾ هي لا ابتداء غاية.

و(الآية) تعم القرآن وتعم العبر والمصنوعات التي لله تعالى وغير ذلك مما فيه نظر واعتبار.

وفي كُلِّ شَيْءٍ لَّهُ آيَةٌ

ثم ذكروهم تعالى من الطرف الآخر وهو نفي الإشراك؛ لأن كُفَّار قريش أن يقولوا: ونحن نؤمن بآيات ربنا، ونريد أن نصدق بأنه المخترع الخالق، فذكر تعالى نفي الإشراك الذي لا حظ لهم فيه بسبب أصنامهم.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ على قراءة الجمهور معناه: يُعطون ما أعطوا، وقال الطبري: يريد الزكاة المفروضة وسائر الصدقة، وروي نحوه عن ابن عمر رضي الله عنهما، ومجاهد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما ضمهم إلى هذا التخصيص أن العطاء مستعمل في المال على الأغلب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وابن جبير: هو عام في جميع أعمال البر، وهذا حسن، كأنه قال: والذين يُعطون من أنفسهم في طاعة الله ما بلغه جهدهم. وقرأت عائشة أم المؤمنين، وابن عباس، وقتادة، والأعمش: ﴿يَأْتُونَ مَا آتَوْا﴾، ومعناه: يفعلون ما فعلوا،

ورويت هذه القراءة عن النبي ﷺ. وذهبت فرقة إلى أن معناه: من المعاصي، وذهبت فرقة إلى أن ذلك في جميع الأعمال طاعتها ومعصيتها، وهذا أمدح. وأسند الطبري عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها قالت: قلت: يا رسول الله، قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا﴾ الذي يزني ويسرق؟ قال: ﴿لا يا بنت أبي بكر، هي في الرجل يصوم ويتصدق وقلبه وجل يخاف ألا يتقبل منه﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا نظر مع الحديث.

(وَالْوَجَلُ) نحو الإشفاق والخوف. وصورة هذا الرجل أما المخلط فينبغي أن يكون أبداً تحت خوف من أن يكون ينفذ عليه الوعيد بتخليطه، وأما التقي التائب فخوفه من الخاتمة وما يطلع عليه بعد الموت، وفي قوله سبحانه: ﴿أَنْتُمْ إِنْ رَيْبِهِمْ رَجَعُونَ﴾ تنبيه على الخاتمة. وقال الحسن: معناه: الذين يفعلون ما يفعلون من البر ويخافون ألا يُتجهبهم ذلك من عذاب ربهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة حسنة.

وروي عن الحسن أيضاً أنه قال: المؤمن يجمع إحساناً وشفقة، والمنافق يجمع إساءة وأمنأ.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنْتُمْ﴾ بفتح الألف، والتقدير: بأنهم أو لأنهم أو من أجل أنهم، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿وَجِلَّةٌ﴾ عاملاً في ﴿أَنْ﴾ من حيث هي بمعنى: خائفة. وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّهُمْ﴾ بكسر الألف

على إخبارٍ مقطوع في ضمنه تخويف.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم يبادرون إلى فعل الخيرات، وقرأ الجمهور: ﴿يَسْرِعُونَ﴾، وقرأ الحُرّ النحوي: ﴿يَسْرِعُونَ﴾ و﴿أَنْتُمْ إِلَيْهَا سَابِقُونَ﴾، وهذا قول بعضهم في قوله تعالى: ﴿لَهَا﴾، وقالت فرقة: معناه: من أجلها سابقون. فالسابق - على هذا التأويل - هو إلى رضوان الله، وعلى الأول هو إلى الخيرات، وقال الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: سبقت لهم السعادة في الأزل فهم لها، ورجحه الطبري بأن اللام متمكنة في المعنى.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكْفُرْ تَقَا إِلَّا وَسِعَتْ﴾ نسخ لجميع ما ورد في الشرع من تكليف ما لا يطاق على الحقيقة، وتكليف ما لا يطاق أربعة أقسام: ثلاثة حقيقة ورابع مجازي، وهو الذي لا يطاق الاشتغال بغيره مثل الإيمان للكافر والطاعة للمعاصي، وهذا التكليف باقٍ وهو تكليف أكثر الشريعة، وأما الثلاثة فورد اثنان منها، وفيها وقع النسخ المحال عقلاً في نازلة أبي لهب والمحال عادة في قوله: ﴿وَإِنْ تَبَدُّرًا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية، والثالث لم يرد فيه شيء، وهو النوع المهلك لأن الله تعالى لم يكلفه عباده، فأما قتل القاتل ورجم الزاني فعقوبته بما فعل، وقد مضى القول مستوعباً في مسألة تكليف ما لا يطاق في سورة البقرة، وفي قولنا «ناسخ» نظر من

جهة التواريخ وما نزل بالمدينة وما نزل بمكة، والله المعين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَبَيِّنُ بِالْحَقِّ﴾ أظهر ما قيل فيه أنه أراد كتاب إحصاء الأعمال الذي ترفعه الملائكة، وفي الآية - على هذا التأويل - تهديد وتأييس من الحيف والظلم، وقالت فرقة: الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَلَدَيْنَا كِتَابٌ﴾ إلى القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يحتمل، والأول أظهر.

وقوله تعالى: ﴿فِي غَمْرَةٍ﴾ يريد: في ضلال قد غمرها كما يفعل الماء الغمر بما حصل فيه، وقوله سبحانه: ﴿يَنْ هَذَا﴾ يحتمل أن يشير إلى القرآن، ويحتمل أن يشير إلى الإحصاء، ويحتمل أن يشير إلى الأعمال الصالحة المذكورة قبل، أي: هم في غمرة من أطراحها وتركها، ويحتمل أن يشير إلى الدين بجملته، أو إلى محمد ﷺ، وكل تأويل من هذه قد قالته فرقة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ﴾، الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الغمرة والضلال المحيط بهم، فمعنى الآية: بل هم ضالون معرضون عن الحق، وهم - مع ذلك - لهم سعيات فساد، فوسمهم تعالى بحالتي شر، قال هذا المعنى قتادة وأبو العالية، وعلى هذا التأويل فالإخبار عما سلف من أعمالهم وعمّا هم فيه. وقالت فرقة: الإشارة بـ﴿ذَلِكَ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿يَنْ هَذَا﴾ فكأنه قال: لهم أعمال من دون الحق أو القرآن ونحوه، وقال الحسن بن أبي الحسن ومجاهد: إنما أخبر سبحانه وتعالى

بقوله: ﴿وَلَكُمْ أَعْمَلٌ﴾ عما يُستأنف من أعمالهم، أي أنهم لهم أعمال من الفساد سيعملونها.

﴿وَحَقٌّ﴾ حرف ابتداء لا غير، ﴿وَإِذَا﴾ الأولى و﴿وَإِذَا﴾ الثانية - التي هي جواب - تمنعان من أن تكون غاية لـ﴿عَمَلُونَ﴾.

و(المُتْرَفُ) هو المنعم في الدنيا الذي هو منها في سرف، وهذه حال شائعة في رؤساء الكفرة من كل أمة.

﴿وَيَجْتَرُونَ﴾ معناه: يستغيثون بصياح كصياح البقر، وكثر استعمال الجأر في البشر، ومنه قول الأعشى:

يُرَاجِحُ مِنْ صَلَوَاتِ الْمَلِيحِ

لِكَ طُورًا سُجُودًا وَطُورًا جُورًا

وذهب مجاهد وغيره إلى أن العذاب المذكور هو الوعيد بيوم بدر، وفيه نقد على مترفيهم.

والضمير في قوله: ﴿وَإِذَا هُمْ﴾ يعود

على «المترفين» فقط لأنهم صاحوا

حين نزل بهم الهزم والقتل يوم بدر،

ويحتمل أن يعود على الباقيين بعد

المُعذِّبين، وقد حكى ذلك الطبري

عن ابن جريج، قال: المُعذَّبون:

قتلى بدر، والذين يجأرون: أهل

مكة لأنهم ناحوا واستغاثوا.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: يقال يوم العذاب عند

حلوله: ﴿لَا يَجْتَرُونَ أَيَّومَ يُنْزَلُ﴾

﴿نُفْرُونَ﴾، وهذا القول يجوز أن

يكون حقيقة، أي تقول لهم ذلك

الملائكة، ويحتمل أن يكون مجازاً،

أي: لسان الحال يقول ذلك، وهذا

على أن الذين يجأرون هم

المعذِّبون، وأما على قول ابن جريج

فلا يحتمل أن تقول ذلك الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُنزلُ

عَلَيْكُمْ﴾ الآية يريد بها القرآن.

﴿وَنَكْهُونَ﴾ معناه: ترجعون

وراءكم، وهذه استعارة للإعراض

والإدبار عن الحق، وقرأ علي بن

أبي طالب رضي الله عنه: ﴿عَلَى

أدباركم تُنْكَصُونَ﴾ بضم الكاف

ويذكر الأدبار بدلاً من الأعقاب.

﴿وَسْتَكْبِرِينَ﴾ حال، والضمير في

﴿يَدِي﴾ قال الجمهور: هو عائذ على

الحرم والمسجد وإن لم يتقدم له ذكر

لشهرته في الأمر، والمعنى: إنكم

تعتقدون في أنفسكم أن لكم

بالمسجد والحرم أعظم الحقوق على

الناس والمنازل عند الله، فأنتم

تستكبرون لذلك، وليس الاستكبار

من الحق وقالت طائفة: الضمير «في

﴿يَدِي﴾ عائذ على القرآن من حيث

ذكرت الآيات، والمعنى: يُحدث

لكم سماع الآيات كقرآناً وطغياناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قولٌ جيد.

وذكر مُنذر بن سعيد أن الضمير

لمحمد ﷺ، وهو متعلق بما بعده،

وكان الكلام تمّ في قوله:

﴿مُسْتَكْبِرِينَ﴾، ثم قال لمحمد ﷺ:

﴿سَمَرًا تَهْجُرُونَ﴾.

وقوله: ﴿سَمَرًا﴾ حال، وهو مفرد

بمعنى الجمع، يقال: قومٌ سَمَرٌ

وسَمَرٌ وسَامِرٌ، ومعناه سَهْرُ الليل،

مأخوذ من السمر وهو ما يقع على

الأشخاص من ضوء القمر، فكانت

العرب تجلس للسمر تتحدث، وهذا

أوجب معرفتها بالنجوم؛ لأنها

تجلس في الصحراء فترى الطوالع مع

الغوارب. وقرأ الجمهور: ﴿سَمْرًا﴾، وقرأ أبو رجاء: ﴿سُمَارًا﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وابن محيصن: ﴿سُرًّا﴾، ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

مِنْ دُونِهِمْ إِنْ جِئْتَهُمْ سَمْرًا
عَزَفَ الْقِيَانِ وَمَجْلِسُ عَمْرُ
وكانت قريش تسمُرُ حول الكعبة مجالسَ في أباظليها وكفرها. وقرأ الجمهور: ﴿تَهَجَّرُونَ﴾ بفتح التاء وضم الجيم، واختلف المتأولون في معناها؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناها: تَهَجَّرُونَ الحقَّ وذكَّرَ الله تعالى، من التَهَجَّرَ المعروف. وقال ابن زيد: هو من هَجَرَ المريض إذا هَدَى، أي: تقولون اللغو من القول، وقاله أبو حاتم. وقرأ نافع وحده من السبعة: ﴿تَهَجَّرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الجيم، وهي قراءة أهل المدينة، وابن محيصن، وابن عباس أيضاً، ومعناه: تقولون الفُحْشَ والهَجْرَ من القول، وهذه إشارة إلى سبهم رسول الله ﷺ وأصحابه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً وغيره، وفي الحديث: «كنث نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هُجْرًا». وقرأ ابن محيصن، وأبو نبيك ﴿تَهَجَّرُونَ﴾ بضم التاء وفتح الهاء وشد الجيم مكسورة، وهو تضعيف هَجَرَ وتكثير الهَجْرَ أو الهَجْرَ على المعنيين المتقدمين، قال ابن جني: لو قيل إن المعنى أنكم تبالغون في المهاجرة حتى إنكم وإن كنتم سُمْرًا بالليل فكأنكم تَهَجَّرُونَ

في المهاجرة على غاية الافتضاح لكان وجهاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا تكون هذه القراءة تكثير ﴿تَهَجَّرُونَ﴾ بضم التاء وكسر الجيم لأن أفعال لا يتعدى ولا يُكْتَثَرُ بتضعيف؛ إذ التضعيف والهجرة متعاقبان.

ثم وبخهم على إعراضهم بعد تدبُّر القول لأنهم - بعد التدبير والنظر الفاسد - قال بعضهم: سِغَرٌ، وقال بعضهم: سِخْرٌ، وسائر ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ جَاءَهُمْ﴾ كذلك توبيخ أيضاً، والمعنى: أبتدع لهم أمراً لم يكن في الناس قبلهم؟ بل قد جاء الرسل قبل كُتُوبٍ وإبراهيم وإسماعيل عليهم السلام، وفي هذا التأويل من التجوز أن جعل سالف الأمم آباء؛ إذ الناس في الجملة آخروهم من أولهم. ويحتمل اللفظ معنى آخر على أن يُراد بأبائهم الأولين من فرط من سلفهم في العرب، كأنه قال: أفلم يَدَّبُّرُوا القول أم جاءهم أمر غريب من عند الله لم يأت آباءهم فبهر عقولهم، وثبت عنه أذهانهم، فكأن التوبيخ يتسق بأن يُقدَّر الكلام: أفلم يَدَّبُّرُوا أم بهرت عقولهم وثبت أذهانهم عن أمر من أمور الله غريب في سلفهم؟ والمعنى الأول أبين.

٦٩ - ٧٠ تفسير قوله عز وجل: هذا أيضاً توبيخ، والمعنى: ألم يعرفوه صادقاً مدة عمره ولم يقع قط منهم إنكار لمعرفة وجه محمد ﷺ، وإنما أنكروا صدقه. وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ﴾

توبيخ أيضاً لأن الفرق بين الحكمة وفصل الخطاب الذي جاء به وبين ذي الجِنَّة لا يخفى على ذي فِطْرَةٍ. ثم بين تعالى حاله عليه الصلاة والسلام في مجيئه بالحق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ﴾، قال ابن جريج وأبو صالح: الحقُّ: الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ليس من نَمَط الآية. وقال غيرهما: الحقُّ هنا: الصواب والمستقيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأخرى، على أن يكون المذكور قبل الذي جاء به محمد رسول الله ﷺ، ويستقيم - على هذا - فساد السماوات والأرض ومن فيهن لو كان بحكم هوى هؤلاء، وذلك أنهم جعلوا لله شركاء وأولاداً، ولو كان هذا حقاً لم تكن لله تبارك وتعالى الصفات العلية، ولو لم تكن له تلك الصنعة ولا القدرة، وكان ذلك فساد السماوات والأرض ومن فيهن، ومن قال إن الحق في الآية الله تعالى تشعبت له لفظة ﴿اتَّبَعَ﴾ وصعب عليه ترتيب الفساد المذكور في الآية؛ لأن لفظة «الاتباع» - على كلا الوجهين - إنما هي استعارة بمعنى أن تكون أهواؤهم يصونها الحق ويقررها، فنحن نجد الله تعالى قد قدَّر كُفْرَ أمم وأهوائهم، فليس في ذلك فساد سماوات، وأما الحق نفسه الذي هو الصواب فلو كان طبق أهوائهم لفسد كلُّ شيء، فتأملهُ.

وقرأ ابن وثاب: ﴿وَلَوْ اتَّبَعَ﴾ بضم

قوله: «اللهم سبماً كسني يوسف...» الحديث.

(٧٦) - (٧٧) تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبار من الله عز وجل عن استكبارهم وطغيانهم بعد ما نالهم من الجوع، هذا قول زوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن جريج أن «العذاب» هو الجوع والجذب المشهور نزوله بهم حتى أكلوا الجلود وما جرى مجراها، وأن «الباب» المتوعد يوم بدر، وهذا القول يرده أن الجذب الذي نالهم إنما كان بعد وقعة بدر، وزوي أنهم لما بلغهم الجهد جاء أبو سفيان إلى النبي ﷺ فقال: أأست تزعج يا محمد أنك بعثت رحمة للعالمين؟ قال: بلى، قال: فقد قتلت الآباء بالسيف والأبناء بالجوع، وقد أكلنا العلهز، فنزلت الآية. و«استكأوا» معناه: انخفضوا وتواضعوا، ويحتمل أن يكون من السكون، ويلزمه أن يكون «استكأوا»، ووجهه أن فتحة الكاف مقلت فتولدت ألف، ويعطي التصريف أنه من «كان»، وأن وزنه (استفعل)، وعلى الأول وزنه (افتعل)، وكونه من «كان» أبين، والمعنى: فما طلبوا أن يكونوا لربهم أهل طاعة، وعبيد خير. وزوي عن الحسن رحمه الله أنه قال: «إذا أصاب الناس من قِبَل الشيطان بلاء فإنما هي نعمة، فلا تستقبلوا نعمة الله بالحمية، ولكن استقبلوها بالاستغفار، واستكبنوا وتضرعوا إلى الله»، وقرأ هذه الآية «ولقد أخذتهم بالعذاب فمأ استكأوا لربهم وما يضرعون».

سألناهم ما لا فقلقوا لذلك واستقلوك من أجله؟

وقرأ حمزة والكسائي:

«خَرَجاً فَخَرَجَ». وقرأ

ابن كثير، ونافع،

وأبو عمرو، وعاصم:

«خَرَجاً فَخَرَجَ». وقرأ ابن

عباس رضي الله تعالى

عنهما: «خَرَجاً

فَخَرَجَ»، وهو المال

الذي يُجَبَى ويؤْتَى به

لأوقاف محدودة، قال

الأصمعي: الخَرْجُ

الجُغْل مرة واحدة،

والخَرَج ما تَرَدَّد لأوقات

ما.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: وهذا فرق استعماله،

وإلا فهما في اللغة بمعنى، وقد

قرىء «خَرَجاً» في قصة

ذي القرنين.

وقوله: «فَخَرَجُ رَبِّكَ» يريد ثوابه،

سماً خراجاً من حيث كان معادلاً

للخراج في هذا الكلام، ويحتمل أن

يريد بخراج ربك رزق ربك، ويؤيد

هذا قوله تعالى: «وَقَوْ عِزَّ الرَّبِّينَ»

والصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ: دين الإسلام.

و«التكبروت» معناه: عادلون

ومعرضون.

ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم لو

زال عنهم القحط ومن الله عليهم

بالخصب ورحمهم بذلك لبقوا على

كفرهم ولجأوا في طغيانهم. وهذه

الآية نزلت في المدة التي أصابت

فيها قريشاً السنون الجدية والجوع

الذي دعا به رسول الله ﷺ في

﴿لَوْ رَحِمْنَاهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرِّ لَجُورِي طَغْيَانِهِمْ يَعْصُونَ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَأُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَضُرُّونَ ﴿٧٧﴾ حَتَّى إِذَا تَمَتَّعْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَاهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٨٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨١﴾ بَلْ قَالُوا أَسْأَلُ مَا قَالَ آلَ آدَمَ ﴿٨٢﴾ قَالُوا أَوْ دَانَا وَنَحْنَا وَكَانَ آبَاؤُنَا وَعِظْمَا أَوْ نَأْتِ لَمَعْرُوفٍ ﴿٨٣﴾ لَقَدْ وَعِدْنَا نَحْنُ وَوَأَبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٤﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٥﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٦﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٧﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا نَعْبُدُكَ ﴿٨٨﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ مَلَكُوتِكُمْ كُلِّ مَنْ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَا يَحْسَابُ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٩٠﴾

الواو، قال أبو الفتح: الضم في هذه الواو قليل، والوجه تشبيهها بواو الجمع كقوله تعالى: «أَشْرَكُوا الضَّلَالَةَ».

وقوله تعالى: «يَذَكِّرْهُمْ» يحتمل أن

يريد: يوعظهم والبيان لهم، قاله ابن

عباس رضي الله عنهما. وقرأ قتادة:

«نُذِرْكُمْهُمْ» بنون مضمومة وذال

مفتوحة وكسر الكاف مشددة.

ويحتمل أن يريد: يشرفهم، وهو

مروي. وقرأ عيسى بن عمر، وابن

أبي إسحاق: «أَيَّنَّاهُمْ يَذَكِّرْهُمْ» بضم

تاء المتكلم، وقرأ ابن أبي إسحاق

أيضاً: «بَلْ أَتَيْتَهُمْ» خطاباً

لمحمد ﷺ. وقرأ الجمهور: «بَلْ

أَيَّنَّاهُمْ يَذَكِّرْهُمْ» أي جنناهم، وزوي

عن أبي عمرو «أَتَيْتَاهُمْ» بالمد،

بمعنى أعطيناهم.

(٧٦) - (٧٧) تفسير قوله عز وجل:

هذا توبيخ لهم كأنه قال: أم

هذه الدار؟ وقولك: من منالك هذه الدار؟ واحذ في المعنى.

ثم جعل التوبيخ مدرجاً بحسب وضوح الحجّة شيئاً شيئاً، فوقف على الأرض ومَن فيها وجعل بإزاء ذلك التذكّر، ثم وقف على السموات السبع والعرش وجعل بإزاء ذلك التقيّة وهي أبلغ من التذكّر، وهذا بحسب وضوح الحجّة، وفي قوله: ﴿أَنَّا نُنزِّلُ الْغَيْثَ﴾ وعيد، ثم وقف على ملكوت كل شيء، وفي الإقرار بهذا التزام ما تقع به الغلبة في الاحتجاج، فوقع التوبيخ بعده في غاية البلاغة بقوله: ﴿فَأَنَّا نَسُحِّرُهُ﴾ ومعنى ﴿أَنَّا﴾ كيف؟ ومن أين؟ وفي هذا تقرير سحرهم، وهو سؤال عن الهيئة التي سحروا بها، والسحر هنا مستعار لهم، وهو تشبيه لما وقع منهم من التخليط ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع من المسحور، عبّر عنهم بذلك. وقالت فرقة: ﴿تُسْحَرُونَ﴾ معناه: تمنعون، وحكى ذلك بعضهم لغةً.

وقرأ ابن محيصن: ﴿الْعَظِيمِ﴾ برفع الميم، و﴿مَلَكُوتٍ﴾ مصدر في بنائه مبالغةً.

و(الإجارة): المنع من الإنسان، والمعنى أن الله تبارك وتعالى إذا منع أحداً فلا يُقدر عليه، وإذا أراد أحداً فلا مانع له، وكذلك في سائر قدرته وما نفذ من قضائه، لا يُعارض ذلك شيء ولا يحيله عن مجراه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَائِرٍ كَالَّذِي نَحْمَلُ يَوْمَ تَمُوتُ فَتَكُنُ أَشْجَارًا سَاءَتِ الثَّمَرَاتِ لَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اثْقَالًا مِّمَّا كَسَبُوا فَلَا يَكْفِيهِمْ سَأْوَتِ الثَّمَرَاتِ أَن يُسْأَلُوا يَوْمَئِذٍ بِمَا كَسَبُوا وَأَسَاطِيرَ الْأُولَىٰ﴾ (٧٨) وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَائِرٍ كَالَّذِي نَحْمَلُ يَوْمَ تَمُوتُ فَتَكُنُ أَشْجَارًا سَاءَتِ الثَّمَرَاتِ لَأَخَذْنَا مِنْهُمُ اثْقَالًا مِّمَّا كَسَبُوا فَلَا يَكْفِيهِمْ سَأْوَتِ الثَّمَرَاتِ أَن يُسْأَلُوا يَوْمَئِذٍ بِمَا كَسَبُوا وَأَسَاطِيرَ الْأُولَىٰ﴾ (٧٩)

وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِصْرَابٌ، وَالْجَحْدُ قَبْلَهُ مَقْدَرٌ، كَأَنَّهُ قَالَ: لَيْسَ لَهُمْ نَظَرٌ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ، أَوْ نَحْوِ هَذَا، وَالْأُولَىٰ﴾ يشير به إلى الأمم الكافرة كعاد وثمود، وقوله تعالى: ﴿لَتَبْتَؤُنَّ﴾ أي لَمُعَاذُونَ أَحْيَاءَ، وقولهم: ﴿وَهَٰكَذَا﴾ إِنْ حَكَى المقالة عن العرب فمرادهم من سلف من العالم، جعلوهم آباء من حيث النوع واحد، وَإِنْ حَكَى ذَلِكَ عَنِ الْأَوَّلِينَ فَالْأَمْرُ مُسْتَقِيمٌ فِيهِمْ. وَالْأَسَاطِيرُ قَبِيلٌ: هِيَ جَمْعُ أُسْطُورَةٍ كَأَعْجُوبَةٍ وَأَعْجَابٍ وَأَحْدُوثَةٍ وَأَحَادِيثٍ، وَقَبِيلٌ: هِيَ جَمْعُ جَمْعٍ، يُقَالُ: سَطَرَ وَأَسْطَازَ وَأَسَاطِيرَ.

٧٨ - ٧٩ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتوقيفهم على هذه الأشياء التي لا يمكنهم إلا الإقرار بها، ويلزم من الإقرار بها أن يؤمنوا ببارئها ويدعوا لشرعه ورسالة رسوله.

وقرأ الجميع في الأول: ﴿لِلَّهِ﴾ بلا خلاف. واختلف في الثاني والثالث، فقرأ أبو عمرو: ﴿اللَّهُ﴾ جواباً على اللفظ، وقرأ باقي السبعة: ﴿لَيْلٍ﴾ جواباً على المعنى، كأنه قال في السؤال: لِمَنْ ملك السموات السبع؟ إذ قولك: لمن

و(الْعَدَابُ الشَّدِيدُ) إما يوم بدر بالسيوف كما قال بعضهم، وإما توعدٌ بعذاب غير معين، وهو الصواب لما ذكرناه من تقدم بدر للمجاعة، وروي عن مجاهد أن العذاب والباب الشديد هو كله في مجاعة قريش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا حسن، كان «الأخذ» في صدر الأمر، ثم فتح الباب عند تنأيه حيث أبلسوا وجاء أبو سفيان.

و(المبليس): الذي قد نزل به شرٌ ويش من زواله ونسخه بخير.

٧٨ - ٧٩ تفسير قوله عز وجل:

ابتدأ تعالى بتعديد نعم في نفس تعديدها استدلال بها على عظيم قدرته، وأنها لا يعزب عنها أمر البعث ولا يعظم.

و﴿أَنشَأَ﴾ بمعنى اخترع، و(السمع) مصدر، فلذلك وحُد، وقيل: أراد الجنس. و﴿وَالْأَفْئِدَةَ﴾ القلوب، وهذه إشارة إلى النطق والعقل، وقوله تعالى: ﴿قَلِيلًا﴾ نعت لمصدر محذوف تقديره: شكراً قليلاً ما تشكرون، وذهبت فرقة إلى أنه أراد: قليلاً منكم من يشكر، أي من يؤمن ويشكر حق الشكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأول أظهر.

و﴿ذَكَرَ﴾ معناه: بثّ وخلق، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ تُحْشَرُونَ﴾ فيه حذف مضاف، أي: إلى حكمه وقضائه، و﴿تُحْشَرُونَ﴾ يريد آية البعث.

تفارق «إمًا» عند المبرد، ويجوز عند سيبويه أن تفارقها فيقال: «إمًا تُرَيِّي»، لكن استعمال القرآن لزومها فمن هنالك التزمه المبرد.

وهذا الدعاء فيه استصحاب الخشية والتحذير من الأمر المُعَدَّب من أجله، ثم نظيره لسائر الأمة دعاء في جودة الخاتمة. وفي هذه الآية بجملتها إعلام بقرب العذاب منهم كما كان في يوم بدر. وقوله ثانياً: ﴿رَبِّ﴾ اعتراض بين الشرط وجوابه.

وفي قوله تعالى: ﴿أَدْفَعْ يَأْتِي مِنْ أَحْسَنُ السَّبِيحَةِ﴾ الآية. أمرٌ بالصفح ومكارم الأخلاق، وما كان منها لهذا فهو محكم باق في الأمة أبداً، وما فيها من معنى موادة الكفار وتزكٍ التعرض لهم والصفح عن أمورهم منسوخٌ بالقتال؛ وقوله تعالى: ﴿تَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ يقتضي أنها آية موادة. وقال مجاهد: الدَّفْعُ بالتي هي أحسن هو السلام، تسلّم عليه إذا لقيته، وقال الحسن: والله لا يُصيبتها أحد حتى يكظم غيظه ويصفح عما يكره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذان الطرفان، وفي هذه الآية عِدَّةٌ للنبي ﷺ، أي: اشتغل أنت بهذا وكُلُّ تعذيبهم والنقمة منهم إلينا، وأمره بالتعوذ من الشيطان في همزاته، وهي سورات الغضب التي لا يملك الإنسان فيها نفسه، وكأنها هي التي كانت تصيب المؤمنين مع الكفار ففزع المُحَادَّة، فذلك اتصلت بهذه الآية، وقال ابن زيد: همزُ الشيطان: الجنون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

الحجة عليهم فإن ما التزم جوازه جارٍ في الحُجَّة مجرى ما التزم وقوعه.

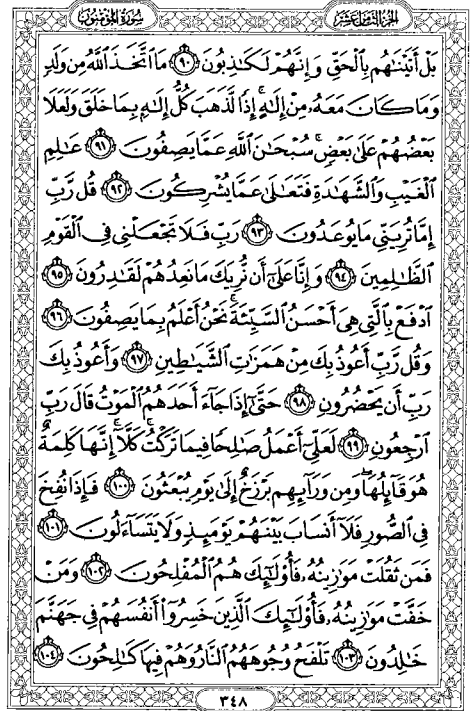
وقوله تعالى: ﴿إِذَا﴾ جواب لمحذوف تقديره: لو كان معه إله إذا لذهب كلُّ إله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ بكسر الميم إتباعاً للمكتوبة في قوله: ﴿شَبَّحَنَّا اللَّهَ﴾، وقرأ الباقون وأبو بكر عن عاصم: ﴿عَلِيمُ الْغَيْبِ﴾ بالرفع، والمعنى: هو عالم، قال الأخفش: الجَرُّ أجْزَدُ ليكون الكلام من وجه واحد، وقال أبو علي: ووجه الرفع أن الكلام قد انقطع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والابتداء عندي أبرع.

والفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَعَلَّى﴾ عاطفة بالمعنى، كأنه قال: «عالم الغيب والشهادة فتعالى»، وهذا كما تقول: «زيد شجاعٌ فعظمت منزلته»، أي: شُجِعَ فعظمت، ويحتمل أن يكون المعنى: فأقول تعالى عما يشركون على إخبار مؤتلف، و(الغَيْبُ): ما غاب عن الناس، و(الشَّهَادَةُ): ما شهده.

٩٧ - ٩٨ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يدعو لنفسه بالنجاة من عذاب الظلِّمة إن كان قضي أن يرى ذلك، و﴿إِنْ﴾ شرطٌ و﴿مَا﴾ زائدة، و﴿رَبِّي﴾ جزم بالشرط لزمته النون الثقيلة، وهي لا



٩٧ - ٩٨ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ليس الأمر كما يقولون من نسبتهم إلى الله تعالى ما لا يليق به، بل أَتَيْنَاهُمْ. وقرأ ابن أبي إسحاق: ﴿أَتَيْنَتْهُمْ﴾ على الخطاب لمحمد ﷺ. و﴿لَكَاذِبُونَ﴾ يراد به: فيما ذكروا لله تعالى من الصاحبة والولد والشريك، وفي قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنَ الْإِلَهِ﴾ دليل التمانع، وهذا هو الفساد الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهَا إِلَهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، والخبر المُخْتَرَع محالٌ أن تتعلق به قدرتان فصاعداً، ولو اختلف إلهان في إدارة فمُحال نفوذهما ومحال عجزهما، فإذا انفردت إرادة الواحد فهو العالي والآخر ليس بإله، فإن قيل: نُقَدَّرهما لا يختلفان في إرادة قيل: ذلك يعرض فإذا جُوزَه الكفار قامت

ارتفاع الأنساب؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هذا عند النفخة الأولى، وذلك أن الناس بأجمعهم يموتون فلا يكون بينهم نسب في ذلك الوقت وهم أموات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يزيل ما في الآية من ذكر هول الحشر.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: إنما المعنى أنه عند النفخة الثانية وقيام الناس من القبور فهم حينئذ لهول المطلع قد اشتغل كل امرئ بنفسه، قد انقطعت بينهم الوسائل وزال ارتفاع الأنساب، فلذلك نفاها، فالمعنى: فلا أنساب نافية. وروي عن قتادة أنه ليس أحد أبغض إلى الإنسان في ذلك اليوم ممن يعرف، لأنه يخاف أن يكون عنده مظلمة، وفي ذلك اليوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه، ويفرح كل أحد يومئذ أن يكون له حق على ابنه وأبيه، وقد ورد بهذا حديث. وكذلك ارتفاع التساؤل لهذه الوجوه التي ذكرناها، ثم يأتي في القيامة مواطن يكون فيها السؤال والتعارف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل حسن، وهو مروى المعنى عن ابن عباس رضي الله عنهما. وثقل الموازين هو بالحسنات، والثقل والخفة إنما يتعلقان بأجرام يخترع الله تعالى فيها ذلك، وهي فيما روي براءات.

تعالى عن نفسه بنون الجماعة في غير موضع، وإما أن تكون استغاثته بربه أولاً ثم خاطب ملائكة العذاب بقوله: ﴿أَرْجُونَ﴾. وقال الضحاك: هي في المشرك، وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «إذا عاين المؤمن قالت له الملائكة: تُرجعك؟ فيقول: إلى دار الهموم والأحزان؟ بل قدما إلى الله تعالى، وأما الكافر فيقول: ﴿أَرْجُونَ لَعْنِي أَعْمَلُ صَالِحًا﴾. وقرأ الحسن والجمهور: ﴿لَعْنِي﴾ بسكون الياء، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿لَعْنِي﴾ بفتح الياء. و﴿كَلَّا﴾ كلمة زجر وهي من كلام الله تعالى.

وقوله: ﴿إِنَّهَا كَلِمَةٌ مَوْقَالِيهَا﴾ يحتمل ثلاثة معانٍ: أحدها: الإخبار المؤكد بأن هذا الشيء يقع ويقول هذه الكلمة، والآخر: أن يكون المعنى: إنها كلمة لا تغني أكثر من أن يقولها، ولا نفع له فيها ولا غوث، والثالث: أن تكون إشارة إلى أنه لو رُدُّ لَعَادَ، فتكون آية ذم لهم. والضمير في ﴿وَرَأَيْهِمْ﴾ للكفار، أي يأتي بعد موتهم حاجز من المدة. و﴿الْبَرْزُخُ﴾ في كلام العرب: الحاجز بين المسافتين، ثم يستعار لما عدا ذلك، فهو هنا للمدة التي بين موت الإنسان وبين بَعْثِهِ، هذا إجماع من المفسرين. و﴿يَوْمَ﴾ مضاف إلى ﴿يَمْتَرُونَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿فِي الصُّورِ﴾ وهو القُرْنُ، وقرأ ابن عباس: ﴿فِي الصُّورِ﴾ بفتح الواو جمع صورة. وقوله تعالى: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾، اختلف المتأولون في صفة

وفي مصنف أبي داود أن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ هَمْزِهِ وَنَفْخِهِ وَنَفْسِهِ»، قال أبو داود: وهَمْزُهُ الْمَوْتَةُ وهي الجنون، وَنَفْخُهُ الْكِبَرُ، وَنَفْسُهُ السَّحَرُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وَالتَّزَعُّاتُ وَسَوْرَاتُ الْغَضَبِ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَهِيَ الْمَتَعَوِّذُ مِنْهَا فِي الْآيَةِ، وَالتَّعَوُّذُ مِنَ الْجَنُونِ أَيْضاً وَكَيْدِ، وَفِي قِرَاءَةِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ: ﴿رَبِّ عَائِذاً بِكَ مِنْ هَمْزَاتِ الشَّيْطَانِ، وَعَائِذاً بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ﴾. وقوله: ﴿أَنْ يَحْضُرُونَ﴾ معناه: أن يكونوا معي في أموري، فإنهم إذا حضروا الإنسان كانوا معدين للهمز، فإذا لم يكن حضور فلا همز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأصل الهمز الدفع والوخذ بيد وغيرها، ومنه هَمَزَ الخيل وهمز الناس باللسان، وقيل لبعض العرب: أتهمز الفارة؟ سئل بذلك عن اللفظة فظن أن المراد شخص الفارة فقال: الهُرُّ يهمزها.

٩٩ - ١٠٢ تفسير قوله عز وجل:

﴿حَتَّى﴾ في هذا الموضع ابتداء، ويحتمل أن تكون غاية مجردة بتقدير كلام محذوف، والأول أبين لأن ما بعدها هو المعنى به المقصود ذكره. والضمير في ﴿أَعَدُّهُمْ﴾ للكفار، وقوله: ﴿أَرْجُونَ﴾ معناه: إلى الحياة الدنيا. وَجَمَعَ الضمير يتخرج على معنيين: إما أن يخاطبه مخاطبة الجمع تعظيماً، على نحو إخباره

قال: فتنطبق عليهم جهنم، ويقع اليأس، ويقون يتَّبِع بعضهم في وجه بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واختصرت ذلك الحديث لعدم صحته، لكن معناه صحيح، عافانا الله من ناره بيمينه.

وقوله تعالى: ﴿أَخْسَرُوا﴾ زجر، وهو مستعمل في زجر الكلاب، ومنه قول النبي ﷺ لابن صياد: «أخسأ فلن تعدو قدرك».

﴿١٠٣﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ هارون: ﴿أَنَّهُ كَانَ﴾ بفتح الألف، وهي قراءة أبي بن كعب رضي الله عنه، وزوي أن في مصحف أبي بن كعب ﴿أَنْ كَانَ﴾، وهذا كله متعاضد، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَلَا تُكَلِّمُونَ كَانٌ فَرِيقٌ﴾ بغير ﴿إِنَّهُ﴾، وهذه تعضد كسر الألف من ﴿إِنَّهُ﴾ لأنها استئناف، وهذه الهاء مهمة ضمير الأمر، والكوفيون يسمونها المجهولة، وهي عبارة فاسدة. وهذه الآية كلها ممَّا يقال للكفرة على جهة التوبيخ.

والفريق المشار إليه كل مستضعف من المؤمنين يتفق أن يكون حاله مع كفار مثل هذه الحال، ونزلت الآية في كفار قريش مع صهيب وعمار وبلال رضي الله عنهم ونظرائهم، ثم هي عامة فيمن جرى مجراها قديماً وبقية الدهر.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وقرأ الباقون: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكسرها، قالت طائفة هما بمعنى واحد، ذكر ذلك

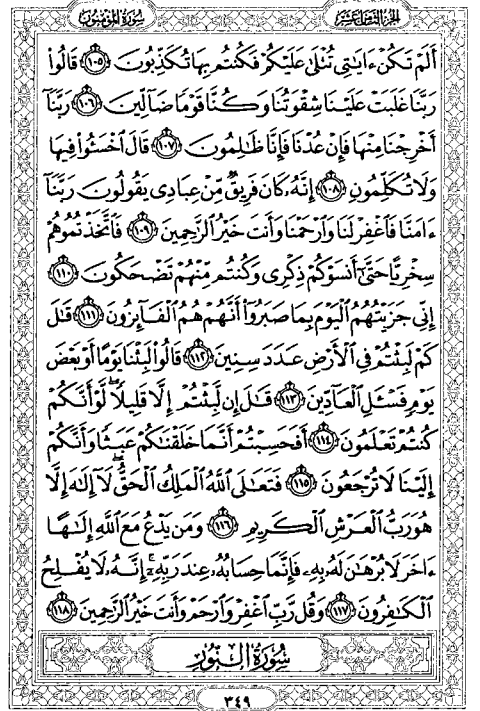
يعتري رؤوس الكباش إذا شيطت بالنار فإنها تكَلِّح، ومنها كَلُّوح الكلب والأسد، ويستعار للزمان والخطوب.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ مَائِنِي تُلَىٰ عَلَيْنَا﴾ قبله محذوف تقديره: يقال لهم، و«الآيات» هنا: القرآن، وأخبر عنهم تعالى أنهم إذا سمعوا هذا التقرير أذعنوا، وأقروا على أنفسهم، وسلموا بقولهم: ﴿عَلَيْتَ عَلَيْنَا شِقْوَتَنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ﴾.

وقرأ جمهور الناس: ﴿شِقْوَتَنَا﴾ بكسر الشين

دون ألف، وهي قراءة الحرمين، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿شِقَاوَتَنَا﴾ بفتح الشين وألف بعد القاف، وهي قراءة ابن مسعود، وخير عاصم في الوجهين، وهما مصدران من شَقِيَ يَشْقَى، ثم تدرجوا من الإقرار إلى الرغبة والتضرع، وذلك أنهم ذلُّوا؛ لأن الإقرار بالذنب اعتذار وتنصل، فوقع جواب رغبتهم بحسب ما حَتَمَ الله تعالى من عذابهم بقوله تعالى: ﴿أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾، وجاء ﴿وَلَا تَكَلِّمُونَ﴾ بلفظ نهي وهم لا يستطيعون الكلام على ما زوي، فهذه مبالغة في المنع، ويقال: إن هذه الكلمة إذا سمعوها يشعروا.

وحكى الطبري حديثاً طويلاً في مقابلة تكون بين الكفار وبين مالك خازن النار، ثم بينهم وبين ربهم، وآخرها هذه الكلمة «أخسأوا فيها»،



﴿١٠٣﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

جمع «الموازن» من حيث الموازن جمع وهي الأعمال، ومعنى الوزن: إقامة الحجة على الناس بالمحسوس على عاداتهم وعرفهم، ووزن الكافر على حد وجهين: إما أن يوضع كُفْرُه في كِفَّة فلا يجد شيئاً يعادله به في الكِفَّة الأخرى، وإما أن توضع أعماله من صلة رحم ووجه بر في كِفَّة الحسنات ثم يوضع كُفْرُه في الكِفَّة الأخرى فتخف أعماله.

و(لَفَّح النار): إصابتها بالوهج والإحراق، وقرأ أبو حنيفة: ﴿كَلِّحُونَ﴾ بغير ألف، و«الكَلِّح»: انكشاف الشفتين عن الأسنان، وهذا يعتري الإنسان عند المباشطة عند الغضب، ويعتري الرؤوس عند النار، وقد شبَّه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه ما في هذه الآية بما

الطبري، وقال أبو زيد الأنصاري: إنهما بمعنى الهزء، وقال أبو عبيدة وغيره: إن ضم السين من السخرة والتخديم، وكسر السين من السخر وهو الاستهزاء، ومنه قول الأعشى:

إِنِّي أَنَانِي حَدِيثٌ لَا أَسْرُبِيهِ
مِنْ عَلْوٍ لَا كَذِبٌ فِيهِ وَلَا سَخْرُ

قال أبو علي: قراءة كسر السين أوجه لأنه بمعنى الاستهزاء والكسر فيه أكثر، وهو أليق بالآية، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَكَثُرَتْ بَيْنَهُمْ تَصْحُكُونَ﴾؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ألا ترى إلى إجماع القراء على ضم السين في قوله تعالى: ﴿لِيَسْتَجِدَّ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سَخِرَاءً﴾ لما تخلص الأمر للتخديم، قال يونس: إذا أريد التخديم فهو بضم السين لا غير، وإذا أريد الهزء فهو بالضم والكسر. وقرأ أصحاب عبدالله، والأعرج، وابن أبي إسحاق كل ما في القرآن بضم السين. وقرأ الحسن، وأبو عمرو كل ما في القرآن بالكسر إلا التي في الزخرف فإنهما ضما السين كما فعل الناس لأنها من التخديم، وأضاف الإنساء إلى الفريق من حيث كان بسببهم، والمعنى أن اشتغالهم بالهزء بهؤلاء أناسهم ما ينفعهم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿أَنَّهُمْ هُمُ الْفَاقِرُونَ﴾ بفتح الألف، فـ﴿جَزَيْتَهُمْ﴾ عامل في أن، ويجوز أن يعمل في مفعول محذوف، ويكون التقدير: لأنهم. وقرأ

حمزة، والكسائي، وخارجة عن نافع: ﴿إِنَّهُمْ هُمُ الْفَاقِرُونَ﴾ بكسر الألف، فالمفعول الثاني لـ﴿جَزَيْتَ﴾ مقدر، تقديره: الجئة والرضوان. و﴿الْفَاقِرُونَ﴾ المُنْتَهُونَ إلى غايتهم التي كانت أملهم. ومعنى الفوز: النجاة من هلكة إلى نعمة.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾، و﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ﴾، وروى البرقي عن ابن كثير ﴿قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ﴾ على الأمر، و﴿قُلْ إِنْ لَبِئْتُمْ﴾ على الخبر. وأدغم أبو عمرو، وحمزة، والكسائي الشاء، والباقون لا يدغمونها، فمعنى الأول: الإخبار بأن الله يوقفهم للسؤال عن المدة ثم يعلمهم آخراً بلبئهم قليلاً، ومعنى الثانية: الأمر لواحد منهم مُشَارَ إليه، بمعنى: يقال لأحدهم قل كذا، فإذا قال غير القويم قيل له: قل: إن لبئتم، ومعنى رواية البرقي: التوقيف ثم الإخبار، وفي المصاحف ﴿قُلْ﴾ فيها، إلا في مصحف الكوفة فإن فيه ﴿قُلْ﴾ بغير ألف.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، قال الطبري: معناه: في الدنيا أحياء، وعن هذا وقع السؤال، ونسوا لفرط هول العذاب حتى قالوا: ﴿يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرض من هذا توقيفهم على أن أعمارهم قصيرة، أذاهم الكفر فيها إلى عذاب طويل. وقال جمهور المتأولين: في جوف التراب أمواتاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأصوب من حيث أنكروا البعث وكان قولهم: إنهم لا يقومون من التراب، قيل لهم لما قاموا: كم لبئتم؟ وقوله آخراً: ﴿وَأَنْتُمْ إِنِّي لَا تَرْجِعُونَ﴾ يقتضي ما قلناه.

و﴿عَدَدٌ﴾ نصب بـ﴿كَمْ﴾ على التمييز. وقرأ الأعمش: ﴿عَدَدًا سِينِينَ﴾ بتوئين ﴿عَدَدًا﴾.

وقال مجاهد: أرادوا بـ﴿الْمَلَائِكِينَ﴾ الملائكة، وقال قتادة: أرادوا أهل الحساب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر اللفظة أنهم أرادوا من يتصف بهذه الصفة ولم يعينوا ملائكة ولا غيرها؛ لأن النائم والميت لا يعد الحركة فيقدر له الزمان.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ لَبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ مقصده - على القول بأن المكث في الدنيا - أي قليل القدر في جنب ما تُعَذَّبُونَ، وعلى القول بأن المكث في القبور معناه أنه قليل، إذ كل آت قريب، ولكنكم كذبتهم به إذ كنتم لا تعلمون؛ إذ لم ترغبوا في العلم والهدى.

و﴿عَيْنًا﴾ معناه: باطلاً لغير غاية مُرَادَة. وقرأ الجمهور: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بضم التاء وفتح الجيم، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَرْجِعُونَ﴾ بفتح التاء وكسر الجيم، والمعنى فيها بين.

﴿١١٦﴾ - ﴿١١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: فتعالى الله عن مقاتلهم في جهته من الصحابة والولد، ومن حسابهم أنهم لا يرجعون، أي: تنزه الله عن تلك الأمور وتعالى

(٢٤)

سورة النور

مدنية

آياتها أربع وستون

هذه السورة كلها مدنية.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿سورة﴾ بالرفع،

وقرأ عيسى بن عمر، ومجاهد:

﴿سورة﴾ بالنصب، وزوي ذلك أيضاً

عن عمر بن عبد العزيز، وعن

أم الدرداء. فوجه الرفع أنه خبر

ابتداءً مضمراً تقديره: هذه سورة، أو

ابتداءً وخبره مفهوم تقديره: فيما

يُتلى عليكم، ويحتمل أن يكون

قوله: ﴿سورة﴾ ابتداءً، وما بعدها

صفة لها أخرجتها عن حد النكرة

المحضة، فحسن الابتداء لذلك،

ويكون الخبر في قوله تعالى: ﴿الزانية

والزاني﴾ وفيما بعد ذلك، والمعنى:

السورة المُنزلة المفروضة كذا وكذا؛

إذ السورة عبارة عن آيات مسرودة

لها بدءٌ وختمٌ، ولكن يلحق هذا

القول أن كون الابتداء هو الخبر ليس

بالبيِّن إلا أن يُقدَّر الخبر في السورة

بأمرها، وهذا بعيد في القياس.

وجه النصب إضمار فعل قدره

بعضهم: أتلى سورة، أو نحوه،

وجعله بعضهم: أنزلنا سورة

أنزلناها، وقال الفراء: هي حال من

الهاء والألف، والحال من المكنى

يجوز أن تقدم عليه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَرَضَّهَا﴾

بتخفيف الراء، ومعناه الإثبات

أبي: «عند الله»، وزوي

أن فيه «على الله». ثم

حتم وأكد أن الكافر لا

يبلغ أمنيته ولا ينجح

سعيه. وقرأ الجمهور:

﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾ بكسر

الألف، وقرأ الحسن

وقتادة: ﴿أَنَّهُ لَا يُفْلِحُ﴾

بفتحها، والمعنى أنه إذ لا

يَتَذَكَّر ولا يفلح يؤخر

حسابه وعذابه حتى يلقي

ربه. وقرأ الحسن:

﴿يُفْلِحُ﴾ بفتح الباء

واللام.

ثم أمر رسول الله ﷺ

بالدعاء في المغفرة

والرحمة والذكر له تعالى

بأنه خير الراحمين: لأن كل راحم

فمتصرف عيلى إرادة الله تعالى

وتوفيقه وتقديره لمقدار هذه الرحمة.

ورحمته تعالى لا مشاركة لأحد فيها،

وأيضاً فرحمة كل راحم في أشياء

وبأشياء حقيرات بالإضافة إلى

المعاني التي تقع في رحمة الله تبارك

وتعالى من الاستفاد من النار، وهيئة

نعيم الجنة، وعلى ما في الحديث

فرحمة كل راحم مجموعها كلها جزء

من مائة من رحمة الله تعالى جلَّت

قدرته؛ إذ بسُّ في العالم واحدة

وأمسك عنده تسعة وتسعين.

وقرأ ابن محيصن: ﴿وَقُلْ رَبِّ

أَعْفِزُ﴾ بضم الباء من ﴿رَبِّ﴾.

ثم تفسير سورة المؤمنون والحمد

لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ لِيُنذِرَ لِمَنْ كَفَرَ مِنْ
 ① الْزَّانِيَةِ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ
 بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَشَهَادَةُ
 عِدَاهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ② الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ
 مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرْمٌ ذَلِكَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ ③ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ نَزَلَتْ بِأَنْزِلَتْ بِأَرْبَعَةِ شَهَادَةٍ
 فَاجْلِدُوهُنَّ مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ
 ④ الْمُنْفِقُونَ ⑤ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ
 رَحِيمٌ ⑥ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ أَنْزَلْنَاهُمْ مِنْكُمْ هُدًى وَتُورَاتٍ لِئَلَّا يَتَّبِعُوا
 ⑦ فَتَاهِدُوا أَحَدُهُمْ أَزْوَاجُ شَهَادَتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ⑧
 وَالْفَاحِشَةُ إِنْ لَعَنَتْ اللَّهَ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ⑨ وَيَذَرُهَا
 ⑩ عَنِ الْعَذَابِ أَنْ تَشْهَدَ أَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ لِلَّذِينَ يَدَّبُدُونِ
 ⑪ وَالْفَاحِشَةُ إِنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ⑫
 ⑬ وَلَا تَقْبَلُوا لَهُنَّ شَهَادَةً وَأَنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ⑭

٢٥٠

عنها. وقرأ ابن محيصن:

﴿الْكَاذِبِينَ﴾ بالرفع صفة للزَّانِي.

ثم توعدَّ جلَّت قدرته عبدة الأوثان

بقوله تبارك وتعالى: ﴿وَمَنْ يَبْغِ مَعَ

اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآية، والسعيد

قوله: ﴿فَاتَمَّا حَسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾.

(والبُرْهَانُ): الحُجَّة، وظاهر الكلام

أن ﴿وَمَنْ﴾ شرط، وجوابه في قوله:

﴿فَاتَمَّا حَسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾، وقوله:

﴿لَا بُرْهَانَ لَهُ بِيَدِي﴾ في موضع الصفة.

وذهب قومٌ إلى أن الجواب في

قوله: ﴿لَا بُرْهَانَ﴾، وهذا هروب من

دليل الخطاب من أن يكون ثم داع له

بُرْهَان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا تحفظ مما لا يلزم، ويلحقه

حذف الفاء من جواب الشرط وهو

غير فصيح، قال سيويه. وفي حرف

عبدالله: ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وفي حرف

والإيجاب بأبلغ وجوهه، إذ هو مشبه بالفرض في الإلزام. وقرأ مجاهد وغيره، وأبو عمرو، وابن كثير، وعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه: **«وَفَرَضْنَاهَا»** بشدّ الرّاء، ومعناه: جعلناه فرائض، فمن حيث تردّد ذلك ضُعّف الفعل للمبالغة والتكثير. وقرأ الأعمش: **«وَفَرَضْنَاهَا لَكُمْ»**، وحكى الزهراوي عن بعض العلماء أنه قال: كل ما في السورة من أمر ونهي فرض.

والآياتُ البَيِّنَاتُ: أمثالها ومواعظها وأحكامها، وقال الزهراوي: المعنى: ليس فيها مشكل، تأويلها موافق لظواهرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تحكّم.

وقوله تعالى: **«لَمَلَكٌ نَذْرُونَ»** أي على توقّع البشر ورجائهم.

وقرأ جمهور الناس: **«الزَّانِيَةَ»** بالرفع، وقرأ عيسى الشقفي: **«الزَّانِيَةَ»** بالنصب، وهو أوجه عند سيبويه لأنه عنده كقولك: زيداً اضرب. ووجه الرفع عنده أنه خير ابتداءً تقديره: فيما يُتلى عليكم الزانية والزاني، وأجمع الناس على الرفع وإن كان القياس عند سيبويه النصب. وأما الفراء والمُبَرِّد والزجاج فإن الرفع عندهم هو الأوجه، والخبر في قوله تعالى: **«فَأَجْلِدُوا»**؛ لأن المعنى: إن الزانية والزاني مجلودان بحكم الله تبارك وتعالى، وهذا قول جيد. وهو قول أكثر النحاة، وإن شئت قدرت الخبر: ينبغي أن يُجلدوا. وقرأ ابن مسعود:

«وَالزَّانِيَةَ» بغير ياء، وقُدِّمت الزانية في اللفظ من حيث كان في ذلك الزمن زنى النساء أفشى، وكان لإمام العرب وبغايا الوقت رايات، وكنّ مجاهرات بذلك، والعازُ بالنساء أَلْحَقَ إذ موضوعهن الحجب والصيانة، فقدم ذكرهن تغليظاً واهتماماً. والألف واللام في قوله: **«الزَّانِيَةَ وَالزَّانِيَةَ»** للجنس، وذلك يُعطي أنها عامة في جميع الزناة، وهذه الآية باتِّفَاقٍ ناسخةٌ لآية الحبس وآية الأذى اللتين في سورة النساء.

وجماعة من العلماء على عموم هذه الآية، وأن حكم المحصنين منسوخ منها. واختلفوا في الناسخ، فقالت فرقة: النَّاسِخُ السُّنَّةُ المتواترة في الرِّجْم، وقالت فرقة: بل القرآن الذي ارتفع لفظه وبقي حكمه، وهو الذي قرأه عمر رضي الله تعالى عنه على المنبر بمحضر الصحابة رضي الله عنهم **«الشَّيْخُ وَالشَّيْخَةُ إِذَا زَنَيَا فَارْجُمُوهُمَا بِنَتْنَةٍ»** وقال: إِنَّا قرأناه في كتاب الله تعالى، وأتفق الجميع على أن لفظه رفع وبقي حكمه. وقال الحسن بن أبي الحسن، وابن راهويه: ليس في هذه الآية نسخ، بل سنّة الرجم جاءت بزيادة، فالْمُخَصَّنُ - على رأي هذه الفرقة - يُجلد ثم يرجم، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفعله بشراحة، ودليلهم قول النبي ﷺ: **«وَالثَّيْبُ بِالثَّيْبِ جَلْدٌ مِائَةَ وَالرَّجْمُ»**، ويردّ عليهم فعل النبي ﷺ حيث رجم ولم يجلد، وبه قال جمهور الأمة إذ فعله كقوله رفع الجلد عن المحصن، وقال ابن سلام

وغيره: هذه الآية خاصة في البكرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأنه لم يبق من هذا حكمه إلا البكران، واستدلوا على ذلك بقول النبي ﷺ: **«البِكَرُ بِالْبِكَرِ جَلْدٌ مِائَةَ وَتَغْرِيْبٌ عَامٌ»**، ويقول: **«على ابنك جَلْدٌ مِائَةَ»**، واستدلوا على أنها غير عامة بخروج الإماء والعبيد وغيرهم منها، وقد تقدم بسط كثير من هذه المعاني في سورة النساء.

والجَلْدُ يكون والمجلود قاعد عند مالك، ولا يُجزى عنده إلا في الظهر، وأصحاب الرأي والشافعي يرون أن يُجلد الرجل وهو واقف، وهو قول علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، ويُفْرَق الضربُ على كل الأعضاء، وأشار ابن عمر رضي الله عنهما بالضرب إلى رجلاني أمة جلدها في الزنى، والإجماع في تسليم الوجه والعودة والمقاتل. وبترجيح قول مالك رحمه الله يقول النبي ﷺ: **«أَوْ حَدٌّ فِي ظَهْرِكَ»**، وقال عمر رضي الله عنه: **«أَوْ لَأَوْجَعَنَّ مَتْنِكَ»**، ويُعرَى الرجل عند مالك، والشَّحْمِي، وأبي عبيدة بن الجراح، وابن مسعود، وعمر بن عبد العزيز، والحسن، والشعبي. وغيرهم يرون أن يُضرب على قميص، وهو قول عثمان، وابن مسعود رضي الله عنهما أيضاً، وأما المرأة فتُشتر قولاً واحداً.

وقرأ الجمهور: **«رَأْفَةٌ»** بهمزة ساكنة على وزن فَعْلَةٍ، وقرأ ابن كثير: **«رَأْفَةٌ»** على وزن فَعْلَةٍ بفتح العين، وقرأ عاصم أيضاً: **«رَأْفَةٌ»**

التغريب جملة أصحاب الرأي، وقال الشافعي: ينفي البكر رجلاً كان أو امرأة، ونفى علي رضي الله تعالى عنه امرأة إلى البصرة.

﴿٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

في هذه الآية أربعة أوجه من التأويل:

أحدها: أن يكون مقصد الآية تشنيع وتشييع أمره، وأنه مُحَرَّمٌ على المؤمنين، واتصال هذا المعنى بما قبل حسنٌ بليغ، ويريد بقوله سبحانه: ﴿لَا يَنْكِحُ﴾ أي لا يطأ، فيكون النكاح بمعنى الجماع، وردد القصة مبالغاً وأخذاً من كلا الطرفين، ثم زاد تقسيم المشرك والمشركة من حيث الشرك أعم في المعاصي من الزنى، فالمعنى: الزاني لا يطأ في وقت زناه إلا زانية من المسلمين أو من هي أحسن منها من المشركات، وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه أن النكاح في هذه الآية الوطء، وأنكر الزجاج وقال: لا يعرف النكاح في كتاب الله تعالى إلا بمعنى التزويج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وليس كما قال، وفي القرآن ﴿حَتَّى تَنْكِحَ زَوْجاً غَيْرَهُ﴾، وقد بينه النبي ﷺ أنه بمعنى الوطء، وذكر الطبري ما ينحو إلى هذا التأويل عن سعيد بن جبير، وابن عباس، وعكرمة، ولكن غير ملخص ولا مكمل.

والثاني أن تكون الآية نزلت في قوم مخصوصين، وهذا قول روي معناه عن عبدالله بن عمر، وعن ابن عباس وأصحابه رضي الله تعالى عنهم، قالوا: وهم قوم كانوا يزنون

بِالله، وهذا كما تقول لرجل تحضه: إن كنت رجلاً فافعل كذا، أي: هذه أفعال الرجال.

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾، المقصد بالآية الإغلاظ على الزناة والتوبيخ بحضرة الناس، فلا خلاف أن الطائفة كلُّها كشرت فهي أليق بامتثال الأمر. واختلف الناس في أقل ما يجزي؛ فقال الحسن بن أبي الحسن: لا بُدُّ من حضور عشرة، وقال: إن هذا العدد عقد خارج عن الأحاد وهي أقل الكثرة، وقال ابن زيد وغيره: لا بُدُّ من حضور أربعة، ورأوا أن شهادة الزنى كذلك وأن هذا باب منه. وقال الزهري: الطائفة ثلاثة فصاعداً، وقال عطاء وعكرمة: لا بُدُّ من اثنين، وهذا مشهور قول مالك، فأرأها موضع شهادة. وقال مجاهد: يجزي الواحد ويُسمى طائفة، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، ونزعا بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ﴾ وقوله: ﴿وَلَيْنَ طَائِفَتَانِ﴾ ونزلت في تقاتل رجلين.

واختلف العلماء في التغريب، وقد غرَّب الصديق رضي الله عنه إلى فذك، وهو رأي عمر وعثمان وعلي وأبي ذرّ وابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله تعالى عنهم، ولكن عمر رضي الله عنه بعد أن نفى رجلاً فَلَجِحَتْ بِالرُّومِ فقال: لا أنفي أحداً بعدها، وفيه عن مالك قولان، ولا يرى تغريب النساء والعبيد، واحتج بقوله ﷺ: ﴿لَا تَسَافِرُ الْمَرْأَةُ مَسِيرَةَ يَوْمٍ إِلَّا مَعَ ذِي مَحْرَمٍ﴾، وممن أسى

على وزن فَعَالَةٍ، كَسَامَةٍ وكَابَةٍ، وهذه مصادر أشهرها الأولى، من «زَوْوَفٌ» إذا رَقَّ ورحم، وقرأ الجمهور: ﴿تَأَخَذَكَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ أبو عبدالرحمن: ﴿يَأْخُذُكُمْ﴾ بالياء من تحت.

واختلف الناس في الرافة المنهي عنها، فيم هي؟ فقال أبو مجلز لاحق بن حميد ومجاهد، وعكرمة، وعطاء: هي في إسقاط الحد، أي: أقيموه ولا بُدُّ، وهذا تأويل ابن عمر رضي الله عنهما، وابن جبير، وغيرهما، ومن رأيهم أن الضرب في الزنى والفيرية والخمر على نحو واحد. وقال قتادة، وابن المسيب، وغيرهما: الرافة المنهي عنها هي تخفيف الضرب عن الزنى، ومن رأيهم أن يُخَفَّفَ ضرب الخمر والفيرية ويشد ضرب الزنى. وقال سليمان بن يسار: نُهي عن الرافة في الوجهين، وقال أبو مجلز: إِنَّا لَنَرُجُمُ المَحْدُودَ وَلَكِن لَّا نَسْقُطُ الحَدَّ، وقول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السوط: «دون هذا» ضرب من الرافة. وقال عمر رضي الله عنه: «اضرب ولا تُبَيِّدَنَّ إِبْطَكَ»، وافق الناس على أن الضرب سوطٌ بين سوطيين. وقال الزهري: ضرب الزنى والفيرية مشدد لأنهما بمعنى واحد، وضرب الخمر مخفف. وقوله تعالى: ﴿فِي دِينِ اللَّهِ﴾ بمعنى: في الإخلال بدين الله، أي بشرعه، ويحتمل أن يكون الدين هنا بمعنى الحكم.

ثم قرره على معنى التثبيت والحض بقوله: ﴿إِن كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ

يردّه، وألفاظ الآية تأباه وإن فُدرت
«المشركة» بمعنى الكتابية فلا حيلة
في لفظ المشرك.

والرابع قد روي عن سعيد بن
المسيب، وذلك أنه قال: هذا حكم
كان في الزناة عامة، ألا يتزوج زان
إلا زانية، ثم جاءت الرخصة ونُسَخَ
ذلك بقوله تعالى: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَانَ
بَيْنَكُمْ﴾، وروي ترتيب هذا النسخ
أيضاً عن مجاهد، إلا أنه قال: إن
التحريم كان في أولئك النفر خاصة
لا في الزناة عامة، ذكر ذلك عنهما
أبو عبيدة في ناسخه، وذكر عن
مجاهد أنه قال: حُرِّمَ نِكَاحُ أَوْلَئِكَ
الْبَغَايَا عَلَى أَوْلَئِكَ النَّفَرِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وذكر «الاشراك» في الآية يَضَعُفُ
هذه المناحي.

وقرأ أبو البرهثيم: ﴿وَحَرَّمَ اللَّهُ
ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾.

واختلف فيمن زنى بامرأة وأراد
نكاحها؛ فأجاز ذلك أبو بكر
الصدّيق، وابن عُمر، وجابر بن
عبدالله، وطاوس، وابن المسيب،
وجابر بن زيد، وعطاء، والحسن،
وعكرمة، وابن عباس، ومالك،
والشوري، والشافعي. ومَنَعَهُ ابن
مسعود، والبراء بن عازب،
وعائشة، وقالوا: لا يزالان زانين ما
اجتمعا.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية زلت في القاذفين، قال
سعيد بن جبير: كان سببها ما قيل
في عائشة أم المؤمنين رضي الله
تعالى عنها، وقيل: بل نزلت بسبب
القذف عامة لا في تلك النازلة.

سويد جارية عمرو بن عثمان
المخزومي، وشريفة جارية زمة بن
الأسود، وفرسة جارية هشام بن
ربيعة، ومرثنا جارية هلال بن أنس،
وغيرهن ممن كان لهن رايات تعرف
منازلهن بها، وكذلك كان بالمدينة
إماء عبدالله بن أبي وغيره
مشهورات.

وحكى الطبري عن ابن عباس
رضي الله عنهما أنه قال في سياق
هذا التأويل: «كانت بيوت في
الجاهلية تُسمى المواخير، كانوا
يؤجرون فيها فتياتهن، وكانت معلومة
للزنى، فحُرِّمَ الله ذلك على
المؤمنين».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويحتمل أن يكون هذا الكلام في
التأويل الذي ذكرته قبل هذا. وواحد
المواخير: ماخوّر، ومنه قول بعض
المحدثين:

فِي كُلِّ وادِّ هَبَطْنَا فِيهِ دَسَكْرَةَ
فِي كُلِّ نَشْرٍ صَعَدْنَا فِيهِ مَاخُور
والتأويل الثالث ذَكَرَهُ الزجاج وغيره
عن الحسن، وذلك أنه قال: المرادُ
الزاني المحدود والزانية المحدودة،
قال: وهذا حكم من الله تعالى، فلا
يجوز لزاني محدود أن يتزوج إلا
محدودة، وروي أن محدوداً تزوج
غير محدودة فردّ علي بن أبي طالب
نكاحهما، وقوله تعالى: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ
عَلَى النَّؤْمِنِينَ﴾ يريد الزنى، وحكى
الزهراوي في ذلك حديثاً من طريق
أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال:
«لا ينكح الزاني المجلود إلا مثله»،
وهذا حديث لا يصح، وقول فيه
نظر، وإدخال «المشرك» في الآية

في جاهليتهم ببغايا مشهورات، فلما
جاء الإسلام وأسلموا لم يمكنهم
الزنى، فأرادوا - لفقرهم - زواج
أولئك النسوة؛ إذ كان من عاداتهن
الإنفاق على من ارتسم بزواجهن،
فنزلت الآية بسببهن، والإشارة
بـ«وَالزَّانِي» إلى أحد أولئك، حمل
عليه اسم الزنى الذي كان في
الجاهلية، وقوله تعالى: ﴿لَا يَنْكِحُ﴾
أي لا يتزوج، وفي الآية - على هذا
التأويل - معنى التفجع عليهم، وفي
ذلك توبيخ كأنه يقول: أي مصاب؟
الزاني لا يريد أن يتزوج إلا زانية أو
مشركة، أي: تنزع نفوسهم إلى هذه
الخسائس لقلّة انضباطهم. ويَرِدُ على
هذا التأويل الإجماع على أن الزانية
لا يجوز أن يتزوجها مشرك، ثم
قوله: ﴿وَحَرَّمَ ذَلِكَ عَلَى النَّؤْمِنِينَ﴾ أي
نكاح أولئك البغايا، فيزعم أهل هذا
التأويل أن نكاح أولئك البغايا
حُرِّمَهُ الله تعالى على أمة
محمد ﷺ، ومن أشهرهن عَنَاقُ
البيخي، وكان الذي هم يتزوجها
ذلّك، كان يستخرج ضعفة المسلمين
من مكة سبأ، ففطنت له ودعتّه إلى
نفسها فأبى الزنى وأراد التزويج،
واستأذن النبي ﷺ فنزلت الآية، ولما
دعتّه وأبى قالت له: أتى تبرز؟ والله
لأفضحُك، وذكر الطبري أن من
البغايا المذكورات أم مهزول جارية
السائب المخزومي، ويقال فيها: أم
مهزوم. وأم غَلِيْطُ جارية صفوان بن
أمية، وحنّة القبطية جارية العاص بن
واتل، ومُرْزَنَةُ جارية مالك بن
عميلة بن السباق بن عبد الدار،
وجلالة جارية سهيل بن عمرو، وأم

المحدودين شهادةً أبداً، وهذا يقتضي مدة أعمارهم، ثم حكم عليهم بأنهم فاسقون، أي خارجون عن طاعة الله عز وجل.

ثم استثنى جل وعز من تاب وأصلح من بعد القذف، فإنه وعدهم بالرحمة والمغفرة، فتضمنت الآية ثلاثة أحكام في القاذف: جلده، وردُّ شهادته أبداً، وفسقه، فالاستثناء غير عامل في جلده بإجماع، وعامل في فسقه بإجماع.

واختلف الناس في عمله في الشهادة؛ فقال شريح القاضي، وإبراهيم التَّخَمِي، والحسن، والثوري، وأبو حنيفة: لا يعمل الاستثناء في ردِّ شهادته، وإنما يزول فسقه عند الله تعالى، وأما شهادة القاذف فلا تقبل البتة ولو تاب وأكذب نفسه ولا بحال من الأحوال. وقال جمهور الناس: الاستثناء عامل في ردِّ الشهادة، فإذا تاب القاذف قبلت شهادته، ثم اختلفوا في صورة توبته؛ فمذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والشعبي وغيره أن توبته لا تكون إلا بأن يكذب نفسه في ذلك القذف الذي حد فيه، وهكذا فعل شبيل بن معبد، ونافع، تابا عن القول في المغيرة، وأكذبا أنفسهما فقبل عمر رضي الله عنه شهادتهما، وأبى أبو بكره نُفَيْعٌ من إكذاب نفسه فردَّ عمر رضي الله عنه شهادته حتى مات. وقالت فرقة منها مالك رحمه الله وغيره: - توبته أن يضلح وتُحْشَن حاله وإن لم يرجع عن قوله بتكذيب.

أربعة شهداء رحمةً بعباده وستراً لهم. وقرأ جمهور الناس: ﴿بِأَيِّمَةٍ شُهَدَاءَ﴾ على إضافة الأربعة إلى الشهداء، وقرأ عبدالله بن مسلم بن يسار، وأبو رزعة بن جرير: ﴿بِأَيِّمَةٍ﴾ بالتنوين، و﴿شُهَدَاءَ﴾ على هذا إما بدل وإما صفة للأربعة وإما حالٌ وإما تمييز، وفي هذين نظراً؛ إذ الحال من نكرة والتمييز مجموع، وسيبويه يرى أن تنوين العدد وترك إضافته إنما يجوز في الشعر، وقد حسن أبو الفتح هذه القراءة ورجحها على قراءة الجمهور. وحكم شهادة الأربعة أن تكون على معاينة كالمرود والمكحلة في موطن واحد، فإن اضطرب منهم واحد جُلد الثلاثة والقاذف، كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه في أمر المغيرة بن شعبة، وذلك أنه شهد عليه بالزنى أبو بكره نُفَيْعٌ بن الحارث وأخوه نافع؛ وقال الزهراوي: عبدالله بن الحارث وزياد أخوهما لأُم وهو مستلحق معاوية، وشبل بن معبد الجبلي، فلما جاؤوا لأداء الشهادة توقف زياد ولم يؤدِّها كاملةً، فجلد عمر رضي الله عنه الثلاثة المذكورين.

وَالجَلْدُ: الضرب، والمجادلة: المضاربة في الجلود أو بالجلود، ثم استعير الجلد لغير ذلك من سيف وغيره، ومنه قول قيس بن الخطيم: أَجَالِدُهُمْ يَوْمَ الحَدِيقَةِ حَاسِيراً كَأَنَّ يَدِي بِالسَّيْفِ مِخْرَاقٌ لِأَعْيَبِ وَنَصَبَ ﴿نَتَيْنِ﴾ على المصدر، و﴿جَلْدَةً﴾ على التمييز. ثم أمر الله تبارك وتعالى ألا تقبل للقذفة

وذكر الله تعالى في الآية قذف النساء من حيث هو أهنم، وزميتهن بالفاحشة أبشع وأنكى للنفوس، وقذف الرجال داخل في حكم الآية بالمعنى وإجماع الأمة على ذلك، وهذا نحو نصه تعالى على لحم الخنزير ودخول شحمه وغضاريفه ونحو ذلك بالمعنى وبالإجماع، وحكى الزهراوي أن المعنى: الأنفُس المحصنات، فهي تعم بلفظها الرجال والنساء، ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ﴾، والجمهور على فتح الصاد من الْمُحْصَنَاتِ، وكسرهما يحيى بن وثاب. و﴿الْمُحْصَنَاتُ﴾: العفائف في هذا الموضع؛ لأن هذا هو الذي يجب به جلد القاذف، والعفة أعلى معاني الإحصان، وفي طيه الإسلام، وفي هذه النازلة الحرية، ومنه قول حسان:

حَصَّانَ رَزَّانَ.....

ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾. وذكر الله تعالى من صفات النساء العفة المنافية للرمي بالزنى، ولتخرج من ذلك من ثبت عليها الزنى وغير ذلك ممن لم تبلغ الوطء من النساء حسب الخلاف في ذلك.

وعبر عن القذف بالرَّمِي من حيث معتاد الرمي أنه مؤذ كالرمي بالحجر والسهم، فلما كان قول القاذف مؤذياً جعل رمياً، وهذا كما قال:

وَجُرْحُ اللِّسَانِ كَجُرْحِ اليَدِ والقذف والرمي بمعنى واحد. وشدد الله تعالى على القاذف في

واختلف فقهاء المالكيين، متى تسقط شهادة القاذف؟ فقال ابن الماجشون: بنفس قذفه، وقال أبو القاسم، وأشهد، وسُحْتون: لا تسقط حتى يُجلد، فإن منع من جلده مانع - عفو أو غيره - لم تُردَّ شهادته. قال الشيخ أبو الحسن اللخمي: شهادته في مدة الأجل في الإثبات موقوفة، ورجح القول بأن التوبة إما أن تكون بالتكذيب في القذف وإلا فأبى رجوع لعدل إن قذف وحُدَّ وبقي على عدالته. و﴿تَأْوِيلًا﴾ معناه: رجعوا؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ترجيح، وقد رجح الطبري وغيره قول مالك.

واختلف أيضاً - على القول بجواز شهادته بعد التوبة - في أي شيء تجوز شهادته؟ فقال مالك رحمه الله: تجوز في كل شيء بإطلاق، وكذلك كل من حُدَّ في شيء من الأشياء. وقال سُحْتون رحمه الله: من حُدَّ في شيء من الأشياء فلا تجوز شهادته في مثل ما حُدَّ فيه. وقال مطرف، وابن الماجشون: من حُدَّ في قذف أو زنى فلا تجوز شهادته في شيء من وجوه الزنى ولا في قذف ولا في لعان وإن كان عدلاً، روي هذا القول عن مالك، واتفقوا - فيما أحفظه - على ولد الزنى أن شهادته لا تجوز في الزنى.

٦ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

لما نزلت الآية المتقدمة في الذين يرمون المحصنات تناول ظاهرهما الأزواج وغيرهن، فقال سعد بن

عبادة: يا رسول الله إن وجدت مع امرأتي رجلاً أمهله حتى آتي بأربعة؟ والله لأضربنه بالسيف غير مُضْفَح عنه، فقال رسول الله ﷺ: «أَتَعْجِبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ؟ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْ سَعْدٍ وَاللَّهِ أَغْيَرُ مِنِّي»، وفي ألفاظ سعد روايات مختلفة، وهذا نحو معناها. ثم جاء بعد ذلك هلال بن أمية الواقفي فرمى زوجته بشريك بن السُّخْمَاءِ الْبَلَوِيِّ، فعزم رسول الله ﷺ على ضربه حدَّ القذف فنزلت هذه الآية، فجمعهما رسول الله ﷺ في المسجد وتلاعنا فتلكأت المرأة عند الخامسة لما وُعِظَتْ وقيل: إنها مُوجِبَةٌ، فقالت: لا أفضح قومي سائر اليوم ولجئت، وفرق رسول الله ﷺ بينهما، وولدت غلاماً كأنه جمل أورق، ثم كان - بعد ذلك - الغلام أميراً بمصر وهو لا يعرف لنفسه أباً. وجاء أيضاً عُوَيْمِرُ الْعَجْلَانِي فرمى امرأته ولأَعْنُ، والمشهور أن نازلة هلال قُتِلَ وأنها سبب الآية، وقيل: نازلة عُوَيْمِرِ قُبُلُ، وهو الذي وسط إلى رسول الله ﷺ عاصم بن عدي.

والأزواج في هذا الحُكْمُ يعمُّ المسلمات والكافرات والإماء، فكلهن يلاعنهنَّ الزوج للانتفاء من الحمل، وتختص الحرَّة برفع حدِّ القذف عن نفسه.

وقرأ الجمهور: «أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ» بالنصب، وهو كانتصاب المصدر، والعامل في ذلك قوله: «فَشَهَادَةٌ»، ورفع (الشهادة) على خبر ابتداءٍ تقديره: فالحُكْمُ أو فالواجب، أو على الابتداء بتقدير: فَعَلَيْهِمْ أَنْ

يشهدوا، أو بتقدير حذف الخبر وتقديره في آخر الآية: كافية أو واجبة.

وقوله تعالى: ﴿بِاللَّهِ﴾ من صلة ﴿شَهَادَاتٍ﴾، ويجوز أن يكون من صلة ﴿فَشَهَادَةٌ﴾.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: «أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ» بالرفع، وذلك على خبر قوله تعالى: ﴿فَشَهَادَةٌ﴾، قال أبو حاتم: لا وجه للرفع لأن الشهادة ليست بأربع شهادات، و﴿بِاللَّهِ﴾ - على هذه القراءة - من صلة ﴿شَهَادَاتٍ﴾، لعلة الفصل المتقدمة في قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾.

وقرأ حفص عن عاصم: «وَالْخَامِسَةَ» بالنصب في الثانية، وقرأها بالنصب فيهما طلحة بن مصرف، وأبو عبدالرحمن، والحسن، والأعمش، وقرأ الجمهور فيهما: «وَالْخَامِسَةَ» بالرفع، فأما من نصب فإن كان في قراءته نصب قوله تعالى: «أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ» فإنه عطف ﴿الْخَامِسَةَ﴾ على ذلك لأنها من الشهادات، وإن كان يقرأ: «أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ» بالرفع فإنه جعل نصب قوله: «وَالْخَامِسَةَ» على فعل يدل عليه متقدم الكلام، تقديره: وتشهد الخامسة، وأما من رفع قوله: «وَالْخَامِسَةَ» فإن كان يقرأ: «أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ» بالرفع فقوله: «وَالْخَامِسَةَ» عطف على ذلك، وإن كان يقرأ «أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ» بالنصب فإنه حمل قوله: «وَالْخَامِسَةَ» على المعنى؛ لأن معنى قوله: «فَشَهَادَةٌ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ»: عليهم أربع شهادات

وَالْحَامِسَةُ، واستشهد أبو علي لهذا بحمل الشاعر:

وَمُسَجَّجٌ أَمَا سَوَاءٌ... البيت

على قوله:

إِلَّا رَوَاكِدَ جَنْفُرُهُنَّ هَبَاءً
لأن المعنى: ثُمَّ رَوَاكِدُ. ولا
خلاف في السُّبُعِ في رفع قوله
تعالى: ﴿وَالْحَامِسَةُ﴾ في الأولى،
وإنما خلاف السُّبُعِ في الثانية فقط،
فنصبه حَمَلٌ على قوله: ﴿أَنْ تَشْهَدَ
أَنْتِ﴾، ﴿وَالْحَامِسَةُ﴾ على القطع
والحمل على المعنى.

وقرأ نافع: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾، و﴿أَنْ
عَضِبَ اللَّهُ﴾، وقرأ الأعرج،
والحسن، وقتادة، وأبو رجاء،
وعيسى: ﴿أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ﴾، و﴿وَأَنْ
غَضِبَ اللَّهُ﴾، وهذا على إضمار
الأمر، وهي الخفيفة كما هي في
قول الشاعر:

فِي فِئْتَيْهِ كَسَيُوفِ الْهِنْدِ قَدْ عَلِمُوا
أَنْ هَالِكٌ كُلُّ مَنْ يَخْفَى وَيَنْتَعِلُ
وقرأ باقي السبعة: ﴿أَنْ لَعْنَتَ اللَّهِ﴾
و﴿أَنْ عَضِبَ اللَّهُ﴾ بتشديد النون فيهما
ونصب اللعنة والغضب، ورجح
الأخفش القراءة بتشكيل النون لأن
الخفيفة إنما يراد بها التثقيل ويضم
معها الأمر والشأن، وما لا يحتاج
معه إلى إضمار أولى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
لا سيما وأن الخفيفة - على قراءة
نافع - في قوله تعالى: ﴿أَنْ عَضِبَ
اللَّهُ﴾ قد وَلِيَهَا الْفِعْلُ، قال أبو علي:
وأهل العربية يستقبحون أن يليها

الفاعل إلا أن يفصل بينها وبينه شيء
نحو قوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنْ سَكُونُ﴾،
وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ
إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾، وأما قوله: ﴿وَأَنْ لَيْسَ
لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ فذلك لقلة
تمكن «لَيْسَ» في الأفعال، وأما قوله
تعالى: ﴿أَنْ بُرِّكَ مَنْ فِي النَّارِ﴾
ف﴿بُرِّكَ﴾ على معنى الدعاء فلم يجز
دخول الفاصل لثلا يفسد المعنى.

و(الْعَذَابُ الْمُنْذَرُ) في قول العلماء:
الحُدُّ، وحكى الطبري عن آخرين أنه
الحبس، وهذا قول أصحاب الرأي،
وأنه لا حدٌ عليها إن لم تلاعن،
وليس يوجه عليها قول الزوج.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وظاهر الحديث الوقفة في الخامسة
حين تلتكأت ثم مرت في لعانها أنها
كانت تحدد لقول النبي ﷺ لها:
«عَذَابُ الدُّنْيَا أَيْسَرُ مِنْ عَذَابِ
الْآخِرَةِ».

وجعلت اللعنة للرجل الكاذب لأنه
مُفْتَرٌ مباحث بالقول فأبعد باللعنة،
وجعل الغضب الذي هو أشدُّ على
المرأة التي باشرت المعصية بالفعل
ثم كذبت وباهتت بالقول، فهذا
معنى هذه الألفاظ، والله أعلم.

ولا بُدُّ أن نذكر في تفسير هذه الآية
ما يتعلق بها من مسائل اللعان إذ لا
يستغنى عنها في معرفة حكمه وحيث
يجب، وأجمع مالك وأصحابه على
وجوب اللعان بادعاء رؤية زنى لا
وطء بعده من الزوج، وكذلك
مشهور المذهب وقول مالك أن
اللعان يجب بنفي حَمَلٍ يدعى قبله
استبراء، وحكى اللخمي عن مالك
أنه قال مرة: لا يُنْفَى الولد بالاستبراء

لأن الحيض يأتي على الحَمَلِ، وقاله
أشهب في كتاب ابن المواز، وقاله
المغيرة، وقال: لا يُنْفَى الولد إلا
بخمس سنين.

واختلف المذهب في أن يقذف
الرجل أو ينفي حملاً ولا يُعَلَّلُ ذلك
لا برؤية ولا باستبراء؛ فجلُّ رُؤَاةِ
مالك على أن ذلك لا يوجب لعاناً،
بل يُحَدُّ الزوج، قاله ابن القاسم،
وزوي عنه أيضاً أنه قال: يلاعن ولا
يُسأل عن شيء.

واختلف - بعد هذا القول باللعان
بالاستبراء - في قدر الاستبراء، فقال
مالك، والمغيرة - في أحد قوليه -:
يجزي في ذلك حَيْضَةٌ، وقال أيضاً
مالك: لا يتفيه إلا ثلاث حِيضٍ.

وأما موضع اللعان ففي المسجد
وعند الحاكم، والمستحب أن يكون
في المسجد بحضرة الحاكم،
وكذلك يستحب أن يكون بعد العصر
تغليظاً بالوقت، وكل وقت مُجْزٍ.

ومن قذف امرأته وهي كبيرة لا
تحمل تَلَاعَنًا، هو لِرَفْعِ الحُدِّ، وهي
لِدَرْءِ العَذَابِ، وإن كانت صغيرة لا
تحمل لَاعَنَ هو لِرَفْعِ الحُدِّ، ولم
تلاعن هي لأنها لو أقرت لم يلزمها
شيء، وقال ابن الماجشون: لا حدٌ
على قاذف من لم تبلغ، قال
اللخمي: فَعَلَى هذا لا لعان على
زوج الصغيرة التي لا تحمل.

والمستحب من ألفاظ اللعان أن
يمشي مع ترتيب القرآن ولفظه،
فيقول الزوج: أشهد بالله لرأيت هذه
المرأة تزني، وإني في ذلك لمن
الصادقين، ثم يقول في الخامسة:
لعنة الله علي إن كنت من الكاذبين،

وقال أصبغ: لا بُدُّ أن يقول: «كالجزود في المُكحلة»، وقيل: لا يلزمه ذلك، وكذلك يقول أشهب: لا بُدُّ أن يقول: بالله الذي لا إله إلا هو، وأما في لعان نفي الحمل فقيل: يقول الرجل: ما هذا الولد مني وكُرِّنت، وقال ابن القاسم في الموازية: لا يقول «وَزَّنت» من حيث يمكن أن تغضب، وتقول المرأة: أشهد بالله ما زنيته وإنه في ذلك لمن الكاذبين، ثم تقول: غَضِبَ اللهُ عَلَيَّ إن كان من الصادقين، فإن منع جهلهما من ترتيب هذه الألفاظ وأتيا بما في معناها أجزأ ذلك.

وحكى اللخمي عن محمد بن أبي صفرة أنه قال: اللعان لا يرفع العصمة لقول عويمر: كذبت عليها يا رسول الله إن أمسكتها، قال: (فأحدث طلاقاً)، ومشهور المذهب أن نفس تمام اللعان بينهما فرقة، ولا يحتاج معها إلى تفريق حاكم، وابن أبي صفرة هذا ليس بعدد يزاحم به الجمهور. ومذهب الشافعي أن الفرقة حاصلة إثر لعان الزوج وحده، وقال أبو حنيفة وأصحابه: لا تفريق إلا بحكم السلطان بعد تمام لعانهما، فإن مات أحدهما بعد تمام لعانهما وقبل حكم القاضي ورثه الآخر. ومذهب «المدونة» أن اللعان حكم تفريقه حكم الطلاق، ويعطى لغير المدخول بها نصف الصداق، وفي مختصر ابن الجلاب: لا شيء لها، وهذا على أن تفريق اللعان فسخ، وقال ابن القصار: تفريق اللعان عندنا فسخ.

وتحريم اللعان أبدي بإجماع فيما أحفظ من مذهب مالك رحمه الله،

ومن فقهاء الكوفة وغيرهم من لا يراه متأبداً، وإن أكذب نفسه بعد اللعان لم ينتفع بذلك، وروي عن عبد العزيز بن سلمة أنه إن أكذب نفسه بعد اللعان كان خاطباً من الخطاب. وإن تقدمت المرأة في اللعان فقال ابن القاسم: لا تعيد، وقال أشهب: تعيد.

والجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، تقديره: لكشف الزناة بأيسر من هذا، أو لأخذهم بعقاب من عنده،

ونحو هذا من المعاني التي أوجب تقديرها إبهام الجواب.

﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية وما بعدها إلى ست عشرة آية أنزلت في عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها وما اتصل بذلك من أمر الإفك، وفي البخاري في غزوة بني المصطلق عن عائشة رضي الله عنها قالت: وأنزل الله تعالى العشر الآيات، ثم أنزل الله ما قربها في براءتي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأنها عدت ما يختص بها.

و(الإفك): الزور والكذب، والأفك الكذب، والإفك قلب الحقيقة عن حالها بالأقوال وصرها عن جهة الصواب، وبذلك شبه بالكذب.

واختصار حديث الإفك أن

﴿١١﴾ وَإِذَا جَاءُوكُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا حُكْمَهُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ لَعِندَهُ لَبِيعْتُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا جَاءُوكُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا حُكْمَهُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ لَعِندَهُ لَبِيعْتُونَ ﴿١٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذَا جَاءُوكُم بِبَيِّنَاتٍ مِّنْ رَبِّكُمْ فَخُذُوا حُكْمَهُمْ إِنَّكُمْ كُنتُمْ لَعِندَهُ لَبِيعْتُونَ ﴿١٦﴾

رسول الله ﷺ خرج بعائشة رضي الله عنها معه في غزوة بني المصطلق، وهي غزوة المريسيع، قال ابن إسحاق: وكانت سنة ست، وقال موسى بن عقبة: كانت سنة أربع، فضاع لها هناك عقد، فلما انصرفت إلى الرجل شعرت بضياعه فرجعت تطلبه، وسار الناس حينئذ، فوجدته وانصرفت فلم تجد أحداً، وكانت شابة قليلة اللحم رفع الرجال هودجها ولم يشعروا بزوالها، فلما لم تجد أحداً اضطجعت في مكانها رجاءً أن تفتقد فيرجع إليها، فنامت في الموضع ولم يوقظها إلا قول صفوان بن المعطل: إنا لله وإنا إليه راجعون، وذلك أنه تخلف وراء الجيش لحفظ الساقة، وقيل: اتفاقاً، فلما مر بسوادها قرب منها فعرفها فاسترجع وقال: ظعينة

رسول الله ﷺ خُلِّفَتْ هَاهُنَا؟ وَنَزَلَ عَنْ نَاقَتِهِ وَتَنَحَّى عَنْهَا حَتَّى رَكِبَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَأَخَذَ يَقُودُهَا حَتَّى بَلَغَ بِهَا الْجَيْشَ فِي نَخْرِ الظَّهْرِيَّةِ، فَوَقَعَ أَهْلَ الْإِنْفَكِ فِي مَقَالَتِهِمْ، وَكَانَ الَّذِي يُجْتَمَعُ إِلَيْهِ فِيهِ وَيَسْتَوْشِيهِ وَيُسْعَلُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي بِنْتِ سَلُولِ الْمَنَافِقِ، وَكَانَ مِنْ أَهْلِ قَالَتِهِ حَسَانُ بْنُ ثَابِتٍ، وَمِسْطُوحُ بْنُ أَثَانَةَ، وَحَمْنَةُ بِنْتُ جَحْشٍ، هَذَا اخْتِصَارُ الْحَدِيثِ، وَهُوَ بِكَمَالِهِ وَإِتْقَانِهِ فِي الْبُخَارِيِّ وَمُسْلِمٍ، وَهُوَ فِي مُسْلِمٍ أَكْمَلُ.

وَكَانَ صَفْوَانُ صَاحِبَ سَاقَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزَوَاتِهِ لَشَجَاعَتِهِ، وَكَانَ مِنْ خِيَارِ الصَّحَابَةِ، قَالَ لَمَّا سَمِعَ مَا قَالَ النَّاسُ فِيهِ: «سَبِحَانَ اللَّهِ، وَاللَّهِ مَا كَشَفَتْ كَتْفَ أُنْثَى قَطًّا»، أَرَادَ: بِزَنِي، وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ حَدِيثُهُ الْمَرْوِيُّ مَعَ امْرَأَتِهِ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ فِي ابْنَتِهِ: «لَهُمَا أَشْبَهُ بِهِ مِنَ الْغُرَابِ بِالْغُرَابِ»، وَقِيلَ: كَانَ حَصُورًا لَا يَأْتِي النِّسَاءَ، ذَكَرَهُ ابْنُ إِسْحَاقَ مِنْ طَرِيقِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وَقُتِلَ شَهِيدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي غَزْوَةِ أَرْمِينِيَّةِ سَنَةِ تِسْعِ عَشْرَةَ فِي زَمَنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَقِيلَ: فِي بِلَادِ الرُّومِ سَنَةَ ثَمَانٍ وَخَمْسِينَ فِي زَمَنِ مَعَاوِيَةَ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿عُصْبَةٌ﴾ رَفَعَ عَلَى الْبَدَلِ مِنَ الضَّمِيرِ فِي ﴿جَاءُوا﴾، وَخَيْرٌ ﴿إِنَّ﴾ فِي قَوْلِهِ سَبِحَانَهُ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾، وَالتَّقْدِيرُ: إِنَّ فِعْلَ الَّذِينَ، وَهَذَا أَنْسَقَ فِي الْمَعْنَى وَأَكْثَرَ فَائِدَةً مِنْ أَنْ تَكُونَ ﴿عُصْبَةٌ﴾ خَبْرًا.

وَالْعُصْبَةُ: الْجَمَاعَةُ مِنَ الْعَشْرَةِ إِلَى الْأَرْبَعِينَ، قَالَ يَعْقُوبٌ وَغَيْرُهُ، وَلَا يُقَالُ عُصْبَةٌ لِأَقْلَ مِنْ عَشْرَةٍ، وَلَمْ يُسَمَّ مِنْ أَهْلِ الْإِنْفَكِ إِلَّا حَسَانُ، وَمِسْطُوحٌ، وَحَمْنَةُ، وَعَبْدُ اللَّهِ، وَجُهَلُ الْغَيْرِ، قَالَ عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ وَقَدْ سَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ عَبْدَ الْمَلِكِ بْنِ مَرْوَانَ، وَقَالَ: إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا عُصْبَةً كَمَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ﴾ خَطَابٌ لِكُلِّ مَنْ سَاءَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَقَوْلُهُ: ﴿بَلَّ هُوَ خَيْرٌ لَكَرًّا﴾ يَرِيدُ أَنَّهُ تَبَرُّثُهُ فِي الدُّنْيَا، وَتَرْفِيعِ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي أَنْ نَزَلَ وَحِيَهُ بِالْبِرَاءَةِ مِنْ ذَلِكَ، وَأَجْرَ جَزِيلٍ فِي الْآخِرَةِ، وَمَوْعِظَةً لِلْمُؤْمِنِينَ فِي غَابِرِ الزَّمَنِ، وَنِقْمَةً مِنَ الْمَفْتَرِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي ذَلِكَ شِفَاءً وَخَيْرًا، وَهَذِهِ خَمْسَةٌ وَجُوهٌ. وَقَوْلُهُ: ﴿يُنْهَمُّ﴾ عَانَدٌ عَلَى الْعُصْبَةِ الْمَذْكُورَةِ، وَ(اِكْتَسَبَ) مُسْتَعْمَلَةٌ فِي الْمَأْتَمِّ وَنَحْوِهَا لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى اعْتِمَالٍ وَقَصْدٍ هُوَ أَبْلَغُ فِي التَّرْتِيبِ، وَ(كَسَبَ) مُسْتَعْمَلٌ فِي الْخَيْرِ، وَذَلِكَ أَنَّ حَصُولَهُ مُغْنٍ عَنِ الدَّلَالَةِ عَلَى اعْتِمَالٍ فِيهِ، وَقَدْ تَسْتَعْمَلُ (كَسَبَ) فِي الْوُجْهِينِ، وَمِثْلُهُ:

فَحَمَلْتُ بَرَّةً وَاخْتَمَلْتُ فَجَارِ
وَإِلِشَارَةً بِقَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى
كِبْرًا﴾ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بِنْتِ ابْنِ
سَلُولٍ، وَالْعَذَابُ الْمَتَّوَعَّدُ بِهِ هُوَ
عَذَابُ الْآخِرَةِ، وَهَذَا قَوْلُ الْجُمْهُورِ،
وَهُوَ ظَاهِرُ الْحَدِيثِ، وَرُؤْيُ عَنِ
عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ حَسَانَ بْنَ
ثَابِتٍ دَخَلَ عَلَيْهَا يَوْمًا وَقَدْ عَمِيَ
فَأَنْشَدَهَا مَدْحَهُ فِيهَا:

حَصَانٌ رَزَانٌ مَا تَزَنُّ بِرَيْبَةِ
وَتُضَيِّحُ غَرْزِي مِنْ لُحُومِ الْعَوَافِلِ
فَقَالَتْ لَهُ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:
لَكُنْكَ لَسْتَ كَذَلِكَ، تَرِيدُ أَنَّهُ وَقَعَ فِي
الْعَوَافِلِ فَأَنْشَدَ:

فَإِنْ كَانَ مَا قَدْ قَبِلَ عَنِّي قُلْتُهُ
فَلَا زَفَعْتُ سَوْطِي إِلَيَّ أَنَا مِثْلِي
فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ لَهَا مَسْرُوقٌ: أَيْدِخِلْ
هَذَا عَلَيْكَ وَقَدْ قَالَ مَا قَالَ
وَتَوَعَّدَهُ اللَّهُ بِالْعَذَابِ عَلَى تَوَلِّيهِ
كِبْرَ الْإِنْفَكِ؟ فَقَالَتْ عَائِشَةُ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أَيُّ عَذَابٍ أَشَدَّ مِنْ
الْعَمَى وَضَرْبِ الْحَدِّ؟ وَفِي رِوَايَةٍ:
وَضْرِبَةَ بِالسَّيْفِ؟

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ:
فَأَمَّا قَوْلُهُ عَنِ الْحَدِّ فَإِنَّ حَسَانَ
وَمِسْطُوحًا وَحَمْنَةَ حُدُوا، ذَكَرَ ذَلِكَ
ابْنُ إِسْحَاقَ، وَذَكَرَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَفِي
تَفْسِيرِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ
ابْنَ أَبِي حُدَّ، وَهَذَا عِنْدِي لَا يَصِحُّ
عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا لِأَنَّهُ
لَمْ يُحْفَظْ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ الرَّؤْمِيِّ، قَالَ
عُرْوَةُ فِي الْبُخَارِيِّ: (أُخْبِرْتُ أَنَّهُ كَانَ
يُشَاعُ وَيُتَحَدَّثُ بِهِ عِنْدَهُ فَيُقِرُّهُ
وَيَسْتَوْشِيهِ).

وَأَمَّا ضْرِبَةُ السَّيْفِ فَإِنَّ صَفْوَانَ بْنَ
الْمَعْتَلِ لَمَّا بَلَغَهُ قَوْلُ حَسَانَ فِي
الْإِنْفَكِ جَاءَ فَضْرِبَهُ بِالسَّيْفِ ضْرِبَةً
عَلَى رَأْسِهِ، وَقَالَ:

تَلَّقْتُ ذُبَابَ السَّيْفِ عَنِّي فَإِنِّي
عَلَامٌ إِذَا هُوَ جِئْتُ لَسْتُ بِشَاعِرِ
فَأَخَذَ جَمَاعَةَ صَفْوَانَ وَلَبَّيْهُ وَجَاؤُوا
بِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَهْدَرَ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جِرْحَ حَسَانَ
وَاسْتَوْهَبَهُ إِيَّاهُ، وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ
حَسَانَ مِمَّنْ تَوَلَّى الْكِبْرَ.

وقد قال قوم: الإشارة بـ ﴿وَالَّذِي﴾ إلى البادئ بهذه الفرية والذي اختلقها، فلكل أحد منهم ما اكتسب، وللبادئ المفتري عذاب عظيم، وهو - على هذا - غير معين، وهذا قول الضحاك، والحسن، وقال ابن زيد وغيره: هو عبدالله بن أبي.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كَبِيرٌ﴾ بكسر الكاف، وقرأ حميد الأعرج، ويعقوب الزهري، وأبو رجاء، والأعمش، وابن أبي عمير: ﴿كَبِيرَةٌ﴾ بضم الكاف، وهما مصدران، من كبر الشيء وعظمه، ولكن استعملت العرب ضم الكاف في السنن، تقول: هذا كَبُرَ القوم، أي كبرهم سناً ومكانة، ومنه قول النبي ﷺ في قصة حُوَيْصَةَ وَمُحَيِّصَةَ: «الْكَبِيرُ» ومن استعماله في المعنى الثاني قول ابن الخطيم:

تَسَامَ عَنْ كُبُرِ شَأْنَهَا فإِذَا قَامَتْ رُوَيْدًا تَكَادُ تَنْعَرِفُ ﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بهاتين الآيتين لجميع المؤمنين حاشا من تولى الكَبِيرُ، ويحتمل دخولهم في الخطاب، وفي هذا عتاب للمؤمنين، أي: كان الإنكار واجباً عليهم، والمعنى أنه كان ينبغي أن يقيس فضلاء المؤمنين والمؤمنات الأمر على أنفسهم، فإذا كان ذلك يبعد فيهم فكانوا يقضون بأنه في صفوان وعائشة أبعد لفضلهما رضي الله عنهما. وروي أن هذا النظر السديد وقع من أبي أيوب الأنصاري وامرأته، وذلك أنه دخل عليها فقالت له: يا أبا أيوب أسمع ما قيل؟ قال: نعم، وذلك الكذب،

أكنت أنت يا أم أيوب تفعلين ذلك؟ فقالت: لا والله، قال: فعائشة والله أفضل منك، قالت أم أيوب: نعم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فذلك الفعل ونحوه هو الذي عاتب الله المؤمنين عليه إذ لم يفعله جميعهم، والضمير في قوله: ﴿جَامُونَ﴾ لأولئك الذين تولوا الكبر، وإذا كانوا عند الله كذبة فهي الحقيقة فيهم، وعند هذا حُدُوا، ولم يُزَوَّ في شهير الدواوين أن عبدالله بن أبي حُدَّ، ويشبه أن ذلك لم يكن لأنه لم تقم عليه بالمقالة بينة لنفاقه وتسوَّره، وإنما كان يخوض فيه مع من يذيعه ولا يسأل عن شهادته كما قال عروة في البخاري: «وأخبرت أنه كان يُقره ويستوشيه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكن النبي ﷺ استعذر منه على المنبر، ووقده بالقول، ووقع في أمره بين الأوس والخزرج ما هو مطول في مسلم في حديث الإفك.

﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا عتاب من الله تعالى بليغ، ذكر أن حالتهم التي وقع فيها جميعهم من تعاطيهم الحديث وإن لم يكن المُخْبِر ولا المُخْبَر مصدقين، ولكن نفس التعاطي والتلقي من لسان إلى لسان والإفاضة في الحديث هو الذي وقع العتاب فيه.

وقرأ محمد بن السَّمِيعُ: ﴿إِذْ تَلْفُؤُونَ﴾ بضم التاء وسكون اللام وضم القاف، من الإلقاء، وهذه قراءة يَبْتَةُ. وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿إِذْ تَلْفُؤُونَ﴾ من التلقي بتاءين. وقرأ جمهور السبعة: ﴿إِذْ

تَلْفُؤُونَ﴾ بحذف التاء الواحدة وإظهار الذال دون إدغام، وهو أيضاً من التلقي، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿إِذْ تَلْفُؤُونَ﴾ بإدغام الذال في التاء، وقرأ ابن كثير: ﴿إِذْ تَلْفُؤُونَ﴾ بإظهار الذال وإدغام التاء في التاء، وهي قراءة قلقة لأنها تقتضي اجتماع ساكنين، وليست كالإدغام في قراءة من قرأ: ﴿فَلَا تَنْجُرُوا﴾ وَلَا تَنْبُرُوا﴾، لأن لدونة الألف الساكنة وكونها حرف لين حسنت هنالك ما لا يحسن مع سكون الذال. وقرأ ابن يعمر وعائشة رضي الله عنها - وهي أعلم الناس بهذا الأمر -: ﴿إِذْ تَلْفُؤُونَ﴾ بفتح التاء وكسر اللام وضم القاف، ومعنى هذه القراءة من قول العرب: «وَلَقَّ الرَّجُلُ وَلَقَاءً» إذا كذب، قال ابن سيدة في (المحكم): «قرئ: ﴿إِذْ تَلْفُؤُونَ﴾. وحكى أهل اللغة أنها من وَلَقَّ إذا كذب، فجاؤوا بالمتعدي شاهداً على غير المتعدي، وعندني أنه أراد: إذ تَلْفُؤُونَ فيه، فحذف حرف الجر ووصل الضمير، وحكى الطبري وغيره أن هذه اللفظة مأخوذة من الوَلَق الذي هو إسراعك بالشيء بعد الشيء، كعدو في أثر عدو، وكلام في أثر كلام، يقال: ولق في سيره إذا أسرع، ومنه قول الشاعر:

جاءت به عَنَسٌ مِّنَ الشَّامِ تَلِقُ
وقوله تعالى: ﴿وَتَقُولُونَ يَا قَوَاهِجُ﴾ مبالغة والزَّام وتأکید، والضمير في قوله: ﴿وَتَحْسِبُونَهُ﴾ للحديث والخوض فيه والإذاعة له، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ إلى ﴿وَاللَّهُ عَلَيْكُمْ حَكِيمٌ﴾ عتاب لجميع

المنافقين وإما من لم يُحَدِّد. وقال الطبري: معناه: إن مات مصراً غير تائب.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَسْمَعُ﴾ معناه: يعلم البريء من المُذنب، وسائر الأمور، وَوَجْهَ الحكمة في ستركم والتغليظ في الوعيد والعذاب على قاذبيكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ﴾ الآية. جواب ﴿وَلَوْلَا﴾ محذوف لدلالة الكلام عليه، تقديره: لفضحكم بذنوبكم ولم يستركم، ولعذبكم فيما أفضتم فيه من قول الباطل والبهتان.

﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا الخطاب عام لجميع المؤمنين، و(خُطُوتٌ) جمع خطوة، وهي ما بين القدمين في المشي، فكأن المعنى: لا تمشوا في سبيله وطرقه من الأفعال الخبيثة. وقال منذر بن سعيد: يجوز أن يكون «خُطُوتٌ» جمع خطأ من الخطيئة وسُهلَت الهمة فنطق بها خطوات. وقرأ بضم الطاء من «خُطُوتٍ» الجمهور، وقرأ بسكونها عاصم، والأعمش.

وقرأ الجمهور: ﴿مَا زَكَّيْكُمْ﴾ بتخفيف الكاف، أي: ما اهتدى ولا أسلم، ولا عرف رشداً، وقرأ أبو حنيفة، والحسن، والأعمش: ﴿مَا زَكَّيْكُمْ﴾ بشد الكاف، أي: تزكيتكم لكم وتطهيره وهدايته إنما هي بفضل لا بأعمالكم وتحزركم من المعاصي. ثم ذكر تعالى أنه يزكي من يشاء ممن سبقت له السعادة وكان عمله الصالح أمانة على سبق السعادة له.

أبي ومن أشبهه، وهي خاصة في أمر عائشة رضي الله عنها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فحبهم شياع الفاحشة في المؤمنين متمكن على وجهه لعداوتهم في أهل الإيمان، وعذابهم الأليم في الدنيا الحدود، وفي الآخرة النار.

وقالت فرقة - وقولها هو الأظهر -: الآية عامة في كل قاذف منافقاً كان أو مؤمناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقاذف المؤمن من لا يتصف بحب شياع الفاحشة في المؤمنين جملة، لكنه يحبها لمقدوفه، وكذلك آخر لمقدوفه، وآخر حتى تشيع الفاحشة من مجموع فعلهم، فهم لها محبوبون بهذا الوجه من حيث أحب كل واحد جزءاً من شياعها، والعذاب الأليم في الدنيا الحدود، وفي الآخرة يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون القاذف مُتَوَعِّداً من بين العصاة بعذاب في الآخرة لا يزيله الحد حسب مقتضى حديث عبادة بن الصامت، ويكون أمره كأمر المحاربين إذا صلبوا، خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب. والوجه الثاني أن يحكم بأن الحد مُسْقَطٌ عذاب الآخرة حسب حديث عبادة، وأن قوله: ﴿وَالْآخِرَةُ﴾ لا يريد به عموم القذفة، بل يريد إما

يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوتَ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوتَ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ بِأَمْرِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتِلُ أَوْلُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْفَاضِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لَأَسْرَفُوا وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تُنْفَخُ عَلَيْهم الصُّبُورُ وَالَّذِينَ هُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ ذِيهِمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الشَّيْطَانُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالْخَبِيثَاتُ لِلْفَاطِشِينَ وَالْفَاطِشِينَ أُولَئِكَ مِرَّةً وَرَدَّ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ غَيْرِ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ فَلَئِمَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾

المؤمنين، أي: كان ينبغي عليكم أن تنكروه ولا يتعاطاه بعضهم من بعض على جهة الحكاية والنقل، وأن تُنَزَّهُوا الله تعالى عن أن يقع هذا من زوج نبيه ﷺ، وأن تحكموا على هذه المقالة بأنها بهتان، وحقيقة البهتان أن يقال في الإنسان ما ليس فيه، والغيبية أن يقال في الإنسان ما فيه. ثم وعظهم تعالى في العودة إلى مثل هذه الحالة، و﴿أَنْ﴾ مفعول من أجله بتقدير: «كراهية أن» ونحوه. وقسوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ توقيف وتأكيد، كما تقول: ينبغي لك أن تفعل كذا وكذا إن كنت رجلاً، وسائر الآية بين، و﴿عَلَيْدُ حِكْمَةٍ﴾ صفتان تقتضيهما الآية.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قال مجاهد، وابن زيد: الإشارة بهذه الآية إلى المنافقين، عبدالله بن

وقال بعض الناس: هذه أرجى آية في كتاب الله عز وجل من حيث لطف الله تعالى فيها بالقذفة العصاة بهذه اللفظة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما تعطي الآية تفضلاً من الله عز وجل في الدنيا، وإنما الرجاء في الآخرة، أما إن الرجاء في هذه الآية بقياس، أي إذا أمر أولي السعة بالعفو، فطرد هذا التفضيل بسعة رحمته لا رب سواه، وإنما آيات الرجاء في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَعْجِدُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِمَا يَكُونُ﴾، وسمعت أبي رحمه الله يقول: أرجى آية في كتاب الله تعالى عندي قوله: ﴿وَيُنشِرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾، وقد قال الله تبارك وتعالى في آية أخرى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتٍ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فشرح الفضل الكبير في هذه الآية وبشر به المؤمنين في تلك، وقال بعضهم، أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ﴾، وذلك أن رسول الله ﷺ لا يرضى ببقاء أحد من أمته في النار.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال سعيد بن جبیر: إن هذه الآية التي تضمنت لعن القاذف وتوعدّه الشديد إنما هي خاصة في رُماة عائشة رضي الله عنها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك،

يفعل سُنَّة من السنن أو مندوباً وأبد ذلك أنها جرحه في شهادته، ذكره الباجي في المنتقى، ومنه قول النبي ﷺ: «أَيْكُمُ الْمُتَأَلَّى عَلَى اللَّهِ لَا يَفْعَلُ الْمَعْرُوفُ؟»

﴿بِأْتَلٍ﴾ ومعناه: يحلف، وزنها يفتعل، من الألية وهي اليمين. وقالت فرقة: معناه: يقصر، من قولك: أَلَوْتُ في كذا إذا قَصُرْتُ فيه، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَأْتُونَكَمُ حَبَالًا﴾، وقرأ أبو جعفر ابن القعقاع: ﴿وَلَا بِأْتَلٍ﴾، وهذا وزنه يَتَفَعَّلُ من الألية بلا خلاف، وهي في المصحف «ياء تاء لام» فلذلك ساغ هذا الخلاف لأبي جعفر وزيد فروياه. وذكر الطبري أن خط المصحف مع قراءة الجمهور، فظاهر قوله أَنْ تُمْ أَلْفًا قَبْلَ التَّاءِ.

﴿وَالْفَضْلُ وَالسَّعَةُ﴾ هنا: المال، وقوله تعالى: ﴿أَلَا حَسِبُونَ﴾ الآية تمثيلٌ وحجّة، أي: كما تحبون غفران الله لكم عن ذنوبكم فكذلك اغفروا لمن دونكم، وينظر إلى هذا المعنى قول النبي ﷺ: «مَنْ لَا يَرْحَمُ لَا يُرْحَمُ»، فروي عن أبي بكر رضي الله عنه لما نزلت هذه الآية أنه قال: «إِنِّي لِأَحِبُّ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لِي»، ورجع إلى مسطح النفقة والإحسان الذي كان يجري عليه، قالت عائشة رضي الله عنها: «وَكَفَّرَ عَن يَمِينِهِ». وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه، وسفيان بن حسين: ﴿وَلَتَغْفِرُوا وَلَتَصْفَحُوا﴾ بالتاء من فوق فيهما، ورويت عن النبي ﷺ

ثم أخبر تعالى بأنه سمع لجميع أقوالهم وكلامهم من قذف وغيره، عليهم بحق ذلك من باطله، لا يجوز عليه في ذلك وهم ولا غلط. ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المشهور من الروايات أن هذه الآية نزلت في قصة أبي بكر بن قحافة الصديق رضي الله عنه ومسطح بن أثاثه، وذلك أنه كان ابن بنت خالته، وكان من المهاجرين البدرين المساكين، وهو مسطح ابن أثاثه بن عباد بن المطلب بن عبد مناف، وقيل: اسمه عوف، ومسطح لقب. وكان أبو بكر رضي الله عنه ينفق عليه لمسكنته، فلما وقع أمر الإفك وقال مسطح ما قال حلف أبو بكر رضي الله عنه ألا ينفق عليه ولا ينفعه بنافعة أبداً، فجاء مسطح فاعتذر وقال: إنما كنت أغشى مجلس حسان فأسمع ولا أقول، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: لقد ضحكت وشاركت فيما قيل، ومرّ على يمينه فنزلت الآية.

وقال الضحاك وابن عباس رضي الله عنهما: إن جماعة من المؤمنين قطعوا منافعهم عن كل من قال في الإفك وقالوا: والله لا نصل من تكلم في شأن عائشة، فنزلت الآية في جميعهم. والأول أصح، غير أن الآية تتناول الأمة إلى يوم القيامة، بالأبغض ذو فضل وسعة فيحلف ألا ينفع من هذه صفته غابر الدهر.

ورأى الفقهاء أن من حلف ألا

وغيرهما: بل هذه لجميع أزواج النبي ﷺ، غلظ الله أمر زميهم لمكانهم من الدين، فلعن قاذفهن ولم يقرن بآخر الآية توبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقاذف غيرهن له اسم الفسق وذُكرت له التوبة.

وقال جماعة من العلماء: بل هي في شأن عائشة رضي الله تعالى عنها إلا أنه يراد بها كل من اتصف بهذه الصفة، وقال بعض هذه الفرقة: إن هذه الآية نزلت أولاً في القاذفين؛ ثم نزلت بعد ذلك الآية في صدر السورة التي فيها التوبة، وقد تقدم القول في «المُحْصَنَات» ما معناه.

(وَاللَّعْنَةُ) في هذه الآية: الإبعاد، وضرب الحد، واستيحاش المؤمنين منهم وهجرهم لهم، وزوالهم عن رتبة العدالة، وعلى قول من قال إن هذه الآية خاصة بعائشة رضي الله عنها ترتبت هذه الشدائد في جانب عبدالله بن أبي وأشباهه. وفي ضمن رمي المحصنة رمي الرجل معها، وقد يكون مؤمناً.

والعامل في قوله: ﴿يَوْمٌ﴾ فعل مضمّر يقتضيه العذاب، أي: يُعَذَّبُونَ يوم، أو نحوه، وأخبر الله تعالى أن جوارحهم تشهد عليهم، وذلك من أعظم الخزي والتنكيل، فيشهد اللسان وقلب المنافق لا يريد ما يشهد به، وتشهد الأيدي والأرجل وتشكلم كلاماً يقدرها الله تعالى عليه. وقرأ جمهور السبعة: ﴿تَشْهَدُ﴾

بالتاء من فوق، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يَشْهَدُ﴾ بالياء.

(وَالَّذِينَ) في هذه الآية: الجزاء، ومنه قول الشاعر:

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدْوَا
نِ دَنَاهُمْ كَمَا ذَانُوا

أي جازيناهم كما فعلوا، ومنه المثل «كَمَا تُدِينُ تُدَانُ». وقرأ جمهور الناس: ﴿الْحَقُّ﴾ بالنصب على الصفة للذين، وقرأ مجاهد: ﴿الْحَقُّ﴾ بالرفع على الصفة لله تعالى، وفي مصحف ابن مسعود وأبي بن كعب رضي الله عنهما: ﴿يَوْمَئِذٍ يُؤْفِيهِمُ اللَّهُ الْحَقَّ ذَيْنَهُمْ﴾ بتقديم الصفة على الموصوف، ورويت عن النبي ﷺ. وقوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ يقوِّي قول من ذهب إلى أن الآية في المنافقين عبدالله بن أبي وغيره، وذلك أن كل مؤمن في الدنيا يعلم أن الله هو الحق المبين، وإلا فليس بمؤمن.

﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف المتأولون في الموصوف في هذه الآية بالخبث والطيب؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد، والضحاك، وقتادة: هي الأقوال والأفعال، ثم اختلفت هذه الجماعة، فقال بعضها: المعنى: الكلمات والفعلات الخبيثات لا يقولها ويرضاها إلا الخبيثون من الناس، فهي لهم وهم لها بهذا الوجه، وكذلك الطيبات للطيبين. وقال بعضها: المعنى: الكلمات

والفعلات الخبيثات لا تليق ولا تلتصق عند رمي الرامي وقذف القاذف إلا بالخبيثين من الناس، فهي لهم وهم لها بهذا الوجه.

وقال ابن زيد: الموصوف بالخبث والطيب النساء والرجال، وإنما الآية على نحو التي تقدمت وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يَنْكِحُوا إِلَّا زَوَاجَهُمْ﴾، فمعنى هذه: التفريق بين حكم عبدالله بن أبي وأشباهه وبين حكم النبي عليه الصلاة والسلام وفضلاء الصحابة رضوان الله عليهم وأمه، أي: إن النبي ﷺ طيب فلم يجعل الله له إلا كل طيبة، وأولئك خبيثون فهم أهل النساء الخبيثات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبهذه الآية قيل لأزواج النبي ﷺ: الطيبات المبرآت.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى «الطَّيِّبِينَ» في قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَلْمِزُونَكَ بِذُنُوبِهِمْ﴾. وقال النقاش: الإشارة بـ ﴿أُولَئِكَ مَبْرُورٌ﴾ إلى صفوان وعائشة رضي الله عنهما، وجمعهما في الضمير على حد قوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ﴾ والمراد: أخوان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا التمثيل بآية الإخوة نظر، وبخسب هذه المعاني يتقدر المراد بالضمير في «يَقْرَأُونَ»، فتأمله. ثم وعد الله تعالى الطيبين من المؤمنين بالمغفرة عند الحساب، وبالرزق الكريم في الجنة.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

سبب هذه الآية فيما ذكر الطبري عن عدي بن ثابت أن امرأة من الأنصار قالت: يا رسول الله، إني أكون في منزلي على الحال التي لا أحب أن يراني عليها والد ولا ولد، وإنه لا يزال يدخل علي رجل من أهلي وأنا على تلك الحال، فنزلت هذه الآية. ثم هي عامة في الأمة غابر الدهر من حيث هذه النازلة تختص بكل أحد في نفسه، وبيت الإنسان هو البيت الذي لا أحد معه فيه، أو البيت الذي فيه زوجه وأمه، وما عدا هذا فهو غير بيته. قال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: ينبغي للإنسان ألا يدخل البيت الذي فيه أنه إلا بعد الاستئناس. وروي في ذلك عن النبي ﷺ أن رجلاً قال: يا رسول الله، أستاذن على أمي؟ قال: «نعم» قال: إنما هي أمي ولا خادم لها غيري، قال: «أتحب أن تراها عريانة؟» قال: لا، قال: «فاستاذن عليها». وكذلك كل ذات محرم منه لأنه لا ينبغي له أن يراها عاريات، وقالت زينب امرأة ابن مسعود: كان ابن مسعود إذا جاء بيته تنحج مخافة أن يهجم على ما يكره.

﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ معناه: تستعلموا، أي: تستعلموا من في البيت وتستبصروا، تقول: آسئت إذا علمت عن حسن وإذا أبصرت، ومنه قوله تعالى: ﴿هَاسِئْتُمْ بِهِمْ رُءُوسًا﴾، وقوله: ﴿هَاسِئْتُمْ نَارًا﴾، ومنه قول حسان بن ثابت:

انظُرْ خَلِيلِي بِبَابِ جِلْقٍ هَلْ
تُؤْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ؟

وقول الحارث:

آسئت نبأة.....
البيت.....

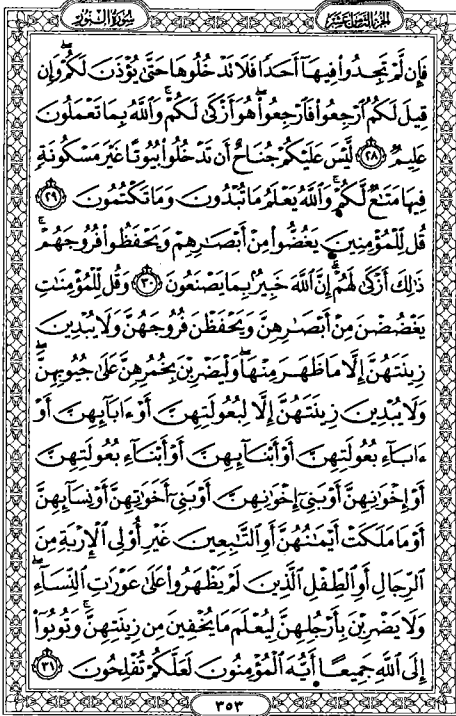
وزن آسن: أفعل، واستأنس وزنه: استفعل، فكان المعنى في ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾: تطلبون ما يؤنسكم ويؤنس أهل البيت منكم، وإذا طلب الإنسان أن يعلم أمر البيت الذي يريد دخوله فذلك يكون بالاستئذان على من فيه، أو بأن يتنحج ويشعر بنفسه بأي وجه أمكنه، ويتأني قدر ما يتحفظ، ويدخل إثر ذلك.

وذهب الطبري في

﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ إلى أنه بمعنى: حتى تؤنسوا أهل البيت من أنفسكم بالتنحج والاستئذان ونحوه، وتؤنسوا أنفسكم بأن تعلموا أن قد شعر بكم. وتصريف الفعل يأبي أن يكون من أس.

وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يقرأ: ﴿حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا﴾، وهي قراءة أبي بن كعب، وحكاها أبو حاتم ﴿حَتَّى تُسَلِّمُوا وَتَسْتَأْذِنُوا﴾، قال ابن عباس: ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ خطأ أو وهم من الكتاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: مصاحف الإسلام كلها قد ثبت فيها ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾، وصح الإجماع فيها من لدن مدة عثمان رضي الله عنه، فهي التي لا يجوز خلافها، والقراءة



٢٥٢

﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ ضعيفة، وإطلاق الخطأ والوهم على الكتاب في لفظ أجمع الصحابة عليه قول لا يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، والأشبه أن يقع ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ على التفسير، وظاهر ما حكى الطبري أنها قراءة، ولكن قد روي عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال: ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ بمعنى: تستأذِنُوا. ومما ينفي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما أن ﴿تَسْتَأْذِنُوا﴾ متمكنة في المعنى، بيَّنة الوجه في كلام العرب، وقد قال عمر رضي الله عنه للنبي عليه الصلاة والسلام: أستأيس يا رسول الله؟ وعمر واقف على باب الغرفة. والحديث المشهور، وذلك يقتضي أنه طلب الأئس به ﷺ، فكيف يخطيء ابن عباس رضي الله عنهما أصحاب

الرسول صلوات الله وسلامه عليه في مثل هذا؟

وحكى الطبري أيضاً بسند عن ابن جريح، عن ابن عباس، وعكرمة، والحسن بن أبي الحسن أنهم قالوا: نُسخ واستثنى من هذه الآية الأولى قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ﴾، وهذا أيضاً لا يترتب فيه نسخ ولا استثناء؛ لأن الآية الأولى في البيوت المسكونة والمقصورة، والآية الثانية في البيوت المباحة، وكأن من ذهب إلى الاستثناء رأى الأولى عامة.

وصورة الاستئذان أن يقول الرجل: السلام عليكم، أدخل؟ فإن أذن له دخل، وإن أمر بالرجوع انصرف، وإن سكت عنه استأذن ثلاثاً ثم ينصرف بعد الثلاث، فأما ثبوت ما ذكرته من صورة الاستئذان فروى الطبري أن رجلاً جاء إلى بيت النبي ﷺ فقال: أليح؟ أو أتليح؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: لأمة له يقال لها روضة: «قولي لهذا يقول: السلام عليكم، أدخل؟»، فسمعه الرجل فقالها، فقال له النبي ﷺ: «أدخل».

وزوي أن ابن عمر رضي الله عنهما آذنه الرضاء فأتى فسطاط امرأة من قريش، فقال: السلام عليكم، أدخل؟ فقالت المرأة: أدخل بسلام، فأعاد فأعادت، فقال لها: قولي: أدخل، فقالت ذلك فدخل، فكانه توقف لما قالت: بسلام؛ لاحتمال اللفظ أن تريد: ادخل بسلامك لا بشخصك. ثم لكل قوم في الاستئذان عَزْفهم في العبارة. وأما

ثبوت الرجوع بعد الاستئذان ثلاثاً فلحديث أبي موسى الأشعري الذي استعمله مع عمر رضي الله عنه، وشهد به لأبي موسى أبو سعيد الخدري، ثم أبي بن كعب، الحديث المشهور، وقال عطاء بن أبي رباح: الاستئذان واجب على كل محتلم، وسيأتي ذكر هذا. وزوي أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «رسول الرجل إذنه»، أي: إذا أرسل في أحد فقد أذن له في الدخول. وقوله: ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ تم الكلام عنده، وقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ معناه: فعلنا ذلك بكم ونبئناكم لعلكم.

والضمير في قوله: ﴿إِنْ لَرَّ يَجِدُوا فِيهَا﴾ للبيوت التي هي بيوت الغير، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال: معنى قوله: ﴿إِنْ لَرَّ يَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا﴾: إن لم يكن لكم فيها متاع، وضَعَّف الطبري هذا التأويل، وكذلك هو في غاية الضعف، وكان مجاهد رأى أن البيوت غير المسكونة إنما تدخل دون إذن إذا كان للدخل فيها متاع، ورأى لفظه (المتاع) متاع البيت الذي هو البُسُط والشباب، وهذا كله ضعيف.

وأسند الطبري عن قتادة أنه قال: قال رجل من المهاجرين: لقد طلبت عمري كله هذه الآية فما أدركتها، أن استأذن على بعض إخواني فيقول لي: ارجع، فأرجع وأنا مغتبط لقوله تعالى: ﴿وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ آتِجُوا قَارِعُونَ﴾ هو أَزْكَى لَكُمْ.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَمَلُّونَ عَلَيْهِ﴾ توعد لأهل التجسس على

البيوت وطلب الدخول على غفلة للمعاصي والنظر إلى ما لا يحل، ولغيرهم ممن يقع في محذور. ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن بعض الناس لما نزلت آية الاستئذان تعمق في الأمر، فكان لا يأتي موضعاً خرباً ولا مسكوناً إلا سَلَّمَ واستأذن، فنزلت هذه الآية، أباح الله تعالى فيها رفع الاستئذان في كل بيت لا يسكنه أحد؛ لأن العلة إنما هي في الاستئذان خوف الكشافة على الحُرَمَات، فإذا زالت العلة زال الحكم.

ومثل أهل التأويل من هذه البيوت أمثلة، فقال محمد بن الحنفية، وقتادة، ومجاهد: هي الفنادق التي في طرق المسافرين، قال مجاهد: لا يسكنها أحد، بل هي موقوفة لياوي إليها كل ابن سبيل، وفيها متاع لهم، أي استمتاع بمنفعتهم، ومثل عطاء في بيوت غير مسكونة بالخرب التي يدخلها الإنسان للبول والغائط، ففي هذا أيضاً متاع، وقال ابن زيد والشعبي: هي حوانيت القيساريات والأسواق، قال الشعبي: لأنهم جاؤوا ببيعهم فجعلوها فيها وقالوا للناس: هَلُمَّ. وهذا قول غلط قائله، وذلك أن بيوت القيسارية محظورة بأموال الناس، غير مباحة لكل من أراد دخولها بإجماع، ولا يدخلها إلا من أذن له بها، بل إن أربابها موكَّلون بدفع الناس عنها. وقال محمد بن الحنفية أيضاً: أراد تعالى دور مكة، وهذا على القول بأنها غير مملوكة، وأن الناس شركاء فيها، وأن مكة أخذت عنوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو في هذه المسألة القول الضعيف، يرده قوله عليه الصلاة والسلام: «وهل ترك لنا عقيل منزلاً؟»، وقوله: «من دخل دار أبي سفيان، ومن دخل داره»، وغير ذلك من وجوه النظر.

وباقى الآية بين، وظاهره التوعد.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّهِ يَتَوَكَّلُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بمنزلة قوله: انْهَهُمْ، فقوله: ﴿يَتَوَكَّلُوا﴾ جواب الأمر، وقال المازني: المعنى: قل لهم غَضُّوا يَغْضُوا، ويلحق هذين من الاعتراض أن الجواب خير من الله تعالى، وقد يوجد من لا يَغْضُ، وينفصل بأن المراد: يكونون في حكم من يَغْضُ. وقوله: ﴿مِنْ أَبْصَرِهِمْ﴾، أظهر ما في ﴿مِنْ﴾ أن تكون للتبعض، وذلك أن أول نظرة لا يملكها الإنسان، وإنما يَغْضُ فيما بعد ذلك، فقد وقع التبعض، ويؤيد هذا التأويل ما روي من قوله عليه الصلاة والسلام لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: «لا تُتَّبِعِ النَّظْرَةَ النَّظْرَةَ، فَإِنَّ الْأُولَى لَكَ، وَلَيْسَتْ لَكَ الثَّانِيَةَ» الحديث. وقال جرير بن عبد الله: سألت النبي ﷺ عن نظرة الفجأة فقال: «أصرف بصرك». ويصح أن تكون ﴿مِنْ﴾ لبيان الجنس، ويصح أن تكون لابتداء الغاية، والبصر هو الباب الأكبر للقلب وأعمر طرق الحواس إليه، وبحسب ذلك كثر السقوط من جهته، ووجب التحذير منه.

و(حفظ الفرج) يحتمل أن يريد به:

في الزنى، ويحتمل أن يريد: بستر العورة، والأظهر أن الجمع مراد واللفظ عام. وبهذه الآية حرّم العلماء دخول الحمام بغير مئزر، وقال أبو العالية: كل فرج ذكر في القرآن فهو من الزنى إلا في هاتين الآيتين فإنه يعني التستر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا وجه لهذا التخصيص عندي.

وباقى الآية بين، وظاهره التوعد. وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ﴾ الآية، أمر الله تعالى النساء في هذه الآية بغض البصر عن كل ما يكره من جهة الشرع النَّظْرُ إليه، وفي حديث أم سلمة قالت: كنت أنا وعائشة رضي الله عنهما عند النبي ﷺ، فدخل ابن أم مكتوم، فقال النبي ﷺ: «احتجبن» قلنا: إنه أعمى، فقال النبي ﷺ: «أَقْعَمِيَاوَانِ أُنْتُمَا؟».

﴿مِنْ﴾ تحتمل ما تقدم في الأولى، و(حفظ الفروج) يعمّ الفواحش وستر العورة وما دون ذلك مما فيه حفظ.

وأمر الله تعالى بالأبواب يُبْدِين زينتهن للناظرين، إلا ما استثناه من الناظرين في باقى الآية. ثم استثنى ما يظهر من الزينة، فاختلف الناس في قدر ذلك؛ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: ظاهر الزينة هو الثياب، وقال سعيد بن جبيرة: الوجه والثياب، وقال سعيد بن جبيرة أيضاً، وعطاء، والأوزاعي: الوجه والكفان والشباب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة، والمسنون بن مخزوم: ظاهر الزينة هو الكحل والسواك والخضاب إلى

نصف الذراع والقرطة والفتخ، ونحو هذا فباح أن تبديه المرأة لكل من دخل عليها من الناس، وذكر الطبري عن قتادة في معنى نصف الذراع حديثاً عن النبي ﷺ، وذكر آخر عن عائشة رضي الله عنها، عن النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر لي بحكم ألفاظ الآية أن المرأة مأمورة بالأبواب، وأن تجتهد في الإخفاء لكل ما هو زينة، ويقع الاستثناء في كل ما غلبها فظهر بحكم ضرورة حركة فيما لا بد منه، أو إصلاح شأن ونحو ذلك، فما ظهر على هذا الوجه فهو المعنى عنه. فغالب الأمر أن الوجه والكفين يكثر منهما الظهور، وهو الظاهر في الصلاة، ويحسن بالحسنة الوجه أن تستتر إلا من ذي حرمة محرمة، ويحتمل لفظ الآية أن الظاهر من الزينة لها أن تبديه، ولكن يقوي ما قلناه الاحتياط ومراعاة فساد الناس، فلا يظن أن يباح للنساء من إبداء الزينة إلا ما كان بذلك الوجه، والله الموفق للصواب برحمته.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ بسكون اللام التي هي للأمر، وقرأ أبو عمرو في رواية عباس عنه: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ﴾ بكسر اللام على الأصل؛ لأن أصل لام الأمر الكسر في «لِيَضْرِبْ» و«لِيَضْرِبْ»، وإنما تسكينها كتسكين «عَضُدٌ وَفَجْدٌ».

وسبب هذه الآية أن النساء كن في ذلك الزمان إذا غطين رؤوسهن بالأخمرة سدلتها من وراء الظهر، قال النقاش: كما يصنع الثببط،

المجبوب والمعتوه والمُخْتَت والمُخْتَت والشيخ الفاني والزَّيْمَن الموقوذ بزمانته، ونحو هذا هو الغالب في هذه الأصناف، ورُبَّ مُخْتَت لا ينبغي أن يكشف، ألا ترى إلى حديث «هيت» ونَهِي رسول الله ﷺ عن كشفه على النساءِ لَمَّا وصف بَادِيَةَ ابنة غيلان بن معتب؟ وتأمّل ما روي في أخبار الدُّلَال المُخْتَت، وكذلك الحمقى والمعتوهون فيهم من لا ينبغي أن يكشف، والذي لا إربة له من الرجال قليل.

(والإِزْبَةُ): الحاجة إلى الوطء، وعبر عن هذا بعض المفسرين فقال: هو الذي يتبعك لا يريد إلا الطعام وما يؤكله. وقرأ عاصم، وابن عامر: «عَتِيرٌ» بالنصب، وهو على الحال من الذَّكَر الذي في «التَّيْمِينِ»، أو على الاستثناء من «التَّيْمِينِ»، وقرأ الباقون: «عَتِيرٌ» بالخفض على التعت لـ «التَّيْمِينِ»، والقول فيها كالقول في «عَتِيرِ الْمُغْضُوبِ عَلَيْهِمْ».

وقوله تعالى: «أَوْ الْطِفْلِ» اسم جنس بمعنى الجمع، ويقال «طفل» ما لم يراهق الحُلْمَ، و«ظَهْرُورًا» معناه: يَطْلُمُوا بالوطء، والجمهور على سكون الواو من «عَوْرَتِ»، وروي عن ابن عامر فتح الواو، وقال الزجاج: الأكثر سكون الواو كجسوزات وبييضات لشقل الحركة على الواو والياء، ومن قرأ بالفتح فعلى الأصل في فَعَلَةٌ وَقَعَلَات.

وقوله تعالى: «أَوْ نَسَائِهِنَّ» يعني جميع المؤمنات، فكأنه قال: أو صنفهن، ويدخل في هذا الإماء المؤمنات، ويخرج منه نساء المشركين من أهل الذمة وغيرهم. وكتب عمر رضي الله عنه إلى أبي عبيدة رضي الله عنه: إنه بلغني أن نساء أهل الذمة يدخلن الحمامات مع نساء المسلمين، فامنع من ذلك وحلّ دونه، فإنه لا يجوز أن ترى الذميمة عِزَّةَ المسلمة، قال: فعند ذلك قام أبو عبيدة وابتهل وقال: أيما امرأة تدخل الحمام من غير عذر، لا تريد إلا أن تَبْيَضَ وجهها فسَوَّدَ الله وجهها يوم تَبْيَضُ الوجوه.

وقوله تعالى: «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ» يدخل فيه الإماء الكتابيات، ويدخل فيه العبيد عند جماعة من أهل العلم، وهو الظاهر من مذهب عائشة وأم سلمة رضي الله عنهما، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة العلماء: لا يدخل العبد على سيده فيرى شعرها ونحو ذلك إلا أن يكون وغداً، فمنعت هذه الفرقة الكشف بملك اليمين، وأباحته بأن يكون من التابعين غير أولي الإزبة، وفي بعض المصاحف «أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ» فيدخل فيه عبد الغير.

وقوله: «أَوْ التَّيْمِينِ» يريد الأتباع الذين يدخلون ليطعموا الفضول، وهم من الرجال الذين لا إزبة لهم في الوطء، فهي شرطان. ويدخل في هذه الصيغة

فيتبقى النحر والعتق والأذنان لا ستر على ذلك، فأمر الله تعالى بِلْيِ الخمار على الجيوب، وهينة ذلك أن تضرب المرأة بخمارها على جيبها فيستر جميع ما ذكرناه.

وقالت عائشة رضي الله عنها: رحم الله المهاجرات الأول، لما نزلت هذه الآية عَمَدَنَ إلى أكشف المروط فَشَقَّقْنَهَا أَحْمَرَةً، وَضَرَبْنَ بها على الجيوب، ودخلت على عائشة حفصة بنت أخيها عبدالرحمن وقد اختمرت بشيء يشف عن عنقها وما هنالك، فَشَقَّقَتْهَا عليها وقالت: إنما يضرب بالكثيف الذي يستر.

ومشهور القراءة ضم الجيم من «جُوبِينَ»، وقرأ بعض الكوفيين بكسرهما بسبب الياء كقراءتهم ذلك في بُيوت وشيوخ، ذكره الزهراوي.

تفسير قوله عز وجل:

المعنى في هذه الآية: ولا يقصدن بذلك الإخفاء للزينة الباطنة كالخلخال والأقراط ونحوه، ويطرحن مؤونة التحفظ إلا مع من سمى. وبدأ بالبعولة وهم الأزواج لأن اطلاقهم يقع على أكثر من هذا، ثم ثنى بذوي المحارم وسوى بينهم في إبداء الزينة، ولكنهم تختلف مراتبهم في الحرمة بحسب ما في نفوس البشر، فلا مرية أن كشف الأب والأخ على المرأة أحوط من كشف ولد زوجها، وتختلف مراتب ما يُبْدَى لهم، فيبْدَى للأب ما لا يجوز إبداءه لولد الزوج.

٣١ - ٣٢ تفسير قوله عز وجل:

أسند الطبري عن المعتمر عن أبيه قال: زعم حضرمي أن امرأة اتَّخذت بُرْتَيْنِ من فضة، واتَّخذت جَزْعاً، فجعلت في ساقها فمرت على القوم فضربت برجلها الأرض، فوق الخللخال على الجزع فصوت، فنزلت هذه الآية، وسمع هذه الزينة أشدَّ تحريكاً للشهوة من إبدائها، ذكره الزجاج.

قال مكي رحمه الله: ليس في كتاب الله تعالى آية أكثر ضماناً من هذه، جمعت خمسة وعشرين ضميراً للمؤمنات من مخفوض ومرفوع. وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿لِيُفْلَمَ مَا سُرَّ مِنْ زِينَتِهِمْ﴾.

ثم أمر عز وجل بالتوبة المطلقة، وقد قيَّد توبة الكفار بالإخلاص وبالانتهاء في آية أخرى، وتوبة أهل الذمة بالثيبين، يريد لأمر محمد ﷺ، وأمر بهذه التوبة المطلقة عامة من كل شيء صغير وكبير.

وقرأ ابن عامر: ﴿أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ بضم الهاء من ﴿أَيُّهُ﴾، ووجهه أن يجعل الهاء كأنها من نفس الكلمة، فيكون إعراب المنادى فيها، وضعف أبو علي ذلك جداً، وبعضهم يقف ﴿أَيُّهُ﴾، وبعضهم يقف ﴿أَيُّهَا﴾ بالألف، وقوى أبو علي الوقف بالألف لأن علته حذفها في الوصل إنما هي سكونها وسكون اللام، فإذا كان الوقف ذهب العلة فرجعت الألف كما ترجع الياء إذا وقفت على ﴿مُحَلِّي﴾ من قوله

تعالى: ﴿عَبْرٌ مُّحَلِّي الصَّيْدِ﴾، والاختلاف الذي ذكرناه في ﴿أَيُّهُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ كذلك هو في ﴿بِئْسَ آيَةُ السَّاجِرِ﴾، و﴿آيَةُ الْفُلَّانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى﴾، هذه المخاطبة لكل من تصور أن ينكح في نازلة ما، فهم المأمورون بتزويج من لا زوج له ومن لا زوجة له، وظاهر الآية أن المرأة لا تتزوج إلا بولي، و﴿الْأَيَّتَى﴾ يقال للرجل والمرأة، ومنه قول الشاعر:

لَلَّهِ دُرٌّ بِنِي عَلِيٍّ
بِي أَيِّمٍ مِنْهُمْ وَتَاكِحٍ
ولعموم هذه اللفظة قالت فرقة: إن هذه الآية ناسخة لحكم قوله تعالى: ﴿وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحَرِّمٌ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾. وقوله: ﴿وَالصَّالِحِينَ بَيْنَ عِبَادِكُمْ﴾ يريد:

للنكاح. وقرأ الحسن ابن أبي الحسن: ﴿مِنْ عِبِيدِكُمْ﴾، والجمهور على ﴿بَيْنَ عِبَادِكُمْ﴾، والمعنى واحد، إلا أن قرينة الترفيع بالنكاح تؤيد قراءة الجمهور.

وهذا الأمر بالنكاح يختلف بحسب شخص شخص، ففي نازلة يتصور وجوبه، وفي نازلة الندب، وغير ذلك، وهذا بحسب ما قيل في النكاح.

وَأَنكِحُوا الْأَيَّتَى مِنَ الصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾
وَالسَّعِفِيُّ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُعْطِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُواهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا وَآتُوهُمْ مِنْ مَالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ وَلَا تَكْرَهُوا قَيْدَئِكُمْ عَلَى الْبِعَاءِ إِنْ أَرَادْنَ تُحْصِنًا لِتُبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يَكْرِهِنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ أَرْهَبِهِمْ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾
وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا لِّلَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كِشْفُوفٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرٍ مُّبَارَكٍ تَرْتَوِيهِ لَأَنْوَارٌ نُورٌ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مِنْ بَيْتَاءَ وَضَرِبَ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي مِثُوبِ أَذْنِ اللَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيَذْكُرَ فِيهَا أَسْمَاءَ مَسِيحٍ لَهُ فِيهَا بِالْأَفْعَادِ وَالْأَصَالِ ﴿٣٦﴾

ثم وعد الله تبارك وتعالى بإغناء الفقراء المتزوجين طلباً لرضى الله عنهم واعتصاماً من معاصيه، وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «التمسوا الغنى في النكاح»، وقال عمر رضي الله عنه: «عجبي ممن لا يطلب الغنى بالنكاح، وقد قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْطِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾». قال النقاش: هذه الآية حجة على من قال إن القاضي يفرض بين الزوجين إذا كان الزوج فقيراً لا يقدر على النفقة، لأن الله تعالى قال: ﴿يُعْطِيهِمُ اللَّهُ﴾ ولم يقل: «يفرق بينهما».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا انتزاع ضعيف، وليست هذه الآية حكماً فيمن عجز عن النفقة، وإنما هي وعدٌ بالإغناء، كما وعد به تعالى مع التفرق في قوله: ﴿وَإِنْ

بِنَفَرًا يُعْنِ اللَّهُ كُلًّا مِّن سَمَوَاتِهِ ﴿٣٣﴾،
ونفحات رحمة الله تعالى مأمولة في كل حال، موعود بها.

وقوله تعالى: ﴿وَرِيسٌ عَلَيْكَ﴾
صفتان نحو المعنى الذي فيه القول،
أي واسع الفضل، عليهم بِمُسْتَحِقِّ
التوسعة والإغناء.

﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

«استعفف» وزنه استَعْفَلَ، ومعناه:
طلب أن يكون عفيفاً، فأمر الله
تعالى في هذه الآية كل من يتعذر
عليه النكاح ولا يجده بأي وجه تعذر
أن يستعفف، ثم لما كان أغلب
الموان على النكاح عدم المال وَعَدَّ
بالإغناء من فضله، فعلى هذا التأويل
يعمُّ الأمر بالاستعفاف كل من تعذر
عليه لنكاح بأي وجه تعذر.

وقالت جماعة من المفسرين:
النكاح في هذه الآية اسم ما يُهْمَرُ
ويُتَّفَقُ في الزواج كاللحاف واللباس
لما يُلْتَحَفُ به ولما يلبس، وحملهم
على هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبْتِغِيَهُمُ
اللَّهُ مِّن فَضْلِهِ﴾، فظنوا أن المأمور
بالاستعفاف إنما هو من عدم المال
الذي يتزوج به، وفي هذا القول
تخصيص المأمورين بالاستعفاف،
وذلك ضعيف.

ثم أمر الله تعالى المؤمنين كافة أن
يكتاتب منهم كل من له مملوك
وطلب المملوك الكتابة وعلم سيده
منه خيراً، قال النقاش: سببها أن
غلاماً لحويط بن عبد العزى سأل
مولاه الكتابة فأبى عليه، وقال مكي:
هو ضبيح القبطي غلام حاطب بن
أبي بلتعة، ولفظ «الكتاتب» في الآية
مصدر كالقتال والجلاد ونحوه من

مصادر فاعل، والكتابة فاعلة من
حيث هذا يكتب على نفسه، وهذا
على نفسه.

واختلف الناس، هل هذا الأمر
بالكتابة على الوجوب أو على
الندب، على قولين: فمذهب مالك
رحمه الله أن ذلك على الندب،
وقال عطاء: ذلك واجب، وهو
ظاهر قول عمر بن الخطاب
رضي الله تعالى عنه لأنس بن مالك
رضي الله عنه في سيرين، حين سأل
سيرين الكتابة فتلكأ أنس، فقال له
عمر: كاتبه أو لأضربك بالذرة،
وهو قول عمرو بن دينار والضحاك.

واختلف الناس في المراد بالخير؛
فقال فرقة: هو المال، ولم تر على
سيد عبد أن يكتاتب إلا إذا علم أن له
مالاً يؤدي منه أو من الشجر فيه.
وروي عن ابن عمر وسلمان أنهما
أبيا من كتابة عبيدين رغبا في الكتابة
ووعدا باستزفاق الناس، فقال كل
واحد منهما لعيده: أتريد أن تطعمني
أوساخ الناس؟ وقال مالك: إنه
ليقال: يراد بالخير القوة والأداء،
وقال الحسن بن أبي الحسن: الخير
هو صدق الموعد، وقلة الكذب،
والوفاء، وإن لم يكن للعبد مال،
وقال عبيدة السلماني: الخيز هو
الصلاح في الدين، وهذا في ضمنه
القول الذي قبله.

والمكتاتب عبد ما بقي عليه درهم،
وحرمة العتق إنما يتلبس بها بعد
الأداء، هذا قول جمهور الأمة، وقال
ابن مسعود رضي الله عنه: إذا أدى
ثلث الكتاب فهو عتق غريم، وقال
علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

العنقة تجري فيه بأول نجم يؤديه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن مَّالِ
اللَّهِ﴾، قال المفسرون: هو أمر لكل
مكتاتب أن يضع للعبد من مال
كتابته، واستحسن علي بن أبي
طالب رضي الله عنه أن يكون ذلك
ربع الكتابة، قال الزهراوي: وروي
ذلك عن النبي ﷺ، واستحسن
الحسن بن أبي الحسن، وابن مسعود
ثلثها، وقال قتادة: عشرها، ورأى
عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن
يكون ذلك من أول نجومه مبادرة إلى
الخير وخوف ألا يدرك آخرها،
ورأى مالك رحمه الله، وغيره أن
يكون الوضع من آخر نجم، وعلة
ذلك أنه إذا وضع من أول نجم ربما
عجز العبد فرجع هو وماله إلى
السيد، فعادت إليه وضيعته، وهي
شبه الصدقة، وهذا قول عبدالله بن
عمر رضي الله عنهما، ورأى مالك
رحمه الله هذا الأمر على الندب،
ولم ير لقدر الوضيعة حداً، ورأى
الشافعي رحمه الله وغيره الوضيعة
واجبة يحكم بها الحاكم على
المكتاتب وعلى ورثته، وقال
الحسن، والتخعي، وبزينة: إنما
الخطاب بقوله تعالى: ﴿وَأَتَوْهُمْ مِّن
مَّالِ اللَّهِ﴾ للناس أجمعين في أن
يتصدقوا على المكتاتبين، وأن
يعينوهم في فكك رقابهم، وقال
زيد بن أسلم: إنما الخطاب لولاة
الأمر بأن يعطوا للمكتاتبين من مال
الصدقة حظهم، وهو الذي تضمنه
قوله تعالى: ﴿وَفِي الرِّقَابِ﴾.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

روي أن سبب هذه الآية هو أن

أهل السموات الأرض. والأول أعم للمعاني وأوضح مع التأمل.

وقرأ عبدالله بن عياش بن أبي ربيعة، وأبو عبدالرحمن السلمي: ﴿الله نُورٌ﴾ بفتح النون والواو المشددة وفتح الراء على أنه فُعل.

وروي أن اليهود لما نزلت هذه الآية جسموا في تأويلها، واعترضوا محمداً ﷺ بأن قالوا: كيف هو نور الأرض والسماء بيننا وبينه، فنزلت حينئذ ﴿مَثَلُ نُورِهِ كَمِثْلِ نُورِ كَيْشَكُورٍ﴾ الآية، أي: ليس الأمر كما ظننتم، وإنما هو نور بأنه قوام كل شيء وخالفه وموجده، مثل نوره كذا وكذا.

واختلف المتأولون في الضمير في ﴿نُورِهِ﴾ على من يعود؟ فقال كعب الأحبار، وابن جبير: هو عائد على محمد ﷺ، أي: مَثَلُ نُورِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وقال أبي بن كعب رضي الله عنه، وابن جبير، والضحاك: هو عائد على المؤمنين، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِينَ﴾، وروي أن في قراءته ﴿مَثَلُ نُورِ الْمُؤْمِنِ﴾، وروي أن فيها ﴿مَثَلُ نُورِ مَنْ آمَنَ بِهِ﴾. وقال الحسن: هو عائد على القرآن والإيمان، وقال مكّي بن أبي طالب: وعلى هذه الأقوال يوقف على قوله: ﴿وَالْأَرْضِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه أقوال فيها عود الضمير على من لم يجر له ذكر، وفيها قطع المعنى المراد بالآية.

وقالت فرقة: الضمير في ﴿نُورِهِ﴾ عائد على الله تعالى، ثم اختلفت هذه الفرقة في المراد بالنور الذي

وفيما ضرب لهم من أمثال الماضين من الأمم ليقع التحفظ مما وقع أولئك فيه، وفيما ذكر لهم من المواعظ. وقرأ جمهور الناس: ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بفتح الباء، أي: بيّنها الله تعالى وأوضحها، وقرأ الحسن، وطلحة، وعاصم، والأعمش: ﴿مُبَيَّنَاتٍ﴾ بكسر الباء، أي: بيّنت الحق وأوضحته.

﴿١٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

الثور في كلام العرب: الأضواء المدركة بالبصر، ويستعمل مجازاً فيما صحّ من المعاني ولاح، فيقال: «كلام له نور»، ومنه «الكتاب المنير» ومنه قول الشاعر:

نَسَبَ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى
نُوراً وَمَنْ فَلَقَ الصُّبْحَ عَمُوداً
والله تعالى ليس كمثلته شيء، فبين أنه ليس كالأضواء المدركة، ولم يبق للآية معنى إلا أنه أراد: الله ذو نور السموات والأرض، أي بقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، وقامت مصنوعاتها، فالكلام على التقريب للذهن، كما تقول: الملك نور الأمة، أي به قوام أمورها وصلاح جملتها. والأمر في الملك مجاز، وهو في صفة الله تعالى حقيقة محضة؛ إذ هو الذي أبدع الموجودات، وخلق العقل نوراً هادياً؛ لأن ظهور الوجود به حصل، كما حصل بالضوء ظهور المُبَصَّرَاتِ، تبارك الله لا ربّ سواه.

وقالت فرقة: التقدير: دين الله نور السموات والأرض، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: هادي

عبدالله بن أبي ابن سلول كانت له أمة تسمى مسيكة، وقيل: معاذة، فكان يأمرها بالزنى والكسب به، فشكت ذلك إلى النبي ﷺ، فنزلت الآية فيه وفيمن فعل فعله من المناققين.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ﴾ راجع إلى «الفتيات»، وذلك أن الفتاة إذا أرادت التَّحْصُنَ فحينئذ يمكن ويُتصور أن يكون السَّيِّدُ مَكْرَهًا، ويمكن أن يُنْهَى عن الإكراه، وإذا كانت الفتاة لا تريد التَّحْصُنَ فلا يُتصور أن يقال للسَّيِّدِ: لا تُكْرِهْهَا؛ لأن الإكراه لا يُتصور فيها وهي مريدة للزنى، فهذا أمرٌ في سادة وفتيات حالهم هذه. وذهب هذا النظر عن كثير من المفسرين، فقال بعضهم: قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا نَحْنُ﴾ راجع إلى «الآيَاتِ» في قوله سبحانه: ﴿وَأَنكحُوا الَّذِينَ يَكْرَهُنَّ﴾، وقال بعضهم: هذا الشرط في قوله تعالى: ﴿إِنْ أَرَدْنَا﴾ مُلغى، ونحو هذا مما ضَعُف، والله الموفق للصواب برحمته.

(وَعَرَضُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) في هذه الآية: الشيء الذي تكتسبه الأمة بفرجها، ومعنى باقي الآية: فإن الله بعد إكراههم غفورٌ رحيم بهن، وقد يُتصور العُقران والرحمة بالمكْرَهَيْنِ بعد أن تقع التوبة من ذلك، فالمعنى: غفور لمن تاب. وقرأ ابن مسعود، وجابر بن عبدالله، وابن جبير: ﴿لَهُنَّ غُفُورٌ رَحِيمٌ﴾ بزيادة «لَهُنَّ».

ثم عدّد تعالى على المؤمنين نعمته فيما أنزل إليهم من الآيات المنيرات،

أضيف إلى الله تعالى إضافة خلق إلى خالق، كما تقول: سماء اللّه، وناقّة اللّه؛ فقال بعضها: هو محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وقال بعضها: هو المؤمن، وقال بعضها: هو الإيمان والقرآن، وهذه الأقوال متّجهة مُطرد معها المعنى، فكأن اليهود لما تأولوا ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية بمعنى الضوء قيل لهم: ليس كذلك، وإنما هو نور بأنه قوام كل شيء وهاديه، مثل نوره في محمد ﷺ، أو في المؤمن، أو في القرآن والإيمان كمشكاة، وهي الكوة غير النافذة فيها القنديل ونحوه.

وهذه الأقوال الثلاثة تضطرد فيها مقابلة جزء من المثل لجزء من المُمثل، فعلى قول من قال: المُمثل محمد ﷺ - وهو قول كعب الخير - فرسول الله ﷺ هو المشكاة، أو صدره، والمصباح هو النبوة وما يتصل بها من علمه وهذه، والزجاجة قلبه، والشجرة المباركة هي الوحي والملائكة رسل الله إليه وسببه المتصل به، والزيت هو الحجج والبراهين والآيات التي تضمنها الوحي.

وعلى قول من قال: «المُمثل به المؤمن» - وهو قول أبي بن كعب - فالمشكاة صدره، والمصباح الإيمان والعلم، والزجاجة قلبه، والشجرة القرآن، وزيتها هو الحجج والحكمة التي تضمنها، قال أبي: فهو على أحسن الحال يمشي في الناس كالرجل الحي يمشي في قبور الأموات.

ومن قال: «إن المُمثل به القرآن

والإيمان» فتقدير الكلام: مثل نوره - الذي هو الإيمان في صدر المؤمن - في قلبه كمشكاة، أي: كهذه الجملة. وهذا القول ليس في مقابلة التشبيه كالأولين، لأن المشكاة ليست تقابل الإيمان.

وتحتل الآية معنى آخر ليس فيه مقابلة جزء من المثل لجزء من المُمثل به، بل وقع التشبيه فيه جملة بجملة، وذلك أي ريد: مثل نور الله الذي هو هده إيقانه صنعة كل مخلوق وبراهينه الساطعة على الجملة كهذه الجملة من النور الذي تتخذونه أنتم على هذه الصفة التي هي أبلغ صفات النور الذي بين أيدي الناس، أي: فمَثَلُ نور الله في الوضوح كهذا الذي هو متهاكم أيها البشر.

و(المشكاة): الكوة في الحائط غير النافذة، قاله ابن جبير، وسعيد بن عياض، وجمهور المفسرين، وهي أجمع للضوء، والمصباح فيها أكثر إنارة منه في غيرها، وقال جاهد: المشكاة: العمود الذي يكون المصباح على رأسه، وقال أبو موسى: المشكاة: الحديدية أو الرصاصة التي يكون فيها الفتيل في جوف الزجاج، وقال مجاهد أيضاً: المشكاة: الحدائد التي يعلق بها القنديل. والأول أصح هذه الأقوال.

وقوله تعالى: ﴿فِي زَيْجَاتٍ﴾ لأنه جسم شفاف، المصباح فيه أنور منه في غير الزجاج. و(المضباح): الفتيل بناره. وأمال الكسائي - فيما روى عنه أبو عمرو الداني - الألف من «مَشْكَاة» فكسر الكاف التي

قبلها، وقرأ نصر بن عاصم: ﴿فِي زَجَاةٍ﴾ بفتح الزاي «وَالزَّجَاةُ» كذلك، وهي لغة.

وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ أي في الإنارة والضوء، وذلك يحتمل معنيين: إما أن يريد أنها بالمصباح كذلك، وإما أن يريد أنها في نفسها لصفاتها وجوده جوهرها كذلك، وهذا التأويل أبلغ في التعاون على النور. قال الضحاك:

الكوكب الدرّي هو الزهرة. وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص: ﴿دُرِّيٌّ﴾ بضم الدال وشد الياء، ولهذه القراءة وجهان: إما أن يُنسب الكوكب إلى الدرّ لبياضه وصفائه، وإما أن يكون أصله «دُرِّيٌّ» مهموز من الدرّ وهو الدفع، وخُففت الهمزة. وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم:

﴿دُرِّيٌّ﴾ بالهمز، وهو فُعِيل من الدرّ، بمعنى أنها تدفع بعضها بعضاً، أو بمعنى أن بها ما يدفع خفاءها، وفُعِيل بناء لا يوجد في الأسماء إلا في قولهم: مُرِيقٌ لِلْمُضْفَرِ وفي السُّرْبِ إذا اشتقت من السُّر، وَوَجَّهَ هذه القراءة أبو علي وَضَعَفَهَا غيره. وقرأ أبو عمرو، والكسائي: ﴿دُرِّيٌّ﴾ على وزن فُعِيل بكسر الفاء، من الدرّ، وهذه متوجهة. وقرأ قتادة: ﴿دُرِّيٌّ﴾ بفتح الدال والهمزة، قال أبو الفتح: وهذا عزيز، وإنما حُفِظَ منه «السُّكَيْتَةُ» بشد الكاف، وقرأ سعيد بن المسيب، وأبو رجاء، ونصر بن عاصم:

﴿دُرِّيٌّ﴾ بفتح الدال دون همز. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وطلحة، والأعمش،

غير منكشفة من جهة الشرق ولا عن جهة الغرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأن الوجود يقتضي أن الشجرة التي تكون بهذه الصفة ينفذ جناها.

وقال الحسن: ليست هذه الشجرة من شجر الدنيا، وإنما هو مثل ضربه الله تعالى لنوره، ولو كانت في الدنيا لكانت إما شرقية وإما غربية.

والحسن، وقتادة، وابن وثاب، وعيسى: ﴿تَوْقُدُ﴾ بضم التاء، أي الزجاجاة. وقرأ أبو عمرو، وأهل الكوفة، والحسن، وابن محيصن: ﴿تَوْقُدُ﴾ بفتح التاء والواو وشد القاف وضم الدال، أي الزجاجاة. وقرأ أبو عمرو أيضاً، وابن كثير: ﴿تَوْقُدُ﴾ بفتح التاء والدال، أي المصباح، وقرأ عاصم - فيما روى عنه إسماعيل - ﴿يُوقَدُ﴾ بالياء المرفوعة، على معنى: يُوقَدُ المصباح، قال أبو الفتح: وقرأ السلمي، والحسن، وابن محيصن، وسلام، وقتادة: ﴿يُوقَدُ﴾ بفتح الياء والواو والقاف المشددة ورفع الدال، أصله: يَتَوْقَدُ.

وقوله تعالى: ﴿مِنْ شَجَرَةٍ﴾ أي: من زيت شجرة، و(المباركة): المثناة، والزيتون من أعظم الثمار نماءً وأطراءً أفناناً وعضارةً لا سيما بالشام، والرُّمان كذلك، والعيان يقضي بذلك، وقول أبي طالب يرثي مسافر بن أبي عمرو بن أمية بن عبد شمس:

لَيْتَ شِغْرِي مُسَافِرَ بْنَ أَبِي عَمَدٍ
رَوٍ، وَلَيْتَ يَقُولُهَا الْمَحْزُونُ
بُورِكَ الْمَيْتِ الْغَرِيبِ كَمَا بُو

رَكَ نَبْعَ الرُّمَّانِ وَالزَّيْتُونُ
وقوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ قرأ الجمهور فيهما بالخفض عطفًا على ﴿زَيْتُونَةٍ﴾، وقرأ الضحاك: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ بالرفع.

واختلف المتأولون في معناه؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما حكى عنه الطبري -: معناه أنها شجرة في دوحه قد أحاطت بها فهي

يَجَالُ لَا لَنَلَّهُمْ بَحْرَةً وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا أَتَتْهُمُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٦﴾
يَجْزِيهِمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ تَرَفُّقٌ
مَنْ يَشَاءُ يُغَيِّرُ حِسَابَهُ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلَهُمْ كَمَلٍ
بِقِيَعَةٍ يَحْسَبُ الظَّنَّانُ مَاءً حَرًّا إِذَا جَاءَهُمْ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا
وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فُوفِيَهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٨﴾
أَوْ كَطَلْمُنْتٍ فِي بَحْرِ لُجِّي يَغْتَسِلُهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ
فَوْقِهِ سَحَابٌ طَلْمُنْتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أُخْرِجَ بِكَرٍّ لَمْ
يَكْدِرْ بِهَا مِنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ﴿٣٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ
اللَّهَ يَسْخِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَاتٍ كُلِّ قَدْرٍ
عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٠﴾ وَاللَّهُ مَنَّانٌ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَرْجِي
صَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَجْعَلُهُمْ وَكَمَا فَرَى الْوَدَّعَ يَخْرُجُ مِنْ
خِلْفِهِمْ وَيُنَزِّلُ مِنْ سَمَاءٍ مِنْ جِبَالٍ مِنْ بَرٍّ وَيَصِيبُ بِمَنْ يَشَاءُ
وَيَصْرِفُهُمْ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَابِقُهُمْ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٢﴾

٣٥٥

هذا النور المُمَثَّلُ به، وفي هذا الموضع تم المثال.

ثم ذكر تبارك وتعالى هذه لنوره من شاء وأسعد من عباده، وذكر تفضله في ضرب الأمثال للعباد ليقع لهم العبرة والنظر المؤدي إلى الإيمان.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: الباء في ﴿يُورَثُ﴾ تُضَمُّ وتُكْسَرُ، واختلف في الفاء من قوله: ﴿فِي﴾؛ فقيل: هي متعلق بـ ﴿يُضَاعَفُ﴾، قال أبو حاتم: وقيل: متعلقة بـ ﴿يَسْخِرُ﴾ المتأخر، فعلى هذا التأويل يوقف على ﴿يَسْخِرُ﴾، قال الرماني: هي متعلقة بـ ﴿يُوقَدُ﴾.

واختلف الناس في البيوت التي أرادها بقوله تعالى: ﴿فِي يُورَثُ أَيْنَ اللَّهُ أَنْ تَرَفُّعَ﴾؛ فقال ابن عباس رضي الله عنهما، والحسن، ومجاهد: هي المساجد

وقال أبو زيد: أراد أنها من شجر الشام؛ لأن شجر الشام من أفضل الشجر، ومن الأرض المباركة.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وعكرمة، وقتادة، وغيرهم: المعنى في قوله تعالى: ﴿لَا شَرْقِيَّةَ وَلَا غَرْبِيَّةَ﴾ أنها في منكشف من الأرض، تصيبها الشمس طول النهار، تستدير عليها، فليست خالصة للشرق فتسمى شرقية، ولا للغرب فتسمى غربية.

وقوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتًا يَبِئُتُهُ وَلَوْ لَمْ تَسَسَّهُ نَارٌ﴾ مبالغة في صفة صفاته وحسنه وجودته. وقرأ الجمهور: ﴿تَسَسَّهُ﴾ بالتاء من فوق. وقرأ ابن عباس، والحسن بالياء من تحت. وقوله: ﴿نُورٌ عَلَى نُورٍ﴾ أي هذه كلها معادن تكامل بها

المخصوصة لله تعالى التي من عاداتها أن تُنَوَّرَ بذلك النوع من المصابيح، وقال الحسن بن أبي الحسن: أراد بيت المقدس، وسُمِّاهُ بيوتاً من حيث فيه مواضع يتحيز بعضها عن بعض، ويؤثر أن عادة بني إسرائيل في وقيد بيت المقدس كانت غاية في التَهْمُّم به، وكان الزيت منتخباً مختوماً على ظروفه، وقد صُنِعَ صنعة وقُدِّسَ حتى لا يجري الوقيد بغيره، فكان أَسْوَأَ بيوت الأرض. وقال عكرمة: أراد بيوت الإيمان على الإطلاق، مساجد ومساكن، فهي التي يستصبح فيها بالليل للصلاة وقراءة العلم، وقال مجاهد: أراد بيوت النبي ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى: ﴿يَسْبُحُ لَهُ فِيهَا بِاللَّيْلِ وَالْأَصْحَالِ رِجَالٌ﴾ يُقَوِّي أنها المساجد.

وقوله تعالى: ﴿أَذُنٌ﴾ بمعنى أَمْرٌ وقَضَى، وحقيقة الإذن العلم والتمكن دون حظر، فإن اقترن بذلك أَمْرٌ وإنفاذ كان أَسْوَى. و﴿تُرْعَعُ﴾ قيل: معناهُ تَبْنَى وتَعَلَّى، قاله مجاهد وغيره، فذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْعَى إِذْ وَرَعُ الْقَوَاعِدِ مِنَ الْبَيْتِ﴾، وقال رسول الله ﷺ: «من بنى مسجداً من ماله بنى الله له بيتاً في الجنة»، وفي هذا المعنى أحاديث. وقال الحسن بن أبي الحسن: معناهُ تُعْظَمُ ويُرْفَعُ شأنها. وذكر اسمه تعالى هو بالصلاة والعبادة قولاً وفعلاً.

وقرأ ابن كثير، وعاصم: ﴿يَسْبُحُ﴾ بفتح الباء المشددة، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم: ﴿يَسْبُحُ﴾ بكسر الباء المشددة. ف﴿رِجَالٌ﴾ - على

القراءة الأولى - مرتفع بفعل مضمر يدل عليه ﴿يَسْبُحُ﴾، تقديره: يُسَبِّحُه رجال، فهذا عند سيبويه نظر قول الشاعر:

لِيُسَبِّكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ

أي: يبكيه ضارعٌ، و﴿رِجَالٌ﴾ - على القراءة الثانية - مرتفع ب﴿يَسْبُحُ﴾ الظاهر، وروي عن يحيى بن وثاب أنه قرأ: ﴿تَسْبُحُ﴾ بالتاء من فوق. و﴿الْعُدُوِّ وَالْأَصَالِ﴾ قال الضحاك: أراد الصبح والظهر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد ركعتي الضحى والعصر، وإن ركعتي الضحى لفي كتاب الله تعالى، وما يغوص عليهما إلا غواص. وقرأ أبو مجلز: ﴿وَالْإِبْصَالِ﴾.

ثم وصف الله تعالى المسيحين بأنهم لمراقبتهم أمر الله تعالى وطلبهم لرضاه لا يشغلهم عن الصلاة وذكر الله شيء من أمور الدنيا. وقال كثير من الصحابة رضوان الله عليهم: نزلت هذه الآية في أهل الأسواق الذين إذا سمعوا النداء بالصلاة تركوا كل شغل وبادروا إليها، ورأى سالم بن عبدالله بن عمر أهل الأسواق وهم مقبلون إلى الصلاة فقال: هؤلاء الذين أراد الله تعالى بقوله: ﴿لَا لَّهُمْ يَجْرَةُ وَلَا يَبِيعُ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وروى ذلك عن ابن مسعود.

و﴿وَأَقَامِ﴾ مصدرٌ من أقام يُقيم، أصله إقوامٌ، نقلت حركة الواو إلى القاف فيقيت ساكنة والألف ساكنة، فحذفت الواو لالتقاء الساكنين، فجاء «إقام»، فقال بعض النحويين: هو

مصدر بنفسه قد لا يضاف، وقيل: لا يجوز أقمته إقاماً، وإنما يستعمل مضافاً، ذكره الرماني، وقال بعضهم من حيث رأؤهُ لا يستعمل إلا مضافاً: ألحقت به هاء عَوْضاً من الحذوف فجاء «إقامه»، فهم إذا أضافوه حذفوا العَوْضَ لاستغنائهم عنه، فإن المضاف والمضاف إليه كاسم واحد. و(الزكاة) هنا عند ابن عباس رضي الله عنهما: الطاعة لله، وقال الحسن: هي الزكاة المفروضة في المال. و«اليوم المخوف» الذي ذكره الله تبارك وتعالى هو يوم القيامة.

واختلف الناس في تقلب القلوب والأبصار، كيف هو؟ فقالت فرقة: يرى الناس الحقائق عياناً فتتقلب قلوب الشاكين ومعتقدي الضلال عن معتقداتها إلى اعتقاد الحق على وجهه، وكذلك الأبصار، وقالت فرقة: هو تقلب على جمر جهنم، ومقصد الآية هو وصف هول يوم القيامة. فأما القول الأول فليس يقتضي قولاً، وأما الثاني فليس التقلب في جمر جهنم في يوم القيامة، وإنما هو بعده، وإنما معنى الآية عندي أن ذلك اليوم - لشدة هول ومطلعه - القلوب والأبصار فيه مضطربة قلقة متقلبة من طمع في النجاة إلى طمع، ومن حذر هلاك إلى حذر، ومن نظر في هول إلى النظر في الآخر. والعرب تستعمل هذا المعنى في الحروب ونحوها، ومنه قول الشاعر:

بَلْ كَانَ قَلْبُكَ فِي جَنَاحِي طَائِرٍ

ومنه قول بشار:

كَأَنَّ فُرَادَةَ كُرَّةً تَنْزَى

وهذا كثير.

٣٨ - ٣٩ - تفسير قوله عز وجل:

اللام في قوله تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ﴾ متعلقة بفعل مضمّر تقديره: فعلوا ذلك، ويسرّوا لذلك، ونحو هذا، ويحتمل أن تكون متعلقة بقوله سبحانه: ﴿يَسِيحُ﴾. وقوله: ﴿أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا﴾ فيه حذف مضاف تقديره: ثواب أحسن ما عملوا، ثم وعدهم عزّ وجلّ بالزيادة من فضله على ما تقتضيه أعمالهم، فأهل الجنة أبداً في مزيد، ثم ذكر أنه يرزق من يشاء، ويخصه بما يشاء من رحمته دون حساب ولا تعدد، وكل تفضّل لله فهو بغير حساب، وكل جزاء على عمل فهو بحساب.

ولما ذكر الله تعالى فيما تقدم من هذه الآية حالة الإيمان والمؤمنين وتنويره قلوبهم، عقّب ذلك بذكر الكفرة وأعمالهم، فمثل لها ولهم تمثيلين: الأول منهما يقتضي حال أعمالهم في الآخرة من أنها غير نافعة ولا مجدية، والثاني يقتضي حالها في الدنيا من أنها في الغاية من الضلال والعمّة التي مثالها ما ذكر من تناهي الظلمة في قوله: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾.

(والسراب): ما تفرّق من الهواء في الهجير في فيافي الأرض المنبسطة، وأوهم الناظر إليه على بُعد أنه ماء، سُمّي بذلك لأنه ينسرب كالماء، فكذلك أعمال

الكافر، يظن في دنياه أنها نافعة، فإذا كان يوم القيامة لم يجدها شيئاً، فهي كالسراب الذي يظنه الرائي العطشان ماء، فإذا قصدته وأتعب نفسه بالوصول إليه لم يجد شيئاً. (والقيامة): جمع قاع، كجار وجيرة، والقاع: المنخفض البساط من الأرض، ومنه قول النبي ﷺ في مانع زكاة الأنعام: «فَيَبْطِخُ لَهَا بِقَاعٍ قَرْقَرٍ». وقيل: القيعان مفرد، وهو بمعنى القاع. وقرأ مسلمة بن محارب: «بِقِيَعَاتٍ»، وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع - بخلاف -: «الظلمات» بفتح الميم وطرح حركة الهمزة على الميم وترك الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لُرٌ بِجَدَّةٍ سَعِثًا﴾ يريد: شيئاً نافعاً في العطش، أو يريد: شيئاً موجوداً على العموم، ويريد بـ ﴿جَاءَهُ لُرٌ﴾ جاء موضعه الذي تخيله فيه، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿جَاءَهُ لُرٌ﴾ على السراب، ثم يكون في الكلام بعد ذلك متروك يدل عليه الظاهر تقديره: «فكذلك الكافر يوم القيامة يظن عمله نافعاً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً»، ويحتمل الضمير أن يعود على العمل الذي يدل عليه قوله: ﴿أَغْنَاهُمْ﴾، ويكون تمام المثل في قوله: ﴿تَأْوِيهِمْ﴾، ويستغنى الكلام عن متروك في على هذا التأويل، لكن يكون في المثل إيجازاً واقتضاباً لوضوح المعنى المراد به.

وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَ اللَّهُ عِنْدَهُ﴾ أي: بالمجازات، والضمير في

﴿عِنْدَهُ﴾ عائد على العمل، وبآتي الآية بين، فيه توعد وسرعة الحساب من حيث هو بعلم لا تكلف فيه.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ عطف على قوله: ﴿كُدْرِيٍّ﴾، وهذا المثال الأخير تضمن صفة أعمالهم في الدنيا، أي أنهم من الضلال ونحوه في مثل هذه الظلمة المجتمعة من هذه الأشياء، وذهب بعض الناس إلى أن في هذا المثال أجزاء تقابل أجزاء من الممثل، فقال: الظلمات: الأعمال الفاسدة والمعتقدات الباطلة، والبخر اللجج: صدر الكافر وقلبه، واللجج معناه ذو اللجة وهي معظم الماء وغمره، واجتماع مائه أشدّ لظلمته، والمروج هو الضلال أو الجهالة التي غمرت قلبه، والفكر المعوجة، والسحاب هو شهوته في الكفر وإعراضه عن الإيمان وما رين به على قلبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل سائغ، وألاً يُقدّر هذا التقابل سائغ.

وقرأ سفيان بن حسين: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ﴾ بفتح الواو، وقرأ جمهور السبعة: ﴿سَحَابٍ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ظُلُمَاتٍ﴾، وقرأ ابن كثير - في رواية قبيل -: ﴿سَحَابٍ﴾ بالرفع والتنوين ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ بالخفض على البديل من ﴿ظُلُمَاتٍ﴾ الأول، وقرأ ابن أبي بزة عن ابن كثير: ﴿سَحَابٍ﴾ بغير تنوين على الإضافة إلى ﴿ظُلُمَاتٍ﴾.

وقوله: ﴿إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَدْ بِرَبِّهَا﴾ لفظ يقتضي مبالغة الظلمة، واختلف الناس في هذا اللفظ، هل يقتضي أن هذا الرجل - المقدر في هذه الأحوال وأخرج يده - رأى يده أو لم يرها البتة؟ فقالت فرقة: لم يرها جملة، وذلك أن (كاد) معناها قارب، فكأنه قال: إذا أخرج يده لم يقارب رؤيتها، وهذا يقتضي نفي الرؤية جملة، وقالت فرقة: بل رآها بعد عُسْرٍ وشِدَّةٍ، وكاداً ألا يراها، ووجه ذلك أن (كاد) إذا صحبها حرف النفي وجب الفعل الذي بعدها، وإذا لم يصحبها انتفى الفعل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا لازم متى كان حرف النفي بعد (كاد) داخلاً على الفعل الذي بعدها، تقول: «كاد زيد يقوم» فالقيام منفي، فإذا قلت: «كاد زيد ألا يقوم» فالقيام واجب واقع، وتقول: «كاد النعام يطير»، فهذا يقتضي نفي الطيران عنه، فإذا قلت: «كاد النعام ألا يطير» وجب الطيران له، فإذا كان حرف النفي مع (كاد) فالأمر محتمل، مرة يوجب الفعل، ومرة ينفيه، تقول: «المفلوج لا يكاد يسكن»، فهذا كلام صحيح تضمن نفي السكون، وتقول: «رجل متكلم لا يكاد يسكن»، فهذا كلام صحيح يتضمن إيجاب السكون بعد جهد ونادراً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَدَّجَبَهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ﴾. نَفْيٌ مَعَ (كَادَ) تضمن وجوب الذبح، وقوله في

هذه الآية: ﴿لَمْ يَكَدْ بِرَبِّهَا﴾ نَفْيٌ مَعَ (كَادَ) يتضمن في أحد التأويلين نفي الرؤية، ولهذا ونحوه قال سيويه رحمه الله: «إن أفعال المقاربة لها نحو آخر» بمعنى أنها دقيقة التصرف.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ زَرَّ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ﴾، قالت فرقة: يريد: في الدنيا، أي: من لم يهده الله لم يهتد، وقالت فرقة: أراد: في الآخرة، أي: من لم يرحمه الله وَيُتَوَّرَّ حاله بالعفو والرحمة فلا رحمة له، والأول أبين وأليق بلفظ الآية، وأيضاً فذلك متلازمٌ، نور الآخرة إنما هو لمن نُورَ قلبه في الدنيا وهُدِي، وقد قررت الشريعة أن من مرَّ لآخرته على كفره فهو غير مرحوم ولا مغفور له.

١١١ - ١١٢ تفسير قوله عز وجل:

﴿الَّذِينَ تَرَوُا تَرْبَةً﴾ تنبيه، (الرؤية) رؤية الفكر. قال سيويه: كأنه قال: اثنتي، الله يُسَبِّحُ له من في السموات، (التسبيح) هنا التعظيم والتنبيه، فهو من العقلاء بالنطق وبالصلاة من كل ذي دين. واختلف في تسبيح الطير وغير ذلك مما قد ورد الكتاب بتسبيحه؛ فالجمهور على أنه تسبيح حقيقي، وقال الحسن وغيره: هو لفظ تجوُّز، وإنما تسبيحه بظهور الحكمة فيه، فهو - لذلك - يدعو إلى التسبيح.

وقال المفسرون: قوله تعالى: ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عامة لكل شيء، من له عقلٌ وسائر الجمادات،

لكنه لما اجتمع ذلك عبر عنه بـ ﴿مَنْ﴾ تغليبا لحكم من يعقل. و﴿مَنْ تَرَوُا﴾ معناه: مصطفة في الهواء، وقرأ الأعرج: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ بنصب الراء، وقرأ الحسن: ﴿وَالطَّيْرُ صَافَاتٌ﴾ مرفوعتان.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ قَدِّ عِلْمٍ صَلَاةٌ وَتَسْبِيحٌ﴾، قال الحسن: المعنى: كلُّ قَدِّ عِلْمٍ صلاةٌ نفسه وتسيبِح نفسه، فهو يثابر عليهما ويؤديهما. وقال مجاهد: الصلاة للبشر والتسبيح لما عداهم، وقالت فرقة: المعنى: كلُّ قَدِّ عِلْمٍ صلاة الله وتسيبِح الله اللذين أمر بهما وهَدَى إليهما، فهذه إضافة خلق إلى خالق، وقال الزجاج وغيره: المعنى: كلُّ قَدِّ عِلْمٍ اللّهُ صَلَاةٌ وَتَسْبِيحٌ، فالضميران للكل. وقرأت فرقة: ﴿عَلِمَ صَلَاتُهُ وَتَسْبِيحُهُ﴾ بالرفع وبناء الفعل للمفعول الذي لم يسم فاعله، ذكرها أبو حاتم. وقرأ الجمهور: ﴿يَفْعَلُونَ﴾ بالياء، على معنى المبالغة في وصف قدرة الله وعلمه بخلقه، وقرأ عيسى، والحسن: ﴿تَفْعَلُونَ﴾ بالتاء من فوق، ففيه المعنى المذكور وزيادة الوعيد والتخويف من الله تعالى، وإعلامٌ بَعْدُ بكون المُلْكِ على الاطلاق له، وتذكيره بأمر المصير إليه والحشر يَقْوِي معنى التخويف من الله تبارك وتعالى. وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه، وابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل: (الرؤية) في هذه الآية رؤية عين، والتقدير: أن أمر الله وقدرته. و﴿بُرْجِي﴾ معناه: يسوق، والإجزاء إنما يستعمل في سوق كل ثقیل ومدافعته كالسحاب والإبل المزاحيف، كما قال الفرزدق:

عَلَى مَزَاجِفٍ تُزَجِّيهَا مَحَابِيرِ
والبضاعة المزجأة: التي تحتاج من الشفاعة والتحسين إلى ما هو كسوق الثقیل، ومنه قول حبيب في الشيب: «وَتَحْنُ نَزْجِيهِ» - وسيبويه أبداً يقول في كلامه: «فَأَنْتَ تَزْجِيهِ إِلَى كَذَا»، أي تسوقه ثقيلاً متباطئاً.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَرِّقَ يَنبَغِ﴾ أي بين مفترق السحاب نفسه؛ لأن مفهوم السحاب يقتضي أن بينه فروجاً، وهذا كما تقول: جلست بين الدور، ولو أضيفت «بين» إلى مفرد لم يصح إلا أن تريد آخر، لا تقول: «جلست بين الدار» إلا أن تريد: «وبين كذا».

وروش عن نافع لا يهمز ﴿بُرِّقَ﴾، وقالون عن نافع، والباقون يهمزون ﴿بُرِّقَ﴾، وهو الأصل.

(الرُكَامُ): الذي يركب بعضه بعضاً ويتكاثف، والعرب تقول: إن الله تعالى إذا جعل السحاب ركماً بالريح عصر بعضه بعضاً فخرج الودق منه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً نَبَاتًا﴾، ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

كَلَّتَاهُمَا حَلْبَ الْعَصِيرِ فَعَاطِنِي
بِرْجَا حَاجَةِ أَرْحَاهُمَا لِلْمَفْصِلِ

ويروى «للمفصل» بكسر الميم وفتح الصاد، فالمفصل: واحد المقاصيل، والمفصل: اللسان، ويروى بالقاف، أراد حسان الخمر والماء الذي مزجت به، أي: هذه من عصر العنب وهذه من عصر السحاب، فسر هذا التفسير قاضي البصرة عبدالله بن الحسن للقوم الذين حلف صاحبهم بالطلاق أن يسأل القاضي عن تفسير بيت حسان.

(وَالْوَدُقُ): المطر، ومنه قول الشاعر:

فَلَا مُزْنَةَ وَدَقَّتْ وَدَقَّتْهَا
وَلَا أَرْضَ أَبْقَلٍ إِنْقَالَهَا
وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبِنِ جَالِيهِ﴾ وهو جمع خَلَلٍ، كَجَبَلٍ وَجِبَالٍ، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك: ﴿وَمِنْ خَلَلِهِ﴾. وقرأ عاصم، والأعرج: ﴿وَيُنزَلُ﴾ على المبالغة، والجمهور على التخفيف.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنِ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرٍّ﴾ قيل: تلك حقيقة، وقد جعل الله تعالى في السماء جبالاً من برد، وقالت فرقة: ذلك مجاز، وإنما أراد وصف كثرتهم، وهذا كما تقول: عند فلان جبال من المال، أو جبال من العلم، أي في الكثرة مثل الجبال، وحكي عن الأخفش تقديره زيادة ﴿بَرٍّ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَيْنِ بَرٍّ﴾، وهو قول ضعيف. و﴿بَرٍّ﴾

يَقْلِبُ اللَّهُ الذُّلَّ وَالشَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾
وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنَيْهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ خَلَقَ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٤﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٥﴾ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَا رَسُولَ اللَّهِ اطعنا ثم يتولون فسيق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين ﴿٤٦﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٤٧﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَكُمْ مِنَ الْيَتَامَى الْيَتَامَى فَارْتَبِعُوا لَهُمْ مِمَّا قَدْ تَرَكُوا لَكُمْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَأَنْ يَحْفَظُوا لَهُمْ فَمَا يَكْفُرُوا لَكُمْ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ فَوَلَّيْتَهُ هُمُ الْقَائِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُفْسِدُوا أَمْوَالَهُمْ وَعُرُوفَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٠﴾

في قوله تعالى: ﴿بَيْنِ السَّمَاءِ﴾ هي لابتداء الغاية، وفي قوله: ﴿بَيْنِ جِبَالٍ﴾ هي للتبويض، وفي قوله: ﴿بَيْنِ بَرٍّ﴾ هي لبيان الجنس.

(وَالسَّنَا) مقصوداً: الضوء، (وَالسَّنَاءُ) ممدوداً: المجد والارتفاع في المنزلة، وقرأ الجمهور: ﴿سَنَا﴾ بالقصر، وقرأ طلحة ابن مصرف: ﴿سَنَا﴾ بالمد والهمز، وقرأ طلحة أيضاً: ﴿بُرْقِيهِ﴾ بضم الباء وفتح الراء، وهي جمع بُرْقَةٍ - بضم الباء وسكون الراء - فُعْلَةٌ، وهي القدر من البرق، كلُّفَمَةٌ وَلَقَمٌ وَغُرْفَةٌ وَغُرْفٌ. وقرأ الجمهور: ﴿يَذْهَبُ﴾ بفتح الياء، وقرأ أبو جعفر: ﴿يَذْهَبُ﴾ بضمها، من أذهب، كأن التقدير: يذهب النفوس بالابصار، نحو قوله: ﴿تَبَّتْ يُدُحُنُ﴾، ويحتمل أن يكون كقوله: ﴿وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَكَمِ﴾

تنبيه وتذكير، وأخبر تعالى أنه أنزل الآيات ثم قيد الهداية إليها لأنه من قبله لبعض دون بعض.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾ الآية، نزلت في المنافقين، وسببها فيما روي أن رجلاً من المنافقين اسمه بشر كان بينه وبين رجل من اليهود خصومة، فدعاه اليهودي إلى التحاكم عند رسول الله ﷺ، وكان المنافق مبطلاً، فأبى من ذلك ودعا اليهودي إلى كعب بن الأشرف، فنزلت هذه الآية فيه، وأسند الزهراوي عن الحسن بن أبي الحسن

أنه قال: من دعاه خصمه إلى حكم من حكام المسلمين فلم يجب فهو ظالم. ﴿مُذْعِبِينَ﴾ أي مظهرين للانقياد والطاعة، وهم إنما فعلوا ذلك حيث أيقنوا بالثجح، وأما إذا طلبوا بحق فهم عنه معرضون. ثم وقَّههم تعالى على أسباب فعلهم توقيف توبيخ، أي ليؤثروا بأحد هذه الوجوه التي عليهم في الإقرار بها ما عليهم، وهذا التوقيف يستعمل في الأمور الظاهرة مما يؤتخ به أو مما يُمدح به، فهو بليغ جداً، ومنه قول جرير:

أَلَسْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
البيت

ثم حكم عليهم بأنهم هم الظالمون، وقال: ﴿أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ من حيث أن الرسول عليه الصلاة والسلام إنما يحكم بأمر الله وشرعه، والحييف: المتيل.

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل: قرأ الجمهور: ﴿قَوْلًا﴾ بالنصب، وقرأ علي بن أبي طالب

﴿دَابَّةً مِنَ الْبَحْرِ مِثْلَ الظَّرْبِ﴾. وقوله: ﴿يَنْتَابُونَ﴾ قال النقاش: أراد أمينية الذكور، وقال جمهور النطرة: أراد أن خلقه كل حيوان فيها ماء كما خلق آدم من الماء والطين، وعلى هذا يتخرج قول النبي ﷺ للشيخ الذي سأله في غزاة بدر: ممن أنتما؟ فقال النبي ﷺ: «نحن من ماء»، الحديث.

والمشي على البطن للحيات والحوت ونحوه من الدود وغيره، وعلى الرُّجُلَيْنِ للإنسان والطير إذا مشى، والأربع لسائر الحيوان، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى آخِرِهِ﴾، فعم بهذه الزيادة الإجماع، لكن قال النقاش: إنما اكتفى القول بذكر ما يمشي على أربع عن ذكر ما يمشي على أكثر لأن جميع الحيوان إنما اعتماده على أربع، وهي قوام مشيه، وكثرة الأرجل في بعضه زيادة في الخلق لا يحتاج ذلك الحيوان في مشيه إلى جميعها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر أن تلك الأرجل الكثيرة ليست باطلاً، بل هي محتاج إليها في تنقل الحيوان، وهي كلها تتحرك في تصرفه.

وقوله تعالى: ﴿يَأْتِيكَ مِينَتٌ﴾ يعم كل ما نصب الله تعالى من آية وصنعة للعبرة، وكل ما نص في كتابه من آية

قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ قَاتِلُوا أَعْنَاعَكُمْ مَا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ ظَلَمْتُمْ فَتَهْتَدُوا وَامْطَرُوا الرَّسُولَ إِنْ أَلْبَسْتُمْ السُّيُوءَ ٥١ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الْأَبْرَارَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَا يَرْضَىٰ لَكُمْ مِنَ الْكُفْرِ شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ٥٢ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ٥٣ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا فِيهِمْ مِنَ النَّارِ وَلَيْسَ الْمَيِّتُ بِشَيْءٍ أَمْوًا لِيَسْتَوْدِعَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَثَلَاثَ مِنْ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ قَدْ كَفَرْنَا بِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٥٤

يُطْلَرُ، فالباة زائدة دالة على فعل يناسبها.

ثم اقتضت ألفاظ الآية الإخبار عن تغليب الليل والنهار، والإتيان بهذا بعد هذا دون توطئة، وهذا هو الذي تعجز عنه الفصحاء حتى يقع منهم التخليط في الألفاظ والتوسطة بالكلام، وباقي الآية بين.

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية اعتبار، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿وَاللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ عَلَى الْإِضَافَةِ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾. و«الدابة»: كل ما يدب من الحيوان، أي يتحرك متنقلاً أمامه قُدماً، ويدخل فيه الطير إذ قد يدب، ومنه قول الشاعر:

.....
ذَبِيبٌ قَطَا الْبُطْحَاءِ فِي كُلِّ مَثَلٍ
ويدخل فيه الحوت، وفي الحديث

رضي الله عنه، والحسن، وابن أبي إسحاق: ﴿قَوْلٌ﴾ بالرفع، واختلف عن الأخيرين، قال أبو الفتح: شرط «كان» أن يكون اسمها أعرف من خبرها، فقراءة الجمهور أقوى: والمعنى: إنما كان الواجب أن يقوله المؤمنون إذا دعوا إلى حكم الله ورسوله أن يقولوا: سمعنا وأطعنا، فـ﴿كَانَ﴾ هذه ليست إخباراً عن الماضي، وإنما هي كقول الصديق رضي الله عنه: «ما كان لابن أبي قحافة أن يصلي بين يدي رسول الله ﷺ»، وجعل الدعاء إلى الله من حيث هو إلى شرعه ودينه. وقرأ الجمهور: ﴿يَلِجَكُمْ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وقرأ أبو جعفر، والجحدري، وخالد بن إلياس، والحسن: ﴿يَلِجْكُمْ﴾ على بناء الفعل للمفعول، و﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: البالغون آمالهم في دنياهم وآخرتهم.

و﴿جَهْدُ أَلْيَمِينَ﴾ بلوغ الغاية في تعقيدها، و﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: إلى الغزو، وهذه في المنافقين الذين تولّوا حين دُعوا إلى الله ورسوله. وقولـه: ﴿قُلْ لَا تُفْسِمُوا طَاعَةَ مَرْوَةَ﴾ يحتمل معاني: أحدها النهي عن القسم الكاذب؛ إذا عرف أن طاعتهم دغلة رديئة، فكأنه يقول: لا تغالطوا فقد عرف ما أنتم عليه، والثاني أن يكون المعنى: لا تتكلفوا القسم، طاعة عرف متوسطة على قدر الاستطاعة أمثل وأجدى عليكم، وفي هذا الوجه إبقاء عليهم، والثالث أن يكون المعنى: لا تقنعوا بالقسم، طاعة تُعرف منكم وتظهر عليكم هو المطلوب منكم، والرابع أن يكون

المعنى: لا تقنعوا لأنفسكم بإرضائنا بالقسم، طاعة الله معروفة، وشرعه وجهاد عدوه مهيب لائح. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ خَيْرٌ مِمَّا تَمَلُّونَ﴾ متصل بقوله: ﴿لَا تُفْسِمُوا﴾ و﴿طَاعَةَ مَرْوَةَ﴾ اعتراض بليغ.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَلَيْعُاَ اللَّهُ﴾ الآية مخاطبة لأولئك المنافقين وغيرهم من الكفار وكل من يتعتى عن أمر محمد ﷺ، وقوله: ﴿تَوَلَّوْا﴾ معناه: تَتَوَلَّوْا، محذوف التاء الواحدة، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْكُم مَّا حِجَلْتُمْ﴾. ولو جعلنا ﴿تَوَلَّوْا﴾ فعلاً ماضياً وقدرنا في الكلام خروجاً من خطاب الحاضر إلى ذكر الغائب لاقضى الكلام أن يكون بعد ذلك: «وعليهم ما حُملوا». والذي حُمل رسول الله ﷺ هو التلبيغ ومكافحة الناس بالرسالة وإعماله الجهد في إنذارهم، والذي حُمل الناس هو السمع والطاعة وأتباع الحق، وباقي الآية بين.

وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع - رواية ورش -: ﴿وَيَتَّقِيهِ﴾ بياء بعد الهاء، قال أبو علي: وهو الوجه، وقرأ قالون عن نافع: ﴿وَيَتَّقِيهِ﴾ بكسر الهاء لا يبلغ بها الباء، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿وَيَتَّقِيهِ﴾ جنزماً للهاء، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿وَيَتَّقِيهِ﴾ بسكون القاف وكسر الهاء.

٥٥ - ٥٦ تفسير قوله عز وجل: قرأ الجمهور: ﴿أَسْتَخْلِفُ﴾ على بناء الفعل للمفعول، وروي أن سبب

هذه الآية أن بعض أصحاب النبي ﷺ شكا جهده مكافحة العدو، وما كانوا فيه من الخوف على أنفسهم، وأنهم لا يضعون أسلحتهم، فنزلت هذه الآية عامة لأمة محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد: في البلاد التي تجاورهم والأصقاع التي قضى بامتدادهم إليها، واستخلافهم هو أن يملكهم البلاد ويجعلهم أهلها كما جرى في الشام وفي العراق وخراسان والمغرب. وقال الضحاك في كتاب النقاش: هذه الآية تتضمن خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله تعالى عنهم لأنهم أهل الإيمان وعمل الصالحات، وقد قال رسول الله ﷺ: «الخلافة بعدي ثلاثون سنة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصحيح في الآية أنها في استخلاف الجمهور.

والسلام في قوله تعالى: ﴿يَسْتَنْفِثُهَا﴾ لام القسم. وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿وَأَلْيَدُهَا﴾ بفتح الباء وشد الدال. وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية أبي بكر - والحسن، وابن محيصن بسكون الباء وتخفيف الدال.

وجاء في معنى تبديل خوفهم بالأمن أن رسول الله ﷺ لما قال أصحابه: أما يأتي علينا يوم نأمن فيه ونضع السلاح؟ قال رسول الله ﷺ: «لا تغربون إلا قليلاً حتى يجلس الرجل منكم في الملأ العظيم محتبياً ليس فيه حديدة».

قوله: ﴿يَعْبُدُونِي﴾ فعل مستأنف، أي هم يعبدونني، وقوله: ﴿وَنَ كَرَّ﴾ يريد: كفر هذه النعم إذا وقعت. ويكون الفسق - على هذا - غير المُخْرَجِ عن الجِلَّةِ، قال بعض الناس في كتاب الطبري: ظهر ذلك في قَتْلَةِ عثمان رضي الله عنه، ويحتمل أن يريد الكفر والفسق المُخْرَجِينَ عن الجِلَّةِ، وهو ظاهر قول حذيفة بن اليمان، فإنه قال: كان على عهد النبي ﷺ نفاق وقد ذهب ولم يبق إلا كفر بعد إيمان.

ولمَّا قَدَّمَ تعالى عَمَلَ الصالحاتِ بَيْنَهَا في هذه الآية، فَتَصَّ على عَظَمِهَا وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وَعَمَّ بطاعة الرسول لأنها عامة لجميع الطاعات. ﴿وَلَمَلَكْتُمْ﴾ معناه: في حقكم ومعتقدكم.

ثم أنحى القول على الكفرة بأن نَبَهَ على أنهم ليسوا بِمُفْلِحِينَ من عذاب الله تعالى. وقرأ جمهور السبعة: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ﴾ بالتاء على المخاطبة للنبي ﷺ، وقرأها الحسن بن أبي الحسن بفتح السين، وقرأ حمزة، وابن عامر: ﴿لَا يَحْسَبَنَّ﴾ بالياء، قال أبو علي: وذلك يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون التقدير: لا يحسين محمد، والآخر أن يسند الفعل إلى الذين كفروا والمفعول أنفسهم، وَأَعْجَزَ الرجلُ إذا ذهب في الأرض فلم يُقَدِّرَ عليه، ثم أخبر بأن ما واهم النار، وأنها بسن الخاتمة والمصير.

﴿٥٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ يُراد به الرجال

خاصةً، وقال أبو عبد الرحمن السُّلَمِيُّ: يرادُ به النساءُ خاصةً، وسبيل الرجال أن يستأذنوا في كل وقت، وحكى الزهراوي عن ابن عمر رضي الله عنهما نحوه، وقيل: الرجال والنساء كلُّهم مرادٌ، ورَجَّحَهُ الطبري. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَلْحَلُمُّ﴾ بضم اللام، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿أَلْحُلْمُ﴾ بسكون اللام، وكان أبو عمرو يستحسنها.

وهذه الآية مُخَكِّمَةٌ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: تركها الناس، وكذلك تَرَكَ النَّاسُ قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَىكُمْ﴾، فأبى الناس إلا أن الأكرم هو الأنسب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه العبارة بترك الناس إغلاظاً وزجرًا، إذ لم تُلتزم حق الالتزام، وإلّا فما قال الله تعالى هو المعتقد في ذلك عند العلماء المكتوب في تواليفهم، أعني أن الكرم التقوى، وأما أمر الاستئذان فإن تغيير المباني والحُجُبِ أعنت عن كثير من الاستئذان، وصيرته على حد آخر.

وأين أبواب المنازل اليوم من مواضع النوم؟ وقد ذكر المهدي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: كان العمل بهذه الآية واجباً إذ كانوا لا غلق ولا أبواب، ولو عادت الحال لعاد الوجوب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهي الآن واجبة في كثير من مساكن المسلمين في البوادي والصحارى ونحوها.

ومعنى الآية عند جماعة من العلماء

أن الله تعالى أدب عباده بأن يكون العبيد - إذ لا بال لهم - والأطفال الذين لم يبلغوا الحُلُمَ إلا أنهم عقلوا معاني الكشفة ونحوها، يستأذنون على أهلهم في هذه الأوقات الثلاثة، وهي الأوقات التي تقتضي عادةً الناس الانكشاف فيها وملازمة التعري في المضاجع، وهي: عند الصباح لأن الناس في ذلك الوقت عراة في مضاجعهم، وقد ينكشف النائم، فمن مشى ودخل وخرج فحُكِمَ أن يستأذن لثلا يطلع على ما يجب ستره، وكذلك في وقت القائلة - وهي الظهيرة - لأن النهار يظهر فيها إذا علأ واشتد حره، وبعد العشاء لأنه وقت التعري للنوم والتبديل للفرش، وأما في غير هذه الأوقات التي هي عورة، أي ذات انكشاف، فالعرف من الناس التَّحْفُظُ والتَّحْرُزُ، فلا حرج في دخول هذه الصنيفة بغير إذن؛ إذ هم طوائفون يمشون ويجيئون ولا يجد الناس بُدْأً من ذلك. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿طَوَائِفِينَ﴾ بالياء، وقال الحسن: إذا أبأت الرجلُ خادمه معه فلا استئذان عليه ولا في هذه الأوقات الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ بدلٌ من قوله: ﴿طَوَائِفُونَ﴾، و﴿تَلَكَّ مَرِيًّا﴾ نصب على الظرف لأنهم لم يُؤْمَرُوا بالاستئذان ثلاثاً، إنما أمرُوا بالاستئذان في ثلاثة مواطن، فالظرفية في ﴿تَلَكَّ﴾ بيَّنة.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿تَلَكَّ عَوْرَتِي﴾ برفع ﴿تَلَكَّ﴾، وهذا على الابتداء. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿ثَلَاثَ

وإذ يبلغ الأطفال منكم الحُرَّةَ فَاسْتَشِدُّوا كَمَا اسْتَشَدَّنَ
 الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقُرْعَةُ مِنَ السَّكَاةِ الَّتِي لَا يَرْتَجُونَ
 بِهَا كَافًا فَلَيْسَ عَلَيْهَا جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ نِيَابَهُنَّ
 عَرَضًا رِحْلَتٍ رِيحَةً وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُمْ وَاللَّهُ
 سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ
 حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَنفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا
 مِنْ بُرُوتِكُمْ أَوْ بُرُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُرُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ
 أَوْ بُرُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُرُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُرُوتِ
 أُمَّتِكُمْ أَوْ بُرُوتِ عَنَتِكُمْ أَوْ بُرُوتِ أَخْوَالِكُمْ
 أَوْ بُرُوتِ حَلَائِكُمْ أَوْ مِمَّا مَلَكَتْكُمْ مِمَّا فَتَنَاهُ
 أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا
 جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُرُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَيْهَا أُنْفُسِكُمْ
 تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يُبَدِّلُكُمُوهَا طَبِيعَةً كَذَلِكَ
 بَيَّنَّ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾

٣٥٨

به التبرج وإبداء الزينة،
 فَرُبَّ عَجُوزٍ يَبْدُو مِنْهَا
 الحرص على أن يظهر لها
 جمال ونحو هذا مما هو
 أقيح الأشياء وأبعده عن
 الحق.

والتَّبْرُجُ طلب البُدُو
 والظهور، ومنه: (بروج
 مشبدة)، وأصل ذلك
 بروج السماء والأسوار،
 والذي أبيع وضعه لهذه
 الصنيفة الجلباب الذي
 فوق الخمار والرداء، قاله
 ابن مسعود، وابن جبير،
 وغيرهما.

ثم ذكر تعالى أن تحفظ
 الجميع منهن واستعفاهن

عن وضع الثياب والتزامهن ما يلزمه
 الشباب من الستر، أفضل لهن
 وخَيْرٌ، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنْ
 يَتَعَفَّفْنَ﴾ بغير سين، ثم ذكر تعالى
 أنه سمع لما يقول كل قائل وقائلة،
 عليم بمقصد كل أحد في قوله، وفي
 هاتين الصفتين توعد وتحذير، والله
 الموفق للصواب برحمته.

﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في المعنى الذي
 رفع الله فيه الحرج عن الأصناف
 الثلاثة؛ فظاهر الآية وأمر الشريعة أن
 الحرج مرفوع عنهم في كل ما
 يضطرهم إليه العذر، وتقضي نيتهم
 الإتيان فيه بالأكمل، ويقضي العذر
 أن يقع منهم الأنقص، فالحرج
 مرفوع عنهم في هذا. فأما ما قال
 الناس في الحرج هنا، فقال ابن
 زيد: هو الحرج في الغزو، أي: لا

عَوْرَاتٍ﴾ بنصب ﴿ثَلَاثٍ﴾، وهذه
 على البدل من الظرف في قوله:
 ﴿كَلَّتْ مَرْتِي﴾، وهذا البدل إنما يصح
 معناه بتقدير: أوقات ثلاث عورات،
 فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه
 مقامه. و(عَوْرَات) جمع عورة، وبابه
 في الصحيح أن يجيء على ﴿فَعَلَاتٍ﴾
 بفتح العين، كجَفَّتْ وَجَفَّتَاتٍ ونحو
 ذلك، وسكنوا العين في المعتل
 كَبَيْضَةٍ وَبَيْضَاتٍ وَجَوَابَةٍ وَجَوَابَاتٍ
 ونحوه، لأن فتحه داغ إلى اعتلاله
 فلم يفتح لذلك.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى أن الأطفال أمروا بالاستئذان
 في الأوقات الثلاثة المذكورة، وأبيع
 لهم الأمر في غير ذلك من الأوقات،
 ثم أمر الله تعالى في هذه الآية أن
 يكونوا - إذا بلغوا الحلم - على حكم
 الرجال في الاستئذان في كل وقت،
 وهذا بيان من الله عز وجل.

و(القواعد) يريد النساء اللاتي قد
 أَشْتَنَّ وقعدن عن الولد، وإجذتهن
 قاعد، وقال ربيعة: هي هنا التي
 تُسْتَقْدَر من كبرها، قال غيره: وقد
 تقعد المرأة عن الولد وفيها مُسْتَمْتِع،
 فلما كان الغالب من النساء أن ذوات
 هذا السن لا مذهب للرجال فيهن
 أبيع لهن ما لم يُبَح لغيرهن، وأزيل
 عنهن كلفة التحفظ المتعب؛ إذ علة
 التحفظ مرتفعة فيهن. وقرأ ابن
 مسعود: ﴿أَنْ يَضَعْنَ مِنْ نِيَابِهِنَّ﴾،
 وهي قراءة أُبَيٍّ، وروي عن ابن
 مسعود أيضاً: ﴿مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾،
 والعرب تقول: «امرأة واضع» للتي
 كبرت فوضعت خمارها، ثم استثنى
 عليهن في وضع الثياب ألا يقصدن

حرج عليهم في تأخرهم، وقوله
 تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الْأَنفُسِكُمْ﴾ الآية
 معنى مقطوع من الأول.

وقالت فرقة: الآية كلها في معنى
 المطاعم، قالت: وكانت العرب
 ومن بالمدينة قبل المبعث تتجنب
 الأكل مع أهل الأعداء، فبعضهم
 كان يفعل ذلك تقديراً لجولان اليد
 من الأعمى، ولانسياط الجلسة من
 الأعرج، ولرائحة المريض وعلاته،
 وهي أخلاق جاهلية وكثير، فنزلت
 الآية مؤدية، وبعضهم كان يفعل ذلك
 تخرجاً من غير أهل الأعداء إذ هم
 مقصرون في الأكل عن درجة
 الأصحاء، لعدم الرؤية في الأعمى،
 وللعجز عن المزاحمة في الأعرج،
 ولضعف المريض، فنزلت الآية في
 إباحة الأكل معهم، وقال ابن عباس
 رضي الله عنهما في كتاب

الزهراوي: إن أهل هذه الأعذار تخرجوا في الأكل مع الناس لأجل عذره فنزلت الآية مبيحة لهم.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الآية من أولها إلى آخرها إنما نزلت بسبب أن الناس لما نزلت: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قالوا: لا مال أعز من الطعام، وتخرجوا من أن يأكل أحد مع هؤلاء فيغيبهم في الأكل فيقع في أكل المال بالباطل، وكذلك تخرجوا عن أكل طعام القرباب لذلك، فنزلت الآية مبيحة جميع هذه المطاعم، ومُيِنَّةٌ أن تلك إنما هي في التعدي والقمار وكل ما يأكله المرء من مال الغير والغير كاره، أو بصفة فاسدة ونحوه.

وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: قوله في الأصناف الثلاثة إنما نزل بسبب أن الناس كانوا إذا نهضوا إلى الغزو وخلقوا أهل العذر في منازلهم وأموالهم، فكان أهل العذر يتجنبون أكل مال الغائب، فنزلت الآية مبيحة لهم أكل الحاجة من طعام الغائب إذا كان الغائب قد بنى على ذلك.

وقيل: كان الرجل إذا ساق أهل العذر إلى بيته فلم يجد فيه شيئاً ذهب بهم إلى بيت قرابته، فتخرج أهل الأعذار من ذلك فنزلت الآية.

وذكر الله تعالى بيوت القرباب وسقط منها بيوت الأبناء، فقال المفسرون: ذلك داخل في قوله تعالى: ﴿مِنَ بِيُوتِكُمْ﴾؛ لأن بيت ابن الرجل بيته. وقرأ طلحة بن مصرف ﴿إِمَهَاتِكُمْ﴾ بكسر الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ

مَنَافِعُهُ﴾ يعني ما حُزِمَ وصار في قبضتكم، فمظلمه ما ملكه الرجل في بيته وتحت غلقه، وذلك هو تأويل الضحك ومجاهد، وعند جمهور المفسرين يدخل في الآية الوكلاء والعبيد والأجراء بالمعروف. وقرأ جمهور الناس: ﴿مَلَكَتْكُمْ﴾ بفتح الميم واللام، وقرأ سعيد بن جبيرة: ﴿مَلَكَتْكُمْ﴾ بضم الميم وكسر اللام وشدها، وقرأ جمهور الناس: ﴿مَنَافِعُهُ﴾، وقرأ سعيد بن جبيرة: ﴿مَفَاتِيحُهُ﴾ بياء بين التاء والتاء، الأولى على جمع مُفْتَحٍ، والثانية على جمع مِفْتَاحٍ، وقرأ قتادة: ﴿مَلَكَتْكُمْ مِفْتَاحَهُ﴾.

وقرن تعالى في هذه الآية الصديق بالقرابة المحضة الوكيدة؛ لأن قرب المودة لصيق، قال معمر: قلت لقتادة: ألا أشرب من هذا الحُب؟ فقال: أنت لي صديق فما هذا الاستئذان؟ قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب النقاش: الصديق أوكد من القرابة، ألا ترى في استغاثة الجهشميين: ﴿فَمَا لَنَا مِن شُعَيْبٍ﴾ ولا صديق حِمٍّ؟

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جِيعًا أَوْ أَشْتَاءًا﴾ ردٌ لمذهب جماعة من العرب كانت لا تأكل أفراداً البتة، قاله الطبري، ومن ذلك قول بعض الشعراء:

إِذَا مَا صَنَعَتِ الرَّزَادُ فَالْتَجَمِي لَهُ
أَكِيلًا فَبِأَنِّي لَسْتُ أَكُلُهُ وَخِدي

وكان بعض العرب إذا كان له ضيف لا يأكل إلا أن يأكل مع ضيفه، فنزلت هذه الآية مُيِنَّةٌ سُنَّةُ الأكل، ومُذْهِبَةٌ كل ما خالفها من

سنة العرب، ومبيحة من أكل المنفرد ما كان عند العرب محرماً، نَحَتْ به نحو كرم الخلق فأفرطت في إزاهه، وإن إحضار الأكيل لحسن ولكن بالأحرى يحرم الانفراد.

وقال بعض أهل العلم: هذه الآية منسوخة بقوله ﷺ: ﴿إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ عَلَيْكُمْ حَرَامٌ﴾، ويقوله تعالى: ﴿لَا تَدْعُلُوا بِيُوتًا غَيْرَ بِيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا﴾ الآية، ويقوله ﷺ من حديث ابن عمر رضي الله عنه: ﴿لَا يَخْلُبَنَّ أَحَدٌ مَاشِيَةً أَحَدٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ الحديث.

ثم ختم الله تعالى الآية بِتَبْيِينِهِ سُنَّةَ السلام في البيوت، واختلف الناس في أي البيوت أراد؛ فقال إبراهيم التَّخَمِي: أراد المساجد، والمعنى: سَلِّمُوا عَلَى مَنْ فِيهَا مِنْ صَنَفِكُمْ، فهذا كما قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، فإن لم يكن في المساجد أحد فالسلام أن يقول المرء: السلام على رسول الله، وقيل: يقول: السلام عليكم، يريد الملائكة، ثم يقول: السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين. وقوله تعالى: ﴿نَحِيَّةٌ﴾ مصدر، ووصفها بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب مودة المسلم عليه، والكاف من قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ كاف تشبيه، و(ذَلِكَ) إشارة إلى هذه السُنَن، أي: كهذا الذي وصف يطرد تبين الآيات لعلكم تعقلونها وتعملون بها.

وقال بعض الناس في هذه الآية: إنها منسوخة بآية الاستئذان الذي أمر به الناس، وهي المتقدمة في

سورة النور

سورة النور

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوا مِنَ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَتُومَنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَأْذِنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذِنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفَرَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَسْتَلُونَ مِنْكُمْ لَوْ آذَانًا فَاحْذَرُوا الَّذِينَ يَحْلِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢﴾ الْآيَاتُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْشَأَ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنْفِثُهُمْ فِي مَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٣﴾

سورة الفرقان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مَلَأُكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَهُ يَكُونُ لَكُمْ شُرَكَاءُ فِي الْمَلِكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدْ يَنْقَرِبُونَ ﴿٢﴾

٢٥٩

والزهراوي: الجمعة من الأمر الجامع، وإمام الصلاة ينبغي أن يستأذن إذا قدمه إمام الإمرة إذا كان يرى المستأذن، ومشى بعض الناس دهرًا على استئذان إمام الصلاة، وروي أن هرم بن حبان كان يخطب، فقام رجل فوضع يده على أنفه، وأشار إلى هرم بالاستئذان فأذن له، فلما قضيت الصلاة كشف عن أمره أنه إنما ذهب لغير ضرورة، فقال هرم: اللهم أخرج رجال السوء لزمان السوء.

وظاهر الآية إنما يقتضي أن يستأذن أمير الإمرة الذي هو في مقعد النبوة؛ فإنه ربما كان له رأي في حبس ذلك الرجل لأمر من أمور الدين، فأما إمام الصلاة فقط فليس ذلك إليه؛ لأنه وكيل على جزء من أجزاء الدين للذي هو في مقعد النبوة.

ثم أمر تبارك وتعالى نبيه ﷺ أن يأذن لمن عرف منه صحة العذر وهم الذين يشاء.

وروي أن هذه الآية نزلت في وقت حفر رسول الله ﷺ خندق المدينة، وذلك أن بعض المؤمنين كان يستأذن لضرورة، وكان المنافقون يذهبون دون استئذان، فأخرج الله تعالى الذين لا يستأذنون عن صنيفة المؤمنين، وأمر النبي ﷺ أن يأذن للمؤمن الذي لا تدعوه ضرورة إلى حبسه، وهو الذي يشاء، ثم أمره

السورة، فإذا كان الإذن محجوراً فالطعام أحرى، وكذلك فرضت فرقة نسخاً بينها وبين قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والنسخ لا يتصور في شيء من هذه الآيات، بل هي كلها محكمة، أما قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ ففي التعدي والخذع والغرر واللهو والقمار ونحوه، وأما هذه الآية ففي إباحة طعام هذه الأصناف التي يسرها استحابة طعامها على هذه الصفة، وأما آية الإذن فعلة إيجاب الاستئذان خوف الكشف، فإذا استأذن الرجل خوف الكشفة ودخل المنزل بالوجه المباح صح له بعد ذلك أكل الطعام بهذه الإباحة، وليس يكون في الآيات نسخ، فتأمل.

﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية للمحصر، اقتضى ذلك المعنى؛ لأنه لا يتم إيماناً إلا بأن يؤمن المرء بالله ورسوله، وبأن يكون من الرسول سامعاً غير معنت في أن يكون الرسول ﷺ يريد أمراً فيريد هو إفساده بزواله في وقت الجمع ونحو ذلك.

والأمر الجامع) يراد به ما للإمام حاجة إلى جمع الناس فيه لإذاعة مصلحة، فأدب الإسلام اللازم في ذلك - إذا كان الأمر حاضراً - ألا يذهب أحد لعذر إلا بإذنه، فإذا ذهب بإذن ارتفع عنه الظن السيء، والإمام الذي يرتقب إذنه في هذه الآية هو إمام الإمرة. وقال مكحول،

بالاستغفار لصنفي المؤمنين، من أذن له ومن لم يؤذن له، وفي ذلك تأنيس للمؤمنين ورافة بهم.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية مخاطبة لجميع معاصري رسول الله ﷺ، وأمرهم الله تعالى ألا يجعلوا مخاطبة رسول الله ﷺ في النداء كمخاطبة بعضهم لبعض، فإن سيرتهم كانت التداعي بالأسماء، وعلى غاية البداوة وقلة الاهتمام، فأمرهم الله تعالى في هذه الآية وفي غيرها أن يدعوا رسول الله ﷺ بأشرف أسمائه، وذلك هو مقتضى التوقير والتعزير، فالمبتغى في الدعاء أن يقول: يا رسول الله، ويكون ذلك بتوقير وخفض صوت وبر، وألا يجري ذلك على عادتهم بعضهم لبعض، قاله مجاهد وغيره.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:

تفسير سورة الفرقان

هذه السورة مكية في قول الجمهور، وقال الضحاك: هي مدنية، وفيها آيات مكية، قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ الآيات.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿تَبَارَكَ﴾ وزنه تفاعل، وهو فعل مضارع (تبارك)، من البركة، و (تبارك) فاعل من واحد، ومعناه: زاد، و ﴿تَبَارَكَ﴾ فعل مختص بالله تعالى، لم يستعمل في غيره، ولذلك لم يصرف منه مستقبل، ولا اسم فاعل، وهو صفة فعل، أي: كثرت بركاته، ومن جُمِلَتْهَا إنزال كتابه الذي هو الفرقان بين الحق والباطل، وصدر هذه الآية إنما هو رد على مقالات كانت لقريش، فمن جُمِلَتْهَا قولهم: «إن القرآن افتراه محمد، وإنه ليس من عند الله»، فهو رد على هذه المقالات.

وقرأ الجمهور: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾ وقرأ عبدالله بن الزبير: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾، والضمير في قوله: ﴿لِيَكُونَ﴾ يحتمل أن يكون لمحمد ﷺ، وهو عبده المذكور، وهذا تأويل ابن زيد، ويحتمل أن يكون للقرآن، وأما على قراءة ابن الزبير فهو للقرآن، لا يحتمل غير ذلك إلا بكزه، وقوله تعالى: ﴿لِلْمَلَكُوتِ﴾ عام في كل إنسي وجني، عاصره أو جاء بعده، وهذا مؤيد من غير ما موضع من الحديث المتواتر وظاهر الآيات،

في هذا الموضع: الاختيار والرزايا في الدنيا، أو بالعذاب الأليم في الآخرة، ولا بد للمناقين من أحد هذين.

وقوله تعالى: ﴿آلَآءَ﴾ استفتح الكلام وأخبر أن الله تعالى له ما في السموات والأرض ملكاً وخلقاً، ثم أخبرهم أنه قد علم ما أهل السماء والأرض عليه، وخص بالذكر منهم المخاطبين لأن ذلك موضع الحجة عليهم، وهم به أعمى.

وقوله: ﴿يَوْمَ يُرْجَمُونَ﴾

يجوز أن يكون معمولاً لقوله: ﴿يَسْأَلُونَ﴾، ويجوز أن يكون التقدير: والعلم الظاهر لكم - أو نحو هذا - يؤم، فيكون النصب على الظرف. وقرأ الجمهور: ﴿يُرْجَمُونَ﴾ بضم الياء وفتح الجيم، وقرأ يحيى بن يغمر وابن أبي إسحاق، وأبو عمرو: ﴿يُرْجَمُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الجيم.

وقال عقبه بن عامر الجهني: رأيت النبي ﷺ يقرأ هذه الآية خاتمة الثور فقال: ﴿وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾، وباقي الآية بين.

كامل تفسير سورة النور والحمد لله رب العالمين، وبذلك ينتهي الجزء العاشر بفضل الله وعونه، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وَاتَّخِذُوا مِن دُونِهِ ءَالِهَةً لَّا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِن هَذَا إِلَّا فَنَّاكُ أَقْرَبُهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٢﴾ وَقَالُوا اسْطِطِئْنَا أَن نَّكْتَنِبَ بِهَا فَيُحْمَلْ عَلَيْنَا مَثَلَهُ كَمَا كُنَّا نَعْمَلُ ﴿٣﴾ قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا رَّحِيمًا ﴿٤﴾ وَقَالُوا مَا هَذَا الرَّسُولُ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرِبُ فِي الْأَنْسَابِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهِ إِلَهُكَ لَكُنْ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١١﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢١﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢٤﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢٧﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ بِأَنَّيَءٍ مِّن رَّبِّي فَآتُونِي سُبْحَانَ إِلَهِكُمْ إِلَهِ إِلَهِكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّشْرِكِينَ ﴿٣٠﴾

المعنى في هذه الآية إنما هو: لا تحسبوا دعاء الرسول عليكم كدعاء بعضكم على بعض، أي: دعاءه عليكم مجاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظ الآية يدفع هذا المعنى، والأول أصح.

ثم أخبرهم الله تعالى أن المتسللين منهم لو إذا قد علمهم، واللواذ: الرزغان والمخالفة، وهو مصدر «لاؤذ»، وليس بمصدر «لاؤذ»؛ لأنه كان يقال له: «ليناؤذ»، ذكره الزجاج وغيره.

ثم أمرهم بالحذر من عذاب الله تعالى ونقمته إذا خالفوا عن أمره، وقوله تعالى: ﴿يَخْلُقُونَ عَن آسْرِهِ﴾ معناه: يقع خلافهم بعد أمره، وهذا كما تقول: كان المطر عن ريح، «وعن» هي لما عدا الشيء. (والفتنة)

و«النذير»: المَحْذَرُ من الشَّرِّ، والرسول من عند الله نذير، وقد يكون النذير ليس برسول، كما روي في ذي القرنين، وكما ورد في رُسُل رسول الله ﷺ إلى الجن، فإِنَّهم نذر وليسوا برسل.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي لَمْ يَلِدْكَ﴾ السَّكْوَاتُ وَالْأَرْضُ ﴿الآية، هي من الرُّدِّ على قريش في قولهم: «إنَّ الله شريكاً»، وفي قولهم: «أَتَّخِذُ الْبَنَاتِ»، وفي قولهم في التَّبْيَةِ: «إِلَّا شريك هو لك»، وقوله تعالى: ﴿وَمَخْلُوقٌ كُلُّ شَيْءٍ﴾ عامٌ في كل مخلوق، وتقديرُ الأشياءِ هو حُدُها بِالْأَمْكِنَةِ وَالْأَزْمَانِ وَالْمَقَادِيرِ وَالْمَصْلِحَةِ وَالْإِتْقَانِ.

ثم عقب ذكر هذه الصفات التي هي للألوهية بالظن على قريش في اتخاذهم آلهة ليست لهم هذه الصفات، فالعقل يعطي أنهم ليسوا بآلهة. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَخْلُقُونَ﴾ يحتمل أن يريد: يخلقهم البشر بالنحت، وهذا التأويل أشد إبداءً لخشاسة الأصنام، وخلق البشر يجوز، ولكن العرب تستعمله، ومنه قول زهير:

وَلَأَنْتَ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبِعَدِ
ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ نَمَّ لَا يَفْرِي
وهذا من: خَلَقْتَ الْجِلْدَ، إِذَا عَمَلْتَ فِيهِ رَسُوماً يَقْطَعُ عَلَيْهَا، فَالْقَزِيُّ هُوَ أَنْ يَقْطَعُ عَلَى تِلْكَ الرَّسُومِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مَوْتًا وَلَا حَيَاةً﴾ يريد: إِمَاتَةً وَلَا إِحْيَاءَ، وَالتَّشْوِيرُ: بَعَثَ النَّاسَ مِنَ الْقُبُورِ.

(١) - (٢) تفسير قوله عز وجل: المراد بـ ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قريش،

وذلك أن بعضهم قالوا: هذا كذب افتراه محمد، واختلف الناس في المُعَيَّنِينَ لمحمد ﷺ - على زَعْم قريش - فقال مجاهد: أشاروا إلى قوم من اليهود، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشاروا إلى عبيد كانوا للعرب من الفرس، أحدهم أبو فُكَيْهَةَ مولى الحضرميين، وجبر، ويسار، وعدَّاس، وغيرهم. ثم أخبر الله تعالى أنهم ما جاءوا إلا إثمًا وزورًا، أي: ما قالوا إلا بهتانًا وزورًا، و«الزُّور»: تحسين الباطل، هذا عرفه، وأصله التحسين مطلقًا، ومنه قول عمر رضي الله عنه: «فَأَرَدْتُ أَنْ أَقْدِمَ بَيْنَ يَدَيِ أَبِي بَكْرٍ مَقْدَمَةً كُنْتُ زَوَّرْتُهَا».

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا أَتَطْبِئُرُ﴾ أَلَّذِينَ ﴿، قال ابن عباس: يعني بذلك قول النضر بن الحارث، وذلك أنهم قالوا: كلُّ ما في القرآن من ذكر أساطير الأولين فإنما هو بسبب النضر بن الحارث المشهور في ذلك، ثم رَمَوْا محمداً ﷺ بأنه اكَتَبَهَا، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿اكَتَبَهَا﴾ بضم التاء الأولى وكسر الثانية، على معنى: اكَتَبَتْ لَهُ، ذكرها أبو الفتح، وقرأ طلحة: ﴿تَتَلَّى﴾ بتاء بدل الميم. ثم أمره الله تعالى أن يقول: الذي أنزله هو الله الذي يعلم سرَّ جميع الأشياء التي في السموات والأرض، ثم أعلم أنه غفور رحيم لِيُرْجِي كل سامع في عفوه ورحمته مع التوبة والإنابة، والمعنى أن الله غفور رحيم في إيقانه على أهل هذه المقالات والكفر لعلمهم أن يؤمنوا.

(٣) - (٤) تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله: ﴿وَقَالُوا﴾ لقريش، وذلك أنهم كان لهم مع رسول الله ﷺ مجلس مشهود، ذكره ابن إسحق في السير، مضمته أن سادتهم - عتبة وغيره - اجتمعوا معه، فقالوا: يا محمد، إن كنت تحب الرياسة وَيُتَّكَ عَلَيْنَا، وَإِنْ كُنْتَ تُحِبُّ الْمَالَ جَمَعْنَا لَكَ مِنْ أَمْوَالِنَا... فلما أتى رسول الله ﷺ رجعوا في باب الاحتجاج عليه، وقالوا له: ما بالك - وأنت رسول من الله - تأكل الطعام، وتقف بالأسواق تريد التماس الرزق؟ أي: من كان رسول الله مستغن عن جميع ذلك، ثم قالوا له: سل ربك أن ينزل معك مَلَكًا يُنْذِرُ مَعَكَ، أَوْ يُلْقَى إِلَيْكَ كَنْزٌ تُنْفِقُ مِنْهُ، أَوْ يَرُدُّ لَكَ جِبَالَ مَكَّةَ ذَهَبًا، أَوْ تُزَالُ الْجِبَالُ وَيَكُونُ مَكَانَهَا جَنَاتٌ تُطْرَدُ فِيهَا الْمِيَاهُ، وَأَشَاعُوا هَذِهِ الْمَحَاجَّةَ، فنزلت هذه الآية.

وكتبت اللام مفردة من قولهم: ﴿هَذَا هَذَا﴾ إِثْمًا لِأَنَّ مُنْطَلِقَ الْمُصْحَفِ قَطَعَ لَفْظَهُ فَاتَّبَعَهُ الْكَاتِبُ؛ وَإِثْمًا لِأَنَّهَا رَأَوْا أَنَّ حَرْفَ الْجَزْرِ بِإِنْتِهَاءِ الْإِتِّصَالِ، نَحْوِ مِزْنٍ، وَفِي، وَعِزْنٍ، وَعَلَى. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم، وابن عامر: ﴿يَأْكُلُ يَنْهَكَ﴾ بِالْيَاءِ، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿تَأْكُلُ﴾ بِالتَّوْنِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ ابْنِ ثَابِتٍ، وَابْنِ مُصْرَفٍ، وَسُلَيْمَانَ بْنِ مَهْرَانَ. ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْهُمْ - وَهُمْ الظَّالِمُونَ الَّذِينَ أَشِيرَ إِلَيْهِمْ - أَنَّهُمْ قَالُوا - حِينَ يَتَّبِعُونَ مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ -: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا

وُسُمِّيَ ما كان بالجدران قصراً؛ لأنه
قُصِرَ على الداخلين.

المعنى: ليس بهم في تكذيبك
مشيئك في الأسواق، بل إنهم كفره
لا يفهمون الحق، فقوله: ﴿بَلْ تَرَكُ
لِنَفْسِ اللَّفْظِ الْمُتَقَدِّمِ لا لمعناه، على
ما تقتضيه «بَلْ» في مشهور معناها،
﴿وَأَعْتَدْنَا﴾: جَعَلْنَا مَعْدًا، والعَتَادُ:
مَا يُعَدُّ مِنَ الْأَشْيَاءِ، وَالسَّعِيرُ: طَبَقٌ
من أطباق جهنم.

وقوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ﴾ يريد:
جهنم؛ إذ اقتضاهما لفظ «السعير»،
ولفظ [رَأَتْهُمْ] يحتمل الحقيقة،
ويحتمل المجاز على معنى: صارت
منهم قدر ما يرى الرائي من البعد،
إلا أنه ورد حديث يقتضي الحقيقة
في هذا، ذكره الطبري، وهو أن
رسول الله ﷺ قال: «من كذب علي
متعمداً فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعِدَهُ مِنَ النَّارِ بَيْنَ
عَيْنِي جَهَنَّمَ»، فقيل: يا رسول الله،
أولجهم عينان؟ فقال: «اقْرَأُوا إِنْ
شِئْتُمْ: ﴿إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾»،
وروي في بعض الآثار أن البعد الذي
تراهم منه مسيرة سنة، وروي أنه
مسيرة خمسمائة سنة.

وقوله تعالى: ﴿يَسْمَعُوا لَهَا تَهْتَطُّ
وَوَقِيرًا﴾ لفظ فيه تجوز، وذلك أن
التَّهْتَطُّ لا يسمع، وإنما المسموع
أصوات دالة على التَّهْتَطُّ، وهي ولا
شك احتدامات في النار كالذي يسمع
في نار الدنيا، فَنَسَبَتْ هَذَا الْمَسْمُوعَ
الذي في الدنيا من ذلك نَسَبَةً
الإحراق من الإحراق، وهي سبعون
درجة كما ورد في الصحيح.
والزَّفِيرُ: صوتٌ ممدود كصوت

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: لأن التأويل
الثاني يوهم أن الجنات
والقصور التي في
هذه الآية - وهو تأويل
الشعبي وغيره - يزده قوله
بعد ذلك: ﴿بَلْ كَذَّبُوا
بِالسَّاعَةِ﴾، والكل
محتمل.

وقرأ عاصم في رواية
أبي بكرٍ وحفص - ونافع،
وأبو عمرو، وحمزة،
والكسائي: ﴿وَتَجَمَّلُ﴾
بالجزم، على العطف على
موضع الجواب في قوله:
﴿جَمَلُ﴾؛ لأن التقدير:

إن يشأ يجعل، وقرأ أبو
بكر عن عاصم أيضاً؛ وابن كثير،
وابن عامر: ﴿وَتَجَمَّلُ﴾ بالرفع
والاستثناف، وهي قراءة مجاهد،
ووجهه العطف على المعنى في
قوله: ﴿جَمَلُ﴾؛ لأن جواب الشرط
هو موضع استثناف، ألا ترى أن
الجمل من الابتداء والخبر قد تقع
موقع جواب الشرط؟ وقرأ عبدالله بن
موسى، وطلحة بن سليمان:
﴿وَتَجَمَّلُ﴾ بالنصب، وهي على
تقدير (أن) في صدر الكلام، قال أبو
الفتح: هي على جواب الجزاء،
قالوا وهي قراءة ضعيفة، وأدغم
الأعرج ﴿جَمَلُ لَكَ﴾ و﴿وَتَجَمَّلُ لَكَ﴾
وروي ذلك عن ابن محيصن.

و«القصور»: البيوت المبنية
الجدران، قاله مجاهد وغيره،
فكانت العرب تُسَمِّي ما كان من
الشعر والصوف والقصب بيتاً،

إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ يَسْمَعُوا لَهَا تَهْتَطُّ وَوَقِيرًا ﴿١١﴾ وَإِذَا
الْقَوْمَانِهَا مَكَانًا صَافِحًا مَقْرَبَيْنِ دَعَا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٢﴾
لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٣﴾ قُلْ
أَذَلِكُمْ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخَالِدِينَ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ
لَهُمْ حِزَابٌ وَمَصِيرًا ﴿١٤﴾ لَمْ يُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْبُرُودِ
كَانَتْ عَلَى رَيْبِكَ وَعَدَأَ تَشْوِلًا ﴿١٥﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ وَمَا
يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلُوبُهُمْ أَسْتَأْذَنُكُمْ عَلَيْكُمْ
هُتُوًا أَمْ هُمْ صَبَلُوا السَّبِيلِ ﴿١٦﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ
يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ
وَأَبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٧﴾ فَقَدْ
كَذَّبْتُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَأَنَا سَتِيحٌ مَبْرُوتٌ صَفْوًا وَلَا
نَصْرًا وَمَنْ يظْلِمِ مِنْكُمْ نُدْفَعُهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٨﴾
وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا أَنْهُمْ لِيَا كُفُوتُ
الطَّعَامِ وَيَحْشُرُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَمَلْنَا بَعْضَكُمْ
لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَنْتُمْ مَبْرُوتُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿١٩﴾

٣٦١

مَسْحُورًا﴾، يجوز أن يكون من السخر
وهي الرثة، فكانهم ذهبوا إلى
تحقيره، أي: رجل منكم في
الخلقة، ذكره مكبي وغيره. ثم
نبهه الله تعالى مسلماً عن مقالتهم
فقال: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ
فَضَلُّوا﴾، أي: أخطئوا الطريق فلا
يجدون سبيلاً لهداية، ولا يطبقونه
لالتباسهم بضده من الضلال.

وقوله تعالى: ﴿يَبَارَكَ الَّذِي﴾ الآية
رجوع بأمور محمد ﷺ إلى الله،
أي: هذه جهتك، لا هؤلاء الضالون
في أمرك، والإشارة بـ «ذَلِكَ» - قال
مجاهد: هي إلى ما ذكره في
التفاسير من الكنز والجنة في الدنيا،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
هي إلى أكله الطعام ومشيه في
الأسواق، قال الطبري: والأول
أظهر.

و ﴿الْمُنْتَوُونَ﴾ في هذه الآية من أتقى الشرك، فإنه داخل في الوعد، ثم تبقى المنازل في الوعد بحسب تقوى المعاصي.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَا مَسْئُولًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما - وهو قول ابن عباس، وابن زيد - أنه مسئول لأن المؤمنين سألوه أو يسألونه، وزوي أن الملائكة سألت الله تعالى تنعيم المتقين فوعدهم بذلك، قال محمد بن كعب: هو قول الملائكة، وتَسَلَّا ﴿وَأَدْبَغَتْ جَنَّتِ عَدْنِ الْبَنِي وَعَدَّتْهُمْ﴾، والمعنى الثاني ذكره الطبري عن بعض أهل العربية: أن يريد وعداً واجباً قد حتمه، فهو لذلك مُعَدَّ أَنْ يُسْأَلَ وَيُقْتَضَى، وليس يتضمن هذا التأويل أن أحداً سأل الوعد المذكور.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: واذكر يوم، والضمير في ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ للكفار، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ يريد به كل شيء عبد من دون الله، فغلب العبارة عما لا يعقل من الأوثان لأنها كانت الأغلب وقت المخاطبة.

وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية حفص -، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ ﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء فيهما، وقرأ ابن عامر بالنون فيهما، وهي قراءة الحسن، وطلحة، وعاصم أيضاً، وقرأ نافع: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بالنون ﴿فَيَقُولُ﴾ بالياء، وفي قراءة عبدالله: ﴿وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِنَا﴾، وقرأ الأعرج: ﴿نَحْشُرُهُمْ﴾ بكسر الشين، وهي قليلة في الاستعمال قوية في القياس؛ لأن (يَفْعِلُ) بكسر

الويل، وقال الضحاك: هو الهلاك، ومنه قول ابن الزبيري:

إِذْ أَجَارِي الشَّيْطَانَ فِي سَنَنِ النَّعْدِ
يِي، وَمَنْ مَالٌ مَسِيلَةٌ مُشْبُورُ
وقوله: ﴿لَا نَدْعُوا﴾ إلى آخر الآية معناه: يقال لهم على معنى التوبيخ والإعلام بأنهم مخلدون لا تقتصروا على حُزْنٍ واحد، بل احزنوا كثيراً؛ لأنكم أهل لذلك.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: قل يا محمد لهؤلاء الكفرة الذين هم بسبيل مصير هذه الأحوال من النار: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْآخِلِيِّ؟﴾ وذلك على جهة التوقيف والتوبيخ، ومن حيث كان الكلام استفهاماً جاز فيه مجيء لفظة التفضيل بين الجنة والنار في الخير؛ لأن الموقوف جائز له أن يُوقَفَ مُحَاوَرَهُ عَلَى مَا يَشَاءُ لِيَرَى هَلْ يَجِيههُ بِالصَّوَابِ أَوْ بِالخَطِإِ، وإنما يمنع سبويه وغيره من التفضيل بين شيئين لا اشتراك بينهما في المعنى الذي فيه تفضيل إذا كان الكلام خبراً؛ لأن فيه مخالفة، وأما إذا كان استفهاماً فذلك سائغ.

وقيل: الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الجنات التي تجري من تحتها الأنهار، وإلى القصور التي في قوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ سَأَلْتَهُ جَمَلٌ لَكَ﴾، وهذا على أن يكون الجعل في الدنيا، وقيل: الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى الكنز والجنة اللتين ذكر الكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأصح أن الإشارة بقوله: ﴿ذَلِكَ﴾ إلى النار كما شرحنا آنفاً.

الحمار المرجع في نهيته، قال الثَّقَاشُ: الرَّفِيرُ: صوت الحمار عند نهيته، وقال عبيد بن عمير: إن جهنم لتزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبي إلا خرّ ترعد فرائضه.

و «المكان الضيق» فيها هو مقصد إلى التضييق عليهم من المكان في النار، وذلك نوع من التعذيب، قال عليه الصلاة والسلام: «إِنَّهُمْ لِيُكْرَهُونَ فِي النَّارِ كَمَا يُكْرَهُ الْوَتْدُ فِي الْحَائِطِ»، أي: يدخلون كرهاً وعنفاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نُضِيقُ عَلَيْهِمْ كَمَا يُضِيقُ الرَّجْحُ عَلَى الرَّمْحِ، وقرأ ابن كثير، وعبيد عن أبي عمرو: ﴿ضَيْقًا﴾ بتخفيف الياء، والباقون يُشَدُّونَ.

ومعنى ﴿مُقَرَّبِينَ﴾ مربوطٌ بعضهم إلى بعض، وزوي أن ذلك بسلاسل من نار، والقربان من الشيران: ما قرنا بحبل للحرث، ومنه قول الشاعر:

إِذَا لَمْ يَزَلْ حَبْلُ الْقَرَيْنَيْنِ بِالثَّوَى
فَلَا يَبْدُ يَزْمَأْسِنُ . . .

وقرأ أبو شيبه المهري صاحب معاذ بن جبل رضي الله عنه: ﴿مُقَرَّبُونَ﴾ بالواو، وهي قراءة شاذة، والوجه قراءة الناس، وقوله: ﴿ثُبُورًا﴾ مصدر، وليس بالمدعو، ومفعول ﴿دُعُؤًا﴾ محذوف، تقديره: دعوا من لا يجيبهم، ونحو هذا من التقديرات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يكون الثُّبُورُ هو المدعو، كما يدعى الحسرة والويل، و«الثُّبُورُ» قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو

العين في المتعدي أيس من (يفعل) بضم العين.

وهذه الآية تتضمن الخبر على أن الله تعالى يوبخ الكفار في القيامة بأن موقف المعبودين على هذا المعنى؛ ليقع الجواب بالثبوت من الذنب فيقع الخزي على الكافرين.

واختلف الناس في الموقف المحجّب في هذه الآية - فقال جمهور المفسرين: هو كل من ظلم بأن عبد ممن يعقل كالملائكة وعزير وعيسى وغيرهم، وقال الضحاك، وعكرمة: الموقف المحجّب: الأصنام التي لا تعقل، يقدرها الله تعالى يومئذ على هذه المقالة، ويجيء خزي الكفرة لذلك أبلغ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَنْجِدَ﴾ بفتح النون، وذهبوا بالمعنى إلى أنه من قول من يعقل، وأن هذه الآية بمعنى التي في سورة سبأ: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جِئًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَكَةِ أَهْلُؤَلَاءِ إِنَّا كُنَّا كَأَوْا يَعْبُدُونَ ﴿١٧﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَرَبُّنَا مِنْ دُونِهِمْ ﴿١٨﴾ وكقول عيسى عليه السلام: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ﴾، و﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ - على هذه القراءة - في موضع المفعول به. وقرأ أبو جعفر، والحسن، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وأبو رجاء، ونصر بن علقمة، ومكحول، وزيد بن علي، وحفص بن حميد: ﴿تَنْجِدَ﴾ بضم النون، وتذهب هذه مذهب من يرى أن الموقف المحجّب الأوثان، ويضعف هذه القراءة دخول ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾، اعترض بذلك سعيد بن جبیر

وغيره، وقال أبو الفتح: ﴿مِنْ أَوْلِيَاءَ﴾ في موضع الحال، ودخلت زيادة لمكان النفي المتقدم، كما تقول: ما اتخذت زيدا من وكيل، وقرأ علقمة: «ما ينبغي» بسقوط [كَانَ] وثبوتها أمكن في المعنى؛ لأنهم أخبروا عن حال كانت في الدنيا، ووقت الإخبار لا عمل فيه.

وفسر هذا المَجِيبُ - بحسب الخلاف فيه - الوجهة في ضلال الكفار، كيف وقع؟ وأنه لما متعمهم الله تعالى بالنعم الدنيوية وأدّرها لهم ولأسلافهم الأحقاب الطويلة نسوا الذكر، أي: ما ذكر به الناس على السنة الأنبياء.

و﴿بُرُؤًا﴾ معناه: هلكى، والبوار: الهلاك، واختلف في لفظه - فقالت فرقة: هي مصدر يوصف به الجمع والواحد، ومنه قول ابن الزبيري:

يَا رَسُولَ الْمَلِيكِ إِنَّ لِسَانِي
رَاتِقٌ مَا قَتَقْتُ إِذْ أَنَا بُورُ

وقالت فرقة: هي جمع باير، وهو الذي قد فارقه الخير فحصل بذلك في حكم الهلاك، باشره الهلاك بغد أو لم يباشره، قال الحسن: البايُر: الذي لا خير فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾ الآية، خطاب من الله تبارك وتعالى بلا خلاف، فمن قال: «إن المَجِيبُ الأصنام» كان معنى هذه إخباره الكفار أن أصنامهم قد كذبهم، وفي هذا الإخبار خزي وتوبيخ، والفرقة التي قالت: «إن المَجِيبُ هو الملائكة، وعزير، وعيسى،

ونحوهم» اختلفت في المخاطب بهذه الآية، فقالت طائفة: المخاطب الكفار على جهة التوبيخ والتقريع، وقالت طائفة: المخاطب هؤلاء المعبدون، أعلمهم الله تعالى أن الكفار بأفعالهم القبيحة قد كذبوا بهذه المقالة، وزعموا أن هؤلاء هم الأولياء من دون الله تعالى، وقالت فرقة: خاطب الله تعالى المؤمنين من أمة محمد ﷺ، أي: قد كذبكم أيها المؤمنون الكفار فيما تقولون من التوحيد والشرع.

وقرأ ابن كثير، وأبو بكر عن عاصم، والناس: ﴿نَقُولُ﴾ بالياء من فوق ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ بالياء من تحت، ورجحها أبو حاتم، وقرأ أبو حية: ﴿يَقُولُونَ﴾ بالياء من تحت، ﴿فَمَا سَتَطِيعُونَ﴾ بالياء من فوق، وقال مجاهد: الضمير في ﴿يَسْتَطِيعُونَ﴾ هو للمشركين، قال الطبري: وفي مصحف ابن مسعود: ﴿فَمَا يَسْتَطِيعُونَ لَكَ صَرْفًا﴾، وفي قراءة أبي بن كعب: ﴿لَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَكُمْ﴾، قال أبو حاتم: في حرف عبدالله: ﴿لَكُمْ صَرْفًا﴾ على جمع الضمير.

و﴿صَرْفًا﴾ معناه: ردُّ التكذيب أو العذاب أو ما اقتضاه المعنى بحسب الخلاف المتقدم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَظْلِمِ نَسْكَمُ﴾ قيل: هو خطاب للكفار، وقيل: هو للمؤمنين، والظلم هو الشرك، قاله الحسن وابن جريج، وقد يحتمل أن يعم غيره من المعاصي، وفي حرف أبي: ﴿وَمَنْ يَكْذِبْ مِنْكُمْ نَذْفُهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية الأولى رد على كفار قريش في استبعادهم أن يكون من البشر رسول، وقولهم: ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَشْرِبُ فِي الْآَنْوَاعِ﴾، وأخبر الله تعالى محمد ﷺ وأمه بأنه لم يرسل قبل في سالف الدهر نبياً إلا بهذه الصفة.

والمفعول بـ ﴿أَنْتَلْنَا﴾ محذوف يدل عليه الكلام، تقديره: رجالاً أو رُسلاً، وعلى هذا المفعول المحذوف المقدر يعود الضمير في قوله: ﴿إِلَّا أَنْهَدُ﴾، وذهبت فرقة إلى أن قوله: ﴿يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ﴾ كناية عن الحدث.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُمْشُونَ﴾ بضم الياء وسكون الميم وتخفيف الشين، وقرأ علي، وعبدالرحمن، وابن مسعود رضي الله عنهم: ﴿وَيَمْشُونَ﴾ بضم الياء وفتح الميم وشد الشين المفتوحة، بمعنى: يُدْعُونَ إلى المشي ويحملون عليه، وقرأ أبو عبدالرحمن بضم الياء وفتح الميم وضم الشين المشددة، وهي بمعنى يَمْشُونَ، ومنه قول الشاعر:

وَأَمْشِي بِأَعْطَانِ الْمِيَاهِ وَأَبْتَغِي
فَلَانِصَّ مِنْهَا صَغْبَةً وَرَكُوبُ
ثم أخبر تبارك وتعالى أن السبب في ذلك أنه سبحانه أراد أن يجعل بعض العبيد فتنة لبعض على العموم في جميع الناس، مؤمن وكافر، فالصحيح فتنة للمريض، والغني فتنة للفقير، والفقير الشاكر فتنة للغني، والرسول المخصوص بكرامة النبوة فتنة لأشراف الناس الكفار في عصره، وكذلك العلماء وحكام

العدل، وقد تلا ابن القاسم هذه الآية حين رأى أشهب، والتوقيف بـ ﴿أَنْصُرُونَ﴾ خاص للمؤمنين المُجْتَبِينَ، فهو لأمة محمد ﷺ، كأنه جعل إمهال الكفار فتنة للمؤمنين، أي اختباراً لهم، ثم وقَّفه: هل تصبرون أم لا؟ ثم أعرب قوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ عن الوعد للصابرين والوعيد للعاصين.

ثم أخبر عن مقالة الكفار: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلْئِكَةَ﴾ وقوله

تعالى: ﴿يَرْجُونَ﴾، قال أبو عبيدة وقوم: معناه: يخافون، والشاهد لذلك قول الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ الشُّخْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَتِهَا
وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ ثُوبٍ عَوَامِلُ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والذي يظهر لي أن الرجاء في الآية والبيت على بابه؛ لأن خوف لقاء الله تعالى مقترن أبداً برجائه، فإذا نفى الرجاء عن أحد فإنما أخبر عنه أنه مُكذَّب بالبعث لنفي الخوف والرجاء، وفي ذلك الكفار بنفي الرجاء تنبيه على غبطة ما فاتهم من رجاء الله تعالى، وأما بيت الشعر المذكور فمعناه عندي: لم يرج دفعها ولا الانفكاك عنها، فهو لذلك يوفي على الصبر ويجد في شغله.

ولما تمت كفار قريش رؤية ربهم أخبر تعالى عنهم أنهم عظموا

﴿٢٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلْئِكَةَ
أَوْزِي رَبًّا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا
﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرُونَ الْمَلْئِكَةَ لَا يَشْعُرُونَ يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ
حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ أَخْرَجَهُمْ مِنَ
مِصْرَ مَشْهُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْقَرًا
وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشْقُقُ النَّعْمَاءُ بِالْغَنَمِ نَزَلَ الْمَلْئِكَةُ
تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْخَبِيرُ الرَّحْمَنُ وَكَانَ يَوْمَئِذٍ عَلَى
الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْضُ الظُّلُمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ
يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَا لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ
فَالِدًا يُصَلِّيُ ﴿٢٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي
وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ
يَرَبِّ إِنِّي قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَلِكَ
جَعَلْنَا لِكُلِّ لُغْوٍ عَدُوًّا وَمِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا
وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً
وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُتَبِّهَ بِهِ فُقُولَهُمْ لَقَدْ كُنَّا نَرْتَدِّدُ
بَيْنَ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ
﴿٣٢﴾

أنفسهم، وسألوا ما ليسوا له بأهل، و﴿عَتَوْا﴾ معناه: صعبوا على الحق واشتدوا، ويقال: عَتَيْتُ وَعَتُوْتُ، عَتُوْتُ على الأصل، وعَتَيْتُ لاستئصال الضم على الواو فقلبت ياءً ثم كسرت ما قبلها طلباً للتناسب.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى في هذه الآية أن الكفار لما قالوا: ﴿لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْمَلْئِكَةَ﴾ إنما هو يوم القيامة، وقد كان أول الآية يحتمل أن يريد يوم تُقبض أرواحهم، لكن آخرها يقتضي أن الإشارة إلى يوم القيامة، وأمر العوامل في هذه الظروف بيِّن إذا تُوْمَل، فاختصرناه لذلك. ومعنى الآية: إن هؤلاء الذين تمنوا نزول الملائكة لا يعرفون ما قدر الله تعالى في ذلك؛ فإنهم يوم يرون الملائكة هو شرُّ لهم، ولا بُشْرَى لهم، بل

ومعنى هذه الآية: جعلنا أعمالهم لا حكم لها ولا منزلة.

ثم أخبر عز وجل أن مُسْتَقَرَّ أهل الجنة خير من مُسْتَقَرَّ أهل النار، وجاءت ﴿حَيْرٌ﴾ ها هنا للتفضيل بين شيئين لا شركة بينهما، قال الزجاج وغيره: إنه لما اشتركا في أن هذا مُسْتَقَرٌّ وهذا مُسْتَقَرٌّ فَضَّل الاستقرار الواحد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر لي أن هذه الألفاظ التي فيها عموم مآ، ويتوجه حكمها من جهات شتى، نحو قولك: أحب، وأحسن، وخير، وشراً، يسوغ أن يُجاء بها بين شيئين لا شركة بينهما، فتقول: السعد في الدنيا أحب إلينا من الشقاء، أي: قد يوجد بوجه مآ من يستحب الشقاء كالمْتَبَد والمغتاض، وكذلك في غيرها، فإذا كانت (أفعل) في معنى يَبُنُّ أن الواحد من الشيبين لا حظ له فيه بوجه فسد الإخبار بوجه التفصيل به، كقولك: الماء أبرد من النار، ومن هذا أنك تقول في ياقوتة ومدرة - وتشير إلى المدرة -: هذه خير وأحسن وأحب وأفضل من هذه، ولو قلت: هذه ألمع وأشدُّ شراقة من هذه، لكان فاسداً.

وقوله: ﴿مَيْلًا﴾، ذهب ابن عباس رضي الله عنهما، والتخعي، وابن جريج إلى أن حساب الخلق يكمل في وقت ارتفاع النهار ومقيل أهل الجنة في الجنة، وأهل النار في النار، فالمقيل من القائلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن اللفظة إنما تضمنت

وإنفاذنا، ونحو هذا من الألفاظ اللائقة، وقيل: هو قدوم الملائكة أسنده إليه لأنه عن أمره، وحسنت لفظة [قَدِمْنَا] لأن القادم على شيء مكروه لم يُقَرَّره ولا أمر به مُغَيَّر له ومذهب، وأما قول الراجز: وَقَدِيمَ الْخَوَارِجِ الضَّلَالِ إِلَى عِبَادِ رَبِّنَا فَقَالُوا إِنَّ دِمَاءَكُمْ لَنَا حَلَالٌ فَالْقُدُومُ عَلَى بَابِهِ.

ومعنى الآية: وقصدنا إلى أعمالهم التي هي في الحقيقة لا ترن شيئاً؛ إذ لا نية مَعَهَا، فجعلناها على ما تستحق لا تعدل شيئاً، وصيرناها هباءً منثوراً، أي: شيئاً لا تحصيل له، والهباء: هي الأجرام المستدقة الشائعة في الهواء التي لا يدركها جسٌ إلا حين تدخل الشمس على مكان ضيق يحيط به الظل كالكوة ونحوها، فيظهر حينئذ فيما قابل الشمس أشياء تغيب وتظهر، فذلك هو الهباء، ووصفه في هذه الآية بـ «مُنْثُورٍ»، ووصفه في غيرها بـ «مُنْبَثٌّ»، فقالت فرقة: هما سواء، وقالت فرقة: المُنْبَثُّ أرقُّ وأدقُّ من المُنْثُور؛ لأن المنثور يقتضي أن غيره نثره، كسنايب الخيل أو الرياح أو هدم حائط ونحو ذلك، والمُنْبَثُّ كأنه أنبث من رفته، وقال غيرهما، الهباء المنثور هو ما تسفي به الرياح وتبثه، وروي عنه أيضاً أنه قال: الهباء الماء المهراق، والأول أصح، والعرب تقول: هبات الغبار ونحوه إذا بثته، قال الشاعر:

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرِّجْعِ وَالْوَقْدِ
عَ مَنِيناً كَأَنَّهَا أَهْبَاءُ

لهم الخسار وأقيا المكروه، ويومئذ لا خير ولا بشرى؛ لأن الظروف تكون إخباراً عن المصادر، والضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾، قال الحسن، وقتادة، والضحاك، ومجاهد: هو للملائكة، المعنى: ويقول الملائكة للمجرمين: جِئْتُمْ مَخْجُوراً عَلَيْكُمْ الْبَشْرَى، أي: حراماً مُحَرَّمًا، ومنه قول جرير بن عبدالمسيح:

حَثَّ إِلَى التُّخَلَّةِ الْفُضْوَى قُلْتُ لَهَا
جِئْتُ حَرَامٌ أَلَا تِلْكَ الدَّهَارِسُ
وقال مجاهد أيضاً، وابن جريج: إن الضمير في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ هو للكفار المجرمين، قال ابن جريج: كانت العرب إذا كرهوا شيئاً قالوا: حجراً، قال مجاهد: حجراً: عوداً، يستعيدون بالملائكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يكون المعنى: ويقولون: حرام محرم علينا العفو، وقد ذكر أبو عبيدة أن هاتين اللفظتين عوذة عند العرب، يقولها من خاف آخر في الحرم، أو في شهر حرام إذا لقيه وبينهما بزة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المعنى هو مقصد بيت المتلمس الذي تقدم، أي: هذا الذي حثت إليه ممنوع.

وقرأ الحسن، وأبو رجاء: ﴿حُجْرًا﴾ بضم الحاء، والناس على كسرهما.

ثم أخبر تعالى عما يأتي قضاؤه وفعله فقال حكاية عن يوم القيامة: ﴿وَقَدَرْنَا﴾، أي: قَصَدَ حكمنا

تفضيل الجنة جملة وحُسن هوائها، والعرب تفضل البلاد بحسن المقيّل؛ لأن وقت القيلولة يبدو فيها فساد هواء البلاد، فإذا كان بلد في وقت فساد الهواء حسناً جاز الفضل، ومن ذلك قول الأسود بن يَغْفَر الإيادي:

أَرْضٌ تَخَيَّرَهَا لَطِيبٌ مَقِيلَهَا
كَعُوبِ بَنِي سَامَةَ وَابْنِ أُمِّ دُوَادٍ
وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقُّقٌ﴾، يريد يوم القيامة عند انفطار السماء ونزول الملائكة ووقوع الجزاء بحقيقة الحساب، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿تَشَقُّقٌ﴾ بشد الشين والقاف، وقرأ الباقر: بتخفيف الشين، وقوله: ﴿وَالنَّبِيِّمُ﴾، أي: تشقق عنه، والغمم: سحاب رقيق أبيض جميل لم يره البشر بعد إلا ما جاء في تظليل بني إسرائيل. وقرأ جمهور القراء: ﴿وَنَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ نَزِيلًا﴾ بضم النون وشد الزاي المكسورة ورفع ﴿الْمَلَائِكَةَ﴾ على مفعول لم يُسم فاعله، وقرأ أبو عمرو في رواية عبد الوهاب: ﴿وَنَزَّلَ﴾ بتخفيف الزاي المكسورة، قال أبو الفتح: وهذا غير معروف؛ لأن (نَزَّلَ) لا يتعدى إلى مفعول فيبنى هنا للملائكة، ووجهه أن يكون مثل: ﴿زَكَمَ الرجل وجُنَّ﴾، فإنه لا يقال إلا: أَزَكَمَهُ الله وأَجُنَّهُ، وهذا باب سماع لا قياس، وقرأ أبو رجاء: ﴿وَنَزَّلَ﴾ بفتح النون وشد الزاي، وقرأ الأعمش: ﴿وَأَنْزَلَ الْمَلَائِكَةَ﴾، وكذلك قرأ ابن مسعود، وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَنَزَّلَتِ الْمَلَائِكَةَ﴾، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿وَنَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ﴾ بنونين، فهي قراءة أهل

مكة، ورويت عن أبي عمرو، وقرأ هارون عن أبي عمرو: ﴿وَنَزَّلَ الْمَلَائِكَةَ﴾ بإسناد الفعل إليها، وقرأت فرقة: ﴿ويُنزِل الملائكة﴾، وقرأ أبي بن كعب أيضاً: ﴿وتَنَزَّلَتِ الْمَلَائِكَةُ﴾.

وقرّر أن المُلك الحق المبين هو يومئذ للرحمن؛ إذ قد بطل في ذلك اليوم كل ملك. وعسيره على الكافرين يُوجّه بدخول النار عليهم فيه، وما في خلال ذلك من المخاوف، وقوله: ﴿عَلَّ الْكُفْرِينَ﴾ دليل على أن ذلك اليوم سهل على المؤمنين، وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إن الله تعالى ليهوّن يوم القيامة على المؤمن حتى يكون أخف من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا».

(٢٧) - (٣١) تفسير قوله عزّ وجلّ:

﴿يَوْمَ﴾ ظرف العامل فيه مضمر، و«عَضُّ اليدين» هو فعل النادم الملهوف المتفجع، وقال ابن عباس وجماعة من المفسرين: ﴿أَنظَارِهِ﴾ في هذه الآية عُقبة بن أبي معيط؛ وذلك أنه أسلم أو جنح للإسلام، وكان أبي بن خلف الذي قتله رسول الله ﷺ بيده يوم أحد خليلاً لعُقبة، فنهاه عن الإسلام، فقبل نهيته، فنزلت الآية فيهما، فالظالم عُقبة، وفلان أبيّ. وفي بعض الروايات عن ابن عباس أن الظالم أبيّ، فإنه كان يحضر إلى النبي ﷺ، فنهاه عُقبة، فأطاعه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن أدخل في هذه الآية أمية بن خلف فقد وهم، إلا على قول من يرى ﴿أَنظَارِهِ﴾ اسم جنس.

وقال مجاهد، وأبو رجاء: الظالم: اسم جنس، وفلان: الشيطان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر لي أن ﴿أَنظَارِهِ﴾ عام، وأن مقصد الآية تعظيم يوم يتبرأ فيه الظالمون من خلافتهم الذين أمرهم بالظلم، فلما كان خليل كل ظالم غير خليل الآخر، وكان كل ظالم يسمي رجلاً خاصاً به عبّر عن ذلك بـ «فُلان» الذي فيه الشياخ الثام، ومعناه واحد عن الناس، وليس من ظالم إلا وله في دنياه خليل يعينه ويحرضه، هذا في الأغلب، ويشبه أن سبب الآية وترتب هذه المعاني كان عُقبة وأبيّ، وقوله: ﴿مَعَ أَرْسُولِهِ﴾ يُقْرَى ذلك بأن نجعل تعريف ﴿أَرْسُولِهِ﴾ للعهد، والإشارة إلى محمد ﷺ، وعلى التأويل الأول التعريف للجنس.

وكلهم قرأ: ﴿لَيْتِي﴾ ساكنة الياء غير أبي عمرو فإنه حرّك الياء ﴿لَيْتِي﴾ اتَّخَذْتُ، ورواها أبو حامد عن نافع مثل أبي عمرو، و«السَّبِيلُ» الممتئة هي طريق الآخرة. وفي هذه الآية لكل ذي نهيته تنبيه على تجنّب قرين السوء، والأحاديث والحكم في هذا الباب كثيرة مشهورة.

وقوله تعالى: ﴿يَوَلِّيكَ﴾ الياء فيه عِوَض عن الياء في: يَا وَيْلَتِي، والألف هي التي في قولهم: يَا غلاما، وهي لغة، وقرأت فرقة بإمالة: ﴿يَا وَيْلَتِي﴾، قال أبو علي: وترك الإمالة أحسن؛ لأن أصل هذه اللفظة الياء «يَا وَيْلَتِي»، فبدلت الكسرة فتحة والياء ألفاً فراراً من

تعالى لنزل جملة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل، وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ [ويحتمل أن يكون] من الهجر بضم الهاء إشارة إلى قولهم: شعر وكهانة وسخر، هذا قول مجاهد، والتخعي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقول ابن زيد: هو تنبيه للمؤمنين على ملازمة المصحف، وألا تكون الغبرة تعلقه في البيوت وتشتغل بغيره، وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: (من علّق مصحفاً ولم يتعاهده

أتى يوم القيامة معلقاً به، يقول: هذا اتخذني مهجوراً، أفض يا رب بيني وبينه). ثم أسه عن فعل قومه بأن أعلمه أن غيره من الرسل كذلك امتحن بأعداء في زمنه، أي: فاصبر كما صبروا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، و﴿عَدُوًّا﴾ يريد به الجمع، تقول: «هؤلاء عدو لي»، فتصف به الجمع والواحد والمؤنث، ثم وعده تعالى بقوله: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، والباء في ﴿رَبِّكَ﴾ للتأكيد، دالة على المعنى، إذ هو: اكتف بربك.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء الكفرة لا يجيئون بمثل - يضربونه على جهة المعارضة - مَبْنِيَّهم - كتمثيلهم في هذه بالتوراة والإنجيل - إلا جاء القرآن بالحق في ذلك، أي بالذي هو حق، ثم هو أحسن تفسيراً، أو أفصح بياناً وتفصيلاً. ثم أوعد الله تعالى الكفار بما ينزل بهم يوم القيامة من الحشر على وجوههم إلى النار. وذهب الجمهور إلى أن هذا المشي على الوجوه حقيقة، ورؤي في ذلك - من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه - حديث أن النبي ﷺ قال له رجل:

﴿مَهْجُورًا﴾ [ويحتمل أن يريد: مُبْعَدًا مُفْصِيًا، ويحتمل أن يكون] من الهجر بضم الهاء إشارة إلى قولهم: شعر وكهانة وسخر، هذا قول مجاهد، والتخعي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويقول ابن زيد: هو تنبيه للمؤمنين على ملازمة المصحف، وألا تكون الغبرة تعلقه في البيوت وتشتغل بغيره، وروى أنس عن النبي ﷺ أنه قال: (من علّق مصحفاً ولم يتعاهده

أتى يوم القيامة معلقاً به، يقول: هذا اتخذني مهجوراً، أفض يا رب بيني وبينه).

ثم أسه عن فعل قومه بأن أعلمه أن غيره من الرسل كذلك امتحن بأعداء في زمنه، أي: فاصبر كما صبروا، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، و﴿عَدُوًّا﴾ يريد به الجمع، تقول: «هؤلاء عدو لي»، فتصف به الجمع والواحد والمؤنث، ثم وعده تعالى بقوله: ﴿وَكُنْ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾، والباء في ﴿رَبِّكَ﴾ للتأكيد، دالة على المعنى، إذ هو: اكتف بربك.

٢٢ - ٢٤ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره أن كفار قريش قالوا في بعض معارضاتهم: لو كان هذا القرآن من عند الله

وَلَا يَأْتِيَنَّكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ سُكَّرَتْ مَنَابِقُهُمْ وَأُضِلُّ سَبِيلَهُمْ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ زَكِيًّا ﴿٢٤﴾ فَلَمَّا أَذْهَبَ إِلَىٰ آلِ قَوْمِ الْفِرْعَوْنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَذَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٢٥﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَّبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً وَأَعَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٦﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٢٧﴾ وَكُلًّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكُلًّا تَبَّرْنَا تَتْبِيرًا ﴿٢٨﴾ وَلَقَدْ أَوْعَىٰ الْقُرْيَةَ الَّتِي أَطْرَقَتْ مَطَرُ السَّوَاءِ أَقْلَمَ بِكُفْرَانِهَا بَرْدَهَا بِلِ كَانُوا لَا يَرْجُونَ سُحُورًا ﴿٢٩﴾ وَإِذَا رَأَوْكَ إِسْتَعْجَدُوا وَكَانُوا لَا يَهْتَرُونَ أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٣٠﴾ إِنْ كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَنْ صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حَيْثُ يَرُونَ الْعَذَابَ مِنْ أَضَلِّ سَبِيلًا ﴿٣١﴾ أَرَأَيْتَ مَنْ أَخَذَ إِلَهَهُ هَوْنَهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٣٢﴾

الياء، فمن أمال رجع إلى الذي فر عنه أولاً.

و ﴿الَّذِينَ﴾ هو ما ذكر به الإنسان أمر آخرته من قرآن أو موعظة ونحوه، و﴿كَانَ التَّنْبِيْطُ لِلنَّاسِ عَدُوًّا﴾ [ويحتمل أن يكون من قول الظالم، ويحتمل أن يكون ابتداء إخبار من الله تعالى على جهة الدلالة على وجه ضلالهم، والتحذير من الشيطان الذي بلغ ثم ذلك المبلغ].

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ﴾ حكاية عن قول الرسول ﷺ في الدنيا، وتَشْكِيْهِ ما يلقاه من قومه، هذا قول الجمهور، وهو الظاهر. وقالت فرقة: هو حكاية عن قوله ذلك في الآخرة. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿قَوْمِي﴾ بتحريك الياء، والباقون بسكونها.

يا رسول الله، كيف يقدرون على المشي على وجوههم؟ قال: «إن الذي أقدرهم على المشي على أرجلهم قادر أن يمشيهم على وجوههم» وقالت فرقة: المشي على الوجوه استعارة للمذلة المفرطة والهوان والخزي، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَكَاكُا﴾ القول فيه كالقول في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا﴾.

(٣٥) - (٣٩) تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات التي ذكر فيها الأمم هي تمثيل لهم وتوعد بأن يحل بهم ما حل بهؤلاء المعذبين، و«الِكِتَابُ»: التوراة، و«الْوَزِيرُ»: المُعين، وهو من تحمّل الوزر، أي ثقل الحال، ومن الوزر الذي هو الملجأ، و«الْقَوْرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ هم فرعون وملئيه من القبط، ثم حذف من الكلام كثيراً دل عليه ما بقي، وتقدير المحذوف: فذهباً قاذباً الرسالة فكذبوهما فدمرناهم. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومسلمة بن محارب: ﴿فَدَمَّرْنَاَهُمْ﴾، أي: كونا سبب ذلك، قال أبو الفتح: ألحق نون التوكيد ألف التثنية، كما تقول لرجل: اضرباً زيدا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وزوي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿فَدَمَّرَاهُمْ﴾، وحكى عنه أبو عمرو الداني: ﴿فَدَمَّرْنَاَهُمْ﴾ بكسر الميم خفيفة، قال: وروي عنهم: ﴿فَدَمَّرُوا بِهِمْ﴾ على الأمر لجماعة وبزيادة باء،

والذي فسّر أبو الفتح وهم، وإنما القراءة: ﴿فَدَمَّرُوا بِهِمْ﴾ بالباء، وكذا ذكرها المهدي.

ونُصِبَ قوله: ﴿قَوْرَ﴾ بفعل مضمّر يدل عليه ﴿أَغْرَقْنَاهُمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿الرُّسُلُ﴾ وهم إنما كذبوا نوحاً فقط معناه أن الأمة التي تكذب نبياً واحداً ففي ضمن ذلك تكذيب جميع الأنبياء، فجاءت العبارة بما تضمنه فعلهم تعبيراً في القول عليهم، وقوله تعالى: ﴿ءَايَاتٍ﴾ أي علامة على سطوة الله تبارك وتعالى بكل كافر بأنبيائه.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ يُصـصـرف ولا يصرف، وجاءها هنا مصروفاً، وقرأ ابن مسعود، وعمرو بن ميمون، والحسن، وعيسى: ﴿وَعَادًا﴾ مصروفاً، و﴿وَتَمُودًا﴾ غير مصروف. واختلف الناس في ﴿وَأَصْحَابِ الرَّسِّ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم قوم من ثمود، وقال قتادة: أهل قرية من اليمامة يقال لها: الرُّس، وقال كعب، ومقاتل، والسدي: الرُّس: بشر بأنطاكية الشام، قُتل بها صاحب ياسين، وقال الكلبي: أصحاب الرُّس قوم يُعث إليهم نبي فأكلوه، وقال قتادة: أصحاب الرُّس وأصحاب الأيكة قومان أرسل إليهم شيب عليه السلام، وقاله وهب بن مُثَبِّه، وقال علي - في كتاب الثعلبي -: أصحاب الرُّس قوم عبدوا شجرة صنوبر يقال لها: «شاه درخت» رسوا نبيهم في بئر أو قبر أو معدن، ومنه قول الشاعر:

سَبَقَتْ إِسَى فَرَطٍ بِأَهْلِ تَسَابِلَةٍ يَخْفُرُونَ الرَّسَّاسَا وروي عكرمة، ومحمد بن كعب القرظي عن النبي ﷺ أن أهل الرُّس المشار إليهم في هذه الآية قوم أخذوا نبيهم فرموه في بئر وأطبقوا عليه صخرة، فكان عبد أسود قد آمن به يجيء بطعام إلى ذلك البئر فيعينه الله على تلك الصخرة فيقلعها، وهو مؤمن بذلك النبي، فيعطيه ما يغذيه، ثم يرذ تلك الصخرة، إلى أن ضرب الله على أذن ذلك الأسود نوماً أربع عشرة سنة، وأخرج أهل القرية نبيهم فأمروا به في حديث طويل. قال الطبري: فيمكن أنهم كفروا به بعد ذلك فذكرهم الله تعالى في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كِبِيرًا﴾ إيهام لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، وقد تقدم شرح «القرن»، وكم هو، ومن هذا اللفظ قال رسول الله ﷺ فيما يروى - ويروى أن ابن عباس رضي الله عنهما قاله -: «كذب التسابون من فوق عدنان»، لأن الله تبارك وتعالى أخبر عن كثير من الأمم والخلق ولم يخبر عن غيرهم. ثم قال الله تعالى: إن كل هؤلاء ضرب له الأمثال ليهتدي فلم يهتد، فتبهره الله، أي أهلكه، والتباز: الهلاك، والتبهر: الذهب، أي: المُكسّر المُفكّنت، ولذلك يقال لِفُتات الرُّخام والرُّجاج: تبهر، وقال ابن جرير: إن أصل الكلمة نبطي، ولكن العرب قد استعملته.

ألهة، ويصرف ولا يصرف،
«الوكيل»: القائم على الأمر
الناهض به.

﴿٤٠﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿أَلَمْ تَرَ﴾ معناه: انتبه، والرؤية
هنا رؤية القلب، وأدغم عيسى بن
عمر: ﴿رَبِّكَ كَيْفَ﴾، قال أبو
حاتم: والبيان أحسن، و«مُدَّ الظلُّ»
بإطلاق هو ما بين أول الإسفار إلى
بزوغ الشمس، ومن بعد مغيبها مدة
يسيرة، فإن في هذين الوقتين ظلُّ
ممدود على الأرض مع أنه نهار،
وفي سائر أوقات النهار ظلال
متقطعة، و«الْمُدَّ» و«الْقَبْضُ» مطرد
فيها، وهو عندي المراد في الآية،
والله أعلم.

ومن الظل الممدود ما ذكر الله
تبارك وتعالى في هواء الجنة؛ لأنها
لما كانت لا شمس فيها كان ظلها
ممدوداً أبداً، وتظاهرت أقوال
المفسرين على أن هذا الظل هو من
الفجر إلى طلوع الشمس، وذلك
معترض بأن ذلك في غير نهار،
بل في بقايا الليل، فلا يقال له
ظل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ
سَاكِنًا﴾ أي ثابتاً غير متحرك
ولا منسوخ، ولكنه جعل الشمس
ونسخها إياه وطرداه له من موضع
إلى موضع دليلاً عليه مبنياً لوجوده
ولوجه العبرة فيه، وحكى الطبري
أنه لولا الشمس لم يعلم أن الظل
شيء؛ إذ الأشياء إنما تعرف
بأضدادها.

وقوله تعالى: ﴿قَبْضًا يُبِيرًا﴾
يحتمل أن يريد: لطيفاً، أي: شيئاً

على ﴿الَّذِي﴾ حذف
اختصاراً، وحسن ذلك في
الصفة.

ثم آتس النبي ﷺ عن
كفرهم بقوله تعالى:
﴿أَوَيْتَ مِنَ اتَّخَذَ إِلَهُهُ
هُوَ﴾ الآية، والمعنى:
لا تتأسف عليهم وذعهم
لرأيهم، ولا تحسب أنهم
على ما تحب من
التحصيل، بل هم كالأنعام
في الجهل بالمنافع، وقلة
التحسس للعواقب، ثم
حكم بأنهم أضل سبيلاً
من حيث لهم الفهم
وتركوه، والأنعام لا سبيل

لها إلى فهم المصالح،
ومن حيث جهالة هؤلاء وضلالتهم،
وهي في أمر أخطر من الأمر الذي
فيه جهالة الأنعام. وقوله تعالى:
﴿اتَّخَذَ إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ أي: جعل هواه
مطاعاً فصار كالإله، والهوى قائد
إلى كل فساد، والنفس أمارة بالسوء،
وإنما الصلاح إذا انتمرت العقل،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
الهوى إله يُعبد من دون الله عزَّ
وجلَّ، وذكره الشعلي، وقيل:
الإشارة بقوله: ﴿إِلَهُهُ هَوَاهُ﴾ إلى
ما كانوا عليه من أنهم كانوا يعبدون
حجراً، فإذا وجدوا أحسن منه
طرحوا الأول عبدوا الثاني الذي
وقع هواهم عليه. قال أبو حاتم:
وروي عن رجل من أهل المدينة -
قال ابن جنى: هو الأعرج - ﴿إِلَاهَةٌ
هَوَاهُ﴾، والمعنى: اتخذ شمساً
يستضيء بها، إذ الشمس يقال لها:

﴿سُورَةُ الْفُرْقَانِ﴾
﴿٤٠﴾
أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا
كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٠﴾ أَلَمْ تَرَ لِرَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ
الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا مُرْجِعَنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا
﴿٤١﴾ ثُمَّ قَبْضَتُهُ يَتَنَا قَبْضًا يُبِيرًا ﴿٤١﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ
لَكُمْ لَيْلًا لِيَأْسَا وَنَوْمًا وَسَآئِمًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٢﴾
وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا يَنْفِثُ بِأَيْدِي رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا
مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٣﴾ لِنَجْعِلَ بِهِ بَلَدًا مَيْتًا وَنُحْيِيَهُ
مَيْتًا خَلَقْنَا أَنْعَامًا وَأَنَاسِيَّ كَثِيرًا ﴿٤٤﴾ وَقَدَرْتُمُوهُ بِدِينِهِمْ
لِيَذُكُرُوا فَأَيُّ كَفَرٍ لَّا يَشْكُرُ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ شَاءْنَا
لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٤٦﴾ فَلَا تَطِعُوا أَلْكَافِرِينَ
وَحَسِبْتُمْ بِهِ جِهَادًا كَجِهَادِكُمْ ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَّ
الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا
وَحِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ
نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٤٩﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ
مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا ﴿٥٠﴾

﴿٤٠﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس، وابن جريج،
والجماعة: الإشارة إلى مدينة قوم
لوط، وهي (سدوم) بالشام،
﴿مَطَرًا السَّوَّى﴾ حجارة السجيل،
وقرأ أبو السمال: ﴿السَّوَّى﴾ بضم
السين المشددة، ثم وقفهم على
إعراضهم وتعرضهم لسخط الله
تبارك وتعالى بعد رؤيتهم العبرة من
تلك القرية، ثم حكم عليهم بأن
كفرهم إنما أوجبه فساد معتقدهم في
أمر الآخرة، وأنهم لا يرجون
البعث، وكذلك لا يخافونه.

ثم حكى الله تعالى عنهم أنهم إذا
رأوا محمداً ﷺ استهزؤا به
واحتقروه، واستبعدوا أن يبعثه الله
تعالى رسولاً، فقالوا - على جهة
الاستهزاء -: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ
رَسُولًا﴾، وفي ﴿بَعَثَ﴾ ضمير يعود

بعد شيء في مرة واحدة لا بعنف، قال مجاهد: ويحتمل أن يريد: معجلاً، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد: سهلاً قريب التناول.

قال الطبري: ووصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث تستر الأشياء وتغشاها، و«السبات» ضرب من الإغماء يعترى اليقظان مرض فيشبه النائم به، والسبت: الإقامة بالمكان، فكأن السبات سكوناً ما وثبوت عليه، و«النشور» في هذا الموضع الإحياء، شبه اليقظة به ليتطابق الإحياء مع الإمامة والتوفي اللذين يتضمنهما النوم والسبات، ويحتمل أن يريد بالنشور وقت انتشار وتفرق لطلب المعاش وإبتغاء فضل الله، و«النهار سُوراً» وما قبله من باب: ليل نائم ونهار صائم.

١٣٨٥ - تفسير قوله عز وجل:

قرأت فرقة: «الزَيْج»، وقرأت فرقة: «الزَيْج» على الجنس، فهي بمعنى الرياح، وقد نسبنا القراءة في سورة الأعراف، وقراءة الجمع أوجه؛ لأن عرف «الريح» متى وردت في القرآن مفردة وإنما هي للعذاب، ومتى كانت للمطر والرحمة وإنما هي رباح؛ لأن ربح المطر تتشعب (وتتدأب) وتتفرق وتأتي لينة من ها هنا وها هنا، وشيئاً إثر شيء، وريح العذاب حرجف لا تتدأب، وإنما تأتي جسداً واحداً، ألا ترى أنها تحطم ما تجد وتهدمه؟ قال الرُّماني: جمعت رباح الرحمة لأنها ثلاثة

لواقح: الجنوب والصبأ والشمال، وأفردت ربح العذاب لأنها واحدة، ولا تلقح، وهي الدبور.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: [وَيَزِدُّ] على هذا قول النبي ﷺ إذا هبَّت الريح: «اللَّهُم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً». واختلف القراءة في «بُشْرًا» في النون والباء وغير ذلك اختلافاً قد ذكرناه في سورة الأعراف، و«بُشْرًا» معناه: منتشرة متفرقة.

و«الطهور» بناء مبالغة في (طاهر)، وهذه المبالغة اقتضت في ماء السماء وفي كل ما هو منه ويسيله أن يكون طاهراً ومُطَهِّراً، فإذا أفرط التغيير بخلطه بالخبث لم يكن الماء طاهراً ولا مطهراً، ووصف البلدة بالميت لأنه جعله كالمصدر الذي يوصف به المذكر والمؤنث، وجاز ذلك من حيث «البلدة» بمعنى «البلد»، وقرأ طلحة بن مصرف: «لننشىء به بلدة ونُسْقِيه» بضم النون، وهي قراءة الجمهور، ومعناه: نجعله لهم سقياً، هذا قول بعض اللغويين في (أسقى)، قالوا: و (سقى) معناه للشفة، وقال الجمهور: سقى وأسقى بمعنى واحد، وينشد على ذلك بيت لبيد:

سقى قومي بني مجيد وأسقى
نميراً والفبايل من هلال
وقرأ أبو عمرو: «نُسْقِيه» بفتح النون، وهي قراءة ابن مسعود، وابن أبي عبلة، وأبي حيو، ورويت عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. و«رَأَيْتَ» قيل: هو جمع إنسان، والياء المشددة بدل من النون

في الواحد، قاله سيبويه، وقال المبرد: هو جمع إنسي، فكان القياس أن يكون (أناسية)، كما قالوا في مهلي: مهالبة، وحكى الطبري عن بعض اللغويين في جمع إنسان: (أناسين) بالنون كسرحان وبستان، وقرأ يحيى بن الحارث: «أناسي» بتخفيف الياء.

والضمير في «مَرَقَتْ» قال ابن عباس، ومجاهد: هو عائد على الماء المنزل من السماء، والمعنى أن الله تبارك وتعالى جعل لهم إنزال الماء تذكرة بأن يصرفه عن بعض المواضع إلى بعض، وهو كله في كل عام بمقدار واحد، وقاله ابن مسعود، وقوله - على هذا التأويل -: «فَأَيُّ أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا» أي في قولهم: بالأنواء والكواكب، قاله عكرمة، وقيل: «كُفُورًا» على الإطلاق لما تركوا التذکر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الضمير في «مَرَقَتْ» للقرآن، وإن لم يتقدم له ذلك لوضوح الأمر، ويعضد ذلك قوله بعد ذلك: «وَيَهْدُهُمْ يَوْمَ» وعلى التأويل الأول الضمير في «يَوْمَ» يُرَادُ به القرآن على نحو ما ذكرناه. وقال ابن زيد: يراد به الإسلام، وقرأ عكرمة: «صَرَفْنَا» بتخفيف الراء، وقرأ حمزة، والكسائي، والكوفيون: «لِيَذْكُرُوا» بسكون الدال، وقرأ الباقر: «لِيَذْكُرُوا» بشد الدال والكاف.

وفي قوله تعالى: «وَلَوْ شِئْنَا» الآية اقتضاب يدل عليه ما ذكرناه، تقديره: ولكننا أفردناك واصطفيناك فلا تطع الكافرين.

النسب والصهر، وقوله: ﴿وَيَنْ أَلْمَاءَ﴾ إما أن يريد أصل الخلقة في أن كل حي مخلوق من الماء، وإما أن يريد نُطف الرجال، وكلٌ من ذلك قالته فرقة، والأول أنصح وأبين، و«النَّسْبُ والصَّهْرُ» معنيان يعمان كل قربي تكون بين آدميين، فالنَّسْبُ هو أن يجتمع إنسان مع آخر في أب أو في أم، قَرَبَ ذلك أو بعد ذلك، والصَّهْرُ هو تواسج المناكحة، فقرابة الزوجة هم الأختان، وقرابة الزوج هم الأحماء، والأصهار يقع عامًا لذلك كله، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: النَّسْبُ ما لا يحل نكاحه، والصَّهْرُ ما يحل نكاحه، وقال الضَّحَّاك: الصَّهْرُ قرابة الرضاع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك عندي وهم أوجهه أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «حُرْمٌ من النَّسْبِ سبع، ومن الصَّهْرِ خمس»، وفي رواية أخرى: «ومن الصَّهْرِ سبع»، يريد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخُوتُكُمْ وَعَمَوَاتُكُمْ وَكَلَائِهُمُ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأَخْتِ﴾ فهذا هو النَّسْبُ، ثم يريد بالصَّهْرِ قوله تبارك وتعالى: ﴿وَأَهْلُكُمْ الَّذِينَ أَرْضَعْتَكُمْ وَأَخْوَاتُكُمْ مِنْ أَرْضَعْتُمْ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبِّبَاتُكُمْ الَّتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ الَّتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ﴾، ثم ذكر المحصنات، ويحتمل هذا أن

الأرض مياهاً عذبة كثيرة من أنهار وعيون وآبار، وجعلها خلال الأجاج، وجعل الأجاج خلالها، فترى البحر قد اكتنفته المياه العذبة في ضفته، وتلقى الماء في البحر - في الجزائر ونحوها - قد اكتنفته الماء الأجاج، فبئها هكذا في الأرض، وهو خلطها، ومنه قوله: ﴿مَرَجٌ﴾، ومنه ﴿فِي أَمْرِ مَرِيحٍ﴾، و«الْبَحْرَانِ» يراد بهما جميع الماء العذب وجميع الماء الأجاج، كأنه قال: مَرَجٌ نَوْعِي الماء، فالْبَزْزُخِ والجَنَجِرِ

هما ما بين البحرين من الأرض واليبس، قاله الحسن، ومنه القدرة التي تمسكهما مع قرب ما بينهما في بعض المواضع. ويكسر الحاء قرأ الناس كلهم هنا، والحسن بضم الحاء في سائر القرآن. و«الْبَزْزُخِ» الحاجز بين الشيتين.

وقرأ الجمهور: ﴿وَهَذَا يَلِغُ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَهَذَا يَلِخُ﴾ بفتح الميم وكسر اللام، قال أبو حاتم: هذا منكر في القراءة، وقال ابن جنبي: أراد: مالحاً، وحذف الألف، كعَرِدٍ وَبَرِيدٍ. و«الأجاج»: أبلغ ما يكون من الملوحة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ يَنْ أَلْمَاءَ بَشَرًا﴾ الآية. هو تعديد النعمة على الناس في إيجادهم بعد العدم، والتنبيه على العبرة في ذلك، وتعدد النعمة في التواسج الذي بينهم من

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٣﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ ثَمَرٍ إِلَّا مَنْ سَاءَ أَنْ يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٥٤﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَانَ بِهِ نُذُنٌ بِعَادِهِ خَيْرًا ﴿٥٥﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسُئِلَ بِهِ خَيْرًا ﴿٥٦﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٥٧﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٥٨﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ حِجَابًا وَمَنْ يَرَادَنَّ أَنْ يَنْزِلَ فِي الْأَرْضِ فَسُجُورًا ﴿٥٩﴾ وَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الَّذِينَ يَشْتُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ يَبْتُغُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٢﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ إِذَا انْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٤﴾

٣٦٥

٥٧ - ٥٤ - تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

اضطرب الناس في تفسير هذه الآية - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد: بحر السماء والبحر الذي في الأرض، ورُتبت ألفاظ الآية على ذلك، وقال مجاهد: البحر العذب هو مياه الأنهار الواقعة في البحر الأجاج، ووقوعها فيه هو مَرَجُهَا، قال: والبزخ والحجر هما حاجز في علم الله تعالى لا يراه البشر، وقاله الزجاج، وقالت فرقة: معنى ﴿مَرَجٌ﴾: آدم أحدهما في الآخر، وقال ابن عباس: عَلَى أحدهما على الآخر، ونحو هذا من الأقاويل التي تتداعى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي أقول في الآية: إن القصد بها التنبيه على قدرة الله تعالى، وإتقان خلقه للأشياء، في أن بث في

ابن عباس رضي الله عنهما أراد: حرم من الصهر ما ذكر معه، فقصده بـ (ما ذُكِرَ) إلى عظمه وهو الصهر؛ لا أن الرضاع صهرٌ، وإنما الرضاع عدل النسب يحرم منه ما يحرم من النسب بحكم الحديث المأثور فيه، ومن روى: «وَحُرْمٌ مِنَ الصُّهْرِ خَمْسٌ» أسقط من الآيتين الجمع بين الأختين والمحصنات وهن ذوات الأزواج.

وحكى الزهراوي قولاً أن النسب من جهة البنين، والصهر من جهة البنات، قال الحسن: وهذا حسن وفي درج ما قدمته، وقال ابن سيرين: نزلت هذه الآية في النبي ﷺ، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه؛ لأنه جمعه به نسب وصهر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فاجتماعهما وكأد حرمة إلى يوم القيامة.

وقوله: ﴿وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ هي [كان] التي للدوام قبل وبعد، لا أنها تعطي مضياً فقط.

ثم ذكر تعالى خطأهم في عبادتهم أصناماً لا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً، وقوله: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ فيه تأويلان: أحدهما أن «الظهير» المعين، فتكون الآية بمعنى توبيخهم على ذلك، من أن الكفار يعينون على ربهم غيرهم من الكفرة، ويعينون الشيطان بأن يطيعوه ويظاهروه، وهذا هو تأويل مجاهد، والحسن، وابن زيد. والثاني ذكره الطبري في أن يكون «الظهير» فعلاً من قولك: «ظهرت الشيء» إذا

طرحته وراء ظهره واتخذته ظهرياً، فيكون معنى الآية على هذا التأويل احتقار الكفرة، و«الكافر» في هذه الآية اسم جنس، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بل هو مُعَيَّنٌ أراد به أبا جهل بن هشام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويُشبه أن أبا جهل سبب الآية، ولكن اللفظ عام للجنس كله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا آيَةً، تسلياً لمحمد ﷺ، أي: لا تَهْتَمُّ بهم، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات حرصاً عليهم، فإنما أنت رسول تُبشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ بِالْجَنَّةِ، وتُنذِرُ الْكَافِرِينَ بِالنَّارِ، ولست بمطلوب بإيمانهم جميعاً.

ثم أمره تعالى بأن يَحْتَجِّجَ عليهم مُزَيلاً لوجوه الشُّهُم بقوله: ﴿مَا آتَيْنَاكُمْ عَلَيْكَ مِنْ أَجْرٍ﴾، أي: لا أطلب مالاً ولا نفعاً يختص بي، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ﴾، الظاهر فيه أنه استثناء منقطع، والمعنى: لكن مسؤولي ومطلوبي من شاء أن يهتدي ويؤمن ويتخذ إلى رحمة ربه طريق نجاة ليفعل. وقال الطبري: المعنى: لا أسألكم أجراً إلا إِنْفَاقَ الْمَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فهذا هو المسؤول، وهو السبيل إلى الرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالاستثناء - على هذا - كالمثصل، وكأنه قال: إلا أجز من شاء، والتأويل الأول أظهر.

﴿٥٨﴾ - ﴿٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: قل لهم يا محمد هذه المقالة التي لا ظنُّ ينصرف إليك

معها، ولا تَهْتَمُّ معها، وبشِّرْ وأنذِرْ وتوَكَّلْ على الحيِّ الذي لا يموت، فهو المتكفل بنصرك في كل أمرك، ثم وصف تعالى نفسه بالصفة التي تقتضي التوكل في قوله: ﴿الَّذِي لَيْسَ لَهُ كُفْرًا﴾؛ إذ هذا المعنى يختص الله تبارك وتعالى دون كل ما في الدنيا مما يقع عليه اسم حي، وقوله تعالى: ﴿وَسَيِّحٌ يَخْتَصِمُونَ﴾ أي: قل سبحان الله وبحمده، أي: تنزيهه واجب، وبحمده أقول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقال رسول الله ﷺ: «من قال في كل يوم سبحان الله وبحمده مائة مرة غُفِرَتْ ذُنُوبُهُ وَلَوْ كَانَتْ مِثْلَ زَبَدِ الْبَحْرِ»، فهذا معنى: ﴿وَسَيِّحٌ يَخْتَصِمُونَ﴾، وهي إحدى الكلمتين الخفيفتين على اللسان، الثقيلتين في الميزان. وقوله تعالى: ﴿وَكُنْ تَوَّعُدًا، وإزالةً عن كاهل محمد ﷺ في همة بهم.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ مع جمعه «السَّمَوَاتِ»، فقيل: سائغ من حيث عادل لفظ ﴿الْأَرْضِ﴾ لفظ «السَّمَوَاتِ»، ومنه قول عَمِيرِ بْنِ شَيْمٍ:

أَلَمْ يَخْرُتْكَ أَنَّ جِبَالَ قَيْسٍ
وَتَغْلِبَ قَدْ تَبَايَسْنَا انْقِطَاعاً
من حيث عادل جبل جبلاً، ومنه قول الآخر:

إِنَّ الْمَنِيَّةَ وَالْحُثُوفَ كِلَاهُمَا
يُوفِي الْمَخَارِمَ يَرْقُبَانِ سَوَادِي
وقوله تعالى: ﴿فِي سِتْرٍ آيَاتٍ﴾، اختلفت الرواية في اليوم الذي ابتداء الله تعالى فيه الخلق - فأكثر الروايات على يوم الأحد، وفي

مخلص، والقول بأنها قصور في الجنة يحط من غرض الآية في التنبيه على أشياء مدركات تقوم بها الحجة على كل منكر الله أو جاهل به.

وقرأ الجمهور: ﴿يَرْجَا﴾ وهي الشمس، وقرأ حمزة، والكسائي، وعبدالله بن مسعود، وعلقمة، والأعمش: ﴿سُرْجًا﴾، وهو اسم جميع الأنوار، وقد خصص القمر بالذكر تشريفاً، وقرأ الشَّعبي، وابن وثاب، والأعمش أيضاً: ﴿سُرْجًا﴾ بسكون الراء، قال أبو حاتم: وروى عصمة عن الحسن: ﴿وَقَمَرًا﴾ بضم القاف ساكنة الميم، ولا أدري ما أراد إلا أن يكون جمعاً كَثَمَرٌ وَثَمَرٌ، قال أبو عمرو: وهي قراءة الأعمش، والشَّعبي. وقوله: ﴿خِلْفَةٌ﴾ أي: هذا يخلف هذا، ومن المعنى قول زهير:

بِهَا الْعَيْنُ وَالْأَرَامُ يَمْشِيْنَ خِلْفَةً
وَأَطْلَاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْتَمِمْ
ومنه قول الآخر يصف امرأة تنتقل من منزل في الشتاء لمنزل في الصيف دأباً:

ولها بِالْمَاطِرُونَ إِذَا
أَكَلِ الثَّمَلِ الَّذِي جَمَعَا
خِلْفَةً حَتَّى إِذَا ارْتَبَعَتْ
سَكَنْتَ مِنْ جِلْبِي بَيْعَا
فِي بُيُوتٍ وَسَطَ دَسْكَرَةِ
حَوْلَهَا الرِّبْثُونَ قَدْ يَنْعَمَا
وقال مجاهد: ﴿خِلْفَةٌ﴾ من الخلاف، هذا أبيض وهذا أسود، نحو ما قدمناه، وقال مجاهد وغيره: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَلْكَرَ﴾ أي: يعتبر بالمصنوعات ويشكر الله تبارك وتعالى على نعمه عليه في العقل

عندهم، فـ[مَا] على بابها المشهور. وقرأ جمهور القراء: ﴿تَأْمُرُنَا﴾ بالتاء، أي أنت يا محمد، وقرأ حمزة، والكسائي، والأسود بن يزيد، وابن مسعود: ﴿يَأْمُرُنَا﴾ بالياء من تحت، إمَّا على إرادة محمد ﷺ، والكناية عنه بالغيبة، وإمَّا على إرادة رحمن اليمامة، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَدَهُمْ﴾ أي: أَصْلَهُمْ هذا اللفظ ضلالاً يختص به حاشى ما تقدم منهم.

﴿٦١﴾ - ﴿٦٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما جعلت قريش سؤالها عن الله تعالى وعن اسمه الذي هو الرحمن سؤالاً عن مجهول نزلت هذه الآية مصرحةً بصفاته التي تُعرَّف به، وتوجب الإقرار بألوهيته. «والبروج» هي التي علمتها العرب بالتجربة وكلُّ أمة مُضْحرة، وهي الشهور عند اللغويين وأهل تعديل الأوقات، وكل برج منها على منزلتين وثلاث من منازل القمر التي ذكرها الله تبارك وتعالى في قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ﴾، والعرب تُسمي البهائم المرتفع المستغني بنفسه برجاً تشبيهاً ببيرج السماء، ومنه قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فِي رُبُوعٍ تُشِيدُونَ﴾، وقال الأخطل:

كَأَنَّهَا بُرْجٌ رُومِيٌّ يُشِيدُهُ
بِإِنْ بِجِصٍّ وَأَجْرٌ وَأَخْجَارِ
وقال بعض الناس في هذه الآية التي نحن فيها: البروج: القصور في الجنة، وقال الأعمش: كان أصحاب عبدالله يقرءونها: «في السماء قصوراً»، وقيل: البروج: الكواكب العظام، حكاه الشعلي عن أبي صالح، وهذا غير ما بيَّناه إلا أنه غير

مسلم وكتاب الدلائل: يوم السبت، ويتبين من كون ذلك في ستة أيام وضع الأناة والتمهل في الأمور؛ لأن قدرته تقتضي أنه يخلقها في طرفة عين لو شاء، لا إله إلا هو، وقد تقدم القول في الاستواء.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ يحتمل أن يكون رفعه بإضمار مبتدأ، أي: هو الرحمن، ويحتمل أن يكون بدلاً من الضمير في قوله: ﴿أَسْتَوَى﴾، وقرأ زيد بن علي بن الحسين: ﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالخفض.

وقوله تعالى: ﴿سَتَلَّ بِهِ خَيْرًا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: فاسأل عنه، و﴿خَيْرًا﴾ - على هذا - منصوب بوقوع السؤال عليه، والمعنى: اسأل جبريل والعلماء وأهل الكتب المنزلة. والثاني أن يكون المعنى كما تقول: لو لقيت فلاناً لَلَقَيْتَ به البحر كراماً، أي: لقيت منه، والمعنى: فاسأل الله عن كل أمر، و﴿خَيْرًا﴾ - على هذا - منصوب إمَّا بوقوع السؤال، وإمَّا على الحال المؤكدة، كما قال نعالى: ﴿وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا﴾، وليست هذه بحال مُتَقَلِّة؛ إذ الصفة العليَّة لا تتغير.

ولما ذكر ﴿الرَّحْمَنُ﴾ في هذه الآية كانت قريش لا تعرف هذا في أسماء الله تبارك وتعالى، وكان مسيلمة كذاب اليمامة تُسمي بالرحمن، فتغالطت قريش بذلك، وقالت: إن محمداً يأمر بعبادة رحمن اليمامة، فنزل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ﴾ الآية، وقوله: ﴿وَمَا أَرْحَمُنُّ؟﴾ استفهام عن مجهول

والفكر والفهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والحسن، وابن عباس: معناه: لمن أراد أن يذكر ما فاتته من الخير والصلاة ونحوه في أحدهما فيستدركه في الذي يليه، وقرأ حمزة وحده: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بسكون الذال وضم الكاف، وهي قراءة ابن وثاب، وطلحة، والتخمي، وقرأ الباقون: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بشد الذال، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿يَتَذَكَّرُ﴾ بزيادة تاء.

ثم لما قال تعالى: ﴿لَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَذَكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ جاء بصفة عباده الذين هم أهل التذکر والشكور، والعباد، والعبيد بمعنى، إلا أن العبادة تستعمل في مواضع التنويه، وسمي قوم من عبد القيس العبادة لأن كسرى ملكهم دون العرب، وقيل: لأنهم تألهوا مع نصارى الحيرة وصاروا عبادة الله، وإليهم ينسب عدئي بن زيد العبادي، وقرأ الحسن: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾، ذكره الثعلبي، وقوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَمَشُونَ﴾ خبر ابتداء، والمعنى: وعباده حق عباده هم الذين يمشون، وقوله: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَرُونَ﴾ عبارة عن عيشهم ومدة حياتهم وتصرفاتهم، فذكر من ذلك المعظم، لا سيما وفي ذلك الانتقال في الأرض معاشرة الناس وخلطتهم، ثم قال: ﴿هَرُونَ﴾ بمعنى أمره كله هون، أي لئِنْ حسن، قال مجاهد: بالحلم والسوقار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: بالطاعة والعفاف والتواضع، وقال الحسن: حلماً، إن

جهل عليهم لم يجهلوا، وذهبت فرقة إلى أن ﴿هَرُونَ﴾ مرتبط بقوله تعالى: ﴿يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ أي أن المشي هو الهون، ويشبه أن يتأول هذا على أن تكون أخلاق ذلك الماشي هوناً مناسبة لمشيته، فيرجع القول إلى نحو ما بيئناه، وأما أن يكون المراد صفة المشي وحده فباطل؛ لأنه رُبَّ ماشٍ هوناً رُوِيْدَاً وهو ذئب أطلس، وقد كان رسول الله ﷺ يتكفأ في مشيه كأنما يمشي في صيب، وهو عليه الصلاة والسلام الصدر في هذه الآية، وقوله عليه الصلاة والسلام: «مَنْ مَشَى مِنْكُمْ فِي طَمَعٍ فَلَيْمَشْ رُوِيْدَاً» إنما أراد في عقد نفسه، ولم يرد المشي وحده، ألا ترى أن المبطلين المتحللين بالدين تمسكوا بصورة المشي فقط حتى قال فيهم الشاعر ذمًا لهم:

كُلُّهُمْ يَمْشِي رُوِيْدَاً
كُلُّهُمْ يَطْلُبُ صُنِيْدَاً
وقال الزهري: سرعة المشي تذهب بهاء الوجه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد الإسراع الحثيث؛ لأنه يخل بالوقار، والخير في التوسط، وقال زيد بن أسلم: كنت أسأل عن تفسير قوله تبارك وتعالى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَرُونَ﴾ فما وجدت في ذلك شفاءً، فرأيت في النوم من جأني فقال لي: هم الذين لا يريدون أن يفسدوا في الأرض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا للتفسير في الخلق، و﴿هَرُونَ﴾ معناه: رفقا وقصداً، ومنه قول

النبي ﷺ: «أَخِيْبٌ حَبِيْبٌ هَوْنًا مَا» الحديث، وقوله: ﴿وَإِذَا حَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَمًا﴾، اختلفوا في تأويل ذلك - فقالت فرقة: ينبغي للمخاطب أن يقول للجاهل: «سلاماً» بهذا اللفظ، أي: سلمنا سلاماً أو تسليماً أو نحو هذا، فيكون العامل فيه فعلاً من لفظه على طريقة النحويين، والذي أقول: إن قوله: ﴿قَالُوا﴾ هو العامل في ﴿سَلَمًا﴾؛ لأن المعنى: قالوا هذا اللفظ، وقال مجاهد: معنى ﴿سَلَمًا﴾: قولاً سداداً، أي: يقول للجاهل كلاماً يدفعه به برفق ولين، فقالوا في هذا التأويل: العامل في قوله: ﴿سَلَمًا﴾ على طريقة النحويين، وذلك أنه بمعنى: قولاً، وهذه الآية كانت قبل آية السيف، فنسخ منها ما يخص الكفرة، وبقي أديها في المسلمين إلى يوم القيامة، وذكر سيبويه النسخ في هذه الآية في كتابه، وما تكلم على نسخ سواه، رجح به أن المراد السلامة لا التسليم؛ لأن المؤمنين لم يؤمروا قط بالسلام على غير المسلمين، والآية مكّية نسختها آية السيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورأيت في بعض مصاحف التواريخ أن إبراهيم بن المهدي - وكان من الماثلين على علي بن أبي طالب رضي الله عنه - قال يوماً بمحضر المأمون - وعنده جماعة -: كنت أرى علي بن أبي طالب في النوم، فكنت أقول له: من أنت؟ فيقول: أنا علي بن أبي طالب، فكنت أجيء معه إلى قنطرة، فيذهب يتقدمني في

المعصية وإن قلَّ إنفاقه، وأن المقتر هو الذي يمنع حقاً عليه، وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد.

وقال عون بن عبدالله بن عتبة: الإسراف: أن تنفق مال غيرك. وغير هذا من الأقوال التي هي غير مرتبطة بلفظ الآية، وخلط الطاعة والمعصية بالإسراف والتقتير فيه نظر، والوجه أن يقال: إن النفقة في معصية أمر قد حظرت الشريعة قلبه وكثيره، وكذلك التعدي على مال الغير، وهؤلاء الموصوفون منزهون عن ذلك، وإنما التأديب في هذه الآية هو في نفقة الطاعات في المباحات، فأدب الشرع فيها ألا يفرط الإنسان حتى يضيع حقاً آخر أو عيلاً ونحو هذا، وألاً يضيّق أيضاً ويقتر حتى يجيع العيال ويفرط في الشح، والحسن في ذلك هو القوام، أي: العدل، والقوام في كل واحد بحسب عياله وحاله، وخفة ظهره وصبره وجلده على الكسب، أو ضد هذه من الخصال، وخير الأمور أوساؤها، ولهذا ترك رسول الله ﷺ أبا بكر الصديق رضي الله تبارك وتعالى عنه يتصدق بجميع ماله؛ لأن ذلك وسط بنسبة جلده وصبره في الدين، ومنع غيره من ذلك، ونعم ما قال إبراهيم التَّحَيُّي: هو الذي لا يجيع ولا يعري، ولا ينفق نفقة يقول الناس: قد أسرف. وقال يزيد بن أبي حبيب: هم الذين لا يلبسون الثياب للجمال، ولا يأكلون الطعام للذة. وقال عبدالملك بن مروان لعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه حين زوجه ابنته فاطمة: ما نَقَعْتُكَ؟

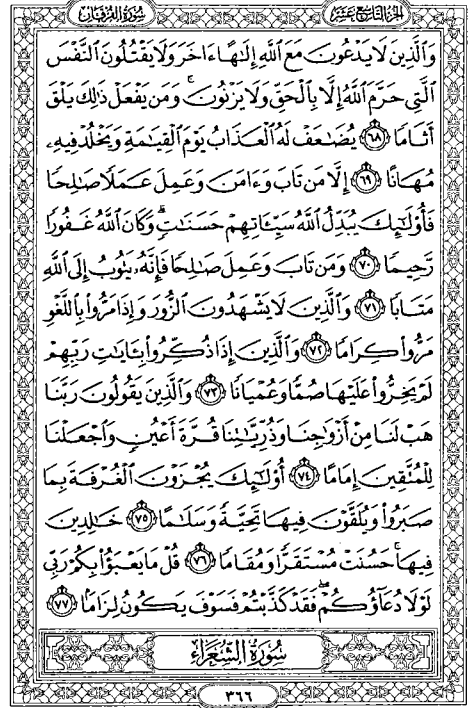
العشاء الآخرة، وشفع وأوتر، فهو داخل في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إلا أنه دخول غير مستوفى، وقرأ أبو البرهسم: ﴿سجوداً﴾، ومدحهم تبارك وتعالى بدعائهم في صرف عذاب جهنم من حيث ذلك دليل على صحة عقيدتهم وإيمانهم، ومن حيث أعمالهم بحسبه، و﴿عَرَاماً﴾ معناه: ملازماً ثقيلاً مجحفاً، ومنه غرام الحب، ومنه قول الأعشى:

إِنْ يُعَايِبَ يَكُنْ عَرَاماً وَإِنْ يُعِدْ
طَجْزِيلاً فَلَيْسَ لَهُ لِيُبَالِي
وقول بشر بن أبي خازم:
وَيَوْمَ النَّسَارِ وَيَوْمَ الْجِجْفَا
رِكَانَ عَقَاباً وَكَانَ عَرَاماً
وقرأ جمهور الناس: ﴿وَمُقَاماً﴾
بضم الميم، من الإقامة، ومنه قول الشاعر:

حَيُّوا الْمُقَامَ وَحَيُّوا سَاكِنَ الدَّارِ
وقرأت فرقة: ﴿مُقَاماً﴾ بفتح الميم، وأنه من قام يقوم، فجهم موضع قيام لهم، والأول أفصح وأشهر.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل: اختلف المفسرون في هذه الآية التي في الإنفاق، فعبارة أكثرهم أن الذي لا يسرف هو المنفق في الطاعة وإن أفرط، والمسرف هو المنفق في



عبورها، فكنت أقول له: إنما تدعي هذا الأمر بامرأة، ونحن أحق به منك، فما رأيت له في الجواب بلاغة كما يُذكر عنه، قال المأمون: وبماذا جاوبك؟ قال: كان يقول لي: سلاماً سلاماً، قال الراوي: فكأن إبراهيم بن المهدي لا يحفظ الآية، أو ذهب عنه في ذلك الوقت، ففيه المأمون على الآية أمام من حضره، وقال: هو والله يا عم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد جاوبك أبلغ جواب، فبخزي إبراهيم واستحيا، وكانت رؤياه لا محالة صحيحة.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية فيها تحريض على قيام الليل بالصلاة، قال الحسن: لما فرغ من وصف نهارهم وصَفَ في هذه ليهم، وقال بعض الناس: من صلى

فقال له عمر: الحسنة بين سيئتين، ثم تلا هذه الآية. وقال يزيد بن حبيب أيضاً في هذه الآية: أولئك أصحاب محمد ﷺ، كانوا لا يأكلون طعاماً للتثتم والثدنة، ولا يلبسون ثياباً للجمال، ولكن كانوا يريدون من الطعام ما يسد عنهم الجوع، ويقوهم على عبادة ربهم، ومن اللباس ما يستر عوراتهم، ويكثهم من الحرّ والبرد وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: كفى بالمرء سرفاً ألا يشتهي شيئاً إلا اشتراه وأكله. وفي سنن ابن ماجه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِنَ السَّرْفِ أَنْ تَأْكُلَ مَا اشْتَهَيْتَهُ»، وقال الشاعر:

وَلَا تَغْلُ فِي شَيْءٍ مِنَ الْأَمْرِ وَاقْتَصِدْ
كَيْلَا طَرَفَنِي قَضِدَ الْأُمُورِ دَمِيمٌ
وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو بكر، ومجاهد، وحفص عن عاصم: «يَقْتَرُوا» بفتح الياء وكسر التاء، وقرأ حمزة، والكسائي بفتح الياء وضم التاء، وهي قراءة الحسن، وطلحة، والأعمش، وعاصم - بخلاف -، وقرأ أبو عبد الرحمن بضم الياء وفتح التاء.

وقرأ أبو عمرو والناس: «قَوْمًا» بفتح القاف، أي: معتدلاً، وقرأ حسان بن عبد الرحمن بكسر القاف، أي: مبلغاً وسداداً وملاك حال، و«قَوْمًا» خبر [كَانَ]، واسمها مُقَدَّرٌ، أي: الإنفاق، وجوز الفراء أن يكون اسمها قوله: «يَبْكُ ذَلِكَ».

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ» الآية، إخراج

لعباده المؤمنين من صفات الكفرة في: عبادتهم الأوثان، وقتلهم النفس بوأد البنات، وغير ذلك من الظلم والاعتيال والغارات، وبالزنى الذي كان عندهم مباحاً، وفي نحو هذه الآية قال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: قلت يوماً لرسول الله ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قال: «أَنْ تَجْعَلَ لَهِ نَسْأَةً وَهُوَ خَلْقُكَ»، قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ خَشِيَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قلت: ثم أي؟ قال: «أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»، ثم قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وبالقتل والزنى يدخل في هذه الآية العصاة من المؤمنين، ولهم من الوعيد بقدر ذلك، والحق الذي تقتل به النفس هو قتل النفس، والكفر بعد الإيمان، والزنى بعد الإحصان، والكفر الذي لم يتقدمه إيمان في الحربين.

و «الأنام» في كلام العرب: العقاب، وبه فسّر ابن زيد هذه الآية، ومنه قول الشاعر:

جَزَى اللَّهُ ابْنَ عُرْوَةَ حَيْثُ أَمْسَى
عُفُوقاً وَالْمُقُوقُ لَهُ أُنَامٌ
أي: جزاء وعقوبة. وقال عكرمة، وعبدالله بن عمرو، ومجاهد: إن «أناماً» واد في جهنم، هذا اسمه، وقد جعله الله تعالى عقاباً للكفرة.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «يَضْمَعُ»، و«وَيَخْلُدُ» جزماً. وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر،

والحسن، وابن عامر: «يَضْمَعُ» بشد العين وطرح الألف، بالجزم في «يَضْمَعُ»، و«وَيَخْلُدُ». وقرأ طلحة بن سليمان: «نَضْمَعُ» بضم النون وكسر العين المشددة «الْعَذَابُ» بالنصب، و«وَيَخْلُدُ» بالجزم، وهي قراءة أبي جعفر، وقرأ طلحة بن سليمان: «وَيَخْلُدُ» بالتاء، على معنى مخاطبة الكافر بذلك، وروي عن أبي عمرو: «وَيَخْلُدُ» بضم الياء من تحت، وفتح اللام، قال أبو علي: «وهي غلط من جهة الرواية»، و«يَضْمَعُ» بالجزم بدل من «يَلْقَى»، قال سيبويه: مضاعفة العذاب لقي الأنام، قال الشاعر:

مَتَى تَأْتِنَا تُلْمِمَ بِنَا فِي دِيَارِنَا
تَجِدُ حَطْبًا جَزْلاً وَنَارًا تَأْجَجَا
وقوله تعالى: «إِلَّا مَنْ تَابَ» الآية، لا خلاف بين العلماء أن الاستثناء عامل في الكافر والزاني، واختلفوا في القاتل من المسلمين - فقال جمهور العلماء: «لَهُ التَّوْبَةُ»، وجعلت هذه الفرقة قاعدتها قوله تعالى: «وَيَعْمُرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ»، فحصل القاتل في المشيئة كسائر التائبين من ذنوب، ويتأولون الخلود الذي في آية القتل في سورة النساء بمعنى الدوام إلى مدة كخلود الدول ونحوه، وروي أبو هريرة لمن قتل حديثاً عن النبي ﷺ. وقيل: إن هذه الآية نزلت في وحشي قاتل حمزة رضي الله عنه، وقاله سعيد بن جبیر، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره: لا توبة للقاتل، قال ابن عباس

رضي الله عنهما: وهذه الآية إنما أريد بالتوبة فيها المشركون، وذلك أنها لما نزلت قالت طوائف من المشركين: كيف لنا بالدخول في الإسلام ونحن قد فعلنا جميع هذا؟ فنزلت ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ الآية، ونزلت ﴿قُلْ يَمُودِي الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْظَلُوا مِنْ تَعْمَةِ اللَّهِ﴾ الآية، فما رأيت رسول الله ﷺ فرح بشيء فرحه بها وبسورة الفتح. وقال غير ابن عباس رضي الله عنهما ممن قال بأن لا توبة للقاتل: إن هذه الآية منسوخة بآية سورة النساء، قاله زيد بن ثابت، ورواه أيضاً سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أبو الجوزاء: صحبت ابن عباس رضي الله عنهما ثلاث عشرة سنة فما رأيت شيئاً من القرآن إلا سألته عنه، فما سمعته يقول: إن الله تبارك وتعالى يقول لذنوب: لا أغفره.

وقوله تعالى: ﴿يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾ معناه: يجعل أعمالهم بدل معاصيهم الأولى طاعة، فيكون ذلك سبباً لرحمة الله عز وجل إياهم، قاله ابن عباس، وابن جبير، وابن زيد، والحسن، وردوا على من قال: «هو في يوم القيامة لمن يريد المغفرة له من الموحدنين، يبدل السيئات حسنات»، وهذا تأويل ابن المسيب في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو معنى كرم العفو.

وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿يُبْدِلُ﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال.

٧١ - ٧٢ تفسير قوله عز وجل:

أكد هذا اللفظ أمر التوبة، والمعنى: ومن تاب فإنه قد تمسك بأمر وثيق، وهذا كما تقول لمن يُستحسن قوله في أمر: لقد قلت يا فلان قولاً، وكذلك الآية معناها مدح المتاب، كأنه قال: فإنه يجد باباً للفرج والمغفرة عظيماً. ثم استمرت الآية في صفة عباد الله - تبارك وتعالى - المؤمنين بأن نفى عنهم شهادة الزور. ﴿يَشْهَدُونَ﴾ في هذه الآية ظاهر معناها: يشاهدون ويحضرون. و«الزور»: كل باطل زور وزخرف، فأعظمه الشرك، وبه فسر الضحاك، وابن زيد، ومنه الغناء، وبه فسر مجاهد، ومنه الكذب، وبه فسر ابن جريج، وقال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، ومحمد بن علي: المعنى: لا يشهدون الزور، فهي من الشهادة لا من المشاهدة، و«الزور»: الكذب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والشاهد بالزور - حاضره ومؤذبه - فجرة، فالمعنى الأول أعم، لكن المعنى الثاني أغرق في المعاصي وأنكى.

و«اللغو»: كل سقط من فعل أو قول، ويدخل فيه الغناء واللغو وغير ذلك مما قاربه، ويدخل في ذلك سفة المشركين وأداهم للمؤمنين، وذكر النساء وغير ذلك من المنكر، و«كِرَامًا» معناه: معرضين مُسْتَحْفِيْنَ يتجافون عن ذلك، ويصبرون على الإيذاء منه، وروي أن عبدالله بن مسعود سمع غناء فأسرع في مشيه

وذهب، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «لقد أصبح ابن أم معبد كريماً»، وقرأ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما إذا مر المسلم بمنكر فكرمه أن يُعْثِرَهُ، وحدود التغيير معروفة.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ، يريد: ذكروا بالقرآن آخرتهم ومعادهم، وقوله: ﴿لَمْ يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُناً وَمَعِينًا﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما أن المعنى: لم يكن خروهم بهذه الصفة بل يكون خروهم سجداً وبكياً، وهذا كما تقول: لم يخرج زيد إلى الحرب جزعاً، أي: إنما خرج جريئاً مقدماً، أو كأن الذي يخرج أصم أعمى هو المناق أو الشاك، وهو التأويل الثاني، وإليه ذهب الطبري، وهو أن ﴿يَخْرُوْا عَلَيْهَا سُناً وَمَعِينًا﴾ هي صفة الكفار، وهي عبارة عن إعراضهم وجهدهم في ذلك، وقرن ذلك بقولك: «قعد فلان يشتمني، وقام فلان يبكي»، وأنت لم تقصد الإخبار بقعود ولا قيام، وإنما هي توطئات في الكلام والعبارة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان المستمع للذكر قائم القناة قويم الأمر، فإذا أعرض وضل كان ذلك خروراً، وهو السقوط على غير نظام وترتيب، وإن كان قد شبه به الذي يخر ساجداً، لكن أصله أن يكون على غير ترتيب.

ثم مدح المؤمنين حال الدعاء إليه بأن يُقَرَّ العيون بالأهل والذرية. و«قوة العين» يحتمل أن تكون من القرار، ويحتمل أن تكون من القر،

وهو الأشهر؛ لأن دمع السرور باردٌ ودمع الحزن سخن، فمن هذا يقال: أَقْرَّ اللهُ عَيْنَكَ وَأَسَخَّنَ اللهُ عَيْنَ الْعَدُوِّ، وَقُرَّةَ الْعَيْنِ فِي الْأَزْوَاجِ وَالذَّرِيَّةِ أَنْ يَراهم الْإِنْسَانُ مُطِيعِينَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، قاله ابن عباس، والحسن، وحضرمي، وبيّن المقداد بن الأسود الوجه في ذلك بأنهم كانوا في أول الإسلام يهتدي الابن والأب كافر، والزَّوْجُ والزوجة كافرة، فكانت قرّة عيونهم في إيمان أحببهم. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والحسن: ﴿وَدَّرَيْتِنَا﴾، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وطلحة، وعيسى: ﴿وَوَدَّرَيْتِنَا﴾ بالإفراد.

وقوله تعالى: ﴿لِلنَّفِيِّكَ إِيْمَانًا﴾ قيل: هو جمع (آم)، مثل قائم وقيام، وقيل: هو مفرد اسم جنس، أي: اجعلنا يأتهم بنا المتقون، وهذا لا يكون إلا أن يكون الداعي مُتَّقِيًا قدوة، وهذا هو قصد الداعي، وقال إبراهيم النَّخَعِيُّ: لم يطلبوا الرياسة، بل أن يكونوا قدوة في الدين، وهذا حسن أن يطلب ويسعى إليه.

(٧٥) - (٧٦) تفسير قوله عز وجل:

قرأ أبي بن كعب: ﴿يُجَارُونَ﴾ بألف، و﴿النَّفَرَةَ﴾ من منازل الجنة، وهي العُرف فوق العُرف، وهي اسم جنس، كما قال:

وَلَوْلَا الْحَبَّةُ السَّمَرَا
ءَ لَمْ أَخْلَلْ بِوَادِيكُمْ

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾ بضم الياء وفتح اللام وشد القاف، وهي قراءة أبي جعفر،

وشيبة، والحسن، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وعاصم، وطلحة، ومحمد اليماني، وزويت عن النبي ﷺ: ﴿وَيَلْقَوْنَ﴾ بفتح الياء وسكون اللام وتخفيف القاف، واختلف عن عاصم.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبُؤُكُمْ بِكُمْ رَبِّي﴾ الآية. أمر لمحمد ﷺ أن يخاطب بذلك، و﴿مَا﴾ تحتل النفي، وتحتل التقرير، والكلام في نفسه يحتمل تأويلات: أحدها أن تكون الآية إلى قوله: ﴿لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ خطاباً لجميع الناس، فكأنه قال لقريش منهم: ما يبالي الله بكم، ولا ينظر إليكم لولا عبادتكم إياه أن لو كانت، وذلك الذي يعبأ باليأس من أجله، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾، وقال النقاش: المعنى: لولا استغاثتكم إليه في الشدائد، ونحو ذلك، فهو عرف الناس المرعي فيهم، وقرأ ابن الزبير وغيره: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الْكَاثِرُونَ﴾، وهذا يؤيد أن الخطاب بـ ﴿مَا يَعْبُؤُكُمْ﴾ هو لجميع الناس، ثم يقول لقريش: فأنتم قد كذبتهم ولم تعبدوه، فسوف يكون العذاب - أو يكون التكذيب الذي هو سبب العذاب - لزاماً.

الثاني أن يكون الخطاب بالآيتين لقريش خاصة، أي: ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم الأصنام دونه، فإن ذلك يوجب تعذيبكم.

الثالث وهو قول مجاهد: ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم إلى شرعه، فوقع منكم الكفر والإعراض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمصدر في هذا التأويل مضاف إلى المفعول، وفي الأولين مضاف إلى الفاعل، و﴿يَعْبُؤُكُمْ﴾ مشتق من العبء وهو من الثقل الذي يعبأ ويؤتّب كما يُعبأ الجيش، قال ابن جني: قرأ ابن الزبير وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ الْكَاثِرُونَ﴾، قال الزهراوي: وهي قراءة ابن مسعود، قال: وهي على التفسير.

وأكثر الناس على أن اللزّام المشار إليه في هذا الموضع هو يوم بدر، وهو قول أبي بن كعب، وابن مسعود، والمعنى: فسوف يكون جزاء التكذيب، وقالت فرقة: هو توعد بعدذاب الآخرة، وقال ابن مسعود: اللزّام هو التكذيب نفسه، أي: لا يُعْطَوْنَ توبة، ذكره الزهراوي.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: اللزّام الموت، وهذا نحو القول ببدر، وإن أراد به متأول الموت الفناء في الناس عرفاً فهو ضعيف، وقرأ جمهور الناس: ﴿لِزَامًا﴾ بكسر اللام، من لزوم، وأنشد أبو عبيدة لَصَخْرِ الْعَيِّ:

فَمَا يَسْجُؤًا مِنْ حَنْفِ أَرْضِ
فَقَدْ لَقِيَا حَشَوَ قَهْمًا لِيَزَامًا

وقرأ أبو السمال: ﴿لِزَامًا﴾ بفتح اللام، من لزم، والله أعلم.

كامل تفسير سورة الفرقان والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَشَاءُ﴾ شرطاً، وما في الشرط من الإيهام هو - في هذه الآية - في حيزنا، وأما الله تعالى فقد علم أنه لا ينزل عليهم آية اضطرار، وإنما جعل الله تعالى آيات الأنبياء والآيات الدالة عليه معرضة للنظر والفكر ليهتدي من سبق في علمه هداة، ويضل من سبق ضلاله، وليكون للنظرة تكسب به يتعلّق الشواب والعقاب، وآية الاضطرار تدفع جميع هذا إن لو كانت.

وقرأ: ﴿نَزَّلَ﴾ بفتح النون وشدّ الزاي أبو جعفر، وشيبة، ونافع، والأعرج، وعاصم، والحسن، وقرأ أبو عمرو وأهل البصرة بسكون النون وتخفيف الزاي. وروى هارون عن أبي عمرو ﴿بَشَأُ يُنْزَلُ﴾ بالياء فيهما. والخضوع للدلالة في الآية المنزلة كان يترتب بأحد وجهين: إما بخوف هلاك في مخالفة الأمر المقترن بها كتثق الجبل على بني إسرائيل، وإما أن تكون من الوضوح بحيث يقع الإذعان لها وانقياد النفوس، وكلّ هذين لم يأت به نبي، ووجه ذلك ما ذكرناه، وهو توجيه منصور للعلماء. وقرأ طلحة: ﴿فَتَقَطَّلْ أَعْنَافَهُمْ﴾، وهو المراد في قراءة الجمهور، وجعل الماضي موضع المستقبل إشارة إلى تقوية وقوع الفعل. وقوله تعالى: ﴿أَعْنَافَهُمْ﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما - وهو قول مجاهد، وابن زيد، والأخفش - أن يريد: جماعاتهم، يقال: «جاء في عُتُق من الناس» أي جماعة، ومنه قول الشاعر:

الإشارة بها إلى غائب معهود كأنه حاضر. ﴿وَالْكِتَابِ الْمُنِينِ﴾ القرآن. وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿طَسَّرَ﴾ بكسر الطاء، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر بفتحها وبإدغام النون من (سين) في الميم، وقرأ حمزة وحده بإظهارها، وهي قراءة أبي جعفر، ورويت عن نافع، وروى يعقوب عن أبي جعفر ونافع قطع كل حرف منها على جذة، قال أبو حاتم: الاختيار فتح الطاء وإدغام

آخر (سين) في أول (ميم) فتصير الميم متصلة.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ تُخَافُوا الْمَوْتَ﴾ وما كان فيه من القلق والحرص على إيمانهم، فكان في شغل البال في حيز الخوف من نفسه، و«الْبَاجِعُ» القاتل نفسه والمهلك لها بالهم، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والناس، ومن ذلك قول ذي الرمة:

أَلَا أَيُّهَاذَا الْبَاجِعُ الْوَجْدُ نَفْسَهُ
لِشَيْءٍ نَحْنُ عَنْ يَدَيْهِ الْمَقَادِرُ
وخوطب بـ «لَعَلَّ» على ما في نفس البشر من توقع الهلاك في مثل تلك الحال. ومعنى الآية ألا تهتم يا محمد بهم، وبلغ رسالتك، وما عليك من إيمانهم، فإن ذلك بيد الله تعالى لو شاء لأمنا، وقوله: ﴿أَلَا﴾ مفعول من أجله.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّرَ ١ تَلَا ٢ تَلَا ٣ الْكِتَابِ الْمُنِينِ ٤ لَمَّا كُنْتُمْ تُخَافُوا الْمَوْتَ ٥ تَلَا ٦ تَلَا ٧ تَلَا ٨ تَلَا ٩ تَلَا ١٠ تَلَا ١١ تَلَا ١٢ تَلَا ١٣ تَلَا ١٤ تَلَا ١٥ تَلَا ١٦ تَلَا ١٧ تَلَا ١٨ تَلَا ١٩ تَلَا ٢٠ تَلَا ٢١ تَلَا ٢٢ تَلَا ٢٣ تَلَا ٢٤ تَلَا ٢٥ تَلَا ٢٦ تَلَا ٢٧ تَلَا ٢٨ تَلَا ٢٩ تَلَا ٣٠ تَلَا ٣١ تَلَا ٣٢ تَلَا ٣٣ تَلَا ٣٤ تَلَا ٣٥ تَلَا ٣٦ تَلَا ٣٧ تَلَا ٣٨ تَلَا ٣٩ تَلَا ٤٠ تَلَا ٤١ تَلَا ٤٢ تَلَا ٤٣ تَلَا ٤٤ تَلَا ٤٥ تَلَا ٤٦ تَلَا ٤٧ تَلَا ٤٨ تَلَا ٤٩ تَلَا ٥٠ تَلَا ٥١ تَلَا ٥٢ تَلَا ٥٣ تَلَا ٥٤ تَلَا ٥٥ تَلَا ٥٦ تَلَا ٥٧ تَلَا ٥٨ تَلَا ٥٩ تَلَا ٦٠ تَلَا ٦١ تَلَا ٦٢ تَلَا ٦٣ تَلَا ٦٤ تَلَا ٦٥ تَلَا ٦٦ تَلَا ٦٧ تَلَا ٦٨ تَلَا ٦٩ تَلَا ٧٠ تَلَا ٧١ تَلَا ٧٢ تَلَا ٧٣ تَلَا ٧٤ تَلَا ٧٥ تَلَا ٧٦ تَلَا ٧٧ تَلَا ٧٨ تَلَا ٧٩ تَلَا ٨٠ تَلَا ٨١ تَلَا ٨٢ تَلَا ٨٣ تَلَا ٨٤ تَلَا ٨٥ تَلَا ٨٦ تَلَا ٨٧ تَلَا ٨٨ تَلَا ٨٩ تَلَا ٩٠ تَلَا ٩١ تَلَا ٩٢ تَلَا ٩٣ تَلَا ٩٤ تَلَا ٩٥ تَلَا ٩٦ تَلَا ٩٧ تَلَا ٩٨ تَلَا ٩٩ تَلَا ١٠٠

تفسير سورة الشعراء

هذه السورة مكية كلها، قاله جمهور الناس، وقال مقاتل: منها مدني الآية التي يذكر فيها الشعراء، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَكُمْ آيَةٌ أَنْ يَأْتِيَ الْبُحْرَيْنِ مَعَهُ مَاءٌ مَلْحٌ مِمَّا شَاءَ﴾.

تقدم القول في الحروف في أوائل السور مستوعباً، و﴿تَلَا﴾ مرتفع بالابتداء، وهو وخبر ساد مسدّ الخبر عن ﴿طَسَّرَ﴾ في بعض التأويلات. والإشارة بـ ﴿تَلَا﴾ هي بحسب الخلاف في ﴿طَسَّرَ﴾، وفي بعض الأقوال أن تكون ﴿تَلَا﴾ إشارة إلى حاضر، و«ذلك» إلى موجود، كما أن «هذه» قد تكون

أَنْ أَلْعِرَاقَ وَأَهْلَهُ
عُنُقُ إِيَّاكَ فَهَيْتَ هَيْتَا
وعليه حُمل قول أبي يعجن:

وَأَكْتُمُ السَّرْفِ فِيهِ ضَرْبَةَ الْعُنُقِ
ولهذا قيل: «عُنُقُ رِقَبَةٍ»، ولم يُقَل: «عُنُقُ عُنُقٍ» فراراً من الاشتراك، قاله الزهراوي.

والتأويل الآخر أن يريد بـ «الأعناق» الجارحة المعلومة، وذلك أن خضوع العُنُق والرِقَبَة هو علامة الذلّة والانتقادي، ومنه قول الشاعر:

وَإِذَا الرَّجَالُ رَأَوْا يَزِيدَ رَأَيْتَهُمْ
خَضَعَ الرِّقَابِ نَوَاقِسِ الْأَبْصَارِ
فمعنى هذا التأويل أن نتكلم على قوله: ﴿خَضِعِينَ﴾، كيف جُمع جمع من يعقل؟ وذلك متخرج على نحوين من كلام العرب: أحدهما أن الإضافة إلى من يعقل أفادت حُكْمَهُ لمن لا يعقل، كما تفيد الإضافة إلى المؤنث تأنيث علامة المذكر، ومنه قول الأعشى:

كَمَا سَرَرْتُ صَدْرَ الْفَتَاةِ مِنَ الدَّمِ
وهذا كثير. والنحو الآخر أن تكون «الأعناق» لَمَّا وُصِفَتْ بفعل لا يكون إلا مقصود البشر - وهو الخضوع -؛ إذ هو فعل يتبع أمراً في النفس جمعت فيه جمع من يعقل، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا طَأَّيْتُمْ﴾، وقوله: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَجِيدًا﴾، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿لَهَا خَاضِعَةٌ﴾.

ثم عُنِفَ الكفار، ونَبِهَ على سوء فعلهم بقوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿تُحَدِّثُ﴾

يريد: مُخَدِّثُ الإتيان، أي: مجيء القرآن للبشر كان مجيء شيء بعد شيء، وقالت فرقة: يحتمل أن يريد بـ «الذُكْر» محمداً ﷺ، كما قال في آية أخرى: ﴿قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَكُمْ دِكْرًا رَسُولًا﴾، فيكون الوصف بالمُخَدِّثِ متمكناً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والقول الأول أنصح.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَاءَ لَهُمْ﴾ الآية وعيد بعذاب الدنيا، والآخرة، ويُقَوَّى أنه وعيد بعذاب الدنيا أن ذلك قد نزل بهم كبدراً وغيرها.

ولما كان إعراضهم عن النظر في الصانع والإله أعظم كفرهم، وكانوا يجعلون الأصنام آلهة، ويعرضون عن الذكر في ذلك - نَبِهَ على قدرة الله تعالى، وأنه الخالق المنشئ الذي يستحق العبادة بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ﴾ الآية. و«الرُّوْحُ»: النوع والصف، و«الكريم»: الحسن المُتَّقِنُ، قاله مجاهد وقتادة، ويراد الأشياء التي بها قوام الأمور والأغذية والنباتات، ويدخل في ذلك الحيوان لأنه عن إنبات، ومنه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَلْبَنُّكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا﴾، قال الشعبي: الناس من نبات الأرض، فمن صار إلى الجنة فهو كريم، ومن صار بضد ذلك فهو لثيم. وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ حتم على أكثرهم بالكفر. ثم تَوَعَّد بقوله تعالى: ﴿وَرَأَى رَبَّكَ﴾ لهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ، يريد: عزراً في نقمته من الكفار وَرَجِمَ

مؤمني كل أمة، وقال نحو هذا ابن جريج، وفي لفظة «الرَّحِيمِ» وعُدَّ.

﴿١٠﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
التقدير: واذكر إذ نادى ربك موسى. وسوق هذه القصة تمثيل لكفار قريش لتكذيبهم محمداً ﷺ، و﴿أَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنْ آتَيْنَا﴾ يجوز أن تكون مفسرة لا موضع لها من الإعراب، بمنزلة (أي)، ويجوز أن تكون غيرها، وهي في موضع نصب، وقوله: ﴿أَلَا يَنْفِقُونَ﴾، أي: قل لهم، فجمع في هذه العبارة من المعاني نفَى التقوى عنهم وأمرهم بالتقوى، وقرأ الجمهور: ﴿يَنْفِقُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ عبدالله بن مسلم، وحماد بن سلمة، وأبو قلابة: ﴿تَنْفِقُونَ﴾ بالتاء من فوق، وعلى معنى: فقل لهم.

ويعظم قُوَّةَ فرعون وتألهه وطول مُدَّتِهِ وما أشربت القلوب من مهابته قال موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَخْفِقُونَ﴾ بالرفع، و﴿يَطْلِقُونَ﴾ كذلك، وقرأ الأعرج، وطلحة، وعيسى ذلك بالنصب فيهما، فقراءة الرفع هي إخبار من موسى عليه السلام بوقوع ضيق صدره، وعدم انطلاق لسانه، ولهذا رَجَّح أبو حاتم هذه القراءة، وقراءة النصب تقتضي أن ذلك داخل تحت خوفه، وهو عطف على ﴿يُكَذِّبُونَ﴾. وكان في خلق موسى عليه السلام جِدَّةً، وكانت في لسانه حِسَّةً بسبب الجمره في طفولته، وحكى أبو

عمرو عن الأعرج أنه قرأ بنصب ﴿وَيَضِيقُ﴾ ويرفع ﴿يَنْطَلِقُ﴾، وقد يكون عدم انطلاق اللسان بالقول لغموض المعاني التي تطلب ألفاظاً محررة، فإذا كان هذا في وقت ضيق صدره لم ينطلق اللسان، وقد قال عليه السلام: ﴿وَأَحْلَلَّ عَقْدَهُ مِنْ لِسَانِي﴾، فالراجح قراءة الرفع. وقوله تعالى: ﴿فَأَرْسِلْ لَنَا حُرُوقًا﴾ معناه: يُعِينَنِي وَيُؤَاوِزُنِي، وكان هارون عليه السلام وزيراً فصيحاً واسع الصدر، فحذف بعض المراد من القول إذ باقية دال عليه.

ثم ذكر موسى عليه السلام خوف القبط من أجل ذنبيه، وهو قتله الرجل الذي وكزه، قال قتادة ومجاهد والناس: فخشي أن يُسْتَقَادَ منه، فقال الله عز وجل له: ﴿كَلَّا﴾ ردّاً لقوله: «إِنِّي أَخَافُ»، أي: لا تخف ردّاً لذلك فإنني لم أحملك ما حُمِلْتُ إِلا وَقَدْ قُضِيَ بِظَهْرِكَ وَنَصْرِكَ. وأمر موسى وهارون بخطاب موسى فقط لأن هارون ليس بمكلم بإجماع، ولكن قال لموسى: ﴿أَذْهَبًا﴾ أي أنت وأخوك، والآيات تعم جميع ما بعثهما الله تعالى به، وأعظم ذلك العصا، وبها وقع العجز، [وَأَلَيْدِ اللَّبِيضَاءِ]، وبالأيتين تحدى موسى عليه السلام فرعون، ولا خلاف في أن موسى عليه السلام هو الذي حملة الله تبارك وتعالى أمر النبوة كلها، وأن هارون عليه السلام كان نبياً رسولاً معيناً وزيراً. وقوله: ﴿إِنَّا مَعَكُمْ﴾ إما أن يجعل الاثنين جمعاً،

وإما أن يريد هما والمبعوث إليهم وبني إسرائيل، وقوله: ﴿مُسْتَيْعُونَ﴾ على نحو التعظيم والجبروت الذي لله تبارك وتعالى، وصيغة ﴿مُسْتَيْعُونَ﴾ تُعْطِي اهْتِبَالاً بِالْأَمْرِ لَيْسَ فِي صِيغَةِ «سَامِعُونَ»، وَإِلَّا فَلَيْسَ يُوَصِّفُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِطَلْبِ الْاسْتِمَاعِ، وَإِنَّمَا الْمَقْصِدُ إِظْهَارُ التَّهَمُّمِ لِعَظَمِ أَنْسِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامِ، أَوْ تَكُونُ الْمَلَائِكَةُ - بِأَمْرِ اللَّهِ إِيَّاهَا - تَسْمَعُ.

وقوله: ﴿إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْأَعْلَيْنِ﴾ هو أن العرب أجرت «الرسول» مجرى المصدر في أن وصفت به الجمع والواحد والمؤنث، ومن ذلك قول الهذلي:

أَلَكُنِي إِلَيْهَا وَخَيْرُ الرَّسُولِ
لِأَعْلَمَهُمْ بِسَوَاجِحِ الْخَبَرِ
وقول الشاعر وإن كان مؤلداً:

إِنَّ الْأَسْيَ أَبْصَرْتُهَا
سَحَرًا تَكَلَّمَنِي رَسُولُ
وقوله: ﴿أَنْ أَرْسِلَ مَعًا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾

معناه: سَرَّحَ، فهو بمعنى الإرسال الذي هو بمعنى الإطلاق، كما تقول: أرسلت الحجر من يدي وكان موسى عليه السلام مبعوثاً إلى فرعون في أمرين: أحدهما أن يرسل بني إسرائيل ويزيل عنهم ذلّ العبودية والغلبة. والثاني أن يؤمن ويهتدي، وأمر بمكافحته ومقاومته في الأول، ولم يؤمر بذلك في الثاني على ما بلغ من أمره، ويُعْتَبَرُ بِالْعِبَادَاتِ وَالشَّرْعِ إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَطْ، هَذَا قَوْلُ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ.

وقول فرعون لموسى: ﴿أَلَّا

تُرِيكَ﴾ هذا على جهة المنّ عليه والاحتقار، أي: رَيْبُنَاكَ صَغِيرًا، أَوْ لَمْ نَقْتُلِكَ فِي جُمْلَةٍ مِنْ قَتْلَانَا فَلَبِثْتَ فِينَا سَنِينَ، فَمَتَى كَانَ هَذَا الَّذِي تَدْعِيهِ؟ وَقَرَأَ جُمْهُورُ الْقُرَاءِ: ﴿مِنْ عُرْكٍ﴾ بِضَمِّ الْمِيمِ، وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو: ﴿عُفْرِكَ﴾ بِسُكُونِهَا، ثُمَّ قَرَّره عَلَى قَتْلِ الْقِبْطِيِّ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ أَلَّتِي فَعَلْتَكِ وَالْفَعْلَةُ - بَفَتْحِ الْفَاءِ - الْمَرَّةُ مِنَ الْفِعْلِ، وَقَرَأَ الشَّعْبِيُّ: ﴿فَعَلْتَكِ﴾ بِكَسْرِ الْفَاءِ، وَهِيَ هَيْئَةُ الْفِعْلِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ يَحْتَمِلُ ثَلَاثَةَ أَوْجُهٍ: أَحَدُهُمَا أَنْ يَرِيدَ: وَقَتَلْتَ الْقِبْطِيَّ وَأَنْتَ فِي قَتْلِكَ إِيَّاهُ مِنَ الْكَافِرِينَ؛ إِذْ هُوَ نَفْسٌ وَلَا يَحِلُّ قَتْلُهُ، قَالَ الضَّحَّاكُ. أَوْ يَرِيدَ: وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِنِعْمَتِي فِي قَتْلِكَ إِيَّاهُ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَهَذَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ فِي حَقِّ اللَّفْظِ، وَإِنَّمَا اخْتَلَفَا بِاشْتِرَاكِ لَفْظِ الْكُفْرِ. وَالثَّانِي أَنْ يَكُونَ بِمَعْنَى الْهَزْوِ، أَيْ: وَأَنْتَ عَلَى هَذَا الدِّينِ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ بِزَعْمِكَ؟ قَالَ السُّدِّيُّ. وَالثَّلَاثُ - وَهُوَ قَوْلُ الْحَسَنِ - أَنْ يَرِيدَ: وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ الْآنَ، يَعْنِي فِرْعَوْنَ: بِالْعَقِيدَةِ الَّتِي يَكُونُ بَيْنَهَا، فَيَكُونُ الْكَلَامُ مَقْطُوعًا مِنْ قَوْلِهِ: ﴿وَقَعَلْتَ فَعَلْتَكِ﴾، وَإِنَّمَا هُوَ إِخْبَارٌ مُبْتَدَأٌ أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ، وَهَذَا التَّأْوِيلُ أَيْضًا يَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِهِ كُفْرَ النِّعْمَةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكان بين خروج موسى عليه السلام حين قتل القبطي وبين رجوعه إلى فرعون نبياً أحد عشر عاماً غير أشهر.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

القائل هو موسى عليه السلام، والضمير في قوله: ﴿تَمَنَّيَا﴾ لقتله القبطي، وقوله: ﴿إِذَا﴾ صلة في الكلام، وكأنها بمعنى: حينئذ، وقوله: ﴿وَأَنَا مِنَ السَّالِّينَ﴾ قال ابن زيد: معناه: من الجاهلين بأن وكزتي إياه تأتي على نفسه، وقال أبو عبيدة: معناه: من الناصبين لذلك، ونزع لقوله تعالى: ﴿أَنْ تَصِلَ إِحْدَهُمَا﴾، وفي قراءة ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: ﴿وَأَنَا مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾، ويشبه أن تكون هذه القراءة على جهة التفسير.

وقوله: ﴿حُكْمًا﴾ يريد النسبة وحكمتها، وقرأ عيسى: ﴿حُكْمًا﴾ بضم الحاء والكاف، وقوله: ﴿وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ درجة ثانية للنسبة، فزُبَّ نَبِيٍّ ليس برسول.

ثم حَاجَهُ عليه السلام في مَنَّهُ عليه بالتريبة وتزك القتل بقوله: ﴿وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَىٰ أَنْ عَدَدْتَ بِنِي إِسْرَائِيلَ﴾، واختلف الناس في تأويل الكلام - فقال قتادة: هذا منه على جهة الإنكار أن تكون نعمة، كأنه قال: أو يصح لك أن تعد علي نعمة ترك قتلي من أجل أنك ظلمت بني إسرائيل قتلهم؟ أي: ليست بنعمة؛ لأن الواجب كان ألا تقتلني وألا تقتلهم، وألا تستعبدني ولا تستعبدهم بالقتل ولا بالخدمة وغير ذلك. وقرأ الضحاك: ﴿وتلك نعمة مالك أن تمنها﴾، وهذه قراءة تؤيد هذا التأويل، وقال الأخفش: قيل: الواو ألف الاستفهام محذوفة، والمعنى: أو تلك؟ وهذا لا يجوز

إلا إذا عادلنا «أم» كما قال:

تَرْوُحُ مِنَ الْحَيِّ أَمْ تَبْتَكِرُ؟

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: وفي هذا القول تكلف، وقول موسى عليه السلام تقرير بغير ألف، وهو صحيح كما قال قتادة، والله المعين.

وقال السدي، والطبري: هذا الكلام من موسى عليه السلام على جهة الإقرار بالنعمة، كأنه يقول: «نعم، وتربيتك نعمة علي من حيث عبتك غيري

وتركتني، ولكن ذلك لا يدفع رسالتي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولكل وجه ناحية من الاحتجاج، فالأول ماض في طريق المخالفة لفرعون ونقض كلامه، والثاني مُبَدَّ من موسى عليه السلام أنه منتصف من نفسه معترف بالحق، ومتى حصل أحد المتجادلين في هذه الرتبة، وكان حججه في ضدها غلب المنتصف بذلك، وكان قوله أوقع في النفوس.

ولمَّا لم يُجِدِ فرعون - لعنه الله - هذا الطريق من تقريره على التريبة وغير ذلك رجع إلى معارضة موسى عليه السلام في قوله: ﴿رَسُولٌ رَبِّ الْمَلَكِينَ﴾ فاستفهمه استفهاماً عن مجهول من الأشياء، قال مكي: كما يستفهم عن

قَالَ فَعَلَّمَهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ السَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَقَرَّرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا حَفَّتْكُمْ فَوْهَبِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنَّا عَلَيْهَا إِذْ أَنْ عَدَدْتَ بِنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فَرَعُونَ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَقُولُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لَيْنَ أَخَذَتْ إِلَيْهَا غَيْرِي لِأَجْمَلَتُكَ مِنَ الْمَسْجُورِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ أَوْلَوْ جَسَدِي بَنِي وَمُؤْمِنِينَ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأَتَيْتُ بِهِ إِيَّانَ كُنْتُ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ فَمَنْ عَصَا فَإِنَّهُ يُعَذِّبُ مَنِّيْنَ ﴿٣٢﴾ وَرَبُّكَ بِهِدَىٰ فَإِذَا هِيَ بِبَصَاةِ الْإِنِّظِيرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالَ أَوْلَادِيَّةٌ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَائِنِ خَشِيرِينَ ﴿٣٦﴾ يَا آتُوكَ بِكُلِّ سِحْرٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾ فَجَمَعَ السَّحَرَةُ لِيَلْقَيْنَ بُورِ مَعْلُومٍ ﴿٣٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٣٩﴾

٣١٨

الأجناس، فلذلك استفهم بـ «ما»، وقد ورد له استفهام بـ «من» في موضع آخر، ويشبه أنها مواطن، فأجابه موسى عليه السلام بالصفات التي يتبين السامع منها أنه لا مشاركة لفرعون فيها، وأنها ربوبية السموات والأرض، وهذه المجادلة من فرعون تدل على أن موسى عليه السلام دعاه إلى التوحيد، فقال فرعون عند ذلك: ﴿آلَا تَسْمَعُونَ﴾ على معنى الإغراء أو التعجب من شناعة المقالة؛ إذ كانت عقيدة القوم أن فرعون ربههم ومعبودهم، والفراعنة قبله كذلك، وهذه ضلالة منها في مصر وديارنا إلى اليوم بقية، فزاده موسى عليه السلام في البيان بقول: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾، فقال فرعون حينئذ - على جهة الاستخفاف :-

معه، وكان - فيما روي - يفرع منه فرعاً شديداً حتى كان لا يُمسك بوله. وزوي أن سجنه كان أشد من القتل، إذ كان في مطبق من الأرض لا ينطلق منه أبداً، وكان مخوفاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه نزعة دار [...] إلى اليوم.

وكان عند موسى عليه السلام من أمر الله تبارك وتعالى ما لا يروعه معه توعد فرعون، فقال موسى له على جهة

الثلطف والطمع في إيمانه: ﴿أَوَلَوْ جِئْتِكَ بِشَيْءٍ مُّجِينٍ﴾ يتضح لك معه صدقي؟ أفكنت تسجنني؟ فلما سمع فرعون ذلك طمع في أن يجد أثناءه موضع معارضة، فقال له: ﴿فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِيْنَ﴾ فألقى عصاه من يده، وكانت من عصى الجنة، وكانت عصا آدم عليه السلام، وروي أنها كانت من ورق الريحان، وكانت عند شعيب عليه السلام في جملة عصى الأنبياء عليهم السلام فأعطاهم موسى عليه السلام عند رعايته له الغنم على صورة قد تقدم ذكرها دلت على نبوة موسى، وكان لها في رأسها شعبتان، فتم كان فم الحيّة. والشعبان أعظم ما يكون من الحيّات، وقد ذكرنا فيما تقدم ما روي في عظم الحيّات وغير ذلك من قصص هذه الآية. ونزع موسى

عليه السلام يده من جيبه فإذا هي تتلأأ كأنها قطعة من الشمس، فلما رأى فرعون ذلك هاله، ولم يكون له فيه مدفع، غير أنه فرغ إلى رميه بالسحر، وطمع - لعلو علم السحر في ذلك الوقت وكثرته - أن يكون فيه سبب لمقاومة موسى عليه السلام، فأوهم قومه وأتباعه أن موسى عليه السلام ساحر، وانتصب ﴿حَوْلَهُ﴾ على الظرف وهو في موضع الحال، أي: كائنين حوله، فالعامل فيه محذوف، والعامل فيه هو الحال حقيقة، والناصب له ﴿قَالَ﴾ لأنه هو العامل في ذي الحال بواسطة لام الجرّ، نحو مررت بهند ضاحكة.

ثم استشارهم في أمره وأغراهم به في قوله: ﴿يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ﴾، فأشاروا عليه بتأخير أمره وأمر أخيه وجمع السحرة لمقاومته، وزوي أنهم أشاروا بسجنه، وهو كان الإرجاء عندهم، و﴿الإرجاء﴾: التّأخير، ولم يشيروا بقتله لأن حجته نيرة وضلالتهم في ربوبية فرعون مبينة، فخشوا الفتنة، وطمعوا أن يُغلب بحجة تقنع العوام. و﴿الحاشر﴾: الجامع. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم: ﴿يَكْلُ سَحَابٍ﴾، وهو بناء للمبالغة، وقرأ عاصم أيضاً والأعمش: ﴿يَكْلُ سَاحِرٍ﴾.

٣٨ - ٣٩ تفسير قوله عز وجل:

اليوم هو يوم الزينة، ويقال: يوم كسر خليج النيل، فهو يوم الزينة على وجه الدهر بمصر، وقال ابن

لَمَّا نَدَّبَ السَّحْرَةَ إِذْ كَانُوا لَهُمْ الْفٰلِقِيْنَ ﴿٣٨﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحْرَةَ قَالُوا لِيُرْعَوْنَ أَيْنَ لَنَا لِأَخْرَاجِنَا كَمَا حَمَّنَ الْفٰلِقِيْنَ ﴿٣٩﴾ قَالَ نَعَمْ وَلَكُمْ إِذَا لِمِنَ الْمُتَّقِيْنَ ﴿٤٠﴾ قَالَ لَهُمْ مُّوسَىٰ أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُّلقُونَ ﴿٤١﴾ فَأَلْقَوْا حِبَابَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغٰلِبُونَ ﴿٤٢﴾ فَأَلْقَىٰ مُّوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سٰجِدِينَ ﴿٤٤﴾ قَالُوا مَا نَأْبِي الْغٰلِقِيْنَ ﴿٤٥﴾ رَبِّ مُّوسَىٰ وَهٰرُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ أَمْسِكْ لَهُمْ قَبْلَ أَنْ أَدْنِيَ لَكُمُ يَدَهُ. لِكَيْ يَوْمَ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السَّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٧﴾ قَالُوا لَآ صَبْرَ لَنَا إِلَّا نَحْنُ مُّقِلُونَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا إِنَّ كِتَابَ الْغٰلِقِيْنَ ﴿٤٩﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُّوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِآيَاتِنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُّتَّبِعِينَ ﴿٥٠﴾ فَأَرْسَلْنَا فِرْعَوْنَ فِي الْمَدْيَنِ حٰشِرِينَ ﴿٥١﴾ وَإِنْ هٰذِهِ لَآيَاتُنَا لِشِرْكِهِمْ فَلِيُتَوَكَّلُوا ﴿٥٢﴾ وَإِنَّمَا نَعْلَمُ بِمَا لَعْنَةُ الْفٰطِنِينَ ﴿٥٣﴾ وَإِنَّا لَجٰمِعٌ لِّخَيْرِهِمْ ﴿٥٤﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٥﴾ وَكُوْنُوزٍ وَمَقَارٍ كَرِيمٍ ﴿٥٦﴾ كَذٰلِكَ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرٰهِيْمَ إِذْ قَالَ أَنَا عَبَدْتُكُمْ شُرَكِيكُمُ

﴿إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَكَاوْنٌ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿أُرْسِلَ﴾ على بناء الفعل للفاعل، فزاد موسى عليه السلام في بيان الصفات التي تظهر نقص فرعون، وتبين أنه في غاية البعد عن القدرة عليها، وهي ربوبية المشرق والمغرب، ولم يكن لفرعون إلا ملك مصر من البحر إلى أسوان وأرض الإسكندرية، وفي قراءة ابن مسعود وأصحابه: ﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾.

٣٩ - ٤٠ تفسير قوله عز وجل:

لما انقطع فرعون - لعنه الله - في باب الحجة رجع إلى الاستعلاء والتعّلب، وهذا أبين علامات الانقطاع، فتوعد موسى عليه السلام حين أعياه خطابه، وفي توعدّه بالسجن ضعف؛ لأنه حارب طباعه

زيد: إن هذا الجمع كان بالإسكندرية.

وقوله: ﴿لَمَّا نَبَّحَ النَّحْرَةَ﴾ ليس معناه تتبعهم في السحر، إنما أراد ما معناه: تتبّعهم في نصره ديننا وملتنا، والإبطال على معارضها.

وقرأ الأعرج، وأبو عمرو: ﴿أَيَّنَ لَنَا﴾ بألف الاستفهام، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وشيبة: ﴿إِنَّ لَنَا﴾ على الإيجاب، وقرأ عيسى: ﴿نِعِمَّ﴾ بكسر العين، والتقريب الذي وعدم به فرعون هو الجاه الزائد على العطاء الذي طلبوه، والقرب من الملك الذي كان عندهم إلههم. واختلف الناس في عدد السحرة، وقد ذكرنا ذلك فيما تقدم، وكانوا مجموعين من مدائن مصر وريف النيل، وهي كانت بلاد السحر كالفرما وغير ذلك، ومعظمهم كان من الفرما والجبال، والعصي كانت أوقار الإبل، وقوله: ﴿بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ﴾ يحتمل وجهين: أحدهما القسم، فكأنهم أقسموا بعزة فرعون، كما تقول: بالله لا أفعل كذا وكذا، فكان قسمهم بعزة فرعون غير مبرور، والآخر أن يكون على جهة التعظيم لفرعون - إذ كانوا يعبدونه - والتبرُّك باسمه، كما تقول - إذا ابتدأت بعمل شغل -: باسم الله، وعلى بركة الله، ونحو هذا.

٤٥ - ٥١ تفسير قوله عز وجل:

تقدم في غير هذه السورة ما ذكر الناس في عظم الحيّة حين ألقى

موسى عليه السلام عصاه، وفي هذه الآية متروك كثير يدل عليه الظاهر، وقد ذكر في مواضع آخر، وهو خوف موسى عليه السلام من ظهور سحرهم واسترهابهم للناس وتخيلهم في حالهم وعصبيهم أنها تسعى بقصد. ثم إن الحيّة التي خلق الله من العصا التقمت تلك الحبال والعصي عن آخرها، وأعدمها الله تعالى في جوفها، وعادت العصا إلى حالها حين أخذ موسى عليه السلام بالفرجة التي كانت في رأسها فأدخل يده في فمها فعادت عصا بإذن الله تبارك وتعالى.

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَلَقَّفَ﴾ بفتح التاء خفيفة واللام وشد القاف، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿تَلَقَّفَ﴾ بسكون اللام وتخفيف القاف، وروي الزبي وابن فليح عن ابن كثير بشد التاء وفتح اللام وشد القاف، ويلزم على هذه القراءة إذا ابتدأ أن يجلب همزة الوصل، وهمزة الوصل لا تدخل على الأفعال المضارعة، كما لا تدخل على أسماء الفاعلين.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْكُفُونَ﴾ أي: ما يكذبون به وبسببه في قولهم: إنها معارضة موسى عليه السلام ونوع من فعله، والإفك: الكذب.

تم إن السحرة لما رأوا العصا خالية من صنعة السحر ورأوا فيها بَعْدُ من أمر الله تعالى ما أيقنوا أنه ليس في قوة البشر أذعنوا، ورأوا

أن الغنيمة هي الإيمان والتمسك بأمر الله عز وجل، فسجدوا كلهم لله تعالى مُقِرِّين بوجدانيته وقدرته، ووصلوا إلى إيمانهم بسبب موسى وهارون عليهما السلام، وصرخوا بأن ذلك على أيديهما؛ لأن قولهم: ﴿بِرَبِّ أَلْعَلَيْنَ﴾ يعني ذلك، فلم يكرروا البيان في قولهم: ﴿رَبِّ مُؤَيَّنْ وَهَذُونَ﴾ إلا لما ذكرناه.

فلما رأى فرعون والملأ إيمان السحرة، وقامت الحجّة بإيمان أهل علمهم ومظنّة نصرتهم وقع فرعون - لعنه الله - في الورطة العظمى، فرجع إلى السحرة بهذه الحجّة الأخرى، فوقفهم مؤنخاً لهم على إيمانهم بموسى قبل إذنه، وفي هذه اللفظة مفارقة عظيمة؛ لأن أحد احتمالاتها أنهم لو طلبوا في ذلك أذن. ثم توعدهم بقطع الأيدي والأرجل من خلاف، وبالصلب في جذوع النخل، فقالوا له: ﴿لَا صَبْرَ لِي:﴾ أي: لا يضيرنا ذلك مع انقلابنا إلى مغفرة الله تعالى ورضوانه، وزوي أنه أنفذ فيهم ذلك الوعيد وصلبهم على النيل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أصبحوا سحرة وأمسا شهداء»، وقولهم: ﴿أَنْ كُنَّا أَوْلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ يريد: من القبط وصنيعتهم، وإلا فقد كانت بنو إسرائيل آمنت. وقرأ الناس: ﴿أَنَا﴾ بفتح الألف، وقرأ أبان بن تغلب: ﴿إِنَّا﴾ بكسر الألف بمعنى أن طمعهم إنما هو بهذا الشرط.

وهو المطبوع على الحَدَرِ، وهو هنا غير عامل، وكذلك هو في قول ابن أحرر:

هَلْ أُنْسَانٌ يَزُمَا إِلَى غَيْرِهِ
إِنِّي حَوَالِي وَإِنِّي حَزِيذٌ
واختلف في عمل (فعل) - فقال سيبويه: إنه عامل، وأنشد:

حَزِيذٌ أُمُورًا لَا تَضِيضُ وَأَمِّنٌ
مَا لَيْسَ مُنْجِيَهُ مِنَ الْأَقْدَارِ
وَأدعى اللاحق تليس هذا البيت على سيبويه. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿حَزِيذُونَ﴾ وهو الذي أخذ يحذر، وقال عباس بن مرداس:

وَأِنِّي حَاذِرٌ أَنَّمِي سِلَاحِي
إِلَى أَوْصَالِ ذِيَالِ صَنِيعِ
وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عَمَّارٍ، وَسُمَيْطُ بْنُ
عَجْلَانَ: ﴿حَاذِرُونَ﴾ بالدال غير منقوطة، من قولهم: «عين حذيرة» أي: ممتلئة، فالمعنى: ممتلئون غيظاً وأنفة.

والضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ﴾ عائد على القبط، و«الجئات والعيون» بحاقتي النيل من أسوان إلى رشيد، قاله ابن عمر - رضي الله عنهما - وغيره، و«الكثوز» قيل: هو إشارة إلى الأموال التي خربوها، قال مجاهد: لأنهم لم ينفقوها قط في طاعة، وقيل: هي إشارة إلى كنوز المقطم ومطالبه، وهي باقية إلى اليوم، و«المقام الكريم» قال ابن لهيعة: هو الفيوم، وقيل: يعني به المنابر، وقيل: مجالس الأمراء والحكام، وقال الحسن: المجالس الحسان، وقرأ الأعرج

أمرت، فلما أصبح فرعون وعلم بسرى موسى ببني إسرائيل خرج في أثرهم، وبعث إلى مدائن مصر لتلقه العساكر، فروي أنه لحقه ومعه ستمائة ألف أدهم من الخيل حاشى سائر الألوان، وروي أن بني إسرائيل كانوا ستمائة ألف وسبعين ألفاً، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، والله أعلم بصحته، وإنما اللازم من الآية الذي يقطع به أن موسى عليه السلام خرج بجمع عظيم في بني إسرائيل، وأن فرعون تبعه

بأضعاف ذلك العدد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان مع فرعون ألف جبار، كلهم عليه تاج، وكلهم أمير خيل.

و«الشردمة»: الجمع القليل المحتقر، وشردمة كل شيء بقبضته الخسيسة، وأنشد أبو عبيدة:

مَجْدِينِ فِي شِرَاذِمِ النَّعَالِ
وقال الآخر:

جَاءَ الشِّتَاءُ وَقَمِيصِي أَخْلَاقُ
شِرَاذِمٌ يَضْحَكُ مِنْهَا الشُّرَاقُ
وقوله: ﴿لَتَأَيُّبُونَ﴾ يريد: بخلافهم الأمر وبأخذهم المال عارية وهروبهم منهم تلك الليلة على ما روي، وقال أبو حاتم: وقرأ من لا يؤخذ عنه: ﴿لَشِرْدِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾، وليست هذه موقوفة.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿حَزِيذُونَ﴾، وهو جمع (حذير)،

فَلَمَّا تَرَى الْجَمْعَانَ قَالَ أَصْحَبُ مُوسَى إِنَّا لَمَذْرُوكُونَ ﴿٥٢﴾ قَالَ
لَأَإِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٥٣﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أُضْرِبْ
بِعَصَاكَ الْحَرَّ فَاتَّقِ كُلَّ فَرْقٍ كَالطُّورِ الْعَظِيمِ ﴿٥٤﴾
وَأَرْفَعْنَا لَكُمْ الْأَخْرِينَ ﴿٥٥﴾ وَأَخْبَسْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٥٦﴾
ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ
مُؤْمِنِينَ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُو الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥٩﴾ وَأَتَى عَلَيْهِمْ
نَبَأُ بَرَزِهِمْ ﴿٦٠﴾ إِذْ قَالَ لِأَيُّهَا وَقَوْمِيهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا
تَعْبُدُونَ مَا فَعَّلَ لَنَا مِنْ بَدْرٍ عَظِيمٍ ﴿٦٢﴾ قَالُوا هَلْ يَسْمَعُونَ كُرَادًا
تَدْعُونَ ﴿٦٣﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يُضَرُّونَ ﴿٦٤﴾ قَالُوا بَلَى وَجَدْنَا آيَاتِنَا
كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٦٥﴾ قَالُوا فَرَيْسَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٦٦﴾ أَنْتُمْ
وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٦٧﴾ فَاتَّخَذُوا لَكُمْ عَدُوًّا لِلرَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٨﴾
الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ رَبِّي وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِي ﴿٦٩﴾
وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِي ﴿٧٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ
يَحْيِينِي ﴿٧١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خِطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٧٢﴾
رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٧٣﴾

٢٧٠

٥٢ - ٥٣ تفسير قوله عز وجل:

ثم إن الله عز وجل لما أراد إظهاره أمره في نجاته بني إسرائيل وغرق فرعون وقومه أمر موسى عليه السلام أن يخرج ببني إسرائيل إلى الملام من مصر، وأخبره أنهم سيبتعون، وأمره بالسير تجاه البحر، وأمره بأن يستعير بنو إسرائيل حلي القبط وأموالهم، وأن يكتسبوا من أخذ أموالهم كيفما استطاعوا، هذا ما رواه بعض المفسرين، وأمره باتخاذ جبراء الزاد، فأمره أن اتخذه فطيراً لأنه أبقى وأثبت، وروي أن الحركة أجلتهم عن اتخاذ جبراء الزاد، وخرج موسى عليه السلام ببني إسرائيل سحراً، فترك الطريق إلى الشام على يساره وتوجه نحو البحر، فكان الرجل من بني إسرائيل يقول له في ترك الطريق فيقول موسى عليه السلام: كذا

وكتادة بضم الميم، من: أقام.

وتورث بني إسرائيل يحتمل مقصدين: أحدهما أن الله قد ورّثهم هذه الضفة من أرض الشام، والآخر أنه ورّثهم مصر ولكن بعد مدة طويلة من الدهر، قاله الحسن، على أن التواريخ لم تتضمن ملك بني إسرائيل في مصر، و﴿شُرْفَيْن﴾ معناه: عند شروق الشمس، أي: حين دخلوا فيه، وقيل: معناه: نحو الشرق، وقرأ الحسن: ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ﴾ بصلة الألف وشدّ التاء.

فلما لحق فرعون بِجَمْعِهِ جمع موسى عليه السلام وقرب منهم، ورأت بنو إسرائيل العدو القوي وراءهم والبحر أمامهم - ساءت ظنونهم، وقالوا لموسى عليه السلام - على جهة التبريح والجفاء -: ﴿إِنَّا لَنَدْرِكُونَ﴾، أي: هذا ذأبك، فردّ عليهم قولهم ورّجهم، وذكر وغد الله تبارك وتعالى له بالهداية والظفر، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّا لَنَدْرِكُونَ﴾ وقرأ الأعرج وعبيد بن عمير: ﴿إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ بتشديد الدال وفتح الراء، ومعناه: يتتابع علينا حتى نفنى، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿تَرِيءَ الْجَمْعَانِ﴾ بكسر الراء ويمد ثم يهز، وروي مثله عن عاصم، وروي أيضاً عنه مفتوحاً ممدوداً، والجمهور يقرؤونه مثل (تراعي)، وهذا هو الصواب؛ لأنه تفاعل، قال أبو حاتم: «وقراءة حمزة في هذا الحرف محال»، وحمل عليه وقال: «وما روي عن ابن وثاب والأعمش خطأ».

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما عظم البلاء على بني إسرائيل أمر الله تبارك وتعالى موسى عليه السلام أن يضرب بعصاه البحر؛ وذلك أنه عز وجل أراد أن تكون الآية متصلة بموسى عليه السلام، ومتعلقة بفعل فعله، وإلا فضرب العصا ليس بفالق البحر ولا معين على ذلك بذاته، إلا بما اقترن به من قدرة الله تعالى واختراعه، ولما انفلق صار فيه اثنا عشر طريقاً على عدد أسباط بني إسرائيل، ووقف الماء بينها كالجبل العظيم. و﴿الطُّودُ﴾: الجبل، وروي عن ابن جريج والسدي وغيرهما أن بني إسرائيل ظن كل فريق منهم أن الثاني قد غرق، فأمر الله تعالى الماء فصار كالطيقان، فرأى بعضهم بعضاً فتأسوا.

﴿وَرَأَيْنَا﴾ معناه: قربنا، وقرئ بالقاف، ونسبها أبو الفتح إلى عبدالله بن الحارث، وقرأ الحسن وأبو حيو: ﴿وَرَأَيْنَا﴾ بغير ألف، وذلك أن فرعون - لعنه الله تعالى - لما وصل إلى البحر وقد دخل بنو إسرائيل، قيل: صمّم وقال لقومه: إنما انفلق بأمرى، فدخل على ذلك، وقيل: بل كع وهم بالانصراف، فعرض جبريل عليه السلام على فرس وديق، فمضى وراءها حصان فرعون، فدخل على نحو هذا وأتبعه الناس، وروي أن الله تعالى جعل ملائكة تسوق قومه حتى حصلوهم في البحر، ثم إن موسى عليه السلام وقومه خرجوا إلى البر من تلك الطرق، ولما أحسوا باتباع فرعون

وقومه فزعوا من أن يخرج وراءهم، فهّم موسى عليه السلام بخلط البحر، فحيثذ قيل له: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَفَوًّا﴾، ولما تكامل جند فرعون وهم مقدمتهم بالخروج انطبق البحر عليهم وغرقوا، ودخل موسى عليه السلام البحر بالعرض وخرج في الضفة التي دخل منها بعد مسافة، وكان ذلك في يوم عاشوراء. وقال النقاش: البحر الذي انفلق لموسى عليه السلام نهر النيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا مردود إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِن فِي ذَلِكَ لَآيَةٍ﴾ تنبيه على موضع العبرة، وقولته: ﴿وَلَيْلَةَ رَبِّكَ لَوْ كُنَّا لَمَعْرِبُ الرَّحْمِ﴾ أي: عز في نعمته من الكفار، ورحم المؤمنين من الأمة، وقد مضى كثير مما يلزم ذكره من قصة موسى عليه السلام.

﴿٦٤﴾ - ﴿٦٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه القصة تضمنت الإعلام بغيب، والإتيان بما يقطع أن محمداً ﷺ لم يكن يعرفه، ثم ظهر على لسانه في ذلك ما في الكتب المتقدمة، وليست هذه الآية مثلاً لقريش في أمر الأصنام فقط، لأنه ليس فيها تكذيب وعذاب، وقول إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ استفهاماً بمعنى التقرير، والصنم ما كان من الأوثان على صورة بني آدم، كان من حجر أو عود أو غير ذلك، و﴿ظُلٌّ﴾ عرفها في فعل الشيء نهاراً، و﴿بات﴾ عرفها في فعله ليلاً، و﴿طفق﴾ عامة للوجهين، ولكن قد يجيء ﴿ظُلٌّ﴾ بمعنى العموم، وهذا الموضع من

على ضلالة، وفي أمر بيِّن
خلافه، وعظيم قدره،
فلما صرحوا لإبراهيم عليه
السلام عن عظم ذلك
وعدهم نظرهم، وأنه
لا حجة لهم، خاطبهم
ببرائه من جميع ما عبد
من دون الله عزَّ وجلَّ
وعداوته له، وعبر عن
بغضته وإطراحه لكل
معبود سوى الله تعالى
بالعداوة؛ إذ هي تقتضي
التفسير، وقيل: في
الكلام قلب؛ لأن الأصنام
لا تُعادي وإنما هو
عاداها، وقوله تعالى:
﴿إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ قالت

فرقة: هو استثناء متصل؛ لأن في
الآباء الأقدمين مَنْ قَدْ عبد من
دون الله تبارك وتعالى، وقالت
فرقة: هو استثناء منقطع؛ لأنه إنما
أراد عبادة الأوثان من كل قرن منهم،
ولفظه [عَدُوًّا] تقتضي الجمع والمفرد
والمؤنث.

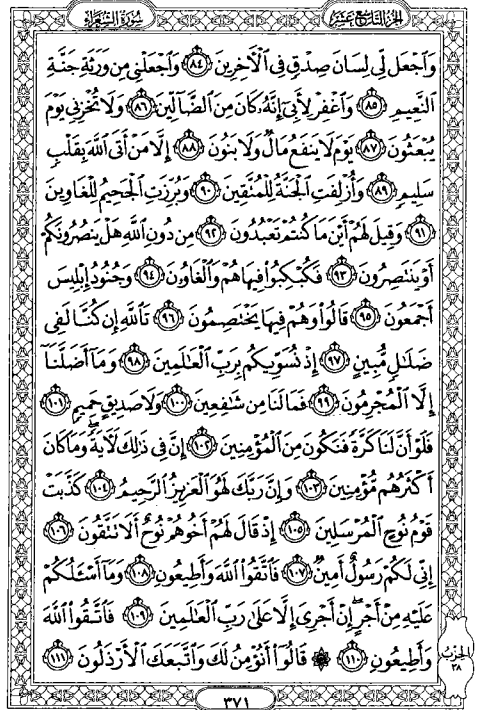
فرقة: ﴿وَالْعَمَلِينَ﴾ ولا يصح في جميع
فلو أن لناكرة فتكون من المؤمنين ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿كَذَّبَتْ
قَوْمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالطَّيِّبِينَ ﴿وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ جَرْحٍ إِنَّ جَرْحِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَالطَّيِّبِينَ ﴿قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكْ وَأَنْتَ عَاكِفٌ الْأَرْضِ لَوُنَّ﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا أظهر عندي؛ لأن تلك الثلاث
قد خرَّجها كثير من العلماء على
المعاريض، وهي - وإن كانت
كذبات بحكم قول النبي ﷺ: «لم
يكذب إبراهيم عليه السلام إلا ثلاث
كذبات»، وبحكم ما في حديث
الشفاعة من قوله في شأن إبراهيم
عليه السلام: نفسي نفسي، وذكر
كذباته - فهي في مصالح وعون شرع
وحق. وقرأ الجمهور: ﴿خَطِيئَتِي﴾
بالإفراد، وقرأ الحسن: ﴿خَطَايَاتِي﴾
بالجمع.

وَأَجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿وَأَجْعَلِي مِنَ وَرَثَةِ جَنَّةِ
الْعِيمِ﴾ وَأَعْرِضْ لِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ
يُبْعَثُونَ﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿إِلَّا مَنْ أَقَى اللَّهَ يَوْمَ تَقَابَلِ
سَلِيمٌ﴾ وَأَزَلَّتْ الْجَنَّةُ لِلْمُتَمِّينَ ﴿وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِلْغَايِينَ﴾
﴿وَقِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ
أَوْ يَنْصُرُونَ ﴿فَكَيْفَ يُؤْفِقُهُمُ وَالْقَاوُونَ﴾ وَخَوَدُوا بِبَيْتِ
أَحْمُونَ ﴿قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ﴾ تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي
ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿إِذْ سَأَلْنَا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ وَمَا أَضَلَّنَا
إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ وَلَا صِدْقٍ حِيمٍ ﴿فَلَوْ أَن لَنَا كَرَّةٌ فَنَكُورُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً وَمَا كَانَ
أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ كَذَّبَتْ
قَوْمُ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾
إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَالطَّيِّبِينَ﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ
عَلَيْهِ مِنْ جَرْحٍ إِنَّ جَرْحِي إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَالطَّيِّبِينَ﴾ قَالُوا أَتُؤْمِنُ لَكْ وَأَنْتَ عَاكِفٌ الْأَرْضِ لَوُنَّ ﴿

ذلك. و«العكوف»؛ اللزوم، ومنه
المعتكف، ومنه قول الراجز:
.....
عَكْفَ النَّبِيطِ يَلْعَبُونَ الْفَرْجَا
ثم أخذ إبراهيم عليه السلام يوقفهم
على أشياء يشهد العقل أنها بعيدة عن
صفة الإله، وقرأ الجمهور بفتح الباء
من ﴿يَسْمَعُونَكَ﴾ وقرأ قتادة بضمها
وكسر الميم، من أسمع، والمفعول -
على هذه القراءة - محذوف. وقرأ
جمهور القراء: ﴿إِذْ تَدْعُونَ﴾ بإدغام
الدال في التاء بعد القلب، ويجوز
فيه قياس (مذكر)، ولم يقرأ به أحد،
والقياس أن يكون اللفظ به «إِذْ
ذُعُونَ»، والذي منع من هذا اللفظ
اتصال الدال الأصلية في الفعل
فكثرت التماثلات.

وقولهم: ﴿بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ
يَفْعَلُونَ﴾ أقبح وجوه التقليد؛ لأنه



و«الْحُكْمُ» الذي دَعَا به إبراهيم عليه السلام هو الحكمة والنبوة، ودعاء إبراهيم عليه السلام في مثل هذا هو في معنى التثبيت والدوام، و«إِلْحَاقَهُ بِالصَّالِحِينَ»: توفيقه لعمل ينتظمه في جملتهم أو يجمع بينه وبينهم في الجنة، وقد أجابه تبارك وتعالى حيث قال: ﴿رَأَيْتُ فِي الْآخِرَةِ لِمَنِ الصَّالِحِينَ﴾، و«لِسَانَ الصُّدُقِ» هو الشناء وتخليد المكانة بإجماع من المفسرين، وكذلك أجاب الله دعوته، فكلُّ ملةٍ تتمسكُ به وتُعظِّمه، وهو على الحنيفية التي جاء بها محمد ﷺ. قال مكِّي: وقيل: معنى سؤاله أن يكون من ذريته في آخر الزمان من يقوم بالحق فأجيب الدعوة في محمد ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى حسن إلا أن لفظ الآية لا يعطيه إلا بتحكُّم في اللفظ. ولما فرغ من مطالب الدنيا طلب سعادة الآخرة وهي جنة التَّيْمِمْ، وشبهها بما يورث، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾، واستغفاره لأبيه في هذه الآية هو قبل أن يتبين له بموته على الكفر أنه عدو له، أي محتوم عليه، وهو عن الموعدة المذكورة، وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَإِعْزَازٌ لِأَبْوَيْ إِهْنَمَا كَانَا مِنَ الضَّالِّينَ﴾.

﴿وَلَا تُخْزِي﴾ إما من الخزي وهو الهوان، وإما من الخزية وهي الحياة، والضمير في ﴿يُعْتُونَ﴾ ضمير العباد لأنه معلوم، أو ضمير الضالين، ويكون من جملة الاستغفار.

﴿١٠٨﴾ - ﴿١٠٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ﴾ بدل من الأول في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُعْتُونَ﴾، والمعنى: يوم لا تنفع أَعْلَاقُ الدُّنْيَا ومحاسنها، فقصد من ذلك الذكْرُ العَظِيمُ والأَكْثَرُ؛ لأن المال والبنين هما زينة الحياة الدنيا، والظاهر أن الاستثناء منقطع، أي: لكن من أتى الله بقلب سليم ينفعه سلامة قلبه، وقوله: ﴿يَقْلِبُ السَّيْرِ﴾ معناه: خالص من الشُّرْكَ والمعاصي وعلق الدنيا المتروكة وإن كانت مباحة كالمال والبنين، قال سفيان: هو الذي يلقي ربه وليس في قلبه شيء غيره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يقتضي عموم اللفظة، ولكن السليم من الشُّرْكَ هو الأهم، وقال جنيد: بقلب لديغ من خشية الله، و«السليم»: اللديغ.

﴿وَأُزْلِفَتْ﴾ معناه: قربت، و«الغاوون الذين بُرِّزَتْ لهم الجحيم» هم المشركون بدلالة أنهم خطبوا في أمر الأصنام، والقول لهم: ﴿أَيُّنَّ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هو على وجه التقرع والتوبيخ والتوقيف على عدم نظرتهم نحوه. وقرأ الأعمش: ﴿فَبُرِّزَتْ﴾ بالفاء، والجمهور بالواو، وقرأ مالك بن دينار: ﴿وَمُبَّرَزَتْ﴾ بفتح الباء والتخفيف ورفع الجحيم.

ثم أخبر عن حال يوم القيامة من أن الأصنام تُكَبِّبُ في النار، أي تُلقَى كَبَّةً واحدة، ووصل بها ضمير من يعقل من حيث ذكرت بالعبادة، وكادت تسند إليها أفعال من يعقل، والضمير في قوله: ﴿فَمَنْ﴾ يعود على

الكفار، و«أَفْأَاوُونَ»: الشياطين. و«كُبِّبَتْ» مضاعف من «كَبَّ»، هذا قول الجمهور، وهو الصحيح؛ لأن معناهما واحد، والتضعيف بين، مثل: صرَّ وصرصر، وغير ذلك. و«أَفْأَاوُونَ»: الكفرة الذين شملتهم الغواية، و«يَخُودُ إِلَيْسَ»: نَسَلُهُ وكلُّ من تبعه لأنهم جنَّد له وأعوان.

﴿١١٠﴾ - ﴿١١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

ثم وصف تعالى أن أهل النار يختصمون فيها ويتلاومون، ويأخذون في شأنهم بجَدَالٍ، ومن جهلهم قولهم لأصنامهم - على جهة الإقرار وقول الحق -: قَسَمًا بِاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ فِي أَنْ نَعْبُدَكَ وَنَجْعَلُكَ سِوَا اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَخَلَقَهُمْ وَمَالَكُهُمْ، ثم عطفوا يردون الملامة على غيرهم، أي: ما أضلنا إلا كبارؤنا وأهل الحزم والجرأة والمكانة، ثم قالوا - على جهة التلهف والتأسف - حين رأوا شفاعة الملائكة والعلماء والأنبياء نافعة في أهل الإيمان عموماً، وشفاعة الصديق في صديقه خاصة -: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾ ولا صَدِيقٍ تَجِمْ، وفي هذه اللفظة تنبيه على محل الصديق من المرء، قال ابن جريج: ﴿شَافِعِينَ﴾ من الملائكة، و«صَدِيقٍ» من الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولفظة «الشفيع» تقتضي رفعة مكانة عند المشفوع عنده، ولفظة «الصديق» تقتضي شدة مساهمة ونصرة، وهو (فعليل) من صدق الود من أبنية المبالغة.

فإنما أفتع بظاهرهم واجتزىء به، ثم حسابهم على الله تبارك وتعالى، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله... الحديث بجملة».

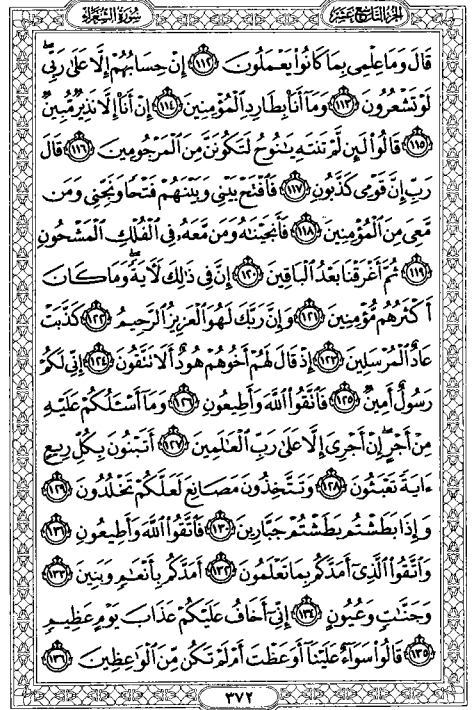
وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَتَّبَعَكَ﴾ على الفعل الماضي، وقرأ ابن السميعة اليماني، وسعيد بن أبي سعيد الأنصاري: ﴿وَأَتَّبَاعُكَ﴾ على الجمع، ونسبها أبو الفتح إلى ابن مسعود، والضحاك، وطلحة، قال أبو عمرو: وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما، والأعمش، وأبي حنيفة. وقرأ عيسى بن عمر الهمداني: ﴿لَوْ يَشْعُرُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجمهور: ﴿تَشْعُرُونَ﴾ ببناء الخطاب. وإعراب قوله: ﴿وَأَتَّبَاعُكَ﴾ إما جعله في موضع الحال، وإما عطف على الضمير في قوله: ﴿أَتُوبُونَ لَكَ﴾، وحسن ذلك الفصل بقوله: ﴿لَكَ﴾.

وقوله: ﴿مِنَ الرَّجْرِيِّينَ﴾ يحتمل أن يريد: بالحجارة، ويحتمل أن يريد: بالقرآن والشم ونحوه وهو شبهه بجرم الحجارة، وهو من الرجم بالغيب والظن ونحو ذلك. وقوله: ﴿أَفْتَحَ﴾ معناه: احكم، والفتاح: السفينة، وجمعها فلك أيضاً، وقد تقدم بسط القول في هذا الجمع في سورة الأعراف، و﴿الْمَشْحُونِ﴾ معناه: المملوء بما ينبغي له من قدر ما يحمل، وباقى الآية بين.

وقوله تعالى: ﴿أَتُومَرُّ﴾ يريد: في النسب والمنشأ، لا في الدين، و﴿أَمِينٌ﴾ معناه: على وحي الله تعالى ورسالته، يريد: في المنشأ.

وقرأ ابن كثير، وعاصم: ﴿أَجْرِي﴾ ساكنة الياء، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وشيبة بفتح الياء في كل القرآن، ثم ردّد عليهم الأمر بالتقوى والدعاء إلى الطاعة تحذيراً ونذارة وحرصاً عليهم، فذهب أشرافهم إلى استنقاص أتباعه بسبب صغار الناس الذين اتبعوه وضعفانهم، وهذا كقول قريش في عمار بن ياسر، وصهيب، وغيرهما. وقال بعض الناس: ﴿الْأَزْدَلُونَ﴾: الحاكمة والحجّامون والأساكفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا عندي على جهة المثال، أي: أهل الصنائع الخسيسة، لا أن هذه الصنائع المذكورة خصت بهذا، و﴿الْأَزْدَلُونَ﴾: جمع الأزدل، ولا يستعمل إلا مُعرفاً أو مضافاً، أو بمن، ويظهر من الآية أن مراد قوم نوح بنسبة الرذيلة إلى المؤمنين تهجين أفعالهم، لا النظر في صنائعهم، ويدل على ذلك قول نوح: ﴿وَمَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ آلَاءٍ﴾؛ لأن معنى كلامه: ليس في نظري وعلمي بأعمالهم ومعتقداتهم فائدة،



و «الحميم»: الولي والقريب الذي يخصك أمره ويخصه أمرك، وجامعة الرجل خاصته، وباقي الآية بين قد مضى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآيات من قوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ هي عندي منقطعة من كلام إبراهيم عليه السلام، وهي إخبار من الله عز وجل تعلق من صفة اليوم الذي وقف إبراهيم عليه السلام عنده في دعائه ألا يخزى.

١٠٥ - ١١٢ تفسير قوله عز وجل:

أسند ﴿كذبت﴾ إلى «القوم» وفيه عدم التأنيت من حيث «القوم» في معنى الأمة والجماعة. وقوله: ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ من حيث أن من كذب نبياً واحداً فقد كذب جميع الأنبياء؛ إذ قولهم واحد، ودعوتهم سواء،

تَخْلُدُونَ ﴿١٢٣﴾ - تفسير قوله عز وجل: ﴿عَادٌ﴾: قبيلة، وانصرف للخفة، وقيل: هو اسم أبيهم، وخاطبهم هود عليه السلام بمثل مخاطبة سائر الرسل، ثم كلمهم فيما انفردوا به من الأفعال التي اقتضتها أعمالهم، فقال: ﴿أَتَبْنُونَ﴾ على جهة التوبيخ، و«الزئج»: المرتفع من الأرض، ومنه قول المسيب بن علس يصف طريقاً: في الآل يخفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا رِيحٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَخْلٌ وَالسَّخْلُ: الثوب الأبيض، ومنه قول ذي الرمة: طِرَاقُ الْخَوَافِي مُشْرِقٌ فَوْقَ رِيحَةٍ نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيحِهِ يَتَرَفَّرُقُ وَمَن قَوْلِ الْأَعشى:

﴿عَادٌ﴾: قبيلة، وانصرف للخفة، وقيل: هو اسم أبيهم، وخاطبهم هود عليه السلام بمثل مخاطبة سائر الرسل، ثم كلمهم فيما انفردوا به من الأفعال التي اقتضتها أعمالهم، فقال: ﴿أَتَبْنُونَ﴾ على جهة التوبيخ، و«الزئج»: المرتفع من الأرض، ومنه قول المسيب بن علس يصف طريقاً: في الآل يخفِضُهَا وَيَرْفَعُهَا رِيحٌ يَلُوحُ كَأَنَّهُ سَخْلٌ وَالسَّخْلُ: الثوب الأبيض، ومنه قول ذي الرمة: طِرَاقُ الْخَوَافِي مُشْرِقٌ فَوْقَ رِيحَةٍ نَدَى لَيْلِهِ فِي رِيحِهِ يَتَرَفَّرُقُ وَمَن قَوْلِ الْأَعشى:

وَيَهْمَاءُ قَفِرٌ تَجَاوَزَتْهَا إِذَا حَبَّ فِي رِيحِهَا أَلْهَا وَيَقَالُ: (رِيحٌ) بِكسر الراء، ويقال: (زئجٌ) بفتحها، وبها قرأ ابن أبي عبله، وعبر بعض المفسرين عن «الزئج» بالطريق، وبعضهم بالفج، وبعضهم بالثبئة الصغيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجملة ذلك أنه المكان المشرق، وهو الذي يتنافس الناس في حياته. و«الآية»: البنيات، قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه علم، وقال مجاهد: أبراج الحمام، وقال النقاش وغيره: القصور الطوال، و«المصانع»: جمع مصنع، وهو ما أصنع وأتقن في بنائه من قصر مشيد ونحوه، وقال قتادة: هي مأخذ للماء، وقوله: ﴿لَمَلَكُمْ

تَخْلُدُونَ﴾، إما أن يريد: على أمليكم ورجائكم، وإما أن يريد الاستفهام على معنى التوبيخ والهزاء بهم، وقرأ الجمهور: ﴿تَخْلُدُونَ﴾ بفتح التاء وضم اللام، وقرأ قتادة: ﴿تَخْلُدُونَ﴾ بضم التاء وفتح اللام، يقال: خلد الشيء، وأخلده غيره، وقرأ أبي وعلقمة: ﴿لَمَلَكُمْ تَخْلُدُونَ﴾ بضم التاء وفتح الخاء وفتح اللام وشدها، وروي عن أبي: ﴿كأنكم تخلصون﴾، وروي عن ابن عباس

رضي الله عنهما: ﴿كأنكم خالدون﴾.

و«البطش»: الأخذ بقوة وسرعة، و«الجبار»: المتكبر، ومنه قولهم: «نخلة جبارة» إذا كانت لا تدرك علواً، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في المرأة التي آبت أن تنحى عن طريقه: «إنها جبارة»، ومنه الجبروت، فالمعنى: إنكم كفار الغضب، لكم السطوات المفرطة، والبوارد من غير تثبت.

ثم ذكرهم عليه السلام بأيادي الله تعالى قبلهم فيما منحهم من الأنعام والذرية والجنات والمياه المطردة فيها، ثم خوفهم عذاب الله تعالى في الدنيا، وكانت مراجعتم أن سؤوا بين وعظه وتركه الوعظ. وقرأ ابن محيصن: ﴿وَعَظَّتْ﴾ بإدغام الظاء في التاء، ثم قالوا:

﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا خَلْقُ الْأَوَّلِينَ﴾، واختلف القراء في ذلك - فقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر: ﴿خُلِقُوا﴾ بضم اللام، فالإشارة بـ «هَذَا» إلى دينهم وعبادتهم وتصرفهم في المصانع، أي: هذا الذي نحن عليه خلق الناس وعاداتهم، وما بعد ذلك بعث ولا تعذيب كما تزعم أنت، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو قلابة: ﴿خُلِقُوا﴾ بضم الخاء وسكون اللام، ورواه الأصمعي عن نافع، وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو: ﴿خُلِقُوا الْأَوَّلِينَ﴾ بفتح الخاء وسكون اللام، وهي قراءة ابن مسعود، وعلقمة، والحسن، وهذا يحتمل وجهين: أحدهما: وما هذا الذي تزعمه إلا اختلاق

الأولين من الكذبة قبلك، فأنت على مناجهم، والثاني أن يريدوا: ما هذه البنية التي نحن عليها إلا البنية التي عليها الأولون، حياة وموت، وما ثم بعث ولا تعذيب، وكل معنى مما ذكرته تحتمله قراءة ﴿خُلِقَ﴾، وروى علقمة عن ابن مسعود: ﴿إِلَّا اخْتِلاَقَ الْأَوَّلِينَ﴾، وباقى الآية قد مضى تفسيره.

﴿١٤٣﴾ - ﴿١٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿تَمُودُ﴾: قبيلة عربية، وتصرف ولا تصرف، على مقصد الحي أو القبيلة، وقرى بالوجهين: الجمهور بغير صرف، وابن وثاب وغيره بالصرف. و﴿صَلِّحٌ﴾ أخوهم في النسب، والأنبياء من العرب أربعة: هود وصالح وشعيب ومحمد ﷺ وعليهم أجمعين، وإسماعيل عليه السلام عربي اللسان سرياني النسب، وهو أب العرب الموجودين اليوم.

وقوله: ﴿أَتَذَكَّرُونَ فِي مَا هَلَفْتُمْ﴾ تخويف لهم، بمعنى: أتطمعون أن تقرروا في النعم على معاصيكم؟ و﴿الْهَظِيمُ﴾ معناه: اللين الرطب، و﴿الطَّلَعُ﴾: الكفري، وهو عنقود النخل قبل أن يخرج من الكم في أول نباته، فكان الإشارة إلى أن طلوعها يشمر ويرطب، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أتبع وبلغ وهو يهضم، وقال الزهري: الهضم: الرخص اللطيف أول ما يخرج، وقال الزجاج: هو - فيما قيل - الذي رطبه بغير نوى، وقال

الضحاك: الهضم: المنضد بعضه على بعض.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقرأ الجمهور: ﴿وَتَجَوَّنَ﴾ بكسر الحاء، وقرأ الكسائي بفتحها، وذكر أنها لغة، قال أبو عمرو: وهي قراءة الحسن، وأبو حيوة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن عامر: ﴿قَهْرِينَ﴾ وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿قَهْرِينَ﴾، وقرأ مجاهد: ﴿مُتَقَهْرِينَ﴾ بميم، على وزن: مُتَعَمِّلِينَ، واللفظة مأخوذة من الفراهة، وهي جودة منظر الشيء وقوة كماله في نوعه، فمعنى الآية: كَيْسِينَ مُهْتَمِّينَ، قاله ابن عباس، وقال مجاهد: شرهين، وقال ابن زيد: أقوياء، وقال أبو عمرو بن العلاء: أشيرين يطيرين، وذهب عبدالله بن شداد إلى أنه بمعنى: مستفهمين، أي: مبالغين في استحازة الفاره من كل شيء مما يصنعونه ويشتبهونه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَطِغُوا أَمْرَ النَّاصِرِينَ﴾، خاطب به جمهور قومه، وعنى بالمسرفين كبارهم وأعلام الكفر والإضلال فيهم. وقوله: ﴿بَيْنَ السَّحَرِينَ﴾ فيه تأويلان: أحدهما مأخوذ من السحر (بكسر السين)، أي: قد سُجِرَتْ فأنت لذلك مخبول لا تنطق بقويم، والثاني أنه مأخوذ من السحر (بفتح السين) وهي الرثة، وقيل: السحر:

قصة الرثة وما يتعلق بها من كبد وغيره، أي: أنت ابن آدم مثلنا لا يصح أن تكون رسولاً عن الله تعالى، وما بعده في الآية يُقْوِي هذا التأويل، ومن اللفظة قول لبيد:

فَإِنْ تَسْأَلِينَا فِيمَ نَحْنُ فَإِنَّا
عَصَافِيرُ مِنْ هَذَا الْأَنْامِ الْمُسْحَرِ
ويقال للاغتداء: التَّسْحِيرُ، ومنه قول امرئ القيس:

.....
وَتُسْحَرُ بِالطَّعَامِ وَبِالشَّرَابِ
ثم اقترحوا عليه آية، وزوي أنهم اقترحوا خروج ناقة من جبل من جبالهم، وقصتها في هذه الآية قد مضت مستوعبة، فلما خرجت الناقة قال لهم: ﴿هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ﴾، أي: حظ من الماء، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبٌ﴾ بضم الشين فيهما، وقد تقدم قصص ورود الناقة. و﴿السُّوءُ﴾: عقرها، وتوعدهم عليه بعذاب، وظاهر أمره أنه أراد: في الدنيا، ونسب عقرها إلى جميعهم مع اختصاص قدار الأحمر بعقرها من حيث اتفقوا على ذلك رأياً وتديراً. وقوله: ﴿فَأَصْبَحُوا نَدِيمِينَ﴾، لما ظهر لهم تغير ألوانهم حسبما كان صالح عليه السلام أخبرهم ندموا، ورأوا أن الأمر على ما أخبر به حتى نزل بهم العذاب، وكانت صيحة جمدت لها أبدانهم، وانشقت قلوبهم، وماتوا عن آخرهم، وصبت عليهم حجارة خلال ذلك.

﴿١٦٠﴾ - ﴿١٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال النقاش: إن في مصحف ابن مسعود، وأبي، وحفصة رضي الله تعالى عنهم: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ لُوطٌ﴾ وسقط «أخوهم»، واختصرت الياء في الخط واللفظ من قوله: ﴿وَأَطِيعُونَ﴾ مراعاة لرؤوس الآي أن تتناسب.

ثم وفقهم على معصيتهم البشعة في «إتيان الذكران» وترك فروج الأزواج، والمعنى: ويذر ذلك العاصي في حال المعصية، لا أن معناه: تركوا النساء جملة، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿مَا أَضْلَحَ لَكُمْ رِيكُمَ﴾، و﴿عَادُونَ﴾ معناه: ظالمون مرتكبون للخطر، فتوعدهم بالإخراج من أرضه فلا يثبهم عند ذلك، واقتصر على الإخبار بأنه قال: ﴿لِيَمْلِكُنَّ﴾. و«ألقى»: بغير الشيء وتركه، ثم دعا بالنجاة فنجاه الله تعالى بأن أمره بالرحلة ليلاً، وكانت امرأته تعين عليه قوم فأصابها حجر فهلكت فيمن هلك.

وقوله: ﴿فِي الْغَدِيرِ﴾ معناه: في الباقين، فإما أن يريد: في الباقين من ليداتها وأهل ستنها، وهو تأويل أبي عبيدة، وإما أن يريد: في الباقين في العذاب النازل بهم، وهو تأويل قتادة، والمشهور أنها بمعنى: بقي، وغابر الزمان: مستقبله، ولكن الأعشى قد استعمل «غابر الزمان» بمعنى ماضيه في شعر المنافرة المشهور، وقال الزهراوي: يقال للذهاب غابر، وللباقي غابر. و«التمدبير»: الإهلاك بإمطار الحجارة، وبذلك جرت السير في

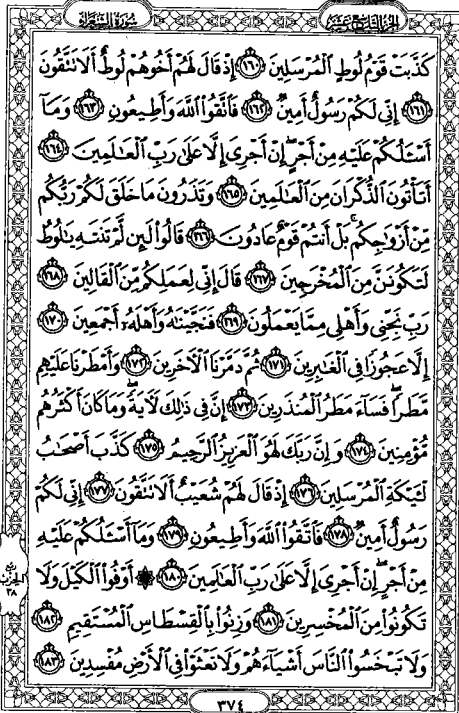
رجم اللوطي، وباقي الآية بين.

﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال النقاش: في مصحف ابن مسعود، وأبي، وحفصة: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ شُعَيْبٌ﴾، وقالوا: لا وجه لمراعاة النسب، وإنما هو أخوهم من حيث هو رسولهم وأدمي مثلهم.

وقرأ نافع، وابن كثير، وابن عامر: ﴿لَيْكَةِ﴾ على وزن فعلة هنا وفي (ص)، وقرأ الباقون: ﴿الْأَيْكَةِ﴾

وهي الدوحة الملتفة من الشجر على الإطلاق، وقيل: من شجر معروف له غضارة يألفه الحمام والقمارى ونحوه، وقال قتادة: كان شجرهم هذا دوماً، و«لَيْكَةِ» اسم البلد في قراءة من قرأ ذلك، قاله بعض المفسرين، وذكره أبو عبيد القاسم بن سلام، وذهب قوم إلى أنها مُسهلة من الأيكة، وأنها وقعت في المصحف هنا وفي سورة (ص) بغير ألف، وقال أبو علي: سقوط ذلك في المصحف لا يرجح النطق بها هكذا؛ لأن خط المصحف أتبع فيه تسهيل اللفظ، كلما سقطت الألف من اللفظ سقطت من الخط، نحو سقوط الواو من قوله: ﴿سَنَعُ أَرْيَابِيَّةَ﴾ لما سقط من اللفظ، وأما ترجيح القراءة في ﴿لَيْكَةِ﴾ بفتح الياء في موضع الجر فلا يقتضيه ما في المصحف، وهي قراءة ضعيفة،



ويدل على ضعفها أن سائر ما في القرآن غير هذين الموضعين مُجمَع فيه على «الْأَيْكَةِ» بالهمز والألف والخفض.

وكانت مدن القوم سبعة فيما روي، فلم يكن شعيب منهم، فلذلك لم يذكر هنا بأنه أخ لهم، وإنما كان من بني مدين، ولذلك ذُكر بأخوهم، وجاءت الألفاظ في دعاء كل واحد من هؤلاء الأنبياء واحدة بعينها إذ كان الإيمان المدعو إليه معنى واحداً بعينه، وفي قولهم عليهم السلام: ﴿أَلَا تَتَّقُونَ﴾ عرض رقيق وتلطف، كما قال تبارك وتعالى: ﴿نَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرْكَ﴾، وكانت معصيتهم المضافة إلى كفرهم بخس الموازين وتنقص أموال الناس بذلك. و«الْقِسْطَاسُ»: المعتدل من الموازين، وهو بناء مبالغة من

النزول على قلبه بكونه من المنذرين؛ لأنه لا يمكن أن يُنذر به إلا بعد حفظه، وقوله: ﴿يَلِسَانٌ﴾ يمكن أن يتعلق بلفظ الباء بـ ﴿نَزَلَ﴾، وهذا على أن النبي ﷺ إنما كان يسمع من جبريل عليه السلام حروفاً عربية، وهو القول الصحيح، وتكون صلصلة الجرس صفة لشدة الصوت وتداخل حروفه وعجلة مورده وإغلاظه، ويمكن أن يتعلق بقوله: ﴿يَكُونُ﴾، وتمسك بهذا من رأى أن النبي ﷺ كان يسمع أحياناً مثل صلصلة الجرس يتفهم له منه القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف يقتضي أن بعض ألفاظ القرآن هي من لدن النبي ﷺ، وهو مردود.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَلِيَّ زُرِّي الْأَوَّلِينَ﴾ أي في كتبهم، يريد أن القرآن المذكور في الكتب المنزلة القديمة مُتَّبَعٌ عليه مشاز إليه، وقرأ الجمهور: ﴿زُرِّي﴾ بضم الباء، وقرأ الأعمش بسكونها.

ثم احتج عليهم بأنهم كان ينبغي أن يُصَحَّحَ عندهم أمره، كان علماء بني إسرائيل يعلمونه، كعبدالله بن سلام ونحوه، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً - فيما حكى عنه الثعلبي -: إن أهل مكة بعثوا إلى أحبار يثرب يسألونهم عن النبي ﷺ، فقالوا: هذا زمانه، ووصفوا بعته، ثم خلطوا في أمر محمد ﷺ، فنزلت الآية في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

فاضطرمت عليهم تلك السحابة ناراً فأحرقتهم عن آخرهم، وللناس في حديث يوم الظلة تطويلات لا تثبت، والحق أنه عذاب جعله الله تبارك وتعالى ظُلةً، وذكر الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: من حدثك ما عذاب يوم الظلة فقد كذب، وباقى الآية بين.

١٩٦ - ١٩٧ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ للقرآن، أي: إنه ليس بكهانة ولا سحر، وإنما هو

من عند الله تبارك وتعالى، و﴿الرُّجُحُ الْأَيْمِينَ﴾: جبريل عليه السلام بإجماع، ونزل باللفظ العربي والمعاني الشابتة في الصدر والمصاحف، والضمير على ذلك كله عائد في ﴿يَدِهِ﴾، و«اللسان» عبارة عن اللغة، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وعاصم - في رواية حفص -: ﴿نَزَّلَهُ﴾ خفيفة الزاي ﴿الرُّجُحُ﴾ بالرفع، وقرأ ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم - وحمزة، والكسائي بشد الزاي ﴿الروح﴾ نضباً، ورجحها أبو حاتم بقوله تعالى: ﴿فَالْتَمَتْ رَزَقَهُ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾، ويقولون: ﴿لَتَنزِيلٌ رَبِّ الْمَلَائِكِينَ﴾، وقوله: ﴿يَدِهِ﴾ في موضع الحال، كقوله تعالى: ﴿وَقَدْ دَسَّلُوا بِالْكَذِبِ وَهُمْ قَدْ حَرَجُوا بِهِ﴾. وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ إشارة إلى حفظه إياه، وعُلِّلَ

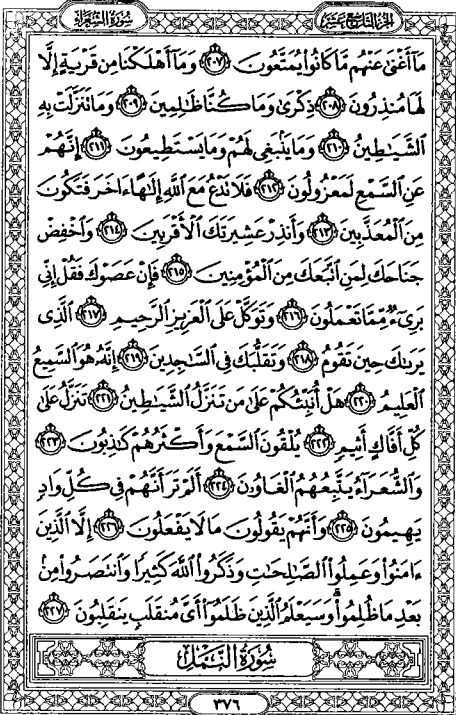
وَأَنقَرُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴿١٩٦﴾ قَالُوا إِنَّمَا آتَيْنَا مِنَ السَّحَابِ مَاءً وَمَا آتَيْنَا إِلَّا بَشْرًا مَمْلُوءًا وَإِنْ نَطْنُكَ لَوْ أَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿١٩٧﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٩٨﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٩٩﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَمَوْعِدٌ يُعْتَدِلُ فِيهِ يَوْمَ لَا يُغْنِي عَنْكَ كِبَارُكَ وَلَا تَنْفَعُكَ إِسْمَاءُكَ وَأِنَّهُ لَنَزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿٢٠٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٢٠٤﴾ لِيَلْسَانَ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿٢٠٥﴾ وَإِنَّمَا تَلَوْتُهُ نِزْوَةً الْأُولَىٰ ﴿٢٠٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ أَنزَلْنَاهُ عَلَمَلُوا أَبِي بَشْرًا بِلِ لَآيَةً أَن يُعَلِّمَهُ الْفَرَآءَ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٠٧﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُخْرِبِينَ ﴿٢٠٨﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّىٰ يَرُوا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠٩﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢١٠﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنظَرُونَ ﴿٢١١﴾ أَوَعِدْنَا يٰسْتَعْجِلُونَ ﴿٢١٢﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢١٣﴾ فَرَجَعْنَاهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢١٤﴾

القسط، وذهب ابن عباس ومجاهد إلى أن قوله: ﴿وَرَزُقًا بِالْفِطْسَانِ﴾ بضم القاف [من القسطاس]، وقرأ عيسى وأهل الكوفة بكسرها، و﴿تَحَنُّنًا﴾ معناه: تفسدون، يقال: ﴿عَثًا﴾ إذا أقسَد.

﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾: القرون والخليقة الماضية، قال الشاعر:

وَالْمَمُوتُ أَغْظَمُ حَادِثٍ

فِي مَا يَمُرُّ عَلَى الْجِبِلَّةِ
وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾
بكسر الجيم والباء، وقرأ أبو حصين والحسن: ﴿وَالْجِبِلَّةَ﴾ بضمها، و«الكسف»: القطع، واحدها: كِسْفَةٌ، كَتَمَرَةٌ وَتَمَرٌ، و﴿يَوْمِ الظُّلَّةِ﴾ يوم عذابهم، وصورته - فيما زوي - أن الله تعالى امتحنهم بَحَرٍّ شَدِيدٍ، فلما كان ذلك اليوم غشى بعض فطرهم سحابة، فاجتمعوا تحتها،



في الأسماء فجمع، وليس بأعجمي النسبة إلى العجم. وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ بالياء ﴿لَمْ يَأْتِ﴾ بالنصب، وقرأ: ﴿أَوْ لَيْسَ لَكُمْ آيَةٌ﴾ ابن مسعود والأعمش، وفي مصحف أبي ﴿الَيْسَ﴾ بغير واو أو فاء، وقرأت فرقة: ﴿تَكُنْ﴾ بالتاء من فوق ﴿آيَةٌ﴾ رفعا، وقرأ بعض من قرأ بالتاء ﴿آيَةٌ﴾ بالنصب، وسائرهم بالرفع، وقد مضى ذكر ما في السبع، وذكر الطبري أن الضمير في قوله: ﴿وَأَنزَلْنَا لِرَبِّ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ عائد على «الذَّكْرُ» في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ إِلَّا يَكْفُرُ بِآيَاتِهِ﴾.

﴿٢٠٠﴾ - ﴿٢٠١﴾ تفسير قوله عز وجل:

الإشارة بـ «ذَلِكَ» إلى ما يتحصل لسامع الآيات المتقدمة من الحتم عليهم بأنهم لا يؤمنون، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَوْ زُلْزِلَتْ عَلَيْنَ مَبْعُثَاتُ الْآعْتَجِينَ﴾ الآية. ومعناها: أدخلناه، والضمير فيه للكفر الذي يتضمنه قوله: ﴿مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾، قاله الحسن. قال الرُّمَّانِي: لا وجه لهذا إلا أنه لم يجر ذكره، وإنما الضمير للقرآن وإخطاره بالبال، وحكى الزهراوي أن الضمير للتكذيب المفهوم، وحكاه الثعلبي، وقرأ ابن مسعود: ﴿كَذَلِكَ جَعَلْنَاهُ فِي قُلُوبِ﴾، وروى عنه: ﴿نَجْمَلَهُ﴾، و«المجرمون» أراد به مجرمي كل

ويؤيد هذا كون الآية مكبية، وقال مقاتل: هذه الآية مدنية، فمن قال: إنها مكبية، ذهب إلى أن علماء بني إسرائيل ذكروا أن في التوراة صفة النبي ﷺ، وهذه الإشارة إلى ذلك. وكلهم قرأ: ﴿يَكُنْ﴾ بالياء ﴿يَأْتِ﴾ نصبا، غير ابن عامر فإنه قرأ: ﴿تَكُنْ﴾ بالتاء من فوق: ﴿آيَةٌ﴾ رفعا، وهي قراءة عاصم والجحدري، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنْ يَأْتِيَهُمْ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الجحدري: ﴿أَنْ تَعْلَمَهُ﴾ بالتاء من فوق.

ثم سأل محمد بن سفيان عن صدور قومه عن الشرع بأن أخبر أن هذا القرآن العربي لو سمعوه من أعجم، أي: من حيوان غير ناطق، أو جماد، - والأعجم: كل ما لا يفصح - ما كانوا يؤمنون، أي: قد حتم الكفر عليهم فلا سبيل إلى إيمانهم، و«الأعجمون» جمع أعجم، وهو الذي لا يفصح، وإن كان عربي اللسان يقال له: أعجم، وكذلك يقال للحيوانات والجمادات، ومنه قول النبي ﷺ: «جَزُءُ الْعَجْمَاءِ جِبَارٌ»، وأسند الطبري عن عبد الله بن مطيع أنه قال حين قرأ هذه الآية وهو واقف بعرفة: «جملي هذا أعجم، فلو أنزل عليه ما كانوا يؤمنون»، والعجمي هو الذي نسبه في العجم وإن كان فصيح اللسان. وقرأ الحسن: ﴿الْأَعْجَمِيِّينَ﴾، قال أبو حاتم: أراد جمع «الأعجمي» المنسوب، وقال بعض النحويين: الأعجمون جمع أعجم، وهو أعجم، أضيف فقويت بالإضافة رتبته

أمة، أي أن هذه عادة الله تبارك وتعالى فيهم أنهم لا يؤمنون حتى يروا العذاب، ولا ينفعهم الإيمان بعد تلبس العذاب بهم، وهذا على جهة المثال لقريش، أي: هؤلاء كذلك. وكشف الغيب ما تضمنته هذه الآية يوم بدر.

وقرأ الجمهور: ﴿فَيَأْتِيَهُمْ﴾ بالياء، أي العذاب، وقرأ الحسن: ﴿فَتَأْتِيَهُمْ﴾ بالتاء من فوق، يعني الساعة، وفي قراءة ابن كعب: ﴿فَيَرَوْهُ بَغْتَةً﴾، ومن قول كل أمة مُسْتَعْدِبَةٌ: ﴿هَلْ تَحَرَّ مُنْظَرُونَ﴾ أي مؤخرون، وهذا على جهة التمني منهم والرغبة حيث لا تنفع الرغبة.

ثم رجع لفظ الآية إلى توبيخ قريش على استعجالهم عذاب الله تعالى في طلبهم سقوط السماء كسفاً وغير ذلك، وقولهم لمحمد ﷺ، أين ما

تَعْدُنَا؟ أَي أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ ذَلِكَ لِأَن عَذَابَنَا بِالْمُرْصَادِ إِذَا حَانَ حِينُهُ. ثُمَّ خَاطَبَ مُحَمَّدًا ﷺ بِإِقَامَةِ الْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ فِي أَنَّ مُدَّةَ الْإِرْجَاءِ وَالْإِهْمَالِ وَالْإِمْلَاءِ لَا يَعْنِي مَنْعُ نَزُولِ الْعَذَابِ بَعْدَهَا، وَوُقُوعُ النَّقْمَةِ، وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ: ﴿أَفَرَأَيْتَ الْآيَةَ، قَالَ عَكْرَمَةَ: ﴿بِسَبِّئِينَ﴾ يَرِيدُ: عُمْرَ الدُّنْيَا، وَالْأَبِي جَعْفَرَ الْمَنْصُورَ قِصَّةَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ لَمْ يَهْلِكْ قَرْيَةً مِنَ الْقُرَى إِلَّا بَعْدَ إِسْرَالٍ مِنْ بِنْدَرِهِمْ عَذَابَ اللَّهِ تَعَالَى ذَكَرَى لَهُمْ وَتَبَسَّرَةً وَإِقَامَةَ حُجَّةٍ: ﴿لِيَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ و﴿ذَكَرْنَا﴾ عِنْدَ الْكَسَائِثِ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ نَصَبٌ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَهُوَ قَوْلُ الزَّجَّاجِ، وَيَصِحُّ أَنْ يَكُونَ فِي مَوْضِعِ رَفْعٍ عَلَى خَبَرِ ابْتِدَاءٍ، تَقْدِيرُهُ: «ذَلِكَ ذَكَرَى»، ثُمَّ نَفَى عَنِ جِهَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ الظُّلْمَ؛ إِذْ هُوَ مَا لَا يَلِيقُ بِهِ.

﴿٢١٧﴾ - ﴿٢١٨﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

لَمَا كَانَ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ مَا قَالَ الْكُفَّارُ - لِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ كَهَانَةٌ - نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الْمَكْذُوبَةُ لِذَلِكَ، أَي: مَا نَزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ؛ لِأَنَّهَا عُزِلَتْ عَنِ السَّمْعِ الَّذِي كَانَتْ تَأْخُذُ لَهُ مَقَاعِدَهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَا يَلْبَسُونَ﴾ أَي: مَا يَمْكُنُهُمْ، وَقَدْ تَجَيَّأَ هَذِهِ اللَّفْظَةُ عِبَارَةً عَمَّا لَا يَكُونُ، وَعِبَارَةً عَمَّا لَا يَلِيقُ وَإِنْ كَانَ مَمْكُنًا، وَلَمَا جَاءَ اللَّهُ تَعَالَى بِالْإِسْلَامِ حَرَسَ السَّمَاءَ بِالشَّهْبِ الْجَارِيَةِ إِثْرَ الشَّيَاطِينِ، فَلَمْ يَخْلُصْ شَيْطَانٌ بِشَيْءٍ يُلْقِنُهُ كَمَا كَانَ يَتَّفِقُ لَهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ.

وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿الشَّيَاطِينُ﴾ وَرَوَى عَنِ الْحَسَنِ أَنَّهُ قَرَأَ: ﴿الشَّيَاطُونُ﴾، وَهِيَ قِرَاءَةٌ مُرْدُودَةٌ، قَالَ أَبُو حَاتِمٍ: هِيَ غَلَطٌ مِنْهُ أَوْ عَلَيْهِ، وَحَكَاهَا الثَّعْلَبِيُّ أَيْضًا عَنْ ابْنِ السَّمِيعِ، وَذَكَرَ عَنْ يُونُسَ بْنِ حَبِيبٍ أَنَّهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَقُولُ: دَخَلْتُ بَسَاتِينَ مِنْ وِثَائِهَا بَسَاتُونَ، قَالَ يُونُسُ: مَا أَشْبَهَ هَذَا بِقِرَاءَةِ الْحَسَنِ.

ثُمَّ وَصَّى عَزَّ وَجَلَّ نَبِيَّهُ ﷺ بِالثَّبُوتِ عَلَى أَمْرِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَمَرَ بِبِنْدَارَةِ عَشِيرَتِهِ تَخْصِيصًا لَهُمْ، إِذِ الْعَشِيرَةُ مِظَنَّةُ الْمُقَارِبَةِ وَالطَّوَاعِيَةِ، وَإِذْ يُمْكِنُ مَعَهُمْ مِنَ الْإِغْلَاطِ عَلَيْهِمْ مَا لَا يَحْتَمِلُهُ غَيْرُهُمْ، فَإِنَّ الْبِرَّ بِهِمْ فِي مِثْلِ هَذَا الْحَمْلِ عَلَيْهِمْ، وَالْإِنْسَانَ غَيْرَ مَثْمُومٍ عَلَى عَشِيرَتِهِ، وَكَانَ هَذَا التَّخْصِيصُ مَعَ الْأَمْرِ الْعَامِّ بِبِنْدَارَةِ الْعَالَمِ، وَرَوَى عَنِ ابْنِ جَرِيرٍ أَنَّ الْمُؤْمِنِينَ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَتِهِ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ نَالَهُمْ هُمُ مِنْ هَذَا التَّخْصِيصِ وَخُرُوجِهِمْ مِنْهُ، فَنَزَلَتْ: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ أَنْتَ مِنْكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾،

وَلَمَّا أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِهَذِهِ الْبِنْدَارَةِ عَظُمَ مَوْضِعُ الْأَمْرِ عَلَيْهِ وَصَغُبَ، لَكِنَّهُ تَلَقَّاهُ بِالْجَلْدِ، وَصَنَعَ أَشْيَاءَ مُخْتَلِفَةً كُلُّهَا بِحَسَبِ الْأَمْرِ، مِنْ ذَلِكَ «أَنَّهُ أَمَرَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بِأَنْ يَصْنَعَ طَعَامًا، وَجَمَعَ عَلَيْهِ بَنِي جَدِّهِ عَبْدِالْمَطْلَبِ، وَأَرَادَ نَذَارَتَهُمْ وَدَعْوَتَهُمْ فِي ذَلِكَ الْجَمْعِ، فَظَهَرَ مِنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بَرَكَةٌ فِي الطَّعَامِ، قَالَ عَلِيٌّ: وَهُمْ يَوْمَئِذٍ أَرْبَعُونَ رَجُلًا، يَنْقُصُونَ رَجُلًا أَوْ يَزِيدُونَهُ، فَرَمَاهُ أَبُو لَهَبٍ بِالسَّحَرِ، فَوَجِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَافْتَرَقَ جَمْعُهُمْ مِنْ

غَيْرِ شَيْءٍ، ثُمَّ جَمَعَهُمْ مَرَّةً ثَانِيَةً كَذَلِكَ وَأَنْذَرَهُمْ وَوَعَّظَهُمْ فَتَضَاحَكُوا وَلَمْ يَجِيبُوا»، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ نَادَى عَمَّهُ الْعَبَّاسَ، وَصَفِيَّةَ عَمَتَهُ، وَفَاطِمَةَ ابْنَتَهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَقَالَ: «لَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ» فِي حَدِيثٍ مَشْهُورٍ، وَمِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ صَعِدَ عَلَى الصَّفَا، أَوْ أَبِي قُبَيْسٍ، وَنَادَى: يَا بَنِي عَبْدِ مَنَافٍ، وَاصْبِحَا، فَاجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّاسُ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، فَقَالَ: يَا بَنِي فُلَانٍ، يَا بَنِي فُلَانٍ، حَتَّى أَتَى عَلَى بَطُونِ قُرَيْشٍ جَمِيعًا، فَلَمَّا تَكَامَلَ خَلْقٌ كَثِيرٌ مِنْ كُلِّ بَطْنٍ قَالَ لَهُمْ: «أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُمْ أَنَّ خَيْلًا بَسَفَحَ الْجَبَلَ تَرِيدُ الْغَارَةَ عَلَيْكُمْ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قَالُوا: نَعَمْ، فَإِنَّا لَمْ نَجْرِبْ عَلَيْكَ كَذِبًا، فَقَالَ لَهُمْ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، فَقَالَ لَهُ أَبُو لَهَبٍ لَعْنَةُ اللَّهِ: أَلْهَذَا جَمَعْتُنَا؟ تَبَّأُ لَكَ سَائِرِ الْيَوْمِ، فَنَزَلَتْ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ السُّورَةُ.

وَالْعَشِيرَةُ: قَرَابَةُ الرَّجُلِ، وَهِيَ فِي الرِّبَّةِ تَحْتَ الْفَخْذِ وَفَوْقَ الْعَصْبَةِ. وَ«أَخْفِضِ الْجَنَاحَ» اسْتِعَارَةٌ وَمَعْنَاهُ: لِيُنْزِلِ الْكَلِمَةَ وَتَسْطُرَ الْوَجْهَ وَالْبِرُّ، وَالضَّمِيرُ فِي «عَصْرَكَ» عَائِدٌ عَلَى عَشِيرَتِهِ مِنْ حَيْثُ جَمَعَتْ رَجُلًا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِالضَّمِيرِ مِنْهُمْ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ مُوَادَعَةٌ نَسَخَتْهَا آيَةُ السَّيْفِ.

﴿٢١٧﴾ - ﴿٢١٨﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

قَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَأَبُو جَعْفَرٍ وَشَيْبَةُ: «فَتَوَكَّلْ» بِالْفَاءِ، وَكَذَلِكَ فِي مَصَاحِفِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ،

والجمهور بالواو، وكذلك في سائر المصاحف، وأمره تعالى بالتوكل عليه في كل أمره، ثم جاء بالصفات التي تؤنس المتوكل، وهي العزّة والرحمة المذكورتان في آخر قصص الأسم المذكورة في هذه السورة وضمنها نصر كل نبي على الكفرة، والثّمهم بأمره والنظر إليه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرْبِكَ جِبَنَ نَقْمٍ﴾ عبارة عن إدراك، وظاهر الآية أنه أراد قيام الصلاة، ويحتمل أنه يريد سائر التصرفات، وهو تأويل مجاهد وقتادة، وقوله: ﴿فِي الْكَلْبِ﴾ أي: في أهل الصلاة، أي صلاتك مع المصلين، قاله ابن عباس وعكرمة وغيرهما، وقال أيضاً مجاهد: تقلب أعينك وأبصارك في الساجدين حين تراهم من وراء ظهرك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى أجنبي هنا.

وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً وقتادة: أراد: تقلبك في المؤمنين، فعبر عنهم بالساجدين. وقال ابن جبير: أراد الأنبياء، أي: تقلبك كما تقلب غيرك من الأنبياء.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَٰنَ تَنَزَّلُ الشَّيْطَانُ﴾، هنا استفهام وتوقيف تقرير، و«الأفك»: الكذاب، و«الأنيم»: الأثم، ويريد الكهنة لأنهم كانوا يتلقون من الشيطان الكلمة الواحدة التي سمعت من السماء فيخلطون معها مائة كذبة، فإذا صدقت تلك الكلمة كانت سبب ضلالة لمن سمعها. وقوله: ﴿يَلْقَوْنَ﴾ - يعني الشياطين، ومقتضى ذلك أن الشيطان المسترق

أيضاً كان يكذب إلى ما سمع، هذا في الأكثر، ويحتمل الضمير في ﴿يَلْقَوْنَ﴾ - أي يكذبون - الكهنة. ولما ذكر الكهنة بإفكهم وكذبهم الذي يقتضي نفي كلامهم عن كلام الله تعالى عقب ذلك بذكر الشعراء وحالهم لينبه على بُعد كلامهم من كلام الله تعالى في القرآن، إذ قال في القرآن بعض الكفرة: إنه شعر، وهذه الكناية عن شعر الجاهلية، حكى النقاش عن السدي أنها في ابن الزبيري، وأبي سفيان بن الحرث، وهبيرة بن أبي وهب، ومسافع الجمحي، وأبي عزة، وأمّية بن أبي الصلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الأولان ممن تاب وأمن رضي الله عنهما، ويدخل في الآية كل شاعر مخلط يهجو أو يمدح شهوة، ويقذف المحصنات، ويقول الزور.

وقرأ نافع: ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ بسكون التاء وفتح الباء، وهي قراءة أبي عبد الله، والحسن - بخلاف عنه - وقرأ الباقون بشد التاء وكسر الباء.

واختلف الناس في قوله: ﴿أَلْفَاوْنَ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الرّواة، وقال أيضاً: هم المستحسنون لأشعارهم، المصاحبون لهم، وقال عكرمة: هم الرعاع الذين يتبعون الشاعر، وهذا أرجح الأقوال. وقال مجاهد وقتادة: ﴿أَلْفَاوْنَ﴾: الشياطين، وقوله تعالى: ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهْمُونَ﴾ عبارة عن تخليطهم وخوضهم في كل فن من غث الكلام وباطله، وتحسينهم القبيح وتقييحهم الحسن، قاله ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ ذكر لتعاطيهم وتعتمقهم في مجاز الكلام حتى يؤول إلى الكذب، ولكن في هذا اللفظ عذر لبعضهم أحياناً، فإنه يؤوى أن النعمان بن عدي لما ولّاه عمر بن الخطاب رضي الله عنه ميسان، وقال لزوجته الشعر المشهور عزّله عمر رضي الله عنه، فاحتجّ عليه بقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ فدرأ عنه عمر رضي الله عنه الحد في الخمر. وروى جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ أنه قال: «مَنْ مَشَى سَبِيحَ خَطَوَاتِ فِي شِعْرِ كُتِبَ مِنَ الْغَاوِينَ»، ذكره أسد بن موسى، وذكره النقاش.

﴿٢٢٧﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

هذا الاستثناء هو في شعراء الإسلام، كحسان بن ثابت، وكعب بن مالك، وعبد الله بن رواحة، وكل من اتصف بهذه الصفة، وروي عن عطاء بن يسار أن هؤلاء شقّ عليهم ما ذكر قبّل في الشعر، وذكروا ذلك للنبي ﷺ فنزلت الآية للاستثناء في الشعر.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكِّرُوا لِلنَّبِيِّ كَثِيرًا﴾ يحتمل أن يريد: في أشعارهم، وهو تأويل ابن زيد، ويحتمل أن يريد: ذلك خلّق لهم وعادة وعبادة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا كما قال لبيد حين طلب منه شعر: «إن الله أبدلني بالشعر القرآن خيراً منه»، وكلّ شاعر في الإسلام يهجو أو يمدح عن غير حق، ويقذف ولا يرتدع عن قول دنيء، فهو داخل في هذه الآية، وكل تقبي منهم يكسر من الذكر، ويُمسك عن كل ما يعاب فهو داخل في الاستثناء، وقوله: ﴿وَأَنْتُمْ يَقُولُونَ﴾ إشارة إلى ما قالوه من

نفوسهم، ومع ذلك اكتسابهم وحرصهم على كفرهم، وهذا على أن تكون الأعمال الْمُزَيِّنَة كفرهم وطغيانهم، ويحتمل أن الأعمال الْمُزَيِّنَة هي الشريعة التي كان الواجب أن تكون أعمالهم، فأخبر الله تبارك وتعالى على جهة الذكر أنه بفضله ورحمته زَيَّنَ الدِّينَ وَبَيَّنَّهُ، ورسم الأعمال والتوحيد، لكن هؤلاء ﴿بِعَمَلِهِمْ﴾، أي: يُعْرَضُونَ، و«الْعَمَهُ»: الحيرة والتردد في الضلالة. ثم توعدهم تعالى بسوء العذاب، فمن ناله شيء منه في الدنيا نفى عنه عذاب الآخرة، ومن لم ينله عذاب في الدنيا كان سوء عذابه في موته وفيما بعده، و﴿الْأَخْسَرُونَ﴾: جمع أخسر؛ لأن (أفعل) صفة، لا يجمع إلا أن يضاف فتقوى رتبته في الأسماء، وفي هذا نظر:

﴿٦﴾ - ﴿٧﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ: «تَلَقَىٰ» تُفَعِّلُ، مضاعف، ومعناه: تعطى، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا يَلْقَاهَا إِلَّا دُوْحًا حَظِيْعًا عَظِيْمًا﴾، قال الحسن: المعنى: إنك لتقبل القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أنه يفيض عليه فضل الله تعالى فيقبله ﷻ، وهذه الآية ردُّ على كفار قريش في قولهم: إن القرآن من تلقاء محمد بن عبدالله، و﴿وَمِنَ الَّذِينَ﴾ معناه: من عنده ومن جهته. و«الْحَكِيْمُ»: ذو الحكمة في معرفته حيث يجعل رسالاته، وفي غير ذلك، لا إله إلا هو.

ثم قصَّ تعالى خبر موسى، والتقدير: اذكر إذ قال موسى، وكان من أمر موسى عليه السلام أنه حين

هنا، وعلى القول بأنها حروف من أسماء الله تبارك وتعالى فالأسماء هنا: لطيف وسميع، وكونها إشارة إلى نوع حروف المعجم أبين الأقوال، وعطف ﴿كُتِبَ﴾ على ﴿الْقُرْآنُ﴾ هما لمُسمى واحد من حيث هما صفتان لمعنيين، فالقرآن لأن اجتمع، والكتاب لأنه كُتِبَ، وقرأ ابن أبي عمير: ﴿وَكُتِبَ مُبِينٌ﴾ بالرفع، وقوله: ﴿هُدًى وَبُشْرَى﴾ يحتمل أن يكون في موضع نصب على

المصدر، ويحتمل أن يكون في موضع رفع على خير ابتداء مضمر، تقديره: ذلك هدى وبشر.

ثم وصف تعالى المؤمنين بالأوصاف الخليفة بهم، وإقامة الصلاة: إدامتها على وجهها، و﴿الزَّكَاةَ﴾ هنا يحتمل أن تكون غير المفروضة لأن السورة مكية قديمة، ويحتمل أن تكون المفروضة من غير تفسير، وقيل: ﴿الزَّكَاةَ﴾ هنا بمعنى الطهارة من النقائص وملازمة مكارم الأخلاق، وتكرار الضمير في قوله: ﴿وَمِمَّنْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُرْجَوْنَ﴾ للتأكيد.

ثم ذكر تعالى الكفرة الذين لا يؤمنون بالبعث، والإشارة إلى قريش، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لِمَ أَفْعَلْنَاكُمْ﴾ يحتمل أنه تعالى حتم عليهم الكفر، وحبَّب إليهم الشُّركَ، وزَيَّنَهُ بأن خلقه واختصره في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ نِكَءٌ أَي نَشَأَ الْقُرْآنُ وَكُتِبَ مُبِينٌ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُرْجَوْنَ ﴿٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ رَبَّنَا لِمَ أَفْعَلْنَاكُمْ قَوْمًا لَّهُمْ بَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ هُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾ رَبَّنَا لِمَ لَقَّيْنَا الْقُرْآنَ بِرَبِّكَ لَدُنَّ حِكْمٍ عَلَيْهِمْ ﴿٦﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا مِّنْ تَابِيتِكُمْ مِّنْهَا يَخْرُجُ أَوْءَاتِكُمْ بِشَهَابٍ مِّمَّنْ لَعْنَكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُوذِيَ أَنْ بُرِكَ مِنْ فِي النَّارِ وَمِنْ حَوْلِهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨﴾ يُسَمُّونَ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ وَأَنَّى عَصَاكَ فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا شَرْبٌ كَافِرٌ وَلَكِنَّهُ يُسَمُّونَ لِأَخْفَىٰ إِلَيْنِ لَا يَخْفَىٰ لَدَى الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَلْ حَسْبًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخَلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ فَخَرُجْ بِيضًا مِّنْ عَيْرٍ سُوءٍ فِي سَبْعِ آيَاتٍ إِلَى الْفِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِذْ هُمْ كَاوُوا قَوْمًا فَاسِيقِينَ ﴿١٢﴾ فَمَا جَاءَهُمْ إِلَّا بُرْهَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ فَأَلْهَمْنَا فِرْعَوْنَ أَن يَقُولِ يَا قَوْمِ أَإِنِّي مُبْعَثٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾

rvv

الشعر وغيره في قريش، قال قتادة: وانتصروا بمثل ما ظلموا.

وباقى الآية وعيدًا للظلمة كفار مكة، وتهديدًا لهم، وعَمِلَ ﴿يَنْفَلِتُونَ﴾ نفي ﴿أَنْ﴾ لتأخره، والحول والقوة لله عزَّ وجلَّ، والله تبارك وتعالى أعلم.

تم بحمد الله وتوفيقه تفسير سورة الشعراء وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

تفسير سورة النمل

﴿١﴾ - ﴿٥﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

تقدم القول في الحروف المقطعة في كل الشُّور، وكل ما قيل مترتب

خرج بزوجه بنت شعيب عليهما السلام يريد مصر - وقد قرب وقت نبوته - مشوا في ليلة ظلماء ذات برد ومطر، ففقدوا النار ومسهم البرد واشتدت عليهم الظلمة وضلوا الطريق، وأصلد زناد موسى عليه السلام، فبينما هو في هذه الحال إذ رأى ناراً على بُعد. و﴿أَسْتَشْ﴾ معناه: رأيتُ، ومنه قول حسان بن ثابت:

انظُرْ خَلِيلِي بِبَابِ جَلَّقَ هَلْ
تُؤْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ؟
فلما رأى موسى ذلك قال لأهله ما في الآية، ومشى نحوها، فلما دنا منها بعدت هي منه، وكان ذلك نوراً من نور الله عز وجل، ولم يكن ناراً في نفسه، لكن ظنه موسى ناراً، فناداه الله تبارك وتعالى عند ذلك، وسمع موسى عليه السلام النداء من جهة الشجرة، وأسمعه الله تعالى كلامه. و﴿الْخَيْرِ﴾ الذي رجاه موسى عليه السلام هو الإعلام بالطريق. وقوله: ﴿يُشَاهِبُ قَيْسٍ﴾، شبه النار التي توجد في طرف عود أو غيره بالشهاب، ثم خصصه بأنه مما اقتبس؛ إذ الشهب قد تكون من غير اقتباس، والقبس اسم لقطعة النار تُقْتَبَسُ في عود أو غيره، كما أن القبض اسم ما يُقْبَضُ، ومنه قول أبي زيد:

فِي كَفِّهِ صَعْدَةٌ مُتَقَفَّةٌ
فِيهَا سِنَانٌ كَشَعْلَةِ الْقَبَسِ
وقول الآخر:

مَنْ شَاءَ مِنْ نَارِ الْجَجِيمِ اسْتَقْبَسَا
وأصل الشهاب الكوكب المنقض

في أثر مُسْتَرْقِ السَّمْعِ، وكل ما يقال له شهاب من النيران فعلى التشبيه، وقال الزجاج: كل أبيض ذي نور فهو شهاب، وكلامه مُعْتَرِضٌ، والقبس يحتمل أن يكون اسماً غير صفة أضاف إليه بمعنى: بشهاب أقتبسه أو اقتبسته، وعلى كونه صفة يكون ذلك كإضافة الدار إلى الآخرة، والصلاة إلى الأولى، وغير ذلك. وقرأ الجمهور بإضافة ﴿شِهَابٍ﴾ إلى ﴿قَبَسٍ﴾، وهي قراءة الحسن وأهل المدينة ومكة والشام. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿يُشَاهِبُ قَيْسٍ﴾ بتثوين ﴿يُشَاهِبُ﴾، وهذا على الصفة، ويجوز أن تكون الصفة مصدر: قَبَسَ يَقْبِسُ، كما أن الحَلْبَ مصدر: حَلَبَ يَحْلُبُ، وقال أبو الحسن: الإضافة أجود وأكثر في القراءة، كما تقول: دَارٌ أَجْرٌ وَسَوَازٌ ذَهَبٌ، حكاه أبو علي. و﴿تَصَطَّرُونَ﴾ معناه: تستدفنون من البرد.

والضمير في ﴿جَاءَهَا﴾ للنار التي رآها موسى عليه السلام، وقوله تبارك وتعالى: ﴿أَنْ بُورِكَ﴾ يحتمل أن تكون ﴿أَنْ﴾ مُفْسَّرَةٌ، ويحتمل أن تكون في موضع نصب على تقدير: بأن بُورِكَ، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على تقدير: ﴿نُودِيَ أَنَّهُ﴾، قال الزجاج. وقوله: ﴿بُورِكَ﴾ معناه: قُدِّسَ وضوعف خيره ونُعمي، والبركة مختصة بالخير، ومن هذا قول أبي طالب بن عبدالمطلب:

بُورِكَ المَيْتُ العَرَبِيُّ كَمَا بُو
رِكَ نَسْبُ العُرْمَانِ وَالزَّيْتُونِ

و ﴿بَارَكَ﴾ مُتَعَدٍ بغير حرف، تقول العرب: بَارَكَكَ اللهُ.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ اضطرب المتأولون فيه - فقال ابن عباس، وابن جبير، والحسن، وغيرهم: أراد عز وجل نفسه، وعبر بعضهم في هذا القول عبارات مردودة شنيعة. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد النور. وقال الحسن، وابن عباس: أراد بـ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكة وموسى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فأما قول الحسن وغيره فإنما يتخرج على حذف مضاف، بمعنى: بُورِكَ مَنْ قَدْرَتُهُ وَسُلْطَانُهُ فِي النَّارِ، والمعنى: في النار على ظنك وما حسبت، وأما القول بأن ﴿مَنْ فِي النَّارِ﴾ النور، فهذا على أن يُعْبَرُ عَنِ النور من حيث كان أنه من نور الله تعالى، ويحتمل أن يكون من الملائكة؛ لأن ذلك النور الذي حسبه موسى ناراً لم يخل من ملائكة، و﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يكون موسى والملائكة المطيفين به. وقرأ ابن أبي كعب: ﴿بُورِكَ النَّارُ﴾، و﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ يكون موسى والملائكة، كذا حكى، أبو حاتم، وحكى ابن مكى أنه قرأ: ﴿تَبَارَكَ النَّارُ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾، وحكى الداني أبو عمرو أنه قرأ: ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا مِنْ الملائكة﴾، قال: وكذلك قرأ ابن عباس وعكرمة ومجاهد.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ يحتمل أن يكون مما قيل في النداء لموسى عليه السلام، ويحتمل أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ اعتراضاً

بين الكلامين، والمقصد به - على كلا الوجهين - تنزيه الله عز وجل ممّا عسى أن يخطر ببال في معنى النداء في الشجرة، وكون قدرته وسلطانه في الثّار، وعُود [مَنْ] عليه، أي: هو مُثَرّه - في جميع هذه الحالات - عن التشبيه والتكليف، قال الثعلبي: وإنما الأمر - كما زوي في التوراة -: «جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران»، المعنى: ظهرت أوامره بأنبيائه في هذه الحالات. والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ للأمر والشأن، قال الطبري: ويُسميها أهل الكوفة المجهولة، آنسه الله تعالى بصفاته من العزّة التي لا خوف معها، والحكمة، أي: لا نقص في أفعاله. ﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمره الله تعالى بهذين الأمرين تدريباً له في استعمالهما، وفي الكلام حذف تقديره: «فألقي موسى العصا»، ﴿فَلَمَّا رَأَاهَا تَهْتَزُّ﴾، وأمال ﴿رَأَاهَا﴾ بعض القراء، و«الجآن»: الحيات؛ لأنها تخفي أنفسها، أي تسترها، وقالت فرقة: «الجان»: صغار الحيات، وعصا موسى عليه السلام صارت حيّة ثعباناً وهو العظيم، وإنما شبهت بالجان في سرعة الاضطراب؛ لأن الصغار أكثر حركة من الكبار، وعلى كل قول فإن الله تبارك وتعالى خلق في العصا وغير أوصافها وأعراضها فصارت حيّة. وقرأ الزهري، وعمرو بن عبّيد: ﴿جَانٌ﴾ بالهمز.

فلما أبصر موسى عليه السلام هو ذلك المنظر ﴿وَلَىٰ مُدِيرٌ وَكَرِيمٌ﴾،

قال مجاهد: لم يرجع، وقال قتادة: ولم يلتفت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعقب الرجل: إذا ولّى عن أمر ثم صرف بدنه أو وجهه إليه كأنه انصرف على عقبه، وناداه الله مؤنساً ومقوّياً على الأمر: ﴿يَتَوَسَّى لَا تَخَفْ﴾ فإن رسلي الذين اصطفيتهم للنبوة لا يخافون عندي ومعى، فأخذ موسى عليه السلام الحيّة فرجمت عصاه، ثم صارت له عادة.

واختلف الناس في الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾ - فقال مقاتل وغيره: الاستثناء متصل، وهو من الأنبياء، وروى الحسن أن الله تعالى قال لموسى: أخفنتك لقتلك النفس، وقال الحسن أيضاً: «كانت الأنبياء تذب فتعاقب، ثم تذب - والله - فتعاقب، فكيف بنا؟»، وقال ابن جريج: لا يخيف الله تعالى الأنبياء إلا بذنب يصيبه أحدهم، فإن أصابه أخافه حتى يأخذه منه، قال كثير من العلماء: لم يعرف أحد من البشر لهم من ذنب إلا ما زوي عن يحيى بن زكريا عليهما السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأجمع العلماء أن الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكبائر ومن الصغائر التي هي رذائل، واختلف فيما عدا هذا، فعسى أن يشير الحسن وابن جريج إلى ما عدا ذلك.

وفي الآية - على هذا التأويل - حذف اقتضى الإيجاز والفصاحة ترك نَصّه، تقديره: «فمن ظلم ثم بدّل حسناً بعد سوء»، وقال الفراء

وجماعه: الاستثناء منقطع، وهو إخبار عن غير الأنبياء، كأنه قال: من ظلم من الناس ثم تاب فإني غفور رحيم، وقالت فرقة: ﴿إِلَّا﴾ بمعنى الواو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا وجه له. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وزيد بن أسلم: ﴿أَلَا مَنْ ظَلَمَ﴾ على الاستفتاح. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَدَّلْ حَسَنًا﴾ معناه: عملاً صالحاً مقترناً بتوبة، وهذه الآية تقتضي حتم المغفرة للتائب، وأجمع الناس على ذلك في التوبة من الشرك، وأهل السنة في التائب من المعاصي، على أنه في المشيئة كالمُصِرّ، لكن يغلب الرجاء على التائب والخوف على المُصِرّ، وقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرْ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ عَمّت الجميع من التائب والمُصِرّ، ولا فرق بين المشرك وغيره؛ لأنه يذهب فائدته، إذ الشُّرك يُغفر للتائب، وما دونه كذلك على تأويلهم، فما فائدة التفصيل في الآية، وهذا الاحتجاج لازم فتأمله، وزوي عن أبي عمرو أنه قرأ:

﴿حَسَنًا بَعْدَ سُوءٍ﴾ بفتح الحاء والسين، وهي قراءة مجاهد، وابن أبي ليلى، وقرأ محمد بن علي الأصبهاني: ﴿حَسَنِي﴾ مثل فعلى.

ثم أمر الله تعالى موسى عليه السلام بأن يدخل يده في جيب جيبته لأنها لم يكن لها كُم كما قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقال مجاهد: مِدْرَعَة صوف إلى بعض يده، و«الجيب»: الفتح في الثوب لرأس الإنسان، وزوي أن يد موسى

وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ
 كَانَتْ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٣﴾ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا
 وَقَالَ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾
 وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عِلْمَنِي مِثْقَالَ طَيْرٍ
 وَأُوْتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَإِنَّ هَذَا لَهُ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٥﴾ وَخُشِرَ
 لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٦﴾
 حَتَّىٰ إِذَا اتَّوَعَّا عَلَيْهِ إِوَادُ النَّمْلِ قَالَتْ نَمَلَةٌ يَتَّبِعُهَا أَتَتْهُمُ ادَّخُلُوا
 مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطَبُكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَخْشَوْنَ
 الْعَارَ ﴿١٧﴾ فَنَبَسُوا بِحُجْرَتِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ
 بِعِمَّتِكَ أَنْ أُغْفَرَ لِي وَعَلَىٰ وَلَدَيْكَ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا
 تَرْضَاهُ وَأَذِّنْ لِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادَتِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٨﴾
 وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ هَذَا مَا كَانُوا مِن
 الْفَاعِلِينَ ﴿١٩﴾ لَأَعْلَبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْجَبَنَّهُ
 أَوْ لَأَأْتِيَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ فَكَفَّكَ عَنْ بَعِيدٍ فَقَالَ
 أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حَاطَبُ بِهِ وَخَشْتُكَ مِنْ سَبَابِ بَنِي إِدْرِيسَ ﴿٢١﴾

٣٧٨

وإن عورض هذا المثال
 فرض إنسان يجوز ذلك
 فيه. وقالت فرقة: لا
 يصح لوجهين: أحدهما
 أن هذا لا يجوز وقوعه
 من عاقل، والوجه الآخر
 أن المعرفة تقتضي أن
 يحل في القلب، وذلك
 إيمان، وحكم الكافر لا
 يلحقه إلا بأن يحل في
 القلب كفر، ولا يصح
 اجتماع الضدين في محل،
 قالوا: ويشبه في هذا
 العارف الجاحد أن يسلب
 عنف الموافاة تلك المعرفة
 ويحل بدلها الكفر.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: والذي يظهر عندي في
 هذه الآية وما جرى مجراها أن
 هؤلاء الكفرة إذا نظروا في آيات
 موسى أعطتهم قولهم: «إن هذا
 ليست تحت قدرة بشر»، وحصل
 لهم اليقين أنها من عند الله تعالى،
 فيغلبهم أثناء ذلك الحسد،
 ويتمسكون بالظنون في أنها سحر
 وغير ذلك حتى يسلب ذلك اليقين أو
 يدفع، وحكمه حكم المستلب في
 وجوب عذابهم.

و«ظُلْمًا» معناه: على غير
 استحقاق للجحد، و«الْعُلُوُّ» في
 الأرض أعظم آفة على طالبه،
 قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ
 وَلَا فُسَادًا». ثم عجب على من عاقبة
 المفسدين قوم فرعون، وسوء
 مُقلبيهم حين كذبوا موسى، وفي هذا

عليه السلام كانت تخرج كأنها قطعة
 نور يتلألأ، ومعنى إدخال اليد في
 الجيب ضم الآية إلى موسى،
 وإظهار تلبسها به؛ لأن المعجزات
 من شروطها أن يكون لها اتصال
 بالرائي، وقوله تعالى: «مِن غَيْرِ
 سَوْءٍ أَي: من غير برص ولا علة،
 وإنما هي آية تحيى وتذهب، وقوله:
 «فِي نَيْحٍ بَلِيغٍ» متصل بقوله: «أَنِّي
 وَوَأَذِّنُ»، وفيه اقتضاب وحذف،
 تقديره: تمهد وتيسر لك ذلك في
 جملة تسع آيات، وهي: العصا،
 واليد البيضاء، والطوفان، والجراد،
 والقمل، والصفاد، والدم،
 والطمس، والحجر، وفي هذين
 الأخيرين اختلاف، والمعنى: يجيء
 بهن إلى فرعون وقومه.

﴿١٣﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
 الضمير في قوله تعالى: «جَاءَتْهُمْ»
 لفرعون وقومه، و«بَصِيرَةٌ» معناه:
 معها الإبصار والوضوح، وعلى هذا
 نحو قولهم: نهار صائم، وليل قائم
 ونائم. وقرأ قتادة والحسن:
 «بَصِيرَةٌ» بفتح الميم والصاد.

وظاهر قوله تعالى: «وَجَحَدُوا بِهَا
 وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا» حصول
 الكفر عناداً، وهي مسألة فيها
 قولان: هل يجوز أن يقع أم لا؟
 فجوزت ذلك فرقة وقالت: يجوز أن
 يكون الرجل عارفاً إلا أنه يجحد
 عناداً ويموت على معرفته وجحوده،
 فهو بذلك في حكم الكافر المخلد،
 قالوا: وهذا حكم إبليس، وحكم
 حيي بن أخطب وأخيه حسب ما
 روي عنهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

تمثيل لكفار قريش إذ كانوا مفسدين
 مستغلبين. وقرأ ابن وثاب، وطلحة،
 والأعمش: «وَعَلِيًّا»، وحكى أبو
 عمرو الداني عنهم وعن أبان بن
 ثعلب أنهم كسروا العين من
 «عليًّا».

﴿١٥﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء قصص فيه غيوب وعبر،
 وليس بمثال لقريش، وداود عليه
 السلام من بني إسرائيل وكان ملكاً.
 وورث سليمان عليه السلام ملكه
 ومنزلته من النبوة، بمعنى: صار
 ذلك إليه بعد موت أبيه، ويُسمى
 ميراً تتجوزاً، وهذا نحو قولهم:
 «العلماء ورثة الأنبياء»، وحقيقة
 الميراث في المال، والأنبياء لا
 تورث أموالهم؛ لأن النبي ﷺ قال:
 «إِنَّا مَعَشَرُ الْأَنْبِيَاءِ لَا نُورِثُ»، يريد به
 أن ذلك من فعل الأنبياء عليهم

السلام وسيرتهم، وإن كان فيهم من ورث ماله كزكريا عليه السلام على أشهر الأقوال فيه، وهذا كما تقول: «إنا معشر المسلمين إنما شغلنا العبادة»، فالمراد أن ذلك فعل الأكثر، ومنه ما حكى سيبويه: «إنا معشر العرب أقرى الناس للضيف».

وقوله تعالى: ﴿عَلِمْنَا مِنْهُ مِنَ الظُّلُمِ﴾ إخباراً بنعمة الله تبارك وتعالى عندهما في أن فهمهما من أصوات الطير المعاني التي في نفوسها، فهذا نحو ما كان نبينا محمد ﷺ يسمع أصوات الحجارة بالسلام، وسليمان عليه السلام حكى عن البلبل أنه قال: «أكلت نصف تمرة فعلى الدنيا العفاء»، إلى كثير من هذا النوع، وقال قتادة والشعبي وغيرهما: إنما كان هذا الأمر في الطير خاصة، والنملة طائر إذ قد يوجد لها الأجنحة، قال الشعبي: وكذلك كانت هذه القائلة ذات جناحين، وقالت فرقة: بل كان في جميع الحيوان، وإنما ذكر الطير لأنه كان جنداً من جنود سليمان عليه السلام يحجب عنه الشمس، ويحتاجه في البعث في الأمور، فخص لكثرة مداخلته، ولأن أمر سائر الحيوان نادر وغير متردد ترداد أمر الطير، والنمل حيوان فطن قوي شمამ جداً، يدخر ويتخذ القري، ويشق الحب بقطعتين لثلا ينبت، ويشق الكزبرة بأربع قطع لأنها تنبت إذا قسمت نصفين، ويأكل في عامه نصف ما جمع ويستبقي سائرته مدة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ معناه: يصلح لنا ونتمناه، وليست

على العموم، ثم ردّد شكر الله تبارك وتعالى.

ثم قصّ تعالى حال سليمان فقال: ﴿وَحِثْرَ إِشْكِيْنَ﴾ أي: جُمِع، واختلف الناس في مقدار جند سليمان عليه السلام اختلافاً شديداً لم أرّد ذكره لعدم صحته، غير أن الصحيح أن ملكه كان عظيماً ملاً الأرض، وانقادت له المعمورة كلها، وكان كرسيه يحمله أجناده من الجن والإنس، وكانت الطير تظلل من الشمس، ويبعثها في الأمور، فكان له في الكرسي الأعظم موضع يخصه. و﴿يُؤْتُونَ﴾ معناه: يُرَدُّ أولهم على آخرهم ويكفون، قال قتادة: فكان لكل صنف وزعة في ربتهم ومواضعهم من الكرسي ومن الأرض إذا مشوا فيها، - فزُبّ وقت كان يسير فيه في الأرض، - ومنه قول الحسن البصري حين ولي قضاء البصرة: «لَا بُدَّ لِلْحَاكِمِ مِنْ وَرْعَةٍ»، ومنه قول أبي قحافة حين وصفت له الجارية في يوم الفتح أنها ترى سواداً أمامه فارس قد تقدم من الصّف، فقال لها: ذاك الوازع، ومنه قول الشاعر:

عَلَى حِينٍ عَابَتِ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ أَلَمَّا أَضْحُ وَالشَّيْبُ وَانْعَ؟
أي: كاف.

﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: ظاهر هذه الآية أن سليمان عليه السلام وجنوده كانوا مشاة في الأرض، ولذلك يتفق حطم النمل [بنزولهم في وادي النمل]، ويحتمل أنهم كانوا في الكرسي المحمول بالريح وأحسّت النمل بنزولهم في

وادي النمل لروادي النمل قيل: بالشام، وقيل بأقصى اليمن، وهو معروف عند العرب مذكور في أشعارها].

وأمال أبو عمرو الواو من ﴿وَادِي﴾، والجميع فحَم، والإمالة قراءة ابن أبي إسحق، وقرأ المعتمر بن سليمان عن أبيه: ﴿الْتُمْلُ﴾ بضم الميم كالتشمس، و﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ﴾ أيضاً بالضم كشمرة، وروي عنه أيضاً ضم النون والميم من [النمل]، قال نَوْف البكالي: كان ذلك النمل على قدر الذباب، وقالت فرقة: بل كانت صغراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يقال في هذا أن النمل كانت نسبتها من هذا الخلق نسبة هذا النمل مثلاً، فيحتمل أن كان الخلق كله أكمل، وهذه النملة قالت هذا المعنى - الذي لا يصلح له إلا هذه العبارة - قولاً فهمه عنها النمل، فسمعه سليمان عليه السلام على بُعده، وجاءت المخاطبة كمن يعقل لأنها أمرتهم بما يؤمر به من يعقل، وروي أنه كان على ثلاثة أميال فَنَبَسَم من قولها، والثَبَسَم ضحك الأنبياء في غالب أمرهم، لا يليق بهم سواه، وكان ضحكه سروراً، واخْتَلَفَ بِم؟ فقالت فرقة: بنعمة الله تبارك وتعالى في إسماعه وتفهمه ونحو ذلك، وقالت فرقة: بتبلي النملة عليه وعلى جنوده في أن نَفَت عنهم تعمد القبيح من الفعل، فجعلت الحطم وهم لا يشعرون.

وقرأ شهر بن حوشب: ﴿مَسَكْتَكُمْ﴾ بسكون السين على

الشمس دخلت على الملك من موضع الهدهد حين غاب، فكان ذلك سبب تفقد الطير لبيتين من أين دخلت الشمس، وقال عبدالله بن سلام: إنما طلب الهدهد لأنه احتاج إلى معرفة الماء على كم هو من وجه الأرض؛ لأنه كان نزل في مفازة حرم فيها الماء، ولأن الهدهد كان يرى بطن الأرض وظاهرها، كانت تشف له، فكان يخبر سليمان عليه السلام بموضع الماء، ثم كانت الجن تخرجه في ساعة يسيرة،

الإفراد، وفي مصحف أبي رضي الله عنه ﴿مَسَاكِنُكُمْ﴾. وقرأ جمهور القراء: ﴿لَا يَحِطُّنَّكُمْ﴾ بشد النون وسكون الحاء، وقرأ أبو عمرو في رواية عبدة: ﴿لَا يَحِطُّنَّكُمْ﴾ بسكون النون، وهي قراءة ابن أبي إسحق، وقرأ الحسن، وأبو رجاء: ﴿لَا يَحِطُّنَّكُمْ﴾ بضم الياء وفتح الحاء وكسر الطاء وشدها وشد النون، وعنه أيضاً ﴿لَا يَحِطُّنَّكُمْ﴾ بفتح الياء وكسر الحاء والطاء وشدها، وقرأ الأعمش وطلحة: ﴿لَا يَحِطُّنَّكُمْ﴾ مخففة بغير نون، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿لَا يَحِطُّنَّكُمْ﴾ مخففة النون التي قبل الكاف.

و ﴿ضَاحِكًا﴾ نصب على الحال، وقرأ محمد بن السمين: ﴿ضَحِكًا﴾، وهو نصب على المصدر [بفعل محذوف يدل عليه [تَبَسُّم]، كأنه قال: ضَحِكٌ [تَبَسُّم] لأنه في معنى (ضحك)].

ثم دعا سليمان - عليه السلام - ربه في أن يعينه الله تعالى ويفرغه لشكر نعمته، وهذا هو معنى إيزاع الشكر.

وباقى الآية بين.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في معنى «تفقد» الطير - فقالت فرقة: ذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمر الملك والتهمم بكل جزء منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الآية أنه تفقد جميع الطير، وقالت فرقة: بل تفقد الطير لأن

تسلخ عنه وجه الأرض كما تسلخ الشاة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما فيما روى عنه ابن سلام وغيره، وقال في كتاب النقاش: كان الهدهد مهندساً، وزوي أن نافع بن الأزرق سمع ابن عباس رضي الله عنهما يقول هذا، فقال له: قف يا وقاف، كيف يرى الهدهد بطن الأرض وهو لا يرى الفخ حين يقع فيه؟ فقال له ابن عباس رضي الله عنهما: إذا جاء القضاء عمي البصر، وقال وهب بن منبه: كانت الطير تتاب سليمان عليه السلام كل يوم، من كل نوع واحد نوبة معهودة، فتفقد الهدهد.

وقوله تعالى: ﴿مَالِكٌ لَا يَرَى﴾ إنما المقصد أن الهدهد غاب، لكنه أخذ اللازم عن غيابه وهو ألا يراه، فاستفهم - على جهة التوقيف - عن

إِنِّي وَجَدْتُ أُمَّرَأَةً تَمْلِكُكُمْ وَأُورِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَمَا عَرَّشَ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنُ لَهُمْ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ أَلَا يَسْجُدُونَ لِلَّذِي يَخْرُجُ الْخَبَءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّبُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٣﴾ قَالَ سَنُنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٤﴾ أَذْهَبَ يَكْتُمِي هَذَا قَائِلُهُ لِيَوْمِ ثُمَّ قَوْلَ عَنْهُمْ فَأَنْظُرُ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّ إِلَهِي وَالَّذِينَ كُفِرُوا بِرَبِّهِمْ اللَّهُ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٦﴾ أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَىٰ وَأُتُوهُ سُلَيْمِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِ فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا لَنْ نَأْتِيَنَّكَ وَأَنْتَ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَالْأَمْرُ لِلَّهِ قَاطِرِي مَاذَا نَأْمُرُ ﴿٢٩﴾ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَاجَ أَهْلِهَا آوَةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدْيٍ فَأَنْظُرْهُمُ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾

اللازم، وهذا ضرب من الإيجاز، والاستفهام الذي في قوله ﴿مَا لِي﴾ ناب مناب الألف التي تحتاجها [أم]. ثم توعدده عليه السلام بالعذاب، وروي عن ابن عباس ومجاهد وابن جريج أن تعذبه للطير كان بأن ينتف ريشه أجمع، وقال يزيد بن رومان: جناحه، وزوي عن وهب أنه بأن ينتف بعضه ويبقي بعضه. و«السُّلْطَانُ»: الحُجَّة حيث وقع في القرآن، قاله عكرمة عن ابن عباس، وقرأ عكرمة وحده: ﴿لِيَأْتِيَنَّيَ﴾ بنونين، وفعل سليمان عليه السلام هذا بالهدهد وحده غلاظاً على العاصين، وعلى إخلاله بتؤبه ورتبه.

وقرأ جمهور القراء: ﴿فَمَكْتُ﴾ بضم الكاف، وقرأ عاصم وحده: ﴿فَمَكْتُ﴾ بفتحها، ومعناه - في

القراءتين -: أقام، والفتح في الكاف أحسن؛ لأنها لغة القرآن في قوله: ﴿مَكِّيَّيْنَ﴾؛ إذ هو من (مَكَّتْ) بفتح الكاف، ولو كان من (مَكَّتْ) بضم الكاف لكان جُمِعَ (مَكِّيَّيْتُ)، والضمير في مكث يحتمل أن يكون لسليمان عليه السلام أو الهدهد، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿فَتَمَكَّتْ ثُمَّ جَاءَ فَسَالٌ﴾، وفي قراءة أبي: ﴿فَتَمَكَّتْ ثُمَّ قَالَ أَحَطْتُ﴾. وقوله: ﴿غَيْرَ بِيْبِي﴾ كما في مصاحف الجمهور يريد به الزمن والمدة، وقوله: ﴿أَحَطْتُ﴾ أي: علمتُ علماً تاماً ليس في علمك.

واختلف القراءة في [سَبَأ] - فقرأ الجمهور: ﴿سَبَأٌ﴾ بالصرف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿سَبَأٌ﴾ بفتح الهمزة وترك الصرف، وقرأ الأعمش: ﴿مِن سَبَأٍ﴾ بالكسر وترك الصرف، وروى ابن حبيب عن اليزيدي ﴿سَبَأٌ﴾ بالألف ساكنة، وقرأ قنبل - عن النبال - بسكون الهمزة، فالأولى على أنه اسم رجل، وعليه قول الشاعر:

الْوَارِدُونَ وَتَيْمٌ فِي دُرَى سَبَأٍ
قَدْ غَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ
وقال آخر:
مِن سَبَأٍ الْحَاضِرِينَ مَأْرِبٍ ..

وهذا على أنها قبيلة، والثانية على أنها اسم بلدة، قاله الحسن وقتادة، وكلا القولين قد قيل، ولكن روي عن رسول الله ﷺ من حديث فروة بن مسكين وغيره أنه وُلِدَ له عشرة من الولد تيامن منهم ستة وتسام أربعة، وحكي هذا الحديث

على الزجاج فخطب عشواء، والثالثة على البناء، والرابعة والخامسة لتوالي الحركات السبع فسكن تخفيفاً للتثقل في توالي الحركات، وهذه القراءة لا تبنى على الأولى، بل هي إما على الثانية أو الثالثة. وقرأت فرقة دون تنوين على الإضافة، وقرأت فرقة: ﴿بَيْتِي﴾ بالألف مقصورة.

وقوله: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ نَبِيٍّ﴾ مبالغة، أي: مما تحتاجه المملكة، قال الحسن: من كل أمر الدنيا، ووصف عرشها بالعظم في الهيئة ورتبة السلطان، وروي عن نافع الوقف على ﴿عَرْشٍ﴾، ذ ﴿عَظِيمٍ﴾ - على هذا - متعلق بما بعده، وهذه المرأة هي بليقيس بنت شراحيل فيما قال بعضهم: وقيل: بنت الفُشْرَح، وقيل: كانت أمها حَيْثَةَ، وأكثر بعض الناس في قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته، وإنما اللازم من الآية أنها مختصة بامرأة ملكت على مدائن اليمن، وكانت ذات مُلْكٍ عَظِيمٍ، وكانت كافرة من قوم كفار.

٧٨ - ٧٩ تفسير قوله عز وجل:

كانت هذه الأمة أمة تعبد الشمس؛ لأنهم كانوا زنادقة فيما روي، وقيل: كانوا مجوساً يعبدون الأنوار، وقوله: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ إلى قوله: ﴿الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ ظاهر أنه من قول الهدهد، وهو قول ابن زيد وابن إسحق، ويعترض بأنه غير مخاطب فكيف يتكلم في شرع، [ويحتمل أن يكون من قول سليمان لما أخبره الهدهد عن القوم]، ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى، فهو اعتراض بين الكلامين، وهو الثابت

مع التأمل، وقراءة التشديد في ﴿أَلَّا﴾ تعطي أن الكلام للهدهد، وقراءة التخفيف تمنعه وتقوي الآخر حسب ما سمع، ويتأمل إن شاء الله تعالى.

وقرأ جمهور القراء ﴿أَلَّا﴾، أي: ﴿لَا يَسْجُدُوا﴾، ذ [أَنْ] في موضع نصب على البدل من ﴿أَعْنَاقَهُمْ﴾، أو في موضع خفض على البدل من ﴿السَّبِيلِ﴾، أو يكون الكلام بتقدير: ﴿لَيْلًا يَسْجُدُوا﴾، ذ [أَنْ] متعلقة إمّا بـ ﴿زَيْنٍ﴾، وإمّا بـ ﴿فَصَدَّكُمْ﴾، واللام الداخلة على [أَنْ] داخلة على مفعول له.

وقرأ ابن عباس، وأبو جعفر، والزهري، وأبو عبد الرحمن، والحسن، والكسائي، والحسين: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾ بتخفيف اللام، فعلى هذا له أن يقف على ﴿فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ﴾ ويبتدىء بـ ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا﴾، وإن شاء وقف على ﴿أَلَا يَا﴾ ثم يبتدىء: ﴿أَسْجُدُوا﴾، واحتج الكسائي لقراءته هذه بأنه روي عن النبي ﷺ أنه موضع سجدة وإن جعلناه من كلام الهدهد، بمعنى: ألا يا قوم ونحو هذا، ومنه قول الشاعر:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا دَارَ مِيٍّ عَلَى الْبَلَى
وَلَا زَالَ مِنْهَا لِبَجْرَعَائِكَ الْقَطْرُ
ونحو قول الأخطل:

أَلَا يَا اسْلَمِي يَا هِنْدُ هِنْدُ بَنِي بَدْرٍ
وَإِنْ كَانَ حَيَاتَنَا عِدَا آخِرِ الدَّهْرِ
ومنه قول الآخر:

أَلَا يَا اسْمَعُ اعْظَمَكَ بِخُطْبَةٍ
فَقُلْتُ سَمِعْنَا فَانْطَبَقِي وَأَصْبِي
وتحتمل قراءة من شُدِّدَ ﴿أَلَّا﴾ أن

نجعلها بمعنى التَّخْضِيعِ، ويقدر هذا النداء بعدها، ويجيء في الكلام إضمار كبير ولكنه متوجه، وسقطت الألف كما كتبت في: يا عيسى، ويا قوم، وقرأ الأعمش: ﴿هَلْأَ يَسْجُدُونَ﴾، وفي حرف عبدالله: ﴿أَلْأَهْلُ تَسْجُدُونَ﴾ بالثاء، وفي قراءة أبي: ﴿أَلْأَ تَسْجُدُوا﴾ بالثاء أيضاً.

و ﴿الْحَبَّةُ﴾: الخفي من الأمور، وهو من: «خبأت الشيء»، وخبء السماء: مطرها، وخبء الأرض: كتوزها ونباتها، واللفظة - بعد هذا - تعم كل خفي من الأمور، وبه فسّر ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ جمهور الناس: ﴿الْحَبَّةُ﴾ بسكون الباء وبالهمز، وقرأ أبي بن كعب: ﴿الْحَبْ﴾ بفتح الباء وترك الهمز، وقرأ عكرمة: ﴿الْحَبَا﴾ بالألف مقصورة، وحكى سيبويه أن بعض العرب [يقرب الهمزة ألفاً إذا كانت مفتوحة وقبلها ساكناً]، ويقلبها واواً إذا كانت مضمومة وقبلها ساكن، ويقلبها ياءً إذا كانت مكسورة وقبلها ساكن، ومثل سيبويه في ذلك بالوثنى، تقول: رأيت الوثا، وهذا الوثنو، وعجبت من الوثنى، وكذلك يجيء (الْحَبَا) في حال التَّصْبِ، وتقول: اطلعت على الحبي، وراقني الحبو. وقرأ جمهور القراء: ﴿وَيَعْلَمُ مَا يُخْفُونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ بياء الغائب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه القراءة أن الآية من كلام الهدهد. وقرأ الكسائي، وعاصم - في رواية حفص -: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ ببناء المخاطبة، وهذه

القراءة تعطي أن الآية من خطاب الله عز وجل لأمة محمد ﷺ، وفي مصحف ابن كعب: ﴿أَلْأَ تَسْجُدُوا لِّلَّهِ الَّذِي يَخْرِجُ الْحَبَّ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ سِرِّكُمْ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾، وخصّ العرش بالذكر في قوله: ﴿رَبُّ الْمَرْشِيِّ الْمَظْمُورِ﴾ لأنه أعظم المخلوقات، وما عداه في ضمنه وفي قبضته.

ثم إن سليمان عليه السلام أقر أمر الهدهد إلى أن يتبين له حقه من باطله، فسوفه بالنظر في ذلك، وأمر بكتاب فكتب، وحمله إياه، وأمر بإلقائه إلى القوم والتولي بعد ذلك، وقال وهب بن منبه: أمره بالتولي حسن أدب ليتحنى حسب ما يتأدب به مع الملوك، بمعنى: وكن قريباً حتى ترى مراجعتهم، قال: وقوله: ﴿فَأَنْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ في معنى التقديم على قوله: ﴿ثُمَّ تَوَلَّى﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأتسق رتبة الكلام أظهر، أي: ألقه ثم تولى، وفي خلال ذلك فانظر، وإنما أراد أن يكمل الأمر إلى حكم ما في الكتاب دون أن يكون الرسول ملازمه ويلا إلحاح. وقرأ نافع: ﴿فَأَلْقَاهُ﴾ بكسر الهاء، وفرقة: ﴿فَأَلْقَاهُ﴾ بضمها، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي بإشباع بعد الكسرة في الهاء، وروى عنه ورش بعد الهاء في الوصل بياء، وقرأ قوم بإشباع واو بعد الضمة، وقرأ البيهقي عن أبو عمرو، وعاصم، وحمزة: ﴿فَأَلْقَاهُ﴾ بسكون الهاء، وروي عن وهب بن منبه في قصص هذه الآية أن الهدهد وصل فألقى دون هذه

الملكة حجب جدران، فعمد إلى كوة كانت بلقيس صنعتها لتدخل منها الشمس عند طلوعها لمعنى عبادتها إيها، فدخل منها ورمى الكتاب على بلقيس وهي - فيما يروى - نائمة، فلما انتهت وجدته فراعها وظنت أنه قد دخل عليها أحد، ثم قامت فوجدت حالها كما عهدته، فنظرت إلى الكوة تهتماً بأمر الشمس فرأت الهدهد فعلمت أمره، ثم جمعت أهل مملكتها وعليتهم فخطبتهم بما يأتي بعد.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

في هذه المواضع اختصار يدل ظاهر القول عليه، تقديره: «فألقى الكتاب وقرأته وجمعت له أهل ملكها»، و«الملا»: أشرف الناس الذين ينوبون مناب الجميع، ووصفت الكتاب بالكرم، إما لأنه من عند عظيم في نفسها ونفوسهم، فعظمته إجلالاً لسليمان، وهذا قول ابن زيد، وإما أنها إشارات إلى أنه مطبوع عليه بالخاتم، وزوي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «كرم الكتاب ختمه»، وإما أنها أرادت أنه بدأ بيسم الله تعالى، وقد قال ﷺ: «كل كلام لم يبدأ باسم الله تعالى فهو أجدم»، ثم أخذت تصف لهم ما في الكتاب، فيحتمل اللفظ أنه نص الكتاب موجزاً بليغاً، وكذلك كتب الأنبياء عليهم السلام، قدم فيه العنوان - وهي عادة الناس على وجه الدهر - ثم سمي الله تعالى، ثم أمرهم ألا يعلوا عليه طغياناً وكفراً، وأن يأتيه مسلمين، ويحتمل أنها قصدت إلى اقتضاب معانيه دون

العقلي، ذكرها الثعلبي.

ثم أخذت في حُسن الأدب مع رجالها، ومشاورتهم في أمرها، وأعلمتهم أن ذلك مطرد عندها في كل أمر، فكيف في هذه النازلة الكبرى؟ فراجعها الملأ بما يقر عينها من إعلامهم إياها بالقوة والبأس، أي: وذلك مبذول لك، فقاتلي إن شئت، ثم سلّموا الأمر إلى نظرها، وهذه محاوره حسنة من الجميع. وفي قراءة عبدالله: ﴿مَا كُنْتُ قَاضِيَةَ أَمْرًا﴾ بالضاد من القضاء.

وذكر مجاهد في عدد أحشادها أنها كان لها اثنا عشر ألف قَيْل، تحت يد كل واحد مائة ألف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد، وذكر غيره نحوه فاختصرته لعدم صحته. ثم أخبرت بلقيس عند ذلك بفعل الملوك بالقرى التي يتغلبون عليها، وفي الكلام خوف على قومها، وحيطة لهم، واستعظام لأمر سليمان عليه السلام، وقالت فرقة: إن ﴿وَكَذَلِكَ يَقَعُونَ﴾ هو من قول بلقيس تأكيداً منها للمعنى الذي أرادت، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو من قول الله تبارك وتعالى معرفاً لمحمد ﷺ وأُمَّته، ومخبراً به.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: رُؤِي أَنْ بَلْقِيسَ قَالَتْ لِقَوْمِهَا إِنِّي

أجرب هذا الرجل بهدية أعطيه فيها نفائس الأموال، وأغرب عليه بأموال المملكة، فإن كان ملكاً دنيائياً أرضاه المال فعملنا معه بحسب ذلك، وإن كان نبياً لم يرضه المال، ولا زَمْنَا في أمر الدين، فينبغي أن نؤمن به ونتبعه على دينه، فبعثت إليه بهدية عظيمة أكثر بعض الناس في تفصيلها، فرأيت اختصار ذلك لعدم صحته. واختبرت علمه - فيما روي - بأن بعثت إليه قدحاً فقالت له: املأه لي مِمَّا ليس من الأرض ولا من السماء، وبعثت إليه دُرَّةً فيها ثقب مخلوق وقالت: تدخل سلكها دون أن يقربها إنس ولا جان، وبعثت إليه أخرى غير مثقوبة وقالت: يتقب هذه غير الإنس والجن، فملأ سليمان عليه السلام القدح من عرق الجبل، وأدخلت السلك دودة وثقبت الدرَّة أرضه، وراجع سليمان عليه السلام في ردِّ الهدية بما في الآية، وعبر عن «المرسلين» بـ ﴿جَاءَ﴾ وبقوله: ﴿أَرْجِعْ﴾ لَمَّا أَرَادَ بِهِ «الرَّسُولَ» الذي يقع على الجمع والإفراد والتأنيث والتذكير. وقرأ ابن مسعود: ﴿قَلَمًا جَاءُوا سُلَيْمَانَ﴾، وقرأ: ﴿أَرْجِعُوا﴾، ووعيد سليمان لهم مقترن بدوامهم على الكفر، وذكر مجاهد أيضاً أنها بعثت في هديتها بعدد كثير من العبيد بين غلمان وجواري، وجعلت زِيَّهم واحداً، وجربته في التفريق بينهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ليس بتجربة في مثل هذا الأمر الخطر.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو:

فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتَيْتُكُمْ بِمِثْلِ مَا آتَاكُمْ فَأَنِتَّ أَتَى اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا آتَاكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِدِينِكُمْ غَفِلُونَ ﴿٣٦﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَمَّا آتَيْتَهُمْ بِمِثْلِهِ لَاقِبَهُمْ بِهَا وَتَخَرَّجْتَهُمْ مِنْهَا إِذْ لَمْ يَكُنْ مِنْهُمْ صَاحِبٌ قَالَ قَاتِلِي أَلَمْ آتَاكُمْ بِأَيِّ عَيْشٍ فَاقْبَلْ أَنْ يَأْتِيَنَّكَ سُلَيْمَانُ ﴿٣٧﴾ قَالَ غَفِرْتُ مِنَ الْإِنْسِ أَنْ آتَاكَ بِهِ فَقُلْ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِي أَعِيبٌ ﴿٣٨﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتَاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لَئِذَا مَأْشُكْرُكُمْ أَكْفَرْتُمْ مِنْ شُكْرِكُمْ أَفَمَا تَشْكُرُونَ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَيْبَ عَنِّي كَرِيمٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ تَكَرُّرًا وَلَهَا عَرْشُهَا نَنْظُرُ أَهْتَدِي أَمْزُكُونَ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤٠﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا سُلَيْمِينَ ﴿٤١﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ كَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ فَوَارِسَ قَالَتْ رَبِّيَ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّي الْعَالِيِّنَ ﴿٤٣﴾

ترتيبه، فأعلمتهم أنه من سليمان، وأن معناه كذا وكذا. وقرأ أبي: ﴿وَأَنْ بِاسْمِ اللَّهِ﴾ بفتح الهمزة وتخفيف النون وحذف الهاء، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿أَنَّهُ مِنْ﴾ و﴿وَأَنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ﴾ بفتح الهمزة فيهما، وفي قراءة عبدالله: ﴿وَأَنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ﴾ بزيادة واو، و﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ استفتاح شريف بارع المعنى معبر عنه بكل لغة، وفي كل شرع.

و﴿إِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَيَّ﴾ يحتمل أن تكون رفعا على البدل من «الكتاب»، أو نصبا على معنى: بأن لا تعلموا، أو مفسرة بمنزلة أي، قال سيبويه: وقرأ وهب بن منبه: ﴿أَلَّا تَعْلَمُوا﴾ بالعين منقوطة: قال أبو الفتح: رواها وهب عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهي قراءة أشهب

﴿أَتَمَدُّنْتِي﴾ بنونين وياء في الوصل، وقرأ ابن عامر، وعاصم، والكسائي: ﴿أَتَيْدُونَنِي﴾ بغير ياء في وقف ووصل، وقرأ حمزة: ﴿أَتَمَدُّونَنِي﴾ بشد النون وإثبات الياء، وقرأ عاصم: ﴿فَمَا مَاتَنِي اللَّهُ﴾ بكسر النون دون ياء، وقرأت فرقة: ﴿آتَانِي﴾ بياء ساكنة، وقرأ أبو عمرو، ونافع: ﴿آتَانِي﴾ بياء مفتوحة. ثم توعدهم بالجنود والغلبة والإخراج، والمعنى: إذا لم يُسلموا، وقرأ عبدالله: ﴿لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهِمْ﴾ على جمع ضمير الجنود، و﴿لَا قِبَلَ﴾ معناه: لا طاقة ولا مقاومة.

﴿٣٨﴾ - ﴿٣٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

القائل سليمان عليه السلام، والملائي المنادى جمعه من الجن والإنس، واختلف المتأولون في غرضه في استدعاء عرشها - فقال قتادة: ذكر له بعظم وجودة، فأراد أخذه قبل أن يعصمها وقومها الإسلام ويحمي أموالهم، والإسلام - على هذا - الدين، وهو قول ابن جريج، وقال ابن زيد: استدعاه ليُرِيَهَا القدرة التي هي من عند الله عز وجل، وليُغْرِبَ عليها، و﴿سُلَيْمِينَ﴾ - في هذا التأويل - هو بمعنى: مُسْتَسْلِمِينَ، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما، وذكر صلة في العبارة، ولا تأخير لاستلامهم في عرض سليمان عليه السلام، ويحتمل أن يكون بمعنى: الإسلام، وأما في التأويل الأول فيلزم أن يكون بمعنى الإسلام.

وظاهر الآيات أن هذه المقالة من سليمان عليه السلام بعد مجيء

هديتها ورده إياها، ويعنه الهدهد بالكتاب، وعلى هذا جمهور المفسرين، وحكى الطبري أنه قال ذلك في اختياره صدق الهدهد من كذبه لما قال له: ﴿وَمَا عَرَّشَ عَظِيمٌ﴾، فقال سليمان: ﴿أَتَيْدُونَنِي بِعَرَّشِي﴾؟ ثم وقع في ترتيب القصص تقديم وتأخير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أصح.

وروي أن عرشها كان من ذهب وفضة مرصعاً بالجواهر والياقوت، وأنه كان في جوف سبعة أبيات عليه سبعة أغلاق.

وقرأ الجمهور: ﴿قَالَ عَفْرِيَّةٌ﴾ وقرأ أبو رجاء، وعيسى الشقفي: ﴿قَالَ عَفْرِيَّةٌ﴾، وزويت عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقرأت فرقة: ﴿قَالَ عَفْرُ﴾ بكسر العين، وكل ذلك لغات فيه، وهو من الشياطين: المارد القوي، والتاء في (عفرية) زائدة، وقد قالوا: ﴿تَعَفَّرَتِ الرَّجُلُ﴾ إذا تخلق بخلق الإذابة، قال وهب بن منبه: اسم هذا العفريت (كوري)، وزوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه صخر الجنى، ومن هذا الاسم قول ذي الرمة:

كَأَنَّهُ كَوَكَّبَ فِي إِثْرِ عَفْرِيَّةٍ
مُضَوِّبٍ فِي سَوَادِ اللَّيْلِ مُتَقَضِّبٍ
وقوله: ﴿قَالَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾، قال مجاهد، وقاتدة، وابن منبه: معناه: قبل أن تستوي من جلوسك قائماً، و﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتَاكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ

طَرَفُكَ﴾، قال ابن جبير، وقاتدة: معناه: قبل أن يصل إليك من يقع طرفك عليه من أبعد ما ترى، وقال مجاهد: معناه: قبل أن تحتاج إلى التغميض، أي: مدة ما يمكنك أن تُمَدَّ بصرك دون تغميض، وذلك ارتداده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذان القولان يقابلان قول من قال: إن القيام هو من مجلس الحكم، ومن قال: إن القيام هو من الجلوس، فيقول في ارتداد الطرف: هو أن يطرف، أي: قبل أن تُغْمِضَ عينك وتفتحهما، وذلك أن الثاني يعاطي الأقصر في المدة ولا بُد. وقوله: ﴿وَأَنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ معناه: لَقَوِيٌّ على حملي، أمينٌ على ما فيه.

وروي أن بلقيس لما فصلت من بلدها متوجهة إلى سليمان عليه السلام، تركت العرش تحت سقف حصين، فلما علم سليمان بانفصالها أراد أن يُغْرِبَ عليها بأن تجد عرشها عنده لتعلم أن مُلكه لا يُضَاهِي، فاستدعى سَوْقَهُ، فدعا الذي عَلِمَ من التوراة - وهو الكتاب المشار إليه - باسم الله الأعظم الذي كانت العادة في كل الزمان ألا يدعو به أحد إلا أجياب، فشقت الأرض بذلك العرش حتى نبع بين يدي سليمان عليه السلام، وقيل: بل جيء به في الهواء، قال مجاهد: وكان بين سليمان وبين العرش كما بين الكوفة والحيرة، وحكى الرماني أن العرش حُمل من مأرب إلى الشام في قدر رجع البصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه مسيرة شهرين للمُجِدِّ، وقول مجاهد أشهر.

وزوي أن الجن كانت تخبر سليمان عليه السلام بمناقل سريرها، فلما قريت قال: ﴿أَيْبِكُمْ يَا بَنِي يَمْرُوتَ؟﴾ واختلف المفسرون في الذي عنده عِلْمٌ من الكتاب، من هو؟ فجمهور الناس على أنه رجل صالح من بني إسرائيل اسمه آصِف بن برخيا، زُوي أنه صلى ركعتين ثم قال لسليمان عليه السلام: يا نبي الله امدد بصرك، فمدَّ بصره فإذا بالعرش نحو اليمن، فما ردَّ سليمان بصره إلا والعرش عنده، وقال قتادة: اسمه مليخا، وقال إبراهيم النَّخعي: هو جبريل عليه السلام، وقال ابن لهيعة: هو الخضر، وحكى النقاش عن جماعة أنهم سمعوا أنه ضبَّه بن أذجد بنى ضببة من العرب، قالوا: وكان رجلاً فاضلاً يخدم سليمان على قطعة من خيله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف.

وقالت فرقة: بل هو سليمان عليه السلام، والمخاطبة - في هذا التأويل - للعفريت، لما قال هو: ﴿أَنَا أَيْبِكُمْ بِهٖ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ قيل: كأن سليمان عليه السلام استبطأ ذلك فقال له على جهة تحقيره: ﴿أَنَا أَيْبِكُمْ بِهٖ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾، واستدل قائل هذا القول بقول سليمان عليه السلام: ﴿هَذَا مِنْ قَبْلِ رَبِّي﴾، واستدل أيضاً بهذا اللفظ مناقضه؛ إذ في كلا

الأمرين علم سليمان فضل الله تعالى، وعلى الأقوال الأول المخاطبة لسليمان عليه السلام، ولفظ ﴿أَيْبِكُمْ﴾ يحتمل أن يكون فعلاً مستقبلاً، ويحتمل أن يكون اسم فاعل، وفي الكلام حذف تقديره: فدعا باسم الله تعالى فجاء العرش بقدرة الله تعالى، فلما رآه سليمان مستقراً عنده جعل يشكر نعمة ربه بعبارة فيها تعليم للناس، وهي عرضة للاقتداء بها والافتباس منها. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشكر على السرير وسوقه أم أوفر إذ رأيت من هو دوني في الدنيا أعلم مني؟ وظهر العامل في الظرف من قول: ﴿مُسْتَقَرًّا﴾، وهذا هو المقدر أبداً في كل ظرف جاء هنا مُظْهِراً، وليس في كتاب الله تعالى مثله، وباقي الآية بين.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

أراد سليمان في هذا «التشكير» تجربة ميزها ونظرها، وليزيد في الإغراب عليها، وروت فرقة أن الجن أحسَّت من سليمان أو ظنَّت به أنه ربما تزوج بلقيس، فكروهوا ذلك، ورَمَوْها عنده بأنها غير عاقلة ولا مميّزة، وبأن رجلها كحافر دابَّة، وجزَّب أمر رجلها بأمر الصرح لتكشف عن ساقها عنده، وقرأ أبو حيو: ﴿تَنْظُرُ﴾ بضم الراء.

وتنكير العرش تغيير وصفه وستر بعضه ونحو هذا، وقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: تنكيره بأن زيد فيه ونقص منه، وهذا يعترض

بأن من حقها - على هذا - أن تقول: ليس به وتكون صادقة، وقوله: ﴿كَأَنَّهُ هُوَ﴾ تحزُّز فصيح، ونحوه قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُ وَكِيٌّ حَمِيمٌ﴾، وقال الحسن بن الفضل: شبَّهوا عليها فشبهت عليهم، ولو قالوا: هذا عرشك؟ لقلت: نعم، وفي الكلام حذف تقديره: فنكروا عرشها، ونظروا ما جوابها إذا سئلت عنه، فلما جاءت قيل: أهكذا عرشك؟ وقال سليمان عليه السلام عند ذلك: ﴿رَأَيْتِنَا أَلَمَرَ مِنْ قَبْلِهَا﴾ الآية، وهذا منه على جهة تعديد نعمة الله تعالى عليه وعلى آباءه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدَقَا مَا كَانَتْ تَبْدُو﴾ الآية، يحتمل أن يكون من قول نبي الله سليمان عليه السلام، ويحتمل أن يكون من قول الله تبارك وتعالى إخباراً لمحمد ﷺ، و«الصدأ» ما كانت تعبد، أي عن الإيمان ونحوه، قال الرماني: عن الثَّقُفُن للعرش؛ لأن المؤمن فطن يقظ والكافر خبيث، أو يكون الصدأ سليمان عليه السلام، قاله الطبري، أو يكون الصدأ الله عز وجل، ولما كان [صدأها] بمعنى (متَّهَها) تجاوز - على هذا التأويل - بغير حرف جرٍّ، وإلا فإنه لا يتعدى إلا بـ (عزَّن). وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّهَا﴾ بكسر الهمزة، وقرأ سعيد بن جبير، وابن أبي عمير: ﴿إِنَّهَا﴾ بفتح الهمزة، وعلى تقدير: ذلك أنَّها، أو على البدل من [ما]، قاله محمد بن كعب القرظي.

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ نُؤْمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَتَّبِعُونَ آلَ سَيْئَةٍ قَبْلَ الْحَسَّةِ لَوْلَا نَسْتَعِينُكَ اللَّهُ تَعَالَىٰ كَيْفَ تَرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِعَن مَّعَكَ قَالَ طَلَبْنَاكَ عِنْدَ آلِ بَلْعَانَ قَوْمٍ مُّكَذِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ شَجْعَةٌ رَّهْطٌ يُقْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصَلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا نَقَاسُوا بِاللَّهِ لَئِن لَّمْ يَنْزِلْ عَلَيْنَا مَهَاكُ أِهْلِيهِ وَإِنَّا لَنَصُدُّونَ ﴿٤٩﴾ وَكُرُوا مَكْرًا وَكُرُوا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَأَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْرِمِينَ ﴿٥١﴾ فَذَلِكُنَّ بُيُوتُهُمْ خَاوِبَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَلَوْطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفُلُوحَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٥٤﴾ أَلَيْسَ لَكُم مَّا تَأْتُونَ الْبِحَاثَ شَهْوَةٌ مِّنْ دُونِ الْبِحَاثِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مَّجْهُلُونَ ﴿٥٥﴾

٢٨١

خلاف أنه حرف جاء لمعنى.

وقرأ ابن كثير وحده - في رواية الإخريط -: ﴿عَنْ سَاقِيهَا﴾ بالهمز، قال أبو علي: وهي ضعيفة، وكذلك يضعف الهمز في قراءة قنبل: ﴿يُكشِفُ عَنْ سَاقِي﴾، وأما همز ﴿بِالسُّوقِ﴾، و﴿عَلَى سُوْقِهِ﴾ فلغة مشهورة في همز الواو التي قبلها ضمة، حكى أبو علي أنا أبا حية الثُمَيْرِيُّ كان يهمز كلَّ واو قبلها ضمة، وأنشد:

أَحَبُّ الْمُؤَقَّدَانِ إِلَيْكَ مُؤَسَى

وَوَجْهَهَا أَنْ الضمة تقدر على الواو إذ لا حائل بينهما، وقرأ ابن مسعود: ﴿عَنْ رَجُلَيْهَا﴾. وروى أن سليمان عليه السلام لما أراد زوال شجر ساقياها أشفق من حمل موسى عليها، وقيل: إنها قالت: ما مسني حديد قط، فأمر الجن بالتلطف في زواله فصنعوا الثورة ولم يكن قبل في الأمم.

وهذه الأمور التي فعلها سليمان عليه السلام: من سَوَّق العرش، وعمل الصَّرْح، وغير ذلك، قصد بها الإغراب عليها، كما سلكت هي قبيل سبيل ملوك الدنيا في ذلك بأن أرسلت الجوارى والغلمان، واقترحت في أمر القَدْح والذَّرْتَيْنِ.

ولما وصلت بلقيس أمر سليمان عليه السلام الجَنِّ فصنعت له صرحاً، وهو السطح في الصحن من غير سقف، وجعلته متيناً كالصهرج، وملىء ماء، وبث فيه السمك والضفادع، وطَبَّق بالزجاج الشَّفَاف، وبهذا جاء صرحاً، والصَّرْح أيضاً كل بناء عالٍ، وكل هذا من التصريح، وهو الإعلان البالغ، وجعل لسليمان في وسطه كرسي، فلما وصلته بلقيس قيل لها: ادخلي إلى النبي ﷺ، فرأت اللجة وفزعت وظنت أنه قصد بها الغرق، وعجبت من كون كرسيه على الماء، ورأت ما هالها، ولم يكن لها بُد من امتثال الأمر فكشفت عن ساقياها فرأى سليمان ساقياها سليميتين غير أنها كثيرة الشعر، فلما بلغت هذا الحد قال لها سليمان عليه السلام: ﴿إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّنْ قَوَارِيرٍ﴾، والمُمَرَّد: المكحول الأملس، ومنه: الأُمَرَّد، والشجرة المُرَدَّاء: التي لا ورق عليها، والمُمَرَّد أيضاً: المُطْوَل، ومنه قيل للحصن: مارد، وعند ذلك استسلمت بلقيس وأذعت وأسلمت، وأقرت على نفسها بالظلم، فيروى أن سليمان عليه السلام تزوجها عند ذلك وأسكنها الشام، قاله الضحاك، وقال سعيد بن عبدالعزيز في كتاب النقاش: تزوجها وردّها إلى ملكها باليمن، وكان يأتيها على الريح كل شهر مرة، فولدت له ولداً أسماه داود، مات في حياته، و﴿مَع﴾ ظرف، وقيل: حرف بُني على الفتح، وأما إذا سُكُنَت الغَيْن فلا

٤٥ - ٤٦ - تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية على جهة التمثيل لقريش، و﴿أَنَّ﴾ في قوله سبحانه: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يحتمل أن تكون مُفسِّرة، وأن تكون في موضع نصب، والتقدير: بأن اعبدوا الله، و﴿فَرِيقَانِ﴾ يريد به: من آمن بصالح ومن كفر به، و﴿اِخْتِصَامُهُمْ﴾ تنازعهم وحدهم، فذكر الله تبارك وتعالى ذلك في سورة الأعراف.

ثم إن صالحاً عليه السلام تَلَطَّف بقومه، وترفَّق بهم في الخطاب، فوقفهم على خطيئهم في استعجالهم العذاب مما يقتضي هلاكهم، ثم حضهم على ما هو أسرُّ من ذلك وأعود بالخير، وهو الإيمان وطلب المغفرة ورجاء الرحمة، فأجابوا - عند ذلك - بقول سَفْصَاف، معناه: نَسَاءً مِّنَّا بِكَ، قال المفسرون:

واختفوا لذلك في غار قريب من داره، فروي أنه انحدرت عليهم صخرة سدحتهم جميعاً، ورؤي أنها طبقت عليهم الغار فهلكوا فيه حين هلك قومهم، وكل فريق لا يعلم بما جرى على الآخر، وكانوا قد بنوا على جحود الأمر من قرابة صالح الذين يمكن أن يغضبوا له، فهذا مكرهم، والمكر نحو الخديعة، وسُمي الله تبارك وتعالى عقوبتهم باسم ذنبيهم، وهذا مهيع، ومنه قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِرِجْمٍ﴾، وغير ذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿مُهْلِكٌ﴾ بضم الميم وفتح اللام، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر بفتحهما، ورؤي عنه بفتح الميم وكسر اللام.

و «العاقبة» حال تقتضيها البدأة وتؤدي إليها، ويعني بالأهل كل من آمن معه، قاله الحسن، وقرأ جمهور القراء: ﴿إِنَّا دَمَرْنَا هُمْ﴾ بكسر الألف، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنَّا دَمَرْنَاهُمْ﴾، وهي قراءة الحسن وابن أبي إسحق، ف [كَانَ] - على قراءة الكسر في الألف - تامة، وإن قُدِّرت ناقصة فخيرها محذوف، أو يكون الخبر [كَيْفَ] مقدماً؛ لأن صدر الكلام لها، ولا يعمل - على هذا - ﴿أَنْظَرُ﴾ في ﴿كَيْفَ﴾، لكن يعمل في موضع الجملة كلها، وهي على قراءة فتح الألف ناقصة، وخبرها [أَنَا]، ويجوز أن يكون الخبر [كَيْفَ]، ويكون [أَنَا] بدلاً من «العاقبة»، ويجوز أن تكون [كَانَ] تامة و [أَنَا] بدلاً من «العاقبة»، ووقع تقدير السؤال بـ [كَيْفَ] عن

وقد تقدم في غير هذا الموضع ما ذُكر في أسمائهم.

وقوله تعالى: ﴿تَنَاسَوْا﴾، حكى الطبري أنه يجوز أن يكون فعلاً ماضياً في موضع الحال، كأنه قال: متفاسمين، أو متحالفين بالله، وكأن قولهم: ﴿لَتَبَيَّنَّتْ﴾ حَلْفٌ، ويؤيد هذا التأويل أن في قراءة عبدالله: ﴿وَلَا يُصَلِّحُونَ﴾ ﴿تَنَاسَوْا﴾ بسقوط ﴿قَالُوا﴾، ويحتمل - وهو تأويل الجمهور - أن يكون ﴿تَنَاسَوْا﴾ فعل أمر، أشار بعضهم على بعض بأن يتحالفوا على هذا الفعل بصالح، ف ﴿تَنَاسَوْا﴾ هو قولهم على هذا التأويل. وهذه الألفاظ الدالة على قسم أو جواب تجاب باللام وإن لم يتقدم قَسَمَ ظاهر، فاللام في ﴿لَتَبَيَّنَّتْ﴾ جواب ذلك. وقرأ جمهور القراء: ﴿لَتَبَيَّنَّتْ﴾، ﴿تَدْرُ لِقَوْلِ﴾ بالنون فيهما، وقرأ الحسن، وحمزة، والكسائي بالتاء فيهما، ويضُمُّ التَّاءِ واللام على الخطاب، أي: تخاطبوا بذلك، وقرأ مجاهد، وحميد بن قيس بالياء فيهما على الخبر، فهذا ذَكَرَ اللهُ فيه المعنى الذي أرادوه لا بحسب لفظهم.

وروي في هذه الآية أن هؤلاء التسعة لما كان في صدر الثلاثة الأيام بعد عقر الناقة وقد أخبرهم صالح عليه السلام بمجيء العذاب اتفق هؤلاء التسعة فتحالفوا على أن يأتوا دار صالح ليلاً فيقتلوه وأهله المختصين به، قالوا: فإن كان كاذباً في وعيده أوقفنا به ما يستحق، وإن كان صادقاً كنا قد أعجلناه قبلنا وشفينا نفوسنا. قال الراوي: فجاؤوا

وكانوا في قحط فجعله لذات صالح عليه السلام، وأصل الطَّيْرَةِ ما تعارفه أهل الجهل من زَجْر الطَّيْرِ، وشبَّهت العرب ما عَرَّ بما طار حتى حصل، سُمي ما حصل للإنسان في فزعه ونحوه طائراً، ومنه قوله تعالى: ﴿الزَّمَنَةُ طَيْرٌ فِي عُنُقِهِ﴾، وخاطبهم صالح ببيان الحق، أي: طائرکم على زعمکم وتسميتکم - وهو حَطَّكُمْ في الحقيقة - من تعذيب أو إعفاء هو عند الله تعالى، ويقضائه وقدره، وإنما هو أنهم قوم يختبرون، وهذا أحد وجوه الفتنة، وقد يمكن أن يريد: بل أنتم قوم تولعون بشهواتكم، وهذا معنى قد تعارف الناس استعمال لفظ الفتنة منه، ومنه قولك: «فَإِنَّ فلاناً بفلان»، وشاهد ذلك كثير.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله تعالى في هذه الآية تسعة رجال كانوا من أوجه القوم وأقنابهم وأغنائهم، وكانوا أهل كفر ومعاص جحمة، جملة أمرهم أنهم يفسدون في الأرض ولا يصلحون، قال عطاء بن أبي رباح: بلغني أنهم كانوا يقرضون الدنانير والدراهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا نحو الأثر المروي: «قطع الدنانير والدراهم من الفساد في الأرض»، و«الْمَدِينَةُ»: مجتمع ثمود وقريتهم، و«الرَّهْطُ»: من أسماء الجمع القليل، العشرة فما دونها، و«تِسْعَةٌ رَهْطٍ» كما تقول: تسعة رجال، وهؤلاء المذكورون كانوا أصحاب قدار بن سالف عاقر الناقة،

﴿ فَكَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ ﴾ لِأَنَّ الْوَأخْرَى جَوَابُ مَا
لُوطٌ مِنْ قَوْمِهِمْ إِنَّهُمْ أَنْتَاطُطُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَمَّا جَنَّةُ
وَأَهْلُهَا لِأَنَّ أَمْرَهُ وَقَدْرُهَا مِنَ الْقَدِيمِ ﴿٥٣﴾ وَأَمَّا طَرْنَا
عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَمَاءٌ مَطَرُ الشَّدِيدِ ﴿٥٤﴾ قُلِ السُّعْدُ لِلَّهِ وَسُلْمٌ
عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى مَا اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾
أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ
مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مِمَّا كَانَتْ لَكُمْ
أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْبُدُونَ ﴿٥٦﴾
أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا
رَوَابِدَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ
وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُ لَكُمْ خَلْقًا أَرْضًا أَوَّلَهُ
مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا نَذَرَ كُرُوتَ ﴿٥٨﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي
ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ فَشَرَابًا يَدْنَى
رَحْمَتِهِ أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾

٢٨٢

كانوا تركوا في جوابهم طريق الحجة، وأخذوا بالمغالبة، فتأمروا بإخراجه وإخراج من آمن معه، ثم ذمموهم بمدحة وهي التَطُّهُرُ من هذه الدنائة التي هم أصفقوا عليها، قال قتادة: عابوهم والله بغير عيب. وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿ قَدَّرْنَاهَا ﴾ بتخفيف الدال، وقرأ جمهور القراء بشد الدال، والأولى بمعنى: جعلناها وحصلناها، والثانية بمعنى: قَدَّرْنَا عَلَيْهَا، من القدر والقضاء.

جملة قوله: ﴿ كَانَتْ عَقِبَهُ مَكْرَهُمْ أَنَّا دَمَّرْنَاكُمْ ﴾، وقرأ أبي بن كعب: ﴿ أَنْ دَمَّرْنَاكُمْ ﴾، وهذه تؤيد قراءة الفتح في ﴿ أَنَّا ﴾.

﴿٥٢﴾ - ﴿٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر البيوت وخرابها مما أخبر الله تعالى، ففي كل الشرائع أنه إنما يعاقب به الظلمة، وفي التوراة: «ابن آدم، لا تظلم، يخرّب بيتك»، و﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ نصب على الحال التي فيها الفائدة، ومعناها: الخالية قفراً، قال الزجاج: وقرئت ﴿ خَاوِيَةٌ ﴾ بالرفع، وذلك على الابتداء المضمر، والتقدير: هي خاوية، أو عن الخبر عن ﴿ يَلُكْ ﴾ و﴿ يُوْتُهُمْ ﴾ بدل، أو على خبر ثان، وهذه البيوت المشار إليها هي التي قال فيها النبي ﷺ عام تبوك: «لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين... الحديث».

ثم قال تبارك وتعالى: ﴿ رَوَاتُكَا ﴾، تقديره: واذكر لوطاً، و﴿ الْفَلْحَجَّةَ ﴾: إتيان الرجال في الأبادر ﴿ تَبِيرُونَ ﴾ معناه: بقلوبكم أنها خطيئة وفاحشة. وقالت فرقة: تبصرون بأبصاركم؛ لأنكم تتكشفون بفعل ذلك ولا يستتر بعضهم من بعض.

واختلف القراء في قوله: ﴿ أَيُّكُمْ ﴾، وقد تقدم، وقرأ جمهور القراء: ﴿ جَوَابَ ﴾ نصباً، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحق: ﴿ جَوَابَ ﴾ بالرفع، ونسب ابن جني قراءة الرفع إلى الحسن، وفسرها في الشاذ.

وأخبر الله تعالى عن قوم لوط أنهم

بفتح اللام، وكذلك في آخر السورة، وهذه ابتداء تقرير وتثبيت لقريش، وهو أيضاً يعم كل مكلف من الناس جميعاً، وافتتح ذلك بالقول بحمده وتمجيده والسلام على عباده الذين اصطفاهم للنبوة والإيمان، وهذا اللفظ عام.

لجميعهم من ولد آدم، وكان هذا صدر خطبة للتقرير المذكور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: العباد المسلم عليهم هم أصحاب النبي ﷺ، واصطفاهم لنبيه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا الاختصاص توبيخ للمعاصرين من الكفار.

وقال الفراء: الأمر بالقول في هذه الآية هو لوط عليه السلام، قال المفسرون: وهذه عجمة من الفراء.

ثم وقف قريشاً والعرب - على جهة

و «الغابرون»: الباقون في العذاب، و﴿ غَبَّرَ ﴾ بمعنى بَقِيَ، وقد يجيء أحياناً في بعض كلام العرب ما يوهم أنه بمعنى مَضَى، وإذا تُوْمَل توجه حمله على معنى البقاء، والمطر الذي أمطر عليهم وهو حجارة السُّجَّين أهلكت جميعهم، وهذه الآية أصل لمن جعل من الفقهاء الرُّجْم في اللوطية، وبها تأنس لأن الله تعالى عَذَّبَهُمْ على كفرهم به، وأرسل عليهم الحجارة لمعصيتهم، ولم يقس هذا القول على الرُّنَى فيعتبر الإحصان، بل قال مالك وغيره: يرجمان في اللوطية أحصنا أو لم يُحْصِنَا، وإنما وَرَدَ عن النبي ﷺ: «اقتلوا الفاعل والمفعول به»، فذهب من ذهب إلى رجمهما بهذه الآية.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ أبو السمال: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾

قوم: لا يقال: «حديقة» إلا لما عليه جدار قد أحدق به، وقال قوم: تقول ذلك إذا كان جدار أو لم يكن لأن البياض محدد بالأشجار، و«البَهْجَة»: الجمال والثُصرة، وقرأ ابن أبي عبلة: «ذَوَاتِ بَهْجَةٍ»، ثم أخبر سبحانه - على جهة التوقيف - أنه ما كان للبشر، أي: ما يتبها لهم، ولا يقع تحت قدرتهم أن ينبتوا شجرها؛ لأن ذلك يكون بإخراج شيء من العدم إلى الوجود. وقد تقدم ترتيب القراءة في الهمزتين من قولسه: ﴿إِن﴾ و﴿أَوَّلَكَ لَأَنْتَ يُوسُفُ﴾. وقوله: ﴿أَوَّلَكَ﴾، قال أبو حاتم: القراءة باجتماع الهمزتين محدثة لا توجد في كلام العرب ولا قرأ بها قارئ عتيق. و﴿يَدِيلُونَ﴾

يجوز أن يراد به: يعدلون عن طريق الحق، أي: يجورون في فعلهم، ويجوز أن يراد به: يعدلون بالله غَيْرَهُ، أي: يجعلون له عديلاً ومثيلاً.

و﴿جَلَلَهَا﴾ معناه: بينها وأثنائها، و«الرُّؤَاسِي»: الجبال، رَسَا الشيء يرسو إذا ثبت وتَأَصَّلَ، و«الْبَحْرَانِ»: الماء العذب بجملته، والماء الأجاج بجملته، و«الحاجِرُ»: ما جعل الله بينهما من حواجز الأرض وموانعها على رِقَّتْها في بعض المواضع ولطافتها التي لولا قدرة الله تبارك وتعالى لغلِبَ المِلْحُ العذب، وكلُّ ما مضى من القول في تأويل قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ الآية فهو مترتب هنا فتأمل، وباقي الآية بين.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: وقهم في هذه الآيات على المعاني

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد تقدم أن هذه الألفاظ التي تعم معاني كثيرة كخير وشر وأحب ونحو ذلك قد يقع التفضيل بها بين أشياء متباينة؛ لأن المتباينات رُبَّما اشتركت فيها ولو بوجه ضعيف بعيد، وأيضاً فهذا تقرير، والمجادل يقرر خصمه لتنبهه على خطئه وإلزامه بحصر التفضيل في جانب واحد وانتفائه عن الآخر، وقد استوعبنا هذا فيما مضى. وقالت فرقة: تقدير هذه الآية: الله ذو خير أمَّا

تُشركون؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا النوع من الحذف بعيد. وقرأ الحسن، وقتادة، وعاصم: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ أهل المدينة ومكة والكوفة بالثاء من فوق.

وقوله: ﴿أَنْتَ خَلَقَ﴾ وما بعدها من التوقيفات توبيخ لهم، وتقرير على ما لا مندوحة لهم عن الإقرار به، وقرأ الجمهور: ﴿أَنْتَ﴾ بشد الميم، وهي (أَمْ) دخلت على (مَنْ)، وقرأ الأعمش: ﴿أَمَنْ﴾ بفتح الميم مسهلة، ويحتمل - على هذه القراءة - أن تكون الألف للاستفهام و (مَنْ) ابتداءً، وتقدير الخبر: يُكْفَرُ بنعمته وُشْرَكَ به؟ ونحو هذا من المعنى. و«الحدائق» مُجْتَمَعُ الأشجار من العنب والنخيل وغير ذلك، وقال

أَنْ يَبْدَأَ الْخَلْقَ تَرْيِيدُهُ وَمَنْ يَرْفُقُ كَرَمَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ
أَوَّلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾
قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ
أَيَّانَ يَبْعَثُونَ ﴿٣٧﴾ بَلِ ادْرَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ
فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ عَنْهَا مُخْمَلُونَ ﴿٣٨﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا
أَيُّ ذَا كُنَّا نُرَىٰ وَإِنَّا بِآيَاتِنَا الْمُرْسَلَاتِ لَقَدْ وَعَدْنَا
هَذَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِيرٌ الْأُولِينَ ﴿٣٩﴾
قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ
﴿٤٠﴾ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٤١﴾
وَيَقُولُوا مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٢﴾ قُلْ عَسَىٰ
أَنْ يَكُونَ رَدِفٌ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي سَتَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ
لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٤٤﴾ وَإِنَّ
رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكْرِمُونَ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا مِنْ عَابِدٍ
فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٤٦﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ
يُنصُّ عَلَىٰ نَبِيِّ إِسْرَائِيلَ أَكْثَرُ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٧﴾

التوبيخ - على موضع الثبائين بين الله عز وجل وبين الأوثان والأنصاب، وقرأ جمهور الناس: ﴿تُشْرِكُونَ﴾ بالياء من فوق، وحكى المهدوي عن أبي عمرو، وعاصم: ﴿يُشْرِكُونَ﴾ بالياء من تحت.

وفي هذا التفضيل بلفظة «خَيْرٌ» أقوال: أحدها أن التفضيل وقع بحسب معتقد المشركين؛ إذ كانوا يعتقدون أن في آلهتهم خيراً بوجه ما، وقالت فرقة: في الكلام حذف مضاف في الموضوعين، التقدير: أتوحيد الله خير أم عبادة ما تُشركون؟ ف[ما] في هذا التأويل بمعنى الذي، وقالت فرقة: [ما] مصدرية، وحذف المضاف إنما هو أولاً، وتقديره: أتوحيد الله خير أم شِركِكُمْ؟ وقيل: ﴿خَيْرٌ﴾ هنا ليست بأفعل، وإنما هي بفعل، كما تقول: «الصلاة خيرٌ» دون تفضيل.

التي يتبين لكل عاقل أنه لا مدخل ليصنم ولا ليوثن فيها، فهي عِبْرٌ ونِعْمٌ، فالحجة قائمة بها من الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿مُجِيبٌ الْمُنْظَرِ﴾ معناه: بشرط أن يشاء على المعتقد في الإجابة، لكن المضطر لا يجيبه متى أجيب إلا الله عز وجل، و﴿النَّوَى﴾ عامٌ في كل ضر يكشفه الله تعالى عن عباده، وقرأ الحسن: ﴿وَنَجَعَلَكُمْ﴾ بياءٍ على صيغة المستقبل، ورويت عنه بنون. وكل قرآن خلف للذي قبله، وقرأ الجمهور: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالثاء على المخاطبة، وقرأ أبو عمرو وحده، والحسن، والأعمش بالياء على الغيبة. و«الظلمات» عام لظلمة الليل التي هي الحقيقة في اللغة، ولظلم الجهل والضلال والخوف التي هي مجازات وتشبيهات، وهذا كقول الشاعر:

تَجَلَّتْ عَمَائَاتِ الرُّجَالِ عَنِ الصَّبَا

وكما تقول: أَظْلَمَ الأمرُ وأثار، وقد تقدم اختلاف القراء في قوله: ﴿يُنْزَرُ﴾، وقرأ الحسن وغيره: ﴿يُنْزِرُونَ﴾ بالياء على الغيبة، وقرأ الجمهور: ﴿تُنْشِرُكُونَ﴾ على المخاطب.

و«بئذ الخلق» اختراعه وإيجاده، و«الخالق»: هنا المخلوق من جميع الأشياء، لكن المقصود بني آدم من حيث ذكر الإعادة والبعث من القبور، ويحتمل أن يريد بـ«الخالق» مصدر: خَلَقَ يَخْلُقُ، ويكون ﴿يَبْدَأُ﴾ و«يُؤَيِّدُ» استعارة للإتقان والإحسان، كما تقول: فلان يبدي

ويعيد في أمر كذا وكذا، أي يُتَقَنُه. و«الرُّزْق» من السماء بالمطر، ومن الأرض بالنبات، هذا مشهور ما يحسه البشر، وكم لله تبارك وتعالى من لطف خفي.

ثم أمر عز وجل نبيه أن يوقفهم على أن الغيب مما انفرد به الله عز وجل، ولذلك سُمِّيَ غَيْباً لغيبته عن المخلوقين، ورُوي أن هذه الآية من قوله: ﴿قُلْ لَا يَمَلِكُ﴾ إنما أنزلت لأن الكفار سألوا وألحوا عن وقت القيامة التي يعدمون فنزلت هذه الآية بالتسليم لأمر الله تعالى وترك التحديد، وأعلم عز وجل أنه لا يعلم وقت الساعة سواه، فجاء بلفظ يعم السامع وغيره، وأخبر عن البشر أنهم لا يشعرون أيان يُبعثون، وبهذه الآية احتجت عائشة رضي الله تعالى عنها على قولها: «مَنْ زَعَمَ أن محمداً يعلم الغيب فقد أعظم على الله الفرية». والمكتوبة في قوله: ﴿إِلَّا اللَّهُ﴾ بدل من [مَنْ]. وقرأ جمهور الناس: ﴿إِيَّانَ﴾ بفتح الهمة، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي: ﴿إِيَّانَ﴾ بكسرهما، وهما لغتان.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ أصله: تَذَارَكَ، أدغمت التاء في الدال بعد أن أبدلت، ثم احتجج إلى ألف الوصل، وقرأ أبي بن كعب: ﴿تَذَارَكَ﴾ فيما روي عنه، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ على وزن افتعل، وهي بمعنى تفاعل، وقرأ سليمان بن يسار، وعطاء بن يسار: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ بفتح اللام ولا همز ويتشديد الدال دون ألف، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو،

وجعفر، وأهل مكة: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿أَمْ تَذَارَكَ عَلْمُهُمْ﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾، وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿بَلْ أَذَارَكَ﴾ بهمزة ومدّة على جهة الاستفهام، وقرأ ابن محيصن: ﴿بَلْ أَذْرَكَ﴾ على الاستفهام، ونسبها أبو عمرو الداني إلى ابن عباس والحسن.

فأما قراءة الاستفهام فهي على معنى الهزء بالكفرة، والتقرير لهم على ما هو في غاية البعد عنهم: أي: أَعْلِمُوا أَمْرَ الآخِرَةِ وأدركها علمهم؟ وأما القراءة الأولى فتحتمل معنيين: أحدهما: بَلْ أَذْرَكَ عَلْمُهُمْ، أي: تناهى، كما تقول: أدرك النبات وغيره، وكما تقول: هذا ما أدرك علمي من كذا وكذا، فهذا قد تتابع وتناهى علمهم بالآخرة إلى أن يعرفوا لها مقداراً فيؤمنوا، وإنما لهم ظنون كاذبة، أو ألا يعرفوا لها وقتاً، وكذلك أذارك وتذارك وسواها، وإن حملت هذه القراءة معنى التوقيف والاستفهام ساغ، وجاء إنكاراً لأن أدركوا شيئاً نافعاً، والمعنى الثاني: بَلْ أَذْرَكَ بمعنى يُدْرِكُ، أي أنهم في الآخرة يدرك علمهم وقت القيامة، ويرَوُّوا العذاب والحقائق التي كذبوا بها، وأما في الدنيا فلا، وهذا تأويل ابن عباس رضي الله عنهما، ونحا إليه الزجاج، فقوله: ﴿فِي الآخِرَةِ﴾ - على هذا التأويل - ظرف، وعلى التأويل الأول في معنى الباء، والعلم قد يتعدى بحرف الجر، تقول: علمي يزيد كذا، ومنه قول الشاعر:

٧٥ - ٧٦ تفسير قوله عز وجل:

الهاء في ﴿عَائِبَةً﴾ للمبالغة، أي: ما من شيء في غاية الغيب والخفاء إلا في كتاب عند الله في مكنون علمه، ثم نبه تعالى على أن هذا القرآن أخبر بني إسرائيل بأكثر الأشياء التي كان بينهم اختلاف في صفتها، فجاءت في القرآن على وجهها، ثم وصفه تعالى بأنه هدى ورحمة للمؤمنين، كما أنه عمي على الكافرين المحتوم عليهم، ومعنى ذلك أن كفرهم استتب مع قيام الحجة ووضوح الطريق، فكثر عماهم بهذه الحجة، ثم أخبر أن ذلك كله بقضاء من الله تعالى وحكم قضاة فيهم وبينهم، ثم أمرهم بالتوكل عليه، وبالثقة بالله، وبأنه على الحق، أي: إنك الجدير بالثورة والظهور، ثم سلاه عنهم، وشبههم بالموتى من حيث الفائدة بالقول لهؤلاء وهؤلاء معدومة، فشبههم مرة بالموتى ومرة بالضم، قال العلماء: الميت من الأحياء هو الذي يلقي الله تعالى بكفره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واحتجت عائشة رضي الله عنها في إنكارها أن النبي ﷺ أسمع موتى بدر بهذه الآية، ونظرت هي في الأمر بقياس عقلي، ووقفت مع هذه الآية، وقد صح عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أنتم بأسمع منهم»، فيشبهه أن قصة بدر هي خرق عادة للنبي ﷺ في أن رد الله تعالى إليهم إدراكاً سمعوا به مقاله، ولولا إخبار رسول الله ﷺ بسماعهم لحملنا نداهم إياهم على معنى التوبيخ على من بقي من الكفرة، وعلى معنى

ثم ذكر الكفار أن هذه المقالة مما وعدوا بها قبل، وقد ورد ذلك على لسان جميع الأنبياء، وجزموا أن ذلك من أساطير الأولين، ثم وعظهم تبارك وتعالى بحال من عذب وبالحدز أن يصيبهم ما أصاب أولئك، وهذا التحذير يقتضيه المعنى. ثم سلى الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام عنهم، وهذا بحسب ما كان عنده من الحرص عليهم والاهتمام بأمرهم. وقرأ ابن كثير: ﴿في ضَيْقٍ﴾

بكسر الضاد، ورويت عن نافع، وقرأ الباقون بفتحها، والضيق أبو علي أن يكون (ضَيْقٍ) كَهَيْتِ وَلَيْتِ مسهلة من ضَيْقٍ، قال: لأن ذلك يقتضي أن تقام الصفة مقام الموصوف. ثم ذكر استعجال قریش لأمر الساعة والعذاب.

و ﴿رَدَفٍ﴾ معناه: قُرْبٌ وَأَزْفٌ، قاله ابن عباس وغيره، ولكنها عبارة عما يجيء بعد الشيء قريباً منه، ولكونه بمعنى هذه الأفعال تعدى بحرف وإلا فبانه أن يتجاوز بنفسه. وقرأ الجمهور بكسر الدال، وقرأ الأعرج: ﴿رَدَفٍ﴾ بفتح الدال. وقرأ الجمهور من الناس: ﴿يُكِنُّ﴾ من أَكْنُ، وقرأ ابن محيصن وابن السميع من كُنَّ: ﴿تَكُنُّ﴾، وهما بمعنى واحد.

وإِنَّهُ هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ. وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٩﴾ إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ وَلَا تَسْمَعُ الْوَعْدَ إِذْ أَتَى الْأَمْرَ إِذْ أَتَى الْأَمْرَ ﴿٨٠﴾ وَمَا أَنتَ بِهَدَى الْعُمِّيِّ عَنِ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مِنَ الْوَعْدِ بِنَابِنَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨١﴾ وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨٢﴾ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّنْ يُكَلِّمُ بِنَابِنَاتِنَا فَهُمْ يُوعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُمْ قَالَ أَكُنْتُمْ تُشْرِكُونَ وَلَكِنَّكُمْ إِتْرَابًا مِّمَّنْ لَمَّا أَثَارَ تَرْجُومُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَ كُنُوفِهِمُ وَالنَّهَارَ مَبْصُرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يَنْفَعُ فِي الصُّورِ فَفَيْحَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَرَبِّيَ الْجَبَّالُ تَحْسَبُهَا جَانِدَةً وَهِيَ تَمْرُمُ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾

وعلمي بأسوام المياه
ثم وصفهم عز وجل بأنهم في شك منها، ثم أردفهم بصفة أبلغ من الشك وهي العمى بالجملة عن أمر الآخرة، و﴿عَمُونَ﴾ أصله (عَمِيُونَ) فعِلون كحذرون وغيره.

٧٧ - ٧٨ تفسير قوله عز وجل:
استبعد الكفار أن تُبعث الأجساد والرّمم من القبور، فذكر ذلك عنهم على جهة الرد عليهم، وقرأ أبو عمرو، وابن كثير: ﴿أَيْدًا﴾ و﴿أَيْتًا﴾ غير أنا أبا عمرو ويمد وابن كثير لا يمد، وقرأ عاصم وحمزة: ﴿أَيْدًا﴾ و﴿أَيْتًا﴾ بهمزة فيهما، وقرأ نافع: ﴿إِذَا﴾ مكسورة الألف، وقرأ الباقون: ﴿أَيْدًا﴾ ممدودة الألف، وقرأ بنون وكسر الألف.

شفاء صدور المسلمين منهم، وقد عورضت هذه الآية بالسلام على القبور، وبما روي في ذلك أن الأرواح تكون في شفير القبور في أوقات، قالوا: فلو لم يسمع الميت لم يسلّم عليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله غير معارض للآية؛ لأن السلام على القبور إنما هو عبادة، وعند الله الثواب عليها، وهو تذكير للنفس بحالة الموت وبحالة الموتى في حياتهم، وإن جوزنا مع هذا أن الأرواح في وقت على القبور، فإن سمع فليس الروح بميت، وإنما المراد بقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى﴾ الأشخاص الموجودة مفارقة لأرواحها، وفيها نقول: خرقت العادة لمحمد ﷺ في أهل القليب، وذلك كنعو قوله عليه الصلاة والسلام في الموتى إذا دخل عليهم المكان: ﴿إِنَّهُمْ يَسْمَعُونَ خَفَقَ الثَّعَالِ﴾.

وقرأ ابن كثير: ﴿وَلَا تَسْمَعُ﴾ بالياء من تحت ﴿الضُّمُّ﴾ رفعاً، ومثله في الروم، وقرأ الباقون: ﴿تَسْمَعُ﴾ بالتاء ﴿الضُّمُّ﴾ نصباً، وقرأ جمهور القراء: ﴿وَمَا آتَتْ بِهَادِي الْعُغْمِيِّ﴾ بالإضافة، وقرأ يحيى بن الحارث، وأبو حيو: ﴿بهادي العُغْمِيِّ﴾ بتنوين الدال ونصب ﴿العُغْمِيِّ﴾، وقرأ حمزة وحده: ﴿وَمَا آتَتْ بِهَادِي الْعُغْمِيِّ﴾ بفعل مستقبل، وهي قراءة طلحة بن وثاب، وابن يَعمَر، وفي مصحف عبدالله: ﴿وَمَا أَنْ تَهْدِي الْعُغْمِيِّ﴾.

ومعنى قوله: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ﴾ إذا انشجز وغد عذابهم الذي

تضمنه القول الآن من الله تعالى في ذلك - أي حتمه الله عليهم - وقضاه، وهذا بمنزلة قوله تعالى: ﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ﴾، فمعنى الآية: وإذا أراد الله تعالى أن ينفذ في الكافرين سابق علمه لهم من العذاب أخرج لهم دابة من الأرض، وروي أن ذلك حين ينقطع الخير، ولا يؤمر بمعروف، ولا ينهى عن منكر، ولا يبقى مُنيب ولا تائب، كما أوحى الله تعالى إلى نوح: ﴿أَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا مِنْ قَوْمِكُمْ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ﴾، و﴿رَفَعَ﴾ عبارة عن الثبوت واللزوم، وفي الحديث: ﴿إن الدابة وطلوع الشمس من المغرب من أول الأَشْرَاطِ - ولم يُعَيِّنِ الأَوَّلَى - وكذلك الدَّجَالُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر الأحاديث والروايات أن الشمس آخرها؛ لأن التوبة تنقطع معها، ويُعطي الحال أن الإيمان لا يبقى إلا في أفراد، وعليهم تهب الريح التي لا تُبقي إيماناً، وحينئذ ينفذ ويُنفخ في الصور، ونحن نروي أن الدابة تُسَمَّى قوماً بالإيمان، ونجد أن عيسى ابن مريم عليه السلام يعدل بعد الدَّجَالِ، ويؤمنُ الناسُ به، وهذه الدابة روي أنها تخرج من جبل الصفا بمكة، قاله عبدالله بن عمر، وقال عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهم أجمعين - نحوه، وقال: لو شئت أن أضع قدمي على موضع خروجها لفعلت، وروي عن قتادة أنها تخرج من يهامة، وروي أنها تخرج من مسجد الكوفة من حيث فار تُثور نوح عليه السلام، وروي بعضهم عن حذيفة بن اليمان

أنها تخرج ثلاث خرجات، وروي أنها دابة مزغبة شعراء، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهم أنها على خلقة الآدميين، وهي في السحاب وقوائمها في الأرض، وروي أنها جمعت من خلق كل حيوان، وروي الثعلبي عن ابن الزبير نحوه، وروي أنها دابة ميثوث نوعها في الأرض، فهي تخرج في كل بلد وفي كل قوم، فقوله - على هذا التأويل -: ﴿وَأَنْتُمْ لَنْ يُؤْمِنُوا﴾ إنما هو اسم جنس، وحكى السنقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنها الثعبان المشرف على جدار الكعبة التي اقتلعتها العقاب حين أرادت قريش بناء الكعبة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَكَلِّمُهُمْ﴾ من الكلام، وفي مصحف أبي: ﴿تُثَبِّبُهُمْ﴾، وفسرهما عكرمة بـ (تَسْمِيَهُمْ)، قال قتادة: وفي بعض القراءة: ﴿تَحَدِّثُهُمْ﴾، وقرأ أبو رُزَعة بن عمرو بن جرير: ﴿تَكَلِّمُهُمْ﴾ بكسر اللام من الكلام وهو الجرح، قال أبو الفتح: هي قراءة ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والجحدري، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كل ذلك والله تفعل تكلمهم وتكلمهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: روي في هذا أنها تمر على الناس فتسبم الكافر في جبهته وترمده وتشمه وربما حطمته، وربما تمسح على وجه المؤمن فتبيضه، ويُعرف - بعد ذلك - الإيمان والكفر من قبيلها.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ بكسر ﴿إِنَّ﴾، وقرأ حمزة،

والكسائي، وعاصم بفتح الألف، وفي قراءة عبدالله: ﴿تَكَلَّمُهُمْ بِأَنَّ﴾، وهذا تصديق بالفتح، وعلى هذه القراءة يكون قوله: ﴿إِنَّ النَّاسَ﴾ إلى آخر الآية من كلام الدابة، وروي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يكون ذلك من كلام الله عز وجل.

﴿٨٧﴾ - ﴿٨٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر يوم، وهذا تذكير بيوم القيامة، و﴿تَحْتَرُّ﴾: تَجْمَعُ، و﴿مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ﴾ يريد: من كل قرن من الناس متقدم؛ لأن كل عصر لم يخل من كفرته بالله من لذن تفرق بني آدم، و﴿الْفَوْجُ﴾: الجماعة الكبيرة من الناس، والمعنى: بمن حاله أنه مكذب بآياتنا، و﴿يُؤْرَثُونَ﴾ معناه: يُكْفَوْنَ فِي السُّوقِ، أي: يُخْبَسُونَ أَوْلَهُمْ عَلَى آخِرِهِمْ، قاله قتادة وغيره، ومنه وازع الحبس، ومنه يقول عبدالشارف بن عبدالعزيز:

فجاءوا عارضاً بَرْدًا وَجِينًا
كَمَثَلِ السَّيْلِ تَرْكَبُ وَازِعِيْنَا
ثم أخبر تعالى عن توقيفه الكفرة يوم القيامة وسؤالهم على جهة التوبيخ: ﴿أَكَاذِبُكُمْ بَيِّنَاتِي﴾ الآية، ثم قال: ﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ على معنى استيفاء الحجج، أي: إن كان لكم عمل أو حجة فهاؤها. وقرأ أبو حيوة: ﴿أَمَّا ذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ بتخفيف الميم.

ثم أخبر عن وقوع القول عليهم، أي نفوذ العذاب وحتم القضاء، وأنهم لا ينطقون بحجة لأنها ليست لهم، وهذا في موطن من مواطن القيامة، وفي فريق من الناس؛ لأن

القرآن يقتضي أنهم يتكلمون بحجج في غير هذا الموطن.

ثم ذكر تعالى الآية في الليل وكونه وقت سكون ووداعة لجميع الحيوان، والمهم في ذلك بنو آدم، وكون النهار مبصرًا، أي: ذا إيبصار، وهذا كما تقول: ليل نائم ونهار صائم، ومعنى ذلك: يُنَامُ فِيهِ، فكذاك هذا معناه: يُبْصِرُ فِيهِ، فهو لذلك: ذا إيبصار، ثم تجوز بأن قيل: ﴿مُبْصِرًا﴾، فهو على النسب كعيشة راضية، والآيات في ذلك هي للمؤمنين والكافرين، هي آية لجميعهم في نفسها، لكن من حيث الانتفاع بها والنظر النافع إنما هو للمؤمنين فلذلك حُصِرُوا بِالذِّكْرِ.

ثم ذكر تبارك وتعالى يوم التفتخ في الصور، وهو القرن في قول جمهور الأمة، وهو مقتضى الأحاديث، وقال مجاهد: هو كهيئة البوق، وقالت فرقة: الصور جمع صورة، كتمرة وتمر وجمرة وجمر، والأول أشهر، وفي الأحاديث المتداولة أن إسرافيل عليه السلام هو صاحب الصور، وأنه قد جثا على ركبته الواحدة وأقام الأخرى وأمال خده والتقم القرن ينتظر متى يؤمر ويؤذن له بالتفتخ، وهذه التفتخة المذكورة في هذه الآية هي نفخة الفزع، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن الملك له ثلاث نفخات: نفخة الفزع، وهو فزع حياة الدنيا وليس بالفزع الأكبر، ونفخة الصعق، ونفخة القيامة من القبور. وقالت فرقة: إنما هما نفختان، كأنهم جعلوا الفزع والصعق في نفخة واحدة، واستدلوا على ذلك بقوله

تعالى: ﴿ثُمَّ نَفِخْ فِيهِ لَحْرِيبًا فَإِذَا هُمْ بِيَوْمٍ يُنظَرُونَ﴾، وقالوا: أخرى لا تقال إلا في الثانية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أصح، وأخرى تقال في الثالثة، ومنه قول ربعة بن مرقوم:

وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِآخِرِ نَالِكٍ

ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَفَرْنَا﴾

﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَفَرْنَا﴾، وأما قول الشاعر:

جَعَلْتُ لَهَا عَوْدَيْنِ مِنْ
نَشْمٍ وَأَخْرَجْتُ مِنْ نَمَامَةٍ
فهو يحتمل أن يريد ثانيًا أو ثالثًا فلا حجة فيه.

وقوله تعالى: ﴿فَنَزَعْنَا﴾ - وهو أمر لم يقع - يُدْعَى إِشْعَارًا بِصِحَّةِ وَقُوعِهِ، وهذا معنى وضع الماضي موضع المستقبل، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ استثناء فيمن قضى الله تعالى من ملائكته وأنبيائه وشهداء عبيده ألا ينالهم فزع التفتخ في الصور، وقال أبو هريرة: هي في الشهداء، وذكر الرُّمَّانِيُّ أَنَّهُ النَّبِيُّ ﷺ، وقال الفزع مقاتل: هي في جبريل وميكائيل وإسرافيل وملئك الموت، وإذا كان الأكبر لا ينالهم فهم خربون ألا ينالهم هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: على أن هذا في وقت ترتب وذلك في وقت أمن؛ إذ هو إطباق جهنم على أهلها.

وقرأ جمهور القراء: ﴿وَكُلُّ آتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ على وزن فاعلوه، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم: ﴿أَنْزُونَ﴾ على صيغة الفعل الماضي، وهي قراءة ابن مسعود وأهل الكوفة، وقرأ

وقتادة: «آتاء» على الإفراد إبتاعاً للفظ [كُل]، وإلى هذه القراءة أشار الزجاج ولم يذكرها.

و«الداخر»: المتذلل الخاضع، قال ابن عباس، وابن زيد: الداخر: الصاغر، وقرأ الحسن: «دخيرين» بغير ألف، وتظاهرت الروايات بأن الاستثناء في هذه الآية إنما أريد به الشهداء؛ لأنهم أحياء عند ربهم يرزقون، وهم أهل للفرع لأنهم بشر لكنهم فُضِّلوا بالأمن في ذلك اليوم.

٣٣٠ - ٣٣١ تفسير قوله عز وجل:

هذا وصف حال الأشياء يوم القيامة عقب التفتيح في الصور، والرؤية هي بالعين، وهذه الحال للجبال في أول الأمر تسير وتموج، وأمر الله تبارك وتعالى بنسفها ونفثها خلال ذلك فتصير كالعهن، ثم حتى تصير في آخر الأمر هباءً منثوراً، و«الجمود»: الثصام في الجوهر، قال ابن عباس: [جمادة]: قائمة، ونظيره قول الشاعر:

بأزعرن مثل الطود تحسب أنهم
وقوف لحاج والركاب تهملج
و«صنع الله» مصدر معرف، والعامل فيه فعل مضمَر من لفظه، وقيل: هو نصب على الإغراء، بمعنى: انظروا صنيع الله، و«الإثقان»: الإحسان في المعمولات، وأن تكون حسناً وثيقة القوة، وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو، وابن عامر: «يفعلون» بالياء، وقرأ الباقون: «تفعلون» بالتاء على الخطاب.

و«الحسنة» الإيمان، وقال الحسن، وابن عباس، والنخعي،

من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فرغ يومئذ آمينون ﴿٣٣٠﴾
ومن جاء بالسئنة فكنت وجوههم في النار هل تجزون
إلا ما كنتم تعملون ﴿٣٣١﴾ إنما أمرت أن أعبد ربك هذه
البلدة التي حرمتها وله كل شيء وأمرت أن أكون من
المسلمين ﴿٣٣٢﴾ وأن أتألف القرءان فمن أهدتني فإنا هدى
لنفسه ومن ضل فقل إنما أنا من المُنذرين ﴿٣٣٣﴾ وقال الحمد
لله سيركء آيتيه فعرّفوها وأمر ربك بعقل عما تعملون ﴿٣٣٤﴾

سورة القصص

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طس ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُوا عَلَيْهِا
مِنْ نَبِيِّ مُوسَىٰ وَمِنْ قَبْلِهِ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنَّ
وَعْدَ عَدَاوِيٍّ مِنَ الْأَرْضِ وَمَجْعَلِ أَهْلِهَا سَيِّئًا يَسْتَحْضِفُونَ
طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخَّرُونَ لَهُمْ وَيَنْتَهِىٰ عَنْهُمْ إِذْ يَكَادُ
مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَيُرِيدُ أَنْ يَمُنَّ عَلَىٰ الَّذِينَ اسْتَضَفُوا
فِي الْأَرْضِ وَيَجْعَلَهُمْ آيَةً وَيَجْعَلَهُمُ الْآرِثِينَ ﴿٥﴾

٣٨٥

الميم على إعمال الإضافة؛ وذلك أن الظروف إذا أضيفت إلى غير ممكن جاز بناؤها وإعمال الإضافة فيها، ومن ذلك قول الشاعر:

عَلَىٰ حِينَ عَابَتْهُ الْمَشِيبُ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ أَلَمَّا أَضْحُ وَالشَّيْبُ وَأَنْعُ
فإنه يروى: «على حين» بفتح النون، و«على حين» بكسرها، وقرأ عاصم، وحمرزة، والكسائي: «بين فرج» بالتنوين وترك الإضافة، ولا يجوز - مع هذه القراءة - إلا فتح الميم من «يومئذ».

و«السئنة» التي في هذه الآية هي الكفر والمعاصي بمن حتم الله تبارك وتعالى عليه من أهل المشينة بدخول النار، و«تكتت» معناه: تلت في النار، وجاء هذا كياً من حيث خلفها في الدنيا يعطي ارتفاعها، وإذا كتبت الوجوه فسائر البدن أدخل النار؛ إذ

حسنه، وقال ابن زيد: يعطى بالواحدة عشرة، والداعية إلى هذا التقدير أن الحسنة لا يتصور بينها وبين الثواب تفضيل، ويحتمل أن يكون «خير» ليس للتفضيل، بل اسم للثواب والنعمة، ويكون قوله: «منها» لابتداء الغاية، أي: هذا الجزاء الذي يكون له هو من حسنته ويستبها، هذا قول الحسن، وابن جريج، وقال عكرمة: ليس شيء خيراً من لا إله إلا الله، وإنما له الخير منها.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «من فرج يومئذ» بالإضافة، ثم اختلفوا في فتح الميم وكسرها من «يومئذ» فقرأ أكثرهم بفتح الميم على بناء الظرف لما أضيف إلى غير ممكن، وقرأ إسماعيل بن جعفر عن نافع بكسر

الوجه موضع الشرف والحواش، وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ بمعنى: فقال لهم ذلك، وهذا على جهة التوبيخ.

وقوله: ﴿إِنَّمَا أَرِيتُمْ﴾ بمعنى: قل يا محمد لقومك: إِنَّمَا أَرِيتُمْ، و«الْبَلَدَةُ» المشار إليها مكَّة، وقرأ جمهور الناس: ﴿الَّذِي حَرَمَهَا﴾ وقرأ ابن عباس، وابن مسعود: ﴿الَّتِي حَرَمَهَا﴾، وأضاف - في هذه الآية - التحريم إلى الله تعالى من حيث ذلك بقضائه وسابق علمه، وأضاف النبي ﷺ ذلك إلى إبراهيم في قوله: ﴿إِن إِبْرَاهِيمَ حَرَّمَ مَكَّةَ وَإِنِّي حَرَّمْتُ الْمَدِينَةَ﴾ من حيث كان ظاهر ذلك بدعائه ورغبته وتبليغه لأُمَّته، فليس بين الآية والحديث تعارض، وفي قوله: ﴿حَرَمَهَا﴾ تعديد للنعمة على قريش في رفع الله تعالى عن بلدهم الغارات والفتن الشائعة في جميع بلاد العرب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ كُنْ مِّنْهُمْ﴾ معناه: بالملك والعبودية. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَنْ أَتْلُوهُ﴾ عطفاً على قوله: ﴿إِنَّ أَكُونُ﴾، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَأَنْ أَتْلُ الْقُرْآنَ﴾ بمعنى: وأن قيل لي: أتلى القرآن، و«أتلى» معناه: تابع بقراءتك بين آياته واشتد، وتلاوة القرآن سبب الاهتمام إلى كل خير.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اهْتَدَى﴾ معناه: من تكسب الهدى والإيمان ونظر نظراً ينجيه فلنفسه سعيه. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فَبِنِسْبَةِ الْهُدَى وَالضَّلَالِ إِلَى الْبَشَرِ مِنْ

هذه الأمة إنما هي بالتكسب والحرص والحال التي عليها يقع الثواب والعقاب، والكل أيضاً من الله تعالى بالاختراع.

وقوله تعالى: ﴿سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ﴾ توعد بعذاب الدنيا كيدر والفتح ونحوه، وبعذاب الآخرة. وقرأ جمهور القراء: ﴿عَمَّا يَتَمَلَّوْنَ﴾ بالياء، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿عَمَّا﴾ بالثاء من فوق على مخاطبتهم.

كَمُلْ تَفْسِيرَ سُورَةِ التَّمَلُّعِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تفسير سورة القصص

هذه السورة مكَّية إلا قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَيْ مَعَادٍ﴾، نزلت هذه بالجحفة في وقت هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، قاله ابن سلام وغيره، وقال مقاتل: فيها من المدني: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَا تَبْنِيَنَّ الْجَنَّةَ لِلْجَنِّينَ﴾.

① - ② تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور بما أغنى عن الإعادة، فمن قال: «إن هذه الحروف من أسماء الله تبارك وتعالى» قال: إن الطاء من الطول الذي له سبحانه، والسين من السلام، والميم من

المنعم، أو من الرحيم، ونحو هذا. وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ يتقدر موضعها بحسب كل قول من الأقوال في الحروف، فمن جعل ﴿طَسَرَ﴾ مثلاً لحروف المعجم جاءت الإشارة بـ ﴿تِلْكَ﴾ إلى حروف المعجم، ومن قطعها قال: ﴿تِلْكَ﴾ في مواضع هذه، وساغ هذا من حيث لم تكن حاضرة عتيده، بل هي أقوال تقتضي بعضها شيئاً فشيئاً، فساغ أن يقال في الإشارة إليها: ﴿تِلْكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأصل أن (تلك) إشارة إلى ما غاب، و (هذه) إشارة إلى ما حضر، وقد تتداخل متى كان في الغيبة حصول وثقة به يقوم مقام الحضور، ومتى كان في الحضور بُعْدٌ ما يقوم مقام الغيبة، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمْوَسَى﴾ لما كان موسى لا يرى ربَّه تعالى، فهو وعصاه في منزل غيب، فساغ ذلك.

ومن النقص قول المؤلف لكتاب: «هذا كتاب»، وما جرى هذا المجرى فنتيجه، ويشبه في آيتنا هذه أن تكون ﴿تِلْكَ﴾ بمنزلة: هذه آيات الكتاب المبين، ويشبه أن تكون متمكنة من حيث الآيات كلها وقت هذه المخاطبة لم تكن عتيده. و«تتلا» معناه: تُقَصُّ ونتابع القصص، وخص المؤمنين في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَوَى بَيِّنَاتٍ﴾ من حيث أنهم هم المتفهمون بذلك دون غيرهم.

و «عَلَا فِي الْأَرْضِ» من علو الطغيان والتغلب. وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد أرض مصر وموضع ملكه، ومتى جاءت الأرض هكذا

وَمَنْ كَفَرَ فِي الْأَرْضِ وَرَبِّيَ فِرْعَوْنُ وَهَمَنْ وَجَدْتَهُمَا
 مِنْهُمْ مَتَّكُوا فَاذْهَبُوا وَتَذَكَّرُوا ۝ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمَمُوسَىٰ
 أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا حَفَتِ عَلَيْهِ فَالْقَيْسِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي
 وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَمَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝
 فَأَلْقَطْنَاهُ إِيَّاكَ لِتَكُونَ لِهَارُونَ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ
 فِرْعَوْنَ وَهَمَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِبِينَ ۝
 وَقَالَتْ أُمَّرَأَةٌ فِرْعَوْنَ قُرَّتْ عَيْنَيْهَا لِوَلَيْكَ لِانْقِلَابِهِ عَنِّي
 أَنْ بِنِعْمَةِ رَبِّي أُورِثُهُ الْوَلَدَ وَإِنِّي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ۝ وَأَصْبَحَ
 فُؤَادُ أُمَمُوسَىٰ قَدِيرًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ
 رَزَقْنَاهُ آلَ فُلْيَاقٍ لَيَكُونُ مِنَ الْمُتْرَبِينَ ۝ وَقَالَتْ
 لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ
 ۝ وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلٍ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ
 عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَصِيرُونَ ۝
 فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كَمَا تَفَرَّقْتُمْ عَلَيْهَا وَلَا تَحْزَنْ وَلَا تَعْلَمِ
 أَنَّكَ وَعَدُ الْوَحْيِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝

٢٨٦

أَلْوَرِيكَ ﴿ يريد: أرض
 مصر والشام، وقرأ
 الأعمش: ﴿وَلَيْسَ كُنَّ﴾
 بلام، وقرأ الجمهور:
 ﴿وَرَبِّي فِرْعَوْنَ﴾ بضم
 النون وكسر الراء وفتح
 الياء ونصب ﴿فِرْعَوْنَ﴾،
 وقرأ حمزة، والكسائي،
 وابن مسعود: ﴿وَرَبِّي﴾
 بالياء وفتح الراء وسكون
 الياء على الفعل الماضي
 وإسناد الفعل إلى فرعون
 ومن بعده، والمعنى:
 ويقع فرعون وقومه وجنده
 فيما خافوه وحذروه من
 جهة بني إسرائيل
 وظهورهم. وهامان هو

عاماً فإنما يُراد بها الأرض التي تشبه
 قصة القول المسوق؛ لأن الأنبياء التي
 تعم الأرض كلها قليلة، والأكثر ما
 ذكرناه، و«الشَّيخ»: الفِرْق، وكان
 هذا القول من فرعون بأن جعل القبط
 ملوكاً، وبني إسرائيل مستخدمين،
 وهم كانوا الطائفة المُستضعفة.
 و«يَذبحُ» مضعف للمبالغة والعبارة
 عن تكرار الفعل، قال قتادة: كان
 هذا الفعل من فرعون لأنه قال له
 كهنته وعلماءه: إن غلاماً لبني
 إسرائيل يفسد مُلكك، وقال السدي:
 رأى في ذلك رؤيا فأخذ بني إسرائيل
 يذبح الأطفال سنين، فرأى أنه يقطع
 نسلهم، فعاد يذبح عاماً ويستحيي
 عاماً، فولد هارون عليه السلام في
 عام الاستحياء، وولد موسى عليه
 السلام في عام الذبح، وقرأ جمهور
 القراء: ﴿يَذبحُ﴾ بضم الياء وكسر
 الياء على التكثير، وقرأ أبو حيوة،
 وابن محيصن بفتح الياء والباء
 وسكون الذال. قال وهب بن منبه:
 بلغني أن فرعون ذبح في هذه
 المحاولة سبعين ألفاً من الأطفال،
 وقال النقاش: جميع ما قتل ستة
 عشر طفلاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 طمع بجهله أن يزدُ القدر، وأين هذا
 المنزع من قول النبي ﷺ لعمر: «إِنْ
 يَكُنْهُ فَلَنْ تَقْدِرَ عَلَيْهِ» يعني ابن صياد،
 وباقي الآية يَبين.

٥٧ - ﴿٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: يستضعف فرعون ونحن
 نريد أن نُثعم ونُعظم المئة على
 المستضعفين، و«الأئمة»: ولاة
 الأمور، قال قتادة: ﴿وَيَجْعَلُهُمْ

﴿لَيَكُونَنَّ مِنَ الْمُتْرَبِينَ﴾ أي:
 بالوعد. وقال السدي وغيره: أمرت
 أن ترضعه عقب الولادة، وأن تصنع
 به ما في الآية؛ لأن الخوف كان
 عقب الولادة، وقال ابن جريج:
 أمرت برضاعه أربعة أشهر في
 بستان، فإذا خافت أن يصيح لأن
 لبنها لا يكفي صنعت به هذا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 والأول أظهر، إلا أن الآخر يعضده
 أمران: أحدهما قوله: ﴿فَإِذَا حَفَتِ
 عَلَيْهِ﴾ و«إِذَا» ظرف لما يُستقبل من
 الزمان، والآخر لأنه لم يقبل
 المرضع، والطفل إثر ولادته لا
 يفعل ذلك، اللهم إلا أن يكون هذا
 منه بأن الله تبارك وتعالى حرّمها عليه
 وجعله يأبأها بخلاف سائر الأطفال،
 وقرأ عمرو بن عبد الواحد: ﴿أَنْ
 أَرْضِعِيهِ﴾ بكسر النون اعتباراً لا

وزير فرعون وأكبر رجاله، وذكر
 لِمَحَلِّهِ من الكفر ولنباهته في قومه،
 فله في هذا الموضع صغار ولعنة لا
 شرف.

وهذا الوحي إلى أم موسى - قالت
 فرقة: كان قولاً في منامها، وقال
 قتادة: كان إلهاماً، وقالت فرقة: كان
 بِمَلَكٍ تَمَثَّلَ لها، وأجمع الكل على
 أنها لم تكن نبيّة، وإنما إرسال
 المَلَكِ لها على نحو تكليم المَلَكِ
 للابصر والأقرع في الحديث
 المشهور وغير ذلك مما روي من
 تكليم الملائكة للناس من غير نبوة.

وجملة أمر أم موسى أنها علمت أن
 الذي وقع في نفسها هو من عند الله
 ووعد منه؛ يقتضي ذلك قوله تعالى:
 ﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ آتِيهِ كَمَا تَفَرَّقْتُمْ عَلَيْهَا وَلَا
 تَحْزَنْ وَلَا تَعْلَمِ أَنَّكَ وَعَدُ اللَّهِ
 حَقٌّ﴾، وهذا معنى قوله:

تخفيفاً، والتخفيف الفاشي فتح النون، قاله ابن جنّي، ونسب المهدي هذه القراءة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه، و﴿أَلَيْسَ﴾: جمهور الماء ومعظمه والمراد نيل مصر.

وزوي في قصص هذه الآية أن أم موسى عليه السلام - واسمها يوحانة - أخذته ولفته في ثيابه، وجعلت له تابوتاً صغيراً، وشدته عليه بقفل وعلقت عليه مفتاحه وأسلمته ثقة بالله وانتظاراً لوعده، فلما غاب عنها عاودها خوفها، وانشغلت عليه، وأقنطها الشيطان، فاهتمت به وكادت تفتضح، وجعلت الأخت تفضّصه، أي: تطلب أثره.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: الألتقاط: اللقاء عن غير قصد، ومنه قول الشاعر:

وَمَنْ هَلْ وَرَدْتَهُ التَّقَاتَا
لَمْ أَلْقَ إِذْ وَرَدْتَهُ فَرَاتَا
و﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾: أهلها، ويروى أن

آسية امرأة فرعون رأت التابوت يعوم في اليم فأمرت بسوقه وقتجه، فرأت فيه صبياً صغيراً فرحمته وأحبتة، وقال السدي: إن جواربها كان لهن فُرْضة في القصر على النيل، يدخل الماء فيها إلى القصر حتى يتلته في المرافق والمنافع، فبينما هن يغسلن في تلك الفُرْضة إذ جاء التابوت فحملنه إلى مولاتهن، وقال ابن إسحق: رآه فرعون يعوم فأمر بسوقه، وآسية جالسة معه، فكان ما تقدم.

وقوله: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا﴾ هي لام العاقبة، لا أن القصد بالالتقاط

كان لأن يكون عدواً، وقرأ الجمهور: ﴿وَحَزْنًا﴾ بفتح الحاء، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: ﴿وَحَزْنًا﴾ بضم الحاء وسكون الزاي، و﴿الْخَاطِيءُ﴾: مُتَعَمِّدُ الْخَطِيءِ، وَالْمُخْطِئُ: الَّذِي لَا يَتَعَمَّدُهُ.

واختلف المتأولون في الوقت الذي قالت فيه امرأة فرعون: ﴿فَرَّتْ عَيْنِي لِي وَلَكْ﴾ - فقالت فرقة: كان ذلك عند التقاط التابوت لما أشعرت فرعون به؛ إذ سبق إلى وهمه أنه من بني إسرائيل، وأن ذلك قُصِدَ بِهِ التَّخْلُصُ مِنَ الذَّبْحِ، فقال: عليّ بالذُّبَّاحِينَ، فقالت امرأته ما ذكر، فقال فرعون: أمّا لي فلا، قال النبي ﷺ: «لو قال: نعم لآمن بموسى ولكان قرّة عين له»، وقال السدي: بل رَيْثُهُ حتى درج، فرأى فرعون فيه شهامة، وظنّه من بني إسرائيل، وأخذه في يده، فمدّ موسى عليه الصلاة والسلام يده وبتف لحية فرعون، فهّم حينئذ بدبحه، وحينئذ خاطبته بهذا، واختبرته له في الجمرّة والياقوتة فاحترق لسانه، وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي بأنه الذي يفسد الملك على يديه، قاله قتادة وغيره، وقرأ ابن مسعود: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكْ﴾، قدّم وأخر.

وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ﴾ عبارة عن دوام الحال واستقرارها، وهي كظّل، ومنه قول أبي سفيان للعباس يوم الفتح: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً»، يريد: استقرّ به حاله عظيماً، وقرأ جمهور الناس: ﴿فَرْتًا﴾ من الفراغ، واختلف في معنى ذلك - فقال ابن

عباس رضي الله عنهما: فارغاً من كل شيء إلا من ذكر موسى عليه السلام، وقال مالك: هو ذهاب العقل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كقوله تعالى: ﴿وَأَقْبَدْتُمُ هَوَاءً﴾.

وقالت فرقة: فارغاً من الصبر، وقال ابن زيد: فارغاً من وعد الله تبارك وتعالى ووحيه إليها، أي: تناسه بالهمّ وفتر أثره في نفسها، وقال لها إبليس: فررت به من قتل لك فيه أجر، وقتلته بيدك، وقال أبو عبيدة: فارغاً من الحزن؛ إذ لم يغرق، وقرأ فضالة بن عبيد - ويقال: ابن عبيدة -، والحسن: ﴿فَرِغًا﴾ من الفزع - بالفاء والزاي -، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿قَرِغًا﴾ بالفاء والراء، من القارعة، وهي الهمّ العظيم، وقرأ بعض الصحابة رضي الله عنهم: ﴿فَرِغًا﴾ بالفاء المكسورة والراء الساكنة والغين المنقوطة، ومعناها: ذاهباً هدرأ تالفاً من الهمّ والحزن، ومنه قول طلحة الأسدي:

فَإِنْ يَكُ قَتَلِي قَدْ أَصِيبَتْ نَفْسُهُمْ
فَلَنْ يَذْهَبُوا فِرْغًا بِقَتْلِ جِبَالِ
أي: هدرأ تالفأ لا ينفع. وقرأ الخليل بن أحمد: ﴿فَرِغًا﴾ بضم الفاء والراء.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ﴾ أي أمر ابنها، وزوي أن رسول الله ﷺ قال: «كادت أم موسى أن تقول: وا ابنه، وتخرج صائحة على وجهها». «والرئيط على القلب» تأنيسه وتقويته، ومنه قولهم للشجاع والصابر في المضائق: رابط

الجأش، قال قتادة: ربط على قلبها بالإيمان. وقوله تعالى: ﴿لَتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي المصدقين بوعد الله تبارك وتعالى، وبما أوحى إليها به.

ثم قالت لأخت موسى طمعاً منها وطلباً له: ﴿فُصِّبِي﴾، والقَصْصُ: طلب الأثر، فيروى أن أخته خرجت في سبك المدينة تبحث متخفية، فرأته عند قوم من حاشية آل فرعون يطلبون له امرأة تُرضعه حين لم يقبل المراضع، و﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ أي: ناحية من غير قصد ولا قُرب يشعرها به، ويقال: «عن جنابة» و«عن جناب»، ومنها قول الشاعر:

لَقَدْ ذَكَرْتَنِي عَنْ جَنَابِ حَمَامَةَ
بِعُسْفَانَ أَهْلِي وَالْفُرَادِ حَزِينُ
ومن الجنابة قول الأعشى:

أَتَيْتُ حُرَيْشاً زائراً عَنْ جَنَابِي
وكان حُرَيْشٌ عَنْ عَطَائِي جَامِداً
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى هذه الألفاظ: عن مكان جُنُب، أو عن بُعد، ومعنى الآية: عن بُعد، لم تَدُ منه فيشعر بها، وأشد أبو عبيدة لعقمة:

فَلَا تُخَرِّمْنِي نَائِلاً عَنْ جَنَابِي
فَإِنِّي امرؤٌ وَسَطُ الْقَبَابِ غَرِيبُ
وقرأ قتادة: ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ بفتح الجيم وسكون النون، وهي قراءة الحسن، والأعرج، وقرأ: ﴿عَنْ جَانِبٍ﴾ النعمان بن سالم، وقرأ الجمهور: ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ بضم الجيم والنون. وقوله: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ معناه: لا يشعرون أنها أخته، وهذا من جملة لطائف الله تبارك وتعالى له ولأنه حسب الوعد الذي أوحى إليها. ويقال: بصرتُ بالشيءِ

وأبصرتُ بمعنى واحد متقارب، قال المهدي: وقيل: ﴿عَنْ جُنُبٍ﴾ معناه: عن شوق، وهي لغة لجذام، يقولون: جنبت إلى لقائك، أي اشتقت إليه، وقال قتادة: معنى ﴿عن جنبٍ﴾ أنها تنظر إليه كأنها تريد.

عز وجل: ﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله

قوله تبارك وتعالى: ﴿وَحَرَمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ﴾ يقتضي أن الله تعالى خصه من الامتناع من ندي النساء بما يشد به عن عرف الأطفال، وهو

تحريم تبغيض، و«المراضع» جمع مُرضع، واستعمل دون هاء التأنيث لأنه لا يلتبس بالرجال. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْتٍ﴾ أي من أول أمره، و﴿بَيْتٍ﴾ مبني، والضمير في ﴿فَقَالَتْ﴾ لأخت موسى، قال النقاش: اسمها مريم، و﴿يَكْفُلُونَهُ﴾ معناه: يُحسنون تربيته وإرضاعه. وعلم القوم أن مُكَلِّمَتهم من بني إسرائيل، وكان ذلك عرف بني إسرائيل، أن يكونوا مراضع وخدمة. وقوله: ﴿وَهُمْ لَهُ نَصِيحُونَ﴾ يحتمل أن الضمير يعود على الطفل، فقالوا لها: إنك قد عرفته فأخبرينا من هو؟ فقالت: ما أردت إلا أنهم ناصحون للملك، فتخلصت منهم بهذا التأويل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يعود الضمير على الطفل

وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ ؕ ؕ ؕ وَأَمَّا رَبُّ فَأَنْبَأَهُ بِحُكْمِهَا وَكَذَلِكَ بَدَّخْنِي
الْمُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا
فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتُلَانِ هَذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَذَا مِنْ عَدُوِّهِ
فَاسْتَعْتَبَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ
فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالِ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌ مُّبِينٌ ﴿١٧﴾
قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ
الْعَفُوفُ الرَّحِيمُ ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ
ظَاهِرًا لِلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفاً يَتَرَقَّبُ فَإِذَا
الَّذِي اسْتَعْتَبَهُ بِأَلْمِينِ يَسْتَعْرِضُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَكَلْبُؤُوسٌ
مُّبِينٌ ﴿٢٠﴾ لَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْطَلِقَ لَبَّىٰ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَّهُمَا قَالِ
يَسْمُوْنَ أَتْرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسَ بِلَالِ بْنِ رَبِيْعٍ لَّأَلَّا
أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا أَرِيدُ أَنْ تُكُونَ مِنَ الْمُضْلِمِينَ ﴿٢١﴾
وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّكَ لَمَلَكٌ
يَأْتِيكَ بِكَ لِيَقْتُلَكَ فَأَخْرِجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٢﴾
فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٣﴾

ولكن يكون النصح له بسبب الملك وحرصاً على الترتف إلى القرب منه، وفي الكلام هنا حذف يقتضيه الظاهر، وهو أنها حملتهم إلى أم موسى وكلموها في ذلك، فذرت عليه وقيلها، وحظيت بذلك، وأحسن إليها وإلى أهل بيتها، وقزت عينها، أي سرت بذلك، وروي أن فرعون لعنه الله تعالى قال لها: ما سبب قبول هذا الطفل؟ قالت له: «إني طيبة الرائحة طيبة اللبن، ودمع الفرح بارد، وعين المهوم حرى سخنة»، فمن هذا المعنى قيل: قزت العين وسخنت، وقرأ يعقوب: ﴿نَقِرْتُ﴾ بنون مضمومة وكسر القاف. و﴿وَعَدُ الله﴾ تعالى المشار إليه هو الذي أوحاه إليها أولاً، إما بملك أو تمثله، وإما بإلهام حسب اختلاف المفسرين في ذلك، والقول بالإلهام

يضعف أن يقال فيه: «وغد». وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَرِيدُ الْقَبْطِ. وَالْأَشُدُّ: جمع شدة، من السنين، فقالت فرقة: بلوغ الخُلم، وهي مدة خمسة عشر عاماً، وقالت فرقة: ثمانية عشرة عاماً، وقال السدي: عشرون، وقالت فرقة: خمسة وعشرون، وقالت فرقة: ثلاثون، وقال مجاهد وابن عباس: ثلاثة وثلاثون، وقالت فرقة عظيمة: ستة وثلاثون، وقال مجاهد وقتادة: الاستواء: أربعون سنة، وقال مكي: وقيل هو ستون سنة، وهذا ضعيف، والأشدُّ: شِدَّةُ البِدْنِ واستحكام أسرهِ وقوته، ﴿وَأَسْتَوَى﴾ معناه: تكامل عقله وحزمه، وذلك - عند الجمهور - مع الأربعين، و«الحُكْمُ»: الحكمة، و«العِلْمُ»: المعرفة بشرع إبراهيم عليه السلام، وهي مقدمات لنبوته عليه السلام.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَى حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا﴾ - فقال السدي: كان موسى في وقت هذه القصة على رسم التعلُّق بفرعون، وكان يركب مواكبه حتى أنه كان يدعى موسى بن فرعون، قالوا: فركب فرعون يوماً وسار إلى مدينة من مدائن مصر يقال لها منف، ثم علم موسى عليه السلام بركوب فرعون فركب بعده ولحق بتلك المدينة في وقت القائلة، وهو حين الغفلة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال أيضاً: هو بين العشاء والعَتَمَةِ، وقال ابن إسحق: بل المدينة مُصْرٌ نفسها، وكان موسى في هذا الوقت قد بدت

منه مجاهدة لفرعون وقومه بما يكرهون، فكان مختفياً بنفسه مخوفاً منهم، فدخل متكرراً مغتفلاً للناس، وقال ابن زيد: بل كان فرعون قد نابذه وأخرجه من المدينة وغاب عنها سنين ففشا أمره، وجاء الناس على غفلة بنسيانهم لأمره ويغد غدهم به، وقيل: كان يوم عيد. وقوله تعالى: ﴿يَقْتَتِلَانِ﴾ في موضع الحال، أي: مُقْتَتِلَيْنِ. و«شيعته»: بنو إسرائيل، و«عَدُوهُ»: القبط. وذكر الأخفش سعيد بن مسعدة أنها «فاستغانه» بالعين غير معجمة، وهي تصحيف لا قراءة. وذكر الثعلبي أن «الذي من شيعته» هو الساميري، وأن الآخر طباطخ فرعون.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا﴾، ﴿هَذَا﴾، حكاية حال قد كانت حاضرة، ولذلك عبّر بـ ﴿هَذَا﴾ عن غائب ماضٍ، و«الوَكْرُ»: الضرب باليد مجموعاً كعمد ثلاث وسبعين. وقرأ ابن مسعود: ﴿فَلِكْرَهُ﴾، والمعنى واحد إلا أن «اللكر» في اللحي، و«الوكر» على القلب، وحكى الثعلبي أن في مصحف ابن مسعود: ﴿فَنَكَرَهُ﴾، والمعنى واحد. و«فَنَقَصَ عَلَيْهِ﴾ معناه: قتلَه، وكان موسى عليه الصلاة والسلام لم يُرد قتل القبطي لكن وافقت وكزته الأجل وكان عنها موته، فندم موسى عليه السلام، ورأى أن ذلك من نزح الشيطان في يده، وأن الغضب الذي اقترنت به تلك الوكرة كان من الشيطان ومن هُفْزِهِ، وهو نصٌّ على ذلك، وبهذا الوجه جعله من عمله، وكان فضل قوته عليه السلام بما

أفرط في وقت غضبه بأكثر مما يقصد.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

ثم إن ندامة موسى عليه السلام حملته على الخضوع لربه تعالى، والاستغفار عن ذنبه، فغفر له خطأه ذلك، قال قتادة: عرف - الله - المخرج فاستغفر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم يزل عليه السلام يُعيد ذلك على نفسه مع علمه بأنه قد غُفِرَ له، حتى أنه في القيامة يقول: «وقتلْتُ نفساً ولم أؤمر بقتله» حسب ما صحَّ في حديث الشفاعة.

ثم قال عليه السلام معاهداً لربه عز وجل: «رَبِّ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وبسبب إحسانك وغفرانك فأنا ملتزم ألا أكون مُعيناً للمجرمين»، هذا أحسن ما تُؤوَّل، وقال الطبري: «إنه قَسَم، أَقْسَم بنعمة الله تبارك وتعالى»، ويضعفه صورة جواب القسم؛ فإنه غير متمكن في قوله: «فَلَنْ أَكُونَ»؛ لأن القسم لا يتلقى بـ (لَنْ)، والفاء تمنع أن تُنزل (لَنْ) منزلة (لا) أو (مَا) فتأمله، واحتج الطبري بأن في قراءة عبدالله: «فَلَا تُجْعَلَنِي ظَهيراً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واحتج أهل الفضل والعلم بهذه الآية في [مَنَع] خدمة أهل الجوز ومعونتهم في شيء من أمرهم، ورأوا أنها تتناول ذلك، نصٌّ عليه عطاء بن أبي رباح.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَبُ فِي الْمَدِينَةِ

حَافِيًا﴾ عبارة عن كونه دائم الخوف في كل أوقاته، كما تقول: أصبح زيد عالماً. و﴿يَرْقُبُ﴾ معناه: عليه رقيب من فعله في القتل فهو يتحسس، قال ابن عباس رضي الله عنهما: فَمَرَّ وهو بحالة الترقب وإذا ذلك الإسرائيلي الذي قاتل القبطي بالأمس يقاتل آخر من القبط، وكان قتل القبطي قد خفي عن الناس واكتتم، فلما رأى موسى الإسرائيلي استصرخه الإسرائيلي، بمعنى صاح به مستغيثاً، ومنه قول الشاعر:

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارِحَ فَرِغَ
كَانَ الصَّرَاحُ لَهُ فَرِغَ الظَّنَابِيبِ
فلما رأى موسى عليه السلام قتاله لذلك الآخر أعظم ذلك، وقال له معاتباً ومؤنباً: ﴿إِنَّكَ لَنَرَوِيَّ مُبِينٌ﴾، وكانت إرادة موسى - مع ذلك - أن ينصر الإسرائيلي، فلما دنا منهما وجس الإسرائيلي وفزغ منه، وظن أنه ربما ضربه، وفزغ من قوته التي رأى بالأمس، وشهد أمر القتل.

١٩ - ٢١ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿يَبِطِينَ﴾ بكسر الطاء، وقرأ الحسن، وأبو جعفر: ﴿يَبِطُشْنَ﴾ بضم التاء، وهما لغتان، فقال الإسرائيلي لموسى معنى الآية بلسانه وفر منه فشهتر أمر القتل. والجبايرة شأنهم قتل الناس بغير حق؛ فلذلك جعله الإسرائيلي كذلك ونفى عنه الإصلاح. قال الشعبي: من قتل رجلين فهو جبار، قال الشعبي:

ولما اشتهر أن موسى قتل القليل، وكان قول الإسرائيلي يغلب على النفوس تصديقه على موسى مع ما كان لموسى عليه السلام من المقدمات أنه المشار إليه بفساد المملكة، فأنفذ فرعون إليه من يطلبه من جنده ويأتي به للقتل، فخرج على الطريق الأعظم، وأخذ رجل - يقال: إنه مؤمن آل فرعون، ويقال: إبه غيره - في بئيات الطريق قصداً إلى موضع موسى فبلغه وقال له: ﴿إِنَّكَ أَلَمَّا﴾ الآية.

و﴿يَسْتَنُّ﴾ معناه: يسرع في مشيه، قاله الزجاج وغيره، وهو دون الجري، وقال الزجاج: معناه: يعجل وليس بالشدد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه نزعة مالك رحمه الله في سعي الجمعة، والأول عندي أظهر في هذه الآية.

و﴿يَأْتَمِرُونَ﴾ وزنه يفتعلون، ويقتعلون يأتي كثيراً بمعنى يتفاعلون، ومنه ازدوج بمعنى تزواج، وذهب ابن قتيبة إلى أنه بمعنى: يأمر بعضهم بعضاً، قال: لو كان ذلك لكان «يتأمرون».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذهب عنه أن يفتعل بمعنى يتفاعل، وفي القرآن: ﴿وَاتَّبَعُوا يَتَنَكَّرَ بِمَعْرِفِيَّ﴾ وقد قال الثوري بن ثوبان:

أَرَى النَّاسَ قَدْ أَخَذُوا شَيْبَةً
وَفِي كُلِّ حَادِثَةٍ يُؤْتَمَرُ
وأشده الطبري:

مَاتَاتِمِرُ فَيَسْتَأْتَمِرُ
رُكَّ فِي يَمِينِكَ أَوْ شِمَالِكَ

ومنه قول ربيعة بن جثم:

أَحَارَ بَنَ كَغَيْبِ كَأَنِّي خَبِرُ
وَيَغْدُوا عَلَى أَلَمَرِ مَا يَأْتَمِرُ
فخرج موسى عليه السلام وأفلت من القوم فلم يجدوه، وخرج بحكم فزعه إلى الطريق إلى مدين، وهي مدينة قوم شعيب عليه السلام، وكان موسى عليه السلام لا يعرف ذلك الطريق، ولم يصحب أحداً، فركب مجهلتها واثقاً بالله تعالى ومتوكلاً عليه. قال السدي ومقاتل: فَرَوِي أَن الله تعالى بعث إليه جبريل عليه السلام - وقيل: ملكاً غيره - فسدده إلى الطريق وأعطاه عصاً يقال هي كانت عصاه، ورؤي أن عصاه إنما أخذها لرعية الغنم في مدين، وهو أصح وأكثر، وبين مدين ومصر ثمانية أيام، قاله ابن جبير والناس، وكان ملك مدين لغير فرعون، وحكى الطبري عن ابن جريج، أو ابن أبي نجيح - شك الطبري - أنه قال: إن الذي أراد أن يبطش هو الإسرائيلي، فَنَهَاهُ موسى عن ذلك بعد أن قال له: ﴿إِنَّكَ لَنَرَوِيَّ مُبِينٌ﴾، ففزغ الإسرائيلي عند ذلك من موسى عليه السلام وخاطبه بالفصيح، وكان موسى من الندامة والثوبة في حين لا يتصور معه أن يريد البطش بهذا الفرعوني الآخر، وروى ابن جريج أن اسم الرجل الساعي من أقصى المدينة شمعون، وقال ابن إسحق: سمعان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والثبت في هذا ونحوه بعيد.

أي: ما أمركما وشأنكما؟ وكأن استعمال السؤال بالخطب إنما هو في مصاب أو مضطهد أو من يشفق عليه أو يأتي بمنكر من الأمر، فكأنه بالجملة في شر، فأخبرناه بخيرهما، وأنا أباهما شيخ كبير، فالمعنى أنه لا يستطيع لضعفه أن يباشر أمر غنمهما، وأنهما لضعفهما وقلة طاقتهما لا تقدران على مزاحمة الأولياء، وأن عادتتهما التأني حتى يصدر الرعاء - أي الناس - عن الماء ويخلو، وحينئذ تردان، وقالت فرقة: كانت الآبار مكشوفة، وكان زحُم الناس يمنعهما، فلما أن أراد موسى أن يسقي لهما زحُم الناس وغلبهم على الماء حتى سقى، فعن هذا الغلب الذي كان منه وصَفَتْهُ إحداهما بالقوة. وقالت فرقة: بل كانت آبارهم على أفواهاها حجارة كبار، وكان ورد المرأتين يتبع ما في صهاريج الشرب من الفضلات التي تبقى للسقا، وأن موسى عليه السلام عمد إلى بئر كانت مُغَطَّة والناس يسقون من غيرها، وكان حجرها لا يرفعه إلا سبعة، قاله ابن زيد. وقال ابن جريج: عشرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثون، وقال الزُّجَّاج: أربعون، فرفعه موسى عليه السلام وسقى للمرأتين، فعن رفع الصخرة وصفته بالقوة، وقيل: إن بئرهم كانت واحدة، وأنه رفع عنها الحجر بعد انفصال السقا؛ إذ كانت عادة المرأتين شرب الفضلات.

وقرأ الجمهور: ﴿سَقَى﴾ بفتح النون، وقرأ طلحة: ﴿نَسَقَى﴾ بضمها، وقرأ أبو عمرو، وابن

رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ: «هذا الذي يهدي السبيل» الحديث، فمشى عليه السلام حتى ورد مدين، أي: بلغها، ووروده الماء معناه: بلوغه؛ لأنه دخل فيه، وللفظة الورود قد تكون بمعنى الدخول في الشيء، وقد تكون بمعنى الإطلال عليه والبلوغ إليه وإن لم يدخل فيه، فورد موسى هذا الماء كان بالوصول إليه، وهذه الوجوه في اللفظة تتناول قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَنْكُرُوا لَكُمْ وَإِرْءَاءَكُمْ﴾.

لا تُصرف؛ إذ هي بلدة معروفة. و«الأئمة»: الجمع الكثير، و﴿يَسْقُونَ﴾ معناه: ماشيتهم، و﴿وَمِنْ دُونِهِمْ﴾ معناه: من ناحية إلى الجهة التي جاء منها، فوصل إلى امرأتين قبل وصوله إلى الأمة، وهكذا هما من دونهم بالإضافة إليه، و﴿تَذُودَانِ﴾ معناه: تمنعان وتحيسان، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أَلَا لَيْدَادُنَّ رَجَالٌ عَنِ حَوْضِي» الحديث، وشاهد الشعر في ذلك كثير، وفي بعض المصاحف «امْرَأَتَيْنِ حَابِسَتَيْنِ تَذُودَانِ»، واختُلف في الذُود - فقال ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره: تذودان غنمهما عن الماء خوفاً من السقاة الأقوياء، وقال قتادة: تذودان الناس عن غنمهما، فلما رأى موسى عليه السلام المرأتين قال: ﴿مَا خَطَبُكُمَا؟﴾

وَلَمَّا نَوَّجَهُ تَلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجِدَّ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمْ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّى يُصَدَرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَى لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾ فَجَاءَهُ نَهْجٌ أَحَدُهُمَا تَمَشَّى عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّكِ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْرِيكَ لِحَرَامٍ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَفَضَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ حَبَّوْنَ مِنَ الْقَوْمِ أَظْلَمُ لِمَنِ قَالَتْ إِحَدُهُمَا يَتَأْتِيَّ اسْتِحْيَاءُ ابْنِ أَخِي مِنْ اسْتَحْيَاءِ الْقَوْمِ الْفَوَى الْأَيْمَنُ ﴿٢٥﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ بِكَ بِأَنْتَ هُنْتِ بِنْتُ عَلِيِّ بْنِ تَأْخُرِي فَمَنْ بِنْتِي حَجَّجْ فَإِنْ أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتَ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا نَقُولُ وَكَذَلِكَ ﴿٢٧﴾

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: ولما نوجه تلقاء مدين، ولما خرج عليه السلام فاراً بنفسه منفرداً حافياً لا شيء معه رأى حاله وعدم معرفته بالطريق وحلوه من زاد وغيره فاستند إلى الله تبارك وتعالى وقال: ﴿عَسَى رَبِّي أَنْ يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾، وهذه الأقوال منه تقتضي أنه كان عارفاً بالله تعالى، عالماً بالحكمة والعلم الذي آتاه الله تعالى، و﴿نَجْمَةٍ﴾: رد وجهه إليها، و﴿بِلِقَاءِ﴾ معناه: إلى ناحية، أي إلى الجهة التي يلقي فيها الشيء المذكور، و﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ معناه: وسطه، وفي هذا الوقت بعث الله الملك المُسَدِّد حسب ما ذكرناه قبل، وقال مجاهد: أراد بـ ﴿سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ طريق مدين، وقال الحسن: أراد سبيل الهدى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أبرع، ونظيره قول الصديق

عامر: ﴿حَتَّى يَضُدُّ﴾ بفتح الياءِ وضَم الدال، وهي قراءة الحسن، وأبي جعفر، وقتادة، وقرأ الباقون: ﴿يُضُدُّ﴾ بضم الياء وكسر الدال على حذف المفعول، تقديره: مواشيهم، وحذف المفعول كثير من القرآن والكلام، وهي قراءة الأعرج، وطلحة، والأعمش، وابن أبي إسحق، وعيسى. و [الرُّعَاء] جمع راع.

وتولى موسى عليه السلام إلى ظِلِّ سُمْرة، قاله ابن مسعود، وتعرض لسؤال ما يَطْعُمُهُ بقوله: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾، ولم يصرح بسؤال، هكذا رَوَى سائر المفسرين أنه طلب في هذا الكلام ما يأكله، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وكان قد بلغ به الجوع، واخضَّرَ لونه من أكل البقل، وضعف حتى لصق بطنه بظهره ورؤيت خضرة البقل في بطنه، وإنه لأكرم الخلق يومئذ على الله عزَّ وجلَّ، ويروى أنه لم يصل إلى مدين حتى سقط باطن قدمه، وفي هذا معتبر وحاكم بهوان الدنيا على الله تبارك وتعالى.

٢٥ - ٢٧ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

في هذا الموضع اختصارٌ يدل عليه الظاهر، قدَّره ابن إسحاق: فذهبنا إلى أبيهما سريعتين، وكانت عادتهما الإبطاء في السقي، فحدثناه بما كان من الرجل الذي سقى لهما، فأمر الكبرى من بنتي - وقيل الصغرى - أن تدعوه له، فجاءت على ما في هذه الآية، وروي أن اسم إحداهما (ليا) والأخرى (شرفا)، وروي أن اسم

زوجة نبي الله موسى عليه السلام (صفورة)، وقيل: اسمها (صوريا)، وقال وهب بن منبه: زوجه الكبرى، ورؤي عن النبي ﷺ أنه زوجه الصغرى، ذكره الثعلبي ومكي من طريق أبي ذر رضي الله عنه، وقال النقاش: كانتا توأمين وولدت الأولى قبل الأخرى بنصف نهار.

وقوله: ﴿تَشِيءُ﴾ حال من ﴿إِحْدَيْهُمَا﴾، وقوله: ﴿عَلَى أَسْتَحْيَاؤُ﴾ أي خِفْرَةٌ قد سترت وجهها بكم درعها، قاله عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وقال عمرو بن ميمون: لم تكن سَلْفَعًا من النساء خِرَاجَةٌ ولَاجَةٌ.

واختلف الناس في الرجل الداعي لموسى، من هو؟ - فقال الجمهور: هو شعيب عليهما السلام، وهما ابنتاه، وقال الحسن: هو ابن أخي شعيب واسمه ثروان، وقال ابن أبي عبيدة: يثرون، وقيل: هو رجل صالح ليس من شعيب بنسب، وقيل: إن المرأتين إنما كان مرسلهما عمهما، وهو كان صاحب الغنم، وهو المزوَّج، لكن عبَّر عن العم بالأب في جميع الأمر إذ هو بمثابة، وروي أن موسى عليه السلام لما جاءته بالرسالة أجاب، فقام يتبعها إلى أبيها، فهبت ريح ضَمَّت قميصها إلى بدنها فوصفت عجيزتها، فخرج موسى عليه السلام من النظر إليها، فقال لها: أرجعي خلفي وأرشديني الطريق، ففهمت عنه ذلك فوصفته بالأمانة، قاله ابن عباس رضي الله عنهما.

فوصل موسى عليه السلام إلى

داعيه، فقصَّ عليه أمره من أوله إلى آخره، فأنسه بقوله: ﴿لَا تَحْفَ مَحَبَّتٍ مِنْ آلِ قَوْمِ الْفَالِغِينَ﴾، وكانت مَدِين خارجة عن مملكة فرعون، فلما فرغ كلامهما قالت الابنة التي ذهبت عنه: ﴿بَيَّأْتِ أَسْتَحْيَاؤُ﴾ الآية، فلما وصفته بالقوة والأمانة قال لها أبوها: ومن أين عرفت هذا منه؟ فقالت: أما قُوته ففي رفع الصخرة، وأما أمانته ففي تحرُّجه عَنِ النَّظَرِ إِلَيَّ وقت هبوب الرياح، قاله ابن عباس، وقاله ابن زيد وغيرهم.

قال له الأب عند ذلك: ﴿أَنْ أَكْهَمَكَ﴾ الآية، قال ابن عباس: فزوجه التي دعت، و«تأجر» معناه: تشيب، وقال مكي: في هذه الآية خصائص في النكاح، منها أنه لم يُعَيَّن الزوجة، ولا حدَّ أول الأمد، وجعل المهر إجارة، ودخل ولم يتَّقَدْ شيئاً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: أما التعيين فيشبه أنه كان في ثاني حال المروضة، وإنما عرض الأمر مجملًا، وعيَّن بعد ذلك، وأما ذَكَرُ أول المدة فليس في الآية ما يقتضي إسقاطه، بل هو مسكوت عنه؛ فإما رسماه وإلَّا فهو من وقت العقد، وأما النكاح بالإجارة فظاهر من الآية، وهو أمر قد قرَّره شرعنا، وجرى به في حديث الذي لم يكون عنده إلا شيء من القرآن، وذهب بعض العلماء إلى أن ذلك خاصٌّ، وبعضهم إلى أنه منسوخ، ولم يجوز مالك رحمه الله النكاح بالإجارة، وجوزها ابن حبيب وغيره، إذا كانت الأجرة تصل إلى الزوجة.

وروي عن ابن عباس أن النبي ﷺ سأل في ذلك جبريل عليه السلام، فأخبره أنه قضى عشر سنين، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قضى عشرًا وعشرًا بعدها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وفي قصص هذه الآية أن موسى عليه السلام لما قضى الأجل أراد أن يسير بأهله إلى مصر وقومه، وقد كان لا محالة أحسن بالترشيح للنبوة، وكان رجلاً غيوراً لا يصحب الرفاق، فكان في بعض طريقه ليلة مظلمة، قال النقاش: كانت ليلة جمعة، ففقدوا النار، وأضلّد الزناد، وضلّوا الطريق، واشتد عليهم الخصر، فبينما هو كذلك إذ رأى ناراً، وكان ذلك نوراً من نور الله تعالى قد التبس بشجرة، قال وهب: كانت عليفاً، وقال قتادة: كانت عوسجاً، وقيل: زعروراً، وقيل: سمرة، قاله ابن مسعود. و [آسن] معناه: أحسن، والإحساس ها هنا بالبصر، ومن هذه اللفظة قوله تعالى: ﴿فَإِن مَّاسْتُمْ مِنْهُمْ يُشْكَا﴾، ومنها قول حسان:

اشْطَرَّ خَلِيلِي بِيَابِ جِلَّتِ هَلْ
تُؤْنِسُ دُونَ الْبَلْقَاءِ مِنْ أَحَدٍ
وكان هذا الأمر كله في جانب الطور، وهو جبل معروف بالشام، والطور: كل جبل، وخصّصه قوم بأنه الذي لا ينبت، فلما رأى موسى النار سُرّ، فقال لأهله: أقيموا فقد رأيت ناراً ﴿لَقَدْ لَأِيكُمْ مِنْهَا بِحَيْرٍ﴾ عن الطبري، أين هو، ﴿أَوْ جَذْرٍ﴾ أي: قطعة من

هذا النكاح بينهما أمر شعيب موسى عليهما السلام أن يسير إلى بيت له فيه عصي، وفيه هذه العصا، فزوي أن العصا وثبت إلى موسى فأخذها، وكانت عصا آدم عليه السلام، وكانت من غير ورقة الريحان، فروي أن شعيباً أمره بردها ففعل وذهب يأخذ غيرها فوثبت إليه، وفعل ذلك ثالثة، فلما رأى شعيب ذلك علم أنه مرشح للنبوة فتركها له، وقيل: إنما تركها لأنه أمر موسى بتركها فأبى موسى عليه

السلام ذلك، فقال له شعيب: نمذ إليها جميعاً فمن طاعت له فهي له، فمذ إليها شعيب فنقلت، ومذ موسى فخفت ووثبت إليه، فعلمنا أن هذا من الترشيح، وقال عكرمة: إن عصا موسى إنما رفعها إليه جبريل عليه السلام ليلاً عند توجهه إلى مدين.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ﴾، قال سعيد بن جبيرة: سألتني رجل من النصارى: أي الأجلين قضى موسى؟ فقلت: لا أدري حتى أقدم على خير العرب، أعني ابن عباس - رضي الله عنهما -، فقدمت عليه فسألته، فقال: قضى أكملهما وأوفاهما، إن رسول الله ﷺ إذا قال وفى، فعدت فأعلمت النصراني، فقال: صدق والله هذا العالم،

فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَىٰ الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَقَدْ لَأِيكُمْ مِنْهَا بِحَيْرٍ وَأَوْحَدَ وَرَمَتْ النَّارَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَلَمَّا أَنهَا تَوَدَّىٰ مِنْ شَطْبِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبْرَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَسْمُوعَ إِبْرَاهِيمَ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾ وَأَنْ أَلْقَىٰ عَصَاكَ فَلَمَّا رآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَمْ يَعْقِبْ يُمُوسَىٰ أَقْبَلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّا كُنَّا مِنَ الْآيَاتِ ﴿٣٠﴾ أَسَلَكُ بِدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجُ بَصَاءً مِنْ غَيْرِ سَوْمٍ وَأَضْمَمُ إِلَيْكَ جَانْحَاكَ مِنَ الرَّهْمِ فَلَمَّا رَأَىٰ بُرْهَانَ مِنَ رَبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قُلْتُ لِمَنْ هَٰذَا قَافٍ أَنْ يَمْتَلِئُونَ ﴿٣٢﴾ وَأَخِي هَارُونَ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلَهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٣﴾ قَالَ سَشِدْ عُضُدَكَ يَا خِيكَ وَيَجْعَلْ لَكَ سُلْطَنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكَ مَا كَانَ إِنْسَانًا مِمَّنْ آتَمَّكَ الْفَالِغُونَ ﴿٣٤﴾

٢٨٩

قيل: ومن لفظ شعيب عليه السلام حَسُنَ في لفظ العقود في النكاح: «أَنْكَحَهُ إِهَاهَا» أكثر من «أَنْكَحَهَا إِهَاهُ»، وهذا مغترض. وجعل شعيب عليه السلام الثمانية الأعوام شرطاً ووكل العامين إلى العروة.

٢٨ - ٢٩ - تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا فرغ كلام شعيب كرهه موسى عليهما السلام، وكثره على جهة التوثق في أن الشرط إنما وقع في ثمان حجج. و ﴿أَيُّكَا﴾ استفهام نصب بـ ﴿فَضَيْتَ﴾، و ﴿مَا﴾ صلة للتأكيد. وقرأ الجمهور: ﴿فَلَا عُدْرَتَ﴾ بضم العين، وقرأ أبو حيوة: ﴿فَلَا عِدْوَانَ﴾ بكسر العين، والمعنى: لا تبعه علي من قول ولا فعل، و«الوكيل»: الشاهد القائم بالأمور. قال ابن زيد: ولما كمل

النار في قطعة عود كبيرة لا لهب لها، إنما هي جمرة، ومن ذلك قول الشاعر:

باتت حواطبٌ ليلى يلتَمِسْنَ لها
جَزَلُ الجِذَا غَيْرَ حَوَارٍ وَلَا دَعِيرٍ
قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وأحسب أن أصل الجذوة أصول
الشجر، وأهل البوادي يوقدون
أبداء، فهي الجذوة في الحقيقة، ومنه
قول السلمي يصف الصلّى:

حماحُ هذا الثارحُ خَليلي
وَحَبُّ العَوَانِي فهو دُونَ الحَبَائِبِ
وَبُدِّلْتُ بعد الجِسْكِ وَالْبَانِ شِفْوَةً
دُخَانُ الجِذَا فِي رَأْسِ أَشْمَطِ شَاجِبِ
وقرأ الجمهور: ﴿جَذْوَةٌ﴾ بكسر
الجيم، وقرأ حمزة، والأعمش:
﴿جَذْوَةٌ﴾ بضمها، وقرأ عاصم:
﴿جَذْوَةٌ﴾ بفتحها، وهي لغات،
والصلّى: حُرُّ النار، و﴿تَصَطَّرْتُ﴾
تَفْتَعَلُونَ، أبدلت التاء طاء.

فلما أتى موسى ذلك الضوء الذي
راه وهو في تلك الليلة ابن أربعين
سنة نُبِّئَهُ ﷺ، فرؤي أنه كان
يمشي إلى ذلك النور فكان يبعد
منه، تمشي به الشجرة وهي غَضَّةٌ
خضراء حتى نودي، والشاطيءُ
والشَطُطُ: ضفة الوادي، وقوله:
﴿الْأَيْتِينَ﴾ يحتمل أن يكون من
اليمن صفة للوادي أو الشاطيء،
ويحتمل أن يكون معادلاً لليسار،
فذلك لا يوصف به الشاطيء إلا
بالإضافة إلى موسى في استقباله
مهبط الوادي، أو بعكس ذلك،
وكل ذلك قد قيل، وبَرَكَةُ البُقْعَةِ
هي ما خُصِّصَتْ به من آيات الله

تعالى وأنواره وتكليمه لموسى عليه
السلام، والناس على ضمّ الباء من
﴿بُقْعَةٌ﴾، وقرأ بفتحها الأشهب
العقيلي، قال أبو زيد: سمعت من
العرب: «هذه بقعة طيبة» بفتح
الباء، وقوله تعالى: ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾
يقضي أن موسى عليه السلام سمع
ما سمع من جهة الشجرة، وسمع
وأدرك غير مكيف ولا محدود.
وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَنْمُوِيَ﴾ يحتمل
أن تكون [أَنْ] مفسّرة، ويحتمل أن
تكون في موضع نصب بإسقاط
حرف الجرّ. وقرأت فرقة: ﴿أَنِّي
أَنَا اللهُ﴾ بفتح الهمزة من [إني].

ثم أمره تعالى بإلقاء العصا فألقاها
فانقلبت حيّة عظيمة، ولها اضطراب
الجان، وهي صغير الحيات،
فجمعت هول الشعيان ونشاط
الجان. وقالت فرقة: بل الجانُ
يَعْمُ الصغير والكبير، وإنما شبه
بالجان جملة العصا لاضطرابها
فقط، وولّى موسى عليه السلام
مديراً فزعاً منها، ﴿وَلَزَّ بِعُقْبٍ﴾
معناه: لم يرجع على عقبه من
تولّيه، فقال الله تبارك وتعالى له:
﴿يَنْمُوِيَ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ
الْأَمِينِينَ﴾، وهذا من تأمين الله
تعالى إيّاه، ثم أمره بأن يدخل يده
في جيبه، وهو فتح الجبّة من حيث
يخرج رأس الإنسان، ورؤي أن كمّ
الجبّة من حيث يخرج رأس
الإنسان، ورؤي أن كمّ الجبّة كان
في غاية الضيق فلم يكن له جيب
يدخل يده فيه إلا في جيبه.
﴿وَأَسَلُّكَ﴾ معناه: أدخل، ومنه قول
الشاعر:

حَتَّى سَلَكَنَ الشَّوَى مُنْهَنٌ فِي مَسَكٍ
مِنْ نَسَلِ جَوَابِيَةِ الْآفَاقِ مِهْدَاجٍ
وقوله تعالى: ﴿وَمِنْ غَيْرِ سَوْءٍ﴾ أي:
من غير مرض ولا مثله، ورؤي
أن يده كانت تُضَيءُ كأنها قطعة
شمس.

وقوله تعالى: ﴿وَأَضْمَمْتُ يَدَكَ إِلَيَّ
جَلِيحًا﴾، ذهب مجاهد، وابن زيد
إلى أن ذلك على المجاز
والاستعارة، وأنه أمره بالعزم على ما
أمر به، وأنه كما تقول العرب:
«اشدد حيازيمك، واربط جأشك»،
أي: شمّر في أمرك، ودع الرهب،
وذلك لما كثر تخوفه وفزعه في غير
ما موطن، قاله أبو علي. وقوله
تعالى: ﴿فَدَدَانِكَ بَرَهَنَانٍ﴾ قال
مجاهد، والسدي: هي إشارة إلى
العصا واليد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو،
والناس: ﴿الرَّهْبُ﴾ بفتح الراء
والهاء، وقرأ عاصم، وقتادة:
﴿الرَّهْبُ﴾ بسكون الهاء، وقرأ
حمزة، والكسائي، وابن عامر،
وعاصم أيضاً: ﴿الرَّهْبُ﴾ بضم الراء
والهاء. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو:
﴿فَدَانُكَ﴾ بشد النون، وقرأ الباقون:
﴿فَدَانِكَ﴾ بالتخفيف بالنون، وقرأ
شبل عن ابن كثير: ﴿فَدَانِيكَ﴾ بياء
بعد النون المخففة، أبدل إحدى
النونين ياء كراهة التضعيف، وقرأ
ابن مسعود: ﴿فَدَانِيكَ﴾ بالياء أيضاً
مع شد النون، وهي لغة هذيل،
وحكى المهدي أن لغتهم تخفيف
النون، و﴿بَرَهَنَانٍ﴾: حُجَّتَانِ
ومُعْجَزَتَانِ. وباقى الآية بيّن.

الْقَصَصِ

سُورَةُ

فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا يَتَذَكَّرُ أَلَّا هَذَا إِلَّا لِأَسْحَرٍ مُّقْتَرَى وَمَا سَعَيْنَا بِهِ كَذَابًا وَلَا بَأْسًا إِلَّا أُولَئِكَ ﴿٣٣﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِن عِنْدِيهِ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ عَزِيزٍ فَأَوْفِدْ لِي بِنَهْمَانٍ عَلَى الطَّلِينَ فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا لَّكِنِّي أَطَّلِعُ إِلَى اللَّهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٥﴾ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُوعُهُ فِي الْأَرْضِ بِعَصْرِ الْحَقِّ وَظَنَّا أَنَّهُمْ إِن تَلَاحُجُّوهُمْ ﴿٣٦﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُوعُهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَأُنزِلَتْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْكُرُونَ إِلَى النَّكَارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُضْرَبُونَ ﴿٣٨﴾ وَأَتَّعَيْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِن بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٠﴾

٣١٠

يكون الإيقاد على الطين كالتبراني، وترجى بزعمه أنه يطلع في السماء، فروي عن السدي أنه بناه أعلى ما يمكن، ثم صعد فيه، ورمى بالنبل فردها الله تعالى إليه مخضوبة بالدم ليزيدهم عمى وفتنة، فقال فرعون حينئذ: إني قتلت إله موسى، ثم قال: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يريد في أن موسى راسله، فالظن على بابه، وهو في معنى إيجاب الكفر له بمنزلة المصمم على التكذيب.

وقرأ حمزة، والكسائي، ونافع: ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾، وقرأ الباقون والحسن: ﴿لَا يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياء وفتح الجيم.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ﴾ معناه: طرحناهم، ومنه نيد النواة، ومنه قول الشاعر:

نَظَرْتُ إِلَىٰ عُثْوَانِهِ فَنَبَذْتُهُ
كَتَبْتُكَ نَعْلًا مِّنْ نِّعَالِكَ بَالِيًا
وقوم فرعون وإن كانوا ساروا إلى البحر ودخلوه باختيارهم فإن ما ضمهم من القدر السابق [وإغراقهم في البحر] هو نيد الله تعالى إليهم فيه. واليتم هو بحر القلزم في قول أكثر الناس، وقالت فرقة: كان غرقهم في نيل مصر. والأول أشهر.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ آيَةً يَذْكُرُونَ إِلَى النَّكَارِ﴾ وهم أئمة من حيث اشتبهوا وبقوا قدوة لكل كافر وعاب إلى يوم القيامة. و﴿الْمَقْبُوحِينَ﴾: الذين يفضح كل أمرهم، قولاً لهم وفعلاً، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الذين قبحوا بسواد الوجوه وزرقة العيون.

﴿أزيسلته﴾، وقرأ عاصم وحده: ﴿بِصِدْقِي﴾ أي: مصداقاً، فهو صفة للزدي، أو حال.

و «شُدَّ الْعَضُدُ» استعارة في المعونة والإنهاض، وقرأ الحسن بضم العين من «عَضُدِكَ»، وقرأ عيسى بن عمر بفتح العين والضاد. و«السُّلْطَانُ»: الحجة. وقوله:

﴿تَاتَيْنَا﴾ يحتمل أن تتعلق الباء بقوله: ﴿وَيَجْعَلُ لَكُنَّا﴾، أو بـ «يصلون» وتكون باء السبب، ويحتمل أن تتعلق بقوله: ﴿الْقَلْبُونَ﴾، أي: تغلبون بآياتنا، والآيات» ها هنا معجزاته عليه السلام.

ولما كذبه ورموه بالسحر قارب موسى عليه السلام في احتجاجه، وراعه تكذيبهم، فرد الأمر إلى الله، وعول على ما يظهره الله تعالى في شأنهم، وتوعدهم بنقمة من الله تعالى منهم. وقرأ ابن كثير: ﴿قَالَ مُوسَىٰ بِغَيْرِ وَاوٍ﴾ وقرأ غيره وجميع السبعة: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ﴾ بواو، وقرأ الجمهور: ﴿تَكُونُ لَهُ﴾ بالثاء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿يَكُونُ﴾ بالياء على التذكير؛ إذ هي بمنزلة العاقب.

واستمر فرعون على طريق مخزفته على قومه، وأمر هامان أن يطبخ له الأجر، وأن يبني له صرحاً، أي سطحاً في أعلى الهواء، وليس الصرح إلا ما له سطح، ويحتمل أن

تغلبون بآياتنا، والآيات» ها هنا معجزاته عليه السلام.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

كان موسى عليه السلام قد امتحن بمخاوف فطلب شد العضد بأخيه هارون؛ لأنه كان فصيح اللسان سمح الخلق، وقرأ الجمهور: ﴿رِدًّا﴾ بالهمز، وقرأ نافع وحده: ﴿وَدًّا﴾ بتوین النون دون همز، وهي قراءة أبي جعفر، وذلك على التخفيف من «ردء»، والردء: الوزير المعين والذي يستند إليه في الأمر، وذهبت فرقة إلى أنها من معنى الزيادة، كما قال الشاعر:

وَأَسْمَرَ خَطِيئًا كَأَنَّ كُغُوبَهُ
تَوَى الْقَسْبِ قَدْ رَدَى ذِرَاعًا عَلَى الْعَشْرِ
وهذا على ترك الهمز، وأن يكون وزنه فعلاً.

وقرأ جمهور القراء: ﴿بِصِدْقِي﴾ بالجزم، وذلك على جواب

﴿يَوْمَ﴾ ظرف مقدم. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ بَعْدَ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾

إخبار عن أنه أنزل التوراة على موسى بعد إهلاك فرعون وقومه، وبعد هذه الأمم التي تقدم ذكرها من عاد وثمود وقرية قوم لوط وغيرها، والقصد بهذا الإخبار التمثيل لقريش بما تقدم في غيرها من الأمم، وقالت فرقة: الآية متضمنة أن إنزال

التوراة على موسى هو بعد أن رفع الله تعالى عذاب الأمم؛ فلم يعذب أمة بعد نزول التوراة إلا القرية التي مسخت قرده فيما زوي، وقوله: ﴿صَائِرٌ﴾ نصب على الحال، أي: طرائق هادية، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: على ترج، وما تعطيه من تأمل، وزوي عن أبي

سعيد الخدري رضي الله عنه أنه قال: «ما أهلك الله تعالى أمة بعذاب بعد أن أنزل التوراة إلى الأرض غير القرية التي مسخت قرده» أي: الذين تعدوا في السبت، وهذا التعذيب من سبب شرع موسى؛ فكأنه لا يُنقص فضيلة التوراة برفع العذاب عن الأرض.

﴿٤٤﴾ - ﴿٤٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: لم تحضر يا محمد هذه الغيوب التي نخبر بها، ولكنها صارت إليك بوحيها، أي: فكان الواجب أن يسارع إلى الإيمان بك، ولكن تطاول الأمر على القرون التي أشأناها زماناً زماناً، فعزبت حلومهم، واستحكمت جهالتهم وضلاتهم.

و ﴿فَضَيْبًا﴾ معناه: أنفدنا وصرفنا، و ﴿الْأَمْرَ﴾ يعني التوراة. وقالت فرقة: يعني به ما أعلمه الله

تبارك وتعالى من أمر محمد ﷺ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل حسن يلتئم معه ما بعده من قوله: ﴿وَلَكِنَّا أَشْنَا نَا فُرُونَا﴾.

و «الشأوي»: المقيم. وقوله: ﴿وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الظُّورِ﴾ يريد: وقت إنزال التوراة إلى موسى، وقوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾، زوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه نودي يومئذ من السماء: «يا أمة محمد، استجبت لكم قبل أن تدعوني، وغضرت لكم

قبل أن تسألوني»، فحينئذ يسأل موسى عليه السلام أن يكون من أمة محمد ﷺ، فالمعنى: إذ نادينا بأمرك، وأخبرناك بنبوتك، وقوله: ﴿رَحِمْتَ﴾ نصب على المصدر، أو على المفعول من أجله، وقوله: ﴿وَلَكِنَّا﴾ جعلناك وأنفدنا أمرك قديماً رحمة من ربك، أي: ويكون المعنى: ولكن أعلمناك رحمة مثلك وإفضالاً، وقرأ الناس: ﴿رَحِمَةً﴾ بالنصب، وقرأ عيسى: ﴿رَحِمَةً﴾ بالرفع. ويريد بالقوم «الذين لم يأتهم نذير» معاصريه من العرب، وباقي الآية بين، وقال الطبري: معنى قوله: ﴿إِذْ نَادَيْنَا﴾ بأن ﴿فَوَيْءُ سَأَكْتَبُهَا لِلَّذِينَ يَنْقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِجَانِبِنَا يُؤْمِنُونَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ الَّذِي الْأَمْرَ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا﴾ الآية.

سورة القصص

الآيات

وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغُرُبَاتِ إِذْ فَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَكِنَّا أَشْنَا نَا فُرُونَا فَطَوَّلَ عَلَيْهِمْ الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ تَأْوِيلًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الظُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِن رَحْمَةً مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُمْ مِن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ وَأَوَّلًا أَن نُّبَيِّنَهُمْ مُّبَشِّرًا بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيَهُمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ وَلَمْ يَكْفُرْ بِمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ مِنْ قَبْلِ قَالُوا لَوْلَا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكِلْفَيْنِ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأَنزِلْ كِتَابًا مِن عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنَّمَا أُتِيعَهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾

٢٩١

﴿٤٧﴾ - ﴿٤٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

«المُصِيبَةُ»: عذاب في الدنيا على كفرهم، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف، تقديره: لما أرسلنا الرسل. وقوله: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ﴾ يريد: القرآن ومحمداً ﷺ، والمقالة التي قالتها قريش: ﴿لَوْلَا أَوْفَىٰ مِثْلَ مَا أَوْفَىٰ مُوسَىٰ﴾ كانت من تعليم اليهود لهم، قالوا لهم: لِمَ لا يأتي بآية باهرة كالعصا واليد وشق الجبل وغير ذلك، فمكس قول الله تعالى عليهم قولهم، ووقفهم على أنهم قد وقع منهم في تلك الآيات ما وقع من هؤلاء في هذه، فالضمير في قوله: ﴿وَكُفُّوا﴾ لليهود.

وقرأ الجمهور: ﴿سَاجِرَانِ﴾، والمراد بهما موسى وهارون، قاله مجاهد، وقال الحسن: موسى وعيسى، وقال ابن عباس: موسى

﴿تَظَاهَرَا﴾ معناه:

وتعاونتا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَأَتَوَا

بِكُنْبِ﴾ الآية، هذه حجة

أمره الله تعالى أن يصدع

بها، أي: أنتم أيها

المكذبون بهذه الكتب

التي قد تضمنت الأمر

بالعبادات ومكارم

الأخلاق، ونهت عن

الكفر والنقائص،

وعد الله تعالى عليها

الشواب الجزيل، إن كان

تكذيبكم لمعنى فاتوا

بكتاب من عند الله عزَّ

وجلَّ يهدي أكثر من هدى

هذه أتبعه معكم. ثم قال

تعالى: ﴿فَإِن لَّرِ بَسْتَجِيبُوا لَكَ﴾ - وقد

علم أنهم لا يستجيبون - على معنى

الإيضاح لفساد حالهم، وسياق

القياس: «لأنهم متبعون لأهوائهم».

ثم عجب تعالى من أتباع الهوى بغير

هداية ولغير مقصد بيِّن، وقرر ذلك

على جهة البيان، أي: لا أحد أضل

منه.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٥﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

الذين وصل إليهم القول قريشاً،

قاله مجاهد وغيره، وقال أبو رفاعة

القرظي: «نزلت في اليهود في عشرة

أنا أحدهم»، ذكره الطبري.

وقال الجمهور: معناه واصلنا لهم

في القرآن وتابعناه موصولاً ببعضه

ببعض في المواعظ والزجر والدعاء

إلى الإسلام، قال الحسن: وفي ذكر

الأمم المهلكة، وصلت لهم قصة

بقصة حسب مرور الأيام، وذهب

مجاهد إلى أن معنى ﴿رَسُولَنَا﴾:

فصلنا، أي: جعلناه أوصالاً من

حيث كان أنواعاً من القول في معانٍ

مختلفة، ومعنى اتصال بعضه ببعض

حاصل من جهة أخرى، لكن إنما

عدد عليهم ها هنا تقسيمه في أنواع

من القول. وذهب الجمهور إلى أن

هذا التوصل الذي وصل لهم القول

معناه: وصل المعاني من الوعظ

والزجر، وفي الأجر وغير ذلك،

وذهبت فرقة إلى أن الإشارة بتوصيل

القول إنما هي إلى الألفاظ، أي

الإعجاز، فالمعنى: ولقد وصلنا لهم

قولاً معجزاً دالاً على نبوتك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

والمعنى الأول تقديره: ولقد وصلنا

لهم قولاً تضمن معاني من اهتدى،

وقرأ الحسن: ﴿وَلَقَدْ وَصَّلْنَا﴾

بتخفيف الصاد. وقوله: ﴿لَقَدْ

يَتَذَكَّرُونَ﴾ أي: يتعظون بالقرآن عن

عبادة الأصنام، أو يتذكرون محمداً

فيؤمنوا به.

ثم ذكر تعالى القوم الذين آمنوا من

أهل الكتاب مباحياً بهم قريشاً،

واختلف، إلى من الإشارة؟ فقيل:

إلى جماعة من اليهود أسلمت وكانت

تلتقى من الكفار أدنى، وقيل: إلى

بحيرى الزاهب، وقال الزهري: إلى

النجاشي، وقيل: إلى سلمان، وابن

سلام، وأسند الطبري عن علي بن

أبي رفاعة قال: خرج عشرة رهط من

أهل الكتاب، فيهم أبو رفاعة - يعني

أباه - فأسلموا، فأوذوا، فنزلت فيهم

هذه الآية. والضمير في ﴿قَبَلِهِ﴾

يحتتمل أن يعود على النبي ﷺ،

ويحتتمل أن يعود على القرآن، وما

﴿٥١﴾ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ وَإِذْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْقُرْآنَ لِتَتَّبِعُوهُ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُلُوبُكُمْ وَمَا رَأَيْتُمْ يُصَدَّقُونَ ﴿٥٣﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ سَمِعُوا أَلْفَاظَ مَا نَبِّئُكَ بِذُنُوبِكُمْ وَمَا رَأَيْتُمْ يُصَدَّقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذْ أَسْمِعُوا الْمُرُوفَةَ وَأَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلِّمْ عَلَيْكُمْ ﴿٥٥﴾ لَا تَبْغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٦﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَئِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوا لَئِن لَّمْ يَكُنِ الْهَدْيُ مَعَكَ فَنَحْنُ ضَالٌّ أَوْ لَمْ نَكُنْ مَعَهُ لَعَلَّكُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِنَّمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم بَطَرًا مَّعِيشَتَهَا أَتْلَاكَ مَسَكْنَتُهُمْ لِتَشْكُنَ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٦٠﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَنْبِئُوهُم بِآيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٦١﴾

ومحمد ﷺ، وقال الحسن أيضاً:

عيسى ومحمد عليهما الصلاة

والسلام، والأول أظهر. وقرأ

عاصم، وحمزة، والكسائي:

﴿سِخْرَانِ﴾، والمراد بهما التوراة

والإنجيل، قاله عكرمة، وقال ابن

عباس: التوراة والفرقان، وقرأ ابن

مسعود: ﴿سِخْرَانِ أَطَاهَرَا﴾، وهي

قراءة طلحة والضحاك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ويحتتمل أن يريد بـ ﴿مَا أَوْفَىٰ مَوْسَىٰ﴾

أمر محمد - عليهما الصلاة والسلام -

الذي هو في التوراة، كأنه يقول:

وما يطلبون من أن يأتي بمثل ما أوتي

موسى وهم قد كفروا - في التكذيب

بك - بما أوتيته موسى عليه السلام

من الإخبار بك، وقالوا: وإنما بكل

كافرون. وقوله تعالى: ﴿إِنَّا بِكُلِّ

كَفْرٍ﴾ يؤيد هذا التأويل.

يَعْدُ يُؤِيدُ هَذَا، وَهُوَ قَوْلُهُ: ﴿وَلِذَا يَتَلَ عَلَيْهِمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ﴾ يَرِيدُونَ الْإِسْلَامَ الْمُتَحَصِّلَ لَهُمْ مِنْ شَرِيعَةِ مُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلَامُ. وَإِنَاءُ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ مَعْنَاهُ: عَلَى مَلَّتَيْنِ، وَإِيمَانُهُمْ بِشَرِيْعَتَيْنِ، وَهَذَا الْمَعْنَى هُوَ الَّذِي قَالَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «ثَلَاثَةٌ يُؤْتِيهِمُ اللَّهُ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ: رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ آمَنَ بِنَبِيِّهِ وَأَمَنَ بِي، وَالْعَبْدُ النَّاصِحُ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ وَخِدْمَةِ سَيِّدِهِ، وَرَجُلٌ كَانَتْ لَهُ أُمَّةٌ فَأَدَّبَهَا وَعَلَّمَهَا ثُمَّ أَعْتَقَهَا وَتَزَوَّجَهَا».

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا صَبْرًا﴾ عام في صبرهم على ملَّتِهِمْ ثُمَّ عَلَى هَذِهِ وَعَلَى الْأَذَى الَّذِي يَلْقَوْنَهُ مِنَ الْكُفْرَانِ فِي ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَذَرُون﴾ مَعْنَاهُ: يَدْفَعُونَ، وَهَذَا وَصْفٌ لِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، أَي: يَتَعَاوَنُونَ، وَمَنْ قَالَ لَهُمْ سُوءًا لَا يَتَوَّعُ وَقَابَلُوهُ مِنَ الْقَوْلِ الْحَسَنِ بِمَا يَدْفَعُهُ، وَهَذِهِ آيَةٌ مَهَادِنَةٌ، وَهِيَ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ، وَهِيَ مِمَّا نَسَخَتْهُ آيَةُ السِّيفِ، وَبَقِيَ حُكْمُهَا فِيمَا دُونَ الْكُفْرِ تَتَعَاوَنُ أُمَّةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ﴾ مَدْحٌ لَهُمْ بِالنَّفَقَةِ فِي الطَّاعَاتِ، وَعَلَى رَسْمِ الشَّرْعِ، وَفِي ذَلِكَ حِضٌّ عَلَى الصَّدَقَاتِ وَنَحْوِهَا.

و «اللُّغُو» لُغُو الْقَوْلِ، وَالْيَمِينُ لُغُوٌّ حَسَبِ الْخِلَافِ فِيهِمَا، وَكَلَامٌ مُسْتَمِعُ الْخَطِيئَةِ لُغُوٌّ، وَالْمَرَادُ مِنْ هَذَا - فِي هَذِهِ الْآيَةِ - مَا كَانَ سَبًّا وَأَذَى وَنَحْوَهُ، فَأَدَّبَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ الْإِعْرَاضَ عَنْهُ، وَالْقَوْلُ - عَلَى جِهَةِ التَّبْرِي - «لَنَا أَعْتَلْنَا وَلَكُمْ أَعْتَلْنَا».

وقال ابن زيد: اللُّغُوُّ هُنَا مَا كَانَ بِنُو إِسْرَائِيلَ كَتَبُوهُ فِي التَّوْرَةِ مِمَّا لَيْسَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه المهادنة هي لبني إسرائيل، الكفار منهم، و﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ لَيْسَ الْمَقْصُودُ بِهَا التَّحِيَّةُ، لَكِنَّهُ لَفْظُ التَّحِيَّةِ قُصِدَ بِهِ الْمُنَازَكَةُ، وَهُوَ لَفْظٌ مُؤَنَسٌ مُسْتَنْزَلٌ لِسَامِعِهِ؛ إِذْ هُوَ فِي عَرَفِ اسْتِعْمَالِهِ تَحِيَّةٌ، قَالَ الزَّجَاجُ: وَهَذَا قَبْلَ الْأَمْرِ بِالسَّقَاتِ، وَ﴿لَا تَبْنِيَنَّ الْجَبْهَيْنِ﴾ مَعْنَاهُ: لَا تَنْطَلِبُهُمَا لِلْجِدَالِ وَالْمَرَاجَعَةِ وَالْمَسَابَّةِ.

٥٦ - ٥٧ تفسير قوله عز وجل: أجمع جُلُ المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ إنما نزلت في شأن أبي طالب عم رسول الله ﷺ، قال أبو هريرة، وابن المسيب، وغيرهما: إن رسول الله ﷺ دخل عليه وهو يجود بنفسه، فقال له: «أَنْتِي عَمٌّ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أَشْهَدُ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ»، وَكَانَ بِحَضْرَتِهِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُمِيَّةٍ، وَأَبُو جَهْلٍ لَعَنَهُمَا اللَّهُ تَعَالَى، فَقَالَ لَهُ: «أَتُرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ يَا أَبَا طَالِبٍ؟ فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، لَوْلَا أَنِّي أَخَافُ أَنْ يُعْتَبَرَ بِهَا وَلَدِي مِنْ بَعْدِي لِأَقْرَبَتْ بِهَا عَيْنِكَ، ثُمَّ قَالَ أَبُو طَالِبٍ: أَنَا عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ وَالْأَشْيَاحِ، فَتَفَجَّعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَخَرَجَ عَنْهُ، فَمَاتَ أَبُو طَالِبٍ عَلَى كُفْرِهِ، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ إِشَارَةٌ إِلَى أَبِي طَالِبٍ وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَقَالُوا﴾

لقريش، قال ابن مسعود: والمتكلم بذلك منهم الحرث بن نوفل، وقصد الإخبار بأن العرب تنكر عليهم رفض الأوثان وفراق حكم الجاهلية بتخطفهم من أرضهم، وقوله: ﴿أَلَمْ تَكُنْ﴾ مَعْنَاهُ: عَلَى زَعْمِكَ، وَحِكْيُ الثَّلَعِيِّ عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ: إِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ الَّذِي تَقُولُ حَقٌّ، وَلَكِنْ إِنْ اتَّبَعْنَاكَ يَتَخَطَفُنَا الْعَرَبُ، فَقَطَعَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِالْحِجَّةِ، أَي: أَلَيْسَ كَوْنُ الْحَرَمِ لَكُمْ مِمَّا يَسْرَنَاهُ وَكَفَفْنَا عَنْكَ الْأَيْدِي فِيهِ؟ فَكَيْفَ بَكُمْ لَوْ أَسْلَمْتُمْ وَاتَّبَعْتُمْ شَرْعِي وَدِينِي؟ وَرَوَى عَنْ أَبِي عَمْرٍو: ﴿تَنَخَّطَفُ﴾ بِضَمِّ الْفَاءِ، وَأَمَّنَ الْحَرَمَ هُوَ أَلَّا يُغْتَرَى وَلَا يُبَدَى فِيهِ أَحَدٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَبْتَغِي إِلَيْهِ تَخَرُّتَ كُلِّ مُنْتَفِعٍ﴾ أَي: يُجْمَعُ وَتُجَلَّبُ. وَقَرَأَ نَافِعٌ وَحْدَهُ: ﴿تُجَسَّبِي﴾ بِالتَّاءِ مِنْ فَوْقِ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: ﴿يَبْتَغِي﴾ أَي: يَجْمَعُ بِالْيَاءِ مِنْ تَحْتِ، وَرَوَيْتُ التَّاءَ عَنْ أَبِي عَمْرٍو، وَأَبِي جَعْفَرٍ، وَشَبِيهَةٌ بِنِصَاحِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ يَرِيدُ مِمَّا بِهِ صَلَاحٌ حَالِهِمْ وَقَوَامُ أَمْرِهِمْ، وَلَيْسَ الْعَمُومُ فِيهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَقَرَأَ أَبَانُ بْنُ تَخْلَبٍ: ﴿تُجَمَّرَاتُ﴾ بِضَمِّ الشَّاءِ وَالْيَمِيمِ.

ثم توعد تعالى قريشاً بضرب المثل بالقرى المهلكة، أي: فلا تغتروا بالحرم الآمن والثمرات التي تُجسبي؛ فإن الله تعالى مهلك الكفرة على ما سلف في الأمم. و﴿بَطَّرَتْ﴾ مَعْنَاهُ: سَفِهَتْ وَأَشْرَتْ وَطَغَتْ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ وَغَيْرُهُ، وَ﴿مَعِيشَتَهُمَا﴾ نَصَبَتْ عَلَى التَّفْسِيرِ، مِثْلُ قَوْلِهِ: ﴿سَفِيَةٌ نَسَسَتْ﴾، وَقَالَ الْأَخْفَشُ: هُوَ عَلَى

﴿أَمِنَ وَعَدْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا فَهوَ لَاقِبُهُ﴾ .
 ﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
 التقدير: واذكر يوم، وهذا النداء
 يحتمل أن يكون بواسطة، ويحتمل
 أن يكون بغير ذلك، والضمير
 المتصل بـ [يُنَادِي] لِعِبَادِ الْأَصْنَامِ،
 والإشارة إلى قريش، وقوله: ﴿أَمِنَ﴾
 على جهة التوبيخ والتقريع، وقوله:
 ﴿شُرَكَائِكُ﴾ أي: على قولكم
 وزعمكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 ولما كان هذا السؤال مُسْتَكْبِتاً لهم
 مهيناً فكأنه لا يتعلق بجمهور الكفرة،
 بل بالمُتَّوِّبِينَ لهم، وبالأعيان
 والرؤوس منهم، وبالشياطين
 المُتَّوِّبِينَ، فكأن هذه الفئة المُتَّوِّبَةُ
 إنما أتت الكفرة على علم بأن القول
 عليها متحقق، وبأن كلمة العذاب
 ماضية، لكنهم طمعو في التبرّي من
 أولئك الكفرة الأتباع فقالوا: ربنا
 هؤلاء أضللناهم كما ضللنا نحن
 باجتهاد لنا ولهم، وأرادوا هم
 اتباعنا، وأجَّبوا الكفر كما أحببناه،
 فنحن نتبرأ إليك منهم، وهم لم
 يعيدونا إنما عبدوا غيرنا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 فهذا التوقيف يعم جميع الكفرة،
 والمجيبون هم جميع المُتَّوِّبِينَ، كل
 داع إلى كفر، من الشياطين الجن،
 ومن الإنس العرفاء والرؤساء
 والسادة.

وقرأ الجمهور: ﴿أَغْوَيْنَا﴾ بفتح
 الواو، ويقال: غَوَى الرجل يَغْوِي
 بكسر الواو، وروي عن ابن عامر،
 وعاصم ﴿غَوَيْنَا﴾ بكسر الواو.
 ثم أخبر تبارك وتعالى أنه يقال

ثم خاطب تعالى قريشاً
 محقراً لما كانوا يفخرون
 به من مال وبينين وغير
 ذلك من قوة لم تكن عند
 محمد ﷺ ولا عند من
 آمن به، فأخبر الله تعالى
 قريشاً أن ذلك متاع الدنيا
 الفاني، وأن الآخرة وما
 فيها من النعيم الذي
 أعد الله لهؤلاء المؤمنين
 خيرٌ وأبقى، ثم وبَّخهم
 بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا
 تَعْقِلُونَ﴾، وقرأ الجمهور:
 ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالياء، وقرأ
 أبو عمرو وحده:
 ﴿تَعْقِلُونَ﴾ بالتاء من فوق،
 وهي قراءة الأعرج،
 والحسن، وعيسى.

ثم زادهم توبيخاً بقوله: ﴿أَمِنَ
 وَعَدْنَاهُ﴾ الآية، وقوله: ﴿أَمِنَ
 وَعَدْنَاهُ﴾ آية يعم معناها جميع
 العالم، لكن اختلف الناس فيمن
 نزلت - فقال مجاهد: الذي وعد
 الوعد الحسن هو محمد ﷺ، وضده
 أبو جهل لعنه الله، وقال مجاهد:
 نزلت في حمزة رضي الله تعالى عنه
 وأبي جهل، وقال قتادة: نزلت في
 المؤمن والكافر، كما أن معناها عام.
 قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 ونزلها عامٌ بين الاتساق بما قبله من
 توبيخ قريش.

و ﴿مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ معناه: في
 عذاب الله تعالى، قاله مجاهد
 وقاتدة، ولفظة [مُحْضَرِينَ] مشيرة
 إلى سَوْقٍ وَجَرٍّ، وقرأ طلحة: ﴿أَمِنَ
 وَعَدْنَاهُ﴾ بغير فاء، وقرأ مسروق:

وَمَا أُرْسِلُ مِنْ تَنٍّ وَمَقْتَعِ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَرَبِّهَا وَمَاعِنَدِ
 اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٦﴾ أَمِنَ وَعَدْنَاهُ وَعَدَّا حَسَنًا
 فَهوَ لِقَابُهُ كَمَنْ مَنَعْتَهُ مَتَاعَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا مِمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَمَةِ
 مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٧﴾ وَيَوْمَ نَادِيهِمْ يَقُولُ إِنِّي شُرَكَاءُ الَّذِينَ
 كَفَرْتُمْ زُعْمُونَ ﴿٦٨﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ
 الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا آيَاتِنَا
 يَعْبُدُونَ ﴿٦٩﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمُ فَاسْتَجِيبُوا
 لَهُمْ وَاوُوا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَوْمَ نَادِيهِمْ
 فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٧١﴾ فَجِئْتُمُ عَلِيمٌ بِالْأَنْبِيَاءِ
 يَوْمَ يُذِقُهُمْ لَا يَنْسَاءُ لَوْ كُنَّا فَتَأْمَنُ نَابُ وَأَمِّنُ وَعَمِلْ
 صَلِحَةً فَاصْبِرْ إِنَّا نَبُكْرُكَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿٧٢﴾ وَرَبُّكَ
 يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ
 اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ
 صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ
 الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٥﴾

إسقاط حرف الجر، أي: بَطُرَتْ فِي
 معيشتها، ثم أحالهم على الاعتبار
 في خراب ديار الأمم المُهْلِكَةَ كحجر
 ثمود وغيره، وبإقي الآية بين.

﴿٥٩﴾ - ﴿٦٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

إِنْ كَانَتْ الْإِبَادَةُ لِلْقُرَى بِالْإِطْلَاقِ
 فِي كُلِّ زَمَنٍ فَأَمَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ
 عَظِيمًا وَأَفْضَلَهَا الَّتِي هِيَ بِمَثَابَةِ مَكَّةَ
 فِي عَصْرِ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَإِنْ كَانَتْ
 مَكَّةَ أُمُّ الْقُرَى كُلِّهَا أَيْضًا مِنْ حَيْثُ
 هِيَ أَوَّلُ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنَ الْأَرْضِ،
 وَمِنْ حَيْثُ فِيهَا الْبَيْتُ، وَمَعْنَى الْآيَةِ
 أَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقِيمُ الْحُجَّةَ
 عَلَى عِبَادِهِ بِالرَّسْلِ، فَلَا يَعْذِبُ إِلَّا
 بَعْدَ إِنْدَارِهِ، وَبَعْدَ أَنْ يَتِمَادَى أَهْلُ
 الْقُرَى فِي ظَلْمٍ وَطَغْيَانٍ. وَالظُّلْمُ -
 هُنَا - يَجْمَعُ الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ
 وَالتَّقْصِيرَ فِي الْجِهَادِ، وَبِالْجُمْلَةِ
 وَضَعُ الْبَاطِلِ مَوْضِعَ الْحَقِّ.

للكفرة العابدين للأصنام الذين اعتقدوهم آلهة: ﴿أَدْعُوا شُرَكَاءَكُمْ﴾ أي الأصنام التي كنتم تزعمون أنهم شركاء الله، وأضاف الشركاء إليهم لما كان ذلك الاسم بزعمهم ودعواهم، فهذا القول أصل من الاختصاص، وأضاف الشركاء إليهم ثم أخبر أنهم ذغوم، فلم يكن في الجمادات ما يجيب، ورأى الكفار العذاب. وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ﴾، ذهب الزجاج وغيره من المفسرين إلى أن جواب ﴿لَوْ﴾ محذوف تقديره: لما نالهم العذاب، أو: لما كانوا في الدنيا عابدين للأصنام، ففي الكلام - على هذا التأويل - تأسّف عليهم، وذلك محتمل مع تقديرنا الجواب: «لما كانوا عابدين للأصنام»، وفي تقديرنا الجواب: «لما نالهم العذاب» نعمة منا، وقالت فرقة: ﴿لَوْ﴾ متعلقة بما قبلها، تقديره: فودوا لو أنهم كانوا يهتدون.

١٦ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

وهذا النداء أيضاً كالأول في احتمال الواسطة من الملائكة، وهذا النداء أيضاً للكفار يوقفهم على ما أجابوا به المرسلين الذين دعواهم إلى الله تعالى. ﴿فَعَمِيَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ﴾ أي: أظلمت الأمور، فلم يجدوا خبراً يخبرون به مما لهم فيه نجاة، وساق الفعل في صيغة الماضي لِتَحَقُّقِ وقوعه، وأنه تعين، والماضي من الأفعال مُتَيَقِّنٌ؛ فلذلك توضع صيغته بدل المستقبل المُتَيَقِّنُ فيقوى وقوعه وصحته، ومعناه: أظلمت جهاتها، وقرأ الأعمش:

﴿فَعَمِيَّتْ﴾ بضم العين وشد الميم، وروى في بعض الحديث: «كان الله في عمام» وذلك قبل أن يخلق الأنوار وسائر المخلوقات. و﴿الْأَنْبَاءُ﴾ جمع نَبَأٍ. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ معناه فيما قال مجاهد وغيره: بالأرحام والمنتاب الذي عرّفه في الدنيا أن يُتَسَاءَلَ به؛ لأنهم قد أيقنوا أنهم كلهم لا حيلة لهم ولا مكانة، ويحتمل أن يريد أنهم لا يتساءلون عن الأنبياء لتيقن جميعهم أنه لا حجة لهم.

ثم انتزع تعالى من الكفرة من تاب من كفره، وآمن بالله ورسله، وعمل بالتقوى، ورَجَى عز وجل أنهم يفوزون ببغيتهم ويبقون في النعيم الدائم، وقال كثير من العلماء: «عَسَى» من الله واجبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ظن حسن بالله تعالى يشبه فضله وكرمه، واللازم من «عَسَى» أنها ترجية لا واجبة، وفي كتاب الله عز وجل: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ الآية، قيل: سببها ما تكلمت به قريش من استغراب أمر النبي ﷺ، وقول بعضهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْفَرِيقَيْنِ عَظِيمٍ﴾ فنزلت هذه الآية بسبب تلك المنازعة، ورد الله تعالى عليهم، وأخبر أنه يخلق من عباده وسائر مخلوقاته ما يشاء، وأنه يختار لرسالته من يريد ويجعل فيه المصلحة، ثم نفى أن يكون الاختيار للناس في هذا ونحوه، هذا قول جماعة من المفسرين، قالوا:

والظاهر أن [مَا] نافية، أي: ليس لهم الخيرة عن الله تبارك وتعالى، فتجئ الآية كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يريد: ويختار الله تعالى الأديان والشرائع، وليس لهم الخيرة في أن يميلوا إلى الأصنام ونحوها في العبادة، ويؤيد هذا التأويل قوله: ﴿سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

وذهب الطبري إلى أن [مَا] في قوله: ﴿وَيَخْتَارُ مَا كَانَ﴾ مفعولة، قال: والمعنى أن الكفار كانوا يختارون من أموالهم لأصنامهم خيارها، فأخبر الله تعالى أن الاختيار إنما هو له وحده، يخلق ويختار من الرسل والشرائع ما كان خيراً للناس، لا كما يختارون هم ما ليس لهم، ويفعلون ما لم يؤمروا به.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واعتذر الطبري عن الرفع الذي أجمع عليه القراء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِمَنْ أَهْلُوا الْقُرْآنَ أَن يَتَّخِذُوا أَمْوَالَهُم مَّا كَانَتْ لَهُمْ خَيْرًا مِنَ اللَّهِ وَأَن يَتَّخِذُوا مِمَّا كَانَتْ لَهُمْ خَيْرًا مِّنْ اللَّهِ حِرْزًا﴾.

أمن سُمِّيَةَ دَمْعُ الْعَيْنِ تَذْرِيفٌ لَوْ كَانَ ذَا مِنْكَ قَبْلَ الْيَوْمِ مَعْرُوفٌ وقرن الآية بهذا البيت، والرواية في البيت: (لَوْ أَنَّ ذَا)، ولكن على ما رواه القاسم يتّجه في بيت عنتره أن يكون في كان ضمير الأمر والشأن، فأما في الآية فلا يكون بجمله فيها محذوف، وفي هذا كله نظر. والوقف على ما ذهب إليه جمهور

وقوله: ﴿وَلَمَّا كُنْتُمْ﴾ أي على نظر البشر، من يرى هذا التلطف والرفق يرى أن ذلك يستدعي الشكر ولا يذ.

﴿٧٥﴾ - ﴿٧٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

التقدير: واذكر يوم يناديهم، وكرر هذا المعنى إبلاغاً وتحذيراً، وهذا النداء عند ظهور كل ما وعد الرحمن على ألسنة المرسلين من وجوب الرحمة لقوم والعذاب لآخرين، ومن خضوع كل جبار ودُّله لعزّة ربّ العالمين، فيتوجه حينئذ توبيخ الكفار، فيقول الله تعالى لهم: ﴿أَيَّنْ شُرَكَاءَ﴾ على معنى التفرّيع.

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه يخرج في ذلك اليوم من كل أمة شهيداً يُمَيِّزُ بينه وبين الناس، وهذا هو التَّمَيِّزُ، أي: يُمَيِّزُ بين شيئين فينتزع أحدهما من الآخر، وقال مجاهد: أراد به «الشَّهيد» الذي يشهد على أمته، وقال الرماني: أراد عدولاً من الأمم وأخباراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهم حملة الحجّة الذين لا يخلو منهم زمن، و«الشَّهيد» - على هذا التأويل - اسم الجنس، وفي هذا الموضع حذف يدل عليه الظاهر، تقديره: يشهد الشهيد على الأمة بخيرها وشرها، فيحق العذاب على من كفر، ويقال لهم - على جهة استبراء الحجّة والإعذار في المحاولة -: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾، أي حجتكم على ما كنتم عليه في الدنيا إن كان لكم، فيسقط حينئذ في أيديهم، ويعلمون أن الحق مترجه له سبحانه عليهم في تعذيبهم،

أن الله تعالى يعلم السرّ والإعلان.

ثم أفرد نفسه بالألوهية ونفاها عمّا سواه، وأخبر أن الحمد له في الدنيا والآخرة؛ إذ له الصفات التي تقتضي ذلك، والحُكْمُ له. وهو - في هذا الموضع - الفصل والقضاء في الأمر، ثم أخبر تعالى بالرجعة إليه والحشر.

ثم أخبر تعالى نبيّه أن يوقفهم على أمر الليل والنهار، وما منح الله تعالى فيهما من المصالح والمرافق، وأن يوقفهم

على إنباعه تعالى بتوفيق الليل والنهار، وأنه لو مدّ أحدهما سرمداً لما وجد من يأتي بالآخر. و«السَّرْمَدُ» من الأشياء: الدائم الذي لا ينقطع. وقرأت فرقة هي الجمهور: ﴿بِضْيَاءٍ﴾ بالياء، وقرأ ابن كثير في رواية قنبل: ﴿بِضْيَاءٍ﴾ بهمزيين، وضعفه أبو علي. ثم ذكر عزّ وجلّ انقسام الليل والنهار على السكون وابتغاء الفضل بالمشي والتصرف، وهذا هو الغالب في أمر الليل والنهار، فعُدّ النعمة بالأغلب، وإن وُجد من يسكن بالنهار ويتغنى فضل الله بالليل فشاؤ نادر لا يُعْتَدُّ به، وقال بعض الناس: قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ إنما عبّر به عن الزمان، فكأنه لم يقصد لتقسيم، أي: في هذا الوقت الذي هو ليل ونهار يقع السكون وابتغاء الفضل.

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِاللَّيْلِ تَشْكُرُونَ فِيهِ أَفَلَا تَبْصُرُونَ ﴿٧٦﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَيَوْمَ يَأْتِيهِمْ فَيَقُولُ أَيُّ شُرَكَائِكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٨﴾ وَتَرَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتُرُونَ ﴿٧٩﴾ إِنْ قَدَرُونَ كُنْتُمْ مِنْ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ فَعَلَيْهِمْ وَأَنْتُمْ مِنَ الْكَاذِبِينَ مَا إِنْ مَفَاحُهُ لِنَبِيِّنَا بِالْمُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُمُ الْمُؤْمِنُونَ أَلَا نُنَادِيكُمْ بِالْفُرْقَانِ ﴿٨٠﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٨١﴾

الناس في قوله تعالى: ﴿وَيَخْتَارُ﴾، وعلى ما ذهب إليه الطبري لا يوقف على ذلك.

ويُجْه عندي أن تكون [ما] مفعولة إذا قدرنا [كان] تامة، أي أن الله تعالى يختار كل كائن، ولا يكون شيء إلا بإذنه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿هُمُ الْخَيْرُ﴾ جملة مستأنفة معناها تعدد النعمة عليهم في اختيار الله تعالى لهم لو قبلوا وفهموا.

﴿٦٩﴾ - ﴿٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر تعالى في هذه الآيات أموراً يشهد عقل كل مفطور بأن الأصنام لا شركة لها فيها، فمنها علم ما في النفس وما يهيجس بالخواطر. و«تَكُنُّ» معناه: تستر، وقرأ ابن محيصن: ﴿تَكُنُّ﴾ بفتح التاء وضم الكاف، وعبر عن القلب بالصدر حيث كان محتوياً عليه، ومعنى الآية

وأما قوله: ﴿لَتَنَزَّلَنَّ﴾ فمعناه: تنهض بتحامل، ومن ذلك قول الشاعر يصف رامياً:

حَتَّى إِذَا مَا التَّمَأَّمْتُ مُفَاصِلَهُ
وَنَاءَ فِي سِقِّ السَّمَالِ كَاهِلَهُ
والوجه أن يقال: إن العُضْبَةَ تنوءُ بالمفاتيح المثقلة لها، وكذلك قال كثير من المتأولين: إن المراد هذا، لكنه قلب كما تفعل العرب كثيراً، فمن ذلك قول الشاعر:

فَدَزَيْعٌ بِنَفْسِهِ نَفْسِي وَمَالِي
وَمَا أَلَوْكَ إِلَّا مَا أَطْبِقُ
وقول الآخر:

وَتَزَكَّبُ خَيْلًا لَا هَوَادَةَ بَيْنَهَا
وَتَشْقَى الرِّمَاحَ بِالصَّبَايِرَةِ الْخُمْرِ
وهذا البيت لا حجة فيه؛ إذ يتجه على وجهه فتأمل، ومن ذلك قول الآخر:

مَا كُنْتُ فِي الْخَزْبِ الْعَوَانِ مُعَمَّرًا
إِذْ سَبَّ حَرُّ وَوُدَّهَا أَجْدَالُهَا
وقال سيبويه والخليل: التقدير: لَتُنَيِّئُ العُضْبَةَ، فجعل بدل ذلك تعدية الفعل بحرف الجر، كما تقول: ناء الجمل وأنائه ونؤث به بمعنى: جعلته يتوء، والعرب تقول: ناء الجمل بالبعير إذا أثقله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل أن يُسند ﴿لَتَنَزَّلَنَّ﴾ إلى المفاتيح مجازاً، لأنها تنهض بتحامل إذا فعل ذلك الذي ينهض بها، وهذا مطرد في قولهم: ناء الحمل بالبعير، ونحوه، فتأمل.

واختلف الناس في «العُضْبَةَ»: كم هي؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ثلاثة، وقال

بمخضر من بني إسرائيل، فقالت: يا نبي الله، كذبت أنا عليك، وإنما دفعني قارون إلى هذه المقالة. وكان من بغيه أنه زاد في ثيابه شبراً على ثياب الناس، قاله شهر بن حوشب، إلى غير ذلك مما يصدر عن فسد اعتقاده، وكان من أعظم الناس مالا، وسميت أمواله كنوزاً إذ كان ممتنعاً من أداء الزكاة، وبسبب ذلك عادى موسى عليه السلام أول عداوته.

والمفاتيح: ظاهرها أنها التي يفتح بها، ويحتمل أن يريد بها الخزائن والأوعية الكبار، قاله الضحاك: لأن المفتاح في كلام العرب الخزانة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأكثر المفسرون في شأن قارون، فروي عن خيشمة أنه قال: نجد في الإنجيل مكتوباً: «إن مفاتيح قارون كانت من جلود الإبل، وكان المفتاح نصف شبر، وكانت وقر ستين بغلاً أو بعيراً، لكل مفتاح كتر».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وروي غير هذا مما يقرب منه، وذلك كله ضعيف، والنظر يشهد بفساد هذا، ومن الذي كان يميز بعضها من بعض؟ وما الداعي لهذا؟ وفي الممكن أن ترجع كلها إلى ما يحصى ويقدر على حمله بسهولة؟ وكان يلزم - على هذا - أن تكون «مفاتيح» بياض، وهي قراءة الأعمش، والذي يشبهه هو: إما أن تكون المفاتيح من الحديد ونحوه، وعلى هذا تنوء بالعصبة؛ إذ كانت كثيرة لكثرة مخازنه، أو تكون «المفاتيح» الخزائن، قال أبو صالح: كانت خزائنه تحمل على أربعين بغلاً.

وينكشف لهم ما كانوا بسبيله في الدنيا من كذب مختلق وزور في قولهم للأصنام: هذه آلهة، وفي تكذيبهم الرُّسل، وغير ذلك. ومن هذه الآية انتزع قول القاضي عند إرادة الحكم: أبقيت لك حجة.

٧٦ - ٧٧ تفسير قوله عز وجل:

قارون: اسم أعجمي، فلذلك لم ينصرف، واختلف الناس في قرابة قارون لموسى عليه السلام - فقال ابن إسحق: هو عمه، وقال ابن جريج، وإبراهيم التُّخعي: هو ابن عمه، وهذا أشهر، وقيل: ابن خالته، فهو بإجماع رجل من بني إسرائيل، كان ممن آمن بموسى، وحفظ التوراة، وكان من أقرئ الناس لها، وكان عند موسى عليه السلام من عباده المؤمنين، ثم لحقه الزهو والإعجاب، فبغى على قومه بأنواع من البغي، فمن ذلك كفره بموسى واستخفافه به، ومطالبته له بأن يجعل له شيئاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنه عمد إلى امرأة مومسة ذات جمال، وقال لها: أنا أخيسن إليك، وأحفظك في أهلي على أن تجيئي في ملا من بني إسرائيل عندي فتقول: يا قارون اكفني أمر موسى فإنه يتعرض لي في نفسي، فجاءت المرأة، فلما وقفت على الملا أحدث الله تعالى لها توبة، فقالت: يا بني إسرائيل، إن قارون قال لي كذا وكذا، فضحكته في جميع القصة، وبراؤ الله بقدرته نبيه موسى عليه السلام من مطالبته، وقيل: بل قالت المرأة ذلك عن موسى، فلما بلغه الخبر وقف بالمرأة

نصيبك الذي هو الكفن، ونحو هذا
قول الشاعر:

نَصِيبُكَ مِمَّا تَجْمَعُ الدَّفْرُ كُلُّهُ
رِذَاءً إِنْ تُلَوَّى فِيهِمَا وَحْشُوطُ
وقوله: ﴿وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ
إِلَيْكَ﴾ أمر بصلة المساكين وذوي
الحاجة. وباقى الآية بين.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

القاتل قارون لما وعظه قومه وندبوه
إلى اتقاء الله تعالى في المال الذي
أعطاه تفضلاً منه عليه، أخذته العزة
بالإثم فأعجب بنفسه، وقال لهم
على جهة الرّد عليهم والروغان مما
ألزموه فيه: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ
عِنْدِي﴾، ولكلامه هذا وجهان
فرقة من المفسرين:

فقال الجمهور منهم: إنه ادعى أن
عنده علماً استوجب به أن يكون
ذلك النعيم له ولذلك المال، ثم
اختلفوا في العلم الذي أشار إليه، ما
هو؟ فقال بعضهم: علم التورة
وحفظها، قالوا: وكانت هذه مغالطة
منه ورياء، وقال أبو سليمان
الداراني: أراد العلم بالتجارات
ووجوه تمييز المال، فكأنه قال:
أوتيته بإدراكي وبسغيي، وقال ابن
المسيّب: أراد علم الكيمياء. وقال
ابن زيد وغيره: إنما أراد: أوتيته
على علم من الله تعالى وتخصيص
من لدنه قصدي به، فلا يلزمي فيه
شيء مما قلت، ثم جعل قوله:
﴿عِنْدِي﴾ كما تقول: «في معتقدي
وعلى ما أراه».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

عليهم بركته، ولا يهبهم
رحمته. ثم وصوه بأن
يطلب بماله رضى الله
وأخرته. وقولهم: ﴿وَلَا
تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ
الدُّنْيَا﴾ اختلف المتأولون
فيه - فقال ابن عباس -
رضي الله عنهما -
والجمهور: معناه: لا
تضيع عمرك في ألا تعمل
عملاً صالحاً في دنياك؛ إذ
الآخرة إنما يعمل لها في
الدنيا، فنصيب الإنسان
عمره وعمله الصالح
فينبغي ألا تهمله.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: فالكلام كله -

على هذا التأويل - شدة في
الموعظة. وقال الحسن وقتادة:
معناه: ولا تضيع حظك أيضاً من
دنياك في تمتعك بالحلال بطلبك
إياه، ونظرك إلى عاقبة دنياك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فالكلام - على هذا التأويل - هو في
الرفق به وإصلاح الأمر الذي
يشتهيه، وهذا مما يجب استعماله مع
الموعظة خشية الثبوة من الشبهة.
وقال الحسن: معناه: قدم الفضل
وأسك ما تبلغ به، وقال مالك: هو
الأكل والشرب بلا سرف، وحكى
الشعبي أنه قيل: أرادوا بنصيبه
الكفن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا وعظ متصل كأنهم قالوا: لا
تنس أنك تترك جميع مالك إلا

قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أُولَٰئِكَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ
مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ قُوَّةً وَأَكْبَرَ جَمْعًا
وَلَا يُسْتَلْعَنَ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ
فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا إِنَّا لِلَّهِ
وَأَنَّا إِلَيْهِ مَرْجِعُونَ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَذُّونَ الْفُلُوحَ عِزًّا لِمَنْ آمَنَ
وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُ إِلَّا الْمُحْسِنُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَرَجْنَا
بِهِمْ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ فَتْرَةٍ بَصُرُونَهُ مِنْ دُونِ
اللَّهِ وَمَا كَانُوا مِنَ الْمُؤْتَمِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا
مَكَانَهُ بِأَلْسِنَتِهِمْ يَفُوتُونَ وَيَكْفُرُونَ وَاللَّهُ بِشَيْءِكُمْ الْزَوُّقَ لَمِنَ
بَيِّنَاتٍ مَنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا
وَمَا كَانَ لَنَا بِقُلُوبٍ لَّا يُفْلِحُ الْكٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الْأَمْثَلُ الْآخِرَةُ لِمِثْلِهَا
لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا قِسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ
﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا
يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَمْعَلُونَ ﴿٨٤﴾

قتادة: العُضْبَةُ: من العشرة
إلى الأربعين، وقال مجاهد:
خمس عشرة، وقيل: أحد عشر
خفلاً على إخوة يوسف، وقيل:
أربعون.

وقرأ بُذِيلُ بن مَيْسَرَةَ: ﴿لَيْتُوهُ﴾
بالياء، ووجهها أبو الفتح على أنه
يقرأ: ﴿مَفَاعِيَهُ﴾ جمعاً، وذكر أبو
عمرو الداني أن بُذِيلُ بن مَيْسَرَةَ قرأ:
﴿مَا إِنَّ مِفْتَاحَهُ﴾ على الإفراد،
فيستغنى على هذا عن توجيه أبي
الفتح.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾
متعلق بقوله: ﴿فَبَيَّنَّا﴾، ونهوه عن
الفرح المطغني الذي هو انهماك
وانحلال نفس وأشْرُ وإعجاب، و﴿لَا
يُجِيبُ﴾ - في هذا الموضع - صفة
فعل؛ لأنه أمر قد وقع فمحال أن
يرجع إلى الإرادة، وإنما هو لا يظهر

حينئذ الكلام دال عليه، فلذلك يجري مجرى: ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾. وقال الطبري: الضمير عائد على الكلمة، وهي قوله: ﴿تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، أي: لا يُلْقَى هذه الكلمة إلا الصابرون، وعنهم تصدر.

وروي في الخسف بقارون وداره أن موسى عليه السلام لما أمّضه فعل قارون به، وتعديبه عليه، ورميه بأمر المرأة، وغير ذلك من فعله، استجار بالله تعالى وبكى وطلب النصرة، فأوحى الله تعالى إليه: لا تهتم فإني أمرت الأرض أن تطيعك في قارون وأهله وخاصته وأتباعه، فقال موسى عليه السلام للأرض: خذيه، فأخذت منهم إلى الركب، فاستغاثوا بموسى، يا موسى، فقال: خذيه، فأخذتهم شيئاً فشيئاً، وهم يستغيثون به كل مرة، وهو يُلجج إلى أن تم الخسف بهم، فأوحى الله تعالى إليه: يا موسى، استغاثوا بك فلم ترحمهم، لئوبي استغاثوا وإلي تابوا لرحمتهم وكشفت ما بهم، وقال قتادة، ومالك بن دينار: روي لنا أنه يخسف به كل يوم قامة فهو يتجلجل إلى يوم القيامة.

و«الْفَيْتَةُ»: الجماعة الناصرة التي يفى إليها الإنسان الطالب للنصرة.

وقصة قارون هي بعد جوازهم اليم؛ لأن الرواة ذكروا أنه كان ممن حفظ التوراة، وكان يقرؤها.

والتقرير، والذي ينفيه يراد بها أسئلة الاستفهام على جهة الحاجة إلى علم ذلك من المسؤولين، أي أن ذلك لا يقع؛ لأن العلم بهم محيط، وسؤال التوبيخ غير مُعْتَدٍ به.

ثم أخير تعالى أن قارون خرج على قومه وقد أظهر قدرته من الملابس والمراكب وزينة الدنيا، قال جابر ومجاهد: خرج في ثياب حمر، وقال ابن زيد: خرج هو وحشمه في ثياب مُعْضَفَرَة، وقيل: في ثياب الأرجوان، وقيل غير هذا، وأكثر المفسرون في تحديد زينة قارون وتعيينها - مما لا صحة له - فاختصرته، وباقي الآية في اغترار الجهلة والأغمار من الناس بين.

٨٠ - ٨١ تفسير قوله عز وجل:

أخبر تعالى عن الذين أتوا العلم والمعرفة بالله تعالى وبحق طاعته والإيمان به أنهم زجروا الأعمار الذين تمموا حال قارون، وحملوه على الطريقة المثلى من أن النظر والتأمي إنما يكون في أمور الآخرة، وأن حالة المؤمن العامل الذي ينتظر ثواب الله خير من حال كل ذي دنيا.

ثم أخير تعالى عن هذه النزعة وهذه القوة في الخير في الذين أنه لا يُلْقَاهَا، أي: لا يُمكن منها ويُحوّلها إلا الصابرين على طاعة الله عز وجل، وعن شهوات نفسه، وهذا هو جماع الخير كله، والضمير في ﴿يُلْقَاهَا﴾ عائد على ما لم يتقدم له ذلك من

وعلى كلا الاحتمالين معاً فقد نبه القرآن على خطئه في اغتراره، وعارض منزعه بأن من معلومات الناس المتحققة عندهم أن الله تعالى قد أهلك من الأمم والقرون والملوك من هو أشد من قارون قوة وأكثر جمعاً، إمّا للمال أو للحاشية. وقوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَعْلَمْ﴾ يرجح أن قارون تشيع بعلم نفسه على زعمه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ الْمُجْرِمُونَ﴾. قال محمد بن كعب: هو كلام متصل بمعنى ما قبله، والضمير في ﴿ذُنُوبِهِمْ﴾ عائد على من أهلك من القرون، أي: أهلكوا ولم يُسأل غيرهم بعدهم عن ذنوبهم، أي: كل أحد إنما يُسأل ويعاقب بحسب ما يخصه. وقالت فرقة: هو إخبار مستأنف عن حالهم يوم القيامة، معناه أن المجرمين لا يُسألون عن ذنوبهم، أي أن الملائكة لا تُسأل عن ذنوبهم؛ لأنهم يعرفونهم بسيماهم من السواد والتشويه ونحو ذلك، كقوله تبارك وتعالى: ﴿يَعْرِفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَتِهِمْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي آيات الله ما يقتضي أن الناس يوم القيامة يُسألون، كقوله تبارك وتعالى: ﴿وَقَوْمَهُمْ إِنَّمَا مَسْئُولُونَ﴾، وغير ذلك، وفيه آيات تقتضي أنه لا يُسأل أحد، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾، وغير ذلك، ويمكن أن تكون الآيات التي توجب السؤال إنما يريد بها أسئلة التوبيخ

﴿وَيْكُ أَنْ﴾ أو ﴿وَيْكُ إِنْ﴾ بفتح الهمزة
وبكسرهما، فكذلك في ﴿وَيْكُ أَنْ﴾.

﴿٨٣﴾ - ﴿٨٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا إخبارٌ مستأنفٌ من الله تعالى
لنبيه محمد ﷺ، يُراد به إخبار
جميع العالم وخضعتهم على السُّننِ
بحسب ما تضمنته الآية، وهذا
الحض يتضمّن الإنحاء على قارون
ونظرائه، والمعنى أن الآخرة ليست
في شيءٍ من أمر قارون، إنما هي
لمن صفته كذا وكذا. و«العُلُو»
مذموم، وهو الظلم والتَّجْبُر، قال
النبي ﷺ: «وذلك أن تُريد أن
يكون شراك نعلك أفضل من شراك
نعل أخيك»، و«الفَسَادُ» يعم جميع
الوجوه من الشرِّ، ومما قال
العلماء: هو أخذ المال بغير حق،
وقوله: «وَالْمَيْبَةُ لِنَسِيَتِ» خبر
منفصل.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ
خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ معناه: إمَّا في الدنيا وإمَّا
في الآخرة ولا بُدَّ، ففي وصف أمر
جزاء الآخرة أنّه من عِجَلٍ صالحاً
قله خَيْرٌ من القدر الذي يقتضي
النظرُ أنه مُوَازٍ لذلك الفعل، هذا
على أن تُجعل في التَّفْضِيل، وفي
القول حذفٌ مضاف، أي: من
ثوابها الموازي لها، ويحتمل أن
تكون [من] لابتداء الغاية؛ أي: له
خير بحسب حسنته ومن أجلها،
وأخبر تبارك وتعالى أن السيئة
لا يضاعف جزاؤها فضلاً منه
ورحمته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ
عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ﴾ معناه:

فكان المعنى:
وَيْكُ، اعلم أن الله،
ونحو هذا من الإضمار
للفعل.

وقالت فرقة من
النحويين: [وَيْكُ أَنْ]
بجملتها دون تقدير
انفصال - كلمةٌ
بمنزلة قولك: ألم ترَ
أَنْ.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وَيَقْوَى
الانفصال فيها على ما
قاله سيبويه؛ لأنها
تجيء مع (أَنْ) ومع
(أَنْ)، وأشد سيبويه:

وَيَ كَأَنَّ مِنْ يَكُنُّ لَهُ نَشَبٌ يَخُ
بَيْتٍ وَمَنْ يَفْتَقِرْ يَعِشْ عَيْشَ ضُرِّ
وهذا البيت لزيد بن عمرو بن
نُعَيْلٍ.

وقرأ الأعمش: ﴿لَوْلَا مَنْ اللهُ﴾
بحذف (أَنْ)، وروى عنه: ﴿لَوْلَا
مَنْ﴾ برفع النون، وبالإضافة إلى
الله. وقرأ الجمهور: ﴿لَمْخِيفٌ﴾
بضم الخاء وكسر السين، وقرأ
عاصم بفتح الخاء والسين، وقرأ
الأعمش، وطلحة بن مصرف:
﴿لَا نَخِيفُ﴾ كأنه فعل مضارع أراد
به أن الأرض كانت منفعة، وروى
عن الكسائي أنه كان يقف على
[وَيْ]، ويبتدىء [كَأَنَّ]، وروى عنه
الوصل كالجماعة، وروى عن أبي
عمرو أنه كان يقف على [وَيْكُ]،
ويبتدىء ﴿إِنَّكَ اللهُ﴾، وعلى هذا
المعنى قال الحسن: إن شئت:

سُورَةُ الْقَصَصِ

سُورَةُ الْعَجَبِ كَبُورَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَأْدُكَ إِلَى مَعَادٍ قُلُوبِي
أَعْلَمُ مِنْ جَاءٍ يَهْدِي وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٣﴾ وَمَا كُنْتُ
تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ
فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِلْكَافِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ آيَاتِ
اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أَنْزَلَتْ إِلَيْكَ وَأَنْذَرَ لَكَ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَتَّبِعْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِلَّا إِلَهُ الْإِلَهِ
هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْكَرُّ وَالْإِلَهِ يُرْجَوْنَ ﴿٨٦﴾

سُورَةُ الْعَجَبِ كَبُورَاتٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِي أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمْكَ أَمْكَ وَهُمْ لَا
يُفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٨٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ
السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٨٩﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا
لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَآتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٩٠﴾ وَمَنْ
جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩١﴾

٣٦٦

ثم أخبر تعالى عن حال الذين
تمتوا مكانه بالأمس، وندمهم
واستشعارهم أن الحول والقوة لله
تعالى، وقوله: ﴿وَيْكُ أَنْ﴾،
مذهب سيبويه والخليل أن (وَيْ)
حرف تنبيه، وهي منفصلة عن
(كَأَنَّ)، لكن أضيفت في الكتابة
لكثرة الاستعمال، والمعنى أن
القوم انتهوا فتكلموا على قدر
علمهم، أو نُبِّهُوا فقبل لهم: أما
يُشبه أن يكون هذا عندهم هكذا،
فقالوا على جهة التَّعْجُبِ والتَّنْذِمِ:
فإن الله يسطر الرزق.

وقال أبو حاتم وجماعة من
النحويين: (وَيْكُ) هي وَيْلُكَ،
حذفت لامه وجرت في الكلام
كذلك، ومنه قول عترة:

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وَأَبْرَأَ سُفْمَهَا
قِيلَ الْقَوَارِسِ: وَيْكَ عَثْرُ أَقْدِمِ

أَنْزَلَهُ عَلَيْكَ وَأَنْبَتَهُ، وَالْفَرْضُ أَصْلُهُ عَمَلٌ فَرَضَهُ فِي عَزْوٍ أَوْ نَحْوِهِ، فَكَانَ الْأَشْيَاءُ الَّتِي تَثَبَّتْ وَتَمَكَّنَتْ وَتَبَقَى تَشْبَهُ ذَلِكَ الْفَرْضِ. وَقَالَ مَجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: أَعْطَاكَ الْقُرْآنَ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: فِي هَذَا الْقَوْلِ حَذْفُ مِضَافٍ، وَالْمَعْنَى: فَرَضَ عَلَيْكَ أَحْكَامَ الْقُرْآنِ.

وَاخْتَلَفَ الْمُتَأَوَّلُونَ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَرَأَيْتُكَ إِنِّي مَعَاذٌ﴾ - فَقَالَ جَمَاهُورُ الْمُتَأَوَّلِينَ: أَرَادَ: إِلَى الْآخِرَةِ، أَيْ: بِاعْتِكَ بَعْدَ الْمَوْتِ، فَالآيَةُ - عَلَى هَذَا - مَقْصُودُهَا إِثْبَاتُ الْحَشْرِ، وَالْإِعْلَامُ بِوُقُوعِهِ. وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخَدْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمُ: وَغَيْرُهُمَا: الْمَعَادُ: الْجَنَّةُ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً وَجَمَاعَةٌ: الْمَعَادُ: الْمَوْتُ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَكَانَ الْآيَةُ - عَلَى هَذَا - وَاعِظَةً وَمَذْكَرَةً.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ أَيْضاً وَمَجَاهِدٌ: الْمَعَادُ مَكَّةَ، وَهَذِهِ الْآيَةُ نَزَلَتْ بِالْجَحْفَةِ، فَتَقَدَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي هَجْرَتِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَالآيَةُ - عَلَى هَذَا - مُعْلِمَةٌ بِغَيْبِ قَدْ ظَهَرَ لِلْأُمَّةِ، وَمَوْزَنَةٌ بِفَتْحٍ، وَالْمَعَادُ: الْمَوْضِعُ الَّذِي يُعَادُ إِلَيْهِ، وَقَدْ اشْتَهَرَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِأَنَّهُ مَعَادٌ لِلْكَلِّ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ رَبِّيَ أَعْلَمُ﴾ الْآيَةُ، آيَةٌ مِتْرَاكَةٌ لِلْكَفَّارِ وَتَوْبِيخٌ، وَأَسْنَدُ الطَّبْرِيِّ فِي تَفْسِيرِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَرَأَيْتُكَ إِنِّي مَعَاذٌ﴾ قَالَ: الْجَنَّةُ،

وَسَمَّاها مَعَاداً إِثْمًا مِنْ حَيْثُ قَدْ دَخَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ فِي الْإِسْرَاءِ وَالْمَعْرَاجِ وَغَيْرِهِ، وَإِثْمًا مِنْ حَيْثُ كَانَ فِيهَا آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فَهِيَ مَعَادُ لَذْرِيَّتِهِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَإِنَّمَا قَالَ هَذَا مِنْ حَيْثُ تَعَطَّى لَفْظَةُ «الْمَعَادُ» أَنَّ الْمَخَاطَبَ قَدْ كَانَ فِي حَالِ يَعُودِ إِلَيْهَا، وَهَذَا وَإِنْ كَانَ مِمَّا يَظْهَرُ فِي اللَّفْظَةِ فَيَتَوَجَّهُ أَنْ يُسْمَى مَعَاداً مَا لَمْ يَكُنِ الْمَرْءُ فِيهِ مَجْرُوزاً؛ وَلِأَنَّهَا أَحْوَالٌ تَابِعَةٌ لِلْمَعَادِ الَّذِي هُوَ النَّشُورُ مِنَ الْقَبْرِ.

قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا﴾ الْآيَةُ. قَالَ بَعْضُ الْمَفْسُرِينَ: هَذَا ابْتِدَاءُ كَلَامٍ مُضْمَنُهُ تَقْدِيرُ النِّعْمَةِ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَحِمَهُ رَحْمَةً لَمْ يَحْتَسِبْهَا وَلَا بَلَغَهَا أَمَلُهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا﴾ الْآيَةُ كَلَامٌ مَلْقُوقٌ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ أَيْ: وَأَنْتَ بِحَالٍ مِنْ لَا يَرْجُو ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَلْفَحُ إِلَيْكَ﴾ عِبَارَةٌ عَنِ إِعْلَانِ الثُّبُوتِ وَتَبْلِيغِ الْقُرْآنِ، كَمَا تَقُولُ: أَلْقَى فُلَانٌ إِلَى فُلَانٍ بِالرِّيَاسَةِ، وَنَحْوُ هَذَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِنِّي رَبِّكَ﴾ نَصَبٌ عَلَى اسْتِنَاءٍ مُنْقَطِعٍ، وَالظُّهْرِيُّ: «الْمُعِينُ، أَيْ: اشْتَدَّ يَا مُحَمَّدُ فِي تَبْلِيغِكَ، وَلَا تَلِينُ، وَلَا تَفْضَلُ، فَتَكُونُ مَعُونَتَهُ لِلْكَافِرِينَ بِهَذَا الْوَجْهِ، أَيْ: بِالْفِتْوَرِ عَنْهُمْ.

٨٧ - ٨٨ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَلَا يَصُدُّنَكَ﴾، أَيْ: بِأَقْوَالِهِمْ وَكُذُوبِهِمْ وَأَذَاهُمْ، فَلَا

تَلْتَفَتْ نَحْوَهُ وَأَمَضَ لَشَأْنِكَ، وَقَرَأَ يَعْقُوبُ: ﴿وَلَا يَصُدُّنَكَ﴾، بِجَزْمِ النُّونِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَدْعُ إِلَيْ رَبِّكَ﴾ وَجَمِيعُ الْآيَةِ - يَتَضَمَّنُ الْمَهَادَنَةَ وَالْمَوَادَعَةَ، وَهَذَا كُلُّهُ مَنْسُوخٌ بِآيَةِ السِّيفِ.

وَسَبَبُ هَذِهِ الْآيَةِ مَا كَانَتْ قَرِيشٌ تَدْعُو رَسُولَ اللَّهِ ﷺ إِلَيْهِ مِنْ تَعْظِيمِ أَوْثَانِهِمْ، وَعِنْدَ ذَلِكَ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أَمْنِيَّتِهِ أَمْرَ الْغَرَانِيقِ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾ نَهَى عَمَّا هُمْ بِسَبِيلِهِ، فَهَمُ الْمُرَادُ وَإِنْ عَرِيَ اللَّفْظُ مِنْ ذِكْرِهِمْ، وَقَوْلُهُ سَبِحَانَهُ: ﴿إِلَّا وَهَمَّهُ﴾ قَالَتْ فِرْقَةٌ: هِيَ عِبَارَةٌ عَنِ الذَّاتِ، وَالْمَعْنَى: هَالِكٌ إِلَّا هُوَ، قَالَهُ الطَّبْرِيُّ وَجَمَاعَةٌ مِنْهُمْ أَبُو الْمُعَالِي رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَالَ الرَّجَّاجُ: إِلَّا إِيَّاهُ، وَقَالَ سَفِيانُ الثَّوْرِيُّ: الْمُرَادُ: إِلَّا مَا أَدَّى لَوَجْهِهِ، أَيْ: مَا عَمِلَ لِذَاتِهِ مِنْ طَاعَةٍ وَتَوَجُّعٍ بِهِ نَحْوَهُ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الشَّاعِرِ:

رَبِّ الْعِبَادِ إِلَيْهِ الرَّجْعُ وَالْعَمَلُ
ومنه قول القائل: «أردتُ بفعلِي
وجبة الله تعالى». ومنه قوله عزَّ
وجلَّ: ﴿وَلَا تَطْرُقُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ
بِالْقُدْرَةِ وَالْعِيْسَى يُرِيدُونَ وَجْهَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْحُكْمُ﴾ أَي فَضْلُ الْقَضَاءِ وَإِنْفَاذُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَقَوْلُهُ: ﴿وَالَّذِينَ تُرْجُونَ﴾ إِخْبَارٌ بِالْحَشْرِ وَالْعُودَةِ مِنَ الْقُبُورِ. وَقَرَأَ الْجَمَاهُورُ: ﴿تُرْجُونَ﴾ بِالسَّوَاءِ وَفَتْحِ الْجِيمِ، وَقَرَأَ عَيْسَى: ﴿يُرْجَمُونَ﴾ بِفَتْحِ الْبَاءِ

وكسر الجيم، وقرأ أبو عمرو بالوجهين.

كامل تفسير سورة القصص والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

تفسير سورة العنكبوت

هذه السورة مكِّيَّة إلا الصدر منها، العشر آيات، فإنها مدنية، نزلت في شأن من كان من المسلمين بمكة، وفي هذا اختلاف.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ تفسير قوله عز وجل: تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، وقرأ ورش: «الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَتْرُكُوا» بفتح الميم من غير همز بعدها، وذلك على تخفيف الهمزة وإلقاء حركتها على الميم.

وهذه الآية نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة، وكان الكفار من قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام، فكانت صدرهم تضيق لذلك، وربما استنكروا أن يُمكن الله الكفرة من المؤمنين، قال مجاهد وغيره: نزلت هذه الآية مُسَلِّية ومعلِّمة أن هذه السيرة هي سيرة الله تبارك وتعالى في عباده اختباراً للمؤمنين وقتد؛ ليعلم الصادق ويرى ثواب الله تعالى له، ويعلم الكاذب ويرى عقابه إياه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذه الآية - وإن كانت نزلت بهذا السبب، وفي هذه الجماعة - فهي بمعناها باقية في أمة محمد ﷺ، موجوداً حُكْمُها بقية الدهر، وذلك أن الفتنة من الله تعالى باقية في ثغور المسلمين بالأسر ونيكايه العدو وغير ذلك، وإذا اعتبر أيضاً كل موضع ففيه ذلك بالأمراض وأنواع المحن، ولكن التي تُشبه نازلة المؤمنين مع قريش هي ما ذكرناه مع أمر العدو في كل ثغر.

وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: نزلت هذه الآية في عمار بن ياسر؛ إذ كان يُعذب في الله - ونظرائه. وقال الشعبي: سبب الآية ما كُلِّفه المؤمنون، أما الفتنة فهي الهجرة التي لم يتركوا دونها؛ لا سيِّما وقد لحقهم بسببها أن اتبعهم الكفار وردوهم وقتلوه، فقتل من قتل ونجا من نجا. وقال السدي: نزلت في مسلمين كانوا بمكة وكرهوا الجهاد والقتال حين فرض على النبي ﷺ.

و «حَسِبَ» معناه: ظَنَّ، و «أَنْ» نصب بـ «حَسِبَ»، وهي الجملة التي بعدها تُسَدُّ مسدً مفعولني «حَسِبَ»، و «أَنْ» الثانية في موضع نصب على تقدير إسقاط حرف الخفض، وتقديره: «بأن يقولوا»، ويحتمل أن يقدر: «لأن يقولوا»، والمعنى في الباء واللام مختلف، وذلك أنه في الباء كما تقول: «تركت زيدا بحاله»، وهو في اللام بمعنى: «من أجل»، أي: حسبوا أن إيمانهم علة للترك.

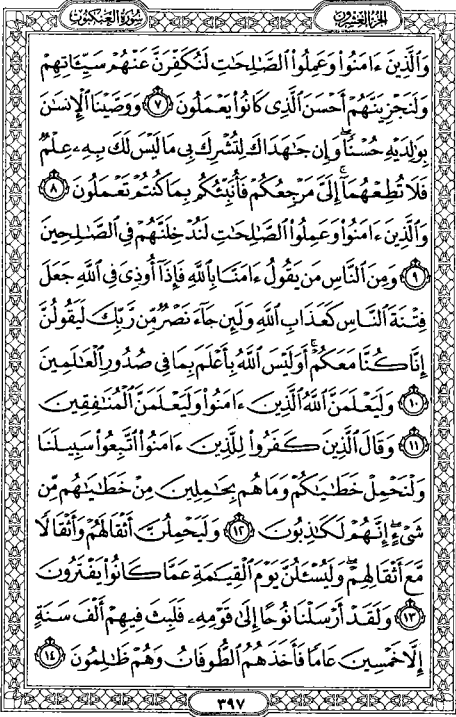
و «الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» يريد بهم

المؤمنين مع الأنبياء في سالف الدهر.

وقرأ الجمهور: «لَيَعْلَمَنَّ» بفتح الياء واللام الثانية، ومعنى ذلك: لِيُظْهِرَنَّ علمه ويُوجِد ما علمه أولاً، وذلك أن علمه بهذا أولاً قديم، وإنما هو عبارة عن الإيجاد بالحالة التي تضمنها العلم القديم، والصدق والكذب على بابهما، أي: مَنْ صَدَقَ فعَلَهُ وقولُهُ ومَنْ كَذَبَ. وقالت فرقة: إنما هي استعارة، وإنما أراد بهما الصلابة في الدين، والاضطراب فيه وفي جهاد العدو، ونحو هذا، ونظير هذا قول زهير:

لَيْتَ بَعَثَرَ يَضْطَاذُ الرِّجَالَ إِذَا
مَا كَذَّبَ اللَّيْتُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا
قال النقاش: وقيل: إن الإشارة بـ «صَدَقًا» إلى مهجع مولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه؛ لأنه أول قتيل قُتل من المؤمنين يوم بدر.

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «فَلْيُعْلِمَنَّ» بضم الياء وكسر اللام الثانية، وهذه القراءة تحتل ثلاثة معانٍ: أحدهما أن يُعْلِمَ في الآخرة هؤلاء الصادقين والكاذبين بمنزلتهم من ثوابه وعقابه، وبأعمالهم في الدنيا، بمعنى يوقفهم على ما كان منهم. والثاني أن يُعْلِمَ النَّاسَ والعالم هؤلاء الصادقين والكاذبين، أي: يفضحهم ويُشهرهم، هؤلاء في الخير، وهؤلاء في الشر، وذلك في الدنيا والآخرة، والثالث أن يكون ذلك من العلامة، أي: يضع لكل طائفة علماً تُشهر به، فالآية - على هذا ينظر إليها قول



﴿وَهُوَ السَّخِيبُ الْعَلِيمُ﴾

معناه: السميع لأقوال كل فزقة، العليم بالمعتقدات التي لهم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ

جَهَدَ فَإِنَّمَا يَجْهَدُ لِنَفْسِهِ﴾

إعلام بأن كل أحد

مجازي بفعله الحسن،

فهو حظّه الذي ينبغي ألا

يفرط فيه، فإن الله غني

عن جهاده وعن العالمين

بأسرهم.

وهاتان الآيتان كأنهما

[...] على سواء إلى

الطائفة المترتبة المتردة

في فتنة الكفار، التي

كانت تنكر أن ينال الكفار

المؤمنين بمكروه، وترتاب من أجل

ذلك، فكأنهم قيل لهم: من كان

يؤمن بالبعث فإن الأمر حق في

نفسه، والله تعالى بالمرصاد، أي:

هذه بصيرة لا ينبغي أن يعتقدها

لوجه أحد. وكذلك من جاهد فثمرة

جهاده له، فلا يُمنُّ ذلك على أحد،

وهذا كما يقول المناظر عند سوق

حجته: من أراد أن ينظر إلى الحق

فإن الأمر كذا وكذا، ونحو هذا

فتأمله.

وقيل: معنى الآية: ومن جاهد

عدوه لنفسه لا يريد وجه الله، وإنما

جهاده لنفسه لا لله تعالى، وليس لله

حاجة بجهاده.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ذكره المفسرون، وهو

قول ضعيف.

النبي ﷺ: «من أسر سريرة ألبسه الله رداءها». وعلى كل معنى منها ففيها وغد للمؤمنين الصادقين، ووعيد للكافرين.

وقرأ الزهري الأولى كقراءة الجماعة، والثانية كقراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

٤ - ٧ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَمْ﴾ معادلة للألف في قوله:

﴿أَحْسِبُ﴾، وكأنه عز وجل قرّر

الفريقين، قرّر المؤمنين على ظنهم

أنهم لا يفتنون، وقرّر الكافرين الذين

يعملون السيئات بتعذيب المؤمنين

وغير ذلك على ظنهم أنهم يسبقون

عقاب الله تعالى ويُعجزونه.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَمَنَّوْنَ

الَّذِينَ يَكْفُرُونَ﴾ - وإن كان الكفار المراد

الأول بحسب النازلة التي الكلام فيها

- فإن لفظ الآية يعم كل عاص

وعامل سيئة من المسلمين وغيرهم.

وقوله: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يجوز

أن تكون ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، فهي

في موضع رفع، ويجوز أن تكون في

موضع نصب على تقدير: ساء حكمًا

يحكمونه. وفي هذه الآية وعيد

للكفرة، وتأسيس للمؤمنين يظهر في

وعده بالنصر في القيامة، وبأنه آت؛

إذ قد أجله الله تعالى وأخبر به.

وفي قوله: ﴿مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ﴾

تثيبت، أي: من كان على هذا الحق

فليوقن بأنه آت وليزدد بصيرة، وقال

أبو عبيدة: ﴿يَرْجُوا﴾ هنا بمعنى:

يخاف، والصحيح أن الرجاء هنا

على بابه، وقال الزجاج: المعنى:

يرجو لقاء ثواب الله، وقوله تعالى:

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾

الآية، إخبار عن المؤمنين

المجاهدين الذين هم في أعلى رتبة

من البدار إلى الله تبارك وتعالى،

أشاد بهم عز وجل وبحالهم ليقيم

بهم نفوس المتخلفين عن الهجرة،

وهم الذين فتنتهم الكفار - إلى

الحصول في هذه المرتبة،

«السَّيِّئَةُ»: الكفر وما اشتمل عليه،

ويدخل في ذلك المعاصي من

المؤمنين مع الأعمال الصالحة

واجتناب الكبائر، وفي قوله عز

وجل: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ﴾ حذف

مضاف تقديره: ثواب أحسن الذي

كانوا يعملون.

٨ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

وقوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ الآية.

رُوي عن قتادة أنها نزلت في

سعد بن أبي وقاص، وذلك أنه

هاجر، فحلفت أمه ألا تستظلل
 يظلل حتى يرجع إليها ويكفر
 بمحمد - ﷺ - ، فلج هو في
 هجرته، ونزلت الآية. وقيل: بل
 نزلت في عياش بن أبي ربيعة،
 وذلك أنه اعتراه في دينه نحو من
 هذا؛ إذ خدعه أبو جهل لعنه الله
 عليه وردّه إلى أمه... الحديث
 في كتاب السيرة. ولا مرية أنها
 نزلت فيمن كان من المؤمنين بمكة
 يشقى بجهد أبويه في شأن
 الإسلام والهجرة، فكأن القصد
 بهذه الآية النهي عن طاعة الأبوين
 في مثل هذا الأمر العظيم، ولما
 كان برّ الوالدين وطاعتها من
 الأمور التي قررتها الشريعة
 وأكدها، وكان من الأمر القوي
 الملزم عندهم، قدم تعالى عن
 النهي عن طاعتها في
 الشرك بالله قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ
 بِوَالِدَيْهِ حَسَنًا﴾، على معنى: إنا
 لا نحل عقوق الوالدين، لكننا
 لا نسلط ذلك على طاعة الله
 تعالى، لا سيما في معنى الإيمان
 والكفر.

وقوله: ﴿حَسَنًا﴾ يحتمل أن
 ينتصب على المفعول، وفي ذلك
 تجوز، ويسهله كونه عامًا لمعان،
 كما تقول: وصيتك خيرًا،
 وأوصيتك شرًا، عبرت بذلك عن
 جملة ما قلت له، وَحَسَنَ ذَلِكَ
 دُونَ حَرْفِ الْجَزْ كَوْنُ حَرْفِ الْجَزْ
 فِي قَوْلِهِ: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾؛ لَأَنَّ
 الْمَعْنَى: وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِالْحَسَنِ
 فِي فِعْلِهِ مَعَ وَالِدَيْهِ، وَنظِيرُ هَذَا
 قَوْلُ الشَّاعِر:

عَجِبْتُ مِنْ دَهْمَاءٍ إِذْ تَشْكُونَا
 وَمِنْ أَبِي دَهْمَاءٍ إِذْ يُوصِيْنَا
 خَيْرَ أَبْهَاءِ كَأَنَّا جَافُونَا
 ويحتمل أن يكون المفعول الثاني
 في قوله: ﴿بِوَالِدَيْهِ﴾، وينتصب
 ﴿حَسَنًا﴾ بفعل مضمّر تقديره:
 يحسن حسنًا، وينتصب انتصاب
 المصدر، وقرأ عيسى والجحدري:
 ﴿حَسَنًا﴾ بفتحتين، وقال
 الجحدري: في الإمام مكتوب:
 «بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا»، قال أبو حاتم:
 يعني كالأحقاف، وقال التغلبي:
 في مصحف أبي بن كعب
 رضي الله عنه: ﴿إِحْسَانًا﴾.
 وقوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ﴾ وعيد
 في طاعة الوالدين في معنى
 الكفر.

ثم كرّر تعالى التمثيل بحالة
 المؤمنين ليحرّك النفوس إلى نيل
 مراتبهم، وقوله تعالى: ﴿لَنَدْرِيَنَّهُمْ فِي
 الْأَعْيُنِ﴾ مبالغة، على معنى:
 الذين هم في نهاية الصلاح وأبعد
 غاياته، وإذا تحصّل للمؤمنين هذا
 الحكم تحصل ثمره، وجزاؤه هو
 الجنة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ النَّاسِ﴾ الآية
 إلى قوله: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ﴾،
 نزلت في قوم من المسلمين كانوا
 بمكة مختلفين بإسلامهم، قال ابن
 عباس رضي الله عنهما: فلما خرج
 كفار قريش إلى بدر أخرجوا مع
 أنفسهم طائفة من هؤلاء، فأصيب
 بعضهم، فقال المسلمون: كانوا
 أصحابنا وأكروها فاستغفروا لهم،
 فنزلت: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْكَاذِبَةُ

ظَالِمِينَ أَتَيْهِمْ﴾ الآية، قال: فكتب
 المسلمون لمن بقي بمكة هذه
 الآية، وألّا عذّر لهم، فخرجوا
 فلحقهم المشركون فأعطوهم الفتنة
 وردّوهم إلى مكة، فكتب
 المسلمون إليهم بذلك فحزنوا
 ويشوا من كل خير، ثم نزلت
 فيهم: ﴿وَيَوْمَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا
 بِاللَّهِ﴾، فكتب المسلمون إليهم
 بذلك، وأن الله تعالى قد جعل
 لكم مخرجًا فخرجوا، فلحقهم
 المشركون فقاتلوهم، فنجا من
 نجا، وقُتل من قُتل.

وقال ابن زيد: نزل قوله تعالى:
 ﴿جَمَلٌ فِتْنَةٌ لِلنَّاسِ﴾ في منافقين
 كفروا لما أودوا.

وقوله تعالى: ﴿فِتْنَةٌ لِلنَّاسِ
 كَذَّابٌ لِلَّهِ﴾ أي: صعب عليه
 أذى الناس حين صدّوه، وكان
 حقه ألا يلتفت إليه، وأن يصبر
 عليه في جنب نجاته من عذاب الله
 تعالى. ثم أزال تعالى موضع
 تعلّقهم ومغالطتهم إن جاء نضر،
 ثم قرّهم على علم الله تعالى بما
 في صدورهم، أي: لو كان يقينًا
 تامًا وإسلامًا خالصًا لما توقّفوا
 ساعة، ولركبوا كل هول إلى
 هجرتهم وراء نبيهم.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ
 آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنْفِقِينَ﴾ تفسيره
 على حدّ ما تقدّم في نظيره.

وهنا انتهى المدني من هذه
 السورة.

فَأَحْسِنُوا وَأَصْحَابُ السِّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِذْ هَبَسَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكَُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَأَبِلُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ رَبًّا قَابَظًا وَعِنْدَ اللَّهِ الرَّزْقُ وَأَعْبُدُوهُ وَأَشْكُرُوا لِلَّهِ الَّذِي تَرْجِعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ كَذِبَ أَمْسِرٍ مِّن بَيْنِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُنِيِّ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَإِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ يَرِئُوا فِي الْأَرْضِ فَأَنْظِرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقَدَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنشَأَ مَعْجِرَاتٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُبَايِعُونَ اللَّهَ وَلِقَائِهِ أَوْ لِيَكُم بِمِثْوَاٍ مِّن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾

أَتَقَالِمِمْ ﴿١٥﴾ يريد: ما يلحقهم من أحوالهم وأتباعهم؛ فإنه يلحق بكل داعٍ إلى ضلالة كُفِّلَ منها حسب الحديث المشهور، «أَيُّمًا دَاعٍ دَعَا إِلَى هُدًى فَاتَّبَعَ عَلَيْهِ فَلَهُ مِثْلُ أَجُورٍ مِّن اتَّبَعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِّن أَجْرِهِمْ شَيْئًا، وَأَيُّمًا دَاعٍ إِلَى ضَلَالَةٍ...» الحديث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما كانت مع أفعالهم لكونها بسبب غيرهم وعن غير كفر تلبسوه، فَرَّقَ بينها وبين أفعالهم، ولم ينسبها إلى غيرها، بل جعلها في رتبة أخرى فقط، فهم فيها إنما يَزْرُونَ وَرَزَرُوا أَنفُسَهُمْ، وقد يترتب حمل أفعال الغير بما ورد عن النبي ﷺ: «فَإِن لَمْ يَبْقَ لِلظَّالِمِ أَحَدٌ مِّن سِيئَاتِهِ الْمَظْلُومِ فَاطْرَحَ فَطْرَحَ عَلَيْهِ». وقوله تعالى: «وَلَيْسَتَنَّ» على جهة التوبيخ والتفريع، لا على جهة الاستفهام والاستعلام، و«يَقْتَرُونَ» معناه: يختلقون من الكفر ودغوى صاحبة والولد وغير ذلك لله عز وجل.

وقوله تعالى: «وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا» الآية. قصة فيها تسلية لمحمد ﷺ عما تضمنته الآيات فيها من تعنت قومه، وفتنتهم للمؤمنين وغير ذلك، وفيها وعيد لهم بتمثيل أمرهم بأمر قوم نوح، والروا في قوله: «وَلَقَدْ» عاطفة جملة كلام على جملة كلام، والقسم فيها بعيد. وقوله تعالى:

﴿١٢﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: رُوي أن قائل هذه المقالة الوليد بن المغيرة، وقيل: بل كانت شائعة من كفار قريش، قالوا لأتباع النبي ﷺ: ادخلوا في أمرنا، وأقروا بالهتنا واعبدوها، ونحن ليقيننا أنه لا بعث بعد الموت ولا رجوع نضمن لكم خطاياكم، ونحملها عنكم فيما دعوناكم إليه إن كان في ذلك درك كما تزعمون أنتم، وقولهم: «وَلَتَحْتَلَّ» إخبار أنهم يحملون خطاياهم على جهة التشبيه بالنقل، ولكنهم أخرجوه في صيغة الأمر لأنها أوجب وأشد تأكيداً في نفس السامع من المجازات، وهذا نحو قول الشاعر:

فَقُلْتُ إِذْ عَيَّ وَأَذْعُ فَإِنِ أُنْدَى
لِصَوْتِ أَنْ يُنَادِي دَاعِيَانِ
ولكونه خيراً حَسُنَ تكذيبهم فيه، فأخبر الله عز وجل أن جميع ذلك باطل، وأنهم لو فعلوه لم يَتَحَمَّلْ عن أحد من هؤلاء المغترين بهم شيء من خطاياهم التي تختص به.

وقرأ الجمهور: «وَلَتَحْتَلَّ» بجزم اللام، وقرأ عيسى ونوح القاري: «وَلَتَحْتَمِلْ» بكسر اللام. وقرأ داود بن أبي هند: «مِن حَظِيَّتِهِمْ» بكسر الياء وفتح الطاء، وحكى عنه أبو عمرو أنه قرأ: «مِن حَظِيَّتَيْهِمْ» بكسر الطاء وهمزة وتاء بعد الألف. وقال مجاهد: الحمل هنا من الحَمَالَةِ لا من الحَمَلِ على الظهر.

ثم أخبر تعالى عن أولئك الكفرة أنهم يحملون أفعالهم وأفعالاً مع أفعالهم، أي: أفعالاً من كفرهم الذي اخترعوه ويتلبسون به، «وَأَتَقَالِمِمْ

﴿أَرْسَلْنَا﴾، ﴿فَلَيْتَ﴾، هذا العطف بالفاء يقتضي ظاهره أنه لبث هذه المدة رسولاً يدعو، وقد يحتمل أن تكون المدة المذكورة مدة إقامته، من لدن مولده إلى غرق قومه، وأما على التأويل الأول فاختلف في سنه التي بُعث عندها - فقيل: أربعون، وقيل: ثمانون، وقال عون بن أبي شذاد: ثلاثمائة وخمسون، ولذلك يحتمل أن تكون وفاته عليه السلام عند غرق قومه بعد ذلك بتيسير، وقد روي أنه عمّر بعد ذلك ثلاثمائة وخمسين عاماً، وأنه عاش ألف سنة وستمائة سنة وخمسين سنة. وقوله تبارك وتعالى: «فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ» يقتضي أنه أخذ قومه فقط، وقد اختلف في ذلك - فقالت فرقة: إنما غرق في الطوفان طائفة من الأرض وهي المختصة بقوم نوح، وقالت

طائفة - هي الجمهور - : إنما غرقت المعمورة كلها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو ظاهر الأمر؛ لاتخاذ السفينة، ولبعثه الطير ترتاد زوال الماء، وغير ذلك من الدلائل، وبقي أن يعترض هذا بأن يقال: كيف غرق الجميع والرسالة إلى البعض؟ فالوجه في ذلك أن يقال: إن اختصاص نبي بأمة ليس هو بالأبدي غيرها، ولا يدعوها إلى توحيد الله تعالى، وإنما هو بالأبدي يأخذ بقتال غيرها، ولا يبت العبادة فيهم، ولم يكن الناس يومئذ كثيرين بحكم القرب من آدم عليه السلام، فلا محالة أن دعاءه إلى توحيد الله تعالى قد كان بلغ الكل، فالتهم الفرق لإعراضهم وتماديهم، و«الطوفان»: العظيم الطامي، ويقال ذلك لكل طام خرج عن العادة من ماء أو نار أو موت، ومنه قول الشاعر:

أَفْتَأَهُمْ طُوفَانٌ مَوْتٍ جَارِفٍ

وطوفان وزنه فعلان بناء مبالغة من: طاف يطوف إذا عمَّ من كل جهة، ولكنه كثر استعماله في الماء خاصة، وقوله تعالى: «وَهُمْ

ظَلِمُونَ» يريد: بالشرك.

و«وَأَسْحَبَ السَّيْفَةَ» تقدم في غير هذه السورة الخلاف في عددهم، وهم بثوه وقوم آمنوا، والضمير في قوله: «وَجَعَلْنَاهَا» يحتمل أن يعود على السفينة، و«الآية» هنا العبرة والعلامة على قدرة الله تبارك وتعالى في شدة بطشه، قال قتادة: أبقاها آية على الجودي.

﴿١٦﴾ - تفسير قوله عز وجل:

يجوز أن يكون ﴿إِبْرَهِيمَ﴾ معطوفاً على ﴿شُجَّ﴾ ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير في ﴿فَأَنبِئْنَهُ﴾، ويجوز أن ينصبه فعل تقديره: واذكر إبراهيم. وهذه القصة أيضاً تمثيل لقريش، وكان نمرود وأهل مدينته عبدة أصنام، فدعاهم إبراهيم عليه السلام إلى توحيد الله تعالى وعبادته، ثم قرر لهم ما هم عليه من الضلال.

وقرأ جمهور الناس: «وَتَخَلَّفُونَ إِنْكَارًا»، وقرأ ابن الزبير، وفضيل: «إِنْكَارًا» على وزن (فعل)، وهو مصدر كالكذب والضحك ونحوه، واختلف في معنى «وَتَخَلَّفُونَ» - فقيل: هو نخت الأصنام وخلقها، سماها إِنْكَارًا توسعاً من حيث يُفترى بها الإفك في أنها آلهة، وقال مجاهد: هو اختلاق الكذب في أمر الأوثان، وغير ذلك. وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي، وعون العقبلي، وقاتدة، وابن أبي ليلى: «وَتَخَلَّفُونَ إِنْكَارًا» بفتح الحاء وشد اللام وفتحها، و«الإفك» - على هذه القراءة - الكذب.

ثم وقفهم على جهة الاحتجاج عليهم بأمر يفهمه عامتهم وخاصتهم، وهو أمر الرزق، فقرّر أن الأصنام لا ترزق، وأمر الخير عند الله تبارك وتعالى، وخُصص الرزق لمكانته من الخلق، فهو خير يدل على جنسه كله، ويقال: شكرت لك، وشكرتُك، بمعنى واحد. ثم أخبرهم بالمعاد والحشر إليه.

﴿١٧﴾ - تفسير قوله عز وجل:

في قوله تعالى: «ذَٰلِكَ نَكْذِبُ» الآية... وعيد، أي: قد كذب غيركم وعدب، وإنما على الرسول البلاغ، وكل أحد - مع ذلك - مأخوذ بعمله.

وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - بخلاف عنه -: «أَوَلَمْ تَرَوْا» بالياء، وقرأ الباقون: «أَوَلَمْ يَرَوْا» بالياء، الأولى على المخاطبة، والثانية على الحكاية عن الغائب، وقرأ الجمهور: «يُنْبِئِي»، وقرأ الزبير، وعيسى، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: «يُنْبِئُ».

وهذه الإحالات على ما يظهر على الإخبار من إحياء الأرض والنبات وإعادته ونحو ذلك مما هو دليل على البعث من القبور والحشر، ويحتمل أن يريد: أو لم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله تبارك وتعالى الأجسام بعد الموت، وهذا تأويل قتادة. وقال الربيع بن أنس: المعنى: كيف يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده إلى أحوال آخر حتى إلى التراب. وقال مقاتل: الخلق في هذه الآية الليل والنهار.

ثم أمر الله تعالى نبيه - ويحتمل أن يكون محمداً إن كان في قصة إبراهيم عليهما الصلاة والسلام اعتراض بين كلامين - بأن يأمرهم - على جهة الاحتجاج - بالسير في الأرض، والنظر في كل قطر، وفي كل أمة قديماً وحديثاً، فإن ذلك يُوجد ألا خالق إلا الله تبارك وتعالى، ولا مبتدئاً بالخلق سواه، ثم ساق - على جهة الخبر - أن الله

تعالى هو المبتدئ لنشأة القيام من القبور.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: **«النشأة»** على وزن (الفعالة)، وهي قراءة الأعرج، وهذا كما تقول: رأفته ورأفته، وقرأ الباقون: **«النشأة»** على وزن (الفعلة)، وقرأ الزهري: **«النشأة»** بشين مشددة في جميع القرآن. والبعث من القبور يقوم دليل العقل على جوازه، وأخبرت الشرائع بوقوعه ووجوده.

(٢١) - (٢٢) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: يُبَسَّر من يشاء لأعمال من حق عليه العذاب، ويُبَسَّر من يشاء لأعمال من سبقت له السعادة، فيتعلق الثواب والعقاب بالاكتساب المقترن بالاختراع الذي لله تبارك وتعالى في أعمال العبيد. ثم أخبر تعالى بأنه إليه المنقلب، وأن البشر ليس بمعجز ولا مُفَلَّت في الأرض ولا في السماء. ويحتمل أن يريد السماء الهواة علوًا، أي: ليس للإنسان حيلة صعد أو نزل، حكى نحوه الزهراوي. ويحتمل أن يريد السماء المعروفة، أي: لستم بمعجزين في الأرض ولو كنتم في السماء، وقال ابن زيد: معناه: ولا من في السماء مُعْجَزٌ إن عَصَى، ونظروه - على هذا - بقول حسان بن ثابت:

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ اللَّهِ مِنْكُمْ
وَيَسُدُّهُ وَيَنْصُرُهُ سِوَاهُ؟
والتأويل الأوسط أحسنها، ونحوه قول الأعشى:

وَلَوْ كُنْتُ فِي حُبِّ ثَمَانِينَ قَامَةً
وَرُفِيتَ أَسْبَابَ السَّمَاءِ بِسَلْمٍ
لَيْسْتَ ذَرِيَّةَ الْقَوْلِ حَتَّى تَهْرَهُ
وَتَعْلَمَ أَنِّي عَنْكَ لَسْتُ بِمَلْجَمٍ

والسوليُّ أخصُّ من النصير. وقرأ يحيى بن القعقاع، وابن الحرث: **«ييسوا»** بغير همز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ذم الله تعالى قوماً هانوا عليه فقال: **«أولئك ييسوا»** رَحِيحٌ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما تقدم من قوله تعالى: **«أولم يروا»** إلى هذه الآية يحتمل أن يكون خطاباً لمحمد ﷺ، ويكون اعتراضاً في قصة إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويحتمل أن

يكون خطاباً لإبراهيم ومحاورة لقومه، وعند آخر ذلك ذكر جواب قومه.

(٢٣) - (٢٤) تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: **«جواب»** بالنصب، وقرأ الحسن: **«جواب»** بالرفع، وكذلك سالم الأفطس. وأخبر الله تعالى عنهم أنهم لما بين إبراهيم عليه السلام الحجج، وأوضح أمر الدين، رجعوا إلى الغلبة، وعدلوا عن طريق الاحتجاج حين لم يكن لهم به قبيل، فتأمروا في قتله وتحريقه بالثار، وأنفذوا أمر تحريقه حسبما قد أفيض في غير هذا الموضوع، وأنجاه الله تعالى من نارهم، وجعلها عليه برداً وسلاماً، قال كعب الأحبار: لم يحرق بالثار إلا الحبل الذي أوثقوه به، وجعل ذلك آية وعبرة، ودليلاً على

فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَجَبَهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم مِّبَعْضًا وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ نَّصِيرٍ ﴿٢٤﴾ فَمَنْ لَهُ لُطْفٌ وَقَالَ رَبِّي مُهَاجِرٌ إِلَيَّ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٥﴾ وَبَيْنَا لَهُ إِسْحَاقُ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآمَنَّا بِآيَاتِهِ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْطَوَّا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الْفٰحِشَةُ مَا سَفَقَكُمْ بِهِمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ الْعٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ أَيُّكُمْ لَأَنْتَوْنَ الرِّجَالُ وَتَقَطَّعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرني عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٢٩﴾

٣٩٩

وحدانيته لمن شرح صدره وتسره للإيمان، أي: هذا الصنف ينتفع بالآية، والكفار هي عليهم عني وإن كانت في نفسها آية لكل.

ثم ذكر تعالى أن إبراهيم قردهم على أن اتخذهم الأوثان والأنصاب إنما كان اتباعاً من بعضهم لبعض، وحفظاً لموداتهم ومحباتهم الدنياوية، وأنهم يوم القيامة يجحد بعضهم بعضاً ويتلاعنون؛ لأن توأدهم كان على غير تقوى، **«وَالْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ»**.

وقرأ عاصم - في رواية الأعمش عن أبي بكر عنه -: **«مودة»** بالرفع **«بينكم»** بالخفض، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم - في رواية أبي بكر - وأبو عمرو - في رواية أبي زيد -: **«مودة بينكم»** بالتسوين

يتعدى بالباء وباللام، والقائل ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ﴾ هو إبراهيم عليه السلام، قاله قتادة، والتخعي. وقالت فرقة: هو لوط عليه السلام.

ومما صحَّ من القصص أن إبراهيم ولوطاً هاجرا من قريتهما «كوثي» وهي في سواد الكوفة من أرض بابل إلى بلاد الشام، وفلسطين وغيرها، قال ابن جريج: هاجرا إلى حران، ثم أمرا بعود إلى الشام، وفي هذه الهجرة كانت سارة في صحبة إبراهيم، واعتراها أمر الملك. و«المهاجر»: النازع عن الأمر، وهي في عرف الشرع من ترك وطنه رغبة في رضی الله تعالى، وقد ذهب بهذا الاسم أصحاب محمد ﷺ قبل الفتح. وقوله: ﴿الْعَزِيزُ الْمَكِيدُ﴾ مع الهجرة إليه صفتان بليغتان تقتضي استحقاق التوكُّل عليه. وفي قوله: ﴿إِنَّ رَبِّي﴾ حذف مضاف، تقديره: إلى رضی رَبِّي، أو نحو هذا.

وإسحق بن إبراهيم هو الذي بُشِّر به، وِبُشِّر يعقوب من ورائه، وهو ولد إسحق، و«الكتب» هو اسم جنس، أي: جعل الله تعالى في ذرية إبراهيم عليه السلام جميع الكتب المنزلة: التوراة والإنجيل والزيور والفرقان، وعيسى عليه السلام من ذريته، وقوله: ﴿أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا﴾ يريد: في حياته بحيث أدرك ذلك وسُرَّ به، والأجر الذي آتاه الله تعالى العافية من النار، ومن الملك الجائر، والعمل الصالح، والشئ الحسن. قاله مجاهد. وأنَّ كل أمة تتولاه، قاله ابن جريج. والولد الذي قرَّت به

حيث افتراق الزمان والمكان، ولو كان لواحد منهما لم يجز ذلك، تقول: «رأيت زيدا أمس في السوق»، ولا تقول: «رأيت زيدا أمس البارحة»؛ إلا أن يكون أحد الطرفين جزءاً للآخر، تقول: «رأيت زيدا أمس عشية». ويجوز أن يتصب ﴿بَيْنَكُمْ﴾ على أنه صفة «المودة»، وهنا محذوف مقدر، تقديره: «مودة ثابتة بينكم»، وفي الظرف ضمير عائذ على «مودة»، لما حذف «ثابتة» استقر الضمير في الظرف نفسه. وقوله: ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ظرف في موضع الحال من الضمير الكائن في «بَيْنَكُمْ» بعد حذف «ثابتة»، وهذه الحال متعلقة بـ «مودة»، وجاز تعلقها بها وهي قد وصفت لأن معنى الفعل فيها، وإن وصفت فلا يمتنع أن يعمل معنى الفعل إلا في المفعول، فأما في الظرف وفي الحال فيعمل، قال مكسي: ويجوز أن يكون ﴿فِي الْحَيَاةِ﴾ صفة ثانية لـ «مودة»، ويكون فيها مقدر «مستقرة»، وفيها ضمير ثانٍ عائذ إلى «مودة»، فالتقدير - على هذا - مودة بينكم مستقرة في الحياة الدنيا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويصح أن يكون قوله: «مودة» في قراءة من نصب مفعولاً ثانياً بقوله: ﴿أَتَّخِذْتُمْ﴾، ويكون في ذلك اتساع، فتأمل. وفي مصحف أبي: «مودة بَيْنَهُمْ» بالهاء، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿إِنَّمَا مَوَدَّةٌ بَيْنَكُمْ﴾.

(١٦) - (١٧) تفسير قوله عز وجل:

﴿وَأَمِّنْ﴾ معناه: صدق، وهو فعل

والنُصْبِ، ونصب (بَيْنَ)، أما قراءة رفع «مودة» فوجهها أن تكون [مَا] بمعنى (الذي)، وفي قوله: ﴿أَتَّخِذْتُمْ﴾ ضمير عائذ على (الذي)، وهذا الضمير هو مفعول أول لـ «أَتَّخِذْتُمْ»، و«أَوْتِنَّا» مفعول ثانٍ، و«مودة» خبر «إن» في قراءة من نَوَّنَهَا، وفي قراءة من لم ينونها. ويجوز أن تكون [مَا] كإفّة، ولا يكون في قوله: ﴿أَتَّخِذْتُمْ﴾ ضمير، ويكون قوله: «أَوْتِنَّا» مفعولاً بقوله: ﴿أَتَّخِذْتُمْ﴾، ثم يقتصر عليه، ويُقدَّر الثاني: «إلهة» أو نحوه، كما يقدر في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْوَجِلَّ﴾ أي: «إلهاء» سَيِّئَاتِهِمْ عَصَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ»، ويكون قوله: «مودة» خبر ابتداءٍ تقديره: «هي مودة»، وفي هذه التأويلات مجازٌ واتساعٌ في تسمية الأوثان مودة، أو يكون ذلك على حذف مضاف.

وأما من نصب «مودة» فعلى أن [مَا] كافة، وعلى خُلُوْ «أَتَّخِذْتُمْ» من الضمير، والاختصار على المفعول الواحد كما تقدم، ويكون نصب «المودة» على المفعول من أجله.

ومن أضاف «المودة» إلى «البَيْنِ» في القراءتين بالنصب والرفع فقد تجوز في ذلك وأجرى الظرف مجرى الأسماء، ومن نصب «بَيْنَكُمْ» في القراءتين - النصب والرفع - في «مودة» فكذلك يحتمل أن يتصب انتصاب الظروف، ويكون معلقاً بـ «مودة»، وكذلك ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ ظرف أيضاً متعلق بـ «مودة»، وهو مصدرٌ عمل في ظرفين من

العين بحسب طاعة الله تعالى، قاله الحسن. ثم أخبر عنه أنه في الآخرة في عداد الصالحين الذين نالوا رضى الله تبارك وتعالى، وفازوا برحمته وكرامته العليا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْطًا﴾ نصب بفعل مضمر، تقديره: واذكر لوطاً، و﴿الْفَجْحَةَ﴾: إتيان الرجال في الأدبار، وهي معصية ابتدعها قوم لوط.

٢٩ - ٣٠ تفسير قوله عز وجل:

تقدم ذكر القراءات في ﴿آيَتِكُمْ﴾، واختلف الناس في «قَطْع السبيل» المشار إليه هنا - فقالت فرقة: كان قَطْع الطريق بالسلب فاشياً فيهم، وقال ابن زيد: كانوا يقطعون الطرق على الناس لطلب الفاحشة، فكانوا يحيفون. وقالت فرقة: بل أَرَادَ قَطْعَ سَبِيلِ النِّسْلِ فِي تَرْكِ النِّسَاءِ وَإِتْيَانِ الرِّجَالِ. وقالت فرقة: أراد أنهم يفتش الأحدثة عنهم يقطعون سبيل الناس عن قصدهم في التجارات وغيرها. و«التَّادِي»: المجلس الذي يجتمع الناس فيه، هو اسم جنس؛ لأن الأندية في المدن كثيرة، كأنه قال: وتأتون في اجتماعكم حيث اجتمعتم، واختلف الناس في ﴿الْمُنْكَرُ﴾ - فقالت فرقة: كانوا يخدّفون الناس بالحصى، ويستخفّون بالغريب والخاطر عليهم، وروته أم هانئ عن النبي ﷺ، وكانوا لا يربطهم دين ولا مروءة، وقال مجاهد، ومنصور: كانوا يأتون الرجال في مجالسهم وبعضهم يرى بعضاً،

وقال القاسم بن محمد: منكرهم أنهم كانوا يتفاعلون في مجالسهم، ذكره الزهراوي، وقال ابن عباس رضى الله عنهما: كان ينظرون في مجالسهم، وقال مجاهد أيضاً: كان من أمرهم لعب الحمام، وتطريف الأصابع بالحناء، والصفير، والحذف، ونبذ الحياء في جميع أمورهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد توجد هذه الأشياء في بعض عصاة أمة محمد ﷺ، فالنتاهي واجب.

فلما وقفهم لوط عليه السلام على هذه القبائح رجعوا إلى التكذيب واللجاج، أي: اثنا بالعذاب، فإن ذلك لا يكون، ولا تقدر عليه، وهم لم يقولوا هذا إلا وهم مصممون على اعتقاد كذبه، وليس يصح في الفطرة أن يكون معاند يقول هذا، [ثم استنصر لوط عليه السلام ربّه، فبعث عليهم ملائكة لعذابهم]، فجاءوا إبراهيم عليه السلام أولاً مبشرين بإسحق، ومبشرين بنصرة لوط على قومه، وكان لقاؤهم لإبراهيم على الصورة التي بنيت في غير هذا الموضع، فلفظة «البُشْرَى» - في هذا الموضع - تتضمن أمر إسحق ونصرة لوط عليهما السلام، فلما أخبروه بإهلاك القرية على ظلمهم

وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا إِن فِيهَا لَكُمْ لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا لَتَجِئِنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَكُنَّ مِنْ الْقَدِيرِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سُوِّتَ بِهِمْ وَصَافَ بِهِمْ ذُرِّيَّتًا وَقَالُوا لَا تَحْفَ وَلَا تُحْنِنَا إِنَّا مَنجُوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُنَّ مِنْ رَبِّكَ الْقَدِيرِينَ ﴿٣١﴾ إِنَّا مَنزُورٌ عَلَيْ أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَجِزَاءُ مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَقَدْ رَكَنَّا فِيهَا مُنْهَآءَ آيَةٍ بَيْنَهُ لِقَوْمٍ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوَّمُ عَمَلُهُ وَإِنَّا لَنَظُنُّوكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٤﴾ وَآرَجُوا الْيَوْمَ الْأَخِيرَ وَلَا تَعْتَوَىٰ فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٥﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَنِينًا ﴿٣٦﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ يُنَبِّئُكُمْ لَكُمْ مِنْ مَنَسِكِهِمْ وَزَكَّاتِهِمْ لَهُمُ الشَّيْطَانُ عَمَلٌ لَهُمْ فَصَدَّاهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٧﴾

أشفق إبراهيم عليه السلام على لوط عليه السلام، فعارضهم بحسب ما يأتي.

٢٩ - ٣٠ تفسير قوله عز وجل:

روى ابن عباس رضى الله عنهما أن إبراهيم عليه السلام لما علم من قبل الملائكة أن قوم لوط يُعذَّبون أشفق على المؤمنين فجادل الملائكة، وقال: أرايتم إن كان فيهم مائة بيت من المؤمنين أتركونهم؟ قالوا: ليس فيهم ذلك، فجعل ينحدر حتى انتهى إلى عشرة آيات، فقالت له الملائكة: ليس فيها عشرة، ولا خمسة، ولا ثلاثة، ولا اثنان، فحينئذ قال إبراهيم عليه السلام: إن فيها لوطاً، فراجعوه حينئذ بأننا نحن أعلم بمن فيها، أي: لا تخف أن يقع حيف على مؤمن.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿لَنْتَجِيَنَّ﴾ بفتح النون الوسطى وشد الجيم، و﴿مَنْجُوكَ﴾ بفتح النون وشد الجيم، وقرأ حمزة، والكسائي، ﴿لَنْتَجِيَنَّ﴾ بسكون النون وتخفيف الجيم، وقرأ ابن كثير، وعاصم في رواية أبي بكر: ﴿لَنْتَجِيَنَّ﴾ بالتشديد، و﴿مَنْجُوكَ﴾ بالتخفيف، وقرأت فرقة: ﴿لَنْتَجِيَنَّ﴾ بسكون النون الأخيرة من الكلمة، وهذا إنما يجيء على أنه خفف النون المشددة وهو يريداه.

وامرأة لوط هذه كانت كافرة، تبه على أضيافه، و«الغابري»: الباقي، ومعناه: من الغابرين في العذاب، وقالت فرقة: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ﴾ أي: ممن غبّر وبقِيَ من الناس وعسى في كفره، والضمير في ﴿يَوْمٍ﴾ في الموضوعين عائد على الأضياف الرُّسل، وذلك بخوفه من قومه عليهم، فلما أخبروه بما هم فيه فُرج عنه. وقرأ عامة القراء: ﴿يَوْمٍ﴾ بكسر السين، وقرأ عيسى وطلحة بضمها، و«الرُّجْزُ»: العذاب، وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ أي: عذابهم بسبب فسقهم، وكذلك كل أمة عذبها الله فإنما عذبها على الفسق والمعصية، ولكن بأن يقترون ذلك بالكفر الذي يوجب عذاب الآخرة. وقرأ أبو حيوة، والأعمش: ﴿يَفْسِقُونَ﴾ بكسر السين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ تَرَكْنَا يَنهًا﴾، أي: من خبرها وما بقي من آثارها، ذ [مِنْ] لابتداء الغاية، ويصح أن تكون للتبويض، على

أن تريد ما ترك من بقايا تلك القرية ومنظرها، والآية موقع العبرة، وعلامة القدرة، ومزدجر النفوس عن الوقوع في سخط الله تعالى.

وقرأ جمهور القراء: ﴿مَنْزُورُونَ﴾ بتخفيف الزاي، وقرأ ابن عامر: ﴿مَنْزُورُونَ﴾ بشد الزاي، وهي قراءة الحسن وعاصم - بخلاف عنهما - وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّا مُرْسِلُونَ﴾ بدل ﴿مَنْزُورُونَ﴾، وقرأ ابن محيصن: ﴿رُجْزًا﴾ بضم الراء.

٣٦ - ٣٧ - تفسير قوله عز وجل:

نصب ﴿شُعَيْبًا﴾ بفعل مضمر مع التقدير: وبعثنا أو أرسلنا، فأمر شُعَيْب عليه السلام بعبادة الله تعالى، والإيمان بالبعث واليوم الآخر، ومع الإيمان به يصح رجأؤه، وذهب أبو عبيدة إلى أن المعنى: وخافوا. و﴿تَمَنَّا﴾ معناه: تفسدون، يقال: عَمَّا يَغْتَو، وعامٌ يَمِيتُ، وعَيْيٌ يَغْتِي إذا أَسَد. وأهل مَدِين: قوم شعيب، وهذا على أنها اسم البلدة، وقيل: مَدِين: اسم القبيلة. وأصحاب الأيكة: غيرهم، وقيل: هم بعضهم، ومنهم، وذلك لأن معصيتهم في أمر الموازين والمكاييل كانت واحدة. و﴿أَرْجَفْنَا﴾: ميد الأرض بهم، وزلزلتها عليهم، وتداعبها بهم، وهذا نحو من الخسف، ومنه الإرجاف بالأخبار، و«الجُثُومُ» - في هذا الموضع - تشبيهه، أي: كان همودهم على الأرض كالجثوم الذي هو للطائر والحيوان، ومنه قول لبيد:

فَعَدَوْتُ فِي غَلَسِ الظَّلَامِ وَطَبِيْرُهُ
عُصْبٌ عَلَى خَصْبِ العِضَاءِ جُثُومٌ
وقوله: ﴿وَعَادًا﴾ منصوب بفعل مضمر، تقديره: واذكر عادًا، وقيل: هو معطوف على قوله: ﴿وَلَقَدْ تَمَنَّا الَّذِينَ مِن بَيْنِهِمْ﴾. وقرأ: ﴿وَتَمُودًا﴾ عاصم، وأبو عمرو، وابن وثاب. وقرأ: ﴿وَتَمُودًا﴾ بغير تنوين أبو جعفر، وشيبة، والحسن، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَعَادٍ وَتَمُودٍ﴾ بالخفض فيهما والتنوين.

ثم دلَّ عز وجل على ما تعطيه العبرة في بقايا مساكنهم ورسوم منازلهم ودنُو آثارهم. وقرأ الأعمش: ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مَسَاكِنُهُمْ﴾ دون [مِنْ]. وقوله تعالى: ﴿وَرَزَيْنَا لَهُمْ﴾ عطف جملة من الكلام على جملة، و«السَّيْلُ» هي طريق الإيمان بالله تعالى ورسله، ومنهج النجاة من النار، وقوله: ﴿مُسْتَبِيرِينَ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: معناه: لهم بصيرة في كفرهم، وإعجاب به، وإصرار عليه، فذمهم بذلك. وقيل: لهم بصيرة في أن الرسالة والآيات حق، ولكن كانوا - مع ذلك - يكفرون عادًا، ويردوهم الضلال إلى مجاهله ومتالفه، فيجري هذا مجرى قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بِهَا أَسْبَاقَتَهَا أَنفُسَهُمْ ظُلْمًا وَظُلْمًا﴾. وتزيين الشيطان هو بالوسواس ومناجاة ضمائر الناس، وتزيين الله تعالى الشيء هو بالاختراع، وخلق محبته والتلبيس به في نفس العبد.

وَقَرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰؤُلَاءِ كَانُوا سِيفِينَ ﴿٤١﴾
 بِالسِّيفِ قَاسَتَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا اسْقِيَةً ﴿٤٢﴾
 فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِمْ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ
 الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَعْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ
 وَلَكِنْ كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٣﴾
 أَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أُولِيَاءَ كَمَا تَكُنُّ أَعْيُنُكُمْ يُورِي
 أَخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْلَىٰ الْأَبْطُورِ لِبَيْتِ الْمَنكَرِ بَوِئِ
 لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعَوْنَ مِنْ
 دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٥﴾ وَتِلْكَ
 الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٦﴾
 خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ أَنْتَ مَا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ
 وَأَقْرَأَ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ
 وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٨﴾

ويشبه أن يكون أصحاب
 الرجفة في هذا النوع من
 العذاب، و«الغرق» كان
 في قوم نوح، وبه فسر ابن
 عباس، وفي فرعون
 حزيه، وبه فسر قتادة.
 وظلمهم أنفسهم كان
 بالكفر ووضع العبادة في
 غير موضعها، وقد
 المفعول على «يظلمون»
 للاهتمام، وهذا نحو:
 «إِيَّاكَ نَعْبُدُ» وغيره،
 وحكى الطبري أن رجفة
 قوم شعيب كانت صيحة
 أرجفتهم في هذا مع
 ثمود.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله
 عز وجل:

شبه تبارك وتعالى الكفار في
 عبادتهم الأصنام وبنائهم جميع
 أمورهم على ذلك بالعنكبوت التي
 تبني وتجتهد، وأمرها كله ضعيف
 متى مسته أدنى هامة أودهمته،
 وكذلك أمر أولئك وسعيهم مضحلاً
 لا قوة له ولا معتمد، ومن حديث
 ذكره النقاش: «العنكبوت شيطان
 مسخه الله تعالى فاقبلوه»، وروي عن
 علي رضي الله عنه أنه قال: «طهروا
 بيوتكم من نسج العنكبوت، فإن
 تركه يورث الفقر»، وقوله تعالى:
 «لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ» أي: يعلمون
 أن هذا مثلهم، وأن حالهم ونسبتهم
 من الحق هذه الحالة.

قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا
 يُدْعَوْنَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» ﴿٤٥﴾. قرأ أبو

﴿٤١﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

نصب «قَرُونَ» إما بفعل مضمر
 تقديره: اذكر، وإما بالعطف على ما
 تقدم، وقارون من بني إسرائيل،
 وهو الذي تقدمت قصته في الكنوز
 وفي البغي على موسى بن عمران
 عليه السلام، وفرعون مشهور،
 وهامان وزيره، وهو من القبط.
 و«البيئات»: المعجزات والآيات
 الواضحة، و«سيفين» معناه:
 مفلتين من أخذنا وعقابنا، وقيل:
 معناه: سابقين من أوليانا، وقيل:
 معناه: سابقين الأمم إلى الكفر،
 أي: قد كانت تلك عادة الأمم مع
 الرسل.

و«الذين أُرسل عليهم الحاصب» -
 قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم
 قوم لوط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 ويشبه أن يدخل قوم عاد في
 الحاصب؛ لأن تلك الرياح لا بد أنها
 كانت تحصبهم بأمر مؤذية.
 و«الحاصب»: هو العارض من ربح
 أو سحاب أو رمي بشيء، ومنه قول
 الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شِمَالَ الشَّامِ تَضْرِبُنَا
 بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ القَطَنِ مَنُثُورِ
 ومنه قول الأخطل:

تَزِيْمِي العِضَاءَ بِحَاصِبِ مِنْ تَلْجِهَا
 حَتَّى يَبِيْتَ عَلَى العِضَاءِ جُفَا لَأ
 و«الذين أخذتهم الصيحة» قوم
 ثمود، قاله ابن عباس، وقال قتادة:
 هم قوم شعيب، و«الْخَسْفُ» كان
 بقارون، قاله ابن عباس
 رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

عمر، وسلام: «يَعْلَمُ مَا»
 بالإدغام، وقرأ عامة القراء بالفك،
 وقرأ الجمهور: «تَدْعُونَ» بالياء من
 فوق، وقرأ أبو عمرو، وعاصم -
 بخلاف - «يَدْعُونَ» بالياء من
 تحت على الغيبة. فأما موضع [ما]
 من الإعراب، فقيل: معناه أن الله
 يعلم الذين يدعون من دونه من
 جميع الأشياء أن حالهم هذه، وأنهم
 أمر لا قدر له، وقيل: قوله: «إِنَّ
 اللَّهَ يَعْلَمُ» إخبار تام، وقوله: «وَهُوَ
 الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» متصل به،
 واعترض بين الكلامين «مَا يُدْعَوْنَ»
 من دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ، وذلك على
 هذا النحو من النظر، ويحتمل
 معنيين: أحدهما أن تكون [ما]
 نافية، أي: لستم تدعون شيئاً له بال
 ولا قدر، فيصلح أن يُسَمَى شيئاً،
 وفي هذا تعليق «يَعْلَمُ»، وفيه نظر،

والثاني أن تكون [ما] استفهاماً، كأنه قرّر - على جهة التوبيخ - على هذا المعبود من جميع الأشياء ما هو إذ لم يكن الله تعالى، أي: ليس لهم - على هذا التقدير - مقنع إليه، ف [مِنْ] على القول الأول والثالث للتبعيض المجرد، وعلى القول الوسط هي زائدة في الجحد، ومعناها التأكيد، وقال أبو علي: [ما] استفهام نصب بـ ﴿يَدْعُونَ﴾، ولا يجوز نصبها بـ ﴿يَسْتَلِمُ﴾، والجملة التي منها في موضع نصب بـ ﴿يَسْتَلِمُ﴾، والتقدير: إن الله تعالى يعلم أوثاناً تدعون من دونه أو غيرها لا يخفى ذلك عليه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ الْآمْتَلُ﴾ إشارة إلى هذا المثل ونحوه، و﴿تَضْرِبُهَا﴾ مأخوذ من الضرب، أي النوع، كما تقول: «هذان من ضرب واحد»، «وهذا ضرب هذا» أي قرينه وشبيهه، فكأن «ضرب الممثل» هو أن تجعل الأمر الممثل ضرب. وباقى الآية بين.

وقال جابر: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الْكَلْبِيُّونَ﴾: «العاقِل من عقل عن الله تعالى، وعمل بطاعته، وانتهى عن معصيته».

④ - ⑤ تفسير قوله عز وجل:

تَبَّ فِي ذِكْرِ خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَى أَمْرِ يُوقِعُ الذُّهْنَ عَلَى صِغَرِ قَدْرِ الْأَوْثَانِ وَكُلِّ مَعْبُودٍ مِنْ دُونِ اللَّهِ تَعَالَى، وقوله سبحانه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: بالواجب الثَّيْبَر، لا للعبث واللعب، بل ليدل على سلطانه، ويشبث شرائعه، ويضع الدلائل لأهلها، ويعم المنافع، إلى غير ذلك مما لا يحصى عداً.

ثم أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ بالخضوع لأمره، وتلاوة القرآن الذي أوحى إليه، وإقامة الصلاة، أي إدامتها والقيام بحدودها. ثم أخبر - حكماً منه - أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك عندي بأن المصلّي إذا كان على الواجب من الخشوع والإخبات وذكر الله تعالى وتوهم الوقوف بين يديه، وأن قلبه وإخلاصه مطّلع عليه مرقوب، صلحت لذلك نفسه وتدلّت، وخامرها ارتقاب الله تبارك وتعالى، فاطردت لذلك في أقواله وأفعاله وانتهى عن الفحشاء والمنكر، ولا يكذب يفتّر من ذلك حتى تُظَلِّهُ صلاة أخرى يزجج بها إلى أفضل حالة، وهذا معنى هذا الإخبار؛ لأن صلاة المؤمن هكذا ينبغي أن تكون. ورؤي عن بعض السلف أنه كان إذا قام إلى الصلاة ارتعد واضفرّ لونه، فكلم في ذلك فقال: إني واقف بين يدي الله تبارك وتعالى، وحق لي هذا مع ملوك الدنيا، فكيف مع ملك الملوك؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذه صلاة تُنهي - ولا بُد - عن الفحشاء والمنكر، ومن كانت صلته دائرة حول الإجزاء، لا خشوع فيها ولا تذكّر ولا فضائل، فذلك يترك صاحبها من منزلته حيث كان، فإن كان على طريقة معاص تبعده عن الله تعالى تمادى على بعده، وعلى هذا يُخرّج الحديث عن ابن عباس، وابن مسعود، والحسن، والأعمش، وهو قولهم: «من لم تنهه صلاته عن

الفحشاء والمنكر لم يزدد من الله إلا بُغداً»، وقد روي أن الحسن أرسله عن النبي ﷺ، وذلك غير صحيح السند، سمعتُ أبي رضي الله عنه يقول: فإذا قدرناه، ونظرنا معناه فغير جائز أن يقول: إن نفس صلاة العاصي تبعده من الله تعالى حتى كأنها معصية، وإنما يتخرج ذلك على أنها لا تؤثر في تقريبه من الله تعالى، بل تتركه في حاله ومعاصيه من الفحشاء، والمنكر البُغْد، فلم تزده الصلاة إلا تقرير ذلك البُغْد الذي كان سبيله، فكأنها بعدته حين لم تكف بعدته عن الله تعالى. وقيل لابن مسعود رضي الله عنه: إن فلاناً كثير الصلاة، فقال: إنها لا تنفع إلا من أطاعها. وقرأ الربيع بن أنس: ﴿إن الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر﴾. وقال ابن عمر رضي الله عنهما: الصلاة - هنا - القرآن، وقال حماد بن أبي سليمان، وابن جريج، والكلبي: إن الصلاة تنهى ما دمت فيها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عجمة، وأين هذا مما رواه أنس بن مالك؟ قال: كان فتى من الأنصار يصلي مع النبي ﷺ، ولا يدع شيئاً من الفواحش والسرقة إلا ركبها، فقيل ذلك للنبي ﷺ، فقال: «إن صلاته ستنهأه»، فلم يلبث أن تاب وصلحت حاله، فقال رسول الله ﷺ: «ألم أقل لكم؟»

وقوله تعالى: ﴿وَلْيَذَكِّرَنَّ اللَّهُ أَكْبَرُ﴾، قال ابن عباس، وأبو الدرداء، وسلمان، وابن مسعود، وأبو قرة رضي الله عن الصحابة

أجمعين: معناه: ولذِكُرُ الله إياكم أكبر من ذِكُرِكُمْ إِيَّاهُ، وقيل: معناه: ولذِكُرُ الله أكبر مع المداومة من الصلاة في النهي عن الفحشاء والمنكر، وقال ابن زيد، وقتادة: لِدِذِكُرُ الله أكبر من كل شيء، وقيل لسلمان: أي الأعمال أفضل؟ فقال: أما تقرأ القرآن: ﴿وَلِدِذِكُرُ الله أَكْبَرُ﴾، كأنه يخص عليه في هذين التأويلين الأخيرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعندي أن المعنى: ولذِكُرُ الله أكبر على الإطلاق، أي: هو الذي ينهى عن الفحشاء والمنكر، فالجزء الذي منه في الصلاة يفعل ذلك، وكذلك يفعل في غير الصلاة؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكِرِ الله مراقِبٍ له، وثواب ذلك الذِكرُ أن يذكره الله تعالى، كما في الحديث: «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأِ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرَ مِنْهُمْ». والحركات التي في الصلاة لا تأثير لها في نهي، والذِكرُ النافع هو مع العلم وإقبال القلب وتفريغهِ إلا من الله تعالى، وأما ما لا يتجاوز اللسان ففي رتبة أخرى، وذِكُرُ الله تعالى للعبد هو إفاضة الهدى ونور العلم عليه، وذلك ثمرة لذكر العبد ربّه. قال الله تبارك وتعالى: ﴿فَأَذْكُرِي لَأَذْكُرَنَّكُمْ﴾، وبقاى الآية ضربٌ من التوعّد والحث على المراقبة.

﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿إِلَّا﴾ على الاستثناء، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَلَا﴾ بفتح الهمزة وتخفيف اللام، واختلف

المفسرون في المراد بهذه الآية.

فقال ابن زيد: معناها: لا تجادلوا من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب، فكأنه قال: «أهل الكتاب المؤمنين»، ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي بالموافقة فيما حدثوكم به من أخبار أوائلكم، وغير ذلك، وقوله تعالى - على هذا التأويل -: ﴿إِلَّا الذِّكْرَ ظَلَمُوا﴾ يريد به من بقي على كفره منهم، كمن كفر وغدر من بني قريظة والنضير وغيرهم، فالآية - على هذا - مُحْكَمَةٌ غير منسوخة.

وقال مجاهد: المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى والباقون على دينهم. أمر الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوهم إلا بالأحسن: من الدعاء إلى الله تعالى، والتنبيه على آياته؛ رجاء إيجابتهم إلى الإيمان، لا على طريق الإغلاظ والمخاشنة، وقوله - على هذا التأويل -: ﴿إِلَّا الذِّكْرَ ظَلَمُوا يَنْتَهَمُ﴾ معناه: ظَلَمُواكُمْ، وإلَّا فَكُلُّهُمْ ظَلَمَةٌ عَلَى الإِطْلَاقِ، فَيَزَادُ بِهِ مَنْ لَمْ يُؤَدِّ جُزِيَّةً، وَنُصِبَ الْحَرْبَ، وَمَنْ قَالَ وَصَرَّحَ بِأَنَّ الله وَلَدًا، أَوْ لَهُ شَرِيكَ، أَوْ يَدُهُ مَغْلُولَةٌ، فَالآيَةُ - عَلَى هَذَا - مَنْسُوخَةٌ فِي مَهَادَنَةِ مَنْ لَمْ يَحَارِبَ، قَالَ قَتَادَةُ: هِيَ مَنْسُوخَةٌ بِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَتَنَلُوا الذِّكْرَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

﴿٤٦﴾ وَلَا تَجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْنَا بِاللَّغْوِ وَاللَّهْمُ وَجِدْوا مَنْ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَسْمَعُ مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخْطئه بِيَمِينِكَ إِذَا أَنْزَلْنَا الْمُنْظَرُونَ ﴿٤٨﴾ لَمْ يَكُنْ مِنْهُ آيَةٌ تَيَسَّرُ لِقَوْمٍ أَهْلِيكَ فِي صُدُورِ الذِّكْرِ أَوْ فَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا آيَاتُ عِنْدَ اللهِ وَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مُثَبِّتٌ ﴿٥٠﴾ أَوْ لَوْ كَفَيْهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُدَبِّرُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَالذِّكْرِ أَمْثُلاً بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾

٤٠٢

والذي يتوجه في معنى الآية إنما يتضح في معرفة الحال في وقت نزول الآية، وذلك أن السورة مكّية من بعد الآيات العشر الأول، ولم يكن في ذلك الوقت قتال مفروض، ولا طلب جزية ولا غير ذلك، وكانت اليهود بمكة وفيما جاورها، وربما وقع بينهم وبين المؤمنين جدال واحتجاج في أمر الدين وتكذيب، فأمر الله تعالى المؤمنين ألا يجادلوهم بالمحاجة إلا بالحسنى دعاء إلى الله تعالى وملاينة، ثم استثنى من ظلم منهم المؤمنين، إما بفعل وإما بقول، وإما بإذابة محمد ﷺ، وإما بإعلان كفر فاحش، كقول بعضهم: عزير ابن الله، ونحو هذا، فإن هذه الصفة استثنيت لأهل الإسلام معارضتها بالخروج معها عن التي هي أحسن،

ثم نُسخ هذا بعد بآية القتال والجزية . وهذا قول قتادة .

قوله تعالى: ﴿قُولُوا مَا مَكَآ﴾ الآية . قال أبو هريرة: كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية، فيفسرونها بالعربية للمسلمين، فقال رسول الله ﷺ: «لَا تُصَدِّقُوا أَهْلَ الْكِتَابِ وَلَا تَكْتُبُوهُمْ، وَقُولُوا: ﴿إِنَّمَا بِالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَحِدٌ وَنَحْنُ لَمْ نَسْتَلِمْ﴾» . وروى عبدالله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «لَا تَسْأَلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ عَنْ شَيْءٍ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَهْدُوكُمْ وَقَدْ ضَلُّوا، إِمَّا أَنْ تَكْتُبُوا بِحَقٍّ وَإِمَّا أَنْ تُصَدِّقُوا بِبَاطِلٍ» .

تقدم القول في الآية التي قبل هذه ما يتضمن نزول شرع وكتاب من الله تعالى على أنبيائه قبل محمد ﷺ، فحسن لذلك عطف ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ على ما في الضمن، أي: وكإِنزَالنا على من تقدّمك كذلك أنزلنا إليك الكتاب، و﴿الْكِتَابَ﴾: القرآن .

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنَتْهُمْ الْكُتُبَ﴾ يريد التوراة والإنجيل، أي: فالذين كانوا في عصر نزول الكتاب وأتوه حينئذ يؤمنون به، أي: كانوا مصدقين بهذا الكتاب الذي أنزلناه إليك، فالضمير في ﴿يَوْمَ﴾ عائد على القرآن . ثم أخبر عن معاصري محمد ﷺ أن منهم من يؤمن به . ولم يكونوا آمنوا بعد، ففي هذا الإخبار يغيب بينه الوجود بعد ذلك، ثم أتى على الجاحدين من أمة قد آمن سلفها في القديم وبعضها في الحديث، وحصل الجاحدون منهم

في أحسن رتبة من الضلال، وشبهه أن يُراد أيضاً في هذا الإنحاء كُفَّار قريش مع كُفَّار بني إسرائيل .

ثم بين تعالى الحجة على المُبطلين المرتابين، وأوضح أن ممَّا يُقَوِّي نزول هذا القرآن من عند الله تبارك وتعالى أن محمداً ﷺ جاء به في غاية الإعجاز والطول والتضمن للغيب وغير ذلك، وهو أمّي لا يقرأ ولا يكتب، ولا يتلو كتاباً، ولا يخط حرفاً، ولا سبيل له إلى التعلّم، فإنه لو كان ممن يقرأ لارتاب المُبطلون، ولكان لهم في ارتيابهم تعلق، وأما ارتيابهم مع وضوح هذه الحجة فظاهرٌ فساده . قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمداً ﷺ لا يخط ولا يقرأ كتاباً فنزلت هذه الآية، وذكر النقاش في تفسير هذه الآية عن الشعبي أنه قال: «ما مات النبي ﷺ حتى كتّب»، وأسند أيضاً حديثاً لأبي كَبِشَةَ السُّلُولِي، مُضْمَنُه أنه عليه الصلاة والسلام قرأ صحيفة لِعَيَّيْتَةَ بن حصن، وأخبر بمعناها .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله ضعيف، وقول الباجي رحمه الله منه .

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ إضرابٌ عن مُقَدَّر من الكلام يقتضي ما تقدّم، كأنه قال: «ليس الأمر كما حسبوا، بل هو . . .» ، وهذا الضمير يحتمل أن يعود على القرآن، ويؤيده أن في قراءة ابن مسعود: ﴿بَلْ هِيَ آيَاتٌ﴾، ويحتمل أن يعود على محمد ﷺ، ويؤيده قراءة من قرأ: ﴿بَلْ هُوَ آيَةٌ بَيِّنَةٌ﴾

على الأفراد وقال: المراد النبي ﷺ، ويحتمل أن يعود على أمر محمد ﷺ أنه لم يتل ولا خط، ويكل احتمال قالت فرقة، وكون هذا كله آيات - أي علامات في صدور العلماء من المؤمنين في أمر محمد ﷺ - يراد به مع النظر والاعتبار .

و﴿الظَّالِمُونَ﴾ و﴿الْمُطَلَبُونَ﴾ قيل: يعم لفظهما كلّ مكذب بمحمد ﷺ، ولكن معظم الإشارة بهما إلى قريش لأنهم الأهم، قاله مجاهد . وقال قتادة: ﴿الْمُطَلَبُونَ﴾: اليهود .

تفسير قوله عز وجل: ﴿الظَّالِمُونَ﴾ - ﴿الْمُطَلَبُونَ﴾ الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لقريش ولبعض اليهود؛ لأنهم كانوا يُتَلَمَّون قريشاً هذه الحجة؛ لم يأتكم بمثل ما جاء به موسى من العصا وغيرها . وقرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، وعلي بن نصر عن أبي عمرو: ﴿آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ﴾، وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم: ﴿آيَاتٌ﴾ فأمر الله تعالى نبيّه عليه الصلاة والسلام أن يعلمهم أن هذا الأمر بيد الله تبارك وتعالى لا يستنزله الاقتراح والتمني، وأنه بُعث نذيراً، ولم يؤمر بغير ذلك . وفي مصحف أبي: ﴿لَوْ مَا يَأْتِينَا بآيَاتٍ مِنْ رَبِّهِ قَلَّ إِنَّمَا الْآيَاتُ﴾ .

ثم احتج عليهم في طلبهم آية بأمر القرآن الذي هو أعظم الآيات، ومعجز للجن والإنس، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، ثم قرّر ما فيه من الرحمة والذكرى للمؤمنين، فقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ جواب لمن قال: ﴿لَوْ لَا أَنْزَلَ﴾ .

وَسَتَجِدُنَا بِالْعَذَابِ لَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ
وَلِيَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ
وَأَنْ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ
مِنْ قَوْفِهِمْ وَبَيْنَ يَدَيْهِمْ أَسْجُلُهُمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ
﴿٥٥﴾ يَجِبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ
﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ لِنَبِّأَنَّ الرَّجُوعَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ
ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُؤْتِيَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرًّا فَخْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ
صَدَّوْا وَعَلَىٰ رُءُوسِهِمْ بُتُوكُورٌ ﴿٥٩﴾ وَكَانَ مِنْ ذَائِقَةِ لَأَحْمِلُ
رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾ وَلَئِنْ
سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ
لَيَقُولنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَنْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ
عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ ﴿٦٢﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ
مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا
لَيَقُولنَّ اللَّهُ فُلُ الْحَمْدِ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾

عن الضحاك أن الأجل المسمى بهذه الآيات الآجال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف يرده النظر، والآجال لا محالة أجل مسمى، ولكن ليس هذا موضعا.

ثم توعدهم تبارك وتعالى بَعْدُ بعذاب الآخرة في قوله: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ﴾، كَرَّرَ فَعْلَهُمْ وَقَبَّحَهُ، وَأَخْبَرَ أَنَّ رِءَاءَهُمْ إِحَاطَةٌ بِهِمْ. وقال عكرمة - فيما حكى الطبري - أن جهنم ها هنا أراد بها البُخر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَنْشَأُهُمْ﴾ ظرف يعمل فيه قوله: ﴿مُحِيطَةٌ﴾. و﴿يَنْشَأُهُمْ﴾ معناه: يغطيهم من كل جهة من جهاتهم. وقرأ نافع، وعاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَيَقْرَأُ﴾، أي: ويقول الله. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَيَقْرَأُونَ﴾ بالنون، فإِذَا أَنْ تَكُونُ نون العظمة، أو نون الجماعة، جماعة الملائكة. وقرأ ابن مسعود: ﴿وَيُقَالُ﴾ بياء وألف، وهي قراءة ابن أبي عبله.

وقوله تعالى: ﴿ذُوقُوا﴾ توبيخ، وَيُسَبِّهُهُ مِنَ الْعَذَابِ بِالذُّوقِ وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ذُوقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، ومنه قول أبي سفيان: ﴿ذُوقْ عَقَقُ﴾، ونحو هذا

وحكى الطبري أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المؤمنين أتوا النبي ﷺ بكتب قد كتبوا فيها بعض ما يقول اليهود الذين أخبروهم بشيء من التوراة، فأنكر رسول الله ﷺ ذلك، قال: «كفى بهذا ضلالة، قوم رغبوا عما أتاهم به نبيهم إلى ما أتى به غيره»، ونزلت الآية بسببه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول أجرى مع نسق الآيات.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالاستناد إلى أمر الله تبارك وتعالى، وأن يجعله حسبه شهيداً وحاكماً بينه وبينهم بعلمه وتحصيله جميع أمورهم، وقوله: ﴿وَالْبَاطِلُ﴾ يريد: بالأصنام والأوثان وما يتبع أمرها من المعتقدات، والباطل هو أن يفعل فعل يُراد به أمر ما، وذلك الأمر لا يكون عن ذلك الفعل، والأصنام أريد بأمرها الأكل والآنبح في زعم عبّادها، وليس الأكل والأرجح إلا رفضها، فهي إذا باطل، وباقي الآية بين.

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ يريد كُفَّار قريش في قولهم: ﴿فَأَيُّنَا يَمَّا نُوَدِّعُنَا﴾ وغير ذلك من استعجالهم - على جهة التعجيز والتكذيب - بعذاب الله تعالى الذي توعدهم محمد ﷺ. ثم أخبر تعالى أنه يأتيهم بغتة، أي: فجأة، وهذا هو عذاب الدنيا، وهو الذي ظهر يوم بدر، وفي السنين السبع. ثم ذكر تعالى أن تأخره إنما هو بحسب الأجل المقدر السابق. وذكر المفسرون

كثير، وقوله: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أي: بما في أعمالكم من اكتسابكم.

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات نزلت في تحريض المؤمنين الذين كانوا بمكة على الهجرة، فأخبرهم تعالى بسعة أرضه، وأن البقاء في بقعة على أذى الكفار ليس بصواب، بل الصواب أن تلتمس عبادة الله تعالى في أرضه. وقال ابن جبير، وعطاء، ومجاهد: إن الأرض التي فيها الظلم والمنكر تترتب فيها هذه الآية، وتلزم الهجرة عنها إلى بلدٍ حق، وقاله مالك، وقال مطرف بن الشخير: قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي وَسِعَةٌ﴾ عدة بسعة الرزق في جميع الأرض.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وابن عامر، ﴿يَجِبَادِي﴾، بفتح الياء، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي

عمرو، وقرأ أبو حيوه:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةٌ﴾ بالتثنية
﴿الْمَوْتِ﴾ بالنصب.

ثم وعد المؤمنين
العاملين بسكنى الجنة
تحريضاً منه تعالى، وذكر
الجزء الذي ينالونه، وقرأ

جمهور القراء:
﴿لَتَبَوَّئَنَّهُمْ﴾ بالباء، أي:
لنثقلنهم ولنمكثنهم
ليدوموا فيها، و﴿عَرَفَا﴾

مفعول ثان؛ لأنه فعل
يتعدى إلى مفعولين. وقرأ
حمزة: ﴿لَتَبَوَّئَنَّهُمْ﴾، من
أثوى يُثوي، وهو مُعَدَى
ثَوَى بمعنى أقام، وهي
قراءة علي بن أبي طالب

رضي الله عنه، وابن مسعود،
والربيع بن خثيم، وابن وثاب،
وطلحة، وقرأها بعضهم بفتح الشاء
وتشديد الواو مُعَدَى بالتضعيف لا
بالهمزة، وقوله: ﴿عَرَفَا﴾ نصب
بإسقاط حرف الجر، والتقدير: في
عُرف. وقرأ يعقوب: ﴿لَتَبَوَّئَنَّهُمْ﴾
بالياء من تحت، وروي عن ابن
عمر: ﴿عُرَفَا﴾ بضم الغين والراء.

ثم وصفهم تعالى بالبصر والتوكل،
وهاتان جماعُ الخير كله، أي: الصبر
على الطاعات، وعن الشهوات.

﴿٦٠﴾ - ﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَكَايْنٌ﴾ بمعنى (كم)، وهذه
الآية تحريض على الهجرة؛ لأن
بعض المؤمنين فكر في الفقر والجوع
الذي يلحقه في الهجرة، وقالوا:
غربة في بلد ولا دار لنا فيه ولا عفار
ولا من يطعم، فمثل لهم بأكثر

الدواب التي تتقوت ولا تدخر ولا
تروى في رزقها، والمعنى: فهو
يرزقكم أنتم، ففضلوا طاعة الله
تعالى على كل شيء. وقوله تعالى:
﴿لَا تَحْمِلْ﴾ يجوز أن يريد: من
الحمّل، أي: لا تنقل ولا تنظر في
ادخاره، قاله أبو مجلز، ومجاهد،
وعلي بن الأقرم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والادخار ليس من خلق الموقنين،
وقد قال رسول الله ﷺ لابن عمر
رضي الله عنهما: «كيف بك إذا
بقيت في حثالة من الناس يخشون
رزق سنة بضعف اليقين»، ويجوز أن
يريد من الحمالة، أي: لا تتكفل
برزقها ولا تروى فيه.

ثم خاطب تعالى نبيه ﷺ في أمر
الكفار وإقامة الحجّة عليهم بأنهم إن
سألوا عن الأمور العظام التي هي
دلائل القدرة لم يكن لهم إلا التسليم
بأنها لله تعالى، و﴿يُوقَّحُونَ﴾
معناه: يصفون، ونبه تبارك وتعالى
على خلق السموات والأرض
وتسخير الكواكب، وذكر عظمتها،
ونبه تعالى على بسط الرزق وقدره
لقوم، وإنزال المطر من السماء،
وهذه عيّن كثيرة لمن تأمل بالنجاة
والمعتقد الأقوم، ثم أمر تعالى نبيه
محمداً ﷺ بحمده على جهة التوبيخ
لعقولهم، وحكم عليهم بأن أكثرهم
لا يعقلون ولا يبدو منهم نظر.

﴿٦٢﴾ - ﴿٦٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

وصف الله تعالى الدنيا في هذه
الآية بأنها لهو ولعب، أي: ما كان
منها لغير وجه الله تعالى؛ فإن ما
كان لله تعالى فهو من الآخرة، وأما

سورة العنكبوت

وَمَا هَذِهِ الْحَيَوةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي
الْفَلَكِ دَعَاُ اللهُ تَخْلِصِينَ لَهُ الَّذِينَ قَلَّمَا جَسَنَهُمْ إِلَى الْبِرِّ إِذَا
هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦١﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا ءَاتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَنَّوْا فُسُوقَ
يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِمَّا وَبِئْسَ خَطَفُ
النَّاسِ مِنْ حَوَالِهِمْ ؕ أَيُّ الْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِعِصْمَةِ اللَّهِ يُكَفِّرُونَ
﴿٦٣﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ أَقَرَّ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَأَكْتَبَ بِالْحَقِّ
لِمَآجَاهِ ؕ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَالَّذِينَ
جَاهَدُوا فِيْنَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٦٥﴾

سورة العنكبوت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
الَّذِينَ عَلِمُوا أَنَّهُمْ ﴿٦٠﴾ فِي آدَانِ الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ
عَلَيْهِمْ سَيَكْفِرونَ ﴿٦١﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ
مِنْ قَبْلِ وَمِنْ بَعْدِ وَيُؤَيِّدُ بِفِطْرِهِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٦٢﴾
يَنْصُرُ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٣﴾

٤٤

بسكونها، وكذلك قرأ نافع وعاصم:
﴿أَرْضِي﴾ ساكنة. وقوله تعالى:
﴿فَيَأْتِي﴾ منصوب بفعل مقدر يدل
عليه الظاهر، تقديره: «فَيَأْتِيْ اعْبُدُوا
فاعبدون»، على الاهتمام أيضاً في
التقدير.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةٌ
لِّلْمَوْتِ﴾ الآية، تحقير لأمر الدنيا
ومخاوفها، كأن بعض المؤمنين نظر
في عاقبة ما يلحقه في خروجه من
وطنه أنه يموت أو يجوع ونحو هذا،
فحقر الله تعالى شأن الدنيا، أي:
أنتم لا محالة ميتون ومحشورون
إلى الله تبارك وتعالى، فالبدار إلى
طاعة الله تعالى والهجرة إليه أولى ما
يمثل.

وقرأ الجمهور: ﴿تَرْجَعُونَ﴾ بالثاء
من فوق، ورويت عن عاصم بالياء
من تحت، وذكرها أبو حاتم عن أبي

أمر الدنيا التي هي زائدة على الضروري الذي به قوام العيش والقوة على الطاعات فإنما هو لهو ولعب، وتأمل ذلك في الملابس والمطاعم والمشارب والأقوال وغير ذلك.

وانظر إلى حاجة الغني والفقير في الأمور الضرورية فإنها واحدة، كالتنفس في الهواء، وسد الجوع، وستر العورة، وتوقّي الحر والبرد، وهذه كلها عظم أمر العيش.

و «الْحَيَوَانُ» والحياة بمعنى، وهو عند سيويه والخليل مصدر كالهيمن ونحوه، والمعنى: لا موت فيها، قاله مجاهد، وهو حسن. وأصله: حَيَّيَان، فأبدلت إحداهما واواً لاجتماع المثلين.

ثم وقفهم تعالى على حالهم في البحر عند الخوف العظيم، فإن كل بشر ينسى كل صنم وغيره، ويتمسك بالدعاء والرغبة إلى الله تبارك وتعالى، وقوله تعالى: «إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ» أي: يرجعون إلى ذكر أصنامهم وتعظيمها، وقوله: «يَكْفُرُوا» نصب بلام كني. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: «وَلِيَتَنَبَّأُوا» بكسر اللام، وقرأ ابن كثير، وحزمة، والكسائي: «وَلَتَتَمَتَّعُوا» بسكون اللام على صيغة الأمر التي هي للوعيد والتهديد، والواو - على هذا - عاطفة جملة كلام لا عاطفة فعلاً على فعل، وفي مصحف أبي بن كعب: «فَتَمَتَّمُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ»، وفي قراءة ابن مسعود: «فَلَسَوْفَ» باللام.

ثم عدّ تعالى على كفره قريش

نعمته عليهم في الحرم في أنه جعل لهم أمناً لا خوف فيه من أحوال العرب وعاداتهم وسوء أفعالهم، من القتل وأخذ الأموال ونحوه، وذلك هو «التَّخَطُّفُ» الذي كان الناس بسبيله، ثم قررهم - على جهة التوتيق - على إيمانهم بالباطل وكفرهم بالله ونعمته. وقرأ جمهور القراء: «يُؤَيِّنُونَ» بالياء من تحت، وكذلك «يَكْفُرُونَ»، وقرأهما بالتاء من فوق الحسن، وأبو عبد الرحمن.

﴿٦٨﴾ - ﴿٦٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

قررهم عز وجل على حال من افتري على الله كذباً أو كذب بآياته، وهذه كانت حالهم، وأعلمهم أنه لا أحد أظلم منه، وهذا في ضمنه وعيد شديد، ثم بين الوعيد أيضاً بالتقرير على أمر جهنم، والمثوى: موضع الإقامة، وألفاظ هذه الآيات في غاية الاقتضاب والإيجاز وجمع المعاني.

ثم ذكر تعالى حال أوليائه والمجاهدين فيه، وقرن ذلك بذكر الكفرة الظلمة لبيان تباين الحالين، وقوله تعالى: «فِيْنَا» معناه: في مرضاتنا وبغية ثوابنا. قال السدي وغيره: نزلت هذه الآية قبل فرض القتال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهي قبل الجهاد الثرفي، وإنما هو جهاد عام في دين الله تعالى وطلب رضائه. وقال الحسن: الآية في العبيد، وقال ابن عباس والحسن وإبراهيم بن أدهم: هي في الذين يعملون بما يعلمون، وقد قال النبي ﷺ: «من عجل بما علم علمه الله ما لم يعلم»، ونزع بعض

العلماء إلى قوله تعالى: «وَأَتَقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ اللَّهُ»، وقال بعض العلماء لعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه: «إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا»، وقال أبو سليمان الداراني: «ليس الجهاد في هذه الآية قتال العدو فقط، بل هو نصر الدين، والرّد على المبطلين، وقمع الظالمين، وعظّمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»، ومنه مجاهدة النفوس في طاعة الله تعالى، وهو الجهاد الأكبر، قاله الحسن وغيره، وفيه حديث عن النبي ﷺ: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»، وقال سفيان بن عيينة لابن المبارك: «إذا رأيت الناس قد اختلفوا فعليك بالمجاهدين وأهل الشغور، فإن الله تعالى يقول: «وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ»». وقال

الضحّاك: معنى الآية: والذين جاهدوا في الهجرة لنهديهم سبيل الثبوت على الإيمان، و«السبيل» هنا يحتمل أن يكن طرق الجنة ومسالكها، ويحتمل أن يكون سبيل الأعمال المؤدية إلى الجنة والعقائد الثبيرة. وقال يوسف ابن أسباط: «هي إصلاح الثبيرة في الأعمال، وحبّ التزيّد والتفهم، وهذا هو أن يجازي العبد على حسنه بازدياد حسنه، ويعلم بجديد من علم مقدم، وهي حال من رضي الله عنه». وياقي الآية وغد.

و «لَمَعَ» يحتمل أن تكون هنا اسماً؛ ولذلك دخلت عليها اللام

أذرعاً فهي من أدنى الأرض بالقياس إلى مكة، وهي التي ذكرها امرؤ القيس في قوله:

تَسْوَرْتُهَا مِنْ أذْرَعَاتِ وَأَهْلُهَا
بِشَرِبِ أَدْنَى دَارِهَا نَظَرَ عَالٍ
وإن كانت الوقعة بالجزيرة فهي أدنى بالقياس إلى أرض كسرى، وإن كانت بالأردن فهي أدنى إلى أرض الروم، قال أبو حاتم: «وَقُرِئَ فِي أَدْنَى»، وقرأ جمهور الناس: «عَلَيْهِمْ» بفتح اللام، كما يقال: «اخْتَلَبَ خَلْبًا لَكَ شَطْرُهُ»، وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما بسكونها، وهو مصدر أضيف إلى المفعول.

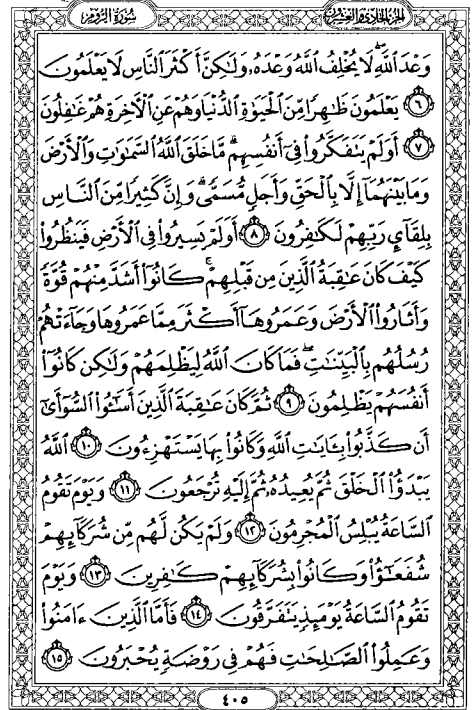
وروي في قصص هذه الآية عن ابن عباس - رضي الله عنهما - وغيره أن الكفار لما فرحوا بمكة بغلب الروم، بشر الله تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين بأن الروم سيغلبون في بضع سنين، أي: من الثلاثة إلى التسعة، على مشهور قول اللغويين، كأنه تبضع العشرة، أي: تقطيعها، وقال أبو عبيدة: من الثلاث إلى الخمس، وقوله مردود، فلما بشرهم بذلك خرج أبو بكر الصديق رضي الله عنه إلى المسجد، فقال لهم: «أَسْرُكُمْ أَنْ غَلِبَتِ الرُّومُ؟ فَإِنْ نَبِينَا أَخْبَرْنَا عَنْ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بضع سنين»، فقال له أُبَيُّ بْنُ خَلْفٍ وَأُمَيَّةُ أَخُوهُ - وقيل: أبو سفيان بن حرب -: تعال يا أبا قُصَيْبٍ - يعرضون بكنتيته بالبكر - فُلْتُنَا خَبْرٌ - أي نتراهن - في ذلك، فراهنهم أبو بكر، - قال قتادة: وذلك قبل أن يحزم القمار - وجعل الرهان خمس قلائص، والأجل ثلاث سنين، فأخبر النبي ﷺ بذلك، فقال

الجمهور: «غَلِبَتِ» بضم الغين. وقالوا: معنى الآية أنه طراً بمكة أن الملك كسرى هزم جيش ملك الروم، قال مجاهد: في الجزيرة، وهو موضع بين العراق والشام، وقال عكرمة: بأذرعاً، وهي بين بلاد العرب والشام، وقال مقاتل: بفلسطين والأردن، فلما طراً ذلك سُرَّ الكفار، فبشَّرَ الله تبارك وتعالى عباده بأن الروم سيغلبون في بضع سنين، وتكون الدولة لهم في الحرب.

وقرأ أبو سعيد الخدري، وعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومعاوية بن قرة، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «غَلِبَتِ» بفتح الغين واللام، وتأويل ذلك أن الذي طراً يوم بدر إنما كان أن الروم غَلِبَتِ، فعز ذلك على الكفار من قريش، وسُرَّ المسلمون، فبشَّرَ الله تبارك وتعالى عباده بأنهم سيغلبون أيضاً في بضع سنين، ذكر هذا التأويل أبو حاتم. والرواية الأولى، والقراءة بضم الغين أصح.

وأجمع الناس على «سَيَغْلِبُونَ» أنه بفتح الياء، يراد به الروم، وروي عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأ أيضاً: «سَيَغْلِبُونَ» بضم الياء، وفي هذه القراءة قلب المعنى الذي تظاهرت به الروايات.

و«أَدْنَى الْأَرْضِ» معناه: أقرب الأرض، فإن كانت الوقعة في



للتأكيد، ويحتمل أن تكون حرفاً، ودخلت اللام لما فيها من معنى الاستقرار، كما دخلت في: إن زيدا لفي الدار.

كامل تفسير سورة العنكبوت والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين

تفسير سورة الروم

هذه السورة مَكِّيَّة، لا خلاف أحفظه في ذلك.

① - ① تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور بما فيه كفاية. وقرأ

له: إن البضع إلى التسع، ولكن ارجع فزدهم في الرهان واستزدهم في الأجل، ففعل أبو بكر رضي الله عنه، فجعلوا القلائص مائة والأجل تسعة أعوام، فغلبت الروم في أثناء الأجل، فروي عن أبي سعيد الخدري أن إيقاع الروم بالفرس كان يوم بدر، وروي أن ذلك كان يوم الحُدَيْبِيَّةِ، وأن الخبر بذلك وصل يوم بيعة الرضوان، روي نحوه عن قتادة، وفي كلا اليومين كان نصر من الله تعالى للمؤمنين.

وذكر الناس أن سبب سرور المسلمين بغلبة الروم وهمهم أن تغلب، وكون المشركين من قريش على ضد ذلك، إنما هو أن الروم أهل كتاب كالمسلمين، والفرس أهل الأوثان ونحوه من عبادة النار ككفار قريش والعرب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن يقال ذلك بما يقتضيه النظر من محبة أن يغلب العدو الأصغر: لأنه أيسر مؤونة، ومتى غلب الأكبر كثرت الخوف منه، فتأمل هذا مع كان رسول الله ﷺ ترجاه من ظهور دينه وشرع الله تعالى عز وجل الذي بعثه به، وغلبته على الأمم، وإرادة كفار مكة أن يرميه الله تعالى بمملك يستأصله ويريحهم منه.

و «سنين» يجمع كجمع من يعقل عوضاً عن النقص الذي في واحده؛ لأن أصل سنة: سنه، أو سنة، وكسرت السنين منه دلالة على أن جمعه خارج عن قياسه ونمطه.

قوله تعالى: ﴿يَلَّهَ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ

وَمِنْ بَعْدُ﴾، أخبر تبارك وتعالى بانفراده بالقدرة، وأن ما في العالم من غلبة وغيرها إنما هو منه وإرادته وقدرته، فقال: ﴿يَلَّهَ الْأَمْرُ﴾، أي: إنفاذ الأحكام، ﴿مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ أي: من قبل هذه الغلبة ومن بعدها، و«قَبْلُ» و«بَعْدُ» ظرفان بُنِيَا عَلَى الضَّمِّ؛ لأنهما تعرفا بحذف ما أضيف إليهما وصارا مُتَضَمَّنَيْنِ ما حذف، فخالفا تعريف الأسماء وأشبهها الحروف في التضمنين قَبِينَا، وَخَصًّا بِالضَّمِّ لشيئهما بالمنادى المفرد، وأنه إذا نُكِرَ أو أُضِيفَ زال بناؤه، فكذلك هما، فَضُمَّا كَمَا أَنَّ المنادى مبني على الضم، وكذلك قيل في ذلك أيضاً: إن الفتح تعدر فيهما لأنه حالهما عند إضافتهما إلى المتكلم، وتعدر السكون لأن ما قبل آخرهما ساكن، فلم يبق إلا الضم قَبِينَا عليه. ومن العرب من يقول: مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ بِالخَفْضِ وَالتَّنْوِينِ، قال الفراء: «ويجوز ترك التنوين فيبقى كما هو في الإضافة وإن حذف المضاف».

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على «القَبْلُ وَالتَّوْبَةُ»، كأنه حصر الأزمنة الثلاثة: الماضي والمستقبل والحال، ثم ابتدأ الإخبار بفرح المؤمنين بالنصر، ويحتمل أن يكون الكلام قد تم في قوله: ﴿بَعْدُ﴾ ثم استأنف عطف جملة أخبر فيها أن يوم غلبة الروم للفرس يُفْرِحُ المؤمنون بنصر الله، وعلى هذا الاحتمال مشى المفسرون. والنصر الذي يفرح به المؤمنون يحتمل أن يُشار فيه إلى نصر الروم على فارس،

وهي نُصْرَةٌ للإسلام بحكم السنين التي قد ذكرناها، ويحتمل أن يُشار فيه إلى نصر يخص المسلمين على عدوهم، وهذا أيضاً غيبٌ أخبر به وأخرجه إما بيوم بدر، وإما بيعة الرضوان، ويحتمل أن يُشار فيه إلى فرح المسلمين بنصر الله تعالى إياهم في أن صدق ما قال نبيهم عليه الصلاة والسلام في أن الروم ستغلب فارس، فإن هذا ضربٌ من النصر عظيم.

وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر المؤكد، وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد الكفار من قريش والعرب، أي: لا يعلمون أن الأمور من عند الله تبارك وتعالى، وأن وعده لا يتخلف، وأن ما يورده نبيه - عليه الصلاة والسلام - حق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا الذي ذكرناه هو عُمْدَةٌ ما قيل. وقد حكى الطبري وغيره روايات يردها النظر أول قول، من ذلك أن بعضهم قال: إنما نزلت ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ لا يَخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُمْ بعد غلبة الروم لفارس ووصول الخبر بذلك، فهذا يقتضي أن الآية مدنية، والسورة كلها مكئية بإجماع، ونحو هذا من الأقوال.

(٧) - (٨) تفسير قوله عز وجل: وصف تبارك وتعالى الكفرة الذين لا يعلمون أمر الله تعالى وصدق وعده بأنهم إنما يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا، واختلف الناس في معنى ﴿ظَاهِرًا﴾ - فقالت فرقة: معناه: بَيِّنًا، أي ما أذنه إليهم

حواسهم، فكان علومهم إنما هي علوم البهائم. وقال ابن عباس، والحسن، والجمهور: معناه: ما فيه الضلُّ أو الظهور في الدنيا، من إتقان الصناعات والمباني ومطاب كسب المال والفلاحت ونحوها، وقالت فرقة: معناه: ذاهباً زائلاً، أي: يعلمون من أمور الدنيا التي لا بقاء لها ولا عاقبة، ومثل هذه اللفظة قول الهذلي:

وَعَيَّرَهَا الْوَأَشُونَ أَنِّي أَحْبَبْتُهَا
وَيَبْلُغُ شَكَاةَ ظَاهِرِ عَيْنِكَ عَارِهَا

وقال سعيد بن جبیر: إن قوله تعالى: ﴿ظَاهِرًا يَنْ كَلِمَةَ الدُّنْيَا﴾ إنما هو إشارة إلى ما يُعلم من قِبَل الكهنة مما تسترّفه الشياطين، وقال الرماني: كل ما يُعلم بأوائل الرؤية فهو الظاهر، وما يعلم بدليل العقل فهو الباطن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيه تقع الغفلة وتقصير الجهاد.

ثم وصفهم تبارك وتعالى بالغفلة والإعراض عن أمر الآخرة، وكرّر الضمير تأكيداً، وغفلة الكافر هي على الكمال، والمؤمن المنهمك في أمور الدنيا التي هي أكبر همّه يأخذ من هذه الآية بحظ. نور الله قلوبنا وهدى.

ثم وقفهم - على جهة التوبيخ - على أنهم قد فكروا فلم يفهم الفكر والنظر؛ إذ لم يكن على سداد. وقوله تعالى: ﴿يَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن تكون الفكرة في ذاتهم وحواسهم وخلقهم ليستدلوا بذلك على الخالق المخترع، والثاني أن يكون قوله: ﴿يَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ ظرفاً

للفكرة في خلق السموات والأرض، ثم أخبر عقب هذا المعنى بأن الحق هو السبب في خلق السموات والأرض، فيكون قوله: ﴿يَفِي أَنفُسِهِمْ﴾ تأكيداً لقوله: ﴿يَنْفَكُرُوا﴾، كما تقول: أبصر بعينك واسمع بأذنك، فقولك: «بعينك» و«بأذنك» تأكيد. وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي بسبب المنافع التي هي حقٌ وواجب، يريد: من الدلالة عليه، والعبادة له دون فتور، والانتصار للعبادة ومنافع الأرزاق وغير ذلك. ﴿وَأَجَلٌ﴾ عطف على «الْحَقِّ»، أي: وبأجل مُسمى وهو يوم القيامة، ففي الآية إشارة إلى البعث والشور وفساد بنية من في هذا العالم، ثم أخبر عن كثير من الناس أنهم كفرو بهذا المعنى، فعبر عنه بقاء الله تبارك وتعالى؛ لأن لقاء الله تعالى هو أعظم الأمور، وفيه السجاءة أو الهلكة.

﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا أيضاً توقيف وتوبيخ على أنهم ساروا ونظروا، أي أن ذلك لم ينفعهم حتى لم يعملوا بحسب العبرة وخوف العاقبة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يتوجه للكفرة أن يعارض منهم من لم يميز فيقول: لم أميز؛ لأن كافة من سار من الناس قد نقلت معارفهم إلى من لم يميز، فاستوت المعرفة وحصل اليقين للكُل وقامت الحاجة، وهذا بين.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَارُوا الْأَرْضَ﴾ يريد: بالمباني والحرث والحروب، وسائر المباني التي أحدثوها هي كلها

إثارة، بعضها حقيقة وبعضها بتجوز؛ لأن إشارة أهل الأرض والحيوان والمتاع إثارة للأرض. وقرأ أبو جعفر: ﴿وَأَنَارُوا﴾ بمد الهمزة، قال ابن مجاهد: ليس هذا بشيء، وقال أبو الفتح: وجهاً أنه أشيع فتحة الهمزة فنشأت ألف، ونحوه قول ابن هرمة:

فَأَنَّتِ مِنَ الْعَوَائِلِ جِيْنَ تُرْمَى
وَمِنْ ذَمِّ الرِّجَالِ بِمُنْتَرِحٍ

وقال: وهذا من ضرورة الشعر لا يجيء في القرآن. وقرأ أبو حيوة: ﴿وَأَنَارُوا﴾ بالمد بغير ألف بعد اللام، من الأثرة، والضمير في ﴿وَعَمْرُوها﴾ الأول للماضين، وفي الثاني للحاضرين المعاصرين، وباقى الآية بين يتضمّن الوعظ والتخويف من الله تعالى.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿عَاقِبَةٌ﴾ بالرفع على أنها اسم [كان]، والخبر يجوز أن يكون ﴿الْشَّرَّاءِ﴾، ويجوز أن يكون: ﴿أَنَّ كَذَّوْبًا﴾، وتكون ﴿الْشَّرَّاءِ﴾ - على هذا - مفعولاً بـ ﴿أَسْتَوُوا﴾، وإذا كان ﴿الْشَّرَّاءِ﴾ خبراً فإن ﴿أَنَّ كَذَّوْبًا﴾ مفعول من أجله، ولا يصح تعلقه بـ ﴿أَسْتَوُوا﴾؛ لأن في ذلك فصلاً بين الصلة وموصولها بخبر [كان]. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: ﴿عَاقِبَةٌ﴾ بالنصب على أنها خبر مقدم، واسم كان أخذ ما تقدم، و﴿الْشَّرَّاءِ﴾ مصدر كالرُّجْحَى والفَيْثَا والشُّورَى، ويجوز أن تكون صفة لمحذوف تقديره: «الخلعة السوداء». قال أبو حاتم: هذه قراءة

شَرِكَاءَ اللَّهِ بَزَعْمِهِمْ . وَقَوْلُهُ ﴿وَكَاثُرًا﴾ مَعْنَاهُ أَيْ كَذِبُونَ عَنِ مَعَابِنَتِهِمْ أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى وَفَسَادِ حَالِ الْأَصْنَامِ، فَعَبَّرَ عَنْهُ بِالْمَاضِي لِتَيَقُّنِ الْأَمْرِ وَصِحَّةِ وَقُوعِهِ . ﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَنْفَرُونَ﴾ مَعْنَاهُ: فِي الْمَنَازِلِ وَالْأَحْكَامِ وَالْجِزَاءِ، قَالَ قَتَادَةُ: فُرْقَةٌ وَاللَّهُ لَا اجْتِمَاعَ بَعْدَهَا . ﴿يُخَبَّرُونَ﴾ مَعْنَاهُ: يُتَعَمَّنُونَ، قَالَه مَجَاهِدٌ، وَالْحَبِيرَةُ وَالْحَبِيرُ: السُّرُورُ وَالنَّعِيمُ، وَقَالَ يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ: ﴿يُخَبَّرُونَ﴾ مَعْنَاهُ: يَسْمَعُونَ الْأَغَانِي، وَهَذَا نَوْعٌ مِنَ الْحَبِيرَةِ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ﴿يُخَبَّرُونَ﴾: يَكْرُمُونَ، وَفِي الْمَثَلِ: «امْتَلَأَتْ بَيْتُهُمْ حَبِيرَةً فَهَمْ يَنْتَظِرُونَ الْعَبِيرَةَ»، وَمِنْهُ بَيْتُ أَبِي ذُؤَيْبٍ: فِرَاقٌ كَقَفَيْصِ السَّنَنِ قَالَ الصَّبْرُ إِنَّهُ لِكُلِّ أَنْسَابٍ عِزَّةٌ وَحُبُورٌ هَذَا عَلَى هَذِهِ الرَّوَايَةِ، وَيُزَوَّى: «عَثْرَةٌ وَجُبُورٌ»، وَهِيَ أَكْثَرُ . وَذَكَرَ تَعَالَى الرَّوْضَةَ لِأَنَّهَا أَحْسَنُ مَا يَعْلَمُ مِنْ بَقَاعِ الْأَرْضِ، وَهِيَ حَيْثُ يَكْثُرُ النَّبْتُ الْأَخْضَرُ، وَمَا كَانَ مِنْهَا فِي الْمَرْتَفِعِ مِنَ الْأَرْضِ كَانَ أَحْسَنَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْمَشِيِّ: مَا رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْحَزَنِ مُغْشِبَةٌ حَضْرَاءَ جَادَ عَلَيْهَا مُسْبِلٌ هَطْلٌ وَمِنْهُ قَوْلُ كَثِيرٍ:

وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٥﴾ فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ حِينَ نَسُوتُ وَحِينَ نَضْمِحُونَ ﴿١٦﴾ وَهُوَ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعِشْيَا وَحِينَ تَنْظَهُرُونَ ﴿١٧﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٨﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْلَافَ الْأَنْبِيَاءِ وَالْوُكُرَانِ ﴿٢١﴾ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَا مَكَّرَ بِالنَّبِيِّينَ وَالنَّبَاهِرِ وَأَبْعَاؤَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْتَمِدُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ بَرِيضُ الْبَرِّ حَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾

٤٠٦

فَمَا رَوْضَةٌ بِالْحَزَنِ طَبِيبَةُ الشَّرَى
يَمُجُّ الشَّدَى جَشْحَانُهَا وَعَرَاؤُهَا
قَالَ الْأَصْمَعِيُّ: وَلَا يُقَالُ رَوْضَةٌ
حَتَّى يَكُونَ فِيهَا مَا يَشْرِبُ فِيهِ .

وقوله تعالى: ﴿فَسَبَّحَنَّا اللَّهَ﴾ خطابٌ للمؤمنين بالأمر بالعبادة والحض على الصلاة في هذه الأوقات، كأنه يقول: أَدَّى هَذَا التَّفَرُّقُ إِلَى أَنْوَاعٍ مِنَ النَّعْمِ وَالْعَذَابِ فَجَرَى بِهَا الْمُؤْمِنُ فِي طَرِيقِ الْفَوْزِ بِرَحْمَةِ اللَّهِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَتَادَةُ، وَبَعْضُ الْفُقَهَاءِ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهُ عَلَى أَرْبَعِ صَلَوَاتٍ: الْمَغْرِبِ وَالصُّبْحِ وَالْعَصْرِ وَالظُّهْرِ، قَالُوا: وَالْعِشَاءُ الْآخِرَةُ فِي آيَةِ أُخْرَى، ﴿وَرَزَلْنَا مِنْ أَلَيْلٍ﴾، وَفِي ذِكْرِ أَوْقَاتِ الْعُورَةِ . وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - أَيْضًا وَفَرَقَهُ مِنَ الْفُقَهَاءِ: فِي هَذِهِ الْآيَةِ تَنْبِيهُ عَلَى

العامة بالمد على الواو وفتح الهمزة وياء التانيث، فبعض القراء فخم، وبعضهم أمال. وقرأ الحسن: ﴿السُّوءِ﴾ بالتذكير، وروي عن عثمان بن عفان رضي الله عنه أنه قال: السُّوءُ والسُّوءَى، اقرأ بما شئت، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿اسْتَرَأَ﴾ هنا بمعنى: كفروا، و﴿الشَّرَافِ﴾ هي النار، والتكذيب بآيات الله تبارك وتعالى غير الاستهزاء بها، فلذلك عدَّ عليهم الفعلين .

ثم أخبر تعالى إخباراً مطلقاً لجميع العالم بالحشر والبعث من القبور. وقرأ طلحة، وابن مسعود: ﴿يُنْبِئُهُ﴾ بضم الياء وكسر الدال، وقرأ جمهور القراء: ﴿تُخَبِّرُونَ﴾ بالناء من فوق. وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم بالياء .

وقوله: ﴿يَوْمٌ﴾ منصوب به ﴿يُنْبِئُ﴾، و﴿الإِبْلَاسُ﴾: الكون في شر مع اليأس من الخير في ذلك الشيء بعينه، فإبلاسهم هو في عذاب الله تعالى، وقرأ عامة القراء بكسر اللام، وقرأ أبو عبد الرحمن، وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه بفتحها، وأبلس الرُّبْعُ إذا بلي، وكأنه يشس من العمارة، ومنه قول العجاج:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَبِّعًا مَكْرَسًا؟
قَالَ نَعَمْ أَعْرِفُهُ وَأَبْلَسًا
وَقَرَأَ عَامَةُ الْقِرَاءِ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ﴾
بالياء من تحت، وروي عن نافع
﴿تَكُنْ﴾ بالسَّاءِ من فوق،
و﴿الشُّرَكَاءِ﴾: المَشَارِكُ إِلَيْهِمْ هُمُ
الْأَصْنَامُ، أَي الدِّينِ كَانُوا يَجْعَلُونَهُمْ

والحسن وعكرمة: عنى بالمودة الجماعة. وبالرحمة الولد.

ثم نبه تعالى على خلق السموات والأرض، واختلاف اللغات والألوان، وهذه: البياض والسواد وغيرهما، ويحتمل أن يريد ضروب بني آدم وأنواعهم، فتعم شخص البشر الذين يختلفون بالألوان، وتعم الألسنة. وقرأ جمهور القراء: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بفتح اللام، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بكسر اللام، فالأولى على أن هذه الآية هي في نفسها منصوبة لجميع العالم، والثانية على معنى أن أهل الانتفاع بالنظر فيها إنما هم أهل العلم.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر تعالى النوم بالليل والنهار وعزف النوم إنما هو بالليل وحده، ثم ذكر الابتغاء من فضله كأنه فيها، وإنما معنى ذلك أنه عمّ الليل والنهار فسمي الزمان، وقصد من ذلك تعديد آية النوم وتعديد آية ابتغاء الفضل، فإنهما آيتان ونعمتان يكونان في ليل ونهار، والفرق (تحيز) كل واحدة من النعمتين إلى محلها في الأغلب، وقال بعض المفسرين: في الكلام تقديم وتأخير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف.

وإنما أراد أن يرتب النوم للليل، والابتغاء للنهار، ولفظ الآية لا يعطي ما أراد.

وقوله تعالى: ﴿يُرِيكُمْ﴾ فعل مرتفع لما حذف (أن) التي لو كانت لنصبته، فلما حلّ الفعل محلّ الاسم أعرب بالرفع، ومثله قول طرفة:

وروي هذا المعنى عن النبي ﷺ، أنه قرأ هذه الآية عندما كلمته بالإسلام أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط. والمجاز إخراج النبات الأخضر من الأرض، وإخراج الطعم من النبات، ما جرى هذا المجرى. ومثّل بَعْدُ بإحياء الأرض بعد موتها بالمطر.

ثم بعد هذه الأمثلة القاضية بتجويز بعث الأجساد عقلاً ساق الخبر بأن كذلك خروجنا من القبور، وقرأت فرقة: ﴿يُخْرِجُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ عامة القراء: ﴿يُخْرِجُونَ﴾ بالياء المضمومة، وقرأ الحسن، وابن وثاب، والأعمش، وطلحة بفتح التاء وضم الراء.

و﴿وَيَنْ﴾ في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَيَنْ أَيْنِيَهَ أَنْ خَلَقَكُمْ﴾ للتبعيض، وقال: ﴿خَلَقَكُمْ﴾ من حيث خلق أباهم آدم، قاله قتادة. و﴿تَنْتَبِرُونَ﴾ معناه: تتصرفون وتتفرقون في الأعراض والأسفار.

وقوله تعالى: ﴿يَنْ أُنْسِيَكُمْ﴾ يحتمل أن يريد خلقه حواء من ضلع آدم، فحمل ذلك على جميع الناس من حيث أنهم مخلوقة من نفس آدم، أي: من ذات شخصه، ويحتمل أن يريد: من نوعكم وجنسكم. و«المودة والرّحمة» على باهما المشهور من التردد والتراحم، هذا هو البليغ، وقال مجاهد

وَيَنْ أَيْنِيَهَ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿١٩﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهُ قَدْرُنُونَ ﴿٢٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَتْ عَيْتِهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢١﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مَن مَّمَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارِقَاتِكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ مَّا قَوْلَانِهِمْ كَيْفَ ضَرَبْتُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ بَلِ اتَّعَجَبْتَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٣﴾ فَأَقْرِبْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيُّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٤﴾ مُبِينِينَ إِلَيْهِ وَتَقْوَاهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٢٥﴾ مِنَ الَّذِينَ قَرَعُوا دِيْنَهُمْ وَكَانُوا شُرَيْعًا كُلِّ حَرْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فُورِحُونَ ﴿٢٦﴾

الصلوات الخمس؛ لأن قوله تعالى: ﴿حِينَ تُسُبِّحُونَ﴾ يتضمن الصلاتين. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْخَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ اعتراض من الكلام بين وقوع تعظيم الله تعالى والحض على عبادته، وقرأ عكرمة: ﴿حِينَ تَنْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾، والمعنى: حيناً تسمون فيه [وحيثاً تصبحون فيه].

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الْحَيِّ وَالْمَيْتِ» في هذه الآية يستعمل حقيقة ويستعمل مجازاً، فالحقيقة: المني يخرج منه الإنسان، والبيضة يخرج منها الطائر، وهذه بعينها ميتة تخرج من حي، وما جرى هذا المجرى، وبهذا المعنى فسّر ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. وقال الحسن: المعنى: المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

أَلَا يَهَذَا الرَّاجِرِي أَخْضَرَ الزُّوعَى
وَأَنْ أَشْهَدَ اللَّذَاتِ هَلْ أَنْتَ مُخْلِدي؟
قال الرماني: وتحتل الآية أن
يكون التقدير: «ومن آياته آية يريكم
البرق»، وحذفت (آية) لدلالة [من]
عليها، ومنه قول الشاعر:

وما الدهرُ إلا تارتانٍ فمِنْهُمَا
أموتُ وأخرى أَبْتَجِي العَيْشُ أَكْذَحُ
والتقدير: فمنهما تارة أموت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا على أن [من] للتبعيض كسائر
هذه الآيات، ويحتل في هذه
وحدها أن تكون [من] لابتداء الغاية
فلا يحتاج إلى تقدير (آية)، وإنما
يكون الفعل مخلصاً للاستقبال.

وقوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾، قال قتادة:
خَوْفًا للمسافر وطَمَعًا للمقيم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ولا وجه لهذا التخصيص ونحوه، بل
الخوف والطمع لكل بشر، وقال
الضحاك: الخوف من صواعقه،
والطمع في مطره. وقوله: ﴿أَنْ تَقَوْمَ
السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ معناه: تَبَيَّنَتْ، كقوله
تعالى: ﴿وَإِذَا أَطَّلَعَ عَلَيْهِنَّ قَامُوا﴾،
وهذا كثير، وقيل: هو فعل مُسْتَقْبَل،
أَحَلَّهُ محلَّ الماضي ليعطي فيه معنى
الدوام الذي هو في المستقبل،
و«الدَّعْوَةُ مِنَ الْأَرْضِ» هي للبعث
يوم القيامة، و﴿مَنْ الْأَرْضِ﴾ حال من
المخاطبين، كأنه قال: خارجين من
الأرض، ويجوز أن يكون ﴿مَنْ
الْأَرْضِ﴾ صفة الدعوة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
و﴿مَنْ﴾ عندي ها هنا هي لانتهاه
الغاية، كما تقول: «دعوتك من
الجبل»، إذا كان المدعو في الجبل،

والوقف في هذه الآية عند نافع
ويعقوب الحضرمي على ﴿دَعْوَةَ﴾،
والمعنى: إذا أنتم تخرجون من
الأرض، وهذا على أن [من] لابتداء
الغاية، قال مكي: والأحسن عند
أهل النظر أن الوقف في آخر الآية؛
لأن مذهب سيبويه والخليل في [إذا]
الثانية أنها جواب الأولى، كأنه قال:
إذا دعاكم خرجتم، وهذا أسدُّ
الأقوال، وقرأ حمزة، والكسائي:
﴿تَخْرُجُونَ﴾ بفتح التاء، وقرأ الباقون:
﴿تَخْرُجُونَ﴾ بضم التاء.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

اللام في الأولى لام الملك، وفي
الثانية لام تعدية ل (قَتَّتْ)، وقَتَّتْ
بمعنى خضع في طاعته وانقياده.
وهذه الآية ظاهر أمرها العموم في
القَتَّتْ، والعموم في كل من يعقل،
وتعميم ذلك في المعنى لا يصح؛
لأنه خير ونحن نجد كثيراً من الجن
والإنس لا يَقْتَت في كثير من المعتقد
والأعمال، فلا بُدُّ أَنْ عموم ظاهر
هذه الآية يراد به الخصوص،
واختلف المتأولون في الخصوص
أين هو؟

فقال ابن عباس رضي الله عنهما:
هو في القنوت والطاعة، وذلك أن
جميع من يعقل هو قانت لله في
معظم الأمور من الحياة والموت
والرزق والقدرة ونحو ذلك،
وبعضهم يخل بالعبادة والمعتقدات
فلا يقنت فيها، فكأنه قال: كل له
قانتون في معظم الأمور وفي غالب
الشان.

وقال ابن زيد ما معناه: إن

الخصوص هو في الأعيان
المذكورين، كأنه قال: وله من
السموات والأرض من ملك ومؤمن.
وقوله: ﴿بَدْرًا مُلَقَّقًا﴾ معناه: يُنْشِئُهُ
ويخرجه من العدم، وجاء الفعل
بصيغة الحال لما كان في هذا ما قد
مضى كآدم وسائر القرون، وفيه ما
يأتي في المستقبل، فكأن صيغة
الحال تعطي هذا كله. و﴿بَيْدُهُ﴾
يبعثه من القبور ويُنْشِئُهُ تارة أخرى.

واختلف المتأولون في قوله تعالى:
﴿وَهُوَ أَهْوَتْ عَلَيْهِ﴾ - فقال ابن
عباس، والربيع بن خثيم: المعنى:
وهو هَيَّيْن، ونظيره قول الشاعر:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي وَإِنِّي لَأَوْجِلُّ

بمعنى: لَوْجِلُّ. وقول الآخر:

بَيْتًا دَعَائِمُهُ أَعَزُّ وَأَطْوَلُ
وقولهم في الأذان: «الله أكبر»،
وقول الشافعي رحمه الله عليه:

فَتِلْكَ سَبِيلِي لَسْتُ فِيهَا بِأَوْحِدٍ

يريد: بواحد، واستشهد بهذا البيت
أبو عبيدة، وهذا شاهد كثير، وفي
بعض المصاحف «وَكُلُّ هَيَّيْن عَلَيْهِ».

وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد،
وعكرمة: المعنى: وهو أيسر عليه،
وإن كان الكل من اليسر عليه في
حين واحد وحال متماثلة، قال:
ولكن هذا التفضيل بحسب معتقدات
البشر، وما يعطيهم النظر في
المُشَاهِد من أن الإعادة في كثير من
الأشياء أهون علينا من البداءة؛
للتَّعَرُّن والاستغناء عن الرُّويَّة التي
كانت في البداءة. وهذا القولان

الضميران فيهما عائدان على الله تبارك وتعالى .

وقالت فرقة أخرى: الضمير في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائذ على ﴿الْحَاقِّ﴾ .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهو بمعنى «المخلوق» فقط، وعلى التأويلين الأولين يصح أن يكون «المخلوق»، أو يكون مصدرأ من «خَلَقَ». فقال الحسن: إن الإعادة أهون على المخلوق من إنشائه؛ لأنه في إنشائه يصير من حالة إلى حالة، من نطفة إلى علقة إلى مضغة ونحو هذا، وفي الإعادة إنما يقوم في مرة واحدة، فكأنه قال: وهو أيسر عليه، أي: أقصر مدة وأقل انتقالاً .

وقال بعضهم: وهو أهون على المخلوق أن يعيد شيئاً بعد إنشائه، فهذا عُرِفَ المخلوقين، فكيف تنكرون أنتم الإعادة في جانب الخالق .

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي عود الضمير على الله تعالى، ويؤيده قوله: ﴿وَلَهُ الْكَمَلُ الْأَكْمَلُ﴾، لما جاء بلفظ فيه استعارة واستشهاداً بالمخلوق على الخالق، وتشبيه بما يعهده الناس من أنفسهم، خلص جانب العظمة بأن جَعَلَ له المثل الأعلى الذي لا يصل إليه تَكْيِيفٌ ولا تَمَثُّلٌ مع شيءٍ . والعزة والحكمة صفتان موافقتان لمعنى الآية، فيهما يُعِيدُ وَيُنْفِذُ أمره في عباده كيف شاء .

ثم بيّن تعالى أمر الأصنام وفساد معتقد من يشاركها بالله تعالى بضرب هذا المثل، ومعناه: إنكم أيها الناس إذا كان لكم عبيد تملكونهم فإنكم لا

تشاركونهم في أموالكم ولا في أموركم ولا في شيءٍ على جهة استواء المنزل، وليس من شأنكم أن تخافوهم في أن يرثوا أموالكم أو يقاسموكم إياها في حياتكم، كما يفعل بعضكم ببعض، فإذا كان هذا فيكم فكيف تقولون: إن من عبده وملكه شركاء في سلطانه وألوهيته، وتشتون في جانبه ما لا يليق عندكم بجوانبكم؟ هذا تفسير ابن عباس رضي الله عنهما وجماعة، وجاء هذا المعنى في معرض السؤال والتقرير .

وقرأ الناس: ﴿كخيفتكم أنفسكم﴾ بنصب السنين، وقرأ ابن أبي عبله بضمها. وقرأ الجمهور: ﴿نُقْضَلُ﴾ بالنون حتملاً على ﴿رَزَقْتَكُمْ﴾، وقرأ عباسٌ عن أبي عمرو: ﴿نُقْضَلُ﴾ بالياء حتملاً على ﴿ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا﴾ .

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: الإِضْرَابُ بِـ ﴿بِئْسَ﴾ هو عما يتضمّنه معنى الآية الأولى، كأنه يقول: ليس لهم حجة ولا معذرة فيما فعلوا من تَشْرِيكِهِمْ مع الله تعالى، بل اتبعوا أهواءهم جهالةً وشهوةً وقصداً لأمر دنياهم. ثم قرّر - على جهة التوبيخ لهم - على من يهدي إذا أضل الله؟ أي: لا هادي لأهل هذه الحال، ثم أخبر أنه لا ناصر لهم .

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بإقامة وجهه للدين المستقيم، وهو دين الإسلام، وإقامة الوجه هو تقويم المغتدّد والقوّة على الجدّ في أعمال الدين، وذكّر الوجه لأنه جامع حواسّ الإنسان وأشرفه، و﴿حَنِيفًا﴾ معناه: معتدلاً مقوماً مانلاً عن جميع الأديان المحرّفة المنسوخة، وقوله: ﴿فَطَرَتْ﴾

اللَّهُ أَلْتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ نصب على المصدر، كقوله: ﴿سَبَّحَهُ اللَّهُ﴾، وقيل: هو نصب بفعل مضمّر تقديره: أتبع والزّم فطرة الله تعالى، واختلف الناس في الفطرة ها هنا - فذكر مكي وغيره في ذلك جميع ما يمكن أن تصرف هذه اللفظة عليه، وفي بعض ذلك قلن، والذي يعتمد عليه في تفسير هذه اللفظة أنها الخِلْقَةُ والهَيْئَةُ التي في نفس الطفل التي هي معدودة مَهْيَأَةً لَأَن يَمَيِّزَ بها مصنوعات الله تعالى، وَيَسْتَدَلَّ بها على ربّه جلّ وعلا، ويعرف شرائعه، وَيُؤْمِنَ به، فكأنه تعالى قال: أقم وجهك للدين الذي هو الحنيف وهو فطرة الله الذي على الإعداد له فَطَرَ البشر، لكن تَغْرِضُهُم العوارض، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿كُلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه﴾ الحديث، وذكّر الأبوين إنما هو مثال للعوارض التي هي كثيرة .

وقوله تعالى: ﴿لَا يَدْبِرُ لِمَلَأَ اللَّهُ﴾ يحتمل تأويلين: أحدهما أن يريد بها مدة الفطرة المذكورة، أي: اغلّم أن هذه الفطرة لا تبديل لها من جهة الخالق، ولا يجيء الأمر على خلافها بوجه، والآخر أن يكون قوله: ﴿لَا يَدْبِرُ لِمَلَأَ اللَّهُ﴾ إنحاءً على الكفرة، واعترض به أثناء الكلام، كأنه يقول: أقم وجهك للدين الذي من صفته كذا وكذا، فإن هؤلاء الكفار الذين خلق الله لهم الكفر، ولا تبديل لخلق الله، أي أنهم لا يفلحون. وقال مجاهد: المعنى: لا تبديل لدين الله، وهو

قول ابن جُبَيْر، والضحاك، وابن زيد، والتخفي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معناه: لا تبديل للمعتقدات التي هي في الدين الحنيف، فإن كل شريعة فهي عقائدها.

وذهب بعض المفسرين في هذه الآية إلى تأويلات: منها قول عكرمة - وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَا يُبَدِّلُ لِحَقِّ اللَّهِ﴾ معناه: النهي عن خصاء الفحول من الحيوان. ومنها قول بعضهم في الفطرة: إنها المِلَّة. على أنه قد قيل في الفطرة: الدين.

وتؤوّل قوله تبارك وتعالى: ﴿فَطَرَّ النَّاسُ﴾ على الخصوص، أي:

المؤمنين. وقيل: الفطرة هي العهد الذي أخذه الله تعالى على ذُرِّيَةِ آدَمَ حين أخرجهم نَسْماً من ظهره، ونحوه حديث معاذ رضي الله عنه حين مرَّ به عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال: يا معاذ، ما قوام هذه الأمة؟ قال: الإخلاص، وهو الفطرة التي فطر الله الناس عليها، والصلاة وهي الدين، والطاعة وهي العصمة، فقال عمر رضي الله عنه: صدقت.

و ﴿الْقَلَمِ﴾ بناءً مبالغته من القيام الذي هو بمعنى الاستقامة.

وقوله تعالى: ﴿مُيَبِّنٍ﴾ يحتمل أن يكون حالاً من قوله: ﴿فَطَرَّ النَّاسُ﴾، لا سيّما على رأي من رأى أن ذلك خصوص في المؤمنين، ويحتمل أن يكون ذلك من قوله: ﴿فَأَيَّدَ وَجْهَكَ﴾، وجَمَعَهُ لَأَنَّ الخطاب بإقامة الوجه هي للنبي ﷺ

ولأتمته، ونظيرها قوله تبارك وتعالى: ﴿يَأْتِيَا النَّبِيَّ إِذَا طَلَقْتَهُ النِّسَاءَ﴾ والمُنْيَبُ: الراجع المخلص المائل إلى جهة ما تؤدّه نفسه، والمُشْرِكُونَ المشار إليهم في هذه الآية هم اليهود والنصارى، قاله قتادة، وقال ابن زيد: هم اليهود، وقالت عائشة وأبو هريرة رضي الله عنهما: هي في أهل القبلة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولقطة الإشراك - على هذا - فيها تجوز،

فإنهم صاروا في دينهم فِرْقاً، والشَّيْعَةُ: الفِرْقُ، واحداها: شَيْعَةٌ، وقوله: ﴿كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فِرْعُونٌ﴾ معناه أنهم مفتنونون بأرائهم، مُعْجِبُونَ بضلالهم، وذلك أصيل فيهم. وقرأت فرقة: ﴿فَارْقُوا دِينَهُمْ﴾ بالألف.

٣٣٦ - ٣٣٧ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء إنحاء على عبدة الأصنام المشركين بالله تعالى غَيْرَه، بين تعالى أنهم كسائر البشر في أنهم متى مسهم ضرر دعوا الله سبحانه، وتركوا الأصنام مطروحة، ولهم في ذلك الوقت إنابة وخضوع، فإذا أذاهم رحمته، أي: بإشْرَهُم أمره بها، والذوق مستعار، إذ هم طائفة تشرك به أصناماً ونحو هذا، و﴿إِذَا﴾ للمفاجأة، فلذلك صلحت في جواب ﴿إِذَا﴾ الأولى، فهي بمنزلة الفاء، وهذه الطائفة هي عبدة الأصنام.

سورة الروم

سورة الروم

وَإِذْ آمَسَّ النَّاسُ ضُرُوعَهُمْ مُبِينِينَ إِلَيْهِمْ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِقَ مِنْهُمْ بِرِيحِهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمْتَعُوا قَسُوفَ تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أُنزِلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهَوِيَ كَلِمَ بَمَا كَانُوا بِرِيحِهِمْ كُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سِنَةٌ يُعَاذُوا بِأَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَفْتَنُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَكَانَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْيَتِيمَ الْكَاسِيتَ وَالنَّسِيئَةَ الْكَاسِيتَ وَاللَّذِينَ يُبْدُونَ وِجْهَهُمْ لِلدِّينِ وَأَوَّلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَاءَ أَنْزَلْنَاهُ رِجَاءً لِيُرِيوْا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرِيوْا عِنْدَ اللَّهِ وَمَاءَ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ رِجْوَاهُ لِيُرِيوْكَ وَجْهَ اللَّهِ فَأَلَّذِيكَ هُمُ الْمُضْغَعُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ وَنُحْنَهُ وَوَعَلَىٰ عَرْشِ الرَّبِّ كُونَ ﴿٤٠﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾

٤١٨

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويلحق من هذه الألفاظ شيء للمؤمنين إذا جاءهم فرح بعد شدة، فعلقوا ذلك بمخلوق، أو بحذق آرائهم، أو بغير ذلك؛ لأن فيه قلة شكر الله تبارك وتعالى، ويسمى شركاً مجازاً.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ اللام لام كني، وقالت فرقة: هي لام الأمر على جهة الوعيد والتهديد. وأمّا قوله تعالى: ﴿فَتَمْتَعُوا﴾ فأمر على جهة الوعيد والتقوية، أي: قل لهم يا محمد: فتمتعوا.

وقرأ أبو العالية: ﴿فَيَتَمْتَعُوا﴾ بياء قبل التاء، وذلك عطف على ﴿لِيَكْفُرُوا﴾، أي: لتطول أعمارهم على الكفر، وفي حرف ابن مسعود: ﴿فَلَيَتَمْتَعُوا﴾، وروي عن أبي العالية: ﴿فَيَتَمْتَعُوا﴾ بضم الباء دون

تأه أولى، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿تَمْتَمُوا﴾، كذا قال هارون. وقرأ عامة الناس: ﴿تَمَلُّوْنَ﴾ بالثاء على المخاطبة، وقرأ أبو العالية: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ بالياء على ذكر الغائب.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ﴾ هي بمعنى (بَلْ) وألّف الاستفهام، كأنه أضرب عن صدر الكلام ورجع عن هذه الحجة. والسُّلْطَانُ: ها هنا: البُرْهان، من رسول أو كتاب ونحوه، والسُّلْطَانُ في كلام العرب جمع سَلِيْطٍ، كَرغيف وزُغْفان، وَعَدِيرٌ وَعُدْرَانٌ، فهو مأخوذٌ من التَّسَلُّطِ والتَّغَلُّبِ، ولَزِمَ هذا الاسمُ في العرف الرئيس؛ لأنه تَسَلَّطَ بوجه الحق، وهو اسم جمع من حيث هي أنواع العَلْبَةِ والملك عنده، وقال قوم: هو اسم مفرد وزنه فُعْلَانٌ.

وقوله تعالى: ﴿فَهُوَ بِكُمْ﴾ معناه أَنَّهُ يُظْهِرُ حُجَّتَهُمْ، وَيَغْلِبُ مَذْهَبَهُمْ، وينطق بشركهم، قاله قتادة، فيقوم بذلك مقام الكلام، كما قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا يُنِذِرُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾.

(٣٦) - (٣٧) تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر تعالى حال الناس متى تأتتهم شدة وضراً ولجوا منه إلى سعة، ذكر في هذه الآية الأمر أيضاً من الطرف الآخر بأن ذكر الرحمة تعقبها الشدة، فلهم في الأولى تضرع ثم إشراك، ولهم في الثانية فرح ويطر ثم تنوط ويأس، وكلُّ أحدٍ يأخذ من هذا الخلق بقسط، فمنهم المُؤَلُّ ومنهم المُكْتَر، إلا من ربطت الشريعة على قلبه، وتأدب

بأدب الله تعالى، فصبر عند الضراء، وسكن عند السراء، ولم يطر عند النعمة، ولم يقنط عند الابتلاء. وقوله تعالى: ﴿يَمَا فَذَمَّتْ أَيْدِيَهُمْ﴾، أي أن الله تعالى يمتحن الأمم، ويصيب منهم عند فشو المعاصي وظهور المنابر، ولذلك فقد يصاب شخص لسوء أعماله بشيءٍ وخذه، ويعفو الله تعالى عن كثير. والقنوط: اليأس، وقرأ أبو عمرو، وجماعة: ﴿يَقْنِطُونَ﴾ بكسر النون، وقرأ نافع، والحسن، وجماعة بفتحها.

وجواب الشرط في قوله: ﴿وَإِنْ نُؤْتِيهِمْ﴾ قوله: ﴿إِذَا هُمْ﴾، وذلك أنها للمفاجأة لا يبتدأ بها؛ لأنها بمنزلة الفاء، ويجاب بها الشرط، وأما التي للشرط أو التي فيها معنى الشرط فيبتدأ بهما.

ثم ذكر تعالى الأمر الذي من اعتبره لم ييأس من روح الله تعالى على حال، وهو أن الله تبارك وتعالى يخصص من شاء من عباده ببسط الرزق، فينبغي لكل عبد أن يكون راجياً ما عند ربه، ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أمراً تدخل الأمة فيه، وهذا على جهة التذنب إلى إيتاء ذي القربى حقه من صلة المال وحسن المعاشرة ولين القول. قال الحسن: حقه الموساة في اليسر، قال: ومعظم ما قصد أمر المعونة بالمال، ومنه قول النبي ﷺ: ﴿في المال حق سوى الزكاة﴾، وكذلك للمسكين وابن السبيل حق، ويبين أن حق هؤلاء إنما هو في المال وغير ذلك، وكذلك يلتزم القريب المعمد الذي

يُقْضَى حَقُّهُ أَنْ يَقْضِيَهُ هُوَ أَيْضاً حَقُّ قَرِيبِهِ فِي جُودَةِ الْعَشْرَةِ، وَوَجْهُ اللَّهِ هُنَا جِهَةٌ عِبَادَتُهُ وَرِضَاهُ، وَ﴿الْمُفْلِحُونَ﴾: الْفَائِزُونَ بِتَغْيِيهِمْ، الْبَالِغُونَ لِأَمَالِهِمْ.

(٣٨) - (٣٩) تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ﴾ بمعنى: أعطيتهم، وقرأ ابن كثير: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ﴾ بغير مد، بمعنى: ما فعلتم، كما تقول: آتيت صواباً وآتيت خطأ، وأجمعوا على المد في قوله: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ كُفْرٍ﴾. و الرِّبَا: الزيادة.

واختلف المتأولون في معنى هذه الآية - فقال ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، وطاوس: هذه آية نزلت في هيات الثواب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وما جرى مجراها مما يصنعه الإنسان ليجازي عليه كالسلام وغيره، فهو وإن كان لا إثم فيه فلا أجر فيه ولا زيادة عند الله تبارك وتعالى.

وقال ابن عباس أيضاً، وإبراهيم الشَّحَعي: نزلت في قوم يعطون قرباتهم وإخوانهم على معنى تمويلهم وتغنيهم والتفضل عليهم، وليزيدوا في أموالهم على جهة النفع لهم، وقال الشعبي: معنى الآية أن ما خدم الإنسان به أحداً، وخف له لينتفع به في دنياه، فإن ذلك النفع الذي يجزي به الخدمة لا يربو عند الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كله قريب وجزء من التأويل. ويحتمل أن يكون معنى هذه الآية

العبيد: البحر: القلب، والبر: اللسان، وقال الحسن: البر والبحر هما المعروفان المشهوران في اللغة. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول صحيح.

وظهور الفساد فيهما هو ارتفاع البركات، ونزول رزايا وحدوث فتن، وتغلّب عدو كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفساد في البحر: انقطاع صيده بذنوب بني آدم، وقلما توجد أمة فاضلة مطيعة مستقيمة الأعمال لا يدفع الله عنها هذه، والأمر بالعكس في أمر المعاصي وبطر النعمة، وكذلك كان أمر البلاد في وقت بعث النبي ﷺ، قد كان الظلم عمّ الأرض برّاً وبحراً، وقد جعل الله تعالى هذه الأشياء ليجازي بها على المعاصي، فيذيق الناس عاقبة ذنوبهم لعلمهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ تقديره: جزاء ما كسبت، ويجوز أن تتعلّق الباء بـ ﴿ظَهَرَ﴾، أي: يكسبهم المعاصي في البر والبحر، وهو نفس الفساد الظاهر، والترجي في «لعل» هو على معتقدنا، ويحسب نظرنا في الأمور.

وقرأت عمامة القراء والناس: ﴿لِيَذِيقَهُمْ﴾ بالياء، وقرأ قبل عن ابن كثير، والأعرج، وأبو عبد الرحمن السلمى بالنون، ومعناها بين، وقرأ أيضاً أبو عبد الرحمن: ﴿لِيُذِيقَهُمْ﴾ بالناء من فوق.

- على جهة التقرير والتوبيخ - ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكَ﴾ أي: الذين جعلتموهم شركاء، من يفعل من شيء من ذلك؟ وهذا الترتيب بـ ﴿تُمْ﴾ هو في الإيجاد شيئاً بعد شيء، ومن هنا أدخل الفقهاء الولد مع أبيه في تعقيب الأجناس إذا كان اللفظ: ﴿تُمْ﴾ على أعقابهم، ثم على أعقاب أعقابهم. ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عن مقالاتهم في الإشراك. وقرأ الجمهور: ﴿بِشُرُوكِهِمْ﴾ بالياء من تحت، وقرأ الأعمش، وابن وثاب بالناء من فوق.

ثم ذكر تعالى - على جهة العبرة - ما ظهر من الفساد بسبب المعاصي في قوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، واختلف الناس في معنى «البر والبحر» في هذه الآية - فقال مجاهد: البر: البلاد البعيدة من البحر، والبحر: السواحل والمدن التي على ضفة البحر والأنهار الكبار. وقال قتادة: البر: الفياضي ومواضع القبائل والصحارى، والبحر: المدن، جمع بحرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومنه قول سعد بن عبادة رضي الله عنه للنبي ﷺ في شأن عبدالله بن أبي سلول: «لَقَدْ أَجْمَعَ أَهْلُ هَذِهِ الْبُحَيْرَةِ عَلَى أَنْ يُتَوَجَّهُوا» الحديث. ومما يؤيد هذا أن عكرمة قرأ: ﴿فِي الْبَرِّ وَالْبُحُورِ﴾، ورويت عن ابن عباس رضي الله عنهما. وقال مجاهد أيضاً: ظهور الفساد في البر قتال بني آدم لأخيه، وفي البحر أخذ السفن غضباً، وقال بعض

النهي عن الربا في التجارات. لما خض عز وجل على نفع ذوي القرى والمساكين وابن السبيل أعلم أن ما فعل المرء من ربا ليزداد به مالاً - وفعله ذلك إنما هو في أموال الناس - فإن ذلك لا يربو عند الله تعالى ولا يزكو، بل يتعلّق فيه الإثم ومحق البركة، وما أعطى الإنسان من زكاة تنمية لماله وتطهيراً، يريد بذلك وجه الله تعالى، فذلك هو الذي يجازي به أضعافاً مضاعفة على ما شاء الله تعالى له.

وقال السدي: نزلت هذه الآية في ربا تقيف؛ لأنهم كانوا يعملون بالربا وتعمله فيهم قريش.

وقرأ جمهور القراء السبعة: ﴿لِيُذِيبُوا﴾ بالياء وإسناد الفعل إلى الربا، وقرأ نافع وحده: ﴿لِيُذِيبُوا﴾ بضم الياء والواو ساكنة، بمعنى: يكونون ذوي زيادات، وهذه قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وأهل المدينة، والحسن، وقاتدة، وأبو رجاء، والشعبي. قال أبو حاتم: هي قراءة نافع، وقرأ أبو مالك: ﴿لِيُذِيبُوا﴾ بضمير مؤنث، و«المُضْعِف» الذي هو ذو أضعاف من التراث، كما أن المؤلف الذي له الألف، وكما تقول: أخضب إذا كان ذا خصب، وهذا كثير، ومنه أرتى المتقدم في قراءة من قرأ: ﴿لِيُذِيبُوا﴾ بضم الناء.

ثم كرر مخاطبة الكفرة في أمر أوثانهم، فذكر أفعال الله تعالى التي لا شريك لها فيها، وهي الخلق والرزق والإماتة والإحياء، ولا يمكن أن ينكر ذلك عاقل، ثم وقف الكفار

الناس بها من فضل الله تعالى في التجارات في البحر، وفي ذرو الأظعمة وغير ذلك.

ثم آتس محمداً ﷺ بأن ضرب له مثل من أرسل من الأنبياء، ثم وعد تعالى محمداً ﷺ وأتمته النصر؛ إذ أخبر أنه جعله حقاً عليه تبارك وتعالى، و [حقاً] خبر [كان] قدمه اهتماماً، لأنه موضع فائدة الجملة، وبعض القراء في هذه الآية وقف على قوله: ﴿حقاً﴾، وجعله من الكلام المتقدم، ثم استأنف جملة مكونة من قوله: ﴿علينا نصر المؤمنين﴾، وهذا قول ضعيف؛ لأنه لم يدر قدر ما عرضه في نظم الآية.

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل: إثارة السحب: تحريكها من سكون وتسييرها، وبسطها في السماء هو نشرها في الآفاق، و«الكسف»: القِطْعُ. وقرأ جمهور القراء: ﴿كسفاً﴾ بفتح السين، وقرأ ابن عامر: ﴿كسفاً﴾ بسكون السين، وهي قراءة الحسن، وأبي جعفر، والأعرج، وهما بناءان للجمع، كما يقال: «سبذرة وسبذرا» بسكون الدال، و«سبذرا» بفتح الدال، وقال مكي: من أسكن السين فمعناه: يجعل السحاب قطعة واحدة، و﴿الزود﴾: الماء يطر، ومنه قول الشاعر:

فَلَا مُزْنَةَ وَدَقَّتْ وَدَقَّتْهَا
وَلَا أَرْضَ أَبْقَلٍ يُنْقَلُهَا
و ﴿خليلة﴾: الفطور الذي بين بعضه وبعض؛ لأنه متحلل الأجزاء. وقرأ الجمهور: ﴿من خليلة﴾ بكسر الخاء وألف بعد اللام، جمع خَلَل

و﴿يصدعون﴾ معناه: يتفرون بعد جمعهم، وهذا هو التصدع، ومعنى «يتفرون»: إلى الجنة وإلى النار.

ثم قسم الفريقين بأحكام تلحقهم من أعمالهم في الدنيا، ثم عبّر عن الكفر بـ «علين»، وهي تعطي الثقل والمشقة، وعن العمل الصالح باللام التي هي لام الملك، و﴿بهتون﴾ يُوطشون ويهثون، وهي استعارة من الفُرْش ونحوها إلى الأحوال والمراتب. وقال مجاهد: هذا التمهيد

قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلُ
كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٨﴾ فَأَقْرُبْهَا لِدِينِ الَّذِينَ قَدِمُوا مِن قَبْلِ
قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ يَوْمَ لَا مَرَدَ لَهُم مِّنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَعُونَ ﴿٤٩﴾ مَن
كَفَرَ فَلَيْسَ لَهُ مَكْرَهُ يَوْمَ يَعْمَلُ سُوءًا يُعْجِبُ أُولَئِكَ وَيُدْخِلُهُمْ
لِلْجَحِيمِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِن قَبْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ
الْكَافِرِينَ ﴿٥٠﴾ وَمَنْ أَيْبَسَهُمُ الرَّيْحُ مِن رَّبِّهِمْ يَلْبَسْ
مِنْ رَحْمَتِي وَلِيَجْرِيَ الْفَلَاحُ بِالْمَرْءِ وَلِيَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ
وَلِيَلْكَرُوا ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا فِي قُرُوفِهِمْ فَأَمَّا
بِالْبَيْتِ فَأَنْتَقِمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ
الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٢﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتَنِّي سَفَا فِي سَطْحِهِ
فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كَيْفَ يَشَاءُ فَمَنْ يَدْرِي أَيُّ
الْوَدْقِ يَخْرُجُ مِنْ خَلْقِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَشِيرُونَ
﴿٥٣﴾ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلِ أَنْ يُزَلَّ عَلَيْهِمْ مِّن قَبْلِهِ لَمُبْتَلِينَ
﴿٥٤﴾ فَانظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُغِي الْأَرْضَ بَعْدَ
مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُنْبَغِي الْمُؤْمِنِينَ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٥﴾

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿٤٨﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عز وجل: اللام في ﴿ليجزى﴾ متعلقة بـ ﴿يصدعون﴾، ويجوز أن تكون متعلقة بمحذوف تقديره: ذلك، أو: فَعَلَّ ذلك ليجزي، وتكون الإشارة إلى ما تقرر من قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾، وَمَنْ كَفَرَ صَليحاً. وقوله تعالى: ﴿لَا يُحِبُّ الْكُفْرِينَ﴾ ليس الحب بمعنى الإرادة، ولكنه بمعنى: لا يُظهر عليهم أمارات رحمة، ولا يرضاه لهم ديناً، ونحو هذا.

ثم ذكر تعالى من آياته أشياء تقتضي كل عقل بأنه لا مشاركة للأوثان فيها، وهي ما في الريح من المنافع، وذلك أنها بشرى بالمطر، ويذيق الله بها الرحمة، يعني الغيث والخصب، ويلقح بها الشجر وغير ذلك، وتجري السفن بها في البحر، ويتغني

هذا تنبيه لقريش وأمر لهم بالاعتبار بمن سلف من الأمم ويسوء عواقبهم بكفرهم وإشراكهم، ثم أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بإقامة وجهه، والمعنى: اجعل قصدك ومسعاك للدين، أي لطريقه ولأعماله واعتقاداته. و﴿النيم﴾ أصله: قَيْوم، اجتمعت البياء والواو وسبقت البياء وهي ساكنة وأبدلت الواو بياء وأدغمت الأولى في الثانية. ثم حذره تبارك وتعالى من يوم القيامة تحذيراً يعمُّ العالم، وإيهام القصد، و﴿لَا مَرَدَ لَهُ﴾ معناه: ليس فيه رجوع لعمل ولا رغبة، ولا عنه مرتحل، ويحتمل أن يريد: لا يَزُدُّه رأو حتى لا يقع، وهذا ظاهر بحسب اللفظ،

يكون الضمير الذي في الفعل للآثر، ويحتمل أن يكون لله تعالى، وهذا أظهر. وقرأت فرقة: **﴿كَيْفَ تَخَيَّبَا﴾** بالشاء المفتوحة **﴿الْأَرْضُ﴾** بالرفع. وقرأ الجحدري، وابن السمنفج، وأبو حيوة: **﴿تَخَيَّبَا﴾** بناء مضمومة على أن إسناد الفعل إلى ضمير الرحمة نصباً. قال أبو الفتح: **﴿قوله: ﴿كَيْفَ تَخَيَّبَا﴾﴾** جملة منصوبة الموضع على الحال حملاً على المعنى، كأنه قال: مخيِّبة، وهذه الحياة

كجَبَلٍ وجَبَالٍ، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس، والضحاك، والحسن - بخلاف عنه -: **﴿مِنْ خَلِيلِهِ﴾**، وهو اسم جنس. والضمير في **﴿خَلِيلِهِ﴾** يحتمل أن يعود على «السحاب»، ويحتمل أن يعود على «الكشف» في قراءة من قرأ بسكون السين، وذكر الضمير مراعاةً لِلْفِظ لا لمعنى الجمع، كما تقول: «هذا ثَمَرٌ جَيِّدٌ»، و**﴿مِنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا﴾**، ومن قرأ: **﴿كَسَفًا﴾** بفتح السين فلا يعيد الضمير إلا على السحاب فقط.

قوله عز وجل: **﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾** تأكيد أفاد الإعلام بسرعة تقلب قلوب البشر من الإبلاس إلى الاستبشار، وذلك أن قوله: **﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَنْزَلَ عَلَيْهِمْ﴾** يحتمل الفسحة في الزمان، أي: من قبل ذلك، أي: من قبل أن ينزل بكثير من الأيام ونحوه، فجاء قوله: **﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾** بمعنى أن ذلك متصل بالمطر، فهو تأكيدٌ مُقَيِّدٌ، وقرأ يعقوب، وعيسى، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: **﴿يُنزَلُ﴾** مخففة، وقرأت عامة القراء بالثقل في الرائي، وقرأ ابن مسعود: **﴿عَلَيْهِمْ لَمُبْلِسِينَ﴾** بسقوط **﴿مِنْ قَبْلِهِ﴾**. و«الإبلاس»: الكون في حال سوء مع اليأس من زوالها.

ثم عَجِبَهُ بمخاطبة يراد بها جميع الناس من أضر رحمة الله وهي المطر، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، **﴿أَثَرُ﴾** بالإنفراد، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي: **﴿أَثَارُ﴾** بالجمع، واختلف عن عاصم.

وقوله: **﴿كَيْفَ نَجِي﴾** يحتمل أن

وَلَيْنَ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمِعُ الْأُصْمَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمِّيَّ عَنْ ضَلَالِهِمْ إِنْ سَمِعْتَهُمْ مِنْ يَوْمٍ يُنَادِيانَا فَهَمَّ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِيفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِيفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يُضْمِرُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَيْسُوا بِرَسَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْنَا فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمَ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَذِي لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَكِنْ جَسَّتْ بِتَأْيِيدِ لِقَوْلِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ آيَاتِنَا إِلَّا مُبْتَلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦٠﴾

واستنابه منابه؛ لأن الجزاء هنا لا يكون إلا بفعل مستقبل، لكن استعمل الماضي موضع المستقبل في بعض المواضع توثيقاً لوقوعه.

وقوله تعالى: **﴿فَأِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى﴾** الآية... استعارة للكفار، وقد تقدم القول على مثل هذه الآية في سورة النمل. وكلهم قرأ: **﴿وَلَا تَسْمِعُ﴾** بناء مضمومة ونصب **﴿الْأُصْمَاءَ﴾**، وقرأ ابن كثير، وعباس عن أبي عمرو: **﴿تَسْمَعُ﴾** بناء مفتوحة **﴿الْأُصْمَاءَ﴾** رفعاً. وقرأ الجمهور: **﴿يَهْدِي الْعُمِّيَّ﴾** بالإضافة، وقرأ يحيى بن الحرث، وأبو حيوة: **﴿بِهَادٍ﴾** بالتثنية **﴿الْعُمِّيَّ﴾** نصباً. وقوله: **﴿إِنْ تَسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ﴾** معناه: إن تسمع إسماعاً ينفع ويُجدي، وأما سماع الكفرة فغير

والموت استعارة في القحط والإغشاب. ثم أخبر تبارك وتعالى - على جهة القياس والتثنية عليه - بالبعث والثشور، وقوله سبحانه: **﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ عُمُومٌ﴾**

٥١ - تفسير قوله عز وجل: ثم أخبر تعالى عن حال تقلب ابن آدم في أنه بعد الاستبشار بالمطر إذا بعث الله ريحاً فاضفرَّ بها النبات ظل يكفر فللقا منه وقلة توكل وتسليم لله عز وجل. والضمير في **﴿فَرَأَوْهُ﴾** للنبات كما قلنا، أو للآثر وهو حوة النبات الذي أحبيت به الأرض، وقال قوم: هو للريح، وهذا كله ضعيف. واللام في **﴿لَيْنَ﴾** مؤذنة بمجيء القسم، وهو في **﴿أَظَلُّوا﴾**، فاللام لام القسم. وقوله تعالى: **﴿لَظَلُّوا﴾** فعل ماض أنزله منزلة المستقبل

مُجِدِّ فَاسْتَوِيَا. وقوله تعالى: ﴿عَنْ سَلَاطِينَهُمْ﴾، لما كان الهدى يتضمن الصرف عديت بـ [عَنْ] كما تتعدى (صرف)، ومعنى الآية: ليس في قدرتك يا محمد ولا عليك أن تهدي. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿مَنْ ضَلَّاهُمْ﴾.

٥٤ - ٥٦ تفسير قوله عز وجل: هذه أيضاً آية يبين فيها أن الأوثان لا مدخل لها في هذا الأمر. وقرأ جمهور القراء والناس بضم الضاد في ﴿ضَعُفٌ﴾، وقرأ عاصم، وحمزة بفتحها، وهي قراءة ابن مسعود وأبي ابن عمر رضي الله عنهما أنه قرأها على رسول الله ﷺ بالفتح فردّها عليه بالضم، وقال كثير من اللغويين: ضمُّ الضاد في البدن وفتحها في العقل، وروي عن عبدالرحمن، والجحدري، والضحاك أنهم ضموا الضاد في الأول والثاني، وفتحوا ﴿ضَعُفًا﴾، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿مِنْ ضَعُفٍ﴾ بضمين، وهذه الآية إنما يراد بها حال الجسم، والضعف الأول هو كون الإنسان من ماء مهين، والقوة بعد ذلك الشبيهة بشدة الأمر، والضعف الثاني الهرم والشح، هذا قول قتادة وغيره.

ثم أخبر تعالى عن يوم القيامة أن المجرمين يُقسِمون لجأجأ منهم ونشوزاً على ما لا علم لهم به؛ أنهم ما لبثوا تحت التراب غير ساعة، وهذا اتباع لتخليهم الفاسد، ونظرم في ذلك الوقت على ما كانوا في الدنيا يبتغون، فيؤفكون عن الحق، أي: يُصرفون.

وقيل: المعنى: ما لبثوا في الدنيا، كأنهم استقلوها لما عاينوا أمر الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يضعفه قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾؛ إذ لو أرادوا تقليل الدنيا بالإضافة إلى الآخرة لكان منزعاً شديداً، وكان قولهم: ﴿عَبَّرَ سَاعَةً﴾ تجوزاً، أي: في القدر والموازنة.

ثم أخبر تعالى عن الذين أوتوا العلم والإيمان أنهم يقفون في تلك الحال على الحق، ويعرفون أنه الوعد المتقرر في الدنيا. وقال بعض المفسرين: إنما أراد: «أوتوا الإيمان والعلم»، ففي الكلام تقديم وتأخير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا يحتاج إلى هذا، بل ذكر العلم يتضمن الإيمان، ولا يصف الله تعالى يعلم مَنْ لم يعلم كل ما يوجب الإيمان، ثم ذكر الإيمان بعد ذلك تبيهاً عليه وتشريفاً لأمره، كما قال: ﴿فَكَفَّهُمْ وَقَلَّ رَبَّكَ﴾، فنسبته تبارك وتعالى على مكان الإيمان وخصه تشريفاً.

٥٧ - ٦٠ تفسير قوله عز وجل: هذا إخبار عن هول يوم القيامة وشدة أحواله على الكفرة؛ في أنهم لا ينفعهم الاعتذار، ولا يُعطون عُثْبِي، وهي الرضى، و﴿يُسْتَعْتَبُونَ﴾ بمعنى: يعتبون، كما تقول: يملك ويستملك، والباب في (استقتل) أنه طلب الشيء، وليس هذا منه؛ لأن المعنى لا يفسد إذا كان المفهوم منه: ولا يطلب منهم عُثْبِي.

وقرأ عاصم، والأعشى: ﴿يَنْفَعُ﴾

بالياء، كما قال تعالى: ﴿مَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَاتَّخَذَهَا﴾، وحسن هذا أيضاً بالترفة التي بين الفعل وما استند إليه، كما قال الشاعر:

وهل يرجع التسليم أو يكتسب العَمَى
ثلاث الأتافي والديار البلاغ؟
ثم أخبر تعالى عن قسوة قلوبهم، وعجرفة طباعهم، في أنه ضرب لهم كل مثل، وبين عليهم بيان الحق، ثم هم مع ذلك عند الآية والمعجزة يكفرون ويلحقون ويعمّهون في كفرهم، ويصفون أهل الحق بالأباطيل. ثم أخبر تعالى أن هذا إنما هو من طبيعته وخشيته على قلوب الجهلة الذين قد حتم عليهم الكفر في الأزل، وذهب أبو عبيدة إلى أنه من قولهم: «طَبَعَ السَّيْفُ»، أي: صدىء أشد صدىء.

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بالصبر، وقوى نفسه بتحقيق الوعد، ونهاه عن الاهتزاز لكلامهم، أو التحرك واضطراب النفس لأقوالهم؛ إذ هم لا يقين لهم ولا بصيرة.

وقرأ ابن أبي إسحق، ويعقوب: ﴿يَسْتَحِقُّنَكَ﴾ بحاء غير معجمة وقاف، من الاستحقاق، والجمهور على الخاء المعجمة والفاء، من الاستخفاف، إلا أن أبي إسحق ويعقوب سكتا النون من ﴿يَسْتَحِقُّنَكَ﴾. وروي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان في صلاة الفجر، فناداه رجل من الخوارج بأعلى صوته يقرأ هذه الآية ﴿وَلَقَدْ أَرْسَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَكَ لَيَحْطَبَنَّ عَمَلَكَ وَلَكُونَنَّ مِنْ أَلْقَابِ الَّذِينَ﴾، فعلم علي

سُورَةُ لُقْمَانَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْحَدِيثَ الَّذِي نَزَّلْنَا بِهَدْيٍ مِّنْ لَّدُنَّا لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى الْآيَاتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْحَدِيثَ الَّذِي نَزَّلْنَا بِهَدْيٍ مِّنْ لَّدُنَّا لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى الْآيَاتِ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْحَدِيثَ الَّذِي نَزَّلْنَا بِهَدْيٍ مِّنْ لَّدُنَّا لِيُذَكِّرَ الَّذِينَ لَمْ يَرْجِعُوا إِلَى الْآيَاتِ

٤١١

تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ﴾، زوي أنها نزلت في قرشي اشترى جارية مغبئية لثغني بهجاء رسول الله ﷺ وسببه، فنزلت الآية في ذلك، وزوي أنه ابن أخطل، وزوي عن أبي أمامة الباهلي أن النبي ﷺ قال: «شراء المغبئيات وبيمهن حرام»، وقرأ هذه الآية، وقال: «في هذا المعنى نزلت علي هذه الآية»، وبهذا فسّر ابن مسعود، وابن عباس،

رضي الله عنه مقصده في هذا، وتعريضه به، فأجابوه وهو في الصلاة بهذه الآية: ﴿فَأَسْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

كامل تفسير سورة الرّوم والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة لقمان

هذه السورة مكيّة غير آيتين، قال قتادة: «أولهما ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ﴾».

١ - تفسير قوله عزّ وجلّ:

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور، وفي ترتيب ﴿تِلْكَ﴾ مع كل قول منها. و﴿لَيْكُمُ﴾ يصح أن يكون من الحكمة، ويصح أن يكون من الحُكم. وقرأ جمهور القراء: ﴿هَدَى رَحْمَةً﴾ بالنصب على الحال من المبهم، ولا يصح أن يكون من ﴿الْكِتَابِ﴾؛ لأنه مضاف إليه، وقرأ حمزة، والكسائي بالرفع على تقدير: هو هدى، وخصّصه للمحسنين من حيث لهم نفعه، وهم نظروه بعين الحقيقة، وإلا فهو هدى في نفسه، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿هَدَى وَيُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾.

ثم وصف تعالى المحسنين بأنهم الذين عندهم اليقين بالبعث وبما جاء به الرسول ﷺ، وعندهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، ومن صفّتهم ما قال رسول الله ﷺ حين سأله جبريل عليه السلام عن الإحسان، فقال: «أَنْ

لهو الحديث الشزك، وقال مجاهد أيضاً: لهو الحديث الطبل، وهذا ضرب من الغناء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يترجح أن الآية نزلت في لهو حديث مضاف إلى كفر، فلذلك اشتدت ألفاظ الآية بقوله: ﴿لِيُذَكِّرَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ يَغْتَابِ عَلِيمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا﴾ وبالتعود بالعذاب المهيّن. وأما لفظه الشراء فتحتل الحقيقة والمجاز على ما بيّنا، و«لهو الحديث» كل ما يُلهي من غناءٍ وخنا ونحوه، والآية باقية المعنى في أمة محمد ﷺ، ولكن ليس ليُضِلُّوا عن سبيل الله بكفر، ولا ليُتَّخِذُوا الآيات هُزُوًا، ولا عليهم هذا الوعيد، بل لتعطّل عبادة، ويقطعهم زمناً بمكروهه، ولكونهم من جملة العصاة، والنفوس الناقصة تروم تسميم ذلك النقص بالأحاديث، وقد جعلوا

وجابر بن عبدالله، ومجاهد، وقال الحسن: لهو الحديث: المعازف والغناء.

وقال بعض الناس: نزلت في النضر بن الحارث لأنه اشترى كتب رستم واسفنديار، وكان يخلف رسول الله ﷺ فيحدثهم بتلك الأباطيل، ويقول: أنا أحسن حديثاً من محمد، وقال قتادة: الشراء في هذه الآية مُستعاز، وإنما نزلت في أحاديث قريش، وتلّهيهم بأمر الإسلام، وخوضهم في الأباطيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فكأن تزك ما يجب فعله، وامتنثال هذه المنكرات شراء لها، على حدّ قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾. وقد قال مطرف: شراء لهو الحديث استحبابه، قال قتادة: ولعلّه لا يتفق فيه مالا، ولكن سماعه هو شراؤه، وقال الضحاك:

جنس بمعنى الأحاديث، وكذلك ﴿سَبِيلَ اللَّهِ﴾ اسم جنس، ولكل وجه من الحديث وجه يليق به من السبيل.

عز وجل: ﴿٧﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله

هذه دليل كفر هذا الذي نزلت فيه الآية التي قبلها. و«الْوَقْرُ» في الأذن: الثقل الذي يُقَسِّرُ إدراك المسموعات، وجاءت البشارة بالعباد من حيث قُيِّدَتْ ونصَّ عليها.

ولما ذكر عز وجل حال هؤلاء الكفرة وتوعدهم بالنار على أفعالهم عقب

بذكر المؤمنين وما وعدهم به من جنات النعيم؛ لِيَتَّبِعَنَّ الفرق. و﴿وَعَدَ اللَّهُ﴾ منصوب على المصدر، و﴿حَقًّا﴾ مصدر مؤكد.

وقوله تعالى: ﴿بَشِيرٍ عَمْرٍو تَرَوْنَهَا﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «السماء» فيكون المعنى: إن السماء بغير عمد، وأنها تُرَى كذلك، وهذا قول الحسن والناس، و﴿تَرَوْنَهَا﴾ - على هذا القول - في موضع نصب على الحال، ويحتمل أن يعود الضمير على «العمد»، فيكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة للعمد في موضع خفض، ويكون المعنى: إن السماء لها عمد لكن غير مرئية، قاله مجاهد، ونحا إليه ابن عباس رضي الله عنهما، والمعنى الأول أصح، والجمهور عليه، ويجوز أن تكون ﴿تَرَوْنَهَا﴾ في موضع رفع على القطع، ولا عمد ثم.

و«الرَّوَّاسِي» هي الجبال التي بنت في الأرض، وقوله: ﴿أَنْ تَبِيدَ﴾

بمعنى: ألا تמיד، والميد: التحوك يمنة ويسرة وما قرب من ذلك. وقوله تعالى: ﴿مِنْ كُلِّ رِزْقٍ﴾ أي: من كل نوع. والزوج في اللغة: الشؤغ والصنف، وليس بالذي هو ضد الفرد، وقوله تعالى: ﴿كِرِيمٍ﴾ يحتمل أن يريد مذحه من جهة إتقان صنعته وظهور حسن الرتبة والتحكم للصنع فيها، فيعم حينئذ جميع الأنواع؛ لأن هذا المعنى في كلها، ويحتمل أن يريد مدحه بكرم جوهره، وحسن منظره، وما تقتضي له النفوس بأنه أفضل من سواه حتى يستحق الكرم، فتكون الأزواج - على هذا - مخصوصة في نفاثات الأشياء ومُستحسناتها، ولما كان عظم الموجودات كذلك خصص الحجة بها. وقوله: ﴿أَتَيْنَا﴾ يعم أنواع الحيوان وأنواع النبات والمعادن.

ثم وقف تعالى الكفار - على جهة التوبيخ وإظهار الحجة - على أن هذه الأشياء هي مخلوقات الله تبارك وتعالى، ثم سألهم أن يوجدوا ما خلق الأصنام والأوثان وغيرهم ممن عبد، أي: أنهم لم يخلقوا شيئاً، بل هذا الذي قريش فيه ضلال مبين، ثم ذكرهم بالصفة التي تعم معهم سواهم ممن فعل فعلهم من الأمم، وقوله: ﴿مَادًّا﴾ يجوز أن تكون [ما] استفهاماً في موضع رفع بالابتداء، و[ذا] خبرها بمعنى (الذي)، والعائد محذوف، ويجوز أن تكون [ما] مفعولة بـ ﴿أُرْوِي﴾، و[ذا] صلة، و[ما] بمعنى (الذي)، والعائد محذوف، تقديره في الوجهين: خلقه.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَقَمَان رَجُلٌ حَكِيمٌ بِحِكْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهِيَ الصَّوَابُ فِي

وَلَقَدْ آتَيْنَا لَقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَلَا قَالَ لَقْمَانُ لِأَتِيهِ، وَهُوَ يَعْظُمُهُ، يَبْنِي لِأَشْرِكِ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَنَا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّلَهُ فِي عَمَلَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَأَتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ إِنَّ مَرْجِعَكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِي لِيْمَانُ إِنَّكَ بِمَقَالِ جَبْرَتِ بْنِ خَرْدَلٍ فَتَكُنُ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِي بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَبْنِي أَقْبِرُ الصَّلَاةَ وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْرِي عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصْعِقْ ذَلِكَ النَّاسَ وَلَا تَنْشِ فِي الْأَرْضِ مَرْحَاتٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَأَقْصِدْ فِي مَسِيرِكَ وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْغَيْرِ ﴿١٩﴾

الحديث من القري، وقيل لبعضهم: أتمل الحديث؟ فقال: إنما يمل العتيق القديم المعاد؛ لأن الجديد من الأحاديث فيه الطرافة التي تمنع من الملل.

وقرأ نافع، وعاصم، والحسن: ﴿لِيُضِلَّ﴾ بضم الياء، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو بفتحها، وفي حرف أبي: ﴿لِيُضِلَّ النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالنصب عطفاً على ﴿لِيُضِلَّ﴾، وقرأ الباقون: ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ بالرفع عطفاً على ﴿يَبْتَدِرُ﴾.

والضمير في ﴿وَيَتَّخِذَهَا﴾ يحتمل أن يعود على ﴿آيَاتِ الْكُتُبِ﴾ المذكور أولاً، ويحتمل أن يعود على «السبيل»، ويحتمل أن يعود على «الأحاديث»؛ لأن «الحديث» اسم

المعتقدات، والفقهاء في الدين والعمل، واختلف - هل هو نبي مع ذلك أو رجل صالح فقط؟

فقال نبؤته عكرمة والشعبي، وقال بصلاحه فقط مجاهد وغيره، وقال ابن عمر رضي الله عنهما: سمعت النبي ﷺ يقول: «لم يكن لقمان نبياً، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين، أحب الله فأحبه، فمؤ عليه بالحكمة، وخيره في أن يجعله خليفة يحكم بالحق، فقال: رب إن خيرتني قبلت العافية وتركت البلاء، وإن عزمت علي فسمعاً وطاعة فإنك ستعصمني»، وكان قاضياً في بني إسرائيل، نوبياً أسود مُشقق الرجلين ذا مشافر، قاله سعيد ابن المسيب، ومجاهد، وابن عباس. وقال له رجل كان قد رعى معه الغنم: ما بلغ بك يا لقمان ما أرى؟ قال: صدق الحديث والصمت عما لا يعنيني، وقال ابن المسيب: كان من سودان مصر، من الثوبية، وقال خالد بن الربيع: كان نجاراً، وقيل: كان خياطاً، وقيل: كان راعياً. وجمك لقمان كثيرة مأثورة، قيل له: أي الناس شر؟ قال: الذي لا يبالي إذا رآه الناس مُسيئاً.

وقوله تعالى: ﴿إِن أَشْكُرْ﴾ يجوز أن تكون [أَن] في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، أي: بشأن اشكر الله، ويجوز أن تكون مُفسرة، أي: كانت حكمته دائرة على الشكر لله تعالى ومعانيه. وجميع العبادات والمعتقدات داخلة في شكر الله تبارك وتعالى. ثم أخير تعالى أن الشاكر حظه عائد عليه،

وهو المنتفع بذلك، والله تعالى غني عن الشكر، فلا ينفعه شكر العباد، وحميد في نفسه، فلا يضر كفر الكافرين. و﴿جِدُّ﴾ بمعنى: محمود، أي: هو مستحق الحمد بصفاته وذاته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ﴾ يحتمل أن يكون التفسير: واذكر إذ قال، واختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه، واسم ابنه تاران. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بالشد والكسر في الباء، في الثلاثة، على إدغام إحدى الياءين في الأخرى، وقرأ حفص، والمفضل عن عاصم: ﴿يُنَيَّ﴾ بالشد والفتح في الثلاثة، على قولك: يا بُنَيَّ، ويا غلاماً. وقرأ ابن أبي برة عن ابن كثير: ﴿يَا بُنَيَّ﴾ بسكون الباء، و﴿يُنَيَّ﴾ بفتح الباء، و﴿يُنَيَّ أَقْبَرُ الْفُكْلَوَّةِ﴾ بفتح الباء، وروى عنه قنبل بالسكون في الأولى والثالثة، وبكسر الوسطى. وظاهر قوله: ﴿إِنَّكَ أَلْتَرِكَ لَطَلُّ عَظِيمٌ﴾ أنه من كلام لقمان، ويحتمل أن يكون خيراً من الله تعالى منقطعاً من كلام لقمان، مُتصلاً به في تأكيد المعنى، ويؤيد هذا الحديث المأثور: (إنه لما نزلت: ﴿وَلَوْ تَلَوْتُمْ لِكِتَابِهِمْ لَطَلُّ أَشْفَقَ﴾ أصحاب رسول الله ﷺ، وقالوا: أينما لم يظلم؟ فنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ أَلْتَرِكَ لَطَلُّ عَظِيمٌ﴾، فسكن إشفاقهم).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما يسكن إشفاقهم بأن يكون ذلك

خيراً من الله تعالى، وقد يسكن الإشفاق بأن يذكر الله عز وجل ذلك عن عبد قد وصفه بالحكمة والسداد. ﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هاتان الآيتان اعتراض أثناء وصية لقمان، ووجه الطبري ذلك بأنها من معنى كلام لقمان، ومما قصده، وذلك غير متوجه؛ لأن كون الآيتين في شأن سعد بن أبي وقاص - حسب ما ذكره بعد - يضعف أن يكون مما قاله لقمان، وإنما الذي يشبه أنه اعتراض أثناء الموعدة، وليس ذلك بمفسد الأول منها ولا الآخر، ولما فرغ من هاتين الآيتين عاد إلى الموعدة على تقرير إضمار: «وقال أيضاً لقمان»، ثم اختصر ذلك لدلالة المتقدم عليه.

وهذه الآية شريك الله تعالى الأم والوالد منها في رتبة الوصية بهما، ثم خصص الأم بدرجة ذكر الحمل، وبدرجة ذكر الرضاع، فحصل للأم ثلاث مراتب، وللأب واحدة، وأشبه ذلك قول الرسول ﷺ - حين قال له رجل: - من أرب؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «أمك»، قال: ثم من؟ قال: «ثم أباك»، فجعل له الربع من الميرة كالأية.

و﴿وَهَذَا عَلَى وَهْنٍ﴾ معناه: ضعفاً على ضعف، وقيل: أشار إلى مشقة الحمل ومشقة الولادة بعده، وقيل: أشار إلى ضعف الولد وضعف الأم معه، ويحتمل أنه أشار إلى تدرج حالها في زيادة الضعف، كأنه لم يعين ضعفين، بل كأنه قال: حملته أمه والضعف يتزايد بعد الضعف إلى

أن ينقضي أمده. وقرأ عيسى الثقفى: ﴿وَهَنَّا عَلَى وَهْنٍ﴾ بفتح الهاء، ورويت عن أبي عمرو، وهما بمعنى واحد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَفَصَالُهُ﴾، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، والجحدري، ويعقوب: ﴿وَفَضْلُهُ﴾، وأشار بالفصال إلى تحديد مدة الرضاع، فعبّر عنه بغايته ونهايته، والناس مجمعون [على العامين] في مدة الرضاع في باب الأحكام والنفقات، وأما في تحريم اللبن فحددت فرقة بالعامين لا زيادة ولا نقص، وقالت فرقة: العامان وما اتصل بهما من الشهر ونحوه إذا كان متصل الرضاع في حكم واحد يحرم، وقالت فرقة: إن فطم الصبي قبل العامين ونزل اللبن فإن من شرب بعد ذلك في الحولين لا يحرم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَشْكُرَّ﴾ يحتمل أن يكون التقدير: بأن أشكر، ويحتمل أن تكون مفسرة، وقال سفيان بن عيينة: من صلى الصلوات الخمس فقد شكر الله تعالى، ومن دعا لوالديه في أدبار الصلوات فقد شكرهما. وقوله تعالى: ﴿إِنِّي لَأَنصِيرُ﴾ توعد أثناء الوصية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَهَدَاكَ﴾ الآية. روي أن هاتين الآيتين نزلتا في شأن سعد بن أبي وقاص، وذلك أن أمه - وهي حمنة بنت أبي سفيان بن أمية - حلفت ألا تأكل ولا تشرب حتى يفارق دينه ويرجع إلى دين آياته وقومه، فليج سعد في الإسلام، ويروي أنها كانت إذا أجهدها العطش

شجوا فاهما، ويروي: شجروا، أي: فتحوه بعدد ونحوه وصبوا ما يرمقها، فلما طال ذلك ورأت أن سعداً لا يرجع أكلت، ففي هذه القصة نزلت الآيات، قاله سعد بن أبي وقاص والجماعة من المفسرين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وواطأت الآية الأولى الأمر بيسر الوالدين وحكمه، ثم حكّم بأن ذلك لا يكون في الكفر والمعاصي، وجُملة هذا الباب أن طاعة الأبوين لا تُرعى في ركوب كبيرة، ولا في ترك فريضة على الأعيان، وتلزم طاعتهما في المباحات، ويستحسن في ترك الطاعات الندب، ومنه أمر الجهاد الكفائية، والإجابة للأمر في الصلاة مع إمكان الإعادة، مع أن هذا أقوى من الندب، لكن يُعَلَّل بخوف هلكة عليها ونحوه مما يبيح قطع الصلاة فلا يكون أقوى من الندب، وخالف الحسن في هذا التفصيل، فقال: إن منعت أمه من شهود العشاء الآخرة شفقة فلا يطعها.

وقوله: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ يعني: الأبوين الكافرين، أي: صلحهما بالمال، واذعهما برفق، ومنه قول أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه للنسبي رضي الله عنه: وقد قدمت عليها خالتهما، وقيل: أمها من الرضاة - فقالت: يا رسول الله، إن أمي قد قدمت علي وهي راغبة، أفأصلحها؟ قال: «نعم»، وراغبة، قيل: معناه: عن الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأظهر عندي أنها راغبة في الصلة، وما كانت لتُقدّم على أسماء لولا

حاجتها، والدة أسماء هي قتيبة بنت عبدالعزى بن عبد أسعد، وأم عائشة وعبدالرحمن هي أم رومان قديمة الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿وَاتَّبَعَ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ﴾ وصية لجميع العالم، كأنّ الأمور للإنسان، و﴿أَنَابَ﴾ معناه: رجع إلى الشيء، وهذه سبيل الأنبياء والصالحين، وحكى الثقات أن الأمور لسعد، والذي أناب أبو بكر رضي الله عنهما، وقال: إن أبا بكر لما أسلم أتاه سعد، وعبدالرحمن بن عوف، وعثمان، وطلحة، وسعيد، والزبير، فقالوا: أمنت؟ قال: نعم، فنزلت فيه ﴿أَمَّنْ هُوَ قَتِيْبٌ ءَأَنَاءَ الْيَلِّ﴾، فلما سمعها السنته آمنوا، فأنزل الله تعالى فيهم ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَتْلَقُوا أَن تَقْدُرُوا أَن يَمْدُدُوا بِأَبْوَابِنَا إِلَى اللَّهِ فَهَمُّ النَّاسِ فِي يَدَيْهِمْ إِبْرَاهِيمَ إِبْرَاهِيمَ عِبَادَ اللَّهِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ. ثُمَّ تَوَعَّدَ تعالى بالبعث من القبور، والرجوع للأعمال وكبيرها.

﴿١٦﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: وقال لقمان: يا بُنَيَّ، وهذا القول من لقمان إنما قصد به إعلام ابنه بقدر قدرة الله تعالى، وهذه الغاية التي أمكنه أن يفهمه؛ لأن الحزذلة يقال: إن الحس لا يُدرك لها ثقلاً؛ إذ لا ترجح ميزاناً. وقد نطقت هذه الآية بأن الله تعالى قد أحاط بها علماً. وقوله تعالى:

﴿وَيُنْفَكَّ كَبَكَّ﴾ عبارة تصلح للجواهر، أي: قدر حبة، وتصلح للأعمال، أي: ما زنته على جهة

المماثلة قدر حَبَّة، فظاهر الآية أنه أراد شيئاً من الأشياء خفياً قدر حبة، ويؤيد ذلك ما روي من أن ابن لقمان سأل أباه عن الحبة تقع في مثل البحر، أيعلمها الله؟ فراجع لقمان بهذه الآية. وذكر كثير من المفسرين أنه أراد الأعمال والمعاصي والطاعات، ويؤيد ذلك قوله: ﴿يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾، أي: لا يفوت. وبهذا المعنى يتحصل في الموعظة ترجية وتخويف. فيضاف ذلك إلى تبيين قدرة الله تعالى، وفي القول الآخر ليس ترجية ولا تخويف. ومما يؤيد قول من قال: «هي من الجواهر» قراءة عبدالكريم الجزري: ﴿فَتَكِينٌ﴾ بكسر الكاف وشد النون، من الكَيْنَ الذي هو الشيء المغطى.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنْ تَكُ﴾ بالثاء من فوق ﴿يُنْقَالَ﴾ بالنصب على خبر «كان»، واسمها مضمير تقديره: مسألتك - على ما روي - أو: المعصية أو الطاعة على القول الثاني، والمضمير في ﴿إِنَّمَا﴾ ضمير القصة، وقرأ نافع وحده بالياء نصباً ﴿يُنْقَالَ﴾ بالرفع على اسم «كان»، وهي التامة، وأسند إلى المثقال فعلاً فيه علامة التأنيث من حيث انضاف إلى مؤنث هو منه، وهذا كقول الشاعر:

مَشِينٌ كَمَا اهْتَزَّتْ رِمَاحٌ تَسْفَهَتْ
أَعَالِيهَا مَرُّ الرِّيَّاحِ السُّوَابِمِ
وهي قراءة الأعرج وأبي جعفر.

وقوله: ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾، قيل: أراد الصخرة التي عليها الأرض والحوث والماء، وهي على ظهر ملك، وقيل: هي صخرة في الريح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا كله ضعيف، لا يُثْبِتُه سند، وإنما معنى الكلام المبالغة والانتهاة في التفهيم، أي: إن قدرته مثال ما يكون في تضاعيف صخرة، وما يكون في السماء وفي الأرض. وقرأ قتادة: ﴿فَتَكِينٌ﴾ بكسر الكاف والتخفيف: من: وَكُنْ يَكِينٌ، وتقدمت قراءة عبدالكريم ﴿فَتَكِينٌ﴾.

وقوله: ﴿يَأْتِي بِهَا اللَّهُ﴾ إن أراد بها الجوهر فالمعنى: يأت بها إن احتيج إلى ذلك، إن كانت رزقاً ونحو هذا، وإن أراد الأعمال فمعناه: يأت بذكرها وحفظها ليجازي عليها بثواب أو بعقاب. و﴿لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾ صفتان لاقتتان بإظهار غرائب القدرة.

ثم وصى ابنه بِعُظْمِ الطَّاعَاتِ، وهي الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا إنما يريد به بعد أن يَمْتَثِلَ هو في يقينه، ويزدجر عن المنكر، وهنا هي الطاعات والفضائل أجمع.

وقوله: ﴿وَأَسْبِرْ عَلَيَّ مَا أَصَابَكَ﴾ يقتضي حُضّاً على تغيير المنكر وإن نالك ضرر، فهو إشعارٌ بأنَّ المغيّر يؤذَى أحياناً، وهذا القدر هو على جهة الندب والقوة في ذات الله عز وجل، وأما على اللزوم فلا.

وقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ معناه: مما عزمه الله وأمر به، ويحتمل أن ذلك من مكارم الأخلاق وعزائم أهل الحزم السالكين طريق النجاة، والأول أصوب، ويكليهما قالت طائفة.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن محيصن: ﴿وَلَا

تُصَاعِرْ﴾. وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، والحسن، ومجاهد، وأبو جعفر: ﴿وَلَا تُصَيِّرْ﴾، وقرأ الجحدري: ﴿وَلَا تُضْمِرْ﴾ بسكون الصاد، والمعنى متقارب، والضمر: التمثيل، ومنه قول الأعرابي: «وقد أقام الدهرُ صعري بعد أن أقمْتُ صعره»، ومنه قول عمرو بن حُني الثغلي:

وَكُنَّا إِذَا الْجَبَّارُ صَعَّرَ خَدَّهُ
أَقْمَنَّا لَهُ مِنْ مَيْلِهِ فَتَقَرُّمِ
أي: فتَقَرُّمُ أَنْتَ، قاله أبو عبيدة، وأنشده أبو عبيدة: (فَتَقَرُّمًا) وهو خطأ؛ لأن قافية الشعر مخفوضة، وفي بيت آخر:

أَقْمَنَّا لَهُ مِنْ خَدِّهِ الْمُتَصَعِّرِ
فالمعنى: ولا تمل خدك للناس كبيراً عليهم، وإعجاباً، واحتقاراً لهم، وهذا هو تأويل ابن عباس - رضي الله عنهما - وجماعة، ويحتمل أن يريد أيضاً الضد، أي: ولا سؤوالاً ولا ضراعة بالفقر، والأول أظهر بدلالة ذكر الاختيال والفخر بعده، وقال مجاهد: ﴿وَلَا تُصَيِّرْ﴾ أراد به الإعراض وهجره بسبب أخيه.

و«الْمَرْحُ»: التَّشَاطُ، و«الْمَشْيُ مَرْحاً» هو في غير شغل ولغير حاجة، وأهل هذا الخلق ملازمون للفخر والخيلاء، فالمرح مُخْتَالٌ في مشيته، وقد قال ﷺ: «مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خَيْلَاءَ لَمْ يَنْظُرِ اللَّهُ إِلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»، وقال: «بينما رجل من بني إسرائيل يجرُّ ثوبه خَيْلَاءَ خَسَفَ اللَّهُ بِهِ، فَهُوَ يَسْتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَى يَوْمِ

والنبات إنما هو لمسخرٍ ومالك .
 وقرأ يحيى بن عمارة، وابن عباس :
﴿وَأَصْنِغْ﴾ بالصاد على بدلها من
 السين؛ لأن حروف الاستعلاء
 تجتذب السين من سفنها إلى علوها
 فتردّها صاداً، والجمهور قراءة تهيم
 بالسين . وقرأ نافع، وأبو عمرو،
 وحفص عن عاصم، والحسن،
 والأعرج، وابن جعفر، وابن نصاح،
 وغيرهم : **﴿نَعْمَةٌ﴾** جمع (نَعْمَةٌ)،
 كسِدْرَةٌ وسِدْرٌ بفتح الدال،
 و«الظاهرة» هي الصحة وحُسن
 الخَلْقَةِ والمال وغير ذلك، و«الباطنة»
 المعتقدات من الإيمان ونحوه،
 والعقل . قال ابن عباس
 رضي الله عنهما : الظاهرة : الإسلام
 وحُسن الخَلْقَةِ، والباطنة : ما ستر من
 سيء العمل، وفي الحديث : (قيل
 لرسول الله ﷺ : قد عرفنا الظاهرة،
 فما الباطنة؟ قال : «ستر ما لو رآك
 الناس عليه لمَقْتُوك»).

قال القاضي أبو محمد رحمه الله :
 ومن الباطنة التنفس والهضم والتغذي
 وما لا يُحصى كثرة، ومن الظاهرة
 عمل بالجوارح بالطاعة، قال
 المحاسبي : الظاهرة : نِعَم الدنيا،
 والباطنة : نِعَم العقبى، وقرأ الجمهور
 من الناس : **﴿نَعْمَةٌ﴾** على الإفراد،
 فقال مجاهد : المراد «لا إله
 إلا الله»، وقال ابن عباس
 رضي الله عنهما : أراد الإسلام،
 والظاهر عندي أنه اسم جنس، كقوله
 تبارك وتعالى : **﴿وَأِنَّ نَعْدُوَ نَعْمَتَ اللَّهِ
 لَا نَحْصُوهَا﴾** .

ثم عارض بالكفرة مُتْبِهاً على فساد
 حالهم، وهم المشار إليهم بقوله

الأصوات، وكذلك كل ما
 بُعِدَ عن الغَضِّ من
 أصوات البشر فهو في
 طريق تلك، وفي
 الحديث : «إذا سمعتم
 نهيق الحمير فتعوذوا بالله
 من الشيطان، فإنها رأت
 شيطاناً»، وقال سفيان
 الثوري : صياح كل شيء
 تسبب إلا صياح الحمير .
 وقال عطاء : نهيق الحمير
 دعاء على الظلمة .

و **﴿أَنْكَرَ﴾** معناه : أقبح
 وأوحش، و **﴿أَنْكَرَ﴾**
 عبارة تجمع المذام
 اللاحقة للصوت الجهير،
 وكانت العرب تفخر

بجهاة الصوت الجهير، على خُلُقِ
 الجاهلية، ومنه قول الشاعر :

جَهِيْرُ الْكَلَامِ جَهِيْرُ الْعُطَاسِ
 جَهِيْرُ الرِّوَاءِ جَهِيْرُ التُّعْمِ
 وَيَعْدُو عَلَى الْأَيْنِ عَدُوَ الظَّلِيمِ
 وَيَعْلُو الرُّجَالَ بِخُلُقِ عَمَمِ
 فنهى الله تعالى عن هذه الخلق
 الجاهلية . وقوله : **﴿لَصَوْتُ الْهَيْبِ﴾**
 أراد بالصوت اسم جنس، ولذلك
 جاء مفرداً . وقرأ ابن عبله : **﴿إِنَّ
 أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ أَصْوَاتُ الْحَمِيرِ﴾**
 بالجمع في الثاني دون لام . والغَضُّ
 ردُّ طَفْحَانِ الشيء، كالنظر، وزمام
 الناقة، والصوت، وغير ذلك .

٢٠ - ٢١ تفسير قوله عز وجل :
 هذه آية ننبهه على الصنعة الدالة
 على الصانع، وذلك أن تسخير هذه
 الأمور العظام كالشمس والقمر
 والنجوم والسحاب والرياح والحيوان

سُورَةُ الْقَمَانَ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي

أَنْزَرْنَا أَنْ اللَّهُ سَخَّرَ لَكُمْ مَاءَ السَّمَوَاتِ وَمَاءَ الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ
 عَلَيْكُمْ نِعْمَهُ ظَهْرَهُ وَبِاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ
 بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا
 مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَبِيحٌ مَّا وَعَدَنَا عَلَيْهِ مَاءٌ مَّاءٌ نَّارٌ أَوْ لَوْ كَانَ
 الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ وَمَنْ يُسَلِّمْ
 وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى
 وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ هَرَفَ فَلَا يَحْزَنْكَ كُفْرُهُ
 إِنَّمَا مَرَجَعُهُمْ فَفَيْتَهُمْ بِمَا عَمِلُوا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ
 ﴿٢٣﴾ نَعْنِيَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْضُ لَهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾
 وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ
 الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَاءِ السَّمَوَاتِ
 وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ
 مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمْدُ، مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ
 مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ
 وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كَفَيْسَ وَجِدَّةً إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾

٤١٣

القيامة، وقال مجاهد : الفُخُور هو
 الذي يعدد ما أعطي ولا يشكر الله
 تبارك وتعالى، قال : وفي اللفظ
 الفخر بالنسب وغير ذلك .

ولما نهاه عن الخُلُقِ الذميمة رسم له
 الخُلُقِ الكريم الذي ينبغي أن
 يستعمله، من الفَضْدِ في المشي،
 وهو ألا يتخرق في إسراع، ولا
 يُرَائِي في إبطاء وتضاول، وعلى نحو
 ما قال القائل :

كُلُّنَا يَمْشِي زُوْنِد
 كُلُّنَا يَطْلُبُ صَنِيد
 غَيْرَ عَمْرٍو بِنِ عَيْنِيد

وَألا يمشي مختلاً متبختراً، ونحو
 هذا مما ليس بقصد . وغَضُّ الصوت
 أَوْفَرٌ للمتكلم وأَسْطٌ لنفس السامع
 وفهمه . ثم عارض متمثلاً بصوت
 الحمير على جهة التشبيه، أي : تلك
 هي التي بُعِدَت عن الغَضِّ فهي أَنْكَرُ

تعالى: ﴿وَمَنْ آتَايْنِ﴾، وقال النفاش: الإشارة إلى النصر بن الحارث ونظرائه؛ لأنهم كانوا ينكرون الله تعالى ويشركون الأصنام في الألوهية، وذلك جدالهم، و﴿يَبْتَرِ عَلَيْهِ﴾ أي: لم يُعلمهم من يُقبل قوله، ولا عندهم هدى قلب ولا نور بصيرة يقيمون بها حجة، ولا يبتغون بذلك كتاباً من الله يبشر بأنه وحي، بل ذلك دعوى منهم وتخرف، وإذا دعوا إلى اتباع وحي الله تعالى رجعوا إلى التقليد المحض بغير حجة، فسلكوا طريق الآباء. ثم وقف الله تعالى - وهم المراد بالتوقيف - على اتباعهم دين آبائهم، أيكون وهم بحال من يصير إلى عذاب السعير؟ فكان القائل منهم يقول: هم يتبعون دين آبائهم ولو كان مصيرهم إلى السعير، فدخلت ألف التوقيف على حرف العطف كما كان اتساق الكلام، فتأمل.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى حال الكفرة أعقب ذلك بذكر حال المؤمنين ليَتَبَيَّنَ الفرق وتتحرك النفوس إلى طلب الأفضل. وقرأت عامة القراء: ﴿يُسَلِّمُ﴾ بسكون السين وتخفيف اللام، وقرأ عبدالله بن مسلم، وأبو عبدالرحمن: ﴿يُسَلِّمُ﴾ بفتح السين وشد اللام، ومعناه: يخلص وجهه ويستسلم به، و«الوجه» هنا الجارحة، استعير للقصد؛ لأن القاصد للشيء فهو مستقبله بوجهه، فاستعير ذلك للمعاني، و«المُخْسِن» هو الذي جمع القول والعمل، وهو الذي شرح رسول الله ﷺ حين سأله

جبريل عليه السلام عن الإسلام.

و«الْعُرْوَةُ الْوُثْقَى» هي استعارة للأمر المنجي الذي لا يخاف عليه استحالة ولا إخلال، والغرى موضع التعلق، فكان المؤمن متعلق بأمر الله تبارك وتعالى، فشبّه ذلك بالعروة، و﴿الْأُمُورُ﴾ جمع أمر، وليس بالمضاد للنهي. ثم سلى عز وجل نيته عليه الصلاة والسلام عن موجدته لكفر قومه وإعراضهم، فأمره ألا يحزن لذلك، بل يعمد إلى ما كُلف من التبليغ ويرجع الكل إلى الله تعالى. وقرأت فرقة: ﴿يُخَزِّنُكَ﴾ من الرباعي، وقرأت فرقة: ﴿يَحْزِنُكَ﴾ من الثلاثي، و«ذات الصدور» ما فيها، والقصود من ذلك: إلى المعتقدات والآراء، ومن ذلك قولهم: «الذنب مغبوط بذئ بطنه»، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: «ذو بطن بنت خارجة». و«المتاع أقليل» هو العُمر في الدنيا، و«العذاب الغليظ» معناه: المغلظ المؤلم.

ثم أقام عليهم الحجة في أمر الأصنام بأنهم يُقِرُّون بأن الله تعالى هو خالق المخلوقات، ويدعو مع ذلك إليها غيره، والمعنى: قل الحمد لله على ظهور الحجة عليكم. وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَكْذَرْتُمْ﴾ إضراب عن مقدر، تقديره: ليست دعواهم بحق، ونحو هذا، وقوله: ﴿أَكْذَرْتُمْ﴾ على أصله؛ لأن منهم من شدّ قلم كزيد بن عمرو بن نفيل وورقة بن نوفل. ويحتمل أن تكون الإشارة أيضاً إلى من هو مُعَدُّ أن يسلم. ثم أخبر على جهة الحكم وفضل القضية

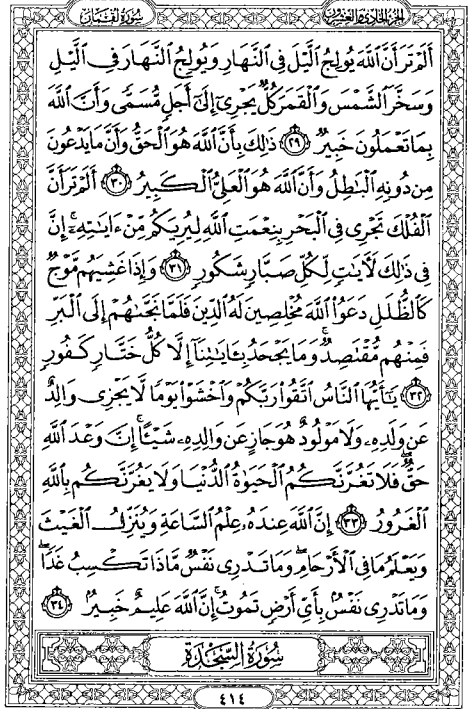
بأن الله عز وجل له ملك السموات والأرض وما فيهما، أي: وأقوال هؤلاء لا معنى لها ولا حقيقة، والمعنى: الذي لا حاجة به في وجوده وكماله إلى شيء، ولا نقص بجهة من الجهات، و﴿الْحَمِيدُ﴾ المحمود، أي: كذلك هو بذاته وصفاته.

﴿٢٤﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب هذه الآية أن اليهود قالت: يا محمد، كيف غنينا بهذا القول ﴿وَمَا أُرِيْتُمْ مِنْ آلِهَةٍ إِلَّا قَلِيلًا﴾ ونحن قد أوتينا التوراة فيها كلام الله وأحكامه، وعندك أنها تبيين كل شيء؟ فقال لهم رسول الله ﷺ: «التوراة قليل من كثير»، ونزلت هذه الآية، وهذا هو القول الصحيح، والآية مدنية. وقال قوم: إن سبب الآية أن قريشاً قالت: سيتم الكلام لمحمد وينحسر، فنزلت. وقال السدي: قالت قريش: ما أكثر كلام محمد، فنزلت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والغرض منها الإعلام بكثرة كلمات الله تعالى، وهي في نفسها غير متناهية، وإنما قرب الأمر على أذهان البشر بما يتأهون؛ لأنه غاية ما يعهده البشر من الكثرة، وأيضاً فإن الآية إنما تضمنت أن كلمات الله تعالى لم تكن لتنفذ، وليس تقتضي الآية أنها تنفذ بأكثر من هذه الأقسام والنحو.

وقال أبو علي: المراد بالكلمات - والله أعلم - ما في المقدور دون ما خرج منه إلى الوجود. وذهبت فرقة



وقالت فرقة: مد الشيء بعضه بعضاً، وأمد الشيء ما ليس منه، فكأن الأبحر السبعة المتوهمة ليست من البحر الموجود. وقرأ جعفر بن محمد: ﴿وَالْبَحْرُ مِدَادُهُ﴾، وهو مصدر، وقرأ ابن مسعود: ﴿وَبَحْرٌ يَمُدُّهُ﴾، وقرأ الحسن: ﴿مَا نَفِدَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى﴾.

ثم ذكر تعالى أمر الخلق والبعث أنه في الجميع وفي شخص واحد بالسواء؛ لأنه كله «يكن فيكون»، قاله مجاهد، وحكى الشُّقَّاش أن هذه الآية في أبي بن خلف، وأبي الأسود وبنيه، ومنبه بن الحجاج، وذلك أنهم قالوا: يا محمد، إننا نرى الطفل يُخلق بتدرج وأنت تقول: الله يعيدنا دفعة واحدة، فنزلت الآية بسببهم.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا تنبيه خُوطب به النبي ﷺ والمراد به جميع العالم، وهذه عبرة تدل على أن الخالق المخترع أن يكون الليل بتدرج، والنهار كذلك، فما قُصِرَ من أحدهما زاد في الآخر، ثم بالعكس ينقسم الزمان بحكمة باري العالم، لا ربَّ غيره.

و ﴿يُؤَلِّمُ﴾ معناه: يُدْخِلُ، و «الْأَجَلُ الْمُسَمًّى»: القيامة التي تنتقض فيها هذه البُنية وتُكوَّر الشمس. وقرأ جمهور القراء: ﴿يَمَا تَعْمَلُونَ﴾ بالثاء من فوق، وقرأ عباس

عن أبي عمرو: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾، الإشارة بـ «ذَلِكَ» إلى هذه العبارة وما جرى مجراها، ومعنى ﴿هُوَ الْحَقُّ﴾ أي: صفة الألوهية له حق، فيحسن في القول تقدير (ذو)، وكذلك الباب متى أُخبر بمصدر عن عين، فالتقدير: ذو كذا، و (حَقُّ) مصدر، ومنه قول الشاعر:

فَبِأَنَّ مَا هِيَ إِفْسَالٌ وَإِدْبَارُ

وهذا كثير. ومتى قلت: كذا وكذا حق، فإنما معناه: أتصاف كذا بكذا حق.

وقوله: ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ﴾ يصح أن يريد الأصنام، وتكون [مَا] بمعنى (الذي)، ويكون الإخبار عنها بالباطل على نحو ما قدمناه في ﴿الْحَقُّ﴾، ويصح أن تكون [مَا] مصدرية، كأنه قال: وأنت دعاءكم آلهة من دونه الباطل، أي الفعل الذي لا يُؤدِّي إلى الغاية المطلوبة به. وقرأ الجمهور: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالثاء من فوق، وقرأ: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء ابن وثاب، والأعمش، وأهل مكة، ورويت عن أبي عمرو، وياقي الآية بين.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الرؤية في قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رؤية العين يترتب عليها النظر والاعتبار، والمخاطب محمد ﷺ والمراد النَّاسُ أجمع. و «الْفُلْكَ»: جمع واحد. وقرأ موسى بن الزبير: ﴿الْفُلْكَ﴾ بضم اللام. وقوله: ﴿يَنْعَمَتِ اللَّهُ﴾ يحتمل أن يريد ما تحمله السفن من الطعام والتجارات

إلى أن الكلمات هنا إشارة إلى المعلومات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ينحو إلى الاعتزال من حيث يرون أنه مخلوق، نور الله تعالى قلوبنا بهداه.

وقرأ أبو عمرو وحده من السبعة، وابن أبي إسحق، وعيسى: ﴿وَالْبَحْرُ﴾ بالنصب عطفاً على [مَا] التي هي اسم [أَنَّ]، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَالْبَحْرُ﴾ بالرفع على أنه ابتداء، وخبره في الجملة التي بعده؛ لأن تقديره: «هذه حاله»، كذا قدره سيبويه، وقال بعض النحويين: هو عطف على [أَنَّ]؛ لأنها في موضع رفع بالابتداء. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَمُدُّهُ﴾ من (مد)، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يَمُدُّهُ﴾ من [أَمَدًا]، وقالت فرقة: هما بمعنى واحد،

والأرزاق، فالباء للإلصاق، ويحتمل أن يريد: بالريح وتسخير الله تعالى البحر ونحو هذا، فالباء باء السبب. وقرأ الجمهور: ﴿بِنِعْمَتِي﴾ وقرأ الأعرج، ويحيى بن يعمر: ﴿بِنِعْمَاتِي﴾ على الجمع المسلم، وقرأ ابن أبي عملة: ﴿بِنِعْمَاتِي﴾ بفتح النون وكسر العين.

وذكر تعالى من صفات المؤمن الصُّبَّارَ والشُّكُورَ على الصُّرَّاءِ والصُّرَّاءِ، وقال الشعبي: «الصُّبْرُ نصف الإيمان، والشُّكْرُ نصفه الآخر، واليقين الإيمان كله».

وَعَشِي: غَطَّى أَوْ قَارَبَ، و«الظُّلُلُ»: السحاب، وقرأ محمد بن الحنفية: ﴿كَالظُّلَالِ﴾، ومنه قول النابغة يصف البحر:

يَمَاشِيهِنَّ أَخْضَرُ دُو ظِلَالٍ
عَلَى حَافِيَةِ فَلَاقِ الدُّنَانِ
ووصف تعالى في هذه الآية حالة البشر الذين لا يعتبرون حق العبرة، والمقصد بالآية تبيين آية تشهد العقول بأن الأصنام والأوثان لا شركة لها فيها ولا مدخل.

وقوله تعالى: ﴿فَيَنْهَمُ مُنْقَصِدًا﴾، قال الحسن: منهم مؤمن يعرف حق الله تعالى في هذه النعم، وقال مجاهد: يريد: منهم مقتصد على كفره، أي: منهم من يسلم لله تعالى ويفهم نحو هذا من القدرة، وإن ضلَّ في الأصنام من جهة أنه يُعْظَمُها بسيرته ولسانه.

و«الْحَتَّارُ»: القبيح الغدر، وذلك أن نِعَمَ الله تعالى على العباد كأنها عهدٌ ومِنَّةٌ يلزم عنها أداء شكرها

والعبادة لمُسَيِّبِهَا، فمن كفر بذلك وجحد به فكأنه خَتَرَ وَخَانَ، ومن الخَتَرَ قول عمرو بن معديكرب الزبيدي:

فَبِائْتِكَ لَو زَأَيْتَ أَبَا عَمَّيْرٍ
مَلَأْتَ يَدَيْكَ مِنْ عَذْرِ وَخْتِيرٍ
وقال الحسن: الخَتَارُ هو العَدَارُ. و﴿كَفُورٍ﴾ بناء مبالغة.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَجْزِي﴾ معناه: يقضي، والمعنى: لا ينفعه شيء، ولا يدفع عنه شيئاً، و﴿هُوَ جَارٍ﴾ جملة في موضع الصفة، أي: ولا يجزي مولودٌ قد كان في الدنيا يجزي. و﴿الْفَرُّورُ﴾: الشطميح بما لا يتحصل، و﴿الْفَرُّورُ﴾: الشيطان، بذلك فسّر مجاهد والضحاك، وقال: هو الأمل والتسويق. وقرأ سِمَاكَ بِنُ حَزْبٍ، وأبو حيو: ﴿الْفَرُّورُ﴾ بضم الغين، وقال سعيد بن جبّير: معنى الآية أن تعمل المعصية وتتمنى المغفرة.

وقرأ الجمهور: ﴿يَجْزِي﴾ بفتح الياء، من (جَزَى)، وقرأ عكرمة: ﴿يُجْزِي﴾ بضم الياء على ما لم يُسَمَّ فاعله، وحكى ابن مجاهد قراءة: ﴿لَا يُجْزِيءُ﴾ بضم الياء وبالهَمْز. وفي رفع ﴿مَوْلُودٌ﴾ اضطرابٌ من النحاة، قال المهدي: «ولا يكون مبتدأ لأنه نكرة وما بعده صفة له فيبقى بغير خبر». وقرأ ابن أبي عملة، وابن أبي إسحق، ويعقوب: ﴿وَلَا تَغْرُنْكُمْ﴾ خفيفة النون.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ﴾

الآية. ذكر النقاش أن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن هذه الخمس، وزُوي أنه سأل عن بعضها فنزلت الآية حاصرةً لمفاتيح الغيب التي لا يعلمها إلا الله عز وجل، ذكر ذلك مجاهد، ولن تجد من المغيبات شيئاً إلا هذه أو ما يفيدته النظر والتأويل.

و﴿عَلِمَ السَّاعَةَ﴾ مصدرٌ مضاف إلى مفعول، أي: كل ما شأنه أن يُعلم من أمر الساعة، ولكن الذي استأثر الله به هو علم الوقت، وغير ذلك فذا علم ببعض منه. وكذلك نزول الغيث أمر قد استأثر الله عز وجل بتفصيله وعَلِمَ وقته الخاص به. وأمر الأجنّة كذلك، وأفعال البشر وجميع كسبهم كذلك، وموضع موت كل بشر كذلك الأصقاع والموضع الخاص بالجسد.

وقرأ ابن أبي عملة: ﴿بِأَيَّةِ أَرْضٍ﴾ بفتح الياء وزيادة تاء تأنيث. و﴿عَلِمَهُ حَبِيرٌ﴾ صفتان مشابھتان لمعنى الآية.

وقال ابن مسعود رضي الله عنه: كل شيء أوتي نبيكم إلا مفاتيح الخمس، ثم تلا الآية.

وقرأ: ﴿وَنَزَّلَ الْغَيْثَ﴾ خفيفة أهل الكوفة، وأبو عمرو، وعيسى، وقرأ: ﴿وَنَزَّلْنَا﴾ بالثقل نافع، وأبو جعفر، وعاصم، وشيبة. وذكر أبو حاتم في ترجيح الثقل رأياً.

كامل تفسير سورة لقمان والحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

رضي الله عنهما، ومقاتل: المعنى: لم يأتيهم نذيرٌ في الفترة بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام.

وقوله تعالى: ﴿ فِي سِتَّةِ آيَاتٍ ﴾ يقضي بأن يوماً من أيام الجمعة بقي لم يُخلق فيه شيء، وتظاهرت الأحاديث الصحاح أن الخلق ابتداءً يوم الأحد، وخلق آدم يوم الجمعة آخر الأشياء، فهذا مستقيم مع هذه الآية، ووقع في كتاب مسلم أن الخلق ابتداءً يوم السبت، فهذا يخالف الآية، اللهم إلا أن يكون أراد في الآية جميع الأشياء غير آدم عليه السلام، ثم يكون يوم الجمعة هو الذي لم يُخلق فيه شيء مما بين السماء والأرض؛ لأن آدم لم يكن حينئذ مما بينهما. وقد تقدم القول في قوله تعالى: ﴿ أَسْتَوَى عَلَى السَّمَوَاتِ ﴾ بما فيه كفاية، و﴿ تَرَى ﴾ في هذا الموضع لترتيب الجمل، لا لأن الاستواء كان بعد أن لم يكن، وهذا على المعنى المختار في معنى ﴿ أَسْتَوَى ﴾.

ونفي الشفاعة محمولٌ على أحد وجهين: إما نفي عن الكفرة، وإما نفي الشفاعة من ذاتهم على حد شفاعاة الدنيا؛ لأن شفاعاة الآخرة إنما هي بعد إذن الله تعالى.

﴿ تَسْمِعُ ﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿ الْأَمْرُ ﴾ اسم جنس لجميع الأمور، والمعنى: ينفذ الله تعالى قضاءه لجميع ما يشاؤه، ثم يرجع إليه خبر ذلك في يوم من أيام الدنيا مقداره - إن لو سير فيه السير المعروف من البشر - ألف سنة؛ لأن ما بين السماء والأرض خمسمائة

ذلك تنزيل، أو نحو هذا من التقدير بحسب القول في الحروف.

وقوله تعالى: ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾، أي: هو هكذا في نفسه، ولا يراعى ترتيب الكفرة، وقوله تعالى: ﴿ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ متعلق بـ ﴿ تَنْزِيلٌ ﴾، ففي الكلام تقديم وتأخير. ويجوز أن يتعلق بقوله: ﴿ لَا رَيْبَ ﴾، أي: لا شك فيه من جهة الله تعالى، وإن وقع شكٌ للكفرة فذلك لا يراعى. والرَيْبُ: الشك، وكذلك هو في كل القرآن إلا قوله: ﴿ رَبِّ السَّمَوَاتِ ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ﴾ إضراب، وتقديره أنه قال: بل يقولون، و﴿ أَنْتَرَبْتَهُ ﴾: اختلقه، ثم ردُّ تعالى على مقاتلهم هذه، وأخير أنه الحق من عند الله تعالى، واللام في قوله: ﴿ لِيُنذِرَ ﴾ يجوز أن تتعلق بفعل مضمّر تقديره: أنزله ليُنذِر، فيوقف حينئذ على قوله: ﴿ مِّن رَّبِّكَ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ مَا أَنزَلْنَاهُ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أي: لم يباشرهم ولا رأوه هم ولا آباؤهم العرب، أمّا قوله تعالى: ﴿ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴾ فيعمُّ من بوشر من النذر ومن يُسمع به، فإن العرب من الأمم التي خلت فيها النذر على هذا الوجه، لأنها علمت بإبراهيم وبنيه عليهم السلام ودعوتهم، وهم ممن لم يأتيهم نذيرٌ مباشر لهم سوى محمد ﷺ. وقال ابن عباس:



تفسير

سورة السجدة

هذه السورة مكّية غير ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي قوله: ﴿ أَمَّنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ كَافِرًا ﴾ إلى تمام ثلاث آيات، ويأتي تفسيرها. وقال جابر بن عبد الله: «ما كان رسول الله ﷺ ينام حتى يقرأ: ﴿ التَّوْحِيدَ ﴾ السجدة، و﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمَلَكُوتُ ﴾».

﴿ ١ ﴾ - ﴿ ٢ ﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿ تَنْزِيلٌ ﴾ يصح أن يرتفع بالابتداء والخبر ﴿ لَا رَيْبَ ﴾، ويصح أن يرتفع على أنه خبر ابتداء، وهو: إما الحروف المشار إليها على بعض الأقوال في أوائل السور، وإما:

سنة، هذا أحد الأقوال، وهو قول مجاهد، وابن عباس، وقتادة، وعكرمة، والضحاك. وقال مجاهد أيضاً: إن المعنى أن الضمير في ﴿يَقْدَارُهُ﴾ عائد على التدبير، أي: كأن التدبير المنقضي في يوم القيامة ألف سنة لو دبره البشر. وقال مجاهد أيضاً: المعنى أن الله تعالى يدبر ويلقي إلى الملائكة أمور ألف سنة من عدنا، وهو اليوم عنده، فإذا فرغت ألقى إليهم مثلها، فالمعنى أن الأمور تُنْفَذُ عنده لهذه المدة، ثم تصير إليه آخراً؛ لأن عاقبة الأمور إليه. وقيل: المعنى: يدبر الأمر من السماء إلى الأرض في مدة الدنيا، ثم يرجع إليه في يوم القيامة، ويوم القيامة مقداره ألف سنة من عدنا، وهو على الكفار قدر خمسين ألف سنة لهزوله وشنئته حسب ما في سورة «سَأَلْ سَائِلٌ». وسنذكر هناك ما فيه من التأويل والأقوال إن شاء الله تعالى.

وحكى الطبري في هذه الآية عن بعضهم أنه قال: «قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ إلى آخر الآية متعلق بقوله قبل هذا: ﴿فِي سِتْوَةِ أَيَّامٍ﴾ ومتصل به، أي أن تلك الستة كل واحد منها من ألف سنة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف مكرهه ألفاظ هذه الآية عليه، رادة له الأحاديث التي تُشِيَت أيام خلق الله تعالى المخلوقات، وحكى أيضاً عن ابن زيد، عن بعض أهل العلم أن الضمير في ﴿يَقْدَارُهُ﴾ عائد على «العروج»، والعروج: الصعود،

والمعارج: الأدراج التي يصعد عليها.

وقالت فرقة: معنى الآية: يدبر أمر الشمس في أنها تصعد وتنزل في يوم، وذلك قدر ألف سنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أيضاً ضعيف، وظاهر عود الضمير في ﴿إِلَيْهِ﴾ على اسم الله تعالى، كما قال: ﴿ذَاهِبْ إِلَى رَبِّي﴾، وكما قال: ﴿مُهَاجِرٌ إِلَى رَبِّي﴾، وهذا كله بريء من التحيز. وقيل: إن الضمير يعود على ﴿أَسْمَاءٍ﴾ لأنها قد تُذَكَّرُ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَمْدُونُ﴾ بالياء، وقرأ الأعمش، والحسن - بخلاف عنه -: ﴿يَمْدُونُ﴾ بالياء من تحت.

﴿٦﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: قالت فرقة: أراد بالغيب الآخرة وبالشهادة الدنيا، وقيل: أراد بالغيب ما غاب عن المخلوقين، وبالشهادة ما شوهد من الأشياء، فكأنه حصر بهذه الألفاظ جميع الأشياء.

وقرأ جمهور الناس: ﴿خَلَقَهُ﴾ بفتح اللام على أنه فعل ماضٍ، ومعنى ﴿أَحْسَنُ﴾: أتقن وأحكم، فهو حسنٌ من جهة ما هو لِمَقَاصِدِهِ التي أريد لها، ومن هذا المعنى قال ابن عباس، وعكرمة: ليست استُ القرد بحسنة ولكنها متقنة محكمة. والجملة في ﴿خَلَقَهُ﴾ يحتمل أن تكون في موضع نصب صفة لـ ﴿كُلِّ﴾، أو في موضع خفض صفة لـ ﴿قَتَوُا﴾. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿خَلَقَهُ﴾ بسكون اللام، وذلك منصوب على

المصدر، والضمير فيه إما عائد على الله تعالى، وإما على المفعول، ويصح أن يكون بدلاً من ﴿كُلِّ﴾، وذهب بعض الناس - على هذه القراءة - إلى أن ﴿أَحْسَنُ﴾ معناها: ألهم، وأن هذه الآية بمعنى قوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، أي ألهم الرجل إلى المرأة، والجمَل إلى الثاقفة، وهذا قول فيه بُعد، ورجحه الطبري.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَبَدَأَ﴾، وقرأ الزهري: ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ﴾ بألف دون همز، وينصب القاف، قال أبو الفتح: ذلك على البديل لا على التخفيف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه أبدل الألف من الهمزة، ويدي لغة الأنصار، قال ابن رواحة:

باسم الإله وبه بيدينا
ولو عبدنا غيرة شقيينا
و ﴿الْإِنْسَانُ﴾: آدم، عدد أمره على نبيه؛ إذ خلقه خلق لهم؛ من حيث هو مُثْبِل لهم. و «الثلث»: ما يكون عن الحيوان من الولد، كأنه مأخوذ من: «تَسَلَّ الشيء» إذا خرج من موضعه، ومنه قول تبارك وتعالى: ﴿وَهُمْ بَيْنَ كُلِّ حَبٍ يَنبَلُوتُ﴾، ومنه: «تَسَلَّ ريش الطائر» إذا تساقط. و «السلالة»: من سُلَّ يُسَلُّ؛ فكأن الماء يُسَلُّ من الإنسان، ومن ذلك قول الشاعر:

فجاءت به غضب الأديم غصنقراً
سلالة فزج كان غير حصين
و «المهين»: الضعيف، يقال: «مهن الإنسان» إذا ضعف وذلل.
وقوله تعالى: ﴿يُنْحَ﴾ عبارة عن

سعيد بن العاص، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿صَلَّلْنَا﴾ بالصاد غير منقوطة وكسر اللام، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبو حيوة: ﴿صَلَّلْنَا﴾ بالصاد غير منقوطة وكسر اللام وشدها.

وقولهم: ﴿أَوَلَمْ يَلِكْ لِي خَلْقِي جَدِيدٌ﴾، أي: أئنا لفي هذه الحالة نعاد ويجدد خلقنا. وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَصْرَابٌ لِيَسُوا مَسْتَفْهِمِينَ، بَلْ هُمْ كَافِرُونَ جَاحِدُونَ بِلِقَاءِ اللَّهِ تَعَالَى﴾.

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بجملة الحال غير مفصلة، فبدأ بالإخبار من وقت تفقد روح الإنسان إلى الوقت الذي يعود فيه إلى ربه، فجمع الغائبين الأولى والآخرة، و﴿يَتَوَكَّفُكُمْ﴾ معناه: يستوفيكم، ومنه قول الشاعر:

إِنَّ بَنِي الْأَدَمِ لَيَسُوا مِنْ أَحَدٍ
وَلَا تَوَقَّاهُمْ فَرِيشٌ فِي الْعَدَدِ
و﴿مَلِكٌ أَلْمَرَّتْ﴾ اسمه عزرائيل، وتصرفه كله بأمر الله تعالى وخلقته واختراعه، ورؤي في الحديث أن البهائم كلها يتوَفَّى الله أرواحها دون ملك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كأنه يعدم حياتها، وكذلك الأمر في بني آدم، إلا أنه نوع شرف بتصرف ملك وملائكة معه في قبض أرواحهم، وكذلك أيضاً غلظ العذاب على الكافرين في ذلك. ورؤي عن مجاهد أن الدنيا بين يدي ملك الموت كالطست بين يدي الإنسان يأخذ من حيث أمر.

١٢ - ١٥ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَتَّبْنَاهُ لَعَجِبُوا﴾ تعجب

دليل، وموضع ﴿أَوَلَمْ يَلِكْ﴾ نصب بما في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَلِكْ لِي خَلْقِي جَدِيدٌ﴾؛ لأن معناه: لنعاد. واختلف القراء في ﴿أَوَلَمْ يَلِكْ﴾، وقد تقدم استيعاب ذكره في غير هذا الموضع.

وقرأ جمهور القراء: ﴿صَلَّلْنَا﴾ بفتح اللام، وقرأ ابن عامر، وأبو رجاء، وطلحة، وابن وثاب: ﴿صَلَّلْنَا﴾ بكسر اللام، والمعنى: تَلَفْنَا وتقطعت أوصالنا فذهبنا حيث لم نوجد، ومنه قول الأخطل:

كُنْتُ الْقَدَى فِي مَوْجٍ أَكْدَرَ مُزْبِدٍ
قَدَفَ الْأَيْتِي بِهِ فَضَلَّ ضَلَالًا
ومنه قول النابغة:

فَآبَ مُضِلُّوهُ بِعَيْنِ جَلِيَّةٍ
وَعُودِرَ بِالْجَوْلَانِ حَزْمٌ وَتَائِلٌ
أي: متلفوه دفناً، ومنه قول امرئ القيس:

تَضِلُّ الْمَدَارِي فِي مُنْتَهَى وَمُرْسَلِ
وقرأ الحسن البصري: ﴿صَلَّلْنَا﴾ بالصاد غير منقوطة وفتح اللام، قال القراء: ويروى عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومعناه: صرنا من الصلّة، وهي الأرض اليابسة الصلبة، ويجوز أن يراد به: من التّعثير، كما يقال: «صلّ اللحم»، ورويت هذه القراءة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وأبان بن

وَلَوْ رَتَّبْنَاهُ لَعَجِبُوا وَإِذَا كُفُّوا رُءُوسَهُمْ عَدُوّ رَيْبِهِمْ رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا آيَاتِنَا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ لَقَدْ كُفَّيْنَا عَنْكُمْ الذَّنْبَ كُلَّكُمْ إِذْ كُنْتُمْ كَافِرِينَ ﴿١٤﴾ وَإِنَّمَا تَأْتِي السُّحُبَ الْمَاءَ نَارًا إِذْ كُفِّرُوا بِنُورِهِمْ سَاقًا وَمِمَّا يُوقُونَ فِيهَا الْمَاءَ الْغَيْثَ وَأُولَئِكَ فِي شَأْنٍ مُتَعَدِّينَ ﴿١٥﴾

إفاضة الروح في جسد ابن آدم، والضمير في ﴿رُءُوسِهِ﴾ الله تعالى، وهي إضافة ملك إلى مالك، وخلق إلى خالق. ثم أظهر تعديد النعم عليهم في أن خصهم في قوله: ﴿لَكُمْ﴾ [بضمير] السمع والأبصار والأفتدة، وهي لمن تقدم ذكره أيضاً. كما خصّ آدم بالنسوية ونفخ الروح، وهو لجميع ذريته، وهذا كله تجاوز واقتضاب وتزكّ لما يدل عليه المنطوق به. ويحتمل أن يكون ﴿الْإِنْسَانُ﴾ في هذه الآية اسم جنس. وقوله تعالى: ﴿بَلَدًا﴾ صفة لمصدر محذوف، وهو في موضع الحال حين يحذف الموصوف به.

والضمير في ﴿قَالُوا﴾ للكفار الجاحدين البعث من القبور، المستبعدين لذلك دون حجة ولا

لمحمد ﷺ وأتمته من حال الكفرة ومما حل بهم. وجواب ﴿وَلَوْ﴾ محذوف؛ لأن حذفه أهول؛ إذ يُترك الإنسان فيه مع أقصى تخيله. و﴿الْمُجْرِمُونَ﴾ هم الكافرون؛ بدليل قولهم: ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، أي أنهم كانوا في الدنيا غير موقنين. و﴿تَنْكِيْسُ الرُّؤُوسِ﴾ هو من الهول والذل والهَمُّ بحلول العذاب وتعلق نفوسهم بالرجعة إلى الدنيا، وفي القول محذوف تقديره: يقولون ربنا، وقولهم: ﴿أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ أي: ما كنا نُخْبِرُ به في الدنيا فكنا مكذبين به، ثم طلبوا الرجعة حين لا ينفع ذلك.

ثم أخبر تبارك وتعالى عن نفسه أنه لو شاء لهدى الناس أجمعين، أي: يلطف بهم لطفاً يؤمنون به ويخترع الإيمان في قلوبهم. هذا مذهب أهل السنة. وقال بعض المفسرين: لَعَرَضَ عليهم آية يضطروهم بها إلى الإيمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول بعض المعتزلة، إلا أن من أشرنا إليه من المفسرين لم يدرِ قَدْرَ القول ولا مغزاه ولذلك حكاه، والذي يقود المعتزلة إلى هذه المقالة أنهم يَرَوْنَ أن من يقدر على اللطف بإنسان حتى يؤمن ولا يفعل فإن ذلك ليس من الحكمة ولا من الأمر المستقيم، والكلام على هذه المسألة يطول وله تواليفه. و﴿الْحَقَّةُ﴾: الشياطين.

وقوله: ﴿وَدُوْرُوا عَدَاكُ﴾ بمعنى: يقال لهم: دُوْرُوا، و﴿سَيِّئَةٌ﴾ معناه: تركتم، قاله ابن عباس -

رضي الله عنهما - وغيره، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: عمل، أو عدة ونحوه. وقوله: ﴿إِنَّا نَسِيْبُكُمْ﴾ سَمِّيَ العقوبة باسم الذنب، وقوله: ﴿يَمَا كُنْتُمْ تَمْلُؤْنَ﴾ أي: بِتَكْسِيْكُمْ الآثام.

ثم أثنى عَزَّ وَجَلَّ على القوم الذين يؤمنون بآياته، ووصفهم بالصفة الحسنة، من سجودهم عند التذكير وتسيجهم وعدم استكبارهم، بخلاف ما يصنع الكفرة من الإعراض عند التذكير، وقول الهُجْر، وإظهار التكبر، وهذه السجدة من عزائم السجود في القرآن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السجود هنا بمعنى الركوع، وقد روي عن ابن جريج، ومجاهد أن هذه الآية نزلت بسبب قوم من المنافقين كانوا إذا أُقيمت الصلاة خرجوا من المسجد، فكان الركوع يقصد من هذا، ويلزم على هذا أن تكون الآية مدنية، وأيضاً فمن مذهب ابن عباس رضي الله عنهما أن القارئ للسجدة يركع، واستدل بقوله: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابُ﴾.

﴿١٦﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: جَفَا الرَّجُلُ الْمَوْضِعَ: إذا تركه، وتجافى الجنب عن مضجعه: إذا تركه، وجافى الرجل جنبه عن مضجعه، وفي الحديث: «يجافى بعضديه عن جنبتيه» أي يبعدهما عن بدنه، فقوله تعالى: ﴿تَجَافَى جُنُوبُهُمْ﴾ أي تتعد وتزول، ومنه قول عبدالله بن رواحة:

نَبِيُّ تَجَافَى جَنْبَهُ عَن فَرَائِضِهِ
إِذَا اسْتَنْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ
ويروى: «يَبِيْتُ يُجَافِي»، قال

الزُّجَاجُ، والرُّمَانِي: التَّجَافِي: التَّخَيُّ إلى جهة فوق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن، وكذلك هو في الصّحاح عن المخطيء في سبِّ ونحوه. و﴿الْجُنُوبُ﴾: جمع جَنِب، و﴿الْمَضَاجِعُ﴾: موضع الاضطجاع للنوم. وقال أنس بن مالك: أراد بهذه الآية الصلاة بين المغرب والعشاء، وقال عطاء، وأبو سلمة: أراد صلاة العشاء الآخرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكانت الجاهلية ينامون في أول الغروب، ومن أي وقت شاء الإنسان، فجاء انتظار وقت العشاء الآخرة غريباً شاقاً، وقال أنس بن مالك أيضاً: أراد انتظار صلاة العشاء الآخرة؛ لأن رسول الله ﷺ كان يؤخرها إلى نحو ثلث الليل، وفي ذلك أحاديث كثيرة. قال الضحاك: «تجافى الجنب هو أن يصلي الرجل العشاء والصبح في جماعة». وهذا قول حسن، يبعده لفظ الآية، وقال الجمهور من المفسرين: أراد بهذا التجافى صلاة النوافل بالليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى هذا التأويل أكثر الناس، وهو الذي فيه المدح، وفيه حديث عن النبي ﷺ يذكر قيام الليل ثم يستشهد بالآية. ذكره الطبري عن معاذ بن جبل رضي الله عنه. ورجح الزجاج هذا القول بأنهم جوزوا بإجفائه، فدل ذلك على أن العمل إجماعاً أيضاً هو قيام الليل.

وقوله: ﴿يَدْعُونَ﴾ يحتمل أن يكون في موضع الحال من الموصوفين،

رضي الله عنهم: ﴿قُرَاتٍ﴾ على الجمع. وقوله: ﴿جَزَاءٌ بِمَا كَانُوا يَمْعَلُونَ﴾، أي: يتكسبهم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ كَانَ ثَوْبًا﴾ الآية. روى عطاء بن يسار أنها نزلت في علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والوليد بن عقبة بن أبي مُعيط، وذلك أنهما تلاحنا، فقال له علي بن أبي طالب رضي الله عنه: اسكت فإنك فاسق، فنزلت الآية. وذكر الزجاج، والنحاس، وغيرهما أنها نزلت في علي وعقبة بن أبي مُعيط، وعلى هذا يلزم أن تكون الآية مكّية، لأن عقبة لم يكن بالمدينة، وإنما قُتل في طريق مكة منصرف رسول الله ﷺ من بدر، ويعترض القول الآخر بإطلاق اسم المُسئق على الوليد، وذلك يحتمل أن يكون في صدر الإسلام الوليد لشيء كان في نفسه، أو لما روي من نقله عن بني المصطلق ما لم يكن حتى نزلت فيه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾، ويحتمل أيضاً أن تطلق الشريعة ذلك عليه لأنه كان على طرف مما ينبغي، وهو الذي شرب الخمر في خلافة عثمان رضي الله عنه، وصلى الصُّبح بالناس أربعاً، ثم التفت وقال: أتريدون أن أزيدكم؟ ونحوه مما يطول ذكره.

ثم قَسَمَ الله تعالى المؤمنين والفاستقين الذين فسقهم بالكفر؛ لأن التكذيب الذي في آخر الآية يقتضي ذلك، وقرأ طلحة: ﴿جَسْتًا﴾ بالإنفراد، وقرأ أبو حيوة: ﴿نَزْلًا﴾ بإسكان الزاي، والجمهور على ضمها، وسائر ما في الآية بيّن.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَنْذِيْقَنَّهُمْ﴾ لكفار قريش، أعلم الله

لهم﴾ بالياء المضمومة وفتح الفاء، وقرأ محمد بن كعب: ﴿مَا أَخْفَى﴾ بفتح الهمزة، أي: ما أخفى الله لهم، وقرأ جمهور الناس بفتح الياء على بناء الفعل للمفعول. و [مَا] يحتمل أن تكون بمعنى الذي، فعلى القراءة الأولى قَسَمَ ضمير محذوف تقديره: أخفيه، وعلى قراءة الجمهور فالضمير الذي لم يُسَمَّ فاعله يجري في العود على (الذي)، ويحتمل أن تكون الأولى فهي في موضع نصب بـ ﴿أَخْفَى﴾، وعلى القراءة الثانية هي في موضع رفع بالابتداء.

و ﴿قُرَّةَ الْعَيْنِ﴾: ما تلذّه وتشتهيه، وهي مأخوذة من القُر، كما أن «سخنة العين» مأخوذة من السخانة، وأصل هذا - فيما يزعمون - أن دمع الفرج بارد، ودمع الحزن سخن.

وفي معنى هذه الآية قال رسول الله ﷺ: ﴿قال الله عز وجل: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، واطرقوا إن شئتم: ﴿كَلَّا تَلَّمَّ نَفْسٌ مَّا أَخْفَى لَّهُمْ مِنْ قُرَّةِ عَيْنٍ﴾. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «في التوراة مكتوب: على الله للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر». وقرأ ابن مسعود، وأبو هريرة، وأبو الدرداء

وَلَنْذِيْقَنَّهُمْ مِنْ الْعَذَابِ الْأَذْنَ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْفِقُونَ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ آيَةً يَدْعُونَ بِأَمْرِنَا الْمَاصِرُونَ ﴿١٤﴾ وَكَانُوا يُؤْتَوْنَ أَجْرًا مِمَّا كَانُوا يَمْسِكُونَ ﴿١٥﴾ وَإِنْ رَيْكَ هُوَ مُقِصِّلُ يَتَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٦﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْجِدِهِمْ أَنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٌ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿١٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا سَوَّيْنَا لِلْأَرْضِ الْخُرْبُزَ فَخُرْبُجٌ يَدْرَعَانَا كُلٌّ مِنْهُ أَقْتَمُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿١٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٩﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيْمَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٠﴾ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَالنَّظَرَ إِنَّهُمْ مُمْتَضِرُونَ ﴿٢١﴾

أي وقت التجافي، ويحتمل أن يكون صفة مستأنفة، أي: تتجافى جنوبهم وهم أيضاً في كل أحوالهم يدعون في ليلهم ونهارهم، و«الْخُرْبُجُ» من عذاب الله، و«الطَّمَعُ» في ثواب الله. و«يُنَيِّقُونَ» قيل: معناه: الزكاة المفروضة، وقيل: النوافل والصدقات غير المفروضة، وهذا القول أمدح.

ثم ذكر تعالى ما وعدهم من التَّعِيمِ بِمَا لَمْ تَعْلَمَهُ نَفْسٌ وَلَا بَشَرٌ وَلَا مَلَكٌ.

وقرأ حمزة وحده: ﴿أَخْفِي﴾ بسكون الياء، كأنه قال: ﴿أَخْفِي أَنَا﴾، وهي قراءة الأعمش، وروى عنه: ﴿مَا أَخْفَيْتُ لَهُمْ مِنْ قُرَاتٍ أَعْيُنٌ﴾، وقرأ عبدالله: ﴿مَا نُخْفِي لَهُمْ﴾ بالنون المضمومة، وروى المفضل عن الأعمش: ﴿مَا يُخْفِي

تعالى أنه يصيبهم بعذاب دون عذاب الآخرة لعلهم يتوبون ويتعظون، ولا خلاف أن العذاب الأكبر هو عذاب الآخرة، واختلف المتأولون في تعيين العذاب الأدنى - فقال إبراهيم الشحمي، ومقاتل: هو السنون التي أجاجهم الله فيها، وقال ابن عباس، وأبي بن كعب: هي مصائب الدنيا من الأمراض ونحوها، وقاله ابن زيد، وقال ابن مسعود، والحسن بن علي: هو القتل بالسيف كبدر وغيرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيكون - على هذا التأويل - «الزاجع» غير «الذي يذوق»، بل الذي يبقى بعده، وتختلف رتبنا ضمير الذوق مع ضمير لعل. وقال أبي بن كعب - رضي الله عنه - أيضاً: هي البطشة واللزام والدخان، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: عنى بذلك الحدود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتجه - على هذا التأويل - أن يكون في فسقة المؤمنين. وقال مجاهد: عنى بذلك عذاب القبر.

ثم قال تعالى - على جهة التعجب والتقرير -: «وَمَنْ أَظْلَمُ»، أي: لا أحد أظلم ممن هذه صفته، وهي بخلاف ما تقدم في صفة المؤمنين من أنهم إذا ذكروا بآيات ربهم خرّوا سُجُوداً، ثم توعد تبارك وتعالى المجرمين، وهم الذين يتجاسرون على ركوب الكفر والمعاصي بالقوة، وظاهر الإجماع هنا أنه الكفر.

وحكى الطبري عن يزيد بن ربيع أنه قال: إن قول الله في القرآن:

﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَهُونَ﴾ إنما هو في أهل القدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يريد القائلين بأن أفعال العبد من قبله، قال: ثم قرأ يزيد بن ربيع: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ، يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُقُوا مِن سُقْرٍ، إِنَّا كُلُّ شَيْءٍ خَلْقًا يُقَدَّرُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا المنزع من البعد ما لا يخفاء به. وروى معاذ بن جبل عن النبي ﷺ أنه قال: «ثلاث من فعلهن فقد أجرم: من عقد لواء في غير حق، أو حق والذئبه، أو مشى مع ظالم ينصره».

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ الناس: ﴿فِي رَبِّهِ﴾ بكسر الميم، وقرأ الحسن بضمها. واختلف المتأولون في الضمير الذي

في ﴿لِقَائِهِ﴾ على من يعود؟ فقال أبو العالية الرياحي، وقتادة: يعود على ﴿مُؤْتَى﴾، والمعنى: لا تك في شك من أنك تلقى موسى، أي: في ليلة الإسراء، وهذا قول جماعة من السلف، وقاله الميزد حين امتحن أبا إسحق الزجاج بهذه المسألة. وقالت فرقة: الضمير عائذ على ﴿الْكِتَابِ﴾، أي أنه لقي موسى حين لقيه موسى عليه السلام، والمصدر في هذا التأويل يصح أن يكون مضافاً إلى الفاعل، بمعنى: لقي الكتاب موسى، ويصح أن يكون مضافاً إلى المفعول، بمعنى: لقي الكتاب - بالنصب - موسى عليه السلام. وقال الحسن: الضمير عائذ

على ما يتضمنه القول من المحنة والشدة التي في إخباره بأنه أتى موسى الكتاب، كأنه قال: ولقد آتينا موسى هذا العبة الذي أتت بسبيله، فلا تكثر أنك تلقى ما لقي هو من المحنة بالناس، وكأن الآية تسليئة لمحمد ﷺ وقالت فرقة: معناه: فلا تك في شك من لقائه في الآخرة. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف.

وقالت فرقة: الضمير عائذ على ملك الموت الذي تقدم ذكره، وقوله: ﴿فَلَا تَكُنْ فِي رَيْبٍ مِّنْ لِّقَائِهِ﴾ اعتراض بين الكلامين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أيضاً ضعيف.

والميزنة: الشك. والضمير في ﴿جَعَلْتَهُ﴾ عائذ على ﴿مُؤْتَى﴾، وهو قول قتادة، ويحتمل أن يعود على ﴿الْكِتَابِ﴾.

و ﴿أَيُّمَةً﴾: جمع إمام، وهو الذي يقتدى به، وأصله خيظ البنا، وجمهور النحويين على ﴿أَيُّمَةً﴾ بياء وتخفيف الهمزة، إلا ابن أبي إسحق فإنه جوز اجتماع الهمزتين وقرأ: ﴿أَيُّمَةً﴾. وقرأ جمهور القراء: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ بفتح اللام وشد الميم، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿لَمَّا صَبَرُوا﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم، وهي قراءة ابن مسعود، وطلحة، والأعمش، والأولى في معنى الظرف، والثانية كأنه قال: لأجل صبرهم، ف [مًا] مصدرية، وفي القراءتين معنى المجازاة، أي: جعلهم أيمة جزاء على صبرهم على الدنيا، وكونهم موقنين بآيات الله

تبارك وتعالى وأوامره وجميع ما
تُورده الشريعة. وقرأ ابن مسعود:
﴿بِمَا صَبَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الآية
حُكْم يعم جميع الخلق، وذهب
بعض المتأولين إلى تخصيص
الضمير، وذلك ضعيف.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَهْدِي﴾ معناه: يُبَيِّن، قاله ابن
عباس رضي الله عنهما، وقرأ
جمهور الناس: ﴿يَهْدِي﴾ بالياء،
فالفاعل الله في قول فرقة،
والرسول في قول فرقة، والمصدِرُ
في قول فرقة، كأنه قال: أو لم
يُبَيِّن لهم الهدى. وجوز الكوفيون
أن يكون الفاعل ﴿كَمْ﴾، ولا
يجوز ذلك عند البصريين؛ لأنها
في الخبر على حكمها في
الاستفهام في أنها لا يعمل فيها ما
قبلها. وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿يَهْدِي
لَهُمْ﴾ بالنون، وهي قراءة الحسن
وقتادة. فالفاعل الله تعالى،
و﴿كَمْ﴾ في موضع نصب: فعند
الكوفيين بـ [يَهْدِي]، وعند البصريين
بـ [أَهْلَكَا] على القراءتين جميعاً.
وقرأ جمهور الناس: ﴿يَمْسُونَ﴾
بفتح الياء وتخفيف الشين، وقرأ
ابن السميغ اليماني: ﴿يَمْسُونَ﴾
بضم الياء وفتح الميم وشد
الشين، وقرأ عيسى بن عمر:
﴿يَمْسُونَ﴾ بضم الياء وسكون
الميم وشين مضمومة مخففة،
والضمير في ﴿يَمْسُونَ﴾ يحتمل
أن يكون للمخاطبين بالبيئنة
المُحْتَجِّ عليهم، ويحتمل أن
يكون للمهلكين، فـ ﴿يَمْسُونَ﴾ في

موضع الحال، أي: أهلكوا وهم
ماشون في مساكنهم. والضمير في
﴿يَمْسُونَ﴾ لِلْمَنْهِيَيْنِ. ومعنى
الآية إقامة الحجة على الكفرة
بالأُمم السالفة الذين كفروا
فأهلكوا.

ثم أقام عز وجل الحجة عليهم
في معنى الإيمان بالقدره وبالبعث
بأن نبيهم على إحياء الأرض
الموات بالماء، و«السوق» هو
بالسحاب، و«الجُرُز» الأرض
العاطشة التي قد أكلت نباتها من
العطش والقيظ، ومنه قيل للأكل:
جرُز، قال الشاعر:

حَبَّ جَرُوزٍ وَإِذَا جَاعَ بَكَى

ومَن عبَّر عنها بأنها الأرض التي
لا تثبت فإنها عبارة غير مخلصة.
وعمَّ تعالى كلَّ أرض هي بهذه
الصفة؛ لأن الآية فيها والعبرة بيئته.
وقال ابن عباس - رضي الله عنهما
- وغيره أيضاً: الأرض الجُرُزُ هي
أرض (أبيين) من اليمن، وهي
أرض تشرب بسيول لا بمطر.
وجمهور الناس على ضم الراء،
قال الزجاج: وتقرأ: «الجُرُز»
بسكون الراء.

ثم خصَّ الله تعالى بالذكر تشريفاً
له؛ ولأنه عَظُم ما يقصد بالنبات،
وإلا فعرف أكل الأنعام إنما هو
من غير الزرع، لكنه أوقع الزرع
موقع النبات، ثم فصل ذلك بأكل
الأنعام وبني آدم. وقرأ أبو بكر بن
عياش، وأبو حيوة: ﴿يَأْكُلُ﴾ بالياء
من تحت، وقرأ ابن مسعود:
﴿تَبْصِرُونَ﴾ بالتاء من فوق،

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُبْصِرُونَ﴾
بالياء.

ثم حكى عن الكفرة أنهم
يستفتحون ويستعجلون فصل القضاء
بينهم وبين الرسول ﷺ، على معنى
الهزء والتكذيب. و«الْفَتْحُ»:
الحُكْم، هذا قول جماعة المفسرين،
وهو أقوى الأقوال، وقالت فرقة:
الإشارة إلى فتح مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا ضعيف، يرده الإخبار بأن
الكفرة لا ينفعهم الإيمان، فلم يبق
أن يكون الفتح إلا إما حُكْم الآخرة،
وهو قول مجاهد، وإما ﴿فَسَلَ﴾
الدنيا كبدر ونحوه. وقوله تعالى:
﴿قَدْ يَمَّ الْفَتْحُ﴾ إشارة إلى الفتح
الأول حسب احتمالاته. فالألف
واللام في «الْفَتْحُ» الثاني للعمد،
و﴿يَمَّ﴾ ظرف، والعامل فيه
﴿يَنْفَعُ﴾، و﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه:
يُؤَخَّرُونَ.

ثم أمره تبارك وتعالى بالإعراض
عن الكفار دون انتظار الفرج،
وهذا مما نسخته آية السيف،
وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ﴾
أي العذاب، بمعنى أن هذا
حكمهم وإن كانوا لا يشعرون.
وقرأ محمد بن السميغ:
﴿مُنْتَضِرُونَ﴾ أي: لِلْعَذَابِ النازل
بهم، والله أعلم.

كامل تفسير سورة السجدة والحمد لله
رب العالمين والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه
أجمعين

تفسير سورة الأحزاب

هذه السورة مدنية بإجماع فيما علمت، وكذلك قال المهدي وغيره.

١ - ٢ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَتَى﴾ معناه: دُم على التقوى، ومتى أمر أحد بشيء هو به متلبس وإنما معناه الدوام في المستقبل على مثل الحالة الماضية، وحُدِّثه تعالى من طاعة الكافرين، وهم المُجْلِحُونَ بالكفر، والمنافقون وهم المُظْهِرُونَ للإيمان وهم لا يبطنونه.

وسبب الآية أنهم كانوا يُلْحُونَ على رسول الله ﷺ بالطلبات والإرادات، وربما كان في إرادتهم سعي على الشرع، وهم يدخلونها مدخل المصالح، فكان رسول الله ﷺ بخلقه العظيم وحرصه على استئلافهم ربما لا يَتَمُّهُم في بعض الأمور، فنزلت الآية بسبب ذلك، تحذيراً له منهم، وتنبهياً على عداوتهم، والنوازل في طلباتهم كثيرة محفوظة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ تسليةً لمحمد ﷺ، أي: لا عليك منهم ولا من إيمانهم، فإله عليم بما ينبغي لك، حكيم في هدى من شاء وإضلال من شاء.

ثم أمره تعالى باتباع ما يُوحى إليه - وهو القرآن الحكيم - والاعتصار على ذلك، وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ تَوَعَّدُ مَا. وقرأ أبو

عمرو وحده: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء، والتوعد على هذه القراءة للكافرين والمنافقين أَيْبُنُ. وقوله: ﴿كَانَ﴾ في هاتين الآيتين يقتضي السدوم، أي: كان ويكون، وليست الدالة على زمان مخصوص للمضي.

ثم أمره تعالى بالتوكل على الله في جميع أمره، وأعلمه أن ذلك كافٍ مُقْنَع، والباء في قوله: ﴿بِاللَّهِ﴾ زائدة على مذهب سيبويه، وكأنه قال: وكفى الله، وهي عنده كقولهم: بحسبك أن

تفعل، وَعَبَّرَهُ بِهَا غيرَ زائدة متعلقة بـ ﴿كَيْفَ﴾، على معنى: كيف بالله، و«الْوَكِيلُ» القائم بالأمر المعنى فيه عن كل شيء.

٣ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في السبب في قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: سببها أن بعض المنافقين قال: إنَّ محمدًا له قلبان؛ لأنه ربما كان في شيء من غير نزع ثم عاد إلى شأنه الأول، فقالوا ذلك عنه، فنفاه الله تعالى. وقال ابن عباس أيضاً: بل السبب أنه كان في قريش في بني فهر رجل منهم يدعى أن له قلبين؛ ويقال له: ذو القلبين، قال الشعبي: هو أبو مَعْمَر، وكان يقول: أنا أذكى من محمد وأفهم، فلما وقعت هزيمة بدر طاش لُبُّه،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تَطِيعُ الْكَاذِبِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَأَتَىٰ مَائِدِيكَ مِنَ رَبِّكَ آيَاتٌ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفَيْهِ. وَمَا جَعَلَ أَرْوَاجَكُمْ الَّتِي تَنْظَهُرُونَ مِنْهُنَّ أَمْهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكَ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ أَدْعَوْهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥﴾ أَلَيْسَ أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ مَن أَنفُسِهِمْ وَأَرْوَاجُهُمْ وَأَبْوَابُ وَأُولَئِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِذَا لَانَ تَضَعُوا إِلَٰهَ أَوْلِيَآئِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾

٤١٨

وحدَّثَ أَبَا سَفِيَانَ بنِ حَرْبٍ كَالْمَخْتَلِ فَنَزَلَتِ الْآيَةُ بِسَبَبِهِ وَنَفِيًا لِدَعْوَاهُ. وقيل: إنه كان ابن خَطْلٍ. وقال الزهراوي: جاء هذا اللَّفْظُ على جهة المثل في زيد بن حارثة والتوطئة لقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾، أي: كما أنه ليس لأحد قلبان، كذلك ليس دُعِيهُ ابْنُهُ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر من الآية أنها بجملتها نفي لأشياء كانت العرب تعتقدها في ذلك الوقت، وإعلامٌ بحقيقة الأمر، فمنها أن بعض العرب كانت تقول: إن الإنسان له قلب يأمره وقلب ينهاه، وكان تَضَادُّ الخواطر بجملتها على ذلك، ومن هذا قول الكمي:

تَذَكَّرُ مَنْ أُنَى وَمِنْ أَيْنَ شَرُّهُ
يُؤَامِرُ نَفْسَيْهِ كَذِي الْهَجْمَةِ الْأَبْلِ
والناس حتى الآن يقولون إذا

وصفوا أفكارهم في شيء ما: يقول لي أحد قَلْبِي كذا، ويقول الآخر كذا، وكذلك كانت العرب تعتقد الزوجة إذا ظهر منها بمنزلة الأم وتراه طلاقاً، وكانت تعتقد الدُعِيَّ المُتَبَيِّ ابناً، فأعلم الله تبارك وتعالى أنه لا أحد بقلبين، ويكون في هذا طعن على المنافقين الذين تقدم ذكرهم، أي: إنما هو قلب واحد، فإِذَا حَلَهُ إِيمَانٌ وَإِمَّا كُفْرٌ؛ لأن درجة الكفار كأنها متوسطة، يؤمن قلبٌ ويكفر الآخر، فنفاها الله تعالى، وَبَيَّنَّ أَنَّهُ قَلْبٌ وَاحِدٌ، وعلى هذا النحو يستشهد الإنسان بهذه الآية متى نسي شيئاً أو وَهَمَ، يقول على جهة الاعتذار: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾، أي: إذا نسي قلبه الواحد يُذَكِّرُهُ الْآخَرَ، وكذلك أعلم أن الزوجة لا تكون أمًا، وأن الدُعِيَّ لا يجعله ابناً.

وقرأ نافع، وابن كثير: ﴿الْأَلَاءِ﴾ دون ياء، وروى عن أبي عمرو، وابن جُبَيْرٍ: ﴿الْأَلَاءِي﴾ بياء ساكنة من غير هَمْزٍ، وقرأ ورش بياء مكسورة من غير هَمْزٍ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وطلحة، والأعمش بِهَمْزَةٍ مكسورة بعدها ياءٌ.

وقرأ ابن عامر: ﴿تَطَاهَرُونَ﴾ بشد الظاء والألف، وقرأ عاصم، والحسن، وأبو جعفر، وقاتدة: ﴿تَطَهَّرُونَ﴾ بضم التاء وتخفيف الظاء، وأنكرها أبو عمرو، وقال: إنما هذا في الْمُعَاوَنَةِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس بمنكر، ولفظة ظهار تقتضيه.

وقرأ عاصم، وحمزة، وأبو بكر عن عاصم: ﴿تَطَاهَرُونَ﴾ بفتح التاء والظاء المنخفضة. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿تَطَهَّرُونَ﴾ بشد الظاء والهاء دون ألف، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿تَطَهَّرُونَ﴾ بضم التاء وسكون الظاء وكسر الهاء، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿تَنْظَهَرُونَ﴾ بتاءين، وكانت العرب تُطَلِّقُ وتقول: «أنت مني كظهر أُمِّي» فنزلت الآية، وأنزل الله تبارك وتعالى كُفَّارَةَ الظهار، وتفسيرُ الظَّهَارِ وبيانه أثبتناه في سورة المجادلة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾ الآية، سببها أن زيد بن حارثة كانوا يدعونهم زيد بن محمد، وذلك أنه كان عبداً لخديجة فوهبته لرسول الله ﷺ، فأقام عنده مُدَّةً، ثم جاء عمُّه وأبوه يرغبان في فدائه، فقال لهما النبي ﷺ - وذلك قبل البعث -: خَيْرَاهُ، فإن اختاركما فهو لكما دون فدائه، فخيراه فاختار الرُّقَّ مع محمد ﷺ على خُرَيْتِه وقومه، فقال محمد ﷺ: «يا معشر قريش، اشهدوا أنه ابنسي، يرثني وأرثه»، فرضي بذلك أبوه وعمُّه وانصرفا.

وقوله: ﴿بِأَنفُسِكُمْ﴾ تأكيد لبطلان القول، أي أنه لا حقيقة له في الوجود، إنما هو قول فقط، وهذا كما تقول: «أنا أمشي إليك على قدم»، فإنما تؤكد بذلك المسيرة، وهذا كثير. و﴿بِهَدْيٍ﴾ معناه: يُبَيِّنُ، وهو يتعدى بغير حرف جرٍّ، وقرأ قاتدة: ﴿بِهَدْيٍ﴾ بضم الباء وفتح الهاء وشد الدال، و﴿السَّبِيلِ﴾ هي

سبيل الشرع والإيمان. وابن كثير، وابن عامر، وعاصم - في رواية جعفر - يقفون ﴿السَّبِيلَا﴾، ويطرحونها في الوصل، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم بالألف وضلاً ووقفاً، وقرأ أبو عمرو، وحمزة بغير ألفٍ وضلاً ووقفاً، وهذا كله في غير هذا الموضع، واتقفوا هنا خاصةً على طرح الألف وضلاً ووقفاً لمكان ألف الوصل التي تلقى اللام.

﴿٥﴾ - ﴿٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى بدعاء الأديعاء إلى آبائهم للصلب، فمن جهل ذلك منه كان مولى وأخاً في الدين، فقال الناس: زيد بن حارثة، وسالم مولى أبي حذيفة، إلى غير ذلك، وذكر الطبري أن أبا بكر قرأ هذه الآية ثم قال: أنا ممن لا يعرف أبوه، وأنا أخوكم في الدين ومولاكم، قال الراوي عنه: ولو علم والله أن أباه حَمَارٌ لانتضى إليه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورجال الحديث يقولون في أبي بكر: نَفِيعُ بن الحارث.

و ﴿أَقْسَطُ﴾ معناه: أَعْدَلُ، وقال قاتدة: بلغنا أن رسول الله ﷺ قال: «من أدعى إلى غير أبيه متعمداً حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

وقوله عز وجل: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ الآية رَفَعُ للحرَجِ عَمَّنْ وَهَمَ وَنَسِيَ وأخطأ فجرى لسانه على العادة من نسيبة زيد إلى محمد - ﷺ - وغير ذلك مما يُشْبِهُه، وأبقى

الجناح في المتعمد مع الشرط أو الجزاء المنصوص.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ يريد: لما مَضَى من فعلهم في ذلك، ثم هما صِفَتَانِ لله عز وجل تطردان في كل شيء، وقالت فرقة: خطؤهم فيما كان سلفه من قولهم ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف، ولا يوصف ذلك بالخطأ إلا بعد النهي، وإنما الخطأ هنا بمعنى النسيان، وما يكون مقابل العمد. وحكى الطبري عن قتادة أنه قال: الخطأ الذي رفع الله فيه الجناح أن يعتقد في أحد أنه ابن فلان فينسبه إليه، وهو في الحقيقة ليس بابنه، والعمد هو أن تنسبه إلى فلان وأنت تدري أنه ابن غيره، والخطأ مرفوع عن هذه الأمة عقابه، قال النبي ﷺ: «وَضِعْ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا أَكْرَهُوا عَلَيْهِ»، وقال عليه الصلاة والسلام: «مَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ الْخَطَأَ، وَإِنَّمَا أَخْشَى عَلَيْكُمْ الْعَمْدَ».

قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية. أزال الله تعالى بها أحكاماً كانت في صدر الإسلام، منها أن النبي ﷺ كان لا يُصَلِّي على ميت عليه ذن، فذكر الله تعالى أنه أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فجمع هذا أن المؤمن يلزم أن يحب النبي ﷺ أكثر من نفسه، حسب حديث عمر رضي الله عنه، ويلزم أن يمتثل أوامره، أحببت نفسه ذلك أم كرهته، قال رسول الله ﷺ حين نزلت هذه الآية: «أنا أولى بالمؤمنين من

أنفسهم، من ترك مالا فلورثته، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فعلي، أنا وليه، اقرءوا إن شئتم: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾. وقال بعض العلماء العارفين: هو أولى بهم من أنفسهم؛ لأن أنفسهم تدعوهم إلى الهلاك، وهو يدعوهم إلى النجاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام: «أَنَا آخِذٌ بِحُجْرِكُمْ عَنِ النَّارِ وَأَنْتُمْ تَقْحُمُونَ فِيهَا تَقْحُمُ الْقَرَّاشُ».

وشرف تعالى أزواج النبي ﷺ بأن جعلهن أمهات للمؤمنين: في حرمة النكاح والمبصرة، وَحَجَبِهِنَّ رضي الله عنهن بخلاف الأمهات، قال مسروق: قالت امرأة لعائشة رضي الله تعالى عنها: يا أمه، فقالت: لست لك بأم، إنما أنا أم رجالكم، وفي مصحف أبي بن كعب: «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَكُمْ»، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: «مِنْ أَنفُسِهِمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ»، وسمع عمر رضي الله عنه هذه القراءة فأنكرها، فقيل له: إنها في مصحف أبي، فسأله فقررها أبي وأغلظ لعمر، وقد قيل في قول لوط عليه السلام: ﴿هَؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾: إنما أراد المؤمنات، أي: تزوجوهن.

ثم حكم تعالى بأن أولى الأرحام أحق مما كانت الشريعة قررتها من التوارث بأخوة الإسلام وبالهجرة، فإنه كان بالمدينة توارث في صدر الإسلام بهذين الوجهين، اختلف

الرواة في صفته، وليس لمعرفة الآن حكم فاختصرته، ورد الله الموارث على الأنساب الصحيحة.

وقوله: ﴿فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد القرآن، ويحتمل أن يريد اللوح المحفوظ، وقوله: ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ متعلق بـ ﴿أَوْلَىٰ﴾ الثانية، وهذه الأخوة والهجرة التي ذكرنا.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ تَقْعَلُوا إِلَيْكُمْ أَوْلِيَاكُمْ مَعْرُوفًا﴾ يريد الإحسان في الحياة، والصلة والوصية عند الموت، قاله قتادة، والحسن، وعطاء وابن الحنفية، وهذا كله جائز أن يُفعل مع الولي على أقسامه، والقريب الكافر يوصى له توصية. واختلف العلماء، هل يجعل وصياً؟ فجوِّز بعض، ومنع بعض، ورد النظر إلى السلطان بعض، منهم مالك بن أنس رضي الله عنه: وذهب مجاهد، وابن زيد، والرماني، وغيرهم إلى أن المعنى: «إلى أوليائكم من المؤمنين»، ولفظ الآية يعضد هذا المذهب، وتعميم لفظ (الولي) أيضاً حسن كما قدمنا؛ إذ ولاية النسب لا تدفع الكافر، وإنما تدفع أن يلقى إليه بالمودة كولي الإسلام، والكتابي الذي ينتظر ذلك فيه يحتمل الوجهين اللذين ذكرنا.

و ﴿سَطْرَتْ﴾ من قولك: «سَطْرَتْ الْعِجَابُ» إذا أثبت أسطاراً، ومنه قول العجاج:

فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ الَّتِي كَانَ سَطَّرَ

قال قتادة: وفي بعض القراءة: ﴿كَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ مَكْتُوبًا﴾.

الأنبياء ليصير الأمر إلى كذا، والأول أصوب.

والصدق في هذه الآية يحتمل أن يكون المضاد للكذب في القول، ويحتمل أن يكون من صدق الأفعال واستقامتها، ومنه: عود صدق، وصدقني السيف والمال، وقال مجاهد: ﴿الْمُؤْمِنِينَ﴾ في هذه الآية أراد بها الرُّسل، أي: يسأل عن تبليغهم، وقال أيضاً: أراد المؤمنين المبلغيين من الرسل. وهذا كله محتمل.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ﴾، إلى قوله تبارك وتعالى: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ نزلت في شأن غزوة الخندق وما اتصل بها من أمر بني قريظة، وذلك أن رسول الله ﷺ أجلى بني النضير من موضعهم عن المدينة إلى خيبر، واجتمعت جماعة منهم ومن غيرهم من اليهود وخرجوا إلى مكة مستنهضين قريشاً إلى حرب رسول الله ﷺ، وجسروهم على ذلك، وأزمت قريش السير إلى المدينة، ونهض اليهود إلى غطفان وبني أسد ومن أمثلهم من أهل نجد وتهامة، واستنفروهم إلى ذلك، فتحزب الناس وساروا إلى المدينة، واتصل الخبر برسول الله ﷺ فحفر الخندق حول ديار المدينة وحصَّنه، وكان أمراً لم يعهده العرب، وإنما كان من أعمال فارس والروم، وأشار به سلمان الفارسي رضي الله عنه، فورد الأحزاب قريش وكنانة والأحبابيش في نحو عشرة آلاف عليهم أبو سفيان بن حرب، ووردت

أشار إلى أخذ الميثاق على كل واحد منهم عند بعثه، وعند إلقاء الرسالة إليه وأوامرها ومعتقداتها.

وذكر الله تعالى النبيين جملةً، ثم خصص بالذكر أفراداً منهم تشريفاً وتعظيماً؛ إذ هؤلاء الخمسة صلى الله عليهم وسلم هم أصحاب الكتب والشرائع والحروب الفاصلة على التوحيد وأولو العزم، ذكره الشعلي، وقدم ذكر محمد ﷺ على مزيتته في الزمن تشريفاً خاصاً له أيضاً، وزوي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «كنت أول الأنبياء في الخلق وآخرهم في البعث».

وكرر أخذ الميثاق لمكان الصفة التي وُصف بها، و﴿عَلِيّاً﴾ إشعاراً بحرمته هذا الميثاق وقوتها، واللام في قوله تعالى: ﴿لَيْسَتَلَّ﴾ متعلقة به ﴿أَخَذْنَا﴾، ويحتمل أن تكون لام كي، أي: بعثت الرسل وأخذت عليهم الميثاق في التبليغ لكي يجعل الله خلقه فرقتين، فرقة يسألها عن صدقها، على معنى إقامة الحجة والتقرير، كما قال لعيسى عليه السلام: ﴿هَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ؟﴾ فتجيب كأنها قد صدقت الله في إيمانها في جميع أفعالها، فَيُثَبِّهُهَا عَلَى ذلك، وفرقة كفرت فينالها ما أعد لها من العذاب الأليم، ويحتمل أن تكون اللام في قوله: ﴿لَيْسَتَلَّ﴾ لام الصيرورة، أي: أخذ الميثاق على

وَأَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ مِنْ بَوَّاحٍ مِنْهُمْ
وَمُؤْمِنٍ وَعِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾
لَيْسَتَلَّ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا
﴿٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَكُمْ
جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ
يَمْتَصِلُونَ بِصِدْقِهِمْ ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنْكُمْ وَإِذْ رَأَيْتُمُ الْأَنْبِيَاءَ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ
وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونًا ﴿١٠﴾ هَذَا لِكَيْ أُتْبَعَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا
زُلْزَالَ شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَّرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَآئِفَةٌ
مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَرْبِ لَا مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَسْتَعِذْنَ فَرِيقًا
مِنْهُمْ الَّتِي يَقُولُونَ إِنَّا بِعِزَّةِ اللَّهِ وَمَا هِيَ بِعِزَّةِ رَبِّكَ إِذْ
فَرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دَخَلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ آفَاقٍ رِهَاةٌ سَأَلُوا أَفْتِسَةَ
لَا تُوْهَى وَمَا تَلْبَثُوهَا إِلَّا سَيْرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهِدُوا
اللَّهِ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤَلَّفُونَ إِلَّا نَجْرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ وَسْتَوْكًا ﴿١٥﴾

٧ - ٩ - تفسير قوله عز وجل:

﴿وَإِذْ﴾ يحتمل أن يكون ظرفاً لسطر الأحكام المتقدمة في الكتاب. كأنه قال: كانت الأحكام مسطرة مُلقاةً إلى الأنبياء إذ أخذنا عليهم الميثاق في التبليغ والشرائع، فيكون ﴿وَإِذْ﴾ متعلقاً بقوله: ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾. ويحتمل أن يكون في موضع نصب بإضمار فعل تقديره: واذكر إذ، وهذا التأويل أبين من الأول.

وهذا الميثاق المشار إليه قال الزجاج وغيره: إنه الذي أخذ عليهم وقت استخراج البشر من صلب آدم كالدُّرِّ، قالوا: وأخذ الله تبارك وتعالى حينئذ ميثاق النبيين بالتبليغ وتصديق بعضهم بعضاً، وبجميع ما تتضمنه النبوة، وزوي نحوه عن أبي بن كعب. وقالت فرقة: بل

يشير إلى ذلك، فيستعار لها بلوغ الحناجر، ورؤى أبو سعيد أن المؤمنين قالوا يوم الخندق: يا رسول الله، بلغت القلوب الحناجر، فهل من شيء نقوله؟ قال: «نعم، قولوا: اللهم استر عوراتنا، وآمن روعاتنا، فقالوها فضرب الله وجوه الكفار بالريح فهزمهم.

وقوله تعالى: ﴿وَتَطْمَئِنُّ بِاللَّهِ الْقُلُوبُ﴾، أي: تكادون تضطربون وتقولون: ما هذا الخُلف للوعد؟ وهذه عبارة عن خواطر للمؤمنين لا يمكن للنشر دفعها، وأما المنافقون فجَلَّحُوا ونطقوا. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش، وطلحة: ﴿الطُّشُونُ﴾ بسألف في الوصل والوقف، وذلك اتباع لخط المصحف، وعلته تعديل رؤوس الآي، وطُرِدَ هذه العلة أن تلازم الوقف. وقد روي عن أبي عمرو أنه لا يصل، وكان يوافق خط المصحف وقياس الفواصل، وقرأ أبو عمرو أيضاً، وحمزة في الوصل والوقف: ﴿الطُّشُونُ﴾ بغير ألف، وهذا هو الأصل، وقرأ ابن كثير، والكسائي، وعاصم، وأبو عمرو بالألف في الوقف، وب حذفها في الوصل، وعللوا الوقف بتساوي رؤوس الآي، وبما يفعل العرب في القوافي من الزيادة والتقص.

وقوله تعالى: ﴿مَنَالِكُ﴾ ظرف زمان، والعامل فيه ﴿أَبْتَلِي﴾، ومن قال: إن العامل فيه ﴿وَتَطْمَئِنُّ﴾ فليس قوله بالقوي؛ لأن البداءة ليست بمتمكنة. و﴿أَبْتَلِي﴾ معناه: اختبر

بالتاء، فكأن في الآية مقابلة لهم، أي: أنتم لم تروا جنوده وهو بصير بأعمالكم، فيبين في هذا القدرة والسلطان، وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿يَغْمَلُونَ﴾ بالياء على معنى الوعيد للكفرة، وقرأ أبو عمرو أيضاً بالتاء، وهما حسنتان، ورؤي عن أبي عمرو: ﴿لَمْ يَرَوْهَا﴾ من تحت، قال أبو حاتم: قراءة العامة: ﴿لَمْ يَرَوْهَا﴾ بالتاء من فوق، ورؤي عن الحسن، ونافع، والأعرج: ﴿يَغْمَلُونَ﴾ بالياء.

١١ - ١٢ - تفسير قوله عز وجل:

﴿إِذْ هَذَا بَدَلٌ مِنَ الْأُولَى فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ﴾، وقوله: ﴿مِنْ قَوْمِكُمْ﴾ يريد أهل نجد مع عبيثة بن حصن، ﴿مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ يريد مكة وسائر تهامة، قاله مجاهد، وقيل: ﴿مِنْ قَوْمِكُمْ﴾ أي: من أعلى الوادي من قبل مشرق غطفان، ﴿مِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ﴾ من أسفل الوادي منه قبل المغرب، وقيل: إنما أراد ما يختص ببقعة المدينة، أي: نزلت طائفة في أعلى المدينة، وطائفة من أسفلها، وهذه عبارة عن الحصر.

و﴿رَاعَى الْأَبْصَرَ﴾ معناه: مالت عن مواضعها، وذلك فعل الواله الفزع، وأدغم الأعمش ﴿إِنزَاعَتْ﴾، وبين الذال الجمهور، وكلٌ حسن.

﴿وَيَلَفَّتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ عبارة عما يجده الهلج من ثوران نفسه وتفرقها شعاعاً، ويجد كأن قلبه يعضد علواً لينفصل، فليس بلوغ القلوب الحناجر حقيقة بالنقلة، بل

غطفان وأهل نجد عليهم عبيثة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزاري، ووردت بنو عامر وغيرهم عليهم عامر بن الطفيل إلى غير هؤلاء، فحصرنا المدينة، وذلك في شوال سنة خمس من الهجرة، على ما قال ابن إسحق، وقال مالك: كانت سنة أربع، وكانت بنو قريظة قد عاهدوا رسول الله ﷺ على الهدنة، وعاقده على ألا يلحقه منهم ضرر، فلما تمكن هذا الحصار واثقهم بنو النضير، فغدروا رسول الله ﷺ، ونقضوا العهد، وصاروا حزباً من الأحزاب، فضاقت الحال على رسول الله ﷺ والمؤمنين، وكثرت الظنون، ورسول الله ﷺ يبشر ويعد بالنصر.

ثم ألقى الله الرعب في قلوب المشركين، ويشسوا من الظفر بمئعة الخندق، وبما رأوا من جلد المؤمنين، وجاء رجل من قريش اسمه نوفل بن الحرث - وقيل غير هذا - فاقترح الخندق بفرسه فقتل فيه، فكان ذلك حاجزاً بينهم، ثم إن الله تعالى بعث الصبا لنصرة نبيه ﷺ على الكفار، فطردهم، وهددت بيوتهم، وأطفأت نيرانهم، وقطعت جبالهم، وأكفأت قودورهم، ولم يمكنهم معها قرار، وبعث الله مع الصبا ملائكة تشدد الريح، وتفعل نحو فعلها، وتلقي الرعب في قلوب الكفرة حتى أزمعوا الرحلة بعد بضع وعشرين ليلة للحصر، فانصرفوا خائبين، فهما الجنود التي لم تُر. وقرأ الحسن: ﴿وَجَسُوداً﴾ بفتح الجيم، وقرأ الجمهور: ﴿تَمَلُونَ﴾

وامتنح الصابرين منهم من الجازع، **﴿وَدَّرِلُوْا﴾** معناه: حركوا بعنف، وقرأ الجمهور: **﴿وَزَلَّالًا﴾** بكسر الزاي، وقرأها: **﴿وَزَلَّالًا﴾** بالفتح الجحدري، وكذلك **﴿وَزَلَّالَهَا﴾** في **﴿إِذَا زُلَّيْتُمْ﴾**، وهذا الفعل مر مضاعف (زَلَّ).

ثم ذكر تعالى قول المنافقين والمرضى القلوب، على جهة التأميم لهم، وروي عن يزيد بن رومان أن معتب بن قشير قال: بعدنا محمد أن نفتح كنوز كسرى وقيصر ومكة ونحن الآن لا يقدر أحدنا أن يذهب إلى الغائط، ما بعدنا إلا غرورا، أي أمرا يغرنا ويوقنا فيما لا طاقة لنا به، وقال غيره من المنافقين نحو هذا فنزلت الآية فيهم، وقولهم: **﴿مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾** إنما هو على جهة الهزء، كأنهم يقولون: على زعم هذا الذي يدعي أنه رسول، ويدل على هذا أن من المحال أن يكون اعتقادهم أن ذلك الوعد هو من الله ومن رسوله ثم يصفونه بالغرور، بل معناه: على زعم هذا.

﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه المقالة روي أن بني حارثة قالوها، وبيوتهم بحدود المدينة، وقال مقاتل: بنو سلمة، وقيل: القائل لذلك عبدالله بن أبي بن سلول وأصحابه. وقرأ السلمي، وحفص، واليماني، والأعرج: **﴿لَا مَقَامَ﴾** بضم الميم، بمعنى: لا موضع إقامة، وقرأ الباقر: **﴿لَا مَقَامَ﴾** بفتح الميم، بمعنى: لا موضع قيام، وهي قراءة أبي جعفر،

وشيبة، وأبي رجاء، والحسن، وقتادة، والشَّخمي، وعبدالله بن مسلم، وطلحة، والمعنى: في موضع القتال وموضع الممانعة. **﴿فَأَرْحَمُوا﴾** معناه: إلى منازلكم وبيوتكم، وكان ذلك على جهة التخذيل عن رسول الله ﷺ.

والفريق المستأذن، روي أن أوس بن قَيْظي، استأذن في ذلك عن اتفاق من عشيرته، فقال: إن بيوتنا عورة، أي منكشفة للعدو، وقيل: أراد: خالية للسراق، يقال: اعوز المنزل إذا انكشف، ومنه قول الشاعر:

لَنَا الشُّدَّةُ الْأُولَى إِذَا الْقِرْنَ أُعْوِرَا

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الفريق بنو حارثة، وهم كانوا عاهدوا الله إثر أحد لا يؤلّون الأدبار، وقرأ ابن عباس، وابن يعمر، وقتادة، وأبو رجاء: **﴿عَوْرَةً﴾** بكسر الواو فيهما، وهو اسم فاعل، قال أبو الفتح: «صحة الواو في هذه شاذة؛ لأنها متحركة قبلها فتحة»، وقرأ الجمهور: **﴿عَوْرَةً﴾** ساكنة الواو على أنه مصدر وُصف به، والبيت المَعْوَرُ هو المنفرد المعروض لمن شاءه بسوء، فأخبر الله تعالى عن بيوتهم أنها ليست كما ذكره، وأن قصدهم الفرار، وأن ما أظهره من أنهم يريدون حماية بيوتهم وخاصة نفوسهم ليس كذلك، وأنهم إنما يكرهون نصر رسول الله ﷺ، ويريدون جزية وأن يغلب.

ولو دخلت المدينة من أقطارها، واشتد الخوف الحقيقي، ثم سُئلوا

الفتنة والحرب لمحمد ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم لطاروا إليها وأتوها مجيبين فيها، ولم يتلبثوا في بيوتهم لحفظها إلا يسيرا، قيل: قَدَّر ما يأخذون سلاحهم. وقرأ الحسن البصري: **﴿ثُمَّ سُوِّلُوا الْفِتْنَةَ﴾** بغير همز، وهي من سَالَّ يَسَالُ كخاف يخاف لغة في (سأل) العين فيها واو، وحكى أبو زيد: هما يتساولان، وروي عن الحسن: **﴿سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾**، وقرأ مجاهد: **﴿سُئِلُوا﴾** بالمد. وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: **﴿لَا تَوْهَا﴾** بمعنى: لجأوها، وقرأ عاصم، وأبو عمرو: **﴿لَا تَوْهَا﴾** بمعنى: لأعطوها من أنفسهم، وهي قراءة حمزة، والكسائي، فكأنها رد على السؤال ومشبهة له، قال الشعبي: وقرأها النبي عليه الصلاة والسلام بالمد.

ثم أخبر عنهم تبارك وتعالى أنهم قد كانوا عاهدوا على ألا يفرّوا، وروي عن يزيد بن رومان أن هذه إشارة إلى بني حارثة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهم مع بني سلمة كانتا الطائفتين اللتين همتا بالفشل في يوم أحد، ثم تابوا وعاهدوا على ألا يتَّع منهم فرار، فوقع يوم الخندق من بني حارثة.

وفي قوله تعالى: **﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾** تَوْعُدًا. والأقسطار: الشواحي، واحدها قُطْرٌ وقُتْرٌ، والضمير فيها يحتمل المدينة ويحتمل البيوت.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام في هذه الآية أن يخاطبهم بتوبيخ، فأعلمهم بأن الفرار لا ينجي من القدر، وبأنهم لا يُمَثِّفُونَ في تلك الأوطان، بل تنقطع أعمارهم من يسير من المدة. والقليل الذي استثناءه هي مدة الأجال، قاله الربيع بن خثيم، ثم وقفهم على عاصم من الله يستندون إليه، ثم حكم بأنهم لا يجدون ذلك، ولا ولي ولا نصير من الله عز وجل. وقرأت فرقة: ﴿يُمَثِّفُونَ﴾ بالياء، وقرأت فرقة: ﴿تُنْتَفُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة.

ثم وبَّخهم بإخباره أن الله تعالى يعلم المعوقين، وهم الذين يعوقون الناس عن نُصْرَةِ الرسول ﷺ، ويمنعونهم بالأقوال والأفعال من ذلك، ويسعون على الذين ينصرونه، تقول: عاقني أمر كذا، وعوقني إذا بالغت وضعفت الفعل.

وأما القائلون فاختلف الناس في حالهم - فقال ابن زيد وغيره: أراد المنافقين، يقول المنافق لإخوانه في النسب وقرباته: «هَلُمَّ إِلَيْنَا»، أي: إلى المنازل والأكل والشرب وترك القتال، وزوي أن جماعة منهم فعلت ذلك. وزوي أن رجلاً من المؤمنين رجع إلى داره فوجد أخواً له منافقاً، بين يديه رغيف وشواء ونبيد، فقال له: أتجلس يا فلان هكذا ورسول الله ﷺ في القتال؟ فقال له أخوه: هَلُمَّ إلى ما أنا فيه يا فلان، ودعني من محمد فقد والله هَلَكْتُ، وماله قَبْلُ بأعدائه. فشمته أخوه وقال: والله لأعرفن رسول الله ﷺ،

فذهب إلى النبي ﷺ فوجد الآية نزلت.

وقالت فرقة: بل أراد من كان من المنافقين يداخل كفار قريش والعرب، فإنه كان منهم من يداخلهم، وقال لهم: «هَلُمَّ إِلَيْنَا»، أي إلى المدينة فإنكم تغلبون محمداً، والإخوان - على هذا - هم في الكفر والمذهب السوء.

و «هَلُمَّ» بمعنى: أقبل، ومن العرب من يستعملها على حد واحد في المذكر والمؤنث والمفرد والجمع، وهذا على أنها اسم فعل، وهذه لغة أهل

الحجاز، ومنهم من يُجرى مجرى الأفعال فيلحقها الضمائر المختلفة، فيقول: هَلُمَّ، وَهَلَّمِي، وَهَلِّمُوا. وأصل (هَلُمَّ): (هَالَمْتُ)، نقلت حركة الميم إلى اللام فاستغني عن الألف، وأدغمت الميم في الميم لسكونها فجاء (هَلُمَّ)، وهذا مثل تعليل: (رُدُّ) من اَرْدَدْتُ. والبأس: القتال، و «إِلَّا قَلِيلاً» معناه: إلا إتياناً قليلاً، وقيلته يحتمل أن تكون لِقَصْر مُدَّتْهِ وقِلَّة أزمته، ويحتمل أن تكون لِقِلَّة عقابه، وأنه رياء وتلميع لا تحقيق.

﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَشِحَّةً﴾ جمع شحيح، ونصبه على الحال من «وَالْقَائِلِينَ»، أو من فعل مضمّر دل عليه قوله: ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾، أو من الضمير في «يَأْتُونَ»، أو على الذم، وقد منع

قُلْ لَنْ يَنْفَعَكُمْ الْفِرَارُ إِنْ فَرَرْتُمْ مِنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تَسْمَعُونَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿١٨﴾ قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وِيَاءً وَلَا نَصِيرًا ﴿١٩﴾ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ إِخْرَجْتُمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢٠﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموتِ إِذَا ذُكِرَ الْمَوْتُ سَلَفُوكُمْ بِالسِّنَةِ جِدَادِ أَشِحَّةً عَلَى الْغَيْبِ أُولَئِكَ لَمْ يَرَوْهَا فَأَحْطَ اللَّهُ أَعْمَانَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٢١﴾ يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْتَأْذِنُونَ عَنْ أَسْبَابِكُمْ وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلاً ﴿٢٢﴾ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ وَلِمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٣﴾

بعض النحاة أن يعمل في هذه الحال ﴿الْمُعَوِّقِينَ﴾ أو «وَالْقَائِلِينَ» لمكان التفريق بين الصلة والموصول بقوله: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ﴾ وهو غير داخل في الصلة. وهذا الشخ قيل: هو بأنفسهم على المؤمنين، وقيل: بإخوانهم، وقيل: بأموالهم في النفقات في سبيل الله، وقيل: بالنعمة عند القسم، والصواب تعميم الشخ، وأن يكون بكل ما فيه للمؤمنين منفعة.

وقوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾، قيل: معناه: فإذا قوي الخوف من العدو، وتوقع أن يستأصل جميع أهل المدينة، لاذ هؤلاء المنافقون بك، ينظرون نظر الهلع المختلط، كنظر الذي يغشى عليه من الموت، ﴿فَإِذَا ذُكِرَ﴾ ذلك الخوف العظيم ﴿سَلَفُوكُمْ﴾ أي: خاطبوكم مخاطبة

بليغة، يقال: خطيب سَلَّاقٌ ومِسْلَاقٌ ومِسْلَاقٌ، ولساناً أيضاً كذلك إذا كان فصيحاً مقتدرأ، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿صَلِّقُواكُمْ﴾ بالصاد. ووصف الألسنة بالجِدَّة لِقَطْعِهَا المعاني، ونفوذها في الأقوال.

وقالت فرقة: معنى قوله: ﴿فَإِذَا جَاءَ لُتُوفٌ﴾ أي: إذا كان المؤمنون في قوة وظهور، وخشي هؤلاء المنافقون سطوتك يا محمد رأيهم يصابون وينظرون إليك نظر فزع منك خائف هلع، فإذا ذهب خوفك عنهم باشتغالك بعدو ونحوه - كما كان مع الأحزاب - سلقوكم حيثئذ، واختلف الناس في المعنى الذي فيه تسلقون - فقال يزيد بن رومان وغيره: ذلك في أذى المؤمنين وسبهم وتنقيص الشرع ونحو هذا، وقال قتادة: ذلك في طلب العطاء من الغنيمة والإلحاف في المسألة، وهذان القولان يترتبان مع كل واحد من التأويلين المتقدمين في الخوف، وقالت فرقة: السَلُّقُ هو في مخادعة المؤمنين بما يُرضيهم من القول على جهة المصانعة والمخاتلة.

وقوله: ﴿أَشِحَّةً﴾ حال من الضمير في ﴿صَلِّقُواكُمْ﴾، وقوله: ﴿عَلَى الْخَيْرِ﴾ يدلُّ على عموم الشُّحِّ في قوله أولاً ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، وقيل في هذا: معناه: أشحَّة على مال الغنائم، وهذا على مذهب من قال: إن (الخير) في كتاب الله حيث وقع فهو بمعنى المال. وقرأ ابن أبي عبله: ﴿أَشِحَّةً﴾ بالرفع، أخبر تبارك وتعالى عنهم أنهم لم يؤمنوا، ولا

كامل تصديقهم، وجمهور المفسرين على أن هذه الإشارة إلى منافقين لم يكن لهم قط إيمان، ويكون قوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ أي أنها لم تكمل قط، أي أنها كالمُخْطِطَةِ، وحكى الطبري عن ابن زيد عن أبيه أنه قال: نزلت في رجل يدري نفاق بعد ذلك ووقع في هذه المعاني فأحبط الله عمله في بدر وغيرها، وهذا فيه ضعف.

والإشارة بـ ﴿ذَلِكَ﴾ في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾ يحتمل أن تكون إلى إحباط عمل هؤلاء المنافقين، ويحتمل أن تكون إلى جملة حالهم وما وصف من شحهم ونظرهم وغير ذلك من أعمالهم، أي أن أمرهم يسير لا يبالي به، ولأ له أثر في دفع خير ولا جلب شر.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿يَحْسِبُونَ﴾ للمنافقين، والمعنى أنهم من الفزع والجزع بحيث رحل الأحزاب وهزمهم الله تعالى وهؤلاء يظنون أنهم لم يذهبوا، بل يريدون الكثرة إلى المدينة، ثم أخبر تعالى عن معتقد هؤلاء المنافقين أن ودهم إذا أتى الأحزاب وحاصروا المدينة أن يكونوا هم قد خرجوا إلى البادية ومع الأعراب وهم أهل العمود والرحيل من قَطْرٍ إلى قَطْرٍ، ومن كان منهم مقيماً بأرض مستوطناً فلا يُسْمُونَ أعراباً، وغرضهم من البداوة أن يكونوا سالمين من القتال. وقرأ ابن عباس، وطلحة ابن مصرف: ﴿لَوْ أَنَّهُمْ بَدَأُوا فِي الْأَعْرَابِ﴾ بشد

المدال منونة، وهو جمع بادٍ كغزازٍ وعُزَّى. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «بدا» فعلاً ماضياً. وقرأ أهل مكة، ونافع، وابن كثير، والحسن: ﴿يَسْتَلُونَ﴾، أي عن أنبائكم، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، والأعمش، والحسن: ﴿يَسْأَلُونَ﴾ بغير همز، نحو قوله تعالى: ﴿سَلَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾، وقرأ الجحدري، وقاتدة، والحسن - بخلاف عنه -: ﴿يَسْأَلُونَ﴾، أي: يسأل بعضهم بعضاً، قال الجحدري في الإمام: ﴿يَسْأَلُونَ﴾.

ثم سألني الله تعالى نبيهم عنهم، وحقر شأنهم بأن أخبر أنهم لو حضروا لما أغنوا ولما قاتلوا إلا قتالاً قليلاً لا نفع له، قال التغلبي: هو قليل من حيث هو رياء من غير حسبة ولو كان كثيراً.

ثم أخبر تبارك وتعالى على جهة الموعظة بأن كل مسلم ومدع في الإسلام يجب أن يقتدي بمحمد عليه الصلاة والسلام حين قاتل وصبر وجاد بنفسه. وقرأ جمهور الناس: ﴿إِسْوَةٌ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ عاصم وحده: ﴿أَسْوَةٌ﴾ بضم الهمزة، وهما لغتان، ومعناها: قدوة، وتأسى الرجل إذا اقتدى، و«رجاء الله» تابع للمعرفة به، و«رجاء اليوم الآخر» ثمره العمل الصالح، و«ذَكَرُ الله كثيراً» من خير الأعمال، فبئهِ عليه.

وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿يَحْسِبُونَ الْأَحْزَابَ قَدْ ذَهَبُوا، فَإِذَا جَدُّوهُمْ لَمْ يَذْهَبُوا وَدُّوا أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ﴾.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

وصف تعالى فعل المؤمنين حين رأوا تجمع الأحزاب لحربهم، وصبرهم على البلاء، وتصديقهم وعد الله تعالى على لسان نبيه ﷺ، واختلف المتأولون ماذا أرادوا بوعد الله ورسوله؟ - فقالت فرقة: أرادوا ما أعلمهم به رسول الله ﷺ حين أمرهم بحفر الخندق، فإنه أعلمهم بأنهم سيُخضرون، وأمرهم بالاستعداد لذلك، وبأنهم سينصرون بعد ذلك، فلما رأوا الأحزاب قالوا: هذا ما وعدنا الله ورسوله، فسلموا الأمر وانتظروا أجره.

وقالت فرقة: أرادوا بوعد الله ما نزل في سورة البقرة، من قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْعَلُوا بِالْحَيَاةِ وَلَكِنْ يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ نَسْتَهْمُ الْبِئْسَاءَ الْوَصِيَّةَ وَذُرُّوْا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصَرَ اللَّهُ آلاَءَ إِنْ نَصَرَ اللَّهُ قَرْبَةً﴾.

ويحتمل أن يكون المؤمنون نظروا في هذه الآية، وفي قول رسول الله ﷺ عند أمرهم بحفر الخندق، وأشاروا بالوعد إلى جميع ذلك، وهما مقالتان، إحداهما من الله تعالى، والأخرى من رسوله ﷺ.

وزيادة الإيمان هنا هي في أوصافه لا في ذاته؛ لأن ثبوتها وإبعاد الشكوك والشبهه عنه زيادة في أوصافه، ويحتمل أن يزيد إيمانهم بما وقع، وبما أخبر به رسول الله ﷺ مما لم يقع، فتكون الزيادة بهذا الوجه - فيما يؤمن به لا نفس الإيمان. وقرأ ابن أبي عملة:

﴿وَمَا زَادُوهُمْ﴾ بواو

جمع.

و «التسليم»: الانقياد لأمر الله تعالى كيف جاء، ومن ذلك ما ذكرناه من أن المؤمنين قالوا لرسول الله ﷺ عند اشتداد ذلك الخوف: إن هذا أمر عظيم، فهل من شيء نقوله؟ فقال: «قولوا: اللهم آمن روعاتنا، واسر عيوننا»، فقالها المسلمون في تلك الضيقات.

ثم أثنى الله عز وجل على رجال من المؤمنين عاهدوا الله تعالى على

الاستقامة التامة فوفوا وقصوا نجيبهم، أي نذرهم وعهدهم، والتخبط في كلام العرب الثذر والشئ الذي يلتزمه الإنسان ويعتقد الوفاء به، ومنه قول الشاعر:

قَصَى نَحْبَهُ فِي مَلْتَمَى الْقَوْمِ هَوْبُرٍ
المعنى أنه التزم الصبر إلى فتح أو موت فمات، ومن ذلك قول جرير:
بِطَخْفَةٍ جَالِدْنَا الْمُلُوكَ وَحَيْنَلْنَا
عَشِيَّةَ بِسَطَامِ جَزِينِ عَلَى نَحْبِ
أي: على أمر عظيم التزم القيام به، كأنه خطر عظيم.

وقد يسمى الموت نجباً، وبه فسّر ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، وقال الحسن: ﴿قَصَى نَحْبَهُ﴾: مات على ما عهد، ويقال للذي جاهد في أمر حتى مات: قَصَى نَحْبَهُ، ويقال لمن مات: قَصَى فَلَانٌ

سورة الأحزاب

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٢﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِنْ شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُورًا رَحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَظَّمَ قُلُوبَهُمْ لِمَنْ أَوْحَى اللَّهُ إِلَى الَّذِينَ آمَنُوا أَنِ الْقِتَالُ كَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا ﴿٢٤﴾ وَأَنْزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَفَرِيقًا تَأْسُرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٥﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَوَدَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا مَمَّ تَطَوَّعْتُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَزِدْكُمْ مِنْ تَرَدَدِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَبِّهَا فَنَعَالَى أُمَمٍ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ سَرَلَكُمْ جَيْلًا ﴿٢٧﴾ وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالذَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنِينَ مِنَ الْآخِرَةِ جَازًا عَظِيمًا ﴿٢٨﴾ بِنِسَاءِ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُم بِفِدْحَةٍ مُنِيئَةٍ فَصَعْفٌ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ سِيرًا ﴿٢٩﴾

نحبه، وهذا تجوز، كأن الموت أمر لا بد للإنسان أن يقع به فسمي نجباً لذلك.

فممن سمي المفسرون أنه أشير إليه بهذه الآية أنس بن النضر، عم أنس بن مالك، وذلك أنه غاب عن بدر، فسأه ذلك وقال: لئن شهدت مع رسول الله ﷺ مشهداً ليزين الله ما أصنع، فلما كانت أحد أبلى بلاء حسناً حتى قُتل، ووجد فيه نيء على ثمانين جرحاً، فقالت فرقة: إن هذه الإشارة هي إلى أنس بن النضر ونظرته ممن استشهد في ذات الله تعالى. وقال مقاتل والكلبي: الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه هم أهل العقبة السبعون أهل البيعة. وقالت فرقة: الموصوفون بقضاء النخب هم جماعة من أصحاب رسول الله ﷺ، ووفوا بعهود الإسلام

على التمام، فالشهداء منهم،
والعشرة الذين شهد لهم الرسول ﷺ
بالجنة منهم، إلى من حصل في هذه
المرتبة بمن لم يتص عليه، ويصح
هذه المقالة أن رسول الله ﷺ كان
على المنبر، فقال له أعرابي: يا
رسول الله، من الذي قضى نحبه؟
فسكت عنه النبي ﷺ ساعة، ثم
دخل طلحة بن عبيدالله على باب
المسجد، وعليه ثوبان أخضران،
فقال رسول الله ﷺ: «أين السائل؟»
فقال: هأنذا يا رسول الله، قال:
«هذا ممن قضى نحبه». فهذا دليل
على أن النخب ليس من شروطه
الموت. وقال معاوية بن أبي
سفيان: إني سمعت رسول الله ﷺ
يقول: «طلحة ممن قضى نحبه»،
وروت هذا المعنى عائشة
رضي الله عنها عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: «وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ»،
يقول: ومنهم من ينتظر الحصول
على أعلى مراتب الإيمان والصلاح،
وهو بسبيل ذلك، وما بدّلوا ولا
غيّروا، ثم أكد بالمصدر. وقرأ ابن
عباس رضي الله عنهما على منبر
البصرة: «ومِنْهُمْ مَّنْ يَدُلُّ بِتَبْدِيلًا»،
رواه عنه أبو نصره وروى عنه
عمرو بن دينار: «وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ
وَأَخْرُونَ بَدَّلُوا تَبْدِيلًا».

واللام في قوله سبحانه: «يَلْبِغُونَ
اللَّهُ» لام الصيرورة والعاقبة،
ويحتمل أن تكون لام كي، وتعذيب
المنافقين ثمرة إدامتهم الإقامة على
النفاق إلى موتهم، والتوبة موازية
لتنك الإدامة، وثمره التوبة تركهم
دون عذاب، فهما درجتان: إدامة

على نفاق، أو توبة منه، وعنهما
ثمرتان: تعذيب أو رحمة، فذكر الله
تعالى - على جهة الإيجاز - واحدة
من هذين، وواحدة من هذين، ودل
ما ذكر على ما ترك ذكره. ويدل ذلك
على أن معنى قوله: «لِيُعَذِّبَ»:
ليديم على النفاق قوله: «إِنْ شَاءَ»
ومعادلته بالتوبة وبحرف [أو]، ولا
يُجَوِّزُ أَحَدٌ أَنْ «إِنْ شَاءَ» يصح في
تعذيب منافق على نفاقه، بل
حتم الله على نفسه بتعذيبه.

٢٥ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل:

عَدَدَ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذِهِ الْآيَاتِ نَعْمَةً
عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي هِزْمِ الْأَحْزَابِ،
وَأَنَّ اللَّهَ رَدَّهُمْ بَغْضَظِهِمْ لَمْ يَشْفَوْا مِنْهُ
شَيْئًا، وَلَا نَالُوا مُرَادًا، وَكَفَى اللَّهُ كُلَّ
مُؤْمِنٍ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ
يُقَاتِلَ الْأَحْزَابَ. وَرُوِيَ أَنَّ الْمُرَادَ
بِالْمُؤْمِنِينَ هُنَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَوْمٌ مَعَهُ عَثَبُوا لِلْقِتَالِ
وَبَرَزُوا وَدَعَا إِلَيْهِ. وَقِيلَ: عَنِ
رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْمُهُ عَمْرُو بْنُ
عَبْدِ وُدٍّ، فَكَفَاهُمْ اللَّهُ مَدَاوِمَةَ ذَلِكَ
وَدَعْوَتَهُ بِأَنْ هِزَمَ الْأَحْزَابَ بِالرِّيحِ
وَالْمَلَائِكَةِ، وَصَنَعَ ذَلِكَ بِقُوَّتِهِ
وَعِزَّتِهِ. قَالَ أَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ:
حُبِسْنَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ فَلَمْ نُضَلَّ
الظُّهْرَ وَلَا الْعَصْرَ وَلَا الْمَغْرِبَ
وَلَا الْعِشَاءَ، حَتَّى كَانَ بَعْدَ هَوِيٍّ مِنْ
اللَّيْلِ كَفِينَا، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ
وَتَعَالَى: «وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ
الْقِتَالَ»، وَأَمَرَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِلَا
فَأَقَامَ، وَصَلَّى الظُّهْرَ فَأَحْسَنَهَا، ثُمَّ
كَذَلِكَ كُلَّ صَلَاةٍ بِإِقَامَةٍ إِقَامَةً.

وقوله تعالى: «وَأَنْزَلَ الَّذِينَ
ظَاهَرُوهُمُ» يريد بني قريظة بإجماع

من المفسرين، قال الرماني: وقال
الحسن: الذين أنزلوا من صياصيمهم
بنو النضير، وقال الناس هم بنو
قريظة، وذلك أنهم لما غدروا
برسول الله ﷺ وظاهروا الأحزاب
عليه أراد الله النعمة منهم، فلما
ذهب الأحزاب جاء جبريل عليه
السلام إلى رسول الله ﷺ وقت
الظهر، فقال: يا محمد، إن الله
يأمرك بالخروج إلى بني قريظة،
فنادى رسول الله ﷺ في الناس،
وقال لهم: «لَا يُضَلِّتُنَّ أَحَدًا الْعَصْرَ
إِلَّا فِي بَنِي قَرِيظَةَ»، فخرج الناس
إليها، ووصلها قوم من الصحابة بعد
العشاء وهم لم يصلوا العصر وقوفاً
مع لفظ النبي ﷺ، فلم يخطئهم
رسول الله ﷺ في ذلك، وصلى قوم
في الطريق، ورأوا أن قول النبي ﷺ
إنما خرج مخرج التأكيد، فلم
يخطئهم أيضاً، وحصر
رسول الله ﷺ بني قريظة خمساً
وعشرين ليلة، ثم نزلوا على حكم
سعد بن معاذ الأوسي
رضي الله عنه، وكان بينهم وبين
الأوس جلف، فَرَجَزَا حُتْرَهُ عَلَيْهِمْ،
فحكم فيهم سعد بأن تقتل المقاتلة،
وتسبي الذرية والعيال والأموال، وأن
تكون الأرض والثمار للمهاجرين
دون الأنصار، فقالت له الأنصار في
ذلك، فقال: أردت أن تكون لهم
أموال كما لكم أموال، فقال له
رسول الله ﷺ: «لقد حكمت فيهم
بحكم المليك من فوق سبعة أرقعة»،
فأمر رسول الله ﷺ برجالهم
فأخرجوا أرسالاً، وضرب أعناقهم،
وهم من الثمانمئة إلى التسعمئة،

وسيق فيهم خيبي بن أخطب النضري، وهو الذي كان أدخلهم في الغدر برسول الله ﷺ، فلما ذهب الأحزاب دخل عندهم، فأخذه الحضر حتى نزل فيمن نزل على حُكْم سعيد، فلما قُرب وعليه حلثان فُفَاجِئَتَانِ ويدها مجموعتان إلى عنقه وأبصر رسول الله ﷺ قال له: يا محمد، والله ما لُمْتُ نفسي في عداوتك، ولقد اجتهدت ولكن من يَحْذِلُ الله يَحْذِلُ، ثم قال: أيها الناس، لا بأس، إنه أمر الله وَقَدَرَهُ وَمَلْحَمَةٌ كُتِبَ على بني إسرائيل، ثم تقدم فضربت عنقه، وفيه يقول جَبَلُ بن جَوَالِ التُّغَلِي:
لَعَنَ مَكَرَ مَا لَأَمَ ابْنُ أَخْطَبِ نَفْسَهُ
وَلِكَيْتَهُ مَنْ يَحْذِلُ الله يَحْذِلُ
لَجَاهَدَ حَتَّى أَبْلَغَ النَّفْسَ عُذْرَهَا
وَقَلَّلَ يَنْبَغِي الْعِزُّ كُلُّ مُقْلِقِلٍ
وقوله: ﴿ظَاهِرُهُمْ﴾ معناه: عاونوهم، وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿الَّذِينَ آرَزُوهُمْ﴾، وهي بمعنى: ظاهروهم. والصياصي: الحصون، واحداها: صِيصَة، وهي كل ما يُتَمَتَّعُ به، ومنه يقال لقرون البقر: الصَّيَاصِي، والصَّيَاصِي أيضاً شوْكُ الحَاكَةِ، وتُتَّخَذُ من حديد، ومنه قول دُرَيْدِ بن الصَّمَّة:
.....

كَوَفَّعَ الصَّيَاصِي فِي النَّسِيجِ الْمُمَدِّدِ
وَالْفَرِيقُ الْمَقْتُولُ: الرُّجَالُ الْمَقَاتِلَةُ
وَالْفَرِيقُ الْمَأْسُورُ: الْعِيَالُ وَالذَّرِيَّةُ.
وقرأ الجمهور: ﴿وَأَيُّرُونَ﴾ بكسر السين، وقرأها أبو حيوة: ﴿وَأَيُّرُونَ﴾ بضم السين.
وقوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمُ﴾ استعارة،

من حيث حصل ذلك لهم بعد موت الآخرين وقتلهم، وقوله: ﴿وَأَرْضًا أَمْ تَطَّوْهَا﴾ يريد بها البلاد التي فتحت بعد كالعراق والشام واليمن ومكة، فوعد الله بها عند فتح حصون بني قُرَيْظَةَ، وأخبر أنه قد قضى بذلك، قاله عكرمة. وذكر الطبري عن فِرْقِي أَنَّهُمْ خَصَّصُوا ذَلِكَ، فقال الحسن: أراد الروم وفارس، وقال قتادة: كنا نتحدث أنها مكة، وقال يزيد بن رومان، ومقاتل، وابن زيد: هي خَيْبَر، وقالت فرقة: اليمن.
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا وجه لتخصيص شيء من ذلك دون شيء.

﴿٢٨﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:
اختلف الناس في سببها - فقال قتادة: سببها غير غارتها عائشة رضي الله تعالى عنها، وقال ابن زيد: وقع بين أزواجه تغاير ونحوه مما شقي هو به - ﷺ - فنزلت الآية بسبب ذلك، ويشر الله أن يصرف إرادته في أن يؤوي إليه من يشاء، وقال أبو الزبير: نزل ذلك بسبب أن رسول الله ﷺ سأله أزواجه النفقة، وتَشَطَّنَ في تكليفه منها فوق وسعته، وقالت فرقة: بل السبب أنهم طلبن منه ملابس وثياباً، وقالت واحدة: لو كُنَّا عند غير رسول الله لكنا لنا الحلبي والمتاع. وقال بعض الناس: أمر رسول الله ﷺ بتلاوة هذه الآية عليهن، وتخييرهن بين الدنيا والآخرة وأمر الطلاق مُرْجَأً، فلو اخترن أنفسهن نظر كيف يسرحهن هو، وليس فيها تخييرهن في الطلاق؛ لأن التخيير يتضمن ثلاث

تطبيقات وهو قد قال: ﴿وَأَسْرَعَكُنَّ سَرَكَمَا جَيِّلاً﴾، وليس مع بَتِّ الطلاق سراح جميل، وقالت فرقة: بل هي آية تخيير، واختزنه عليه الصلاة والسلام، ولم يعد ذلك طلاقاً، وهو قول عائشة أيضاً.

واختلف الناس في التَّخْيِيرِ إِذَا اخْتَارَتِ الْمَرْأَةُ نَفْسَهَا - فقال مالك: هي طَلَّقَ ثَلَاثًا، ولا منكرة للزوج، بخلاف التمليك، وقال غيره: هي طَلَّقَتْ بَاتِنَةً، وقال بعض الصحابة رضوان الله عليهم: إِذَا خَيَّرَ الرَّجُلُ امْرَأَتَهُ فَاخْتَارَتْ فِيهِ طَلَّقَتْ، وهذا مخالف جداً.

قوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾، أي: إِنْ كَانَتْ عَظِيمَةً هَمْتَكُمْ وَمَطْلِبَكُمْ، أَي التَّعَمُّقُ فِيهَا وَالتَّيْلُ مِنَ نِعْمَتِهَا. و«زينة الدنيا»: المَالُ وَالبِنُونَ، وَ«تَعَالَيْنَ» دَعَاءٌ، وَ«أَمْتَعَكُنَّ» مَعْنَاهُ أَعْطَيْكَ الْمَتَاعَ الَّذِي نَدَّبَ اللهُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَيَتَّبِعُونَ﴾، وَأَكْثَرُ النَّاسِ عَلَى أَنَّهَا مِنَ الْمُنْدُوبَاتِ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هِيَ وَاجِبَةٌ، وَ«السَّرَاحُ الْجَمِيلُ» يَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ مَا دُونَ بَتِّ الطَّلَاقِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ فِي بَقَاءِ جَمِيلِ الْمُعْتَقِدِ وَحُسْنِ الْعِشْرَةِ وَجَمِيلِ الثَّنَاءِ وَإِنْ كَانَ الطَّلَاقُ بَاتًا. وَ«أَعَدَّ» مَعْنَاهُ: يَسَّرَ وَسَّيَّ، وَ«فَتَعَالَيْنَ»: الطَّاعَاتُ لِلَّهِ وَالرُّسُولِ.

وأزواج الرسول ﷺ اللواتي نزلت الآية فيهن تسع، خمس قرشيات: عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنه، وحفصة بنت عمر رضي الله عنه، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأم سلمة بنت

وقرأ ابن كثير، وشبل، وعاصم: ﴿مُبَيَّنَةٌ﴾ بفتح الياء، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وقاتدة بكسرهما، وقرأت فرقة: ﴿يُضَعَّفُ﴾ بكسر العين على إسناد الفعل إلى الله تعالى وقرأ أبو عمرو فيما روي عنه: ﴿نُضَاعَفُ﴾ بنون مضمومة ﴿أَلْعَذَابُ﴾ نصباً، وهي قراءة ابن محيصن، وهذه مُفاعلة من واحد كطارقت النعل وعاقبت اللص. وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: ﴿يُضَعَّفُ﴾ بياء مضمومة وعين مفتوحة ﴿أَلْعَذَابُ﴾ رفعاً، وقرأ أبو عمرو: ﴿يُضَعَّفُ﴾ بتشديد العين على بناء المبالغة ﴿أَلْعَذَابُ﴾ رفعاً، وهي قراءة الحسن، وابن كثير، وعيسى. وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿نُضَعَّفُ﴾ بالنون وكسر العين المشددة ﴿أَلْعَذَابُ﴾ نصباً، وهي قراءة الجحدري.

وقوله: ﴿ضَمَمْتِ﴾ معناه: يكون العذاب عذابين، أي: يضاف إلى عذاب سائر الناس عذاب آخر مثله. وقال أبو عبيدة، وأبو عمرو - فيما حكى الطبري عنهما -: بل يضاف إليه عذابان مثله فيكون ثلاثة أعذبة، وضَعَفَه الطبري، وكذلك هو غير صحيح وإن كان له باللفظ تعلق احتمال، وكون الأجر مرتين مما يفسد هذا القول؛ لأن العذاب في الفاحشة بلزاء الأجر في الطاعة، والإشارة بذلك إلى تضعيف العذاب.

و ﴿يَقْتُ﴾ معناه: يطيع ويخضع بالعبودية، قاله الشعبي وقاتدة. وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يَقْتُ﴾ بالياء،

تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ:

قال أبو رافع: كان عمر رضي الله عنه كثيراً ما يقرأ سورة يوسف وسورة الأحزاب في الصباح، وكان إذا بلغ ﴿يُنْسَأُ النَّبِيَّ﴾ رفع بها صوته، فقيل له، فقال: أذكرهن العهد.

وقرأ الجمهور: ﴿مَنْ يَأْتِ﴾ بياء وتاء، ﴿وَمَنْ يَقْتُ﴾ بياء حملاً على اللفظ، وقرأ عمرو بن فايد، والجحدري، ويعقوب: ﴿تَأْتِ﴾ بتاءين و ﴿تَقْتُ﴾ بتاء من فوق

حملاً على المعنى. وقال قوم: الفاحشة إذا وردت معرفة فهي الزنى واللواط، وإذا وردت منكورة فهي سائر المعاصي وكل مستفحش، وإذا وردت منعوتة بالبيان فهي عقوق الزوج وفساد عشرته، ولذلك نصفها بالبيان إذ لا يمكن سترها، والزنى وغيره يُتَسْتَرُّ به فلا يكون مبنياً، ولا محالة أن الوعيد واقع على ما خفي منه وما ظهر. وقالت فرقة: بل قوله: ﴿يَفْجِسُ مُبَيَّنَةٌ﴾ يعم جميع المعاصي، وكذلك الفاحشة حيث وردت. ولما كان أزواج النبي ﷺ في مهبط الوحي وفي منزل أوامر الله ونواهيه قوي الأمر عليهن ولزمنهن بسبب مكانتهن أكثر مما يلزم غيرهن، فضوعف لهن الأجر والعذاب، والإشارة بالفاحشة إلى الزنى وغيره.

وَمَنْ يَقْتُ مِنْكُمْ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ. وَتَعَمَّلْ صِلِحًا تَوَدَّهَا
أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٠﴾ يَنْسَأُ النَّبِيَّ
لَسْتُمْ كَالْمَدِينِ النَّسَاءِ إِنْ أَتَيْتُمْ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ
فِي بَيْوتِكُمْ وَلَا تَرْجَعْنَ بَرِجَ الْجَهْلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ
الصَّلَاةَ وَءَاتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا
يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمْ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
تَطْهِيرًا ﴿٣١﴾ وَأَذْكُرْتُمْ مَا بَشَرُ فِي بَيْوتِكُمْ مِنْ
آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَطِيفًا خَيْرًا ﴿٣٢﴾
إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ
وَالْقَانِطِينَ وَالْقَانِطَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّادِقِينَ
وَالصَّادِقَاتِ وَالخَّاشِعِينَ وَالخَّاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ
وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّامِتِينَ وَالصَّامِتَاتِ وَالْحَافِظِينَ
فِرْجَانَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا
وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٣﴾

أبي أمية. وأربع غير قرشيّات: ميمونة بنت الحارث الهلالية، وصفية بنت حيي بن أخطب الحبيرية، وزينب بنت جحش الأسدية، وجويزية بنت الحارث المصطلقية رضي الله عن أزواج رسول الله أجمعين.

وفي الحديث أن النبي ﷺ لما خرج من إبلاثة الشهر، ونزلت هذه الآية، بدأ بعائشة فقال: «إني ذاكرٌ لك أمراً، ولا عليك ألا تعجلي حتى تستأمرى أبويك»، ثم تلا الآية، فقالت له: «وفي هذا أستأمر أبوي؟» فإني أريد الله ورسوله والدار الآخرة، قالت: «وقد علم أن أبوي لا يأمراني بفراقه»، ثم تتابع أزواج النبي ﷺ على مثل قول عائشة رضي الله عنها، فاخترن الله ورسوله.

﴿وَتَعْمَلُ﴾ بالتاء، و﴿تُؤْتِيهَا﴾ بالنون، وهي قراءة الجمهور. قال أبو علي: أسند ﴿يَقْتَتُ﴾ إلى ضمير، فلما تبين أنه لمؤنث حمل في ﴿تَعْمَلُ﴾ على المعنى، وقرأ حمزة، والكسائي كل الثلاثة بالياء حملاً في الأولين على لفظ [مَنْ]، وبها قرأ الأعمش، وأبو عبدالرحمن، وابن وثاب، وقرأ الأعمش أيضاً: ﴿فَسَوْفَ يُؤْتِيهَا اللهُ أَجْرَهَا﴾.

و «الإغثاء»: التيسير والإغداؤ، و«الرِّزْقُ الكريم»: الجنة، ويجوز أن يكون في ذلك وعدّ دنياوي، أي أن أزواجها في الدنيا على الله، وهو كريم من حيث هو حلال وقصد وبرضى من الله في نيله، وقال بعض المفسرين: العذاب الذي تُوعَدُّن به ضعفين هو عذاب الدنيا ثم عذاب الآخرة، وكذلك الأجر، وهذا ضعيف اللهم إلا أن يكون أزواج النبي ﷺ لا تدفع عنهن حدود الدنيا عذاب الآخرة، على ما هي حال الناس عليه، بحكم حديث عبادة بن الصامت، وهذا أمر لم يَرَوْ في أزواج النبي ﷺ ولا حُفِظَ تَقَرُّرُهُ.

ثم خاطبهن الله تعالى بأنهن لسنن كأحد من نساء عصرهن فما بعدن، بل هن أفضل بشرط التقوى؛ لما منحهن الله من صحبة الرسول عليه الصلاة والسلام وعظم المحل منه ونزول القرآن في حقهن، وإنما خصص النساء لأن فيمن تقدم أسية ومريم، فتأمل، وقد أشار إلى هذا قتادة.

ثم نهاهن الله عما كانت الحال عليه في نساء العرب من مكالمة الرجال

برخيم الصوت. ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ﴾ أي: لا تَلِيْنَ، وقد يكون الخضوع بالقول في نفس الألفاظ ورخامتها وهيتها، وإن لم يكن المعنى مريباً، والعرب تستعمل لفظه الخضوع بمعنى الميل والغزل، ومنه قول ليلى الأخيلية حين قال لها الحجاج: هل رأيت قط من تَوْبَةٍ شيئاً تنكرينه؟ فقالت: لا والله أيها الأمير؛ إلا أنه أنشدني يوماً شعراً ظننت منه أنه خضع لبعض الأمر، فأنشده أنا:

وَذِي حَاجَةٍ قُلْنَا لَهُ لَا تَبْجَحْ بِهَا
فَلَيْسَ إِلَيْهَا مَا حَيَّيْتَ سَبِيلُ
الحكاية. وقال ابن زيد: الخضوع بالقول ما يدخل في القلوب الغزل.

وقرأ الجمهور: ﴿فَيَطْمَعُ﴾ بالنصب على أنه نصب بالفاء في جواب التمني، وقرأ الأعرج، وأبان بن عثمان: ﴿فَيَطْمَعُ﴾ بالجزم، وكسب للالتقاء، وهذه فاء عطفة محضة، وكان النهي دون جواب ظاهر، وقراءة الجمهور أبلغ؛ لأنها تعطي أن الخضوع بسبب الطمع، قال أبو عمرو الدانسي: قرأ الأعرج، وعيسى بن عمر: ﴿فَيَطْمَعُ﴾ بفتح الياء وكسر الميم.

و «المَرَضُ» في هذه الآية، قال قتادة: هو النفاق، وقال عكرمة: الفسق والغزل، وهذا أصوب، وليس للنفق مدخل في هذه الآية، والقول المعروف هو الصواب الذي لا تنكره الشريعة ولا النفوس.

﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور بكسر القاف، وفتحها نافع وعاصم، فأما الأولى فيصح أن تكون من الوقار، تقول: وقرَّ يقرُّ

وقاراً، وقرنٌ مثل عذن، ويصح أن تكون من القَرَار، تقول: «قَرَزْتُ بالمكان» - بفتح الراء - أقرُّ، والأصل: أقرزُن، حذفت الراء الواحدة تخفيفاً، - كما قالوا في ظَلَلْتُ: ظَلَلْتُ -، ونقلوا حركتها إلى القاف، واستغني عن الألف، وقال أبو علي: بل علٌّ بأن أبدلت الراء ياء فنقلت حركتها إلى القاف ثم حذفت الياء لسكونها وسكون الراء بعدها.

وأما الثانية فعلى لغة العرب: «قَرَزْتُ» بكسر الراء - أقرُّ - بفتح القاف - في المكان»، وهي لغة ذكرها أبو عبيد في «الغريب المصنّف»، وذكرها الرُّجَّاج وغيره، وأنكرها قوم منهم المازني وغيره، قالوا: وإنما يقال قَرَزْتُ - بكسر الراء - من قَرَّة العين، وأما من القَرَار فإنما هو قَرَزْتُ - بفتح الراء -.

وقرأ عاصم: ﴿فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ - بكسر الباء - وقرأ ابن أبي عبله: ﴿وَأَقْرَزُنَّ﴾ بألف وصل وزاءين الأولى مكسورة. فأمر الله تعالى نساء النبي ﷺ في هذه الآية بملازمة بيوتهن، ونهاهن عن التَّبَجُّج، وأعلم أنه فعل الجاهلية الأولى.

وذكر الثعلبي وغيره أن عائشة رضي الله عنها كانت إذا قرأت هذه الآية تكبي حتى تبُلَّ خمارها، وذكر أن سودة قيل لها: لم لا تحججين وتعتمرين كما تفعل أخواتك؟ فقالت: قد حَجَّجْتُ واعتمرتُ وأمرني الله أن أقرُّ في بيتي، قال الراوي: فوالله ما خرجت من باب حَجْرَتِهَا حَتَّى أُخْرِجَتْ جَنَازَتُهَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وبكاء عائشة رضي الله عنها إنما كان بسبب سفرها أيام الجمل، وحينئذ قال لها عُمَار رضي الله عنه: إن الله قد أمرك أن تَقْرِي في بيتك.

و «التَّبْرُجُ»: إظهار الزينة والتصنع بها، ومنه التَّبْرُجُ؛ لظهورها وانكشافها للعيون.

واختلف الناس في «الجاهلية الأولى» - فقال الحكم بن عتيبة: ما بين آدم ونوح عليهما السلام، وهي ثمانمائة سنة، وحكيت لهم سير ذميمة، وقال ابن الكلبي وغيره: ما بين نوح وإبراهيم عليهما السلام، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما بين نوح وإدريس عليهما السلام، وذكر قصصاً، وقالت فرقة: ما بين موسى وعيسى عليهما السلام، وقال عامر الشعبي: ما بين عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، وقال أبو العالية: هي زمن داود وسليمان عليهم السلام، كان فيه للمرأة قميص من الدر غير مخيط الجانبيين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر عندي أنه أشار إلى الجاهلية التي لِحَقْنَهَا، فأمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها، وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم، وكل أمر النساء دون حجة، وجعلها أولى بالإضافة إلى حالة الإسلام، وليس المعنى أن تم جاهلية أخرى، وقد مر اسم الجاهلية على تلك المدة التي قبل الإسلام فقالوا: جاهلي في الشعراء، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في البخاري: «سمعت أبي في الجاهلية يقول»، إلى غير هذا.

و «الزَّيْنُ» اسم يقع على الإثم وعلى العذاب وعلى النجاسات والنقائص، فأذهب الله جميع ذلك عن أهل البيت، ونصب «أَهْلُ آلَيْتِ» على المدح، أو على النداء المضاف، أو بإضمار: أعني.

واختلف الناس في أهل البيت - من هم؟ فقال عكرمة، ومقاتل، وابن عباس رضي الله عنهما: هم زوجاته خاصة، لا يدخل معهن رجل، وذهبوا إلى أن «آلَيْتِ» أريد به مساكن النبي ﷺ، وقالت فرقة - هي الجمهور - : «أَهْلُ الْبَيْتِ: علي وفاطمة والحسن والحسين رضوان الله عليهم، وفي هذا أحاديث نبوية، قال أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «نزلت هذه الآية في خمسة: في، وفي علي وفاطمة والحسن والحسين»، ومن حجة الجمهور قوله تعالى: «عَنكُمْ» و«يَطْهَرُونَ» بالميم، ولو كان للنساء خاصة لكان: «عَنكُمْ» و«يَطْهَرُونَ»، والذي يظهر لي أن زوجاته لا يخرجن عن ذلك البتة، فأهل البيت وزوجاته وبنته وبنوها وزوجها، وهذه الآية تقتضي أن الزوجات من أهل البيت؛ لأن الآية فيهن، والمخاطبة لهن، أما إن أم سلمة قالت: نزلت هذه الآية في بيتي، فدعا رسول الله ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً، فدخل معهم تحت كساء خيبري، وقال: «هؤلاء أهل بيتي»، - وقرأ الآية - وقال: «اللهم أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً»، وقالت أم سلمة: فقلت: وأنا يا رسول الله؟

فقال: «أنت من أزواج النبي، وأنت إلى خير». وقال الشعبي: هم بنو هاشم، فهذا على أن «آلَيْتِ» يراد به النسب، فيكون العباس وأعمامه وبنو أعمامه منهم، وزوي نحوه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه.

(٣٤) - (٣٥) تفسير قوله عز وجل: اتصال هذه الألفاظ يعطي أن «أَهْلُ آلَيْتِ» نساؤه، وعلى قول الجمهور هي ابتداء مخاطبة، أمر الله تعالى أزواج النبي ﷺ - على جهة الموعظة وتعدد النعمة - بذكر ما يُتلى في بيوتهن، ولفظ «الذكر» هنا يحتمل مقصدين كلاهما موعظة وتقدير نعمة: أحدهما أن يريد: «وَأَذْكُرَنَّ»، أي: تذكُرْته وأقدرته قدره، وفكُرْته في أن من هذه حاله ينبغي أن يُحسِّن أفعاله، والآخر أن يريد: «وَأَذْكُرَنَّ» بمعنى: احفظن وقرآن وألزمه الألسنة، وكأنه يقول: واحفظن أوامر الله ونواهيه، وذلك الذي يُتلى في بيوتكن من آيات الله، وذلك مُؤذِكُنَّ إلى الاستقامة. و«الْحِكْمَةُ» هي سُنة الله تبارك وتعالى على لسان نبيه عليه الصلاة والسلام دون أن تكون في قرآن مثلاً، ويحتمل أن تكون وصفاً للآيات، وفي قوله: «لَطِيفًا» تأنيس وتعدد نعمة؛ أي: لطيف بكن في هذه النعمة، وفي قوله: «خَبِيرًا» تحذير ما.

قوله تعالى: «إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ» الآية. روي عن أم سلمة أن سببها أنها قالت للنبي ﷺ: «يا رسول الله، يذكر الله تعالى الرجال

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَخُفِيَ فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَخَشِيَ النَّاسُ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَ لِلَّذِي لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَرْوَاحٍ أَدْعَابِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٣٨﴾ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رُسُلًا أَنْ يَأْتُوا بِاللَّهِ بِغَيْرِ إِثْبَاتٍ وَاللَّهُ يَخْتَارُ مَا كَانَ لِلدِّينِ أَنْ يَسْرَعَ إِلَى الَّذِينَ يَلْمِزُونَ رُسُلَهُمْ أَنْ يَرْسُلَ اللَّهُ إِلَيْهِمْ آيَاتٍ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَهُمْ فِي الْغَيْبِ مِنْ دُونِ إِلَهِمْ أَمْ يُخَبِّرُونَ بِاللَّهِ الْأَرْوَاحَ وَلَا يَخْبُرُونَ أَحَدًا إِلَّا بِاللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ تُخَرِّجُكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾

ومعناه الحظر والمنع من فعل هذا، وهذه العبارة: (ما كان) و (ما ينبغي) ونحوها تجيء لحظر الشيء والحكم بأنه لا يكون، وربما كان امتناع ذلك الشيء عقلاً، كقوله: ﴿مَا كَانَ لَكُنَّ أَنْ تَنْبِتُوا شَجَرَهَا﴾، وربما كان العلم بامتناعه شرعاً، كقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِيَسْرَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾، وربما كان حظره بحكم شرعي لهذه الآية، وربما كان في المندوبات، كما تقول: «ما كان لك يا فلان أن تترك النوافل» ونحو هذا.

في كتابه في كل شيء، ولا يذكرنا، فنزلت الآية في ذلك.

وروي قتادة أن نساء من الأنصار دخلن على أزواج النبي عليه الصلاة والسلام، فقلن لهن: «ذَكَرَكُنَّ اللَّهُ تَعَالَى فِي الْقُرْآنِ وَلَمْ يَذَكَرْ سَائِرَ النِّسَاءِ بِشَيْءٍ»، فنزلت الآية في ذلك. وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن نساء النبي قلن له: «ما له تعالى يذكر المؤمنين ولم يذكر المؤمنات»، فنزلت الآية في ذلك.

وبدأ تعالى بذكر «الإسلام» الذي يعُمُّ الإيمان وعمل الجوارح، ثم ذكر «الإيمان» تخصيصاً له وتبييناً على أنه عظم الإسلام ودعامته، و«الْقَائِتُ»: العابد المطيع، و«الصَّادِقُ»: معناه فيما عوهد عليه أن يفي به ويكمله، و«الصابر»: عن الشهوات وعلى الطاعات في المَكْرَهِ والمَنْشَطِ، و«الخاشع»: الخائف لله المستكين لربوبيته الوقور، و«الْمُتَّصِدِّقُ» بالفرض والثقل، وقيل: بل هي في الفرض خاصة، والأول أمدح، و«الصائم» كذلك في الفَرَضِ والثقل، و«حِفْظُ الْفَرْجِ» هو من الزنى وشبهه، ويدخل مع ذلك كل ما يؤدي إلى الزنى أو هو في طريقه. وفي قوله: ﴿وَالْحَقِيقَاتِ﴾ حذف ضمير يدل عليه المتقدم، تقديره: والحافظاتها، وفي ﴿وَالذَّكْرَيْنِ﴾ أيضاً مثله، و«المغفرة» هي سترُ ذنوبهم والصفحُ عنها، و«الْأَجْرُ الْعَظِيمُ»: الْجَنَّةُ.

٣٦ - ٣٧ - تفسير قوله عز وجل:

قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَفِظُهُ النِّفْيِ

﴿وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ أَنَّ [مَا] نافية لا مفعولة.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وعيسى: «أَنْ تُكُونُ» بالثاء على لفظ «الْخِيَرَةُ». وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، والحسن، والأعمش، وأبو عبد الرحمن: «أَنْ يَكُونَ» على معنى «الْخِيَرَةُ»، وأن تأنيثها غير حقيقي. وقوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ دون علامة تأنيث يَقْوِي هذه القراءة التي بالياء.

ثم توعدت تعالى وأخبرت أن من يعص الله ورسوله فقد ضل، وهذا العصيان يعُمُّ الكفر فما دونه، وكلُّ عاص آخِذٌ مِنَ الضلال بقدر معصيته.

وسبب هذه الآية فيما قال قتادة، وابن عباس، ومجاهد أن رسول الله ﷺ حَظَبَ بنت جحش، فظننت أن الخطبة لنفسه، فلما بين أنه إنما يريد لها لزيد بن حارثة كرهت وأبت، فنزلت الآية، فأذعن زينب حينئذ وتزوجته، وقال ابن زيد: إنما أنزلت بسبب أن أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وهبت نفسها للنبي ﷺ فزوجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك هي وأخوها، وقالوا: إنما أردنا رسول الله ﷺ فزوجها غيره. فنزلت الآية بسبب ذلك، فأجابا إلى تزويج زيد.

و «الْخِيَرَةُ»: مصدر بمعنى التَّخْيِيرِ، وهذه الآية في ضمن قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾. وهذه الآية تُقْوِي في قوله تعالى:

ثم عاتب تعالى تَبَّه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ الآية. واختلف الناس في تأويلها - فذهب قتادة، وابن زيد، وجماعة من المفسرين - منهم الطبري وغيره - إلى أن النبي ﷺ توقع منه استِحْسَانُ لزَيْنب وهي في عصمة زيد، وكان حريصاً على أن يطلقها زيداً فيتزوجها هو، ثم إن زيدا لما أخبره بأنه يريد فراقها، ويشكو منها غِلْظَةً قولٍ وِعِضْيَانٍ أمر وأذى باللسان وتَعْظُماً بالشرف قال له: ﴿أَتَقِيَّ اللَّهُ؟﴾ أي فيما تقول عنها، و﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾، وهو يخفي الحرص على طلاق زيد إِيَّاهَا، وهذا هو الذي كان يخفي في نفسه، ولكنه لزم ما يجب من الأمر بالمعروف. وقالوا: خَشِيَ رسول الله ﷺ قَالَةَ الناس في ذلك، فعاتبه الله على هذا. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿مَا اللَّهُ مُظْهِرُهُ﴾، وقال الحسن: ما نزل على رسول الله ﷺ أَشَدُّ عليه من هذه الآية، وقال هو وعائشة رضي الله عنهما: لو كان رسول الله ﷺ كاتباً شيئاً من الوحي لكتب هذه الآية لِشِدَّتِهَا عليه، وروى ابن زيد في نحو هذا القول أن النبي ﷺ طلب زيدا في داره فلم يجده، ورأى زينب حاسرة فأعجبه فقال: «سبحان الله مُقَلِّبُ القُلُوبِ» وروى في هذه القصة أشياء يطول ذكرها، وهذا الذي ذكرنا مُسْتَوَفٌ لمعانيها.

وذهب قوم من المتأولين إلى أن الآية لا كبير عتب فيها، ورووا

عن علي بن الحسين أنه قد كان أوحى إلى النبي ﷺ أن زيدا يطلق زينب، وأنه يتزوجها بتزويج الله إِيَّاهَا، فلما تشكى زيد للنبي ﷺ خُلِقَ زينب وأنها لا تطيعه، وأعلمه بأنه يريد طلاقها، قال له رسول الله ﷺ على جهة الأدب والوصية: ﴿أَتَقِيَّ اللَّهُ؟﴾ أي في أحوالك - «وأمسك عليك زوجك»، وهو يعلم أنه سيفارقها، وهذا هو الذي أخفى في نفسه، ولم يُرد أن يأمره بالطلاق لما علم أنه سيتزوجها، وخشي رسول الله ﷺ أن يلحقه قول من الناس في أن يتزوج زينب بعد زيد وهو مولاه وقد أمره بطلاقها، فعاتبه الله تبارك وتعالى على هذا القدر من أن خَشِيَ الناس في شيء قد أباحه الله له بأن قال: «أَمْسِكْ» مع علمه بأنه يطلق، وأعلمه أن الله أحق بالخشية، أي في كل حال.

قوله تعالى: ﴿أَنعَمَ اللَّهُ عَلَیْهِ﴾ أي بالإسلام وغيره، ﴿وَأَنعَمَتْ عَلَیْهِ﴾ أي بالعتق، وهو زيد بن حارثة، وزينب بنت حجش هي بنت أميمة بنت عبدالمطلب عمة النبي عليه الصلاة والسلام.

ثم أعلم تعالى أنه زوجها منه لما قضى زيد وطره منها ليكون سنة للمسلمين في أزواج أَدْعِيَانِهِمْ، وِلْيَبِيْنِ أنها ليست كحرمة البنوة، وروى أن النبي ﷺ قال لزيد: «ما أجد في نفسي أوثق منك، فاخطب زينب علي»، قال: فذهبت ووليتها ظهري توقيراً للنبي عليه الصلاة والسلام، وخطبتها ففرحت وقالت:

ما أنا بصانعة شيئاً حتى أوامر ربي، فقامت إلى مسجدها، ونزل القرآن فتزوجها النبي ﷺ ودخل بها.

و«الْوَطْرُ»: الحاجة والبُغْيَةُ، والإشارة إلى الجماع، وروى جعفر بن محمد عن أبائه عن النبي ﷺ: «وَطْرُ أَرْوَجْتِكُمْ». وذهب بعض الناس من هذه الآية ومن قول شعيب: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أَنْكَحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيْ هَنْتَيْنِ﴾ إلى أن ترتيب هذا المعنى في المهور ينبغي أن يكون: «أَنْكَحَهُ إِيَّاهَا»، فَتَقَدَّمَ ضمير الزوج كما في الآيتين، وهذا عندي غير لازم؛ لأن الزوج في الآية مُحَاطَبٌ فَحَسُنَ تقديمه، وفي المهور الزوجان غائبان فَتَقَدَّمَ من شئت، ولم يبق ترجيح إلا بدرجة الرجال وأنهم القائمون.

وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا﴾ فيه حذف مضاف تقديره: «وكان حكم أمر الله»، أو «مُضْمَنٌ أمر الله»، وإلا فالأمر قديم لا يوصف بأنه مفعول، ويحتمل - على بُغْد - أن يكون «الأمر» واحد الأمور التي شأنها أن تُفعل. وروى أن عائشة وزينب تفاخرتا، فقالت عائشة رضي الله عنها: أنا التي سيقَّتْ صفتي لرسول الله ﷺ من الجنة في سَرَقَةِ حريير، وقالت زينب رضي الله عنهما: أنا التي رَوَّجني الله من فوق سبع سموات، وقال الشعبي: كانت زينب تقول لرسول الله ﷺ: إني لأدُلُّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تدلُّ بهن، إن جدي وجدك واحد، وإن الله أنكحك إياي من السماء، وإن السفير في ذلك جبريل.

٣٨ - ٤٤ - تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة من الله تعالى لجميع الأمة، أعلمهم أنه لا حرج على رسول الله ﷺ في نيل ما فرض الله له وأبأه، من تزوجه لزينب بعد زيد، ثم أعلم أن هذا ونحوه هو السنن الأقدم في الأنبياء، من أن ينالوا ما أحله الله لهم، وحكى الشعبي عن مقاتل وابن الكلبي أن الإشارة إلى داود عليه السلام، حيث جمع الله بينه وبين من فُتن بها.

﴿سَكَنُوا﴾ نصب على المصدر، أو على إضمار فعل تقديره: الزم أو نحوه، أو على الإغراء، كأنه قال: فَعَلَيْهِ سُنَّةُ اللَّهِ. ﴿وَالَّذِينَ خَلَّوْا﴾ هم الأنبياء، بدليل وصفهم بعُدُّ بقوله:

﴿الَّذِينَ بَيَّعُوا بِرِسَالَتِ اللَّهِ﴾. ﴿وَأَمَرَ اللَّهُ﴾ في هذه الآية، أي: مأمورات الله والكائنات عن أمره، فهي مقدورة، وقوله: ﴿قَدَّرًا﴾ فيه حذف مضاف، أي: ذا قَدْرٍ وَعَنْ قَدْرٍ، وقرأ ابن مسعود: ﴿الَّذِينَ بَلَّغُوا رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾.

وقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ تعريض بالعتاب الأول في خشية النبي ﷺ النَّاسِ، ثم رد الأمر كله إلى الله، وأنه المحاسب على جميع الأعمال والمعتقدات، وكفى به لا إله إلا هو، ويحتمل أن يكون ﴿حَسِبًا﴾ بمعنى «مُحْسِبٍ»، أي كافيًا.

قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ﴾. أذهب الله بهذه الآية ما وقع في نفوس منافقين وغيرهم من بعد تزوج رسول الله ﷺ زينب زوجة دَعِيَّه زيدا؛ لأنهم كانوا

استعظموا أن يتزوج زوجة ابنه، فنفى القرآن تلك الصورة في البُتُوَّة، وأعلم أن محمداً لم يكن في حقيقة أمره أبا أحد من رجال المعاصرين له، ولم يُفصِّد بهذه الآية أن النبي ﷺ لم يكن له ولد فيحتاج إلى الاحتجاج في أمر بنيه بأنهم كانوا ماتوا، ولا في أمر الحسن والحسين بأنهما كان طفلين، ومن احتج بذلك فإنه تأول نفي البُتُوَّة عنه بهذه الآية على غير ما قصد بها.

وقرأ ابن أبي عبله وبعض الناس: ﴿وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ﴾ بالرفع على معنى: هو رسول الله، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، والأعرج، وعيسى: ﴿رَسُولٌ﴾ بالنصب على العطف على ﴿أَبَا﴾ وهؤلاء قرءوا ﴿وَلَكِنْ﴾ بالتخفيف، وقرأت فرقة: ﴿وَلَكِنْ﴾ بشد النون، فينتصب [رَسُولٌ] على أنه اسم [لَكِنْ] والخبر محذوف.

وقرأ عاصم وحده، والحسن، والشعبي، والأعرج بخلاف: ﴿رَسَائِرَ النَّبِيِّنَ﴾ بفتح التاء على معنى أنهم به خُتِمُوا، فهو كَالخَاتَمِ والطابع لهم، وقرأ الباقون والجمهور بكسر التاء بمعنى أنه خُتِمَهم أي جاء آخرهم، وروت عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «أنا خاتم ألف نبي»، وهذه الألفاظ عند جماعة علماء

يَحْيِيهِمْ يَوْمَ يَقُومُ يَوْمَهُ، وَسَلَّمَ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٣٨﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٣٩﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٠﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عَدُوَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمِنْ عَوْنٍ وَمِنْ حُرْمَةٍ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٣﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَ الَّذِينَ آمَنَتْ بَعْدَ إِجْرَائِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَنِسَاءَ عِيَالِكَ وَنِسَاءَ عِيَالِكَ وَنِسَاءَ خَالَاتِكَ وَالنَّسَاءَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٤٤﴾

٤٤٤

الأمة خَلْفًا وَسَلْفًا مُتَلَفَاتًا عَلَى الْعُموم التام، مُقْتَضِيَةً نَصًا أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وما ذكره القاضي ابن الطيب في كتابه المسمى بالهداية من تجويز الاحتمال في ألفاظ هذه الآية ضعيف، وما ذكره الغزالي في هذه الآية وهذا المعنى في كتابه الذي سماه بالاقتصاد إلحاذ عندي، وتطرق خيب إلى تشويش عقيدة المسلمين في ختم محمد عليه الصلاة والسلام النبوة، فالحذر الحذر منه، والله الهادي برحمته. وقرأ ابن مسعود: ﴿مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ نَبِيًّا خْتَمَ النَّبِيِّينَ﴾، قال الرُّمَّانِي: خُتِمَ بِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْاِسْتِصْلَاحُ، فمن لم يصلح به فميشوس من صلاحه.

قوله: ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ عوموم، والمقصود به هنا علمه تبارك

وتعالى بما رآه الأصلح لمحمد ﷺ، ما قدره في الأمر كله.

ثم أمر تعالى عباده بأن يذكروه ذكراً كثيراً، وجعل ذلك دون حد ولا تقدير لسهولته على العبيد، ولِعَظَم الأجر فيه قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يعذر أحد في ترك ذكر الله إلا من غلب على عقله، وقال: الكثير: ألا ينساء أبداً، وروى أبو سعيد عن النبي ﷺ: «أكثرُوا ذكر الله حتى يقولوا: مجنون».

وقوله: ﴿وَسَيُجْزَىٰ بَكْرًا وَأَسِيلًا﴾ أراد: في كل الأوقات، فحدّد الزمن بطرفي النهار وليله، وقال قتادة، والطبري وغيرهما: الإشارة إلى صلاتي العَدَاة والعصر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الآية مدنية فلا يتعلق بها من زعم أن الصلاة إنما فرضت أولاً صلاتين في طرفي النهار، والرواية بذلك ضعيفة، و«الأصيل» من العصر إلى الليل.

ثم عدّد تعالى على عباده نعمته في الصلاة عليهم، وصلاة الله تبارك وتعالى على العبيد هي رحمته لهم، وبركتهم لديهم، ونشره إلينا الجميل، وصلاة الملائكة الدعاء للمؤمنين، وروى فرقة أن النبي ﷺ قيل له: يا رسول الله، كيف صلاة الله على عباده؟ قال: «سُبُوحٌ قُدُوسٌ، رحمتي سبقت غضبي»، واختلف في تأويل هذا القول - فقيل: إنه كله من كلام الله، وهي صلاته على عباده، وقيل: «سُبُوحٌ قُدُوسٌ» من كلام محمد ﷺ، يُقدِّمه بين يدي نطقه

باللفظ الذي هو صلاة الله، وهو: «رحمتي سبقت غضبي»، وقدم عليه الصلاة والسلام هذا من حيث فهم من السائل أن توهم في صلاة الله على عباده وجهاً لا يليق بالله تعالى، فقدم التنزيه لله والتعظيم بين يدي إخباره.

وقوله تعالى: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ أي: صلاته وصلاة ملائكته لكي يهديكم وينقذكم من الكفر إلى الإيمان، ثم أخبر تبارك وتعالى برحمته بالمؤمنين تأنيساً لهم.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَلْقَوْتُهُ﴾ قيل: يوم القيامة المؤمن تحييه الملائكة بالسلام، ومعناه: السلامة من كل مكروه. وقال قتادة رضي الله عنه: يوم دخولهم الجنة يُحَيِّي بعضهم بعضاً بالسلام، أي: سلمنا وسلمت من كل هم وتخوف. وقيل: تحييه الملائكة يومئذ، وأما «الأجر الكريم» فإنه جنة الخلد في جوار الله تبارك وتعالى.

⑩ - ⑪ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات فيها تأنيس للنبي ﷺ وللمؤمنين، وتكريم لجميعهم، وقوله: ﴿شَهِدَا﴾ معناه: على أمتك بالتبليغ إليهم، وعلى سائر الأمم في تبليغ أنبيائهم، ونحو ذلك، وقوله: ﴿وَمُؤْتِرَا﴾ معناه: مُبَشِّرٌ للمؤمنين برحمة الله وبالجنة. و﴿نَذِيرَا﴾ معناه: للعصاة والمكذبين من النار وعذاب الخلد. قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ عَلِيًّا وَمُعَاذًا رضي الله عنهما، فبعثهما إلى اليمن، وقال: «أذهبَا فَبَشِّرَا وَلَا

تُنْفَرَا، وَسِرَا وَلَا تُعَسِّرَا، فَإِنِّي قَدْ أَنْزَلَ عَلَيَّ»، وقرأ الآية، و«الدعاء إلى الله» هو تبليغ التوحيد والأخذ به، ومكافحة الكفرة. و﴿يَأْتِيهِ﴾ معناه هنا: بأمره إِيَّاكَ وتقديره ذلك في وقته وأوانه. و﴿وَسِرَابًا مُّتِيرًا﴾ استعارة للنور الذي يتضمنه شرعه، فكان المؤمنون به والمهتدين به يخرجون بنوره من ظلمة الكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ﴾، الواو عاطفة جملة على جملة، والمعنى منقطع من الذي قبله، أمره تعالى بأن يبشّر المؤمنين بالفضل الكبير من الله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قال لنا أبي رضي الله عنه: هذه من أرجى آية عندي في كتاب الله تعالى؛ لأن الله سبحانه قد أمر نبيه أن يبشّر المؤمنين بأن لهم عنده فضلاً كبيراً، وقد بيّن الله تعالى الفضل الكبير ما هو في قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَصَلَوْا الصَّلَاةَ فِي رُضَاتٍ آلِحَاتٍ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، فالآية التي في هذه السورة خبر، والتي في ﴿حَدِّ﴾ ﴿عَسَقَ﴾ تفسير لها.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِيعُ الْكُفْرَانَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ نهي له عن السماع منهم في أشياء كانوا يطلبونها مما لا يجب، وفي أشياء كانوا يدخلونها مدخل الناصح وهي غش، إلى نحو هذا المعنى. وقوله: ﴿وَدَعَّ أذُنَهُمْ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يأمر بترك أن يؤذيهم هو ويعاقبهم، فكان المعنى: فاصفح عن زلّهم ولا تؤذهم، فالمصدر - على هذا -

مضاف إلى المفعول، ونُسَخ من الآية - على هذا التأويل - ما يخص الكافرين، وناسخه آية السيف، والمعنى الثاني أن يكون قوله: ﴿وَدَعَ أَذْنَهُمْ﴾ بمعنى: أعرض عن أقوالهم وما يؤذونك، فالمصدر - على هذا التأويل - مضاف إلى الفاعل، وهذا تأويل مجاهد، ثم أمره تعالى بالتوكل عليه، وأنسه بقوله: ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ وَكَيْلًا﴾، ففي قوة الكلام وغد بنصر. وتقدم القول في ﴿كُنْ بِاللَّهِ﴾. و«الوكيل»: الحافظ القائم على الأمر.

ثم خاطب تعالى المؤمنين بحكم الزوجة تطلق قبل البناء، واستدل بعض الناس بقوله: ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ﴾ وبمهلة ﴿ثُمَّ﴾ على أن الطلاق لا يكون إلا بعد نكاح، وأن من طلق المرأة قبل نكاحها - وإن عيَّنَهَا - فإن ذلك لا يلزمه، وقال هذا نيف على ثلاثين من صاحب وتابع وإمام، سعى البخاري منهم اثنين وعشرين. وقالت طائفة من أهل العلم: إن طلاق المعينة الشخص أو القبيل أو البلد لازم قبل النكاح، منهم مالك وجميع أصحابه وجمع عظيم من علماء الأمة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَسْوُرُنَّ﴾ وقرأ حمزة، والكسائي، وطلحة، وابن وثاب: ﴿تَمَسُوهُنَّ﴾، والمعنى فيهما الجماع، وهذه العدة إنما هي لاستبراء الرحم وحفظ النسب في الحمل، فمن لم تمس فلا يلزم ذلك فيها.

وقرأ جمهور الناس بتشديد الدال من ﴿تَسْدُونَهَا﴾ على وزن تفتعلونها،

من العَدُّ، وروى ابن أبي بزة عن ابن كثير ﴿تَعْتَدُونَهَا﴾ بالتخفيف، من العدوان، كأنه قال: فما لكم من عدة تعتدونها عدواناً وظلماً لهن. والقراءة الأولى أشهر عن ابن كثير، وتخفيف الدال وَهْمٌ من ابن أبي بزة.

ثم أمر تعالى بتمتع المطلقة قبل البناء، واختلف الناس في المتعة - فقالت فرقة: هي واجبة، وقالت فرقة: هي مندوب إليها، منهم مالك وأصحابه، وقال قوم: المتعة للتي لم يُفرض لها، ونصف المهر لئلتى فُرض لها، وقال سعيد بن المسيب: بل المتعة كانت لجميعهن بهذه الآية، ثم نسخت آية البقرة بالنصف لمن فُرض لها ما تضمنته هذه الآية من المتعة.

وهذه الآية خصصت آيتين: إحداهما ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَرْزِقْنَ﴾ بأنفسهن ثلثة قروء، فخصصت هذه الآية من لم يُدخل بها، وكذلك خصصت من ذوات الثلاثة الأشهر، وهُنَّ من قَعَدْنَ عن المحيض، ومن لم يحضن من صغير المطلقات قبل البناء. و«السَّرَّاحُ الجميل» هو الطلاق يتبعه عشرة حسنة وكلمة طيبة دون أذى.

﴿٥٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجمهور: ﴿الَّتِي﴾ بناءً من فوق، وقرأ الأعمش: ﴿الَّتِي﴾ بياءً من تحت. وذهب ابن زيد، والضحاك في تفسير قوله: ﴿إِنَّمَا أَهْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ﴾ إلى أن المعنى أن الله تعالى أحلَّ له أن يتزوج كل امرأة يُؤتيها مهرها، وأباح له كل

النساء بهذا الوجه، وأباح له ملك اليمين، وأباح له بنات العم والعمة والخال والخالة ممن هاجر معه، وخصص هؤلاء بالذكر تشريفاً وتنبهاً؛ إذ قد تناوَلَهُنَّ - على تأويل ابن زيد - قوله: ﴿أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجْرَهُنَّ﴾، وأباح له الواهبات خاصة له، فهذه - على تأويل ابن زيد - إباحتُ مطلقة في جميع النساء حاشى ذوات المحارم، لا سيما - على ما ذكره الضحاك - أن في مصحف ابن مسعود ﴿وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ وَاللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾. ثم قال - بعد هذا -: ﴿تَرْجِي مَنْ نَشَأَ تَهْتَنَ﴾ أي: من هذه الأصناف كلها، ثم تحري الضمائر بعد ذلك على العموم إلى قوله: ﴿وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بَيْنَ مِنْ أَزْوَاجٍ﴾ فيجىء هذا الضمير مقطوعاً من الأول عائداً على أزواجه التسع فقط، على الخلاف في ذلك.

وتأول غير ابن زيد في قوله: ﴿إِنَّمَا أَهْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجْرَهُنَّ﴾ أن الإشارة إلى حفصة وعائشة رضي الله عنهما ومن في عصمته بمن تزوجن بمهر، وأن ملك اليمين بعد حلال له، وأن الله تعالى أباح له ﷺ مع المذكورات بنات عمه وعماته وخاله وخالاته ممن هاجرن معه، والواهبات خاصة له ﷺ، فيجىء الأمر - على هذا التأويل - أضييق على النبي ﷺ، ويؤيد هذا التأويل ما قاله ابن عباس رضي الله عنهما: «كان رسول الله ﷺ يتزوج في أي النساء شاء، وكان ذلك يشق على نسائه، فلما نزلت هذه الآية وحرم عليه الناس إلا من سُمي سراً نساؤه بذلك».

الحسين: هي أم شريك وقال الشعبي وعروة: هي زينب بنت خزيمة أم المساكين، وقال أيضاً: عروة بن الزبير: هي خولة بنت حكيم بن الأرقص السلمي، وفي مصحف ابن مسعود: «وامرأة مؤمنة وهبت»، دون «إن».

وقوله: «خالصة لك» أي: هبة النساء أنفسهن خاصة ومزية لا تجوزاً، فلا يجوز أن تهب المرأة نفسها لرجل، وأجمع الناس على أن ذلك غير جائز؛ إلا ما روي عن أبي حنيفة، ومحمد بن الحسن، وأبي يوسف أنهم قالوا: إذا وهبت وأشهد هو على نفسه بهمّ ذلك جائز.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فليس في قولهم إلا تجوز العبارة بلفظة ألّهية، وإلا فالأفعال التي اشترطوها هي أفعال النكاح بعينه، ويظهر من لفظ أبي بن كعب رضي الله عنه أن معنى قوله: «خالصة لك» يراد به جميع الإياحة، لأن المؤمنين قُصروا على مثنى وثلاث ورباع.

قوله تعالى: «تَدَّ عَلَيْنَا الْآيَةَ»، يريد: قُضِنَا الْوَلِيَّ وَالشَّاهِدَ وَالْمَهْرَ وَالِاقْتِصَارَ عَلَى أَرْبَعٍ، قَالَ قَتَادَةَ وَمُجَاهِدًا، وَقَالَ أَبُو بِنِ كَعْبٍ: هُوَ مِثْنَى وَثَلَاثَ وَرُبَاعًا. وَقَوْلُهُ: «لَنْ يَكُونَ» أَي: بَيْنَنَا هَذَا الْبَيَانُ، وَشَرَحْنَا هَذَا الشَّرْحَ لثَلَاثًا يَكُونُ عَلَيْكَ حَرْجٌ وَيُظَنُّ بِكَ أَنَّكَ أَثِمْتَ عِنْدَ رَبِّكَ فِي شَيْءٍ، ثُمَّ آتَى الْجَمِيعَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ بِغَفْرَانِهِ وَرَحْمَتِهِ.

٥١ - ٥٢ تفسير قوله عز وجل:

«تَرَجَى» معناه: توخر، وقرأ ابن

أصله الفيء من الغنائم، أو ما تناسل ممن سبي، والشراء من الحربيين كالسباء، وبياح السباء من الحربيين، ولا يجوز سبي من له عهد ولا تملكه، ويسمى سبي الخبثة.

وقوله تعالى: «وَبَنَاتٍ عَمَّكَ» يريد قرابته، روي عن أم هانئ بنت أبي طالب أنها قالت: «خطبني رسول الله ﷺ، فاعتذرت إليه فعذرني، ثم نزلت هذه الآية فحرمتني عليه لأنني لم أهاجر معه، وإنما كنت من الطلقاء».

وقرأ جمهور الناس: «إِنْ وَهَبْتَ» بكسر الألف، وهذا يقتضي استثناف الأمر، أي: إن وقع فهو حلال له، على أنه قد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «لم يكن عند رسول الله ﷺ امرأة إلا بعقد نكاح أو ملك يمين. وأنا بالهبة فلم يكن عنده منهن أحد».

وقرأ الحسن البصري، وأبي بن كعب، والثقفى، والشعبي: «أَنْ وَهَبْتَ» بفتح الألف، فهي إشارة إلى ما وقع من الواهبات قبل نزول الآية، وكسر الألف يجري مع تأويل ابن زيد الذي قدّمناه، وفتحها يجري مع التأويل الآخر، ومن قرأ بالفتح قال: الإشارة إلى من وهب نفسه للنبي ﷺ من النساء على الجملة، قال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما حكى الطبري -: هي ميمونة بنت الحارث، وقال علي بن

سورة الأحزاب

تَرَجَى مِنْ نِسَاءِ يَمَنَنْ وَتَوَجَّعَ إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءِ وَمِنْ ابْنَيْتِ
مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَذْفَى أَنْ تَقْرَأَ عَمَهُنَّ
وَلَا يَحْزَنَ وَرَضَيْتَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلَّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ
مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾ لَا يَحِلُّ لَكَ
النِّسَاءُ مِنْ بَعْدِ وَلَا أَنْ تَبْدَلَ مِنْ أَنْزَلْتَ وَلَوْ أَعْجَبَكَ
حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا
﴿٥٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ
يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَبْظِ بْنِ سِنَّةٍ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ
فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَسِينِينَ عَلَيْكُمْ أَنْ
ذَلِكَ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيَ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا
يَسْتَحْيَ مِنَ الْحَيِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ
وَدَائِعِ جِبَابِ ذَلِكَ عَلَيْكُمْ أَطْهَرُ لِقُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ
لَكُمْ أَنْ تُوْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَرْوَاجَهُ
مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكَ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِنْ
تُبَدَّأْتُمْ بِشَيْءٍ أَوْ تَحْفَوْهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَاتِبٌ كُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾

٤٢٥

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن ملك اليمين إنما تعلقه في النادر من الأمر، وبنات العم والعمات والخال والخالات يسير، ومن يمكن أن يتزوج منهن محصور عند نسائه، لا سيما وقد قيد ذلك بشرط الهجرة، وكذا الواهبة من النساء قليل، فلذلك سُرَّ أَرْوَاجُهُ بِانْحِصَارِ الْأَمْرِ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْلُهُ: «تَرَجَى مِنْ نِسَاءِ يَمَنَنْ» إشارة إلى من تقدم ذكره، ثم يجيء قوله: «وَلَا أَنْ تَبْدَلَ مِنْ أَنْزَلْتَ» إشارة إلى أَرْوَاجِهِ اللَّوَاتِي تَقْدِمُ النَّصَّ عَلَيْهِنَ بِالتَّحْلِيلِ، فَيَأْتِي الْكَلَامُ مُنْتَقِمًا مَطْرَدًا أَكْثَرَ مِنْ أَطْرَادِهِ عَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ. وَالْأَجْرُ: الْمَهْوَرُ.

وقوله: «وَمَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيْكَ» أي رده عليك في الغنائم، يُريد: أو على أمتك لأنه فيء عليه. وملك اليمين

كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم: ﴿تُرْجِيءُ﴾ بالهمز، وقرأ عاصم - في رواية حفص - وحمزة، والكسائي: ﴿تُرْجِي﴾ بغير همز، وهما لغتان بمعنى. ﴿وَتَوَيَّأَ﴾ معناه: تَضَمَّ وتَقَرَّبَ، وقال المبرد: هو مُعَدَّى (زَجَا يَزْجُو)، تقول: زَجَا الرجل وأزجَيْتُه جعلته ذا رجاء.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى فسح لنبِيهِ فيما يفعله في جهة النساء، والضمير في ﴿مِثْنَيْنِ﴾ عائد على من تقدم ذكره من الأصناف حيث الخلاف المذكور في ذلك.

وهذا الإرجاء والإيواء يحتمل معاني: منها في القَسَمِ، أي: تُقَرِّبُ من شِئْتِ في القِسْمَةِ لها من نفسك، وتُوَخَّرُ من شِئْتِ، وتُكْثَرُ لمن شِئْتِ، لا حرج عليك في ذلك، فإذا علمن هن أن هذا هو حُكْمُ الله وقضائِه زالت الأنفة والتغاير عنهن، وقرئت أعينهن. هذا تأويل مجاهد، وفتادة والضحاك؛ لأن سبب الآية إنما كان تغايراً - وقع بين زوجات النبي عليه الصلاة والسلام - عليه، فشقي بذلك، ففسح الله تبارك وتعالى له، وأنبهن بهذه الآيات.

وقال ابن زيد، وابن عباس: في طلاق من شاء مِثْنَيْنِ حصل في عصمته، وإمساك من شاء، وقال ابن زيد: وكان عليه الصلاة والسلام قد همَّ بطلاق بعض نسائه، فقلن له: اقسم لنا ما شئت، فكان ممن أزوجاً سودة وجويرة وصفية وأم حبيبة وميمونة، وأوى إليه عائشة وأم سلمة وحفصة وزينب رضي الله عنهن أجمعين.

وقال الحسن بن أبي الحسن: والمعنى: في تزوج من شاء من النساء وترك من شاء، وقالت فرقة: المعنى: في ضم من شاء من الواهبات وتأخير من شاء.

وعلى كل معنى فالآية معناها التسعة عليه - ﷺ - والإباحة؛ قالت عائشة رضي الله عنها: لما قرأ علي رسول الله ﷺ هذه الآية قلت: ما أرى ريبك إلا يسارع في هواك.

وذهب هبة الله في «الناسخ والمنسوخ» له إلى أن قوله: ﴿تُرْجِي مَن نَّشَاءُ﴾ الآية ناسخ قوله: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ﴾ الآية، وقال: ليس في كتاب الله ناسخ تقدم المنسوخ سوى هذا. وكلامه يضعف من جهات.

وقوله عز وجل: ﴿وَمِنَ ابْنَيْتِ يَمَنَ عَزَلْتَ﴾ يحتمل معاني: أحدهما أن تكون [مَن] للتبعيض، أي: مَن أردته وطلبتة نفسك مِمَّن كنت عزلته وأخرته فلا جناح في رده إلى نفسك وإيرائه إليك بعد عزلته. ووجه ثان وهو أن يكون مَقْوِيًّا ومُؤَكَّدًا لقوله: ﴿تُرْجِي مَن نَّشَاءُ مِثْنَيْنِ وَتَوَيَّأَ إِلَيْكَ مَن نَّشَاءُ﴾، فيقول بغد: ﴿وَمِنَ ابْنَيْتِ يَمَنَ عَزَلْتَ﴾ فذلك سواء لا جناح عليك في جميعه، وذلك كما تقول: ﴿مَن لَقِيكَ مِمَّنْ لَمْ يَلْقَكَ جَمِيعَهُمْ لَكَ شَاكِرِينَ﴾، وأنت تريد: «من لقيك ومن لم يلقك»، وهذا المعنى يصح أن يكون في القَسَمِ، ويصح أن يكون في الطلاق والإمساك، وفي الواهبات، وبكل واحد قالت فرقة.

وقرأ الجمهور: ﴿ذَلِكَ أَذَقَ أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُنَّ﴾ برفع الأعين، وقرأ ابن محيصن: ﴿أَنْ تَقَرَّ﴾ بضم التاء من

﴿تَقَرَّرَ﴾ وكسر القاف ﴿أَعْيُنُنَّ﴾ نصباً. وقوله: ﴿يَمَّا آتَيْنَهُنَّ﴾ أي: من نفسك ومالك. وقرأ جمهور الناس: ﴿كَلَّهُنَّ﴾ رفعا على التأكيد للضمير في ﴿وَبَرَّصْنَكَ﴾، ولم يجوز الطبري غيرها، وقرأ جويرة بن عابد: ﴿كَلَّهُنَّ﴾ بالنصب على تأكيد ضمير ﴿آتَيْنَهُنَّ﴾، والمعنى أَنَّهُنَّ يَسْلَمْنَ لله ولحكمه، وكُنَّ قبل لا يتسامحن بينهن للغيرة، ولا يَسْلَمْنَ للنبي ﷺ أَنفَهُ، نحا إلى هذا المعنى ابن زيد، وفتادة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَلْمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ خير عام، والإشارة إلى ما في قلب رسول الله ﷺ من محبة شخص دون شخص، وكذلك يدخل في المعنى أيضاً المؤمنون. وقوله: ﴿حَلِيمًا﴾ صفة تقتضي منه تبارك وتعالى صفحاً وتأنيساً في هذا المعنى؛ إذ هي خواطر وفكر لا يملكها الإنسان في الأغلب.

واتفقت الروايات على أنه عليه الصلاة والسلام عدل بينهن في القسمة حتى مات، ولم يمثل ما أبيع له معهن ضبطاً لنفسه، وأخذاً بالفضل، غير أن سودة وهبت يومها لعائشة توصلاً لمسرة رسول الله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِن بَعْدِ﴾، قيل كما قدمنا: إنما حظرت عليه النساء إلا التسع اللواتي كن عنده، فكانت الآية ليست متصلة بما قبلها. قال ابن عباس، وفتادة رضي الله عنهم: لما هجرهن رسول الله ﷺ شهراً وآلى منهن، ثم خرج وخيرهن فاخترن الله ورسوله، جازاهن الله بأن حظرت عليه النساء

غيرهن، وقُتعه بهن، وحظر عليه
تبديلهن، ونسخ بذلك ما أباحه له
من قبل من التوسعة في جميع
النساء. وقال أبي بن كعب،
وعكرمة: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ
بَعْدِ﴾ أي: من بعد الأصناف
المسماة. ومن قال بأن الإباحة كانت
له مطلقاً قال هنا: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ
الْنِسَاءُ﴾ معناه: لا يحل لك
اليهوديات ولا النصرانيات، وهذا
تأويل فيه بُعد وإن كان زوي عن
مجاهد، وكذلك قدر: «ولا أن تبدل
اليهوديات والنصرانيات بالمسلمات،
وهو قول أبي زرين، وسعيد بن
جبير. وقال أبي بن كعب: ﴿لَا يَحِلُّ
لَكَ الْنِسَاءُ مِنْ بَعْدِ﴾ يعني: لا يحل
لك العمات ولا الخالات ونحوهن،
وأمر مع ذلك ألا يتبدل بأزواجه
التسع، ومنع أن يطلق منهن ويتزوج
غيرهن، قاله الضحاك. وقيل: ممن
تزوج وحصل في عصمته، أي: لا
يبدلها بأن يأخذ زوجة إنسان ويعطيه
هو زوجته، قال ابن زيد: وهذا شيء
كانت العرب تفعله. وهذا قول
ضعيف أنكره الطبري وغيره في
معنى الآية، وما فعلت العرب هذا
قط، وما زوي من حديث عيينة بن
حصن أنه دخل على النبي ﷺ وعنده
عائشة رضي الله عنها فقال: (من
هذه الحميراء؟ فقال له النبي ﷺ:
«هذه عائشة»، فقال عيينة: يا
رسول الله، إن شئت نزلت لك عن
سيدة نساء العرب جمالاً ونسباً)
فليس بتبدل، ولا أراد ذلك، وإنما
احتقر عائشة لأنها كانت صبية فقال
هذا القول.

وقرأ أبو عمرو - بخلاف -:
﴿تَحِلُّ﴾ بالتاء على معنى: جماعة
النساء، وقرأ الباقون بالياء من تحت،
على معنى: جميع النساء، وهما
حسان؛ لأن تأنيث لفظ النساء ليس
بحقيقي.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَعْرَجَكَ
حُسْنُ﴾، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: نزل ذلك بسبب
أسماء بنت عميس، أعجب
رسول الله ﷺ حُسْنُها حين مات
عنها جعفر بن أبي طالب، [فأراد أن
يتزوجها]، وفي هذه اللفظة:
﴿أَعْرَجَكَ حُسْنُ﴾ دليل على جواز
أن ينظر الرجل إلى من يريد
زواجها، وقد أراد المغيرة بن شعبة
زواج امرأة فقال له النبي ﷺ: «انظر
إليها فإنه أجدر أن يؤدم بينكما»،
وقال ﷺ لآخر: «انظر إليها فإن في
أعين الأنصار شيئاً»، قال الحميدي:
يعني: صفراء، وقال سهل بن
أبي حنيفة: رأيت محمد بن مسلمة
يطارد ببيته بنت الضحاك على إجار
من أجاجير المدينة، فقلت له:
أنفعل هذا؟ فقال: نعم، قال
النبي ﷺ: «إذا ألقى الله في قلب
أحدكم خطبة امرأة فلا بأس أن ينظر
إليها».

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا مَلَكَتْ
يَمِينُكَ﴾. ﴿مَا﴾ في موضع رفع بدل
من ﴿النِّسَاءِ﴾، ويجوز أن تكون في
موضع نصب على الاستثناء، وفي
النصب ضعف، ويجوز أن تكون
﴿مَا﴾ مصدرية، والتقدير: إلا ملك
يمينك، وبمعنى (مملوك)، وهو في
موضع نصب لأنه استثناء من غير

الجنس الأول. و«الرَّقِيبُ» فعيل
بمعنى فاعل، أي: راقب.

﴿﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تتضمن قصتين: إحداهما
الأدب في أمر الطعام والجلوس،
والثانية أمر الحجاب.

فأما الأولى فالجمهور من المفسرين
على أن رسول الله ﷺ لما تزوج
زينب بنت جحش أولم عليها، فدعا
الناس، فلما طعموا قعد نفر في
طائفة من البيت، فشغل على
رسول الله ﷺ مكانهم، فخرج
ليخرجوا بخروجه، ومر على حجر
نسائه، ثم عاد فوجدهم في مكانهم
وزينب في البيت معهم، فلما دخل
ورأهم انصرف، فخرجوا عند ذلك،
قال أنس: فأعلم أو أعلمته
بانصرافهم فجاء، فلما وصل الحجرة
أرعى الستر بيني وبينه ودخل،
ونزلت الآية بسبب ذلك. وقال
قتادة، ومقاتل - في كتاب الثعلبي -:
إن هذا جرى في بيت أم سلمة،
والأول أشهر، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: نزلت في ناس من
المؤمنين كانوا يتحينون طعام النبي
عليه الصلاة والسلام، فيدخلون عليه
قبل الطعام إلى أن يدرك، ثم يأكلون
ولا يخرجون. وقال إسماعيل بن
أبي حكيم: هذا أدب أدب الله به
الثقلاء، وقال ابن أبي عائشة في
كتاب الثعلبي: بحسبك من الثقلاء
أن الشرع لم يحتملهم.

وأما آية الحجاب فقال أنس بن
مالك وجماعة: سبها أمر القعود في
بيت زينب، القصة المذكورة آنفاً،
وقالت فرقة: بل في بيت أم سلمة،

وقال مجاهد: نزلت آية الحجاب بسبب ذلك، وقالت عائشة رضي الله عنهما وجماعة: سبب الحجاب كلام عمر رضي الله عنه، وأنه كلم رسول الله ﷺ مراراً في أن يحجب نساءه، فكان رسول الله ﷺ لا يفعل، وكان عمر يتابع، فخرجت سودة ليلاً لحاجتها - وكانت امرأة تفرغ النساء طويلاً - فناداها عمر رضي الله عنه: قد عرفناك يا سودة - حرصاً على الحجاب - وقالت له زينب بنت جحش: عجبا لك يا ابن الخطاب، تغار علينا الوحي ينزل في بيوتنا؟ فما زال عمر رضي الله عنه يتابع حتى نزلت آية الحجاب.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: وافقت ربي في ثلاث: منها الحجاب، ومقام إبراهيم، و﴿عَسَىٰ رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ﴾ الحديث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكانت سيرة القوم إذا كان لهم طعام وليمة أو نحوه أن يُبَكَّر من شاء إلى دار الدعوة، ينتظرون طبخ الطعام ونضجه في حديث وأنس، وكذلك إذا انتهوا منه جلسوا كذلك، فنهى الله تعالى المؤمنين عن أمثال ذلك في بيت النبي ﷺ، ودخل في النهي سائر المؤمنين، وألزم الناس أدب الله لهم في ذلك، فمنعهم من الدخول إلا بإذن عند الأكل، لا قبله لا انتظار نضج الطعام.

و ﴿تَنْظِرِينَ﴾ معناه: منتظرين، و﴿إِنَّهُ﴾ مصدر أتى الشيء يأتي إذا فرغ وحاد إنسى، ومنه قول الشاعر:

تَمَخَّضَتِ الْمَثُونُ لَهُ بِيَوْمٍ
أَتَىٰ وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامٍ
وقرأ الجمهور بفتح النون من ﴿إِنَّهُ﴾ وأمالها حمزة والكسائي. ثم أكد المنع وحصر وقت الدخول بأن يكون عند الإذن، ثم أمر بعد الطعام بأن يفترق جمعهم ويتشر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا مُسْتَنْبِئِينَ لِجَيْبٍ﴾ عطف على قوله: ﴿غَيْرَ تَنْظِرِينَ﴾، و﴿غَيْرٍ﴾ منصوبة على الحال من الكاف والميم في ﴿لَكُمْ﴾، أي: غَيْرَ ناظرين ومستأنسين. وقرأ ابن أبي عملة: ﴿غَيْرٍ﴾ بكسر الراء، وجوازه على تقدير: غير ناظرين إناء أنثم. وقرأ الأعمش: ﴿إِنَاءَهُ﴾ على جمع (إئي) بمدة بعد النون. وقرأت فرقة: ﴿فَيَسْتَخِي﴾ بإظهار الياء المكسورة قبل الساكنة، وقرأت فرقة: ﴿يَسْتَخِي﴾ بسكون الياء دون ياء مكسورة قبلها. وقوله: ﴿وَاللَّهُ لَا يَسْتَخِي﴾ معناه: لا يقع منه تزك قول الحق، ولما كان ذلك يقع من البشر لِعِلَّةِ الاستحياء نفى عن الله تعالى العلة الموجبة لذلك في البشر.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا﴾ الآية هي آية الحجاب، و«المتاع» عام في جميع ما يمكن أن يطلب على غرف السكنى والمجاورة من المواعين وسائر المرافق للدين والدنيا. ﴿ذَلِكُمْ أَطَهَّرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبَهُنَّ﴾ يريد الخواطر التي تعرض للنساء في أمر الرجال.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ

تُؤَذُّوا رَسُولَ اللَّهِ﴾ الآية، روي أنها نزلت بسبب أن بعض الصحابة قال: «لومات رسول الله ﷺ - لتزوجت عائشة»، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فتأذى به، هكذا كئى عنه ابن عباس بـ «بعض الصحابة»، وحكى مكي عن معمر أنه قال: «هو طلحة بن عبيدالله».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لله در ابن عباس رضي الله عنهما، وهذا عندي لا يصح على طلحة الله عاصمه منه، وروي أن رجلاً من المنافقين قال حين تزوج رسول الله ﷺ أم سلمة بعد أبي سلمة، وحفصة بعد خنيس بن حذافة. «ما بال محمد يتزوج نساءنا، والله لو قد مات لأجلنا السهام على نساته»، فنزلت الآية في هذا، حرّم الله نكاح أزواجه بعده، وجعل لهن حكم الأمهات، ولما توفي رسول الله ﷺ وارتدت العرب ثم رجعت تزوج عكرمة بن أبي جهل قبيلة بنت الأشعث بن قيس، وكان رسول الله ﷺ قد تزوجها ولم يبين بها، فصعب ذلك على أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقيل له، فقال له عمر رضي الله عنه: مهلاً، إنها ليست من نساته، إنه لم يخيرها ولا أرخى عليها حجاً، وقد أبانتها منه ودثها مع قومها، فسكن أبو بكر رضي الله عنه، وذهب عمر إلى ألا يشهد جنازة زينب بنت جحش إلا ذو محرم منها مراعاة للحجاب فدلته أسماء بنت عميس على سترها في النعش بالقبية، وأعلمته أنها رأت ذلك في بلاد الحبشة فصنعه، وروي أن

قتادة: هو الحجاب، أي: أتيج لهذه الأصناف الدخول على النساء دون الحجاب ورؤيتهن، وقال مجاهد: ذلك في وضع الجلباب وإيداء الزينة.

ولما ذكر الله تعالى الرخصة في هذه الأصناف، وانجزمت الإباحة، عَطَفَ فأمرهن بالتقوى عطف جملة، وهذا في غاية البلاغة والإيجاز، كأنه قال: اقتصرن على هذا وأتقين الله فيه أن تتعدينه إلى غيره، ثم توَعَّه تبارك وتعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا نَبِيًّا﴾. تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية شَرَّفَ الله بها رسوله ﷺ، وذكر منزلته منه، وظهر بها سوء فعل من استصحب في جهته فكرة سوء في أمر زوجته، ونحو ذلك.

وقوله: ﴿يَصِلُونَ﴾، قالت فرقة: الضمير فيه لله وللملائكة، وهذا قول من الله تعالى شَرَّفَ به ملائكته، فلا يصحبه الاعتراض الذي جاء في قول الخطيب عند النبي ﷺ: «من أطاع الله ورسوله زُشِدَ، ومن يعصهما فقد ضل»، فقال له رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت»، قالوا: لأنه ليس لأحد من البشر أن يجمع ذكر الله تعالى مع غيره في ضمير واحد، والله أن يفعل من ذلك ما يشاء. وقالت فرقة: في الكلام حذف تقديره: إن الله يصلي على النبي وملائكته يصلون، ودل الظاهر من القول على ما تُرِكَ، وليس في الآية اجتماع في ضمير، وقالت فرقة: بل جمع الله تعالى

والإخوة وأبنائهم وأبناء الأخوات.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلِينَ﴾ دخل فيه الأخوات والأمهات وسائر القربيات ومن يتصل من المنصرفات لهن، هذا قول جماعة من أهل العلم، ويؤيد قولهم هذه الإضافة المخصصة في قوله: ﴿يَسْأَلِينَ﴾، فقال ابن زيد وغيره: إنما أراد جميع النساء المؤمنات، وتخصيص الإضافة إنما هي في الإيمان.

قوله: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾، قالت طائفة:

من الإماء دون العبيد، وقالت طائفة: من العبيد والإماء، ثم اختلفت هذه الطائفة - فقالت فرقة: ما مَلَكَتُه من العبيد دون من ملك سواهم، وقالت فرقة: بل من جميع العبيد، كان في يملكهن أو يملك غيرهن، والمُكَاتَبُ إذا كان عنده ما يؤدي فقد أمر رسول الله ﷺ بضرب الحجاب دونه، وفعلت ذلك أم سلمة مع مُكَاتَبِهَا نبهان، ذكره الزهراوي.

وقالت فرقة: دخل الأعمام في الآباء، وقال الشعبي، وعكرمة: لم يذكرهن لإمكان أن يصفوا لأبنائهم، وكذلك الأخوال، وكرهوا أن تضع المرأة خمارها عند عمها أو خالها.

واختلف المتأولون في المعنى الذي رفع فيه الجُناح بهذه الآية - فقال

لَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي آبَائِهِمْ وَلَا أَبْنَائِهِمْ وَلَا إِخْوَانِهِمْ وَلَا أُمَّهَاتِهِمْ وَلَا أَيْمَانِهِمْ وَأَقْبَنَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ اللَّهُ كَانَتْ عَلَى كُلِّ فَوْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٤﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٦﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بغيرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٧﴾ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزْجِيَكُمْ مِنْ بَنَاتِكُمْ وَالنِّسَاءِ الْمُؤْمِنَاتِ بِذِيهِنَّ عَلَيْهِنَّ جَلِيدٌ مِمَّنْ ذَلِكَ أَذَى أَنْ تُبْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِنَ وَكَانَ اللَّهُ عَاقِرًا رَجِيمًا ﴿٥٨﴾ لَيْنَ لِرَبِّهِهِ الْمُنِيعُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ ثُمَّ لَا يَخْرُجُوا مِنْهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٩﴾ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الَّذِينَ اتَّبَعُوا أَهْلَهُمْ وَفَتَنُوا قَبِيلًا ﴿٦٠﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦١﴾

ذلك صنَع في جنازة فاطمة بنت النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنْ يُدْرَأْ سَيِّئًا أَوْ تُحْفَرُ﴾ الآية... وعيد وتوبيخ لمن تقدم التعريض به في الآية قبلها، ممن أشير إليه بقوله: ﴿ذَلِكَمُ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِمْ﴾، ومن أشير إليه في قوله: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ﴾، فقيل لهم في هذه الآية: إن الله يعلم ما تخفونه من هذه المعتقدات والخواطر المكروهة، ويُجازيكم عليها، ثم ذكر تبارك وتعالى الإباحة فيمن سُمِّي من القرابة؛ إذ لا تقتضي أحوال البشر إلا مداخلة من ذُكِر، وكثرة تزاده، وسلامة نفسه من أمر الغزل؛ لما تتحاماه النفوس من ذوات المحارم، فمن ذلك الآباء والأولاد

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والطعن في تأمير أسامة إذابة له أيضاً.

وقوله: ﴿لِيُؤْتُوا﴾ معناه: أبعادوا من كل خير.

وإذابة المؤمنين والمؤمنات هي أيضاً بالأفعال والأقوال القبيحة والبُهتان والكذب الفاحش المختلف، وزوي أن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال يوماً لأبي بن كعب، إني قرأت البارحة هذه الآية ففرغت منها ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الآية، والله إني لأضربهم وأنهرهم، فقال له أبي: لست منهم يا أمير المؤمنين، إنما أنت مُعَلَّم ومَقُوم، وذكر أبو حاتم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قرأ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾، ثم قال لأبي رضي الله عنه: كيف تقرأ هذه الآية؟ فقرأها كما قرأها عمر رضي الله تعالى عنه.

﴿تفسير قوله عز وجل﴾:

لما كانت عادة العربيات التبذل في معنى الحجبة، وكنَّ يكشفن وجوههن كما تفعل الإماء، وكان ذلك داعياً إلى نظر الرجال إليهن وتشعب الفكرة فيهن - أمر الله رسوله ﷺ بأمرهن بإدناء الجلابيب ليقع تسترهن، ويبيِّن الفرق بين الإماء والحرائر، فتعرف الحرائر بسترهن، فيكف عن معارضتهن من كان عزلاً أو شاباً.

وزوي أنه كان في المدينة قوم يجلسون على الصدعات لرؤية النساء

رضي الله عنهما، أنه لما نزلت هذه الآية قال له قوم من الصحابة: هذا السلام عليك يا رسول الله عرفناه، فكيف نصلي عليك؟ قال: «قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَارْحَمْ مُحَمَّدًا وَآلَ مُحَمَّدٍ كَمَا رَحِمْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ»، وفي بضع الروايات زيادة ونقص، وهذا معناه.

وقرأ الحسن: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا فَصَلُّوا عَلَيْهِ﴾، وهذه الفاء تُقْرَى معنى الشرط، أي: صَلَّى اللهُ فَصَلُّوا أَنْتُمْ، كما تقول: أعطيتك فخذ، وفي حرف عبدالله: ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ كَمَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمُوا تَسْلِيمًا﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية، قال الجمهور معناه: بالكفر ونسبة الصاحب والولد والشريك إليه، ووصفه بما لا يليق به، وفي الحديث «قال الله: شتمني عبدي فقال: إن لي ولداً، وكذبني فقال: إنه لن يبعث»، وقال عكرمة معناه: بالتصوير والتعرض لفعل ما لا يفعله إلا الله بنحت الصور وخلقها، وقد قال رسول الله ﷺ: «لعن الله المصورين»، وقالت فرقة: ذلك على حذف مضاف، تقديره: يؤذون أولياء الله.

وإذابة الرسول ﷺ هي بما يؤذيه به من الأقوال في غير معنى واحد، ومن الأفعال أيضاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في الذين طعنوا عليه حين اتَّخَذَ صَفِيَّةَ بِنْتِ حُجَيٍّ.

الملائكة مع نفسه في ضمير، وذلك جائز للبشر فعله، ولم يقل رسول الله ﷺ: «بئس الخطيب أنت» لهذا المعنى، وإنما قاله لأن الخطيب وقف على «من يعصهما» وسكت سكتة، ومما يؤيد هذا أن في كلام النبي ﷺ في مصنف أبي داود: «فجمع ذكر الله وذكر رسوله في ضمير»، ومما يؤيد القول الأول أن في كتاب مسلم: «بئس الخطيب أنت، قل: ومن يعص الله ورسوله»، وهذا يحتمل أن يكون لماً خطأه في وقفه وقال له: «بئس الخطيب أنت» أضلح له بعد ذلك جميع كلامه؛ لأن فصل ضمير اسم الله تعالى من ضمير غيره أولى لا محالة، فقال له: «بئس الخطيب أنت» لموضع خطئه في الوقف، وحمله على الأولى في فصل الضميرين وإن كان جمعهما جائزاً.

وقراءة الجمهور: ﴿وَمَلَائِكَتَهُ﴾ نصباً عطفاً على المكنون، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما بالرفع عطفاً على الموضع قبل دخول [إِنَّ]، وفي هذا نظر.

وصلاة الله تعالى رحمةً منه وبركة، وصلاة الملائكة دعاءً وتعظيم، والصلاة على رسول الله ﷺ في كل حين من الواجبات وجوب السُّنن المؤكدة التي لا يصح تركها، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه، وقال عليه الصلاة والسلام: «أكثرُوا مِنَ الصَّلَاةِ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ يَوْمٌ مُشْهُودٌ».

وصفتها على ما ورد عنه عليه الصلاة والسلام في كتاب الطبري، ومن طريق ابن عباس

ومعارضتهن ومرادوتهن، ونزلت الآية بسبب ذلك.

و «الْجَلْبَاب»: ثوب أكبر من الخمار، وزوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه أنه الرداء. واختلف الناس في صورة إدائه - فقال ابن عباس، وعبيدة السلماني: ذلك أن تلويه المرأة حتى لا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها، وقال ابن عباس أيضاً، وقاتدة: ذلك أن تلويه فوق الجبين وتشده ثم تعطفه على الأنف وإن ظهرت عيناها، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه.

وقوله تعالى: «ذَلِكَ أَذَى أَنْ يُعْرِقَنَّ»، أي: على الجملة بالفرق حتى لا يختلطن بالإماء، فإذا عُرفن لم يقابلن بأدنى من المعارضة مراقبة لرتبة الحرية، وليس المعنى أن تُعرف المرأة حتى تُعلم من هي، وكان عمر رضي الله عنه إذا رأى أمة تقنعت فنعهما الذرة محافظة على زِيِّ الحرائر.

وباقى الآية تزجية ولطف وحض على التوبة وتطميع في رحمة الله، وفيها تأنيس للنساء في ترك الجلابيب قبل هذا الأمر المشروع.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

اللام في «لَيْن» هي المؤذنة بمجيء الْقَسَم، واللام في «تُعْرِيَنَّكَ» هي لام الْقَسَم، وتوعد الله تبارك وتعالى هذه الأصناف في هذه الآية، وقَرَنَ توَعُدَه بقريئة متابعتهم في تركهم الانتهاء، فقالت فرقة: إن هذه الأصناف لم

تنته. ولم ينفذ الله عليهم هذا الوعيد، فهذه الآية دليل على بطلان القول بإنفاذ الوعيد في الآخرة، وقالت فرقة: إن هذه الأصناف انتهت، وتستر جميعهم بأمرهم وكفوا، وما بقي من أمرهم أنفذ الله وعيداً بإزائه، وهو مثل نهى النبي ﷺ عن الصلاة عليهم، إلى غير ذلك مما أحله رسول الله ﷺ بالمنافقين: من الإذلال في إخراجهم من المسجد، وبما نزل فيهم من سورة براءة، وغير ذلك، فهم لم يمثلوا الانتهاء جملة، ولا نفذ عليهم الوعيد كاملاً.

و «الْمُنَافِقُونَ» صنف يظهر الإيمان ولا يبطنه، «وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ» هو الغزل وحب الزنى، قاله عكرمة، ومنه قوله تعالى: «فِي طَعْنِ أَلْوَى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ»، «وَالْمُرْجُفُونَ فِي الْمَدِينَةِ» هم قوم من المنافقين كانوا يتحدثون بغزو العرب المدينة، وبأن رسول الله ﷺ سيغلب، إلى نحو هذا مما يرجفون به نفوس المؤمنين، فيحتمل أن تكون هذه الأصناف متفرقة بعضها من بعض، ويحتمل أن تكون داخلة: في جملة المنافقين لكنه نص على هاتين الطائفتين - وقد ضمهم عموم لفظة النفاق - تنبيهاً عليهم، وتشريداً بهم، وغضاً منهم.

و «تُعْرِيَنَّكَ» معناه: نحضك عليهم بعد تعيينهم لك، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لئلسلطنك عليهم، وقال قاتدة: لنحرسنك

بهم. وقوله: «ذَلِكَ لَا يُجَاوِزُكَ» أي بعد الإغراء؛ لأنك تنفيهم بالإخافة والقتل، «إِلَّا قَلِيلاً» يحتمل أن يريد: إلا جواراً قليلاً وقتاً قليلاً، ويحتمل أن يريد: إلا عدداً قليلاً كأنه قال: إلا أقبلاء. وقوله: «مَلْعُونِينَ» يجوز أن ينتصب على الدم، قاله الطبري، ويجوز أن يكون بدلاً من «أقبلاء» الذي قدرناه قبل في أحد التأويلات، ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في «يُجَاوِزُكَ»، كأنه قال: ينتفون من المدينة ملعونين، فلما تقرر «لَا يُجَاوِزُكَ» تقدير «يَنْتَفُونَ» حسن هذا، واللعنة: الإبعاد، و«تُقْفَوُا» معناه: حُصِرُوا وقدر عليهم، و«أَخِذُوا» معناه: أسروا، والأخيد: الأسير، ومنه قول العرب: «أَكْذَبَ مِنَ الْأَخِيذِ الصُّبْحَانِ»، وقرأ جمهور الناس: «تَقْتِيلًا» بشد التاء، ويؤيدها المصدر بعدها، وقرأت فرقة بتخفيف التاء، والمصدر - على هذه القراءة - على غير الصدر، قال الأعمش: كل ما في القرآن غير هذا الموضع فهو «قَتِيلُوا» بالتخفيف.

وقوله تعالى: «سُنَّةَ اللَّهِ» نصب على المصدر، ويجوز فيه الإغراء على بعد، و«الَّذِينَ خَلَوْا» هم منافقوا الأمم، وقوله: «وَكُنْ حَيْدًا لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا»، أي: من غالب يستقر تبديله، فيخرج عن هذا تبديل العصاة والكفرة، ويخرج عنه ما يبده الله من سنة بسنة في النسخ.

١٦٦ - ١٦٧ - تفسير قوله عز وجل:

سئل رسول الله ﷺ عن وقت الساعة، متى هو؟ فلم يُجب في ذلك بشيء، ونزلت الآية أمرة أن يُرَدِّ العلم فيها إلى الله؛ إذ هي من مفاتيح الغيب التي استأثر الله بعلمها، ثم توعد العالم بِقربها في قوله: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾ الآية... أي: ينبغي أن تحذر، و﴿قَرِيبًا﴾ لفظة واحد جمعاً وإفراداً ومذكراً ومؤنثاً، ولو كان صفة لـ ﴿السَّاعَةِ﴾ لكان «قريبة». ثم توعد الكافرين بعذاب لا ولي لهم فيه ولا ناصر.

وقوله: ﴿يَوْمٍ﴾ يجوز أن يكون متعلقاً بما قبله، والعامل فيه ﴿يَجِدُونَ﴾، وهذا تقدير الطبري، ويجوز أن يكون العامل فيه ﴿يَقُولُونَ﴾ ويكون ظرفاً للقول.

وقرأ الجمهور: ﴿تَقَلَّبَ وَجُوهَهُمْ﴾ على المفعول الذي لم يسم فاعله، بضم التاء وشد اللام المفتوحة، وقرأ أبو حية: ﴿تَقَلَّبَ وَجُوهَهُمْ﴾ بفتح التاء، بمعنى تَنَقَّلَبَ، وقرأ ابن أبي عبيلة: ﴿تَتَقَلَّبُ﴾ بتاء زينة، وقرأ خارجة، وأبو حية: ﴿تَقَلَّبُ﴾ بالنون، وقرأ عيسى بن عمر الكوفي: ﴿تَقَلَّبُ﴾ بالتاء المضمومة وكسر اللام ونصب الوجوه، أي تَقَلَّبَ السعير وَجُوهَهُمْ، فيومئذ يتمنون الإيمان وطاعة الله ورسوله حين لا ينفعهم التمني.

ثم لاذوا بالتشكي من كبرائهم في أنهم أضلُّوهم، وقرأ جمهور الناس: ﴿سَادَاتِنَا﴾ وهو جمع سيد، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وابن عامر وحده - من السبعة -، وأبو

عبدالرحمن، وأبو رجاء، وقتادة، والعامية في المسجد الجامع بالبصرة: ﴿سَادَاتِنَا﴾، على جمع الجمع، و﴿النَّبِيلَا﴾ مفعول ثان؛ لأن «أضلل» مُعَدَى بالهمزة، و﴿ضَلَّ﴾ يتعدى إلى مفعول واحد، وهي سبيل الإيمان والهدى، ثم دعوا بأن يضاعف الله للكبراء المضللين العذاب، أي: عن أنفسهم وعن أضلوا. وقرأ عاصم، وابن عامر، وحذيفة بن اليمان، والأعرج - بخلاف عنه -:

﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾ بالياء، من الكَبِير، وقرأ الباقون والجمهور: ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾ بالشاء ذات الثلاث، والكثرة أشبه بمعنى اللعنة من الكَبِير، أي: ألعنهم مرات كثيرة.

١٦٧ - ١٦٨ - تفسير قوله عز وجل:

الذين آذوا موسى هم قوم من بني إسرائيل، واختلف الناس في الإذابة التي كانت وبرأه الله منها - فقالت فرقة: هي قصة قارون وإدخاله المرأة البغي في أن تدعي على موسى، ثم تبرئتها موسى وإشهارها لمداخلة قارون، وقد تقدمت القصة في ذكر قارون. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي أن موسى وهارون عليهما السلام خرجا من فحص التِّيهِ إلى جبل، فمات هارون فيه، فجاء موسى وحده، فقال قوم: هو قتله، فبعث الله ملائكة حملوا هارون عليه السلام حتى طافوا به في

سَبَّكَ النَّاسُ مِنَ السَّاعَةِ قُلُوبًا لَمَّا عَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ وَمَا يُدْرِكُ لَعْلَ السَّاعَةِ تَكُونُ قَرِيبًا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَمَنَّ الْكٰفِرِينَ ۗ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ۗ خٰلِدِينَ فِيهَا أَمْ لَمْ يَلْمِذُونَ وَلَسُوا لَا يَتَّعِبُونَ يَوْمَ تَقَلَّبَ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ۗ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا ۗ رَبَّنَا آتِنَا مِنْ عَذَابِكِ مِثْلَ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۗ وَإِنَّمَا تَأْتِي السُّرُورَ الْبَاطِنَا ۗ وَأَنبَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَالَّذِينَ أَقْبَلُوا مَوْسَىٰ فَبَرَأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيبًا ۗ تَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا اللَّهُ وَقَالُوا قَوْلَا سَيِّدِنَا ۗ أَصْحَابُ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَقُولُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ قَدَّرْنَا ثَوَابًا عَظِيمًا ۗ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ ۗ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ۗ لَعْنَةُ اللَّهِ الْمُنْطَفِقِينَ ۗ وَالْمُنْطَفِقَاتِ وَالْمُشْرِكِ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۗ

أسباط بني إسرائيل، ورأوا آية عظيمة دلتهم على صدق موسى عليه السلام، ولم يكن فيه أثر [القتل]، وروي أنه جِيءَ فأخبرهم بأمره وبراءة موسى، وقال ابن عباس، وأبو هريرة، وجماعة: هي ما تضمنه حديث النبي عليه الصلاة والسلام، قال: «كان بنو إسرائيل يقتلون عراة، وكان موسى عليه السلام يستتر كثيراً ويُخفي بدنه، فقال قوم: هو أدر أو أبرص أو به آفة، فاعتسل موسى يوماً وحده وجعل ثيابه على حجر، ففَرَّ الحجر بثيابه وأتبعه موسى يقول: ثوبي حَجَرٌ، ثوبي حَجَرٌ، فمَرَّ في أتباعه في ملاج من بني إسرائيل فأروه سليماً مما ظنُّ به... الحديث بطوله خرَّجه البخاري، فبرأه الله مما قالوا.

و «الْوَجِيه»: المكرم الوجه، وقرأ الجمهور: ﴿وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ﴾، وقرأ

عبدالله بن مسعود: ﴿وكان عبداً لله﴾. ثم وصى الله المؤمنين بالقول السداد، وذلك يعُمُّ جميع الخيرات، وقال عكرمة: أراد: «لا إله إلا الله»، والسداد يعُمُّ جميع هذا، وإن كان ظاهر الآية يُعطي أنه إنما أشار إلى ما يكون خلافاً للأذى الذي قيل في جهة الرسول ﷺ وجهة المؤمنين، ثم وعد تعالى بأنه يجازي على القول السداد بإصلاح الأعمال وغفران الذنوب. وباقى الآية بين.

(٧٢) - (٧٣) تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في الأمانة - فقال ابن مسعود رضي الله عنه: هي في أمانات المال كالودائع ونحوها، ورؤي عنه أنه في كل الفرائض، وأشدّها أمانة المال.

وذهبت فرقة هي الجمهور إلى أنها كل شيء يؤتمن الإنسان عليه، من أمر ونهي وشأن بيني ودنيا، فالشرع كله أمانة، قال أبي بن كعب رضي الله عنه: من الأمانة أن تؤتمن المرأة على فرجها. وقال أبو الدرداء رضي الله عنه: غسل الجنابة أمانة، ومعنى الآية، إذا عرضنا على هذه المخلوقات العظام أن تحمل الأوامر والنواهي، وتقتضي الشواب إن أحسنت والعقاب إن أساءت، فأبَت هذه المخلوقات وأشفت.

ويحتمل أن يكون هذا العَرَضُ بإدراك يخلقه الله لها، ويحتمل أن يكون هذا العرض على من فيها من الملائكة، ورؤي أنها قالت: ربِّ ذُرني مسخرة لما شئت أنت، طائعة فيه، ولا تكلفني إلى نظري وعملي، لا أريد ثواباً. وحَمَلَ الإنسان

الأمانة: أي: ألتزم القيام بحقها، وهو في ذلك ظلوم لنفسه، جهول بقدر ما دخل فيه، وهذا تأويل ابن عباس، وابن جبير، وقال الحسن: ﴿وحملها﴾ معناه: خان فيها، والآية في الكافر والمنافق.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والعصاة على قدرهم.

وقال ابن عباس وأصحابه، والضحاك، وغيره: الإنسان: آدم، تحمّل الأمانة، فما تمّ له يوم حتى عصى المعصية التي أخرجته من الجنة. ورؤي أن الله تبارك وتعالى قال له: يا آدم، إنّي عرضت الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها، وأشفقن منها، أفتحملها أنت بما فيها؟ قال: وما فيها؟ قال: إن أحسنت أجزت، وإن أسأت عوقبت، قال: نعم قد حملتها، قال ابن عباس رضي الله عنهما، فما مرّ له ما بين الأولى والعصر حتى عصى ربّه.

وقال ابن مسعود، وابن عباس: الإنسان: ابن آدم، قابيل الذي قتل أخاه، وكان قد تحمّل لأبيه أمانة أن يحفظ الأهل بعده، وكان آدم عليه السلام سافر عنهم إلى مكة في حديث طويل ذكره الطبري وغيره.

وقال بعضهم: الإنسان: النوحُ كله، وهذا حسن مع عموم الأمانة.

وقال الزجاج: معنى الآية: إنا عرضنا الأمانة في نواهيها وأوامرنا على هذه المخلوقات، فقمنا بأمرها، وأطعن فيما كلفناها، وتأثبن من حمل المذمة في معصيتنا، وحَمَلَ الإنسان المذمة فيما كلفناه من أوامرنا وشرعنا، والإنسان - على تأويله - الكافر والعاصي.

وتستقيم هذه الآية مع قوله تعالى: ﴿أَتَيْنَا طَائِفِينَ﴾، فعلى التأويل الأول الذي حكيناه يكون قوله: ﴿أَتَيْنَا طَائِفِينَ﴾ إجابةً لأمر أمّرت به، وتكون هذه الآية إجابةً وإشفاقاً من أمر عرض عليها وخيّرت فيه، روي أن الله عرض الأمانة على هذه المخلوقات فأبَت، فلما عرضها الله تبارك وتعالى على آدم عليه السلام قال: أنا أحملها بين أذني وعاتقي، فقال الله: إنّي سأعينك، وقد جعلت لبصرك حجاً فأغلقه عما لا يحلّ لك، ولِفَرْجك لباساً فلا تكشفه إلا على ما أخلّكت لك. ورؤي في هذا المعنى أشياء تركتها اختصاراً لعدم صحتها.

وقال قوم: إن الآية من المجاز، أي: إنا إذا قايستنا ثقل الأمانة بقوة السموات والأرض والجبال رأينا أنها لا تطيقها، وأنها لو تكلمت لأبنتها وأشفتت، فعبر عن هذا المعنى بالآية، وهكذا كما تقول: عرضت الجمل على البعير فأباه، وأنت تريد بذلك: قايست قوته بثقل الجمل فرأيت أنها تقصر عنه.

قوله تعالى: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ﴾ هي لام العاقبة؛ لأن الإنسان لم يحمل ليقع العذاب، لكن حمل فصار الأمر وآل إلى أن يُعَذَّب من نافق أو أشرك، وأن يتوب على من آمن. وقرأ الجمهور: ﴿يَتُوبُ﴾ نصباً، عطفاً على قوله: ﴿لِيُعَذِّبَ﴾، ورفعها الحسنُ على القطع والاستئناف. وباقي الآية بين.

كامل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة الأحزاب والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة سبأ

هي مَكِّيَّة، واختلف في قوله تعالى: ﴿وَبَرِيٍّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الآية - فقالت فرقة: هي مَكِّيَّة، والمراد المؤمنون بالنبي عليه الصلاة والسلام، وقالت فرقة: هي مدنية، والمراد من أسلم بالمدينة من أهل الكتاب كابن سلام وأشباهاه.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الألف والسلام فسي ﴿الْحَكْدُ﴾ لاستغراق الجنس، أي: الحمد على تنوعه هو لله تعالى من جميع جهات الفكرة، ثم جاء بالصفات التي تستوجب المحامد، وهي: مُلْكُهُ جميع ما في السموات وما في الأرض، وعلمه المحيط بكل شيء، وحكمته وخبرته بالأشياء، إذ وجودها إنما هو به جلَّت قدرته، ورحمته بأنواع خلقه، وغفرانه لمن سبق في علمه أن يغفر له من مؤمن.

وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ الْحَكْدُ فِي الْآخِرَةِ﴾ يحتمل أن تكون الألف واللام للجنس أيضاً، وتكون الآية خيراً أن الحمد في الآخرة هو له وحده لإنعامه وأفضاله وتعمُّده وظهور قدرته وغير ذلك من صفاته، ويحتمل أن تكون الألف واللام فيه للعهد والإشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا آخِرُ دَعْوَانَهُمْ أَنْ لَمْ تُدْعَى إِلَيْهِ رَبِّي الْعَالَمِينَ﴾، أو إلى قوله: ﴿الْحَكْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدُّهُ﴾.

﴿يَلِيحُ﴾ معناه: يدخل، ومنه قول الشاعر:

رَأَيْتُ الْقَوَافِي يَتَلَيحْنَ مَوَاجِئاً
تَضَائِقُ عَنْهَا أَنْ تَوَلَّجَهَا الْإِبْرُ

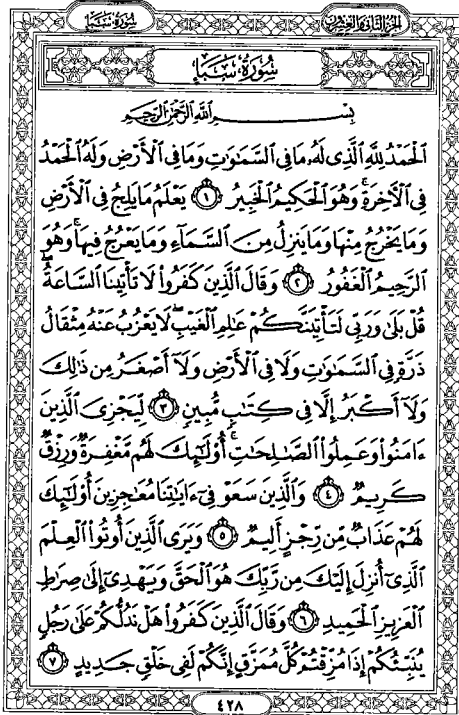
و ﴿يَتَوَلَّجُ﴾ معناه: يصعد. وهذه الرُتْبُ حصرت كل ما يصح عمله من شخص أو قول أو معنى، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿وَمَا يَنْزِلُ مِنْ السَّمَاءِ﴾ بضم الباء وفتح الثون وشد الزاي.

﴿٣﴾ - ﴿٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

زوي أن قائل هذه المقالة هو أبو سفيان بن حرب، قال: «واللأت والعزى ما ثم ساعة تأتي، ولا قيامة ولا حشر». فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يفسم بربه مقابلة لقسَم أبي

سفيان، قيل: رداً وتكذيباً وإيجاباً لما نفاه، وأجاز نافع الوقف على ﴿بِكَلِّ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالثاء من فوق، وحكى أبو حاتم قراءة: ﴿لَيَأْتِيَنَّكُمْ﴾ بالياء على المعنى في البعث.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي - بخلاف عنه -: ﴿عَلِيْرُ﴾ بالخفض على البدل من ﴿رَبِّي﴾، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿عَالِمٌ﴾ بالرفع على القطع، أي: هو عالم، ويصح أن يكون ﴿عَالِمٌ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ وما بعده، ويكون الإخبار بأن «العالم» لا يعزب عنه شيء إشارة إلى أنه قدر وقتها وعلمه، والوجه الأول أقرب. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿عَلَامٌ﴾ على المبالغة مخفوضاً على البدل. و﴿يَعْزُبُ﴾ معناه: يغيب ويبعد، وبه



فسر مجاهد وقتادة. وقرأ جمهور القراء بضم الزاي، وخفضها الكسائي، وابن وثاب، وهما لغتان. و﴿مِقْدَالُ ذَرَّةٍ﴾ معناه: مقدار ثقافتها، وهذا في الأجرام بين، وفي المعاني بالمقايسة. وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ﴾ بالرفع عطفًا على قوله: ﴿مِقْدَالُ ذَرَّةٍ﴾، وقرأ نافع، والأعمش، وقتادة: ﴿أَصْغَرَ﴾، و﴿أَكْبَرَ﴾ بالنصب عطفًا على ﴿ذَرَّةٍ﴾، ورؤيت عن أبي عمرو، وفي قوله: ﴿وَلَا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ ضمير تقديره: إلا هو في كتاب مبين، والكتاب المُبِينُ هو اللوح المحفوظ.

واللام في قوله: ﴿لِيَجْزِيَ﴾ يصح أن تكون متعلقة بقوله: ﴿لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾، ويصح أن تكون متعلقة بقوله: ﴿لَا يَعْزُبُ﴾، ويصح

جعلوا من يُخبر بوقوعه في حيز من يُتَعَجَّبُ منه، والعامل في ﴿إِذَا﴾ فعل مضمَرٌ قبلها فيما قال بعض الثَّاسِ، تقديره: يَتَبَيَّنُكُمْ بِأَنَّكُمْ تَبْعُونَ إِذَا مُرِّقْتُمْ، ويصح أن يكون العامل ما في قوله: ﴿إِنَّكُمْ لَبِيَّ حَلِيٍّ جَدِيدٍ﴾ من معنى الفعل؛ لأنَّ تقدير الكلام: يَتَبَيَّنُكُمْ إِنَّكُمْ لَبِيَّ حَلِيٍّ جَدِيدٍ إِذَا مُرِّقْتُمْ. وقال الرَّجَّاجُ: العامل في ﴿إِذَا﴾ هو ﴿مُرِّقْتُمْ﴾ وهو خطأ وإفساد للمعنى المقصود، ولا يجوز أن يكون العامل ﴿يَتَبَيَّنُكُمْ﴾ بوجه، و﴿مُرِّقْتُمْ﴾ معناه: بِالْبَلَى وَتَقَطُّعِ الْأَوْصَالِ فِي الْقُبُورِ وَغَيْرِهَا. وكسر الألف من ﴿إِنَّكُمْ﴾ لأنَّ ﴿يَتَبَيَّنُكُمْ﴾ في معنى: يقول لكم، ولمكان اللام التي في الخبر. و﴿جَدِيدٍ﴾ بمعنى: مُجَدَّدٌ.

وقولهم: «أَفْتَرَى» هو من قول بعضهم لبعض، وهي ألف الاستفهام دخلت على ألف الوصل، فحذف ألف الوصل، وبقيت مفتوحة غير ممدودة، فكان بعضهم استفهم بعضاً على محمد - ﷺ -: «أَحَالُ الْفِرْيَةِ عَلَى اللَّهِ هِيَ حَالُهُ أَمْ حَالُ الْجَنُونَ؟» لأنَّ هذا القول إنما يصدر عن أحد هذين. فأضرب القرآن عن قولهم وكذبه، فكانه قال: ليس الأمر كما قالوا، ﴿بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾، والإشارة بذلك إليهم، ﴿فِي الْعَذَابِ﴾، يريد: عذاب الآخرة؛ لأنَّهم يصيرون إليه، ويحتمل أن يريد: في العذاب في الدنيا بمكابدة الشرع ومكابדתه، ومحاولة إطفاء نور الله وهو يَبْتِمُّ، وهذا كله عذاب، وفي الضلال البعيد، أي: قُوِيَتْ

وقرأ عاصم - في رواية حفص -: «أَلْبَرُّ» بالرفع على الثَّعْتِ، والباقون بالكسر على نعت «الرُّجْزِ»، و«الرُّجْزُ» هو العذاب الشَّيْءُ جَدًّا، وقرأ ابن محيصن: «رُجْزٍ» بضم الرَّاء. (٦) - (٨) تفسير قوله عز وجل:

قال الطبري والشعبي وغيرهما: ﴿بَرَى﴾ معطوف على ما قبله من الأفعال، والظاهر أنه مُسْتَأْنَفٌ، وأن الواو إنما عطفت جملة على جملة، وكان المعنى الإخبار بأن

أهل العلم يرؤن الوحي المنزل على محمد ﷺ حقاً وأنه يهدي إلى صراط مستقيم.

وقوله: ﴿الَّذِي أُنزِلَ﴾ مفعول به ﴿بَرَى﴾، و﴿الْحَقُّ﴾ مفعول ثانٍ، و﴿مُرٌّ﴾ عماد. و﴿الَّذِيكَ أُنزِلَ﴾ قيل: هم من أسلم من أهل الكتاب، وقال قتادة: هم أمة محمد عليه الصلاة والسلام المؤمنون به كائناً من كان، و﴿بَرَى﴾ معناه: يُرْشِدُ، و﴿الصُّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ﴾ الطريق المعتدل، وأراد طريق الشرع والدين.

ثم حكى عن الكفار مقالتهم التي قالوها على جهة التَّعَجُّبِ والهُزْءِ، أي: قالها بعضهم لبعض، كما يقول الرجل لمن يريد أن يُعْجِبَهُ: هل أَدُلُّكَ عَلَى أَضْحُوكَةَ نَادِرَةَ؟ فلما كان البعث عندهم من البعيد المحال

أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْعَبِيدِ ﴿٨﴾ أَفْتَرُوا لَكَ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنْ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَسْأًا خَسِيفٌ بِهِمْ الْأَرْضُ أَوْ تُسْقَطُ عَلَيْهِمْ كِسْفَاتُ السَّمَاءِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا بَعِجَالٍ آوِيٍّ مَعَهُ وَالطُّبْرَ وَالنَّسَاءَ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَاحِبًا إِنْ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿١١﴾ وَسَلِّسْنَا الرِّبْعَ غَدُوًّا شَهْرًا رَوَّاحًا شَهْرًا وَسَلَّلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ مِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نَذِرْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ إِجْفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدِّرَ أَسِيبَتْ أَعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَدَّرْنَا مِنْ عِبَادِنَا الشُّكُورَ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا فَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْعَلِيمَ مَا لِيُشَاقِيَ الْعَذَابَ الْمُهِينَ ﴿١٤﴾

٤٢٩

أن تكون متعلقة بما في قوله: ﴿إِلَّا﴾ في كِتَابٍ مُبِينٍ من معنى الفعل؛ لأنَّ المعنى: إِلَّا أَثْبَتَهُ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ. و﴿الْمَغْفِرَةَ﴾ تَعْمُدُ الذُّنُوبَ، و﴿الرُّزُقُ﴾ الكريم الجنة.

قوله: ﴿وَالَّذِينَ﴾ معطوف على ﴿الَّذِينَ﴾ الأولى، أي: وليجزي الذين سَعَوْا، و﴿مُعْجِزِينَ﴾ معناه: محاولين تعجيز قدرة الله فيهم. وقرأ الجحدري، وابن كثير، وأبو عمرو: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ دون ألف، أي: معجزين قدرة الله تبارك وتعالى بزعمهم. وقال ابن الزبير: معناه: مُسَبِّطِينَ عَنِ الْإِيمَانِ مَنْ أَرَادَهُ، مدخلين عليه العجز في نشاطه، وهذا هو سعيهم في الآيات، أي: في شأن الآيات. ثم بيَّن تعالى جزاء هؤلاء الساعين، كما بيَّن قبل جزاء المؤمنين.

الخيرَةُ وتمكَّن الثَّلْفُ لأنه قد أبعد صاحبه عن الطريق الذي ضلَّ منه.

﴿١١﴾ - ﴿١٠﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

الضمير في ﴿بَرَزْنَا﴾ لهؤلاء الذين لا يؤمنون بالآخرة، وقفهم الله على قدرته، وخوفهم من إحاطتها بهم، المعنى: أليس يرون أمامهم ووراءهم سمائي وأرضي، لا سبيل لهم عن فقد ذلك عن أبصارهم، ولا عدم إحاطته بهم.

وقرأ الجمهور: ﴿إِنْ شَأْ نُخَيِّفُ﴾ ﴿أَوْ نُنْقِطُ﴾ بالنون في الثلاثة، وقرأ حمزة، والكسائي بالياء فيهن، وهي قراءة ابن وثاب، وابن مصرف، والأعمش، وعيسى، واختارها أبو عبيدة. و«خَسَفُ الْأَرْضِ» هو إهزؤها بهم وتهورها وغرقهم فيها، و«الِكِسْفُ» قيل: هو مفرد اسم القطعة، وقيل: هو جمع كَسْفَةٍ، على مثال ثَمَرَةٍ وَثَمَرٍ، ومشهور جمعها كِسْفٌ كَبِيدَةٌ ويذر.

وأدغم الكسائي الفاء في الباء في قوله تعالى: ﴿نُخَيِّفُ بِهِمْ﴾، قال أبو علي: وذلك لا يجوز؛ لأن الباء أضعف في الصوت من الفاء فلا تدغم فيها، وإن كانت الباء تدغم في الفاء في قولك: «اضرب فلاناً»، وهذا كما تدغم الباء في الميم في قولك: «اضرب محمداً»، ولا تدغم الميم في الباء في قولك: «أصم بك»؛ لأن الباء انحطت عن الميم بفعل الغنة التي في الميم.

والإشارة بقوله: ﴿فِي ذَلِكَ﴾ إلى إحاطة السماء بالمرء، ومماشة الأرض له علسى كل حال. و«الْمُنْيَبُ»: الرَّاجِعُ.

ثم ذكر تعالى نعمته على داود وسليمان عليهما السلام احتجاجاً على ما منح محمداً ﷺ، أي: لا تستبعدوا هذا فقد تفضلنا على عبيدنا قديماً بكذا، فلما فرغ التمثيل بمحمد عليه الصلاة والسلام رجع التمثيل لهم بسببٍ وما كان من هلاكهم بالكفر والعُتُوِّ والمعنى: قلنا: يا جبال، و﴿أَرِي﴾ معناه: أرجعي معه؛ لأنه مضاعف أب يؤوب، فقال ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم: معناه: سبحي معه، أي: يُسَبِّحُ هو وترجع هي معه التسبيح، أي: تردُّ بالذكر، ثم ضوعف الفعل للمبالغة، وقيل: معناه: سيري معه؛ لأن الشأريب سير النهار، كأن الإنسان يسير بالليل ثم يرجع السير بالنهار، أي يُرِدُّه، فكأنه يُؤُوبُه، فقيل له: التأويب، ومنه قول الشاعر:

يَوْمَانِ يَوْمٌ مُقَامَاتٍ وَأَنْدِيَّةٌ
ويَوْمٌ سَيْرٍ إِلَى الْأَعْدَاءِ تَأْوِيبٌ
ومنه قول ابن مقبل:

لِحِفْتَا بَحْيٍ أَوْبُوا السَّيْرَ بَعْدَنَا
دَفَعْنَا شِعَاعَ الشَّمْسِ وَالطَّرْفَ يَجْنَحُ
وقال مؤرج: ﴿أَرِي﴾: سبحي بلغة الحبشة، وهذا ضعيف غير معروف، وقال وهب بن منبّه: المعنى: نوحى معه والطير تساعدك على ذلك، قال: فكان داود عليه السلام إذا نادى بالثياحة والحنين أجابته الجبال وعكفت الطير عليه من فوقه، قال: فمن حيثئذ سُمع صدى الجبال، وقرأ الحسن، وقتادة، وابن أبي إسحق: ﴿أُوبِي﴾ بضم الهمزة وسكون الواو، أي: أرجعي معه، أي في السير أو

في التسبيح، وأمر الجبال كما تؤمر الواحدة المؤنثة لأن جميع ما لا يعقل كذلك يُؤمَّر، وكذلك يكنى عنه ويوصف، ومنه المثل «يا خيل الله اركبي»، ومنه ﴿مَتَارِبٌ أُخْرِي﴾، وهذا كثير.

وقرأ الأعرج، وعاصم - بخلاف - وجماعة من أهل المدينة: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ بالرفع عطفاً على لفظ قوله: ﴿يَجِئَالُ﴾، وقرأ نافع، وابن كثير، والحسن، وابن أبي إسحق، وأبو جعفر: ﴿وَالطَّيْرُ﴾ بالنصب - فقيل: ذلك عطف على ﴿فَضَلَّا﴾ وهو مذهب الكسائي، وقال سيبويه: هو على موضع قوله: ﴿يَجِئَالُ﴾؛ لأن موضع المنادي المفرد نصب، وقال أبو عمرو: تُصْبِهَا بإضمار فعل تقديره: وسخرنا الطير. وقوله: ﴿وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ معناه: جعلناه لئياً، وروى قتادة أن الحديد كان له كالشمع لا يحتاج في عمله إلى نار، وقيل: أعطاه قوة يثني بها الحديد، وروى أنه لقي ملكاً - وداود عليه السلام يظنه إنساناً - وداود متنكر خرج ليسأل الناس عن نفسه في خفاء، فقال داود لذلك الشخص الذي تمثل فيه الملك: ما قولك في هذا الملك داود؟ فقال له الملك: نَعَمْ العبد لولا خلَّة فيه، فقال داود: وما هي؟ قال: يرتزق من بيت المال، ولو أكل من عمل يده لَمُتَّ فضائله، فرجع فدعا الله في أن يعلمه صنعة ويسهلها عليه، فعلمه صنعة اللبوس، وألان له الحديد، فكان - فيما زوي - يصنع فيما بين يومه وليلته دزغاً تساوي ألف درهم،

حتى أذخر منها كثيراً وتوسعت معيشته، وكان ينفق بيت المال في مصالح المسلمين.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ أَعْمَلَ سَيِّئَاتٍ﴾، قيل: إن [أَنْ] مفسرة لا موضع لها من الإعراب، وقيل: هي في موضع نصب بإسقاط حرف الجر، و«السَّابِغَاتُ»: الدروع الكاسيات ذوات القفول، قال قتادة: داود عليه السلام أول من صنعها، ودرع الحديد مؤنثة، ودرع المرأة مذكرة. قوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِي السَّرِيْرِ﴾. اختلف المتأولون، في أي شيء هو التقدير من أشياء السَّرْد؟ إذ السَّرْد هو إتياع الشيء بالشيء من جنسه، قال الشماخ:

كَمَا تَابَعَتْ سَرْدَ الْعَيْنَانِ الْخَوَارِزُ
ومنه: سَرْدَ الْحَدِيثِ، وقيل للدرع: مسرودة لأنها توبعت فيها الحلح بالحلق، ومنه قول الشاعر:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهُمَا
دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السُّوَابِغِ تَبْعُ
وقول دُرَيْد:

....
فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ
قال ابن زيد: التقدير الذي أمر به هو في قدر الحلقة، أي: لا تعملها صغيرة فتضعف حتى لا تقوى الدرع على الدفاع، ولا كبيرة فينال لبسها من خلالها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التقدير الذي أمر به هو في المسمار، يريد: قدر المسمار والحلق، حتى لا تدق المسمار فتسلس، ويروى: فَيُسَلِّسِلِ، ولا تغلظه فينقصم،

بالقاف - وبالقاف أيضاً رواية -، وروى قتادة أن الدروع كانت قبله صفائح فكانت ثقلاً، فلذلك أمر هو بالتقدير فيما يجمع بين الخفة والحصانة، أي: قدر ما يأخذ من هذين المعينين بقسطه، أي: لا يقصد الحصانة فيثقل، ولا الخفة وحدها فيزيل المنعة.

قوله: ﴿وَأَعْمَلُوا صَالِحًا﴾، لما كان الأمر لداود وآله حكيم وإن كان لم يجز لهم ذكر لدلالة المعنى عليهم، ثم توعدهم بقوله: ﴿إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾، أي: لا يخفى عليَّ حسنُه من قبيحه، وبحسب ذلك يكون جزائي لكم.

﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال الحسن: عقر سليمان عليه السلام الخيل أسفاً على ما فوتته من وقت صلاة العصر، فأبدله الله خيراً منها وأسرع، الريح بأمره، وقرأ الجمهور: ﴿الرَّيْحُ﴾ بالنصب على معنى: ولسليمان سخرننا الريح، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - والأعرج: ﴿الرَّيْحُ﴾ بالرفع على تقدير: تسخرت الريح، أو على الابتداء، والخبر في المجرور، وذلك على حذف مضاف تقديره: ولسليمان تسخير الريح. وقرأ الحسن: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾، وكذلك جمع في كل القرآن.

قوله تعالى: ﴿عَدُوَّهَا شَهْرٌ وَرَوَّاهَا شَهْرٌ﴾، قال قتادة: إنها كانت تقطع به في الغدو إلى قرب الزوال مسيرة شهر، وتقطع به في الزواج من بعد الزوال إلى الغروب مسيرة شهر، وروي عن الحسن البصري أنه قال:

كان يخرج من الشام من مُسْتَقَرِّه بتدمر التي بنتها له الجن بالصفاح والعمد فيقيل في اصطخر، ويروح منها فيبيت في كابل من أرض خراسان، ونحو هذا، وكانت الأعاصير تَقِيلُ بساطه وتحمله بعد ذلك الرُخَاءُ، وكان هذا البساط يحمله - فيما روي - أربعة آلاف فارس وما يشبهها من الرجال والعُدَد ويتسع لهم، وروي أكثر من هذا بكثير، ولكن عدم صحته مع بُعد شبهه أوجب اختصاره، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «خير الجيوش أربعة آلاف»، وما كان سليمان ليعدو الخير.

وقرأ ابن أبي عمير: ﴿عَدُوَّتُهَا شَهْرٌ وَرَوَّحَتْهَا شَهْرٌ﴾، وكان سليمان عليه السلام إذا أراد قوماً لم يُشْرَبْ به حتى يُظْلَمَ في جو السماء.

قوله تعالى: ﴿وَأَسَلْنَا لَهَّ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾، روي عن ابن عباس، وقاتدة أنه كان يسيل له باليمن عين جارية من نحاس يُصنع له منها جميع ما أحب، والقطر: النحاس، وقالت فرقة: القِطْرُ: الفيلز كله، النحاس والحديد وما جرى مجراه، كانت تسيل له منه عيون، وقالت فرقة: بل معنى ﴿وَأَسَلْنَا لَهَّ عَيْنَ الْقِطْرِ﴾: أدبنا له النحاس، على نحو ما كان الحديد يلين لداود، قالوا: وكانت الأعمال تتأني منه لسليمان وهو بارد دون نار، و﴿عَيْنَ﴾ - على هذا التأويل - بمعنى المذاب، وقالوا: لم يلين النحاس ولا ذاب لأحد قبله.

وقوله: ﴿وَرَيْنَ آلِجِنِّ مَن بَعَلُّ﴾ يحتمل أن تكون [مَن] في موضع

و ﴿رَأْسَيْتَ﴾ معناه: ثابتات لكبرها، ليست مما يُنقل ولا يُحمل، ولا يستطيع عمله إلا الجن، وبالثبت فسرّها الناس. ثم أمروا مع هذه النعم بأن يعملوا بالطاعات.

وقوله: ﴿شَكَرًا﴾ يحتمل أن يكون نصبه على الحال، أي: اعملوا بالطاعة في حال شكر منكم الله على هذه النعم، ويحتمل أن يكون نصبه على جهة المفعول، أي: اعملوا عملاً هو الشكر، كأن الصلاة والصيام والعبادات كلها هي نفسها الشكر إذ سُدَّت مسدّه، وفي الحديث أن النبي ﷺ صعد المنبر فتلا هذه الآية، ثم قال: «ثلاث من أوتيهنَّ فقد أوتي في العمل شكراً: العدل في الغضب والرّضى، والقصد في الفقر والغنى، وخشية الله في السرِّ والعلانية»، وروي أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أطيق شكرك على نعمك وإلهامي وقدرتي على شكرك بعمّة لك؟ فقال: الآن يا داود عرفتنى حق معرفتي، وقال ثابت: روي أنّ مُصَلَّى آل داود لم يخل قطُّ من قائم يصلي ليلاً ونهاراً، كانوا يتناوبونه دائماً، وكان سليمان عليه السلام - فيما روي - يأكل الشعير، ويطعم أهله الخشكار، ويطعم المساكين الذّمك. وروي أنه ما شبع قط، ف قيل له في ذلك فقال: أخاف إن شبت أن أنسى الجيعاء.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيْلٌ مِّنْ عِبَادِي الشُّكُورُ﴾ يحتمل أن تكون مخاطبة لآل داود، ويحتمل أن تكون مخاطبة لمحمد ﷺ، وعلى كل حال ففيها تنبيه وتحريض، وسمع عمر بن

بهنه الآية، وذلك خطأ، وما أحفظ من أيّمة العلم من يجوّزه.

والجوابي جمع جابية، وهي البركة التي يجيء إليها الماء الذي يجتمع، قال الراجز:

فَصَبَّخْتُ جَابِيَةَ صُهَارِجًا
كَأَنَّهُ جِلْدُ السَّمَاءِ خَارِجًا
وقال مجاهد: هي جمع جَوْنَةٍ، وهي الحفرة العظيمة في الأرض، وفي هذا نظر، ومنه قول الأعشى:

نَفَى الدَّمَّ عَنِ آلِ الْمُحَلَّقِي جَفْنَةً
كَجَابِيَةِ الشَّيْخِ الْعِرَاقِيِّ تَفْهَنُ
وأنشد الطبري: «تَرَوْحُ عَلَى آلِ الْمُحَلَّقِي»، و يروى: «السُّنْحُ» بالسُّنِّن المَهْمَلَةِ والحاء المَهْمَلَةِ، وهو الماء الجاري على وجه الأرض، ويروى بالسُّنِّين والحاء منقوطين، فيقال:

أراد كسرى، ويقال: أراد شيخاً من فلاحى سواد العراق غَيْرَ مُعَيَّن، وذلك أنه لضعفه يذخر الماء في جابية فهي تفهق أبداً، فشبّهت الجفنة بها لعظمتها، وقال مجاهد، و قتادة، والضحاك، وابن زيد: «الجوابي: الحياض». وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وحمزة، والكسائي:

﴿كَالجَوَابِ﴾ بغير ياء في الوصل والوقف، وقرأ أبو عمرو، وعيسى بغير ياء في الوقف وبياء في الوصل، وقرأ ابن كثير بياء فيهما. ووجه حذف الياء التخفيف والإيجاز، وهذا كحذفهم الياء في «القاض، والغاز، والهاد»، وأيضاً فلما كانت الألف واللام تعاقب التنوين وكانت الياء تحذف مع التنوين وجب أن تحذف مع ما عاقبته، كما يُعملون الشيء أبداً عمل نقيضه.

نصب على الإبتاع لما تقدم بإضمار فعل تقديره: وسخرنا من الجن مَنْ يعمل، ويحتمل أن تكون في موضع رفع على الإبتداء، والخبر في المجرور، و﴿يَبِغُ﴾ معناه: يميل، أي ينحرف عاصياً، وقال: ﴿عَنْ أَمْرِنَا﴾ ولم يقل: «عن إرادتنا» لأنه لا يقع في العالم شيء يخالف الإرادة، وقد يقع ما يخالف الأمر. قال الضحاك: وفي مصحف عبدالله: ﴿وَمَنْ يَبِغُ عَنْ أَمْرِنَا﴾ بغير «منهم». وقوله: ﴿مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾، قيل: عذاب الآخرة، وقيل: بل كان قد وكل بهم ملك بيده سوط من نار السعير، فمن عصى ضربه فأحرقه.

﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: المحارِب: الأبنية العالية الشريفة، قال قتادة: القصور والمساجد، وقال ابن زيد: المساكن، والمحراب أشرف موضع في البيت، والمحراب موضع العبادة أشرف ما يكون منه، وغلب عُرف الاستعمال في موضع وقوف الإمام لشرفه، ومن هذه اللَّفْظَةِ قول عدِّي بن زيد:

كذمى العجاج في المحارِبِ أوكا
لنبِيضِ في الرُّوضِ زَهْرُهُ مُسْتَنبِرُ
والتماثيل، قيل: كانت من زجاج ونحاس، تماثيل أشياء ليست بحيوان، وقال الضحاك: كانت تماثيل حيوان، وكان هذا من الجائز في ذلك الشرع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونسخ بشرع محمد ﷺ.

وقال قوم: حرم التصوير لأن الصور كانت تُعبد، وحكى في الهداية أن فرقة تجوز التصوير وتحتج

الخطاب رضي الله عنه رجلاً يقول: اللهم اجعلني من القليل، فقال له: ما هذا الدعاء؟ فقال: أردت قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا أَرْضُ اشْكُرِي﴾، فقال عمر: كل الناس أعلم من عمر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد قال الله تعالى: ﴿وَقِيلَ يَا هُمْ﴾، والقيلة أيضاً بمعنى الخمول منحة من الله تبارك وتعالى، فلهذا الدعاء محاسن.

﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير عائد على سليمان عليه السلام، و﴿فَصَبَّحْنَا﴾ بمعنى: أنفدنا وأخرجناه إلى حيز الوجود، وإلاً فالقضاء الأخير به متقدم في الأزل، وروي عن ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهما في قصصها أن سليمان عليه السلام كان يتعبد في بيت المقدس، وكان ينبت في محرابه كل سنة شجرة، فكان يسألها عن منافعها ومضارها وسائر شأنها فتخبره، ويأمر فيها فتقلع وتصرف في منافعها، أو تُغرَس لتتناسل، فلما كان عند موته خرجت شجرة فقال لها: ما أنت؟ قالت: أن الخروب، خرجت لخراب ملكك هذا، فقال: ما كان الله ليخبره وأنا حي، ولكنه لا شك حضور أجلي، فاستعد عليه السلام وغرسها، وصنع منها عصاً لنفسه، وجد في عبادته، وجاءه بعد ذلك ملك الموت، فأخبره أنه قد أمر بقبض روحه، وأنه لم يبق له إلا مدة يسيرة، فروي أنه أمر الجن حينئذ فصنعت له قبة من زجاج تشف. وحصل فيها يتعبد، ولم يجعل لها

باباً، وتوكل على عصاه على وضع يتماسك معه وإن مات، ثم توفي ﷺ على تلك الحالة، وروي أنه استعد في تلك القبة بزاد سنة، وكان الجن يتوهمون أنه يتغذى باللليل، وكانوا لا يقربون من القبة، ولا يدخلون من كوى كانت في أعاليها، ومن رام ذلك منهم احترق قبل الوصول إليها، هذا في مدة حياة سليمان عليه السلام في القبة، فقيت تلك الهيبة عن الجن، وروي أن القبة كان لها باب، وأن سليمان أمر بعض أهله بكتمان موته عن الجن والإنس، وأن يترك على حاله تلك سنة، وكان غرضه في هذه السنة أن يعمل الجن عملاً كان قد بُدئ في زمن دواد عليه السلام وقدّر أن بقي منه عمل سنة، فأحب الفراغ منه، فلما مضى لموته سنة خر عن عصاه، وقد أكلتها الأرضة، وهي الدودة التي تأكل العود، فرأت الجن انخزازه فتوهمت موته، فجاء جسور منهم فاقترب فلم يحترق، ثم عاد فاقرب أكثر، ثم قرب حتى دخل من بعض الكوى فوجد سليمان عليه السلام ميتاً فأخبر بموته، فنظر ذلك الأجل فقدر أنه سنة، قال بعض الناس: جعلت الأرضة فأكلت يوماً وليلة، ثم قيس ذلك بأكلها في العَصَا فَعُلِمَ أنها أكلت منذ سنة، فهكذا كانت دلالة دابة الأرض على موته. وللمفسرين في هذا القصص إكثار عُمُدته ما ذكرناه. وقال كثير من المفسرين: ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾: سوسة العود، وهي الأرضة. وقرأ ابن عباس، والعباس بن الفضل:

﴿الْأَرْضِ﴾ بفتح الزاء، جمع أرضة، فهذا يقوي ذلك التأويل. وقالت فرقة: ﴿دَابَّةُ الْأَرْضِ﴾: حيوان من الأرض، شأنه أن يأكل العود، وذلك موجود، وليست السوسة من دواب الأرض. وقالت فرقة منها أبو حاتم اللغوي: ﴿الْأَرْضِ﴾ هنا مصدر أَرْضَتِ الْأَنْوَابُ وَالْخَشَبُ إذا أكلتها الأرضة، كأنه قال: دابة الأكل الذي هو بتلك الصورة، على جهة التَّسْوُس.

وفي مصحف عبدالله: ﴿أَكَلَتْ مِثْسَاتَهُ﴾، والمِثْسَاة هي العصا، ومنه قول الشاعر:

إِذَا دَبَّيْتِ عَلَى الْمِثْسَاةِ مِنْ كِبَرٍ
فَقَدْ تَبَاعَدَ مِنْكَ اللَّهْمُ وَالْعَزَلُ
وكذا قرأت جماعة من القراء بغير همز، منها أبو عمرو، ونافع، قال أبو عمرو: ولا أعرف لها اشتقاقاً، فأنا لا أهمزها؛ لأنها إن كانت مما لا يهمز فقد احتطت؛ لأنه لا يجوز لي همز ما لا يهمز، وقال غيره: أصلها الهمز، وهي من المِثْسَاة بهمزة مفتوحة، من: نَسَأْتُ الْإِبِلَ وَالغَنَمَ وَالنَّاقَةَ إذا سَقَّتْهَا، ومنه قول طرفة:

أَمْوَنَ كَعَبِيدَانَ الْأَرَانَ نَسَأَتْهَا
عَلَى لِاجِبِ كَأَنَّهُ ظَهَرَ بُرْجُدٌ
ويُروى: «وَعَسَسِ كَالنَّوَّاحِ»، وخففت همزتها جملة، وكان القياس أن تخفف بينَ يَيْنَ. وقرأ باقي السبعة على الأصل بالهمز. وقرأ حمزة: ﴿مِثْسَاتَهُ﴾ بفتح الميم وبغير همز، وقرأت فرقة: ﴿مِثْسَاتَهُ﴾ وهذا لا وجه له إلا التخفيف في تسكين

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِهُمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ
كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ
﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ
جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْمَلٍ حَمِيْطٍ وَأَثَلٍ وَمِنَ الْيَمِينِ يَسِدْرٌ قَلِيلٌ
﴿١٦﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجْزَىٰ إِلَّا الْكٰفِرُونَ ﴿١٧﴾
وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم وَبَيْنَ الْقُرَىٰ الَّتِي بَدَرْنَا فِيهَا قَرْيَةً ظَاهِرَةً
وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ يَسِيرًا فِيهَا السَّالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾
فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ
أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ حَسْبَابٍ
شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمْ لَيْسَ طَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا
فِرْقَانِ الْمُتَّبِعِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطٰنٍ
إِلَّا لِنَعْلَمَ مِنْ يَوْمِنَا بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنهَا فِي شَكٍّ وَرَبِّكَ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيْظٌ ﴿٢١﴾ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَضَعْتُمْ مِنْ دُونِ
اللَّهِ لَا يَمْلِكُ شَيْئًا فَتَقَالُ ذُرِّيَّتُكُمْ أَتَمَنُّوْنَ وَلَا فِي
الْأَرْضِ وَمَا هُمْ فِيهَا مِن شَرِكٍ وَمَا لَهُم مِّنْ ظَهْرٍ ﴿٢٢﴾

ويجوز أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجر، أي: بأن، على هذه القراءة، وعلى التأويل الأول من القراءة الأولى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: مذهب سيويه أن [أن] في هذه الآية لا موضع لها من الإعراب، وإنما هي مؤذنة بجواب ما تنزل منزلة القسم من الفعل الذي معناه التحقق واليقين؛ لأن هذه الأفعال التي هي: تبينت وتحققت وعلمت وتيقنت ونحوها تحل محل القسم في

المتحرك لغير علة، كما قال امرؤ القيس:

فَالْيَزْمُ أَشْرَبُ غَيْرِ مُسْتَحْقِبِ
إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاغِلِ
وقرأت فرقة: ﴿مِنْ سَأْتِهِ﴾ بفصل ﴿مِنْ﴾ وكسر الشاء في ﴿سَأْتِهِ﴾، وهذه تنحو إلى: سببة القوس؛ لأنه يقال: سببة وسأة، فكأنه قال: «من سَأْتِهِ» ثم سكن الهمزة، ومعناها: من طرف عصاه، أنزل العصا منزلة القوس.

وقال بعض الناس: إن سليمان عليه السلام لم يمته إلا في سفر مضطجعاً، ولكنه كان في بيت مبني عليه، وأكلت الأرضة عتبة الباب حتى خز البيت فعمل موته، وهذا ضعيف.

وقرأ الجمهور: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ بإسناد الفعل إليها، أي: بأن أمرها، كأنه قال: افتضحت الجن، أي للإنس، هذا تأويل. ويحتمل أن يكون قوله: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ بمعنى: علمت الجن وتحققت، ويريد بالجن: جمهورهم والفعلة منهم والخدمة، ويريد بالضمير في ﴿كَانُوا﴾ رؤساءهم وكبارهم؛ لأنهم هم الذين يدعون علم الغيب لأتباعهم من الجن والإنس ويؤهمونهم ذلك، قاله قتادة، فتبين الأتباع أن الرؤوس لو كانوا عالمين ما لبثوا. و [أن] - على التأويل الأول - بدل من ﴿الْجِنَّ﴾، وعلى التأويل الثاني مفعولة محضة، وقرأ يعقوب: ﴿تَبَيَّنَتِ الْجِنَّ﴾ على الفعل المجهول، أي: تبينتها الناس، و [أن] - على هذه القراءة - بدل،

وأكثر المفسرون في قصص هذه الآية بما لا صحة له، ولا تقتضيه ألفاظ القرآن، وفي معانيه بُعد، فاختصرته لذلك.

﴿١٥﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا مثل لقريش يقوم أنعم الله عليهم وأرسل إليهم الرسل فكفروا وأعرضوا فانتقم منهم، أي: فأنتم أيها القوم مثلهم. وسبأ: أراد به القبيل، واختلف، ليم سمي القبيل بذلك؟ فقالت فرقة: هو اسم امرأة كانت أم القبيل، وقال الحسن بن أبي الحسن في كتاب الرُّمَّانِي: هو اسم موضع، فسمي القبيل به، وقال الجمهور: هو اسم رجل كان أباً للقبيل كلهم، قيل: هو ابن يشجب بن يعرب، ورؤي في هذا القول حديث أن النبي ﷺ سأله قزوة بن مُسَيْك عن سبأ، ما هو؟

قولك: علمت أن لو قام زيد ما قام عمرو، وكأنك قلت: والله لو قام زيد ما قام عمرو، فقوله: ﴿مَا يَسْتُرُوا﴾ - على هذا القول - جواب ما تنزل منزلة القسم لا جواب «العذاب المهيمن»، وفي كتاب النحاس إشارة إلى أنه يقرأ بنصب «الجن»، أي: تبينت الإنس الجن، و«العذاب المهيمن» هو العمل في تلك الشجرة، والمعنى أن الجن لو كانت تعلم الغيب لما خفي عليها أمر سليمان عليه السلام، وقد ظهر أنه خفي عليها بدوامها في الخدمة الصعبة وهو ميت، فالْمُهَيَّنُّ: المُذَلُّ، من الهوان. قال الطبري: وفي بعض القراءات ﴿قَلَمًا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْإِنْسُ أَنْ الْجِنَّ لَوْ كَانُوا﴾، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس، والضحاك، وعلي بن الحسين. وذكر أبو حاتم أنها كذلك في مصحف ابن مسعود،

فقال: «هو اسم رجل منهُ تناسلت قبائل اليمن».

وقرأ نافع، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج: ﴿لِسَبَأٍ﴾ بهمزة منونة مكسورة، على معنى الحَيِّ، وقرأ أبو عمرو، والحسن: ﴿لِسَبَأٍ﴾ بهمزة مفتوحة غير مصروف، على معنى القبيلة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿مَسَاكِينِهِمْ﴾؛ لأن كل واحد له مسكن، وقرأ الكسائي وحده: ﴿فِي مَسْكِينِهِمْ﴾ بكسر الكاف، أي: في موضع سكناهم، وهي قراءة الأعمش، وعلقمة، قال أبو علي: والفتح حَسَنٌ أيضاً، لكن هذا كما قالوا: «مَسْجِدٌ»، وإن كان سبويه يرى هذا اسم البيت، وليس موضع السجود، قال: هي لغة الناس اليوم، والفتح هي لغة الحجاز، وهي اليوم قليلة، وقرأ حمزة، وحفص: ﴿مَسْكِينِهِمْ﴾ بفتح الكاف، على المصدر، وهو اسم جنس يراد به الجمع، وهي قراءة إبراهيم النخعي، وهذا الأفراد هو كما قال الشاعر:

كُلُّوا فِي بَغْضِ بَطْنِكُمْ تَخْفُوا
وكما قال الآخر:

قَدْ عَضَّ أَعْنَاقَهُمْ جِلْدُ الْجَوَامِيسِ
و ﴿ءَايَاتٍ﴾ معناه: عبرة وعلامة على فضل الله وقدرته، و﴿جَنَّتَانِ﴾ ابتداء، وخَبَرَهُ في قوله سبحانه: ﴿عَنْ يَبِينٍ وَشِمَالٍ﴾، أو خبر ابتداء تقديره: هي جنتان، هي جملة بمعنى: هذه حالهم، والبدل من ﴿ءَايَاتٍ﴾ ضعيف، وقد قاله مكِّي

وغيره، وقرأ ابن أبي عمير: ﴿آيَةً جَنَّتَيْنِ﴾ بالنصب، وروي أنه كان في ناحية اليمن وإد عظيم بين جبلين، وكانت حُقَّتَا الوادي منبت فواكه وزرع، وكان قد بُني في رأس الوادي عند أول الجبلين جسر عظيم من حجارة من الجبل فارتدع الماء فيه وصار بحيرة عظيمة، وأخذ الماء من جَنَّتَيْهَا فمشى مرتفعاً يسقي جنات جنبتى الوادي، قيل: بَنَتْهُ بلقيس، وقيل: بناه حمير أبو القبائل اليمنية كلها، كانوا بهذا الحال في أرغد نعم، وكانت لهم بعد ذلك قُرَيٌّ ظاهرة مُتَّصلة من اليمن إلى الشام، وكانوا أرباب تلك البلاد في ذلك الزمان.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّوا﴾ فيه حذف، كأنه قال: قيل لهم: كُلُّوا، و﴿طَيِّبَةً﴾ معناه: كريمة التربة، حَسَنَةَ الهواء، رعدة من التَّعِيمِ، سليمة من الهوامِّ والمضار، هذه عبارات المفسرين، وكان ذلك الوادي - فيما رُوي عن عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه - لا يدخله برغوث ولا قملة ولا بعوضة ولا عقرب ولا شيء من الحيوان الضَّار، وإذا جاء به أحد من سفر سقط عن أول الوادي، وروي أن الماشي كان إذا مَشَى بمكثل فوق رأسه بين أشجاره كان يمتلئ مِكْثَلُهُ دون أن يمد يداً، وروي أن هذه المقالة من الأمر بالأكل والشرب والتوقيف على طيب البلد والغفران من الرَّبِّ مع الإيمان به هي من قول الأنبياء لهم. وقرأ رُوَيْسٌ عن يعقوب: ﴿بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبًّا عَفُورًا﴾

بالنصب في الكل. وبعث إليهم - فيما رُوي - ثلاثة عشر نبياً فكفروا بهم وأعرضوا، فبعث الله على ذلك السُّدَّ جراداً أعمى توالد فيه وخَرَفَهُ شيئاً بعد شيء، وأرسل سيلاً في ذلك الوادي فحمل ذلك السُّدَّ، فَيُرَى أنه كان من العِظَمِ وكثرة الماء بحيث ملأ ما بين الجبلين وحمل الجثَّات وكثيراً من الناس ممن لم يمكنه الفرار، وروي أنه لما خرق السُّدَّ كان ذلك يُيسِّ الجثَّات فهلكت بهذا الوجه، وروي أنه صرف الماء من موضعه الذي كان فيه أولاً فتعطل سَفِيُّ الجثَّات.

واختلف الناس في لفظة ﴿الْعَرِمِ﴾ - فقال المغيرة بن حكيم، وأبو ميسرة: العَرِمُ في لغة اليمن جمع عِرْمَةٌ وهو كل ما بُني أو سُنِمَ لِيُسْكِ الماء، ويقال لذلك بلغة الحجاز: المُسْتَاة، كأنها الجسور والسُّداد ونحوها، ومن هذا المعنى قول الأعشى:

وَفِي ذَاكَ لِلْمُؤْتَسِّيِ أُنْسُورَةٌ
وَمَأْرَبٌ عَفَى عَلَيْهَا الْعَرِمُ
رِجَامٌ بَنَاءٌ لَهُمْ جَنَيْسِرُ
إِذَا جَاءَ مَسَاوِزُهُ لَمْ يَمِرْ
ومنه قول الآخر:

مِنْ سَبَأِ الْحَاضِرِينَ مَأْرَبٌ إِذْ
يَبْتُونَ مِنْ دُونِ سَبِيلِهَا الْعَرِمَا
وقال ابن عباس، وقتادة، والضحاك: اسم وادي ذلك الماء بعينه الذي كان السُّدُّ يُبنى له، وقال ابن عباس - رضي الله عنهما - أيضاً: إن سيل ذلك الوادي كان يصل إلى مكة وتُنتفع به، وقال ابن عباس: العَرِمُ: الشديد.

قال الزجاج: يقال: جَزَيْتُ في الخير، وجازيت في الشر. فَتَرْجَحُ قراءة الجمهور.

﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية وما بعدها وصف لحالهم قبل مجيء السيل، وهي أن الله تبارك وتعالى - مع ما كان منهم - منحهم من الجنتين والنعمة الخاصة بهم، كان قد أصلح لهم البلاد المتصلة بهم وعمرها، وجعلهم أربابهم، وقدر السير فيها بأن قرب القرى بعضها من بعض، حتى كان المسافر من مأرب إلى الشام لَيَبِيْتُ في قرية وَيَقِيلُ في قرية، فلا يحتاج إلى حمل زاد، والقرى: المدن، ويقال للجمع الصغير قرية أيضاً، وكلها من: قَرَيْتُ، أي جَمَعْتُ، والقرى التي بورك فيها هي قرى الشام بإجماع من المفسرين، والقرى الظاهرة هي التي بين الشام ومأرب، وهي الصغار التي هي البوادي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي قرى عربية بين المدينة والشام، وقاله الضحاك، واختلف في معنى ﴿ظَهْرَةَ﴾ - فقالت فرقة: معناه: مُستعلية مرتفعة في الإكام والطراب، وهي أشرف القرى، وقالت فرقة: يظهر بعضها من بعض، فهي أبدأ في قبضة عين المسافر، ولا يخلو من رؤية شيء منها بهذا الوجه. والذي يظهر لي أن معنى ﴿ظَهْرَةَ﴾: خارجة عن المدن، فهي عبارة عن القرى الصغار التي في ظواهر المدن، وإنما فصل بهذه الصفة بين القرى الصغار وبين القرى المطلقة التي هي المدن؛ لأن ظواهر المدن ما خرج عنها في

أَكَلَهَا أَي جَنَانًا. وقرأ الجمهور بتوین ﴿أَكَلٍ﴾ وَصِفَتَهُ [حَمَطًا] وما بعده، قال أبو علي: البدل فيه هذا لا يحسن؛ لأن «الْحَمَط» ليس بالأكل، و«الأكل» ليس بالخمط نفسه، والصفة أيضاً كذلك؛ لأن الْحَمَط اسم لا صفة، وأحسن ما فيه عطف البيان، كأنه بيّن أن «الأكل» هذه الشجرة ومنها، ويحسن قراءة الجمهور أن هذا الاسم قد جاء مجيء الصفة في قول الهذلي:

عُقَارٌ كَمَاةِ النَّيِّ لَيْسَتْ بِحَمَطَةٍ
وَلَا خَلَّةٌ يَكْوِي الشُّرُوبُ شَهَابَهَا
وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو بِإِضَافَةِ ﴿أَكَلٍ﴾
إِلَى ﴿حَمَطٍ﴾ وَيَضُمُّ الْكَافَ، أَي: ﴿أَكَلِ خَمَطٍ﴾، وَرَجَّحَ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ أَبُو عَلِيٍّ.
وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى ما أجراه عليهم، وقوله: ﴿وَهَلْ يُجْزَى﴾، أي: يُنَاقَشُ وَيُعَارَضُ بِمِثْلِ فعله، قدراً بقدر؛ لأن جزاء المؤمن إنما هو بتفضل وتضعيف، وأما الذي لا يُزَادُ ولا ينقص فهو الكفور، قاله الحسن بن أبي الحسن، وقال طاوس: هي المناقشة، وكذلك إن كان المؤمن ذا ذنوب فقد يُغْفَرُ له ولا يجازى، والكافر يُجَازَى ولا بُدَّ، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «مَنْ نُوقِشَ الْحَسَابَ عَذَّبَ»، وقرأ جمهور القراء: ﴿يُجَازَى﴾ بالياءِ وفتح الزاي، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿يُجْزَى﴾ بالنون وكسر الزاي ﴿الْكُفُورَ﴾ بالنصب، وقرأ مسلم بن جندب: ﴿وَهَلْ يُجْزَى﴾، وحكى عنه أبو عمرو الداني أنه قرأ: ﴿يُجْزَى﴾ بضم الياء وكسر الزاي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكأنه صفة للسيل، من العرامة، والإضافة إلى الصفة مبالغة، وهي كثير في كلام العرب.

وقالت فرقة: العرم: اسم الجُرْدِ، وهذا ضعيف. وقيل: العرم: صفة للمطر الشديد الذي كان عند ذلك السيل.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَلْنَهُمْ مِّنْ جَنَّتَيْ﴾ قول فيه تجوز واستعارة؛ وذلك أن البدل من الحَمَطِ والأكل لم يكن جئات، لكن هذا كما تقول لمن جرد ثوباً جيداً وضرب ظهره: «هذا الضربُ ثوبٌ صالحٌ لك»، ونحو هذا. وقوله: ﴿ذَوَاتَ﴾ تثنية «ذات». و«الْحَمَطُ»: شجر الأراك، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقيل: «الْحَمَطُ»: كل شجر له شوك وثمرته كريهة الطعم بمرارة، أو حمضة، أو نحوه، ومنه: تَحْمَطُ اللَّبَنُ: إذا تغيّر طعمه. و«الأكل»: ضربٌ من الطرفاء، هذا هو الصحيح، وكذا قال أبو حنيفة في كتاب النبات، قال الطبري: وقيل: هو شجر شبيه بالطرفاء، وقيل: إنه السمر. و«السدر» معروف، وله نبت شبيه العتاب، لكنه دونه في الطعم بكثير. و«الْحَمَطُ» ثمرٌ عُثٌ هو البربر، و«للأكل» ثمر قليل الغناء غير حسن الطعم.

وقرأ ابن كثير، ونافع: ﴿أَكَلِ﴾ بضم الهمزة وسكون الكاف. وقرأ الباقون بضم الهمزة وضم الكاف، وزوي أيضاً عن أبي عمرو السكون في الكاف، وهما بمعنى الجنتي والثمرة، ومنه قوله تعالى: ﴿تَوَقَّ

وخرّاعة، نزلت تهامة، ومن هذه المتشائمة أولاد قَيْلَة، وهم الأوس والخزرج، ومنها عاملة وغير ذلك.

ثم أخبر تعالى محمداً عليه الصلاة والسلام وأُمَّته - على جهة التنبيه - أن هذه القصص فيها آياتٌ وعِبَرٌ لكل مؤمن على الكمال، ومن اتصف بالصبر والشكر فهو المؤمن الذي لا تنقصه خلّةٌ جميلة بوجه.

(٢٠) - (٢٢) تفسير قوله عز وجل:

قرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَ﴾ بتخفيف الدال ﴿إِبْلِيسُ﴾ رفعاً ﴿ظَنَّهُ﴾ نصباً على المصدر، وقيل: على الظرفية، أي: في ظنّه، وقيل: على المفعول، على معنى أنه لما ظن عمل عملاً يصدق به ذلك الظن، فكانه إنما أراد أن يصدق ظنه، وهذا نحو من قولك: «أخطأتُ ظنّي وأصبحتُ ظنّي». وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿صَدَقَ﴾ بتشديد الدال، والظنّ - على هذا مفعول بـ [صَدَقَ]، وهي قراءة ابن عباس، وقاتدة، وطلحة، [وعاصم]، والأعمش. وقرأ الزهري، وأبو الهجهاج، وبلال بن أبي بُرْدة: ﴿صَدَقَ﴾ بتخفيف الدال ﴿إِبْلِيسُ﴾ نصباً ﴿ظَنَّهُ﴾ رفعاً. وقرأت فرقة: ﴿صَدَقَ﴾ بتخفيف الدال ﴿إِبْلِيسُ﴾ بالرفع ﴿ظَنَّهُ﴾ بالرفع على البدل، وهو بدل الاشتمال.

ومعنى الآية أن ما قال إبليس من أنه سيفتن بني آدم ويغويهم، وما قال من أن الله لا يجد أكثرهم شاكرين، وغير ذلك كان ظناً منه وصدق فيهم، وأخبر الله تعالى عنهم أنهم

الحسن - أخو الحسن - وابن الحنفية: ﴿رَبُّنَا﴾ بالنصب ﴿بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بفتح الباء وضم العين، وينصب ﴿بَيْنَ﴾ أيضاً. وقرأ سعيد بن أبي الحسن - من هذه الفرقة -: ﴿بَيْنَ﴾ بالرفع وإضافته إلى الأسفار، وقرأ ابن عباس، وأبو رجاء، والحسن البصري، وابن الحنفية: ﴿فَقَالُوا﴾ بالرفع ﴿بَاعَدَ﴾ بفتح العين والدال، وقرأ ابن عباس، وابن الحنفية أيضاً، وعمرو بن فايد، ويحيى بن يَعْمَر: ﴿رَبُّنَا﴾ بالرفع ﴿بَعْدَ﴾ بفتح العين وشدّها وفتح الدال. فهذه القراءة معناها الإخبار بأنهم استبعدوا القريب، ورأوا أن ذلك غير مقنع لهم، حتى كأنهم أرادوها متصلة الدور، وفي هذا تعسفٌ وتسخط على أقدار الله تعالى وإرادته، وقلة شكر على نعمته، بل هي مقابلة النعمة بالشكّي. وفي هذا المعنى ونحوه مما اقترن بكفرهم ظلموا أنفسهم ففرّقهم الله تعالى، وخرّب بلادهم، وجعلهم أحاديث، ومنه المثل السائر: «تفرّقوا أيادي سبأ»، و«أيدي سبأ»، يقال المثل بالوجهين، وهذا هو تمزّقهم كل مُتَرَقِّق، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «إن سبأ أبو عشر قبائل»، فلما جاء السَّيْلُ على مأرب وهو اسم بلدهم تيامن منهم ستة قبائل، أي: تبددت في بلاد اليمن، وتشاءت منها أربعة، فالْمُتَيَّامِنَةُ كئِدة والأزد وأشعر ومذّج وأنمار التي منها بَجِيلَة وخنعم، وطائفة قيل لها: جَمِير، بقي عليها اسم الأب الأول، والتي تشاءت لخم وجذام وعُثان

الفيافي والفحوص، ومنه قولهم: نزلنا بظاهر فلانة، أي: خارجاً عنها. وقوله: ﴿ظَهْرَهُ﴾ نظير تسمية الناس إيّاها البادية والضاحية، ومن هذا قول الشاعر:

فَلَوْ شَهِدْتَنِي مِنْ قُرَيْشٍ عِصَابَةً
قُرَيْشُ الْبَطَاحِ لَا قُرَيْشُ الظَّوَاهِرِ
يعني الخارجين عن بطحاء مكة، وفي حديث الاستسقاء: «وجاء أهل الضواحي يشتكون: الفرق الفرق».

وقوله تعالّى: ﴿وَقَدَرْنَا فِيهَا أَسْتَبْرَءَ﴾، هو ما ذكرناه من أن المسافر فيها كان يقبل في قرية ويبيت في أخرى على أيّ طريق سلك، لا يعوزه ذلك. وقوله تعالّى: ﴿سَبْرًا فِيهَا﴾ معناه: وقلنا لهم. و﴿أَسْتَبْرَءَ﴾ معناه: من الخوف من الناس المفسدين، وآمنين من الجوع والعطش وأفات المسافر.

ثم حكى عنهم مقالة قالوها على جهة البطر والأشر، وهي طلب البعد بين الأسفار، أو الإخبار بأنها بعيدة على القراءات الأخرى، وذلك أن نافعاً، وعاصماً، وحمزة، والكسائي قرءوا: ﴿بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بكسر العين على معنى الطلب، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن، ومجاهد: ﴿بَعْدَ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بشدّ العين وكسرهما على معنى الطلب أيضاً، فهاتان معناهما الأشر بأنهم ملؤا النعمة في القرب، وطلبوا استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير. وفي كتاب الرُّمَانِي أنهم قالوا: لو كان جنى ثمارنا أبعد لكان أشهر وأكثر قيمة، وقرأ ابن السميّغ، وسفيان بن حسين، وسعيد بن أبي

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ. حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ قُلْ مَنْ يَرْفَعُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ إِذَا يُذِيقُ الْوَيْلَ الْأُولَىٰ أَنْ تَعْلَمَ هُدَىٰ أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تَشْكُرُونَ عَمَّا آجُرُونَنَا وَلَا تَشْكُرُونَ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا شُرَكَاءَ كَلَّابًا هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادٌ يَوْمَ لَا تَسْتَعْرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقِيمُونَ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَا نُوَدِّعُكَ إِذَا الظَّالِمُونَ مَوْفُورُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ بِغَوْلِ الَّذِينَ اسْتَضَعُوا الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا أَوْلَا أَنْتُمْ لَكُمْ مَوَاقِبُ ﴿٣١﴾

المعِين. ثم تقرر في الآية بعد أن الذين يظنون أنهم يشفعون لهم لا تصح منهم شفاعته لهم؛ إذ هؤلاء كفرة، ولا يأذن الله في الشفاعه في كافر. ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: إن كل من دعوتهم إليها من دون الله لا يملكون مثقال ذرة، ولا تنفع شفاعتهم إلا بإذن الله فيمن آمن، فكأنه قال: ولا هم شفعاء على الحد الذي ظنتم أتم.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ - فقالت فرقة: معناه: لمن أراد له، وقالت فرقة: معناه: لمن أذن له أن يشفع هو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واللفظ يعهما؛ لأنه إذا انفرد للشافع فلا شك أن المشفوع فيه معين له، وإذا انفرد للمشفوع فيه فالشافع لا محالة عالم معين لذلك، وانظر أن اللام الأولى تشير إلى المشفوع فيه من قوله: ﴿لِيَسْئَلَنَّ﴾، تقول: شفعت لفلان.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي بضم الألف - من ﴿أَذِنَ﴾ -، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿أَذِنَ﴾ بفتحها والضمير في ﴿قُلُوبِهِمْ﴾ عائد على الملائكة الذين دعوهم آلهة، ففي الكلام حذف يدل عليه الظاهر، كأنه قال: ولا هم شفعاء كما تحسبون أنتم، بل هم

اتبعوه، وهو اتباع في كفر؛ لأنه في قصة قوم كفار، وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ مَوْمِنَهَا فِي شَكٍّ﴾ يدل على ذلك، ﴿وَمِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ الْمُؤْمِنِينَ﴾ لبيان الجنس لا للتبعيض؛ لأن التبعيض يقتضي أن فريقاً من المؤمنين اتبع إبليس.

و «السُّلْطَانُ»: الحجة، وقد يكون الاستعلاء والاستقدار؛ إذا اللفظ من السُّلْط، وقال الحسن بن أبي الحسن: والله ما كان له سوط ولا سيف ولكنه استمالهم فمالوا بتزيينه. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا لِنَعْمَ﴾ أي: لنعلم موجوداً؛ لأن العلم به متقدم أولاً، وقرأت فرقة: ﴿إِلَّا لِيُعْلَمَ﴾ بالياء مضمومة على المجهول.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ رَعَيْتُمْ﴾ آية تعجيز وإقامة حجة، ويروى أن ذلك نزل عند الجوع الذي أصاب قريشاً. والجمهور على ﴿قُلْ أَدْعُوا﴾ بضم اللام، وروى عباس عن أبي عمرو: ﴿قُلْ أَدْعُوا﴾ بكسر اللام ﴿الَّذِينَ﴾ يريد الملائكة والأصنام؛ وذلك أن قريشاً والعرب كان منهم من يعبد الملائكة، ومنهم من يقول: نعبدها لتشفع لنا، ونحو هذا، فنزلت هذه الآية معجزة لكل منهم. ثم جاء بصفة هؤلاء الذين يدعونهم آلهة، من أنهم لا يملكون ملك الاختراع مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، وأنهم لا يشرك لهم فيها، وهذان نوعا الملك: إما استبداد وإما مشاركة، فنفي عنهم جميع ذلك، ونفي أن يكون لله معين في شيء من قدرته، و«الظهير»:

عَبْدَةٌ وَمُسْتَسْلِمُونَ أَبْدَأُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ.

وتظاهر الأحاديث عن رسول الله ﷺ أن هذه الآية، أعني قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، إنما هي في الملائكة إذا سمعت الوحي إلى جبريل بالأمر يأمر الله به سمعت كجبر سلسلة الحديد على الصفوان، فتفرع عند ذلك تعظيماً وهيباً، وقيل: خوف أن تقوم الساعة، فإذا فرغ ذلك فرغ عن قلوبهم، أي: أطير الفزع عنها وكشف، فيقول بعضهم لبعض ولجبريل: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟﴾ فيقول المستولون: قال الحق ﴿وَمَوْمِنَهَا الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. وبهذا المعنى من ذكر الملائكة في صدر الآيات تنسق هذه الآية على الأولى، ومن لم يشعر أن الملائكة مشار إليهم من أول قوله:

﴿الَّذِينَ رَعَيْنَاهُمُ﴾ لم تُصَلِّ له هذه الآية بما قبلها، فلذلك اضطرب المفسرون في تفسيرها، حتى قال بعضهم في الكفار - بعد حلول الموت - فُزِعَ عن قلوبهم بفقد الحياة فرأوا الحقيقة، وزال فزعهم من شبه ما يقال لهم في حياتهم، فيقال لهم حينئذ: ﴿مَاذَا قَالِ رَبُّكُمْ؟﴾ فيقولون: قال الحق، يَقْرَؤُونَ حين لا ينفعهم الإقرار. وقالت فرقة: الآية في جميع العالم، وقوله: ﴿حَتَّىٰ إِذَا﴾ يريد: في القيامة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتأويل الأول في الملائكة هو الصحيح، وهو الذي تظاهرت به الأحاديث. وهذان بعيدان.

وقرأ الجمهور: ﴿فُزِعَ﴾ بضم الفاء وكسر الزاي، ومعناه: أطيّر الفزع عنهم، وهذه الأفعال جاءت مخالفة لسائر الأفعال؛ لأن «فَعَلَ» أصلها الإدخال في الشيء. وقولك: فُزِعَتْ زيداً معناها: أزلت الفزع عنه. وكذلك: جُزِعَتْ: أزلت الجزع عنه، ومنه في الحديث: «فدخل ابن عباس على عمر فجزعته»، ومنه: مَرَّضْتُ فلاناً: أزلت المرض عنه. وانظر أن مضارع هذه الأفعال يلحق بـ (تَحَثُّ) وتَحَرَّجٌ وتَفَكَّهُ وتَأْتَمُّ وتَخَوَّتْ، وقرأ ابن عامر: ﴿فُزِعَ﴾ بفتح الفاء والزاي وشد الزاي، وهي قراءة ابن مسعود، وابن عباس، وطلحة، وأبي المتوكل الناجي، واليماني. وقرأ الحسن البصري - بخلاف -: ﴿فُزِعَ﴾ بضم الفاء وكسر الزاي وتخفيفها. كأنه بمعنى: أفلح، ومن قال إنها في العالم أجمعه قال: معنى هذه

القراءة: فُزِعَ الشيطان عن قلوبهم، أي بادر. وقرأ أيوب عن الحسن أيضاً: ﴿فُزِعَ﴾ بضم الفاء وبراء مهملة مشددة وبغين منقوطة، من التفرغ، قال أبو حاتم: ورواها عن الحسن نحو من عشرة أنفس، وهي قراءة أبي مجلز، وقرأ مطر الوراق، عن الحسن: ﴿فُزِعَ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وهي قراءة مجاهد، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿فُزِعَ﴾ بالراء المهملة مخففة، من الفراغ. قال أبو حاتم: ما أظن الثقات رَوَوْها عن الحسن على وجوه إلا لصعوبة المعنى عليه فاختلفت ألفاظه فيها. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَفْرَنْقِعَ﴾، وهي قراءة ابن مسعود. ومعنى هذا كله: وقع فرائعها من الفزع والخوف. ومن قرأ شيئاً من هذا على بناء الفعل للمفعول فقوله تعالى: ﴿عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ في موضع رفع، و«أفْرَنْقِعَ» معناه: تفرق.

وقوله تعالى: ﴿مَاذَا﴾ يجوز أن تكون [مَا] في موضع نصب بـ ﴿قَالَ﴾، ويصح أن تكون في موضع رفع بمعنى: أي شيء قال؟ والنصب في قولهم: ﴿الْحَقُّ﴾ على نحوه في قوله تعالى: ﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا سَبِيلاً﴾؛ لأنهم حققوا أن ثَمَّ ما أنزل، وحققوا هنا أن ثَمَّ ما قيل. وباقي الآية تحميداً وتمجيداً.

﴿٢٤﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل: أمر الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ على جهة الاحتجاج، وإقامة الدليل على الرازق لهم من السموات والأرض - [أَنْ يَسْأَلَهُمْ]: من هو؟ ثم أمره أن يقتضب الاحتجاج بأن يأتي بجواب

السؤال؛ إذ هم في بهتة ووجمة من السؤال، وإذ لا جواب لهم ولا لمفطور إلا بأن يقول: هو الله. وهذه السبيل في كل سؤال جوابه في غاية الوضوح؛ لأن المحتج يريد أن يقتضب ويتجاوز إلى حجة أخرى يوردها. ونظائر هذا في القرآن كثير.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْتَ آوِيَّاكُمْ﴾ تَلَطَّفَ في الدعوى والمحاورة والمعنى، كما تقول لمن خالفك في مسألة: أحدنا مُخْطِئٌ، أي: تَبَيَّنَتْ وَتَبَيَّنَتْ، والمفهوم من كلامك أن مخالفتك هو المخطئ، فكذلك هذا معناه: وَإِنَّا لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ، وَإِنَّا لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ، فَلتَبَيَّنَتْ، والمقصد أن الضلال في حيز المخاطبين، وحذف أحد الخبرين للدلالة الباقي عليه. وقال أبو عبيدة: [أَوْ] في الآية بمعنى واو النسق، والتقدير: وَإِنَّا وَإِنَّاكم لعللى هدى أَوْ في ضلال مبين، وهما خبران غير مبتدئين، وهذا القول غير متجه واللفظ لا يساعده، وإن كان المعنى - على كل قول - يقتضي أن الهدى في حيز المؤمنين والضلال في حيز الكفرة.

قوله تعالى: ﴿قُلْ لَا تُشَاوِرُكُمْ عَمَّا أَجْرَمْتُمْ﴾ الآية - مهادنة ومشاركة، وهي منسوخة بآية السيف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ الآية... إخبار بالبعث من القبور، وقوله: ﴿يَبْتَحُ﴾ معناه: يحكم، والفتاح: القاضي، وهي مشهورة في لغة اليمن، وهذا كله منسوخ بالسيف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾

أَلْوَعْدُ؟ فَأَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ بِأَنْ يُخْبِرَهُمْ عَنِ مِيعَادِ يَوْمِ هُوَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، لَا يَتَأَخَّرُ عَنْهُ أَحَدٌ وَلَا يَتَقَدَّمُهُ. قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: الْوَعْدُ وَالْوَعِيدُ وَالْمِيعَادُ بِمَعْنَى، وَخُولِفَ فِي هَذَا، وَالَّذِي عَلَيْهِ النَّاسُ أَنَّ الْوَعْدَ فِي الْخَيْرِ، وَالْوَعِيدُ فِي الْمَكْرُوهِ، وَالْمِيعَادُ يَقَعُ لِهَذَا وَلِهَذَا، وَأَصَافُ الْمِيعَادَ إِلَى الْيَوْمِ تَجَوُّزًا مِنْ حَيْثُ كَانَ فِيهِ، وَتَحْتَمِلُ الْآيَةُ أَنْ يَكُونَ اسْتِعْجَالُ الْكُفْرَةِ لِعَذَابِ الدُّنْيَا، وَيَكُونُ الْجَوَابُ عَنِ ذَلِكَ أَيْضًا، وَلَمْ يَجِرْ لِلْقِيَامَةِ ذِكْرٌ عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: حُكِيَتْ فِي هَذِهِ الْمَقَالَةِ قَالَهَا بَعْضُ قَرِيشٍ، وَهِيَ أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْقُرْآنِ وَلَا بِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالزَّبُورِ، وَكَأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِجَمِيعِ كِتَابِ اللَّهِ، وَإِنَّمَا فَعَلُوا هَذَا لِمَا وَقَعَ الْإِحْتِجَاجُ عَلَيْهِمْ بِمَا فِي التَّوْرَةِ مِنْ أَمْرِ مُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: «وَالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ» هِيَ السَّاعَةُ وَالْقِيَامَةُ، وَهَذَا خَطَأٌ لَمْ يَفْهَمْ قَائِلُهُ أَمْرَ «بَيْنَ الْيَدِ» فِي اللُّغَةِ وَأَنَّهُ الْمَتَقَدِّمُ فِي الزَّمَنِ، وَقَدْ بَيَّنَّا مَعْنَاهُ فِيمَا تَقَدَّمَ.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى نبيه عن حالة الظالمين في صيغة التّعجب من حالهم، وجواب [لَوْ] محذوف، و﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ﴾ يريد: يتحاورون ويتجادلون، ثم فسّر ذلك

أَنْ تَكُونَ رُؤْيَا قَلْبٍ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: ﴿شُرَكَاءُ﴾ مَفْعُولًا ثَالِثًا، وَهَذَا هُوَ الصَّحِيحُ، أَي: أَرُونِي بِالْحُجَّةِ وَالِدَلِيلِ كَيْفَ وَجَّهَ الشَّرِكَةَ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: هِيَ رُؤْيَا بَصَرٍ، وَ﴿شُرَكَاءُ﴾ حَالٌ مِنَ الضَّمِيرِ الْمَفْعُولِ بِـ ﴿أَلْحَقْتُمْ﴾ وَالْمَعَانِدُ عَلَى «الَّذِينَ»، وَهَذَا ضَعِيفٌ، لِأَنَّ اسْتِدْعَاءَ رُؤْيَا الْعَيْنِ فِي هَذَا لَا غِنَاءَ لَهُ، وَقَوْلُهُ: ﴿كَلَّا﴾ رَدٌّ لِمَا تَقَرَّرَ مِنْ مَذْهَبِهِمْ فِي الْإِشْرَاقِ بِاللَّهِ تَعَالَى، وَوَصَفَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَفْسَهُ بِاللَّتَاتِقِ مِنَ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هَذَا إِعْلَامٌ مِنَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِأَنَّهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى جَمِيعِ الْعَالَمِ، وَ«الْكَافَّةُ»: الْجَمْعُ الْأَكْمَلُ مِنَ النَّاسِ، وَهِيَ نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، وَقَدَّمَهَا لِلاِهْتِمَامِ، وَهَذِهِ إِحْدَى الْخِصَالِ الَّتِي حُصِّنَ بِهَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ بَيْنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَالَّتِي حَصَرَهَا فِي قَوْلِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَعْطَيْتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرَّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَأَجَلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحُلْ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُوتِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَبُعِثْتُ كُلُّ نَبِيٍّ إِلَى خَاصٍّ مِنَ النَّاسِ وَبُعِثْتُ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ»، وَفِي هَذِهِ الْخِصَالِ زِيَادَةٌ فِي كِتَابِ مُسْلِمٍ.

وقوله: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ يريد به العموم في الكفرة، والمؤمنون هم الأقل.

ثم حكى عنهم مقالتهم في الهُزءِ بِأَمْرِ الْبِعْثِ، وَاسْتِعْجَالِهِمْ - عَلَى مَعْنَى التَّكْذِيبِ - بِقَوْلِهِمْ: ﴿مَنْ هَذَا

الجدل بأن الأتباع والضعفاء من الكفرة يقولون للكبار والرؤوس - على جهة التذنيب والتوبيخ وردّ اللاتمة عليهم -: لولا أنتم لأمنا نحن واهتدينا، أي: أنتم أغويتمونا وأمرتمونا بالكفر، فقال لهم الرؤساء - على جهة التقرير والتكذيب -: أنحن صددناكم عن الهدى؟ بل كنتم مجرمين، أي: دخلتم في الكفر ببصائرکم، وأجرتمم بنظر منكم، ودعوتنا لم تكن ضربة لازم عليكم؛ لأننا دعوناكم بغير حجة ولا برهان، هذا كله يتضمنه اللفظ.

﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مراجعة من الأتباع للرؤساء حين قالوا لهم: إنما كفرتم ببصائرکم، ومن أنفسکم، فقال المستضعفون: بل كفرنا بمكربهم بنا في الليل والنهار، وأصاف المکر إلى الليل

والنهار من حيث هو فيهما، ولتدلّ هذه الإضافة على الدُّعُوب والزمان، كما قالوا: ليلٌ نائمٌ ونهار صائم، وأنشد سيبويه:

فَنَامَ لَيْلِي وَتَجَلَّى هَمِّي

وهذه قراءة الجمهور، وقرأ قتادة بن دعامة: ﴿بَلْ مَكْرٌ مُتَوْنًا﴾ [الْبَيْلِ وَالنَّهَارِ] نصباً، وذكرت عن يحيى بن يَعْمَرٍ، وكان معناها الإحالة على طول الأمل والاعتزاز بالأيام، مع أمر هؤلاء الرؤساء بالكفر. و«النَّدُ»: المثل والشبيه، والضمير في قوله: ﴿وَأَسْرًا﴾ عام في جميع من تقدم من المستضعفين والمستكبرين، و«أَسْرًا» معناه: اعتقدوها في نفوسهم، ومعتقدات النفس كلها سرٌّ، لا يعقل غير ذلك، وإنما يظهر ما يصدر عنها من كلام أو قرينة. وقال بعض الناس: ﴿أَسْرًا﴾ أظهروا، وهي من الأضداد، وهذا كلام من لم يعتبر المعنى، أما نفس الندامة فلا تكون إلا مُسْتَسْرَّةً ضرورة، وأما الظاهر عنها فغيرها، ولم يثبت قط في لغة أن (أَسْرًا) من الأضداد.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾ أي: وافوه وتيقنوا حصولهم فيه. وباقى الآية بين.

(٣٧) - (٣٨) تفسير قوله عز وجل:

هذه تسلية للنبي ﷺ عن فعل قريش وقولها، أي: هذه يا محمد سيرة الأمم، فلا يهمنك أمر قومك، و«القرية»: المدينة، و«المُتْرَفُ»: المنعم البطل الغني القليل تعب النفس والجسم، فعادتهم المبادرة بالكذب.

وقوله تعالى: ﴿وَنَالُوا مَنَ أَكْزَرُ﴾ أمراً وأولاداً» يحتمل أن يعود الضمير على «المُتْرَفِينَ»، ويكون ذلك من قولهم مع تكذيبهم، ولما كانت قريش مثلهم أمره الله تعالى أن يقول: ﴿إِنَّ رَبِّي بَسِطٌ﴾ الآية، ويحتمل أن يكون الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لقريش، ويكون كلام «المُتْرَفِينَ» قد تقدم، ثم تطرد الآية بعد. ومعنى قولهم: ﴿مَنَ أَكْزَرُ﴾ أمراً وأولاداً» الاحتجاج بأن الله لم يعطنا هذا وقدره لنا إلا لرضاه عنا وعن طريقتنا، ونحن ممن لا يُعَذَّبُ البتة؛ إذ الله الذي تزعم أنت علمته بجميع الأشياء وإحاطته قد قدر علينا النعم، فهو إذا راض عنا. وقال بعض المفسرين: معنى قولهم: ﴿وَمَا مَنَ يُعَذِّبُ﴾ أي: بالفقر، وهذا ليس كالأول في القوة، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول: إن الأمر ليس كما ظننوا، بل بسط الرزق وقدره مُعَلَّقٌ بالمشيئة في كافر ومؤمن، وليس شيء من ذلك دليلاً على رضى الله والقرب منه؛ لأنه قد يُعطي ذلك أملاً واستدرجاً، ولكن كثيراً من الناس لا يعلم ذلك كأنتم أيها الكفرة، وقرأت فرقة: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ وفرقة بالتشديد، وهي راجعة إلى معنى التضييق الذي هو ضد البسط.

ثم أخبرهم أن أموالهم وأولادهم ليست بمقرّبة من الله ﴿زُلْفَى﴾، وهي مصدر بمعنى القرب، وكأنه قال: تقريبكم عندنا تقريباً، وقرأ الضحّاك: ﴿زُلْفَى﴾ بفتح اللام والتنوين. وقوله: ﴿إِلَّا مَنَ ءَامَنَ﴾ استثناء، و«مَنَ»

في موضع نصب بالاستثناء. وقال الزجاج: هي بدل من الضمير في ﴿تَقْرَبُكَ﴾، وقال الفراء: هي في موضع رفع، وتقدير الكلام: ما هو مقرّب إلا من آمن. وقرأ الجمهور: ﴿جَزَاءُ أَصْفَى﴾ بالإضافة، وقرأ قتادة: ﴿جَزَاءُ﴾ منوناً ﴿الضَّغْفُ﴾ رفعاً، وحكى عنه الداني [جَزَاءُ] نصباً منوناً [الضَّغْفُ] نصباً. و«الضَّغْفُ» هنا اسم جنس، أي التضعيف؛ إذ بعضهم يجازى إلى عشرة، وبعضهم أكثر صاعداً إلى سبعائة بحسب الأعمال ومشية الله فيها.

وقرأ الجمهور: ﴿فِي الْغُرُفَاتِ﴾ بالجمع، وقرأ حمزة وحده: ﴿فِي الْغُرُفَةِ﴾ على اسم الجنس يراد به الجمع، ورويت عن الأعمش، وهما في القراءة حستان. قال أبو علي: وقد يجيء هذا الجمع بالألف والتاء «الغُرُفَاتِ» ونحوه للكثير، ومنه قول حسان:

لَنَا الْجَفَنَاتُ الْغُرُ يُلْمَعْنَ بِالضُّحَى
وَأَسْيَافُنَا يَقْطُرْنَ مِنْ نَجْدَةِ دِمَا
فلم يُرد إلا كثرة جفان، وتأمل نقد الأعمش في هذا البيت.

وقرأ الأعمش، والحسن، وعاصم - بخلاف -: ﴿فِي الْغُرُفَاتِ﴾ بسكون الراء.

(٣٨) - (٣٩) تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر تعالى المؤمنين العاملين للصالحات وثوابهم عقب بذكر ضدهم وذكر جزائهم ليظهر تباين المنازل، وقرأت فرقة: ﴿مُعْجِزِينَ﴾ وفرقة: ﴿مُعْجِزِينَ﴾، وقد تقدم تفسيرها.

قوله تعالى لعيسى عليه
 و يوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا
 يعبدون ﴿٤٠﴾ قالوا سبحانك أنت ولسنا من دؤبهم بل كانوا
 يعبدون الرحمن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿٤١﴾ قالوا لا ربك
 بعضكم لبعض تفعا ولا ضرباً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب
 النار التي كنتم بها تكذبون ﴿٤٢﴾ وإذ أنزلنا عليهم آياتنا ابتد
 قالوا ما هذا إلا لرسل يریدان یصدرك عما كان یعبده آباءكم
 وقالوا ما هذا إلا إنا فك مقتدى وقال الذين كفروا للحق لما
 جاءهم إن هذا إلا سحر مبين ﴿٤٣﴾ وما آتيناهم من كتب
 يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ﴿٤٤﴾ وكذلك
 الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا ورسول
 فكيف كان تكذيب ﴿٤٥﴾ قل إنما أعظكم بوجده أن
 تقوموا لله متقون وقرئوا ثم تفكروا أما يصاحبونكم
 من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد ﴿٤٦﴾
 قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو عل
 كل شيء وشهيد ﴿٤٧﴾ قل إن ربي يقذف بالحق علم الغيوب ﴿٤٨﴾

قوله تعالى لعيسى عليه
 السلام: ﴿٤٠﴾ أنت قلت
 للناس: ﴿٤١﴾ وإذ قال الله تعالى
 للملائكة هذه المقالة قالت
 الملائكة: ﴿٤٢﴾ سبحانك،
 أي: تنزيهاً لك عما فعل
 هؤلاء الكفرة، ثم برءوا
 أنفسهم بقولهم: ﴿٤٣﴾ أنت
 ولسنا من دؤبهم ﴿٤٤﴾ يريدون
 البراءة من أن يكون لهم
 علم أو رضى أو مشاركة
 في أن يعبدهم البشر، ثم
 قرروا أن البشر إنما عبدوا
 الجن وبإغوائها للبشر،
 فلم تنف الملائكة عبادة
 البشر إياها، وإنما قررت
 أنها لم تكن لها في ذلك

و ﴿مُحْضَرُونَ﴾ من الإحضار
 والإعداد.
 ثم كرر بسط الرزق وقدرته تأكيداً
 وتبييناً، وقصد به هنا رزق المؤمنين،
 وليس سوفه على المعنى الأول الذي
 جلب للكافرين، بل هذا هنا على
 جهة الوعظ والتزهيد في الدنيا،
 والحض على النفقة في الطاعات،
 ثم وعد بالخلف في ذلك وهو بشرط
 الاقتصاد والنيّة في الطاعة ودفع
 المضرات وعدّ منجز، إما في الدنيا،
 وإما في الآخرة. وروى أبو هريرة
 رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال: «
 إن الله قال لي: انفق أنفق عليك،»
 وفي البخاري «إن الملك ينادي كل
 يوم، اللهم أعط متفقاً خلفاً، ويقول
 ملك آخر: اللهم أعط متسكياً تلفاً،»
 وقال مجاهد: المعنى: إن كان
 خلف فهو مؤليه وميسره، وقد لا
 يكون الخلف.

وأما قوله: ﴿وَمَوْ حَيْرَ الرَّزِيقِينَ﴾ فمن
 حيث يقال في الإنسان: إنه يرزق
 عياله، والأمير جنده، لكن ذلك من
 مال يملك عليهم، والله تعالى من
 خزائن لا تفتنى، ومن إخراج من عدم
 إلى وجود. وقرأ الأعمش:
 ﴿وَيُقَدَّرُ﴾ بضم الياء وشدّ الدال.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
 هذه آية وعيد للكفار، والمعنى:
 واذكر يوم. وقرأ الجمهور:
 ﴿تُحْشَرُهُمْ﴾ ﴿ثُمَّ نَقُولُ﴾ بالنون
 فيهما، ورواه أبو بكر عن عاصم،
 وقرأ حفص عن عاصم بالياء فيهما،
 وذكرها أبو حاتم عن أبي عمرو.

والقول للملائكة هو توقيف تقوم
 منه الحجّة على الكفار عبديهم، نحو

وقائل طعن عليه بأن هذا القرآن
 مفترى، أي: مصنوع من قتل محمد
 ويدعي أنه من عند الله، وقائل طعن
 عليه بأن ما عنده من الرقة
 واستجلاب النفوس واستمالة
 الأسماع إنما هو سحر يجلب به
 ويستدعي، تعالى الله عن أقوالهم،
 وتقدّست الشريعة عن طعنهم.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
 معنى هذه الآية أنهم يقولون بأرائهم
 في كتاب الله تبارك وتعالى، فيقول
 بعضهم: سحر، وبعضهم: افتراء،
 وهو منهم تجرؤ لا يستندون فيه إلى
 آثارة علم، ولا إلى خبر من يقبل
 خبره، فإنما ما آتيناهم كتباً يدرسونها،
 ولا أرسلنا إليهم نذيراً فيمكنهم أن
 يدعوا أن أقوالهم تستند إلى أمره.

وقرأ جمهور الناس: ﴿يَدْرُسُونَهَا﴾
 يسكون الدال، وقرأ أبو حيوة:

مشاركة، ثم ذئبت الجن. وعبادة
 البشر للجن هي فيما نعرفه نحن:
 طاعتهم إياهم، وسماعهم من
 وسوستهم وإغوائهم، فهذا نوع من
 العبادة، وقد يجوز أن كان في الأمم
 الكافرة من عبد الجن، وفي القرآن
 آيات يظهر منها ذلك في الأنعام
 وغيرها.

ثم قال سبحانه: ﴿فَالْيَوْمَ﴾، وفي
 الكلام حذف، تقديره: «فيقال
 لهم، أي: لمن عبّد ولمن عبّد:
 ﴿لَا يَلَيْكَ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا
 ضَرًّا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا نُتِلَّ عَلَيْهِمْ
 آيَاتُنَا﴾. ذكر في هذه الآية أقوالهم
 وأنواع كلامهم عندما يُقرأ عليهم
 القرآن، ويسمعون حكمه وبراهينه
 البيّنة، فقائل طعن على النبي ﷺ
 بأنه يقدر في الأوثان ودين الآباء،

ثم عطف عليها أن تَفَكَّرُوا في أمره هو، هل به جِنَّة أو هو بيريء من ذلك؟ الوقف عند أبي حاتم ﴿تَفَكَّرُوا﴾، فيجيء ﴿مَا يَصْحِكُكُمْ﴾ نفيًا مُستأنفًا، وهو عند سيويه جواب ما تنزل منزلة القَسَم؛ لأن (تَفَكَّرَ) من الأفعال التي تعطي التحقيق كَتَبِينَ، وتكون الفكرة - على هذا - في آيات الله والإيمان به، ويحتمل أن يريد بقيامهم أن يكون لوجه الله في معنى التفكير في محمد عليه الصلاة والسلام، فتكون الواحدة التي وعظ بها ﴿أَنْ تَقُومُوا﴾، والمعنى: أن تقوموا للفكرة في أمر حاجتهم، وكأن المعنى أن يفكر الواحد بينه وبين نفسه، وتتناظم الآيتان على جهة طلب التحقيق، هل بمحمد - ﷺ - جِنَّة أم لا؟ وعلى هذا لا يوقف على الفكرة. وقدم المثنى لأن طلب الحقائق من متعاضدين في النظر أجدى من فكرة واحد، فإذا انقذ الحق بين الاثنين فُكِّر كل واحد منهما بعد ذلك فيزيد بصيرة، وقد قال الشاعر:

إِذَا اجْتَمَعُوا جَاءُوا بِكُلِّ غَرِيبَةٍ
فَيَزِدَادُ بَعْضُ الْقَوْمِ مِنْ بَعْضِهِمْ عِلْمًا

وقرأ يعقوب: ﴿ثُمَّ تَفَكَّرُوا﴾ ببناء واحدة، وقال مجاهد: ﴿بِوَجْدَةٍ﴾ معناه: لا إله إلا الله، وقيل غير هذا مما لا تعطيه الآية.

وقوله: ﴿بَيْنَ يَدَيْكَ﴾ يترتب على أن محمداً ﷺ جاء في الزمان من قبل العذاب الشديد الذي تَوَعَّدُوا به.

(٤٧) - (٥١) تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى في هذه الآية بالتبزي في طلب الدنيا وطلب الأجر على

قريش، وفي ﴿ءَاتَيْنَهُمْ﴾ على الأمم الذين من قبلهم، والمعنى: من القوة والنعم والظهور في الدنيا، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد رضي الله عنهم. والثاني بالعكس، والمعنى: من الآيات والبيان والنور الذي جثتهم به، والثالث أن يعود الضمير على الأمم المتقدمة، والمعنى: من شكر النعمة وجزاء المنة. و«المغشاز»: العُشْر، ولم يأت هذا البناء إلا في العشرة والأربعة، فقالوا: ميزنا

ومغشاز، وقال قوم: المغشاز: عُشْر العُشْر، وهذا ليس بشيء.

و «التكبير» مصدر كالإنكار في المعنى، وكالعرب في الوزن، وسقطت الياء منه تخفيفاً لأنها آخر آية، و«كَيْفَ» تعظيم للأمر، وليست استفهاماً مجرداً، وفي هذا تهديد لقريش، أي: إنهم مُعَرَّضُونَ لتكبير مثله.

ثم أمر نبيه ﷺ أن يدعوهم لعبادة الله، والنظر في حقيقة بُنُوته هو، ويعظهم بأمر يقرب للأفهام، فقوله: ﴿بِوَجْدَةٍ﴾ معناه: بقضية واحدة إيجازاً لكم وتقريباً عليكم، وقوله: ﴿أَنْ﴾ مفسرة، ويجوز أن تكون بدلاً من ﴿وَجْدَةٍ﴾. وقوله: ﴿تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ قُرْدٍ﴾، يحتمل أن يريد بالطاعة والإخلاص والعبادة، فتكون الواحدة التي وعظ بها هذه،

سُورَةُ سَبْأٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبَدِّلُ الْبَيْتِلَ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوجِبُ لِي إِلَى رَبِّ إِيَّاهُ سَمِيْعٌ قَرِيبٌ ﴿٤٨﴾ وَلَوْ تَرَى إِذْ فَرَغْنَا فَالِقَاتِ الْوَعْدِ وَأَخَذْنَا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا أَمَنَّا بِهِ وَأَنْ لَهُمُ الشَّاوِسُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٠﴾ وَقَدْ كَفَرْنَا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَبَقَدْ فُوتَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥١﴾ وَجِئِلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٢﴾

سُورَةُ سَبْأٍ قَطْرًا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِئِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مِثْلَى ثَلَاثٍ وَرَبِّعٍ يُزَيِّدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا يُرْسِلُ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ تَبَايَأَ النَّاسُ إِذْ كُذِّبَتْ رُسُلُهُمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ حُكْمٌ فَخَلَّ اللَّهُ بَيْنَ رُسُلِهِمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَآفَاقٌ تَوْفِقُونَ ﴿٣﴾

٤٣٤

﴿يُدْرِسُونَهَا﴾ بفتح الدال وشدّها وكسر الراء، والمعنى: ما أرسلنا من نذير يشاهدُهُمْ بشيء، ولا يباشر أهل عصرهم ولا من قُرْب من آبائهم، وإلا فقد كانت النذارة في العالم وفي العرب مع شعيب وصالح وهود، ودعوة الله وتوحيده أمر قديم، ولم تخل الأرض من داع إليه، فإنما المعنى: مِنْ نَذِيرٍ يختص بهؤلاء الذين بعثناك إليهم، وقد كان عند العرب كثير من نذارة إسماعيل عليه السلام، والله تعالى يقول: ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾، ولكن لم يتجرّد للنذارة ولا قاتل عليها إلا محمد صلوات الله وسلامه عليه.

ثم مثل لهم بالأمم المكذبة قبلهم، وقوله: ﴿وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَهُمْ﴾، يحتمل ثلاثة معان: أحدها أن يعود الضمير في ﴿بَلَّغُوا﴾ على

الرسالة، وتسليم كل دنيا إلى أربابها، والتوكل على الله في الأجر وجزاء الحد، والإقرار بأنه شهيد على كل شيء من أفعال البشر وأقوالهم وغير ذلك.

قوله تعالى: ﴿يَقْدِفُ بِالْحَقِّ﴾، يريد: بالوحي وآيات القرآن، واستعار له القذف من حيث كان الكفار يرمون بآياته وحكمه، وقرأ الجمهور: ﴿عَلَّامٌ﴾ بالرفع، أي: هو علّامٌ، ونصبها عيسى بن عمر، وابن أبي إسحق، إما على البدل من اسم [إِن]، أو على الممدح، وقرأ الأعمش: ﴿وهو عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾، وقرأ عاصم: ﴿الْغُيُوبِ﴾ بكسر الغين.

قوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ﴾ يريد الشرع وأمر الله ونهيه، وقال قوم: يعني السيف، وقوله: ﴿وَمَا يَدْرِي أَلْبَاطِلُ وَمَا يَعْبُدُ﴾، قالت فرقة: الباطل غير الحق، من الكذب والكفر ونحوه، استعار له الإبداء والإعادة ونفاهما عنه، كأنه قال: وما يصنع الباطل شيئاً. وقالت فرقة: الباطل: الشيطان، والمعنى: وما يفعل الباطل شيئاً مفيداً، أي: ليس يخلق ولا يرزق. وقالت فرقة: [ما] استفهام، كأنه قال: وأي شيء يصنع الباطل؟

وقرأ الجمهور: ﴿ضَلَلْتُ﴾ بفتح اللام، ﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ﴾ بكسر الضاد، وقرأ الحسن، وابن وثاب: ﴿ضَلَلْتُ﴾ بكسر اللام ﴿أَضِلُّ﴾ بفتح اللام، وهي لغة تميم.

وقوله: ﴿فِيمَا﴾ يحتمل أن يكون بمعنى الذي، ويحتمل أن تكون [ما]

مصدرية، و﴿قَرِيبٌ﴾ معناه: بإحاطته وإجابته وقدرته.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ الآية - فقال ابن عباس، والضحاك: هذا في عذاب الدنيا، وزوي أن ابن أبزي قال: ذلك في جيش يغزو الكعبة فيخسف بهم في بداء من الأرض، ولا ينجو إلا رجلٌ من جهينة، فيخبر الناس بما نال الجيش، وقالوا: وبسبه قيل:

.....

وَعِنْدَ جُهَيْنَةَ الْخَبِيرِ الْقَيْنُ
وهذا قول بعيد، وروي في هذا المعنى حديث مطول عن حذيفة، وروى الطبري أنه ضعيف السند مكذوب فيه على ابن رواد بن الجراح وقال قتادة: ذلك في الكفار في بدر ونحوها. وقال الحسن بن أبي الحسن: ذلك في الكفار عند خروجهم من القبور للقيامة. وهذا أرجح الأقوال عندي.

وأما معنى الآية فهو التعجب من حالهم إذا فزعوا من أخذ الله إياهم، ولم يتمكن لهم أن يفوت منهم أحد، وقوله: ﴿بَيْنَ مَكَّانٍ قَرِيبٍ﴾ معناه: أنهم للقدره قريب حيث كانوا، قيل: من تحت الأقدام، وهذا يتوجه على بعض الأقوال، والذي يعمُ جميعها أن يقال: إنَّ الأخذ يجيئهم من قرب في طمأنينتهم، بينا الكافر يؤمِّل ويظنُّ ويترجى إذ غشيه الأخذ، ومن غشيه أخذ من قريب فلا حيلة له ولا روية، وقرأ الجمهور: ﴿وَأُنذِرُ﴾ وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿فَلَا قُوَّةَ وَأَخَذُ﴾، كأنه قال: وحالهم أخذٌ.

٢٧ - ٢٥ تفسير قوله عز وجل:

الضمير عائد على الله تعالى في قوله: ﴿بِهِ﴾، وقيل: على محمد ﷺ وشرعه والقرآن. وقرأ ابن كثير، وناقع، وعاصم، وابن عامر، وعامة القراء: ﴿الْتَأَوُّسُ﴾ بضم الواو دون همز، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم أيضاً بالهمز، والأولى معناها: التناول، من قولهم: ناش ينوش إذا تناول، وتناوش القوم في الحرب إذا تناول بعضهم بعضاً بالسلاح، ومنه قول الشاعر:

فَهَيَّ تَنُوشُ الْخَوْصَ نُوْشًا مِنْ عَلَا
نُوْشًا بِهِ تَقْطَعُ أَحْوَاژَ الْفَلَا
فكأنه قال: وأنى لهم تناول مرادهم وقد بُعدوا عن مكان إمكان ذلك. وأما الهمز فيحتمل أن يكون مما تقدم وهمزت الواو لما كانت مضمومة بضمه لازمة، كما قالوا: أَقْتَتٌ وغير ذلك، ويحتمل أن يكون من الطلب، تقول: «تَنَاءَتْ شَيْءٌ» إذا طلبته من بعيد. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تَنَآوَسَ الشَّيْءُ: رُجُوْعُهُ، حكاه عنه ابن الأنباري، وأنشد:

تَمَسَّنِي أَنْ تَنُوبَ إِلَيْكَ مَيِّ
وَلَيْسَ إِلَى تَنَآوُسِهَا سَبِيلُ
وكأنه قال في الآية: وأنى لهم طلب مرادهم وقد بُعد؟ وقال مجاهد: المعنى: من الآخرة إلى الدنيا.

وقرأ الجمهور: ﴿وَيَقْدِفُونَ﴾ بفتح الياء وكسر الدال، على إسناد الفعل إليهم، أي: يرحمون بظنونهم، ويرمون بها الرسول وكتاب الله،

ومنه قول الأعرابي: «أنا فطرَتها»، أراد: ابتدأت حفرها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ما كنت أنهم معنى ﴿فَاطِرٌ﴾ حتى سمعت قول الأعرابي. وقرأ الزهري: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَطَرَهُ﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿فَاطِرٌ﴾ بالخفض، وقرأت فرقة: ﴿جَاعِلٌ﴾ بالرفع، على قطع الصفة، وقرأ خالد بن شبيب: ﴿جَعَلٌ﴾ على صيغة الماضي ﴿الْمَلِكُ﴾ نصباً، فأما على هذه القراءة الأخيرة فنصب قوله: ﴿رُسُلًا﴾ على المفعول الثاني، وأما على القراءتين المتقدمتين فقيل: أراد بـ ﴿جَاعِلٌ﴾ الاستقبال؛ لأن القضاء في الأزل، وحذف التنوين منه تخفيفاً، وعمل عمل المستقبل في ﴿رُسُلًا﴾ وقالت فرقة: ﴿جَاعِلٌ﴾ بمعنى الماضي، و﴿رُسُلًا﴾ نصب بإضمار فعل، و﴿رُسُلًا﴾ معناه: بالوحي وغير ذلك من أوامر، فجبريل وميكائيل وعزرائيل وإسرافيل رُسُلٌ، والملائكة المتعاقبون رُسُلٌ، والمُسَدِّدون لحكام العدل رُسُلٌ، وغير ذلك. وقرأ الحسن: ﴿رُسُلًا﴾ بسكون السين.

و ﴿أَزْلَى﴾ جمع واجِدُهُ (ذو)، ومنه: التَّقْيُّ ذُو نُهْيَةٍ، والقوم أولوا نُهْيٍ، وحكي عن الحسن أنه قال في تفسير قول مريم عليها السلام: ﴿إِنْ كُنْتُ نَفْسًا﴾: علمت أن التَّقْيُّ ذُو نُهْيَةٍ. وقوله تعالى: ﴿مَتَّى وَتِلْكَ رُوحِي﴾ ألفاظ معدولة من اثنين وثلاثة وأربعة، فعدلت في حالة التنكير فتعرفت بالعدل، فهي لا تنصرف للعدل والتعريف، وقيل: للعدل

الفرق المشابهة لهم من كل أمة، وهو جمع شبيعة، وقوله: ﴿مِنْ قَبْلِ﴾ يصلح في بعض الأقوال المتقدمة تعلقه بـ [فِعْلٍ]، ويصلح - على قول من قال: إن الفزع يوم القيامة - تعلقه بـ ﴿بِأَشْيَاعِهِمْ﴾، أي: بمن اتصف بصفتهن من قبل في الزمان الأول، لأن ما يُفعل بجمعيه إنما هو في وقت واحد، لا يقال فيه: من قبل.

و «الشُّكُّ المُرِيبُ»: أقوى ما يكون من الشُّكِّ وأشدُّه إظلاماً، والله

وَأَنْ يَكْذِبُكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَلِيَّ اللَّهُ تَرْجِحَ الْأُمُورَ
يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا
وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ ۝ إِنَّ الشَّيْطَانَ لِرُغْوَتِكُمْ فَاغْتَدُوهُ
عَدُوًّا لِمَا يَدْعُوا إِلَىٰ حَرَمِهِ لِيَكُونَ مِنَ الْمُحْسَبِينَ ۝ الَّذِينَ
كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ
مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ۝ أَفَمَنْ زِينَ لَهُمْ سِوَاهُ حَسَنًا
فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ
عَلَيْهِمْ حَسْرَتٌ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ
الرُّسُلَ فَتَنَرِ مَعَهَا بِمَا فَسَقْتَهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَيِّتٍ فَاجْنِبْهُ أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا كَذَلِكَ الشُّرُورُ ۝ مَنْ كَانَ يُرِيدَ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا
إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ
يَكْفُرُونَ الشَّيْءَاتُ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يُورَثُ
۝ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعْمِرُ مِنْ عُمُرٍ
وَلَا يَنْقُصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝

٤٣٥

وذلك غَيْبٌ عنهم، في قولهم: سخر وافتراء وغير ذلك، قاله مجاهد، وقال قتادة: كذفهم بالغيب هو قولهم: لا بعث ولا جنة ولا نار. وقرأ مجاهد بضم الياء وفتح الدال، على معنى: ويزجهم الوحي بما يكرهون من السماء.

قوله: ﴿وَجِيلَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية. قال الحسن: معناه: من الإيمان والتوبة والرجوع إلى الأمانة والعمل الصالح، وذلك أنهم اشتبهوه في وقت لا تنفع فيه التوبة، وقاله أيضاً قتادة، وقال مجاهد: معناه: جيل بينهم وبين نعيم الدنيا ولذاتها، وقيل: معناه: جيل بينهم وبين الجنة ونعيمها، وهذا يتمكن جداً على القول بأن الأخذ والفزع المذكور هو يوم القيامة.

قوله: ﴿كَمَا فَعَلَ بِأَشْيَاعِهِمْ﴾ أي

أعلم.

كامل بعون الله وتوفيقه تفسير سورة
سبأ والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة فاطر

هذه السورة مكية.

١ - ٥ - تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الألف واللام في ﴿الْحَمْدُ﴾ لاستغراق الجنس على أتم عموم؛ لأن الحمد بالإطلاق على الأفعال الشريفة بالكمال هو لله، والشكر مستغرق فيه؛ لأنه فضل من فضوله. و ﴿فَاطِرٌ﴾ معناه: خالق، لكن يزيد في المعنى الانفراد بالابتداء لخلقها،

والصفة، وفائدة العدل الدلالة على التكرار؛ لأن «مَثْنِي» بمنزلة قولك: اثنين اثنين. وقال قتادة: إن أنواع الملائكة هي هكذا، منها ما له جناحان، ومنها ما له ثلاثة، ومنها ما له أربعة، وشذ منها ما له أكثر من ذلك، وزوي أن لجبريل عليه السلام ستمائة جناح فيها اثنان يبلغان من المشرق إلى المغرب. وقالت فرقة: المعنى: إن في كل جانب من الملك جناحين، ولبعضهم أربعة، وإلا فلو كانت ثلاثة لواحد لما اعتدلت في معتاد ما رأينا نحن من الأجنحة، وقيل: بل هي ثلاثة لواحد كالحوت، والله أعلم بذلك.

وقوله تعالى: ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ﴾ تقرير لما يقع في النفوس من التعجب والاستغراب عند الخبر بالملائكة أولي الأجنحة، أي: ليس هذا بيدع في قدرة الله تبارك وتعالى؛ فإنه يزيد في خلقه ما يشاء، وزوي عن الحسن. وابن شهاب أنهما قالا: المزيد هو حسن الصوت، قال الهيثم الفارسي: رأيت النبي ﷺ في النوم، فقال لي: «أنت الهيثم الذي تزين القرآن بصوتك، جزاك الله خيراً»، وقيل: الزيادة: الخط الحسن، وقال عليه الصلاة والسلام: «الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً»، وقال قتادة: الزيادة: ملاحه العينين، وقيل غير هذا، وإنما ذكر هذه الأشياء من ذكرها على جهة المثال، لا أن المقصود هي فقط، وإنما مثلوا بأشياء هي زيادات خارجة عن الغالب المعتاد الموجود كثيراً، وباقي الآية بين.

قوله تعالى: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ﴾، «مَا» شرط، و«يَفْتَحُ» جزم بالشرط، و«وَمِنْ رَحْمَتِهِ» عام في كل خير يعطيه الله لعباده جماعتهم وأفرادهم، وقوله: ﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾ فيه حذف مضاف، أي: من بعد إمساكه، ومن هذه الآية سميت الصوفية ما يُعطاه (الصُوفِي) من الأموال والمطاعم وغير ذلك: الفتوحات، ومنها كان أبو هريرة رضي الله عنه يقول: «مُطرنا بنوء الفتح»، ويقرأ الآية.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَذْكُرُوا﴾ الآية... خطاب لقريش، وهو متجه لكل كافر، لا سيما لعُباد غير الله، وذكرهم تعالى بنعمته عليهم في خلقتهم وإيجادهم، ثم استفهمهم على جهة التقرير والتوقيف بقوله: ﴿هَلْ مِنْ خَلْقٍ عِندَ اللَّهِ؟﴾ أي: فليس إلا الخالق، لا ما تعبدون أنتم من الأصنام، وقرأ حمزة: ﴿فَقِيرٌ﴾ بالخفض نعت على اللفظ، وخبر الابتداء ﴿يَزِيدُكُمْ﴾ وبها قرأ أبو جعفر، وشقيق، وابن وثاب، وقرأ الباقر بالرفع، وهي قراءة شيبه بن نصح، وعيسى، والحسن بن أبي الحسن، وذلك يحتمل ثلاثة أوجه: النعت على الموضع والخبر مضمرة، تقديره: في الوجود، أو في العالم. وأن يكون ﴿عَبْرٌ﴾ خبر الابتداء الذي هو في المجرور، والرفع على الاستثناء، كأنه قال: هل خالق إلا الله؟ فجرت ﴿عَبْرٌ﴾ مجرى الفاعل الذي بعد إلا. وقوله: ﴿بَيْنَ السَّمَاءِ﴾ يريد: بالمطر، ومن ﴿الْأَرْضِ﴾ يريد: بالنبات، وقوله:

﴿فَأَنفُ تُوَفَّقُونَ﴾ أي: فلا وجه تصرفون (فيه) عن الحق.

ثم سألني نبيه ﷺ بما سلف من حال الرُّسل مع الأمم، و﴿الْمُؤْمَرُ﴾ تعم جميع الموجودات المخلوقات، إلى الله مصير جميع ذلك اختلاف أحوالها، وفي هذا وعيد للكفار ووعد للنبِيِّ ﷺ.

ثم وعظ جميع العالم وحذرهم غرور الدنيا بنعيمها وزُخرفها، الشاغلة عن المعاد الذي له يقول الإنسان: يا ليتني قدمتُ لحياتي، ولا ينفعه «لَيْتٌ» يومئذ، وحذر غرور الشيطان، وقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ عبارة عن جميع خبره عز وجل في خيرٍ وتنعيم أو عذابٍ وعقاب. وقرأ الجمهور: ﴿الْفُرُوزُ﴾ بفتح الغين، وهو الشيطان، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ سماك العبدي، وأبو حيوة: ﴿الْفُرُوزُ﴾ بضم الغين، وذلك يحتمل أن يكون جمع غارٍ كجاليسٍ وجُلُوسٍ، ويحتمل أن يكون جمع غُرٍّ، وهو مصدر غَرَّه يُغَرُّه غَرًّا، ويحتمل أن يكون مصدرًا وإن كان شاذًا في الأفعال المتعدية أن يجيء مصدرها على «فُعُول» لكنه قد جاء: ﴿لَزُومَهُ لَزُومًا﴾، و«نَهَكَهُ الْمَرَضُ نُهُوكًا»، فهذا مثله، وكذلك هو مصدر في قوله تعالى: ﴿فَدَلَّهُمَا بِرُؤْيَى﴾.

① - ② قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ السَّيِّئِينَ﴾ الآية... يُقَوَّى قراءة من قرأ: ﴿الْفُرُوزُ﴾ بفتح الغين، وقوله: ﴿فَأَعْتَدَهُ عَذَابًا﴾ أي: بالمُبَايَنَةِ والمقاطعة والمخالفة له باتباع

الشُّرْع. و«الجزْبُ»: الحاشية والصاغية، واللام في ﴿يَكُونُوا﴾ لام الصيرورة: لأنه لم يدعهم إلى السعير، وإنما أتفق أن صار أمرهم عن دعائه إلى ذلك، و﴿السَّعِيرُ﴾ طبقة من طبقات جهنم، وهي سبع طبقات.

وقوله: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ في موضع رفع بالابتداء، وهذا هو الحسن لعطف ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ عليه بعد ذلك، فهما جملتان تعادلتا، وجوز بعض الناس أن يكون ﴿الَّذِينَ﴾ بدلاً من الضمير في ﴿يَكُونُوا﴾، وجوز غيره أن يكون في موضع خفض بدلاً من ﴿أَصْحَابُ﴾، وهذا محتمل، غير أن الابتداء أرجح.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَزَّ لَكُمُ﴾ الآية... توقيف، وجوابه محذوف، تقديره عند الكسائي: تذهب نفسك حسرات عليه، ويمكن أن يتقدر: كمن اهتدى، ونحو هذا من التقدير، وأحسبها ما دلَّ اللفظ بعدُّ عليه، وقرأ طلحة: ﴿أَمَّنْ﴾ بغير فاء، وهذه الآية تسلية للنبي عليه الصلاة والسلام عن كفر قومه، ووجب التسليم لله تعالى في إضلال من شاء وهداية من شاء، وأمر نبيه ﷺ بالإعراض عن أمرهم، وألا يبخع نفسه أسفاً عليهم. وقرأ الحسن: ﴿تَذْهَبُ﴾ بفتح التاء والهاء ﴿نَفْسُكَ﴾ بالرفع، وقرأ أبو جعفر، وقتادة، وعيسى، والأشهب: ﴿تَذْهَبُ﴾ بضم التاء وكسر الهاء ﴿نَفْسُكَ﴾ نصباً، ورويت عن نافع. و«الحسرة»: هم

النفس على فوات أمر، واستشهد ابن زيد لذلك بقوله: ﴿بَحَصَرَكَ عَلَى مَا قَرَّلْتَ فِي جَنِّبِ اللَّهِ﴾، ثم توعد الكفرة بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية احتجاج على الكفرة في إنكارهم البعث من القبور، فدلهم على المثال الذي يعاينوه وهو سواء مع إحياء الموتى. و«البلدُ المميتُ» هو الذي لا نبت فيه، قد اغبر من القحط، فإذا أصابه الماء من السحاب اخضر وأنبت، فتلك حياته، و«الشُّورُ» مصدر: نشر الميت إذا حيي، ومنه قول الأعشى:

يا عَجَبًا لِلْمَيِّتِ الشَّائِرِ
وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ﴾
يحمل ثلاثة معان: أحدها أن يريد: من كان يريد العزَّة بمغالبة فلله العزَّة، أي: ليست لغيره، ولا تميم إلا له، وهذا المغالب مغلوب، ونحا إليه مجاهد، وقال: من كان يريد العزَّة بعبادة الأوثان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تمسك بقوله تعالى: ﴿وَأَخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَهَةً يَكُونُوا لَكُمْ عِزًّا﴾.
والمعنى الثاني: من كان يريد العزَّة وطريقها القويم، ويحب نيلها على وجهها، فلله العزَّة، أي: به وعن أمره، لا تُنال عزته إلا بطاعته، ونحا إليه قتادة.

والمعنى الثالث - وقاله الفراء -: من كان يريد علم العزَّة فلله العزَّة،

أي: هو المتصف بها. و﴿جَنِينًا﴾ حال.

وقوله تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الْغَيْبُ﴾ أي التوحيد والتمجيد وذكر الله ونحوه. وقرأ الضحاك: ﴿يُصْعَدُ﴾ بضم الياء، وقرأ الجمهور: ﴿الْكَلِمُ﴾ وهو جمع كلمة، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿الْكَلَامُ﴾. و«الغيبُ» الذي يُستحسن سماعه الاستحسان الشرعي. وقال كعب الأحبار: إن لـ «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر» لدويًا حول العرش كدوي النحل، تذكر بصاحبها.

قوله: ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾، اختلف الناس في الضمير، على من يعود؟ فقالت فرقة: يعود على ﴿وَالْعَمَلُ﴾، ثم اختلفت هذه الفرقة - فقال قوم: الفاعل بـ ﴿يَرْفَعُ﴾ هو ﴿الْكَلِمُ﴾، أي: والعمل يرفعه الكلم، وهو قول: «لا إله إلا الله»؛ لأنه لا يُرفع عملٌ إلا بتوحيد. وقال بعضهم: الفعل مسند إلى الله تعالى، أي: والعمل الصالح يرفعه هو، وهذا أرجح الأقوال.

وقال ابن عباس، وشهر بن حوشب، ومجاهد، وقتادة: الضمير في ﴿يَرْفَعُهُ﴾ عائد على ﴿الْكَلِمُ﴾، أي: إنَّ العمل الصالح هو يرفع الكلم، واختلفت عبارات أهل هذه المقالة - فقال بعضها: روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن العبد إذا ذكر الله تعالى، وقال كلاماً طيباً، وأدى فرائضه، ارتفع قوله مع

عمله، وإذا قال - ولم يُؤدِّ فرائضه - رُدُّ قوله على عمله وقيل: عمله أولى به. وهذا قولُ برده معتقد أهل الحق والسنة، ولا يصحُّ عن ابن عباس رضي الله عنهما، والحقُّ أن العاصي التَّارك للفرائض إذا ذكر الله تعالى، وقال كلاماً طيباً فإنه مكتوبٌ له، مُتَقَبَّلٌ منه، وله حسناته، وعليه سيئاته، والله يتقبل من كل من أتقى الشرك، وأيضاً فإنَّ الكَلِمَ الطَّيِّبَ عملٌ صالح، وإنما يستقيم قول من يقول: «إنَّ العمل هو الرَّافِعُ للكَلِمِ» بأنَّ يتأوَّل أنه يزيد في رفعه وحُسن موقعه إذا تعاضد معه، كما أن صاحب الأعمال من صلاة وصيام وغير ذلك - إذا تخلَّل أعماله كَلِمَ طيِّبٍ، وذكر الله - كانت الأعمال أشرف، فيكون قوله: «وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ رَفَعَةٌ» موعظةً وتذكرةً وحثاً على الأعمال.

وذكر الثعلبي أن النبي ﷺ قال: «لا يقبل الله قولاً إلا بعمل، ولا عملاً إلا بنية»، ومعناه: قولاً يتضمن أن قائله عيِّل عملاً، أو يعمل في الآنف، وأما الأقوال التي هي أعمال في نفوسها - كالتوحيد والتسبيح - فمقبولة على ما قدمناه.

وقرأت فرقة: «وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ» بالنصب فيها. وعلى هذه القراءة ذ «رَفَعَةٌ» مُسْتَدًّا إِذَا إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَإِنَّمَا إِلَى «الْكَلِمِ»، والضمير في «رَفَعَةٌ» عائد على العمل لا غير.

وقوله تعالى: «يَتَكَبَّرُونَ السَّيِّئَاتِ» إِمَّا أَنَّهُ عَدَى «يَتَكَبَّرُونَ» لَمَّا أَحَلَّهُ

محل «يكسبون»، وإمَّا أَنَّهُ حَذَفَ الْمَفْعُولَ وَأَقَامَ صِفَتَهُ مَقَامَهُ، وَتَقْدِيرُهُ: يَمَكْرُونَ الْمَكْرَاتِ السَّيِّئَاتِ، وَ«يَتَكَبَّرُونَ» مَعْنَاهُ: يَتَخَابَثُونَ وَيَخْدَعُونَ وَهَمْ يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ لَا يَفْعَلُونَ.

و «يَبُورُّ» مَعْنَاهُ: يَفْسُدُ وَيَبْقَى لَا نَفْعَ فِيهِ، وَقَالَ بَعْضُ الْمَفْسِرِينَ: يَدْخُلُ فِي الْآيَةِ أَهْلُ الرِّبَا.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونزول الآية أولاً في المشركين.

﴿تفسير قوله عز وجل:﴾

هذه الآية آية تذكير بصفات الله تعالى على نحو ما تقدم، وهذه المحاوراة إنما هي في أمر الأصنام وفي بعث الأجساد من القبور، والله تعالى خلقكم من تراب من حيث خلق آدم أبانا منه عليه السلام. ﴿ثُمَّ مِنْ نَفْثِهِ﴾ أي بالتناسل من مني الرجال، و «أَرْوَابًا» قيل: معناه: أنواعاً، وقيل: أراد تزوج الرجال النساء.

وقوله تعالى: «وَمَا يُعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ» الآية... . اختلف الناس في عود الضمير في قوله: «وَمَا يُنْقَضُ مِنْ عُمرِهِ» - فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره ما مقتضاه أنه عائد على «مُعَمَّرٍ» الذي هو اسم جنس، والمراد غير الذي يُعْمَرُ، أي أن القول تضمن شخصين، يُعْمَرُ أحدهما مائة سنة أو نحوها، ويُنْقَضُ من الآخر بأن يكون عاماً واحداً أو نحوه، وهذا قول الضحاک، وابن زيد، لكنه أعاد الضمير إيجازاً واختصاراً،

والبيان التام أن يقول: ولا يُنْقَضُ من عمر مُعَمَّرٍ؛ لأن لفظ «مُعَمَّرٌ» هي بمنزلة: ذي عُمر، كأنه قال: ولا يُعْمَرُ من ذي عُمر ولا يُنْقَضُ من عُمر ذي عُمر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، وأبو مالك، وابن جبير: المراد شخص واحد، وعليه يعود الضمير، أي: ما يُعْمَرُ إنسان ولا يُنْقَضُ من عُمره، بأن يُحصى ما مضى منه، إذا مرَّ حَوْلَ كَتَبَ ذَلِكَ، ثُمَّ حَوْلَ، فهذا هو النقص، قال ابن جبير: ما مضى من عمره فهو النقص، وما يُسْتَقْبَلُ فهو الذي يُعْمَرُه، ورُوي عن كعب الأحمار أنه قال: المعنى: ولا يُنْقَضُ من عمره، أي: لا يخترم بسبب قدرة الله تعالى، ولو شاء لآخر ذلك السبب، ورُوي أنه قال حين طعن عُمرَ رضي الله تعالى عنه: «لو دعا الله لزداد في أجله»، فأنكر عليه المسلمون، وقالوا: إنَّ الله تعالى يقول: «فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِنُونَ سَاعَةً»، فاحتجَّ بهذه الآية. وهو قولٌ ضعيف مردود، يقتضي القول بالأجلين، وينحوه تمسكت المعتزلة.

وقرأ الحسن، والأعرج، وابن سيرين: «يُنْقَضُ» على بناء الفعل للفاعل، أي: يُنْقَضُ اللهُ، وقرأ: «بِئْسَ عُمرِهِ» بسكون الميم الحسن، وداود. والكتاب المذكور في الآية: اللُّوْحُ المحفوظ. وقوله: «إِنَّ ذَلِكَ» إشارة إلى تحصيل هذه الأعمار واختصار دقائقها وساعاتها.

بالريح، وعبر المفسرون عن هذه بعبارات لا تختص باللفظة، فقال بعضهم: المواخر هي التي تجيء وتذهب بريح واحدة، وقال مجاهد: الريح تمخر السفن، ولا تمخر الريح من السفن إلا الفلك العظام، هكذا وقع لفظه في البخاري، والصواب أن تكون الفلك هي الماخرة لا الممخورة.

وقوله تعالى: ﴿لِنَبْتَأُنَّ﴾ يريد بالتجارة والحج والغزو وكل سفر له وجه شرعي.

١٣ - ١٤ تفسير قوله عز وجل: ﴿يُولِجُ﴾ معناه: يُدْخِلُ، وهذه عبارة عن أن ما نقص من الليل زاد في النهار، فكأنه دخل فيه، وكذلك ما نقص من النهار يدخل في الليل. والألف واللام في ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ هي للعهد، وقيل: هي زائدة لا معنى لها ولا تعريف. وهذا هو الصواب. و«الأجل المُسَمَّى» هو قيام الساعة، وقيل: أماد الليل وأماد النهار، ف«أجل» - على هذا - اسم جنس. وقرأ جمهور القراء: ﴿نَدْعُونَ﴾ بالتاء، وقرأ يعقوب والحسن بالياء. و«القَطْمِيرُ»: القشرة الرفيعة التي على نوى التمرة، هذا قول الناس الحجة، وقال جُوَيْرٍ عن رجاله: القَطْمِيرُ: القمع الذي في رأس التمرة، وقال الضحاك: والأول أشهر وأصوب.

ثم بين تعالى أمر الأصنام بثلاثة أشياء، كلها تعطي بطلانها: أولها أنها لا تسمع إن دُعيت، والثاني أنها لا تُجيب إن لو سمعت، وإنما جاء بهذا لأن لقائل متعسف أن يقول:

وغيره: هذه عبارة تقتضي أن الحلية تخرج منهما وهي إنما تخرج من الملح، وذلك يجوز، كما قال في آية أخرى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا اللَّوْلُؤُ وَالْمَرْصَاتُ﴾، وكما قال: ﴿يَنْعَمَّرُ الْحَبْنُ وَالْإِنْسُ أَلَدُّ بَأْيَكُمْ رُسُلُ مِنْكُمْ﴾، والرسول إنما هي من الإنس.

وقال بعض الناس: بل الحلية تخرج من البحرين؛ وذلك أن صدف اللؤلؤ إنما يلحقه - فيما يزعمون - ماء السماء، فمنه ما يخرج ويوجد الجوهر فيه، ومنه ما ينشق

في البحر عند موته ويقطعه فيخرج جوهره بالعطش وغير ذلك من الحيل، فهذا هو من الماء الفرات، فنسب إليه الإخراج لما كان من الحلية بسبب، وأيضاً فإن البحر الفرات كله ينصب في البحر فيجيء الإخراج منهما جميعاً، وقد خُطِئَ أبو ذؤيب في قوله في صفة الجوهر: فَجَاءَ بِهَا مَا شِئْتَ مِنْ لَطْمِيَّةٍ عَلَى وَجْهَيْهَا مَاءُ الْفُرَاتِ يَمْوُجُ وليس ذلك بخطي على ما ذكرنا من تأويل هذه الفرقة.

و «أفلك» في هذا الموضع جمع بدليل صفة بجمع. و «مواخر» جمع ماخرة، وهي التي تمخر الماء، أي تُشَقُّه، وقيل: الماخرة: التي تشق الريح، وحينئذ يحدث الصوت، والمخر: الصوت الذي يحدث من جري السفينة

وَمَا تَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِجٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمَنْ كُلٌّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيدًا وَتَسْتَخْرِجُونَ مِنْهُ جِلْمَةً تَلْسُقُوهَا وَتَرَى الْفُلُوكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَيِّنَةً مِمَّنْ ضَلَّ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣﴾ يُولِجُ الْبَيْتَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٤﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دَعْوَاكُمْ وَلَا يُسَبِّحُوا مَا تَسْتَجِيبُونَ الْكَلِمَاطُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُكَفِّرُونَ بَشَرِكُمْ وَلَا يَنْبِتُكُمْ مِثْلَ خَيْرٍ ﴿١٥﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْغَنِيُّ ﴿١٦﴾ إِنْ يَشَاءُ يَدْهَبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٧﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٨﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِهْلِهَا لِاجْتِمَاعٍ مِنْهُ شَيْءٌ لِّوَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴿١٩﴾ إِنَّمَا نُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٢٠﴾

٤٦٦

١٧ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية أخرى يستدل بها كل عاقل، ويقطع أنها مما لا مدخل لصنم فيه، و«البحران» يريد بهما جميع الماء الملح وجميع الماء العذب حيث كان، فهو يعني به جملة هذا وجملة هذا. و«الفرات»: الشديد العذوبة، و«الأجاج»: الشديد الملوحة التي تميل إلى المرارة من ملوحته. قال الرماني: هو من: أَجَجْتُ النَّارَ، كأنه يحرق من حرارته. وقرأ عيسى الثقفى: ﴿سَيْغُ شَرَابِهِ﴾ بغير ألف وبشد الباء، وقرأ طلحة: ﴿مِلْحُ﴾ بفتح الميم وكسر اللام.

و «اللحم الطري»: الحوت، وهو موجود في البحرين، وكذلك الفلك تجرى في البحرين، وبقيت الحلية وهي اللؤلؤ والمرجان، فقال الزجاج

وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٥﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿١٦﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿١٧﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ مِّنْ شَيْءٍ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٌ مِّنْ فِي الْقُبُورِ ﴿١٩﴾ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٠﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢١﴾ وَإِن يَكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَيَأْتِيهِمُ الْكِتَابُ الْمُنِيرُ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَتْ تَكْبِيرُ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَعَرَبِيدٌ سُودٌ ﴿٢٤﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالْذِّوَابِ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ، كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٦﴾ لِيُؤْتِيَهُمَ آجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢٧﴾

الثقيل، وهذه الآية في الذنوب والآثام والجرائم، قاله قتادة، وابن عباس، ومجاهد، وسببها أن الوليد بن المغيرة قال لقوم من المؤمنين: اكفروا بمحمد وعلي وزركم، فحكم الله بأنها لا يحملها أحد عن أحد، ومن تطرق من الحكام إلى أخذ قريب بقرب في جريمة - كفعل زياد ونحوه - فإن ذلك لأن المأخوذ ربما أعان المجرم بمؤازرة ومواصلة، أو اطلاع على حالة وتقرير لها، فهو قد أخذ من الجرم بنصيب، وهذا هو

عساها تسمع، والثالث أنها تتبرأ يوم القيامة من الكفار.

﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ أي: بأن جعلوهم شركاء لله، فأضاف الشرك إليهم من حيث هم قرروه، فهو مصدر مضاف إلى الفاعل، وقوله: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ يحتمل أن يكون بكلام وعبارة يقدر الله الأصنام عليها، ويخلق لها إدراكاً يقتضيها، ويحتمل أن يكون بما يظهر هنالك من جمودها وبطولها عند حركة كل ناطق، أن يكون كل محتج، فيجيء هذا على طريق التجوز، كقول ذي الرمة:

وَقَفْتُ عَلَى زَنْجٍ لِمَيَّةٍ نَاطِقِي
تُحَاطِبُنِي آثَارُهُ وَأَحَاطِبُنِي
وَأَسْقِيهِ حَتَّى كَادَ مِمَّا أَبَيْتُهُ
تُكَلِّمُنِي أَحْجَارُهُ وَمَلَاعِبُهُ

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾، قال المفسرون - قتادة وغيره -: الخَيْرُ: أراد به تعالى نفسه، فهو الخير الصادق الخير، نبأ بهذا فلا شك في وقوعه. ويحتمل أن يكون قوله تعالى: ﴿وَلَا يَبْنِيكَ مِثْلُ خَيْرٍ﴾ من تمام ذكر الأصنام، كأنه قال: ولا يُخبرك مثل من يُخبر عن نفسه، وهي قد أخبرت عن نفسها بالكفر بهؤلاء. ﴿١٥﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية موعظة وتذكير، والإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأمور وجلالها، لا يستغني عنه طرفة عين، وهو مُستغْن عن كل أحد، والله تعالى غني عن الناس، وعن كل شيء من مخلوقاته، غني على الإطلاق، و﴿الْحَيِّدُ﴾: المحمود بالإطلاق. وقوله: ﴿بِعِزَّتِي﴾ أي: بممتنع.

و﴿رُزْدٌ﴾ معناه: تحمل الوزر

وقوله: ﴿بِالْعَيْبِ﴾ أي: وهو بحال غيبة عنهم، إنما هي رسالة، ثم خصص من الأعمال إقامة الصلاة تنبهاً عليها وتشريفاً لها.

ثم حضَّ سبحانه وتعالى على التزكِّي؛ بأن رَجَى عليه غاية الترجية، وقرأ طلحة: ﴿وَمَنْ أَرْكَى فَإِنَّمَا يَزُكِّي لِقَفِيهِ﴾. ثم توعد تعالى بعد ذلك بقوله: ﴿وَالَّذِي﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل عبارة مُقَصِّرَةٌ عن تبيين فصاحة هذه الآية، وكذلك كتاب الله كله، ولكن يظهر الأمر لنا نحن في مواضع أكثر منه في مواضع بحسب تقصيرنا.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

مضمون هذه الآية طعن على الكفرة، وتمثيل لهم بالعُنفى

المعنى في قوله تعالى: ﴿وَلِيَجْلِبَكُ أَتَقَالِمُ وَأَتَقَالِمُ مَعَ أَتَقَالِمِهِمْ﴾؛ لأنهم أغزَّوهم، وهو معنى قوله ﴿مَنْ سُنُّ سُنَّتِهِ سَيِّئَةٌ فَعَلِيهِ وَزَرَاهُ وَوَزَرَ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، وَمَنْ سُنُّ سُنَّتِهِ حَسَنَةٌ فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ، وَأَنْتَ ﴿وَارِثَةٌ﴾ لَأَنَّهُ ذَهَبَ بِهَا مَذْهَبُ النَّفْسِ، وَعَلَى ذَلِكَ أُجْرِيَتْ ﴿مُثَقَّلَةٌ﴾. وَالْجَمَلُ: مَا كَانَ عَلَى الظَّهْرِ فِي الْأَجْرَامِ، وَيُسْتَعَارُ لِلْمَعْنَانِي كَالذَّنُوبِ وَنَحْوِهَا، فَيَجْعَلُ كُلَّ مَحْمُولٍ مُتَصَلًّا بِالظَّهْرِ، كَمَا يَجْعَلُ كُلَّ اِكْتِسَابٍ مَنْسُوبًا إِلَى الْيَدِ. وَاسْمُ [كَانَ] مَضْمَرٌ، تَقْدِيرُهُ: وَلَوْ كَانَ الدَّاعِي.

ثم أخبر تعالى نبيه ﷺ أنه إنما ينذر أهل الخشية، وهم الذين يُمنحون العلم، أي: إنما يتنفع بالإنذار هم، وإلا فليندارة جميع العالم بَعَثَهُ.

والظلمات، وتمثيل المؤمنين - بإزاتهم - بالبصراء والأنوار، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْرَقُوا﴾ ودخول [لَا] فيها وفيما بعدها إنما هو على نيّة التكرار، كأنه قال: «ولا الظلمات والنور، ولا النور والظلمات»، فاستغنى بذكر الأوائل عن الثواني، ودلّ مذكور الكلام على متروكه.

و ﴿أَنْزُرُوا﴾ شدة حرّ الشمس، قال رؤبة بن العجاج: الْحَرُّور بِاللَّيْلِ وَالسَّمُومُ بِالنَّهَارِ، وليس كما قال، وإنما الأمر كما حكى الفراء وغيره: إن السموم تختص بالنهار، والحرور يقال في حرّ الليل وفي حرّ النهار، وتأول قوم الظلّ في هذه الآية: الجنة، والحرور: جهنم.

وشبه المؤمنين بالأحياء، والكفرة بالأموات، من حيث لا يفهمون الذكر ولا يقبلون عليه، ثم ردّ الأمر إلى مشيئة الله تعالى بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾. وهذا تمثيل ما يحسه البشر ويشاهدونه، فهم يرون أن الميت الذي في القبر لا يسمع، وأما الأرواح فلا تُرَدُّ؛ إذ تتضمن الأحاديث أن أرواح المؤمنين في شجر عند العرش في قتاديل وغير ذلك، وأن أرواح الكفرة في سجين ونحوه، وفي بعض الأخبار أن الأرواح عند القبور، فربما سمعت، وكذلك أهل قليب بدر إنما سمعت أرواحهم، وكذلك سماع الميت خفق النعال، إنما هو برّد روحه عليه عند لقاء الْمَلَائِكِينَ، فهذه الآية لا تعارض حديث القليب؛ لأن الله تبارك وتعالى ردّ على أولئك

أرواحهم في القليب لِيُؤْبَحَهُمْ، وهذا على قول عمّر وابنه عبدالله رضي الله تعالى عنهما - وهو الصحيح -: إن رسول الله ﷺ قال: «ما أنتم بأسمع منهم»، وأما عائشة رضي الله عنها فمذهبتها أن رسول الله ﷺ لم يُسمعهم، وإنما قصد توبيخ الأحياء من الكفرة، وجعلت هذه الآية أصلاً، واحتجت بها، فمثل الله تعالى في هذه الآية الكفرة بالأشخاص التي في القبور - وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بِمُسْمِعٍ مَّن﴾ على الإضافة.

ثم سألني نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾، أي: ليس عليك غير ذلك، والهداية والإضلال إلى الله تعالى.

و ﴿بَشِيرًا﴾ معناه: بالنعيم الدائم لمن آمن، و﴿وَنَذِيرًا﴾ معناه: من العذاب الأليم لمن كفر. وقوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ معناه: إن دعوة الله قد عمّت جميع الخلق، وإن كان فيهم من لم تباشره النذارة فهو ممن بلغته؛ لأن آدم عليه السلام بعث إلى بنيه، ثم لم تنقطع النذارة إلى وقت محمد ﷺ، والآيات التي تتضمن أن قريشاً لم يأتهم نذيرٌ معناه: نذيرٌ مباشر، وما ذكره المتكلمون من فرض أصحاب الفترات ونحوهم فإنما ذلك بالفرض لا أنه يوجد أمة لم تعلم أن في الأرض دعوة إلى عبادة الله تعالى.

ثم سألني نبيه ﷺ بما سلف من الأمم لأنبيائهم، و﴿الْبَشِيرَاتِ﴾ و﴿الزُّبُرِ﴾ و﴿رِئَالِ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ شيء واحد، لكنه أكد أوصافه بعضها

ببعض، وذكره بجهاته. و﴿الزُّبُرِ﴾: من: زبرت الكتاب إذا كتبت. ثم توعد قريشاً بذكره أخذ الأمم الكافرة.

١٧ - ١٨ تفسير قوله عز وجل:

الرؤية في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ رؤية القلب، وكل توقيف في القرآن على رؤية فهي رؤية القلب؛ لأن الحجّة بها تقوم، ولكن رؤية القلب لا تتركب البتة إلا على حاسة، فأحياناً تكون بحاسة البصر، وقد تكون عيئة، وهذا يُعرف بحسب الشيء المُتَكَلَّم فيه. و [أَنْ] سادة مسدّ المفعولين اللذين للرؤية، هذا مذهب سيبويه؛ لأن [أَنْ] مع ما دخلت عليه جملة، ولا يلزم ذلك في قولك: رأيت أو ظننت ذلك؛ لأن قولك ذلك ليس بجملة كما هي [أَنْ]، ومذهب الزجاج أن المفعول الثاني محذوف، تقديره: ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء حقاً؟ ورجع من خطاب بذكر الغائب إلى المتكلم بنون العظمة لأنه أغيّب في العبارة.

قوله تعالى: ﴿الْوَاهِبَاتِ﴾ يحتمل أن يريد الصّفرة والحُمْرة والبياض والسواد وغير ذلك، ويؤيد هذا أطراد ذكر هذه الألوان فيما بعده، ويحتمل أن يريد الأنواع، والمعتبر فيه - على هذا التأويل - أكثر عدداً.

و ﴿جُدَّتْ﴾ جمع جُدَّة، وهي الطريقة تكون من الأرض والجبل كالقطعة العظيمة المتصلة طولاً، ومنه قول امرئ القيس:

كَأَنَّ سَرَاتَهُ وَجُدَّةَ ظَهْرِهِ
كَسَائِنِ بَجْرِي بَشِيئَتُهُنَّ ذَلِيصُ

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿سَيَذَكَّرُ مَنْ يَنْتَهَى﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: «أعلمكم بالله أشدكم له خشية»، وقال الربيع بن أنس: «من لم يخش الله فليس بعالم»، ويقال: إن فاتحة الزبور: «رأس الحكمة خشية الله»، وقال ابن مسعود: «كفى بخشية الله علماً، وبالاغترار به جهلاً»، وقال مجاهد والشعبي: «إنما العالم من يخشى الله»، و[إنما] في هذه الآية لتخصيص العلماء لا للحضر، وهي لفظة تصلح للحضر، وتأتي أيضاً دونه، وإنما يعلم ذلك بحسب المعنى الذي جاءت فيه، فإذا قلت: إنما الشجاع عترة، وقلت: إنما الله إله واحد، بان لك الفرق بينهما فتأمل.

وهذه الآية بجملتها دليل على الواحدية والقدرة، والقصد بها إقامة الحجة على كفار قريش.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل: قال مطرف بن عبدالله بن الشخير: «هذه آية القراء»، وهذا على أن «يتلون» بمعنى: يقرءون، وإن جعلناها بمعنى: يتبعون، صح معنى الآية، وكانت في القراء وغيرهم ممن اتصف بأوصاف الآية، و«كتاب الله» هو القرآن، و«إقامة الصلاة» إقامتها بجميع شروطها، و«الثقفة» هي الصدقات ووجوه البر،

وَحَكَى أَبُو عبيدة في بعض كتبه أنه يقال: «جُدَّد» في معنى «جديد»، ولا مدخل لمعنى الجديد في هذه الآية، وقرأ الزهري: «جُدَّد» بفتح الجيم. وقوله تعالى: ﴿وَعَرَّيْبُ سُودٌ﴾ لفظان لمعنى واحد، قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُغْفِضُ الشَّيْخَ الْغَرِيبَ»، أي الذي يخضب بالسواد، وقدم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر، وكذلك هو في المعنى، لكن كلام العرب الفصيح يأتي كثيراً على هذا النحو.

وقوله تعالى: ﴿تَخْتَلِفُ أَلْوَانُهُ﴾ قبله محذوف إليه يعود الضمير، تقديره: «والأنعام خلقت مختلف ألوانه»، والدواب نعم الناس، ولكن ذكراً تشبيهاً منهن. وقوله: ﴿كَذَلِكَ﴾ يحتمل أن يكون من الكلام الأول فيجيء الوقف عليه حسناً، وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين، ويحتمل أن يكون من الكلام الثاني، يخرج مخرج السبب، كأنه قال: كما جاءت القدرة في هذا كله إنما يخشى الله من عباده العلماء، أي المحصلون لهذه العبر، الناظرون فيها. وقال بعض المفسرين: الخشية رأس العلم، وهذه عبارة وعظية لا تثبت عند النقد، بل الصحيح المطرد أن يقال: العلم رأس الخشية وسببها، والذي ورد عن النبي ﷺ أنه قال: «خشية الله رأس كل حكمة»، وقال: «رأس الحكمة مخافة الله»، فهذا هو الكلام المنير، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «كفى بالزهد علماً»، وقال مسروق: «كفى بالمرء علماً أن يخشى الله»،

فألست من ذلك هو التطوع، والعلانية هو المفروض، و﴿يرجون﴾ جملة في موضع رفع خبر [إن]، و﴿كفور﴾ معناها: تكسد ويتعدر ربحها، ويقال: «تعوذ بالله من بوار الأيم».

واللام في ﴿لِيُؤْفِقَهُ﴾ متعلقة بفعل مضمر يقتضيه لفظ الآية، تقديره: وعدهم بالأتيور إن فعلوا ذلك كله وأطاعوه، ونحو هذا من التقدير. وقوله: ﴿وَيُرِيدُهُمْ﴾ قالت فرقة: هو تضعيف الحسنات من العشر إلى السبعمائة، وتوفية الأجور - على هذا - هي المجازاة مقابلة. وقالت فرقة: إن التضعيف داخل في توفية الأجور، وأما الزيادة من فضله فهي: إما النظر إلى وجهه الكريم وإما الشفاعة في غيرهم، كما قال تبارك وتعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا لِمُنْسَقٍ﴾

وَرَبَادَةً، و﴿عَفُورٌ﴾ معناه: متجاوز عن الذنوب سائر لها، و﴿شَكُورٌ﴾ معناه: مُجَازٍ على السير من الطاعة، مُقَرَّبٌ لعبده به. ثم ثبت تعالى أمر نبيه بقوله: ﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ الْاِسْمَةَ، و﴿مَصْرُفًا﴾ حال مؤكدة، والذي بين يدي القرآن هو التوراة والإنجيل، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْبارُهُ لَخَيْرٌ بَصِيرٌ﴾ وعيد.

(٣٢) - (٣٤) تفسير قوله عز وجل:

﴿أَوْرَثْنَا﴾ معناه: أعطيناها فرقة بعد موت فرقة، والميراث - حقيقةً ومجازاً - إنما يقال فيما صار لإنسان بعد موت آخر، والمراد بالكتاب هنا معاني الكتاب وعلمه وأحكامه وعقائده، فكأن الله تعالى لما أعطى أمة محمد ﷺ القرآن - وهو قد تضمّن معاني الكتب المنزلة قبله - فكأنه ورث أمة محمد ﷺ الكتاب الذي كان في الأمم قبلهم.

و﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ يريد بهم أمة محمد عليه الصلاة والسلام، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وكأن اللفظ يحتمل أن يريد جميع المؤمنين من كل أمة إلا أن عبارة توريث الكتاب لم تكن إلا لأمة محمد ﷺ، والأول لم يُورثوه. و﴿اصْطَفَيْنَا﴾: اخترنا وفضلنا، و﴿الْعِبَادَ﴾ عامٌ في جميع العالم مؤمنهم وكافرهم.

واختلف الناس في عود الضمير من قوله تعالى: ﴿فَيَتَّبِعُهُمْ﴾ - فقال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم ما مقتضاه أن الضمير عائد على ﴿الَّذِينَ﴾، والأصناف الثلاثة هي كلها في أمة محمد صلوات الله

وسلامه عليه، فالظالم لنفسه: العاصي المُسرف. و﴿المقتصد﴾: مُتَّقِي الكبائر، وهو الجمهور من الأمة، و﴿السَّابِقُ﴾: المُتَّقِي على الإطلاق، وقالت هذه الفرقة: الأصناف الثلاثة في الجنة، وقاله أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، والضمير في ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ عائد على الأصناف الثلاثة، قالت عائشة رضي الله تعالى عنها: دخلوا الجنة كلهم، وقال كعب الأحبار: وفي رواية: تحاكت مناكبهم، وقال أبو إسحق السبيعي: أما الذي سمعت منذ ستين سنة، فكلهم ناج، وقال ابن مسعود: هذه الأمة يوم القيامة أثلاث: ثلث يدخلون الجنة بغير حساب، وثلث يحاسبون حساباً يسيراً ثم يدخلون الجنة، وثلث يجيئون بذنوب عظام، فيقول الله: من هؤلاء؟ - وهو أعلم بهم - فتقول الملائكة: هم مذنبون إلا أنهم لم يشركوا، فيقول عز وجل: أدخلوهم في سعة رحمتي، وقالت عائشة رضي الله عنها في كتاب الثعلبي: السَّابِقُ من أسلم قبل الهجرة، والمقتصد من أسلم بعدها، والظالم نحن. وقال الحسن: السَّابِقُ من رجحت حسناته، والمقتصد من استوت بسببته، والظالم من خُتت موازينه، وقال سهل بن عبد الله: السَّابِقُ العالِمُ، والمقتصد المتعلّم، والظالم الجاهل. وقال ذو الثون: الظالم الذَّاكِرُ الله بلسانه فقط، والمقتصد الذَّاكِرُ بقلبه، والسَّابِقُ الذي لا ينساه. وقال الأنطاكي: الظالم صاحب الأقوال، والمقتصد

صاحب الأفعال، والسَّابِقُ صاحب الأحوال، وروى أسامة بن زيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «كلهم في الجنة»، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذه الآية ثم قال: قال رسول الله ﷺ: «سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له»، وقال عليه الصلاة والسلام: «أنا سابق العرب، وسلمان سابق الفرس، وضمير سابق الروم، وبلال سابق الحبشة»، أراد عليه الصلاة والسلام أن هؤلاء رؤوس السابقين، وقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «سابقنا أهل جهاد، ومقتصدنا أهل حضرننا، وظالمنا أهل بدونا، لا يشهدون جماعة ولا جمعة».

وقال عكرمة، وقاتدة، والحسن ما مقتضاه أن الضمير في ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ عائد على «العباد»، والظالم لنفسه: الكافر والمنافق، والمقتصد: المؤمن العاصي، والسَّابِقُ: المُتَّقِي على الإطلاق، قالوا: وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، والضمير في قوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾ - على هذا القول - خاص على الفرقتين: المقتصد والسَّابِقُ، والفرقة الظالمة في النار، قالوا: ويعيد أن يكون ممن اصْطَفِي ظالمٌ كما يقتضي التأويل الأول، وروي هذا القول عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال بعض العلماء: قُدِّمَ الظَّالِمُ لأنه لا يتكلل إلا على رحمة الله، والمقتصد هو المعتدل في أمره، لا يُسرف في جهة من الجهات، بل يلزم الوسط. وقال عليه الصلاة

والسلام: «خير الأمور أوساطها».

وقالت فرقة - لا معنى لقولها -: إن قوله تعالى: «الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا» هم الأنبياء، والظالم لنفسه منهم من وقع في صغيرة، وهذا قول مردود من غير ما وجه.

وقرأ الجمهور: «سَابِقًا بِالْحَبْرَةِ» وقرأ أبو عمران الجوني: «سَبَاقًا».

وقوله تعالى: «يَا ذِي الْقُرْبَىٰ» معناه: بأمره ومشيته فيمن أحب من عباده، وقولوه: «ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ» إشارة إلى الاصطفاء وما يكون من الرحمة.

وقال الطبري: السَّبُوق بالخيرات هو الفضل الكبير، قال في كتاب الثعلبي: جمعهم في دخول الجنة لأنه ميراث، والبَارُ والعَاقُ سواء في الميراث مع صحة النسب، فكذلك هؤلاء مع صحة الإيمان.

وقرأ الجمهور: «جَنَّتٌ» بالرفع على البدل من «الْفَضْلُ»، وقرأ الجحدري: «جَنَّاتٍ» بالنصب بفعل مضمَر يُقْسِرُهُ «يَسْطَرِبْنَ»، وقرأ زُرُّ بْنُ حُبَيْشٍ: «جِنَّةٌ عَدْنٌ» على الأفراد، وقرأ أبو عمرو: «يَدْخُلُونَهَا» على بناء الفعل للمجهول، ورويت عن ابن كثير، وقرأ الباقون بفتح الباء وضم الخاء.

و «الْأَسَاوِرُ» جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، بضم السين وكسرهما، وفي حرف أبي «أساوير»، وهو جمع أسوار، وقد يقال ذلك في الحلبي، ومشهور أسوار أنه الجيد الرُمي من جند الفرس، و«يَمِيلُونَ» معناه: نساء ورجالاً. وقرأ عاصم - في رواية أبي

بكر -: «وَلَوْلُوًا» بالنصب عطفاً على موضع «أَسَاوِرُ»، وكان عاصم - في رواية أبي بكر - يقرأ: «وَلَوْلُوًا» بسكون الواو الأولى دون همز ويهمز الثانية، ورُوي عنه ضد هذا، وقرأ الباقون: «وَلَوْلُوًا» بالهمز والخفض عطفاً على «أَسَاوِرُ».

و «الْحَزْنُ» في هذه الآية عام في جميع الأحزان، وخصص المفسرون ها هنا، فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: حزن أهوال يوم القيامة وما يُصِيب هنالك من ظلم نفسه من الغم والحزن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حزن جهنم، وقال عطية: حزن الموت، وقال قتادة: حزن الدنيا في الخوف ألا تُتَقَبَّلَ أعمالهم، وقيل غير هذا ممّا هو جزء من الحزن، ولا معنى لتخصيص شيء من هذه الأحزان؛ لأن الحزن أجمع قد ذهب عنهم، وقولهم: «لَقَمُورٌ شَكُورٌ» وصفوه بأنه تبارك وتعالى يغفر الذنوب، ويجازي على القليل من الأعمال الصالحة بالكثير من الثواب، وهذا هو شكره لا رب سواه.

(٣٥) - (٣٧) تفسير قوله عز وجل: «الْمَقَامَاتُ»: الإقامة، من: أقام، والمَقَامَةُ - بفتح الميم -: القيام، وهي من: قام، و«ذَارُ الْمَقَامَةِ»: الجِنَّةُ و«النَّصَبُ» تعب البدن، و«اللُّغُوبُ» تعب النفس اللازم من تعب البدن، وقال قتادة: اللُّغُوبُ: الوجع، وقرائة الجمهور «لُغُوبٌ» بضم اللام، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والسُّلَمِي: «لُغُوبٌ» بفتح اللام، أي: شيء

يُغَيِّبُنَا، ويحتمل أن تكون مصدرًا كالْوَلُوغِ وَالْوَضُوءِ.

ثم أخبر تعالى عن حال الذين كفروا معادلاً بذلك الإخبار قبل عن الذي اصطفى، وهو يؤيد تأويل من قال: إن الثلاثة الأصناف هي كلها في الجنة؛ لأن ذكر الكافرين إنما جاء ها هنا. وقوله تعالى: «لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ» معناه: لا يُجْهَزُ؛ لأنهم لو ماتوا لبطلت حواسهم فاستراحوا، وقرأ الحسن البصري، والثقفى: «فَيَمُوتُونَ»، ووجهها العطف على «يَقْضَىٰ»، وهي قراءة ضعيفة.

وقوله تعالى: «وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِنَا» لا يعارضه قوله: «كَلِمًا حَتَّىٰ زِدْتَهُمْ سَعِيرًا»؛ لأن المعنى: لا يُخَفَّفُ عنهم نوع عذابهم، والنوع في نفسه يدخله أن تخبو وأن تسعر، ونحو ذلك. وقرأ الجمهور: «يُجْزَىٰ» بنون «كَلٌّ» بالنصب، وقرأ أبو عمرو - بخلاف -: «يُجْزَىٰ» بياء مضمومة على الفعل المجهول «كَلٌّ» رفعاً.

و«يَسْطَرِبْنَ» يفتعلون، من الصُّرَاخِ، أصله «يَضْرَحُونَ» فأبدلت التاء طاءً لقرب مخرج الطاء من الصاد، وفي الكلام محذوف تقديره: فيقال لهم: «أَوَلَمْ نَعَزِّزْكُمْ؟» على جهة التوقيف والتوبيخ. و[ما] في قوله سبحانه: «مَا يَذْكَرُ» ظرفية، واختلف الناس في المدة التي هي للتذكير - فقال الحسن بن أبي الحسن: «البلوغ»، يريد أنه أول حال التذكير، وقال قتادة: ثمان عشرة سنة، وقالت فرقة: عشرون سنة، وحكى الزجاج سبع عشرة سنة، وقال

و ﴿عَلَيْكَ﴾ جمع خليفة، كسفينة وسفائن ومدينة ومدائن، وقوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: فعلية وبال كفره وضرره، و«الْمَقْتُ» احتقار الإنسان من أجل معصية، أو بغضه لدينه الذي يأتيه، فإن كان الاحتقار تعسفاً منك فلا يُسمى مقْتاً، و«الْحَسَارُ» مصدر: خسر الرجل يخسر، أي: خسروا آخرتهم ومعادهم بأن صاروا إلى النار والعذاب.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ﴾ الآية، احتجاج على الكفار في بطلان أمر أصنامهم، وقفهم النبي ﷺ - بأمر ربهم - على حججهم التي يزعمون أنها حق، ثم وقفهم - مع انضاح عجزهم عن خلق شيء - على السموات، هل لهم فيها شريك؟ وظاهرُ بُعد هذا أيضاً، ثم وقفهم هل عندهم كتاب من الله تعالى يبيّن لهم فيه ما قالوه؟ أي: ليس ذلك كله عندهم، ثم أضرب بعد هذا الجحد المقدّر فقال: إنما يَعْبُدُونَ أَنفُسَهُمْ غروراً.

و ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ تتنزل عند سيويه منزلة «أخبروني»، ولذلك لا تحتاج إلى مفعولين، وأضاف الشراكة إليهم من حيث هم جعلوهم شركاء لله، أي: ليس للأصنام شركة بوجه إلا بقولكم، فالواجب إضافتها إليكم، و﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون. و«الرُّؤْيَا» في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ رؤْيَا بصر، و«الشُّرْكُ»: الشراكة، مصدر أيضاً، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿بَيْنَاتٍ﴾ بالجمع، وقرأ ابن كثير،

وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الحد في ذلك ستون، وهي سنُّ الإعذار، وهذا أيضاً قول حسنٌ مُتَّجِه، وروي أن رسول الله ﷺ قال: «إذا كان يوم القيامة نودي: أين ابن السُّتين؟» وهو العمر الذي قال الله فيه: ﴿أَوَلَمْ نَعْمُرْكُمْ مَا يَذَكَّرُ﴾. وقال عليه الصلاة والسلام: «من عمَّره الله ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر»، وقرأ الجمهور: ﴿مَا يَذَكَّرُ﴾ وقرأ الأعمش: ﴿مَا يَذَكَّرُ﴾، (من أذَكَر).

و ﴿النَّذِيرِ﴾ في قول الجمهور: الأنبياء، كل نبي نذير أمته ومعاصريه، ومحمد ﷺ نذير العالم في غابر الزمن، قال الطبري: «وقيل: النذيرُ الشَّيْبُ»، وهو قول حسن إلا أن الحُجَّة إنما تقوم بالندارة الشرعية، وباقي الآية بين.

﴿٣٨﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل: هذا ابتداء تذكير بالله تعالى، ودلائل على وحدانيته وصفاته التي لا تُبْتَغَى الألوهية إلا معها، و«الغَيْبُ» ما غاب عن البشر، و«ذاتُ الصُّدور» ما فيها من المعتقدات والمعاني، ومثله قول أبي بكر رضي الله عنه: «ذو بطن بنت خارجة»، ومنه قول العرب: «الذئب مغبوط بذئ بطنه»، أي بالنفع الذي فيه، فمن رآه ظنه رآه سابغاً قريب عهد بأكل.

هُوَ الَّذِي جَعَلَ خَلْقَ فِي الْأَرْضِ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يُزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا عُتُوًّا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرَهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٨﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ نَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُمْ كِتَابًا فَمِنْ عَلَنَ مِنْهُ بَلْ إِنَّهُمْ يَعْبُدُونَ الْفُلُوكَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ الْأَعْرَابُ ﴿٣٩﴾ إِنْ أَلَّفَ اللَّهُ تَسْلُكَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ عِبَادِي إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٠﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أُنْفُسِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنَ الْأَمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَارَدَهُمُ الْأَنْفُورُ ﴿٤١﴾ أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرَ السَّيِّئِ إِلَّا أَيْهَابُهُ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّتَ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَحْدِلَ سُنَّتَ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٢﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُمْ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٣﴾

ابن عباس رضي الله عنهما: أربعون سنة، وهذا قول حسن ورويت فيه آثار، وروي أن العبد إذا بلغ أربعين سنة ولم يتب مسح الشيطان على وجهه، وقال: وجه لا يُفْلح، وقال مسروق بن الأجدع: من بلغ أربعين سنة فليأخذ حذره من الله، ومنه قول القائل:

إِذَا الْمَرْءُ وَفَى الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ
دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاءً وَلَا يَسْتُرُ
فَدَعَهُ وَلَا تَنْفُسَ عَلَيْهِ الَّذِي أَزْتَأَى
وَإِنْ جَرَّ أَسْبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الدَّهْرُ
وقال قوم: الحد خمسون، ومنه قول القائل:

أَخُو الْخَمْسِينَ مُجْتَمِعٌ أَشْدِي
وَنَجْدٌ فِي مَدَاوِرَةِ السُّنُونِ
وقال آخر:

وَإِنْ امْرَأَةً قَدِ عَاشَ خَمْسِينَ حِجَّةً
إِلَى مَنْهَلٍ مِنْ وَرْدِهِ لَقَرِيبٌ

وأبو عمرو، وحمزة، والأعمش، وابن وثاب، ونافع - بخلاف عنه - : ﴿يَنْتَبِهُ﴾ بالإفراد، والمراد به الجمع، ويحتمل أن يراد به الأفراد. كما تقول: أنا من هذا الأمر على واضحة، أو على جليّة. و«الْعُرُورُ» الذي كانوا يتعاطونه قولهم: الأصنام تُقَرَّبُ من الله زُلْفَى، ونحوه ممّا يغيظهم.

ولمّا ذكر الله تعالى ما يبيّن فساد أمر الأصنام، ووقف على الحُجّة على بطلانها، عقب ذلك بذكر عظمتها وقدرته، ليتبيّن الشيء بضده، وتؤكد حقارة الأصنام بذكر الله تعالى، فأخبر عن إمساكه السموات والأرض بالقدرة، وقوله: ﴿أَنْ تَزُولَا﴾ معناه: كراهة أن تزولا، ولشلا تزولا، ومعنى الزوال هنا التثقل من مكانها، والسقوط من علوّها، وقال بعض المفسرين: معناه: أن تزولا عن الدوران، ويظهر من قول ابن مسعود أن السماء لا تدور وإنما تجري فيها الكواكب، وذلك أن الطبري أسند أن جندباً البجليّ رحل إلى كعب الأحبار ثم رجع، فقال له ابن مسعود: حدّثنا ما حدّثك، فقال: حدثني أن السماء في قطب كقطب الرّحى، وهو عمود على منكب ملك، فقال ابن مسعود: لوددت أنك افتديت رحلتك بمثلك راحلتك وزحلك، تَنَتَكْتُ اليهودية في قلب عبد فكادت أن تفارقه، ثم قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾، وكفى بها زوالاً أن تدور، ولو دارت لكانت قد زالت. وقوله: ﴿وَلَكِنْ زَالَتَا﴾ قيل: يوم القيامة عند طي السموات ونسف

الجبال، فكأنه قال: ولئن جاء وقت زوالهما، وقيل: بل ذلك على جهة التوهّم والفرض، ولئن فرضنا زوالهما، وكأنه قال: ولو زالتا، وقال بعضهم: ﴿لَكِنْ﴾ في هذا الموضع بمعنى (لو)، وهذا قريب من الذي قبله، وكذا قرأ ابن أبي عبيدة: ﴿وَلَوْ زَالَتَا﴾. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَدْوِهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: من بعد تركه الإمساك. وقالت فرقة: أنصافه تعالى بالحلم والغفران في هذه الآية إنما هو إشارة إلى أن السماء كادت تزول والأرض كذلك لإشراك الكفّرة، فيمسكها الله تعالى جُلماً منه عن المشركين، وترئصاً ليغفر لمن آمن منهم، كما قال: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ﴾ الآية.

﴿١١١﴾ - ﴿١١٢﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا﴾ لكفار قريش، كانت قبل الإسلام تأخذ على اليهود والنصارى في تكذيب بعضهم بعضاً، وتقول: لو جاءنا نحن رسول لكننا أهدى من هؤلاء وهؤلاء. و﴿جَهْدَ أَيْتِنِهِمْ﴾ منصوب على المصدر، أي: بغاية اجتهادهم، و﴿إِنْدَى الْأَثَمِ﴾ يريدون اليهود والنصارى، و«الثفور»: البُند عن الشيء والفرع منه والاستبشاح له.

و﴿أَسْتَكْبَارًا﴾ قيل فيه: بدل من الثفور، وقيل: مفعول من أجله، أي: نفروا من أجل الاستكبار، وأضاف «المكر» إلى «السّيء» وهو صفة، كما قيل: «دار الآخرة، ومسجد الجامع، وجانب الغربي»،

وقرأ الجمهور بكسر الهمزة من ﴿السّيء﴾، وأسكنها حمزة وحده، وهو في الثانية يرفع الهمزة كالجماعة، ولحنّ هذه القراءة الزّجاج، ووَجَّهها أبو عليّ الفارسي بوجوه، منها أن يكون قد أسكن لتوالي الحركات، كما قال:

... قُلْتُ صَاحِبَ قَوْمٍ

على أن المُبَرِّد روى هذا: «قلتُ صاح قَوْمٍ». وكما قال امرؤ القيس: فآلِيَوْمٍ أَشْرَبُ غَيْرَ مُسْتَحْقِبِ إِثْمًا مِنْ اللَّهِ وَلَا وَاغِلِ على أن المُبَرِّد قد رواه: «فاليوم فاشرب»، وكما قال جرير:

سِيرُوا بَنِي الْعَمِّ فَالْأَهْوَاؤُ مُتْرَلِكُمْ وَنَهْرُ بَيْرِي قَلَنْ تَغْرِفِكُمْ الْعَرَبُ وقرأ ابن مسعود: ﴿وَمَكْرًا سَيِّئًا﴾،

قال أبو الفتح: يعضده تنكير ما قبله من قوله: ﴿أَسْتَكْبَارًا﴾. و﴿يَحْيَى﴾ معناه: يُحيط وَيَجُلُ وينزل، ولا يُستعمل إلا في المكروه، وقوله: ﴿إِلَّا يَأْهَلِيهِ﴾ معناه أنه لا بُدَّ أن يحيق بهم إما في الدنيا وإلا ففي الآخرة، فعاقبته الفاسدة لهم، وإن حاق في الدنيا بغيرهم أحياناً فعاقبه ذلك على أهله، وقال كعب الأحبار لابن عباس رضي الله عنهما: إن في التوراة: «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا أوجدك هذا في كتاب الله، ﴿وَلَا يَحْيَى الْمَكْرَ السَّيِّئُ إِلَّا يَأْهَلِيهِ﴾».

و﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون. و«السُّئَة»: الطريقة والعادة. وقوله تعالى: ﴿فَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾

ولكنه احتج عليهم في المدينة، ووافقها قول رسول الله ﷺ في المعنى، فمِنْ هنا قيل ذلك، وروى أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِنْ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا، وَإِنْ لِقَلْبِ الْقُرْآنِ يَسَنٌ»، وروت عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إِنْ فِي الْقُرْآنِ لَسُورَةٌ تُشْفَعُ لِقَارِنِهَا، وَيُغْفَرُ لِمَسْتَمِعِهَا، وَهِيَ يَسَنٌ»، وقال يحيى بن أبي كثير: «بَلَّغْنِي أَنَّ مِنْ قَرَأَ سُورَةَ يَسَنَ لَيْلًا لَمْ يَزَلْ فِي فَرْحٍ حَتَّى يَصْبَحَ، وَكَذَا فِي النَّهَارِ»، وَيُضَدُّ ذَلِكَ التَّجْرِبَةُ.

① - ⑦ تفسير قوله عز وجل:

أَمَّا حِمْرَةُ وَالْكَسَائِيُّ الْيَاءُ فِي ﴿يَسَ﴾ غير مفرطين، والجمهور يفتحونها، ونافع يتوسط في ذلك، وقوله تعالى: ﴿يَسَ﴾ يدخله من الأقوال ما تقدم في الحروف المقطعة في أوائل السور، ويختص هذا بأقوال: منها أن سعيد بن جبيرة قال: إنه اسم من أسماء محمد ﷺ، ودليله ﴿إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، وقال السيد الحميري:

يَا نَفْسُ لَا تَمَحْضِي بِالْبُضْحِ مُجْتَهِدًا
عَلَى الْمَوَدَّةِ إِلَّا آلَ يَاسِينَ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: «يا إنسان» بالحشبية، وقال أيضاً في الشعبي: هو بِلُغَةِ طَيِّبٍ، يقولون: «إيسان» بمعنى إنسان، ويجمعونه على «ياسين»، فهذا منه. وقالت فرقة: الياء حرف نداء، والسُّين أقيمت مقام «إنسان» انتزع منه حرف فأقيم مقامه. ومن قال: «هو اسم من أسماء السورة أو

لأهلك الجميع. وقوله: ﴿مِن دَابَّتٍ﴾ مبالغة، والمراد بنو آدم لأنهم المجازون، وقيل: المراد معهم الجن، وقيل: كل ما دب من الحيوان إذ أكثره إنما هو لمنفعة بني آدم وبسببهم. والضمير في ﴿ظَهَرَهَا﴾ عائذ على الأرض المتقدم ذكرها، ولو لم يتقدم لها ذكر لأمكن في هذا الموضع لبيان الأمر، ولكانت كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ ونسجوه، و«الْأَجَلُ الْمُسَمَّى» يوم القيامة، وباقي الآية

توعد، وفيه وعد للمؤمنين.

كامل تفسير سورة فاطر والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة يس

هذه السورة مكيّة بإجماع، إلا أن فرقة قالت: إن قوله تعالى: ﴿وَنَكَّبُوا مَا كَفَرُوا وَأَتَّكُمُ﴾ نزلت في بني سلّمة من الأنصار حين أرادوا أن يتركوا ديارهم وينتقلوا إلى جوار مسجد رسول الله ﷺ، فقال لهم: ﴿يَبَارِكُمْ تَكْتَبُ أَنْتَارِكُمْ﴾، وكره عليه الصلاة والسلام أن يُغْرُوا المدينة، فعلى هذا فهي مدنية، وليس الأمر كذلك، وإنما نزلت الآية بمكة،

سُورَةُ الْيَسِينِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَس ١ وَالْقُرْآنَ الْكَرِيمَ ٢ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ٣ عَلَّ صِرَطٍ مَسْتَقِيمٍ ٤ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرُوا أَبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ٦ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ٧ إِنَّا جَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ غَافِلِينَ ٨ إِلَىٰ الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُّقْمَحُونَ ٩ وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ١٠ وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ١١ وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ١٢ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبَ فَبَشِيرَةً يَعْغِبُوهُ ١٣ وَأَجْرِكُمْ بِهِ ١٤ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآخَرَهُمْ وَوَلَّىٰ عُزْرَةَ وَأَحْضَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُّبِينٍ ١٥

٤٤

وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ١٦ أَي: لتعذبه الكفرة المكذبين، وفي هذا وعيد بين.

① - ⑮ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا توعدهم تعالى في الآية قبلها بسُنَّةِ الْأَوَّلِينَ، وَأَنَّهُ لَا يُبَدِّلُهَا وَلَا يُحَوِّلُهَا فِي الْكُفْرَةِ، وَفَقَهُمْ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عَلَى رُؤْيَتِهِمْ لِمَا رَأَوْا مِنْ ذَلِكَ فِي طَرِيقِ الشَّامِ وَغَيْرِهِ، كَدْيَارِ ثَمُودَ وَنَحْوِهَا، وَ«يُعْجِزُهُ» مَعْنَاهُ يَفُوتُهُ وَيُفْلِتُهُ، وَ«مِنْ» فِي قَوْلِهِ: ﴿مِنَ تَحْوِيلٍ﴾ زَائِدَةٌ مُؤَكِّدَةٌ، وَ«عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ صِفَتَانِ لِقِتَابَتَانِ بِهَذَا الْوَضْعِ؛ لِأَنَّهُ مَعَهُمَا لَا يَتَعَذَّرُ شَيْءٌ.

ثم بيّن الوجه في إمهاله من أمهل من عباده، إن ذلك إنما هو لأن الآخرة من وراء الجميع، وفيها يُستوفى جزاء كل أحد، ولو كان عز وجل يجازي على الذنوب في الدنيا

القرآن» فذلك مُشترك في جميع السُور.

وقرأ الجمهور: ﴿يَسَّ﴾ بسكون النون وإظهارها، وإن كانت النون الساكنة تخفى مع حروف الفم فإنما هذا على الانفصال وأن حقَّ هذه الحروف المقطعة في الأوائل أن تظهر. وقرأ عاصم، وابن عامر - بخلاف عنهما - بإدغام الثون في الواو على عُرف الاتصال، وقرأ ابن أبي إسحق - بخلاف - بنصب النون، وهي قراءة عيسى بن عمر، ورواها عن الغنوي. وقال قتادة: ﴿يَسَّ﴾ قَسَمَ، وقال أبو حاتم: قياسُ هذا القول نصب النون، كما تقول: الله لأفعلن كذا، وقرأ الكلبي بضمها وقال: هي بلغة طيء، يا إنسان، وقرأ أبو السماك، عن ابن أبي إسحق - بخلاف - بكسرهما، وهذه الوجوه الثلاثة هي للالتقاء، قال أبو الفتح: ويحتمل الرفع أن يكون اجتزاءً بالسسين من: يا إنسان، وقال الزجاج: النصب كأنه قال: ائُلُ يَسِّنْ، وهذا مذهب سيبويه على أنه اسمٌ للسورة. و[يَسِّن] تشبه الجملة من الكلام فلذلك عُدَّت آيةً، بخلاف [طَسِّن]، فلم تنصرف [يَسِّن] للعجمة والتعريف.

و ﴿الْمُحَكَّمِ﴾: المُحَكَّم، فيكون بمعنى: مفعول، أي أحكمت في مواعظه وأوامره ونواهيهِ، ويحتمل أن يكون بناءً فاعِلٍ، أي ذو الحكمة.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّ يَرْكَبُ مُسْتَقِيمًا﴾ يجوز أن يكون جملة في موضع رفع على أنها خبر بعد خبر،

ويجوز أن يكون في موضع نصب على أنها في موضع الحال من ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾، و«الصُّرَاطُ»: الطريق، والمعنى: على طريق هدى ومهتج رشاد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ بالرفع على خبر الابتداء، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة، والحسن، والأعرج، والأعمش، وقرأ ابن عامر، وحزمة، والكسائي: ﴿نَزِيلٌ﴾ بالنصب على المصدر، واختلف عن عاصم، وهي قراءة طلحة، والأشهب، وعيسى بن عمر، والأعمش، بخلاف عنهما.

قوله تعالى: ﴿لِنُنزِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آيَاتِنَا﴾، اختلف المفسرون في ﴿مَّا﴾ - فقال عكرمة: ﴿مَّا﴾ بمعنى الذي، والتقدير: الشيء الذي أُنذِرُهُ الآيات من النار والعذاب، ويحتمل أن تكون [مَّا] مصدرية، أي: ما أُنذِرَ آيَاتُهُمْ، والآيات - على هذا - هم الأقدمون على مرِّ الدهر، وقوله: ﴿فَتَهُمُ﴾ - مع هذا التأويل - بمعنى: فإِنَّهُمْ، دخلت الفاء لقطع الجملة من الجملة. وقال قتادة: [مَّا] نافية، أي إن آباءهم لم يُنذروا، فالآباء - على هذا - هم القريبون منهم، وهذه الآية كقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ بَلَاغًا مِنْ نَذِيرٍ﴾، وهذه النذارة المفتية هي نذارة المباشرة والأمر والنهي، وإلا فدعوة الله تعالى لم تنقطع من الأرض قط، وقوله: ﴿فَتَهُمُ﴾ - على هذا - الفاء واصلة بين الجملتين ورابطة الثانية بالأولى.

و ﴿حَقَّ الْقَوْلُ﴾ معناه: وجب العذاب وسبق القضاء به، وهذا فيمن

لم يؤمن من قريش، كمن قُتل ببدر وغيرهم.

قال مكي: ﴿٨﴾ - ﴿٩﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الْآخِرَةَ إِذَا دَخَلُوا النَّارَ، وقوله تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ الآية - يُضعف هذا القول؛ لأنَّ بصر الكافر بعد القيامة إنما هو حديد، يرى قُبْح حاله. وقال الضحاك: معناه: منعناهم من النفقة في سبيل الله، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾. وقال ابن عباس، وابن إسحق: هي استعارة لحال الكفرة الذين أرادوا محمداً ﷺ بسوء، فجعل الله تعالى هذه مثلاً لهم في كف أذاهم عنه حين بيئته. وقال عكرمة: نزلت حين أراد أبو جهل ضربه بالحجر العظيم فمنعه الله منه، وفي غير ذلك من المواطن. وقالت فرقة: الآية مستعارة المعنى من منع الله إياهم وحَوْلِهِ بينه وبينهم. وهذا أرجح الأقوال؛ لأنه لما ذكر أنهم لا يؤمنون لما سبق لهم في الأزل عَقِبَ ذلك بأن جعل لهم من المنع وإحاطة الشقاوة ما حالهم معه حال المغلوبين.

و «العُلُّ» ما أحاط بالعُنُق على معنى التضييق والتشيت والتعذيب والأشمر، ومع العُنُق اليدان أو اليد الواحدة، هذا معنى التعليل، وقوله: ﴿تَهَيَّئْ﴾ يحتمل أن يعود على الأغلال، أي: هي عريضة تبلغ بحرفها الأذقان، والأذقن مجتمع اللخنيين، فيضطر المغلول إلى رفع وجهه نحو السماء، وذلك هو الإقماح، وهو نحو الإقناع في

الهيئة، ونحوه ما يفعله الإنسان والحيوان عند شرب الماء البارد وعند الملوحة والحموضة القوية ونحوه. ويحتمل - وهو قول الطبري - أن تعود [هي] على الأيدي - ولم يتقدم لها ذكر - لوضوح مكانها في المعنى، وذلك أن العُلَّ يكون في العنق مع اليدين. ورؤي في مصحف ابن مسعود وأبي: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَيْمَانِهِمْ﴾، وفي بعضها ﴿فِي أَيْدِيهِمْ﴾، وقد ذكرنا معنى الإتمام. وقال قتادة: الْمُفْتَحُ الرَّافِعُ رَأْسَهُ، وقال أيضاً: ﴿مُفْعَلُونَ﴾: مُغْلَلُونَ عن كل خير، وأرى علي بن أبي طالب رضي الله عنه الناس الإتمام، فجعل يديه تحت لَحْيَيْهِ وَأَصْفَحَمَا ورفع رأسه.

وقرأ الجمهور: ﴿سُدًّا﴾ برفع السين فيهما. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن مسعود، وطلحة، وابن وثاب، وعكرمة، والتخعي، وابن كثير بفتحها فيهما. قال أبو علي: قال قوم: هما بمعنى واحد، أي: حائلاً يسد طريقهم، وقال عكرمة: ما كان مما يفعله البشر فهو بالضم، وما كان جُلقة فهو بالفتح، و«السد» ما سد وحال، ومنه قول الأعرابي في صفة سحاب: «طَلَعَ سُدٌّ مَعَ انْتِشَارِ الطِّفْلِ»، أي: سحاب سد الأفق، ومنه قولهم: «جراد سد»، ومعنى الآية أن طريق الهدى سد دونهم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ منقوطة، أي: جعلنا على أعينهم غشاوة. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وابن يعمر، وعمر بن عبدالعزيز،

والتخعي، وابن سيرين بالعين مهملة، ورويت عن النبي ﷺ، وهي من العشاء أي: أضعفنا أبصارهم، والمعنى: فهم لا يُبْصِرُونَ رِشْدًا وَلَا هُدًى، وقرأ يزيد اليزيدي: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ﴾ بياء دون ألف وبالغين منقوطة.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه مخاطبة لمحمد عليه الصلاة والسلام، مُضْمَنُهَا تسليته عنهم، أي: إنهم قد حتم عليهم بالكفر، فسواء إنذارك وتركه، والألف في قوله تعالى: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ﴾ ألف التسوية؛ لأنها ليست باستفهام، بل المستفهم والمستفهم مستويان في علم ذلك.

وقراءة الجمهور: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ بالمد، وقرأ ابن محيصن، والزهري: ﴿أَنْذَرْتَهُمْ﴾ بهمزة واحدة على الخبير، و﴿سَوَاءٌ﴾ رفع بالابتداء، وقوله: ﴿ءَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾ جملة من فعلية متعادلين يُقَدَّرَانِ تقدير فعل واحد هو خبر الابتداء، كأنه قال: وسواء عليهم جميع فَعَلْكَ، ففسر هذا الجميع بـ «أَنْذَرْتَ أَمْ لَمْ تُنذِرْ»، ومثله قولك: سواء عندي قمت أم قعدت، هكذا ذكر أبو علي في تحقيق الخبر، والخبر هو الابتداء. وقوله: ﴿إِنَّمَا نُنذِرُ﴾ ليس على جهة الحصر بإنمأ، بل على جهة تخصيص من ينفعه الإنذار. و«أَتْبَاعُ الذِّكْرِ» هو العمل بما في كتاب الله تبارك وتعالى والافتداء به، قال قتادة: الذِّكْرُ الْقُرْآنُ. وقوله: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ أي: بالخلوات عند مغيب الإنسان عن عيون البشر، ثم قال:

﴿بَيِّنَةٌ﴾ فوحد الضمير مراعاة للفظ: [مَنْ]. و«الأجر الكريم» كل ما يأخذه الأجير مقترناً بحمد على الإحسان وتكرمة، وكذلك هي الجنة للمؤمنين.

ثم أخبر تعالى بإحيائه الموتى رداً على الكفرة، ثم توعدهم بذكره كتب الآثار وإحصاء كل شيء. وكل ما يصنعه الإنسان فداخل فيما قدم ويدخل في آثاره، ولكنه تبارك وتعالى ذكر الأمر من الجهتين، ولئيبه على الآثار التي تبقى وتذكر بعد الإنسان من خير أو شر، وإلا فذلك كله داخل فيما يقدم ابن آدم. وقال قتادة: ﴿مَا قَدَّمُوا﴾ معناه: من عمل، وقاله ابن زيد، ومجاهد. وقد يبقى للمرأة أن يُسْتَنَّ به بعد موته فيؤجر أو يأثم، ونظير هذه الآية: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾، وقرأت فرقة: ﴿وَمَا أَنْذَرْتَهُمْ﴾ بالنصب، وقرأ مسروق بالرفع.

وقال ابن عباس، وجابر بن عبدالله، وأبو سعيد الخدري: إن هذه الآية نزلت في بني سليمة حين أرادوا الثقلة إلى جانب المسجد، وقد بينا ذلك في أول السورة. وقال ثابت البناني: مشيت مع أنس بن مالك إلى الصلاة فأسرعت فحبسني، فلما انقضت الصلاة قال لي: مشيت مع النبي ﷺ إلى الصلاة فأسرعت فحبسني، فلما انقضت الصلاة قال: «أما علمت أن الآثار تُكْتَبُ؟» فهذا احتجاج بالآية، وقال مجاهد، وقاتدة، والحسن: الآثار في هذه الآية الخطأ، وحكى الثعلبي عن أنس أنه قال: الخطأ إلى الجمعة.

وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾
 إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِتِلْكَ الْآيَاتِ
 إِلَيْكُم مَّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا لِمَا آتَيْنَا لَآبَشِرِمْثَلًا وَمَا آتَيْنَا
 لَكُم مِّنْ شَيْءٍ وَإِن نُّنَزِّلُ إِلَّا نُزُلًا عَرِبًا ﴿١٥﴾ قَالُوا لَوْ نَرَا يُعَلِّمُهُ الْآيَاتِ
 الْيَكْرَ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الْكِتَابَ الْقَدِيمَ ﴿١٧﴾
 قَالُوا إِنَّا نَطِّيرُكُمْ أَنْتُمْ لَيْنٌ لَّنْ نَّهْتَهُمُ الرَّجْمَ لَكُمْ وَلَيْسَ لَكُمُ
 مِّنَّا عِدَابُ اللَّهِ ﴿١٨﴾ قَالُوا طَئِفَةٌ مِّنْكُمْ مَعَكُمْ أَيْنَ ذُكِّرْتُمْ
 بَلْ أَنشَرَكُم مِّنْ قُبُورِكُمْ ﴿١٩﴾ وَجَاءَهُمْ مِنَ الْمَدِينَةِ رِجَالٌ
 يَسْعَوْنَ قَالِ يَنْقُورُوا أَتَيْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ أَتَيْتُمُوهُمْ
 لَأَنْتُمْ لَكُمْ آخِرٌ وَأَهُمْ مَقْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا لِيَ لَا آتِيَهُ الَّذِي
 فَطَرَنِي وَالْيَوْمِ يُصْعِقُونَ ﴿٢٢﴾ أَأَنْتُمْ مِّنْ دُونِهِ الْعَالِمِينَ
 يُرِيدُ الَّذِينَ الْإِخْرَاقُ يَصْرُخُونَ لَا تَعْنِ عَنِّي شَفَعَتُهُمْ شَيْئًا وَلَا
 يُفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنْ يَدْرَأُونَ إِذْ لَقِيَ صَلْبًا لَّيْمِينٌ ﴿٢٤﴾ إِنْ تَدْرَأُونَ
 رَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ ﴿٢٥﴾ قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَا لَيْتَ قُوتِي
 يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ يَا عِزَّةَ رَبِّي وَيَعْلَى مَنَ الْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾

نِثْلًا، فإنها محاورة
 إنما تقال لمن أذى
 الرسالة من الله، والآخر
 محتمل. وذكر النقاش
 في قصص هذه الآية
 شيئاً يطول، وصحته غير
 متيقنة فاختصرته.

واللازم من الآية أن الله
 بعث إليها رسولين فدعوا
 أهل القرية إلى عبادة الله
 وحده وإلى الهدى
 والإيمان فكذبوهما،
 فشدد الله أمرهما بثالث،
 وقامت الحججة على أهل
 القرية، وأمن منهم
 الرجل الذي جاء يسعى،
 وقتلوه في آخر أمره

وكفروا، فأصابتهم صيحة من
 السماء فخمداوا.

وقرأ جميع القراء: ﴿عَزَّزْنَا﴾ بتشديد
 الزاي الأولى، على معنى: قوتنا
 وشددنا، وبهذا فسر مجاهد وغيره،
 وقرأ عاصم - في رواية المفضل عن
 أبي بكر - بالتخفيف للزاي، على
 معنى: غلبناهم أمرهم وفي
 حرف ابن مسعود: ﴿بِالثالث﴾ بألف
 ولام.

وهذه الأمة أنكرت الشُّبُوتات
 بقولها: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا الرَّجْمَ مِنْ
 سَمَاءٍ﴾، وراجعتهم الرُّسل بأن رَدُّوا
 العلم إلى الله، وقنعوا بعلمه،
 وأعلموهم أنهم إنما عليهم
 البلاغ فقط، وما عليهم من
 هُداهم وضلالهم، وفي هذا وعيدٌ
 لهم.

وقوله: ﴿وَكُلٌّ﴾ نصب بفعل مضمَر
 يدل عليه ﴿أَحْصَيْتُهُ﴾، كأنه قال:
 أحصينا كل شيء أحصيناه،
 و«الإمام»: الكتاب المقتدى به
 الذي هو حجة، وقال مجاهد،
 وقتادة، وابن زيد: أراد اللُّوح
 المحفوظ، وقالت فرقة: أراد
 صحف الأعمال.

١٣ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:
 ضرب المثل مأخوذ من الضرب
 أي المشبه في النوع، كما تقول هذا
 ضرب هذا، واختلف، هل يتعدى
 فعل ضرب المثل إلى مفعولين أو
 إلى واحد؟ فمن قال إنه يتعدى إلى
 مفعولين جعل في هذه الآية
 ﴿مَثَلًا﴾ و﴿أَصْحَابَ﴾ مفعولين
 لقوله: ﴿أَضْرِبْ﴾، ومن قال إنه
 يتعدى إلى مفعول واحد جعله
 ﴿مَثَلًا﴾، وجعل ﴿أَصْحَابَ﴾ بدلاً
 منه. ويجوز أن يكون المفعول
 ﴿أَصْحَابَ﴾، ويكون قوله: ﴿مَثَلًا﴾
 نصباً على الحال، أي: في حال
 تمثيل منك.

و «الْقَرْيَةِ» - على ما روي عن
 ابن عباس رضي الله عنهما،
 الزهري - أنطاكية. واختلف في
 المرسلين - فقال قتادة وغيره:
 كانوا من الحواريين الذين بعثهم
 عيسى عليه السلام حين رُفِعَ
 وُصِّلَ الذي ألقى عليه شبهه،
 فافترق الحواريون في الآفاق،
 فقصَّ الله هنا قصة الذين نهضوا
 إلى أنطاكية. وقالت فرقة:
 بل هؤلاء أنبياء من قبيل الله تبارك
 وتعالى، وهذا يرجح به
 قول الكفرة: ﴿مَا آتَيْنَا إِلَّا بَشْرًا

١٣ - ١٤ تفسير قوله عز وجل:

قال بعض المتأولين: إن أهل
 القرية أسرع فيهم الجذام عند
 تكذيبهم المرسلين، فلذلك قالوا:
 ﴿إِنَّا نَطِّيرُكُمْ﴾، وقال مقاتل:
 احتبس عنهم المطر فلذلك قالوه،
 ومعناه: تشاء منا بكم، مأخوذ من
 الحكم بالطير، وهو معنى متداولٌ
 في الأمم، وقُلِّمًا يستعمل
 «تَطِّيرُكُمْ» إلا في الشُّؤم، وأما
 حكم الطير عند مستعمليه ففي
 التَّيْمُنِ والشُّؤم، والأظهر أن تطيُّرَ
 هؤلاء إنما كان بسبب ما دخل
 قريتهم من اختلاف الكلمة وافتتان
 الناس، وهذا على نحو تطيُّر
 قريش بمحمد ﷺ، وعلى نحو ما
 خوطب به موسى عليه السلام.
 وقال قتادة: قالوا: إن أصابنا شرٌّ
 فإنما هو من أجلكم.

﴿أَصْبَعُوا مَن لَّا يَسْتَلْكَزُ أَجْرًا وَهُمْ مُتَهَدُونَ﴾، أي: وهم على هدى من الله. وهذه الآية حاكمة بنقص من يأخذ أجرة على شيء من أفعال الشرع التي هي لازمة له كالصلاة ونحوها، فإنها كالتبليغ لمن بعث، بخلاف ما لا يلزمه كالإمارة والقضاء، وقد ارتزق أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه.

وزوي عن أبي مجلز، وكعب الأحبار، وابن عباس أن اسم هذا الرجل حبيب، وكان نجاراً، وكان - فيما قال وهب بن مئبّه - قد تجذّم، وقيل: كان في غار يعبد ربّه، وقال ابن أبي ليلى: «سَبَّاقُ الْأُمَمِ ثَلَاثَةٌ لَمْ يَكْفُرُوا قَطُّ طَرَفَةَ عَيْنٍ: عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَصَاحِبُ يَسْنَ، وَمُؤْمِنُ آلِ فِرْعَوْنَ»، وذكر الناسُ في أسماءِ الرسل: صادق ومصدوق وشلوم، وغير هذا، والصُّحَّةُ معدومة فاخترت.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَمَا لِي﴾ بفتح الياء، وقرأ الأعمش، وحمزة بسكون الياء، وقد تقدم مثل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِي﴾ تقرير لهم - على جهة التوبيخ - في هذا الأمر الذي يشهد العقل بصحته، إن من فطّر واخترع وأخرج من العدم إلى الوجود فهو الذي يستحق أن يُعبد، ثم أخبرهم بأنهم محشورون إليه يوم القيامة. ثم وقفهم أيضاً - على جهة التوبيخ - على اتخاذ الآلهة من دون الله، وهي لا تزُدُّ عنهم المقادير التي يردها الله بهم، لا بقوة منها ولا بشفاعة. وقرأ طلحة السُّمان،

عامر: ﴿أَيْنَ﴾ بهمزتين الثانية مكسورة، على معنى: أين ذُكرتم تنظيرون؟ وقرأ نافع وأبو عمرو، وابن كثير بتسهيل هذه الهمزة الثانية ورذها ياءً ﴿أَيْنَ﴾ ذُكِرْتُمْ، وقرأ الماجشون: ﴿أَنَّ﴾ بفتح الألف، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿إِنَّ﴾ ذُكِرْتُمْ، بكسر الألف، وقرأ أبو عمرو - في بعض ما روي عنه - وزر بن حبيش أيضاً: ﴿أَنَّ﴾ بهمزتين مفتوحتين، وشاهده قول

﴿وَمَا أَرْزَأْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَدُوهِ مِنْ جُنُودٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُزْلِمِينَ﴾ ﴿٢٤﴾ إِنَّ كَانَتْ الْأَصِيحَةُ وَجِدَةً فَإِذَا هُمْ خَائِدُونَ ﴿٢٥﴾ يَحْضَرُهُ عَلَى الْوَيْسَاءِ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٢٦﴾ أَلَمْ نَرَوْا كَرَاهِلَكُمْ قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ وَإِنْ كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٢٨﴾ وَوَايَةَ لَّهُمْ الْأَرْضَ الَّتِي تَحْتَهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فِيمَنَّا بُأْكُلُونَ ﴿٢٩﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَجْمٍ لِيْلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجْرًا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٠﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣١﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ لَيْلٌ سَلَخٌ مِنْهُ النَّهَارُ فَإِذَا هُمْ ظَهِيمُونَ ﴿٣٣﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٤﴾ وَالْقَمَرَ قَدَرْتَهُ مَنَازِلَ حُنَّ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيرِ ﴿٣٥﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٣٦﴾

﴿لَمْ يَجْمَعُوا﴾ معناه: بالحجارة. قاله قتادة رضي الله عنه. وقولهم عليهم السلام: ﴿طَلَبْتُمْ مَعَكُمْ﴾ معناه: حظكم وما صار لكم من شرٍّ أو خيرٍ معكم، أي: من أفعالكم وبكسباتكم، ليس هو من أجلنا ولا بسببنا، بل بغيركم وكفركم، وبهذا فسّر الناسُ وسُمِّيَ الحظ والنصيب طائر استعارة، أي هو مما يحصل عن النظر في الطائر، وكثُر استعمال هذا المعنى حتى قالت المرأة الأنصارية: «طار لنا حين اقتسيم المهاجرون عثمان بن مظعون»، ويقول الفقهاء: طار لفلان في المحاضة كذا.

وقرأ ابن هُرْمَزٍ، والحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿طَلَبْتُمْ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وابن

الشاعر:

أَنَّ كُنْتَ ذَا بُزْدَيْنِ أَخْوَى مُرْجَلًا
فَلَسْتَ بِرَاعِ ابْنِ عَمِّكَ مَخْرَمًا
وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، والأعمش: ﴿أَيْنَ﴾ بسكون الياء ﴿ذُكِرْتُمْ﴾ بتخفيف الكاف، فهي (أَيْنَ) المنقولة في الظرف، وهذه قراءة خالد، وطلحة، وقاتدة، والحسن في تخفيف الكاف فقط. ثم وصفهم تعالى بالإسراف والتعدي.

وأخبر تبارك وتعالى ذكره عن حال رجل جاء من أقصى المدينة، سمع المرسلين وفهم عن الله فجاء يسعى على قدميه وسمع قولهم، فلما فهمه روي أنه تعقّب أمرهم وسبّره بأن قال لهم: أتطلبون أجراً على دعوتكم هذه؟ قالوا: لا، فدعا عند ذلك قومه إلى اتباعهم والإيمان بهم إذ هو الحق، ثم احتج عليهم بقوله:

فرقة: [مَا] عطف على [جُنْدًا]: أي: «من جُنْدٍ وَمِنْ الذي كُتِبَ منزِلين على الأمم مثلهم قبل ذلك».

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَّا صِيحَةً﴾ بالنصب على خبر (كان)، أي: ما كان عذابهم إلا صيحة واحدة، وقرأ أبو جعفر، ومعاذ بن الحارث: ﴿إِلَّا صِيحَةً وَاحِدَةً﴾ بالرفع، وضعفها أبو حاتم، والوجه فيها أنها ليست (كان) التي تطلب الاسم والخبر، وإنما التقدير: ما وقعت أو حدثت إلا صيحة واحدة. وقرأ ابن مسعود، وعبدالرحمن بن الأسود: ﴿إِلَّا زَفِيَّةً وَاحِدَةً﴾، وهي الصيحة من الديك ونحوه من الطير. و﴿حَكِيدُونَ﴾: ساكتون موتى لا طون بالأرض، شُبِّهوا بالرماد الذي خمدت ناره وطُفئت.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَرَةَ﴾ نداء لها على معنى: هذا وقت حضورك وظهورك، هذا تقدير نداء مثل هذا عند سبويه، وهو معنى قويم في نفسه، وهو منادى منكور على هذه القراءة. وقال الطبري: المعنى: يا حسرة العباد على أنفسهم، وذكر أنها في بعض القراءات كذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: يا ويلاً للعباد. وقرأ ابن عباس، والضحاك، وعلي بن الحسين، ومجاهد، وأبي بن كعب: ﴿يَا حَسْرَةَ الْعِبَادِ﴾ بالإضافة. وقول ابن عباس حَسَنٌ مع قراءته، وتأويل الطبري ذلك في القراءة الأولى ليس بالبين، وإنما يتجه أن يكون المعنى تلهفاً على العباد كان الحال يقتضيه، وطباع كل بشر تُوجب عند سماعه

والعزْ مُطْلُوبٌ وَمُلْتَمَسٌ وَأَحْبَبُهُ مَا كَانَ فِي الزُّوَظِنِ والتأويل الأول أشبه بهذا العبد الصالح، وفي ذلك قال النبي ﷺ: «نصح قومه حياً وميتاً»، وقال قتادة بن دعامة: نصحهم على حالة الغضب والرضى، وكذلك المؤمن لا تجده إلا ناصحاً للناس.

و ﴿مَا﴾ في قوله تعالى: ﴿يَا عَفْرَى﴾ يجوز أن تكون مصدرية، أي: بغفران ربِّي لي، ويجوز أن تكون بمعنى الذي، وفي ﴿عَفْرَى﴾ ضمير عائذ، قال الزهري: ويجوز أن تكون استفهاماً، ثم ضعفه.

هذه مخاطبة لمحمد ﷺ، فيها توعد لقريش، إذ هو المرؤوع لهم من المشال أن ينزل بهم من عذاب الله ما نزل بقوم حبيب النجار، فنفي عز وجل أنه أنزل على قوم هذا الرجل جنداً من السماء، قال مجاهد: أراد أنه لم يرسل رسولاً ولا استغثبهم، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: أراد أنه لم يحتج في تعذيبهم إلى جند من جند الله كالحجارة والغرق والريح وغير ذلك، بل كانت صيحة واحدة؛ لأنهم كانوا أيسر وأهون من ذلك، قال قتادة: والله ما عاتب الله قومه بعد قتله حتى أهلكهم.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ﴾. فقالت فرقة: [مَا] نافية، وهذا يجري مع التأويل الثاني في قوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ﴾. وقالت

وعيسى الهمداني: ﴿يُرْذَنِي﴾ بياء مفتوحة، وزويت عن عاصم، ونافع، وأبي عمرو.

ثم صَدَعَ بإيمانه وأعلن فقال: ﴿إِنِّي آمَنتُ بربكم فاسمعون﴾، واختلف المفسرون - فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب، ووهب: خاطب بها قومه على جهة المبالغة والتثنية، وقيل: خاطب بها الرُّسُل على جهة الإشهاد بهم، والاستحفاظ للأمر عندهم. وقرأ الجمهور بسكون النون على نيّة الباء بعدها، وروى أبو بكر عن عاصم فَتَحَهَا، قال أبو حاتم: هذا خطأ لا يجوز؛ لأنه أمرٌ، فإما حذف النون أو كسرهما على نيّة الباء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهنا محذوف تواترت به الأحاديث والروايات، وهو أنهم قتلوه، واختلف، كيف؟ قال قتادة وغيره: رجموه بالحجارة، وقال ابن مسعود: مشوا عليه بأقدامهم حتى خرج قُصْبُهُ من ذُبره، فقيل له عند موته: ﴿أَدْخُلِ الْجَنَّةَ﴾، وذلك - والله أعلم - بأن عرض عليه مقعده منها، وتحقق أنه من سكانها برؤيته ما أقر عينه، فلما تحصل له ذلك تمى أن يعلم قومه بذلك، فقيل: أراد بذلك الإشفاق والتئصح لهم، أي: لو علموا ذلك لآمنوا بالله، وقيل: أراد أن يندموا على فعلهم به ويحزنهم ذلك، وهذا موجود في جيلة البشر، إذا نال خيراً في أرض غريبة ود أن يعلم ذلك جيرانه وأترابه الذين نشأ فيهم؛ ولا سيما في الكرامات، ونحو من ذلك قول الشاعر:

حالهم وعذابهم على الكفر وتضييعهم أمر الله تعالى أن يُشفق ويتحسر على العباد. وقال أبو العالية: المراد بالعباد الرسل الثلاثة، فكأن هذا التحسر من الكفار، حين رأوا عذاب الله تَلَهَّفُوا على ما فاتهم، وقوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية، يدافع هذا التأويل.

والحسرة: التَلَهُّفَات التي تترك صاحبها حسيراً، وقرأ الأعرج، ومسلم بن جندب، وأبو الزناد: ﴿يَا حَسْرَةَ﴾ بالوقف على الهاء، وذلك على الحرص على بيان معنى الحسرة وتقديره للنفس، والتطق بالهاء في مثل هذا أبلغ في التشفيق وهز النفس، كقولهم: أوه ونحوه. وقوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ﴾ الآية، تمثيل لفعل قرش.

ثم عَنَاهُمْ بقول: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا﴾، و﴿كَرَّم﴾ هنا خبرية، و﴿أَنْتُمْ﴾ بدل منها، و«الرؤية» رؤية البصر، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿أولم يَرَوْا مَنْ أَهْلَكْنَا﴾، وقرأ الجمهور: ﴿أَنْتُمْ﴾ بفتح الألف، وكسرها الحسن البصري. وقرأ الجمهور: ﴿لَمَّا﴾ بتخفيف الميم، وذلك على زيادة (ما) للتأكيد، والمعنى: «الجميع»، وشدها الحسن، وابن جُبَيْر، وعاصم، وقالوا: هي بمنزلة (إلا)، وقيل: المراد: (لَمَّا) حذف إحداهما، وفيه ضعف، وفي حرف أبي: ﴿وَلِإِنْ مِنْهُمْ إِلَّا جَمِيعٌ لَدِينَا مُحْضَرُونَ﴾، قال قتادة: محشورون يوم القيامة.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَأَيُّ﴾ معناه: علامة على الحشر

وبعث الأجساد، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ يراد به كفار قرش، وقرأ نافع، وشيبة، وأبو جعفر: ﴿الْمَيْتَةَ﴾ بكسر الياء وشدها، وقرأ أبو عمرو، وعاصم بسكون الياء خفيفة، وإحيائها بالمطر.

وقرأ الجمهور: ﴿ثَمَرِهِ﴾ بفتح الثاء والميم، وقرأ طلحة، وابن وثاب، وحمزة، والكسائي بضمهما، وقرأ الأعمش بضم الثاء وسكون الميم، والضمير فيه قالت فرقة: هو عائد على الماء الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿مِنْ أَلْعْيُونِ﴾؛ لأن التقدير: (ما)، وقالت فرقة: هو عائد على جميع ما تقدم مُجْمَلًا، كأنه قال: «من ثمر ما ذكرنا»، وقال أبو عبيدة: هو من باب أن يذكر الإنسان شئنين أو ثلاثة ثم يعيد الضمير على واحد ويكني عنه، كما قال الأزرق بن طرفة بن العمرد الفراء الباهلي:

رَمَانِي بِأَمْرٍ كُنْتُ مِنْهُ وَوَالِدِي
بَرِيئاً، وَمِنْ أَجْلِ الطُّوبَى رَمَانِي
وهذا الوجه في الآية ضعيف.

و [مَا] في قوله تعالى: ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾، قال الطبري: هي اسم معطوف على «الثمر»، أي: ويقع الأكل من الثمر ومما عملته الأيدي بالخرس والزراعة ونحوه. وقالت فرقة: هي مصدرية، وقيل: هي نافية، والتقدير: إنهم يأكلون من ثمره وهو شيء لم تعمله أيديهم، بل هي نعمة من الله تبارك وتعالى عليهم. وقرأ جمهور القراء: ﴿عَمِلَتْهُ﴾ بالهاء الضمير، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - في

رواية أبي بكر -، وطلحة، وعيسى: ﴿عَمِلَتْ﴾ بغير ضمير.

ثم نَزَّهُ تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن كل ما يلحد به ملحد، أو يشرك به مشرك. و«الأزواج»: الأنواع من كل شيء، وقوله: ﴿وَيَمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ نظيره قوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآيات جعلها الله تعالى أدلة على القدرة ووجوب الألوهية له، و«سَلَخَ» معناه: نكشط ونقشر، فهي استعارة، و«تَهْلِكُونَ»: داخلون في الظلام، واستدل قوم من هذه الآية على أن الليل أصل النهار فرع طارئ عليه، وفي ذلك نظر.

و «مُسْتَقَرُّ الشَّمْسِ» - على ما روي في الحديث عن النبي عليه الصلاة والسلام من طريق أبي ذر رضي الله تعالى عنه - بين يدي العرش، تسجد فيه كل ليلة بعد غروبها، وفي حديث آخر أنها تسجد في عين حمئة ولها وجبة عظيمة. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا هو في يوم القيامة حين تكوُّر، فهي تجري لذلك المستقر. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا كناية عن غيوبها؛ لأنها تجري كل وقت إلى حد محدود تَغْرُبُ فيه. وقيل: مُسْتَقَرُّهَا آخر مطالعها في المنقلبين لأنها نهايتا مطالعها، فإذا استقر وصولها كُرِّت راجعة، وإلا فهي لا تستقر عن حركتها طرفة عين، ونحا إلى هذا ابن قُتَيْبَةَ. وقالت فرقة: مُسْتَقَرُّهَا وقوفها عند الزوال في كل يوم، ودليل استقرارها وقوف ظلال الأشياء حينئذ.

﴿سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بدون تنوين في القاف وينصب ﴿النَّهَارَ﴾، ذكره الزهراوي وقال: حذف التنوين تخفيفاً. و«الفلك» - فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - متحرك مستدير كفلكة المغزل، فيه جميع الكواكب. و﴿يَسْحُونَ﴾ معناه: يجرون ويعومون، قال مكّي: لما أسند إليها فعل من يعقل جُمعت بالواو والنون.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنَعْنَا اللَّهُ مِنَ الْأَلْفَلَكِ أَنْ يَكُونَ آيَةً لَّهُمْ﴾

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾

﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنَعْنَا اللَّهُ مِنَ الْأَلْفَلَكِ أَنْ يَكُونَ آيَةً لَّهُمْ﴾

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٦﴾

﴿سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بدون تنوين في القاف وينصب ﴿النَّهَارَ﴾، ذكره الزهراوي وقال: حذف التنوين تخفيفاً. و«الفلك» - فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما - متحرك مستدير كفلكة المغزل، فيه جميع الكواكب. و﴿يَسْحُونَ﴾ معناه: يجرون ويعومون، قال مكّي: لما أسند إليها فعل من يعقل جُمعت بالواو والنون.

﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنَعْنَا اللَّهُ مِنَ الْأَلْفَلَكِ أَنْ يَكُونَ آيَةً لَّهُمْ﴾

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾

﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنَعْنَا اللَّهُ مِنَ الْأَلْفَلَكِ أَنْ يَكُونَ آيَةً لَّهُمْ﴾

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٦﴾

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنَعْنَا اللَّهُ مِنَ الْأَلْفَلَكِ أَنْ يَكُونَ آيَةً لَّهُمْ﴾

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾

﴿وَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنَعْنَا اللَّهُ مِنَ الْأَلْفَلَكِ أَنْ يَكُونَ آيَةً لَّهُمْ﴾

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٦﴾

رضي الله عنهما - وجماعة، وهو أن يريد بالذَّرِّيَّاتِ المحمولين أصحاب نوح عليه السلام في السفينة، ويريد بقوله: ﴿مِن مِّنْهُ﴾ السفن الموجودة في جنس بني آدم إلى يوم القيامة، وإيَّاهَا أراد بقوله: ﴿وَلَمَّا نَسُوا نَجْرَهُمْ﴾. والتأويل الثاني قاله مجاهد، والسدي، وروي عن ابن عباس أيضاً، وهو أن يريد بقوله: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمُ﴾ الآية، السفن الموجودة في بني آدم إلى يوم القيامة، ويريد بقوله: ﴿وَعَلَّقْنَا لَهُمُ﴾ الآية، الإبل وسائر ما يركب، فتكون المماثلة في أنه مركوب مُبْلَغُ إِلَى الْأَقْطَارِ فقط، ويعود قوله: ﴿وَلَمَّا نَسُوا نَجْرَهُمْ﴾ على السفن الموجودة في الناس، وأما من خلط القولين فجعل الذَّرِّيَّةَ في الفلك قوم نوح عليه السلام في سفينته، وجعل ﴿مِن مِّنْهُ﴾

وقرأ نافع، وابن عامر، والأعمش: ﴿ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ بالجمع، وقرأ الباقون بالإنفراد، وهي قراءة طلحة، وعيسى، والضمير المتصل بالذَّرِّيَّاتِ هو ضمير الجنس، كأنه قال: ذريات جنسهم أو نوعهم، هذا أصح ما يتجه في هذا، وخلط بعض الناس في هذا حتى قالوا: الذَّرِّيَّةُ تقع على الآباء، وهذا لا يعرف لغة.

وأما معنى الآية فيحتمل تأويلين: أحدهما قاله ابن عباس -

وقرأ ابن عباس، وابن مسعود، وعكرمة، وعطاء بن أبي رباح، وأبو جعفر محمد بن علي، وجعفر بن محمد عليهم السلام: ﴿لَا مُسْتَقَرُّ لَهَا﴾.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، والحسن، والأعرج: ﴿وَالْقَمَرُ﴾ بالرفع عطفاً على ﴿الْيَلَّ﴾ عطف جملة على جملة، ويصح وجه آخر، وهو أن يكون ﴿وَأَيُّهَا لَّهُمْ﴾ ابتداءً وخبره محذوف، كأنه قال: في الوجود والمشاهدة، ثم فسّر ذلك بجملتين من ابتداءٍ وخبرٍ وابتداءٍ وخبرٍ، الليل واحدة، والقمر ثمانية.

وقرأ الباقون ينصب «القمر» على إضمار فعل يُفسره ﴿فَدَرَّزَتْهُ﴾، وهي قراءة أبي جعفر، وابن محيصن، والحسن - بخلاف عنه - و﴿مَنَارِلُ﴾ نصب على الظرف، وهذه المنازل هي المعروفة عند العرب، وهي ثمانية وعشرون منزلة، يقطع القمر منها كل ليلة أقل من واحدة فيما يزعمون، وعودته هي استهلاله رقيقاً، وحينئذ يشبه العرجون، وهو الفصن من النخلة الذي فيه شماريح الثمر، فإنه ينحني ويصفّر إذا قدم، ويجيء أشبه شيءً بالهلال، قاله الحسن بن أبي الحسن، والوجود يشهد به، وقرأ سليمان التيمي: ﴿كَمَالِ عِزِّ جَوْنٍ﴾ بكسر العين، و﴿الْفَكْدِيرِ﴾ معناه: العتيق الذي قد مرّ عليه زمن طويل.

و﴿يَبْنِي﴾ هنا مستعملة فيما لا يمكن خلافه؛ لأنها لا قدرة لها على غير ذلك. وقرأ الجمهور: ﴿سَابِقُ النَّهَارِ﴾ بالإضافة، وقرأ عبادة:

يُثَلِّهِ ﴿ فِي الْإِبِلِ، فَإِنْ هَذَا نَظَرٌ فَاسِدٌ يَقْطَعُ بِهِ قَوْلُهُ: ﴿وَلَنْ نَشَأَ نُفُوسَهُمْ﴾، فَتَأْمَلْهُ.

و «الْفُلُكُ» جَمْعٌ، وَالْإِفْرَادُ عَلَى وَزْنِهِ، وَلَكِنْ لَيْسَتْ حَرَكَاتُ الْجَمْعِ حَرَكَاتُ الْإِفْرَادِ. وَ «الْمُؤَقَّرُ» وَ «يُنَّ» فِي قَوْلِهِ: ﴿يُنَّ يُثَلِّهِ﴾ يَتَجَهَّ عَلَى أَحَدِ التَّأْوِيلَيْنِ أَنْ تَكُونَ لِلتَّبَعِيضِ، وَعَلَى التَّأْوِيلِ الْآخَرَ أَنْ تَكُونَ لِبَيَانِ الْجِنْسِ، فَانظُرْهُ، وَيُقَالُ: الْإِبِلُ مَرَكَبُ الْبَرِّ.

و «الصَّرِيخُ» هُنَا بِنَاءُ الْفَاعِلِ، بِمَعْنَى: الْمُضْرِحِ، وَذَلِكَ أَنَّكَ تَقُولُ: صَارِخٌ بِمَعْنَى مُسْتَعِثٍ، وَمُضْرِحٌ بِمَعْنَى مُنْعِثٍ، وَيَجِيءُ صَرِيخٌ مَرَّةً بِمَعْنَى هَذَا وَمَرَّةً بِمَعْنَى هَذَا؛ لِأَنَّ فَعِيلًا مِنْ أُنْبِيَةِ اسْمِ الْفَاعِلِ، فَمَرَّةً: يَجِيءُ مِنْ صَرَخَ إِذَا اسْتَعَاثَ، وَمَرَّةً: يَجِيءُ مِنْ أَصْرَخَ إِذْ أَعَاثَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِلَّا رَحْمَةً﴾، قَالِ الْكِسَائِيُّ: نَصَبٌ عَلَى الْاسْتِثْنَاءِ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَّا أَنْ نَرَحِمَهُمْ، وَقَالَ الزَّجَاجُ: نَصَبٌ عَلَى الْمَفْعُولِ مِنْ أَجَلِهِ، كَأَنَّهُ قَالَ: إِلَّا لِأَجْلِ رَحْمَتِنَا إِيَّاهُمْ. وَقَوْلُهُ: ﴿مَتَاعًا﴾ عَطْفٌ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿رَحْمَتًا﴾، وَ «إِنْ يَبِينُ» يَرِيدُ أَجَالَهِمُ الْمَضْرُوبَةَ لَهُمْ.

وَالكَلَامُ تَأَمُّ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَلَنْ نَشَأَ نُفُوسَهُمْ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿فَلَا صَرِيخٌ لَهُمْ﴾ اسْتِثْنَاءٌ إِخْبَارٌ عَنِ السَّائِرِينَ فِي الْبَحْرِ، نَاجِينَ كَانُوا أَمْ مَغْرُوقِينَ، فَهَمَّ بِهَذِهِ الْحَالِ لَا نَجَاةَ لَهُمْ إِلَّا بِرَحْمَةِ اللَّهِ. وَلَيْسَ قَوْلُهُ: ﴿فَلَا صَرِيخٌ لَهُمْ﴾ مَرْبُوطًا بِالْمَغْرُوقِينَ، وَقَدْ يَصِحُّ رِبْطُهُ بِهِ، وَالْأَوَّلُ أَحْسَنُ فَتَأْمَلْهُ.

ثُمَّ ابْتَدَأَ الْإِخْبَارَ عَنِ عَثُورِ قَرِيشٍ

بِقَوْلِهِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ﴾ الْآيَةُ. وَ «مَا بَيَّنَّ أَيْدِيَهُمْ» قَالَ مِقَاتِلٌ، وَقِتَادَةُ: هُوَ عَذَابُ الْأُمَمِ الَّتِي سَبَقَتْهُمْ فِي الزَّمَنِ، وَ «مَا خَلَفَهُمْ» هُوَ عَذَابُ الْآخِرَةِ الَّتِي تَأْتِي بَعْدَهُمْ فِي الزَّمَنِ، وَهَذَا هُوَ النَّظَرُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: خُوفُوا بِمَا مَضَى مِنْ ذُنُوبِهِمْ وَبِمَا يَأْتِي مِنْهَا، وَهَذَا نَحْوُ الْأَوَّلِ فِي الْمَعْنَى؛ لِأَنَّ التَّخْوِيفَ بِالذَّنْبِ إِنَّمَا هُوَ مِنْ عِقَابِهِ وَالْمَجَازَاةَ عَلَيْهِ. وَقَالَ مَجَاهِدٌ: «مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ» هُوَ الْآخِرَةُ، وَ «مَا خَلَفَهُمْ» عَذَابُ الْأُمَمِ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: فَجَعَلَ التَّرْتِيبَ كَأَنَّهُمْ يَسِيرُونَ مِنْ شَيْءٍ إِلَى شَيْءٍ، وَلَمْ يَعتَبِرْ وَجُودَ الْأَشْيَاءِ فِي الزَّمَنِ، وَهَذَا النَّظَرُ يَكْرَهُ عَلَيْهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيَّنَّ يَدَايِي مِنَ التَّوْرَةِ﴾، وَإِنَّمَا الْمُطَّرِدُ أَنْ يَقَاسَ مَا بَيْنَ الْيَدِ وَالْخَلْفِ بِمَا يَسُوقُهُ الزَّمَنُ، فَتَأْمَلْهُ. وَجَوَابُ [إِذَا] فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَحْذُوفٌ، تَقْدِيرُهُ: أَعْرَضُوا، وَيُفْسِرُهُ قَوْلُهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾، وَ «الْآيَاتُ»: الْعَلَامَاتُ وَالِدَلَائِلُ.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تَفْسِيرُ قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: الضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَهُمْ﴾ لِقَرِيشٍ. وَسَبَبُ هَذِهِ الْآيَةِ أَنْ الْكُفَّارَ لَمَّا أَسْلَمَ حَوَاشِيَهُمْ مِنَ الْمَوَالِي وَغَيْرِهِمْ مِنَ الْمُسْتَضْعَفِينَ، قَطَعُوا عَنْهُمْ نَفَقَاتِهِمْ وَجَمِيعَ صِلَاتِهِمْ، وَكَانَ الْأَمْرُ بِمَكَّةَ أَوْلَى فِيهِ بَعْضُ الْإِتِّصَالِ فِي وَقْتِ نَزُولِ آيَاتِ الْمُوَادَعَةِ، فَدَنَبَ أَوْلَئِكَ الْمُؤْمِنُونَ قُرَابَتَهُمْ مِنَ الْكُفَّارِ أَنْ يَصْلُوهُمْ، وَأَنْ يَنْفَقُوا عَلَيْهِمْ مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، فَقَالُوا عِنْدَ ذَلِكَ: ﴿أَنْظِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ

أَنْظِمَهُ﴾. قَالَ الرَّمَانِيُّ: وَنَسُوا مَا يَجِبُ مِنَ التَّعَاطُفِ وَتَأَلَّفِ الْجِنْسِ. وَقَالَتْ فَرَقَةُ: سَبَبُهَا أَنْ قَرِيشًا شَحَّتْ - بِسَبَبِ أَزْمَةِ - عَلَى الْمَسَاكِينِ جَمِيعًا مِنْ مُؤْمِنٍ وَغَيْرِهِ، فَدَنَبَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِلَى النِّفْقَةِ عَلَى الْمَسَاكِينِ، فَقَالُوا هَذَا الْقَوْلُ.

وَقَوْلُهُمْ يَحْتَمِلُ مَعْنِيَيْنِ مِنَ التَّأْوِيلِ: أَحَدُهُمَا يُخْرِجُ عَلَى اخْتِبَارَاتٍ لَجْهَالِ الْعَرَبِ، فَقَدْ رُويَ أَنَّ أَعْرَابِيًّا كَانَ يَرعى إِبِلَهُ، فَيَجْعَلُ السَّمَانَ فِي الْخَصْبِ وَالْمَهَازِيلَ فِي الْمَكَانِ الْجَدْبِ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: أَكْرَمُ مَا أَكْرَمَ اللَّهُ وَأَهْيَنُ مَا أَهَانَ اللَّهُ، فَيُخْرِجُ قَوْلَ قَرِيشٍ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، كَأَنَّهُمْ رَأَوْا الْإِمْسَاكَ عَمَّنْ أَمْسَكَ اللَّهُ عَنْهُ رِزْقَهُ، وَمِنْ أَمْثَالِهِمْ: «كُنْ مَعَ اللَّهِ عَلَى الْمَذْبَرِ». وَالتَّأْوِيلُ الثَّانِي أَنْ يَكُونَ كَلَامُهُمْ بِمَعْنَى الْاسْتِهْزَاءِ بِقَوْلِ مُحَمَّدٍ ﷺ: إِنْ نَمَّ إِلَهًا هُوَ الرُّزَاقُ، فَكَأَنَّهُمْ قَالُوا: لِمَ لَا يَرِزُقُهُمُ إِلَهُكَ الَّذِي تَزْعُمُ؟ أَيْ: نَحْنُ لَا نَطْعَمُ مِنْ لَوْ يَشَاءُ هَذَا الْإِلَهَ الَّذِي زَعَمْتَ لِأَطْعَمَهُ، وَهَذَا كَمَا يَدْعِي الْإِنْسَانُ أَنَّهُ غَنِيٌّ ثُمَّ يَحْتَاجُ إِلَى مَعُونَتِكَ فِي مَالٍ فَتَقُولُ لَهُ - عَلَى جِهَةِ الْإِحْتِجَاجِ وَالْهُزْءِ بِهِ -: أَنْطَلِبْ مَعُونَتِي وَأَنْتَ غَنِيٌّ؟ أَيْ: عَلَى قَوْلِكَ.

وَقَوْلُهُ: ﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا فِي سَلْبِ ثُبِينٍ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ الْكُفْرَةِ لِلْمُؤْمِنِينَ، أَيْ: فِي أَمْرِكُمْ لَنَا بِنَفْقَةِ أَمْوَالِنَا، وَفِي غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ دِينِكُمْ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مِنْ قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى لِلْكَفْرَةِ، اسْتَأْنَفَ زَجْرَهُمْ بِهَذَا.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه نفخة البعث، و«الصور»: القرآن في قول جماعة المفسرين، وبذلك تواردت الأحاديث، وذهب أبو عبيدة إلى أنه جمع صورة، خرج مخرج بَسْرُ وبُسْرَة، وكذلك سورة البناء جَمْعُهَا سُورٌ، والمعنى عنده وعند من قال بقوله: نُفِخَ فِي صُورِ بَنِي آدَمَ فَعَادُوا أَحْيَاءَ. و«الأجداث»: القبور، وقرأ الأعرج: ﴿فِي الصُّورِ﴾ بفتح الواو، جمع صُورَة. و﴿يَسْأَلُونَ﴾: يمشون مشية الذئب بسرعة، ومنه قول الشاعر:

عَسَلَانَ الذَّنْبِ أَمْسَى قَارِباً
بَرَدَ اللَّيْلِ عَلَيْهِ فَسَسَلْ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
﴿يَسْأَلُونَ﴾: يخرجون، وقرأ الجمهور بكسر السين، وضئها ابن أبي إسحق، وأبو عمرو.

ونداؤهم بالوَيْلِ هو بمعنى: هذا وثُكٌّ وأَوَانٌ حضورك، وهو منادى مضاف، ويحتمل أن يكون نصبه على المصدر والمنادى محذوف، كأنهم قالوا: «يا قومنا وَيْلَنَا»، وقرأ ابن أبي ليلى: ﴿يَا وَيْلَتَنَا﴾ بناء التأنيث. وقرأ الجمهور: ﴿مَنْ بَعَثْنَا؟﴾ على معنى الاستفهام، وروي عن عليّ وابن عباس رضي الله عنهما أنهما قرآ: ﴿مَنْ بَعَثْنَا﴾ بكسر الميم من [مِنْ] ويسكون العين وكسر الشاء في ﴿بَعَثْنَا﴾ نصباً على المصدر، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿مَنْ أَهْبَأْنَا مِنْ مَرْقِدِنَا﴾، وفي قراءة أبي: ﴿مَنْ

كسرت للالتقاء. وقرأت فرقة بكسر الياء والخاء وشد الصاد المكسورة كالتي قبلها ثم أتبع كسرة الخاء بكسرة الياء، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾.

ومعنى هذه القراءات كلها أنهم يتحاورون ويتراجعون الأقوال بينهم ويتدافعون في شئونهم. وقرأ حمزة: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾، وهي تحمل معنيين: أحدهما ما في القراءات قبلها، أي: يخصم بعضهم بعضاً، والثاني أنهم يخصمون أهل الحق في زعمهم، كأنه قال: تأخذهم الصيحة وهم يظنون بأنفسهم أنهم خَضَمُوا أو غَلَبُوا؛ لأنك تقول: خاصمت فلاناً فخصمته، إذا غلبته.

وقوله: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ قَبِيحَةً﴾ عبارة عن إعجال الحال، و«التوصية» مصدر من: وصى، وقوله: ﴿وَلَا إِلَآ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾ يحتمل تأويلات: أحدها: ولا يرجع أحدٌ إلى منزله وأهله لإعجال الأمر، بل تقبض نفسه حيثما أخذته الصيحة، والثاني معناه: ولا إلى أهلهم يرجعون قولاً، وهذا أبلغ من الاستعجال، وخص بالذكر الأهل لأن القول معهم في ذلك الوقت أهم على الإنسان من الأجنبيين وأؤكد في نفوس البشر، والثالث تقديره: ولا إلى أهلهم يرجعون أبداً، فخرج هذا عن معنى وصف الاستعجال إلى معنى ذكر انقطاعهم وانبتارهم من دنياهم.

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَآ﴾ بفتح الياء وكسر الجيم، وقرأ ابن محيصن بضم الياء وفتح الجيم.

ثم حكى عنهم - على جهة التقرير عليهم - قولهم: ﴿مَنْ هَذَا الْوَعْدُ﴾ أي يوم القيامة الذي تزعم، وقيل: أرادوا: متى هذا العذاب الذي نتهددنا به؟ وسئوا ذلك وعداً من حيث تفيد قرائن الكلام أنه في شر، والوعد متى وَرَدَ مطلقاً فهو في خير، وإذا قُيدَ بقريئة الشَّرِّ استعمل فيه، والوعيد دائماً هو في الشَّرِّ.

و﴿يَنْظُرُونَ﴾ معناه: ينتظرون، و[مَا] نافية، وهذه الصيحة هي صيحة القيامة والنفخة الأولى في الصور، روي ذلك عن عبدالله بن عمر، وأبي هريرة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ، وفي حديثه أن بعدها نفخة الصعق، ثم نفخة الحشر، وهي التي تدوم فما لها من فواق.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والأعرج، وشبل، وابن قسطنطين المكي: ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ بفتح الياء والخاء وتشديد الصاد المكسورة، وأصلها يَخْتَصِمُونَ، نقلت حركة التاء إلى الخاء وأدغمت التاء الساكنة في الصاد. وقرأ نافع، وأبو عمرو أيضاً بفتح الياء وسكون الخاء وشد الصاد المكسورة، وفي هذه القراءة جمع بين ساكنين ولكنه ليس بجمع مخض، ووجهها أبو علي، وأصلها: يَخْتَصِمُونَ، حذفت حركة التاء دون نقل وأدغمت في الصاد. وقرأ عاصم، والكسائي، وابن عامر، ونافع أيضاً، والحسن، وأبو عمرو - بخلاف عنه - بفتح الياء وكسر الخاء وشد الصاد المكسورة، أصلها: يَخْتَصِمُونَ، أعلّت كالتي قبلها ثم

وسكون الغنين، وقرأ الباقون: ﴿فِي سُئِلَ﴾ بالضم فيها، وهي قراءة أهل المدينة والكوفة، وقرأ مجاهد، وأبو عمرو أيضاً بالفتح فيها، وقرأ ابن هبيرة على المنبر بفتح الشين وسكون الغنين، وهي كلها بمعنى واحد.

واختلف الناس في تعيين هذا الشغل، فقال ابن مسعود، وابن عباس، وابن المسيب: افتضاض الأبيكار، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما: سماع الأوتار، وقال مجاهد: معناه نعيم شغلهم، وهذا هو القول الصحيح، وتعيين شيء دون شيء لا قياس له، ولما كان النعيم كله نوعاً واحداً من حيث هو نعيم وحده فقال: ﴿فِي سُئِلَ﴾، ولو اختلف لقال: في أشغال، وحكى الثعلبي عن طاوس أنه قال: لو علم أهل الجنة عمن شغلوا ما هنأهم ما شغلوا به، قال الثعلبي: وسئل بعض العلماء عن قوله عليه الصلاة والسلام: «أكثر أهل الجنة البُلُة»، فقال: لأنهم شغلوا بالنعيم عن المنعم.

وقرأ جمهور الناس: ﴿فَنَكَبُونُ﴾ ومعناه: أصحاب فاكهة، كما يقال: تايرو ولاين وشاجم ولاجم، وقرأ أبو رجاء، ومجاهد، ونافع أيضاً، وأبو جعفر: ﴿فَنَكَبُونُ﴾، ومعناه: فرحون طربون، مأخوذ من: الفكاهة، أي: لا هم لهم، وقرأ طلحة، والأعمش، وفرقة: ﴿فَنَاكِبِينُ﴾، جعلت الخبر في الظرف الذي هو قوله: ﴿فِي سُئِلَ﴾، ونصبت ﴿فَنَاكِبِينُ﴾ على الحال.

وقوله تعالى: ﴿هُم وَأَزْوَاجُهُمْ﴾ وقال الجمهور: ابتداء الكلام: ﴿هَذَا مَا وَعَدَّ﴾. واختلف في هذه المقالة، من قالها؟ فقال ابن زيد: هي من قول الكفار لما رأوا البعث والنشور الذي كانوا يكذبون به في الدنيا، وقالت فرقة: ذلك من قول الله تبارك وتعالى لهم على جهة التوبيخ والتوقيف، وقال الفراء: هو من قول الملائكة، وقال قتادة ومجاهد: هو من قول المؤمنين للكفار على جهة التقرع.

ثم أخبر تعالى أن أمر القيامة والبعث من القبور ما هو إلا صيحة واحدة فإذا الجميع حاضر محشور، وقرأت فرقة: ﴿إِلَّا صِيحَةً﴾ بالنصب، وفرقة بالرفع، وقد تقدم إعراب نظيرها.

وقوله: ﴿فَالْيَوْمَ﴾ نصب على الظرف، يريد يوم الحشر المذكور، وهذه مخاطبة يحتمل أن تكون لجميع العالم.

هذا إخبار من الله عز وجل عن حال أهل الجنة بعد ذكره أهوال القيامة وحالة الكفار. وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والحسن، وطلحة، وخالد بن إلياس: ﴿فِي سُئِلَ﴾ بضم الشين

إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكَبِيرٍ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلِّ عَلَى الْأَرْبَابِ مُتَكَبِّرُونَ ﴿٥٦﴾ لَمْ يَمَسَّ فِيهَا مِنْ فَاكِهِةٍ وَطَهُمَ مَا يَدْعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ رَبِّ رَجِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَأَمْتَدُّوا الْأَيْدِيَّ إِلَى الشَّجَرِ الْمُتَمَرِّ ﴿٥٩﴾ أَلَمْ نَعْهَدْ إِلَيْكُمْ بَيْتِي مَا دَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لِكَرِهٌ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنْ تَعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَسْلَمَ مِنْكُمْ جِبْرَائِيلُ أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ أَسْأَلُوهَا الْيَوْمَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدَتْ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَطَمَسْنَا عَلَى أَعْيُنِهِمْ فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ فَأَنْتَ بُعِثِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَائِبِهِمْ فَمَا أَسْتَظْهَمُوا مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنْ نَعَزَّ نَتْكَّسَهُ فِي الْحَافِي أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِيُنذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحْيِيَ الْقَوْلَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾

هَيْئًا. قال أبو الفتح: لم أر لها في اللغة أصلاً، ولا مر بنا «مُهْبُوب»، ونسبها أبو حاتم إلى ابن مسعود، وقولهم: ﴿مِنْ مَرْقِدًا﴾ يحتمل أنهم يريدون موضع الرقاد حقيقة، ويروى عن أبي بن كعب، وقاتدة، ومجاهد أن جميع البشر ينامون نومة قبل الحشر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا غير صحيح الإسناد، وإنما الوجه في قولهم: ﴿مِنْ مَرْقِدًا﴾ أنها استعارة وتشبيه، كما تقول في قتل: هذا مرقده إلى يوم القيامة، وفي الثعلبي أنهم قالوا: ﴿مِنْ مَرْقِدًا﴾ لأن عذاب القبر كان كالرقاد في جنب ما صاروا إليه من عذاب جهنم. وقال الزجاج: يجوز أن يكون [هَذَا] إشارة إلى المرقد، ثم استأنف بقوله: ﴿مَا وَعَدَّ الرَّحْمَنُ﴾،

ظَلَّلِيَّ، ﴿م﴾ ابتداءً، ﴿وَأَنْزَلْنَاهُمْ﴾ معطوف عليه، ﴿فِي ظِلَّلِيَّ﴾ خبره، ويحتمل أن يكون ﴿م﴾ بدلاً من قوله: ﴿فَنَكِينُونَ﴾، ويكون في قوله: ﴿فِي ظِلَّلِيَّ﴾ في موضع الحال، كأنه قال: مُسْتَظَلِّينَ. وقرأ الجمهور: ﴿ظَلَّلِيَّ﴾ وهو جمع (ظَلَّ)؛ إذ الجنة لا شمس فيها، وإنما هواؤها سَجَسَجٌ كوقت الإسفار قبل طلوع الشمس، ويحتمل أن يكون جمع (ظَلَّة)، قال أبو علي: كَبْرُومَةٌ وَبِرَامٌ، وغير ذلك، وقال منذر بن سعيد: ظِلَالٌ: جمع ظَلَّة بكسر الظاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهي لغة في ظَلَّة. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿فِي ظَلَّلِيَّ﴾، وهي جمع ظَلَّة، وهي قراءة عبدالله، وطلحة، وأبي عبدالرحمن، وهذه عبارة عن الملابس والمراتب من الحجال والستور ونحوها، من الأشياء التي تُظَلُّ وهي زينة.

و «الْأَرَائِكُ»: السُرُرُ المفروشة، قال بعض الناس: من شروطها أن تكون عليها حَجَلَةٌ وإلا فليست بأريكة، وبذلك قيدها ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وعكرمة، وقال بعضهم: الأريكة: السَّرِيرُ كان عليه حَجَلَةٌ أو لم تكن.

وقوله: ﴿مَا يَكْفُرُونَ﴾ بمنزلة: ما يتمنون، قال أبو عبيدة: العرب تقول: «أَدَعِ عَلِيٌّ مَا شِئْتَ»، بمعنى: تمنُّ عليٌّ، وتقول: «فَلَانٌ فِيمَا أَدْعَى»، أي: فيما دعا به؛ لأنه أَفْتَقَلَ، من دعا يدعو، وأصل هذا الفعل: يَدْتَعِيُونَ، نُقِلَتْ حركة الياءِ إلى العين قبلها، وحذفت الياءِ

لاجتماعها مع الواو الساكنة، فبقي يَدْتَعُونَ، قَلِبَتِ التَاءُ دَالًا وَأُدْغِمَتِ فِي الأُخْرَى، وَخُصَّتِ الدَالُ بِالبِقَاءِ دُونَ التَاءِ لِأَنَّهَا حَرْفُ جِلْدِ وَالتَاءِ حَرْفُ هَمْسٍ، قَالَ الرَّمَانِيُّ: الْمَعْنَى: إِنَّ مَنْ أَدْعَى شَيْئًا فَهُوَ لَهُ؛ لِأَنَّهُ قَدْ هَدَّبَتْ طِبَاعَهُمْ فَهُمْ لَا يَدْعُونَ إِلَّا مَا يَحْسُنُ مِنْهُمْ.

قوله: ﴿سَلَّمٌ﴾، قيل: هي صفة لـ [ما]، أي: مُسَلَّمٌ لَهُمْ وَخَالِصٌ، وقيل: هو ابتداء، وقيل: خبر ابتداء، وقرأ ابن مسعود: وعيسى الثقفي، وأبي بن كعب، والغنوي: ﴿سَلَامًا﴾ بالنصب على المصدر، وقرأ محمد بن كعب القرظي: ﴿يَسْلَمٌ﴾ وهو بمعنى (سلام). و﴿قَوْلًا﴾ نصب على المصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتَزَرُوا أَيَّامَهُمْ﴾ الآية، فيه حذف تقديره: ويقول للكفرة، وهذه معادلة لقوله تعالى لأصحاب الجنة: ﴿سَلَّمٌ﴾، و﴿وَأَنْتَزَرُوا﴾ معناها: انفصلوا وانحجزوا؛ لأن العالم في الموقف إنما هم مختلطون، ثم خاطبهم بما يميزوا به توبيخاً لهم وتوقيفاً على عهده إليهم ومخالفتهم عهده. وقرأ الجمهور: ﴿أَنْزَرُوا﴾ بفتح الهاء، وقرأ الهذلي، وابن وثاب: ﴿أَلَمْ أَهْتَدِ﴾ بكسر الميم والهمزة وفتح الهاء، وهي على لغة من يكسر أول المضارع سرى الياء، وروي عن ابن وثاب: ﴿أَهْتَدِ﴾ بكسر الهاء، ويقال: عَهَدَ وَعَهْدَ. و«عبادة الشيطان»: طاعته والانقياد لأعدائه، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والكسائي: ﴿وَأَنْ أَهْبُدُونِي﴾ بضم

النون من [أن]، وَأَتَّبَعُوا بِهَا ضَمَةَ البَاءِ وَالدالِ وَوَاوِ الْجَمَاعَةِ أَيْضاً. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة: ﴿وَأَنْ أَهْبُدُونِي﴾ بكسر النون على أصل الكسر للالتقاء، وقوله: ﴿هَكَذَا صِرَطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشرائع، فمعنى هذا أن الله عهد إلى بني آدم وقت إخراج نسمهم من ظهره: ﴿أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ﴾ وَأَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ، وقيل لهم: هذه الشرائع موجودة. وبعث آدم عليه السلام إلى ذريته، ولم تخل الأرض من شريعة إلى ختم الرسالة بمحمد ﷺ. و«الضراط»: الطريق، ويقال: إنها دخيلة في كلام العرب وعربتها.

٦٦ - ٦٥ تفسير قوله عز وجل: هذه أيضاً من المخاطبة للكفار على جهة التقرير.

و «الجِبِلُّ»: الأمة العظيمة، قال النقاش عن الضحاك: أقلها عشرة آلاف ولا حد لأكثرها، وقرأ نافع، وعاصم بكسر الجيم والباء وشذ اللام، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة، وأهل المدينة، وأبي رجاء، والحسن - بخلاف عنه - وقرأ الأشهب العقيلي بكسر الجيم وسكون الباء والتخفيف. وقرأ الحسن، والزهري، والأعرج بضم الجيم والباء والتشديد، وهي قراءة ابن أبي إسحق، وعيسى، وابن وثاب، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، والهذيل بن شرحبيل بضم الجيم وسكون الباء والتخفيف، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي: ﴿جِبِلًا﴾ بضم الجيم والباء والتخفيف، وذكر أبو حاتم عن بعض الخراسانيين

بكسر الجيم وبياء بنقطتين ساكنة. وقرأ الجمهور: ﴿تَكُونُوا تَقُولُونَ﴾ بالثاء، وقرأ طلحة بالياء.

ثم وقفهم على جهنم التي كانوا يُوعدون فيَكذِبُونَ، و﴿جَهَنَّمَ﴾ أول طبقة من النار، و﴿أَصْلَوْهَا﴾ معناه: باشروها.

ثم أخبر الله تبارك وتعالى محمداً ﷺ أخباراً تشاركه فيها أمته بقوله: ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ﴾، أي: في ذلك اليوم يكون ذلك.

وروي في هذا المعنى أن الله يجعل الكفرة يتخاصمون، فإذا لم يأتوا بشيء تقوم لهم به حجة رجعوا إلى الإنكار فناكروا الملائكة في الأعمال، فعند ذلك يختم الله على أفواههم فلا ينطقون بحرف، ويأمر الله جوارحهم بالشهادة فنشهد، وروي عقبة بن عامر أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن أول ما يتكلم من الكافر فحذه اليسرى»، وقال أبو سعيد الخدري: (اليمين ثم سائر جوارحه)، وروي أن بعض الكفرة يقول يومئذ لجوارحه: «تَبَّا لَكَ وَسُخْفًا، فعنك كنت أماحك» ونحو هذا من المعنى، وقد اختلفت فيه ألفاظ الرواة، وروي عبدالرحمن بن محمد بن طلحة عن أبيه عن جده أنه قرأ: ﴿وَلْيَكْلُمُنَا أَيْدِيهِمْ وَلْيَشْهَدْ أَرْجُلُهُمْ﴾ بزيادة لَام (كي) النصب، وهي مخالفة لخط المصحف.

﴿٦٦﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿أَعْيُنُهُمْ﴾ مراد به كفار قريش، ومعنى الآية يُبَيِّنُ أَنَّهُمْ فِي قَبْضَةِ الْقُدْرَةِ وَبِرُوجِ الْعَذَابِ إِنْ

شَاءَ اللهُ لَهُمْ، وقال الحسن وقتادة: أراد الأعين حقيقة، والمعنى: لأعينناهم فلا يروُن كيف يمشون، ويؤيد هذا محاسبة المسخ الحقيقي، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أراد أعين البصائر، والمعنى: ولو شئنا حتمنا عليهم بالكفر فلم يهتد منهم أحد. و﴿الطَّمْسُ﴾ إذقَابُ الأثار من المشي والهيئات حتى كأنه لم يكن، أي: جعلنا جلود وجوههم متصلة حتى كأن لم يكن فيها أعين قط.

قوله: ﴿فَأَسْتَبْقُوا الصِّرَاطَ﴾ معناه: على الفرض، والتقدير: فإننا لو شئنا لأعينناهم فاحسب أو قدّر أنهم يستبقون الصراط، أي: الطريق، فأنتى لهم بالإبصار وقد أعميناهم؟ و (أنتى) لفظه استفهام فيه مبالغة، قدره سيويه: كيف؟ ومن أين؟

و ﴿لَسَخَّنَهْمُ﴾ تقديره: تبديل خَلْقِهِمْ لتصير كالقردة والخنازير ونحوه مما تقدم في بني إسرائيل وغيرهم، وقال الحسن، وقتادة، وجماعة من المفسرين: معناه: لجعلناهم مقعدين مبطلين لا يستطيعون تصرفاً، وقال ابن سلام: هذا التوعّد كله يوم القيامة. وقرأ الجمهور: ﴿مَكَانَاتِهِمْ﴾ بالإنفراد، بمعنى المكان، كما يقال: دار ودارة، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - ﴿مَكَانَاتِهِمْ﴾ جمعاً، وهي قراءة الحسن، وابن أبي إسحق. وقرأ الجمهور: ﴿مُضَيَّاتًا﴾ بضم الميم، وفتحها أبو حيوة.

ثم بين تعالى دليلاً في تنكيسه المعمرين، وأن ذلك ما يفعله

إلا الله، وقرأ الجمهور: ﴿تَنكُسُهُ﴾ بفتح النون الأولى وسكون الثانية وضم الكاف خفيفة، وقرأ عاصم - بخلاف عنه - وحمزة بضم الأولى وفتح الثانية وكسر الكاف مُشَدَّدة على المبالغة، وأنكرها أبو عمرو على الأعمش. ومعنى الآية: نُحْوَلْ خَلْقَهُ من القوة إلى الضعف، ومن الفهم إلى البُله، ونحو ذلك. وقرأ نافع، وأبو عمرو - وفي رواية: عباس -: ﴿تَمَيَّلُونَ﴾ بالثاء، على معنى: قل لهم، وقرأ الباقون بالياء على ذكر الغائب.

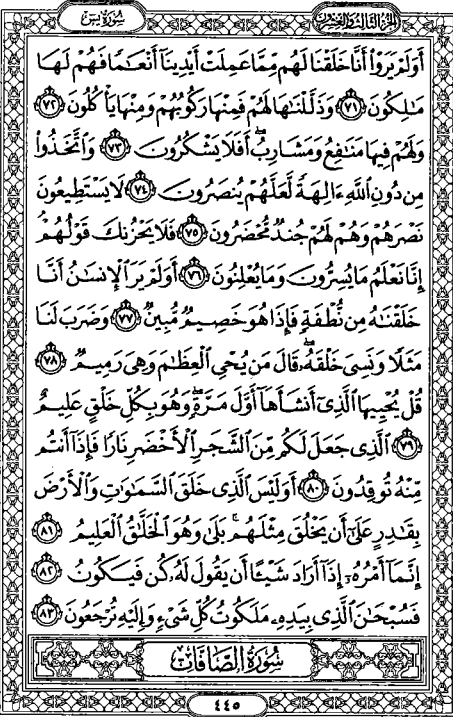
ثم أخبر تعالى عن حال نبيه ﷺ، ورد قول من قال من الكفرة: إنه شاعر، وإن القرآن شعر بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يقول الشعر ولا يرويه ولا يزيئه، وكان إذا حاول إنشاد بيت قديم متمثلاً كسر وزنه، وإنما كان يُخَرِّجُ المعاني فقط، من ذلك أنه أنشد يوماً بيت طرفة:

سَتُبَدِي لَكَ الأَيَّامَ مَا كُنْتُ جَاهِلاً
وَيَأْتِيكَ مَنْ لَمْ تَزُودْ بِالأَخْبَارِ
وَأَنْشَدَ يوماً - وقد قيل له: من أشعر الناس؟ - فقال: الذي يقول:

أَلَمْ تَرَيَانِي كَلَّمَا جِئْتُ طَارِقاً
وَجَدْتُ بِهَا وَإِنْ لَمْ تَطْلُبْ طَيْباً؟
وَأَنْشَدَ يوماً:

أَتَجَعَلَ نَهْبِي وَنَهْبَ الْعَبِيدِ
بِـئْسَ الأَنْعَرُ وَعَيْسِيئَةً؟
وقد كان عليه الصلاة والسلام ربما أنشد البيت المستقيم في النادر، روي أنه أنشد بيت ابن رواحة:

يَبِيتُ يُجَافِي جَبْهُهُ عَن فَرَاشِهِ
إِذَا اسْتَفْتَلَتْ بِالمَشْرِكِينَ المَضَاجِعُ



ولكن كلام الله تبارك وتعالى يبين بإعجازه، وينبئ برضفه، ويخرجه إحاطة علم الله عن كل كلام، وإنما منع الله نبيه ﷺ من الشعر ترفيعاً له عما في قول الشعراء من التخييل وتزييق الكلام، وأما القرآن فهو ذكر الحقائق والبراهين، فما هو بقول شاعر، وهكذا كان أسلوب كلامه عليه الصلاة والسلام؛ لأنه لا ينطق عن الهوى، والشعر نازل الرتبة عن هذا كله.

وقال الحسن بن أبي الحسن: أنشد النبي عليه الصلاة والسلام:

كَفَى بِالْإِسْلَامِ وَالشَّيْبِ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا
 فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعَمْرٌ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: نَشَدْنَاكَ
 رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

كَفَى الشَّيْبِ وَالْإِسْلَامَ لِلْمَرْءِ نَاهِيًا
 رواه الثعلبي: وإصابته الوزن أحياناً لا توجب أنه تعلم الشعر، وزوي أنه عليه الصلاة والسلام أتى في نشر كلامه أحياناً ما يدخل في وزن، كقوله يوم حنين:

«أَنَا السَّبِيُّ لَا كَذِبُ
 أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»

وكذلك يأتي في آيات القرآن الكريم وفي كل كلام، وليس ذلك بشعر ولا في معناه.

وهذه الآية تقتضي - عندي - غضاضة على الشعر ولا بد، ويؤيد هذا قول عائشة رضي الله عنها: كان الشعر أبغض الحديث إلى رسول الله ﷺ، وكان يتمثل بشعر أخي قيس طرفة فيعكسه، فقال له أبو بكر رضي الله عنه: ليس هكذا، فقال: (ما أنا بشاعر ولا ينبغي لي)، وقد ذهب قوم إلى أن الشعر لا غرض عليه، وإنما منعه من التخلّي بهذه الحلية الرفيعة ليجيء القرآن من قِبَلِهِ أعرب، فإنه لو كان له إدراك الشعر لقليل في القرآن: هذا من تلك القوة. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس الأمر عندي كذلك، وقد كان عليه الصلاة والسلام من الفصاحة والبيان في النشر في الرتبة العليا،

والضمير في ﴿عَلَّمَنَّهُ﴾ عائذ على محمد ﷺ قولاً واحداً، والضمير في ﴿لَهُ﴾ يحتمل أن يعود على محمد ﷺ، أو يعود على القرآن الكريم وإن كان لم يذكر دلالة المجاورة عليه، ويُبين ذلك قوله: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾.

وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿لِيُنذِرَ﴾ بالثاء على مخاطبة محمد ﷺ، وقرأ الباقون بالياء، أي: لِيُنذِرَ القرآن، أو لِيُنذِرَ محمد ﷺ، واللام متعلقة بـ ﴿مُبِينٌ﴾، وقرأ محمد اليماني: ﴿لِيُنذِرَ﴾ على الفعل المجهول، قال أبو حاتم: ولو قرئ بفتح الياء والذال - أي: ليتحفظ ويأخذ بحظه - لكان جائزاً، وحكاها أبو عمرو الداني عن محمد اليماني.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ أي:

حي القلب والبصيرة، ولم يكن ميتاً لكفره، وهذه استعارة، قال الضحاك: ﴿مَنْ كَانَ حَيًّا﴾ معناه: عاقلاً، ﴿وَيَحْيِ الْقَوْلَ﴾ معناه: يتحتم العذاب ويجب الخلود، وهذا كقوله تعالى: ﴿حَقَّتْ لِكُلِّ الْعَادِيَةِ﴾.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخاطبة في أمر قريش وإعراضها عن الشرع وعبادتها الأصنام، فنبههم الله تعالى في هذه الآية على إنعامه عليهم ببهيمة الأنعام. وقوله: ﴿أَيْدِيًا﴾ عبارة عن القدرة، عبر عنها بـ (يد) وبـ (يدين) وبـ (أيد)، وذلك من حيث كان البشر إنما يفهمون القدرة والبطش باليد، فعبر لهم بالجهة التي اقتربت من أفهامهم، والله تبارك وتعالى مئزة عن الجارحة والتشبيه كله. وقوله تعالى: ﴿نَهَمٌ لَهَا مَلَائِكُونَ﴾ تنبيه على النعمة

في أن هذه الأنعام ليست بعاتية ولا مُبْتَزَّة، بل تُقْتنى وتقرب منافعها.

وقوله: ﴿وَدَلَّلْنَاهَا﴾ معناه: سخرناها ذليلاً، و«الرُّكُوبُ»: المركوب، وهو فَعُولٌ بمعنى: مَفْعُولٌ، وليس إلا في ألفاظ محصورة، كالرُّكُوب، والحُلُوب، والقدُوع. وقرأ الجمهور: ﴿رُكُوبُهُمْ﴾ بفتح الراء، وقرأ أبو بن كعب، وعائشة رضي الله عنها: ﴿رُكُوبَتُهُمْ﴾. و«الْمَنَافِعُ» إشارة إلى الأصواف والأوبار وغيرها، و«الْمَشَارِبُ»: الألبان.

ثم عتفهم في اتخاذ الآلهة طلباً للاستنصار بها والتعاقد، ثم أخبر أنهم لا يستطيعون، ويحتمل أن يكون الضمير فيه للكفار، وفي ﴿تَضَرَّعْتُمْ﴾ للأصنام، ويحتمل عكس ذلك لأنهما صحيحان في المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ لَمَّمْ جُدًّا﴾ يحتمل أن يكون الضمير الأول للكفار والثاني للأصنام، على معنى: وهؤلاء الكفار مُجْتَنِدُونَ مُتَحَزِّبُونَ لهذه الأصنام في الدنيا، لكنهم لا يستطيعون التناصر مع ذلك، ويحتمل العكس، أي: يحضرون لهم في الآخرة عند الحساب، على معنى التوبيخ والنعمة، وسماهم جُدًّا في هذا التأويل إذ هم عُدَّةٌ للنقمة منهم وتوبيخهم، وجرت ضمائر الأصنام في هذه مجرى من يعقل إذ أنزلت في عبادتها منزلة عقل، فعولت في العبارة بذلك.

ثم أنس نسيه ﷺ بقوله: ﴿فَلَا يَحْزَنُكَ قَوْلُهُمْ﴾، وتوعد الكفار

بقوله: ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُبْرَأُونَ وَمَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿٧٧﴾ - ﴿٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قال ابن جبير: هذه الآيات نزلت بسبب أن العاص بن وائل السهمي جاء إلى النبي ﷺ بعظم رميم، فقته وقال: يا محمد، من يُحْيِي هذا؟ وقال مجاهد وقتادة: إن الذي جاء بالعظم الشجر أمية بن خلف، وقاله الحسن، وذكره الرماني، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو عبدالله بن أبي ابن سلول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهو وهم بمن نسيه إلى ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأن السورة مكية، والآية مكية بإجماع، ولأن عبدالله بن أبي لم يجاهر قط هذه المجاهرة، واسم (أبي) هو الذي خلط على الرواة؛ لأن الصحيح هو ما رواه ابن وهب عن مالك، وقاله ابن إسحاق وغيره: إن أبي بن خلف أخوا أمية بن خلف هو الذي جاء بالعظم الرميم بمكة فقته في وجه النبي ﷺ، وقال: من يُحْيِي هذا يا محمد؟ ولأبي هذا مع النبي ﷺ مقامات ومقالات إلى أن قتله بيده يوم أحد بالحربة بجرح في عنقه، ورؤي أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له حين فتت العظم: «الله يُحْيِيهِ وَيُحْيِيهِ وَيُدْخِلُكَ جَهَنَّمَ». ثم نزلت الآيات مُبَيِّنَةً الحجة في أن الإنسان نطفة ثم يكون بعد ذلك خصيماً مبيناً، فهل هذا إلا إحياء بعد موت وعدم حياة؟

وقوله: ﴿وَنَسِيَ﴾ يحتمل أن يكون نسيان الذهول، ويحتمل أن يكون

نسيان الترك، و«الرَّمِيمُ»: البالي المُفْتَت، وهو الرفات.

ثم دلهم تبارك وتعالى على الاعتبار بالنشأة الأولى، ثم عقب ذلك بدليل ثالث في إيجاد النار في العود الأخضر المرتوي ماء، وهذا هو زناد العرب، والنار موجودة في كل عود غير أنها في المتخلخل المفتوح المسام أوجد، وذلك هو المزخ والعقار، وأعاد الضمير على الشجر مُذَكِّراً من حيث راعى اللفظ فجاء كالتمر والحصى وغيره.

﴿٨١﴾ - ﴿٨٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا تقرير وتوقيف على أمر تدل صحته على جواز بعث الأجساد من القبور وإعادة الموتى.

وجمع الضمير جمع من يعقل في قوله سبحانه: ﴿مَثَلُهُمْ﴾ من حيث كانتا متضمتين من يعقل من الملائكة والشقلين. هذا تأويل جماعة من المفسرين، وقال الرماني وغيره: الضمير عائد على الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهم مثال للبعث، وتكون الآية نظير قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَنْزِلِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾، وقرأ سلام أبو المنذر، وابن أبي إسحاق، ويعقوب، والأعرج: ﴿يُقَدِّرُ﴾ على الاستقبال، وقرأ الجمهور: ﴿يَقْدِرُ﴾ على اسم الفاعل، وقرأ الجمهور: ﴿أَخْلَقَ﴾ وقرأ الحسن: ﴿أَخْلَقُوا﴾.

ورفع ﴿فَيَكُونُ﴾ على معنى: فهو يكون، وهي قراءة الجمهور، وقرأ ابن عباس، والكسائي: ﴿فَيَكُونُ﴾

واللفظ يحتمل أن يعم جميع هذه المذكورات. و «الزَّاجِرَاتِ زَجْرًا»، قال مجاهد، والسدي: الملائكة التي تنزجر السحاب وغيره من مخلوقات الله، وقال قتادة، هي آيات القرآن المتضمنة النواهي الشرعية.

وقوله: ﴿فَالنَّائِبَاتِ ذِكْرًا﴾ معناه: القارئات، وقال مجاهد، والسدي: أراد الملائكة التي تتلو ذكره، وقال قتادة: أراد بني آدم الذين يتلون كتبه المنزلة، وتسيحه وتكبيره، ونحو ذلك.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا﴾ بالإدغام، وهي قراءة ابن مسعود، ومسروق، والأعمش. وقرأ الباقون وجمهور الناس بالإظهار، وكذلك في كلها، قال أبو حاتم: «والإظهار اختيرانا»، وأما «الْحَامِلَاتِ وِقْرًا» و«الجاريات يُسْرًا»، فلا يجوز فيهما الإدغام يُعَدُّ التاء من الحرفين.

ثم بيّن تعالى المَقْسَمَ عليه أنه توحيد، وأنه واحد، أي: مُتَّحِدٌ من جميع الجهات التي ينظر فيها المفكر. ثم وصف تعالى نفسه بِرُبُوبِيَّتِهِ جميع المخلوقات، وذكر «المَشَارِقِ» لأنها مطالع الأنوار، والعيون بها أكلف، وفي ذكرها غثية عن ذكر المَعَارِبِ؛ إذ مَعَادِلُهَا لها مفهومة عند كل ذي لُبِّ، وأراد

بالنصب، قال أبو علي: لا ينصب الكسائي إذا لم يتقدم (أن)، ونصب ابن عامر وإن لم تتقدم (أن)، والنصب هنا قراءة ابن محيصن. وقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ أمرٌ للشيء المُنْتَرَجِ عند تعلق القدرة به لا قبل ذلك ولا بعده، وإنما يُؤمر تأكيداً للقدرة وإشارة بها، وهي أوامر دون حروف وأصوات، بل من الكلام القائم بالذات.

ثم نزه الله تبارك وتعالى نفسه تنزيهاً عاماً مطلقاً، وقرأ الجمهور: ﴿مَلَكُوتٌ﴾، وقرأ الأعمش، والثيمي: ﴿مَلَكَةٌ﴾ ومعناه: ضَبَطَ كُلَّ شَيْءٍ وَالْقُدْرَةَ عَلَيْهِ.

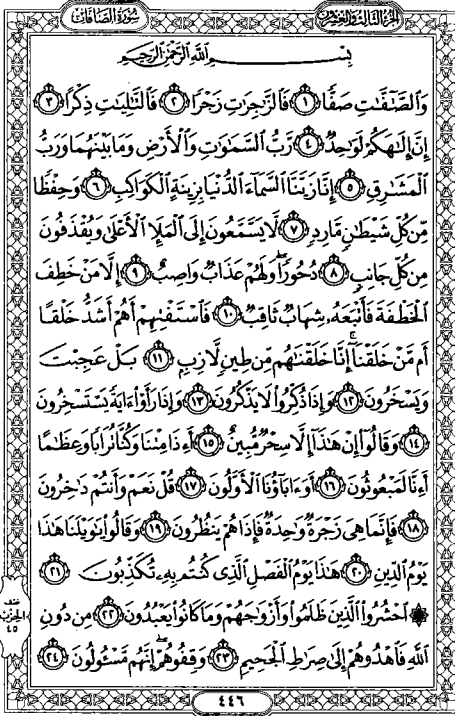
كامل تفسير سورة يس والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصافات

هي مَكِّيَّة، وعددها في المدني والشامي والكوفي مائة آية وآيتان وثمانون آية.

١ - ٧) تفسير قوله عز وجل:

أقسم الله تعالى في هذه الآيات بأشياء من مخلوقاته، واختلف الناس في معناها - فقال ابن مسعود، ومسروق، وقاتدة: هي الملائكة التي تصف في السماء في عبادة الله تعالى وذكّره صفوفاً، وقالت فرقة: أراد كل من يصف من بني آدم في قتال في سبيل الله، أو في صلاة وطاعة، والتقدير: والجماعات الصافات،



تبارك وتعالى مشارق الشمس وهي مائة وثمانون في السنة فيما يزعمون، من أطول أيام السنة إلى أقصرها، ثم أخبر عن قدرته بتزيين السماء بالكواكب، وانتظم في ذلك التزيين أن جعلها حفظاً وجزراً من الشياطين المردة، وهم مسترقو السمع.

وقرأ الجمهور بإضافة «الزِّيْنَةَ» إلى «الكواكب»، وقرأ حمزة، وحفص عن عاصم بتنوين ﴿زِيْنَةٍ﴾ وحفص قراءة ابن مسعود، ومسروق - بخلاف عنه - وأبي زُرْعَةَ ابن عمرو بن جرير، وابن وثاب، وطلحة. وقرأ أبو بكر عن عاصم: ﴿بِزِيْنَةٍ﴾ بالتنوين «الْكُوكِبِ» بالنصب، وهي قراءة ابن وثاب، وأبي عمرو، والأعمش، ومسروق، وهذا في الإعراب نحو قوله تعالى:

﴿أَزْ يَطْمُتْ فِي يَوْمِ ذِي مَسْبِيٍّ﴾
يَتِيًّا، وحكى الزهراوي قراءة
بتنوين: ﴿زَيْتِيَّة﴾ ورفع
﴿الْكَوَاكِبِ﴾.

و «الْمَارِدُ»: المتجرّد للشر، ومنه:
شجرة مرداء، أي: لا ورق عليها،
ومنه: الأْمْرُدُ. وخصّ تعالى السماء
الدينا بالذكر لأنها التي تُبَاشِرُهَا
أَبْصَارُنَا، وأيضاً فالحفظ من
الشياطين إنما هو فيها وحدها.
و﴿وَجَنَاطًا﴾ نصب على المصدر،
وقيل: مفعول من أجله، والواو
زائدة.

﴿٨﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الْمَلَأُ الْأَعْلَى»: أهل السماء الدنيا
فما فوقها، وسمي الكلّ منهم
«أَعْلَى» بالإضافة إلى مَلِ الْأَرْضِ
الذي هو أسفل، والضمير في
﴿يَسْمَعُونَ﴾ للشياطين. وقرأ جمهور
القراء والناس: ﴿يَسْمَعُونَ﴾ بسكون
السّين وتخفيف الميم، وقرأ حمزة،
وعاصم - في رواية حفص - وابن
عباس - بخلاف عنه - وابن وثاب،
وعبدالله بن مسلم، وطلحة،
والأعمش: ﴿لَا يَسْمَعُونَ﴾ بشدّ السّين
والميم، بمعنى: لا يسمعون،
فينتفي على القراءة الأولى سماعهم
وإن كانوا يَسْمَعُونَ، وهو المعنى
الصحيح، ويعضده قوله تعالى:
﴿إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْرُؤُونَ﴾،
وينتفي على القراءة الأخيرة أن يقع
منهم اسمتاع أو سماع، وظاهر
الأحاديث أنهم يسمعون حتى الآن
لكن لا يسمعون، وإن سمع أحد
منهم شيئاً لم يفلت قبل أن يلقي
ذلك السمع إلى الذي يجيئه؛ لأن

من وقت محمد عليه الصلاة والسلام
مُلِئَتِ السَّمَاءُ حَرَساً شَدِيداً وَشُهَباً،
وكان الرجم في الجاهلية أخف،
وَرُوِيَ فِي هَذَا الْمَعْنَى أَحَادِيثُ
صَحَاحٌ مُضْمَنُهَا أَنَّ الشَّيَاطِينَ كَانَتْ
تَصْعَدُ إِلَى السَّمَاءِ فَتَقْعُدُ لِلسَّمْعِ
وَاحِداً فَوْقَ آخَرَ، يَتَقَدَّمُ الْأَخْسَرُ نَحْوَ
السَّمَاءِ، ثُمَّ الَّذِي يَلِيهِ، ثُمَّ الَّذِي
يَلِيهِ، فيقضي الله تعالى الأمر من
الأمر في الأرض فيتحدث به أهل
السَّمَاءِ، فيسمعه منهم ذلك الشيطان
الأذنى، فليقيه إلى الذي تحته، وربما
أحرقه شهاب وقد ألقى الكلام،
وربما لم تحرقه جملة، فتنزل تلك
الكلمة إلى الكَهَّانِ فيكذبون معها مائة
كذبة، فتصدق تلك الكلمة، فيصدق
الجاهلون الجميع، فلما جاء الله
بالإسلام حُرِسَتِ السَّمَاءُ بِشِدَّةٍ فَلَا
يُفْلِتُ شَيْطَانٌ سَمِعَ بَيْتَةً، وَيُرْوَى أَنَّهَا
لَا تَسْمَعُ الْآنَ شَيْئاً، وَالْكَوَاكِبُ
الراجمة هي التي يراها الناس
تَنَقُّضُ، قال النقاش، ومكي:
وليست بالكواكب الجارية في
السَّمَاءِ، لِأَنَّ تِلْكَ لَا تُرَى حَرَكَتَهَا،
وهذه الراجمة تُرَى حَرَكَتَهَا لِأَنَّهَا
قَرِيبَةٌ مَثَلًا، وَفِي هَذَا نَظَرٍ.
و﴿وَيَذْفُونَ﴾ معناه: يُرْجَمُونَ.

و «الدُّحُورُ»: الإصغار والإهانة؛
لأن الرّجْمَ الدَّفْعُ بعنف، قال
مجاهد: مَطْرُودِينَ. وقرأ الجمهور
بضم الدال، وقرأ أبو عبدالرحمن
السُّلَمِيُّ: ﴿دَحُورًا﴾ بفتح الدال،
و«الْوَاصِبُ»: الدائم، قاله مجاهد،
وقتادة، وعكرمة. وقال السدي،
وأبو صالح: الواصِبُ: المُوجِعُ،
ومنه: الوصب، والمعنى: هذه

الحال الغالية على جميع الشياطين،
إلا من شدّ فخطف خيراً أو نبأ فأتبعه
شهاب فأحرقه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿حَطَفَ﴾
بفتح الحاء وكسر الطاء خفيفة، وقرأ
الحسن، وقتادة: ﴿حِطَفَ﴾ بكسر
الحاء والطاء وتشديد الطاء، قال أبو
حاتم: يقال: هي لغة بكر بن وائل،
وتميم بن مرة، وروى عن ابن عباس
رضي الله عنهما بكسر الحاء والطاء
مخففة. و«الثَّاقِبُ»: النافذ بضوئه
وشعاعه المنير، قاله قتادة،
والسدي، وابن زيد، و«حَسَبَ
ثاقب» إذا كان شيئاً منيراً.

﴿١١﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الاستفتاء نوعٌ من أنواع السؤال،
وكأنه سؤال من يُهْتَبَلُ بقوله ويجعل
حُجَّةً، وكذلك هي أقوالهم في هذا
الفاصل، لا يمكنهم أن يقولوا إلا
أن خَلَقَ مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأُمَمِ
والملائكة والإنس والجن والسموات
والأرض والمشارق وغير ذلك، هو
أشدُّ من هؤلاء المخاطبين، وبأنَّ
الضمير في ﴿عَلَقْنَا﴾ يُراد به ما تقدم
ذكره، وقال مجاهد وقتادة
وغيرهما: وفي مصحف عبدالله بن
مسعود: ﴿أَمْ مَنْ عَدَدْنَا﴾ يريد
الصّافّات وغيرها، والسموات
والأرض وما بينهما، وكذلك قرأ
الأعمش، وقرأ أيضاً: ﴿أَمَّنْ﴾
مُخَفَّفَةً الميم دون (أَمْ).

ثم أخبر تعالى إخباراً جزماً عن
خلقه لآدم الذي هو أبو البشر،
وأضاف الخلق من الطين إلى جميع
الناس حيث الأب مخلوق منه، وقال
الطبري: خلّق ابن آدم من تراب وماء

عن نفسه، كأنه قال: «قل لهم: عجبت» وقوله: ﴿وَسَخَّرُونَ﴾ أي: وهم يسخرون من نبوتك والحق الذي عندك. وقوله تعالى: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يريد: بالآية، وهي العلامة والدلالة، وروى أنها نزلت في زكّانة، وهو رجل مكّي مشرك، لقي النبي ﷺ في جبل خال وهو يرعى غنماً له، وكان أقوى أهل زمانه، فقال له: يا زكّانة، إن أنا صرعتك أتؤمن بي؟ قال: نعم، فصرعه ثلاثاً، ثم عرض عليه آيات من دعاء شجرة وإقبالها، ونحو ذلك مما اختلفت فيه ألفاظ الحديث، فلما فرغ من ذلك كله لم يؤمن، وجاء إلى مكة فقال: يا بني هاشم، ساجروا بصاحبكم هذا أهل الأرض، فنزلت الآية فيه وفي نظرائه. و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ معناه: يطلبون أن يكونوا ممن يسخر، ويجوز أن تكون بمعنى: يَسْخَرُ، كقوله: «واستغنى الله»، فيكون فِعْلٌ واستغنى بمعنى، بهذا فسره مجاهد وقتادة، وفي بعض القراءات القديمة: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ بالحاء غير منقوطة، وهذه عبارة عما قال زكّانة؛ لأنه استسخر النبي عليه الصلاة والسلام.

عن نفسه، كأنه قال: «قل لهم: عجبت» وقوله: ﴿وَسَخَّرُونَ﴾ أي: وهم يسخرون من نبوتك والحق الذي عندك.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ يريد: بالآية، وهي العلامة والدلالة، وروى أنها نزلت في زكّانة، وهو رجل مكّي مشرك، لقي النبي ﷺ في جبل خال وهو يرعى غنماً له، وكان أقوى أهل زمانه، فقال له: يا زكّانة، إن أنا صرعتك أتؤمن بي؟ قال: نعم، فصرعه ثلاثاً،

ثم عرض عليه آيات من دعاء شجرة وإقبالها، ونحو ذلك مما اختلفت فيه ألفاظ الحديث، فلما فرغ من ذلك كله لم يؤمن، وجاء إلى مكة فقال: يا بني هاشم، ساجروا بصاحبكم هذا أهل الأرض، فنزلت الآية فيه وفي نظرائه. و﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ معناه: يطلبون أن يكونوا ممن يسخر، ويجوز أن تكون بمعنى: يَسْخَرُ، كقوله: «واستغنى الله»، فيكون فِعْلٌ واستغنى بمعنى، بهذا فسره مجاهد وقتادة، وفي بعض القراءات القديمة: ﴿يَسْتَسْخِرُونَ﴾ بالحاء غير منقوطة، وهذه عبارة عما قال زكّانة؛ لأنه استسخر النبي عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿أَوَدَا يَسْتَسْخِرُونَ﴾. قرأ بضم الميم أبو جعفر، وابن أبي إسحق، وعاصم، وأبو عمرو،

ونارٍ وهواءٍ، وهذا كله إذا اختلط صار طيناً لازباً، وهو اللازم، أي: يلزم ما جاوره ويلصق به، وهو الصلصال كالفخار، وعبر ابن عباس، وعكرمة عن اللازب بالحرّ، أي الكريم الجيد، وحقيقة المعنى ما ذكرناه، يقال: «ضربة لازب ولازم» بمعنى واحد.

وقرأ الجمهور: ﴿عَجِبْتَ﴾ بفتح التاء، أي يا محمد من إعراضهم عن الحق وعمّاهم عن الهدى، وأن يكونوا كافرين مع ما جنتهم به من عند الله. وقرأ حمزة والكسائي بضمّ الساء، ورويت عن علي، وابن مسعود، وابن عباس، وابن وثاب، والشّخعي، وطلحة وسفيان، والأعمش، وذلك على أن يكون تعالى هو المتعجب، ومعنى ذلك من الله سبحانه أنه صفة فعل، كقوله عليه الصلاة والسلام: «تعجب الله إلى قوم يساقون إلى الجنة في السلاسل»، وقوله: «تعجب الله من الشاب ليست له صبوة»، فإنما هي عبارة عما يظهره في جانب المتعجب منه من التعظيم أو التحقير حتى يصير الناس متعجبين منه، فمعنى هذه الآية: بل عجبت من ضلالهم وسوء تخيلهم، وجعلتها للناظرين فيها وفيما اقترن معها من شرعي وهداي متعجباً، وروى عن شريح إنكار هذه القراءة، وقال: إن الله لا يعجب، قال الأعمش: فذكرت ذلك لإبراهيم فقال: إن شريحاً كان مُعْجَباً بعلمه، وإنّ عبداً أعلم منه. وقال مكّي، وعلي بن سليمان في كتاب الزهراوي: هو إخبار من النبي ﷺ

والعامة، وكسرهما الحسن، والأعرج، وشيبة، ونافع. وقرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع: ﴿أَوْ أَبَاؤُنَا﴾ بسكون الواو، وهي التي للقسمة أو التخيير، وقرأ الجمهور بفتحها، وهي واو العطف دخلت عليها ألف الاستفهام.

ثم أمره الله تعالى أن يجيب تقريرهم بـ ﴿يَعْمُ﴾ ويزيدهم في الجواب أنهم - في البعث - في صغار وذلة، «والدّاحِزُ»: الصغير الذليل، وقد تقدم غير مرة ذكر القراءات في الاستفهامين.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: هذا استئذان إخبار جرّه ما قبله فأخبر تعالى أن بعثهم من قبورهم إنما هي زجرة واحدة، هي نفخة البعث في الصُّور، وقوله: ﴿يُنظَرُونَ﴾ يحتمل أن يريد:

بالأبصار، أي: ينظرون ما هُم فيه، وصدق ما كانوا يُكذِّبون به، ويحتمل أن يكون بمعنى: ينتظرون ما يُفعل بهم ويؤمنون به.

ثم أخبر عنهم أنهم في تلك الحال يقولون: ﴿يَوَيْلَنَا﴾، يُنادون الويل، بمعنى: هذا وقتٌ حضورك وأوانُ حُلُولك، ورأى أبو حاتم الوقف ها هنا، وجعل قوله: ﴿هَذَا يَوْمَ الَّذِينَ﴾ من قول الله أو الملائكة لهم، ورأى غيره أن باقي الآية من قول الكفرة، و«الَّذِينَ»: الجزاء والمقارضة، كقولهم: «كما تدين ثدان»، وأجمعوا أن قوله: ﴿هَذَا يَوْمَ الْفَصْلِ﴾ ليس من قول الكفرة، وإنما المعنى: يُقال لهم: هذا يوم الفصل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَزْوَاجِهِمْ﴾ يعني: أنواعهم وضرياءهم، قاله عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وابن عباس، وقاتدة، ومنه قوله: ﴿وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً﴾، وقوله: ﴿وَإِذَا أَلْتَمَسْتُمُ الرَّبَّ رَبَّيْتُمْ﴾ أي: تُرَعْت، زوي أنه يضم عند هذا الأمر كلُّ شكل إلى شكله، وكل صاحب من الكفرة إلى صاحبه، ومعهم ما كانوا يعبدون من دون الله، من آدمي رضي بذلك أو صنم أو وثن توبيخاً لهم وإظهاراً لسوء حالهم. قال الحسن: المعنى: وأزواجهم المشركات من النساء، وزوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، ورجَّحه الرماني.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا دَوْمُ﴾ معناه: قوموهم واحملوهم على طريق الجحيم، و«الْجَحِيمُ» طبقة من

طبقات جهنم يقال إنها الرابعة، ثم يأمر الله تعالى بوقفهم، و«وَقَفًا» يتعدى بنفسه، تقول: «وقفتُ زيداً»، وأمره بذلك على جهة التوبيخ لهم والسؤال، واختلف الناس في الشيء الذي يُسألون عنه - فرؤي عن ابن مسعود أنه قال: يُسألون: هل يحيون شرب الماء البارد؟ وهذا على طريق الهزء بهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يسألون عن لا إله إلا الله، وقال الجمهور من المفسرين: عن أعمالهم، ويوقفون على قُبْحها، وهذا قول مُتَّجِه عام في الكفر وغيره، وزوي عن أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «أيما رجل دعا إلى شيء كان لازماً له»، وقرأ: ﴿وَقَفُّوا بِأَيْمَانِهِمْ مَسْفُورُونَ﴾، وزوي ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تزول قدما عبدٍ من بين يدي الله حتى يسأله عن خمس: عن شبابه فيم أبلاه، وعن عمره فيم أفناه، وعن ماله كيف اكتسبه وفيم أنفقه، وعنما عمل فيما علم»، ويحتمل عندي أن يكون المعنى على ما فسره بقوله: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَنصُرُونَ﴾، أي: تُسألون عن امتناع التناصر. وقرأ بناءً واحدة شبية، ونافع، وقرأ خالدٌ ببناءين، وكذلك في حرف عبدالله، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع بإدغام التاء في التاء من قراءة ابن مسعود، وقال الثعلبي: هذا جواب أبي جهل حين قال في بدر: ﴿مَنْ جَمَعَ مُنْتَهَرًا﴾.

ثم أخبر تعالى بجوابهم في ذلك اليوم في حالة الاستسلام والإلقاء باليد.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الجماعة التي يقبل بعضها على بعض هي جنٌ وإنس، قال قتادة: وتساؤلهم هو على معنى التفريع واللوم والسخط، والقائلون: ﴿إِنَّكُمْ كُنْتُمْ تَأْتُونَ﴾ إما أن يكون الإنس للشياطين، وهو قول مجاهد، وابن زيد، أو صَعْفَةَ الإنس للكبراء والقادة. واضطرب المتأولون في معنى قولهم: ﴿عَنِ الْيَمِينِ﴾، وعبر ابن زيد عنه بطريق الجنة والخير، ونحو هذا من العبارات التي تُفسر بالمعنى ولا تختص بنفس اللفظة، وبعضهم نحا في تفسير اللفظة إلى ما يختصها، والذي يتحصل من ذلك معان: منها أن يريد باليمين: القُوَّة والشُدَّة، فكأنهم قالوا: إنكم كنتم تُغَوِّوننا بقوة منكم، وتحملوننا على طريق الضلالة بمتابعة منكم في شدة، فعبّر عن هذه المعاني باليمين، كقول العرب: «بِئْدَيْنِ مَا أُرِذَ»، وكما قالوا: «اليد» - في غير موضع - عن القوة، وقد ذهب بعض الناس ببيت الشماخ هذا المذهب، وهو قوله:

إِذَا مَا رَايَةَ رُفِعَتْ لِمَجْدٍ
تَلَقَّاهَا عَرَابَةٌ بِالْيَمِينِ
فقالوا: معناه: بقوة وعزيمة، وإلَّا فكلُّ أحدٍ يتلقاها بيمينه لو كانت الجارحة، وأيضاً فلما استعار الراهية للمجد فكذا لم يرد باليمين الجارحة.

ومن المعاني التي تحتملها الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تأتوننا من الجهة التي يُحسُّنها تمويهكم وإغواؤكم، ويظهر فيها أنها جهة الرشد

والصواب، فتصير عندنا كاليمين الذي نَتِمُّنَ بالسَّاحِ الذي يجيئنا من قَبْلِهَا، فكأنهم شَبَّهوا أقوال هؤلاء الْمُعْوِينِ بالسوانح التي هي عندهم محمودة، كأن التمويه في هذه الغوايات قد أظهر فيها ما يوشك أن يُحمد به .

ومن المعاني التي تحتلها الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تأتوننا، أي تقطعون بنا عن أخبار الخير واليمين، فعبر عنها باليمين؛ إذ اليمين هي الجهة التي يُتَمِّنُ بها وبكل ما فيها ومنها .

ومن المعاني التي تحتلها الآية أن يريدوا: إنكم كنتم تحيئوننا من جهة الشهوات وعدم النظر؛ والجهة الثقيلة من الإنسان هي اليمين لأن كبده فيها، وجهة شماله فيها قلبه، وهي أخف، وهذا معنى قول الشاعر:

تَرَكْنَا لَهُمْ شِقَّ الشَّمَالِ

.....

أي: نزلنا لهم عن موضع الهروب؛ لأن المنهزم إنما يرجع على شقِّ الأيسر، إذ هو أخف شِقَّتِهِ، وإذ قلب الإنسان في شماله وثمَّ نظره، فكأن هؤلاء كانوا يأتون من جهة الشهوات والثقل، وأكثر ما يتمكن هذا التأويل مع إغواء الشياطين، وهو قَلْبٌ مع إغواء بني آدم .

وقيل: المعنى: يحلفون لنا ويأتوننا إثيان من إذا حَلَفَ لنا صدَّقناه، فاليمين - على هذا -: القَسَمُ .

وقد ذهب بعض الناس في ذكر إبليس جهات بني آدم في قوله: ﴿بَنُ

بَنِ آيَاتِهِمْ وَيَنْ خَلْفَهُمْ وَعَنْ آيَاتِهِمْ وَعَنْ تَمَائِلِهِمْ﴾ إلى ما ذكرناه من جهة الشهوات، فقال: ما بين يديه هي مغالطته فيما يراه، وما خلفه هي مسارقه في الخفاء، وعن يمينه هو جانب شهواته، وعن شماله هو نظره بقلبه وتحذيره فقد يغلبه الشيطان فيه، وهذا فيمن جعله في جهات ابن آدم الحاضرة لديه، ومنهم من جعلها في جهات أموره وشئونه فيتسع التأويل على هذا .

ثم أخبر تعالى عن قول الجنِّ المحييين لهؤلاء: ﴿لَنْ نَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ كما ذكرتم، بل كان لكم اكتساب الكفر والبصيرة فيه، وإنما حملناكم على ما حملنا عليه أنفسنا، وما كان لنا عليكم حجَّة ولا قوة إلا طغيانكم وإرادتكم الكفر، فقد حقَّ القول على جميعنا، وتعيَّن العذاب لنا، وإنا جميعاً لذائقون، والدُّوْقُ هنا مستعار، وبنحو هذا فسَّر قتادة وغيره أنه قول الجنِّ إلى ﴿عَوْنٍ﴾ .

ثم أخبر الله تعالى أنهم اشتروا جميع في العذاب وحصلوا فيه، وأن هذا فعله بأهل الجُزْمِ واختِابِ الإثم والكفر .

﴿٣٥﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

هؤلاء أهل الجُزْمِ الذين جهلوا الله سبحانه، وعظَّموا أصناماً وأوثاناً، فإذا قيل: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ - وهي كلمة الحق والعروة الوثقى - أصابهم كِبْرٌ، وعظَّم عليهم أن يتركوا أصنامهم وأصنام آبائهم، كما قيل عن أبي طالب إذ قال له رسول الله ﷺ: «أبي عمِّ، قل لا إله إلا الله أحاجُّ لك بها عند الله»، فقال

أبو جهل: أيرغب عن ملَّة عبدالمطلب؟ فقال آخر ما قال: أنا على ملَّة عبدالمطلب . ويعرضه عليه الصلاة والسلام قول لا إله إلا الله جرت السُّنة في تلقين الموتى المحتضرين ليخالفوا الكفرة ويخضعوا لها .

وأما الطائفة التي قالت: ﴿إِنَّا لَنَارِكُوا إِلَهَآ لِنَاعِ رَبِّنَا﴾ فهي من قريش، وإشارتهم بالشاعر المجنون هي لمحمد ﷺ، فردَّ الله تعالى عليهم، أي: ليس الأمر كما قالوا من أنه شاعر، بل جاء بالحق من عند الله، وصدَّق الرسل المتقدمين له كموسى وعيسى وإبراهيم عليهم السلام .

ثم أخبر تعالى مخاطباً لهم - ويجوز أن يكون التأويل: قل لهم يا محمد -: ﴿إِنَّكُمْ لَنَاقِبُونَ الْقَدَابِ الْآلِيَةَ﴾، وقرأ قوم بنصيب ﴿الْعَذَابِ﴾، ووَجَّهَهَا أنه أراد: (لذائقون)، فحذفت النون تخفيفاً، وهي قراءة قد لحت، وقرأ أبو السمال: ﴿لذائقون﴾ بالتنوين، ﴿الْعَذَابِ﴾ بالنصب. [الآلِيم]: المُولم .

ثم أعلمهم أن ذلك جزاء لهم بأعمالهم واكتسابهم، ثم استثنى عباد الله استثناءً منقطعاً، وهم المؤمنون الذين أخلصهم الله تعالى لنفسه . وقرأ الجمهور بفتح اللام من ﴿المُخْلِصِينَ﴾، وقرأ الحسن، وقاتدة، وأبو رجاء، وأبو عمرو بكسر اللام، ورُويت هذه التي في الصافات عن الحسن بفتح اللام .

﴿٤١﴾ - ﴿٤٩﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أُولَئِكَ﴾ إشارة إلى العباد

المخلصين، وقوله: ﴿مَمْلُومٌ﴾ معناه: عندهم، فقد قرئت عيونهم بعلم ما يستدرّ عليهم من الرزق، وبأن شهواتهم تأتيهم لحينها، وإلا فلو كان ذلك معلوماً عند الله فقط لما تخصص أهل الجنة بشيء، وقوله: ﴿وَهُمْ مُكْرَمُونَ﴾ تنميط بليغ للثعم؛ لأنه رُبّ مرزوق غير مُكْرَم، وذلك أعظم التنكيل.

و «السُرُزُ»: جمع سرير، وقرأ أبو السَّمال بفتح الراء الأولى، وفي هذا التأويل حديث مروى عن النبي ﷺ أنهم في الجنان ترفع عنهم ستور فينظر بعضهم إلى بعض، ولا محالة أن أعظم أحيانهم هم فيها متحيزون في قصورهم.

و «بَطَانٌ» معناه: يطوف الولدان، حسب ما فسّرت آية أخرى، و «الكَأْسُ» قال الزجاج، والطبري، وغيرهما: هو الإناء الذي فيه خمر وما يجري مجراه من الأنبذة ونحوها، ولا يُسَمَّى كأساً حتى يكون فيه هذا المشروب المذكور، وقال الضحاك: كلُّ كأس في القرآن هو خمر، وذهب بعض الناس إلى أن الكأس بنية مخصوصة في الأواني، وهو كلُّ ما اتسع فمه ولم يكن له مقبض، ولا يُراعى في ذلك كونه بخمر أم لا. وقوله: ﴿بَيْنَ مَعِينٍ﴾ يريد: من جارٍ مطرد، فالميم فيه أصلية؛ لأنه من الماء المعين، ويحتمل أن يكون من العين فتكون الميم زائدة، أي: ممّا يُعِين بالعين غير مستور ولا في حرز، وخمر الدنيا إنما هي معصورة مختزنة، وخمر الآخرة جارية أنهاراً.

وقوله سبحانه: ﴿لَا يَبَا﴾ يحتمل أن يعود على الكأس أو على الخمر، وهو الأظهر، قال الحسن بن أبي الحسن: خمر الجنة أشد بياضاً من اللبن، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿صَفْرَاءٌ﴾، فهذا موصوف به الخمر وحدها، و«لَذَّةٌ لِشَدِيدِينَ» أي: ذات لذّة، فوصفها بالمصدر اتساعاً، وقد استعمل هذا حتى قيل: لذّة بمعنى: لذية، ومنه قول الشاعر:

بَحْدِيثِكَ اللَّذَّةُ الَّذِي لَوْ كَلَّمْتَ
أَسَدَ الْقَلَاةِ بِهِ أَتَيْنَ سِرَاعاً

وقوله: ﴿لَا يَبَا عَوْلٌ﴾ لم تعمل (لا)؛ لأن الظرف حال بينها وبين ما شأنها أن تعمل فيه. و«الغَوْلُ»: اسم عام في الأذى، تقول: غاله كذا وكذا إذا ضره في خفاء، ومنه الغيلة في القتل، وقال عليه الصلاة والسلام في الرضاع: «لقد هممت أن أنهي عن الغيلة»، ومن اللفظة قول الشاعر:

مَضَى أَوْلُونَا نَاعِمِينَ بِعَيْشِهِمْ
جَمِيعاً وَعَالَتْنِي بِمَكَّةَ عَوْلٌ

أي: عاقتني عواتق، فهذا معنى من معاني «الغَوْل»، ومنه قول العرب في مثل من الأمثال: «ما له عمل ما غاله»، يضرب للرجل الحديد الذي لا يقوم لأمر إلا أغنى فيه، أو للرجل يدعى له بأن يؤدي ما أذاه، وقال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد: الغَوْلُ وجع في البطن، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة: هو صداع في الرأس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والاسم أعم من هذا كله، فنفي عن خمر الجنة جميع أنواع الأذى، إذ

هي موجودة في خمر الدنيا، وقد نحا إلى هذا العموم سعيد بن جبير، ومنه قول الشاعر:

وَمَا زَالَتِ الْخُمُرُ تَغْتَالِنَا
وَتَسْذِهِبُ بِالْأَوَّلِ الْأَوَّلِ

أي: تؤذينا بذهاب العقل. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿بُزُوفٌ﴾ بفتح الزاي، وكذلك في الواقعة، من قولك: نُزِفَ الرجل إذا سَكِرَ، ونَزَفْتُهُ الخمر، والنزيف: السكران، ومنه قول الشاعر:

فَلَسَّمْتُ فَأَهَا أَخَذَا بِقُرُونِهَا
شُرِبَ التَّزْيِيفُ بِبَرْدِ مَاءِ الْأَحْشَرِجِ
وبإذهاب العقل فسّر ابن عباس، ومجاهد، وقتادة ﴿بُزُوفٌ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي بكسر الزاي، وكذا في الواقعة، من: أنزف بمعنيين: أحدهما سَكِرَ، ومنه قول الأبيورد الرياحي:

لَعَمْرِي لَيْتَ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ
لَيْسَ التَّدَامِي كُنْتُمْ أَلْ أَبْجَرَا
والثاني بُعد شربائه، يقال: أنزف الرجل إذا تمّ شربائه، فهذا كله منفي عن أهل الجنة، وقرأ عاصم هنا بفتح الزاي، وفي الواقعة بكسر الزاي، وقرأ ابن أبي إسحق بفتح الياء وكسر الزاي.

قوله تعالى: ﴿فَصَبْرٌ تَلَقَّوهُ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد، وقتادة: معناه: على أزواجهم، لا ينظرون إلى غيرهم، ولا يمتد طرف إحداهم إلى أجنبي، فهذا هو قصر الطّرف. و«عَيْنٌ»: جمع عيناء، وهي الكبيرة العين في جمال.

﴿٥٠﴾ - ﴿٥١﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا التساؤل الذي بين أهل الجنة هو تساؤل راحة وتنعم، يتذكرون أمورهم في الجنة وأمر الدنيا وحال الطاعة والإيمان فيها، فأخبر تعالى عن قول قائل منهم في قصته، فهو مثال لكل من له قرين سوء، ويعطي هذا المثال التحفظ من قرناء السوء، واستشعار معصيتهم، وعبر عن قول هذا الرجل بالماضي من حيث كان أمراً متيقناً حاصلًا لا محالة. فقال ابن عباس

وأما قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكَوْنٌ﴾ فقد اختلف الناس - ما هو؟ فقال السدي، وابن جبير: شبه ألوانهن بلون قشر البيضة الداخلي، وهو الغزقيء، وهو المكنون، أي: المصون في كِبْن، ورجحه الطبري، قال: وأما خارج قشر البيضة فليس بمكنون، وقال الجمهور: شبه ألوانهن بلون قشر بيض النعام، وهو بياض قد خالط صفرة حسنة، قالوا: والبيض نفسه في الأغلب هو المكنون بالريش، ومتى شدت به حال فلم يكن مكنوناً خرج عن أن يُشَبَّه به، وهذا قول الحسن، وابن زيد، ومنه قول امرئ القيس:

كَيْبَرِ الْمَقَانِئَةِ الْبَيَاضِ بَصْفَرَةٍ
غَذَاهَا نَجِيمُ الْمَاءِ غَيْرَ الْمُحَلَّلِ

وهذا المعنى كثير في أشعار العرب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما حكى الطبري -: البيض المكنون أراد به الجوهر المصون.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول لا يصح عندي عن ابن عباس رضي الله عنهما؛ لأنه ترده اللفظة من الآية.

وقالت فرقة: إنما شبههن بالبيض المكنون تشبيهاً عاماً، جملة المرأة بجملة البيضة، وأراد بذلك: تناسب أجزاء المرأة، وكل جزء منها ينسبته في الجودة إلى نوعه نسبة الآخر من أجزائها إلى نوعه، فنسبة شعرها إلى عينها مستوية إذ هما غاية في نوعيهما، والبيضة أشد الأشياء تناسب أجزاء؛ لأنك من حيث جنتها فالنظر واحد.

يَسْأَلُ أَوْلَآئِكَ لِيَنَ الْمَصْدِقِينَ ﴿٥٠﴾ وَأَمَّا مِنَّا وَكَثَرُوا بَارِعَظْمَاءِ نَا
لْمَدِينُونَ ﴿٥١﴾ قَالَ هَلْ أَنتُمْ مُظْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَطْلَعُ قَرَأَهُ فِي سَوَاءِ
الْحَجِيمِ ﴿٥٣﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِن كَدَّتْ لَأَرْوِينَ ﴿٥٤﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي
لَكُنْتُ مِنَ الْمَحْضَرِينَ ﴿٥٥﴾ أَفَأَمَّا مَن بَيَّعَتِنَا ﴿٥٦﴾ إِلَّا أَمْوَالَنَا
الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُعَدِّيْنَ ﴿٥٧﴾ إِنَّ هَذَا لَمَرْءٌ أَلْفَرُ الْعَظِيمِ ﴿٥٨﴾
لِيُنَالِ هَذَا فَيَعْمَلُ الْعَمَلُونَ ﴿٥٩﴾ أَذَلِكَ خَيْرٌ فَرًّا لَّأَمْ شَجَرَةٌ
الزَّقِيمِ ﴿٦٠﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِيهَا نِسْتَةَ لِّلظَّالِمِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّهَا شَجَرَةٌ
تَخْرُجُ مِن أَصْلِ الْحَجِيمِ ﴿٦٢﴾ طَلَعَهَا كَأَنَّهُ رُءُوسُ الشَّيَاطِينِ
﴿٦٣﴾ فَأَنبَأَهُمْ أَنَّ كُؤُونَ مِنهَا فَصَالُونَ وَمِنهَا الْبَطُونُ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ
عَلَيْهَا أَسْرُؤًا مِّنْ حَجِيمِ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرَجِعَهُمْ لِآلِ الْحَجِيمِ ﴿٦٦﴾
إِنَّهُمْ أَلْفَاؤُا عَابَاءُ مَرْضَىٰ آلِينَ ﴿٦٧﴾ فَمَهْمُ عَلَىٰ عَائِدِهِمْ مَهْرُوعُونَ ﴿٦٨﴾
وَلَقَدْ ضَلَّ بِقَائِلِهِمْ كَثَرٌ أَلْوَالِينَ ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ
مُنذِرِينَ ﴿٧٠﴾ فَأَنْظَرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذِرِينَ ﴿٧١﴾
إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ ﴿٧٢﴾ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحًا فَلَنِعْمَ
الْمُجِيبُونَ ﴿٧٣﴾ وَنَحْنُ نُهُ وَأَهْلُهُ مِرَاكِبُ الْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾

٤٤٨

ويتصدق بنحو ذلك الثمن ليشتري به من الله في الجنة، فكان في أمرهما في الآخرة ما تضمنته هذه الآية. قال الطبري: وهذا الحديث يؤيد قراءة التشديد. و﴿مِنَ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ معناه: مجازون محاسبون، قاله ابن عباس، وقناة، والسدي. والدين: الجزاء، وقد تقدم.

﴿٥٢﴾ - ﴿٥٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

في الكلام حذف تقديره: فقال لهذا الرجل حاضرهم من الملائكة: قرينك هذا في جهنم يُعَذَّبُ، فقال عند ذلك: ﴿هَلْ أَنتُمْ مُظْلِمُونَ﴾. ويحتمل أن يخاطب بـ ﴿أَنْتُمْ﴾ الملائكة، ويحتمل أن يخاطب رفقاءه في الجنة، ويحتمل أن يخاطب خدَمته، وكل هذا حكى المهدوي، وقرأ الجمهور: ﴿مُظْلِمُونَ﴾ بفتح الطاء مشددة، وقرأ أبو عمرو - في رواية

وغيره: كان هذا من البشر مؤمن وكافر، وقالت فرقة: هما اللذان ذكر الله في قوله: ﴿يَتَّبِعِ لَرٍ أَنحَذُ فَلَأَنَّا نَحِيلًا﴾، وقال مجاهد: كانا إنسيًا وجنبيًا من الشياطين الكفرة، والأول أصوب. وقرأ الجمهور: ﴿لِيَنَ الْمَصْدِقِينَ﴾ بتخفيف الصاد، من التصديق، وقرأت فرقة بالتشديد للصاد، من التصدق.

وقال قرأت بن ثعلبة البهراني في قصص هذين: إنهما كانا شريكين بشمانية آلاف دينار، فكان أحدهما يعبد الله ويقصر من التجارة والنظر، وكان الآخر كافرًا مُقْبَلًا على ماله، فحلَّ الشركة مع المؤمن وبقي وحده لتقصير المؤمن، ثم إنه جعل كلما اشترى شيئاً - من دارٍ وجارية وبستان ونحوه - عَرَضَهُ على المؤمن وقخر عليه، فيمضي المؤمن عند ذلك

حسين - بسكونها مع فتح النون، وقرأ أبو البرهسم بسكونها وكسر النون على أنها ضمير المتكلم، ورَدَّ هذه القراءة أبو حاتم وغيره ولَحَّوْهَا؛ وذلك أنها جمعت بين نون الإضافة ونون المتكلم، والوجه أن تقول: «مُطْلِعِي»، ووجه القراءة أبو الفتح ابن جني وقال: أنزل الفاعل منزلة الفعل المضارع، وأنشد الطبري على هذا:

وَمَا أُذْرِي وَظَنِّي كُلُّ ظَنَّ
أَمْسَلُمْنِي إِلَى قَوْمِي شَرَّاجِي؟
قال الفراء: يريد: شراحيل.

وقرأ الجمهور: «تَأَكَّلِمُ» موصولة الألف مشددة الطاء المفتوحة، وقرأ أبو عمرو في رواية الحسين بضم الألف وسكون الطاء خفيفة وكسر اللام، وهي قراءة أبي البرهسم. قال الزجاج: هي قراءة من قرأ: «مُطْلِعُونَ» بكسر النون، ورُوي أن لأهل الجنة كوى وطاقت يشرفون منها على أهل النار إذا شاءوا على جهة النعمة والعبارة؛ لأن لهم في عذاب أهل النار وتوبيخهم سروراً وراحة، حكاه الرماني عن أبي علي.

و «سَوَاءُ الْجَحِيمِ» وسطه، قاله ابن عباس، والحسن، والناس، وسُمِّي بسواء الجحيم لاستواء المسافة منه إلى الجوانب، والجحيم متراكم جمر النار، ورُوي عن مطرف بن عبدالله، وحليد العصري أنه رآه قد تغير جبرته وسينزه، أي: تبدلت حاله، ولولا ما عرفه الله إياه لم يميزه، فقال له المؤمن عند ذلك: «تَاللَّهِ إِنْ كِدْتُ لَتَرَوِينَ»، أي: تهلكني بإغوائك،

والردي: الهلاك، ومنه قول الأعيى:

أَفِي الطُّوفِ خَفَّتْ عَلَيَّ الرَّدَى
وَكَمْ مَنْ رَدَّ أَهْلَهُ لَمْ يَرَمْ

وفي مصحف ابن مسعود: «إِنْ كَدَّتْ لَتُغْوِينَ» بالواو، من الغي، وذكرها أبو عمرو الداني بالراء، من الإغراء، والشاء في هذا كله مضمومة.

ورفع «يَعْمَهُ رَبِّي» بالابتداء، وهو إعراب ما كان بعد (لولا) عند سيبويه، والخبر محذوف تقديره: تداركته ونحوه، و«الْمُخَصَّرِينَ» معناه: في العذاب.

وقول المؤمن: «أَفَمَا نَحْنُ بِمَبْتَلِينَ» إلى قوله: «وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ» يحتمل أن يكون مخاطبة لرفقائه، لما رأى ما نزل بقرينه ونظر حاله في الجنة وحال رفقائه قدر النعمة قدرها، فقال لهم - على جهة التوقيف - ما قال، ويجيء - على هذا التأويل - قوله: «إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوْرُ الْعَظِيمِ» وما بعده متصلأ بكلامه، خطاباً لرفقائه. ويحتمل أن تكون «أَفَمَا نَحْنُ» إلى قوله:

«بِمُعَذَّبِينَ» مخاطبة لقرينه على جهة التوبيخ، كأنه يقول: أين الذي كنت تقول من أننا نموت وليس بعد الموت عقاب ولا عذاب؟ ويكون قوله تعالى: «إِنَّ هَذَا لَمَوْ الْقَوْرُ الْعَظِيمِ» إلى قوله: «فَلْيَمَلِكِ الْعَمَلُونَ» يحتمل أن يكون من خطاب المؤمن لقرينه، وإليه ذهب قتادة، ويحتمل أن يكون من خطاب الله تعالى لمحمد ﷺ وأُمَّته، وتقوى هذا لأن قول المؤمن: «لِيُنَالِ

هَذَا فَلْيَمَلِكِ الْعَمَلُونَ» والآخرة ليست بدار عمل - يفتلق إلا على تجوز، كأنه يقول: لمثل هذا كان ينبغي أن يعمل العاملون.

﴿٦٢﴾ - ﴿٦٧﴾ تفسير قوله عز وجل: الألف من قوله تعالى: «أَذَلَّكَ» للتقرير، والمراد تقرير قريش والكفار، وجاء «خَيْرٌ نُزُلًا» بلفظ التخيير بين شيئين لا اشتراك بينهما من حيث كان الكلام تقريراً، والاحتجاج يقتضي أن يوقف المتكلم خصمه على قسمين أحدهما فاسد، ويحملة بالتقرير على اختيار أحدهما، ولو كان الكلام خبيراً لم يَجُزْ ولا أفاد أن يقول: الجنة خير من شجر الزقوم. وأما قوله تعالى: «خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا» فهذا على اعتقادهم في أن لهم مستقراً خيراً، وقد تقدم إيعاب هذا المعنى. وفي بعض البلاد الجدية المجاورة للصحاري شجرة مَرَّة مسمومة لها لبن إن مس جسم أحد تورم ومات منه في أغلب الأمر، تُسَمَّى شجرة الزقوم، والتزقم في كلام العرب: البلع على شدة وجهه.

وقوله تعالى: «إِنَّا جَعَلْنَاهَا قِتْنَةً لِلْفَالِغِينَ»، قال قتادة، ومجاهد، والسدي: يريد أبا جهل ونظراً، وذلك أنه لما نزلت الآية قال الكفار: وكيف يخبر محمد عن النار أنها نبت الأشجار وهي تأكلها وتذهبها؟ ففتنوا بذلك أنفسهم وجهلة أتباعهم، وقال أبو جهل: إنما الزقوم الثمر بالزبد، ونحن نترقمه. وقوله: «وَإِنْ أَسْبَلِ الْجَعْرِ» يعني ملاصق أساسها الذي لها كالجدران، وفي قراءة ابن

مسعود: ﴿إنها شجرة ثابتة في أصل الجحيم﴾.

قوله: ﴿كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ﴾ اختلف الناس في معناه - فقالت فرقة: شُبُه بثمر شجرة معروفة يقال لها: رُؤُوس الشياطين، وهي بناحية اليمن، يقال لها: أَسْتَن، وهي التي ذكر النابغة في قوله:

.... من أَسْتَنِ سُودِ أَسَافِلُهُ

ويقال: إنه الشجر الذي يقال له: الصُوم، وهو الذي يعني ساعدة بن جُوَيْه في قوله:

مُوَكَّلٌ بِشُدُوفِ الصُّومِ يَرْقُبُهَا
مِنَ الْمَعَارِبِ مَخْطُوفِ الْحَشَا زَرِيمٌ

وقالت فرقة: شبه برؤوس صنف من الحيات يقال له: الشياطين، وهي ذات أعراف، ومنه قول الشاعر:

عَشَجِرْدٌ تَحْلِفُ جِينٌ أَخْلِفُ
كَمِثْلِ شَيْطَانِ الْحَمَاطِ أَعْرَفُ

وقالت فرقة: شبه بما استقر في النفوس من كراهة رؤوس الشياطين وقبحها وإن كانت لم تُر، وهذا كما تقول للأشعث المنتفش الشعر الكريه المنظر: هذا وجه شيطان، ونحو هذا قول امرئ القيس الكندي:

أَيْفُثْلُنِي وَالْمَشْرِفِي مُضَاجِعِي
وَمَسْئُونَةٌ زُرُقٌ كَأَنْبَابِ أَعْوَالِ؟

فإنما شبه بما استقر في النفوس من هيبتها.

و «الشُّوبُ»: المزج والخلط، قاله ابن عباس، وقتادة. وقرأ شيبان النحوي بضم الشين، قال الزجاج: فَتَحُّهَا الْمَضْدَرُّ وَضَمُّهَا الْأَسْمُ.

و«الحميم»: السخن جداً من الماء ونحوه، وقد يريد به ها هنا شرابهم الذي هو طينة الخبال وما ينماع منهم، هذا قول جماعة من المفسرين.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَخَذُوا عِزًّا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ عَصَا مُوسَى بَدَّتْ كَنَازِرُهُمْ وَهِيَ تَكُونُ فِي نَحْوِ الْأَعْيُنِ فَأَنظَرْتَهُمُ عَلَىٰ آلِهَتِهِمْ كَأَنَّهِمْ أَبْصَارًا لَا تَرْوِي سِيلًا وَجَعَلْنَاهُمْ قُلُوبًا سَمْعًا وَأَسْفَلَ مِنَّا بَصَرًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا دَرِيَّتَهُ هَرَابًا لِلْآبِقِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا دَرِيَّتَهُ هَرَابًا لِلْآبِقِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا دَرِيَّتَهُ هَرَابًا لِلْآبِقِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا دَرِيَّتَهُ هَرَابًا لِلْآبِقِينَ﴾

الاحتراق دون أكل، وبكل احتمال قيل. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَأَنَّ مُنْقَلَبَهُمْ لِأَيِّ الْجَحِيمِ﴾، وفي كتاب أبي حاتم عنه: «مَقِيلُهُمْ»، من القائلة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ أَلْقَوْا﴾ إلى آخر الآية تمثيل لقريش، و«يَهْرَعُونَ»، قال قتادة، والسدي، وابن زيد: معناه: يسرعون كأنهم يساقون بِعَجَلَةٍ، وهذا تكسبهم للكفر وحرصهم عليه، والإهراع: سَيْرٌ شديد، قال مجاهد، كهيئة الهرولة وفيه شبه رعدة، وكأنه أيضاً سير الفارغ.

(٧١) - (٧٢) تفسير قوله عز وجل:

مَثَلُ تَعَالَى لِقَرِيشٍ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِالْأُمِّ الَّتِي ضَلَّتْ قَدِيمًا، وَجَاءَهَا الْإِنْدَاذُ، وَأَهْلَكَهَا اللَّهُ تَعَالَى بَعْدَ ذَلِكَ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَأَنْظَرْتَهُمْ كَأَنَّ عَيْنَهُ

وَجَعَلْنَا دَرِيَّتَهُ هَرَابًا لِلْآبِقِينَ (٧١) وَرَكَعًا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ (٧٢) سَلَّمَ عَلَ نُوحٍ فِي الْغَمَامِ (٧٣) إِنَّا كَذَبْنَا نُبِيَّ الْمُحْسِنِينَ (٧٤) إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ (٧٥) ثُمَّ أَعْرَفْنَا الْأَخْرِينَ (٧٦) وَأَتَيْنَا سَبْعِينَ نَجْمًا فِي السَّمَاءِ (٧٧) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا عَبَدُونَ (٧٨) أَيِفْكَاهُ إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ (٧٩) فَمَا ظَنُّكُمْ رَبِّ الْغَالِبِينَ (٨٠) فَظَنُّوا نَظْرَةً فِي الشُّجُورِ (٨١) فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ (٨٢) فَتَرَاوَعْتَهُ مَنِينٌ (٨٣) وَأَرَادَ إِلَهُ الْهِنْدِ فَقَالَ الْآتَا كُونَ (٨٤) مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ (٨٥) فَرَأَى عَلَيْهِمْ صَرَخًا بِاللَّيْلِ (٨٦) فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَرْفُونَ (٨٧) قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْجُوا (٨٨) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ (٨٩) قَالُوا اتَّبِعْنَا قَالِقُوهُ فِي الْجَحِيمِ (٩٠) فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ (٩١) وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَيْ رَبِّي سَيِّدِينَ (٩٢) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (٩٣) فَتَسَرَّنَا بِعَلِيِّ سَلِيمٍ (٩٤) فَأَمَّا بَلَدٌ مَعَهُ السَّمْعَىٰ قَالَ يَبْنِي إِيَّايَ أَرَىٰ فِي الْمَنَارِ أَرَىٰ أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَتَابَعُ أَفْعَلُ مَا نُؤْمَرُ سَعْدِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٩٥)

الَّذِينَ﴾ يقتضي الإخبار بأنه عذبهم، ولذلك حسن الاستثناء في قوله: ﴿إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ﴾.

ونداء نوح عليه السلام قد تضمن أشياء: منها الدعاء على قومه، وسؤال النجاة، وطلب الثمرة، وفي جميعها وقعت الإجابة. وقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْمَ الْكُفْرُومُ﴾ يقتضي الخبر بأن الإجابة كانت على أكمل ما أراد نوح عليه السلام. و «الكَرْبُ الْعَظِيمُ»، قال السدي: هو الغرق، ومن الكرب تكذيب الكفرة، وركوب الماء وهوله، قال الرُّماني: الكرب: الخبر الثقيل على القلب.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا دَرِيَّتَهُ هَرَابًا لِلْآبِقِينَ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما، وقتادة: أهل الأرض كلهم من ذرية نوح، وقال الطبري: العرب من أولاد سام،

والسودان من أولاد حام، والشرك والصفقلب وغيرهم من آل يافث. وروى عن سُمرة بن جندب أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «سام وحام ويافث»، وقالت فرقة: إن الله أبقى من ذرية نوح، ومدّ نسله، وبارك في ضمّئيه، وليس الأمر أن أهل الدنيا انحصروا إلى نسله، بل في الأمم من لا يرجع إليه، والأول أشهر عن علماء الأمة، وقالوا: نوح هو آدم الأصغر.

وقوله تعالى: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ معناه: ثناء حسناً جميلاً باقياً آخر الدهر، قاله ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، والسدي، وقوله: ﴿سَلَّمَ﴾ - على هذ التأويل - رفع بالابتداء مستأنف، سلم الله به عليه ليقندي بذلك البشر، قاله الطبري: هذه أمة نوح في العالمين أن يذكره أحد بسوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا جزاء ما صبر طويلاً على أقوال الكفرة الفجرة.

وقال الفراء وغيره من الكوفيّين: قوله: ﴿سَلَّمَ﴾ الآية، جملة في موضع نصب بـ ﴿تَرَكْنَا﴾، وهذا هو المتروك عليه، فكأنه قال: وتركنا على نوح تسليماً، يُسلم عليه إلى يوم القيامة، وفي قراءة عبدالله: ﴿سَلَاماً﴾ نصباً بـ ﴿اتْرَكْنَا﴾، صلى الله على نوح وعلى آله وسلم تسليماً، وشرف وكرم، وعلى جميع أنبيائه.

و ﴿فِي الْآخِرِينَ﴾ معناه: في الباقين غابر الدهر، والقراءة بكسر الخاء، وما كان من إهلاك فهو بفتحها.

٤٧ - ٤٨ - تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى إنعامه على نوح بالإجابة كما اقترح، وأثنى تعالى على نوح بالإحسان لصبره على أذى قومه ومطاولته لهم، وغير ذلك من عبادته وأفعاله ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ يقتضي أنه أغرق قوم نوح وأئمة ومكذّبيه، وليس في ذلك نصّ على أن الغرق عمّ جميع أهل الأرض، لكن قد قال به جماعة من العلماء، وأسندت به أحاديث أنه لم يبق إلا من كان معه في السفينة، وعلى هذا يترتب القول بأن الناس اليوم من ذريته، وقالوا: لم يكن الناس يومئذ بهذه الكثرة؛ لأن عهد آدم عليه السلام كان قريباً، وكانت دعوة نوح عليه السلام ونبوته قد بلغت جميعهم لطول المدة واللُبث فيهم، وكان الجميع كفرة عبدة أوثان لم ينسبهم الحق إلى نفسه، فلذلك أغرق جميعهم.

قوله تعالى: ﴿مِن شِعْبِ بِلَع﴾ قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والسدي: الضمير عائد على نوح عليه السلام، والمعنى: في الدين والتوحيد، وقال الطبري وغيره عن الفراء: الضمير عائد على محمد ﷺ، والإشارة إليه. وذلك كله محتمل؛ لأن «الشعبة» معناها: الصنف الشائع الذي يشبهه بعضه بعضاً، والشَيْخُ: الفرق، وإن كان الأعرف أن المتأخر في الزمن هو شيعة للمتقدم، ولكن قد يجيء في الكلام عكس ذلك، قال الشاعر:

وَمَالِي إِلَّا آلَ أَخْمَدَ شَيْعَةً
وَمَالِي إِلَّا مُشْعَبَ الْحَقِّ مُشْعَبٌ
فجعلهم شيعة لنفسه، وقوله: ﴿يَقَلِّبُ سَلِيرًا﴾، قال المفسرون: يريد: من الشك والشرك وجميع النقاص التي تلحق قلوب بني آدم كالخل والحسد والكبر ونحوه، قال عروة بن الزبير: لم يلعن شيئاً قط.

قوله تعالى: ﴿إِنكُمَا إِلَهَةٌ دُونَ اللَّهِ تَرْيُدُونَ﴾، ﴿إِنكُمَا﴾ استفهام بمعنى التقرير، أي: أكذباً ومُحالاً، إلهة دون الله تريدون؟ ونصب ﴿إِلَهَةٌ﴾ على البدل من ﴿إِنكُمَا﴾، وسهلت الهمزة الأصلية من الإلحاق. ﴿فَمَا تَنْكُرُ﴾ توبيخ وتحذير وتوعّد.

ثم أخبر تعالى عن نظرة إبراهيم عليه السلام في النجوم، روي أن قومه كان لهم عيد يخرجون إليه، فدعوا إبراهيم عليه السلام للخروج معهم، فنظر حينئذ واعتذر بالسقم، وأراد البقاء خلفهم إلى الأصنام، وقال ابن زيد، عن أبيه: أرسل إليه ملكهم أن غداً عيد فاحضر معنا، فنظر إلى نجم طالع فقال: إن هذا يطلع مع سقمي، فقالت فرقة: معنى ﴿فَنظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ﴾ أي: فيما نجم إليه من أمر قومه وحاله معهم، وقال الجمهور: نظر في نجوم السماء، وروي أن علم النجوم كان عندهم منظوراً فيه مُستعملاً، فأوهمهم هو من تلك الجهة، وذلك أنهم كانوا أهل رعاية وفلاحة، وهاتان المعيشتان يُحتاج فيهما إلى نظر في النجوم.

واختلف في قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾ -

فقال فرقة: هي كذبة في ذات الله، أخبرهم عن نفسه أنه مريض، وأن الكوكب أعطاه ذلك، قال ابن عباس وغيره: أشار لهم إلى مرض وسقم يُعدي كالطاعون، ولذلك تَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ، أي: فَارَيْنَ منه. وقال بعضهم: بل تَوَلَّوْا مُذْبِرِينَ لكفرهم به واحتقارهم لأمره، وعلى هذا التأويل - في أنها كذبة - يجيء الحديث: «لم يكذب إبراهيم إلا ثلاث كذبات: قوله: ﴿إِنِّي سَقِيمٌ﴾، وقوله: ﴿بَلْ كَعَلَهُ كِبْرَهُمْ هَذَا﴾، وقوله في سارة: هي أختي».

وقالت فرقة: ليست بكذبة، ولا يجوز الكذب عليه، ولكنها من المعارض، أخبرهم بأنه سقيم في المال، أو على عرف ابن آدم؛ لأن ابن آدم لا بُدَّ أن يسقم ضرورة. وقيل - على هذا - أراد: إني سقيم النفس من أموركم وكفركم، فظهر لهم من كلامه أنه أراد سقماً بالجسم حاضراً، وهكذا هي المعارض. وهذا التأويل لا يرده الحديث وذكر الكذبات؛ لأنه قد يقال لهذا كِذْبٌ على الاتساع بحسب اعتقاد المخبر والكذب الذي هو قصد قول الباطل والإخبار بصدق ما في النفس بغير منفعة شرعية هو الذي لا يجوز على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

(٩١) - (٩٨) تفسير قوله عز وجل:

«رَاعٍ» معناه: مأل، ومنه قول عدي بن زيد:

حَيْثُ لَا يَنْفَعُ الرَّيَاعُ وَلَا يَنْدُ
مَنْعُ إِلَّا الْمُضَادِقُ السُّخْرِيْرُ
وقوله: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ هو على جهة الاستهزاء بِعِبَادَةِ تلك الأصنام، ورُوي

أن عبادتهم كانت ترك الطعام في بيوت الأصنام، ويعتقدون أنها تصيب منه شميماً، ونحو هذا من المعتقدات الباطلة، ثم كان خدمة البيت يأكلونه. فلما دخل إبراهيم عليه السلام وقف على الأكل والنطق والمخاطبة للأصنام بقصد الاستهزاء بعبادتها، ثم مال عند ذلك إلى ضرب تلك الأصنام بفأس حتى جعلها جُذَازاً.

واختلف في قوله: ﴿بِالْيَمِينِ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُمنى يديه، وقيل: أراد: بِقُوَّتِهِ؛ لأنه يجمع يديه بالفأس، وقيل: أراد بيمين القسم في قوله: ﴿وَتَأَلَّهُ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَدَكَ﴾، و﴿سَرَّيَا﴾ نصب على المصدر بفعل مضمَر من لفظه، وفي مصحف عبدالله: ﴿صَفْقًا بِالْيَمِينِ﴾. والضمير في قوله: ﴿فَأَقْبَلُوا﴾ لكفار قومه، وقرأ الجمهور: ﴿يَرْفُونَ﴾ بفتح الياء، من: رَفَّ إذا أَسْرَعَ، ورَفَّت الإبل إذا أَسْرَعَتْ، ومنه قول الفرزدق:

فَجَاءَ قَرِيحِ الشَّوْلِ قَبْلَ إِقَالِهَا
يَرْفُ وَجَاءَتْ خَلْفَهُ وَهِيَ رَفْفُ
ومنه قول الهذلي:

وَرَفَّتِ الشَّوْلُ مِنْ بَرْدِ الْعَيْشِيِّ كَمَا
رَفَّتِ النَّعَامُ إِلَى حَفَايِهِ الرُّوحُ
وقرأ حمزة وحده: ﴿يَرْفُونَ﴾ بضم الياء، من: أَرَفَّ إذا دخل في الرَّفِيفِ، وليست بهمزة تعدية، هذا قول، وقال أبو علي: معناها: يحملون غيرهم على الرَّفِيفِ، وحكاه عن الأصمعي، وهي قراءة مجاهد، وابن وثاب، والأعمش. وقرأ مجاهد، وعبدالله بن زيد:

﴿يَرْفُونَ﴾ بفتح الياء وتخفيف الفاء من: وَرَفَّ يَرْفُ، وهي لغة منكروة، قال الكسائي: والفراء لا يعرفها بمعنى: رَفَّ. وقال مجاهد: الوَرْفُ: السيلانُ.

وذهبت فرقة إلى أن ﴿يَرْفُونَ﴾ معناه: يَتَمَهَّلُونَ في مشيهم كزفاف العروس، والمعنى أنهم كانوا على طمأنينة من أن ينال أحد أَلَتِهِمْ بسوءٍ لِعِزَّتِهِمْ، فكانوا لذلك مُتَمَهِّلِينَ، وَرَفَّ بمعنى أَسْرَعَ هو المعروف.

ثم إن إبراهيم عليه السلام قال لهم في محاررة طويلة قد تضمنتها الآية: ﴿أَتَعْبُدُونَ مَا تَخْلُقُونَ﴾، أي: أتجعلون إلهاً مُعْتَمَداً شيئاً صنعتموه من عود وحجر، وعلمتموه بأيديكم؟ وأخبرهم بخبر لا يمكنهم إنكاره وهو قوله: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ﴾، واختلف المتأولون في قوله: ﴿وَمَا تَعْبُدُونَ﴾ - فذهب جماعة من المفسرين إلى أن [ما] مصدرية، والمعنى: وأعمالكم، وهذه الآية عندهم قاعدة في خلق أفعال العباد، وذلك موافق لمذهب أهل السنة في ذلك، وقالت فرقة: هي بمعنى الذي، وقالت فرقة: [ما] استفهام، وقالت فرقة: هي نفي، بمعنى: وأنتم لا تعملون شيئاً في وقت خلقكم ولا قبله، ولا تقدرتون على شيء، والمعزلة مضطرة إلى الزوال عن أن تجعل [ما] مصدرية.

و «الْبَيْتَانِ» قيل: كان في موضع إيقاد النار، وقيل: بل كان للمنجنيق الذي رمي عنه، وقد تقدم قصص نار إبراهيم عليه السلام، وجعلهم الله الأسفلين بأن غلبوا وذلوا ونالتهم العقوبات.

﴿٩٩﴾ ﴿١٠٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قالت فرقة: إن قوله إبراهيم ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي﴾ كان بعد خروجه من النار، وأنه أشار بذهابه إلى هجرته من أرض بابل حيث كانت مملكة نمرود، فخرج إلى الشام، ويُرْوَى: إلى بلاد مصر. وقالت فرقة: إن قوله: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ ليس مراده به الهجرة كما في آية أخرى، وإنما مراده لقاء الله بعد الاحتراق؛ لكأنه ظن أن النار سيموت فيها، فقال هذه المقالة قبل أن يُطرح في النار، فكأنه قال: إني سائر بهذا العمل إلى ربِّي، وهو سيهديني إلى الجنة، نحا إلى هذا المعنى قتادة، وللعارفين بهذا الذهاب تمثيل واحتجاج في الصفاء، وهو مَخْمَلٌ حسن في ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ﴾ وحده، والأول أظهر في نمط الآية عمًا بعده؛ لأن الهداية معه تَنَزَّبَ، والدعاء في الولد كذلك، ولا يصح مع ذهاب الفناء.

قوله تعالى: ﴿مِنَ الصَّالِحِينَ﴾، [مِنَ] للشبغ، أي: ولدًا يكون في عداد الصالحين، وقوله: ﴿فَبَشِّرْهُ﴾، قال كثير من العلماء، منهم العباس بن عبدالمطلب - وقد رفعه - وعلي، وابن عباس، وابن مسعود، وكعب، وعبيد بن عمير: هي البشارة المعروفة بإسحق، وهو الذبيح، وكان أمر ذبحه بالشام، وقال عطاء، ومقاتل: كان بيت المقدس، وقال بعضهم: بل بالحجاز، جاء مع ابنه على البراق، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: والبشارة التي بعد هذه في هذه الآية هي بشارة نبوته، كما قال في موسى

عليه السلام: ﴿وَوَيْفَا لِمَنْ رَمَيْنَا آخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾، وهو كان قد وهبه له قبل ذلك، وإنما أراد النبوة، فكذلك هذه. وقالت هذه الفرقة في قول الأعرابي: «يا بْنَ الذَّبِيحِينَ»: أراد إِسْحَاقَ، والعمُّ أَبٌ، وقيل: إنه أمر بذبحه بعد ما وُلِدَ له يعقوب، فلم يتعارض الأمر بالذبح مع البشارة بولده وَوُلِدَ وَلَدَهُ.

وقالت فرقة: هذه البشارة هي بإسماعيل عليه السلام، وهو الذبيح، وأمرُ ذبحه كان بالحجاز وبمنى، وثُمَّ رمى إبراهيم عليه السلام الشيطانَ بالجمرات، وقيل الكبش وسنُّ السُّنن، وهذا قول ابن عباس أيضاً، وابن عمر رضي الله عنهما، وروي عن الشعبي، والحسن، ومجاهد، ومعاوية بن أبي سفيان - ورفعته معاوية إلى النبي ﷺ - ومحمد بن كعب، وبه كان أبي رضي الله عنه يقول، ويستدل بقول الأعرابي للنبي ﷺ: «يا بن الذَّبِيحِينَ»، ويقول عليه الصلاة والسلام: «أنا ابن الذَّبِيحِينَ»، يعني إسماعيل وعبدالله أباه، وَيَسْتَدِلُّ بأن البشارة اقترنت من ورائه يعقوب، فلو قال له في صباه: اذبحه، لَنَاقَضَ ذلك البشارة يعقوب عليهم السلام، وَيَسْتَدِلُّ بظاهر هذه الآية أنه بُشِّرَ بإسماعيل وانقضى أمرُ ذبحه، ثم بُشِّرَ بإسحق بعد ذلك، وسمعه يقول: كان إبراهيم يجيء من الشام إلى مكة على البراق زائراً ويعود من يومه. وقد ذكر ذلك الثعلبي عن سعيد بن جبير، ولم يذكر أن ذلك على البراق، وذكر القصة عن ابن إسحق وفيها ذكر

البراق كما سمعت أبي يحيى.

وذكر الطبري أن ابن عباس رضي الله عنهما قال: الذبيح إسماعيل، وتزعم اليهود أنه إسحق، وكذبت اليهود، وذكر أيضاً أن عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه سأل عن ذلك رجلاً يهودياً كان أسلم وحسن إسلامه فقال: الذبيح إسماعيل عليه السلام، وإن اليهود تعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن تكون هذه الآيات والفضل والله في أيكم.

و «السَّعْيُ» في هذه الآية العمل والعبادة والمعونة، هذا قول ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد. وقال قتادة: السَّعْيُ على القدم، يريد سعيًا متمكنًا، وهذا في المعنى نحو الأول، وقرأ الضحاك: «معه السَّعْيُ وأسر في نفسه حزنًا»، قال: وهكذا في حرف ابن مسعود، وهي قراءة الأعمش، وقوله: ﴿إِنِّي أَرَى فِي السَّمَاءِ آيَةً أُنذِرُكُمْ﴾ يحتمل أن يكون رأى ذلك بعينه، ورؤيا الأنبياء وحي، وعيّن له وقت الامتثال، ويحتمل أن أمر في نومه بذبحه فعبر هو عن ذلك، أي: إني رأيت في النوم ما يوجب أن أذبحك.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مَاذَا تَرَى﴾ بفتح التاء والراء، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿مَاذَا تُرَى﴾ بضم التاء وكسر الراء، على معنى: ما يظهر منك من جلد أو جرح، وهي قراءة ابن مسعود، والأسود ابن يزيد، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، ومجاهد. وقرأ الأعمش، والضحاك بضم الياء وفتح الراء، على الفعل

المجهول. فأما الأولى فهي من رؤية الرأي، وهي رؤية تعدى إلى مفعول واحد، وهو - في هذه الآية - إما [ماذا] تحملهما على أن تجعلهما بمنزلة اسم واحد، وإما [ذا] على أن تجعلها بمعنى الذي، وتكون [ما] استفهاماً، وتكون الهاء محذوفة من الصلة. وأما القراءة الثانية فيكون تقدير مفعولها كما مر في هذه، غير أن الفعل فيها منقول من: رأى زيد الشيء، وأرئنه إياه، إلا أنه من باب أعطيت، فيجوز أن يقتصر على أحد المفعولين. وأما القراءة الثالثة فقد ضعفها أبو علي، وتوجه على تحامل، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿افْعَلْ مَا أَمَرْتَ بِهِ﴾.

١٠٣ - ١٠٤ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور الناس: ﴿آتَلْنَا﴾ أي: أنفسهما، واستسلما لله. وقرأ علي، وعبدالله، وابن عباس، ومجاهد، والشوري: ﴿سَلَّمَا﴾، والمعنى: فوضاً إليه في قضائه وقدره، وانحماً على أمره، فأسلم إبراهيم ابنه، وأسلم الابن نفسه.

واختلف النحاة في جواب [لَمَّا] - فقال الكوفيون: الجواب ﴿وَتَدَبَّرْتَهُ﴾ والواو زائدة. وقالت فرقة: الجواب: ﴿وَتَلَّهْ﴾ والواو زائدة كزيادتها في ﴿وَفَحَّحِ السَّمَاءَ﴾ وقال البصريون: الجواب محذوف، تقديره: فلما أسلماً سلماً وتلَّهُ، هذا قول سيويه والخليل، وهو عندهم كقول امرئ القيس:

فَلَمَّا أَجْرْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى
بِنَا بَطْنَ خَبْتِ ذِي جَفَافٍ عَقْفَلِ

والتقدير: فلما أجزنا ساحة الحي أجزنا وانتحى. وقال بعض البصريين الجواب محذوف، وتقديره: فلما أسلماً وتلَّهُ للجبين أجزل أجزهما، أو نحو هذا مما يقتضيه المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَتَلَّهْ﴾ معناه: وضعه بقوة، ومنه الحديث (فتلَّهُ رسول الله ﷺ في يده)، أي: وضعه بقوة، والتلُّ من الأرض مأخوذ من هذا، كأنه تلُّ في ذلك الموضوع، و﴿لِجَبِينِ﴾ معناه: لتلك الجهة

وعليها، كما يقولون في المثل: لليذين وللقم، وكما تقول: سقط ليشقه الأيسر، وقال ساعدة بن جؤيئة:

فَطَلَّ تَلِيلًا لِلْجَبِينَيْنِ

وهم ما اكتنف الجبهة من هنا وهنا.

وزوي في قصص هذه الآية أن الذبيح قال لأبيه: اشُدْ رباطي بالحبل لئلا أضطرب، واصرف بصرك عني لئلا ترحمني، ورُدْ وجهي نحو الأرض، قال قتادة: كبَّه لفيه وأخذ الشفرة، والتلُّ للجبين ليس يقتضي أن الوجه نحو الأرض، بل هي هيئة من ذبح للقبلة على جنبه. وقوله: ﴿أَنْ يَكْبَرَهُمْ﴾ مفسرة ولا موضع لها من الإعراب.

وقوله تعالى: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا﴾ يحتمل أن يريد: بقلبك، على

فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهْ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَتَدَبَّرْتَهُ أَنْ يَكْبَرَهُمْ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَّاكَ كَتَمْتَهُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّا هَذَا لَأَنْبِيَاؤُا الْبَلْتَأُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٦﴾ وَقَدَبْتَهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٠٨﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿١٠٩﴾ كَذَّاكَ كَتَمْتَهُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٢﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعِزَّىٰ إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَعِزَّىٰ لِمَنْ لِنَفْسِهِ مِثْرٌ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ نَسْنَا عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١١٤﴾ وَجَعَلْنَاهُمَا قَوْمَهُمَا مِنَ السُّرَبِ الْعَظِيمِ ﴿١١٥﴾ وَنَصَرْنَاهُمْ فَمَا نَوَّاهُمْ الْقَلِيلِينَ ﴿١١٦﴾ وَوَأْتَيْنَاهُمَا الْكُتُبَ السُّنِّيَّةِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿١١٨﴾ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ ﴿١١٩﴾ سَلَّمَهُ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿١٢٠﴾ إِنَّا كَذَّاكَ كَتَمْتَهُ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢١﴾ إِنَّهُمَا مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٢﴾ وَإِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِذْ أَنْتَقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾ اللَّهُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولَىٰ ﴿١٢٦﴾

٤٥٠

معنى: كانت عندك رؤيا صادقة حقاً من الله، فعلت بحسبها حين آمنت بها واعتقدت صدقها، ويحتمل أن يزيد: صدقت بملك ما حصل عن الرؤيا في نفسك، كأنه قال: قد وقَّبتا حقها من العمل، والرؤيا اسم لما يُرى من قبَل الله في المنام، والحلم اسم لما يُرى من قبَل الشيطان، ومنه الحديث الصحيح «الرؤيا من الله والحلم من الشيطان».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كَذَّاكَ﴾ إشارة إلى ما عمل إبراهيم، كأنه يقول: إنا بهذا النوع من الإخلاص والطاعة نجزي المحسنين، وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ يحتمل أن يشير إلى ما في القصة من امتحان واختبار وستر معتقد، فيكون ﴿الْبَلْتَأُ﴾ - على هذا المعنى - الاختبار بالشدة، ويحتمل أن يشير إلى ما في القصة من سرور

بالفدية وإنقاذ من تلك الشدة في إنقاذ الذبح، فيكون البلاء بمعنى النعمة، وإلى كل احتمال قد أشارت فرقة من المفسرين، وروى في الحديث أن الله تعالى أوحى إلى إسحاق أني قد أعطيتك بصبرك لأمرى دعوة أعطيك فيها ما سألت، فسألني، فقال: يا رب أيما عبد لفيك من الأولين والآخرين لا يشرك بك شيئاً فأدخله الجنة.

والضمير في ﴿وَدَيْتَهُ﴾ عائد على الذبيح، و«الذبيح» اسم لما يذبح، ووصفه بالعظم لأنه مُتَقَبَّلٌ يقيناً، قاله مجاهد، وقال عمرو بن عبيد: الذبيح الكبش، والعظيم يجزي السنة به وكونه ديناً باقياً آخر الدهر، وقال الحسن بن الفضل: عظيم لأنه من عند الله كان، وقال أبو بكر الورق: لأنه لم يكن عن نسل بل عن التكوين، وروى عن ابن عباس، وابن جبير أن كونه عظيماً هو أنه من كباش الجنة رعى فيها أربعين خريفاً، وقال ابن عباس: هو الكبش الذي قُرب ولد آدم، وقال ابن عباس، والحسن: كان وغلاً أهبط عليه من ثبير، وقول الجمهور: إنه كبش أبيض أقرون أعين وجده ورأه مربوطاً بسمرة، وروى أنه انفلت فأتبعه ورماه بحصيات في مواضع الجمرات، فبذلك مضت السنة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: رجم الشيطان عند جمرة العقبة وغيرها، وقد تقدم هذا، وأهل السنة على أن هذه القصة نسخ فيها العزم على الفعل، والمعتزلة تقول: إنه لا يصح نسخ إلا بعد وقوع الفعل،

وافترقت في هذه الآية على فرقتين: فقالت فرقة: وقع الذبح والتأم بعد ذلك، وهذا كذب صراح، وقالت فرقة منهم: بل كان إبراهيم لم ير في منامه إلا إمرار الشفرة فقط فظن أنه ذبح مجهز، فنفذ لذلك، فلما وقع الذي رآه وقع النسخ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا لا اختلاف أن إبراهيم أمر الشفرة على حلق ابنه فلم تقطع.

وروى أن صفحة نحاس اعترضته بحرفها، والله أعلم كيف كان، فقد كثر الناس في القصص بما صحته معدومة فاخترته. وقد تقدم تفسير مثل قوله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿﴾. وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ معناه: بمثل هذا الفعل، وبإني الآية بين.

ويمما يستغرب في هذه الآية أن عبيد بن عمير قال: ذبح في المقام، وذكر الطبري عن جماعة لم يُسمها أنها قالت: كان الأمر وإراعة الذبح، والقصة كلها بالشام، وقال الجمهور، ذبح بمنى، وقال الشعبي: رأيت قرظني كبش إبراهيم معلقين في الكعبة.

﴿١١٧﴾ - ﴿١١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: من قال إن الذبيح هو إسماعيل جعل هذه البشارة بولادة إسحق، وهي البشارة المترددة في غير ما سورة، ومن جعل الذبيح إسحق جعل هذه البشارة لنفس النبوة فقط.

والجئة على موسى وهارون هي في النبوة وسائر ما جرى معها من مكانتهما عند الله، و«الكرب العظيم» هو تعبد القبط لهم، ثم جيش فرعون

حين قالت بنو إسرائيل: «إننا لمذركون»، ثم البحر بعد ذلك، والضمير في ﴿وَصَرَّيْنَهُمْ﴾ عائد على الجماعة المتقدم ذكرها، وهم موسى وهارون وقومهما. وقال قوم: أراد موسى وهارون عليهما السلام ولكن أخرج ضميرهما مخرج الجمع تفخيماً، وهذا ما فعله العرب، تكني عنم تُعْظَمُ بكتابة الجماعة. و«الكتاب المستين»: التوراة.

﴿١١٧﴾ - ﴿١١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: «الصراف المستقيم» يريد به في هذه الآية طريق الشرع والنبوة المؤدي إلى الله تعالى، وقد تقدم القول في مثل قوله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِمَا فِي الْآخِرِينَ﴾ سَلَّمَ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴿﴾.

وإلياس نبي من أنبياء الله تعالى، قال قتادة، وابن مسعود: هو إدريس عليه السلام، وقال الطبري: هو إلياس بن ياسين، بن فنحاص، بن العيزار، بن هارون، بن عمران. وقالت فرقة: هو من ولد هارون عليه السلام. وقرأ جمهور القراء: ﴿وَلِإِسْرَائِيلَ إِهَابًا﴾ بهمزة مكسورة، وهو اسم، وقرأ ابن عامر، وابن محيصن، وعكرمة، والحسن، والأعرج: ﴿وَأَنَّ إِلْيَاسَ﴾ بغير همز وبصلة الألف، وهذا يتجه على أحد وجهين: إما أن يكون حذف الهمزة، كما حذفها ابن كثير في قوله: ﴿إِنَّمَا لِإِسْحَاقَ الْكَبِيرِ﴾، أراد: لإسحدي، فنزل المنفصل منزلة المتصل، كما قد ينزل في كثير من الأمور، وإما أن يجعلها الألف التي تصحب اللام للتعريف، كالتيسع، وفي مصحف

فَكَذَّبُوهُ فَأْتَهُمْ مُمْخَضْرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَالْأَعْيَادُ لِلَّهِ الْمُخْلِصِينَ ﴿١٣٨﴾
 وَرَكَعَاتِهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٣٩﴾ سَلَّمَ عَلَٰٓءَ آلِ يَاسِينَ ﴿١٤٠﴾ إِنَّا كَذَلِكَ
 نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤١﴾ إِنَّهُ مِن عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٢﴾ وَإِن لَّوِطًا
 لِّمَنِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٣﴾ إِذْ نَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٤﴾ إِلَّا عَجُوزًا
 فِي الْغَدِيرِينَ ﴿١٤٥﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَإِذْ كُنَّا لَمَشُورَةً عَلَيْهِمْ
 مُّصِيبِينَ ﴿١٤٧﴾ وَإِلَّا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٤٨﴾ وَإِن يُؤْمِنُ لَمَن
 الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤٩﴾ إِذْ أُنزِلَ إِلَيْكَ الْفُكَّاكُ الْمَشْحُونُ ﴿١٥٠﴾ نَسَاهُمْ فَكَانَ
 مِنَ الْمُدْحَضِينَ ﴿١٥١﴾ فَالْقَمَّةَ الْكُوفُ وَهُوَ مِيلِمٌ ﴿١٥٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ
 كَانَ مِنَ الْمَسْحُوجِينَ ﴿١٥٣﴾ لَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٥٤﴾
 فَبَدَّدَهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ مَقِيمٌ ﴿١٥٥﴾ وَأَبْتَنَا عَلَيَّ شَجَرَةٌ
 مِّن يَّقُوتٍ ﴿١٥٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ زَيْدٍ وَكَأَنَّ
 فَكَاوَنًا فَتَنَعْتَهُمُ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٥٧﴾ فَاسْتَفْتَاهُ رَبُّكَ السَّنَاتِ
 وَلَهُمُ السُّنُوكُ ﴿١٥٨﴾ أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَكِيَّةَ إِنْتَانَا وَهُمْ
 شَاهِدُونَ ﴿١٥٩﴾ أَلَا إِنْتُمْ مِّن فِكْهِمُ لِقَوْلِكَ ﴿١٦٠﴾ وَلَكِن
 اللَّهُ وَلِيَّتُهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٦١﴾ أَصْطَفَى السَّنَاتِ عَلَى الْبَكِيَّةِ ﴿١٦٢﴾

مسعود، والأعمش:
 ﴿وَأَنَّ إِذْرِيْسَ لِمَنْ
 الْمُرْسَلِينَ﴾ و﴿سَلَامٌ عَلَى
 إِذْرِيْسِينَ﴾، وهي لغة في
 (إذريس) كإبراهيم
 وإبراهيم.
 وقوله: ﴿أَنْدَعُونَ﴾ معناه:
 أتعبدون؟ و﴿الْبَغْلُ﴾: الرُّبُّ
 بلغة اليمن، قاله عكرمة،
 وقتادة. وسمع ابن عباس
 رضي الله عنهما رجلاً
 يَشُدُّ ضَالَةً، فقال له آخر:
 أَنَا بَعْلُهَا، فقال ابن
 عباس: الله أكبر ﴿أَنْدَعُونَ
 بَعْلًا﴾. وقال الضحاك،
 وابن زيد، والحسن:
 البغلُ اسم صنم كان لهم،
 ويقال له: بَغْلُ بَكٍّ، وإليه نَسَبُ
 النَّاسِ، وذكر ابن إسحق عن فرقة أن
 ﴿بَعْلًا﴾ اسم امرأة كانت أَتَتْهُمْ
 بضلالة. وقوله: ﴿أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾
 من حيث قيل للإنسان على التجوز:
 إنه يخلق، وجب أن يكون تعالى
 أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ؛ إذ خَلَقَهُ اختراع
 وإيجاد من عدم، وخلق الإنسان
 مجاز، كما قال الشاعر:
 وَلَا تَتَّ تَفْرِي مَا خَلَقْتَ وَبَغْدُ
 ضُ الْقَوْمِ يَخْلُقُ ثُمَّ لَا يَفْرِي
 ﴿١٦١﴾ - ﴿١٦٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
 قرأ حمزة، والكسائي، وعاصم
 بنصب الجميع على البدل من قوله:
 ﴿أَحْسَنُ﴾، وقرأ الباقون وعاصم
 أيضاً برفعهم على القطع
 والاستئناف. والضمير في ﴿فَكَذَّبُوهُ﴾
 عائد على قوم إنياس. و﴿مُخَضْرُونَ﴾
 معناه: مجموعون لعذاب الله، وقد

أبي بن كعب: ﴿وَأَنَّ إِيلِيْسَ﴾ بألف
 مكسورة وياء ساكنة بعدها وسين
 مفتوحة، وكذلك فيه: ﴿سَلَامٌ عَلَى
 إِيلِيْسَ﴾، وقرأ نافع، وابن عامر،
 ﴿سَلَامٌ عَلَى آلِ يَاسِيْنَ﴾، وقرأ
 الباقون: ﴿عَلَى آلِ يَاسِيْنَ﴾ بألف
 مكسورة ولام ساكنة، وجعلها
 الحسن، وأبو رجاءٍ موصولة، فوجه
 الأولى أنها - فيما يزعمون - مفصولة
 في المصحف، فدل ذلك على أنها
 بمعنى (أهل)، و (ياسين) اسم أيضاً
 لإنياس، وقيل: هو اسم
 لمحمد ﷺ، ووجه الثانية أنه جمع
 إنياسي، كما قالوا: أعجمي
 وأعجميون، قال أبو علي:
 والتقدير: إنياسين، فحذف كما
 حذف من أعجميين، ومن الأشعرين
 والثميريين والمهلبيين، ونحوه.
 وحكى أبو عمرو أن منادياً نادى يوم
 الكلاب: هلك البيزون ويروى قول
 الشاعر:
 قَدْ نَبِي مِن نَّصْرِ الْخَبْيَبِيْنَ قَدِي

 بكسر الباء الثانية، نسبة إلى أبي
 حبيب. ويقال: سُمِّي كل واحد من
 آلِ إِيَابِيْنَ إِيَابِيْنَ، كما قالوا: شابت
 مفارقه، فسُمِّي كل جزءٍ من المَفْرُقِ
 مَفْرُقًا، ومنه قولهم: ﴿جَمَلٌ ذُو
 عَنَانِيْنَ﴾، وعلى هذا أشد ابن جني:
 مَرَّتْ بِنَا أَوَّلَ مِن أُمُوسِ
 تَمِيْسُ فِينَا مِشِيَةَ الْعَرُوسِ
 فسُمِّي كل جزءٍ من أُمسِ أُمسًا، ثم
 جَمَعَ. وقال أبو عبيد: لم يُسَلَّمْ على
 آلِ أحدٍ من الأنبياء المذكورين قَبْلُ،
 فلذلك تُرْجِحُ قراءةً من قرأ: ﴿إِلَ﴾
 إذ هو اسمٌ واحدٌ له. وقرأ ابن

تقدم تفسير مثل ما بقي من الآية،
 وتقدم أيضاً القول في قوله تعالى:
 ﴿سَلَّمَ عَلَٰٓءَ آلِ يَاسِينَ﴾.
 ولو ط، قيل: هو ابن أخته، وقد
 تقدمت قصته بكاملها، وامرأته هي
 العجوزُ المهلكة، وكانت كافرة، فإما
 كانت مستتره منه وإما كانت مُغلنة،
 وكان نكاح الوثنيات والإقامة عليهن
 جائزاً، و﴿الغابرون﴾: الباقون، بقي،
 ومعناه ها هنا: بقيت في الهلاك.
 ثم خاطب الله تعالى قريشاً، أو هو
 على معنى: قل لهم يا محمد:
 وإنكم لتمرؤن عليهم في الصباح
 وبالليل، فواجب أن يقع اعتباركم
 ونظركم، ثم وبخهم بقوله: ﴿أَفَلَا
 تَعْلَمُونَ؟﴾
 ﴿١٦٢﴾ - ﴿١٦٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
 هو يونس بن متى عليه السلام، وهو
 من بني إسرائيل، روي أنه تنبأ ابن

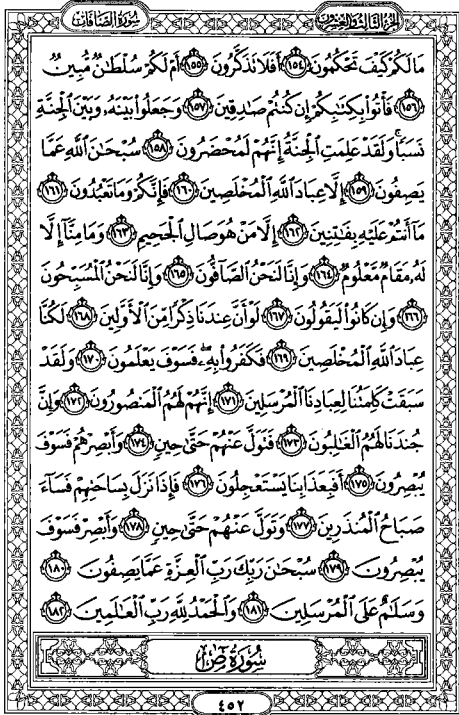
ثمانية وعشرين سنة فتفسخ تحت أعبياء النبوة كما يتفسخ الربع تحت الحمل، وقد تقدم شرح قصته، ولكن نذكر منها ما يتفهم به هذه الألفاظ.

فروي أن الله تعالى بعثه إلى قومه، فدعاهم مرة فخالفوه فوعدهم بالعذاب، وأعلمه الله تعالى بيوم العذاب فحدده لهم يونس، ثم إن قومه لما رأوا مخايل العذاب قبل أن يباشروهم تابوا وآمنوا فتاب الله عليهم وصرف العذاب عنهم، وكان في هذا تجربة ليونس عليه السلام، فلحقت بيونس غضبية، ويروي أنه كان في سيرتهم أن يقتلوا الكذاب إذا لم تقم له يئبة، فخافهم يونس وغضب مع ذلك، فأبى إلى الفلک، أي أراد الهروب ودخل في البحر، وعبر عن هروبه بالإباق من حيث هو عبدالله فر عن غير إذن مولاه، فهذه حقيقة الإباق، والفلک في هذا الموضع واحدة، والمشحون: الموقر، وهنا قصص محذوف إيجازاً واختصاراً. وروي عن ابن مسعود أنه لما حصل في السفينة وأبعدت وكادت ولم تجر والسفن تجري يمينا وشمالا، فقال أهل السفينة: إن فينا لصاحب ذنب وبه يجسنا الله، فقالوا: لنقترع، فأخذوا لكل واحد سهماً، ثم قالوا: اللهم ليطف سهم المذنب وليفرق سهم الغير، فطفا سهم يونس، ففعلوا نحو هذا ثلاثاً، وفي كل مرة تقع القرعة عليه، فأزمعوا معه أن يطرحوه، فجاء إلى ركن من أركان السفينة ليقع منه فإذا بدابة من دواب البحر ترقبه وترصده، فدفع إلى الركن الآخر فوجدها كذلك، حتى استدار بالمركب وهي لا تفارقه، فعلم أن ذلك من عند الله، فترامى إليها فالتقمته،

ويروي أنها إنما التقمته بعد أن وقع في الماء، وروي أن الله تعالى أوحى إلى الحوت أني لم أجعل لك يونس رزقاً، وإنما جعلت بطنك له جزواً وسجناً، فهذا معنى ﴿فَأَنزَلْنَا﴾، أي: فأنزلنا، وكذلك فسّر ابن عباس، والسدي. و﴿المُدْحَضُ﴾: الزاهق المغلوب في مُحاجّة أو مساهمة أو مسابقة. ومنه: مُحجّة الداحضة، و﴿المُليّم﴾: الذي أتى ما يلام عليه، يقال: ألام الرجل إذا دخل في اللوم، وبذلك فسّر مجاهد، وابن زيد، ومنه قول الشاعر: سَفْهًا عَدَلْتِ وَلَمْتِ غَيْرَ مُلِيمٍ وَهَذَا كَقَبْلِ الْيَوْمِ غَيْرُ حَكِيمٍ ثم استنقذه الله تبارك وتعالى من بطن الحوت بعد مدة اختلف الناس فيها - فقالت فرقة: بعد سبع ساعات، وقال مقاتل بن حيان: بعد ثلاثة أيام، وقال عطاء بن أبي رباح: بعد سبعة أيام، وقالت فرقة: بعد أربعة عشر يوماً، وقال أبو مالك، والسدي: بعد أربعين يوماً، وهو قول ابن جريج أنه بلغه. وجعل تعالى علّة استنقاذه مع القدرة السابقة تسبيحه، واختلف الناس في ذلك - فقال ابن جبير: هو قوله في بطن الحوت: سبحان الله، وقالت فرقة: بل التسبيح هو الصلاة التطوع، واختلفت هذه الفرقة - فقال قتادة، وابن عباس، وأبو العالية: صلته في وقت الرخاء نفعته في وقت الشدة، وقال هذا جماعة من العلماء، وقال الضحّاك بن قيس على منبره: اذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة، إن يونس كان عبداً لله ذاكراً، فلما أصابته الشدة نفعه ذلك، ثم تلا هذه الآية، وإن فرعون كان

طاغياً باغياً، فلما أدركه الغرق قال: آمَنْتُ فلم ينفعه ذلك، فاذكروا الله في الرخاء يذكركم في الشدة. وقال قتادة في الحكمة: إن العمل يرفع صاحبه إذا عشر، فإذا صرع وجد مُتَكِّئًا، وقال الحسن بن أبي الحسن: كان تسبيحه صلاةً في بطن الحوت، وروي أنه كان يرفع لحم الحوت بيديه ويقول: يا ربّ لأبيّننّ لك مسجداً حيث لم يبيّنه أحد قبلي، ويصلي، وروي أنس عن النبي ﷺ أنه قال: «إن يونس حين نادى في الظلمات ارتفع نداؤه إلى العرش، فقالت الملائكة: هذا صوت ضعيف من موضع غربة، فقال: هذا عبدي يونس، فأجاب الله دعوته...» وذكر الحديث. وقال ابن جبير: الإشارة بقوله: ﴿يَنْ أَلْسَيْنِ﴾ إلى قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾. وكتب الناس في القصص بما اختصرناه لعدم الصحة، وروي أن الحوت مشى به البحار كلها حتى قذفه في نصيبين من ناحية الموصل، فنيذه الله في عراء من الأرض، وهو الأرض الفيحاء التي لا شجر فيها ولا معلّم، ومنه قول الشاعر:

وَرَفَعْتُ رَجُلًا لَا أَخَافُ عِثَارَهَا
وَتَبَدَّدْتُ بِالْبَلَدِ الْعَرَاءِ ثِيَابِي
وقال السدي، وابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَهُوَ سَيِّدٌ﴾: إنه كان كالطفل المنفوس، بضعة لحم، وقال بعضهم: كاللحم التيء إلا أنه لم ينقص من خلقته شيء، فأنعشه الله تعالى في ظلّ اليقطينة بلبن أروية كانت تغاديه وترواحه،



يونس لِحَرَ الشمس، فعزَّ عليه شأنها وجزع له، فأوحى الله تعالى إليه: يا يونس، جزعت لئيس اليقطينة ولم تجزع لإهلاك مائة ألف أو يزيدون تابوا فبت عليهم.

﴿١٤٧﴾ - ﴿١٥٧﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

قال الجمهور: هذه الرسالة إلى مائة ألف هي الرسالة الأولى التي أتت بعدها، ذكرها الله تعالى في آخر القصص تنبيهاً على رسالته، ويدلُّ على ذلك قوله تعالى: ﴿فَنَاسُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَتَنَزَّلْنَا إِلَيْنِ جِبِينٌ﴾،

وقيل: بل كان يتغذى من اليقطينة، ويوجد منها ألوان الطعام وأنواع شهوراته.

واختلف الناس في اليقطين - فقالت فرقة: هي شجرة لا تعرفها، سمَّاها الله باليقطين، وهي لفظ مأخوذة من: قَطَنٌ إِذَا أَقَامَ بِالْمَكَانِ. وقال سعيد بن جبَّير، وابن عباس، والحسن، ومقاتل: اليقطين: كلُّ ما لا يقوم على ساق من عود كالبقول والقرع والحنظل والبطيخ ونحوه مما يموت من عامه، ورُوي نحوه عن مجاهد، وقال ابن عباس، وأبو هريرة، وعمرو بن ميمون: اليقطين: القرع خاصة، وعلى هذين القولين فإما أن يكون قوله تعالى: ﴿شَجَرَةٌ﴾ تجوزاً، وإما أن يكون أُنبتا عليه ذات ساقٍ خرقاً للعادة؛ لأن الشجر في كلام العرب إنما يقال لما كان على ساق من عود، وحكى بعض الناس أنها كانت قرعة وهي تجمع خصالاً بزْد الظلِّ والملمس وعظم الورق وأن الذباب لا يقربها، حكى النقاش أن ماء ورق القرع إذا رُشَّ به مكان لم يقربه ذباب، ومشهور اللغة أن اليقطين: القرع، وقد قال أمية بن أبي الصلت في قصة يونس عليه السلام:

فَأَنْبَتَ يَقِطِينًا عَلَيْهِ بِرَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ، لَوْلَا اللَّهُ أَلْفِي صَاحِبِيَا فَنَبَتَ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَصَحَّ وَحَسُنَ جَسْمُهُ؛ لِأَنَّ رِيقَ الْقُرْعِ أَنْفَعُ شَيْءٍ لِمَنْ تَسَلَخَ جَسَدَهُ كِيُونُسَ. ورُوي أنه كان يوماً نائماً فأبَّيس الله تلك اليقطينة، وقيل: بعث عليها الأرضة فقطعت عروقها، فانتبه

يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ ﴿١٤٧﴾، وهذا المعنى قليل التمكُّن في قوله سبحانه: ﴿أَوْ يُرِيدُونَ﴾. وقال المبرِّد وكثير من البصريين: المعنى على نَظَرِ البَشَرِ وحذرهم، أي: من رآهم قال: هم مائة ألف أو يزيدون.

ورُوي في قوله تعالى: ﴿فَنَاسُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَتَنَزَّلْنَا إِلَيْنِ جِبِينٌ﴾، أَنَّهُمْ خَرَجُوا بِالْأَطْفَالِ وَأَوْلَادِ الْبَهَائِمِ، وَفَرَّقُوا بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْأُمَهَاتِ، وَنَاحُوا وَضَجُّوا وَأَخْلَصُوا، فَرَفَعَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَالتَّمَتَّعَ هُنَا هُوَ بِالْحَيَاةِ، وَالْحِينُ: أَجَالُهُمُ السَّابِقَةُ فِي الْأَزَلِ، قَالَ قَتَادَةُ وَالسُّدِّيُّ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عِبْلَةَ: ﴿حَتَّى جِبِينِ﴾، وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَنَاسُوا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَتَنَزَّلْنَا إِلَيْنِ جِبِينٌ﴾، مِثَالٌ لِقَرِيشَ: أَي: إِنْ آمَنُوا آمِنُوا كَمَا جَرَى لَهُوْلَاءِ، وَمِنْ هُنَا حَسُنَ انْتِقَالَ الْقَوْلِ وَالْمَحَاوَرَةَ إِلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَأَسْتَفِينَهُمْ﴾،

وتمتَّع هذه الأمة هو الذي أغضب يونس عليه السلام حتى أتى، وقال قتادة، وابن عباس أيضاً: هذه الرسالة أخرى بعد أن نُبِّذَ بالعراء، وهي إلى أهل يَنْبُوتِي من ناحية الموصل.

وقرأ جعفر بن محمد رضي الله عنه: ﴿وَيَزِيدُونَ﴾ بالواو، وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ يُرِيدُونَ﴾ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: [أو] بمعنى (بل)، وكانوا مائة ألف وثلثين ألفاً، وقال أبي بن كعب، عن النبي ﷺ: «كانوا مائة وعشرين ألفاً»، وقال ابن جبَّير: كانوا مائة وسبعين ألفاً، ورُوي عن ابن عباس أنه قرأ: ﴿بَلْ يَزِيدُونَ﴾، وقالت فرقة: [أو] هنا بمعنى الواو، وقالت فرقة: هي للإبهام على المخاطب، كما تقول: «ما عليك أنت، أنا أعطي فلاناً ديناراً أو ألف دينار»، ونحو هذا قوله تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ

فإنما يعود على ضميرهم على ما في المعنى من ذكرهم .

و «الاستفتاء»: السؤال، وهو هنا بمعنى التوبيخ والتقريع على قولهم البهتان على الله، وجعلهم النبات الله تعالى عن ذلك. وأمره بتوقيفهم على جهة التوبيخ أيضاً - هل شاهدوا أن الملائكة إناث فيصح لهم القول به .

ثم أخبر تعالى عن فرقة منهم بلغ بها الإفك والكذب إلى أن قالت: ولد الله الملائكة لأنه نكح في سروات الجن، وهذه فرقة من بني مدلج فيما روي .

وقرأ الجمهور: «أصطفى» بألف قطع هي للاستفهام، وهذا على جهة التقرير والتوبيخ على نسبتهم إليه تعالى اختيار الأدمي عندهم، وقرأ نافع في رواية إسماعيل: «أصطفى» بألف وصل على الخبر، كأنه سبحانه يحكي شنيع قولهم، ورواها إسماعيل عن أبي جعفر، وشيبة .

ثم قرأ ويخ وعرض للتذكير والنظر واستفهم عن البرهان والحجة على جهة التقرير وضمهم إلى الاستظهار بكتاب أو أمر يظهر صدقهم. وقرأ الجمهور: «تذكرون» مشددة الذال والكاف، وقرأ طلحة بن مصرف بسكون الذال وضم الكاف خفيفة .

﴿١٥٨﴾ - ﴿١٥٩﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا﴾ لفرقة من كفار قريش والعرب، قال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: إن بعضهم قال: إن الله وإبليس أخوان، وقال مجاهد: قال قوم لأبي بكر الصديق: إن الله نكح سروات الجن، وقال بعضهم: إن

الملائكة بناته، و «الحجة» - على هذا القول الأخير تقع على الملائكة، سميت بذلك لأنها مستجئة، أي: مسترة .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتِ الْإِنثَةَ إِيْتَهُمْ لَمْخَضَرُونَ﴾ . من جعل «الحجة» الشياطين جعل العلامة في «علمت» والضمير في «إيْتَهُمْ» عائد عليهم . أي: جعلوا الشياطين ليست من الله، والشياطين تعلم ضد ذلك من أنها ستخضر أمر الله وثوابه وعقابه . ومن جعل «الجنة» الملائكة جعل الضمير في «إيْتَهُمْ» للقائلين هذه المقالة، أي: علمت الملائكة أن هؤلاء الكفرة سيحضرون عذاب الله وعقابه، وقد يتداخل هذان القولان .

ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عما يصفه الناس ولا يليق به، ومن هذا استثنى العبادة المخلصين؛ لأنهم يصفونه بصفاته العلى، وقالت فرقة: استثناءهم من قوله: ﴿لَمْخَضَرُونَ﴾، وهذا يصح على قول من رأى «الجنة» الملائكة .

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْنَا وَنَا نَبَذَرْنَا﴾ بمعنى: قل لهم يا محمد: إنكم وأصنامكم ما أنتم بمضلين أحداً عليها وبسببها، إلا من سبق عليه القضاء وضمه القدر بأن يضلى الجحيم في الآخرة، وليس إليكم إضلال من هدى الله. وقالت فرقة: «عليت» بمعنى «فيه»، و«الفاتن»: المضل في هذا الموضوع، وكذلك فسّر ابن عباس، والحسن بن أبي الحسن، وقال ابن الزبير على المنبر: «إن الله هو الهادي والفاتن»، و«من» في موضع نصب بـ «بَيِّنَتَيْنِ»، وقرأ الجمهور: ﴿صَالِ الْجَحِيمِ﴾ بكسر اللام

من (صال)، وحذفت الياء للإضافة . وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿صَالِ الْجَحِيمِ﴾ بضم اللام، وللنحاة في معناه اضطراب أقوال، وأقواها أنه (صالون) حذفت النون للإضافة، ثم حذفت الواو للالتقاء، وخرج لفظ الجمع بعد لفظ الإفراد، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّنْ يَسْتَوْفُونَ إِلَيْكَ﴾، إذ لما كانت آمن] وهي من الأسماء التي فيها إبهام ويكنى بها عن أفراد وعن جمع .

ثم حكى تعالى قول الملائكة: ﴿وَمَا يَبَأُ إِلَّا لَكُمْ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾، وهذا يؤيد أن «الجنة» أراد بها الملائكة، كأنه قال: ولقد علمت كذا، وإن قولنا لكذا، وتقدير الكلام: وما مئاً ملك، وروت عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: «إن السماء ما فيها موضع قدم إلا وعليه جبهة ملك أو قدماه»، وقرأ ابن مسعود: ﴿وإن كُنَّا إِلَّا لَكُمْ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾ .

و «الصَّافِرُونَ» معناه: الواقفون صفوفاً، و«المتسحرون» يحتمل أن يريد به الصلاة، ويحتمل أن يريد قول: «سبحان الله»، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه كان إذا أقيمت الصلاة صرف وجهه إلى الناس فقال لهم: عدلوا صفوفكم وأقيموها، فإن الله إنما يريد بكم هدى الملائكة، فإنها تقول: ﴿وإن كُنَّا لَصَّافِرُونَ﴾، ثم يرى تقويم الصفوف، وعند ذلك ينصرف ويكبر، قال الزهراوي: قيل: إن المسلمين إنما اصطفوا في الصلاة مذ نزلت هذه الآية، ولا يصطف أحد من أهل الملل غير المسلمين .

ثم ذكر عز وجل مقالة بعض

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 صَّ وَالْقُرْآنَ الَّذِي نُنزِّلُ بِهِ الذِّكْرَ ﴿١﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزِّهِمْ شِقَاقِي ﴿٢﴾
 كَرَاهِلِكُمَا كَيْنَ قَلْبِهِمْ مِنْ قَرْنٍ فَنَادَ وَأَوَّلَاتٍ حِينَ مَنَاسٍ ﴿٣﴾ وَعَجِبُوا
 أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكٰفِرُونَ هَذَا سِحْرٌ كَذَّابٌ ﴿٤﴾
 أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَأَنْطَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ
 مِنْهُمْ أَنْ امْشُوا وَاصْبِرُوا وَعَلَّمَ الْهَيْكَلُ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾
 مَا مَسِعَتِهَا فِي الْيَوْمِ الْآخِرَةِ إِنَّ هَذَا إِلَّا أَنْخِلْتُ ﴿٧﴾ أَمْ نَزَّلْنَا
 عَلَيْهِ الذِّكْرَ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي بَلْ لَمَّا يَدْعُونَ عَذَابَ
 ﴿٨﴾ أَنْزَعْنَاهُمْ خُرَابًا رَحْمَةً رَبِّكَ الْعَزِيزُ الْوَهَّابُ ﴿٩﴾ أَمْ لَهُمْ
 مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَلْيَرَوْا فِي الْأَسْبَابِ ﴿١٠﴾
 جُنْدٌ مَا هَآئِلٌ مَهْرُومٌ مِنَ الْأَحْرَابِ ﴿١١﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ
 نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُرًّا وَأَنْبِيَاءٌ كَثِيرًا مِمَّنْ ظَنُّوا أَنَّهُمْ لَمُحِقُونَ
 لُنُوحٍ أَزَلْنَا مِنْكُمْ أُلْحَبًا أَلْحَبًا فَجَعَلْنَاهُمْ شُرَكَاءَ زُرَّتْ عَنْهُمُ
 قُلُوبُهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ قُلُوبًا كَافَّةً ﴿١٢﴾ وَمَا نَبْطِرُهُمْ أَزَلْنَا
 مِنْ فِرْعَوْنَ قِيَامًا فَجَعَلْنَاهُمْ قُلُوبًا كَافَّةً ﴿١٣﴾ وَأَمْ لَهُمْ
 حِجَابٌ عَنِ الْآيَاتِ الْبَارِئَاتِ ﴿١٤﴾ وَأَمْ لَهُمْ حِجَابٌ عَنِ الْآيَاتِ
 الْكُبْرَىٰ ﴿١٥﴾ وَأَمْ لَهُمْ حِجَابٌ عَنِ الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٦﴾ وَأَمْ لَهُمْ حِجَابٌ
 عَنِ الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٧﴾ وَأَمْ لَهُمْ حِجَابٌ عَنِ الْآيَاتِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾

يَسْخَرُونَ أَي الْعَذَابِ .
 وقرأ ابن مسعود: ﴿نُزْلٌ﴾
 على الفعل المجهول،
 و«السَّاحَةُ»: الفِئَاءُ،
 والعربُ تستعمل هذه
 اللفظة فيما يرد على
 الإنسان من خير أو شر .
 و«سوءُ الصباح» أيضاً
 يستعمل في ورود الغارات
 والرزايا ونحو ذلك، ومنه
 قول الصارخ: «يا
 صباحاه»، كأنه يقول: قد
 سألتني الصباح فأعينوني،
 وقرأ ابن مسعود: «فبئس
 صباح» .
 ثم أعاد الله تعالى أمر
 نبيه ﷺ بالتَّوَلَّى تحقيقاً

لثأنيسه والتَّهْمُ به، وأعاد سبحانه
 توعددهم أيضاً لذلك، ثم نزه نفسه
 تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما يمكن أن
 يصفه به أهل الضلالات .
 و«العِزَّة» في قوله تعالى: ﴿رَبِّ
 الْعِزَّةِ﴾ هي العِزَّةُ المخلوقة الكائنة
 للأنبياء والمؤمنين، ولذلك قال
 الفقهاء: من أجل أنها مربوبة، وقال
 محمد بن سُخْنُون: «من حلف
 بعِزَّةِ الله فإن كان أراد صفته الذاتية
 فهي يمين، وإن كان أراد عزته التي
 خلق بين عباده، وهي التي في قوله:
 ﴿رَبِّ الْعِزَّةِ﴾ فليست بيمين» .

وروى عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا
 سلَّمتم عليَّ سلِّموا عليَّ المرسلين
 فإنما أنا أحدهم»، وياقي السورة بين .
 وذكر أبو حاتم عن صالح بن مينا
 قال: قرأتُ عليَّ عاصم بن أبي
 النجود، فلما ختمتُ هذه السورة

الكفار، قال قتادة، والسدي،
 والضحاك: فإنهم قبل نُبوَّة
 محمد ﷺ قالوا: لو كان لنا كتاب
 أو جاءنا رسول لكنا من أتقى
 عباد الله وأشدهم إخلاصاً، فلما
 جاءهم محمد صلوات الله وسلامه
 عليه كفروا فاستوجبوا أليم العقاب .
 ﴿١٧٠﴾ - ﴿١٧١﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:
 قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَلْمُونَكَ﴾ وعيدٌ
 محض، لأنهم تمنَّوا أمراً فلما
 جاءهم الله به كفروا واستهواهم
 الحسد، ثم آتس نبيُّه ﷺ وأولياءه بأن
 القضاء قد سبق، والكلمة حقت في
 الأزَل، بأن رُسلَ الله إلى أرضه هم
 المنصورون على من ناوأهم،
 المُظَفَّرُونَ بإرادتهم، المستوجبون
 الفلاح في الدارين . وقرأ الضحاك:
 ﴿كَلِمَاتِنَا﴾ بألف على الجمع .
 و«جُنْدُ الله» هم الغزاة لتكون كلمة الله
 هي العليا، قال علي بن أبي طالب
 رضي الله عنه: جُنْدُ الله في السماءِ
 الملائكة، وفي الأرضِ الغزاةُ .

وقوله تعالى: ﴿فَنَزَّلْنَا مِنْ سَمَوَاتِنَا مَائِدًا مَبْرُورَةً﴾
 وغدَّ للنبي ﷺ، وأمرٌ بالموادعة،
 وهذا ممَّا نسخته آية السيف . واختلف
 الناس بالمراد بالحين هنا - فقال
 السديُّ: الحين المقصود يوم بدر،
 ورجَّحه الطبري، وقال قتادة: الحينُ
 مؤنَّثهم، وقال ابن زيد: الحينُ
 المقصود يوم القيامة . وقوله تعالى:
 ﴿وَأَنْبِئْهُمْ سَوْفَ يُصِيرُونَ﴾ وغدَّ
 للنبي ﷺ ووعيدٌ لهم، أي: سوف
 يَزُونُ عُقْبَى طريقتهم .
 ثم قرَّرَ الله تعالى نبيُّه ﷺ - على
 جهة التوبيخ لهم - على استعجالهم
 عذاب الله . وقرأ الجمهور: ﴿نَزَّلَ

سَكَّتْ، فقال: إيه، أقرأ، فقلت: قد
 ختمتُ، فقال: كذلك فعلتُ على
 أبي عبدالرحمن فقال لي كما قلتُ
 لك، وقال لي كذلك قال لي
 عليُّ بن أبي طالب، وقال: «وقلَّ
 أدنتمكم بإذانة المرسلين، لئن سألتُ
 عن النبي العظيم»، وفي مصحف عبدالله:
 ﴿عن هذا النبي العظيم» .

كَمُلْ تَفْسِيرَ سُورَةِ (الصَّافَاتِ)
 وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تفسير
 سورة ص

هذه السورة كلها مكِّيَّة بإجماع
 المفسرين .

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:
 قرأ الحسنُ، وأبى بن كعب، وابن

أبي إسحق: «صَادٍ» بكسر الدال، على أنه أمرٌ من: صَادَى يُصَادِي إِذَا ضَاهَى وَمَاتَلَّ، أي صار كالصَّدى الذي يحكي الصياح، والمعنى: ماثل القرآنَ بعملك، وقارنه بطاعتك، وهكذا فسره الحسن، أي: انظر أين عملك منه؟

وقال الجمهور: إنه الحرف المعجم المعروف، ويدخله ما يدخل سائر أوائل السور من الأقوال، ويختص هذا الموضع بأن قال بعض الناس: معناه: صدق محمد ﷺ، وقال الضحاك: معناه: صدق الله، وقال مجاهد بن كعب القرظي: هو مفتاح أسماء الله (صَمَدٌ) صَادِقُ الوعد، صانع المصنوعات).

وقرأها الجمهور بسكون الدال، وقرأ ابن أبي إسحق - بخلاف عنه - بكسر الدال وتوניהا «صَادِي»، على القسم، كما تقول: الله لأَفْعَلَنَّ، وحكى الطبري وغيره عن ابن أبي إسحق دون تنوين، وألحقه بقول العرب: حاثٍ باثٍ، وخازٍ بازٍ، وقرأت فرقة منها عيسى بن عمر: «صَادِي» بفتح الدال، وكذلك يفعل في نطقه بكل الحروف، يقول: قافٌ، ونونٌ، ويجعلها كأينٍ وليتٌ، قال الشعبي: «وقيل معناه: صَادٍ محمدُ القلوبِ بأن استمالها للإيمان».

وقوله تعالى: «وَالْقُرْآنَ الَّذِي أُنزِلَ بِهِ» قال السدي، وابن عباس، وسعيد بن جبَّير: معناه: ذي الشرف الباقي المخلَّد، وقال قتادة، والضحاك: ذي التذكرة للناس والهداية لهم، وقالت فرقة: معناه:

ذي الذكر للأُمم والبَقَصَص والغُيوب. وأما جواب القسم فاختلف فيه - فقالت فرقة: الجواب في قوله: «صَادِي»؛ إذ هو بمعنى: صدق محمد، أو صدق الله، وقال الكوفيون والرَّجَّاج: الجوابُ قوله تعالى: «إِنَّ ذَلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُّمُ أَهْلِ النَّارِ» ، وقال بعض البصريين - ومنهم الأَخفش -: الجواب في قوله: «إِنَّ كُلَّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ» . قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القولان بعيدان.

وقال قتادة، والطبري: الجواب مُدَّر قبل [بَلْ]، وهذا هو الصحيح، تقديره: «والقرآن ما الأمرُ كما تزعمون»، ونحو هذا من التقدير، فتأمله. وحكى الرَّجَّاج عن قوم أن الجواب قوله تعالى: «كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ» وهذا متكلف جداً. و «العزَّةُ» هنا: المُعَاوَزَةُ والمغالبة، و«الشَّقَاقُ» نحوه، أي: هُم في شِقْ والحق في شِقْ.

و «كَرَّ» للتكثير، وهي خبرٌ فيه مثالٌ ووعيد، وهي في موضع نصب بـ «أَهْلَكْنَا»، و«القرن»: الأُمة من الناس يجمعها زمن واحد، وقد تقدم تحديده مراراً، وقوله تعالى: «فَنَادُوا» معناه: مستغيثين، والمعنى أنهم فعلوا ذلك بعد المعاينة فلم ينفع ذلك، ولم يكن في وقت نفع، و«وَلَاتٌ» بمعنى: ليس، واسمها مقدر عند سيبويه، وتقديره: ولاتٌ الحينُ حين مناص، وهي (لَا) لحقتها تاءٌ، كما لحقت «رُيُوتٌ» وثُمَّتٌ، وقال الرَّجَّاج: وهي كتاءٌ جَلَسَتْ وقَامَتْ، تاء الحروف كتاءٌ

الأفعال دخلت على ما لا يُعرب في الوجهين، ولا تستعمل (لَا) مع التاء إلا في الحين والرَّمانِ والوقت نحوه، ومن ذلك قول الشاعر:

... وَلَاتٌ سَاعَةٌ مَنُودَمٌ
وقال الآخر:

تَذَكَّرْتُ حَبَّ لَيْلَى لَاتٍ حِينَا
وَأَضْحَى الشَّيْبُ قَدْ قَطَعَ الْقَرِينَا
وَأَشَدُّ بَعْضُهُمْ:

طَلَبُوا صَلْحَنَا وَلَاتٍ أَوَانٍ
فَأَجَبْنَا أَنْ لَيْسَ حِينٌ بَقَاءٍ
وَأَشَدُّ الرَّجَّاجِ بِكسر التاء، وهذا كثير، وقرأة الجمهور فتح التاء من «وَلَاتٌ» والشون من «حِينٌ» وروي عن عيسى كسر التاء من «وَلَاتٌ» ونصب النون من «حِينٌ» وروي عنه أيضاً كسر النون منها.

واختلفوا في الوقف على [لَاتٍ] - فذكر الرَّجَّاجُ أن الوقف بالتاء، وقف الكسائي بالهاء، ووقف قوم - واختاره أبو عبيد - على [لا] وجعلوا التاء موصولة بحين، فقالوا: «لَا تَجِينُ»، وذكر أبو عبيد أنها كذلك في مصحف عثمان، ويحتج لهذا القول بقول أبي جزة:

العاطِفُونَ تَحِينٌ مَا مِنْ عَاطِفٍ
والمُطْعِمُونَ زَمَانٌ مَا مِنْ مُطْعِمٍ
يمدح آل الرُّبَيْرِ. وقرأ بعض الناس: «وَلَاتٌ حِينٌ» برفع النون على إضمار الخبر.

و «الْمَنَاصُ»: الْمَفْرُ، ناصٌ ينوصُ إذا فاتَ وفرَّ، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: ليس بحينٍ تَزُو ولا فِزَارٍ، ضبط القوم.

والضمير في ﴿وَعَجَبًا﴾ لكفّار قريش، واستغربوا أن نبيّ بشرّ منهم فأنذروهم وحذّروهم، وأن وحد الإله، وقالوا: كيف يكون إله واحد يرزق الجميع وينظر في كل أمرهم؟

و ﴿عَجَابٌ﴾ بناء مبالغة، كما قالوا: سريع وسرّاع، وهذا كثير، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي، وعيسى بن عمر: ﴿عُجَابٌ﴾ بشد الجيم، ونحوه قال الراجز:

جاءوا بصيّد عَجِبَ مِنَ الْعَجَبِ
أزترق العَيْشِينَ طُوالِ الدُّنْبِ
وقد قالوا: رجل كُرّام، أي كريم.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

رُوي في قِصص هذه الآية أن أشراف قريش وجماعتهم اجتمعوا عند مرض أبي طالب عمّ النبي ﷺ، فقالوا: إن من القبيح علينا أن يموت أبو طالب ونؤذي محمداً بعده فيقول العرب: تركوه مدة عمّه فلما مات أدوه، ولكن لنذهب إلى أبي طالب فليصنفا منه، وليربط بيننا وبينه ربطاً، فنهضوا إليه فقالوا: يا أبا طالب، إن محمداً يسبّ آلهمنا ونُسفه آراءنا وآراء آبائنا، ونحن لا نُقارّه على ذلك، ولكن انفصل بيننا وبينه في حياتك، بأن يقيم في منزله يعبد ربّه الذي يزعم، ويدع آلهمنا وسبّها، ولا يعرض لأحد ممّا بشيء من هذا، فبعث أبو طالب في محمد عليه الصلاة والسلام، فقال: يا محمد، إن قومك قد دعوك إلى النُصفه، وهي أن تدعهم وتعبد ربّك وحدك، فقال: «أو غير ذلك يا عم؟» قال:

وما هو؟ قال: يُعطونني كلمة تدين لهم بها العرب، وتؤذي إليهم الجزية بها العجم، قالوا: وما هي فإننا نبادر إليها؟ قال: لا إله إلا الله، فنفروا عند ذلك وقالوا: ما يرضيك منا غير هذا؟ قال: والله لو أعطيتموني الأرض ذهباً ومالاً، وفي رواية: لو جعلتم الشمس في يميني، والقمر في شمالي ما أرضاني منكم غيرها، فقاموا عند ذلك وبعضهم يقول: «أَجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب؟» ويرددون هذا المعنى، وعقبه بن أبي مُعيط يقول: ﴿أَشْتُوا وَأَسِيرُوا عَلَيَّ وَالْهَيْكَلُ الْآيَةَ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وجلبت هذا الخبر تامّ المعنى، وفي بعض رواياته زيادة ونقصان، والمعنى متقارب.

ولما ذهبوا قال رسول الله ﷺ: «يا عم، قل: لا إله إلا الله، كلمة أشهد لك بها عند الله»، قال: والله لولا أن تكون سبّه في بنيّ بعدي لأقرّرت بها عينك، ومات وهو يقول: على ملّة عبدالمطلب، فنزلت في ذلك: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾.

ف قوله تعالى في هذه الآية: ﴿وَأَنطَلَقَ اللَّأُ اللَّأُ مِنْهُمْ﴾ عبارة عن خروجهم عن أبي طالب، وانطلاقهم من ذلك الجمع، هذا قول جماعة من المفسرين. وقالت فرقة: هي عبارة عن إذاعتهم لهذه الأقاويل، فكأنه كما يقول الناس: انطلق الناس بالدعاء للأمير، ونحوه، أي: استفاض كلامهم

بذلك، و﴿اللأُ﴾: الأشراف والرؤوس يسدون مسدّ الجميع في الآراء، ونحوه.

وقولهم: ﴿إِن أَشْتُوا﴾، [أن] مفسّرة لا موضع لها، ويجوز أن تكون في موضع نصب بإسقاط حرف الجر، أي: بأن، فهي بتقدير المصدر، كأنه قال: وانطلق الملاء منهم بقولهم: امشوا، ومعنى الآية أنه قال بعضهم لبعض: امشوا واصبروا على كل أمر ألتهكم. وذهب بعض الناس إلى أن قولهم: ﴿أَشْتُوا﴾ هو دعاء لكسب المشية، وفي هذا ضعف؛ لأنه كان يلزم أن تكون الألف مقطوعة؛ لأنه يقال: «أششى الرجل» إذا صار صاحبه ماشية، فهذا المعنى غير متمكن في الآية، وإنما المعنى: سيروا على طريقتكم ودوموا على سيرتكم، أو يكون المعنى أمراً من نقل الأقدام قالوه عند انطلاقهم، وهي في مصحف ابن مسعود: ﴿وانطلق الملاء منهم يمشون أن اصبروا﴾. وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا لَنَيْءٌ يَرَادُ﴾ يريدون ظهور محمد - ﷺ - وعُلوه بالنبوة، أي: يراد منا الانقياد له.

وقولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا﴾ يريدون بمثل هذه المقالة من أن الإله واحد. واختلف المتأولون في قولهم: ﴿فِي أَلْبَلَاءِ الْآخِرَةِ﴾ - فقال مجاهد: أرادوا ملتهم ونيحلتهم التي العرب عليها، ويقال لكل ما تشبه أمة: ملّة. وقال ابن عباس، والسدي: أرادوا ملّة النصارى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك مُتَّجِهٌ لَأَنَّهَا مَلَّةٌ شَهْرٌ فِيهَا التَّثْلِيثُ وَأَنَّ الْإِلَهَ لَيْسَ بِوَاحِدٍ. وقالت فرقة: معنى قولهم: ﴿مَّا سَمِعْنَا﴾ أي: ما سمعنا أنه يكون مثل هذا، ولا أنه يقال في المَلَّةِ الْآخِرَةِ التي كنا نسمع أنها تكون في آخر الزمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وذلك أنه قبل مبعث النبي عليه الصلاة والسلام كان الناس يستشعرون خروج نبيٍّ وحدث مَلَّةٌ ودين، ويدل على صحة هذا ما روي من أقوال الأَحْبَارِ أُولَى الصَّوَامِعِ، وما روي عن شَقِّ وَسَطِيحٍ، وما كانت بنو إسرائيل تعتقد من أنه يكون منهم. وقولهم: ﴿إِنَّ هَذَا إِلَّا أَخِيْلٌ﴾ إشارة إلى جميع ما يُخْبِرُ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ عن الله تعالى.

ثم قالوا على جهة التقرير من بعضهم لبعض، ومُضْمَنٌ ذَلِكَ الْإِنْكَارُ - ﴿أَنْزَلَ عَلَيْنَا الْكِتَابَ مِنْ بَيْنَا﴾؟ بمعنى: نحن الأشراف الأعلام، فليَمَّ حُصَّ هُو؟ وكيف يصحُّ هذا؟ فردَّ الله قولهم بما يقتضيه [بل]؛ لأن المعنى لَيْسَ تَخْصِيصُ اللَّهِ وَإِنْعَامُهُ جَارِيًا عَلَى شَهَوَاتِهِمْ، ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دَرَكِي﴾، أي في ريب أن هذا التذكير حق. ثم توعدهم بقوله: ﴿بَلْ لَمَّا يَدْفَعُوا عَنَّا﴾، أي: لو ذاقوه لتحققوا أن هذه الرسالة حق، أي هم لجهالتهم لا يُبَيِّنُ لَهُمُ النَّظْرُ، وَإِنَّمَا يُبَيِّنُ لَهُمْ مَبَاشِرَةُ الْعَذَابِ. وقرأ ابن مسعود: ﴿أَمْ أَنْزَلْ﴾ بميم بين الهمزتين.

ثم وَقَّعَهُمْ احتجاجاً عليهم، أعندهم خزائن رحمة الله التي فيها الهدى والنُّبُوَّةُ وكل فضل، فيكون لهم تحكُّمٌ في الرسالة وغيرها من نِعَمِ اللَّهِ؟ و [أم] هنا لم تُعَادِلْهَا أَلْفٌ، فهي المقطوعة التي معناها الإضراب عن الكلام الأول واستفهام، وقدَّرها سيبويه بـ «بَلْ وَالْأَلْفُ»، كقول العرب: «إِنهَا لِإِبْلِ أَمْ شَاءَ»، والخزائن للرحمة مستعارة، كأن المعنى: موضع جمعها وحفظها، ومن حيث كانت ذخائر البشر تحتاج إلى ذلك خوطب في الرحمة بما ينحو إلى ذلك، قال الطبري: يعني بالخزائن المفاتيح. والله تعالى أعلم.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَمْ﴾ في هذه الآية معادلة للألف المقدره في ﴿أَمْ﴾ الأولى، وكأنه تعالى يقول في هذه الآية: أَمْ لَهُمْ هَذَا الْمُلْكُ فَتَكُونُ الرِّسَالَةُ وَالنُّبُوَّةُ عَلَى اخْتِيَارِهِمْ وَنَظَرِهِمْ، ﴿فَلْيَرْفَعُوا فِي الْأَسْبَابِ﴾ إِنْ كَانَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، أي: إلى السماء، قاله ابن عباس رضي الله عنهما. و«الأسباب» كل ما يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْأَشْيَاءِ، وهي هنا بمعنى الحبال والسلاسل. وقال قتادة: أراد أبواب السماء.

قوله تعالى: ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ مَهْرُومٌ﴾، اختلف المتأولون في الإشارة بـ ﴿هُنَالِكَ﴾ إلى ما هي - فقالت فرقة: أشار إلى الارتقاء في الأسباب، أي: هؤلاء القوم إن راموا ذلك جُنْدٌ مهزوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قويٌّ.

وقالت فرقة: الإشارة بـ ﴿هُنَالِكَ﴾ إلى حماية الأصنام وعضدها، أي: هؤلاء القوم جند مهزوم في هذه السبيل، وقال مجاهد: الإشارة بـ ﴿هُنَالِكَ﴾ إلى يوم بدر، وكان غيباً أعلم الله به على لسان رسوله ﷺ أَنَّ جُنْدًا مُشْرِكِينَ يُهْزَمُونَ، فخرج في بدر، وقالت فرقة: الإشارة إلى من حضر عام الخندق بالمدينة. وقوله: ﴿مِنَ الْأَحْزَابِ﴾، أي: من جملة الأحزاب والأمم الذين تعصبوا في الباطل وكذبوا الرُّسُلَ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى. و [مَّا] في قوله تعالى: ﴿جُنْدٌ مَّا هُنَالِكَ﴾ زائدة مؤكدة، وفيها تخصيص.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿ذُو الْأَوْتَادِ﴾ - فقال ابن عباس، وقتادة: سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّهُ كَانَتْ لَهُ أَوْتَادٌ وَخَشَبٌ يَلْعَبُ لَهُ بِهَا وَعَلَيْهَا، وقال السدي: كان يقتل الناس بالأوتاد ويشدهم في الأرض بها، وقال الضحاك: أراد المباني العظام الثابتة. وهذا أظهر الأقوال، كما يقال للجبال أوتاد لثبوتها. ويحتمل أن يقال له: «ذو الأوتاد» عبارة عن كثرة أخبثيته وعظم عساكره، ونحو من هذا قولهم: «أهل العمود». وقرأت فرقة: ﴿لَيْكَةِ﴾، وقرأت فرقة: ﴿الْأَيْكَةِ﴾ وقد تقدم.

ثم أخبر تعالى أن هؤلاء المذكورين هم الأحزاب، وضرب بهم المثل

عَلَى النَّارِ. وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَأَبُو عَبِيدَةَ، وَمُورِجٌ، وَالْفَرَاءُ: الْمَعْنَى مُخْتَلَفٌ، الضَّمُّ كَمَا تَقَدَّمَ مِنْ مَعْنَى فَوَاقٍ، وَالْفَتْحُ بِمَعْنَى الْإِنْفَاقَةِ، أَي: مَا يَكُونُ لَهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الصَّيْحَةِ مِنْ إِفَاقَةٍ وَلَا اسْتِرَاحَةٍ، فَفَوَاقٍ مِثْلُ جَوَابٍ مِنْ أَجَابَ.

ثُمَّ ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: ﴿رَبَّنَا عَجَّلْ لَنَا قِطْعًا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾، وَالْقِطُّ: الْحِطُّ وَالنَّصِيبُ، وَالْقِطُّ أَيْضًا: الصَّكُّ وَالكِتَابُ مِنَ السُّلْطَانِ يَصِلُهُ وَنَحْوَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْمَشِيِّ:

وَلَا الْمَلِكُ الثُّغْمَانَ يَوْمَ لَقِيَتَهُ
بِغِبْطِيهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْتِيَنَّ
وَهُوَ مِنْ: قَطَطْتُ، أَي: قَطَعْتُ.

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي «الْقِطِّ» هُنَا، مَا أَرَادُوا بِهِ؟ فَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ: أَرَادُوا بِهِ: عَجَّلْ لَنَا نَصِيبًا مِنَ الْخَيْرِ وَالنَّعِيمِ فِي دُنْيَانَا، وَقَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ، وَالْكَلْبِيُّ: أَرَادُوا: عَجَّلْ لَنَا صَحْفًا بِأَيْمَانِنَا، وَذَلِكَ لَمَّا سَمِعُوا فِي الْقُرْآنِ أَنَّ الصَّحْفَ تُعْطَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِالْأَيْمَانِ وَالشَّمَائِلَ قَالُوا ذَلِكَ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُ: أَرَادُوا صِدْقَ هَذَا مِنَ الْعَذَابِ وَنَحْوَهُ، فَهَذَا نَظِيرُ قَوْلِهِمْ: ﴿تَأْتِيَنَّ عَلَيْنَا جِجَارَةٌ مِّنَ السَّمَاءِ﴾. وَقَالَ السَّدِيدِيُّ: الْمَعْنَى: أَرْنَا مَنَازِلَنَا فِي الْجَنَّةِ حَتَّى نَبِيعَكَ.

قَالَ الْقَاضِي أَبُو مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: وَعَلَى كُلِّ تَأْوِيلٍ فَكَلَامُهُمْ خَرَجَ عَلَى

لَقْرِيشٍ فِي أَنَّهُمْ كَذَّبُوا، ثُمَّ أَخْبَرَ أَنَّ عِقَابَهُ حَقٌّ عَلَى جَمِيعِهِمْ، فَكَذَلِكَ يَحِقُّ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا الْمَكْذِبُونَ بِمُحَمَّدٍ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿إِنَّ كُلَّ لَمَمَةٍ﴾، وَحَكَى أَبُو عَمْرٍو الدَّانِي أَنَّ فِيهَا: ﴿إِنَّ كُلَّهُمْ إِلَّا كَذَّبَ﴾.

١٥ - ٢٠ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَنْظُرُ﴾ بِمَعْنَى: يَنْتَظِرُ، وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ ﷺ، صِدْقُهُ الْوُجُودُ، فَالصَّيْحَةُ - عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ - عِبَارَةٌ عَنْ جَمِيعِ مَا نَابَهُمْ مِنْ قَتْلِ أَوْ أُسْرِ وَغَلْبَةٍ، وَهَذَا كَمَا تَقُولُ: صَاحَ فِيهِمُ الدُّهْرُ، وَقَالَ قَتَادَةُ: تَوَعَّدَهُمُ اللَّهُ بِصَيْحَةِ الْقِيَامَةِ وَالنَّفْخِ فِي الصُّورِ، قَالَ الشَّعْلَبِيُّ: زُويَ هَذَا التَّفْسِيرُ مَرْفُوعًا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ. وَقَالَتْ طَائِفَةٌ: تَوَعَّدَهُمُ تَعَالَى بِصَيْحَةٍ يَهْلِكُونَ بِهَا فِي الدُّنْيَا، وَعَلَى هَذَيْنِ التَّأْوِيلَيْنِ فَمَعْنَى الْكَلَامِ أَنَّهُمْ بِمَدْرَجِ عَقُوبَةٍ، وَتَحْتَ أَمْرٍ خَطِيرٍ مَا يَنْتَظِرُونَ فِيهِ إِلَّا الْهَلِكَةَ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ التَّوَعُّدُ بِشَيْءٍ مَعِينٍ يَنْتَظِرُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ فِيهِمْ كَالْتَأْوِيلِ الْأَوَّلِ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿فَوَاقٍ﴾ بِفَتْحِ الْفَاءِ، وَقَرَأَ حَمْزَةً، وَالْكَسَائِيُّ، وَابْنُ وَثَّابٍ، وَالْأَعْمَشِيُّ، وَأَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: ﴿فَوَاقٍ﴾ بِضَمِّ الْفَاءِ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُ: هُمَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، أَي: مَا لَهَا مِنْ انْقِطَاعٍ وَعَوْدَةٍ، بَلْ هِيَ مُتَّصِلَةٌ حَتَّى يَهْلِكَهُمْ، وَمِنْهُ: «فَوَاقٍ الْحَلْبِيَّةُ»، الْمَهْلَةُ الَّتِي بَيْنَ الشُّخْبَتَيْنِ، وَجَعَلُوهُ مِثْلَ قِصَاصِ الشَّعْرِ وَقِصَاصِهِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَمِنْهُ الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «مَنْ رَابَطَ فَوَاقٍ نَاقَةَ حَرَمِ اللَّهِ جَسَدَهُ

جهة الاستخفاف والهزء، ويدل على ذلك ما علم من كفرهم واستمر، ولفظ الآية يعطي إقراراً بيوم الحساب.

قوله تعالى: ﴿أَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَأْتِيَنَّكَ أُولَٰئِكَ﴾، أَي: مِنْ هَذِهِ الْأَقْوَابِلِ الَّتِي يَرِيدُونَ بِهَا الِاسْتِخْفَافَ، وَلَا تَلْتَمِثْ إِلَيْهَا، ﴿وَأَذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُدَ ذَا الْأَيْدِي﴾ فِي الدِّينِ وَالصُّدُوعِ بِهِ، فَتَأَسَّسْ بِهِ وَتَأْيِدْ كَمَا تَأْيِدُ، وَ«الْأَيْدِ»: الْقُوَّةُ، وَهِيَ فِي دَاوُدَ مُتَضَمِّنَةٌ قُوَّةَ الْبَدَنِ وَقُوَّتَهُ عَلَى الطَّاعَةِ. وَ«الْأَوَابِ»: الرَّجْعُ إِلَى طَاعَةِ اللَّهِ تَعَالَى، قَالَه مُجَاهِدٌ وَابْنُ زَيْدٍ، وَفَسَّرَهُ السَّدِيدِيُّ بِالْمُسْتَبِحِ، وَذَكَرَ الشَّعْلَبِيُّ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الرُّزْقَةُ يُسْفَنُ»، وَكَانَ دَاوُدُ أَرْزُوقًا، وَأَخْبَرَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَمَّا وَهَبَ لِدَاوُدَ مِنَ الْكِرَامَةِ فِي أَنَّ سَخَّرَ الْجِبَالَ مَعَهُ تَسْبِيحًا،

٤٤١

وظاهر الآية عموم الجبال، وقالت فرقة: بل هي الجبال التي كان فيها وعندها، وتسيح الجبال هنا حقيقة. و«الإشراق»: وقت ضياء الشمس وارتفاعها، ومنه قولهم: «أشروقَ بُيُوتٌ كَيْمَا نُغِيرُ»، أي: ادخل في الشروق، وفي هذين الوقتين كانت صلاة بني إسرائيل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: صلاة الضحى عندنا هي صلاة الإشراق، وهي في هذه الآية.

وقوله: «وَالطَّيْرُ» بالنصب عطف على «الْجِبَالِ»، أي: وسَحَرْنَا الطَّيْرَ، و«مَحْشُورَةٌ» نصب على الحال، ومعناه: مجموعة، وقرأ ابن أبي عَبلَةَ: «وَالطَّيْرُ مَحْشُورَةٌ» بالرفع فيهما، والضمير في [لَهُ] قالت فرقة: هو عائد على الله تعالى، وَ «كُلُّ» - على هذا - يراد به: داود، والجبال، والطير. وقالت فرقة: هو عائد على داود عليه السلام، و«كُلُّ»: الجبال والطير.

وقوله تعالى: «وَسَدَدْنَا مُلْكَكُمْ» عبارة عامة لجميع ما وهب الله تعالى من قوة وجُند ونعمة، وقد خصص بعض المفسرين في ذلك أشياء دون أشياء، فقال السدي: بالجنود، وقال آخرون: بهيئة جعلها الله له. وقرأ الجمهور: «وَسَدَدْنَا» بتخفيف الدال الأولى، وزوي عن الحسن شدُّها على المبالغة. و«الْحِكْمَةُ»: الفهم في الدين وجودة النظر، هذا قول فرقة، وقالت فرقة: أراد بالحكمة الثبوت، وقال أبو العالية: الحكمة: العلم الذي لا تردُّه العقول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هي عقائد البرهان.

واختلف الناس في «فُضِّلِ الْخَطَابِ» - فقال ابن عباس، ومجاهد، والسدي: هو فصل القضاء بين الناس بالحق وإصابته وفهّمه. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وشُرَيْح، والشعبي: هو إيجاب اليمين على المدعى عليه، والبيّنة على المدعي، وقال زياد، والشعبي أيضاً: هو قول: «أما بعد»، فإنه أول من قالها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يعطيه لفظ الآية أن الله تعالى آتاه أنه كان إذا خاطب في نازلة فصل المعنى وأوضحه، لا يأخذه في ذلك حَصْرٌ ولا ضعف، وهذه صفة قليل من يدرِكها، فكان كلامه عليه السلام فضلاً، وقد قال الله تبارك وتعالى في صفة القرآن: «إِنَّهُ لَكَوْلٌ لِّقَوْلِ الْكَلِمَةِ»، ويزيد محمد ﷺ على هذه الدرجة بالإيجاز في العبارة، وجمع المعاني الكثيرة في اللفظ اليسير، وهذا هو الذي تَخَصَّصَ هو - عليه الصلاة والسلام - به في قوله: «وَأَعْطَيْتُ جِوَامِعَ الْكَلِمِ»، فإنها في الخلال التي لم يُؤْتها أحدٌ قبله، وذكر «جوامع الكلم» معدودٌ ومُسَلَّمٌ له ﷺ.

٦٦ - ٦٧ تفسير قوله عز وجل: هذه مخاطبة للنبي ﷺ، واستفتحت بالاستفهام تعجباً من القصة وتفخيماً لها؛ لأن المعنى: هل أتاك هذا الأمر العجيب الذي هو عبرة؟ فكان هذا الاستفهام إنما هو تهئيةً لنفس المخاطب وإعداداً لها للتلقّي، و«الْحَضْمُ» - جارٍ مجرى

«عَدَلٌ وَزُورٌ» - يوصفُ به الواحد والاثنان والجمع، ومنه قول لبيد:

وَحَضْمٌ يَعْدُونَ الدُّخُولَ كَأَنَّهُمْ قُرُومٌ غَيَّارِي كُلِّ أَزْهَرٍ مُضْعَبٍ
وتحتمل هذه الآية أن يكون التَّسْوِيرُ للمحراب من اثنين فقط؛ لأن نفس الخصومة إنما كانت بين الاثنين، فتجيء الضمائر في «سُورَةُ» و«دَخَلُوا» و«قَالُوا» على جهة التَّجَوُّزِ في العبارة عن الاثنين بلفظ الجمع، وتحتمل أنه جاء مع كل واحد فرقة كالعاضدة أو المؤنسة، فيقع على جميعهم «حَضْمٌ»، وتجيء الضمائر حقيقة.

و«سُورَةُ» معناه: عَلَوْا سُورَةَ، وهو جميع «سُورَةَ»، وهي القطعة من البناء، وهذا كما تقول: تَسَمَّتُ الحائط أو البعير إذا علوت سنامه. و«المِحْرَابُ»: الموضع الأرفع من القصر أو المسجد، وهو موضع التَّعْبُدِ، والعامل في [إِذْ] الأولى [نَبَأٌ]، وقيل: «أَتَيْتُكَ»، والعامل في الثانية «سُورَةُ»، وقيل: هي بدلٌ من الأولى.

وقوله تعالى: «فَفَرَّجَ بَيْنَهُمْ» يحتمل أن يكون فرغه من الداخلين أنفسهم لشلا يؤذوه، وإنما فرغ من حيث دخلوا من غير الباب ودون استئذان، وقيل: إن ذلك كان ليلاً، ذكره الثعلبي. ويحتمل أن يكون فرغه من أن يكون أهل مُلْكِهِ قد استهانوه حتى ترك بعضهم الاستئذان، فيكون فرغه من فساد السيرة لا من الداخلين، ويظهر من قولهم: «لَا تَحْفَ» أنهم فهموا فرغه.

وهنا قَصَصٌ طَوَّلَ الناس فيه،

قال هؤلاء القصاص جلدته حدين لما ارتكب في حرمة من رفع الله محله .

وقوله تعالى: ﴿حَسْبَانَ﴾ تقديره: نحن خصمان، وهذا كقول الشاعر:
وَقَوْلًا إِذَا جَاوَزْتُمَا أَرْضَ عَامِرٍ
وَجَاوَزْتُمَا الْحَبِيبِينَ نَهْدًا وَخَشَعَمَا
نَزِيعَانَ مِنْ جَزْمِ بْنِ زَبَانَ إِنَّهُمْ
أَبْنَا أَنْ يُمِيرُوا فِي الْهَرَاهِزِ مِخْجَمًا
ومثله قول العرب في المثل:
«مُحْسِنَةٌ فَهَيْلِي»، والتقدير: أنت
محسنة، ومنه قول عليه الصلاة
والسلام: «أَيُّونَ تَائِبُونَ».

﴿يَيْنَ﴾: اعتدى واستطال، ومنه
قول الشاعر:

وَلَكِنَّ الْقَتَى حَمَلَ بِنَ نَذِرٍ
بَنَى وَالْبَغْيُ مُزْتَعَةٌ وَحِيمٌ
وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّاكَ بِنَاءٌ بِالْحَيِّ
وَلَا تُنْطِطُ﴾ إغلاظ على الحاكم،
واستدعاء لعدله، وليس هذا بارتباب
منه، ومنه قول الرجل للنبي ﷺ:
(فاحكم بيننا بكتاب الله)، وقرأ
الجمهور: ﴿تُنْطِطُ﴾ بضم التاء وكسر
الطاء الأولى، ومعناه: ولا تبعد في
حكمتك، وقرأ أبو رجاء، وقتادة
بفتح التاء وضمّ الطاء الأولى، وهي
قراءة الحسن، والجحدري،
والمعنى: ولا تبعد، يقال: شَطَّ إِذَا
بَعُدَ، وَأَشْطَّ إِذَا أَبْعَدَ غَيْرَهُ، وقرأ
زُرُّ بْنُ حُبَيْشٍ: ﴿تُنْطِطُ﴾ بضم التاء
وبألِفٍ بعد الشين. و«سواء الصراط»
معناه: وسط الطريق ولاجه.

وقوله: ﴿إِنَّ هَذَا آخِي﴾، إعراب
[آخِي] عطف بيان، وذلك أن ما
جرى من هذه الأشياء صفة كَالْخُلُقِ
وَالْخُلُقِ وسائر الأوصاف فإنه نعتٌ

فَنَتَهُ، ثم إنها شعرت به فأسبكت
شعرها على بدنها فتجللت به فزاده
ذلك ولو عابها، ثم إنه انصرف
وسأل عنها فأخبر أنها امرأة رجل
من جنده يقال له: «أوريثا»، وأنه في
بعث كذا وكذا، فيروى أنه كتب
إلى أمير تلك الحرب أن قدم فلاناً
يقاتل عند التابوت، وهو موضع
قلما يخلص منه أحد، فقدمه
فاستشهد هنالك، ويروى أن دواد
كتب أن يؤمر ذلك الرجل على
جملة من الرجال، وترمى به
الغارات والوجوه الصعبة من الحرب
حتى قُتل في الثالثة من نهضاته،
وكان لدواد عليه السلام - فيما روي
- تسع وتسعون امرأة، فلما جاءه
الكتاب بقتل من قُتل في حربه،
جعل كلما سُمي رجل يسترجع
ويتفجع، فلما جاء اسم الرجل
قال: كتب الموت على كل نفس،
ثم إنه خطب المرأة وتزوجها فكانت
أم سليمان عليه السلام فيما روي
عن قتادة، فبعث الله تعالى إليه
الخصم ليُفتي أن هذا ظلم، وقالت
فرقة: إن هذا كله همٌّ به داود عليه
السلام ولم يفعله، والمعاتبه على
الهمِّ، وقال آخرون: إنما الخطأ في
أنه لم يجزع عليه كما جزع على
غيره من الجند، إذ كان عنده أمر
المرأة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
والرؤاؤه على الأول أكثر، وفي كتب
بني إسرائيل في هذه القصة صور لا
تليق، وقد حدثت بها قصاص في
صدر هذه الآية، فقال علي بن أبي
طالب رضي الله عنه: من حدث بما

واختلفت الروايات فيه، ولا بد أن
نذكر منه ما لا يقوم تفسير الآية إلا
به، ولا خلاف بين أهل التأويل أن
هؤلاء الخصم إنما كانوا ملائكة
بعثهم الله تعالى ضرب مثل لدواد
عليه السلام، فاخصموا إليه في نازلة
قد وقع هو في نحوها، فأفتى يفتياً
هي واقعة عليه في نازلته، ولما شعر
وفهم المراد خزٌّ وأتاب واستغفر، أما
نازلته التي وقع فيها فروي أنه عليه
السلام جلس في ملا من بني إسرائيل
فأعجب بعمله، وظهر منه ما يقتضي
أنه لا يخاف على نفسه الفتنة،
ويقال: بل وقعت له في نحو هذا
محاورة مع الملكين الحافظين عليه،
فقال: جَرَبَانِي يَوْمًا، وإن غبتما عني
فإني لا أواقع مكروهًا، وقال
السدي: كان قد قَسَمَ دهره: يوماً
يقضي فيه بين الناس، ويوماً للعبادة،
ويوماً لشأن نفسه، فعُين يومٌ خُلُوهُ
للعبادة لما تمنى أن يُعطى مثل فضل
إبراهيم وإسحاق ويعقوب عليهم
السلام، والتزم أن يُمتحن كما
اشْتَحَنُوا، وقيل: السبب غير هذا مما
هو تطويل لا يصح.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
إن داود أخذ يوماً في عبادته،
وانفرد في محرابه يصلي ويسبح، إذ
دخل عليه طائر من كُوَّة فوق بين
يديه، فروي أنه كان طائراً حسن
الهيئة، حمامة، فمدّ داود يده إليها
ليأخذها، فما زالت تطمعه ويتبعها
حتى صعدت الكُوَّة التي دخلت
منها، فصعد ليأخذها فتنحى الطائر
له، فطلّع داود فإذا هو بامرأة
تغتسل عريانة، فرأى منظراً جميلاً

محض، والعامل فيه هو العامل في الموصوف، وما كان منها مما ليس ليوصف به البتة فهو بدل، والعامل فيه مُكْرَر، تقول: «جاءني أخوك زيد»، فالتقدير: جاءني أخوك، جاءني زيد، فاقترص على حذف العامل في البديل والمبدل منه، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَرَاهِلَكَا قَبْلَهُمْ مِنْ الْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾، وما كان منها مما لا يوصف به واحتيج إلى أن يبين به ويجري مجرى الصفة فهو عطف بيان، وهو بين في قول الشاعر:

... يَا نَضْرُ نَضْرُ نَضْرًا
فإن الرواية في الثاني بالتونين تدل على أن النداء ليس بمكرر عليه، فليس ببدل، ووضح فيه عطف البيان.

وهذه الأخوة مستعارة؛ إذ هما مَلَكَان، ولكن من حيث تصوّر آدميين تكلمًا بالأخوة التي بينهما في الدين والإيمان، والله أعلم.

والتعجبة في هذه الآية عبر بها عن المرأة، والتعجبة في كلام العرب تقع على أنثى بقر الوحش، وعلى أنثى الضأن، وتُعبّر العرب بها عن المرأة، وكذلك بالشاة، قال الأعشى:

فَرَمَيْتُ غَفْلَةَ عَيْنِيهِ عَنْ شَاتِيهِ
فَأَصَبْتُ حَبَّةَ قَلْبِهَا وَطِحَالِيهَا
أراد: عن امرأته. وفي قراءة ابن مسعود: «وَتَسْمُونَ نَعْجَةَ أَنْثَى»، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿رَلَى﴾ بفتح الياء، وقرأ الباقون بسكونها، وهما حسنتان، وقرأ الحسن

والأعرج: «بِنَجْحَةٍ» بكسر النون، والجمهور على فتحها، وقرأ الحسن: «تَسْعُ وَتَسْمُونَ» بفتح التاء فيهما، وهي لغة. وقوله تعالى: ﴿أَكْفَلْنِيهَا﴾، أي: رُدّها في كفالتي، وقال ابن كيسان: المعنى: اجعلها كفلي، أي: نصيبي.

قوله تعالى: ﴿وَعَزَّنِي﴾، أي: عَلَّنِي، ومنه قول العرب: «مَنْ عَزَّ بَرًّا»، أي: من غلب سلب. وقرأ أبو حيوه بتخفيف الزاي، قال أبو الفتح: أراد: عَزَّنِي، فحذف إحداهما تخفيفاً، كقول أبي زَيْد:

أَحْسَنَ بِهِ فَهَنَّ إِلَيْهِ شُوسُ
قال أبو حاتم: ورويت بتخفيف الزاي عن عاصم، وقرأ ابن مسعود، وأبو الضحى، وعبيد بن عمير: «وَعَاَزَنِي»، أي: غَالَبَنِي. ومعنى قوله: ﴿فِي الْخِطَابِ﴾، أي: كان أوجه مني وأقوى، فإذا خاطبته كان كلامه أقوى من كلامي، وقوته أعظم من قوتي، فيروى أن داود عليه السلام لما سمع هذه الحجة قال للآخر: ما تقول؟ فأقر وألذ، فقال له داود: لئن لم ترجع إلى الحق لأكسرن الذي فيه عينك، وقال للثاني: «لَقَدْ ظَلَمَكَ»، فتبسما عند ذلك، وذهبا ولم يرهما لحينه، فشعر حينئذ للأمر، وزوي أنهما ذهبا نحو السماء بمزأى منه، وقيل: بل بيئنا عليه فعله في تلك المرأة وزوجها، وقال له: إنما نحن مثال لك. وقال بعض الناس: إن داود قال: «لَقَدْ ظَلَمَكَ» قبل أن يسمع حجة الآخر، وهذه كانت خطيبته،

ولم تنزل به هذه النازلة المروية قط.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ضعيف من جهات؛ لأنه خالف متظاهر الروايات، وأيضاً فقوله: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ معناه أن ظهر صدقك بيئنة أو باعتراف، وهذا من بلاغة الحاكم التي تزُد المعوج إلى الحق، وتفهمه ما عند القاضي من الفطنة. وقال الشعلبي: كان في النازلة اعتراف من المُدعى عليه حذف اختصاراً، ومن أجله قال داود عليه السلام: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾.

وقوله عليه السلام: ﴿يَسْأَلُ تَجِيكَ﴾، أضاف المصدر إلى المفعول. و«الْخُلَطَاءُ»: الأشرار والمتعاقبون في الأملاك والأموار، وهذا القول من داود وغظ وبسط لقاعدة حق؛ ليحذر من الوقوع في خلاف الحق، و«تَأًا» في قوله: ﴿رَقِيلٌ مَا هُمُّ﴾ زائدة مؤكدة.

وقوله: ﴿وَلَطَنَ دَاوُدُ﴾ معناه: شعر وعليم، وقالت فرقة: ﴿وَلَطَنَ﴾ هنا بمعنى: أيقن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظن أبداً في كلام العرب إنما حقيقته توقف بين معتقدين يغلب أحدهما الآخر، وثوقه العرب على العلم الذي ليس عن الحواس، ولا له اليقين التام البتة، ولكن يخلط الناس في هذا ويقولون: «ظَنُّ» بمعنى: أيقن، ولسنا نجد في كلام العرب شاهداً يتضمن أن يقال: رأى زيد كذا وكذا فظنّه، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُؤَيَّدُونَ﴾، وإلى قول دريد بن الصمة:

اللَّهُمَّ اكتب لي بها أجراً، واحطط عني بها وزراً، وارزقني بها شكراً، وتقبلها مني كما تقبلت من عبدك داود، قال النبي ﷺ: «وسجدت أنت لا، فقال: «أنت كنت أحق بالسجدة من الشجرة، ثم تلا رسول الله ﷺ الآيات حتى بلغ «وَأَنَابَ» فسجد، وقال كما قالت الشجرة». و«أَنَابَ» معناه: رجع وتاب.

ويُروى عن مجاهد أن داود عليه السلام بقي في ركعته تلك لاصقاً بالأرض يبكي ويدعو أربعين صباحاً حتى نبت العشب من دمه، ويروى غير هذا مما لا تثبت صحته، ويروى أنه لما غفر الله له أمر المرأة قال: يا رب، كيف لي بدم زوجها إذا جاء يطلبني يوم القيامة؟ فأوحى الله إليه: إنني سأستوهبه لك يا داود، وأجعله أن يَهَبَهُ راضياً بذلك، فحينئذ سُرَّ داود عليه السلام واستقرت نفسه، وروي عن عطاء الخراساني، ومجاهد أن داود عليه السلام نقش خطيئته في كفه، فكان يراها دائماً ويعرضها على الناس في كل حين من خطبه وكلامه وإشارته وتصرفه تواضعاً لله وإقراراً، وكان يسبح في الأرض ويصيح: «إلهي، إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إلى روحي، سبحانك

فَقُلْتُ لَهُمْ ظُنُّوا بِالْفَنِيِّ مُدْجِجٍ سَرَائِهِمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسْرِدِ وَإِلَى هَذِهِ الْآيَةِ: ﴿وَظَنَّ دَاوُدُ﴾، فَإِنَّكَ تَجِدُ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْيَقِينِ دَرَجَةً، وَلَوْ فَرَضْنَا أَهْلَ النَّارِ قَدْ دَخَلُوهَا وَيَاشُرُوهَا لَمْ يَقُلْ: ﴿فَظَنُّوا﴾، وَلَا اسْتِقَامَ ذَلِكَ، وَلَوْ أَخْبَرَ جِبْرِيلُ دَاوُدَ بِهَذِهِ الْفِتْنَةِ لَمْ يَعْبُرْ عَنْهَا بِ «ظَنَّ»، فَإِنَّمَا تَعَبَّرَ الْعَرَبُ بِهَا عَنِ الْعِلْمِ الَّذِي يَقَارِبُ الْيَقِينَ وَلَيْسَ بِهِ، وَلَمْ يَخْرُجْ بَعْدَ إِلَى الْإِحْسَاسِ.

وقرأ جمهور الناس: «فَنَنَّهُ» بفتح التاء وشدّ النون، أي: ابتليناه وإمتحنناه، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأبو رجاء، والحسن - بخلاف عنه -: «فَنَنَّا» بشدّ التاء والنون، على معنى المبالغة، وقرأ أبو عمرو - في رواية علي بن نصر -: «فَنَنَّا» بتخفيف التاء والنون، على أن الفعل لِلْخَصْمِينَ، أي: اِمْتَحَنَّا عَنْ أَمْرِنَا، وهي قراءة قتادة، وقرأ الضحاك: «افتنناه».

قوله تعالى: ﴿وَحَزَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾، أي: ألقى بنفسه نحو الأرض متطامناً متواضعاً، والركوع والسجدة الانخفاض والتراخي نحو الأرض، وخصصنهما الشرائع على هيئات معلومة، وقال قوم: يقال: «حَزَّ ثَم رَكِعَ» وإن كان لم ينته إلى الأرض، وقال الحسين بن الفضل: المعنى: حَزَّ من ركوعه، أي: سَجَدَ بعد أن كان راکعاً، وقال أبو سعيد الخدري «رَأَيْتِي أَكْتُبُ سُورَةَ صَ، فَلَمَّا بَلَغْتَ هَذِهِ الْآيَةَ سَجَدَ الْقَلَمُ، وَرَأَيْتِي فِي مَنَامٍ آخَرَ وَشَجَرَةٌ تَقْرَأُ سُورَةَ صَ، فَلَمَّا بَلَغْتَ هُنَا سَجَدْتَ، وَقَالَتْ:

ويُروى عن مجاهد أن داود عليه السلام بقي في

ركعته تلك لاصقاً بالأرض يبكي ويدعو أربعين صباحاً حتى نبت العشب من دمه، ويروى غير هذا مما لا تثبت صحته، ويروى أنه لما غفر الله له أمر المرأة قال: يا رب، كيف لي بدم زوجها إذا جاء يطلبني يوم القيامة؟ فأوحى الله إليه: إنني سأستوهبه لك يا داود، وأجعله أن يَهَبَهُ راضياً بذلك، فحينئذ سُرَّ داود عليه السلام واستقرت نفسه، وروي عن عطاء الخراساني، ومجاهد أن داود عليه السلام نقش خطيئته في كفه، فكان يراها دائماً ويعرضها على الناس في كل حين من خطبه وكلامه وإشارته وتصرفه تواضعاً لله وإقراراً، وكان يسبح في الأرض ويصيح: «إلهي، إذا ذكرت خطيئتي ضاقت علي الأرض برحبها، وإذا ذكرت رحمتك ارتد إلى روحي، سبحانك

إلهي، أتيت أطباء الدين ليبدأوا عُلْتِي فَكُلُّهُمْ عَلَيْكَ دَلْتِي»، وكان يُدْخِلُ فِي صَدْرِ خَطِيئَتِهِ الْاسْتِغْفَارَ لِلخَطَّائِينَ، وَمَا رَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ بَعْدَ خَطِيئَتِهِ حَيَاءً حَتَّى قُبِضَ، صَلَّى اللَّهُ تَعَالَى عَلَيَّ نَبِيْنَا وَعَلَيْهِ وَعَلَى جَمِيعِ النَّبِيِّينَ وَسَلِّمْ.

١٥٩ - تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَقَفَرْنَا لَمْ ذَلِكَ﴾ معناه: سترنا، و«ذَلِكَ» إشارة إلى الذنب المتقدم، و«الزلفي»: القربى والمكانة الرفيعة. و«المآب»: المرجع في الآخرة، من: آب يؤوب إذا رجع. وبعد ذلك حذف يدل عليه ظاهر الكلام، تقديره: وقلنا له: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً﴾، واستدل بعض أهل الظاهر من هذه الآية على احتياج الأرض إلى خليفة من الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس هذا بلازم من الآية، بل لزومه من الشرع والإجماع، ولا يقال: «خليفة الله» إلا لرسوله، وأما الخلفاء فكل واحد منهم خليفة الذي قبله، وما يجيء في الشعر من تسمية أحدهم خليفة الله فذلك تجوز وغلو، كقول ابن قيس الرقيات:

خَلِيفَةُ اللَّهِ فِي بَرِّيَّتِهِ
جَعَتْ بِذَلِكَ الْأَقْلَامُ وَالْكَتَبُ
أَلَا تَرَى أَنَّ الصَّحَابَةَ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ حَزَرُوا هَذَا الْمَعْنَى،
فَقَالُوا لِأَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ: خَلِيفَةُ
رَسُولِ اللَّهِ، فَبِهَذَا كَانَ يَدْعِي مَدَّتَهُ،
فَلَمَّا وَلِيَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قَالُوا: يَا
خَلِيفَةَ خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ، فَطَالَ
الْأَمْرُ، وَرَأَوْا أَنَّهُ فِي الْمُسْتَقْبَلِ
سَيَطُولُ أَكْثَرَ فِدَعُوهُ: أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ،
وَقَصَرَ هَذَا الْأَسْمُ عَلَى الْخُلَفَاءِ.

وقوله عز وجل: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ
عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ إلى قوله سبحانه:
﴿وَلَيْتَ كَفَّرَ أَزْلًا الْأَنْبِيَاءَ﴾ اعتراض بين
الكلامين من أمر داود وسليمان،
وهو خطاب لمحمد ﷺ، وعظة
لأمته، ووعيد للكفرة به. وقرأ أبو
حيرة: ﴿يُضِلُّونَ﴾ بضم الياء،
و﴿نَسُوا﴾ معناه - في هذه الآية -:
تركوا.

وأخير تبارك وتعالى أن الذين كفروا
يظنون أن خلق السموات والأرض
وما بينهما إنما هو باطل لا معنى له،
وأن الأمر ليس يؤول إلى ثواب
وعقاب، وأخبر تعالى عن كذب
ظنهم، وتوعدهم بالنار. ثم وَقَفَ
على الفرق - عنده - بين المؤمنين
العاملين بالصالحات، وبين

المفسدين الكفرة، وبين المتقين
والفجار، وفي هذا التوقيف حض
على الإيمان وترغيب فيه، ووعيد
للكفرة.

ثم أحال في طلب الإيمان والتقوى
على كتابه العزيز بقوله: ﴿يَكْتُبُ
أَنْزَلْنَاهُ﴾، والمعنى: هذا كتاب لمن
أراد التمسك بالإيمان والقربة إلينا،
وفي هذه الآية اقتضاب وإيجاز
بديع، كإعجاز كل القرآن العزيز.
وصفه بالبركة لأن أجمعها فيه؛ لأنه
يورث الجنة، ويُنقذ من النار،
ويحفظ المرء في حال الحياة الدنيا،
ويكون سبب رفعة شأنه في الحياة
الآخرة. وقرأ الجمهور: ﴿لِيَتَذَكَّرُوا﴾
بالياء وشد الدال والياء، والضمير
للعالم، وقرأ حفص عن عاصم:
﴿لِيَتَذَكَّرُوا﴾ بالتاء على المخاطبة،
وقرأ أبو بكر عنه بتخفيف الدال،
أصله: تتدبروا، وظاهر هذه الآية
يقضي أن التذبر من أسباب إنزال
القرآن، فالترتيل إذاً أفضل لهذا؛ إذ
التذبر لا يكون إلا مع الترتيل، وباقي
الآية بين.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:
الهِبَةُ وَالْعَطِيَّةُ بمعنى واحد،
فوهب الله تعالى سليمان لداود
عليهما السلام ولدأ، وأثنى عليه
بأوصاف من المدح تضمنها قوله
تعالى: ﴿يَعْمُ الْكَبِدُ﴾، و﴿أَرَابُ﴾
معناه: رجاع، ولفظة ﴿أَرَابُ﴾ هي
العامل في [إذ]؛ لأن أمر الخيل
مُقْتَضٍ أَوْبَةٌ عَظِيمَةٌ.

واختلف المتأولون في قصص هذه
الخيل المعروضة - فقال الجمهور:
إن سليمان عليه السلام عرضت عليه

آلاف من الخيل تركها أبوه له -
وقيل: ألف واحد - فأجريت بين
يديه عشاء، فتشغل بحسنها وجريها
ومحبتها حتى فاتته وقت صلاة
العشاء، - قال قتادة: صلاة العصر،
وروي عن علي بن أبي طالب
رضي الله عنه - فأسف لذلك،
وقال: رُدُّوا عَلَيَّ الْخَيْلَ، وقال
الحسن: فطفق يضرب أعناقها
وعراقبها بالسيف عرقاً لها لما كانت
سبب فوت الصلاة، فأبدله الله تعالى
أسرع منها الريح، وقال قوم - منهم
الثعلبي -: كانت بالناس مجاعة،
ولحوم الخيل لهم حلال، فإنما
عقرها لتؤكل على وجه القربة بها،
كالهذي عندنا، ونظير هذا ما فعله
أبو طلحة الأنصاري بحائطه؛ إذ
تصدق به لما دخل عليه الدبسي وهو
في الصلاة فشغله.

و «الصَّافِنُ»: الفرس الذي يرفع
إحدى يديه ويقف على طرف
سُنْبِيهِ، وقد يفعل ذلك برجله، وهي
علامة الفَرَاة، وأشد الرجاج:

أَلِفٌ الصُّفُونَ فَلَا يَزَالُ كَأَنَّه
مِمَّا يَقُومُ عَلَى الثَّلَاثِ كَسِيرًا
وقال أبو عبيدة: الصَّافِنُ: الذي
يجمع يديه ويُسَوِّيهِمَا، وأما الذي
يقوم على طرف السُنْبِكِ فهو
المخيم، وفي مصحف ابن مسعود:
«الصَّوْفَانِ الْجِيَادُ»، و«الْجِيَادُ»: جمع جَوْدٍ، كثوْبٌ وثياب، وسُمِّيَ
به لأنه يجود بجريه.

وقال بعض الناس: «الْخَيْرُ» هنا
أراد به: الخيل، والعرب تسمي
الخيل الخَيْرَ، وكذلك قال عليه
الصلاة والسلام لزيد الخيل: «أنت

زيدُ الخير، و﴿حَبَّ﴾ مفعول به نصب لذلك عند فرقة، كأن ﴿أَحَبَّ﴾ بمعنى: آثر. وقالت فرقة: المفعول بـ﴿أَحَبَّ﴾ محذوف، و﴿حَبَّ﴾ نصب على المصدر، أي: أَحَبَّتْ هذه الخيل حُبَّ الخير، ويكون ﴿الْحَبِيرُ﴾ - على هذا التأويل - غير الخيل، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿حُبَّ الْخَيْلِ﴾ باللام. وقالت فرقة: ﴿أَحَبَّتْ﴾ معناه: سقطت إلى الأرض لذنب، مأخوذ من: أَحَبَّ البعير إذا أغيا وسَقَطَ هُزْلاً، و﴿حَبَّ﴾ - على هذا - مفعول من أجله.

والضمير في ﴿تَوَارَّتْ﴾ للشمس وإن كان لم يجز لها ذكرٌ صريح، إلا أن المعنى يقتضيها مذكورة ويتضمنها؛ ولأن العشي يقتضي لها ذكراً إذ هو مُقَدَّر متوهم بها. وقال بعض المفسرين في هذه الآية: ﴿حَبَّ تَوَارَّتْ بِالْحَبَابِ﴾ يريد به الخيل، أي: دخلت اصطبلاتها.

وقال ابن عباس، والزهرائي: إن مَسَحَهُ بالسوق والأعناق لم يكن بالسيف، بل بيده تكريماً لها ومحبة، ورجحه الطبري، وقال بعضهم: بل غسلًا بالماء، وقد يقال للغسل مسح لأن المسح بالأيدي يقترب به. وهذه الأقوال عندي إنما ترتب على نحو من التفسير في هذه الآية، وروي عن بعض الناس. وذلك أنه رأى أن هذه القصة لم يكن فيها فوت صلاة، ولا تَضَمَّن أمر الخيل أوبةً ولا رجوعاً. فالعامل في [إذًا] فعلٌ مضمَرٌ تقديره: اذكر إذ عَرَض، وقالوا: عَرَض على سليمان الخيل وهو في الصلاة،

فأشار إليهم، أي: إني في الصلاة، فأزالوها عنه حتى أدخلوها الاصطبلات، فقال هو لما فرغ من صلاته: ﴿إِنِّي أَحَبَّتُ حَبَّ الْخَيْرِ﴾، أي الذي عند الله في الآخرة، بسبب ذكر ربي، فكأنه يقول: فشغلني ذلك عن رؤية الخيل، حتى أدخلت اصطبلاتها، رُدَّها عليّ، فطفق يمسح أعناقها وسوقها محبةً لها. وذكر الثعلبي أن هذا المسح إنما كان وسمًا في السوق والأعناق بوسم حَبَس في سبيل الله تعالى. وجمهور الناس على أنها كانت خيلاً موروثه. قال بعضهم: قتلها حتى لم يبق منها أكثر من مائة فرس، فمن نسل تلك المائة كل ما يوجد اليوم من الخيل. وهذا بعيد. وقال بعضهم: كانت خيلاً أخرجها الشيطان له من البحر، وكانت ذوات أجنحة، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنها كانت عشرين فرساً، و﴿تَطَفَّقَ﴾ معناه: دام يفعل، كما تقول: جعل يفعل.

وقرأ الجمهور: ﴿بِالسُّوقِ﴾ بواو ساكنة، وهو جمع ساق، وقرأ ابن كثير وحده بالهمز، قال أبو علي: وهي ضعيفة، ولكن وجهها في القياس أن الضمة لما كانت تلي الواو، قُدِّر أنها عليها فهمزت كما يفعلون بالواو المضمومة، وهذا نظير إِمَالَتِهِمْ أَلْفَ مَقَلَاتٍ من حيث وَلِيَّتِ الْقَافِ الْكَسْرَةَ قَدَّرُوا أَنَّ الْقَافَ هِيَ الْمَكْسُورَةُ.

وَوَجْهُ هَمْزِ (السُّوقِ) هِيَ أَنَّ أَبَا حَيْثَةَ الثَّمِيرِي كَانَ يَهْمِزُ كُلَّ وَائِ سَاكِنَةٍ

قبلها ضمة، وكان يُشِيد:

أَحَبَّ الْمُرْقُودَانِ إِلَيْكَ مُؤَسَى

وقرأ ابن محيصن: ﴿بِالسُّوقِ﴾ بهمزة بعدها واو. وقوله: ﴿عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾ على كل تأويل فإن ﴿عَنْ﴾ هنا للمجازاة من شيء إلى شيء، فتدبره فإنه مطرد.

ثم أخبر تعالى عن فِئْتِهِ لسليمان، وامتحانه إياه بزوال مُلْكِهِ، وروي في ذلك أن سليمان عليه السلام قالت له حِطِّيَّةٌ من حظاياها: إن أخي له خصومة، فأرغب أن تقضي له بكذا وكذا، لشيء غير الحق، فقال سليمان عليه السلام: أفعَل، فعاقبه الله تعالى بأن سلَّط على خاتمه جنيًا، وذلك أن سليمان عليه السلام كان لا يدخل الخلاء بخاتم ملكه توقيعاً لاسم الله تعالى، فكان يضعه عند امرأة من نسائه، ففعل ذلك يوماً، فألقى الله تعالى شَبَّهُهُ على جني اسمه صخر - فيما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما -

وقيل غير هذا مما اختصرناه لعدم الصحة، فجاء إلى المرأة فدفعَتْ إليه الخاتم، فاستولى على ملك سليمان وبقي فيه أربعين يوماً، وطرح خاتم سليمان في البحر، وجعل يعبث في بني إسرائيل وشبَّه سليمان عليه السلام عليه، حتى أنكروا أفعاله، ومكَّنه الله تعالى من جميع الملك، قال مجاهد: إلا من نساء سليمان فإنه لم يكشفهن، وكان سليمان عليه السلام خلال ذلك قد خرج فاراً على وجهه مُنْكَرًا، لا ينتسب لقوم إلا ضربوه، وأدرکه جوعٌ وفاقة، فمُرَّ

يوماً بامرأه تغسل حوتاً ميتاً، فسألها منه لجوعه، وقيل: بل اشتراه فأعطته حوتين، وجعل يفتح أجوافهما، وإذا خاتمته في جوف أحدهما، فعاد إليه ملكه، وسُخِرَتْ له الجِنَّ والريح من ذلك اليوم، وفرَّ صخر الجنِّي، فأمرَ به سليمان فيبيِّنْ إليه، فأطبق عليه في حجارة، وسجنه في البحر إلى يوم القيامة، فهذه هي الفتنة التي فتن سليمان عليه السلام واثخن بها.

واختلف الناس في الجسد الذي ألقى على كرسيه - فقال الجمهور: هو الجنى المذكور، سمَّاه «جَسَداً» لأنه كان قد تمثَّل في جسد سليمان عليه السلام ولُبِسَ به، وهذا أصحُّ الأقوال وأبينُّها معنى. وقالت فرقة: بل ألقى على كرسيه جسد ابن له ميت، وقالت فرقة: بل شِئُّ الولد الذي وُلد له حين أقسم ليطوَّقَنَّ على نسانه ولم يستثن في قَسَمه، وقال قوم: مرض سليمان عليه السلام مرضاً كالإغماءِ حتَّى صار على كرسِيه جَسَداً كان بلا روح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا كلُّه غير متصل بمعنى هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿أَنَابَ﴾ معناه: ارعوى وانثنى وأجاب إلى طاعة ربه، ومعنى هذا: من تلك الحَوْبَةِ التي وقعت الفتنة بسببها.

ثم إن سليمان عليه السلام استغفر ربَّه، واستوهبه مُلْكاً، واختلف المتأولون في معنى قوله: ﴿لَا يَبْنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَيْنِي﴾ - فقال الجمهور: أراد أن يفرد به بين البشر لتكون خاصة له وكرامة، وهذا هو الظاهر

من قوله عليه الصلاة والسلام في خبر العفريت الذي ظهر له في صلته، فأخذه وأراد أن يؤثقه بسارية من سواري المسجد، قال: «ثم ذكرت قول أخي سليمان: ﴿رَبِّ أَغْنِزْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَا يَبْنِي لِأَحَدٍ مِّنْ بَيْنِي﴾ فأرسلته»، وقال قتادة، وعطاء بن أبي رباح: إنما أراد سليمان عليه السلام: لا يبنني لأحد من بعدي مدة حياتي، أي: لا أسلبه ويصير إلى أحد كما صار الآن إلى الجنى.

وزوي في مثالب الحجاج بن يوسف أنه لما قرأ هذه الآية قال: «لقد كان حسوداً»، وهذا من فسق الحجاج، وسليمان عليه السلام مقطوع أنه إنما قصد بذلك قصداً بَرّاً جائزاً؛ لأن للإنسان أن يرغب من فضل الله فيما لا يناله أحد، لا سيما بحسب المكانة والنبوة، وانظر أيضاً إلى قوله عليه السلام: ﴿لَا يَبْنِي﴾، فإنما هي لفظة محتملة وليست بقطع في أنه لا يعطي الله تعالى نحو ذلك الملك لأحد، ومحمد ﷺ لو ربط الجنى لم يكن ذلك نقصاً لما أوتي سليمان عليه السلام، لكن لما كان فيه بعض الشبه تركه جزياً منه عليه الصلاة والسلام على اختياره أبداً أيسر الأمرين وأقربهما إلى التواضع.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن، وأبو رجاء: ﴿الرِّيَّاحَ﴾، والجمهور على الأفراد، وسُخِرَ الله تعالى الريح لسليمان عليه السلام، وكان له كرسِيٌّ عظيم، يقال: إنه يحمل أربعة آلاف فارس، ويقال: أكثر، وفيه الشياطين، وتُظَلُّه

الطير، وتأتي عليه الريح الإعصار فتقلُّه من الأرض حتى يحصل في الهواء، ثم تتولاه الرخاء - وهي اللينة القوية المتشابهة لا تأتي فيها دُفْعُ مفرطة - فتحمله - غُدُوها شهر، ورَوَّاحها شهر ﴿حَيْثُ أَسَابَ﴾ أي: أراد، قاله وهبٌ وغيره، وأنشد الثعلبي:

أَصَابَ الْكَلَامَ فَلَمْ يَسْتَطِعْ
فَأَخْطَا الْجَوَابَ لَدَى الْمَفْصَلِ
ويُشَبَّه أَنْ ﴿أَسَابَ﴾ مُعْدَى: صَابَ يَصُوبُ، أي: حيث وجه جنوده وجعلهم يصوبون صوب السحاب والمطر. وقال الزجاج: معناه: قَصَدَ، كذلك قولك للمتكلم: «أَصَبْتَ» معناه: قصدت الحق.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّ بَيِّنَةٍ وَوَعَاوِسَ﴾ بدلٌ من ﴿الشَّيْطَانِ﴾، والمعنى: كلٌ من بنى مصانعه للحروب. و﴿مُؤَقَّرِينَ﴾ معناه: مؤثمين، قد قرن بعضهم ببعض، و﴿الْأَصْفَادِ﴾ القيود والأغلال.

واختلف الناس في المشار إليه بقوله: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا﴾ - فقال قتادة: إشارة إلى ما فعله بالجن، فامتنن على من شئت منهم، وأطلقه من وثاقه وسرَّحه من خدمته، أو أمسك أمره كما تريد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أشار إلى ما وهبه من النساء وأقدره عليهن من جماعهن، وقال الحسن: أشار إلى ما أعطاه من المُلْك، وأمره بأن يُمنَّ على من يشاء ويُمسك عمَّن يشاء، فكانه وقفه على قدر النعمة ثم أباح له التصرف فيه بمشيئته، وهو تعالى قد علم بأن مشيئته إنما تتصرف

بحكم طاعة الله. وهذا أصح الأقوال وأجمعها لتفسير الآية. وباقى الآية بين.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

أيوب هو نبي من بني إسرائيل، من ذرية يعقوب عليهما السلام، وهو المُتَلَى في جسده وماله وأهله، وسَلِمَ معتقه ودينه.

وروي في ذلك أن الله تعالى سلط الشيطان عليه ليفتنه عن دينه، فأصابه في ماله، وقال له: إن أعطتني رجع مالك، فلم يطعه، فأصابه في أهله وولده فهلكوا عن آخرهم، وقال له: إن أعطتني رجعوا، فلم يطعه، فأصابه في جسده، فثبت أيوب على أمر الله تعالى سبع سنين وسبعة أشهر. قاله قتادة، وروي أنس عن النبي ﷺ أن أيوب عليه السلام بقي في محنته ثماني عشرة سنة يتساقط لحمه حتى مله العالم، ولم يصبر عليه إلا أمرأته. وروي أن السبب الذي امتحنه الله تعالى من أجله أنه دخل على بعض الملوك فرأى منكراً فلم يغيّره، وروي أن السبب أنه ذبح شاة وطبخها وأكلت عنده وجاره جاع لم يعطه منها شيئاً، وروي أن أيوب لما تناهى بلاؤه وصبره مرّ به رجلاً ممن كان بينه وبينهما معرفة ففرّعا وقال له: لقد أذنبت ذنباً ما أذنب أحد مثله، وفهم منهما شمتاً به، فعند ذلك دعا ونادى ربّه.

وقوله عليه السلام: ﴿سَيِّئُ السَّيِّئَاتِ﴾ يحتمل أن يشير إلى مسّه حين سلطه الله عليه حسبما ذكرنا، ويحتمل أن يريد مسّه إياه حين حملة أول الأمر على أن يواقع الأمر الذي

من أجله كانت المحنة؛ إما ترك التغيير عند الملك، وإما ترك مواساة الجار، وقيل: أشار إلى مسّه إياه في تعرضه لأهله، وطلبه منه أن يشرك بالله، وكان أيوب قد تشكى هذا الفعل، وكان أشدّ عليه من مرضه.

وقرأ الجمهور: ﴿أَنِّي﴾ بفتح الهمزة، وكسرهما عيسى بن عمر، وهي في موضع نصب بإسقاط حرف الجرّ، وقرأ جمهور الناس: ﴿يُنْصَبِ﴾

بضم النون وسكون الصاد، وقرأ هبيرة عن حفص عن عاصم بفتحهما، وهي قراءة الجحدري، ويعقوب، ورويت عن الحسن، وأبي جعفر، وقرأ أبو عمارة عن حفص عن عاصم: ﴿بِئْصَبِ﴾ بضم النون والصاد، وهي قراءة أبي جعفر بن القعقاع، والحسن - بخلاف عنه - وروى أيضاً هبيرة عن حفص عن عاصم بفتح النون وسكون الصاد. وذلك كله بمعنى واحد، معناه: المشقة، وكثيراً ما يستعمل «النَّصَبُ» في مشقة الإعياء. وقرئ بعض الناس بين هذه الألفاظ، والصواب أنه لغات من قولهم: «أَنْصَبْتَنِي الأَمْرُ» وَنْصَبْتَنِي إِذَا شَقَّ عَلَيَّ، فمن ذلك قول الشاعر:

تَعَنَّكَ نَصَبٌ مِنْ أَمِيمَةٍ مُنْصَبٍ

ووهبنا له أهله، وشملهم معهم رحمةً بنا وذكرى لأولى الألباب ﴿٤١﴾ وَخَذَّ بِيَدِكَ ضَعْفًا فَأُثْرِبَ بِهِ، وَلَا تَحْنُثْ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعِمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٢﴾ وَأَذْكُرُ عَبْدًا نَابِرًا زُهَيْمًا وَأَسْحَقُ وَيَعْقُوبُ أُولَى الأَيْدِي وَالْأَبْصُرُ ﴿٤٣﴾ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذُكِّرَ النَّارُ ﴿٤٤﴾ وَلَهُمْ عِنْدَنَا لِنِ الْمُصْطَفِينَ الأَخْيَارِ ﴿٤٥﴾ وَأَذْكُرُ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَ الكَهْلَ وَكُلَّ مِنَ الأَخْيَارِ ﴿٤٦﴾ هَذَا ذِكْرُ وَإِنَّ الْمُتَّقِينَ لَحَسْبُ نَسَابٍ ﴿٤٧﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ مَفْنَعَةٌ لِمَنْ أَتَوْهَا مُتَبَسِّئِينَ فِيهَا يُدْعَوْنَ فِيهَا بِغَدَاكٍ وَحُكْرٍ وَقُوَيْرَابٍ ﴿٤٨﴾ وَعِنْدَهُمْ قَصْرِاتٌ الطَّرِيقِ أَرْبَابٌ ﴿٤٩﴾ هَذَا مَا تُوَعَّدُونَ لِيُؤَيَّرَ الْحَسَابِ ﴿٥٠﴾ إِنَّ هَذَا الرِّفْقَا مَا لَمْ يَنْفَادِ ﴿٥١﴾ هَذَا وَإِنَّ لِلطَّغْيِينَ لَشَرَّ مَنَابٍ ﴿٥٢﴾ هَهُمْ يَصَلُّونَهَا فَيَسْأَلُ الأَهَادِ ﴿٥٣﴾ هَذَا فَلَيْدُ قُوَيْرَابٍ وَجَمْرٍ وَعَسَائِ ﴿٥٤﴾ وَهَ الأَخْرَيْنِ شَكْلِهِ أَرْوَجٌ ﴿٥٥﴾ هَذَا أَرْوَجٌ مَقْتَنٌ مَعَكُمْ لَأَمْرِحَابِهِمْ أَيْتَهُمْ صَالُوا النَّارِ ﴿٥٦﴾ قَالُوا لَيْلَ أَنْتُمْ لَمْ تَحْبَابِكُمْ أَنْتُمْ قَدْ مَتَّوْهُنَا فَيَسْأَلُ الْقَسْرَاءُ ﴿٥٧﴾ قَالُوا رَبَّنَا مَنْ قَدَّمَ لَنَا هَذَا فَرَدَّهَ عَدَا بَأْسَ عَقَابِي النَّارِ ﴿٥٨﴾

ومنه قول النابتغة:

كَلَيْسَنِي لَهُمْ يَا أَمِيمَةَ نَاصِبٍ

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد قيل في هذا البيت: إن «ناصباً» بمعنى «مُنْصَب»، وإنه على التَّسْب، أي: ذا نصب.

وهنا في الآية محذوف كثير، تقديره: فاستجاب له وقال له: ﴿أَكْفَسَ بِرِحْلِكَ﴾، والرَّكُضُ: الضرب بالرجل، والمعنى: اركض الأرض، وروي عن قتادة أن هذا الأمر كان في الجابية من أرض الشام، وروي أن أيوب عليه السلام أمر بركض الأرض فركض فيها فنبعت له عين ماء صافية باردة، فشرب منها فذهب كل مرض في داخل جسده، ثم اغتسل فذهب ما كان في ظاهر بدنه، وروي أنه ركض مرّتين، ونبع له

عينان شرب من إحداهما واغتسل في الأخرى. وقرأ نافع، وشيبة، وعاصم، والأعمش: ﴿وَعَدَابَ أَرْكَضٍ﴾ بضم نون التنوين، وقرأ عاتمة قراء البصرة بكسرهما. و﴿مُغْتَسِلٌ﴾ معناه: موضع غسل، وماء غُسْلٌ، كما تقول: هذا الأمر مُغْتَبَرٌ، وهذا الماء مُغْتَسَلٌ مثله.

وزوي أن الله تعالى وهب له أهله وماله في الدنيا، ورَدَّ من مات منهم وما هلك من ماشيته، ثم بارك في جميع ذلك، ووُلِدَ له الأولاد حتى تضاعفت الحال، وروي أن هذا كله وعد في الآخرة، أي: يفعل الله له ذلك في الآخرة. الأول أكثر في قول المفسرين. و﴿رَحِمَتْ﴾ نصب على المصدر، وقوله تعالى: ﴿وَذَكَّرْنَا﴾ معناه: موعظة وتذكرة يعتبر بها أولو العقول، ويتأسزون ببصيره في الشدائد، ولا يئأسون من رحمة الله تعالى على كل حال. وروي أن أيوب كانت زوجته مُدَّة مرضه تختلف إليه فيلقاها الشيطان في صورة طبيب، ومرة في هيئة ناصح، وعلى غير ذلك، فيقول لها: لو سجد هذا المريض للصنم الفلاني لبريء، ولو ذبح عناقاً للصنم الفلاني لبريء، ويعرض عليها وجوهاً من الكفر، فكانت ربما عرضت ذلك على أيوب، فيقول لها: أَلَقِيَتِ عدو الله في طريقك؟ فلما أغضبته بهذا ونحوه حلف لئن برىء من مرضه ليضربنَّها مائة سوط، فلما برىء أمره الله تعالى أن يأخذ ضغثاً فيه مائة قضيب. و﴿الضُّغْثُ﴾: القبضة الكبيرة من القضبان ونحوها

من الشجر الرطب، قاله الضحاک وأهل اللغة، فيضرب به ضربة واحدة فتبرّ يمينه، ومنه قولهم: «ضَغْتُ عَلَى إِبَالَةٍ»، والإبالة: الخزومة من الحطب، قال الشاعر:

وَأَسْفَلَ مِنِّي نَهْدَةً قَدَّرَبَطْتُهَا
وَأَلْفَيْتُ ضَغْثًا مِنْ خَلَا مُتَطَيَّبٍ
وهذا حكم قد ورد في شرعنا عن النبي ﷺ مثله في حد رجل زَمِنَ بالزَّئِنِ، فأمر رسول الله ﷺ بعذق فيه مائة شمراخ أو نحوها، فضرب به ضربة، ذكر الحديث أبو داود، وقال به بعض فقهاء الأمة، وليس يرى ذلك مالك وأصحابه، وكذا جمهور العلماء على ترك القول به، وأن الحدود والبر في الأيمان لا يقع إلا بتمام عدد الضربات.

﴿٥٤﴾ - ﴿٥٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير: ﴿وَأَذَكَّرَ عِبْدَنَا﴾ على الأفراد، وهي قراءة ابن عباس رضي الله عنهما وأهل مكة، وقرأ الباقون: ﴿وَأَذَكَّرَ عِبْدَنَا﴾ على الجمع، فأما على هذه القراءة فدخل الثلاثة في الذكر وفي العبودية، وأما على قراءة من قرأ: ﴿عِبْدَنَا﴾ فقال مكِّي وغيره: دخلوا في الذكر، ولم يدخلوا في العبودية إلا من غير هذه الآية، وفي هذا نظر، وتأول قوم من المتأولين من هذه الآية أن الذبيح إسحق، من حيث ذكر الله تعالى بعقب ذكر أيوب أنبياء امتحنهم بمحن كما امتحن أيوب، ولم يذكر إسماعيل لأنه يَمَن لم يُمْتَحَن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا ضعيف كله.

وقرأ الجمهور: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾،

وقرأ الحسن، والثقفى، والأعمش، وابن مسعود: ﴿أُولَى الْأَيْدِي﴾ بحذف الياء، وأما (أولر) فهو جمع (ذو)، وأما القراءة الأولى ف﴿الأيدي﴾ فيها عبارة عن القوة في طاعة الله، قاله ابن عباس، ومجاهد. وقالت فرقة: بل معناه، أولي الأيدي والثمم التي أسداها الله تعالى إليهم: من النبوة والمكانة. وقال قوم: المعنى: أيدي الجوارح، والمراد الأيدي المتصرفة في الخير، والأبصار الثاقبة فيه، لا كالتي هي مهملة في جل الناس. وأما من قرأ: ﴿الأيدي﴾ بغير ياء فيحتمل أن تكون كالتي بالياء وحذفت تخفيفاً، ومن حيث كانت الألف واللام تعاقب التنوين وجب أن تحذف معها كما تحذف مع التنوين. وقالت فرقة: ﴿الأيدي﴾ معناها: القوة، والمراد: في طاعة الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿وَالْأَبْصَارُ﴾ عبارة عن البصائر، أي: يُبْصِرُونَ الحقائق، وينظرون بنور الله تعالى، وينحو هذا فسر الجميع.

وقرأ نافع وحده: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾ على الإضافة، وهي قراءة أبي جعفر، والأعرج، وشيبة. وقرأ الباقون: ﴿بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى﴾ منوناً، وقرأ الأعمش: ﴿بِخَالِصَتِهِمْ ذِكْرَى﴾، وهي قراءة طلحة، ويحتمل أن تكون ﴿خَالِصَةً﴾ اسم فاعل، كأنه عبّر بها عن مزية أو رتبة، فأما من أضافها ف﴿ذِكْرَى﴾ مخفوض بالإضافة، وأما من نَوَّنَ ف﴿ذِكْرَى﴾ بدل من ﴿خَالِصَةً﴾، ويحتمل أن تكون ﴿خَالِصَةً﴾ مصدرأ كالعافية، وكخاتنة الأعين، وغيرها،

فـ ﴿ذِكْرًا﴾ - على هذا - إما أن يكون في موضع نصب بالمصدر على تقدير: إنا أخلصناهم بأن أخلصنا لهم ذكرى الدار، وتكون ﴿عَالِمَةً﴾ مصدرًا، من: أخلص، على حذف الزوائد، وإما أن يكون ﴿ذِكْرًا﴾ في موضع رفع بالمصدر، على تقدير: إنا أخلصناهم بأن خلصت لهم ذكرى الدار، وتكون ﴿عَالِمَةً﴾ من: خلص.

و﴿الدَّارُ﴾ في كل وجه في موضع نصب بـ ﴿ذِكْرًا﴾، و﴿ذِكْرًا﴾ مصدر. وتحتل الآية أن يريد بالدار الدَّارَ الآخرة، على معنى: أخلصناهم بأن خلص لهم التذكير بالدار الآخرة، ودعا الناس إليها وحضهم عليها، وهذا قول قتادة، أو على معنى: خلص لهم ذكركم للدار الآخرة، وخوفهم لها، والعمل بحسب ذلك، وهذا قول مجاهد، وقال ابن زيد: المعنى: إنا وهبناهم أفضل ما في الدار الآخرة، وأخلصناهم به، وأعطيناهم إياه. ويحتمل أن يريد بالدار دار الدنيا، على معنى ذكر الثناء والتعظيم من الناس، والحمد الباقي الذي هو الخلد المجازى به، فتجيء الآية في معنى قوله تعالى: ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾، وفي معنى قوله: ﴿وَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ﴾.

و﴿الْمُصْطَفَيْنَ﴾ أصله: المصطفين، تحركت الياء، وما قبلها مفتوح فانقلبت ألفًا، ثم اجتمع سكون الألف وسكون الياء التي هي علامة الجمع فحذفت الألف. و﴿الْأَخْيَارَ﴾ جمع خير، وخيرٌ

مخفف من خَيْرٍ، كَمَيِّتٍ وَمَيِّتٍ. وقرأ حمزة والكسائي ﴿وَاللَّيْسَ﴾، كأنه أدخل لام التعريف على (لَيْسَ) فأجراه مجرى ضَيْعَمٍ ونحوه، وهي قراءة علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - والكوفيين. وقرأ الباقون: ﴿وَاللَّيْسَ﴾، قال أبو علي: الألف واللام فيه زائدتان غير معروفتين، كما هي في قول الشاعر: وَلَقَدْ جَنَيْتُكَ أَكْمُؤًا وَعَسَاقِلًا وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنِ بَنَاتِ الْأَوْتِرِ و «بنات أوتر»: ضرب من الكمأة. واختلف في نبوة (ذي الكفيل)، وقد تقدم تفسير أمره.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا ذَكَرْنَا﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يشير إلى مدح من ذكر وإبقاء الشرف له ميتاً فيؤكد بهذا التأويل قول من قال آنفاً: إن «الدار» يراذ بها الدار الدنيا، والثاني أن يشير بـ ﴿فَمَا ذَكَرْنَا﴾ إلى القرآن، أي: هو ذكر للعالم. و«المآب»: المرجع حيث يؤوبون، و﴿جَنَيْتُ﴾ بدل من ﴿حَسَنَ﴾، و﴿نَفَعْتُهُ﴾ نعت للجئات، و﴿الْأَوْتِرَ﴾ مفعول لم يُسمِّ فاعله، والتقدير عند الكوفيين: مفتحة لهم أبوابها، ولا يجوز ذلك عند أهل البصرة، والتقدير عندهم: الأبواب منها، وإنما دعا إلى هذا الضمير أن الصفة لا بد أن يكون فيها عائد على الموصوف.

و﴿قَصِيرَتِ الطَّرِيقِ﴾، قال قتادة: معناه: على أرواجهن، و﴿أَزْرَابُ﴾ معناه: أمثال، وأصله في بني آدم أن تكون الأسنان واحدة، أي: مسّت أجسادهم التراب في وقت واحد. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو:

﴿يُوعَدُونَ﴾ بالياء من تحت، واختلفا في سورة آق، فقرأ أبو عمرو بالتاء من فوق، وقرأ الباقون في السورتين بالتاء، و«الثَّأْدُ»: الفناء والانتضاء.

﴿٥٥﴾ - ﴿٦١﴾ تفسير قوله عز وجل: التقدير: الأمر هذا، ويحتمل أن يكون التقدير: هذا واقع، أو نحوه، و«الطَّاعِي»: المُفْرِطُ في الشَّرِّ، مأخوذ من: طعى يطغى، والطغيان هنا في الكفر، و«المآب»: المرجع، و﴿جَهَنَّمَ﴾ بدل من قوله: ﴿لَنَرَّ مَنَابٍ﴾، و﴿يَصَلُّونَهَا﴾ معناه: يباشرون حرّها وحرقتها، و﴿الْبَهَادُ﴾: ما يفرشه الإنسان ويتصرف به.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا فَيَلْدُوهُ﴾ يحتمل أن يكون ﴿هَذَا﴾ ابتداء، والخبر ﴿جِيءَ﴾، ويحتمل أن يكون التقدير: الأمر هذا فليذوقوه، ويحتمل أن يكون ﴿هَذَا﴾ في موضع نصب بفعل يدلُّ عليه ﴿فَيَلْدُوهُ﴾، و﴿جِيءَ﴾ - على خبر ابتداء مضمّر. قال ابن زيد: الحميم: دموعهم تجتمع في حياض فيسقونها. وقرأ الجمهور: ﴿وَعَسَاقُ﴾ بتخفيف السين، وهو اسم بمعنى السائل، وروى عن قتادة أنه ما يسيل من صديد أهل النار، ويروى عن السدي أنه ما يسيل من عيونهم، ويروى عن كعب الأحبار أنه ما يسيل من حمة عقارب النار، وهي - يُقال - مجتمعة في عين هنالك، وقال الضحاك: هو أشدُّ الأشياء برداً، وقال عبدالله بن بُريدة: هو أتنُّ الأشياء، وروى ذلك أبو سعيد عن النبي ﷺ. وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿وَعَسَاقُ﴾ بتشديد السين،

كما يعتدون بالشيء في حُكْم دون حُكْم، نحو اللام في قولهم: «لا أبا لك»، واللام المتصلة بالكاف اعتد بها فاصلة للإضافة، ولذلك جاز دخول (لا)، ولم يُعتد بها في أن أعرب (أبا) بالحرف، وشأنه - إذا انفصل ولم يكن مضافاً - أن يعرب بالحركات، فجاءت (اللام) ملغاة الحكم من حيث أعرب بالحركات كأنه مضاف، وهي مُتَعَدُّ بها فاصلة في أن جَوِّزَتْ دخول (لا). وقرأ مجاهد: ﴿مِنْ شِكْلِهِ﴾ بكسر الشين. و﴿أَزْوَاجٌ﴾ معناه: أنواع، والمعنى: لهم حميمٌ وعَسَاقٌ وأغذية أخرى من ضرب ما ذكر ونحوه وأنواع كثيرة.

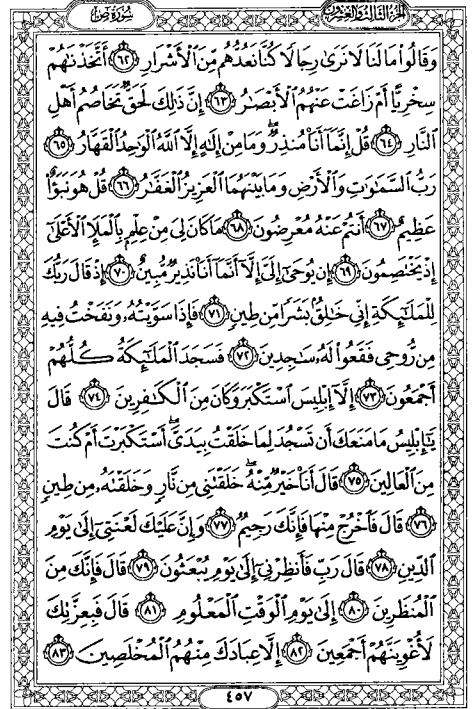
وقوله تعالى: ﴿مَدَا تَوْجٌ﴾ هو مما يقال لأهل النار إذا سبق عاثة الكفار وأتباعهم؛ لأن رؤسائهم يدخلون النار أولاً، والأظهر أن قائل ذلك لهم ملائكة العذاب، وهو الذي حكاه الثعلبي وغيره، ويحتمل أن يكون ذلك من قول بعضهم لبعض، فيقول البعض الآخر: ﴿لَا مَرَجًا بِيَوْمٍ﴾، أي: لا سعة مكان ولا خير يلقونه. و﴿الْفَوْجُ﴾: الفريق من الناس، وقوله تعالى: ﴿بَلْ أَنتَ لَا مَرَجًا بِيَوْمٍ﴾ حكاية لقول الأنبياء حين سمعوا قول الرؤساء. و﴿أَنْتَ قَدَّمْتَهُمْ لَنَا﴾ معناه: بإغوائكم أسلفتم لنا ما أوجب هذا، فكأنكم فعلتم بنا هذا.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا رَبَّنَا﴾ حكاية لقول الأنبياء أيضاً، دعوا على رؤسائهم بأن يكون عذابهم مضاعفاً.

(١٦١) - (١٦٢) تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿قَالُوا﴾ لأشرف الكفار ورؤسائهم، أخبر الله تعالى عنهم

الواحد من حيث ذلك الواحد درجات ورتب من العذاب، وقوي وأقل منه، وأيضاً فمن جهة أخرى على أن يُسَمَّى كل جزء من ذلك باسم الكل، كما قالوا: «شابت مفارقه»، فجعلوا كل جزء من المَفْرَق مَفْرَقاً، وكما قالوا: «جمل ذو عنانين»، ونحو هذا، ألا ترى أن جماعة من المفسرين قالوا: إن هذا الآخر هو الزمهير، فكأنهم جعلوا كل جزء منه زمهيراً. وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿وَأَخْرَجَ﴾ على الجمع،

وهي قراءة الحسن، ومجاهد، والجحدري، وابن جبير، وعيسى، وهو رفع على الابتداء، وخبره ﴿أَزْوَاجٌ﴾، و﴿مِنْ شِكْلِهِ﴾ في موضع الصفة. ورجح أبو عبيد هذه القراءة، وكذلك أبو حاتم لكون الصفة جمعاً، ولم ينصرف (أخر) لأنه معدول عن الألف واللام صفة، وذلك أن حق (أفعل) وجمعه ألا يستعمل إلا بالألف واللام، فلما استعملت (أخر) دون الألف واللام كان ذلك عدلاً لها، وجاز في (أخر) أن يوصف بها النكرة كقوله تعالى: ﴿فَمَعِدَةٌ مِنْ آيَاتِ آخِرٍ﴾، بخلاف جميع ما عدل عن الألف واللام كشجر ونحوه في أنه لا يجوز أن توصف به النكرة لأن هذا العدل في (أخر) اعتد به في منع الصرف، ولم يعتد به في الامتناع من صفة النكرة،



بمعنى: سيال، وهي قراءة قتادة، وابن أبي إسحق، وابن ثاب، وطلحة. والمعنى فيه على نحو ما قدمناه من الاختلاف، غير أنها قراءة ضعف؛ لأن «عساقاً» إما أن يكون صفة فيجبيء في الآية حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه، وذلك غير مستحسن هنا، وإما أن يكون اسماً فالأسماء على هذا الوزن قليلة في كلام العرب كالقياد ونحوه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَخْرَجَ﴾ بالإنفراد، وهو رفع بالابتداء، واختلف في تقدير خبره - فقالت طائفة: تقديره: ولهم عذاب آخر، وقالت طائفة: خبره ﴿أَزْوَاجٌ﴾، و﴿مِنْ شِكْلِهِ﴾ في موضع الصفة، ومعنى ﴿مِنْ شِكْلِهِ﴾: من مثله وضربه، وجاز - على هذا القول - أن يُخبر بالجمع الذي هو ﴿أَزْوَاجٌ﴾ عن

أنهم يتذكرون - إذا دخلوا النار - لقوم من مستضعفي المؤمنين، فيقولون هذه المقالة، وهذا مطرد في كل أمة جاءها رسول، وزوي أن القائلين من كفار عصر النبي ﷺ هم: أبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، وأهل القليب، ومن جرى مجراهم، وأن الرجال الذين يُشِرون إلى ذكرهم هم عمار بن ياسر، وسلمان، وصهيب ومثلهم، قاله مجاهد وغيره. والمعنى: كنا في الدنيا نعدّهم أشراراً لا خلاق لهم. وأمّال الرءاء من ﴿الَّذِينَ﴾ أبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وفتحها ابن كثير، وعاصم، وأشم نافع، وحمزة. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿اتَّخَذْنَاهُمْ﴾ بألف وصل، على أن يكون ذلك في موضع الصفة لـ (رجال)، وقرأ الباقون بألف، قطع للاستفهام، ومعناها تقريرٌ أنفسهم على هذا، على جهة التوبيخ لها والأسف، أي: اتَّخَذْنَاهُمْ ولم يكونوا كذلك، واستبعد معنى هذه القراءة أبو علي.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وهي قراءة الأعرج، وشيبة، وابن مسعود وأصحابه، وأبي جعفر، ومجاهد، والضحاك، ومعناها من السُّخْرَةِ والاستخدام، وقرأ الباقون بكسر السين، وهي قراءة الحسن، وأبي رجاء، وعيسى، وابن محيصن، ومعناها المشهور من السُّخْرِ الذي هو بمعنى الهُزء، ومنه قول الشاعر: إني أتشتني لساناً لا أسرُّ بها من علو لا كذب فيها ولا سخرُ

وقالت فرقة: يكون بكسر السين من السُّخْرِ. و [أم] في قولهم: ﴿أَمْ زَاغَتْ﴾ معادلة لـ [ما] في قولهم: ﴿مَا لَنَا لَا نَرَى﴾، وذلك أنها قد تعادل ما يعادل (من)، وأنكر بعض النحويين هذا وقال: إنها لا تعادل إلا الألف فقط، والتقدير في هذه الآية: أمفقودون هم أم زاغت؟ ومعنى هذا الكلام: أليستوا معنا أم هم معنا ولكن أبحارنا تميل عنهم فلا نراهم؟ و﴿الزُّنُغُ﴾: التل.

ثم أخبر الله تعالى نبيه ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ ذَلِكَ لَمَقْصَمُ أَهْلِ النَّارِ﴾، و﴿غَضَامٌ﴾ بدل من قوله: ﴿لَمَقْ﴾. وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿تَخَاصُمٌ﴾ بفتح الميم، وقرأ ابن محيصن: ﴿تَخَاصُمٌ﴾ بالتثنية ﴿أَهْلُ النَّارِ﴾ برفع اللام.

ثم أمر تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بأن يتجرد للكفار من جميع الأغراض إلا أنه منذر لهم، وهذا توعدٌ بليغ محرّك للنفوس، وباقي الآية بين.

(٧) - (٧١) تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ﴾ إلى التوحيد والمعاد، فهي إلى القرآن وجميع ما تضمنته وعده أن التصديق به نجاة والتكذيب به هلكة. وحكى الطبري أن شريحاً اختصم إليه أعرابي، فشهد عليه، فأراد شريح أن ينفذ الحكم، فقال الأعرابي: أتحكم عليّ بالثبأ؟ فقال شريح: نعم، إن الله تعالى يقول في القرآن: ﴿هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ﴾، وقرأ الآية، وحكم عليه. قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا الجواب من شريح إنما هو بحسب لفظ الأعرابي، ولم يُحرز معه الكلام، وإنما قصد إلى ما يقطعه به؛ لأن الأعرابي لم يفرّق بين الشهادة والثبأ، والثبأ في كلام العرب بمعنى الخبر. ووبّخهم تبارك وتعالى بقوله: ﴿أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرِضُونَ﴾.

ثم قال: ﴿مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِاللَّيْلِ إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾، وهذا احتجاج لصحة أمر محمد ﷺ، كأنه يقول: هذا أمر خطير، وأنتم عنه معرضون مع صحته، ودليل صحته أنني أخبركم فيه بغيب لم تأت إلا من عند الله، فإني لم يكن لي علم بالملأ الأعلى وقت خصومتهم لولا أن الله تعالى أخبرني بذلك. وأراد بهم الملائكة، والضمير في ﴿يَخْتَصِمُونَ﴾ عند جمهور المفسرين هو للملائكة.

واختلف الناس في الشيء الذي هو اختصاصهم فيه - فقالت فرقة: اختصاصهم في أمر آدم عليه السلام وذريته في جعلهم في الأرض، وبدل على ذلك ما يلي من الآيات، فقول الملائكة: ﴿أَجْمَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ هو الاختصاص، وقالت فرقة: بل اختصاصهم في الكفارات وغفر الذنوب ونحوه؛ فإن العبد إذا فعل حسنةً اختلفت الملائكة في قدر ثوابه في ذلك حتى يقضي الله بما شاء، وورد في هذا حديث فسره ابن فورك؛ لأنه يتضمن أن النبي عليه الصلاة والسلام قال له ربّه عز وجل في نومه: فيم يختصمون؟ فقلت: لا أدري، فقال:

في الكفارات، وهي: إِسْبَاغُ الوضوءِ في السُّبْرَاتِ، ونقل الخُطَى، إلى الجماعات، الحديث بطوله، قال: «فوضع الله سبحانه وتعالى يده بين كتفي حتى وجدتُ بردَها فيما بين ثديي».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فتفسير هذا الحديث أن اليد هي نعمة العلم، وقوله ﷺ: «بَرَزَهَا»، أي: السُّرور بها والتُّلُج، كما تقول العرب في الأمر السَّارُ: يا بَرَزَهُ على الكبد، ونحو هذا، ومنه قول النبي ﷺ: «الصَّلَاةُ بِاللَّيْلِ هِيَ الْغَنِيْمَةُ الْبَارِدَةُ»، أي: السهلة التي يُسَرُّ بها الإنسان.

وقالت فرقة: المراد بـ ﴿أَلْتَلَى الْأَعْلَى﴾ الملائكة، وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَخْتَصِمُونَ﴾ مقطوعٌ منه، ومعناه: إذ يختصم العرب الكافرة في الملاي الأعلی، فيقول بعضها: هي بناتُ الله، ويقول بعضها: هي آلهة تُعبد، وغير ذلك من أقوالهم.

وقالت فرقة: أراد بـ ﴿أَلْتَلَى الْأَعْلَى﴾ قريشاً، وهذا ضعيف لا يتفقون من جهة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلَّا أَنَّا﴾ بفتح الألف كأنه يقول: إلا الإنذار، وقرأ أبو جعفر: ﴿إِلَّا إِنَّمَا﴾ على الحكاية، كأنه قيل له: «أنت نذيرٌ مُبينٌ»، فحكى هو المعنى، وهذا كما يقول الإنسان: أنا عالمٌ؟ فيقال له: أنت عالم، فيحكي المعنى.

و ﴿إِذْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ﴾ بدلٌ من ﴿إِذْ﴾ الأولى، على تأويل من رأي الخصومة في شأن من

سيخلف في الأرض، وعلى الأقوال الأخرى يكون العامل في ﴿إِذْ﴾ الثانية فعل مضمَر تقديره: اذْكُرْ إِذْ قَالَ، و«الْبَشْرُ الْمَخْلُوقُ» هو آدم عليه السلام... و﴿سَوَّيْتَهُ﴾ يريد به شخصه. و﴿وَقَعَّتْ يَدِي﴾ عبارة عن إجراء الروح فيه، وهي عبارة على نحو ما يفهم البشر من إجراء الأشياء بالنفخ، وقوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِي﴾ هي إضافة مِلْكٍ إلى مَالِكٍ؛ لأن الأرواح كلها هي ملك الله تبارك وتعالى، وأضاف إلى نفسه تشريفاً. وقوله تعالى: ﴿سَيِّدِينَ﴾ اختلف الناس فيه - فقالت فرقة: هو السجود المتعارف، وقالت فرقة: معناه: خاضعين، على أصل السجود في اللغة. ثم أخبر تعالى أن الملائكة بأجمعهم سجدوا إلا إبليس فإنه استكبر عن السجود.

وقولوه: ﴿وَكَانَ مِنَ الْكٰفِرِيْنَ﴾ يحتمل أن يريد به: وكان من أول أمره من الكافرين في علم الله تعالى، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد: ووجد عند هذه الغفلة من الكافرين، وعلى القولين فقد حكم الله تعالى على إبليس بالكفر، وأخبر أنه كان قد عقد قلبه في وقت الامتناع.

(٧٥) - (٧٦) تفسير قوله عز وجل: القائل لإبليس هو الله عز وجل، وقوله: ﴿مَا مَنَّكَ﴾ تقريرٌ وتوبيخٌ، وقرأ عاصم الجحدري: ﴿لَمَّا خَلَقْتَ﴾ بفتح اللام من ﴿لَمَّا﴾ وشد الميم، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَدِيَّ﴾ بالتثنية، وقرأت فرقة: ﴿يَدِي﴾ بتخفيف الياء، وقد جاء في

كتاب الله تعالى: ﴿يَمَّا عَلِمْتَ أَلَيْبًا﴾ بالجمع، وهذه كلها عبارة عن القدرة والقوة، وعبر عن هذا المعنى بذكر اليد تقريباً على السامعين؛ إذ المعتاد عن البشر أن القوة والبطش والافتقار إنما هو باليد، وقد كانت جهالة العرب بالله تعالى تقتضي أن تنكر نفوسها أن يكون خلقٌ بغير مماسَّة ونحو هذا من المعاني المعقولة. وذهب القاضي ابن الطيب إلى أن اليد والوجه والعين صفات ذات زائدة على القدرة والعلم وغير ذلك من مقرر صفاته تعالى، وذلك قولٌ مرغوب عنه، وُسِّمِيهَا الصفات الخيرية. وروي في بعض الآثار أن الله تعالى خلق أربعة أشياء بيده، وهي: العرش، والقلم، وجنة عدن، وادم، وسائر المخلوقات بقوله: كُنْ، وهذا - إن صحَّ - فإنما ذكر على جهة التشريف للأربعة والتنبية منها، وإلا فإذا حَقَّقْنَا النظر فكل مخلوق هو بالقدرة التي بها يقع الإيجاد بعد العدم.

وقرأت فرقة: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ بصلة الألف، على الخبر عن إبليس، وتكون ﴿أَمْ﴾ بنية الانقطاع لا مُعَادِلَةٌ لها، وقرأت فرقة: ﴿أَسْتَكْبَرْتَ﴾ بقطع الألف، على الاستفهام، ف ﴿أَمْ﴾ - على هذا - مُعَادِلَةٌ للألف، وذهب كثير من النحويين إلى أن ﴿أَمْ﴾ لا تكون مُعَادِلَةٌ للألف مع اختلاف الفعلين، وإنما تكون مُعَادِلَةٌ إذا دخلتا على فعل واحد، كقولك: أزيدَ قام أم عمرو؟ وقالوا: وإذا اختلف الفعلان كهذه الآية فليست معادلة. ومعنى الآية:



ولا خلاف أنه أهبط إلى الأرض. و«الرجيم»: المرجوم بالقول السيء، و«اللعنة»: الإبعاد، و«يوم الدين»: يوم القيامة، و«الدين»: الجزاء.

وإنما حدّ الله تعالى له اللعنة بيوم الدين، ولعنته إياه إنما هي مخلّدة، ليحصر له أمر التوبة؛ لأن امتناع توبته بعد يوم القيامة يبيّن؛ إذ ليست الآخرة دار عمل.

ثم إن إبليس طلب النظرة وتأخير الأجل إلى يوم بعث الأجساد من القبور، فأعطاه الله تعالى

الإبقاء إلى يوم الوقت المعلوم، واختلف الناس في تأويل ذلك - فقال الجمهور: أسعفه الله تعالى في طلبته وأخره إلى يوم القيامة، وهو الآن حيّ مغرّب مضلّ - وهذا هو الأصح من القولين -، وقالت فرقة: لم يُسعَفْ بِطَلْبَتِهِ، وإنما أسعف إلى الوقت الذي سبق من الله تبارك وتعالى أن يموت إبليس فيه. وقال بعض هذه الفرقة: مات إبليس يوم بدر.

٨٢ - ٨٣ - تفسير قوله عز وجل:

القاتل هو إبليس، أقسم بِعِزَّةِ اللَّهِ تعالى، وقال قتادة: علم عدو الله أنه ليست له عِزَّةٌ فأقسم بِعِزَّةِ اللَّهِ سبحانه أنه يغوي ذرية آدم أجمع، إلا من أخلصه الله للإيمان به.

أحدت لك الاستكبار الآن أم كنت قديماً ممن لا يليق أن يكلف مثل هذا لعلو مكانك؟ وهذا على جهة التوبيخ.

وقول إبليس: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ﴾ قياسٌ أخطأ فيه، وذلك أنه لما توهم أن النار أفضل من الطين قاس أن ما خلق من الأفضل فهو أفضل من الذي خلق من المفضول، ولم يدر أن الفضائل تخصيصات من الله تعالى ييسم بها من يشاء، وفي قوله ردّ على حكمة الله تعالى وتجويز، وذلك يبيّن في قوله: ﴿أَرَأَيْتَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ﴾، ثم قال: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْكَ﴾، وعند هذه المقالة اقترن كفر إبليس به، إمّا عناداً - على قول من يجيزه -، وإمّا بأن سلب المعرفة، وظاهر أمره أنه كفر عناد؛ لأن الله تعالى قد حكم عليه بأنه كافر، ونحن نجده خلال القصة يقول: (يا رَبِّ، وبيعزتك، وإلى يوم يبعثون)، فهذا كله يقتضي المعرفة، وإن كان للتأويل فيه مزاحم فتأمله.

ثم أمر الله تعالى إبليس بالخروج على جهة الدخور له، وقالت فرقة: أمره بالخروج من الجنة، وقالت فرقة: من السماء. وحكى الثعلبي عن أبي الحسن، وأبي العالية أن قوله تعالى: ﴿مِنْهَا﴾ يريد تعالى: من الخلق التي أنت فيها، ومن صفات الكرامة التي كانت له، قال الحسن بن الفضل: ورجعت له أضدادها، وعلى القول الأول فإنما أمر أمراً يقتضي بعده عن السماء،

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا استثناء الأقل عن الأكثر، على باب الاستثناء؛ لأن المؤمنين أقل من الكفرة بكثير، بدليل بعث النار وغيره، وجوز قوم أن يُستثنى الكثير من الجملة ويترك الأقل على الحكم الأول، واحتجوا بقوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَايِبِينَ﴾ وقال من ناقضهم: العباد هنا يعُمُّ البشر والملائكة، فبقي الاستثناء على بابيه في أن الأقل هو المستثنى. وفتح اللام وكسرها في ﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ تقدم.

والقائل: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ أَقُولُ﴾ هو الله تعالى، قال مجاهد: المعنى: فالحق أنا. وقرأ الجمهور بالنصب في الاثنين، فأما الثاني فمنصوب بـ ﴿أقُولُ﴾، وأما الأول

قوله: ﴿يَنْزِيلَ﴾، وقالت فرقة: ﴿تَنْزِيلَ﴾ خبر ابتداء تقديره: هذا تنزيل، والإشارة إلى القرآن الكريم، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿تَنْزِيلَ﴾ و﴿الْكِتَابِ﴾ في قوله: ﴿تَنْزِيلَ﴾ و﴿الْكِتَابِ﴾ هو القرآن الكريم، ويظهر لي أنه اسم عام لجميع ما ينزل من عند الله من الكتب، وكأنه تعالى أخبر إخباراً مجرداً أن الكتب الهادية الشارعة إنما تنزلها من الله عز وجل، وجعل هذا الإخبار مقدمة وتوطئة لقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾، و«العزیز» في قدرته، و«الحكيم» في إبداعه. و﴿الْكِتَابِ﴾ الثاني هو القرآن لا يحتمل غير ذلك. وقوله سبحانه: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون معناه: متضمناً للحق، أي: الحق فيه وفي أحكامه وفي أخباره، والثاني أن يعني الاستحقاق والوجوب وشمول المنفعة للعالم في هدايتهم ودعوتهم إلى الله.

وقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون الفاء عاطفة جملة من القول على جملة وواصلة، ويحتمل أن تكون كالجواب؛ لأن قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ جملة، كأنه ابتداء وخبره، كما لو قال: الكتاب منزل، وفي الجمل التي هي ابتداء وخبر إبهاماً ما يشبه الجزاء، فجاءت الفاء كالجواب، كما تقول: زيد قائم فأكرمه، ونحو هذا قول الشاعر:

أي: تَذَكُّرَةً. ثم توعدهم تعالى بقوله: ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَتَّخِذُونَ﴾، وهذا على حذف تقديره: وَلَعَلَّكُمْ تَصَدَّقُونَ بِعَدِّ حِينٍ مِنْ تَوْعَدِكُمْ.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿بَعْدَ حِينٍ﴾ إلى أي وقت أشار؟ لأن (الحين) في اللغة يقع على القليل والكثير من الوقت، فقال ابن زيد: أشار إلى يوم القيامة، وقال قتادة والحسن: أشار إلى الآجال التي لهم؛ لأن كل واحد منهم يعرف الحقائق بعد موته، وقال السدي: أشار إلى يوم بدر؛ لأنه يوم عرف الكفار فيه صدق وعيد القرآن لهم.

كامل تفسير سورة (ص) والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الزُّمَرِ

هذه السورة مكيّة بإجماع، غير ثلاث آيات نزلت في شأن وحشي قاتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه، وهي: ﴿قُلْ يَبَادِيُ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ الآيات، وقالت فرقة: بل إلى آخر السورة هو مدني، وقيل: فيها مدني سبع آيات.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

﴿تَنْزِيلَ﴾ رفع بالابتداء، والخبر

فيحتمل الإغراء، أو القسم على إسقاط حرف القسم، فكأنه قال: «فوالحق»، ثم حذف الحرف، كما تقول: «الله لأفعلن»، تريد: والله، ويُقَوِّي ذلك قوله: ﴿لَأَنبَأَنَّكَ﴾، قال سيبويه: قلت للخليل: ما معنى «لأفعلن» إذا جاءت مبتدأة؟ فقال: هو بتقدير قسم منوي. وقالت فرقة: الأول منصوب بفعل مضمر.

وقرأ ابن عباس، ومجاهد برفع الاثنين، فأما الأول فبالابتداء، وخبره في قوله: ﴿لَأَنبَأَنَّكَ﴾؛ لأن المعنى: أن أملاً، وأمأ الثاني فعلى الابتداء أيضاً. وقرأ عاصم، وحمزة بالرفع في الأول، وهي قراءة مجاهد، والأعمش، وأبان بن تغلب، وإعراب هذه بيّن. وقرأ الحسن: ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقُّ﴾ بخفض القاف على القسم، ذكرها أبو عمرو الداني.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم بأنه ليس بسائل أجير ولا مال، وأنه ليس ممن يتكلف ما لم يجعل إليه، ولا يتحلّى بغير ما هو فيه. قال الحسين بن الفضل: هذه الآية ناسخة لقوله تعالى: ﴿قُلْ لَا أَتَلَكُمُ عَلَىٰ أَجْرٍ إِلَّا أَلْمُذَّةَ فِي الْقُرْآنِ﴾، وقال الزبير بن العوام رضي الله عنه: نادى منادي للنبي ﷺ: «اللهم اغفر للذين لا يدعون ولا يتكلفون، ألا إني بريء من التكلف، وصالحو أمي».

وقوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلنَّاسِ﴾ يريد: القرآن، و﴿إِلَّا ذِكْرٌ﴾

وَقَائِلَةً خَوْلَانُ فَانكِحُوا فَتَاتَهُمْ

التقدير: هذه خولان. و﴿مُخَلَّصًا﴾ حال، و﴿الَّذِينَ﴾ نصب به، ومعنى الآية الأمر بتحقيق النِّية لله في كل عمل، و﴿الَّذِينَ﴾ هنا يعم المعتقدات وأعمال الجوارح. وقوله سبحانه: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ بمعنى: من حقه ومن واجباته، لا يقبل غيره، وهذا كقولك: «الله الحمد»، أي: واجباً ومستحقاً. قال قتادة: ﴿الَّذِينَ الْخَالِصُ﴾: لا إله إلا الله.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ رفع بالابتداء، وخيره في المحذوف المقدر، وتقديره: «يقولون: ما نعبدهم»، وفي مصحف ابن مسعود: «قالوا: ما نعبدهم»، وهي قراءة ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير. و﴿أُولَئِكَ﴾ يريد: معبودين، وهذه مقالة شائعة في العرب، يقول كثير منهم في الجاهلية: «الملائكة بنات الله، ونحن نعبدهم ليقربونا»، وطائفة منهم قالت ذلك في أصنامهم وأوثانهم. وقال مجاهد: قد قال ذلك قوم من اليهود في عزير، وقوم من النصارى في عيسى، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿تَعْبُدُكُمْ﴾ بالكاف، ﴿لِئْتَقَرَّبُونَا﴾ بالتاء. و﴿رَزَقْنَا﴾ بمعنى: قُرَّبَى وتوصلة، كأنه قال: ليقربونا إلى الله تقريباً، وكان هذه الطوائف كلها كانت ترى نفوسها أقل من أن تتصل هي بالله، فكانت ترى أن تتصل بمخلوقاته، و﴿رَزَقْنَا﴾ - عند سيبويه - مصدرٌ

في موضع الحال، كأنه ينزل منزلة: مُتَرَلِّفِينَ، والعامل فيه ﴿لِيقَرَّبُونَا﴾، هذا مذهبه وفيه خلاف. وباقى الآية وعيدٌ في الدنيا والآخرة.

② - ⑤ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية إما أن يكون معناها: إن الله لا يهدي الكاذب الكفار في حال كذبه وكفره، وإما أن يكون لفظها العموم ومعناها الخصوص فيمن حتم الله عليه بالكفر، وقضى في الأزل أنه لا يؤمن أبداً، وإلا فقد وجد الكاذب الكفار وقد هدي كثيراً. وقرأ أنس بن مالك، والجحدري: ﴿كَذَابٌ كَفَارٌ﴾ بالمبالغة فيهما، وزويت عن الحسن، والأعرج، ويحيى بن يعمر، وهذه المبالغة إشارة إلى المستوعل في الكفر، القاسي فيه، الذي يُظُنُّ بأنه محتوم عليه.

وقوله تعالى: ﴿لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ معناه: اتخاذاً التشريف والتبني، وعلى هذا يستقيم قوله سبحانه: ﴿لَأَصْطَلِقَنَّ بِنَا يَخَلُقُ﴾، وأما الاتخاذ المعهود بالتوالد فمستحيل أن يتوهم في جهة الله سبحانه وتعالى، ولا يستقيم عليه معنى قوله: ﴿لَأَصْطَلِقَنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ لفظ يعمُّ اتخاذ النسل واتخاذ الاصطفاء، فأما الأول فمعقول، وأما الثاني فمعروف بخير الشرح، ومما يدل على أن المعنى هنا

الاصطفاء والتبني قوله تعالى: ﴿بِنَا يَخَلُقُ﴾، أي: من موجوداته ومحدثاته. ثم نزه تعالى نفسه تنزيهاً مطلقاً عن جميع ما لا يكون مذخراً. واتصافه تعالى بالقهار على الإطلاق؛ لأن أحداً من البشر إن اتصف بالقهر فمقيّد في أشياء كثيرة قليلة، وهو في حيز قهره لغيره مقهور لله تعالى على أشياء كثيرة.

وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بالواجب الواقع موقعه الجامع للمصالح. وقوله تعالى: ﴿يَكُونُ أَيْلًا﴾ معناه: يُعيد من هذا على هذا، ومنه: كَوَّرَ العمامة التي يلتوي بعضها على بعض، فكان الذي يطول من النهار أو من الليل يصير منه على الآخر جزءاً فيستره، وكان الآخر الذي يقصر يلج في الذي يطول فيستر فيه، فيجئ ﴿يَكُونُ﴾ - على هذا - معادلاً لقوله تعالى: ﴿يُولِجُ﴾، ضدًا له. قال أبو عبيدة: هما بمعنى واحد، وهذا من قوله تقريب لا تحريف.

وتسخير الشمس دَوَامُهَا على الجري واتساق أمرها على ما شاء الله تبارك وتعالى، و﴿الْأَجَلُ الْمُسَمَّى﴾ يحتمل أن يكون يوم القيامة حين تنفسد البنية ويزول جزئ هذه الكواكب، ويحتمل أن يريد أوقات مغيبها كل يوم وليلة، ويحتمل أن يريد أوقات رجوعها إلى قوانينها كل شهر في القمر، و (كُلُّ) سنة في الشمس.

أسنمة الآبال في ربابه
وكما قال الشاعر:

تَعَالَى الثَّدْيُ فِي مَثْنِهِ وَتَحَدَّرَا
وجعلها ثمانية أزواج لأن كل واحد
فيه زوج للذكر من نوعه، وهي:
الضأن والمعز والبقر والإبل.

قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بطون
ابن زيد: معناه: يخلقكم في البطون
خلقاً من بعد خلق آخر في ظهر آدم
وظهور الآباء، وقال مجاهد،
وعكرمة، والسدي: يخلقكم في
البطون رتباً خلقاً بعد خلق على
المُضْغَةِ والعَلَقَةِ وغير ذلك. وقرأ
عيسى بن عمر، وطلحة بن
مصرف: ﴿يَخْلُقُكُمْ﴾ بإدغام القاف
في الكاف في جميع القرآن، وقرأ
الجمهور: ﴿أَتَهَيَّكُمْ﴾ بضم

الهمزة، وكسرها يحيى بن وثاب،
وهما لغتان. وقوله: ﴿فِي طَلْمَنِي
تَلْمِي﴾ قالت فرقة: الأولى: ظهر
الأب، ثم رحم الأم، ثم المشيمة
في البطن. وقال مجاهد، وقتادة،
والسدي، وابن زيد: هي المشيمة،
والرحم، والبطن. وهذه الآية كلها
معتبر وتنبه لهم على الخالق الصانع
الذي لا يستحق العبادة غيره، وهذا
كله في رد أمر الأصنام والإفساد له.
ثم قال تعالى لهم: ﴿ذَلِكُمْ اللَّهُ
رَبُّكُمْ﴾، وقد قامت على ذلك
البراهمين وأتسقت الأدلة، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ
تَضَلُّونَ؟ وَبِأَيِّ سَبَبٍ؟

﴿٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

وقالت فرقة: قوله

تعالى: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَجَدَةٍ﴾ عبارة عن سبق
ذلك في علم الله تعالى،
فلما كان ذلك أمراً حتماً
واقعاً ولا بُدَّ، حَسُنَ أَنْ
يُخْبِرَ عَنْ تِلْكَ الْحَالِ الَّتِي
كَانَتْ وَثِيقَةً، ثُمَّ عَطَفَ
عَلَيْهَا حَالَةَ جَعْلِ الزَّوْجَةِ
مِنْهَا، فَجَاءَتْ مَعَانٍ مُرْتَبَةً
وَإِنْ كَانَ خُرُوجُ خَلْقِ
العالم من آدم إلى الوجود
إنما يجيء بعد ذلك.
و«زُوجُ آدم» هي حواء
عليهما السلام، و«خُلِقَتْ
من ضِلْعِهِ القَصِيرِ فيما
رُوي، ويؤيد هذا الحديث

الذي فيه: «إِنَّ الْمَرْأَةَ خُلِقَتْ مِنْ
ضِلْعِ أُصْحَجٍ، فَإِنْ ذَهَبَتْ تَقِيمَهُ
كسوته»، وقالت فرقة: «خُلِقَتْ حَوَاءُ
من نفس طين آدم عليه السلام.
والأول أصح، وقد تقدم شرح ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ﴾،
قيل: معناه: إن المخلوق الأول من
هذه الأنعام خُلِقَ في السماء وأهبط
إلى الأرض، وقالت فرقة: بل لما
نزل الأمر بخلق وإيجاده من عند الله
- وكانت العادة في نعم الله تعالى
ورحمته وأمطاره وغير ذلك أن يُقال:
إنها من السماء - عبّر عن هذه بـ
﴿أَنْزَلَ﴾، وقالت فرقة: لما كانت
الأمطار تنزل، وكانت الأعشاب
والنبات عنها كانت هذه الأنعام عن
النبات في سمتها ومعانيها قال فيها:
﴿أَنْزَلَ﴾، فهو على التدرج، كما قال
الراجز:

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَجَدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ
مِنْ الْأَنْعَامِ فَمِنْ بَيْنِهِ أَنْزَلَ لَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ
خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقِ فِي ظَلَمْتُمْ ذَلِكَ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَالَّذِينَ نَصَرُونَهُ ﴿١﴾ إِنَّ تَكْفُرًا أَقْبَرُ
اللَّهُ عِنْدَ عُنُقِكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا وَرَضَهُ
لَكُمْ وَلَا تَنْزِلْ وَازِدَةً وَزِدَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ مَرْجِعُكُمْ
فَبَشِّرْهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ إِنَّهُ عَلَيْهِ يُدَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢﴾
﴿٣﴾ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ عَارِيَهُ مِثْيَابًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ
نِعْمَةً مِنْهُ نِسَى مَا كَانَ يُدْعُو إِلَيْهِ مِنَ قَبْلٍ وَجَعَلَ لَهُ آتِدَادًا
لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ
النَّارِ ﴿٤﴾ آمَنَ هُوَ قَدِيتُ آهَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَامًا يَجْعَدُ
الْأَجْرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةً رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُّونَ وَالَّذِينَ
لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥﴾ قُلْ يَتَّبِعُوا الَّذِينَ
آمَنُوا الْقَوَارِئِمَ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً
وَأَرْضَ اللَّهِ وَسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٦﴾

﴿٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

النفس الواحدة المرادة في هذه الآية
هي نفس آدم عليه السلام، قاله قتادة
وغيره، ويحتمل أن يكون اسم
الجنس. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا مِنْهَا
زَوْجَهَا﴾ ظاهر اللفظ يقتضي أن جعل
الزوجة من النفس هو بعد أن خلق
الخلق منها، وليس الأمر كذلك،
واختلف الناس في تأويل هذا الظاهر
- فقالت فرقة: قوله: ﴿خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ
وَجَدَةٍ﴾ هو أخذ الذريرة من ظهر آدم،
وذلك شيء كان قبل خلق حواء منه،
وقالت فرقة: ﴿ثُمَّ﴾ إنما هي لترتيب
الإخبار لا لترتيب المعاني، فكأنه
تعالى قال: «ثم كان من أمره قبل
ذلك أن جعل منها زوجها»، وفي
نحو هذا يُشَدُّ هذا البيت:

قُلْ لِمَنْ سَادْتُمْ سَادَ آبَاؤُهُ

ثُمَّ قَدْ سَادَ قَبْلَ ذَلِكَ جَدُّهُ

هذه الآية مخاطبة للكفار الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم، و«عِبَادَةٌ» هم المؤمنون، ويحتمل أن تكون مخاطبة لجميع الناس؛ لأن الله غني عن جميع الناس وهم فقراء إليه، وبين بُعد البشر عن رضى الله إن كفروا بقوله: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا﴾.

واختلف المتأولون من أهل السُنَّة في تأويل قوله تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ - فقالت فرقة: الرضى بمعنى الإرادة، والكلام ظاهره العموم ومعناه الخصوص فيمن قضى الله له بالإيمان وحتّمه له، فعباده - على هذا - ملائكته ومؤمنو البشر والجن، وهذا يتركب على قول ابن عباس رضى الله عنهما. وقالت فرقة: الكلام عموم صحيح، والكفر يقع ممن يقع بإرادة الله تعالى؛ إلا أنه بعد وقوعه لا يرضاه ديناً لهم، وهذا يتركب على الاحتمال الذي تقدم آنفاً، ومعنى ﴿لَا يَرْضَى﴾: لا يشكره لهم ولا يشيهم به خيراً، فالرضى - على هذا - هو صفة فعل بمعنى القبول ونحوه، وتأمل الإرادة فإن حقيقتها إنما هي فيما لم يقع بعد، والرضى فإنما حقيقته فيما قد وقع، واعتبر هذا في آيات القرآن نجده، وإن كانت العرب قد تستعمل في أشعارها على جهة التجوز هذا بدل هذا.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ نَّشْكُرَ لَكُمْ﴾ - وعموم، والشكر الحقيقي في ضمنه الإيمان. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿بِرِزْمَةٍ﴾ بضمه مُشَبَّعَةً على الهاء، وقرأ ابن عامر، وعاصم بضمه مُخْتَلَسَةً، واختلف

عن نافع وأبي عمرو، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿بِرِزْمَةٍ﴾ بسكون الهاء. قال أبو حاتم: وهو غلط لا يجوز.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تُزِدْ وَازِرَةً وَنَذْرًا أُخْرَى﴾، أي: لا يحمل أحد ذنب أحد، وأنث «الوازرَةَ» و«الأخرى» لأنه أراد الأنفس، و«الوزر»: الثقل، وهذا خبر مُضْمَنُه الحَضُّ على أن ينظر كل أحد في خاصة أمره، وما ينوبه في ذاته، ثم أخبرهم بأن مرجعهم في الآخرة إلى ربهم، أي: إلى ثوابه أو عقابه، فيوقف كل أحد على أعماله؛ لأنه المطلع على نيات الصدور وسرائر الأفتدة، و«ذَاتُ الصُّدْرِ»: ما فيه من خبيثة، ومنه قولهم: «الذنب مغبوط بذى بطنه».

﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الْإِنْسَانَ» في هذه الآية يراد به الكافر بدلالة ما وصفه به آخراً من اتخاذ الأنداد لله تبارك وتعالى، ولقوله تعالى: ﴿تَمَنَّحَ بِكُفْرِكَ﴾.

وهذه آية بين الله تعالى بها على الكفار أنهم على كل حال يَلْجِئُونَ في حال الضرورات إليه، وإن كان ذلك عن غير يقين منهم ولا إيمان، فلذلك ليس بِمُعْتَدٍ به، و«يُؤَيَّبًا» معناه: مقارباً مراجعاً بصيرته.

وقوله: ﴿ثُمَّ إِذَا حَوْلَهُ لِيَمَّةٌ﴾ يحتمل أن يريد: في كشف الضّر المذكور، أو يريد أيّ نعمة كانت، واللفظ يعمهما، و«حَوْلَهُ» معناه: مَلَكُهُ وحكّمه فيها ابتداءً منه لا مجازاةً، ولا يقال في الجزاء: حَوْلٌ، ومنه الحَوْل، ومنه قول زهير:

هَذَاكَ إِنْ يَسْتَحْوِلُوا الْمَالَ يُخْوِلُوا
.....

وهذه رواية، ويؤوى: يَسْتَحْوِلُوا. قوله تعالى: ﴿يَنبِيَّ مَا كَانَ يَدْعُوا إِلَيْهِ﴾. قالت فرقة: ﴿مَا﴾ مصدرية، والمعنى: نبيّ دعاءه إليه في حال الضرر ورجع إلى كفره، وقالت فرقة: ﴿مَا﴾ بمعنى الذي، والمراد بها الله سبحانه وتعالى، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا أَنْتَ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾، وقد تقع (ما) مكان (من) فيما لا يحصى كثرة من كلامهم. ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ويكون قوله: ﴿يَنبِيَّ﴾ كلاماً تائماً، ثم نفى أن يكن دعاء هذا الكافر خالصاً ومقصوداً به من قبل النعمة، أي في حال الضّر. ويحتمل أن تكون ﴿مَا﴾ نافية، ويكون قوله: ﴿مِنْ قَبْلِ الضَّرِّ﴾، فكلّنه يقول: ولم يكن هذا الكافر يدعو في سائر زمنه قبل الضرر، بل أَلْجَأَ ضرره إلى الدعاء.

و«الْأَنْدَادُ»: الأمثال التي تضاد وتزاحم ويعارض بعضها بعضاً، قال قتادة: المراد: من الرجال يطيعونهم في معصية الله تعالى، وقال غيره: المراد: الأوثان. وقرأ الجمهور: ﴿لِيَصِلَ﴾ بضمّ الياء، وقرأها بفتح الياء أبو عمرو، وعيسى، وابن كثير، وشبل.

ثم أمر الله تعالى نبيّه أن يقول لهم - على جهة التهديد - قولاً يخاطب به واحداً واحداً منهم: ﴿تَمَنَّحَ بِكُفْرِكَ﴾، أي: تَلذَّذْ به، واصنع ما شئت «قليلاً»، وهو عُمُرُ ذلك المخاطب. ثم أخبره أنه من

أصحاب النار، أي: من سكانها والمخلّدين فيها.

﴿٩﴾ - ﴿١٠﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

قرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة: ﴿أَمْنٌ﴾ بتخفيف الميم، وهي قراءة أهل مكة، والأعمش، وعيسى، وشيبة بن نصاح، وزويت عن الحسن، وضعفها الأخفش وأبو حاتم. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، والحسن، والأعرج، وقتادة، وأبو جعفر: ﴿أَمَّنْ﴾ بتشديد الميم.

فأما الأولى فلها وجهان: أحدهما - وهو الأظهر - أن الألف ألف تقرير واستفهام، كأنه يقول: أهدا القانت خير أم هذا المذكور الذي يتمتع بكفره قليلاً وهو من أصحاب النار؟ وفي الكلام حذف يدل على سياق الآيات مع قوله آخرًا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَمُنُّونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾، ونظيره قول الشاعر:

فَأَقْسِمُ لَوْ شِئِي أَنَا نَارُ رَسُولُهُ

سَوَالٌ وَلَكِنْ لَمْ نَجِدْ لَكَ مَدْفَعًا
وَيُوقَفُ - على هذا التأويل - على قوله سبحانه: ﴿وَرَبِّحُوا رَحْمَةً رَبِّهِ﴾.

والوجه الثاني أن تكون الألف نداء، والخطاب لأهل هذه الصفات، كأنه يقول لصاحب هذه الصفات: قُلْ هَلْ يَسْتَوِي؟ فهذا السؤال بـ ﴿هَلْ﴾ هو للقانت، ولا يُوقَفُ - على هذا التأويل - على قوله سبحانه: ﴿وَرَبِّحُوا رَحْمَةً رَبِّهِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المعنى صحيح إلا أنه أجنبي من معنى الآية قبله وبعده. وضعفه أبو علي الفارسي، وقال مكّي: إنه

لا يجوز عند سيبويه لأن حرف النداء لا يسقط مع المُبْهَم، وليس كما قال مكّي، أما مذهب سيبويه في أن حرف النداء لا يسقط مع المُبْهَم فَتَعَمُّ؛ لأنه يقع الإلباس الكثير بذلك، وأما أن هذا الموضع سقط فيه حرف النداء فلا وألف ثابتة فيه ظاهرة.

وأما القراءة الثانية فإنها ﴿أَمْ﴾ دخلت على (مَنْ)، والكلام - على هذه القراءة - لا يحتمل إلا المعادلة بين صنفين، فيحتمل أن يكون ما يُعَادَل (أَمْ) متقدماً في التقدير، كأنه يقول: «أهدا الكافر خير أم مَنْ»، ويحتمل أن تكون (أَمْ) قد ابتدأ بها بعد إضراب مقدر، ويَكُونُ المعادل في آخر الكلام. والأوّل أثبت.

و «الْقَائِنُ»: المطيع، كذا فسّر ابن عباس رضي الله عنهما، والقنوت في الكلام يقع على القراءة، وعلى طول الكلام في الصلاة، وبهذا فسرها ابن عمر رضي الله عنهما، وزوي عن ابن عباس أنه قال: «من أحب أن يهون الله عليه الوقوف يوم القيامة فليُنزّهه الله في سواد الليل ساجداً وقائماً»، ويقع القنوت على الدعاء وعلى الصمت عبادة، وزوي أبو سعيد عن النبي ﷺ أن القنوت الطاعة، وقال جابر بن عبد الله، سئل رسول الله ﷺ: أي الصلاة أفضل؟ قال: «طول القنوت».

و «الآنَاء»: الساعات، واحداها إنى كجمعى، ومنه قولهم: «لن يعدو شيء إناء»، ومنه قوله تعالى: ﴿تَبَرَّكَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾ على بعض التأويلات في ذلك، ويقال في واحداها أيضاً: «أنا»

على وزن «فَقَاء»، ويقال فيه: «إِنِّي» بكسر الهمزة وسكون النون، قال الهذلي:

حَلَوٌ وَمُرٌّ كَعِطْفِ الْقِدْحِ مِرْوَةٌ
فِي كُلِّ إِنِّي قَضَاءُ اللَّيْلِ يَنْتَعِلُ
وقرأ الضحاك: ﴿سَاجِدٌ وَقَائِمٌ﴾ بالرفع فيها.

وقوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ﴾ معناه: يحذر حالها وهولها. وقرأ سعيد بن جبّير: ﴿يَحْذَرُ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾. و «أَوْلَى» معناه: أصحاب، واحدهم: ذُو.

وقرأ الجيمهون: ﴿قُلْ يَبْعَايَا﴾ بفتح الباء، وأسكنها أبو عمرو، وعاصم، والأعمش، وقرأ أبو عمرو، وعاصم أيضاً، والأعمش، وابن كثير، ﴿بِئَا عِبَادٍ﴾ بغير ياء في الوصل. ويروى أن هذه الآية نزلت في جعفر بن أبي طالب وأصحابه حين عزموا على الهجرة إلى أرض الحبشة. و وعد تعالى بقوله: ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ أَلَّذِينَ أَحْسَنُوا﴾، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿فِي هَذِهِ الَّذِينَ﴾ متعلقاً بـ ﴿أَحْسَنُوا﴾، وكأنه يريد: إن الذين يحسنون في الدنيا لهم حسنة في الآخرة، وهي الجنة والنعيم، قاله مقاتل، ويحتمل أن يريد: إن الذين يحسنون لهم حسنة في الدنيا، وهي العافية والطهور وولاية الله تعالى، قاله السدي، وكان قياس قوله أن يكون ﴿فِي هَذِهِ الَّذِينَ﴾ متأخراً، ويجوز تقديمه. والقول الأول أرجح، وهو أن الحسنه في الآخرة. و «أَرْضُ اللَّهِ» يريد بها البلاد المجاورة التي تقتضيها القصة التي الكلام فيها، وهذا حضّ على

الهجرة، ولذلك وصف الله الأرض بالسعة. وقال قوم: أراد بالأرض هنا الجنة، وفي هذا القول تحكم لا دليل عليه.

ثم وَعَدَ تبارك وتعالى على الصبر على المكاره، والخروج عن الوطن، ونصرة الدين، وجميع الطاعات، بأن الأجر يُؤْتَى بغير حساب، وهذا يحتمل معنيين: أحدهما أن الصَّابِر يُؤْفَى أجره ثم لا يحاسب عن النعيم ولا يتابع بذنوب، فيقع ﴿الضَّالُّونَ﴾ في هذه الآية على الجماعة التي ذكرها النبي عليه الصلاة والسلام أنها تدخل الجنة بغير حساب، وفي قوله ﷺ: ﴿يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب، الذين لا يتطبرون ولا يكتفون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون، وجوههم على صورة القمر ليلة البدر...﴾ الحديث على اختلاف ترتيباته. والمعنى الثاني أن أجور الصابرين تُؤْفَى بغير حساب ولا عَدْبَلْ جزافاً، وهذه استعارة للكثرة التي لا تُحصى، ومنه قول الشاعر:

ما تَمْنَعِي يَفْظِي فَقَدْ تَغْطِينَهُ
في النَّوْمِ غَيْرَ مُصَرِّدٍ مَحْسُوبٍ
وإلى هذا التأويل ذهب جمهور المفسرين، حتى قال قتادة: ما تَمَّ والله مكيال ولا ميزان، وفي بعض الحديث أنه لما نزلت ﴿وَاللَّهُ يَضْعَفُ لِمَنِ يَشَاءُ﴾، قال عليه الصلاة والسلام: «اللَّهُمَّ زِدْ أُمَّتِي»، فنزلت: ﴿يَضْعَفُهُ لَكَ أَشْأَكَ كَثِيرَةً﴾، فقال: «اللَّهُمَّ زِدْ أُمَّتِي» فنزلت هذه الآية، فقال: «رَضِيَتْ يَا رَبَّ».

١١ - ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) وأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ

أَمْرُ اللَّهِ تَعَالَى نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِأَنْ يَصْذَعَ لِلْكَفَّارِ فِيمَا أَمَرَ بِهِ مِنْ عِبَادَةِ رَبِّهِ تَعَالَى. وَقَوْلُهُ: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ﴾، أَي: وَأُمِرْتُ بِهَذَا الَّذِي ذَكَرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ مِنْ أَهْلِ عَصْرِي وَزَمَنِي، فَهَذِهِ نِعْمَةٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَتَنْبِيءٌ مِنْهُ لَه. وَقَوْلُهُ: ﴿إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ﴾ فَعَلٌ مَعْلُوقٌ بِشَرْطٍ وَهُوَ الْعَصِيانُ، وَقَدْ عَلِمَ أَنَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

مَعْصُومٌ مِنْهُ وَلَكِنَّهُ خَطَابٌ لِأُمَّتِهِ، يَعْظُمُ حُكْمَهُ وَيَخْفِضُ وَعِيدَهُ.

وقوله: ﴿قُلْ اللَّهُ أَغْبَى﴾ تأكيد للمعنى الأول، وإِعْلَامٌ بِأَمْتَالِهِ لِلأَمْرِ، وَهَذَا كُلُّهُ نَزَلَ قَبْلَ الْقِتَالِ؛ لِأَنَّهَا مَوَادِعَاتُ، وَقَوْلُهُ: ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ صِيغَةٌ أَمْرٌ عَلَى جِهَةِ التَّهْدِيدِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿تَمَعَّ بِكَفْرِكَ﴾، وَهَذَا كَثِيرٌ. وَ﴿الَّذِينَ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ فِي مَوْضِعٍ رَفَعَ خَبْرَ لَ ﴿إِنَّ﴾، وَقَوْلُهُ: ﴿وَأَهْلِيهِمْ﴾ قَبِيلٌ مَعْنَاهُ أَنَّهُمْ خَسِرُوا الأَهْلَ الَّذِي كَانَ يَكُونُ لَهُمْ لَوْ كَانُوا مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَهَذَا كَمَا لَوْ قَالَ: خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَنَعِيمَهُمْ، أَي الَّذِي كَانَ يَكُونُ لَهُمْ. وَقِيلَ: أَرَادَ الأَنْفُسَ وَالأَهْلِينَ الَّذِينَ كَانُوا فِي الدُّنْيَا؛ لِأَنَّهَا صَارُوا

﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ ﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ (١٢) قُلْ اللَّهُ أَغْبَى لِي دِينِي ﴿فَاعْبُدُوا مَا شِئْتُمْ مِنْ دُونِي﴾ (١٣) قُلْ لِمَنْ خَسِرَ مِنَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخَسِرَانُ الَّذِينَ هُمْ عَنْ قَوْلِهِمْ ظَلَلُوا مِنْ النَّارِ وَمِنْ نُحُومٍ ظَلَلُوا ذَلِكَ يَخُوفُ اللَّهِ بِعِبَادِهِ وَيَعْبَادُوا فَاتَّقُوا ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَمِنْهُمْ رِجَالٌ﴾ (١٤) الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ الْقَوْلُ فَيَسْتَعِينُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمُ أَهْلُ الأَلْبَابِ ﴿أَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنقِذُ مِنَ النَّارِ﴾ (١٥) لَكِنَّ الَّذِينَ أَتَوْا رَبَّهُمْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ عِزٌّ مِنَ اللَّهِ فَوَقَّاهُ عَرَفَ مَبِيتَهُ جَعَى مِنْ تَحْتِهَا الأَمْرُ وَعَدَّ اللَّهُ لِأَخِيفَ اللَّهُ الِيعَادَ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعٌ فِي الأَرْضِ ثُمَّ جَاءَهُ مِنْ حَتَمٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَضَيْحُهُ مُتَّصِفاً مُتَّعِداً يُجَعَلُ حَطَاطاً إِذْ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٌ لِأُولَى الأَلْبَابِ ﴿

فِي عَذَابِ النَّارِ، لَيْسَ لَهُمْ نَفُوسٌ مُسْتَقَرَّةٌ، وَلَا بَدَلَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَمَنْ فِي الْجَنَّةِ قَدْ صَارَ لَهُ إِمَّا أَهْلُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِمَّا غَيْرُهُمْ، عَلَى اخْتِلَافٍ فِيمَا يُؤْتَرُ فِي ذَلِكَ، فَهُوَ عَلَى كُلِّ حَالٍ لَا خُسْرَانَ مَعَهُ التَّبَتَّةُ.

١١ - ﴿قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ﴾ (١١) وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ

هَذِهِ صِفَةٌ حَالِ أَهْلِ جَهَنَّمَ، «الظُّلَّةُ»: مَا عَشِيَ وَعَمَّ كَالسَّحَابَةِ وَسَقَفَ البَيْتَ وَنَحَوَهُ، فَأَمَّا مَا فَوْقَهُمْ فَكُونُهُ ظُلَّةٌ بَيْنَ، وَأَمَّا مَا تَحْتَهُمْ، فَقَالَتْ فِرْقَةٌ: سُمِّيَ ظُلَّةً لِأَنَّهُ يَتَلَهَّبُ وَيَصْعَدُ مِمَّا تَحْتَهُمْ شَيْءٌ كَثِيرٌ وَلِهَبٌ حَتَّى يَكُونَ ظُلَّةً، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ فَوْقَهُمْ شَيْءٌ لَكَفَى فِرْعَ الَّذِي تَحْتَهُمْ أَنْ يَكُونَ ظُلَّةً، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: جَعَلَ مَا تَحْتَهُمْ ظُلَّةً لِأَنَّهُمْ فَوْقَ آخِرِينَ، وَهَكَذَا هِيَ حَالُهُمْ إِلَى الطَّبَقَةِ الأَخِيرَةِ الَّتِي فِي القَعْرِ.

وقوله: ﴿عِبَادِ﴾ يريد جميع العالم، خوْفهم الله تعالى الثَّار وحذْرهم منها، فمن هدي وآمن نجا، ومن كفر حصل فيما خوْف منه. واختلفت القراءة في قوله: ﴿يَعْبُدُهَا﴾، وقد تقدم نظيره.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَالَّذِينَ آخَبْتُمْ أَلْقَاهُمْ فِي النَّارِ﴾ الآية. قال ابن زيد: إن سبب نزولها زيد بن عمرو بن نفيل، وسلمان الفارسي، وأبو ذرَّ الغفاري، والإشارة إليهم. وقال ابن إسحق: الإشارة بها إلى عبدالرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، والزبير رضي الله تعالى عنهم، وذلك أنه لما أسلم أبو بكر رضي الله عنه سمعوا ذلك فجاءوه فقالوا: أسلمت؟ قال: نعم، وذكرهم بالله تعالى فآمنوا بأجمعهم، فنزلت فيهم هذه الآية، وهي على كل حال عامة في الناس إلى يوم القيامة، يتناولهم حكمها. و«الطَّاعُوثُ» كل ما يُعبد من دون الله تعالى، و«الطَّاعُوثُ» أيضاً الشيطان، وبه فسرها مجاهد، والسدي، وابن زيد، وأوقعه هنا على جماعة الشياطين، ولذلك أتت الضمير في ﴿يَعْبُدُهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ كلام عام في جميع الأقوال، وإنما القصد الثناء على هؤلاء ببصائرهم وهم وقوام في نظرهم، حتى أنهم إذا سمعوا قولاً ميَّزوه واتبعوا أحسنه، واختلف المفسرون في العبارة عن هذا - فقالت فرقة: أحسن القول كتاب الله تعالى، أي إذا سمعوا الأقاويل

وسمعوا القرآن أتبعوا القرآن، وقالت فرقة: «القول» هو القرآن، وأحسُّه ما فيه من عفو وصفح واحتمال على صبر ونحو ذلك، وقال قتادة: أحسن القول طاعة الله تعالى، وهذه أمثلة وما قلناه أولاً يعمها.

﴿١٩﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ: أسقط العلامة التي في الفعل المسند إلى الكلمة لوجهين: أحدهما الحائل الذي بين الفعل والفاعل، ولو كان متصلاً به لم يحسن ذلك، والثاني أن «الكلمة» غير مؤنث حقيقي، وهذا أخف وأجود من قولهم: «حضر القاضي اليوم امرأة»؛ لأن التأنيث هنا حقيقي، وقالت فرقة: في هذا الكلام محذوف اختصره دلالة الظاهر عليه، تقديره: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب تتأسف أنت عليه؟ أو نحو هذا من التقدير، ثم استأنف قوله النبي ﷺ على أنه يريد أن يتخذ من في النار، أي: ليس هذا إليك. وقالت فرقة: الألف في قوله: ﴿أَفَأَنْتَ﴾ إنما هي مؤكدة زاداها لطول الكلام، وإنما معنى الآية: أفمن حقَّ عليه كلمة العذاب فأنت تنفذه؟ ولكنه زاد الألف الثانية توكيداً للأمر، وأظهر الضمير العائد تشهيراً لهؤلاء القوم، وإظهاراً لِحِصَّةِ منازلهم كقول الشاعر:

لَا أَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْئاً
وإنما أظهر الضمير تنبيهاً على عظم قدر الموت، وهذا كثير.

ثم استفتح تعالى إخباراً آخر به ﴿لَكِنَّ﴾، وهذه مُعادلةٌ وتحضيض على التقوى لمن فكَّر وازدجر. وقوله تعالى: ﴿مِن تَحْتِهَا﴾ أي: من

تحت العُرف، وعادلت: ﴿عُرْفٌ مِّن قَوْفِهَا عُرْفٌ﴾ ما تقدم من قوله سبحانه: ﴿لَهُمْ مِّن قَوْفِهِمْ ثُلَّةٌ مِّنَ النَّارِ وَمِن تَحْتِهَا ثُلَّةٌ﴾، و«العُرف»: ما كان من المساكن مرتفعاً عن الأرض، وفي الحديث: «إن أهل الجنة ليرتأون العُرف من فوقهم كما ترتأون الكوكب الدرِّي في الأفق»، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَّ اللَّهُ﴾ نصب على المصدر، ونصبه إمَّا بفعل مضمَر من لفظه، وإمَّا بما تضمَّن الكلام قبلُ من معنى الوعد على الاختلاف الذي للنحاة في ذلك.

ثم وقف تعالى نبيه ﷺ على معتبر من مخلوقاته، والخطاب للنبي ﷺ وكلُّ بشر داخل معه في معناه، وقال الطبري وغيره: أشار إلى ماء المطر، وقالوا: العيون منه، وذلك أنها تنمع عند وجوده وتنبس عند فقده، وقال الحسن بن مسلم ابن يثاق: الإشارة إلى العيون، وليست العيون من المطر، ولكن ماؤها نازل من السماء، وقال الشعبي: كل ماء في الأرض فمن السماء نزل، والقولان متقاربان، و«سَلَكَهُ» معناه: أجره، ومنه قول الشاعر:

حَتَّى سَلَكَ الشَّوَى مِنْهُنَّ فِي مَسَكٍ
مِنْ نَسْلِ جَوَابَةِ الْأَقَابِي مَهْدَاجٍ
ومنه قول امرئ القيس:

نَطَعْتُهُمْ سُلْكَاً وَمَخْلُوجَةً
كَرَّكَ لِأَمْنِينَ عَلَى نَسَابِلٍ
واحد الينابيع: ينبوع، وهو العين يُبنى لها بناءً، مبالغة من النبع. و«الرُّزْعُ» هنا واقع على كل ما يُزرع، وقالت فرقة: ﴿الرُّزْعُ﴾: أعراضه من

الحمرة والصفرة وغير ذلك، و«يَهِيحُ»: يَنْبَس، وهاج الزرع والنبات إذا يبس، ومنه قول علي رضي الله عنه في الحديث الذي في غريب ابن قتيبة: «دُمْتُ رهينة، وأنا به زعيم الأيهيح على الثَّقَوِي زُرْع قوم ولا يَبْس على الثَّقَوِي... أصل الحديث». و«الْحَطَّامُ»: اليابس المتفتت، ومعنى قوله تعالى: ﴿لَذِكْرِكُمْ﴾ أي: للعبث من القبور وإحياء الموتى على ما يوحيه هذا المثل المذكور.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي أن هذه الآية: ﴿أَمَّنْ سَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ﴾ الآية، نزلت في علي وحمة رضي الله عنهما وأبي لهب وابنه، وهما اللذان كانا من القاسية قلوبهم. وفي الكلام يدل عليه الظاهر، تقديره: كالقاسي القلب والمُعْرَضُ عن أمر الله، و«سَرَحَ» الله صدره استعارة لتحصيله للنظر الجيد والإيمان بالله، و«الثور» هداية الله، وهي أشبه شيء بالضوء، قال ابن مسعود رضي الله عنه: قلنا: يا رسول الله، كيف انشراح الصدر؟ قال: «إذا دخل النور القلب انشراح وانفسح»، قلنا: وما علامة ذلك؟ قال: «الإجابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والتأهب للموت»، و«القسوة»: شدة القلب، وهي مأخوذة من قسوة الحجر، شبه قلب الكافر به في صلابته، وقلة انفعاله للوعظ. وقال مالك بن دينار: «ما ضرب عبدٌ بعقوبة أعظم من قسوة القلب»، ويدلُّ قوله تبارك

وتعالى: ﴿قَوْلٌ لَّفَيْسَةٍ قُلُوبُهُمْ﴾ على المحذوف المُقَدَّر.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ يريد به القرآن، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سبب هذه الآية أن قوماً من الصحابة قالوا: يا رسول الله، حدثنا بأحاديث حسان، وأخبرنا بأخبار الدهر، فنزلت الآية في ذلك، وقوله: ﴿مُتَشَابِهًا﴾ معناه: مستويًا لا تناقض فيه ولا تدافع، بل يشبه بعضه

بعضاً في رصانة اللفظ، ووثاقة البراهين، وشرف المعاني؛ إذ هي اليقين في العقائد في الله تعالى وصفاته وأفعاله وشرعه. وقوله: ﴿تَثَانِيًا﴾ معناه: موضع تَثْنِيَةٍ للقصص والأقضية والمواعظ، تَثْنَى فيه ولا يُمَلُّ مع ذلك، ولا يعرض لها ما يعرض للحديث المعاد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: يُثْنَى فيه الأمر مراراً، ولا ينصرف ﴿تَثَانِيًا﴾ لأنه جمع ولا نظير له في الواحد.

وقوله تعالى: ﴿نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عبارة عن قف شغل الإنسان عندما يداخله خوف، ولين قلب عند سماع موعظة أو زجر قرآن ونحوه، وهذه علامة وقوع المعنى المتخضع في قلب السامع، وفي الحديث أن أبي بن كعب قرأ

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٣﴾

أَمَّنْ سَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِإِسْلَامِهِ فَهُوَ عَلَى ثَوْرَيْنِ رَبِيهِ قَوْلٌ لَّفَيْسَةٍ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أَوْلَيْتِكَ فِي صَلَاتِكُمْ مِيزِينَ ﴿٢٢﴾ اللَّهُ زَلَّ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيًا نَقَشَرُ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلَيْنَ جُلُودَهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هَدَى اللَّهُ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَهُوَ لَمْ يَهْدِ مِنْ هَادٍ ﴿٢٣﴾ أَمَّنْ يَنْقِي وَجْهَهُ سَوَاءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَاتَّسَمَّ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَابَهُمُ اللَّهُ الْفَرْقِي فِي الْحَوَّةِ الدُّنْيَا وَالْعَذَابِ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْتَ النَّاسَ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرِ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَابِهُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا أَرَجَلَ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٩﴾ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَأَنْتُمْ حَيُّونَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَذَابَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَن دَرِكِكُمْ مَخْضُومَاتٍ ﴿٣١﴾

عند النبي ﷺ فَزَرَّتْ الْقُلُوبَ، فقال النبي ﷺ: «اغتنموا الدعاء عند الرقعة فإنها رحمة»، وقال العباس: قال عليه الصلاة والسلام: «من اقتشعر جلده من خشية الله تحاقت عنه ذنوبه كما يتحاقت عن اليابسة ورحها»، وقالت أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما: كان الصحابة تدفع أعينهم وتقشعر جلودهم عند سماع القرآن، قيل لها: إن أقواماً اليوم إذا سمع أحدهم القرآن خَرَّ مغشياً عليه، فقالت: أعوذ بالله من الشيطان، وقال ابن عمر رضي الله عنهما وقد رأى ساقطاً عند سماع القرآن: إنا لنخشى الله وما نَسْقُطُ، هؤلاء يدخل الشيطان في جوف أحدهم، وقال ابن سيرين: بيننا وبين هؤلاء القوم الذين يصرعون عند قراءة القرآن أن يجعل أحدهم على حائط باسطاً

على الحال و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وقالت فرقة: نصب على التوطئة للحال، والحال قوله: ﴿عَرَبِيًّا﴾، ونفى عنه العوج لأنه لا اختلاف فيه ولا تناقض ولا مغمز بوجه. واختلفت عبارة المفسرين - فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: المعنى: غير متضاد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: غير مختلف، وقال مجاهد: غير ذي لئس، وقال السدي: غير مخلوق، وقال بكر بن عبدالله المزني: غير ذي لحن. و﴿العوج﴾ بكسر العين في الأمر، ويفتحها في الأشخاص.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى أنه ضرب للناس في هذا القرآن من كل مثل مجتملاً، جاء بعد ذلك بمثل في أهم الأمور وأعظمها خطراً وهو التوحيد، فمثل تعالى الكافر العابد للأوثان والشياطين يعبد لرجال عدّة، في أخلاقهم شكاسة ونقص وعدم مسامحة، فهم لذلك يُعَذَّبون هذا العبد بأنهم يتضايقون في أوقاتهم، ويتضايقون هذا العبد في كثرة العمل، فهو أبداً دائب ناصب، فكذلك عابد الأوثان، والذي يعتقد أن ضره ونفعه عندها هو معذب الفكر بها، وبحراسة حاله منها، ومتى أرضى صنماً منها بالذبح له في زعمه تفكّر فيما يصنع مع الآخر، فهو أبداً في نصب وضلال، وكذلك هو المصانع للناس، المُمْتَحَن بخدمة الملوك.

ومثل تعالى المؤمن بالله تبارك وتعالى وحده يعبد لرجل واحد يكلفه شغله، فهو يعمل على تودة، وقد

مجاهد: يجشو على وجهه في النار، وقالت فرقة: لِمَا رُوي أن الكافر يلقي في النار مكتوفاً مربوطاً يده إلى رجليه مع عنقه، ويكب على وجهه، فليس له شيء يبقى به إلا وجهه، وقالت فرقة: المعنى صفة ما ينالهم من كثرة العذاب، وذلك أن يتقيه بجميع جوارحه وفيه حواشيه، فإذا بلغ به العذاب إلى هذه الغاية ظهر أنه لا متجاوز بعدها. وهذا المعنى عندي أقيس بلاغة، وفي

هذا المضمار يجري قول الشاعر:

يَلْقَى السُّيُوفَ بِوَجْهِهِ وَيَسْخِرُهُ
وَيُقِيمُ هَامَتَهُ مَقَامَ الْمَغْفِرِ
لأنه إنما أراد عظيم جرأته عليها، فهو يلقاها بكلّ مجنّ، وبكلّ شيء منه حتى بوجهه وينحره. وقوله تعالى: ﴿ذُرُوفًا مَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ معناه: باشروا، وهنا محذوف تقديره: جزاء ما كنتم تكفرون.

ثم مثل لقريش بالأُم السالفة، ثم أخبر تعالى بما نال تلك الأُم من كونها في الدنيا أحاديث مُلْعَنَة، وأخرى أعظم من هذا، مع ما نال نفوسهم من الألم والذُلّ والكرب، ثم أخبر أن ما أعد لهم من عذاب الآخرة أكبر من هذا كله الذي كان في الدنيا.

قوله: ﴿قُرُونًا﴾، قالت فرقة: نصب على المصدر، وقالت فرقة: نصب

﴿٢٤﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

رجليه، ثم يُقرأ عليه القرآن كله، فإن رمى بنفسه فهو صادق.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ﴾ يحتمل أن يشير إلى القرآن، أي: ذلك الذي هذه صفته هدى الله، ويحتمل أن يشير إلى الخشية واقشعرار الجلد، أي: ذلك أمانة هدى الله، ومن جعل: ﴿نَقَّعْرُ﴾ في موضع الصفة لم يقف على ﴿تَنَائِي﴾، ومن جعله مُسْتَأْنَفًا وإخباراً منقطعاً وقف على ﴿تَنَائِي﴾. وبإقاي الآية بين.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا تقرير بمعنى التعجب، والمعنى: أقمّن يتقي بوجهه سوء العذاب يوم القيامة كالمتنعين في الجنة؟ واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿يَتَّقِي بِوَجْهِهِ﴾ - فقال

سائس مولاه، فالمولى يغفر زلته، ويشكره على إجادة عمله.

وقوله تعالى: ﴿صَرَبَ﴾ مأخوذاً من الضرب الذي هو الشبيه، ومنه قولهم: «هذا صُرب هذا»، أي: شبيهه، و﴿مَثَلًا﴾ مفعول بـ ﴿صَرَبَ﴾، و﴿رِيحًا﴾ بدل، قال الكسائي: وإن شئت على إسقاط الخافض، أي: «مثلاً للرجل»، أو «في رجل»، وفي هذا نظر.

و﴿مُنْتَكِبُونَ﴾ معناه: لا سَمَحَ في أخلاقهم، بل فيها لجأج ومتابعة ومحادة، ومنه قول الشاعر:

خُلِقْتُ شَكْسًا لِلْأَعَادِي مَشْكَسًا

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿سَالِمًا﴾ على معنى اسم الفاعل، بمعنى: سلم من الشركة فيه، قال أبو عمرو: معناه: خالصاً، وهذه بالألف قراءة ابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة، والجحدري، والزهري، والحسن - بخلاف عنه -، وقرأ الباقون: ﴿سَلْمًا﴾ بفتح السين وسكون اللام، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، وأبي رجاء، وطلحة، والحسن - بخلاف -، وقرأ سعيد بن جبَيْر: ﴿سِلْمًا﴾ بكسر السين وسكون اللام، وهما مصدران وصف بهما الرجل، بمعنى: خالصاً وأثراً قد سلِمَ له.

ثم وقف الكفار بقوله: ﴿هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾، ونصب ﴿مَثَلًا﴾ على التمييز، وهذا توقيف لا يُجيب عنه أحد إلا بأنهما لا يستويان، فلذلك عاملتهم العبارة الوجيزة على أنهم قد جاوبوا، فقال: ﴿الْحَكْمُ

لِلَّهِ﴾ على ظهور الحجة عليكم من أقوالكم، ثم قال: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فأضرب عن مُقَدِّرٍ محذوف يقتضيه المعنى، تقديره: الحمد لله على ظهور الحجة، وأن الأمر ليس كما يقولون، بل أكثرهم لا يعلمون. و﴿أَكْثَرٌ﴾ في هذه الآية على بابها، لأننا وجدنا الأقل منهم عليم أمر التوحيد وتكلم به، ورفض أمر الأصنام، كوزقة وزيد، وقس.

ثم ابتدأ تعالى القول معهم في غرض آخر من الوعيد بيوم القيامة والخصومة فيه، ومن التحذير من حال الكذب على الله، المكذبين بالصدق، فقدم تعالى لذلك توطئة مُضَمَّنَهَا وَعَظَّ النَّفُوسَ وَتَهَيَّئَتْهَا لِقَبُولِ الْكَلَامِ وخوف الوعيد، وهذا كما تريد أن تنهى إنساناً عن معاصيه، أو تأمره بخير، ففتتح كلامك بأن تقول: كلنا يفتنى، أو: لا بُدَّ للجميع من الموت، أو: كلُّ من عليها فإن، ونحو هذا مما تُرَقِّقُ به النفس الذي تحدثه، ثم بعد ذلك تورد قولك. فأخبر تعالى أن الجميع مَيَّتٌ، وهذه قراءة الجمهور، وقرأها: ﴿مَائِتٌ﴾ و﴿مَائِتُونَ﴾ بألف ابن الزبير، وابن محيصن، وابن أبي إسحق، واليماني، وعيسى بن عمر، وابن أبي عقرب، وابن أبي عبله، والضمير في ﴿إِنَّهُمْ﴾ لجميع العالم. ودخل رجل على صِلَةَ بن أشيم فنَعَى إِلَيْهِ أَخَاهُ، وبين يَدَي صِلَةَ طعام، فقال صِلَةَ للرجل: اذُنْ فَكُلْ، فَإِنَّ أَخِي قَدْ نَعَى إِلَيَّ مِنْذُ زَمَانٍ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾.

والضمير في ﴿ثُمَّ لِيُنْكَرَ﴾ قيل: هو عامٌ أيضاً، فيختصم يوم القيامة المؤمنون والكافرون فيما كان من ظلم الكافرين لهم في كل موطن ظلموه فيه، ومن هذا قول علي رضي الله عنه: أنا أول من يجثو يوم القيامة للخصومة بين يدي الرحمن عز وجل، فيختصم علي، وحمزة، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم مع عتبة، وشيبة، والوليد، ويختصم أيضاً المؤمنون بعضهم مع بعض في ظلماتهم، قاله أبو العالية وغيره، وقال الزبير بن العوام للنبي ﷺ: أَيَكْتَبُ عَلَيْنَا مَا كَانَ بَيْنَنَا فِي الدُّنْيَا مِنْ خَوَاصِ الذُّنُوبِ؟ قال: نعم، حتى يُؤدَى إِلَى كُلِّ ذِي حَقِّ حَقَّهُ، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: لما نزلت هذه الآية قلنا: كيف نختصم ونحن إخوان؟ فلما قُتِلَ عثمان بن عفان رضي الله عنه، وضرب بعضنا وجه بعض بالسيوف قلنا: هذا الخصام الذي وعدنا ربنا تعالى، ويختصم أيضاً - على ما روي - الروح مع الجسد في أن يُدَنَّبَ كل واحد منهما صاحبه، ويجعل المعصية في حيزه، فيحكم الله تعالى بشركتهما في ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى الآية عندي أن الله تعالى توعدهم بأنهم سيتخاصمون يوم القيامة في معنى رُدِّهم في وجه الشريعة، وتكذيبهم لرسول ﷺ.

ثم وقفهم الله تعالى توقيفاً معناه نَفَى الْمُوقِفِ عَلَيْهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَنْ أَظْلَمُ﴾، أي: لا أحد أظلم ممن كَذَّبَ على الله، والإشارة بهذا

الكذب إلى قولهم: إنَّ الله صاحبة وولداً، وقولهم: هذا حلالٌ وهذا حرامٌ افتراءً على الله تعالى، وكذبوا أيضاً بالصدق، وهو تكذيبهم أقوال محمد ﷺ عن الله تعالى، ما كان من ذلك معجزاً أو غير معجز، ثم توعدهم تبارك وتعالى توعداً فيه احتقارهم بقوله تعالى على وجه التوقيف: ﴿الَّذِينَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ﴾، والمَثْوَى: موضع الإقامة.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ﴾ معادلٌ لقوله سبحانه: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ﴾، ف ﴿من﴾ هناك للجميع والعموم، و ﴿الَّذِينَ﴾ هنا للجنس أيضاً، كأنه قال: والفريق الذي جاء بعضه بالصدق، وصدق به بعضه، ويستقيم اللفظ والمعنى على هذا الترتيب. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا بِالصِّدْقِ وَصَدَّقُوا بِهِ﴾، وهو هنا القرآن وأنباؤه، والشَّرع بجملته.

وقالت فرقة: ﴿الَّذِينَ﴾ يراد به: الَّذِينَ، وحذفت النون لطول الكلام، وهذا غير جيد، وتركيب ﴿جَاءُوا﴾ عليه يرُدُّ ذلك، وليس كقول الفرزدق:

.... إِنَّ عَمِّي اللَّذَا
قَتَلَا الْمُملُوكَ....

ونظير الآية قول الشاعر:

وإنَّ الَّذِي حَانَتْ بِفَلَجٍ دِمَاؤُهُمْ
هُمُ الْقَوْمُ كُلُّ الْقَوْمِ يَا أُمَّ خَالِدٍ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ،

وهو الذي صدق به، وقالت فرقة من المفسرين: الذي جاء بالصدق هو جبريل، والذي صدق به هو محمد ﷺ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأبو العالية، والكلبي، وجماعة: الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، والذي صدق به هو أبو بكر رضي الله عنه، وقال قتادة، وابن زيد: الذي جاء بالصدق هو محمد ﷺ، والذي صدق به هم المؤمنون، وقال مجاهد: هم أهل القرآن، وقال أبو الأسود ومجاهد وجماعة: الذي صدق هو علي رضي الله عنه، وقالت فرقة بالعموم الذي ذكرناه أولاً، وهو أصوب الأقوال.

وقرأ أبو صالح، ومحمد بن جحادة، وعكرمة بن سليمان: ﴿وَصَدَّقَ بِهِ﴾ بالتخفيف في الدال، بمعنى: استحق به اسم الصدق، فعلى هذه القراءة يكون إسناد الأفعال كلها إلى محمد ﷺ، وكأنه أُمَّته في ضمن القول، وهو الذي يُحَسِّنُ: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾. قال ابن عباس رضي الله عنهما: اتَّقُوا الشَّركَ.

واللام في قوله تعالى: ﴿لِيُكَفِّرَ اللَّهُ عَنْهُمْ﴾ يحتمل أن تتعلق بقوله تعالى: ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾، أي: الذين أحسنوا لكي يكفروا، قاله ابن زيد، ويحتمل أن تتعلق بفعل مضمر مقطوع مما قبله، كأنك قلت: «بشَّره الله تعالى بذلك ليكفر» لأن التكفير لا يكون إلا بعد التَّيسير للخير، و﴿أَسْرَأَ الَّذِي عَمِلُوا﴾ هو

كُفِّرَ أهل الجاهلية ومعاصي أهل الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَكْفُرُ بِالْعِبَادَةِ﴾ تقوية لنفس النبي عليه الصلاة والسلام، لأن كفار قريش كانوا خَوْفوه من الأصنام، وقالوا: أنت تُسَبِّها ونخاف أن نُصيِّبك بجنون أو علة، فنزلت الآية في ذلك. وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿عِبَادَةً﴾ يريد الأبياء المختصين به وأنت أحدهم، فيدخل في ذلك المطيعون من المؤمنين والمتوكلون على الله تعالى، وهذه قراءة أبي جعفر، ومجاهد، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش. وقرأ الباقون: ﴿عِبَادَةً﴾ وهو اسم جنس، وهي قراءة الحسن، وشيبة، وأهل المدينة، ويُقَوَّى أن الإشارة إلى محمد ﷺ قوله تعالى: ﴿وَيُحَرِّثُونَكَ﴾؛ وقوله: ﴿مِن دُونِهِ﴾ يريد: بالذين يعبدون من دونه، وروي أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد إلى كسر العزرى، فقال سادئها: يا خالد، إني أخاف عليك منها، فلها قوة لا يقوم لها شيء، فأخذ خالد الفأس فهشم به وجهها وانصرف.

ثم قرَّر تعالى أن الهداية والإضلال من عنده بالخلق والاختراع، وأن ما أراد من ذلك لا رادُّ له، ثم توعدهم بعزَّته وانتقامه، فكان ذلك وانتقم منهم يوم بدر وما بعده.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء احتجاج عليهم بحجة أخرى، وجملتها أن وقفوا على الخالق المخترع، فإن قالوا إنه الله لم يبق لهم في الأصنام غرض إلا أن

يقولوا: إنها تضر وتنفع، فلما تفعد من قولهم إن الله هو الخالق قيل لهم: أفرايتم هؤلاء إذا أراد الله أمراً، أيهم قدرة على نقضه؟ وحذف الجواب عن هذا لأنه من البين أنه لا يجيب أحد إلا أنه لا قدرة للأصنام على شيء من ذلك. وقرأ: ﴿إِنْ أَرَادَنِي﴾ بياء مفتوحة جمهور القراء والناس، وقرأ الأعمش: ﴿إِنْ أَرَادَنِي﴾ بحذف الباء في الوصل، وروى خارجة بغير ياء أصلاً. وقرأ جمهور القراء، والأعرج، وأبو جعفر، والأعمش، وعيسى، وابن وثاب: ﴿كَشِفَتْ ضُرَّهُ﴾ بالإضافة، وقرأ أبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم: ﴿كَاشِفَاتِ ضُرِّهِ﴾ بالتنوين ونصب ﴿ضُرِّهِ﴾، وهي قراءة شبيهة والحسن، وعيسى - بخلاف عنه - وعمرو بن عبّيد، وهذا هو الوجه فيما لم يقع بعد، وكذلك الخلاف في ﴿مُتَمَكِّنَتْ حَمِيمِي﴾.

ثم أمره تعالى أن يصدع بالاتكال على الله تعالى، وأنه حسبه من كل شيء ومن كل ناصر. ثم أمره بتوعددهم في قوله: ﴿أَعْمَلُوا عَلَيَّ مَكَاتِبَكُمْ﴾، أي: على ما رأيتموه متمكناً لكم، وعلى حالاتكم التي استقر رأيكم عليها، وقرأ الجمهور: ﴿مَكَاتِبِكُمْ﴾ بالإنفراد، وقرأها بالجمع الحسن وعاصم. وقوله: ﴿أَعْمَلُوا﴾ لفظ أمر بمعنى الوعيد، و«العذاب المخزي» هو عذاب الدنيا يوم بدر وغيره، و«العذاب المقيم» هو عذاب الآخرة.

٤١ - ٤٢ تفسير قوله عز وجل:

هذا إعلامٌ بعلو مكانة محمد ﷺ

واصطفاء ربه عز وجل له. و«الكتاب»: القرآن. وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يريد: متضمناً الحق في أخباره وأحكامه، والآخر أن يريد أنه أنزله بالواجب من إنزاله، وبالاستحقاق لذلك، لما فيه من مصلحة العالم وهداية الناس، وكان هذا الذي فعل الله تعالى من إنزال كتاب إلى عبده هو إقامة حجة عليهم، وبقي تكسبهم بعد إليهم، فمن اهتدى فلنفسه عجل وسعى، ومن ضل فعليه

جنى، والهدى والضلال إنما لله تعالى فيهما خلق واختراع، وللعبد تكسب عليه يقع الثواب أو العقاب. وأخير تعالى نبيه أنه ليس عليهم بوكيل ولا مسيطر، و«الوكيل»: القائم على الأمر حتى يكمله.

ثم نبه تعالى عن آية من آياته الكبرى تدل الناظر على الوحدانية، وأن ذلك لا يشك فيه لصنم، وهي حالة التوفى، وذلك أن الله تعالى ما توفاه على الكمال فهو الذي يموت، وما توفاه توفياً غير مكمل فهو الذي يكون في النوم، قال ابن زيد: النوم وفاة، والموت وفاة، وكثرت فرقة في هذه الآية وهذا المعنى، ففرقت بين النفس والروح، وفرق قوم أيضاً بين نفس التمييز ونفس التحليل، إلى غير ذلك من الأقوال التي هي غلبة الظن، وحقيقة الأمر في هذا هي

إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهِ وَمَا آتَتْ عَلَيْهِمْ يَوْكِيلاً ﴿٤١﴾ اللَّهُ تَوَكَّلْ عَلَى الْإِنْسَانِ جِدِينَ تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ لَعَلَّكَ تَمْتَعُ فِي مَنَامِكَ أَيْ قَضَى عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَرَسُولَ الْآخِرِينَ إِنْ أَعْمَلَ مُسْمِي إِنْ فِي ذَلِكَ لَا يَنْبَغُ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ ﴿٤٢﴾ أَوْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ شُفَعَاءَ قُلْ أَوْلَوْكَ أَنْ تَلْبِسَ كُنُوزَ سَمَوَاتٍ وَلَا يَمْلِكُونَ ﴿٤٣﴾ قُلْ لِلَّهِ الشَّفَعَةُ جَمِيعاً لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَعَلَّ قُلُوبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَنْشِرُونَ ﴿٤٤﴾ قُلْ اللَّهُ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ عَلَيْهِ الْعِزُّ وَالشَّهَادَةُ أَنْتَ تَحْكُمُ بَيْنَ عِبَادِكَ فِي مَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَّلَهُمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْسَبُونَ ﴿٤٦﴾

٤١٣

مما استأثر الله تبارك وتعالى به وعيَّبه عن عباده في قوله سبحانه: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، ويكفيك أن في هذه الآية ﴿تَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾، وفي الحديث الصحيح أن الله قبض أرواحنا حين شاء، وردّها علينا حين شاء، في حديث بلال في الوادي، فقد نطقت الشريعة بقبض الروح والنفس في النوم، وقد قال الله تعالى: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، فظاهر أن التفصيل والخوض في هذا كله عناء، وإن كان قد تعرّض للقول في هذا ونحوه الأئمة، ذكر الشعلبي وغيره، عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: في ابن آدم نفسٌ بها العقل والتمييز، وفيه روحٌ بها التنفُّس والتحرُّك، فإذا نام العبد قبض الله نفسه ولم يقبض روحه. و«الأجل المُسمَّى» في

والروا في قوله تعالى:
﴿أَوَلَوْ﴾ واو عطف دخلت
عليها ألف الاستفهام،
ومتى دخلت ألف
الاستفهام على واو
العطف أو فائه أحدثت
معنى التقرير.

ثم أمره بأن يخبر بأن
جميع الشفاعة إنما هي لله
تعالى، و﴿جِئْتُمْ﴾ نصب
على الحال، والمعنى
أن الله تعالى يشفع ثم لا
يشفع أحد قبل شفاعة هو
إلا بإذنه، فمن حيث
شفاعة غيره موقوفة على
إذنه فالشفاعة كلها له ومن
عنده.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرَ اللَّهُ
وَحَدَّهُ﴾ الآية، قال مجاهد وغيره:
نزلت في قراءة النبي ﷺ سور النجم
عند الكعبة بمحضر من الكفار،
وعند ذلك ألقى الشيطان في أميئتيه،
فقال: ﴿إِنَّهُمْ الْعَرَبِيُّونَ الْعُلَى﴾، وإن
شفاعتهم لترتجى، فاستبشر الكفار
بذلك وسرّوا، فلما أذهب الله ما
ألقى الشيطان أنفوا واستكبروا
واشمازت نفوسهم، ومعناه: تَقَبَّضَتْ
كَبْرًا وَأَفْءَةً وكرامية ونفوراً، ومنه قول
عمرو ابن كلثوم:

إِذَا عَضَّ الشُّقَافُ بِهَا اشْمَأَزَّتْ
وَوَلَّتْهُمُ عَشْوَرَةٌ زَبُونَا
و ﴿الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ يريد تعالى
الذين يُعْبَدُونَ من دونه، وجاءت
العبارة في هذه الآيات عن الأصنام
كما تأتي عَمَّن يفعل، من حيث
صارت في حيزٍ من يعقل، ونُسب

إليها الضُّرُّ والنفع والألوهية، ونفي
ذلك عنها، فعملت معاملة من
يعقل. و﴿وَحَدَّهُ﴾ منصوب عند
سبويه على المصدر، وعند الفراء
على الحال.

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالدعاء إليه،
ورد الحكم إلى عدله، ومعنى هذا
الأمر تضمن الإجابة، و﴿اللَّهُمَّ﴾ عند
سبويه منادى، وكذلك عند
الكوفيين، إلا أنه خالفهم في هذه
الميم المشددة، فقال سبويه: هي
عوض من حرف النداء المحذوف
إبجازاً، وهي دلالة على أن تم ما
حذف، وقال الكوفيون: بل هو فعل
اتصل بالمكتوبة، وهو (أم) ثم
حذفت الهمزة تخفيفاً، فكان معنى

اللَّهُمَّ: يا الله أمُّ برحمتك وفضلك.
و﴿فَاطِرُ﴾ منادى مضاف، أي: يا
فاطر السموات، و﴿الْقَائِمُ﴾: ما
غاب عن البشر، و﴿الشَّاهِدُ﴾: ما
شاهدوه.

ثم أخبر تعالى عن سوء حال الكفرة
يوم القيامة، وأن ما ينزل بهم لو
قدروا على الاقتداء منه يضعف الدنيا
بأسرها لفعلوا، وقوله تبارك وتعالى:
﴿وَبَدَأَ لَهُمْ مِنَّا اللَّهُ﴾ الآية. أي:
كانت ظنونهم في الدنيا متفرقة
متنوعة حسب ضلالهم وتخيلاتهم
فيما يعتقدونه، فإذا عاينوا العذاب
يوم القيامة وقصرت بهم حالاتهم
ظهر لكل واحد خلاف ما كان يظن.
وقال سفيان الثوري: ويلٌ لأهل الرِّبَا
من هذه الآية، وقال عكرمة بن
عَمَّار: فرغ مُحَمَّد بن المنكدر عند
الموت، فقيل له: ما هذا؟ فقال:

وَبَدَأَ لَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ
يَسْتَهِنُونَ ﴿٤٣﴾ فَإِذَا مَنَّ الْإِنْسَانُ صُرُدًا نَمَّ إِذَا حَوَّلَتْهُ
نِعْمَةً وَسَاءَ قَائِلًا إِنَّمَا أَوْ يَشْتَهُ عَلَىٰ جِلْدِ بَلِّ هِيَ فِئْتَةٌ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ فَذَٰلِكَ مَا لَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَمَا أَغْنَىٰ
عَنَّهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا
وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَٰؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتٍ مَا كَسَبُوا
وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ
لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٤٧﴾
﴿٤٨﴾ قُلْ يٰجِبَادِ الَّذِينَ آسَرُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ
رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ
﴿٤٩﴾ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ الَّذِينَ قَتَلُوا أَنْفُسَهُمْ قُلْ تَتَابَعَتْ
أَعْيُنُهُمْ فِي غَافِلَتِهِمْ فَفُتِنُوا أَن يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ فَمَنْ حَسِبُ أَنْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ
مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ أَنْ تَنْفُتُوا أَنفُسَ بَحْرَتِي
عَلَىٰ مَا قَرَأْتُ فِي جَنَّةِ اللَّهِ وَإِن كُنْتُ لَمِنَ السَّخِرِينَ ﴿٥٠﴾

هذه الآية هو عُمر كل إنسان.

وقرأ جمهور القراء: ﴿فَضَىٰ عَلَيْهَا﴾
بفتح القاف والضاد، وقرئ حمزة،
والكسائي: ﴿فَضِي عَلَيْهَا﴾ بضم
القاف وكسر الضاد، وهي قراءة ابن
وثاب، وطلحة، والأعمش،
وعيسى.

ثم أحال تعالى أهل الفكرة على
النظر في هذا ونحوه، فإنه من البين
أن هذه القدرة لا يملكها إلا الواحد
الصمد.

﴿٤٣﴾ - ﴿٤٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أمر﴾ هنا مقطوعة مما قبلها، وهي
مقدرة بالألف وبل، وهذا تقرير
وتوبيخ، فأمر الله تعالى نبيه عليه
الصلاة والسلام أن يوقفهم على
الأمر، وعلى أنهم يرضون بهذا مع
كون الأصنام بصورة كذا وكذا من
عدم الملك والعقل.

أخاف هذه الآية. وقوله: ﴿وَمَا كُنَّا بِتَقْدِيرِهِ﴾ هو على حذف مضاف، وتقديره: وحق بهم جزاء ما كانوا به يستهزئون.

﴿٤٩﴾ - ﴿٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه حُجَّةٌ تلزم عُباد الأوثان للتناقص في أعمالهم، وذلك أنهم يعبدون الأوثان ويعتقدون تعظيمها، فإذا أذفت آفة أو نالت شدة نبذوها ونسوه ودَعَوْا الخالق المخترع رب السموات والأرض، و﴿الْإِنْسَانُ﴾ في الآية للجنس، و﴿حَوْلَانُهُ﴾ معناه: ملكناه، قال الزجاج وغيره: التَّخْوِيلُ: العطاء عن غير مجازاة، و﴿التُّغْمَةُ﴾ هنا عامٌ في جميع ما يسيده الله إلى العبد، فمن ذلك إزالة الضَّرِّ المذكور، ومنه الصَّحَّةُ والأمن والمال، وتقوى الإشارة إليه في الآية بقوله: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُمْ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾، وبقوله تعالى أخيراً: ﴿يَسْطُرُ الرَّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾، ويذكر الكسب.

وذكر تعالى الضمير في قوله: ﴿أُوتِيتُمْ﴾، وذلك يحتمل وجوهاً: منها أن يريد بالنعمة المال كما قدمنا، ومنها أن يُعِيد الضمير على المذكور إذ اسم التُّغْمَةِ بَعْمٌ ما هو مُذَكَّرٌ وبعْمٌ ما هو مُؤنَّثٌ، ومنها أن تكون [مَا] في قوله: ﴿إِنَّمَا﴾ بمعنى (الذي)، وعلى الوجهين الأولين [مَا] كافةٌ، وقوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع نصب على الحال، مع أن تكون [مَا] كافةٌ، وأما إذا كانت بمعنى (الذي) فإن ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ في موضع خبر [إِنَّمَا]، ودالٌ على الخبر المحذوف، كأنه قال: «هو على علم»، وقوله:

﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ يحتمل أن يريد: على علم مِنِّي يُوجِبُ المكاسب والتجارات وغير ذلك، قاله قتادة، ففي هذا التأويل إعجاب بالنفوس وتَعَاطُف مُفْرَطٌ، ونحو هذا، ويحتمل أن يريد: عَلَىٰ عِلْمٍ من الله تعالى في، وشيء سبق لي، واستحقاق حُرْزُهُ عند الله تعالى، لا يَضُرُّني معه شيء، وفي هذا التأويل اعتزازٌ بالله تبارك وتعالى وَعَجْزٌ وَتَمَنُّ على الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿بَلْ هِيَ فِتْنَةٌ﴾، أي: ليس الأمر كما قال، بل هذه الغفلة به فتنة له وابتلاء.

ثم أخير تعالى عَمَّن سَلَفَ من الكفرة أنهم قد قالوا نحو هذه المقالة، كقارون وغيره، وأنهم ما أغنى عنهم كسبهم واحتجابهم للأموال، وكذلك لا يُغني هؤلاء. ثم ذكر تعالى - على جهة التوعُّد لهؤلاء في نفس المثال - أن أولئك أصابهم جزاء سيئات ما كسبوا، وأن الذين ظلموا بالكفر من هؤلاء المعاصرين لك سيصيبيهم ما أصاب المتقدمين، وهذا خبر من الله تعالى أْبْرَزَةٌ الوجود يوم بدر وغيره، و﴿مُعْجِزِينَ﴾ معناه: مُفْلِتِينَ وناجين بأنفسهم.

ثم قرَّرَ تعالى عَلَى الحقيفة في أمر الكسب وَسَعَةَ النعم فقال: أَوْ لَمْ يَعْلَمُوا أَن الله هو الذي ييسط الرزق لقوم وَيُضَيِّقُه على قوم بمشيئته وسابق علمه، وليس ذلك لِكَيْسٍ أحد ولا لعجزه، وقوله: ﴿وَيَقْدِرُ﴾ معناه: يُضَيِّقُ، كما قال تعالى: ﴿فَقَدَرْنَا عَلَيْهِ رِزْقَهُ﴾.

﴿٥٧﴾ - ﴿٥٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآيات عامة في جميع الناس إلى يوم القيامة، في كل كافر ومؤمن، أي أن توبة الكافر تمحو كفره، وتوبة العاصي تمحو ذنبه، واختلاف - هل يكون في المشيئة أو هو مغفور له ولا بُدُّ؟ - فقالت فرقة من أهل السنة: هو مغفور له ولا بُدُّ، وهذا مقتضى ظواهر القرآن، وقالت فرقة: التائب في المشيئة، لكن يَغْلِبُ الرجاء في ناحيته، والعاصي في المشيئة، لكن يغلب الخوف في ناحيته.

واختلف المفسرون في سبب نزول الآيات - فقال عطاء بن يسار: نزلن في وحشي قاتل حمزة، وقال السدي، وقتادة، وابن أبي إسحق: نزلن في قوم بمكة آمنوا ولم يهاجروا، وفتنتهم قريش فافتنوا، ثم ندموا وظنوا أنهم لا توبة لهم، فنزلت، منهم الوليد، وهشام بن العاصي، وهذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وأنه كتبها بيده إلى هشام بن العاصي - الحديث. وقالت فرقة: نزلن في قوم كفار من أهل الجاهلية، قالوا: وما ينفعنا الإسلام ونحن قد زينا وقتلنا النفس وأتينا كل كبيرة، فنزلت، وقال علي، وابن مسعود، وابن عمر رضي الله عنهم: هذه أرجى آية في القرآن، ورَوَى ثوبان أن النبي ﷺ قال: «ما أحبُّ أن لي الدنيا بما فيها بهذه الآية: يا عبادي».

و ﴿أَتَرَوْا﴾ معناه: أَرَطُوا وتعدوا الطور، و«القنوط»: أعظم اليأس، وقرأ نافع وجمهور الناس:

أبو الفتح: جمع بين العوض والمُعْوَض منه، وروي ابن جُمَازٍ عن أبي جعفر: ﴿يَا حَسْرَتِي﴾ بكسر التاء وبعدها ياء ساكنة، قال سيبويه:

«ومعنى نداء الحسرة والويل: أي هذا وثقك وزماتك فاحضري».

﴿فَرَطْتُ﴾ معناه: قصرت في اللازم، وقوله: ﴿فِي جُنْبِ اللَّهِ﴾ معناه: في مقاصدي إلى الله، وفي جهة طاعته، أي: في تضييع شريعته والإيمان به، و«الجُنْبُ» يُعَبَّرُ به عن هذا ونحوه، ومنه قول الشاعر:

أَفِي جُنْبٍ بَكَرَ قَطَعْتَنِي مَلَامَةً
لَعَمْرِي لَقَدْ طَالَتْ مَلَامَتُهَا بِيَا
ومنه قول الآخر:

السَّاسُ جُنْبٌ وَالْأَمِيرُ جُنْبٌ

وقال مجاهد: ﴿فِي جُنْبِ اللَّهِ﴾ أي: في أمر الله. وقول الكافر: «وَأَنْ كُنْتُ لِمَنْ السَّاجِرِينَ» ندامة على استهزائه بأمر الله، والسُّخْرُ: الاستهزاء.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ تَقُولُ﴾ في الموضوعين عطف على قوله: ﴿أَنْ تَقُولُ﴾ الأول، و﴿كَرَّةٌ﴾ مصدر، من: كَرَّ يَكُرُّ، وقوله: ﴿فَأَكْرُتُ﴾ نصب بـ (أَنْ) مُضْمَرَةٌ مقدَّرة، وهو عطف على قوله: ﴿كَرَّةٌ﴾، والمراد: لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَكَرَرْنَا، فلذلك احتجج إلى (أَنْ) لتكون هي مع الفعل بتأويل المصدر ونحوه قول الشاعر - أشده الفراء -:

فَمَا لَكَ مِنْهَا غَيْرَ ذِكْرِي وَخَشِيَّةٍ
وَتَسْأَلُ عَن رُكْبَانِهَا أَيْنَ يَمُمُوا؟
وقد قدر بعض الناس الكلام بأنه: «لو أَنَّ لِي أَنْ أَكُرُّ»، ذكره الطبري،

سبحانه: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ﴾ توعدُّ بعذاب الدنيا والآخرة.

وقوله تعالى: ﴿وَأَتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ معناه أن القرآن العزيز تضمَّن عقائد نبوية، وأوامر ونواهي مُنجية، وِعِدَات على الطاعات والسيِّر، وحدوداً على المعاصي ووعيداً على بعضها، فالأحسن أن يسلك المرء طريق التَّفَهُّم والتحصيل والطاعة والانتهاج والعفو في الأمور ونحو ذلك، فهو أحسن من أن يسلك طريق الغفلة

والمعصية فيجزى أو يقع تحت الوعد، فهذا هو المعنى المقصود بـ «أَحْسَنَ»، وليس أن بعض القرآن أحسن من بعض من حيث قرآن، وإنما هو أَحْسَنُ كله بالإضافة إلى أفعال الإنسان وما يلقى من عواقبها، قال السدي: الأَحْسَنُ هو ما أمر الله تبارك وتعالى به في كتابه. و﴿بِقِتَّةٍ﴾ معناه: فجأة وعلى غير موعد، و﴿تَسْعُرُونَ﴾ مشتق من السعار.

﴿٥٦﴾ - ﴿٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَنْ﴾ في هذه الآية مفعولٌ من أجله، أي: أنيؤوا وأسلموا من أجل أن تقول نفس، وقرأ الجمهور: ﴿بِحَسْرَتِي﴾ والأصل: يَا حَسْرَتِي، ومن العرب من يَزُدُّ ياء الإضافة ألفاً، فيقول: يا غلاما، ويا جارا، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿يَا حَسْرَتَايَ﴾ بفتح الياء، وروي عنه بسكونها، قال

أَوْ تَقُولُ لَو أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٥٦﴾
أَوْ تَقُولُ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَو أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكْرُتُ
مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٧﴾ بَلْ قَدْ جَاءَ تَكَرُّبًا فَكَلَّمْتَهَا
وَأَسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ
تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وَوَجَّهُهُمْ مُسْوَدَّةً أُنْفُسُ فِي
جَهَنَّمَ مَوْتَى لَمَّا كَفَرُوا ﴿٥٩﴾ وَنَسِىَ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا
بِمَعَارِزِهِمْ لَا يَمَسُّهُمْ الشُّوْءُ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٠﴾ وَاللَّهُ
خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿٦١﴾ اللَّهُ مَقَالِيدُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا صَاحِبَاتُ اللَّهِ أُولَئِكَ
هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٦٢﴾ قُلْ أَغْفِرُ اللَّهُ مَا مَرَّ فِي عِبَادَاتِنَا
الْجَاهِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَلَقَدْ أَوْحَى إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ أَنْ
أَشْرَكْتَ لِيَحْبِطَنَّ عَمَلُكَ وَلِتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٦٤﴾ بَلَى اللَّهُ
فَاعْتَدِ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴿٦٥﴾ وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ
وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ
مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَعَنِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٦﴾

﴿تَسْقَطُوا﴾ بفتح النون، قال أبو حاتم: «يلزمهم أن يقرأوا: ﴿مِنْ بَعْدِ مَا قَنِطُوا﴾ بالكسر، ولم يقرأ به أحد»، وقرأ الأشهب العقيلي بضم النون، وقرأ أبو عمرو، وابن وثاب، والأعمش بكسرها، وهي لغات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ عموم بمعنى الخصوص؛ لأن الشُّرْكَ ليس بداخل في الآية إجماعاً، وهي أيضاً في المعاصي مقيدة بالمشيئة، و﴿جَمِيعًا﴾ نصب على الحال. وروي أن رسول الله ﷺ قرأ: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا وَلَا يَبَالِي»، وقرأ ابن مسعود: «إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا لِمَنْ يَشَاءُ».

قوله تعالى: ﴿وَأَيُّبًا﴾ معناه: ارجعوا وميلوا بنفوسكم، و«الإِنَابَةُ»: الرجوع بالنفس إلى الشيء، وقوله

وهذا «الكوّن» في الآية داخل في التمني.

وقوله: ﴿بِكَانَ﴾ جوابٌ لِتَنفِي مَقْدَرٍ في قول هذه النفس، كأنها قالت: «فَعُمُرِي في الدنيا لم يتسع للنظر»، أو قالت: «فإِنِّي لم يَتَّبِعْنِ لِي الأَمْر في الدنيا»، ونحو هذا، وحقُّ (بَلَى) أَنْ يَجِيءَ بعد نَفْيِ عَلَيهِ تَقْرِيرٌ.

وقرأ الجمهور: ﴿قَدْ جَاءَتْكَ﴾ بفتح الكاف وبفتح التاء من قوله: ﴿فَكَذَّبْتَ بِهَا وَأَسْكَنْتَ وَكُنْتَ﴾، على مخاطبة الكافر ذي النفس، وقرأ ابن يَغْمَر، والجحدري بكسر الكاف والتاء في الثلاثة على خطاب النفس المذكورة، قال أبو حاتم: روتها أم سلمة عن النبي ﷺ، وقرأ الأعمش: ﴿بَلَى قَدْ جَاءَتْهُ﴾ بالهاء.

ثم خاطب تعالى نبيّه ﷺ بخبر يراه يوم القيامة من حالة الكفار، وفي ضمن هذا الخبر وعيدٌ لمعاصري محمد صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿كَرَى﴾ هو من رؤية العين، وكذبهم على الله تعالى هو في أن جعلوا له البنات والصاحب، وشروا ما لم يأذن به الله، إلى غير ذلك. وقوله: ﴿وَجُوهَهُمْ مُسْوَدَةٌ﴾ جملة في موضع الحال، وظاهر الآية أن لون وجوههم يتغير وتَسْوَدُ حقيقة، ويحتمل أن يكون في العبارة تجوُّزٌ، وعبر بالسواد عن اربداد وجوههم وغالب همهم وظاهر كآبتهم، و«مَثْوَى»: موضع الشواء والإقامة، و«المتكبر»: رافع نفسه إلى فوق حقه، قال ﷺ: «الكبير

سفه الحق وغمط الناس» أي احتقارهم.

(١٦١) - (١٦٢) تفسير قوله عز وجل: ذكر الله تعالى حالة المتقين ونجاتهم ليعادل بذلك ما تقدم من ذكر الكفرة، وفي ذلك ترغيب في حالة المتقين؛ لأن الأشياء تبين بأضدادها. وقرأ الجمهور: ﴿بِمَقَارِبِهِمْ﴾ على اسم الجنس، وهو مصدرٌ من الفوز، وقرأ حمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿بِمَقَارِبَتِهِمْ﴾ على الجمع، من حيث النجاة لأنواع ولأسباب مختلفة، وهي قراءة الحسن، والأعرج، وأبي عبدالرحمن، والأعمش. وفي الكلام حذف مضاف تقديره: وَيُنَجِّي اللهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِأَسْبَابٍ أَوْ بَدَوَاعِي مَفَازَتِهِمْ. وقال السدي: ﴿بِمَقَارِبَتِهِمْ﴾: بفضائلهم، وقال ابن زيد: بأعمالهم.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ كلام مستأنف دالٌّ على الوجدانية، وهو عموم معناه الخصوص، و«الوكيل»: القائم على الأمر الزعيم بإكماله وتتميمه.

و«المقاليذ»: المفاتيح، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، واحدها: مفلاة، مثل مفتاح، وفي كتاب الزهراوي: واحد المقاليذ: إقليد، وهذه استعارة، كما تقول: بيدك يا فلان مفتاح هذا الأمر؛ إذا كان قادراً على السعي فيه، وقال السدي: المقاليذ: الخزائن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة غير جيدة، ويُشبه أن

يقول قائل: المقاليذ إشارة للخزائن أو دالةٌ عليها فيسوغ هذا القول، كما أن الخزائن أيضاً في جهة الله تعالى إنما تجيء استعارة، بمعنى: اتساع قدرته، وأنه يبتدع ويخترع، ويُشبه أن يقال فيما أوجد من المخلوقات كالماء والنار وغير ذلك: إنها في خزائنه سبحانه، وهذا كله تجوُّزٌ على جهة التقريب والتفهم للسامعين، وقد ورد القرآن بذكر الخزائن، ووقعت في الحديث الصحيح في قوله ﷺ: «ما فتح الليلة من الخزائن»، والحقيقة في هذا غير بعيدة، لكنه ليس اختزان حاجة ولا قلة قدرة كما هو اختزان البشر. وقال عثمان رضي الله عنه: سألت رسول الله ﷺ عن مقاليذ السموات والأرض فقال: «لا إله إلا الله، والله أكبر، وسبحان الله والحمد لله، ولا حول ولا قوة إلا بالله هو الأول والأخر، والظاهر والباطن، يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير».

وقوله: ﴿أَفَغَيْرَ﴾ منصوب بـ ﴿أَعْبُدُ﴾، كأنه قال: أَغْيِرَ اللهُ أَعْبُدَ فيما تأمروني؟ ويجوز أن يكون نصبه بـ ﴿تَأْمُرُونَ﴾ على إسقاط (أن)، تقديره: أَغْيِرَ اللهُ تأمروني أن أَعْبُدَ. وقرأت فرقة: ﴿تَأْمُرُونِي﴾ بنونين، وهذا هو الأصل، وقرأ ابن كثير بنون مشددة مكسورة بعدها ياء مفتوحة. وقرأ ابن عامر بنون خفيفة مكسورة وياء ساكنة، وهذا على حذف النون الواحدة، وهي الموطئة لياء المتكلم، ولا يجوز حذف النون الأولى، وهو لحن لأنها علامة رفع الفعل، وفتح نافع الياء على هذا

باعته، لا يُحسنون حنله على تأويله من أن الإصبع عبارة عن القدرة، أو أنها إصبع خلق يخلقه لذلك، ويعضد هذا تنكير الإصبع.

وروى سعيد بن المسيب أن سبب نزول الآية أن طائفة من اليهود جاءت إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد، هذا الله خلق الأشياء، فمن خلق الله؟ فغضب رسول الله ﷺ وساورهم فنزلت الآية، وقرأ جمهور الناس: ﴿قَدْرِهِ﴾ بسكون الدال، وقرأ الأعمش بفتحها، وقرأ أبو حية، وعيسى بن عمر، والحسن، وأبو نوفل: ﴿وَمَا قَدَرُوا﴾ بتشديد الدال ﴿حَقَّ قَدْرِهِ﴾ بفتحها.

وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَبِيحًا بِقَصَصِكُمْ﴾ معناه: في قبضته، وقال ابن عمر ما معناه: إن الأرض في قبضة اليد الواحدة، والسموات مطويات باليمين الأخرى؛ لأن كلتي يديه يمين، ورواه عن النبي ﷺ. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الأرض جميعاً قبضته والسموات وكل ذلك بيمينه. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿مَطْوِيَّاتٍ﴾ بكسر التاء المنونة، والناس على رفعها.

وعلى كل وجه فاليمين هنا والقبضة وكل ما ورد عبارة عن القدرة والقوة، وما اختلج في الصدور من غير ذلك باطل، وما ذهب إليه القاضي من أنها صفات زائدة على صفات الذات قول ضعيف. وبحسب ما يختلج في النفوس التي لم يصنها العلم قال سبحانه وتعالى:

ولا نفوا عنه ما لا يليق به.

واختلف الناس في المعنى بالضمير في قوله سبحانه: ﴿قَدَرُوا﴾ -

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل ذلك في كفار قريش الذين كانت هذه الآيات كلها محاورة لهم ورداً عليهم.

وقالت فرقة: الآية نزلت في قوم من اليهود، تكلموا في صفات الله تعالى وجلاله فألحدوا وجسّموا وأتوا بكل تخليط، فنزلت الآية فيهم، وفي الحديث أنه

جاء خبر بالمدينة إلى رسول الله ﷺ، فجلس إليه، فقال له النبي عليه الصلاة والسلام: حدثنا، قال: «إن الله عز وجل إذا كان يوم القيامة جعل السموات على إصبع، والأرض على إصبع، والجبال على إصبع، والماء والشجر على إصبع، وجميع الخلائق على إصبع، ثم يهزمن فيقول: أنا الملك»، فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً له، ثم قرأ هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فرسول الله ﷺ تمثل بالآية وقد كانت نزلت، وقوله في الحديث: «تصديقاً له»، أي في أنه لم يقل إلا ما رأى في كتب اليهود، ولكن النبي ﷺ أنكر المعنى لأن التجسيم فيه ظاهر، [واليهود معروفون

وَنُفِعَ فِي الصُّورِ فَصَيَّقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِعَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ بِنُظُرِهِمْ وَأَشْرَفَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجَاءَتْ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءَ وَفُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرَّاحِينَ إِذَا جَاءَهُمْ وَهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُولٌ مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَسِبْتُمْ كَلِمَةَ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ فَبَلَّغْنَا إِلَيْنَا الْبُحْرَيْنِ فَأَنْقَضُوا إِلَيْنَا أَلْحِقْنَا الْبُحْرَيْنِ بِالنَّارِ فَجَاءَ بِالسُّيُوفِ وَأَمْثالِهَا عَلَيْكُمْ لِيُحِطُوا بِأَلْوَابِهَا وَقَالَ لِمَنْ خَرْنَاهَا مِنْكُمْ عَلَيْكُمْ يُطِئُونَهَا فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿٦٩﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقْنَا وَعَدَّهُ وَأَوْزِنَنَا الْأَرْضِ نَنبُؤًا مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ﴿٧٠﴾

الحذف فقرأ: ﴿تَأْمُرُونِي﴾، وقرأ الباقون بشد النون وسكون الباء.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ﴾ الآية، قالت فرقة: في الآية تقديم وتأخير، كأنه قال: «ولقد أوحى إليك لئن أشركت ليحبطن عملك وإلى الذين من قبلك»، وقالت فرقة: الآية على وجهها، والمعنى: ولقد أوحى إلى كل نبي لئن أشركت ليحبطن عملك، و«حبط» معناه: بطل وسقط. وبهذه الآية بطلت أعمال المرتد من صلته وحججه وغير ذلك.

٦٦ - ٦٧ - تفسير قوله عز وجل:

المكتوبة منصوبة بقوله تعالى: ﴿فَاعْبُدْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾ معناه: وما عظموا الله حق عظمته، ولا وصفوه بصفاته،

﴿عَنَّا يُتْرَكُونَ﴾، أي: هو مُتْرَهٌ عن جميع الشبه التي لا تليق به.

ثم ذكر سبحانه وتعالى التَّفْخِجَ في الصُّورِ لِيُصْعَقَ الْأَحْيَاءُ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا وَالسَّمَاءِ، وفي بعض الأحاديث من طريق أبي هريرة عن النبي ﷺ أَنَّ قَبْلَ هَذِهِ الصَّعَقَةِ صَعَقَةُ الْفِرْعَاقِ، وَلَمْ تَنْصَبْهَا هَذِهِ الْآيَةُ. وَ﴿فَصَيَّقَ﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مَعْنَاهُ: خَرَّ مَيْتًا، وَ«الصُّورُ»: الْفَرَسَانِ، وَلَا يَتَصَوَّرُ هُنَا غَيْرَ هَذَا، وَمَنْ يَقُولُ: الصُّورُ جَمْعُ صَوْرَةٍ فَإِنَّمَا يَتَوَجَّهُ قَوْلُهُ فِي نَفْخَةِ الْبَعْثِ. وَقَرَأَ قَتَادَةُ: ﴿وَتُفْخِجُ فِي الصُّورِ﴾ بِفَتْحِ الْوَاوِ، وَهِيَ جَمْعُ صَوْرَةٍ.

قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ شَكَاهُ اللَّهُ﴾، قال السدي: استثنى جبريل وميكائيل وإسرافيل ومَلَكُ الْمَوْتِ، ثُمَّ أَمَاتَهُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْحَالِ، وَرَوَى ذَلِكَ عَنْ أَنَسٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقِيلَ: اسْتَثْنَى الْأَنْبِيَاءَ، وَقَالَ ابْنُ جَبْرِ: اسْتَثْنَى اللَّهُ الشَّهَدَاءَ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَفِخْ فِيهِ أَتْرَقِي﴾ هِيَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، وَرُوي أَنَّ بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعِينَ، لَا يَدْرِي أَبُو هُرَيْرَةَ: سَنَةً أَوْ يَوْمًا أَوْ شَهْرًا أَوْ سَاعَةً. وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

﴿٦٩﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَأَشْرَقَتِ﴾ مَعْنَاهُ: أَضَاءَتْ وَعَظُمَ نَوْرُهَا، يُقَالُ: شَرَقَتِ الشَّمْسُ إِذَا طَلَعَتْ، وَأَشْرَقَتْ إِذَا أَضَاءَتْ. وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَعَبِيدُ بْنُ عَمِيرٍ: ﴿وَأَشْرَقَتْ﴾ بِضَمِّ الْأَلْفِ وَكَسْرِ الرَّاءِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَتَرْتَّبُ مِنْ فِعْلِ يَتَعَدَى، فَهَذَا عَلَى أَنَّ يُقَالُ: أَشْرَقَ

الْبَيْتُ وَأَشْرَقَهُ السَّرَاجُ، فَيَكُونُ الْفِعْلُ مُتَجَاوِزًا وَغَيْرَ مُتَجَاوِزٍ بِلَفْظِ وَاحِدٍ، كَرَجَعَ وَرَجَعْتُهُ، وَوَقَفَ وَوَقَفْتُهُ، وَمَنْ الْمُتَعَدِّي مِنْ ذَلِكَ يُقَالُ: أَشْرَقَتِ الْأَرْضُ، «وَالْأَرْضُ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ الْأَرْضُ الْمُبْدَلَةُ مِنَ الْأَرْضِ الْمَعْرُوفَةِ.

وقوله تعالى: ﴿يَتُورُ رَبِّيها﴾ إِضَافَةٌ خَلَقَ إِلَى خَالِقِهِ، أَي: بِنُورِ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى. وَ«الْكِتَابُ»: كِتَابُ حِسَابِ الْخَلَائِقِ، وَوَحَّدَهُ عَلَى اسْمِ الْجِنْسِ؛ لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ لَهُ كِتَابٌ عَلَى حِدَةٍ. وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: وَضَعَ اللَّوْحَ الْمَحْفُوظَ. وَهَذَا شاذٌّ، وَلَيْسَ فِيهِ مَعْنَى التَّوَعُّدِ وَهُوَ مَقْصِدُ الْآيَةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَاقَةَ يَأْتِيهِنَّ﴾ أَي: اسْتَشْهَدُوا عَلَى أُمَّهَاتِهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالشَّهَدَاءِ﴾، قِيلَ: هُوَ جَمْعُ شَاهِدٍ، وَالْمَرَادُ أُمَّةُ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّذِينَ جَعَلَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: الشَّهَدَاءُ: جَمْعُ شَهِيدٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَهَذَا أَيْضًا يَزُولُ عَنْهُ مَعْنَى التَّوَعُّدِ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرِيدَ بِالشَّهَدَاءِ الْأَنْبِيَاءَ أَنفُسَهُمْ، فَيَكُونُ مِنْ عَطْفِ الصِّفَةِ عَلَى الصِّفَةِ بِالْوَاوِ، كَمَا تَقُولُ: جَاءَنِي زَيْدُ الْكَرِيمِ وَالْعَاقِلِ. وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ: الشَّهَدَاءُ: الْحَفِظَةُ.

والضمير في قوله تعالى: ﴿بَيْنَهُمْ﴾ عَائِدٌ عَلَى الْعَالَمِ بِأَجْمَعِهِ إِذِ الْآيَةُ تَدُلُّ عَلَيْهِمْ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ لَا يَظْلَمُونَ﴾ مَعْنَاهُ: لَا يَوْضَعُ شَيْءٌ مِنْ أُمُورِهِمْ غَيْرَ مَوْضِعِهِ.

وقوله: ﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا

عَمَلَتْ﴾ مَعْنَاهُ: جُوزِيَتْهُ مُكْتَمَلًا، وَفِي هَذَا وَعِيدٌ صَرَّحَ عَنْهُ قَوْلُهُ سَبْحَانَهُ: ﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾.

وقرأ الجمهور: ﴿وَسَيِّئِ﴾ وَ﴿وَيَاقَةَ﴾ بِكَسْرِ أَوَّلِهِ، وَقَرَأَهَا وَنظَائِرُهَا بِإِسْمَامِ الضَّمِّ الْحَسَنِ، وَابْنُ ثِيَابٍ، وَعَاصِمٌ، وَالْأَعْمَشُ.

﴿زُرَّارًا﴾ مَعْنَاهُ: جَمَاعَاتٌ مُتَفَرِّقَةٌ، وَاحِدَتُهَا زُرْمَةٌ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فُتِحَتْ﴾ جَوَابُ ﴿إِذَا﴾، وَالْكَلَامُ هُنَا يَتَقَضَى أَنْ فَتَحَهَا إِنَّمَا يَكُونُ بَعْدَ مَجِيئِهِمْ، وَفِي وَفَوْفِهِمْ قَبْلَ فَتْحِهَا مَذَلَّةٌ لَهُمْ، وَهَكَذَا هِيَ حَالُ السَّجُونِ وَمَوَاضِعِ الثَّقَافِ وَالْعَذَابِ، بِخِلَافِ قَوْلِهِ تَعَالَى فِي أَهْلِ الْجَنَّةِ: ﴿وَفُتِحَتْ﴾، فَالْوَاوُ مُؤَدِّنَةٌ بِأَنَّهُمْ يَجِدُونَهَا مَفْتُوحَةً كَمَا نَزَلَتِ الْأَفْرَاحُ.

وقرأ الجمهور: ﴿فُتِحَتْ﴾ بِشَدِّ التَّاءِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ، وَقَرَأَ عَاصِمٌ، وَحَمْرُزَةُ، وَالْكَسَائِيُّ بِتَخْفِيفِهَا، وَهِيَ قِرَاءَةٌ طَلْحَةُ، وَالْأَعْمَشُ. ثُمَّ ذَكَرَ سَبْحَانَهُ وَتَعَالَى تَوْقِيفَ الْخِزْنَةِ لَهُمْ عَلَى مَجِيءِ الرَّسْلِ. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿يَأْتِكُمْ﴾ بِالْبَيَاءِ مِنْ تَحْتِ، وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ: ﴿تَأْتِكُمْ﴾ بِالتَّاءِ مِنْ فَوْقِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْكُمْ﴾ أَعْظَمُ فِي الْحُجَّةِ، أَي: رَسُلٌ مِنْ جَنْسِكُمْ لَا يَصْعَبُ عَلَيْكُمْ مَرَامُهُمْ وَلَا فَهْمُ أَقْوَالِهِمْ.

وقوله تعالى: ﴿قَالُوا يَا لَيْلًا﴾ جَوَابٌ عَلَى التَّقْرِيرِ عَلَى نَفْيِ أَمْرِهِ، وَلَا يَجُوزُ هُنَا الْجَوَابُ بِ (نَعَمْ) لِأَنَّهُمْ كَانُوا يَقُولُونَ: نَعَمْ لَمْ يَأْتِنَا، وَهَكَذَا كَانَ يَتَرْتَّبُ الْمَعْنَى: ثُمَّ لَمْ يَجِدُوا حُجَّةً، إِلَّا أَنَّ كَلِمَةَ الْعَذَابِ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ،

موت إنسان، وهؤلاء إنما ورثوا مواضع أهل النار لو كانوا مؤمنين، ﴿وَنَبَرًا﴾ معناه: تُتخذ أمكنة ومسكن.

ثم وصف تعالى حالة الملائكة من العرش وحفوفهم به، وقال قوم: واحد ﴿حَاقِبِينَ﴾: حاف، وقالت فرقة: لا واحد لحاقين لأن الواحد لا يكون حاقفاً؛ إذ الحفوف الإحداق بالشيء، وهذه اللفظة مأخوذة من الحفاف الذي هو الجانب، ومنه قول الشاعر:

لَه لَحَفَاتٌ عَن جِغَافِي سَرِيرِهِ
إِذَا كَرَّهَا فِيهَا عِقَابٌ وَتَأْيِلٌ
أي: عن جانبه. وقالت فرقة: ﴿مِن حَوْلِ الْعَرْشِ﴾ زائدة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والصواب أنها لا ابتداء الغاية.

قوله تعالى: ﴿يَسْبِغُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾، قالت فرقة: معناه أن تسبيحهم يتأتى بحمد الله تعالى وفضله، وقالت فرقة: تسبيحهم هو ترديد حمد الله تبارك وتعالى وتكراره. وقال الشعلي: مُتَلَذِّذِينَ لَا مُتَعَبِّدِينَ وَلَا مُكَلَّفِينَ.

وقوله تعالى: ﴿وَيَقِيلُ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ حتم للأمر، وقول جزم عند فصل القضاء، أي: إن هذا الحاكم العدل ينبغي أن يُحمد عند نفوذ حكمه وإكمال قضائه، ومن هذه الآية جعلت ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ خاتمة المجالس والمجتمعات في العلم، وقال قتادة: فتح الله أول الخلق بالحمد فقال:

مؤذنة بأنها قد فُتحت قبل وصولهم إليها، وقالت فرقة: هي زائدة، وجواب ﴿إِذَا﴾ هو ﴿فُتِحَتْ﴾، وقال الزجاج عن المُبْتَدَأِ: جواب محذوف، تقديره بعد قوله تعالى: ﴿غَلِيظِينَ﴾... سعيذوا، وقال الخليل: الجواب محذوف تقديره: حتى إذا جاءوها وجاءوها وفتحت أبوابها، وهذا كما قدر الخليل قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْتَمَّ أَنْتَمَّ لِلَّيْلِينِ﴾، وكما قدر أيضاً قول امرئ القيس:

فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الْحَيِّ وَانْتَحَى

أي: أَجَزْنَا وَانْتَحَى. وقد قال قوم - أشار إليهم ابن الأنباري وضعف قولهم -: هذه واو الثمانية، وقد تقدم القول في واو الثمانية مستوعباً في سورة الكهف، وسقطت هذه الروا في مصحف ابن مسعود، فهي كالأولى.

وقوله: ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾ تحية، ويحتمل أن يريد أنهم قالوا لهم: سلامٌ عليكم وأمنة لكم، ﴿وَلِيْسَتْ﴾ معناه: أعمالاً ومُتَعَدِّدَةً ومُسْتَقَرًّا وجزاء.

وقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿وَأُورَثْنَا الْأَرْضَ﴾ يريد أرض الجنة، قاله قتادة، وابن زيد، والسدي، والورثة هنا مستعارة؛ لأن حقيقة الميراث أن يكون بصير شيء إلى إنسان بعد

سُورَةُ الزُّمَرِ

سورة الزمر

سورة الزمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ ١ تَنْزِيلَ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ٢ غَافِرٍ ٣ الذُّبِّ وَقَالُوا النَّوِيذُ شَدِيدٌ الْعِقَابِ ذِي الطُّولِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ٤ إِلَيْهِ الْمَصِيرُ ٥ مَا يَجِدُونَ فِيهٖ آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا ٦ فَلَا يَغْرُرَكَ فَلْتَهُمْ فِي الْيَلْدِ ٧ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ٨ وَالْأَخْرَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذَهُ وَجَدُوا بِآيَاتِنَا إِلْحَافًا فَآخَذْنَاهُمْ فِكَفٌ كَانُوا يَعْقَابُونَ ٩ وَكَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَاتُ الرَّبِّ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ١٠ الَّذِينَ يَمْجُلُونَ النَّارَ وَمِنْ حَوْلِهَا يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْحَرِّ ١١

٤٦٧

أي الكلمة المقتضية من الله تعالى تخليدهم في النار، وهي عبارة عن قضائه السابق لهم بذلك، وهي التي في قوله تعالى لإبليس: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمَنْ يَتَّبِعُكَ مِنْ أَجْمَعِينَ﴾، و«الْمَشْوَى»: موضع الإقامة.

٧٦ - ٧٥ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَيَسِيقَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا﴾ لفظ يعم كل من يدخل الجنة من المؤمنين الذين اتقوا الشوك؛ لأن الذين لم يتقوا المعاصي قد يُساق منهم، وهم الذين سبق لهم أن يغفر الله تعالى لهم من أهل المشيئة، وأيضاً فالذين يدخلون النار ثم يخرجون منها قد يساقون زمراً إلى الجنة بعد ذلك فيصبرون من أهل هذه الآية، والواو في قوله تعالى: ﴿وَفُتِحَتْ﴾

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، وختم القيامة بالحمد في هذه الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: **وجمع** ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فاتحة كتابه، فبه يبدأ كل أمر، وبه يُخْتَم، وحمد الله تبارك وتعالى وتقديسه ينبغي أن يكون من المؤمن، كما قال الشاعر:

وَأَخْرُسِيءَ أَنْتَ فِي كُلِّ ضَجَعَةٍ
وَأَوَّلُ شَيْءٍ أَنْتَ عِنْدَ هُبُوبِي
كامل تفسير سورة الزُّمَرُ والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة غافر

هذه السورة مكيَّة بإجماع، وقد روي في بعض آياتها أنها مدنية، وذلك ضعيف، والأول أصح، وهذه الحواميم التي روى أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنها ديباج القرآن، ووقفه الزجاج على ابن مسعود رضي الله عنه، ومعنى هذه العبارة أنها خلت من الأحكام، وقُصرت على المواعظ والزجر وطرق الآخرة محضاً، وأيضاً فهي قصار لا يلحق لقارئٍ فيها سامة. وروي أن ابن مسعود روى أن النبي ﷺ قال: «من أراد أن يرتع في رياض مونقة من الجنة فليقرأ الحواميم»، وهذا نحو الكلام الأول في المعنى. وقال عليه الصلاة

والسلام: «مثل الحواميم في القرآن مثل الجيرَات في الثياب».

⑤ - ⑥ تفسير قوله عز وجل:

قد تقدم القول في الحروف المقطعة في أوائل السور، وتلك الأقوال كلها تترتب في ﴿حَمَّ﴾، ويختص هذا الموضع بقول آخر قاله الضحاک، والكسائي: إن ﴿حَمَّ﴾ هجاء (حُم) بضم الحاءِ وشد الميم المفتوحة، كأنه يقول: «حُمَّ الأَمْرُ وَوَقَعَ تنزيل الكتاب من الله»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الرَّ، وَحَمَّ، وَهِيَ حُرُوفُ (الرَّحْمَن) مُقَطَّعَةٌ فِي سُورَةٍ»، وقال القرطبي: أَسَمَ اللهُ تَعَالَى بِحَلْمِهِ وَمَلَكِهِ، وَسَأَلَ أَعْرَابِيَّ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ ﴿حَمَّ﴾ مَا هُوَ؟ فَقَالَ: «بَدَأَ أَسْمَاءً وَفَوَاتِحَ سُورَةٍ».

وقرأ ابن كثير بفتح الحاء، وروي عن أبي عمرو كسرهما على الإمالة، وروي عن نافع الفتح، وروي عنه الوسط بينهما، وكذلك اختلف عن عاصم، وروي عن عيسى كسر الحاءِ على الإمالة، وقرأ جمهور الناس بفتح الحاءِ وسكون الميم، وقرأ عيسى بن عمَر أيضاً بفتح الحاءِ وفتح الميم الأخيرة في النطق، ولذلك وجهان: أحدهما التحريك للالتقاء مع الياء الساكنة، والآخر أن تكون حركة إعراب، وذلك نصب بفعل مضمَر تقديره: اقرأ حَمَّ، وهذا على أن يجري مجرى الأسماء، والحُجَّة فيه قولُ شَرِيحِ بْنِ أَوْفَى العنبي:

يُذَكِّرُنِي حَامِيمَ الرُّمُحِ شَاجِرٍ
فَهَلَّا تَلَا حَامِيمَ قَبْلَ التَّقْدِيمِ؟

وقال الكمي:

وَجَدْنَا لَكُمْ فِي آلِ حَامِيمِ آيَةً
تَأْوَلَهَا مِثْلًا تَقِيٌّ وَمُعْزِبٌ
وقرأ أبو السمال بكسر الميم الأخيرة، وذلك للالتقاء الساكنين، و﴿حَمَّ﴾ آية.

و﴿نَزِيلٌ﴾ رفع بالابتداء، والخبر قوله تعالى: ﴿يَزِيلُ اللَّهُ﴾، وعلى القول بأن ﴿حَمَّ﴾ إشارة إلى حروف المعجم يكون قوله: ﴿نَزِيلٌ﴾ خبر ابتداء، و﴿الْكِتَابِ﴾: القرآن، وقوله تعالى: ﴿غَافِرٍ﴾ بدل من المكتوبة، وإن أردت بـ ﴿غَافِرٍ﴾ المُضَيِّ - أي: عُفْرَانِهِ فِي الدُّنْيَا وقضائه بالعُفْرَانِ وَالسُّتْرِ عَلَى الْمَذْنِبِينَ - فيجوز أن تكون ﴿غَافِرٍ﴾ صفة؛ لأن إضافته إلى المعرفة تكون محضة، وهذا يترجح جداً، وإذا أردت بـ ﴿غَافِرٍ﴾ الاستقبال - أي: عُفْرَانُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ - فالإضافة غير محضة، و﴿غَافِرٍ﴾ نكرة، فلا يجوز أن تكون نعتاً؛ لأن المعرفة لا تُنعت بالنكرة، وفي هذا نظر. وقال الزَّجَّاجُ: ﴿غَافِرٍ﴾ و﴿قَابِلٍ﴾ صفتان، و﴿شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ بَدَلٌ، و﴿الَّذِي﴾ اسم الجنس، وأما ﴿الْقَوْبِ﴾ فيحتمل أن يكون مصدراً كالعموم والنوم فيكون اسم جنس، ويحتمل أن يكون جمع تَوْبَةٍ، كَثْمُرَةٍ وَتَمْرٍ، وساعة وساع. وقبول التوبة من الكافر مقطوع به؛ لإخبار الله تعالى، وقبولها من العاصي في وجوبها قولان لأهل السُّنَّة، وحكى الطبري عن أبي بكر بن عياش أن رجلاً جاء إلى عمَر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: إني قتلت، فهل لي من توبة؟

لا على لفظها. وقوله تعالى: ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ معناه: ليهلكوه، كقوله سبحانه: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾، والعرب تقول للقتيل: أخبذ، وللأسير، أخبذ، ومنه قولهم: «أكبذ من الأخبذ الصبحان»، وقال قتادة: ﴿يَأْخُذُوهُ﴾ معناه: ليقتلوه. و﴿يَلْبِغُوا﴾ معناه: ليضلوا وليذهبوا، والمذبضة: المزلّة والمزلقة. وقوله تعالى: ﴿فَكَفَبَ كَانَ عَاقِبَ﴾ تعجيب وتعظيم، وليس باستفهام عن كيفية وقوع الأمر.

٦ - ٧ - تفسير قوله عز وجل: في مصحف عبدالله بن مسعود: «وكذلك سبقت كلمة ربك»، والمعنى: وكما أخذت أولئك المذكورين وأهلكتهم فكذلك حقت كلماتي على جميع الكفار، من تقدم منهم ومن تأخر، أنهم أهل النار وسكانها، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿كَلِمَاتٍ﴾ على الجمع، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وابن نصح. وقرأ الباقون على الأفراد، وهي للجنس، وهي قراءة أبي رجاء، وكتادة، وهذه كلها عبارة عن حتم القضاء عليهم. وقوله: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بدل من ﴿كَلِمَاتٍ﴾.

ثم أخبر تعالى بخبر يتضمن تشريف المؤمنين وتعظيم الرجاء لهم، وهو أن الملائكة الحاملين للعرش والذين حول العرش - وهم أفضل الملائكة - يستغفرون للمؤمنين، ويسألون الله تبارك وتعالى لهم الجنة والرحمة، وهذا معنى قوله تعالى في غير هذه الآية: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعَدَاً

وقابل الشؤب وعداً، وشديد العقاب عدلاً. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الطؤل: السعة والغنى. ثم صدق تعالى بالتوحيد في قوله: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾، وبالبعث والحشر في قوله: ﴿إِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا يَجِدُ إِلَّا إِلَهَ رَبِّكَ﴾ يريد: جدالاً باطلاً، لأن الجدال فيها يقع من المؤمنين لكن في إثباتها وشرحها، وقوله تعالى: ﴿لَا يَغْرُوكَ﴾ أنزله منزلة: ﴿فَلَا يَخْزَنُكَ وَلَا يَهْمُكَ﴾ لتدل الآية على

أنهم ينبغي ألا يخشوا بإملاء الله تعالى لهم، فالخطاب له والإشارة إلى من يقع منه اغترار، ويحتمل أن يكون ﴿يَغْرُوكَ﴾ بمعنى: تظن أن وراء تقلبهم وإمهالهم خيراً لهم، فتقول: عسى ألا يُعَذِّبُوا. وحل الفعل من الإدغام لسكون الحرف الثاني، وحيث هما متحركان لا يجوز الحل، لا تقول: زيد يَغْرُوكَ. وتقلبهم في البلاد عبارة عن تمتعهم بالمساكن والمزارع والأسفار وغير ذلك.

ثم مثل لهم بمن تقدمهم من الأمم، أي: كما حلّ بأولئك كذلك ينزل بهؤلاء. و﴿الْأَحْرَابَ﴾ يريد بهم عاداً وثموداً وأهل مدين وغيرهم، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿بِرَسُولِهَا﴾ رداً على «الأمّة»، وضمير الجماعة هو على معنى الآية

رَبَّنَا وَأَدْجَلَهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَعْلَمُ الْغُورِ ۝٦ وَالْحَكِيمُ ۝٧ وَفَهُمُ السَّعْيَاتِ وَمَنْ تَقَى السَّعْيَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ۝٨ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَسَاءُ دُورٍ لَمَفَتْ اللَّهُ أَكْرَمِينَ مَقْتِكُمْ أَنْفُسِكُمْ إِذْ نَدَعَوْكُمْ إِلَى الْإِيمَانِ فَتَكْفُرُونَ ۝٩ قَالُوا رَبَّنَا آمَنَّا آتَيْنَاكَ التَّائِبِينَ فَأَعْرَضْنَا بِدُورِنَا فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ ۝١٠ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكَ بِهِ كُفِرْتُمْ فَالْحَكِيمُ ۝١١ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ ۝١٢ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ۝١٣ فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ۝١٤ رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْزِلَ رِزْقَهُ الْفَلَاكِي ۝١٥ يَوْمَ هُمْ بَرْهَقُونَ بِحِجَابٍ عَلَىٰ أَعْيُنِهِمْ فَشَىٰ لَمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۝١٦

فقال: نعم، اعمل ولا تياس، ثم تلا هذه الآية إلى قوله تعالى: ﴿وَقَابِلِ الْتَوْبِ﴾. [و «شديد العقاب» صفة، وقيل: بدل].

ثم عقب تعالى هذا الوعيد بوعد ثان في قوله سبحانه: ﴿ذِي الطَّوْلِ﴾ أي: ذي الطؤل والمن بكلّ نعمة، فلا خير إلا منه، فترتب في الآية وعيد بين وعدين، وهكذا رحمة الله تعالى تغلب غضبه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: سمعت هذه النزعة من أبي رضي الله عنه، وهي نحو من قول عمر رضي الله عنه: «لن يغلب عسر يُسرّين»، يريد قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝١٦ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝١٧﴾. و«الطؤل»: الإنعام، ومنه «ما حليت بطائل» وحكى الشعبي عن أهل الإشارة أنه تعالى غافر الذنب فضلاً،

مَسْئُولًا ﴿١٠﴾، أي: سألته الملائكة،
وفسّر تعالى في هذه الآية المُجْمَلُ
الذي في قوله تعالى في غير هذه
الآية: ﴿وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾،
لأنه معلوم أن الملائكة لا يستغفرون
لكافر، وقد يجوز أن يقال: معنى
ذلك أنهم يستغفرون للكفار بمعنى
طلب هدايتهم والمغفرة لهم بعد
ذلك، وعلى هذا النحو هو استغفار
إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه،
واستغفار رسول الله ﷺ للمنافقين،
وبلغني أن رجلاً قال لبعض
الصالحين: ادْعُ لي واستغفر لي،
فقال له: تَبُّ وَأُتِيعَ سِبْلِي يستغفر
لك من هو خير مني، وتلا هذه
الآية. وقال مطرف بن الشخير:
وجدنا أنصح العباد للعباد الملائكة،
وأغش العباد للعباد الشياطين، وتلا
هذه الآية، وروى جابر بن عبدالله أن
النبي ﷺ قال: «إِذْ لِي رُبِّي أَنْ
أَحْدَثَ عَنْ مَلَكٍ مِنْ حَمَلَةِ الْعَرْشِ
بَيْنَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ وَعَاتِقِهِ مَسِيرَةَ
خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ. وَقَرَأَتْ فِرْقَةٌ:
﴿الْعَرْشُ﴾ بضم العين، والجمهور
على فتحها.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ
شَيْءٍ وَرَحْمَةٌ وَعِلْمًا﴾. نصب
﴿رَحْمَتٌ﴾ على التمييز، وفيه حذف
تقديره: يقولون، ومعناه: وَسِعَتْ
رَحْمَتُكَ وَعِلْمُكَ كُلَّ شَيْءٍ، وهذا
نحو قولهم: «تَفَقَّاتُ شَحْمًا»،
وتصيّبت عرقاً، وطبت نفساً.
«وسبيل الله المُتَّبَعَةُ» هي الشرائع.

وقرأ جمهور الناس: ﴿جَنَّتْ عَدْنٌ﴾
على جمع الجنّات، وقرأ الأعمش -
في رواية المفضل -: ﴿جِنَّةٌ عَدْنٌ﴾

على الأفراد، وكذلك هو في
مصحف ابن مسعود رضي الله عنه،
و«العَدْنُ»: الإقامة.

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ مَلَاحَ مِنْ آيَاتِهِمْ
وَأَذْرَجِهِمْ وَذُرِّيَّتِهِمْ﴾. رُوِيَ عَنِ
سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه
في تفسير ذلك أن الرجل يدخل
الجنة قبل قربته، فيقول: أين أبي؟
أين أمي؟ أين زوجتي؟ فيلحقون به
لصلاحتهم، ولتنبهيه عليهم وطلبه
إياهم، وهذه دعوة الملائكة، وقرأ
عيسى بن عمر: ﴿وَذُرِّيَّتَهُمْ﴾
بالأفراد.

وقوله تعالى: ﴿وَرِيهِمْ﴾ أصله:
أَوْزِهِمْ، حذف الواو إتباعاً لحذفها
في المستقبل، واستغني عن ألف
الوصل لتحرك القاف، ومعناه:
اجعل لهم وقاية تقيهم السيئات،
واللفظ يحتمل أن يكون الدعاء في
أن يدفع الله عنهم نفس السيئات
حتى لا ينالهم عذاب من أجلها،
ويحتمل أن يكون الدعاء في رفع
العذاب اللاحق من السيئات، فيكون
في اللفظ - على هذا - حذف
مضاف، كأنه قال: وَرِيهِمْ جزء
السيئات.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
أخبر الله تعالى بحال الكفرة،
وجعل ذلك عقب حال المؤمنين
ليتبين الفرق، وروي أن هذه الحال
تكون للكفار عند دخولهم النار؛
فإنهم إذا أدخلوا فيها مقتوا أنفسهم،
أي: مَقَّتْ بعضهم بعضاً، ويحتمل
أن يمقت كل واحد نفسه، فإن
العبارة تحتل المعنيين، و«المَقَّتْ»
هو احتقارٌ ويُبْغِضُ عن ذنب وريبة،

هذا حده، وإذا مقت الكفار أنفسهم
نادتهم ملائكة العذاب - على جهة
التوبيخ - فيقولون لهم: مَقَّتْ اللهُ
إِيَّاكُمْ فِي الدُّنْيَا - إذ كنتم تُدْعَوْنَ إِلَى
الإيمان فتكفرون - أكثر من مقتكم
أنفسكم اليوم، هذا هو معنى الآية،
وبه فسّر مجاهد، وقتادة، وابن زيد.
وأضاف تعالى المصدر إلى الفاعل
في قوله سبحانه: ﴿لَمَقَّتْ اللهُ﴾
والمفعول محذوف لأن القول
يقتضيه. واللام في قوله تعالى:
﴿لَمَقَّتْ﴾ يحتمل أن تكون لام
الابتداء أو لام القسم، وهو أصوب.
و«أَكْرَدُ» خبر الابتداء. والعامل في
﴿إِذْ﴾ فعل مضمر تقديره: «مَقَّتْكُمْ
إِذْ»، وقدره قوم: «اذكروا إذْ»،
وذلك ضعيف يحل ربط الكلام،
اللهم إلا أن يُقَدَّرَ أن مَقَّتْ اللهُ لهم
هو في الآخرة، وأنه أكبر من مقتهم
أنفسهم، فيصح أن يُقَدَّرَ المضمر:
«اذكروا»، ولا يجوز أن يعمل فيه
قوله تعالى: ﴿لَمَقَّتْ﴾ لأن خبر
الابتداء قد حال بين «المَقَّتِ» وبين
﴿إِذْ﴾، إذ هي في صِلَتِهِ، ولا يجوز
ذلك.

واختلف المفسرون في معنى
قولهم: ﴿رَبَّنَا أَمَّا أَتَيْنَ﴾ - فقال ابن
عباس رضي الله عنهما، وقتادة،
والضحّاك، وابن مالك: أرادوا
بموتهم كونهم ماء في الأصلاب، ثم
إحياءهم في الدنيا، ثم إمامتهم
الموت المعروف، ثم إحياءهم يوم
القيامة، فالواو هي كالتي في سورة
البقرة ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ
أَمْوَنًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ
يُحْيِيكُمْ﴾، وقال ابن زيد: أرادوا أنه

لطلبتكم، أو نحو هذا من الرّد والزجر.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُمْ﴾ يحتمل أن يكون إشارة إلى مقتهم أنفسهم، ويحتمل أن يكون إشارة إلى العذاب الذي هم فيه، أو إلى المنع والزجر والإهانة التي قلت إنها مقدرة محذوفة الذكر للدلالة ظاهر القول عليها، ويحتمل أن تكون إشارة إلى مقت الله تعالى إياهم، ويحتمل أن تكون المخاطبة بـ ﴿ذَلِكُمْ﴾ لمعاصري محمد ﷺ في الدنيا، ويحتمل أن تكون للكفار عامة. وقوله تعالى: ﴿إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحَدَّمَهُ﴾ معناه: بحالة توحيد ونفي لما سواه من الآلهة والأنداد. وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَشْرِكْ بِهِ تَوْمَانُ﴾ أي: إذا ذكرت اللات والعزى وغيرهما صدقتم واستقرت نفوسكم، والحكم اليوم بعذابكم وتخليدكم في النار لا لتلك التي كنتم تشركونها معه في الألوهية، و«العلويّ الكبير» صفتا مدح لا في المكان ومضادة السفلى والصغر.

﴿١٣﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء مخاطبة في معنى توحيد الله تعالى وتبيين علامات ذلك. وآيات الله تَعَمُّ آيات قدرته وآيات قرآنيّه والمعجزات الظاهرة على أيدي رسله، وتنزيل الرزق هو في تنزيل المطر وفي تنزيل القضاء والحكم يتبل ما يناله المرء في تجارة وغير ذلك. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُنزَلُ﴾ بالتخفيف، وقرأ الحسن، والأعرج، وعيسى وجماعة بالتشديد. وقوله تعالى: ﴿وَمَا

أمانهم حقيقة، ثم أحياهم في البعث.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والخلاف في هذه الآية مقول كله في آية سورة البقرة، وهذه الآية يظهر منها أن معناها منقطع من معنى قوله تعالى: ﴿إِذْ دُعَوْتُ إِلَى الْإِيمَانِ فَكَفَرْتُمْ﴾، وليس الأمر كذلك، بل الآيتان متصّلتا المعنى، وذلك أن كفرهم في الدنيا كان أيضاً بإنكارهم البعث، واعتقادهم أنه لا حشر ولا عذاب، ومقتهم لأنفسهم إنما عظمه لأن هذا

المعتقد كذبهم، فلما تقرر مقتهم لأنفسهم ورأوا خزيّاً طويلاً عريضاً رجعوا إلى المعنى الذي كان كفرهم به وهو البعث، وخرج إلى الوجود مقترناً بعذابهم، فأقرّوا به على أتمّ وجهه، أي: كنا قد كفرنا بإنكارنا البعث، ونحن اليوم نقر أنك أحييتنا اثنتين وأمتنا اثنتين، كأنهم قصدوا تعظيم قدرته سبحانه وتعالى، واسترضاءه بذلك، ثم قالوا عقب ذلك الإقرار طمعاً منهم: فما نحن معترفون بذنوبنا، فهل إلى خروج من سبيل؟ وهذا كما تكلف إنساناً أن يقرّ لك بحق وهو ينكر، فإذا رأى الغلبة وضرع أقرّ بذلك الأمر مُتَمَمّاً أوفى مما كنت تطلبه به أولاً، وفيما بعد قولهم: ﴿فَهَلْ إِلَى خُرُوجٍ مِنْ سَبِيلٍ﴾، محذوف من الكلام يدل عليه الظاهر، تقديره: لا إسعاف

الْحَمْدُ لِلَّهِ
الْيَوْمَ نَجْزِي كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٣﴾ وَيَذَرُهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَظِيمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَسِيرٍ وَلَا شَفِيعَ يُطَاعُ ﴿١٤﴾ يَعْلَمُ عَائِنَةُ الْعَيْنِ وَمَا تَخْفَى الصُّدُورُ ﴿١٥﴾ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئاً وَإِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١٦﴾ أَوْلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدُّ رَهْمَةً قُوَّةً وَءَانَارًا فِي الْأَرْضِ فَأَخَذْتُمُ اللَّهُ يَدِيهِمْ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَكَفَرُوا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ إِنَّهُ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٨﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿١٩﴾ إِيكَ فَرَعَوْنَ وَهَدَنَّا وَقُرُونِ فَقَالُوا اسْجُرْكَ دَابَّ ﴿٢٠﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٢١﴾

أحياهم نسماً عند أخذ العهد عليهم وقت أخذهم من صلب آدم عليه السلام، ثم أمانتهم بعد ذلك، ثم أحياهم في الدنيا، ثم أمانتهم ثم أحياهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول ضعيف لأن الإحياء فيه ثلاث مرات.

وقال السدي: أرادوا أنه أحياهم في الدنيا ثم أمانتهم، ثم أحياهم في القبور وقت سؤال منكر ونكير ثم أمانتهم فيه، ثم أحياهم في الحشر. وهذا أيضاً يدخله الاعتراض الذي في القول قبله، والأول أثبت الأقوال.

وقال محمد بن كعب القرظي: أرادوا أن الكافر في الدنيا هو حيّ الجسد ميت القلب، فكأن حالهم في الدنيا جمعت إحياء وإماتة، ثم

يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ ﴿١٣﴾ معناه: وما يتذكر تذكراً يُعْتَد به وينفع صاحبه؛ لأننا نجد من لا يُنِيب يتذكر لكن لما كان ذلك غير نافع عُدَّ كأنه لم يكن.

وقوله تعالى: ﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ﴾ مخاطبة للمؤمنين أصحاب محمد ﷺ، و﴿ادْعُوا﴾ معناه: اعبدوا.

وقوله تعالى: ﴿رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ﴾ يحتمل أن يريد بالدرجات صفاته العُلَى، وغير تعالى بما يقرب لأفهام السامعين، ويحتمل أن يريد: رفيع الدرجات التي يعطيها للمؤمنين، ويفضل بها على عباده المخلصين في جنته. و﴿العَرْشُ﴾ هو الجسم المخلوق الأعظم الذي السموات السبع والأرضون فيه كالدنانير في الفلاة من الأرض.

وقوله تعالى: ﴿يَلْتَمَى الرُّوحُ﴾. قال الضحاك: الروح هنا هو الوحي والقرآن وغيره مما لم يُثَل، وقال قتادة والسدي: الروح الثبوتية ومكانتها، كما قال: ﴿رُوحًا يَنْ أَمْرًا﴾، وسمى هذا روحاً لأنه يُحيي به الأمم والأزمان كما يُحيي الجسد بروحه، ويحتمل أن يكون إلقاء الروح عامماً لكل ما ينعم الله تعالى به على عباده المهتدين في تفهيمه الإيمان والمعقولات الشرعية. والمقدر - على هذا التأويل - هو الله تعالى. وقال الزجاج: الروح كل ما به حياة الناس، وكل مهتد حي، وكل ضال كالमित. وقوله تعالى: ﴿مَنْ آمَرَ﴾، إن جعلت جنساً للأمر ف﴿مَنْ﴾ للتبعية، أو لابتداء

الغاية، وإن جعلنا الأمر من معنى الكلام ف﴿مَنْ﴾ إمَّا لابتداء الغاية، وإمَّا بمعنى الباء، ولا تكون للتبعية بته.

وقرأ أبي بن كعب وجماعة: ﴿لِيُنذِرَ﴾ بالياء وكسر الذال، وفي الفعل ضمير يحتمل أن يعود على الله تعالى، أو على الروح، أو على ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِي﴾، وقرأ محمد بن السميع اليماني: ﴿لِيُنذِرَ﴾ بالياء وفتح الذال وضم الميم من ﴿يَوْمَ﴾، وجعل اليوم منذراً على الاتساع، وقرأ جمهور الناس: ﴿لِيُنذِرَ﴾ بالياء على المخاطبة لمحمد ﷺ، و﴿يَوْمَ﴾ بالنصب، وقرأ أبو عمرو، ونافع، وجماعة: ﴿الْآلَاءِ﴾ بدون ياء، وقرأ أبو عمرو أيضاً، وعيسى، ويعقوب: ﴿الْآلَاءِ﴾ بالياء، والخلاف فيها كالخلاف الذي مر في ﴿يَوْمَ الْآلَاءِ﴾، ومعناه: تلاقي جميع العالم بعضهم ببعض، وذلك أمر لم يتفق قط قبل ذلك اليوم. وقال السدي: معناه: تلاقي أهل السماء والأرض، وقيل: معناه: تلاقي الناس مع بارئهم، وهذا المعنى الأخير هو أشدها تخويفاً، وقيل: يلتقي المرء وعمله.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ هُمْ بَرْزُورًا﴾ معناه: في براز من الأرض يُنْفَذُهُم البصر ويُسمعهم الداعي، ونُصِب ﴿يَوْمَ﴾ على البذل من الأول، فهو نصب المفعول، ويحتمل أن ينصب على الظرف ويكون العامل فيه قوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَى﴾ وهي حركة إعراب لا حركة بناء؛ لأن الظرف لا

يُنْبئ إلا إذا أُضيف إلى غير متمكن كيومئذ، وكقول الشاعر:

عَلَى حِينٍ عَابَتْهُ المِشِيبُ عَلَى الصَّبَا
وَقُلْتُ أَلَمَّا أَصْحُ وَالشَّيْبُ وَأَزْغُ؟
وكقوله تعالى: ﴿مَثَلُ يَوْمٍ يَنْفَعُ الصَّالِينَ صِدْقُهُمْ﴾، وأمَّا في هذه الآية فالحملة أَسَمٌ متمكن، كما تقول: ﴿جِئْتُ يَوْمَ زَيْدٍ أَمِيرًا﴾ فلا يجوز البناء، فتأمل.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ سِتْرُهُمْ شَيْءٌ﴾ أي: من بواطنهم وسرائرهم وذوات صدورهم، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ﴾ بضمير بدل المكتوبة.

وقوله تعالى: ﴿لَمَنِ المُلْكُ الْيَوْمَ﴾. زوي أن الله تعالى يُقَرِّر هذا التقرير ويسكت العالم هبةً وجزعاً، فيجيب هو نفسه: ﴿لِلَّهِ الزَّيْدُ الْقَهَّارِ﴾، قال الحسن: هو تعالى السائل وهو المجيب، وقال ابن مسعود: إنه تعالى يقرر فيجيب العالم بذلك، وقيل: يُنادي بالتقرير ملك فيجيب الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإذا تأمل المؤمن أنه لا حول لمخلوق ولا قوة إلا بالله، فالزمان كله وأيام الدهر أجمع إنما الملك فيها للواحد القهار، لكن ظهور ذلك للكفرة والجهلة يتضح يوم القيامة. وإذا تَوَمَّل تسخير أهل السموات وعبادتهم ونفوذ القضاء في الأرض فأبى ملك لغير الله؟

ثم يُعلم الله تبارك وتعالى أهل الموقف بأنه يوم المجازاة بالأعمال

وهذه كلها عندي اعتراض في الكلام بليغ.

وقوله تعالى: ﴿يَسْأَلُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ﴾ متصل بقوله: ﴿سَرِيحَ الْجَسَابِ﴾؛ لأن سرعة حسابه تعالى للخلق إنما هي بعلمه الذي لا يحتاج معه إلى رؤية وفكرة، ولا لشيء مما يحتاجه الحاسبون، وقالت فرقة: ﴿يَسْأَلُ﴾ متصلة بقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ يَتَّبِعُهُمْ تَتَىٰ﴾، وهذا قول حسن، يتوهم تناسب المعنيين، ويضعفه بُعد الآية من الآية وكثرة الحائل. والخائنة مصدر كالخيانة، ويحتمل في الآية أن تكون ﴿خَائِنَةٌ﴾ اسم فاعل، كما تقول: ناظرة الأعين، أي: يعلم الأعين إذا خانت في نظرها، وهذه الآية عبارة عن علم الله تعالى بجميع الخفيات، فمن ذلك كسر الجفون، والغمز بالعين، والنظرة التي تفهم معنى، أو يريد بها صاحبها معنى، ومن هذا قول النبي ﷺ حين جاءه عيذاب بن أبي سرح ليُسلم بعد رده بشفاعه عثمان رضي الله عنه، فتلكأ عليه رسول الله ﷺ ثم بايعه، ثم قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «هلا قام إليه رجل حين تلكأت فضرب عنقه؟» فقالوا: يا رسول الله، ألا أزمأت إيلينا، فقال عليه الصلاة والسلام: «ما ينبغي لنبى أن تكون له خائنة أعين»، وفي بعض الكتب المنزلة من قول الله عز وجل: «أنا مرصاد لهم»، أنا العالم بمجال الفكر وكسر الجفون، وقال مجاهد: خائنة الأعين: مسارقة النظر إلى ما لا يجوز.

ثم قوى الله تعالى هذا الإخبار بأنه

أن يكون تجوزاً عبّر به عما يجده الإنسان من الجزع وصعود نفسه وتضايق حنجرته بصعود القلب، وهذا كما تقول العرب: كادت نفسي أن تخرج، وهذا المعنى يجده المفزط الجزع كالذي يساق إلى القتل ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَظِيمٍ﴾ حال مما أبدل منه قوله تعالى: ﴿إِذْ أَلْقَوُا لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾، أو مما يضاف إليه ﴿أَلْقَوُا﴾؛ إذ المراد: إذ قلوب الناس لدى حناجرهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿تَنَحَّصَ فِيهِ الْأَبْصُرُ مَهْطِينَ﴾ أراد تعالى: تشخص فيه أبصارهم. و«الكَاظِمُ»: الذي يردُّ غيظه وجزعه في صدره.

فمعنى الآية أنهم يطعمون برد ما يجدونه في الحناجر والحال تغالبهم، ثم أخبر تعالى أن الظالمين ظلم الكفرهم في تلك الحال ليس لهم حميم، أي: قريب يهتم لهم ويتعصب، ولا لهم شفيع يُطاع فيهم، وإن هم بعضهم بالشفاعة لبعض فهي شفاعة لا تُقبل، ويروى أن بعض الكفرة يقولون لإبليس يوم القيامة: اشفع لنا، فيقوم ليشفع فتبدو منه أتنن ريح يؤذي بها أهل المحشر، ثم ينحصر ويكبح ويخزي. و﴿يُطَاعُ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿شَفِيعٌ﴾؛ لأن التقدير: ولا شفيع مطاع، وموضع ﴿يُطَاعُ﴾ يحتمل أن يكون خفصاً حملاً على اللفظ، ويحتمل أن يكون رفعاً عطفاً على الموضع قبل دخول ﴿وَمِنْ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

صالحها وسيئها، وهذه الآية نص في أن الشواب والعقاب على اكتساب العبد، وأنه يوم لا يوضع فيه أمر في غير موضعه، وذلك قوله تعالى: ﴿لَا تُلَمُّ أَلْيَوْمَ﴾. ثم أخبرهم عن نفسه بسرعة الحساب، وتلك عبارة عن إحاطته بالأشياء علماً، فهو يحاسب الخلائق في ساعة واحدة كما يرزقهم؛ لأنه لا يحتاج إلى عدّ وفكر، وروى أن يوم القيامة لا ينتصف حتى يقبل المؤمنون في الجنة والكافرون في النار.

﴿٧٨﴾ - ﴿٧٩﴾ تفسير قوله عز وجل: أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالإنذار للعالم والتحذير من يوم القيامة وأهواله، وهو الذي أراد بـ «يوم الآزفة»، قاله مجاهد، وابن زيد، وقتادة، ومعنى ﴿الْآزَفَةُ﴾: القريبة، من أزف الشيء إذا قرّب، والآزفة في الآية صفة لمحذوف قد علم واستقر في النفوس هوله، فعبر عنه بالقرب تخويفاً، والتقدير: يوم الساعة الآزفة، أو الطامة الآزفة، ونحو هذا، فكما لو قال: «وأندهم الساعة» لتعلم هولها بما استقر في النفوس من أمرها، فكذلك علم هنا إذا جاء بصفتها التي تقتضي حلولها واقترابها.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ أَلْقَوُا لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾ معناه: عند الحناجر، قد صعدت من شدة الهول والجزع، وهذا أمر يحتمل أن يكون حقيقة يوم القيامة من انتقال قلوب البشر إلى حناجرهم وتبقى حياتهم، بخلاف الدنيا التي لا تبقى لأحد فيها حياة مع تنقل قلبه، ويحتمل

وعُظِّمها والذي عرضه على جهة التحدي: العصا واليد، فوقعت المعارضة في العصا وحدها، ثم انفصلت القضية عن إيمان السحرة وغلبة الكافرين. «والسلطان»:

البُزْهَانُ، وقرأ عيسى بن عمر: «سُلْطَانٍ» بضم اللام، والناسُ على سكنونها. وخصَّ تعالى هامان وقارون بالذكر تنبيهاً على مكانهما من الكفر، ولكونهما أشهر رجال فرعون، وقيل: إن قارون هذا ليس بقارون بني إسرائيل، وقيل: هو ذلك ولكنه كان منقطعاً إلى فرعون خادماً له مستعيناً معه. وقوله: «سَجْرٍ» أي: في أمر العصا، «كذَّابٍ» في قوله: إني رسول من الله.

ثم أخبر عنهم أنهم لما جاءهم موسى عليه السلام بالنبوة والحق من عند الله قال هؤلاء الثلاثة وأجمع رأيهم على أن يُقتل أبناء بني إسرائيل أتباع موسى عليه السلام وشبَّانهم وأهل القوة منهم، وأن تُستحى النساء للخدمة والاسترقاق، وهذا رجوع منهم إلى نحو القتل الأول الذي كان قبل ميلاد موسى عليه السلام، ولكن هذا الأخير لم يتم لهم عزيمتهم فيه، ولا أعانهم الله تعالى على شيء منه، وقال قتادة: هذا قتل غير الأول الذي كان حذر المولود، وسموا من ذكرنا من بني إسرائيل أبناءً كما تقول لأفخاذ القبيلة أو المدينة وأهل الظهور فيها: هؤلاء أبناء فلانة.

وقوله تعالى: «وَمَا كَيْدُ

كَانَ عَاقِبَةً» خبر «كَانَ» مقدم، وفي «كَيْفَ» ضمير، وهذا على أن تكون «كَانَ» ناقصة، وأما إن جعلناها تامة بمعنى حَدَثَ وَوَقَعَ فـ «كَيْفَ» ظرف لمغنى لا ضمير فيه.

وقرأ ابن عامر وحده: «أَشْدُّ مِنْكُمْ» بالكاف، وكذلك هي في مصاحف أهل الشام، وذلك على الخروج من غيبة إلى الخطاب، وقرأ الباقون: «أَشْدُّ مِنْهُمْ»، وكذلك هي في سائر المصاحف، وذلك أوفق لتناسب ذكر الغائب، والآثار في الأرض هي المباني والمآثر والصبية الدنيوي. و«ذنوبهم» كانت تكذيب الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، و«الواقى»: السائر المانع، مأخوذ من الوقاية.

١٦٣٣ - تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: «ذَلِكَ» إشارة إلى أخذه إياهم بذنوبهم وإن لم يكن لهم منه واق، ثم ذكر تعالى أن السبب في إهلاكهم هو ما قريش عليه من أن جاءهم رسول من الله ببينات من المعجزات والبراهين فكفروا به، وذكر أن الله تعالى أخذهم، ووصف نفسه بالقوة وشدة العقاب، وهذا كله بيان في وعيد قريش.

ثم ابتدأ تبارك وتعالى قصة موسى عليه السلام مع فرعون ومَلَيْئِهِ، وهي قصة فيها للنبي ﷺ تسلية وأسوة، وفيها لقريش والكفار به وعيد ومثال يخافون منه أن يحل بهم ما حل بأولئك من النعمة، وفيها للمؤمنين وعد ورجاء بالنصر والظفر وحمد عاقبة الصبر. وآيات موسى كثيرة،

يعلم ما تخفي الصدور، مما لم يظهر على عين ولا غيرها، ومثل المفسرون في هذه الآية بنظر الرجل إلى امرأة هي حرمة لغيره فقالوا: خائنة الأعين هي النظرة الثانية، وما تخفي الصدور، أي: عند النظر الأولى التي لا يمكن المرء دفعها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا المثال جزء من خائنة الأعين.

ثم قدح تعالى في جهة الأصنام، فأعلم أنه لا ربَّ غيره، يقضي بالحق، أي: يُجازي الحسنة بعشر والسيئة بمثلها، وينصف المظلوم من الظالم، إلى غير ذلك من أقضية الحق والعدل، والأصنام لا تقضي شيئاً ولا تنفذ أمراً. و«يَدْعُونَ» معناه: يعبدون، وقرأ جمهور القراء: «يَدْعُونَ» بالياء على ذكر الغائب، وقرأ نافع - بخلاف عنه - وأبو جعفر، وشيبة: «تَدْعُونَ» بالتاء، على معنى: قل لهم يا محمد: والذين تدعون أنتم. ثم ذكر تعالى لنفسه صفتين بَيِّنٌ عُرْوُ الأصنام عنهما، وهي في جهة الله تعالى عبارة عن الإدراك على إطلاقه.

ثم أحال كفار قريش - وهم أصحاب الضمير في «يَسِيرُوا» - على الاعتبار بالأمم القديمة التي كذبت أنبياءها فأهلكها الله تعالى، وقوله تعالى: «يَسْتَنْزِرُوا» يحتمل أن يجعل في موضع نصب جواب الاستفهام، ويحتمل أن يكون مجزوماً عطفاً على «يَسِيرُوا»، و«كَيْفَ» في قوله تعالى: «كَيْفَ

وابن وثاب، وروي عن الأعمش أنه قرأ: ﴿وَيُظْهِرُ﴾ برفع الراء، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَيُظْهِرُ﴾ بفتح الباء.

ولما سمع موسى عليه السلام مقالة فرعون - لأنه كان معه في مجلس واحد - دعا ربه تعالى وقال: ﴿إِنِّي عَدْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ﴾ الآية، وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر: ﴿عَدْتُ﴾ ببيان الذال، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿هُدْتُ﴾ بالإدغام، واختلف عن نافع، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿عُدْتُ﴾ على الإدغام في الخط.

ثم حكى الله تعالى مقالة رجل مؤمن من آل فرعون، وشرفه بالذكور، وخلد ثنائه في الأمم، سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: سمعت أبا الفضل الجوهري على المنبر يقول - وقد سئل أن يتكلم في شيء من فضائل الصحابة رضي الله تعالى عنهم - فأطرق قليلاً ثم رفع رأسه وقال:

عَنِ الْفِرْعَوْنِ لَا تَسْأَلُ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمَقَارِنِ يَفْتَدِي
ماذا تريدون من قوم قرنهم الله تعالى بنبئه ﷺ، وخصهم بمشاهدته وتلقي الوحي منه؟ وقد أتى الله عز وجل على رجل مؤمن من آل فرعون يكتفئ إيمانه، فجعله الله تعالى في كتابه وأثبته في المصاحف لكلامه في مجلس من مجالس الكفر، وأين هو من عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ جرّد سيفه بمكة وقال: والله لا أعبد الله سراً بعد اليوم؟

لفرعون أكبر من مساترته، وحكمه بنبوة موسى عليه السلام أظهر من توريته في أمره، وأما فرعون فإنما لجأ إلى المخارقة والاضطراب والتعاطي، ومن ذلك قوله: ﴿دَرَوِي أَقْتَلَ مُوسَى وَلِدْعُ رَبِّهِ﴾، أي: إني لا أبالي عن رب موسى، ثم رجع إلى قومه يريهم النصيحة والحماية لهم فقال: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾، والدين: السلطان، ومنه قول زهير:

لَيْتَن حَلَلْتُ بِجَوْ فِي بَنِي أَسَدٍ
فِي دِينِ عَمْرٍو وَحَالَتْ بَيْنَنَا فَدَكُ
وقرأ ابن عامر، وابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: ﴿وَأَنْ﴾، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَزْ أَنْ﴾ ورجحها أبو عبيدة بزيادة الحرف، فعلى الأولى خاف أمرين، وعلى الثانية خاف أحد أمرين، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، والحسن، وقناة، والجحدري، وأبو رجاء، ومجاهد، وسعيد بن المسيب، ومالك بن أنس: ﴿يُظْهِرُ﴾ بضم الباء وكسر الهاء ﴿أَلْفَسَادُ﴾ نضياً، وقرأ ابن كثير، وابن عامر: ﴿يُظْهِرُ﴾ بفتح الباء والهاء ﴿أَلْفَسَادُ﴾ بالرفع على إسناد الفعل إليه، وهي قراءة حمزة، والكسائي، وأبي بكر عن عاصم، والأعرج، وعيسى، والأعمش،

وَقَالَ فِرْعَوْنُ دَرَوِي أَقْتَلَ مُوسَى وَلِدْعُ رَبِّي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿٢٦﴾
وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿٢٧﴾ وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَذِبًا فَلَعَلَّكُمْ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٢٨﴾ يَقُولُ لَكُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ عَنْ تُحْرُفَاتِكُمْ وَإِنَّ أَوْسَطَ قَوْمِكُمْ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَعْلَمُونَ كَلِمَاتِ اللَّهِ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا إِنَّهُمْ قَوْمُ الْحُكْمِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ فَقُلْنَا لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ فَقُلْتُ لِيُحَدِّثَكَ عَلَيْكُمْ ضَرْبًا مِمَّنْ يَبْدُو ظَاهِرًا عَلَى عَقولِكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا الْإِسْبَاطُ بِالْحَقِّ وَالْإِسْبَاطُ الْحَقُّ ﴿٣٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْنَا الْكِتَابُ فَقُلْنَا لَوْلَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ فَقُلْتُ لِيُحَدِّثَكَ عَلَيْكُمْ ضَرْبًا مِمَّنْ يَبْدُو ظَاهِرًا عَلَى عَقولِكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ إِلَّا الْإِسْبَاطُ بِالْحَقِّ وَالْإِسْبَاطُ الْحَقُّ ﴿٣١﴾

الْكُفْرِينَ إِلَّا فِي صُكُلٍ عِبَارَةٌ وجيزة تعطي قوتها أن هؤلاء الثلاثة لم يقدرهم الله تعالى على قتل أحد من بني إسرائيل، ولا نجحت لهم سعاية فيهم، بل أصل الله سبحانه وكيدهم.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الظاهر من أمر فرعون أنه لما بهرت آيات موسى عليه السلام انهبط ركنه، واضطربت معتقدات أصحابه، ولم يفقد منهم من يجاذبه الخلاف في أمره، وذلك بين من غير ما موضع من قصتهما، وفي هذه الآية على ذلك دليلان: أحدهما قوله: ﴿دَرَوِي أَقْتَلَ مُوسَى﴾، فليست هذه من ألفاظ الجبابة المتمكنين من إنفاذ أوامرهم، والدليل الثاني مقالة المؤمن وما صدع به، وأن مكاشفته

وقرأت فرقة: ﴿رَجُلٌ﴾ بسكون الجيم كعَضُدٌ وَعَضُدٌ، وَسَبْعٌ وَسَبْعٌ، وقرأ الجمهور: ﴿رَجُلٌ﴾ بضم الجيم.

واختلف الناس في هذا الرجل - فقال السدي وغيره: كان من آل فرعون، وكان يكتنم إيمانه، فـ ﴿يَكْتَنُرُ﴾ - على هذا - في موضع الصفة دون تقديم ولا تأخير، وقال مقاتل: كان ابن عم فرعون، وقالت فرقة: لم يكن من أهل فرعون بل من بني إسرائيل، وإنما المعنى: وقال رجل مؤمن يكتنم إيمانه من آل فرعون، ففي الكلام تقديم وتأخير. والأول أصح، ولم يكن لأحد من بني إسرائيل أن يتكلم بمثل هذا عند فرعون، ويحتمل أن يكون من غير القبط ويقال فيه: من آل فرعون إذ كان في الظاهر على دين فرعون ومن أتباعه، وهذا كما قال أراكة الثقفي يرثي أخاه ويتعزى برسول الله ﷺ:

فَلَا تَبْكُ مَيْتًا بَعْدَ مَيْتِ أَجْنَهُ
عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَأَلُّ أَبِي بَكْرٍ

يعني المسلمين إذ كانوا في طاعة أبي بكر رضي الله عنه. وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَقُولَ﴾ مفعول من أجله، أي: لأجل أن يقول: وجُلِحَ معهم هذا المؤمن في هذه المقالات، ثم غالطهم بغد في أن جعله في احتمال الصدق والكذب، وأراهم أنها نصيحة. وحذفت النون من ﴿يَكُ﴾ تخفيفاً على ما قال سيويه، وتشبيهاً بالنون في ﴿يفعلون﴾ ويفعلان على مذهب المبرد، وتشبيهاً بحرفي العلة - الباء والواو - على مذهب أبي علي الفارسي، وقال: كأن الجازم دخل على «يكن»

وهي مجزومة بعد فأشبهت النون الباء من «يقضي» والواو من «يدعو» لأن حقاها على اللسان سواء.

واختلف المتأولون في قوله: ﴿يُصِيبُكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾ - فقال أبو عبيدة وغيره: ﴿بَعْضُ﴾ بمعنى «كُلُّ»، وأنشدوا قول القطامي عَمِيرَ بْنَ شَيْمٍ:

قَدْ يُدْرِكُ الْمُتَأَنِّي بَعْضَ حَاجَتِهِ
وَقَدْ يَكُونُ مَعَ الْمُسْتَعْجِلِ الرُّكُلُ

وقال الزجاج: هو إلزام الحجة بأيسر ما في الأمر، وليس فيه نفي إصابة الكل، وقالت فرقة: أراد: يصيبكم بعض العذاب الذي يُذَكِّرُ، وذلك كاف في هلاككم، ويظهر لي أن المعنى: يصيبكم القسم الواحد مما يعد به، وذلك هو بعض ما يعد؛ لأنه عليه السلام كان وعدهم إن آمنوا بالنعيم، وإن كفروا بالعذاب، فإن كان صادقاً فالعذاب بعض ما وعده به، وقالت فرقة: أراد ببعض ما يعدكم: عذاب الدنيا لأنه بعض عذاب الآخرة، أي: وتصيرون بعد ذلك إلى الباقي، وفي البعض كفاية في الإهلاك.

ثم وعظهم هذا المؤمن بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ﴾، قال السدي: مُسْرِفٌ بالقتل، وقال قتادة: بالكفر.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قول هذا المؤمن: ﴿يَقُولُ لَكُمْ أَلْمَلِكُ أَلْيَوْمَ ظَهَرِينَ فِي الْأَرْضِ﴾ استنزال لهم ووعظ من جهة شهواتهم، وتحذير من زوال ترفهم، ونصيحة لهم في أمر دنياهم، وقوله: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يريد أرض مصر وما والاها من مملكتهم.

ثم قررهم على من هو الناصر لهم من بأس الله تعالى، وهذه الأقوال تقتضي زوال هيبة فرعون، ولذلك استكان هو ورجع يقول: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى﴾ كما يقول من لا تحكّم له. وقوله: ﴿أُرِيكُمْ﴾ من رأى، وقد عُدِّي بالهمزة، فللفعل مفعولان: أحدهما الضمير في ﴿أُرِيكُمْ﴾، والآخر ما في قوله: ﴿إِلَّا مَا أَرَى﴾، وكان الكلام: «أرأيكم ما أرى»، ثم أدخل في صدر الكلام (ما) النافية وقلب معناها بـ (إِلَّا) الموجبة تخصيصاً وتأكيذاً للأمر، كما تقول: «قام زيد»، فإذا قلت: «ما قام إلا زيد» فقد أفذت تخصيصه وتأيد أمره، و (أرى) متعدية إلى مفعول واحد، وهو الضمير الذي فيه، العائد على (ما)، تقديره: إلا ما أراه، وحذفت هذا المفعول من الصلة حسن طول الصلة.

وقرأ الجمهور: ﴿الرَّشَادِ﴾ مصدر (رشد)، وفي قراءة معاذ بن جبل رضي الله عنه: ﴿سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ بشد الشين، قال أبو الفتح: وهو اسم فاعل في بَيِّنَتِهِ مبالغة، وهو من الفعل الثلاثي (رَشَدَ)، فهو كَعَبَادٍ من عَبَدَ، وقال النحاس: هو وهم، وترومه من الفعل الرباعي. وقوله رحمه الله مردود، قال أبو حاتم: كان معاذ بن جبل يفسرها: سبيل الله، ويبعد عندي هذا على معاذ رضي الله عنه، وهل كان فرعون يدعي إلا أنه إله؟ ويقلق بناء اللفظة على هذا التأويل.

واختلف الناس في المراد بقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي آمَنَ﴾ - فقال الجمهور: هو المؤمن المذكور أولاً،

﴿التَّنَادِي﴾ بالياء في الوصل والوقف، وهذا على الأصل، وقرأ الباقون: ﴿التَّنَادِي﴾ بغير ياءٍ فيهما، وروي ذلك عن نافع، وابن كثير، وحذفت الياء مع الألف واللام حملاً على حذفها مع معاقبها وهو التنوين، وقال سيبويه: حذفت الياء تخفيفاً، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، والضحاك، وأبو صالح، والكلبى: ﴿التَّنَادِي﴾ بشدّ الدال، وهذا معنى آخر ليس من النداء، بل هو من البعير إذا هرب، وبهذا المعنى فسّر ابن عباس والسدي هذه الآية، وروت هذه الفرقة في هذا المعنى حديثاً أن الله تعالى إذا طوى السموات نزلت ملائكة كل سماء فكانت صفّاً بعد صف مستديرة بالأرض التي عليها الناس للحساب، فإذا رأى العالم هول القيامة وأخرجت جهنم عقناً إلى أهلها فرّ الكفار ونذّوا مدبرين إلى كل وجهة، فتردهم الملائكة إلى المحشر خائبين لا عاصم لهم، قالت هذه الفرقة: ومصدق هذا الحديث في كتاب الله تعالى قوله سبحانه: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً﴾، وقوله تعالى: ﴿يَتَنَفَّسُ الْإِنسَانُ وَالْإِنسَانُ إِذْ أَنْتَقَطَتْ أَن تَعُدُّوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ فَاتَّعَدُّوا لَا تُعَدُّونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُولَوْنَ مُدْبِرِينَ﴾ معناه على بعض الأقاويل في التنادي: تفرون هروباً من الفرع، وعلى بعضها: تفرون مُدْبِرِينَ إلى النار، والغاصم: المنجى.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: قدمنا الخلاف في هذه الأقوال

ظلم بعضهم لبعض، والبرهان وقوعه، ومحال أن يقع إلا ما يريد الله تعالى، وقوله: ﴿يَوْمَ التَّنَادِي﴾ معناه: ينادي قوم قوماً ويناديهم الآخرون.

واختلف المتأولون في التنادي المشار إليه - فقال قتادة: هو نداء أهل الجنة أهل النار: ﴿فَهَذَا وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقّاً﴾ الآية. ونداء أهل النار لهم: ﴿أَيُّسُوا عَلَيَّا مِنَ الْمَاءِ﴾ الآية، وقالت فرقة: بل هو النداء الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِأَسْمِيهِ﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هو التنادي الذي يكون بالناس عند النفخ في الصور نفخة الفرع في الدنيا، وأنهم يفرون على وجوههم للفرع الذي ينالهم، وينادي بعضهم بعضاً، وروي هذا التاويل عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ، ويحتمل أن يكون المراد التذكير بكل نداء في القيامة فيه مشقة على الكفار والعصاة ولها أجوبة بنداء، وهي كثيرة، منها ما ذكرناه، ومنها: يأهل النار خلوداً لا موت، يأهل الجنة خلوداً لا موت، ومنها نداء أهل الغدرات، والنداء ﴿لَمَعَتْ أَلْسِنُهُمْ﴾، والنداء ﴿لَمِنَ أَلْسِنِكُ الْيَوْمَ﴾، إلى غير ذلك.

وقرأت فرقة: ﴿التَّنَادِي﴾ بسكون الدال في الوصل، وهذا على إجرائهم الوصل مجرى الوقف في غير ما موضع، وقرأ نافع، وابن كثير:

وَلَقَدْ جَاءَكُمْ بُرْسُفٌ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَنَّكُمْ فَمَا زِلْتُمْ فِي سُلُوكِ مَسَاجِدِكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكْتُمْ فَكُنْتُمْ أَنْ تَبْعَكَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٍ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَةِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَنْتُمْ كَبُرْ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطَّعَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَهْمَنْ أَيْنَ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَنْتَلِعُ بِالسَّيْبَةِ ﴿٣٦﴾ أَسْبَبَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأُنَظَّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زَيْنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُكُمْ بِسَبِيلِ الرَّسُولِ ﴿٣٨﴾ يَتَقَوَّمُوا إِنَّمَا هَذَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا أَثْمَارَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرُوا يُؤْتَىٰ مِنْهُمُ أَجْرًا وَأَمْوَالُهُمْ وَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْوَوْنَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾

٤٧١

قضى الله تبارك وتعالى أقاويله إلى آخر الآيات، وقالت فرقة: بل كلام ذلك المؤمن قديم، وإنما أراد الله تعالى بالذي آمن موسى عليه السلام، واحتجت هذه الفرقة بقوة كلامه، وأنه جَلَّحَ معهم بالإيمان، وذكر عذاب الآخرة، وغير ذلك، ولم يكن كلام الأول إلا بملاينة لهم.

وقوله تعالى: ﴿يَمَثَلُ يَوْمِ الْأَحْزَابِ﴾ أي: مثل يوم من أيامهم؛ لأن عذابهم لم يكن في يوم واحد ولا عصر واحد، و«الأحزاب»: المتحزبون على أنبياء الله تعالى عليهم الصلاة والسلام، و«يَمَثَلُ» الثاني بدل من الأول، و«الدُّأْبُ»: العادة، وقوله: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ أي: من نفسه، أي: يظلمهم هو، فالإرادة هنا على بابها لأن الظلم منه لهم لا يقع البتة، وليس معنى الآية أن الله لا يريد

كلها، هل هي من قول مؤمن آل فرعون أو من قول موسى عليه السلام؟ وقالت فرقة من المتأولين منهم الطبري: يوسف المذكور هو يوسف بن يعقوب عليه الصلاة والسلام، وقالت فرقة: بل هو حفيده يوسف بن إبراهيم بن يوسف بن يعقوب عليهم السلام. و«البيئات» التي جاء بها يوسف عليه السلام لم تُعَيَّنْ لنا حتى نقف على معجزاته، وروي عن وهب بن مُثَنَّب أن فرعون موسى لحق يوسف، وأن هذا التقريع كان له. وروي أشهب عن مالك أنه بَلَغَهُ أن فرعون عَمَّر أربعمائة وأربعين سنة، وقالت فرقة: بل هو فرعون آخر.

وقوله تعالى: ﴿قُلْتُمْ كَن يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ حكاية حال لريبة قولهم لأنهم إنما أرادوا: لن يجيء بعد هذا من يدعي مثل ما ادعى، ولم يُقَرَّ أولئك قط برسالة الأول ولا الآخر ولا بأن الله تعالى يبعث الرُّسل، فحكى ريبة قولهم، وجاءت عبارتهم مشنعة عليهم، ولذلك قال لهم بأثر هذا: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ﴾، أي: كما صيركم من الكفر والضلالة بهذا الحد فنحو ذلك هو إضلاله لصنفيكم أهل السرف في الأمور وتعددي الطور والارتياب بالحقائق، وفي مصحف أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿قُلْتُمْ أَلَنْ يَبْعَثُ اللَّهُ﴾.

ثم أنحى لهم على قوم صفتهم موجودة في قوم فرعون، فكأنه أرادهم فزال عن مخاطبتهم حُسن

أدب واستخلاباً، فقال: ﴿أَلْيَسَ يُجْدِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾، أي: بالإبطال لها والرَّدُّ بغير برهان ولا حجة أنتهم من عند الله. ﴿كَبَّرَ مَقْتًا﴾ جدالهم ﴿عِنْدَ اللَّهِ﴾، فاختصر ذكر الجدل لتقدم الدلالة فيما ذكر عليه، ورَدُّ الفاعل به ﴿كَبَّرَ﴾ نصباً على التمييز، كقولك: تَفَقَّأْتُ شَخْمًا وَتَصَيَّبْتُ عَرَقًا، و﴿يَطْبَعُ﴾ معناه: يختم بالضلال ويحجب عن الهدى.

وقرأ أبو عمرو، والأعرج - بخلاف عنه -: ﴿عَلَى كُلِّ قَلْبٍ﴾ بالتنوين ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾ على الصفة، وقرأ الباقون بالإضافة إلى ﴿مُتَكَبِّرٍ﴾، قال أبو علي: المعنى: يطبع الله على القلوب إذا كانت قلباً قلباً من كل متكبر، ويؤيد ذلك أن في مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿عَلَى قَلْبٍ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويتجه أن يكون المراد عموم قلب المتكبر الجبار بالطبع، أي: لا ذرة فيه من الإيمان ولا مقاربة، فهي عبارة عن شدة إطلاقه.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله عز وجل مقالة فرعون حين أعيته الحيل في مقاومة موسى عليه السلام بحجة، وظهر لجميع المشاهدين أن ما يدعو إليه موسى عليه السلام هو عبادة إله السماء، فنادى فرعون هامان - وهو وزيره والناظر في أموره - فأمره أن يبني له بناءً عالياً نحو السماء، و«الصرح» كل بناء عظيم شنيع القدر، مأخوذ من الظهور والصراحة، ومنه قولهم: «صريح النَّسب»، وصرح بقوله،

فيروي أن هامان طبخ الأجر - ولم يُطبخ قبله - وبناه ارتفاع اربعمائة ذراع، فبعث الله تبارك وتعالى جبريل عليه السلام فمسحه بجناحه فكسره ثلاث كسر، تفرقت اثنتان ووقعت ثالثة في البحر، وروي أن هامان لم يكن من القبط، وقيل: كان منهم، و«الأسباب»: الطُرق، قاله السدي، وقال قتادة: الأبواب، وقيل: عنى: لعله يجد مع قرينه من السماء سبباً يتعلق به، وقرأ الجمهور: ﴿فَأَطَّلِعُ﴾ رفعا عطفاً على ﴿أَبْلُغُ﴾، وقرأ حفص عن عاصم، والأعرج: ﴿فَأَطَّلِعُ﴾ نصباً بالفاء في جواب التمني. ولما قال فرعون بمحضر من مَلِيهِ: ﴿فَأَطَّلِعُ إِلَيْكَ يَا مُوسَى﴾ اقتضى كلامه الإقرار بإله موسى، فاستدرك ذلك استدراكاً قلقتاً بقوله: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ كَافِرًا﴾.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ دَخَلَ﴾ أي: أنه كما تخرق فرعون في بناء الصرح والأخذ في هذه الفنون المقصرة، كذلك جرى جميع أمره، ورزئ له، أي: رزئ الشيطان سوء عمله في كل أفعاله، وقرأ الجمهور: ﴿وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ﴾ بفتح الصاد، بإسناد الفعل إلى فرعون، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم، وجماعة بضم الصاد وفتح الدال المشددة: ﴿وَصَدَّ﴾ عطفاً على ﴿رَزَيْنَ﴾ وحملاً عليه، وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَصَدَّ﴾ بكسر الصاد على معنى صُدَّ أصله صُدِّدَ، فنقلت الحركة ثم أدغمت الدال في الدال، وقرأ ابن أبي إسحاق، وعبدالرحمن بن أبي بكر:

والخليل أنها (لا) النافية دخلت على (جَزَمَ)، ومعناها: ثَبَتَ وَوَجَبَ، ومن ذلك جَزَمَ بمعنى كَسَبَ، كقول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعَنْتَ أَبَا عُيَيْنَةَ طَعْنَةً

جَزَمْتَ فَرَارَةً بَعْدَهَا أَنْ يَغْضَبُوا

أي: أوجبت لهم ذلك وثبتته لهم،

فكان الكلام نفي للكلام المردود

عليه بـ (لا)، وإثبات لمستأنف بـ

(جَزَمَ)، و﴿أَنْ﴾ - على هذا النظر -

في موضع رفع بـ ﴿جَزَمَ﴾، وكذلك

﴿أَنْ﴾ الثانية والثالثة، ومذهب

جماعة من أهل اللسان أن ﴿لَا

جَزَمَ﴾ هي بمعنى (لَا يُدْ) و (لَا

مَحَالَةً) فـ ﴿أَنْ﴾ - على هذا النظر -

في موضع نصب بإسقاط حرف

الجر، أي: لا محالة بأن ما،

و﴿مَا﴾ بمعنى (الذي) واقعة على

الأصنام وما عبده من دون الله

تبارك وتعالى.

وقوله: ﴿لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا﴾

أي: ليس له قُدْرٌ وَحَقٌّ يجب أن

يُدعى أحدٌ إليه، فكأنه قال: تدعوني

إلى ما لا غناء له ويَبِّينُ أيدينا خطب

جليل من الرُّدِّ إلى الله تعالى. وأهل

الإسراف والشرك هم أصحاب النار

بالخلود والملازمة، أي: وكيف

أطيعكم مع هذه الأمور الحقائق وفي

طاعتكم رفض العمل بحسبها

والخوف منها؟ قال ابن مسعود

ومجاهد: المسرفون سَقَأُوا الدماءِ

بغير جَلْها، وقال قتادة: هم

المشركون.

ثم توعدهم بأنهم سيذكرون قوله

هذا عند حلول العذاب بهم، وسوف

بالسين إذ الأمر يحتمل أن يخرج

وحفص عن عاصم، وأبو

رجاء، وشيبة،

والأعمش: ﴿يَدْخُلُونَ﴾

بفتح الياء وضم الخاء،

وقرأ ابن كثير، وأبو

عمرو، وأبو بكر عن

عاصم، والأعرج،

والحسن، وأبو جعفر،

وعيسى: ﴿يَدْخُلُونَ﴾

بضم الياء وفتح الخاء.

﴿٤١﴾ - ﴿٤٥﴾ تفسير قوله

عَزَّ وَجَلَّ:

قد تقدم ذكر الخلاف،

هل هذه المقالة لموسى

عليه السلام أو لمؤمن آل

فرعون. والدعاء إلى

طاعة الله تعالى وعبادته

وتوحيده هو الدعاء إلى سبب

النجاة، فجعله دعاء إلى النجاة

اختصاراً واقتضاباً، وكذلك دعاؤهم

إياه إلى الكفر واتباع دينهم هو دعاء

إلى سبب دخول النار، فجعله دعاء

إلى النار اختصاراً، ثم بيّن عليهم ما

بين الدعوتين من التَبَوُّنِ في أن

الواحدة كُفْرٌ وشِرْكٌ، والأخرى دعوة

إلى الإسناد إلى عِزَّةِ الله تعالى

وغفرانه.

وقوله: ﴿مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ ليس

معناه أنني جاهل به، بل معناه أن

العلم بأن الأوثان وفرعون وغيره

ليس لهم مدخل في الألوهية، وليس

لأحد من البشر علمٌ بوجه من وجوه

النظر بأن لهم في الألوهية مدخلاً،

بل العلم اليقيني بغير ذلك من

حدوثهم متحصل.

و﴿لَا جَزْمَ﴾ مذهب سيبويه

﴿٤١﴾ ﴿وَيَقُولُ مَا لِيَ أُدْعَوُكُمْ إِلَىٰ الْحَزْمِ وَتَدْعُونَنِي إِلَىٰ النَّارِ﴾ ﴿٤١﴾ تدعونني لأدعوكم بالله وأشرككم به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز العفتر لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة وأن مردنا إلى الله وإن المتسرفين هم أصحاب النار ﴿٤٢﴾ ﴿فَسْتَذْكُرُونَ مَا أَقُولَ لَكُمْ وَأَفَوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ ﴿٤٢﴾ فوقه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴿٤٣﴾ النار يعرضون عليها غدواً وعشيا ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشد العذاب ﴿٤٤﴾ وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفتوا للذين آستكروا إنا كنا لكم تبعا فهل أنتم مغفلون عنا تصيبنا من النار ﴿٤٥﴾ قال الذين آستكروا إنا ناكل فيها إنا الله قد حكم بين العباد ﴿٤٥﴾ وقال الذين في النار لخرقة جهنم آذعواربكم يخفف عنا يومئذ العذاب ﴿٤٥﴾

﴿وَصَدَّ﴾ بفتح الصاد ودال مهمله

مُشَدَّدة مرفوعة منونة عطفاً على

قوله: ﴿سُوِّ عَلَيْهِ﴾. و﴿السَّبِيلُ﴾:

سبيل الشرع والإيمان، و﴿التَّبَابُ﴾:

الخُسران، ومنه: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ

وَتَبَّ﴾، وبه فسر مجاهد وقاتدة،

وتَبَّ فرعون ظاهر لأنه خسر ماله في

الصرح وغيره، وخسر مُلكه، وخسر

نفسه، وخذل في جهنم.

ثم وعظ الذي آمن فدعا إلى اتباع

أمر الله تعالى، وقوله: ﴿أَتَسْمِئُونَ

أَهْدِيكُمْ﴾ يقوي أن المتكلم موسى

عليه السلام، وإن كان الآخر يحتمل

أن يقول ذلك، أي: اتبعوني في

اتباع موسى عليه السلام.

ثم زهد في الدنيا وأخبر أنها شيء

يَتَمَتَّعُ به قليلاً، ورغب في الآخرة،

إذ هي دار الاستقرار. وقرأ نافع،

وابن عامر، وحزمة، والكسائي،

ذلك على التقدير بأيام الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ﴾ يحتمل أن يكون ﴿يَوْمَ﴾ عطفاً على ﴿وَعَشِيًّا﴾ والعامل فيه ﴿بِعَرْشِكَ﴾، ويحتمل أن يكون كلاماً مقطوعاً والعامل فيه ﴿يَوْمَ﴾ ﴿أَدْخَلُوا﴾، والتقدير على كل قول: «يقال أَدْخَلُوا»، وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعرج، وأبو جعفر، والأعمش، وابن وثاب، وطلحة: ﴿أَدْخَلُوا﴾ بقطع

الألف، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن كثير، وأبو عمر، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، والحسن، وقتادة: ﴿أَدْخَلُوا﴾ بصللة الألف على الأمر لآل فرعون، و﴿عَالَ﴾ - على هذه القراءة - منادى مضاف، و﴿أَسَدٌ﴾ نصب على الظرفية.

والضمير في قوله: ﴿يَتَحَاوَرُونَ﴾ لجميع كفار الأمم، وهذا ابتداء قصص لا يختص بآل فرعون، والعامل فيه ﴿وَرِثَةٍ﴾ فعل مضمّر تقديره: واذكر، وقال الطبري: و﴿رِثَةٍ﴾ هذه عطف على قوله تعالى: ﴿إِذِ الْقُرْبَىٰ لَدَى الْحَنَاجِرِ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا بعيد، و﴿الْمُحَاجَّةُ﴾: التَحَاوَرُ بالحجة والخصومة. و﴿الضُّعْفَاءُ﴾ يريد: في القدر والمنزلة في الدنيا،

الوعيد في الدنيا أو في الآخرة، وهو تأويل ابن زيد، وروى البيهقي وغيره عن أبي عمرو فتح الياء من ﴿أَتْرَىٰ﴾، والضمير في ﴿فَوَقَّئَهُ﴾ يحتمل أن يعود على موسى عليه السلام أو على مؤمن آل فرعون، وقال قائلوا ذلك: إن ذلك المؤمن نجا مع موسى عليه السلام وفرّ في جملة من فرّ معه، وكان من المتّبعين. وقرأ عاصم: ﴿فَوَقَّئَهُ﴾ بالإمالة. و﴿وَحَاقَ﴾ معناه: نزل، وهي مستعملة في المكروه، وسوء العذاب: العَرْقُ وما بعده من النار وعذابها.

٤٦ - ٤٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا﴾، ﴿النَّارُ﴾ رفع على البدل من ﴿سَوَىٰ﴾، وقالت فرقة: ﴿النَّارُ﴾ رفع بالابتداء، وخبره ﴿بِعَرْشِكَ﴾ وقالت فرقة: هذا العُدُوُّ والعَشِيُّ هو في الدنيا، أي: في كلِّ عُدُوٍّ وَعَشِيٍّ من أيام الدنيا يعرض آل فرعون على النار، وروي في ذلك عن الهذيل بن شرحبيل، والسدي أن أرواحهم في أجواف طير سود تروح بهم وتغدو إلى النار، وقاله الأوزاعي حين قال له الرجل: إني رأيت طيوراً بيضاً تغدو من البحر ثم ترجع بالعشي سوداً مثلها، قال الأوزاعي: تلك هي التي في حواصلها أرواح آل فرعون، يحترق ريشها ويسود بالعرض على النار، وقال كعب بن محمد القرظي وغيره: أراد تعالى أنهم يُعرضون في الآخرة على النار على تقدير ما بين العُدُوِّ والعَشِيٍّ؛ إذ لا عُدُوٌّ ولا عَشِيٌّ في الآخرة، وإنما

قَالُوا أَوْلَمْ تَأْتِيكُمْ رَسُولُكُمْ فَأَلْبَسْتُمْ قَالُوا بَلَىٰ قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دَعَا الْكٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلٰلٍ ﴿٤٦﴾ إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيٰوةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الَّاَشْهَادُ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعٰذِرُهُمْ وَلَهُمُ الْعٰقِبَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الَّاَهْدَىٰ وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرٰءِيلَ الْكِتٰبَ ﴿٤٩﴾ هٰذِي ذِكْرٰتِي لِأُولِي الْأَلْبٰبِ ﴿٥٠﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ اللَّهِ وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا وَأَسْتَفِرُّ لِدُنْيٰكَ وَسِيحَ بَحْمَدِ رَبِّكَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ ﴿٥١﴾ إِنَّا الَّذِيْنَ يُحَدِّثُونَ فِي آيٰتِنَا اللَّهُ يَغَيِّرُ سُلْطٰنَهُمْ أَن تَهْمُؤْنَ فِي صُدُوْرِهِمْ إِلَّا كِبْرُ مَا هُمْ بِسَافِرِيْهِ فَاَسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيْرُ ﴿٥٢﴾ لَخَلَقْنَا السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ أَكْبْرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلٰكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٣﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيْرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحٰتِ وَلَا الضَّالِّمِيْنَ قَلِيْلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٥٤﴾

٤٧٢

وَالَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾ هم أشرف الكفار وكبرائهم، ولم يصفهم بالكبر إلا من حيث استكبروا، لا أنهم في أنفسهم كبراء، ولو كانوا كذلك في أنفسهم لكانت صفتهم الكبرياء أو نحوه مما يوجب الصفة لهم، و﴿التَّبَعُ﴾ قيل: هو جمع واحد تابع كغائب وغييب، وقيل: هو مفرد يوصف به الجمع كعدل وزور وغيره. وقولهم: ﴿مُنْتَوْنَ عَنَّا﴾ أي: تحملون عنا كلّه ومَشَقَّتْهُ، فأخبرهم المستكبرون بأن الأمر قد انجزم بحصول الكلّ منهم فيها، وأن حكم الله تعالى قد استمرّ بذلك.

وقولهم: ﴿كُلٌّ فِيهَا﴾ ابتداء وخبر، والجملة خبر ﴿إِنَّا﴾، وقرأ ابن السميّع: ﴿إِنَّا كُلًّا فِيهَا﴾ بالنصب على التأكيد، ثم قال جميع من في النار لخزنتها وزبانتها: ادعوا

فيه حذف مضاف تقديره: سوء عاقبة الدار.

ثم أخبر الله تعالى بقصة موسى عليه السلام وما آتاه الله تعالى من النبوة تأنيساً لمحمد ﷺ، وضرب أسورة، وتذكيراً بما كانت العرب تعرفه من أمر موسى عليه السلام، فبيّن ذلك أن محمداً ﷺ ليس بدع من الرسل. و«الهدى»: النبوة والحكمة، والتوراة تعم ذلك جميعه. وقوله تعالى: ﴿وَأُورِثْنَا﴾ عبارة عن أن طوائف بني إسرائيل قرناً بعد قرن تصير فيهم التوراة إماماً، فكان بعضهم يرثها عن بعض، وتجيء الورثة في حق الصدر الأول منهم على تجوز. و«الكتاب»: التوراة.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر وانتظار إنجاز الوعد، أي: فستكون عاقبة أمرك كعاقبة أمره، وقال الكلبي: نسخت آية القتال الصبر الكلي: حيث وقع، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفِيزَ لِدَيْكَ﴾ يحتمل أن يكون ذلك قبل إلام الله إياه أنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر؛ لأن آية هذه السورة مكية وآية سورة الفتح مدنية متأخرة، ويحتمل أن يكون الخطاب في هذه الآية له المراد أمته، أي: أنه إذا أمر هو بهذا فغيره أخرى بامتثاله. و«الإبكار»: والبكور بمعنى واحد، وقال الطبري: الإبكار من طلوع الفجر الثاني إلى طلوع الشمس، وحكى عن قوم أنه من طلوع الشمس إلى ارتفاع الضحى، وقال الحسن: ﴿بِالْعَمِيِّ﴾ يريد صلاة العصر،

عليه السلام بتسليط بختصر عليهم حتى انتصر ليحيى عليه السلام؟ ونصر المؤمنين داخل في نصر الرسل عليهم السلام، وأيضاً فقد جعل الله تعالى للمؤمنين الفضلاء وذاً، وهبهم نصراً إذا ظلموا، وحضت الشريعة على نصرتهم، ومنه قول النبي ﷺ: «من ردّ عن أخيه المسلم في عرضه كان حقاً على الله أن يردّ عنه نار جهنم»، وقوله ﷺ: «من حمى مؤمناً من منافق يغتابه بعث الله ملكاً يحميه يوم القيامة».

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهُدُ﴾، يريد يوم القيامة، وقرأ الأعرج، وأبو عمرو - بخلاف - : ﴿تَقُومُ﴾ بالباء، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿يَقُومُ﴾ بالياء، و«الاشهد» يحتمل أن يكون من الشهادة، ويحتمل أن يكون من المشاهدة بمعنى المصدر، وقال الزجاج: أشهاد جمع شاهد كصاحب وأصحاب، وقالت فرقة: أشهاد جمع شهد، وشهد جمع شاهد كصاحب وصاحب وتاجر وتاجر، وقال الطبري: أشهاد جمع شهيد كشريف وأشرف.

و ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ﴾ بدل من الأول، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وقتادة، وعيسى، وأهل مكة: ﴿لَا تَنْفَعُ﴾ بالياء من فوق، وقرأ الباقون: ﴿لَا يَنْفَعُ﴾ بالياء، وهي قراءة أبي جعفر، وطلحة، وعاصم، وأبي رجاء، وهذا لأن تأنيث المعذرة غير حقيقي، ولأن الحائل قد وقع، و«المعذرة» مصدر كالمعذر. و«اللقنة»: الإبعاد، و«سوء الدار»

ربكم عسى أن يخفف عنّا مقدار يوم من أيام الدنيا من العذاب، فراجعهم الخزنة - على معنى التوبيخ والتقرير - ﴿أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ﴾ الآية، فأقر الكفار عند ذلك وقالوا: ﴿بَلَى﴾، أي: قد كان ذلك، فقال لهم الخزنة عند ذلك: فادعوا أنتم إذاً، وهذا على معنى الهزء بهم، أي: فادعوا أيها الكافرون الذين لا معنى لدعائكم، وقالت فرقة: ﴿وَمَا دُعَاةُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ هو من قول الخزنة، وقالت فرقة: هو من قول الله تعالى إخباراً منه لمحمد ﷺ، وجاءت هذه الأفعال على صيغة الماضي - قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا، وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ - لأنها وصف حال متيقنة الوقوع فحسّن ذلك فيها.

(٥١) - (٥٦) تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى أنه ينصر رسله عليهم السلام والمؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، قال بعض المفسرين: وهو خاص فيمن أظهره الله تعالى على أمته كنوح وموسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام، وليس بعام لأننا نجد من الأنبياء عليهم السلام من قتله قومه كيحيى عليه السلام ولم ينصر عليهم. وقال السدي: الخبر عام على وجهه، وذلك أن نصرة الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام واقعة ولا بُدَّ، إمّا في حياة الرسل المنصورين كنوح وموسى عليهما السلام، وإمّا فيما يأتي به الزمان بعد موتهم، ألا ترى ما صنع الله تبارك وتعالى ببني إسرائيل بعد قتلهم يحيى

التأويل - مصدر مضاف إلى المفعول. وقال النقاش: المعنى: مما يخلق الناس؛ إذ هم في الحقيقة لا يخلقون شيئاً، فالخلق في قوله تعالى: ﴿مِنْ حَلْقِ النَّاسِ﴾ مضاف إلى الفاعل على هذا التأويل.

وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ﴾ يقتضي أن الأقل منهم يعلم ذلك، ولذلك مثل الأكثر الجهل بالأعمى، والأقل العالم بالبصير، وجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات يعادلهم قوله:

﴿الْمُؤْمِنُونَ﴾، وهو اسم جنس يعُمّ المسيئين. وأخبر تعالى أن هؤلاء لا يستون، فذلك الأكثر الجهلاء من الناس لا يستون مع الأقل الذين يعلمون.

وقرأ أكثر القراء، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، والحسن: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بالياء على الكناية عن الغائب، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، وقتادة، وطلحة، وعيسى، وأبو عبد الرحمن: ﴿يَتَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء من فوق على المخاطبة، والمعنى: قل لهم يا محمد.

ثم جزم تعالى الإخبار بأن الساعة آتية، وهي القيامة المتضمنة للبعث من القبور، والحساب بين يدي الله تعالى، وافتراق الجمع إلى الجنة وإلى النار. وقوله تعالى: ﴿لَا رَبَّ

وَإِلَّهَ إِلَّا أَنَا﴾ يريد به صلاة الصبح. ثم أخبر تعالى عن أولئك الكفار الذين يجادلون في آيات الله بغير حجة ولا برهان، وهم يريدون بذلك طمسها والزّد في وجهها، أنهم ليسوا على شيء بل في صدورهم وضمايرهم كبر وأنفة عليك حسداً منهم على الفضل الذي آتاك الله تعالى، ثم نفى أن يكونوا يبلغون أمالهم بحسب ذلك الكبر فقال: ﴿مَا هُمْ بِبَالِيغِينَ﴾، وهنا حذف مضاف تقديره: ببالغي إرادتهم فيه، وهذا النفي الذي يتضمن أنهم لا يبلغون أملاً تأنيساً لمحمد ﷺ. ثم أمره بالاستعاذة بالله في كل أمره من كل مُستَعَاذٍ منه لأن الله يسمع أقواله وأقوال مخالفيه، وهو بصير بمقاصدهم ونياتهم ومجاز كل ما استوجه، والمقصود بأن يُستَعَاذَ منه عند قوم الكبر المذكور، كأنه قال: هؤلاء لهم كبر لا يبلغون منه أملاً، فاستعذ بالله من حالهم في ذلك. وذكر الثعلبي أن هذه الاستعاذة من الدجال وفتنته، والأظهر ما قدّمناه من العموم في كل مُستَعَاذٍ منه.

٥٧ - ٥٨ - ٥٩ - ٦٠ تفسير قوله عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا﴾ قوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَكَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية تويخ لهؤلاء الكفار المتكبرين، كأنه تعالى قال: مخلوقات الله تعالى أكبر وأجل قدراً من خلق البشر، فما لأحد منهم أن يتكبر على خالقه، ويحتمل أن يكون الكلام في معنى البعث والإعادة، فأعلم تعالى أن الذي خلق السموات والأرض قويّ قادر على خلق الناس تارةً أخرى، و«الخلق» - على هذا

إِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٥٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْفَلَاحَ لِئَلَّا تَكُونُوا فِيهِ وَالتَّهَارُوتَ مِثْرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٥٩﴾ ذَلِكَ كُمُّ اللَّهُ رَبُّكُمْ خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ لَأَهْوَأْنَ يُؤْتُونَ ﴿٦٠﴾ كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ الَّذِينَ كَانُوا يَتَّيَبَتِ اللَّهُ يَجْحَدُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فَكْرًا وَالسَّمَاءَ بِنَسَاءٍ وَسُورَةٍ فَاحْسَنَ صُورَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنْهَا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ هُوَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَكَادِعُونَ الْمُخَلَّبِينَ لَهُ الَّذِينَ أَحْمَدُ اللَّهُ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ إِنِّي نَهَيْتُ أَنْ أُعْبَدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَ فِي الْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسَلِّمَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٦٤﴾

فيها: أي: في ذاتها ونفسها، وإن وُجد من العالم من يرتاب فيها فليست فيها في نفسها ريبة.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ آية تفضل ونبهة ووعد لأمة محمد ﷺ بالإجابة عند الدعاء، وهذا وعد مقيّد بشرط المشيئة وهي موافقة المقدر لمن شاء الله تعالى، لا أن الاستجابة عليه حتم لكل داع لا سيما من تعدى في دعائه، فقد عاب رسول الله ﷺ دعاء الذي قال: اللهم أعطني القصر الأبيض الذي عن يمين الجنة. وقالت فرقة: معنى ﴿ادْعُونِي﴾: اعبدونني، و﴿أَسْتَجِبْ﴾ معناه: بالشوَاب والنصر، ويدل على هذا التأويل قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾، ويحتاج له بحديث النعمان بن بشير أن

قائم، وقوله تعالى: ﴿حَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٦١) معناه: خالق كل شيء؛ مخلوق، وما يستحيل أن يكون مخلوقاً كالقرآن والصفات فليس يدخل في هذا العموم، وهذا كما قال تعالى: ﴿تُدَبِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾^(٦٢) معناه: كل شيء يعث لتدبيره. وقرأت فرقة: ﴿تُؤَفِّكُونَ﴾^(٦٣) بالياء، والمعنى في القراءة الأولى: قُلْ لَهُمْ، و﴿تُؤَفِّكُونَ﴾ معناه: تُصرفون عن طريق النظر والهدى، وهذا تقرير

بمعنى التوبيخ والتقريع.

ثم قال لنيبه ﷺ: ﴿كَذَلِكَ يُؤَفِّكُ﴾^(٦٤) أي: على هذه الهيئة وبهذه الصفة صرف الله الكفار الجاحدين بآياته سبحانه وتعالى من الأمم المتقدمة عن طريق الهدى، ثم بيّن نعمته سبحانه وتعالى في أن جعل الأرض قراراً ومهاداً للعباد، والسماة بناءً وسقفاً. وقرأ الناس: ﴿صُورَكُمْ﴾^(٦٥) بضم الصاد، وقرأ أبو رزین بكسرهما، وقرأت فرقة: ﴿صُورَكُمْ﴾^(٦٦) بسكون الواو على نحو بُسْرَةٍ وبُسْرٍ.

وقوله تعالى: ﴿يَنَاطِيئَ الطَّيِّبَاتِ﴾^(٦٧) يريد: من المستلذات طعماً ولبساً ومكاسب وغير ذلك، ومتى جاء ذكر الطيبات بقريئة «رَزَقَكُمْ» ونحوه فهذا هو المستلذذ، ومتى جاء بقريئة تحليل أو تحريم - كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِبِآئِهِمْ وَالطَّيِّبَاتِ مِنْ

الرِّزْقِ﴾^(٦٨)، وكما قال: ﴿وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ﴾^(٦٩) - فالطيبات في مثل هذا: الحلال، وعلى هذا النظر تخرج مذهب مالك رحمه الله تعالى في الطيبات والخبائث، وقول الشافعي رحمه الله تعالى: إن الطيبات هي المستلذذات والخبائث هي المستفدرات ضعيف ينكسر بمستلذات محرمة ومستفدرات محللة لا رد له في صدرها، وأما حيث وقعت الطيبات مع الرزق فإنما هي تعديد نعمة فيما يستحسنه البشر ولا سيما هذه الآية التي هي مخاطبة للكفار، فإنما عُدت عليهم النعمة التي يعتقدونها نعمة. وياقي الآية بيّن.

(٦٧) - (٦٨) تفسير قوله عز وجل:

لما سردت الآيات صفات الله التي تبين فساد حال الأصنام كان من أتبينها أن الأصنام موات جماد، وأنه عز وجل الحي القيوم، وصدور الأمر من لدنه وإيجاد الأشياء وتدبير الأمر كله وعلمه بالكل، دليل قاطع على أنه حي لا إله إلا هو.

وقوله تعالى: ﴿كَأَدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٧٠) كلام متصل مقتضاه: ادعوه مخلصين بالحمد، وبهذه الألفاظ قال ابن عباس رضي الله عنهما: من قال: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» فليقل أثرها: «الحمد لله رب العالمين»، وقال نحو هذا سعيد بن جبیر ثم قرأ هذه الآية.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يصدع بأنه نهي عن عبادة الأصنام التي عبدها الكفار من دون الله سبحانه وتعالى، ووقع النهي لما جاءه الوحي والهدى من ربه. وأمر بالإسلام الذي

هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ رُبَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِتَسْلَمُوا أَشَدَّكُمْ ثُمَّ لِيُرْكَو تَكُونُوا شُجُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يُؤَفِّقُ مِنْ قَبْلِ وَبَلَاغُوا أَجْلاً مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا مَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٦٢﴾ الرَّسُولُ إِلَى الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِيءَ آيَاتِ اللَّهِ أَنَّى يُبْصَرُونَ ﴿٦٣﴾ الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَيَمَآ أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ إِذَا الْأَعْيُنُ عَلَى أَعْيُنِهِمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٦٥﴾ فِي الْمَعِيرِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ إِنَّمَا كُنْتُمْ تَشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا لِمَ لَمْ تَكُنْ تَدْعُواوَا مِنْ قَبْلُ مِنَّا كَذَلِكَ يَفْضَلُ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٦٨﴾ ذَٰلِكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَيَمَآ كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٦٩﴾ أَذْخَلُوا الْآيَاتِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا قُلْ لَسْتُ مَتَوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٠﴾ فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِنَّمَا تِرْيَاقُ بَعْضِ الَّذِي يُعَذِّبُهُمْ وَأَتَوَفَّيْتَهُمْ وَإِنِّي لَأَبْرَجِعُونَ ﴿٧١﴾

النبي ﷺ قال: «الدعاء هو العبادة»، وقرأ هذه الآية. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: وحُدوني أغفر لكم، وقيل للشوري: ادع الله تعالى فقال: إن ترك الذنوب هو الدعاء.

وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر: ﴿سَيَذْخُلُونَ﴾ بضم الياء وفتح الخاء، وقرأ نافع، وحزمة، والكسائي، وابن عامر، والحسن، وشيبة: ﴿سَيَذْخُلُونَ﴾ بفتح الياء وضم الخاء، واختلف عن أبي عمرو، وعن عاصم، و«الداخر»: الصاغر الدليل.

(٦١) - (٦٢) تفسير قوله عز وجل:

هذا تنبيه على آيات الله تعالى، وعجز متى تأملها العاقل أدته إلى توحيد الله تبارك وتعالى والإقرار بربوبيته، وقوله تعالى: ﴿وَالنَّهَارَ مُتَمِيزًا﴾^(٧١) مجازة: يُبصر فيه، كما تقول: نهاراً صائم وليل

هو الإيمان والأعمال، وقوله تعالى: ﴿لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي: أن أستسلم لرب العالمين وأخضع له بالطاعة.

ثم بيّن تعالى أمر الوجدانية والألوهية بالعبارة في ابن آدم وتدرج خلقه، فأوله خلق آدم من تراب من طين لازب، فجعل البشر من تراب لما كان منسلاً من المخلوق من التراب، وقوله: ﴿مِنْ تُطْفَأُ﴾ إشارة إلى التناسل من آدم فمن بعده «التطفئة» [هي] الماء الذي خلق المرء منه، و«العطفة»: الدم الذي يصير من النطفة، و«الطفل» هنا اسم جنس، و«بلوغ الأشد» اختلف فيه - فقيل: ثلاثون، وقيل: ستة وثلاثون، وقيل: أربعون، وقيل: ستة وأربعون، وقيل: عشرون، وقيل: ثمانية عشر، وقيل: خمسة عشر، وهذه الأقوال الأخيرة ضعيفة في الأشد.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُوَفِّيٰ بِرَبِّهِٖ﴾ عبارة تتردد في الأدراج المذكورة كلها، فمن الناس من يموت قبل أن يخرج طفلاً، وآخرون قبل الأشد، وآخرون بعد الشيخوخة، وقوله تعالى: ﴿وَلْيَبْلُغُوا أَجَلَ مَسْنَىٰ﴾ أي: هذه الأصناف كلها مخلوقة مُيسرة ليلبغ كل واحد منها أجلاً مُسمى لا يتعداه ولا يتخطاه، وليكون معتبراً، ولعلكم أيها البشر تعقلون الحقائق إذا نظرتهم في هذا وتدرتكم حكمة الله فيه.

(٧١) - (٧٢) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَعَّصَا أَمْرًا﴾ عبارة عن إنفاذ الإيجاد وإخراج المخلوق من العدم، وإيجاد الموجودات هو

بالقدرة، واقتران الأمر بذلك هو عظمة في الملك وتخضع للمخلوقات وإظهاراً للقدرة، والأمر للموجد إنما يكون في حين تلبس القدرة بإيجاده، لا قبل ذلك لأنه حينئذ لا يخاطب في معنى الوجود والكون، ولا بعد ذلك لأن ما هو كائن لا يقال له: كُن.

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِثُونَ﴾ الآية. ظاهرها أنها في الكفار المجادلين في رسالة محمد ﷺ والكتاب الذي جاء به، بدليل قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ﴾ الآية، وهذا قول ابن زيد وجمهور المفسرين، وقال محمد بن سيرين وغيره: قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَحْدِثُونَ﴾ الآية إشارة إلى أهل الأهواء من هذه الأمة، وروت هذه الفرقة في نحو هذا حديثاً، وقالوا: هي في أهل القدر ومن جرى مجراهم، ويلزم قائلها هذه المقالة أن يجعلوا قوله: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا﴾ الآية... كلاماً مقطوعاً مستأنفاً في الكفار، ﴿الَّذِينَ﴾ ابتداءً، وخبره ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾، ويحتمل أن يكون خبر الابتداء محذوفاً، والفاء متعلقة به، وقوله تعالى: ﴿إِذْ الْأَغْلَالُ يَنْزِلُ فِي الظَّرْفِ﴾ يعني يوم القيامة، والعامل في الظرف ﴿يَعْلَمُونَ﴾، وعبر عن ظرف الاستقبال بظرف لا يقال إلا في الماضي، لأنه لما تيقن وقوع الأمر حسن تأكيده بالإخراج في صيغة الماضي، وهذا كثير في القرآن، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ لِيُوسَىٰ﴾، قال الحسن بن أبي الحسن: لم تجعل السلاسل في أعناق الكفار لأنهم أعجزوا الرب تعالى

ولكن لترسيهم إذا أطفاهم اللهب. وقرأ الجمهور: ﴿وَأَسْلَبُ﴾ رفعا عطفاً على ﴿الْأَغْلَالُ﴾ وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وابن مسعود رضي الله عنه ﴿وَأَسْلَبُ﴾ بالنصب ﴿يَسْحَبُونَ﴾ بفتح الياء وإسناد الفعل إليهم وإيقاع الفعل على السلاسل، وقرأت فرقة: ﴿وَأَسْلَبُ﴾ بالخفض على تقدير: إذ أعناقهم في الأغلال والسلاسل، فعطف على المراد من الكلام لا على ترتيب اللفظ؛ إذ ترتيبه فيه قلب، وهو على حد قول العرب: «أَدْخَلْتُ الْقَلَنْسُوَّةَ فِي رَأْسِي»، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿وَفِي السَّلَاسِلِ يَسْحَبُونَ﴾، و﴿يَسْحَبُونَ﴾ معناه: يُجَسَّرُونَ، والسَّخْب: الجَسْرُ، والحميم: الذائب الشديد الحر من النار، ومنه يقال للماء السخن: حميم. و﴿يَسْحَبُونَ﴾ قال مجاهد: معناه: توقد النار بهم، والعرب تقول: «سَجَرْتُ الثَّوْرَ» إذا ملأته ناراً، وقال السدي: ﴿يَسْحَبُونَ﴾: يحرقون.

ثم أخبر تعالى أنهم يوقفون يوم القيامة على جهة التوبيخ والتقريع، فيقال لهم: أين الأصنام التي كنتم تعبدون في الدنيا؟ فيقولون: ضلوا عنا، أي: تعلقوا النار وغابوا واضمحلوا، ثم تضرب أقوالهم ويفزعون إلى الكذب فيقولون: بل لم تكن نعبد شيئاً، وهذا من أشد الاختلاط وأبين الفساد في الذهن والنظر، فقال الله تعالى لنيبيه ﷺ: ﴿كَذَلِكَ يُصِلُّ اللَّهُ الْكٰفِرِينَ﴾، أي: بهذه الصفة المذكورة وبهذا الترتيب.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَاتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَخِصْرٌ حَاسِرٌ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْفُسَ لِيُرَكَّبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْتُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِيَسَلِّتُوا عَلَيْهَا حِجَابًا فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْأَنْفُسِ تَتَحَلَّلُونَ ﴿٨٠﴾ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِهِ أَنْتُمْ تَنْكُرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَسَارُوا فِي الْأَرْضِ فَمَا عَصَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِبَيِّنَاتٍ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ نَنْفَعَهُمْ إِيذَانَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلَتْ اللَّهُ أَلْتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

فتقر به عينك، وإما أن تموت قبل ذلك فإلى أمرنا وتعذبنا يصيرون ويرجعون، وقراءة الجمهور: ﴿يُرْجَعُونَ﴾ بضم الياء، وقرأ أبو عبد الرحمن ويعقوب: ﴿يرجعون﴾ بفتح الياء وقرأ طلحة بن مصرف، ويعقوب - في رواية الوليد بن حسان -: ﴿ترجعون﴾ بفتح التاء منقوطة من فوق.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَمِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَاتٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ فَإِذَا جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ فَخِصْرٌ حَاسِرٌ هُنَالِكَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٧٨﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْفُسَ لِيُرَكَّبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْتُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِيَسَلِّتُوا عَلَيْهَا حِجَابًا فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْأَنْفُسِ تَتَحَلَّلُونَ ﴿٨٠﴾ وَتُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيُّ آيَاتِهِ أَنْتُمْ تَنْكُرُونَ ﴿٨١﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرُ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَأَسَارُوا فِي الْأَرْضِ فَمَا عَصَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولُهُمْ بِبَيِّنَاتٍ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَافَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨٣﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَسَكَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ نَنْفَعَهُمْ إِيذَانَهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سَأَلَتْ اللَّهُ أَلْتِي قَدْ خَلَّتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٨٥﴾

قالوا: إن الله تعالى لا يعث بشراً رسلاً، واستبعدوا ذلك، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾، قال النقاش: هم أربعة وعشرون، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾، زوي من طريق أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَ ثَمَانِيَةَ آلَافٍ رَسُولًا﴾، وروي عن سلمان، عن النبي عليه الصلاة والسلام قال: ﴿بَعَثَ اللَّهُ أَرْبَعَةَ آلَافٍ نَبِيًّا﴾، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿بَعَثَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولًا مِنْ الْحَبَشَةِ أَسُودًا وَهُوَ الَّذِي لَمْ يَقْصُصْ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا ساقه على أن هذا الحبشي مثال لما لم يقص، لا أنه هو المقصود وحده، فإن هذا بعيد.

٧٥ - ٧٨ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: يقال للكفار المعذبين: ذلکم العذاب الذي أنتم فيه بما كنتم تكفرون وتفرحون في الدنيا بالمعاصي والكفر وتمرحون، قال مجاهد: معناه: الأشرُّ والبَطْرُ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفخر والخيلاء. وقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا﴾، يقال لهم قبل هذه المحاوره في أول الأمر: ادخلوا، لأن هذه المخاطبة إنما هي بعد دخولهم وفي الوقت الذي فيه الأغلال في أعناقهم، وأبواب جهنم هي السبعة المؤدية إلى طبقاتها وأدراكها السبعة. و«المثوى»: موضع الإقامة.

ثم أنس الله تعالى نبيه ﷺ ووعده بقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ في نصرك وإظهار أمرك، فإن ذلك إما أن ترى بعضه في حياتك

٧٨ - ٨٢ تفسير قوله عز وجل:

هذه آيات عِبرٍ وتعديد نعم، و«الأنعام»: الأزواج الثمانية، و«مِنْهَا» الأولى للتبعية؛ لأن المذكور ليس كل الأنعام، بل الإبل خاصة، و«مِنْهَا» الثانية لبيان الجنس؛ لأن الجميع منها يؤكل، وقال الطبري في هذه الآية: إن الأنعام تعم الإبل والبقر والغنم والخيل والبعال والحمير وغير ذلك مما يُنتفع به من البهائم، ف «مِنْهَا» في الموضوعين للتبعية - على هذا - لكنه قول ضعيف، وإنما الأنعام: الأزواج الثمانية التي ذكر الله تعالى فقط، ثم ذكر الله تعالى المنافع ذكراً مُجْمَلًا لأنها أكثر من أن تحصى.

وقوله تعالى: ﴿وَلِيَسَلِّتُوا عَلَيْهَا حِجَابًا فِي صُدُورِكُمْ﴾ يريد قطع المَهَامِيه الطويلة والمشاق البعيدة، و«الْقَلْبُ»: السفن، وهو هنا جمع، و«تَحَلَّلُونَ» يريد: برأً وبحراً، وذكر تعالى الخمل عليها وقد تقدم ذكر ركوبها لأن المعنى مختلف في الأمرين وبينهما تغاير، لأن الركوب هو المتعارف

فيما قُرْب، ويستعمل دأباً في القرى والمواطن، فهو نظير الأكل منها وسائر المنافع، ثم خصص بعد ذلك السفر الأطول وحوائح الصدور مع البُعد، وهذا هو الحمل الذي قرنه بشيبهه من أمر السفن.

ثم ذكر الله تعالى آياته عامة جامعة لكل عِبْرَةٍ وموضع نظر، وهذا غير منحصر لاتساعه، ولأن في كل شيء له آية تدل على وحدانيته، ثم قرَّره على جهة التوبيخ - بقوله: ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ؟﴾

ثم احتجَّ تعالى على قريش بما يظهر في الأمم السالفة من نعمات الله في الكفرة الذين كانوا أكثر عدداً، وأشدَّ قُوَّة أبدان وممالك، وأعظم آثاراً في المباني والأفعال من قريش والعرب، فلم يُغْن عنهم كَسْبهم ولا حالهم شيئاً حين جاءهم عذاب الله وأخذَه. [وما] في قوله: ﴿فَأَيُّ آيَاتِ اللَّهِ تُنْكِرُونَ؟﴾ نافية، قال الطبري: وقيل: هي توقيف وتقرير.

﴿٨٣﴾ - ﴿٨٤﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿جَاءَهُمْ﴾ عائد على الأمم المذكورين الذين جعلوا مثلاً وعبرة. واختلف المفسرون في الضمير في ﴿فَرَحُوا﴾، على من يعود؟ فقال مجاهد وغيره: هو عائد على الأمم المذكورين، أي: بما عندهم من العلم في ظنهم ومُعْتَمِدِهم من أنهم لا يُبعثون ولا يُحاسبون، وقال ابن زيد: اغتروا بعلمهم بالدنيا والمعاش، وظنوا أنه لا آخرة ففرحوا، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَهْرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾، وقالت فرقة: الضمير عائد على الرُّسل، وفي هذا التأويل حذف تقديره: كذبهم ففرحوا - أي: الرُّسل

- بما عندهم من العلم بالله تعالى والثقة به وبأنه سينصرهم.

و ﴿وَسَاقٍ﴾ معناه: نزل وثبت، وهي مستعملة في الشُّر، و ﴿مَأً﴾ في قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا بِبَيْدِهِ﴾ هو العذاب الذي كانوا يكذبون به ويستهزئون بأمره، والضمير في ﴿يَوْمٍ﴾ عائد على الكفار بلا خلاف.

ثم حكى تعالى حالة بعضهم ممن آمن بعد تلبس العذاب بهم فلم ينفعهم ذلك، وفي ذكر هذا حضُّ للعرب على المبادرة، وتخويف من التأتني، لئلا يدركهم

عذاب لا تنفعهم توبة بعد تلبسهم بهم، وأما قصة قوم يونس عليه السلام فقد رأوا العذاب ولم يكن تلبس بهم، وقد مرَّ تفسيرها مُستقصى في سورة يونس عليه السلام. و ﴿سَكَنًا﴾ نصب على المصدر، و ﴿حَلَّتْ﴾ معناه: مضت واستمرت وصارت عادة. وقوله تعالى: ﴿هَذَاكَ﴾ إشارة إلى أوقات العذاب، أي: ظهر خُسْرَانُهُمْ وحضر جزاء كفرهم.

كامل تفسير سورة (غافر) والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة فصلت

هذه السورة مكيَّة بإجماع من



المفسرين، ويروى أن عتبة بن ربيعة ذهب إلى رسول الله ﷺ ليبيِّن عليه أمر مخالفته لقومه، وليحتجَّ عليه فيما بينه وبينه، وليُبعِد ما جاء به، فلما تكلم عتبة قرأ رسول الله ﷺ: ﴿حَرِّ﴾، ومرَّ في صدر هذه السورة حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿فَإِن أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادِ وَكُمُودٍ﴾، فأزعد الشيخ وقفَّ شِعْره، وأمسك على فم رسول الله ﷺ بيده وناشده بالرحم أن يُمسك، وقال حين فازقَه: «والله لقد سمعتُ شيئاً ما هو بالشُّعر ولا بالسُّحر ولا بالكهانة، ولقد ظننت أن صاعقة العذاب على رأسي».

﴿٧﴾ - ﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

تقدم القول في أوائل السور وفيما تختص به الحواميم، وأمال الأعمش ﴿حَرِّ﴾ في كلها، و ﴿نَزِيلٍ﴾ خبر

الابتداء، إمّا على أن يقدر الابتداء في ﴿حَرَ﴾ على ما تقتضيه بعض الأقاويل فيها، إذا جعلت اسماً للسورة أو للقرآن أو إشارة إلى حروف المعجم، وإمّا على أن يكون التقدير: هذا تنزيل، ويجوز أن يكون ﴿نَزِيلٌ﴾ ابتداءً وخبره في قوله تعالى: ﴿كَلِمَاتٌ مُّصَلَّتْ﴾، على معنى: ذو تنزيل. و﴿الْحَكِيمُ الرَّحِيمُ﴾ صفتا رجاء ورحمة الله تعالى، و﴿مُصَلَّتْ﴾ قال السدي: معناه: بُيِّنَتْ آياته، أي: فُسِّرَتْ معانيه، ففصل بين حلاله وحرامه، وزجره وأمره ونهييه، ووعده ووعيدته، وقيل: فُصِّلَتْ في التنزيل، أي: نزل نجوماً ولم ينزل مرة واحدة، وقيل: فصلت المواضع وأنواع أواخر الآي، ولم يكن يرجع إلى قافية واحدة ونحوها كالشعر والسجع، و﴿قُرْآنًا﴾ نصب على الحال عند قوم، وهي مؤكدة لأن هذه الحال ليست مما تنتقل، وقالت فرقة: هو نصب على المصدر، وقالت فرقة: ﴿قُرْآنًا﴾ توطئة للحال و﴿عَرَبِيًّا﴾ حال، وقالت فرقة: ﴿قُرْآنًا﴾ نصب على المدح، وهذا قول ضعيف.

وقوله تعالى: ﴿لَقَوْمٍ يَتْلُونَ﴾ قالت فرقة: معناه: يعلمون الأشياء ويعقلون الدلائل وينظرون على طريق النظر، فكأن القرآن فصلت آياته لهؤلاء إذ هم أهل الانتفاع بها فحُضِّسُوا بالذكر تشريفاً، ومن لم يتنفع بالتفصيل فكأنه لم يُفَضَّلْ له، وقالت فرقة: ﴿يَتْلُونَ﴾ متعلق في المعنى بقوله تعالى: ﴿عَرَبِيًّا﴾، أي: جعلناه

بكلام العرب لقوم يعلمون ألفاظه، ويحققون أنها لم يخرج شيء منها عن كلام العرب، وكان الآية رادةً على من زعم أن في كتاب الله تعالى ما ليس في كلام العرب، فالعلم - على هذا التأويل - أخص من العلم على التأويل الأول، والأول أشرف معنى، ويَبَيِّنُ أنه ليس في القرآن إلا ما هو من كلام العرب، إمّا على أصل لغتها، وإمّا ما عرّبه من لغة غيرها ثم ذكر في القرآن وهو معرّب مستعمل.

وقوله تعالى: ﴿بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ نعت للقرآن، أي: يبشّر من آمن بالجنة ويُنذِر من كفر بالنار، والضمير في ﴿أَكْرَمَهُمْ﴾ عائد على القوم المذكورين. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ نفى لسمعهم النافع الذي يعتد به سمعاً. ثم حكى تعالى عنهم مقالتهم التي باعدوا فيها كل المباحة، وأرادوا بها أن يؤسوه من قبولهم دينه، وهي: ﴿قُلُوبًا فِي أَكْحَبٍ مِّمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ﴾، و﴿أَكْحَبٌ﴾ جمع كنان، وهو باب فَعَالٍ وأفعلة، والكنان: ما يجمع الشيء ويضمه ويحول بينه وبين غيره، ومنه الكِنُ، ومنه كنانة النبل، وبها فسر مجاهد هذه الآية، و [من] في قولهم: ﴿مِمَّا نَدْعُونَكَ إِلَيْهِ﴾ لابتداء الغاية، وكذلك هي في قولهم: ﴿وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ مؤكدة لابتداء الغاية، و﴿الْوَقْرُ الثَّقَلُ فِي الْأُذُنِ﴾ الذي يمنع السمع، وقرأ ابن مصرف: ﴿وَقُرٌّ﴾ بكسر الواو، و﴿الْحِجَابُ﴾ الذي أشاروا إليه هو مخالفته إياهم، ودعوته إلى الله تبارك وتعالى دون

أصنامهم، أي: هذا أمر يحجبنا عنك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه مقالة يحتمل أن تكون معها قرينة الجِدِّ في المحاوراة وتتضمن المباحة، ويحتمل أن تكون معها قرينة الهَزَل والاستخفاف، وكذلك قولهم: ﴿فَاعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا﴾ يحتمل أن يكون القول تهديداً، ويحتمل أن يكون متاركة محضّة. وقرأ الجمهور: ﴿قُلْ إِنَّمَا﴾ على معنى الأمر لمحمد ﷺ، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش: ﴿قَالَ إِنَّمَا﴾ على معنى المُضَيِّ والخبر عنه، وهذا هو الصّحاح بالتوحيد والرسالة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾، قال الحسن: علّمه الله تعالى التواضع، و [أن] في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا إِلَهُكُمُ﴾ رفع على المفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله، وقوله: ﴿فَأَسْتَقِيمُوا﴾ أي: على محجّة الهدى وطريق الشرع والتوحيد، وهذا المعنى مُضْمَنٌ في قوله: ﴿إِلَيْهِ﴾، و﴿الْوَيْلُ﴾: الحزن والشبور، وفسره الطبري وغيره في هذه الآية بفتح أهل النار وما يسيل منهم. وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزُّكَاةَ﴾ قال الحسن، وقتادة، وغيرهما: هي زكاة المال، وروي أن الزكاة قنطرة الإسلام، من قطعها نجا ومن جانبها هلك، واحتج لهذا التأويل بقول أبي بكر رضي الله عنه في الزكاة وقت الرُذّة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، والجمهور: الزكاة في هذه الآية: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» التوحيد، كما قال موسى عليه السلام

لفرعون: ﴿مَلَّكَ لِلَّهِ أَنْ تَزَكَّى﴾، وَيُزَجِّحُ هَذَا التَّأْوِيلَ أَنَّ آيَةَ مِنْ أَوَّلِ الْمَكِّيِّ وَزَكَاةَ الْمَالِ نَزَلَتْ بِالْمَدِينَةِ، وَإِنَّمَا هَذِهِ زَكَاةُ الْقَلْبِ وَالْبَدَنِ، أَيْ: تَطْهِيرُهُمَا مِنَ الشَّرِّ وَالْمَعَاصِي، وَقَالَ مُجَاهِدٌ وَالرَّبِيعُ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ وَمِقَاتِلُ: مَعْنَى الزَّكَاةِ هُنَا النِّفْقَةُ فِي الطَّاعَاتِ، وَأَعَادَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُمَّ كَكِرُونَ﴾ تَوْكِيدًا.

٨ - ١٠ تفسير قوله عز وجل:

ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ حَالَةَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَادِلًا بِذَلِكَ حَالَةَ الْكُفَّارِ الْمَذْكُورِينَ لِتَبْيِينِ الْفَرْقِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿غَيَّرَ مَمَوَّنَ﴾، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: مَعْنَاهُ: غَيْرَ مَنْقُوصٍ، وَقَالَتْ فَرَقَةُ: مَعْنَاهُ: غَيْرَ مَقْطُوعٍ، يُقَالُ: مَنَنْتُ الْجَبَلَ إِذَا قَطَعْتَهُ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: غَيْرَ مُحْسُوبٍ؛ مُحْصُورٍ، فَهُوَ مُعَدَّدٌ لِأَنَّهُ يُمَنَّنُ بِهِ، وَيُظْهِرُ فِي آيَةِ أَنَّهُ وَصَفَهُ بِعَدَمِ الْمَنِّ وَالْأَدَى، وَمِنْ حَيْثُ هُوَ مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى فَهُوَ تَشْرِيفٌ لَا مَنٌّ فِيهِ، وَأَعْطِيَتِ الْبَشَرَ هِيَ الَّتِي يَدْخُلُهَا الْمَنُّ، وَقَالَ السُّدِّيُّ: نَزَلَتْ هَذِهِ آيَةُ فِي الْمَرَضِيِّ وَالرُّمْنِيِّ إِذَا عَجَزُوا عَنْ إِكْمَالِ الطَّاعَاتِ كُتِبَ لَهُمْ مِنَ الْأَجْرِ كَأَصْحٍ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.

ثُمَّ أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى نَبِيَّهُ ﷺ بِأَنْ يُوَقِّفَهُمْ مُؤَبَّحًا عَلَى كُفْرِهِمْ بِخَالِقِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَمَخْتَرِعِهِمَا، وَوَصَفَ صُورَةَ الْخَلْقِ وَمُدَّتَهُ، وَالْحِكْمَةَ فِي خَلْقِ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتِ فِي مَدَّةٍ مُتَّوِلَّةٍ مَعَ قُدْرَتِهِ عَلَى إِيجَادِهَا فِي حِينٍ وَاحِدٍ هِيَ إِظْهَارُ الْقُدْرَةِ فِي تَرْتِيبِ ذَلِكَ حَسَبِ شَرَفِ الْإِيجَادِ أَوْلًا أَوْلاً، قَالَ قَوْمٌ: لِيُعَلِّمَ عِبَادَهُ

التَّائِي فِي الْأُمُورِ وَالْمَهَلِّ. وَقَدْ تَقَدَّمَ الْقَوْلُ غَيْرَ مَرَّةٍ فِي نَظِيرِ قَوْلِهِ: ﴿أَهْتَكُمُ﴾، وَاخْتَلَفَ رِوَاةُ الْحَدِيثِ فِي الْيَوْمِ الَّذِي ابْتَدَأَ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ خَلْقَ الْأَرْضِ، فَرَوَى عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - وَغَيْرِهِ أَنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ هُوَ الْأَحَدُ، وَأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى خَلَقَ فِيهِ وَفِي الْاِثْنَيْنِ الْأَرْضَ، ثُمَّ خَلَقَ الْجِبَالَ وَنَحْوَهَا يَوْمَ الثَّلَاثَةِ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: فَمِنْ هُنَا قِيلَ: هُوَ يَوْمٌ ثَقِيلٌ، ثُمَّ خَلَقَ الثَّمَارَ وَالشَّجَرَ وَالْأَنْهَارَ يَوْمَ الْأَرْبَعَاءِ، وَمِنْ هُنَا قِيلَ: هُوَ يَوْمٌ رَاحَةٌ وَتَفَكُّرٌ فِي هَذِهِ الَّتِي خَلَقْتَ فِيهِ، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا يَوْمَ الْخَمِيسِ وَيَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَفِي آخِرِ سَاعَةٍ مِنْهُ خَلَقَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، قَالَ السُّدِّيُّ: وَسُمِّيَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ لِاجْتِمَاعِ الْمَخْلُوقَاتِ فِيهِ وَتَكَامُلِهَا. فَهَذِهِ رِوَايَةٌ فِيهَا أَحَادِيثٌ مَشْهُورَةٌ، وَلَمَّا لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ تَعَالَى يَوْمَ السَّبْتِ شَيْئًا امْتَنَعَ بَنُو إِسْرَائِيلَ مِنَ الشَّغْلِ فِيهِ، وَوَقَعَ فِي كِتَابِ مُسْلِمٍ أَنَّ أَوَّلَ يَوْمٍ خَلَقَ اللَّهُ فِيهِ الْبَرِيَّةَ يَوْمَ السَّبْتِ، ثُمَّ رَتَّبَ الْمَخْلُوقَاتِ عَلَى سِتَّةِ أَيَّامٍ، وَجَعَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ عَارِبًا مِنَ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا مِنْ آدَمَ وَحْدَهُ. وَالظَّاهِرُ مِنَ الْقَصَصِ فِي طِينَةِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَنَّ الْجُمُعَةَ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا آدَمُ قَدْ تَقَدَّمَتِهَا أَيَّامٌ وَجُمِعَ كَثِيرَةٌ، وَأَنَّ هَذِهِ الْأَيَّامَ الَّتِي خُلِقَ فِيهَا الْمَخْلُوقَاتِ هِيَ أَوَّلُ الْأَيَّامِ، لِأَنَّ بِلِإِيجَادِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ وَالشَّمْسِ وَجُدَّ الْيَوْمِ، وَقَدْ يَحْتَمَلُ أَنْ يَجْعَلَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَوْمَيْنِ﴾ عَلَى التَّقْدِيرِ وَإِنْ لَمْ تَكُنِ الشَّمْسُ خَلَقَتْ بَعْدَ

وَكَانَ تَفْصِيلُ الْوَقْتِ يُعْطَى أَنَّهَا الْأَحَدُ وَيَوْمَ الْاِثْنَيْنِ كَمَا ذُكِرَ.

و «الْاِثْنَادَا»: الْأَشْبَاهُ وَالْأَمْثَالُ، وَهَذِهِ إِشَارَةٌ إِلَى كُلِّ مَا عُبِدَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْأَصْنَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، قَالَ السُّدِّيُّ: أَكْفَاءٌ مِنَ الرِّجَالِ يَطِيعُونَهُمْ. «الرَّوَّاسِي» هِيَ الْجِبَالُ الثَّوَابِتُ، وَسَا الْجِبَلُ إِذَا ثَبَتَ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَزَكِّي فِيهَا﴾ أَيْ: جَعَلَهَا مُنْبَتَةً لِلطَّيْبَاتِ وَالْأَطْعَمَةِ، وَجَعَلَهَا طَهُورًا، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبِرِّكَةِ، وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَقَسَمَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا»، وَفِي مَصْحَفِ عُثْمَانَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «وَقَدَّرَ».

وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَقْوَاتَهَا﴾ - فَقَالَ السُّدِّيُّ: هِيَ أَقْوَاتُ الْبَشَرِ وَأَرْزَاقُهُمْ، وَأَضَافَهَا إِلَى الْأَرْضِ مِنْ حَيْثُ هِيَ فِيهَا وَعِنَهَا، وَقَالَ قَتَادَةُ: هِيَ أَقْوَاتُ الْأَرْضِ مِنَ الْجِبَالِ وَالْأَنْهَارِ وَالْأَشْجَارِ وَالصَّخُورِ وَالْمِعَادِنِ وَالْأَشْيَاءِ الَّتِي بِهَا قِوَامُ الْأَرْضِ وَمَصَالِحِهَا، وَرَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي هَذَا حَدِيثًا مَرْفُوعًا، فَشَبَّهَهَا بِالْقُوَّةِ الَّذِي بِهِ قِوَامُ الْحَيَوَانَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: أَرَادَ أَقْوَاتَهَا مِنَ الْمَطَرِ وَالْمِيَاهِ، وَقَالَ عِكْرَمَةُ، وَالضَّحَّاكُ، وَمُجَاهِدٌ أَيْضًا: أَرَادَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿أَقْوَاتَهَا﴾: خِصَائِضَهَا الَّتِي قَسَمَهَا فِي الْبِلَادِ، فَجَعَلَ فِي الْيَمَنِ أَشْيَاءَ لَيْسَتْ فِي غَيْرِهِ، وَكَذَلِكَ فِي الْعِرَاقِ وَالشَّامِ وَالْأَنْدَلُسِ وَغَيْرِهَا مِنَ الْأَنْطَارِ لِيَحْتَاجَ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ، وَيَتَقَوَّتُ مِنْ هَذِهِ فِي هَذِهِ مِنَ الْمَلَابِسِ وَالْمَطْعُومِ،

والإشارة بهذا كله إلى تسخيرها وما قدره الله تعالى من أعمالها. وقوله تعالى: ﴿أَوْ كَرِهًا﴾ فيه محذوف ومقتضب، والتقدير: أئتيها طوعاً وإلاً أئتيها كرهاً، وقوله تعالى: ﴿فَالْتَأَمَّتْ﴾ أراد الفرقتين المذكورتين، جعل تعالى السموات سماء والأرضين أرضاً، ونحو هذا قول الشاعر:

أَلَمْ يَخْزُنْكَ أَنْ حَبَالَ قَوْمِي
وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَنَّا نِقْطَاعًا؟

جعلها فرقتين وعبر عنهما بتبائنتا. وقوله: ﴿طَائِبِينَ﴾، لما كان ممن يقول - وهي حال من يعقل - جرى الضمير في ﴿طَائِبِينَ﴾ ذلك المجري، وهذا كقوله تعالى: ﴿رَأَيْتُمْ لِي سَجِيدًا﴾.

واختلف الناس في هذه المقالة من السماء والأرض - فقالت فرقة: نطقنا حقيقة، وجعل الله تعالى لهما حياة وإدراكاً يقتضي نطقهما، وقالت فرقة: هذا مجاز، وإنما المعنى أنهما ظهر فيهما من اختيار الطاعة والخضوع والتذلل ما هو بمنزلة قول: ﴿أئتيها طائِبِينَ﴾. والقول الأول أحسن لأنه لا شيء يدفعه، ولأن العبرة في أتم، والقدرة فيه أظهر.

وقوله تعالى: ﴿فَقَضَّيْنَهُنَّ﴾ معناه: فأوجدهن، ومنه قول أبي ذؤيب:

وَعَلَيْهِمَا مَسْرُودَتَانِ قَضَاهِمَا
دَاوُدُ أَوْ صَنَعُ السَّوَابِغِ تُبْعُ

وقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾ قال مجاهد، وفتادة: أوحى إلى سكانها وعمرتها من الملائكة وإليها هي في نفسها ما شاء الله تعالى من الأمور التي بها قوامها وصلاحتها، قال السدي، وفتادة: من الأمور التي

وأراد العبرة فيه، فإنه يجده كما قال عز وجل. وقال ابن زيد وجماعة: معناه: مُسَوِّمُهُنَّ أمر هذه المخلوقات ونفعها للمحتاجين إليها من البشر، فعبر عنهم بالسائلين، بمعنى الطالبين؛ لأنهم من شأنهم ولا بُدَّ طلب ما ينتفعون به، فهم في حكم من سأل هذه الأشياء؛ إذ هم بحال حاجة إليها. ولفظة «سواء» تجري مجرى «عذل» و«زور» في أن ترد على المفرد والجمع والمذكر والمؤنث.

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل:

﴿اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ﴾ معناه: بقدرته واختراعه، أي: إلى خلق السموات وإيجادها، وقوله تعالى: ﴿رُجِيءَ دَسَانٌ﴾ روي أنها كانت جسماً رخوياً كالدخان أو البخار، وروي أنه مما أمره الله أن يصعد من الماء، وهنا لفظ متروك يدل عليه الظاهر، وتقديره: فأوجدها وأتقنها وأكمل أمرها، وحينئذ قال لها وللأرض: ﴿أئتيها طوعاً أو كرهاً﴾. وقسراً الجمهور: ﴿أئتيها﴾ من أتى يأتي، ﴿فَالْتَأَمَّتْ أئتيها طائِبِينَ﴾ على وزن فعلننا، وذلك على معنى: ائتيها أوامري وإرادتي فيكما، وقرأ ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد: ﴿أتينا﴾، من أتى يُؤتي، ﴿فَالْتَأَمَّتْ أئتيها طائِبِينَ﴾ على وزن أفعلننا، وذلك بمعنى أعطينا من أنفسكما من الطاعة ما أردته منكما،

فَقَضَّيْنَهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَرَبَّآ السَّمَاءِ الَّتِي يُصَدِّقُ بِهَا مَنَظْمَةَ مَا نُنزِّلُ مِنَ الذِّكْرِ إِنَّهَا لَأَرْسُلُ فِيهَا سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ الْعَالَمِينَ ﴿١١﴾ فَإِنِ اعْرَضُوا فَعَلَّ أَنْذَرْنَاهُمْ صِعْقَةً مِّثْلَ صِعْقَةِ عَادٍ وَنُوحٍ ﴿١٢﴾ إِذْ جَاءَهُمُ الرُّسُلُ مِنْ رَبِّهِمْ أَنِ ابْتَدِئُوا بِخَلْقِهِمْ مِنَ الْآبَاءِ وَالْأُمَّهَاتِ قَالُوا هَلْ نُسَبَّ بِذُنُوبِ أُمَّاتِنَا أَمْ نَسَبُكَ اللَّهُ بِأَبَائِنَا إِذْ سَلِمُوا مِنَ الْإِنْتِزَاعِ مِنَ الْآبَاءِ الَّتِي هُمْ أَبْنَاؤُا وَنَحْنُ الْمَرْبُوعُونَ ﴿١٣﴾ فَأَمَّا عَادُ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَا أَشْدُّ عِقَابَهُ وَأَوْلَدَهُ أَتَىٰ آلَ اللَّهِ الَّذِينَ خَلَقَهُمْ هَؤُلَاءِ مِنْهُمُ قَوْمٌ كَانُوا يَتَّبِعُونَ آيَاتِنَا يَحْتَدُونَ ﴿١٤﴾ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ لِيَذِقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَىٰ لَهُمْ وَلَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا نُوحُ فَاهْتَدَىٰ فَهَدَيْنَاهُ إِلَى الشَّالِيمِ وَنُوحٍ وَآلِهِ فِي الْوَادِ الْمُحَدَّدِ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَلَمْ يَكْفُرُوا بِالْآيَاتِ الَّتِي كُنَّا نُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَسَجَّوْا بِهِ عَلَيْهِمْ أَغْصَانًا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ وَنُوحٍ وَآلِهِ فِي الْوَادِ الْمُحَدَّدِ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَلَمْ يَكْفُرُوا بِالْآيَاتِ الَّتِي كُنَّا نُنزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَسَجَّوْا بِهِ عَلَيْهِمْ أَغْصَانًا مِمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

وهذا نحو القول الأول إلا أنه بوجه أعم منه. وقوله تعالى: ﴿فِي أَيَّامٍ نَحِسَاتٍ﴾ يريد تعالى: باليومين الأولين، وهذا كما تقول: بنيت جدار داري في يوم، وأكملت جميعها في يومين، أي: بالأول.

وقرأ الحسن البصري، وأبو جعفر، وجمهور الناس: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب على الحال، أي: سواء هي وما انقضى فيها، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالرفع، أي: هي سواء، وقرأ الحسن، وابن أبي إسحق، وعيسى، وعمرو بن عبيد: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالخفض على نعت «الأيام». واختلف المتأولون في معنى «للسَّالِيمِينَ» - فقال فتادة، والسُّدي: معناه: سواء لمن سأل عن الأمر واستفهم عن حقيقة وقوعه

هي لغيرها مثل ما فيها من جبال البرد ونحوها، وأضاف الله تعالى الأمر إليها من حيث هو فيها.

ثم أخبر الله تعالى أن الكواكب زين بها السماء الدنيا، وذلك ظاهر اللفظ بحسب ما يقتضيه حس البصر، وقوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا﴾ منصوب بإضمار فعل، أي: وحفظناها حفظاً. وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى جميع ما ذكر، أي: أوجده بقدرته وعزته وأحكمه بعلمه.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فإن أعرضت قريش والعرب الذين دعوتهم إلى الله تعالى عن هذه الآيات البينات فأعلمهم أنك تحذرهم أن يصيبهم مثل العذاب الذي أصاب الأمم التي كذبت كما تكذب هي الآن، وقرأ جمهور الناس: ﴿صِغْفَةَ﴾ مثل صِغْفَةَ، وقرأ الشُّعبي، وأبو عبد الرحمن، وابن محيصن: ﴿صَغْفَةَ﴾ مثل صَغْفَةَ، فأما هذه القراءة الأخيرة ففيها المعنى بَيِّنٌ؛ لأن الصغفة: الهلاك للإنسان، وأما الأولى فالمعروف في الصاعقة أنها الوقعة الشديدة من صوت الرعد، وهي تكون معها في الأحيان قطعة نار، فَشَبَّهَتْ هنا وقعة العذاب بها لأن عاداً لم تُعَذَّبْ إلا بريح، وإنما هذا تشبيه واستعارة، وبالوقعة فسر هنا الصاعقة قتادة وغيره. وخصَّ تعالى عاداً وثموداً بالذكر لوقوف قريش على بلادها في اليمن والحجر بطريق الشام.

وقوله تعالى: ﴿مِنَ بَيْنِ يَدَيْهِمْ﴾ أي: قد تقدموا في الزمن واتصلت نذارتهم إلى أعمار عادٍ وثمود، وبهذا الاتصال قامت الحججة، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخَلِهِمْ﴾ أي: جاءهم رسول بعد اكتمال أعمارهم وبعد

تقدم وجودهم في الزمن، فلذلك قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخَلِهِمْ﴾ وجاء من مجموع العبارة إقامة الحججة عليهم في أن الرسالة والنبذة عمتهم خيراً ومباشرة، ولا يتوجه أن يجعل ﴿وَيَوْمَ نَخَلِهِمْ﴾ عبارة عما أتى بعدهم في الزمان؛ لأن ذلك لا يلحقهم منه تقصير، وأما الطبري رحمه الله تعالى فقال: إن الضمير في قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَخَلِهِمْ﴾ عائد على الرسل، والضمير في قوله تعالى: ﴿مِنَ بَيْنِ يَدَيْهِمْ﴾ على الأمم، وتابَّعه الثعلبي، وهذا غير قوي لأنه يُفَرَّقُ الضمائر ويشعب المعنى.

و [أَنَّ] في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَتَذَكَّرُوا﴾ نصب على إسقاط الخافض، التقدير: «بأن»، و﴿تَتَذَكَّرُوا﴾ مجزوم على النهي، ويتوجه أن يكون منصوباً على أن تكون [لا] نافية، وفيه بُعد، وكان من مقالات تلك الأمم إنكار بعثة البشر واستدعاء الملائكة، وهذه أيضاً كانت من مقالات قريش، وقولهم: ﴿فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ليس على جهة الإقرار بأنهم أرسلوا بشيء، وإنما معناه: على زعمكم ودعواكم.

ثم وصف تعالى حالة القوم، وأن عاداً طلبوا التكبر ووضعوا أنفسهم فيه بغير حق بل بالكفر والمعاصي، وعزَّتْهم قوتهم وعظم أبدانهم والنعم عليهم، فقالوا - على جهة التقرير -: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً؟﴾ أي: لا أحد أشد منَّا قُوَّةً، فعرض الله تعالى بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾، وهذا بَيِّنٌ في العقل، فإنَّ الموجد للشيء المخترع له المُذْهِب متى شاء أقوى منه، وأخبر تبارك وتعالى عنهم بجحودهم لآياته

المنصوبة للنظر والمنزلة من عنده؛ إذ لفظ الآية يعم ذلك.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

رُوي في الحديث أن الله تعالى أمر خزنة الريح ففتحوا على عادٍ منها قدر حلقة الخاتم، ولو فتحوا قدر منخر الثور لهلكت الدنيا، ورُوي أن الريح كانت ترفع العير بأوقارها فتطيرها حتى تطرحها بالبحر، وقال جابر بن عبدالله، والتميمي: حبس عنهم المطر ثلاثة أعوام، وإذا أراد الله بيقوم شراً حبس عنهم المطر، وأرسل عليهم الريح. واختلف الناس في الضَّرَصُ - فقال قتادة، والسدي، والضحاك: هو مأخوذ من الضُرُّ وهو البزد، والمعنى: ريحاً باردة لها صوت، وقال مجاهد: ضَرَصَر: شديدة السموم عليهم، وقال الطبري وجماعة من المفسرين: هو من ضَرَصَر إذا صَوَّت صوتاً يشبه الصاد والراء، وكذلك يجيء صوت الريح في كثير من الأوقات بحسب ما تلقى.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والأعرج، والحسن، والشُّعبي، وعيسى: ﴿فَنَحْسَاتٍ﴾ بسكون الحاء، وهي جمع نخس، يقال: يوم نخس وقوم نخس، فهو مصدر يوصف به أحياناً ويضاف إليه «اليوم» أحياناً، وعلى الصفة به جمع في هذه الآية، واحتج أبو عمرو لهذه القراءة بقوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ نَخَسٍ مَّتَّسِرٍ﴾، وقال الشُّعبي: نَحْسَاتٌ وليست بِنَحْسَاتٍ بكسر الحاء، وقرأ الباقون، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو رجاء، وقتادة، والجحدري، والأعمش: ﴿نَحْسَاتٍ﴾ بكسر الحاء، وهي جمع نخس على

والسدي، وابن زيد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ليس الهدى هنا بمعنى الإرشاد، وهذا كما هي الآن شريعة الإسلام مبينة لليهود والنصارى المختلطين بنا، ولكن يعرضون ويشتغلون بالضد، فذلك استحباب العمى على الهدى. وقوله تعالى: ﴿فَاسْتَجِبُوا أَمْرِي عَلَى الْهُدَى﴾ عبارة عن تكسبهم في العمى، وإلا فهو بالاختراع لله تعالى: ويدلك على أنها إشارة إلى تكسبهم قوله تعالى: ﴿يَمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿الْعَذَابِ الْمُؤَنِّهِ﴾ وصف بالمصدر، والمعنى: الذي معه هوان وإذلال، ثم قرن تعالى بذكرهم ذكر من آمن واتقى ونجا به لِيَبَيِّنَ الفرق.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ﴾ نصب بإضمار فعل تقديره: واذكر يوم. وقرأ نافع وحده، والأعرج، وأهل المدينة: ﴿نَحْشُرُ﴾ بالنون ﴿أَعْدَاءُ﴾ بالنصب، إلا أن الأعرج كسر الشين. وقرأ الباقون: ﴿يُحْشِرُ﴾ بالياء المرفوعة ﴿أَعْدَاءُ﴾ رفعا، وهي قراءة الأعمش، والحسن، وأبي رجاء، وأبي جعفر، وقتادة، وعيسى، وطلحة، ونافع. فيما روي عنه - وحجتهم ﴿بُورِشُونَ﴾. و﴿أَعْدَاءُ اللَّهِ﴾ هم الكفار المخالفون لأمره، و﴿بُورِشُونَ﴾ قال قتادة وأهل اللغة: يُكْفَى أَوْلَاهُمْ حيساً على آخرهم، وفي حديث أبي قحافة يَوْمَ الْفَتْحِ: (ذلك الوازع)، وقال الحسن البصري: لا بُدَّ للقاضي من وَرْعة، وقال أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه: إني لا أؤيد من

يُجِيلُ شَفِيفُهَا الْمَاءُ
الزُّلَا

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿نَحْسَاتٍ﴾ معناه: متتابعات، وكانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء. و﴿عَذَابِ الْخِزْيِ فِي الدُّنْيَا﴾: الهلاك بسبب الكفر ومخالفة أمر الله تعالى، ولا خزي أعظم من هذا إلا ما في الآخرة من الخلود في النار.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَمَّا تُمُودٌ﴾ بغير صرف، وهذا على إرادة القبيلة،

وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش، وبكر بن حبيب: ﴿وَأَمَّا تُمُودٌ﴾ بالتنوين والإجراء، وهذا على إرادة الحي، وبالصرف كان الأعمش، ويحيى بن وثاب يقرآن في جميع القرآن إلا في قوله تعالى: ﴿وَأَيُّهَا تُمُودُ الْأَنْفَاقَةِ﴾ لأنه في المصحف بغير ألف. وقرأ ابن أبي إسحق، والأعرج - بخلاف - والأعمش، وعاصم: ﴿تُمُودٌ﴾ بالنصب، وهذا على إضمار فعل يدل عليه قوله تعالى: ﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾، وتقديره عند سيبويه: مهما يكن من شيء فهدينا تُمود هديناهم، والرفع عنده أوجه، ورُوي عن ابن أبي إسحق، والأعمش: ﴿تُمُوداً﴾ منونة منصوبة، وروى المفضل عن عاصم الوجهين.

وقوله تعالى: ﴿فَهَدَيْتَهُمْ﴾ معناه: بيئنا لهم، قاله ابن عباس، وقتادة،

وَقَالُوا الْجُودِيَّةَ لَمْ يَشْهَدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٩﴾ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَوُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنْتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرَدْتُمْ أَنْ تُصَبِّحْتُمْ مِنَ الْخَيْرِينَ ﴿٢١﴾ فَإِنْ بَصُرُوا قَالَ تَارَ مُتَى لَكُمْ وَإِنْ بَسَعْتُمْ أَوْ قَامْتُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ ﴿٢٢﴾ وَقَضَّيْنَاهُمْ قِرَاءَةَ فَرِيضَتِهِمْ بِأَيِّ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلَعْنَاهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمُورِكُمْ فَخَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْإِنْسِ أُنْهُمُ كَانُوا آخِزِينَ ﴿٢٣﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالنَّوْفَالِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٤﴾ فَلَنْدِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَذَابًا شَدِيدًا وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَشْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ جَزَاءُ أَعْدَاءِ اللَّهِ النَّارُ لَكُمْ فِيهَا دَارُ الْخُلْدِ جَزَاءُ مِمَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ ﴿٢٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَرَأَيْتُمْ أَصْلَابًا مِنَ الْإِنْسِ وَالْإِنْسُ يَجْعَلُهَا مَعْتَدًا قَدْ امْتَلَأَتْ كُفْرًا وَالْأَسْفَلِينَ ﴿٢٧﴾

وزن حذِر، فهو صفة اليوم مأخوذ من النَّحْسِ، وقال الطبري: نَحْسٌ ونَحْسٌ لغتان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس كذلك، بل اللُّغة الواحدة تجمعها، أحدهما مصدرٌ والآخر من أمثلة اسم الفاعل، وأُشْدُ الفراء:

أَبْلِيغٌ جُدَامًا وَلَخْمًا أَلَّ إِخْوَتَهُمْ طِيًّا وَيَهْرَاءَ قَوْمٌ تَضْرَهُمْ نَحْسٌ وقالت فرقة: إن «نَحْسَاتٍ» بالسكون مخففة من «نَحْسَاتٍ» بالكسر، والمعنى في هذه اللفظة: مشائيم، من النَّحْسِ المعروف، قاله مجاهد، وقتادة، والسدي. وقال الضحاك: معناه: شديدة، أي: شديدة البرد حتى كان البرد عذاباً لهم، قال أبو علي: وأُشْدُ الأَصمعي في النَّحْسِ بمعنى البرد:

كَأَنَّ سُلَاقَةَ عُرِضَتْ لِنَحْسِ

وَرَّعَهُ اللهُ تَعَالَى.

و ﴿حَقَّ﴾ غاية لهذا الحشر المذكور، وهذا وصف حال من أحوالهم في بعض أوقات القيامة، وذلك عند وصولهم إلى جهنم، فإن الله تعالى سيقررهم عند ذلك على أنفسهم، ويُسألون سؤال توبيخ عن كفرهم، فينكرون ذلك ويحسبون أن لا شاهد، ويظنون السؤال سؤال استفهام واستخبار، فينطق الله تعالى جوارحهم بالشهادة عليهم، فروي عن النبي ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا يَنْطِقُ مِنَ الْإِنْسَانِ فَخْذَهُ الْيَسْرَى، ثُمَّ تَنْطِقُ الْجَوَارِحُ، فَيَقُولُ الْكَافِرُ: تَبَّ لَكَ أَيَّتُهَا الْأَعْضَاءُ فَعَنَكَ كُنْتُ أَدْفَعُ»، وفي حديث آخر: «يَجِيثُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَى أَفْوَاهِهِمُ الْفَدَامُ فَيَتَكَلَّمُ الْفَخْذُ وَالْكَفُّ».

ثم ذكر تعالى محاورتهم لجلودهم في قولهم: ﴿لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا﴾، أي: وعذابنا عذاب لكم، واختلف الناس، ما المراد بالجلود؟ فقال جمهور الناس: هي الجلود المعروفة، وقال عبيد الله بن أبي جعفر: كئى بالجلود عن الفروج وإيأها أراد، وأخبر الله تعالى أن الجلود ترد جوابهم بأن الله تعالى الخالق المبديء المعيد هو الذي أنطقهم، وقوله تعالى: ﴿أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ يريد: كل شيء ناطق، مما هي فيه عادة أو خرق عادة.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَعْتِرُونَ﴾، يحتمل أن يكون من كلام الجلود ومحاورتها، ويحتمل أن يكون من كلام الله عز وجل لهم، أو من كلام ملك بأمره، وأما المعنى

فيحتمل وجهين: أحدهما أن يريد: وما كنتم تتصاوتون وتحجزون أنفسكم عن المعاصي والكفر خوف أن يُشهد، أو لأجل أن يُشهد، ولكنكم ظنتم أن الله سبحانه لا يعلم فانهمكتم وجاهرتهم، وهذا هو منحنى مجاهد، والشتر ينصرف على هذا المعنى ونحوه، ومنه قول الشاعر:

وَالسُّتْرُ دُونَ الْفَاجِشَاتِ وَمَا
يَلْقَاكَ دُونَ الْخَيْرِ مِنْ سِتْرِ
والمعنى الثاني أن يريد: وما كنتم تمتنعون وما يمكنكم ولا يسعكم الاختفاء عن أعضائكم والاستتار عنها بكفركم ومعاصيكم، ولا تظنون أنها تصل بكم إلى هذا الحد، وهذا هو منحنى السدي، كأن المعنى: وما كنتم تدفعون بالاختفاء والستر أن تشهد؛ لأن الجوارح لزيمة لكم،

وفي إلزامه إيأهم الظن بأن الله لا يعلم إلزامهم الكفر والجهل بالله تعالى، هذا المعتقد يؤدي بصاحبه إلى تكذيب أمر الرسل، واحتقار قدرة الله تعالى لا رب غيره، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَلَكِنْ زَعَمْتُمْ أَنَّ اللَّهَ، وَحَكَى الطَّبْرِي عَنْ قَتَادَةَ أَنَّهُ عَبَّرَ بِـ ﴿تَسْتَعْتِرُونَ﴾ عَنْ «تَطْطُونَ»، وذلك تفسير لم ينظر فيه إلى اللفظ ولا ارتبط فيه معه، وذكر الطبري وغيره حديثاً عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: إني لمُستَتِرٌ بأستار الكعبة إذ دخل ثلاثة نفر، قرشيان وثقفي، أو ثقفيان وقرشي، قليل فقه قلوبهم، كثير شحم بطونهم، فتحدثوا بحديث، فقال أحدهم: أترى الله يسمع ما قلنا؟

قال الآخر: إنه يسمع إذا رفعنا ولا يسمع إذا أخفينا، وقال الآخر: إن كان يسمع شيئاً منه فإنه يسمعه كله، فجنحت رسول الله ﷺ وأخبرته بذلك، فنزلت: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَعْتِرُونَ﴾ الآية، فقرأ حتى بلغ ﴿وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا لَهُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾، وذكر النقاش أن الثلاثة: صفوان بن أمية، وفرقد بن ثعامة، وأبو فاطمة، وذكر الثعلبي أن الثقفى عبد باليل، والقرشيين خنساء: ربيعة وصفوان ابنا أمية بن خلف.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويشبه أن يكون هذا بعد فتح مكة، فالآية مدنية، ويشبه أن رسول الله ﷺ قرأ الآية متمثلاً بها عند إخبار عبدالله إياه، والله تعالى أعلم.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿ذَلِكُمْ﴾ رفع بالابتداء، والإشارة به إلى قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ﴾، قال قتادة: الظن ظنان، ظن منج وظن مهلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فالمنجى هو أن يظن الموحد العارف بربه تعالى أن الله تعالى يرحمه، والمهلك ظنون الكفرة الجاهلين على اختلافها، وفي هذا المعنى ليحيى بن أكثم رؤيا حسنة مؤنسة، ﴿ظَنُّكَ﴾ خبر ابتداء.

وقوله تعالى: ﴿أَرَدْتُمْ أَنْ يَكُونَ خَبيراً بعد خبر، وجوز الكوفيون أن يكون في موضع الحال، والبصريون لا يجوزون وقوع الماضي حالاً إذا اقترن بقَدِّ، تقول: رأيت زيدا قد قام، وقد يجوز

والمعنى يتأذى بالحرفين، ولا نحتاج إلى أن نجعل حرفاً بمعنى حرف إذ قد أبى ذلك رؤساء البصريين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ﴾ حكاية لما فعله بعض قريش كأبي جهل وغيره، وذلك أن رسول الله ﷺ كان يقرأ

القرآن في المسجد الحرام ويصغي إليه الناس من مؤمن وكافر، فخشى الكفار استمالة القلوب بذلك فقالوا:

متى قرأ محمد فلتنغط نحن بالمكأه والصفير والصياح وإنشاد الشعر والأرجاز حتى يخفى صوته ولا يقع

الاستماع منه، وهذا الفعل منهم هو اللغو، وقال أبو العالية: أرادوا: قوما فيه وعيوبه، واللغو في اللغة:

سقط القول الذي لا معنى له، أو هو من الحاسة والتطوّل في حكم ما لا معنى له، وقرأ جمهور: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾

بفتح الغين وجزم الواو، وقرأ بكر بن حبيب السهمي: ﴿وَالْقُرْآنِ﴾ بضم الغين وسكون الواو، ورويت

عن عيسى، وابن أبي إسحاق - بخلاف عنهما - وهما لغتان، يقال: لَغَا يَلْغُو، ويقال: لَغِيَ يَلْغَى، ويقال أيضاً: لَغَا يَلْغَى، أصله يَفْعَل - بكسر

العين - فرده حرف الحلق إلى الفتح، فالقراءة الأولى من يَلْغَى، والقراءة الثانية من يَلْغُو، قاله الأخفش.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا كَفَرَ تَكْفِيرًا﴾ أي: تطمسون أمر محمد ﷺ وتُميتون ذكره وتصرفون القلوب عنه، فهذه

الغلبة التي تَمُوتُها.

(٢٧) - (٢٨) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَلْيَدْعُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾، الفاء دخلت على لام

لأنهم فارقوا الدنيا دار الأعمال، كما قال عليه الصلاة والسلام: «ليس بعد الموت مُسْتَعْتَبٌ»، ويحتمل أن تكون هذه القراءة بمعنى: ولو رُذِّا لعادوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ.

ثم وصف عز وجل حالهم في الدنيا وما أصابهم حين أعرضوا فحتم عليهم.

﴿وَقَفَّضْنَا﴾ أي: يسرنا لهم قُرئساء سوء من الشياطين وغواة الإنس،

وقوله سبحانه: ﴿فَرِيئُوا لَهُمْ مِمَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾، أي: علّموهم وقرّروا في

نفوسهم معتقدات سوء في الأمور التي تقدمتهم: من أمر الرُّسل عليهم السلام، والثبوتات، ومدح عبادة الأصنام، وأتباع فعل الآباء إلى غير ذلك مما يقال فيه: «إنه بين أيديهم»، وذلك كل ما تقدمهم في

الزمن واتصل إليهم أثره أو خبره، وكذلك أعطوهم معتقدات سوء فيما خلفهم، وهو كل ما يأتي بعدهم من

أمر القيامة والبعث ونحو ذلك مما يقال فيه: «إنه خلف الإنسان»، فزينا لهم في هذين كل ما يُرديهم

ويضي بهم إلى عذاب جهنم. وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾

أي: سبق القضاء الحتم وأمر الله بتعذيبهم في جملة أمم كُفَّار مُعْتَدِّين من الجن والإنس، وقالت فرقة:

[في] بمعنى «مَعَّ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَفْتَمُوا تَنْزِيلَ عَلَيْهِمُ الْمَلَكِ كَيْفَ الْأَلْحَاؤُفِ وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٢٧﴾ تَحْنُ أَوْلِيَاؤَكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهَى أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدْعُونَ ﴿٢٨﴾ تَزُولُ مِنْ عَفْوَ رَبِّكُمْ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ فَوْلاً يَمُنُّ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣١﴾ وَمَا يَلْقَئُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يَلْقَئُهَا إِلَّا الَّذِينَ هُمْ عَظِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَإِنَّمَا يَرْتَدُّ عَنْكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَجْوً فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٤﴾ فَإِن اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُمُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ ﴿٣٥﴾

تقديرها عندهم وإن لم تظهر، ومعنى ﴿أَرَدْتُمْ كُرْ﴾: أهلككم، والردي: الهلاك.

وقوله تعالى: ﴿فَإِن يَصَّبِرُوا﴾ مخاطبة لمحمد ﷺ، والمعنى: فإن يصبروا أو لا يصبروا، واقتصر لدلالة الظاهر على ما ترك، و«المثوى»: موضع الإقامة. وقرأ جمهور الناس:

﴿يَسْتَعْتَبُونَ﴾ بفتح الياء وكسر التاء الثانية على إسناد الفعل إليهم، ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ بفتح التاء، على:

وإن يطلبوا العتبي - وهي الرضى - فما هم ممن يعطاها ويستوجبها، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد، وموسى الأسواري: ﴿يُسْتَعْتَبُوا﴾

بضم الياء وفتح التاء الثانية، ﴿فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ﴾ بكسر التاء، على

معنى: وإن طلب عندهم خير أو صلاح فما هم ممن يوجد عندهم؛

القَسَم، وهي آية وعيد لقريش، و«العذاب الشديد» هو عذاب الدنيا في بئس وغيرها، و«الجزاء بأسوأ أعمالهم» هو عذاب الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى الجزاء المتقدم، و﴿جَزَاءٌ﴾ خبر الابتداء، و﴿النَّارُ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ﴾، ويجوز أن يكون ﴿ذَلِكَ﴾ خبر ابتداء تقديره: الأمر ذلك، ويكون قوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ﴾ ابتداء و﴿النَّارُ﴾ خبره. وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ﴾ أي: موضع البقاء وسكن العذاب الدائم، فالظرفية فيه متمكنة على هذا التأويل، ويحتمل أن يكون المعنى: هي لهم دار الخلد، ففي قوله: ﴿فِيهَا﴾ معنى التحديد، كما قال الشاعر:

.....
وفي الله إن لم تُنصِفُوا حَكَمَ عَدْلُ
وفي قراءة عبدالله بن مسعود:
﴿ذَلِكَ جَزَاءُ أَصْدَاءِ اللَّهِ السَّارِ دَارُ
الْخُلْدِ﴾، وسقط: ﴿لَهُمْ فِيهَا﴾،
وجحودهم بآيات الله تعالى مطرد في
علاماته المنصوبة لخلقه، وفي آيات
كتابه المنزلة على نبيه ﷺ.

ثم ذكر الله عز وجل مقالة كفار يوم
القيامة إذ دخلوا النار، فإنهم يرون
عظيم ما حل بهم وسوء منقلبهم،
فتجول أفكارهم فيمن كان سبب
غوايتهم وبادئ ضلالهم، فيعظم
غيبظهم وحنقهم عليه، ويودون أن
يحصل في أشد العذاب، فحينئذ
يقولون: ﴿رَبَّنَا أَرِنَا الَّذِي أَضَلَّانَا﴾،
وظاهر اللفظ يقتضي أن «الذي» في

قولهم: ﴿الَّذِي﴾ إنما هو
للجنس، أي: أَرِنَا كُلَّ مُعُوٍّ مِنَ الْجَنِّ
وَالْإِنْسِ، وهذا قول جماعة من
المفسرين، وقال علي بن أبي طالب
رضي الله عنه، وقاتدة: طلبوا ولد
آدم الذي سنَّ القتل والمعصية من
البشر، وإبليس الأبالسة من الجن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وتأمل هذا، هل يصح عن علي بن
أبي طالب رضي الله عنه؟ لأن ولد
آدم مؤمن عاصٍ، وهؤلاء إنما طلبوا
المُضْلِينَ بالكفر المؤدي إلى الخلود،
وإنما القوي أنهم طلبوا النوعين،
وقد أصلح بعضهم هذا القول بأن
قال: يطلب ولد آدم كل عاصٍ دخل
النار من أهل الكباير، ويطلب إبليس
كل كافر، ولفظ الآية يزحم هذا
التأويل؛ لأنه يقتضي أن الكفار إنما
طلبوا اللذنين أضلاً.

وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي:
﴿أَرِنَا﴾ بكسر الراء، وهي رؤية عين،
ولذلك فعل هو متعد إلى مفعولين،
وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر
عن عاصم: ﴿أَرِنَا﴾ بسكون الراء،
فقال هشام ابن عمار عن عامر: هي
خطأ، وقال أبو علي: هي مخففة من
﴿أَرِنَا﴾ كما قالوا: ضحك وفخذ،
وقرأ أبو عمرو بإشمام الراء الكسر،
ورويت عن أهل مكة. وقولهم:
﴿تَجَعَّلَهُمَا تَحْتِ أَقْدَامِنَا﴾ يريدون: في
أسفل طبقة في النار، وهي أشد
عذاباً، وهي ذك المنافقين.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي كَانُوا
رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ الآية... آية
وعُد للمؤمنين، قال سفيان بن
عبدالله الثقفني: (قلتُ للنبي عليه

الصلاة والسلام: أخبرني بأمر
أعتصم به، فقال: «قل ربِّي الله ثم
استقم»، قلت: ما أخوف ما تخاف
علي؟ فأخذ رسول الله ﷺ بلسان
نفسه وقال: «هذا».

واختلف الناس في مقتضى قوله
تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَقَمُوا﴾ - فذهب
الحسن، وقاتدة، وجماعة إلى أن
معناه: استقاموا بالطاعات واجتتاب
المعاصي. وتلا عمر بن الخطاب
رضي الله عنه هذه الآية وهو على
المنبر ثم قال: استقاموا - والله - الله
تعالى بطاعته، ولم يروغوا وروغان
الثعالب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ذهب رضي الله عنه إلى حمل الناس
على الأثم الأفضل، وإلا فَيَلْزَمُ -
على هذا التأويل - من دليل خطابه
ألا تنتزل الملائكة عند الموت على
غير مستقيم على الطاعة. وذهب أبو
بكر الصديق رضي الله عنه وجماعة
معه إلى أن المعنى: ثم استقاموا
على قولهم: ﴿رَبَّنَا اللَّهُ﴾، فلم يَحْتَلْ
توحيدهم ولا اضطراب إيمانهم،
وروي أنس بن مالك أن
رسول الله ﷺ قرأ هذه الآية وقال:
«قد قالها الناس ثم كفر أكثرهم،
فمن مات عليها فهو ممن استقام».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
المعنى: هو في أول درجات
الاستقامة، أمن الخلود، فهذا كقوله
عليه الصلاة والسلام: «من كان آخر
كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»،
وهذا هو المعتقد إن شاء الله تعالى،
وذلك أن العصاة من أمة محمد ﷺ
وغيرها فرقتان: فأما من قضى الله

تعالى بالمغفرة له وترك تعذيبه فلا محالة أنه ممن تنزل عليه الملائكة بالبشارة، وهو إنما استقام على توحيد فقط، وأما من قضى الله تعالى بتعذيبه مدة ثم بإدخاله الجنة فلا محالة أنه يلقي جميع ذلك عند موته ويعلمه، وليس يصح أن تكون حاله كحالة الكافر اليائس من رحمة الله تعالى، وإذا كان هذا فقد حصلت له البشارة بالأل يخاف الخلود ولا يحزن منه، وبأنه يصير آخراً إلى الخلود في الجنة، وهل العصاة المؤمنون إلا تحت الوعد بالجنة؟ فهم داخلون فيمن يقال لهم: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾، ومع هذا كله فلا يختلف في أن الموحّد المستقيم على الطاعة أنتم حالاً وأكمل بشارة، وهو مقصد أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وعلى نحو ذلك قال سفيان الثوري: ﴿اسْتَقْمُوا﴾: عملوا بنحو ما قالوا، وقال الربيع: أعرضوا عما سوى الله تعالى، وقال الفضل: زهدوا في الفانية ورغبوا في الباقية، وبالجملة فكلمة كان المرء أشد استعداداً كان أسرع فوزاً بفضل الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿أَلَا تَحْقِرُونَ﴾ ولا تحزبوناً، أمنة عامة في كل هم مستأنف، وتسلية تامة عن كل فائت ماض، وقد قال مجاهد: المعنى: لا تخافوا ما تقدمون عليه، ولا تحزنوا على ما خلفتم من دنياكم، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿تنزل عليهم الملائكة لا تخافوا﴾ بإسقاط الألف، بمعنى: يقولون لا تخافوا.

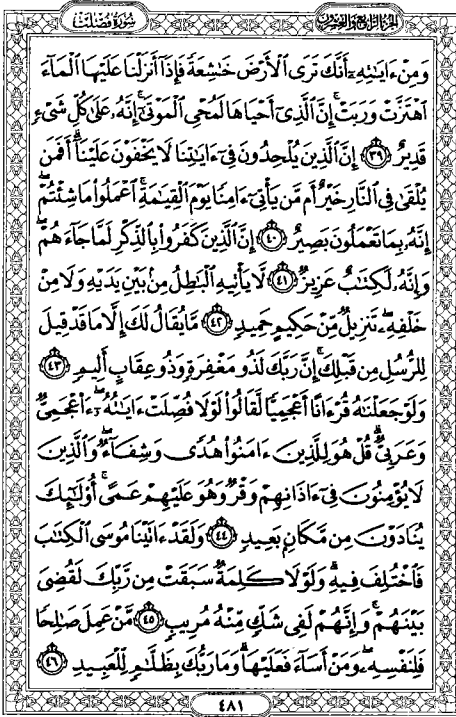
﴿٣١﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: المتكلم بـ ﴿تَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ﴾ هم الملائكة القائلون: ﴿أَلَا تَحْقِرُونَ﴾ ولا تحزبوناً، أي: يقولون للمؤمنين عند الموت وعند مشاهدة الحق: نحن كنا أولياءكم في الدنيا ونحن هم في الآخرة، قال السدي: المعنى: نحن حفظتكم في الدنيا وأولياؤكم في الآخرة. والضمير في قولهم: ﴿فِيهَا﴾ عائد على الآخرة، ﴿وَتَدْعُونَ﴾ معناه: تطلبون. ﴿وَنَزَلَا﴾ نصب على المصدر، وقراءة الجمهور بضم الزاي، وقرأ أبو حيرة بإسكانها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا﴾ الآية... ابتداء توصية لمحمد ﷺ، وهو لفظ يعم كل من دعا قديماً وحديثاً إلى الله تبارك وتعالى وإلى طاعته من الأنبياء عليهم السلام ومن المؤمنين، والمعنى: لا أحد أحسن ممن هذه حاله، وإلى العموم ذهب الحسن، ومقاتل، وجماعة، ويبيّن أن حالة محمد ﷺ كانت كذلك مبرزة، وإلى تخصيصه في الآية ذهب السدي، وابن زيد، وابن سيرين، وقال قيس بن أبي حازم، وعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، وعكرمة: نزلت هذه الآية في المؤذنين، قال قيس: ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ هو الصلاة بين الأذان والإقامة، وذكر النقاش ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومعنى القول بأنها في المؤذنين أنهم داخلون فيها، وأما نزولها فمكّية بلا خلاف، ولم يكن بمكة أذان، وإنما

ترتّب بالمدينة، وإن الأذان لمن الدعاء إلى الله تعالى، ولكنه جزء منه، والدعاء إلى الله تعالى بقوة كجهاد الكفار وردع الطغاة وكف الظلمة وغيره أعظم عناء من تولي الأذان؛ إذ لا مشقة فيه، والأصوب أن يعتقد أن الآية نزلت عامة، قال زيد بن علي: المعنى: ممن دعا إلى الله تعالى بالسيف. وقرأ الجمهور: ﴿إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ بنونين، وقرأ ابن أبي عبله: ﴿إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ بنون واحدة، وقال الفضيل بن ربيعة: كنت مؤذناً في أصحاب ابن مسعود، فقال لي عاصم بن هبيرة: إذا أكملت الأذان فقل: إِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ، ثم تلا هذه الآية.

ثم وعظ الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام، ونبهه على أحسن مخاطبة، فقرر أن الحسنة والسيئة لا تستوي، أي: فالحسنة أفضل، وكبر [لا] في قوله تعالى: ﴿وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ تأكيداً ليدل على أن المراد: «ولا تستوي الحسنة والسيئة ولا السيئة والحسنة» فحذف اختصاراً ودلت [لا] على هذا الحذف. وقوله تعالى: ﴿أَدْعُ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ آية جمعت مكارم الأخلاق وأنواع الحلم، والمعنى: ادفع أمورك وما يعرض لك مع الناس ومخالطتك لهم بالفعل أو بالسيرة التي هي أحسن الفعلات والسير، فمن ذلك بذل السلام، وحسن الأدب، وكظم الغيظ، والسماحة في القضاء والافتضاء، وغير ذلك. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إذا فعل



﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

[إِذَا] شرط، وجواب الشرط قوله تعالى: ﴿فَأَسْتَعِذُّ﴾. «والسُّزُغُ»: فعل الشيطان في قلب أو يد، من إلقاء غضب أو جفد أو بطش في اليد، فمن الغضب هذه الآية، ومن الحقد قوله تعالى: ﴿نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْتِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، ومن البطش قول النبي ﷺ: «لا يُشْر أحدكم على أخيه بالسلاح لا ينزع الشيطان في يده فيلقيه في حفرة من حُفر النار»، وندب الله تعالى

المؤمن هذه الفضائل عصمه الله تعالى من الشيطان، وخضع له عدوه، وفَسَّر مجاهد وعطاء هذه الآية بالسلام عند اللقاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أن السلام هو مبدأ الدفع بالتي هي أحسن، وهو جزء منه. ثم قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَيِيٌّ﴾، فدخل كاف التشبيه لأن الذي عنده عداوة لا يعود ولياً حميماً، وإنما يَحْسُن ظاهره فيشبه بذلك الوليِّ الحميم، و«الْحَمِيمُ» هو القريب الذي يَحْتَمُّ للإنسان، والضمير في قوله تعالى: ﴿يُلْقِيهَا﴾ عائذ على هذه الخلق التي يتضمنها قوله تعالى: ﴿وَأَدْفَعُ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وقالت

فرقة: المراد: وما يُلْقَى لا إله إلا الله، وهذا تفسير لا يقتضيه اللفظ. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا﴾ مدح ببلغ للصبر، وذلك بين للتأمل؛ لأن الصبر على الطاعات وعن الشهوات جامع لخصال الخير كلها. و«الْحَطَّ العَظِيمُ» يحتمل أن يريد: من العقل والفضل، فتكون الآية مدحاً، وروي أن رجلاً شتم أبا بكر الصديق رضي الله عنه بحضرة النبي ﷺ، فسكت أبو بكر ساعة، ثم جاش به الغضب فرد على الرجل، فقام النبي ﷺ، فاتبعه أبو بكر وقال: يا رسول الله قمت حين انتصرت؟ فقال: «إنه كان يرُدُّ عنك ملك، فلما قُربت تنصرت ذهب الملك وجاء الشيطان، فما كنت لأجالسه»، ويحتمل أن يريد: ذو حظ من الجنة وثواب الآخرة، فتكون الآية وعداً، وبالجملة فسَّر قتادة «الْحَطَّ» هنا.

في ﴿خَلَقَهُنَّ﴾ قالت فرقة: هو عائذ على الآيات المتقدم ذكرها، وقالت فرقة: الضمير عائذ على الشمس والقمر، والاثنان جمع، وجمع ما لا يعقل يؤنث، فلذلك قال: ﴿خَلَقَهُنَّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومن حيث يقال: شمس وأقمار لا اختلافهما بالأيام ساع أن يعود الضمير مجموعاً، وقالت فرقة: هو عائذ على الأربعة المذكورة، وشأن الضمير ما لا يعقل إذا كان العدد أقل من العشرة أن يجيء هكذا، فإذا زاد أُرِد مؤنثاً، فنقول: الأجذاع انكسرت والجذوع انكسرت، ومنه ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ﴾ الآية، ومنه قول حسان بن ثابت:

.....
وَأَسْيَافُنَا يَفْطُرُنَ مِنْ نَجْدَةٍ دَمَا

في هذه الآية المتقدمة إلى مكارم الأخلاق بالدفع بالتي هي أحسن، ثم أننى تعالى على من لقيها ووعده، وعَلِمَ أَنَّ خَلْقَةَ الْبَشَرِ تَغْلِبُ أحياناً وتشور بهم ثورة الغضب ونزع الشيطان، فذلهم على مُذْهِب ذلك وهي الاستعاذة به عز وجل.

ثم عدد الله تعالى آياته ليعتبر فيها من صدف عن التوحيد، فذكر الليل والنهار، وذكرهما يتضمن ما فيهما من الطول والقصير والتداخل والاستواء في مواضع وسائر عبرهما، وكذلك ذكر الشمس والقمر مَخْتَصِمٌ عجائبهما وحكمة الله تعالى فيهما ونفعه عباده بهما، ثم قال تعالى: لا تسجدوا لهذه المخلوقات وإن كانت تنفعكم؛ لأن النفع بها إنما هو بتسخير الله تعالى إياها فهو الذي ينبغي أن يُسجد له، والضمير

وقال السموأل:

وَلَا عَيْبَ فِينَا غَيْرَ أَنْ سُبُوْنَا
بِهَا مِنْ قِرَاعِ الدَّارِعِينَ قُلُوبُ
وهذا متهج كثير وإن كان قد يوجد
الأمر متداخلاً بعبه على بعض.

ثم خاطب الله تعالى نبيه ﷺ بما
يتضمن وعيدهم وحقارة أمرهم،
وأن الله تعالى غير محتاج إلى
عبادتهم بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ
أَسْتَكْبَرُوا﴾ الآية، وقوله تعالى:
﴿فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾ يعني بهم
الملائكة وهم صافئون يسبحون،
و﴿عِنْدَ﴾ في هذه الآية ليست بظرف
مكان، وإنما هي بمعنى المنزلة
والقربة، كما تقول: زيد عند الملك
جليل، وفي نفسه رفيع، ويروى أن
تسبيح الملائكة قد صار لهم كالتسبيح
لابن آدم، و﴿يَسْتَمُونَ﴾ معناه:
يملون.

ثم ذكر تعالى آية منصوبة ليُعتبر بها
في أمر البعث من القبور، ويستدل
بما شوهد من هذه الآية على ما لم
يشاهد بعد من تلك، وهي آية يراها
عياناً كل مفطور على عقل.
و«خشوع الأرض» هو ما يظهر عليها
من استكانة وشعث بالجذب وضيئهم
السَّموم، فهي عابسة كما الخاشع
عابس يكاد يبكي، و«الماء المنزل»
هو المطر، و«اهتزاز الأرض» هو
تخلخل أجزائها بالماء وتشققها
للنبات، و«زُبُوحًا» هو انتفاخها بالماء
وعلو سطحها به، وقرأ الجمهور:
﴿وَرَبَّتْ﴾ وقرأ أبو جعفر بن القعقاع:
﴿وَرَبَّتْ﴾ بألف مهموزة، ورواها
الرواسي عن أبي عمرو، وهو أيضاً
بمعنى: علَّت وارتفعت، ومنه الربيثة

وهو الذي يرتفع حين يرصد للقوم،
ثم ذكر تعالى بالأمر الذي ينبغي أن
يقاس على هذه الآية والعبارة، وذلك
إحياء الموتى، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ
عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، و«الشيء»
في اللغة: الموجود.

﴿٤٠﴾ - ﴿٤٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذه آية وعيد، و«الإلحاد»: الميل،
وهو هنا عن الحق، ومن
«الإلحاد» لحد الميت لأنه في
جانب، يقال: لحد الرجل وألحد
بمعنى، وقرأ الجمهور: ﴿يَلْحَدُونَ﴾
بضم الياء من ألحد، وقرأ ابن
وثاب، وطلحة، والأعمش:
﴿يَلْحَدُونَ﴾ بفتح الياء والحاء من
لحد.

واختلف المفسرون في الإلحاد
الذي أشير إليه، ما هو؟ فقال قتادة
وغيره: الإلحاد بالتكذيب، وقال
مجاهد وغيره: الإلحاد بالمكائد
والصفيير واللغو الذي ذهبوا إليه،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
إلحادهم هو أن يوضع الكلام غير
موضعه، ولفظة الإلحاد تعم هذا
كله.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَا﴾
أي: فنحن بالمرصاد لهم
وسنعذبهم، ثم قرهم تعالى على
هذين القسمين أيهما خيرا؟ وهذا
التقرير هم المراد به، أي: فقل لهم
يا محمد: ﴿أَقْمِنِ﴾، قال مقاتل:
نزلت هذه الآية في أبي جهل، وفي
عثمان بن عفان رضي الله عنه،
وقيل: في عمار بن ياسر
رضي الله عنه، وحسن التفضيل هنا
بين الإلقاء في النار والأمن يوم

القيامة - وإن كانا لا يشتركان في
صفة الخير - من حيث كان الكلام
تقريراً لا مجرد خبر، لأن المقرّر قد
يقرّر خصمه على قسمين أحدهما بين
الفساد حتى يرى جوابه، ففساه يقع
في الفاسد المعنى فيبين جهله، وقد
تقدم نظير هذه الآية واستيعاب القول
في هذا المعنى، ولا يتجه هنا أن
يقال: خاطب على معتقدهم كما
يتجه ذلك في قوله تعالى: ﴿خَيْرٌ
مُسْتَقَرًّا﴾ فتأمل. وقوله تعالى:
﴿أَعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾ وعيد في صيغة
الأمر بإجماع من أهل العلم، ودليل
الوعيد ومبيته قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ بِمَا
تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾، يريد تعالى
قريشاً، و«الذِّكْرُ»: القرآن بإجماع،
واختلف الناس في الخبر عنهم، أين
هو؟ فقالت فرقة: هو في قوله
تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَتَّذَرُونَ مِنْ مَكَانٍ
بَعِيدٍ﴾، ذكر النقاش أن بلال بن أبي
بُرّة سأل عن هذا في مجلسه وقال:
لم أجد لها نفاذاً، فقال أبو عمرو بن
العلاء: إنه منك لقريب، ﴿أُولَئِكَ
يَتَّذَرُونَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
ويُرَدُّ هذا النظر كثرة الحائل، وأن
هناك قوماً قد ذكروا يخسّن ردّ قوله
تعالى: ﴿أُولَئِكَ يَتَّذَرُونَ﴾ عليهم.
وقالت فرقة: الخبر مضمّر تقديره:
إن الذين كفروا بالذِّكْرِ لما جاءهم
هلكوا أو ضلّوا، وقال بعض نحاة
الكوفة: الجواب في قوله تعالى:
﴿وَأَنْتُمْ لَكِنْتُمْ غَيْرٌ﴾، حكى ذلك
الطبري، وهو ضعيف لا يتجه،

وسأل عيسى بن عمر عمرو بن عبيد عن هذا فقال عمرو: معناه في التفسير: إن الذين كفروا بالذكر لما جاءهم كفروا به وإنه لكتاب عزيز، فقال عيسى بن عمر: أجذت يا أبا عثمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يَحْسُنُ في هذا هو إضمار الخبر، ولكنه عند قوم في غير هذا الموضع الذي قدره هولاء فيه، وإنما هو بعد ﴿حَكِيمٌ جَبِيدٌ﴾، وهو أشدُّ إظهاراً لِمَدْمَةِ الكفار به؛ وذلك لأن قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ﴾ داخلٌ في صفة الذكر المكذَّب به فلم يتم ذكر المخبر عنه إلا بعد استيفاء وصفه، وهذا كما تقول: أتخالف زيداً وهو العالم الودود الذي من شأنه ومن أمره، فهذه كلها أوصاف. ووصف تعالى الكتاب بالعزة لأنه بِصِحَّةِ معانيه ممتنع الطعن فيه والإزراء عليه، وهو محفوظ من الله تعالى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: كريم على الله تعالى، وقال مقاتل: منيع من الشيطان، وقال السدي: غير مخلوق.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبُطُلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، قال قتادة، والسدي: يريد الشيطان، وظاهر اللفظ يعم الشيطان وأن يجيء أمرٌ يُبْطِلُ منه شيئاً، وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ معناه: ليس فيما تقدمه من الكتب ما يُبْطِلُ شيئاً منه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ أي: ليس يأتي بعده من نظر ناظرٍ وفكرة عاقلٍ ما يُبْطِلُ شيئاً منه، والمراد باللفظة على الجملة:

لا يأتيه الباطل من جهة من الجهات. وقوله تعالى: ﴿نَزِيلٌ﴾ خبر ابتداء، أي: هو تنزيل.

وقوله تعالى: ﴿مَّا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدَّ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون تسليية للنبي ﷺ عن مقالات قومه، أي: ما تلقى يا محمد من المكروه منهم ولا يقولون لك من الأقوال المؤلمة إلا ما قد قيل ولقي به من تقدمك من الرسل، فَلْتَأَسُّ بِهِمْ، وَلْتَضَعْ لَهُمْ اللَّهُ تَعَالَى وَلَا يَهْمُكَ شَأْنُهُمْ، والمعنى الثاني أن تكون الآية تلخيصاً لمعاني الشرح، أي: ما يقال لك من الوحي وتُخاطَبُ به من جهة الله تعالى إلا ما قد قيل للرسل من قبلك، ثم فسَّرَ اللهُ تعالى ذلك الذي قيل لجميعهم وهو: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَعْفَرَةٍ﴾ للطائعين، ﴿وَذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ﴾ للكافرين، وفي هذه الكلمات جماع التَّوَجُّرِ والنهي والموعظة، وإليها يرجع كل نظر.

﴿١١١﴾ - ﴿١١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الأَعْجَمِيُّ هو الذي لا يفصح عربياً كان أو غير عربي، والعجمي: الذي ليس من العرب فصيحاً كان أو غير فصيح، وهذه الآية نزلت بسبب تخليط كان من قريش في أقوالهم من أجل الحروف التي وقعت في القرآن وهي ممَّا عُرِّبَ من كلام العجم كالسَّجِينِ والإسْتَبِرْقِ ونحوه، فقال عز وجل: ولو جعلنا هذا القرآن أعجمياً لا يبين لقالوا واعترضوا: لولا بُيِّنَتْ آياته، واختلف القراءة في قوله: ﴿مَّا عَجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾، فقراءة الجمهور على الاستفهام وهمزة

مدودة قبل الألف، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعمش: ﴿مَّا عَجَمِيٌّ﴾ بهمزتين، وكأنهم كانوا ينكرون ذلك فيقولون: لولا بَيِّنٌ، أعجميٌّ وعربيٌّ مختلط؟ هذا لا يَحْسُنُ، وتأول ابن جبير أن معنى قولهم: أتَجِئْنَا عَجْمَةً ونحن ومحمد عرب؟ ما لنا وللعجْمَةِ، وقرأ الحسن البصري، وأبو الأسود، والجحدري، وسلام، والضحاك، وابن عباس، وابن عامر - بخلاف عنهما -: ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ دون استفهام ويسكون العين، كأنهم قالوا: أَعْجَمَةٌ وإعراب؟ إن هذا لشاذ، أو كأنهم قالوا: لولا أفضل فصلين فكان بعضه أعجمياً يفهمه العجم وبعضه عربياً يفهمه العرب؟ وهذا تأويل لابن جبير أيضاً، وقرأ عمرو بن ميمون: ﴿أَعْجَمِيٌّ﴾ بهمزة واحدة مقصورة ويفتح العين، فأخبر الله تبارك وتعالى عنهم أنه لو كان على أي وجه تُخَيَّلُ لكان لهم قولٌ واعتراضٌ فاسد، هذا مقصد الكلام.

وأمر الله تعالى نبيّه ﷺ أن يقول لهم: إن القرآن هُدًى وشفاء للمؤمنين المبصرين للحقائق، وإنه على الذين لا يؤمنون ولا يُصِرُّون نظرهم في المصنوعات عَمَى، لأنهم في آذانهم وقر، وعلى قلوبهم أقفال، وعلى أعينهم غشاوة. واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمَى﴾ - فقالت فرقة: يريد به ﴿وَهُوَ﴾ القرآن، وقالت فرقة: ﴿وَهُوَ﴾ يريد به الوقر، والوقر: الثقل في الأذن المانع من السمع، وهذه كلها استعارات، أي: هم لما

واختلف عن عاصم، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة، والأعرج، والحسن - بخلاف - وفي مصحف عبدالله: ﴿فِي ثَمْرَةٍ﴾. و﴿الْأَكْمَامِ﴾ جمع كُمْ، وهو غلاف الثمر قبل ظهوره.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ تقديره: واذكر يوم يناديهم، والضمير في ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ ظاهره والأسبق فيه أنه يريد به الكفار عَبَدَةَ الأوثان، ويحتمل أن يريد به كل من عبد من دون الله تبارك وتعالى من إنسان وغيره، وفي هذا ضعف. وأما الضمير في قوله تعالى: ﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ فلا احتمال لعودته إلا على الكفار. و﴿إِذْ أَنْتَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: أَعْلَمْنَاكَ ما مِثْلًا مَنْ يَشْهَدُ ولا شَهِدَ بِأَنَّ ذَلِكَ شَرِيكًا. و﴿وَصَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: نَسُوا ما كانوا يقولون في الدنيا ويدعون من الآلهة والأصنام، ويحتمل أن يريد: وصل عنهم الأصنام، أي: تَلَقَّتْ عنهم قَلَمٌ يجدوا منها نصرًا وتلاشى لهم أمرها. وقوله تعالى: ﴿رَطَّبُوا﴾ يحتمل أن يكون متصلًا بما قبله ويكون الوقف عليه، ويكون قوله سبحانه: ﴿مَا لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْهِمْ﴾ استئناف، نفى أن يكون لهم منجى وموضع روغان، تقول: حاصَّ الرجل إذا راغ يطلب النجاة من شيء، ومنه في الحديث: «فحاصوا حَيْضَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إِلَى الأبواب»، ويكون الظن - على هذا التأويل - على بابه، أي: ظنوا أن هذه المقالة ﴿مَا مِثْلًا مِنْ شَيْءٍ﴾ منجاة لهم أو أمرٌ يُمَوِّهُونَ به. ويحتمل أن يكون

الموقف فتعظم السُّمعة عليهم ويجل المصاب، وهذا تأويل الضحَّاك بن مزاحم.

ثم ضرب الله تعالى أمر موسى للنبي عليهما الصلاة والسلام ولقريش، أي: فِئَلُ أَوْلِيكَ كأفعال هؤلاء حين جاءهم مثل ما جاء هؤلاء، والكلمة السابقة هي حتم الله تأخير عذابهم إلى يوم القيامة، والضمير في قوله تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ سَكِّينَةً﴾ يحتمل أن يعود على موسى عليه السلام أو على كتابه.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾ الآية... نصيحة بيّنة للعالم وتحذير وترجيح وصدع بأن الله تعالى لا يضع شيئاً من عقوبات عباده في غير موضعها، بل هو العادل المتفضل الذي يجازي كل عبد بتكسبه.

(٤٧) - (٥٠) تفسير قوله عز وجل:

المعنى أن علم وقت الساعة ومجيئها يرده كل مؤمن متكلم فيه إلى الله عز وجل، وذكر تعالى الثمار وخروجها من الأكمام وحمل الإناث مثلاً لجميع الأشياء؛ إذ كل شيء خفي فهو في حكم هذين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والحسن، وطلحة، والأعمش: ﴿مَنْ ثَمْرَةٍ﴾ بالإنفراد على أنه اسم جنس، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿مِنْ ثَمْرَاتٍ﴾ بالجمع،

إِلَيْهِ يُرْجَعُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمْرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ الْأَيْدِيَهُمْ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ آيَنُ شُرَكَائِي قَالُوا أَدْنَاكَ مَا مِثْلًا مِنْ شَيْءٍ وَصَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَدْعُونَ مِنْ قَبْلُ وَظَلُّوا مَا لَهُمْ مِنَ نَجِيحٍ لَا يَسْتَمُ الْإِنْسَانُ مِنْ دَعْوَاهِ الْخَيْرِ وَإِنْ مَسَّهُ الشَّرُّ فَيَحْتَسِبُ قَنُوطًا ﴿٤٧﴾ وَلَئِنْ أَدْنَيْتَهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرْبِ مَسِّئَتِهِ لَيَقُولُنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلَى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحَسَنَى فَلَنُنَبِّئَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا وَنَلْبِسُنَّهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٤٨﴾ وَإِذَا أَعْمَنَّا عَلَى الْإِنْسَانِ غُرُوضًا وَنَبَّأ بِنَجَاتِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاؤٍ عَرِيضٍ ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَعْمٌ كَفَرْتُمْ بِهِ مِنْ أَسْفَلِ مَنْ هُوَ فِي سَمَاءٍ بَعِيدٍ ﴿٥٠﴾ سَأَرْبِئُهُمْ بِأَيِّتِنَا فِي الْأَفْهَامِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥١﴾ الْآيَاتُ فِي مَرَاتِبٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ الْآيَةُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُجِيبٌ ﴿٥٢﴾

٤٨٢

لم يفهموا ولا حصلوا كالأعمى وصاحب الوقر. وقرأ ابن عباس، ومعاوية، وعمرو بن العاص: ﴿وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمٌ﴾ بكسر الميم متونة، وقال يعقوب: لا أدري أتوتوا أم فتحوا الياء على الفعل الماضي، وبغير ياء رواها عمرو بن دينار، وسليمان بن قتة عن ابن عباس رضي الله عنهما، وهذه القراءة أيضاً فيها استعارة، وكذلك قوله تعالى: ﴿أَرْزَلْتِكُ بِأَدْوَانِكَ﴾ يحتمل معنيين، وكلاهما مقول للمفسرين: أحدهما أنها استعارة لقلّة فهمهم، شبههم بالرجل يُنادى على بُغْد يُسمع منه الصوت ولا تفهم تفاصيله ولا معانيه، هذا تأويل مجاهد، والآخر أن الكلام على الحقيقة، وأن المعنى: إنهم يوم القيامة يُنادون بكفرهم وقيح أفعالهم من بُغْد حتى يسمع ذلك أهل

الوقف في قوله تعالى: ﴿مِنْ بَقَلٍ﴾، ويكون ﴿وَطَوْرًا﴾ متصلاً بقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ نَاصِيَةٍ﴾، أي: ظنوا ذلك، ويكون الظن - على هذا التأويل - بمعنى اليقين، وبه فسّر السدي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عبارة يطلقها أهل اللسان على الظن، ولست تجد ذلك إلا فيما علم علماً قوياً وتقرّر في النفس ولم يتلبّس به بعد، وإلا فمتى تلبّس بالشيء وحصل تحت إدراك الحواس فلست تجدهم يوقعون عليه لفظ الظن.

وقوله تعالى: ﴿لَا يَتَنَّبَهُ الْإِنْسَانُ﴾ آيات نزلت في كفار، قيل: في الوليد بن المغيرة، وقيل: في عتبة بن ربيعة، وجُلّ الآية يعطي أنها نزلت في كفار وإن كان أولها يتضمن خُلُقاً ربما شارك فيها بعض المؤمنين، و﴿دُعَاءَ الْخَيْرِ﴾ إضافة المصدر إلى المفعول، والفاعل محذوف تقديره: من دعاء الخير هو، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مِنْ دُعَاءِ بِالْخَيْرِ﴾ والخير في هذه الآية: المال والصحة، وبذلك تليق الآية بالكافرين، وإن قدرناه خير الآخرة فهو للمؤمنين، وأما اليأس والفُتْظ على الإطلاق فمن صفة الكافر وحده.

وقوله: ﴿يَلْقَوْنَ هَذَا لِى﴾ أي: بفعلني وبما سعي، ولا يرى أن النعم إنما هي بتفضل من الله تعالى، ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ قول بين فيه الجحد والكفر، ثم يقول هذا

الكافر: ولئن كان ثم رجوع كما يقولون ليكون لي حال تُرضيني من غنى ومال وبينين، فتوعدهم الله تعالى بأنه سيُعرفهم بأعمالهم الخبيثة مع إذاتهم العذاب عليها، فهو عذابٍ وخزي، وغلظة العذاب: شدته وصعوبته، وقال الحسن بن محمد بن أبي طالب رضي الله عنهم: للكافر أمينتان: أما في الدنيا فهذه: ﴿إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَكُفْرًا﴾، وأما في الآخرة ف﴿يَكْتَبُنِي كُتُّ رَبِّكَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والأمانى على الله تعالى وترك الجد في الطاعة مذموم لكل أحد، فقد قال عليه الصلاة والسلام: «الكَيْسُ من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها، وتمتّى على الله الأمانى».

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله تعالى الخُلُقَ الذميمة من الإنسان جملة، وهي في الكفار بيّنة متمكنة، وأما المؤمن في الأغلب فيشكر عند النعمة، وكثيراً ما يصبر عند الشدة. وقرأ جمهور القراءة والناس: ﴿وَنَقًا﴾، الهمزة عين الفعل، وقرأ ابن عامر: ﴿وَوْنًا﴾، الهمزة لام الفعل، وهي قراءة أبي جعفر، والمعنى فيهما واحد، قال أبو علي: ناء قلب نأى، (رَجَعَ فَعَلَ فَلَغَ)، ومنه قول الشاعر:

وَكُلُّ خَلِيلٍ رَأَيْتَنِي فَهَوَّ قَائِلٌ
مَنْ أَجْلِكَ هَذَا هَامَةُ الْيَوْمِ أَوْ عَدِ
ومنه قول الآخر:

وَقَدْ شَاءَتْنِي أَهْلُ السَّبَاقِ وَأَمَعْتُوَا

و «ناء» معناه: بعد ولم يَجلُ إلى شكر ولا طاعة.

وقوله تعالى: ﴿فَذَرُ دُعَاءَ عَرِيضٍ﴾، أي: طويل أيضاً، فاستغنى بالصفة الواحدة عن لزيمتها إذ العَرَضُ يقتضي الطول ويتضمنه، ولم يقل: «طويل» لأن الطويل قد لا يكون عريضاً، فعريضٌ أدل على الكثرة.

ثم أمر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام أن يقف قريشاً على هذا الاحتجاج وموضع تقريرهم بأنفسهم فقال تعالى: قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ هَذَا الشَّرْعُ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَأْمُرُهُ وَخَالَفْتُمُوهُ أَنْتُمْ، أَلَسْتُمْ عَلَى هَلَكَةٍ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى؟ فَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَبْقَى عَلَى مِثْلِ هَذَا الْغُرْرِ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى؟ وَهَذَا هُوَ الشَّقَاقُ.

ثم وعد الله تعالى نبيه ﷺ بأن سيُري الكفار آياته، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ - فقال أبو المنهال، والسدي، وجماعة: هو وعد بما يفتحه الله تعالى على رسوله ﷺ من الأقطار حول مكة وفي غير ذلك من الأرض كخبير ونحوها، و﴿فِي أَنْفُسِهِمْ﴾ أراد به فتح مكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تأويل حسن ينتظم الإعلام بغيب ظهر وجوده كذلك بعد، ويجري مع لفظ الاستئناف الذي في الفعل، وقال الضحاك، وقاتدة: ﴿سُرِّيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ هو ما

تفسير سورة الشورى

هذه السورة مكيّة بإجماع من أكثر المفسرين، وقال مقاتل: فيها مدني [قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الَّذِي يَنْشُرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ إلى قوله: ﴿يَذَاتِ الصُّدُورِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِنْ سَبِيلٍ﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الشعبي: إِنَّ ﴿حَدَّ﴾ ﴿عَسَقَ﴾ هذه الحروف بأعيانها نزلت في كل كتب الله تعالى المنزلة على كل نبي ﴿كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ﴾

الله. ﴿﴾ - ﴿﴾ تفسير قوله عز وجل:

فَصَلَّتْ ﴿حَدَّ﴾ ﴿عَسَقَ﴾ ﴿كَبَّهَمَّ﴾ ولم يفعل ذلك بـ ﴿كَبَّهَمَّ﴾ لتجري هذه مجرى الحواميم أخواتها، وقرأ الجمهور: ﴿حَدَّ﴾ ﴿عَسَقَ﴾ وقرأ ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حَمَّ سَقَ﴾ بسقوط (عين)، والأقوال في هذا كالأقوال في أوائل السور، وروى حذيفة حديثاً في هذا مُضْمَنُهُ أن ستكون في هذه الأمة مدينتان يشقهما نهر بالمشرق، تهلك إحداهما ليلاً ثم تصبح الأخرى سالمة، فيجتمع فيها جبابرة المدينتين مُتَعَجِّبِينَ من سلامتها، فَتَهْلِكُ فِي اللَّيْلَةِ الْقَابِلَةِ، وَأَنْ ﴿حَدَّ﴾ ﴿عَسَقَ﴾ معناه: حُمَّ هذا الأمر، و (عين) معناه: عدلاً

والسلام: ﴿أَوْلَمَ يَكْفُ رَبِّكَ﴾، التقدير: أو لم يكف ربك؟ والباء زائدة للتأكيد، و [أَنْ] يحتمل أنه في موضع رفع على البدل من الموضع؛ إذ التقدير: أو لم يكف ربك؟ ويحتمل أن يكون في موضع خفض على البدل من اللفظ، وهذا كله بدل الاشتمال، ويصح أن تكون في موضع نصب على إسقاط حرف الجر، أي: لأنه. وقرأ الجمهور: ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الألف، وقرأ بعض

الناس: ﴿إِنَّهُ﴾ بكسرها على الاعتراض أثناء القول.

وقوله تعالى: ﴿الْأَلَا﴾ استفتاح يقتضي إقبال السامع على ما يقال له، فاستفتح الإخبار عن أنهم في شك وريب وضلال أذاهم إلى الشك في البعث. وقرأ جمهور الناس: ﴿فِي رَبِّرَبِّهِمْ﴾ بكسر الميم، وقرأ أبو عبد الرحمن، والحسن: ﴿فِي مُزَيَّيَةٍ﴾ بضم الميم، والمعنى واحد، ثم استفتح تعالى الإخبار بإحاطته لكل شيء على معنى الوعيد لهم، وإحاطته هي بالقدرة والسلطان، لا إله إلا هو العزيز الحكيم.

كامل تفسير سورة (حم فصلت) والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ ﴿١﴾ عَسَقَ ﴿٢﴾ كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ
 اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ
 الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٤﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَنْقَطِرْنَ مِنْ قَوْصِحِنَا
 وَأَلْمَاعُكَ يَسْمَعُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي
 الْأَرْضِ أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا
 مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللَّهُ حَفِظَ عَلَيْهِمْ وَمَأْتَتْ عَلَيْهِمْ بَيِّنَاتٌ
 وَكَذَلِكَ أُوحِيَ إِلَيْكَ فَاعْرَبِيًّا لِيُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ
 حَوْلَهَا وَيُنذِرَ يَوْمَ الْبَعْثِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْحَشَّةِ وَفَرِيقٌ فِي
 السَّعِيرِ ﴿٦﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَهُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَدْعُو
 مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمُونَ مَا لَهُمْ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نصِيرٍ ﴿٧﴾
 أَرَأَيْتُمْ إِنْ دُونَهُ أَوْلِيَاءُ فَاللَّهُ هُوَ الْوَلِيُّ وَهُوَ يُحْيِي الْمَوْتِينَ وَهُوَ
 عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ
 إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمْ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٩﴾

٤٨٣

أصاب الأمم المكذبة في أقطار الأرض قديماً، ﴿وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ يوم بدر، وقال ابن زيد، وعطاءة: «الآفاق» هي آفاق السماء، وأراد به الآيات في الشمس والقمر والرياح وغير ذلك، و«في أنفسهم» عبرة الإنسان بجسمه وحواسه وغريب خلقته وتدرجه في البطن ونحو ذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه آيات قد كانت مرتبة فليس المعنى يجري مع قوله تعالى: ﴿سَأُرِيهِمْ﴾، والتأويل الأول أرجحها، والله أعلم.

والضمير في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ عائد على الشرع والقرآن، فيإظهار الله تعالى إياه وفتح البلاد عليه يَتَّبِعِينَ لهم أنه الحق، ثم قال تعالى وغداً لنبيّه عليه الصلاة

من الله، و(سين) سيكون ذلك، و (قاف) معناه: يقع ذلك بهم. وزوي أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه كان يستفيد علم الفتن والحروب من هذه الحروف التي في أوائل السور.

والكاف من قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ نعتٌ لمصدر محذوف، والإشارة به **﴿ذَلِكَ﴾** تختلف بحسب الأقوال في الحروف، وقرأ جمهور القراء: **﴿يُوحَى﴾** بالياء على إسناد الفعل إلى الله تعالى، وهي قراءة الحسن، والأعرج، وأبي جعفر، والجحدري، وعيسى، وطلحة، والأعمش، وقرأ أبو حيوة، والأعشى عن أبي بكر عن عاصم: **﴿فُوحِي﴾** بنون العظمة، ويكون قوله تعالى: **﴿اللَّهُ﴾** ابتداءً وخبره **﴿الْمَرْبِيُّ﴾**، ويحتمل أن يكون خبره: **﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾**، وقرأ ابن كثير وحده: **﴿يُوحَى﴾** بالياء وفتح الحاء على بناء الفعل للمفعول، وهي قراءة مجاهد، والتقدير: يُوحَى إليك القرآن، يوحيه الله تعالى، وهذا كما قال الشاعر:

لِيُبْنِكَ يَزِيدُ ضَارِعٌ لِحُصُومَةٍ

ومنه قوله تعالى: **﴿يُسَبِّحُ لَكَ فِيهَا بِاللَّيْلِ وَالْأَصْبَالِ يَسْأَلُ﴾**، وقوله تعالى: **﴿وَالَّذِينَ الَّذِينَ مِنْ قَلْبِكَ﴾** يريد: من الأنبياء الذين نزلت عليهم الكتب.

وقوله تعالى: **﴿اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ﴾** أي: المُلْكُ والخلق والاختراع، و**﴿الْعَلِيِّ﴾** من علو القدر والسلطان، و**﴿الْعَلِيِّ﴾** كذلك، وليس بعلو مسافة ولا عظم جزم، تعالى الله عن ذلك. وقرأ نافع، والكسائي: **﴿يَكَادُ﴾**

بالياء، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، وأبو عمرو، وعاصم: **﴿يَكَادُ﴾** بالياء، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، ونافع، وابن عباس، وأبو جعفر، وشيبة، وقتادة: **﴿يَنْقَطِرُنَ﴾** من **﴿الْقَطْرُ﴾**، وهو مطاوع **﴿قَطْرُ﴾**، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، والحسن، والأعرج، وأبو رجاء، والجحدري: **﴿يَنْقَطِرُنَ﴾** من **﴿الانقطار﴾**، وهو مطاوع **﴿قَطْرُ﴾**، والمعنى فيهما: يَتَصَدَّعْنَ وَيَتَشَقَّقْنَ من سرعة جريهن خضوعاً وخشية من سلطان الله تعالى، وتعظيماً له وطاعة، وما وقع للمفسرين هنا من ذكر الثقل ونحوه مردود، وذلك لأن الله تعالى لا يوصف به، وقوله تعالى: **﴿بَيْنَ قَوْحَيْنِ﴾** أي: من أعلاهن، وقال الأخفش علي بن سليمان: الضمير للكفار.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى: من فوق الفسق والجماعات الملحدة التي من أجل أقوالها تكاد السموات يتفطرن، فهذه الآية - على هذا - كالأية التي في **﴿كَبَيْعَسَ﴾**، وقالت فرقة: معناه: من فوق الأرضين إذ قد جرى ذكر الأرض، وذكر الزجاج أنه قرئ: **﴿يَنْقَطِرُنَ بِمَنْ قَوْحَيْنِ﴾**.

وقوله تعالى: **﴿يَسْتَبْخِرُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾** قيل: معناه: يقولون سبحان الله، وقيل: معناه: يُصَلُّونَ لربهم، وقوله تعالى: **﴿وَيَسْتَفْتِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾**، قالت فرقة: هذا منسوخ بقوله تعالى في آية أخرى: **﴿وَيَسْتَفْتِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾**.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا قول ضعيف؛ لأن التَشَخَّحَ لا يتصور في الأخبار.

وقال السدي ما معناه: إن ظاهر هذه الآية العموم، ومعناها الخصوص في المؤمنين، فكأنه تعالى قال: ويستغفرون لمن في الأرض من المؤمنين، إذ الكفار عليهم لعنة الله تعالى والملائكة والناس أجمعين، وقالت فرقة: بل هي على عمومها، لكن استغفار الملائكة ليس بطلب غفران الله تعالى للكفرة على أن يبقوا كفرة، وإنما استغفارهم لهم بمعنى طلب الهداية التي تؤدي الغفران لهم، وكأن الملائكة تقول: اللهم اهد أهل الأرض واغفر لهم، ويؤيد هذا التأويل تأكيده صفة الغفران والرحمة لنفسه بالاستفتاح، وذلك قوله تعالى: **﴿أَلَا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾**، أي: لما كان الاستغفار لجميع من في الأرض يبعد أن يجاب رَجْوِي عَزَّ وَجَلَّ بأن استفتح الكلام تهيئةً لنفس السامع، فقال تعالى: ألا إن الله تعالى يُطلب هذا منه إذ هذه أوصافه، وهو سبحانه أهل المغفرة.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

هذه آية تسلية للنبي ﷺ، ووعيد للكفار، وإزالة عن النبي عليه الصلاة والسلام جميع الكلف سوى التبليغ فقط، لتلاهم بجهنم بعدم إيمان قريش وغيرهم، فقال تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام: إن الذين اتخذوا الأصنام والأوثان أولياء من دون الله هو الحفيظ عليهم كفرهم، المُحْصِي لأعمالهم، المُجَازِي لهم عليها بعذاب الآخرة، وأنت فُلَسْتْ عليهم

للعرض، وقوله تعالى: ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أي: في نفسه وذاته، وارتياب الكفار به لا يقيد.

وقوله تعالى: ﴿فَرِيقٌ﴾ مرتفع على خبر الابتداء المضمر، كأنه تعالى قال: هم فريق في الجنة وفريق في السعير.

ثم قوى تبارك وتعالى تسليته نبيه ﷺ بأن عرفه بأن الأمر موقوف على مشيئة الله تعالى من إيمانهم أو كفرهم، وأنه تعالى لو أراد كونهم أمة واحدة على دين واحد لجمعهم عليه، ولكن

يدخل من سبقت له السعادة عنده في رحمته، ويُبشّره في الدنيا لعمل أهل السعادة، وإن الظالمين بالكفر المُيسرين لعمل أهل الشقوة ما لهم من ولي ولا نصير.

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ أَن تَأْخُذُوا﴾ كلام منقطع مما قبله، وليست بمعادلة، ولكن الكلام كأنه أضرب عن حجة لهم أو مقالة مقررة فقال: بل اتخذوا، هذا مشهور قول النحويين في مثل هذا، وذهب بعضهم إلى أن «أم» هذه بمنزلة ألف الاستفهام دون تقدير إضراب، ثم أثبت تعالى الحكم بأنه عز وجل هو الولي الذي تنفع ولايته، وأنه هو الذي يحيي الموتى ويحشرهم إلى الآخرة ويبعثهم من قبورهم، وأن قدرته على كل شيء تعطي هذا وتقتضيه.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: قل يا محمد: وما اختلفتم فيه أيها الناس من تكذيب وتصديق وإيمان وكفر وغير ذلك، فالحكم فيه المجازاة عليه ليست إلي ولا بيدي، وإنما ذلك إلى الله تعالى الذي صفاته ما ذكر من إحياء الموتى والقدرة على كل شيء، ثم قال: ذلكم الله ربّي، عليه توكلّي، وإليه إنابتي ورجوعي، وهو فاطر السموات والأرض، أي: مخترعهما وخالقهما، شئ بعضهما من بعض.

وقوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا﴾ يريد تعالى زوج الإنسان الأنثى، وبهذه النعمة اتفق الذؤء، وليست الأزواج ها هنا الأنواع، وأما الأزواج المذكورة مع الأنعام فالظاهر أيضاً والمُتَّسِقُ أنه يريد إناث الذكران، ويحتمل أن يريد الأنواع، والأول أظهر. وقوله تعالى: ﴿يَذَرُوكُمْ فِيهِ﴾ أي: يخلقكم نسلًا بعد نسل، وقرناً بعد قرن، قاله مجاهد والناس، فلطفة «ذراً» تزيد على لطفة «حَلَقٌ» وهو توالي الطبقات على مر الزمان، وقوله: ﴿فِيهِ﴾ الضمير على «الجعل» الذي تضمنه قوله تعالى: ﴿جَعَلَ لَكُم﴾، وهذا كما تقول: كَلَّمْتُ زَيْدًا كَلَامًا أَكْرَمْتَهُ فِيهِ، وقال العتبي: الضمير للتزويج، ولطفة «في» مشتركة على معان وإن كان أصلها الوعاء، وإليه يردها النظر في كل وجه.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾، الكاف مؤكدة للتشبيه، فَنَفِيَّ التشبيه أؤكد ما يكون، وذلك

فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأُنثَى أَزْوَاجًا يَذَرُوكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَّبِعُوا فِيهِ كِبْرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا نَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا أَلَمٍ بَعْدَ مَا جَاءَهُمْ أَلَمٌ بَعَثْنَا فِيهِمْ رَسُولًا لِكَلِمَةٍ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ إِلَيْهِ أَلَمٌ لِّقَضَىٰ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورُوا الْكُتُبَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَرِيبٌ ﴿١٤﴾ فَلِذَلِكَ فَانْعَمْ وَأَسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَلَا تَلْبِغْ أَوْهَاتِكُمْ وَقُلْ ءَأَمِنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كُتُبٍ وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبِّي وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَاحِجَةٌ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَالْيَوْمَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾

٤٨٤

بوكيل ولا ملازم لأمرهم حتى يؤمنوا، و«الوكيل»: القيم على الأمر، وما في اللفظ هذا من موادة فهو منسوخ بآية السيف.

ثم قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، أي: وكما قضينا أمرك هذا وأمضيته في هذه الصورة، كذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً مبيناً لهم، لا يحتاجون معه إلى آخر سواء؛ إذ فهمه متأت لهم، ولم نُكَلِّفْكَ إِلَّا إِذْ بَارَأْنَا مِنْ ذِكْرٍ، و«أُمُّ الْقُرَى» هي مكة، والمراد أهل مكة، ولذلك عطف ﴿وَمَنْ﴾ عليها، وهي في الأغلب لمن يعقل، و«يَوْمُ الْجَمْعِ» هو يوم القيامة، واقتصر في ﴿شَذِرٌ﴾ على المفعول الأول لأن المعنى: وتُنذِرُ أُمَّ الْقُرَى الْعَذَابَ وَتُنذِرُ النَّاسَ يَوْمَ الْجَمْعِ، لاجتماع أهل الأرض بأهل السماء، أو لاجتماع بني آدم

أنك تقول: زيد كعمرو، وزيد مثل عمرو، فإذا أردت المبالغة التامة قلت: زيد كمثل عمرو، ومن هذا قول أوس بن حجر:

وَقَتَلَى كَمِثْلِ جُدُوعِ التُّخَيْلِ
تَغَشَاهُمْ مُسْبِلٌ مُنْهَمِرٌ
ومنه قول الآخر:

سَعْدُ بْنُ زَيْدٍ إِذَا أَبْصُرْتَ فَضْلَهُمْ
مَا إِنَّ كَمِثْلِهِمْ فِي النَّاسِ مِنْ أَحَدٍ
فجرت الآية في هذا الموضع على عَزْفِ كلام العرب، وتفرق الآية مع هذه الشواهد في أن الشواهد متى أردت أن تتبع بذهنك اللفظ فتقدر للجذوع مثلاً موجوداً وتشبه القتلى بذلك المثل أمكنك، ولا يمكنك هذا في جهة الله تعالى إلا أن تجعل له ما يتحصل في الذهن من العلم بالله تعالى، إذ المثل والمثال واحد.

وذهب الطبري وغيره إلى أن المعنى: «ليس كهو شيء»، وقالوا: لفظة «مثل» في الآية توكيد وواقعة موقع هو.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومما يؤيد دخول الكاف توكيداً أنها قد تدخل على الكاف نفسها، وأنشد سيويه:

وَصَالِيَاتٍ كَكَمَا يُؤْتَفَيْنِ
و«المقاليذ»: المفاتيح، قاله ابن عباس، والحسن. وقال مجاهد: أصلها بالفارسية، وهي هنا استعارة لوقوع كل أمر تحت قدرته، وقال السدي: المقاليذ: الخزائن، وفي العبارة - على هذا - حذف مضاف، قال قتادة: من ملك مقاليذ خزائن

فالخزائن في ملكه، وبسط الرزق وقدره بين، وقد مضى تفسيره غير مرة.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: شرع الله تعالى لكم وبين من المعتقدات والتوحيد ما وصى به نوحاً من قبل، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي عَظَفَ عَلَىٰ مَاءٍ﴾، وكذلك ما ذكر بعد من إقامة الدين مشروع اتفقت النبوات فيه، وذلك في المعتقدات أو في جملة أمرها من أن كل نبوة فإنما مُضْمِنُهَا معتقدات وأحكام، فيجئ المعنى على هذا: شرع لكم شريعة هي كيشريعة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام في أنها ذات المعتقدات المشهورة التي هي في كل نبوة، وذات أحكام كما كانت تلك كلها، وعلى هذا يتخرج ما حكاه الطبري عن قتادة فقال: ﴿مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا﴾ يريد به الحلال والحرام، وعليه روي أن نوحاً عليه السلام أول من أتى بتحريم البنات والأمهات، وأما الأحكام بانفرادها فهي في الشرائع مختلفة، وهي المراد في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا بَيْنَكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾، و﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ أَهْلِيَّوَالَّذِينَ﴾ يجوز أن تكون في موضع نصب بدلاً من [مَا]، أو في موضع خفض بدلاً من الضمير في ﴿بِهِ﴾، أو في موضع رفع على خبر ابتداء تقديره: ذلك أن، و[يجوز] أن تكون مفسرة بمعنى «أي» لا موضع لها من الإعراب، و«إقامة الدين» هو توحيد الله تعالى ورفض ما سواه.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَفَرَّقُوا﴾ نهي

عن المتهلك من تفرق الأنحاء والمذاهب، والخير كله في الألفة واجتماع الكلمة، ثم أخبر الله تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بصعوبة موقع هذه الدعوة إلى إقامة الدين على المشركين بالله تعالى، العابدين للأصنام، قال قتادة: كبر عليهم ولا إله إلا الله، وأبى الله تعالى إلا نصرها وإظهارها. ثم سلاه تعالى عنهم بقوله: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي﴾ أي: يختار ويصطفى، قاله مجاهد وغيره، و﴿يُنِيبُ﴾ معناه: يرجع عن الكفر، ويخرض على الخير ويطلبه.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا﴾ عبارة يجمع خطابها كفاً العرب واليهود والنصارى وكل مدعو إلى الإسلام، فلذلك حسن أن يقال: ﴿مَا تَفَرَّقُوا﴾، يعني بذلك أوائل اليهود والنصارى، و«العلم الذي جاءهم» هو ما كان حصل في نفوسهم من علم كُتِبَ الله تعالى، فبغى بعضهم على بعض، وأداهم ذلك إلى الاختلاف في الرأي، و«الكلمة السابقة» قال المفسرون: هي حتمه تعالى القضاء بأن مجازاتهم إنما تقع في الآخرة، فلولا ذلك لفصل بينهم في الدنيا وغلب المحق على المبطل.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ﴾ إشارة إلى معاصري محمد ﷺ من اليهود والنصارى، وقيل: هي إشارة إلى العرب، و«الكتاب» هو القرآن، والضمير في قوله تعالى: ﴿لَيْ سَكَّ يَنْتَهُ﴾ يحتمل أن يعود على ﴿الكتاب﴾، أو على محمد ﷺ، أو على «الأجل المسمى»، أي: في شك من البعث

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما، ومجاهد: إنها نزلت في طائفة من بني إسرائيل همت برد الناس عن الإسلام وإضلالهم ومجادلتهم بأن قالوا: كتابنا قبل كتابكم، ونبينا قبل نبيكم، وديننا أفضل، فنزلت الآية في ذلك، وقيل: بل نزلت في قريش لأنها كانت أبداً تجادل هذا المعنى، وتطمع في رد الجاهلية، و﴿يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ معناه: في توحيدِهِ، أي: بالإبطال والإلحاد وما أشبهه، والضمير في ﴿مِنْ بَعْدِ مَا آسَجِبَ لَهُ﴾ يحتمل أن يعود على الله تعالى، أي: بعد ما دخل الناس في دينه، ويحتمل أن يعود على الشرع والدين، ويحتمل أن يعود على محمد ﷺ، و﴿دَاجِبَةٌ﴾ معناه: زاهقة، والدَّخْضُ: الزَّلُّقُ، وباقي الآية وعيدٌ.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿لَمَّا أَنهَى اللهُ تَعَالَى الْقَوْلَ عَلَى الَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي تَوْحِيدِ اللهِ تَعَالَى وَيُرْمُونَ إِخْفَاءَ نُورِهِ، صَدَعَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِصَفْتِهِ تَعَالَى مِنْ أَنْزَالِ الْكِتَابِ الْهَادِي لِلنَّاسِ، وَالْكِتَابُ هُنَا اسْمُ جِنْسٍ يَعْمُ جَمِيعَ الْكُتُبِ الْمُنزَلَةِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: بِأَنَّ كَانَ ذَلِكَ حَقًّا وَاجِبًا لِلْمَصْلَحَةِ وَالْهُدَى، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى: مُضْمَنًا الْحَقَّ، أَي: بِالْحَقِّ فِي أَحْكَامِهِ وَأَمْرِهِ وَنَوَاهِيهِ. وَ﴿الَّذِينَ﴾ هُنَا: الْعَدْلُ، قَالَه ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالنَّاسُ. وَجَعَلَ التَّعْلِيْبَ عَنْ مَجَاهِدٍ

وكانت شديدة الموقع من نفسه، أعني قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ﴾ لأنها جملة تحتها جميع الطاعات وتكاليف النبوة، وفي هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «شَقِيتُنِي هُوْدٌ وَأَخْوَاتُهَا»، فقيل له: لم ذلك؟ فقال: لأن فيها ﴿فَأَسْتَقِيمَ كَمَا أَمَرْتُ﴾، وهذا الخطاب له ﷺ بحسب قوته في أمر الله تعالى، وقال هو عليه الصلاة والسلام لأمتة بحسب ضعفهم: «اسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُخْضُوا».

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ قَوْمٍ﴾ يعني قريشاً فيما كانوا يهوونهُ من أن يعظم محمد ﷺ آلهتهم وغير ذلك، ثم أمره الله تبارك وتعالى أن يؤمن بالكتب المنزلة قبله من عند الله تعالى، وهو أمر يعم سائر أمتة. وقوله تعالى: ﴿وَأَمَرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾ قالت فرقة: اللام في ﴿لِأَعْدِلَ﴾ بمعنى «أن»، لأن التقدير: أمرت بأن أعدل بينكم، وقالت فرقة: المعنى: وأمرت بما أمرت من التبليغ والشرع لكي أعدل، فحذف من الكلام ما يدل الظاهر عليه، وقوله تعالى: ﴿لَنَّا أَعْتَلْنَا وَلَكُمْ أَعْتَلْكُمْ﴾ إلى آخر الآية منسوخ ما فيه من موادة بآية السيف، وقوله: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: لا جدال ولا مناظرة، قد وضع الحق وأنتم تعاندون، وفي قوله: ﴿اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ وعيدٌ.

وَالَّذِينَ يَحْمِلُونَ فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا آسَجِبَ لَهُمْ جَمِيعُهُمْ دَاجِبَةٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿١٧﴾ اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِكُ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ ﴿١٨﴾ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُسْفِقُونَ يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَ الْحَقِّ الْأَيُّ الَّذِينَ يَمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿١٩﴾ اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مِنْ نَشَاءٍ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٢٠﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدِ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْفِهِ مِنْ كَاتِبٍ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴿٢١﴾ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِنْتُمْ وَإِنَّمَا الْغُلَامَ لَمَيْتٌ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُمْ وَاقِعٌ بِهِمْ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي رَوْحَاتِ الْجَنَّاتِ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾

٤٨٥

على قول من رأى أن الإشارة إلى العرب، ووصف الشك بـ ﴿مُرِيبٌ﴾ مبالغة فيه.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل: اللام في قوله تعالى: ﴿فَلَذَلِكَ﴾ قالت فرقة: هي بمنزلة «إلى» كما قال تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَرَحَى لَهَا﴾ أي: إليها، كأنه قال: فإلى ما وصى به الأنبياء من التوحيد فاذع، وقالت فرقة: بل هي بمعنى: «من أجل»، كأنه قال: فمن أجل أن الأمر كذا ولكونه كذا فاذع أنت إلى ربك وتبلغ ما أزيلت به.

وخوطف ﷺ بأمر الاستقامة وهو عليه الصلاة والسلام قد كان مستقيماً بمعنى: دُم على استقامتك، وهكذا الشأن في كل أمور بشيء هو متليس به إنما معناه الدوام، وهذه الآية ونحوها كانت نصب عين النبي ﷺ،

ذَلِكَ الَّذِي يَبَشِّرُ اللَّهُ عِبَادَهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ۗ وَلَا
 اسْتَكْبَرُوا عَلَيْهِ أَجْرًا ۗ إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ۗ وَمَن يَقْرَفْ حَسَنَةً فَنَدَدْنَا
 لَهَا فِيهَا حَسَنًا ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٢١﴾ أَمْ يَقُولُونَ أَفَنُزِّلُ عَلَى اللَّهِ
 كِتَابًا فَنُشِرَٰهُ عَلَىٰ لِسَانِ اللَّهِ يَخْتَلِمُ عَلَيْكَ قَلْبِكَ وَيَمَسُّ اللَّهُ الْبَطِيلَ وَيُحْيِي الْحَيَّ
 بِحِكْمَتِهِ ۗ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي يَصَلِّيَ النَّوْمَةَ
 عَن عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٣﴾
 وَيَسْتَجِيبُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ
 وَالْكَافِرُونَ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴿٢٤﴾ ۖ وَلَوْ سَئَلُوكَ اللَّهَ الرَّزْقَ
 لِيَعْبَادِهِ لَيُعْزَأَنَّ فِي الْأَرْضِ وَلَكِن يَنْزِلُ بِقَدَرِ مَا يَشَاءُ اللَّهُ يَعْزِيبُ
 حَيْثُ يَشَاءُ ۗ وَيُصَيِّرُ ﴿٢٥﴾ وَهُوَ الَّذِي يَنْزِلُ الْعَسْفَاقَ مِن بَعْدِ مَا قُتِلُوا
 وَيُنشِئُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَمِن مَّالِهِ يَخْلُقُ
 الْمَسَكِينِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهَا مِن دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ
 إِذْ أَنشَأَ قَلْدِيرًا ﴿٢٧﴾ وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فِيمَا
 كَسَبْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴿٢٨﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْزِزِينَ
 فِي الْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٩﴾

والشركاء» في هذه الآية يحتمل أن يكون المراد بهم الشياطين والمغويين من أسلافهم، ويكون الضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للكفار المعاصرين لمحمد ﷺ، أي: شرع الشركاء لهم ما لم يأذن به الله، فلاشتراك هنا هو في الكفر والغواية، وليس بشركة الإشراف بالله تعالى، ويحتمل أن يكون المراد بالشركاء الأصنام والأوثان على معنى: أم لهم أصنام جعلوها شركاء لله في ألوهيته؟ ويكون الضمير في ﴿شَرَعُوا﴾ لهؤلاء المعاصرين من الكفار ولآبائهم، والضمير في ﴿لَهُمْ﴾ للأصنام الشركاء، أي: شرع هؤلاء الكفار لأصنامهم وأوثانهم ما لم يأذن به الله تعالى، و﴿شَرَعُوا﴾ معناه: أثبتوا ونهجوا ورسوموا. و«الدين» هنا: العوائد والأحكام والسيرة، ويدخل

بأوليائه حتى عرفوه، ولو لطف بالكفار لما جحدوه، وقيل: لطيف بأن نشر عنهم المناقب وستر عنهم المثالب، وقيل: هو الذي لا يخاف إلا عدله، ولا يزرعى إلا فضله.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ﴾ معناه: إرادة عامل مستعد عارف لا إرادة متمدن لم يدين نفسه، و«الْحَزْنُ» هنا عبارة عن السعي والتكسب والإعداد، ولما كان حرت الأرض أصلاً من أصول المكاسب استعير لكل

تكسب، ومنه قول ابن عمر رضي الله عنهما: «حرت لديناك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»، وقوله تعالى: ﴿رَدَّ لَّهُمْ فِي حَرْبِهِمْ﴾ و«عَدَّ منتحز»، وقوله تعالى في حرت الدنيا: ﴿نُؤْتِيهِمْ مِنْهَا﴾ معناه: ما شئنا ولمن شئنا، فربُّ مُنتحز مُضَيَّقٌ عليه حريص على حرت الدنيا مرید له لا يحسُّ بغيره، نعوذ بالله من ذلك، وهذا الذي لا يعقل غير الدنيا هو الذي نفي أن يكون له نصيب في الآخرة. وقرأ سلام: ﴿نُؤْتِيهِمْ﴾ برفع الهاء، وهي لغة أهل الحجاز، ومثله قراءة أهل الحجاز: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ﴾، برفع الهاء فيها.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿أَمْ﴾ هذه منقطعة لا معادلة، وهي بتقدير «بل وألف الاستفهام»،

أنه قال: هو هنا الميزان الذي بأيدي الناس. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا شك أنه داخل في القول وجزء منه، وكل شيء من الأمور فالعدل فيه إنما هو بتقدير ووزن مستقيم، فيحتاج في الأجرام إلى آلة وهي العمود والكفتان التي بأيدي البشر، ويحتاج في المعاني إلى هيئات في النفوس وفهوم توازن بين الأشياء.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا يَدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ وعيد للمشركين، أي: فانظر في أي عَرَبٍ هُمْ، وجاء لفظ «قَرِيبٌ» مذكراً من حيث تأنيث الساعة غير حقيقي؛ وإذ هي بمعنى الوقت. ثم وصف تعالى حالة الجهلة المكذبين بها، فهم لذلك يستعجلون بها، أي: يطلبون تعجيلها لِيَبَيِّنَ العجزُ ممن تحقَّقها، فالمصدقُّ بها مشفقٌ خائف، والمكذبُّ مستعجل مقيم لِحُجَّتِهِ على تكذيبه بذلك المستعجل به. ثم استفتح تعالى الإخبار عن المُتَمَارِينِ فِي السَّاعَةِ فِي أَنَّهُمْ فِي ضَلَالٍ قَدْ بَعُدَ بِهِمْ، فرجوعهم عنه صعب متعذر، وفي هذا الاستفتاح مبالغة وتأکید وتهيئة لنفس السامع.

ثم رَجَى تبارك وتعالى عباده بقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾، و«لَطِيفٌ» هنا بمعنى رقيق مُتَحَفٍّ، والعباد هنا: المؤمنون ومن سَبَقَ لَهُ الخلود في الجنة، وذلك أن الأعمال بخواتمها، ولا لطف إلا ما آل إلى الرحمة، وأما الإنعام على الكافر في الدنيا فليس بلطف بل هو إملاء واستدرج، قال الجنيد: لطف

في ذلك أيضاً المعتقدات؛ لأنهم في جميع ذلك وضعوا أوضاعاً، فأما في المعتقدات فقولهم: إن الأصنام آلهة، وقولهم: إنهم يعبدون الأصنام زُلْفَى، وغير ذلك، وأما في الأحكام فكالتَّبَجِيرَةُ وَالْوَصِيلَةُ وَالْحَامِي، وغير ذلك من السوابب ونحوها، و«الإِذْنَ» في هذه الآية: الأمر.

و «كلمة الفصل» هي ما سبق من قضاء الله تعالى بأن يؤخر عذابهم إلى الآخرة، و«القضاء بينهم» هو عذابهم في الدنيا ومجازاتهم. وقرأ جمهور الناس: «وَأَنَّ الظَّالِمِينَ» بكسر الهمزة على القطع والاستئناف، وقرأ مسلم بن جندب بفتح الهمزة، وهي في موضع رفع عطف على «كَلِمَةٍ»، المعنى: وأن الظالمين لهم في الآخرة عذاب.

وقوله تعالى: «تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ» هي رؤية بصر، و«الظَّالِمِينَ» مفعول، و«مُشْفِقِينَ» حال، وليس لهم في هذا الإشفاق مدح؛ لأنهم إنما أشفقوا حين نزل بهم ووقع، وليسوا كالمؤمنين الذين هم في الدنيا مشفقون من الساعة كما تقدم، وقوله تعالى: «وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ» في موضع الحال، و«الرَّوَضَاتُ»: المواضع المُنُونَةُ النَّضْرَةُ، وهي مرتفعة في الأغلب من الاستعمال، وهي الممدوحة عند العرب وغيرهم، ومن ذلك قوله تعالى: «كَمَثَلِ جَنَّتَيْ بِرَبْوَةٍ»، ومن ذلك تفضيلهم روضات الحزن لجودة هوائها، قال الطبري: ولا تقول العرب لموضع الأشجار: رياض.

وقوله تعالى: «ذَلِكَ الَّذِي يُبَيِّرُ اللَّهُ

عِبَادَهُ» إشارة إلى قوله تعالى في آية أُخْرَى: «وَيُبَيِّرُ الْمُؤْمِنِينَ يَأْتِيَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَثِيرًا». وقرأ جمهور الناس: «يُبَيِّرُ» بضم الياء وفتح الياء وشُدُّ الشين مكسورة، وذلك على التعدية والتضعيف، وقرأ مجاهد، وحميد: «يُبَيِّرُ» بضم الياء وسكون الياء وكسر الشين، على التعدية بالهمزة، وقرأ ابن مسعود، وابن يَغْمَر، وابن أبي إسحق، والجحدري، والأعمش، وطلحة: «يُبَيِّرُ» بفتح الياء وضم الشين، ورويت عن ابن كثير، وقال الجحدري في تفسيرها: ترى النضرة في الوجوه.

قوله تعالى: «مَنْ لَّا يَسْتَلْزِمْنَا عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا نَوَدَّاهُ فِي الْقُرْبَى»، اختلف الناس في معناه - فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هي آية مكية نزلت في صدر الإسلام، ومعناها استئفاف شر الكفار، ودفع أذاهم، أي: ما أسألكم على القرآن والدعاء إلى الله تعالى إلا أن تؤدوني لقرباية بيني وبينكم، فتكفوا عني أذاكم، قال ابن عباس، وابن إسحاق، وقاتدة: ولم يكن في قريش بطن إلا ولرسول الله ﷺ فيه نسب أو صهر فالآية - على هذا - هي استعطاف ما، ودفع أذى، وطلب سلامة منهم، وذلك كله منسوخ بآية السيف ويحتمل هذا التأويل أن يكون معنى الكلام استدعاء نصرهم، أي: لا أسألكم غرامة ولا شيئاً إلا أن تؤدوني لقرباية منكم، وأن تكونوا أولى من غيركم، وقال مجاهد: إلا أن تصلوا رحمي باتباعي، وقال ابن عباس

رضي الله عنهما أيضاً ما يقتضي أنها مدنية، وسببها أن قوماً من شباب الأنصار فاخروا المهاجرين، ومالوا بالقول على قريش، فنزلت الآية بذلك على معنى: إلا أن تؤدوني فتراعوني في قرباتي وتحفظوني فيهم، وقال بهذا المعنى في الآية علي بن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، واستشهد بالآية حين سيق إلى الشام أسيراً، وهو تأويل ابن جبير، وعمرو بن شعيب، وعلى هذا التأويل قال ابن عباس رضي الله عنهما: قيل: يا رسول الله، من قرباتك الذين أمرنا بمودتهم؟ فقال: «علي وفاطمة وابناهما»، وقيل: هم ولد عبدالمطلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقريش كلها عندي قُربى وإن كانت تفاضل، وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «من مات على حب آل محمد مات شهيداً، ومن مات على بغضهم لم يشم رائحة الجنة»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً في كتاب الثعلبي: سبب هذه الآية أن الأنصار جمعت لرسول الله ﷺ مالا وساقته إليه، فردّه عليهم ونزلت الآية في ذلك، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: معنى الآية من قُربى الطاعة والتَّزَلُّفِ إلى الله تعالى، كأنه قال: إلا أن تؤدوني لأنني أقربكم من الله تعالى، وأريد هدايتكم وأدعوكم إليها، وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: إلا أن تتواددوا إلى الله تعالى بالتقرب إليه، وقال عبدالله بن القاسم في

كتاب الطبري: معنى الآية: **إِلَّا أَنْ تَتَوَدَّوْا بِبَعْضِكُمْ إِلَى بَعْضٍ وَتَصَلُّوْا قُرَابَتِكُمْ**، فالآية - على هذا - أمر بصلة الرحم.

وذكر النقاش عن ابن عباس، ومقاتل، والسدي، والكلبي أن الآية منسوخة بقوله تعالى في سورة سبأ: **﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾**، والصواب أنها مُحْكَمَةٌ، وعلى كُلِّ قول فالاستثناء منقطع، و**﴿إِلَّا﴾** بمعنى «لكن».

و **﴿يَقْرَأْ﴾** معناه: يكتسب، ورجلٌ قرءة إذا كان محتالاً كسوباً، وقرأت فرقة: **﴿يَزِدْ﴾** على إسناد الفعل لله تعالى، وقرأ جمهور الناس: **﴿زَادْ﴾** على نون العظمة، وزيادة الحُسْنِ هو التضعيف الذي وعد الله تعالى به مؤمني عباده، قاله الحسن بن أبي الحسن، و**﴿عَفُورٌ﴾** معناه: سائر عيوب عبیده، و**﴿شُكُورٌ﴾** معناه: مجاز على الدقيقة من الخير، لا يضيع عنده عمل العامل.

②٤ - ②٥ (٧) تفسير قوله عز وجل:

﴿أَمْ﴾ هذه أيضاً مقطوعة مُضْمَنَةٌ إضراباً عن كلام متقدم، وتقريراً على هذه المقالة منهم. وقوله تعالى: **﴿فَإِنْ يَنْتَهِىَ اللَّهُ بِخَيْرٍ﴾** معناه في قول قتادة وفرقة من المفسرين: يُنْسِيكَ القرآن، والمراد الرُّدُّ على مقالة الكفار وبيان إبطالها، وذلك كأنه يقول: وكيف يصح أن تكون مفترياً وأنت بمرأى من الله تعالى وسماع، وهو قادر لو شاء أن يختم على قلبك فلا تعقل ولا تنطق ولا يستمرز افتراؤك، فمقصد اللفظ هذا المعنى،

وحذف ما يدل عليه الظاهر اختصاراً واقتصاراً، وقال مجاهد في كتاب الثعلبي وغيره: المعنى: **﴿فَإِنْ يَشَاءُ اللَّهُ﴾** يختم على قلبك بالصبر لأذى الكفار، ويربط عليه بالجدل، فهذا تأويل لا يتضمن الرُّدُّ على مقالتهم.

وقوله تعالى: **﴿وَسَبَّحْ لِلَّهِ الْأَنْبِيَاءُ﴾** فعل مستقبل، خير من الله تعالى أنه يمحو الباطل ولا بد، إما في الدنيا وإما في الآخرة، وهذا بحسب نازلة نازلة، وكتبت **﴿وَسَبَّحْ﴾** في المصحف بحاءٍ مرسله كما كتبوا **﴿وَيَذِيعُ الْإِنْسَانُ﴾** إلى غير ذلك مما ذهبوا فيه إلى الحذف والاختصار. وقوله تعالى: **﴿يَكْمَلُنَا﴾** معناه: بما سبق في قديم علمه وإرادته من كون الأشياء، فالكلمات: المعاني القائمة القديمة. وقوله تعالى: **﴿إِنَّهُمْ عَلَيْهِمْ يَذَاتُ الصُّدُورِ﴾** خبرٌ مُضْمَنَةٌ وعيد.

ثم ذكر تعالى النعمة في تفضله بقبول التوبة عن عباده، وقبول التوبة فيما يستأنف العبد من زمنه وأعماله مقطوع به بهذه الآية، وأما ما سلف من أعماله فينقسم: فأما التوبة من الكفر فمأخوذة كل ما تقدمها من مظالم العابد الفانية، وغير ذلك، وأما التوبة من المعاصي فلاهل السنة فيها قولان: هل تذهب المعاصي السابقة للعبد بينه وبين خالقه سبحانه؟ فقالت فرقة: هي مُذْهَبَةٌ لها، وقالت فرقة: هو في مشيئة الله تعالى، وأجمعوا على أنها لا تُذْهِبُ مظالم العباد، وحقيقة التوبة: الإقلاع عن المعاصي والإقبال والرجوع إلى الطاعات، ويلزمها

الندم على ما فات والعزم على ملازمة الخيرات، وقال سري السقطي: التوبة: العزم على ترك الذنوب والإقبال بالقلب إلى علائم الغيوب سبحانه وتعالى، وقال يحيى بن معاذ: التائب من كسر شباهة على رأسه، وكسر الدنيا على رأس الشيطان، ولزم الفطام حتى أتاه الجمام. وقوله تعالى: **﴿عَنْ عِبَادِهِ﴾** بمعنى: من عباده، وكأنه تعالى قال: التوبة الصادرة عن عباده، وقرأ جمهور القراء، والأعرج، وأبو جعفر، والجحدري، وقاتدة: **﴿يَفْعَلُونَ﴾** بالياء على الكناية عن غائب، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن مسعود، وعلقمة: **﴿تَفْعَلُونَ﴾** بالياء على المخاطبة، وفي الآية توعد.

وقوله تعالى: **﴿وَسَتَجِيبُ﴾**، قال الزجاج، وغيره: معناه: يُجِيبُ، والعرب تقول: أجاب واستجاب بمعنى، ومنه قول الشاعر:

وَدَاعَ دَعَا يَا مَنْ يُجِيبُ إِلَى الثَّدَى
فَلَمْ يَسْتَجِبْهُ عِنْدَ ذَلِكَ مُجِيبٌ
و **﴿الذَّيْبُ﴾** - على هذا القول - مفعولٌ بـ **﴿يَسْتَجِيبُ﴾**، وروي هذا المعنى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، ونحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقالت فرقة: المعنى: ويستدعي الذين آمنوا الإجابة من ربهم بالأعمال الصالحة. - ودلّ قوله تعالى: **﴿وَزَيَّدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ﴾** على أن المعنى: **﴿فَيُجِيبُهُمْ﴾** - وحملت هذه الفرقة «استجاب» على المعهود من

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿وَيَسِّرْ رَحْمَتَهُ﴾ - فقالت فرقة: أراد بالرحمة المطر، وعدد النعمة بعينها بلقطين الثاني منهما يؤكد الأول، وقالت فرقة: الرحمة في هذا الموضع: الشمس، فذلك تعديد نعمة غير الأولى، وذلك أن المطر إذا ألمَّ بعد القنط حُسن موقعه، فإذا دام سُيم فتجىء الشمس بعده عظيمة الموقع. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَوَّلُ الْكَرِيمِ﴾ أي: من هذه أفعاله فهو الذي ينفع إذا والى، وتُحمد أفعاله ونعمه، لا كالذي لا يضر ولا ينفع من أوثانكم.

ثم ذكر تعالى الآية الكبرى، والصنعة الدالة على الصانع، وذلك خلقه السموات والأرض، وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَكَ فِيهَا مِن دَابَّةٍ﴾ يخرج على وجوه: منها أن يريد أحدهما فيذكر الاثنين، كما قال تبارك وتعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهَا الْكُلُوبُ وَالنَّعَمَاتُ﴾، وذلك إنما يخرج من الملح وحده، ومنها أن يكون تعالى قد خلق السموات وبث دواب لا نعلمها نحن، ومنها أن يريد الحيوانات التي توجد في السحاب وقد تقع أحياناً كالصفادع ونحوها، فإن السحاب داخل في اسم السماء، وحكى الطبري عن مجاهد أنه قال في تفسير ﴿وَمَا بَكَ فِيهَا مِن دَابَّةٍ﴾: هم الناس والملائكة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويعيد غير جارٍ على عُرف اللغة أن تقع الدابة على الملائكة.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ﴾

وجلُّ أعلم بالمصلحة في كل أحد، وله بعبده خيرةٌ ونَصْرٌ بأخلاقهم ومصالحهم، فهو ينزل لهم من الرزق القدر الذي به صلاحهم، فربُّ إنسان لا يصلح ولا تكف عاديته إلا بالفقر، وآخر بالغنى، وروى أنس بن مالك في هذا المعنى والتقسيم حديثاً عن النبي ﷺ، ثم قال أنس رضي الله عنه: اللهم إني من عبادك الذين لا يصلحهم إلا الغنى فلا تفقرني. وقال خُباب بن الأرت: فينا نزلت لأننا نظرنا إلى أحوال بني

قريظة وبني النضير وبني قُينقاع فتميناها.

(٢٨) - (٣٣) تفسير قوله عز وجل:

هذا تعديد نعم الله تعالى الدالة على وحدانيته، وأنه الإله الذي يستحق أن يعبد دون ما سواه من الأنداد، وقرأ: ﴿يَنْزِلُ﴾ بالثقل جمهور القراء، وقرأ: ﴿يُنزِلُ﴾ مخففة ابن وثاب، والأعمش، ورويت عن أبي عمرو، ورجحها أبو حاتم، وقرأ جمهور الناس: ﴿فَقَطُّوا﴾ بفتح النون، وقرأ يحيى بن وثاب عن الأعمش بكسر النون، وقد تقدم ذكرها، وهما لغتان، يقال: قَطَطَ وقَطِطَ، وروي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قيل له: أجديت الأرض وقنط الناس، فقال: مُطِرُوا إذا، بمعنى: إن الفرج عند الشدة.

وَمِن آيَاتِهِ الْمَوَارِجُ الْمُحَارِقُ الْأَعْلَى (٢٨) إِنَّ نَسْفَاتِكَ الرِّيحَ قَطْلَانِ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ فَإِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٢٩) أَوْ يُرِيقَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ (٣٠) وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُم مِّن مَّحْصِينٍ (٣١) فَأَمَّا آيَاتِنَا مِمَّا تُوقِنُ فَتَحْمِلُونَ الْحِمْلَ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَقْبَلُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رِجْمِهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٢) وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ كَثِيرًا إِذِ انْمِحُوا وَالْمُفْرَجَشُ وَإِذَا مَا عَضِبُواهُمْ يُعْفِرُونَ (٣٣) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْزَجُوا سُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُقْفُونَ (٣٤) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْبُغُونَ (٣٥) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَصَا وَاصْبَحْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٣٦) وَلَمَنِ انصَبَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ مِمَّا لَكَ مَا عَلَيْنَا مِّن سَبِيلٍ (٣٧) إِنَّمَا اسَّوِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَعُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٨) وَلَمَن صَبَرَ وَعَفِرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِن عَزْمِ الْأُمُورِ (٣٩) وَمَن يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لِلدُّنْيَا مِن بَعْدِهِ وَمَن يَضِلِ اللَّهُ فَسَاءَ حَالُهُ لَهَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمِينَ (٤٠) لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مَرَدٌّ مِّن سَبِيلِ اللَّهِ

باب «استفعل»، أي: طَلَبَ الشيء، و﴿الَّذِينَ﴾ - على هذا القول - فاعل بـ ﴿يَسْتَجِيبُ﴾. وقالت فرقة: المعنى: ويُجيب المؤمنون ربهم، ف﴿الَّذِينَ﴾ فاعل بمعنى: يجيبون دعوة شرعه ورسالته، والزيادة من فضله هي تضعيف الحسنات، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «هي قبول الشفاعات في المؤمنين والرضوان».

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ سَظَّ اللَّهُ الرِّزْقَ لِإِعَابِهِ لَبَعَثَ فِي الْأَرْضِ﴾، قال عمرو بن حُرَيْث وغيره: إنها نزلت لأن قوماً من أهل الصُفة طلبوا من رسول الله ﷺ أن يُغنيهم الله تعالى، ويبسط لهم الأرزاق والأموال، فأعلمهم تعالى أنه لو جاء الرزق على اختيار البشر واقتراحهم لكان سبب بغيتهم وإفسادهم، ولكنه عزَّ

يريد: يوم القيامة عند الحشر من القبور.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّنْ مُّصِيبَةٍ﴾، قرأ جمهور القراء: ﴿بِمَا﴾، وكذلك هي في جُلِّ المصاحف، وقرأ نافع، وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿بِمَا﴾ دون فاء، وحكى الزجاج أن أبا جعفر وغيره من المدنيين أثبت الفاء، قال أبو علي الفارسي: ﴿أَصَابَ﴾ من قوله تعالى: ﴿بِمَا أَصَابَ﴾، يحتمل أن تكون في موضع جزم وتكون ﴿مَا﴾ شرطية، وعلى هذا لا يجوز حذف الفاء عند سيبويه، وجوز حذفها أبو الحسن الأخفش وبعض البغداديين على أنها مرادة في المعنى، ويحتمل أن يكون قوله: ﴿أَصَابَ﴾ صلة لـ ﴿مَا﴾، وتكون [مَا] بمعنى «الذي»، وعلى هذا يجوز حذف الفاء وثبوتها، لكن معنى الكلام مع ثبوتها بالتلازم، أي: لولا كَسْبُكُمْ لما أصابكم مصيبة، والمصيبة إنما هي بسبب كَسْبِ الأيدي، ومعنى الكلام مع حذفها يجوز أن يكون التلازم، ويجوز أن يُعْرَى منه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما في هذه الآية فالتلازم مطرد مع الثبوت والحذف، وأما معنى الآية فاختلف الناس فيه - فقالت فرقة: هي إخبار من الله تعالى، فإن الرزايا والمصائب في الدنيا إنما هي مجازاة من الله تعالى على ذنوب المرء، وتمحيص لخطاياها، وإن الله تعالى يعفو عن كثير فلا يعاقب عليه بمصيبة، قال النبي ﷺ: «لا يصيب

ابن آدم خدش حود أو عشرة قدم ولا اختلاج عرق إلا بذنب، وما يعفو عنه أكثر»، وقال عمران بن حصين وقد سُئل عن مرضه: «إِنَّ أَحِبَّهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وهذا مما كسبت يدي، وعفو ربِّي سبحانه كثير»، وقال مُرَّة الهمداني: رأيت على ظهر كَف شريح فُرحة، فقلت: ما هذا؟ فقال: «هذا بما كسبت يدي، ويعفو عن كثير»، وقيل لأبي سليمان الداراني: ما بال الفضلاء لا يلومون من أساء إليهم؟ فقال: لأنهم يعلمون أن الله تعالى هو الذي ابتلاهم بذنوبهم، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إِنَّ اللَّهَ أَكْرَمُ مِنْ أَنْ يُثَنِّيَ عَلَى عَبْدِهِ الْمُعْتَقِ إِذَا أَصَابَتْهُ فِي الدُّنْيَا مَصِيبَةٌ بِمَا اكْتَسَبَتْ يَدَاهُ»، وقال الحسن بن أبي الحسن: معنى الآية في الحدود، أي: ما أصابكم من حد من حدود الله تبارك وتعالى - وتلك مصيبة تنزل بشخص الإنسان ونفسه - فإنما هي بكسب أيديكم، ويعفو الله سبحانه عن كثير فيستره على العبد حتى لا يُحَدَّ عليه.

ثم أخبر تعالى عن قُصور ابن آدم وضعفه، وأنه في قبضة القدرة، ولا يعجز طلب ربه عز وجل، ولا يمكنه الفرار منه.

و«الجواري»: جمع جارية، وهي السفينة، وقرأ: «الْجَوَارِي» بالياء نافع، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة، ومنهم من أثبتها في الوصل ووقف على الراء، وقرأ أيضاً عاصم بحذف الياء في وصل ووقف، وقال أبو حاتم: نحن نُثَبِّتُهَا فِي كُلِّ حَالٍ،

و«الأعلام»: الجبال، ومنه قول الخنساء:

وإِنْ صَخْرًا لَتَأْتُمُ الْهُدَاةَ بِهِ
كَأَنَّهُ عَلَّمَ فِي رَأْسِهِ نَارَ
ومنه المثل: «إِذَا قَطَعْنَ عَلَمًا بَدَأَ عِلْمٌ»، فَجَزَى السَّفِينُ فِي الْمَاءِ آيَةً عَظِيمَةً، وتسخير الريح لذلك نعمة منه تعالى، وهو لو شاء أن يُسكن الريح عنها لركدت، أي: أقامت وقرت ولم يتم منها غرض. وقرأ أبو عمرو، وعاصم: ﴿الزَّيْحَ﴾ واحدة، وقرأ: ﴿الزَّيْحَ﴾ نافع، وابن كثير، والحسن. وقرأ الجمهور: ﴿يَطْلُلْنَ﴾ بفتح اللام، وقرأ قتادة: ﴿فَيَطْلُلْنَ﴾ بكسر اللام. وباقى الآية بيِّن، فيه الموعظة، وتشريف الصِّبَارِ الشُّكُورِ بالتخصيص، والصبر والشكر فهما الخير كله، ولا يكونان إلا في عالم.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل: أَوْثَقْتُ الرَّجُلَ: إِذَا أَنْشَبْتَهُ فِي أَمْرٍ يَهْلِكُ فِيهِ، فالإيقاق في السفن هو تغريقها، والضمير في «كَسْبُوا» هو لركابها من البَشَرِ، أي: بذنوب البشر، ثم ذكر تعالى ثانية ﴿وَيَمُتْ عَن كَثِيرٍ﴾ مبالغة وإيضاحاً، وقرأ نافع، وابن عامر، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بالرفع على القطع والاستئناف، وحسن ذلك إذا جاء بعد الجزاء، وقرأ السابقون والجمهور: ﴿وَيَعْلَمُ﴾ بالنصب على تقدير (أن)، وهذه الواو ونحوها هي التي يسميها الكوفيون «وَاوَ الصَّرْفِ»؛ لأن حقيقة واو الصرف هي التي تريد بها عطف فعل على اسم فتقدر (أن) لتكون مع الفعل بتأويل المصدر فيجيء عطفه على

الاسم، وذلك نحو قول الشاعر:

 تَقْضِي بُبَائَاتٍ وَتَسَامُ سَائِمٌ
 فكأنه أراد؛ وَسَامَةٌ سَائِمٌ، فتقدر
 «وَأَنْ يَسَامَ» ليكون ذلك بتأويل
 المصدر الذي هو «سَامَةٌ»، قال أبو
 علي: حسن النصب إذا كان قبله
 شرط وجزاء وكل واحد منهما غير
 واجب.

وقوله تعالى: ﴿مَا لَهُمْ مِنْ حِصِينٍ﴾
 هو معلومهم الذي أراد أن يعلمه
 المجادلون في آياته عز وجل،
 و«المحيص»: المنجى وموضع
 الروغان، يقال: حاص إذا راغ،
 وفي حديث هرقل: (فحاصوا حيصَةً
 حُمِرَ الوحش إلى الأبواب). ثم
 وعظ تعالى عباده وحقر عندهم أمر
 الدنيا وشأنها، ورغبهم فيما عنده من
 نعيمهم والمنزلة الرفيعة لديه، وعظم
 قدر ذلك في قوله تعالى: ﴿مَا أُوْتِيتُمْ
 مِنْ شَيْءٍ﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَحْنَبُونَ﴾
 عطف على قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا﴾، وقرأ جمهور القراء:
 ﴿كَبِيرٌ﴾ على الجمع، قال الحسن:
 هي كل ما تُوعَدُ فيه بالنار، وقال
 الضحاك: أو كان فيه حد من
 الحدود، وقال ابن مسعود
 رضي الله عنه: الكبائر من أول
 سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية،
 وقال علي بن أبي طالب، وابن
 عباس رضي الله عنهم: هي كل ما
 ختمه الله تعالى بنار أو غضب أو
 لعنة أو عذاب، وقرأ حمزة،
 والكسائي، وعاصم: ﴿كَبِيرٌ﴾ على
 الإفراد الذي هو اسم الجنس، وقال

ابن عباس رضي الله عنهما: كبير
 الإثم هو الشرك والفواحش، وقال
 السدي: الزنى، وقال مقاتل:
 موجبات الحدود، ويحتمل أن يكون
 [كَبِيرًا] اسم جنس بمعنى «كبائر»
 فتدخل فيه الموبقات السبع على ما
 قد تفسر من أمرها في غير هذه
 الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَا عَصَبُوا مُمْ
 يَقْتَرُونَ﴾ حض على كسر الغضب
 والتدرب في إطفائه؛ إذ هو جمرة
 من جهنم، وباب من أبوابها، وقال
 رجل للنبي ﷺ: أوصني، قال: لا
 تغضب، قال: زدني، قال: لا
 تغضب، ومن جاهد هذا العارض
 من نفسه حتى غلبه فقد كفي همًا
 عظيمًا في دنياه وآخرته.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا
 لِرَبِّهِمْ﴾ مدح لكل من آمن بالله تعالى
 وقبل شرعه، ومدح تعالى القوم
 الذين أمرهم شورى بينهم لأن في
 ذلك اجتماع الكلمة، والتحاب
 واتصال الأيدي، والتعاقد على
 الخير، وفي الحديث: «ما تشاور
 قوم قط إلا هودوا لأحسن ما
 بحضرتهم»، وقوله تعالى: ﴿وَمَا
 رَفَقْتُمْ يُبْتَلُونَ﴾ معناه: في سبيل الله
 ويرسم الشرع وعلى حدوده في
 القوام الذي مدحه الله تعالى في غير
 هذه الآية.

وقال ابن زيد: قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ
 اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ الآية نزلت في
 الأنصار، والظاهر أن الله تعالى مدح
 كل من أنصف بهذه الصفة كائنًا من
 كان، وهل حصل الأنصار في هذه
 الصفة إلا بعد سبق المهاجرين إليها؟

رضي الله تعالى عن جميعهم بمنه.
 ﴿٣٩﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل:

مدح الله تعالى في هذه الآية قوماً
 بالانتصار من البغي، ورجح ذلك
 قوم من العلماء، وقالوا: الانتصار
 بالواجب تغيير منكر، ومن لم ينتصر
 مع إمكان الانتصار فقد ترك تغيير
 المنكر.

واختلف الناس في المراد بالآية بعد
 اتفاقهم على أن من بغى عليه وظلم
 فجائز له أن ينتصر بيد الحق وحاكم
 المسلمين - فقال مقاتل: الآية في
 المجروح ينتصف من الجراح
 بالقصاص.

وقالت فرقة: إنها نزلت في بغى
 المشرك على المؤمن، فأباح الله
 تعالى له الانتصار منه دون تعدد،
 وجعل العفو والإصلاح مقروناً
 بأجر، ثم نسخ جميع ذلك بآية
 السيف، وقالت هذه الفرقة - وهي
 الجمهور -: إن المؤمن إذا بغى على
 مؤمن وظلمه، فلا يجوز للأخر أن
 ينتصف منه بنفسه ويجازيه على
 ظلمه، مثال ذلك أن يخون إنسان
 آخر، ثم يتمكن الآخر من خيانة
 الأول، فمذهب مالك رحمه الله
 تعالى ألا يفعل، وهو مذهب جماعة
 عظيمة معه، ولم يروا هذه الآية من
 هذا المعنى، واحتجوا بقول
 النبي ﷺ: «أَذِ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ
 ائْتَمَنَكَ، وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»، وهذا
 القول أنزه وأقرب إلى الله تبارك
 وتعالى.

وقالت طائفة من أهل العلم: هذه
 الآية عامة في المشركين والمؤمنين،
 ومن بغى عليه وظلم فجائز له أن

١٢ - ١٥ تفسير قوله

عز وجل:

المعنى: إنما سبيل الحكم والإثم على الذين يظلمون الناس، أي: الذين يضعون الأشياء غير مواضعها، من القتل وأخذ المال والأذى باليد وباللسان، والبغى بغير الحق هو نوع من أنواع الظلم خصه بالذكر تنبيهاً على شدته وسوء حال صاحبه، ثم توعدهم تعالى بالعذاب الأليم في الآخرة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾

ينتصف لنفسه، ويخون من خانه في المال حتى ينتصر منه، وقالوا: إن الحديث: «ولا تثن من خانك» إنما هو في رجل سأل رسول الله ﷺ: هل يزني بخرمة من زنى بخرمته؟ فقال له النبي ﷺ ذلك يريد به الزنى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك ورد الحديث في معنى الزنى، ذكر ذلك الرواة، أما إن عمومه ينسحب في كل شيء.

وقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءٌ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾، قال الزجاج: سُمي العقوبة باسم الذنب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا إذا أخذنا السيئة في حق الله تعالى بمعنى المعصية، وذلك أن المجازاة من الله تعالى ليست سيئة إلا إن سُميت باسم موجبتها، وأما إن أخذنا السيئة بمعنى المصيبة في حق البشر، أي: يسوء هذا هذا ويسوءه الآخر، فلنا نحتاج إلى أن نقول: «سُمي العقوبة باسم الذنب»، بل الفعل الأول والفعل الآخر سيئة، وقال ابن أبي نجیح، والسدي: معنى هذه الآية أن الرجل إذا شتم بشتمة فله أن يردها بعينها دون أن يتعدى، وقال الحسن بن أبي الحسن: ما لم تكن حدًا أو عوراءً جدًّا، واللأم في قوله: ﴿وَلَمْ يَأْتِكَ﴾ لام التقاء القسم. وقوله تعالى: ﴿مِن سَبِيلٍ﴾ يريد: من سبيل خرج ولا سبيل حكم، وهذا بلاغ في إباحة الانتصار والخلاف فيه، هل هو بين المؤمن والمشرك أو بين المؤمنين على ما تقدم؟

وَرَبُّهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا حَشِيعَاتٍ مِنَ الدُّنَى يُنظَرُونَ
مِنْ طَرَفِي حَقِّي وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْمُتَعَسِّرُونَ الَّذِينَ
حَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ
فِي عَذَابٍ مُّقْبِرٍ ﴿١٢﴾ وَمَا كَانَتْ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يُنصُرُونَهُمْ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ ﴿١٣﴾ اسْتَجِيبُوا
لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمَ لَا مَرَدَ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَكُمْ
مِنْ مَلْجَأٍ بَعْدَ ذَلِكَ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ ﴿١٤﴾ فَإِنْ أَعْرَضُوا
فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ وَإِنَّا إِذَا
أَدَقْنَا الْإِسْمَ بِنَازِحَةٍ فِي رِجَالِهِمْ لَنَنْصُرَهُمْ سَيِّئَةً
يَمَاقِدَتُمْ أَيُّهُمْ فَإِنَّ الْإِسْمَ كُفُورٌ ﴿١٥﴾ اللَّهُ مَالِكُ
السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَّمَا
يُنظَرُونَ ﴿١٦﴾ وَأَوْزَوْهُمْ ذِكْرَ آثَارِ آبَائِكَ
وَيَجْمَعُ لِمَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَمَا كَانَ
لِإِسْرَائِيلَ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ رِيًّا جَبَابُ أَوْ رُسُلِ
رَسُولًا قِيُوْحِي بِأَذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ

كان يوم القيامة نادى مناد: من كان له على الله أجر فليقم، فيقوم عسى من الناس كثير، فيقول: ما أجركم؟ فيقولون: نحن الذين عفونا عنمن ظلمنا في الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ وَبِئْسَ لِمَنْ يَبْغِيهِ﴾ تحقير لأمر الكفرة فلا يبالي بهم أحد من المؤمنين، فقد أصارهم كفرهم وإضلال الله تعالى إليهم إلى ما لا فلاح لهم معه، ثم وصف تعالى لنيته محمد ﷺ حالهم في القيامة عند رؤيتهم العذاب، فاجتزأ من صفتهم وصفة حالهم بأنهم يقولون: ﴿هَلْ إِلَىٰ مَرَّةٍ مِنَ سَبِيلٍ﴾، وهذه المقالة تدل على سوء ما أطلعوا عليه، و«المرد»: موضع الرد إلى الدنيا، والمعنى الذي قصدوه أن يكون رد فيكون منهم استدراك للعمل

اعتراض بين الكلامين، ثم عاد في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَبْرٌ﴾ إلى الكلام الأول، كأنه تعالى قال: «ولكن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل، ولمن صبر وعفر»، واللام في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ سَبْرٌ﴾ يصح أن تكون لام القسم، ويصح أن تكون لام الابتداء، و [من] ابتداء، وخبره في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ﴾. و«عزم الأمور»: مُحْكَمُهَا وَمُتَّقِنُهَا وَالْحَمِيدُ الْعَاقِبَةُ مِنْهَا.

ومن رأى أن هذه الآية هي فيما بين المؤمنين والمشركين وأن الصبر للمشركين كان أفضل قال: إن الآية نُسخَت بآية السيف، ومن رأى أن الآية إنما هي بين المؤمنين قال: هي محكمة، والصبر والغفران أفضل إجماعاً، وقال رسول الله ﷺ: «إذا

من قول الله تعالى وإخباره
لمحمد ﷺ .

(٤٦) - (٤٨) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ لِمَنْ يَنْ
أُولِيَاءَ﴾ إِنْجَاءً عَلَى الْأَصْنَامِ وَالْأوثَانِ
التي أظهر الكفار ولايتها، واعتقدوا
ذلك ديناً، المعنى: فما بالهم يوالون
هذه التي لا تضر ولا تنفع، ولكن
من يُضِلُّ الله فما له من سبيل هدى
ونجاة.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن
يأمرهم بالاستجابة لدعوة الله تعالى
وشريعته، وحذرهم إتيان يوم القيامة
الذي لا يُرَدُّ أَحَدٌ بعده إلى عمل،
والذي لا ملجأ ولا منجى لأحد فيه،
إِلَّا إِلَى الْعِلْمِ بالله تعالى والعمل
الصالح في الدنيا، فأخبرهم أنه لا
ملجأ لهم ولا نكير، و«التكبير»
مصدر بمعنى الإنكار، وهو بمنزلة
«عذير الحي» ونحوه من المصادر،
ويحتمل أن يكون من أبنية اسم
الفاعل من «نَكِرَ»، وإن كان المعنى
يبعد به؛ لأن «نَكِرَ» إنما معناه: لم
يُعَيِّرْ وظن الأمر غير ما عهَدَ.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَمَا
أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ تَأْنِيْسُ
لمحمد ﷺ، وإزالة لهمة بهم،
وأعلمه أنه ليس عليه إِلَّا البلاغ إليهم
وتوصيل الحجّة، ثم جاءت عبارة في
باقي الآية هي بمنزلة ما تقول:
والقوم قوم عُتُوٌّ وتناقض أخلاق
واضطراب، إذا أذيقوا رحمة فرحوا
بها وبطروا، وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ - أي:
مصيبة - تُسَوِّؤُهُمْ فِي أَجْسَادِهِمْ أَوْ
فِي نَفْسِهِمْ - وذلك بذنوبهم وقبيح
فعلهم - فَإِنَّهُمْ كَفَرُوا عِنْدَ ذَلِكَ غَيْرِ

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: لَمَّا كَانَ
نظَرُهُمْ ضَعِيفًا وَلَحْظُهُمْ
بِمَهَانَةِ وَصْفِ بِالْخِفَاءِ،
وَمِنْ هَذَا الْمَعْنَى قَوْلُ
الشَّاعِرِ:

فَقُضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرِ

وقال قوم - فيما حكى
الطبري -: لَمَّا كَانُوا
يُحْشِرُونَ عُمِيًّا وَكَانَ
نظَرُهُمْ بَعِيونَ قُلُوبِهِمْ
جَعَلَهُ طَرْفًا خَفِيًّا، أَي: لَا
يَبْدُو نَظَرُهُمْ.

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: وفي هذا
التأويل تكلف.

وقال قتادة والسدي: المعنى:
يسارقون النظر، لَمَّا كَانُوا مِنَ الْهَمِّ
وسوء الحال لَا يَسْتَطِيعُونَ النَّظَرَ
بجميع العين وإنما ينظرون من
بعضها قال: ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾ أَي:
قليل، فالطرف هنا - على هذا
التأويل - يحتمل أن يكون مصدرًا،
أَي: يطرف طرفًا خفيًا.

و «قول الذين آمنوا» هو في يوم
القيامة عندما عابنوا حال الكفار
وسوء متقلبهم، و«خسران الأهلين»
يحتمل أن يراد به أهلهم الذين
كانوا في الدنيا، ويحتمل أن يراد
به أهلهم الذين كانوا يكونون لهم
في الجنة إن لو دخلوها، وقوله
تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ
مُتَّعِينَ﴾ يحتمل أن يكون من
قول المؤمنين يومئذ، حكاه الله
تعالى، ويحتمل أن يكون استئنافًا

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحَانًا مِمَّا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ
وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا تَهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِن عِبَادِنَا
وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ صِرَاطَ اللَّهِ الَّذِي لَهُ
مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴿٤٧﴾

سُورَةُ الشُّورَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّ ﴿٤٨﴾ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٤٩﴾ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا
لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٥٠﴾ وَإِنذِرْ فِي أُولِ الْكِتَابِ لَدِينَا
لَعَلَّ حُكْمَهُمْ أَقْضَىٰ ﴿٥١﴾ أَفَضْرَبُ عَنْكُمْ الذِّكْرَ صَفْحًا
أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِن نَّبِيِّ فِي
الْأَوَّلِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٤﴾
فَأَهْلَكْنَا أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٥﴾
وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ
خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٥٦﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُم فِيهَا سُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٧﴾

٤٨٩

والإيمان، والرؤية في هذا رؤية
عين.

والضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا﴾
عائد على النار، وعاد الضمير مع
أنها لم يتقدم لها ذكر من حيث دل
عليها قوله تعالى: ﴿رَأَى الْأَعْدَابَ﴾،
وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الذَّلِيلِ﴾ يحتمل أن
يتعلق بـ «خَشِيعِينَ»، ويحتمل أن
يتعلق بما بعده من قوله تعالى:
﴿يَنْظُرُونَ﴾، وقرأ طلحة بن مصرف:
﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾ بكسر الذال،
و«الخشوع»: الاستكانة، وقد يكون
محموداً، وإنما يخرجها إلى حالة
الذمّ قوله تعالى: ﴿مِنَ الذَّلِيلِ﴾،
فيقوى - على هذا - تعلق [مِنْ] بـ
«خَشِيعِينَ».

وقوله تعالى: ﴿مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ﴾
يحتمل ثلاث معان، قال ابن عباس
ومجاهد: ﴿خَفِيٍّ﴾: ذليل.

صُبْر، وعَبَّرَ بِالْإِنْسَانِ الَّذِي هُوَ اسْمٌ عَامٌّ لِيَدْخُلَ فِي آيَةِ الْمَتَقَدِّمَةِ جَمِيعَ الْكُفْرَةِ مِنَ الْمَجَاوِرِينَ يَوْمئِذٍ وَمَنْ غَيْرِهِمْ، وَجَمَعَ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُؤْتِيهِمْ﴾ وَهُوَ عَائِدٌ عَلَى لَفْظِ «الْإِنْسَانِ» مِنْ حَيْثُ هُوَ اسْمٌ جِنْسٍ يَعْمُ كَثِيرًا.

﴿١١﴾ - ﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

الآية الأولى آية اعتبار دالة على القدرة والملك المحيط بالخلق، وأن مشيئته تعالى وجل نافذة في جميع خلقه، وفي كل أمرهم، وهذا لا مدخل لصنم فيه، فإن الذي يخلق ما يشاء ويخترع إنما هو الله سبحانه، وهو الذي يُقَسِّمُ الْخَلْقَ، فِيهِبُ الْإِنثَاءَ لِمَنْ شَاءَ أَنْ يَجْعَلَ نَسْلَهُ نِسَاءً، وَيهِبُ الذُّكُورَ لِمَنْ شَاءَ عَلَى هَذَا الْحَدِّ، أَوْ يَنْوَعُهُمْ: مَرَّةً يِهِبُ ذَكَرًا، وَمَرَّةً أُخْرَى أَنْثَى، وَذَلِكَ مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوْ يُرْزِقُهُمْ﴾، وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ الْحَنَفِيَّةِ: يَرِيدُ بِقَوْلِهِ: ﴿أَوْ يُرْزِقُهُمْ﴾ التَّوَامَ، أَي: يَجْعَلُ فِي بَطْنِ زَوْجًا مِنَ الذَّرِيَّةِ ذَكَرًا وَأُنْثَى. وَالْعَقِيمُ: الَّذِي لَا يُوَلِّدُ لَهُ، وَهَذَا كُلُّهُ مُدَبَّرٌ بِالْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، وَهَذِهِ الْآيَةُ تَقْضِي بِفَسَادِ وَجُودِ الْخَنْثَى الْمَشْكَلِ.

وبدأ تعالى في هذه الآية بذكر الإناث تأنيساً بهن وتشريعاً لهن، ليؤتمنن بصونهن والإحسان إليهن، قال النبي ﷺ: «من ابتلي من هذه البنات بشيء فأحسن إليهن كثر له حجاباً من النار»، وقال وائل بن الأَسْقَعِ: «من يُؤْمِنُ الْمَرْأَةَ تَكْبِيرَهَا بِالْأُنْثَى قَبْلَ الذَّكَرِ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى بَدَأَ بِالْإِنثَاءِ»، حكاها عن الثعلبي، وقال

إسحق بن بشر: نزلت هذه الآية في الأنبياء عليهم السلام ثم عُمِّتْ، فلو طُوعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبُو بَنَاتٍ لَمْ يُولَدْ لَهُ ذَكَرٌ، وَإِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ضَدُّهُ، وَمُحَمَّدٌ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وُلِدَ لَهُ الصَّنْفَانُ، وَيَحْيَى بْنُ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ عَقِيمٌ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ﴾ الآية... نزلت بسبب خوض كان للكفار في معنى تكليم الله تعالى موسى عليه السلام ونحو ذلك، ذهبت قريش واليهود في ذلك إلى تجسيم ونحوه، فنزلت الآية مُبَيِّنَةً صورة تكليم الله تبارك وتعالى عباده كيف هو، فبيّن تعالى أنه لا يكون لأحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ولا ينبغي له ولا يمكن فيه أن يكلمه الله تبارك وتعالى إلا بأن يوحى إليه أحد وجوه الوحي من الإلهام، قال مجاهد: وَالثَّقُفُ فِي الْقَلْبِ، وَقَالَ النِّقَاشُ: أَوْ وَخِيَ فِي مَنَامٍ، وَقَالَ إِبْرَاهِيمُ التَّخَعِي: كَانَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَنْ يُخَطُّ لَهُ فِي الْأَرْضِ وَنَحْوِ هَذَا، أَوْ بِأَنْ يُسْمِعَهُ كَلَامَهُ دُونَ أَنْ يَعْرِفَ هُوَ لِلْمَتَكَلِّمِ جِهَةً وَلَا خَبْرًا كَمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذَا مَعْنَى ﴿مِنْ رِزْقِهِ حِجَابٌ﴾، أَي: مِنْ خَفَاءٍ عَنِ الْمَكَلَّمِ لَا يَحُدُّهُ وَلَا يَتَصَوَّرُ بَدْنَهُ عَلَيْهِ، وَلَيْسَ كَالْحِجَابِ فِي الشَّاهِدِ، أَوْ بِأَنْ يَرْسَلُ إِلَيْهِ مَلَكًا يَشَافَهُهُ بُوْحِي اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿أَوْ يُرْسَلُ﴾ بِالنَّصْبِ ﴿فَيُوحَى﴾ بِالنَّصْبِ أَيْضًا، وَقَرَأَ نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ، وَأَهْلُ الْمَدِينَةِ: ﴿أَوْ يُرْسَلُ﴾ بِالرَّفْعِ

﴿فَيُوحَى﴾ بِسُكُونِ الْيَاءِ وَرَفْعِ الْفِعْلِ، فَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الْأُولَى فَقَالَ سَيِّبُوهُ: سَأَلْتُ الْخَلِيلَ عَنْهَا فَقَالَ: هِيَ مَحْمُولَةٌ عَلَى «أَنْ» غَيْرِ الَّتِي فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ﴾؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى كَانَ يَفْسُدُ لَوْ عَطَفَ عَلَى هَذِهِ، وَإِنَّمَا التَّقْدِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَجِبًا﴾: إِلَّا أَنْ يُوحَى وَحِيًّا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَوْ مِنْ رِزْقِهِ حِجَابٌ﴾ «مِنْ» مُتَعَلِّقَةٌ بِفِعْلِ يَدُلُّ عَلَيْهِ ظَاهِرُ الْكَلَامِ، تَقْدِيرُهُ: أَوْ يُكَلِّمُهُ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ، ثُمَّ عَطَفَ تَعَالَى ﴿أَوْ يُرْسَلُ﴾ عَلَى هَذَا الْفِعْلِ الْمُقَدَّرِ. وَأَمَّا الْقِرَاءَةُ الثَّانِيَةُ فَعَلَى أَنْ «يُرْسَلُ» فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَوْ عَلَى الْقَطْعِ، كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: «أَوْ هُوَ يَرْسَلُ»، وَكَذَلِكَ يَكُونُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا وَجِبًا﴾ مُصَدَّرًا فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، كَمَا تَقُولُ: أَتَيْتُكَ رَحْمَةً وَعَذَابًا، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ رِزْقِهِ حِجَابٌ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ أَيْضًا، كَمَا هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي أَلْمَهْدِ وَكَهَلًا وَمِنْ الْكَلْبِ وَالْحَيَاتِ﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَكَذَلِكَ «مِنْ» وَمَا عَمِلَتْ فِيهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ أَيْضًا، ثُمَّ عَطَفَ تَعَالَى قَوْلَهُ: ﴿أَوْ يُرْسَلُ﴾ عَلَى هَذِهِ الْحَالِ الْمَتَقَدِّمَةِ، وَفِي هَذِهِ الْآيَةِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الرِّسَالََةَ مِنْ أَنْوَاعِ التَّكْلِيمِ، وَأَنَّ الْحَالْفَ الْمُرْسَلُ حَانِثٌ إِذَا حَلَفَ أَلَّا يَكَلِّمُ إِنْسَانًا فَأَرْسَلَ وَهُوَ لَا يَنْوِي الْمَشَافَهَةَ وَقَتَ يَمِينِهِ.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾، المعنى: وبهذه الطرق ومن هذا الجنس أوحينا إليك، أي: كالرُّسُلِ، وَ«الرُّوْحُ» فِي هَذِهِ الْآيَةِ: الْقُرْآنُ وَهُدَى الشَّرِيعَةِ، سَمَّاهُ رُوحًا مِنْ

تفسير سورة الزخرف

هذه السورة مَكِّيَّة بإجماع من أهل العلم.

١ - ٢ - ﴿قُلْ هُوَ عَزَّ وَجَلَّ﴾

تقدم القول في الحروف التي في أوائل السور، وقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ﴾ خفض بواو القسم، و﴿المبين﴾ يحتمل أن يكن من «بأن» الذي هو بمعنى «بأن» أي: ظهر، فلا يحتاج إلى مفعول، ويحتمل أن يكون مُعَدَّى من «بأن»، فهذا لا بُدَّ من مفعول تقديره: المبين الهدى والشرع ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾ معناه:

سَمِينَاهُ وَصَبْرِنَاهُ، وهو إخبارٌ عليه وقع القسم، والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على ﴿الْكِتَابِ﴾، و﴿عَرَيْنَا﴾ معناه: بلسانكم لثلا يبقى لكم عذر، وقوله تعالى: ﴿لَمَلَكُكُمْ﴾ ترج بحسب معتقد البشر، أي: إذا أبصر المُبْصِر من البشر هذا الفعل مثا يُرجى منه أن يعقل ويفهم الكلام.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِي﴾ عطف على

قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ﴾، وهذا الإخبار الثاني واقع أيضاً تحت القسم، و﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾: اللوح المحفوظ، هذا فيه تشریف للقرآن وترفع، واختلف المتأولون، كيف هو في «أُمُّ الْكِتَابِ»؟ فقال قتادة، وعكرمة، والسدي، وعطية بن سعيد: القرآن بأجمعه فيه منسوخ، وكان جبريل ﷺ ينزل، وهنالك هو عليّ حكيم، وقال الجمهور الناس:

حيث يُحيي به البشر والعالم، كما يحيي الجسد بالروح، فهذا على جهة التشبيه. وقوله تعالى: ﴿مِنْ أَمْرِنَا﴾ أي: واحد من أمورنا، ويحتمل أن يكون «الأمر» بمعنى الكلام، و﴿مِنْ﴾ لابتداء الغاية. وقوله تعالى: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْآيَاتُ﴾ توقيف على مقدار النعمة، والضمير في ﴿جَعَلْنَاهُ﴾ عائد على ﴿الْكِتَابِ﴾، و﴿تَهْدِي﴾ معناه: تُرشد، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأِنَّكَ لَتَهْدِي﴾ بفتح التاء وكسر الدال، وقرأ حوشب: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي﴾ بضم التاء وفتح الدال على بناء الفعل للمفعول، وفي حرف أبي: ﴿وَأَنَّكَ لَتَدْعُونَ﴾، وهي تعضد قراءة الجمهور، وقرأ ابن السميع، وعاصم الجحدري: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي﴾ بضم التاء وكسر الدال.

وقوله تعالى: ﴿صِرَاطَ اللَّهِ﴾ يعني صراط شرع الله تعالى ورحمته، فبهذا الوجه ونحوه من التقدير أضيف الصراط إلى الله تعالى، واستفتح تعالى القول في الإخبار بصيرورة الأمور إلى الله تعالى مبالغة وتخفيفاً وتبنيماً، والأمور صائرة على الدوام إلى الله تعالى، ولكن جاءت هذه العبارة مستقلة تقريراً لمن في ذهنه أن شيئاً من الأمور إلى البشر، وقال سهل بن أبي الجعد: احترق مصحف فلم يبق منه إلا قوله تعالى: ﴿أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ﴾.

كامل تفسير سورة الشورى
والحمد لله رب العالمين

إنما في اللوح المحفوظ ذِكْرُهُ ودرجته ومكانته من العُلُوِّ والحكمة، وقرأ جمهور الناس: ﴿فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ بضم الهمة، وقرأها بكسر الهمة يوسف بن عُمَر والي العراق، وعيسى بن عُمَر.

وقوله تعالى: ﴿أَفَنْصَبُ﴾ بمعنى: أفنترك، تقول العرب: أضربتُ عن كذا وضربتُ إذا أعرضت عنه وتركته، و«الذِّكْرُ» هو الدعاء إلى الله تعالى والتذكيرُ بعذابه والتخويفُ من عقابه، قال أبو صالح: «الذِّكْرُ» هنا أراد به العذابَ نفسه، وقال مجاهد، والضحاك: «الذِّكْرُ»: القرآن، وقوله تعالى: ﴿صَمَحًا﴾ انتصابه كانتصاب ﴿سُنَّعَ اللَّهِ﴾، فيحتمل أن يكون بمعنى العفو والغفر للذنب، فكأنه تعالى يقول: أفنتركُ تذكيركم وتخويفكم عفواً عنكم وغفراً لإجرامكم أن كُنتُمْ، أو من أجل أن كنتم قوماً مسرفين؟ هذا لا يصلح، وهذا هو قول ابن عباس، ومجاهد. ويحتمل قوله تعالى: ﴿صَمَحًا﴾ أن يكون بمعنى: مَغْفُولاً عنه، أي: نتركه يَمُرُّ لا تؤخذون بقوله ولا يَتَدَبَّرُه، ولا تُنَبِّهون عليه، وهذا المعنى نظير قول الشاعر:

تَمُرُّ الصَّبَا صَفْحًا بِسَاكِنِ ذِي الْعَضَى
وَيَصْلُحُ قَلْبِي أَنْ يَهْبُ هُبُوبُهَا
أي: تَمُرُّ مغفولاً عنها، فكأن هذا المعنى: أفنتركُكم سُدَى؟ وهذا هو منحنى قتادة وغيره، ومن اللفظة قول كثير:

صَفُوحًا فَمَا تَلَقَّاكَ إِلَّا بِخَيْلَةٍ
فَمَنْ مَلَّ مِنْهَا ذَلِكَ الْوَضْلُ مَلَّتْ
وقرأ السميطة بن عمرو،

وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً يَقْدِرُ فَأَنْشُرَنَا بِهِ بَلَدَةً مَيْتًا
 كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ ۝ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَرْوَاحَ كُلَّهَا وَجَعَلَ
 لِكُلِّ مِزْجٍ لَوْنًا ۝ وَالَّذِي أَنْعَمَ مَا تَرَكُونَ ۝ لَنْسَوْنَ عَنْ طُهُورِهِ
 ثُمَّ تَذَكَّرُوا بِنِعْمَةِ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ
 الَّذِي سَخَّرْنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِبِينَ ۝ وَإِنَّا لَنَرِيهَا
 لَمُسْقِيُونَ ۝ وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبَادِهِ جِزَاءً إِنَّا لِلْإِنْسَانِ
 لَكَفُورٌ مُبِينٌ ۝ أَرَأَيْتُمْ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَحَكُمْ
 وَالْبَنِينَ ۝ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِمَا حَرَبَ لِلرَّحْمَنِ مَثَلًا
 ضَلَّ وَجْهَهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَاطِمٌ ۝ أَوْ مَنْ يَسْتَوْفِ
 الْحَالِيَةَ وَهُوَ فِي الْخِصَابِ عَيْمُومِينَ ۝ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ
 الَّذِينَ هُمْ عِبْدُ الرَّحْمَنِ إِنثًا أَشْهَادًا وَخَلَقَهُمْ سَتَكِبَ
 فِيهِمْ وَاسْتَأْذَنُوا ۝ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَنُ مَا عَبَدْنَاهُمْ
 مَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ۝ أَمْ أَنَبْتُمْ
 كِتَابًا كُنْ مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَسْمِكُونَ ۝ بَلْ قَالُوا
 إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَ آبَاءِ نَا عَلَيْنَ فَمَا عَلَّمْنَا مِنْهُم مَهْتَدُونَ ۝

هنا، وقالت فرقة: بل يُنزل الله تعالى تقديراً ما في عام، ويُنزل في آخر تقديراً بحسب ما سبق به قضاؤه لا إليه غيره. و«أَنْشُرْنَا» معناه: أَحْيَيْنَا، يقال: نَشَرُ المَيْتَ وَأَنْشُرُهُ غيره، و«بَلَدَةً» اسم جنس، ووصفها بـ «مَيْتًا» دون ضمير من حيث هي واقعة موقع «فَطُر» ونحوه؛ إذ التأنيت فيها غير حقيقي، وقرأ الجمهور: «مَيْتًا» بسكون الياء، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «مَيْتًا» بياء مكسورة مشددة، وهي قراءة عيسى بن عمر، والأرلى أرجح لشيء لفظها بـ «زُورٍ وَعَدْلٍ»، فَحَسُنَ وصف المؤنث بها، وقرأ أكثر السبعة، والأعرج، وأبو جعفر: «كَذَلِكَ نُخْرِجُكُمْ» بضم التاء وفتح الراء، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن عامر، وابن وثاب، وعبدالله بن

من أوصافه التي ابتدأ الإخبار بها وقطعها من الكلام الذي حكى معناه عن قريش. ⑩ - ⑪ تفسير قوله عز وجل:

هذه أوصاف فعل، وهي نِعَمٌ من الله تعالى على البشر تقوم بها الحجة على كل كافر مشرك بالله تعالى، وقوله تعالى: «الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ» ليس من قول المسؤولين، بل هو ابتداء إخبار من الله تعالى، قرأ جمهور الناس: «مِهَادًا»، وقرأ ابن مسعود، وطلحة،

والأعمش: «مَهْدًا»، والمعنى واحد، أي: يَتَمَهَّدُ وَيَتَضَرَّفُ فِيهَا، و«السُّبُلُ»: الطُّرُقُ، و«تَهْتَدُونَ» معناه: في المقاصد من بلد إلى بلد ومن فُطِرَ إلى فُطِرَ، ويحتمل أن يريد: تهتدون بالنظر والاعتبار.

وقوله تعالى: «نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً» هو المطر بإجماع، واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: «يَقْدِرُ» - فقالت فرقة: معناه: بقضاء وحشم في الأزل، وقال آخرون: المعنى: بقدر في الكفاية للصلاح، لا إكثار فيفسد، ولا قلة فيقصر، بل غيثاً مُغِيثاً سَيْلاً نافعاً، وقالت فرقة: معناه: بتقدير وتحديد، أي: قدرًا ما معلوماً، ثم اختلف قائلوا هذه المقالة - فقال بعضهم: يُنزل كل عام ماء قدرًا واحدًا، لا يُفْضَلُ عامٌ لكن يكثر مرة مرة

والسدوسي: «ضَفْحًا» بضم الصاد. وقرأ نافع، وحمزة، والكسائي: «إِنْ كُنْتُمْ» بكسر الألف، وهو جزاء دل ما تقدم على جوابه، وقرأ الباقون، والأعرج، وقتادة: «أَنْ كُنْتُمْ» بفتح الألف، بمعنى: من أجل أن كنتم، وفي قراءة ابن مسعود: «إِذْ كُنْتُمْ» و«الإسراف» في الآية هو الكفر والضلال البعيد في عبادة غير الله تعالى والتشريك به.

وقوله تعالى: «وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيِّ فِي الْأَوَّلِينَ» الآيات تسليية لمحمد ﷺ، وذكره أشوة له ووعيد لهم وتهديد بأن يصيبهم ما أصاب من هو أشد بطشاً منهم، و«الأولون» هم الأمم الماضية كقوم نوح وعاد وثمود وغيرهم، والضمير في قوله تعالى: «كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ» ظاهره العموم، والمراد به الخصوص فيمن استهزؤوا، وإلا فقد كان في الأولين من لم يستهزئ، والضمير في «يَنْهَهُمْ» عائد على قريش، وقوله تعالى: «وَمَضَى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ» أي: سَلَفَ أَمْرُهُمْ وَسُتُّهُمْ وَصَارُوا عِبْرَةً غَابِرَ الدَّهْرِ.

وقوله تعالى: «وَلَكِنْ سَأَلْتَهُمْ» الآية... ابتداء احتجاج على قريش يوجب عليهم التناقض في أمرهم، وذلك أنهم يُقِرُّونَ أَنَّ الخالق الموجد لهم وللسموات والأرض هو الله تعالى، وهم مع ذلك يعبدون أصناماً ويدعونها آلِهَتَهُمْ، ومقتضى جواب قريش أن يقولوا: خلقهن الله، فلما ذكر تعالى المعنى جاءت العبارة عن الله تعالى بـ «العزیز العليم» ليكون ذلك توطئة لما عدد بعد ذلك

جَبِيْر، وعيسى: ﴿كَذٰلِكَ تَخْرُجُوْنَ﴾
بفتح التاء وضم الراء.

و «الأزواج»: الأنواع من كل شيء، و «يَن» في قوله تعالى: ﴿يَن الْفَلَكَ وَالْأَنْفَرِ﴾ للتبويض، وذلك أنه لا يُركب من الأنعام غير الإبل، وتدخل البغال والخيال والحمير فيما يُركب بالمعنى، واللام في قوله تعالى: ﴿لِنَسْتَوِرًا عَلَىٰ ظُهُورِهِ﴾ لام الأمر، ويحتمل أن تكون لام «كي»، و «مَا» في قوله تعالى: ﴿مَا تَرْكِبُونَ﴾ واقعة على النوع المركوب، والضمير في «ظُهُورِهِ» عائد على النوع الذي وقعت عليه «مَا»، وقد بَيَّنَّت آيةٌ أخرى ما يقال عند ركوب الفُلك وهو ﴿يَسِرَ اللَّهُ بِجَهَنَّمَ وَوَرَسَهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وإنما هذه خاصة فيما يركب من الحيوان، ويقال عند النزول منها: اللهم أنزلنا منزلاً مباركاً وأنت خير المنزلين.

والسُّنة للراكب إذا ركب أن يقول: الحمد لله على نعمة الإسلام، أو على النعمة بمحمد عليه الصلاة والسلام، أو على النعمة في كل حال، وقد روى هذا اللفظ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ، ثم يقول: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا﴾ الآية، وركب أبو مجلز لاحق بن حميد وقال: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي﴾ الآية، ولم يذكر نعمة، وسمعه الحسن بن علي رضي الله عنهما فقال: ما هكذا أمرتم، فقال أبو مجلز: فقلت له: فيكف أقول؟ قال: قل: الحمد لله الذي هدانا للإسلام، أو نحو ذلك، ثم تقول بعد ذلك: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي﴾

الآية، وكان طائوس إذا ركب قال: اللهم هذا من مثك وفضلك، ثم يقول: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإن قَدَرْنَا أن ذكر النعمة بالقلب والتذكُّر بدأ الراكب بـ ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي﴾، وهو يرى نعمة الله تعالى في ذلك وفي سواه، و«المُفْرِنُ»: الغالب الضابط المستولي على الأمر المُطِيق له، وقد روي أن بعض الأعراب ركب حملاً فقبل له قل: ﴿سُبْحٰنَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُفْرِنِينَ﴾، فقال: أما والله إنني لمُفْرِنٌ نَبِيَّاهُ، فضرب به الجمل فوقه فقتله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا إِلٰهَ إِلَّا رَبِّنَا لِنُقَلِّبَنَّ﴾ ﴿١٥﴾ أمر بالإقرار بالبعث وترداد القول به، وذلك داعية إلى استشعار النظر فيه، ورُوي عن النبي ﷺ أن الإنسان إذا ركب ولم يقل ما في هذه الآية جاء الشيطان فقال له: تَعَنَّتْ، فإن كان يحسن تَعَنَّتِي، وإلا قال له: تَمَّتْ، فيتمنى الأباطيل ويقع زمنه بذلك.

﴿١٥﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿جَمَلًا﴾ لكفار قریش والعرب، والضمير في ﴿لَهُ﴾ لله تعالى، و«الجُزءُ»: القطع من الشيء، وهو بعض الكل، فكأنهم جعلوا جزءاً من عباده نصيباً وله حظاً، وذلك في قول مجاهد وكثير من المتأولين قول العرب: الملائكة بناتُ الله، وقال بعض أهل اللغة: الجزء: الإنانُ، يقال: أُجْزَأَتِ المرأةُ إذا ولدت أنثى، ومنه قول الشاعر:

إِنْ أُجْزَأَتْ حُرَّةٌ يَوْمًا فَلَا عَجَبٌ
قَدْ تُجْزِيءُ الْحُرَّةُ الْمَذْكَارُ أَحْيَانًا
وقد قيل: إن هذا البيت موضوع، وقال قتادة: المراد بالجزء الأصنام وفرعون وغيره ممن عبد من دون الله، أي: جزءاً بدأ، فعلى هذا فتعريف الكفرة في فصلين: في أمر الأصنام، وفي أمر الملائكة. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفُورٌ﴾ أتى بلفظ الجنس العام والمراد بعض الإنسان وهو هؤلاء الجاعلون ومن أشبههم، و«مُيِّنٌ» في هذه الآية غير مُتَعَدِّ.

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ إِنْ ضَرَبْتَ﴾ وتقرير، وهذه حجة بالغة عليهم؛ إذ المحمود من الأولاد والمحبوب قد خُوِّلَهُ الله تعالى بني آدم فكيف يتخذ هو لنفسه النصيب الأدنى؟ و«وَأَصْفٰنَكُمْ﴾ معناه: خصكم وجعل ذلك لكم صفة.

ثم قامت الحجة عليهم في هذا المعنى وكانت بقوله تعالى: ﴿وَرَادًا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ الآية، و«مُسَدَّدٌ» خبر ﴿ظَلَّ﴾، و«الْكُفُومُ»: الممتلئ غيظاً قد ردَّ غيظه إلى جوفه فهو يتجرعه ويروم رده، وهذا محسوس عند الغيظ، ثم زاد توبيخهم وإفساد رأيهم بقوله تعالى: ﴿أَوَمَنْ يُنَشِّئُ﴾، و«من» في موضع نصب بفعل يدل عليه ﴿يُنَشِّئُ﴾، كأنه تعالى قال: أو من ينشئ في الحلية جعلتم أو اتخذتم؟ ويجوز أن يكون في موضع رفع كأنه تعالى قال: أو من ينشئ في الحلية هو الذي خصصتم به الله تعالى؟ ونحو هذا، والمراد بـ «من» النساء، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، والسدي، و«يُنَشِّئُ﴾ معناه:

وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قُرْيَةٍ مِنْ نَدِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا
إِنَّا وَجَدْنَا نَاءَ آبَاءِنَا عَلَىٰ آثَمٍ وَإِنَّا عَلَىٰ مَا تَدْعُونَ مُقْتَدُونَ ﴿٢٠﴾
فَقُلْ أَوْلُوا حِسَابَكُمْ يَا هَدَىٰ وَمَا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آيَاتِنَا فَاقُولُوا
إِنَّمَا أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ الْكِتَابَ ﴿٢١﴾ فَاتَّقِنَا وَمَنْ مِثْلَهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ
كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ
إِنِّي براءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٣﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٤﴾
وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقْبِهِمْ لَعَلَّهُمْ يُرجِعُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ
مَتَّعْتُ هَهُنَا وَآبَاءَهُمْ حَيَاتٍ مِمَّا جَاءَ هُمْ الْحَقَّ وَرَسُولَهُ مُبِينٍ ﴿٢٦﴾
وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَقَالُوا
لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَيْنَ لَكُنَّا مِنَ الْقَرِيبِينَ عَظِيمِينَ ﴿٢٨﴾ أَفَمَنْ
يَقْسِمُونَ بِرَحْمَتِ رَبِّكَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٢٩﴾ يَسْتَكْبِرُونَ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ
بَعْضًا سُدُورًا وَيُرْوَمَتَ رَبِّكَ حَسْرًا مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَوْلَا
أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ
الْيُسْرَةَ سَفْهَانٍ مُضْتَرِّينَ فَضْضًا وَمَعَارِجَ عَلِيًّا يَظْهَرُونَ ﴿٣١﴾

والأعرج، وشيبة، وقتادة، وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿عِنْدَ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً﴾، وهذه القراءة أدل على رفعة المنزلة وقزبها في التكرمة، كما قيل: «مَلِكٌ مُقَرَّبٌ»، وقد تصرف المعنيان في كتاب الله تعالى في الملائكة في غير هذه الآية، فقال تعالى: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾، وقال سبحانه في أخرى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ عِبَادَ الرَّحْمَنِ إِنثَاءً﴾.

ينبت ويكبر، وقرأ جمهور القراء: ﴿يُنشَأُ﴾ بفتح الياء وسكون النون، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يُنشَأُ﴾ بضم الياء وسكون النون على تعدية الفعل بالهمزة، وقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية حفص -: ﴿يُنشَأُ﴾ بضم الياء وفتح النون وشد الشين على التعدية بالتضعيف، وهي قراءة ابن عباس أيضاً، والحسن، ومجاهد، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿أَوْ مَنْ لَا يَنْشَأُ إِلَّا فِي الْجَلِيَّةِ﴾، و«الجلية»: الحلبي من الذهب والفضة والأحجار، و«الخصام»: المحاجة ومجادبة المحاور، وقلما تجد امرأة إلا تفسد الكلام وتخلط المعاني، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وهو في الكلام غير مبين﴾، و«مبين» في هذه الآية مُتَعَدٍّ، والتقدير: غير مبين غَرَضًا أَوْ مَنزَعًا أَوْ نَحْوَ هَذَا، وقال ابن زيد: المراد بـ ﴿أَوْ مَنْ يُنشَأُ فِي الْجَلِيَّةِ﴾ الآية: الأصنام والأوثان؛ لأنهم كانوا يتخذون كثيراً من الذهب والفضة، وكانوا يجعلون الحلبي على كثير منها.

ولما فرغ تَعْنِيْفُهُمْ على ما أتوه في جهة الله تعالى بقولهم: «الملائكة بنات الله سبحانه» بين الله تعالى فساد مقالاتهم، فعينها بجهة أخرى من الفساد، وذلك شنيع قولهم في عباد الله تعالى مختصين مُقَرَّبِينَ: ﴿إِنَّهُمْ إِنثَاءٌ﴾، وقرأ أكثر السبعة، وابن عباس، وابن مسعود، وابن جبير، وعلقمة: ﴿عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنثَاءٌ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، والحسن، وأبو رجاء، وأبو جعفر،

أَشْهَدْتُمْ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .
وقرأ جمهور الناس: ﴿سَتَكُنُّبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ برفع (شهادة) وبناء الفعل للمفعول، وقرأ الأعرج، وابن عباس، وأبو جعفر، وأبو حيوة: ﴿سَتَكُنُّبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ بنون الجمع، و﴿شَهَادَتُهُمْ﴾ بالنصب، وقرأت فرقة: ﴿سَيَكُنُّبُ﴾ على معنى: سيكتب الله شهادتهم بالنصب، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿سَتَكُنُّبُ شَهَادَتُهُمْ﴾ على بناء الفعل للمفعول وجمع الشهادات، وفي قوله تعالى: ﴿وَيُسْتَأْذَنُ﴾ وعيد مفسح، و﴿أَشْهَدُوا﴾ في هذه معناه: أَحْضَرُوا؟ وليس ذلك من شهادة تحمل المعاني التي يطلب أن تُؤدَّى. ﴿٢٠﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى احتجاج الكفار بمذاهبهم ليبين فساد مزاعمهم، وذلك

أنهم جعلوا إمهال الله تعالى لهم وإنعامه عليهم - وهم يعبدون الأصنام - دليلاً على أنه يرضى عبادة الأصنام ديناً، وذلك كالأمر به، فنفى الله تعالى عن الكفرة أن يكون لهم علمٌ بهذا، وليس عندهم كتاب منزل يقتضي ذلك، وإنما هم يظنون ويحدثون ويخمنون، وهذا هو الخرضُ والتخرضُ.

وقرأ الجمهور: ﴿عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ بضم الهمزة، وهي اليملة والديانة، والآية - على هذا - تعيب عليهم التقليد، وقرأ مجاهد، والجحدري، وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: ﴿عَلَىٰ إِمَّةٍ﴾ بكسر الهمزة، وهي بمعنى النعمة، ومنه قول الأعشى:

وَلَا الْمَلِكُ الثُّغْمَانُ يَوْمَ لَقِيئُهُ
بِإِمَّتِهِ يُعْطِي الْقُطُوطَ وَيَأْفُقُ
ومنه قول عدي بن زيد:

ثُمَّ يَغْدُ الْفَلَاحُ وَالْمَلِكُ وَالْإِ
مَّةَ وَارْتَهُمُ الْقُبُورُ
فالآية - على هذا المعنى - استمرارٌ في احتجاجهم؛ لأنهم يقولون: وجدنا آباءنا في نعمة من الله تعالى وهم يعبدون الأصنام، فذلك دليل رضاه عنهم، وكذلك اهتدينا نحن بذلك على آثارهم، وذكر الطبري عن قوم أن «الإمَّة»: الطريقة، من قولك: أمتت كذا إمَّةً.

ثم ضرب الله تعالى المثل لنبيه ﷺ، وجعل له الأسوة فيمن مضى من الشُّدْر والرُّسُل عليهم السلام، وذلك أن المُشْرِفين من قومهم - وهم أهل النعم والمال - قد قابلوهم بمثل هذه المقابلة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ﴾،

والمعنى: قُلْنَا للندير: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ﴾، وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ﴾، ففي ﴿قَالَ﴾ ضمير يعود على الندير، وباقي الآية يدل على أن ﴿قُلْ﴾ في قراءة من قرأها ليست بأمرٍ لمحمد ﷺ، وإنما هي حكاية لما قيل للندير، وقوله تعالى: ﴿أَوْ لَوْ﴾ هي ألف الاستفهام دخلت على واو عطفت جملة كلام على جملة متقدمة، و﴿لَوْ﴾ في هذا الموضع كأنها شرطية بمعنى «إن»، كأن معنى الآية: أَوْ إِنْ جِئْتُمْ بِأَبْتِنِ وَأَوْضَحَ مِمَّا كَانَ عَلَيْهِ آبَاؤُكُمْ يَصْحَبُكُمْ لَجَاجُكُمْ وَتَقْلِيدِكُمْ؟ فَأَجَابَ الْكُفَّارَ حِينَئِذٍ لِنُدْرِهِمْ: ﴿إِنَّا يَمَّا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْفَقْنَا مِنْهُمْ﴾ الآية... وعيدٌ لقريش، وضربٌ مثل بمن سلف من الأمم المعذبة المكذبة بأنبيائها، كما كذبت هي بمحمد ﷺ، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتُمْ﴾، وقرأ أبو جعفر، وأبو شيخ [الهناي] وخالد: ﴿أَوْ لَوْ جِئْتَاكُمْ﴾، وقرأ الأعمش: ﴿قُلْ أَوْ لَوْ أَوْيْتُمْ﴾.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل: والمعنى: واذكر إذ قال إبراهيم، ولما ضرب تعالى المثل لمحمد ﷺ بالشُّدْر وجعلهم أسوة له، خصَّ إبراهيم عليه السلام بالذكر لعظم منزلته، وذكر محمداً عليه الصلاة والسلام بمنازمة إبراهيم عليه السلام لقومه، أي: فافعل أنت فعله، وتجلد تجلده، و﴿بِرَّةً﴾ صفةٌ تجري على الواحد والاثنين والجمع، كعذل وزور، وقرأ جمهور الناس: ﴿بِرَّةً﴾

بفتح الباء، وقرأت فرقة: ﴿بِرَاءً﴾ بضم الباء، وفي مصحف عبدالله وقراءة الأعمش: ﴿إِنِّي﴾ بنون واحدة ﴿بِرِيءٍ﴾، قال الفراء: «ومن الناس من يكتب شكل الهمزة المخففة ألفاً في كل موضع ولا يراعي حركة ما قبلها»، قال: «فربما كان خط مصحف عبدالله بألف كما في مصحف الجماعة لكن كان يلفظ بها بكسر الراء».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾ قالت فرقة: الاستثناء متصل، وكانوا يعرفون الله تعالى ويعظمونه، إلا أنهم كانوا يشركون معه أصنامهم، فكان إبراهيم عليه السلام قال لهم: أنا لا أوافقكم إلا على عبادة الله الفاطر، وقالت فرقة: الاستثناء منقطع، والمعنى: لكن الذي فطرني معبودي، وعلى هذا فلم يكونوا يعبدون الله تعالى لا قليلاً ولا كثيراً، وعلل إبراهيم عليه السلام لقومه عبادة الله تعالى بأنه الهادي المنجي من العذاب، وفي هذا استدعاء لهم وترغيب لهم في الله تعالى وتطميح في رحمته.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَهَا﴾ قالت فرقة: ذلك عائد على كلمته بالتوحيد في قوله: ﴿إِنِّي بِرَّةً﴾، وقال مجاهد، وقتادة، والسدي: ذلك مراد به «لا إله إلا الله»، وعاد الضمير عليها وإن كانت لم يجر لها ذكر لأن اللفظ يتضمنها، وقال ابن زيد: المراد بذلك الإسلام ولفظته، وذلك قوله عليه الصلاة والسلام: ﴿رَمِنَ دُرَيْبِيًّا أُمَّةٌ مُسْلِمَةٌ لَكَ﴾ وقوله: ﴿إِذْ قَالَ

لَمْ رَبُّهُ أَكْبَرُ قَالَ أَتَأْتُمُ الْمَلِئِينَ ﴿٣١﴾، وقوله تعالى: ﴿هُوَ سَنَعُكُمْ الْمَسِيَّينَ مِنْ قَبْلِ﴾، و«الْعَقِيبُ»: الذرية وولد الولد ما امتد فرعهم.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ﴾ الآية... كلام متصل بما قبله لأنه لما قال تعالى: ﴿فِي عَيْبِهِ﴾ وكانت قريش من عقبه اقتضى الكلام أن يقدر فيه: لكن هؤلاء ليسوا ممن بقيت الكلمة فيهم بل متعتهم، والمعنى في الآية: بل أمهلت هؤلاء ومتعتهم بالنعمة مع كفرهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين، وذلك هو شرع الإسلام والرسول محمد ﷺ، و«مَتَّعْتُ» بضم التاء هي قراءة الجمهور، وقرأ قتادة: ﴿مَتَّعْتُ﴾ بفتح التاء الأخيرة على معنى: قل يا رب بل متعت، ورواها يعقوب عن نافع، وقرأ الأعمش: ﴿بَلْ مَتَّعْنَا﴾ وهي تعضد قراءة الجمهور، و«يُنِيئُ» في هذه الآية يحتمل التعدد وترك التعدد.

ثم أخبر تعالى عنهم على جهة التقرير بأنهم قالوا للقرآن: هذا سحر، وأنهم كفروا به، وإنما جعلوه بزعمهم سحراً من حيث كان عندهم يفرق بين المرء وولده وزوجه، فجعلوه لذلك كالسحر، ولم ينظروا إلى الفرق في أن المفارق بالقرآن يفارق عن بصيرة في الدين، والمفارق بالسحر يفارق عن خلل في دينه.

٣١ - ٣٥ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في «قَالُوا» لقريش، وذلك أنهم استبعدوا أولاً أن يرسل الله

تعالى بشراً، فلما تقرّر أمر موسى، وعيسى، وإبراهيم عليهم السلام ولم يكن لهم في ذلك مدفع رجعوا يناقضون فيما يخص محمداً ﷺ بعينه فقالوا: لم كان محمداً - عليه الصلاة والسلام - ولم يكن نزول الشرع على رجل من إحدى القريتين عظيم؟ وقدر المبرد قولهم: على رجل من رجلين من القريتين، والقريتان: مكة والطائف، ورجل مكة الذي أشاروا إليه، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هو

الوليد بن المغيرة المخزومي، وقال مجاهد: هو عتبة بن ربيعة، وقال قتادة: بلغنا أنه لم يبق فخذ من قريش إلا ادعاه، ورجل الطائف، قال قتادة: هو عروة بن مسعود، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حبيب بن عبد بن عمير، وقال مجاهد: كنانة بن عبد ياليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: إنما قصدوا إلى من عظم ذكره بالنسب والقدم؛ وإلا فرسول الله ﷺ كان حينئذ أعظم من هؤلاء لكن لما عظم أولئك قبل مدة النبي ﷺ وفي صباه استمر ذلك لهم.

ثم وقف تعالى - على جهة التوبيخ لهم - بقوله: ﴿أَمْرٌ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾، المعنى: أعلى اختيارهم وإرادتهم تنقسم الفضائل والمكانة عند الله تعالى؟ و«الرَّحْمَةُ» اسم يعُمُّ

وَالْيُؤْتِيهِمْ آيَاتٍ وَسِرًّا عَلَيْهِمْ يَبْجُوتُ ﴿٣٢﴾ وَزُخْرًا وَأَنْ كُلَّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَّعَ الْحَيَوَةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٣٣﴾ وَمَنْ يُعْشَ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نَقَصَ لَهُ حَسْبُنَا فَمَوْلَاهُ فَرِينٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ ﴿٣٥﴾ حَقَّ إِذَا جَاءَ نَاقًا قَالَ بَدَّلْتُ بَيْتِي وَبَيْتَكَ بَعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَيَنْسُ الْقَرِينُ ﴿٣٦﴾ وَلَنْ يَنْفَعَكُمْ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنْتُمْ فِي الْعَادَابِ مُشْرِكُونَ ﴿٣٧﴾ أَفَأَنْتُمْ تُشْمِعُونَ أَصْمَرَ أَوْ تَبْدِي الْمَعْمَى وَمَنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَإِنَّمَا يَدْعُونَ بِكَ فَأَنَا مِنْهُمْ مُنْقَمُونَ ﴿٣٩﴾ أَوْزُرْتِكَ الَّذِي وَعَدْتُهُمْ فَأَفَاعَلْتَهُمْ مُقَدِّرُونَ ﴿٤٠﴾ فَاسْتَسْمِعْ بِالَّذِي أَرَى إِلَيْكَ يَا كَلِمَةَ صِرْطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤١﴾ وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكُم وَلَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٤٢﴾ وَسَوْفَ يُنَادِيكَ إِلَى فَتْرَتِكَ وَمَلَائِكَةُ فَسَّالُوا فِي رَسُولِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتِنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَحْكُرُونَ ﴿٤٤﴾

جميع هذا، ثم أخبر تعالى خبراً جازماً بأنه تعالى قاسم المعاش والدرجات في الدنيا ليسخر بعض الناس بعضاً، المعنى: فإذا كان اهتمامنا بهم أن نقسم هذا الحقير الفاني فالأحرى أن نقسم الأهم الخطير، وفي قوله تعالى: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ﴾ تزهيد في السعيات، وعون على التوكل على الله تعالى، والله دُرُّ القائل:

لَمَّا آتَى «نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ» زال الجورا

وقرأ الجمهور: ﴿مَعِيشَتَهُمْ﴾، وقرأ ابن مسعود، والأعمش: ﴿مَعَايِشَهُمْ﴾. وقرأ جمهور الناس: ﴿سُخْرِيًّا﴾ بضم السين، وقرأ أبو رجاء، وابن محيصن: ﴿سِخْرِيًّا﴾ بكسر السين، وهما لغتان في معنى التسخير، ولا مدخل لمعنى الهُزء في هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَرَحِمَتْ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَكْتُمُونَ﴾، قال قتادة، والسدي: يعني الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لا شك أن الجنة هي الغاية، ورحمة الله تبارك وتعالى في الدنيا بالهداية والإيمان خير من كل مال، وهذا اللفظ تحقير للدنيا، ثم استمر القول في تحقيرها بقوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ الآية، وذلك أن معنى الآية أن الله تعالى أبقى على عباده وأنعم بمرعاة بقاء الخير والإيمان وشاء حفظه على طائفة منهم بقية الدهر، ولولا كراهية أن يكون الناس كفاراً كلهم وأهل حب في الدنيا وتجرؤ لها لو شئ الله تعالى على الكفار غاية التوسعة ومكثهم من الدنيا؛ إذ حقرتها عنده تقتضي ذلك؛ لأنها لا قدر لها ولا وزن لفنائها وذهاب رسومها، فقوله تعالى: ﴿أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ معناه: في الكفر. قاله ابن عباس، وقاتدة، والحسن، والسدي، ومن هذا المعنى قال عليه الصلاة والسلام: «لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»، ثم يتركب معنى الآية على معنى هذا الحديث، واللام في قوله تعالى: ﴿لَمَنْ يَكْفُرْ﴾ لام الملك، واللام في قوله تعالى: ﴿إِيَّائِهِمْ﴾ لام تخصيص، كما تقول: هذا الكساء لزيد لدابته، أي: هو لدابته جلس ولزيد ملك، قال المهدي: ودلت هذه الآية على أن السقف لرب البيت الأسفل؛ إذ هو منسوب إلى البيوت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تفقه واهن.

وقرأ جمهور القراء: ﴿سُقْفًا﴾ بضم السين والقاف، وقرأ مجاهد: ﴿سُقْفًا﴾ بضم السين وسكون القاف، وهذان جمعان، وقرأ ابن كثير، وأبو جعفر: ﴿سُقْفًا﴾ بفتح السين وسكون القاف على الأفراد، و«المعارج»: الأدرج التي يطلع عليها، قاله ابن عباس، وقاتدة، والناس، وقرأ طلحة: ﴿وَمَمَارِيجَ﴾ بزيادة ياء، و﴿يَظْهَرُونَ﴾ معناه: يعلون، ومنه حديث عائشة رضي الله تعالى عنها: (والشمس في حجرتها قبل أن تظهر)، و«السُرُزُ» جمع سرير، واختلف الناس في «الزُّخْرُفُ» - فقال ابن عباس، والحسن، وقاتدة، والسدي: الزُّخْرُفُ: الذهب نفسه، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «إِيَّاكُمْ وَالْحِمْرَةَ فَإِنَّهَا مِنْ أَحَبِّ الزَّيْنَةِ إِلَى الشَّيْطَانِ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الحُسْنُ أحمر والشهوات تتبعه. وقال ابن زيد: الزُّخْرُفُ: أُنْثَى الْبَيْتِ وما يتخذ له من الستور والنمازق ونحوه، وقالت فرقة: الزُّخْرُفُ: التزويق والنقش ونحوه من التزيين، وشاهد هذا القول ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنَّتِ الْأَرْضُ ذُرُقْمًا وَأَازَّيْنَتَ﴾. وقرأ جمهور القراء: ﴿وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا﴾ بتخفيف الميم من [لَمَّا]، فتكون [إِنْ] مخففة من الثقيلة، واللام في [لَمَّا] داخلة لتفصيل بين النفي والإيجاب، وقرأ عاصم، وحزمة، وهشام - بخلاف عنه - والحسن،

وطلحة، والأعمش، وعيسى: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم من [لَمَّا]، ف [إِنْ] نافية بمعنى (ما)، و [لَمَّا] بمعنى (إلا)، وقد حكى سيبويه: «نشدتك إِنْ لَمَّا فعلت»، وحمله على (إلا)، وفي مصحف أبي بن كعب: «وما ذلك إِلَّا متاع الحياة الدنيا»، وقرأ أبو رجاء: ﴿لَمَّا﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم، ف [مَا] بمعنى (الذي) والعائد عليها محذوف، والتقدير: وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لِلَّذِي هو متاع الحياة الدنيا، وفي قوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلَّذِينَ﴾ وعد كريمة وتحريض على التقوى إذ في الآخرة هو التباين في المنازل.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ شرطية، و (عَشَا يَعْشُو) معناه: قلّ الإبصار، كالذي يعترى في الليل وكالذي هو الأعشى من الرجال، يقال: عَشَا الرجل يعشو عَشْوًا إذا فسد بصره فلم يَرِ، أو لم يَرِ إِلَّا قَلِيلًا، وقرأ قتادة، ويحيى بن سلام البصري: ﴿وَمَنْ يَعْشُ﴾ بفتح الشين، وهي من قولهم: عَشِيَ يَعْشَى، والأكثر عَشَا يَعْشُو، ومنه قول الشاعر:

مَنْ تَأْتِيهِ تَعْشُو إِلَى ضَوْءِ نَارِهِ
تَجِدُ خَيْرَ نَارٍ عِنْدَهَا خَيْرُ مُوقِدٍ
وفي شعر آخر:

تَجِدُ حَطْبًا جَزَلًا وَنَارًا تَأْجِجًا
وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنِ الرَّحْمَنِ﴾، وسقط «ذَكَرَ»، فالمعنى

في الآية: ومن يقل نظره في شرع الله تعالى ويغض جفونه عن النظر في ذكر الرحمن، أي: فيما ذكّر به عباده، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، ﴿نَقِضَ لَهُ شَيْطَانًا﴾، أي: نُيَسَّرَ له، وهذا هو العقاب على الكفر بالْحَثْمِ والطبع وعدم الفلاح، وهذا كما يقال: إن الله تعالى يعاقب على المعصية بالتزويد في المعاصي، ويجازي على الحسنات بالتزويد في الحسنات، وقد روي هذا المعنى مرفوعاً. وقرأ الجمهور: ﴿نَقِضَ﴾ بالنون، وقرأ عاصم، والأعمش، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿يُقْقِضُ﴾ بالياء ﴿شَيْطَانًا﴾ أي: يُقْقِضُ الله، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يُقْقِضُ لَهُ شَيْطَانًا﴾ بفتح الياء الثانية وشدها ورفع النون من ﴿شَيْطَانًا﴾.

والضمير في ﴿رَبَّانِهِمْ﴾ عائد على الشياطين، وفي ﴿يَلْمِزُونَهُمْ﴾ عائد على الكفار، و«السبيل» هي سبيل الهدى والفوز، والضمير في ﴿يَحْسِبُونَ﴾ للكفار، وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم - في رواية أبي بكر - وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة، وقتادة، والزهري، والجحدري: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَنَا﴾ على التثنية، يريد العاشي والقريين، قاله سعيد الحريري، وقتادة، وقرأ أبو عمرو، وحزمة، والكسائي، والحسن، وابن محيصن، والأعرج، وعيسى، والأعمش، وعاصم: ﴿جَاءَنَا﴾، يريد العاشي وحده، وفاعل [قَالَ] هو العاشي.

وقوله تعالى: ﴿بُعِدَ الشَّرِيقَيْنِ﴾ يحتمل ثلاث معان: أحدها أن يريد: بُعِدَ المشرق من المغرب، فسامهما مشرقين، كما يقال: القمران، والعمران، قال الفرزدق:

لَنَا قَمَرَاهَا وَالشُّجُومُ الطَّوَالِغُ

والثاني أن يريد مشرق الشمس في أطول يوم ومشرقها في أقصر يوم، فكأنه أخذ نهايتي المشرق، والثالث أن يريد: بُعِدَ المشرقين من المغربين فاكتفى بذكر المشرقين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنْ يَنْفَعَهُمُ الْيَوْمَ﴾ الآية... حكاية عن مقالة تقال لهم يوم القيامة، وهي مقالة موحشة حَرَمَتْهُمْ رُوحَ النَّاسِي؛ لأنه يوقفهم بها على أنه لا ينفعهم النَّاسِي، وذلك لعظم المصيبة وطول العذاب واستمرار مدته؛ إذ النَّاسِي، راحة لكل مصاب في الدنيا في الأغلب، ألا ترى إلى قول الخنساء:

وَلَوْلَا كَثْرَةُ الْبَاكِيْنَ حَوْلِي
عَلَى إِخْوَانِهِمْ لَقَسَلْتُ نَفْسِي
وَمَا يَبْكُونَ مِثْلَ أَخِي وَلَكِنْ
أَعَزِّي النَّفْسَ عَنْهُ بِالنَّاسِي
فهذا النَّاسِي قد كفاها مئونة قتل النفس، فنفى الله تعالى عنهم الانتفاع بالنَّاسِي، وفي ذلك تعذيب لهم ويأس من كل خير، وفاعل ﴿يَنْفَعُهُمُ﴾ الاشتراك.

وقرأ جمهور القراء: ﴿أَنْكُرُ﴾ بفتح الألف، وقرأ ابن عامر وحده:

﴿إِنْكُمُ﴾ بكسر الألف، وقد يجوز أن يكون فاعل ﴿يَنْفَعُهُمُ﴾ الشَّرُّوُ الَّذِي يدل عليه قوله: ﴿يَلَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعِدَ الشَّرِيقَيْنِ﴾، وعلى هذا يكون ﴿أَنْكُمُ﴾ في موضع نصب على المفعول من أجله، وتخرج الآية عن معنى نفي الأسوة.

⑩ - ⑪ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر الله تعالى حالة الكفار في الآخرة وما يقال لهم وهم في العذاب اقتضى ذلك أن تُشْفَقَ النفوس، وأن ينظر كل سامع لنفسه ويسعى في خلاصها، فلما كانت قريش مع هذا الذي سمعت لم تنزل عن عُنُوقِهَا وإعراضها عن أمر الله تعالى رجعت المخاطبة إلى محمد ﷺ على جهة التسلية له عنهم، وشبهتهم بالصمِّ والعمي إذ كانت حواسهم لا تفيد شيئاً.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَتْ فِي صُلْبِهِ مِثْقَلٌ ذَرَّةً مِنْ قَبْضَتِي يَسْأَلْ بِنَفْسِهِ، وَلِذَلِكَ لَمْ يَقُلْ: «أَوْ مِنْ كَانِ»، بل جاء بالواو العاطفة كأنه تعالى يقول: «وهؤلاء»، ويؤيد ذلك أيضاً عود الضمير عليهم في قوله تعالى: ﴿فَأَنَّا مِثْمُهمُ﴾، ولم يَجْرِ لهم ذكْرٌ إِلَّا فِي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا نَذَهَبَنَّ﴾ الآية... آية تتضمن وعيداً واقعاً، وذهب جمهور العلماء إلى أن الْمُتَوَعِّدِينَ هم الكفار، وأن الله تعالى أرى نبيه ﷺ الذي وعدهم في بدر والفتح وغير ذلك، وذهب

الحسن، وفتادة إلى أن الْمُتَوَعَّدِينَ هم في هذه الأمة، وأن الله تعالى أكرم نبيّه ﷺ عن أن ينتقم منهم بحضرته وفي حياته فوقعت النعمة منهم بعد أن ذهب به، وذلك في الفتن الحادثة في صدر الإسلام مع الخوارج وغيرهم، وقال الحسن وفتادة: أكرمَ الله تبارك وتعالى نبيه ﷺ عن أن يرى في أمته ما يكره كما رأى الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليه وعليهم، فكانت النعمة بعد ذهابه ﷺ، وقد روى حديث عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ قرأ: ﴿فَإِنَّا يَنْهَى مَنِعَتَهُ﴾ فقال: (بعلي بن أبي طالب)، والقول الأول في توعد الكفار أكثر.

ثم أمر الله تعالى نبيّه ﷺ بالتمسك بما جاءه من عند الله تعالى من الوحي المتأنو وغيره، و«الصُّرَاطُ»: الطريق وقرأ الجمهور: ﴿أَوْحَى﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأ الضحاك: ﴿أَوْحَى﴾ على بناء الفعل للفاعل، أي: أوحى الله.

وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ﴾ يحتتمل أن يريد تبارك وتعالى: وإِنَّهُ لَشَرَفٌ وَحَمْدٌ فِي الدُّنْيَا - والقوم على هذا - قريش ثم العرب، وهذا قول ابن عباس، وفتادة، ومجاهد، والسدي، وابن زيد، قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان رسول الله ﷺ يعرض نفسه على القبائل، فإذا قالوا له: لِمَنْ يَكُونُ

الأمر بعدك؟ سكت، حتى إذا نزلت هذه الآية فكان إذا سُئِلَ عن ذلك قال: لقريش، فكانت العرب لا تقبل ذلك حتى قبلته الأنصار رضي الله عنهم، وروى ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما بقي منهم اثنان»، وروى أبو موسى الأشعري عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما داموا إذا حكموا عدلوا، وإذا استأرحموا رحموا، وإذا عاهدوا وفوا، فمن لم يفعل ذلك فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين»، وروى معاوية أنه ﷺ قال: «لا يزال هذا الأمر في قريش ما أقاموا الدين»، ويحتمل أن يريد تعالى: وَإِنَّهُ لَتَذَكِرَةٌ وَمَوْعِظَةٌ.

و«القوم» - على هذا - أمته بأجمعها، وهذا قول الحسن بن أبي الحسن، وقوله تعالى: ﴿وَسَوَّىٰ سَنُكُلًا﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: عن أوامر القرآن ونواهيها، وقال الحسن بن أبي الحسن: معناه: عن شكر النعمة فيه: واللفظ يحتتمل هذا كله ويعمه.

واختلف المفسرون في المراد بالسؤال في قوله تعالى: ﴿وَسَأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ - فقالت فرقة: أراد تعالى أن أسأل جبريل عليه السلام، ذكر ذلك النفاش.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيه بُعْدٌ، وقال ابن زيد، وابن جبير، والزهرى: أراد تعالى: وأسأل الرُّسُلَ إذا لقيتهم

ليلة الإسراء، أما إن النبي ﷺ لم يسأل الرُّسُلَ عليهم السلام ليلة الإسراء عن هذا لأنه ﷺ كان أثبت يقيناً من ذلك ولم يكن في شك، وقالت فرقة: أراد تعالى: وأسألني أو اسألنا عمن أرسلنا، والأولى - على هذا التأويل - أن يكون ﴿مَنْ أَرْسَلْنَا﴾ استفهام أمره أن يسأل به، كأن سؤاله: يا رب من أرسلت قبلي من رُسُلِكَ؟ أجعلت في رسالته الأمر بأهله يُعبدون؟ ثم ساق السؤال محكي المعنى فردَّ المخاطبة إلى محمد ﷺ في قوله تعالى: ﴿بَيْنَ بَيْنِكَ﴾، وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وفتادة، والسدي، وعطاء: أراد تعالى: وأسأل تُبَاعَ من أرسلنا وَحَمَلَةَ شراعتهم؛ لأن المفهوم أنه لا سبيل له إلى سؤاله الرُّسُلَ إلا بالنظر في آثارهم وكتبهم وسؤال من حفظها، وفي قراءة ابن مسعود، وأبي بن كعب: ﴿وَأَسْأَلُ الَّذِينَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ رُسُلَنَا﴾، فهذه القراءة تؤيد هذا المعنى، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَسَأَلِ الْقَرْيَةَ﴾ مفهوم أنه لا يسأل إلا أهلها، ومما ينظر إلى هذا المعنى قوله تعالى: ﴿فَإِن تَزَعَّمْ فِي تَعْبِيرِ قَرْيَتِهِ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، فمفهوم أن الرُّدَّ إنما هو إلى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، وأن المحاوراة في ذلك إنما هي لِتُبَاعِعَهُمْ وحفظه الشرع. وقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَ﴾ أخرج الضمير على حد من يعقل مراعاةً للفظ الآلهة.

وَمَا تَزِيهَ مِنْ أَيْدِي آلِهِ أَكْبَرُ مِنْ أَسْمَاءِهِمْ وَأَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ لَأَعْلَاهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٦﴾ وَقَالُوا يَا بَنِي آدَمَ اسْجُدُوا لِمَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَاتِنَا فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَهُ الْبُرْهَانُ بَيِّنَاتٍ فَأَعْتَدَ لَهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنْكُتُونَ ﴿٤٧﴾ وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ لِي مِثْرَ هَذِهِ أَأُنْقِضُهَا بِرِيحٍ وَيَوْمَ تَفُوتُ سَحَابٌ مِمَّنْ هِيَ أَفْلا تُبْصِرُونَ ﴿٤٨﴾ أَمْ أَنْتَ خَيْرُ مِنَ الَّذِي هُوَ مِنْ نَحْوِكَ يَكْفُرُ ﴿٤٩﴾ فَلَوْلَا أَلْقَى عَلَيْهِ آيَاتُ رَبِّهِ مِنْ ذَهَابِ أَوْجَعِهِ مَعَهُ الْمَلَكُ مَقْرِنِينَ ﴿٥٠﴾ فَاسْتَحَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاعِقِينَ ﴿٥١﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٢﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَافًا وَخَلْفًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٣﴾ وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُونَ ﴿٥٤﴾ وَقَالُوا يَا بَنِي آدَمَ اهْبِطُوا مِنَ الْجَنَّةِ فَارْتَبِعُوا فِي الْأَرْضِ مِمَّنْ خَلَقْنَا وَإِنْ مِنْكُمْ أُوَّابُونَ يَرْجِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ أُولُو الْأَرْحَامِ إِذَا تَوَلَّوْا فِي الْأَرْضِ فَاحْتَبُوا أَوْلِيَاءَ مِنْ نَحْوِ اللَّهِ إِنْ هُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ تَوَلَّيْنَا لَمَجْدًا لَاجْتِدَاءِ الْأَنْفُسِ وَأَنَّ يَسْمَعُوا أَصْوَارَ مَا تَلْفَعُونَ ۗ إِنَّ جَهَنَّمَ لَمَشْحُورَةٌ ﴿٥٧﴾

استهزاء وهو يعلم قدر السحر وانحطاط منزلة، ويكون قوله: ﴿عِيدُكَ﴾ بمعنى في زعمك وعلى قولك، ويحتمل أن يكون القائل ليس من المعتزدين الخدّاق منهم، ويطلق لفظ الساحر لأحد وجهين: إمّا لأن السحر كان عند عائمهم علم الوقت، فكانه قال: يأبؤها العالم، وإمّا لأن هذه الاسمية قد كانت انطلقت عندهم على موسى عليه السلام لأول ظهوره فاستصحبها هذا القائل في مخاطبته قلّة تحرير وغباوة، ويكون القول -

﴿٤٦﴾ - ﴿٤٧﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه آية ضرب مثل وأسوة لمحمد بموسى صلى الله وسلم عليهما، ولكفار قريش يقوم فرعون ومثله، والآيات التي أرسل بها موسى عليه السلام هي التسع وغير ذلك مما جاءت به الروايات، وخصّ الله تعالى الملائكة بالذكر لأنهم يسدون مسدّد جميع الناس، ثم وصفهم تعالى بالضحك من آيات موسى عليه السلام كما كانت قريش تضحك وتسخر من أخبار محمد ﷺ.

ثم وصف تعالى صورة عرض الآيات عليهم وأنها كانت شيئاً بعد شيء، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أَسْمَاءِهِمْ﴾ عبارة عن شيّة موقعها في نفوسهم بجدّة أمرها وحدوثه، وذلك أن أول آية عرضها موسى عليه السلام هي العصا واليد، وكانت أكبر آية، ثم كل آية بعد ذلك تقع فتعظم عندهم لحينها وتكبر لأنهم قد كانوا أنسوا التي قبلها بها، كما قال الشاعر:

عَلَى أَنَّهُ تَغْفُو الْكُلُومَ وَإِنَّمَا تُؤَكِّلُ بِالْأَذْنَى وَإِنْ جَلَّ مَا يَمِضِي وَذَهَبَ الطَّبْرِي إِلَى أَنَّ الْآيَاتِ هِيَ الْحَجَجُ وَالْبَيْتَاتِ. ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَحْذَهُم بِالْعَذَابِ فِي الْقُمَّلِ وَالضَّفَادِعِ وَالذَّمِّ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَهَذَا كَمَا أَخَذَ قَرِيشاً بِالسَّنِينِ وَالِدَخَانِ. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَمَأْهُمُ﴾ تَرْجُحٌ بِحَسَبِ مَعْتَقَدِ الْبَشَرِ وَظَنُّهُمْ، وَ﴿يَرْجِعُونَ﴾ مَعْنَاهُ: يَتَوَبُّونَ وَيُقْلَعُونَ.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا بَنِي آدَمَ اسْجُدُوا لِمَا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَاتِنَا﴾ جازئ أن يكون قائل ذلك من أعلمهم بكفر السحرة فيكون قوله

ترك الأمر هكذا، ومضّر من بحر الإسكندرية إلى أسوان بطول النيل، والأنهار التي أشار إليها هي الخلجان الكبار الخارجة من النيل، وعظمتها نهر الإسكندرية وتئيس ودمياط ونهر طولون.

وقوله: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ﴾، قال سيبويه: [أم] هذه المعادلة، والمعنى: «أفأنتم لا تبصرون أم تبصرون؟» فوضع موضع قوله: «أم تبصرون» الأمر الذي هو حقيق أن يبصر عنده وهو أنه خير من موسى عليه السلام، و [لا] - على هذا النظر - نافية، وقالت فرقة: المعنى: أفلا تبصرون أم لا تبصرون؟ ثم اقتصر على [أم] لدلالة ظاهر الكلام على المحذوف منه، وابتدأ قوله: ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ إخباراً منه، فقوله: ﴿أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ - على هذا النظر - بمنزلة «هلا» و«لولا» على

على هذا التأويل - جذاً من القائل، ويكون قوله: ﴿إِنَّا لَمُهْتَدُونَ﴾ بمعنى: إن نفعنا دعوتك، وهذا التأويل أرجح، أعني أن كلام هذا القائل مقترن بالجد. وقرأ ابن عامر وحده: ﴿يَأْتِيَهُ﴾ بهاء مضمومة فقط.

ثم أخبر تعالى عنهم أنه سبحانه لما كشف عنهم العذاب نكثوا، ولو كان الكلام هزلاً من أوله لما وقع نكت.

﴿٥١﴾ - ﴿٥٢﴾ تفسير قوله عز وجل: نداء فرعون يحتمل أن يكون بلسانه في نادية، ويحتمل أن يكون بأن أمر من ينادي في الناس، ومعنى هذه الحجة التي نادى بها أنه أراد أن يبين فضله على موسى عليه السلام؛ إذ هو ملك مصر وصاحب الأنهار والنعم، وموسى - عليه السلام - خامل متعلل لا دنيا له، قال: فلو أن إله موسى يكون حقاً كما يزعم لما

إلى ذلك وأطاعوه في الكفر لفسقهم ولما كانوا بسبيله من الفساد.

و﴿ءَأَسْفُونَ﴾ معناه: أغضبونا، بلا خلاف، وإغضاب الله تعالى هو أن تعمل الأعمال الخبيثة التي تظهر من أجلها أفعاله الدالة على إرادة السوء بمن شاء، والغضب - على هذا - صفة فعل، وهو ما يتردد، فإذا كان مما ظهر من الأفعال فهو صفة فعل، وإذا رُدَّ إلى الإرادة فهو صفة ذات، وفي هذا نظر.

وقرأ جمهور القراء: ﴿سَلْفًا﴾ بفتح السين واللام، جمع سالف كحارس وحرس، والسلف هو الفارط من الأمم المتقدم، أي: جعلناهم متقدمين للأمم الكافرة عظةً ومثلاً لهم يعتبرون بهم أو يقعون فيما وقعوا فيه، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: ﴿يذهب

الصالحون أسلافاً﴾، وقوله في ولده إبراهيم عليهما السلام: ﴿ندفته عند سلفنا الصالح عثمان بن مظعون﴾، وقرأ حُميد الأعرج، وحمزة، والكسائي: ﴿سَلْفًا﴾ بضم السين واللام، وهي قراءة عبدالله وأصحابه، وسعيد بن عياض، وابن كثير، وهو جمع سليف، وذكر الطبري عن القاسم بن معن أنه سمع العرب تقول: مضى سليف من الناس، بمعنى السلف، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وحُميد الأعرج أيضاً: ﴿سَلْفًا﴾ بضم السين وفتح اللام، كأنه جمع سُلْفَةٍ بمعنى الأمة والقطعة، و﴿الْآخِرُونَ﴾ هم من يأتي من البشر إلى يوم القيامة.

٥٧ - ٥٨ - تفسير قوله عز وجل:

رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره في تفسير

من السماء تكريمة له، وقرأ الجمهور: ﴿الَّذِي﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأ الضحاك: ﴿الْقَى﴾ بفتح الهمزة والقاف على بناء الفعل للفاعل ﴿أَسَاوِرَةٌ﴾ نصباً، وقرأ جمهور القراء: ﴿أَسَاوِرَةٌ﴾، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿أَسْوِرَةٌ﴾ وهي قراءة الأعرج، والحسن، وقتادة، وأبي رجاء، ومجاهد، وقرأ أبي بن كعب: ﴿أَسَاوِرُ﴾، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَسَاوِيرُ﴾، ويقال: سَوَّرَ وإسَوَّرَ لما يجعل في

الذراع من الحلي، حكى أبو زيد اللغتين، وأبو عمرو بن العلاء، وهو كالتَّسْلِبِ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما والناس، وكانت عادة الرجال يومئذ حُبْس ذلك والتَّزْيِين به، و﴿أَسَاوِرُ﴾ جمع «أَسْوَارٍ». ويجوز أن يكون جمع «أَسْوِرَةٍ» كَأَسْقِيَةٍ وَأَسَاقِي، وكذلك «أَسَاوِرَةٌ» جمع «إِسْوَارٍ» والهاء في «أَسَاوِرَةٍ» عَوْض عن الياء المحذوفة؛ لأن الجمع إنما هو «أَسَاوِيرُ» كما في مصحف ابن مسعود، فحذفوا الياء جعلوا الهاء عَوْضاً منها، كما قالوا ذلك في زنادقة وبطارقة وغير ذلك، و﴿أَسْوِرَةٌ﴾ جمع «سَوَارٍ». وقوله: ﴿مَقَرَّيْنِ﴾ أي: يحمونه ويشهدون له ويقومون حجته.

ثم أخبر تعالى عن فرعون أنه استخف قومه بهذه المقالة، أي: طلب خفتهم وإجابتهم إلى غرضه، وأجابوه

وَأَنَّهُ لَيْسَ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمُوتُ بِهَا وَاتَّعَمُّونَ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥٧﴾ وَلَا يَصُدُّكُمْ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُرْهُدٌ وَمُبِينٌ ﴿٥٨﴾ وَلَا تَجَاءُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ بِنَتِّ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلَآئِيْن لِّكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرَهُ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥٩﴾ فَاتَّخَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذَابٍ يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿٦٠﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦١﴾ الْأَخْلَاقُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ﴿٦٢﴾ يَتَّبِعُونَ الْأَقْدَامَ عَلَيْكُمْ أَيُّومٌ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴿٦٣﴾ الَّذِينَ آمَنُوا يَتَّبِعُنَا وَكَاوَأُوا مَسْلُوبِينَ ﴿٦٤﴾ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُحْبَرُونَ ﴿٦٥﴾ نُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصَفَافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا نَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَكَذَلِكَ أُعْطِيَ وَأَنْتُمْ فِيهَا تَخْلَدُونَ ﴿٦٦﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٧﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٨﴾

٤٤٤

معنى التحضيض، وقالت فرقة: [أم] بمعنى «بل».

وقرأ بعض الناس: ﴿أَمَا أَنَا خَيْرٌ﴾، حكاه الفراء، وكان مجاهد يقف على [أم] ثم يتدبء ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾، قال قتادة: وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ أَمْ هَذَا﴾.

و﴿مُهَيَّنٌ﴾ معناه: ضعيف، وقوله: ﴿وَلَا يَكَاذُ بَيْنٌ﴾ إشارة إلى ما بقي في لسان موسى عليه السلام من أثر الجمرة، وذلك أنها كانت أحدثت في لسانه عقدة، فلما دعا في أن تُحَلَّ يُفْقَهُ قوله أجيبت دعوته، لكن بقي أثر كان البيان يقع معه، لكن فرعون عيّر به، وقوله: ﴿وَلَا يَكَاذُ﴾ يقتضي أنه كان يبين، وقرأ أبو جعفر محمد بن علي: ﴿يَبِينٌ﴾ بفتح الياء الأولى. وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا الَّذِي﴾ يريد:

هذه الآية أنه لما نزلت: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ﴾ الآية ونزل مع ذلك ذكر عيسى عليه السلام وحاله وكيف خلق من غير فحل، قالت فرقة: ما يريد محمد - عليه الصلاة والسلام - من ذكر عيسى إلا أن نعبده كما عبدت النصراني عيسى - عليه السلام - فهذا كان صدودهم من ضربه مثلاً، وقرأ نافع، وابن عامر، والكسائي، وأبو جعفر، والأعرج، والثخفي، وأبو رجاء، وابن وثاب: ﴿يَصُدُّونَ﴾ بضم الصاد بمعنى يُعرضون، وقرأ الباقون، وابن عباس، وابن جبير، والحسن، وعكرمة: ﴿يَعْبُدُونَ﴾ بكسر الصاد بمعنى يضجون، قال ابن عباس وغيره، وأنكر ابن عباس رضي الله عنهما ضم الصاد، ورويت عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال الكسائي: هما لغتان بمعنى واحد مثل يعرشون ويعرشون.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾ ابتداء معنى ثان، وذلك أنه لما نزلت: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ حَصَبٌ جَهَنَّمَ﴾ جاء عبدالله بن الزبيري ونظراؤه، فقالوا: نحن نخصم محمداً، آلهتنا خير أم عيسى؟ وعلموا أن الجواب أن يقال لهم: عيسى قالوا: وهذه آية الحصب لنا أو لكل الأمم من الكفار؟ فقال النبي ﷺ: «بل لكل من تقدم وتأخر من الكفار»، قالوا: نحن نرضى أن تكون آلهتنا مع عيسى إذ هو خير منها، وإذ قد عبد فهو من الحصب إذن، فقال الله تعالى: ﴿مَا

صَرِيهُوُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، أي: ما مثلوا لك هذا التمثيل إلا جدلاً منهم ومغالطة، ونسوا أن عيسى ﷺ لم يُعبد برضى منه ولا عن إرادة، ولا له في ذلك ذنب.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو: ﴿الْهَيْئَتَا﴾ بهمزة استفهام وهمزة بعدها بين وبين وألف بعدها، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي بهمزتين مُحَقَّقَتَيْنِ بعد الثانية ألف، وقرأ ورش عن نافع بغير استفهام: ﴿الْهَيْئَتَا﴾ على مثال الخبر، وقرأ قالون عن نافع: ﴿الْهَيْئَتَا﴾ بهمزة واحدة بعدها مدّة، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿خَيْرٌ أَمْ هَذَا﴾، فالإشارة إلى محمد ﷺ، وخُرِجَت هذه القراءة على التأويل الأول الذي فسّرناه، وكذلك قالت فرقة ممن قرأ: ﴿الْهَيْئَتَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ﴾: إن الإرادة محمد ﷺ، وهو قول قتادة، وقال ابن زيد، والسدي: المراد بـ ﴿هُوَ﴾ عيسى عليه السلام، وهذا هو المترجم.

و «الجدال»: عند العرب: المحاورة بمغالطة أو تحقيق أو ما اتفق من القول، إنما القصد به أن يَغْلِبَ صاحبه في الظاهر لا أن يتطلّب الحق في نفسه، وروى أبو أمامة عن النبي ﷺ أنه قال: «ما ضل قوم بعد هدى كانوا عليه إلا أوتوا الجدال»، ثم قرأ: ﴿مَا صَرِيهُوُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا﴾، قال أبو أمامة: ورأى النبي ﷺ قوماً يتنازعون في القرآن فغضب حتى كأنما صب على وجهه الخل، وقال: «لا تضربوا كتاب الله بعضه ببعض، فما ضل قوم إلا أوتوا

الجدال»، ثم أخبر الله تعالى عنهم أنهم أهل خصام ولتد.

وأخبر تعالى عن عيسى عليه السلام أنه عبد أنعم الله عليه بالثبوة والمنزلة العالية، وجعله مثلاً لبني إسرائيل، [وقوله: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ﴾ الآية]، أي: لا تستغربوا أن يُخلق عيسى من غير فحل فإن القدرة تقتضي ذلك وأكثر منه.

وقوله تعالى: ﴿لَجَعَلْنَا بَنِي آدَمَ مَلَائِكَةً يَسْكُنُونَ الْأَرْضَ وَيَخْلُقُونَ بَنِي آدَمَ فِيهَا، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَمَجَاهِدٌ: يَخْلَفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّمَ لِسَانَهُ الْحَسْنَ، وَمَجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ، وَالسَّيِّدِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ زَيْدٍ: الإِشَارَةُ بِهِ إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَقَالَتْ فِرْقَةٌ: إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَقَالَ أَيْضًا الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: إِلَى الْقُرْآنِ، وَقَرَأَ جَمَاهُورُ النَّاسِ: ﴿لَعَلَّمَ﴾ بكسر العين وسكون اللام، وقرأ ابن عباس، وأبو هريرة، وقَتَادَةُ، وَأَبُو مَالِكٍ الْغَفَّارِيُّ، وَمَجَاهِدٌ، وَأَبُو نَضْرَةَ الْمَنْذَرِيُّ بَنِي كَعْبٍ، وَمَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: ﴿وَأَنَّهُ لَعَلَّمَ﴾ بفتح العين واللام، وقرأ عكرمة مولى ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَأَنَّهُ لَلْعِلْمِ﴾ بلامين، وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَأَنَّهُ لِيُخَرِّجَ لِّلْسَانَةَ﴾، فمن قال إن الإِشَارَةَ لعيسى عليه السلام حَسَنٌ مع تأويله «عَلَّمَ» و«عَلَّمَ»، أي: هو إِشَارَةٌ بِالسَّاعَةِ وَسُزْطٌ مِنْ أَسْرَاطِهَا، يَعْنِي خُرُوجَهُ فِي آخِرِ الزَّمَانِ،

وكذلك من قال الإشارة إلى محمد ﷺ إذ هو آخر الأنبياء عليهم السلام، فقد تميزت الساعةُ به نوعاً وقدراً من التمييز وبقي التحديد التام الذي انفرد الله تعالى بعلمه، ومن قال الإشارة إلى القرآن حَسُنَ قوله في قراءة من قرأ: ﴿لَعَلَّمْ﴾ بكسر العين وسكون اللام، أي: يُعَلِّمُكُمْ بها وبأحوالها وصفاتها، وفي قراءة من قرأ: ﴿لَذِكْرُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَمَنَّكَ﴾، أي: قل لهم يا محمد: لا تشكَّنْ فيها، وقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ إشارة إلى الشَّرع، ثم أمره بتحذير العباد من الشيطان وإغوانه، ونبَّههم على عداوته.

﴿٦٣﴾ - ﴿٦٨﴾ تفسير قوله عز وجل: «الْبَيْتَاتُ» التي جاء بها عيسى عليه السلام هي إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص إلى غير ذلك، وقال قتادة: الإنجيل، و«الْحِكْمَةُ»: النبوة، قاله السدي وغيره.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبَيِّنُ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ﴾ قال أبو عبيدة: [بَعْضُ] بمعنى «كل»، وهذا ضعيف ترده اللغة، ولا وجه له ولا حجة من قول لييد:

أَوْ يَغْتَلِبُ بَعْضُ النَّفُوسِ جَمَاهُهَا
لأنه أراد نفسه ونفس من معه، وتلك بعض النفوس، وإنما المعنى الذي ذهب إليه الجمهور أن الاختلاف بين الناس هو في أمور كثيرة لا تُحصى عدداً، منها أمور أخروية ودينية، ومنها ما لا مدخل له في الدين، فكل نبي إنما يبعث ليبيِّن

أمر الأديان والآخرة، فذلك بعض ما يختلف فيه، وقوله تعالى: ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ﴾ حكاية عن عيسى عليه السلام إذ أشار إلى شرعه.

و«الْأَحْزَابُ» المذكورون، قال جمهور المفسرين: أراد تعالى: اختلفت بنو إسرائيل وتحزَّبوا، فمنهم من آمن به وهو قليل، وكفر الغير، وهذا إذا كان معهم حاضراً، وقال قتادة: الأحزاب هم الأربعة الذين كان لهم الرأي، والمناظرة صرفت إليهم في أمر عيسى عليه السلام، وقال ابن حبيب وغيره: الأحزاب: النصاري، افرقت مذاهبهم فيه بعد رفعه عليه السلام، فقالت فرقة: هو الله، وهم اليعقوبية، قال الله عز وجل عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾، وقالت فرقة: هو ابن الله، وهم النسطورية، فقال الله تعالى فيهم: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾، وقالت فرقة: هو ثالث ثلاثة، وهم الملكانية، قال الله تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿يُرَىٰ فِيهِمْ نَارٌ مِّنْ أَعْيُنِهِمْ﴾ بمعنى: من تلقائهم ومن أنفسهم نار شرهم ولم يدخل عليهم الاختلاف من غيرهم.

والضمير في ﴿يَنْظُرُونَ﴾ لقريش، والمعنى: ينتظرون، و﴿بَنَاتٌ﴾ معناه: فجأة دون مقدمة ولا إنذار بها، ثم وصف تعالى بعض حال القيامة وأنها - لهول مطلعها والخوف المطيف بالناس فيها - يتعادي ويتباغض كل خليل كان في الدنيا على غير تقى؛ لأنه يرى أن الضرر

دخل عليه من قِبَلِ خليله، وأما المتقون فيرون أن النفع دخل من بعضهم على بعض، هذا معنى كلام علي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم.

وقوله تعالى: ﴿يَعْبَادِي﴾، المعنى: يقال لهم، أي: للمتقين، وقرأ عاصم في رواية أبي بكر: ﴿يَا عِبَادِي﴾ بفتح الياء، وهذا هو الأصل، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿يَا عِبَادِي﴾ بسكون الياء، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿يَعْبَادِي﴾ بحذف الياء، قال أبو علي: وحذفها أحسن لأنها في موضع تنوين وهي قد عاقبت، فكما يحذف التنوين في الاسم المفرد المنادى كذلك تحذف الياء هنا لسكونها على حرف كما أن التنوين كذلك، ولأنها لا تنفصل عن المضاف كما لا ينفصل التنوين من المثنون، وذكر الطبري عن المعتمر، عن أبيه أنه قال: سمعت أن الناس حين يُعبثون ليس منهم أحد إلا فرح، فينادي مناد: ﴿يَعْبَادِي لَا حَوْفَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، فيرجوها الناس كلهم، قال: ويتبعها ﴿الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا مُسْلِمِينَ﴾، قال: فَيُنَاسُ مِنْهَا جَمِيعَ الكفار.

وقرأ الحسن، والزهري، وابن أبي إسحق، وعيسى بن عمر، ويعقوب: ﴿لَا حَوْفَ﴾ بنصب الفاء من غير تنوين، وقرأ ابن محيصن: ﴿لَا حَوْفَ﴾ برفع الفاء من غير تنوين.

إِنَّ الْمَجْرِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّتَخِلِّفُونَ ﴿٧١﴾ لَا يَصُدُّ عَنْهُمْ وُجُوهٌ فِيهِ مُبْتَلِسُونَ ﴿٧٢﴾ وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ ﴿٧٣﴾ وَادَّأَبْكَائِكَ يَلْقِضَ عَيْتَارَتِكَ قَالَ إِنَّكَ مَنكُوتٌ ﴿٧٤﴾ فَقَدْ حَسِبْنَاكَ الْحَقَّ وَلَكِنْ أَكْثَرْتُمْ الْحَقَّ كَرِهُونَ ﴿٧٥﴾ أَمْ أَبْرَمُوا أَمْرًا فَإِنَّا مُبْرِمُونَ ﴿٧٦﴾ أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ ﴿٧٧﴾ قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَالَمِينَ ﴿٧٨﴾ سُبْحَانَ رَبِّ أَسْمَنَاتٍ وَالْأَرْضِ رَبِّ السَّمَاوَاتِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٧٩﴾ فَذَرِهِمْ يَجْهَلُوا وَيَلْبِغُوا حَقَّ يَلْكُوا بِأَبْوَابِ الْمَلَأَىٰ يُوعَدُونَ ﴿٨٠﴾ وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٢﴾ وَلَا تَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَعَةَ إِلَّا مَنَ شَهِدُوا بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٨٣﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴿٨٤﴾ وَقِيلَ لَهُ يَكْرَبُ إِنْ هُوَ إِلَّا قَوْمٌ لَا يَدْرِيونَ ﴿٨٥﴾ أَصَفَحَ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلِّمُوا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾

٤٩٥

رضي الله عنه عن النبي ﷺ. و«الْقَضَاءُ» - في هذه الآية - بمعنى الموت، كقوله تعالى: ﴿تَوَكَّرُوا مَوْتِي فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾، وروي في تفسيرها عن ابن عباس رضي الله عنهما أن مالكا يقيم بعد سؤالهم ألف سنة - وقيل: ثمانين سنة، وقال عبدالله بن عمرو رضي الله عنه: أربعين سنة - ثم يقول لهم: ﴿إِنَّكَ مَنكُوتٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ حَسِبْنَاكَ﴾ الآية، يحتمل أن يكون من قول مالك لأهل النار، ويكون قوله: ﴿حَسِبْنَاكَ﴾ على حد ما يُدْخَلُ أَحَدٌ - حمله الرئيس كتابه - نفسه في فعل الرئيس، فيقول: غلبناكم وفعلنا بكم ونحو هذا، ثم ينقطع كلام مالك في قوله: ﴿كَرِهُونَ﴾، ويحتمل أن يكون

الكفرة من الخلود في النار والإبلاس؛ لِيُبَيِّنَ الفرق ولتتضح الأمور التي منها النذارة. و«المجرمون» في هذه الآية: الكفار؛ بدليل الخلود وما تضمنته ألفاظ الآية من مخاطبة مالك وغير ذلك، و«المُبْتَلِسُ»: المُتَعَدُّ اليائس من الخير، قاله قتادة وغيره، وقرأ ابن مسعود: «وهم فيها مُبْتَلِسُونَ»، أي: في جهنم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ﴾، أي: ما وضعنا العذاب فيمن لا يستحقه، ولكن هم ظلموا في أن وضعوا العبادة فيمن لا يستوجبها، ووضعوا الكفر والتفريط في جنب الله تعالى، وقرأ الجمهور: ﴿كَانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ﴾ على الفصل، وقرأ ابن مسعود: ﴿كَانُوا هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ على الابتداء والخبر، وأن تكون الجملة خبر [كَانَ].

ثم ذكر تعالى عن أهل النار أنهم يتادون مالك خازن النار فيقولون - على معنى الرغبة التي هي في صبغة الأمر -: ﴿يَلْقِضَ عَيْتَارَتِكَ﴾، أي: لِيُيَمِّتَنَا مَدَّةً حَتَّى لَا يَتَكَرَّرَ عَذَابُنَا، وقرأ النبي ﷺ على المنبر: ﴿يَبْكُوكَ﴾ بالكاف، وهي قراءة الجمهور، وقرأ ابن مسعود، ويحيى، والأعمش: ﴿يَا مَالٍ﴾ بالترخيم، ورويت عن علي رضي الله عنه، ورواها أبو الدرداء

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ﴾ نعتٌ للعباد في قوله تعالى: ﴿يَبْعَادُ﴾، ثم ذكر تعالى أمره إياهم بدخول الجنة هم وأزواجهم، و﴿تَحْبِرُونَ﴾ معناه: تُتَعَمَّونَ وتُسْرُونَ، والخبرة والحيور: السرور، و«الأكواب»: ضرب من الأواني كالأباريق إلا أنها لا أذان لها ولا مقابض.

وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ﴾ بإثبات الهاء الأخيرة، وكذلك في مصحف المدينة ومصاحف الشام، وقرأ الباقون، وأبو بكر عن عاصم، والجمهور: ﴿مَا تَشْتَهِي﴾ بحذف الهاء، وكذلك وقع في أكثر المصاحف، وحذفها من الصلة لطول القول حسن، وذلك كثير في التنزيل، كقوله تعالى: ﴿أَهَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾، وقوله تعالى: ﴿وَسَلِّمْ عَلَىٰ عِبَادِي الَّذِينَ أَسْطَفْتُمُ﴾، وغير ذلك، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّهُ الْأَعْيُنُ﴾ بالهاء فيها.

وقوله تعالى: ﴿أُرْرِشْتُمْوَمَا يَمَّا كُنْتُمْ سَمَلُونَ﴾ ليس المعنى أن الأعمال أوجبت على الله إدخالهم الجنة، وإنما المعنى أن حظوظهم منها على قدر أعمالهم، وأما نفس دخول الجنة وأن يكون المرء من أهلها فيفضل الله تعالى وهداه.

﴿٧١﴾ - ﴿٧٢﴾ تفسير قوله عز وجل: لما ذكر الله تعالى حال أهل الجنة وما يقال لهم عقب ذلك بذكر حال

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جِئْتَكُمْ﴾، من قول الله تعالى لقريش بعقب حكاية أمر الكفار مع مالك، وفي هذا توعدٌ وتخويف فصيح، بمعنى: انظروا كيف يكون حالكم، ثم تتصل الآية - على هذا - بما بعدها من أمر قريش.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ أَرَبْتُمْ أَمْراً﴾ يريد: هل أحكموا أمراً من أمور مكروهم وتديبرهم على محمد ﷺ كما فعلوا في اجتماعهم على مثله في دار الندوة إلى غير ذلك، و﴿أَمْ﴾ - في هذه الآية - المنقطعة، وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّا مُبْتَلُونَ﴾، أي: فإنا مُحكّمون نصره وحمايته، و﴿الإبرام﴾ أن تجمع خيطين ثم تتفلهما فتلاً متقناً، و﴿البريم﴾ خيط فيه لوان.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ﴾ الآية، قال محمد بن كعب القرظي: نزلت لأن كثيراً من العرب كانوا يعتقدون أن الله تعالى لا يسمع السرار، ومنه حديث الثقفى والقرشيّين الذين سمعهم ابن مسعود رضي الله عنه يقولون عند الكعبة: أترى الله يسمعنا؟ فقال أحدهم: يسمع إذا جهرنا ولا يسمع إذا أخفينا. الحديث، فأخبر الله تعالى في هذه الآية أنه يسمع - أي: يدرك - السّرّ والنجوى، وأن رسله الحفظة من الملائكة يكتبون أعمال البشر مع ذلك، وتُعدُّ للجزاء يوم القيامة.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَكْدٌ فَأَنَّا أَوْلَى الْمَكِيدِينَ﴾ - فقالت فرقة:

«العابدون» هو من العبادة، ثم اختلفوا في معنى الآية بعد ذلك - فقال قتادة، والسدي، والطبري: المعنى: قل لهم يا محمد: إن كان للرحمن ولد - كما تقولون - فأنا أول من يعبد على ذلك، ولكن ليس له شيء من ذلك تعالى وجل، قال الطبري: هذا إطفاف في الخطاب، ونحوه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَوْ إِيَّاكُمْ لَمَكَّنْهُ هُنْدَى أَوْ فِي سَكَلِي مَيْمِنٍ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله تعالى في مخاطبة الكفار: ﴿إِنَّ شُرَكَايَكُ﴾.

وقال مجاهد: المعنى: إن كان لله تعالى ولد في قولكم فأنا أول من عبد الله وحده وكذبكم، وقال قتادة أيضاً، وزهير بن محمد، وابن زيد: [إن] نافية بمعنى «ما»، فكأنه تعالى قال: «قل ما كان للرحمن ولد»، وهنا هو الوقف على هذا التأويل، ثم يتدى: ﴿فَأَنَّا أَوْلَى الْمَكِيدِينَ﴾، قاله أبو حاتم، وقالت فرقة: العابدون، من عبد الرجل إذا أنف وأنكر الشيء، قال الشاعر:

مَتَى مَا يَشَأْ ذُو الرُّؤْيُ يَضْرِبُ خَلِيلَهُ
وَيَعْبُدُ عَلَيْهِ لَا مَحَالَةَ ظَالِمًا
ومنه حديث عثمان وعلي رضي الله عنهما في المرجومة حين قال علي: وحمله وفصاله ثلاثون شهراً، قال: فما عبد عثمان أن بعث إليها لثرد، والمعنى: إن جعلتم للرحمن ولداً وكان ذلك في قولكم فأنا أول الأنفين المنكرين لذلك.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَدٌ﴾ بفتح الواو واللام، وقرأ ابن مسعود، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: ﴿وُلْدٌ﴾ بضم الواو وسكون اللام، وقرأ أبو عبدالرحمن: ﴿أَوْلَى الْعَبِيدِينَ﴾، وهي على هذا المعنى، قال أبو حاتم: العبد - بكسر الباء - الشديد الغضب، وقال أبو عبيدة: معناه: أول الجاحدين، والعرب تقول: «عَبَدْتَنِي حَقِّي» أي: جحدني.

﴿٨٢﴾ - ﴿٨٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا قَالَ: ﴿فَأَنَّا أَوْلَى الْمَكِيدِينَ﴾ نزه الرب تعالى عن هذه المقالة التي قالوها، و﴿سُحْنٌ﴾ تنزيه، وخصّ السموات والأرض والعرش لأنها أعظم المخلوقات، وقوله تعالى: ﴿فَدَرَبَهُمْ بَحُورًا﴾ مهادنة ما وترك وهي منسوخة بآية السيف، وقرأ الجمهور: ﴿حَتَّى يَلْقَاكُمْ﴾، وقرأ أبو جعفر، وابن محيصن: ﴿حَتَّى يَلْقَوْا﴾، وقال الجمهور: اليوم الذي توعدهم به يوم القيامة، وقال عكرمة وغيره: هو يوم بدر.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهُ﴾ آية حكم بعظمتهم وإخباراً بألوهيته، أي: هو النافذ أمره في كل شيء. وقرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، وأبي بن كعب، والحكم بن أبي العاص، وجابر بن زيد، وأبو شيخ، وبلال بن أبي بردة، ويحيى بن يعمر، وابن السميع: ﴿وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهُ وَفِي

الْأَرْضِ لِلَّهِ، وَالْحَكِيمِ: المحكم.

و ﴿تَبَارَكَ﴾ تفاعل، من البركة، أي: تزيّدت بركاته، و ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ حصر لجميع الموجودات المحسوسة، و ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ معناه: علم تحديد قيامها والوقوف على تعيينه وحصره، وهذا هو الذي استأثر بعلمه، وإلّا فنحن عندنا علم الساعة أنها واقعة ذات أهوال وصفات مآ، والمصدر في قوله تعالى: ﴿عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ مضاف إلى المفعول، وقرأ أكثر القراء: ﴿وَرِإِيهِ يُزْجَعُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ نافع، وعاصم، وأبو عمرو: ﴿وَرِإِيهِ تُرْجَعُونَ﴾ بالتاء من فوق مضمومة، وقرأ الأسود، والأعمش: ﴿يُخْشَرُونَ﴾ بالياء من تحت.

(٨٧) - (٨٨) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ﴾ الآية مخاطبة لمحمد ﷺ، و ﴿الَّذِينَ﴾ هم المعبدون، والضمير في ﴿يَدْعُونَ﴾ هو للكفار الذين عبدوا غير الله تعالى، فأعلم تعالى أن كل من عبد من دون الله فإنه لا يملك شفاعته عند الله يوم القيامة، وقرأ الجمهور: ﴿يَدْعُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ ابن وثاب: ﴿تَدْعُونَ﴾ بالتاء من فوق. ثم استثنى تعالى من هذا الإخبار، واختلف الناس في المستثنى - فقال قتادة: استثنى ممن عبد من دون الله عيسى وعزيراً والملائكة

عليهم السلام، والمعنى: فإنهم يملكون شفاعته بأن يمكّنهم الله تعالى إيّاهما؛ إذ هم ممن شهد بالحق وهم يعلمون في كل أحوالهم، فالاستثناء - على هذا التأويل - متصل، وقال مجاهد وغيره: استثنى في المشفوع فيهم، كأنه قال: لا يشفع هؤلاء الملائكة وعزير وعيسى إلا فيمن شهد بالحق وهم يعلمون بالتوحيد، فالاستثناء - على هذا التأويل - منفصل، كأنه تعالى قال: لكن من شهد بالحق يشفع فيهم هؤلاء، والتأويل الأول أصوب، والله تعالى أعلم.

ثم أظهر تعالى الحجة عليهم من أقوالهم وإقرارهم بأن الله تعالى هو خالقهم وموجدهم بعد العدم، ثم وقفهم - على جهة التقرير والتوبيخ - بقوله: ﴿فَأَنْ يُّؤَكِّدُونَ﴾، أي: فلائي جهة يصرفون؟ وقرأ جمهور القراء: ﴿وَقِيلَهُ يَا رَبِّ﴾ بالنصب، وهو مصدر كالقول، والضمير فيه لمحمد ﷺ، وحكى مكي قولاً أنه لعيسى عليه السلام، وهو ضعيف، واختلف الناس في الناصب له - فقالت فرقة: هو معطوف على قوله تعالى: ﴿يُرْهَهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾، وقالت فرقة: العامل فيه ﴿يَكْتُمُونَ﴾، أي: أقوالهم وأفعالهم وقيل، وقالت فرقة: الناصب له ما في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ من قوة الفعل، أي: ويعلم قيله، ونزل قوله تعالى: ﴿وَقِيلَهُ يَا رَبِّ﴾ بمنزلة: وشكوى محمد - عليه

الصلاة والسلام - واستغاثته من كفرهم وعثوهم، وقرأ عاصم، وحمزة، وابن وثاب، والأعمش: ﴿وَقِيلَهُ يَا رَبِّ﴾ بالرفع على الابتداء، والخبر في قوله: ﴿يَكْتُمُونَ﴾، أي: قِيلَهُ هذا القول، أو يكون التقدير: وقيل له يا رب مسموعاً ومُتَقَبَّلًا، ف ﴿يَكْتُمُونَ﴾ - على هذا - منصوب الموضع بـ ﴿وَقِيلَهُ﴾. وقرأ أبو قلابة: ﴿يَا رَبِّ﴾ بفتح الباء المشددة، وأراد: يا ربّيا، على لغة من يقول: يا غلاماً، ثم حذف الألف تخفيفاً واتباعاً لِحَطِّ المصحف.

وقوله تعالى: ﴿فَأَصْحَعْتُمْ﴾ موادعة منسوخة بآية السيف، وقوله تعالى: ﴿سَلِّمْتُ﴾ تقديره: قل أمري سلام، أي: مُسَالِّمَةً، وقالت فرقة: المعنى: وقل سلام عليكم على جهة الموادعة والملاينة، والنسخ قد أتى على هذا السلام، سواء كان تحية أو عبارة عن الموادعة. وقرأ جمهور القراء: ﴿يَتَلَمَّونَ﴾ بالياء، وقرأ نافع، وابن عامر - في رواية هشام عنه - والحسن، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿تَعَلَّمُونَ﴾ بالتاء من فوق.

كامل تفسير سورة الزخرف والحمد لله رب العالمين

يتزوج ويُعْرَس وقد خرج اسمه في الموتى لأن الآجال تقطع في شعبان، وقرأ الحسن، والأعرج، والأعمش: ﴿يَفْرُقُ﴾ بفتح الباء وضم الراء، و﴿حَكِيمٌ﴾ بمعنى: محكم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾ نصب على المصدر، و﴿مِنْ عِنْدِنَا﴾ صفة لقوله تعالى: ﴿أَمْرًا﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ﴾ يحتمل أن يريد الرُّسُل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ويحتمل أن يريد الرحمة التي ذَكَرَ بَعْدَ، وعلى التأويل الأول نصب قوله تعالى: ﴿رَحْمَتٌ﴾ على المصدر، ويحتمل أن يكون نصبها على الحال.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنتُمْ مُوقِنِينَ﴾، تقرير وتثبيت، أي: إن كنت موقناً فهذا يكون يقينك، كما تقول لإنسان يقيم نفسه: العلم غرضك إن كنت رجلاً. وقوله تعالى: ﴿رَبُّكَ رَبُّ رَبِّكُمْ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: مالكم ومالك آبائكم.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ﴾ بالرفع على القطع والاستئناف، وهي قراءة الأعرج، وابن أبي إسحق، وأبي جعفر، وشيبة. وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي، بالكسر على البدل من ﴿رَبِّ﴾ المتقدم، وهي قراءة ابن محيصن، والأعمش، وأما قوله تعالى: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ﴾ فالجمهور على رفع الباء، وقرأ الحسن بالكسر، ورواه أبو موسى عن الكسائي.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ﴾ إضرابٌ قبله نفيٌ مقدر، كأنه يقول:

الكتاب ويُحَسِّنُ القَسَمَ به، ويكون الذي وقع القَسَمِ عليه ﴿إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ﴾.

واختلف الناس في تعيين الليلة المباركة. فقال قتادة، وابن زيد، والحسن: هي ليلة القدر، وقالوا: إن كُتِبَ اللهُ تعالى كلها إنما نزلت في رمضان، التوراة في أوله، والإنجيل في وسطه، والزبور في نحو ذلك، ونزل القرآن في آخره في ليلة القدر، ومعنى هذا النزول أن ابتداء نزوله كان في ليلة القدر، وهذا قول الجمهور، وقالت فرقة:

بل أنزله الله تعالى جملة ليلة القدر إلى البيت المعمور، ومن هناك كان جبريل عليه السلام، يتلقاه، وقال عكرمة وغيره: الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان.

وقوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ معناه: يفصل من غيره ويتخلص، وروي عن عكرمة في تفسير هذه الآية أن الله تعالى يفصل للملائكة في ليلة النصف من شعبان، وقال الحسن، وعمر مولى غفرة، ومجاهد، وقاتدة: في ليلة القدر يفصل كل ما في العام المقبل من الأقدار والآجال والأرزاق وغير ذلك، ويكتب ذلك لهم إلى مثلها من العام المقبل، قال هلال بن يساف: كان يقال: انتظروا القضاء في شهر رمضان. وروي في بعض الحديث عن النبي ﷺ أن الرجل

سُورَةُ الدُّخَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمِّ ۝ وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ ۝ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُنَدَّرٍ ۝ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝ أَمْ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝ رَبِّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِينَ وَمَا بَيْنَهُمَا ۝ إِنَّ كُنتُمْ مُوقِنِينَ ۝ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمْ الْأَوَّلِينَ ۝ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ ۝ فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ ۝ يَغْشَى السَّمَاءَ هَذَا عَدَابٌ أَلِيمٌ ۝ رَبَّنَا كَيْفَ عَسَا الْعَذَابُ إِنَّا مُؤْمِنُونَ ۝ أَنْ لَمْ يَكُنِ الذِّكْرُ وَفَدَجَاهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ ۝ ثُمَّ نَزَّلْنَاهُ وَفَعَلُوا مَعْزُومًا ۝ إِنَّكَ كَاذِبٌ كَلِيمٌ ۝ إِنَّكُمْ عَائِدُونَ ۝ يَوْمَ نَبِطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَىٰ إِنَّا مُنْقِمُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجَاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۝ أَنْ أَدَّ إِلَيْنَا عِبَادَكَ لِأَنِّي لَأَكْرَهُ السُّوءَ ۝ فَذَكَرْنَاكَ عِنْدَ رَبِّكَ فَغَدَرْنَا ۝

تفسير سورة الدخان

هذه السورة مكئية، لا أحفظ خلافاً في شيء منها.

١ - ١٠ تفسير قوله عز وجل: ﴿حَمِّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ قَسَمَ أقسم الله تبارك وتعالى به، و﴿الْمُبِينِ﴾ يحتمل أن يكون الفعل المتعدي، أي: يبين الهدى والشرع ونحوه، ويحتمل أن يكون من غير المتعدي، أي: هو مبين في نفسه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ يحتمل أن يقع القَسَمُ عليه، ويحتمل أن يكون ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ﴾ في وصف الكتاب فلا يحسن وقوع القَسَمِ عليه، وهو اعتراضٌ يتضمن تفخيم

ليس هؤلاء ممن يؤمن ولا ممن تنفعه وصاة، بل هم في شك يلعبون في أقوالهم وأعمالهم.

واختلف الناس في الدخان الذي أمر الله تعالى بارتقابه - فقالت فرقة منها علي بن أبي طالب، وزيد بن علي، وابن عمر، وابن عباس، وأبو سعيد الخدري، والحسن بن أبي الحسن رضي الله تعالى عنهم: هو دخان يجيء مقبل يوم القيامة، يصيب المؤمن منه مثل الزكام، وينضح رؤوس المنافقين والكافرين حتى تكون كأنها مصلية حنيذة، وقالت فرقة منها عبدالله بن مسعود، وأبو العالية، وإبراهيم النخعي: هو الدخان الذي رآه قريش حين دعا رسول الله ﷺ عليهم بسبع كسبع يوسف عليه السلام، فكان الرجل يرى من الجذب والجوع دخاناً بينه وبين الناس، وما يأتي من الآيات يقوي هذا التأويل، وقال ابن مسعود: خمسٌ قد مضين: الدخان واللزام والبطشة والقمر والرؤم، وذكر الطبري حديثاً عن حذيفة أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول آيات الساعة الدخان، ونزول عيسى ابن مريم، ونازٌ تخرج من قعر عدن»، وضعف الطبري سند هذا الحديث، واختار قول ابن مسعود في الدخان، ويحتمل - إن صحَّ حديث حذيفة - أن يكون قد مرَّ دخان، ويأتي دخان آخر.

⑪ - ⑧ تفسير قوله عز وجل:

﴿يَمَسُّنَّ﴾ معناه: يغطِّي، وقوله تعالى: ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ يحتمل أن يكون إخباراً من الله تعالى كأنه

يعجب منه، على نحو من قوله تعالى لما وصف قصة الذبح: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُ الْبُتُّ الْيَتِيمُ﴾، ويحتمل أن يكون ﴿هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ من قول الناس، كأن تقدير الكلام: يقولون هذا عذاب أليم، ويؤيد هذا التأويل سبابة تعالى حكاية عنهم أنهم يقولون: ﴿رَبَّنَا كَيْفَ عَنَّا الَّذَاكَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾، وَعَلِمَ اللهُ تبارك وتعالى أن قولهم في حال الشدة ﴿إِنَّا مُؤْمِنُونَ﴾ إنما هو عن غير حقيقة منهم فدل على ذلك بقوله: ﴿أَنَّ لَهُمُ الذِّكْرَيْنِ﴾ أي: من أين لهم أن يتذكروا وهم قد تركوا الذكرى وراء ظهورهم بأن جاءهم رسول مبين وهو محمد ﷺ فكفروا به؟ ﴿تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ أي: أعرضوا وقالوا: إنه يُعْلَمُ هذا الكلام الذي يتلو، وإنه مجنون. وإخباره تعالى بأنه يكشف العذاب عنهم قليلاً إخباراً عن إقامة الحجة عليهم ومبالغة في الإملاء لهم. ثم أخبر تعالى بأنهم عائدون إلى الكفر، وقال قتادة: هو توعدٌ بمعاد الآخرة، ثم أخبر تعالى بأنه ينتقم منهم بسبب هذا كله في يوم البطشة، وقدم اليوم وذكره على الذي عمل فيه تهنئاً به وتخويفاً منه، والعامل فيه ﴿سُنْفِثُونَ﴾، وقد ضعف البصريون هذا من حيث هو خبر [إن]، وأبعدوا أن يعمل خبرها فيما قبلها، وقالوا: العامل فعل مضمَّر يدل عليه ﴿سُنْفِثُونَ﴾.

واختلف الناس في يوم البطشة الكبرى - فقال ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وقاتدة: هو يوم القيامة، وقال عبدالله بن مسعود، وابن عباس

أيضاً، وأبي بن كعب، ومجاهد: هو يوم بدر، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَبِطُّشٌ﴾ بفتح النون وكسر الطاء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن بضم الطاء، وقرأ الحسن أيضاً، وأبو رجاء، وطلحة بن مصرف بضم النون وكسر الطاء، ومعناها: نُسَلِّطُ عليهم من يبطش بهم.

ثم ذكر تعالى قوم فرعون على جهة المثال لقريش، و﴿تَنَّا﴾ معناه: امتحناً واختبرنا، و«الرسول الكريم» قال قتادة: هو موسى عليه السلام، ومعنى الآية يعطي ذلك بلا خلاف، وهنا متروك يدل عليه الظاهر: تقديره: قل لهم أدوا، وهذا مأخوذ من الأداء، كأنه يقول: أن ادفعوا إليّ وأعطوني ومكنوني، واختلف المتأولون في الشيء المؤدى في هذه الآية، ما هو؟ فقال مجاهد، وابن زيد، وقاتدة: طلب منهم أن يؤدوا إلى بني إسرائيل، وإياهم أراد بقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: اتبعوني إلى ما أدعوكم إليه من الحق، فقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾ منادى مضاف، والمؤدى هو الطاعة والإيمان والأعمال.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر من شرع موسى عليه السلام أنه بُعث إلى دعاء فرعون إلى الإيمان، وأن يُرسل بني إسرائيل، فلما أبى أن يؤمن بقيت المكافحة في أن يرسل بني إسرائيل، وفي إرسالهم قوله: ﴿أَنْ أَدُوا لِيَّ عِبَادَ اللَّهِ﴾، أي: بني إسرائيل، ويقوي ذلك قوله بعد: ﴿وَإِنْ لَرُبِّمْوَا لِي فَاصْرَفْنَا﴾، وهذا

وحكم عليهم بالإجرام المضمّن للكفر حين يش منكم، وهنا أيضاً محذوف من الكلام تقديره: فقال الله تعالى له: فَأَسْرِبِعَادِي، وهذا هو الأمر الذي أنفذه الله تعالى إلى موسى عليه السلام بالخروج من ديار مصر بيني إسرائيل، وقد تقدم شرحه وقصصه في سورة الأنبياء عليهم السلام وغيرها، وقرأ جمهور الناس: ﴿فَأَسْرِبِ﴾ موصولة الألف، وقرأ: ﴿فَأَسْرِبِ﴾ بقطع الألف الحسن، وعيسى، وزويت عن أبي عمرو، وأعلمه تعالى بأنهم مُتَّبِعُونَ، أي: يتبعهم فرعون وجنوده.

واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا﴾، متى قالها سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام؟ فقالت فرقة: هذا كلام متصل، إنكم مُتَّبِعُونَ واترك البحر إذا انفرق لك رهوًّا، وقال قتادة وغيره: خوطب عليه السلام به بعد أن جاز البحر وخشي أن يدخل فرعون وقومه وراءه، وأن يخرجوا من المسالك التي خرج منها بنو إسرائيل، فهِمَّ موسى عليه السلام بأن يضرب البحر عسى أن يلتئم ويرجع إلى حاله فقيل له عند ذلك: ﴿وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا﴾.

واختلفت عبارة المفسرين في تفسير الرّهو - فقال مجاهد وعكرمة: معناه: يَبْسَأُ، من قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِبِ لَّهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا﴾، وقال الضحاك بن مزاحم: معناه: دَبِثًا لَيْثًا، وقال عكرمة أيضاً: جُدْدًا، وقال ابن زيد: سهلاً، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ساكنًا، أي: كما جُزَّتْ، وهذا القول

موضع نصب، بمعنى: لا تكفروا من أجل أنني أتيتكم بسلطان مبين، فكأن مقصد الكلام التوبيخ، كما تقول لإنسان: لا تغضب أن الحق قيل لك.

وقوله: ﴿وَأَيُّ عُدْتُ﴾ الآية كلام قاله موسى عليه السلام لخوف لحقه من فرعون وملاته، و﴿عُدْتُ﴾ معناه: استَجَرْتُ وتحرّمت، وأدغم الذال في التاء الأعرج، وأبو عمرو، واختلف الناس في قوله: ﴿أَنْ رَجَمُونِ﴾ - فقال قتادة وغيره: أراد الرجم بالحجارة المؤدي إلى

القتل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو صالح: أراد الرجم بالقول من السباب والمخالفة ونحوه، والأول أظهر؛ لأنه أعيذ منه ولم يُعَدَّ من الآخر، بل قيل فيه عليه السلام وله، وقوله: ﴿تَوَيْتُوا لِي﴾ معناه: تؤمنوا بي، والمعنى: تصدقوا، وقوله: ﴿فَأَتْرِكُونِ﴾ متاركة صريحة، قال قتادة: أراد: خَلُّوا سبيلي.

وقوله تعالى: ﴿فَدَعَا رَبِّي﴾ قبله محذوف من الكلام تقديره: فما كفوا عنه، بل تطرّقوا إليه، وعَتَوُوا عليه وعلى دعوته فدعاه ربّه، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وعيسى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ﴾ بكسر الألف من [إِنَّ]، على معنى: قال إن، وقرأ جمهور الناس، والحسن أيضاً: ﴿أَنْ هَتَّوَلَاءِ﴾ بفتح الألف، والقراءتان حستان،

وَأَنْ لَا تَمْلُؤُوا عَلَى اللَّهِ إِلَهَ إِلَهٍ مَا يَكْرِهُ سُلْطَانُ مِيثِينَ ﴿١٩﴾ وَإِنِّي عُدْتُ رَبِّي وَرَبِّي كَرُؤَانَ تَرْجُمُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ لَوْ تَوَيْتُوا لِي فَأَتْرِكُونِي ﴿٢١﴾ فَدَعَا رَبِّي أَنْ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ تُجْرِمُونَ ﴿٢٢﴾ فَأَسْرِبِعَادِي لِيَلَا تَنْكُمُ مَتَّبِعُونَ ﴿٢٣﴾ وَأَتْرِكُ الْبَحْرَ رَهَوًّا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُعْرَفُونَ ﴿٢٤﴾ كَذَرْتُمْ أَنْ تَرْكَبُوا مِنْ حَنْتٍ وَبُيُوتٍ ﴿٢٥﴾ تَوَزُّوعٍ وَمَقَاوِرَ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَتَعَمُّوْا كَانُوا فِيهَا فَكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾ وَقَدْ جِئْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ مِنَ الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿٣٠﴾ مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كَانَ عَالِيًا مِنَ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ وَلَقَدْ أَخَّرْنَاهُمْ عَلَىٰ عِلْمِنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ مِنْ آيَاتِنَا مَا يَبْهَتُونَ ﴿٣٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَقَوْلُونَ ﴿٣٤﴾ إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ وَمَا نَحْنُ بِمُنشَرِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٦﴾ أَهْمُ حَيْرَانٌ قَوْمٌ تَبِعُوا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْتُمُوهُمْ كَانُوا تَجْرِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِلبَحِيثِ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٩﴾

قريب نص في أنه إنما يطلب بني إسرائيل فقط، ويؤيد ذلك أيضاً قوله تعالى: ﴿فَأَسْرِبِعَادِي﴾، فكفى عنهم ب﴿عِبَادِي﴾، فيظهر أنه إياهم أراد موسى عليه السلام بقوله: ﴿عِبَادَ اللَّهِ﴾، وقوله: ﴿رَسُولٌ مُبِينٌ﴾ معناه: على وحي الله تعالى أوّديه إلى عباده.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: كانت رسالته وقوله: أَنْ أَدُّوا وَلَا تَمْلُؤُوا، وعبر بالملؤ عن الطغيان والتؤ على الله تعالى وعلى شرعه ورسوله. وقرأ الجمهور: ﴿إِلَهَ إِلَهٍ﴾ بكسر الألف من ﴿إِنِّي﴾ على الإخبار المؤكد، و«السلطان»: الحجة، فكأنه قال: لا تكفروا فإن الدليل المؤدي إلى الإيمان بين، وقرأت فرقة: ﴿أَنِّي آتِيكُمْ﴾ بفتح الألف، و [أَنْ] في

الأخير هو الذي تؤيده اللغة؛ فإن العيش الرّاهي هو الذي في خَفْضٍ ودَعَا وسكون، حكاة المبرد وغيره، والرّهو في اللغة هو هذا المعنى، ومنه قول عَمْرٍو بن شَيْبَةَ القُطامي: يَمْشِينَ رَهْوَاً فَلَا الأَعْجَازَ خَاذِلَةً وَلَا الصُّدُورَ عَلَى الأَعْجَازِ تَتَكَلَّمُ فَإِنَّمَا معناه: يمشين اثناً وسكوناً وتماهلاً، ومنه قول الآخر:

أَوْ أُمَّةٌ خَرَجَتْ رَهْوَاً إِلَى عِيدِ
أَي: خرجوا في سكون وتماهل، فقال لموسى عليه السلام: اترك البحر ساكناً على حاله من الافتراق ليقضي الله أمراً كان مفعولاً، والرّهو من أسماء الكركبي الطائر، ولا مدخل له في تفسير الآية، ويشبه عندي أنه سُمِّي رهواً لسكونه وأنه أبدأ على تماهل.

وقوله تعالى: ﴿كَذَرْتِكُوا﴾ الآية... قَبْلَهُ محذوف تقديره: فغرقوا وقطع الله دابرهم، ثم أخذ الله تعالى يعجب من كثرة ما تركوا من الأمور الرفيعة العظيمة في الدنيا، و﴿كَذَرْتِكُوا﴾ خير للتكثير، والجنات والعيون زوي أنها كانت متصلة على ضفتي النيل جميعاً من رشيد إلى أسوان، وأما العيون فيحتمل أنه أراد الخلجان الخارجة: من النيل فشبها بالعيون، ويحتمل أنه كانت ثمّ عيون ونضبت كما يعتري في كثير من بقاع الأرض، وقرأ قتادة، ومحمد بن السميع اليماني، ونافع - في رواية خارجة عنه -: ﴿وَمَقَامٌ﴾ بضم الميم، أي: موضع

إقامة، وكذلك قرأ اليماني في كل القرآن إلا في مريم ﴿خَيْرَ مَقَامًا﴾، فكأن المعنى: كم تركوا من موضع حسن كريم في قدره ونفعه، وقرأ جمهور الناس، ونافع: ﴿وَمَقَامٌ كَرِيمٌ﴾ بفتح الميم، أي: موضع قيام، فعلى هذه القراءة قال ابن عباس، ومجاهد، وابن جبير: أراد المنابر، وعلى ضم الميم في ﴿مَقَامٌ﴾ قال قتادة: أراد المواضع الحسن من المساكن وغيرها، والقول بالمنابر يهي جداً.

و «النُّعْمَةُ» - بفتح النون -: غضارة العيش ولذاعة الحياة، و«النُّعْمَةُ» - بكسر النون -: أعم من هذا؛ لأن النُّعْمَةَ بالفتح هي من جملة النعم بالكسر، وقد تكون الأمراض والآلام والمصائب نِعْمًا، ولا يقال فيها نعمة بالفتح، وقرأ أبو رجاء: ﴿وَنُعْمَةٌ﴾ بالنصب، وقرأ جمهور الناس: ﴿نُكَيْبِينَ﴾ بمعنى: ناعمين، والفاكهة: الطيب النفس، أو يكون بمعنى: أصحاب فاكهة كلابن وتامر، وقرأ أبو رجاء، والحسن - بخلاف عنه - وابن القعقاع: ﴿فَكَيْهِينَ﴾، ومعناه قريب من الأول، لكن الفكهة يُستعمل كثيراً في المستخف المستهزئ، فكأنه ها هنا يقول: كانوا في هذه النعمة مُسْتَخْفِينَ بشكرها والمعرفة بحقها.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا﴾ معناه: الأمر كذلك، وسَمَاءُ وراثة من حيث كانت أشياء أناس وصلت

إلى آخرين بعد موت الأولين، وهذه حقيقة الميراث في اللغة، وربطها الشرع بالنسب وغيره من أسباب الميراث، و«الآخرون»: من مَلَكَ مصر بعد القبط، وقال قتادة: القوم الآخرون هو بنو إسرائيل، وهذا ضعيف لأنه لم يُزَوَّ في التواريخ أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر في شيء من ذلك الزمان ولا ملكوها قط، إلا أن يريد قتادة أنهم ورثوا نوعها في بلاد الشام، وذكر الثعلبي عن الحسن أن بني إسرائيل رجعوا إلى مصر بعد هلاك فرعون.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

نفت هذه الآية أن تكون السماء والأرض بكت على قوم فرعون، فافتضى اللفظ أن للسماء والأرض بكاء، واختلف المتأولون في معنى ذلك - فقال علي بن أبي طالب، وابن عباس، ومجاهد، وابن جبير رضي الله تعالى عنهم: إن الرجل المؤمن إذا مات بكى عليه من الأرض موضع عبادته أربعين صباحاً، وبكى عليه من السماء موضع صعود عمله، قالوا: فلم يكن في قوم فرعون من هذه حاله، فهذه معنى الآية. وقال السدي، وعطاء: بكاء السماء حُزْمَةً أطرفها، وقالوا: إن السماء احمرّت يوم قتل الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما، وكان ذلك بكاء عليه، وهذا هو معنى الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى الجيد في الآية

أنها استعارة بارعة فصيحة تتضمن تحقير أمرهم، وأنهم لم يتغير عن هلاكهم شيء، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مَكْرُمٌ لِّزَوْلِجِنِّهِ الْجِبَالِ﴾ على قراءة من قرأ: ﴿لِزَوْلِجِنِّهِ﴾ بكسر اللام ونصب الفعل وجعل [إن] نافية، ومثل هذا المعنى النبي ﷺ: ﴿لَا يَنْتَطِحُ فِيهَا عِزْرَانٌ﴾ فإنه يتضمن التحقير، لكن هذه الألفاظ هي بحسب ما قيلت فيه وهو قتل المرأة الكافرة التي كانت تؤذي النبي ﷺ، وعظم قصة فرعون وقومه يجيء بحسبها جمال الرصف وبهاء العبارة في قوله تعالى: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾، ومن نحو هذا أن نعكس قول جرير:

لَمَّا أَتَى حَبِيرَ الرَّبْرِيرِ تَوَاضَعَتْ
سُورُ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالُ الْخُشَعُ
فيقال في التحقير: «مات فلان» فما خشعت الجبال» ونحو هذا، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «ما مات مؤمن في غربة غابت عنه فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض»، ثم قرأ هذه الآية وقال: «إنهما لا يبكيان على كافر»، ومن التفخيم ببياء المخلوقات العظام قول يزيد بن مَفْرُوعَ:

فَالسَّرِيحُ تَبْكِي شَجْوَهَا
وَالْبَزْرُقُ يَلْمَعُ فِي الْعَمَامَةِ
وقول الفرزدق:

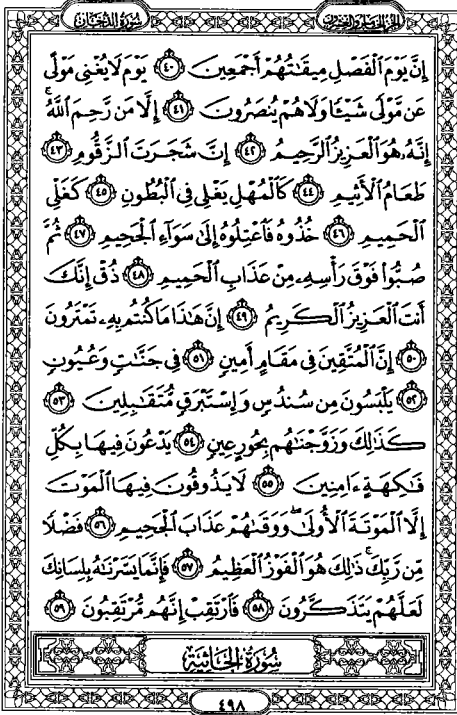
فَالشَّمْسُ طَالِعَةً لَيْسَتْ بِكَاسِفَةٍ
تَبْكِي عَلَيْكَ نُجُومَ اللَّيْلِ وَالْقَمَرَ
و «مَنْظَرِينَ» معناه: مؤخرين ومهملين.

ثم ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل في إنجائهم من فرعون وقومه، و«الْعَذَابُ الْمُهِينُ» هو ذبح الأبناء والتسخير في المهين كالبنيان والحفر ونحوه، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مِنْ عَذَابِ الْمُهِينِ﴾ بسقوط التعريف بالألف واللام من [الْعَذَابِ]. وقوله تعالى: ﴿مِنْ رَعُونَ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿مِنْ الْعَذَابِ﴾، و«مِنْ» بكسر الميم هي قراءة الجمهور، وروى قتادة أن ابن عباس رضي الله عنهما كان يقرأها: ﴿مَنْ» بفتح الميم «فِرْعَوْنَ» برفع النون.

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْرٍ﴾ أي: على شيء قد سبق عندنا فيهم وثبت في علمنا أنه سينفذ، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ الْمَكَلِبِ﴾ يريد: على جميع الناس، هذا على التأويل المتقدم في العلم، والمعنى: لقد اخترناهم لهذا الإنجاء وهذه النعم على سابق علم لنا فيهم، وخصصناهم بذلك دون العالم، ويحتمل قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِلْرٍ﴾ أن يكون: على علم لهم وفضائل فيهم، والمعنى: اخترناهم للنويات والرسلات، فيكون قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ الْمَكَلِبِ﴾ - في هذا التأويل - معناه: على عالم زمانهم، وذلك بدليل فضل أمة محمد ﷺ لهم وعليهم، وأن أمة محمد ﷺ هي خير أمة أخرجت للناس، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُمْ مِنْ آلَائِكَ﴾ لفظ جامع لمعجزات موسى عليه السلام، والعبر التي

ظهرت في قوم فرعون من الجراد والقمل والضفادع وغير ذلك، ولما أنعم به على بني إسرائيل من تظليل الغمام والمن والسلوى وغير ذلك، فإن لفظ الآيات يعُم جميع هذا. و«الْبَلَاءُ» - في هذا الموضع -: الاختبار والامتحان، وهذا كما قال تعالى: ﴿وَتَبَيَّنُوا بِالْحَيْرِ وَالْحَيْرِ فَتَنَةً﴾، و«مُيَبِّتٌ» هنا بمعنى يبين.

ثم ذكر تعالى قريشاً وحكى عنهم - على جهة الإنكار لقولهم حين أنكروا فيه ما هو جازئ في العقل - فقال تعالى: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَيَقُولُونَ ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتُنَا الْأُولَىٰ﴾، أي: ما آخر أمرنا ومُنْتَهَىٰ وجودنا إلا عند موتنا، ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ﴾ أي: بمبعوثين، يقال: أنشَرَ الله الميت فَنَشَرَهُ. وقول قريش: ﴿فَأَتَا بِبَابِنَا﴾ مخاطبة للنبي ﷺ، إلا أنه من حيث كان النبي ﷺ مسنداً في أقواله وأفعاله إلى الله تعالى وبواسطة ملك خاطبوه كما تخاطب الجماعة وهم يريدونه ربّه تعالى وملائكته، واستدعى الكفار في هذه الآية أن يحيي لهم بعض آياتهم - وسَمُّوا قُصِيًّا - لكي يسألوهم عما رأوا في آخرتهم، ولم يستقص في هذه الآية الرُّدُّ عليهم لبيانه وإثباته في غير ما آية من كتاب الله تعالى، فإن الله تعالى قد جزم البعث من القبور في أجل مسمى لا يتعداه أحد، وقد بيئت الأمثلة من الأرض الميتة وحال النبات أمر البعث من القبور.



تكون ﴿مَنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ رَجِمَ﴾ في موضع نصب على الاستثناء المتصل، وإن كان الضمير يراد به الكفار فالاستثناء منقطع، ويصح أن يكون في موضع رفع على الابتداء والخبر مقدر، تقديره: فإنه يغني بعضهم عن بعض بالشفاعة ونحوها، أو يكون تقديره: فإن الله ينصره.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَةَ الزُّقُوفِ طَعَامٌ الْأَثِيرِ﴾، روي عن ابن زيد أن ﴿الْأَثِيرِ﴾

المشار إليه هو أبو جهل، ثم هي - بالمعنى - تتناول كل أئيم وكل تاجر يكتسب الإثم، وروي عن همام أن أبا الدرداء أقرأ أعرابياً فكان يقول: «طعام اليتيم»، فردّ عليه أبو الدرداء مراراً فلم يُلْتَمَسْ، فقال له: طعام الفاجر، فقرئت كذلك، وإنما هي على التفسير، وهي الشجرة الملعونة في القرآن، وهي تنبت في أصل الجحيم، وروي أن أبا جهل قال لما نزلت هذه الآية وأشار الناس بها إليه صنع عجوة بزُبد ثم دعا إليها ناساً فقال لهم: تزقّموا فإن الزقوم هو عجوة يُثْرَدُ بالزبد وهو طعامي الذي حدّث به محمد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وإنما قصد بذلك ضرباً من المغالطة والتلبيس على الجهلة.

٣٧ - ٣٨ - تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿أَهْمَ حَيْرٌ أَمْ قَوْمٌ تُبِعَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ تقرير فيه وعيد، وتبّع ملك جعفري، وكان يقال لكل ملك فيه: تبّع، إلا أن المشار إليه في هذه الآية رجل صالح من الثّابغة، قال كعب الأحبار: ذمّ الله تعالى قومه ولم يذمّه، ونهى العلماء عن سبّه، وروي عن النبي ﷺ من طريق سهل بن سعد أن تبّعاً هذا أسلم وآمن بالله تعالى، وروي أن ذلك كان على يد أهل كتاب كانوا بحضرته، وقال ابن عباس رضي الله عنهم: كان تبّع نبياً، وروي أبو هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «ما أدري أكان تبّع نبياً أو غير نبى»، وقال ابن جبير رضي الله عنه: هو الذي كسا الكعبة، وقد ذكره ابن إسحق في السيرة، والله أعلم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُجْرِمُونَ﴾ يريد: بالكفر، وقرأت فرقة: ﴿أَنَّهُمْ﴾ بفتح الألف، وقرأ الجمهور بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَكِيَّ وَالْأَرْضَ﴾ الآية... إخبار فيه تنبيه وتحذير، وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ يريد: بالواجب المفضي إلى الخيرات وفيض الهبات. و﴿يَوْمَ الْفُضْلِ﴾ هو يوم القيامة، وهذا هو الإخبار بالبعث، وهو أمر جورّه العقل وأنبته الشّرع بهذه الآية وغيرها، و«المولى» في هذه الآية يعنّى جميع الموالى من القرابات وموالي العتق وموالي الصّداقة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا هُمْ يُصْرُونَ﴾ إن كان الضمير يراد به العالم فيصح أن

٣٩ - ٤٠ - تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم: «المُهْل»: دودي الزيت وعكروه، وقال ابن مسعود، وابن عباس أيضاً رضي الله عنهم: المُهْل: ما ذاب من ذهب أو فضة أو حديد أو رصاص ونحوه، قال الحسن: كان ابن مسعود على بيت المال لعمر رضي الله عنه بالكوفة، فأذاب يوماً فضةً مكسرة، فلما انماعت قال: يدخل من الباب، فدخلوا فقال لهم: هذا أشبه ما رأينا في الدنيا بالمُهْل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمعنى أن هذه الشجرة إذا طعمها الكافر في جهنم صارت في جوفه تفعل كما يفعل المُهْل السخن من الإحراق والفساد، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وعاصم

في رواية أبي بكر: ﴿تَغْلِي﴾ بالثاء، أي: الشجرة، وهي قراءة عمرو بن ميمون، وأبي رزين، والحسن، والأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وطلحة. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وعاصم في رواية حفص: ﴿يَغْلِي﴾ بالياء على معنى الطعام، وهي قراءة مجاهد، والحسن - بخلاف عنه - و﴿الْيَمِينِ﴾: الماء السخن الذي يتطاير من غليانه.

وقوله تعالى: ﴿حَذُوهُ فَاعْتَلُوهُ﴾ الآية - معناه: يقال يومئذ للملائكة عن هذا الأئيم: خذوه فاعتلوه، و﴿الْعُتْلُ﴾: السُّوقُ بمنف وإهانة ودفع قوي متصل، كما يساق أبدأ مرتكب الجرائم، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿فَاعْتَلُوهُ﴾ بضم التاء، والباقون بكسرها، وقد روي الضم عن أبي عمرو، وكذلك روي الوجهان عن الحسن، وقتادة، والأعرج، و﴿السَّوَاءُ﴾: الوسط، وقيل: الْمُعْظَمُ، وذلك متلازم، الْمُعْظَمُ أبدأ من مثل هذا إنما هو في الوسط، وفي الآية ما يقتضي أن الكافر يُصَبُّ على رأسه من حميم جهنم، وهو ما يغلي فيها من دُؤب، وهذا كما في قوله تعالى: ﴿يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ﴾، وإلى هذا نظر بعض ولاية المدينة، فإنه كان يصب الخمر على رأس الذي شربها أو توجد عنده عقوبة له وأدباً، ذكر ذلك ابن حبيب في الواضحة.

وقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ ﴿مُخَاطَبَةٌ عَلَى مَعْنَى التَّعْرِيفِ، وَيُرْوَى عَنْ قَتَادَةَ أَنَّ

أبا جهل لما نزلت ﴿إِنَّكَ سَجَرَةٌ الرَّفِيقُ﴾ ﴿طَلَمًا الْأَثِيمُ﴾: ﴿أَيْتَهُذُنِي مُحَمَّدٌ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - وَأَنَا مَا بَيْنَ جَبَلَيْهَا أَعَزُّ مِنْي وَلَا أَكْرَمُ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ وَفِي آخِرِهَا ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾، أي: على قولك، وهذا كما قال جرير:

أَلَمْ يَكُنْ - فِي رُؤُوسِ قَدْ وَصَفَتْ بِهَا
مَنْ حَانَ - مَوْعِظَةٌ يَا زَهْرَةَ الْيَمِينِ؟
يَقُولُهَا لِلشَّاعِرِ الَّذِي سَمَى نَفْسَهُ بِهِ،
وَذَلِكَ فِي قَوْلِهِ:

أَبْلِغْ كَلْبِيًّا وَأَبْلِغْ عُنْكَ شَاعِرًا
أَنْبِي الْأَعْرُ وَالْأَنْبِي زَهْرَةَ الْيَمِينِ
فَجَاءَ بَيْتَ جَرِيرٍ عَلَى جِهَةِ الْهُزُوِّ.
وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿إِنَّكَ﴾ بِكَسْرِ
الْأَلْفِ، وَقَرَأَ الْكَسَائِيُّ وَحْدَهُ:
﴿أَنَّكَ﴾ بِفَتْحِ الْأَلْفِ، وَالْمَعْنَى وَاحِدٌ
فِي الْمَقْصِدِ وَإِنْ اخْتَلَفَ الْمَأْخُذُ إِلَيْهِ،
وَبَفَتْحِ الْأَلْفِ قَرَأَهَا عَلَى الْمَنْبَرِ
الْحَسَنِ بْنِ عَلِيٍّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أَسْنَدَهَا إِلَيْهِ
الْكَسَائِيُّ وَاتَّبَعَهُ فِيهَا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا مَا كُنْتُمْ بِهِ
تَسْتَوُونَ﴾ ﴿عِبَارَةٌ عَنْ قَوْلٍ يُقَالُ
لِلْكَافِرِ عِنْدَ عَذَابِهِمْ، أَيْ: هَذِهِ
الْآخِرَةُ وَجَهَنَّمُ الَّتِي كُنْتُمْ تَشْكُونَ
فِيهَا.

ثم ذكر تعالى حالة الْمُتَّقِينَ بعقب
ذكر حالة الْكُفَّارِ لِيُبَيِّنَ الْفَرْقَ، وَقَرَأَ
نَافِعٌ، وَابْنُ عَامِرٍ: ﴿فِي مَقَامِ أَمِينٍ﴾
بِضْمِ الْمِيمِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي جَعْفَرٍ،
وَشَيْبَةَ، وَقَتَادَةَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ
الْخَطَّابِ، وَالْحَسَنِ، وَالْأَعْرَجِ، وَقَرَأَ
الْبَاقُونَ: ﴿فِي مَقَامِ أَمِينٍ﴾ بِفَتْحِ
الْمِيمِ، وَهِيَ قِرَاءَةُ أَبِي رَجَاءٍ،

وعيسى، ويحيى، والأعمش، و﴿أَمِينٍ﴾ معناه: تؤمن فيه الْغَيْرِ، فكأنه فعيل بمعنى مفعول، أي: مأمون فيه، وكسر عاصم العيين من ﴿وَعِيُوبٍ﴾، قال أبو حاتم: وذلك مردود عند العلماء، ومثله: ثِيُوبُخٌ وبيُوتٌ بكسر الشين والباء. و﴿السُّنْدُسُ﴾: رقيق الحرير، و﴿الْإِسْتَبْرَقُ﴾: خشيته، وقرأ ابن محيصن: ﴿وَأَسْتَبْرَقُ﴾ بالوصل وفتح القاف، وقوله: ﴿مُتَّقِيلَاتٍ﴾ وصف لمجالس أهل الجنة؛ لأن بعضهم لا يستدبر بعضاً في المجالس.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ وَرَوَّعْتَهُمْ﴾ تقديره: الأمر كذلك، وقرأ الجمهور: ﴿عِينٍ﴾، وهو جمع عَيْنَاءَ، وقرأ ابن مسعود: ﴿بِعِيسٍ عِينٍ﴾، وهو جمع عَيْسَاءَ، أي: بيضاء، وكذلك هي من النوق، وقرأ عكرمة: ﴿بِحُورٍ﴾ بغير تنوين في [حور]، وأضافها إلى [عِينٍ]، قال أبو الفتح: الإضافة هنا تفيد ما تفيد الصفة، وروى أبو قزصافة عن النبي ﷺ أنه قال: «إخراج القمامة من المسجد من مهور الحور العين»، وقوله تعالى: ﴿يَتَّبِعُونَ فِيهَا﴾ معناه: يدعون الخدمة والمتصرفين.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَى﴾، قَدَّرَ قَوْمٌ ﴿إِلَّا﴾ بِـ «يسوى»، وضَعَفَ ذَلِكَ الطَّبْرِيُّ وَقَدَّرَهَا بِـ «بَعْدَ»، وَلَيْسَ تَضْعِيفُهُ بِصَحِيحٍ، بَلْ يَصِحُّ الْمَعْنَى بِسُورَى وَيُسْقَى، وَأَمَّا مَعْنَى الْآيَةِ فَبَيِّنٌ أَنَّهُ تَعَالَى نَفَى عَنْهُمْ ذُوقَ الْمَوْتِ، وَأَنَّهُ لَا يَنَالُهُمْ مِنْ ذَلِكَ غَيْرَ مَا تَقَدَّمَ فِي الدُّنْيَا.

[آيات] الثاني؛ لأن الأول قبله حرف الجرّ ظاهر، وفي قراءة أبي بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما في الثلاثة المواضع: «الآيات»، قال أبو علي: وهذا يدل على أن الكلام محمول على [إن] في قراءة من أسقط اللامات في الآيتين الأخيرتين.

وأما من رفع ﴿بِئْسَ﴾ في الموضعين فوجه العطف على موضع [إن] وما عملت فيه لأن موضعها رفع بالابتداء، ووجه آخر وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿وَقِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُتُّ مِنْ نَفْسٍ مُسْتَأْنَفًا﴾ ويكون الكلام جملة معطوفة على جملة، وقال بعض الناس: يجوز أن يكون جملة في موضع الحال فلا تكون غريبة على هذا.

و «اختلاف الليل والنهار» إمّا بالثور والظلام وإمّا بكونهما خلفه، و«الرّزق المُنزّل من السماء» هو المطر، سماه رزقاً بآله لأن جميع ما يُرتزق فَعَن المطر هو، و«تصريف الرياح» هو بكونها صَباً ودبوراً وجنوباً وشمالاً، وأيضاً بكونها مرة رحمةً ومرة عذاباً، قاله قتادة، وأيضاً بليتها وشدتها وحزها وبردها. وقرأ طلحة وعيسى: ﴿وَصَرِيحٍ أَلْرِيحِ﴾ بالإفراد، وكذلك في جميع القرآن إلا ما كان فيه مبشرات، وخالف عيسى في الجحجر فقرأ: ﴿أَلْرِيحِخِ﴾ لَوَاقِحِ.

وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ﴾ إشارة إلى ما ذكر، وقوله: ﴿تَتْلُوهَا﴾ فيه حذف مضاف، أي: نتلوا شأنها وتفسيرها وشرح العبرة

بها، ويحتمل أن يريد بـ «آيات الله» القرآن المُنزّل في هذه المعاني، فلا يكون في ﴿تَتْلُوهَا﴾ حذف مضاف. وقوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بالصدق والإعلام بحقائق الأمور في أنفسها. وقوله: ﴿فِي أَيِّ حَيْثُ﴾ الآية... توبيخ وتقرع، وفيه قوة التهديد.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وعاصم، وأبو عمرو، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وقتادة: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ بالياء من تحت، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، وعاصم أيضاً، والأعمش: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالياء على مخاطبة الكفار، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ بالياء من فوق، من اليقين.

﴿٧﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: «الْوَيْلُ» في كلام العرب: المصائب والحزن والهَمُّ والشُدَّة من هذه المعاني، وهي لفظة تستعمل في الدعاء على الإنسان، وزوي في بعض الآثار أن في جهنم وادياً اسمه وَيْلٌ، وذهب الطبري إلى أن المراد بالآية ومقتضى اللُغَة أنه الدعاء على أهل الإفك والإثم بالمعاني المتقدمة. و«الأفك»: الكذب الذي يقع منه الإفك مراراً. و«الأثيم»: بناء مبالغة، اسم فاعل من: إِثِمَ يَأْثِمُ.

وروي أن سبب هذه الآية أبو جهل، وقيل: النضر بن الحارث، والصواب أن سببها ما كان المذكوران - وغيرهما - يفعلان، وأنها تُعْمُ كل من دخل تحت الأوصاف المذكورة إلى يوم القيامة. و«يُبَيِّرُ» معناه: يثبت على عقيدته من الكفر، وقوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُ

بِعَذَابِ أَلِيمٍ﴾، حَسَنَ ذَلِكَ لَمَّا أَفْصَحَ عن العذاب، ولو كانت البشارة غير مُقَيَّدَة بشيء لما حملت إلا على المحاب.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ بفتح العين وتخفيف اللام، والمعنى: وإذا أخبر بشيء من آياتنا فعلم نفس الخبر لا المعنى الذي تضمنه الخبر، ولو علم المعاني التي تتضمنها أخبار الشرع وعرف حقائقها لكان مؤمناً، وقرأ قتادة، ومطرز الوزاق: ﴿وَإِذَا عَلِمَ﴾ بضم العين وتشديد اللام، وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ على لفظ ﴿لِكُلِّ آتَاكِ﴾ لأنه اسم جنس له الصفات المذكورة بَعْدُ.

وقوله تعالى: ﴿يَنْ وَرَأَيْهِمْ جَهَنَّمَ﴾ قال فيه بعض المفسرين: معناه: من أمامهم، وهذا كالخلاف الذي في قوله تعالى: ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ﴾، ولحظ قائل هذه المقالة الأمر من حيث تأوّل أن الإنسان كأنه من عمره يسير إلى جنة أو نار، فهما أمامه، وليس لفظ «الوراء» في اللغة كذلك، وإنما هو ما يأتي خلف الإنسان، وإذا اعتبر الأمر بالتقدم والتأخر في الوجود على أن الزمان كالطريق للأشياء استقام الأمر، فما يأتي بعد الشيء في الزمان فهو وراءه، فكان الملك وأخذه السفينة وراء ركوب أولئك إيّاها، وجهنم وإحراقها للكفار يأتي بعد كفرهم وأفعالهم، وهذا كما تقول: افعل كذا وأنا من ورائك عضداً، أو كما تقول ذلك على التهديد: أنا من وراء التَّقْصِي عليك، ونحو هذا. وقوله تعالى:

ذكرنا من مخلوقات السماء وبين الملائكة وبين صناع بني آدم الموصلين إلى استدارة الرغيف. وتسخير ما في الأرض هو تسخير البهائم والمياه والأودية والجبال وغير ذلك.

ومعنى قوله تعالى: ﴿جِيماً بَيْنَهُ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل إنعام فهو من الله تعالى، وقرأ جمهور الناس: ﴿بَيْنَهُ﴾ وهو وقف جيد، وقرأ مسلماً بن مُحارب:

﴿مِئْتَةٌ﴾ بفتح الميم وشد النون المضمومة، بتقدير: هو مئة، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مِئْتَةٌ﴾ بكسر الميم وفتح النون المشددة ونصب التاء على المصدر، وقال أبو حاتم: سَنَدَ هذه القراءة إلى ابن عباس رضي الله عنهما مُظْلَمٌ، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس، وعبدالله بن عمر، والجدري، وعبدالله بن عبيد بن غَمَيْرٍ، وقرأ مسلماً بن مُحارب أيضاً: ﴿مِئْتَةٌ﴾ بكسر الميم وبالرفع في التاء.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآية نزلت في صدر الإسلام، أمر الله تعالى المؤمنين فيها أن يتجاوزوا عن الكفار، وألّا يعاقبهم بذنب، بل يأخذون أنفسهم بالصبر لهم، قاله محمد بن كعب القرظي، والسدي. قال أكثر الناس: هذه آية

﴿وَلَا مَا أَخَذُوا﴾ يعني بذلك الأوثان. وقوله تعالى: ﴿مَهْدًا مُدَى﴾ إشارة إلى القرآن، وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية حفص -: ﴿أَيْدٍ﴾ على النعت لـ ﴿عَذَابٍ﴾، وهي قراءة ابن محيصن، وابن مُطَرِّف وأهل مكة، وقرأ الباقون: ﴿أَلِيمٍ﴾ على النعت لـ ﴿يَجْزِي﴾، وهي قراءة الحسن، وأبي جعفر، وشيبة، وعيسى، والأعمش. و«الرُّجُز»: أشد العذاب، وقوله تبارك وتعالى: ﴿لَمَّ عَذَابٌ﴾ بمنزلة قولك: لهم حظ، فمن هذه الجهة ومن جهة تغاير اللفظتين حَسَنَ قوله تعالى: ﴿عَذَابٌ مِّنْ يَّجْزِي﴾ إذ الرُّجُز هو العذاب.

﴿١٢﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه آية عبرة في جريان السفن في البحر، وذلك أن الله تعالى سخر هذا المخلوق العظيم لهذا المخلوق الحقيق الضعيف، وقوله تعالى: ﴿بِأُتْرُجٍ﴾، أناب القدرة والإذن مناب أن يأمر البحر والناس بذلك، و«الابتغاء» من فضل الله تعالى هو بالتجارة في الأغلب، وكذلك مقاصد البر من حجّ وجهاد هي أيضاً ابتغاء فضل، والتصيد فيه أيضاً هو ابتغاء فضل.

و«تسخير ما في السموات» هو تسخير الشمس والقمر والنجوم والسحاب والرياح والهواء والملائكة الموكلة بهذه كلها، ويروى أن بعض الأخيار نزل به ضيف فقدم إليه رغيفاً، فكان الضيف احتقره، فقال له المضيف: لا تحتقره فإنه لم يستدر حتى سخر فيه من المخلوقات والملائكة ثلاثمائة وستون بين من

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْمًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٢﴾ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَلِنَفْسِهِ ۖ إِنَّمَا إِلَى رَبِّكَ تُرْجَعُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَوَدَّعْنَاهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ وَقَضَيْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤﴾ وَأَمَّا إِنِّي لَأَمْرٌ مُّخْتَلَفٌ لَّهُمْ إِنَّمَا يَخْتَلَفُ الْوَالِدِينَ وَالْأَسْرَىٰ ۚ وَمَا أَجَاءَهُمُ الْعِلْمُ بِنُفْسِهِمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۚ فَمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيحَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا لَن يَغْفُرَ عَنكَ مِن اللَّهِ شَيْئًا ۚ وَإِن الظَّالِمِينَ لَبَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَوَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴿١٧﴾ هَذَا بَصِيرَتِي لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مِّمَّا هُمْ وَمَا نُنزِّلُ سَاءَةً مَّا يَحْكُمُونَ ﴿١٩﴾ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ ۚ وَلِيُجْزِيَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ۖ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٠﴾

منسوخة بآية القتال، وقالت فرقة: الآية محكمة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والآية تتضمن الغفران عموماً، فينبغي أن يقال: إن الأمور العظام كالقتل والكفر مجاهرة ونحو ذلك قد نسخ غفرانه بآية السيف والجزية وما أحكمه الشرع لا محالة، وإن الأمور المحقرة كالجفاء في القول ونحو ذلك يحتمل أن تبقى محكمة وأن يكون العفو عنها أقرب إلى التقوى.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لما أنزلت ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَغْرِضُ اللَّهُ قَرْصًا حَسَنًا﴾ قال فنحاص اليهودي: احتاج رب محمد، تعالى الله عز وجل عن قوله، فأخذ عمر رضي الله عنه سيفه ومرّ ليقته، فردّه رسول الله ﷺ وقال له: «إِنَّ رَبَّكَ

يقول: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا﴾ الآية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا احتجاج بها مع قدم نزولها، وقد ذكر مكِّي وغيره أنها نزلت بمكة في عمر رضي الله عنه لما أراد أن يبطش بمشرك شتمه، وأما الجزم في قوله تعالى: ﴿يَغْفِرُوا﴾ فهو جواب شرط مقدر، وتقديره: قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا، فَإِنْ يَجِبُوا يَغْفِرُوا، وأخصر من هذا عندي أَنَّ ﴿قُلْ﴾ هي بمثابة: اندب المؤمنين إلى العفو.

وقوله تعالى: ﴿أَيَّامَ اللَّهِ﴾ قالت فرقة: معناه: أيام إنعامه ونصره وتنعيمه في الجنة وغير ذلك، ف ﴿يَرْجُونَ﴾ - على هذا - هو على بابه، وقال مجاهد: أيام الله تعالى هي أيام نعمه وعذابه، ف ﴿يَرْجُونَ﴾ - على هذا - هي التي تنتزل منزلة «يخافون»، وإنما تنزل منزلتها من حيث الرجاء والخوف متلازمان، لا نجد أحدهما إلا والآخر معه مقترن، وقد تقدّم شرح هذا غير مرة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿لِيُجْزَى﴾ بالياء على معنى: ليجزي الله، وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأعمش، وأبو عبد الرحمن، وابن وثاب: ﴿لِتُجْزَى﴾ بالنون، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع - بخلاف عنه -: ﴿لِيُجْزَى﴾ على بناء الفعل للمجهول ﴿قَوْمًا﴾، وهذا على أن يكون التقدير: لِيُجْزَى الجزاء قوماً، وباقى الآية وعيد.

١٥ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا تقرر في الآية التي قبل هذه

أن الله تعالى يجزي قوماً بكسبهم ويعاقبهم على ذنوبهم واجترامهم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلِنَفْسِهِ﴾ هي لام الحفظ، لأن الحفظ والمحاب إنما تستعمل فيها اللام التي هي كَلَامُ الْمَلِكِ، تقول: «الأمور لي ولزيد مُتَأْتِيَةً»، ويستعمل في ضد ذلك «عَلَى»، فتقول: «الأمور على فلان مُسْتَعَصِيَةً»، وتقول: «لَزَيْدٍ مَالٌ وَعَلَيْهِ ذَنْبٌ»، وكذلك جاء العمل الصالح في هذه باللّام والإساءة يعلّى، وقوله سبحانه: ﴿ثُمَّ إِنَّكَ إِلَ رَبِّكُمْ تُرْضَعُونَ﴾ معناه: إلى قضائه وحكمه.

والكتاب في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ﴾ هو الثوراء، والحكم هو السنة والفقه، فيقال: إنه لم يتسع فقه الأحكام على لسان نبي ما اتسع على لسان موسى عليه السلام، والثبوة هي ما تكرر فيهم من الأنبياء عليهم السلام. وقوله تعالى: ﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ اللَّطِيبَاتِ﴾ يعني من المستلذات الحلال، وبهذا تتم النعمة ويحسن تعديدها، وهذه إشارة إلى المن والسلوى وطيبات الشّام بفساد؛ إذ هي الأرض المباركة، وقد تقدّم القول في معنى الطيبات وتلخيص قول مالك والشافعي في ذلك. وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْكَلْبَاتِ﴾ يريد: على عالم زمانهم.

و «البيئات من الأمر» هي الوحي الذي فصلت لهم به الأمور، ثم بين

تعالى خطأهم وعظّمه بقوله تعالى: ﴿فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْآيَةُ بَعِيًا بَيْنَهُمْ﴾، وذلك أنهم لو اختلفوا اجتهاداً في طلب الصواب لكان لهم عذر في الاختلاف، وإنما اختلفوا بغياً بينهم وهم قد تبيّنوا الحقائق، ثم توعدهم تعالى بوقف أمرهم على قضائه بينهم يوم القيامة.

١٦ - ١٧ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ثم جعلناك على شريعة فلا محالة أنه سيختلف عليك كما تقدّم لبني إسرائيل، فاتبع شريعتك، والشريعة في كلام العرب الموضوع الذي يرد فيه الشّاس في الأنهار والمياه، ومنه قول الشاعر:

وفي الشرائع من جيلان مقتنص
رث الثياب حفي الشخص منسرب
فشريعة الدين من ذلك، كأنها من حيث يرد الشّاس أمر الله ورحمته والقرب منه، وقال قتادة: الشرائع: الفرائض والحدود والأمر والنهي. وقوله تعالى: ﴿مِنَ الْأَمْرِ﴾ يحتمل أن يكون واحد الأمور، أي: من دين الله تعالى وتبواته التي بثها في سالف الزمان، ويحتمل أن يكون مصدرًا من أمر يأمر، أي: على شريعة من الأوامر والشّاهي فسمى الله تعالى جميع ذلك أمراً، والذين لا يعلمون هم الكفار الذين كانوا يريدون صرف محمد ﷺ إلى إرادتهم.

و «يؤمنوا» من الغناء، أي: لن يكون لهم عنك دفاع، ثم حفر

تعالى شأن الظالمين مشيراً بذلك إلى كُفَّار قريش، ووجه التحقير أنه تبارك وتعالى قال: وهؤلاء يتولى بعضهم بعضاً، والمتقون يتولاهم الله تعالى، فخرجوا عن ولاية الله تعالى وتبرأت منهم، ووكل الله تعالى بعضهم إلى بعض.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا بَصِيرٌ لِلنَّاسِ﴾ يريد القرآن، و«البصائر» جمع بصيرة، وهي المعتقد الوثيق في الشيء، كأنه مصدر من إبصار القلب، فالقرآن فيه بينات ينبغي أن تكون بصائر، و«البصيرة» في كلام العرب: الطريقة من الدَّم، ومنه قول الشاعر:

رَأَوْا بِبَصَائِرِهِمْ عَلَى أَكْثَافِهِمْ
وَبَصِيرَتِي يَغْدُو بِهَا عَتْدٌ وَأَيُّ
وَفَسَّرَ النَّاسُ هَذَا الْبَيْتَ بِطَرِيقَةِ
الدَّمِّ؛ إِذَا كَانَتْ عَادَةً طَالِبِ الدَّمِّ
عِنْدَهُمْ أَنْ يَجْعَلَ طَرِيقَةَ مَنْ دَمٍ
خَلْفَ ظَهْرِهِ لِيُعْلَمَ بِذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ
يُدْرِكْ ثَأْرَهُ وَأَنْ يَطْلِبَهُ، [ويظهر فيه
أنه يريد بصيرة القلب. أي: قد
أطرح هؤلاء بصائرهم وراء
ظهورهم].

وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ الآية قول يقتضي أنه نزل بسبب افتخار كان للكفار على المؤمنين، قالوا: «لئن كانت آخرة كما تزعمون لَنُفَضِّلَنَّ فِيهَا عَلَيْكُمْ كَمَا فَضَّلْنَا فِي الدُّنْيَا». و«أَمْ» هذه ليست بمعادلة، وهي بمعنى «بل» مع ألف الاستفهام، و«أَجْرَحُوا» معناه: اكتسبوا، ومنه جوارح الإنسان

وجوارح الصَّيْد، وتقول العرب: «فلان جارحة أهله» أي: كاسبهم. وقرأ أكثر القراء: ﴿سَوَاءٌ بِالرَّفْعِ تَجِيهَةٌ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالرفع، وهذا على أن ﴿سَوَاءٌ﴾ رفع بالابتداء، و﴿مَخْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾ خبره، و﴿كَالَّذِينَ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ «تَجَعَّلَ» وهذا على أحد معنيين، إما أن يكون الضمير في ﴿تَجِيهَةٌ﴾ يختص بالكفار المجترحين، فتكون الجملة خبراً عن أن حالهم في الزمنين حال سوء، والمعنى الثاني أن يكون الضمير في ﴿تَجِيهَةٌ﴾ يعمُ الفريقين، والمعنى أن مخيأ هؤلاء ومماتهم سواء، وهو كريم، ومخيأ هؤلاء ومماتهم سواء، وهو غير كريم، ويكون اللفظ قد لَفَّ هذا المعنى وذهنُ السامع يُفْرِّقه؛ إذ قد تقدّم إبعاد أن يجعل الله تعالى هؤلاء كهؤلاء، قال مجاهد: والمؤمن يموت مؤمناً ويُبعث مؤمناً، والكافر يموت كافراً ويُبعث كافراً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: مقتضى هذا الكلام أن لفظ الآية خبر، ويظهر لي أن قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ تَجِيهَةٌ وَمَمَاتُهُمْ﴾ داخل في المحسبة المُنكَرَة السيئة، وهذا احتمال حسن، والأول أيضاً جيد. وقرأ طلحة، وعيسى - بخلاف عنه - ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب ﴿تَجِيهَةٌ وَمَمَاتُهُمْ﴾ بالرفع، وهذا يحتمل وجهين: أحدهما أن يكون قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ﴾ في موضع المفعول الثاني لـ «تَجَعَّلَ» كما هو في قراءة الرفع،

وينصب قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾ على الحال من الضمير في ﴿تَجَعَّلَهُمْ﴾، والوجه الثاني أن يكون قوله تعالى: ﴿كَالَّذِينَ﴾ في نيّة التأخير، ويكون قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ﴾ مفعولاً ثانياً لـ «تَجَعَّلَ»، وعلى كلا الوجهين: ﴿تَجِيهَةٌ وَمَمَاتُهُمْ﴾ مرتفع به ﴿سَوَاءٌ﴾ على أنه فاعل، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعمش: ﴿سَوَاءٌ﴾ بالنصب، وذلك على الظرف، أو على أن يكون [مَخْيَاهُمْ] بدلاً من الضمير في [تَجَعَّلَهُمْ]، أي: نجعل محياهم ومماتهم سواء، وهذه الآية متناولة بلفظها حال العصاة من حال أهل التقوى، وهي موقف للعارفين ويكون عنده، وروي عن الربيع بن خيثم أنه كان يردد لها ليلة جمعة، وكذلك عن الفضيل بن عياض، وكان يقول لنفسه: ليت شعري من أي الفريقين أنت؟ وقال الثعلبي: كانت هذه الآية تسمي مبكى العابدين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأما لفظها فيعطي أنه اجتراح الكفر بدليل معادلته بالإيمان، ويحتمل أن تكون المعادلة بين الاجتراح وعمل الصالحات ويكون الإيمان في الفريقين، ولهذا بكى الخائفون رضي الله عنهم، وأمّا مفعولاً ﴿حَسِبَ﴾ فقوله تعالى: ﴿أَنْ تَجَعَّلَهُمْ﴾ يسد مسد المفعولين. وقوله تعالى: ﴿سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [مأ] مصدرية، والتقدير: ساء الحكم حكْمُهُم.

وكذلك هي في مصحف ابن مسعود مخففة، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه ﴿أَفْرَبْتَ﴾ دون همز، وهذه الآية تسلية لمحمد ﷺ عن الكفار المعرضين عن الإيمان، أي: لا تحفل بهم ولا تهتم بأمرهم، فليس فيهم حيلة لبشر لأن الله أضلهم، قال ابن جبير: ﴿إِلَهُهُ هُونُهُ﴾ إشارة إلى الأصنام؛ إذ كانوا يعبدون ما يهزون من الحجارة، وقال قتادة: المعنى: لا يهوى شيئاً إلا ركه لا يخاف الله تعالى،

وهذا كما يقال: الهوى إله معبود، وقرأ الأعرج، وابن جبير: ﴿إِلَهَةٌ هَوَاهُ﴾ على التأنيث في «إِلَهَةٌ»، وهذه الآية وإن كانت نزلت في هوى الكفر فهي متناولة جميع هوى النفس الأمارة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ما ذكر الله تعالى هوى إلا دمة، وقال الشعبي: سُمي هوى لِهَوِيهِ بصاحبه، وقال النبي ﷺ: «والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله»، وقال سهل التستري: «هواك داؤك، فإن خالفته فداؤوك»، وقال وهب: «إذا شككت في خير أمرين فانظر أبعدهما من هواك فاته»، ومن حكمة الشعر في هذا قول القائل:

إِذَا أَنْتَ لَمْ تَغْضِ الْهَوَى فَاذْكَ الْهَوَى
إِلَى كُلِّ مَا فِيهِ عَلَيْكَ مَقَالُ

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: على علم من الله سابق، وقالت فرقة: أي: على علم من هذا الضلال فإن الحق هو الذي يترك ويعرض عنه، فتكون الآية - على هذا التأويل - من آيات العناد، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَدُوا بِهَا أَسَافَةً أَنفُسِهِمْ﴾، على كلا التأويلين، فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْمَ عَلَىٰ سَيِّئِهِ وَآلِيهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَةَ﴾ استعارات كلها؛ إذ هذا الضال لا ينفعه ما يسمع ولا ما يفهم ولا ما يرى، فكأنه بهذه الأوصاف المذكورة، وهذه الآية لا حجة للجبرية فيها لأن التكبُّب فيها منصوص عليه في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَلَيْهِ﴾ على التأويل الأخير فيه، ولو لم ينص على الاكتساب لكان مراداً في المعنى، وقرأ أكثر القراء: ﴿عَشْرَةَ﴾ بكسر الغين، وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿عَشَاوَةً﴾ بفتح الغين، وهي لغة ربيعة، وحكي عن الحسن وعكرمة عكل، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿عَشْوَةً﴾ بفتح الغين وإسكان الشين، وقرأ الأعمش، وابن مصرف: ﴿عَشْوَةً﴾ بكسر الغين دون ألف. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: من بعد إضلال الله تعالى إياه، وقرأ عاصم - وأزاه الجحدري - : ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَلَيْهِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: على علم من الله سابق، وقالت فرقة: أي: على علم من هذا الضلال فإن الحق هو الذي يترك ويعرض عنه، فتكون الآية - على هذا التأويل - من آيات العناد، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَدُوا بِهَا أَسَافَةً أَنفُسِهِمْ﴾، على كلا التأويلين، فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَلَيْهِ﴾ حال.

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْمَ عَلَىٰ سَيِّئِهِ وَآلِيهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَةَ﴾ استعارات كلها؛ إذ هذا الضال لا ينفعه ما يسمع ولا ما يفهم ولا ما يرى، فكأنه بهذه الأوصاف المذكورة، وهذه الآية لا حجة للجبرية فيها لأن التكبُّب فيها منصوص عليه في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَلَيْهِ﴾ على التأويل الأخير فيه، ولو لم ينص على الاكتساب لكان مراداً في المعنى، وقرأ أكثر القراء: ﴿عَشْرَةَ﴾ بكسر الغين، وقرأ عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿عَشَاوَةً﴾ بفتح الغين، وهي لغة ربيعة، وحكي عن الحسن وعكرمة عكل، وقرأ حمزة، والكسائي: ﴿عَشْوَةً﴾ بفتح الغين وإسكان الشين، وقرأ الأعمش، وابن مصرف: ﴿عَشْوَةً﴾ بكسر الغين دون ألف. وقوله تعالى: ﴿مِنْ بَعْدِ اللَّهِ﴾ فيه حذف مضاف تقديره: من بعد إضلال الله تعالى إياه، وقرأ عاصم - وأزاه الجحدري - : ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتخفيف الذال، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ على

وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عَلَيْهِ﴾ قال ابن

أَفْرَبْتَ مِنْ أَتَعَدَّ إِلَهُهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَنَحْمَ عَلَىٰ سَيِّئِهِ وَآلِيهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ عَشْرَةَ فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٢﴾ هُوَ قَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَائِلَاتُ الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُبَدِّلُ كَلِمَاتِنَا إِلَّا اللَّهُ هُوَ وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا نَزَلَ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بِبَيِّنَاتٍ مَا كَانُوا حُجَّتَهُمْ إِلَّا قَالُوا اتُّوَاجِلُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ كَمَا كُنْتُمْ تُصَدِّقُونَ ﴿٢٤﴾ قُلِ اللَّهُ يُجَسِّمُكُمْ ثُمَّ يُغَيِّرُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَبَّ لَدَيْهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ وَاللَّهُ مَالِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ نَقُومُ السَّاعَةَ يَوْمَ مَبْعَسُهُمُ الْمُتَبَلِّغُونَ ﴿٢٦﴾ وَرَبِّي كُلِّ أُمَّةٍ جَاثِيَةٌ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰ إِلَىٰ كِتَابِهَا الْيَوْمَ نَحْزُنُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ هَذَا كِتَابُنَا يُنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنْ كُنَّا كُنْتُمْ نَسْتَسِيخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ ﴿٢٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ أَتَىٰ عَلَيْكَ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْمًا تُجْرِمُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ وَعَدُّوا لِلْحَقِّ وَالسَّاعَةَ لَا رَبَّ لَدَيْهِمْ قَالُوا مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْمِ بِمُسْتَسْقِينَ ﴿٣١﴾

المعنى: وخلق الله السموات والأرض، فإن خلقها حق واجب متأكد في نفسه لما فيه من فيض الخيرات، ولتدل عليه تعالى، ولتكون صنعة حاكمة بصانع، وقيل لبعض الحكماء: لم خلق الله السموات والأرض؟ فقال: ليظهر جودة صنعه، واللام في قوله سبحانه: ﴿وَلَيَجْزِيَنَّ﴾ يظهر أن تكون لام كي، فكأن الجزء من أسباب خلق السموات والأرض، ويحتمل أن تكون لام الصيرورة، أي: وصار الأمر فيها من حيث اهتدى بها قوم وضل عنها آخرون لأن يجازى كل أحد بعمله وبما اكتسب من خير أو شر.

وقوله تعالى: ﴿أَفْرَبْتَ﴾، سهل بعض القراء الهمزة وحققها قوم،

الخطاب أيضاً بتشديد الذال، وقرأ الأعمش: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بتاءين.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ الآية. حكاية مقالة بعض قريش، وهذه صيغة دهرية من كَفَّار العرب، ومعنى قولهم: ما في الوجود إلا هذه الحياة التي نحن فيها وليست ثمَّ آخِرَةٌ ولا بَعَثٌ.

واختلف المفسرون في معنى قولهم: ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ - فقالت فرقة: المعنى: نحن موتى قبل أن نوجد ثم نحيا في وقت وجودنا.

وقالت فرقة: المعنى: نموت حين نحن نطفٌ ودمٌ ثم نحيا بالأرواح فينا، وهذا قول قريب من الأول، ويسقط على القولين ذكر الموت المعروف الذي هو خروج الروح من الجسد، وهو الأهم في الذكر، وقالت فرقة: المعنى: نحيا ونموت، فوقع في اللفظ تقديم وتأخير، وقالت فرقة: الغرض من اللفظ العبارة عن حال النوع، فكأن النوع بجملته يقول: إنما نحن نموت طائفة وتحيا طائفة دأباً.

وقولهم: ﴿وَمَا يَبْكَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: طول الزمان، وهو المهلك لأن الأوقات تستوي فيه كمالاتها، فنفى الله تعالى عنهم علمهم بهذا، وأعلم أنها ظنون منهم وتخرض يفضي بهم إلى الإشراك بالله تعالى، والدَّهْرُ والزَّمان تستعملهما العرب بمعنى واحد، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿وما يهلكنا إلا دهر يمرُّ﴾، وقال مجاهد: الدَّهْرُ هنا الزَّمان، وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه

قال: «كان أهل الجاهلية يقولون: إنما يهلكنا الليل والنهار».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويفارق هذا الاستعمال قولُ النبي ﷺ: «لا تُسَبِّوا الدَّهْرَ فإن الله تعالى هو الدَّهْرُ»، وفي حديث آخر: «قال الله تعالى: يسبُّ ابن آدم الدَّهْرَ وأنا الدَّهْرُ بيدي الليل والنَّهار»، ومعنى هذا الحديث: فإنَّ الله تعالى هو الذي يفعل ما تنسبونه إلى الدَّهْر وتُسبِّونه بسببه، وإذا تؤملت أمثلة هذا الكلام ظهرت إن شاء الله تعالى.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ: الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائذ على كفَّار قريش، و«الآيات» هي آيات القرآن وحروفه بقرينة قوله تعالى: ﴿تُنْتَلَى﴾، وعابث هذه الآية سوء مقاتلتهم، وأنهم جعلوا بدل الحجة التمني المتششط والطلب لما قد حتم الله تعالى ألا يكون إلا إلى أجل مُسمى.

وقرأ الحسن، وعمرو بن عبَّيد، وابن عامر - فيما روي عنه عبد الحميد - وعاصم - فيما روي هارون وحسَّين عن أبي بكر عنه: ﴿حُجَّتْهُمْ﴾ بالرفع على اسم [كان] والخبر في [أن]، وقرأ جمهور الناس: ﴿حُجَّتْهُمْ﴾ بالنصب على خبر مُقدَّم واسم كان في [أن].

وكان بعض قريش قد قال: اخي لنا قُصِيًّا - فإنه كان شيخ صدق - حتى نسأله، إلى غير ذلك من هذا النحو، فنزلت الآية في ذلك، وقيل لمحمد ﷺ: ﴿انْتُوا﴾ من حيث المخاطبة له والمراد هو وإلهه

والمَلَك الوسيط الذي ذكر هو لهم، فجاء من ذلك جملة قيل لها: ﴿انْتُوا﴾ و﴿إن كُنتُمْ﴾.

ثم أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يخبرهم بالحال السابقة في علم الله تعالى التي لا تُبدل، وهي أنه يحيي الخلق ويميتهم بعد ذلك ويحشرهم بعد إيمانهم إلى يوم القيامة، وقوله سبحانه: ﴿لَا رَبَّ فِيهِ﴾ أي: في نفسه وذاته، و«الأكثر» الذي لا يعمر هم الكفار، و«الأكثر»: هنا على بابه.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّوْمُ نَفُوْمُ النَّاعَةِ﴾ قالت فرقة: العامل في [يَوْم] قوله تعالى: ﴿يَحْتَسِرُ﴾، وجاء قوله تعالى: ﴿يَوْمِيذٍ﴾ بدلاً مؤكداً، وقالت فرقة: العامل في [يَوْم] فعل يدل عليه المُلْك، وذلك أن يوم القيامة حال ثالثة ليست بالسماء ولا بالأرض لأن ذلك يتبدل، فكأنه تعالى قال: والله مُلْك السموات والأرض والملك يوم القيامة، وينفرد ﴿يَحْتَسِرُ﴾ بالعمل في قوله تعالى: ﴿يَوْمِيذٍ﴾، و«المُطَّلُونُ»: الداخلون في الباطل.

وقوله تعالى: ﴿وَرَوَى كُلُّ امْتَرٍ حَابِيَةً﴾ وصف حال القيامة وهولها، و«الأمَّة»: الجماعة العظيمة من الناس التي قد جمعها معنى أو وصف شامل لها، وقال مجاهد: الأمَّة: الواحد من الناس.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قلبٌ في اللُغَة، وإن قيل في إبراهيم ﷺ: أمَّة، وقالها النبي ﷺ في قُتُس بن ساعدة، فذلك تجوز على جهة التَّشريف والتَّشبيه.

تنسخ من اللوح المحفوظ كل ما فعله العباد ثم يُمسكونه عندهم، فتأتي أفعال العباد على نحو ذلك على كل واحد من الأمة، فباجتماع ذلك قيل له: كتابها، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر، تقديره:

فيقال لهم: ﴿الْيَوْمَ﴾

ذكر الله تبارك وتعالى حال الطائفتين من المؤمنين والكافرين، وفرق بينهم في الذكر لبيان الأمر في نفس السامع، فإن الأشياء تبيّن بذكر أصدادها معها، و«الفوز» هو نيل البغية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا اللَّيِّنُ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ﴾ [فيه محذوف] فإن التقدير فيه: وأنا الذين كفروا فيقال لهم: ألم تكن...، فحذف «يُقَال لهم» اختصاراً وبقيت الفاء دالة على الجواب الذي تطلبه «أما»، ثم قدم عليها ألف الاستفهام من حيث له صدر القول على كل حالة، ووقف الله تعالى الكفار على الاستكبار لأنه من شرّ الخلال.

وقرأ حمزة وحده: ﴿وَالسَّاعَةَ﴾ بالنصب عطفاً على قوله تعالى: ﴿رَعَدَ اللَّهُ﴾، ورويت عن أبي عمرو، وعيسى، والأعمش. وقرأ ابن مسعود: ﴿حَقٌّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا﴾، وكذلك قرأ أيضاً الأعمش. وقرأ الباقون: ﴿وَالسَّاعَةَ﴾ رفعا، ولذلك وجهان، أحدهما الابتداء والاستئناف، والثاني العطف على موضع [إن] وما عملت فيه؛ لأن التقدير: ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾، قاله أبو علي في الحجة، وقال بعض النحاة:

هل وافقته أو خالفته؟ وقالت فرقة: أراد: إلى كتابها الذي كتبه الحفظة على كل واحد من الأمة، فباجتماع ذلك قيل له: كتابها، وهنا محذوف يدل عليه الظاهر، تقديره: فيقال لهم: ﴿الْيَوْمَ﴾

وقوله تعالى: ﴿هَذَا كِتَابُنَا﴾ يحتمل أن تكون الإشارة إلى الكتب المنزلة، أو إلى اللوح المحفوظ، قال مجاهد، ومقاتل: يشهد بما سبق فيه من سعادة أو شقاء، ويحتمل أن تكون إلى كتب الحفظة، وقال ابن قتيبة: هي إلى القرآن.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْنِخُ﴾ - فقالت فرقة: معناه: نكتب، وحقيقة النسخ وإن كانت أن يُنقل خط من أصل يُنظر فيه فإن أعمال العباد هي في هذا التأويل كالأصل، فالمعنى: إِنَّا كُنَّا نَقِيدُ كل ما عملتم، وقال الحسن: هو كتب الحفظة على بني آدم، وروى ابن عباس رضي الله عنهما وغيره أن الله يأمر بعرض أعمال العباد كل يوم خميس فيُنقل من الصحف التي ترفع الحفظة كل ما هو مُعدّد أن يكون عليه ثواب أو عقاب، ويُلغى الباقي، قالت فرقة: فهذا هو النسخ من أصل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: معنى هذه الآية أن الله تعالى يجعل الحفظة

سُورَةُ الْجَاثِيَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيَذُرُّكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ مَاعْمَلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا يَسْتَهْتِكُونَ ﴿٣٠﴾
 وَقِيلَ الْيَوْمَ نَسْتَسْخِرُكُمْ أَيَسْتَرْفَعُ يَوْمَ هَذَا وَمَا تَكُونُ النَّارُ وَمَا
 لَكُمْ مِنْ نَصِيرِينَ ﴿٣١﴾ تَذَكُّرًا بِأَنَّهُمْ أَخَذْتُمْ أَيَاتِ اللَّهِ هُرُوءًا وَعَزَّوَكُمْ
 الْحَيَوةَ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٢﴾
 فَلِلَّهِ الْمُلْكُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَرَبُّ الْأَرْضِينَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلِلَّهِ
 الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيمُ الرَّحِيمُ ﴿٣٤﴾

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمْدٌ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ الْقُرْآنَ الْحَكِيمَ ﴿١﴾ مَا خَلَقْنَا
 السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ
 كَفَرُوا عَمَّا أُذِرُوا مُعْرِضُونَ ﴿٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ
 دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ
 أَنْتَقُونَ بِكُتُبٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْشُرُوا مِن عَلِيمٍ إِنْ كُنْتُمْ
 صَادِقِينَ ﴿٣﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ ﴿٤﴾

٥٢

و «جَاثِيَةً» معناه: على الركب، قاله مجاهد والضحاك، وهي هيئة المذنب الخائف المعظم، وفي حديث: «فجثا عمر رضي الله عنه على ركبتيه»، وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه: في القيامة ساعة قدر عشر سنين، يخر الجميع فيها جثاة على الركب.

وقرأ جمهور الناس: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ نَدَعَىٰ إِلَىٰ كَيْبِهَا﴾ بالرفع على الابتداء، وقرأ يعقوب: ﴿كُلُّ أُمَّةٍ نَدْعَىٰ﴾ بالنصب على البدل من «كُلُّ» الأولى، إذ في «كُلُّ» الثانية إيضاح موجب الجثو، وقرأ الأعمش: ﴿وَتَرَىٰ كُلُّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً نَدْعَىٰ﴾ بإسقاط «كُلِّ أُمَّةٍ» الثانية.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ كَيْبِهَا﴾ - فقالت فرقة: أراد: إلى كتابها المُتَزَّل عليها فتحاكم إليه،

وَأَذْخِرَ النَّاسَ كَأُولَئِكَ أَجْرُهُمْ وَكَانُوا يُعَادِبْتَهُمْ فَكثيراً ﴿١٠﴾ وَإِنَّا لَنَسُنَّا عَلَيهِمْ آيَاتِنَا لِيُنذِرَ قَوْمَهُمْ أَنذَرْنَاهُمْ أَقْرَبَهُمْ قَدْ آفَاقَهُمْ وَعَلَى قَدَمَيْهِمْ سِجْرَةٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَرْجِعُونَ أَقْرَبَهُمْ قَدْ آفَاقَهُمْ وَعَلَى قَدَمَيْهِمْ سِجْرَةٌ ﴿١٢﴾ وَمَا أَزَى مَا يُفْعَلُ بِهِ وَلَا يَكْرَهُنَّ أَيْحُ لَا مَا يَوْحِي لَكَ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ ﴿١٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَنْبِيَائِهِ عَلَى فِتْنَةٍ فَأَمَّنَّ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَأَلْنَا آبَاءَنَا وَلَا تَمَّ بِهِتِدُوا بِهِ فَسْيَرُولُوا هَذَا أَفْكَ قَدِيمٌ ﴿١٥﴾ وَمِنْ قَبْلِهِ كَتَبَ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِمَا نَزَّلْنَا بِرَأْسِهِ عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأُنذِرُ لِلْمُخْسِرِينَ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا زَيْنًا لَمْ يَحْمِلُوا أَسْقَمًا فَلا حَافِيَ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧﴾ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جزاءً بما كانوا يعملون ﴿١٨﴾

السياء وضم الراء. ﴿سَتَعْبِرُونَ﴾: تُطلب منهم مراجعة إلى عمل صالح.

وقوله تعالى: ﴿يَلَّهَ أَخَذَ﴾ إلى آخر السورة تحميداً له تعالى وتحقيقاً لألوهيته، وفي ذلك كسر لأمر الأصنام والأنصاب. وقراءة السناس: ﴿رَبِّ﴾ بالخفض في الثلاثة على الصفة، وقرأ ابن محيصن بالرفع فيها، على معنى: هُوَ رَبُّ، و«الكبرياء» بناء مبالغة، وفي الحديث: يقول الله تعالى: الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني شيئاً منهما قصصته.

كامل تفسير سورة الجاثية والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الأحقاف

هذه السورة مكيّة، لم يُختلف فيها إلا في آيتين: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرِ أُولُو الْأَرْزَاقِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ الآية، فقال بعض المفسرين: هاتان الآيتان مدينتان وُضعتا في سورة مكيّة. ﴿١﴾ - ﴿٦﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: تقدم القول في الحروف المقطعة التي في أوائل السور، و﴿نَزِيلٌ﴾ رفع

لا يعطف على موضع «إِنَّ» إلا إذا كان العامل الذي عطفته «إِنَّ» نافية، وكذلك هو على موضع الباء في قوله:

فَلَسْنَا بِالْجِبَالِ وَلَا الْحَدِيدِ
فلما كانت «ليس» نافية جاز العطف على الموضع قبل دخول الباء، ويظهر نحو هذا النظر من كتاب سيبويه، ولكن قد ذكرنا ما حكى أبو علي وهو القدوة. وقولهم: ﴿إِن نَطَلُّ إِلَّا طَلًّا﴾ معناه: إِن نَطَلُّ بَعْدَ قَبُولِ خَبْرِكُمْ إِلَّا طَلًّا، وليس يعطينا يقيناً.

وقوله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمُ الْآيَةُ...﴾ حكاية حال يوم القيامة، و﴿وَصَاعًا﴾ معناه: نزل وأحاط، وهي مستعملة في المكروه، وفي قوله تعالى: ﴿مَا كَانُوا﴾ حذف مضاف تقديره: جزاء ما كانوا، أي: عقاب كونهم يستهزئون.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿نَسَكْرًا﴾ معناه: نَشْرُكُكُمْ كما تركتم لقاء يومكم هذا، فلم يقع منكم استعداد له ولا تأهبتم، فسميت العقوبة في هذه الآية باسم الذنب، و«المأوى»: الموضع الذي يسكنه الإنسان ويكون فيه عائمة أوقاته أو كلها أجمع، و«آيات الله» لفظ جامع لآيات القرآن وللأدلة التي نصبها الله تعالى لينظر فيها العباد.

وقرأ أكثر القراء: ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ بضم الياء المنقوطة من تحت وفتح الراء، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن وثاب، والأعمش، والحسن: ﴿لَا يَخْرُجُونَ﴾ بإسناد الفعل إليهم بفتح

بالابتداء، أو خبر ابتداء مضمر، و﴿الكتب﴾: القرآن، و«العيزة» و«الإحكام» صفتان مقتضيتان أن من هما له غالب كل من حاده.

وقوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا السَّكْرَةَ﴾ الآية.. موعظة وزجر، أي: فاشهدوا أيها الناس وانظروا ما يراد بكم ولمْ خَلِقْتُمْ، وقوله: ﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ معناه: إلا بالواجب الحسن الذي قد حق أن يكون، و«بأجل مُسَمًى» وُقْتناه وجعلناه موعداً لفساد هذه البنية، وذلك هو يوم القيامة، وقوله تعالى: ﴿عَمَّا أَنْذَرُوا مُعْرِضُونَ﴾ [مأ] مصدرية، والمعنى: على الإنذار، ويحتمل أن تكون [مأ] بمعنى الذي، والتقدير: عن ذكر الذي أنذروا به والتحفظ منه، ونحو هذا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ﴾ يحتمل

﴿أَرَيْتُمْ﴾ وجهين: أحدهما أن تكون متعدية و [مَا] مفعول بها، ويحتمل أن تكون مُنْبَهَةٌ لا تتعدى، و تكون [مَا] استفهاماً على معنى التوبيخ. و ﴿تَدْعُونَ﴾ معناه: تعبدون، قال الفراء: وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿مَنْ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَلْزَمَهُ﴾ [مِنْ] للتبويض؛ لأن كل ما على وجه الأرض من حيوان ونحوه فهو من الأرض، ثم وقفهم تعالى على السموات، هل لهم فيها شرك؟ ثم استدعى تعالى منهم كتاباً منزلاً قبل القرآن يتضمن عبادة صنم.

وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَنْزَلْنَا مِنْ عِلْمٍ﴾ معناه: أو بقية قديمة من علم أحد العلماء تقتضي عبادة الأصنام، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَوْ أَنْزَلْنَا﴾ على المصدر كالشجاعة والسماحة، وهي البقية من الشيء وكأنها أثره، وقال الحسن بن أبي الحسن: المعنى: من علم تستخرجونه فثيرونه، وقال مجاهد: المعنى: هل من أحد يأثر علماً في ذلك، أي: ينقله، وقال القُرطبي: هو الإسناد، ومن ذلك قول الأعشى:

إِنَّ الَّذِي فِيهِ تَمَارِزُهُمَا
بُيِّنَ لِلسَّامِعِ وَالْأَثَرِ

أي: وللمستفيد عن غيره، ومنه قول عمر رضي الله عنه: «فَمَا خَلَفْتُ بِهَا ذَاكراً وَلَا أُنثراً»، وقال أبو سلمة بن عبدالرحمن، وقاتدة: المعنى: أو خاصة من علم، فاشتقاقها من الأثرة، كأنه قد أثر الله تبارك وتعالى بها من هي عنده، وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: المراد

بالأثرة الحُطُّ في التراب، وذلك شيء كانت العرب تفعله وتتكهن به وتزجر، وهذا من البقية والأثر، وروي عن النبي ﷺ أنه سئل عن ذلك فقال: «كَانَ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَخُطُّ، فَمَنْ وافق خطه فذاك»، ظاهر هذا الحديث يُقَوِّي أمر الحُطِّ في التراب، وأنه شيء له وجه إذا وُفِّق أحد إليه، هكذا تأوله كثير من العلماء، وقالت فرقة: بل معناه الإنكار، أي: أنه كان من فعل نبي قد ذهب وذهب الوحي إليه والإلهام في ذلك، ثم قال: «فَمَنْ وافق خطه»، على جهة الإبعاد، أي: إن ذلك لا يمكن ممن ليس بنبي مُسَرَّ لذلك، وهذا كما يسألك أحد فيقول: أيطير الإنسان؟ فتقول: إنما يطير الطائر، فمن كان له من الناس جناح طار، أي: ذلك لا يكون.

والأثرة تستعمل في بقية الشرف، فيقال: إن لبني فلان أثرة من شرف؛ إذا كانت عندهم شواهد قَدِيمَةٍ، وتستعمل في غير ذلك كقول الراعي:

وَذَاتِ أَثَارَةٍ أَكَلَتْ عَلَيْهَا
نَبَاتاً فِي أَكْمَتِهِ فَفَارَا
يريد الأثرة في الشخم، أي: البقية.

وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي - فيما حكى الطبري -: «أَوْ أَثَرَةٌ» بفتح الهمزة والياء والراء دون ألف، وحكاها أبو الفتح عن ابن عباس، وقاتدة، وعكرمة، وعمرو بن ميمون، والأعمش، وهي واحدة جمعها أثر كقَثْرَةٍ وَقَثْرٍ، وحكى الثعلبي أن عكرمة قرأ: «أَوْ مِيزَاتٍ

مِنْ عِلْمٍ»، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، والسلمي - فيما حكى أبو الفتح -: «أَثَرَةٌ» بسكون الشاء، وهي الفَعْلَةُ الواحدة مما يُؤَثِّر، أي: قد قنعت لكم بحجة واحدة وتخيَّر واحد وأثر واحد يشهد بصحة قولكم، وقرأت فرقة بضم الهمزة وسكون الشاء، وهذه كلها بمعنى: هل عندكم شيء خَصَّكُمْ الله به من علم وأثركم به؟

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ الآية . . . توبيخ لعبدَةِ الأصنام، أي: لا أحد أضلُّ ممن هذه صفته، وجاءت الكنايات في هذه الآية عن الأصنام كما تجيء عن من يعقل وذلك أن الكفار قد أنزلوها منزلة الآلهة وبالمحل الذي دونه البَشَر فخطبوا على نحو معتقدهم فيها، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: «مَالاً يَسْتَجِيبُ». والضمير في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ عَن دُعَائِهِمْ﴾ هو للأصنام في قول جماعة، ووصف الأصنام بالغفلة من حيث عاملها معاملة من يعقل، ويحتمل أن يكون الضمير في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَن دُعَائِهِمْ﴾ وفي ﴿عَافِلُونَ﴾ للكفار، أي: ضلالهم بأنهم يدعون من لا يستجيب ثم يَفْغَلُونَ فلا يتأملون ما عليهم في دعائهم من هذه صفته.

وقوله تعالى: ﴿كَانُوا لَمْ يَأْتُواكُمْ بِحُجَّةٍ﴾ الآية، وذلك قوله تعالى حكاية عنهم: ﴿تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَتَّبِعُونَ﴾.

٧ - ٩ تفسير قوله عز وجل:

«الآيات» المذكورة هي آيات القرآن بدليل قوله تعالى: ﴿تَتْلُو﴾ وقول الكفار: ﴿هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾، وإنما قالوا ذلك عن القرآن من حيث قالوا: هو يفرق بين المرء وولده، وبينه وبين زوجه، إلى نحو هذا مما يوجد مثله للسحر بالوجه الآخر.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ﴾، ﴿أَمْ﴾ مقطوعة مقدره بـ «بل» وهمزة الاستفهام، و﴿افْتَرَيْنَاهُ﴾ معناه: اشتقّه واختلقه، فأمره الله تبارك وتعالى أن يقول: إن افتريته فالله حسبي في ذلك، وهو كان يعاقبني ولا يهمني؛ ثم رجع القول إلى الاستفهام إلى الله تعالى والاستنصار به عليهم، وانتظار ما يقتضيه علمه بما يفيضون فيه من الباطل ومُرَادَةُ الحق، وذلك يقتضي معاقبتهم، ففي اللفظ تهديد، والضمير في قوله تعالى: ﴿فِيهِ﴾ يحتمل أن يعود على القرآن، ويحتمل العودة على [مَا]، والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد على الله تعالى، و﴿بِهِ﴾ في موضع رفع، و﴿أَفَاضَ الرَّجُلُ فِي الْحَدِيثِ وَالسَّبِّ نَحْوَهُ﴾ إذا خَاضَ فِيهِ واستمر. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَوُّرُ الرَّجِيمُ﴾ تَرْجِيَةٌ واستدعاء إلى التوبة لأنه في خلال تهديده إياهم بالله جاءت هاتان الصفتان.

ثم أمره الله تعالى أن يحتج عليهم بأنه لم يكن يدعاً من الرُّسل، أي: قد جاء غيري قبلي، قاله ابن عباس، والحسن، والأعرج، و«الْبِدْعُ» و«الْبِدِيعُ» من الأشياء: ما لم يُرَ مثله، ومنه قول عدي بن زيد:

فَمَا أَنَا بِدَعٍ مِنْ حَوَادِثِ تَغْتَرِي
رِجَالًا عَرَّتْ مِنْ بَعْدِ بُؤْسِي وَأَسْعِدِ
وقرأ عكرمة، وابن أبي عملة، وأبو حيوه: ﴿بِدْعًا﴾ بفتح الدال، قال أبو الفتح: التقدير: «ذَا بَدَعٌ» بحذف المضاف، كما قال:

وَكَيْفَ تُوَاصِلُ مَنْ أَصْبَحَتْ
خُلَائِقُهُ كَأَبِي مَرْحَبٍ؟
واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَا آدْرِي مَا يَفْعَلُ بِي وَلَا يَكْرُمُ﴾ - فقال ابن عباس، وأُس بن مالك، وعكرمة، وقتادة، والحسن: معناه: في الآخرة، وكان هذا في صدر الإسلام، ثم بعد ذلك عرفه الله تعالى بأنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، وبأن المؤمنين لهم من الله فضل كبير وهو الجنة، وبأن الكافرين في نار جهنم، والحديث الذي وقع في جنازة عثمان بن مظعون يؤيد ذلك: «فوالله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي»، وفي بعض الروايات «به»، ولا حُجَّة لنا في الحديث على رواية «به»، والمعنى عندي في هذا القول أنه لم تتكشف له الخاتمة فقال: «لا أدري»، وأما مَنْ وافى على الإيمان فقد أعلم بنجاته من أول الرُّسالة، وإلا فكان للكفار أن يقولوا: وكيف تدعوننا إلى ما لا تدري له عاقبة؟ وقال الحسن أيضاً وجماعة: معنى

الآية: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم في الدنيا من أن أنصر عليكم أو من أن تُمَكِّنُوا مِنِّي، ونحو هذا من المعنى. وقالت فرقة: معنى الآية: ما أدري ما يفعل بي ولا بكم من الأوامر والنواهي وما تُلْزِمُنَا الشريعة

من أعراضها، وحكى الطبري عن بعضهم أنه قال: نزلت الآية في أمر كان النبي ﷺ ينتظره من الله تعالى في غير الثواب والعقاب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه لما تأخر خروج النبي ﷺ من مكة حين رأى في النوم أنه مهاجر إلى أرض ذات نخل وسيخة قَلِقَ المسلمون لتأخر ذلك فنزلت الآية.

وقوله: ﴿إِنْ أَتَيْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيْكُمْ﴾ معناه الاستسلام والتبزي من علم الغيبيات والوقوف مع النذارة من عذاب الله تعالى.

١١ - ١٣ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية توقيف على الخطر العظيم الذي هم بسبيله في أن يكذبوا بأمر نافع لهم مُنْجٍ من العذاب دون حُجَّة ولا دليل لهم على التكذيب، فالمعنى: كيف حالكم مع الله تعالى؟ وماذا تنتظرون منه وأنتم قد كفرتم بما جاء من عنده؟ وجواب هذا التوقيف محذوف، تقديره: أليس قد ظلمتم؟ ودل على هذا المقدار قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾.

و ﴿أَنزَيْتُمْ﴾ في هذه الآية يحتمل أن تكون مُثْبِتَةٌ، فهي لفظة موضوعة للسؤال لا تقتضي مفعولاً، ويحتمل أن تكون جملة ﴿كَانَ﴾ وما عملت فيه تُسَدُّ مسدً مفعولياً.

واختلف الناس في المراد بالشاهد - فقال الحسن، ومجاهد، وابن سيرين: هذه الآية مدنية والشاهد عبدالله بن سلام، وقول الله تعالى: ﴿عَلَّ يَسْلِيهِ﴾ الضمير فيه عائد على

١٧ - ١٩ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿وَرَيْنَ قَبِيلِهِ﴾، للقرآن، و ﴿كَيْتَابٍ مُّوسَى﴾، ينصب الباء على إضمار: أنزل الله، أو نحو ذلك. و «الإمام»: خيط البئاء، وكل ما يهتدى به ويُقتدى به فهو إمام، ونُصب ﴿إِمَامًا﴾ على الحال، و ﴿رَحِمْتَ﴾ عطفاً على ﴿إِمَامًا﴾، والإشارة بقوله تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ﴾ إلى القرآن، و ﴿مُصَدِّقٌ﴾ معناه: للتوراة التي تضمنت خبره وأمر محمد ﷺ، فجاء هو مصدقاً لذلك الإخبار، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿مُصَدِّقٌ لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ لِسَانًا﴾.

واختلف الناس في نصب قوله: ﴿لِسَانًا﴾ - فقالت فرقة من النحاة: هو منصوب على الحال، وقالت فرقة: ﴿لِسَانًا﴾ توطئة مؤكدة، و ﴿عَرَبِيَّةٌ﴾ حال، وقالت فرقة: ﴿لِسَانًا﴾ مفعول بـ ﴿مُصَدِّقٌ﴾، والمراد - على هذا القول - باللسان محمد ﷺ، فكأن القرآن بإعجازه وأحواله البارة يصدق الذي جاء به، وهذا قول صحيح المعنى جيد، وغيره مما قدمنا متجه.

وقرأ نافع، وابن عامر، وابن كثير - فيما روي عنه - وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، وأبو رجاء، والناس: ﴿لِسَانًا﴾، بالباء أنت يا محمد، ورجحها أبو حاتم، وقرأ الباكون، وابن كثير، والأعمش: ﴿لِسَانًا﴾ أي القرآن، و ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ هم الكفار الذين جعلوا العبادة في غير موضعها في جهة

التأويل - يعني به تصديق موسى بأمر محمد ﷺ وتبشير به، فذلك إيمان به، وأما من قال: الشاهد ابن سلام فإيمانه بين، وكذلك الإسرائيلي الذي كان بمكة في قول من قاله. وحكى بعضهم أن العامل بـ [أَمَّن] هو محمد ﷺ، وهذا من القائلين بأن الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام، وإنما اضطر إلى هذا لأنه لم ير وجه إيمان موسى عليه السلام، ثم قرن تعالى استكبارهم وكفرهم بإيمان هذا

المذكور فبان ذنبهم وخطوهم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَوْنَا إِلَيْهِ﴾، قال قتادة: هي مقالة أشرف قريش يريدون عمّاراً وضحياً وبلالاً ونحوهم ممن أسلم وأمن بالنبي ﷺ. وقال الزجاج، والكلبي، وغيرهما: هي مقالة كنانة وعامر وسائر قبائل العرب المجاورة، وقالت ذلك حين أسلمت عفار ومزينة وجهينة، وقال الثعلبي: هي مقالة اليهود حين أسلم عبدالله بن سلام وغيره منهم.

و «الإفك»: الكذب، ووصفوه بالقدم بمعنى أنه في أمور متقدمة، وهذا كما تقول لرجل حدثك عن أخبار كسرى وقيصر: هذا حديث قديم، ويحتمل أن يريدوا أنه إفك قيل قديماً.

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي بُنَيْتُ إِلَيْكَ وَإِلَىٰ مِنَ الْمَسْلُومِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَقَبِلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ النَّبَةِ وَعَدَّ الصَّيْدَ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٨﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَي لَوْ كُنَّا نُوعَدُ نِعْمَتِي أَنْ أُنْحَرِفَ وَقَدْ خَلَّيْتُ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهِيَ اسْتَعْيَبْنَا نِعْمَةَ اللَّهِ وَبَلَغَ مِنْهُ عِدَّ اللَّهِ حَقًّا فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمِّ قَدْحَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْغَنِيِّ وَالْإِنْسَانُ نَجِسٌ كَانُوا فِيهِمْ يَخْسَبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ كُنَّا نَعْلَمُ مَا عَمِلُوا وَإِلَيْهِمْ أَعْمَالُهُمْ وَهُمْ لَا يَخْلَمُونَ ﴿٢١﴾ يَوْمَ نَعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَدْبَاهِمُ طَبَقَاتٍ فِي حِمَايِكُمُ الَّذِينَ آمَنُوا وَأَسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا قَالُوا يَوْمَ نَحْرُونَ عَذَابَ الْهُورِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بَعْدَ الْحَقِّ وَمَا كُنتُمْ تَسْمَعُونَ ﴿٢٢﴾

قول محمد ﷺ في القرآن: إنه من عند الله، وقال الشعبي: الشاهد رجل من بني إسرائيل غير عبدالله بن سلام كان بمكة، والآية مكئية، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، ومجاهد، وفرقة: الآية مكئية والشاهد عبدالله بن سلام، وهي من الآيات التي تضمنت غيباً أبرزه الوجود، وقد روي عن عبدالله بن سلام أنه قال: فني نزلت، وقال مسروق بن الأجدع والجمهور: الشاهد هو موسى بن عمران عليه السلام، والآية مكئية، ورجحه الطبري، وقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ يَمِينِهِ﴾ يريد بالمثل التوراة، والضمير عائد - على هذا التأويل - على القرآن، أي: جاء شاهد من بني إسرائيل بمثله وشهد أنه من عند الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَسْتَكْبَرَ﴾ - على هذا

الأوثان والأصنام، وقوله تعالى: ﴿وَتُؤْتِرِينَ﴾ يجوز أن يكون في موضع رفع عطفاً على قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقَاتٍ﴾، ويجوز أن يكون في موضع نصب، واقعةً موقع فعل عطفاً على ﴿رُسُلًا﴾، أي: ويُبَشِّر المحسنين.

ولمَّا عبّر تعالى عن الكفار بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ عبّر عن المؤمنين بـ ﴿الْمُحْسِنِينَ﴾ ليتناسب لفظ الإحسان في مقابلة الظلم، ثم أخبر تعالى عن حسن حال المؤمنين المستقيمين، ورفع عنهم الخوف والحزن، وذهب كثير من الناس إلى أن معنى الآية: ثم استقاموا بالطاعات والأعمال الصالحات، وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: بالدوام على الإيمان وترك الانحراف عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا القول أعم رجاءً وأوسع، وإن كان في الجملة المؤمنة من يُعَذَّب وينفذ عليه الوعيد فهو ممن يخلد في الجنة وينتفي عنه الخوف والحزن الحال بالكفرة.

و «الخوف» هو الهُم بما يُستقبل، و «الحزن» هو الهُم بما مضى، وقد يستعمل فيما يُستقبل استعارة لأنه حزنٌ لخوف أمرٍ ما، وقرأ ابن السمين: ﴿قَلَّا خَوْفٌ﴾ بدون تنوين، وقوله تعالى: ﴿جَزَاءٌ يَمَا كَانُوا يَمْسُرُونَ﴾، [مَا] واقعة على الجزء الذي هو اكتساب العبد، وقد جعل الله تعالى الأعمال أمارات على جزاء العبد، لا أنها توجب على الله تعالى شيئاً.

قوله تعالى: ﴿وَصَيَّنَّا الْإِنْسَانَ﴾، يريد

النوع، أي: هكذا مضت شرائعي وكتبي لأنبيائي، فهي وصية من الله تعالى في عباده، وقرأ جمهور القراء: ﴿حَسَنًا﴾ بضم الحاء وسكون السين ونصبه على تقدير: وصيناه ليفعل أمراً ذا حُسن، فكأن الفعل سلط عليه مفعولاً ثانياً، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وأبو عبدالرحمن، وعيسى: ﴿حَسَنًا﴾ بفتح الحاء والسين، وهذا كالأول، ويحتمل كونهما مصدرين كالْبُخْلِ والبَخْلِ، ويحتمل أن يكون هذا الثاني اسماً لا مصدرًا، أي: ألزمناه بهما فعلاً حسناً، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿إِحْسَانًا﴾ ونصب على هذا المصدر الصريح، والمفعول الثاني في المجرور، والباء مُتَعَلِّقَةٌ بـ ﴿وَصَيَّنَّا﴾، أو بقوله تعالى: ﴿إِحْسَانًا﴾.

ويُرِّ الوالدين واجب بهذه الآية وغيرها، وعقوقهما كبيرة من الكبائر، وقال النبي ﷺ: «كُلُّ شَيْءٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى حِجَابٌ إِلَّا شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَدَعْوَةَ الْوَالِدِينَ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولن يَدْعُوا إِلَّا إِذَا ظَلَمَهُمَا الْوَالِدُ، فهذا الحديث في عموم قوله ﷺ: «اتَّقُوا دَعْوَةَ الْمَظْلُومِ فَإِنَّهَا لَيْسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللَّهِ حِجَابٌ».

ثم عدّد تعالى على الأبناء حق الأمهات، وذكر تعالى الأمّ في هذه الآية في أربع مراتب، والأب في مرتبة واحدة، وجمعهما الذكر في قوله تعالى: ﴿يُؤَلِّدِيهِ﴾، ثم ذكر الحَمْلَ للأمّ ثم الوضع لها ثم الرُّضَاعَ الذي عبّر عنه بالفِصَال، فهذا يناسب

ما قال رسول الله ﷺ حين جعل للأمّ ثلاثة أرباع البر والرُّبْعَ للأب، وذلك إذ قال له رجل: (يا رسول الله، من أَيْرُ؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أُمُّكَ»، قال: ثم مَنْ؟ قال: «أَبَاكَ»).

وقوله تعالى: ﴿كَرْهًا﴾ معناه: في باقي استمرار الحمل حين تُتَوَقَّع حوادثه، ويحتمل أن يراد: في وقت الحمل؛ إذ لا نذير لها في حمله ولا في تركه، قال مجاهد، والحسن، وقتادة: المعنى: حملته مشقّة ووضعته مشقّة، وقرأ أكثر القراء: ﴿كَرْهًا﴾ بضم الكاف، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والأعرج، وشيبة: ﴿كَرْهًا﴾ بفتح الكاف، وقرأ بهما معاً مجاهد، وأبو رجاء، وعيسى، قال أبو علي: هما بمعنى، الضم: الاسم، والفتح: المصدر، وقالت فرقة: الكَرْهُ - بضم الكاف - المشقّة، والكَرْهُ - بفتح الكاف - هو الغلبة والقهر، وضَعُفُوا - على هذا - قراءة الفتح، قال بعضهم: لو كان كَرْهًا لرمت به عن نفسها؛ إذ الكَرْهُ القهْر والغلبة، والقول الذي قدّمناه أصوب.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَصَيَّنَّا﴾ وذلك أنها مفاعلة من الاثنين كأنه فاصل أمه وفاضلته، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاء، وقتادة، والجحدري: ﴿وَوَفَّضْنَاهُ﴾، كأن الأم هي التي فصلته.

وقوله تعالى: ﴿تَلْتَلُونَ شَهْرًا﴾ يقتضي أن مدّة الحمل والرضاع هي هذه المدّة؛ لأن في القول حذف مضاف

تقديره: ومدة حملة وفصاله، وهذا لا يكون إلا بأن يكون أحد الطرفين ناقصاً، وذلك إما أن تلد المرأة لسته أشهر وترضع عامين، وإما أن تلد لستة أشهر على العرف وترضع عامين غير ربع عام، فإن زادت مدة الحمل نقصت مدة الرضاع وبالعكس، فيترتب من هذا أن أقل مدة الحمل ستة أشهر، وأقل ما ترضع الأم الطفل عاماً وتسعة أشهر، وإكمال العامين هو لمن أراد أن يكمل الرضاع، وهذا في أمر الحمل هو مذهب علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة من الصحابة رضوان الله عليهم، وهو مذهب مالك رحمه الله.

واختلف الناس في «الأشد» - فقال الشعبي، وزيد بن أسلم: إذا كتبت عليه السيئات ولهُ الحسنات، وقال ابن إسحاق: ثمانية عشر عاماً، وقيل: عشرون عاماً، وقال ابن عباس، وقاتدة: ثلاثة وثلاثون عاماً، وقال الجمهور من النُّطَار: ستة وثلاثون عاماً، وقال هلال بن يساف وغيره: أربعون عاماً. وأقوى الأقوال ستة وثلاثون، ومن قال بالأربعين قال في الآية: إنه تعالى أكد وفسر الأشد بقوله سبحانه: ﴿وَلَيَّ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾، وإنما ذكر تعالى الأربعين لأنها حد للإنسان في صلاحه ونجابته، وفي الحديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ يَجْرُ يَدُهُ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ جَاوِزِ الْأَرْبَعِينَ وَلَمْ يَبْثْ وَيَقُولُ: بِأَبِي وَجْهٌ لَا يُفْلَحُ»، وقال أيمن بن خُرَيْم الأسدي:

إذا المرء وفى الأربعين ولم يكن

لَهُ دُونَ مَا يَأْتِي حَيَاةً وَلَا سِنَّهُ فَدَعُهُ وَلَا تَنْفِسَ عَلَيْهِ الَّذِي ارْتَأَى وَإِنْ جَرَّ سَبَابَ الْحَيَاةِ لَهُ الْعُمُرُ وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَوَى أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً﴾.

وقوله: ﴿أَرْبَعِينَ﴾ معناه: ادفعني عن الموانع وازجرني عن القواطع لأجل أن أشكر نعمتك، ويحتمل أن تكون ﴿أَرْبَعِينَ﴾ بمعنى: اجعل حظي ونصيبي، هذا من التوزيع، والقوم الأوزاع، ومن قولك: توزعوا المال، ذ [أَنْ] - على هذا - مفعول صرِيحٌ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعمتك في التوحيد. ﴿وَمَكِيلًا تَرْضَنَهُ﴾: الصلوات، و«الإصلاح في الذريرة» كونهم أهل طاعة وخيرية، وهذه الآية معناها أن هكذا ينبغي للإنسان أن يفعل، هذه وصية الله تعالى في كل الشرائع.

وقال الطبري: وذكر أن هذه الآية من أولها نزلت في شأن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، ثم هي تتناول من بعده، وكان رضي الله عنه قد أسلم أبوه عام الفتح، فإنما يتجه هذا التأويل على أن أبا بكر رضي الله عنه كان يطمع في إيمان أبويه ويرى مخايل ذلك فيهما، فكانت هذه عنده نعمة عليهما، أي: ليسا ممن عسى في الكفر ولجّ وحتم عليه ثم ظهر إيمانهما بعد، والقول بأنها عامة في نوع الإنسان لم يقصد بها أبو بكر ولا غيره أصح، وباقي الآية بين إلى قوله تعالى: ﴿مِنَ السُّلَيْمِ﴾.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ﴾ دليل على أن الإشارة بالإنسان في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ إلى الجنس، وقرأ جمهور القراء: ﴿يُتَّقِلُ﴾ بالياء مضمومة على بناء الفعل للمفعول، وكذلك ﴿يَتَجَاوَزُ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم فيهما بالنون التي للعظمة، ﴿أَحْسَنُ﴾ بالنصب، وهي قراءة ابن وثاب، وطلحة، وابن جبير، والأعمش - بخلاف - وقرأ الحسن: ﴿يَتَّقِلُ﴾ بياء مفتوحة ﴿وَيَتَجَاوَزُ﴾ كذلك، أي: الله تعالى. وقوله تعالى: ﴿يُتَّقِلُ﴾ أي: أحسن العظمة يريد الذين سبقت لهم رحمة الله تعالى، وقوله: ﴿وَعَدَّ الْيَتِيمَ﴾ نصب على المصدر المؤكّد لما قبله.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَيُّكُمْ أُعْبَدُ﴾ الآية، [الَّذِي] يعني به الجنس على حد العموم الذي في الآية التي قبلها في قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾، هذا قول الحسن وجماعة، ويشبه أن لها سبباً من رجل قال ذلك لأبويه، فلما فرغ من ذكر ذلك الموقف عقب بذكر هذا العاق، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الطبري: نزلت في الآية في ابن لأبي بكر، ولم يُسمّه، وقال مروان بن الحكم: نزلت في عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقال قاتدة: وذلك أنه كان أكبر أولاد أبي بكر وشهد بدرأً وأحدًا مع الكفار، وقال لأبيه في الحرب:

لَمْ يَبْنِقْ إِلَّا شِكَّةً وَيَغْبُوبُ
وَصَارِمٌ يَقْتُلُ ضُلَّالَ الشَّيْبِ
ودعاه للمبارزة، فكان بمكة على
نحو هذا الخُلُق، فقيل إنها نزلت
فيه، ورُوي أن مروان بن الحكم
خطب وهو أمير المدينة فدعا الناس
إلى بيعة يزيد، فقال عبدالرحمن بن
أبي بكر: جعلتموها هِرْقَلِيَّةً، كلما
مات هِرْقَلُ وَلِيَّ هِرْقَلُ، وكلما مات
قيصر وَلِيَّ قيصِر، فقال مروان:
خذوه، فدخل عبدالرحمن بيت
عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها،
فقال مروان: إن هذا هو الذي
قال الله تعالى فيه: ﴿وَالَّذِي قَالَ
لِوَالِدَيْهِ أَتَى لَكُمْ﴾، فسمعتة عائشة
رضي الله عنها فأنكرت ذلك عليه،
وسبَّت مروان وقالت: والله ما نزل
في آل أبي بكر من القرآن غير
براءتي، وإني لأعرف فيمن نزلت
هذه الآية، وذكر ابن عبدالبر أن
الذي خطب هو معاوية
رضي الله عنه، وذلك وَهَمٌ،
والأصوب أن تكون عائمة في أهل
هذه الصفات ولم يقصد بها
عبدالرحمن ولا غيره من المؤمنين،
والدليل القاطع على ذلك قوله
تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ
الْقَوْلُ فِي أَمْرٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، وكان
عبدالرحمن رضي الله عنه من أفضل
الصحابه، ومن الأبطال، وممن له
في الإسلام غناء، ويكفيه مقامه مع
مروان يوم اليمامة وغيره.

وقرأ أبو عمرو، وحمزة،
والكسائي، وأبو بكر عن عاصم،
وطلحة بن مصرف: ﴿أَبٍ﴾ بكسر
الفاء بغير تنوين، وذلك فيها علامة

تعريف، وقرأ ابن كثير، وابن عامر،
وابن محيصن، وشبل، وعمرو بن
عبيد: ﴿أَفٍ﴾ بالفتح، وهي لغة،
الكسر والفتح، وقرأ نافع، وحفص
عن عاصم، وأبو جعفر، وشيبة،
والحسن، والأعرج: ﴿أَبِيَّ﴾ بالكسر
والتنوين، وذلك علامة تنكير، وهي
كَصْبِه، وكما تستعظم رجلاً حديثاً
غير معيّن فتقول: «إِيَّه» مُتَوْنَةٌ، فإن
كان حديثاً مُشَاراً إليه قلت: «إِيَّه»
بغير تنوين، و﴿أَفٍ﴾ أصلها في
الأقذار، وكانت العرب إذا رأت قدراً
قالت: أف، ثم صيّرته الاستعمال
يقال في كل ما يكره من الأقوال
والأفعال.

وقرأ هشام عن ابن عامر، وعاصم،
وأبو عمرو - فيما رُوي عنه -:
﴿أَتَعِدَّائِي﴾، وقرأ أبو عمرو،
ونافع، وشيبة، والأعرج، والحسن،
وأبو جعفر، وجمهور القراء:
﴿أَتَعِدَّائِي﴾ بنونين، والقراءة الأولى
هي بإدغام النون في النون، وقرأ
نافع أيضاً: ﴿أَتَعِدَّائِي﴾ بنون واحدة
وإظهار الياء، وقرأ نافع، وأبو
عمرو، وعاصم، وأبو جعفر،
والأعرج، وشيبة، وقتادة، وأبو
رجاء، وابن وثاب، وجمهور
الناس: ﴿أَنْ أُخْرِجَ﴾ بضم الهمزة
وفتح الراء، وقرأ الحسن، وابن
يَعْمَر، والأعمش، وابن مصرف،
والضحاك: ﴿أَنْ أُخْرِجَ﴾ بفتح الهمزة
وضم الراء، والمعنى: أن أخرج من
القبر للحشر والمعاد، وهذا القول
منه استفهام بمعنى الهُزْء والاستبعاد،
وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَّتِ الْفُتُورُ مِنْ
قَبْلِي﴾ معناه: هلكت ومضت ولم

يخرج منهم أحد، وقوله: ﴿وَهَمًا
يَسْتَبِينَانِ اللَّهُ﴾ يعني الوالدين،
ويقال: استغثت الله واستغثت بالله
بمعنى واحد. و﴿وَيْلَكَ﴾ دعاء لمن
يُحَقِّرُ وَيُحَرِّكُ لأمر يُستعجل إليه.
وقرأ الأعرج: ﴿أَنْ وَغَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾
بفتح الهمزة، والناس على كسرهما.
وقوله: ﴿مَا هَذَا إِلَّا أَسْطِيزُ
الْأَوَّلِينَ﴾، أي: ما هذا القول الذي
يتضمن البعث من القبور إلا من
شيء قد سَطَّرَه الأولون في كتبهم،
يعني الشرائع، وظاهر ألفاظ الآية
أنها نزلت في مُشَارٍ إليه قال وقيل
له، فنعى الله تعالى أقواله تحذيراً من
الوقوع في مثلها.

قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ
حَقَّ...﴾، ظاهر أنها إشارة إلى
جنس يتضمنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي
قَالَ﴾، ويحتمل - إن كانت الآية في
مُشَارٍ إليه - أن يكون قوله تعالى:
﴿أُولَئِكَ﴾ بمعنى: صنف هذا
المذكور وجنسه هم الذين حق عليهم
القول، أي: قول الله تعالى. وقوله
تعالى: ﴿قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ
الْإِنِّينِ﴾ يقتضي أن الجن يموتون كما
يموت البشر قرناً بعد قرن، وقد جاء
حديث يقتضي ذلك، وقال
الحسن بن أبي الحسن في بعض
مجالسه: «الجن لا تموت»،
فاعترضه قتادة بهذه الآية فسكت.

وقوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَةٍ
يعني المحسنين والمسيئين، وقال ابن
زيد: درجات المحسنين تذهب علواً
ودرجات المسيئين تذهب سفلاً،
وقرأ أبو عبدالرحمن: ﴿وَلَوْ لَوْفَيْهِمْ﴾
بالتاء من فوق، أي: الدرجات،

اشتره فأكله؟ أما تخشى أن تكون من أهل هذه الآية؟

و «عَذَابُ الْهُونِ» العذاب الذي اقترن به هوان، وهو عذاب العصاة المواقين ما قد نُهوا عنه، وهذا بين في الدنيا، فعذاب المحدود في معصية كالحراية ونحوها مقترن بهون، وعذاب المقتول في حرب لا هون معه، والهون والهوان بمعنى.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بذكر هود عليه السلام وقومه عاد على جهة المثال لقريش، وهذه الأخوة هي أخوة القرابة؛ لأن هوداً عليه السلام كان من أشرف القبيلة التي هي عاد.

واختلف الناس في هذه الأحقاف، أين كانت؟ فقال ابن عباس، والضحاك: هي جبل بالشام، وقيل: كانت بلاد نخل، وقيل: هي رمال بين مَهْرَة وعدن، وقال ابن عباس أيضاً: بين عُمان ومَهْرَة، وقال قتادة: هي بلاد الشجر المواصلة للبحر اليماني، قال ابن إسحق: هي بين حضرموت وعُمان، والصحيح من الأقوال أن بلاد عاد كانت في اليمن، ولهم إزم ذات العماد. و«الْأَحْقَافُ» جمع حقف، وهو الجبل المستطيل المُعَوَّج من الرمل، قال الخليل: هي الرمال العظام، وكثيراً ما تحدث هذه الأحقاف في بلاد الرمل في الصحارى؛ لأن الرياح تصنع ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَقَدْ حَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَبَيْنَ خَلْفِهِ﴾ اعتراض مقيم للحجة أثناء قصة هود عليه السلام؛ لأن قوله تعالى: ﴿أَلَا تَتَذَكَّرُونَ إِلَّا اللَّهُ﴾ هو من نذارة هود عليه السلام،

وقرأ ابن كثير، والحسن، والأعرج، وأبو جعفر، ومجاهد، وقتادة، وابن وثاب: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزة مطوَّلة على التوسيع والتقرير الذي هو في لفظ الاستفهام، وقرأ ابن عامر: ﴿أَذْهَبْتُمْ﴾ بهمزتين تقريراً أيضاً، والتوسيع والتقرير إخبار بالمعنى ولذلك حسنت الفاء، وإلا فهي لا تحسن في جواب على حد هذه مع الاستفهام المحض.

و «الطَّيِّبَاتُ»: الملائد، وهذه الآية وإن كانت في الكفار فهي وإزعة لأولي

الثمهي من المؤمنين عن الشهوات واستكمال الطيبات، ومن ذلك قول عمر رضي الله عنه: «أَتظُنُّونَ أَنَا لَا نعرف طيب الطَّعام؟ ذلك لُبَابُ البُرِّ بصغار المعزى، ولكننا رأينا الله تعالى نعى على قوم أنهم أذهبوا طيباتهم في حياتهم الدنيا»، ذكر هذا في كلامه مع الربيع بن زياد، وقال أيضاً نحو هذا لخالد بن الوليد حين دخل الشام فقدم إليه طعاماً طيباً، فقال عمر رضي الله عنه: هذا لنا، فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا ولم يشبعوا من خبز الشعير؟ فقال خالد: لهم بالجنة، فيكى عمر وقال: لئن كان حظنا في الحطام وذهبوا بالجنة لقد باينونا بوناً بعيداً، وقال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: اشتريت لحماً بدرهم، فرآني عمر رضي الله عنه فقال: أوكلما اشتهى أحدكم شيئاً

وَأَذْكَرًا عَادٍ إِذْ أَنْذَرْتَهُمْ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ حَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَتَذَكَّرُونَ أَلَا اللَّهُ إِيَّاكُمْ عَلَيْهِ كُتِبَ عَلَيْهِ يَوْمَئِذٍ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٠﴾ قَالُوا اجْعَلْنَا لَنَا نَارًا وَكَأَنَّ مَا لَمْ نَكُنْ بِهَا نَارًا بِمَا نُوَدِّعُ أَنْ كُنَّا مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢١﴾ قَالَ إِنَّمَا أَعِظُمْ عَنِ اللَّهِ وَأُنذِرُكُمْ مَا أَنْزَلْتُ بِهِ وَلَكِنْ إِيَّاكُمْ أَنْ تَكْفُرُوا بِمَا جَعَلْتُمْ قُلُوبَكُمْ عَارِضًا مُسْتَقِيمًا أَوْ يَدِينِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُطْمَئِنَّا بِلَهُمْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ تَذَكَّرْنَا لَكُمْ شَيْءٌ مِمَّا نُرِيدُهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرِيدُونَ إِلَّا اسْتِكْبَاهَكُمْ كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ فِيْمَا أَنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا كَانُوا بِحُدُودٍ يَتَابَعَتِ اللَّهُ رِجَافَ بَيْتِهِمْ مَا كَانُوا يَبْهَتُونَ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٥﴾ فَلَوْلَا نَصْرُهُمُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قَرِيبًا لِمَا لَمْ يَلْمِؤُا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلِيُؤْيِيَهُمْ﴾ بالياء، وقرأ نافع - بخلاف عنه - وأبو جعفر، وشيبة، والأعرج، وطلحة، والأعمش: ﴿وَلِيُؤْيِيَهُمْ﴾ بالنون، وقرأ اللؤلؤي في حرف أبي بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿وَلِيُؤْيِيَهُمْ﴾ بنون أولى ونون ثانية مشددة ويفتح اللام، وكل امرئ ييجني ثمرة عمله من خير أو شر ولا يظلم في مجازاته، بل يوضع كل أمر في موضعه من ثواب أو عقاب.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: واذكر يوم يُعْرَضُ، وهذا العرض هو بالمباشرة، كما تقول: عرضت العود على الثار والجاني على السوط، والمعنى: يقال لهم: أذهبتم طيباتكم. وقرأ الجمهور على الخبر ولذلك حسنت الفاء بعد ذلك،

و«خَلَّتْ» معناه: مضت إلى الأرض الخلاء ومرّت أزمانها، وفي مصحف عبدالله رضي الله عنه: «وَقَدْ خَلَّتِ الثُّدْرُ مِنْ قَبْلِهِ وَبَعْدِهِ»، وروي فيه: «وَقَدْ خَلَّتِ الثُّدْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ بَعْدِهِ». و«الثُّدْرُ» جمع نذير، بناء اسم الفاعل.

وقولهم: «لِنَأْتِيَنَّكَ» معناه: لِنَتَضَرَّقْنَا، وقولهم: «فَأَيْنَا يَمَّا نَبِيدُنَا» تصميم على التكذيب، وتعجز منهم له في زعمهم.

المعنى: قال لهم هود عليه السلام: إن هذا الوعيد ليس من قبلي، وإنما الأمر لله تعالى، وعلم وقته عنده، وإنما عليّ أن أبلغ فقط. وقرأ جمهور الناس: «وَأَيُّفَكَرُ» بفتح الباء وشدّ اللام، قال أبو حاتم: وقرأ أبو عمرو في كل القرآن بسكون الباء وتخفيف اللام. و«أَنْزَكُوا قَوْمًا جَهْلُونَ» أي: مثل هذا من أمر الله تعالى، وتجهلون خلق أنفسكم.

والضمير في «رَأَوْهُ» يحتمل أن يعود على «العذاب»، ويحتمل أن يعود على الشيء المرئي الطالع عليهم، وهو الذي فسره قوله: «عَارِضًا»، وهو ما يعرض في الجوّ من السحاب الممطر، ومنه قول الأعشى:

يَا مَنْ رَأَى عَارِضًا قَدِيبْتُ أَرْقُبُهُ
كَأَنَّمَا الْبَرْقُ فِي حَافَاتِهِ الشُّعْلُ
وقال أبو عبيدة: العارض: الذي يرى في أقطار السماء عشيًا ثم يصبح من الغد قد استوى، وروي في معنى قوله تعالى: «مُسْتَقْبَلِ أَوْدِيَّتِهِمْ» أن

هؤلاء القوم كانوا قد قحطوا مدّة، فطلع عليهم هذا العارض على الهيئة والجهة التي كانوا يمتطرون بها أبدأ، جاءهم من قبيل واد لهم يسمونه المغيث، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ففرحوا به وقالوا: هذا عارض ممطرنا وقد كذب هودُ فيما أوعد به، فقال لهم هود عليه السلام: ليس الأمر كما رأيتم، بل هو ما استعجلتم به في قولكم: «فَأَيْنَا يَمَّا نَبِيدُنَا»، ثم قال: «رَبِّحْ فِيهَا عَدَابُ آلِيمٍ»، وفي قراءة ابن مسعود: «مُنْمَطِرُنَا قَالَ هُودٌ بَلْ هُوَ» بإظهار المقدر؛ لأن قراءة الجمهور هي كقوله تعالى: «يَدْعُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ»، أي: يقولون: سلام عليكم.

قال الزجاج: وقرأ قوم: «بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ» بضم التاء الأولى وكسر الجيم، و«رَبِّحْ» بدل من المبتدئ في قوله: «هُوَ مَا»، و«مُنْمَطِرُنَا» نعت لـ «عَارِضًا»، وهو نكرة إضافية غير محضة؛ لأن التقدير: ممطر لنا في المستقبل، فهو في حكم الانفصال، وقد مضى في غير هذه السورة قصص الرّيح التي هبّت عليهم، وأنها كانت تحمل الطعنة كجرادة.

و«تُدْبِرُ» معناه: تُهْلِكُ، والدُّمَارُ: الهلاك، ومنه قول جرير: وَكَانَ لَهُمْ كَبْكِرٌ تُمُودُ لَمَّا
رَغَا ظَهْرًا قَدَمْرَهُمْ دَمَارًا
وقوله تعالى: «كُلِّ سَنَةٍ» ظاهره العموم ومعناه الخصوص في كل ما أمرت بتدميره، وروي أن هذه الرّيح رمتهم أجمعين في البحر.

وقرأ حمزة، وعاصم: «لَا يُرَى» على بناء الفعل للمفعول «مَسْكَنُهُمْ» رفعا، التقدير: لا يرى شيء منها، وقرأ جمهور القراء: «لَا تَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ»، أي: لا ترى أيها المخاطب شيئا منهم، [وهي قراءة ابن مسعود، وعمرو بن ميمون، والحسن - بخلاف عنهما - ومجاهد، وعيسى، وطلحة]، وقرأ الحسن بن بن أبي الحسن، والجحدري، وقتادة، وعمرو بن ميمون، والأعمش، وابن أبي إسحق، وأبو رجاء، ومالك بن دينار - يعني بلا خلاف عنهما خاصة ممن ذكر: «لَا تَرَى» بالتاء المنقوطة من فوق مضمومة «إِلَّا مَسْكَنَهُمْ» رفعا، ورويت عن ابن عامر، وهذا نحو قول ذي الرّمة:

كَأَنَّهَا جَمَلٌ وَهَمٌّ وَمَا بَقِيَتْ
إِلَّا السُّجِيرَةُ وَالْأَلْوَاخُ وَالْعَصَبُ
ونحو قوله:

فَمَا بَقِيَتْ إِلَّا الضُّلُوعُ الْجَرَاشِعُ
وفي هذه القراءة استكراه، وقراءة الأعمش، وعيسى: «مَسْكَنُهُمْ» على الأفراد الذي هو اسم جنس، والجمهور على الجمع في اللفظة، ووجه الأفراد تصغير الشأن وتقريبه، كما قال تعالى: «مَنْ يَخْرُجْكُمْ يَفْقَلْ».

ثم خاطب تعالى قريشاً - على جهة الموعظة - بقول سبحانه: «وَلَقَدْ مَكَّنَّهُمْ يَمِينًا إِنْ» [مأ] بمعنى «الذي»، و«إِنْ» نافية وقعت مكان «ما» ليختلف اللفظ ولا يتصل [مأ] به «مأ»؛ لأن الكلام كأنه قال: في

بفتح الهمزة، وهي لغة في الإفك، وهما بمعنى الكذب، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ: ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بفتح الهمزة والفاء والكاف على الفعل الماضي، بمعنى: صرّفهم، وهي قراءة ابن عباس

رضي الله عنهما، وأبي عياض، وعكرمة، وحظلة بن الثعمان، وقرأ أبو عياض أيضاً وعكرمة - فيما حكى الثعلبي -: ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بشد الفاء وفتح الهمزة والكاف، وذلك على تعدية الفعل بالتضعيف، وقرأ عبدالله بن الزبير: ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بمد الهمزة وفتح الفاء والكاف على التعدية بالهمزة، قال الزجاج: جعلهم يأفكون، كما يقال: أكفّرهم، وقرأ ابن عباس رضي الله تعالى عنهما - فيما روى

قطرب - ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بهمزة مفتوحة ممدودة وفاء مكسورة وكاف مضمومة على وزن فاعل بمعنى: صارفهم، وحكى الفراء أنه يقرأ: ﴿أَفَكُكُمْ﴾ بفتح الهمزة والفاء وضم الكاف، وهي لغة في «الإفك»، والإشارة بـ [ذَلِكَ] على هذه القراءات التي ليست مصدراً يحتمل أن تكون إلى الأصنام، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانُوا بِفَتْرُونَ﴾ يحتمل أن تكون [مَا] مصدرية فلا تحتاج إلى عائد، ويحتمل أن تكون بمعنى «الذي» فهناك عائد محذوف تقديره: يفترونه.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ ابْتِدَاءً وَضَفَ قِصَّةَ الْحَنِّ وَوَفَادَتِهِمْ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، وَصَرَفْنَا﴾ معناه: رددتهم عن حال ما، ويحتمل أنها الاستماع في السماء، ويحتمل

سبويه، في دخول «مِن» في الجواب.

و ﴿وَحَاقٌ﴾ معناه: نزل ولزم، وهذا مستعمل في المكاره، والمعنى: جزاء ما كانوا به يستهزئون.

١٧١ - ١٧٢ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا مَا حَوْلَكَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾ مخاطبة لقريش على جهة التمثيل لهم بمأرب وسدوم وحجر ثمود، وقوله تعالى: ﴿وَصَرَفْنَا إِلَيْكَ﴾ يعني لهذه القرى المهلكة.

وقوله سبحانه: ﴿لَقَدْ لَأَ نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾ يعني: هلاً نصرتهم أصنامهم التي اتخذوها، و ﴿قُرْبَانًا﴾ إما أن يكون المفعول الثاني بـ ﴿اتَّخَذُوا﴾، و ﴿الْإِلَهَةِ﴾ بدل منه، وإما أن يكن حالاً و ﴿الْإِلَهَةِ﴾ المفعول الثاني، والمفعول الأول هو الضمير العائد على ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا﴾، والتقدير: اتخذوهم. وقوله تعالى: ﴿بَلْ سَأَلُوا عَنْهُمْ﴾ معناه: أتلفوا لهم حتى لم يجدوهم وفي وقت حاجة.

وقوله تعالى: ﴿وَذَلِكَ﴾ تختلف الإشارة به بحسب اختلاف القراءات في قوله سبحانه: ﴿إِن كُفِّرْهُمْ﴾ فقرأ الجمهور بكسر الهمزة وسكون الفاء وضم الكاف، والإشارة بـ [ذَلِكَ] - على هذه القراءة - إلى قولهم في الأصنام: إنها آلهة، وذلك هو اتخاذهم إياها آلهة، وكذلك هي الإشارة في قراءة من قرأ: ﴿أَفَكُكُمْ﴾

سورة الأحقاف

وَأِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصُرْنَا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُّذَرِّينَ ﴿١٧١﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مَوْسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٧٢﴾ يَقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ، يَعْبُدُكُمْ مِن دُونِهِ وَيُحَرِّكُمْ مِنْ عَذَابِ الْبَئِيسِ ﴿١٧٣﴾ وَمَنْ لَا يُحِبِّ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ، لَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٧٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَمْ يَكُنْ يَخْلُقْهُمْ يَتَّقِدِرْ عَلَىٰ أَنْ يَخْسِيَ الْمَوْتُونَ بَلَّحَ إِلَهُهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧٥﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٧٦﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولَٰؤُا الْعَزِيزِ مِنَ الرَّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ بَلَّغَ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٧٧﴾

سورة الأحقاف

٥٠٦

الذي ما مكثاكم، ومعنى الآية: ولقد أعطيناهم من القوة والغنى والبسطة في الأموال والأجسام ما لم نعظكم، ونالهم بسبب كفرهم هذا العذاب، فأنتم أحرى بذلك إذا كفرتم، وقالت فرقة: «إن» شرطية والجواب محذوف تقديره: الذي إن مكثاكم فيه طغيتم. وهذا تنطع في التأويل.

ثم عدد تعالى عليهم نعم الحواس والإدراك، وأخبر أنها لم تُغن حين لم تستعمل على ما يجب، و [مَا] نافية في قوله تعالى: ﴿مَا أَتَىٰ عَنْهُمْ﴾، ويُقَرَى ذلك دخول ﴿مِنَ﴾ في قوله سبحانه: ﴿مِنَ شَيْءٍ﴾، وقالت فرقة: [مَا] في قوله تعالى: ﴿مَا أَتَىٰ عَنْهُمْ﴾ استفهام بمعنى التقرير، و ﴿مِنَ شَيْءٍ﴾ - على هذا - تأكيد، وهذا على غير مذهب

أن تكون بُغدهم قبل الوفاة، وذلك بحسب الخلاف هنا، هل هم الوفد أو المُتَجَسِّسُونَ؟ وروي أن الجن كان قبل مبعث النبي ﷺ تسترق السَّمْع من السماء، فلَمَّا بُعِثَ النبي ﷺ حُرست بالشُّهب الرَّاجِمة، فضاعت الجنُّ ذرعاً بذلك، وأتى رأي مَلِيهِم على الافتراق في أقطار الأرض وطلب السبب الوجِب لهذا الرجم والمنع من استراق السَّمْع، ففعلوا ذلك.

واختلف الرواة بَعْدُ - فقالت فرقة: جاءت طائفة من الجنِّ إلى النبي ﷺ وهو لا يشعر، فسمعوا القرآن، وَوَلَّوْا إلى قومهم منذرين، ولم يعرف النبي ﷺ بشيء من ذلك حتى عرّفه الله تعالى بذلك كله، وكان سماعهم لقراءته وهو بنخلة عند سوق عكاظ وهو يقرأ في صلاة الفجر، وقالت فرقة: بل أشعره الله تعالى بوفادة الجنِّ عليه واستعد لذلك، ووفد عليه أهل نصيبين منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والتحرير في هذا أن النبي ﷺ جاءه جنٌّ دون أن يعرف بهم، وهم المتفرقون من أجل الرِّجم، وهذا قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ﴾ الآية، ثم بعد ذلك وفد عليه وفد وهو المذكور صرفه في هذه الآية، قال قتادة: صُرفوا إليه من نيتوى، وأشعر به قبل وروده، وقال الحسن: لم يشعر به، واختلف في عددهم اختلافاً متباعداً فاختصرته لعدم الصحة في ذلك، أما ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال: كانوا

سبعة نفر من أهل نصيبين، وقال زُرٌّ: كانوا تسعة فيهم زُوبعة، وروي في ذلك أحاديث عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، زُوي أن رسول الله ﷺ قال: «إني خارج إلى وفد الجن، فمن يتبعني؟» فسكت أصحابه، فقالها ثانية فسكتوا، فقال عبدالله: «أنا أتبعك»، قال: فخرجت معه حتى جاء شُعب الحَجْوَن فأدار لي دائرة وقال: «لا تخرج منها»، ثم ذهب عني، فسمعت لغطاً ودويّاً كدوي السُّور الكاسرة، ثم في آخر الليل جاء رسول الله ﷺ بعد أن قرأ عليهم القرآن وعلمهم، وأعطاهم زاداً في كل عظم وزُوبعة، فقال: «يا عبدالله، ما رأيت؟» قال: فأخبرته، فقال: «لقد كنت أخشى أن تخرج فيخطفك بعضهم»، قلت: يا رسول الله، سمعتُ لهم لغطاً، فقال: «إنهم تَدَارَوْوا في قتييل لهم فحكمتُ بالحق بينهم».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: واضطربت الروايات عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وروي عنه ما ذكرنا، وروي عنه أنه رأى رجالاً من الجن وهم شبه رجال الزُّط السود الطوال حين رآهم بالكوفة، وروي عنه أنه قال: ما شاهد أحدٌ مثلاً ليلة الجن مع رسول الله ﷺ، فاختصرت هذه الروايات وتطولها لعدم صحتها.

وقوله تعالى: ﴿نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾ يقتضي أن المصروفين رجال لا أنثى معهم، فالنفر والرَّهط والقوم: الذين لا أنثى فيهم، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبُوا﴾ فيه تأدب مع العالم وتعليم كيف يُتَعَلَّم. وقرأ

جمهور الناس: ﴿فُنِي﴾ على بناء الفعل للمفعول، وقرأ حبيب بن عبدالله بن الزبير، وأبو مجلز على بناء الفعل للفاعل، أي: قَضَى محمد ﷺ القراءة، وقال ابن عمر، وجابر ابن عبدالله رضي الله عنهم: قرأ عليهم سورة الرحمن عَزَّ وَجَلَّ، فكان إذا قال: ﴿فَيَأْتِي مَاءً رِيكًا تَكَذِّبَانِ﴾ قالوا: لا شيء من آلائك ربنا نكذب، ربنا لك الحمد، ولَمَّا وُلَّت هذه الجملة تفرقت على البلاد منذرة للجن، قاله قتادة: ما أسرع ما عقل القوم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهناك وقعت قصة سوادٍ وشِصَارٍ وخَنَافٍ وأشباهاها، صلى الله على محمد عبده ورسوله وسلم.

(٣٠) - (٣٣) تفسير قوله عز وجل: المعنى: قال هؤلاء المنذرون لَمَّا بلغوا قومهم: ﴿يَقَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ وهو القرآن العظيم، وخصصوا موسى ﷺ لأحد أمرين: إمَّا لأن هذه الطائفة من الجن كانت تتدين بدين اليهود، وإمَّا لأنهم كانوا يعرفون أن موسى عليه السلام قد ذكر محمداً ﷺ وبشَّر به، فأشاروا إلى موسى عليه السلام من حيث كان الأمر مذكوراً في توراته، وقال ابن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي: لم يكونوا علموا أمر عيسى عليه السلام، فلذلك قالوا: ﴿يُرَىٰ بَسْمِ مُوسَىٰ﴾، وقولهم: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيَّنَّتَ يَدَيَّ﴾ يؤيد هذا، وما بين يديه هو التوراة والإنجيل، و«الحق» و«الصُّراطُ المستقيم» هما بمعنى

متقارب، لكن من حيث اختلف اللفظ - وربما كان الحق أعم - وكان أحدهما قد يقع في مواضع لا يقع فيها الآخر، حَسُنَ التكرارُ.

و «داعي الله» هو محمد ﷺ، والضمير في ﴿بِهِ﴾ عائد على الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿يَقْفِرْ لَكُمْ﴾ معناه: يغفر الله لكم، وقوله: ﴿وَيُجْرِكُمْ﴾ معناه: يمنعكم ويجعل دونكم حفظة حتى لا يتالكم عذاب، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ الآية يحتمل أن يكون من كلام المنذرين، ويحتمل أن يكون من كلام الله تعالى لمحمد ﷺ، والمراد بها إسماع الكفار، وتعلق اللفظ إلى هذا المعنى من قول الجن: ﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾، فلمَّا حكى ذلك قيل: ﴿وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ﴾ فهو بحال كذا، و«المُعْجِز»: الذاهب في الأرض بدأ عجز طالبه ولا يقدر عليه، وزوي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ بزيادة «ميم».

وقوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾، الضمير لقريش، وهذه آية مثل واحتجاج؛ لأنهم قالوا: إن الأجساد لا يمكن أن تُبعث ولا تُعاد، وهم مع ذلك معترفون بأن الله تعالى خلق السموات والأرض فأقيمت عليهم الحجة من أقوالهم، و«الرؤية» في قوله تعالى: ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ رؤية القلب، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَمْ يَبَيِّنْ﴾ بسكون العين وفتح الياء الأخيرة، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿يَبَيِّنْ﴾ بكسر العين وسكون الياء، وذلك على حذف.

والباء في قوله تعالى: ﴿يَقْدِرُ﴾ زائدة مؤكدة، فمن حيث تقدم نفي في صدر الكلام حَسُنَ التأكيد بالباء، وإن لم يكن النَّفْيُ ما دخلت هي عليه، كما هو في قولك: «ما زيد بقائم»، كأن بدل ﴿أَوْلَمْ يَرَوْا﴾ «أَوْ لَيْسَ الَّذِي خَلَقَ»، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، والجمهور: ﴿يَقْدِرُ﴾، وقرأ الجحدري، والأعرج - بخلاف - وعيسى، وعمرو بن عبيد: ﴿يَقْدِرُ﴾ بالياء، على فعل مستقبل، ورجحها أبو حاتم وغلط قراءة الجمهور لقلق الباء عنده، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَلَمْ يَغِي بِخَلْقِهِنَّ قَائِرٌ﴾ بغير ياء، و﴿بِكَلِّ﴾ جواب بعد النفي المتقدم، فهو إيجاب لِمَا نَفِي، والمعنى: بل رأوا ذلك، أي: لو نفهم ووقع في قلوبهم. ثم استأنف لفظ الإخبار المؤكد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾.

﴿٣٤﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: واذكر يوم، وهذا وعيد للكفار من قريش وسواهم، و«العَرْضُ» - في هذه الآية - عرض مباشرة، كما تقول: عرضت الجاني على السوط، والمعنى: يقال لهم: أليس هذا العذاب حقًا وقد كنتم تكذبون به؟ فيجيبون: بلى وربنا، فذلك تصديق حيث لا ينفع، وزوي عن الحسن أنه قال: إنهم ليعذبون في النار وهم راضون بذلك لأنفسهم، فيعترفون أنه العدل، فيقول لهم المحاور من الملائكة عند ذلك: ﴿قَدَرُوا الْقَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تُكْفِرُونَ﴾ أي: بسبب كفركم.

وقوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ﴾، الفاء عاطفة هذه الجملة من الوصاة على هذه الجملة من الأخبار عن حال الكفرة في الآخرة، والمعنى بينهما، مرتبط، أي: هذه حالهم مع الله تعالى فلا تستعجل أنت فيما حُمِلتَ، واصبر له، ولا تخف في الله أحدًا. وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الرُّسُلُ﴾ تبغيض، والمراد من خُفِظت له مع قومه شدة ومجاهدة كنوح وإبراهيم وموسى وغيرهم صلى الله عليهم وسلم، هذا قول عطاء الخراساني وغيره، وقال ابن زيد ما معناه أن ﴿يَنْزِلُ﴾ لبيان الجنس، قال: والرُّسُلُ عليهم الصلاة والسلام كلهم أولوا عزم، ولكن قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلَا الْعَزِيزِ﴾ يتضمن رسلاً وغيرهم، فبيِّن بعد ذلك جنس الرُّسُل خاصة تعظيماً لهم، ولتكون القدوة المضروية لمحمد ﷺ أشرف، وذكر الشعلبي هذا القول عن علي بن مهدي الطبري، وحكي عن أبي القاسم الحكيم أنه قال: الرُّسُلُ عليهم السلام كلهم أولوا عزم إلا يونس عليه السلام، وقال الحسن بن الفضل: هم الثمانية عشر المذكورون في سورة الأنعام؛ لأنه تبارك وتعالى قال بعقب ذكرهم: ﴿أَوْلَيْكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَيُهْدِيهِمْ فَأَنَّكَ﴾، وقال مقاتل: هم ستة: نوح ﷺ صبر على أذى قومه طويلاً، وإبراهيم ﷺ صبر على النار، وإسحق ﷺ صبر نفسه في الذبح، ويعقوب ﷺ صبر على الفقد لولده وعمى بصره وقال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾، ويوسف ﷺ صبر على السجن،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
 الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿١﴾ وَالَّذِينَ
 ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَءَامَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَيْنَا مِنْ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ
 رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْحَابُ الْكَلِمِ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 اتَّبَعُوا الْبَطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ
 اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَلَهُمْ ﴿٣﴾ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبِ الرِّقَابِ حَقٌّ
 إِذَا اتَّقْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوُكُوفَ فَإِمَّا مَأْتِبَةً وَإِمَّا مَبْرَأَةَ مِنَ الَّذِينَ
 أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْصَرَمْتُمْ وَلَكِنْ لَسَبَلُوا بِبَعْضِكُمْ
 بَعْضًا وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُعْطِلَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيِّئَاتِهِمْ
 وَيُضْرَبُ بِالْكَلِمِ ﴿٥﴾ وَيُعْطَى لَهُمُ الْعُقُوتُ عَرَفْتُمْ لِمَ قَاتَلْنَا الَّذِينَ
 ءَامَنُوا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُكُمْ وَبَيِّنَاتٍ آتَيْنَاكُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
 قَتَلْتُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٦﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ
 فَأَحْطَبُ أَعْمَالَهُمْ ﴿٧﴾ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ فِي الْأَرْضِ فَظَنُّوا كَيْفَ
 كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَرَأْنَاهُمْ عَنْكُمْ وَاللَّكْفِيرِينَ أَمْثَلَهُمْ ﴿٨﴾
 ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ ءَامَنُوا وَأَنَّ الْكُفْرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ﴿٩﴾

٥٧

المعنيين في قراءة الرفع،
 وليس يدخلها قول أبي
 مجلز، ونصبها بفعل
 مضمر، وقرأ أبو مجلز،
 وأبو سراج الهذلي:
﴿بَلِّغْ﴾ على الأمر، وقرأ
 الحسن بن أبي الحسن:
﴿بِلاغ﴾ بالخفض نعتاً
 للنهار.

وقرأ جمهور الناس:
﴿فَهَلْ يَهْلِكُ﴾ على بناء
 الفعل للمجهول، وقرأ
 بعضهم - فيما حكى
 هارون -: **﴿فَهَلْ يَهْلِكُ﴾**
 على بناء الفعل للفاعل
 وكسر اللام، وحكاها أبو
 عمرو عن الحسن وابن

محيصن، وقرأ ابن محيصن أيضاً
 بفتح الياء واللام، قال أبو الفتح:
 وهي مرغوب عنها، وروى زيد بن
 ثابت عن النبي ﷺ: **﴿فَهَلْ يَهْلِكُ﴾**
 بضم الياء وكسر اللام **﴿إِلَّا الْقَوْمُ
 الْفَاسِقِينَ﴾** بالنصب.

وفي هذه الآية وعيد محض وإنذار
 بين، وذلك أن الله تعالى جعل
 الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة
 بمثلها، وأمر بالطاعة ووعد عليها
 بالجنة، ونهى عن الكفر وأوعد عليه
 بالنار، **﴿فَلَنْ يَهْلِكَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا
 هَالِكٌ﴾** كما قال ﷺ، قال الثعلبي:
 يقال: إن قوله تعالى: **﴿فَهَلْ يَهْلِكُ
 إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾** أرجى آية في
 كتاب الله تعالى للمؤمنين.

كامل تفسير سورة الأحقاف
 والحمد لله رب العالمين

وأيوب ﷺ صبر على البلاء.
 قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
 وانظر أن النبي ﷺ قد قال في موسى
 عليه السلام: «يرحم الله موسى،
 أؤذي بأكثر من هذا فصبره، ولا
 محالة أن لكل نبي ورسول عزمًا
 وصبرًا، صلى الله عليهم وسلم.
 وقوله تعالى: **﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ لِمَنْ﴾**
 معناه: لا تستعجل لهم عذاباً فإنهم
 إليه صائرون، ولا تستطل تعميرهم
 في هذه النعمة فإنهم يوم يرون
 العذاب كأنهم لم يلبثوا في الدنيا
 إلا ساعة، لاحتقارهم ذلك؛
 لأن المنقضي من الزمان إنما يصير
 عَدَمًا، فكثيره الذي ساءت عاقبته
 كالقليل.

وقرأ أُبَيُّ بن كعب رضي الله عنه:
﴿إِلَّا سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾، وقرأ جمهور
 الناس: **﴿بَلِّغْ﴾**، وذلك يحتمل
 معاني: أحدها أن يكون خبر ابتداء،
 المعنى: هذا بلاغ، وتكون الإشارة بـ
﴿هَذَا﴾ إما إلى القرآن والشَّرع،
 أي: هذا إنذارٌ وتبليغ، وإمّا إلى
 المدة التي تكون كساعة من نهار،
 كأنه تعالى قال: لم يلبثوا إلا ساعة
 كانت بلاغهم، وهذا كما تقول:
 «متاع قليل» ونحوه من المعنى،
 والثاني: أن يكون ابتداء والخبر
 محذوف، والثالث: ما قاله أبو
 مجلز، فإنه كان يقف على قوله
 تعالى: **﴿وَلَا تَسْتَعْجِلْ﴾**، ويقول:
﴿بَلِّغْ﴾ ابتداءً وخبره مقدم في قوله
 تعالى: **﴿لَهُمْ﴾**، وقدح الناس في
 هذا القول بكثرة الحائل، وقرأ
 الحسن بن أبي الحسن، وعيسى:
﴿بِلاغًا﴾، وهي قراءة تحتمل

تفسير

سورة محمد

هذه السورة مدنية بإجماع، غير أن
 بعض الناس قال في قوله تعالى:
**﴿وَكَيْفَ مِنْ قَرَيْبٍ هِيَ أَسَدٌ قُوَّةٌ مِنْ قَرَيْبِكَ
 آتِيَةٌ أَخْرَجَتْكَ﴾** الآية: إنها نزلت بمكة
 في وقت دخول النبي ﷺ فيها عام
 الفتح أو سنة الحديبية، وما كان مثل
 هذا فهو معدود في المدني؛ لأن
 المراعى في ذلك إنما هو ما كان قبل
 الهجرة أو بعدها.

① - ② تفسير قوله عز وجل:
 قوله تعالى: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾**
 الآية... إشارة إلى أهل مكة الذين
 أخرجوا رسول الله ﷺ، وقوله
 تعالى: **﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا﴾** الآية...
 إشارة إلى الأنصار أهل المدينة الذين

أوه، وفي الطائفتين نزلت الآية، قاله ابن عباس، ومجاهد. ثم هي بعد تعم كل من دخل تحت ألفاظها. وقوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يريد الفعل المجاوز فيكون المعنى: وصدوا غيرهم، ويحتمل أن يكون الفعل غير متعد فيكون المعنى: وصدوا أنفسهم، و«سَبِيلُ اللَّهِ»: شرعه وطريقه الذي دعا إليه، وقوله تعالى: ﴿أَصْحَابُ أَعْيُنِهِمْ﴾ أي: أئلفها، لم يجعل لها غاية خير ولا نفعاً، وروي أن هذه الآية نزلت بعد بدر، وأن الإشارة بقوله: ﴿أَصْحَابُ أَعْيُنِهِمْ﴾ هي إلى الإنفاق الذي أنفقوه في سفرهم إلى بدر، وقيل: المراد بالأعمال أعمالهم البرّة في الجاهلية، من صلة الرحم ونحوه، واللفظ يعم جميع ذلك.

وقرأ الناس: ﴿زُنُزٌ﴾ بضم النون وشذ الزأي، وقرأ الأعمش: ﴿أَنْزَلٌ﴾ معدى بالهمزة، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْلَحَ بِكُلِّ قَوْمٍ﴾ قال قتادة: معناه: حالهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أمرهم، وقال مجاهد: شأنهم، وتحرير التفسير في اللفظة أنها بمعنى الفكر والموضع الذي فيه نظر الإنسان وهو القلب، فإذا صلح ذلك فقد صلحت حاله، فكأن اللفظة مشيرة إلى إصلاح عقيدتهم، وغير ذلك من الحال تابع، فقولك: «خطر في بالي كذا» وقولك: «أصلح الله بالك»، المراد بهما واحد، ذكره المبرد، و«أَبَالٌ» مصدر كالحال والشأن، ولا يستعمل منهما فعل، وكذلك عُرفه ألا يُثْنَى

ولا يُجمع، وقد جاء مجموعاً ولكنه شاذ؛ فإنهم قالوا: بالات.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ الآية، الإشارة إلى الأفعال التي ذكر الله تعالى أنه فعلها بالكفار وبالمؤمنين، و«الباطل»: الشيطان وكل ما يأمر به، قاله مجاهد، و«الحَقُّ» هنا هو الشُّرع ومحمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ إشارة إلى الاتباع المذكور من الفريقين، أي: كما أتبعوا على هذين السبيلين كذلك يبين أمر كل فرقة، ويجعل لها ضرباً من القول وصفناً، وضرب المثل مأخوذ من الضرب والضرب الذي هو بمعنى النوع.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس، وقاتدة، وابن جريج، والسدي، والضحاك: إن هذه الآية منسوخة بآية السيف التي في (براءة): ﴿تَأْتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وإن الأسر والمن مع الفداء مرتفع، فمتى وقع أسر فإنما معه القتل ولا بد، وروي نحوه عن أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه، وقال ابن عمر، وعمر بن عبدالعزيز رضي الله عنهم، وعطاء ما معناه: إن هذه الآية مُحكمة مُبَيَّنة لتلك، والمن والفداء ثابت، وقد من رسول الله ﷺ على ثمامة بن أثال، وفادى أسرى بدر، وقاله الحسن، وقال: لا يقتل الأسير إلا في الحرب، يهيب بذلك على العدو، وكان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه يفادي رجلاً برجل، ومنع الحسن أن يفادوا بالمال، وقد

أمر عمر بن عبدالعزيز بقتل أسير من الترك ذكر أنه قتل مسلمين، وقالت فرقة: هذه الآية خصصت من الأخرى بأهل الكتاب فقط، فيهم المن والفداء، وعُباد الأوثان ليس فيهم إلا القتل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعلى قول أكثر العلماء الآياتان مُجكمتان، وقوله تعالى هنا: ﴿فَضْرِبَ الرِّجَالَ﴾ بمثابة قوله تعالى هنالك: ﴿تَأْتَلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ﴾، وصرح هنا بذكر المن والفداء، ولم يصرح به هناك وهو أمر مقرر، وهذا هو القول القوي.

وقوله تعالى: ﴿فَضْرِبَ الرِّجَالَ﴾ مصدر بمعنى الفعل، أي: فاضربوا رقابهم، وعين من أنواع القتل أشهره وأعرفه فذكره، والمراد: اقتلوهم بأي وجه أمكن، وقد زادت آية أخرى: ﴿وَأَضْرِبُوا يَدَيْهِمْ كُلَّ يَدٍ﴾، وهي من أنكى ضربات الحرب لأنها تعطل من المضروب جميع جسده؛ إذ البنان أعظم آلة المقاتل وأصلها. و«أَضْرِبُوا» معناه: بالقتل، و«الإِثْخَانُ» في القوم أن يكثر فيهم القتلى والجرحى، والمعنى: فشدوا الوثاق بمن لم يقتل ولم يترتب فيه إلا الأسر، و«يَدًا» مصدران منصوبان بفعلين مضميرين. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَدًا»، وقرأ شبل عن ابن كثير: ﴿فَدَى»، مقصوراً.

وإمام المسلمين مخير في أسراه في خمسة أوجه: القتل أو الاسترقاق أو ضرب الجزية أو المن أو الفداء، وترجع النظر في أسير أسير بحسب

حاله من إذابة المسلمين أو ضد ذلك.

وقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَصَعَ كَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ معناه: حتى تذهب وتزول أثقالها، و«الأوزار» - جمع وزر - الأثقال فيها والآلات لها، ومنه قول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

وَأَعْذَدْتُ لِلْحَرْبِ أَوْزَارَهَا
رِمَاحاً طَوَّالاً وَخَيْلًا ذُكُوراً
وقال الثعلبي: قيل: الأوزار في هذه الآية الأثام، جمع وزر؛ لأن الحرب لا بد أن يكون فيها آثام في أحد الجانبين.

واختلف المتأولون في الغاية التي عندها تضع الحرب أوزارها - فقال قتادة: حتى يسلم الجميع فتضع الحرب أوزارها، وقال حذاق أهل النظر: حتى تغلبوهم وتقتلوهم، وقال مجاهد: حتى ينزل عيسى ابن مريم عليهما السلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وظاهر اللفظة أنها استعارة يراد بها التزام الأمر أبداً، وذلك أن الحرب بين المؤمنين والكافرين لا تضع أوزارها، فجاء هذا اللفظ كما تقول: أنا أفعل كذا وكذا إلى يوم القيامة، فإنما تريد أن تفعله دائماً.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ تقديره: الأمر ذلك، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ بَشَاءَ اللَّهِ لَانْتَصَرْتُمْ﴾ أي: بعذاب من عنده يهلكهم به في حين واحد، لكنه تعالى أراد اختبار المؤمنين، وأن يبلو بعض الناس ببعض. وقرأ جمهور القراء: ﴿قَاتِلُوا﴾، وقرأ عاصم، والجحدري - بخلاف عنه - : ﴿قَاتِلُوا﴾ بفتح القاف والتاء، وقرأ أبو

عمرو، وحفص عن عاصم، والأعرج، وقتادة، والأعمش: ﴿قَاتِلُوا﴾ بضم القاف وكسر التاء، وقرأ زيد بن ثابت، والحسن، والجحدري، وعيسى، وأبو رجاء هكذا وشددوا التاء، والقراءة الأولى أعماها وأوضحها معنى.

قال قتادة: نزلت هذه الآية فيمن قُتل يوم أحد، وقوله تعالى: ﴿سَيَسْأَلُونَكَ﴾ أي: إلى طريق الجنة، وقد تقدم القول في إصلاح البال، وقد روى عباس بن الفضل عن أبي عمرو: ﴿يُدْخِلُهُمْ﴾ بسكون اللام، وفي التغابن ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ﴾، وفي سورة الإنسان ﴿إِنَّمَا نَطْعِنُكُمْ﴾ بسكون الطاء والميم.

وقوله تعالى: ﴿عَرَفْنَاكُمْ﴾، قال أبو سعيد الخدري، وقتادة، ومجاهد: معناه: بيننا لهم، أي: جعلهم يعرفون منازلهم منها، وفي نحو هذا المعنى قول النبي ﷺ: ﴿لَأُحَدِّثُكُمْ بِمَنْزِلِهِ فِي الْجَنَّةِ أَعْرَفَ مِنْهُ بِمَنْزِلِهِ فِي الدُّنْيَا﴾، وقالت فرقة: معناه: سُمَّاها لهم ووسمها كل منزل باسم صاحبه، فهذا نحو من التعريف، وقالت فرقة: معناه: شرفها لهم ورفعها وعلاها، وهذا من الأعراف التي هي الجبال وما أشبهها، ومنه أعراف الخيل، وقال مؤرج وغيره: معناه: طيبها، مأخوذ من العرف، ومنه طعام معرف، أي: مُطَيَّب، وعرفت القندر، أي: طيبتها بالملح والتوابل.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَصْرَفُوا لِلَّهِ فِيهِ﴾ حذف مضاف، أي: ديسن الله ورسوله، والمعنى: تنصروه بجدكم وإيمانكم، ينصركم بخلق القدرة لكم

والجرأة وغير ذلك من المعارف. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيَبِّتْ﴾ بفتح الثاء المثناة وشد الباء، وقرأ المفضل عن عاصم: ﴿وَيُثْبِتْ﴾ بسكون الثاء وتخفيف الباء، وهذا الثبیت هو في مواطن الحرب على الإسلام، وقيل: على الصراط في القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَتَعَسَّأَلُمْ﴾ معناه: عثاراً لهم وهلاكاً، وهي لفظة تقال للكافر، ومنه قول الشاعر:

يَا سَيِّدِي إِنْ عَشَرْتُ خَذَّ بِيَدِي
وَلَا تَقُلْ لَّا وَلَا تَقُلْ تَعَسَّأَلُمْ
وقال الأعشى في هذا المعنى:

بِذَاتِ لَوْثٍ عَفْرَنَاءَ إِذَا عَشَرْتُ
فَالْتَعَسَّأَلْتُ أَنَّى لَهَا مِنْ أَنْ أَقُولَ: لَعَا
ومنه قول أم مسطح لما عثرت في مرطها: تَعَسَّأَلْتُ، وقال ابن السكيت: التَعَسَّأَلُ: أَنْ يُجَرَّ عَلَى وَجْهِهِ، وَفَتَعَسَّأَلُ: مَصْدَرٌ نَصَبَهُ فَعَلَ مَضْرُومٌ.

وقوله تعالى: ﴿كُرْهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ يريد القرآن، وقوله سبحانه: ﴿فَأَحْطَ أَهْلُكُمْ﴾ يقتضي أن أعمالهم في كفرهم التي هي برُّ مقيدة محفوظة، ولا خلاف أن للكفار حفظة يكتبون سيئاتهم، واختلف الناس في حسناتهم - فقالت فرقة: هي مُلغاة، يشابون عليها بنعيم الدنيا فقط، وقالت فرقة: هي مُحصاة من أجل ثواب الدنيا، ومن أجل أن [الكافرين] قد يسلم فيضاد ذلك إلى حسناته في الإسلام، وهذا أحد التأويلين في قول النبي ﷺ لحكيم بن حزام: «أسلمت على ما أسلفت من خير»، فقوم قالوا: تأويله: أسلمت على أن يُعَدَّ لك ما سلف من خير، وهذا هو

كفره، فكان القول يَمُرُّ صفحاً، فإذا خرج قال: ﴿مَاذَا قَالَ آيَاتًا؟﴾ وهذا أيضاً فيه ضرب من الاستخفاف لأنه كان يصرح أنه يقصد الإعراض وقت الكلام، ولو لم يكن ذلك بقصد لم يعد أن يجري على بعض المؤمنين، وروي أن ابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهما يَمُنُّ سِئِلَ هذا السؤال، حكاه الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما. و﴿آيَاتًا﴾ معناه: مبتدأ، كأنه قال: ما القول الذي اثْتَفَقَ الآن قبل انفصالنا عنه؟ وقرأ الجمهور: ﴿آيَاتًا﴾ على وزن فاعل، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿أَيَاتًا﴾ على وزن فِئَل، وهما اسما فاعل من «اثْتَفَقَ»، وَجَرِيًا على غير فعلهما، ولم يُسْتَعْمَل فعلهما، وهذا كما جرى «فقير» على «افْتَقَرَ» ولم يستعمل «فقر»، وهذا كثير، والمفسرون يقولون: ﴿آيَاتًا﴾ معناه: الساعة الماضية القريبة بمآ، وهذا تفسير بالمعنى.

ثم أخبر تبارك وتعالى أنه طبع على قلوب هؤلاء المنافقين الفاعلين لهذا، وهذا الطبع يحتمل أن يكون حقيقة ويحتمل أن يكون استعارة، وقد تقدّم القول فيه.

(٧) - (١٦) تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا ذَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُنَافِقِينَ بِمَا هُمْ أَهْلُهُ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَمْرَهُمْ﴾ عَقِبَ بِذِكْرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَبَيَّنَ الْفَرْقَ، وَشَرَّفَهُمْ بِإِسْنَادِ فِعْلِ الْاِهْتِدَاءِ إِلَيْهِمْ، وَهِيَ إِشَارَةٌ إِلَى تَكْسِبِهِمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَادَهُمْ هُكْدَى﴾

يريد به أن يكون كذلك في المستقبل، فنفي ذلك في الآية، وقرأت فرقة: ﴿هُجَيْرٌ يَسِينُ﴾ بالياء، قال أبو علي: وذلك على تخفيف الهمز، قال أبو حاتم عن عوف: كذلك كانت في المصحف ﴿هُجَيْرٌ يَسِينُ﴾ فغَيَّرَهَا الْحِجَاجُ.

وقوله تعالى في اللبِن: ﴿لَدَّ يَنْتَعَرُ طَمَعًا﴾ نفى لجميع وجوه الفساد في اللبِن، وقوله تعالى: ﴿لَدَّ لَشَّرِيَيْنَ﴾ جمعت طيب المطعم وزوال الآفات من الصداق وغيره، و﴿لَدَّ﴾ نعت على النسب، أي: ذات لذة، وتصفيّة العسل مُذْهِبَةٌ لُبُوسَتَهُ وَضَرَرَهُ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْ كَلِّ الشَّرَاتِ﴾ أي: من هذه الأنواع، لكنها بعيدة الشبه إذ تلك لا عيب فيها ولا تَعَبٌ بِوَجْهِهِ. وقوله تعالى: ﴿وَمَنْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ معناه: وتنعيم أعطته المغفرة وسببته؛ وإلا فالمغفرة إنما هي قبل الجنة. وقوله تعالى: ﴿رَسُوًا﴾ الضمير عائد على ﴿مَنْ﴾ لأن المراد به جمع.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَعِجُ إِلَيْكَ﴾ يعني بذلك المنافقين من أهل المدينة، وذلك أنهم كانوا يحضرون عند النبي ﷺ وتلاوته، فإذا خرجوا قال بعضهم لمن شاء من المؤمنين الذين علموا وانتفعوا: ﴿مَاذَا قَالَ آيَاتًا؟﴾ فكان منهم من يقول هذا استخفافاً، أي: ما معنى ما قال؟ وما نفعه؟ وما قدره؟ ومنهم من يقول ذلك جهلاً ونسياناً لأنه كان في وقت الكلام مقبلاً على فكرته في أمر دنياه وفي

ومثالها، أو في الكلام حذف يقتضيه الظاهر، كأنه تعالى يقول: مثل الجنة يَبَيِّنُ ظَاهِرَ فِي نَفْسٍ مِنْ وَعَى هَذِهِ الْأَوْصَافِ. وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿بِقَالَ الْجَنَّةِ﴾، وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَمْثَالَ الْجَنَّةِ﴾، وعلى هذه التأويلات كلها ففي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ هُوَ وَخَلَدٌ﴾ حذف تقديره: أساكن هذه؟ أو تقديره: أهولاء؟ إشارة إلى المتقين، ويحتمل عندي أن يكون الحذف في صدر الآية، كأنه تعالى قال: أيكون مثل هذه الجنة كمن هو خالد في النار؟ ويكون قوله مستفهماً عنه بغير ألف استفهام، فالمعنى: أمثل أهل الجنة - وهي بهذه الأوصاف - كمن هو خالد في النار؟ فتكون الكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ﴾ مؤكدةً للتشبيه، ويجيء قوله تعالى: ﴿فِيهَا أَنْتَرٌ﴾ في موضع الحال على هذا التأويل.

و﴿مَاءٌ غَيْرٌ آسِينُ﴾ معناه: غير متغير، قاله ابن عباس، وقشادة، وسواء أُنْتَنَ أو لم ينتن، يقال: أَسْنُ الْمَاءِ - بفتح السين - وآسِينُ - بكسرها -، وقرأ جمهور القراء: ﴿آسِينُ﴾ على وزن فاعِلٍ، وقرأ ابن كثير: ﴿آسِينُ﴾ على وزن فِئَلٍ، وهذه قراءة أهل مكة، والآسِينُ: الذي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنْ رِيحٍ مُنْتَنَةٍ مِنْ مَاءٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

الشَّارِكُ الْقُرُونُ مُضْفَرًا أُنَامِلُهُ
يَبِيلُ فِي الرُّمَحِ مَيْلُ الْمَائِحِ الْأَسْنِ
وقال الأخفش: «آسِينُ» لغة، والمعنى الإخبار به عن الحال، ومن قال: «آسِينُ» على وزن فاعل فهو

أن يكون الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ الله تعالى، والزيادة في هذا المعنى تكون إما بزيادة التفهيم والأدلة، وإما بورود الشرائع والأوامر والنواهي والأخبار، فيزيد الاهتداء لِتَرْيُدِ عِلْمَ ذَلِكَ وَالْإِيمَانَ بِهِ، وذلك بفضل الله تعالى، ويحتمل أن يكون الفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ قَوْلُ الْمُنَافِقِينَ، واضطرابهم؛ لأن ذلك مما يتعجب المؤمن منه، ويحمد الله تعالى على إيمانه، ويتزيّد بصيرة في دينه، فكأنه تعالى قال: والمهتدون المؤمنون زادهم فعل هؤلاء المنافقين هُدًى، أي: كانت الزيادة بسببه فأسند الفعل إليه، وقالت فرقة: إن هذه الآية نزلت في قوم من النصراري آمنوا بمحمد ﷺ، فالفاعل في ﴿زَادَهُمْ﴾ محمد عليه الصلاة والسلام، أي: كان سبب الزيادة فأسند الفعل إليه، وقوله تعالى - على هذا القول -: ﴿أَمْتَدُوا﴾ يريد تعالى: في إيمانهم بعيسى عليه السلام، ثم زادهم محمد ﷺ هدى حين آمنوا به، والفاعل في ﴿وَأَنَّهُمْ﴾ يتصرف القول فيه بحسب التأويلات المذكورة، وأقواها أن الفاعل الله تعالى، و﴿أَنَّهُمْ﴾ معناه: أعطاهم، أي: جعلهم متقين له، والتقدير: تقواهم إياه، وقرأ الأعمش: ﴿وَأَنطَاهُمْ﴾، وهي بمعنى أعطاهم، ورواها محمد بن طلحة عن أبيه، وهي في مصحف عبدالله.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ﴾ يريد المنافقين، والمعنى: ينتظرون، أي: هكذا هو الأمر في

نفسه وإن كانوا هم في أنفسهم ينتظرون غير ذلك، فإن ما في أنفسهم غير مراعى لأنه باطل. وقرأ جمهور القراء: ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ﴾، فـ ﴿أَن﴾ بدل من ﴿السَّاعَةِ﴾، وقوله تعالى - على هذه القراءة -: ﴿فَقَدَّ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ إخبار مستأنف، والفاء عاطفة جملة من الكلام على جملة. وقرأ أهل مكة - فيما روى الرؤاسي -: ﴿إِن تَأْتِيَهُمْ﴾ بكسر الألف وجزم الفعل على الشرط، والفاء في ﴿فَقَدَّ﴾ جواب الشرط، وليست بعاطفة على نحو ما في القراءة الأولى فَمَنْ نحو من معنى الشرط، و﴿بَعَثَهُ﴾ معناه: فجأه، وروي عن أبي عمرو: ﴿بَعَثَهُ﴾ بفتح الغين وشد التاء، وقوله تعالى: ﴿فَقَدَّ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ - على القراءةتين - معناه: فينبغي أن يقع الاستعداد والخوف منها لمن حزم ونظر لنفسه، والذي جاء من أشراطها محمد عليه الصلاة والسلام لأنه آخر الأنبياء، فقد بان من أمر الساعة قدر ما، وفي الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: ﴿أنا من أشراط الساعة﴾، وقال عليه الصلاة والسلام: ﴿بعثت أنا والساعة كهاتين﴾ وأشار بإصبعه «وكفرتي رهان»، ويقال: شَرَطَ أو أشراط بسكون الراء وتخفيفها، وأشَرَطَ الرجل نفسه: ألزمها أموراً، وقال أوس بن حجر:

فَأَشْرَطَ فِيهَا نَفْسَهُ وَهُوَ مُعْصِمٌ
وَأَلْفَى بِأَسْبَابِ لَهُ وَتَوَكَّلَا
وقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ لَهُمُ﴾ الآية يحتمل أن يكون المعنى: فأتى

لهم الخلاص أو النجاة إذا جاءتهم الذكري بما كانوا يُخْبِرُونَ به في الدنيا فيكذبون به ويكون جاءهم العذاب مع ذلك؟ ويحتمل أن يكون المعنى: فأتى لهم ذكراهم وعملهم بحسبها إذا جاءتهم الساعة؟ وهذا تأويل قتادة، ونظيره ﴿وَأَنَّ لَهُمُ النَّوْأُسُ مِنْ مَّكَانٍ بِعِيْرٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَاعَلَّ أَنْهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ﴾ الآية إضراب عن أمر هؤلاء المنافقين ذكر الأهم من الأمر، والمعنى ذم على ذلك، وهذا هو القانون في كل مَنْ أَمَرَ بِشَيْءٍ هُوَ مُتَّبَسُّ بِهِ، وهذا خطاب للنبي ﷺ، وكل واحد من الأمة داخل فيه، واحتج بهذه الآية من قال من أهل السنة: إن العلمَ النَّظْرُ قبل القول والإقرار في مسألة أول الواجبات، ويؤب البخاري رحمه الله تعالى: العلم قبل القول والعمل لقوله تعالى: ﴿فَاعَلَّ أَنْهَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، و﴿اسْتَغْفِرُ لِذَنْبِكَ﴾ الآية، واجب على كل مؤمن أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، وروى أبو هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من لم يكن عنده ما يتصدق به فليستغفر للمؤمنين والمؤمنات فإنها صدقة»، وقال الطبري وغيره: ﴿مَنْكُمُ﴾: تصرفكم في يقظتكم، ﴿وَمَنْكُمُ﴾: في منامكم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مَنْكُمُ﴾: تصرفكم في حياتكم الدنيا، ﴿وَمَنْكُمُ﴾: إفاقتكم في قبوركم وفي آخرتكم.

﴿٢٠﴾ - ﴿٢٣﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا ابتداء وصف حال المؤمنين في جدهم في دين الله تعالى وحرصهم على ظهوره، وحال المنافقين من الكسل والفشل والحرص على فساد الدين وأهله، وذلك أن المؤمنين كان حرصهم يبعثهم على تمني الظهور وتمني قتال العدو وفضيحة المنافقين ونحو ذلك مما هو ظهور للإسلام، فكانوا يأتسون بالوحي ويستوحشون إذا أبطأ، والله تعالى قد جعل كل ذلك بآمادٍ مضرورية وأوقات لا تتعدى، فمدح الله تعالى المؤمنين بحرصهم. وقولهم: ﴿لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ﴾ معناه: تتضمن إظهارنا وأمرنا بمجاهدة العدو ونحوه.

ثم أخبر تعالى عن حال المنافقين عند نزول القتال، وقوله سبحانه: ﴿مُخَيَّبَةٌ﴾ معناه: لا يقع فيه نسخ، وبهذا خصص «السورة» بالإحكام، وأما الإحكام الذي هو بمعنى الإقتان فالقرآن كله سواء فيه، وقال قتادة: كل سورة فيها القتال فيه مُحْكَمَةٌ، هو أشد القرآن على المنافقين، وهذا أمر استقراره قتادة من القرآن، وليس من تفسير هذه الآية في شيء، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿سُورَةٌ مُخَيَّبَةٌ﴾. «المرض الذي في القلوب» استعارة لفساد المعتقد، وحقيقة المرض والصحة في الأجسام وتُسْتَعَارُ المعاني، وَنَظَرَ الخائف المَوْلَةَ قَرِيبٌ من نظر المغشي عليه، وخشيتهم هذه للوصف والتشبيه.

قوله تعالى: ﴿فَأَوَّلُ لَهْمٍ﴾ الآية، ﴿أَوَّلُ﴾ وزنها أفعال، وهو مِن وَيْلِكَ الشيء يَلِيكَ، وقالت فرقة: وزنه

أفْلَع، وفيه قلب لأنه مشتق من الويل، والمشهور من استعمال «أوّلَى» أنك تقول: هذا أوّلَى بك من هذا، أي: أحقّ، وقد تستعمل العرب «أوّلَى لَكَ» فقط، على جهة الحذف والاختصار لما معها من القول، فتقول على جهة الرّجْز والتّوَعُد: «أوّلَى لك يا فلان»، وهذه الآية من هذا الباب، ومنه قوله تعالى: ﴿أَوَّلُ لَكَ فَأَوَّلُ﴾، ومنه قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه للحسن

رضي الله عنه: «أوّلَى لك»، وقالت فرقة من المفسرين: ﴿أَوَّلُ﴾ رفع بالابتداء و﴿طَاعَةٌ﴾ خبره.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هذا هو المشهور من استعمال «أوّلَى»، وقالت فرقة من المفسرين: ﴿فَأَوَّلُ لَهْمٍ﴾ ابتداء وخبر، معناه الرّجْز والتّوَعُد، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ رِقُولٌ مَعْرُوفٌ﴾ - فقال بعضها: التقدير: طاعة وقول معروف أمثل، وهذا تأويل مجاهد ومذهب الخليل وسيبويه، وحسن الابتداء بالنكرة لأنها مَحْصُصَةٌ فيها بعض التعريف، وقال بعضها: التقدير: الأمر طاعة وقول معروف، أي: الأمر المُرْضِي لله تعالى، وقال بعضها: التقدير: قولهم لك يا محمد - على جهة الهُزء والخديعة -: طاعة وقول

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ فَأَإِذًا نَزَلَتْ سُورَةٌ مُخَيَّبَةٌ وَذَكَرَ فِيهَا الْفِتْنَالِ الَّذِينَ رَأَيْتَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ ﴿٢٠﴾ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرَ فَلَوَصَّدُوا اللَّهَ لَكَانَ حَرًّا لَهُمْ ﴿٢١﴾ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتَقَطَعُوا أَرْصَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أَوَّلِيكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَاصْتَمَوْا وَعَمَّوْا بَصُرْتُمْ ﴿٢٣﴾ أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفَرَاكَاتِ أَرَعَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا ﴿٢٤﴾ إِنْ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ لَهْمٌ وَسَوْلٌ لَهُمْ وَأَمَلٌ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ لَعَنَهُمُ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَفَى إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ بَصُورَتِمْ وَجْهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا آسَخَطَ اللَّهُ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَاحْبِطْ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ ﴿٢٩﴾

٥٩

معروف، فإذا عزم الأمر كرهوه، ونحو هذا من التقدير، قاله قتادة، وقال أيضاً ما معناه: إن تمام الكلام الذي معناه الرجز والتوعد ﴿فَأَوَّلُ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ﴾ ابتداء كلام، و﴿طَاعَةٌ﴾ - على هذا القول - ابتداء، وخبره ﴿لَهُمْ﴾، والمعنى: إن ذلك منهم على جهة الخديعة، فإذا عزم الأمر ناقضوا وتعاصوا.

وقوله تعالى: ﴿عَزَمَ الْأَمْرَ﴾ استعارة، كما قال:

قَدْ جَدَّتِ الْحَرْبُ بِكُمْ فَجِدُوا
ومن هذا الباب «نَامَ لَيْلِكَ» ونحوه.
وقوله تعالى: ﴿صَكَّدُوا اللَّهَ﴾ يحتمل أن يكون الصدق الذي هو ضد الكذب، ويحتمل أن يكون من قولك: «عَوَّدَ صَدَقًا»، والمعنى متقارب.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ﴾

في الأرض وقطيعة الرُّحْم، وقيل: معناه: إن تولاكم الناس وولكلكم الله تعالى إليهم. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَتَقَطُّوْا﴾ بضم التاء وشد الطاء المكسورة، وقرأ أبو عمرو: ﴿وَتَقَطُّوْا﴾ بفتح التاء والطاء المخففة، وهي قراءة سلام ويعقوب.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ﴾ إشارة إلى مرضى القلوب المذكورين، و﴿لَعَنَهُمُ﴾ معناه أبعدهم، وقوله تعالى: ﴿فَأَسْتَعْرَضَ وَأَعْمَى أَبْصَرَهُمْ﴾ استعارة لعدم فهمهم فكانهم عمي وضُم.

﴿١٧٢﴾ - ﴿١٧٣﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْفُرْقَانَ﴾ توقيف وتوبيخ، وتذيير القرآن. زعيم بالتبیین والهدى، و [أم] منقطعة وهي المقدرة بيل وألف الاستفهام، وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالَهُآ﴾ استعارة الرِّين الذي منعهم الإيمان، ويروى أن وفد اليمن وفد اليمن وفد على النبي ﷺ وفيهم شاب، فقرأ النبي ﷺ هذه الآية، فقال الفتى: عليها أقفالها حتى يفتحها الله تعالى ويفرجها، قال عمر رضي الله عنه: فعظم في عيني، فما زالت في نفس عمر حتى ولي الخلافة فاستعان بذلك الفتى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَرْتَدُّوا عَلَيَّ أَدْبَرُهَا﴾ الآية، قال قتادة: إنها نزلت في قوم من اليهود كانوا قد عرفوا من التوراة أمر محمد ﷺ، وتبين لهم الهدى بهذا الوجه، فلما باشروا أمره حسدوه فارتدوا عن ذلك القدر من الهدى، وقال ابن عباس

مخاطبة لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض، أي: قل لهم يا محمد. وقرأ نافع وأهل المدينة: ﴿عَسَيْتُمْ﴾ بكسر السين، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وعاصم، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿عَسَيْتُمْ﴾ بفتح السين، والفتح أفصح لأنها من «عسى» التي تصحبها «أن»، والمعنى: فهل عسى أن تفعلوا إن توليتهم غير أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم؟ وكان الاستفهام الداخلة على «عسى» غير معناها بعض التغيير كما يغير الاستفهام قولك: أو لو كان كذا وكذا؟ وقوله تعالى: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ معناه: إن أعرضتم عن الحق، وقال قتادة: كيف رأيتم القوم حين تولوا عن كتاب الله تعالى؟ ألم يفسدوا الدَّم الحرام ويقطعوا الأرحام ويعصوا الرِّحْم عز وجل؟ وقرأ الجمهور: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾، والمعنى: إن أعرضتم عن الإسلام، وقال كعب الأحبار ومحمد بن كعب القرظي: المعنى: إن توليتهم أمور الناس، من الولاية، وعلى هذا قيل: إنها نزلت في بني هاشم ونبي أمية، ذكره الثعلبي، وروى عبدالله بن مفضل أن النبي ﷺ قرأ: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ يواو مضمومة ولا مشددة مسكورة، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ﴿إِنْ تَوَلَّيْتُمْ﴾ بضم التاء والواو وكسر اللام المشددة، على معنى: إن توليتكم ولادة جور فملت إلى دينهم دون إمام العدل، أو على معنى: إن توليتهم بالثعذيب والتكليل وأفعال العرب في جاهليتها وسيرتها من الغارات والسب، وإنما كانت ثمرتها الإفساد

رضي الله عنهما وغيره: نزلت في منافقين كانوا أسلموا ثم نافقت قلوبهم، والآية تعم كل من دخل في ضمن لفظها غابر الدهر، و﴿سَوَّلَ﴾ معناه: رجأهم سؤلهم وأمانيتهم، وقال أبو الفتح عن أبي علي: إنه بمعنى: دلاهم، مأخوذ من السؤل وهو الاسترخاء والتدلي، وقرأ جمهور القراء: ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾، وأمال ابن كثير، وشبل، وابن مصرف [أملَى]، وفاعل [أملَى] هنا قال الحسن: هو الشيطان، جعل وعده الكاذب بالبقاء كالإبقاء، وذلك أن الإملاء هو الإبقاء ملاءة من الدهر، يقال: ملاءة وملاءة وملاءة بضم الميم وفتحها وكسرها، وهي القطعة من الزمان، ومنه «المملون»، وهما الليل والنهار، فإذا أملى الشيطان إملاء ما فلا صحة له إلا بطمعهم الكاذب، ويحتمل أن يكون الفاعل في [أملَى] الله عز وجل، كأنه تعالى قال: الشيطان سؤل لهم، وأملى الله لهم، وحققة الإملاء إنما هو بيد الله تعالى، وهذا هو الأرجح. وقرأ الأعرج، ومجاهد، والجحدري، والأعمش: ﴿وَأَمَلَى لَهُمْ﴾ بضم الهمزة وكسر اللام وإرسال ياء المتكلم، ورواها الخفاف عن أبي عمرو، وقرأ أبو عمرو: ﴿وَأَمَلَى﴾ بفتح الياء على بناء الفعل للمفعول، وهي قراءة شيبه، وابن سيرين، والجحدري، وعيسى البصري، وعيسى الهمداني، وهذا يحتمل فاعله من الخلاف ما في القراءة الأولى.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا﴾

الآية، قيل: إنها نزلت في بني إسرائيل الذين تقدم ذكرهم في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وروى أن قوماً من بني قريظة والتضير كانوا يعدون المنافقين في أمر رسول الله ﷺ والخلاف عليه ينضرب ومؤازرة، فذلك قولهم: ﴿سَطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾. وقرأ الجمهور: ﴿أَسْرَارَهُمْ﴾ بفتح الهمزة وذلك على جمع «سر» لأن أسرارهم كانت كثيرة، وقرأ حمزة والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿إِسْرَارَهُمْ﴾ بكسر الهمزة، وهي قراءة ابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى، وهو مصدر اسم للجنس.

قوله تعالى: ﴿فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ الآية، يحتمل أن يتوعدوا بها، وأنها على معنيين: أحدهما هذا هلعهم وجزعهم لفرض القتال وقراع الأعداء، فكيف فزعهم وجزعهم إذا توفتكم الملائكة؟ والثاني أن يريد: هذه معاصيهم وعنادهم وكفرهم، فكيف تكون حالهم مع الله تعالى إذا توفتكم الملائكة؟ وقال الطبري: المعنى: والله أعلم بأسرارهم، فكيف علمه بها إذا توفتكم الملائكة؟ وهم هنا ملك الموت والمنتصرون معه، والضمير في ﴿يَضْرِبُونَ﴾ للملائكة، وفي نحو هذا أحاديث تقتضي صفة الحال، ومن قال إن الضمير في ﴿يَضْرِبُونَ﴾ للكفار الذين يتوَفَّونَ فذلك ضعيف.

﴿وَمَا آسَخَطَ اللَّهُ﴾ هو الكفر، و«الرضوان» هنا هو الحق والشرع المؤدي إلى الرضوان، وقد تقدم القول في تفسير قوله تعالى:

﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَلَهُمْ﴾، وقرأ الأعمش: ﴿فَكَيفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾.

(٢٩) - (٣٢) تفسير قوله عز وجل:

هذه آية توبيخ للمنافقين وفضح لهم، وقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ﴾ توقيف، وهي «أم» المنقطعة، وقد تقدم تفسير مرض القلب، وقوله تعالى: ﴿أَنْ لَنْ يَخْرِجَ اللَّهُ أَضْعَانَهُمْ﴾ أي: أي بيديها من مكانها في نفوسهم، و«الضغن»: الحقد.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ أَشْجَارَكُمْ﴾ مقارنة في

شهرتهم، ولكنه تعالى لم يعينهم قط بالأسماء والتعريف الثام إبقاء عليهم وعلى قرباتهم وإن كانوا قد عرفوا بلحن القول، وكانوا في الاشتهار على مراتب كعبدالله بن أبي، والجد بن قيس وغيرهم ممن هو دونهم في الشهرة، و«السُّيما»: العلامة التي كان الله تعالى يجعل لهم لو أراد التعريف الثام بهم، وقال ابن عباس، والضحاك: إن الله تعالى قد عرفه بهم في سورة براءة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تُضِلُّ عَلَيَّ أَعْيُنُهُمْ مَاتَ أَبَدًا﴾، وفي قوله تعالى: ﴿فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مِنِّي أَبَدًا وَلَنْ نَقُولُوا مِنِّي عِدًّا﴾، وهذا في الحقيقة ليس بتعريف تام بل هو لفظ يشير إليهم على الإجمال لا أنه سُمي أحداً، وأعظم ما روي في اشتهارهم أن النبي ﷺ أمر يوماً فأخرجت جماعة منهم من المسجد،

وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ أَشْجَارَكُمْ فَلَمَرْتَهُمْ بِسِمَتِهِمْ وَلَعَرَفْتَهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣١﴾ وَتَسَلُّوكُمْ مِمَّنْ تَمَنَّوْا الْمُجْرِمِينَ يَسْكُرُوا الْعَصِيرَ وَإِنَّا لَهُمُ إِنَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقْنَا سَبِيلَ اللَّهِ وَنَشَأُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ أَعْمَلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبَدِّلُوا أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدَّقُوا سَبِيلَ اللَّهِ ثُمَّ مَا تَوَّابُوا وَهُمْ كَثِيرٌ مِمَّنْ يَعْرِفُ اللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهَيِّئُوا وُدَّعْوَىٰ إِلَى السَّبِيلِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَىٰ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَإِنْ يَرَوْكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٣٥﴾ إِنَّمَا لِلصَّوْتِ الذِّقَاقُ وَأَلْسِنَةٌ قَوْصٌ وَلَهُمْ أَوْجَانٌ وَنُسُفٌ وَمَنْ يَكْفُرْ أَجْرُهُمْ كَمَنْ لَا يُؤْمِنُ وَلَا يَسْتَلِكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْتَلِكُمْ هَا فَيَحْوِصْكُمْ فَتَبَحُّوا وَنَخْرِجَ أَعْيُنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَذَا شَرُّهُ لَوْلَا تَدْعَوْتُمْ لِيُضْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَسْخُلُ فَإِنَّمَا يَبْخُلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَوَلَّوْا يَسْتَلِكُمْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَلَكُمْ ﴿٣٨﴾

كأنه وسهم بهذا، لكنهم أقاموا على الشبزي من ذلك وتمسكوا بلا إله إلا الله فحقت دماؤهم.

وروي عن حذيفة ما يقتضي أن النبي ﷺ عرفه بهم أو ببعضهم، وله في ذلك كلام مع عمر رضي الله عنهما.

ثم أخبره تعالى أنه سيرفهم في لحن القول، ومعناه: في مذهب القول ومنحاه ومقصده، وهذا كما يقول لك إنسان قولاً معتقداً له وتفهم أنت من مقاطع كلامه وهيئته وقرائن أمره أنه على خلاف ما يقول، وهذا هو معنى قوله تعالى: ﴿فِي لَحْنِ الْقَوْلِ﴾، ومن هذا المعنى قول النبي ﷺ: «فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض» الحديث، أي: أدقّب بها في جهات الكلام، وقد يكون هذا اللحن متفقاً

عليه، أن يقول الإنسان قولاً يفهم السامعون منه معنى، ويفهم الذي أتفق مع المتكلم منه معنى آخر، ومنه الحديث الذي قال سعد بن معاذ وابن رواحة لرسول الله ﷺ: عضل والقارة، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

.....
... وَخَيْرُ الْحَدِيثِ مَا كَانَ لِحَنًا
أي: ما فهمه عنك صاحبه وخفي على غيرك، فأخبر الله تعالى نبيه ﷺ أن أقوالهم المخرقة التي هي على خلاف عقدهم ستبين له فيعرفهم بها، واحتج بهذه الآية من جعل الحد في التعريض بالقذف، وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَخْتَارُ أَعْمَلَكُمْ﴾ مخاطبة للجميع من مؤمن وكافر.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالنون، وكذلك ﴿تَمَارًا﴾، وكذلك ﴿يَبْلُؤُا﴾، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿وَلَيَبْلُوَنَّكُمْ﴾ بالياء، على معنى: وليبلونكم الله، وكذلك ﴿يَعْلَمُ﴾، وكذلك ﴿يَبْلُؤُا﴾، وروى رويس عن يعقوب: ﴿وَيَبْلُؤُا﴾ بالرفع على القطع والإعلام بأن ابتلاءه دائم، وكان الفضل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال: اللهم لا تبئنا فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا. وقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَلَّهَ الْمُجَاهِدِينَ يَنْكُرُ وَالْقَدِيرِينَ﴾ معناه: حتى نعلمهم مجاهدين قد خرج جهادهم إلى الوجود، ويأن تكسبهم الذي به يتعلق ثوابهم، ويعلم الله تبارك وتعالى بالمجاهدين قديم أزلي، وإنما المعنى ما ذكرناه.

وقوله تعالى: ﴿وَصَدُّوا﴾ يحتمل أن

يكون المعنى: وصدوا غيرهم، ويحتمل أن يكون غير متعد بمعنى: وصدوا هم في أنفسهم، وقوله تعالى: ﴿وَتَأْتُوا الرَّسُولَ﴾ معناه: خالفوه فكانوا في شق وهو ﷺ في شق، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَبْدَأُ تَبْيِينُ لَهُمُ الْهُدَى﴾، قالت فرقة: نزلت في قوم من بني إسرائيل فعلوا هذه الأفاعيل بعد تبينهم لأمر محمد ﷺ من التوراة، وقالت فرقة: نزلت في قوم من المنافقين حدث التفاق في نفوسهم بعد ما كان الإيمان داخلها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في المطعمين في سفرة بدر، و﴿تَبْيِينُ الْهُدَى﴾ هو وجوده عند الداعي إليه، وقالت فرقة: بل هي عامة في كل كافر، وألزمهم أنهم قد تبين لهم الهدى من حيث كان الهدى بيناً في نفسه، وهذا كما تقول إنسان يخالفك في الاحتجاج على معنى التوبيخ له: أنت مخالف في شيء واضح لا خفاء به عليك، بمعنى أنه هو هكذا في نفسه. وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَصُرُوا لَكَ شَيْئًا﴾ تحقير لهم، وقوله سبحانه: ﴿وَسَيَحِطُّ أَعْمَلَهُمْ﴾ أما على قول من يرى أن أعمالهم الصالحة من صيلة رحم ونحوه - نكتب، فيجاء هذا الإحباط فيها متمكناً، وأما على قول من لا يرى ذلك فمعنى ﴿وَسَيَحِطُّ﴾ أنها عبارة عن إعدام أعمالهم وإفسادها وأنها لا توجد شيئاً متبقياً به، فذلك إحباط على تشبيه واستعارة.

﴿٣٣﴾ - ﴿٣٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

رؤى أن هذه الآية نزلت في بني أسد من العرب؛ وذلك أنهم أسلموا

وقالوا لرسول الله ﷺ: نحن قد آتراك على كل شيء وجنتك بنفوسنا وأهلينا، كأنهم مثوا بذلك، فنزل فيهم ﴿يَسْتُرُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْكُمُوا﴾ الآية، ونزلت فيهم هذه الآية، فإن كان هذا فالإبطال الذي نهوا عنه ليس بمعنى الإفساد الشام؛ لأن الإفساد الشام لا يكون إلا بالكفر، وإلا فالحسنات لا تبطلها المعاصي، وإن كانت الآية عامة على ظاهرها نهى الناس عن إبطال أعمالهم، فالإبطال هو الإفساد الشام.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ كُفْرًا﴾، روى أنها نزلت بسبب أن عدي بن حاتم قال: يا رسول الله، إن حاتمًا كانت له أفعال بر، فما حاله؟ فقال رسول الله ﷺ: «هو في النار»، فبكى عدي رضي الله عنه وولّى، فدعا رسول الله ﷺ فقال له: «أبي وأبوك وأبو إبراهيم خليل الرحمن في النار»، ونزلت هذه الآية في ذلك، وظاهر الآية العموم في كل ما تناوله الصفة، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَهْتَفُوا﴾ معناه: فلا تضعفوا، وهو من «وَهَنَ الرَّجُلُ» إذا ضعف، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى الْآسْرِ﴾، وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي: ﴿وَتَدْعُوا إِلَى الْسَلْمِ﴾ بالتشديد في الدال، وقرأ جمهور القراء: ﴿الْآسْرِ﴾ بفتح السين، وقرأ حمزة، وأبو بكر عن عاصم: ﴿الْسَلْمِ﴾ بكسر السين، وهي قراءة الحسن، وأبو رجاء، والأعمش، وعيسى، وطلحة، وهو بمعنى المسالمة، وقال الحسن بن أبي الحسن وفرقة ممن قرأ بكسر

السين: إنه بمعنى الإسلام، أي: فلا تهنوا وتكونوا داعي إلى الإسلام فقط غير مقاتلين بسببه، وقال قتادة: معنى الآية: لا تكونوا أول الطائفتين ضرعت للأخرى، وهذا حسنٌ مُلْتَمَّ مع قوله تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَحِ لَهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما أن يكون في موضع الحال، والمعنى: لا تهنؤا وأنتم بهذه الحال، والمعنى الثاني أن يكون إخباراً مقطوعاً، أخبرهم فيه بمغيب أبرزه الوجود بعد ذلك، و﴿الْأَعْلَوْنَ﴾ معناه: الغالبون والظاهرون، من العُلُوِّ. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ معناه: بنصره ومعونته. و﴿يَرْكُزْ﴾ معناه: ينقص ويذهب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «من ترك صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله»، أي: ذهب بجمع ذلك عنه على جهة التغلب والقهر، والمعنى: لن يترككم ثواب أعمالكم أو جزاءها، واللفظة مأخوذة من الوتر الذي هو الدخُل، وذهب قوم إلى أنها من الوتر الذي هو الفرزد، والمعنى: لن يفردكم من ثواب أعمالكم، والأول أصح، وفسرها ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه: يَظْلِمُكُمْ.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا لِكَيْدِ اللَّذِيئَاتِ بُهْتٌ وَهَوٌّ﴾ تحقير لأمر الدنيا، أي: فلا تهنوا في الجهاد بسببها، ووصفها باللعب واللهو هو على أنها وما فيها مما يختص بها لعبٌ ولهوٌ، وإلا ففي الدنيا ما ليس لعباً ولا لهواً وهو

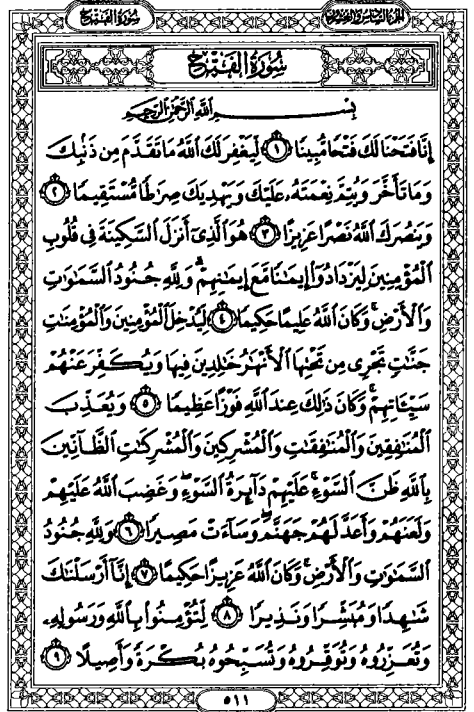
الطاعة وأمر الآخرة وما جرى مجراه، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَوَيْتُمْ وَتَنَقَرُوا وَيُؤَيِّرُكُمُ أُجُورُكُمْ﴾ معناه: هذا هو المطلوب منكم لا غيره، لا تسألون أموالكم أن تنفقوها في سبيل الله، وقال سفيان بن عيينة: المعنى: لا يسألكم كثيراً من أموالكم إخفاء، وإنما يسألكم غيضاً من فيض، ربع العشر، فطيبوا أنفسكم، ثم قال تعالى مُتْبِهاً على خُلُقِ ابن آدم: ﴿إِنْ يَنْتَلِكُوكُمَا فَيَخِيكُمَا يَنْتَلُوا﴾، والإخفاء هو أشد السؤال، وهو المُخْجَل الذي يستخرج ما عند المسؤول كرهاً، ومنه حفاء الرجل والتخفي من البحث عن الشيء، وقوله تعالى: ﴿تَبَخَّرُوا﴾ جزم على جواب الشرط، وقرأ جمهور القراء: ﴿وَيُخْرِجْ﴾ جزمًا عطفًا على ﴿تَبَخَّرُوا﴾، وقرأ عبدالوارث عن أبي عمرو: ﴿وَيُخْرِجْ﴾ بالرفع على القطع بمعنى: وهو يُخْرِجْ، وحكاها أبو حاتم عن عيسى، وقرأت فرقة: ﴿وَيُخْرِجْ﴾ بالنصب على معنى: يكن يُخْلُ وإخراج، فلما جاءت العبارة بفعل دل على أن «أن» التي مع الفعل بتأويل المصدر الذي هو الإخراج، والفاعل في قوله تعالى: ﴿وَيُخْرِجْ﴾ على كل الاختلافات المذكورة يحتمل أن يكون الله تعالى، ويحتمل أن يكون البخل الذي يتضمنه اللفظ، ويحتمل أن يكون السؤال الذي يتضمنه اللفظ أيضاً، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وابن سيرين، وابن محيصن، وأيوب: ﴿وَيُخْرِجْ﴾ بفتح الباء ﴿أَضْعَانُكُمْ﴾ رفعاً على أنها فاعلة،

وروي عنهم ﴿وَيُخْرِجْ﴾ بضم التاء وفتح الراء على ما لم يُسَمِّ فاعله، وقرأ يعقوب: ﴿وَيُخْرِجْ﴾ بضم النون وكسر الراء ﴿أَضْعَانُكُمْ﴾ نصباً. و«الأضغان» كما قلنا: معتقدات السوء، وهذا الذي كان يخاف أن يعترى المسلمين هو الذي تقرب به محمد بن مسلمة إلى كعب بن الأشرف حين قال له: إن هذا الرجل قد أكثر علينا وطلب منا الأموال.

ثم وقف تعالى عباده المؤمنين على جهة التوبيخ لبعضهم: ﴿هَكَأَنَّهُ﴾، وكرر هاء التنبيه تذكيراً. وقوله تعالى: ﴿عَنْ نَفْسِي﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: وإنما يبخل عن شُحِّ نفسه، والآخر أن تكون بمنزلة «على» لأنك تقول: بخلت عليك بكذا وبخلت عنك بمعنى أمسكت عنك. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ معنى مطرد في قليل الأشياء وكثيرها.

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾ قيل: الخطاب لقريش، والقوم المُغَيَّرُ هم أهل المدينة، وقال عبدالرحمن بن جبير وشريح بن عبيد: الخطاب لمن حضر المدينة، والقوم المُغَيَّرُ هم أهل اليمن، وقالت فرقة: الخطاب لجميع المسلمين والمشركين والعرب حينئذ، والقوم الغير فارس. وروي أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن هذا وكان سلمان إلى جنبه، فوضع يده على فخذه وقال: «قوم هذا، لو كان الدين في الثريا لناله رجال من أهل فارس»، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُ لَكُمُ الْأَمْثَلُ﴾ معناه: في الخلاف

منها بعضاً نزل بالمدينة، وأما صدر السورة ومعظمها فكما قلنا، ويقضي بذلك قول النبي ﷺ لعمر بن الخطاب رضي الله عنه وهما في تلك السفارة: «لقد أنزلت عليّ سورة هي أحب إليّ من الدنيا بما فيها»، ذكر مكّي هنا أن المعنى: بشرط أن تبقى الدنيا ولا تفتى، وفي هذا نظر، وكان رسول الله ﷺ خرج في تلك الوجهة ليعتمر بمكة فصدّه المشركون - والقصة مشهورة - سنة ست من



الهجرة .

① - ② تفسير قوله عز وجل :

قال قوم - فيما حكى الزهراوي -: ﴿فَتَحَّا لَكَ﴾ يريد به فتح مكة، وحكاة الشعلي أيضاً، ونسبه النقاش إلى الكلبي، وأخبره تعالى به على معنى: قضينا به، و«الْفَتْحُ»: القاضي بلغة اليمن، وقيل: المراد إننا فتحنا لك بأن هديناك إلى الإسلام ليفخر، وقال جمهور الناس - وهو الصحيح الذي تعضده قصة الحديبية: إن قوله تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ﴾ إنما معناه: إن ما يسر الله تعالى لك في تلك الخرجة فتح مبين تستقبله، ونزلت السورة مؤنسة للمؤمنين لأنهم كانوا استوحشوا من ردّ قريش لهم، ومن تلك المهادنة التي هادتهم النبي ﷺ، فنزلت السورة مؤنسة لهم في صدهم عن البيت، ومذهبة ما كان في

قلوبهم، ومنه حديث عمر رضي الله عنه الشهير، وما قال للنبي ﷺ ولأبي بكر رضي الله عنه، واستقبال رسول الله ﷺ في تلك السفارة أنه هادن عدوّه ريشاً يتقوى هو، وظهرت على يديه آية الماء في بئر الحديبية حيث وضع فيه سهمه وثاب الماء حتى كفى الجيش، واتفقت بيعة الرضوان، وهي الفتح الأعظم، قاله جابر بن عبد الله، والبراء بن عازب، وبلغ هديه مجله، قاله الشعبي، واستقبل فتح خيبر، وامتلأت أيدي المؤمنين خيراً، ولم يفتحها إلا أهل الحديبية، لم يشركهم فيها أحد، وفيه نظر؛ لأن أصحاب السفينة مع جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه شاركوه في القسم، فينبغي أن يقال: لم يشركهم أحد من المتخلفين عن الحديبية، واتفقت في ذلك الوقت ملحمة عظيمة بين الروم وفارس ظهرت فيها الروم فكانت من جملة الفتح على رسول الله ﷺ، وسرّها هو والمسلمون لظهور أهل الكتاب على المجوس وأنخضاد الشوكة العظمى من الكفر.

ثم عظم الله تعالى أمر نبيه ﷺ وشرفه بأن أنبأه بأنه قد غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر، فقوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ﴾ هي لام «كفي»، لكنها تخالفها في المعنى، والمراد هنا أن الله تعالى فتح لك لكي يجعل لك ذلك أمانة وعلامة لغفرانه لك، فكأنها لام صيرورة، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: «لقد أنزلت عليّ الليلة سورة هي أحب إليّ من الدنيا»، وقال الطبري وابن كيسان:

والتولي والبخل بالأموال ونحو هذا، وحكى الشعلي قولاً أن القوم الغير هم الملائكة عليهم السلام.

كامل تفسير سورة محمد والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفتح

هذه السورة نزلت على رسول الله ﷺ مُنْصَرَفَهُ من الحديبية، وفي ذلك أحاديث كثيرة عن أنس وابن مسعود وغيرهما تقتضي صحته، وهي بهذا في حكم المدني، وقال الزهري: عن مجاهد عن ابن عباس رضي الله عنهما: إنها نزلت بالمدينة، والأول أصح، ويشبه أن

إيمانهم الأول وكثر تصديقهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لما آمنوا بالتوحيد زادهم العبادات شيئاً شيئاً، فكانوا يزيدون إيماناً حتى قال تعالى لهم: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ فمنحهم أكمل إيمان لأهل السموات والأرض، لا إله إلا الله، وفسر ابن عباس رضي الله عنهما السكينة بالرحمة. وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إشارة إلى تسكين النفوس أيضاً، وأن تكون مسلمة، لأنه ينصر متى شاء وعلى أي صورة شاء، مما لا يُدَبِّرُهُ البشري، ومن جنده السكينة التي أنزلها في قلوب أصحاب محمد ﷺ فثبتت بصائرهم، وقوله تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ أي: ويكون: فهي دالة على الوجود بهذه الصفة لا مُعَيَّنَةٌ وقتاً ماضياً، و«العلم» و«الإحكام» صفتان مقتضيتان عزة النصر لمن أراد الموصوف بهما نُصْرَهُ.

⑤ - ⑥ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿لِيَذَادَا إِنَّا مَعَ إِبْرَاهِيمَ﴾ معناه: فازدادوا وتلقوا ذلك، فتمكن - بعد ذلك - قوله تعالى: ﴿لِيُنْزِلَ الْكُتُبَ﴾ أي: بتكسبهم القبول لما أنزل الله تعالى عليهم، ويروى في معنى هذه الآية أنه لما أنزلت ﴿وَمَا آتَى مَا يُفْعَلُ بِهِ وَلَا يَكْرَهُ﴾ تكلم فيها أهل الكتاب، وقالوا: كيف نتبع من لا يعرف ما يفعل به وبالناس معه، فبين الله تعالى في هذه السورة ما يفعل به بقوله تعالى: ﴿لِيُنْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ دُونِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، فلما سمعها المؤمنون قالوا: هنيئاً مريئاً، هذا لك

ضعيف، وإنما المعنى الشريف بهذا الحكم ولو لم تكن له ذنوب البتة، وأجمع العلماء على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذائل، لوجوز بعضهم الصغائر التي ليست برذائل، واختلفوا هل وقع ذلك من محمد ﷺ أو لم يقع؟ وحكى الثعلبي عن عطاء الخراساني أنه قال: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو ذنب آدم وحواء عليهما السلام، أي: ببركتك، و﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هي ذنوب أمّتك، قال الثعلبي: الإمامية لا تجوز الصغائر على النبي ﷺ ولا على الإمام، والآية تردّ عليهم، وقال بعضهم: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم بدر: «اللَّهُمَّ إِنْ تَهَلِّكْ هَذِهِ الْعَصَابَةَ لَمْ تُعْبِدْ»، و﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ هو قوله عليه الصلاة والسلام يوم حنين: «لَنْ نُغْلِبَ الْيَوْمَ مِنْ قِلَّةٍ». وهذا كله مُعْتَرَضٌ.

و «إِتْمَامُ النُّعْمَةِ عَلَيْهِ» هو إظهاره وتغليبها على عدوه والرضوان في الآخرة، وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُكَ سِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ معناه: إلى صراط مستقيم، فحذف الجار فتعدى الفعل، وقد يتعدى هذا بغير حرف جر. و«النصر العزيز» هو الذي معه غلبة العدو والظهور عليه، والنصر غير العزيز هو الذي مُضْمَنَةُ الحماية ودفع العدو فقط. و«إِنْزَالُ السُّكِينَةِ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ» - وهي فِعْلَةٌ مِنَ السُّكُونِ - هو تسكينها لتلك الهدنة مع قريش حتى اطمأنت وعلموا أن وعد الله تعالى على لسان رسوله ﷺ حق، فازدادوا بذلك إيماناً إلى

المعنى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَسَبْحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرُهُ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ، وَبِنِهَا هَذِهِ الْآيَةَ مَعَ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ السورة، وهذا ضعيف من وجهين: أحدهما أن السورة ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ﴾ إنما نزلت في آخر مدة النبي ﷺ ناعية له نفسه حسب ما قال ابن عباس رضي الله عنهما عندما سأل عمر رضي الله عنه عن ذلك، والآخر أن تخصيص النبي ﷺ بالتشريف كان يذهب لأن كل واحد من المؤمنين مخاطب بهذا الذي قال الطبري، أي: سَبِّحْ وَاسْتَغْفِرْ لِكَيْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكَ، وَلَا يَقْتَضِي هَذَا أَنْ الْغُفْرَانَ قَدْ وَقَعَ، وَمَا قَدَّمَ أَوْ لَا يَقْتَضِي وَقُوعَ الْغُفْرَانِ لِلنَّبِيِّ ﷺ، وبدل على ذلك قول الصحابة رضي الله عنهم له ﷺ حين قام حتى تورمت قدماه: أتفعل هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ قال: «أفلا أكون عبداً شكوراً؟» فهذا نص في أن الغفران حكم قد وقع، وقال منذر بن سعيد: المعنى: مجاهدتك في الله تعالى المقترنة بالفتح هي ليغفر، وحكى الثعلبي عن الحسين بن الفضل أن المعنى: إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَاسْتَغْفِرْ لَذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ... الآية، وهذا نحو قول الطبري.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَقَدَّمَ مِنْ دُونِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ قال سفيان الثوري: ﴿مَا تَقَدَّمَ﴾ يريد به قبل النبوة و﴿وَمَا تَأَخَّرَ﴾ كل شيء لم يعمل به، وهذا

فيه، ومن هذا قول الشاعر:

وَدَائِرَاتِ الدَّفْرِ أَنْ تَدُورَا

ومنه قول الآخر:

وَيَعْلَمُ أَنَّ الشَّيْءَ تَدُورُ

وهذا كثير، ويحسن أن تسمى المصيبة دائرة من حيث كمالها أن تحيط بصاحبها كما يحيط شكل الدائرة على السواء من النقطة، وقد أشار النقاش إلى هذا المعنى.

و«غضب الله تعالى» متى ما قصد به الإرادة فهو صفة ذات، ومتى ما قصد به ما يظهر من الأفعال على المغضوب عليه فهو صفة فعل.

و«لَتَمَّتْهُمْ»: أبعدهم، وقال تعالى في هذه: ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ فذكر صفة العزة من حيث تقدم الانتقام من الكفار، وفي التي قَبْلُ قَرَنَ بالحكمة العلم من حيث وعد بمغيبات، وقرن باللفظتين ذكر جنود الله تعالى التي منها السكينة ومنها نقمته من المنافقين والمشركين، فلكل لفظ وجه من المعنى، وقال ابن المبارك في كتاب النقاش: جنود الله في السماء الملائكة، وفي الأرض العزاة في سبيل الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا بعض من كل.

(٨) - (١٠) تفسير قوله عز وجل:

من جعل الشاهد محض الشهاده من يوم يحصلها فقوله تعالى: ﴿شَهِدًا﴾ حال واقعة، ومن جعل الشاهد مؤدّي الشهادة فيه حال مستقبله، وهي التي يسميها النحاة: المُقَدَّرَة. والمعنى: شاهد على الناس بأعمالهم وأقوالهم حين بلغت

يعتقدونه بغير صفاته، فهي

ظنون سوء من حيث هي

كاذبة مؤدبة إلى عذابهم

في نار جهنم. وقوله

تعالى: ﴿عَلَيْهِنَّ دَائِرَةٌ

السُّوءِ﴾ كأنه يقوّر التأويل

الآخر، أي: أصابهم ما

أرادوا بكم. وقرأ جمهور

القراء: ﴿عَلَيْهِنَّ دَائِرَةٌ

السُّوءِ﴾ كالأول، ورجحها

الفراء وقال: قلما تضم

العرب السين، قال أبو

علي: هما متقاربان والفتح

أشد مطابقة في اللفظ،

وقرأ ابن كثير، وأبو

عمرو: ﴿ظَنُّ السُّوءِ﴾

بفتح السين، و﴿عَلَيْهِنَّ

دَائِرَةُ السُّوءِ﴾ بضم السين؛ وهو

اسم، أي: دائرة السوء الذي أرادوه

بكم في ظنهم السوء، وقرأ الحسن

بضم السين في الموضعين، وروي

ذلك عن أبي عمرو ومجاهد. وسمى

تعالى المصيبة التي دعا بها عليهم

دائرة من حيث يقال في الزمان: إنه

يستدير، ألا ترى أن السنة والشهر

كأنها مستديرات تذهب على ترتيب

وتجيء من حيث هي تقديرات

للمحركة العظمى، ومنه قول

النبي ﷺ: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ

كهيئته يوم خلق الله السموات

والأرض»، فيقال للأقدار والحوادث

التي هي في طي الزمان: دائرة لأنها

تدور بدوران الزمان، كأنك تقول:

إن أمر كذا يكون في يوم كذا من

سنة كذا، فمن حيث يدور ذلك اليوم

حتى يبرز إلى الوجود تدور هي أيضاً

إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ
فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ
اللَّهُ فَمِنْ يَدِهِ أُجْرٌ عَظِيمًا ﴿١٠﴾ سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ
مِنَ الْأَعْرَابِ سَعَلْنَا فَمَا نَحْنُ وَأَهْلُوْنَا فَمَا سَتَغْفِرَ لَنَا قُلُوبُنَا
بِالسِّيئَةِ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قَلْبٌ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نِعْمًا بَلْ كَانَ اللَّهُ يَتَعَمَّلُونَ
خَيْرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى
أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ أَنْ تَمُنَّ
وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا
أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَاللَّهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا
رَحِيمًا ﴿١٤﴾ سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى
مَغَائِرِكُمْ إِنَّا نأْخُذُكُمْ وَإِنَّا نَدْرُونَ أَن نَحْنُ بِكُمْ بِرِيدُونَ كَذَّبُوا
كَلِمَةَ اللَّهِ قُلْ لَنْ نَتَّبِعُونَكَ إِذْ كُنْتُمْ كَافِرًا اللَّهُ مِنْ قَبْلُ
فَسَمِعُوا لَنْ نَحْسُدُوكُمْ إِنَّا كُنَّا لِلْآيِقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾

يا رسول الله فما لنا؟ فنزلت هذه الآية ﴿يَذُحِلُّ الْكُفْرَيْنَ وَالْمُؤْمِنِينَ جَنَّاتٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾، فعرفه الله تعالى ما يفعل به وبالمؤمنين والكافرين، وذكر النقاش أن رجلاً من عك قال: هذا لك يا رسول الله فما لنا؟ فقال النبي ﷺ: «هي لي ولأمتي كهاتين»، وجمع بين إصبعيه.

وقوله تعالى: ﴿رِيكِفَرَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ﴾ فيه ترتيب الجمل في السرد لا ترتيب وقوع معانيها؛ لأن تكفير السيئات قبل إدخالهم الجنة.

وقوله تعالى: ﴿الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنُّ السُّوءِ﴾ قيل معناه: من قولهم: ﴿لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ﴾ الآية، فكأنهم ظنوا بالله تعالى ظن سوء في جهة الرسول ﷺ والمؤمنين، وقيل: ظنوا بالله تعالى ظن سوء إذ هم

إليهم الشَّرْع، ومبشراً أهل الطاعة برحمة الله تعالى، ونذيراً لأهل الكفر ينذرهم من عذاب الله عزَّ وجلَّ.

وقرأ جمهور الناس في كل الأمصار: ﴿لِتُؤْمِنُوا﴾ بالتاء على مخاطبة الناس، على معنى: قُلْ لهم، وكذلك الأفعال الثلاثة بعد، وقرأ أبو عمرو بن العلاء، وابن كثير، وأبو جعفر: ﴿لِيُؤْمِنُوا﴾ بالياء على استمرار خطاب محمد ﷺ، وكذلك الأفعال الثلاثة بعد، وقرأ الجحدري: ﴿وَتَعَزَّوْهُ﴾ بفتح التاء وسكون العين وضم الزاي، وقرأ محمد بن السميعة اليماني، وابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَتَعَزَّوْهُ﴾ بزائين، من العزة، وقرأ جعفر بن محمد: ﴿وَتَعَزَّوْهُ﴾ بفتح التاء وسكون العين وكسر الزاي، ومعنى [تَعَزَّوْهُ]: تعظموه وتكبروه، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقال قتادة: معناه: تصروه بالقتال، وقال بعض المتأولين، الضمائر في قوله تعالى: ﴿وَتَعَزَّوْهُ وَتَقَرَّبْهُ وَتَسْجُدْهُ﴾ هي كلها لله تعالى، وقال الجمهور: ﴿وَتَعَزَّوْهُ وَتَقَرَّبْهُ﴾ هما للنبي ﷺ، و﴿وَتَسْجُدْهُ﴾ هي لله تعالى، وهي صلاة البرذنين، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿وَتَسْبِّحُوا الله﴾، وفي بعض ما حكى أبو حاتم: ﴿وَتَسْبِّحُونَ الله﴾ بالنون، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَلِيَسْبِّحُوا الله﴾، و﴿الْبُكْرَةَ: العُدُو، والأصيل: العشي﴾.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَلْيَدَ يَبِئْتُونَكَ﴾ يريد تعالى: في بيعة الرضوان، وهي

بيعة الشجرة حين أخذ رسول الله ﷺ الأهبة لقتال قريش لما بلغه مقتل عثمان بن عفان رضي الله عنه رسوله إليهم، وذلك قبل أن ينصرف رسول الله ﷺ من الحُدَيْبِيَّة، وكان في ألف وأربعمائة رجل، قال النقاش: وقيل: كان في ألف وثمانمائة، وقيل: وسبعمائة، وقيل: وستمائة، وقيل: ومائتين، وبايعهم رسول الله ﷺ على الصبر المتناهي في قتال العدو إلى أقصى الجهد، حتى قال سلمة بن الأكوع وغيره: بايعنا رسول الله ﷺ على الموت، وقال عبدالله بن عمر، وجابر بن عبدالله رضي الله عنهم: بايعنا رسول الله ﷺ على ألا نَفِرَ، و﴿المُبايعة﴾ في هذه الآية مفاعلة من البيع؛ لأن الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، وبقي اسم البيعة بعدُ على مَعَاقِدَة الخلفاء والملوك، وعلى هذا سمت الخوارج أنفُسها الشُّرَاة، أي: اشتروا بزعمهم الجنة بأنفسهم، ومعنى ﴿إِنَّمَا يَبِئْتُونَكَ﴾ أن صفقتهم إنما يُمضِيها الله تعالى ويمنح الثمن، وقرأ تمام بن العباس بن عبدالمطلب: ﴿إِنَّمَا يَبِئْتُونَكَ﴾، قال أبو الفتح: ذلك على حذف المفعول لدلالة الأول عليه وقُرْبِه منه.

وقوله تعالى: ﴿يَدُ الله﴾، قال جمهور المتأولين: اليد بمعنى «النعمة»، أي: نعمة الله تعالى في نفس هذه المبايعة - لما يُستقبل من محاسنها - فوق أيديهم التي يمدونها لبيعتك، وقال آخرون: يدُ الله هنا

بمعنى قوة الله تعالى فوق قواهم، أي: في نصرك ونصرهم، فالآية - على هذا - تعديد نعمة عليهم مستقبلة مُخَبِّرٌ بها، وعلى التأويل الأول، تعديد نعمة حاصلة يشرف بها الأمر، قال النقاش: يدُ الله في الثواب فوق أيديهم. وقوله تعالى: ﴿مَنْ نَكَكَ﴾ أي: نقض هذا العهد فإنما يجني على نفسه، وإياها يُهْلِكُ، فنكته عليه لا له، وقرأ جمهور القراء: ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهُ﴾ بالنصب على التعظيم، وقرأ ابن أبي إسحق: ﴿بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللهُ﴾ بالرفع على أن الله تعالى هو المعاهد، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿عَلَيْهِ﴾ مضمومة الهاء، وروي ذلك عن ابن أبي إسحق، و﴿الأجر العظيم﴾: الجنة، لا يفنى نعيمها ولا ينقضى أمدها. وقرأ عاصم، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، والعامية: ﴿نَسْتُوْبِيْدِي﴾ بالياء، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: ﴿نَسْتُوْبِيْتِي﴾ بالنون، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿نَسْتُوْبِيْدِي﴾.

١١ - ١٢ تفسير قوله عزَّ وجلَّ: «المخلفون من الأعراب» قال مجاهد وغيره: هم جهينة ومزينة ومن كان حول المدينة من القبائل، فإنهم في خروج رسول الله ﷺ إلى عُمُرته عام الحديبية رأوا أنه يستقبل عدواً عظيماً من قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة وهم الأحابيش، ولم يكن تمكن إيمان أولئك المجاورين للمدينة، فقعدها عن النبي ﷺ وتحلفوا، وقالوا: لن

يرجع محمد ولا أصحابه من هذه السفرة، فضحهم الله تعالى في هذه الآية وأعلم محمداً ﷺ بقولهم واعتذارهم قبل أن يصل إليهم، فكان كذلك، قالوا: شغلنا الأموال والأهلون فاستغفر لنا، وهذا منهم حُبٌّ وإبطال، فلذلك قال الله تعالى: ﴿بَقُولُونَ يَا لَيْسَ لَنَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾، قال الرُّمَّانِي: لا يُقال أعرابيٌّ إلا لأهل البوادي خاصة.

ثم قال تعالى لنيبه ﷺ: قل لهم: ﴿فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنْ اللَّهِ شَيْئًا﴾، أي: من يحمي أموالكم وأهلكم إن أراد بكم فيها سوءاً؟ وقرأ جمهور القراء: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾، بفتح الضاد، وقرأ حمزة والكسائي: ﴿ضُرًّا﴾ بالضم، ورجَّحها أبو علي، وهما لغتان، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾. ثم ردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَمَلَّكُونَ خَبِيرًا﴾، ثم فسَّر لهم العلة التي تخلفوا من أجلها بقوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ﴾ الآية، وفي قراءة عبدالله: ﴿إِلَى أَهْلِهِمْ﴾ بغير ياء، و [بُورًا] معناه: فاسدين هلكى بسبب فسادهم، والبوار: الهلاك، و«بارت السلعة» مأخوذ من هذا، و«بُورٌ» يوصف به الجمع والإفراد، ومنه قول ابن الزُّعْرِي:

يَا رَسُولَ الْمَلِكِ إِنَّ لِسَانِي
رَاتِقٌ مَا فَتَقَتْ إِذْ أَنَا بُورٌ
والبُورُ في لغة أزد عمان: الفاسد، ومنه قول أبي الدرداء: «فأصبح ما جمعوا بوراً» أي: فاسداً ذاهباً، ومنه

قول حسان بن ثابت:

لَا يَنْفَعُ الطُّولُ مِنْ تَوَكُّبِ الْقُلُوبِ وَقَدْ
يَهْدِي الْإِلَهَ سَبِيلَ الْمُعْشِرِ الْبُورِ
وقال الطبري في قوله تعالى: ﴿بَقُولُونَ يَا لَيْسَ لَنَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾. يعني به قولهم: «فاستغفر لنا»؛ لأنهم قالوا ذلك مصانعة من غير توبة ولا ندم، قال: وقوله تعالى: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ﴾ الآية معناه: ولا ينفعكم استغفاري، وهل أملك لكم شيئاً والله تعالى قد أراد ضركم بسبب معصيتكم؟ كما لا أملك إن أراد بكم النفع في أموالكم وأهلكم.

﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿لَمَّا قَالَ تَعَالَى لَكُمْ: ﴿وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ توعدهم بعد ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَدَّرَ بُرُومًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية، أي: وأنتم هكذا فأنتم ممن أعدت لهم السعير وهي النار المؤججة. والمنعمر: ما تحرك به النار، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «وَيْلٌ أُمَّهُ مِسْعَرُ حَزْبٍ».

ثم رَجَى بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الآية؛ لأن القوم لم يكونوا مجاهرين بالكفر فلذلك جاز وعيدهم وتوبيخهم ممزوجاً فيه بعض الإمهال والشَّرْجِيَّة؛ لأن الله تعالى كان قد علم منهم أنهم سيؤمنون.

ثم إن الله تعالى أمر نبيه ﷺ - على ما روي - بغزو خيبر ووعده بفتحها، وأعلمه أن المخلفين إذا رأوا مسيره إلى يهود - وهم عدوٌ مستضعف - طلبوا الكون معه رغبة في عَرْض الدنيا والغنيمة، وكان كذلك. وقوله

تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلِمَ اللَّهِ﴾ معناه: أن يُغَيِّرُوا وعده لأهل الحديدية بغنيمة خيبر، وقال عبدالله بن زيد بن أسلم: كلام الله تعالى هو قوله: ﴿فَقُلْ لَنْ نَغْرُبُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ نَقْتُلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾، وهذا قول ضعيف لأن تلك نزلت في رجوع رسول الله ﷺ من تبوك، وهذا في آخر عمره ﷺ، وآية هذه السُّورة نزلت سنة الحديدية، وأيضاً فقد غزت جُهَيْنَةَ وَمُرَيْنَةَ بعد هذه المدة مع رسول الله ﷺ، وقد فصلهم رسول الله ﷺ بعد ذلك - على تميم وغطفان وغيرهم من العرب، الحديث المشهور، فأخبره الله تعالى أن يقول لهم في هذه الغزوة إلى خيبر: ﴿لَنْ نَقْتُلُوا مَعِيَ عَدُوًّا﴾، وخصَّ الله تعالى بها أهل الحديدية.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ﴾ يريد تعالى وعده قبل اختصاصهم بها، وقول الأعراب: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾ معناه: بل يعزُّ عليكم أن نصيب مغنماً ومالاً، فردَّ الله تعالى على هذه المقالة بقوله سبحانه: ﴿بَلْ كَاثِرُونَ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، أي: لا يفقهون من الأمور مواضع الرُّشد، وذلك هو الذي خلفهم عن رسول الله ﷺ حتى كان ذلك سبباً لمنعهم من غزو خيبر، وقرأ أبو حية: ﴿تَحْسُدُونَنَا﴾ بكسر السين، وقرأ الجمهور من القراء: ﴿كَلِمًا﴾، قال أبو علي: هذا أخص بما كان مقيداً حديثاً، وقرأ الكسائي، وحمزة، وابن مسعود وطلحة، وابن وثاب: ﴿كَلِمًا﴾، والمعنى فيهما متقارب.

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّونَ إِلَى قَوْمِ أَبِي بَاسٍ سُدِّيًّا
فَتَقْبَلُوا بِهِمْ أَوْ يُسَلِّمُوا فَإِنْ تَطَلَعُوا بِأَيُّكُمْ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا
وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يَعَذِّبُكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ أَيْسَ
عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ
وَمَنْ يَطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
وَمَنْ يَتَوَلَّ يَعْذِبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَجَى اللَّهُ عَنِ
الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعْتُمْكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ
فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَعَانِيهِ
كثيرة يأخذونها وكان الله عزيزًا حكيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَّكُمْ اللَّهُ
مَعَانِيهِ كَثِيرَةً تَأْخُذُوهَا فَجَعَلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَى أَيْدِيَ
النَّاسِ عَنْكُمْ وَلَكُنَّ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيكُمْ صِرَاطًا
مُسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَى لَمْ تَقْرَأْ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا
وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَوْ قَتَلْتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا
لَوَلَّوْا الْأَدْبُرَ لِمَ لَا يُجَادِبُوكُمْ وَيَأْتُواكُم بِالسَّيْفِ سِنَةً
اللَّهُ أَلْفَى فَدَخَلَتْ مِنْ قَبْلِ وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٢﴾

٥١٣

رفع الله في هذه الجزية، وليس إلا القتال أو الإسلام، وهذا لا يوجد إلا في أهل الردة. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذا من حُورب في فتح مكة.

وقرأ الجمهور: ﴿إِلَى قَوْمِ أَبِي بَاسٍ سُدِّيًّا﴾ على القطع، أي: أو هم يُسلمون دون حرب، وقرأ أبي بن كعب - فيما حكى الكسائي -: ﴿أَوْ يُسَلِّمُوا﴾ بِنصب الفعل على تقدير: أو يكون أن يُسلموا، ومثله من الشعر قول امرئ القيس:

فَقُلْتُ لَهُ لَا تَبْكُ عَيْنُكَ إِنَّمَا
نُحَاوِلُ مُلْكًا أَوْ نَمُوتُ فَنَعْتَدِرَا
يروى «نموت» بالنصب والرفع، فالنصب على تقدير: أو يكون أن نموت، والرفع على القطع، أو نحن نموت.

وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَطَلَعُوا﴾ معناه:

﴿١٧﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما بلغ عز وجل في عتب هؤلاء المتخلفين من القبائل المجاورة للمدينة كجهينة ومزينة وغفار وأسلم وأشجع عقب ذلك بأن عذر أهل الأعدار من العمى والعرج والمرضى جملة، ورفع الحرج عنهم والضيق والمأثم، وهذا حكم هؤلاء المعاذير في كل جهاد إلى يوم القيامة، إلا أن

﴿١٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتقدمة إلى هؤلاء المخلفين بأنهم سيدعون إلى قتال عدو بئيس، وهذا يدل على أنهم كانوا يظهرون الإسلام وإلا فلم يكونوا أهلاً لذلك الآخر.

واختلف الناس، من القوم المشار إليهم في قوله تعالى: ﴿إِلَى قَوْمِ أَبِي بَاسٍ سُدِّيًّا﴾؟ فقال عكرمة وابن جبيرة، وقتادة: هم هوازن ومن حارب رسول الله ﷺ في حُنين، ويندرج في هذا القول عندي من حُورب وغلب في فتح مكة، وقال كعب: هم الروم الذين خرج إليهم رسول الله ﷺ عام تبوك والذين بعث إليهم في غزوة مؤتة، وقال الزهري والكلبي: هم أهل الردة وبنو حنيفة باليمامة، وقال منذر بن سعيد: يتركب على هذا القول أن الآية مؤذنة بخلافة أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، يريد: لما كشف الغيب أنهما دُعوا إلى قتال أهل الردة، وحكى الثعلبي عن رافع بن خديج أنه قال: والله لقد كنا نقرأ هذه الآية فيما مضى ولا نعلم من هم حتى دعا أبو بكر رضي الله عنه إلى قتال بني حنيفة فعلمنا أنهم هم، وقال ابن عباس، وابن أبي ليلي: هم الفرس، وقال الحسن: هم فارس والروم، وقال أبو هريرة: هم قوم لم يأتوا بعد، والقولان الأولان حسنان لأنهما الذي كشف الغيب، وباقيها ضعيف، وقال منذر بن سعيد:

يحزب حازب في حضرة ما، فالغرض متوجه بحسب الوُسع ومع ارتفاع الحرج فجائز لهم الغزو وأجرهم فيه مضاعف؛ لأن الأعرج أخرى الناس بالصبر وألأ يفز، وقد غزا ابن أم مكتوم وكان يمسك الراية في بعض حروب القادسية، وقد حُزج النسائي هذا المعنى وذكر ابن أم مكتوم رضي الله عنه.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿يُدْخِلْهُ﴾ بالياء، وقرأ ابن عامر، ونافع، وأبو جعفر، والأعرج، والحسن، وشيبة، وقتادة: ﴿تُدْخِلْهُ﴾ بالنون، وكذلك: ﴿يُعَذِّبُهُ﴾ و﴿تُعَذِّبُهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَايَعْتُمْكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ تشريف وإعلام برضاه عنهم حين البيعة، وبهذا سُميت بيعة الرضوان، والرضى بمعنى الإرادة، فهو صفة ذات، ومن جعل ﴿إِذْ﴾ مُسَبِّبَةً،

سورة الفتح

سورة الفتح

دابته وحمله عليها، وأجاره حين جاء قريشاً فأخبرهم، فقالوا له: إن شئت يا عثمان أن تطوف بالبيت فطوف، وأما دخولكم علينا فلا سبيل إليه، فقال عثمان رضي الله عنه: ما كنت لأطوف به حتى يطوف رسول الله ﷺ، ثم إن بني سعيد بن العاص على جهة المبرزة، فأبطأ على رسول الله ﷺ، وكانت الحديدية من مكة على نحو عشرة أميال، فصرخ صارخ من عسكر رسول الله ﷺ: قُتل عثمان، فحمي رسول الله ﷺ والمؤمنون وقالوا: لا نبرح إن كان هذا

حتى نلقى القوم، فدعا رسول الله ﷺ إلى البيعة، ونادى مناديه: أيها الناس، البيعة البيعة. نزل روح القدس، فما تخلف عن البيعة أحد ممن شهد الحديدية إلا الجُد بن قيس المنافق، وحينئذ جعل رسول الله ﷺ يده على يده، وقال: «هذه يد عثمان»، وهي خير من يد عثمان، ثم جاء عثمان رضي الله عنه بعد ذلك سالماً، والشجرة سُفرة كانت هنالك ذهبت بعد سنين، فمرَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالموضع في خلافته فاختلف أصحابه في موضعها، فقال عمر رضي الله عنه: سيروا هذا التكلف.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾، قال قوم: معناه: من كراهية البيعة على الموت ونحوه، وهذا ضعيف فيه مذمة للصحابة رضي الله عنهم، وقال الطبري، ومنذر بن سعيد: معناه: من

الإيمان وصحته والحب في الدين والحرص عليه، وهذا قول حسن لكنه من كانت هذه حاله فلا يحتاج إلى نزول ما يسكنه، أما إنه يحتمل أن يجازى بالسكينة والفتح القريب والمغانم، وقال آخرون: معناه: من الهم بالانصراف عن المشركين والأنفة في ذلك على نحو ما خاطب فيه عمر رضي الله عنه وغيره، وهذا تأويل حسن يترتب معه نزول السكينة والتعويض بالفتح القريب، والسكينة هنا تقرير قلوبهم وتذليلها لقبول أمر الله تعالى والصبر له. وقرأ الناس: ﴿وَأَنْبِيَهُمْ﴾ قال هارون: وقد قرئت: ﴿وَأَتَاهُمْ﴾ بالتاء بتقطتين.

و «الْفَتْحُ الْقَرِيبُ»: خير، وذلك أن رسول الله ﷺ انصرف بالمؤمنين وقد وعده الله بخيبر، وخرج إليها لم يلبث، قال أبو جعفر النحاس: وقد قيل: الفتح القريب: فتح مكة و«المغانم الكثيرة»: فتح خيبر، وقرأ يعقوب في رواية رويس: ﴿تَأْخُذُونَهَا﴾ على مخاطبتهم بالتاء من فوق، وقرأ الجمهور: ﴿يَأْخُذُونَهَا﴾ على الغيبة.

واختلف الناس في عدة التابعين رضي الله عنهم - فقيل: ألف وخمسمائة، قال قتادة، وقيل: وأربعمائة، قاله جابر بن عبد الله، وقيل: خمسمائة وخمسة وعشرون، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وقيل: وثلاثمائة، قاله ابن أبي أوفى، وقيل غير هذا مما ذكرناه من قبل، وأول من بايع ذلك اليوم رجل من بني أسد يقال له: أبو سنان بن وهب، قاله الشعبي.

٢٠ - ٢١ - تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَعَدَّكُمْ اللَّهُ﴾ الآية - مخاطبةً للمؤمنين ووعداً بجميع

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَارْتَمَى بِكُمْ عَنْهُمْ بِطَنَ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٠﴾ هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعَكُوفًا أَنْ يَبْلُغَ حِمْلَهُمْ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَ تَفْعَلُوهُمَ أَنْ تَطْفُرُوهُمْ فَتَصِيْبَكُمْ مِنْهُم مَعْرَةٌ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ لِيَدْخُلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مِنْ بَيْتِهِ لَوْ تَرَى إِلَى الْعَذَابِ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنتُمْ هُمْ عَذَابُ الْآلِمَاءِ ﴿٢١﴾ إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ الْقُرْآنِ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٢﴾ لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ آلُيَاهُ بِالْحَقِّ لَنَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ أَنْ حَرَامٌ أَنْ شَاءَ اللَّهُ أَنُورًا مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ وَمَنْ مَقْصُورِينَ لَآتِيَنَّ الْقُرْآنُ فَتَعْلَمُونَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ ذِيْنِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٣﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظَاهِرَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٤﴾

٥٤

بمعنى: لأنهم بايعوا تحت الشجرة جاز أن يجعل ﴿رَضَى﴾ بمعنى: أظهر النعمة عليهم، بسبب بيعتهم، فالرَضَى - على هذا - صفة فعل، وقد تقدّم القول في المبايعه ومعناها.

وكان سبب هذه المبايعه أن رسول الله ﷺ أراد أن يبعث لقريش رجلاً يبين لقريش أن النبي ﷺ لا يريد حرباً وإنما جاء معتمراً، فبعث إليهم خزاش بن أمية الخزاعي، وحمله على جمل له يقال له: الثعلب، فلما كلمهم عقروا الجمل وأرادوا قتل خزاش فمنعته الأحابيش، وبلغ ذلك النبي ﷺ فأراد بعث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فقال عمر: يا رسول الله إنك قد علمت فظاظتي على قريش، وهم يبغضوني، وليس هناك من بني عدي بن كعب من يحميني، ولكن ابعث عثمان بن عفان، فبعثه رسول الله ﷺ، فذهب، فلقيه أبان بن سعيد بن العاص، فنزل عن

المغانم التي أخذها المسلمون، ويأخذونها إلى يوم القيامة، قاله مجاهد وغيره، وقوله تعالى: ﴿فَجَدَلْ لَكُمْ هَذِهِ﴾ يريد خيبر، وقال زيد بن أسلم وابنه: المغانم الكثيرة: خيبر، و﴿هَذِهِ﴾ إشارة إلى البيعة والتخلُّص من أمر قريش، وقوله تعالى: ﴿وَكَفَّ أَيْدِي الثَّائِبِينَ عَنْكُمْ﴾ يريد من ولي عورة المدينة بعد خروج النبي ﷺ والمؤمنين منها، وذلك أنه كان من أحياء العرب ومن اليهود من يعادي، وكانت قد أمكنتهم فرصة، فكفهم الله تعالى عن ذراري المسلمين وأموالهم، وهذه للمؤمنين العلامة أن الله تعالى ينصرهم ويلطف بهم، قاله قتادة، وحكى الثعلبي عنه أنه قال: كَفَّ اللهُ تعالى غطفان عن النبي ﷺ حين جاءوا لنصر أهل خيبر، وذكره النقاش، وقال الثعلبي أيضاً عن بعضهم: إنه أراد كَفَّ قريش.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى لَمْ نَقْدِرُوا عَلَيْهَا﴾، قال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما: الإشارة إلى بلاد فارس والروم، وقال الضحاک وابن زيد: الإشارة إلى خيبر، وقال قتادة والحسن: الإشارة إلى مكة، وهذا هو القول الذي يتسق معه المعنى ويتأيد، وقوله تعالى: ﴿فَدَّ أَمَّاكُ اللهُ يَهَا﴾ معناه: بالقدرة والقهر لأهلها، أي: قد سبق ذلك في علمه وظهر فيها أنهم لم يقدرُوا عليها.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَلَّكُمْ أَلَيْبِنَ كَفَرُوا لَوْلَا أَلَدَبَرُ﴾، الإشارة إلى قريش ومن والاها في تلك السنة، قاله قتادة، وفي هذا تقوية لنفوس

المؤمنين، وقال بعض المفسرين: أراد الروم وفارس، وهذا ضعيف، وإنما الإشارة إلى العدو الأخضر.

وقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ إشارة إلى وقعة بدر، وقيل: إشارة إلى عادة الله تعالى من نصرة الأنبياء عليهم السلام قديماً، ونصب ﴿سُنَّةٍ﴾ على المصدر، ويجوز الرفع، ولم يُقرأ به.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ﴾ الآية، روي في سببها أن قريشاً جمعت جماعة من فتيانها، وجعلوهم مع عكرمة بن أبي جهل، وخرجوا يطلبون غزوة في عسكر رسول الله ﷺ، واختلف الناس في عدد هؤلاء اختلافاً متفاوتاً، فلذلك اختصرته، فلما أحسن بهم المسلمون وبعث رسول الله ﷺ في أثرهم خالد بن الوليد وسماه حينئذ «سيف الله» في جملة من الناس، ففروا أمامهم حتى أدخلوهم بيوت مكة، وأسروا منهم جملة، فسيقوا إلى رسول الله ﷺ، فمَنَّ عليهم وأطلقهم، فهذا هو كَفَّ اللهُ تعالى أيديهم عن المسلمين بالرُّعب، وكَفَّ أيدي المسلمين عنهم بالنهي في بيوت مكة وغيرها، وذلك هو «بَطْنُ مكة»، وقال قتادة: أسر النبي ﷺ هذه الجملة بالحديبية عند عسكره ومَنَّ عليهم، وذلك هو «بَطْنُ مكة»، قال النقاش: الحرم كله مكة، والظفر عليهم هو أسر من أسر منهم، وما في هذه الآية تحريض على العمل الصالح؛ لأن من استشعر أن الله تعالى يُبصر عمله أصلحه.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿وَمَا

تَمَّوْرُونَ﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ أبو عمرو وحده بالياء على ذكر الكفار وتهديدهم.

﴿٢٥﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

يريد الله تعالى بقوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أهل مكة الذين تقدّم ذكرهم، وقوله تعالى: ﴿وَمَدُّوْكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ هو منعهم النبي ﷺ وأصحابه من العُمرة عام الحُدَيْبِيَّةِ، وذلك أن النبي ﷺ خرج من المدينة في ذي القعدة سنة ست من الهجرة يريد العُمرة وتعظيم البيت، وخرج معه بمائة بدنة، قاله النقاش، وقيل: بسبعين، قاله المسود بن مخزوم، ومروان بن الحكم، فلما دنا من مكة قال أهل مكة: هذا محمد الذي قد حاربنا وقتل فينا يريد أن يدخل مكة مراغمةً لنا، والله لا تركناه حتى يموت دون ذلك، فأجمعوا ليحزبه واستجدوا بقبائل من العرب وهم الأحابيش، وبعثوا فغزروا لرسول الله ﷺ المياه التي تقرب من مكة، فجاء رسول الله ﷺ حتى نزل على بئر الحُدَيْبِيَّةِ، وحينئذ وضع سهمه في الماء فجرى غمراً حتى كفى الجيش، ثم إن رسول الله ﷺ بعث إلى مكة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وبعث أهل مكة إليه رجالاً منهم غزوة بن مسعود، ويُدَيْل بن ورقاء، وتوقف رسول الله ﷺ هنالك أياماً حتى سَفَر سهيل بن عمرو، وبه انعقد الصلح على أن ينصرف رسول الله ﷺ عنهم ويعتمر من

العام القابل، فهذا كان صَدَّهُمْ
إِيَّاهُ، وهو مستوعب في كتب
السِّيَرِ فلذلك اختصرناه.

وقرأ الجمهور: ﴿وَالْهَدْيِ﴾ بسكون
الذال، وقرأ الأعرج، والحسن بن
أبي الحسن: ﴿وَالْهَدْيِ﴾ بكسر الذال
وشد الياء، وهما لغتان، وهو
معطوف على الضمير في قوله
تعالى: ﴿وَصَدُّوكُمْ﴾، أي: وصدوا
الهدي، و﴿مَكْرُوهًا﴾ حال، ومعناه:
محبوساً، تقول: عكفت الرجل عن
حاجته إذا حبسته، وقد قال أبو
علي: إن «عكف» لا أعرفه متعبداً،
وحكى ابن سيده وغيره تعديبه، وهذا
العكف الذي وقع للهدي كان من
قِبَلِ المشركين بصدِّهم، ومن قِبَلِ
المسلمين لرويتهم وتصرفهم في
أمرهم فحبسوا هديهم، و﴿أَنْ﴾ في
قوله تعالى: ﴿أَنْ يَبْلُغَ حِجْلَهُ﴾ يحتمل
أن يعمل فيها الصَّدُّ، كأنه تعالى
قال: وصدوا الهدي كراهة أن، أو
عَنَ أَنْ، ويحتمل أن يعمل فيها
العكف، فيكون ﴿أَنْ﴾ مفعولاً من
أجله، أي: الهدي المحبوس لأجل
أن يبلغ حجله، وهذا هو حبس
المسلمين، وإلّا فحبس المشركين
ليس لأجل أن يبلغ الهدي حجله،
و﴿حِجْلَهُ﴾: مكة والبيت.

وذكر الله تعالى العلة في أن صَرَفَ
المسلمين ولم يمكنهم من دخول
مكة في تلك الوجهة، وهي أنه كان
بمكة مؤمنون، رجالاً ونساءً، خفي
إيمانهم، فلو استباح المسلمون
بيضتها أهلكتها أولئك المؤمنين، قال
قتادة: فدفع الله تعالى عن المشركين
بركة أولئك المؤمنين، وقد يدفع الله

تعالى بالمؤمنين عن الكفار، وقوله
تعالى: ﴿لَوْ تَتَّبَعْتُمُوهُمْ﴾ صفة
للمذكورين، وقوله تعالى: ﴿أَنْ
تَقُولُوا لَهُمْ﴾ يحتمل أن تكون بدلاً من
﴿يَجَالٍ﴾، كأنه تعالى قال: ولولا
قومٌ مؤمنون أن تطشروهم، أي: لَوْلَا
وَتَقُولُوا قوماً مؤمنين، فهي على هذا
في موضع رفع، ويحتمل أن يكون
في موضع نصب بدلاً من الضمير في
قوله تعالى: ﴿لَوْ تَتَّبَعْتُمُوهُمْ﴾، كأنه
تعالى قال: لم تعلموا وطأهم أنه
وطء مؤمنين، والوطء هنا: الإهلاك
بالسيف وغيره، على وجه التشبيه،
ومنه قول الشاعر:

وَوَطِئْتَنَا وَطْأً عَلَى حَنْتِي
وَطْءُ الْمُسْقِيْدِ نَابِتِ الْهَزْمِ
ومنه قول النبي ﷺ: «اللَّهُمَّ اشْدُدْ
وطأتك على مُضْرٍ»، ومنه قول
النبي ﷺ: «إِنْ آخَرَ وَطْءَ الرَّبِّ يَوْمَ
وَجَّحَ بِالطَّائِفِ»؛ لأنها كانت آخر وقعة
للنبي ﷺ، ذكر هذا المعنى النقاش.

و «المعرة»: السوء والمكروه
اللاصق، مأخوذ من العرّ والعُرّة وهو
الجرب الصعب اللازم. واختلف
الناس في تفسير هذه المعرة - فقال
ابن زيد: هي المائت، وقال ابن
إسحق: هي الدية، وهذان ضعيفان
لأنه لا إثم ولا دية في قتل مؤمن
مستور الإيمان من أهل الحرب،
وقال الطبري - وحكاه الثعلبي -: هي
الكفارة، وقال مُنْذِرُ: المعرة: أن
يعيبهم الكفار ويقولوا: قتلوا أهل
دينهم، وقال بعض المفسرين: هي
الملام والقول في ذلك وتألم النفس
منه في باقي الزمان، وهذه أقوال
حسان، وجواب ﴿لَوْلَا﴾ محذوف

تقديره: لمكنّاكم من دخول مكة
وأيدناكم عليهم، وقرأ الأعمش:
﴿فَتَنَا لَكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةً﴾.

واللام في قوله تعالى: ﴿يَنْتَظِلُّ﴾
يحتمل أن تتعلّق بمحذوف من القول
تقديره: لولا هؤلاء لدخلتم مكة لكن
شرفنا هؤلاء المؤمنين بأن رحمانهم
ودفعنا بسببهم عن مكة لِيُدْخَلَ اللهُ
تعالى، أي: ليبين لناظر أن الله
يُدْخِلُ في رحمته من يشاء، أو أي:
لِيَقَعَ دخولهم في رحمة الله تعالى
ودفعه عنهم، ويحتمل أن يتعلّق
بالإيمان المتقدم الذكر، فكأنه تعالى
قال: ولولا قول مؤمنون آمنوا
لِيُدْخَلَ اللهُ في رحمته، وهذا مذكور
لكنه ضعيف؛ لأن قوله تعالى: ﴿مَنْ
يَشَاءُ﴾ يضعف هذا التأويل.

ثم قال تعالى: ﴿لَوْ تَرَكَتُمْ﴾ أي:
لو ذهبوا عن مكة، تقول: زَيْلْتُ
زيداً عن موضعه إزالته، أي:
أذهبته، وليس هذا الفعل من «زال
يزول»، وقد قيل: هو منه، وقرأ
أبو حيوة وقاتدة: ﴿تَرَكَتُمْ﴾ بألف
بعد الزاي، أي: ذهب هؤلاء عن
هؤلاء وهؤلاء عن هؤلاء. وقوله
تعالى: ﴿يَنْتَظِلُّ﴾ لبيان الجنس إذا
كان ضمير ﴿تَرَكَتُمْ﴾ خاصاً
بالمؤمنين أو بالكافرين، وهي أيضاً
لبيان الجنس إذا كان الضمير في
﴿تَرَكَتُمْ﴾ للجميع من المؤمنين
والكافرين، قال النحاس: وقد قيل:
إن قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ
مُؤْمِنُونَ﴾ الآية - يريد تعالى مَنْ في
أصلاب الكافرين ممن سيؤمن في
غابر الدهر، وحكاه الثعلبي والنقاش
عن علي بن أبي طالب



رسول الله ﷺ كان في عام
الحُدُودِ فِي أَرْبَعِ عَشْرَةِ مِائَةٍ، ثُمَّ
سَارَ إِلَى مَكَّةَ بَعْدَ ذَلِكَ بِعَامَيْنِ فِي
عَشْرَةِ آلَافِ فَارَسَ ﷺ.

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

رَوَى فِي تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ أَنَّ
رَسُولَ اللَّهِ ﷺ رَأَى فِي مَنَامِهِ عِنْدَ
خُرُوجِهِ إِلَى الْعُمْرَةِ أَنَّهُ يَطُوفُ بِالْبَيْتِ
هُوَ وَأَصْحَابُهُ، بَعْضُهُمْ مَحْلُوقُونَ
وَبَعْضُهُمْ مَقْضَرُونَ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ:
أَرَى ذَلِكَ بِالْحَدِيثِ، فَأَخْبَرَ النَّاسَ
بِهَذِهِ الرُّؤْيَا، وَتَوَقَّعَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ ذَلِكَ
يَكُونُ فِي وَجْهِهِمْ تِلْكَ، وَقَدْ كَانَ
سَبَقَ فِي عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّ ذَلِكَ
يَكُونُ لَكِنْ لَيْسَ فِي تِلْكَ الْوَجْهِةِ،
وَرَوَى أَنَّ رُؤْيَاهُ ﷺ إِنَّمَا كَانَتْ أَنَّ
مَلَكًا جَاءَهُ فَقَالَ لَهُ: «لَتَنْخُلَنَّ السَّجْدَ
الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَا يَنْبَغُ مُخْلِفينَ
رُؤْيَاكُمْ وَمَقْضَرينَ»، وَأَنَّهُ بِهَذَا أَعْلَمَ

مِصْحَفِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَكَانُوا أَهْلُهَا
وَأَحَقُّ بِهَا»، وَالْمَعْنَى: وَكَانُوا
أَهْلُهَا عَلَى الْإِطْلَاقِ فِي عِلْمِ اللَّهِ
تَعَالَى وَسَابِقِ قَضَائِهِ سُبْحَانَهُ لَهُمْ،
وَقِيلَ: أَحَقُّ بِهَا مِنَ الْيَهُودِ
وَالنَّصَارَى فِي الدُّنْيَا، وَقِيلَ: أَهْلُهَا
فِي الْآخِرَةِ بِالثَّوَابِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
«وَكَانَ اللَّهُ يَكِلُ شَيْءٌ عَليُّكُمْ» إِشَارَةٌ
إِلَى عِلْمِهِ تَعَالَى بِالْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ
دَفَعُوا عَنْ كِفَارِ قَرِيشٍ بِسَببِهِمْ، وَإِلَى
عِلْمِهِ بِوَجْهِ الْمَصْلُحَةِ فِي صَلَاحِ
الْحُدُودِ، فَيُرَوَّى أَنَّهُ لَمَّا انْعَقَدَ أَمْرُ
النَّاسِ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ الْحَرْبِ
وَالْفِتْنَةِ، وَامْتَزَجُوا، وَعَلَّتْ دَعْوَةُ
الإِسْلَامِ وَانْقَادَ إِلَيْهِ كُلُّ مَنْ كَانَ لَهُ
فَهْمٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَزَادَ عَدَدُ
الْمُسْلِمِينَ فِي تِلْكَ الْمُدَّةِ أضعافَ مَا
كَانَ قَبْلَ ذَلِكَ، وَيَقْتَضِي ذَلِكَ أَنَّ

مكة لم يكن من دُون دخول النبي ﷺ وأصحابه مكة، بل كان بعد ذلك بعام، لأن الفتح كان سنة ثمان من الهجرة، ويحسن أن يكون «الفتح» هنا اسم جنس يُعْمُ كل ما وقع للنبي ﷺ فيه ظهور وفتح عليه، وقد حكى مكي في ترتيب أعوام هذه الأخبار عن قطرب قولاً خطأ جعل فيه الفتح سنة عشر، وجعل حجَّ أبي بكر رضي الله عنه قبل الفتح، وذلك كله تخليط وخوض فيما لم يتقنه معرفة.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﷺ فِي هَذِهِ آيَاتِهِ...﴾ تعظيم لأمر الرسول ﷺ، وإِعْلَامٌ بأنه يظهر على جميع الأديان، ورأى بعض الناس [أن] لفظه [يُظهِرُهُ] تقتضي محو غيره به فلذلك قالوا: إن هذا الخبر يظهر للوجود عند نزول عيسى ابن مريم عليهما السلام، فإنه لا يبقى في وقته دين إلا الإسلام، وهذا قول الطبري والثعلبي، ورأى قوم أن الإظهار هو الإِعْلَاءُ وإن بقي من الدين الآخر أجزاء، وهو موجود الآن في دين الإسلام، فإنه قد كان عمَّ أكثر الأرض وظهر على كل دين، وقوله تعالى: ﴿وَكُنَّ لِلَّهِ شَهِيدًا﴾ معناه: شاهداً، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما: شاهداً عندكم بهذا الخبر ومُغْلِمًا به، والثاني: شاهداً على هؤلاء الكفار المنكرين أمر محمد ﷺ الرَّائِدِينَ في صدره، ومعاقباً لهم بحكم الشهادة، فالآية - على هذا - وعيد للكفار الذين شأخوا في أن يكتب محمد رسول الله ﷺ، فردَّ الله تبارك

وتعالى قد أخبر بهما ووقعت الثقة بالأمرين، فالاستثناء من أيهما كان هو استثناء من واجب.

وقال قوم: ﴿إِنْ﴾ بمعنى «إِذ»، فكأنه تعالى قال: «إِذْ شَاءَ اللَّهُ»، وهذا حسنٌ في معناه لكن كون «إِنْ» بمعنى «إِذ» غير موجود في لسان العرب، وللناس بعد في هذا الاستثناء أقوالاً مخلطة غير هذه لا طائل فيها اختصرتها، وقرأ ابن مسعود: ﴿إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَا تَخَافُونَ﴾ بدل ﴿مَأْمِينَتِ﴾.

ولما نزلت هذه الآية علم المسلمون أن تلك الرؤيا ستخرج فيما يستأنفونه من الزمان، واطمأنت قلوبهم بذلك وسكنت، فخرجت في العام المقبل، خرج رسول الله ﷺ إلى مكة في ذي القعدة سنة سبع، ودخلها ثلاثة أيام هو وأصحابه، وصدقت رؤياه. وقوله تعالى: ﴿فَمَلِمَ مَا لَمْ تَمَلُّوا﴾ يريد ما قدره من ظهور الإسلام في تلك المدة ودخول الناس فيه، وما كان أيضاً بمكة من المؤمنين الذين دفع الله تعالى بهم، وقوله تعالى: ﴿مِن دُونِ ذَلِكَ﴾ أي: من قبل ذلك وفيما يدنو إليكم.

واختلف الناس في الفتح القريب - فقال كثير من الصحابة رضي الله عنهم: هو بيعة الرضوان، وزوي عن مجاهد وابن إسحق أنه الصلح مع الكفار بالحديبية، وقد زوي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: أَوْ فَتَحَ هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال: «نعم»، وقال عبدالله بن زيد: الفتح القريب هو فتح مكة، وهذا ضعيف لأن فتح

الناس، فلما قضى الله تعالى بالصلح في الحديبية، وأخذ رسول الله ﷺ في الصدر قال المنافقون: وأين الرؤيا؟ ووقع في نفوس المسلمين شيء من ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾، و«صَدَقَ» هذه تتعدى إلى مفعولين، تقول: صدقتُ زيداً الحديث، واللام في ﴿لَتَدْعُنَّ﴾ لام القسم الذي تقتضيه «صِدْقِي»؛ لأنها من قبيل: تَبَيَّنَ وَتَحَقَّقَ، ونحو هذا مما يعطي القسم.

واختلف الناس في معنى الاستثناء في هذه الآية - فقال بعض المتأولين: هو استثناء من المَلَكِ المُخْبِرِ للنبي ﷺ في قوله، فذكر الله تعالى مقالته كما وقعت، وقال آخرون: هو أخذ من الله تعالى عباده بأدبه في استعمال الاستثناء في كل فعل يوجب وقوعه، كان ذلك مما يكون ولا بُدُّ، أو كان مما قد يكون وقد لا يكون، وقال بعض العلماء: إنما استثنى من حيث كل واحد من الناس متى ردَّ هذا الوعد إلى نفسه أمكن أن يتم هذا الوعد فيه وألاً يتم، إذ قد يموت الإنسان أو يمرض أو يغيب، وكل واحد في ذاته محتاج إلى الاستثناء، فلذلك استثنى عزَّ وجلَّ في الجملة إذ فيهم ولا بُدُّ من يموت، وقال آخرون: استثنى لأجل قوله تعالى: ﴿مَأْمِينَتِ﴾ لا لأجل إعلامه بالدخول، فكأن الاستثناء مؤخَّر عن موضعه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا فرق بين الاستثناء من أجل الأمن أو من أجل الدخول؛ لأن الله تبارك

وتعالى عليهم بهذه الآية كلها.

قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ﴾، قال جمهور الناس: هو ابتداء وخبر استوفى فيه تعظيم منزلة النبي ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ ابتداء وخبره ﴿أَيُّدَاءُ﴾، و﴿رُحَمَاءُ﴾ خبر ثانٍ، وقال قوم من المتأولين: ﴿مُحَمَّدٌ﴾ ابتداء، و﴿رَسُولُ اللَّهِ﴾ صفة له، و﴿الَّذِينَ﴾ عطف عليه، و﴿أَيُّدَاءُ﴾ خبر عن الجميع، و﴿رُحَمَاءُ﴾ خبر بعد خبر، ففي القول الأول اختص النبي ﷺ بوصفه وهؤلاء بوصفهم، وفي القول الثاني اشترك الجميع في الشدة والرّحمة، والأول عندي أرجح لأنه خبر مضاف لقول الكفار: لأنكتب محمد رسول الله، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ إشارة إلى جميع الصحابة رضي الله عنهم عند الجمهور، وحكى الثعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن الإشارة إلى من شهد الحديبية بـ ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾، و﴿أَيُّدَاءُ﴾ جمع شديد أصله أشيداء، أذغم لاجتماع المثليين، وقرأ الجمهور: ﴿أَيُّدَاءُ﴾ و﴿رُحَمَاءُ﴾ بالرفع، وروى قرّة عن الحسن ﴿أَيُّدَاءُ﴾ و﴿رُحَمَاءُ﴾ بنصبهما، قال أبو حاتم: ذلك على الحال، والخبر ﴿تَرَبُّهُمْ﴾، قال أبو الفتح: وإن شئت نصبت ﴿أَيُّدَاءُ﴾ على المدح.

وقوله تعالى: ﴿تَرَبُّهُمْ رُكْمًا سُدًّا﴾، أي: ترى هاتين الحاليتين كثيراً فيهم، و﴿يَتَّبِعُونَ﴾ معناه: يطلبون، وقرأ عمرو بن عبدة: ﴿وَرُضْوَانًا﴾ بضم الراء، وقوله تعالى: ﴿سَيِّئَاتِهِمْ﴾ معناه: علامتهم، واختلف الناس في

تعيين هذه السّيما - فقال مالك بن أنس: كانت جباههم متربة من كثرة السجود في التراب، كان يبقى على المسح أثره، وقال عكرمة، وقال أبو العالية: يسجدون على التراب لا على الأثواب، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وخالد الحنفي، وعطية: هو وغدّ بحالهم يوم القيامة من أن الله تبارك وتعالى يجعل لهم نوراً من أثر السجود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كما يجعل غرة من أثر الوضوء... الحديث، ويؤيد هذا التأويل اتصال القول بقوله تعالى: ﴿فَضَلَا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾، كأنه تعالى قال: علامتهم في تحصيل الرضوان يوم القيامة سيماهم في وجوههم من أثر السجود، ويحتمل أن تكون السّيما بدلاً من قوله: ﴿فَضَلَا﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: السّمّت الحسن هو السّيما، وهو خشوع يبدو على الوجه، وهذه حالة مكثري الصلاة لأنها تنهاهم عن الفحشاء والمنكر، وتقل الضحك، وتردّ النفس بحالة تخشع معها الأعضاء، وقال الحسن بن أبي الحسن، وشيخ بن عطية: السّيما بياض وصفرة وتهيج يعتري الوجوه من السهر، وقال منصور: سألت مجاهدًا: هل السّيما هي الأثر يكون بين عيني الرجل؟ فقال: لا، وقد تكون مثل ركة البعير وهو أقى قلباً من الحجارة، وقال عطاء بن أبي رباح، والربيع بن أنس. السّيما حُسنٌ يعتري وجوه المصلّين، وذلك أن الله تعالى يجعل لها في عين

الرائي حُسنًا تابعاً للإجلال الذي في نفسه، ومتى أجل الإنسان أضرأ حُسن عنده منظره، ومن هذا الحديث، الذي في الشهاب «من كثرت صلواته بالليل حُسنٌ وجهه بالنهار»، وهو حديث غلط فيه ثابت بن موسى الزاهد، سمع شريك بن عبدالله يقول: حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، ثم نزع شريك لما رأى ثابتاً الزاهد فقال يعنيه: «من كثرت صلواته بالليل حُسنٌ وجهه بالنهار»، فظن ثابت أن هذا الكلام حديث متركب على السند المذكور فحدث به عن شريك. وقرأ الأعرج: ﴿مِنْ إِبْرِي﴾ بسكون الشاء وكسر الهمزة، قال أبو حاتم: هما بمعنى، وقرأ قتادة: ﴿مِنْ آثَارِ﴾ جمعاً.

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍ﴾ الآية. المثل هنا: الوصف أو الصفة، وقال بعض المتأولين: التقدير: الأمر ذلك، وتم الكلام، ثم قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍ﴾ وقال مجاهد: المعنى: ذلك الوصف هو مثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل، وتم القول، و﴿كَرَجٍ﴾ ابتداء تمثيل يخص بالقرآن، وقال الطبري، وحكاها الضحاك: المعنى: ذلك المعنى هو وصفهم في التوراة، وتم القول، ثم ابتداء ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَرَجٍ﴾ وقال آخرون: المثلان جميعاً في التوراة وفي الإنجيل.

وقوله تعالى: ﴿كَرَجٍ﴾ هو على كل الأقوال وفي أي كتاب منزل قرّض مثل للنبي ﷺ وأصحابه في أن

تفسير سورة الحجرات

وهي مدنية بإجماع من أهل التأويل.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

كانت عادة العرب - وهي إلى الآن - الاشتراك في الآراء، وأن يتكلم كل بما شاء ويفعل ما أحب، فمشى بعض الناس ممن لم تتمرن نفسه مع النبي ﷺ على بعض ذلك، قال قتادة: فربما قال قوم: لو نزل كذا وكذا في معنى كذا، ولو فعل الله كذا، وينبغي أن يكون كذا، وأيضاً فإن قوماً ذبحوا ضحاياهم قبل النبي ﷺ، حكاة الحسن بن أبي الحسن، وقوماً فعلوا في بعض حروبه وغزواته شيئاً بأرائهم، فنزلت هذه الآية ناهية عن جميع ذلك.

وحكى الشعلبي عن مسروق أنه قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها في يوم الشك، فقالت للجارية: اسقه عسلاً، فقلت: إني صائم، فقالت: نهى رسول الله ﷺ عن صيام هذا اليوم، وفيه نزلت: ﴿لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾، وقال ابن زيد: معنى ﴿لَا تَقْدِمُوا﴾: لا تمشوا بين يدي رسول الله ﷺ، وكذلك بين يدي العلماء فإنهم ورثة الأنبياء، وتقول العرب: تَقَدَّمْتُ في كذا وكذا وقَدَّمْتُ فيه إذا قلت فيه.

وقرأ الجمهور من القراء:

الثاني أن يكون [آزرة] أو [أزرة] بمعنى أعانه وقواه، مأخوذ من الأزر وشده، فيحتمل أن يكون الفاعل الشطء، ويحتمل أن يكون الفاعل الزرع؛ لأن كل واحد منهما يُقَوِّي صاحبه، وقال مجاهد وغيره: ﴿فَأَزَّرَهُ﴾ وزنه فاعلته، والأول أصوب، أن وزنه أفعلته، ويدل على ذلك قول الشاعر:

لَا مَالَ إِلَّا الْعِطَافُ تُؤَزِّرُهُ
أُمُّ ثَلَاثِينَ وَإِنَّهُ الْجَبَلُ
وقرأ ابن كثير: ﴿عَلَى سَوْقِهِ﴾
بالمهمز، وهي لغة ضعيفة، يهمزون الواو قبلها ضمّة، ومنه قول الشاعر:

لَحَبِّ الْمُؤَقَّدَانِ إِلَيَّ مُؤَسَّى

و ﴿يُجِبُّ الزُّرْعَ﴾ جملة في موضع الحال، فإذا أعجب الزُّرْعَ فهو أحرى أن يُعجب غيرهم لأنه لا عيب فيه؛ إذ قد أعجب العارفين بالعيوب، ولو كان معيباً لم يُعجبهم، وهنا تمّ المثل.

وقوله تعالى: ﴿لِيُعْظِ بِمِ الْكُفَّارِ﴾ ابتداءً كلام قبله محذوف تقديره: جعلهم الله تعالى بهذه الصفة ليغيب بهم الكفار، و«الْكُفَّارُ» هنا: المشركون، قال الحسن: من غيظ الكفار قول عمر رضي الله عنه بمكة: «لَا عَيْدَ لَهِ عَزَّ وَجَلَّ سُرًا بعد اليوم»، وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ﴾ هي لبيان الجنس وليست للتبويض، لأنه وعْدٌ مُرَجٌّ للجميع.

كامل تفسير سورة الفتح والحمد لله رب العالمين

النبي ﷺ بُعث وحده فكان كالزرع حبة واحدة، ثم كثر المسلمون فهم كالشُطء وهم فراع السنبلة التي تنبت حول الأصل، يقال: أشطأت الشجرة إذا أخرجت غصونها، وأشطأ الزرع إذا أخرج شطأه، وقرأ ابن كثير، وابن ذكوان: ﴿شُطَاءُ﴾ بفتح الطاء والهزمة دون مد، وقرأ الباقون بسكون الطاء، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿شُطَاءُ﴾ بفتح الطاء دون همز، وقرأ أبو جعفر: ﴿شُطَاءُ﴾، زمى بالهزمة وفتح الطاء، ورؤيت عن نافع، وشيبة، ورؤي عن عيسى ﴿شُطَاءَةٌ﴾ بالمد والهزمة، وقرأ الجحدري: ﴿شُطُوءٌ﴾ بالواو، وقال أبو الفتح: هي لغة، أو بدل من الهزمة، ولا يكون الشُطُّ إِلَّا فِي البُرِّ والشعير، وهذه كلها لغات، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «الزرع» النبي ﷺ، «فأزره» علي بن أبي طالب رضي الله عنه، «فاستغلظ» بأبي بكر رضي الله عنه، «فاستزوى» علي سوقه» بعمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿فَأَزَّرَهُ﴾ وزنه «أفعلته»، قاله الحسن، ورجحه أبو علي، وقرأ ابن ذكوان وحده: ﴿فَأَزَّرَهُ﴾ على وزن «فعلته» دون مد، ولذلك كله معنيان: أحدهما ساواة طولاً، ومنه قول امرئ القيس:

بِمَخِيئَةٍ قَدْ آزَّرَ الضَّالَّ نَبْثَهَا
مَجْرَجِيوشٍ غَانِمِينَ وَحَبِيبِ
أي: هو موضع لم يُزْعَ نَبْثُهُ فكمّل حتى ساوى شجر الضال، فالفاعل - على هذا المعنى - الشُطء، والمعنى

﴿تَقَدَّمُوا﴾ بضم التاء وكسر الدال، وقرأ ابن عباس، والضحاك، ويعقوب، بفتح التاء والدال على معنى: لا تتقدموا، وعلى هذا يجيء تأويل ابن زيد في المشي، والمعنى على ضم التاء: بين يدي قول الله ورسوله.

وروي أن سبب هذه الآية هو أن وفد بني تميم لما قدم قال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله، لو أمرت الأقرع بن حابس، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، بل أمر القعقاع بن مَبِيد، فقال أبو بكر رضي الله عنه: ما أردت إلا خلافي، وروى: إلى خلافي، فقال عمر رضي الله عنه: ما أردت خلافك، وارتفعت أصواتهما، فنزلت الآية في ذلك، وذهب بعض قائلي هذه المقالة إلى أن قوله تعالى: ﴿لَا تَقَدَّمُوا﴾ معناه: لا تقدموا ولاة، فهو من تقدم الأمراء، وعموم اللفظ أحسن، أي: اجعلوه مبدأ في الأقوال والأفعال. و﴿سَبَّحٌ﴾ معناه: لأقوالكم، و﴿عَلِيمٌ﴾ معناه: بأفعالكم ومقتضى أقوالكم.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾ الآية هي أيضاً في ذلك الفن المتقدم، وروى أن سببها كلام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما المتقدم في أمر الأقرع والقعقاع، والصحيح أنها نزلت بسبب عادة الأعراب في الجفاء وعلو الصوت والعنجهية، وكان ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه يمتن في صوته

جهازة، فلما نزلت هذه الآية اغتمَّ وخاف على نفسه وجلس في بيته لم يخرج وهو كئيب حزين، حتى عرف رسول الله ﷺ خبره، فبعث إليه فأنسه وقال له: ﴿امش في الأرض بسنطاً فإنك من أهل الجنة﴾، وقال له مرة: ﴿أما ترضى أن تعيش حميداً، وتموت شهيداً، فعاش كذلك ثم قُتل رضي الله عنه باليمامة يوم مسيلمة. وفي قراءة ابن مسعود: ﴿لَا تَرْفَعُوا بِأَصْوَاتِكُمْ﴾ بزيادة باء. وقوله تعالى: ﴿كَبَّهْرٍ بَعْضِكُمْ لِيَعْنِ﴾ أي: كحال جهركم في جفائه وكونه مخاطبة بالأسماء والألقاب، وكانوا يدعون النبي ﷺ: يا محمد، قاله ابن عباس وغيره، فأمرهم الله تعالى بتوقيره وأن يدعوه بالنبوة والرَّسالة والكلام اللين، فتلك حالة الموقر، وكره العلماء رفع الصوت عند قبر النبي ﷺ وبحضرة العالم وفي المساجد، وفي الجميع آثار.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَحْبَطَ﴾ مفعول من أجله، أي: مخافة أن تحبَط، والحبط: الفساد في العمل بعد تفرُّره، يقال: حبِط بكسر الباء، وأحبطه الله، وهذا الحبط إن كانت الآية مُعْرَضَةً بمن يجهر استخفافاً واحتقاراً وجزأةً فذلك كفر والحبط معه على حقيقته، وإن كان التعريض للمؤمن الفاضل الذي يفعل ذلك غفلة وجرياً على طبعه فإنما يحبط عمله البر في توقيير النبي ﷺ وغيض الصوت عنده إن لَو فعل ذلك، كأنه قال: مخافة أن تحبَط الأعمال التي هي مُعَدَّةٌ أن

تعملوها فتؤجروا عليها، ويحتمل أن يكون المعنى: أن تأتمُّوا ويكون ذلك سبباً إلى الوحشة في نفوسكم، فلا تزال معتقداتكم تندرج القهقري حتى يؤول ذلك إلى الكفر فيُحِبَط الأعمال حقيقة، وظاهر الآية أنها مخاطبة لفضلاء المؤمنين الذين لا يفعلون ذلك احتقاراً، وذلك أنه لا يقال لمنافق يعمل ذلك جرأة: «وأنت لا تشعر» لأنه ليس له عمل يعتقد هو عملاً، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿تَحْبِطُ أَعْمَالَكُمْ﴾.

ثم مدح تعالى الصنف المخالف لمن تقدَّم ذكره وهم الذين يُغَضُّون أصواتهم عند النبي ﷺ، وغيض الصوت: حَفَّضَهُ وكَسَّرَهُ، وكذلك البصر، ومنه قول جرير:

فَغَضُّ الطَّرْفِ إِنَّكَ مِنْ نَمِيرِ

وروي أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما كانا بعد ذلك لا يكلمان رسول الله ﷺ إلا كأخي السرار، وأن النبي ﷺ كان يحتاج مع عمر رضي الله عنه بعد ذلك إلى استعادة اللفظ؛ لأنه كان لا يسمعه من إخفائه إيَّاه.

و﴿امْتَحَنٌ﴾ معناه: اختبر وطهر كما يمتحن الذهب بالنار، فيسرها وهيأها للتقوى، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: امتحن للتقوى: أذهب عنها الشُّهوات.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: من غَلَبَ شهوته وغيضه فذلك الذي امتحن الله تعالى قلبه للتقوى، وبذلك تكون الاستقامة.

الثائب، وغفرانه ورحمته لمن أناب ورجع.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ جَاءِ كُرَيْمٍ فَأَيُّ يَتِيَا﴾ الآية. سببها أن النبي ﷺ بعث الوليد بن عقبة بن أبي معيط إلى بني المصطلق مُصَدِّقًا، فُرِي أَنَّهُ كَانَ مُعَادِيًا لَهُمْ فَأَرَادَ إِذِ ابْتِهِمْ، فَرَجَعَ مِنْ بَعْضِ طَرِيقِهِ وَكَذَبَ عَلَيْهِمْ - قَالَ الضَّحَّاكُ - وَقَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: إِنَّهُمْ قَدْ مَنَعُوا الصَّدَقَةَ وَطَرَدُونِي وَارْتَدُوا، فَغَضِبَ النَّبِيُّ ﷺ وَهُمْ بِغَزْوِهِمْ وَنَظَرَ فِي ذَلِكَ، وَبَعَثَ خَالِدَ بْنَ الْوَلِيدِ إِلَيْهِمْ، فَوَرَدَ وَفَدَهُمْ مُنْكَرِينَ لِذَلِكَ، وَرَوَى عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ وَابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم أَنَّ الْوَلِيدَ بْنَ عَقْبَةَ لَمَّا قَرَّبَ مِنْهُمْ خَرَجُوا إِلَيْهِ مُتَلَقِينَ لَهُ، فَرَأَاهُمْ عَلَى بُغْدٍ فَفَزِعَ مِنْهُمْ وَظَنَّ بِهِمُ الشَّرَّ وَانصَرَفَ فَقَالَ مَا ذَكَرْنَاهُ، وَرَوَى أَنَّهُ لَمَّا قَرَّبَ مِنْهُمْ بَلَغَهُ عَنْهُمْ أَنَّهُمْ قَالُوا: لَا نَعْطِيهِ الصَّدَقَةَ وَلَا نَعْطِيهِ، فَعَمِلَ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْخَبَرِ وَانصَرَفَ فَقَالَ مَا ذَكَرْنَاهُ، فَنَزَلَتِ الْآيَةُ بِهَذَا السَّبَبِ، وَالْوَلِيدُ - عَلَى مَا ذَكَرَ مُجَاهِدٌ وَقَتَادَةُ - هُوَ الْمَشَارُ إِلَى الْفَاسِقِ، وَحَكَى الزَّهْرَوَائِيُّ: قَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ: هُوَ الْوَلِيدُ بْنُ عَقْبَةَ ثُمَّ هِيَ بَاقِيَةٌ فِيمَنْ اتَّصَفَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ غَابِرِ الدَّهْرِ. وَالْفِسْقُ: الْخُرُوجُ عَنْ نَهْجِ الْحَقِّ، وَهُوَ مُرَاتِبٌ مُتَبَايِنَةٌ كُلُّهَا مُظَنَّةٌ لِلْكَذِبِ وَمَوْضِعٌ تَثَبُّتٌ وَتَبَيُّنٌ، وَتَأْتَسُّ الْقَائِلُونَ بِقَبُولِ خَبَرِ الْوَاحِدِ بِمَا يَقْتَضِيهِ دَلِيلُ خَطَابِ هَذِهِ الْآيَةِ؛ لِأَنَّهُ يَقْتَضِي أَنْ غَيْرِ الْفَاسِقِ إِذَا جَاءَ بِنَبِيٍّ أَنْ يَعْمَلَ بِحَسْبِهِ، وَهَذَا لَيْسَ

خطيبهم فخطب وفخر، فأمر رسول الله ﷺ ثابت بن قيس بن شماس رضي الله عنه فخطب وذكر الله تعالى والإسلام وأزبى على خطيبهم، ثم قام شاعرهم فأنشد مفتخرًا، فقام حسان بن ثابت رضي الله عنه ففخر بالله تعالى وبالرسول ﷺ وبالنبية ﷺ وكان أشعر من شاعرهم، فقال بعضهم لبعض: والله إن هذا الرجل لمؤتى له، لخطيبه أخطب من خطيبنا، ولشاعره أشعر من شاعرنا، ثم نزلت فيهم هذه الآية.

هذا تلخيص ما تظاهرت به الروايات في هذه الآية، وقد رواه موسى بن عقبة عن أبي سلمة عن الأقرع بن حابس، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿أَكْفَرُهُمْ بَنُو تَمِيمٍ لَا يَنْغَلِقُونَ﴾.

و «الْحُجْرَات» جمع حجرة، وقرأ الجمهور من القراء: «الْحُجْرَاتِ» بضم الحاء والجيم، وقرأ أبو جعفر القارئ وحده: «الْحُجْرَاتِ» بفتح الحاء والجيم. وقوله تعالى: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ يعني في الثواب عند الله تعالى، وفي انبساط نفس النبي ﷺ لهم وقضائه لحوائجهم وودّه لهم، وذلك كله خير، ولا محالة أن بعضه انزوى بسبب جفائهم. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ ترجمة لهم وإعلامٌ بقبوله توبة

سورة الحجرات
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ عَفْوٌ رَحِيمٌ ﴿٤﴾ يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ جَاءِ كُرَيْمٍ فَأَيُّ يَتِيَا قَتِينُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحِرُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نِيدِينَ ﴿٥﴾ وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَيْكُمْ الْأَيْمَنُ وَرَزَقَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٦﴾ فَضَلَّ مِنْ اللَّهِ وَرِيعَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧﴾ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَاقْتَلُوا الْتِي تَبَغَى حَتَّى تَبْغَى إِلَى الْأَمْرِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخُوهُمْ وَاقْتُلُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَرْحَمُونَ ﴿٩﴾ يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَخْرُجُونِ مِنْ قَوْمِهِمْ عَسَى أَنْ يَكُونُوا آخِرًا مِنْهُمْ وَلَا يَسَاءَ عَسَى أَنْ يَكُونَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِلَا لَغْوٍ يَسَسُ الْإِسْمُ الْفُسُوقَ بَعْدَ الْإِيمَنِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١٠﴾

١٠ - ٨ - تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْأَرْبَعِ بِيَادِ وَتَانَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿عَفْوٌ رَحِيمٌ﴾ نزل في وفد بني تميم، حيث كان الأقرع بن حابس، والزبيرقان بن بدر، وعمرو بن الأهم، وغيرهم، وذلك أنهم وفدوا على رسول الله ﷺ فدخلوا المسجد ودنوا من حجر أزواج النبي ﷺ وهي تسع، ففعلوا ونادوا ولم ينتظروا، ونادوا بجملتهم: يا محمد اخرج إلينا، يا محمد اخرج إلينا، فكان في فعلهم ذلك جفاءً وبداءةً وقلةً توقير، فترى رسول الله ﷺ مدةً ثم خرج إليهم، فقال له الأقرع بن حابس: يا محمد، إن مدحي زين، ودمي شين، فقال له النبي ﷺ: «ويلك ذلك الله تعالى»، واجتمع الناس في المسجد، فقام

باستدلال قوي، وليس في موضع الكلام على مسألة خير الواحد.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿تَتَّبِعُوا﴾ من التَّبِيتِ، وقرأ حمزة، والكسائي، والحسن، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وعيسى: ﴿تَتَّبِعُوا﴾ من التَّبَيْتِ. و﴿أَنَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنَّ تُصِيبُوا﴾ مفعول من أجله، كأنه تعالى قال: مخافة أن تصيبوا، وقال قتادة: قال رسول الله ﷺ عندما نزلت هذه الآية: «التَّبَيْتُ من الله والعجلة من الشيطان»، قال منذر بن سعيد: هذه الآية تردُّ على من قال إن المسلمين كلهم عدول حتى تثبت الجرحه لأن الله تعالى أمر بالتَّبِيتِ قبل القول.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقوله يقتضي أن المجهول الحال يخشى أن يكون فاسقاً، والاحتياط لازم. قال النفاس: وقوله تعالى: ﴿تَتَّبِعُوا﴾ أبلغ من ﴿تَتَّبِعُوا﴾؛ لأنه قد يَتَّبِتُ من لا يَتَّبِينُ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾ توبيخ للكذبة ووعيد بالفضيحة، أي: فليفكر الكاذب في أن الله تعالى يفضحه على لسان رسوله ﷺ، ثم قال: ﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنُرْسِلْكُمْ، وَهَلَكْتُمْ، وَالْعَتَّى: المشقة، أي: لو يطيعكم أيها المؤمنون في كثير مما ترونه باجتهادكم وتقدمكم بين يديه، وقوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبِيبٌ إِلَىٰكُمْ الْإِيمَانَ﴾ الآية، كأنه تعالى قال: ولكن أنعم بكذا وكذا، وفي ذلك كفاية وأمر لا تقومون بشكره، فلا

تتقدموا في الأمور واقتنعوا بإنعام الله تعالى عليكم، وحبب الله تبارك وتعالى الإيمان وزينه بأن خلق في قلوب المؤمنين حبه وحسنه، وكذلك تكريه الكفر والفسوق والعصيان، وحكى الرُّماني عن الحسن أنه حبب الإيمان بما وصف من الثواب عليه، وكره الثلاثة المقابلة للإيمان بما وصف من العقاب عليها، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّشِدُونَ﴾ رجوع من الخطاب إلى ذكر الغيبة، كأنه تعالى قال: ومن فعل هذا معه وقبله وشكر عليه فأولئك هم الرّاشدون.

وقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَانَ لَٰكِنَّا وَمِنَّمَا مَصَدَّرٌ مُّؤَكَّدٌ بِنَفْسِهِ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ هُوَ بِمَعْنَاهُ؛ إِذِ التَّحْيِيبُ وَالتَّزْيِينُ هُوَ نَفْسُ الْفَضْلِ، وَقَدْ يَجِيءُ الْمَصْدَرُ مُؤَكَّدًا لَمَّا قَبْلَهُ إِذَا لَمْ يَكُنْ هُوَ نَفْسَ مَا قَبْلَهُ، كَقَوْلِكَ: جَاءَ زَيْدٌ حَقًّا وَنَحْوَهُ، وَكَانَ قِتَادَةُ رَحِمِهِ اللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: قَدْ قَالَ تَعَالَى لِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ ﷺ: ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَنُرْسِلْكُمْ، وَأَنْتُمْ وَاللَّهُ أَسْخَفَ رَأْيًا وَأَطْيَشَ أَحْلَامًا، فَلْيَتَّبِعْهُمْ رَجُلٌ نَفْسَهُ وَلْيَنْتَصِحْ كِتَابَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى.

٩ - ١٠ تفسير قوله عز وجل: ﴿طَائِفَتَانِ﴾ مرفوع بإضمار فعل، والطائفة: الجماعة، وقد تقع على الواحد، واحتج لذلك بقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ﴾، ورأى بعض الناس أنه يُجزى أن يشهد حدّ الزناة واحد، فهذه الآية الحكم فيها في الأفراد وفي الجماعات واحد. واختلف الناس في سبب هذه الآية

- فقال أنس بن مالك والجمهور: سببها ما وقع بين المسلمين وبين المتحزبين منهم أيضاً مع عبدالله بن أبي إسن سألوا حين مرّ به رسول الله ﷺ وهو متجه لزيارة سعد بن عبادة رضي الله عنه في مرضه، فقال عبدالله بن أبي لما غشيته حمار رسول الله ﷺ: لا تُعَبِّرُوا علينا، ولقد آذانا نثن حمارك، فردّ عليه عبدالله بن رواحة رضي الله عنه الحديث بطوله... فتلاحي الناس حتى وقع بينهم ضربٌ بالجريد، ويروى بالحديد.

وقال أبو مالك، والحسن: سببها أن فرقتين من الأنصار وقع بينهما قتال فأصلحه رسول الله ﷺ بعد جهد ونزلت الآية في ذلك.

وقال السدي: كانت بالمدينة امرأة من الأنصار يقال لها: أم بدر، وكان لها زوج من غيرهم، فوقع بينهما شيء أوجب أن يأنف لها قومها وله قومه، فوقع قتال نزلت الآية بسببه.

و﴿بَتَّ﴾ معناه: طلبت العلو بغير الحق، ومدافعة الفئة الباغية تتوجه في كل حال، وأما التهيؤ لقتالها فمع الولاة، وقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: أمشركون هم أهل صفين والجمال؟ قال: لا، من الشرك فزوا، قيل: أقمنا فقوم؟ قال: لا، لأن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما حالهم؟ قال: إخواننا بغوا علينا، وقال النبي ﷺ: «حكم الله تعالى في الفئة الباغية ألاّ يُجهز على جريح، ولا يُطلب هارب، ولا يُقتل أسير»، و﴿يَقَى﴾ معناه: ترجع، و﴿الإقساط﴾: الحكم بالعدل.

وقد تتداخل هذه الجموع، وكلها في كتاب الله تعالى، فمنه ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ومنه ﴿أَوْ بُيُوتٍ إِخْوَانِكُمْ﴾، فهذا جاء على الأقل في الاستعمال.

عز وجل: ﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله

هذه الآية التي بعدها نزلت في خلق أهل الجاهلية، وذلك لأنهم كانوا يجرون مع شهوات نفوسهم، لم يَقْوَمُهُمْ أَمْرُ من الله تعالى ولا نهي، فكان الرجل يسخر ويلمز ويهمز وينبز بالألقاب

ويظن الظنون فيتكلم بها ويغتاب ويفتخر إلى غير ذلك من أخلاق النفوس الباطلة، فنزلت هذه الآية تاديباً لأمة محمد ﷺ.

وذكر بعض الناس لهذه الآيات أسباباً، فمِمَّا قيل: إن هذه الآية ﴿لَا يَسْخَرُ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ نزلت بسبب عكرمة بن أبي جهل، وذلك أنه كان يمشي بالمدينة مسلحاً، فقال له قوم: هذا ابن فرعون هذه الأمة، فعزَّ عليه ذلك وشكاه إلى رسول الله ﷺ، والقويُّ عندي أن هذه الآيات نزلت تقريماً لسائر الخلق، ولو تتبعت الأسباب لكانت أكثر من أن تحصى.

و﴿يَسْخَرُ﴾ معناه: يستهزئ، والهُزْءُ إنما يترتب متى ضعف امرؤ إمَّا لصغر وإمَّا لعلَّة حادثة أو لِرِزْيَةٍ أو لتقصية يأتيه، فينهي المؤمنون عن

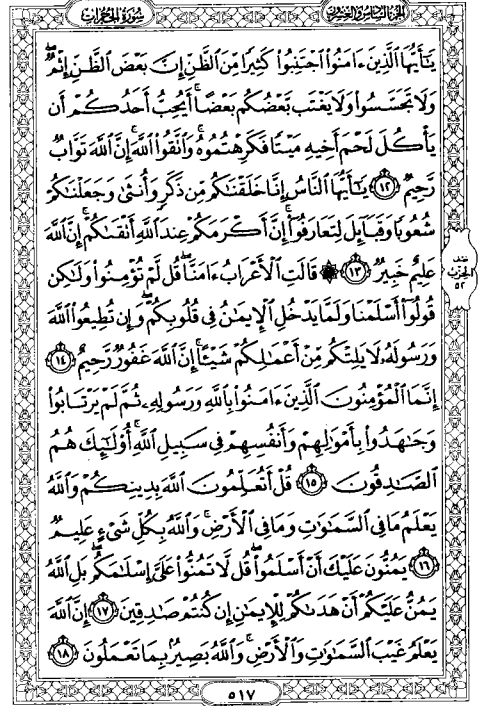
الاستهزاء في هذه الأمور وغيرها نهياً عاماً، فقد يكون ذلك المُسْتَهْزَأُ به خيراً من الساخر. و«القوم» في كلام العرب واقع على الذُكران، وهو من أسماء الجمع كالرَّهط، وقول من قال إنه من القيام أو جمع قائم ضعيف، ومن هذا قول الشاعر وهو زهير:

وَمَا أَذْرِي وَسَوْفَ إِخْسَالُ أَذْرِي
أَقْوَمُ آلِ جِضْنٍ أَمْ نِسَاءِ؟

وهذه الآية تقتضي اختصاص القوم بالذُكران، وقد يكون مع الذُكران نساء فيقال لهم: «قَوْمٌ» على تغليب حال الذكور، ثم نهى الله تعالى النساء عما نهى عنه الرجال من ذلك، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿عَسَوْا أَنْ يَكُونُوا﴾ و﴿عَسَيْنَ أَنْ يَكُنَّ﴾.

و﴿تَلَيَّرُوا﴾ معناه: يطعن بعضهم على بعض بذكر النقائص ونحوه، وقد يكون «اللَّمزُ» بالقول وبالإشارة ونحو هذا مما يفهمه الآخر، و«الهُمزُ» لا يكون إلاً باللسان، وهو مشبَّه بالهمز بالعود ونحوه مما يقتضي المُماثَّة، قال الشاعر:

وَمَنْ هَمَزْنَا عِزَّةً تَبَزَّكَعَا
وقيل لأعرابي: أنهمز الفأرة؟ فقال: الهرُّ يهمزها، وحكى الثعلبي أن «اللَّمزَ» ما كان في المُشْهَد، وأن «الهُمزَ» ما كان في المغيب، وحكى الزهراوي عن علي بن سليمان عكس ذلك، فقال: الهمز أن تعيب بالهضرة واللَّمز في الغيبة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَيْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿تَلَيَّرُوا﴾ بكسر



قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، يريد تعالى أخوة الدين، وقرأ الجمهور من القراء: ﴿بَيْنَ أَخْوِيكُمْ﴾ وذلك رعاية لحال أقل عدد يقع فيه القتال والتشاجر، والجماعة متى قصدوا الإصلاح فإنما هو بين رجلين رجلين، وقرأ ابن عامر، والحسن - بخلاف عنه: ﴿بَيْنَ إِخْوَتِكُمْ﴾، وقرأ ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وابن سيرين، والحسن، وعاصم الجحدري، وثابت البناني، وحمام بن سلمة: ﴿بَيْنَ إِخْوَانِكُمْ﴾، وهي حسنة لأن الأكثر من جمع الأخ في الدين ونحوه من غير النسب إخوان، والأكثر من النسب إخوة وآخاء، قال الشاعر:

وَجَدْتُمْ أَخَاكُمْ بَيْنَنَا إِذْ نَسَبْتُمْ
وَأَيُّ بَنِي أَخَاءِ تَثْبُؤُ مَنَاسِبُ؟

الميم، وقرأ الأعرج والحسن
بضمها، قال أبو عمرو بن العلاء:
هي عربية، وقال أبو حاتم: قراءة
بالضم وأحياناً بالكسر، وقوله
تعالى: ﴿أَنْفُسَكُمْ﴾ معناه: بعضكم
بعضاً، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا
أَنْفُسَكُمْ﴾، كأن المؤمنين كنفس
واحدة إذ هم إخوة كما قال
رسول الله ﷺ: «كالجسد إذا اشتكى
منه عضو تداعى سائرته بالسهر
والحمى»، وهم كما قال أيضاً:
«كالبنيان يشد بعضه بعضاً».

و «التأبز»: التلقب، والتبزر والتلقب
واحد، إذ اللقب هو ما يُعرف به
الإنسان من الأسماء التي يكره
سماعها، وزوي أن بني سلمة كانوا
قد كثرت فيهم الألقاب، فدعا
رسول الله ﷺ رجلاً منهم فقال له:
يا فلان، فقيل له: إنه يغضب من
هذا الاسم، ثم دعا آخر كذلك،
فنزلت الآية في هذا، وليس من هذا
قول المحدثين: سليمان الأعمش،
وواصل الأحذب. ونحوه مما تدعو
الضرورة إليه وليس فيه قصد
استخفاف ولا أذى، وقد قال
عبدالله بن مسعود لِعَلْقَمَةَ: أو تقول
أنت ذلك يا أعور؟ وأسند النقاش
إلى عطاء، قال رسول الله ﷺ:
«كفوا أولادكم»، قال عطاء، مخافة
الألقاب، وقال ابن زيد: معنى ﴿وَلَا
تَكْفُرُوا بِالْأَلْقَابِ﴾ أي: لا يقل أحد
لآخر: يا يهودي بعد إسلامه، ولا
«يا فاسق» بعد توبته، ونحو هذا،
وحكى النقاش أن كعب بن مالك،
وابن أبي حذرد تلاحياً، فقال له
كعب: يا أعرابي، يريد أن يُعده من

الهجرة، فقال له الآخر: يا يهودي؛
لمخالطة الأنصار اليهود في يثرب،
فنزلت الآية.

وقوله تعالى: ﴿يَسَّ الْأَيْمَنُ النَّسْوُ
بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما
فبئس اسم تكتسبونه بعضيانيكم
ونيزكم بالألقاب فتكونون فساقاً
بالمعصية بعد إيمانكم، والثاني بئس
ما يقول الرجل لأخيه يا فاسق بعد
إيمانه، وقال الرُّمَّانِي: هذه الآية تدل
على أنه لا يجتمع الفسوق والإيمان،
وهذه نزعاً اعتزالية، ثم شدد الله
تعالى عليهم النهي بأن حكم بظلم
من لم يتب ويُقلع عن هذه الأشياء
التي نهى عنها.

ثم أمر تبارك وتعالى المؤمنين
باجتناب كثير من الظن، والأعمالوا
ولا يتكلموا بحسبه لما في ذلك وفي
التجسس من التقاطع والتدابير،
وحكم على بعضه أنه إثم؛ إذ بعضه
ليس بإثم ولا يلزم اجتنابه، وهو ظنُّ
الخير بالناس، حُسْنُهُ بالله تعالى،
والمظنون من شهادات الشهود،
والمظنون به من أهل الشر، فإن
سقوط عدالته وغير ذلك هو من
حكم الظنِّ به، وظنُّ الخير بالمؤمن
محمود، والظنُّ المنهني عنه هو أن
يظن سواً برجل ظاهره الصلاح، بل
الواجب أن يزيل الظنَّ وحكمه
ويتأول الخير، وقال بعض الناس:
[إثم] معناه: كذب، ومنه قول
النبي ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالظَّنَّ فَإِنَّ الظَّنَّ
أَكْذَبُ الْحَدِيثِ». وقال بعض
الناس: معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ
بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ أي: إذا تكلم الطَّانُ
إثم، وما لم يتكلم فهو في فسحة

لأنه لا يقدر على دفع الخواطر التي
يبيحها قول النبي ﷺ: «الحزم سوء
الظنِّ». وذكر النقاش عن أنس
رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه
قال: «احترسوا من الناس بسوء
الظن».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وما زال أولوا العزم يحترسون من
سوء الظنِّ ويسدون ذرائعه، قال
سلمان الفارسي: إني لأعدُّ عُراق
قَدْرِي مخافة الظنِّ، وكان أبو العالية
يختم على بقيّة طعامه مخافة سوء
الظنِّ بخادمه، وقال ابن مسعود
رضي الله عنه: الأمانة خير من
الخاتم، والخاتم من سوء الظنِّ.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ أي:
لا تبحثوا عن مُحَبَّاتِ أمور الناس،
وادفعوا بالتّي هي أحسن، وأخبروا
بالظواهر الحسنة. وقرأ الحسن،
وأبو رجاء، وابن سيرين،
والهذليون: ﴿وَلَا تَحَسَّسُوا﴾ بالحاء
غير منقوطة، وقال بعض الناس:
التجسس - بالجيم - في الشرِّ،
والتحسس - بالحاء - في الخير،
وهكذا ورد القرآن ولكن قد
يتداخلان في الاستعمال، وقال أبو
عمرو بن العلاء: التجسس: ما كان
من وراء وراء، والتحسس: الدخول
والاستعلام، وصحَّ عن النبي ﷺ أنه
قال: «ولا تحسسوا ولا تجسسوا ولا
تنافسوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا،
وكونوا عباد الله إخواناً». وذكر
الشعبي حديث حراسة عمر بن
الخطّاب مع ابن عوف
رضي الله عنهما ووجودهما الشرب
في ربيعة بن أمية بن خلف، وذكر

الكاف وشدّ الرأى، ورواها أبو سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ. ثم أعلمهم الله تعالى بأنه تَوَاتَبَ رحيم إِنْقَاءَ منه تعالى وإمهالاً وتمكيناً من التوبة.

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَكَرَ وَأُنْذِرَ﴾ يحتمل أن يريد آدم وحواء عليهما السلام، فكأنه تعالى قال: إِنَّا خلقناكم جميعاً من آدم وحواء، ويحتمل أن يريد بالذكر والأنثى اسم الجنس، وكأنه تعالى قال: إِنَّا خلقنا كل واحد منكم من ماء ذكر وأنثى، وقصد هذه الآية التسوية بين الناس، ثم قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾، أي: لئلا تفاخروا ويريد بعضكم أن يكون أكرم من بعض، فإن الطريق إلى الكرم غير هذا، ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُمْ﴾، وروى أبو بكر: قيل: يا رسول الله، من خير الناس؟ قال: «من طاب عُمُرُهُ، وحسُنَ عملُهُ»، وفي حديث آخر: مَنْ خَيْرُ النَّاسِ؟ قال: «أَمْرُهُمْ بمعروف، وأنهاهم عن منكر، وأوصلهم للرحم، وأتقاهم».

وحكى الزهراوي أن سبب نزول هذه الآية غضب الحارث بن هشام، وعَتَابَ بن أسيد حين أَدْنَى بلال يوم فتح مكة على الكعبة، وحكى الشعلبي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن سببها قول ثابت بن قيس لِرَجُلٍ لم يفسح له عند النبي ﷺ: يا بَنُ فُلانة، فوبَّخه النبي ﷺ، وقال له: «إِنَّكَ لَا تَفْضُلُ أحداً إلا في الدين والتقوى»، فنزلت

التعريف لمن استنصح في الخطاب ونحوه لقول النبي ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له»، وما يقال في الفسقة أيضاً وفي وفاة الجور ويقصد به التحذير منهم، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «أعن الفاجر ترعون؟ اذكروا الفاجر بما فيه حتى يعرفه الناس إذا لم تذكروه»، ومنه قوله: «بش ابن العشرة».

ثم مثل تعالى الغيبة بأكل لحم ابن آدم الميت، والعرب تشبه الغيبة بأكل اللحم، فمنه قول سُوَيْدِ بن أبي كاهل:

فَلِذَا لَأَقْبِسُهُ عَظْمَ مَنِي
وَإِذَا يَخْلُولُهُ لَحْمِي رَتَحَ
ومنه قول الآخر:

إِذَا أَكَلُوا لَحْمِي وَفَزْتُ لِحُومَهُمْ
وَإِنْ هَدَمُوا مَجْدِي بَنَيْتُ لَهُمْ مَجْدًا
فوفقههم الله تعالى - على جهة التوبيخ - بقوله: «أَيُّجِبُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَجْيِبٍ مَيْتًا»، فالجواب عن هذا: لا، وهم في حكم من يقولها، فخطبوا على أنهم قالوا: لا، فقيل لهم: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾، وبعد هذا مُقَدَّرٌ تقديره: فكذلك فاكرهوا الغيبة التي هي نظير ذلك، وعلى هذا المقدر يعطف قوله: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾،

قاله أبو علي الفارسي، وقال الرُّمَّانِي: كراهية هذا اللحم يدعو إليها الطبع، وكراهية الغيبة يدعو إليها العقل، وهو أحق أن يجاب لأنه بصيرٌ عالمٌ، والطَّبْعُ أعمى جاهلٌ، وقرأ الجمهور: ﴿هَيْبًا﴾ بسكون الياء خفيفة، وقرأ نافع، وابن القعقاع، وشيبة، ومجاهد بكسرها مشددة، وقرأ أبو حيوة: ﴿فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ بضم

أيضاً حديثه في نحو ذلك مع أبي محجن الثقفي، وقال زيد بن وهب: قيل لابن مسعود: هل لك في الوليد بن عُقبة تقطر لحيته خمراً؟ فقال: إِنَّا قَدْ نُهِينَا عَنِ التَّجَسُّسِ، فَإِنْ يَظْهَرُ لَنَا أَمْرٌ أَخَذْنَا بِهِ.

و ﴿وَلَا يَتَّبِعْ﴾ معناه: ولا يذكر أحدكم من أخيه شيئاً هو فيه ويكره سماعه، وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت عن امرأة: ما رأيت أجمل منها إلا أنها قصيرة، فقال لها النبي ﷺ: «اغْتَيْبِهَا»، نظرت إلى أسوأ ما فيها فذكرته، وقد قال النبي ﷺ: «إِذَا ذَكَرْتَ مَا فِي أَحْيِكَ فَقَدْ اغْتَيْبْتَهُ، وَإِذَا ذَكَرْتَ مَا لَيْسَ فِيهِ فَقَدْ بَهَّئْتَهُ»، وفي حديث آخر: «الغيبَةُ أن يُذكَرَ المؤمن بما يكره»، قيل: وإن كان حقاً؟ قال: «إِذَا قُلْتَ بِاطِّلًا فَذَلِكَ هُوَ الْبُهْتَانُ»، وقال معاوية بن قُرَّة، وأبو إسحق السبيعي: إِذَا مَرَّ بِكَ رَجُلٌ أَقْطَعُ فَقُلْتَ: ذَلِكَ الْأَقْطَعُ، كان غيبة، وحكى الزهراوي عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الغيبَةُ أَشَدُّ مِنَ الرَّئِي، لِأَنَّ الرَّأْيَ يَتُوبُ فَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَالَّذِي يَغْتَابُ يَتُوبُ فَلَا يَتَابُ عَلَيْهِ حَتَّى يَسْتَجِلَّ».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يموت من اغتبت أو يَأْبَى، وروى أن رجلاً قال لابن سيرين: إِنِّي قَدْ اغْتَيْبْتُكَ فَحَلَلْتَنِي، فقال: إِنِّي لَا أَحَلُّلُ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، وَالغَيْبَةُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ «غَابَ غَيْبًا»، وهي القول في الغائب، واستعملت في المكروه، ولم يَبَّحْ فِي هَذَا الْمَعْنَى إِلَّا مَا تَدْعُو الضَّرُورَةُ إِلَيْهِ كَتَجْرِجِ الشُّهُودِ، وَفِي

هذه الآية، ونزل الأمر بالتفشح في ذلك أيضاً.

و «الشعوب» جمع شُعب، وهو أعظم ما يوجد من جماعات الناس مرتبطاً بنسب واحد، وتتلوه القبيلة ثم العمارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الأسرة والفصيلة، وهما قرابة الرجل الأذنون، فمُضمر وربيعة وجُمير شعوب، وقيس وتميم ومدحج ومراد قبائل، مُشبهة بقبائل الرأس لأنها قطع تقابلت، وقريش وسليم عمارات، وبنو قُصي وبنو مخزوم بطون، وبنو هاشم وبنو أمية ونحوهما أفخاذ، وبنو عبدالمطلب أسرة وفصيلة. وقال ابن جبير:

الشعوب: الأفخاذ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: الشعوب: البطون، وهذا غير ما تماماً عليه اللغويون. وقال الثعلبي: وقيل: الشعوب في العجم والقبائل في العرب والأسباط في بني إسرائيل، وأما الشعب الذي في همدان الذي يُنسب إليه الشعبي فهو بطن يقال له: الشعب، وقيل للأُم التي ليست بعرب: «شعوبية» نسبة إلى الشعب، وذلك أن تفصيل أنسابها خفي فلم يُعرف أحدٌ منهم إلا بأن يقال: فارسي، تركي، رومي، فكأنهم عرفوا بشعوبهم وهي أعم ما يُعبّر به عن جماعتهم، ويقال لهم الشعوبية بفتح الشين، وهذا من تعيين النسب، وقد قيل فيهم غير ما ذكرت، وهذا أولى عندي.

وقرأ الأعمش: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾، وقرأ عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: ﴿لِتَعْرِفُوا﴾

على وزن «تَفَعَّلُوا» بكسر العين ويفتح الألف من «أن» وإعمال [تَعْرِفُوا] فيها، ويحتمل - على هذه القراءة - أن تكون اللام في قوله تعالى: ﴿لِتَعَارَفُوا﴾ لام «كسي»، ويضطرب معنى الآية مع ذلك، ويحتمل أن تكون لام الأمر، وهو أجود في المعنى، ويحتمل أن يكون المفعول محذوفاً تقديره: «الحق»، وإذا كانت لام «كي» فكأنه تعالى قال: يأيها الناس أنتم سواء من حيث أنتم مخلوقون، وإنما جعلتم قبائل لأن تتعارفوا ولأن تعرفوا الحقائق، وأما الشرف، والكرم فهو بتقوى الله تعالى وسلامة القلوب، وقرأ ابن مسعود: ﴿لِتَعَارَفُوا بَيْنَكُمْ، وخيركم عند الله أتقاكم»، وروي أن النبي ﷺ قال: «مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ». ثم نبّه تعالى على الحذر بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ أي: بالمتقي الذي يستحق رتبة الكرم.

قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا﴾، قال مجاهد: نزلت في بني أسد بن خزيمة، وهي قبيلة كانت تجاور المدينة، وكانوا قد أظهروا الإسلام، وكانت نفوسهم - مع ذلك - دجلة، إنما يُحبون المغانم وعرض الدنيا، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وذهبوا مرة إلى أن يتسموا بالمهاجرين، فنزلت هذه الآية مُسمّية لهم بالأعراب، مُعرّفة لهم بذلك أقدارهم، ومُخرجة ما في صدورهم من صورة معتقدتهم، وهم أعرابٌ مخصوصون كما ذكرنا، قال أبو

حاتم عن ابن الزبير: سمع النبي ﷺ رجلاً يقرأ: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ﴾ بغير همز، فردّ عليه بهنمز وقطع. وقد أخبر الله تعالى أن في الأعراب على الجملة من يؤمن بالله واليوم الآخر، فأمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المُدعين في الإيمان: ﴿لَنْ نُؤْمِنُ بِكُمْ، أَي: لم تصدقوا بقلوبكم، وَلَكِنْ قُولُوا آمَنَّا﴾.

والإسلام يقال بمعنيين: أحدهما الذي يُؤمن الإيمان والأعمال، وهو الذي في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْيُرْتِ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْتَلْنَا﴾، والذي في قوله ﷺ: «بُئِيَ الْإِسْلَامُ عَلَيَّ خَفْسًا»، والذي في تعليم النبي ﷺ لجبريل عليه السلام حين قال: ما الإسلام؟ قال: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتَقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، والذي في قوله ﷺ لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: «أَوْ مُسْلِمًا، إِنِّي لِأَعْطِيَ الرَّجُلَ وَغَيْرَهُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْهُ» الحديث، فهذا الإسلام ليس هو في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا آمَنَّا﴾.

والمعنى الثاني للفظ الإسلام هو الاستسلام والإظهار الذي يستعصم به ويحقق الدّم، وهذا هو الإسلام في قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ قُولُوا آمَنَّا﴾، والإيمان الذي هو التصديق أخص من الأول.

ثم صرح تعالى لهم بأن الإيمان لم يدخل قلوبهم، ثم فتح تعالى لهم باب التوبة بقوله سبحانه: ﴿وَإِنْ نَطِئُوا اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾، والآية، وطاعة الله

الْمِثَّةُ الْمُبْتَلاَةُ لِلصَّدَقَةِ الْمَكْرُوهُةً مَا وَقَع دُونَ كُفْرِ نِعْمَةٍ.

وقرأ أبو جعفر، ونافع، وشيبة، وقتادة، وابن وثاب: ﴿يَمَّا تَمَسُّوْنَ﴾ بالتاء على الخطاب، وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿يَمَّا يَغْلَبُونَ﴾ بالياء من تحت على ذكر الغائب.

كامل تفسير سورة الحجرات والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة ق

هي مكيّة بإجماع من المتأولين، وروى أبي بن كعب رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «من قرأ سورة ق هُوَنَ اللهُ عَلَيْهِ الْمَوْتَ وَسَكَرَاتِهِ».

١٨ - ١٩ - تفسير قوله عز وجل: ﴿ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ﴾ اسم من أسماء القرآن، وقال أيضاً: اسم من أسماء الله تبارك وتعالى، وقال قتادة والشعبي: هو اسم السورة، وقال ابن زيد، وعكرمة، ومجاهد، والضحاك: هو اسم الجبل المحيط بالدينا، وهو فيما يزعمون من زُمُرْدَة خضراء منها خُضْرَة السَّمَاءِ وَخُضْرَة الْبَحْرِ. و﴿الْمَجِيدِ﴾: الكريم في أوصافه الذي جمع كلِّ عليّ، و﴿ق﴾ - على هذه الأقوال - مُقْسَمٌ به وبالقرآن المجيد، وجواب القَسَمِ مُنْتَظَرٌ، واختلف الناس فيه - فقال

بقوله: ﴿أَتَمَلُّونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ أي: بقولكم: «أمنا»، وهو يعلم منكم خلاف ذلك لأنه العليم بكل شيء.

وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا﴾ نزل في بني أسد أيضاً، وذلك أنهم قالوا في بعض الأوقات للنبي ﷺ: «إننا أمنا بك وأتبعناك ولم نحاربك كما فعلت محارب وحصفة وهوازن وغطفان وغيرهم، فنزلت هذه الآية، كحكاة الطبري وغيره. وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ إِسْلَامَهُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَنْ﴾ يحتمل أن يكن مفعولاً صريحاً، ويحتمل أن يكون مفعولاً من أجله، وقوله تعالى: ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَيْكُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ أي: بزعمكم إذ تقولون أمنا، فقد لزمكم أن الله تعالى ماؤ عليكم، ويدلك على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، فعلق عليهم الحكمين: هم ممنون عليهم على الصدق، وأهل أن يقولوا أسلمنا من حيث هم كذبة، وقرأ ابن مسعود: ﴿إِذْ هَدَاكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَمُنُّ عَلَيْكُمْ﴾ يحتمل أن يكون بمعنى: يُنعم، كما تقول: مَنْ اللهُ عَلَيْكَ، ويحتمل أن يكون بمعنى: يَذْكُرُ إِحْسَانَهُ فِيجِيءُ مَعَادِلًا لِيَمُنُّونَ عَلَيْكَ، وقال الناس قديماً: إِذَا كُفِّرَتْ النُّعْمَةُ حَسُنَتْ الْمِثَّةُ، وَإِنَّمَا

سُورَةُ الْحَجْرَاتِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ ﴿١﴾ بَلْ يَجْعَلُونَ آيَاتِنَا هُتُوفًا فَتَقَالُ الْكُفْرُونَ هَذَا هُوَ عَمَلُ الْكُفْرَانِ وَكَانَ آيَاتِنَا ذَلِكَ رَجْعًا بَعِيدًا ﴿٢﴾ فَذَعَلْنَا مَا نَمُوتُ الْأَرْضَ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ ﴿٣﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيعٍ ﴿٤﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَرَافَعْنَاهَا وَمَلَأْنَاهَا مِنْ نُورٍ ﴿٥﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوْاسٍ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ نَبِيحٍ ﴿٦﴾ وَبَصُرَةٌ وَذَكَرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُتَبِعٍ ﴿٧﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبْتًا وَحَبَّ الْخَيْصِيدِ ﴿٨﴾ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿٩﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدًا كَذَلِكَ الْخُرُوجِ ﴿١٠﴾ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّيْسِ وَشَمُونُ ﴿١١﴾ يُوعَدُونَ وَيُؤَخَّرُونَ لَوِطُوا ﴿١٢﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدُ ﴿١٣﴾ أَفَعَيَّبْنَا بِالْمَخْلُوقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٤﴾

٥١٨

تعالى ورسوله ﷺ في ضمنها الإيمان والأعمال.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿لَا يَلْتَكِرُ﴾، من (لأت يليت) إذا نقص، يقال: «لأته حقه» إذا نقصه منه، وقرأ أبو عمر، والأعرج، والحسن، وعمر بن الخطاب: ﴿لَا يَأْلُثُكُمْ﴾ من (ألث) يألث، وهو بمعنى (لات)، وكذلك يقال: (ألث) بكسر اللام (يألث)، ويقال أيضاً في معنى (لات): (ألث يولث)، ولم يقرأ بهذه اللغة. وباقى الآية بين في الترجية.

١٨ - ١٩ - تفسير قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا﴾ في هذه الآية حاصرة تعطي ذلك المعنى. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَأُوا﴾ أي: لم يشكوا في إيمانهم، ولم يذأخلهم ريب، وهم الصادقون إذ جاء فعلهم مُصَدِّقاً لقولهم. ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بتوبيخهم

ابن كيسان: جوابه ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾، وقيل: الجواب ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِمَنْ كَانَ سَعِيدًا﴾، وقال الزهراوي، عن سعيد الأخفش: الجواب ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾، وضَعَفَهُ النحاس، وقال الكوفيون من النحاة: الجواب ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾، والمعنى: قد عَجِبُوا، قال منذر بن سعيد: وقد قيل: إن جواب القَسَمِ في قوله تعالى: ﴿مَا يَدُّكَ الْقَوْلُ لَكُنَّ﴾، وفي هذه الأقوال تكلف وتحكم على اللسان، وقال الزجاج، والمبرد، والأخفش، الجواب مُقَدَّرٌ، تقديره: ﴿ق وَالْقُرْآنَ الْمَجِيدَ لَتُبْعَثُنَّ﴾، وهذا قولٌ حَسَنٌ، وأحسن منه أن يكون الجواب هو الذي يقع عنه الإضراب بـ ﴿بَلْ﴾، كأنه تعالى قال: والقرآن المجيد ما ردُّوا أمرَك بِحُجَّةٍ، أو ما كذبوك بِبُرْهَانٍ، أو نحو هذا مما لا بد لك من تقديره بعد الذي قدر الزجاج؛ لأنك إذا قلت الجواب «لَتُبْعَثُنَّ» فلا بد بعد ذلك أن تقدر خيراً عنه يقع الإضراب، وهو الذي جعلناه جواباً وجاء في المقدر أخصر.

وقال جماعة من المفسرين في قوله تعالى ﴿ق﴾: إنه حرف دال على كلمة، نحو قول الشاعر:

قُلْتُ لَهَا قِيفِي فَقَالَتْ قَاف

.....

واختلفوا بعد، فقال القُرْظِيُّ: هو دالٌ على أسماء الله تعالى هي: قاذرٌ وقاهرٌ وقريبٌ وقاضٍ وقابضٌ، وقيل: المعنى: قُضِيَ الأمر من رسالتك ونحوه «والقرآن المجيد»، فجواب القَسَمِ في الكلام الذي يدلُّ

عليه ﴿ق﴾، وقال قوم: المعنى: قف عند أمرنا، وقيل: المعنى: فُهِرَ هؤلاء الكفرة، وهذا أيضاً وقع عليه القَسَمُ، ويحتمل أن يكون المعنى: قيامهم من القبور حقاً «والقرآن المجيد»، فيكون أول السورة من المعنى الذي أطرد بعد، وعلى هذه الأقوال فشمّ كلام مضمّر وقع عنه الإضراب، وهو خيرٌ عنهم، كأنه تعالى قال: ما كذبوك ببرهان، أو نحو هذا مما يليق مظهرًا.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿قَاف﴾ بسكون الفاء، قال أبو حاتم: ولا يجوز غيرها إلا جواز سوء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه القراءة تحسّن مع أن تكون ﴿ق﴾ حرفاً دالاً على كلمة. وقرأ الشقفي، وعيسى: ﴿قَاف﴾ بفتح الفاء، وهذه تحسّن مع القول بأنها اسمٌ للقرآن أو لله تعالى، وكذلك قرأ الحسن، وابن أبي إسحق: ﴿قَاف﴾ بكسر الفاء، وهي في رتبة التي قبلها في أن الحركة للالتقاء، وفي أنها اسمٌ للقرآن، «والمجيد» الكريم الأوصاف الكثير الخير.

واختلف الناس في الضمير في ﴿عَجِبُوا﴾، لمن هو؟ فقال جمهور المتأولين: هو لجميع الناس، مؤمنهم وكافرهم؛ لأن كل مفطور عَجِبَ من بعثة بشر رسولاً لله، لكن: المؤمنون نظروا واهتدوا، والكافرون بقوا على عمايتهم وصموا وحاجبوا بذلك العجب، ولذلك قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَاذِبُونَ هَذَا نَجْوَى عَجِبِي﴾، وقال آخرون: بل الضمير في ﴿عَجِبُوا﴾ للكافرين، وكُرِّرَ الكلام

تأكيداً ومبالغةً، والإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ يحتمل أن تكون إلى نفس مجيء البشر، ويحتمل أن تكون إلى القول الذي يتضمنه الإنذار وهو الخبر بالبعث، ويؤيد هذا القول ما يأتي بعده.

وقرأ الجمهور: ﴿أَوْدَا﴾، وقرأ الأعرج، وشيبة، وأبو جعفر: [إِذَا] على الخبر دون استفهام، والعمل في [إِذَا] فعل مضمّر، كأنه تعالى قال: أنبئنا إذا؟ وإلى هذا الفعل وقعت الإشارة بقولهم: ﴿ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾، قال ابن جني: ويحتمل أن يكون المعنى: إذا مبتنا بعد رجوعنا، فيدل ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ على هذا الفعل الذي هو (بعد) ويحل محل الجواب لقولهم: [إِذَا].

و«الرجع» مصدر رجعته، وقولهم: ﴿بَعِيدٌ﴾ معناه: بعيد في الأفهام والفكر كونه، فأخبر الله تعالى - ردأ على قولهم - بأنه تعالى يعلم ما تأكل الأرض من ابن آدم وما تبقي منه، وأن ذلك في كتاب، وكذلك يعود في الحشر معلوماً ذلك كله، و«الحفيظ»: الجامع الذي لم يفته شيء، وقال الرُّمَّانِيُّ: حفيظٌ: منيع من أن يذهب ببلى ودروس، وروي في الخبر الثابت أن الأرض تأكل ابن آدم إلا عَجَبَ الدَّنْبِ وهو عظم الخردلة فمنه يُرْكَبُ ابن آدم، وحفّظ ما تنقص الأرض إنما هو ليعود بعينه يوم القيامة، وهذا هو الحق، وذهب بعض الأصوليين إلى أن الأجساد المبعوثة يجوز أن تكون غير هذه، وهذا عندي خلاف لظاهر كتاب الله تعالى، ولو كانت غيرها

فكيف كانت تشهد الجلود والأيدي والأرجل على الكفرة إلى غير ذلك مما يقتضي أن أجساد الدنيا هي التي تعود؟ وقال ابن عباس، ومجاهد، والجمهور: المعنى: ما تنقص من لحومهم وأبشارهم وعظامهم، وقال السُّدِّي: معنى قوله تعالى: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ أي: ما يحصل في بطن الأرض من موتاهم، وهذا قول حسن مُضْمَنُ الوعيد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً - فيما حكى الثعلبي -: معناه: قد علمنا ما تنقص الأرض بالإيمان من الكفرة الذين يدخلون في الإيمان، وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبل ويعد.

وقبل قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا﴾ مُضْمَرٌ عنه وقع الإضراب، تقديره: ما أجادوا الشُّطْر، أو نحو هذا، والذي يقع عنه الإضراب بـ (بَل) الأغلب فيه أنه منفي تقضي (بَل) بفساده، وقد يكون أمراً موجباً تقضي (بَل) بترك القول فيه لا بفساده، وقرأ الجمهور: ﴿لَمَّا﴾ بفتح اللام وشد الميم، وقرأ الجحدري: ﴿لِمَا﴾ بكسر اللام وتخفيف الميم، قال أبو الفتح: هي كقولهم: «أعطيته لِمَا سَأَلَ»، وكما في التأريخ «لِخَمْسِ خَلْوَن»، ومنه قوله تعالى: ﴿لَا يَمْلِكُنَّ لِوَجْهِهِ إِلَّا هُوَ﴾ ومنه قول الشاعر:

.....

إِذَا هَبَّتْ لِقَارِيهَا الرِّيحُ
و «المَرِيحُ»: معناه: المختلط، قاله ابن زيد، أي: بعضهم يقول ساحر، وبعضهم يقول كاهن، وبعضهم يقول شاعر، إلى غير ذلك من تخليطهم،

وكذلك عادت فكرة كل واحد منهم مختلطة في نفسها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المَرِيحُ: المُنْكَرُ، وقال مجاهد: المُتَنَبِّسُ، والمَرِيحُ: المضطرب أيضاً، وهو قريب من الأول، ومنه في الحديث: «مَرِحَتْ عَهْوُهُمْ»، ومن الأول: «مَرِحَ الْبَحْرَيْنِ»، وقال الشاعر:

مَرِحَ الذُّبْنَ فَأَعْدَدْتُ لَهُ
مُشْرِفَ الْحَارِكِ مَخْبُوكَ الْكَتَدُ
ثم دلَّ تعالى على العبرة بقوله: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ﴾ الآية. و«رَزَقْنَا» معناه: بالنجوم، و«الرُّوجُ»: الفطور خلالها وأثناءها، قاله مجاهد وغيره، وحكى النقاش أن هذه الآية تعطي أن السماء مستديرة، وليس الأمر كما حكى إذا تُدْبِرَ اللفظ وما يقتضي. و«الرَّوَّاسِي»: الجبال، و«الرُّوجُ»: النَّوْجُ، و«الْبَهِيحُ»: قال ابن عباس، وقتادة، وابن زيد: هو الحسن المنظر.

وقوله تعالى وجل: ﴿تَبَيَّرَ وَذَكَرَى﴾ منصوب على المصدر بفعل مضمر، و«المُنْتَبِ»: الراجع إلى الحق عن فكرة ونظر، وقال قتادة: هو المقبل بقلبه إلى الله تعالى، وخصَّ تعالى هذه الصنيفة بالذكر تشريفاً من حيث هي المتفعلة بالتبصرة والذكرى، وإلأ فهذه المخلوقات هي تبصرة وذكرى لكل بشر، وقال بعض النحويين: ﴿تَبَيَّرَ وَذَكَرَى﴾ مفعولان من أجلهما، وهذا محتمل، والأول أرجح.

① - ② تفسير قوله عز وجل: ﴿وَرَزَقْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبْرَكًا﴾، قيل: يعني جميع المطر،

كله يتصف بالبركة، وإن ضَرَّ بعضه أحياناً ففيه مع ذلك الضَّرُّ الخاص البركة العامة، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: كان النبي ﷺ إذا جاء المطر فسالت الميازيب قال: «لا مَخَلٌ عليكم العام»، وقال بعض المفسرين: «مَاءٌ مُبْرَكًا» يريد به ماء مخصوصاً خالصاً للبركة ينزله الله تعالى كل سنة، وليس كل المطر يتصف بذلك. وحبُّ الحصيد هو البُرُّ والشعير ونحوه مما هو نبات محبب يُحصَد، و«الْمُحَوِّدُ» صفة لمحذوف، وقال مجاهد: حبُّ الحصيد: الحنطة.

و «بَايَعْتِ» معناه: طويلات ذاهبات في السماء، ومنه قول أبي نوفل في ابن هبيرة:

يَا بَنَ الْأَذْيَانِ بِجَدِّهِمْ
بَسَقَتْ عَلَى قَيْسٍ فَرَازُهُ
وروى قطبة بن مالك عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿بِاصْصَاتِ﴾ بالصاد، قال أبو الفتح: الأصل السين، وإنما الصاد بدلٌ منها لاستعلاء القاف. و«الطَّلُغُ» أول ظهور التمر في الكُفْرَى وهو أبيض منضد كحبِّ الرمان، فما دام ملتصقاً ببعضه ببعض فهو نضيد، وإذا خرج من الكفري وتفرَّق فليس بنضيد. و«رَزَقْنَا» نصب على المصدر، والضمير في ﴿يَدِهِ﴾ عائد على المطر، ووصف البلدة بـ «مَيْتَ» على تقدير الفُطْر والبلد، وقرأ الناس: ﴿مَيْتًا﴾ مخففاً، وقرأ أبو جعفر، وخالد: ﴿مَيْتًا﴾ بالثقل، ثم بين تبارك تعالى موضع الشُّبّه فقال: ﴿كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾،

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَهُمُ آسَافًا مُّذَوَّبًا
 مِنْ حَلَلٍ الْوَارِثِ ﴿١٦﴾ إِذْ نَسَفَى الْمُتَكَبِّرِينَ عَنْ الْعِيبِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَيْدًا
 ﴿١٧﴾ مَا يَلِظُ مِنْ قَوْلِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَجَاءَ رَقِيبٌ عَيْنِدُ ﴿١٨﴾ وَجَاءَتْ سَكْرَةٌ
 الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ
 يَوْمَ الْوَعْدِ ﴿٢٠﴾ وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِرٌ وَتَحِيدُ ﴿٢١﴾ لَقَدْ
 كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا إِكْشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَفَصَّرَكُمُ الْيَوْمَ حَرِيدًا
 ﴿٢٢﴾ وَقَالَ رَبُّهُ هَذَا مَا لَدَى عَيْنِدُ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
 عَيْنِدُ ﴿٢٤﴾ مَتَّعِ لِلْعَذَابِ مَعْتَدًا ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ نَحْلَ اللَّهِ إِلَهُهَا
 وَأَخْرَجَ الْقِيَافَةَ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ فِي رَبِّهِ رَبَّنَا مَا لَطَفْتُمْ
 وَلَكِنْ كَانَ فِي صَعَلِ عَيْنِدُ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْضَعُوا لَدَى وَقَدْ قَدَّمْتُ
 إِلَيْكُمْ بِالْوَعْدِ ﴿٢٨﴾ مَا بَدَلُ الْقَوْلِ لَدَى وَمَا أَنَا بِظَالِمٍ لِّلْقَيْدِ ﴿٢٩﴾
 يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَنَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأَلْقَيْتُ
 الْحِمَّةَ لِلْمَلَكِ الْغَافِقِينَ عَزَّ وَعَزَّ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا لَدَى لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيفٍ
 ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ بِالْقَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ أَذْخَلُوهَا
 سِلْسِلَةً ذَلِكِ يَوْمَ الْحَاوِرِ ﴿٣٤﴾ لَعَلَّكُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾

٥١٩

فَتَعَلَّمْ مِنْهُمَا دِينَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَام، ثُمَّ إِنَّ قَوْمَهُ أَنْكَرُوا عَلَيْهِ ذَلِكَ، فَجَاءَهُمْ إِلَى مُحَاجَّةِ الْحَبْرِينَ فَوَقَعَتْ بَيْنَهُمْ مِجَادَلَةٌ عَظِيمَةٌ، وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنْ يَدْخُلَ جَمِيعُهُمُ النَّارَ الَّتِي فِي الْقُرْبَانِ فَمَنْ أَكَلَتْ النَّارَ فَهُوَ الْمَبْطَلُ، فَدَخَلُوا فَاحْتَرَقَ قَوْمٌ تَبِعَ وَخَرَجَ الْحَبْرَانِ تَعْرِقُ جِبَاهَهُمَا، فَهَلَكَ الْقَوْمُ الْمُخَالَفُونَ وَأَمَّنْ سَائِرُ قَوْمٍ تَبِعَ بَدِينِ الْحَبْرِينَ، وَفِي الْحَدِيثِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ أَثْبَتَ أَصْحَابُ ذَلِكَ عَلَى مَا فِي سِيرِ ابْنِ هِشَامٍ. وَذَكَرَ الطَّبْرِيُّ عَنْ

هَذِهِ الْآيَاتِ كُلِّهَا إِنَّمَا هِيَ أَمْثَلَةٌ وَأَدْلَةٌ عَلَى الْبَعْثِ، وَالْخُرُوجِ يَرِيدُ بِهِ الْخُرُوجُ مِنَ الْقُبُورِ. وَ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ قَوْمٌ كَانَ لَهُمْ بَثْرٌ عَظِيمَةٌ وَهِيَ الرَّسُّ، وَكُلُّ مَا لَمْ يُطَوِّ مِنْ بَثْرٍ أَوْ مَعْدَنٍ أَوْ نَحْوِهِ فَهُوَ رَسٌّ، وَأَنْشَدَ أَبُو عَبِيدَةَ لِلنَّبَاغَةِ الْجَعْدِيِّ:

سَبَقْتُ إِلَى قَرْطٍ نَاهِلٍ
 تَنَابِلَةٌ يَخْفُرُونَ الرُّسَّاسَا
 وَجَاءَهُمْ نَبِيٌّ يَسْمَى حَنْظَلَةَ بِنَ
 سَفِيَانَ فِيمَا زَوِي، فَجَعَلُوهُ فِي الرُّسِّ
 وَرَدَمُوا عَلَيْهِ وَأَهْلَكَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى،
 وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ فِي كِتَابِ
 الزَّهْرَوَائِي: أَصْحَابُ الرُّسِّ هُمُ
 أَصْحَابُ الْأَخْدُودِ، وَهَذَا ضَعِيفٌ؛
 لِأَنَّ أَصْحَابَ الْأَخْدُودِ لَمْ يَكْذَبُوا
 نَبِيًّا، إِنَّمَا هُمْ مَلِكٌ أَحْرَقَ قَوْمًا،
 وَقَالَ الضَّحَّاكُ: الرُّسُّ بَثْرٌ قَتَلَ فِيهَا
 صَاحِبُ يَسْنَ، قَالَ مَنْذَرٌ: زَوِي عَنْ
 ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُمْ قَوْمٌ
 عَادَ.

وَالْأَيْكَةُ شَجَرٌ مُلْتَفٌ، وَهُمُ قَوْمٌ شَعِيبٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْأَلْفُ وَاللَّامُ مِنَ «الْأَيْكَةِ» غَيْرُ مَعْرِفَتَيْنِ لِأَنَّ «أَيْكَةَ» اسْمُ عِلْمٍ كَطَلْحَةَ، يَقَالُ: أَيْكَةُ وَلَيْكَةُ، فَهِيَ كَالْأَلْفِ وَاللَّامِ فِي الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَفِي الصِّفَاتِ الْغَالِبَةِ، وَفِي هَذَا نَظَرٌ، وَقُرَأَ: «الْأَيْكَةُ» بِالْهَمْزَةِ أَبُو جَعْفَرٍ، وَنَافِعٌ، وَشَيْبَةُ، وَطَلْحَةُ.

وَ﴿قَوْمٌ تَبِعَ﴾ هُمُ جَمِيرٌ، وَ«تَبِعَ» اسْمُ الْمَلِكِ فِيهِمْ، يَذْهَبُ تَبِعٌ وَيَجِيءُ تَبِعٌ، مِثْلُ كَسْرَى فِي الْفَرَسِ وَقِصْرٌ فِي الرُّومِ، وَكَانَ أَسْعَدُ أَبُو كَرْبٍ أَحَدُ التَّيَابِعَةِ رَجُلًا صَالِحًا صَاحِبَ حَبْرَيْنِ

وَلَا يَدْعُمُ الْمُسْتَقْبَلُ مِنْهُ، يَقَالُ: عَيٌّ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

عَيُّو بِأَمْرِهِمْ كَمَا
 عَيْتُ بِبَيْضَتِهَا الْحَمَامَةَ

وَالْخَلْقُ الْأَوَّلُ: إِنشَاءُ الْإِنْسَانِ مِنْ نَظْفَةِ عَلَى التَّدْرِيجِ الْمَعْلُومِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: الْخَلْقُ الْأَوَّلُ آدَمٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَحِكَاةُ الرُّمَّانِيِّ، وَاللَّبْسُ: الشُّكُّ وَالرَّيْبُ وَاخْتِلَاطُ النَّظَرِ، وَالْخَلْقُ الْجَدِيدُ: الْبَعْثُ مِنَ الْقُبُورِ.

١٦ - تفسیر قوله عز وجل:

هذه الآيات فيها إقامة حُجج على الكفار في إنكارهم البعث والجزاء، و«الخلق» إنشاء الشيء على تقدير وترتيب حكمي، و«الإنسان»: اسم الجنس، وقال بعض المفسرين: الإنسان هنا آدم عليه السلام، و«توسوس» معناه: تتحدث في

سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَلْعَنُوا تَبِعًا فَإِنَّهُ كَانَ قَدْ أَسْلَمَ»، وَذَكَرَ الثَّلَعِيُّ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ تَبِعًا كَانَ نَبِيًّا.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿كُلٌّ﴾، قَالَ سَبِيوِيَّةُ: التَّقْدِيرُ: كُلُّهُمْ، وَحُذِفَ لِدَلَالَةِ «كُلٌّ» عَلَيْهِ إِجْزَاءً، وَالْوَعِيدُ الَّذِي حَقَّ هُوَ مَا سَبَقَ بِهِ الْقَضَاءُ مِنْ تَعْذِيبِ الْكُفْرَةِ وَإِهْلَاكِ الْأُمَّةِ الْمَكْدُوبَةِ، وَفِي هَذَا تَخْوِيفٌ مِنْ كَذْبِ مُحَمَّدًا ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَنبِيًّا بِاللُّغَى الْأَوَّلِ﴾ تَوْقِيفٌ لِلْكَفَّارِ وَتَوْبِيخٌ وَإِقَامَةٌ لِلْحُجَّةِ الْوَاضِحَةِ عَلَيْهِمْ، وَذَلِكَ أَنَّ جَوَابَهُمْ عَلَى هَذَا التَّوْقِيفِ هُوَ: لَمْ يَقَعْ عَيٌّ، ثُمَّ هُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي لَبْسٍ مِنَ الْإِعَادَةِ، وَهَذَا تَنَاقُضٌ، يَقَالُ: عَيٌّ يَغِيءُ إِذَا عَجَزَ عَنِ الْأَمْرِ، وَيَدْعُمُ هَذَا الْفِعْلُ الْمَاضِي مِنْ هَذَا الْفِعْلِ،

فكرتها، وسُمِّي صوت الحُلِيِّ وسوسة لحنائه، والسوسة إنما تستعمل في غير الخير.

وقوله تعالى: ﴿وَعَنْ أَقْرَبٍ إِلَيْهِ يَنْ جَلِ الْوَرِيدِ﴾ عبارة عن قدرة الله تعالى على العبد، وكون العبد في قبضة القدرة والعلم، قد أحيط به، فالقُرْبُ هو بالقدرة والسلطان؛ إذ لا ينحجب عن علم الله تبارك وتعالى باطن ولا ظاهر، وكل قريب من الأجرام فبينه وبين قلب الإنسان حجب، والوريد عرق كبير في العُنُق، يقال: إنهما وريدان عن يمين وشمال، قال الفراء: هو ما بين الحلقوم والعلباوين، وقال الحسن: الوريد: الوتين، قال الأشرم: هو نهر الجسد، هو في القلب الوتين، وفي الظهر الأبهري، وفي الذراع والفخذ: الأكحل والنسا، وفي الخنصر: الأسليم، والحبل اسم مشترك فخصَّصه بالإضافة إلى الوريد، وليس هذا بإضافة الشيء إلى نفسه، بل هي كإضافة الجنس إلى نوعه، كما تقول: لا يجوز حي الطير بلحمه.

وأما قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى النَّفْتَالِيْنَ﴾ فقال المفسرون: العامل في ﴿إِذْ﴾ هو ﴿أَقْرَبُ﴾، ويحتمل عندي أن يكون العامل فيه فعلاً مضمراً تقديره: اذكر إذ يتلقى، ويحسن هذا المعنى لأنه أخبر خبراً مجرداً بالخلق، والعلم بخطرات الأنفس، والقرب بالقدرة والملك، فلما تمَّ الإخبار أخبر بذكر الأحوال التي تُصَدَّقُ هذا الخبر وتُبيِّنُ روده عند السامع، فمنها: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى

النَّفْتَالِيْنَ﴾، ومنها مجيء سكرة الموت، ومنها النفخ في الصور، ومنها مجيء كل نفس. و«النَّفْتَالِيْنَ»: الملكان المُؤَكَّلَانِ بكل إنسان، ملك اليمين الذي يكتب الحسنات، وملك الشمال الذي يكتب السيئات، قال الحسن: الحفظة أربعة: اثنان بالنهار واثنان بالليل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويؤيد ذلك الحديث «بتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار».. الحديث بكماله. ويُروى أن ملك اليمين أمير على ملك الشمال، وأن العبد إذا أذنب يقول ملك اليمين للآخر: تثبت لعلَّه يتوب، ورواه إبراهيم التيمي وسفيان الثوري، و«يُبَيِّدُ» معناه: قاعد، وقال قوم هو بمنزلة «أكيل» فهو بمعنى مُقَاعِد، وقال الكوفيون: أراد «فُعُوداً» فجعل الواحد موضع الجنس، والأول أصوب لأن المُقَاعِدَ إنما يكون عند قعود الإنسان، والقاعد يكون قاعداً على كل هيئات الإنسان، وقال مجاهد: قَعِيدٌ رصد، ومذهب سيبويه أن التقدير: عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد، فاكتفى بذكر الآخر عن ذكر الأول، ومثله عنده:

وَعَزَّةٌ مَسْطُورٌ مَعْنَى غَرِيمُهَا
ومثله قول الفرزدق:

إِنِّي ضَمَيْتُ لِمَنْ أَنَانِي مَا جَنَى
وَأَبِي فَكَانَ وَكُنْتُ غَيْرَ عُدُورِ
وهذه الأمثلة كثيرة، ومذهب المبرد أن التقدير: عن اليمين قعيد وعن الشمال، فأخر «يُبَيِّدُ» عن مكانه،

ومذهب الفراء أن لفظ «قعيد» يدل على الاثنين والجميع فلا يحتاج إلى تقدير غير الظاهر.

قوله تعالى: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ﴾، قال الحسن بن أبي الحسن، وقناة: يكتب الملكان جميع الكلام، فيثبت الله من ذلك الحسنات والسيئات ويمحو غير ذلك، وهذا ظاهر الآية. وقال أبو الجواز، ومجاهد: يكتبان عليه كل شيء حتى أنينه في مرضه، وقال عكرمة: المعنى: ما يلفظ من قول خير أو شر، وأما ما خرج عن هذا فإنه لا يُكْتَبُ، والأول أصوب، وروى أن رجلاً قال لجملة: «حَلْ»، فقال ملك اليمين: لا أكتبها، وقال ملك الشمال: لا أكتبها، وقال ملك الشمال: لا أكتبها، فأوحى الله تعالى إلى ملك الشمال أن اكتب ما ترك صاحب اليمين، وروى نحوه عن هشام الحمصي، وهذه اللفظة إذا اعتبرت فهي بحسب مشيئته بغيره، فإن كان في طاعة فإن «حَلْ» حسنة، وإن كان في معصية فهي سيئة، والمتوسط بين هذين عسر الوجود، ولا بد أن يقترن بكل أحوال المرء قرائن تخلصها للخير أو لخالفه، وحكى الشعلبي عن علي ابن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إن مقعد الملكين على الشيبتين، فقلهما اللسان ومدادهما الريق»، وقال الضحاك، والحسن: مقعدهما تحت الشعر، وكان الحسن يحب أن ينظف عنقه لذلك، قال الحسن: حتى إذا مات المرء طويت صحيفته، وقيل له يوم

الكتاب الذي يلقيه منشوراً، وقال بعض النظائر: ﴿سَائِقٌ﴾ اسم جنس، و﴿شَيْدٌ﴾ كذلك، فالساقفة للناس ملائكة يؤكلون بذلك، والشهداء الحفظة في الدنيا وكل ما يشهد، وقال ابن عباس، والضحاك: السائق مَلَكٌ، والشَّهيد جوارح الإنسان، وهذا يسعد علي ابن عباس رضي الله عنهما لأن الجوارح إنما تشهد بالمعاصي، وقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعم الصالحين، فإنما معناه: شهيد بخيره وشره، ويقوى في ﴿شَيْدٌ﴾ اسم الجنس، فتشهد بالخير الملائكة والبقاع، ومنه قوله ﷺ: «لا يسمع صدى صوت المؤذن إنس ولا جان ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة»، وكذلك تشهد بالشر الملائكة والبقاع والجوارح، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: السائق مَلَكٌ والشهيد العمل، قال ابن مسلم: السائق شيطان، حكاه عنه الشعلي، والقول في كتاب منذر بن سعيد، وهو قول ضعيف.

٢٢ - ٢٨ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الجحدري: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ﴾ بكسر التاء على مخاطبة النفس، وكذلك كسر الكافات بعد، وقال صالح بن كيسان، والضحاك، وابن عباس: معنى قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ﴾ الآية أن يقال للكافر العاقل من ذوي التي معها السائق والشهيد إذا حصل بين يدي الرحمن عز وجل، وعابن الحقائق التي كان لا يُصدَّق بها في الدنيا ويتغافل عنها وعن النظر فيها: لقد كنت في غفلة من هذا، فلما كشف الغطاء عنك الآن احتدَّ

إن شئت علقت الباء بـ ﴿جَاءَتْ﴾ كما تقول: «جئت بزيدا»، أي: سفته، وإن شئت كانت بتقدير: ومعها الموت.

واختلف المتأولون في معنى «وَجَاءَتْ سُكْرَةٌ أَلْحَقٌ بِالْمَوْتِ» - فقال الطبري - وحكاه الشعلي - الحق: الله تعالى، وفي إضافة السكرة إلى اسم الله تعالى بُغْدٌ، وإن كان ذلك سائغاً من حيث هي خلقت له، ولكن فصاحة القرآن ورفعه لا يأتي فيه هذا، وقال بعض المتأولين: المعنى: وجاءت سكرة فراق الحياة بالموت، وفراق الحياة حق يعرف الإنسان ويحيد منه بأمله، ومعنى هذا الحيد أنه يقول: أعيش كذا وكذا، فمتى فكَّر في قرب الموت حادَّ بذهنه وأمله إلى مسافة بعيدة من الزمان، وأيضاً فحذر المرء وتحزراته ونحو هذا جيد كله. وقد تقدَّم القول في التَّفخُّع في الصور مراراً، و﴿يَوْمٌ أَلْوَعِيدٌ﴾ هو يوم القيامة، وأضافه إلى الوعيد تخويفاً.

قوله تعالى: ﴿وَمَكَاتٌ كُلُّ نَفْسٍ نَمَاهَا سَائِقٌ وَشَيْدٌ﴾، قرأ طلحة بن مصرف: ﴿نَمَاهَا﴾ بالحاء مثقلة. و«السائق»: الحاث على السير، واختلف الناس في السائق والشهيد - فقال عثمان بن عفان، ومجاهد وغيرهما: مَلَكَانِ مُوَكَّلَانِ بكل إنسان، أحدهما يسوقه، والآخر من حفظته يشهد عليه، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: السائق مَلَكٌ، والشهيد العمل، وقال منذر بن سعيد: السائق مَلَكٌ، والشهيد النبي ﷺ، قال: وقيل: الشهيد

القيامة: ﴿أَقْرَأُ كِتَابَكَ كُلَّ نَفْسٍ أَلْوَعِيدٌ عَلَيْكَ حَيْبًا﴾، عَدَلُ اللهُ مَنْ جَعَلَهُ حَسِيبَ نَفْسِهِ. و«الرقيب»: المراقب، و«العتيد»: الحاضر.

وقوله تعالى: ﴿وَمَكَاتٌ﴾ عطف - عندي - على قوله تعالى: ﴿إِذْ يَنْكَلِتُ﴾، فالتقدير: وإذ تجيء سكرة الموت، وجعل الماضي في موضع المستقبل تحقيقاً وتبييناً للأمر، وهو أحمُّ على الاستعداد واستشعار القرب، وهذه طريقة العرب في ذلك، وتبيين هذا في قوله تعالى: ﴿وَيُفِخُ فِي الصُّورِ﴾، ﴿وَمَكَاتٌ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فإنها صيرورة بمعنى الاستقبال. وقرأ أبو عمرو: ﴿وَجَاءَتْ سُكْرَةٌ﴾ بإدغام التاء في السين، وسكرة الموت: ما يعتري الإنسان عند نزعه، والناس فيها مختلفة أحوالهم، لكن لكل أحد سكرة، وكان رسول الله ﷺ يقول: «إِن لِّلْمَوْتِ لِسُكْرَاتٍ». وقوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾ معناه: بلى الله تبارك وتعالى وفقد الحياة الدنيا، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَجَاءَتْ سُكْرَةٌ أَلْحَقٌ بِالْمَوْتِ﴾، وقرأها ابن جبير، وطلحة، ويروى أن أبا بكر الصديق قالها لابنته عائشة رضي الله عنهما، وذلك أنها قعدت عند رأسه تبكي وهو يتنازع فقالت:

لَعَمْرُكَ مَا يُغْنِي الشَّرَاءَ عَنِ الْفَتَى إِذَا حَشْرَجَتْ يَوْماً وَضَاقَ بِهَا الصُّدْرُ
ففتح أبو بكر رضي الله عنه عينيه وقال: لا تقولي هكذا وقولي: «وَجَاءَتْ سُكْرَةٌ أَلْحَقٌ بِالْمَوْتِ ذَلِكَ مَا كُنْتُ مِنْهُ تَجِيدٌ»، وقد روي هذا الحديث عن مشاهير القراء: ﴿وَمَكَاتٌ سُكْرَةٌ النَّوْبِ بِالْحَقِّ﴾ فقال أبو الفتح:

بصرك، أي: بصيرتك، وهذا كما تقول: «فلان حديد الذهن والفؤاد» ونحوه، وقال مجاهد: هو بصر العين، أي: اشتد التفاته إلى ميزانه وغير ذلك من أهوال القيامة، وقال زيد بن أسلم: قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَا كُنْتُمْ مِنْهُ حَٰجِدِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنْتُمْ الْآيَةَ مَخَاطِبَةً لِّلنَّبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ﴾، المعنى أنه خاطب بها في الدنيا، أي: لقد كنت يا محمد في غفلة عن معرفة هذا القصص والغيب حتى أرسلناك وأنعمنا عليك وعلمناك فبصرك اليوم حديد.

وهذا التأويل يضعف من وجوه: أحدها أن «الغفلة» إنما تنسب أبدأ إلى مقصّر، ومحمد ﷺ لا تقصير له قبل بعثه ولا بعده، وثانيها أن قوله تعالى - بعد هذا - ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾ يقتضي أن الضمير إنما يعود على أقرب مذكور، وهذا الذي يقال له: ﴿بَصْرَكَ أَيَّومٍ حَرِيدٍ﴾ - وإن جعلناه عائداً على ذي النفس في الآية المتقدمة - جاء هذا الاعتراض لمحمد ﷺ بين الكلامين غير متمكن، فتأمله، وثالثها أن معنى توقيف الكافر وتوبيخه على حاله في الدنيا يسقط، وهو أجرى في الآية وأولى بالوصف، والوجه عندي ما قاله الحسن، وسالم بن عبدالله أنها مخاطبة للإنسان ذي النفس المذكورة من مؤمن وكافر. ﴿وَنُكِّنْفُنَا عَلَيْكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الحياة بعد الموت.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيْكَ عَيْدٌ﴾، قال جماعة من

المفسرين: قرينه من زبانية جهنم، أي قال: هذا العذاب الذي لهذا الإنسان الكافر حاضرٌ عيْدٌ. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ففي هذا تحريض على الكافر واستعجال به.

وقال قتادة، وابن زيد: بل قرينه الملك الموكَّل بسوقه، فكأنه قال: هذا الكافر الذي جعل إلي سوقه، فهو لدي حاضرٌ، وقال الزهراوي: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُ﴾: شيطانه، وهذا ضعيف، وإنما أوقع فيه أن القرين في قوله: ﴿رَبَّنَا مَا أَطَّيَّبْتُهُ﴾ هو شيطانه في الدنيا ومُغْوِيه بلا خلاف، ولفظة القرين اسم جنس، فسائقه قرين، وصاحبه من الزبانية قرين، وكتب سيئاته في الدنيا قرين، وتحتمله هذه الآية، أي: هذا الذي أحصيته عليه عتيد لدي، وموجب عذابه. ومُتَمَاشِي الإنسان في طريقه قرين، ومنه قول الشاعر:

عَنْ أَلْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلَّ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَفْتَدِي
والقرين الذي في هذه الآية غير القرين الذي في قوله تعالى: ﴿قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطَّيَّبْتُهُ﴾ إذ المقارنة تكون على أنواع، وقال بعض العلماء: قرينه في هذه الآية عمَّله قلباً وجوارحاً.

وقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ﴾ معناه: يقال: ألقى في جهنم، واختلف الناس، لمن يقال ذلك؟ فقالت جماعة من المفسرين: هو قول لِمَلَكَئِينَ من ملائكة العذاب، وقال عبدالرحمن بن زيد في كتاب

الزهراوي: هو قول للسائق والشهيد، وحكى الزهراوي أن الأمر بإلقاء الكافر في النار اثنان، وعلى هذين القولين لا نظر في قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾، وقال مجاهد وجماعة من المتأولين: هو قول للقرين، إمَّا السائق وإمَّا الذي هو من الزبانية حسب ما تقدّم، واختلف أهل هذه المقالة في معنى قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ﴾ وهي مخاطبة لواحد - فقال المبرد: معناه: أَلَيْسَ أَلَيْسَ، فإنما أراد تشية الأمر مبالغة وتأكيداً فردُّ التشية إلى الضمير اختصاراً، كما قال:

لَفَتَكَ لِأَمِينٍ عَلَى نَابِلٍ
يريد: ارم، ارم. وقال بعض المتأولين: المراد: «الْقَيْنِ»، فعوض من النون ألفاً كما نُعْوِضُ من التنون، وقال جماعة من أهل العلم بكلام العرب: هذا جرى على عادة العرب، وذلك أنها كان الغالب عندها أن يترافق في الأسفار ونحوها ثلاثة، فكل واحد منهم يخاطب اثنين، فكشرك ذلك في كلامها وأشعارها حتى صار عُرفاً في المخاطبة، فاستعمل في الواحد، ومن هذا قولهم في الأشعار: خَلِيلِي، وصَاحِبِي، وَقَفَا نَبْلِكَ، ونحوه، وقد جرى المحدثون على هذا الرسم، فيقول الواحد: حَدَّثْنَا - وَإِنْ كَانَ قَدْ سَمِعَ وَحْدَهُ -، ونظير هذه الآية في هذا القول قولُ الْحَجَّاجِ: يَا حَرَسِي أَضْرِبْنَا عَنْقَهُ، وهو دليل على عادة العرب، ومنه قول الشاعر:

فَإِنْ تَزْجُرَانِي يَا بَنَ عَمَّانَ أَنْزَجُرَ
وَإِنْ تَدْعَانِي أَحْمَ عِزْضاً مُمْتَعاً
وقرأ الحسن بن أبي الحسن:
﴿أَلْقِيَا﴾ بتنوين [أَلْقِيَا]، و﴿وَكَفَّارٍ﴾
بناءً مبالغة، و﴿عَيْبٍ﴾ معناه: عاند
عن الحق، أي: مُنْحَرَفٌ عَنْهُ.

وقوله تعالى: ﴿مُنَّاعٌ لِّلْعَرَبِ﴾ لفظ
عامٌ للمال والكلام الحسن والتعاون
على الأشياء، وقال قتادة، ومجاهد،
وعكرمة: معناه: الرُّكَاةُ المفروضة،
وهذا التخصيص ضعيف، و﴿مَمْتَرٍ﴾
معناه: بلسانه ويده، و﴿مُرِيْبٍ﴾
معناه: مُتَلَسِّسٌ بما يُرْتَابُ به، أَرَابَ
الرجلُ إذا أتى بريية ودخل فيها. قال
الثعلبي: قيل: نزلت في الوليد بن
المغيرة، وقال الحسن: ﴿مُرِيْبٍ﴾:
شاك في الله تعالى ودينه.

قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ﴾
الآية، يحتمل أن يكون ﴿الَّذِي﴾ بدلاً
من ﴿وَكَفَّارٍ﴾، ويحتمل أن يكون
صفة له من حيث تَخْصُصُ ﴿وَكَفَّارٍ﴾
بالأوصاف المذكورة فجاز وصفه بعد
بالمعرفة، ويحتمل أن يكون ﴿الَّذِي﴾
ابتداءً وخبره في قوله تعالى:
﴿تَالْقِيَا﴾، ودخلت الفاء للإبهام الذي
في ﴿الَّذِي﴾ فحصل الشُّبُه بالشرط،
وفي هذا نظر، وَيَقْوَى عندي أن يكون
﴿الَّذِي﴾ ابتداءً، ويتضمن القول حينئذ
بني آدم والشياطين المُنْعَوِينَ لهم في
الدُّنْيَا، ولذلك تحرَّك القرين الشيطان
الْمُنْعَوِي في الدُّنْيَا فرام أن يُبْرَىء نفسه
ويخلصها بقوله لربِّه: ﴿رَبَّنَا مَا
أَلْقَيْتَهُ﴾، وقوله: ﴿رَبَّنَا مَا أَلْقَيْتَهُ﴾
ليست بحجة لأنه كذب في نفي
الإطغاء عن نفسه جملة، والحقيقة أنه
أطغاه بالوسوسة والتزيين، وأطغاه الله

تعالى بالخلق والاختراع حسب سابق
قضائه الذي هو عدل منه لا ربَّ غيره،
ويوصف بالضلال البعيد مبالغة، أي:
لِتَعْتَدِرْ رجوعه إلى الهدى.

وقوله تعالى: ﴿لَا تَخْصِمُوا لَدَيْ﴾
معناه: قال الله تعالى لا تختصموا
لدي بهذا النوع من المقابلة التي لا
تفيد شيئاً إذ قد استوجب جميعكم
النار. وقد أخبر تعالى بأنه تقع
الخصومات لديه في الظلمات
ونحوها مما فيه اقتصاص واقتضاء،
فأيدته تعالى بقوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ عِنْدَ رَبِّكُمْ تَخْصِمُونَ﴾،
وجمع الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا
تَخْصِمُوا﴾ يريد تعالى بذلك مخاطبة
جميع القرآن؛ إذ هو أمرٌ شائع لا يقف
على اثنين فقط، وهذا كما يقول
الحاكم لخصمين: لا تغلظوا علي،
يريد الخصمين ومن هو في حكمهما،
وتقدّمته تعالى إلى الناس بالوعد هو ما
جاءت به الرُّسُل عليهم السلام والكتب
من تعذيب الكفرة.

﴿٣٥﴾ - ﴿٣٤﴾ تفسير قوله عز وجل:
المعنى: قد قدّمْتُ بالوعد أنني
أعذب الكفار في ناري فلا يُبدلُ
القول لدي ولا يُنقص ما أبرمه
كلامي، ثم أزال موضع الاعتراض
بقوله: ﴿وَمَا أَنَا بِظَلْمٍ لِلْيَبِيدِ﴾، أي:
هذا عدلٌ فيهم؛ لأنني أعذرت
وأهملت وأنعمت بالإدراكات وهديت
السبيل والتجدين وبعثت الرُّسُل.
وقال الفراء: معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا
يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيْ﴾ أي: ما يكذب لدي
لعلمي بجميع الأمور، فتكون
الإشارة - على هذا - إلى كذب الذي
قال: ﴿وَمَا أَلْقَيْتَهُ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾،
يجوز أن يعمل في الظرف قوله
تعالى: ﴿بِظُلْمٍ لِلْيَبِيدِ﴾، ويجوز أن
يعمل فيه فعل مضمر، وقرأ الجمهور
من القراء وحفص عن عاصم:
﴿نَقُولُ﴾ بالنون، وهي قراءة الحسن،
وأبي رجاء، وأبي جعفر،
والأعمش، ورجحها أبو علي بما
تقدّم من قوله تعالى: ﴿فَدَمَّتْ﴾
وقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَنَا﴾، وقرأ
نافع، وعاصم - في رواية أبي بكر -
﴿يَقُولُ﴾، على معنى: يقول الله،
وهي قراءة الأعرج، وشيبة، وأهل
المدينة، وقرأ الحسن، وابن
مسعود، والأعمش أيضاً: ﴿يُقَالُ﴾
على بناء الفعل للمفعول.

وقوله: ﴿هَلْ أَتَاكَ﴾ تقرير
وتوقيف، واختلف الناس، هل وقع
هذا التقرير فامتلات أو هي لم
تمتلي؟ فقال بكل وجه جماعة من
المتاولين، وبحسب ذلك تأولوا
قولها: ﴿هَلْ مِنْ مَّرِيْبٍ﴾، فمن قال:
إنها امتلات جعل قولها: ﴿هَلْ مِنْ
مَّرِيْبٍ﴾ على معنى التقرير ونفي
المزيد، أي: وهل عندي موضع يُزاد
فيه شيء؟ ونحو هذا التأويل قول
النبي ﷺ: ﴿وهل ترك لنا عقيل
منزلاً﴾، وهو تأويل الحسن،
وعمر، وواصل. ومن قال إنها
كانت غير ملأى جعل قولها: ﴿هَلْ
مِنْ مَّرِيْبٍ﴾ على معنى السؤال والرغبة
في الزيادة، قال الرُّمَّانِي: وقيل:
المعنى وتقول حَزَنَتْهَا، والقول إنها
لقائلة أظهر.

واختلف الناس في قول جهنم - هل
هو حقيقة أو مجاز؟ أي: حالها حال

من لو نطق لقال كذا وكذا، فيجري هذا مجرى:

شَكَا إِلَيَّ جَمَلِي طُولَ السُّرَى
ومجرى قول ذي الرُّمة:

تُكَلِّمُنِي أَخْجَازُهُ وَمَلَايِبُهُ
والذي يترجِّح في قول جهنم:
﴿هَلْ مِنْ مَّرْبُورٍ﴾ أنها حقيقة، وأنها قالت ذلك وهي غير ملأى، وهو قول أنس مالك رضي الله عنه، ويبين ذلك الحديث الصحيح المتواتر، قول النبي ﷺ: «يقول الله لجهنم: هل امتلأت؟ فتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع الجبار فيها قدمه فتقول: قَطُ، قَطُ، وينزوي بعضها إلى بعض»، وقد اضطرب الناس في معنى هذا الحديث، وذهب جماعة من المتكلمين إلى أن «الجبار» اسم جنس، وأنه يريد المتجبرين من بني آدم، ورووا أن الله تعالى يُعِدُّ من الجبابرة طائفة يملأ بهم جهنم آخراً، وروي عن النبي ﷺ أن جلدة الكافر يصير غِلْظَهَا أربعين ذراعاً، ويُعْظَمُ بدنه على هذه النسبة، وهذا كله من ملء جهنم، وذهب الجمهور إلى أن الجبار اسم الله تبارك وتعالى، وهذا هو الصحيح، فإن في الحديث الصحيح «يفضع ربُّ العالمين فيها قَدَمَهُ»، وتأويل هذا أن «القدم» ما قدَّم لها من خلقه وجعلهم في علمه من ساكنيها، ومنه قوله تعالى: ﴿وَكَثِيرَ اللَّذَاتِ مَأْتُوا أَنَّ لَهُنَّ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِنَّ﴾، فالقدم ما قدَّم من شيء، ومنه قول الشاعر:

صَلَّ لِزَنْكَ وَأَتَّخِذُ قَدَمًا
يُنْجِيكَ يَوْمَ الْعِشَارِ وَالزَّلَّلِ

ومنه قول العجاج:

وَيُنْشِئُ الْمُلْكَ لِمَلِكٍ ذِي قَدَمٍ
أي: ذي شرف متقدِّم، وهذا التأويل مروى عن ابن المبارك، وعن النَّضْر بن شَمَيْل، وهو قول الأصوليين، وفي كتاب مسلم بن الحجاج: «يفضع الجبار فيها رجله»، ومعناه الجمع الذي أعد لها، يقال للجمع الكثير من الناس: «رجلٌ» تشبيهاً برجل الجراد، قال الشاعر:

فَمَرَّ بِهَا رَجُلٌ مِنَ النَّاسِ وَأَنْزَوَى
إِلَيْهِمْ مِنَ الْحَيِّ الْيَمَانِيِّ أَرْجُلُ
وملاك النظر في هذا الحديث أن الجارحة والتشبيه وما جرى مجراه منتف كل ذلك، فلم يبق إلا إخراج الألفاظ على هذه الوجوه السائغة في كلام العرب.

و «أَزْلَفْتُ»: معناه: قُرَيْتُ، وقوله تعالى: ﴿غَيْرَ بَيِّدٍ﴾ تأكيد وبيان أن هذا التقريب هو في المسافة، لأن «قُرَيْتُ» كان يحتمل أن يكون المعنى: بالوعد والإخبار، فَرُوعِ الاحتمال بقوله: ﴿غَيْرَ بَيِّدٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوْعَدُونَ﴾ الآية يحتمل أن يكون معناه: يقال لهم في الآخرة عند إزلاف الجنة: هذا هو الذي كنتم توعدون به في الدنيا، ويحتمل أن يكون المعنى أنه خطاب لأمة محمد ﷺ، أي: هذا هو الذي توعدون به أيها الناس لكل أبواب حفيظ، و«الأواب»: الرجوع إلى الطاعة وإلى مرشد نفسه، وقال ابن عباس، وعطاء: الأواب المُسَبِّح، من قوله تعالى: ﴿يَبْجِلُ أَوْي مَعَهُ﴾، وقال الشعبي،

ومجاهد، هو الذي يذكر ذنوبه فيستغفر، وقال المحاسبي: هو الرَّاجِع بقلبه إلى الله تعالى، وقال عُبَيْد بن عمير: كئُا نتحدث أن الذي إذا قام من مجلسه استغفر الله تعالى ممَّا جرى في ذلك المجلس، وكذلك كان النبي ﷺ يفعل. و«الحفيظ» معناه: لأوامر الله تعالى فيمتثلها، ولنواهيه فيتركها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: حفيظ لذنوبه حتى يرجع عنها.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ حَيَّى الرَّجْنَ بِالنَّبِيِّ﴾ يحتمل أن يكون من نعت «الأواب» أو بدلاً من «كُلُّ»، ويحتمل أن يكون رفعاً بالابتداء، والخبر: يقال لهم: ﴿أَدْخَلُوكَا يَسْلِكِي﴾، ويحتمل أن تكون شرطية فيكون الجواب: يقال لهم: ﴿أَدْخَلُوكَا يَسْلِكِي﴾، وقوله تعالى: ﴿بِالنَّبِيِّ﴾ معناه: غير مشاهد له، وإنما يصدق رسوله ويسمع كتابه، وجاء أن معناه: يوم القيامة، و«المُنْيَبُ»: الرَّاجِع إلى الخير والمائل إليه، وقوله تعالى: ﴿أَدْخَلُوكَا﴾ تقرير يقال لهم، أو: فيقال لهم، على ما تقدَّم. و«سلام» معناه: بأمن وسلامة من جميع الآفات، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْخُلُودِ﴾ مقابل لقوله تعالى قبل في أمر الكفار: ﴿ذَلِكَ يَوْمَ الْوَعِيدِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ خير بأنهم يُعطون أمالهم أجمع، ثم أبهم تعالى الزيادة التي عنده للمؤمنين المنعمين، وكذلك هي مُبْهَمَةٌ في قوله تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قَرَّةٍ أَعْتَبْنَاهُ﴾، وقد فسر

وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَابْنُ
يَعْفَرٍ، وَنَصْرُ بْنُ يَسَارٍ،
وَأَبُو الْعَالِيَةِ: «فَتَقْبُؤُوا»
بشذ القاف المكسورة على
الأمر لهؤلاء الحاضرين،
و«هَذَلْ مِنْ عَجِيصٍ» توقيف
وتقرير، أي: لا محيص،
و«المحيص» موضع
الحيص وهو الروغان
والحياد، قال قتادة:
حاص الكفرة فوجدوا
أمر الله مُتَّبِعًا مُذْرِكًا، وفي
صدر البخاري: «فحاصوا
خَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى
الْأَسْوَابِ» وقال ابن
عبد شمس في وصف
ناقته:

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَاللَّذَرِيَّتِ ذَرَوًا ۝ فَالْحَوْلَاتِ وَقَرَأَ ۝ فَالْمَرْيُوتِ يَسْرًا ۝
فَالْقَيْسِيَّةِ مِرَآءًا ۝ إِنَّمَا وَجَدَهَا لِصَادِقٍ ۝ وَإِنَّا لَإِلَهُنَّ لَوَاعِبُ ۝

٥٢٠

ذلك الحديث الصحيح في قوله ﷻ: «يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بئله ما اطعمتم عليه»، وقد ذكر الطبري وغيره في تعيين هذا المزيد أحاديث مطولة وأشياء ضعيفة؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: «فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّ يُعْطُونَهَا تَكْلَفًا وَتَعْشَاقًا، وَرُوي عن جابر بن عبد الله، وأنس رضي الله عنهما أن المزيد: النَّظْرُ إِلَى وَجْهِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَا كَيْفَ.

٣٦ - ٣٧ تفسير قوله عز وجل:

«وَكَمْ» للتكثير، وهي خبرية، والمعنى: كثيراً أهلكنا قبلهم. و«القرن»: الأمة من الناس الذين يمر عليهم قدر من الزمان، واختلف الناس في ذلك القدر - فقال الجمهور: مائة سنة، وقيل غير هذا، وقد تقدم القول فيه غير مرة، و«شيدة الطيش» هي بكثرة القوة والأموال والمُلْك والصحة والأذهان إلى غير ذلك. وقرأ الجمهور من الناس: «فَتَقْبُؤُوا» بشذ القاف المفتوحة على إسناد الفعل إلى القرون الماضية، والمعنى: وَلَجُوا الْبِلَادَ مِنْ أَنْقَابِهَا، وفي الحديث: «إِنَّ عَلَى أَنْقَابِ الْمَدِينَةِ مَلَائِكَةً لَا يَدْخُلُهَا الطَّاعُونَ وَلَا الدُّجَالُ»، والمراد: تطوفوا ومشوا طماعية في النجاة من الهلكة، ومنه قول الشاعر:

وَقَدْ نَقَبْتُ فِي الْأَنْقَابِ حَتَّى
رَضَيْتُ مِنَ النَّعِيمَةِ بِالْإِبَابِ
وقول الحارث بن جِلْزَةَ الْيَشْكُرِيُّ:
نَقَبُوا فِي الْبِلَادِ مِنْ حَذَرِ الْمَوْتِ
بِوَجَالِ الْوَفَا فِي الْأَرْضِ كُلِّ مَجَالِ

إِذَا حَاصَ الدَّلِيلُ رَأَيْتَ مِنْهَا
جُحُوحًا لِلطَّرِيقِ عَلَى اتِّسَاقِ
وَقَرَأَ أَبُو عَمْرٍو - فِي رِوَايَةٍ
عُبَيْدٌ عَنْهُ -: «فَتَقْبُؤُوا» بفتح القاف
وتخفيفها، وهي بمعنى التشديد،
وَاللَّفْظَةُ أَيْضًا قَدْ تَقَالُ بِمَعْنَى
الْبَحْثِ وَالطَّلَبِ، تَقُولُ: نَقَبْتُ عَنْ
كَذَا إِذَا اسْتَفْصَيْتَ عَنْهُ، وَمِنْهُ «نَقِيبُ
الْقَوْمِ» لِأَنَّهُ الَّذِي يَبْحَثُ عَنْ
أُمُورِهِمْ وَيَبَاحِثُ عَنْهُمْ،
وَهَذَا عِنْدِي تَشْبِيهُ بِالِدُخُولِ مِنَ
الْأَنْقَابِ.

وقوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ» يعني إهلاك من مضى، و«الذكري»: الذكرة، و«القلب» عبارة عن العقل إذ هو محله، والمعنى: لمن كان له قلب واع

ينتفع به، وقال الشبلي: معناه: قلب حاضر مع الله تعالى لا يغفل عنه طرفه عين، وقوله تعالى: «أَرَأَيْتَ أَلْفَى السَّعْيِ وَهُوَ شَيْدٌ» معناه: صرف سمعه إلى هذه الأنبياء الرواعضة، وانتبه في سماعها، فذلك إلقاء له عليها، ومنه قوله تعالى: «وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي»، أي: أثبتتها عليك، وقال بعض الناس: قوله تعالى: «أَلْفَى السَّعْيِ» وقوله: «فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ»، وقوله: «سَيْطٌ فِي آيَاتِهِمْ»، هي مما قل استعماله الآن وبعده معانيه، وقول هذا القائل ضعيف، بل هي بيئة المعاني، وقد مضت في مواضعها، وقوله تعالى: «وَهُوَ شَيْدٌ» قال بعض المتأولين: معناه: وهو مُشَاهِدٌ مُقْبِلٌ عَلَى الْأَمْرِ غَيْرٌ مُعْرَضٌ وَلَا مُتَفَكِّرٌ فِي غَيْرِ مَا يَسْمَعُ، وَقَالَ

قتادة: هي إشارة إلى أهل الكتاب، فكأنه تعالى قال: إن هذه العبر لتذكيرة لمن له فهم فيتدبر الأمر، أو لمن سمعها من أهل الكتاب فشهد بصحتها لعلمه بها من كتاب التوراة وسائر كتب بني إسرائيل، ف ﴿سَهْدٌ﴾ على التأويل الأول من المشاهدة، وعلى التأويل الثاني من الشهادة، وقرأ السدي: ﴿أَوْ أَلْقِي السَّنْعُ﴾، قال ابن جنبي: أي ألقى الداني أن قراءة السدي ذكرت لعاصم فمقت السدي وقال: أليس الله تعالى يقول: ﴿يَلْقَوْنَ السَّنْعَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ الآية... خبر مضمّن الرّد على اليهود الذين قالوا: إن الله خلق الأشياء كلها في ستة أيام ثم استراح يوم السبت، فنزلت ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُؤُوبٍ﴾، واللغوب: الإعياء والنضب والسأم، يقال: لَغِبَ الرجل يَلْغُبُ إذا أعيأ، وقرأ السلمي، وطلحة: ﴿لُغُوبٌ﴾ بفتح اللام.

وتظاهرت الأحاديث بأن بدء خلق الأشياء كان يوم الأحد، وفي كتاب مسلم، وفي الدلائل لثابت حديث مضمّن أن ذلك كان يوم السبت، وعلى كل قول فأجمعوا على أن آدم عليه السلام خلق يوم الجمعة، فمن قال إن البداية يوم السبت جعل خلق آدم عليه السلام كخلق بنيه لا يُعد من الجملة الأولى، وجعل اليوم الذي

كملت المخلوقات عنده يوم الجمعة.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾، قال بعض المفسرين: المراد أهل الكتاب لقولهم: ثم استراح يوم السبت، وهذه المقالة من أهل الكتاب كانت بمكة قبل الهجرة، وقال النظار من المفسرين: قوله تعالى: ﴿فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ يراد به أهل الكتاب وغيرهم من الكفرة، وعم بذلك جميع الأقوال الزائفة من قريش وغيرهم، وعلى هذا التأويل يجيء قول من قال إن الآية منسوخة بآية السيف، و﴿سَجَّ﴾ معناه: ضل بإجماع من المتأولين. وقوله تعالى: ﴿يَعْبُدُونَكَ الْبَاءَ لِلْاِقْرَانِ﴾، أي: سجح سبخة يكون معها حنذاً، ومثله: ﴿تَبَّتْ يَدَاكَ﴾ على بعض الأقوال فيها، و﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ هي الضبح، و﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ هي العصر، قاله قتادة، وابن زيد، والناس، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الظهر والعصر، ﴿وَمِنْ أَيْلٍ﴾ هي صلاة العشاءين، وقال ابن زيد: هي العشاء فقط، وقال مجاهد: هي صلاة الليل، وقوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلشُّجُورِ﴾، قال عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، والحسن، والشعبي، وإبراهيم، ومجاهد، والأوزاعي: هي الركعتان بعد المغرب، وأسنده الطبري، عن ابن عباس رضي الله عنهما، عن النبي ﷺ، كأنه روعي أدبار صلاة النهار كما

روعي أدبار النجوم في صلاة الليل فقيل: هي الركعتان مع الفجر، وروي عن ابن عباس أن أدبار السجود الوتر، حكاه الثعلبي، وقال ابن زيد، وابن عباس أيضاً، ومجاهد: هي النوافل إثر الصلوات، وهذا جار مع لفظ الآية، وقال بعض العارفين: هي صلاة الليل، وقال الثعلبي: وقال بعض العلماء في قوله تعالى: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾ ركعتا الفجر، و﴿وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ الركعتان قبل المغرب، وقال بعض التابعين: رأيت أصحاب محمد ﷺ يهتئون إليها كما يهتئون إلى المكتوبة، وقال قتادة: ما أدركت أحداً يصلي الركعتين قبل المغرب إلا أنسا وأبا برزة. وقرأ ابن عباس، وابن كثير، ونافع، وحمزة، وأبو جعفر، وشيبة، وعيسى، وشبل، وطلحة، والأعمش: ﴿وَإِذَا بَرَأَ﴾ بكسر الألف، وهو مصدر أضيف إليه وقت ثم حذف الوقت، كما قالوا: جئتكَ مَقْدِمَ الحج وخُفْرَقِ السُّجْمِ ونحوه، وقرأ الباقون، والحسن، والأعرج: ﴿وَأَذِّنْ﴾ بفتح الهمزة، وهو جمع دُبْر كَطَبِّبَ وأطاب، أي: وفي أدبار السجود، أي: في أعقابها، قال أوس بن حجر:

عَلَى دُبْرِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ فَأَرَضْنَا
وَمَا حَوَّلَهَا جَدْبٌ بَيْنَيْنِ تَلْمَعُ
① - ② تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَجِبْ﴾ هو بمنزلة «وانتظر»، وذلك أن محمداً ﷺ لم يؤمر بأن يستمع في يوم النداء لأن

كُلٌّ من فيه يستمع، وإنما الآية في معنى الوعيد للكفار، وقيل لمحمد ﷺ: تحسّن وتسمع هذا اليوم وارتقبه فإن فيه تبيين صحة ما قلته، وهذا كما تقول لمن تعذّه بورود فتح: استمع كذا وكذا، أي: كُنْ منتظراً له مستمعاً، فعلى هذا فنصب ﴿يَوْمَ﴾ إنما هو على المفعول الصريح. وقرأ ابن كثير: ﴿الْمُنَادِي﴾ بالياء وصلّاً ووفقاً على الأصل الذي هو ثبوتها؛ إذ الكلام غير تام، وإنما الحذف أبداً في الفواصل وفي الكلام التام تشبيهاً بالفواصل، وقرأ أبو عمرو، ونافع في الوقف بغير ياء لأن الوقف موضع تغيير، ألا ترى أنها تُبدلُ من التاء فيه الهاء في نحو «طلحة» و«حمزة»، وتبدل من التنوين الألف، ويضعف فيه الحرف كقولك: هذا فوج، ويحذف فيه الحرف في القوافي. وقرأ الباقون، وطلحة، والأعمش، وعيسى بحذف الياء وصلّاً ووفقاً اتباعاً لخط المصحف، وأيضاً فإن الياء تحذف مع التنوين فوجب أن تحذف مع معاقب التنوين، وهما الألف واللام.

قوله تعالى: ﴿مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾، قيل: وصفه بالقرب من حيث يسمع جميع الخلائق، وروي عن النبي ﷺ أن ملكاً ينادي من السماء: أيتها الأجساد الهامدة، والعظام البالية، والرّمم الواهية، هلُمّ إلى الحشر والوقوف بين يدي الله تعالى، وقال كعب الأحبار، وفتادة، وغيرهما: المكان

صخرة بيت المقدس، واختلفوا في معنى صفتها بالقرب - فقال قوم: وصفها بذلك لقربها من النبي ﷺ، أي: من مكة، وقال كعب الأحبار: وصفها بالقرب من السماء، وروي أنها أقرب الأرض إلى السماء بشمانية عشر ميلاً، وهذا الخبر إن كان بوحى وإلا فلا سبيل إلى الوقوف على صحته.

و «الصَّيْحَةُ» هي صيحة المنادي، و «الخروج» هو من القبور، و «يَوْمُهُ» هو يوم القيامة، و «يوم الخروج» في الدنيا هو يوم العيد، وقال حسان بن ثابت:

وَلَأَنْتَ أَحْسَنُ إِذْ بَرَزْتَ لَنَا
يَوْمَ الْخُرُوجِ بِسَاحَةِ الْقَضِيرِ
مِنْ دُرَّةٍ أَعْلَى بِهَامِلِكَ
مِمَّا تَرَبَّ بِحَائِزِ الْبُخْرِ

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْفُقُ﴾، العامل في ﴿يَوْمَ﴾ هو ﴿الْمَصِيرُ﴾، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر بتشديد الشين، والباقون خففوها، و «سِرَاعًا» حال، قال بعض النحويين: هي من الضمير في قوله تعالى: ﴿عَنَهُمْ﴾، والعامل في الحال «تَشْفُقُ»، وقال بعضهم: التقدير: يوم تشفق الأرض عنهم يخرجون سراعاً، فالحال من الضمير في «يخرجون»، والعامل «يخرجون»، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ حَتَّىٰ عَلَيْنَا يَبِيرُ﴾ معادلٌ لقول الكفرة: ﴿ذَلِكَ رَجَحَ بِيَدِي﴾. وقوله تعالى: ﴿مَنْ أَعْلَمُ بِمَا

يَقُولُونَ﴾ وعيدٌ محض للكفرة، واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾ - فقال فتادة: نهى الله تعالى عن التجبر، وتقدّم فيه، فمعناه: وما أنت عليهم بمُتَعَدِّمٍ، من الجبروت، وقال الطبري وغيره: معناه: وما أنت عليهم بمُسَلِّطٍ، تُجَبِّرُهُمْ على الإيمان، ويقال: جَبَّرْتُهُ على كذا، أي: قَسَرْتُهُ، ف «جَبَّارٌ» مبالغة من جَبَر، وأنشد المُفَضَّل:

عَصَيْنَا عَزْمَةَ الْجَبَّارِ حَتَّىٰ
صَحَبْنَا الْخَوْفَ إِلْفًا مُغْلَمِينَا

قال: أراد بالجَبَّارِ النعمان بن المنذر لولايته، ويحتمل أن نصب «عَزْمَةَ» على المصدر وأراد: عصينا مقدمين عزمة جبار، فمدح نفسه وقومه بالعتو والاستعلاء، أخلاق الجاهلية والحياة الدنيا، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المؤمنين قالوا: يا رسول الله، لو خَوَّفْتَنَا، فنزلت: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَيَعِيدُ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولو لم يكن هذا سبباً فإنه لما أعلمته أنه ليس بمُسَلِّطٍ على جبرهم أمره بالاقتصار على تذكير الخائفين من المؤمنين.

كامل تفسير سورة ق، وبها كامل تفسير الجزء الثالث عشر والحمد لله رب العالمين

الكواكب فسألته عن هذه فقال: الذاريات: الرياح، والحاملات: السحاب، والجاريات: السفن، والمقسّمات: الملائكة، ثم قال له: سل سؤال تعلم ولا تسأل سؤال تمت.

وهذا القسّم واقع على قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا نُعَدُّكَ لِعَادِيٍّ﴾، و﴿نُعَدُّكَ﴾ يحتمل أن يكون من الإبعاد، ويحتمل أن يكون من الوعد، وأيهما كان فالوصف له بالصدق صحيح، و﴿صَادِقٌ﴾ هنا موضوع بدل «صدق» وضع الاسم موضع المصدر.

و«الذيين»: الجزاء، وقال مجاهد: الحساب، والظاهر في الآية أنها للكفار وأنها وعيد محض بيوم القيامة.

ثم أقسم الله تعالى بمخلوق آخر فقال: ﴿وَأَسْمَاءُ ذَاتُ الْكَبْكَبِ﴾، فظاهر لفظة «السماء» أنها لجميع السموات، وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: هي السماء السابعة، و﴿أَسْمَاءُ﴾ - بضم الحاء والياء - الطرائق التي هي على نظام في الأجرام، فحُبُك الرّمال والماء: الطرائق التي تصنع فيها الريح الهابئة عليها، ومنه قول زهير:

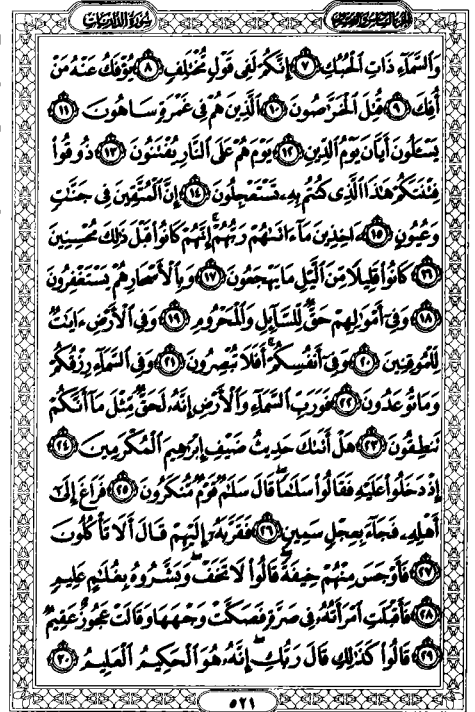
مُكَلَّلٌ بِعَمِيمِ الثُّبُتِ تَسْجُمُ
رِيحٌ حَرِيْقٌ لِحَاصِي مَائِهِ حُبُكٌ
وحُبُك الدُّرُج: الطرائق المتصلة في موضع اتصال الحلق بعضها ببعض، وفي بعض أجنحة الطير حُبُك على نحو هذا، ويقال لتكسير الشعر: حُبُك، وفي الحديث: «إن من ورائكم الكذاب المُضِلُّ، وإن رأسه من ورائه حُبُكاً حُبُكاً»، يعني جُفُوداً

السحاب المُوقرة بالماء، وقال ابن عباس رضي الله عنهما، وغيره: هي السفن المُوقرة بالناس ومتاعهم، وقال جماعة من العلماء: هي أيضاً - مع هذا - جميع الحيوان الحامل، وفي جميع ذلك مُعتبر، و﴿وَرَدَّ﴾ مفعول صريح.

و«الجاريات يسراً» قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وغيره: هي السفن في البحر، وقال آخرون: هي السحاب بالريح، وقال آخرون: هي الجواري من

الكواكب، واللفظ يقتضي جميع هذا، و﴿بَشَرٌ﴾ نعت لمصدر محذوف، وصفات المصادر المحذوفة تعود أحوالاً، و﴿بَشَرٌ﴾ معناه: بسهولة وقلة تكلف.

و«المقسّمات أمراً»: الملائكة، و«الأمر» هنا اسم الجنس، فكأنه تعالى قال: والجماعات التي تقسم أمر الملكوت من الأزواق والأجال والخلق في الأرحام وأمر الرياح وغير ذلك؛ لأن كل هذا إنما هو بملائكة تخدمه، فالآية تتضمن جميع الملائكة لأنهم كلهم في أمور مختلفة، وأنت «المقسّمات» من حيث أراد الجماعات، وقال أبو الطفيل عامر بن واثلة: كان علي رضي الله عنه على المنبر، فقال: لا تسألوني عن آية من كتاب الله تعالى أو سنة ماضية إلا قلت، فقام إليه ابن



تفسير سورة الذاريات

هذه السورة مكّبة بإجماع من المفسرين.

١ - ١١ تفسير قوله عز وجل: أقسم الله تعالى بهذه المخلوقات تنبيهاً عليها، وتشريفاً لها، ودلالة على الاعتبار فيها، حتى يصير الناظر فيها إلى توحيد الله تعالى.

و«الذاريات»: الرياح، بإجماع من المتأولين، يقال: ذرت الريح وأذرت بمعنى، وفي الريح مُعتبرٌ من شدتها حيناً ولينها حيناً، وكونها مزة رحمة ومزة عذاباً، إلى غير ذلك، و﴿وَرَدَّ﴾ نصب على المصدر.

و«الحاملات وقراً» قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هي

كتاب الله تعالى كثير، ويحتمل أن يعود الضمير على القول الذي يصرف بسببه من أراد الإسلام بأن يقال: هو سحر، هو كهانة، وهذا قول حكاه الزهراوي، ويحتمل أن يعود الضمير في ﴿عَنَّهُ﴾ على القول، أي: يصرف عنه بتوفيق الله تعالى إلى الإسلام من غلبت سعادته، وهذا على أن يكون قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَبِئْسَ قَوْلٌ تُحَدِّثُ﴾ للكفار فقط، وهذا وجه حسن لا يُخل به إلا أن عرف الاستعمال في «أفك» إنما هو في الصرف من خير إلى شر، وتأمل ذلك تجدها أبداً في المصروفين المذمومين، وحكى أبو عمرو عن قتادة أنه قرأ: ﴿مَنْ أَفَكَ﴾ بفتح الهمزة والفاء.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ لِّلرَّسُولِ﴾ دعاء عليهم، كما تقول: قاتله الله، أو قتله الله، وعَقَرَى حَلَقَى، وقال بعض المفسرين: معناه: لُعن الخراصون، وهذا تفسير لا تعطيه اللفظة، و«الْخَرَّاصُ»: الْمُخْتَمِنُ القائل بظنه وتقديره، فَتَحَّتْ الكاهن والمرتاب ونحوه مَن لا يقين له، والإشارة إلى مُكَذِّبِ مُحَمَّدٍ ﷺ على كل جهة من طرفهم. و«الْعَمْرَةُ» ما يُعْشَى الإنسان ويغطيه كغمره الماء، والمعنى: في غمرة من الجهالة، و«سَاهُونَ» معناه: عن أنهم في غمرة وعن غير ذلك من وجوه النظر، وقوله تعالى: ﴿يَسْتَلُونَ أَيَّانَ يَوْمَ أَلزَمَ الَّذِينَ﴾ معناه: يقولون: متى يوم الدين؟ على معنى التكذيب، وجائز أن يقترن بذلك من بعضهم هزواً وألاً يقترن، وقرأ السلمي، والأعمش:

الباء، كما قالوا على جهة التخفيف: «إِبْلٌ» و«إِطْلٌ» بسكون الباء والطاء، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿أَلْحَبُّكَ﴾ بفتح الحاء والباء، وقرأ الحسن أيضاً فيما روي عنه: ﴿أَلْحَبُّكَ﴾ بكسر الحاء وضم الباء، وهي قراءة شاذة غير متوجهة، وكأنه أراد كسرهما ثم تَوَهَّم ﴿أَلْحَبُّكَ﴾ وهي قراءة الضم بعد أن كسر الحاء فضم الباء، وهذا على تداخل اللغات، وليس في كلام العرب هذا البناء، وقرأ عكرمة: ﴿أَلْحَبُّكَ﴾ بضم الحاء وفتح الباء جمع حُبْكَ، وهذه كلها لغات، والمعنى ما ذكرناه، والفرسُ المحبوك: الشديد الخَلْقَةُ الذي له حُبْكَ في مواضع من منابت شعره، وذلك دليل على حسن بنيتِه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَبِئْسَ قَوْلٌ تُحَدِّثُ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً لجميع الناس، مؤمن وكافر، أي: اختلفتم بأن قال منكم فريق: آمنا بمحمد وكتابه، وقال فريق آخر: كفرنا، وهذا قول قتادة، ويحتمل أن يكون خطاباً للكفرة فقط، أي: أنتم في جنس من الأقوال مختلف في نفسه، قوم منكم يقولون: ساحر، وقوم يقولون: كاهن، وقوم يقولون: شاعر، وقوم يقولون: مجنون، إلى غير ذلك، وهذا قول ابن زيد، والضمير في ﴿عَنَّهُ﴾ قال الحسن، وقاتدة: هو عائد على محمد ﷺ، أو كتابه، أو شرعه، و﴿يُؤْفَكُ﴾ معناه: يُصرف، فالمعنى: يُصرف من الكفار عن كتاب الله تعالى من صُرف ممن غلبت شقاوته، وكان قتادة يقول: المأفوك مئا اليوم عن

شعره، فهو تكسره، ويظهر في المنسوجات من الأكسية وغيرها طرائق في موضع تداخل الخيوط هُنَّ حُبْكَ، ويقال: نسج الثوب فأجاد حيكه، فهذه من الحُبْكَ في اللغة، وقال منذر بن سعيد: إن السماء في تألف جرمها هي هكذا لها حُبْكَ، وذلك لجودة خلقتها وإتقان صنعتها، ولذلك عبّر ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ ذَاتَ الْكُتُبِ﴾ بأن قال: حُبْكَها: حُسْنُ خَلْقِهَا، وقال ابن جبير: الحُبْكَ الزينة، وقال ابن الحسن: حُبْكَها كواكبها، وقال ابن زيد: السُّبُكُ الشُّدَّةُ حُبْكَت: شُدَّتْ، وقرأ: ﴿سَبَاً شِدَاداً﴾ وقال ابن جنِّي: الحُبْكَ طرائق الغنم ونحو هذا، وواحد «الحُبْكَ» حَبَاك، ويقال للضفيرة التي تُشَدُّ بها حظار القصب ونحوه - وهي مستطيلة تصنع في ترحيب الفراسات المصطفة -: حِبَاكُ، وقد يكون واحد الحُبْكَ حبيكة، وقال الرَّاَجَز:

كَأَنَّمَا جَلَّتْهَا الْحَوَاكُ
طِنْفَسَةٌ فِي وَشِبْهَا حِبَاكُ
وقرأ جمهور الناس: ﴿الْكُبُكُ﴾ بضم الحاء والباء، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو مالك الغفاري بضم الحاء وسكون الباء تخفيفاً، وهي لغة بني تميم، كرُسل في رُسل، وهي قراءة أبي حيوة، وأبي السَّمال، وقرأ الحسن أيضاً، وأبو مالك الغفاري: ﴿أَلْحَبُّكَ﴾ بكسر الحاء والباء على أنها لغة كإِطْلُ وإِيسِلُ، وقرأ الحسن أيضاً: ﴿أَلْحَبُّكَ﴾ بكسر الحاء وسكون

﴿إِيَّانَ﴾ بكسر الهمزة وفتح الياء مخففة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ مَمَّ عَلَى النَّارِ يُنْفَخُونَ﴾ قال الزجاج: نصب ﴿يَوْمَ﴾ على الظرف من مُقَدَّر تقديره: هو كائن يومَ هم على النار، أو نحو هذا، وقال الخليل وسيبويه: نصبه على البناء لما أُصِيفَ إلى غير متمكن، قال بعض النحاة: وهو في موضع رفع على البديل من ﴿يَوْمَ الَّذِينَ﴾، و﴿يُنْفَخُونَ﴾ معناه: يحرقون ويعذبون في النار، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، والجميع، ومنه قيل لِلْحَرَّةِ: فَتِيْرٌ، كأن الشمس أحرقت حجارتها، ومنه قول كعب بن مالك:

مَعَاظِنُ تَهْوِي إِلَيْهَا الْحُقُوفُ
قَدْ يَحْسَبُهَا مَنْ رَأَاهَا الْفَتِيْنَا
وَفَتْنَتْ الذُّهَبَ: أحرقت، ولما كان لا يُحْرَقُ إِلَّا لمعنى الاختيار قيل لك اختيار: فتنته، واستعملوا أفْتِنَ بمعنى اختَبِرَ، و﴿عَلَى﴾ هنا موصولة إلى معنى «في»، وفي قوله تعالى: ﴿ذُرُوفًا يَنْتَكِرُونَ﴾ إضمار، أي يقال لهم: ذوقوا حرقكم وعذابكم، قاله قتادة وغيره، والذوق استعارة، و﴿هَذَا﴾ إشارة إلى حرقهم، واستعجالهم هو قولهم: ﴿إِيَّانَ يَوْمَ الَّذِينَ﴾ وغير ذلك من الآيات التي تقتضي استعجالهم على جهة التكذيب منهم.

ولما ذكر تعالى حال الكفرة وما يلقون من عذاب الله عز وجل عقب ذلك بذكر المتقين وما يلقون من النعيم ليبين الفرق ويتبع الناس طريق الهدى، و«الجنات» و«العيون»

معروف، والمتني في الآية مطلق في اتقاء الكفر والمعاصي، وقوله تعالى: ﴿أَيُّزِينَ﴾ نصب على الحال، وقرأ ابن أبي عملة: ﴿أَخِذُونَ﴾ بواو، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: آخذين في دنياهم ما آتاهم ربهم من أوامره ونواهيهِ وفرائضه وشرعه، فالحال على هذا محكية، وهي متقدمة في الزمان على كونهم في جنات وعيون، وقال جماعة من المفسرين: معنى قوله تعالى: ﴿أَيُّزِينَ مَا آتَيْنَهُمْ رَبَّهُمْ﴾ أي: مخلصين لنعم الله تعالى التي أعطاهم من جنته ورضوانه، وهذه حال متصلة في المعنى لكونهم في الجنات، وهذا التأويل أرجح عندي لاستقامة الكلام به، وقوله تعالى: ﴿قَبَلْ ذَلِكَ﴾ يريد: في الدنيا، ﴿مُحْسِنِينَ﴾ بالطاعة والعمل الصالح.

(١٧) - (٢٦) تفسير قوله عز وجل:

معنى قوله تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنْ أُولَئِكَ مَا يَسْمَعُونَ﴾ أن نومهم كان قليلاً لاشتغالهم بالصلاة والعبادة، فالمراد: من كل ليلة، و«الهجوع»: النوم، وقال الأحنف بن قيس: «لست من أهل هذه الآية»، وهذا إنصاف منه، وقيل لبعض التابعين: مدح الله تعالى قوماً كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون، ونحن قليل من الليل ما نقوم، فقال: رحم الله تعالى امرأ رقد إذا نرس، وأطاع ربه إذا استيقظ. وفسر أنس بن مالك هذه الآية بأنهم كانوا يتنفلون بين المغرب والعشاء، وقال الربيع بن خثيم: المعنى: كانوا يصيبون من الليل حظاً، وقال مطرف بن

عبدالله: قل ليلة أتت عليهم هجعوها كلها، وقال ابن أبي نجیح ومجاهد: فالمراد عند هؤلاء بقوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّيْلِ﴾ أي: من الليلي، وظاهر الآية عندي أنهم كانوا يقومون الأكثر من ليالهم، أي: من كل ليلة، وقد قال الحسن في تفسير هذه الآية: كابدوا قيام الليل، لا ينامون منه إلا قليلاً.

وأما إعراب الآية فقال الضحاك في كتاب الطبري ما يقتضي أن المعنى: كانوا قليلاً في عددهم، وتم خير ﴿كَانَ﴾، ثم ابتدأ ﴿مِنَ اللَّيْلِ مَا يَسْمَعُونَ﴾، فـ [مَا] نافية، و﴿قَلِيلًا﴾ وقف حسن. وقال بعض النحاة: [مَا] زائدة، و﴿قَلِيلًا﴾ مفعول مقدم لـ ﴿يَسْمَعُونَ﴾، وقال جمهور النحويين: [مَا] مصدرية، و﴿قَلِيلًا﴾ خبر [كَانَ] والمعنى: كانوا قليلاً من الليل هجوعهم، و«الهجوع» مرتفع به ﴿قَلِيلًا﴾ على أنه فاعل، وعلى هذا الإعراب يجيء قول الحسن وغيره - وهو الظاهر عندي - أن المراد: كان هجوعهم من الليل قليلاً، وفسر ابن عمر والضحاك ﴿يَسْمَعُونَ﴾ بـ «يُصَلُّونَ»، وقال الحسن: معناه: يدعون في طلب المغفرة، والأسحار مظنة الاستغفار، ويروى أن أبواب الجنة تفتح فجر كل يوم، وفي قصة يعقوب عليه السلام في قوله: ﴿سَوْفَ أَسْتَفِيرُ لَكُمْ رَبِّي﴾ أنه أخطر الاستغفار لهم إلى السحر، قال أبو زيد في كتاب الطبري: السحز السدس الأخير من الليل.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ آمَرْنَاهُمْ بِحَقِّ﴾، الصحيح أنها محكمة، وأن هذا

الحق هو على وجه الندب لا على وجه الفرض، و﴿مَتْلُومٌ﴾ يراد به: متعارف، وكذلك قيام الليل الذي مدح به ليس من الفرائض، وأكثر ما تقع الفضيلة بفعل المندوبات. وقال منذر بن سعيد: هي الزكاة المفروضة، وهذا ضعيف لأن السورة مكيّة وفرض الزكاة بالمدينة، وقال قوم من المتأولين: كان هذا ثم نسخ بالزكاة، هذا غير قوي، وما شرع الله تعالى وجلّ بمكة قبل الهجرة شيئاً من أخذ الأموال.

واختلف الناس في ﴿وَالَّذِينَ هُمْ﴾ اختلافاً هو عندي تخليط من المتأخرين؛ إذ المعنى واحد، وإنما عبّر علماء السلف في ذلك العبارات على جهة المثالات فجعلها المتأخرون أقوالاً، وحصرها مكّي في ثمانية، و«المحروم» هو الذي تبعد عنه ممكنات الرزق بعد قربها منه فينال حرمان وفاقه، وهو مع ذلك لا يسأل، فهذا هو الذي له حق في أموال الأغنياء كما للسائل حق، قال الشعبي: أعياني أن أعلم ما «المحروم»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المحروم: المحارب الذي ليس له في الإسلام سهم مال، فهو ذو الحرقة المحدود، وقال أبو قلابة: جاء سيل باليمامة فذهب بمال رجل، فقال رجل من أصحاب النبي ﷺ: هذا المحروم، وقال ابن زيد: هو الذي أصيبت ثمرته، وقال غيره: هو الذي ماتت ماشيته، وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: هو الكلب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يكون الكلب محروماً في بعض الأوقات والحالات، ألا ترى إلى الذي كان يأكل الشرى من العطش... الحديث؛ إلى غير هذا من الأقوال التي إنما ذكرت مثلاً، كأنه يقول: الذي أصيبت ثمرته من المحرومين، والمعنى الجامع لهذه الأقوال أنه الذي لا مال له لحرمان أصابه، وإلا فالذي تصاب ثمرته وله مال غيرها كثير ليس في هذه الآية بإجماع.

وبعد هذا مقدر من الكلام تقديره: فكونوا مثلهم أيها الناس وعلى طريقهم فإن النظر المؤدي إلى ذلك متجه، ففي الأرض آيات لمن اعتبر وأيقن، وهذه إشارة إلى لطائف الحكمة وعجائب الخلقة التي في الأرضين والجبال والمعادن والعيون وغير ذلك، وقرأ قتادة: ﴿آيَةٌ﴾ على الأفراد.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيَّ أَنْفُسِكُمْ﴾ إحالة على النظر في شخص الإنسان، فإنه أكثر المخلوقات التي لدينا عبرة لما جعل الله تبارك وتعالى فيه - مع كونه من تراب - من لطائف الحواس، من أمر النفس وحياتها ونطقها، واتصال هذا الجزء منها بالعقل، ومن هيئة الأعضاء واستعدادها لتنفع أو تحمل أو تعين، قال ابن زيد: إنما القلب مضغة في جوف ابن آدم جعل الله فيه العقل، أفيدري أحد ما ذاك العقل؟ وما صفته؟ وكيف هو؟ وقال الرّماني: النفس خاصة الشيء الذي لو بطل كل ما سواها مما ليست مضمنة به

لم تبطل، وهذا تعمق لا أحمده. وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّبِعُونَ﴾ توقيف وتوبيخ.

وقوله تعالى: ﴿وَقِيَّ أَنْفُسِكُمْ﴾، قال الضحاك، ومجاهد، وابن جبير: أراد تعالى المطر والشلج، وقال واصل الأحدب، ومجاهد: أراد القضاء والقدر، أي: الرزق عند الله تعالى يأتي به كيف شاء، لا ربّ غيره، وقرأ ابن محيصن: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رَازِقُكُمْ﴾. و﴿تَوَكَّرْتُ﴾ يحتمل أن يكون من الوعد، ويحتمل أن يكون من الوعيد، والكل في السماء، قال الضحاك: المراد: من الجنة والنار، وقال مجاهد: من الخير والشر، وقال ابن سيرين: المراد الساعة، ثم أسمّ تعالى بنفسه على صحة هذا القول والخبر، وشبهه في اليقين به بالنطق من الإنسان، وهو عنده في غاية الوضوح ولا يمكن أن يقع فيه من اللبس ما يقع في الرؤية والسمع، بل النطق أشدّ تخلصاً من هذه. واختلف القراء في قوله تعالى: ﴿يُنْثَلُ مَا﴾ - فقرأ حمزة، والكسائي، وعاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿يُنْثَلُ﴾ بالرفع، ورويت عن الحسن، وابن أبي إسحاق، والأعمش - بخلاف عنهم -، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن كثير، وابن عامر، وأبو جعفر، وأهل المدينة، وجلّ الناس: ﴿مُنْثَلُ﴾ بالنصب، فوجه الأولى الرفع على النعت لـ ﴿حَقٌّ﴾، وجاز نعت النكرة بهذا الذي قد أضيف إلى المعرفة من حيث كان ﴿يُنْثَلُ﴾ شائعاً عامّاً لوجوه

كثيرة، فهو لا تُعرّفه الإضافة إلى معرفة؛ لأنك إذا قلت: «رَأَيْتُ مِثْلَ زَيْدٍ» فلم تُعرّف شيئاً لأن وجوه المماثلة كثيرة، فلما بقي الشياخ جرى عليه حكم النكرة فُتعتت به النكرة، و [مَا] زائدة تعطي تأكيداً، وإضافة ﴿يُنْثَلُ﴾ هي إلى قوله تعالى: ﴿أَنْصَلَكُمْ﴾. ووجه قراءة النصب أحد ثلاثة أوجه: إمّا أن يكون ﴿يُنْثَلُ﴾ قد بُني لِمَا أُضيف إلى غير متمكن وهو في موضع رفع على الصفة لـ ﴿حَقُّهُ﴾، ولحقه البناء لأن المضاف إليه قد يُكسب المضاف بعض صفاته كالتأنيث في قوله:

.....
... شَرَقْتُ صَدْرُ الْقِنَاةِ ...

وكالتعريف في «غلام زيد» إلى غير ذلك، ويجري ﴿يُنْثَلُ﴾ حينئذ مجرى ﴿عَدَابَ يَوْمِيذٍ﴾ على قراءة من فتح الميم، ومنه قول الشاعر:

عَلَى حِينٍ عَاتَبْتُ الْمَشِيبَ عَلَى الصَّبَا

.....
ومنه قول الآخر:

لَمْ يَمْنَعِ الشَّرْبِ مِنْهَا غَيْرَ أَنْ هَتَفَتْ

.....
فَ غَيْرِ فَاعِلَةٌ وَلَكِنَّهُ فَتَحَهَا.

والوجه الثاني - وهو قول المازني - أن ﴿يُنْثَلُ﴾ بُني لكونه مع ﴿مَا﴾ شيئاً واحداً، ويجيء - على هذا - في مضمار: «وَيَحْمَا، وَأَيْتَمَا، وَإِبْتَمَا» ومنه قول حُمَيْدِ بْنِ ثُورٍ:

أَلَا هَيْمًا مِمَّا لَقِيْتُ وَهَيْمًا
وَوَيْحَ لِمَنْ لَمْ يَذُرْ مَا هُنَّ وَنَحْمًا
فلولا البناء وجب أن يكون منوناً، وكذلك قول الشاعر:

.....
فَأَكْرِمُ بِنَا خَالًا وَأَكْرِمُ بِنَا ابْنَتَا
والوجه الثالث أن ينصب ﴿يُنْثَلُ﴾ على الحال من قوله تعالى: ﴿لِحَقِّهِ﴾، وهي حال من نكرة، وفيه خلاف، ولكن جَوَّزَ ذلك الجرمي، وأما غيره فيراه حالاً من الذّكر المرفوع في قوله تعالى: ﴿لِحَقِّهِ﴾؛ لأن التقدير: لِحَقِّهُ هو، وفي هذا نظر، و«الناطق» في هذه الآية: الكلام بالحروف والأصوات في ترتيب المعاني، وروى أن بعض العرب الفصحاء سمع هذه الآية فقال: من أحوج الكريم إلى أن يحلف؟ والحكاية وقعت في كتاب الثعلبي و«سبل الخيرات» متممة عن الأصمعي، وروى أن رسول الله ﷺ قال: «قاتل الله قوماً أقسم لهم بهم بنفسه فلم يصدقوه»، وروى أبو سعيد الخدري أن النبي عليه الصلاة والسلام قال: «لَوْ قَرَأَ أَحَدُكُمْ مِنْ رِزْقِهِ لَتَبِعَهُ كَمَا يَتَّبِعُهُ الْمَوْتُ»، وأحاديث الرزق والأشعار فيه كثيرة.

قوله تعالى: ﴿هَلْ أُنْتَلِكُ﴾ تقرير لتجتمع نفس المخاطب، وهذا كما تبدأ المرء إذا أردت أن تحدثه بعجيب فتقرّره: هل سمع ذلك أم لا؟ فكأنك تقتضي منه أن يقول: لا، ويستطعمك الحديث. و﴿سَيِّفٌ﴾ اسم جنس يقع للجميع وللواحد، وروى أن أضياف إبراهيم عليه السلام هؤلاء هم جبريل وميكائيل وإسرافيل وأتباع لهم من الملائكة عليهم السلام، وجعلهم تعالى مكرمين إمّا لأنهم عنده كذلك، وهذا قول حسن، وإمّا من

حيث أكرمهم إبراهيم عليه السلام وخدمهم هو وسارة وذبح لهم العجل، وقيل: من حيث رفع مجالسهم. و﴿سَلَمًا﴾ منصوب على المصدر، كأنهم قالوا: نُسَلِّمُ سلاماً، أو سلمت سلاماً، ويتجه أن يعمل فيه ﴿قَالُوا﴾ على أن يجعل ﴿سَلَمًا﴾ بمنزلة «قولا»، ويكون المعنى حينئذ أنهم قالوا تحية وقولاً معناه سلاماً، وهذا قول مجاهد، و [سَلَامٌ] مرتفع على خبر ابتداء، أي: أمري سلام، أو واجب لكم سلام، أو على الابتداء والخبر محذوف كأنه قال: سلام عليكم، وإبراهيم عليه السلام قد حيا بأحسن؛ لأن قولهم دعاء وقوله واجب قد تحضّل لهم. وقرأ ابن وثاب، والثخمي، وحمزة، والكسائي، وطلحة، وابن جبير: ﴿قَالَ سَلِّمْ﴾ بكسر السين وسكون اللام، والمعنى: نحن سلام، أو أنتم سلام، وقوله تعالسى: ﴿قَوْلُهُ تَشْكُرُونَ﴾ معناه: لا نميزهم ولا عهد لنا بهم، وهذا أيضاً على تقدير: أنتم قوم منكرون، وقال أبو العالية: أنكر سلامهم في تلك الأرض وذلك الزمن.

و «راغ» معناه: مضى أثناء حديثه مخفياً زواله وانصرف مستعجلاً كأنه لم يرد أن يفارقهم فمضى إلى ناحية من داره مستعجلاً ورجع لحينه، وهذا تشبيه بالروغان المعروف؛ لأن الرافع يوهم أنه لم يزل، و«العجل» هو الذي حنّده لهم، وحسبك أنه عليه السلام أوقف للضيافة أوقافاً تُمضيها الأمم على اختلاف أديانها وأجناسها.

﴿٢٧﴾ - ﴿٣٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: فقرَّبته إليهم فأمسكوا عنه فقال: ألا تأكلون؟ فيروى في الحديث أنهم قالوا له: إننا لا نأكل إلا ما أذنتنا تمنه، فقال لهم إبراهيم عليه السلام: وأنا لا أبيعكم لكم إلا بشمن، قالوا: وما هو؟ قال: أن تستموا الله تعالى عند الابتداء، وتحمدوه عند الفراغ من الأكل، فقال بعضهم لبعض: بحق اتخذه الله تعالى خليلاً، فلما استمروا على ترك الأكل أوجس منهم خيفة، و«الوجس»: تحسس النفس وخواطرها في الحذر، وذلك أن أكل الضيف أمانة ودليل على انبساط نفسه، والطعام حُرمة وذمام، والامتناع عن ذلك وحشة، فخشي إبراهيم عليه السلام أن امتناعهم من أكل طعامه إنما هو لشراً يريدونه، فقالوا له: لا تخف، وعرفوه أنهم ملائكة، وبشروه وبشروا سارة معه بغلام عليم، أي: عالم في حال تكليفه وتحصيله، أي: سيكون عليمًا، و«عليم» بناءً مبالغة. وجمهور الناس على أن الغلام هنا هو إسحاق بن سارة عليه السلام الذي ذكرت البشارة به في غير موضع، وقال مجاهد: هذا الغلام هو إسماعيل عليه السلام، والأول أرجح، وهذا وهم، ويروى أنه عرف كونهم ملائكة استدلالاً من بشارتهم إياه بالغيب.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْبَأَهُمْ﴾ يحتمل أن يكون: قرَّبْتُ إليهم من ناحية من نواحي المنزل، ويحتمل أن يكون هذا الإقبال كما تقول: أقبل

فلان يشتمني أو يفعل كذا إذا جد في ذلك وتلبس به، و«الضرة»: الضيعة، كذا فسره ابن عباس، ومجاهد، وسفيان، والضحاك، والمضطر الذي يصيح، وقال قتادة: معناه: في رثة، وقال الطبري: قال بعضهم: قالت: أوه، بصياح وتعجب، وقال النحاس: وقيل: ﴿بِي سَرَّةٍ﴾: في جماعة نسوة يتبادرن نظراً إلى الملائكة. وقوله تعالى: ﴿فَصَكَتَ رَجْعَهَا﴾ معناه: ضربت وجهها، قال ابن عباس

رضي الله عنهما: لطمت، وهذا مما يفعله الذي يردُّ عليه أمر يستهوله، وقال سفيان، والسدي، ومجاهد: ضربت بكفئتها وجهها، وهذا مستعمل في الناس حتى الآن، وقولها: ﴿عَجَزَ عَقِيمٌ﴾ إما أن يكون تقديره: إني عجوز عقيم فكيف ألد؟ وإما أن يكون التقدير: عجوز عقيم يكون منها ولادة؟ وقدَّره الطبري: أتلد عجوز عقيم، ويروى أنها كانت لم تلد قط، و«العقيم» من النساء التي لا تلد، ومن الرياح التي لا تلعج شجراً فهي لا بركة فيها. وقولهم: ﴿كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ﴾ أي: كقولنا الذي أخبرناك به قال ربك أن يكون، و«الحكيم» ذو الحكمة، و«العليم» معناه: بالمصالح وغير ذلك من المعلومات.

ثم قال إبراهيم عليه السلام

﴿عَالِمٌ غَيْبٍ﴾ ﴿٢٧﴾ ﴿فَأَنْبَأَهُمْ﴾ ﴿٢٨﴾ ﴿فَأَخْبَرَهُمْ﴾ ﴿٢٩﴾ ﴿فَأَخْبَرَهُمْ﴾ ﴿٣٠﴾ ﴿فَأَخْبَرَهُمْ﴾ ﴿٣١﴾ ﴿فَأَخْبَرَهُمْ﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿فَأَخْبَرَهُمْ﴾ ﴿٣٣﴾ ﴿فَأَخْبَرَهُمْ﴾ ﴿٣٤﴾ ﴿فَأَخْبَرَهُمْ﴾ ﴿٣٥﴾ ﴿فَأَخْبَرَهُمْ﴾ ﴿٣٦﴾

للملائكة: ﴿فَمَا خَطْبُكُمْ؟﴾، و«الخطب»: الأمر المنهم، وقيل: إنما يُعبَّر به عن الشدائد والمكاره غالباً حتى قالوا: «خطوب الرُّمان» وغير ذلك، وكأنه يقول: ما هذه الطامة التي جنتم لها؟ فأخبروه حينئذ أنهم أرسلوا إلى سدوم قرية لوط عليه السلام بإهلاك أهلها الكفرة العاصين المجرمين، و«المجرم»: فاعل كفر ونحوه، واحداً جريماً. وقولهم: ﴿لَيْسَ عَلَيْنَ﴾ أي: متى لنهلكهم بهذه الحجارة، ومتى اتصلت «أرسل» بـ «علی» فهي في معنى المبالغة في المباشرة والعذاب، ومتى اتصلت بـ «إلى» فهي أخف، وانظر ذلك تجده مطرداً، وقوله تعالى: ﴿حِجَابًا مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾ بيان تخرج به عن معتاد حجارة البرد التي هي

من ماء، ويروى أنه طين طُبخ في نار جهنم حتى صار حجارة كالأجر، ﴿مُسَوَّمَةٌ﴾ نعت لـ ﴿حِجَارَةٌ﴾، وقيل: معناه: متروكة، وسومها من الإهلاك والإصابة، وقيل: معناه: معلّمة بعلامتها من السماء، والسّومي: العلامة، أي أنها ليست من حجارة الدنيا، وقال الزهراوي والرّماني: قيل: معناه على كل حجر اسم المضروب به، قال الرّماني: وقيل: كان عليها أمثال الخواتيم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تسويمها أن كان في الحجارة السود نقط بيض، وفي البيض سود، ويحتمل أن يكون المعنى أنها بجملتها معلومة عند ربك لهذا المعنى معلمة له، لا أن كل واحد منها له علامة خاصة به، و«المُسرف»: الذي يتعدى الطور، فإذا جاء مطلقاً فهو لأبعد غايات الكفر فما دونه.

ثم أخبر الله تعالى أنه أخرج بأمره من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين منجياً لهم، وأعاد الضمير على القرية ولم يصرح لها قبل ذلك بذكر لشهرة أمرها، ولأن القوم المجرمين معلوم أنهم في قرية ولايد، قال المفسرون: ولا فرق بين تقدم ذكر المؤمنين وتأخره، وإنما هما وصفان، ذكرهم أولاً بأحدهما ثم آخراً بالثاني، قال الرّماني: الآية دالة على أن الإيمان هو الإسلام.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويظهر أن في المعنى زيادة تحسن التقديم للإيمان، وذلك أنه ذكره مع الإخراج من القرية كأنه تعالى يقول:

لقد أمرنا بإخراج كل مؤمن، ولا يشترط فيه أن يكون عاملاً بالطاعات بل التصديق بالله تعالى فقط، ثم لما ذكر حال الموجودين ذكرهم بالصفة التي كانوا عليها وهي الكاملة التصديق والأعمال. والبيت من المسلمين هو بيت لوط عليه السلام وكان هو وابنتاه، وقيل: وبنته، وفي كتاب الثعلبي: وقيل: لوط وأهل بيته ثلاثة عشر، وهلكت امرأته فيمن هلك. وهذه القصة بجملتها ذكرت على جهة المثال لقريش، أي: أنهم إذا كفروا أصابهم مثل ما أصاب هؤلاء المذكورين.

(٣٧) - (٤٤) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وتركنا في القرية المذكورة - وهي سدوم - أثراً من العذاب باقياً مؤرخاً لا يفنى ذكره، فهو آية - أي: علامة - على قدرة الله تبارك وتعالى وانتقامه من الكفرة، ويحتمل أن يكون المعنى: وتركنا في أمرها، كما قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٍ لِّلسَّالِفِينَ﴾، وقال ابن جريج: ترك فيها حجراً منضوداً كبيراً جداً، و«الذين يخافون العذاب» هم العارفون بالله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَفِي مِثْقَالِ ذَرَّةٍ يَكْفُرُونَ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾، أي: وتركنا في موسى وقصته أثراً أيضاً هو آية، ويحتمل أن يكون عطفاً على قوله تعالى قبل: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾، وفرعون هو صاحب مصر، و«السُّلطان» في هذه الآية: الحجة، و«تَوَلَّى» معناه أعرض وأدبر عن أمر الله تعالى، و«رُكْنُهُ»: سلطانه

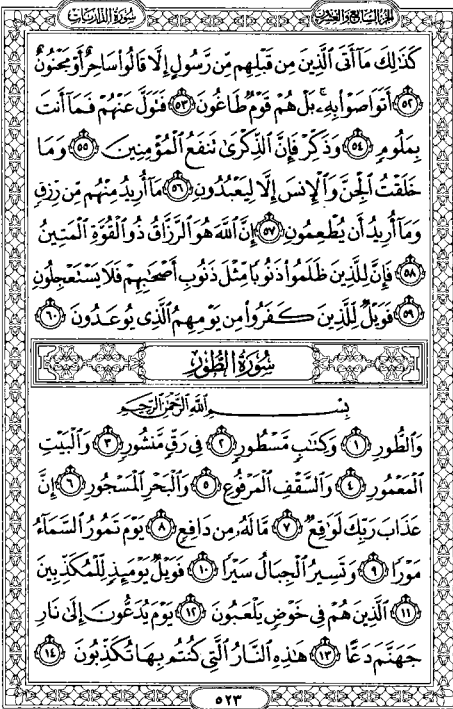
وجنّده وشدّة أمره، وهو الأمر الذي يركن فرعون إليه ويستند في شدائده، وقال ابن زيد: ﴿يَرْكَبُهُ﴾: بجموعه، وقال قتادة: بقومه، وقول فرعون في موسى عليه السلام: «سَاجِرٌ أَوْ مَخْتُونٌ» هو تقسيم ظن أن موسى عليه السلام لا بُدَّ أن يكون أحد هذين، وقال أبو عبيدة: ﴿أَزٌّ﴾ هنا بمعنى «الواو»، واستشهد ببيت جرير:

أَتَغْلِبَةَ الْفَوَارِسَ أَوْ رِيَاخَا

عَدَلْتُ بِهِمْ طَهْيَةَ وَالْخَشَابَا؟
والخشاب: بيوت في بني تميم، وقول أبي عبيدة ضعيف لا داعية إليه في هذا الموضوع، و«فَتَبَدَّلْتَهُمْ» معناه: طرحناهم، و«اليم»: البحر، وفي مصحف ابن مسعود: «فَتَبَدَّلْنَاهُ»، و«المُليم»: الذي أتى من المعاصي ونحوها ما يلام عليه، وقال أمية بن أبي الصلت:

.....

وَمَنْ يَخْذُلُ أَخَاهُ فَقَدْ أَخَانَ الْأَمَا
وقوله تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ عَظْفٌ﴾ على قوله عز وجل: ﴿وَفِي مِثْقَالِ ذَرَّةٍ يَكْفُرُونَ﴾. وعاد هي قبيلة هود النبي ﷺ، و«العقيم» معناه: التي لا بركة فيها، لا تلتقح شجراً ولا تسوق مطراً، وقال سعيد بن المسيب: كانت ريح الجنوب، وروي عن علي رضي الله عنه: كانت نكباء، وهذا عندي لا يصح عن علي رضي الله عنه لأنه يراذ قول النبي ﷺ: «فُنصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأَهْلِكْتُ عَادَ بِالدَّبُورِ»، و«نَدَّ» معناه: ندع، وقوله تعالى: ﴿مِنْ نَسَائِهِمْ﴾ يعني ممّا أذن الله تعالى



المخراق الذي بيد ملك يسوق السحاب. وقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَنْظُرُونَ﴾. يحتمل أن يريد: فجأة وهم يبصرون بعيونهم حالهم، وهذا قول الطبري، ويحتمل أن يريد: وهم ينتظرون ذلك في تلك الأيام الثلاثة التي أعلموا به فيها ورأوا علاماته في تلوثهم، وهذا قول مجاهد حسب ما تقدم تفسيره، وانتظارهم للعذاب هو أشد من العذاب.

٤٥ - ٤٦ - ٤٧ - ٤٨ - ٤٩ - ٥٠ - ٥١ - ٥٢ - ٥٣ تفسير قوله عز وجل:

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ﴾ نصب بإضمار فعل تقديره: وبيننا السماء وبينها، والأيدي: القوة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقاتدة، ووقعت في المصحف بياءين، وذلك على تخفيف الهمز، وفي هذا نظر. وقوله تعالى: ﴿لَتُؤَيِّبُونَّ﴾. يحتمل أن يريد: إنا نوسع الأشياء قوة وقدرة، كما قال تعالى: ﴿عَلَّ الْوَيْبِ قَدْرُهُ﴾، أي: الذي يوسع أهله إنفاقاً، ويحتمل أن يريد: لموسعون في بناء السماء، أي: جعلناها واسعة، وهذا تأويل ابن زيد، وقال الحسن: أوسع الرزق بمطر السماء، والماهد: المهيب الموطئ للموضع الذي يتمهد ويفترش.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّ كَلِّ تَنْوِ خَلَّتَا دَرْجِي﴾. أي: مُضْطَحِبِينَ مُتَلَاذِمِينَ،

قال بعض المفسرين: ﴿بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ معناه: ما استطاعوا أن يقوموا من مصارعهم، وقال قتادة وغيره: معناه: من قيام بالأمر ودفعه، كما تقول: فلان له بكذا وكذا قيام، أي: استصلاح وانتهاض، وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وعاصم: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ بالنصب، وهو عطف إما على الضمير في قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْنَاهُمْ﴾؛ إذ هو بمنزلة «أهلكتناهم»، وإما على الضمير في قوله تعالى: ﴿فَنَسَبْنَاهُمْ﴾، وقرأ أبو عمرو - فيما روى عنه عبدالوارث - : ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ بالرفع، وذلك على الابتداء والخبر، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾ بالخفض عطفاً على ما تقدم من قوله تعالى: ﴿وَقَوْمٌ نُوحٍ﴾، وقد روي النصب عن أبي عمرو.

لها في إهلاكه، و«الريميم»: الفاني المتقطع يبساً أو قديماً من الأشجار والورق أو الحبال أو العظام، ومنه قوله تعالى: ﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظْمَ وَهِيَ رِيْمٌ﴾، أي في قوام الرماد، وزوي حديث: «إِنَّ تِلْكَ الرِّيحَ كَانَتْ تَهْبُ عَلَى النَّاسِ فِيهِمُ الْعَادِيَّ وَغَيْرِهِ، فَتَنْزِعُ الْعَادِيَّ مِنْ بَيْنِ النَّاسِ وَتَذْهَبُ بِهِ».

وقوله تعالى: ﴿وَقِي نُودٌ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَسَبَّوْا حَتَّىٰ يَبِيْزَ﴾. يحتمل أن يراد: قيل لهم في أول بعث صالح عليه السلام: آمنوا وأطيعوا فتمتعوا متاعاً حسناً إلى آجالكم، وهو «الحين» على هذا، وهو قول الحسن حكاة عنه الرُّماني، ويجيء قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ مُرْتَبِياً لفظاً في الآية ومعنى في الوجود متأخراً عن القول لهم: ﴿تَسَبَّوْا﴾، ويحتمل أن يريد: إذ قيل لهم بعد عقر الناقة: ﴿تَسَبَّوْا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ وهي «الحين» على هذا التأويل، وهو قول الفراء، ويجيء قوله تعالى: ﴿فَتَمَتَّعُوا﴾ غير مُرْتَبِ المَعْنَى فِي وجوده، لأن عتوهم كان قبل أن يقال لهم: ﴿تَسَبَّوْا﴾، وكأن المعنى: فكان من أمرهم قبل هذه المقالة أن عَتَوْا، وهو السبب في أن قيل لهم ذلك وعُذِّبُوا. وقرأ جمهور القراء: ﴿الضَّعِيفَةُ﴾، وقرأ الكسائي - وهي قراءة عُمَر وَعِثْمَانُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: ﴿الضَّعِيفَةُ﴾، وهي - على القراءتين - الصيحة العظيمة، ومنه يقال للوقعة الشديدة من الرعد: صاعقة، وهي التي تكون معها النار التي يروى في الحديث أنها من

وقال مجاهد: معناه أن هذه إشارة إلى المتضادات والمتقابلات من الأشياء كالليل والنهار، والشقوة والسعادة، والهدى والضلال، والسماء والأرض، والسواد والبياض، والصحة والمرض، والكفر والإيمان، ونحو هذا، ورجحه الطبري بأنه أدل على القدرة التي توجد الضدين بخلاف ما يفعل بطبعه فعلاً واحداً كالتسخين والتبريد، وقال ابن زيد وغيره: هي إشارة إلى الأثني والذكر من كل حيوان، والترجي الذي في قوله تعالى: ﴿لَمَّا كُنْتُمْ﴾ هو بحسب خلق البشر وعرفهم، وقرأ الجمهور: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بتشديد الذال والإدغام، وقرأ أبي بن كعب: ﴿تَتَذَكَّرُونَ﴾ بناءً وخفة الذال.

وقوله تعالى: ﴿فَيُرَوَّأُ إِلَى اللَّهِ﴾ أمرٌ بالدخول في الإيمان وطاعة الله تعالى، وجعل الأمر بذلك بلفظ الفرار لينبه على أن وراء الناس عقاباً وعذاباً وأمرأ حقه أن يُفَرَّ منه، فجمعت لفظة «فُرُوا» بين التحذير والاستدعاء، وينظر إلى هذا المعنى قول النبي ﷺ: «لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك...» الحديث. قال الحسين بن الفضل: من فرَّ إلى غير الله تعالى لم يمتنع من الله عزَّ وجلَّ.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْمَلُوا مَعَ اللَّهِ إِذَا عَاخَرَكُمْ﴾ نهي عن عبادة الأصنام والشياطين وكل مدعو من دون الله تعالى، وفائدة تكرار قوله تعالى: ﴿إِنِّي لَكُرْبَتُهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ الإبلاغ وهزُّ النفس وتحكيم التحذير، وإعادة

الألفاظ بعينها في هذه المعاني بليغة بقرينة شدة الصوت.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ﴾ تقديره: سيرة الأمم كذلك، أو الأمر في القديم كذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَالُوا سَائِرٌ أَوْ جَنُونَ﴾ معناه: إلا قال بعض هذا وبعض الجميع، ألا ترى أن قوم لوط عليه السلام لم يقولوا قط: هو ساحر، وإنما قالوا: به جنَّة، فلما اختلفت الفرق جعل الخبر عن ذلك بإدخال ﴿أَوْ﴾ بين الصيغتين، وليس المعنى أن كل أمة قالت عن نبيها: إنه ساحر أو مجنون، فليست هذه كالمقدمة في فرعون، بل هذه كأنه تعالى قال: إلا قالوا: هو ساحر، أو قالوا: هو مجنون.

﴿٥٣﴾ - ﴿٥٤﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

قوله تعالى: ﴿أَتَوَاصَوْا بِهِ﴾ توقيف وتعجب من توارد نفوس الكفرة في تكذيب الأنبياء صلوات الله تعالى وسلامه عليهم على تفرق أزمانهم، أي: إنهم لم يتواصوا لكنهم فعلوا فعلاً كأنه فعل من تواصى، والعلة في ذلك أن جميعهم طاغ، والطاغي: المستعلي في الأرض المفسد العاتي على الله.

قوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: عن الحرص المفرط عليهم وذهاب اليقين حسرات، ويحتمل أن يراد: فتولَّ عن التعب المفرط في دعائهم وضمهم إلى الإسلام، فلست بمصيطر عليهم ولست بملوم إذ بلَّغت، فنح نفسك عن الحزن عليهم وذكر فقط فإن الذكرى نافعة للمؤمنين ولمن قضى له أن يكون

منهم في ثاني حال، وعلى هذا التأويل فلا نسخ في الآية إلا في معنى الموادة التي فيها؛ فإن آية السيف نسخت جميع الموادعات، وروى قتادة - وذكره الطبري - عن علي رضي الله تعالى عنه أنه لما نزلت: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ حزن المسلمون وظنوا أنه أمر بالتولي عن الجميع وأن الوحي قد انقطع، حتى نزلت: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فسروا بذلك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتَ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾، اختلف الناس في معناه مع إجماع أهل السنة أن الله تعالى لم يرد أن تقع العبادة من الجميع؛ لأنه تعالى لو أراد ذلك لم يصح أن يقع الأمر بخلاف إرادته - فقال علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: المعنى: ما خلقت الجن والإنس إلا لأمرهم بعبادتي وليقرؤوا لي بالعبودية، فعبر عن ذلك بقوله تعالى: ﴿لِيَعْبُدُونِي﴾؛ إذ العبادة هي مضمن الأمر، وقال زيد بن أسلم، وسفيان: المعنى خاص، والمراد وما خلقت الطائعين من الجن والإنس إلا لعبادتي، ويؤيد هذا التأويل أن ابن عباس رضي الله عنهما روى عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِي﴾، وقال ابن عباس أيضاً: معنى ﴿لِيَعْبُدُونِي﴾: ليتدلُّوا لي ولقدرتي وإن لم يكن ذلك على قوانين الشرع، وعلى هذا التأويل فجميع الجن والإنس عابد متذلِّل، والكفار كذلك، ألا تراهم

وبه قرأت فرقة، والباقون بالياء. ثم أوجب تعالى لهم الويل من يومهم الذي يأتي فيه عذابهم، و«الويل»: الشقاء والهَمُّ، وروي أن في جهنم وادياً يُسمى وَيْلاً، والطبري يذهب أبداً إلى أن التوعد إنما هو به، وذلك في موضع قلق؛ لأن هذا الويل إنما هو من يومهم الذي هو في الدنيا، و«ين» لا ابتداءً الغاية، وقال جمهور المفسرين: هذا التوعد هو بيوم القيامة، وقال آخرون - ذكره الثعلبي -: هو بيوم بدر، وفي «يُؤْتُونَ» ضمير عائد على الكلام، التقدير: يوعدون به، أو يوعدون. ثم تفسير سورة الدَّارِيَاتِ والحمد لله رب العالمين

* * *

تفسير سورة الطور

هي مَكِّيَّة بإجماع من المفسرين والرواة.

① - ⑭ تفسير قوله عز وجل:

هذه مخلوقات أقسم الله تعالى بها تنبيهاً منه وتشريفاً، وليكون ذلك سبب النظر فيها والاعتبار بها، وذلك يؤول إلى التوحيد والمعرفة بحقوق الله تعالى.

و«الطور»، قال بعض أهل اللغة: كل جبل طور، فكأنه تبارك وتعالى أقسم بالجبال؛ إذ هو اسم جنس، وقال آخرون: الطور: كل جبل أجرد لا يُنبِت شجراً، وقال مجاهد في كتاب الطبري: الطور: الجبل

أو صفة لـ «الرَّزَاقِ»، وقرأ يحيى بن وثاب، والأعمش: «الْمَحْسِينِ» بالخفض على النعت لـ «الْقَوَّةِ»، وجاز ذلك من حيث تأنيث «الْقَوَّةِ» غير حقيقي، فكأنه قال: ذو الأيد والحبل، ونحوه قوله تعالى: «فَمَنْ جَاءَهُ مَوَظَلَةٌ»، وجوز أبو الفتح أن يكون خفض «الْمَحْسِينِ» على الجوار، و«الْمَحْسِينِ»: الشديد.

قوله تعالى: «إِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا»، يريد تعالى أهل مكة، وهذه آية وعيد صراح، وقرأ الأعمش: «فَإِنَّ لِلَّذِينَ كَفَرُوا»، و«الدُّنُوبُ»: الحظ والنصيب، وأصله من الدَّلُو، وذلك أن الدُّنُوبَ هو مِلءُ الدلو من الماء، وقيل: الدُّنُوبُ: الدَّلُو العظيمة، ومنه قول الشاعر:

إِنَّا إِذَا نَزَلْنَا عَرِيبًا
لَهُ دُنُوبٌ وَلَنَا دُنُوبٌ
فَإِن أَبَيْتُمْ فَلَنَا الْقَلِيبُ
وهو السَّجَل، ومنه قول علقمة بن عبيدة:

وَفِي كُلِّ يَوْمٍ قَدْ حَبَطَتْ بِنِعْمَةٍ
فَحَقُّ لِسَانِي مِنْ تَدَاكِ دُنُوبٍ
فروي أن الملك لما سمع هذا البيت قال: نعم وأذنب، ومنه قول حسان:

لَا تَبْعَدَنَّ زَبِيغَةَ بِنِّ مَكْدَمٍ
وَسَقَى الْقَوَادِي قَبْرَهُ بِدُنُوبٍ
و«أصحابهم» يراد به من تقدّم من الأمم المُعَذِّبَةِ، وقوله تعالى: «فَلَا يَسْتَعِجِلُونَ» تحقيق للأمر، بمعنى: هو نازل بهم لا محالة في وقته المعلوم فلا يستعجلوه، وقرأ ابن وثاب: «فَلَا تَسْتَعْجِلُونَ» بالتاء من فوق،

عند القحوط والأمراض وغير ذلك؟ وتحتمل الآية أن يكون المعنى: وما خلقت الجن والإنس إلا مُعَذِّبِينَ ليعبدوني، وكان الآية تعدد نعمة، أي: خلقت لهم حواس وعقلاً وأجساماً متفاداة لحق العبادة، وهذا كما تقول: البقر مخلوق للحرب، والخيول للحرب، وقد يكون منها ما لا يحرب وما لا يُحارب به أصلاً، فالمعنى أن الإعداد في خلق هؤلاء إنما هو للعبادة، لكن بعضهم تكسب صرف نفسه عن ذلك، ويؤيد هذا المنزع قول النبي ﷺ: «اعملوا فكلُّ مُيسَّرٌ لما خُلِقَ له»، وقوله: «كلُّ مولود يولد على الفطرة...» الحديث.

وقوله تعالى: «مِنْ رِزْقٍ» أي: أن يرزقوا أنفسهم ولا غيرهم، وقوله تعالى: «أَنْ يُطْمِئِنُّوا» إما أن يكون المعنى: أن يطعموا خلقي، فأضيف إلى الضمير على جهة التَّجَوُّزِ، وهذا قول ابن عباس رضي الله عنهما، وإما أن يكون الإطعام هنا بمعنى النفع على العموم، كما تقول: أعطيت فلاناً كذا وكذا طعمة، وأنت قد أعطيته عرضاً أو بلداً يجيبه، ونحو هذا، فكأنه تعالى قال: «ولا أريد أن ينفعوني»، فذكر جزءاً من المنافع وجعله دالاً على الجميع. وقرأ الجميع: «إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ»، وروى أبو إسحاق السبيعي، عن عبد الله بن زيد، قال أبو عمرو الداني: عن ابن مسعود قال: أقراني رسول الله ﷺ: «إِنِّي أَنَا الرَّزَّاقُ»، وقرأ جمهور القراء: «الْمَحْسِينِ» بالرفع، إما على أنه خير بعد خير،

بالسريانية، وهذا ضعيف؛ لأن من حكاه في العربية يقضي على هذا، ولا خلاف أن في الشام جبلاً يُسمى بالطور، وهو طور سيناء، فقال نوف الكالبي: إنه الذي أقسم الله تعالى به لفضله على الجبال؛ إذ قد روي أن الله تعالى أوحى إلى الجبال أنني مهبط على أحدكم أمري - يريد رسالة موسى عليه السلام - فتناولت كلها إلا الطور فإنه استكان لأمر الله تعالى وقال: حسبي الله، فأهبط الله تعالى الأمر عليه، ويقال: إنه بمدينة، وقال مقاتل بن حيان: هما طوران.

و «الكتاب المسطور» معناه بإجماع: المكتوب أسطراً، واختلف الناس في هذا الكتاب المقسم به - فقال بعض المفسرين: هو الكتاب المنتسخ من اللوح المحفوظ للملائكة لتعرف منه جميع ما يفعله وتصرفه في العالم، وقال آخرون: بل أقسم الله تعالى بالقرآن، فإنه قد كان علم أنه يتخذ في رُق منشور، وقال آخرون: أقسم الله تعالى بالكتب القديمة المنزلة، التوراة والإنجيل والزبور، وقال الفراء - فيما حكى الرُّماني -: أقسم بالصحف التي تُعطى وتؤخذ يوم القيامة بالآيمان والشمال، وقال قوم: أقسم بالكتاب الذي فيه أعمال الخلق، وهو الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، وكتب بعض الناس «مسطور» بالصاد، والقصد بذلك تشابه النطق بالحروف، والجمهور على السين. و«الرُق»: الورق المعدة للكتيب، وهي مُرَقَّةٌ فلذلك سُميت رُقاً، وقد غلب الاستعمال على هذا

الذي هو من جلود الحيوان، و«المنشور» خلاف المطوي، وقد يحتمل أن يكون نُشْرُهُ بمعنى نُشْرِهِ وترقيقه وصنعه، وقرأ أبو السَّمال: ﴿فِي رُقٍ﴾ بكسر الراء.

واختلف الناس في ﴿وَالْيَبِئَاتِ الْمَعْمُورِ﴾ - فقال الحسن بن أبي الحسن البصري: هي الكعبة، وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعكرمة رضي الله عنهم: هو بيت في السماء يقال له: الضراح، وهو بحيان الكعبة، ويقال: الضريح، ذكر ذلك الطبري، وهو الذي ذكر في حديث الإسراء، قال جبريل للنبي ﷺ: «هذا البيت المعمور، يدخل كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، آخر ما عليهم»، وبهذا عمارته، ويروي أنه في السماء السابعة، وقيل: السادسة، وقيل: إنه مقابل الكعبة، لو خُرَّ لسقط عليها، وقال مجاهد، وقاتدة، وابن زيد: في كل سماء بيت معمور، وفي كل أرض كذلك، وهي كلها على خط مع الكعبة، وقاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

و «السَّقْفُ الْمَرْفُوعُ»: السماء، و«السَّقْفُ» طول في انحناء، ومنه أسقف النصارى، ومنه السَّقْفُ؛ لأن الجدار وسَقْفه فيهما طول في انحناء.

واختلف الناس في ﴿الْمَسْجُورِ﴾ - فقال مجاهد، وشمر بن عطية: معناه: الموقد ناراً، وروي (إن البحر هو جهنم) وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليهودي: أين جهنم؟ فقال: هي البحر، فقال علي

رضي الله عنه: ما أظنه إلا صادقاً، وقرأ: ﴿وَالْيَبِئَاتِ الْمَسْجُورِ﴾، [ومنه ما روي عن النبي ﷺ: «إن البحر هو جهنم»، قال الثعلبي: وروي أن النبي ﷺ قال: «لا يركبن البحر إلا حاج أو معتمر أو مجاهد، فإن تحت البحر ناراً، وتحت النار بحرأ»، وفي حديث آخر قال: «البحر نار في نار». وقال قتادة: المسجور: المملوء ماء، وهذا معروف من اللغة، ورجحه الطبري لوجود ماء البحر كذلك، ولهذا يعود القول الأول؛ لأن قولهم: «سَجِرَتْ الثُّور» معناه: ملأها بماء يحترق ويتقد، والبحر المسجور: المملوء ماء، وهكذا هو معرض للعبارة، ومنه قول الثمر بن تَوَلَّب:

إِذَا شَاءَ طَالَعَ مَسْجُورَةً
تَرَى حَوْلَهَا النَّبْعَ وَالسَّمَايِمَا
سَقَفَهَا زَوَاعِدُ مَنْ صِيفِ
وَإِنْ مِنْ حَرِيفٍ فَلَنْ يَغْدَمَا
يصف ثوراً وعيناً مملوءة ماء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المسجور هو الذي ذهب ماؤه، فالمسجور: الفارغ، ويروي أن البحار يذهب ماؤها يوم القيامة، وهذا معروف في اللغة، فهو من الأضداد، وقيل: يوقد البحر ناراً يوم القيامة، فذلك السَجْرُ، وقال ابن عباس أيضاً: الْمَسْجُورُ: المحبوس، ومنه ساجور الكلب، وهي القلادة من عود أو حديد التي تمسكه، وكذلك لولا أن البحر يُمَسَّكُ لفاض على الأرض، وقال علي بن أبي طالب، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهم: البحر المُقْسَمُ به

وَأدباً يُسْمَى وَيَلَا. و«الْخَوْضُ»: التخبط في الأباطيل، يُسْبِهُ بحوض الماء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آبِنَانَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾، و«يَوْمٌ» الثاني بدل من «يَوْمِيذٍ»، و«يَدْعُونَ» قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: معناه: يدفعون في أعناقهم بشدة وإهانة وتغتعة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾، وفي الكلام محذوف مختصر، تقديره: يقال لهم: «هذِهِ النَّارُ»، وإخبارهم بهذا على جهة التوبيخ والتفريع، وقرأ أبو رجاء العطاردي: ﴿يَوْمٌ يَدْعُونَ» من الدعاء، بسكون الدال وفتح العين.

١٥ - ١٦ - تفسير قوله عز وجل: ﴿لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: «هَذِهِ النَّارُ» وَقَفُوا بِعَدْلِكَ عَلَى الْجَهَنَّمَ اللَّتَيْنِ يُمْكِنُ مِنْهُمَا دُخُولُ الشُّكِّ فِي أَنَّهَا النَّارُ، وَهِيَ: إمَّا أَنْ يَكُونَ تَمَّ سَخَرُ يُلْبَسُ ذَاتَ الْمَرْتَبِيِّ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي بَصَرِ النَّاطِرِ اخْتِلَالٌ، وَأَمْرُهُمْ بِصَلِّيْهَا عَلَى جِهَةِ التَّفْرِيعِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ عَلَى جِهَةِ قَطْعِ رَجَائِهِمْ: «فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ»، أي: عذابكم حثم فسواء جزعكم وصبركم، لا بد من جزاء أعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَهَنَّمَ لَمُعَذِّبُونَ﴾، ومعناه: فرحين مسرورين، وقال أبو عبيدة: هو من باب «لا يبين وتامر»، أي: لهم فاكهة، والمعنى الأول أبرع، وقرأ

هو في السماء تحت العرش، والجمهور على أنه بحر الدنيا، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَلْحَاظُ سَجَرَتٍ﴾، وقال منذر بن سعيد: المعنى هو القسم بجهنم، وسماها بحراً لِسَعْتِهَا وتموجها، كما قال في الفرس: «وإن وجدناه لبحراً».

والقسم واقع على قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ﴾، ويريد عذاب الآخرة للكفار، قاله قتادة، والعامل في «يَوْمٌ» هو «وَأَعِظْ»، ويجوز أن يكون العامل فيه «وَأَعِظْ»، والأول أبين، قال مكِّي: لا يعمل فيه «وَأَعِظْ»، وقوله تعالى: ﴿تَمُورٌ﴾ معناه: تذهب وتجيء بالرياح متقطعة متفتتة، والغبار الممّاز: الذي يجتمع ويذهب ويجيء بالرياح ثم هو كله إلى ذهاب، ومنه قول الأعرابي: «وَعَادَزَتِ التُّرَابَ مُمُورًا» يصف سنة قحط، وأنشد ابن المنثي:

مُمُورُ السَّحَابَةِ لَا زَيْتٌ وَلَا عَجَلٌ
أَرَادَ مَضِيئًا. وقال الضحّاك: ﴿تَمُورٌ﴾: تموج، وقال مجاهد: تدور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: تشقق، وهذه كلها تفاسير بالمعنى؛ لأن السماء العالية يعترها هذا كله.

وسَيَّرَ الجبال هو في أول الأمر ثم تَنَفَّتْ أثناء السير حتى تصير أخيراً كالعن المنفوش، والفاء في قوله تعالى: ﴿فَوَيْلٌ﴾ عاطفة جملة على جملة، وهي تتضمن ربط المعنى وتأكيده وإثبات الويل للمكذّبين، و«الْوَيْلُ»: السوء والمشقة والهَمُّ الأطول، ويروى أن في جهنم

يحتمل أن يكون من خطاب أهل النار فيكون إخبارهم بذلك زيادة في غمهم وسوء حالهم، ويحتمل - وهو الأظهر - أن يكون إخباراً لمحمد ﷺ ومعاصره، لما فرغ من ذكر عذاب الكفار عقب ذلك بنعيم المتقين لبيان الفرق ويقع التحريض على الإيمان. و«الْمُتَّقُونَ» هنا هم مُتَّقُوا الشُّرْكَ لأنهم لا بُدَّ من مصيرهم إلى الجنّات، وكلما زادت الدرجة في التقوى قوي الحصول في حكم الآية حتى أن المتقين على الإطلاق هم في هذه الآية قطعاً على الله تعالى بحكم خبره الصادق. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَنُكِبِينَ﴾، ومعناه: فرحين مسرورين، وقال أبو عبيدة: هو من باب «لا يبين وتامر»، أي: لهم فاكهة، والمعنى الأول أبرع، وقرأ

تقديره: يقال لهم: «هذِهِ النَّارُ»، وإخبارهم بهذا على جهة التوبيخ والتفريع، وقرأ أبو رجاء العطاردي: ﴿يَوْمٌ يَدْعُونَ» من الدعاء، بسكون الدال وفتح العين.

١٥ - ١٦ - تفسير قوله عز وجل: ﴿لَمَّا قِيلَ لَهُمْ: «هَذِهِ النَّارُ» وَقَفُوا بِعَدْلِكَ عَلَى الْجَهَنَّمَ اللَّتَيْنِ يُمْكِنُ مِنْهُمَا دُخُولُ الشُّكِّ فِي أَنَّهَا النَّارُ، وَهِيَ: إمَّا أَنْ يَكُونَ تَمَّ سَخَرُ يُلْبَسُ ذَاتَ الْمَرْتَبِيِّ، وَإِمَّا أَنْ يَكُونَ فِي بَصَرِ النَّاطِرِ اخْتِلَالٌ، وَأَمْرُهُمْ بِصَلِّيْهَا عَلَى جِهَةِ التَّفْرِيعِ، ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ عَلَى جِهَةِ قَطْعِ رَجَائِهِمْ: «فَأَصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ»، أي: عذابكم حثم فسواء جزعكم وصبركم، لا بد من جزاء أعمالكم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَهَنَّمَ لَمُعَذِّبُونَ﴾، ومعناه: فرحين مسرورين، وقال أبو عبيدة: هو من باب «لا يبين وتامر»، أي: لهم فاكهة، والمعنى الأول أبرع، وقرأ

خالد فيما حكى أبو حاتم: ﴿فَكِهِينَ﴾، والفَكِيَةُ والفَاكِةُ: المسرور المنتعم. وقوله تعالى: ﴿يَمَّا ءَاتَتْهُمْ رِيْثُهُمْ﴾ أي: من إنعامه ورضاه عنهم، وقوله تعالى: ﴿وَوَقَّهْمُ رِيْثَهُمْ عَدَابَ الْجَحِيْمِ﴾، هذا متمكن في مُثْقِي المعاصي الذي لا يدخل النار، ويكون في مُثْقِي الشُّرْك الذي ينفذ عليه الوعيد بمعنى: ووقاهم ربهم عذاب الخلود في الجحيم، ويحتمل أن يكون ﴿الْمَجِيْمِ﴾ من طبقات جهنم ليست بمأوى العصاة من المؤمنين، بل هي مخصصة للكفرة، فهم وإن عُدِّبوا في نار فليسوا في عذاب الجحيم. وقرأ الجمهور: ﴿وَوَقَّهْمُ﴾ بتخفيف القاف، وقرأ أبو حيوه بتشديدها على المبالغة، وذلك كله مُشْتَقٌّ من الوقاية وهي الحائل بين الشيء وبين ما يضره. والمعنى: يقال لهم: ﴿كُلُّوا وَأَشْرَبُوا هَيْبَةً﴾، و﴿هَيْبَةً﴾، نصب على المصدر، وقوله تعالى: ﴿يَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ معناه أن رُتِبَ الجنة ونعيمها هي بحسب الأعمال، وأما نفس دخولها فهو برحمة الله تعالى وتغمده، والأكل والشرب والتئهي ليس من الدخول في شيء، وأعمال العباد الصالحة لا توجب على الله تعالى التنعيم إيجاباً، لكنه سبحانه قد جعلها أمانة على من سبق في علمه تنعيمه، وعلّق الثواب والعقاب بالتكسب الذي في الأعمال.

وقوله تعالى: ﴿مُتَّكِيْنَ﴾ نصب على الحال، على حدّ قوله تعالى:

﴿فَكِهِينَ﴾، والعامل في هاتين الحالتين الفعل المقدر في قوله تعالى: ﴿فِي جَنَّتَيْنِ﴾، ويجوز غير هذا، وفي هذا نظر، وقرأ أبو السَّمال: ﴿عَلَى سُرْرِ﴾ بفتح الرَّاء الأولى و﴿وَرَزَحْتَهُمْ﴾ معناه: جعلنا لكل فرد منهم زوجاً، و﴿الْحُورِ﴾ جمع حوراء، وهي البيضاء القوية بياض بَيَاضِ العَيْنِ وسواد سوادها، و﴿العِينِ﴾ جمع عيناء، وهي الكسيرة العينية مع جمالها، وفي قراءة ابن مسعود، وإبراهيم السُّخمي: ﴿وَوَزَّجْنَاهُمْ بِعِيْسِ عَيْنِ﴾، قال أبو الفتح: العَيْسَاءُ: البيضاء، وقرأ عكرمة: ﴿وَوَزَّجْنَاهُمْ حُوراً عَيْنًا﴾، وحكى أبو عمرو عن عكرمة أنه قرأ: ﴿بعيس عَيْنِ﴾ على إضافة [عيس] إلى [عين].

٢١ - ٢٨ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير، وعاصم، وحزمة، والكسائي، وابن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، وطلحة، والحسن، وقتادة، وأهل مكة: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ دُرِّيْثَهُمْ بِإِيْمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ دُرِّيْثَهُمْ﴾، وقرأ نافع، وأبو جعفر، وابن مسعود - بخلاف عنه - وأبو عمرو - بخلاف عنه - وشيبة، والجحدري، وعيسى: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ دُرِّيْثَهُمْ بِإِيْمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ دُرِّيْثَهُمْ﴾، وروى خارجة عنه مثل قراءة حمزة، وقرأ ابن عامر، وابن عباس، وعكرمة، وابن جُبَيْر، والضحاك: ﴿وَأَتَيْنَهُمْ دُرِّيْثَهُمْ بِإِيْمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ دُرِّيْثَهُمْ﴾، وقرأ أبو عمرو، والأعرج، وأبو رجاء، والشعبي، وابن جُبَيْر، والضحاك: ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ

دُرِّيْثَهُمْ بِإِيْمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ دُرِّيْثَهُمْ﴾، فلكون «الدُرِّيْثَةُ» جمعاً في نفسه حسن الإفراد في هذه القراءات، ولكون المعنى يتقضي انتشاراً وكثرة حسن جمع الدُرِّيْثَةُ في قراءة من قرأ: ﴿دُرِّيْثَهُمْ﴾.

واختلف الناس في معنى الآية - فقال ابن عباس، وابن جُبَيْر، والجمهور: أخبر الله تعالى أن المؤمنين الذي تتبعم ذريتهم في الإيمان فيكونون مؤمنين كأبائهم - وإن لم يكونوا في التقوى والأعمال كالآباء - فإنه يُلْحَقُ الأبناء بمراتب أولئك الآباء كرامةً للآباء، وقد ورد في هذا المعنى حديث عن النبي ﷺ، فجعلاوا الحديث تفسير الآية، وكذلك وردت أحاديث تقتضي أن الله تعالى يرحم الآباء رعيّاً للأبناء الصالحين، وذهب بعض الناس إلى إخراج هذا المعنى من هذه الآية، وذلك لا يترتب إلا بأن نجعل اسم «الدُرِّيْثَةُ» بمثابة نوعهم على نحو ما في قوله تعالى: ﴿أَنَا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفَلَكِ الْمَشْهُورِ﴾، وفي هذا نظر. وقال ابن عباس أيضاً، والضحاك: معنى هذه الآية أن الله تعالى يلحق الأبناء الصغار بأحكام الآباء المؤمنين في الموارثة والدفن في قبور الإسلام، وفي أحكام الآخرة في الجنة، وحكى أبو حاتم عن الحسن أنه قال: الآية في الكبار من الدُرِّيْثَةُ وليس فيها من الصغار شيء، وقال منذر بن سعيد: هي في الصغار لا في الكبار، وحكى الطبري قولاً معناه أن الضمير في قوله تعالى:

﴿يَوْمَ﴾ عائد على الذُّرَّةِ، والضمير الذي بعده في ﴿ذُرِّيَّتِهِمْ﴾ عائد على ﴿الَّذِينَ﴾، أي: أتبعهم الكبار وألحقنا نحن بالكبار الصغار، وهذا قول مستكره.

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ هو في موضع الحال، فمن رأى أن الآية في الأبناء الصغار فالحال من الضمير في قوله تعالى: ﴿وَأَتَّبَعْتَهُمْ﴾، فهو من المفعولين، ومن رأى أن الآية في الأبناء الكبار فيحتمل أن يكون الحال من المفعولين، ويحتمل أن يكون من المتبوعين الفاعلين، وأرجح الأقوال في هذه الآية القول الأول؛ لأن الآيات كلها في صفة إحسان الله تعالى إلى أهل الجنة، فذكر من جملة إحسانه أنه يرعى المخسرين في المسيء، ولفظة ﴿الْحَقْنَاءُ﴾ تقتضي أن للملحق بعض التقصير في الأعمال.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿أَتَّبَعْتَهُمْ﴾ بفتح اللام من «ألت»، وقرأ ابن كثير، وأبو يحيى، وشبل: ﴿الِئْتِنَاهُمْ﴾ من ألت بكسر اللام، وقرأ الأعرج: ﴿وَمَا أَلْتِنَاهُمْ﴾ على وزن أفعلتاهم، وقرأ ابن كعب، وابن مسعود: ﴿لِئْتِنَاهُمْ﴾ من «لات»، وهي قراءة ابن مصرف، ورواها القواسم عن ابن كثير، وتحتمل قراءة من قرأ: ﴿أَتَّبَعْتَهُمْ﴾ بفتح اللام أن تكون من «ألات» فإنه يقال: ألات يلبث إلاتة، ولأت يلبث ليتا، وألت يُولِث يُولِثاً، وألت يَأَلِثُ، وألِث يَأَلِثُ إلتا، وَوَلَّتْ يَلِثُ وَلِثاً، كلها بمعنى بعض.

ومعنى هذه الآية أن الله تعالى

يلحق المقصّر بالمحسن ولا يُنقص المحسن من أجره شيئاً، وهذا تأويل ابن عباس، وابن جبير والجمهور، ويحتمل قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلْتِنَاهُمْ يَوْمَ عَلَيْهِمْ مِنَ شَيْءٍ﴾ أن يريد: من عملهم الحسن والقيبح، ويكون الضمير في ﴿عَلَيْهِمْ﴾ عائداً على الأبناء، وهذا تأويل ابن زيد، ويُحَسِّنُ هذا الاحتمال قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَوِيَّةٌ﴾، والرَّهِينُ: المُرْتَهَنُ، وفي هذه الألفاظ وعيد، وحكى أبو حاتم عن الأعمش أنه قرأ: ﴿وَمَا لِنَتْنَاهُمْ﴾ بغير ألف وفتح اللام، قال أبو حاتم: لا تجوز هذه القراءة على وجه من الوجوه.

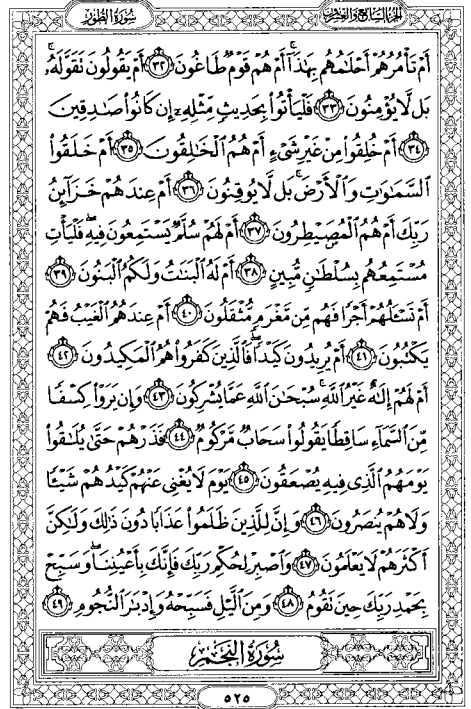
و «أَمَدَدْتُ الشَّيْءِ» إذا سيرت إليه شيئاً آخر يكثره أو يكثر لديه، وقوله تعالى: ﴿يَمَّا بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ أَلْهَامٌ﴾ إشارة إلى ما روي من أن المُنْتَمِعَ إذا اشتهى لحمأ نزل ذلك الحيوان بين يديه على الهيئة التي اشتهاه فيها، وليس يكون في الجنة لحم يُخْتَرُ، ولا يتكلف فيه الذبح والسلخ والطبخ، وبالجملة لا كلفة في الجنة.

و «يَنْتَزِعُونَ» معناه: يتعاطون، ومنه قول الأخطل:

نَازَعْتُهُ طَيِّبَ الرَّاحِ الشَّمُولِ وَقَدْ
صَاحَ الدَّجَاجُ وَحَانَتْ وَقَعَةُ السَّارِي
و «الكأس» الإناء وفيه الشراب، ولا يقال في فارغ «كأس»، قاله الزجاج، وقرأ الجمهور من السبعة وغيرهم: ﴿لَا لَقْوٌ﴾ بالرفع ﴿وَلَا تَأْيِيَةٌ﴾ كذلك، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والحسن: ﴿لَا لَقْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْيِيَةٌ﴾ بالنصب على التبرية، وعلى الوجهين، فقوله تعالى: ﴿فِيهَا﴾ هو

موضع الخَبَرِ، وأغنى خبر الأول عن ذكر خبر الثاني، و«اللُّغْوُ»: السقط من القول، و«التَّائِيَةُ» يلحق خمرة الدنيا في نفس شُرْبِهَا وفي الأفعال التي تكون من شُرْبِهَا، وذلك كله مرتفع في الآخرة.

و «اللُّؤْلُؤُ الْمَكْتُونُ» أجمل اللُّؤْلُؤُ لأن الصُّونَ والكِبْرَ يُحَسِّنُهُ، وقال ابن جبير: أراد أنه الذي في الصدف لم تتلَّهُ الأيدي، وقيل للنبي ﷺ: إذا كان الغلمان كالؤلؤ المكنون فكيف المخدومون؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «هم كالقمر ليلة البدر»، ثم وصف تعالى عنهم أنهم في جملة تتعمهم يتساءلون، أي: عن أحوالهم وما نال كل واحد منهم، وأنهم يتذكرون حال الدنيا وخشيتهم فيها عذاب الآخرة، وحكى الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تسألهم إذا بعثوا في النفخة الثانية، و«الإشفاق» أشد الخشية ورقة القلب، وقد قرأ أبو حيوة: ﴿وَوَقَانَا﴾ بتشديد القاف، وقرأ الجمهور بتخفيفها، وأمال عيسى الشقفي ﴿وَوَقَانَا﴾ بتخفيف القاف، و«السُّمُومُ»: الحارُّ، قال الرُّمَّانِي: هو الذي يبلغ مسام الإنسان، وهو النار في هذه الآية، وقد يقال في حرِّ الشمس وفي الريح: سُمُومٌ، وقال الحسن: السُّمُومُ اسم من أسماء جهنم و«تَدْعُوهُ» يحتمل أن يريد: نعبده، ويحسن هذا على قراءة من قرأ: ﴿أَنَّهُ﴾ بفتح الألف، وهي قراءة نافع - بخلاف - والكسائي، وأبي جعفر، والحسن، وأبي نوفل، أي: من أجل أنه، وقرأ باقي السبعة،



فنسبت محمداً ﷺ إلى ذلك، فنفى الله تعالى عنه ذلك.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ الآية. روي أن قريشاً اجتمعت في دار الندوة فكثرت آراؤهم في محمد ﷺ، حتى قال قائل منهم: ترئصوا به رب المنون فإنه شاعر سيهلك كما هلك زهير والشابغة والأعشى وغيرهم، فافترقوا على هذه المقالة، فنزلت الآية في ذلك.

و «التَّرْصُصُ»: الانتظار، ومنه قول الشاعر:

تَرْتَرِصُ بِهَا زَيْبُ الْمَثُونِ لَعَلَّهَا
تُطَلِّقَ يَوْمًا أَوْ يَمُوتَ حَلِيلُهَا
وَأُنشد الطَّبْرِيُّ:

..... لَعَلَّهَا
سَيَهْلِكُ عَنْهَا زَوْجُهَا أَوْ سَيَجْتَنِحُ
وقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرْتَصُّوا﴾ وعيدٌ في صيغة أمر، و«المَثُونُ» من أسماء الموت، وبه فسّر ابن عباس رضي الله عنهما، ومن أسماء الدهر، وبه فسّر مجاهد، وقال الأصمعي: المَثُونُ واحد لا جمع له، وقال الأخفش: هو جمع لا واحد له.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و«الرَّيْبُ» هنا: الحوادث والمصائب لأنها تريب من نزلت به، ومنه قول النبي ﷺ في أمر بنته فاطمة رضي الله تعالى عنها حين ذُكر أن علياً رضي الله عنه يتزوج بنت أبي

جهل: «إنما فاطمة بضعة مني يُربيني ما أرابها»، يقال: أرابَ ورأبَ، ومنه قول الشاعر:

فَقَدَّرَ رَبِّي مِنْهَا الْعَدَاةَ سُفُورَهَا
وقول الآخر:

وَقَدَّرَ رَبِّي قَوْلَهَا يَا هَئِنَّا
.....

وأمر الله تعالى نبيّه ﷺ بتوعدهم بقوله تعالى: ﴿قُلْ تَرْتَصُّوا فَإِنِّي مَعَكُمْ يَوْمَ الْمَتَرِّصِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿بِهَذَا﴾ يحتمل أن يشير إلى هذه المقالة «هو شاعر»، ويحتمل أن يشير إلى ما هم عليه من الكفر وعبادة الأصنام و«الأحلام»:

العقول، و«أَمْ» المتكررة في هذه الآية قدرها بعض الثُّحاة بألف الاستفهام، وقدرها مجاهد بـ «بَلْ»، والنظر المحرَّر في ذلك أن منها ما يتقدَّر بـ «بَلْ» والهمزة على حدِّ قول سيبويه في قولهم: «إِنَّهَا لِإِبِلٍ أَمْ شَاءَ»، ومنها ما هي معادلة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَّاغُوتٌ﴾، وقراً مجاهد: ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَّاغُوتٌ﴾، وهو معنى قراءة الناس إلا أن العبارة بـ «أَمْ» خرجت مخرج التوقيف والتوبيخ، وحكى الثعلبي عن الخليل أنه قال: «ما في سورة الطور من استفهام كُله استفهام وليس يعطف»، و«تَقَوْلُهُ» معناه: «قال عن الغير: إنه قاله»، فهي عبارة عن كذب مخصوص.

ثم عجزهم تعالى بقوله: ﴿قَلْبًا نَّوًّا يَحْدِيثُ نَثِيلَهُ﴾، والمماثلة المطلوبة منهم هي في النظم والرصف والإيجاز، واختلف الناس، هل

والأعرج، وجماعة: ﴿إِنَّهُ﴾ على القطع والاستئناف، ويحسن مع هذه القراءة أن يكون «تَدْعُوهُ» بمعنى نعيده، أو بمعنى الدعاء نفسه، ومن رأى «تَدْعُوهُ» بمعنى الدعاء نفسه فيحتمل أن يجعل قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ﴾ بالفتح هو نفس الدعاء الذي كان في الدنيا، و«الْبَرُّ» هو الذي يبرُّ ويُحسن، ومنه قول ذي الرُّمَّة:

جَاءَتْ مِنَ الْبَيْضِ رُغْرًا لَا لِبَاسَ لَهَا
إِلَّا الدَّهْسَاسُ وَأَمْ بَسْرَةٌ وَأَبُ
٢٩ - ٣٦ تفسير قوله عز وجل:

هذا أمر لرسول الله ﷺ بالدعاء إلى الله تعالى ومتابعة نشر الرسالة، ثم قال تعالى مؤنساً له عليه الصلاة والسلام: فما أنت بإنعام الله تعالى عليك ولطفه بك كاهن ولا مجنون، وكانت العرب قد عهدت ملابسة الجنِّ الإنس بهذين الوجهين،

كانت العرب قادرة على الإتيان بمثل القرآن قبل مجيء محمد ﷺ؟ فقال شُدَّادٌ يُسَمُّونَ أهلَ الصرفة: كانت قادرة وُصِّرت، وقال الجمهور: لم تكن قط قادرة، ولا في قدرة البشر أن يأتي بمثله؛ لأن البشر لا يفارقه النسيان والسهو والجهل، والله تعالى محيط علمه بكل شيء، فإذا ترتبت اللَّفظة في القرآن عِلْمٌ بالإحاطة التي تصلح أن تليها وَيَحْسُنُ معها المعنى، وذلك متعذر في البشر. والهَاءُ في ﴿يَنْبِئُ﴾ عائدة على القرآن، وقرأ الجحدري: ﴿يَحْدِثُ مِثْلِهِ﴾ بإضافة «الحديث» إلى ﴿يَنْبِئُ﴾، فإنها - على هذا - عائدة على محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ﴾، قال الطبري: معناه: أَمْ خُلِقُوا خَلَقَ الجماد من غير شيء فهم لا يؤمرون ولا يُنْهَوْنَ كما هي الجمادات عليه؟ وقال آخرون: معناه: أَمْ خُلِقُوا من غير علَّة ولا لغاية عقاب ولا ثواب فهم لذلك لا يسمعون ولا يتشرعون؟ وهذا كما تقول: فعلت كذا وكذا من غير علَّة، أي: لغير علَّة، ثم وقفهم تعالى على جهة التوبيخ على أنفسهم، أهم الذين خَلَقُوا الأشياء فهم لذلك يتكبرون؟ ثم خصَّص تعالى من الأشياء السموات والأرض لعظمتها وشرفها في المخلوقات، ثم حكم تعالى عليهم بأنهم لا يوقنون ولا ينظرون نظراً يؤذيهم إلى اليقين.

(٣٧) - (٤٤) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَبِّكَ﴾ بمنزلة قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَبِّكَ﴾ بمنزلة قوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنٌ رَبِّكَ﴾

الاستغناء عن الله تعالى في جميع الأمور؟ لأن المال والصحة والقوة وغير ذلك من الأشياء كلها من خزائن الله تبارك وتعالى. قال الزهراوي: وقيل: يريد بالخزائن العلم، وهذا قول حسن إذا تَوَمَّلَ وبُسط، قال الرُّمَّاني: خزائنه تعالى: مقدراته. و«المُصْطَبِرُ»: المُسَلِّطُ القاهر. وبذلك فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما، وأصله بالسَّين، ولكن كتبه بعض الناس وقرأ بالصاد مراعاة للطَّاء ليتناسب اللُطْق، وحكى أبو عبيدة: «تسيطر علي» إذا اتخذتني خولاً.

و«السُّلْمُ»: السبب الذي يصعد به كان ما كان من خشب أو بناء أو حبال أو غيره، ومنه قول ابن مقبل:

لَا تُحَرِّزُ الْمَرْءَ أَحْجَاءَ الْبِلَادِ وَلَا تُبْنِي لَهُ فِي السَّمَوَاتِ السَّلَالِيمُ
وحكى الرُّمَّاني قال: لا يقال: «سُلْمٌ» إلا لِمَا بُنِيَ من الأدرج وإنما السُّلْمُ المُشْبِكُ، وبيت الشعر يردُّ عليه، والمعنى: أَلْهَمَ سُلْمٌ إِلَى السَّمَاءِ يَسْتَمْعُونَ فِيهِ؟ أي: عليه ومنه، وهذه حروف يسدُّ بعضها مسدًّا بعض، والمعنى: يستمعون الخبير بصحة ما يدعون، فليأتوا بالحجة الميِّنة في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُ الْآلِهَةُ﴾ الآية... معناه: أم هم أهل الفضيلة علينا فيلزم لذلك اتحاؤهم وتكبرهم؟ ثم قال تعالى: أم تسألهم يا محمد على الإيمان بالله تعالى وشرعه أجرة يُثْقَلُهم غزْمُها فهم لذلك يكرهون الدخول فيما

يوجب غرامتهم؟ ثم قال تعالى: أم عندهم علم الغيب فهم يبيِّنون ذلك للناس سنناً وشرعاً يكتبونه، وذلك عبادة الأوثان وتسييب السوابب وغير ذلك من شرهم؟ وقيل: المعنى: فهم يعلمون متى يموت محمد الذي يتربصون به؟ ﴿يَكْتُبُونَ﴾ بمعنى يحكمون، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني تعالى: أم عندهم اللوح المحفوظ فهم يكتبون ما فيه ويخبرون؟ ثم قال تعالى: أم يُريدون كيداً بك وبالشرع؟ ثم جزم الخير بأنهم هم المكيدون، أي: هم المغلوبون، فسئى تعالى غلبتهم كيداً إذ كانت عقوبة الكيد.

ثم قال تعالى: أم لهم إله غير الله يعصمهم ويمنعهم ويدفع في صدر إهلاكهم، ثم نزه تبارك وتعالى نفسه عما يُشركون به من الأصنام والأوثان، وهذه الأشياء التي وقفهم تعالى عليها حصرت جميع المعاني التي توجب الانتحاء والتكبر والبعد من الائتمار، فوقفهم تعالى عليها، أي: ليست لهم، ولا يبقى شيء يوجب ذلك إلا أنهم قوم طاغون، وهذه صفة فيها تكسبهم وإيثارهم، فتعلق بذلك عقابهم. ثم وصفهم تعالى بأنهم على الغاية من العتو والتمسك بالأقوال الباطلة في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ يَرَوْا كِسْفًا﴾ الآية، وذلك أن قريشاً كان في جملة ما اقترحت «أَنْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ عَلَيْنَا كِسْفًا»، وهي القطع، واحدها كِسْفَةٌ، وتُجمَعُ أيضاً على «كِسْفٍ» كَثْمَرَةٌ وَتَمْرٌ، وقال الرُّمَّاني: هي التي

تكون بقدر ما يكسف ضوء الشمس، فأخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية أنهم لو رأوا كسفاً ساقطاً حسب اقتراحهم لبلغ بهم العتوُّ والجهل والبعد عن الحق أن يُغالطوا أنفسهم وغيرهم ويقولوا: «سَحَابٌ مَرْكُومٌ»، أي: كثير قد تراكم بعضه فوق بعض، ولهذه الآية نظائر في آيات أخر.

﴿٤٥﴾ - ﴿٤٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَذَرْنَهُمْ﴾ وما جرى مجراه من الموادة منسوخ بآية السيف، وقرأ أبو جعفر، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿يَلْقَوُا﴾، والجمهور على ﴿يَلْقَوُا﴾ واختلف الناس في اليوم الذي تُوعَدُوا به - فقال بعض المتأولين: هو موتهم واحداً واحداً، وهذا على تجوز، و«الصُّعْقُ»: التعذيب في الجملة وإن كان الاستعمال قد كثر فيه فيما يصيب الإنسان من الصيحة المفرطة ونحوه، ويحتمل أن يكون اليوم الذي تُوعَدُوا به يوم بذر لأنهم عذبوا فيه، وقال الجمهور: التوعُدُ بيوم القيامة لأن فيه صعقة تعم جميع الخلائق، ولكن لا محالة أن بين صعقة المؤمن وصعقة الكافر فرقاً، وقرأ جمهور القراء: ﴿يَضَعُقُونَ﴾ من: ضَعِقَ الرَّجُلُ بكسر العين، وقرأ أبو عبد الرحمن: ﴿يَضَعُقُونَ﴾ بفتح الياء وكسر العين، وقرأ عاصم، وابن عامر، وأهل مكة - في قول شبيل -: ﴿يُسْمَتُونَ﴾ بضم الياء وفتح العين، وذلك من: أصعق الرجل غيره، وحكى الأخفش: «ضَعِقَ الرَّجُلُ»

بضم الصاد وكسر العين، قال أبو علي: فجائز أن يكون منه، فهو مثل «يُضْرَفُونَ»، قال أبو حاتم: وفتح أهل مكة الياء في قول إسماعيل.

و ﴿تَتَنَّى﴾ معناه: يكون منه عناة ودفاع، ثم أخبر تعالى بأنهم لهم دون هذا اليوم - أي: قبله - عذاب، واختلف الناس في تعيينه - فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: هو بدر والفتح ونحوه، وقال مجاهد: هو الجوع الذي أصاب قريشاً، وقال البراء بن عازب، وابن عباس أيضاً: هو عذاب القبر، ونزع ابن عباس رضي الله عنهما في وجود عذاب القبر بهذه الآية، وقال ابن زيد: هو مصائب الدنيا في الأجسام وفي الأحبة وفي الأموال، هي للمؤمنين رحمة وللكافرين عذاب، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: «ذَوْنَ ذَلِكَ قَرِيْباً وَلَكِنْ لَا يَلْمُونَ».

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالصبر لحكم الله تبارك وتعالى والمضي على نذارته ووَعَدَهُ بقوله تعالى: ﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾، ومعناه: بإدراكنا وأَعْيُنُ حَفِظْنَا لَكَ وَحِيطْنَا، كما تقول: فلان يرعاه الملك بعين، وهذه الآية ينبغي أن يُقَدَّرَها كُلُّ مؤمن في نفسه فإنها تفسح مضائق الدنيا، وقرأ أبو السَّمال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ بنون واحدة مشددة.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَسَيِّحٌ يَخْدِرُ رَيْكٌ﴾ - فقال أبو الأحوص عوف بن مالك: هو التسييح المعروف، أي: يقول في

كل قيام: سبحان الله وبحمده، وقال عطاء: المعنى: حين تقوم من كل مجلس، وقال ابن زيد: التسييح هنا هو صلاة النوافل، وقال الضحاك، وابن زيد: هذه إشارة إلى الصلوات المفروضة، فقوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾: الظُّهر والعصر، أي: حين تقوم من نوم القائلة، وقوله تعالى: ﴿وَرِينَ أَيْلٍ﴾: المغرب والعشاء، وقوله تعالى: ﴿وَإِذْ نَزَّ النَّجْمُ﴾: الصُّبح، ومَنْ قال هي النوافل جعل «إِذْ نَزَّ النَّجْمُ» ركعتي الفجر، وعلى هذا القول جماعة كثيرة منهم: عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وأبو هريرة، والحسن، رضي الله عنهم، وقد روي مرفوعاً، ومن جعله التسييح المعروف جعل قوله تعالى: ﴿حِينَ تَقُومُ﴾ مثلاً، أي: حين تقوم وحين تقعد وفي كل تصرفك، وحكى منذر عن الضحاك أن المعنى: حين تقوم في الصلاة بعد تكبيرة الإحرام فقل: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك، وتعالى جدك...» الحديث.

وقرأ سالم بن أبي الجعد، ويعقوب: ﴿وَإِذْ نَزَّ النَّجْمُ﴾ بفتح الهمزة بمعنى: وأعقاب، ومنه قول الشاعر:

فَأَصْبَحْتُ مِنْ لَيْلَى الْغَدَاةِ كَنَاطِرٍ
مَعَ الضُّحَى فِي أَعْقَابِ نَجْمٍ مُغْرَبٍ
وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: ﴿وَإِذْ نَزَّ
النَّجْمُ﴾ بكسر الهمزة.

كامل تفسير سورة الطور والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة النجم

هي مكية بإجماع من المتأولين، وهي أول سورة أعلن بها رسول الله ﷺ، وجهر بقراءتها في الحرم والمشركون يستمعون، وفيها سجد وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته وقال: يكفيني هذا، وسبب هذه السورة أن المشركين قالوا: إن محمداً يتقول القرآن ويخلق أقواله، فنزلت السورة في ذلك.

﴿١﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

أقسم الله تعالى بهذا المخلوق تشريفاً له وتنبهاً منه ليكون معتبراً فيه، حتى تؤول العبرة فيه إلى معرفة الله تبارك وتعالى، وقال الزهراوي: المعنى: ورب النجم، وفي هذا قلق مع لفظ الآية، واختلف المتأولون في تعيين النجم المقسم به - فقال ابن عباس، ومجاهد، والفراء، ويئنه منذر بن سعيد: هو الجملة من القرآن إذا تنزلت، وذلك أنه روي أن القرآن نزل على النبي ﷺ نجوماً، أي: أقداراً مقدرة في أوقات ما، ويجيء ﴿هوى﴾ - على هذا التأويل - بمعنى نزل، وفي هذا الهويُّ بُعدٌ وتحاملٌ على اللغة، ونظير هذه الآية قوله تعالى: ﴿فَلَا أُنسِيْ بِمَرْفَعِ الْجُجُوْبِ﴾، والخلاف في هذا كالخلاف في ذلك، وقال الحسن، ومعر بن المثنى، وغيرهما: النجم

هنا اسم جنس، أراد: والنجوم إذا هوت، واختلف قائلوا هذه المقالة في معنى ﴿هوى﴾ - فقال جمهور المفسرين: هوى للغروب، وهذا هو السابق إلى الفهم من كلام أبي الحسن، وأبو حمزة السمانى: هوى عند الانكدار في القيامة، فهي بمعنى قوله تعالى: ﴿وإذا أنكركم اتبررت﴾، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي -: هوى في الانقضاء في أثر

العفريّة، وهي رجوم الشياطين، وهذا القول تسعده اللغة، والتأويلات في ﴿هوى﴾ محتملة كلها قوية، ومن الشاهد في النجم الذي هو اسم الجنس قول الراعي:

فَبَاتَتْ تَعْدُ النُّجْمَ فِي مُسْتَحْبِرَةٍ
سَرِيحَ بِأَيْدِي الْأَكْلِيِّنَ جُمُودَهَا
يصف إهالة صافية، والمستحيرة: القدرُ التي يطبخ فيها، قال الزجاج، وقال الرُّماني: هي شحمة صافية حين ذابت. وقال مجاهد، وسفيان: النجم في قَسَم الآية: الثُرَيَّا، وسقوطها مع الفجر هو هويُّها، والعرب لا تقول النجم مطلقاً إلا للثُرَيَّا، ومنه قول العرب: «طَلَعَ النُّجْمُ عَشَاءً»، فابتغى الراعي كساءً، طَلَعَ النُّجْمُ عُدَيْتَهُ، فابتغى الراعي شَكِيَّةً، و﴿هوى﴾ - على هذا القول - يحتمل الغروب ويحتمل الانكدار،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا حَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَبْطِئُ
عَنِ الْمَوْتِ ﴿٣﴾ إِن هُوَ إِلَّا رَمْحٌ رَّحِيْبٌ ﴿٤﴾ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ﴿٥﴾
ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾
فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾
مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴿١١﴾ أَفَتَسْمَنُوهُ عَلَىٰ مَارِئٍ رَّحِيبٍ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَآهُ
نَزَلَ نُجْمًا ﴿١٣﴾ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِنْدَ هَاجِةِ الْأَوَىٰ ﴿١٥﴾
إِذْ يُخَشِئُ السِّدْرَةَ مَا عَبَثَ ﴿١٦﴾ مَا نَزَعَ الْبَصْرَ وَمَا لَطَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ
مِن مَّيْمَنَتِهِ رَبَّهُ الْكَرِيمَ ﴿١٨﴾ أَفَرَأَيْتُمْ يَتِمُّ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿١٩﴾ وَمَنْزُةً
أَتَالَتُهُ الْآخِرَىٰ ﴿٢٠﴾ أَلَمْ يَكُنْ الذِّكْرُ وَهُوَ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذْ أُنسِتُمْ
ضِيْرَتَهُ ﴿٢٢﴾ إِن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَتْ بِهَا قُرَيْشٌ وَبَابُ الْوَدْعِ مَا أَنْزَلَ
اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ
وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ لِلَّهِ
الْآخِرَةُ وَالْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَرِهَ مَوْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ لَا تَعْنَى
شَفَعْتَهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُرِضَىٰ ﴿٢٦﴾

و﴿هوى﴾ في اللغة معناه: خرق الهواء ومقصده السُّفْلُ، أو مصيره وإن لم يقصده، ومنه قول الشاعر:

هَوَى ابْنِي مِنْ شَفْعَا جَبَلٍ
فَزَلْتُ رِجْلَهُ وَرَوْدُهُ
وقول الشاعر:

وَأَنَّ كَلَامَ الْمَرْءِ فِي غَيْرِ كُنْهِهِ
لِكَائِبِلٍ تَهْوِي لَيْسَ فِيهَا نِصَالُهَا
وقول زهير:

هَوِيَّ الذُّلُوْ أَسْلَمَهَا الرِّشَاءُ
ومنه قولهم للجراد: الهاوي، ومنه: هَوِيَّ العقاب.

والقسَم واقع على قوله تعالى: ﴿مَا سَلَ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾، و«الضلال» أبداً يكون بغير قصد من الإنسان إليه، و«الغبي» شيء كأنك تتكسبه وتريده، فنفى الله تعالى عن قلبه هذين الحالين، وغوى الرجل

يَغْوي إذا سلك سبيل الفساد والعوج، نفى الله تعالى عن نبيه ﷺ أن يكون ضلّ في هذه السبيل التي أسلكه الله تعالى إليها، وأثبت الله تعالى في سورة الضحى أنه قد كان قبل النبوة ضالاً بالإضافة إلى حاله من الرشد بعدها.

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ يريد تعالى محمداً ﷺ أنه ليس بمتكلم عن هواه، أي: بهواه وشهوته، وقال بعض العلماء: المعنى: وما ينطق القرآن المنزل عن هوى وشهوة، ونسب تعالى النطق إليه من حيث يفهم منه، كما قال تعالى: ﴿هَذَا كِتَابًا يُطِيقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ﴾، وأسند الفعل إلى القرآن ولم يتقدم له ذكر للدلالة المعنى عليه. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحى﴾ يُراد به القرآن بإجماع، والوحي: إلقاء المعنى في خفاء، وهذه العبارة تعم المَلَك والإلهام والإشارة وكل ما يحفظ من معاني الوحي. والضمير في قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ﴾ يحتمل أن يكون للقرآن، والأظهر أنه لمحمد ﷺ، وأما المَعْلَم فقال قتادة، والربيع، وابن عباس: هو جبريل عليه السلام، أي: علّم محمداً ﷺ القرآن، وقال الحسن: المَعْلَم الشديد القوى هو الله تعالى، و«الْفَوْى» جمع فَوْءة، وهذا في جبريل عليه السلام متمكن، ويؤيده قوله تعالى: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، و«دُرٌّ مِرْقٌ» معناه: ذو قُوَّة، قاله قتادة، وابن زيد، والربيع، ومنه قول النبي ﷺ: «لَا نَحُلُ الصَّدَقَةَ

لِغَنِيٍّ وَلَا لِذِي مِرْوَةٍ سَوِيٍّ»، وأصل المِرْوَة من مرائر الحبل وهي فتله وإحكام عمله، ومنه قول امرئ القيس:

بِكُلِّ مُمْرٍ الْقَتْلُ شُدَّتْ بِبِذْبُلٍ
وقال قوم ممن قال إن «ذا المِرْوَة» جبريل: معنى «دُرٌّ مِرْوَةٌ»: ذو هيئة حسنة، وقال آخرون: بل معناه: ذو جسم طويل حسن، وهذا كله ضعيف.

و«أَسْتَوَى» مُسند إلى الله تعالى في قول الحسن الذي قال: إنه المُتَّصِف بقوله تعالى: ﴿شَيْدٌ الْقَوَى﴾، وكذلك يجيء قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ الْأَعْلَى﴾ صفته الله تعالى على معنى: وعظمتُه وقدرته وسلطانه تنلقى نحن أنه بالأفق الأعلى، ويجيء المعنى نحو قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ أَسْتَوَى﴾، ومن قال: إن المُتَّصِف بقوله تعالى: ﴿شَيْدٌ الْقَوَى﴾ هو جبريل عليه السلام قال: إن «أَسْتَوَى» مستند إلى جبريل عليه السلام، واختلفوا بعد ذلك - فقال الربيع، والزجاج: المعنى: فاستوى جبريل عليه السلام في الجوّ وهو إذ ذاك بالأفق الأعلى فرآه رسول الله ﷺ بحراء قد سدّ الأفق، له ستمائة جناح، وحينئذ دنا من محمد ﷺ حتى كان قاب قوسين، وكذلك هو المرثي - في هذا القول - في «الزُّلَّة الأخرى» في صفته العظيمة له ستمائة جناح عند السُدرة، وقال الطبري والفرّاء: المعنى: فاستوى جبريل عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِالْأَفْقِ

الْأَعْلَى﴾ يعني محمداً ﷺ وقد تقدّم ذكره في الضمير في «عَلَيْهِ»، وفي هذا التأويل العطف على المُضْمَر المرفوع دون أن يؤكد، ذلك عند النحاة مستقبح، وأنشد الفرّاء حُجَّة على قوله:

أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّبْعَ يَضْلُبُ عُوْدَهُ
وَلَا يَسْتَوِي وَالْخَزْوَعُ الْمُتَقَصِّفُ
وقد ينعكس هذا الترتيب فيكون ﴿أَسْتَوَى﴾ لمحمد ﷺ، و«وَهُوَ» لجبريل عليه السلام، وأما «الْأَعْلَى» فهو عندي لِقَمَةِ الرَّأْس وما جرى معه، وقال الحسن وقاتدة: هو أُنْق مُشرق الشمس، وهذا التخصيص لا دليل عليه.

واختلف الناس، إلى من استند قوله تعالى: ﴿نَمَّ دَنَا فَذَكَكَ﴾ - فقال الجمهور: استند إلى جبريل عليه السلام، أي: دنا إلى محمد ﷺ عند حراء، فقال ابن عباس، وأنس رضي الله عنهم في حديث الإسراء ما يقتضي أنه مُسْتند إلى الله تعالى، ثم اختلف المتأولون - فقال مجاهد: كان الدنو إلى جبريل عليه السلام، وقال بعضهم: كان إلى محمد ﷺ، و«دَنَا فَذَكَكَ» - على هذا القول - معه حذف مضاف، أي: دنا سُلْطانه ووحينه وقُدْرته، والانتقال وهذا الأوصاف منتفية في حق الله تبارك وتعالى.

والصحيح عندي أن جميع ما في هذه الآيات هو مع جبريل عليه السلام، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، فإن ذلك يقتضي بنزلة متقدمة، ما رُوي قط أن محمداً ﷺ رأى عزَّ وجلَّ قبل ليلة

الإسراء، أما إن رؤية القلب لا تُمنع بحال.

و ﴿دَنَا﴾ أعم من [تَدَلَّى]، فبيّن تعالى بقوله: ﴿فَتَدَلَّى﴾ هيئة الدنو كيف كانت. و ﴿قَابَ﴾ معناه: قَدَرَ، وقال قتادة وغيره: معناه: من طرف العود إلى طرفه الآخر، وقال الحسن ومجاهد: من الوتر إلى العود في وسط القوس عند المقبض. وقرأ محمد بن السَّمِينُ اليماني: ﴿وكان قيس قوسين﴾، والمعنى قريب من قاب، ومن هذه اللفظة قول النبي ﷺ: ﴿لَقَابَ قَوْسٍ أحدكم في سبيل الله خير من الدنيا وما فيها﴾، وفي حديث آخر: ﴿لَقَابَ قَوْسٍ أحدكم في الجنة﴾. وقوله تعالى: ﴿أَوْ أَدْنَى﴾، معناه: على مقتضى نظر البشر، أي: لو رآه أحدكم لقال في ذلك: قوسان أو أدنى، وقال أبو رزين: ليست بهذه القوس ولكن قدر الذراعين أو أدنى، وحكى الزهراوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن القوس في هذه الآية ذراع تُقاس به الأطوال، وذكره الثعلبي وأنه من لغة الحجاز.

قوله تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰ إِلَيْكَ عَبْدُكَ مَا أَوْحَىٰ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فأوحى الله تعالى إلى عبده محمد ﷺ - ما أوحى، وقال بعض العلماء: المعنى: فأوحى الله تعالى إلى عبده جبريل - عليه السلام - ما أوحى، وفي قوله تعالى: ﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ إبهام على جهة التفخيم والتعظيم، الذي عُرف من ذلك فرض الصلاة. وقال الحسن: المعنى: فأوحى

جبريل إلى عبد الله محمد عليهما الصلاة والسلام ما أوحى، كالأول في الإبهام، وقال ابن زيد: المعنى: فأوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى الله تعالى إلى جبريل عليهما الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾، قرأ جمهور القراء بتخفيف الذال على معنى: لم يكذب قلب محمد عليه الصلاة والسلام الشيء الذي رأى بل صدقه وتحققه نظراً. و﴿كَذَّبَ﴾ يتعدى، وقال أهل التأويل - ومنهم ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو صالح -: رأى محمد ﷺ تعالى بفؤاده، وقال النبي ﷺ: ﴿جعل الله تعالى نور بصري في فؤادي فنظرت إليه بفؤادي﴾، وقال آخرون من المتأولين: ما رآه بعينه لم يكذب ذلك قلبه بل صدقه وتحققه، ويحتمل أن يكون التقدير: «فيما رأى»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - فيما زوي عنه - وعكرمة، وكعب الأحبار: إن محمد ﷺ رأى ربه عز وجل بعيني رأسه، ويسط الزهراوي هذا الكلام عنهم، وأبت عائشة رضي الله عنها، وقالت: أنا سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآيات فقال لي: «هو جبريل فيها كلها»، وقال الحسن: المعنى: ما رأى من مقدرات الله تعالى وملكوته، وسأل أبو ذر النبي ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال: «نور أتى أراه»، وهذا هو قول الجمهور، وحديث عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قاطع لكل تأويل في اللفظ؛ لأن قول

غيرها إنما منتزَع من أفاظ القرآن. وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما - فيما روى عنه هشام -: ﴿مَا كَذَّبَ﴾ بتشديد الذال، وهي قراءة أبي رجاء، وأبي جعفر، وقتادة، والجحدري، وخالد، ومعناه بيّن على بعض ما قلناه، وقال كعب الأحبار: إن الله تعالى قسم الكلام والرؤية بين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام: فكلم موسى مرتين، ورآه محمد مرتين، وقالت عائشة رضي الله عنها: لقد قف شعري لسماع هذا، وقلت: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْآبَتْسُرُ﴾ الآية. وذهبت هي وابن مسعود، وقتادة، وجمهور العلماء إلى أن المرثي هو جبريل عليه السلام في المرتين: في الأرض وعند سيدة المنتهى ليلة الإسراء، وقد تقدّم ذلك في سورة الإسراء، وهو مشهور في كتب الصحاح.

وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر هذه السورة كلها بفتح أواخر الآيات فيها، وأمال عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿رَأَىٰ﴾، وقرأ نافع، وأبو عمرو، بين الفتح والكسر، وأمال حمزة والكسائي جميع ما في السورة، وأمال أبو عمرو - فيما روى عنه أبو عبيد -: ﴿الْأَعْلَىٰ﴾ و﴿تَدَلَّىٰ﴾.

(٧٧) - (٧٨) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَنْتَرَبْتَهُ﴾ خطاب لقرش، وهو من المراء، والمعنى: أنتجادلونه في شيء رآه وأبصره؟ وهذه قراءة الجمهور وأهل المدينة، وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وابن مسعود، وحمزة

﴿رَهَاءَ﴾، والمعنى: رآه في هذه الحال، و﴿مَا يَنْتَقَى﴾ معناه: من قدرة الله تعالى وأنواع الصفات التي يخترعها لها، وذلك مُبْتَهَمٌ على جهة التفتيح والتعظيم، وقال مجاهد: ذلك تَبَدُّلُ أَغْصَانِهَا ذُرًّا وَيَاقُوتًا ونحوه، وقال ابن مسعود، ومسروق، ومجاهد، وإبراهيم: ذلك جراد من ذهب كان يغشاها، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «رَأَيْتَهَا ثُمَّ حَالَ دُونَهَا فِرَاشٌ مِنَ الذَّهَبِ»، وقال الربيع، وأبو هريرة: كان يغشاها الملائكة كما يغشى الطير الشجر، وقيل غير هذا مما هو تكلف في الآية لأن الله تعالى أبهم ذلك وهم يريدون شرحه، وقد قال رسول الله ﷺ: «فَغَشِيَهَا أَلْوَانٌ لَا أَدْرِي مَا هِيَ».

قوله تعالى: ﴿مَا رَأَى الْبَصَرُ﴾، قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: ما حال هكذا ولا هكذا، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّ﴾ معناه: ولا تجاوز الحد المرئي بل وقع عليه وقوعاً صحيحاً، وهذا تحقيق للأمر ونفي لوجوه الريب عنه.

قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾. قالت جماعة من أهل التأويل: لقد رأى الكبرى من آيات ربِّه، والمعنى: من آيات ربِّه التي يمكن أن يراها البشر، ف﴿الْكُبْرَى﴾ - على هذا - مفعول ب﴿رَهَاءَ﴾، وقال آخرون: المعنى: لقد رأى بعضاً من آيات ربِّه الكبرى، ف﴿الْكُبْرَى﴾ - على هذا - وصف لـ ﴿آيَاتِ﴾، والجمع مما لا يعقل في المؤنث بوصف أبداً على حد وصف

يُنْتَقَى، ولا يتجاوزها ملائكة العلو، وما صعد من الأرض فعندها يُنْتَقَى ولا يتجاوزها ملائكة السفلى، ورؤي عن رسول الله ﷺ: «أَنَّ الْأَمْسَ تَسْتَظِلُّ بِظِلِّ الْفَتَنِ مِنْهَا»، وقال رسول الله ﷺ: «رُفِعَتْ لِي سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبْهَأُ مِثْلَ قَلَالِ هَجْرٍ، وَإِذَا وَرَقَهَا مِثْلَ آذَانِ الْفَيْلَةِ».

قوله تعالى: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾، قال الجمهور: أراد تعالى أن يعظم مكان السدرة ويشرفه بأن جنة المأوى عندها، قال الحسن: وهي الجنة التي وعد بها المؤمن العالم، وقال قتادة، وابن عباس - بخلاف - هي جنة تأوي إليها أرواح الشهداء والمؤمنين وليست بالجنة التي وعد بها المؤمنون جنة النعيم، وهذا يحتاج إلى سند، وما أراه يصح عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأنس بن مالك - بخلاف - وابن الزبير، وأبو الدرداء، وزر بن حُبَيْش، وقاتدة، ومحمد بن كعب: ﴿عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ بالهاء في ﴿جَنَّتْ﴾، وهو ضمير محمد ﷺ، والمعنى: سَتَرَهُ وَضَمَّهُ إِبْوَاءَ اللَّهِ تَعَالَى وَجَمِيلُ صَنْعِهِ بِهِ، يُقَالُ: ﴿جَنَّتْ﴾ اللَّيْلُ وَأَجَّتْ، وَرَدَّتْ عَائِشَةُ وَصَحَابَةٌ مَعَهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ هَذِهِ الْقِرَاءَةُ وَقَالُوا: أَجْنَى اللَّهُ مِنْ قَرَأَهَا، وَالْجُمْهُورُ قَرَأُوا: ﴿جَنَّتْ﴾ كَالْآيَةِ الْأُخْرَى: ﴿فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا﴾، وحكى الشعلبي أن معنى ﴿جَنَّتْ الْمَأْوَى﴾: ضَمَّهُ الْمَبِيتُ وَاللَّيْلُ. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَنْتَقَى اللَّيْدَةَ مَا يَنْتَقَى﴾، العامل في ﴿إِذْ﴾

والكسائي: ﴿أَفْتَمَرُونَهُ﴾ بفتح التاء دون ألف بعد الميم، والمعنى: أفتمجدونه؟ وذلك أن قريشاً لما أخبرها رسول الله ﷺ بأمره في الإسراء كذبوا واستخفوا حتى وصف لهم بيت المقدس وأمر غيرهم وغير ذلك مما هو في حديث الإسراء مستقصى، ورواه سعيد عن الثَّخَعِيِّ: ﴿أَفْتَمَرُونَهُ﴾ بضم التاء، قال أبو حاتم: وذلك غلط من سعيد. وقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾ مستقبلاً والرؤية قد مضت عبارة تَعْمُّ ما مضى وتشير إلى ما يمكن أن يقع بعد، وفي هذا نظر.

واختلف الناس في الضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَهَاءَ﴾ حسب ما قدمناه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما، وكعب الأحبار: هو عائذ على الله تعالى، وقال ابن مسعود، وعائشة، ومجاهد، والربيع: هو عائذ على جبريل عليه السلام، و﴿نَزَلَتْ﴾ معناه: مرّة، ونصبه على المصدر في موضع الحال. و﴿سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى﴾ هي شجرة نَبْتٌ، قال كعب: هي في السماء السابعة، وروى ذلك مالك بن صعصعة عن النبي ﷺ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: في السماء السادسة، وقيل لها «سدرة المنتهى»: لأنها إليها ينتهي علم كل عالم، ولا يعلم ما وراءها صُعُداً إلا الله تبارك وتعالى، وقيل: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّهَا إِلَيْهَا يَنْتَهِي مِنْ مَاتَ عَلَى سُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وهم المؤمنون حقاً من كل جيل، وقيل: سُمِّيَتْ بِذَلِكَ لِأَنَّ مَا نَزَلَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ تَعَالَى فَعِنْدَهَا

الواحدة، وقال ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: رأى رفرفاً أخضر من الجن قد سد الأفق، وقال ابن زيد: رأى جبريل عليه السلام في الصورة التي هو بها في السموات.

﴿١٩﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ مخاطبة لقريش، وهي من رؤية العين لأنه أحال على أجرام مرئية، ولو كانت «رأى» التي هي استفاء لم تتعد.

ولما فرغ من ذكر عظمة الله تعالى وقدرته قال - على جهة التوقيف -: أرايتم هذه الأوثان وحقارتها وبعدها عن هذه القدرة والصفات العلية؟

و «اللآت» صنم كانت العرب تُعظمه، قال أبو عبيدة وغيره: كان في الكعبة، وقال قتادة: كان بالطائف، وقال ابن زيد: كان بنحلة عند سوق عكاظ، وقول قتادة أرجح، ويؤيده قول الشاعر:

وَفَرَّتْ ثَقِيفٌ إِلَى لَائِتِهَا

بِمُنْقَلَبِ الْخَائِفِ الْخَائِسِ
وَالتَّاءُ فِي «اللَّائِتِ» لَامُ فَعْلٍ كَالْبَاءِ

من باب، وقال قوم: هي تاء التأنيث، والتصريف يمنع ذلك، وقرأ ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح:

﴿اللَّائِتُ﴾ بِشَدِّ التَّاءِ، وَقَالُوا: كَانَ

هذا الصنم حجراً، وكان عنده رجل من يهز يُلْتُ سويق الحاج على ذلك الحجر ويخدم الأصنام، فلما مات عبدوا ذلك الحجر الذي كان عنده إجلاًلاً لذلك الرجل وسُمِّوه باسمه، ورويت هذه القراءة عن ابن كثير، وابن عامر.

و «العزى» صخرة بيضاء كانت

العرب أيضاً تعبدها وتُعظمها، قاله سعيد بن جبيرة، وقال مجاهد: كانت شجيرات تعبد ثم لما بليت انتقل أمرها إلى صخرة، و«عزى» مؤنثة «عزيز» ككبرى وعظمتى، وكانت هذه الأوثان تُعظم وتُعبَد، الوثن منها له قبيلة تُعظمه، ويحيء كل من عز من العرب فيعظمها بتعظيم حاضرها، وقال أبو عبيدة مغمم: كانت العزى ومناة في الكعبة، وقال ابن زيد: كانت العزى في الطائف، وقال قتادة: كانت بنحلة، وأما مناة فكانت بالمشلل من قديد، وذلك بين مكة والمدينة، وكانت أعظم هذه الأوثان قدراً، وأكثرها عبادة، وكانت الأوس والخزرج تُهل لها، ولذلك قال الله تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّائِيَةِ الَّتِي كَانَتْ تُعْبَدُ مِنْ قَبْلِكَ وَبُنِيَّتُهَا الْمُشْرِكُونَ﴾ فأكدتها بهاتين الصفتين، كما تقول: رأيت فلاناً وفلاناً، ثم تذكر ثالثاً أجل منهما فتقول: وفلاناً الآخر الذي من أمره وشأنه، ولقظة «آخر» و«أخرى» يوصف بهما الثالث من المعدودات، وذلك نص في الآية، ومنه قول ربيعة بن مكرم:

وَلَقَدْ شَفَعْتُهُمَا بِأَخْرَ تَالِيكِ

وهو التأويل الصحيح في قول الشاعر:

جَعَلْتُ لَهَا عَوْدَتَيْنِ مِنْ

نَسَمٍ وَأَخْرَ مِنْ نَسَامَةٍ

وقرأ ابن كثير وحده: ﴿وَمَنَاةٌ﴾

بالحمزة والمد، وهي لغة فيها، والأولى أشهر وهي قراءة الناس، ومنها قول جرير:

أَزِيدَ مَنَاةً تُوعِدُ يَا بِنْتُ تَيْمِ

تَأْمَلُ أَيْنَ تَأْتِي بِكَ الْوَعِيدُ

وقف تعالى الكفار على هذه الأوثان وعلى قولهم فيها؛ لأنهم كانوا يقولون: هي بنات الله، فكأنه قال: أرايتم هذه الأوثان وقولكم هي بنات الله؟ ألكم الذكر وله الأنثى؟ أي: التثؤن المستحسن المحبوب هو لكم موجود فيكم، والمذموم المستقل عندكم هو له بزعمكم؟ ثم قال تعالى - على جهة الإنكار -: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّا جَاءْنَا بِحُجَّةٍ لَكُمُ الْوَيْحِيُّ الَّذِي جَاءَنَا بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَنَافِلُكُمْ بِهِ﴾، أي: عوجاء، قاله مجاهد، وقيل: ﴿وَيْحِيٌّ﴾ معناه: جائرة، قاله ابن عباس وقتادة، وقال سفيان: معناه: منقوصة، وقال ابن زيد: معناه: مخالفة، والعرب تقول: «ضُرْتُه حَقُّهُ أضيُّرُهُ» بمعنى: منعتُه منه وظلمتُه فيه، و«ضيُّرِي» من هذا التصريف، وأصلها فُعَلِي بضم الفاء «ضُورِي» لأنه القياس؛ إذ لا يوجد في الصفات فُعَلِي بكسر الفاء، كذا قال سيبويه وغيره، فإذا كان هذا فهو «ضُورِي» كسروا أولها كما كسب أول «عَيْنٍ وبيضٍ» طلباً للتخفيف؛ إذ الكسرة والياء أخف من الضمة والواو، كما قالوا: «بُيُوتٌ وعصي» وهي في الأصل فُعول بضم الفاء، وتقول العرب: «ضُرْتُه أضُورُهُ»، فكان يلزم على هذا التصريف أن تكون «ضُورِي» فُعَلِي، وفي جميع هذا نظر. وقرأ ابن كثير: ﴿ضُورِي﴾ بالهمز على أنه مصدر كذكري، وقرأ الجمهور بغير همز.

ثم قال تعالى: ﴿إِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ المَوْتَ﴾، يعني تعالى أن هذه الأوصاف - من أنها إناث، وأنها تُعبَد من دون الله ألهة ونحو هذا - ما هي

محمد ﷺ، بمعنى أنه لم ينل كرامتنا بتأميل بل بفضل من الله تعالى، أو بمعنى: بل إنه تمنى كرامتنا فنالها؛ إذا الكلُّ لله تعالى يهب من يشاء، هذا ما تقتضيه الآية وإن كان اللفظ يعمه.

و «الْآخِرَةُ وَالْأُولَى»: الداران، أي: له كل أمرهما ملكاً ومقدوراً وتحت سلطانه.

وقوله تعالى: ﴿وَرَكْرَكٌ مِّن مَّاءٍ﴾ الآية... رَدُّ عَلَى قريش في قولهم: «الأوثان شفعاؤنا»، كأنه تعالى يقول: هذه حال الملائكة الكرام فكيف بأوثانكم؟ و ﴿رَكْرَكٌ﴾ للتكثير، وهي في موضع رفع بالابتداء، والخبر ﴿لَا تَنفَى﴾، والغنى: جَلْبُ النَّفْعِ ودفع الضرِّ بحسب الأمر الذي يكون فيه الغنى، وجمع الضمير في ﴿شَفَعْتُمْهُمْ﴾ على معنى ﴿رَكْرَكٌ﴾، ومعنى الآية أن يأذن الله تعالى في أن يُشْفِعَ لشخص ما يرضى عنه كما أذن في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَجْمَلُونَ الْمُكْرَمِينَ وَمَنْ حَوْلَهُ﴾ الآية.

(٢٧) - (٣١) تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ هم كفار العرب، وقوله تعالى: ﴿لَيْسَتُوا مِنَ النَّاسِ﴾ معناه: ليصفون الملائكة بأوصاف الأنوثة، وأخبر الله تعالى عنهم أنهم لا علم لهم بذلك، وإنما هي ظنون منهم لا حجة لهم عليها، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مَنْ عَلِمَ إِلَّا تَبَاعَ الظَّنُّ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالظَّنُّ لَا يَكْفِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ يعني: في المعتقدات والمواضع التي يريد الإنسان أن يُحَرِّزَ ما يفعل ويعتقد، فإنها مواضع

إلى حسن العاقبة العقل والشعر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْمُدْكِيُّ﴾ اعتراض بين الكلامين فيه توبيخ لهم؛ لأن سرد القول إنما هو: «إن يتبعون إلا الباطل وما تهوى الأنفس أم للإنسان ما تمنى»، ثم اعترض بعد قوله تعالى: ﴿وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ﴾ بقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْمُدْكِيُّ﴾، أي: يفعلون هذه القبائح والهدى حاضر والحال هذه، فقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِّن رَّبِّهِمُ الْمُدْكِيُّ﴾ جملة في موضع الحال.

و «الهدى» المشار إليه هو محمد ﷺ وشرعُه، وقرأ ابن مسعود، وابن عباس رضي الله عنهم: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ بالكاف فيهما، وقال الضحاك عنهما: إنهما قرأ: ﴿وَلَقَدْ جَاءَكَ مِّن رَّبِّكَ﴾.

و «الإنسان» في قوله تعالى: ﴿أَمْ لِلْإِنْسَانِ مَا تَنفَى﴾ اسم الجنس، كأنه تعالى يقول: ليست الأشياء بالتمني والشهوات، إنما الأمر كله لله تعالى، والأعمال جارية على قانون أمره ونهيه، فليس لكم أيها الكفرة مرادكم في قولكم: «هذه آلهتنا وهي تشفع لنا وتقرِّبنا زلفى» ونحو هذا. وقال ابن زيد، والطبري: الإنسان هنا هو

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسْئُرُنَّ الْمَلَائِكَةَ حَسِيَةً الْأَنْفُسِ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرَضَ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ وَرَائِهِمْ وَأَرْسَلَ الْغَايِبَةَ ﴿٢٩﴾ فَكَرِهُوا أَنْ يُرْسَلُوا إِلَى الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَهُمْ كَذِبٌ ﴿٣٠﴾ وَأَلْقَى الْقُرْآنَ بِالْحَقِّ وَالْحَقَّ يَسْمَعُونَ ﴿٣١﴾ وَالَّذِينَ يَتَّبِعُونَ كَثِيرٌ إِلَّا لِبَعْضِ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَيْبَكَ وَرَيْبَ الْمُشْرِكِينَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُكْرِمُونَ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَعِينُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٣٣﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٣٤﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٣٥﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٣٦﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٣٧﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٣٨﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٣٩﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤٠﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤١﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤٢﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤٣﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤٥﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤٦﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤٧﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤٨﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٤٩﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥٠﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥١﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥٢﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥٣﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥٤﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥٥﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥٦﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥٧﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥٨﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٥٩﴾ وَإِذَا نَسُوا اللَّهَ فَنَسَوا نَسْوَهُمْ فَاتَّخَذُوا لِلْكَافِرِينَ حُرْمًا ﴿٦٠﴾

إلا أسماء، أي: تسميات اخترعتموها أنتم وآباؤكم، لا حقيقة لها، ولا أنزل الله تعالى بها برهاناً ولا حجة، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿سُلْطَانٍ﴾ بضم اللام، وقرأ هو وابن مسعود، وابن عباس، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ﴾ بالثاء على المخاطبة، وقرأ أبو عمرو، وعاصم، ونافع، والأعمش أيضاً، والجمهور: ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ بالياء على الحكاية عن الغائب.

و «الظَّنُّ»: مَبْتَلُ النفس إلى أحد معتقدين متخالفين دون أن يكون ميلها بحجة ولا برهان، و«هَوَى النَّفْسِ» هو إرادتها الملذة لها، وإنما تجد هوى النفس دائماً في ترك الأفضل لأنها مجبولة بطبيعتها على حب الملذ، وإنما يردعها ويسوقها

يكون متصلاً، وإن قدرته منقطعاً
ساح ذلك.

واختلف الناس في معنى ﴿اللَّمَّ﴾ -
فقال ابن عباس، وابن زيد: معناه:
ما أَلْمُوا به من الشُّرك والمعاصي في
الجاهلية قبل الإسلام، قال الثعلبي،
عن ابن عباس، وزيد بن ثابت،
وزيد بن أسلم، وأبيهِ: إن سبب
الآية أن الكفار قالوا للمسلمين: قد
كنتم بالأمس تعملون أعمالنا، فنزلت
الآية، فهي مثل قوله تعالى: ﴿وَأَنْ
تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ
سَلَفَ﴾، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما وغيره: معناه: إلا
ما أَلْمُوا به من المعاصي، الفلته
والسقطه دون دوام، ثم يتوبون منه،
وذكر الطبري عن الحسن بن أبي
الحسن أنه قال: هي اللَّمَّة من الزُّنى
والسرقة وشرب الخمر ثم لا يعود،
وهذا كالذي قبله، فكأن هذا التأويل
يقتضي الرِّفْق بالنَّاس في إدخالهم في
الوعد بالحسنى؛ إذ الغالب في
المؤمنين موقعة المعاصي،
وعلى هذا أنشدوا - وقد تمثل به
النبي ﷺ :-

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا
وَأَيُّ غَنْبِدِكَ لَا أَلْمَا
وقال أبو هريرة، وابن عباس،
والشعبي، وغيرهم: اللَّمَم: صغار
الذنوب التي بين الحدِّين الدنيا
والآخرة، وهي ما لا حدَّ فيه ولا
وعيد مختصاً بها مذكوراً لها، وإنما
يقال صغار بالإضافة إلى غيرها، وإلا
فهي بالإضافة إلى الناهي عنها كباثر
كلها، ويعضد هذا قول النبي ﷺ:
«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَى ابْنِ آدَمَ حِظَّهُ مِنْ

يُضِلُّ مِنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مِنْ يَشَاءُ
لِيَجْزِيَ. والنظر الأول أقل تكلفاً من
هذا الإضمار، وقال قوم: اللام
متعلقة بقوله تعالى في أول السورة:
﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَحْمَةٌ يُوْحَىٰ﴾، وهذا
بعيد. «والْحُسْنَى» هي الجنة، ولا
حُسْنَى دونها.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ﴾ نعت لـ
﴿الَّذِينَ﴾ المتقدم قبله،
﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ معناه: يَدْعُونَ جانباً،
وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿كَيْتَرَ
الْآثِرِ﴾، وقرأ ابن وثاب، وطلحة،
والأعمش، وعيسى، وحمزة،
والكسائي: ﴿كَبِيرِ الْإِثْمِ﴾ على
الإفراد الذي يراد به الجمع، وهذا
كقوله تعالى: ﴿فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ﴾
وَلَا صَدِيقِي حَمِيمٍ ﴿٣٢﴾، وكقوله تعالى:
﴿وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾.

واختلف الناس في الكباثر، ما
هي؟ فذهب الجمهور إلى أنها
السُّبُع الموبقات التي وردت في
الأحاديث، وقد مضى القول في
ذكرها واختلاف الأحاديث فيها في
سورة النساء، وتحريم القول في
الكباثر أنها كل معصية يوجد فيها
حدٌ في الدنيا وتَوَعَّدُ بنار في
الآخرة، أو لعنة أو نحو هذا خاصاً
بها، فهي كثيرة العدد، ولهذا قال
ابن عباس رضي الله عنهما - حين
قيل له: أَسْبَغَ هي؟ - فقال: هي
إلى السبعين أقرب منها إلى السبع،
وقال زيد بن أسلم: كبير الإثم هنا
يرادُّ به الكفر، «الفواحش» هي
المعاصي المذكورة، وقوله تعالى:
﴿إِلَّا اللَّمَّ﴾ هو استثناء يصح أن

وحقائق لا تنفع الظنون فيها، وأما
في الأحكام وظواهرها فَيُجْتَزَأُ فيها
بالمظنونات. ثم سَلَى تعالى نبيه ﷺ
وأمره بالإعراض عن هؤلاء الكفرة،
وما في الآية من موادعتهم منسوخ
بآية السيف. وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رُذِّ
إِلَّا الْحَيَوةَ الدُّنْيَا﴾ معناه أن لا يُصدق
بغيرها، وسعيه وعمله إنما هو
للدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَبْلَهُمْ بَيْنَ
الْأَيْلِمِ﴾ معناه: هنا انتهى تحصيلهم
من المعلومات، وذلك أن
المعلومات منها ما هي معقولات
نافعة في الآخرة، ومنها ما هي أمور
فانية وأشخاص بائدة كالفلاحة وكثير
من الصنائع وطلب الرياسة على
الناس بالمخرقة، وكلها معلومات
ولها علم، ومبلغ علم الكفرة إنما
هو في هذه الدنياويات.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ﴾
الآية... متصل في معنى التَّسْلِيَةِ
بقوله تعالى: ﴿فَأَقْرَضَ عَنْ مَن تَوَكَّلُ
عَنْ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
أَعْلَمُ﴾ الآية... وعيدٌ للكفار ووعدٌ
للمؤمنين، وأسند الضلالة والهدى
إليهم بكسبهم وإن كان الجميع خلقاً
له واختراعاً، واللام في قوله تعالى:
﴿يَجْزِي﴾ متعلقة بقوله تعالى:
﴿سَلِّ﴾، وبقوله تعالى: ﴿أَهْتَدَيْتُمْ﴾،
فكأنه تعالى قال: ليصير أمرهم
جميعاً إلى أن يجزي، وقوله تعالى:
﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾
اعتراضٌ بين الكلامين، وقال بعض
النحويين: اللام متعلقة بما في
المعنى من التقدير، لأن تقديره: والله
ما في السموات وما في الأرض

الزنى لا محالة، فزنى العيين النظر، وزنى اللسان النطق، والفرج يكذب ذلك أو يصدقه، فإن تقدم فرجه فهو زان، وإلا فهو السَّم، وزوي أن هذه الآية نزلت في نُبْهَان الثَّمار، فالناس لا يتخلصون من موافقة هذه الصغائر، ولهم - مع ذلك - الحسنى إذا اجتنبوا التي هي في أنفسها كبائر، وتظاهر العلماء في هذا القول وكثر المائل إليه، وذكر الطبري عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه قال: اللَّمَم ما دون الشُّرك، وهذا عندي لا يصح عن عبدالله بن عمرو، وذكر المهدي عن ابن عباس، والشعبي: اللَّمَم ما دون الزُّنى، وقال نفطوية: اللَّمَم ما ليس بعمتاد، وقال الرُّمائي: اللَّمَم الهَمُّ بالذنب وحديث النفس به دون أن يواقع، وحكى الثعلبي عن سعيد بن المسيب أنه ما خطر على القلب، وذلك هو لُمة الشيطان، قال الزهرواي: وقيل: اللَّمَم نظرة الفجأة، وقاله الحسن بن الفضل. ثم أسس تعالى بعد هذا بقوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ ذِيعُ الْمُتَغَيَّرِ﴾.

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَتَعْلَمُ بِكَ﴾ الآية. زوي عن عائشة رضي الله تعالى عنها أنها نزلت بسبب قوم من اليهود كانوا يُعظِّمون أنفسهم، ويقولون للطفل إذا مات عندهم: هذا صديق عند الله تعالى، ونحو هذا من الأقاويل المُؤمَّقة، فنزلت الآية فيهم ثم هي بالمعنى عامة لجميع البشر. وحكى الثعلبي عن الكلبي ومقاتل أنها نزلت في قوم من المؤمنين فخرُوا بأعمالهم. وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَتَعْلَمُ

بِكَ﴾ قال مكى بن أبي طالب في المشكل: معناه: هو عالم بكم، وقال جمهور أهل المعاني: بل هو التفضيل بالإطلاق، أي: هو أعلم من الموجودين جملة، والعامل في ﴿إِذْ هُوَ أَتَعْلَمُ﴾، وقال بعض النحاة: العامل فيها فعل مضمَر تقديره: اذكروا إذ، والمعنى الأول أئين؛ لأنَّ تقديره: فإذا كان علمه قد أحاط بكم وأنتم في هذه الأحوال وقع بكم التخفي فأحرى أن يقع بكم وأنتم تغفلون وتجرحون.

والإنشاء من الأرض يراد به خلق آدم عليه السلام، ويحتمل أن يراد به إنشاء الغذاء، و﴿أَجِنَّةٌ﴾ جمع جنين، وقوله تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أُنْفُسَكُمْ﴾ ظاهره النهي عن أن يُزَكِّي أحد نفسه، ويحتمل أن يكون نهيًا عن أن يُزَكِّي بعض الناس بعضاً، وإذا كان هذا فإنما ينهى عن تزكية السُّمة والمدح للدنيا، أو القطع بالتركية، ومن ذلك الحديث في عثمان بن مظعون عند موته، وأما تزكية الإمام والقعدة أحدًا ليوثم به أو لِيَتَهَمَمَ الناس بالخير فجائز، وقد زكى رسول الله ﷺ بعض أصحابه، أبا بكر وغيره رضي الله عنهم، وكذلك تزكية الشهود في الحقوق جائز للضرورة إليها، وأصل التزكية إنما هو التقوى، والله تعالى هو أعلم بتقوى الناس منكم.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَدْعُو﴾ الآية. قال مجاهد، وابن زيد، وغيرهما: نزلت في الوليد بن المغيرة المخزومي، وذلك أنه كان قد سمع قراءة النبي ﷺ، وجلس

إليه، ووَعظَهُ رسول الله ﷺ، فَقَرَّبَ من الإسلام، وطمع النبي ﷺ فيه، ثم إنه عاتبه رجل من المشركين وقال له: أنت ترك ملة آبائك؟ أرجع إلى دينك واثبت عليه وأنا أتحمِل لك بكل شيء تخافه في الآخرة، لكن على أن تعطيني كذا وكذا من المال، فوافقه الوليد بن المغيرة على ذلك، ورجع عمًا هم به من الإسلام، وضلَّ ضلالاً بعيداً، وأعطى ذلك المال لذلك الرجل ثم أمسك عنه وشحَّ، فنزلت الآية فيه. وذكر الثعلبي عن قوم أنها نزلت في عثمان بن عفان رضي الله عنه في قصة جرت له مع عبدالله بن سعيد بن أبي سرح، وذلك كله عندي باطل، وعثمان عن مثله مُتَزَّة.

وقال السُّدي: نزلت في العاص بن وائل، فقوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْتَفَى﴾ - على هذا القول - هو في المال، وقال مقاتل بن حيان في كتاب الثعلبي: المعنى: وأعطى من نفسه قليلاً في قربه من الإيمان، ثم أكفَى، أي: انقطع ما أعطى، وهذا بين من اللفظ، والآخر يحتاج إلى رواية. و﴿تَوَكَّلْ﴾ معناه: أدبر وأعرض، والمراد: عن أمر الله تعالى، و﴿وَأَكْتَفَى﴾ معناه: انقطع عطاؤه، وهو مُشَبَّه بالحافر في الأرض، فإنه إذا انتهى إلى كُذْبَةٍ - وهي ما صلب من الأرض - وقف وانقطع حفره، وكذلك: أجبَل الحافر إذا انتهى إلى جبل، ثم قيل لمن انقطع عمله: أكفَى وأجبَل.

وقوله تعالى: ﴿أَعْبُدْهُ يَوْمَ الْقِيَامِ يَوْمَ تُبْرَكُ﴾ معناه: أعلم من الغيب أن

من تحمّل ذنوب آخر فإن المتحمّل عنه ينتفع بذلك فهو لهذا الذي علّمه يرى الحقّ وله فيه بصيرة، أم هو جاهل لم يتنبأ بما في صحف موسى - وهي التوراة - وفي صحف إبراهيم - وهي كتب نزلت عليه من السماء - من أنه لا تزِرُّ وازرّة ووزر أخرى؟ أي: لا تحمل حاملة جمل أخرى، وإنما يؤخذ كل أحد بذنوب نفسه، فلما كان جاهلاً بهذا وقع في إعطاء ماله الذي قال له: أنا اتحمّل عنه ذنك الآخرة.

واختلف المفسرون في معنى قوله تعالى: ﴿الَّذِي رَفَعْنَا﴾، وفي ما هو الموقى؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا قبل إبراهيم عليه السلام يأخذون الولي بالولي في القتل ونحوه، فوقى إبراهيم عليه السلام وتبلغ هذا الحكم من أنه لا تزِرُّ وازرّة ووزر أخرى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، والربيع: وقى طاعة الله تعالى في ذبح ابنه عليهما السلام، وقال الحسن، وابن جبّير، وقتادة: وقى تبليغ رسالته والمجاهدة في ذات ربه تعالى، وقال عكرمة: وقى هذه العشر الآيات: ﴿الَّذِي رَفَعْنَا وَرَزَقْنَا﴾، فما بعدها، وقال ابن عباس، وقتادة، وعكرمة: وقى ما افترض عليه من الطاعات على وجهها، وتكملت له شعب الإيمان والإسلام، فأعطاه الله تعالى براءته من النار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: وقى شرائع الإسلام ثلاثين سهماً، وقال أبو أمامة - ورفعه إلى النبي ﷺ -: وقى أربع

صلوات في كل يوم، والأقوى من هذه كلها القول العام لجميع الطاعات المستوفية لدين الإسلام، فروي أنها لم تفرض على أحد مكتملة فوقها إلا على إبراهيم ومحمد ﷺ، ومن الحجّة لذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذِّنْ لِلنَّبِيِّ إِبْرَاهِيمَ أَن يَتْلُو عَلَيْهِ كِتَابَ رَبِّهِ بِالْحَقِّ فَاَتَمَّهُنَّ﴾.

وقرأ ابن جبّير، وأبو مالك، وابن السميع: ﴿وقى﴾ مخففة الفاء، والخلاف فيهما وقى به كالخلاف فيما وقاه على القراءة الأولى التي فسرنا،

ورويت هذه القراءة عن النبي ﷺ، وقرأها أبو أمامة.

و «الوزر»: الثقل، وأنت «الوازر» إما لأنه أراد النفس، وإما أنه أراد المبالغة كعلامة ونسابة وما جرى مجراهما، و«أن» في قوله سبحانه: ﴿الَّذِي رَفَعْنَا﴾ مخففة من الشقيلة، وتقديرها: أنه لا تنزل، وحسن الحائل بينها وبين الفعل أن بقي الفعل مرتفعاً، فهي كقوله تعالى: ﴿عَلِمَ أَنَّ سَيَكُونُ يَسْكَرُ تَرْجِيئًا﴾ ونحوه، و«أن» في موضع رفع أو خفض كلاهما مترتب.

١٧٨٥ - ١٧٨٦ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ﴾، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿وَأَن﴾، و«أنت» معطوف كل ذلك على «أن» المقدرة في قوله تعالى: ﴿الَّذِي رَفَعْنَا وَرَزَقْنَا﴾، وهي كلها بفتح الألف في قراءة

وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ۗ مِن تَحْفَؤَادَاتِنِ ۗ وَأَن عَلِيًّا نَشَأَ الْآخِرَىٰ ۗ وَأَنَّهُ هُوَ أَعْفَىٰ ۗ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الْيَتِيمِ ۗ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ ۗ وَنَوْمًا أَمَّا الثَّانِي ۗ وَقَوْمٌ يُؤَيِّسُ مِن قَوْلِ رَبِّهِمْ كَأَنَّهُمْ لَأَطْلَمُ وَأَطْلَقَ ۗ وَالنَّوْفُوكَةَ أَمْوَعًا ۗ فَفَسَّخْنَا مَا عَشِنَ ۗ فَيَأْتِي آدَاءَ رَبِّكَ نَسَاءً ۗ هَذَا أَنْذَرْنَا لَكَ الْأُولَىٰ ۗ وَأَوْتِيَ الْأُخْرَىٰ ۗ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَافِيَةٌ ۗ لَوْ أَنَّ هَذَا اللَّيْثُ قَجَّحُونَ ۗ وَفَضْلُكَ كَرِيمٌ ۗ وَلَا تَتَكَبَّرْ ۗ وَأَنْتُمْ سَيِّدُونَ ۗ مَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَأَعْبُدُوا ۗ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْرَبَتِ السَّاعَةُ وَأَشَقُّ الْقَمَرُ ۗ وَإِن يَسِرَّوْا مَا يَهْمُؤُونَ وَيَقُولُوا لِمَنْ رُسُلُنَا مِن قُرْآنٍ وَكُتُبٍ وَأَمْوَةٍ هَذِهِ وَكُلِّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ ۗ وَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ مَا يَهْمُ مَرْدَجَرٌ ۗ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ الْأَنْذُرَ ۗ فَوَلِّ عَنَّهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ هُنَّ وَتُكْفَرُ ۗ

٥٢٨

الجمهور، وقرأ أبو السمال قعب: ﴿وَأَن إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾ بكسر الهمزة فيها وفيما بعدها، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله تعالى: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ منسوخ بقوله تعالى: ﴿وَأَلَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِذْنِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَمُوتُوا﴾، وهذا لا يصح عندني عن ابن عباس رضي الله عنهما لأنه خبر لا يتسخ، ولأن شروط النسخ ليست هنا اللهم إلا أن يتجاوز في لفظة النسخ ليفهم سائلاً، وقال عكرمة: هذا الحكم كان في قوم إبراهيم وموسى عليهما السلام، وأما هذه الأمة فلها سغي غيرها، والدليل حديث سعد بن عبادة، قال: يا رسول الله: هل لأمتي إن طلعت عنها أجر؟ قال: نعم، وقال الربيع بن أنس: هذا

الإنسان في هذه الآية هو الكافر، وأما المؤمن فله ما سعى وما سعى له غيره، وسأل عبدالله بن طاهر بن الحسين والي خراسان الحسين بن الفضل عن هذه الآية مع قوله: ﴿وَاللَّهُ يَكْفِيكَ إِمْنًا﴾، فقال له: ليس له بالعدل إلا ما سعى، وله بفضل الله ما شاء الله، فقبل عبدالله رأس الحسين، وقال الجمهور: الآية محكمة. والتحرير عندي في هذه الآية أن ملاك المعنى هو في اللام من قوله تعالى: ﴿لِلْإِنْسَانِ﴾، فإذا حققت الشيء الذي حق الإنسان أن يقول فيه: «لي كذا» لم تجده إلا سعيه، وما تمَّ بعد من رحمة بشفاعة أو رعاية أب صالح أو ابن صالح أو تضعيف حسنات أو تغمد بفضل أو رحمة دون هذا كله، فليس هو للإنسان ولا يسعُه أن يقول: «لي كذا وكذا» إلا على تجوُّز وإلحاق بما هو له حقيقة، واحتج بهذه الآية من يرى أنه لا يعمل أحد عن أحد بعد موته بيدن ولا مال، وفرَّق بعض العلماء بين البدن والمال، وهي عندي كلها فضائل للعامل وحسنات تُذكر للمعمول عنه، وقد أمر رسول الله ﷺ سعداً رضي الله عنه بالصدقة عن أمه، والسُّغْي: الكسْب.

وقوله تعالى: ﴿رَبِّي﴾ فاعله حاضرو القيامة، أي: يراه الله تعالى ومن شاهد الأمر، وفي عرض الأعمال على الجميع تشريد للمُحسنين وتوبيخ للمُسيئين، ومنه قول النبي ﷺ: «من سمع بأخيه فيما يكره سمع الله به سامع خلقه يوم القيامة».

وفي قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَى﴾ وعيد للكافرين ووعد للمؤمنين.

و «المُنْتَهَى»: يحتمل أن يريد به الحشر والمصير بعد الموت، فهو مُنتهى بالإضافة إلى الدنيا وإن كان بعده مُنتهى آخر هو الجنة أو النار، ويحتمل أن يريد بالمنتهى الجنة أو النار، فهو منتهى على الإطلاق، ولكن في الكلام حذف مضاف، أي: إلى عذاب ربك ورحمته، وقال أبي بن كعب رضي الله عنه: قال النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ﴾: «لا فكرة في الرُّبِّ»، وروى أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إذا ذكر الرُّبُّ فانتهوا»، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: خرج رسول الله ﷺ يوماً على أصحابه فقال: «فيم أنتم؟» قالوا: نتفكر في الخالق سبحانه وتعالى، فقال عليه الصلاة والسلام: «تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلَا تَتَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ فَإِنَّهُ لَا تَحِيْطُ بِالْفِكْرَةِ...» الحديث.

وذكر تعالى الضحك والبكاء لأنهما صفتان تجمعان أصنافاً كثيرة من الناس؛ إذ الواحدة دليل السرور والأخرى دليل الحزن في الدنيا والآخرة، فنبه تعالى على هاتين الخاصتين اللتين هما للإنسان وحده، وقال مجاهد: المعنى: أضحك أهل الجنة وأبكى أهل النار، وحكى الثعلبي في هذا أقوالاً استعارية كمن قال: أضحك الأرض بالنبات وأبكى السماء بالمطر، ونحوه، و«أَمَّاكَ وَأَحْيَاكَ» بَيِّنٌ، وحكى الثعلبي قولاً أنه

أحيا بالإيمان وأمات بالكفر. و«الرُّؤُوسِ» في هذه الآية يريد به المُصْطَفِيَّين من الناس، من الرجل المرأة وما ضارع من الحيوان، والخُنْثَى مُتَمَيِّزٌ ولا بُدُّ لإحدى الجهتين.

و «النُّطْفَةُ» في اللغة: القطعة من الماء كانت يسيرة أو كثيرة، ويراد بها هنا الذُّكران، وقوله: ﴿تَمَتَّى﴾ يحتمل أن يكون من قولك: [أمتى الرجل] إذا خرج منه المَتَى، ويحتمل أن يكون من قولك: «مَتَى الله الشيء» إذا خلقه، فكأنه قال: إذا تُخَلِّقُ وتَقْدِّرُ، و«النُّشَاءُ الأخرى» هي إعادة الأجسام إلى الحشر بعد البلى في التركيب، وقرأ الناس: «النُّشَاءُ» بسكون الشين وبالهمزة والقصر، وقرأ أبو عمرو، والأعرج: «النُّشَاءُ» بمدودة، و«أَتَى» معناه: أكَسَبَ، تقول: قنيتُ المال أي: كسبته، ثم تُعَدَّى بعد ذلك بالهمزة، وتُعَدَّى بالضعيف، ومنه قول الشاعر:

كَمْ مِنْ غَنِيٍّ أَصَابَ الدُّهْرُ ثُرُوتَهُ
وَمِنْ فَقِيرٍ تَقَنَّى بَعْدَ إِفْلَالِ
وَعَبْرَ الْمَفْسُورِ عَنْ «أَتَى» عبارات مختلفة، فقال بعضهم: أَتَى معناه: اكتسب ما يفتني، وقال مجاهد: معناه: أرضى وأغنى، وقال حزمي: معناه: أغنى نفسه و«أَتَى» أفقر عباده إليه، وقال الأخفش: أغنى: أفقر، وهذه عبارات لا تقتضيها اللفظة، والوجه فيها بحسب اللغة: أكَسَبَ ما يفتني، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أَتَى: أفتع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقناعة خير قنينة، والغنى عرض زائل، فلهذا ذر ابن عباس رضي الله عنهما.

و «الشغرى»: نجم في السماء، وقال مجاهد وابن زيد: هو مززم الجوزاء، وهما شعريان: إحداهما الغميصاء والأخرى العُبُور، لأنها عبرت المَجْرَةَ، وكانت خزاعة ممن يعبد هذه الشغرى، ومنهم أبو كبشة، ذكره الزهرواي والشعلبي، واسمه عبد الشغرى، فلذلك حُصِتْ بالذکر، أي: وهو ربُّ هذا المعبود الذي هو لكم.

و «عَادَ»: قوم هود، واختلف في معنى وصفها بالأولى - فقال ابن زيد والجمهور: ذلك لأنها في وجه الدهر وقديمه، فهي أولى بالإضافة إلى الأمم المتأخرة، وقال الطبري: سميت بالأولى لأن عاداً أخيرة - وهي قبيلة - كانت بمكة مع العماليق وهم بئو لقيم بن هزال، والقول الأول أبين؛ لأن هذا الأخير لم يصح، وقال المبرد: عاد الأخيرة هي ثمود، والدليل قول زهير:

كأخمر عادٍ ثم تُرضع فتفطم
ذكره الزهراوي، وقيل: الأخيرة: الجبارون. وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عمر، وحمزة، والكسائي: «عَادًا» منونة «الأولى» مهموزة، وقرأ نافع فيما يروى عنه: «عَادَ الأولى» بإزالة التنوين والهمز، وهذا كقراءة من قرأ: «أخذ الله»، وكقول الشاعر:

.....
وَلَا ذَاكِرِ اللَّهِ إِلَّا قَلِيلًا
وَقَرَأَ قَوْمٌ: «عَادَ الْأَوْلَى»،
والنطق بها «عَادَيْنِ الْأَوْلَى»، اجتمع سكون نون التنوين وسكون لام التعريف فكسرت النون لالتقاء الساكنين، ولا فرق بينها وبين قراءة الجمهور إلا ترك الهمز، وقرأ نافع أيضاً، وأبو عمرو بالوصل والإدغام: «عَادَا لَوْلَى» بإدغام النون في اللام ونقل حركة الهمزة إلى اللام، وعاب أبو عثمان المازني والمبرد هذه القراءة وقالوا:

إن هذا النقل لا يخرج اللام عن حدِّ السكون، وحقُّ ألف الوصل أن تبقى كما تقول العرب إذا نقلت الهمزة من قولهم: «الأخمر» فإنهم يقولون: «الأخمرُ جاء»، فكذلك يقال هنا: «عاداً لِّلْوَلَى»، قال أبو علي: والقراءة سائغة، وأيضاً فمن العرب من يقول: «لأخمرُ جاء» فيحذف الألف مع النقل ويغتند بحركة اللام ولا يراها في حكم السكون، وقرأ نافع فيما روي عنه: «عَادَا لِّلْوَلَى»، بهمز «اللؤلؤى»، بهمز الواو، ووجه ذلك أنه لم يكن بين الواو والضممة حائل يحمل الهمزة فهمزها كما تهمز الواو المضمومة، وكذلك فعل من قرأ: «عَلَى سَوِيْقِهِ»، وكما قال الشاعر:

لَحَبِّ الْمُؤَقِدَانِ إِلَيَّ مُؤَسَى
.....
وهي لغة. وقرأ الجمهور: «وَتَمُودًا» بالنصب عطفاً على «عَادًا»، وقرأ عاصم، والحسن،

وعصمة: «وَتَمُودًا» بغير صرف، وهي في مصحف ابن مسعود رضي الله عنه بغير ألف بعد الدال.

وقوله تعالى: «فَأَنْتَنَ» ظاهره: فما أبقي عليهم، وتأول ذلك بعضهم: فما أبقي منهم عينا تطرف، وقد قال ذلك الحجاج حين سمع قول من يقول: إن ثقيفاً من ثمود، فأنكر ذلك وقال: إن الله تعالى قال: «وَتَمُودًا فَآ أَنْتَنَ»، وهؤلاء يقولون: بقي منهم باقية.

٥٢ - ٦٦ تفسير قوله عز وجل:

نصب «قَوْرُ نُوحٍ» عطفاً على «تَمُودَ»، وقوله تعالى: «بَيْنَ قَبَلٍ» لأنهم كانوا أول أمة كذبت من أهل الأرض، و«نوح» أول الرُّسل، وجعلهم «أظلم وأظنى» لأنهم سبقوا إلى التكذيب دون اقتداء بأحد قبلهم، وأيضاً فإنهم كانوا في غاية من العتو، وكان عُمر نوح عليه السلام قد طال في دعائهم، وكان الرجل يأتي إليه مع ابنه فيقول: احذرْك من هذا الرجل فإنه كذاب، ولقد حذرنى منه أبي وأخبرني أن جدِّي حذره منه، فمشت على هذا أخلاقهم ألفاً إلا خمسين عاماً.

و «المؤتفكة» قرية قوم لوط عليه السلام بإجماع من المفسرين، ومعنى «المؤتفكة»: المتقلبة؛ لأنها أفكت فأنفكت، ومنه «الإفك» لأنه قلب الحق كذباً، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «وَالْمُؤْتَفِكَاتِ» على

الجمع، و﴿أَمْرِي﴾ معناه: طرحها في هواء عال إلى أسفل، وهذا ما روي من أن جبريل عليه السلام اقتلعها بجناحه حتى بلغ قرب السماء فهبط الجميع، ثم اتبعوا بحجارة، وهي التي غشاها الله تبارك وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَأَيُّ آلَاءِ رَبِّكَ تَنكَّارٌ﴾ مخاطبة للإنسان الكافر، كأنه قيل له: هذا هو الذي له هذه الأفاعيل، وهو خالقك المنعم عليك بكل النعم، ففي أيها تشك؟ و﴿تَنكَّارٌ﴾ معناه: تَتَشَكُّكُ، وقرأ يعقوب: ﴿رَبِّكَ تَمَّارِي﴾ بتاء واحدة مشددة، وقال أبو مالك الغفاري: إن قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَرَىٰ ذُرِّيَّتَهُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿تَنكَّارٌ﴾ هو في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا نَذِيرٌ﴾ يحتمل أن يشير إلى محمد ﷺ، وهو قول قتادة، وأبي جعفر، ومحمد بن كعب القرظي، ويحتمل أن يشير إلى القرآن، وهو تأويل قوم، وقال أبو مالك: الإشارة بهذا النذير إلى ما سلف من الأخبار عن الأمم، و﴿نَذِيرٌ﴾ يحتمل أن يكون بناء اسم فاعل، ويحتمل أن يكون مصدرًا، و﴿نَذِرٌ﴾ جمع نذير، وقال: ﴿أَلَا يَرَىٰ﴾ بمعنى أنه في الرتبة والأوصاف والمنزلة من تلك المتقدمة، والأشبه أن تكون الإشارة إلى محمد ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ الْآرِثَةَ﴾ معناه: قريت القريبة، و﴿الْآرِثَةَ﴾

عبارة عن القيامة بإجماع من المفسرين، و﴿أَرَفٌ﴾ معناه: قُرْبٌ جدًّا، وقال كعب بن زهير:

بَانَ الشَّبَابُ وَأَنْسَى الشَّبِيبُ قَدْ أَرَفَا
وَلَا أَرَى لِشَبَابٍ ذَاهِبٍ خَلْفًا

وقوله تعالى: ﴿كَاشِفَةٌ﴾ يحتمل أن يكون صفة لمؤنثة، والتقدير: حال كاشفة، أو مؤنثة كاشفة، أو سعاية،

قال الرُّمَّانِي: أو جماعة، ويحتمل أن يكون مصدرًا كالعاقبة و﴿عَائِنَةٌ الْأَعْيُنِ﴾، ويحتمل أن يكون بمعنى

«كاشف» والهاء للبالغة، كما قال تعالى: ﴿فَهَلْ رَزَقْنَا لَهُمْ مِنَّا بَاطِلًا﴾، وأما معنى ﴿كَاشِفَةٌ﴾

فقال الطبري، والزجاج: هو من كشف السُرِّ، أي: ليس من دون الله من يكشف وقتها ويعلمه،

وقال الزهراوي عن منذر بن سعيد: هو من كشف الضُرِّ ودفعه، أي: ليس من يكشف هولها

وخطبها، وقرأ طلحة: ﴿لَيْسَ لَهَا مِمَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ وَهِيَ عَلَى الظَّالِمِينَ سَاءَتِ الْفَآئِثَةُ﴾.

و﴿مَهْدًا لِلدَّيْتِ﴾ هو القرآن، وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن؟﴾ توقيف وتوبيخ،

وفي حرف أبي، وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿تَجَبُّونَ﴾ و﴿تَسْحَكُونَ﴾ بغير واو عطف. وقرأ الحسن: ﴿تُعْجِبُونَ تُضْجِكُونَ﴾ بضم

التاء فيهما وكسر الجيم والحاء وحذف واو العطف، وفي قوله تعالى وجل: ﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ حض على

البكاء عند سماع القرآن، وروى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن هذا

القرآن أنزل يُخَوِّفُ، فإذا قرأتموه فابكوا، فإن لم تبكوا فتابكوا»، ذكره الثعلبي.

و«السَّابِغَةُ»: اللاعبُ اللاهي، وبهذا فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما وغيره من المفسرين، وقال الشاعر:

قَبِلَ قَمٌّ فَانظُرْ إِلَيْهِمْ
ثُمَّ دَعْ عَنكَ السُّمُودَا
و«سَمَدٌ» بلغة جُمَيْر: غَمٌّ، وهذا كله معنى قريب بعضه من بعض، وأسند الطبري عن أبي خالد الوالبي، قال: خرج علينا علي رضي الله عنه ونحن قيام ننتظره للصلاة فقال: مالي أراكم سامدين؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يشبه أنه رآهم في أحاديث ونحوها مما يُظن أنه غفلة ما، وقال إبراهيم: كانوا يكرهون أن ينتظروا خروج الإمام قياماً، وفي الحديث: «إذا أقيمت الصلاة فلا تقوموا حتى تروني».

ثم أمر تعالى بالسجود وعبادة الله تعالى تحذيراً وتخويفاً، وها هنا سجدة في قول كثير من أهل العلم منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه وردت بها أحاديث صحاح، وليس يراها مالك رحمه الله تعالى، وقال زيد بن ثابت رضي الله عنه: إنه قرأ بها عند النبي ﷺ فلم يسجد.

ثم تفسير سورة النجم والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القمر

وهي مكِّيَّة بإجماع إلا آية واحدة اختلف فيها، فقال جمهور الناس: هي مكِّيَّة، وقال قوم: هي مما نزل يوم بدر، وقيل: بالمدينة، وهي قوله تعالى: ﴿سَبِّحْهُمَّ لَمَمَعٌ وَيُولُونَ الدُّبُرَ﴾، وسيأتي القول في ذلك.

١ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

﴿اَقْرَبْتِ﴾ معناه: قربت إلا أنه أبلغ، كما أن اقتدر أبلغ من قدر، و﴿السَّاعَةُ﴾ القيامة، وأمرها مجهول التحديد، لم يعلم إلا أنها قرئت دون تحديد، وقال النبي ﷺ: «بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةُ كَهَاتَيْنِ» وأشار بالشَّيْبَةِ والوسطى، وقال أنس رضي الله عنه: خطب رسول الله ﷺ وقد كادت الشمس تغيب، فقال: «ما بقي من الدنيا فيما مضى إلا كمثل ما بقي من هذا اليوم فيما مضى»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنِّي لأرجو الله أن يُؤَخَّرَ أُمَّتِي نِصْفَ يَوْمٍ» وهذا منه ﷺ على جهة الرجاء والظن، لم يجزم به خيراً، فأناف الله تعالى على أمه وأخر أمته أكثر من رجائه، وكل ما يُروى في عمر الدنيا من التحديد فضعيف واهن.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنشَقَّ الْقَمَرَ﴾ إخباراً عما وقع في ذلك، وذكر الشعلي في ذلك أنه قيل: إن المعنى: ينشق القمر يومئذ، وهذا ضعيف والأمة على خلافه، وذلك

أن قريشاً سألت رسول الله ﷺ آية، فقيل: جملة - وهذا قول الجمهور - وقيل: بل عينوا شق القمر، ذكره الشعلي عن ابن عباس رضي الله عنهما، فأراهم الله تعالى انشقاق القمر، فراه رسول الله ﷺ وجماعة من المسلمين والكفار، فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا»، وممن قال من الصحابة رأيت: عبدالله بن مسعود، وجبير بن مطعم، وأخبر به عبدالله بن عمر، وأنس،

وابن عباس، وحذيفة بن اليمان، وقال المشركون عند ذلك: سحرنا محمد، وقال بعضهم: سحر القمر، وقالت قريش: استخبروا المسافرين القادمين عليكم، فما ورد أحد إلا أخبر بانشقاقه، وقال ابن مسعود: رأيت انشق فذهبت فرقة وراء جبل حراء، وقال ابن زيد: كان يرى نصفه على قَتَيْقَانَ والآخر على أبي قبيس، وقرأ حذيفة: ﴿اَقْرَبْتِ السَّاعَةُ وَقَدْ أَنشَقَّ الْقَمَرَ﴾، وذكر الشعلي عنه أن قراءته: ﴿اَقْرَبْتِ السَّاعَةُ أَنشَقَّ الْقَمَرَ﴾ دون واو.

قوله تعالى: ﴿وإن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا﴾، جاء اللفظ مستقبلاً لينتظم ما مضى وما يأتي، فهو إخبار بأن حالهم هكذا، واختلف الناس في معنى ﴿مُسْتَقَرًّا﴾ - فقال الزجاج: قيل: معناه دائم مُتَمَادٍ، وقال قتادة،

خُتْمًا أَنْصُرُهُمْ يَحْرُجُونَ مِنَ الْجَبَابِثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ ٧
مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكٰفِرُونَ هٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ٨
كَذَبَتْ قَلْبَهُمْ فَوْمٌ نٰكِبٌ مٰكِدٌ يٰوَعِدُنَا وَاوٰءُجُنُودٍ ٩
رَبِّهِ أِنِّي مَقْلُوبٌ فَاانصِرْ ١٠
فَفَنَحْنَا اَلْوَتَانَ السَّمٰوٰتِ بِمَا كٰنُوا يَمْتَرِبٰنِ ١١
وَعَجَبًا اَلْاَرْضَ عِيُوْنًا فَاَلْفَى الْمَآءَ عَلٰى اَمْرٍ قَدِ اُنذِرْ ١٢
وَحَمَلْنٰهُ عَلٰى ذَاتِ الْاَرْجِ وَدُمِّرْ ١٣
تَجْرِي بِاَعْيُنِنَا جَزَآءٌ لِّمَن كَانَ كٰفِرًا ١٤
وَلَقَدْ تَرَكْنٰهَا آيَةً فَمَلَّ مِنْ مَّذٰكِرِ ١٥
عَلٰى وَنٰذِرِ ١٦
وَلَقَدْ نَصَرْنَا الْقُرْآنَ لِلاَّذِكْرِ فَمَلَّ مِنْ مَّذٰكِرِ ١٧
كَذَبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَلٰى وَنٰذِرِ ١٨
اِنَّا اَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيْحًا صَرْصَرًا فِيْ يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ١٩
تَرَجَّ النَّاسُ كَأَنَّهُمْ اَعْمَارٌ ٢٠
تَحُلِي مُنْقَرٍ ٢١
فَكَيْفَ كَانَ عَلٰى وَنٰذِرِ ٢٢
وَلَقَدْ نَصَرْنَا الْقُرْآنَ لِلاَّذِكْرِ فَمَلَّ مِنْ مَّذٰكِرِ ٢٣
فَقَالُوْا اٰنصُرْنَا مِثْلَ الَّذِيْ اٰنصُرْتَنَا اِذَا لَفِيَ ضَلٰلٍ رَّسَعٍ ٢٤
اَهْلِي الْاِذِكْرِ عَلَيْهِ ٢٥
مِنۢ بَيْنِنَا اَلْهُوٰكُ كَذٰبٍ اَشْرَ ٢٦
سِعَةً لَّمَّا عَلٰى الْكٰذٰبِ ٢٧
اَلْاَشْرَ ٢٨
اِنَّا مَرِيسُوْا النَّافِثِيْنَ فَنَدٰنَا لَهُمْ فَاَرَقَّبْنٰهُمْ وَاَصْلٰطِرِ ٢٩

ومجاهداً، والكسائي، والفراء: معناه: ذاهب مارٌّ عن قريب يزول، وقال الضحاك، وأبو العالية: معناه: مشدود، من مراير الجبل، كأنه سخز قد استخمر، أي: أخكم، ومنه قول الشاعر:

حَتَّى اسْتَحْمَرْتُ عَلَى شَدْرِ مَرِيْرَتُهُ
صَدَقَ الْعَزِيْمَةُ لَا رَتْأَ وَلَا ضَرَعَا
ثم أخبر تعالى أنهم كذبوا واتبعوا شهواتهم وما يَهْوُونَ من الأمور، لا بذييل ولا بنتنبت، ثم قال تعالى - على جهة الخبر الجزم -: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾، كأنه تعالى يقول: وكل شيء إلى غاية، فالحق يستقر ثابتاً ظاهراً، والباطل يستقر زاهقاً ذاهباً، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقَرٌّ﴾ بالجر في [مُسْتَقَرٌّ]، يعني بذلك أشرطها، والجمهور على كسر القاف من

﴿مُسْتَقْرٌ﴾، وقرأ نافع - بخلاف - وابن نصاح بفتحها، قال أبو حاتم: لا وجه لفتحها، و«الآباء» جمع نيا، ويدخل في هذا جميع ما جاء به القرآن من المواعظ والقصص ومثلات الأمم الكافرة، و﴿مُرْتَجِرٌ﴾ معناه: موضع زجر وانتهاه، وأصله «مُرْتَجِرٌ» قلبت التاء دالاً ليناسب مخرجها مخرج الزاي، وكذلك تبدل تاء «افتعل» من كل فعل أوله زاي كازدَلَفَ وازدان ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿جِئْتَهُمْ﴾ مرتفع إمّا على البدل من «مَا» في قوله تعالى: ﴿مَا فِيهِ﴾، وإمّا على خبر ابتداءٍ مضمّر تقديره: هذه حكمة، و﴿بَلَلْتَهُمْ﴾ معناه: يبلغ المقصد بها من وعظ النفوس والبيان لمن له عقل، وقوله تعالى: ﴿فَمَا تَتَنَّى﴾ أَلْتُدْرِكُ؟ يحتمل أن تكون [مَا] نافية، أي: ليس تُغني مع عُنُو هذا الناس، ويحتمل أن تكون استفهاماً بمعنى التقرير، أي: فَمَا عَنَاءُ التُّدْرِكِ مع هؤلاء الكفرة؟

ثم سألني تعالى نبيه عليه الصلاة والسلام بقوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾، أي: لا تذهب نفسك عليهم حسرات، وتمّ القول في قوله تعالى: ﴿عَنْهُمْ﴾، ثم ابتداءً وعيدهم، والعامل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ قوله تعالى: ﴿يَتَزَيَّجُونَ﴾، و﴿خُشَعًا﴾ حال من الضمير في ﴿يَتَزَيَّجُونَ﴾، وتصرف الفعل يقتضي تقدم الحال، قال المهدي: ويجوز أن يكون حالاً من الضمير في ﴿عَنْهُمْ﴾، وقال الرُّمَّانِي: المعنى: فَتَوَلَّ عَنْهُمْ واذكر يوم، وقال الحسن: المعنى: فتولَّ عنهم

اليوم، وانحذفت الروا من ﴿يَدْعُ﴾ لأن كِتَبَةَ المصحف أتبعوا اللَّفْظَ لا ما يقتضيه الهجاء، وأمّا حذف الياء من ﴿الدَّاعِ﴾ ونحوه فقال سيبويه: حذفوها تخفيفاً، وقال أبو علي، حذف مع الألف واللام؛ إذ هي تحذف مع معاقبها وهو التنوين، وقرأ جمهور القراء: ﴿إِلَىٰ تَتَنَّى﴾ نُكْرِيٌّ بضم الكاف، وقرأ ابن كثير، وشبل، والحسن: ﴿نُكْرِيٌّ﴾ بسكون الكاف، وقرأ مجاهد، والجحدري، وأبو قلابة: ﴿نُكْرِيٌّ﴾ بكسر الكاف وفتح الراء على أنه مبني للمفعول، والمعنى في ذلك كله أنه منكور غير معروف ولا يُرى مثله، قال الخليل: التُّكْرُ نعتٌ للأمر الشديد والرجل الداهية، وقال مالك بن عوف النَّضْرِي:

أَقْدِمَ مُحَاجٌّ إِنَّهُ يَوْمَ نُكْرٍ
مِثْلِي عَلَىٰ مِثْلِكَ يَخْمِي وَيَكْرُ
و «نُكْرٌ» فَعْلٌ، وهو صفة، وذلك قليل من الصفات، ومنه «مِشِيَّةٌ» سَجَّحَ قال الشاعر:

دَعَا التَّحَاجُّوْا وَمَشُوا مِشِيَّةً سُجِحًا
إِنَّ الرُّجَالَ ذُووْ عَضْبٍ وَتَذَكِيرٍ
ومثله: «رَجُلٌ سُئِلَ» و«نَاقَةٌ أُجِدَّ».

وقرأ جمهور القراء: ﴿خُشَعًا﴾، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، والحسن، وقتادة. وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي: ﴿خَاشِعًا﴾، وهي قراءة ابن عباس، وابن جبير، ومجاهد، والجحدري، وهي أفراد بمعنى الجمع، ونظيره قول الشاعر:

وَسَبَابَ حَسَنٍ أَوْجُهُهُمْ
مِنْ إِسَادِ بَنِ زَرْزَارِ بَنِ مَعَدِّ

وَرَجَّحَ أَبُو حَاتِمٍ هَذِهِ الْقِرَاءَةَ، وَذَكَرَ أَنَّ رَجُلًا مِنَ الْمُنْتَطَوِّعَةِ قَالَ قَبْلَ أَنْ يَسْتَشْهَدَ: رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ فِي النَّوْمِ فَسَأَلْتَهُ عَنْ «خُشَعًا» وَ«خَاشِعًا»، فَقَالَ: «خَاشِعًا»، بِالْأَلْفِ، وَفِي مِصْحَفِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ، وَعَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «خَاشِعًا»، وَخَصَّ تَعَالَى الْأَبْصَارَ بِالْخُشُوعِ لِأَنَّهُ فِيهَا أَظْهَرَ مِنْهُ فِي سَائِرِ الْجَوَارِحِ، وَكَذَلِكَ سَائِرُ مَا فِي نَفْسِ الْإِنْسَانِ مِنْ حَيَاءٍ أَوْ صَلْفٍ أَوْ خَوْفٍ وَنَحْوِهِ وَإِنَّمَا يَظْهَرُ فِي الْبَصْرِ.

و «الْأَجْدَاتُ» جَمْعُ جَدَّتْ وَهُوَ الْقَبِيرُ، وَشَبَّهَهُمُ تَعَالَى بِالْجِرَادِ الْمُنْتَشِرِ، وَقَدْ شَبَّهَهُمْ فِي أُخْرَى بِالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ، وَفِيهِمْ مِنْ كُلِّ هَذَا شَبْهٍ، وَذَهَبَ بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّهُمْ أَوْلَىٰ كَالْفَرَاشِ حِينَ يَمُوجُ بَعْضٌ فِي بَعْضٍ، ثُمَّ فِي رَتْبَةٍ أُخْرَى كَالْجِرَادِ إِذَا تَوَجَّهُوا نَحْوَ الْمُحْشَرِ وَالذَّاعِي، وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ مَرْيَمَ بِنْتَ عِمْرَانَ عَلَيْهَا السَّلَامُ دَعَتْ لِلْجِرَادِ فَقَالَتْ: «اللَّهُمَّ أَحْسِبْهَا بِغَيْرِ رِضَاعٍ، وَتَابِعْ بَنِيهَا بِغَيْرِ شِيَاعٍ».

و «الْمُهْطَعُ»: الْمُسْرِعُ فِي مَشْيِهِ نَحْوَ الشَّيْءِ مَعَ هَزٍّ وَرَهَقٍ وَمَدٌّ بِصَرٍّ نَحْوَ الْمَقْصِدِ إِمَّا لَخَوْفٍ أَوْ طَمَعٍ وَنَحْوِهِ، وَيَقُولُ الْكَافِرُونَ: «هَذَا يَوْمٌ عَيْرٌ» لِمَا يَزُولُ مِنْ مَخَائِلِ هَوْلِهِ وَعِلَامَاتِ مَشَقَّتِهِ.

① - ⑦ تفسير قوله عز وجل:

سَوِّقْ هَذِهِ الْقِصَّةَ وَعِيدْ لِقْرِيشٍ
وَضْرُبْ مِثْلَ لَهُمْ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى:
﴿وَأَذِّجْ﴾ إِخْبَارٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى أَنَّهُمْ
زَجَرُوا نَوْحًا عَلَيْهِ السَّلَامُ بِالسَّبِّ
وَالنَّجْهِ وَالتَّخْوِيفِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ

المسمار يدفع أبداً حتى يستوي، وقال الحسن، وابن عباس أيضاً: الدُّسْر مقدم السَّفِينَة لأنها تَدُسُّ الماء أي تدفعه، والدُّسْر: الدُّفْع، وقال مجاهد وغيره: الدُّسْر: نُطَق السَّفِينَة، وقال أيضاً: الدُّسْر: عوارض السَّفِينَة، وقال أيضاً: أصلاح السَّفِينَة، وقد تقدم القول في شرح قصة السَّفِينَة، مستوعباً، وجمهور الناس على أنها كانت كهيئة السُّفْن اليوم كجوجو الطائر، وورد في بعض الكتب أنها كانت مرعبة طويلة في السماء واسعة الشُّل ضيقة العُلُو، وكان أعلاها مفتوحاً للهواء والتنفس، قالوا: لأن الغرض منها إنما كان السلامة حتى يزول الماء، ولم يكن طلب الجري وقَصْد المواضع المعيّنة، ومع هذه الهيئة فلها مجرى ومرسى، والله أعلم كيف كانت، والجميع محتمل.

قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾، قال الجمهور: معناه: بحفظنا وكفایتنا وتحت نظر منّا لأهلها، فسُمِّي هذه الأشياء أَعْيُنِنَا تشبيهاً، إذ الحافظ المتَّخَفِي من البشر إنما يكون ذلك الأمر نُضِب عينيه، وقيل: المراد من حَفْظها من الملائكة، سَمَاهم عيوناً، وقال الرُّمَّانِي: وقيل: إن قوله تعالى: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ يريد به العيون المتفجرة من الأرض، وهذا ضعيف، وقرأ أبو السَّمَال: ﴿بِأَعْيُنِنَا﴾ مُدْغَمَةً، وقرأ جمهور الناس: ﴿كَبَّرَ﴾ بضم الكاف وكسر الفاء، واختلفوا في المعنى - فقال ابن عباس، ومجاهد: يُراد بها الله تعالى، كأنه قال: غَضَباً وانتصاراً لله

العَيَّة، وقال قوم من أهل التأويل: الأبواب حقيقة، فتحت من السماء أبواب جَرَى منها الماء، وقال جمهور المفسرين: هو تشبيه ومجاز لأن المطر كثر كأنه من أبواب، و«المُنْهَمَر»: الشديد الوقوع الغزير، قال امرؤ القيس:

رَاحَ تَمْرِيهِ الصَّبَا ثُمَّ انْتَحَى
فِيهِ شُثُوبٌ جَنُوبٌ مُنْهَمِرٌ
وقرأ الجمهور: ﴿وَقَجْرًا﴾ بشد الجيم، وقرأ ابن مسعود وأصحابه، وأبو حنيفة، والمفضل عن عاصم بتخفيفها، وقرأ الجمهور: ﴿فَالْتَقَى﴾ على اسم الجنس الذي يعُم ماء السماء وماء العيون، وقرأ علي ابن أبي طالب، والحسن، وعاصم، والجدري: ﴿فَالْتَقَى الْمَاءَانِ﴾، وروى عن الحسن: ﴿فَالْتَقَى الْمَاوَانِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّكَ أَمْرٌ قَدَّ قَدِيرٌ﴾ قال فيه الجمهور: المعنى: على رتبة وحالة قد قدرت في الأول وقضيت، وقال جمهور من المتأولين: المعنى: على مقادير قد قدرت ورببت وقت التقائه، ورَوَوْا أن ماء الأرض على سبعة عشر ذراعاً، وكان ماء السماء ينزل عليه بقية أربعين ذراعاً أو نحو هذا لأنه مما اختلفت فيه الروايات، ولا خبر يقطع العذر في شيء من هذا التحديد، وقرأ أبو حنيفة: ﴿قَدَّرَ﴾ بشد الدال.

و «ذات ألواح ودُسر» هي السَّفِينَة، قيل: كانت ألواحها وخشبها من ساج، و«الدُّسْر»: المسامير، واحدها دسار، وهذا هو قول الجمهور، وهو عندي من الدفع المُتَّعَبِ؛ لأن

وقرأ: ﴿لَيْنَ لَرٍ تَنْتَوِي بِشُوحٍ لَتَكُونَنَّ مِنْ آلَمِجُوبِيَّتٍ﴾ وذهب مجاهد إلى أن ﴿وَأَزْدَجِرَ﴾ من كلام قوم نوح، كأنهم قالوا: «مجنون وازدجر»، والمعنى: استطير جُنُوناً واستعر جنوناً، وهذا قول فيه تعسف وتحكم، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وعاصم، والأعرج، والحسن: ﴿إِنِّي﴾ بفتح الألف، أي: بأنِّي، كأن دعاءه كان هذا المعنى، وقرأ عاصم أيضاً، وابن أبي إسحق، وعيسى: ﴿إِنِّي﴾ بكسر الألف، كأن دعاءه كان هذا اللفظ، قال سيبويه: المعنى: قال: إِنِّي، وذهب جمهور المفسرين إلى أن المعنى: قد غلبني الكُفَّار بتكذيبهم وتخويفهم فانتصر لي منهم بأنْ تُهْلِكهم، ويحتمل أن يريد: فانتصر لنفسك إذ كذبوا رسولك، ويؤيده قول ابن عباس رضي الله عنهما: إن المراد بقوله: ﴿لَيْنَ كَانَ كَبَّرَ﴾ الله تعالى، فوقعت الإجابة على نحو ما دعا نوح عليه السلام، وذهبت المتصوفة إلى أن المعنى: إِنِّي قد غلبتني نفسي في إفراطي في الدعاء على قومي فانتصر منِّي يارب بمعاينة إن شئت، والقول الأول هو الحق إن شاء الله تعالى، يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَفَنَحْنَا أَيْوَبَ النَّسَاءَ﴾ الآية، وذلك هو الانتصار من الكفار.

وقرأ جمهور القراء: ﴿فَفَنَحْنَا﴾ بتخفيف النَّاء، وقرأ ابن عامر، وأبو جعفر، والأعرج: ﴿فَفَنَحْنَا﴾ بشدّها على المبالغة، ورَجَّحها أبو حاتم بقوله تعالى: ﴿مُنْعَمَةً لِّمَّنْ الْأَيْوَبِ﴾. قال أبو حاتم: يعني بالأبواب المجرة، وهي شرج السماء كشرج

تعالى، أي: انتصر لنفسه فأنجى المؤمنين وأغرق الكافرين، وقال مكي: ﴿ين﴾ يراد بها نوح عليه السلام والمؤمنون؛ لأنهم كفروا من حيث كفر بهم، فجازاهم الله تعالى بالنجاة، وقرأ يزيد بن رومان، وعيسى، وقتادة: ﴿كفّر﴾ بفتح الكاف والفاء.

والضمير في ﴿تَرَكَهَا﴾ قال مكي بن أبي طالب: هو عائد على هذه الفعلية والقصة، وقال قتادة، والنقاش، وغيرهما: هو عائد على هذه السفينة، قالوا: وإن الله تعالى أرساها على الجودي حين تناولت الجبال وتواضع هو، وهو جَبِيل بالجزيرة بموضع يقال له: «بَافَزْدَى»، وأبقى خشبها هنالك حتى رأت بعضه أوائل هذه الأمة، قال قتادة: وكم من سفينة كانت بعدها قد صارت رماداً. و﴿تُدْرِكُ﴾ أصله «مُدَّتْ كِر»، أبدلوا من التاء دالاً لتناسب الدال في النطق، ثم أدمجوا الدال في الدال، وهذه قراءة الناس، قال أبو حاتم: رويت عن النبي ﷺ بإسناد صحيح، وقرأ قتادة: ﴿تُدْرِكُ﴾ بإدغام الثاني في الأول، قال أبو حاتم: وذلك رديء، ويلزمه أن يقرأ: ﴿وَأَذْكَرٌ بَسْعِدٌ أَمْوٌ﴾، و﴿تُدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿تَكَيْفَ كَانَ عَنَّا وَتُدْرِكُ﴾ توقيف لقريش، و«التُدْرِكُ» هنا جمع «تُدِير» المصدر، بمعنى: كيف كان عاقبة إنذارى لمن لم يخفل به كأنتم أيها القوم؟ و﴿يَسْرَتَا الْفُرْقَانِ﴾ معناه: سهلناه وقربناه، و«الذُّكْر»: الحفظ عن ظهر

قلب، قاله ابن جبير: لم يُستظهر من كتب الله تعالى سوى القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: يُسر بما فيه من حُسن النظم وشرف المعنى، فله لُزُومَةٌ بالقلوب وامتزاج بالعقول السليمة.

وقوله تعالى: ﴿فَهَلْ يَنْتَدِرُ﴾ استدعاء وحض على حفظه وذكره لتكون زواجره وعلومه وهداياته حاضرة في النفس، قال مطر: معناه: هل من طالب عِلْمٍ فَيَعَانُ عليه؟

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الآية تعديد نعمة في أن الله تبارك وتعالى يسر الهدى ولا يخل من قبله، فله درٌّ من قبل واهتدى، وتقدم تعليل: ﴿تُدْرِكُ﴾.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

«عَادُ قَبِيلَةٌ، وَقَدْ تَقَدَّمَ قَصْصُهَا.»

قوله تعالى: ﴿تَكَيْفَ كَانَ عَنَّا وَتُدْرِكُ﴾، موضع ﴿كَيْفَ﴾ نصب، إما على خبر ﴿كَانَ﴾ وإما على الحال، و﴿كَانَ﴾ بمعنى: وُجِدَ وَوَقِعَ في هذا الوجه، و﴿تُدْرِكُ﴾ جمع «تُدِير» وهو المصدر، وقرأ ورش وحده: ﴿تُدْرِي﴾ بالياء، وقرأ الباقون: ﴿تُدْرِكُ﴾ بغير ياء على خط المصحف.

و«الصُّرُصْرُ» قال ابن عباس، وقتادة، والضحاك: معناه: الباردة، وهو من الصر، وقال جماعة من المفسرين: معناه: المصنونة نحو هذين الحرفين، مأخوذ من: صرّت الريح إذا هبت دُفْعاً كأنها تنطق هذين الحرفين: الصاد والراء، وضوعف

الفعل كما قالوا: «كَبَبٌ وَكَفَفٌ» من «كَبَّ وكَفَّ»، وهذا كثير، ولم يختلف القراءة في سكون الحاء من ﴿تَحْنِ﴾ وإضافة اليوم إليه إلا ما روي عن الحسن أنه قرأ: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ بالتثنية «نَحْسٍ» بكسر الحاء، و﴿مُسْتَسْرٍ﴾ معناه: متتابع، قال قتادة: استمر بهم ذلك النحس حتى بلغهم جهنم، قال الضحاك في كتاب الثعلبي: المعنى: كان مُرّاً عليهم، وذكره النقاش عن الحسن، وروى أن ذلك اليوم الذي كان لهم فيه نحس مستمر كان يوم أربعاء، وروى في بعض الأحاديث في تفسير هذه الآية: يوم نحس مستمر يوم الأربعاء، فتأول بعض الناس في ذلك أنه مستصحب في الزمان كله، وهذا عندي ضعيف، وإن كان أبو بشر الدولابي ذكر حديثاً رواه أبو جعفر المنصور عن أبيه محمد عن أبيه علي عن أبيه عبدالله بن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «آخر أربعاء من الشهر يوم نحس مستمر»، ويوجد نحو هذا في كلام الفرس والأعاجم، وقد وجد ذكر الأربعاء التي لا تدور في بعض شعر الخراسانيين المولدين، وذكر الثعلبي عن زر بن حبيش في تفسير هذه الآية لعاد أنه كان في أربعاء لا تدور، وذكره النقاش عن جعفر بن محمد وقال: كان القمر منحوساً في رجل، وهذه نزعة سوء عياداً بالله تعالى أن تصح عن جعفر بن محمد.

وقوله تعالى: ﴿تَنْجِ النَّاسَ﴾ معناه: تنقلهم من مواضعهم نزعاً

فتطرحهم، وروي عن مجاهد أنها كانت تلقي الرجل على رأسه فبتفتت رأسه وعنقه وما يلي ذلك بين يديه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فلذلك حسن التشبيه بأعجاز النخل، وذلك أن المتقعر هو الذي ينقلع من فقره، فذلك الشَّعْبُ الذي لأعجاز النخل كان يشبهها ما تقطع وتشعب من شخص الإنسان، وقال قوم: إنما شبههم بأعجاز النخل لأنهم كانوا يحفرون حفراً ليمتنعوا فيها من الريح، فكانه شبه الحُفْر بعد التُّرْع بحفر أعجاز النخل، والنخل تُذَكَّر وتؤنث فلذلك قال تعالى هنا:

﴿تُنْفِرُ﴾، وفي غير هذه السورة: ﴿حَارِبِي﴾، والكاف في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْيَادُ﴾ في موضع الحال، قاله الزجاج، وما زوي من خبر الخلجان وغيره ضعيف كله، وفائدة قوله تعالى: ﴿نَكَفَ كَانَ عَدَابِي وَنَدَّرُ﴾ التخويف وهزُّ الأنفس. قال الرُّمَّانِي: لما كان الإنذار أنواعاً كثر التذكير والتنبية، وفائدة تكرار قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا لِقَتَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ التأكيد والتحريض وتنبية الأنفس، وهذا موجود في تكرار الكلام، مثل قول النبي ﷺ: «أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟ أَلَا هَلْ بَلَّغْتُ؟»، ومثل قوله عليه الصلاة والسلام: «أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ، أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ»، وكان رسول الله ﷺ إذا سلَّم على قوم

سلَّم عليهم ثلاثاً، فهذا كلُّه نحو واحد وإن تنوع.

و «ثَمُود» قبيلة صالح عليه السلام، وهم أهل الحجر، وقرأ الجمهور: ﴿أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدَا﴾، ونصبه بإضمار فعل يدلُّ عليه ﴿تَنبَعَهُ﴾، و﴿وَجَدَا﴾ نعت لـ ﴿بَشْرًا﴾، وقرأ أبو السَّمَال: ﴿أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدَا تَنبَعَهُ﴾، ورفعهُ إمَّا على إضمار فعل مَبْنِي للمفعول، والتقدير: أَيْنَبًا بَشْرًا؟ وإمَّا على الابتداء، والخبر في قوله تعالى: ﴿تَنبَعَهُ﴾، و﴿وَجَدَا﴾ على هذه القراءة حال، إمَّا من الضمير في ﴿تَنبَعَهُ﴾ وإمَّا على المقدر مع ﴿مِمَّا﴾، كأنهم يقولون: أَبَشْرًا كائناً ممَّا واحداً؟ وفي هذا نظر، وحكى أبو عمرو الداني أن قراءة أبي السَّمَال: ﴿أَبَشْرًا مِمَّا وَجَدَا﴾، بالرفع فيهما، وهذه المقالة من ثمود حسدٌ منهم لصالح عليه السلام، واشتباعاً أن يكون نوع من البشر يفضل بعضه بعضاً هذا الفضل، فقالوا: أنكون جميعاً ونتبع واحداً، ولم يعلموا أن الفضل بيد الله تعالى يُؤْتِيهِ من يشاء، ويُفِيض نور الهدى على من رَضِيهِ.

وقولهم: ﴿لَيْسَ سَلَكِي﴾ معناه: في أمرٍ مُتَلَفٍ مُهْلِكٍ بالإتلاف، و﴿سُئِرُ﴾ معناه: في احتراق أنفُسٍ واشتِاعِزْهَا حَقًّا وهُمًّا باتِّباعه، وقيل في «السُّعْر»: العناء، وقيل: الجنون، ومنه قيل: ناقة مسعورة إذا كانت تفرط في سيرها، ثم زادوا بالتوقيف بقولهم: ﴿أَلَيْسَ الذِّكْرُ عَلَيَّ مِنْ بَيْنِي﴾؟ و«أَلَيْسَ» بمعنى «أَنْزَلَ»، وكأنه يتضمن عجلة في

الفعل، والعرب تستعمل هذا الفعل، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ حَبْلًا مَنِيًّا﴾، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَلَقْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا قَلِيلًا﴾، و«الذِّكْر»: هنا: الرِّسَالَةُ وما يمكن أن جاءهم به من الحكمة والموعظة.

ثم قالوا: ﴿بَلْ هُوَ كَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، أي: ليس الأمر كما يزعم، و«الأشِيرُ» البَطْرُ المَرْحُ، فكأنهم رَمَوْهُ بأنه أشيرٌ فأراد العُلُوُّ عليهم، وأن يقتادهم ويتملك طاعتهم، فقال الله تعالى لصالح عليه السلام: ﴿سَيَعْلَمُونَ عَذَابَ مِنَ الكَذَابِ الأَلِيمِ﴾، وهذه بالياء من تحت قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجمهور الناس، وقرأ ابن عامر، وحمزة، وعاصم، وابن وثاب، وطلحة والأعمش: ﴿سَتَعْلَمُونَ﴾ بالتاء على معنى: قُلْ لهم يا صالح، وقوله تعالى: ﴿عَذَابًا﴾ تقريب يراد به الزَّمان المستقبَل لا يوماً بعينه، ونحوه المثل «مع اليوم عَذَابًا»، وقرأ جمهور الناس: ﴿الأَلِيمِ﴾ بكسر الشين كحذر بكسر الذال، وقرأ مجاهد - فيما ذكر عنه -: ﴿الأَشِيرُ﴾ بضم الشين كحذر بضم الذال، وهما بناءان من اسم الفاعل، وقرأ أبو حيوة: ﴿الأَشِيرُ﴾ بفتح الشين كأنه وصف بالمصدر، وقرأ أبو قلابة: ﴿الأَشِيرُ﴾ بفتح الشين وشُدَّ الرَاءُ، وهو الأَفْعَلُ، ولا يستعمل إلا بالالف واللام، وهو كان الأصل لكنه رفض تخفيفاً وكثرة استعمال.

أصحابه على عقرها، ويروى أن ملاً القبيل اجتمع على عقرها، ورويت أسباب غير هذين، وقد تقدّم ذلك.

و «الصَّيْحَةُ» يروى أن جبريل عليه السلام صاحها في طرف من منازلهم ففتفتوا وهمدوا وكانوا كهشيم المحتظر، و«الهشيم» ما تهشم وتفتت من الأشياء، وقرأ جمهور الناس: «كَهْشِيمِ الْحَظْطِرِ» بكسر الظاء، ومعناه الذي يصنع حظيرة من الرعاء ونحوهم، قال ابن إسحاق السبيعي، والضحاك، وابن زيد، وهي مأخوذة من الحظر وهو المنع، والعرب وأهل البوادي يصنعونها للمواشي والسكنى أيضاً من الأغصان والشجر المورق والقصب ونحوه، ولهذا كله هشيم يتفتت، إمّا في أول الصنعة وإمّا عند بلى الحظيرة وتساقط أجزائها، وحكى الطبري عن ابن عباس، وقتادة أن «المختظر»

معناه: المحترق، قال قتادة: كهشيم مُحْرَق. وقرأ الحسن بن أبي الحسن، وأبو رجاء: «الْمُخْتَضِرِ» بفتح الظاء، ومعناه الموضع الذي احتظر، فهو مُفْتَعَل من الحظر، أو الشيء الذي احتظر به، وقد روي عن سعيد بن جبير أنه فسر «كَهْشِيمِ الْحَظْطِرِ» بأن قال: هو التراب الذي يسقط من الحائط البالي، وهذا متوجه لأن الحائط حظيرة، والساقط هشيم، وقال أيضاً هو وغيره: الْمُخْتَضِرُ معناه: المحرق بالنار، أي: كأنه ما في الموضع المحتظر بالنار، وما ذكرناه عن ابن عباس وقتادة هو على قراءة كسر الظاء، وفي هذا التأويل بعض البُعد، وقال قوم:

الناقة فيه يومهم، وأمرهم بالتساوي مع الذين ترد الناقة في يومهم. وقال آخرون: معناه: الماء بين جميعهم وبين الناقة قسمة. و«مُحْتَضِرٌ» معناه: محضور مشهود مُتَوَاسِي فيه، وقال مجاهد: المعنى: «كُلُّ نَبِيٍّ»، أي: من الماء يوماً ومن لبن الناقة يوماً «مُحْتَضِرٌ» لَهُمْ، فكانه أنبأهم بنعمة الله تعالى عليهم في ذلك.

و «صَاحِبُهُمْ» هو قُدار بن سالف، وبسببه سُمِّيَ الجزار القُدَارَ للشبه

في الفعل، قال الشاعر:

إِنَّا لَتَضْرِبُ بِالسُّبُوفِ رُءُوسَهُمْ
ضَرْبَ الْقُدَارِ نَقِيعَةَ الْقُدَامِ
وقد تقدّم شرح أمر قدار بن سالف.

و «تَعَاطَى» هو مطاوع «عاطى»، فكان هذه الفعل تدافعها الناس وأعطاه بعضهم بعضاً، فتعاطاه هو وتناول العقر بيده، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويقال للرجل الذي يدخل نفسه في تحمّل الأمور الثقائل: متعاط، على الوجه الذي ذكرناه، والأصل «عَطَا يعطو» إذا تناول، ثم يقال: عطى غيره، ثم يقال: تعاطى، وهذا كما يقال: جَزَى وجازى وتجارى، وهذا كثير.

ويروى أنه كان مع شَرْبٍ وهم التسعة رهط - فاحتاجوا ماء فلم يجدوه بسبب وزد الناقة، فحملة

وَيَتَّبِعُهُمْ ۖ إِنَّ الْمَاءَ قَسَمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شَرِبٍ مُحْتَضِرٌ ﴿٢٧﴾ فَأَدَاوُا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَى فَمَقَرٌ ﴿٢٨﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَبَعْدَهَا كَهْشِيمَ الْحَظْطِرِ ﴿٣٠﴾ وَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣١﴾ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالَّذِينَ ﴿٣٢﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا ۖ إِلَّا آلَ لُوطٍ حَجَّتْهُمْ بِسْحَرٍ ﴿٣٣﴾ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ ﴿٣٤﴾ وَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالَّذِينَ ﴿٣٥﴾ وَقَدْ رَدُّوهُ عَنْ صَيْفِهِ ۖ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٣٦﴾ وَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذَابٌ مُسْتَقِيرٌ ﴿٣٧﴾ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٣٨﴾ وَقَدْ بَشَّرْنَا الْقُرْآنَ أَنَّ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ ﴿٣٩﴾ وَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذِيرُ ﴿٤٠﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كَذَّابًا فَخَذَّبْنَاهُمْ لَعْنَةُ رَبِّكَ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنَذِيرٌ ﴿٤١﴾ أَكْفَارًا كَفَرُوا مِنْ أَوْلِيَاءِكَ ۖ أَتَمَكَّرُ بِدِرَّةٍ فِي الرِّبْرِ ﴿٤٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرُونَ ﴿٤٣﴾ سَبَّحَهُمْ مُجِيعٌ وَيُولُونَ الدُّبُرَ ﴿٤٤﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ﴿٤٥﴾ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٦﴾ يَوْمَ نَسُفُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٧﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٨﴾

٥٣٠

﴿٢٧﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الناقة التي اقترحوها أن تخرج من صخرة صماء من الجبل، وقد تقدّم قصصها، فأخبر الله تعالى صالحاً عليه السلام - على وجه التأنيس - أنه يُخرج لهم الناقة ابتداء واختباراً، ثم أمره تعالى بارتقاب الفرج وبالصبر، و«اضطبر» أصله: اضطبر «افتعل»، أبدلت التاء طاء لتناسب الصاد، ثم أمره تعالى أن يخبر ثمود بأن الماء قسمة بينهم، وهو ماء البئر الذي كان لهم.

واختلف المتأولون في معنى هذه القسمة - فقال جمهور منهم: قسمة بينهم، يتساوون فيه في اليوم الذي لا ترد الناقة فيه، وذلك - فيما روي - أن الناقة كانت ترد البئر غباً، وتحتاج جميع ماؤها يومها، فنهاهم الله تعالى عن أن يستأثر أهل اليوم الذي لا ترد

المحتظر - بالفتح - : الهشيم نفسه، وهو مفتعل، وهو كمسجد الجامع وشبهه.

وقد تقدم قصص قوم لوط عليه السلام، و«الحاصب»: السحاب الرامي بالبرد وغيره، فشبّه تلك الحجارة التي رُمي بها قوم لوط به في الكثرة والتوالي، وهو مأخوذ من الحصباء، كأن السحاب تحصب مقصده، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَخْصِبُهُمْ
بِحَاصِبِ كَنْدِيفِ القَطَنِ مَنشُورِ
وقال ابن المُسَيَّب: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول لأهل المدينة: حصبوا المسجد، و«آل لوط»: ابنته فيما روي، و«سحر» مصروف لأنه نكرة لم يُرد به يوم معين.

وقوله تعالى: ﴿مِنَّمَا﴾ نصب على المصدر، أي: فعلنا ذلك إتماماً على القوم الذين نجيناهم، وهذا هو جزاؤنا لمن شكر نعمنا وآمن وأطاع.

﴿٣٦﴾ - ﴿٣٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: ولقد أنذر لوط قومه أخذنا إيّاهم ويطنشنا بهم، أي: عذابنا لهم، و«فَمَكَرُوا» معناه: تشككوا وأهدى بعضهم الشك إلى بعض بتعاطيهم الشبه والضلال، و«الأنذر» جمع نذير وهو المصدر، ويحتمل أن يراد بالأنذر هنا وفي قوله تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ﴾ جمع نذير الذي هو اسم الفاعل. و«الضئيف» يقع للواحد وللجمع، وقد تقدم ذكر أضيافه وقصصهم مستوعباً.

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَسَّا أَقْيَمَهُمْ﴾ قال قتادة: هي حقيقة، جرّ جبريل عليه السلام شيئاً من جناحه على أعينهم فاستوت مع وجوههم، قال أبو عبيدة: مَطْمُوسَةٌ بجلد كالوجه، وقال ابن عباس، والضحاك: هذه استعارة، وإنما حجب إدراكهم فدخلوا المنزل فلم يروا شيئاً، فجعل ذلك كالطمس. وقوله تعالى: ﴿بِكُرَّةٍ﴾ قيل: كان ذلك عند طلوع الشمس، وأدغم ابن محيصة الدال في الصاد من قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُمُ﴾، والجمهور على الإظهار، و«بِكُرَّةٍ» نكرة ها هنا فلذلك صُرقت.

وقوله تعالى: ﴿نَذَرُوا عَلَائِي﴾ ويحتمل أن يكون من قول الله تعالى لهم، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة، و«نَذَرِي» جمع المصدر، أي: وعاقبة نُذْرِي التي كذبتهم بها، وقال تعالى: ﴿مُسْتَقَرٌّ﴾ في صفة العذاب لأنه لم يكشفه عنهم كاشف بل اتصل ذلك بموتهم، وهم مدة موتهم تحت الأرض معذبون بانتظار جهنم ثم يتصل ذلك بعذاب النار فهو أمر متصل مستقر، وكرر قوله تعالى: ﴿نَذَرُوا عَلَائِي وَنَذَرِي﴾ تأكيداً وتوبيخاً، وروي ورش عن نافع: ﴿وَنَذَرِي﴾ بياء.

و«آل فرعون» قومه وأتباعه، ومنه قول الشاعر:

فَلَا تَبِكْ مِينَا بَعْدَ مِينَتِ أَجْنُهُ
عَلَيَّ وَعَبَّاسُ وَآلُ أَبِي بَكْرٍ
يريد المسلمين في مواراة النبي ﷺ، ويحتمل أن يريد به «آل فرعون» قرابته على عرف الآل،

وخصهم بالذكر لأنهم عمدة القوم وكبرائهم.

وقوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ يحتمل أن يريد آل فرعون المذكورين أخذناهم كذلك، يريدهم بالضمير لأن ذلك الإغراق الذي كان في البحر كان بالعزة والقدرة، ويكون قوله: ﴿بِآيَاتِنَا﴾ يريد بها التسع، ثم أكد بقوله: ﴿كُلِّهَا﴾، ويحتمل أن يكون قوله تبارك وتعالى: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النَّذْرُ﴾ كلاماً تاماً ثم يكون قوله تعالى: ﴿كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا﴾ يعود الضمير في ﴿كَذَّبُوا﴾ على جميع ما ذكر من الأمم، ويجيء جميع الآيات مستقيماً، ويجيء قوله تعالى: ﴿فَأَخَذْتَهُمْ﴾ كذلك يعود على جميع الأمم المذكورة.

وقوله تعالى: ﴿أَكْفَارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ﴾ الآية... خطاباً لقريش، وتَقَهَّم على جهة التوبيخ، أتم خصلة من مال أو قوة أبدان وبسطة أو عقل أو غير ذلك مما يقتضي أنكم خير من هؤلاء المعذبين لما كذبوا فترجى لكم - بذلك الفضل - النجاة من العذاب حين كذبتهم رسولكم؟ أم لكم في كتب الله تعالى المنزلة براءة من العذاب؟ قاله الضحاك، وابن زيد، وعكرمة.

ثم قال تعالى لنبيه محمد ﷺ: أَمْ يَقُولُونَ نخن جميع واثقون بأننا منتصرون بقوتنا على جهة الإعجاب والتعاطي، سيهزمون فلا ينفع جمعهم، وقرأ أبو حنيفة: ﴿أَمْ تَقُولُونَ﴾ بالثاء من فوق.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ - فقرأ الجمهور من الناس: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ﴾ بالنصب، وقالوا: المعنى: إِنَّا خَلَقْنَا كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَانَهُ بِقَدَرٍ، وليست ﴿خَلَقْنَاهُ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾، بل هو فعل دالٌّ على الفعل المضمر، وهذا المعنى يقتضي أن كل شيء مخلوق إلا ما قام دليل العقل على أنه ليس بمخلوق كالقرآن والصفة، وقرأ أبو السَّمَل - ورجحه أبو الفتح -: ﴿إِنَّا كُلَّ﴾ بالرفع على الابتداء، والخير ﴿خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾، قال أبو حاتم: «هذا هو الوجه في العربية، وقرأتنا بالنصب مع الجماعة».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقرأها قوم من أهل السُّنَّة بالرفع، والمعنى عندهم على نحو ما هو عند الأولين من أن كل شيء فهو مخلوق بِقَدَرٍ سابق، و﴿خَلَقْنَاهُ﴾ - على هذا - ليست صفة لـ ﴿شَيْءٍ﴾، وهذا هو مذهب أهل السُّنَّة، ولهم احتجاج قويٌّ بالآية على هذين القولين.

وقالت القَدْرِيَّة - وهم الذين يقولون: لا قَدْر، والمرء وحده فاعل أفعالِه -: القراءَةُ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ﴾ برفع ﴿كُلِّ﴾، و﴿خَلَقْنَاهُ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿كُلِّ﴾، أي: إِنَّ أَمْرًا وشأنًا كل شيء خلقناه فهو بِقَدَرٍ، أي: بمقدارٍ وعلى حدٍّ ما في هيئته وزمنه وغير ذلك، فيزيلون بهذا التأويل موضع الحُجَّة عليهم بالآية.

﴿سَيَهْزِمُ﴾ بالنون وكسر الزاي ﴿الْجَمْعُ﴾ بالنصب ﴿وَتَوَلَّوْنَ﴾ بالتاء من فوق.

ثم تركت هذه الأقوال وأضرب عنها تهماً بأمر الساعة التي عذابها أشد عليهم من كل هزيمة وقاتل، فقال تعالى: ﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْخَىٰ وَأَمَرٌ﴾، «أدخى» أفعَل من الداهية وهي الرزية العظمى تنزل بالمرء، و«أمر» من الممرارة، واللفظة ها هنا مستعارة لأنها ليست فيما يُدَق.

ثم أخبر تعالى عن المجرمين أنهم في الدنيا في حيرة وإتلاف وفقد هدى، وفي الآخرة في احتراق وتسعر من حيث هم صائرون إليه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: في خُسران وجنون، و«السُّعْر» الجنون، وأكثر المفسرين على أن المجرمين هنا يراد بهم الكفار، وقال قوم: المراد بالمجرمين القدرية الذين يقولون إن أفعال العباد ليست بِقَدَرٍ من الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهم الْمُتَوَعَّدُونَ بالسُّحْبِ في جهنم، والسُّحْبُ هو الجُرُّ، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿إِلَى النَّارِ﴾. وقوله تعالى: ﴿تَذَرُونَهَا﴾ استعارة، والمعنى: يقال لهم: ذوقوا، على جهة التوبيخ.

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ ﴿١﴾ وَلَقَدْ أَهَلَكْنَا شِعَابَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَكَّرٍ ﴿٢﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ﴿٣﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَنْطَرٍ ﴿٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ فِي جَنَّتِ وَنَهَرٍ ﴿٥﴾ فِي مَقْعَدِ صَدِيقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُّقَدَّرٍ ﴿٦﴾

سورة القمر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمَنُ ﴿١﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ﴿٣﴾ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ﴿٤﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مُجْسَبَانِ ﴿٥﴾ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ وَالسَّمَاءُ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ﴿٧﴾ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ﴿٨﴾ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضُ وَضَعَهَا لِلْأَنبَاءِ ﴿١٠﴾ فِيهَا فَتْكَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكَامِرِ ﴿١١﴾ وَاللَّهُبُ ذُو الْأَصْفِ وَالرَّيْحَانُ ﴿١٢﴾ فَبِأَيِّ آيَاءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ كَالْفَخَّارِ ﴿١٤﴾ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَّارِجٍ مِنْ نَارٍ ﴿١٥﴾ فَبِأَيِّ آيَاءِ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿١٦﴾

٥٣١

١٥ - ٥٥ تفسير قوله عز وجل:

هذه عِدَّةٌ من الله تعالى لرسوله ﷺ أن جَمَعَ قريش سِيَهْزِمُ نُصْرَةَ له، والجمهور على أن الآية مكيَّة، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أنه قال: كنت أقول في نفسي: أي شيء يهزم؟ فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ في الدرع وهو يقول: ﴿سَيَهْزِمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّقُونَ الدُّرَّ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإنما كان رسول الله ﷺ في بدر مستشهداً بالآية.

وقال قوم: إن الآية نزلت يوم بدر، وذلك ضعيف، والصواب أن الوعد أنجز يوم بدر، قال أبو حاتم: قرأ بعض القراء: ﴿سَيَهْزِمُ﴾ بفتح الباء وكسر الزاي ﴿الْجَمْعُ﴾ نصباً، قال أبو عمرو الداني: قرأ أبو حنيفة:

تفسير

سورة الرحمن

وهي مَكِّيَّة فيما قال الجمهور من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم، وقال نافع بن أبي نُعَيْم، وعطاء، وقتادة، وكُرَيْب، وعطاء الخراساني، عن ابن عباس رضي الله عنهما: هي مدينة نزلت عند إباية سهيل بن عمرو وغيره أن يكتب في الصلح: «بسم الله الرحمن الرحيم»، والأول أصح، وإنما نزلت حين قالت قریش بمكة: «وما الرحمن؟ أنسجُد لما تأمرنا؟» وفي السيرة أن ابن مسعود جهر بقراءتها في المسجد حتى قامت إليه أندية قریش فضربوه، وذلك قبل الهجرة.

① - ③ تفسير قوله عز وجل:

﴿الرَّحْمَنُ﴾ بناءً مبالغته من الرحمة، وهو اسم اختص الله تعالى بالانصاف به، وحكى ابن فورك عن قوم أنهم يجعلون ﴿الرَّحْمَنُ﴾ آية تامة، كأن التقدير: الرحمن ربنا، وقاله الرُّمَّانِي وأن التقدير: الله الرحمن، وقال الجمهور: إنما الآية ﴿الرَّحْمَنُ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿﴾، فهو جزء آية.

وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ تعديد نعمة، أي: هو مَنْ به، وعلمه الناس، وخصَّ حُفَاطَه وفهمته بالفضل، قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، ومن الدليل على أن القرآن غير مخلوق أن الله تعالى ذكر القرآن في كتابه في أربعة وخمسين موضعاً ما

بمعنى، وروي عن عاصم شدُّ الرءِ من ﴿مُسْتَظَرُّ﴾، قال أبو عمرو: وهذا لا يكون إلا عند الوقوف، لغة معروفة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَوَهْرٍ﴾ بفتح الهاء والنون على أنها اسم الجنس يراد به الأنهار، أو على أنه بمعنى سعة في الرزق والمنازل، ومنه قول قيس بن الخطيم:

مَلَكْتُ بِهَا كَفِّي فَأَنْهَزْتُ فَتَقَّهَا
يَرَى قَائِمٍ مِنْ خَلْفِهَا مَا وَرَاءَهَا

فقوله: «أَنْهَزْتُ» معناه جعلت فتتها كنهر، وقرأ زهير الفرقي، والأعمش: ﴿وَوَهْرٍ﴾ بضم النون والهاء على أنه جمع نهارٍ، إذ لا لَبْلُ في الجنة، وهذا سائغ في اللفظ قَلِيْلٌ في المعنى، ويحتمل أن يكون جمع نَهْرٍ، وقرأ مجاهد، وحמיד، وأبو السَّمَال، والفياض بن غزوان: ﴿نَهْرٍ﴾ بسكون الهاء على الأفراد.

وقوله تعالى: ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ يحتمل أن يريد الصدق الذي هو ضد الكذب، أي: في المقعد الذي صدقوا في الخبر به، ويحتمل أن يكون من قولك: «عُوْدٌ صَدَقٌ» أي: جيّدٌ، و«رَجُلٌ صَدَقٌ» أي: خيّرٌ وذو خلال حسان، وقرأ جمهور الناس: ﴿فِي مَقْعَدٍ﴾ على اسم الجنس، وقرأ عثمان البتي: ﴿فِي مَقَاعِدٍ﴾ على الجمع، و«المليك المقتدر» هو الله تبارك وتعالى.

كامل تفسير سورة القمر والحمد لله رب العالمين

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: إنِّي أجد في كتاب الله تعالى قوماً يُسحبون في النَّارِ على وجوههم لأنهم كانوا يُكذِّبون بالقَدْر، يقولون: المرء يخلق أفعاله، وإنِّي لا أراهم، فلا أدري أَشْيَاءٌ مضى أم شيء بقي، وقال أبو هريرة رضي الله عنه: خاصمت قریش رسول الله ﷺ في القَدْر فنزلت هذه الآية، قال أبو عبدالرحمن السلمي: فقال رجلٌ: يا رسول الله، فقيم العمل؟ أفي شيء نستأنفه أو في شيء قد فرغ منه؟ فقال رسول الله ﷺ: «اعملوا فكلُّ مَيْسَّرٍ لما خُلِقَ لَهُ، سَتَيْسَّرُهُ لِلْيَسْرَى، سَتَيْسَّرُهُ لِلْعُسْرَى». وقال أنس بن مالك: قال رسول الله ﷺ: «القدرية الذين يقولون الخَيْرُ والشَّرُّ بأيدينا، ليس لهم في شفاعتي نصيب، ولا أنا منهم ولا هم مني».

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا وَجِدَةً﴾ أي: إلا قولة واحدة وهي «كُنْ»، وقوله تعالى: ﴿كَلَّجَ بِالْبَصْرِ﴾ تفهيم للناس بأعجل ما يحسون، وفي أشياء من أمر الله تعالى أوحى من لمح البصر، و«الأشياء»: الفِرْقُ المتشابهة في مذهب أو دين ونحوه، الأول شيعة للأخر والأخر شيعة للأول.

ثم أخبر تعالى أن كل أفعال الأمم المَهْلِكَة مكتوبة محفوظة عليهم إلى يوم الحساب، قاله ابن عباس، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، و﴿مُسْتَظَرُّ﴾ مُفْتَعَلٌ من السُّطْر، تقول: سَطَرْتُ وَأَسْطَرْتُ

منها موضع صرّح فيه بلفظة الخلق ولا أشار إليه، وذكر الإنسان على الثلث من ذلك في ثمانية عشر موضعاً كلها نصت على خلقه، وقد اقترن ذكرهما في هذه السورة على هذا النحو.

و «الإنسان» هنا اسم الجنس، حكاه الزهراوي وغيره: و«البيّان»: النطق والفهم والإبانة عن ذلك بقول، قاله ابن زيد والجمهور: وذلك هو الذي فضل به الإنسان من بين سائر الحيوان، وقال قتادة: هو بيان الحلال والحرام والشرائع، وهذا جزء من البيان العام، وقال قتادة: «الإنسان» هو آدم عليه السلام، وقال ابن كيسان: «الإنسان» محمد ﷺ، وهذا التخصيص لا دليل عليه، وكل المعلومات داخلة في البيان الذي علّمه الإنسان، فكأن الله تعالى قال: من ذلك البيان وفيه معتبر كون الشمس والقمر بحسبان، فحذف هذا كله، ورفع «الشمس» بالابتداء، وهذا ابتداءٌ تعديد نعم.

واختلف الناس في قوله تعالى: «يحيي» - فقال مكي، والزهراوي، عن قتادة: هو مصدر كالحساب في المعنى، كالغفران والطغيان في الوزن، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى، والضحاك، هو جمع حساب، كشيءٍ وشهيان، والمعنى: إن هذين لهما في طلوعهما وغروبهما وقطعهما البروج وغير ذلك حسابات، وهذا مذهب ابن عباس، وأبي مالك، وقاتدة. وقال ابن زيد: لولا الليل

والنهار لم يدر أحد كيف يحسب شيئاً من مقادير الزمان، وقال مجاهد: الحسبان: الفلك المستدير، شبهه بحسبان الرّحى وهو العود المستدير الذي باستدراته تدور المطحنة.

قوله تعالى: «والتّجم والتّجر» - قال ابن عباس، والسدي، وسفيان: «التّجم»: النبات الذي لا ساق له، وسُمي نجماً لأنه تجم أي: ظهر وطلع، وهو مناسب للشجر يشبه به، وقال مجاهد، وقاتدة، والحسن: التّجم: اسم الجنس من نجوم السماء، والنسبة التي لها من السماء هي التي للشجرة من الأرض لأنهما في ظاهرهما، وسُمي الشجر من اشتجار غصونه وهو تداخلها، واختلف الناس في هذا السجود - فقال مجاهد والحسن: ذلك في النجم بالغروب ونحوه، وفي الشجر بالظل واستدارته، وكذلك في النجم على القول الآخر، وقال مجاهد أيضاً ما معناه: إن السجود في هذا كله تجرّز، وهو عبارة عن الخضوع والتذلل ونحوه، ومنه قول الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
وقال تعالى: «يَسْجُدَانِ» وهما جمعان لأنه راعى اللفظة، لأنه اسم مفرد اسم للنوع، وهذا كقول الشاعر:

أَلَمْ يَحْزُنْكَ أَنْ جِبَالَ قَوْمِي
وَقَوْمِكَ قَد تَبَايَنَتَا انْقِطَاعًا
وقرأ الجمهور: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا»

بالنصب عطفاً على الجملة الضميمة وهي «يَسْجُدَانِ»؛ لأن هذه جملة من فعل وفاعل وهذه كذلك، وقرأ أبو السّمّال: «وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا» بالرفع عطفاً على الجملة الكبيرة وهي قوله تعالى: «وَالنَّجْمِ وَالشَّجَرِ يَسْجُدَانِ»؛ لأن هذه جملة من مبتدئ وخبر والأخرى كذلك، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «وَحَفْصُ الْمِيزَانِ»، ومعنى «وَضِعَ»: أَقْرَ وَأَثَبَتِ، و«الْمِيزَانُ»: العَدْلُ فيما قال الطبري، ومجاهد، وأكثر الناس. وقال ابن عباس، والحسن، وقاتدة: إِنَّهُ الْمِيزَانُ المعروف، وهو جزء من الميزان الذي يعبر به عن العدل، ويظهر عندي أن قوله تعالى: «وَوَضَعَ أَلْيَازَانَ» يريد به العدل، وأن قوله تعالى: «أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ» - وقوله: «وَلَا تَخْضَرُوا أَلْيَازَانَ» يريد به الميزان المعروف، وكل ما قيل محتمل سائغ. وقوله تعالى: «أَلَّا تَطْغَوْا» نهي عن التعمد الذي هو طغيان بالميزان، وأمّا ما لا يقدر البشر عليه من التحرير بالميزان فذلك موضوع عن الناس، و«أَلَّا» هو بتقدير: لَيْتَلَا أو مفعولٌ من أجله، و«تَطْغَوْا» نصب، ويحتمل أن تكون «أَن» مفسرة فيكون «تَطْغَوْا» جزم بالنهي، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «لَا تَطْغَوْا» بغير «أَن». وقرأ جمهور الناس: «وَلَا تَخْضَرُوا» من أَخْضَرَ، أي: نَقَصَ وَأَفْسَدَ، وقرأ بلال بن أبي

بُرْدَةٌ: ﴿وَلَا تُخْسِرُوا﴾ بفتح التاء وكسر السين من خَسَرَ، ويقال: خَسَرَ وأخْسَرَ بمعنى نقص وأفسد كَجَبَّرَ وأَجْبَرَ، وقرأ بلال أيضاً - فيما حكى عنه ابن جني - : ﴿تُخْسِرُوا﴾ بفتح التاء والسين من خَسِرَ بكسر السين.

واختلف الناس في ﴿لِلْأَنَارِ﴾ - فقال ابن عباس رضي الله عنهما في بعض ما روي عنه: هم بنو آدم فقط، وقال الحسن بن أبي الحسن: هم الثقلان الجن والإنس، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة، وابن زيد، والشعبي: هم الحيوان كله. و«الأكمام» في النخل موجودة في موضعين: فجملة فروع النخلة في أكمام من ليفها، وطلع النخلة في كِمٍّ من جهة، وقال قتادة: أكمام النخل رقابها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والِكِمٌّ من النبات كل ما التفَّ على شيءٍ وستره، ومنه كمائم الزهر، وبه شبه كُمُّ الثوب.

﴿وَأَلْقَبُ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾، الحَبُّ ذُو الْعَصْفِ هو القمح والشعير وما جرى مجراه من الحب الذي له سنبل وأوراق متشعبة على ساقه، وهي العصيفة إذا يبست، ومنه قول علقمة بن عبدة:

تَسْقِي مَذَابِبَ قَدْ مَالَتْ عَصِيفَتُهَا
حَدَوْرَهَا مِنْ أَيْ الْمَاءِ مَطْمُومٌ
قال ابن عباس رضي الله عنهما: العصف: التبن، وتقول العرب: خرجنا نتعصف، أي: يستعجلون عصفية الزرع، وقرأ ابن عامر، وأبو

البرهسم: ﴿وَأَلْحَبُ﴾ - بالنصب عطفاً على ﴿الْأَرْضِ﴾ - ﴿ذَا الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾، إلا أن أبا البرهسم خفض النون. واختلفوا في الريحان - فقال ابن عباس، ومجاهد، والضحاك: معناه: الرُّزْقُ، ومنه قول الشاعر وهو التَّمْرُ بْنُ تَوْلَبَ:

سَلَامُ الْإِلَهِ وَرَزْحَانُهُ
وَجَائِئُهُ وَسَمَاءُ دِرْزِ
وقال الحسن: هو ريحانكم هذا، وقال ابن جبير: هو كلُّ ما قام على ساق، وقال ابن زيد، وقتادة: الريحانُ هو كل مشوم طيب الريح من النبات، وفي هذا النوع نعمة عظيمة، فمنه الأزهار والمندل والعقاقير وغير ذلك، وقال الفراء: العصف فيما يؤكل، والريحانُ كلُّ ما لا يؤكل. وقرأ جمهور الناس: ﴿وَأَلْحَبُ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾، وهذه القراءة في المعنى كالأولى، وفي الإعراب حسنة الاتساق عطفاً على ﴿فَكَهَّةٌ﴾، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن محيصن: ﴿وَأَلْحَبُ﴾ بالرفع ﴿ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ بخفض ﴿الرَّيْحَانُ﴾ عطفاً على ﴿الْعَصْفِ﴾، كأن «الحَبُّ» هُما لهُ على أن «العصف» منه الورق وكل ما يُعصف باليد والريح فهو رزق البهائم، و«الريحان» منه الحَبُّ وهو رزق الإنسان، والريحان - على هذه القراءة - لا يدخل فيه المشوم إلا بتكلف. و«ريحان» هو من ذوات الواو، قال أبو علي: إما أن يكون ريحان اسماً وُضع موضع

المصدر، وإما أن يكون مصدراً على وزن فَعْلَان كَاللِّيَّانِ وما جرى مجراه، أصله رَوْحَان، أبدلت الواو ياءً كما أبدلوا الياءَ واواً في «أشأوي»، وإما أن يكون مصدراً مما شُدَّ في المعتل كما شُدَّ كَيْثُونَةٌ وَيَيْثُونَةٌ، فأصله رَوْحَان، فُلبت الواو ياءً وأدغمت الياءَ في الياءِ فجاءَ «رَوْحَان» فخفف، كما قالوا: مَيْتٌ وَمَيْتٌ، وَهَيْنٌ وَهَيْنٌ.

و «الآلاء»: النعم، واحدها إلی مثل مَعَى وَأَلَى مثل نَعَى، حكى هذين أبو عبيدة، وألَى مثل أَمْنٍ، وإلَى مثل حِصْنٍ، حكى هذين الزهراوي، والضمير في قوله تعالى: ﴿رَبِّكَ﴾ للجن والإنس، وساغ ذلك ولم يُصرِّح لها بذكر على أحد وجهين: إما أنهما قد ذكرا في قوله تعالى: ﴿لِلْأَنَارِ﴾ على ما تقدم من أن المراد به الثقلان، وإما على أن أمرهما مفسر في قوله تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾ و﴿وَخَلَقَ الْجَانَّ﴾ فساغ تقديمهما في الضمير اتساعاً. وقال الطبري: يحتمل أن يقال: هذا من باب «أَلِيًّا فِي جِهَمٍ»، و«يا غلام اضربا عنقه»، وقال منذر بن سعيد: خوطب من يعقل لأن المخاطبة بالقرآن كله للإنس والجان، ويروى أن هذه الآية لما قرأها النبي ﷺ سكت أصحابه رضي الله عنهم، فقال عليه الصلاة والسلام: «إن جواب الجن خير من سكوتكم، إني لما قرأتها على الجن قالوا: لا نُكذِّبُ بالآءِ ربنا».

ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى الناحيتين بجملة، ومتى وقع ذكر المشرق والمغرب فهي إشارة إلى مشرق كل يوم ومغربه، ومتى ذكر المشرق والمغربان فهي إشارة إلى نهايتي المشرق والمغرب؛ لأن ذكر نهايتي الشيء ذكراً لجميعة، وقال مجاهد: هو مشرق الصيف ومغربه ومشرق الشتاء ومغربه.

﴿١٤﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ﴾ معناه: أرسلهما إرسالاً غير منحاز لبعضهما من بعض، ومنه: مَرَجَتِ الدَّابَّةُ، ومنه: الأمر المريج، أي: المختلط الذي لم يتحصل منه شيء، ومنه ﴿مِنْ مَرَجٍ مِّن نَّارٍ﴾. واختلف الناس في البحرين - فقال الحسن، وقناة: بحر فارس وبحر الروم، وقال الحسن أيضاً: بحر الفُلْزَم واليمن وبحر الشام، وقال ابن عباس، وابن جبير: بحر في السماء وبحر في الأرض، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: هو مطر السماء - سماءً بحراً - وبحر الأرض، والظاهر عندي أن قوله تعالى: ﴿مَجَّ الْبَحْرَيْنِ﴾ يريد بهما نوعي الماء العذب والأجاج، أي: خلطهما في الأرض وأرسلهما متداخلين في وضعهما في الأرض قريب بعضهما من بعض، والعبارة في هذا التأويل منيرة، وأشد مندر بن سعيد:

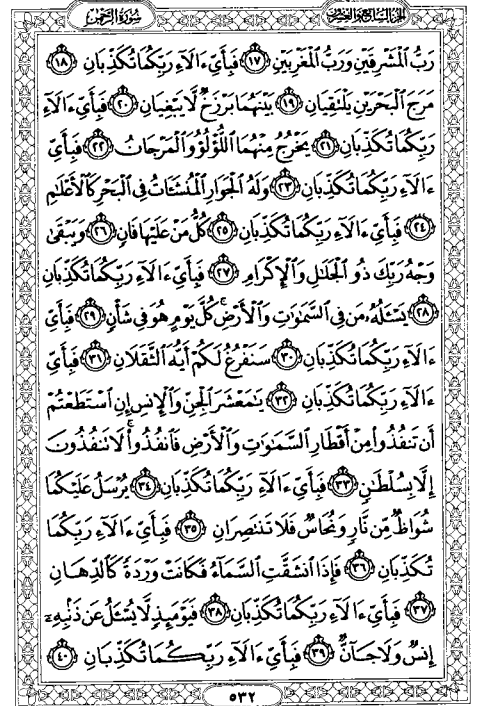
وَمَمْرُوجَةُ الْأَمْوَاهِ لَا الْعَذْبُ غَالِبٌ
عَلَى الْمِلْحِ طَبِيباً لَا وَلَا الْمِلْحُ يَغْدُبُ
وَأَمَّا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿بَلَّتِيَّانِ﴾ فعلى
التأويلين الأولين معناهما: مُعْدَانِ

خَلَقَ مِنْهُ. وَالْفَخَّارُ: الطين الطيب إذا مسه الماء فخر أي: رَبَّأ وَعَظَّم. و«الجان»: اسم جنس كالجثة، و«المارج»: اللَّهَبُ المضطرب من النار، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وهو أحسن النار المختلط من الألوان الشثي، وقال النبي ﷺ لعبدالله بن عمرو رضي الله عنهما: «كيف بك إذا كنت في خُشَالَةٍ مِنَ النَّاسِ قَدْ مَرَجَتِ عَهْدُهُمْ وَأَمَانَتُهُمْ».

وكرر قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ

ءِ الْآءِ رَبِّكَمَا تُكَذِّبَانِ﴾ تأكيداً وتبييناً للنفوس وتحريكاً لها، وهذه طريقة من الفصاحة معروفة، وهي من كتاب الله تعالى في مواضع، وفي حديث النبي ﷺ، وفي كلام العرب. وذهب قوم منهم ابن قُتَيْبَةَ وغيره إلى أن هذا التكرار إنما هو لِمَا اختلفت النعم المذكورة كرر التوقيف مع كل واحدة منها وهذا أحسن، قال الحسين بن الفضل: التكرار لطرد العَفَلَةِ والتأكيد.

وخصَّ تعالى ذكر المشرقين والمغربين بالتشريف في إضافة الربِّ إليهما لِعَظَمَتِهِمَا فِي المخلوقات، وأنهما طرفا آية عظيمة وعبرة وهي الشمس وجريها، وحكى النقاش أن «المشرقين» هما مشرق الشمس والقمر و«المغربين» كذلك، على ما في ذلك من العبر، وكلُّ مُتَّجِهٍ،



﴿١٤﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال كثير من المفسرين: «الإنسان»: آدم عليه السلام، وقال آخرون: أراد اسم الجنس، وساغ ذلك من حيث أبوهم مخلوق من الصلصال. واختلف الناس في اشتقاق الصلصال، فقال مكي - فيما حكي - والنقاش: هو من «صلَّ اللَحْمُ وغيره» إذا أُنْتِنَ، فهي إشارة إلى الحمأة، وقال الطبري وجمهور المفسرين: هو من «صلَّ» إذا صوَّت، وذلك في الطين لكرمه وجودته، فهي إشارة إلى ما كان في تربة آدم عليه السلام من الطين الحُرِّ، وذلك أن الله تبارك وتعالى خلقه من طين طيب وخيبث ومختلف اللون، فمرَّة ذكر في خلقه هذا ومرَّة هذا، وكل ما في القرآن في ذلك من صفات ترددت على التراب الذي

لالتقاء وحققهما أن يلتقيا لولا البرزخ، وعلى القول الثالث أنهما يلتقيان كل سنة مرة، فمن ذهب إلى أنه بحر يجتمع في السماء فهو قول ضعيف، وإنما يتوجه اللقاء فيه وفي القول الرابع بنزول المطر، وفي القول الخامس بالأنهار في البحر وبالعيون قرب البحر.

و «الْبِرْزَخُ»: الحاجز في كل شيء، فهو في بعض هذه الأقوال أجرام الأرض، قاله قتادة، وفي بعضها القدرة، والبرزخ أيضاً المدة التي بين الدنيا والآخرة للموتى، فهو حاجز، وقال بعض الناس: إن ماء الأنهار لا يختلط بالماء المِلْح بل هو بذاته باق فيه، وهذا يحتاج إلى دليل أو حديث صحيح وإلا فالعيان لا يقتضيه، وذكر الشعلبي في «مَجَّ الْبَحْرَيْنِ» أَلْغَاؤًا وَأَقْوَالًا بَاطِنَةً لَا يَجِبُ أَنْ يُلْتَفِتَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهَا.

واختلف الناس في قوله تعالى: «لَا يَبْيِغَانِ» - فقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: لا يبغى واحد منهما على الآخر، وقال قتادة أيضاً، والحسن: لا يبغيان على الناس والعمران، وهذان القولان على أن اللفظ من البَغْي، وقال بعض المتأولين: هي من قولك: بَغَى إِذَا طَلَبَ، فمعناه: لا يبغيان حالاً من الأحوال غير حالهما اللتين خُلِقَا وَسُخِّرَا لهما. وقال ابن عباس، وقتادة، والضحاك: اللؤلؤ: كِبَارُ الجواهر والمرجان: صغاره، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً، ومُرَّةُ الهمداني عكس هذا، والوصف بالصغير هو الصواب في اللؤلؤ،

وقال ابن مسعود رضي الله عنه وغيره: المرجان حجر أحمر، وهذا هو الصواب في المرجان، واللؤلؤُ بناء غريب لا يُحفظ منه في كلام العرب أكثر من خمسة: اللؤلؤُ، والجُجُؤُ، والدُّؤُؤُ، واليُؤُؤُ - وهو طائر - واليُؤُؤُ، وهو الأصل.

واختلف الناس في قوله تعالى: «مِنْهُمَا» - فقال أبو الحسن الأخفش في كتاب (الحجة): وزعم قوم أنه قد يخرج اللؤلؤ والمرجان من المِلْح ومن العذب، وردَّ الناس على هذا القول لأنَّ الجِسَّ يخالفه ولا يخرج ذلك إلا من المِلْح، وقد ردَّ الناس على الشاعر في قوله:

فَجَاءَ بِهَا مَا شِئْتُ مِنْ لَطْمِيَّةٍ

عَلَى وَجْهَيْهَا مَاءُ الْفَرَاتِ يَمْسُجُ
وقال الجمهور من المتأولين: إنما يخرج ذلك من الأجاج في المواضع التي تقع فيها الأنهار والمياه العذبة، فلذلك قال تعالى: «مِنْهُمَا»، وهذا

مشهور عند الغواصين، وقال ابن عباس، وعكرمة: إنما تتكون هذه الأشياء في البحر بنزول المطر لأنَّ الصدف وغيرها تفتح أجوافها للمطر، فلذلك قال تعالى: «مِنْهُمَا»، وقال أبو عبيدة ما معناه: إن خروج هذه الأشياء إنما هو من المِلْح لكنه تعالى قال: «مِنْهُمَا» تَجَوُّزًا، كما قال الشاعر:

.....

مُتَقَلِّدًا سَيْفًا وَرُمْحًا

وكما قال الآخر:

.....

عَلَفْتُهَا تَبْنًا وَمَاءَ بَارِدًا

فمن حيث هما نوعٌ واحدٌ هذه

الأشياء إنما هو منهم وإن كانت تختص عند التفصيل المبالغ بأحدهما، وهذا كما قال تعالى: «سَجَّ سَنَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَمَلٌ أَلَمَرَّ فِيهِنَّ نُورًا»، وإنما هو في إحداهن وهي الدنيا إلى الأرض، وقال الرُّمَّانِي: العذب فيهما كاللِقَاح للملح، فهو كما يقال: الولد يخرج من الذكر والأنثى، وقرأ نافع، وأبو عمرو، وأهل المدينة: «يُخْرَجُ» بضم الياء وفتح الراءِ «الْلَوْلُؤُ» رفعاً. وقرأ ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي: «يُخْرَجُ» بفتح الياء وضم الراءِ على بناء الفعل للفاعل، وهي قراءة الحسن، وأبي جعفر. وقرأ أبو عمرو - في رواية حُسين الجعفي عنه -: «يُخْرَجُ» بضم الياء وكسر الراءِ على إسناده إلى الله تعالى، أي: يتمكينه وقدرته «الْلَوْلُؤُ» نصباً، ورواه عنه أيضاً بالنون مضمومة وكسر الراءِ.

و «الْجَوَارِ» جمع جارية وهي السُّفُن، وقرأ الحسن، والشَّخَمِي: «الْجَوَارِي» بإثبات الياء، وقرأ أبو جعفر، وشيبة بحذفها، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي: «الْمُنَشَّاتُ» بفتح الشين، أي: أنشأها الله تعالى أو الناس، وقرأ حمزة، وأبو بكر - بخلاف عنه -: «الْمُنَشَّاتُ» بكسر الشين، أي: تُنشِئُ هي السَّيْرُ إِقْبَالًا وَإِدْبَارًا، و«الْأَعْلَامُ» الْجِبَالُ وما جرى مجراها من الطُّرَابِ وَالْأَكَامِ، وقال مجاهد: ماله شراع فهو من المنشآت وما لم يرفع له شراع فليس من المنشآت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: قوله تعالى: ﴿كَالْأَعْيُنِ﴾ هو الذي يقتضي هذا الفرق، وأما لفظة «المنشآت» فتمم الكبير والصغير.

والضمير في قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَن عَتِيََا فَإِنَّ﴾ للأرض، وكنتى تعالى عنها ولم يتقدم لها ذكر لوضوح المعنى، كما قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾ إلى غير ذلك من الشواهد، والإشارة بالفناء إلى جميع الموجودات على الأرض من حيوان وغيره، فغلبت عبارة من يعقل فلذلك قال: ﴿مَنْ﴾.

و «الوجه» عبارة عن الذات لأن الجارحة منفية في حق الله تعالى، وهذا كما تقول: هذا وجه القول والأمر، أي: حقيقته وذاته، وقرأ جمهور الناس: ﴿ذُو الْمَلَكِ﴾ على صفة لفظة الوجه، وقرأ عبدالله بن مسعود، وأبى رضي الله عنهما: ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ على صفة الرب تبارك وتعالى.

٢٩ - ٣٦ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿يَسْتَكْبِرُ﴾ يحتمل أن يكون في موضع الحال من «الوجه» والعامل فيه ﴿وَيَبْتَدِئُ﴾، أي هو دائم في هذه الحال، ويحتمل أن يكون فعلاً مُستأنفاً إخباراً مجرداً، والمعنى: إن كل مخلوق من الأشياء فهو في قوامه وتمسكه ورزقه إن كان مما يُرزق بحال حاجة إلى الله تعالى، فمن كان يسأل بنطق فالأمر فيه بَيِّنٌ، ومن كان من غير ذلك فحالُه يقتضي السؤال فأسند فعل السؤال إليه.

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ أي: يظهر شأن من قدرته التي سبقت في الأزل في ميقاته من الزمن، من إحياء وإماتة ورفع

وخفض وغير ذلك من الأمور التي لا يعلم نهايتها إلا هو تعالى وجل، و«الشأن» اسم جنس للأمور، قال الحسين بن الفضل: معنى الآية سوقُ المقادير إلى المواقيت، وقد ورد في بعض الأخبار أن الله تعالى له في كل يوم في اللوح المحفوظ ثلاثمائة وستون نظرة، يُعزُّ فيها ويُدلُّ، ويُحيي ويُميت، ويُعني ويُعدم، إلى غير ذلك من الأشياء، لا إله إلا هو. وفي الحديث أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية فقبل: ما هذا الشأن يا رسول الله؟ قال: «يغفر ذنباً، ويفرج كرباً، ويرزق ويضع»، وذكر النقاش أن سبب هذه الآية قول اليهود: إن الله استراح يوم السبت فلا يتخذ فيه شيئاً، تعالى عن قولهم.

وقوله تعالى: ﴿سَنَرُجُ لَكُمْ آيَةَ الْفَلَاحِ﴾ عبارة عن إتيان الوقت الذي قدر فيه وقضى أن ينظر في أمر عباده، وذلك يوم القيامة، وليس المعنى أن تُم شغلاً يفرغ منه، وإنما هي إشارة وعيد، وقد قال ﷺ لأزب العقبية: «أما والله لأقرعنَّ لك ما حييت». و«السفرج» من كل آدمي حقيقة، وفي قوله تعالى: ﴿سَنَرُجُ﴾ جزئي على استعمال العرب، ويحتمل أن يكون التوعُّد بعذاب في الدنيا، والأول أبين. وقرأ نافع، وابن كثير، وعاصم، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿سَنَرُجُ﴾ بفتح النون وضم الراء، وقرأ الأعرج، وقتادة ذلك بفتح الراء والنون، ورويت عن عاصم، ويقال: فرَجَ بفتح الراء، وفرَجَ بكسرها، ويصح منهما جميعاً أن يقال: يُفَرِّجُ بفتح الراء، وقرأ عيسى بكسر النون وفتح الراء، قال أبو حاتم: هي لغة سُفلى مضر، وقرأ أبو عمرو،

وحمزة، والكسائي بالياء المفتوحة، وقرأ حمزة، والكسائي بضم الياء، وقرأ أبو عمرو بفتحها وضم الراء، وقرأ الأعمش - بخلاف - وأبو حيوة: ﴿سَيَفْرِجُ﴾ بضم الياء وفتح الراء وبناء الفعل للمفعول، وقرأ عيسى بن عمر أيضاً: ﴿سَنَفْرِجُ﴾ بفتح النون وكسر الراء، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿سَنَفْرِجُ إِلَيْكُمْ﴾.

و «الفلان»: الجن والإنس، يقال لكل ما يعظم أمره: ثقیل، ومنه ﴿وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾، وقال النبي ﷺ: «إني تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتي»، ويقال لبيض النعام: ثَقَلٌ، قال لبيد: فَتَذَكَّرَاتٍ ثَقَلًا.....

وقال جعفر بن محمد الصادق: سُمي الجن والإنس ثقلين لأنهما ثقلا بالذنوب، وهذا بارع ينظر إلى خلقهما من طين ونار، وقرأ ابن عامر: ﴿أَيُّهُ الثَّقَلَانِ﴾ بضم الهاء.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿إِنِ اسْتَنْعَمْتُمْ أَنْ تَتَدَنَّوْا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ - فقال الطبري: قال قوم: في الكلام محذوف تقديره: يقال لكم: يا معشر الجن والإنس، قالوا: وهذه حكاية عن حال يوم القيامة، ﴿يَوْمَ اتَّخَذَ عَلَى قِرَاءَةٍ مِنْ قُرْأٍ شِدْدَ الدَّالِ﴾ قال الضحاك: وذلك أنه يفتر الناس في أقطار الأرض والجن كذلك لما يرون من هول يوم القيامة، فيجدون سبعة صفوف من الملائكة قد أحاطت بالأرض فيرجعون من حيث جاءوا، فحينئذ يقال لهم: ﴿يَكْمَشِرُ إِلَيْنِ وَالْإِنْسِ﴾. وقال بعض المفسرين: بل هي مخاطبة في الدنيا، والمعنى: إن

وَالسَّلِيْطُ: ذَهْنُ الشَّيْرَجِ،
وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ:
﴿وَنَحَّاسٌ﴾ بِالرَّفْعِ عَطْفًا
عَلَى ﴿شَوَاطِئٌ﴾، فَمَنْ قَالَ
إِنَّ النَّحَّاسَ هُوَ الْمَعْرُوفُ -
وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَابْنِ
عَبَّاسٍ أَيْضًا - قَالَ: وَيُرْسَلُ
عَلَيْهِمَا نَحَّاسٌ، أَي:
يُذَابُ وَيُرْسَلُ عَلَيْهِمَا،
وَمَنْ قَالَ هُوَ الدِّخَانُ قَالَ:
يُعَذِّبُونَ بِدِخَانٍ يُرْسَلُ
عَلَيْهِمَا. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ،
وَأَبُو عَمْرٍو، وَالثَّخَعِيُّ،
وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ:
﴿وَنَحَّاسٌ﴾ بِالخَفْضِ
عَطْفًا عَلَى ﴿نَارٍ﴾، وَهَذَا
مُسْتَقِيمٌ عَلَى مَا حَكِيْنَاهُ

وَالسَّلِيْطُ: ذَهْنُ الشَّيْرَجِ،
وَقَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرَاءِ:
﴿وَنَحَّاسٌ﴾ بِالرَّفْعِ عَطْفًا
عَلَى ﴿شَوَاطِئٌ﴾، فَمَنْ قَالَ
إِنَّ النَّحَّاسَ هُوَ الْمَعْرُوفُ -
وَهُوَ قَوْلُ مُجَاهِدٍ، وَابْنِ
عَبَّاسٍ أَيْضًا - قَالَ: وَيُرْسَلُ
عَلَيْهِمَا نَحَّاسٌ، أَي:
يُذَابُ وَيُرْسَلُ عَلَيْهِمَا،
وَمَنْ قَالَ هُوَ الدِّخَانُ قَالَ:
يُعَذِّبُونَ بِدِخَانٍ يُرْسَلُ
عَلَيْهِمَا. وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ،
وَأَبُو عَمْرٍو، وَالثَّخَعِيُّ،
وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ:
﴿وَنَحَّاسٌ﴾ بِالخَفْضِ
عَطْفًا عَلَى ﴿نَارٍ﴾، وَهَذَا
مُسْتَقِيمٌ عَلَى مَا حَكِيْنَاهُ

استطعتم الفرار من الموت بأن تنفذوا
من أقطار السموات والأرض، وقال
ابن عباس رضي الله عنهما: إن
استطعتم بأذهانكم وفكركم أن تنفذوا
فتعلموا علم أقطار السموات
والأرض، و«الأقطار»: الجهات،
وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتُمْ ذَا قُوَّةٍ﴾ صيغته الأمر
ومعناه التعجيز. و«السلطان» هو القوة
على غرض الإنسان، ولا يستعمل إلا
في الأعظم من الأمر والحجج أبدأ من
القوي في الأمور، ولذلك يعبر كثير
من المفسرين عن السلطان بأنه
الحجة، وقال قتادة: السلطان هنا
الملك، وليس لهم ملك.

و«الشواطئ»: لهب النار، قاله
ابن عباس رضي الله عنهما
وغيره، وقال أبو عمرو بن العلاء:
لا يكون الشواطئ إلا من النار وشيء
معها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وكذلك النار كلها لا تحس إلا شيء
معها.

وقال مجاهد: الشواطئ هو اللهب
الأخضر المنقطع، ويؤيد هذا القول
قول حسان بن ثابت يهجو أمية بن
أبي الصلت:

هَجَوْتُكَ فَاحْتَضَعْتَ حَلِيْفَ ذُلِّ

بِقَافِيَةِ تَأَجُّجٍ كَالشَّوْاطِئِ
وقال الضحاك: هو الدخان الذي
يخرج من اللهب وليس بدخان
الخطب. وقراء الجمهور: ﴿شَوَاطِئٌ﴾
بضم الشين، وقراء ابن كثير وحده،
وشبل، وعيسى: ﴿شَوَاطِئٌ﴾ بكسر
الشين، وهما لغتان، وقال
ابن عباس، وابن جبير: النحاس:
الدخان، ومنه قول الأعشى:

يُضِيءُ كَضَوْءِ سِرَاجِ السَّلِيْبِ

ط لَمْ يَجْعَلِ اللهُ فِيهِ نَحَّاسًا

الإبهام، كأنه تعالى يقول: فإذا
انشقت السماء فما أعظم الهول،
وانشقاق السماء انفطازها عند
القيامة، وقال قتادة: السماء اليوم
خضراء وهي يوم القيامة حمراء،
فمعنى قوله تعالى: ﴿وَرَدَّةٌ﴾ أي:
كحمررة الورد، وهو النوار
المعروف، وهذا قول الزجاج
والرمامي. وقال ابن عباس، وأبو
صالح، والضحاك: هي من لون
الفرس الورد، فأنت لكون السماء
مؤنثة.

واختلف الناس في قوله تعالى:
﴿كَالِدِّهَانِ﴾ - فقال مجاهد،
والضحاك: هو جمع دهن، قالوا:
وذلك أن السماء يعترها يوم القيامة
ألوان وذوب وتميع من شدة الهول،
وقال بعضهم: شبه لمعانها بلمعان
الدهن، وقال جماعة من المتأولين:

عن أبي عمرو بن العلاء، ومن رأى
أن الشواطئ يختص بالنار قدر هنا:
وشيء من نحاس، وحكى أبو حاتم
عن مجاهد أنه قرأ: ﴿وَنَحَّاسٌ﴾
بكسر النون والجر، وعن
عبد الرحمن بن أبي بكر أنه قرأ:
﴿وَنَحَّسٌ﴾ بفتح النون وضم الحاء
والسين المشددة على أنه فعل، كأنه
يقول: وَنَقُتْلُ بِالْعَذَابِ، وعن ابن
جندب أنه قرأ: ﴿وَنَحَّسٌ﴾ كما
تقول: يَوْمَ نَحَّسْ، وحكى أبو عمرو
مثل قراءة مجاهد عن طلحة بن
مصرف، وذلك لغة في نحاس،
وقيل: هو جمع نحس، ومعنى الآية
مستمر في تعجيز الجن والإنس،
أي: أنتما بحال من يرسل عليه هذا
فلا تتصرا.

﴿٣٧﴾ - ﴿٤٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

جواب ﴿إِذَا﴾ محذوف مقصوده به

الدهان: الجلد الأحمر، وبه شبهها،
وأشدد منذر بن سعيد:

يَبِغْنَ الدَّهَانَ الحُمْرَ كُلَّ عَشِيَّةٍ
بِمَوْسِمِ بَدْرِ أَوْ بِسُوقِ عُكَاظٍ
وقوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّمُنَا﴾ نَفِي
للسؤال، وفي القرآن الكريم آيات
تقتضي أن في القيامة سؤالاً وآيات
تقتضي نفيه كهذه وغيرها، فقال
بعض الناس: ذلك في مواطن دون
مواطن، وهو قول قتادة وعكرمة،
وقال ابن عباس رضي الله عنهما -
وهو الأظهر في ذلك -: إن السؤال
متى أثبت فهو بمعنى التقرير
والتوبيخ، ومتى نفي فهو بمعنى
الاستخبار المحض والاستعلام؛
لأن الله تبارك وتعالى عليم بكل
شيء، وقال الحسن، ومجاهد: لا
تسأل الملائكة عنهم لأنهم يعرفونهم
بسيماهم، والسَّيْمَا التي يُعرف بها
المجرمون هي سواد الوجوه وزرقة
العيون في الكفرة، قاله الحسن،
ويحتمل أن يكون غير هذا من
التشبيهات.

واختلف المتأولون في قوله تعالى:
﴿فَيُؤَخِّدُ بِالنَّوْصِي وَالْأَفْئَاتِ﴾ - فقال ابن
عباس رضي الله عنهما: يؤخذ كل
كافر بناصيته وقدمه فيطوى ويُجمع
كالحطب، ويلقى كذلك في النار،
وقال النقاش: رُوي أن هذا الطي
على ناحية الصلب قَعَساً، وقاله
الضحاك، وقال آخرون: بل على
ناحية الوجه، قالوا: فهذا معنى
﴿فَيُؤَخِّدُ بِالنَّوْصِي وَالْأَفْئَاتِ﴾، وقال قوم
في كتاب الشعلي: إنما يُسحب
الكفرة سحباً، فبعضهم يُجر بقدميه،
وبعضهم بناصيته، فأخبر في هذه

الآية أن الأخذ يكون بالنواصي
ويكون بالأقدام.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا جَهَنَّمُ﴾ قبلها
محذوف تقديره: يُقال لهم على جهة
التوبيخ والتقرير، وفي مصحف ابن
مسعود رضي الله عنه: ﴿هَذَا جَهَنَّمُ
الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكذِّبان، تَصَلِّيَانَهَا لَا
تَمُوتَانِ فِيهَا وَلَا تُخَيَّبانِ﴾. وقرأ
جمهور الناس: ﴿يَطْرُقُونَ﴾ بفتح الياء
وضم الطاء وسكون الواو، وقرأ
طلحة بن مصرف: ﴿يَطْرُقُونَ﴾ بضم
الياء وفتح الطاء وشد الواو، وقرأ أبو
عبدالرحمن: ﴿يُطْأَفُونَ﴾، وهي
قراءة علي بن أبي طالب
رضي الله عنه، والمعنى في هذا كله
أنهم يترددون بين نار جهنم وجمرها
وبين حميم، وهو ما غلي في جهنم
من مائع عذابها، والحميم: الماء
السخن، وقال قتادة: إن العذاب
الذي هو الحميم يُغلى منذ خلق الله
تعالى جهنم، وأتى الشيء: حَضَرَ،
وأتى اللحم أو ما يُطبخ أو يُغلى:
نضج وتناهى حره والمراد منه،
ويحتمل أن يكون من هذا ومن هذا،
وكونه من الثاني أبين، ومنه قوله
تعالى: ﴿عَبْرَ نَظِيرِينَ إِنَّهُ﴾، ومن
المعنى الآخر قول الشاعر:

أَسَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ نَمَامٌ
ويشبه أن يكون الأمر في المعنيين
قريباً بعضه من بعض، والأول أعم
من الثاني.

﴿٤٦﴾ - ﴿٥٧﴾ تفسير قوله عز وجل:
﴿وَلَمَن﴾ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَن﴾
﴿نَافٍ﴾ يحتمل أن تقع على جميع
المتصفين بالخوف الزاجر عن

معاصي الله تعالى، ويحتمل أن تقع
لواحد منهم، وبحسب هذا قال
بعض الناس في هذه الآية: إن كل
خائف له جتان، وقال بعضهم: إن
جميع الخائفين لهم جنتان،
والمَقَامُ هو وقوف العبد بين يدي
ربه تعالى، يفسره ﴿يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ
لِرَبِّهِمُ الْآلَيْنِ﴾، وأضاف المقام
إلى الله تعالى من حيث هو بين
يديه. قال الشعلي: ﴿مَقَامُ رَبِّهِ﴾
قيامه على العبد، بيانه ﴿أَمَّنْ مَوْ
قَائِيٌّ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾،
وحكى الزهراوي هذا المعنى عن
مجاهد، وفي هذه الإضافة تنبيه
على صعوبة الموقف، وتحريض
على الخوف الذي هو أسرع المطايا
إلى الله عز وجل، وقال قوم: أراد
جنة واحدة وثنى على نحو قوله
تعالى: ﴿الْيَا فِي جَهَنَّمَ كُلِّ كَفَّارٍ
عَبِيدٍ﴾، وقول الحجاج: يا
غلام اضربا عنقه، وهذا ضعيف؛
لأن معنى التثنية متجه بلا وجه
للفرار إلى هذه الشأفة، ويؤيد
التثنية قوله تعالى: ﴿ذَرَاكَ
أَفْئَاتٍ﴾، وهي تثنية (ذات) لأن
أصل (ذات) ذوات.

و «الأفئان» يحتمل أن يكون جمع
فَتْنٍ وهو الغُصْن، وهذا قول
مجاهد، فكأنه تعالى مدحها بظلالها
وتكاثف أغصانها، ويحتمل أن يكون
جمع فَنٍّ، وهو قول ابن عباس
رضي الله عنهما، فكأنه تعالى
مدحها بكثرة أنواع فواكهها ونعيمها.
و ﴿رَوَّيَانٍ﴾ معناه: نوعان،
و ﴿مُتَّكِبِينَ﴾ حال، إما من محذوف
تقديره: يتنعمون متكئين وإما من

﴿طَمَثٌ﴾ معناه: جامع بكرة أو غيرها.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا جَنَ﴾ - فقال مجاهد: الجن قد تجامع نساء البشر مع أزواجهن إذا لم يذكر الزوج الله تعالى، فنفسى في هذه الآية جميع المجامعات، وقال حمزة بن حبيب: الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم، فنفسى في هذه الآية الافتراض عن البشريات والجنائات، ويحتمل اللفظ أن يكون مبالغة وتأكيذاً كأنه تعالى قال: لم يطمثن شيء، أراد العموم التام لكنه صرح من ذلك بالذين يعقل منه أن يطمث، وقال أبو عبيدة والطبري: إن من العرب من يقول: ما طمّث هذا البعير جبل قط، أي: ما مسّه، فإن كان هذا المعنى: ما أدامه جبل فهو يقرب من الأول وإلا فهو معنى آخر غير ما قدمناه، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿وَلَا جَنَ﴾ بالهمز.

٥٨ - ٦٩ - تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَسَائِهِمْ كَمَا إِذَا كَانُوا عَلَىٰ سَائِدَةٍ يَأْتِيهِمْ فِيهَا الْبُيُوتُ الْمَبْنُوتُ﴾

﴿طَمَثٌ﴾ معناه: جامع بكرة أو غيرها.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا جَنَ﴾ - فقال مجاهد: الجن قد تجامع نساء البشر مع أزواجهن إذا لم يذكر الزوج الله تعالى، فنفسى في هذه الآية جميع المجامعات، وقال حمزة بن حبيب: الجن في الجنة لهم قاصرات الطرف من الجن نوعهم، فنفسى في هذه الآية الافتراض عن البشريات والجنائات، ويحتمل اللفظ أن يكون مبالغة وتأكيذاً كأنه تعالى قال: لم يطمثن شيء، أراد العموم التام لكنه صرح من ذلك بالذين يعقل منه أن يطمث، وقال أبو عبيدة والطبري: إن من العرب من يقول: ما طمّث هذا البعير جبل قط، أي: ما مسّه، فإن كان هذا المعنى: ما أدامه جبل فهو يقرب من الأول وإلا فهو معنى آخر غير ما قدمناه، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿وَلَا جَنَ﴾ بالهمز.

٥٨ - ٦٩ - تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَسَائِهِمْ كَمَا إِذَا كَانُوا عَلَىٰ سَائِدَةٍ يَأْتِيهِمْ فِيهَا الْبُيُوتُ الْمَبْنُوتُ﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا خَافَ﴾، «الأتكاء»: جلسة المتنعم المتمتع، وقرأ جمهور الناس: ﴿فُرُشٌ﴾ بضم الراء، وقرأ أبو حيوة: ﴿فُرُشٌ﴾ بسكون الراء، وزوي في الحديث أنه قيل لرسول الله ﷺ: هذه البطائن من إستبرق فكيف الظواهر؟ قال عليه الصلاة والسلام: «هي من نور يتلأأ، والإستبرق ما خشن وحسن من الديباج، والسندس ما رث منه، وقد تقدم القول في لفظه الإستبرق، وقرأ ابن محيصن: ﴿مَنْ أَسْتَبْرَقَ﴾ على أنه فعل والألف وصل.

و «الجنّي» ما يُجنّي من الشمار، ووصفه بالدنو لأنه فيما زوي في الحديث يتناوله الرجل على أي حالة كان من قيام أو جلوس أو اضطجاع لأنه يدنو إلى مشتهيه.

والضمير في قوله تعالى: ﴿يَهَيَّأُ﴾ للفُرُش، وقيل: للجنات؛ إذ الجنّان جنات في المعنى.

و «قاصرات الطّرف» هن الحور العين قصرن ألحاظهن على أزواجهن، وقرأ أبو عمرو عن الكسائي وحده، وطلحة، وعيسى، وأصحاب علي، وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿يَطْمِثُهُنَّ﴾ بضم الميم، وقرأ جمهور القراء: ﴿يَطْمِثُهُنَّ﴾ بكسر الميم، والمعنى: لم يفتضحهن؛ لأن الطمّث دم الفرج فيقال لدم الحيض: طمّث، ويقال لدم الافتراض: طمّث، فإذا نفى الطمّث فقد نفى القرب منهن على جهة الوطء، قال الفراء: لا يقال «طمّث» إلا إذا افتضّ، وقال غيره:

العظم، والمرجان في أملاسيه وجمال منظره، وبهذا النحو من النظر سمّت العرب النساء بهذه الأشياء كدرة بنت أبي لهب، ومزجانة أم سعيد، وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ﴾ آية وغد وسط لنفوس جميع المؤمنين لأنها عامة، قال ابن المنكدر، وابن زيد، وجماعة من أهل العلم: هي للبرّ والفاجر، والمعنى: إن جزاء من أحسن بالطاعة أن يُحسن إليه بالنعيم، وحكى النقاش أن النبي ﷺ فسّر هذه الآية فقال: «هل جزاء التوحيد إلا الجنة؟»

قوله تعالى: ﴿وَمِنْ دُونِهَا جَنَّاتٌ﴾، واختلف الناس في معنى ﴿دُونِهَا﴾ - فقال ابن زيد وغيره: معناه: إن هاتين دون تينك في

كأنه تعالى قال: لم يطمثن شيء، أراد العموم التام لكنه صرح من ذلك بالذين يعقل منه أن يطمث، وقال أبو عبيدة والطبري: إن من العرب من يقول: ما طمّث هذا البعير جبل قط، أي: ما مسّه، فإن كان هذا المعنى: ما أدامه جبل فهو يقرب من الأول وإلا فهو معنى آخر غير ما قدمناه، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿وَلَا جَنَ﴾ بالهمز.

٥٨ - ٦٩ - تفسير قوله عز وجل: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهِمْ وَنَسَائِهِمْ كَمَا إِذَا كَانُوا عَلَىٰ سَائِدَةٍ يَأْتِيهِمْ فِيهَا الْبُيُوتُ الْمَبْنُوتُ﴾

التي قد برع حسنها، واستشعرت النفوس جلالها، فوقع التشبيه بها لا في جميع الأوصاف لكن فيما يُشبهه ويحسن بهذه المشبهات، فالياقوت في أملاسيه وشفوفه، ومنه قول النبي ﷺ في صفة المرأة من نساء أهل الجنة: «يَرَى مَخَّ سَاقِهَا مِنْ وِراء

المنزلة والقدر، والأوليان جَنَّتَا السابقين والأخريان جَنَّتَا أصحاب اليمين، قال الرُّمَّاني: قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجنات الأربع للخائف مقام ربِّه تعالى، وقال الحسن: الأوليان للسابقين والأخريان للتابعين، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: من دونهما في القرب من المُتَمَعِّمين، وهاتان المُوَخَّرَتَا الذِّكْر أفضل من الأوليين، يدل على ذلك أنه وصف عيني هاتين بالتَّضَخ والأخريين بالجري فقط، وجعل هاتين مُدْهَمَّتَيْن من شدة التُّعْمَة والأوليين ذواتا أفنان، وكل جنة ذات أفنان وإن لم تكن مُدْهَمَّة، وأكثر الناس على التَّأويل الأول، وهذا استدلال لا يستبقواطع، وروي عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: جنتان للمقربين من ذهب، وجنتان لأهل اليمين من فضة هما دون الأوليين.

و **مُدْهَمَّتَانِ** ﴿٧٠﴾ معناه: قد علا لونها دُهمَّةً وسوادً من النضرة والخضرة، كذا فسره ابن الزبير رضي الله عنهما على المنبر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْكِتَابَ ﴿٧١﴾ بِمِثْلِهِ عِثَّةٌ آخَرَى ﴿٧٢﴾﴾، و«التَّضَاخَة»: الفؤارة التي يهيج ماؤها، قال ابن جبير: المعنى: نضاختان بأنواع الفاكهة، وهذا ضعيف.

وكرر تعالى «التُّخْلُ وَالرُّمَّان» لأنهما ليسا من الفاكهة، وقال يونس بن حبيب وغيره: كررهما - وهما من أفضل الفاكهة - تشريفاً لهما، كما

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِنَا فَإِنَّ أُولَئِكَ لَكَاذِبُونَ ﴿٧٣﴾﴾ وَجَزِيلٌ وَمِكْنَلٌ ﴿٧٤﴾.

﴿٧٣﴾ - ﴿٧٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿جَزِيلٌ﴾ جمع «خَيْرَةٌ» وهي أفضل النساء، ومنه قول الشاعر:

وَلَقَدْ طَعْنَتْ مَجَامِعَ الرَّبْلَاتِ
رَبْلَاتٍ هِنْدٍ خَيْرَةَ الْمَلِكَاتِ

وقالت أم سلمة رضي الله عنها:

قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله

تعالى: ﴿جَزِيلٌ حَسَانٌ﴾، قال:

«خيرات الأخلاق حسان الوجوه»،

وقرأ بكر بن حبيب السهمي:

﴿خَيْرَاتٌ﴾ بشد الياء المكسورة،

وقرأ أبو عمرو بفتح الياء.

وقوله تعالى: ﴿مَقْصُورَاتٌ﴾ معناه:

محبوبات مصونات، وكانت العرب

تمدح النساء بملازمة البيوت، ومنه

قول الشاعر:

وَتَغْفُلُ عَنْ إِنِّيَابِهِنَّ فَتَعْدُرُ

يصف أن جيرانها يزُرْنَها ولا

تزورهن، ويروى أن بيت الأعشى قد

ذُمَّ، وهو قوله:

كَأَنَّ مِشِيَّتَهَا مِنْ بَيْتِ جَارَتِهَا

مَرَّ السَّحَابَةَ لَا زَيْتٌ وَلَا عَجَلُ

ف قيل في ذمّه: هذه جِوَالَةُ خِرَاجَةٍ

ولأجته، ومن مدح القُصْر قول كثير:

وَأَنْتِ الَّتِي حَبَّبْتَ كُلَّ قَصِيرَةٍ

إِلَيَّ وَلَمْ تَشْشُرْ بِذَلِكَ الْقَصَائِرِ

أريدُ قَصِيرَاتِ الْحِجَالِ وَلَمْ أَرِدْ

قِصَارَ الْخَطَى، شرُّ النِّسَاءِ النَّحَاتِرِ

وقال الحسن: مقصورات في

الخيام: لئن بطوافات في الطُّرُق.

و«الخِيَام»: البيوت من الخشب

والثمام وسائر الحشيش، وهي بيوت

المرتحلين من العرب، وخيام الجنة بيوت اللؤلؤ، قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: هي دُرٌّ مجوَّف، ورواه ابن مسعود عن النبي ﷺ، وإذا كان المسكن عند العرب من شعر فهو بيتٌ، ولا يقال له خيمة، ومن هذا قول جرير:

مَتَى كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طَلُوحِ

سُقِيَتِ الْعَيْتُ أَبْنَتْهَا الْخِيَامُ

ومنه قول امرئ القيس:

أَمْزَحْ خِيَامَهُمْ أَمْ عُبُشِرْ؟

.....

فاستفهم: هل هم منجدون أم

غاثرون؟ لأن العُشْرَ مما لا ينبت إلا

في تهامة والمَرْحُ مما لا ينبت إلا في

نجد.

و«الرَّفْرَفُ»: ما تدلَّى من الأسرة

من غالي الثياب والبُسط، وقال ابن

جبير: الرَّفْرَفُ رياض الجنة، والأول

أصوب وأبين، ووَجْهُ قول ابن جبير

أنه من: رَفَّ الثَّبْتُ إذا نَعِمَ وحسُن.

وما تدلَّى حول الخبَاء من الخرقه

الشفافة يُسَمَّى رَفْرَفًا، وكذلك يسميه

الناس اليوم، وقال الحسن بن أبي

الحسن: الرَّفْرَفُ: المرافق،

و«العبقري»: بسط حسان فيها صور

وغير ذلك تصنع بعبقر، وهو موضع

يعمل فيه الوشي والديباج ونحوه،

قال ابن عباس رضي الله عنهما:

العبقري: الزُّرَّابي، وقال ابن زيد:

هي الطنافس، وقال مجاهد: هي

الديباج الغليظ، وقرأ زهير الفرقي:

﴿رَقَارِفٌ﴾ بالجمع وترك الصرف،

وقرأ أبو طعمة المدني، وعاصم - في

بعض ما روي عنه -: ﴿رَقَارِفٌ﴾

بالصرف، وكذلك قرأ عثمان بن

عَفَانِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهُ: ﴿رَقَارِفٍ وَعَبَّاقِرِيٍّ﴾ بالجمع والصرف، ورويت عن النبي ﷺ، وغلط الزجاج والرُّمَّاني هذه القراءة، وقرأ أيضاً عثمان بن عفان رضي الله عنه في بعض ما روي عنه: ﴿عَبَّاقِرِيٍّ﴾ بفتح القاف والياء، وهذا على أن اسم الموضع «عَبَّاقِر» بفتح القاف، والصحيح في اسم الموضع «عَبَّقر»، قال امرؤ القيس:

كَأَنَّ صَلِيلَ الْمَرْوِ حِينَ تُشَدُّهُ
صَلِيلُ زُؤُوفٍ يُشْتَقَّدَنَّ بِعَبْقَرَا
قال الخليل والأصمعي: العرب إذا استحسنت شيئاً واستجادته قالت: عَبْقَرِي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ومنه قول النبي ﷺ: «فَلَمْ أَرِ عَبْقَرِيًّا مِنْ النَّاسِ يُفْزِرِي فَرِيئَةً»، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: الْعَبْقَرِيُّ سَيِّدُ الْقَوْمِ وَعَيْنُهُمْ، وقال زهير:

بِحَيْلٍ عَلَيَّهَا جَنَّةُ عَبْقَرِيَّةٍ
جَدِيرُونَ يَوْمًا أَنْ يَنَالُوا فَيَسْتَعْلُوا
ويقال: عَبْقَرٌ مَسْكَنٌ لِلْجَنِّ، وقال ذو الرُّمَّة:

حَتَّى كَأَنَّ رِيَاضَ الْقَفِّ أَلْبَسَهَا
مِنْ وَشِي عَبْقَرٍ تَجْلِيلٌ وَتَنْجِيدُ
وقرأ الأعرج: ﴿حُضْرٌ﴾ بضم الضاد.

وقرأ جمهور الناس: ﴿ذِي الْكَلْبَلِ﴾ على إتياع «الرَّبِّ»، وقرأ ابن عامر وأهل الشام: ﴿ذُو الْجَلَالِ﴾ على إتياع «الاسم»، وكذلك في الأول، وفي حرف أبيي، وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿ذِي الْجَلَالِ﴾ في الموضعين، وهذا الموضع ممَّا

أريد فيه بالاسم مُسَمَّاهُ، والدعاء بهاتين الكلمتين حَسَنٌ مَرْجُوٌّ الإجابة، وقال رسول الله ﷺ: «الظُّلْمَا يَبْأَدُ الْجَلَالَ وَالْإِكْرَامَ».

كامل تفسير سورة الرحمن والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الواقعة

وهي مكيَّة بإجماع ممن يُعتمد بقوله من المفسرين، وقيل: إن فيها آيات مدنية أو ممَّا نزل في السفر، وهذا كله غير ثابت، وروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من داوم على قراءة سورة الواقعة لم يفتقر أبداً»، ودعا عثمانُ ابنُ مسعود رضي الله عنهما إلى عطائه فأبى أن يأخذ، فقيل له: خذ للعيال فقال: إنهم يقرءون سورة الواقعة، وسمعت النبي ﷺ يقول: «من قرأها لم يفتقر أبداً».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيها ذكر القيامة وحظوظ الناس في الآخرة، وفهم ذلك غنى لا فقر معه، من فهمه شغل بالاستعداد.

﴿الْوَاقِعَةُ﴾ اسمٌ من أسماء القيامة كالصَّاحَّةِ وَالْأَرْقَةِ وَالطَّامَةِ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهذه كلها أسماء تقتضي تعظيمها وتشنيع أمرها، وقال الضحاك: الواقعة: الصيحة، وهي النفخة في الصُّور، وقال بعض المفسرين: الواقعة صخرة بيت المقدس تقع عند

القيامة، فهذه كلها معان لأجل القيامة.

و ﴿كَاذِبَةٌ﴾ يحتمل أن يكون مصدرًا كالعاقبة والعافية وخاتمة الأعين، فالمعنى: ليس لها تكذيب ولا ردٌ ولا مُشْتَوِيَّةٌ، وهذا قول قتادة والحسن، ويحتمل أن يكون صفة لمقدَّر، كأنه تعالى قال: ليس لوقعتها حال كاذبة، ويحتمل الكلام - على هذا معنيين: أحدهما كاذبةٌ أي: مكذوبة فيما أخبر به عنها، وسامها كاذبة لهذا، كما تقول: قصة كاذبة، أي: مكذوب فيها، والثاني حالٌ كاذبة، أي: لا يمضي وقوعها، كما تقول: فلان إذا حمل لم يكذب.

وقوله تعالى: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ رفع على خبر ابتداء، أي: هي خافضة رافعة، وقرأ الحسن، وعيسى الشقفي، وأبو حنيفة: ﴿خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ﴾ بالنصب على الحال بعد الحال التي هي ﴿لَيْسَ لَوْقَعِيهَا كَازِبَةٌ﴾، ولك أن تتابع الأحوال كما لك أن تتابع أخبار المبتدأ، والقراءة الأولى أشهر وأبرع معنى، وذلك أن موقع الحال من الكلام موقع ما لو لم يُذكر لاستغني عنه، وموقع الجمل التي يجزم الخبر بها موقع ما يتهم به.

واختلف الناس في معنى هذا الخفض والرفع في هذه الآية - فقال قتادة، وعثمان بن عبدالله بن سراقه: القيامة تخفض أقواماً إلى النار، وترفع أقواماً إلى الجنة، وقال ابن عباس، وعكرمة، والضحاك: الصيحة تخفض صوتها لتسمع

الأدنى، وترفعه لتسمع الأقصى، وقال جمهور من المتأولين: القيامة تنفطر بها السماء والأرض والجبال، وانهدام هذه البنية يرفع طائفة من الأجرام ويخفض أخرى، فكأنها عبارة عن شدة الهول والاضطراب.

والعامل في قوله تعالى: ﴿إِذَا رُجَّتِ﴾ و﴿وَقَعَتِ﴾؛ لأن هذه بدلٌ من ﴿إِذَا﴾ الأولى، وقد قالوا: إنَّ ﴿وَقَعَتِ﴾ هو العامل في الأولى، وذلك لأن معنى الشرط فيهما قوي، فهي كَمَنْ وَمَا في الشرط يعمل فيها ما بعدها من الأفعال، وقد قيل: إنَّ ﴿إِذَا﴾ مضافة إلى ﴿وَقَعَتِ﴾ فلا يصح أن تعمل فيها، وإنما العامل فيها فعل مقدر.

ومعنى ﴿رُجَّتِ﴾: زُلزِلت وحُرِّكت بعنف، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، ومنه: ارتجَّ السهم في الغرض، إذا اضطرب بعد وقوعه، والرَّجَّة في الناس الأمر المحرَّك، واختلف اللغويون في معنى ﴿وَسَيَّتِ﴾ - فقال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة: معناه: فَتَّتَتْ كما تُبْسُّ البسيَّة وهي السويق، ويقال: بَسَسْتُ الدقيق إذا ثريته بالماء وبقي متفتتاً، وأنشد الطبري في هذا:

لَأَتَّخِيزًا خَبِيرًا وَيُسَابِسًا
وقال: هذا قول لصِّ أعجله الخوف عن العجين فقال هذا لصاحبيه، وقال بعض اللغويين: ﴿بَسَّتِ﴾ معناه: سِيرت، قالوا: والخَبِيرُ: السَّيْر الشديد وضرب الأرض بالأيدي، والبَسُّ: السَّيْر الرقيق، وأنشدوا البيت:

لَأَتَّخِيزًا خَبِيرًا وَيُسَابِسًا
وَجَنَابَهَا نَهْشَلًا وَعَبَسًا
ذكر هذا أبو عثمان اللغوي في كتاب «الأفعال».

و «الْهَبَاءُ»: ما يتطاير في الهواء من الأجزاء الدقيقة ولا يكاد يُرَى إِلَّا فِي الشَّمْسِ إِذَا دَخَلتْ مِنْ كُوَّةٍ، قاله ابن عباس ومجاهد، وقال قتادة: الهباء ما يتطاير من يبس النبات، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الهباء ما يتطاير من حوافر الخيل والرداب. وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الهباء ما يتطاير من شرر النار فإذا طُفِيَ لم يوجد شيء. و «الْمُنْبَثُّ» - بالثاء المثناة -: الشائع في جميع الهواء، وقرأ الشَّعْبيُّ: ﴿مُنْبَثًّا﴾ بالثاء بنقطتين، أي: متقطعاً، ذكر ذلك الشعلبي، والقول الأول في الهباء أحسن الأقوال.

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ﴾ لجميع العالم؛ لأن الموصوفين من أصحاب المشأمة ليسوا في أمة محمد ﷺ، و «الْأَزْوَاجُ»: الأنواع والضروب، قال قتادة: هذه منازل النار يوم القيامة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّحَبْتُ اللَّيِّنَةَ﴾ ابتداء و [مَا] ابتداء ثانٍ، و «فَأَمَّحَبْتُ اللَّيِّنَةَ﴾ خير [مَا]، والجمله خبر الابتداء الأول، وفي الكلام معنى التعظيم، كما تقول: «زيدٌ ما زيدٌ»، ونظير هذا في القرآن كثير، و «الْمَيْمَنَةُ» أظهر ما في اشتقاقها أنها من ناحية اليمين، وقيل: من اليمين، وكذلك «الْمَشْأَمَةُ» إمَّا أَنْ تَكُونَ مِنَ الْيَدِ الشُّؤْمِي، وإمَّا أَنْ تَكُونَ مِنَ

الشُّؤْمِ، وقد فَسَّرتْ هذه الآية بهذين المعنيين؛ إذ أصحاب المَيْمَنَةِ الميامين على أنفسهم، قاله الحسن والربيع، ويشبه أن اليمين والشُّؤْمُ إنما اشتقَّا من اليمين والشمال، وذلك على طريقتهم في السانح والبارح، وكذلك اليمين والشَّؤْمُ اشتقَّا من اليمين والشُّؤْمِي.

وقوله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ﴾ ابتداء، و «وَالسَّابِقُونَ﴾ الثاني قال بعض النحويين: هو نعت للأول، ومذهب سيويه أنه خبر الابتداء، وهذا كما تقول: الناسُ الناسُ، وأنت أنت، وهذا على معنى التفخيم للأمر* وتعظيمه، والمعنى هو أن تقول: السَّابِقُونَ إلى الإيمان السَّابِقُونَ إلى الجنة والرحمة، أولئك...، ويصح هذا المعنى على الابتداء والخبر.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الْمُرَرُونَ﴾ ابتداء وخبر، وهو في موضع الخبر على قول من قال: «السَّابِقُونَ» الثاني صفة، و «الْمُرَرُونَ﴾ معناه: من الله تعالى في جنة عدن، قال جماعة في أهل العلم: وهذه الآية متضمنة أن العالم يوم القيامة على ثلاثة أصناف: مؤمنون هم على يمين العرش وهناك الجنة، وكافرون وهم على شمال العرش هنالك النار، والقول في يمين العرش وشماله نحو من الذي مرَّ في سورة الكهف في اليمين والشمال، وقد قيل في أصحاب الميمنة واليمين: إنهم من أخذ كتابه بيمينه، وفي أصحاب المشأمة والشمال: إنهم من أخذه بشماله، فعلى هذا ليست نسبة اليمين والشمال إلى العرش، وقال علي بن

طَوْفَ عَلَيْهِمْ وَذُنُوبُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَكَبِّرُونَ ﴿١٣﴾ يَا كُوفُورُ يَا بَارِئُ يَا كَافِرِينَ ﴿١٤﴾ مَعِينِ ﴿١٥﴾ لَا يَصُدُّونَ عَنْهَا وَلَا يَنْزِفُونَ ﴿١٦﴾ وَفَكَهَرُوا بِمَا بَسَّتْ خَمْرُوتُ ﴿١٧﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهَا مَتَابِئُهُمْ وَهُمْ يَخْرُجُونَ ﴿١٨﴾ كَأَمْثَلِ الثَّلَاقِوتِ ﴿١٩﴾ التَّكُونِ ﴿٢٠﴾ جَزَاءَهُمَا كَأَن لَمْ يَكُنَا ﴿٢١﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءً وَلَا نَأْيًا ﴿٢٢﴾ لَا يَأْتِيهِمْ لَأَلِفًا سَلَامًا سَلَامًا ﴿٢٣﴾ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴿٢٤﴾ فِي سِدْرٍ مَّخْضُورٍ ﴿٢٥﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُورٍ ﴿٢٦﴾ وَظِلِّ مَمْدُودٍ ﴿٢٧﴾ وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٢٨﴾ وَفُكْحَةٍ كَبِيرَةٍ ﴿٢٩﴾ لَا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٠﴾ وَفُورٍ مَّرْمُوعَةٍ ﴿٣١﴾ يَا أَشْأَنَّهُنَّ يَا أَشْأَنَّهُنَّ ﴿٣٢﴾ جَمَلْتُهُنَّ أَفْكَارًا ﴿٣٣﴾ عُرْيَا تُرَابًا ﴿٣٤﴾ لَا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٥﴾ ثَلَاثَةٌ مِنْ الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَصْحَابُ الشَّامِ مَا أَصْحَابُ الشَّامِ ﴿٣٨﴾ فِي سُمُورٍ وَجَمِيمٍ ﴿٣٩﴾ وَظِلِّ مِّنْ جَمِيمٍ ﴿٤٠﴾ لَا يَأْرِبُونَ وَلَا كِبِيرٍ ﴿٤١﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مَمْرُوقِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَانُوا نُصِيرُونَ ﴿٤٣﴾ عَلَى الْخَبْثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٤﴾ وَكَانُوا يُقُولُونَ أَيُّذًا بَيْنَنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا ﴿٤٥﴾ إِنَّا لَمَجْبُوعُونَ ﴿٤٦﴾ أَوَّاهًا وَنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٧﴾ فَلَوْلَاكَ يَا أَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ ﴿٤٨﴾ لَمَجْبُوعُونَ إِلَيْكَ مِيقَاتِ يَوْمِ مَعْلُومٍ ﴿٤٩﴾

صدر الدنيا أكثر عدداً، وقال الحسن وغيره: المراد السابقون من الأمم والسابقون من هذه الأمة، وذلك إما أن يقرن أصحاب الأنبياء عليهم السلام بجموعهم إلى أصحاب محمد ﷺ، فأولئك أكثر عدداً لا محالة، وإما أن يقرن أصحاب الأنبياء عليهم السلام ممن سبق في أثناء الأمم السالفة إلى السابقين من جميع هذه الأمة، فأولئك أكثر، وروي أن الصحابة رضي الله تعالى عنهم حزنوا لقلّة سابقي

أبي طالب رضي الله عنه: أصحاب اليمين أطفال المؤمنين، وقيل: المراد ميمنة آدم عليه السلام ومشأته المذكورتان في حديث الإسراء في الأسوذة.

و «السابقون» معناه: قد سبقت لهم السعادة وكانت أعمالهم في الدنيا سبقاً إلى أعمال البرّ وإلى ترك المعاصي، فهذا عموم في جميع الناس، وخصّص المفسرون من هذا أشياء، فقال عثمان بن أبي سودة: هم السابقون إلى المساجد، وقال ابن سيرين: هم الذين صلّوا للقبليتين، وقال كعب: هم أهل القرآن، وقيل: هم غير هذا مما هو جزء من الأعمال الصالحة، وروي أن النبي ﷺ سئل عن السابقين فقال: «هم الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئِلوه بذلوه وحكموا للناس بحكمهم لأنفسهم»، وقرأ طلحة بن مصرف: «فِي جَنَّةٍ أُنْتَمِيمٍ» على الإفراد، و«الْمَرْبُوتُونَ» عبارة عن أعلى منازل البشر في الآخرة، على سُرُرٍ مَوْضُوتَةٍ متكئين، وقيل لعامر بن عبد قيس في يوم حلبة: من سبق؟ فقال: المقربون.

﴿١٣﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

«الثَّلَاثَةُ»: الجماعة والفرقة، وهي تقع للقليل والكثير، واللفظ في هذا الموضع يعطي أن الجملة من الأولين أكثر من الجملة من الآخرين وهي التي عبّر عنها بالقليل، واختلف المتأولون في معنى ذلك - فقال قوم - حكى قولهم مكى -: المراد بذلك الأنبياء عليهم السلام لأنهم كانوا في

هذه الأمة على هذا التأويل، فنزلت ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ ﴿فَرَضُوا﴾ وروي عن عائشة رضي الله عنها أنها تأولت أن الفريقين في أمة كل نبي هي في الصدر ثلثة وفي آخر الأمة قليل، وقال النبي ﷺ فيما روي عنه: «الفرقتان في أمّتي، فسابق أول الأمة ثلثة، وسابق سائرهما إلى يوم القيامة قليل».

وقرأ الجمهور: ﴿سُرُرٍ﴾ بضم الراء، وقرأ أبو السّمّال: ﴿سُرُرٍ﴾ بفتح الراء، و«الْمَوْضُوتَةُ»: المنسوجة بتركيب بعض أجزائها على بعض كحلق الدرع، فإن الدرع موضونة، ومنه قول الأعشى:

وَمَنْ نَسَجَ دَاوُدَ مَوْضُوتَةً
تَسِيرُ مَعَ الْحَيِّ عَيْرًا فَعَيْرًا
وكذلك سقيفة الخوص ونحوه

موضونة، ومنه وضين الناقة وهو حزامها لأنه موضون، فهو كقتيل وجريح، ومنه قوله:

إِلَيْكَ تَعْدُو قَلْبًا وَضِيئُهَا
مُغْتَرَضًا فِي بَطْنِهَا جَنِيئُهَا
مُخَالَفًا دِينَ النَّصَارَى دِيئُهَا

قال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه السُرر الموضونة هي مزمولة بالذهب، وقال عكرمة: هي مشبكة بالذُرّ والياقوت، و«مُنَكِّبِينَ» و«مُنَكِّبَاتٍ» و«مُنَكِّبَاتٍ» و«مُنَكِّبَاتٍ» مرفوع، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «مُنَكِّبَاتٍ» عليها ناعمين.

و «الْوِلْدَانُ»: صغار الخدم، عبارة عن أنهم صغار الأستان، ووصفهم تعالى بالخلد وإن كان جميع ما في الجنة كذلك إشارة إلى أنهم في حال الولدان مخلدون لا تكبر لهم سنن،

وقال مجاهد: لا يموتون، وقال الفراء: ﴿عَلَّزُونَ﴾ معناه: مُقَرَّبُونَ بِالْخَلْدَاتِ، وهي ضرب من الأقرط، والأول أصوب لأن العرب تقول للذي كبر ولم يشب: إنه مخلد.

و «الأكواب»: ما كان من أواني الشرب لا أذن له ولا خرطوم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هي جراز من فضة، وقال أبو صالح: مستديرة أفواهاها، وقال قتادة والضحاك: ليست لها عرى، و «الإبريق»: ما له خرطوم، قال مجاهد: وأذن، وهو من أواني الخمر عند العرب، ومنه قول عددي بن زيد:

وَتَدَاعَوْا إِلَى الصُّبُوحِ فقامت
قَيْنَةً فِي يَمِينِهَا إِبْرِيْقُ
و «الكأس»: الأنية المُعَدَّة للشرب بها بشريطة أن يكون فيها خمر ونبيد، أو بسبيل ذلك، ومتى كان فارغاً فهو مُنْتَسَب إلى جنسه زجاجاً كان أو غيره، ولا يقال لأنية فيها ماء أو لبن: كأس.

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَ يَمِينِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: معناه: من خمر سائلة، فوزنها مفعول، أصلها معيون، وهذا تأويل قتادة، وقوله تعالى: ﴿لَا يُصَدِّقُونَ عَتَبًا﴾ ذهب أكثر المفسرين إلى أن المعنى: لا يلحق رؤوسهم الصداع الذي يلحق من خمر الدنيا، وقال قوم: معناه: لا يتفرون عنها، بمعنى: لا تقطع عنهم لذتهم بسبب من الأسباب كما يفرق أهل خمر الدنيا بأنواع من التفريق، هذا كما قال:

«يَتَصَدَّعُ السحاب عن المدينة»... الحديث.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يُزِفُونَ﴾ قال مجاهد، و قتادة، وابن جبیر، والضحاك: معناه: لا تذهب عقولهم سُكْرًا، والتزيف: السكران، ومنه قول الشاعر:

شُرِبَ التَّزْيِيفُ بِبَرْدِ مَاءِ الْحَشْرَجِ
وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي إِسْحَقَ: ﴿وَلَا يُزِفُونَ﴾ بكسر الزاي وفتح الياء، من: «تَزَفَ البُرٌّ» إذا استقى ماءها، فهي بمعنى: تَمَّ خمرهم ونفدت، وهكذا قال أبو الفتح. وحكاها أبو حاتم عن ابن أبي إسحاق، والجحدري، والأعمش، وطلحة، وابن مسعود، وأبي عبدالرحمن، وعيسى بضم الياء وكسر الزاي، قال: ومعناها: لا يفنى شرابهم، والعرب تقول: «أنزف الرجل عَيْرَتَهُ». وتقول أيضاً: «أنزف» إذا سكر، ومنه قول الأبيد:

لَعْمَرِي لَيْنٌ أَنْزَفْتُمْ أَوْ صَحَوْتُمْ
لَيْشَسَ التَّدَامَى كُنْتُمْ آلَ أَبَجْرَا
وعطفت «الفاكهة» على «الكأس والأباريق».

وقوله تعالى: ﴿بَيْنَا بَيْنَهُنَّ﴾، زوي أن العبد يرى الطائر يطير فيشتهيه فينزل له كما اشتهاه، وربما أكل منه ألواناً بحسب تصرف شهوته إلى كثير مما زوي في هذا المعنى.

وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم: ﴿وَحُورٍ عِينٍ﴾ بالخفض، وهي قراءة الحسن، وأبي عبدالرحمن، والأعمش: وابن القعقاع، وعمرو بن عبيد. وقرأ

أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿وَحُورًا عِينًا﴾ بالنصب، وقرأ الباقون من السبعة: ﴿وَحُورٌ عَيْنٌ﴾ بالرفع، كل هذه القراءات محمولة الإعراب على المعنى لا على اللفظ، فالخفص كأن المعنى: قيل: تنعمون بهذا كله وبحور عين، وكأن المعنى في قراءة النصب: وتعطون هذا كله وهوراً عيناً، وكأن المعنى في الرفع: لهم هذا كله وهور عين، ويجوز أن يعطف ﴿وَحُورٌ﴾ على الضمير المستقر في ﴿مُتَّكِينَ﴾، قال أبو علي: لم يؤكد لكون طول الكلام بدلاً من التوكيد، ويجوز أن يعطف على «الولدان» وإن كان طواف الحور يقلق، ويجوز أن يعطف على الضمير المقدر مع قوله تعالى: ﴿عَلَى سُرُرٍ﴾. وفي هذا كله نظر، وقد تقدم معنى «حور عين»، وقرأ إبراهيم السخمي: ﴿وَجِيزٍ عِينٍ﴾.

وخص (سبحانه) المكنون من اللؤلؤ لأنه أصفى لوناً وأبعد عن الغيبر، وسألت أم سلمة رضي الله عنها رسول الله ﷺ عن هذا التشبيه فقال: «صفاؤهن كصفاء الدر في الأصداف الذي لا تمسه الأيدي»، و ﴿جَزَاءً يَمَا كَانُوا يَمَلُونَ﴾ أي: أن هذه الرُتَب والنعم هي بحسب أعمالهم؛ لأنه زوي أن المنازل والقسم في الجنة هي مقسمة على قدر الأعمال، ونفس دخول الجنة هو برحمة الله تبارك وتعالى وفضله لا بعمل عامل، فأما هذا الفضل وأن دخولها ليس بعمل عامل ففيه حديث صحيح، قال

رسول الله ﷺ: «لا يدخل الجنة أحد بعمله»، قالوا: «ولا أنت يا رسول الله؟ قال: «ولا أنا إلا أن يتغمدني الله بفضلته ورحمة».

و «اللُّغُو»: سقط القول من فحش وغيره، و «التَّائِيْمُ» مصدر بمعنى: لا يُؤْتَمُّ أَحَدٌ هُنَاكَ غَيْرَهُ وَلَا نَفْسَهُ يَقُولُ كَأَن يَسْمَعُ وَيَتَأَلَّمُ بِسَمَاعِهِ. و «يَلَا» مستثنى، والاستثناء متصل، وقال قوم: هو منقطع، و «سَلَكْنَا» نعت ليلقيل، كأنه تعالى قال: «إِلَّا قِيلاً» سالمًا من هذه العيوب وغيرها، وقال أبو إسحق الزجاج أيضاً: «سَلَكْنَا» مصدر وناصبه «يَلَا»، كأنه تعالى ذكر أنهم يقول بعضهم لبعض: سلاماً سلاماً، وقال بعض النحاة: «سَلَكْنَا» منتصب بفعل مضمر تقديره: اسلموا سلاماً.

(٢٧) - (٤٠) تفسير قوله عز وجل:

«السُّدْرُ» شجرٌ معروف، وهو الذي يقال له: شجر أم غيلان، وهو من العضاة له شوك، وفي الجنة شجر على خلقته له ثمر كقلال هَجْر، طيب الطعم والريح، ووصفه تعالى بأنه مخضود، أي: مقطوع الشوك لا أذى فيه، وقال أمية بن أبي الصلت: إِنَّ الْحَدَائِقَ فِي الْجَنَّةِ ظَلِيلَةٌ فِيهَا الْكُوعَابُ سِدْرُهَا مَخْضُودٌ

وعبّر بعض المفسرين عن «مَخْضُودٍ» بأنه الموقر حملاً، وقال بعضهم: هو قطع الشوك، وهو الصواب، أما إن وقره هو كرمه، وزوي عن الضحاك أن بعض الصحابة أعجبهم سدرٌ وُجَّ فقالوا: ليت لنا في الآخرة مثل هذا، فنزلت الآية، ولأهل تحرير النظر هنا إشارة

في أن هذا الخضد بإزاء أعمالهم التي سلموا فيها؛ إذ أهل اليمين تَوَابُونَ لَهُمْ سَلَامٌ، وليسوا بسابقين.

و «الطَّلُحُ» كذلك من العضاة شجرٌ عظيمٌ كثير الشوك، وشبهه في الجنة على صفات كثيرة مابئة لحال الدنيا، و «مَنْضُورٍ» معناه: مركب ثمره بعضه على بعض من أرضه إلى أعلاه.

وقرأ علي بن أبي طالب، وجعفر بن محمد رضي الله عنهما، وغيرهما: «وَطَلَعَ مَنْضُورٍ». فقيل لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنما هو «وَطَلِجٌ» فقال: وما للطَّلُحِ وَالْجَنَّةِ؟ فقيل له: أنصلحها في المصحف؟ فقال: إن المصحف اليوم لا يُهاج ولا يُغير، وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: «الطَّلُحُ»: الموز، وقاله مجاهد وعطاء، وقال الحسن: ليس بالموز ولكنه شجر ظلّه بارد طيب.

و «الظِّلُّ الْمَمْدُودُ» معناه: الذي لا تنسخه شمسٌ، ويُفسَّر ذلك قول النبي ﷺ: «إِن فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّابِكُ الْجَوَادُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ سَنَةٍ لَا يَقْطَعُهَا، وَاقْرَأُوا إِن شِئْتُمْ: ﴿رِظْلٌ مَّذُورٌ﴾». إلى غير هذا من الأحاديث في هذا المعنى، وقال مجاهد: هذا الظل هو من طَلَّحَهَا وسدرها.

وقوله تعالى: «لَا مَقْطُوعَةٍ أَيْ: بَزْوَالِ الْإِيَّانِ كَحَالِ فَائِكَةِ الدُّنْيَا، ﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ بِبُعْدِ السَّنَاوِلِ، وَلَا بِشَوْكِ يُوْذِي فِي شَجَرَاتِهَا، وَلَا بِوَجْهِ مِنَ الْوُجُوهِ الَّتِي تَمْتَنِعُ بِهَا فَائِكَةُ الدُّنْيَا. وقرأ جمهور الناس: «وَفَرْشٍ» بضم

الراء، وقرأ أبو حيوة: «وَفَرْشٍ» بسكونها، والفَرْشُ: الأبيرة، وروي من طريق أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن في ارتفاع السرير منها مسيرة خمسمائة سنة، وهذا والله أعلم لا يثبت، وإن قُدِّرَ فمتأولٌ خارج عن ظاهره، وقال أبو عبيدة وغيره: أراد بالفَرْشِ النساء، و «مَنْزُوعَةٍ» معناه في الأقدار والمنازل، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

ظَلَلْتُ مُفْتَرِشَ الْهَلْبَاءِ تَشْتُمْنِي
عِنْدَ الرَّسُولِ فَلَمْ تَصُدِّقْ وَلَمْ تَصِيبِ
ومنه قول الآخر في تعديده على صهره: «وَأَفْرَشْتُكَ كَرِيمَتِي».

قوله تعالى: «إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنثَاءً»، قال قتادة: الضمير عائد على «الحوور العين» المذكورات قبل، وهذا فيه بُعْدٌ لِأَنَّ تِلْكَ قِصَّةً قَدْ انْقَضَتْ جَمَلَةً، وَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ مَعْمَرٌ: قَدْ ذَكَرَهُنَّ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «وَفَرْشٍ مَّنْزُوعَةٍ» فَلِذَلِكَ رَدُّ الضَّمِيرِ وَإِنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ ذِكْرُ لَدَلَالَةِ الْمَعْنَى عَلَى الْمَقْصِدِ، وَهَذَا كَقَوْلِهِ تَعَالَى: «حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ» وَنَحْوِهِ، وَ«أَنشَأْنَاهُنَّ» معناه: خلقناهن شيئاً بعد شيء، وقال رسول الله ﷺ في تفسير هذه الآية: «عجائزٌ كُنَّ فِي الدُّنْيَا عُمْشاً رُفْصاً»، وقال عليه الصلاة والسلام لعجوز: «إِنَّ الْجَنَّةَ لَا يَدْخُلُهَا عَجُوزٌ»، فحزنت فقال: «إِنَّكَ إِذَا دَخَلْتَ الْجَنَّةَ أَنْشَأْتَ خَلْقاً آخَرَ».

قوله تعالى: «بِحَبْلَتَيْنِ أَتَكَرَّأُ»، قيل: معناه: دائمات البكارة، متى عاود الواطيء وجدها بكراً.

و«الْعُرْبُ» جمع عَرُوب وهي الْمُتَحَبِّبَةُ إلى زوجها بإظهار محبته، قاله ابن عباس، والحسن، وعُبر عنهن ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً بالعواشق، ومنه قول لبيد:

وفي الحُدُوجِ عَرُوبٌ غَيْرُ فَاجِشَةٍ
رَبِّا الرُّوَادِفِ يَغْشَى دُونَهَا الْبَصْرُ
وقال ابن زيد: العَرُوبُ: الحَسَنَةُ الكلام، وقد تجيء العَرُوبُ صفة دَمٍ على غير هذا المعنى، وهي الفاسدة الأخلاق كأنها عَرَبَتْ، ومنه قول الشاعر:

وَمَا بَدَلُ مِنْ أُمِّ عُثْمَانَ سَلَفَعُ
مَنْ السُّودِ وَزَهَاءِ الْعِنَانِ عَرِيبُ
وقرأ ابن كثير، وابن عامر، والكسائي: ﴿عَرِيًّا﴾ بضم الراء، وقرأ حمزة، والحسن: ﴿عَرِيًّا﴾ بسكونها، وهي لغة بني تميم، واختُلف عن نافع، وأبي عمرو، وعاصم.

وقوله تعالى: ﴿أَرَابًا﴾ معناه: في الشكل والقَدْحِ حتى يقول الراثي: هم أترابٌ، والتَّرْبُ هو الذي مسَّ التَّرَابُ مع تَرْبِهِ في وقت واحد، وقال قتادة: ﴿أَرَابًا﴾ بمعنى: سناً واحدة، ويروى أن أهل الجنة هم على قدر ابن أربعة عشر عاماً في الشباب والنضرة، وقيل: على أمثال أبناء ثلاث وثلاثين سنة، مُرْدَأٌ بِيضاً مكحلين.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ﴾ وَثَلَاثَةٌ مِنَ الْآخِرِينَ ﴿﴾ - فقال الحسن بن أبي الحسن وغيره: الأولون: سالفُ الأمم، منهم جماعة عظيمة هم أصحاب اليمين، والآخرون: هذه

الأمّة، منهم جماعة عظيمة أهل يمين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: بل جميعهم إلا من كان من السابقين.

وقال قوم من المتأولين: هاتان الفرقتان في أمة محمد ﷺ، وروى ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ أنه قال: «الثَّلَثَانِ مِنْ أُمَّتِي»، فعلى هذا التابعون بإحسان ومن جرى مجراهم ثلثة أولى، وسائر الأمة ثلثة أخرى في آخر الزمان.

﴿١١﴾ - ﴿٥٠﴾ تفسير قوله عز وجل: إعراب قوله تعالى: ﴿وَأَخْبَىٰ النَّيَالِ مَا أَخْبَىٰ النَّيَالِ﴾ ﴿﴾ قد تقدّم في نظيره، وفي الكلام هنا معنى الإنجاء عليهم وتعظيم مصابهم.

و«السُّومُ»: أشد ما يكون عند الحرّ اليابس الذي لا بلل فيه.

و«الحَمِيمُ»: الأسود، وهو بناء مبالغة، واختلف الناس في هذا الشيء الأسود الذي يُظَلُّ أهل النار، ما هو؟ فقال ابن عباس: ومجاهد، وأبو مالك، وابن زيد: هو الدخان، وهذا قول الجمهور، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: هو سرادق النار المحيط بأهلها، فإنه يرتفع من كل ناحية حتى يُظَلُّهم. وحكى النقاش أن «اليَحْمُومَ» اسم من أسماء جهنم، وقاله ابن كيسان، وقال ابن أبي بريدة، وابن زيد أيضاً في كتاب الثعلبي: هو جبل في النار أسود يُفْرَعُ أهل النار إلى ذراه فيجدونه أشد شيء وأمره.

قوله تعالى: ﴿وَلَا كَرِيمٌ﴾، قال الطبري وغيره: معناه: ليس له صفة

مدح في الظلال، وهذا كما تقول: ثوب كريم ونسب كريم، تعني بذلك أن له صفات مدح، ويحتمل أن يصفه بعدم الكرم على معنى الأكرامة لهم، وذلك أن المرء في الدنيا قد يصبر على سوء الموضع لقربنة إكرام يناله فيه من أحد، فجمع هذا الظل في النار أنه سَيِّءُ الصِّفَةِ وهم فيه مُهانون.

و«المُتْرَفُ»: المنعم في سرف وتخوّض، و﴿يَمْرُونُ﴾ معناه: يعتقدون اعتقاداً لا يتوون عنه إقلاعاً، قال ابن زيد: لا يتوبون ولا يستغفرون، و«الجِثُّ»: الإثم، ومنه قول النبي ﷺ: «من مات له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الجِثَّ...». الحديث، أراد عليه الصلاة والسلام: لم يبلغوا الحُلْمَ فتتعلق بهم الآثام، وقال الخطابي: الجِثُّ في كلام العرب العذل الثقيل، يشبه الإثم به. واختلف المفسرون في المراد بهذا الإثم - فقال قتادة، والضحاك، وابن زيد: هو الشرك، وهذا هو الظاهر، وقال قوم - فيما ذكر مكّي -: هو الحنث في قَسَمِهِم الذي يتضمنه قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ الآية في التكذيب بالبعث، وهذا أيضاً يتضمن الكفر، فالقول به على عومه أولى، وقال الشعبي: الجِثُّ العَظِيمُ: اليمين الغموس.

وقد تقدم ذكر اختلاف القراء في قوله تعالى: ﴿أَيُّدًا﴾ و﴿أَيْدًا﴾، ويختص من ذلك بهذا الموضع أن ابن عامر يخالف فيه أصله فيقرأ: ﴿أَيُّدًا﴾ ﴿أَيْدًا﴾ بخفيف الهمزتين فيهما على الاستفهام، ورواه أبو بكر

ثُمَّ لَكُمْ أَنْبَاءُ الْأَنْبَاءِ الَّذِينَ الْأَكْلُونَ مِنْ شَجَرٍ زَوْجٍ ﴿٥١﴾
 قَالُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ ﴿٥٢﴾ فَشَرِبُوا مِنْهُ مِنْ اللَّيْمِ ﴿٥٣﴾ فَشَرِبُوا
 شَرِبَ الْيَمِينِ ﴿٥٤﴾ هَذَا تَرْكُومٌ يَوْمَ الْيَمِينِ ﴿٥٥﴾ تَحْنُ حَلَقَتَكُمْ فَلَوْلَا
 تَصَدَّقُوا ﴿٥٦﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْتَمُونَ ﴿٥٧﴾ أَمْتَرْتُمْ تَقْفُونَ؟ أَمْ تَحْنُ
 الْخَلْفُونَ ﴿٥٨﴾ تَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا تَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٥٩﴾
 عَلَيَّ أَنْ نَبْدِلَ أَهْلَكُمُ الَّذِينَ تَحْنُ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَقَدْ
 عَلَّمْنَا النَّشَأَ الْأُولَى فَلَوْلَا تَدَكَّرُونَ ﴿٦١﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْنُونَ
 ﴿٦٢﴾ أَمْتَرْتُمْ زَوْجَهُ؟ أَمْ تَحْنُ الزَّرْعُونَ ﴿٦٣﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ
 حِطْلًا فَلَقَدْ تَقْفُونَ ﴿٦٤﴾ تَالْعَرْمُونَ ﴿٦٥﴾ لَبِئْسَ حَرَمُونَ
 ﴿٦٦﴾ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ ﴿٦٧﴾ أَمْ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ السَّمَاءِ
 أَمْ تَحْنُ الْمَنْزِلُونَ ﴿٦٨﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ آجَا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ
 ﴿٦٩﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٠﴾ أَمْ أَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهَا مِنَ السَّمَاءِ
 تَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧١﴾ تَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذَكُّرًا وَرَمَعًا لِلْمُؤْمِنِينَ
 ﴿٧٢﴾ سَجَّحَ بِأَسْمِيرِكَ الْعَظِيمِ ﴿٧٣﴾ فَلَا أَفْسِسُ
 بِمَوْجِعِ الشَّجَرِ ﴿٧٤﴾ وَإِنَّهُ لَفَسْرٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمًا ﴿٧٥﴾

٥١٦

لابتداء الغاية، والضمير
 في ﴿عَلَيْهِ﴾ عائد على
 المأكول أو على الأكل،
 وفي قراءة ابن مسعود
 رضي الله عنه: ﴿لَا يَكْلُونَ
 مِنْ شَجَرَةٍ﴾ على الإفراد.

و ﴿الْيَمِينِ﴾ قال ابن
 عباس، ومجاهد،
 وعكرمة، والضحاك: هو
 جمع «أهيم» وهو الجمل
 الذي أصابه الهيام - بضم
 الهاء - وهو داء معطش
 يشرب منه الجمل حتى
 يموت أو يسقم سقماً
 شديداً، والأنثى هيماء،
 وقال بعضهم: هو جمع
 هيماء كعبياء وعيين ويضاء

ويبيض، وقال قوم آخرون: هو جمع
 هايم وهايمة، وهو أيضاً من هذا
 المعنى لأن الجمل إذا أصابه ذلك هام
 على وجهه وذهب، وقال ابن عباس،
 وسفيان الثوري: الهيم هنا الرمال التي
 لا تُزَوَّى من الماء، وذلك أن الهيام -
 بفتح الهاء - هو الرمل الدق الغمر
 المتراكم، وقال ثعلب: الهيام - بضم
 الهاء - الرَّمْل الذي لا يتماسك. وقرأ
 ابن كثير، وابن عامر، وأبو عمرو،
 والكسائي: ﴿شَرِبَ الْهَيْمِ﴾ بفتح
 الشين، وهي قراءة الأعرج، وابن
 المسيّب، وشعيب بن الحباب،
 ومالك بن دينار، وابن جريج، ولا
 خلاف أنه مصدر، وقرأ مجاهد:
 ﴿شَرِبَ الْهَيْمِ﴾ بكسر الشين، ولا
 خلاف أنه اسم، وقرأ أهل المدينة
 وباقي السبعة: ﴿شَرِبَ الْيَمِينِ﴾ بضم
 الشين، واختلف فيه - فقال قوم: هو

عن عاصم في قوله تعالى: ﴿أَنْبَاءُ
 لَمُبْعُونَ﴾. والعامل في قوله تعالى:
 ﴿أَنْبَاءُ﴾ فعل مضمر يدل عليه قوله
 تعالى: ﴿لَمُبْعُونَ﴾، تقديره: أتبعث
 أو أتخسر؟ ولا يعمل فيه ما بعده
 لأنه مضاف إليه، وقرأ عيسى
 الثقفى: ﴿مُتَنَّا﴾ بضم الميم، وقرأ
 جمهور الناس: ﴿يَمْنَا﴾ بكسرها،
 وهذا على لغة من يقول: مَثُ أموت
 على وزن فَعِل بكسر العين يفعل
 بضمها، ولم يُحْك منها عن العرب
 إلا هذه اللفظة وأخرى هي فُضِل
 يفضل. وقرأ بعض القراء: ﴿أَوْ
 أَبَاؤُنَا﴾ بسكون الواو من «أَوْ»،
 ومعنى الآية استبعاد أن يبعثوا هم
 وأبائهم على حد واحد من
 الاستبعاد، وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ
 أَبَاؤُنَا﴾ بتحريك الواو على أنها واو
 العطف دخل عليها ألف الاستفهام،
 ومعناها شدة الاستبعاد في الآباء،
 كأنهم استبعدوا أن يبعثوا ثم أتوا
 بذكر مَنْ البعث فيهم أبعد، وهذا بين
 لأهل العلم بلسان العرب.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يعلمهم
 بأن العالم محشور مبعوث ليوم معلوم
 مؤقت. و ﴿يَبْقَتُ﴾ مفعال من
 الوقت، كميعاد من الوعد.

(٥١) - (٦٢) تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَكُمْ أَنْبَاءُ﴾ مخاطبة
 لكفار قريش ومن كان في حالهم،
 و ﴿يَمِينِ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَمِينِ شَجَرٍ﴾
 يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل
 أن تكون لابتداء الغاية، و ﴿يَمِينِ﴾ في
 قوله تعالى: ﴿يَمِينِ زَوْجٍ﴾ لبيان
 الجنس، والضمير في ﴿يَمِينِ﴾ عائد
 على الشجر، و ﴿يَمِينِ﴾ للتبعيض أو

مصدر، وقال آخرون: هو اسم لما
 يُشرب.

و «التَّزُّلُ»: أول ما يأكل الضيف،
 وقرأ أبو عمرو - في رواية ابن عباس -:
 ﴿تَزُولُهُمْ﴾ بسكون الزاي، وقرأ
 الباقر، واليزيدي عن أبي عمرو بضم
 الزاي، وهما بمعنى كالتشغل والتشغل.
 و «الذَّيْنُ»: الجزاء.

ثم أخبر تعالى أنه الخالق، وحض
 على التصديق على وجه التقريع، ثم
 ساق تعالى الحجة الموحية
 للتصديق، كأن معترضاً من الكفار
 قال: ولم أصدق؟ ف قيل له: أفأرأيت
 كذا وكذا؟ الآيات، وليس يوجد
 مفطوراً يخفى عليه أن المنى الذي
 يخرج منه ليس فيه عمل ولا إرادة
 ولا قدرة و ﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى:
 ﴿أَمْ تَحْنُ الْخَلْفُونَ﴾ ليست المعادلة
 عند سيبويه؛ لأن الفعل قد تكرر،

وإنما المعادلة عنده: أقام زيد أم عمرو؟ وهذه التي في هذه الآية معادلة عند قوم من النحاة. وأما إذا تغير الفعلان فليست بمعادلة إجماعاً، وقرأ الجمهور: ﴿تَمُنُّونَ﴾ بضم التاء، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما، وأبو السَّمال: ﴿تَمُنُّونَ﴾ بفتح التاء، ويقال: «أمنى الرجل ومنى» بمعنى واحد.

وقرأ جمهور القراء: ﴿تَمُنُّونَ قَدَرْنَا﴾ بشد الدال، وقرأ ابن كثير وحده: ﴿نَحْنُ قَدَرْنَا﴾ بتخفيف الدال، والمعنى فيهما يحتمل أن يكون بمعنى: قضينا وأثبتنا، ويحتمل أن يكون بمعنى: سؤنا وعدلنا التَّقْدُم والتَّأخُّر، أي: جعلنا الموت رتّباً، ليس يموت العالم دفعة واحدة بل بترتيب لا يعدوه أحد، وقال الطبري: معنى الآية: قدرنا بينكم الموت على أن نبدل أمثالكم، أي: تموت طائفة ونبدلها بطائفة، وهكذا قرناً بعد قرن، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِسَبِيحِينَ﴾ أي: على تبدلكم إن أردناه، وأن ننشكم بأوصاف لا يصلها علمكم ولا تحيط بها فكركم، قال الحسن: من كونهم قردة وخنازير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: تأول الحسن هذا لأن الآية تنحو إلى الوعيد، وجاءت لفظة السبّ هنا على نحو قوله ﷺ: «فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وصلاة قبل غروبها فافعلوا لا تفوتكم». وقرأ جمهور الناس: ﴿النَّشْأَةَ﴾ بسكون الشين، وقرأ قتادة، وأبو الأشهب، وأبو عمرو - بخلاف -: ﴿النَّشْأَةَ﴾ بفتحها وبالمد، وقال أكثر

المفسرين: أشار إلى خلق آدم عليه السلام ووقف عليه لأنك لا تجد أحداً ينكر أنه من ولد آدم عليه السلام، وأنه من طين، وقال بعضهم: أراد تعالى بالنشأة الأولى نشأة إنسان في طفولته، فيعلم المرء نشأته كيف كانت بما يرى في نشأة غيره.

ثم حضض تعالى على التذكُّر والنظر المؤدي إلى الإيمان، وقرأ الجمهور: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ مشددة الذال، وقرأ طلحة: ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ بسكون الذال وضم الكاف، وهذه الآية نص في استعمال القياس والحض عليه.

﴿١٢﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

وقف تعالى الكفار على أمر الزرع الذي هو قوام العيش، وبين لكل مفطور أن الحراث الذي يثير الأرض ويفرق الحب ليس يفعل في نبات الزرع شيئاً، وقد يُسمى الإنسان زارعاً، ومنه قوله تعالى: ﴿يُعْجِبُ الرِّزْقَ﴾، لكن معنى هذه الآية: أنتم تزرعون زرعاً يتم أم نحن؟ وروى أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «لا تقولن زرعتم، ولكن قل: حرثت»، ثم تلا أبو هريرة رضي الله عنه هذه الآية.

و «الْحَطَامُ»: اليابس المتفتت من النبات الصائر إلى ذهاب، وبه شبه حطام الدنيا، وقيل: المعنى: يتنا لا قنح فيه، و«فَكَهْرُونَ» قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة: معناه: تعجبون، وقال عكرمة: تلاومون، وقال الحسن: معناه: تندمون، وقال ابن زيد: تتفجعون، وهذا كله تفسير لا يخص اللفظة، والذي يخص

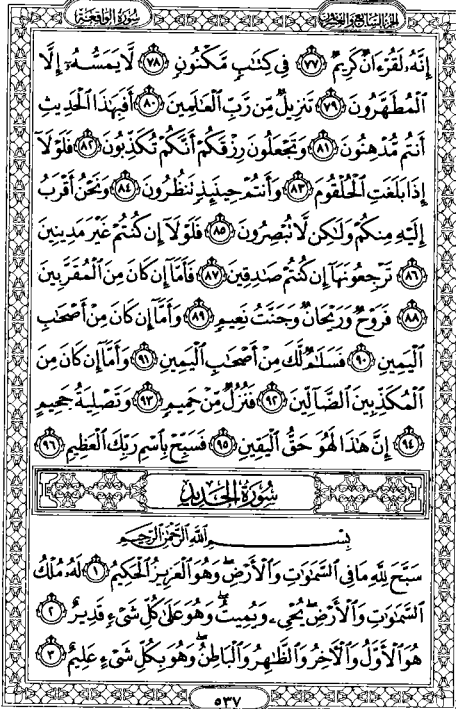
اللفظة هو: تطرحون الفكاهة عن أنفسكم، وهي المسرة والجزل، ورجل فجة إذا كان منبسط النفس غير مكترث بشيء، و«تَفَكَّهُةً» من أخوات «تَحَرَّجَ» و«تَحَوَّبَ». وقرأ الجمهور: ﴿فَقَلَّلْتُمْ﴾ بفتح الظاء، وروي سفيان الثوري في قراءة عبدالله كسر الظاء، قال أبو حاتم: طرحت عليها حركة اللام المحذوفة، وذلك رديء في القياس، وهي قراءة أبي حنيفة، وروي أحمد بن موسى: ﴿فَقَلَّلْتُمْ﴾ بلامين الأولى مفتوحة عن الجحدري، ورويت عن ابن مسعود رضي الله عنه بكسر اللام الأولى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمُعْتَبِرُونَ﴾ قبله حذف تقديره: «يقولون»، وقرأ الأعمش، وعاصم الجحدري: ﴿أَيْنَا لَمُعْتَبِرُونَ﴾ بهزتين على الاستفهام، والمعنى يحتمل أن يكون: إنا المعذبون من الغرام، وهو أشد العذاب، ومنه قوله تعالى: ﴿إِن كَ عَذَابِكُمْ كَانَ عَذَابًا﴾، ومنه قول الأعشى:

إِن يُعَذَّبَ يَكُنْ عَرَامًا وَإِن يُغْطَجَزِيلاً فَلِئِنَّهُ لَا يُبَالِي وَيَحْتَمِلُ أَن يَكُونَ الْمَعْنَى: إِنَّا لَمُحْتَمِلُونَ الْغَرَامَ، أي: غرمانا في النفقة وذهاب زرعنا، تقول: «عَرِمَ الرجل وأَعْرَمْتُهُ فهو مُعْرَمٌ»، وتقدم تفسير «المحروم» وأنه المحدود المُحَارَف.

و «الْمُزْنُ»: السحاب بلا خلاف، ومنه قول الشاعر:

وَنَحْنُ كَمَا الْمُزْنُ مَا فِي نَصَابِنَا كَهَامٌ وَلَا فِينَا يُعَدُّ بِخَيْلٍ و «الأجاج» أشد المياه ملوحة، وهو ماء البحر الأخضر، و«تُورُونَ» معناه:



والفقير والغني إذا أقرونا
سواء في الحاجة إلى
النار، ولا شيء يغني
غناها في البرد، ومن
قال: «إن أقوى من
الأضداد من حيث يقال
أقوى الرجل إذا قويت
دابته» فقد أخطأ، وذلك
فعل آخر كأترب إذا
أترى.

ثم أمر تبارك وتعالى
نبيه ﷺ بتتزيه ربه عزَّ
وجلَّ وتتزيه أسمائه العُلَى
عما يقوله الكفرة الذين
حُجِّروا في هذه الآيات.

﴿٧٥﴾ - ﴿٨٧﴾ تفسير قوله
عزَّ وجلَّ:

اختلف الناس في [لَا] من قوله
تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوْقِعِ
النُّجُومِ﴾ - فقال بعض النحويين:
هي زائدة، والمعنى: فأقسم،
وزيادتها في بعض المواضع
معروف، كقوله تعالى: ﴿ثَلَا يَلْمُكَ
أَهْلُ الْكِتَابِ﴾، وغير ذلك، وقال
سعيد بن جبيرة وبعض النحويين:
هي نافية، كأنه تعالى يقول:
فلا صحة لما يقوله الكفار، ثم ابتداءً
تبارك وتعالى فقال: «أقسم»
وقال بعض المتأولين: هي مؤكدة
تعطي في القسم مبالغة، وهي
كاستفتاح كلام يشبهه في القسم
لا في شائع الكلام، ومنه قول
الشاعر:

فَلَا وَأَبِي... لَا أَحْوُسُهَا

المعنى: «فوأبي»، ولهذا نظائر،
وقرأ الحسن والثقفى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ﴾

تقتدحون من الأزند، تقول: أوريت
النار من الزناد، وورى الزنادُ نفسه،
والزناد قد يكون من حجرين ومن
حجر وحديدة ومن شجر لا سيمًا في
بلاد العرب، فإن أزندهم من شجر ولا
سيمًا في الشجر الرخو كالمرخ والعفار
والكلخ وما أشبهه، ولعادة العرب في
أن زنادهم من شجر قال تعالى: ﴿أَشْتَرُ
أَنْشَأْتُمْ شَجَرَةً﴾، وقال بعض أهل
النظر: أراد بالشجرة نفس النار، كأنه
تعالى يقول: نوعها أو جنسها،
فاستعار الشجرة لذلك، وهو قول فيه
تكلف، وقرأ الجمهور: ﴿أَنْتُمْ﴾
بالمد، وروي عن أبي عمرو،
وعيسى: ﴿أَنْتُمْ﴾ بغير مد، وضعفها
أبو حاتم.

و﴿نَذْكُرَكَ﴾ معناه: تُذَكِّرُ نار
جهنم، قاله مجاهد وقتادة،
و«الْمَتَاعُ» ما يُنْتَفَعُ به، و«المُؤْمِنِينَ»
في هذه الآية: الكائنون في الأرض
القواء، وهي الفيافي، وعبر الناس
في تفسير «المُؤْمِنِينَ» بأشياء ضعيفة،
كقول ابن زيد: الخائفون ونحوه،
ولا يقوم منها إلا ما ذكرناه، ومن
قال معناه: المسافرون فهو نحو ما
قلناه، وهي عبارة ابن عباس
رضي الله عنهما، تقول: «أصبح
الرجل» دخل في الصباح، و«أضحَرَ»
دخل في الصحراء، و«أقوى» دخل
في الأرض القواء، ومنه «أقوتُ
الداؤ»، وأقوى الطلُّلُ: أي: صار
قواء، ومنه قول النابغة:

أَقْوَتْ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبْدِ
وقول الآخر:

أَقْوَى وَأَقْفَر بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثِمِ

بغير ألف، قال أبو الفتح: التقدير:
فلأنا أقسم.

وقرأ الجمهور من القراء: ﴿بِمَوْقِعِ﴾
على الجمع، وقرأ عمر بن
الخطاب، وابن مسعود، وابن عباس
- رضي الله تعالى عنهم - وأهل
الكوفة، وحمزة، والكسائي:
﴿بِمَوْقِعِ﴾ على الإفراد، وهو مراد به
الجمع، ونظير هذا كثير، ومنه قوله
تعالى: ﴿إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ
النَّخِيرِ﴾، جَمَعَ من حيث لكل حمار
صوت مختص، وأُفرد من حيث
الأصوات كلها صوت.

واختلف الناس في «النُّجُوم» هنا -
فقال ابن عباس، وعكرمة،
ومجاهد، وغيرهم: هي نجوم القرآن
التي نزلت على محمد ﷺ، وذلك
أنه روي في القرآن نزل من عند الله
عزَّ وجلَّ في ليلة القدر إلى السماء

الدنيا - وقيل: إلى البيت المعمور - جملة واحدة، ثم نزل بعد ذلك على محمد ﷺ نجوماً مقطعة في مدة من عشرين سنة، ويؤيد هذا القول عود الضمير على القرآن في قوله سبحانه: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾، وذلك أن ذكره لم يتقدم إلا على هذا التأويل، ومن لا يتأول هذا التأويل يقول: إن الضمير يعود على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لشبهة الأمر ووضوح المعنى، كقوله تعالى: ﴿حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾، وغير ذلك. وقال جمهور كثير من المفسرين: النجوم هنا الكواكب المعروفة، واختلف في مواقعها - فقال مجاهد وأبو عبيدة: هي مواقعها عند غروبها وطلوعها، وقال قتادة: مواقعها هي مواضعها من السماء، وقيل: مواقعها عند الانقراض إثر العفارت، وقال الحسن: مواقعها عند انكدار النجوم.

وقوله تعالى: ﴿وَأِنَّهُ لَقَسْرٌ تَأْكِيدٌ لِلأَمْرِ وَتَنْبِيهِ مِنَ الْمَقْسَمِ بِهِ، وليس هذا باعتراض بين الكلامين، بل هذا معنى قصد التهمم به، وإنما الاعتراض قوله تعالى: ﴿لَوْ تَكَلَّمُونَ﴾، وقد قال قوم: إنه قوله تعالى: ﴿وَأِنَّهُ لَقَسْرٌ﴾ اعتراض، وإن ﴿لَوْ تَكَلَّمُونَ﴾ اعتراض في اعتراض، والتحرير هو الذي ذكرناه، وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ﴾ هو الذي وقع القسم عليه، ووصفه بالكرم على معنى إثبات صفات المدح له ودفع صفات الحطية عنه.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿فِي كِتَابٍ مَّكُونٍ﴾ بعد اتفاقهم

على أن «الْمَكُونُ»: المصون - فقال ابن عباس، ومجاهد: أراد الكتاب الذي في السماء، وقال عكرمة: أراد التوراة والإنجيل، كأنه تعالى قال: إنه لكتاب كريم ذكر كرمه وشرفه في كتاب مكنون، فمعنى الآية - على هذا - الاستشهاد بالكتب المنزلة، وهذا كقوله عز وجل: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ﴾، وقال بعض المتأولين: أراد مصاحف المسلمين، وكانت يوم نزلت الآية لم تكن، فهي - على هذا - إخبار بغيب، وكذلك هو كتاب مصون إلى يوم القيامة، ويؤيد هذا لفظه «الْمَسُّ» فإنها تشير إلى المصاحف، وهي مستعارة من مس الملائكة.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ وفي حكمه - فقال بعض من قال إن الكتاب المكنون هو الذي في السماء، قال: الْمُطَهَّرُونَ هنا: الملائكة، قال قتادة: فأما عندكم فيمسه المشرك النجس والمنافق، قال الطبري: الْمُطَهَّرُونَ: الملائكة والأنبياء عليهم السلام ومن لا ذنب له، وليس في الآية - على هذا القول - حكم مس المصحف لسائر بني آدم، ومن قال بأنها مصاحف المسلمين قال: إن قوله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ إخبار مضمته النهي، وضمة السين - على هذا - إعراب، وقال بعض هذه الفرقة: الكلام نهْي، وضمة السين ضمة بناء، قال جميعهم: فلا يمس المصحف من بني آدم إلا الطاهر من

الكفر والجنابة والحدث الأصغر، قال مالك: لا يحمله غير طاهر بعلاقته ولا على وسادة، وفي كتاب رسول الله ﷺ لعمر بن حزم: «ولا يمس القرآن إلا طاهراً»، وقد رخص أبو حنيفة وقوم أن يمسه الجنب والحائض على حائل، غلاف ونحوه، ورخص بعض العلماء في مسه بالحدث الأصغر وفي قراءته عن ظهر قلب، منهم ابن عباس وعامر الشعبي، لا سيما للمعلم والصبيان، وقد رخص بعضهم للجنب في قراءته، وهذا الترخيص كله إنما هو على القول الذي ذكرناه من أن «المطهرين» هم الملائكة، أو على مراعاة لفظه المس، فقد قال سلمان رضي الله عنه: لا أمس المصحف ولكن أقرأ القرآن. وقرأ جمهور الناس: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ بفتح الطاء والهاء المشددة، وقرأ نافع، وأبو عمرو - بخلاف عنهما -: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ بسكون الطاء وفتح الهاء خفيفة، وهي قراءة عيسى الشقفي، وقرأ سلمان الفارسي: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ بفتح الطاء خفيفة وكسر الهاء وشدها، على معنى الذين يُطَهَّرُونَ أنفسهم، ورويت عنه بشد الطاء والهاء، وقرأ الحسن، وعبدالله بن عون، وسلمان الفارسي - بخلاف عنه -: ﴿الْمُطَهَّرُونَ﴾ بمعنى: الْمُتَطَهَّرِينَ، والقول بأن ﴿لَا يَمَسُّهُ﴾ نهْي قول فيه ضعف، وذلك أنه إذا كان خبراً فهو في موضع الصفة، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿تَنْزِيلٌ﴾ صفة أيضاً، فإذا جعلناه نهياً جاء معنى أجنبياً مُعْتَرِضاً بين

الصفات، وذلك لا يحسن في رصف الكلام فتدبره، وفي حرف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿مَا يَمْسُهُ﴾، وهذا يَقْوِي ما رَجَّحته من الخبر الذي معناه: حَقُّهُ وَقَدْرُهُ أَلَّا يَمْسُهُ إِلَّا طَاهِرٌ.

وقوله تعالى: ﴿أَبَيْدًا لَّكَرِيبٍ أَنْتُمْ مُذْهَبُونَ﴾ ﴿مخاطبة للكفار، والحديث» المشار إليه هو القرآن المتضمن البعث، وأن الله تعالى هو خالق الكل، وأن ابن آدم مصرف بقدره وقضائه، وغير ذلك، و﴿مُذْهَبُونَ﴾ معناه: يُلَايِنُ بعضكم بعضاً ويتبعه في الكفر، مأخوذ من الدهن ليلينه وأملأه، وقال أبو قيس بن الأثلث:

الْحَزْمُ وَالْفُؤُةُ خَيْرٌ مِنَ الْإِذْمَانِ الْفُؤُةِ وَالْهَوَاعِ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي المهادة فيما لا يحل، والمدارة هي المهادة فيما يحل، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿مُذْهَبُونَ﴾: مكذبون.

قوله تعالى: ﴿وَتَخْلَعُونَ رِزْقَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾ ﴿، أجمع المفسرون على أن الآية توبيخ للقائلين في المطر الذي نزله الله تعالى رزقاً للعباد: هذا بِنَوْءٍ كَذَا، وهذا بِنَوْءِ الْأَسَدِ، وهذا بِنَوْءِ الْجَوَازِ، وغير ذلك، والمعنى: وتجعلون شكر رزقكم، كما تقول لرجل: جعلت يا فلان إحساني إليك أن سببتي، فالمعنى: جعلت شكر إحساني، وحكى الهيثم بن عدي أن من لغة أزد شنوءة: ما رزق فلان؟ بمعنى: ما شكره؟ وكان علي بن أبي طالب

رضي الله عنه يقرؤها: ﴿وَتَخْلَعُونَ شُكْرَكُمْ أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾، وكذلك قرأ ابن عباس رضي الله عنهما، ورويت عن النبي ﷺ إلا أن ابن عباس رضي الله عنهما ضم التاء وفتح الكاف، وعلي رضي الله عنه فتح التاء وسكن الكاف وخفف الذال، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

وكانَ شُكْرُ الْقَوْمِ عِنْدَ الْمَنِينِ
كِي الصُّحُوحَاتِ وَقَوِّ الْأَعْيُنِ
وقد أخبر الله تعالى أنه أنزل من السماء ماءً مباركاً فأشأ به جنات وحبّ الحصيد، والنخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد، فهذا معنى قوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ تُكْذِبُونَ﴾، أي: بهذا الخبر، وقرأ عاصم في رواية المفضل عنه: ﴿تُكْذِبُونَ﴾ بفتح التاء وسكون الكاف وتخفيف الذال كقراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكذبهم في مقالهم بَيِّنٌ لأنهم يقولون: هذا بنوء كذا، وذلك كذب منهم وتخرض. وذكر الطبري أن النبي ﷺ سمع رجلاً يقول: مُطْرنا ببعض عشائين الأسد، فقال له: «كذبت بل هو رزق الله»، والمنهي عنه المكروه هو أن يعتقد أن للطاقع من النجوم تأثيراً في المطر، وأما مراعاة بعض الطوائع على مقتضى العادة فقد قال عمر للعباس رضي الله عنهما وهما في الاستسقاء: يا عباس، يا عم النبي ﷺ: كم بقي من نوء الثريا؟ فقال العباس رضي الله عنه: العلماء يقولون إنها تعترض الأفق بعد سقوطها سبعمائة، قال ابن المسيب: فما مضت سبع حتى مُطِرُوا.

وقوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ ﴿توقيف على موضع عجز يقتضي النظر فيه أن الله تبارك وتعالى مالك كل شيء، والضمير في ﴿بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ﴾ لنفس الإنسان، والمعنى يقتضيها وإن لم يتقدم لها ذكر، و«الْحُلُقُوم» مجرى الطعام، وهذه الحال هي نزاع المرء للموت. وقوله تعالى: ﴿أَنْتُمْ﴾ إشارة إلى جميع البشر، وهذا من الانتصاب، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾. وقرأ عيسى بن عمر: ﴿حَيْثُ بَلَغَتِ الْبُكْرُ النُّونَ، وَنَظَرُونَ﴾ معناه: إلى المنازع في الموت. وقوله تعالى: ﴿وَيَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ﴾ يحتمل أن يريد ملائكته ورسله، ويحتمل أن يريد: بقدرتنا وغلبتنا، فعلى الاحتمال الأول يجيء قوله تعالى: ﴿وَلَكِنَّ لَا يُعِيرُونَ﴾ من النظر بالعين، وعلى التأويل الثاني يجيء من النظر بالقلب، وقال عامر بن عبد قيس: ما نظرت إلى شيء إلا رأيت الله تعالى أقرب إليه مني.

ثم عاد التوقيف والتقرير ثانية بلفظ التخصيص، والمدين: المملوك، هذا أصح ما يقال في معنى اللفظة هنا، ومن عبر عنها بالمجازي أو الْمُحَاسَبِ فذلك هنا قلق، والمملوك يقرب كيف شاء المالك، ومن هذا البلك قول الأخطل:

رَبَّتْ قَرْبِي فِي جَجْرِهَا ابْنُ مَدِينَةَ
تَرَاهُ عَلَيَّ وَسُخَايَةِ يَسْتَرْكُلُ
أراد: ابن أمة مملوكة، وهو عبد يخدم الكرم، وقد قيل في معنى هذا البيت: أراد أكاراً حَضْرِيّاً لأن الأعراب في البادية لا يعرفون

الفلاحة وعمل الكرم، فَتَسَبَّهَ إِلَى المدينة لما كان من أهلها، فمعنى الآية: فلولا ترجعون النفس البالغة إلى الخُلُقُومِ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَمْلُوكِينَ وَلَا مَقْهُورِينَ، وَدِينُ الْمَلِكِ حُكْمُهُ وَسُلْطَانُهُ، وقد نحا إلى هذا المعنى الفراء، وذكره مُستوعباً النقاش. وقوله تعالى: ﴿تَرْجِعُونَهَا﴾ سَدَّتْ مَسَدَ الْأَجْوِبَةِ وَالْبَيِّنَاتِ الَّتِي تَقْتَضِيهَا التَّخْصِيصَاتُ، وَإِذَاكَ مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَوْلَا إِذَاكَ﴾ وَ﴿إِنْ﴾ المتكررة، وحمل بعض القول بعضاً إيجازاً واقتضاباً.

﴿٨٨﴾ - ﴿٨٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى في هذه الآية حال الأزواج الثلاثة المذكورة في أول السورة، وحال امرئ منهم، فأما المرء من السابقين المقربين فسيلقى عند موته زَوْحاً وَرِيحَاناً، وَ«الرُّوْحُ»: الرحمة والسعة والفرج والفرح، ومنه: روح الله، وَ«الرَّيْحَانُ»: الطيب، وهو دليل النعيم، وقال مجاهد: الريحان: الرُّزْقُ، وقال أبو العالية، وقتادة، والحسن: الرِّيحَانُ هو الشجر المعروف في الدنيا، يَلْقَى الْمُقَرَّبَ رِيحَاناً مِنَ الْجَنَّةِ، وَقَرَأَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَالْحَسَنُ، وَجَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ: ﴿فَرُوحٌ﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ، وَقَالَ الْحَسَنُ: معناه: روحه تخرج في ريحانة، وقال الضحّاك: الرِّيحَانُ: الاستراحة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: الريحان ما تنسط إليه النفوس، وقال الخليل: هو طرف كل بقلة طيبة فيها أوائل الثور، وقد قال عليه الصلاة والسلام في الحسن والحسين

رضي الله تعالى عنهما: «هما رِيحَانَتَايَ مِنَ الدُّنْيَا»، وَقَالَ الثَّمَرُ بْنُ تَوَلَّبٍ:

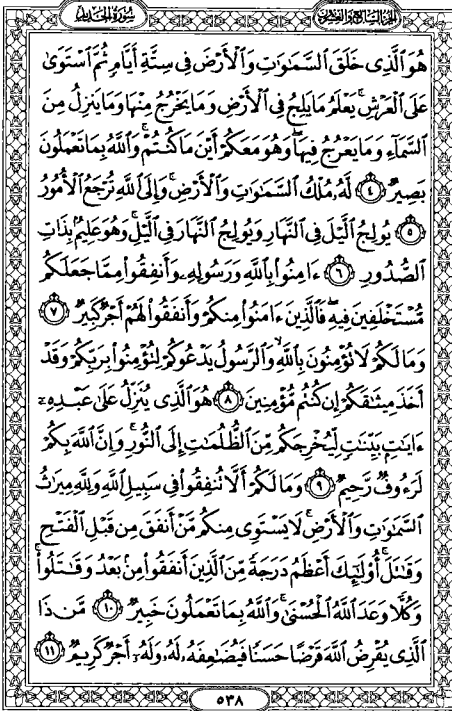
سَلَامُ الْإِلَهِ وَرَنَحَانُهُ
وَرَحْمَتُهُ وَسَمَاءُ دِرْزِ
وقالت عائشة رضي الله عنها:
سمعت رسول الله ﷺ يقرأ:
﴿فَرُوحٌ﴾ بِضَمِّ الرَّاءِ.

وقوله تعالى: ﴿سَلِّتْ لَكَ مِنْ أَمْتِكَ الْيَمِينَ﴾ عبارة تقتضي جملة مَدْحٍ، وَصِفَةً تَخْلُصُ وَحْصُولِ فِي عَالٍ مِنَ الْمَرَاتِبِ، وَالْمَعْنَى: لَيْسَ فِي أَمْرِهِمْ إِلَّا السَّلَامُ وَالنَّجَاةُ مِنَ الْعَذَابِ، وَهَذَا كَمَا تَقُولُ فِي مَدْحِ رَجُلٍ: أَمَا فَلانَ فَنَاهَيْكَ بِهِ، أَوْ بِحَسْبِكَ أَمْرُهُ، فَهَذَا يَقْتَضِي جَمْلَةً غَيْرَ مُفْصَلَةٍ مِنْ مَدْحِهِ، وَقَدْ اضْطَرَّتْ عِبَارَاتُ الْمُتَأَوِّلِينَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سَلِّتْ لَكَ﴾ - فَقَالَ قَوْمٌ: الْمَعْنَى: فِيقَالَ لَهُ: «مُسَلِّمٌ لَكَ أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ»، وَقَالَ الطَّبْرِيُّ: الْمَعْنَى: فَسَلَامٌ لَكَ أَنْتَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَقِيلَ الْمَعْنَى: فَسَلَامٌ لَكَ يَا مُحَمَّدُ، أَي: لَا تَرَى فِيهِمْ إِلَّا السَّلَامَةَ مِنَ الْعَذَابِ، فَهَذِهِ الْكَافُ فِي ﴿لَكَ﴾ إِذَا أَنْ تَكُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ - وَهُوَ الْأَظْهَرُ - ثُمَّ لِكُلِّ مَعْتَبَرٍ فِيهَا مِنْ أُمَّتِهِ، وَإِذَا أَنْ تَكُونَ لِمَنْ يَخاطِبُهُ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ، وَغَيْرِ هَذَا مِمَّا قِيلَ فِيهِ تَكَلُّفٌ.

و «المُكْدَبُونَ الضَّالُّونَ» هم الكفار أصحاب الشمال والمشامة، وَ«الْثُّرُلُ» أَوَّلُ شَيْءٍ يَاقِدُ لِلضَّيْفِ، وَ«التَّضْلِيَةُ» أَنْ تَبَاشَرَ بِهِمُ النَّارُ، وَ«الْجَحِيمُ» مَعْظَمُ النَّارِ وَحَيْثُ تَرَكَهَا. وَلَمَّا كَمُلَ تَقْسِيمُ أَحْوَالِهِمْ وَانْقَضَى

الخبر بذلك أكَّدَ تَعَالَى الْإِخْبَارَ بِأَنَّ قَالَ لِنَبِيِّ مُحَمَّدٍ ﷺ مَخاطِبَةً تَدْخُلُ مَعَهُ أُمَّتُهُ فِيهَا: إِنْ هَذَا الَّذِي أَخْبَرْتِكَ بِهِ لَهُ حَقُّ الْيَقِينِ، وَإِضَافَةَ الْحَقِّ إِلَى الْيَقِينِ عِبَارَةٌ فِيهَا مَبَالِغَةٌ لِأَنَّهَا بِمَعْنَى وَاحِدٍ، فَذَهَبَ بَعْضُ النَّاسِ إِلَى أَنَّهُ مِنْ بَابِ «دَارِ الْآخِرَةِ» وَ«مَسْجِدِ الْجَامِعِ»، وَذَهَبَتْ فِرْقَةٌ مِنَ الْحَدَاقِ إِلَى أَنَّهُ كَمَا تَقُولُ فِي أَمْرٍ تُؤَكِّدُهُ: هَذَا يَقِينُ الْيَقِينِ، أَوْ صَوَابُ الصَّوَابِ، بِمَعْنَى أَنَّهُ نَهَايَةُ الصَّوَابِ، وَهَذَا أَحْسَنُ مَا قِيلَ فِيهِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ «دَارِ الْآخِرَةِ» وَمَا أَشْبَهَهَا يَحْتَمِلُ أَنْ تَقْدُرَ شَيْئاً أَضْفَتِ الدَّارَ إِلَيْهِ وَوَصَفْتَهُ بِالْآخِرَةِ ثُمَّ حَذَفْتَهُ وَأَقَمْتَ الصِّفَةَ مَقَامَهُ، كَأَنَّكَ قُلْتَ: «دَارِ الرَّجْعَةِ الْآخِرَةِ»، أَوْ «دَارِ النِّشْأَةِ الْآخِرَةِ»، أَوْ «الْحَلْقَةِ الْآخِرَةِ»، وَهَذَا لَا يَنْجُو هَذَا، وَإِنَّمَا هِيَ عِبَارَةٌ مَبَالِغَةٌ وَتَأَكِيدُ مَعْنَاهَا أَنَّ هَذَا الْخَبَرَ هُوَ نَفْسُ الْيَقِينِ وَحَقِيقَتُهُ.

وقوله تعالى: ﴿سَيِّحٌ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ عبارة تقتضي الأمر بالإعراض عن أقوال الكفرة وسائر أمور الدنيا المختصة بها، والإقبال على أمور الآخرة، وعبادة الله تعالى والدعاء إليه، وروى عتبة بن عامر أنه لما نزل ﴿سَيِّحٌ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال النبي ﷺ: «اجعلوها في ركوعكم»، فلما نزلت ﴿سَيِّحٌ بِأَسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: «اجعلوها في سجودكم»، ويحتمل أن يكون المعنى: سَبِّحْ اللَّهَ تَعَالَى بِذِكْرِ أَسْمَائِهِ الْعُلَى، وَ«الاسم» هنا بمعنى الجنس، أَي: بِأَسْمَاءِ رَبِّكَ، وَ«العظيم» صفة للربِّ تَعَالَى، وَقَدْ



التسبيح مما ذكر دائم مستمر، واختلفوا، هل هذا التسبيح حقيقة أو مجاز على معنى أن أثر الصنعة فيها يُنبئ الرائي على التسبيح؟ قال الزجاج وغيره: والقول بالحقيقة أحسن، وقد تقدم القول فيه غير مرة، وهذا كله في الجمادات، وأمّا ما يمكن التسبيح منه فقول واحد أن تسبيحهم حقيقة، وقال قوم من المفسرين: التسبيح في هذه السورة الصلاة، وهذا قول متكلف، فأما فيمن يمكن منه ذلك فسائق، وعلى أن

يحتمل أن يكون «الاسم» هنا واحداً مقصوداً، ويكون «العظيم» صفة له، فكأنه أمره أن يسبحه باسمه الأعظم وإن كان لم يُنص عليه، ويؤيد هذا ويشير إليه اتصال سورة الحديد وأولها فيه التسبيح وجملة من أسماء الله تعالى، وقد قال ابن عباس رضي الله عنهما: «اسم الله الأعظم موجود في ست آيات من أول سورة الحديد»، فتأمل هذا فإنه من دقيق النظر، والله تعالى في كتابه العزيز غوامض لا تكاد الأذهان تدرکها.

كامل تفسير سورة الواقعة والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الحديد

وهي مدنية، قال النقاش وغيره: بإجماع من المفسرين، وقال غيره: هي مكية، ولا خلاف أن فيها قرآناً مدنياً لكن يشبه صدرها أن يكون مكياً، والله تعالى أعلم، وقد ذكرنا قول ابن عباس رضي الله عنهما أن اسم الله عز وجل الأعظم هو في ست آيات من أول سورة الحديد، ورؤي أن الدعاء بعد قراءة لها مستجاب.

﴿١﴾ - ﴿٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال أكثر المفسرين: التسبيح هنا هو التزييه المعروف في قولهم: «سبحان الله»، وهذا عندهم إخبار بصيغة الماضي مُضْمَنُ الدوام وأن

ملك البشر مجازاً فان، وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: على كل شيء مقدور.

قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾. الأول: الذي ليس لوجوده بداية مُفْتَتِحَةٌ، والآخِر: الذي ليس لها نهاية منقضية. وقال أبو بكر الوراق: هو الأول بالأولية والآخِر بالأبدية، وهو الأول بالوجود؛ إذ كل موجود فبعده وبه، والآخِر إذا نظر العقل في الموجودات حتى يكون إليه منتهاها، قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ لَكَ رَبَّكَ آلَتْنَيْنِ﴾. و﴿وَالظَّهِيرُ﴾ معناه: بالأدلة ونظر العقول في صنعته، و﴿وَالْبَاقِيْنَ﴾ بلطفه وغوامض حكمته وباهر صفته التي لا تصل إلى معرفتها - على ما هي عليه - الأوهام، ويحتمل أن يريد تعالى بقوله: ﴿وَالظَّهِيرُ وَالْبَاقِيْنَ﴾ الذي بهر

سجود ظلال الكفار هي صلاتهم، وأمّا في الجمادات فيقلق، وذلك أن خضوعها وخشوع هيبتها قد يُسمى في اللغة سجوداً تجوزاً واستعارة، كما قال الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
ويبعد أن تُسمى تلك صلاة إلا على تجوز.

وقوله تعالى: ﴿مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ عامٌ في جميع المخلوقات، وقال بعض النحاة: التقدير: ما في السموات وما في الأرض، ف﴿مَا﴾ نكرةٌ موصوفةٌ، فلما تكرر موصوفها حذفها وأقام الصفة مقامها، وهو العزيز بقدرته، وسلطانه، الحكيم بلطفه وتدبيره وحكمته، وملك السموات والأرض هو سلطانه الحقيقي الدائم؛ لأن

وَمَلَكَ فَمَا ظَهَرَ للقول وفيما خفي عنها، فليس في الظاهر غيره حسب قيام الأدلة، وليس في باطن الأمر وفيما خفي على النظر مِمَّا عَسَى أَنْ يُتَوَهَّمْ غَيْرُهُ. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ عام في الأشياء عموماً تاماً.

وقد تقدم القول في خلق السموات والأرض، وأكثر الناس على أن بدء الخلق في يوم الأحد، ووقع في مسلم أن البداية في يوم السبت، وقال بعض المفسرين: الأيام الستة من أيام القيامة، وقال الجمهور: من أيام الدنيا، وهو الأصوب، والاستواء على العرش هو بالغلبة والقهر المستمرين بالقدرة، وليس ما في قهر العباد من المحاولة والتعب، وقد تقدم القول في مسألة الاستواء مستوعباً في طه وغيرها. ﴿وَمَا يَلْبِغُ فِي الْأَرْضِ﴾ هو المطر والأموات وغير ذلك، ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ هو النبات والمعادن وغير ذلك، ﴿وَمَا يَزُولُ مِنْ السَّمَاءِ﴾ الملائكة والرحمة والعذاب وغير ذلك، ﴿وَمَا يَنْزِلُ فِيهَا﴾ هو الأعمال صالحها وسيئها والملائكة وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ﴾ معناه: بقدرته وعلمه وإحاطته وهدايته، أجمعت الأمة على هذا التأويل فيها، وإنها مخرجة عن معنى لفظها المعهود، ودخل في الإجماع من يقول بأن هذا أمر المُشْتَبَّه كله، ينبغي أن يمر ويؤمن به ولا يُفسَّر، وقد أجمعوا على تأويل هذه لبيان وجوب إخراجها عن ظاهرها، قال سفيان الثوري:

المعنى: علمه معكم، وتأويلهم هذه حجة عليهم في غيرها.

﴿٥﴾ - ﴿٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ تَزَجُّجُ الْأُمُورِ﴾ خبر يعم جميع الموجودات، و﴿الأمور﴾ هنا ليست جمع المصدر، بل هي جميع الموجودات لأن الأمر والشيء والموجود أسماء شائعة في جميع الموجودات أعراضها وجواهرها، وقرأ الجمهور: ﴿تَزَجُّجُ﴾ بضم التاء، وقرأ الأعرج، وابن أبي إسحق: ﴿تَزَجُّجُ﴾ بفتح التاء.

وقوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ الآية تنبيه على العبرة فيما يتجاذبه الليل والنهار من الطول والقصر، وذلك متشعب مختلف حسب اختلاف الأقطار والأزمان الأربعة، وذلك بحر من بحار الفكرة لمن تأمله، و﴿يُولِجُ﴾ معناه: يدخل، و﴿ذَاتُ الصُّدُورِ﴾: ما فيها من الأسرار والمعتقدات وذلك أعمق ما يكون، وهذا كما قالوا: «الذئب مغبوطٌ يذِي بطنه»، وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: «إنما هو ذو بطن بنت خارجة».

وقوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ الآية. أمرٌ للمؤمنين بالثبوت على الإيمان والنفقة في سبيل الله، ويروى أن هذه الآية نزلت في غزوة العُسرة، وهي غزوة تبوك، قاله الضحاك، وقال: الإشارة بقوله تعالى: ﴿قَالَيْنِ ءَامِنُوا بِكُمْ وَأَنْفَقُوا﴾ إلى عثمان بن عفان رضي الله عنه، وحكمها باقي يندب إلى هذه الأفعال بقية الدهر. وقوله

تعالى: ﴿يَمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْفِينَ فِيهِ﴾ تزيهد وتنبيه على أن الأموال إنما تصير إلى الإنسان من غيره ويتركها لغيره، وليس له من ذلك إلا ما تضمنه قول رسول الله ﷺ: يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، ويروى أن رجلاً مرَّ بأعرابي له إبل فقال له: يا أعرابي، لمن هذه الإبل؟ فقال: هي لله تعالى عندي، فهذا موافق مصيب إن كان ممن صحب قوله عمله.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآية توطئة لدعائهم وإيجاب لأنهم أهل هذه الرتبة الرفيعة، فإذا تقرر ذلك فلا مانع من الإيمان، وهذا كما تريد أن تندب رجلاً إلى عطاء فتقول له: أنت يا فلان من قوم أجواد فينبغي أن تُكرم، وهذا مُطْرَد في جميع الأمور، إذا أردت من أحد فعلاً خَلَفْتَهُ بَخْلُقِ أَهْلَ ذَلِكَ الْفِعْلِ وجعلت له رتبته، فإذا تقرر في هؤلاء أن رسول الله ﷺ يدعوهم، وأنهم بمن أخذ الله ميثاقهم، فكيف يمتنعون من الإيمان؟ وقرأ جمهور القراء: ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وقرأ أبو عمرو: ﴿وَقَدْ أَخَذَ﴾ على بناء الفعل للمفعول، والأخذ على كل هو الله تعالى، وهذا الأخذ كان حين الإخراج من ظهر آدم عليه السلام على ما مضى في غير هذه السورة، والمخاطبة ببناء الفعل للمفعول أشد غِلْظاً على المخاطب، ونحوه قول الله تعالى: ﴿فَأَسْتَمِعْكُمْ كَمَا

أمرت، وكما تقول لإمرىء: افعل ما قيل لك، فهو أبلغ من قولك: افعل ما قلت لك.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، قال الطبري: المعنى: إن كنتم مؤمنين في حال من الأحوال فالآن، وهذا معنى ليس في لفظ الآية وفيه إضمار كثير، وإنما المعنى عندي أن قول الله تعالى: ﴿وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ يقتضي أن يُقدَّر بآثره: فأنتم في رتب شريفة وأقدار رفيعة إن كنتم مؤمنين، أي: إذا دتم على ما بدأتم به.

وقرأ بعض السبعة: ﴿بِرَبِّكَ﴾ مثقلة، وقرأ بعضهم: ﴿بِرَبِّكَ﴾ مخففة، وقرأها الحسن وعيسى بالوجهين، وقرأ الأعمش: ﴿أَنْزَلَ﴾، والعبد في قوله تعالى: ﴿عَلَىٰ عِبَادِهِ﴾ محمد ﷺ، والآيات: آيات القرآن، والظلمات: الكفر، والثور: الإيمان، وما في الآية وغد وتأنيس مؤكد.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله وأنتم تموتون وتتركون أموالكم؟ فتاب مناب هذا القول قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَرَىٰ ذُنُوبَكُمْ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ وفيه زيادة تذكير بالله عز وجل وعبرة، وعنه يلزم القول الذي قدرناه.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٰ يَنْكُرُ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَلَّ﴾ الآية، روي أنها نزلت بسبب أن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم أنفقوا نفقات كثيرة حتى قال الناس: هؤلاء

أعظم أجراً من كل من أنفق قديماً، فنزلت الآية مبينة أن النفقة قبل الفتح أعظم أجراً، وهذا التأويل على أن الآية نزلت بعد الفتح، وقد قيل: إنها نزلت قبل الفتح تحريضاً على الإنفاق، والأول أشهر، وحكى الشعبي أنها نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وفي نفقاته، وفي معناه قول النبي ﷺ لخالد بن الوليد رضي الله عنه: «اتركوا لي أصحابي، فلو أنفق أحدكم مثل أحد ذهباً ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه».

واختلف الناس في الفتح المشار إليه في هذه الآية - فقال أبو سعيد الخدري، والشعبي: هو فتح الحديبية، وقد تقدم في سورة الفتح تقدير كونه فتحاً، ورفع أبو سعيد رضي الله عنه إلى النبي ﷺ أن أفضل ما بين الهجرتين فتح الحديبية. وقال قتادة، ومجاهد، وزيد بن أسلم: هو فتح مكة الذي أزال الهجرة، وهذا هو المشهور الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية»، وقال له رجل بعد فتح مكة: أبايعك على الهجرة، فقال رسول الله ﷺ: «إن الهجرة قد ذهبت بما فيها، وإن الهجرة لسانها شديد، ولكن أبايعك على الجهاد»، وحكم الجهاد باق إلى غابر الدهر، فمن أنفق في وقت حاجة السبيل أعظم أجراً ممن أنفق مع استغناء السبيل، وأكثر المفسرين على أن قوله تعالى: ﴿يَسْتَوِيٰ﴾ مسند إلى ﴿وَمَنْ﴾ وترك ذكر المعادل الذي لم يستتر معه لأن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ﴾ قد فسره وتبينه،

ويحتمل أن يكون فاعل ﴿يَسْتَوِيٰ﴾ محذوفاً تقديره: لا يستوي منكم الإنفاق، ويؤيد ذلك أن ذكره قد تقدم في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿مَنْ أَنْفَقَ﴾ ابتداءً وخبره الجملة الآتية بـ«غداً».

وقرأ جمهور السبعة: ﴿وَكَلَّا وَعَدَّ اللَّهُ الْمُسْتَقِينَ﴾ وهي الوجه لأن ﴿وَعَدَّ﴾ ليس يعوقه عائق عن أن ينصب الفعل المقدم، وقرأ ابن عامر: ﴿وَكُلَّ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُسْتَقِينَ﴾، فأما سيبويه رحمه الله تعالى فقد فعل خيراً لا ابتداءً، وفيه ضمير عائد، وحذفه عنده قبيح لا يجري إلا في الشعر ونحوه، ومنه قول الشاعر:

فَدَأْضَبِحْتُ أُمَّ الْخِيَارِ تَدْعِي
عَلَيَّ ذُنْبًا كَلُّهُ لَمْ أَضْنَعْ
قال: ولكن حملوا الخبر على الصفات كقول جرير:

وَمَا شَيْءٌ حَمَيْتَ بِمُسْتَبَاحٍ
وعلى الصلوات كقوله تعالى:
﴿أَمَّتْ اللَّهُ بِرَبِّكَ رَسُولًا﴾، وذهب غير سيبويه إلى أن ﴿وَعَدَّ﴾ في موضع الصفة، كأنه قال: أولئك وكل وعد الله الحسنى، وصاحب هذا المذهب جعل في هذا التعلُّف في المعنى فراراً من حذف الضمير من خبر الابتداء. و﴿الْمُسْتَقِينَ﴾: الجنة، قاله مجاهد، وقاتدة، والوعد يتضمن ما قبل الجنة من نصر وغنيمة. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ قول فيه وعد ووعد.

قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يقرضُ الله قرضًا حسنًا﴾ الآية. قال بعض

للإيمان يُعطى يوم القيامة نوراً، فَيُطْفِئُ نور كل منافق ويبقى نور المؤمنين، حتى إن منهم من نوره يضيء كما بين مكة وصنعاء، رفعه فتادة إلى النبي ﷺ، ومنهم من نوره كالنخلة السُّحُوق، ومنهم من نوره يضيء ما يقرب من قدميه، قاله ابن مسعود رضي الله عنه، ومنهم من يهم نوره بالانطفاء مرّةً وَيَبِينُ مرّةً، على قدر المنازل في الطاعة والمعصية، وخص تعالى «بين الأيدي» لأنه موضع حاجة الإنسان إلى النور.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿وَيَأْتِيهِمْ﴾ - فقال بعض المتأولين: المعنى: وعن أيمانهم، فكأنه تعالى خصّ جهة اليمين تشريفاً، وناب ذلك مناب أن يقول: وفي جميع جهاتهم، وقال آخرون منهم: المعنى: وبأيمانهم كَثُوبُهم بالرحمة، وقال جمهور المفسرين: المعنى: يَسْمَى نورهم بين أيديهم، يريد تعالى الضوء المنبسط من أهل النور، وبأيمانهم أَصْلُهُ والشيء الذي هو مُتَقَدِّمٌ فيه، فَمُضْمَنٌ هذا القول أنهم يحملون الأنوار، وكونهم غير حاملين [لها] أكرم، ألا ترى أن فضيلة عَبَاد بن بشر، وأَسِيد بن حَضَيْر رضي الله عنهما إنما كانت بنور لا يحملانه؟ هذا في الدنيا فكيف في الآخرة؟ ومن هذه الآية انتزع حمل المُعْتَق للشمعة. وقرأ الناس: ﴿وَيَأْتِيهِمْ﴾ جمع يمين، وقرأ سهل بن سعد، وأبو حيوة: ﴿وَيَأْتِيهِمْ﴾ بكسر الألف، وهو معطوف على قوله تعالى: ﴿بَيْنَ﴾

جواب الاستفهام، وذلك قلق، قال أبو علي: لأن السؤال لم يقع عن القرض، وإنما وقع السؤال عن فاعل القرض، وإنما تنصب الفاء فعلاً مردوداً على فعل مستفهم عنه، لكن هذه الفرفة حملت ذلك على المعنى، كأنه قوله تعالى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ﴾ بمنزلة أن لو قال: أيقرض الله أحد فضاعفه، وقرأ ابن كثير: ﴿فِيضَعْفُهُ﴾ مشددة العين مضمومة الفاء، وكذلك قرأ ابن عامر، إلا أنه فتح الفاء. و«الأجر الكريم»:

الذي يقترن به رضى وإقبال، وهذا معنى الدعاء: «يا كريم العفو»، أي: أن مع عفوهم رضى ومغناً، وعفو البشر ليس كذلك.

١٢ - ١٣ - تفسير قوله عز وجل:

العامل في ﴿يَوْمَ﴾ قوله تعالى: ﴿وَالَّذِي أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾، و«الرؤية» في هذه الآية رؤية عين، و«الثور»، قال الضحاک بن مزاحم: هي استعارة، عبارة عن الهدى والحق الذي هم عليه وهدايتهم الناس إلى الحق وصدقهم في الأفعال والأقوال، وقيل: تتبّعهم الرشد واعتقادهم به واقتصاصهم آثاره وعلاماته وأنواره، وقيل: هي استعارة، عبارة عن الهدى والرضوان الذي هم فيه، وقال الجمهور: بل هو نور حقيقة، وزوي في هذا عن ابن عباس وغيره آثار مضمنها أن كل مؤمن مظهر

يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ تُسْرِعُهُمْ الْيَوْمَ جَنَّتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ الْمُتَّقُونَ وَالْمُتَّقِينَ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْظِرُوا نَفْسَيْنَا مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ أَرْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُوهُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَضَيْتُمْ مِنْ رَضَايَتِنَا وَقَدْ كَفَرْتُمْ الْآمِنَا فِي حَتَّى جَاءَهُمْ اللَّهُ وَعَزَّكَم بِاللَّهِ الْعَزُورُ ﴿١٤﴾ قَالُوا لَوْ لَا تَوَخَّذْ مِنْكُمْ بِدِينِهِ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَا أَوْفَيْتُمْ أَصْوَابَكُمْ أَلَمْ تَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَالصَّادِقُ ﴿١٥﴾ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ السَّمَاءِ وَلَا يَتَّبِعُوا كَالَّذِينَ كَانُوا أَوْتَارًا الْكُتَّابِ مِنْ قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَسِقُونَ ﴿١٦﴾ أَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَمْسُقُ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ الْمَصْدِقِينَ وَالْمَصْدِقَاتِ وَأَقْرَبُوا اللَّهُ قَرَضًا حَسَنًا يَضَعْفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾

النحويين: ﴿مَنْ﴾ ابتداء، و﴿ذَا﴾ خبره، و﴿الَّذِي﴾ صفة، وقال آخرون منهم: ﴿مَنْ﴾ ابتداء، و﴿ذَا﴾ زائدة مع ﴿الَّذِي﴾، و﴿الَّذِي﴾ خبر الابتداء، وقال الحسن: نزلت هذه الآية في التطوع في جميع أمر الدين، و«القرض» و«السلف» ونحوه: أن يعطي الإنسان شيئاً وينتظر جزاءه، و«التضعيف» من الله تعالى هو في الحسنات، يضاعف الله تعالى لمن يشاء من عشرة إلى سبعمائة، وقد ورد أن التضعيف يزيد على سبعمائة، وقد مر ذكر ذلك في سورة البقرة بوجوه من التأويل. وقرأ أبو عمرو، ونافع، وحزمة، والكسائي: ﴿فِيضَاعْفُهُ﴾ بالرفع على العطف أو على القطع والاستئناف، وقرأ عاصم، وابن عامر: ﴿فِيضَعْفُهُ﴾ بالنصب بالفاء في

أَيَذِيهَتْ، كأنه تعالى قال: كافيًا بين أيديهم وكائنًا بسبب إيمانهم.

وقوله تعالى: ﴿بُنَّزْنِكُمْ﴾ معناه: يقال لهم: بُشْرَاكُم جنات، أي: دخولُ جنات، فحذف المضاف وأقام المضاف إليه مقامه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿خَلِيدِينَ فِيهَا﴾ إلى آخر الآية مخاطبة لمحمد ﷺ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ بدون «هو».

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنْفِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ﴾، قال بعض النحاة: ﴿يَوْمَ﴾ بدلٌ من الأول، وقال آخرون منهم: العاملُ فيه مضمَرٌ تقديره: اذكر، ويظهر لي أن العامل فيه قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، ويجيء معنى الفوز أفخم، كأنه تعالى يقول: إن المؤمنين يفوزون بالرحمة يوم يعتري المنافقين كذا وكذا، لأن ظهور المرء يوم خمول عدوه ومضاده أبداع وأفخم، وقولُ المنافقين هذه المقالة المحكية هو عند انطفاء أنوارهم كما ذكرنا قبل، وقولهم: «انظرونا» معناه: انتظرونا، ومنه قول الحطيئة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِينَاءَ عَاشِيَةِ
لِلْخَمْسِ طَالَ بِهَا حَبْسِي وَتَبَسَّاسِي
وقرأ حمزة وحده، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش: ﴿أَنْظَرُونَا﴾ بقطع الألف وكسر الظاء على وزن أَكْرِمَ، ومنه قول عمرو بن كلثوم:

أَبَا هِنْدٍ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْنَا
وَأَنْظَرْنَا نَحْبُرْنَا لِيَقِينَا

ومعناه: أخرونا، ومنه النُّظْرَةُ إلى مُيسرة، وقول النبي ﷺ: ﴿مَنْ أَنْظَرَ مُفسراً الحديث، ومعنى قولهم

«أخرونا»: أخروا مشيكم لنا حتى نلحق فنقتبس من نوركم، و«أفتبس الرجلُ واستفتس»: أخذ من نور غيره قبساً.

وقوله تعالى: ﴿قِيلَ آرَجِعُوا وَرَاءَكُمْ﴾ يحتمل أن يكون من قول المؤمنين، ويحتمل أن يكون من قول الملائكة، وقوله تعالى: ﴿وَرَاءَكُمْ﴾ حكى المهدي وغيره من المفسرين أنه لا موضع له من الإعراب، وأنه كما لو قال: ارجعوا ارجعوا، وأنه على نحو قول أبي الأسود الدؤلي: «وراءك أوسع لك»، ولست أعرف مانعاً يمنع أن يكون العامل فيه ﴿آرَجِعُوا﴾، والقول لهم: ﴿قَالَتُنَّ يَا هَؤُلَاءِ﴾ هو على معنى التوبيخ لهم، أي: أنكم لا تجدونه، ثم أعلم عز وجل أنه يضرب بينهم في هذه الحال بسور حاجز، فيسعى المنافقون في ظلمة، وبأخذهم العذاب من الله تعالى، وحكي عن ابن زيد أن هذا السور هو الأعراف المذكور في سورة الأعراف، وقد حكاها المهدي، وقيل: هو حاجز آخر غير ذلك، وقال عبدالله بن عمرو، وكعب الأحبار، وعبادة بن الصامت، وابن عباس: هو الجدار الشرقي في مسجد بيت المقدس، وقال زياد بن أبي سودة: قام عبادة بن الصامت على السور الشرقي من بيت المقدس فبكى وقال: من ها هنا أخبرنا النبي ﷺ أنه رأى جهنم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفيه باب يسمى باب الرحمة، سمَّاه في تفسير هذه الآية عبادة وكعب،

وفي الشرق من الجدار المذكور وإد يقال له: وادي جهنم، سمَّاه في تفسير هذه الآية عبدالله بن عمرو، وابن عباس رضي الله عنهم، وهذا القول في السور بعيد، والله تعالى أعلم. وقال قتادة، وابن زيد: الرحمة الجنة، والعذاب جهنم، والسور في اللغة الحجاب الذي للمدن وهو مذكر، والسور أيضاً جمع سورة وهي القطعة من البناء فيضاف بعضها إلى بعض حتى يتم الجدار، فهذا اسم جمع يسوغ تكبيره وتأنينه، وهذا الجمع هو الذي أراد جرير في قوله:

لَمَّا أَتَى حَبْرَ الزُّنْبَيْرِ تَوَاضَعَتْ
سُورَ الْمَدِينَةِ وَالْجِبَالِ الْخُشَعِ
وذلك أن المدينة لم يكن لها قط حجب، وأيضاً فإن وصفه أن جميع ما في المدينة من بناء تواضع أبلغ، ومن رأى أنه قصد السور الذي هو الجحى قال: إن ذلك إذا تواضع فغيره من المباني أخرى بالتواضع، فإذا كان السور في البيت يحتمل الوجهين فليس هو في قوة مَرُّ الرِّيحِ، وصدر القناة، وغير ذلك مما هو مذكور مخض استفاد التأنيت مما أضيف إليه.

وقوله تعالى: ﴿بِاطْنِهِ فِيهِ الرَّحْمَةُ﴾، أي: جهة المؤمنين، و﴿رَظَاهِرُهُ﴾ أي: جهة المنافقين، والظاهر هنا البادي، ومنه قول الكتاب: «من ظاهر مدينة كذا».

وقوله تعالى: ﴿يُنَادُونَهُمْ﴾ معناه: ينادي المنافقون المؤمنين: ألم نكن معكم في الدنيا؟ فيرد المؤمنين عليهم: بل كنتم معنا ولكنكم

عرضتم أنفسكم لفتنة وحب العاجل والقتال عليه، قال مجاهد: فَتَنْتُمْ أنفسكم بالفتاق، و﴿وَرَبَّيْتُمْ﴾ معناه هنا: بإيمانكم، فأبطلتم به حتى مثم، وقال قتادة: معناه: تَرَبَّيْتُمْ بنا وبمحمد ﷺ الدوائر، وشككتكم في أمر الله تعالى، و﴿الارتياب﴾: الشكك، و﴿الأماني التي غرتهم﴾ هي قولهم: سيهلك محمد هذا العام، ستهزمه قريش، ستأخذه الأحزاب، إلى غير ذلك من أمانيتهم، وطول الأمل غرّاز لكل أحد، وأمر الله الذي جاء هو الفتح وظهور الإسلام، وقيل: هو موت المنافقين وموافاتهم على هذه الحالة الموجبة للعذاب. و﴿العُرُوز﴾: الشيطان بإجماع من المتأولين، وقرأ سماك بن حرب بضم الغين، وأبو حيوة، وينبغي لكل مؤمن أن يعتبر هذه الآية في نفسه وتسويفه في توبته.

١٥ - ١٦ - تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿فَأَلَيْتُمْ لَا يُؤَدُّ يَنْكُمْ فِدْيَةً﴾ استمراراً في مخاطبة المنافقين، قاله قتادة وغيره، وروي في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا يَنْ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ حديث. وهو: أن الله تعالى يُفَرِّدُ الكافر فيقول له: «أرأيتك لو كان لك أضعاف الدنيا أكننت فتفتدي بجميع ذلك من عذاب النار؟ فيقول: نعم يا رب، فيقول الله تعالى: قد سألتك ما هو أنسر من ذلك وأنت في صلب أبيك آدم، لا تشرك بي، فأبيت إلا الشرك»، وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿يُؤَدُّ﴾ بالياء من تحت، وقرأ أبو جعفر القاري:

﴿تُؤَدُّ﴾ بالتاء من فوق، وهي قراءة ابن عامر في رواية هشام عنه. وهي قراءة الحسن، وابن أبي إسحق، والأعرج.

قوله تعالى: ﴿هِيَ مَوْلَانَكُمْ﴾، قال المفسرون: معناه: هي أولى بكم، هذا تفسير بالمعنى، وإنما هي استعارة لأنها من حيث تَضْمُنُهُم وتباشرهم هي تَوَالِيَهُم وتكون لهم مكان المولى، وهذا نحو قول الشاعر:

.....

تَحِيَّةُ بَيْنِهِمْ ضَرْبٌ وَجِيعٌ
وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ الآية ابتداءً معنى مستأنف، وروي أنه كثر الضحك والمزاج في بعض تلك المدة في قوم من شبان المسلمين فنزلت هذه الآية، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: مل الصحابة ملّة فنزلت الآية. ومعنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ أَلَمْ يَجِنِّ، يقال: آن الشيء يأتي إذا حان، ومنه قول الشاعر:

تَمَحَّضَتِ الْمَثُونُ لَهُ بِيَوْمِ
أَسَى وَلِكُلِّ حَامِلَةٍ تَمَامِ
وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ وروي عنه أنه قرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾، وهذه الآية على معنى الحض والتفريع، قال ابن عباس رضي الله عنهما: عوتب المؤمنون بهذه الآية بعد ثلاث عشرة سنة من نزول القرآن، وسمع الفضل بن موسى قارئاً يقرأ هذه الآية والفضل يحاول معصية فكانت الآية سبب توبته، وحكى الشلبي عن ابن المبارك أنه في صباه حرك العود ليضربه فإذا به قد نطق بهذه الآية

فتاب ابن المبارك وكسر العود وجاءه التوفيق.

و «الخشوع»: الإخبات والنظام، وهي هيئة تظهر في الجوارح متى كانت في القلب، فلذلك خصّ تعالى القلب بالذكر، وروى شداد بن أوس عن النبي ﷺ أنه قال: «أول ما يرفع من الناس الخشوع»، وقوله تعالى: ﴿لَذِكْرِ اللَّهِ﴾ أي: لأجل ذكر الله ووجه الذي بين أظهرهم، ويحتمل أن يكون المعنى: لأجل تذكير الله تعالى إياهم وأمره فيهم، وقرأ عاصم في رواية حفص: ﴿وَمَا تَزَلُّ﴾ مخفّف الزاي، وقرأ الباقون، وأبو بكر عن عاصم: ﴿وَمَا تَزَلُّ﴾ بتشديد الزاي، على معنى: تَزَلُّ الله من الحق، وقرأ أبو عمرو - في رواية عياش - وهي قراءة الجحدري، وابن القعقاع: ﴿وَمَا تَزَلُّ﴾ بكسر الزاي وشدها. وقرأ نافع. وأبو عمرو، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ بالياء على ذكر الغائب، وقرأ حمزة - فيما روى عنه سليمان -: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ على مخاطبة الحضور. والإشارة في قوله تبارك وتعالى: ﴿كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾ إلى بني إسرائيل المعاصرين لموسى ﷺ، ولذلك قال: ﴿بَيْنَ قَبَلٍ﴾، وإنما شبه أهل عصر نبي بأهل عصر نبي آخر. و«الأند»: قيل: معناه انتظار الفتح، وقيل: أمد الحياة، و«سنت»: معناه: صلبت وقل خيرها وانفعالها للطاعات وسكنت إلى معاصي الله تعالى ففعلوا من العصيان والمخالفة ما هو مأثور عنهم.

وقوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحِي

وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَلْقَوْا كِفَاتَهُمْ الصِّدْقَ وَالشَّهَادَةَ
عِنْدَ رَبِّهِمْ لَهَمَّ أَحْرَهُمْ وَنُورَهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا
بِعَاقِبَتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْحَرِيبِ ﴿١٨﴾ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ
الدُّنْيَا لَهْبٌ وَهَوٌّ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ
وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ بِيَأْتُهُمْ بِيحْ فَتَرَاهُ
مُضْمَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَمًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ
مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَمَنَعَ الْعُرُورِ ﴿١٩﴾
سَاقِفُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ذَلِكَ فَضْلُ
اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٠﴾ مَا أَصَابَ
مِن مُّصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مِّن قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢١﴾ لِكَيْلَا
تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَتَكُونَ لِلَّهِ
لَايِحِينَ كُلِّ مَخَالٍ فَخُورٌ ﴿٢٢﴾ الَّذِينَ يَبْتَخُلُونَ بِأَمْوَالِهِمْ
الَّذِينَ يَأْتِيهِمْ مِنَ النَّاسِ بِالْحَبْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَفِيُّ الْخَمِيدُ ﴿٢٣﴾

٥٤٠

«الْقَرْضُ» ومعنى
«المضاعفة» التي وَعَدَ الله
تعالى بها هذه الأمة،
وتقدم معنى وصف الأجر
بالكرم، كل ذلك في هذه
السورة.

ويؤيد عندي قراءة من
قرأ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾ بشد
الصاد أن الله تعالى حَضَّ
في هذه السورة على
الإففاق في سبيل الله، ثم
ذكر في هذه أهل الصدقة
ووعدهم، ثم ذكر أهل
الإيمان والتصديق في قوله
تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ
وَرَسُولِهِ﴾، وعلى قراءة من
قرأ: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾

بتخفيف الصاد فذكر المؤمنين مكرر
في اللفظ، وكون الأصناف مفردة
بأحكامها من الوعد أتبين، والإيمان
بمحمد ﷺ يقتضي الإيمان بجميع
الرسل عليهم السلام، فلذلك قال
تعالى: ﴿وَرَسُولِهِ﴾.

و «الْصَّدِيقُونَ» بناءً مبالغته من
الصدق، أو من التصديق على ما ذكر
الزجاج: «وفعليل لا يكون - فيما
أحفظه - إلا من فعل ثلاثي، وقد
أشار بعض الناس إلى أنه يجيء من
غير الثلاثي، وقال: «مسك» من
«أَمْسَكَ»، وأقول إنه يقال: مَسَكَ
الرجل، وقد حكى: مَسَكَ الشَّيْءَ،
وفيه نظر.

قوله تعالى: ﴿وَالشَّهَادَةُ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾،
اختلف الناس في تأويل ذلك - فقال
ابن مسعود، ومجاهد، وجماعة:
﴿وَالشَّهَادَةُ﴾ معطوف على قوله

الَّذِينَ بَعَدَ مَوْتَهُمَا ﴿الآية مخاطبة
لهؤلاء المؤمنين الذين ندبوا إلى
الخشوع، وهذا ضرب مثل واستدعاء
إلى الخير برفق وتقريب بليغ، أي:
لا يبعد عنكم أيها التاركون للخشوع
رجوعكم إلي وتلبسكم به، فإن الله
يُحْيِي الأَرْضَ بعد موتها، وكذلك
يفعل بالقلوب، يردها إلى الخشوع
بعد بُعْدِهَا عنه، وترجع هي إليه إذا
وقعت الإنابة والتكسب من العبد بعد
نفورها منه كما يحيي الأرض بعد أن
كانت ميتةً غيراء، وباقى الآية بين.

﴿١٨﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور القراء: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾
بتشديد الصاد المفتوحة، على معنى
المتصدقين، وكذا هي في مصحف
أبي بن كعب رضي الله عنه: ﴿إِنَّ
الْمُتَّصِدِّقِينَ﴾ بالناء، وهو يؤيد هذه
القراءة، وأيضاً فيجاء قوله تعالى:
﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ ملائماً في
الكلام للصدقة، وقرأ ابن كثير، وأبو
بكر عن عاصم: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ﴾
بتخفيف الصاد، على معنى الذين
صَدَّقُوا رسول الله ﷺ فيما بَلَغَ
عن الله تعالى، وآمنوا به، ويؤيد
هذه القراءة أنها أكثر تناولاً للأمة لأن
كثيراً ممن لا يتصدق تعمه اللفظة في
التصديق، ثم إن تقييدها بقوله
تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ﴾ يراد مقصد
القراءتين بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا
حَسَنًا﴾ معطوف على المعنى؛ لأن
معنى قوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ
وَالْمُصْتَبِينَ﴾: إن الذين تَصَدَّقُوا، ولا
يصح هنا عطف لفظي، قاله أبو علي
في الحجة، وقد تقدم معنى

تعالى: ﴿الصِّدِّيقُونَ﴾ والكلام
متصل، ثم اختلفت هذه الفرقة في
معنى هذا الاتصال - فقال بعضها:
وصف الله تعالى المؤمنين بأنهم
صديقون وشهداء، فكل مؤمن
شهيدي، قاله مجاهد، وروى البراء بن
عازب رضي الله عنه أن النبي ﷺ
قال: «مؤمنو أمتي شهداء»، وتلا
رسول الله ﷺ هذه الآية، وإنما
خص رسول الله ﷺ ذكر الشهداء
السبعة تشريفاً، ولأنهم في أعلى
رتب الشهادة، ألا ترى أن المقتول
في سبيل الله مخصوص أيضاً من
السبعة بتشريف ينفرد به، وقال
بعضها: وصف الله تعالى المؤمنين
بأنهم صديقون وشهداء لكن من
معنى الشاهد لا من معنى الشهيد،
وذلك نحو قوله تعالى: ﴿وَتَكُونُوا
شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾، فكانه تبارك

وتعالى قال في هذه الآية: هم أهل الصدق والشهادة على الأمم عند ربهم، وقال ابن عباس، ومسروق، والضحاك: الكلام تام في قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَالشَّهَادَةَ﴾ ابتداءً مستأنف، ثم اختلفت هذه الفرقة في معنى الاستئناف - فقال بعضها: معنى الآية: والشهداء فإنهم صديقون حاضرون عند ربهم، وعنى بـ «الشَّهَادَةَ» الأنبياء عليهم السلام، فكأن الأنبياء عليهم السلام يشهدون للمؤمنين بأنهم صديقون، وهذا يفسره قوله تعالى: ﴿كَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾، وقال بعضها: قوله تعالى: ﴿وَالشَّهَادَةَ﴾ ابتداءً يريد به الشهداء في سبيل الله، واستأنف الخبر عنهم بأنهم عند ربهم لهم أجرهم ونورهم، فكأنه تعالى جعلهم صنفًا مذكورًا، وحده، وفي الحديث: «إِنَّ أَهْلَ الْجَنَّةِ الْعُلْيَا يَرَاهُمْ مَنْ دُونَهُمْ كَمَا تَرَوْنَ الْكَوْكَبَ الدُّرِّيَّ، وَإِنْ أَبَا بَكْرٍ وَعَمْرٌ مِنْهُمَا وَأَنْعَمَا».

وقوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ خبر عن الشهداء فقط على الأخير من الأقوال، وهو خبر عن المؤمنين المذكورين في أول الآية على الأقوال الثلاثة الأول، وقوله تعالى: ﴿وَنُورُهُمْ﴾ قال جمهور المفسرين هو حقيقة حسب ما روي مما تقدم ذكره في هذه السورة، وقال مجاهد وغيره: هو مجازي عبارة عن الهدى والكرامة والبشرى التي حصلوا فيها. ولما فرغ ذكر المؤمنين وأهل

الكرامة عطف تعالى بذكر الكفرة المكذبين لبيان الفرق، فذكرهم تعالى بأنهم أصحاب الجحيم وسُكَّانُه.

﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعظ وتبيين لأمر الدنيا وضعة منزلتها، و﴿أَنَّكَ سَاءَ مَسَدٌ﴾ المفعولين للعلم لأنها لا تدخل على اثنين، وهي - وإن كُفَّت عن العمل - فالجملة بعدها نافية. و«الحياة الدنيا» في هذه الآية عبارة عن الأشغال والتصرفات والفكر التي هي مختصة بالحياة الدنيا، وأما ما كان من ذلك في طاعة الله تعالى وسبيله، وما كان من الضرورات التي تقيم الأود وتعين على الطاعات، فلا مدخل له في هذه الآية، وتأمل حالة الملوك بعد فقرهم بين لك أن جميع ترفهم لعب ولهو. و«الرِّزْقُ» التحسين الذي هو خارج من ذات الشيء، و«التفاخر» هو بالأنساب والأموال وغيرها، و«التَّكَاثُرُ» هو الرغبة في الدنيا وعددها لتكون العزَّة للكثير على المذهب الجاهلي.

ثم ضرب تعالى مثلاً للدنيا، فالكاف في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكِ﴾ في موضع رفع صفة لما تقدم، وصورة هذا المثل أن الإنسان ينشأ في حجر مملكة فما دون ذلك، فيشب ويقوى ويكسب المال والولد ويغشاه الناس، ثم يأخذ بعد ذلك في انحطاط فيشيخ ويضعف ويسقم وتصيبه النوائب في ماله وذريته ويموت ويضمحل أمره، وتصير أمواله لغيره وتتغير رسومه، فأمره مثل مطر أصاب أرضاً فنبت عن ذلك

الغيث نبات مُعْجَبٌ أَيْق، ثم هاج، أي: يَيْسُ واصفر ثم تحطم ثم تفرق بالرياح واضْمَحَلَّ.

اختلف المتأولون في لفظة ﴿الْكُفَّارُ﴾ هنا - فقال بعض أهل التأويل: هو من الكفر بالله تعالى، وذلك أنهم أشد تعظيماً للدنيا، وأشد إعجاباً بمحاسنها، وقال آخرون منهم: هو من «كَفَرَ الْحَبَّ» أي: سَتَرَهُ في الأرض، وهم الزُّرَّاع، وخصَّهم بالذكر لأنهم أهل البصر بالنبات والفلاحة فلا يعجبهم إلا المعجب حقيقة الذي لا عيب فيه، و«هَاجَ الزُّرْعُ» معناه: يَيْسُ واصفراً، و«حُطَّامٌ» بناء مبالغة، يقال: حطيم وحُطَّامٌ بمعنى محطوم أو محتطم، كعجيب وعجباب بمعنى معجب أو مُتَعَجِّبٌ منه.

ثم قال تعالى: ﴿وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾، كأنه تعالى قال: والحقيقة ما هنا... ثم ذكر العذاب أولاً تَهْمُماً به من حيث الحذر في الإنسان ينبغي أن يكون أولاً، فإذا تحذَّر من المخاوف مدَّ حينئذ أمله، فذكر الله تعالى ما يَحْذَرُ قبل ما يطمع فيه وهو المغفرة والرِّضْوَان، وروي عن عاصم ضمُّ الرِّاء من «وَرِضْوَانٍ».

و«مَتَاعُ الغُرُورِ» معناه: الشيء الذي لا يَعْظُمُ الاستمتاع به إلا مُغْتَرَّ، وقال عكرمة وغيره: متاع الغرور: القوارير، لأن الفساد والآفات تسرع إليها، فالدنيا كذلك أو هي أشد.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر تعالى المغفرة التي في الآخرة ندب في هذه الآية إلى

لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ
وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ
بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مِنْ بَصُرِهِ وَرَسُولَهُ
يَا قَتِيبَ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٤﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ
وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِمْهُمْ مُهْتَدٍ
وَكَثِيرٌ مِمُّهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ
رُسُلَنَا وَفَتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ
وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً
ابْتَدَعُوا مَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ إِلَّا آيَاتِنَا وَضَوَّنَّا اللَّهُ فَمَا
رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابِهَا فَتَأْتِنَا الَّذِينَ يَأْتُونَ مِنْهُمْ آخِرَهُمْ
وَكَثِيرٌ مِمُّهُمْ فَاسِقُونَ ﴿٢٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ
وَأَمُوا بِرُسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كَهْلِيْنٌ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيُجْعَلَ لَكُمْ
نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٧﴾ إِنَّا بَعَثْنَا
أَهْلَ الْكِتَابِ أَنْ يُقَدِّرُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ
الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴿٢٨﴾

٥٤١

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما معناه: إنه أراد عُرْف المصيبة، وخصها بالذكر لأنها أهم على البشر، وهي بعض من الحوادث، فدل على أن جميع الحوادث خيرها وشؤها كذلك، وقوله تعالى: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ يعني بالقحوظ والزلازل وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ يسريد بالموت والأمراض وغير ذلك، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ معناه: إلا والمصيبة في كتاب، و﴿تَبْرَأَهَا﴾: نخلقها،

المسارعة إليها والمسابقة، وهذه الآية حجة عند جميع العلماء في الندب إلى الطاعات، وقد استدل بها بعضهم على أن أول أوقات الصلوات أفضل لأنها تقتضي المسارعة والمسابقة، وذكر بعضهم في تفسير هذه الآية أشياء هي على جهة المثال، فقال قوم من العلماء، منهم ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ معناه: كونوا في أول صف في القتال، وقال آخرون - منهم أنس بن مالك رضي الله عنه -: اشهدوا تكبيرة الإحرام مع الإمام، وقال آخرون - منهم علي بن أبي طالب رضي الله عنه -: معناه: كن أول داخل في المسجد وآخر خارج منه، وهذا كله على جهة المثال.

وذكر تعالى العَرَض من الجنة إذ المعهود أنه أقل من الطول، وقال قوم من أهل المعاني: عبّر عن المساحة بالعَرَض، ولم يقصد أن طولها أكثر ولا أقل، وقد ورد في الحديث أن سقف الجنة العرش، وورد في الحديث أن السموات السبع في الكرسي كالدرهم في الفلاة، وأن الكرسي في العرش كالدرهم في الفلاة.

وقوله تعالى: ﴿عَدَّتْ﴾ ظاهره أنها مخلوقة الآن مُعَدَّة، ونص عليه الحسن في كتاب النفاش.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾، قال ابن زيد: المعنى: ما حدث من حادث خير أو شر، فهذا على معنى لفظ «أصاب» لا على عُرْف المصيبة فإن عُرْفها في الشر،

يقال: برأ الله الخلق، أي: خلقهم، والضمير عائد على المصيبة، وقيل: على الأرض، وقيل: على الأنفس، قاله ابن عباس، وقتادة، وجماعة، وذكر المهدي جواز عود الضمير على جميع ما ذكر، وهي كلها معان صحاح لأن الكتاب السابق أزلي قبل هذه كلها. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ يريد تحصيل الأشياء كلها في كتاب.

وقوله تعالى: ﴿لِيَكُنَّ تَأْسُؤًا عَلَى مَا فَاتَكُمْ﴾ معناه: فعل الله تعالى هذا كله وأعلمكم به ليكون سبب تسليمكم وقلة اكتراثكم بأمر الدنيا، فلا تحزنوا على ما فاتكم ولا تفرحوا الفرح المبطر بما آتاكم فيها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: ليس أحد لا يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ومن أصاب

خيراً فجعله شكراً وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿مَا آتَاكُمْ﴾ على وزن فعل ماض، وهذا ملائم لقوله تعالى: ﴿فَاتَاكُمْ﴾، وقرأ الباقون من السبعة: ﴿آتَاكُمْ﴾ على وزن «أَعْطَاكُمْ» بمعنى: آتاكم الله تعالى: وهي قراءة الحسن، والأعرج وأهل مكة، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَوْتَيْتُمْ﴾، وهي تؤيد قراءة الجمهور.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يَجِبُ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ يدل على أن الفرح المنهي عنه إنما هو ما أدى إلى الاختيال والفخر، وأما الفرح بنعم الله تعالى المقترن بالشكر والتواضع فأمر لا يستطيع أحد دفعه عن نفسه، ولا حرج فيه.

٢٤ - ٢٦ تفسير قوله عز وجل:

اختلف النحاة في إعراب

﴿الَّذِينَ﴾، فقال بعضهم: هو في موضع رفع على الابتداء والخبر عنهم محذوف معناه الوعيد والذم، وحذفه على جهة الإبهام نحو حذف الجواب في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية، وقال بعضهم: هو رفع على خبر الابتداء، تقديره: هم الذين يبخلون، وقال بعضهم: هو في موضع نصب بإضمار «أعني» أو نحوه، وقال بعضهم: هو في موضع نصب صفة ل ﴿كُلٌّ﴾ لأن ﴿كُلٌّ﴾ وإن كان نكرة فهو تخصيص لنوع ما، يسوغ لذلك وصفه بالمعرفة، وهذا هو مذهب الأخفش. و﴿يَبْخُلُونَ﴾ معناه: بأموالهم وأفعالهم الحسنة من إيمانهم وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَيَأْتِرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ يحتمل أن يصفهم بحقيقة الأمر بألسنتهم، ويحتمل أن يريد أنهم يقتدى بهم في البخل فهم لذلك كأنهم يأمررون، وقرأ الحسن: ﴿بِالْبُخْلِ﴾ بفتح الخاء والياء، وقرأ جمهور القراء وأهل العراق: ﴿كَانَ اللَّهُ هُوَ الْعَفِيُّ الْعَمِيدُ﴾ بإثبات هـ، وكذلك في إمامهم، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ الْعَفِيُّ الْعَمِيدُ﴾ بترك هـ، وهي قراءة أهل المدينة، وكذلك في إمامهم، وهذا لم يثبت قراءة إلا وقد قرئ على النبي ﷺ، قال أبو علي: فهو في القراءة التي ثبت فيها يحسن أن يكون فصلاً ولا يحسن أن يكون ابتداءً؛ لأن حذف الابتداء غير سائغ.

و «الكتاب» اسم جنس لجميع

الكتب المنزلة، و«الميزان»: العدل في تأويل أكثر المتأولين، وقال ابن زيد وغيره من المتأولين: أراد الموازين المتصرفة بين الناس، وهذا خير من القول الأول، وقوله تعالى: ﴿يَقَوْمَ النَّاسِ بِالْقِسْطِ﴾ يقوي القول الأول.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾، عبر تعالى عن خلقه واتخاذها بالإنزال، كما قال تعالى في الثمانية الأزواج من الأنعام، وأيضاً فإن الأمر بكون الأشياء لما كان يُلقى من السماء جعل الكل نزولاً منها، وقال جمهور كثير من المفسرين: الحديد هنا أراد به جنسه من المعادن وغيرها، قال ابن عباس رضي الله عنهما: نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه السندان والكليتان والميعة. وقال حذاق من المفسرين: أراد به السلاح، ويترتب معنى الآية: فإن الله تعالى أخبر أنه أرسل رسلاً، وأنزل كُتُباً وعدلاً مشروعاً، وسلاحاً، يحارب بها من عاند ولم يَهْدِ يَهْدِي الله، فلم يبق عُذْر، وفي الآية - على هذا التأويل - حُضُّ على القتال وترغيب فيه، وقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَبْذُرُ﴾ يقوي هذا التأويل، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ﴾ أي: لِيَعْلَمَهُ موجوداً، فالتغدير ليس في علم الله تعالى، بل في هذا الحدّث الذي خرج من العدم إلى الوجود، وقوله تعالى: ﴿بِالْعَبِي﴾ معناه: ما سمع من الأوصاف الغائبية عنه فآمن بها لقيام دلالة عليها، ثم وصف تبارك وتعالى نفسه بالقوة والعزة ليبين أنه لا حاجة به إلى الثُصرة

لكنها نافعة من عظم بها نفسه من الناس.

ثم ذكر تعالى رسالة نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام تشريفاً لهما بالذكر، ولأنهما من أول الرسل عليهم السلام، ثم ذكر تعالى نعمه على ذريتهما، وقوله تعالى: ﴿وَالْكِتَابِ﴾ يعني الكتب الأربعة فإنها جميعاً في ذرية إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وذكر تعالى أنهم مع ذلك منهم من فسق وعند، فكذلك - بل أخرى - جميع الناس ولذلك يشرع السلاح للقتال.

٢٧ - ٢٨ تفسير قوله عز وجل:

﴿فَقَتْنَا﴾ معناه: جئنا بهم بعد الأولين، وهو مأخوذ من القفا، أي جاء بالثاني في قفا الأول، فيجيء الأول بين يدي الثاني، ومنه القوافي التي تأتي في أواخر أبيات الشعر، ثم ذكر تعالى عيسى عليه السلام تشريفاً وتخصيصاً، وقرأ الحسن: ﴿الْأَنْجِيلِ﴾ بفتح الهمزة، قال أبو الفتح: هذا مثال لا نظير له، و﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهَابَانِيَّةً﴾ مفعولات ﴿جَعَلْنَا﴾، والجعل في هذه الآية بمعنى: الخلق، وقوله تعالى: ﴿أَبْتَدَعُوهَا﴾ صفة لـ ﴿وَرَهَابَانِيَّةً﴾، وخصها بأنها ابتدعت لأن الرأفة والرحمة في القلب لا كسب للإنسان فيهما، وأمّا الرهبانية فهي أفعال بَدَن مع شيء في القلب، ففيها موضع للتكسب، قال قتادة: الرأفة والرحمة من الله تعالى، والرهبانية هم ابتدعوها، والمراد بالرأفة والرحمة حب بعضهم في بعض وتوادهم، والمراد بالرهبانية

رفض النساء واتخاذ الصوامع، والمعتزلة تعرب ﴿وَرَهْبَانِيَّةً﴾ أنها نصب بإضمار فعل يفسره ﴿ابْتَدَعُوها﴾، وليست بمعطوفة على الرأفة والرحمة، ويذهبون في ذلك إلى أن الإنسان يخلق أفعاله، فيعربون الآية على هذا، وكذلك أعربها أبو علي.

وزوي في ابتداعهم الرهبانية أنهم اختلفوا ثلاث فرق: ففرقة قاتلت الملوك على الدين فغلبت وقتلت، وفرقة قعدت في المدن يدعون إلى الدين ويبيئونه، ولم تقاتل، فأخذتها الملوك فنشرتها بالمنشير، وقتلوا، وفرقة خرجت إلى الفيافي وبنيت الصوامع والديارات، وطلبت أن تسلم قبل أن تعتزل فتركت وذاك، وتسموا بالرهبان، واسمهم مأخوذ من الرهب وهو الخوف، وهذا هو ابتداعهم، ولم يعرض الله تعالى ذلك عليهم لكنهم فعلوا ذلك ابتغاء رضوان الله، هذا تأويل أبي أمامة وجماعة، وقال مجاهد: المعنى: كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، فـ «كُتِبَ» - على هذا - بمعنى؛ قضى، ويحتمل اللفظ أن يكون المعنى: ما كتبنا عليهم إلا في عموم المندوبات؛ لأن ابتغاء رضوان الله تعالى بالقرب والنوافل مكتوب على كل أمة، فالاستثناء - على هذا الاحتمال - متصل.

واختلف الناس في الضمير الذي في قوله تعالى: ﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَابَتِهَا﴾، من المراد به؟ فقيل: إن الذين ابتدعوا الرهبانية لأنفسهم لم يدوموا على ذلك ولا وقؤوه

حقه، بل غيروا وبدلوا، قاله ابن زيد وغيره، والكلام سائغ وإن كان فيهم من زعى، أي: لم يرعوها بأجمعهم، وفي هذا التأويل لزوم الإتمام لكل من بدأ بتفعل وتطوَّع، وأنه يلزمه أن يرعاه حق رعاية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: الضمير للملوك الذين حاربوهم وأجلوهم، وقال الضحاک وغيره: الضمير للأخلاف الذين جاءوا بعد المتدعين لها، وباقي الآية بين، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿كُتِبَتْهَا عَلَيْهِمْ لَكِنْ ابْتَدَعُوهَا﴾.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ اللَّهُ وَرَسُولَهُ﴾، اختلف الناس، من المخاطب بهذا؟ فقالت فرقة من المتأولين: خوطب بها أهل الكتاب، فالمعنى: يأيتها الذين آمنوا بعبسى اتقوا الله وآمنوا بمحمد، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح عن النبي ﷺ: «ثلاثة يؤتيهم الله أجرهم مرتين، رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي» الحديث، وقال آخرون: المخاطبة للمؤمنين من أمة محمد ﷺ، قيل لهم: يأيتها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله، أي: اثبتوا على ذلك ودوموا عليه، وهذا هو معنى الأمر أبداً لمن هو متلبس بما يؤمر به.

وقوله تعالى: ﴿يُؤْتِكُمْ كُفَلِينَ﴾ أي: نصيبين بالإضافة إلى ما كان الأمم قبل يعطونه، قال أبو موسى الأشعري رضي الله عنه: «كفَلَيْن»: ضعفين بلسان الحبشة، وزوي أن

عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال لبعض الأخبار: كم كان التضعيف للحسنات فيكم؟ فقال: ثلاثمائة وخمسون، فقال عمر رضي الله عنه: الحمد لله الذي ضاعف لنا إلى سبعمائة، ويؤيد هذا المعنى الحديث الصحيح الذي يقتضي أن اليهود عملت إلى نصف النهار على قيراط، والنصارى من الظهر إلى العصر على قيراط، وهذه الأمة من العصر إلى الليل على قيراطين، فلما احتجت اليهود والنصارى عن ذلك وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل أجراً، قال تعالى: هل نقصتكم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: فإنه فضلي أوتيته من أشياء. «والكفَل»: الحظ والنصيب. «الثور» هنا إما أن يكون وعداً بالثور الذي يسعى بين الأيدي يوم القيامة، وإما أن يكون استعارة للهدى الذي يُمنسى به في طاعة الله تعالى.

﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

زوي أنه لما نزل هذا الوعد للمؤمنين حسد أهل الكتاب على ذلك، وكانت اليهود تعظم دينها وأنفسها، وتزعم أنها أحياء الله وأهل رضوانه، فنزلت هذه الآية معلمة أن الله تعالى فعل ذلك وأعلم به ليعلم أهل الكتاب أنهم ليسوا كما يزعمون، و«لا» في قوله تعالى: ﴿يَتَلَا﴾ زائدة، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَحَكَّمْ عَلَى قَرِيْبَةٍ أَهْلَكْنَهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ على بعض

وقرأ ابن مُحَيِّن: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ بالإدغام، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿قَدْ يَسْمَعُ اللهُ﴾، وفيها: ﴿وَاللَّهُ قَدْ يَسْمَعُ تَحَاوُرَ كَمَا﴾. واختلف الناس في اسم التي تجادل - فقال قتادة: هي خَوْلَةُ بنت ثعلبة، وقيل عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: هي بنتُ حكيم، وقال بعض الرواة، وأبو العالية: هي خَوْلَةُ بنت دليج، وقال المهدي: وقيل: خولة بنت دليج، وقالت عائشة رضي الله عنها: هي جميلة، وقال ابن إسحاق: هي خولة بنت الصامت، وقال ابن عباس رضي الله عنهما فيها: خَوْلَةُ بنتُ خَوْلِد، وقال محمد بن كعب القُرظي، ومنذر بن سعيد: هي خولة بنت ثعلبة.

قال ابن سلام: ﴿جُدِلَ﴾: تقاتل في القول، وأصل «الجُدُل»: الفتل. وأكثر الرواة على أن الزوج في هذه الآية أوس بن الصامت الأنصاري، أخو عبادة بن الصامت، وحكى النقاش - وهو في المصنفات - حديثاً عن سلمة بن صخر البياضي أنه ظاهر من امرأته إن واقعها مدة شهر رمضان، فواقعها ليلة، فسأل قومه أن يسألوا رسول الله ﷺ فأبوا وهابوا ذلك، وعظموا عليه جريرته، فذهب هو إلى رسول الله ﷺ بنفسه فسأله واسترشد، فنزلت الآية وقال له رسول الله ﷺ: «أتعتق رقبة؟» فقال: والله ما أملك غير رقبتني، فقال: «أتصوم شهرين متتابعين؟» فقال: يا رسول الله وهل أتيتُ إلا في الصوم؟ فقال: «أتطعم ستين

الواحدة ياء، وقرأ الحسن - فيما روى مطرف -: ﴿لَيْلًا﴾ بكسر اللام الأولى وسكون الياء، وتعليلها كالتي تقدمت.

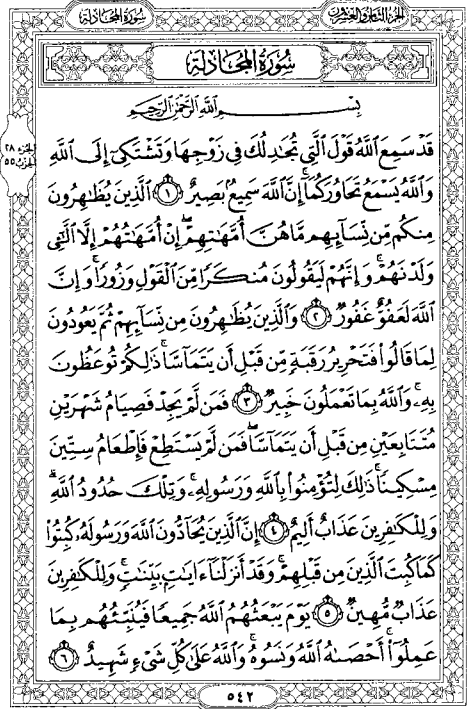
وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَتَذَكَّرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ معناه أنهم لا يملكون فضل الله تبارك وتعالى، ولا يدخل تحت قدرتهم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿أَلَا يَتَذَكَّرُونَ﴾ بغير نون، وباقي الآية بين.

كامل تفسير سورة الحديد والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المجادلة

وهي مدنية بإجماع، إلا أن النقاش حكى أن قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَىٰ ثَلَاثَةٍ﴾ الآية مكية، وروى أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ سُورَةَ الْمَجَادِلَةِ كُتِبَ مِنْ حِزْبِ اللَّهِ».

﴿سَمِعَ اللهُ﴾ بفتح السين وإدراك المسموعات على ما هي عليه بأكمل وجوه ذلك دون جارحة ولا تكيف ولا تحديد، تعالى الله عن ذلك، وقرأ الجمهور: ﴿قَدْ سَمِعَ﴾ بالبيان،



التأويلات، وقرأ ابن عباس، والجحدري: ﴿لَيْغَلْمَ﴾ وروى إبراهيم التيمي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿كُنِي يَغَلْمَ﴾ وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿لَكَيْلًا يَغَلْمَ﴾، وروي عن جطان الرقاشي أنه قرأ: ﴿لَأَنْ يَعْلَمَ﴾، وقرأ ابن مسعود، وابن جبير، وعكرمة: ﴿لِكُنِي يَغَلْمَ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾، وقرأ الحسن - فيما روى ابن مجاهد -: ﴿لَيْلًا يَغَلْمَ﴾ بفتح اللام الأولى وسكون الياء، فأما فتح اللام فلغة في لام الجر مشهورة، وأصل هذه القراءة: ﴿لَأَنْ لَا﴾، استغنى عن الهمزة بلام الجر فحذفت فجاء «لَنْ لَا»، فأدغمت النون في اللام للتشابه فجاء «لَلَا»، فاجتمعت أمثلة فقلت اللام

مسكيناً؟» فقال: لا أجد، فأعطاه رسول الله ﷺ صدقات قومه فكفر بها، فرجع سلمة إلى قومه فقال: إني وجدت عندكم الشدة والغلظة، ووجدت عند رسول الله ﷺ الرخصة والرفق، وقد أعطاني صدقاتكم.

وأما ما رواه الجمهور في شأن أوس بن الصامت فاختصاره أن أوساً ظاهر من امرأته خولة بنت خُزَيْد، وكان الظاهر في الجاهلية يوجب عندهم فُرْقَةً مُؤَبَّدَةً، قاله أبو قلابة وغيره، فلما فعل ذلك جاءت زوجته رسول الله ﷺ، فقالت: يا رسول الله، إن أوساً أكل شبابي، ونثرت له بطني، فلما كبرث ومات أهلي ظاهر مني، فقال رسول الله ﷺ: «ما أراك إلا حرمت عليه»، فقالت: يا رسول الله لا تفعل؛ فإني وحيدة ليس لي أهل سواه، فراجعها رسول الله بمثل مقالاته، فراجعته، فهذا هو مجادلتها، وكانت في خلال جدالها تقول: اللهم إليك أشكو حالي وانفرادي وفقرتي إليه، وروي أنها كانت تقول: اللهم إن لي منه صغاراً، إن ضممتهم إليه ضاعوا، وإن ضممتهم إلي جاعوا، فهذا هو اشتكاؤها إلى الله، فنزل الوحي - عند جدالها - على رسول الله ﷺ بهذه الآية، وكانت عائشة رضي الله عنها حاضرة لهذه القصة كلها، فكانت تقول: سبحان من وسع سمعه الأصوات، لقد كنت حاضرة لهذه القصة كلها، وكان بعض كلام خولة يخفى علي،

وسمع الله تعالى جدالها، فبعث رسول الله ﷺ في أوس وقال له: «أنتعق رقية؟» فقال: والله ما أمكها، فقال: «أنصوم شهرين متتابعين؟» فقال: والله ما أقدر أن أصبر إلا على أكلات ثلاث في اليوم، ومتى لم أفعل ذلك غشي بصري، فقال له: «أنتطمع؟» فقال: لا أجد إلا أن يُعينني رسول الله بمعونة وصلاة - يريد الدعاء - فأعانه رسول الله ﷺ بخمسة عشر صاعاً، ودعاً له، وقيل: بثلاثين صاعاً، فكفر بالإطعام وأمسك أهله.

وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «تَحَاوَرَكُ فِي زَوْجِهَا»، والمحاورة: مراجعة القول ومعاطاته، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو: «يَنْظَهُرُونَ» بالتشديد، وقرأ أبي بن كعب - بخلاف عنه - : «يَنْظَهُرُونَ»، وقرأ عامر، وحمزة، والكسائي: «يَنْظَاهِرُونَ»، وقرأ أبي بن كعب أيضاً: «يَنْظَاهِرُونَ»، وقرأ عاصم، وأبو جعفر، والحسن، وقتادة: «يَنْظَهُرُونَ» بضم الياء من قولك «فَاعَلَّ»، وهذه مستعملة جداً، وقولهم: «الظَّهَارُ» دليل عليها، والمراد بهذا كله قول الرجل لامرأته: أنت علي كظهر أمي، يريد: في التحريم، كأنها إشارة إلى الركوب إذ عُزِفَ في ظهور الحيوان، وكان أهل الجاهلية يقولون ذلك، فردَّ الله تعالى بهذه الآية على فعلهم، وأخبر بالحقيقة من أن الأم هي الوالدة، وأما الزوجة فلا يكون حكمها حكم الأم. وقرأ جمهور الناس: «أُمَّهَاتِهِمْ» بنصب

الأمهات، وقرأ عاصم - في رواية المفضل عنه -: «أُمَّهَاتِهِمْ» بالرفع، وهذا على اللغتين في [مَا]، لغة أهل الحجاز ولغة تميم، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «مَا هُنَّ بِأُمَّهَاتِهِمْ» بزيادة بَاءِ الْجَزْرِ، وجعل الله تعالى القول بالظهار مُنْكَرًا وَزُورًا، فهو سَخِيمٌ لكنه إذا وقع لزم، هكذا قال فيه أهل العلم، لكن تحريمه تحريم المكروهات جداً، وقد رَجَى الله بعه بأنه عَفُوٌّ غَفُورٌ مع الكفارة.

③ - ④ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في معنى قوله تعالى: «ثُمَّ يَوَدُّونَ لِمَا قَالُوا» - فقال قوم: المعنى: والذين يظاهرون من نسائهم في الجاهلية، كأنه تعالى قال: والذين كان الظهار عادتهم ثم يعودون إلى ذلك في الإسلام، وقاله القتيبي، وقال أهل الظاهر: المعنى: والذين يظاهرون ثم يظاهرون ثانية، فلا تلزم عندهم كفارة إلا بأن يعيد الرجل التظاهر، قال منذر بن سعيد: حينئذ هو عائد إلى القول الذي هو منكر وزور، وهذا قول ضعيف وإن كان القشيري قد حكاه عن بكير بن عبدالله بن الأشج، وقال بعض الناس: في هذه الآية تقديم وتأخير، وتقديرها: «فتحريم رقية لما قالوا»، وهذا أيضاً قول يُفْسِدُ نَظْمَ الآية، وحكي عن الأخفش لكنه غير قوي، وقال قتادة، وطاوس، ومالك، والزهري، وجماعة كبيرة من أهل العلم معنى: «ثُمَّ يَوَدُّونَ لِمَا قَالُوا» أي: بالوطء، المعنى: ثم يعودون لما قالوا إنهم لا يعودون إليه، فإذا ظاهر الرجل ثم وطيء فحينئذ تلزمه

قوله، والشُّعبي، وابن جبير،
والحكم بن عُيينة، والثوري:
يبتهى، وقال مالك، والشافعي،
وغيره: يَبْنِي، وأجمعوا على
الحائض أنها تبني في صومها
المتابع.

وإطعام المساكين في الظهار هو
بالمُدِّ الهاشمي عند مالك، وهو مُدٌّ
وثلاث بمُدِّ النبي ﷺ، وقيل: مُدَّان
غير ثلث، وروى ابن وهب أنه يطعم
مُدَيْنِ بِمُدِّ النبي ﷺ، وفي العلماء
من يرى إطعام الظهار مُدًّا بِمُدِّ
النبي ﷺ، ولا يُجزئ في إطعام
الظهار إلا إكمال عدد المساكين، ولا
يُجزئ أن يطعم ثلاثين مرَّتين ولا ما
أشبهه، والطعام هو غالب قوت
البلد. وقال مالك، وعطاء، وغيره:

إطعام المساكين أيضاً هو قبل التماس
خَمَلًا على العتق والصوم، وقال أبو
حنيفة، وجمهور من أهل العلم: لم
يُخَصَّ الله تعالى على الشرط هنا
فنحن لا نلزمه، وللمظاهر إذا كان
من أهل الإطعام أن يطأ قَبْلَ الكفارة
ويستمتع.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ لِتُؤْمِنُوا﴾ إشارة
إلى الرخصة والتسهيل في النقل من
التحرير إلى الصوم والإطعام، ثم
شدَّد تعالى بقوله: ﴿تِلْكَ حُدُودُ
اللَّهِ﴾، أي: فالتزموها وبقوا عندها،
ثم توعَّد الكافرين بهذا الحديث
والحكم الشرعي.

⑤ - ⑥ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية نزلت في المنافقين وقوم
من اليهود كانوا في المدينة يَتَمَرَّسُونَ
برسول الله ﷺ، ويتربصون بهم
الدوائر، ويديرون عليهم، ويتمنون

﴿مَنْ قَبِلَ أَنْ يَتَمَنَّأَ﴾ -
فقال الحسن، والثوري،
وجماعة: من قبل الوطء،
وجعلت المسيس ها هنا:
الوطء، فأباح للمظاهر
التقبيل والمضاجعة
والاستمتاع بأعلى المرأة
كالحيض، وقال الجمهور
من أهل العلم: ﴿مَنْ قَبِلَ
أَنْ يَتَمَنَّأَ﴾ عام في نوعي
المسيس: الوطء
والمباشرة، فلا يجوز
لمظاهر أن يطأ ولا يقبل
ولا يلمس بيده ولا يفعل
شيئاً من هذا النوع إلا بعد
الكفارة، وهذا قول مالك
رحمه الله، وقوله تعالى:

﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى «التَّحْرِيرِ»، أي:
فَعَلْ ذَلِكَ عِظَةً لَكُمْ لَتَنْتَهَوْا عَنِ
الظَّهَارِ.

و «المتتابع» في الشهرين صيامهما،
ولا يفرق بين أيامهما، وجائز أن
يصومهما الرجل بالعدد فيصوم ستين
يوماً تبعاً، وجائز أن يصومهما
بالأهلة، يبدأ مع الهلال ويفطر مع
الهلال، فإن جاء أحد شهره ناقصاً
فذلك يجزئ عنه، وجائز أن يبدأ
صومه في وسط شهرين ببعض الشهر
الأول فيصوم إلى الهلال، ثم يصوم
شهرًا بالهلال، ثم يتم الشهر الأول
بالعدد، ولا أحفظ خلافاً من أهل
العلم أن الصائم في الظهار إن أسد
التتابع باختياره أنه يبدأ صومهما،
واختلف الناس إذا أسده لعذر غالب
كالمرض والنسيان ونحوه - فقال
أصحاب الرأي، والشافعي في أحد

الْمُتَرَانَ اللَّهُ يَسْمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ
مِنْ جُحُودٍ فَلَنَسْأَلَنَّ الْأَهُرَاءَ بِعَهْمِهِمْ وَلَا حَسَمَةَ إِلَّا هُوَ سَادُّهُمْ
وَلَا أَدْنَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ إِنْ مَا كَانُوا مِنْ بَيْنَتِهِمْ
يَمَاعِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ
هُوَ أَعْيُنَ النَّجْوَى ثُمَّ يَؤُودُونَ لِمَا هُوَ عَنْهُمْ وَيَنْتَجِرُونَ بِالْأَنْزِيلِ
وَالْعُدُونَ وَمَعْصِبَتِ الرَّسُولِ وَإِذَا جَاءَهُمْ حَيْكُوكُ مَا أَوْحَيْنَاكَ
بِهِ اللَّهُ يَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسِبْتُمْ
جَهَنَّمَ بَصُورًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا
تَنَجَّيْتُمْ فَلَا تَنَجَّوْا بِالْأَنْزِيلِ وَالْعُدُونَ وَمَعْصِبَتِ الرَّسُولِ وَتَنَجَّوْا
بِالْبُرَى وَالنَّفْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٦﴾ إِنَّمَا النَّجْوَى
مِنَ الشَّيْطَانِ لِيَحْزَرَكَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيْسَ بِضَارِّهِمْ شَيْئًا
إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ قَلْبُوكُمْ كُلُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ
آمَنُوا إِذَا قِيلَ لَكُمْ فَتَسْخَرُوا مِنَ الْمَجْلِسِ فَأَسْمَعُوا تَسْمَعِ
اللَّهُ لَكُمْ وَإِذَا قِيلَ لَكُمْ فَاسْتُرُوا بِرِزْقِ اللَّهِ الَّذِي آتَىكُمْ فَاسْتُرُوا
بِمَنْكُمُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ يَمْتَلِنُ حَيْثُ شَاءَ

الكفارة في ذمته وإن طلق أو ماتت
امرأته، وقال الشافعي، وأبو حنيفة،
ومالك أيضاً، وفريق من أهل العلم:
﴿يُؤَدُّونَ﴾ معناه: بالعزم على إمساك
الزوجة وَوَطَّئَهَا والتزام التكفير
لذلك، فمتى وقع من المظاهر هذا
العزم فقد لزمت الكفارة ذمته، طلق
أو ماتت امرأته، وهذان القولان في
مذهب مالك، وهما حسنان، لزمت
الكفارة فيهما بشرطين: ظهارٌ وَعَوْدٌ
واختلف في «العود»، ما هو؟ فقال
الشافعي: العود الموجب للكفارة أن
يمسك عن طلاقها بَعْدَ الظَّهَارِ،
وَبِمُضِيِّ - بعد الظَّهَارِ - ما يمكنه أن
يُطَلِّقَ فِيهِ فلا يُطَلِّقَ.

و «الرَّزِيَّة» في الظَّهَارِ لا تكون عند
مالك إلا مؤمنة، ردُّ هذا المُطَلِّقِ إِلَى
المُقَدِّ الذي في كفارة القتل الخطأ.
واختلف الناس في قوله تعالى:

فيهم المكروه، ويتناجون بذلك، فنزلت هذه الآيات إلى آخر أمر النجوى فيهم.

و «المُحَادَّةُ»: أن يعطي الإنسان صاحبه حدّ قوله أو سلاحه وسائر أفعاله، وقال قوم: هي أن يكون الإنسان في حدّ وصاحبه في حدّ مخالف. و«كُتِبَ الرَّجُلُ» إذا بقي حزنان يبصر ما يكره ولا يقدر على دفعه، وقال قوم - منهم أبو عبيدة -: أضله: كُيدُوا، أي: أصابهم داءٌ في أكبادهم، فأبدلت الدال تاءً، وهذا غير قوي. و«الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ» هم منافقو الأمم الماضية الذين حادوا الرسل عليهم الصلاة والسلام قديماً، وقوله تعالى: «وَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ بِرَبِّكَ» يريد: في هذا القرآن، فليس هؤلاء المنافقون بأعدر من المتقدمين.

وقوله تعالى: «يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ» العامل في «يَوْمَ» «مَهْيُونَ»، ويحتمل أن يكون فعلاً مضمراً تقديره: اذكر، وقوله تعالى: «وَسَوْفَ» نسيانٌ على بابه؛ لأن الكافر لا يحفظ تفاصيل أعماله، ولما أخبر تعالى أنه على كل شيء شهيد وَقَفَ محمداً ﷺ توقيفاً تشاركه فيه أمته.

وقوله تعالى: «مِنَ النَّجْوَى تَلَايَةً»، يحتمل «نَجْوَى» أن يكون مصدرًا مضافاً إلى «تَلَايَةً»، كأنه تعالى قال: من سزار ثلاثة، ويحتمل «نَجْوَى» أن يكون المراد به جمعاً من الناس سُمِّيَ بالمصدر، كما قال تعالى في آية أخرى: «وَأَذِّمُ النَّجْوَى»، أي: ألوا نجوى، فيكون قوله

تعالى: «تَلَايَةً» - على هذا - بدلاً من «نَجْوَى» أو صفة، وفي هذا نظر، وقوله تعالى: «إِلَّا هُوَ رَبُّهُمْ» أي: يعْلَمُهُ وإحاطته ومقدرته، وقرأ جمهور الناس: «مَا يَكُونُ»، وقرأ أبو جعفر القارىء، وأبو خيثرة: «مَا تَكُونُ» بالتاء منقوطة من فوق، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: «وَلَا أَرِيقَةَ إِلَّا اللَّهُ خَامِسُهُمْ»، وكذلك: «إِلَّا اللَّهُ رَابِعُهُمْ» و«إِلَّا اللَّهُ سَادِسُهُمْ»، وقرأ جمهور القراء: «وَلَا أَكْثَرَ» عطفاً على اللفظ المخفوض، وقرأ الحسن، والأعمش، وابن أبي إسحق: «وَلَا أَكْثَرُ» بالرفع عطفاً على الموضع؛ لأن التقدير: ما يكون نجوى، ومن جعل النجوى مصدرًا محضاً قدر قبل «أَذِّنْ» فعلاً تقديره: ولا يكون أذنى، وقرأ الخليل بن أحمد: «وَلَا أَكْثَرَ» بالياء بواحدة من تحت، وباقى الآية بين.

﴿٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية نزلت في قوم من اليهود نهاهم رسول الله ﷺ عن التناجي بحضرة المؤمنين وإظهار ما يُستراب به من ذلك فلم ينتهوا فنزلت هذه الآية، قاله مجاهد وقادة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في اليهود والمنافقين، وقرأ جمهور القراء: «وَيَتَنَجَّوْنَ» على وزن «يَتَفَاعَلُونَ»، وقرأ حمزة، والأعمش، وطلحة، وابن وثاب: «وَيَتَنَجَّوْنَ» على وزن «يفتعلون»، وهما بمعنى واحد أبداً كَيَقْتَتِلُونَ ويتقاتلون، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: «وِعَضِيَانِ الرَّسُولِ».

وقوله تعالى: «وَلِذَا جَاءَكَ حِرَافَةٌ» الآية، يريد بذلك ما كانت اليهود تفعله من قولهم في التحية: السَّامُ عليك يا محمد، وذلك أنه زوي أن اليهود كانت تأتي فتقول: السَّامُ عليك يا محمد - والسَّامُ: الموت، وإيَّاه كانوا يريدون - فكان رسول الله ﷺ يقول: «وعليكم»، فسمعتهم عائشة رضي الله تعالى عنها يوماً فقالت: بل عليكم السَّامُ واللعنة، فقال رسول الله ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إن الله يكره الفُحْشُ والتفُحْشُ»، قالت: أما سمعت ما قالوا؟ قال: «أما سمعت ما قلت لهم؟ إني قلت: وعليكم».

ثم كشف الله تعالى حُبَّ طويبتهم والحُجَّةَ التي إليها يستريحون، وذلك أنهم كانوا يقولون: نحن الآن نلقى محمداً بهذه الأمور التي تسوؤه ولا يُصيبنا سوء، ولا يُعاقبنا الله تعالى بذلك، ولو كان نبياً لهلكنا بهذه الأقوال، وجعلوا أن أمرهم مؤخر إلى عذاب جهنم، فأخبر الله تعالى بذلك، وأنها كافيَّتْهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه الآية كلها في منافقين، ويُشبه أن يكون في المنافقين من تخلَّقَ بِخُلُقِ اليهود.

﴿٩﴾ - ﴿١٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

وَصَّى الله تعالى المؤمنين في هذه الآية بالألأ يكون منهم تناج في مكروه، وذلك عام في جميع الناس إلى يوم القيامة، وخصَّ تبارك وتعالى «الإِثْمَ» بالذكر لعمومه، و«العُدْوَانُ» لعظمته في نفسه؛ إذا هي

كقولك: «كَحَلَّتْ العين»، وهو ضرب من التعدي كأن المفعول ظرف، وقد ذكر سيبويه رحمه الله تعالى هذا المعنى من تعدي الأفعال، وقرأ بعض الناس: «لِيُخْرَزْنَ» بفتح الياء والزاي، و«الَّذِينَ» على هذه القراءة رفع بإسناد الفعل إليهم، يقال: خَزَنَ الرجل بكسر الزاي.

ثم أخبر تعالى أن الشيطان والتناجي الذي هو منه ليس بضار أحداً إلا أن يكون ضرراً بإذن الله، أي: بأمره وقدره، ثم أمر تعالى بتوكل المؤمنين عليه تبارك وتعالى، وهذا كله يقوي أن التناجي الذي من الشيطان إنما هو الذي وقع للمؤمنين منه خوف، وللخوف اللاحق للقلوب في هذا قال رسول الله ﷺ: «لا يتناجى اثنان دون واحد».

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: «وَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى» وقرأ جمهور الناس: «تَنَسَّخُوا»، وقرأ الحسن، وداود بن أبي هند: «تَفَسَّخُوا»، وقرأ جمهور القراء: «فِي الْمَنَجِلِيسِ»، وقرأ عاصم وحده، وقاتدة، وعيسى: «فِي الْمَنَجِلِيسِ».

واختلف الناس في سبب الآية والمقصود بها - فقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: نزلت في مقاعد الحرب والقتال، وقال زيد بن أسلم، وقاتدة: نزلت بسبب تضايق الناس في مجلس النبي ﷺ، وذلك أنهم كانوا يتنافسون في القرب منه وسماع كلامه والنظر إليه، فيأتي الرجل الذي له الحق والسُنُّ والقدم في الإسلام فلا يجد مكاناً، فنزلت الآية بسبب ذلك، وقال مقاتل: أقام

﴿إِنَّمَا﴾ للحصر ولكنها لتأكيد الخبر، واختلف الناس في النجوى التي هي من الشيطان التي أخبر عنها في هذه الآية - فقال جماعة من المفسرين: أراد: إنما النجوى في الإثم والعُدوان ومعصية الرسول من الشيطان، وقال قتادة وغيره: الإشارة إلى نجوى المنافقين واليهود، وقال عبدالله بن زيد بن أسلم: الإشارة إلى نجوى قوم من المسلمين كانوا يقصدون مناجاة رسول الله ﷺ وليس لهم

حاجة ولا ضرورة إلى ذلك، وإنما كانوا يريدون التنجح بذلك، وكان المسلمون يظنون أن تلك النجوى في إخبار بَعْدُو قاصد ونحوه، وهذا القولان يَعْضُدُهما ما يأتي من ألفاظ الآية، ولا يَعْضُدُ القول الأول. وقال عطية العوفي في هذه الآية: نزلت في المناجاة التي يراها المؤمن فتسوؤه، وفيما يراه النائم فكأنه نجوى يناجى بها، وهذا قول أجنبي من المعنى الذي قبله والذي بعده.

وقرأ نافع وأهل المدينة: «لِيُخْرَزْنَ» بضم الياء وكسر الزاي، والفعل منسوب إلى الشيطان، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وعاصم، وغيرهم: «لِيُخْرَزَتْ» بفتح الياء وضم الزاي، تقول: «خَرَزْتُ قَلْبَ الرَّجُلِ» إذا جعلت فيه حزناً، فهو

يَتَأْتِي الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرُّسُلَ فَيَقْدُمُونَ بَيْنَ يَدَيْ حُرُوبِكُمْ صِدْقَةً ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ يَجِدُوا فَإِنِ اللَّهُ عَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ أَسْفَقْتُمْ أَن تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ حُرُوبِكُمْ صِدْقَةً فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقْرُبُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مَّا هُمْ بِنَتِكُمْ وَلَا يَتَنَبَّهُونَ عَلَى الكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ اتَّخَذُوا آلِهَتَهُمْ حُجَّةً فَصَدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٥﴾ لَنْ نَقْنِي عَنْهُمْ آوَانَهُمْ وَلَا أَوْلَادَهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١٦﴾ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْطِفُونَ لَهُ، كَمَا يَحْطِفُونَ لِكُلِّ وَجْهٍ عَلَى شَيْءٍ أَلَّا يُؤْتِيَهُمُ الْكُذِبُونَ ﴿١٧﴾ اسْتَوَجَدَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنسَاهُمْ ذِكْرَ اللَّهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَجَادُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْآدَانِ ﴿١٩﴾ كَتَبَ اللَّهُ لَأَعْيَابِكُمْ أَن تَأْوَرُّوْا بِي وَأَنَا مُصَوِّبُ ﴿٢٠﴾

ظَلَامَاتِ العباد، وكذلك «معصية الرسول» ذكرها طعنًا على المنافقين إذ كان تناجيهم في ذلك.

وقرأ جمهور الناس: «فَلَا تَنَسَّخُوا» على وزن «تَفَسَّخُوا»، وقرأ ابن محيصة: «فَلَا تَنَاجُوا» بحذف التاء الواحدة، وقرأ بعض القراء: «فَلَا تَنَاجُوا» بتشديد التاء لأنها أَدْعَمَتْ في التاء، وقرأ الأعمش وأهل الكوفة: «فَلَا تَنَسَّجُوا» على وزن «تَفَعَّلُوا»، والناس على ضم العين من «الْمُدُونِ»، وقرأها أبو حنيفة بكسر العين حيث وقع. وقرأ الضحاك وغيره: «وَمَغْصِيَاتِ الرُّسُلِ» على الجمع فيهما.

ثم أمر تعالى بالتناجي في البرِّ والثقوى، وذكر بالحشر الذي معه الحساب ودخول إحدى الدارين.

قوله تعالى: «إِنَّمَا النَّجْوَى»، ليست

واختلف الناس في ترتيب قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْوَيْلَ ذَرَكْتُمْ﴾ - فقال جماعة من المتأولين: المعنى: يرفع الله المؤمنين العلماء منكم درجات، فلذلك أمر بالتفسيح من أجلهم، ويجيء - على هذا - قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ أُوتُوا الْوَيْلَ﴾ بمنزلة قولك: جاءني العاقل والكريم والشجاع، وأنت تريد رجلاً واحداً. وقال آخرون: المعنى: يرفع الله المؤمنين والعلماء، الصنفين جميعاً درجات، لكننا نعلم تفاضلهم في الدرجات من مواضع أخرى، ولذلك جاء الأمر بالتفسيح عاماً للعلماء وغيرهم. وقال عبدالله بن مسعود رضي الله عنه وغيره: المعنى: «يرفع الله الذين آمنوا منكم»، وتمّ القول، ثم ابتداء بتخصيص العلماء بالدرجات، ونصّبهم بإضمار فعل، فالمؤمنون رفع على هذا التأويل، وللعلماء درجات، وعلى هذا التأويل قال مطرف ابن عبدالله بن الشخير: «فضل العلم أحب إلي من فضل العبادة، وخير دينكم الورع»، ثم توعدّ تعالى وحذر بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَجَّيْتُمُ الرَّسُولَ﴾ الآية، زوي عن ابن عباس، وقاتة في سببها أن قوماً من شباب المسلمين كثرت مناجاتهم للنبي ﷺ في غير حاجة إلا لتظهر منزلتهم، وكان رسول الله ﷺ سمحاً لا يردُّ أحداً، فنزلت هذه الآية مشددة عليهم في أمر المناجاة، وقال مقاتل: نزلت في الأغنياء لأنهم

يتمثل له الرجال قياماً فليَتَبَوَّأْ مقعده من النار»، وقوله تعالى: ﴿يَسَّحُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ معناه: في رحمته وجنته.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ انشُرُوا فانشُرُوا﴾ معناه: إذا قيل لكم ارتفعوا وقوموا فافعلوا ذلك، ومنه نشوز العظام، أي نباتها، والنشز من الأرض: المرتفع، واختلف الناس في هذا النشوز الذي أمروا بامتثاله، ما هو؟ فقال الحسن، والضحاك، وقاتة: معناه: إذا دُعوا إلى قتال أو طاعة أو صلاة ونحوه، وقال آخرون: إذا دُعوا إلى القيام عن النبي ﷺ؛ لأنه عليه الصلاة والسلام أحياناً كان يُحب الانفراد في أمر الإسلام، فربما جلس قوم وأراد كل أحد أن يكون آخر الناس عهداً بالنبي ﷺ، فنزلت الآية أمرة بالقيام عنه متى فهم ذلك بقول أو فعل، وقال آخرون: معناه: انشزوا في المجلس بمعنى التفسيح؛ لأن الذي يريد التوسع يرتفع إلى فوق في الهواء، فإذا فعل ذلك جملة اتسع الموضوع، فيجيء ﴿انشُرُوا﴾ في غرض واحد مع قوله تعالى: ﴿تَسْتَوُوا﴾، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿انشُرُوا﴾ برفع الشين، وهي قراءة أبي جعفر، وشيبة، والأعرج. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمرزة، والكسائي: ﴿انشُرُوا﴾ بكسر الشين فيها، وهي قراءة الحسن، والأعمش، وطلحة، يقال: نَشَرَ يَنْشُرُ كَحَشَرَ يَحْشُرُ وَيَخْشِرُ وَعَكَفَ يَعْكَفُ وَيَعْكِفُ، وقوله تعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ﴾ جواب الأمر.

رسول الله ﷺ قوماً ليجلس أشياخ من أهل بدر ونحو ذلك، فنزلت الآية، وروى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا يقيم أحد من مجلسه ثم يجلس فيه الرجل، ولكن تفسيحوا يفسح الله لكم»، وقال بعض الناس: إنما الآية مخصوصة في مجلس النبي ﷺ وليس في سائر المجالس، ويدل على ذلك قراءة من قرأ: ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾، ومن قرأ: ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾ فذلك مراد أيضاً لأن لكل أحد مجلساً في بيت النبي ﷺ وموضعه، فجمع لذلك، وقال الجمهور من أهل العلم: السبب مجلس النبي ﷺ والحكم مُطَرَّدٌ في سائر المجالس التي هي للطاعات، ومنه قول النبي ﷺ: «أحبكم إلى الله أَلْيَنُكُمْ مَنَاقِبَ فِي الصَّلَاةِ وَرُكْبَاءَ فِي الْمَجَالِسِ»، وهذا قول مالك رحمه الله تعالى، وقال: ما أرى الحكم إلا يطرد في مجالس العلم ونحوها غابر الدهر، ويؤيد هذا القول قراءة من قرأ: ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾ ومن قرأ: ﴿فِي الْمَجْلِسِ﴾ فذلك - على هذا التأويل - اسم جنس، فالسنة المنذوب إليها هي التفسيح، والقيام منهى عنه، وحديث النبي ﷺ حديث نهى أن يقوم الرجل فيجلس الآخر في مكانه، فأما القيام إجلالاً فجائز بالحديث، وهو قوله ﷺ حين أقبل سعد بن معاذ رضي الله تعالى عنه: «قوموا إلى سيدكم»، وواجب على المعظم ألا يُحب ذلك ويأخذ الناس به، لقوله عليه الصلاة والسلام: «من أحب أن

غلبوا الفقراء على مناجاة رسول الله ﷺ وعلى مجلسه. وقال جماعة من الرواة: لم يعمل بهذه الآية بل نُسخَت قبل العمل، لكن استقر حكمها بالعزم عليه، كأمر إبراهيم عليه السلام في ذبح ابنه عليه السلام، وصحَّ عن علي رضي الله عنه أنه قال: ما عمل بها أحد غيري، وأنا كنتُ سبب الرخصة والتخفيف عن المسلمين، وذلك لأنِّي أردت مناجاة النبي ﷺ في أمر ضروري، فصرفت ديناراً بعشرة دراهم، ثم ناجيته عشر مرّات، أقدم في كل مرّة درهماً، وروي عنه أنه تصدّق في كل مرّة بدينار، قال علي رضي الله عنه: ثم فهم رسول الله ﷺ أن هذه العبادة قد شقّت على الناس، فقال لي: يا علي، كم ترى أن يكون حدّ هذه الصدقة؛ أترأه ديناراً؟ قلت: لا، قال: نصف دينار؟ قلت: لا، قال: فكيف؟ قلت: حيّة من شعير، قال: إنك لزهيد، فأنزل الله تعالى الرخصة للواجدين، وأما من لا يجد فالرخصة له ثابتة بقوله سبحانه: ﴿فَإِنْ لَرَّ يَحْدُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، وقال مقاتل: بقي هذا الحكم عشرة أيام، وقال قتادة: بقي ساعة من نهار، وقرأ الجمهور من الناس: ﴿صَدَقَاتٍ﴾ بالإنفراد، وقرأ بعض القراء: ﴿صَدَقَاتٍ﴾ بالجمع.

﴿١٢﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

«الإشفاق»: الفرع من العجز عن الشيء المتصدّق به أو من ذهاب المال في الصدقة، وله وجوه كثيرة يقال فيها الإشفاق، لكنه في هذا

الموضع كما ذكرت. و﴿وَكَلَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾ معناه: رجع بكم.

وقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْوَا الصَّلَاةَ﴾ الآية، معناه: دوموا على هذه الأعمال التي هي قواعد شرعكم، ومن قال إن هذه الصدقة منسوخة بآية الزكاة فقوله ضعيف لا يحصل كيفية النسخ، وما ذكر في نحو هذا عن ابن عباس رضي الله عنهما لا يصح عنه، والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ تَوَلَّوْا﴾. نزلت في قوم من المنافقين تولوا قوماً من اليهود وهم المغضوب عليهم، وقال الطبري: ﴿مَا هُمْ﴾ يريد المنافقين، و﴿مِنْكُمْ﴾ يريد به المؤمنين، و﴿مِنْهُمْ﴾ يريد به اليهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا التأويل يجري مع قوله تعالى: ﴿مُذَبِّحِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ﴾، ومع قوله عليه الصلاة والسلام: «مثل المنافق مثل الشاة العائرة بين الغنمين»، لأنه مع المؤمنين بقوله ومع الكافرين بقلبه، لكن هذه الآية تحتل تأويلاً آخر وهو أن يكون قوله تعالى: ﴿مَا هُمْ﴾ يريد به اليهود، وقوله تعالى: ﴿وَلَا مِنْهُمْ﴾ يريد به المنافقين، فيجاء فعل

المنافقين - على هذا التأويل - أحسن لأنهم تولّوا قوماً مغضوباً عليهم ليسوا من أنفسهم فيلزمهم ذمّهم ولا من القوم المحقّقين فتكون الموالاة صواباً. وقوله تعالى: ﴿رَجِلْتُمْ﴾ يعني المنافقين؛ لأنهم كانوا إذا وقفوا على ما يأتون به من بغض النبي ﷺ وشتمه وموالاة عدوّه

حلفوا أنهم لا يفعلون ذلك واستسهلوا الحنث، وروي من هذا نوازل كثيرة اختصرتها إيجازاً، وإذا تُبِعَت في المصنفات وُجِدَت كقول ابن أبي: «لَيْتَن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ» وحلفه على أنه لم يفعل، وغير ذلك.

و «الْعَذَابُ الشَّدِيدُ» هو عذاب الآخرة، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَتَيْنَهُمْ﴾ جمع يمين، وقرأ الحسن: ﴿إِيمَانَهُمْ﴾ أي: ما يظهرونه من الإيمان.

و «الْحُنَّةُ»: ما يُتَسَتَّرُ به ويُتَّقَى المحذور، ومنه «المِجَنُّ» وهو التزُّنُّ، وقوله تعالى: ﴿فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يحتمل أن يكون الفعل غير مُتَعَدِّ، كما تقول: صدّ زيد، أي: صدّوا هم أنفسهم عن سبيل الله وعن الإيمان برسوله، ويحتمل أن يكون الفعل متعدياً، أي: صدّوا غيرهم من الناس عن الإيمان ممّن اقتدى بهم وجرى في مضارهم، ويحتمل أن يكون المعنى: صدّوا المسلمين عن قتلهم، وتلك سبيل الله فيهم لكن ما أظهره من الإيمان صدّوا به المسلمين عن ذلك، و«المُهِينَ»: المُذِلُّ، من الهوان.

﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

روي أن المنافقين فخرُوا بكثرة أموالهم وأولادهم وأظهروا السرور بذلك فنزلت الآية معلّمة أن ذلك لا غناء له عنهم ولا مدفع بسببه، والعامل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ ﴿أَصْحَابُ﴾ على تقدير فعل.

وأخبر الله تعالى عنهم في هذه الآية



سواه، وقال غيره: ومن لم يؤمر بقتال فهو غالب بالحجة.

② تفسير قوله عز وجل:

نفث هذه الآية أن يوجد من يؤمن بالله تعالى حق الإيمان ويلتزم شعبه على الكمال يؤاد كافراً أو منافقاً، ومعنى «يؤاد» يكون بينهما من اللطف بحيث يؤد كل واحد منهما صاحبه، وعلى هذا التأويل قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: اللهم لا تجعل لمشرك قبلي يداً فتكون سبباً للموعدة، فإنك

تقول: وتلا هذه الآية. وتحتمل الآية أن يُراد بها: لا يوجد من حاد الله من حيث والبعث يؤاد من حاد الله من حيث هو محاداً؛ لأنه حينئذ يؤد المحادة، وذلك يوجب ألا يكون مؤمناً.

ويروى أن هذه الآية نزلت في شأن حاطب بن أبي بلتعة ومخاطبته أهل مكة، وظاهر هذه الآيات أنها متصلة المعنى، وأن هذه في معنى الذم للمنافقين الموالين لليهود، وإذا قلنا إنها في أمر حاطب جاء ذلك أجنبياً في أمر المنافقين وإن كان شبيهاً به، و«الإخوان» هنا إخوة النسب بدليل اقترانه بالأباء، وعرف «الإخوان» أنه في الأوداء، كما أن عرف «الإخوة» أنه في النسب، وقد يكون مستعملاً في إخاء الوؤد.

و «كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ» معناه: أثبتته وحلقه بالإيجاد، وذهب

أنهم ستكون لهم أيمان يوم القيامة وبين يدي الله تعالى يُخَيَّلُ إِلَيْهِمْ بجهلهم أنها تنفعهم وتقبل منهم، وهذا هو حسابهم أنهم على شيء، أي: على فعل أي شيء نافع لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي -: قال عليه الصلاة والسلام: «ينادي مناد يوم القيامة: أين خصماء الله؟ فتأتي القدرية مسودة وجوههم مزرقه أعينهم، فيقولون: ما عبدنا شمساً ولا قمراً، ولا اتخذنا من دونك إلهاً»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: صدقوا والله ولكن اتاهم الإشراك من حيث لا يعلمون، ثم تلا هذه الآية.

وقوله تعالى: «أَسْتَحَادُ عَلَيْهِمُ الْكَلْبَاطُ» معناه: تملكهم من كل جهة وغلب على نفوسهم، وهذا الفعل مما استعمل على الأصل، فإن قياس التعليل يقتضي أن يقال: استَحَادَ، وحكى الفراء في كتاب «اللغات» أن عمر رضي الله عنه قرأ: «أَسْتَحَادُ».

و «يُؤَادُونَ» معناه: يعطون الحد من الأفعال والأقوال، وقال بعض أهل العلم بالمعاني: معناه: يكونون في حد غير الحد الذي شرع الله تبارك وتعالى، ثم قضى الله تعالى على مُحَادَةَ بالذل، وأخبر بأنه كتب فيما أمضى من قضاائه وقدره في الأزل أنه يغلب هو ورسله كل من حاد الله والرسل. وقرأ نافع، وابن عامر: «وَرُسُلِي» بفتح الباء، وقرأ الباقون بسكونها، وقال الحسن: ما أمر الله تعالى قط رسولاً بالقتال إلا وأغلبه وظفره بقوته وعزته، لا رب

أبو علي الفارسي وغيره من المعتزلة إلى أن المعنى: جعل في قلوبهم علامات تعرف الملائكة بها أنهم مؤمنون، وذلك أنهم يرون أن العبد يخلق إيمانه، وقد صرح النقاش بهذا المذهب، وما أراه قاله إلا غير مُحَصَّل لما قال، وأما أبو علي الفارسي فعن بصر به. وقرأ جمهور القراء: «كَتَبَ» على بناء الفعل للفاعل، و«الْإِيمَانَ» بالنصب، وقرأ أبو حنيفة، وعاصم - في رواية المفضل عنه -: «كَتَبَ» على بناء الفعل للمفعول، و«الْإِيمَانَ» بالرفع.

وقوله تعالى: «أُولَئِكَ» إشارة إلى المؤمنين الذين تقتضيه معنى الآية؛ لأن المعنى: لكنك تجدهم لا يؤادون من حاد الله، وقوله تعالى: «يُرْجِعُ مِنْهُ» معناه: يهتدى

وَلَطْفٍ وَنُورٍ وَتَوْفِيقٍ إِلَهِي يَتَقَدَّحُ مِنَ الْقُرْآنِ وَمِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: بِالْقُرْآنِ، لِأَنَّهُ رُوحٌ، وَقِيلَ: الْمَعْنَى: بِجَبْرِئِيلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

و «الْحِزْبُ»: الْفَرِيقُ الَّذِي يَجْمَعُهُ مَذْهَبٌ وَاحِدٌ، وَ«الْمُفْلِحُ»: الْفَائِزُ بِبُغْيَتِهِ، وَبَاقِي الْآيَةِ بَيِّنٌ.

كَمَل تَفْسِيرَ سُورَةِ الْمَجَادِلَةِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

تفسير سورة الحشر

هذه السورة مدنيّة باتفاق من أهل العلم، وهي سورة بني النضير؛ وذلك أن رسول الله ﷺ كان قد عاهد بني النضير على سلّم وهم يرون أنه لا تُردُّ له راية، فلما جرت هزيمة أُخذ ارتابوا وداخلوا قريشاً وغدروا، فلما رجع النبي ﷺ من أحد تبين له معتقد بني النضير وغدرهم بعهدة ومولاتهم للكفار، فجمع إليهم وحاصرهم وعاهدهم على أن يُجلبهم عن أرضهم، فارتحلوا إلى بلاد مختلفة: خيبر والشام وغير ذلك من البلاد، ثم كان أمر بني قريظة مرجعه ﷺ من الأحزاب.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قد تقدّم القول في تسبيح الجمادات التي يتناولها عموم «ما في السموات وما في الأرض»، وأن أهل العلم

اختلفوا في ذلك، فقال قوم: ذلك على الحقيقة، وقال آخرون: ذلك مجاز، أي: أن آثار الصنعة فيها والإيجاد لها كالتسبيح وداعية إلى التسبيح بمن له أن يسبح، وقال مكي: «سَبَّحَ» معناه: صَلَّى وَسَجَدَ، فهذا كله بمعنى الخضوع والطوع، و«الْعَزِيرُ الْكَبِيرُ» صفتان مناسبتان لما يأتي بعد من قصة العدو الذين أخرجهم من ديارهم.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ هم بنو النضير، وكانت قبيلة عظيمة من بني إسرائيل موازية في القدر والمنزلة لبني قريظة، وكان يقال للقبيلتين: الكاهنان لأنهما من ولد الكاهن بن هرون، وكانت أرضهم وحصونهم قريبة من المدينة، ولهم نخل وأموال عظيمة، فلما رجع رسول الله ﷺ من أحد خرج إلى بني النضير فحاصرهم وأجلاهم على أن يحملوا من أموالهم ما أقتلهم الإبل حاشى الحلقة - وهي جميع السلاح -، فخرجوا إلى بلاد مختلفة، فذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَأَوَّلُ الْحَشْرِ﴾ اختلف الناس في معنى ذلك بعد اتفاقهم على أن «الحشر» هو الجمع والتوجيه إلى ناحية ما - فقال الحسن بن أبي الحسن، وغيره: أراد تعالى حشر القيامة، أي: هذا أوله، والقيام من القبور آخره، وروى الحسن أن النبي ﷺ قال لهم: «امضوا، هذا أول الحشر وأنا على الأثر». وقال عكرمة، والزهراوي،

وغيرهما: المعنى: لأول موضع الحشر وهو الشام؛ وذلك أن أكثر بني النضير جاءت إلى الشام، وقد روي أن حشر القيامة هو إلى الشام، وأن النبي ﷺ قال لبني النضير: «اخرجوا»، قالوا: إلى أين يا محمد؟ قال: «إلى أرض المحشر»، وقال قوم - في كتاب المهدي - المراد الحشر في الدنيا الذي هو الجلاء والإخراج، فهذا الذي فعل رسول الله ﷺ ببني النضير أوله، والذي فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه بأهل خيبر آخره، وأخبرت الآية بمغيب، وقد أخبر النبي ﷺ بجلاء أهل خيبر، ويحتمل أن يكون آخر الحشر في قول النبي ﷺ في مرضه: «لَا يَبْقَى دِينَانِ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»، فإن ذلك يتضمن إجماع بقاياهم، قال الخليل - فيما حكى الزجاج -: سميت جزيرة لأنه أحاط بها بحر الحبشة وبحر فارس ودجلة والفرات. وفي هذه الإحاطة نظر.

وقوله تعالى: ﴿مَا ظَنَنْتُمْ أَنَّ يَخْرِجُوكُمْ﴾ معناه: لِمَنْعَتِهِمْ وكثرة عددهم، فلم تكن آمالكم وظنونكم تنتهي إلى أنهم يخرجون ويدعون أموالهم لكم، وبحسب ذلك من المنعة والغدة والتحصن ظنوا أنهم لن يُقدَّرَ عليهم، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ اللَّهُ يُرِيدُ: مَنْ جُنِدَ اللَّهُ وَجِزْبَ اللَّهُ. وقوله تعالى: ﴿فَأَنْتَهُمْ اللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا﴾ عبارة عن إظهار الله تعالى المسلمين عليهم وإلقائهم في حيز الهزم والذل. وقرأ الجمهور: ﴿الزُّعْبُ﴾ بسكون العين،

ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ. وَمَنْ شَاقَ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١﴾ مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ أَوْ نَرَكْتُمْ هَا فَاقْتُمْهَا مِنَ اللَّهِ عَلَىٰ أَسْوَأِهَا فَمَا بَدَأْنَاهُ بِهِ إِبْرَاهِيمَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ خَلَقَهُ فَقَالَ لَهُ إِنِّي أَنَا اللَّهُ فَاعْبُدْهُ وَاعْبُدْ بِنِعْمَتِي إِنَّ اللَّهَ لَإِنَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾ وَمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مَا أَجْرَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَكِنَّ اللَّهَ يُسَلِّطُ رَسُولَهُ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣﴾ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَآلِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةَ بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا أَتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُمْرًا لَهُمْ لِيَبْتَغُوا فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيُبْصِرُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ وَاللَّذِينَ هُمْ أَصْدِقُونَ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُخْرِجُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٦﴾

٥٤٦

وقوله تعالى: ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لَيْسَةٍ﴾ سببها أن بعض أصحاب النبي ﷺ وضعوا أيديهم في نخل بني النضير يقطعون ويحرقون، فقال بنو النضير: ما هذا الإفساد يا محمد وأنت تنهى عن الفساد؟ فكف عن ذلك بعض الصحابة، وذلك في صدر الحرب معهم، فنزلت الآية مُعْلِمَةً أن جميع ما جرى من قطع أو إمساك فبإذن الله تعالى، وردت الآية على قول بني النضير إن محمداً ينهى عن الفساد وها هو ذا يُفْسِد، فأعلم الله تعالى أن ذلك بإذنه وليجزى الفاسقين من بني النضير.

واختلف الناس في «الليئة» - فقال الحسن، ومجاهد، وأبو زيد، وعمرو بن ميمون: الليئة: النخلة، اسمان بمعنى واحد، وجمعها لِيَيْنٌ وليانٌ، وقال الشاعر:

وناوأه بقوله: ﴿فَاعْتَرُوا بِتَأْوِيلِ الْأَنْصُرِ﴾، أي: العقول والأفهام.

١ - ٢ - تفسير قوله عز وجل:

أخبر تعالى في هذه الآية أنه كتب على بني إسرائيل جلاء، وكانت بنو النضير ممن حل بالحجاز عند موت موسى عليه الصلاة والسلام بيسير؛ لأنهم كانوا من الجيش الذي رجع، وقد عصوا في أن لم يقتلوا الغلام ابن ملك العماليق لجماله وعقله، وقد كان موسى عليه السلام قال لهم: لا

تستحيوا أحداً، فلما رجع ذلك الجيش إلى بني إسرائيل بالشام وجدوا موسى عليه السلام ميتاً، وقال لهم بنو إسرائيل: أنتم عصاة، والله لا دخلتم علينا بلادنا، فقال أهل ذلك الجيش عند ذلك: ليس لنا أحب من البلاد التي غلبنا أهلها، فانصرفوا إلى الحجاز فكانوا فيه، فلم يجر عليهم الجلاء الذي أجراه بختنصر على أهل الشام، وقد كان الله تعالى كتب على بني إسرائيل جلاءً فنالهم هذا الجلاء على يدي محمد ﷺ، ولولا ذلك لعذبهم الله تعالى في الدنيا بالسيف والقتل كأهل بدر وغيرهم، ويقال: جَلَا الرجلُ، وأجلاه غيره، وقد يقال: أجلى الرجل نفسه، بمعنى: جلا.

و «الْمُشَاقَّةُ»: كون الإنسان في شق ومخالفه في شق.

وقرأ أبو جعفر، وشيبة: ﴿الرُّعْبِ﴾ بضم العين.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ - فقال الضحاک، والزجاج، وغيرهما: كلما هدم المسلمون من تحصينهم في القتال هدموا هم من البيوت وجبروا الجحش دأباً، فهذا معنى تخريبهم، وقال الزهري وغيره: كانوا لما أبيع لهم ما تستقل به الإبل لا يدعون خشبة حسنة ولا نجافاً ولا سارية إلا قلعوها وخربوها البيوت عنه. وقوله تعالى: ﴿وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ من حيث فغلهم بكفرهم داعية إلى تخريب المؤمنين بيوتهم، فكانهم قد خربوها بأيدي المؤمنين، وقال جماعة من المفسرين: إنهم لما أزمعوا الجلاء شحوا على ترك البيوت سليمة للمؤمنين فهدموا وخربوها بمعنى الإفساد على من يأتي، وقال قتادة: خرب المؤمنون من خارج ليدخلوا وخربوها هم من داخل، وقرأ جمهور القراء: ﴿يُخْرِبُونَ﴾ بسكون الخاء وتخفيف الراء، وقرأ أبو عمرو وحده، والحسن - بخلاف عنه - وقاتة، وعيسى: ﴿يُخْرِبُونَ﴾ بفتح الخاء وشد الراء، فقال فريق من العلماء اللغويين: القراءتان بمعنى واحد، وقال أبو عمرو بن العلاء: «خرب» معناه: هدم وأفسد، و«أخرب» معناه: ترك الموضع خراباً وذهب عنه.

ثم نبه تبارك وتعالى المؤمنين وغيرهم ممن له أن ينظر على نصرة رسوله ﷺ وصنعة له فيمن حاده

وَسَالِفَةً كَسَحُوقِ اللَّيَا
نَ أَضْرَمَ فِيهَا الْعَوِيُّ الشُّعْزُ
وقال آخر:

طَرَأَ الْخَوَافِي وَاقَعَ فَوَوقَ لَيْئَةَ
نَدَى لَيْلِهِ فِي رَيْشِهِ يَشْرَفُ فَرَقُ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما
وجماعة من اللغويين: اللينة من
التُّخْل ما لم تكن عجوة، وقال
سفيان بن سعيد الثوري: اللينة؛
الكريمة من التُّخْل، وقال أبو عبيدة -
فيما زوي عنه - وسفيان: اللينة: ما
تمرها لوْنٌ، وهو نوعٌ من التمر يقال
له: اللوْن، قال سفيان: هو شديد
الصفرة يشفُّ عن نواه فيرى من
خارج، وأصلها «لَوْنَةٌ» فأبدلت
لموافقة الكسرة، وقال أبو عبيدة
أيضاً: اللين: ألوان التُّخْل المختلطة
التي ليس فيها عجوة ولا نوى. وقرأ
ابن مسعود والأعمش: ﴿أَوْ
تَرَكْتُمُوهَا قَوْمًا عَلَىٰ أَصُولِهَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكَ اللَّهُ عَلَىٰ
رَسُولِهِ يَنْتَهِمُ﴾ الآية. . . إعلامٌ أنَّ ما
أخذ من بني النضير ومن فذكَ فهو
خاصٌّ للنبي ﷺ، وليس على حكم
الغنيمة التي يُوجف عليها ويُقاتل
فيها، بل على حكم خمس الغنائم،
وذلك أن بني النضير لم يوجف
عليها ولا قوتلت كبير قتال، فأخذ
منها رسول الله ﷺ لنفسه قوتٌ
عياله، وقَسَمَ سائرهما في المهاجرين
ولم يُعط الأنصار منها شيئاً، غير أن
أبا دُجانة سِمَاكَ بْنَ حُنَيْفٍ،
وسهل بن حنيف شكيا فاقه عزيمة
فأعطاهما، هذا قول جماعة من
العلماء، وفي ذلك قال عمر بن
الخطاب رضي الله عنه: كانت أموال

بني النضير ممَّا آفأه الله تعالى على
رسوله ﷺ ممَّا لم يوجف المسلمون
عليه بخيل ولا ركاب، فكان
رسول الله ﷺ ينفق منها على أهله
نفقة سنة، وما بقي منها جعله في
السلح والكرراع عُدَّة في سبيل الله
تعالى، قال بعض العلماء: وكذلك
كل ما فتح على الأئمة ممَّا لم
يوجف عليه فهو لهم خاصة،
والوجيف دون التقريب، يقال:
وجف الفرس وأوجفه الراكب،
والإيجاف: سرعة السير والاجتهاد
فيه.

٧ - ٨ - تفسير قوله عز وجل:

أهل القرى المذكورون في هذه
الآية هم أهل الصفراء والينبوع
ووادي القرى وما هنالك من قرى
العرب التي تُسمى قرى عربية، ولم
يحس رسول الله ﷺ من هذه لنفسه
شيئاً، بل أمضاها لغيره؛ وذلك أنها
في ذلك الوقت فتحت، واختلف
الناس في صفة فتحها - فقيل: غزاها
رسول الله ﷺ، وبعث بعثاً إلى كل
مكان فأطاع وأعطاه أهله فكان ممَّا
لم يوجف عليه، وكان حكمه حكم
الغنائم، وليس في الآية نسخ على
هذا التأويل، وأعطى رسول الله ﷺ
جميع ذلك للمهاجرين ولم يعط
الأنصار شيئاً، وقال قتادة: ويزيد بن
رومان: كانت هذه القرى قد أوجف
عليها ولكن كان هذا حكم ما لم
يوجف عليه، ثم نسخ الله تعالى هذا
الحكم بآية الأنفال فجعل فيها
الخمس لهذه الأصناف وبقيت
الأربعة الأخماس للمقاتلة، وآية هذه

السورة لم يكن فيها شيء للمقاتلة،
وهذا القول يضعف لأن آية الأنفال
نزلت إثر بَدْر قبل بني النضير وقبل
أمر هذه القرى بسنة ونيف،
«القرى» في هذه الآية قرابةُ
النبي ﷺ، مُنعوا الصدقة فمُوضوا
من الفيء.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ لَا يَكُونُ دُولَةً بَيْنَ
الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ﴾ مخاطبة للأنصار لأنه
لم يكن للمهاجرين في ذلك الوقت
غنى، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَكُونُ﴾
بالياء، وقرأ ابن مسعود، وأبو
جعفر، وهشام عن ابن عامر بالتاء،
وهي «كان» التامة، وقرأ جمهور
الناس: ﴿دُولَةً﴾ بضم الدال ونصب
الهاء، وقرأ أبو عبدالرحمن السلمي:
﴿دُولَةً﴾ بفتح الدال ونصب الهاء،
وقرأ أبو جعفر بن القعقاع. وهشام
عن ابن عامر: ﴿دُولَةً﴾ بضم الدال
والهاء، وقال عيسى بن عمر: هما
بمعنى واحد، وقال الكسائي وحُذَاق
النظرة: الفتح في المُلْك - بضم
الميم - لأنها الفعل في الدهر، الضم
في المِلْك - بكسر الميم - والمعنى
أنها كالعواري، فيتداول الأغنياء ذلك
المال بتصرفاتهم ويبقى المساكين بلا
شيء، ولا حظ في شيء من هذه
الأموال ليتيم غني ولا لابن سبيل
حاضر المال، وقد مضى القول في
الغنائم في سورة الأنفال.

وزوي أن قوماً من الأنصار تكلموا
في هذه القرى المُفْتَتَحَةَ وقالوا: لنا
منها سهمنا، فنزل قوله تعالى: ﴿وَمَا
ءَاتَاكُمْ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ الآية. . .
مؤدباً في ذلك وذاجراً، ثم أطرِد بغد
معنى الآية في أوامر النبي ﷺ

وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْفِرْنَا لَنَا
وَلَا خَيْرَ لَنَا إِلَّا اللَّهُ سَبِّحُوا بِأَلَمِينَ وَلَا تَجْمَلْ فِي قُلُوبِنَا
عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ أَلَمْ تَر إِلَى
الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ
الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ
أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ
وَلَئِنْ نَصُرُوهُمْ يُوفُونَ الْآدْبِرَاتُ لَئِنْ نَصُرْتُمْ
لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ
لَا يَفْقَهُوهُ ﴿١٢﴾ لَا يَفْقَهُونَكُمْ جَمِيعًا إِلَّا فِي قُرَى
مُحَصَّنَاتٍ أُولَئِكَ جِدْرٌ بَاسْمِهِمْ يَنْهَرُهُمْ سَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ
جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٣﴾
كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذُوقُوا أَوَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ ﴿١٤﴾ كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ
قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾

و«الدَّار» هي المدينة، والمعنى: تَبَوَّءُوا الدَّارَ مع الإيمان معاً، وبهذا الاقتران يصح معنى قوله تعالى: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾، فتأمله. والإيمان لا يَتَّبُوا لأنه ليس مكاناً، ولكن هذا من بليغ الكلام، ويتخرج على وجوه كلها جميل حَسَن.

وأثنى الله تعالى في هذه الآية على الأنصار بأنهم يحبون المهاجرين رضي الله عن جميعهم، وبأنهم يُؤثرون على أنفسهم، وبأنهم قد وقوا شَحَّ أَنفُسِهِمْ، لأن مقتضى

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ أن هؤلاء الممدوحين قد وقوا الشَّحَّ.

و«الْحَاجَّةُ»: الحَسَدُ في هذا الموضع، قاله الحسن، ويعمُّ بغد جميع الوجوه التي هي بخلاف ما فعله النبي ﷺ في إعطاء المهاجرين أموال بني النضير والقرى. و«أَوْتُوا» معناه: أعطوا، والضمير المرفوع بأن لم يُسَمَّ فاعله هو للمهاجرين.

وقوله تعالى: ﴿وَيُؤْتُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ﴾ الآية... صفة للأنصار، وقد روي من غير ما طريق - أنها نزلت بسبب رجل من الأنصار - قال أبو المتوكل، هو ثابت بن قيس، وقال أبو هريرة رضي الله عنه في كتاب مكِّي: كنية هذا الرجل أبو طلحة، وخلط المهدي في ذكر هذا الرجل - نَدَبَ

ونواهيه، حتى قال قوم: إن الخمر محرمة في كتاب الله تعالى بهذه الآية، وانتزع منها ابن مسعود رضي الله عنه لعنة الواشمة والمستوشمة... الحديث، ورأى مُحْرماً في ثيابه المخيطة فقال له: اطرح هذا عنك، فقال له الرجل: أتقرأ عليّ بذلك آية من كتاب الله تعالى؟ فقال ابن مسعود رضي الله عنه: نعم، وتلا هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ بيان لقوله تعالى: ﴿وَالْمَسْكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾، فكرر لام الجر كما كانت الأولى مجرورة باللام لبيان أن البدل إنما هو منها، ثم وصفهم تعالى بالصفة التي تقتضي فقرهم وتوجب الإشفاق عليهم، وهي إخراجهم من ديارهم وأموالهم، وجميع المهاجرين إمَّا أخرجهم الكفار وإمَّا أحوال الكفار وظهورهم وفرض الهجرة في ذلك الوقت، ووصفهم بالفقر وإن كان لهم بعض أموال وهي حال الفقراء في اللغة، وقد مضى بيان هذا في سورة الكهف. وقوله تعالى: ﴿يَبْتَغُونَ﴾ في موضع الحال، والفضل والرضوان يراد بهما الآخرة والجنة، ونَصَرَ اللهُ هو نَصَرَ شرعه ونبيه ﷺ.

و«الضَّادِقُونَ» في هذه الآية يجمع صدق اللسان وصدق الأفعال لأن أفعالهم في أمر هجرتهم إنما كانت وفق أقوالهم.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا﴾ هم الأنصار، والضمير في ﴿قَبْلِهِمْ﴾ للمهاجرين،

رسول الله ﷺ إلى ضيافة مهاجري، فانتدب الأنصاري، ولم يكن له مال فذهب بالضيف وقال لامرأته: هذا ضيف رسول الله ﷺ، قالت: والله ما عندي إلا قوت الضيبة، فقال لها: تومي صبيانك، وأطفي السراج، وقدمي ما عندك للضيف، ونوهمه أنا نأكل، ففعل ذلك، فلما عدا على رسول الله ﷺ قال: «عجب الله من فعلك البارحة»، ونزلت الآية في ذلك.

والإيثار على النفس أكرم خلق، وقال حذيفة العدوي: طلبت يوم اليرموك ابن عم لي في الجرحى ومعني شيء من ماء، فوجدته، فقلت: أسقيك؟ فأشار أن نعم، فإذا رجل يصيح: أو فأشار ابن عمي أن انطلق إليه، فإذا هو هشام بن العاص، فقلت: أنتشرب؟ فإذا آخر

يقول: آه، فأشار هشام أن انطلق إليه، فجنته فإذا به قد فاضت نفسه، فرجعت إلى هشام فإذا هو قد مات، فرجعت إلى ابن عمي فإذا هو قد مات، فعجبت من إيشارهم رحمهم الله تعالى، وقال أبو يزيد البسطامي: قديم علينا شاب من بلخ فقال لي: ما حدُّ الزُّهد عندكم؟ فقلت: إذا فقدنا صَبْرَنَا، وإذا وجدنا شَكْرَنَا، قال: هذه حالة الكلاب عندنا ببلخ، قلت: فما الزهد عندكم؟ قال: إذا فقدنا شَكْرَنَا، وإذا وجدنا آثَرَنَا.

وروي أن سبب هذه الآية أن النبي ﷺ لما قَسَمَ هذه القرى في المهاجرين قال للأَنْصار: «إِنْ شِئْتُمْ قَسَمْتُ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ أَمْوَالِكُمْ وَدِيَارِكُمْ وَشَارِكْتُمُوهُمْ فِي هَذِهِ الْغَنِيمَةِ، وَإِنْ شِئْتُمْ أَمْسَكْتُمْ أَمْوَالِكُمْ وَتَرَكْتُمْ لِهَيْبَتِكُمْ هَذِهِ»، فقالوا: بل نقسم لهم من أموالنا ونترك لهم هذه الغنيمة، فنزلت هذه الآية.

و «الْخَصَاصَةُ»: الفاقة والحاجة، وهم مأخوذ من خصاص البيت، وهو ما يبقى بين عيدانه من الفروج والفتوح، فكأن حال الفقير هي كذلك يتخللها النقص والاحتياج، و«شُحُّ النَّفْسِ» هو كثرة طَمَعِهَا وضبطها على المال والرغبة فيه وامتداد الأمل، هذا جماع شح النفس، وهو داعية كل خلق سوء، وقد قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَقَرَى الضَّعِيفَ، وَأَعْطَى فِي النَّائِبَةِ، فَقَدْ بَرَى مِنْ الشُّحِّ».

واختلف الناس بعد هذا الذي قلناه

- فذهب الجمهور والعارفون بالكلام إلى هذا، وعلى هذا التأويل كان عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنه يطوف وهو يقول: اللَّهُمَّ فَنِي شُحِّ نَفْسِي، لَا يَزِيدُ عَلَيَّ ذَلِكَ، فَقِيلَ لَهُ فِي ذَلِكَ فَقَالَ: إِذَا وَقَيْتَهُ لَمْ أَفْعَلْ سَوْأً.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: شُحُّ النَّفْسِ فَقْرٌ لَا يُدْهِبُهُ غِنَى الْمَالِ بَلْ يَزِيدُهُ وَيَنْصِبُ بِهِ.

وقال ابن زيد، وابن جبيرة، وجماعة: من لم يأخذ شيئاً نهاه الله تعالى عنه ولم يمنع الزكاة المفروضة فقد برىء من شُحِّ النَّفْسِ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: شُحُّ النَّفْسِ هُوَ أَكْلُ مَالِ الْغَيْرِ بِالْبَاطِلِ، وَأَمَّا مَنَعُ الْإِنْسَانِ مَالَهُ فَهُوَ يُخَلُّ، وَهُوَ قَبِيحٌ وَلَكِنَّهُ لَيْسَ بِالشُّحِّ، وَقَرَأَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «شُحُّ» بِكسْرِ الشين، و«يُوقُّ» ووزنه «يُفْعَلُ»، من وقى يقي، مثال: وَزَنَ يَزُونُ، وَقَرَأَ أَبُو حِيوةَ: «يُوقُّ» بفتح الواو وشد القاف، و«الْمُفْلِحُونَ»: الْفَائِزُونَ بِنِغْيَتِهِمْ.

واختلف الناس في تأويل قوله تعالى: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» - فقال الفراء: أراد الفرقة الثالثة من الصحابة، وهي التي آمنت أو كبرت في آخر مُدَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وقال جمهور العلماء: أراد من يجيء من التابعين وغيرهم إلى يوم القيامة، فوصف الله تبارك وتعالى القول الذي ينبغي أن يلتزمه كل من لم يكن من الصدر الأول. وإعراب «الَّذِينَ» رفع عطفاً على «هُمْ» أو على «وَالَّذِينَ» أو رفع بالابتداء. وقوله

تعالى: «يَقُولُونَ» حال فيها الفائدة، والمراد: والذين جاءوا قائلين كذا، أو يكون «يَقُولُونَ» صفة.

ولهذه الآية قال مالك وغيره: إنه من كان له في أحد في الصحابة قول سوء أو بغض فلا حظ له في الغنيمة أدياً له، وجاء بعض العارفين إلى علي بن الحسين رضي الله عنهما فسبوا أبا بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، فقال لهم: أمين المهاجرين الأولين أنتم؟ قالوا: لا، قال: أقمن الذين تبوءوا الدار والإيمان أنتم؟ قالوا: لا، فقد تبرأتم من هذين الفريقين، وأنا أشهد أنكم لستم من الذين قال الله تعالى فيهم: «وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ» الآية... فقوموا، فعَلَّ اللهُ تَعَالَى بِكُمْ وَقَعَلَ، وقال الحسن: أدركت ثلاثمائة من الصحابة منهم سبعون بدرية كلهم يحدثني أن النبي ﷺ قال: «مَنْ فَارَقَ الْجَمَاعَةَ قَيْدَ شَبِيرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ»، فالجماعة ألا تسبوا الصحابة، ولا تماروا في دين الله تعالى، ولا تكفروا أحداً من أهل التوحيد بذنوب.

و «السَّيْلُ»: الجفد والاعتقاد الرديء، وقراء الأعمش: «فِي قُلُوبِنَا غَمْرًا»، والغمر: الجفد: وقد تقدم الاختلاف في قراءة: «رَهُوقٌ».

① - ② تفسير قوله عز وجل: هذه الآية نزلت في عبدالله بن أبي ابن سلول، ورفاعة بن التابوت، وقوم من منافقي الأنصار كانوا بعثوا إلى بني النضير وقالوا لهم: اثبتوا في معانلكم فإننا معكم كيفما تقلبت حالكم، وإنما أرادوا بذلك أن تقوى

من المكئين: ﴿جِدَارٌ﴾ على معنى الجنس، وقرأ كثير من المكئين، وهارون عن ابن كثير: ﴿جَدِيرٌ﴾ بفتح الجيم وسكون الدال، ومعناه: أصل بنيان كالسُور ونحوه، وقرأ الباقون من القراء: ﴿جُدِيرٌ﴾ بضم الجيم والدال، وهو جمع جِدَارٍ، وقرأ أبو رجاء، وأبو حنيفة: ﴿جُدِيرٌ﴾ بضم الجيم وسكون الدال، وهو تخفيف في جمع جِدَارٍ، ويحتمل أن يكون من جذر النخيل، أي: من وراء نخلهم إذ هي مما يتقى به عند المضايقة.

وقوله تعالى: ﴿بِأَسْمِهِمْ يَنْهَرُ شَدِيدٌ﴾ أي: في غائلتهم وإحنيهم، وفي قراءة عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿تَخَسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ أَشْتَتٌ﴾، وهذه حال الجماعات المتخاذلة، وهي المغلوبة أبداً في كل ما تحاول، واللفظة مأخوذة من الشتات وهو التفرق ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿كَنْتَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ معناه: مثلهم كمثل الذين من قبلهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: هم بنو قَيْنُقَاعٍ؛ لأن النبي ﷺ أجلاهم عن المدينة قبل بني النضير، وكانوا مثلاً لهم، وقال قتادة ومجاهد: الذين من قبلهم أهل بدر الكفار؛ فإنهم قبلهم ومثل لهم في أن غلبوا وقُهرُوا، وقال

نفوسهم عسى أن يثبتوا حتى لا يقدر محمد عليه الصلاة والسلام عليهم فيتم لهم مرادهم، وكانوا كذبة فيما قالوا من ذلك، ولذلك لم يخرجوا حين أخرج بنو النضير بل قعدوا في ديارهم، وقوله تعالى عز وجل: ﴿وَلَيْنَ نَصَرُوهُمْ﴾ معناه: ولئن حاولوا نصرهم فإنهم يهزمون ثم لا ينصر الله تعالى أحداً منهم.

وجاءت الأفعال غير مجزومة في قوله تعالى: ﴿لَا يُخْرَجُونَ﴾ و﴿لَا يَنْصَرُونَ﴾ لأنها راجعة على حكم أنفسهم لا على حكم الشرط، وفي هذا نظر.

ثم خاطب تعالى أمة محمد ﷺ مخبراً أن اليهود والمنافقين أشد خوفاً من المؤمنين منهم من الله تعالى لأنهم لا يتوقعون عاجل الشر من المؤمنين ولا يؤمنون بأجل العذاب من الله تعالى، وذلك لقلّة فهمهم للأمر وتوفيقهم للحق.

﴿١٤﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿لَا يُبْتَلَوْنَكُمْ﴾ لبني النضير وجميع اليهود، هذا قول جماعة من المفسرين، ويحتمل أن يريد بذلك اليهود والمنافقين؛ لأن دخول المنافقين في قوله تعالى: ﴿بِأَسْمِهِمْ يَنْهَرُ شَدِيدٌ تَخَسِبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ أَشْتَتٌ﴾ متمكن بَيِّن، ومعنى الآية: لا يقاتلونكم في جيش بفتح حصص، و﴿الْقُرَى﴾: المدن، قال الفراء: هذا جمع شاد، قال الزجاج: ما في القرآن فليس بشاذ، وهو مثل: ضَبَعَةٌ وضُبع.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وكثير

فَكَانَ عَظِيمَةً أَنْهَأَى النَّارَ خَلَدَيْنَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنظَرُوا نَفْسَ مَا قَدَّمْتُمْ لِغَدْرٍ وَأَتَقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْعَامَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿١٩﴾ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْنَهُ خَشِيعَةً مُنْصَدَةً عَيْنَ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ الْغَيْبُ وَالشَّهَادَةُ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ أَلَمِكُ الْقُدْرَةِ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّبُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَلَّاقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى سُبْحَانَ اللَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾

بعض المتأولين: الضمير في قوله تعالى: ﴿كَنْتَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ للمنافقين، وهم منافقوا الأمم المتقدمة؛ وذلك أنهم غلبوا ونالتهم الذلّة على وجه الدهر، فهم مثل لهؤلاء، ولكن قوله تعالى: ﴿قَرِيباً﴾ إما أن يكون في زمن موسى عليه السلام وإلا فالتأويل المذكور يضعف، إلا أن يجعل ﴿قَرِيباً﴾ ظرفاً للدوق، فيكون التقدير: ذاقوا وبال أمرهم قريباً من عصيانهم وبحدثانه، ولا يكون المعنى أن المثل قريب في الزمن من الممثل له، وعلى كل تأويل فـ ﴿قَرِيباً﴾ ظرف أو نعت لظرف. و﴿الزَّيَالُ﴾: الشدة والمكروه وعاقبة السوء، و﴿العَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ هو في الآخرة.

وقوله تعالى: ﴿كَنْتَلِ الشَّيْطَانِ﴾ معناه: مثل هاتين الفرقتين من

المنافقين وبني التُّضير كمثل الشيطان والإنسان، فالمنافقون مثلهم الشيطان، وبنو التُّضير مثلهم الإنسان، وذهب مجاهد وجمهور من المتأولين إلى أن الشيطان والإنسان في هذه الآية اسمًا جنس؛ لأن العرف أن يعمل هذا الشياطين بناس كما يغوي الشيطان الإنسان ثم يفِرُّ عنه بعد أن يورِّطه، كذلك أغوى المنافقون بني التُّضير وحرَّضوهم على الثبوت ووعدهم النصر، فلما غدر بنو التُّضير وكشفوا عن وجوههم تركهم المنافقون في أسوأ حال، وذهب قوم من رواة القصص أن هذا في شيطان مخصوص مع عابد من العباد مخصوص، وذكر الزجاج أن اسمه برصيصة، قالوا: إنه استودع امرأة، وقيل: سيقت إليه ليشفيها بدعائه من الجنون، فسؤل له الشيطان الوقوع عليها فحملت فخشي الفضيحة، فسؤل له قتلها ودفنها ففعل، ثم شهره، فلما استخرجت المرأة وحيل العابد شرًّا حمل، وهو قد قال: إنها ماتت ففتمت عليها ودفنتها، فلما وجدت مقتولة علموا كذبه، فتعرَّض له الشيطان وقال له: اكفر واسجد لي وأنا أنجيك ففعل، وتركه عند ذلك وقال: إني بريء منك، وهذا كله حديث ضعيف، والتأويل الأول هو وجه الكلام، وقول الشيطان: «إني أخاف الله» رياء وسُمة، وليست على ذلك عقيدته، ولا يعرف الله تعالى حق معرفته، ولا يحجزه خوفه عن سوء يوقع فيه ابن آدم من أول إلى آخر.

قوله تعالى: ﴿فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا﴾ الآية، يحتمل الضمير أن يعود على المخصوصين المذكورين، ويحتمل أن يعود على اسمي الجنسين، أي: هذا هو عاقبة كل شيطان وإنسان يكون أمرهما هكذا، وقرأ الحسن، وعمرو بن عبيد: ﴿عَاقِبَتُهُمَا﴾ بالرفع، وقرأ الجمهور: ﴿عَاقِبَتَهُمَا﴾ بالنصب، وموضع [أَنْ] يخالف إعراب «العاقبة» في القراءتين، وقرأ ابن مسعود، والأعمش: ﴿خَالِدَانِ﴾ بالرفع على أنه خير [أَنْ] والظرف ملغى، ويلحق هذه القراءة من الاعتراض إلقاء الظرف مرتين، قاله الفراء، وذلك جائز عند سيبويه على التأكيد.

﴿٧٣﴾ - ﴿٧٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذه آية وعظ وتذكير وتقريب للأخرة، وتحذير ممن لا تخفى عليه خافية، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ﴾ بسكون اللام وجزم الراء على أصل لام الأمر، وقرأ يحيى بن الحارث، وأبو حيو، وفرقة كذلك بلام الأمر إلا أنها كسرت على أصل لام الأمر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - فيما روي عنه -: ﴿وَلَتَنْظُرَنَّهُ﴾ بنصب الراء على لام «كَيِّ»، كأنه تعالى قال: وأمرنا بالتقوى لتنظر، أو كأنه تعالى قال: اتقوا الله وليكن تقواكم لتنظر.

وقوله تعالى: ﴿لِمَئِدَةٍ﴾ يريد يوم القيامة، قال قتادة: قرب الله تعالى القيامة حتى جعلها غداً، وذلك لأنها آتية لا محالة، وكلُّ آتٍ قريب، ويحتمل أن يريد تعالى بقوله: ﴿لِمَئِدَةٍ﴾ ليوم الموت لأنه لكل إنسان

كغده، ومعنى الآية: ما قدمت من الأعمال، فإذا نظرها الإنسان تزيد من الصالحات وكف عن السيئات، وقال مجاهد، وابن زيد: الأمس الدنيا وغد الآخرة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَلَا تَكُونُوا﴾ بالبناء من فوق على مخاطبة جميع الذين آمنوا، وقرأ أبو حيو: ﴿وَلَا يَكُونُوا﴾ بالياء من تحت كناية عن «نفس» التي هي اسم الجنس، و«الذين نسوا الله» هم الكفار، والمعنى: تركوا الله تعالى وغفلوا عنه حتى كانوا كالكاسين، وعبر تعالى عمَّا خصَّهم به من الضلالة - ﴿فَأَنسَاهُمْ أَنفُسَهُمْ﴾، سُمِّي عقوبتهم باسم ذنبهم بوجه ما، وهذا أيضاً هو الجزاء بالذنب على الذنب، فكسبوا هم نسيان جهة الله تعالى فعاقبهم الله تعالى بأن جعلهم ينسون أنفسهم، قال سفيان: المعنى: حظ أنفسهم، ويعطي لفظ هذه الآية أن من عرف نفسه ولم ينسها عرف ربه سبحانه، وقد قال علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: اعرف نفسك تعرف ربك، وروي عنه أنه قال أيضاً: من لم يعرف نفسه لم يعرف ربه، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿وَلَا أَصْحَابُ الْجَنَّةِ﴾ بزيادة «لا».

وقوله تعالى: ﴿تَوَّارِنًا هَذَا﴾ الآية... موعظة للإنسان، وذم لأخلاقه في غفلته وإعراضه عن داعية الله تعالى، وذلك أن القرآن نزل عليهم وفهموه وأعرضوا عنه، وهو لو نزل على جبل وفهم الجبل منه ما فهم الإنسان لخشع واستكان

وتصدع من خشية الله تبارك وتعالى، وإذا كان الجبل على عظيمه وقوته يفعل هذا فما عسى أن يحتاج ابن آدم ليفعل، لكنه يُعرض ويصد على حقرته وضعفه، وضرب الله تبارك وتعالى هذا المثل ليتفكر فيه العاقل ويخشع ويلين قلبه، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿مُصَدَّعًا﴾ على إدغام التاء في الصاد.

﴿٢٢﴾ - ﴿٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

لَمَّا قَالَ تَعَالَى: ﴿مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ جاء بالأوصاف التي توجب لمخلوقاته هذه الخشية، و«الْعَنَبُ»: ما غاب عن المخلوقين، و«الشَّهَادَةُ»: ما شهدوه، وقال حرب المكي: الغيب الآخرة، والشهادة الدنيا، وقرأ جمهور الناس:

﴿الْعَنْدُوشُ﴾ بضم القاف، وهو فِعْلٌ من تَقَدَّسَ إِذَا تَطَهَّرَ، وحظيرة القدس الجنة لأنها طاهرة، ومنه: رُوحُ الْفُؤَادِ، والقدس، والأرض المقدسة، وبيت المقدس، ورُوي عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿الْقَلْبُوسُ﴾ بفتح القاف، وهي لغة. و«السَّلَامُ» معناه: الذي سُلِمَ من جوره، وهذا اسم على حذف مضاف، أي: ذو السلام، لأن الإيمان به وتوحيده وأفعاله هي لمن آمن سلامٌ كلها. و«المُؤْمِنُ»: اسم فاعل من «أَمَنَ» بمعنى «أَمِنَ»، وقال أحمد بن يحيى ثعلب: معناه: المُصَدِّقُ الْمُؤْمِنِينَ فِي أَنَّهُمْ آمَنُوا، قال النحاس: أو في شهادتهم على الناس في القيامة، وقال ناسٌ من المتأولين: معناه: المُصَدِّقُ نَفْسِهِ فِي أَقْوَالِهِ الْأَزَلِيَّةِ، لا إِلَهَ غَيْرُهُ، و«المُهَيَّبِينَ» معناه: الأمين والحفيظ، قاله ابن عباس رضي الله عنهما،

وقال مؤرج: المهيمن: الشاهد بلغة قريش، وهذا بناء لم يجيء منه في الصفات إلا مُهَيَّبِينَ وَمُسَيَّبِينَ وَمُهَيَّبِيرٌ، وجاء منه في الأسماء «مُحَيَّبِيرٌ» وهو اسم وادٍ و«مُذَيَّبِيرٌ»، و«النَّجْبَارُ» هو الذي لا يدانيه شيء ولا يلحق رتبته، ومنه «نخلة جبارة» إذا لم تلحق، وأنشد الزهراوي:

أَطَافَتْ بِهِ جِيلَانٌ عِنْدَ قَطَافِهِ
وَرَدَّتْ إِلَيْهِ الْمَاءُ حَتَّى تَجْبِرَا
و «التَّكْبِيرُ» معناه: الذي له التكبر حقاً.

ثم نزه تعالى نفسه عن إشراك الكفار به الأصنام التي ليس لها شيء من هذه الصفات، و«الْبَارِئُ» بمعنى: الخالق، برأ الله تعالى الخلق، أي: أوجدهم، و«الْمُصَوِّرُ» هو الذي يوجد الصور، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «الْمُصَوِّرُ»، على إعمال «الْبَارِئُ» فيه، وهي حسنة، يُراد بها الحُسن في الصور، وقال قوم عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إنه قرأ: «الْمُصَوِّرُ» بفتح الواو وكسر الراء، على قولهم: «الحسن الوجه».

وقوله تعالى: ﴿لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي: ذات الحسن في معانيها القائمة بذاته لا إله إلا هو، وهذه الأسماء هي التي حصرها رسول الله ﷺ بقوله عليه الصلاة والسلام: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تَلْقَوْنَ فِيهَا بِلْهَيْمٍ مُمَدَّدَةٍ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَيَأْتِيكُمُ اللَّهُ بِتُورٍ مِمَّا يَكُونُ لَكُمْ رِسَالَةً إِنَّ كُنتُمْ مَخْرُجِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَخْفَى مَا كُنْتُمْ تُخْفُونَ وَاللَّهُ عَلِيمٌ خَفِيئٌ وَمَا أَعْلَمْتُمْ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ۗ إِنَّ يَشْفَعُوكُمْ بِكُفْرَانِكُمْ أَعدَاءُكُمْ وَيَسْطُورُ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَسْئِلُهُمْ فِي أَسْوَأِ وُجُوهِكُمْ أَنْ تَتَّكِفُوا ۗ إِنَّ تَتَّعَمَّكُمْ أَرْسَالُكُمْ وَلَا أَوْلِيَاءَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصَلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۗ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِعَرَبِهِمْ إِنَّا نَافِرُونَ وَإِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِمَّا كَفَرْنَا بِكُمْ بَدِيعًا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَا يُبْرَأُ لَكَ مِنْ اللَّهِ شَيْءٌ رَبَّنَا عَلِّمْنَا لَدُنَّكَ الْحِكْمَ ۗ

٥٤٩

اسماً، مائة إلا واحداً، من أحصاها دخل الجنة»، وقد ذكرها الترمذي وغيره مُسَنَّدَةً، واختلف الرواة في بعضها، ولم يصح فيها شيء إلا إحصاؤها دون تغيين، وياقي الآية بين.

كامل تفسير سورة الحشر والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة الممتحنة

وهي مدنية بإجماع من المفسرين.

﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الْعَدُوُّ» اسم يقع للجمع والمفرد، والمراد به ها هنا كفار قريش، وهذه الآية نزلت بسبب حاطب بن أبي

بَلْتَعَةَ، وذلك أن رسول الله ﷺ أراد الخروج إلى مكة عام الفتح، فوَرَى عن ذلك بِخَيْبَرٍ، فشاع في الناس أنه خارج إلى خيبر، وأخبر هو جماعة من أصحابه بقصدته إلى مكة، منهم حاطب بن أبي بلتعة، فكتب حاطب إلى قوم من كفار مكة يخبرهم بقصد رسول الله ﷺ إليهم، فجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ فبعث علياً والزبير وثالثاً، قيل هو المقداد، وقيل أبو مرثد، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإن بها طعينة معها كتاب من حاطب إلى المشركين، فانطلقوا حتى وجدوا المرأة، واسمها سارة، مولاة لقوم من قريش، وقيل: بل كانت امرأة من مزينة ولم تكن سارة، فقالوا لها: أخرجي الكتاب، فقالت: ما معي كتاب، ففتشوا جميع رحلها فما وجدوا شيئاً، فقال بعضهم: ما معها كتاب، فقال علي رضي الله عنه: ما كذب رسول الله ﷺ ولا كذب، والله لتخرجن الكتاب أو لتنجردنك، فقالت: اعرضوا عني، فحلته من فروة رأسها، وقيل: أخرجته من حجزتها، فجاءوا به رسول الله ﷺ، فقال لحاطب: من كتب هذا؟ فقال: أنا يا رسول الله، ولكن لا تعجل علي، فوالله ما فعلت ذلك ارتداداً عن ديني ولا رغبة عنه، ولكني كنت امرأة ملصقة في قريش ولم أكن من أنفسها، فأحببت أن تكون لي عندهم يد يزعموني بها في قرابتي، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله أضرب عنق هذا المنافق، فقال رسول الله ﷺ: «صدق حاطب، إنه من أهل بدر، وما يدريك

يا عمر لعل الله قد أطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم، لا تقولوا لحاطب إلا خيراً»، فنزلت الآية لهذا السبب. وروي أن حاطباً كتب: «إن رسول الله ﷺ يريد غزوكم في مثل الليل والسييل، وأقسم بالله لو غزاكم وحده لئصر عليكم فكيف وهو في جم كثير».

و ﴿تَلْقَوْنَ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿أُولَئِكَ﴾، و«الْفَيْتُ» يتعدى بحرف الجر وبغير حرف الجر، فدخل الباء وزوالها سواء، وهذا نظير قوله عز وجل: ﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾، وقوله تعالى: ﴿سَكَّنِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾، وروي المعلى عن عاصم أنه قرأ: ﴿وَقَدْ كَفَرُوا لِمَا بَلَام﴾.

وقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُونَ﴾ في موضع الحال من الضمير في ﴿كَفَرُوا﴾، والمعنى: يُخرجون الرسول ويُخرجونكم، وهي حال مؤكدة فلذلك ساق الفعل مستقبلاً والإخراج قد مر، وتضييق الكفار على النبي ﷺ والمؤمنين إخراج إذ كان مؤدياً إلى الإخراج، وقوله تعالى: ﴿أَنْ تَوَمَّنًا﴾ مفعول من أجله، أي: أخرجوكم من أجل أن آمنتم بربكم، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ﴾ شرط جوابه متقدماً في معنى ما قبله، وجاز ذلك لما لم يظهر عمل الشرط، والتقدير: إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي فلا تتخذوا عدوياً وعدوكم أولياء، و﴿جِهَدًا﴾ نصب على المصدر، وكذلك ﴿أَيْتَاءَ﴾، ويجوز أن يكون ذلك مفعولاً من أجله، و«الْمَرْضَاءُ» مصدر كالرضى، و﴿شُرُوتَ﴾ بدل من

﴿تَلْقَوْنَ﴾، ويجوز أن يكون في موضع خبر ابتداء كأنه تعالى قال: أنتم تُسرون، ويصح أن يكون فعلاً مرسلأ ابتداءً به القول، والإلقاء بالموءة معنى ما، والإسراؤها معنى زائد على الإلقاء، فترجح بهذا أن ﴿شُرُوتَ﴾ فعل ابتداءً به القول، أي: تفعلون ذلك وأنا أعلم، وقوله تعالى: ﴿أَعْلَمُ﴾ يحتمل أن يكون «أفعل»، ويحتمل أن يكون فعلاً لأنك تقول: «علمت بكذا» فتدخل الباء، وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا أَكْزَمُ﴾ الآية... جملة في موضع الحال، وقرأ أهل المدينة: ﴿وَأَنَا﴾ بإشباع الألف في الإدراج، وقرأ غيرهم: ﴿وَأَنَا﴾ بطرح الألف في الإدراج.

والضمير في ﴿بِقَوْلِهِ﴾ عائد على الاتخاذ المذكور، و﴿سَوَاءٌ﴾ يجوز أن يكون مفعولاً بـ ﴿حَلَّ﴾، وذلك على تعدي ﴿حَلَّ﴾، ويجوز أن يكون ظرفاً على غير التعدي لأنه يجيء بالوجهين، والأول أحسن في المعنى، و«السواء»: الوسط، وذلك لأنه تتساوي نسبته إلى أطراف الشيء، و«السبيل» هنا شرع الله تعالى وطريق دينه.

② - ③ تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى أن مداراة هؤلاء الكفار غير نافعة في الدنيا وأنها ضارة في الآخرة، لبيبن فساد رأي مصانعتهم، فقال تعالى: ﴿إِنْ يَتَفَرَّقُوا﴾ أي: إن يتمكنوا منكم وتحصلوا في ثقافتهم ظهرت العداوة وانبسطت أيديهم بضرركم وقتلكم، وألستهم بسببكم، وهذا هو السوء، وأشد من هذا كله أنهم إنما يُقنعهم

من آمن به من الناس، وقال الطبري وغيره: أراد الأنبياء الذين كانوا في عصره عليه السلام وقرباً من عصره، وهذا القول أرجح لأنه لم يُزَوَّ أن إبراهيم عليه السلام كان له أتباع مؤمنون في مكافحته النمرود، وفي البخاري أنه عليه الصلاة والسلام قال لسارة حين رحل بها إلى الشام مهاجراً من بلد النمرود: ما على الأرض من يعبد الله غيري وغيرك، وهذه الأسوة مفيدة في التبري من الإشراك وهو مُطْرَد في كل ملَّة، وفي نبينا ﷺ أسوة حسنة على الإطلاق لأنها في العقائد وفي أحكام الشرع كلها.

وقرأ جمهور الناس: ﴿بِرَاءة﴾ على وزن فُعْلَاء، والهمزة الأولى لام الفعل، وقرأ عيسى الثقفي: ﴿بِرَاءة﴾ على وزن فِعَال بكسر الفاء ككريم وِكِرَام، وقرأ يزيد بن القعقاع: ﴿بِرَاءة﴾ على وزن فُعَال بضم الفاء كَتْوَام، وقد رُويت عن عيسى قراءة - قال أبو حاتم: زعموا أنه عيسى الهمداني -، «وَيَجُوز»: [بِرَاءة] على المصدر بفتح الباء، يُوصَفُ به الجمع والإفراد.

وقوله تعالى: ﴿كَفَرًا يَكْرًا﴾ معناه: كذبتكم في أقوالكم ولم تؤمن بشيءٍ منها، ونظير هذا قوله عليه الصلاة والسلام حكاية عن الله عزَّ وجلَّ: «فهو مؤمن بي كافر بالكوكب»، ولم

يلحق العلامة في [بدا] لأن تأنيث العداوة والبغضاء غير حقيقي.

ثم استثنى تعالى استغفار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لأبيه، فذكر أنه كان عن موعدة، وقد فسّرنا ذلك في موضعه، وهذا استثناء ليس من الأول، والمعنى عند مجاهد، وقتادة، وعطاء الخراساني، وغيرهم أن الأسوة لكم في هذا الوجه لا في هذا الآخر لأنه كان في علّة ليست في نازلتكم، ويحتمل أن يكون الاستثناء من التبري والقطيعة التي ذكرت، أي: لم تبق صلة إلا كذا.

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا﴾ الآية... حكاية عن قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام والذين معه أنه هكذا كان.

٥ - ٧ تفسير قوله عزَّ وجلَّ: قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا

منكم أن تكفروا، وهذا هو وُدُّهم. ثم أخبر تعالى أن هذه الأرحام التي رغبت في وصلها ليست بنافعة يوم القيامة، فالعامل في ﴿يَوْمَ﴾ قوله تعالى: ﴿تَتَعَلَّكُمُ﴾، وقال بعض النحاة في كتاب الزهراوي: العامل فيه ﴿يُفِضَلُ﴾ وهو ممّا بعده لا ممّا قبله.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والعامية: ﴿يُفِضَلُ﴾ بضم الياء وسكون الفاء وتخفيف الصاد مفتوحة، وقرأ ابن عامر، والأعرج، وعيسى: ﴿يُفِضَلُ﴾ بضم الياء وفتح الفاء وشد الصاد منصوبة، واختلف على هاتين القراءتين - في إعراب قوله تعالى: ﴿يَبِيكُمُ﴾ - فقيل: نصب على الظرف، وقيل: رُفِعَ على ما لم يُسَمَّ فاعله إلا أن لفظه بقي منصوباً لأنه كذلك كثر استعماله، وقرأ عاصم، والأعمش: ﴿يَقِضَلُ﴾ بفتح الياء وسكون الفاء وكسر الصاد خفيفة، وقرأ حمزة، والكسائي، وابن وثاب: ﴿يُفِضَلُ﴾ بضم الياء وفتح الفاء وشد الصاد المكسورة، وإسناد الفعل في هاتين القراءتين إلى الله تعالى، وقرأ الشَّخَعِي، وطلحة بن مصرف: ﴿نُقِضَلُ﴾ بنون العظمة مرفوعة وفتح الفاء وشد الصاد، وفي قوله تعالى: ﴿وَأَلَّهُ يَمَّا تَمَلَّكُونَ بَيْمِيرًا﴾ وعيد وتحذير.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿إِسْوَةٌ﴾ بكسر الهمزة، وقرأ عاصم وحده: ﴿أَسْوَةٌ﴾ بضمها، وهما لغتان، والمعنى: فُدوة وإمام، و«إبراهيم» ﷺ هو خليل الرحمن عزَّ وجلَّ، واختلف الناس في «الذين معه» فقال قوم من المتأولين: أراد

الآية... حكاية عن إبراهيم عليه السلام ومن معه، والمعنى: لا تغلبهم علينا فنكون لهم فتنةً وسبب ضلالة لأنهم يتمسكون بكفرهم ويقولون: إنما غلبناهم لأننا على الحق وهم على الباطل، نحا هذا المعنى قتادة، وأبو مجلز، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لا تُسَلِّطهم علينا فيفتنونا عن أدياننا، فكأنه قال: لا تجعلنا مفتونين، فعبر عن ذلك بالمصدر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا أرجح الأقوال لأنهم إنما دعوا لأنفسهم، وعلى منحى قتادة إنما دعوا للكفار، أما إن مقصدهم إنما هو أن يندفع عنهم ظهور الكفار الذي بسببه فتن الكفار، فجاء في المعنى تحليق بليغ، ونحوه قول النبي ﷺ: «بئس الميتم سعد» ليهود؛ لأنهم يقولون: لو كان محمد نبياً لم يمت صاحبه.

وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ﴾ الآية... خطاب لأمة محمد ﷺ، وقوله سبحانه: ﴿لَنْ يَبْدُلَ اللَّهُ مَا جَاءَ مِنْ قَوْلِهِ﴾، وكرر حرف الجر ليتحقق البدل، وذلك عرف هذه المبدلات، ومنه قوله تعالى: ﴿لِلْفَقْرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾، وهو في القرآن كثير، وأكثر ما يلزم من الحروف اللام، ثم أعلم تعالى باستغنائه عن العبادة، وأنه الحميد في ذاته وأفعاله، لا يُنقص ذلك كفر كافر ولا نفاق منافق.

وَرُوي أن هذه الآيات لما نزلت وأزعم المؤمنون امتثال أمرها وصرم حبال الكفرة وإظهار عداوتهم،

لحقهم تأسف على قراباتهم أن لم يؤمنوا ولم يهتدوا حتى يكون بينهم الوُدُّ والتواصل، فنزلت ﴿عَسَى اللَّهُ﴾ الآية مؤنسةً في ذلك، ومُرَجِيَةً أن يقع، فوقع ذلك بإسلامهم في الفتح، وصار الجميع إخواناً، ومن ذكر أن هذه المودة تزوج النبي ﷺ أم حبيبة بنت أبي سفيان وأنها كانت بعد الفتح فقد أخطأ؛ لأن النبي ﷺ تزوجها وقت هجرة الحبشة، وهذه الآيات نزلت سنة ثمانٍ من الهجرة، ولا يصح ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما إلا أن يسوقه مثلاً وإن كان متقدماً لهذه الآية لأنه استمر بعد الفتح كسائر ما نشأ من المودات، و«عسى» من الله واجبة الوقوع إن شاء الله.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في هؤلاء الذين لم ينه عنهم أن يتبرؤا منهم - فقال مجاهد: هم المؤمنون من أهل مكة الذين آمنوا ولم يهاجروا وكانوا لذلك في رتبة سوء لتركهم فرص الهجرة، وقال آخرون: أراد المؤمنين التاركين للهجرة كانوا من أهل مكة وغيرهم، وقال الحسن، وأبو صالح: أراد خُزاعة وبني الحارث وقبائل من العرب كفاراً إلا أنهم كانوا مظاهرين للنبي ﷺ، مُحِبِّين فيه وفي ظهوره، ومنهم كنانة وبنو الحارث بن عبد مناة ومُرَئِنَةٌ، وقال قوم: أراد من كفار قريش من لم يقاتل ولا أخرج ولا أظهر سوءاً، وعلى هذين القولين فالآية منسوخة بالقتال، وقال عبدالله ابن الزبير رضي الله عنهما: أراد النساء والصبيان من الكفرة، وقال:

إن الآية نزلت بسبب أم أسماء حين استأذنت النبي ﷺ في برها وصلتها فأذن لها، وكانت المرأة خالته فيما رُوي فسَمَّتها في حديثها أمًا، وقال أبو جعفر بن النحاس، والشعبي: أراد المستضعفين من المؤمنين الذين لم يستطيعوا الهجرة، وهذا قول ضعيف، وقال مرة الهمداني، وعطية العوفي: نزلت في قوم من بني هاشم منهم العباس رضي الله تعالى عنه، وقال قتادة: نسختها ﴿فَأَقْضُوا الشُّرَكَينَ حَيْثُ بَدَلْتُمُوهُنَّ﴾. وقوله تعالى: ﴿أَنْ يَبْرُؤُوا﴾ بدل، وهذا هو بدل الاشتمال، و«الإقساط»: العدل، و«ظَهَرُوا» معناه: عاونوا، و«الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوهُمْ مَرَدَّةً قَرِيضًا».

قوله تعالى: ﴿يَتَّيَّمُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا جَاءَهُمُ الْمَوْتُ﴾ الآية... نزلت إثر صلح الحديبية، وذلك أن الصلح نُصِّمَ أن يَرُدَّ المؤمنون إلى الكفار كل من جاء مسلماً من رجل أو امرأة، فنقض الله تعالى من ذلك أمر النساء بهذه الآية، وحكم بأن المهاجرة المؤمنة لا تُرَدُّ إلى دار الكفر بل تبقى تستبرئ وتزوج، ويُعطى زوجها الكافر الصداق الذي أنفق، وأمر أيضاً المؤمنين بطلب صداق من فرئت امرأته من المؤمنين، وحكم تعالى بهذا في النازلة، وسَمَّاهُنَّ تعالى مؤمنات قبل أن يَتَّقُنَّ ذلك لأنه ظاهر أمرهن، و«مُهَاجِرَاتٍ» نصب على الحال، و«فَأَقْضُوا» معناه: جربوهن واستخبروا حقيقة ما عندهن.

واختلف الناس في هذا الامتحان،

كيف كان؟ فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة: كان بأن تُسْتَخْلَف المرأة أنها ما هاجرت لبغض زوجها، ولا بجريرة جَزَّتْهَا، ولا بسبب من أعراض الدنيا سوى حبِّ الله تعالى ورسوله ﷺ والدار الآخرة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الامتحان أن تُطالب بأن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فإذا فعلت ذلك لم تُرد، وقال فريق منهم عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها: هو أن تعرض عليها الشروط التي في الآية بعد هذا من ترك السرقة والزنى والبهتان والعصيان، فإذا أقرت المرأة بذلك فهو امتحانها، وقيل: إن هذه الآية نزلت في أميمة بنت بشر امرأة حسان بن الدحداحة، وفي كتاب الثعلبي أنها نزلت في سبيعة بنت الحارث.

وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ﴾ إشارة إلى الاسترابة ببعضهن، وحض على امتحانهن، وذكر تعالى العلة في ألا يَزِدُ النساء إلى الكفار وهي امتناع الوطء وحزمته، وقرأ طلحة: ﴿لَا هُنَّ يُخَالِفْنَ لَهُمْ﴾.

﴿١٠﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

أمر الله تعالى بأن يُؤْتَى الكفار مهور نساثنهن اللاتي هاجرن مؤمنات، ورفع الجناح في أن يتزوجن بعد إيتاء أجورهن، وأمر المسلمين بفراق الكافرات وألا يمسكوا بعضهم، فقيل: الآيات في عابدات الأوثان ومن لا يجوز نكاحها ابتداءً، وقيل: هي عامة تُسَخَّ منها نساء أهل الكتاب.

و «العِصْمُ» جمع عصمة، وهي أسباب الصحة والبقاء في الزوجية، وكذلك العصمة في كل شيء هي السبب الذي يُعْتَصَم به ويعتمد عليه، وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿تُنِكَؤُا﴾ بضم التاء وكسر السين وتخفيفها، من «أمسك»، وقرأ أبو عمرو وحده، وابن جبير، ومجاهد، والأعرج، والحسن - بخلاف: ﴿وَلَا تُنَسِّكُوا﴾، من «مسك» بالشد في السين، وقرأ الحسن، وابن أبي ليلى، وابن عامر - في رواية عبد الحميد -: ﴿وَلَا تَمَسُّكُوا﴾ بفتح التاء والميم وفتح السين وشدّها، وقرأ الحسن: ﴿وَلَا تَمَسُّكُوا﴾ بفتح التاء وسكون الميم وكسر السين مخففة، ورأيت لأبي علي الفارسي أنه قال: سمعتُ الفقيه أبا الحسن الكرخي يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تُنِكَؤُا بِعِصْمِ الْكُفَّارِ﴾: إنه في الرجال والنساء، فقلت له: التحويون لا يرون هذا إلا في النساء؛ لأن «كُوفِر» جمع «كافرة»، فقال: وإيش يمنع من هذا؟ أليس الناس يقولون: طائفة كافرة وقرية كافرة؟ فَبِهَتْ وقلت: هذا تأييد.

وأمر الله تعالى أن يُسأل أيضاً الكافرون أن يدفعوا الصدقات التي أعطاهم المؤمنون لمن فر من أزواجهم إلى الكفار، وقر الحكم بذلك على الجميع، فروي عن ابن شهاب أن قريشاً قالت: نحن لا نرضى هذا الحكم ولا نلتزمه ولا ندفع لأحدٍ صداقاً، فنزلت بسبب ذلك هذه الآية الأخرى ﴿وَإِنْ نَادَاكُمْ﴾ الآية، فأمر الله تعالى المؤمنين أن

يدفعوا إلى من فرّت زوجته ففانت بنفسها إلى الكفار صداقه الذي أنفق، قال ابن عباس رضي الله عنهما - في كتاب الثعلبي -: خمس نسوة من نساء المهاجرين رجعن عن الإسلام ولجحن بالمشركين: أم الحكم بنت أبي سفيان، وكانت تحت عياض بن شداد، وفاطمة بنت أبي أمية أخت أم سلمة، وكانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعبدت بنت عبدالعزيز، كانت تحت هشام بن العاص. وأم كلثوم بنت جرول، كانت تحت عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأعطاهم النبي ﷺ مهور نساثنهم من الغنمة.

واختلف الناس، من أي مال يُدفع إليه الصداق؟ فقال محمد بن شهاب الزهري: يُدفع إليه من الصدقات التي كانت تدفع إلى الكفار بسبب من هاجر من أزواجهم، أراد الله تعالى دفعها إليهم حين لم يرضوا حكمه حسب ما ذكرناه، وهذا قول صحيح يقتضيه قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْهُمْ﴾، وسنبين ذلك عند تفسير اللفظة إن شاء الله تعالى، وقال مجاهد، وقتادة: يُدفع إليه من غنائم المغازي، وقال هؤلاء: المعاقبة هي الغزو والمغنم، وتأولوا اللفظة بهذا المعنى، وقال الزهراوي أيضاً: يُدفع إليه من أي وجوه الفية أمكن.

و «المعاقبة» في هذه الآية ليست بمعنى مجازاة السوء بسوء، ولكنها بمعنى: فِصْرْتُمْ منهم إلى الحال التي صاروا إليها منكم، وذلك بأن يفوت إليكم شيء من أزواجهم، وهكذا هو

عليه من الحيض والحمل لغيره بهتان، وبعض أقوى من بعض، وذلك أن بعض الناس قال: **«بَيَّنْ أَيْدِيَهُنَّ»** يراد به اللسان في الكلام، والقم في القُبلة ونحوها، و«بين الأرجل» يراد به الفروج، وولّد الإلحاق ونحوه. و«المعروف» الذي نُهي عن العصيان فيه، قال أنس، وابن عباس، وزيد بن أسلم رضي الله عنهم: هو الشُّوح وشق الجيوب ووشم الوجوه ووصل الشعر وغير ذلك من أوامر الشريعة فرضها وندبها.

ويروى أن جماعة من النساء فيهن هند بنت عتبة - بايغُن رسول الله ﷺ، فقرأ عليهن الآية، فلما قرّرن على ألا يُشركن قالت هند: وكيف نطمع أن تقبل منا ما لم تقبله من الرجال، بمعنى أن هذا بيّن لزومه، فلما وقف على السَّرقة قالت: والله إني لأصيب الهنة من مال أبي سفيان لا أدري ما يحلُّ لي من ذلك، فقال أبو سفيان - وكان حاضراً -: ذلك حلالٌ فيما مضى وبقي، وقال لها رسول الله ﷺ: **«كُلِّي وولّدك بالمعروف»**، وقد تكرّر هذا المعنى في الحديث الآخر، قولها: **«إن أبا سفيان رجل مسيك»**، فلما وقف على الزنى قالت: يا رسول الله وهل تزني الحُرّة؟ قال لها رسول الله ﷺ: **«لا، ما تزني الحُرّة»**، وذلك أن الزنى في قريش إنما كان في الإماء في أغلب الأمر، وفيما يعرف مثل هند، وإلا فالباغايا قد كُنَّ أحراراً، فلما وقف على قتل الأولاد قالت: نحن ربّناهم صغاراً،

في القاف، وقرأ الأعرج أيضاً وأبو حيوة، والزهراري أيضاً: **«عَقَبْتُمْ»** بفتح القاف خفيفة، وقرأ النُّعَمي، والزهري أيضاً: **«عَقَبْتُمْ»** بكسر القاف، وكلها بمعنى: غَنِمْتُمْ، وروى عن مجاهد: **«أَعَقَبْتُمْ»** بألف مقطوعة قبل العين. وهذه الآية كلها قد ارتفع حكمها. ثم ندب تعالى إلى التقوى وأوجبها، وذكر العلة التي بها تجب التقوى وهي الإيمان بالله تعالى والتصديق بوحدانيته وصفاته وعقابه وإنعامه.

١٢ - ١٣ تفسير قوله عز وجل: هذه بيعة النساء في ثاني يوم الفتح على جبل الصفا، وهي كانت في المعنى بيعة الرجال قبل فرض القتال، وسماهم تبارك وتعالى: «المؤمنات» بحسب الظاهر من أمرهن، ورفض الإشراك هو محض الإيمان، وقتل الأولاد هو من خوف الفقر والفاقة، وكانت العرب تفعل ذلك. وقرأ الحسن، وأبو عبد الرحمن: **«يَقْتُلْنَ»** بضم الياء وفتح القاف وكسر التاء مشددة.

و «الإتيانُ بالبهتان» قال أكثر المفسرين: معناه أن تُنسب إلى زوجها ولداً ليس هو له، واللَّفْظُ أعم من هذا التخصيص، وإن الفرية بالقول على أحد من الناس بعظيمة لمن هذا، وإن الكذب فيما أُؤْتَمَنُ

سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ بَيِّنَاتٍ عَلَيْكَ أَنْ لَا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَضْرِبْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِمُهْتَمِنٍ يَقْرَبُهُ بَيْنَ يَدَيْهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ وَلَا يَمْسِئَنَّكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايَعَهُنَّ وَأَسْتَغْفِرُ لَهُنَّ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَأَنْتُمْ أَوْ مَا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ فَدَيْسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا بَيَّسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾

سُورَةُ الْمُمْتَحَنَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤﴾

يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾

كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًا كَانَهُمْ بُلَيْنًا مَرْمُوضًا ﴿١٧﴾

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يُقُولُوا لِمَ تُوَدُّونَنِي وَقَدْ تَعَلَّمْتُمْ آيَاتِ رَسُولِ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاعَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٨﴾

٥٥١

التعقيب على الحمل والدواب، أن يركب هذا عُقْبَةً وهذا عُقْبَةً، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: **«وإن فاتكم أحد من أزواجكم»**، ويقال: عاقب الرجل صاحبه في كذا، أي: جاء ففعل كل واحد منهما بعقب ففعل الآخر، ويقال: أعقب الرجل، ومنه قول الشاعر:

وَخَاذَتِ التُّكْدُ الْجِلَادَ وَلَمْ يَكُنْ لِعُقْبَةٍ قَدْرُ الْمُسْتَعِيرِينَ مُعَقَّبٌ

ويقال: عَقَبَ - بشد القاف - أي: أصاب عُقْبِي، والتَّعْقِيبُ: غزو إثر غزو، ويقال: عَقَبَ - بتخفيفها -، ويقال: عَقِبَ - بكسرهما -، كل ذلك بمعنى يقرب بعضه من بعض، ويجمع ذلك قُربى. وقرأ جمهور الناس: **«عَاقَبْتُمْ»**، وقرأ الأعرج، ومجاهد، والزهري، وعكرمة، وحميد: **«عَقَبْتُمْ»** بالتشديد

وقتلهم أنت ببدرٍ كباراً، فضحك رسول الله ﷺ، فلما وقف على العصيان في المعروف قالت: ما جلسنا هذا المجلس وفي أنفسنا أن نعصيك، ويروى أن جماعة نساء بايعن النبي ﷺ فقلن: يا رسول الله نبايعك على كذا وكذا الآية. فلما فرغن قال رسول الله ﷺ: ﴿فِيمَا اسْتَطَعْتُنَّ وَأَطَقْتُنَّ﴾، فقلن: الله ورسوله أرحم بنا ممَّا بأنفسنا.

وقوله تعالى: ﴿فَبَايَعْنُ﴾ معناه: انض معهن صفقة الإيمان بأن يُعْطِينَ ذلك من أنفسهن ويُعْطِينَ عليه الجنة، واختلفت هيئات مبايعة رسول الله ﷺ النساء بعد الإجماع على أنه لم تمسَّ يده الشريفة يد امرأة أجنبية - فيروى عن عائشة رضي الله عنها وغيرها أنها قالت: إنه بايع النساء قولاً، وقال: ﴿إِنَّمَا قَوْلِي لِمَا نَأْمُرُ امْرَأَةً كَقَوْلِي لَامْرَأَةٍ وَاحِدَةٍ﴾، وقالت أسماء بنت يزيد بن السكن: كنتُ في النسوة المبايعات، فقلت: يا رسول الله، ابسُطْ يَدَكَ نَبَايَعِكِ، فقال لي ﷺ: ﴿إِنِّي لَا أَصَافِحُ النِّسَاءَ لَكِنِ أَخَذْتُ عَلَيْهِنَ مَا أَخَذَ اللَّهُ عَلَيْهِنَ﴾، وذكر النقاش حديثاً أن النبي ﷺ مدَّ يده المكرمة من خارج بيت، ومدَّ نساءً من الأنصار أيديهن من داخله فَبَايَعْنَ، وما قدَّمته أثبت، وروى عن الشعبي أنه ﷺ لفَّ ثوباً كثيفاً على يده، وجاء نسوة فَلََمَسْنَ يده كذلك، وروى عن الكلبي أنه قدم عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلمس النساء يده وهو خارج من بيتٍ وهُنَّ فيه لا يراهُنَّ، وذكر النقاش وغيره أن

النبي ﷺ بايعه النساء بمكَّة على الصَّفا وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يصفحهن، وروى من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جدِّه، رفعه النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما، وعن عروة بن مسعود الثقفي أنه ﷺ غَمَسَ يده في إناءٍ فيه ماء، ثم دفعه إلى النساء يغمسن أيديهن فيه.

ثم أمره تبارك وتعالى بالاستغفار لهُنَّ، ورجأهنَّ في غُفرانه ورحمته بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾، قال ابن زيد، والحسن، ومنذر بن سعيد: هم اليهود لأن غضب الله عزَّ وجلَّ قد صار عُرفاً لهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم في هذه الآية كفار قريش؛ لأن كل كافر فعلية غضب الله تعالى لا يردُّ ذلك ثبوت غضب الله على اليهود.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولا سيِّما في المرَّة ككفَّار قريش، إذ أعمالهم معصية ليست بمجرد ضلال بل فيها مناورات مقصودة، وفي الكلام في التشبيه الذي في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَيَّسَ﴾ يتبيَّن الاحتياج إلى هذا الخلاف، وذلك أن اليأس من الآخرة إمَّا أن يكون بالتكذيب بها، وهذا هو يأس كفار مكة، وإمَّا أن يكون باليأس عن الحظ فيها والنعمة مع التصديق بها، وهذا هو يأس اليهود، فمن قال إن القوم المشار إليهم هم كفَّار مكة قال: معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَيَّسَ﴾

الْكَفَّارُ: كما يئس الكافر من صاحب قبر؛ لأنه إذا مات له حميم قال: هذا آخر العهد به، لن يُبعث أبداً، فمعنى الآية أن اعتقاد أهل مكة في الآخرة كاعتقاد الكافر في البعث ولقاء موتاه، وهذا هو تأويل ابن عباس، والحسن، وقادة في معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَيَّسَ الْكَفَّارُ﴾.

ومن قال إن القوم المشار إليهم هم اليهود قال: معنى قوله تعالى: ﴿كَمَا بَيَّسَ الْكَفَّارُ﴾: كما يئس الكافر من الرُّحمة إذا مات وكان صاحب قبر، وذلك أنه يُروى أن الكافر إذا كان في قبره عُرض عليه مقعده من الجنة إن لو كان مؤمناً، ثم يُعرض عليه مقعده من النار الذي يصير إليه، فهو يئس من رحمة الله تعالى مع علمه بها ويقينه، وهذا تأويل مجاهد، وابن جبير، وابن زيد في قوله تعالى: ﴿كَمَا بَيَّسَ الْكَفَّارُ﴾، فمعنى الآية أن يأس اليهود من رحمة الله تعالى في الآخرة مع علمهم بها كيأس ذلك الكافر في قبره، وذلك لأنهم قد رينَ على قلوبهم، وحملهم الحسد على ترك الإيمان، وغلب على ظنونهم أنهم مُعَذَّبُونَ، وهذه كانت صفة كثير من مُعاصري النبي ﷺ.

و ﴿مِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿مِنَ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ على القول الأول لابتداء الغاية، وفي القول الثاني هي لبيان الجنس أو للتبعض، يتوجهان فيها، وبيان الجنس أظهر.

كامل تفسير سورة الممتحنة
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الصف

وهي مدنية في قول الجمهور، وقال مكّي عن ابن عباس رضي الله عنهما، والمهدوي عن عطاءٍ ومجاهد: إنها مكّيّة، والأول أصح لأن معاني السورة تعضده، ويشبه أن يكون فيها المكّي.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قد تقدّم القول غير مرّة في تسييح الجمادات، و«العزير» في سلطانه وقدرته، و«الحكيم» في أفعاله وتديبه، واختلف الناس في السبب الذي نزلت فيه ﴿يَأْتِيَا الَّذِينَ آمَنُوا لِم تَقُولُونَ مَا لَا تَعْمَلُونَ﴾ - فقال ابن عباس، وأبو صالح: نزلت بسبب أن جماعة قالوا: لو ددنا أن نعرف أجب الأعمال إلى ربنا حتى نعتني به، ففرض الله تعالى الجهاد، وأعلمهم بفضله لديه، وأنه يحب المقاتلين في سبيله كالبنيان المرصوص، وكان إذ فرض قد تكرّره قوم منهم، وفرّ من فرّ يوم أحد، فعاتبهم الله تعالى بهذه الآية، وقال قتادة والضحاك: نزلت بسبب أن جماعة من شباب المسلمين كانوا يتحدثون عن أنفسهم في الغزو بما لم يفعلوا، ويقولون فعلنا وصنعنا، وذلك كذب، فنزلت الآية في ذلك، وقال ابن زيد: نزلت في المنافقين لأن جملة منهم كانوا يقولون للمؤمنين: نحن منكم ومعكم، ثم يظهر من أفعالهم خلاف ذلك، فنزلت الآية عتاباً لهم.

وحكم هذه الآية باقٍ غابر الدهر، وكل من يقول ما لا يفعل فهو ممقوت مذق الكلام، والقول الأخير في المنافقين إنما يتوجه بأن يكونوا غير مُجَلِّحين بالنفاق، فلذلك خوطبوا بالمؤمنين، أي: في زعمكم وما تُظهرون، والقول الأول يترجّح بما يأتي بعد من أمر الجهاد والقتال.

و«الممّت»: البغض من أجل ذنب أو ريبة أو دناءة يصنعها الممقوت، هذا حد الممّت، فتأمل، و«ممتاً» نصب على التمييز، والتقدير كبر فعلكم ممتاً، والمراد: كبر ممتاً فيلكم، فحذف المضاف إليه ونصب المضاف على التمييز، وهذا كما تقول: تَفَقَّأً شحماً بطنك، ثم تقول: تَفَقَّأً بطنك شحماً، و«أن تقولوا» يحتمل أن يكون بدلاً من المقدر، ويحتمل أن يكون خبر ابتداءٍ مضمر، ويحتمل - على غير هذا التقدير - أن يكون فاعلاً بـ ﴿كَبَّرَ﴾، وقول المرء ما لا يفعل يوجب مقت الله تعالى، ولذلك فرّ كثير من العلماء من الوعظ والتذكير وآثروا السكوت.

ثم أكدّ تعالى الإخبار بمحبته للمقاتلين صفًا، ومحبة الله تعالى هي ما يظهر عليهم من نصره وكرامته، وهي هنا صفة فعل وليست بمعنى الإرادة لأن الإرادة لا يصح أن يقع ما يخالفها، ونحن نجد المقاتلين على غير هذه الصفة كثيراً، وقال بعض الناس: قتال الرُّجالة أفضل من قتال الفرسان لأن الشراص فيه يتمكن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

وهذا ضعيف خفي على قائله مقصد الآية، وليس المراد نفس التصاف، وإنما المقصد الجد في كل أوطان القتال وأحواله، وقصد بالذّكر أشدّ الأحوال وهي الحالة التي تخرج إلى القتال صفًا متراضًا، ونابت هذه الحال المذكورة مناب جميع الأحوال، وقضت الآية بأن الذين يبلغ جدهم إلى هذه الحال حرثون ألا يُقَصِّروا عن حال، و«المَرَصُوصُ»: المصروف المتضام، وقال أبو بحرّيّة: «إذا رأيتُموني ألتفت في الصف فجزوا فؤادي»، ومنه قول الشاعر:

بِالسُّبَامِ بَيْنَ صَفَائِحِ
صُمِّ تَرَصُّصٍ بِالْجُتُوبِ
وقال منذر بن سعيد، والفراء، وغيرهما: المرصوص: المعقود بالرصاص، وهذا يحتمل أن يكون أصل اللفظة.

ثم ذكر تعالى مقالة موسى عليه السلام، وذلك ضرب مثل للمؤمنين الذين يقولون ما لا يفعلون، ذكرهم الله تعالى بقوم آذوا نبيهم على علم منهم بنبوته، وزاغوا فأزاع الله تعالى قلوبهم، فاحذروا أيها المؤمنون أن يُصَيِّرَكم العصيان وقول الباطل إلى مثل حالهم، وقال أبو أمامة: هم الخوارج، وقال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: هم الحرورية.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: المعنى أنهم أشباههم في أنهم لما زاغوا أزاع الله تعالى قلوبهم.

وقوله تعالى: ﴿لِمَ تُؤَدُّونِي﴾ تقرير، والمعنى: تؤذونني بتعتتكم

القراءة ﴿يُدْهِمُ﴾ بضم الياء وفتح الدال المشددة على ما لم يسم فاعله.

والضمير في ﴿يُرِيدُونَ﴾ للكفار، واللام في قوله تعالى: ﴿لِيَلْبِثُوا﴾ لام مؤكدة دخلت على المفعول؛ لأن التقدير: يريدون أن يطفثوا، وأن مع الفعل في تأويل المصدر، فكأنه تعالى قال: يريدون إطفاء، وأكثر ما تلزم هذه اللام المفعول إذا تقدم، تقول: ليزيد ضربت ولزويتك قصدت. و﴿ثُورِ اللَّهِ﴾ هو شرعه سبحانه وبراهينه، وقوله تبارك وتعالى: ﴿بِأَنفُسِهِمْ﴾ إشارة إلى الأقوال، أي بقولهم: سخر وشفر وتكهن وغير ذلك.

وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو بكر عن عاصم، وابن محيصن، والحسن، وطلحة، والأعرج: ﴿وَاللَّهُ مُتِمِّمٌ﴾ بالتنوين ﴿فُتُورَهُ﴾ بالنصب، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، والأعمش: ﴿وَاللَّهُ مِثْمُ ثُورِهِ﴾ بالإضافة، وهي في معنى الانفصال، وفي هذا نظر.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا تأكيد لأمر الرسالة وشدة لأزرها، كما يقول الإنسان لأمر يشبهه ويُقرِّبه: أنا فعلته، أي: فمن يقدر على معارضته فليعارض، و﴿الرُّسُولُ﴾ المشار إليه هو محمد ﷺ. وقوله تعالى: ﴿عَلَى الَّذِينَ كَلِمَةٌ﴾ لفظ يصلح للمعوم، وأن يكون المعنى: ألا يبقى موضع فيه دين غير الإسلام، وهذا لا يكون إلا عند

نزول عيسى عليه السلام، قاله أبو هريرة، ومجاهد، ويحتمل أن يكون المعنى: أن يظهره حتى لا يوجد دين إلا والإسلام أظهر منه، وهذا قد كان ووجد.

ثم ندب تعالى المؤمنين وحضهم على الجهاد بهذه التجارة التي بينها، وهي أن يعطي المرء نفسه وماله ويأخذ ثمناً جنة الخلد، وقرأ جمهور الناس والقراء: ﴿تُجِركُمْ﴾ بتخفيف النون وكسر الجيم دون شد، وقرأ ابن عامر وحده، والحسن، والأعرج، وابن أبي إسحق: ﴿تُجِركُمْ﴾ بفتح النون وشد الجيم، وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ لفظه لفظ الخبر ومعناه الأمر، أي: آمنوا، وفي مصحف عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: ﴿الْيَمِّ، آمَنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا﴾. وقوله تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ﴾ فعل مرفوع تقديره: ذلك أنه تؤمنون، وقال الأخفش: هو عطف بيان على ﴿يَجْرَهُ﴾، قال المبرد: هو بمعنى: آمنوا على الأمر، ولذلك جاء ﴿يَقِرُّ﴾ مجزوماً، وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى الجهاد والإيمان، و﴿حَيْرٌ﴾ هنا يحتمل أن يكون للتفضيل، فالمعنى: من كل عمل، ويحتمل أن يكون إخباراً أن هذا خير في ذاته ونفسه.

والجزم في قوله تعالى: ﴿يَقِرُّ﴾ على الجواب للأمر المقدر في ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، أو على ما يتضمنه قوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ من الحض والأمر، وإلى نحو هذا ذهب الفراء، وزوي عن أبي عمرو بن

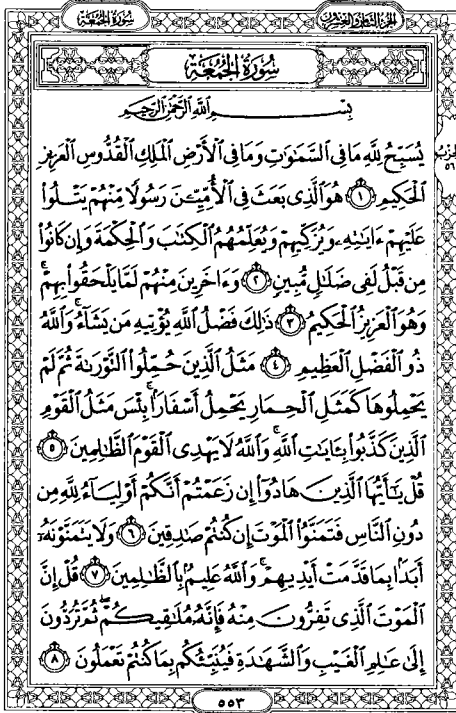
العلاء أنه قرأ: ﴿يَغْفِلُكُمْ﴾ بإدغام الراء في اللام، ولا يجوز ذلك سبويه، وقوله تعالى: ﴿وَسَكَّرَ﴾ عطف على ﴿جَنَّتْ﴾، و﴿طِيبُ المساكين﴾: سَمَتْهَا وجمالها، وقيل: طيبها المعرفة بدوام أمرها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الصحيح، وأبي طيب مع الفناء والموت؟

﴿١٣﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَى﴾، قال الأخفش: هي في موضع خفض عطفاً على ﴿يَجْرَهُ﴾، وهذا قول قلق قد رد عليه ناس واختج له آخرون، والصحيح ضعفه لأن هذه «الأخرى» ليست مما دلت عليه، إنما هي مما أعطي ثمناً وجزاء على الإيمان والجهاد بالنفس والمال. وقال الفراء: ﴿وَأُخْرَى﴾ في موضع رفع، وقال قوم: «أُخْرَى» في موضع نصب بإضمار فعل، كأنه تعالى قال: يغفر ذنوبكم ويدخلكم جنات ويمنحكم أخرى وهي النصر والفتح القريب، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿نُضْرًا مِنْ اللَّهِ وَفَتْحًا﴾ بالنصب فيهما، ووصفها تعالى بأن النفوس تحبها من حيث هي عاجلة في الدنيا، وقد وكلت النفس بحب العاجل، ففي هذا تحريض، ثم قواه تعالى بقوله: ﴿وَيَسِّرَ الْكُوفِينَ﴾، وهذه الألفاظ في غاية الإيجاز وبراعة المعنى.

ثم ندب الله تعالى المؤمنين إلى النصر، ووضع لهم هذا الاسم وإن كان العزف قد خص به



بمحمد ﷺ، وذلك أنه لا يؤمن أحد حق الإيمان بعيسى عليه السلام إلا بمحمد ﷺ؛ لأنه بشر به وحرض عليه، وقيل: كان المؤمنون قديماً به ظاهرين بالحجة وإن ظلوا مفترقين في البلاد، مغلوبين في ظاهر الحياة الدنيا، وقرأ مجاهد، وخميد، والأعرج، وابن محيصن: ﴿فَأَيْدِنَا﴾ مخففة الياء ممدودة الألف.

كامل تفسير سورة الصَّف والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الجمعة

وهي مدنيّة، وذكر النقاش قولاً أنها مكّيّة، وذلك خطأ ممن قاله؛ لأن أمر اليهود لم يكن إلا بالمدينة، وكذلك أمر الجمعة لم يكن قط بمكّة، أعني إقامتها وصلاتها، وأما أمر الانفضاض فلا مرية في كونه بالمدينة، وذكر النقاش عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حِينَ نَزَلَتْ سُورَةُ الْجُمُعَةِ، وَهَذَا أَيْضًا ضَعِيفٌ؛ لِأَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِنَّمَا أَسْلَمَ أَيَّامَ خَيْرٍ.

الأوس والخزرج، وسماهم الله تعالى به. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والأعرج، وعيسى: ﴿أَنْصَارًا﴾ مَثُونًا [لله]، وقرأ الباقون، والحسن، والجحدري بالإضافة، وفي حرف عبدالله: ﴿أَنْتُمْ أَنْصَارُ اللَّهِ﴾.

ثم ضرب تعالى المثل بقوم بادروا حين دُعوا، وهم الحواريون، والحواريون خُلصان الأنبياء عليهم السلام، سُموا بذلك لأنه ردّد اختيارهم وتصفيتهم وكذلك ردّد تخيل الحواري، واللفظتان من «الْحَوْر»، وقيل: سُموا بذلك لبياض ثيابهم، وكانوا غسالين نصرّوا عيسى عليه السلام، واستعمل اسمهم حتى قيل للناصر العاضد: حواري، وقال النبي ﷺ: «حواري الزبير»، واقتراق طوائف بني إسرائيل هو في أمر عيسى عليه السلام، قال قتادة: والطائفة الكافرة ثلاث فرق: اليعقوبية وكلّهم قالوا: هو الله، والإسرائيلية وهم قالوا: هو ابن الله، والنسطورية وهم قالوا: هو إله، وأمه إله، والله تعالى ثالثهما، تعالى الله سبحانه عن أقوالهم علواً كبيراً.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْدِنَا الَّذِينَ أَرْسَلْنَا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَآتَوْهُمْ ظُهُورًا﴾، قيل: ذلك قبل محمد ﷺ، وبعد فترة من رفع عيسى عليه السلام، ردّ الله تعالى الكفرة عليهم لمن آمن به فغلبوا الكافرين الذين قتلوا صاحبه الذي ألقى عليه الشبه، وقيل: ذلك لمحمد ﷺ، أصبح المؤمن بعيسى عليه السلام ظاهراً لإيمانه

① - ② تفسير قوله عز وجل:

تقدّم القول في مثل ألفاظ الآية الأولى بأجمعها، واختلفت القراءة في إعراب الصفات في آخرها، فقرأ جمهور الناس: ﴿الْمَلِكِ﴾ بالخفض نعتاً [لله]، وكذلك ما بعده، وقرأ أبو وائل شقيق، ومسلمة، وأبو الدينار: ﴿الْمَلِكِ﴾ بالرفع على القطع، وكذلك ما بعده، وفتح أبو الدينار القاف من «الْقُدُّوسِ».

و «الْأُمِّيُّونَ» يراد بهم العرب، والأُمِّيُّ في اللغة: الذي لا يكتب ولا يقرأ، منسوب إلى «أم القرى» وهي مكّة، وهذا ضعيف؛ لأن الوصف بالأُمِّيِّين - على هذا - يقف على قريش. وإنما المراد جميع العرب، وفيهم قال النبي ﷺ: «إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَحْسِبُ وَلَا نَكْتُبُ»، الشهر هكذا وهكذا، وهذا الآية تعديد نعم الله

تعالى عليهم فيما أولاهم، و«الآيات المثلوة»: القرآن، و﴿يُرَكِّبِهِمْ﴾ معناه: يطهرهم من الشرك، وينمي الخير فيهم، و«الكتاب»: الوحي المثلث، و«الحكمة»: السنة التي هي على لسانه عليه الصلاة والسلام.

ثم أظهر تعالى تأكيد النعمة بذكر حالهم التي كانت في الضد من الهداية، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأَنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لِيَّ ضَلُّكِلِ مُبِينٍ﴾، و«آخِرِينَ» في موضع خفض عطفاً على ﴿الْأُولَى﴾، أو في موضع نصب عطفاً على الضمائر المتقدمة، واختلف الناس في المغنيين بقوله تعالى: ﴿وَأَخْرَجْنَا - فَقَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرُهُ: أَرَادَ فَارِسَ، وَقَدْ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: مِنَ الْآخَرُونَ؟ فَأَخَذَ بِيَدِ سَلْمَانَ الْفَارِسِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَقَالَ: «لَوْ كَانَ الدِّينُ فِي الثَّرَيَّا لَنَالَهُ رِجَالٌ مِنْ هَؤُلَاءِ»، خَرَجَهُ مُسْلِمٌ، وَقَالَ سَعِيدُ بْنُ جَبْرِ، وَمَجَاهِدٌ: أَرَادَ الرُّومَ وَالْعَجَمَ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ﴾ - عَلَى هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ - إِنَّمَا يَرِيدُ بِهِ: فِي الْبَشَرِيَّةِ وَالْإِيمَانِ، كَأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ: وَأَخْرَجْنَا مِنَ النَّاسِ، وَقَالَ مُجَاهِدٌ أَيْضاً، وَعِكْرَمَةُ وَمِقَاتِلٌ: أَرَادَ التَّابِعِينَ فِي أَبْنَاءِ الْعَرَبِ، فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهُمْ﴾ يَرِيدُ بِهِ النَّسَبَ وَالْإِيمَانَ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ، وَمَجَاهِدٌ، وَالضَّحَّاكُ، وَابْنُ حِبَانَ: أَرَادَ بِقَوْلِ تَعَالَى: ﴿وَأَخْرَجْنَا﴾ جَمِيعَ طَوَائِفِ النَّاسِ، وَيَكُونُ ﴿مِنْهُمْ﴾ فِي الْبَشَرِيَّةِ وَالْإِيمَانِ عَلَى مَا قُلْنَا، وَذَلِكَ أَنَّا نَجِدُ بَعْثَهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةِ

والسلام إلى جميع الخلائق، وقال ابن عمر رضي الله عنهما لأهل اليمن: أنتم هم.

وقوله تعالى: ﴿لَمَّا يَلْحَقُواكُمُ نَفْيٌ لِمَا قَرَّبَ مِنَ الْحَالِ، وَالْمَعْنَى أَنَّهُمْ مَزْمَعُونَ أَنْ يَلْحَقُوا بِهِمْ، وَهِيَ «لَمْ» زِيدَتْ عَلَيْهَا «مَا» تَأْكِيداً، قَالَ سَيِّبِيُّ: «لَمَّا» نَفْيٌ قَوْلِكَ: «قَدْ فَعَلَ»، وَ«لَمْ» نَفْيٌ قَوْلِكَ: «فَعَلَ» دُونَ «قَدْ».

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ﴾ الآية... تبيين لموقع النعمة وتخصيصه بإيائهم بها.

٢ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

الذين حملوا التوراة هم بنو إسرائيل والأحبار المعاصرون لرسول الله ﷺ، و﴿حَمَلُوا﴾ معناه: كلفوا القيام بأوامرها ونواهيها، فهذا كما حمل الإنسان الأمانة، وليس ذلك من الحمل على الظهر وإن كان مُشْتَقّاً مِنْهُ، وَذَكَرَ تَعَالَى أَنَّهُمْ لَمْ يَحْمِلُوهَا، أَي: لَمْ يُطِيقُوا وَيَقْفُوا عِنْدَ حَدِّهَا حِينَ كَذَبُوا بِمُحَمَّدٍ ﷺ وَالتَّوْرَةَ تَنْطِقُ بِبُؤْرَتِهِ، فَكَأَنَّ كُلَّ خَيْرٍ لَمْ يَنْتَفِعْ بِهِ مِنْ حَمْلِهِ، كَمَثَلِ حِمَارٍ عَلَيْهِ أَسْفَاؤٌ فَهِيَ عِنْدَهُ وَالزَّبِيلُ وَغَيْرِ ذَلِكَ بِمَنْزِلَةِ وَاحِدَةٍ.

وقرأ يحيى بن يعمر: ﴿حَمَلُوا﴾ بفتح الحاء والميم مخففة، وقرأ المأمون العباسي: ﴿يَحْمَلُ﴾ بضم الياء وفتح الحاء وشد الميم المفتوحة، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿كَمَثَلِ حِمَارٍ﴾ بغير تعريف، و«السفرة»: الكتاب المجتمع الأوراق مُنْضَدة، ثم بين تعالى حال مثلهم فساده بقوله سبحانه: ﴿يَتَسَنَّ

مَثَلُ الْقَوْمِ»، والتقدير: بش المثل مثل القوم.

قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ زَعَمْتُمْ الْآيَةَ. رُوي أَنَّهَا نَزَلَتْ بِسَبَبِ أَنَّ يَهُودَ الْمَدِينَةِ لَمَّا ظَهَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَاطَبُوا يَهُودَ خَيْبَرَ فِي أَمْرِهِ، فَذَكَرُوا بُؤْرَتَهُ، وَقَالُوا لَهُمْ: إِنْ رَأَيْتُمْ أَتْبَاعَهُ أَطْعَمْنَاكُمْ، وَإِنْ رَأَيْتُمْ خِلافَهُ خَالَفْنَاكُمْ مَعَكُمْ، فَجَاءَهُمْ جَوَابُ أَهْلِ خَيْبَرَ يَقُولُونَ: نَحْنُ أَبْنَاءُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَأَبْنَاءُ عَزِيزِ ابْنِ اللَّهِ، وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ، وَمَتَى كَانَتِ الشُّبُوهُ فِي الْعَرَبِ؟ نَحْنُ أَحَقُّ بِالنَّبُوَّةِ مِنْ مُحَمَّدٍ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ -، وَلَا سَبِيلَ إِلَى اتِّبَاعِهِ، فَنَزَلَتْ الْآيَةُ بِمَعْنَى: إِنَّكُمْ إِذَا كُنْتُمْ مِنَ اللَّهِ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ فَقُرْبِهِ وَفِرَاقِ هَذِهِ الْحَيَاةِ الْخَيْسِيَّةِ أَحَبُّ إِلَيْكُمْ فَتَمَنُّوا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ تَعْتَقِدُونَ فِي أَنْفُسِكُمْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةَ.

ثم أخبر تعالى عنهم أنهم لا يتمنونوه ولا يلقونه إلا كرهاً لعلمهم بسوء حالهم عند الله تعالى وبعدهم عنه، هذا هو اللازم من ألفاظ الآية، وروي كثير من المفسرين أن الله تعالى جعل هذه الآية معجزة لمحمد ﷺ، وآية باهرة، وأعلمه أنه إن تمنى أحد منهم الموت في أيام معدودة مات وفارق الدنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «تمنوا الموت» على جهة التعجيز وإظهار الآية، فما تمناه أحدٌ خوفاً من الموت وثقةً بصدق محمد ﷺ.

ثم توعدهم تعالى بالموت الذي لا محيد لهم عنه، ثم بما بعده من الرُؤد إلى الله تعالى، وقرأ ابن مسعود

رضي الله عنه: ﴿تَفْشِرُونَ مِنْهُ مَلَأَيْكُمْ﴾ بإسقاط ﴿فَأَنَّهُ﴾.

وقوله تعالى: ﴿فَبَيَّنَّاكُمْ﴾ أي: إنباء معاقب مجاز عليه بالتعذيب، وقرأ ابن أبي إسحق: ﴿فَتَمَّتْ أَلَمَاتُ﴾ بكسر الواو، وكذلك يحيى بن يعمر.

٩ - ١١ تفسير قوله عز وجل:

النداء بالجمعة هو في ناحية المسجد، وكان على الجدار في مسجد رسول الله ﷺ، وقال السائب بن يزيد: كان للنبي ﷺ مؤذن واحد على باب المسجد، وفي مصحف أبي داود: وكان بين يديه وهو على المنبر أذان، وهو الذي استعمل بنو أمية، وبقي بقرطبة إلى الآن، ثم زاد عثمان رضي الله عنه النداء على الزوراء يُسمع الناس، فقوم عبّروا عن زيادة عثمان بالثاني كأنهم لم يعتدوا الذي كان بين يدي النبي ﷺ، وقوم عبّروا عنه بالثالث. وقرأ ابن الزبير، والأعمش: ﴿الْجُمُعَةَ﴾ بإسكان الميم، وهي لغة.

والمأمور بالسعي هو المؤمن الصحيح البالغ الحُرُّ الذَّكْرُ، ولا جمعة على مسافر في طاعة، فإن حضرها أحسن وأجزته، واختلف الناس في الحد الذي يلزم منه السعي - فقال مالك: ثلاثة أميال من منزل الساعي إلى المنادي، وقال فريق: من منزل الساعي إلى أول المدينة التي فيها النداء، وقال أصحاب الرأي: يلزم أهل المدينة كلها السعي من سمع النداء ومن لم يسمع وإن كانت أقطارها فوق الثلاثة أميال،

وقال أبو حنيفة: ولا يلزم من منزله خارج المدينة كزرارة من الكوفة، وإنما بينهما مجرى نهر، ولا تجوز لهم إقامتها لأن من شروطها الجامع والسلطان القاهر والسوق القائمة، وقال بعض أهل العلم:

السعي من خمسة أميال، وقال الزهري: من ستة أميال، وقال أيضاً: من أربعة أميال، وقاله ابن المنكدر، وقال ابن عمر، وابن المسيب، وابن حنبل: إنما يلزم السعي من سمع النداء، وفي هذا نظر.

والسعي في الآية ليس الإسراع في المشي كالسعي بين الصفا والمروة، وإنما هو بمعنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾، فالقيام والوضوء ولبس الثوب والمشى سعي كلُّه إلى ذكر الله تعالى، قال الحسن، وقتادة، ومالك، وغيرهم: إنما تُؤْتَى الصلاة بالسكينة، والسعي هو بالثبته والإرادة والعمل، والذَّكْرُ هو وعظ الخطبة، قاله ابن المسيب، ويؤيد ذلك قول النبي ﷺ: ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ عَلَى أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، يَكْتُبُونَ الْأَوَّلَ فَلِأُولِهِ، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ طُوِبَتْ الصُّحُفُ وَجَلَسَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ﴾، والخطبة عند جمهور العلماء شرط في انعقاد الجمعة، وقال الحسن: هي مستحبة، وقرأ عمر بن الخطاب، وعلي، وابن مسعود، وابن عباس،

بِكَلِمَاتٍ الَّتِي إِذَا نَادَىكَ لِلصَّلَاةِ مِنْ بَوَائِبِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَبِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا انفَضُّوا إِلَيْهَا وَتَرَكُوكَ قَائِمًا قُلْ مَا عَدَلَ اللَّهُ خَيْرٌ مِنَ الْهَوَىٰ وَمِنَ التِّجَارَةِ وَاللَّهُ خَيْرَ الرَّازِقِينَ ﴿١١﴾

سُورَةُ الْجُمُعَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا اشْهَدْ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ ﴿١﴾ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطَجَّ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٣﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمُ تَعَجَّبْتَ أَجْسَامَهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمِعْ لِقَوْلِهِمْ إِنْهُمْ حَسْبُ مُسْتَدْرَجِينَ قُلْ صِدْقٌ عَلَيْهِمْ أَمَّا عِدَّتُهُمْ فَقَدْ هُمُ الْمُنَافِقُونَ وَاللَّهُ يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ إِلَى الْبَغْيِ وَيُرِيدُونَ الْجَهَنَّمَ أَجْرًا أُولَئِكَ هُمُ السَّاعُونَ ﴿٤﴾

٥٥٤

وابن عمر، وابن الزبير، وجماعة من التابعين رضوان الله عليهم أجمعين: ﴿فَامْسُوا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾، وقال ابن مسعود: لو قرأت: ﴿فَانْتَشِرُوا﴾ لأسرعت حتى يقع ردائي.

واختلف الناس في البيع في الوقت المنهي عنه إذا وقع: ما الحكم فيه؟ بعد إجماعهم على وجوب امتناعه بدءاً - فقال الشافعي: يمضي، وقال مرة: يُفسخ ما لم يفت، فإن فات مضي. وقال مالك: يُفسخ ما لم يفت، فإن فات أصلح بالقيمة، واختلف في وقت التقويم - فقيل: وقت القبض، وقيل: وقت الحكم.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ﴾ إشارة إلى السعي وترك البيع، وقوله سبحانه: ﴿فَانْتَشِرُوا﴾ أجمع الناس على أن مقتضى هذا الأمر الإباحة، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾

تفسير سورة المنافقون

وهي مدنيّة بإجماع، وذلك أنها نزلت في غزوة بني المصطلق بسبب أن عبدالله بن أبي ابن سلول كان منه في تلك الغزوة أقوال، وكان له أتباع يقولون قوله، فنزلت السورة كلها بسبب ذلك، ذكر الله تعالى فيها ما تقدم من المنافقين من حليفهم وشهادتهم في الظاهر بالإيمان، وأنهم كذّبة، وذكر تعالى فيها ما تأخر منهم ووقع في تلك الغزوة، وسيأتي بيان ذلك فصلاً فصلاً عند تفسير الآيات إن شاء الله تعالى.

() - () تفسير قوله عزّ وجلّ:

فضح الله تعالى بهذه الآية سريرة المنافقين، وذلك أنهم كانوا يقولون لرسول الله ﷺ: نشهد أنك لرسول الله، وهم في إخبارهم هذا كاذبون؛ لأن حقيقة الكذب أن يخبر الإنسان بضم ما في قلبه، وكسرت الألف من ﴿إِنَّ﴾ في الثلاثة لدخول اللام المؤكدة في الخبر وذلك لا يكون مع المفتوحة، وقوله تعالى: ﴿يَسْهَدُ﴾ وما جرى مجراها من أفعال اليقين والعلم تجاب بما يجاب به القسم، وهي بمنزلة القسم.

وقرأ الناس: ﴿أَيْمَانَهُمْ﴾ جمع يمين، وقرأ الحسن بن أبي الحسن - بخلاف عنه -: ﴿إِيمَانَهُمْ﴾ بكسر الألف، أي: هذا الذي يُظهرون،

رضي الله عنه، وقيل: عبدالله بن مسعود رضي الله عنه، وقال عبدالله بن عباس رضي الله عنهما في كتاب الثعلبي: بقي معه ثمانية نفر، وروي أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لولا هؤلاء لكانت الحجارة سُومت على المنقّضين من السماء﴾، وفي حديث آخر: ﴿والذي نفس محمد بيده لو تتابعتم حتى لا يبقى منكم أحد لسال عليكم الوادي ناراً﴾، وقال قتادة: بلغنا أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات؛ لأن قدوم العير كان يوافق يوم الجمعة، بسبب أن المراحل كانت تُعطي ذلك، وقال تعالى: ﴿إِنِّي﴾ ولم يقل: ﴿إِلَيْهِمَا﴾ تقدماً للأهم إذ كانت هي سبب اللّهُو ولم يكن اللّهُو سببها، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿ومن التجارة لِلَّذِينَ اتَّقَوْا والله خير الرازقين﴾.

وتأمل أن قُدّمت التجارة مع الرؤية لأنها أهم، وأُخّرت مع التفضيل لتقع النفس أولاً على الأئين.

وفي هذه الآية قيام الخطيب، وأول من استراح في الخطبة عثمان رضي الله عنه، وأول من خطب جالساً معاوية رضي الله عنه. و«الرّزاق» صفة فعل، وقد يتصف بها بعض البشر تجوّراً إذا كان سبب رزق الحيوان، والله تعالى خير الرازقين.

كامل تفسير سورة الجمعة والحمد لله ربّ العالمين

أنه للإباحة في طلب المعاش، وأن ذلك مثل قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا﴾، إلا ما روي عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: ﴿ذلك الفضل المُبتَغى هو عيادة مريض أو صلة صديق أو اتباع جنازة﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وفي هذا ينبغي أن يكون المرء بقية يوم الجمعة، ويكون تخييره صبح يوم السبت، قاله جعفر بن محمد الصادق، وقال مكحول: الفضل المُبتَغى: العلم، فيبغي أن يطلب إثر الجمعة.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾ الآية، نزلت بسبب أن رسول الله ﷺ كان قائماً على المنبر يخطب يوم الجمعة، فأقبلت عير من الشام تحمل ميرة، وصاحب أمرها دخية بن خليفة الكلبي، قال مجاهد: وكان من عرفهم أن تدخل العير المدينة بالطبل والمعازف والصياح من ورائها، فدخلت العير بمثل ذلك، فانفض أهل المسجد إلى رؤية ذلك وسماعه، وتركوا رسول الله ﷺ قائماً على المنبر، ولم يبق معه غير اثني عشر رجلاً، قال جابر بن عبدالله رضي الله عنه: أنا أحدهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ولم تُمرّ بي تسميتهم في ديوان فيما أذكر، إلا أنني سمعت أبي رحمه الله تعالى يقول: هم العشرة المشهود لهم بالجنة، واختلف في الحادي عشر، فقيل: عمار بن ياسر

وهذا على حذف مضاف تقديره: إظهار، و«الْجُنَّةُ»: ما يُسْتَسْرَبُ به في الأجرام والمعاني، وقوله تعالى: ﴿فَمَكَّدُوا﴾ يحتمل أن يكون غير مُتَعَدِّ، تقول: «صدَّ زيداً»، ويحتمل أن يكون متعدياً كما قال: صَدَدَتِ الْكَأْسُ عَنَّا أُمَّ عَمْرٍو

فالمعنى: صدوا غيرهم ممن كان يريد الإيمان، أو من المؤمنين في أن يقاتلوهم أو ينكروا عليهم، وتلك سبيل الله تعالى فيهم، وقد تقدّم تفسير نظير هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ﴾ إشارة إلى فعل الله تعالى بهم في فضيحتهم وتوبيخهم، ويحتمل أن تكون الإشارة إلى سوء ما عملوا، فالمعنى: ساء عملهم بأن كفروا بعد إيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا نُرُّ كَفَرُوا﴾ إما أن يراد به: منهم من كان آمن ثم نافق بعد صحبة من إيمانه، وقد كان هذا موجوداً، وإما أن يريدهم كلهم، فالمعنى: ذلك بأنهم أظهروا الإيمان ثم كفروا في باطن أمرهم، فسُمِّي ذلك الإظهار إيماناً، وقرأ بعض القراء: ﴿فَطَبَعَ﴾ على بناء الفعل للفاعل، وقرأ جمهور القراء: ﴿فَطَبَعَ﴾ بضم الطاء على بنائه للمفعول بغير إدغام، وأدغم أبو عمرو، وقرأ الأعمش: ﴿فَطَبَعَ اللهُ﴾، وعبر الله تعالى بالطبع على ما خلق في قلوبهم من الريب والشكّ وحتمّ عليهم به من الكفر والمصير إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ﴾ توبيخ لهم؛ لأنهم كانوا رجالاً أجمل شيء وأفصحه، فكان منظرهم يروق وقولهم يخلب، لكن الله تعالى جعلهم كالخشب المُسْتَدَّةِ إذ لا أفهام لهم نافعة، ولا نظر يصيب، فذلك المنظر لا مخبر له كالخشب المُسْتَدَّةِ، إنما هي أجرام لا عقول لها، معتمدة على غيرها، لا تثبت بنفسها، ومنه قولهم: «تساند القوم» إذا اصطفوا وتقابلوا للقتال، وقد يحتمل أن يُشَبَّه اصطفاؤهم في الأندية باصطفاف الخشب المُسْتَدَّةِ، وخلوهم من الأفهام النافعة بخلو الخشب من ذلك، وقال رجل لابن سيرين: رأيتني في النوم محتضناً خشبة، فقال ابن سيرين: أظنك من أهل هذه الآية، وتلا: ﴿كَأَنَّهُمْ خَشْبٌ مُسْتَدَّةٌ﴾.

وقرأ عكرمة، وعطية: ﴿يُسْمَعُ﴾ بالياء مضمومة، وقرأ نافع، وابن عامر، وحمزة، وعاصم: ﴿خُشْبٌ﴾ بضم الخاء والشين، وقرأ قنبل، وابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي: ﴿خُشْبٌ﴾ بضم الخاء وسكون الشين، وهي قراءة البراء بن عازب رضي الله عنه، واختيار أبي عبيد، وقرأ سعيد بن جبير، وسعيد بن المسيّب: ﴿خُشْبٌ﴾ بفتح الخاء والشين، وذلك كله جمع «خَشْبَةٌ» بفتح الخاء والشين، فالقراءتان أولاً كما تقول: بَدَنَةٌ وَيُدُنُّ وَيُدُنُّ، قاله سيبويه، والأخيرة على الباب في ثَمَرَةٍ وَثَمَرٍ.

وكان عبداً لله بن أبي من أبيه

المنافقين وأطولهم، ويدل على ذلك أنه لم يوجد قميص يكسو العباس رضي الله عنه غير قميصه، وقد تقدم في سورة البقرة تحرير أمر المنافقين وكيف سترهم الإسلام.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسِرُونَ كُلٌّ حَاحِيَةً عَلَيْهِمْ﴾ فَضَحَ أيضاً لما كانوا يُسِرُّونه من الخوف، وذلك أنهم كانوا يتوقعون أن يأمر النبي ﷺ - عن الله - بقتلهم، قال مقاتل: فكانوا متى سمعوا نُشْدان ضالة، أو صياحاً بأيّ وجه كان، أو أخبروا بنزول وحى، طارت قلوبهم وطاشت عقولهم حتى يسكن ذلك ويكون في غير شأنهم، وجرى هذا اللفظ مثلاً في الخائف، ونحوه قول الشاعر:

يُسرُّو عه السَّرَّازِ بِكُلِّ أَرَضٍ
مَخَافَةَ أَنْ يَكُونَ بِهِ السَّرَّازُ
وقول جرير:

مَا زِلْتُ تَحْسَبُ كُلَّ شَيْءٍ بَعْدَهُمْ
خَيْلاً تَكْرَعُ عَلَيْهِمْ وَرِجَالاً
ثم أخبر تعالى بأنهم هم العدو، وحذر منهم، و«الْعَدُوُّ» يقع للواحد وللجمع. وقوله تعالى: ﴿فَتَلَّهْمُ اللهُ﴾ دعاء يتضمن الإقصاء والمناذرة وتمني الشر لهم.

وقوله تعالى: ﴿أَنْتَ يُؤْفِكُونَ﴾ معناه: يُصرفون، فيحتمل أن تكون ﴿أَنْتَ﴾ استفهاماً، كأنه تعالى قال: كيف يُصرفون؟ أو: لأيّ سبب لا يرون رُشد أنفسهم؟ ويحتمل أن تكون ﴿أَنْتَ﴾ ظرفاً لـ ﴿فَتَلَّهْمُ اللهُ﴾ كأنه تعالى قال: فاتلهم الله كيف انصرفوا وُصرفوا، فلا يكون في القول استفهام على هذا.

من المنافقين، فكذب رسول الله ﷺ زيداً وصدق أيمان عبدالله بن أبي، فبقي زيد في منزله لا يتصرف حياة من الناس، فنزلت هذه السورة عند ذلك، فبعث رسول الله ﷺ في زيد وقال: لقد صدقتك الله يا زيد ووفت أذنك، فخزي عند ذلك عبدالله بن أبي ابن سلول، ومقته الناس، ولامه المؤمنون من قومه، وقال بعض منهم: امض إلى رسول الله ﷺ واعترف بذنبك فيستغفر لك، فلوى رأسه إنكاراً لهذا الرأي وقال لهم: لقد أشرت علي بالإيمان فأمنت، وأشرت علي أن أعطي زكاة مالي ففعلت، ولم يبق لكم إلا أن تأمروني بالسجود لمحمد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا هو قصص هذه السورة موجزاً. و «تعال» نداء يقتضي لفظه أنه دعاء الأعلى للأسفل، ثم استعمل في كل داع لما فيه من حسن الأدب، وقرأ نافع، والمفضل عن عاصم: ﴿لَوْوَا﴾ بتخفيف الواو، وهي قراءة الحسن - بخلاف -، ومجاهد، وأهل المدينة، وقرأ الباقون، وأبو جعفر، والأعمش: ﴿لَوْوَا﴾ بشد الواو على تضعيف المبالغة، وهي قراءة طلحة، وعيسى، وأبي رجاء، ويزر، والأعرج، وقرأ بعض القراء هنا: ﴿يَصُدُّونَ﴾ بكسر الصاد، والجمهور بضمها.

قوله تعالى: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ﴾ الآية. زوي أنه لما نزلت: ﴿إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ قال رسول الله ﷺ: ﴿لَأَزِيدَنَّ عَلَى السبعين﴾، وفي حديث آخر: «لو

لِعمر، فإزدحم هو ويسان بن وبرة الجهني - وكان حليفاً للأوس -، فكسع الجهجاء سيناناً، فغضب سينان وثأورا، ودعا الجهجاء بالمهاجرين، ودعا سينان بالأنصار، فخرج رسول الله ﷺ فقال: «ما بال دعوى الجاهلية»، فلما أخير بالقصة قال: «دعوها فإنها مُتَنَتَّة»، واجتمع في الأمر عند عبدالله بن أبي قوم من المنافقين - وكان فيهم زيد بن أرقم فتى صغيراً لم يتحفظ منه -، فقال عبدالله بن أبي: أَرُ

قَدْ تَدَاعَوْا عَلَيْنَا؟ وَاللَّهِ مَا مَثَلْنَا وَمَثَلَهُمْ إِلَّا كَمَا قَالَ الْأَوَّلُ: «سَمَنْ كَلْبِكَ يَأْكُلُكَ»، وقال لهم: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز من الأذل، وقال لهم: إنما يقيم هؤلاء المهاجرون مع محمد بسبب معونتكم لهم وإفناقكم عليكم، ولو قطعتم ذلك عنهم لفرؤوا، فذهب زيد بن أرقم إلى عمه - وكان في حجره - وأخبره، فأتى به رسول الله ﷺ فأخبره، وقال له رسول الله ﷺ: «يا زيد، غضبت على الرجل، أو لعلك وهمت؟» فأقسم زيد ما كان شيء من ذلك، ولقد سمع من عبدالله بن أبي ما حكى، فعاتب رسول الله ﷺ عبدالله بن أبي عند رجال من الأنصار، فبلغه ذلك فجاء وحلف ما قال، وكذب زيداً، وحلف معه قوم

وَأَذِيقِلْ لَهُمْ تَعَاوَى اسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوْ أُرَاهُ مُسْتَقِرًّا وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَالَمٌ مِّنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا إِلَيْهِ حَزَائِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾ يَقُولُونَ لَيْنَ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَا الْأَعْرُوبُ مِنَّا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَهْجُرُوا أَمْوَالَكُمْ وَلَا أَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩﴾ وَأَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِّنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِكُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَكَ وَأَكُن مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠﴾ لَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١١﴾

سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ

٥٥٥

٥ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

كان من أمر عبدالله بن أبي ابن سلول أنه خرج مع رسول الله ﷺ في غزوة بني المصطلق، فبلغ الناس إلى ماء سبق إليه المهاجرون، وكانهم غلبوا الأنصار عليه بعض الغلبة، فقال عبدالله بن أبي لأصحابه: قد كنت قلت لكم في هؤلاء الجلابيب ما قلت فلم تسمعوا مني، وكان المنافقون ومن لا يتحرى يسمون المهاجرين رضي الله عنهم الجلابيب، ومنه قول حسان بن ثابت:

أَرَى الْجَلَابِيْبَ قَدْ عَزَّوْا وَقَدْ كَثُرُوا
وَابْنُ الْفُرَيْعَةِ أَمْسَى بِنِصَّةِ الْبَلْدِ
فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَنْحَضُ عَلَيْنَا يَا حَسَّانُ؟» ثُمَّ إِنَّ الْجَهْجَهَةَ الْغَفَارِيَّ -
وكان أجيراً لعمر بن الخطاب رضي الله عنه - وُزِدَ إِلَى الْمَاءِ بِفَرَسٍ

علمتُ أنني إن زدتُ عُفْر لهم لَزِدْتُ، فكانه عليه الصلاة والسلام رجا أن هذا الحد ليس على جهة الحتم جملة، بل على أن ما يجاوزه يخرج عن حكمه، فلما فعل ابن أبي وأصحابه ما فعلوا شدد الله تعالى عليهم في هذه السورة، وأعلم أنه لا يغفر لهم دون حد في الاستغفار، وفي قول النبي ﷺ: «لو علمتُ أنني لو زدتُ عُفْر لهم» نص على رفض دليل الخطاب.

وقرأ جمهور الناس: «اسْتَفْرَتَ» بالقطع وألف الاستفهام، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «اسْتَفْرَتَ» بمد على الهمزة، وهي ألف التسوية، وقرأ أيضاً بوصل الألف دون همز على الخبر، وفي هذا كله ضعف؛ لأنه في الأولى أثبت همزة الوصل وقد أغنت عنها همزة الاستفهام، وفي الثانية حذف همزة الاستفهام وهو يريد بها، وهذا مما لا يستعمل إلا في الشعر.

وقوله تعالى: «هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ» إشارة إلى عبدالله بن أبي ومن قال بقوله: قاله علي بن سليمان، ثم سقه تعالى أخلامهم في أن ظنوا أن إنفاقهم هو سب رزق المهاجرين، ونسوا أن حرمان الرزق بيد الله تعالى، إذا انسد باب انفتح غيره. وقرأ الفضل بن عيسى الرقاشي: «حَتَّى يُنْفَضُوا» بضم الياء وتخفيف الضاد، يقال: أنْفَضَ الرجل إذا فني طعامه فنفض وعاءه. و«الخزائن» موضع الإعداد، ونجد القرآن قد نطق في غير موضع بالخزائن، ونجد في الحديث «خزنة الريح»، وفي القرآن «بَيْنَ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ

بَرٍّ»، فجائز أن يكون هذا عبارة عن القدرة، وأن هذه الأشياء إيجادها عند ظهورها، وجائز - وهو الأطهر - أن منها أشياء مخلوقة موجودة يصرفها الله تعالى حيث يشاء، وظواهر ألفاظ الشريعة تعطي هذا، ومعناه في التفسير قال: عتت على الخزان، وفي الحديث: «ما انفتح باب من خزائن الريح على قوم عاد إلا قدر حلقة الخاتم، ولو انفتح من خزائن الريح على قدر منخر الثور لهلكت الدنيا»، وقال رجل لحاتم الأصم: من أين تأكل؟ فقرأ: «وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»، وقال الجنيدي: «خزائن السماء الغيوب، وخزائن الأرض القلوب».

قرأ الجمهور: «لِيُخْرِجَ الْأَعْمَى» بضم الياء وكسر الراء، بمعنى أن العزيز يخرج الذليل ويبيده، وقرأ أبو حاتم: «لِنُخْرِجَنَّ» بنون الجماعة مفتوحة وضم الراء «الْأَعْمَى» نصباً «مِنَهَا الْأَذَلُّ» أيضاً نصباً على الحال، وذكرها أبو عمرو الداني عن الحسن، ورويت هذه القراءة: «لِنُخْرِجَنَّ» بضم النون وكسر الراء، وقرأ قوم - فيما حكى الفراء والكسائي، وذكرها المهدي -: «لِيُخْرِجَنَّ الْأَعْمَى مِنْهَا الْأَذَلُّ» بفتح الياء وضم الراء ونصب «الْأَذَلُّ» على الحال، بمعنى أننا نحن الذين كنا أعزّة سنخرج أذلاء، وجاءت هذه الحال معرفة وفيها شذوذ، وقد حكى سيبويه: «ادخلوا الأول فالأول».

ثم أعلم الله تعالى أن العزّة لله سبحانه، وللرسول ﷺ، وللمؤمنين، وفي ذلك وعيد، وروي أن

عبدالله بن عبدالله بن أبي - وكان رجلاً صالحاً - لما سمع الآية جاء إلى أبيه وقال له: أنت والله يا أبت الذليل ورسول الله ﷺ العزيز، فلما وصل إلى المدينة وقف عبدالله بن عبدالله على باب السكّة التي يسلكها أبوه، وجرّد السيف ومنعه الوصول، وقال: والله لا دخلت إلى منزلك إلا أن يأذن لك في ذلك رسول الله ﷺ، وعبدالله بن أبي في أذل حال، وبلغ ذلك رسول الله ﷺ فبعث إليه أن خله يمضي إلى منزله، فقال: أما الآن فنع.

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل: الإلهاء: الاشتغال بشهوة ولذة، و«ذَكَرَ الله» هنا عام في التوحيد والصلاة والدعاء وغير ذلك من فرض وندوب، هذا قول الحسن وجماعة من المفسرين، وقال الضحاك، وعطاء وأصحابه: المراد بالذكر الصلاة المكتوبة، والأول أظهر، وكذلك قوله تعالى: «وأنفقوا مما رزقناكم» قال جمهور من المتأولين: المراد الزكاة، وقال آخرون: ذلك عام في مفروض وندوب، وقوله تعالى: «يَأْتِكُمْ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ» أي: علامته وأوائل أمره، وقوله: «لَوْلَا لَعْنَةُ اللَّهِ لَتَأْتِيَ الْجَبَلُ مِثْلَ بَيْتِ بْنِ كَعْبٍ» طلباً للكرة والإمهال، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: «أَخْرَجَنَّ» بغير ياء، وسماه تعالى قريباً لأنه أت، وأيضاً فإنما يتمنى ذلك ليقضي فيه العمل الصالح فقط، وليس يتسع الأمل حينئذ لطلب العيش وتصرفه، وفي مصحف أبي: «فَأَتَصَدَّقَ»، وقوله

تفسير سورة التغابن

قال بعض المفسرين: هي مدينة، وقال آخرون منهم: هي مكيّة إلا من قوله تعالى وجل: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَزْوَاجِكُمْ﴾ إلى آخر السورة فإنه مدني، وذكر الشعلبي عن ابن عمران أن النبي ﷺ قال: «ما من مولود يولد إلا وفي تشابيك رأسه مكتوب خمس آيات من فاتحة سورة التغابن».

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَمَوْعِنًا عَلَىٰ كُلِّ قَوْمٍ نَبِيٍّ﴾ هو عموم معناه التنبيه، و«الشيء» هو الموجود.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ تعديد نعمة، والمعنى: فمنكم كافر لنعتمته في الإيجاد حين لم يوجد لجهله بالله، ومنكم مؤمن بالله، والإيمان بالله تعالى شكر لنعتمته، فالإشارة - على هذا التأويل في الإيمان والكفر - هي إلى اكتساب العبد، هذا قول جماعة من المتأولين، وحجتهم قول النبي ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»، وقول الله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾، وكان العبارة في قوله تعالى: ﴿فِيَنصُوكُمْ﴾ تعطي هذا كله، وكذلك يقويه قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

وقيل: المعنى: خلقكم منكم مؤمن ومنكم كافر في أصل

تعالى: ﴿مَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَكَلَّا هَادِيًّا لَمْ يَدْرِهِمْ﴾، فمن قرأ بالجزم عطف على موضع ﴿كَلَّا هَادِيًّا لَمْ يَدْرِهِمْ﴾ لأنه لو وقع هناك فعل كان مجزوماً، وكذلك من قرأ: ﴿وَيُنكفِرُ﴾ بالجزم عطفاً على موضع ﴿فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾، وقرأ أبو عمرو، والحسن، وأبو رجاء، وابن أبي إسحق، ومالك بن دينار، وابن محيصن، والأعمش، وابن جبير، وعبيد الله بن الحسن العنبري: ﴿وَأَكُونُ﴾ بالواو نصباً، قال أبو حاتم - وكان من العلماء الفصحاء -:

﴿وَأَكُونُ﴾ بالنصب عطفاً على ﴿قَرِيبٌ﴾، وقال أبو حاتم في كتبها في المصحف بغير واو: إنهم حذفوا الواو كما حذفوها من «اتَّخَذَ» وغيره، ورجحها أبو علي، وفي مصحف أبي بن كعب، وابن مسعود رضي الله عنهما: ﴿فَاتَّصَدَّقُ وَأَكُونُ﴾.

وفي قوله تعالى: ﴿وَلَنْ يُؤَخِّرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَ أَجَلُهَا﴾ حض على المبادرة ومساابقة الأجل بالعمل الصالح، وقرأ السبعة والجمهور: ﴿تَعْمَلُونَ﴾ بالثاء على المخاطبة لجميع الناس، وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر -: ﴿يَعْمَلُونَ﴾ بالياء على تخصيص الكفار بالوعيد.

كامل تفسير سورة المنافقون والحمد لله رب العالمين

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ
وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَكُنْكُمْ كَافِرًا
وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ
وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَهُمْ فَاخْسَنَ صُورًا وَرَآئِهِ الْعَصِيرُ ﴿٣﴾
يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُسَبِّحُونَ وَمَا تَعْلَمُونَ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ
فَدَأَوْا بِآلِ إِبْرَاهِيمَ وَهُمْ عَدَاؤُا لَهُمْ أَلَيْسَ ذَلِكَ بِاتِّمَاتٍ كَانَتْ تَأْتِيهِمْ
رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثْلُنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَأَشْرَقَتِ
الْأَبْصَارُ وَاللَّهُ عِنْدَ حَيْدِهِمْ ﴿٥﴾ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ
وَيُرِيَهُمْ آيَاتِهِ وَلَنْ نُنزِلَهُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٦﴾ قَالُوا مَا يَأْتِي
اللَّهَ وَرُسُلَهُ وَالنُّورَ الَّذِي أَنْزَلْنَا وَاللَّهُ يَمَّا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ ﴿٧﴾ يَوْمَ
يَجْمَعُهُمُ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ
صَالِحًا كَفَرَ عَنْهُ سَيَجْعَلُ اللَّهُ وَجْهَهُ حَنَافٍ مِمَّنْ يَبْغَىٰ
الْآثَرَ خَالِدِينَ ﴿٨﴾ فِيهَا أَيْدٍ ذَاكُ الْفُؤَادِ الْعَظِيمِ ﴿٩﴾

تعالى: ﴿وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ظاهره العموم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو الحج، وزوي عنه أنه قال في مجلسه يوماً: «ما من رجل لا يؤدي الزكاة والحج إلا طلب الكفرة عند موته»، فقال له رجل: أما تتقي الله؟ أمؤمن يطلب الكفرة؟ فقال ابن عباس رضي الله عنهما: نعم وقرأ الآية.

وقرأ جمهور السبعة والناس: ﴿وَأَكُنْ﴾ بالجزم عطفاً على الموضع؛ لأن التقدير: إن تؤخرني أصدق وأكُن من الصالحين، هذا مذهب أبي علي الفارسي، فأما ما حكاه سيبويه عن الخليل فهو غير هذا، وهو أنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني، ولا موضع هنا لأن الشرط ليس بظاهر، وإنما يعطف على الموضع حيث يظهر الشرط، كقوله

الْخَلْقَةَ، فهي جملة في موضع الحال، فالإشارة - على هذا - في الإيمان والكفر هي إلى اختراع الله تعالى وخلقه، وهذا تأويل ابن مسعود، وأبي دُرٍّ رضي الله عنهما، ويجري مع هذا المعنى قول النبي ﷺ: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يَكُونُ فِي بطنِ أُمِّهِ نطفةً أربعمين يوماً، ثم علقه أربعمين يوماً، ثم مضغه أربعمين يوماً، ثم يجيء مَلَكٌ فيقول: يا ربِّ، أذكر أم أنثى؟ أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل، فيكتب ذلك في بطن أمه»، ف قوله في الحديث: «أشقي أم سعيد؟» هو في هذه الآية ﴿فَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ﴾، ويجري مع هذا المعنى قوله في الغلام الذي قتله الخضر: «إنه طبع يوم طبع كافراً»، وما روى ابن مسعود رضي الله عنه أنه عليه الصلاة والسلام قال: «خلق الله فرعون في البطن كافراً، وخلق يحيى بن زكريا مؤمناً»، وقال عطاء بن أبي رباح: معنى الآية: فمَنكم كافرٌ بالله مؤمن بالكوكب، ومؤمن بالله كافر بالكوكب، وقدم الكافر لأنه أعرف من جهة الكثرة.

وقوله تعالى: ﴿يَالْحَقُّ﴾ أي: حين خلقها محقوقاً في نفسه ليس عبثاً ولا لغير معنى، وقرأ جمهور الناس: ﴿وَصَوَّرَكُمُ﴾ بضم الصاد، وقرأ أبو رزَين: ﴿صَوَّرَكُمُ﴾ بكسرها، وهذا تعديد النعمة في حسن الخلقة لأن أعضاء ابن آدم متصرفه في جميع ما تصرف به أعضاء الحيوان وزيادات

كثيرة فُضِّلَ بها، ثم هو مفضَّل بحسن الوجه وجمال الجوارح، وحُجَّةُ هذا قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، وقال بعض العلماء: النعمة المُعدَّدة هنا إنما هي صورة الإنسان من حيث هو إنسان مدرك عاقل، فهذا هو الذي حَسُنَ له حتى لحق ذلك کمالات كثيرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والقول الأول أجرى على لغة العرب لأنها لا تعرف الصور إلا الشك.

وذكر تعالى علمه بما في السموات والأرض، فعلم أعظم المخلوقات، ثم تدرَّج القول إلى أخفى من ذلك وهو جميع ما يقوله الناس في سرٍّ وعَلَن، ثم تدرَّج إلى خفيٍّ وهو ما يهجس بالخواطر، و«ذات الصدر»: ما فيه من خطرات واعتقادات، كما يقال: «الذنب مغبوطٌ بذِي بطنه»، والصدر هنا عبارة عن القلب.

﴿٧﴾ - ﴿٦﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ﴾ جزمٌ، أصله: يأتيكم، قال سيبويه: «واعلم أن الآخر إذا كان يُسكَّن في الرفع حذف في الجزم»، والخطاب في هذه الآية لقريش، ذُكروا ما حلَّ بعادٍ وثمود وقوم إبراهيم عليه الصلاة والسلام وغيرهم ممن سمعت قريش أخبارهم، و«ويأل الأمر»: مكروهه وما يسوء منه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّكُمْ﴾ إشارة إلى ذوق الوبال وكون عذاب الآخرة لهم، ثم ذكر تعالى من مقالات أولئك الماضين ما هو مشبه لقول

الكفار من قريش من استبعاد بعثة الله تعالى للبشر، وتبوء أحد من بني آدم، وحسد الشخص المبعوث. وقولهم: ﴿أَبَشْرٌ﴾ رفع بالابتداء، وجمع الضمير في ﴿بَشَرًا﴾ من حيث كان «البشر» اسم هذا النوع الآدمي، كأنهم قالوا: أناسٌ هداةٌ؟ وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَفْتَى اللَّهَ﴾ عبارة عما ظهر من هلاكهم وأنهم لن يضروا الله شيئاً فبان أنه كان غنياً أولاً، ويسبب ظهور هلاكهم بعد أن لم يكن ظاهراً ساغ استعمال هذا الغناء مُستنداً إلى اسم الله تعالى؛ لأن بناء «استفعل» إنما هو لطلب الشيء وتحصيله بالطلب.

وقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ يخص قريشاً ثم هي بغد تعم كل كافر بالبعث، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «الزعم كنية الكذب»، وقال عليه الصلاة والسلام: «بئس مطية الرجل زعموا»، ولا توجد «زعم» مستعملة في فصيح من الكلام إلا عبارة عن الكذب أو قول انفرد به قائله فيريد قائله أن يلقي عهده على الزاعم، ففي ذلك ما ينحو إلى تضعيف الزعم، وقول سيبويه: «زعم الخليل» إنما يجيء فيما انفرد به الخليل.

ثم أمره الله تعالى أن يجيب نفيعهم بما يقتضي الرد عليهم وإيجاب البعث وأن يؤكد ذلك بالقسم، ثم توعدهم في آخر الآية بأنهم يُخَيَّرُونَ بأعمالهم على جهة التوقيف والتوبيخ المؤدي إلى العقاب.

أن كل شيء بقضاء الله وقدره وعلمه، هانت عليه مُصيئته، وسلّم الأمر لله تعالى. وقرأ سعيد بن جبير، وطلحة بن مُصَرِّف: ﴿نَهْدُ﴾ بالنون، وقرأ الضحاك: ﴿يَهْدُ﴾ بضم الياء وفتح الدال ﴿قَلْبُهُ﴾ رفعا، وقرأ عكرمة، وعمرو بن دينار: ﴿يَهْدُ قَلْبَهُ﴾ برفع القلب، وزوي عن عكرمة أنه سَكَنَ بدل الهمزة ألفا، على معنى أن صاحب المصيبة يُسَلِّم فتسكن نفسه، ويُرشد الله تعالى المؤمن به إلى الصواب في الأمور. وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِمْ عَمُومٌ﴾ مطلق على ظاهره.

﴿١٧﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ﴾ عطف على قوله: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾، وفي قوله سبحانه: ﴿إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ إلى آخر الآية وعيد وتبرئة لمحمد ﷺ إذا بلغ، وفي قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ تحريض للمؤمنين على مكافحة الكفار والصبر على دين الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ يَزِيدُكُمْ مِنْ آيَاتِكُمْ وَأُولَئِكَ مِنْكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَأَعِدُّوهُمْ﴾ إلى آخر السورة، قرآنٌ مدني، اختلف الناس في سببه - فقال عطاء بن أبي رباح: إنه نزل في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أراد غزواً مع النبي ﷺ، فاجتمع أهله وأولاده فثبطوه وشكوا إليه فراقه، فلم يغز، ثم إنه ندم وهم بمعاقتهم، فنزلت الآية بسببه

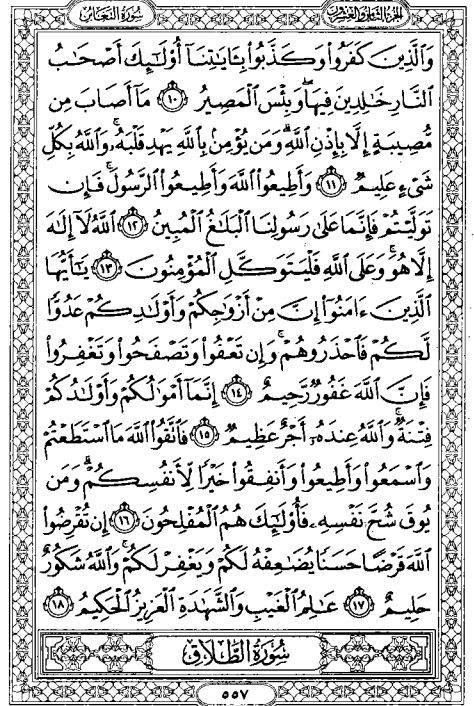
وهو يوم التغابن؛ وذلك أن كل واحد يُبعث من قبره وهو يرجو حظاً أو منزلة، فإذا وقع الجزاء غير المؤمنون الكافرين لأنهم يُجزون الجنة ويحصل الكفار في النار، نحا هذا المعنى مجاهد وغيره، وليس هذا الفعل في «التغابن» من اثنين، بل هو كتواضع وتحامل.

وقرأ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: ﴿تُكْفَرُ﴾ بنون، وكذلك ﴿تُدْخِلُهُ﴾، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر،

وشيبة، والحسن - بخلاف - وطلحة، وقرأ الباقون، والأعمش، وعيسى، والحسن في الموضعين بالياء، على معنى: يُكْفَرُ الله، والأول هو نون العظمة.

وقوله تعالى: ﴿مَا آصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ﴾ يحتمل أن يريد المصائب التي هي زوايا، وخصها بالذكر لأنها الأهم على الناس والأبين أثراً في نفوسهم، ويحتمل أن يريد جميع الحوادث من خيرٍ وشرٍّ، وذلك أن الحكم واحد في أنها بإذن الله تعالى، و«الإذن» في هذا الموضع عبارة عن العلم والإرادة وتمكين الوقوع.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ بِهَدْيِ قَلْبِهِ﴾ قال فيه المفسرون: المعنى: من آمن بالله تعالى وعرف



﴿٨﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

هذا دعاء إلى الله تعالى وتبليغ وتحذير، و«الثور»: القرآن. والعامل في «يَوْمٍ» يحتمل أن يكون «لَيُّوْنًا»، ويحتمل أن يكون «خَيْرًا»، وهو تعالى خبير في كل يوم لكن يخص ذلك اليوم لأنه يوم تضرهم فيه خيرة الله تعالى بأمرهم، وقرأ جمهور السبعة: ﴿يَجْمَعُكُمْ﴾ بضم العين، وقرأ أبو عمرو بسكونها، وزوي عنه أنه أشمها الضم، وقرأ سلام، ويعقوب: ﴿نَجْمَعُكُمْ﴾ بالنون وضم العين، وهذا على جواز تسكين الحركة وإن كانت للإعراب، كما قال جرير:

.....
فَلَمْ تَعْرِفْكُمْ الْعَرَبُ
و «يوم الجمع» هو يوم القيامة،

محذوف تقديره: إنفاقاً خيراً، ومذهب سيئويه أنه نصب بإضمار فعل يدل عليه قوله تعالى: ﴿أَتَقْوُوا﴾.

وقرأ أبو حيوه: ﴿يُوقُ﴾ بفتح الواو، وشدّ القاف، وقرأ ابن عمر رضي الله عنهما: ﴿شُخَّ﴾ بكسر الشين، وتقدم تفسيره في سورة الحشر، وقال الحسن: نظرك إلى امرأة لا تملكها من الشُّخ، وقيل: يا رسول الله، ما يُدخل العبد النار؟ قال: ﴿شُخُّ مطاع، وهوى مُتَّبَع، وَجُنُّنُ هالِع، وإعجاب المرء بنفسه، ذكره النقاش، والحديث في المصنفات أن النبي ﷺ قال: «إذا رأيت شُخاً مُطاعاً وهوى مُتَّبِعاً وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فمليك بخونصة نفسك».

وقرأ جمهور السبعة: ﴿يُضَعِّفُهُ﴾، وقرأ ابن كثير وابن عامر: ﴿يُضَعِّفُهُ﴾، وذهب بعض العلماء إلى أن هذا الحَضُّ هو على أداء الزكاة المفروضة، وذهب آخرون منهم إلى أن الآية في المندوب إليه، وهو الأصح إن شاء الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ﴾ إخباراً بمجازاته تعالى على الشيء، وأنه يحط به عن شاء الله العظيم، لا ربّ غيره.

كامل تفسير سورة التغابن والحمد لله ربّ العالمين

إني أعوذ بك من مُضَلَّاتِ الفتن، وقال عمر لحذيفة رضي الله عنهما: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أحبّ الفتنة وأكره الحق، فقال عمر: ما هذا؟ قال: أحبّ ولدي وأكره الموت.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ تزهيد في الدنيا وترغيب في الآخرة.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

قال قتادة وفريق من الناس: إنّ قوله تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ ناسخ لقوله تعالى: ﴿اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾، ورؤي أن الأمر نزل بحقّ الثّقاة فشق ذلك على الناس حتى نزل ﴿مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾، وذهبت فرقة منهم أبو جعفر النحاس إلى أنه لا نسخ في الآيتين، وأن قوله تعالى: ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ مقصده: فيما استطعتم، ولا يُعقل أن يطبع أحدٌ فوق طاقته واستطاعته، فهذه على التأويل مُبَيَّنَةٌ لتلك، وتحتل هذه الآية أن تكون: فاتقوا الله مُدَّة استطاعتكم التقوى، وتكون ﴿مَا﴾ ظرفاً للزمان كله، كأنه يقول: حياتكم وما دام العمل ممكناً.

قوله تعالى: ﴿حَيْرًا﴾، ذهب بعض النحاة إلى أنه نصب على الحال، وفي ذلك ضعف، وذهب آخرون منهم إلى أنه نصب بقوله سبحانه: ﴿أَتَقْوُوا﴾، قالوا: والخير هنا المال، وذهب فريق آخرون منهم إلى أنه نعت لمصدر

محذرة من الأزواج والأولاد وفتنتهم، ثم صرف تعالى عن معاقبتهم بقوله تعالى: ﴿وَرَأَى تَمَفُّوًا وَنَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا﴾.

وقال بعض المفسرين: سبب الآية أن قوماً آمنوا بالله تعالى وثبّطهم أزواجهم وأولادهم عن الهجرة فلم يهاجروا إلا بعد مُدَّة، فوجدوا غيرهم قد تقهّ في الدين، فندموا وأسفوا وهُمّوا بمعاقبة أزواجهم وأولادهم.

ثم أخبر تعالى أن الأموال والأولاد فتنة تشغل المرء عن مرآشده، وتحمله من الرّغبة في الدنيا على ما لا يحمد في آخرته، ومنه قوله ﷺ: «الولد منخلَةٌ مخبئة»، وخزج أبو داود حديثاً في مصنفه أن رسول الله ﷺ كان يخطب يوم الجمعة حتى جاء الحسن والحسين رضي الله تعالى عنهما، وعليهما قميصان أحمران يجبرانهما، يَغْثران ويقومان، فنزل رسول الله ﷺ عن المنبر حتى أخذهما وصعد بهما، ثم تلا هذه الآية وقال: إني رأيت هذين فلم أصبر، ثم أخذ في خطبته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه ونحوها هي فتنة الفضلاء، فأما فتنة الجهال الفسقة فمؤدية إلى كل مهلكة، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: «لا يقولن أحدكم: اللهم اعصمني عن الفتنة، فإنه ليس يرجع أحد إلى أهلٍ ومالٍ إلا وهو مشتمل على الفتنة، ولكن ليقل: اللهم

وزيد بن علي، وجعفر بن محمد رضي الله عن الصحابة والتابعين: «في قُبُلِ عِدَّتِهِنَّ»، وروى عن بعضهم وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «لِقُبُلِ عِدَّتِهِنَّ»، أي: لاستقبالها، وروى ابن عمر القراءتين عن النبي ﷺ، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: «لِقُبُلِ طَهْرِهِنَّ».

ومعنى هذه الآية ألا يطلق أحد امرأته إلا في طهر لم يمسه فيه، هذا على مذهب مالك رحمه الله وغيره ممن قال: إن «الأقراء»: الأطهار، فيطلق عندهم المطلق في طهر لم يمسه فيه، وتعتد به المرأة ثم تحيض حيضتين تعتد بالطهر الذي بينهما، ثم تقيم في الطهر الثالث مُعْتَدَةً به، فإذا رأت أول الحيضة الثالثة حَلَّتْ، ومن قال بأن «الأقراء»: الحيض - وهم العراقيون - قال: «لِعِدَّتِهِنَّ» معناه: أن تطلق طاهراً فتستقبل ثلاث حيض كوامل، فإذا رأت الطهر بعد الثالثة حَلَّتْ، ويخف عند هؤلاء من في طهر الطلاق أو لم يمسه، وكذلك مالك يقول: «إن طلق في طهر قد مس فيه مضى الطلاق»، ولا يجوز طلاق الحائض لأنها تطول العدة عليها، وقيل: بل تَعْتَدُ، ولو علل بالتطويل لا ينبغي أن يجوز ولو رضيتها، والأصل في ذلك حديث ابن عمر رضي الله عنهما، قال: طلقْتُ امرأتي وهي حائض، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فقال لِعُمَرَ: «مُرُوهُ» فليراجعها ثم ليُنْسِكها حتى تطهر ثم تحيض ثم تطهر ثم يطلقها إن شاء،

إفراد إلى مخاطبة جماعة، وهذا موجود، وقال آخرون منهم: إن في نداء النبي ﷺ أريدت أمته معه، فلذلك قال تعالى: «طَلَّقْتُمْ»، وقال آخرون منهم: إن المعنى: يأتيها النبي قل لهم: إذا طلقتم، وقال آخرون: إنه من حيث يقول الرجل العظيم: «فعلنا، وَضَعْنَا»، خوطب النبي ﷺ في هذه بـ «طَلَّقْتُمْ» إظهاراً لتعظيمه، وهذا على نحو قوله تعالى في عبدالله بن أبي: «هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ»

إذا كان قوله مما يقوله جماعة، فكذلك النبي ﷺ في هذه الآية ما يُخاطب به فهو خطاب لجماعة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والذي يظهر لي في هذا أنهما خطابان مفترقان، خوطب النبي ﷺ على معنى تنبيه لسماع القول وتلقي الأمر، ثم قيل له: «إِذَا طَلَّقْتُمْ»، أي: أنت وأمتك، فقوله تعالى: «إِذَا طَلَّقْتُمْ» ابتداء كلام كما لو ابتداء السورة به، وطلاق النساء حل عِضْمَتِهِنَّ، وصورة ذلك وتنوعه مما لا يختص بالتفسير.

وقوله تعالى: «فَطَلَّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ»، أي: لاستقبالها وقوامها وتقريبها عليهن. وقرأ عثمان، وابن عباس، وأبي بن كعب، وجابر بن عبدالله، ومجاهد، وعلي بن الحسين،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ وَاتَّقُوا اللَّهَ رَبَّكُمْ لَا تَخْرُجُوهُنَّ مِنْ بُيُوتِهِنَّ وَلَا يَخْرُجْنَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِغَشِيَّةٍ مُّبِينَةٍ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُعَدِّدْ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ لَا تَدْرِي لَعَلَّ اللَّهُ يَجْعِلُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا ﴿١﴾ فَإِذَا بَلَغَ الْأَجَلُ مِنْ قَامَسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارُقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَأَشْهِدُوا ذَوَى عَدْلٍ مِنْكُمْ وَأَقِيمُوا الشَّهَادَةَ لِلَّهِ ذَلِكَ كُمْ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَبَلِّغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾ وَالَّتِي يُبَيِّنُ مِنَ الْمُحْضِنِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ وَرَثْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَالَّتِي لَمْ يَحْضَنْ وَأُولَئِكَ الْأَحْمَالُ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا ﴿٤﴾ ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْنَا وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَسَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴿٥﴾

تفسير سورة الطلاق

وهي مدنية بإجماع من أهل التفسير.

﴿١﴾ - ﴿٣﴾ تفسير قوله عز وجل: الطلاق على الجملة مكروه لأنه تبديد شمل في الإسلام، وروى أبو موسى الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «لا تطلقوا النساء إلا من ربية، فإن الله لا يحب الذواقين ولا الذواقات»، وروى أنس عنه عليه الصلاة والسلام قال: «ما حلف بالطلاق ولا استحلف به إلا منافق».

واختلف في البداية بالنبي ﷺ ثم قوله تعالى بعد ذلك: «طَلَّقْتُمْ» - فقال بعض النحويين - حكاة الزهراوي -: ذلك خروج من مخاطبة

فتلك العِدَّة التي أمر الله تعالى بها أن يُطَلَّقَ لها النساءُ، وروى حذيفة أنه عليه الصلاة والسلام قال: «طَلَّقُوا الْمَرْأَةَ فِي قُبُلِ طَهْرِهَا»، ثم أمر تعالى بإحصاء العِدَّة لما يلحق ذلك من أحكام الرِّجعة والسُّكنى والميراث وغير ذلك.

ثم أخبر تعالى بأنهن أحق بسُّكنى بيوتهن التي طُلِّقن فيها، فنهى عن إخراجهن وعن خروجهن، وسُنَّة ذلك ألا تبيت المرأة المطلقة «بعيدة» عن بيتها ولا تغيب عنه نهياً إلا في ضرورة وما لا خطب له من جائز التصرف، وذلك لحفظ النسب والتحرز بالنساء، فإن كان البيت ملكاً للزوج أو بكراءٍ منه فهذا حكمه، فإن كان لها فعليه الكراء، فإن كان قد امتعته مدة الزوجية ففي لزوم خروج العدة له قولان في المذهب: للزوج رعاية لانفصال مكارمة النكاح، والسقوط من أجل أن العِدَّة من سبب النكاح.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: «إِلَّا أَنْ يَأْتِيَنَّ بِدَعْوَةٍ مُّبَيِّنَةٍ» - فقال قتادة، والحسن، ومجاهد: ذلك الرُّزنى، فيخرجن للحدِّ، وهو قول الشعبي، وزيد بن أسلم، وحماد، والليث. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ذلك البِدَاءُ على الأحماء، فتخرج ويسقط حقها في السُّكنى، وتلزم الإقامة في مسكن تتخذه حفظاً للنسب، وفي مصحف أبي بن كعب رضي الله عنه: «إِلَّا أَنْ يَفْحَشْنَ عَلَيْكُمْ»، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الفاحشة جميع المعاصي، فمتى

سُرقت أو زنت أو أُربت في تجارة أو غير ذلك فقد سقط حقها في السُّكنى، وقال ابن عمر، والسُّدي: الفاحشة الخروج عن البيت خروج انتقال، فمتى فعلت ذلك سقط حقها في السُّكنى، وقال قتادة أيضاً: المعنى: أن يأتين بفاحشة في نشوز عن الزوج فيطلق بسبب ذلك فلا يكون عليه سُّكنى، وقال بعض الناس: الفاحشة متى وردت معرفة في الرُّزنى، ومتى جاءت منكورة فهي في المعاصي، فمرة يراد بها سوء عِشرة الزوج ومرة غير ذلك.

وقرأ عاصم: «مُبَيِّنَةٍ» بفتح الياء المشددة، تقول: بأن الأمرُ ويبيِّنته على التضعيف على التعدية، وقرأ الجمهور بكسرهما، تقول: بأن الأمرُ ويبيِّن بمعنى واحد، إلا أن التضعيف للمبالغة، ومن ذلك قولهم: قد بيَّن الصُّبْحُ لذي عينين.

وقوله تعالى: «وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ» إشارة إلى جميع أوامره في هذه الآية، وقوله سبحانه: «لَعَلَّ اللَّهُ يُخَيِّدُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا»، قال قتادة وغيره: يريد به الرِّجعة، أي: أخصوا العِدَّة، وامثلوا هذه الأوامر المثقفة لسائكم، الحافظة لأسابكم، وطلِّقوا على السُّنَّة، تجدوا المخلص إن ندمتم، فإنكم لا تدرن لعلَّ الرِّجعة تكون بعد، والإحداث هنا بيِّن التوجيه، عبارة عما يوجد من التراجع، وجوز قوم أن يكون المعنى: أمراً من السُّخ، وفي ذلك بُعد.

وقوله تعالى: «فَإِذَا بَلَغَ أَجْلَهُنَّ» يريد به آخر القُرء، و«الإمساكُ

بالْمَعْرُوفِ» هو حُسْنُ العِشْرَةِ في الإنفاق وغير ذلك، و«المُفَارَقَةُ بِالْمَعْرُوفِ» هي أداء المهر والمتعة ودفع جميع الحقوق والوفاء بالشروط وغير ذلك حسب نازلة نازلة، وقوله تعالى: «وَأَشْهُدُوا ذَوَى عَدْلٍ بَيْنَكُمْ» يريد: على الرِّجعة، وذلك شرط في صحة الرِّجعة، وللمرأة منع الزوج من نفسها حتى يُشْهَد، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المراد: على الرِّجعة وعلى الطلاق؛ لأن الإشهاد يرفع من التوازل إشكالات كثيرة، وتُقَيِّد تاريخ الإشهاد من الإشهاد، وقال التَّحْمِي: العَدْلُ مَنْ لم تظهر منه ربية، وهذا قول الفقهاء، والعَدْلُ حقيقة الذي لا يخاف إلا الله تعالى، وقوله سبحانه: «وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ لِلَّهِ» أمرٌ للشهود، وقوله تعالى: «ذَلِكُمْ يُوعَظُ بِهِ» إشارة إلى إقامة الشهادة، وذلك أن جميع فصول الأحكام والأمور فإنما تدور على إقامة الشهادة.

قوله تعالى: «وَمَنْ يَتَى اللَّهَ بِغَمَلٍ لَّهُ بَحْرَمًا وَبِرِزْقِهِ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْسَبُ»، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكثير من المتأولين: هو في معنى الطلاق، أي: ومن لا يتعدى في طلاق السُّنَّة إلى طلاق الثلاث وغير ذلك يجعل الله له مخرجاً إن ندم بالرِّجعة، ويرزقه ما يطعم أهله، ويوسع عليه، ومن لا يتق الله فربما طلق وتبَّ وندم فلم يكن له مخرج، وزال عنه رزق زوجته، وقد فسَّر ابن عباس رضي الله عنهما نحو هذا، فقال لمُطَلِّقٌ ثلاثاً: إنك لم تتق الله تعالى، فبانت منك امرأتك ولا أرى

﴿بَلِّغْ﴾، ورويت عن أبي عمرو، والأعمش، وهي قراءة طلحة بن مصرف. وقرأ جمهور الناس: ﴿قَدْرًا﴾ بسكون الدال، وقرأ بعض القراء: ﴿قَدْرًا﴾ بفتح الدال، وهذا كله حُضٌّ على التوكل.

(١) - (٧) تفسير قوله عز وجل:

«الأنبي» هو جمع ذات فيما حكى أبو عبيدة، وهو ضعيف، والذي عليه الناس أنه جمع «التي»، وقد يجيء جمعاً لـ «الذي»، واليائسات من المحيض على مراتب، فيأثمة هو أول يأسها فهذه ترفع إلى السئة ويبقيها الاحتياط على حكم من ليست بيأثمة لأنها لا تدري لعل الدم يعود، ويأثمة قد انقطع عنها الدم لأنها طعنت في السن ثم طُلقت وقد مرت عاداتها بانقطاع الدم إلا أنها ممن يخاف أن تحمل نادراً، فهذه التي في الآية على أحد التأويلين في قوله تعالى: ﴿إِنْ آرَبْتَهُ﴾ وهو قول من جعل الارتباب بأمر الحول، وهو الأظهر، ويأثمة قد هرمت حتى تيقن أنها لا تحمل، فهذه ليست في الآية لأنها لا ترتاب بحملها، لكنها في حكم الأشهر الثلاثة إجماعاً فيما علمت، وهي في الآية على تأويل من يرى أن قوله تعالى: ﴿إِنْ آرَبْتَهُ﴾ معناه في حكم اليائسات، وذلك أنه روى إسماعيل بن أبي خالد أن قوماً منهم أي بن كعب رضي الله عنه، وخلاد بن النعمان لما سمعوا قول الله تعالى: ﴿وَالكَلْفَنُتْ

المرضي، وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هذه أكثر الآيات حُضًّا على التفويض، وروي أن رجلاً قال لِعُمَر رضي الله عنه: ولني ميثاً ولأك الله تعالى، فقال له عمر: أنتقرأ القرآن؟ قال: لا، قال عمر: فإني لا أولي من لا يقرأ القرآن، فتعلم الرجل رجاء الولاية، فلما حفظ كثيراً من القرآن تخلف عن عمر، ثم لقيه يوماً فقال له عمر رضي الله عنه: ما أبطأ بك؟ قال: تعلمت القرآن فأغناني الله عن

عمر وعن بابه، ثم قرأ هذه الآية من هذه السورة.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ بيان وحضٌّ على التوكل، أي: لا بد من نفوذ أمر الله تعالى توكلت أيها المرأة أم لم تتوكل، قاله مسروق، فإن توكلت كفاك وتعجلت الراحة والبركة، وإن لم تتوكل وكلت إلى عجزك وتسخطك، وأمره عز وجل في الوجهين نافذ.

وقرأ داود بن أبي هند - ورويت عن أبي عمرو -: ﴿بَلِّغُ أَمْرَهُ﴾ برفع الأمر، وحذف مفعول تقديره: بالغ أمره ما شاء، وقرأ جمهور السبعة، والناس: ﴿بَلِّغُ أَمْرَهُ﴾ ب نصب الأمر، وقرأ حفص والفضل عن عاصم: ﴿بَلِّغُ أَمْرِهِ﴾ على الإضافة وترك التنوين في

سورة الطلاق

سورة الطلاق

أَسْكُونَهُمْ مِنْ حَيْثُ سَكَنْتُمْ مِنْ وَبَدِكُمْ وَلَا نَضَاءَ لَكُمْ فِي النَّبَاتِ وَالَّذِينَ يُضَيِّقُونَ عَلَيْهِمْ وَإِنْ كُنْ أَوْلَتْ حِمْلًا فَايْقِنُوا عَلَيْهِمْ حَتَّى يَبْضَعْنَ حَمْلَهُنَّ فَإِنْ أَضْمَعْنَ لَكُمْ قَوْلًا مَوْعُودًا فَاصْبِرُوا حَتَّى تَضَعُوا حَمْلَهُنَّ وَإِنْ تَعَاَسَرْتُمْ فِئَتَيْكُمْ لِكُلِّ أُخْرَىٰ ﴿١﴾ لِيُنْفِقَ ذُو سَعْوَةٍ مِنْ سَعْوَةٍ وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ وَمَا أَلَمْنَا لَكَ الْكَلْفَ اللَّهُ نَقَسًا إِلَّا مَاءً أَنْهَأَ سَيْعَكَ اللَّهُ يَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٢﴾ وَكَانَ مِنْ قَرِيبٍ عِنْدَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرَسُولِهِ وَمَا سَبَّهَابَهَا حِسَابًا شَدِيدًا وَعَدْبَتَهَا عَدَابًا كَثِيرًا ﴿٣﴾ فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خَيْرًا ﴿٤﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا أَفَأَنْقَضُوا اللَّهَ يَأْتِي الْأَنْبِيَاءَ آمِنًا ﴿٥﴾ قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَهُكُمْ ذِكْرًا ﴿٦﴾ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِتُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُمِيسَاتٍ لِيُخْرِجَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لِرَبِّهِ رِزْقًا ﴿٧﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمَنْ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَنْزِلُ الْأَمْزُجَاتِ مِنْ لَعَلَّكُمْ أَنَّ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٨﴾

لك مخرجاً، وقال ابن عباس أيضاً: معنى ﴿يَجْعَلُ اللَّهُ بِحَرَجًا﴾: يخلصه من كرب الدنيا والآخرة، واختلفت ألفاظ رواة هذه القصة عن ابن عباس رضي الله عنهما، لكن هذا هو المعنى.

وقال بعض رواة الآثار: نزلت هذه الآية في عوف بن مالك الأشجعي، وذلك أنه أسر ولده، وقدر عليه، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فأمره بالتقوى، فقيل: لم يلبث أن تَفَلَّت ولده، وأخذ قطع غنم للقوم الذين أسروه، وجاء أباه، فسأل عوف رسول الله ﷺ: أتطيب له تلك الغنم؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم، ونزلت الآية في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ الآية كلها عظة لجميع الناس، و«الحسب»: الكافي

بَرَّصَتْ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ﴿٨﴾ قالوا: يا رسول الله، فما عِدَّةٌ من لا قُرَّةَ لها من صِغَرٍ أو كِبَرٍ؟ فنزلت هذه الآية، فقال قائلٌ منهم: فما عِدَّةُ الحامل؟ فنزلت ﴿وَأَوْلَتْ أَلْحَالِ أَبْلَاهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ﴾، وقد تقدّم ذكر الخلاف في تأويل ﴿إِنْ أَرَبْتُمْ﴾.

و «أولات» جمع ذات، وأكثر أهل العلم على أن هذه الآية تعم الحوامل المطلقات والمعتدات من الوفاة، والحجّة حديث سُبَيْعَةَ الأَسْلَمِيَّةِ، قالت: «كنت تحت سعد بن خولة، فتوفي في حَجَّةِ الوداع»، ووضعت حملها قبل أربعة أشهر، فقال لها النبي ﷺ: «قد حَلَلْتَ»، وأمرها أن تتزوج. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: نزلت سورة النساء الفُصْرَى بعد الطُولَى، يعني أن قوله تعالى: ﴿وَأَوْلَتْ أَلْحَالِ أَبْلَاهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمَلَهُنَّ﴾ نزل بعد قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَتُوفَوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَرِيضَنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾، وقال علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهم: إنما هذه في المطلقات، وأمّا في الوفاة فعِدَّةُ الحامل آخر الأجلين، فإن وضعت قبل أربعة أشهر وعشر تمادت إلى آخرها، والقول الأول، أشهر، وعليه الفقهاء، وقرأ الضحّاك: ﴿أَحْمَالَهُنَّ﴾ على الجمع.

وأمر الله تعالى إسكان المطلقات، ولا خلاف في التي لم تُبْتِ، وأمّا الْمُبْتُوتَةُ فَمَالِكٌ رحمه الله تعالى يرى لها السكنى لمكان حفظ النسب، ولا يرى لها نفقة لأن

النفقة بإزاء الاستمتاع، وهو قول الأوزاعي، والشافعي، وابن أبي ليلى، وأبي عُبَيْدٍ، وابن المسيّب، وعطاء، والشَّعْبِي، وسليمان بن يسار. وقال أصحاب الرأي والشُّورَى: لها السكن والنفقة، وقال جماعة من العلماء: ليس لها سَكْنَى ولا نفقة.

و «الْوُجْدُ»: السَّعَةُ في المال، وضُمُّ الواو وفتحها وكسرها هي كلها بمعنى واحد، وقرأ الجمهور: ﴿وَبَيْدِكُمْ﴾ بضم الواو بمعنى السَّعَةُ في الحال، وقرأ الأعرج - فيما ذكر عِضْمَةَ -: ﴿وَوَجِدِكُمْ﴾ بفتح الواو، وذكرها أبو عمرو عن الحسن، وأبي حنيفة، وقرأ الفيّاض بن غزوان، ويعقوب بكسر الواو، وذكرها المهدي عن الأعرج، وعمرو بن ميمون.

وأما الحامل فلا خلاف في وجوب سكنائها ونفقتها، بُتَّتْ أو لم تُبْتِ؛ لأنها مُبْتَنِيَّةٌ في الآية، واختلفوا في نفقة الحامل المتوفى عنها زوجها على قولين لعلماء الأمة، فمنعها قوم، وأوجبها في التركة قوم، وكذلك النفقة على المرضع واجبة وهي الأجر مع الكسوة وسائر المؤن التي يَسْتُطْعَمُها في كتب الفقه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْتُمْ رَأَى بَيْنَكُمْ بِمَرْوَةٍ﴾، أي: ليأمر كل واحد صاحبه بخير، ولا شك أن من أمر بخير فهو أسرع إلى فعل ذلك الخير، وليقبل كل أحد ما أمر به من المعروف فالقبول والامتثال هو الائتمار، وقال الكسائي: ﴿وَأَنْتُمْ رَأَى﴾ معناه: تشاوروا، ومنه قوله تعالى:

﴿إِنَّكَ أَلَمَّا بِاتُّمِرُونَ بِنِكَ يُقْتُلُوكَ﴾، ومنه قول امرئ القيس:

وَوَعْدُو عَلَى الْمَرْءِ مَا يَأْتِمِرُ
وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَقَاتَرْتُمْ﴾ أي: تشططت المرأة في الحد الذي يكون أجرة على الرضاع فليلزوج أن يسترضع أخرى بما فيه رفقه، إلا إن لم يقبل المولود غير أمه فتجبر حيثد على رضاعه بأجرة مثلها ومثل الزوج في حالهما أو غناهما. ثم حض الله تعالى أهل الجدة على الإنفاق وأهل الإقتار على التوسط، كل بقدر حاله، وهذا هو العدل بينهم لئلا تضيع هي ولا يتكلّف هو ما لا يطيق.

واختلف العلماء في الذي يعجز عن نفقة امرأته - فقال مالك، والشافعي، وأحمد، وإسحق، وأبو هريرة، وابن المسيّب، والحسن - يُفْرَقُ بينهما، وقال أصحاب الرأي، وعمرو بن عبدالعزيز رضي الله عنه، وجماعة: لا يُفْرَقُ بينهما، ثم رجى تعالى باليسر تسهياً على النفوس وتطبيعاً لها.

وقرأ الجمهور: ﴿وَتَعْظِيمَ﴾ بالياء، وقرأ الأعمش: ﴿وَتَعْظِيمَ﴾ بالنون، واختلف عنه.

﴿٨﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿كَأَيِّنَّ﴾ هي كاف الجر دخلت على «أي»، وهذه قراءة الجمهور، وقرأ ابن كثير، وعُبَيْدٌ عن أبي عمرو: ﴿وَكَايِّنَ﴾ ممدودة مهموزة، كما قال الشاعر:

وَكَايِّنَ بِالْأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقِ

وقرأ بعض القراء: ﴿وَكَايِنٍ﴾ بتسهيل الهمزة، وفي هذين الوجهين قلب؛ لأن الياء قبل الألفات. و«الْعُتُوُّ»: تزك الانتمار والقبول.

وقوله تعالى: ﴿فَمَاسَبَّتْهَا﴾ قال بعض المتأولين: الآية في الآخرة، أي: ثم هو الحساب والتعذيب والذوق وخسارة العاقبة، وقال آخرون: ذلك في الدنيا، ومعنى ﴿فَمَاسَبَّتْهَا حِسَابًا سَدِيدًا﴾ لم نعتز لهم زلة بل أخذوا بالدقائق من الذنوب. وقرأ نافع، وأبو بكر، وابن ذكوان: ﴿نُكْرًا﴾ بضم الكاف، وأسكنها الباقون، وهي قراءة عيسى، وقوله تعالى: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ عَذَابًا سَدِيدًا﴾ يظهر منه أنه بيان لوجه خسران عاقبتهم، فيتأبد بذلك أن تكون المحاسبة والتعذيب والذوق في الدنيا.

ثم ندب تعالى أولي الأبواب إلى الثقوى تحذيراً، وقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ صفة لـ «أولي الأبواب»، وقرأ نافع، وابن عامر: ﴿فَنُدْخِلُهُ﴾ بالنون، وكذلك روى المفضل عن عاصم، وقرأ الباقون بالياء، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَرْزَلَهُ اللَّهُ إِلَيْكَ ذِكْرًا رَسُولًا﴾، اختلف الناس في تقرير ذلك - فقال قوم من المتأولين: المراد بالاسمين القرآن، و«رَسُولًا» بمعنى رسالة، وذلك موجود في كلام العرب، وقال آخرون: ﴿رَسُولًا﴾ نعت أو كالتعت لقوله سبحانه: ﴿ذِكْرًا﴾،

فالمعنى: ذكراً ذا رسول، وقيل: «الرسول» ترجمة عن «الذكر» كأنه بدل منه، وقال آخرون: المراد بهما جميعاً محمد ﷺ، والمعنى: ذا ذكر رسولاً، وقال بعض خُذَّاق المتأولين: الذكرُ اسمٌ من أسماء الرسول عليه الصلاة والسلام، واحتج بهذه القاضي أبو بكر الباقلاني في تأويل قوله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِّنْ ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِمْ مُّحَدِّثٍ﴾، وقال بعض النحاة: معنى الآية: ذكراً بعث رسولاً، فهو منصوب بإضمار فعل، وقال أبو علي الفارسي: يجوز أن يكون ﴿رَسُولًا﴾ معمولاً للمصدر الذي هو الذكر.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأبين الأقوال عندي معنى أن يكون «الذكر» القرآن، و«الرسول» مُحَمَّدًا ﷺ، والمعنى: بعث رسولاً، لكن الإيجاز اقتضى اختصار الفعل الناصب للرسول، ونحا هذا المنحى السُّدي.

وقرأ نافع، وابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر: ﴿مُبَيِّنَاتٍ﴾ بفتح الياء، وقرأها بكسر الياء ابن عامر، وحفص، وحمزة، والكسائي، والحسن، والأعمش، وعيسى. وسائر الآية بيِّن، والرزق المشار إليه رزق الجنة لدوامه ودُورِهِ.

﴿٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

لا خلاف بين العلماء أن السموات سبع لأن الله تعالى قال: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾، وفسر

رسول الله ﷺ أمرهن في حديث الإسراء، وقال عليه الصلاة والسلام لسعد رضي الله عنه: «حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع أرقعة»، ونطقت بذلك الشريعة في غير ما موضع، وأما الأرض فالجمهور على أنها سبع أرضين، وهو ظاهر هذه الآية، وأن المماثلة إنما هي في العدد، ويستدل بقول رسول الله ﷺ: «من غصب شبراً من أرض طُوقه من سبع أرضين»، إلى غير هذا ممّا وردت به روايات، وروي عن قوم من العلماء أنهم قالوا: الأرض واحدة، وهي مماثلة لكل سماء بانفرادها في ارتفاع جرمها، وفي أن فيها عالماً يعبد، كما في كل سماء عالم يعبد.

وقرأ الجمهور: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ بالنصب، وقرأ عاصم: ﴿مِثْلَهُنَّ﴾ بالرفع، و«الأمر» هنا الوحي وجميع ما يأمر به تعالى من يعقل ومن لا يعقل، فإن الرياح والسحاب وغير ذلك مأمور كله، وباقي السورة حُضَّ على توحيد الله تعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ اللَّهُ عَنِّي كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم معناه الخصوص، وقوله تعالى: ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ عموم على إطلاقه.

كامل تفسير سورة الطلاق والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة التحريم

وهي مدنية بإجماع من أهل العلم
بلا خلاف.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

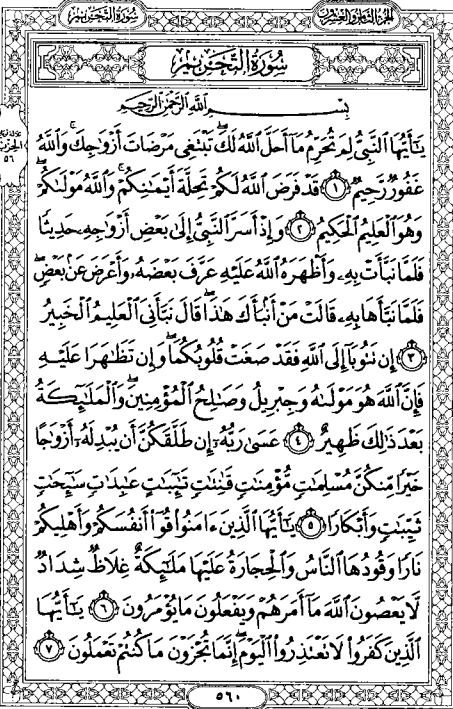
رُوي في الحديث عن زيد بن أسلم والشعبي وغيرهما ما معناه أن رسول الله ﷺ لما أهدى إليه المقوقس مارية القبطية اتخذها سُرْبِيَّةً، فلما كان في بعض الأيام وهو يوم حفصة بنت عمر رضي الله عنهما - وقيل: بل كان في يوم عائشة رضي الله عنها - جاء رسول الله ﷺ إلى بيت حفصة فوجدها قد مَرَّتْ لزيارة أبيها، فبعث رسول الله ﷺ في جاريته، فَقَالَ معها، فجاءت حفصة فوجدتها، فأقامت خارج البيت حتى أخرج رسول الله ﷺ مارية وذهبت، فدخلت حفصة غَيْرِيَّةً متغيرة، فقالت: يا رسول الله، أما كان في نسائك أهون عليك مني؟ أفي بيتي وعلى فراشي؟ فقال لها رسول الله ﷺ مترضياً لها: «أيرضيك أن أحرمتها؟» قالت: نعم، فقال: «إني قد حرمتها»، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وقال مع ذلك: «والله لا أطؤها أبداً»، ثم قال: «لا تخبري بها أحداً»، فمن قال: إن ذلك كان في يوم عائشة قال: استكتمها خوفاً من غضب عائشة، وحسن عشرة لها، ومن قال: بل كان في يوم حفصة قال: استكتمها لنفس الأمر، ثم إن حفصة

قرعت الجدار الذي كان بينها وبين عائشة رضي الله عنهما لتبشرها بالأمر، ولم ترى في إفشائه إليها حرجاً، واستكتمتها، فأوحى الله بذلك إلى نبيه ﷺ، ونزلت الآية.

وروي عن عكرمة أن هذا نزل بسبب أم شريك التي وهبت نفسها للنبي ﷺ، وذكر النقاش نحوه عن ابن عباس رضي الله عنهما. وروي عبيد بن عمير عن عائشة رضي الله عنها أن هذا التحريم المذكور في الآية

إنما هو بسبب الشراب العسل الذي شربه عند زينب بنت جحش، فتمالأت عائشة وحفصة وسودة على أن تقول له من دنا منها: أكلت مغافير - والمغافير ضمغ العُرْفُظ - وهو حلؤ ثقيل الريح، ففعلن ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «لا، ولكني شربت عسلاً»، فقلن له: جَرَسَتْ نحلته العُرْفُظ، فقال رسول الله ﷺ: «لا أشربه أبداً»، وكان يكره أن توجد منه رائحة ثقيلة، فدخل - بعد ذلك - على زينب رضي الله عنها فقالت له: ألا نسقيك من ذلك العسل؟ فقال: «لا حاجة لي به»، قالت عائشة رضي الله عنها: تقول سُودَةُ حين بلغها امتناعه: والله لقد حرمتها، قلت لها: اسكتي.

والقول الأول - أن الآية نزلت بسبب مارية - أصح وأوضح، وعليه



تفقه الناس في الآية، وحتى حرّم الرجل مالا أو جارية دون أن يعتق أو يشترط عتقا أو نحو ذلك فليس تحريمه بشيء، واختلف العلماء إذا حرّم زوجته بأن يقول: «أنت علي حرام» أو: «الحلال علي حرام»، ولا يستثنى زوجته - فقال مالك: هي ثلاث في المدخول بها، وينوي في غير المدخول بها، فهو ما أراد من واحدة أو اثنتين أو ثلاث، وقال عبد الملك بن الماجشون: هي ثلاث في الوجهين، ولا ينوي في شيء، وقال أبو المصعب وغيره - ورواه ابن خُوَيْرٍ منداد عن مالك -: إنها واحدة بائنة في المدخول بها، وروي عن عبد العزيز بن الماجشون أنه قال: يحتملها على واحدة رجعية، وقال غير واحد من أهل العلم: التحريم لا شيء، وإنما عاتب الله رسوله ﷺ

فيه وذله على تجلّة اليمين المبينة في المائدة لقوله: «قد حرّمها والله لا أطؤها أبداً»، وقال مسروق: ما أبالي أحرّمها أو قصعة من ثريد، وكذلك قال الشعبي: «ليس التحريم بشيء»، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتَكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَلٌ وَهَذَا حَرَامٌ﴾، وقال تعالى: ﴿لَا تَحْرَمُوا طَيِّبَاتٍ مَّا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ﴾، ومحرّم زوجته قد سمى حراماً ما جعله الله حلالاً، وحرّم ما أحلّ الله له، وقال أبو بكر الصديق، وعمر الفاروق، وابن مسعود، وابن عباس، وعائشة، وابن المسيّب، وعطاء، وطاوس، وسليمان بن يسار، وابن جُبَيْر، وقتادة، وأبو ثور الأوزاعي، والحسن، وجماعة: التحريم يلزم فيه تكفير يمين بالله تعالى، والتجلّة إنما هي من أجل التحريم، ولم يقل رسول الله ﷺ: «والله لا أطؤها»، وقال أبو قلابة: «التحريم ظهار»، وقال أبو حنيفة، وسفيان، والكوفيون: «هو ما أراد من الطلاق، فإن لم يرد بذلك طلاقاً فهو لا شيء»، وقال آخرون: «هو ما أراد من الطلاق، فإن لم يرد طلاقاً فهي يمين».

ودعا الله تعالى نبيه ﷺ باسم النبوة الذي هو دال على شرف منزلته وعلى فضيلته التي خصّه بها دون البشر وقدره، كالمعاتب على سبب تحريمه على نفسه ما أحلّ الله تعالى له.

وقوله تعالى: ﴿يَتَنَبَّأُ مَرَضَاتٍ أَرْزَأِيكَ﴾ جملة في موضع الحال من الضمير الذي في ﴿حَرَمٌ﴾،

و«المَرَضَاتُ» مصدر كالرَضَى، ثم غفر له تعالى ما عاتبه فيه ورجمه.

وقوله تعالى: ﴿مَقَدَّرَ وَضَّ اللَّهُ﴾ أي: بيّن وأثبت، وقال قوم من أهل العلم: هذه إشارة إلى تكفير التحريم، وقال آخرون: هي إشارة إلى تكفير اليمين المقترنة بالتحريم. و«التجّلّة» مصدر، وزنها «تفعّلّة»، وأدغم لاجتماع المثليين، وأحال في هذه الآية على الآية التي فسّر فيها الإطعام في كفارة اليمين بالله تعالى، و«المؤلّي»: المؤالي الناصر العاضد.

وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى أَسْرَ النَّبِيِّ﴾ الآية معناه: اذكر يا محمد ذلك على وجه التأنيب والعتب لهن، وقال الجمهور: «الحديث» هو قوله ﷺ في أمر مارية، وقال آخرون: إنما هو قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما شربت عسلاً»، و«بغض أزواجه» هي حفصة رضي الله عنها، و«نبتات» معناه: أخبرت، وهذه قراءة الجمهور، وقرأ طلحة: «أنتأت»، وكان إخبارها لعائشة رضي الله عنها، وهذا نحوه هو التظاهر الذي عوتبنا فيه، وقال ميمون بن مهران: الحديث الذي أسرّ إلى حفصة أنه قال لها: وأبشري بأن أبا بكر وعمر يملكان أمر أمتي من بعدي خلافة. وتعدّت «نبتاً» في هذه الآية مرة إلى مفعولين ومرة إلى واحد لأن ذلك يجوز في أنبأ ونبتاً إذا كان دخولهما على غير الابتداء والخبر، فمتى دخلت على الجملة تعدّت إلى ثلاثة مفاعيل، ولا يجوز الاقتصار، وقوله سبحانه: ﴿وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ﴾ أي: أطلعه.

وقرأ الكسائي وحده، وأبو عبد الرحمن، وطلحة، والحسن، وقتادة: ﴿عَرَفَ﴾ بتخفيف الراء، وقرأ الباقون وجمهور الناس: ﴿عَرَفَ﴾ بشدها، والمعنى في اللفظة مع التخفيف: جاري بالعتب واللوم، كما تقول لإنسان يؤذيك: قد عرفت لك هذا، ولأعرفن لك هذا، بمعنى: لأجازيتك عليه، ونحوه في المعنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْكَ الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ﴾ فعلم الله تعالى زعيم بمجازاتهم، وكذلك معرفة النبي ﷺ، والمعنى مع الشد في الراء: أعلم به وأبئت عليه، وقوله تعالى: ﴿وَأَعْرِضْ عَنْ بَعْضِ﴾ أي: تكزماً وحياءً وحسن عشرة، قال الحسن: ما استقصى كريم قط، وروي أن رسول الله ﷺ طلق حينئذ حفصة رضي الله عنها، ثم إن الله تعالى أمره بمراجعتها، وروي أن رسول الله ﷺ عاتبها ولم يطلقها، فلما أخبر رسول الله ﷺ بالخبر وأنها أفسحته إلى عائشة ظنت أن عائشة فضحتها، فقالت: «من أنتأك هذا؟» على جهة التثبّت، فلما أخبرها أن الله تعالى أخبره سكتت وسلمت.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

المخاطبة بقوله تعالى: ﴿إِن نُّوَبِّأُ إِلَى اللَّهِ﴾ هي لحفصة وعائشة رضي الله عنهما، وفي حديث البخاري وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قلت لعمر: من اللتان تظاهرتا على رسول الله ﷺ؟ قال: حفصة

وعائشة، وقوله تعالى: ﴿فَقَدَّ صَعَتَ قُلُوبِكُمْ﴾ معناه: مالت عن المعذلة والصواب، والصَّعَا: الميل، ومنه صاغية الرجل، وهم حواشيته الذين يميلون إليه، ومنه: أضعى إليه بسمعه، وأضعى الإناء، وفي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿فقد زاغت قلوبكم﴾، والزَّيغُ: الميل، وعزفه في خلاف الحق، قال مجاهد: كنا نرى «صَعَت» شيئاً هيناً حتى سمعنا قراءة ابن مسعود: ﴿زَاغَتْ﴾، وجمع القلوب من حيث الاثنان جَمْعٌ، ومن حيث لا لَيْسَ في اللفظ، وهذا نظير قول الشاعر:

ظَهَرَاهُمَا مِثْلَ ظُهُورِ التُّرْسَيْنِ
ومعنى الآية: إن تَبَتُّمَا فقد كان منكما ما ينبغي أن يُتَابَ منه، وهذا الجواب الذي هو للشرط هو متقدم في المعنى، وإنما ترتب جواباً في اللفظ، و﴿وإن ظَهَرَ﴾ معناه: تتعاوننا، فأدغمت التاء في الظاء بعد البدل، وقرأ عكرمة، مولى ابن عباس بتأيين على الأصل، وقرأ الكوفيون، وطلحة، وأبو رجاء، والحسن بتخفيف الظاء على حذف التاء الواحدة، وروي عن أبي عمرو أنه قرأ بتشديد الظاء والهاء دون ألف، و﴿المؤلى﴾: الناصر والمعين. وقوله تعالى: ﴿وَجَبْرَيْلُ وَمَصْلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون عطفاً على اسم الله تعالى في قوله: ﴿هُوَ﴾، فيكون ﴿وَجَبْرَيْلُ وَمَصْلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ في الولاية، ويحتمل أن يكون ﴿وَجَبْرَيْلُ﴾ رفعا بالابتداء وما

بعده عطف عليه و﴿ظَهْرُ﴾ الخبر، فيكونون حينئذ من الظهر لا في الولاية، ويختص بأنه مولى الله سبحانه وتعالى.

واختلف الناس في «صالح المؤمنين» - فقال الطبري وغيره من العلماء: ذلك على العموم يدخل في ذلك كل صالح، وقال الضحاك، وابن جبير، وعكرمة: المراد أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، رواه ابن مسعود عن النبي ﷺ، وقال مجاهد نحوه، وقال أيضاً: وعلي رضي الله عنه، وروى علي رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «صالح المؤمنين علي بن أبي طالب»، ذكره الثعلبي، وقال قتادة، والعلاء بن زياد، وغيرهما: هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وإنما يترتب ذلك بأن تكون مظاهرتهم بأنهم قدوة وأسوة، فهو عونٌ بهذا المعنى. وقوله تعالى: ﴿وَصَلِحُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ يحتمل أن يكون اسم جنس مفرد، ويحتمل أن يريد: «وصالحوا» فحذفت الواو في خط المصحف كما حذفوها في قوله تعالى: ﴿سَنَعُ الرِّبَايَةَ﴾ وغير ذلك.

ويروى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، لا تكثر بأمير نساءك، والله معك وجبريل معك وأبو بكر معك وأنا معك، فنزلت الآية موافقة نحواً من قول عمر. قال المهدي: روي أن هذه الآية نزلت على لسان عمر رضي الله عنه، وكذلك روي

أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لزوجات النبي ﷺ: «عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن»، فنزلت الآية على نحو قوله، وقال عمر رضي الله عنه: قالت لي أم سلمة: «يا بن الخطاب أدخلت نفسك في كل شيء حتى دخلت بين الرسول ﷺ وبين نسائه»، فأخذتني أخذاً كسرتني به، وقالت لي زينب بنت جحش: يا عمر: أما يقدر رسول الله ﷺ أن يعظ نساءه حتى تعظن أنت؟

وقرأ الجمهور: ﴿طَلَّقَكُنْ﴾ بفتح القاف وإظهارها، وقرأ أبو عمرو - في رواية عباس عنه - بإدغامها في الكاف وشدها، قال أبو علي: وإدغام القاف في الكاف حسن، وقرأ ابن كثير، وابن عامر، والكوفيون، والحسن، وأبو رجاء، وابن محيصن: ﴿أَنْ يُبَدَّلَ﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال، وقرأ نافع، وأبو عمرو، والأعرج، وأبو جعفر: ﴿أَنْ يُبَدَّلَ﴾ بفتح الباء وشد الدال، وهذه لغة القرآن في هذا الفعل.

وكرر تعالى الصفات مبالغة وإن كان بعضها يتضمن بعضاً، فالإسلام إشارة إلى التصديق والعمل، والإيمان تخصيص وتنبية على شرف وقعه، و«قانتات» معناه: مطيعات، و«السَّانِحَات» قيل: معناه: صائمات، قاله أبو هريرة، وابن عباس، وقتادة، والضحاك، وذكر الزجاج أن النبي ﷺ قاله، وقيل: معناه: مهاجرات، قاله زيد بن أسلم، وقال ابن زيد: ليس في الإسلام سياحة إلا الهجرة، وقيل:

لربهم، وكَرَّرَ المعنى تأكيداً بقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ ما يقتضي أنهم يدخلون الكفار النار بجد واختيار ويغلظون عليهم، فكأنه قال بعد تقرير هذا المعنى: فيقال للكفار: «لَا تَعْتَدُوا الْيَوْمَ»، أي: أن المَعذرة لا تنفعكم، وإنما تجزون بأعمالكم، فلا تلموا إلا أنفسكم.

ثم أمر عباده بالتوبة، والتوبة فرض على كل مسلم، و«تاب» معناه: رجع، فتوبة العبد رجوعه من المعصية إلى الطاعة، وتوبة الله تعالى على العبد إظهار صلاحه ونعمته عليه في الهداية للطاعة، وقبول توبة الكافر يُقطع على الله تعالى بها إجماعاً من الأمة، واختلف الناس في توبة العاصي - فجمهور أهل السُّنة على أنه لا يُقطع بقبولها ولا ذلك على الله تعالى بواجب، والدليل على ذلك دعاء كل أحد من التائبين في قبول التوبة، ولو كان مقطوعاً بها لما كان للدعاء معنى في قبولها، وظواهر القرآن في ذلك هي كلها بمعنى المشيئة، وروي عن الحسن الأشعري أنه قال: التوبة إذا توافرت شروطها قطع الله تعالى بقبولها لأنه أخبر بذلك.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا تمسك بظواهر القرآن، وعلى هذا القول أطيقت المعتزلة، والتوبة: الندم على فإرط معصية، والعزم على ترك مثلها في المستقبل، هذا من الممكن، وأما غير المتمكن كالمجبوب في الزنى فالندم وحده يكفيه، والتوبة عبادة كالصلاة

وفي حديث آخر: «رحم الله رجلاً قال: يا أهلاً، صلاتكم، صيامكم، يتيمكم»، وقرأ الجمهور: ﴿وَوَدُّهَا﴾ بفتح الواو، وقرأ مجاهد، والحسن، وطلحة، وعيسى، والفياض بن غزوان، وأبو حيرة بضمها، وقيل: هما بمعنى، وقيل: الضم مصدر والفتح اسم، ويروى أن الحجارة هي حجارة الكبريت، وقد تقدم في البقرة، ويروى أنها جميع أنواع الحجارة، وفي بعض الحديث أن

عيسى ابن مريم عليه السلام سمع أتيماً بفلاة من الأرض، فنتعنه حتى بلغ إلى حجر يَبْرُزُ ويحزن، فقال له: ما لك أيها الحجر؟ قال: يا روح الله إني سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَوَدُّهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ فخفت أن أكون من تلك الحجارة، فعجب منه عيسى عليه السلام وانصرف، ويشبه أن يكون هذا المعنى في التوراة أو في الإنجيل، فذلك الذي سمع الحجر إذا غُبِرَ عنه بالعربية كان هذا اللفظ.

ووصف الملائكة بالغلظة معناه في القلوب والبطش الشديد والفظاظة، كما قال تعالى لنبية ﷺ: ﴿وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأُنْقَبُوا مِنْ حَوْلِكَ﴾، و«السُّدَّة»: القوة، وقيل: المراد شدتهم على الكفار فهي بمعنى الغلظة. ثم وصفهم تعالى بالطواعية

يَتَابِعُهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَتَّبِعُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ يَوْمَ تُرْهِمُ يُسْعَىٰ بَرَكًا أَيْدِيهِمْ وَيَأْمُرْتُهُمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَنْتُمْ لَنَا نُورٌ وَأَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا كُلَّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ يَتَابِعُهَا النَّبِيُّ جَهْدَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَأَغْطَىٰ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٩﴾ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتٌ تُوْجِ وَأَمْرَأَتٌ لَوْ طُوعَ كَانَتْ تَحْتَهُ عِبْدَتَيْنِ مِنْ عِبَادٍ نَاصِلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَوْ بَئِضِيَا عَنْهَا مِنْ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٠﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتٌ قَوِيَّةٌ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَبِحِمِّي مِنْ قُرْعَتِكَ وَعَمَلِيَّ وَبِحِمِّي مِنَ الْقَوَارِ الْأَذَلِّينَ ﴿١١﴾ وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَانَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَقْتَ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَنَاتِينِ ﴿١٢﴾

معناه: ذاهبات في طاعة الله تعالى، وشبه الصائم بالسائح من حيث ينهمك السائح ولا ينظر في زاد ولا مطعم، وكذلك الصائم يمسك عن ذلك فيستوي هو والسائح في الامتناع وشطف العيش يفقد الطعام، وقوله تعالى: ﴿فَيَنْبَغُ وَأَنْكَارُ﴾ تقسيم لكل واحدة من الصفات المتقدمة، وليست هذه الواو مما يمكن أن يقال فيها: واو الثمانية؛ لأنها ها هنا ضرورية ولو سقطت لاختل المعنى.

٨ - ١ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿فَوَرَأَيْتُمْ أَهْلِيكُمْ﴾ معناه: اجعلوا وقاية بينكم وبين النار، وقد تقدم غير مرة تحليل اللفظة، وقوله تعالى: ﴿وَأَهْلِيكُمْ﴾ معناه: بالوصية لهم والتقديم والحمل على طاعة الله تعالى، وفي حديث: «لا تزني فيزني أهلك»،

وغيرها، فإذا تاب العبد وحصلت توبته بشروطها وقبلت ثم عاود الذنب فتوبته الأولى لا تفسدها عودة، بل هي كسائر ما يحصل من العبادات.

و«النُّصُوحُ» بناءً مبالغة من النُّصَح، أي: توبة نصحت صاحبها وأرشدته، وقرأ الجمهور: «نُصُوحًا» بفتح النون، وقرأ أبو بكر عن عاصم، وخارجة عن نافع، والحسن، والأعرج، وعيسى: «نُصُوحًا» بضم النون، وهو مصدر، يقال: نصح يَنصَحُ نِصَاحَةً ونُصُوحًا، قاله الزجاج، فوصف التوبة بالمصدر كالعدل والزور ونحوه، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: التوبة النُّصُوحُ هي أن يتوب ثم لا يعود ولا يريد أن يعود، وقال أبو بكر الوراق: هي أن تضيق عليك الأرض بما رحبت كتوبة الذين خُلِفُوا.

وقوله تعالى: «عَسَىٰ رَبُّكُمْ» الآية ترجية، وقد روي أن «عَسَىٰ» من الله تعالى واجبة، والعامل في «يَوْمَ» هو «وَيَذَلِّكُمْ»، وروي في معنى قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يَخْرَىٰ اللَّهُ الْبَيْتَ» أن محمداً ﷺ تضرع في أمر أمته فأوحى الله تعالى إليه: إن شئت جعلت حسابهم إليك، فقال: يا رب أنت أرحم بهم، فقال الله تعالى: إذا لا أخزيك فيهم، فهذا معنى قوله تعالى: «يَوْمَ لَا يَخْرَىٰ اللَّهُ الْبَيْتَ»، والخزى المكروه الذي يترك الإنسان حيران خجلاً مهموماً بأن يرى نقصه أو سوء منزلته.

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ» يحتمل أن يكون معطوفاً على

«الَّذِينَ» فيخرج المؤمنون من الخزي، ويحتمل أن يكون ابتداءً، و«تُورُّمُ يَسْتَنَ» جملة هي خبره، ويبقى النبي ﷺ مخصوصاً مفضلاً بأنه لا يخزي، وقد تقدم القول في نظير قوله تعالى: «تُورُّمُ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَيَأْتِيهِمْ»، وقرأ سهل بن سعد: «بِإِيمَانِهِمْ» بكسر الهمزة. وقولهم: «أَتَيْمٌ لَنَا تُوْرِنًا» قال الحسن بن أبي الحسن: هو عندما يرون من انطفاء نور المنافقين حسب ما تقدم تفسيره، وقيل: يقوله من أعطي من النور بقدر ما يرى من موضع قدميه فقط.

١١ - ١٢ - تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية تأكيد لأمر الجهاد وفرضه المتقدم، والمعنى: دُم على جهاد الكافرين بالسيف، وجاهد المنافقين بإقامة الحدود عليهم، وضربهم في كل جرائمهم وعند قوة الظن بهم، ولم يعين الله تعالى رسوله ﷺ منافقاً يقع القطع بنفاقه؛ لأن التشهد الذي كانوا يُظهرون كان مُلبساً لأمرهم، مُشبهاً لهم بالعصاة من الأمة، و«الغِلْظَةُ عليهم» هي فظاظة القلب والانتهاز وقلة الرفق بهم، وقرأ الضحاك: «وَأَغْلِظُ» بكسر اللام وقطع الألف.

وهذان المثلان اللذان للكفار والمؤمنين أن من كفر لا يُعني عنه من الله شيء، ولا ينفعه وَرَزَّ ولو كان متعلقاً بأقوى الأسباب، وأن من آمن لا يدفعه دافع عن رضوان الله تعالى ولو كان في أسوأ منشا وأحس حال، وقال بعض الناس: إن في المثلين عبرة لزوجات النبي ﷺ حين تقدم عتابهن، وفي هذا بُعد لأن

النص أنه للكفار يُعبد هذا.

واختلف الناس في خيانة هاتين المرأتين - فقال ابن عباس وغيره: خانتا في الكفر، وفي أن امرأة نوح كانت تقول للناس: إنه مجنون، وأن امرأة لوط كانت تقول لقومه متى ورد ضيف، فتخبر به، قال ابن عباس رضي الله عنهما: وما بغت زوجة نبي ولا ابنتي الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في نسائهم بهذا، وقال الحسن - في كتاب النقاش -: خانتاهما بالكفر والزنى وغيره، وقرأ الجمهور: «تُغَيِّبًا» بالياء، وقرأ بشر بن عبيد: «تُغَيِّبًا» بالتاء من فوق.

١١ - ١٢ - تفسير قوله عز وجل:

امرأة فرعون اسمها «آسية»، وقولها: «وَعَلَيْهِ» معناه: وكُفِّرهُ وما هو عليه من الضلالة، هذا قول كافة المفسرين، وقال جمهور من المفسرين: معناه: من ظلمه وعقابه وتعذيبه لي، وروي في هذا أن فرعون أتصل به إيمانها بموسى عليه السلام، وأنها تحب أن تغلب، فبعث إليها قوماً فقال: إن رأيتم منها ذلك فابطحوها في الأرض، ووتدوا يديها ورجليها، وألقوا عليها أعظم حجر، وإن لم تروا ذلك فهي امرأتي، قال: فذهب القوم، فلما أحسَّت الشر منهم دعت بهذه الدعوات؛ فقبض الله تعالى روحها، ووضع أولئك الحجر بشخص لا روح فيه، وروي غير هذا مما يطول فاخصرته لعدم صحته. وقال آخرون - في كتاب النقاش -: «وَعَلَيْهِ» كناية عن الوطاء والمضاجعة، وهذا ضعيف.

تفسير سورة الملك

وهي مكية بإجماع، وكان رسول الله ﷺ يقرأها كل ليلة عند أخذ مضجعه، ورواه جماعة مرفوعاً إلى جابر بن عبد الله رضي الله عنه، وزوي عنه أنه قال: «إنها لتنجي من عذاب القبر، وتجادل عن حافظها حتى لا يُعَذَّب»، ويروى أن في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلة فقد أجاد وأطبب، ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «وَيَذُتْ أَنْ سُورَةَ ﴿تَبَرَّكَ الَّذِي يَدِيهِ الْمُلْكُ﴾ فِي قَلْبِ كُلِّ مُؤْمِنٍ».

① - ② تفسير قوله عز وجل:

﴿تَبَرَّكَ﴾ تَفَاعَلٌ، من البركة، وهي التَّزْيِدُ في الخيرات، ولم يستعمل «يتبارك» ولا «متبارك». وقوله تعالى: ﴿يَدِيهِ الْمُلْكُ﴾ عبارة عن تحقيق الْمُلْكِ؛ وذلك أن اليدَ في عُرفِ الْأَدْمِيَّين هي آلة التَّمَلُّكِ، فهي مستعارة لذلك، و«الْمُلْكُ» على الإطلاق هو الذي لا يبيد ولا يختل منه شيء، وذلك هو مُلْكُ الله تعالى، والمرادُ في هذه الآية: ملك الملوك، فهي بمنزلة قوله تعالى: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَلِكُ الْمُلْكِ﴾ ذكره الثعلبي عن ابن عباس، وقوله تعالى: ﴿عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ عموم، فالشيءُ معناه في اللغة: الموجود.

و «الموت والحياة» معنيان يتعاقبان جسم الحيوان، يرتفع أحدهما بحلول الآخر، وما جاء في الحديث

الذي من شأنه أن يُسِير الشيء برفق ولطف. وقوله تعالى: ﴿مِنْ رُوحِنَا﴾ إضافة مخلوق إلى خالق، ومملوك إلى مالك، كما تقول: بَيْتُ الله، وناقية الله، كذلك الروح والجنس كله هو روح الله.

وقرأ الجمهور: ﴿وَصَدَقَتْ﴾ بشد الدال، وقرأ أبو مجلز بتخفيفها، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَكْمَلَتْ﴾ على الجمع، وقرأ الجحدري: ﴿بِكَلِمَةٍ﴾ على الأفراد، فأما الأفراد فَيُقَوِّي أَنْ يَرِيدَ أَمْرَ عَيْسَى

عليه السلام، ويحتمل أن يريد اسم جنس وهو التوراة، ومن قرأ بالجمع فَيُقَوِّي أَنَّهُ يَرِيدُ التَّوْرَةَ، ويحتمل أن يريد أمر عيسى عليه السلام. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم، ونافع: ﴿وَكِتَابِهِ﴾ على التوحيد، وقرأ أبو عمرو، وحفص عن عاصم، وخارجه عن نافع: ﴿وَكُتُبِهِ﴾ بضم التاء على الجمع، وقرأ أبو رجاء بسكون التاء: ﴿وَكُتُبِهِ﴾، وذلك كله مُرَادُ بِهِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ.

و «الْقَائِنُونَ»: العابدون، والمعنى: كانت من القوم القائنين في عبادتها وحال دينها.

كامل تفسير سورة التحريم، وبها
كامل تفسير الجزء الرابع عشر
والحمد لله رب العالمين

سُورَةُ الْمَلِكِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَرَّكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ يُسَبِّحُكُمْ أَنْتُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ أَعَزُّ الْقُوَى ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَوُّتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ تَرَى نَفْلًا ④ إِنَّا كُنَّا بِهَا نَسِيًا وَهُوَ حَسِيرٌ ⑤ وَلَقَدْ رَمَيْنَا الْأَسْمَاءَ ⑥ الدُّنْيَا بِمَصْبِغٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيْطَانِ وَأَعَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ الْآسَعِيرِ ⑦ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَيَسُ الْمَصِيرُ ⑧ إِذِ الْقَوَائِمُ أِيمَعُوا لَهَا شَهيقًا وَهِيَ تَفُورٌ ⑨ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أَلْقَى فِيهَا فَوْجٌ سَأَلْتُمْ خَزَائِنَهَا أَلْيَسَ الْبَأْسُ بَالِيزٍ ⑩ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَ نَارًا تَدْرِي فَكَلِّبْنَا وَجَلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ سَمْعِنَا إِن أَنْشَأَ إِلَّا فِي سَلَالٍ كَبِيرٍ ⑪ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ ⑫ الْآسَعِيرِ ⑬ فَأَعْرِضُوا بَدَنَهُمْ فَسَجُّوا لِأَصْحَابِ ⑭ السَّعِيرِ ⑮ إِنَّ الَّذِينَ يَحْسَبُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⑯

٥١٢

واختلف الناس في الفرج التي أحصنت مريم عليها السلام - فقال الجمهور: هو فرج الذرع الذي كان عليها، وأنها كانت صبيبة، وأن جبريل عليه السلام نفخ فيه الروح من جيب الذرع، وقال قوم: هو الفرج الجارحة، ولفظة «أحصنت» - إذا كان فرج الجارحة - متمكنة حقيقة، والإحصان: صنؤه، وهي فيه مستعملة، وإذا قدرناه فرج الذرع فلفظة «أحصنت» مستعارة من حيث أحصنته وصانته ومن حيث سار مسلماً لولدها.

وقوله تعالى: ﴿فَنفَخْنَا﴾ عبارة عن فعل جبريل عليه السلام، ونفخ جبريل عليه السلام حقيقة، وإن ذهب ذاهب إلى أن النفخ فعل الله تعالى، فهو عبارة عن خلقه واختراعه الولد في بطنها، وشبه ذلك بالنفخ

من قوله ﷻ: «يُؤْتَى بِالْمَوْتِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي صُورَةِ كَبِشٍ أَمْلَحَ فَيَذْبَحُ عَلَى الصِّرَاطِ»، فقال أهل العلم: ذلك تمثال كبش يُوقَعُ اللهُ تَعَالَى الْعِلْمَ الضَّرُورِي لِأَهْلِ الدَّارَيْنِ أَنَّهُ الْمَوْتُ الَّذِي خَافُوهُ فِي الدُّنْيَا، وَيَكُنْ ذَلِكَ التَّمَثَالُ حَامِلًا لِلْمَوْتِ لَا عَلَى أَنَّهُ يَحُلُّ الْمَوْتَ فِيهِ، فَتَذْهَبُ عَنْهُ حَيَاتُهُ، ثُمَّ يَقْرَنُ اللهُ تَعَالَى بِذَبْحِ ذَلِكَ التَّمَثَالِ إِعْدَامَ الْمَوْتِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَوَةَ لِيَبْلُوكُمْ»، أَي: لِيُخْتَبِرَكُمْ فِي حَالِ الْحَيَاةِ وَيُجَازِيَكُمْ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَقَالَ أَبُو قَتَادَةَ - وَنَحْوَهُ عَنْ ابْنِ عُمَرَ -: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، مَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: «لِيَبْلُوكُمْ إِنَّكُمْ أَنتُمْ عَلَاءٌ؟» فَقَالَ: «يَقُولُ تَعَالَى: أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا، وَأَشَدُّ اللهُ تَعَالَى خَوْفًا، وَأَحْسَنُكُمْ فِي أَمْرِهِ وَنَهْيِهِ نَظْرًا، وَإِنْ كَانُوا أَقْلَكُمْ تَطَوُّعًا»، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَسَفِيَانُ الثَّوْرِيُّ، وَالْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا: أَرْهَدَكُمْ فِي الدُّنْيَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «لِيَبْلُوكُمْ» دَالٌ عَلَى فِعْلِ، تَقْدِيرُهُ: فَيَنْظُرُ أَوْ يَعْلَمُ أَيُّكُمْ، وَقَالَ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُتَأَوِّلِينَ: الْمَوْتُ وَالْحَيَاةُ عِبَارَةٌ عَنِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، سُمِّيَ هَذِهِ مَوْتًا مِنْ حَيْثُ فِيهَا الْمَوْتُ، وَسُمِّيَ تِلْكَ حَيَاةً مِنْ حَيْثُ لَا مَوْتَ فِيهَا، فَوَصَفَهُمَا بِالْمُصَدِّرِينَ عَلَى تَقْدِيرِ حَذْفِ مُضَافٍ كَذَلِكَ وَرُزْرٍ، وَقَدَّمَ الْمَوْتَ فِي اللَّفْظِ لِأَنَّهُ مُتَقَدِّمٌ فِي النَّفْسِ هَيْبَةً وَغَلْظَةً.

و«يَلْيَأْتَا» قَالَ الزَّجْجَاجُ: هُوَ مُصَدَّرٌ، وَقِيلَ: هُوَ جَمْعُ طَبَقَةٍ أَوْ جَمْعِ طَبَقٍ مِثْلَ رُخْبَةٍ وَرِحَابٍ أَوْ جِبَلٍ وَجِبَالٍ، وَالْمَعْنَى: بَعْضُهَا فَوْقَ

بَعْضٍ، وَقَالَ أَبَانُ بْنُ تَغْلِبَ: سَمِعْتُ أَعْرَابِيًّا يَذُمُّ رَجُلًا فَقَالَ: شُرْهُ طَبَاقٌ، وَخَيْرُهُ غَيْرُ بَاقٍ، وَمَا ذَكَرَ بَعْضُ الْمُفَسِّرِينَ فِي السَّمَوَاتِ أَنَّ بَعْضَهَا مِنْ ذَهَبٍ وَفِضَّةٍ وَيَاقُوتٍ وَنَحْوِ هَذَا ضَعِيفٌ كُلُّهُ لَمْ يَثْبُتْ بِذَلِكَ حَدِيثٌ، وَلَا يَعْلَمُ أَحَدٌ مِنَ الْبَشَرِ حَقِيقَةَ لِهَذَا.

وقوله تعالى: «مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَوُّتٍ» معناه: من قِلَّةٍ تناسب ومن خروج عن الاتفاق، والأمر المتفاوت هو الذي يجاوز الحدود التي له زيادة أو نقصاً، وقرأ جمهور القراء: «بَيْنَ تَفَوُّتٍ» وقرأ حمزة، والكسائي، وابن مسعود، وعلقمة، والأسود، وابن جبير وطلحة، والأعمش: «مِنْ تَفَوُّتٍ»، وهما بمعنى واحد، وقال بعض العلماء: «فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ» معني به السموات فقط، وهي التي تضمن اللفظ، وإيّاها أراد بقوله تعالى: «هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ»، وإيّاها أراد بقوله: «يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ» الآية، قالوا: وإلا ففي الأرض فطور، وقال آخرون: «فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ» معني به جميع ما خلق الله تعالى من الأشياء فإنها لا تفاوت فيها ولا فطور جارية على غير إتقان، ومتى كانت فطوراً لا تفسد الشيء المخلوق من حيث هو ذلك الشيء بل هي إتقان فيه ليست تلك المرادة في الآية، وقال منذر بن سعيد: أمر الله تعالى بالنظر إلى السماء وخلقها ثم أمر تعالى بالتكرير في النظر، وكذلك جميع المخلوقات متى نظرها ناظر ليرى فيها خللاً أو نقصاً فإن بصره ينقلب خاسئاً حسيراً، و«زَجُجَعُ الْبَصَرِ» تَزْدِيدُهُ فِي

الشيء المُنْصَر. وقوله تعالى: «كَرِّينَ» معناه: مَرَّتَيْنِ، وَنَصَبَهُ عَلَى الْمَصْدَرِ، وَ«الْخَاسِيءُ»: الْمُبْعَدُ بِذَلِكَ عَنْ شَيْءٍ أَرَادَهُ وَعَرَضَ عَلَيْهِ، وَمِنْهُ الْكَلْبُ الْخَاسِيءُ، وَمِنْهُ قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِابْنِ صَيَّادٍ: «أَخْسَأُ، فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ»، وَمِنْهُ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْكُفَّارِ الْحَرِيصِينَ عَلَى الْخُرُوجِ مِنْ جَهَنَّمَ: «أَخْسَأُوا فِيهَا»، وَكَذَلِكَ هَذَا الْبَصَرُ يَحْرُصُ عَلَى رُؤْيَةِ فُطُورٍ أَوْ تَفَاوُتٍ فَلَا يَجِدُ ذَلِكَ فَيَنْقَلِبُ خَاسِئًا، وَال«حَسِيرٌ»: الْمُعْنِي الْكَاؤَ، وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

لَهُنَّ الْوَجِي لَمْ كُنْ عَوْنًا عَلَى النَّوَى

وَلَا زَالَ مِثْلَهَا ظَالِمٌ وَحَسِيرٌ

⑧ - ⑨ تفسير قوله عز وجل:

أخبر الله تعالى أنه زين السماء الدنيا إلتنا - أي: التي تلينا - بمصايح وهي النجوم، فإن كان جميع النجوم في السماء الدنيا فهذا اللفظ عامٌ للكواكب، وإن كان في سائر السموات كواكب فإما أن يريد كواكب سماء الدنيا فقط، وإما أن يريد الجميع على أن ما في غيرها لما كانت هي تشف عنه ويظهر منها فقد تزينت به بوجه ما، ومن تكلف القول لمواضع الكواكب وفي أي سماء هي فقوله ليس من الشريعة.

وقوله تعالى: «وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا»

معناه: وجعلنا منها، وهذا كما تقول: أكرمت بني فلان وصنعت بهم، وأنت إنما فعلت ذلك ببعض دون بعض، ويوجب هذا التأويل في الآية أن الكواكب الثابتة والبروج وكل ما يهتدى به في البر والبحر فليست برواجم، وهذا نص في

يلقى فيها أحدًا إلا سُئل - على جهة التوبيخ - عن الثُّدْر، فأقروا بأنهم جاؤهم وكذبوهم، وقوله تعالى: ﴿كَلِمًا﴾ حَضْر، فإذا الآية تقتضي في الأطفال من أولاد المشركين وغيرهم وَمَنْ نُقَدِّرْهُ صاحب فترة أنهم لا يدخلون النار لأنهم لم يأتهم نذير.

(واختلف الناس في أمر الأطفال، فاجتمعت الأمة على أولاد الأنبياء عليهم السلام أنهم في الجنة)، واختلفوا في أولاد المؤمنين - فقال الجمهور: هم في الجنة، وقال قوم: هم في المشيئة. واختلفوا في أولاد المشركين - فقالت فرقة؛ هم في النار، واحتجوا بحديث روي: «هم من آباؤهم»، وتأول المخالف هذا الحديث أنه في أحكام الدنيا، وقال آخرون: هم في المشيئة، وقال آخرون: هم في الجنة واحتج هذا الفريق بهذه الآية في مسألة الخزنة، وبحديث وقع في صحيح البخاري في كتاب التعبير يتضمن أنهم في الجنة، وبقوله عليه الصلاة والسلام: «كلُّ مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، والأطفال لم يبلغوا أن يصنع بهم شيء من هذا.

وقوله تعالى: ﴿إِنْ أَنْتَ إِلَّا فِي سَكَلٍ كَبِيرٍ﴾ يحتمل أن يكون من قول الملائكة حين أخبروا عن أنفسهم أنهم كذبوا الثُّدْر، ويحتمل أن يكون من كلام الكفار للثُّدْر.

﴿١٠﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

المعنى: وقال الكفار للخزنة في محاورتهم: لو كنا نسمع أو نعقل سَمِعًا أو عقلًا يُنتفع به ويغني شيئاً

الشفاعة، فالذي يقال في هذا أَنَّ ﴿جَهَنَّمَ﴾ تختص به الطبقة العليا من النار، ثم قد تسمى الطبقات كلها ﴿جَهَنَّمَ﴾ باسم بعضها، وهذا كما يقال: «نجم» للشرياء، ثم يقال ذلك للكواكب اسم جنس، فالذي في هذه الآية جَهَنَّمَ بأسرها، أي: جميع الطبقات، والتي في الأثر هي الطبقة العليا لأنها مقر العصاة، و«الشهيق» أقيح ما يكون من صوت الحمار، فاحتدام النار وجليانها بصوت مثل ذلك.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْقَيْظِ﴾، أي: يُزَابِل بعضها بعضاً لشدة الاضطراب، كما قال الشاعر في صفة الكلب يحتدم في جريه:

يَكَادُ يَخْرُجُ مِنْ إِهَابِهِ

وقرأ الضحاك: ﴿تَمَيَّزُ﴾ بالألف، وقرأ طلحة: ﴿تَمَيَّزُ﴾ بتاءين، وقرأ الجمهور: ﴿تَمَيَّزُ﴾ مخففة التاء، وقرأ البزري وقوم: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ بضم الدال وشد التاء على أنها «تَمَيَّزُ» وأدغم إحدى التاءين في الأخرى، وقرأ قوم بإدغام الدال في التاء، وهذا فيه إدغام الأقوى في الأضعف، وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ الْقَيْظُ﴾ معناه: على الكفرة بالله تعالى، وقوله سبحانه: ﴿كَلِمًا أَلْفِي﴾

فِيهَا نَوْجٌ الفوج هو الفريق من الناس، ومنه قوله تعالى: ﴿فِي رِبْعٍ أَلْفِي أَوْلِيَا﴾، والآية تقتضي أنه لا

سورة الملك

وَأَسْرًا قَوْلَكُمْ وَأَجْهَرًا أَيْ عَظِيمًا، عَلَيْهِ يَذَاتُ الصُّدُورِ ﴿١٠﴾ الْأَيُّ يَعْلَمُ مِنْ خَلْقٍ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي حَمَلَكُمْ لِكَلِمَةِ الْأَرْضِ دَلُولًا فَامْتُوا فِي مَنَازِكِهَا وَكُلُّوا مِنْ رِزْقِهَا وَلِئَلَّا تُشْكُرُوا ﴿١٢﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخِفُّ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٣﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْمُونَ كَيْفَ نَذِيرٌ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٥﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَفَيْتَ وَيَقْبِضْنَ مَا يَمَسُّهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٦﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ حَمَلٌ لَّكَ يَصُورُ مِنْ دُونَ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ لَأَ فِي عُرْوَةٍ ﴿١٧﴾ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي يَرُوقُ كَرَانَ أَسْكَ رِقَّةً بِئِلْ جُوفٍ فَعَنُوهُ وَتَقُورِ ﴿١٨﴾ أَفَنْ يَمْسِي مَكْبَأً عَلَى وَجْهِهِمْ أَهْدَى أَمْ يَمْسِي سَوِيًّا عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٩﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ فَلَيْلَا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٢٠﴾ قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢١﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٢﴾ قُلْ إِنَّمَا أَعِذُّ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٣﴾

٥٦٣

حديث السير، وقال قتادة: خلق الله تعالى النجوم للسماء زينة ورجوماً للشياطين. وليهتدى بها في البر والبحر، ومن قال غير هذه الخصال الثلاث فقد تكلف وأذهب حظ من الآخرة. و«أَعَدَدْنَا» معناه أعددنا، والضمير في «لَهُمْ» عائذ على الشياطين.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ﴾ بالرفع على الابتداء، والخبر في المجرور المتقدم، وقرأ الحسن - في رواية هارون عنه -: ﴿عَذَابٌ جَهَنَّمَ﴾ بالنصب على معنى: وأعدنا للذين كفروا عَذَابَ جَهَنَّمَ، فالواو عاطفة فعل على فعل، وتضمنت هذه الآية أن عَذَابَ جَهَنَّمَ للكفار المخلفين، وقد جاء في الأثر أنه يمرُّ على جَهَنَّمَ زَمْرٌ تخفق أثوابها، قد أخلتها

لَأَمْتًا وَلَمْ نَسْتَوْجِبِ الْخُلُودَ فِي السَّعِيرِ.

ثم أخبر تعالى محمداً ﷺ أنهم اعترفوا بذنبيهم في وقت لا ينفع فيه الاعتراف، وقوله تعالى: ﴿فَسُحْقًا﴾ نصب على جهة الدعاء عليهم، وجاز ذلك فيه وهو من قِبَلِ الله تعالى من حيث هذا القول فيهم مستقر أزلاً وجوده لم يقع ولا يقع إلا في الآخرة، فكأنه لذلك في حيز المتوقع الذي يدعى فيه، كما تقول: سحقاً لزيد وبعداً، وانتصب في هذا كله بإضمار فعل، وأما ما وقع وثبت فالوجه فيه الرفع، كما قال تعالى: ﴿وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّفِينَ ﴿١٦﴾ وَ﴿سَلِّمٌ عَلَيْكُمْ﴾، وغير هذا من الأمثلة. وقرأ الجمهور: ﴿فَسُحْقًا﴾ بسكون الحاء، وقرأ الكسائي: ﴿فَسُحْقًا﴾ بضم الحاء، وهما لغتان.

ثم وصف تعالى أهل الإيمان وهم الذين يخشون ربهم، وقوله تعالى: ﴿بِالْغَيْبِ﴾ يحتمل معنيين: أحدهما: بالغيب الذي أخبروا به من الحشر والصراف والميزان والجنة والنار، فأمّنوا بذلك وخشوا ربهم فيه، ونحا إلى هذا قتادة، والمعنى الثاني: يخشون ربهم إذا غابوا عن أعين الناس، أي: في خلواتهم، ومنه تقول العرب: «فلان سالم الغيب»، أي: لا يضر، فالمعنى: يعملون بحسب الخشية في صلاتهم وعبادتهم وانفرادهم، فالاحتمال الأول مدح بالإخلاص والإيمان، والثاني مدح بالأعمال الصالحة في الخلوات، وذلك أحرى أن يفعلوها علانية.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّرَأَوْ قَوْلَكُمْ أَوْ أَجْهَرُوا بِدِيَّةٍ﴾ مخاطبة لجميع الخلق، قال ابن عباس رضي الله عنهما: سببها أن المشركين قال بعضهم لبعض: أسيروا قولكم لا يسمعكم إلا محمد، فالمعنى: إن الأمر سواء عند الله تعالى لأنه يعلم ما هجس في الصدر دون أن يُنطق به، فكيف إذا نُطق به سراً أو جهراً، و«ذَاتُ الصُّدُورِ»: ما فيها، وهذا كما يقال: «الذُّنُوبُ مَغْبُوطٌ بِذِي بَطْنِيهِ»، وقد تقدم تفسيره غير مرة.

قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾، اختلف الناس في إعراب ﴿مَنْ﴾ - فقال بعض النحاة: إعرابها رفع، كأنه تعالى قال: ألا يعلم الخالق خلقه؟ فالمفعول على هذا محذوف، ومنهم من قال: إعرابها نصب، كأنه تعالى قال: ألا يعلم الله من خَلَقَ؟ وقال مكِّي: وتعلّق أهل الزبغ بهذا التأويل؛ لأنه يعطي أن الذين خلقهم الله تعالى هم العباد من حيث قال: ﴿مَنْ﴾، فتخرج الأعمال عن ذلك، لأن المعتزلة تقول: العباد يخلقون أعمالهم، وتعلّقهم بهذا التأويل ضعيف، والكلام مع المعتزلة في مسألة خلق الأعمال مأخذه غير هذا؛ لأن هذه الآية لا حجة فيها لهم ولا عليهم.

و«الذُّلُولُ» فعول بمعنى مفعول، أي: مذلولة، فهي كَرَكُوبٍ و«خَلُوبٍ»، يقال: ذلولٌ بَيْنَ الذُّلِّ، بكسر الذال، وذليلٌ بَيْنَ الذُّلِّ، بضم اللام.

واختلف المفسرون في معنى

«المناكب»، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: مناكبها: أطرافها، وهي الجبال، وقال منذر بن سعيد: جوانبها، وهي النواحي، وقال مجاهد: هي الطُّرُقُ والفجاج، وهذا قول جار مع اللغة؛ لأنها تنكبُ يمنة ويسرةً وينكبُ الماشي فيها، فهي مناكب.

وهذه الآية تعديد نعم في تقرب التصرف للناس، وفي التمتع في رزق الله تعالى، و«الثُّشُورُ»: الحياة بعد الموت.

﴿١٦﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ عاصم، وحزمة، والكسائي، وابن عامر: ﴿أَمِنْتُمْ﴾ بهمزتين محققتين من غير مدٍّ، وقرأ أبو عمرو، ونافع: ﴿الثُّشُورُ أَمِنْتُمْ﴾ بهمزة ومدٍّ، وقرأ ابن كثير: ﴿الثُّشُورُ وَأَمِنْتُمْ﴾، يُبدل الهمزة واواً لكونها بعد ضمة، ويمدُّ بعد الواو.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ جارٍ على عُرف تَلَقَّى البشر أوامر الله تعالى، ونزول القدر بحوادثه ونعمته وبقمته وآياته من تلك الجهة، وعلى ذلك صار رفع الأيدي والوجوه في الدعاء إلى تلك الجهة والناحية. و«خَسَفُ الْأَرْضِ»: أن تذهب سفلاً. و«تَسْوَرٌ» معناه: تتموج وتذهب كما يذهب التراب الموار في الريح، وكما يذهب الدَّم الموار، ومنه قول الأعرابي: «وغادرت التراب مواراً».

و«الحاصب»: البرد وما جرى مجراه؛ لأنه في اللغة الرِّيحُ ترمي بالحصاب، ومنه قول الفرزدق:

مُسْتَقْبِلِينَ شَمَالَ الشَّامِ تَرْجُمُهُمْ
بِحَاصِبٍ كَنَدِيفِ القَطَنِ مَنثور
وقرأ جمهور السبعة: ﴿فَسَمَّوْنَ﴾
بالتاء، وقرأ الكسائي وحده:
﴿فَسَمَّوْنَ﴾ بالياء، وقرأ السبعة
وغيرهم: ﴿نَذِيرٍ﴾ بغير ياء، على
طريقتهم في الفواصل المشبهة
بالقوافي، وقرأ نافع في رواية ورش
وحده ﴿نذيري﴾ بياء على الأصل،
وكذلك في ﴿تَكْبِيرٍ﴾، و﴿الشَّكِيرِ﴾:
مصدرٌ بمعنى الإنكار، و﴿النَّذِيرِ﴾
كذلك، ومنه قول حسان بن ثابت:

فَأَنْذَرَ مِثْلَهَا نَضْحًا قُرَيْشًا
مِنَ الرَّحْمَنِ إِنْ قَبِلْتَ نَذِيرِي
ثم أحال على العبرة في أمر الطير
وما أَحْكَمَ مِنْ خَلْقَتِهَا، وذلك يُبَيِّنُ
عجز الأصنام والأوثان، و﴿صَفَّتِ﴾
جمع «صافة» وهي التي تبسط
جناحها وتصففها حتى كأنها ساكنة،
و﴿قَبْضُ الجَنَاحِ﴾ ضَمُّهُ إِلَى الجَنَبِ،
ومنه قول أبي خراش:

يَحُثُّ الجَنَاحُ بِالتَّبْسِطِ وَالْقَبْضِ
وهاتان حالان للطائر يستريح من
إحداهما إلى الأخرى. وقوله تعالى:
﴿وَيَقْبِضَنَّ﴾ عطف المضارع على اسم
الفاعل، وذلك كما عطف اسم
الفاعل على المضارع في قول
الشاعر:

بَاتَ يُعْشِيهَا بَعْضُ بَاطِرٍ
يَقْصِدُ فِي أَسْوَقِهَا وَجَائِرٍ
وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿أَمَّنْ﴾
بتخفيف الميم في هذه، وقرأ التي
بعدها مُثَقَّلَةً كالجماعة، و﴿الْجُنْدُ﴾
أعوان الرجل على مذهبه، وقوله

تعالى: ﴿إِنَّ الْكُفْرَانَ لَأَبَى عُورٍ﴾
خطاب لمحمد ﷺ بعد تقدير: قل
لهم يا محمد: أمَّن هذا.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل:
هذا أيضاً توقيف على أمر لا مدخل
للأصنام فيه، والإشارة بالرزق إلى
المطر لأنه أعظم الأرزاق، ثم أخبر
تعالى عنهم أنهم لَجُوا وتمادوا في
التمنع عن طاعة الله تعالى، وهو
العُتُوُّ، و﴿الثُّفُورُ﴾، البُعْدُ عن الحقِّ
بسرعة ومبادرة، يقال: نَفَرَ عن الأمرِ
ثُفُورًا، ونَفَرَ إِلَى الأمرِ نَفِيرًا، ونَفَرَتِ
الدابةُ نَفَارًا.

واختلف أهل التأويل في سبب
قوله تعالى: ﴿أَمَّنَ يَبْنِي مِكًا﴾ الآية
- فقال جماعة من زواة الأسباب:
نزلت مثلاً لحمزة بن عبدالمطلب
رضي الله عنه ولأبي جهل بن
هشام، وقال ابن عباس، وابن
الكلبي وغيرهما: نزلت مثلاً
لمحمد ﷺ ولأبي جهل بن هشام،
وقال ابن عباس أيضاً، ومجاهد،
والضحاك: نزلت للمؤمنين
والكافرين على العموم، وقال
قناة: نزلت مخبرة بأحوال القيامة،
وأن الكفار يمشون فيها على
وجوههم، والمؤمنون يمشون على
استقامة، وقيل للنبي ﷺ: كيف
يمشى الكافر على وجهه؟ فقال:
«الذي أمشاه في الدنيا على قدميه
قادر أن يمشيه في الآخرة على
وجهه».

قال القاضي أبو محمد
رحمه الله: قَوَّفَ الكَفَّارَ عَلَى ما
بين الحالتين حينئذ، ففي الأقوال
الثلاثة الأول المَشْيُ مجازٌ بتخيُّل،

وفي القول الرابع هو حقيقة تقع
يوم القيامة.

ويقال: «أَكْبَّ الرجلُ» إذا رَدَّ
وجهه إلى الأرض، و«كَبَّه غيره»،
قال عليه الصلاة والسلام: «وهل
يَكْبُ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى مَنَاحِرِهِمْ
إِلَّا حِصَانِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟» فهذا الفعل
خلاف للباب، أفتل لا يتعدى،
وَقَعَلَ يتعدى، ونظيره «قشعت
الريخُ السحاب فانقشع»،
و﴿أَهْدَى﴾ في هذه الآية «أفتل»
من الهدى.

وقرأ طلحة: ﴿أَمَّنَ يَمْشِي﴾
بتخفيف الميم، وأفرد تعالى السمع
لأنه اسم جنس يقع للقليل
والكثير، و﴿قِيلًا﴾ نصب بفعل
مضمر، و﴿مَا﴾ مصدرية، وهي في
موضع رفع، وقوله تعالى: ﴿قِيلًا
مَا نَسْكُرُونَ﴾ يقتضي ظاهره أنهم
يشكرون قليلاً، فهذا إما أن يريد
به ما عسى أن يكون للكافر من
شكر، وهو قليل غير نافع، وإما
أن يريد نفي الشكر عنهم جملةً
فغير بالعلَّة، كما تقول العرب:
«هذه أرض قلما تُنبت كذا» وهي
لا تُنسبته البتَّة، ومن شُكِرَ
رسول الله ﷺ على هذه النعمة أنه
كان يقول في سجوده: «سَجَدُ
وَجْهِي لِذِي خَلَقَهُ وَصَوَّرَهُ وَشَقَّ
سَمْعَهُ وَبَصَرَهُ».

و﴿ذَرَّكُمْ﴾ معناه: بثُّكم،
و﴿الحَشْرُ﴾ المشار إليه هو بعث
القيامة، وإليه أشار بقوله تعالى:
﴿هَذَا الوَعْدُ﴾، فأخبر تعالى أنهم
يستعجلون أمر القيامة ويُوقَفُونَ على
الصدق في الإخبار بذلك.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: أمر الله تعالى نبيه ﷺ أن يخبرهم أن علم يوم القيامة والوعد الصدق هو مما ينفرد الله تعالى به، وأن محمداً ﷺ إنما هو نذير، يعلّم ما علّم، ويخبر بما أمر أن يخبر به.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾، الضمير للعذاب الذي تضمّنه الوعد، وهذه حكاية حال تأتي، والمعنى: فإذا رأوه، و﴿رَفَعَهُ﴾ معناه: قريباً وقال الحسن: عياناً، وقال ابن زيد: حاضرأ، و﴿يَسْتَعْتَبُ﴾ معناه: ظهر فيها السوء، وقرأ جمهور الناس: ﴿يَسْتَعْتَبُ﴾ بكسر السين، وقرأ أبو جعفر، والحسن، ونافع أيضاً، وابن كثير، وأبو رجاء، وشيبة، وابن وثاب، وطلحة بالإشمام بين الضم والكسر، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَدْعُونَ﴾ بفتح الدال وشدها، على وزن تَفْتَعِلُونَ، أي: تتدعون أمره بينكم، وقال الحسن: تدعون أنه لا جنة ولا نار، وقرأ أبو رجاء، والحسن، والضحاك، وقتادة، وابن يسار، وسلام: ﴿تَدْعُونَ﴾ بسكون الدال، على معنى: تستعجلون، كقولهم: ﴿عَجَلْنَا فَنَظَنَّا﴾، ﴿فَأَنْظِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً﴾، وغير ذلك.

وروي في تأويل قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا﴾ الآية.. أنهم كانوا يدعون على محمد ﷺ وأصحابه بالهلاك، وقيل: بل كانوا يتآمرون بينهم بأن يهلكوهم بالقتال ونحوه، فقال الله تعالى له: قل لهم: أرايتم إن كان هذا الذي تريدون بنا وتمّ ذلك فينا،

أو أرايتم إن رحمنا الله فنصرنا ولم يهلكنا من يجيركم من العذاب الذي يوجهه كفركم على كل حال؟ وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ﴾ بنصب الياءين، وأسكن الكسائي، وعاصم - في رواية أبي بكر - الياء في ﴿مَعِيَ﴾، وقرأ حمزة بإسكان الياءين، وروى الحسن عن نافع أنه أسكن الياء من ﴿أهْلَكْنِي﴾، وقال أبو علي: التحريك في الياءين حسن وهو

الأصل، والإسكان - كراهية الحركة في حرف اللين - للنجاة من ذلك.

وقرأ الكسائي وحده: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾ بالياء، وقرأ الباقون بالتاء على المخاطبة، ثم وقفهم تعالى على مياهم التي يعيشون منها إن غارت - أي: ذهبت في الأرض - من يجيئهم بماء كثير كاف، و﴿الغُورُ﴾ مصدر يوصف به على معنى المبالغة، ومنه قوله الأعرابي: «وغازت التراب مَورأ والماء غُورأ»،

و﴿الْمَعِينُ﴾ فَعِيلٌ من «مَعَنَ الماء» إذا كثر أو مفعولٌ من «العَيْن»، أي: جارٍ كالعين، أصله مَعْيُون، وقيل: هو من «العَيْن» لكن من حيث يرى بعين الإنسان، لا من حيث يشبه العَيْنَ الجارية، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: مَعِينٌ: عذبٌ، وعنه - في كتاب الثعلبي - مَعِينٌ:

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَلَمًا رَأَوْهُ رَفَعَهُ سَعَتٌ وَجْهَهُ الْأَوَّلِيكُ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُتِبَ بِهِ تَدْعُونَ ﴿١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكْنِي اللَّهُ وَمَنْ مَعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَنْ يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢﴾ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّا بِيَدِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ ﴿٤﴾

سورة القلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ت وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴿١﴾ مَا أَنْتَ بِمَعْبُودٍ ﴿٢﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَّ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٣﴾ فَسَتَجِدُنَّ يُضْمِرُونَ ﴿٤﴾ بِأَيْتِكُمُ الْمُفْتُونَ ﴿٥﴾ إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٦﴾ فَلَا تَطِيعُ الْمُكْرِبِينَ ﴿٧﴾ وَذُو الْأَوْتَادِ فَيَدْتَحُونَ ﴿٨﴾ وَلَا تَطِيعُ كُلَّ حَلَافٍ مَهِينٍ ﴿٩﴾ هَذَا مَقَالٌ بِسْمِ اللَّهِ مَنَاجٍ لِلنَّحْرِ مَعْتَدٍ أَيْمٍ ﴿١٠﴾ مَثَلٌ بَعْدَ ذَلِكَ زَيْرٍ ﴿١١﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٢﴾ إِذْ أَنْتَلَّ عَلَيْهِوَ إِتْنَا فَالْكَاسِطُ بِالْأَوَّلِيكُ ﴿١٣﴾

٥٦٤

جارٍ، وفي كتاب النقاش: مَعِينٌ: طاهرٌ، وقال بعض المفسرين وابن الكلبي: أشير في هذا الماء إلى بشر زمزم وبشر ميمون، ويُسبَه أن تكون هاتان عَظْمَ ماءِ مكة، وإلا فكانت فيها آبارٌ كثيرة كَحَمِّ والجفر وغيرهما.

كامل تفسير سورة الملك والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القلم

وهي مَكِّيَّةٌ، ولا خلاف فيها بين أحد من أهل التأويل.

﴿١﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿ت﴾ حرف مقطوع في قول

جمهور المفسرين، فيدخله من الاختلاف ما يدخل أوائل السور، ويختص هذا الموضع من الأقوال بأن قال ابن عباس ومجاهد: ﴿تَّ﴾ اسم الحوت الأعظم الذي عليه الأرضون السبع فيما يروى، وقال ابن عباس والحسن وقتادة والضحاك: ﴿تَّ﴾ اسم للدواة، فهذا إما أن يكون لغة لبعض العرب أو تكون لفظة أعجمية، قال الشاعر:

إِذَا مَا السُّوْقُ بَرَّحَ بِي إِلَيْهِمْ
أَلْقَيْتُ الثُّورَ بِالذَّمْعِ السَّجُومِ
فمن قال بأنه اسم الحوت جعل «الْقَلَمُ» الْقَلَمُ الذي خلقه الله تعالى وأمره فكتب الكائنات، وجعل الضمير في «يَسْطُرُونَ» للملائكة، ومن قال بأن ﴿تَّ﴾ اسم للدواة جعل «الْقَلَمُ» هو المتعارف بأيدي الناس، نص ذلك ابن عباس، وجعل الضمير في «يَسْطُرُونَ» للناس، فجاء القسم - على هذا - بمجموع أمر الكتاب الذي هو قوامٌ للعلوم والمعارف وأمور الدنيا والآخرة، فإن القلم أخو اللسان ومطية الفطنة ونعمة من الله تعالى عامة، وروى معاوية بن قرة أن النبي ﷺ قال: «نَ لَوْحٌ مِنْ نُورٍ»، وقال ابن عباس أيضاً وغيره: (نَ) حرف من حروف الرحمن، وقالوا: إنه تَقَطَّعَ في القرآن إلى «الَّر» و«حَمَ» و«نَ».

وقرأ عيسى بن عمر - بخلاف -: ﴿نُونٌ﴾ بالنصب، والمعنى: اذكر نوناً، وهذا يَفْقَهُ مع أن يكون اسماً للسورة، فهو مؤنث سُمِّيَ به مؤنث، ففيه تأنيث وتعريف ولذلك لم ينصرف، وانصرف «نُوحٌ» لأن الجَفَّةَ

بكونه على ثلاثة أحرف غلبت على علَّة العُجْمَةِ، وقرأ ابن عباس، وابن أبي إسحق، والحسن: ﴿تَّ﴾ بكسر النون، وهذا كما تقول في القسم: الله، وكما قالوا: جَيَّرِ، وقيل: كُسِرَتْ لاجتماع الساكنين، وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم: ﴿نُونٌ﴾ بسكون النون، وهذا على أنه حرف منفصل فحُفِّهُ الوقوف عليه، وقرأ قوم منهم الكسائي: ﴿نُ وَالْقَلَمُ﴾ بالإدغام دون غُتَّة، وقرأ آخرون بإدغام ويغُتَّة، وقرأ الكسائي ويعقوب، وأبو بكر عن عاصم بالإخفاء بين الإدغام والإظهار، و«يَسْطُرُونَ» معناه: يكتبون سطوراً، فإن أراد الله تعالى الملائكة فهو كتب الأعمال وما يؤمرون به، وإن أراد تعالى بني آدم فهي الكتب المنزلة والعلوم وما جرى مجراها.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْتَبٍ﴾ هو جواب القسم، و«مَا» ها هنا عاملة لها اسم وخبر، وكذلك هي متى دخلت الباء في الخبر، وقوله تعالى: ﴿يَنْعَمَتِ رَبِّكَ﴾ اعتراض، كما تقول لإنسان: أنت - بحمد الله - فاضل.

وسبب هذه الآية أن قريشاً رمت رسول الله ﷺ بالجنون، وهو ستر العقل، بمعنى أن كلامه خطأ ككلام المجنون، نفى الله تعالى ذلك عنه، وأخبره بأن له الأجر، وبأنه على الخلق العظيم تشريفاً له ومدحاً.

واختلف الناس في معنى «مَسْتَوِينٌ» - فقال أكثر المفسرين: هو الواهن

المنقطع، يقال: «جبل ممنون» أي: ضعيف، وقال آخرون: معناه: غير ممنون عليك، أي: لا يكدره من به، وقال مجاهد: معناه: غير مُسْرَدٍ ولا محسوب محصّل، أي: بغير حساب، وسئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت: (خُلِقَهِ القرآن)، أي: آدابه وأوامره، وقال علي رضي الله عنه: الخُلُقُ العظيم أدب القرآن، وعبر ابن عباس رضي الله عنهما عن الخُلُقِ بالدين والشرع، وذلك لا محالة رأس الخلق ووكيده، أما إن الظاهر من الآية أن الخُلُقُ هو الذي يضاد مقصد الكفار في قولهم: «مجنون» أي: غير محصّل لما يقول، وإنما مدحه تعالى بكرم السجدة وبراعة القريحة والمَلَكة الجميلة وجودة الضرائب، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام: «بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ»، وقال جُنَيْدٌ: «سُمِّيَ خُلُقُهُ عَظِيمًا إِذَا لَمْ يَكُنْ لَهُ هِمَّةٌ سِوَى اللَّهِ تَعَالَى، عَاشَرَ الْخَلْقَ بِخُلُقِهِ وَزَابِلَهُمْ بِقَلْبِهِ، فَكَانَ ظَاهِرُهُ مَعَ الْخَلْقِ وَبَاطِنُهُ مَعَ الْحَقِّ»، وفي وصية بعض الحكماء: «عليك بالتَّخَلُّقِ مَعَ الْخَلْقِ، وَبِالْصَّدْقِ مَعَ الْحَقِّ، وَحُسْنِ الْخُلُقِ خَيْرَ كُلِّهِ»، وقال عليه الصلاة والسلام: «إِنْ الْمُؤْمِنُ لَيُذْرِكُ بِحُسْنِ خُلُقِهِ دَرَجَةَ قَائِمِ اللَّيْلِ صَائِمِ النَّهَارِ»، وقال: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ»، وقال: «أَحْبَبُكُمْ إِلَيَّ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»، والعدل والإحسان والعفو والصلة من الخُلُقِ.

لرسول الله ﷺ: لو
 عبدت ألهتنا وعظمتها
 لعبدنا إلهك وعظمتنا،
 وودوا أن يدهانهم
 رسول الله ﷺ ويميل إلى
 ما قالوا فيميلوا هم أيضاً
 إلى قوله ودينه،
 والإذهان: الملاينة فيما
 لا يحل، والمُداراة:
 الملاينة فيما يحل، وقوله
 تعالى: **يُدْهَرُونَ**؛
 معطوف وليس بجواب؛
 لأنه لو كان لنصب.
 و«الْحَلَّافُ»: المُردَّد
 لِحَلْفِهِ الذي قد كثر منه،
 و«الْمُهَيِّنُ»: الضعيف
 المعقل والرأي، قاله

يرد بها رجل بعينه، وقالت طائفة:
 بل نزلت في مُعَيِّن، واختلف فيه -
 فقال بعضهم: هو الوليد بن
 المغيرة، ويؤيد ذلك غناء وأنه
 أشهرهم بالمال والبنين، وقال
 الشعبي وغيره: هو الأحنس بن
 شَرِيْق، ويؤيد ذلك أنه كانت له هنة
 في حلقه كزئمة الشاة، وأيضاً فكان
 من ثقيف مُلصقاً في قريش، وقال
 ابن عباس في كتاب الثعلبي: هو أبو
 جهل، وذكر النقاش عتبة بن ربيعة،
 وقال مجاهد: هو الأسود بن عبد
 يغوث، وظاهر اللفظة عموم من بهذه
 الصفة، والمخاطبة بهذا المعنى
 مستمرة باقي الزمان لا سيما لولاة
 الأمور.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قال كثير من المفسرين: الخَيْر هنا
 المال، فوصفه بالشُّخ، وقال

وقوله تعالى: **﴿سَتْمِيرٌ﴾**، أي:
 أنت وأمتك، و**﴿يُصِيرُونَ﴾** أي: هم،
 واختلف الناس في معنى قوله تعالى:
﴿بِأَيْتِكُمُ الْمَفْتُونُ﴾ فقال أبو
 عثمان المازني: الكلام تام في قوله
 تعالى: **﴿وَيُصِيرُونَ﴾**، ثم استأنف
 قوله تعالى: **﴿بِأَيْتِكُمُ الْمَفْتُونُ﴾**،
 وقال الأخفش: بل الإضمار عامل في
 الجملة المستفهم عنها، في معناها،
 وأما الباء فقال أبو عبيدة مغمَر،
 وفتادة: هي زائدة، والمعنى: **أَيْتِكُمُ**
الْمَفْتُونُ؟ وقال الحسن، والضحاك:
﴿الْمَفْتُونُ﴾ بمعنى الفتنة، كما قالوا:
 «ماله معقول» أي: عقل، وكما
 قالوا: «أقبل ميسوره ودغ مغسوره»،
 فالمعنى: بأيتكم هي الفتنة والفساد
 الذي سَمَّوه جنوناً؟ وقال آخرون:
 المعنى: بأيتكم فتن المَفْتُونُ؟ وقال
 الأخفش: المعنى: بأيتكم فتنَةُ
 المَفْتُونِ؟ ثم حذف المضاف وأقيم
 المضاف إليه مقامه، وقال مجاهد،
 والفراء: الباء بمعنى «في» أي: في
 أي فريق منكم النوع المَفْتُونُ؟ وهذا
 قول حسن قليل التكلف، ولا نقول
 إن حرفاً بمعنى حرف، بل نقول: إن
 هذا المعنى يُتَوَصَّلُ إليه بـ «في»
 وبالباء أيضاً. وقرأ ابن أبي عمير:
﴿فِي أَيْتِكُمُ الْمَفْتُونُ﴾.

وقوله تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ**
بِمَنْ صَلَّى عَنْ سَبِيلِهِ﴾ الآية وعبيد،
 والعالم في قوله سبحانه: **﴿يَمُنْ**
صَلَّ﴾ هو **﴿أَعْلَمُ﴾**، وقد قَوَّاه حرف
 الجر فلا يحتاج إلى إضمار
 فعل، وقوله تعالى: **﴿فَلَا تَطَّلِعْ**
الْمَلَائِكَةُ﴾ يريد قريشاً، وذلك
 أنهم قالوا في بعض الأوقات

مجاهد وهو من «مَهَن» إذا ضعف،
 والميم فاء الفعل، وقال ابن عباس
 رضي الله عنهما: المَهين: الكذاب.
 و«الْهَمَّازُ»: الذي يقع في الناس،
 وأصل الهمز في اللغة الضَرْبُ طعناً
 باليد أو بالعصا أو نحوه، ثم استعير
 للذي ينال بلسانه، قال منذر: وبعينه
 وإشارته، وسُميت الهمزة لأن في
 النطق بها حِدَّةٌ وعجلة فشبَّهت بالهمز
 باليد، وقيل لبعض الأعراب: أتهمز
 الفارة؟ فقال: الهرة تهمزها، وقيل
 لآخر: أتهمز إسرائيل؟ فقال: إني إذا
 لرجل سوء.

و«الْتَمِيمُ» مصدر كالتَّيممة، وهو
 نقل ما يُسمع ممَّا يسوء ويحوش
 النفوس، وروى حذيفة أن النبي ﷺ
 قال: **﴿لا يدخل الجنة قنات﴾**، وهو
 النَّمَام، وذهب كثير من المفسرين
 إلى أن هذه الأوصاف هي أجناس لم

آخرون: بل هو على عمومه في المال والأفعال الصالحة، ومن يُمنع إيمانه وطاعته فقد مُنِع الخير، و«المعتدي»: المتجاوز لحدود الأشياء، و«الأنيم» فصيل من الإثم بمعنى آثم، وذلك من حيث أعماله جيحة تُكسب الإثم.

و «العُتْلُ»: القويُّ البنية، الغليظُ الأعضاء، المُصَحَّح، القاسي القلب، البعيدُ الفهم، الأَكُولُ الشُّرُوبُ الذي هو بالليل جيحة وبالنهار حمار، وكل ما عبَّر به المفسرون عنه من خلال النقص فمن هذه التي ذكرتُ تُضَدُّر، وقد ذكر النقاشُ أن النبي ﷺ فسَّر «العُتْلُ» بنحو هذا، وهذه الصفات كثيرة التلازم، والعُتْلُ: الدَّفْعُ بشدة، منه العَتَلَة - وقوله تعالى: ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ معناه: بعد ما وصفناه به، فهذا الترتيب إنما هو في قول الواصف لا في حصول تلك الصفات في الموصوف، وإلا فكونه عُتْلًا هو قبل كونه صاحب خير يمنعه.

و «الرَّزِيم» في كلام العرب: الملتصق في القوم وليس منهم، وقد فسَّر به ابن عباس رضي الله عنهما هذه الآية، وقال مرَّةً الهَمْدَانِي: إنما ادَّعاه أبوه بعد ثماني عشرة سنة، يعني الذي نزلت فيه هذه الآية، ومن ذلك قول حسان بن ثابت:

وَأَنْتَ رَزِيمٌ نَيْطٌ فِي آلِ هَاشِمٍ
كَمَا نَيْطٌ خَلْفَ الرَّابِجِ الْقَدْحِ الْفَرْدُ

وقول حسان أيضاً:

رَزِيمٌ تَدَاعَاهُ الرُّجَالُ زِيَادَةً
كَمَا زَيْدٌ فِي عَرَضِ الأَدِيمِ الأَكَارُغُ
فقال كثير من المفسرين: هذا هو

المراد بالآية، وذلك أن الأَخْسَنَ بن شَرِيْقَ كان من ثقيف حليفاً لقريش، وقال ابن عباس: أراد بالزَّيْمِ أن له زَمَمَةً في عنقه كزَمَمَةِ الشَّاةِ، وهي الهَمَّةُ التي تتعلق في حلقها، وما كنا نعرف المشار إليه حتى نزلت فعرَّفناه بِرَزِيمِيَّةِ، وقال أبو عبيد: يُقال لِلثَّيْسِ: زَيْمٌ؛ إذ له زَمَمَتَانِ، ومنه قول الأعرابي في صفة شاته: (كَأَنَّ زَمَمَتَيْهَا تَتَوَّانِ قُلَيْسِيَّةً) ورُوي أن الأَخْسَنَ بن شَرِيْقَ كان بهذه الصفة، كان له زَمَمَةٌ، وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لَمَّا نزلت هذه الصفات لم نعرف صاحبها حتى نزل (زَيْمِمْ) فَعُرِفَ بِرَزِيمَتِهِ، وقال بعض المفسرين: الرَّزِيمِ: المريب القبيح الأفعال.

واختلفت القراءة في قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ﴾ - فقرأ ابنُ كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وحفص عن عاصم، وأهل المدينة: ﴿أَنْ كَانَ﴾ على الخبر، وقرأ حمزة: ﴿أَنَّ كَانَ﴾ بهمزتين مخففتين على الاستفهام، وقرأ ابن عامر، والحسن، وابن أبي إسحق، وعاصم، وأبو جعفر: ﴿أَنَّ كَانَ﴾ على الاستفهام بتسهيل الهمزة الثانية، والعامِلُ في ﴿أَنْ﴾ فعل مضمَرٌ تقديره: كَفَّرَ أو جَحَدَ أو عَدَدَ، ويُفسَّرُ هذا الفعلُ قوله تعالى: ﴿إِذَا تَلَّى عَلَيَّ﴾ الآية، وجاز أن يعمل المعنى وهو متأخر من حيث كان قوله تعالى: ﴿أَنْ كَانَ﴾ في منزلة الظرف؛ إذ يُقدَّرُ باللام، أي: لأن كان، وقد قال فيه بعض النحاة: إنه في موضع خفض باللام كما لو

ظهرت، فكما عمل المعنى في الظرف المتقدم كذلك يعمل في هذا، ومنه قوله تعالى: ﴿يَبْتَئِكُمْ إِذَا مُرِفَّتْ كُلُّ مُرْفِقٍ إِنَّكُمْ لِنِي حَلْقِي جَدِيدٌ﴾، فالعامِلُ في ﴿إِذَا﴾ معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لِنِي حَلْقِي جَدِيدٌ تَبْعُونَ﴾، أو نحوه من التقدير، ولا يجوز أن يعمل [يُنْبِيءُ] في ﴿إِذَا﴾ لأنه مضاف إليه قد أُضيف إذا إلى الجملة، ولا يجوز أن يعمل في ﴿إِنْ﴾، قال: لأنها جواب لـ ﴿إِذَا﴾ ولا تعمل فيما قبلها.

وأجاز أبو علي أن يعمل فيه ﴿عَتْلِي﴾ وإن كان قد وُصِفَ، ويصح - على هذا النظر - أن يعمل فيه ﴿رَزِيمِي﴾ لا سَيِّمًا على قول من يفسره بالقيح الأفعال، ويجوز أن يعمل في (أَنْ كَانَ) «تَطْيِغُهُ» التي يقتضيهما قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَطْيِغُ﴾، وهذا على قراءة الاستفهام يُبْعَدُ، وإنما يَبْتَجِه: لا تَطْيِغُ لِأَجْلِ كونه كذا، ولَهُ - على كُلِّ وَجْهٍ - مفعولٌ من أجله، وتأمل. وقد تقدم القول في «الأساطير» في غير ما موضع.

وقوله تعالى: ﴿سَكَّيْنُ عَلَى الثَّرْوَةِ﴾ معناه: على الأنف، قاله المبرد، وذلك أن الخرطوم يستعار في أنف الإنسان، وحقيقته في مخاطم السباع، ولم يقع التوعد في هذه الآية بأن يُوسَمَ هذا الإنسان على أنفه بِسِمَةٍ حَقِيقَةٍ، بل هذه عبارة عن فعل يشبه الوشم على الأنف، واختلف الناس في ذلك الفِعل - فقال ابن عباس: هو الضرب بالسيف، أن يُضْرَبَ به في وجهه وعلى أنفه

فيجيء ذلك كالرشم على الأنف، وحلّ به ذلك يوم بدر، وقال محمد بن يزيد المبرد: ذلك في عذاب الآخرة في جهنم، وهو تعذيب بنارٍ على أنوفهم، وقال آخرون: ذلك في يوم القيامة، أن يُوسم على أنفه بِسِمَةٍ يُعرف بها كفره وانحطاط قدره، وقال قتادة وغيره: معناه: سَيُفعل به في الدنيا من الذم والمقت والإشهار بالشّر ما يبقى فيه ولا يخفى به، فيكون ذلك كالرشم على الأنف ثابتاً بَيِّنًا، وهذا المعنى كما تقول: «سَأَطْرُقُكَ طوق الحمامة» أي: أثبت الأمر بَيِّنًا فيك، ونحو هذا أراد جرير بقوله:

لَمَّا وَضَعْتُ عَلَى الْفَرْزَدَقِ مِيسِمِي

وفي الرّسْم على الأنف تشويهه، فجاءت استعارة في المذمات بليغة جداً، وإذا تأملت حال أبي جهل ونظراته وما ثبت لهم في الدنيا من سوء الأُحودثة رأيت أنهم قد وَسِمُوا على الخراطيم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ﴾، يريد تعالى قريشاً، أي: امتحنناهم، و«أصحاب الجِنَّة» - فيما ذكر - قوم إخوة، كان لأبيهم جِنَّةٌ وحرثٌ مُغِلٌّ، فكان يُمسك منه قُوته ويتصدق على المساكين بياقيه، وقيل: بل كان يحمل المساكين معه في وقت حصاده وجده فيجزئهم منه، فمات الشيخ، فقال ولده: نحن جماعة، وفعل أبينا كان خطأً، فلنذهب إلى جنتنا، ولا يدخلها علينا مسكين ولا نعطي منها شيئاً، قال: فبيّتوا أمرهم وعزمهم على هذا، فبعث الله طائفاً

بالليل من النار أو غير ذلك فاحترقت، فقيل: أصبحت سوداء، وقيل: بيضاء كالزرع اليابس المحصود، فلما أصبحوا إلى جنتهم لم يروها فحسبوا أنهم قد أخطؤوا الطريق، ثم تبيّنوا فعلموا أن الله تعالى أصابهم فيها، فتابوا حينئذ وأنابوا وكانوا مؤمنين من أهل الكتاب، فشبّه الله تعالى قريشاً بهم في أنه امتحنهم بمحمد ﷺ وهداه كما امتحن أولئك بفعل أبيهم وأوامر شرعهم، فكما حلّ بأولئك العقاب في جنتهم كذلك يحلّ بهؤلاء في جميع دنياهم وحياتهم، ثم التوبة معروضة لمن بقي منهم كما تاب أولئك، وقال كثير من المفسرين: السنون السبع التي أصابت قريشاً هي بمثابة ما أصاب أولئك في جنتهم.

وقوله تعالى: ﴿صَرِيمًا﴾ أي: ليَجْدُنْها، وصرام النخل جدّ ثمره، وكذلك في كل شجرة، و«مُسَيَّرِينَ» معناه: إذا دخلوا في الصباح، وقوله سبحانه: ﴿وَلَا يَسْتَوُونَ﴾ معناه ولا يتوقفون في ذلك ولا يثنون عن رأي منع المساكين، وقال مجاهد: معناه: ولا يقولون: «إن شاء الله»، بل عزموا على ذلك عزم من يملك أمره. و«الطائف»: الأمر الذي يأتي بالليل، ذكر هذا التخصيص الفراء، ويردّه قوله تعالى: ﴿إِذَا مَنَّكَمُ طَلِيفٌ مِّنَ السَّيِّطِينَ﴾، و«الصريم» قال الفراء ومنذر وجماعة: أراد به الليل، من حيث اسودّت جثثهم، وقال آخرون: أراد به الصبح، من حيث ابيضّت كالحصيد، قاله سفيان الثوري،

و«الصريم» يقال للليل وللنهار من حيث كل واحد منهما ينصرم من صاحبه، وقال ابن عباس: الصريم: الرماد الأسود بلغة جذيمة، وقال ابن عباس أيضاً وغيره: الصريم: رملة باليمن معروفة لا تثبت، فشبّه جثثهم بها.

﴿١٩﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿تَنَادَوْا﴾ معناه: دَعَا بعضهم بعضاً إلى المضي لميعادهم، وقرأ بعض السبعة: ﴿أَنْ اغْدُوا﴾ بضم النون، وبعضهم بكسرها، وقد تقدم هذا مراراً، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كُنْتُمْ صَرِيمِينَ﴾ يحتمل أن يكون من «صرام النخل»، ويحتمل أن يريد: إن كنتم أهل عزم وإقدام على رأيكم، من قولك: «سيف صارم».

و﴿يَتَخَفَتُونَ﴾ معناه: يتكلمون كلاماً خفياً، ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافَتَ بَيْنَهُمَا﴾، وكان هذا التخافت خَوْفاً من أن يشعر بهم المساكين، وكان لفظهم الذي يتخافتون به ﴿أَنْ لَا يَسْخَلَنَّا إِلَيْكَ عَيْتَكَ يَسْكِينٌ﴾، وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبيدة: ﴿لَا يَدْخُلُنَّهَا﴾ بسقوط [أَنْ].

وقوله تعالى: ﴿عَلَى حَرَبٍ﴾ يحتمل أن يريد به: على منع، من قولهم: «حازدت الإبل»، إذا قلت ألبانها فمَنَعْتَهَا، و«حازدت السنّة» إذا كانت شهباء لا غلّة لها، ومنه قول الشاعر:

وَحَاذَرَتِ الشُّكْدُ الْجِلَادُ وَلَمْ يَكُنْ
لِعُقْبَةِ قَدْرِ الْمُسْتَعِيرِينَ مُعْقِبٌ
ويحتمل أن يريد بالحرذ: القصد، وبذلك فسّر بعض اللغويين، وأنشد عليه:

هو العذاب الذين ينزل بقريش بغته، ثم عذاب الآخرة أشد عليهم من عذاب الدنيا، قال كثير من المفسرين: العذاب النازل بقريش المماثل لأمر الجنة هو الجذب الذي أصابهم سبع سنين حتى رأوا الدخان وأكلوا الجلود.

ثم أخير تعالى أن المتقين لهم عند ربهم جنات النعيم، فروي أنه لما نزلت هذه الآية قالت قريش: إن كان ثم جنات نعيم فلنا فيها أكبر الحظ، فنزلت: ﴿أَتَجْعَلُ الْأَشْيَاءَ كَالَّذِينَ﴾، وهذا على جهة التوقيف والتوبيخ. وقوله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لِكُرِّهِ﴾ توبيخ آخر، ابتداء وخبر، جملة منحازة، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَعْكُورُونَ﴾ جملة منحازة كذلك، و﴿كَيْفَ﴾ في موضع نصب بـ ﴿تَعْكُورُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ﴾ هي المقدرة بـ «بل وألف الاستفهام»، و﴿يَكْتُبُ﴾ معناه: مُنْزَلٌ من عند الله، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهِ لَّا تَعْرَفُونَ﴾، قال بعض المتأولين: هو استئناف قول على معنى: إن كان لكم كتاب فلنكن فيه مُتَّخِيْرًا، وقال آخرون: ﴿إِنَّ﴾ معمولة لـ ﴿تَدْرُسُونَ﴾، أي: في الكتاب: إن لكم ما تختارون من النعيم، وكُسر الألف من ﴿إِنَّ﴾ لدخول اللام في الخير، وهي في معنى «أَنَّ» بفتح الألف، وقرأ طلحة، والضحاك: ﴿أَنْ لَكُمْ﴾ بفتح الألف، وقرأ الأعرج: ﴿أَنْ لَكُمْ﴾ على الاستفهام.

٣٩ - ٤٠ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿أَمْ لَكُمْ آيَاتُنَا بِعِلْمَةِ

قد حُرْمِنَا عَلَّيْهَا وَبِرَكَّتْهَا، فقال لهم أعد لهم قولاً وعقلاً وخلقاً، وهو الأوسط، ومنه قوله تعالى: ﴿أُمَّةٌ وَسَطًا﴾، أي: عُدلاً خبيراً، و﴿تُسْعُونَ﴾ قيل: هي عبارة عن طاعة الله تعالى وتعظيمه والعمل بطاعته، وقال مجاهد وأبو صالح: هي كانت لفظه الاستثناء عندهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا يراد عليه قولهم: ﴿سُبْحَانَ رَبِّنَا﴾. فبادر القوم وتابوا عند ذلك، وسبّحوا واعترفوا بظلمهم في اعتقادهم منع الفقراء.

٣٨ - ٣٩ تفسير قوله عز وجل: ﴿يَتَلَوْنَهُ﴾ معناه: يجعل كل واحد اللوم في حيز صاحبه ويبريء نفسه، ثم أجمعوا على أنهم طغوا، أي: تعدوا ما يلزم من مواسة المساكين ثم انصرفوا إلى رجاء الله تعالى وانتظار الفرج من لُدْنِهِ في أن يبدلهم بسبب توبتهم وإنباتهم خيراً من تلك الجنة.

وقرأ جمهور القراء: ﴿يُؤَيَّلًا﴾ بسكون الباء وتخفيف الدال، وكذلك قرأ الحسن، وابن محيصن، والأعمش، وقرأ نافع، وأبو عمرو بالتثنية وفتح الباء.

وقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْمَثَبُ﴾ ابتداء مخاطبة للنبي ﷺ في أمر قريش، والإشارة بـ ﴿كَذَلِكَ﴾ إلى العذاب الذي نزل بالجنة أي: كذلك العذاب

سُورَةُ الْقَلَمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَجْعَلْهُمَ الْإِنْسَانَ مَا أَحْسَنَهُ ۚ ﴿١﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا جَعَلَهُمْ ۚ ﴿٢﴾ كَذَّبْتُمْ ثَمُودَ وَعَادَ الْقَارِعَةَ ۚ ﴿٣﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغُوتِ ۚ ﴿٤﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَوَّصِرٍ عَلَيْهِمْ ۚ ﴿٥﴾ سَحَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَيُّمَ آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَجْعَارٌ نَحْلٌ ۚ ﴿٦﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۚ ﴿٧﴾

سُورَةُ الْجِنِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلَمْ نَجْعَلْهُمَ الْإِنْسَانَ مَا أَحْسَنَهُ ۚ ﴿١﴾ وَمَا أَذْرَبَكُمْ مَا جَعَلَهُمْ ۚ ﴿٢﴾ كَذَّبْتُمْ ثَمُودَ وَعَادَ الْقَارِعَةَ ۚ ﴿٣﴾ فَأَمَّا ثَمُودُ فَأَهْلِكُوا بِالطَّاغُوتِ ۚ ﴿٤﴾ وَأَمَّا عَادُ فَأَهْلِكُوا بِرِيحٍ صَوَّصِرٍ عَلَيْهِمْ ۚ ﴿٥﴾ سَحَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَتَمَيُّمَ آيَاتٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَجْعَارٌ نَحْلٌ ۚ ﴿٦﴾ فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ ۚ ﴿٧﴾

٥٦٦

أَقْبَلٌ سَيْبَلٌ جَاءَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ يَخْرِدُ حَزْدَ الْجِنَّةِ الْمُغَلَّةِ أي: يقصد قصدها، ويحتمل أن يريد بالحزْد: الغضب، يقال: «حزْد الرجل يخرْد حَزْدًا» إذا غضب، ومنه قول الأشهب بن زَمَيْلَةَ:

أَسْوَدُ شَرِي لَأَقْتِ أَسْوَدَ حَفِيَّةٍ
تَسَاقُوا عَلَى حَزْدِ دِمَاءِ الْأَسْوَدِ
وقوله تعالى: ﴿قَدِيرٌ﴾ يحتمل أن يكون من القُدرة، أي: هم قادرون في زعمهم، ويحتمل أن يكون من التقدير، كأنهم قد قَدَّرُوا على المساكين، أي: ضيقوا عليهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَمَنْ قُدِّرَ عَلَيْهِ رِزْقٌ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهَا﴾ أي: محترقة، حسبوا أنهم قد ضلُّوا الطريق، وأنها ليست تلك، فلما تحقَّقوها علموا أنها قد أُصِيبَتْ، فقالوا: ﴿بَلْ نَحْنُ بِمُحْرَقِينَ﴾، أي:

إِنَّ يَوْمَ الْيَوْمِ لَمُخَاطَبَةٌ لِلْكَفَّارِ، كَأَنَّهُ يَقُولُ: هل أقسمنا لكم قَسْماً فهو عهد لكم بأننا نُنْعِمُكم يوم القيامة وما بعده؟ وقرأ جمهور القراء: ﴿بَلِئِنَّ﴾ بالرفع على الصفة لـ ﴿أَبْتَنُّ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿بِالْبَلَّةِ﴾ بالنصب على الحال، وهي حال من نكرة مخصصة بقوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا﴾ وقرأ الأعرج: ﴿أَبْنُ لَكُمْ﴾، وكذلك في التي تقدمت في قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكُمْ فِيهَا لَأَعْرَافٌ﴾.

ثم أمر الله تعالى محمداً ﷺ - على جهة إقامة الحجة عليهم - أن يسألهم عن الزعيم لهم بذلك، من هو؟ والزعيم: الضامن للأمر والقائم به.

ثم وفقهم تعالى على أمر الشركاء عسى أن يظنوا أنهم ينفعونهم في شيء من هذا، وقرأ ابن مسعود، وابن أبي عبلة: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فَلْيَأْتُوا بِشُرِكِهِمْ﴾ بكسر الشين دون ألف، والمراد بذلك - على القراءتين - الأصنام، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِشُرِكِهِمْ﴾ قيل: هو استدعاء وتوقيف في الدنيا، أي: ليحضرورهم حتى نرى هل هم بحال من يضر وينفع أم لا، وقيل: هو استدعاء وتوقيف على أن يأتوا بهم يوم القيامة، يوم يكشف عن ساق.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُكْفُ عَنْ سَاقٍ﴾، قال مجاهد: هي أول ساعة من القيامة، وهي أقطعها، وتظاهر حديث عن النبي ﷺ: «أنه ينادي مناد يوم القيامة: ليتبع كل أحد ما يعبد، قال: فيتبع من كان يعبد

الشمس الشمس، ويتبع من كان يعبد القمر القمر، وكذلك كل عابد لكل معبود، ثم تبقى هذه الأمة وقبائر أهل الكتاب معهم منافقوهم وكثير من الكفرة، فيقال لهم: ما شأنكم؟ لم تقفون وقد ذهب الناس؟ فيقولون: ننتظر ربنا، قال: فيجيئهم الله في غير الصورة التي عرفوه بها، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، قال: فيقول: أتعرفونه بعلمة ترونها؟

فيقولون: نعم، فيكشف لهم عن ساق، فيقولون: نعم أنت ربنا، ويخرون للسجود، فيسجد كل مؤمن وترجع أصلاب المنافقين والكفار كصياصي البقر عظماً واحداً فلا يستطيعون سجوداً. هكذا هو الحديث وإن اختلفت منه ألفاظ بزيادة أو نقصان، وعلى كل وجه مما ذكرته من كشف الساق وما في الآية أيضاً من ذلك فإنما هو عبارة عن شدة الهول وعظم القدرة التي يري الله تعالى ذلك اليوم، حتى يقع العلم أن تلك القدرة إنما هي لله تعالى وحده، ومن هذا المعنى قول الشاعر في صفة الحرب:

كَشَفَتْ لَهُمْ عَنْ سَاقِهَا
وَبَدَا مِنَ الشُّرِّ الْبَرَّاحُ

ومنه قول الآخر:

قَدْ شَمَّرَتْ عَنْ سَاقِهَا فَشَدُّوا

وقول الآخر:

فِي سَنَةٍ قَدْ كَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا
حُمْرَاءُ تَبْرِي اللَّحْمِ عَنْ عَرَقِهَا
وأصل ذلك أن من أراد الجِدَّ في أمر يُحاوله فإنه يكشف عن ساقه

تشميراً وجداً، وقد مدح الشعراء بهذا المعنى، فمنه قول دُرَيْد:

كَمِيشُ الْإِزَارِ خَارِجٌ نَضْفُ سَاقِهِ
صَبُورٌ عَلَى الْأَعْدَاءِ طَلَأُ أَتَجِدُ
وعلى هذا من أراد الجِدَّ والتشمير في طاعة الله تعالى، قال عليه الصلاة والسلام: «إِزْرَةُ الْمُؤْمِنِ إِلَى نَضْفِ سَاقِهِ».

وقرأ جمهور الناس: ﴿يُكْشَفُ﴾ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول، وقرأ ابن مسعود: ﴿يُكْشِفُ﴾ بفتح الياء وكسر الشين على معنى: يكشف الله، وقرأ ابن عباس: ﴿تُكْشِفُ﴾ بفتح التاء على أن القيامة هي الكاشفة وقرأ ابن عباس أيضاً: ﴿تُكْشِفُ﴾ بضم التاء على معنى: تكشف القيامة والشدة الحال الحاضرة، وحكى الأخفش عنه أنه قرأ: ﴿تُكْشِفُ﴾ بالنون مفتوحة وكسر الشين، ورويت عن ابن مسعود.

وقوله تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ﴾ ظاهرة أن ثم دعاء إلى سجود، هذا يرده ما قد تقرر في الشرع من أن الآخرة ليست بدار عمل، وأنه لا تكليف فيها، وإذا كان هذا فإنما الداعي ما يروونه من سجود المؤمنين فيريدون أن يسجدوا عند ذلك فلا يستطيعون، وقد ذهب بعض العلماء إلى أنهم يُدعون إلى السجود على جهة التوبيخ، وخرج بعض الناس من قوله تعالى: ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾ أنهم كانوا يستطيعون قبل ذلك، وذلك غير لازم، وعقيدة الأشعرية أن الاستطاعة إنما تكون مع التائب

بالفعل لا قبله، وهذا القدر كاف من هذه المسألة ها هنا.

و ﴿حَسْبَعَهُ﴾ نصب على الحال، وجوارحهم كلها خاشعة، أي: ذليلة، ولكنه تعالى خص الأَبصار بالذكر لأن الخشوع فيها أبين منه في كل جراحة. وقوله تعالى: ﴿رَمَقْتُهُمْ ذَلَّةً﴾ معناه: تزعج نفوسهم وتظهر عليهم ظهوراً يخزيهم، وقوله سبحانه: ﴿وَوَدَّ كَأَنَّا يَدْعُونَ إِلَى الشُّجُورِ﴾ يريد في دار الدنيا وهم سالمون مما نال عظام ظهورهم من الاتصال العُثُو، وقال بعض المتأولين: السُّجود هنا عبارة عن جميع الطاعات، وخص السُّجود بالذكر من حيث هو عظم الطاعات، ومن حيث به وقع امتحانهم في الآخرة، وقال إبراهيم التيمي، والشعبي: أراد بالسُّجود الصلوات المكتوبة، وقال ابن جُبَيْر: المعنى: كانوا يسمعون النداء للصلاة و﴿حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ﴾ فلا يجيئون، و﴿فُلج الربيع بن خُثَيْم فكان يهاذى بين رجلين إلى المسجد، فقيل له: إنك لمعدور، فقال: من سمع ﴿حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ﴾ فليجب ولو حنبوا، وقيل لابن المسيَّب: إن طارقاً يريد قتلك فاجلس في بيتك، فقال: أسمع ﴿حَيَّ عَلَى الْفَلَاحِ﴾ فلا أجيب؟ والله لا فعلت، وهذا كله قريب بعضه من بعض.

وقوله تعالى: ﴿نَذَرَ وَمَنْ يَكْذِبْ يَدَا لَدَيْهِ﴾ وعيد، ولم يكن ثم مانع ولكنه كما تقول: «دعني مع فلان»، أي: سأعاقبه، و﴿وَن﴾ في موضع نصب عطفاً على الضمير في

﴿نَذَرَ﴾، أو نصب على المفعول معه، و«الحديث» المشار إليه هو القرآن المخبر بهذه الغيوب. و«الاستدراج» هو الحمل من رتبة إلى رتبة حتى يصير المحمول إلى شر، وإنما يستعمل الاستدراج في الشر، وهو مأخوذ من الدرج، قال سفيان الثوري: تسبغ عليهم النعم ويمنعون الشكر، وقال غيره: كلما زادوا ذنباً زيدوا نعمة، وفي معنى الاستدراج قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُغْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ»، وقال الحسن: «كَمْ مِنْ مُسْتَدْرَجٍ بِالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ وَمَغْرُورٍ بِالشَّرِّ عَلَيْهِ».

و ﴿وَأَتَى لَمَمٌ﴾ معناه: أواخرهم ملاوة من الزمان، وهي البرهة والقطعة، يقال: ملاوة بضم الميم وفتحها وكسرها، و«الكَيْدُ» هنا عبارة عن العقوبة التي تحل بالكفار من حيث هي على كَيْد منهم، فسُمِّي العقوبة باسم الذنب، و«الْمَتْنُ»: القوي الذي له متانة، ومنه الَمْتَنُ: الظَّهْر.

(٤٦) - (٥٢) تفسير قوله عز وجل:

هذه «أم» التي تتضمن الإضراب عن الكلام الأول لا على جهة الرفض له، لكن على جهة التزك والإقبال على ما سواه، وهذا التوقيف هو لمحمد ﷺ، والمراد به توبيخ الكفار؛ لأنه لو سألهم أجراً فأنقلهم عدم ذلك لكان لهم بعض العذر في إعراضهم وفرارهم.

وقوله تعالى: ﴿أَمْ عِنْدَهُمُ الْآيَاتُ فَمَنْ يَكْتُمُون﴾ معناه: هل لهم علم بما

يكون فيدعون مع ذلك أن الأمر على اختيارهم جار؟

ثم أمر تعالى نبيه ﷺ بالصبر ليحكمه، وأن يمضي لما أمر به من التبليغ واحتمال الأذى والمشقة، ونهى عن الضجر والعجلة التي وقع فيها يونس عليه السلام، ثم ذكر تعالى القصة بانتصاب وذكر ما وقع في آخرها من ندائه من بطن الحوت وهو مكظوم، أي: غيظه في صدره، وحقيقة «الكظم» هو الغيظ والحزن والندم، فحمل المكظوم عليه تجوراً وهو في الحقيقة كاظم، ونحو هذا قول ذي الرمة:

وَأَنْتَ مِنْ حُبِّ مَيِّ مُضِيرٍ حَزَنًا
عَانِي الْفُؤَادِ قَرِيحُ الْقَلْبِ مَكْظُومٌ
وقال الثَّعَالِبيُّ: المكظوم الذي أخذ بكظمه وهو مجاري القلب، ومنه سُمِّيَتِ «الكاظمة» وهي القناة في جوف الأرض.

وقرأ جمهور الناس: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُكُمْ﴾ أسند الفعل دون علامة تأنيث لأن تأنيث النعمة غير حقيقي، وقرأ ابن مسعود، وأبي بن كعب، وابن عباس: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُشُمْ﴾ على إظهار العلامة، وقرأ ابن هرمز: ﴿لَوْلَا أَنْ تَدَارَكُكُمْ﴾ بشد الدال على معنى: تتدارك، وهي حكاية حال تأتي فلذلك جاء بالفعل مستقبلاً. بمعنى: لولا أن يقال فيه: تتداركه نعمة من ربه، ونحوه قوله تعالى: ﴿فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ﴾، فهذا وجه هذه القراءة، ثم أدغمت التاء في الدال. و«النَّعْمَةُ» هي الصفع والتوب والاجتباء الذي سبق له عنده، و«العَرَاءُ»: الأرض الواسعة

التي ليس فيها شيء يُؤاري من بناء أو نبات أو غيره من جبل ونحوه، ومنه قول الشاعر:

فَرَفَعْتُ رَجُلًا لَا أَخَافُ عِشَارَهَا
وَنَبَذْتُ بِالْأَرْضِ الْعَرَاءِ نِيَابِي
وقد بُدِ يونس عليه السلام بالأرض العراء غير مذموم. و«اجْتَبَأَهُ» معناه: اختاره واصطفاه.

ثم أخبر تعالى نبيه ﷺ بحال نظر الكفار إليه، وأنهم يكادون من الغيظ والعداوة يُزلقونه فيذهبون قدمه من مكانها ويسقطونه. وقرأ جمهور القراء: ﴿لِيُزْلِقَنَّكَ﴾ بضم الياء، من «أزلق»، وقرأ نافع وحده: ﴿لِيُزْلِقُونَكَ﴾ بفتح الياء من «زلق»، يقال: زلقت الرجل - بكسر اللام - وزلقته - بفتحها -، مثل «حزن» و «حزنته»، و«شترت العين» و«شترتها»، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿لِيُزْهِقُونَكَ﴾ بالهاء، وروى الثخعي أن في قراءة ابن مسعود: ﴿لِيُنْفِذُونَكَ﴾، وفي هذا المعنى الذي في نظرهم من الغيظ والعداوة قول الشاعر:

يَتَفَارِضُونَ إِذَا تَفَقَّوْا فِي مَجْلِسٍ
نَظْرًا يُزِيلُ مَوَاطِيءَ الْأَقْدَامِ
وذهب قوم من المفسرين - وذكره الفراء - إلى أن المعنى: يأخذونك بالعين، وذكر أن اللُفْعَ بالعين كان في بني إسرائيل، قال ابن الكلبي: كان رجل يتجوع ثلاثة أيام ثم لا يتكلم على أي شيء إلا أصابه بالعين، فسأله الكفار أن يصيب النبي ﷺ فأجابهم إلى ذلك لكن عصم الله تعالى نبيه ﷺ، وقال

الزجاج: كانت العرب إذا أراد أحدهم أن يعتان أحداً تجوع ثلاثة أيام، وقال الحسن: دواء من أصابته العين أن يقرأ هذه الآية، و«الدُّكْرُ» في الآية القرآن. ثم قرر تعالى أن هذا القرآن العزيز ذُكِرَ للعالمين من الجنة والإنس، ووَغِظَ لهم، وَحُجِّجَتْ عليهم، فالحمد لله الذي أنعم علينا به، وجعلنا من أهله وحملته، لا ربَّ غيره.

تم تفسير سورة القلم والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الحاقة

وهي مكية بإجماع. وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: خرجت يوماً بمكة معترضاً لرسول الله ﷺ فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام، فجئت فوقفت وراءه، فافتتح سورة الحاقة، فلما سمعت سزد القرآن قلت في نفسي: إنه لشاعر كما تقول قريش، حتى بلغ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿١﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٢﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ تَنْزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤﴾﴾، ثم مرَّ حتى انتهى إلى آخر السورة، فأدخل الله تعالى في قلبي الإسلام.

﴿١﴾ - ﴿٤﴾ تفسير قوله عز وجل: «الحاقة» اسم فاعل من «حق الشيء» يحقُّ إذا كان صحيح الوجود، ومنه

﴿حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَقَابِ﴾، والمراد به البعث والقيامة، قاله ابن عباس وغيره، وسُمِّيت القيامة حاقة لأنها حَقَّتْ لكل عامل عمله، وقال بعض المفسرين: «الحاقة» مصدر كالعاقبة والعافية، فكأنه قال: ذات الحق، وقال ابن عباس وغيره: سُمِّيت القيامة حاقة لأنها تبدي حقائق الأشياء، واللفظة رفع بالابتداء، و«مَا» رفع بالابتداء أيضاً، و«لَمَّا تَذَرَهُ» الثانية خبر «مَا»، والجمله خبر الأولى، وهذا كما تقول: «زيد ما زيد»، على معنى التعظيم له وإنهام التعظيم أيضاً ليتخيل السامع أقصى جهده.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَمَّا تَذَرَهُ﴾ مبالغة في هذا المعنى، أي: أن فيها ما لم تذرهُ من أهوالها وتفصيل صفاتها، و«مَا» تقرير وتوقيف، وقوله تعالى: ﴿مَا لَمَّا تَذَرَهُ﴾ ابتداء وخبر في موضع نصب بـ «أَدْرَاكَ»، و«مَا» الأولى ابتداء، وخبرها «أَدْرَاكَ مَا لَمَّا تَذَرَهُ»، وفي «أَدْرَاكَ» ضمير عائد على «مَا»، هو ضمير الفاعل.

ثم ذكر تعالى تكذيب ثمود وعاد بهذا الأمر الذي هو حق مشيراً إلى أن من كذب بذلك ينزل به مثل ما نزل بأولئك. و«القارعة» من السماء: القيامة أيضاً لأنها تقرق القلوب بصفاتها. و«ثمود» اسم عربي معرفة، فإذا أريد به القبيلة لم ينصرف، وإذا أريد به الحي انصرف، وأما «عاد» فكونه على ثلاثة أحرف وساكن الأوسط دفع في صدر كل علة فهو مصروف.

«الصر» أي: البرد، وهذا قول قتادة، ويحتمل أن يكون من «صر الشيء» إذا صوّت، قال قوم: وصوت الريح صرير، كأنه يحكي هذين الحرفين. و«العائية» معناه: الشديدة المخالفة، وكانت الريح قد عثت على الخزان بخلافها، وعتت على قوم عاد بشدتها. وروي عن علي بن أبي طالب، وابن عباس رضي الله عنهما أنها قالوا: إنه لم تنزل من السماء قطرة ماء قط إلا بمكيال على يد ملك، ولا هبت ريح قط إلا

كذلك، إلا ما كان من طوفان نوح عليه السلام وريح عاد، فإن الله تعالى أذن لهما في الخروج دون إذن الخزان. و«التسخير»: استعمال الشيء باقتدار عليه، وروي أن الريح بدأت بهم صباح يوم الأربعاء لثمان بقين لشوال، وتمادت بهم إلى آخر يوم الأربعاء تكملة الشهر. و«حسوماً» قال ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقاتدة، وأبو عبيدة: معناه: كاملة تبعاً لم يتخللها غير ذلك، وهذا كما تقول العرب: «ما لقيته حولاً مجرماً» قال الشاعر:

وجاء فرعون من قبله والموذبيكت بالخالطة ﴿١﴾ فعصوا رسول ربهم فأخذهم أخذة رابية ﴿٢﴾ إنا أنزلنا طافاً المأمة حملتكم في البارية ﴿٣﴾ ليجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن وعبية ﴿٤﴾ وإذا ففتح في الصور نفحة وجدة ﴿٥﴾ وحملت الأرض والجبال فدكا دكة وجدة ﴿٦﴾ فيوم يذوقن الواقعة ﴿٧﴾ وأنشقت السماء وهي يوم يذو أهبة ﴿٨﴾ والملك على أرجائها وحول عرش ربك فوقهم يوم يذو عينية ﴿٩﴾ يوم يذو تعرضون لا تخفى منكم خافية ﴿١٠﴾ تاماً من أوف كنية يمينه فيقول هاؤم هاؤم أوفه وأوف كنيته ﴿١١﴾ إني ظننت أني ملكي حسابية ﴿١٢﴾ فهو في عيشة راضية ﴿١٣﴾ في جنة عاليه ﴿١٤﴾ فطوفها داية ﴿١٥﴾ كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية ﴿١٦﴾ وأما من أوف كنية، بشماله فيقول يئسني لو أوت كنيته ﴿١٧﴾ ولرأد ما حسابية ﴿١٨﴾ يلبثها كانت القاضية ﴿١٩﴾ ما أعنى عني ماله ﴿٢٠﴾ هلك عني سلطانيه ﴿٢١﴾ خذوه فقلوه ﴿٢٢﴾ ثم للرحيم صلوة ﴿٢٣﴾ ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فأسلوه ﴿٢٤﴾ إنيء كان لا يؤمن بالله العظيم ﴿٢٥﴾ ولا يحض على طعام المسكين ﴿٢٦﴾

و«الطاغية» قال قتادة: معناه الصيحة التي خرجت عن حد كل صيحة، وقال قوم: المراد: بسبب الفئة الطاغية، وقال آخرون منهم مجاهد، وابن زيد المعنى: بسبب الفعل الطاغية التي فعلوها وقال ابن زيد ما معناه: «الطاغية» مصدر كالعاقبة، فكأنه تعالى قال: بطغيانهم، وقاله أبو عبيدة، ويقوي هذا قوله تعالى: ﴿كذبت نود يطغونها﴾، وأولى الأقوال وأصوبها الأول؛ لأنه مناسب لما ذكر في عاد إذا ذكر فيه الوجه الذي وقع به الهلاك، وعلى سائر الأقوال لا يتناسب الأمران؛ لأن طغيان ثمود سبب، والريح لا تناسب ذلك لأنها ليست بسبب الإهلاك بل آتته كما هي الصيحة.

و «الصر» يحتمل أن يكون من



و «الصر» يحتمل أن يكون من

و «الصر» يحتمل أن يكون من

في مصحف أبي بن كعب: ﴿وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ مَعَهُ﴾، وفي حرف أبي موسى الأشعري: ﴿وَمَنْ تَلْقَاءَهُ﴾، وقرأ طلحة بن مصرف: ﴿وَمَنْ حَوْلَهُ﴾، و«قَبِلُ الْإِنْسَانِ»: ما يليه في المكان، وكثر استعمالها حتى صارت بمنزلة: عندي وفي ذمتي وما يليني بأي وجه وليني.

و«المؤتفكات»: قرى قوم لوط عليه السلام، وكانت أربعاً فيما زوي، واثبتت: قُلبت وصار عليها سافلها فاثبتت هي فهي مؤتفكة، وقرأ الحسن هنا: ﴿وَالْمُؤْتَفِكَةَ﴾، على الإفراد، و«الْحَاطِطَةَ» إما أن يكون صفةً لمحدوف، كأنه قال: بالفيعللة الخاططة، وإما أن يريد المصدر، أي: بالخط في كفرهم وعصيانهم.

وقوله تعالى: ﴿نَمَصَّرًا رَسُولَ رَبِّهِمْ﴾ يحتمل أن يكون «الرسول» اسم جنس، كأنه قال: فعصى هؤلاء الأقسام والفرق أنبياء الله تعالى الذين أرسلهم إليهم، ويحتمل أن يكون «الرسول» بمعنى الرسالة، وقال الكلبي: يعني موسى عليه السلام، وقال غيره - في كتاب الشعلبي -: يعني لوطاً عليه السلام، و«الرايبة»: النامية التي قد عظمت جداً، ومنه: الربا، وربا المال، ومنه ﴿أَهْرَبَتْ وَرَبَّتْ﴾.

ثم عدد تعالى على الناس نعمته في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَّا لَطَافًا لَمَاءً﴾ والمراد: طغى الماء في وقت الطوفان الذي كان على قوم نوح عليه السلام، والطينان: الزيادة على الحدود المتعارفة في الأشياء،

ومعناه: طغى على خُرَّانه في خروجه، وعلى البشر في أن أغرقهم، قال قتادة: علأ على كل شيء خمسة عشر ذراعاً، و«الجارية»: السفينة.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَلِيَجْمَلَهَا﴾ عائد على الفعلة، أي: من تذكرها ازدجر، ويحتمل أن يعود على ﴿لَلَّارِيَةِ﴾، أي: من سمعها اعتبر، و«الجارية» يراد بها سفينة نوح عليه السلام، قاله مُنذر، وقال المهدي: المعنى: في السفن الجارية، وقال قتادة: أبقي الله تعالى تلك السفينة حتى رأى بعض عبداها أوائل هذه الأمة، وغيرها من السفائن التي صنعت بعدها قد صارت رماداً.

وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّهَا أَذُنٌ دُعِيَّةٌ﴾ عبارة عن الرجل الفهم المنور القلب الذي يسمع القول فيتلقاه بفهم وتدبر، قال أبو عمران الجوني: ﴿دُعِيَّةٌ﴾ عَقَلْتُ عن الله عز وجل، ويروى أن رسول الله ﷺ قال لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إني دعوت الله أن يجعلها أذنك يا علي»، قال علي رضي الله عنه: فما سمعتُ بعد ذلك شيئاً فنسيته.

وقرأ الجمهور: ﴿وَرَبِّهَا﴾ بكسر العين على وزن «تَلِيهَا»، وقرأ ابن كثير - في رواية الحلواني - وقيل، وابن مصرف: ﴿وَوَعِيَهَا﴾ بسكون العين، جعل الياء التي هي علامة في المضارع بمنزلة الكاف من «كَيْف»؛ إذ حرف المضارعة لا يفارق الفعل فَيُسْكَن تخفيفاً، كما يقال: «كُنْتُ»، ونحو هذا قول الشاعر:

قَالَتْ سُلَيْمَى اسْتَشْرَ لَنَا سَوِيْقاً

على أن هذا البيت منفصل، فهو أبعد، لكن ضرورة الشعر تسامح به.

ثم ذكر تعالى بأمر القيامة، و«الصُّورُ»: القرْنُ الذي يُنْفَخ فيه، قال سليمان بن أرقم: بلغني أن رسول الله ﷺ سُئِلَ عن الصور فقال: «هو قرن من نور، فمه أوسع من السموات» والنفخة المشار إليها في هذه الآية نفخة القيامة التي للفرع، ومعها يكن الصعق ثم نفخة البعث، وقيل: هي نفخات ثلاث: نفخة الفرع، نفخة الصعق، ثم نفخة البعث، والإشارة بآيتنا هذه إلى نفخة الفرع لأن حمل الجبال هو بعدها، وقرأ الجمهور: ﴿نَفْخَةٌ﴾ بالرفع، لما نعت صح رفعه، وقرأ أبو السَّمال بالنصب.

وقرأ جمهور القراء: ﴿وَرَجَلَتْ﴾ بتخفيف الميم، بمعنى: حملتها الرياح والقدرة، وقرأ ابن عامر فيما روي عنه: ﴿وَحَمَلَتْ﴾ بشد الميم، وذلك يحتمل معنيين: أحدهما أنها حاملة حَمَلَتْ قدرةً لله تعالى وغنفاً وشدة تَفَتَّتْها، فهي مُحَمَلَةٌ حاملة، والآخر أن تكون محمولة حَمَلَتْها ملائكة أو قدرة.

وقوله تعالى: ﴿نَدَّكَ دَكَّةً وَجِدَّكَ﴾. قال: ﴿نَدَّكَ﴾ وقد ذكر جمعاً، وساغ ذلك لأن المذكور فرقتان، وهذا كما قال الشاعر:

أَلَمْ يَخْرُتْكَ أَنْ جِبَالَ قَوْمِي
وَقَوْمِكَ قَدْ تَبَايَسْنَا انْقِطَاعاً
ومنه قوله تعالى: ﴿كَانَا رَفَقًا﴾، و«دَكَّة» معناه: سُوي جميعهما، كما يقال: «نافة دكاء» إذا ضعفت

فاستوت حذبها مع ظهرها.

و «الْوَاقِعَةُ»: القيامة والطامة الكبرى، وقال بعض الناس: هي إشارة إلى صخرة بيت المقدس، وهذا ضعيف، و«انشقاق السماء» هو تفتطرها وتميزُ بعضها من بعض، وذلك هو الوهن الذي ينالها، كما يقال في الجُذُرَانِ البالية المشققة: واهية و«المَلَكُ» اسم جنس يريد به الملائكة، وقال جمهور المفسرين: الضمير في «أَرْجَائِيهَا» عائد على السماء، أي: الملائكة على نواحيها وما لَمَّ به منها، و«الرُّجَا» الجانب من الحائط والبشر ونحوه، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّ لَمْ تَرِي قَبْلِي أَسِيرًا مُقْبِدًا
وَلَا رَجُلًا يُزْمَى بِهِ فِي الرَّجْوَانِ
أَي: يُلْقِنِي فِي بَشْرٍ فَلَا أَجِدُ مَا
أَتَمْسُكَ بِهِ، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: [أَيْضًا]
وَابْنُ جَبْرِ: الضمير في «أَرْجَائِيهَا»
عائد على الأرض وإن لم يتقدم لها
ذكر قريب لأن القصة واللفظة
تقتضيان إيفهام ذلك، وفسرنا هذه
الآية بما روي أن الله تعالى يأمر
ملائكة السماء الدنيا فيقفون صفًا
على حافات الأرض، ثم يأمر ملائكة
السماء الثانية فيصفون خلفهم، ثم
كذلك ملائكة كل سماء، فكلما بدا
أحد من الجن والإنس وجد الأرض
قد أحيط بها، قالوا: فهذا تفسير هذه
الآية، وهو أيضاً معنى قوله تعالى:
﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾،
وهو أيضاً تفسير قوله تعالى: ﴿يَوْمَ
الْأَنْدَادِ يَوْمَ تُؤَلَّفُونَ مَدِينًا﴾ على قراءة من
شد الدال، وهو تفسير قوله تعالى:
﴿يَمْتَسِرَ الْإِنسَانُ لِلْإِنسَانِ إِذْ اسْتَسْقَمَ أَنْ

تَنْتَفِرُوا مِنْ أَمْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
فَأَنْتَفِرُوا﴾.

واختلف الناس في الثمانية الحاملين
العرش - فقال ابن عباس -
رضي الله عنهما -: هي ثمانية
صفوف من الملائكة لا يعلم أحد
عدتهم، وقال ابن زيد: هم ثمانية
أملاك على هيئة الوعول، وقال
جماعة من المفسرين: هم على هيئة
الناس، أرجلهم تحت الأرض
السابعة ورءوسهم وكواهلهم فوق
السماء، وروي عن النبي ﷺ أنه
قال: «هُمُ الْيَوْمُ أَرْبَعَةٌ، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ
الْقِيَامَةِ قَوَّاهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِأَرْبَعَةِ
سَوَاهِمٍ وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿قَوَّاهُمْ﴾ قَبِيلٌ: هُوَ لِلْمَلَائِكَةِ
الْحَمَلَةُ، وَقَبِيلٌ: لِلْعَالَمِ كُلِّهِ، وَكُلُّ
قَدْرَةٍ كَيْفَمَا تَصَوَّرْتَ فَإِنَّمَا هِيَ
بِحَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَقُوَّتِهِ.

﴿١٨﴾ - ﴿٢٩﴾ تفسير قوله عز وجل:

الخطاب بقوله تعالى: ﴿تَقْرُسُونَ﴾
لجميع العالم، وروي عن أبي موسى
الأشعري، وابن مسعود أن في
القيامة عرّضتين، فيهما معاذير،
وتوقيف، وخصومات، وجدال، ثم
تكون عرضةً ثالثة تنطير فيها
الصحف بالآيمان والشمائل. وقرأ
حمزة والكسائي: ﴿لَا يَخْفَى﴾
بالباء، وهي قراءة علي بن أبي طالب
رضي الله عنه، وابن وثاب،
وطلحة، والأعمش، وعيسى، وقرأ
الباقون بالثاء على مراعاة تأنيث
﴿حَافِيَةً﴾، وهي قراءة الجمهور،
وقوله تعالى: ﴿حَافِيَةً﴾ معناه: ضمير
ولا مُعْتَقَد.

و «الَّذِينَ يُعْطُونَ كُتُبَهُمْ بِأَيْمَانِهِمْ»

هم المُخْلَدُونَ فِي الْجَنَّةِ أَهْلُ
الإيمان، واختلف أهل العقل والعلم
في الفرقة التي ينفذ عليها الوعيد من
أهل المعاصي، متى تأخذ كُتُبُهَا؟
فقال بعضهم: الأظهر أنها تأخذها
مع الناس، وذلك يؤنسها مدة
العذاب، قال الحسن: فإذا أعطي
كتابه بيمينه لم يقرأه حتى يأذن الله
له، فإذا أذن له قال: ﴿هَآؤُمْ أَقْرَأُوا
كِتَابِي﴾، وقال آخرون: الأظهر أنه إذا
أخرجوا من النار، والإيمان يؤنسهم
في وقت العذاب.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا هو ظاهر هذه الآية لأن من
يسير إلى النار كيف يقول: ﴿هَآؤُمْ
أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾؟

وأما «هَآؤُمْ» فقال قوم: أصله
«هَآؤُمُوا» ثم نقله التخفيف
والاستعمال، وقال آخرون: هذه
الميم ضمير الجماعة. وفي هذا كله
نظر، والمعنى على كل وجه:
تعالوا، فهو استدعاء للفعل المأمور
به، وقوله: ﴿أَقْرَأُوا كِتَابِي﴾ هو
استبشارٌ وسرور.

وقوله: ﴿إِنِّي تَلَنَّتُ﴾ الآية عبارة عن
إيمانه بالبعث وغيره، قال قتادة: ظنُّ
هذا ظنًّا يقيناً ففعله، وقومٌ ظنُّوا ظنُّ
شك فشقوا به، و«تَلَنَّتُ» هنا واقعة
موقع «تَيَقَّنْتُ»، وهي في مُتَيَقِّنٍ لم
يقع بعد ولا خرج إلى الحسن، وهذا
هو باب الظن الذي يقع موقع
اليقين، وقرأ بعض القراء: ﴿كِتَابِي﴾
و«حَسَابِيَّةً» و«مَائِدَةً» و«سُلْطَانِيَّةً»
بالهاء في الوصل والوقف اقتداءً بخط
المصحف، هي في الوصل بنية
الوقف لأنها هاء السكوت فلا معنى

تَنْتَقِبُ إِذِ الْمَوْتِ الْمَمَاتِ ۚ لَمَّا كَانَتْ أُمَّةٌ لَمْ يَخْلُقْهَا إِلَّا إِبْرَاهِيمَ إِذْ يَبْقُرُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَهُوَ الْعَرَبِيُّ الْعَلِيُّ ۚ

فَلَيْسَ لَهُ لَوْمَةٌ مِنْهَا كَيْفٌ ۚ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غَدَقَةٍ ۚ لَأَيُّ كَلِمَةٍ إِلَّا الْفَاتِحَةُ ۚ فَلَا أَقِيمُ فِي مَا يَأْتِرُونَ ۚ وَمَا لَا يَأْتِرُونَ إِلَّا إِنَّهُ الْقَوْلُ رَسُولٌ كَرِيمٌ ۚ وَمَا هُوَ بِقَوْلٍ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا نُوتُونُ ۚ وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَّا تَدَّكُرُونَ ۚ نَزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۚ وَهُوَ قَوْلٌ عَلِيمٌ بِبَعْضِ الْآقَابِيلِ ۚ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ۚ ثُمَّ لَقَطْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ۚ فَمَا نَكَرَ مِنْ أَعْيُنِنَا حَنْجَرِينَ ۚ وَإِنَّهُ لَلذِّكْرُ ۚ لِلشَّقِيينَ ۚ وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِبِينَ ۚ وَإِنَّهُ لَحَسْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ ۚ وَهُوَ إِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ ۚ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ۚ

سُورَةُ الْحَقِّ ۙ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۚ الْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ۚ مِنَ اللَّهِ ذِي الْمَعَارِجِ ۚ تَجْرِعُ الْمَلَكُوتَ كَسَقَ وَالرُّوحَ الْيَسِيرَ ۚ يَوْمَ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ ۚ فَأَصْبَحَ نَسِيتًا ۚ كَيْفَ لَا إِتْمَمَ رِزْقَهُ وَعَدَّهُ ۚ وَنَزَّاهُ فَوَيْلٌ ۚ يَوْمَ كَانَ النُّمُودُ كَالْقَهْلِ ۚ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۚ وَلَا يَسْتَلُ حِمْرٌ حِمِيمًا ۚ

٥٦٨

تنتقب بذلك ملوك الدنيا الكفرة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والظاهر عندي أن سلطان كل أحد هو حاله في الدنيا من عدد وعُدو، ومنه قول النبي ﷺ: «لا يُؤمَّن الرجل في سلطانه، ولا يُجلس على تكرمته إلا بآذنه».

(٣٠) - (٣١) تفسير قوله عز وجل:

المعنى: يقول الله تعالى، أو الملك - بأمره - للزبانية: «خُدُّهُ فَنُوهُ»، أي: اجعلوا في عنقه

غلاً، قال ابن جريج: نزلت في أبي جهل.

و «ذَرَّعَهَا» معناه: مبلغ كيلها، وقد جعل الله تعالى السبعمائه، والسبعين، والسبعة، مواقف ونهايات لأشياء عظام، فلذلك مشى العرب وغيرهم على أن يجعلوها نهايات، وهذه السلسلة من الأشياء التي جعل الله تعالى فيها السبعين نهاية، وقرأ السدي: «ذَرَّعَهَا سَبْعِينَ» بالياء، وهذا على حذف خبر الابتداء، واختلف الناس في قدر هذا الذراع - فقال ابن عباس، ومحمد بن المنكدر، وابن جريج: هو بذرذراع الملك وقال نوف البكالي وغيره: في الذراع سبعون باعاً، في كل باع كما بين الكوفة ومكة. وهذا يحتاج إلى سند. وقال حذاق من المفسرين: هي بالذراع المعروفة

لها في الوصل، وطرَّح الهاءات في الوصل لا في الوقف الأعمش وابن أبي إسحق، قال أبو حاتم: قراءتنا إثبات الهاءات في الوقف وطرحتها في الوصل، وبذلك قرأ ابن أبي محيصة، وسلام، قال الزهراوي: إثبات الهاء في الوصل لَحْنٌ لا يجوز عند أحد عِلْمَتُهُ.

و «رَأْيِيَّةٌ» معناه: ذات رضى، فهو بمعنى مرضية، وليست بناء اسم فاعل، و «عَالِكَةٌ» معناه: في المكان والقدر وجميع وجوه العُلُو.

و «الْقُطُوفُ» جمع قطف، وهو ما يُجتنى من الثمار ويقطف، ودُنُوها هو أنها تأتي طوع التمني فيأكلها القائم والقاعد والمضطجع فيه من شجرتها. و «أَسْلَقَتْهُ» معناه: قدَّمتم، و «الأيام الخالية» هي أيام الدنيا لأنها في الآخرة قد خلت وذهبت، وقال وكيع، وابن جبير وعبد العزيز بن رفيع: المراد: بما أسلقت من الصوم. وعَمُوها في كل الأعمال أولى وأحسن.

و «الذين يؤتون كتبهم بِشَمَائِلِهِمْ» هم الْمُخَلَّدُونَ في النار أهل الكفر، فيتمتئون أن لو كانوا معدومين لا يجري عليهم شيء. وقوله: «يَبْتَتَهَا كَاتِبٌ الْفَائِزَةُ» إشارة إلى مَوْتة الدنيا، أي: ليبتها لم يكن بعدها رجوع ولا حياة، وقوله: «فَلَا أَقِيمُ بِمَا يُبْقِرُونَ» يحتمل أن يريد الاستفهام على معنى التقرير لنفسه والتوبيخ، ويحتمل أن يريد النفي المحض، و «السُّلْطَانُ» في الآية: الحُجَّةُ، على قول عكرمة ومجاهد، وقال بعضهم - ونحا إليه ابن زيد -:

منا، وإنما خوطبنا بما نعرفه ونحصله، وقال الحسن: الله أعلم بأي ذراع هي، وقال سويد بن نجيع - في كتاب الشعلي -: بلغني أن جميع أهل النار في تلك السلسلة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: لو وُضع منها حلقة على جبل لذاب كالرصاص. وقوله تعالى: «فَأَسْأَلُكُمْ» معناه: فأدخلوه، ومنه قول أبي وجزة السعدي يصف حمر وحش:

حَتَّى سَلَكْنَا الشَّوْبَى مِنْهُنَّ فِي مَسَكٍ
مَنْ تَسْلِي جَوَابِيَةِ الْأَفَاقِ مَهْدَاجٍ
وَرُوي أن هذه السلسلة تدخل في فم الكافر وتخرج من دبره، فهي في الحقيقة التي تُسلك فيه، لكن الكلام جرى مجرى قولهم: أدخلت القلنسوة في رأسي، وفمي في الحجر، وروي أن هذه السلسلة

تُلوى حول الكافر حتى تغمّه وتضعفه، فالكلام - على هذا - على وجهه، وهو المسلوب.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُرُ عَلَىٰ طَعْمِ الْوَسِيكِينَ﴾ المراد به: على إطعام طعام المسكين، وإضافة الطعام إلى المسكين من حيث له إليه نسبة ما، وحُضِرَتْ هذه الحُضْرَةُ من خلال الكافر بالذكر لأنها من أَضْرَّ الخلال في البشر، إذا كشرت في قوم هلك مساكينهم.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿حَمِيمٍ﴾ - فقال جمهور المفسرين: هو الصديق اللطيف المودة، فنفى الله تعالى أن يكون للكافر هنالك من يواليه، ونفى أن يكون له طعام إلا من غسلين، وقال محمد بن المستنير: الحميم الماء الحار، فكأنه تعالى أخبر أن الكافر ليس له ماء ولا شيء مانع ولا طعام إلا من غسلين، وهو - فيما قال اللغويون - ما يجري من الجراح إذا غُسلت، قال ابن عباس: هو صديد أهل النار، وقال قتادة وابن زيد: الغسلين والزقوم أخبث شيء وأبشعُه، وقال الضحاك، والربيع هو شجر يأكله أهل النار، وقال بعض المفسرين: هو شيء يجري من ضريع لأن الله تعالى قد أخبر أنه ليس لهم طعام إلا من ضريع، وفي أخرى إلا من غسلين، فهما شيء واحد أو اثنان متداخلان، ويحتمل أن يكون الإخبار هنا عن طائفة وهناك عن طائفة ويكون الغسلين والضريع متباينين على ما يفهم في لسان العرب. وخبر ﴿لَيْسَ﴾ في

﴿لَمْ﴾، وقال المهدي: ولا يصح أن يكون ﴿هَهُنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقد يصح ذلك إن شاء الله تعالى. و «الخاطيء»: الذي يفعل ضد الصواب متعمداً لذلك، و«المخطيء»: الذي يفعله غير متعمد، وقرأ الحسن، والزهري: ﴿الْخَاطِئُونَ﴾ بالياء دون همز، وقرأ طلحة، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع - بخلاف عنه -: ﴿الْخَاطُونَ﴾ بضم الطاء دون همز.

قوله تعالى: ﴿فَلَا أُنسِمُ﴾، قال بعض النحاة: (لا) زائدة، والمعنى: فأُنسِمُ، وقال آخرون ينهم: [لا] رد لما تقدم من أقوال الكفار، والبدائية ﴿أُنسِمُ﴾، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿فَلَا تُنْسِمُ﴾ لأن لام القسم معها ألف القسم.

قوله تعالى: ﴿يَا بُيُوتَ مَا بُيُوتُكُمْ مَا لَا بُيُوتَ لَكُمْ﴾. قال قتادة بن دعامة: أراد الله تعالى أن يعم في هذا القسم جميع مخلوقاته، وقال غيره: أراد الأجساد والأرواح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا قول حسن عام.

وقال ابن عطاء: ما تُبصرون من آثار القدرة وما لا تبصرون من آثار القدرة، وقال قوم: أراد بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا لَا بُيُوتَ لَكُمْ﴾ الملائكة.

و «الرُّسُولُ الكريم» هو جبريل عليه السلام في تأويل جماعة من العلماء، ومحمد ﷺ في قول آخرين، وأضيف القول إليه لأنه هو الذي تلاه وبلغه.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

نفى تعالى أن يكون القرآن قول شاعر كما زعمت قريش، ونصب ﴿قِيلًا﴾ بفعل مضمر يدل عليه ﴿تُؤْمِنُونَ﴾، و (ما) يحتمل أن تكون نافية فينتفي إيمانهم البتة، ويحتمل أن تكون مصدرية ويتصف القلة إما الإيمان وإما العبد الذين يؤمنون، فعلى اتصاف إيمانهم بالقلة فهو الإيمان اللغوي؛ لأنهم قد صدقوا بأشياء سيرة لا تغني عنهم شيئاً؛ إذ كانوا يصدقون أن الخير والصلة والعفاف الذي كان يأمر به رسول الله ﷺ صواب، ثم نفى تعالى أن يكون [القرآن] قول كاهن كما زعم بعضهم. وقرأ ابن كثير، وابن عامر، والحسن، والجحدري: ﴿قِيلًا مَا يُؤْمِنُونَ﴾ و﴿قِيلًا مَا يَذْكُرُونَ﴾ بالياء فيهما، وقرأ الباقون بالتاء من فوق، ورجح أبو عمرو قراءة التاء من فوق بقوله: ﴿فَمَا يَنْكُرُ﴾، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿مَا تَذْكُرُونَ﴾ بتاءين. و﴿نَزِيلٌ﴾ رُفِعَ بالابتداء، أي: هو تنزيل.

ثم أخبر تعالى أن محمداً لو تقول علينا شيئاً لعاقبه بما ذكر، والتقول أن يقول الإنسان عن آخر: إنه قال شيئاً لم يفعله، وقرأ ذكوان وابنه محمد: ﴿وَلَوْ يَقُولُ عَلَيْنَا﴾ بالياء وضم القاف، وهذه القراءة مُعْرَضَةٌ بما صرحت به قراءة الجمهور، وبُيِّنَ التعريض قوله تعالى: ﴿عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَابِلِ﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَأَنذَنَّا مِنَّا بِاللَّيْلِ﴾، اختلف في معناه - فقال

ابن عباس رضي الله عنه: ﴿بِالْيَمِينِ﴾: بالقُوَّة، ومعناه: لِنَلْنَا عقابه بقوة منا، أو يكون المعنى: لنزعنا منه قوته، وقال آخرون: هي عبارة عن الهوان، كما يقال لمن يُسَجِّن أو يُقَام لعقوبة: قد أخذ بيده وبيمينه.

و «الْوَيْتِينَ» نياط القلب، قاله ابن عباس رضي الله عنهما، وهو عِرْقٌ غليظ تصادفه شفرة الناحر، ومنه قول الشَّامخ:

إِذَا بَلَغْتَنِي وَحَمَلْتِ رَحْلِي
عَرَابَةً فَاشْرَقِي بِدَمِ الْوَيْتِينَ
فمعنى الآية: لأذهبنا حياته معجلاً.
و«الحاجز»: المانع، وجمع [حاجزين] على معنى أحد؛ لأنه يقع على الجمع، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «لم تحل الغنائم لأحد سود الرؤوس قبلكم».

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُ لَذَكَّةً﴾ عائد على القرآن، وقيل: على محمد ﷺ، وقوله تعالى: ﴿وَرَأَى لَنَافُورًا أَنَّنَّ يَنْفِرُ مُكَذِّبِينَ﴾ وعيد، وكونه حسرة على الكافرين هو من حيث كفروا به ويَزُونَ من آمن به يَتَّعَم وهم يُعَذَّبُونَ.

قوله تعالى: ﴿وَرَأَيْتَهُ لَحَقًّا بِلْيَمِينٍ﴾، ذهب الكوفيون إلى أنها إضافة الشيء إلى نفسه، كدار الآخرة ومسجد الجامع، وذهب البصريون والحذاق إلى أن الحق مضاف إلى الأبلغ من وجوهه، وقال المبرد: إنما هو كقولك: عين اليقين ومحض اليقين.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتسبيح

باسمه العظيم، وفي ضمن ذلك الاستمرار على رسالته، والمُضِيُّ لأدائها وإبلاغها وروي أن رسول الله ﷺ قال لما نزلت هذه الآية: «اجعلوها في ركوعكم»، واستحبَّ التزام ذلك جماعة من العلماء، وكره مالك لزوم ذلك لثلاث يُعَدُّ فرضاً واجباً.

تم تفسير سورة المعارج والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المعارج

وهي مكية، لا خلاف بين الرواة في ذلك.

﴿١﴾ - ﴿١٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ جمهور السبعة: ﴿سَأَلَّ﴾ بهمزة محققة، قالوا: والمعنى: دَعَا داع، والإشارة إلى من قال من قريش: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَتْ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِن عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْقِنَا بِعَذَابِ آلِيعْرَ﴾، وروي أن قائل ذلك هو النضر بن الحارث، وإلى من قال: ﴿رَبَّنَا مَجَلِّ لَنَا وَقْتًا﴾. وقال بعضهم: المعنى: بحث باحث واستفهم مُسْتَفْهِم، قالوا: والإشارة إلى قول قريش: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ؟ وما جرى مجراه، قاله الحسن وقتادة.

فأما من قال: المعنى: دَعَا داع فالباء في قوله تعالى: ﴿بِعَذَابٍ﴾ على عُرفها، وأما من قال: المعنى: استفهم مُسْتَفْهِم فالباء تُؤَصِّلُ توصيل

﴿عَنْ﴾، كأنه تعالى قال: «عن عذاب»، وهو كقول علقمة بن عبدة:

فَإِن تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي
بَبَصِيرَةٍ أَمَّا بَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبٌ
وقرأ نافع، ابن عامر: ﴿سَأَلٌ﴾ ساكنة الألف، واختلف القراء فيها، فقال بعضهم: هي «سَأَلٌ» المهموزة إلا أنها سهلت، كما قال:

.....
... لا هَنَّاكَ الْمَرْتَعُ

ونحو ذلك، وقال بعضهم: هي لغة من يقول: «سِلْتُ أَسْأَلُ وَتَسْأَوْلَانِ»، وهي لغة مشهورة حكاها سيويه فتجيء الألف متقلبة عن الواو التي هي عين كقال وخاف، وأما قول الشاعر:

سَأَلْتُ هُذَيْلَ رَسُولَ اللَّهِ فَاجْشَأَ
ضَلَّتْ هُذَيْلٌ بِمَا سَأَلَتْ وَلَمْ تُصِيبِ
فإن سيويه قال: هو على لغة تسهيل الهمزة، وقال غيره: هو على لغة من قال: «سِلْتُ»، وقال بعضهم في الآية: هي من «سَأَلُ يَسْأَلُ» إذا جرى، وليست من معنى السؤال، قال زيد بن ثابت وغيره: في جهنم وإد يسمى «سائلًا»، والإخبار هنا عنه.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ويحتمل - إن لم يصح أمر الوادي - أن يكون الإخبار عن نفوذ القدر بذلك العذاب، فاستعير له لفظ السئيل لما عهد من نفوذ السئيل وتصميمه.

وقرأ ابن عباس: ﴿سَأَلُ سَيْلٌ﴾ بسكون الياء، وقرأ أبي بن كعب، وابن مسعود: ﴿سَأَلُ سَائِلٌ﴾ مثل

«قال»، أُلغيت الباء من الحَظِّ تخفيفاً، والمراد «سابل» إذ سؤال الكفار عن العذاب - حسب قراءة الجماعة - إنما كان على أنه كذب، فوصفه الله تعالى بأنه واقع وعيداً لهم.

قوله تعالى: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾، قال بعض النحويين: اللام تُوصَلُ المعنى توصيل «علَى»، وروي أن في مصحف أبي بن كعب: قوله تعالى: ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وقال قتادة والحسن: المعنى: كأن قائلاً قال: لِمَنْ هذا العذاب الواقع؟ فقيل: ﴿لِلْكَافِرِينَ﴾.

و «المَعَارِجُ» في اللغة: الدَّرَجُ في الأجرام، وهي هنا مستعارة في الرُتَبِ والصفات الحميدة، قاله ابن عباس، وقتادة، وقال ابن عباس: «المعارج»: السمواتُ تعرج فيها الملائكة من سماءٍ إلى سماءٍ، وقال الحسن: هي المراقي في السماء. وقوله تعالى: ﴿تَمْجُّ الْمَلَائِكَةُ﴾ معناه: تصعد، على أصل اللغة في اللفظة. و«الرُّوحُ» عند جمهور العلماء هو جبريل عليه السلام، خصَّصه بالذكر تشريفاً، وقال مجاهد: الرُّوحُ: ملائكة حفظة للملائكة الحافظين لبني آدم، لا تراهم الملائكة كما لا نرى نحن الملائكة، وقال بعض المفسرين: هو اسم الجنس في أرواح الحيوان.

واختلف المتأولون في قوله تعالى: ﴿فِي يَوْمٍ كَانَ يُفَادُّهُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ - فقال منذر بن سعيد وجماعة من الحُدَّاقِ: المعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم من أيامكم هذه،

ومقدار المسافة - إن لو عرجها آدمي - خمسون ألف سنة، وقال ابن إسحق، فَمَنْ جعل «الروح» جبريل ونوعاً من الملائكة قال: المسافة هي من قعر الأرض السابعة إلى العرش، قاله مجاهد، ومن جعل «الروح» جنس أرواح الحيوان قال: المسافة بين وجه هذه الأرض إلى منتهى العرش علواً، قاله وهب بن مُثَنَّب، وقال قوم: المعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره في نفسه خمسين ألف سنة من أيامكم، ثم اختلفوا في تعيين ذلك اليوم - فقال عكرمة، والحكم: أراد الله تعالى مدة الدنيا فإنها خمسون ألف سنة، لا يدري أحد ما مضى منها ولا ما بقي، فالمعنى: تعرج الملائكة والروح إليه في مدة الدنيا وبقاء هذه البنية، ويتمكن - على هذا - في «الروح» أن يكون اسم جنس أرواح الحيوان. وقال ابن عباس وغيره: بل اليوم المشار إليه هو يوم القيامة - ثم اختلفوا - فقال بعضهم: قدره في الطول قدر خمسين ألف سنة، وهذا هو ظاهر قول النبي ﷺ: «ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل الله له صفائح من نار يوم القيامة تكوى بها وجهه وظهره وجنباه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة». وقال ابن عباس، وأبو سعيد الخدري: بل قَدْرُهُ في هَوْلِهِ وشِدَّتِهِ ورزاياه للكفار قدر خمسين ألف سنة، وهذا كما تقول في اليوم العصيب: إنه كَسَنَةٌ، ونحو هذا، قال أبو سعيد: قيل: يا رسول الله، ما أطول يوماً مقداره

خمسون ألف سنة؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده إنه ليخفُّ على المؤمن حتى يكون أخفَّ عليه من صلاة مكتوبة»، وقال عكرمة: المعنى كان مقدار ما ينقضي فيه من القضايا والحساب قدر ما ينقضي بالعدل في خمسين ألف سنة من أيام الدنيا.

وقد ورد في يوم القيامة أنه كألف سنة، وهذا يشبه أن يكون في طوائف دون طوائف.

والعامل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ - على قول من يقول إنه يوم القيامة - قوله تعالى: ﴿بَيْنَ ذَانِهِ﴾، وعلى سائر الأقوال ﴿تَمْجُّ﴾. وقرأ جمهور القراء: ﴿تَمْجُّ﴾ بالثاء من فوق، وقرأ الكسائي وحده: ﴿يَمْجُّ﴾ بالياء لأن التأنيث غير حقيقي، وبالياء من تحت قرأ ابن مسعود لأنه كان يُذَكِّرُ الملائكة، وهي قراءة الأعمش.

ثم أمر تعالى نبيّه ﷺ بالصبر الجميل، وهو الذي لا يلحقه عَتَبٌ من فُشَلٍ ولا شُكٍّ ولا قِلَّةٍ رضى ولا غير ذلك، والأمر بالصبر الجميل محكم في كل حالة، وقيل: نزلت هذه الآية قبل الأمر بالقتال.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ رَوَّذَةٌ بِيَدِكَ﴾ يعني يوم القيامة؛ لأنهم يكذبون به فهو في غاية البعد عندهم، وإنه تعالى يراه قريباً من حيث هو واقع وآت وكلُّ آت قريب، وقال بعض المفسرين: الضمير في ﴿رَوَّذَةٌ﴾ عائد على العذاب، وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ﴾ نصب بإضمار فعل على البديل من الضمير المنصوب، و«المُهْلُ»: عَكْرُ الزيت، قاله ابن

الجميع وسُغِلَ بنفسه،
وقرأ ابن كثير - من طريق
السُّدِّي - وأبو جعفر وشيبة
- بخلاف عنهما - وأبو
حوية: ﴿وَلَا يُسْأَلُ﴾ على
بناء الفعل للمفعول،
فالمعنى: ولا يُسأل
إبصاره؛ لأن كل مجرم له
سيما يُعرف بها، وكذلك
كل مؤمن له سيما خير،
وقيل: المعنى: لا يُسأل
عن أعماله وذنوبه ليؤخذ
بها وليُّه ووزرُهُ.

و ﴿يَصْرُوفُهُ﴾ - على
هذه القراءات - قيل:
معناه: في النار، وقال ابن
عباس رضي الله عنهما:

في المحشر يبصر المجرم حميمه ثم
يفر عنه لشغله بنفسه، تقول: بَصُرَ
فلان بالشيء ويَبْصُرُهُ به: أَرَيْتَهُ إيَّاهُ:
ومنه قول الشاعر:

إِذَا بَصُرْتُكَ الْبَيْدَاءَ فَاسْري
وَأَمَّا الْآنَ فَأَقْتَصِدِي وَقَبِلي
وقرأ قتادة: ﴿يُبْصِرُونَ وَهُمْ﴾ بسكون
الباء وكسر الصاد خفيفة، وقال
مجاهد: ﴿يَبْصِرُونَ﴾ معناه: يُبصر
المؤمنون الكفار في النار، وقال ابن
زيد: يُبصر الكفار من أضلَّهم في
النار عبرة وإشفاقاً عليهم وخزياً
لهم.

﴿١١﴾ - ﴿١٣﴾ تفسير قوله عز وجل:
المُجْرِم - في هذه الآية -: الكافر،
بدليل شدة الوعيد وذكر «لَقَى»، وقد
يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من
الابتداء. وقرأ جمهور الناس:
﴿يُؤَيِّدُهُ﴾ بكسر الميم، وقرأ الأعرج

عباس وغيره، فهي لسوادها وانكدار
أنوارها تشبه ذلك، والمُهَلُّ أيضاً ما
أُذِيبَ من فضة ونحوها، قاله ابن
مسعود وغيره، فتجيء له ألوان
وتُمِيعُ مختلط، والسَّمَاءُ أيضاً
للأهوال التي تدرکہا تصير مثل
ذلك، و«الجَهَنُّ» الصوف دون تقييد،
وقال بعض اللغويين: هو الصوف
المصبوغ ألواناً، وقيل: المصبوغ أي
لون كان، وقال الحسن: هو
الأحمر، واستدل من قال إنه
المصبوغ ألواناً بقول زهير:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْجَهَنِّ فِي كُلِّ مَنْزِلٍ
نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْقَنَا لَمْ يَحْطُمْ
وَحَبُّ الْقَنَا هُوَ عَيْبُ الثُّعْلَبِ،
وكذلك هو عند طيبة وقيل تحطيمه
ألوان، بعضه أحمر، وبعضه أصفر،
وبعضه أخضر؛ لاختلافه في
النضج، وتشبُّه الجبال به على هذا
لأنها جُدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ وَسَوْدٌ،
فيجيء التشبيه من وجهين: أحدهما
في الألوان، والثاني في الانتقاش،
ومن قال إن «الجَهَنُّ» هو الصوف
دون تقييد جعل التشبيه في الانتقاش
وتخلخل الأجزاء فقط، قال الحسن:
والجبال يوم القيامة تسير بالريح ثم
يشد الأمر بها فتصير كالجَهَنِّ، ثم لا
يزال الأمر بها فتصير هباءً مُثْبِتًا.

وقرأ السبعة والحسن والمدنيون
وطلحة والناس: ﴿وَلَا يَنْكُرُ﴾ على
بناء الفعل للفاعل، و«الْحَمِيمُ» - في
هذا الموضع -: القريب والوليُّ،
فالمعنى: ولا يسأله نصرة ولا منفعة
لعلمه أنه لا يجدها عنده، قال قتادة:
المعنى: ولا يسأله عن حاله لأنها
ظاهرة، قد بصر كل أحد حالة

يَصْرُوفُهُ يَوْمَ الْمَجْرِمِ كَوَيْتِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِ يُؤَيِّدُهُ ﴿١١﴾
وَصَنْجِيئِهِ وَأَجِيئِهِ ﴿١٢﴾ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَكَّلُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّمَا لَقَى ﴿١٥﴾ نَزَّاعَةً لِّلشَّوَى ﴿١٦﴾ تَعْرَوَا
مِنَ الْأُخْرَى ﴿١٧﴾ وَرَجَعَ فَأَرَى ﴿١٨﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ خَلْقٌ هَلُوعًا ﴿١٩﴾
﴿٢٠﴾ إِذَا سَأَلَ الشَّرْجُوعَا ﴿٢١﴾ وَإِذَا سَأَلَ الْقُرْعُوعَا ﴿٢٢﴾ إِلَّا
الْمُصَلِّينَ ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ فِي
أَنْفُسِهِمْ حَتْمٌ مِّمَّا لَعَنُوا ﴿٢٥﴾ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُورِ ﴿٢٦﴾ وَالَّذِينَ يَصُوفُونَ
يَوْمَ الْيَوْمِ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ مِنْ عَذَابِ رَبِّهِمْ كَاشِفُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ عَذَابَ
رَبِّهِمْ عَذَابٌ مُّؤْتَمَرٌ ﴿٢٩﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَعْقَابِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ
أُزْجِرُهُمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٣١﴾ فَمَنْ ابْتَدَعَ وَرَاءَ
ذَلِكَ مَا وَلَّيْتَهُمْ أَعْمَارًا ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَسْتَيْسِيهِمْ وَيَهْدِيهِمْ رُغْوَةً
﴿٣٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِشَهَادَتِهِمْ لَيُّوْنَ ﴿٣٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٣٥﴾
﴿٣٦﴾ أُولَئِكَ فِي جَنَّةٍ مَّكْرُومَةٍ ﴿٣٧﴾ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُفِصَلُوهُمْ
﴿٣٨﴾ عَنِ الْمَيِّمِينَ وَعَنِ الْغَمَامِ عِزِينَ ﴿٣٩﴾ لِيَطْمَعُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ
أَنْ يَدْخُلَ جَنَّةً لَّعِينَةٍ ﴿٤٠﴾ كَلَّا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِمَّا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

بفتحها، ومن حيث أُضيفَ إلى غير
متمكن جاز فيه الوجهان، وقرأ أبو
حوية: ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾ منوَّناً ﴿يُؤَيِّدُهُ﴾
بفتح الميم، «والصاحبة» - هنا -
الزوجة.

و «الْفَصِيلَةُ» - في هذه الآية -:
قراية الرجل الأدنون، مثال ذلك بنو
هاشم مع النبي ﷺ، والفصيله في
كلام العرب أيضاً: الزوجة، ولكن
ذُكِرَ «الصاحبة» في هذه الآية لم يبق
في معنى الفصيله إلا الوجه الذي
ذكرناه. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُنْجِيهِ﴾
الفاعل هو الغداء الذي تضمنه قوله
سبحانه: ﴿لَوْ يَتَّقِي﴾، فهو
كالمقدم الذكر، وقرأ الزهري:
﴿تُؤَيِّدُهُ﴾ و«تَنْجِيهِ» برفع الهاءين.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّمَا لَقَى﴾
رُدُّ لِقَوْلِهِمْ وما ودَّوه، أي: ليس
الأمر كذلك، ثم ابتدأ الإخبار عن

﴿لَطْلٌ﴾ وهي طبقة من طبقات جهنم، وفي هذا اللفظ تعظيم لأمرها وهولها. وقرأ السبعة، وأبو جعفر والحسن، والناس: ﴿نَزَاعَةٌ﴾ بالرفع، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿نَزَاعَةٌ﴾ بالنصب، فالرفع على أن يكون ﴿لَطْلٌ﴾ بدلاً من الضمير المنصوب و﴿نَزَاعَةٌ﴾ خبر ﴿إِنْ﴾، أو على إضمار مبتدأ، أي: هي نزاعة، أو على أن يكون الضمير في ﴿إِنِّهَا﴾ للقصّة و﴿لَطْلٌ﴾ ابتداء، و﴿نَزَاعَةٌ﴾ خبر، أو على أن يكون ﴿لَطْلٌ﴾ أو ﴿إِنْ﴾ و﴿نَزَاعَةٌ﴾ بدلاً من ﴿لَطْلٌ﴾ أو على أن يكون ﴿لَطْلٌ﴾ خبراً و﴿نَزَاعَةٌ﴾ خبرٌ بعد خبر، وقال الزجاج: ﴿نَزَاعَةٌ﴾ رفع بمعنى المدح.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو القول بأنها خبر ابتداءٍ تقديره: هي نَزَاعَةٌ؛ لأنه إذا تضمن الكلام معنى المدح أو الذم جاز لك القطع رفعا بإضمار مبتدأ، أو نصبا بإضمار فعل. ومن قرأ بالنصب فذلك إما على مدح ﴿لَطْلٌ﴾ كما قلنا، وإما على الحال من ﴿لَطْلٌ﴾ لما فيها من معنى التلطي، كأنه تعالى قال: كلاً، إنها النار تتلطي نزاعة، قال الزجاج: فهي حال مؤكدة.

و «الشوى» جلد الإنسان، وقيل: جلد الرأس والهامة، قاله الحسن، ومنه قول الأعشى:

قَالَتْ قُتَيْلَةُ مَالُهُ
قَدْ جُلِّتْ شَيْبًا شَوَاتُهُ؟
ورواه أبو عمرو بن العلاء:
«سَرَاتُهُ»، فلا شاهد في البيت على هذه الرواية، قال أبو عبيدة: سمعت

عربياً يقول: «اقشعرت شواتي». والشوى أيضاً قوائم الحيوان، ومنه «عَبْلُ الشوى»، والشوى أيضاً كل عضو ليس بمقتل، ومنه «رَمَى فَأَشْوَى» إذا لم يُصب المقتل، وقال ابن جبیر: الشوى: العصب والعقب، فَنَارُ «لَطْلِي» تُذهب هذا من ابن آدم وتنزعه.

وقوله تعالى: ﴿تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى﴾ يريد الكفار، واختلف الناس في دعائها - فقال ابن عباس وغيره: هي حقيقة، تدعوهم بأسمائهم وأسماء آبائهم، وقال الخليل بن أحمد: هي عبارة عن حرصها عليهم واستدنائها لهم وما توقعه من عذابها، وقال ثعلب: ﴿تَدْعُوا﴾ معناه: تهلك، تقول العرب: «دعاك الله» أي: أهلكك، وحكاها الخليل عن العرب.

و «أوعى» معناه: جعله في الأوعية، تقول: وعيت العلم وأوعيت المال والمتاع، ومنه قول الشاعر:

الْخَيْرُ يَنْقَى وَإِنْ طَالَ الزَّمَانُ بِهِ
وَالشَّرُّ أَخْبَثُ مَا أَوْعَيْتَ مِنْ زَادٍ
وهذه إشارة إلى كفار أغبياء جعلوا جمع المال وكيد أمرهم ومعنى حياتهم، فجمعوه من غير جُل، ومنعوه من حقوق الله تعالى، وكان عبدالله بن حكيم لا يربط كيسه ويقول: سمعت الله تعالى يقول: ﴿وَجَمَّ فَأَوَعَى﴾.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ الْإِنْسَانُ﴾ عموم لاسم الجنس، لكن الإشارة هنا إلى الكفار لأن الأمر فيهم وكيد كثير، و«الهلُّع» فزع واضطراب يعتري الإنسان عند المخاوف وعند

المطامع، ونحوه قوله عليه الصلاة والسلام: «شَرُّ ما في العبد شُخْ هَالِغٌ وَجَبِينٌ خَالِغٌ»، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُصَلِّينَ﴾ معناه: إلا المؤمنين الذين أُمِرُوا الآخرة أوكد عليهم من أمر الدنيا، والمعنى: إن هذا المعنى فيهم يُقَالُ لأنهم يجاهدونه بالقوى. وقرأ الجمهور: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾ بالإفراد، وقرأ الحسن: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ﴾ بالجمع، وقوله تعالى: ﴿دَائِبِينَ﴾، قال الجمهور: المعنى: مرابطون قائمون لا يخلون في وقت من الأوقات بها فيتركونها، وهذا في المكتوبة، وأما النافلة فالدوام عليها هو الإكثار مِنْهَا بحسب الطاقة، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «أحبُّ العمل إلى الله ما داوم عليه صاحبه»، وقال ابن مسعود: الدوام: صلاحها لوقتها، وتزكها كُفْرًا، وقال عقبه بن عامر: ﴿دَائِبِينَ﴾: يَقْرؤون في صلاتهم ولا يلتفتون يميناً ولا شمالاً، ومنه الماء الدائم.

﴿٢٤﴾ - ﴿٢٦﴾ تفسير قوله عز وجل: قال قتادة، والضحاك، وقوم: «الحقُّ المعلوم» هو الزكاة المفروضة. وقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد: هذه الآية في الحقوق التي سوى الزكاة، وهي ما نذبت الشريعة إليه من المواسة، وقد قال ابن عمر، والثعلبي، ومجاهد، وكثير من أهل العلم: إن في المال حقاً سوى الزكاة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا هو الأصح في هذه الآية؛ لأن السورة مكية وفرض الزكاة

وحفظه، وقد قال النبي ﷺ: «حَسَنَ العهد من الإيمان». و﴿رَعُونَ﴾ جمع راع أي: حافظ.

وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُونَ﴾ معناه - في قول جماعة من المفسرين - أنهم يحفظون ما يشهدون فيه ويتيقنونه ويقومون بمعانيه حتى لا يكن لهم فيه تقصير، وهذا هو وصف من تمثيل النبي عليه الصلاة والسلام: «عَلَىٰ مِثْلِ الشَّمْسِ فَاشْهَد»، وقال آخرون: معناه: الذين إذا كانت عندهم شهادة ورأوا حقاً يدرس، أو حُرمة الله تعالى تُنتهك قاموا بشهادتهم، قال ابن عباس رضي الله عنهما: شهادتهم في هذه الآية أن الله تعالى وحده لا شريك له، وروي عن النبي ﷺ أنه قال:

«خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يُسألها». واختلف الناس في معنى هذا الحديث بحسب المعنيين اللذين ذكرنا في الآية: أحدهما أن يكون يحفظها متقنة فيأتي بها ولا يحتاج أن يستفهم عن شيء منها ولا أن يعارض، والثاني إذا ما رأى حقاً يعمل بخلافه وعنده في إحياء الحق شهادة، وروي أيضاً عن النبي ﷺ أنه قال: «سيأتي قوم يُخونون ولا يُؤتمنون، ويشهدون ولا يُستشهدون، ويظهر فيهم السُّمن»، واختلف الناس في معنى هذا الحديث - فقال بعضهم: هم قوم مؤمنون يتعرضون ويحرصون على وضع أسمائهم في وثائق الناس، وينصبون لذلك الحبال من زِيءٍ وهيشة، وهم غير عدول في أنفسهم، فيغرون بذلك ويضرون.

للمؤمنين متوقِّع، والأكثر ناج بحمد الله تبارك وتعالى، لكن عذاب الله عَزَّ وَجَلَّ لا يأمنه إلا من لا بصيرة له. و«الفروج» في هذه الآية هي الفروج المعروفة، والمعنى: يحفظونها من الزنى، وقال الحسن ابن أبي الحسن: أراد فروج الشياطين، وإلى معنى الوطء يعود، ثم استثنى تعالى الوطاء الذي أباحه الشرع في الزوجات والمملوكات. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ﴾، حَسَنَ دخول «عَلَىٰ» في هذا الموضع قوله تعالى: ﴿غَيْرِ مَلُومِينَ﴾، فكأنه تعالى قال: إلا أنهم غير ملومين على أزواجهم وما ملكت أيماهم.

وقوله تعالى: ﴿أَبْتَقَىٰ﴾ معناه: طلب، وقوله سبحانه: ﴿رَبَّكَ ذَلِكْ﴾ معناه: سوى ما ذكر، كأنه أمر قد حُدَّ فيه حَدٌّ فَمَنْ طلب بُغْيته وراء الحدِّ فهو كمتقبل حدِّ في الإجمام وهو يتعدى وراءه إلى خَلْفه، و«العادون»: الذين يتجاوزون حدود الأشياء التي لها حدود، كان ذلك في الإجمام أو في المعاني.

﴿٣٢﴾ - ﴿٣٣﴾ تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: «الأمانات» جمع أمانة، وجمَعها لأنها تكون متنوعة من حيث هي في الأموال والأسرار، وفيما بين العبد وربِّه سبحانه فيما أمره به ونهاه عنه، قال الحسن: الدين كله أمانة، وقرأ ابن كثير وحده من السبعة: ﴿لَأَمَانِيهِمْ﴾ بالإنفراد، و«العهد»: كلُّ ما تقلده الإنسان من قول أو فعل أو مودة، إذا كانت هذه الأشياء على طريق البرِّ فهو عهد ينبغي رَغْبُهُ

وبيانها إنما كان بالمدينة.

و«السائل»: المتكفِّف، و«المحروم»: الذي قد ثبت فقره ولم تنجح سعابته لديناه، قالت عائشة رضي الله عنها: هو الذي لا يكاد يتيسر له مكسبه، وقال بعض أهل العلم: المحروم من احترق زرعه، وقال بعضهم: المحروم من ماتت ماشيته.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه أنواع الحرمان، لا أن الاسم يلزم هذا خاصة.

وقال عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه: المحروم: الكلب، أراد - والله أعلم - أن يعطي مثلاً من الحيوان ذي الكبد الرطبة لما فيه من الأجر حسب الحديث المأثور، وقال الشعبي: أعياني أن أعلم من المحروم، وحكى عنه النقاش أنه قال وهو ابن سبعين سنة: سألت عنه وأنا غلام فما وجدت شفاء.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: رحم الله تعالى الشعبي فإنه في هذه المسألة محروم، ولو أخذ اسم جنس فيمن عسرت مطالبه كان له، وإنما كان يطلب نوعاً مخصوصاً كالسائل.

و«يَوْمَ الدِّينِ» هو يوم القيامة، سُمِّيَ بذلك لأنه يوم المجازاة، والدِّين: الجزاء، تقول العرب: «كما تُدينُ تُدان»، ومنه قول الفسِّد الزماني:

وَلَمْ يَبْقَ سِوَى الْعُدَا
بِذُنَاهُمْ كَمَا ذَاتُوا
و«الإشفاق»: الخوف من أمر يتوقع؛ لأن نيل عذاب الله تعالى

عاصم، وابنُ يَغمَر، وأبو رجاء، وطلحة: ﴿يَدْخُلُ﴾ بفتح الياء وضم الخاء على بناء الفعل للفاعل، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ زِدْ لِقَوْلِهِمْ وَطَمَعِهِمْ، أي: الأمر ليس كذلك.

ثم أخبر تعالى عن خلقهم من نطفة قدرة، وأحال في العبارة عنها على علم الناس، أي: مَنْ خَلَقَ مِنْ ذَلِكَ فَلَيْسَ بِنَفْسٍ خَلَقَهُ يُعْطَى الْجَنَّةَ، بل بالأعمال الصالحة إن كانت، وقال قتادة في تفسيرها: إِنَّمَا خَلَقْتُمْ مِنْ قَدَرٍ يَا بَنِي آدَمَ فَاتَّقُوا اللَّهَ تَعَالَى، وقال أنس: كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِذَا خَطَبَنَا ذَكَرَ مَنَاتِينَ ابْنَ آدَمَ، وَمُرُورَةَ فِي مَجْرَى الْبُولِ مَرَّتَيْنِ، وَكَوْنَهُ نَظْفَةً فِي الرَّجْمِ ثُمَّ عَلَقَهُ ثُمَّ مُضِغَةً إِلَى أَنْ يَخْرُجَ فَيَتَلَوُّثُ فِي نَجَاسَتِهِ طِفْلاً، فَلَا يُقْلَعُ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حَتَّى يَتَقَدَّرَ أَحَدُنَا نَفْسَهُ.

﴿٤٠﴾ - ﴿٤١﴾ تفسير قوله عز وجل: قرأ الجمهور: ﴿فَلَا أَتَيْتُمْ﴾ وذلك على أن تكون [لا] زائدة، أو على أن تكون رداً لفعل الكفار وقولهم، ثم يقع الابتداء بالقسَم، وقرأ ابن كثير: ﴿فَلَا قَسِيمٌ﴾ دون ألف مفردة. و«المشارق والمغارب» هي مطالع الشمس والقمر وسائر الكواكب وحيث تغرب لأنها مختلفة عند التفصيل، فلذلك جمع، وقرأ عبدالله بن مسلم، وابن محيصن: ﴿بِرَبِّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ على الأفراد، ومتى ورد المشرق والمغرب على الأفراد فهي عبارة عن موضع الشروق وموضع الغروب بجملة وإن كان يتفصل، ومتى ورد المشرقان والمغربان فهي عبارة عن

الكعبة أحياناً ويقرأ القرآن، فكان كثير من الكفار يقومون من مجالسهم مسرعين إليه يتسمعون قراءته، ويقول بعضهم لبعض: شاعر وكاهن ومفتر وغير ذلك. و﴿بَلَّكَ﴾ معناه: فيما يليك، و«المهطع»: الذي يمشي مسرعاً إلى شيء قد أقبل عليه ببصره، قال ابن زيد: لا يطرف.

و﴿عِزِينَ﴾ جمع عِزَّة، قال بعض النحاة: أصلها عِزْوَةٌ، وقال آخرون منهم: أصلها عِزْهَةٌ وجمعت بالواو والنون عِزْواً مما انحذف منها نحو سنة وسنون، ومعنى العِزَّة: الجمع اليسير، فكأنهم قالوا: ثلاثة ثلاثة، أو أربعة أربعة، ومنه قول الراعي:

أَخْلَيْفَةُ الرَّحْمَنِ إِنَّ عَشِيرَتِي
أَمْسَى سَرَاتُهُمْ إِلَيْكَ عِزِينَا
وقال أبو هريرة رضي الله عنه: خرج النبي ﷺ على أصحابه وهم جلث متفرقون فقال: «ما لي أراكم عِزِينَ؟»

وقوله تعالى: ﴿يَطَّلِعُ كُلُّ آتِرِي رَبِّهِمْ أَنْ يَدْخَلَ جِنَّةً يَنْسِفُهَا﴾ نزلت لأن الكفار قالت: إن كانت ثم آخرة وجنة فنحن أهلها وفيها؛ لأن الله تعالى لم ينعم علينا في الدنيا بالمال وبالبنين وغير ذلك إلا لرضاه عنا. وقرأ السبعة، والحسن، والجمهور: ﴿يَدْخُلُ﴾ بضم الياء وفتح الخاء على البناء للمفعول، وقرأ المفضل عن

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فَلَا أَتَيْتُمْ بِرَبِّ السَّمْعِ وَالْعَرَبِ إِنَّا لَقَدِيرُونَ ﴿٤٠﴾ عَلَّانٌ يُبْدِلُ خَيْرًا مِنْكُمْ
وَمَا عَنِ يَسْبُوبِينَ ﴿٤١﴾ هَذَا مَرْيُومُ حُوشُوا وَيَلْبَسُوا حَتَّى يَلْقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي
يُوعَدُونَ ﴿٤٢﴾ يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْنَادِ يَرَاءُ كَانْتُمْ إِلَى أَصْحَابِ يُرْجُونَ
خَشِيعَةً أَصْحَابُهُمْ رَهَقَهُمْ ذَلَّةُ ذَلِكَ الْيَوْمِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٤٣﴾

سُورَةُ الْمَعَارِجِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ نَوْحًا لِي قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ
عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٠﴾ قَالَ يَقُولُونَ ابْنِي لَكَ نَزِيرٌ مِنْ رَبِّكَ أَنْ أَعْبُدُوا
اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ﴿٤١﴾ يَقُولُ لَكَ مَنْ ذُو يَكْرٍ وَتُوحِيحُكُمْ
إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى إِنْ أَجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَهُ لَا يُؤَخَّرُونَ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ
﴿٤٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لِيَلَاكُوهَا ﴿٤٣﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَاؤِي إِلَّا
فِرَارًا ﴿٤٤﴾ وَإِنِّي كُنْتُ لَدَعْوَتِهِمْ لَتُفَفِّرَنَّ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ
فِي آدَانِهِمْ وَأَسْتَفْسَفُوا فِي آيَاتِهِمْ وَأَصْرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا وَأَسْتَكْبَرُوا
﴿٤٥﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٤٦﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنْتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ
لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٤٧﴾ فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿٤٨﴾

٥٧٠

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فهذا في ابتداء الشهادة لا في أدائها، ويجيء قوله عليه الصلاة والسلام: «فولا يستشهدون»، أي: وهم غير أهل لذلك.

وقال آخرون من العلماء: هم شهود الزور، يؤدونها والمشهود عليهم لم يشهدهم ولا الآخر.

وقرأ حفص عن عاصم: ﴿يَشْهَدِيْتُمْ﴾ على الجمع، وهي قراءة أبي عبدالرحمن، والباقون: ﴿بشهاديتهم﴾ على الأفراد الذي هو اسم الجنس. و«المحافظة على الصلاة»: إقامتها في أوقاتها بشروط صحتها وكمالها، وقال ابن جريج: يدخل في هذه الآية التطوع.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا بَلَّكَ مُطِيبِينَ﴾ الآية. نزلت لأن رسول الله ﷺ كان يصلي عند

طرفي موضع الشروق وطرفي موضع الغروب. وأقسم الله تعالى في هذه الآية بمخلوقاته على إيجاب قدرته على أن تُبدلَ خيراً من ذلك العالم، وأنه لا يسبقه شيء إلى إرادته.

وقوله تعالى: ﴿ذَرَّكُمْ يَحْزُونًا﴾ الآية وعيدٌ، وما فيه من معنى المهادة فمنسوخ بأية السيف، وروى عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿يَلْقَوْنَا﴾ بغير ألف، وهي قراءة أبي جعفر، وابن محيصة.

و ﴿يَوْمَ يَحْزُونَ﴾ بدل من قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿يَحْزُونَ﴾ بفتح الياء وضَمَّ الراء، وروى أبو بكر عن عاصم ضَمَّ الياء وفتح الراء.

و «الأجداد»: القبور. و«الثُّبُوبُ»: ما نُصِبَ للإنسان فهو يقصد مسرعاً إليه من علم أو بناء أو صنم لأهل الأصنام، وقد كثر استعمال هذا الاسم في الأصنام حتى قيل لها: الأنصاب، ويقال لشبكة الصائد: نُصْبٌ، وقال أبو العالية: ﴿إِلَى نُسْبِ يُؤْفِكُونَ﴾ معناه: إلى غايات يستبقون، وقرأ جمهور السبعة وأبو بكر عن عاصم: «نُصْبٌ» بفتح النون، وهي قراءة أبي جعفر، ومجاهد، وشيبة، وابن وثاب، والأعرج، وقرأ الحسن، وقتادة - بخلاف عنهما -: «نُصْبٌ» بضم النون، وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم: ﴿نُصْبِ﴾ بضم النون والصاد، وهي قراءة الحسن عن أبي العالية، وزيد بن ثابت، وأبي رجاء. وقرأ مجاهد، وأبو عمران الجوني: «نُصْبٌ» بفتح النون والصاد.

و ﴿يُؤْفِكُونَ﴾ معناه: يسرعون، ومنه قول الراجز:

لَأَتَعَنَّ نَعَامَةً مِيفَاضًا
خَرْجَاءَ ظَلَّتْ تَطْلُبُ الْإِضَاضًا
و ﴿خَيْفَةً﴾ نصب على الحال ومعناه: ذليلة منكسرة، و ﴿زَمَنَهُمْ﴾ معناه: تظهر عليهم وتُلِحُّ وتَضَيِّقُ نفوسهم، ومن هذه اللفظة «المُزْهَقُ» من السادة بحوائج الناس، و«المُزْهَقُ» بالذنين، «وخلق فيها زَهَقُ» أي: إسراعٌ إلى الناس، و«سَيْفٌ فلان فيه زَهَقٌ»، ومنه «مراهقة الأحلام»، و«إرهاق الصلاة» أي: مزاحمة وقتها.

تم تفسير سورة المعارج والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة نوح

وهي مكية بإجماع من المتأولين، قال أُبَيُّ بن كعب: قال رسول الله ﷺ: «من قرأ سورة نوح كان من المؤمنين الذين تدرّكهم دعوة نوح».

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل: نوح عليه السلام هو نوح بن لامك، وقد مر ذكره وذكر عمره ﷺ، وصرف «نوح» مع عجمته وتعريفه لإخفته وسكون الوسط من حروفه.

قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنْذِرَ قَوْمَكَ﴾، يحتمل أن تكون «أَنْ» مفسرة لا موضع لها من الإعراب، ويحتمل أن

يكون التقدير: بأن أنذر قومك، وهي - على هذا - في موضع نصب عند قوم من النحاة، وفي موضع خفض عن آخرين، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿إِلَى قَوْمِهِ أَنْذِرَ قَوْمَكَ﴾ دون «أَنْ»، والعذاب الذي تُوعَدُوا به يحتمل أن يكون عذاب الدنيا وهو الأظهر والأليق بما يأتي بعد، ويحتمل أن يكون عذاب الآخرة.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا﴾ بضم النون من [أَنْ] إبتاعاً لضمة الباء وتزكاً لمراعاة الحائل لخفضة السكون، فهو كأن ليس ثمَّ حائل، وقرأ عاصم، وحزمة، وأبو عمرو - في رواية عبدالوارث -: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا﴾ بكسر النون، وهذا هو الأصل في التقاء الساكنين من كلمتين، و﴿يَغْفِرُ﴾ جواب الأمر، وقوله سبحانه: ﴿مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ قال قوم: [مِنْ] زائدة، وهذا نحو كوفي، وأما الخليل وسيبويه فلا يجوز عندهما زيادتها في الواجب، وقال قوم: هي لبيان الجنس، وهذا ضعيف لأنه ليس هنا جنس يبين، وقال آخرون: هي بمعنى «عن»، وهذا غير معروف في أحكام «مِنْ»، وقال آخرون: هي لابتناء الغاية، وهذا قول يتجه، كأنه يقول: يبتدئ الغفران من هذه الذنوب العظام التي لهم، وقال آخرون: هي للتبويض، وهذا عندي أبين الأقوال، وذلك أنه لو قال: «يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ» لعمَّ هذا اللفظ ما تقدم من الذنوب وما تأخر عن إيمانهم، والإسلام يجب ما قبله، فهي بعض من ذنوبهم، فالمعنى:

لِتَغْفِرَ لَهُمْ ﴿٥﴾ معناه: ليؤمنوا فيكون ذلك سبب الغفران، وقوله سبحانه: ﴿جَعَلُوا صَدَقَتَهُمْ فِيءًا أَنفُسِهِمْ﴾ يحتمل أن يكون حقيقة ويحتمل أن يكون عبارة عن إعراضهم وشدة رفضهم لأقواله ودعائه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرُوا بِآيَاتِهِمْ﴾، ومعناه: جعلوها أعطية على رؤوسهم. و«الإصرار»: الثبوت على معتقد ما، وأكثر استعماله في الذنوب.

ثم كرر ﴿تَسْتَغْفِرُ لَهُمْ﴾ صفة دعائه لهم بياناً وتوكيداً، و«جهاراً» يريد علانية في المحافل، و«الإصرار» ما كان من دعائه الأفراد بينه وبينهم على انفراد، وهذا غاية الجد. وقوله: ﴿أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ﴾ يقتضي أن الاستغفار سبب لنزول المطر في كل أمة، ورؤي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه استسقى بالناس فلم يزد على أن استغفر ساعة ثم انصرف، فقال له قوم: ما رأيناك استسقيت يا أمير المؤمنين، فقال: والله لقد استنزلت المطر بمجاديع السماء، ثم قرأ هذه الآية رضي الله عنه، وشكا رجل إلى الحسن الجذب فقال له: استغفر الله سبحانه، وقال له آخر: ادع الله تعالى أن يرزقني ولداً، فقال له: استغفر الله تعالى، فقيل له في ذلك فتزع بهذه الآية. والاستغفار الذي أحال عليه الحسن ليس هو عندي لفظة الاستغفار فقط، بل الإخلاص والصدق في الأقوال والأعمال، وكذلك كان استغفار عمر رضي الله عنه.

المعنى أن نوحاً عليه السلام لم يعلم هل هم ممن يؤخر أو ممن يعاجل، ولا قال لهم إنكم تؤخرون عن أجل قد حان لكم، لكن قد سبق في الأزل أنهم إما ممن قضي له بالإيمان والتأخير، وإما ممن قضي عليه بالكفر والمعالجة، ثم تشدد هذا المعنى ولاح بقوله: ﴿إِن آجَلَ اللَّهُ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ﴾.

وقد حكى مكِّي القول بالأجلين ولم يُقدِّر قدره. وجواب [لَوْ] مُقَدَّرٌ يقتضيه المعنى، كأنه قال: فما كان أحزَمكم وأسرعكم إلى التوبة لو كنتم تعلمون.

﴿٥﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ: هذه المقالة قالها نوح عليه السلام بعد أن طال عمره وتحقق اليأس من قومه، وقوله: ﴿يَا بَنِي إِدْرِكَ﴾ عبارة عن استمرار دعائه وأنه لم يَنْ فِيهِ قَط. ويروى عن قتادة أن نوحاً عليه السلام كان يجيئه الرجل من قومه بابنه فيقول لابنه: يا بني احذر هذا الرجل فإن أبي قد حذرني إياه ويقول إنه مجنون. وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: ﴿دُعَائِي﴾ بالهمز وفتح الياء، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي بسكون الياء دون همز، وروى شبل عن ابن كثير: ﴿دُعَائِي﴾ بنصب الياء دون همز مثل «هدائي»، وقرأ عاصم أيضاً، ويعقوب، وسلام بهمة وياء ساكنة. وقوله تعالى: ﴿وَأَيُّكُمْ دَعَا رَبَّهُمْ﴾

يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿٥﴾ يُرْسِلُ دَكْرًا بِأَمْوَالٍ وَيَبِينُ وَيَجْعَلُ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلُ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿٦﴾ مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿٧﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿٨﴾ أَلَمْ نَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَمْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴿٩﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرِ فِيهِ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا ﴿١٠﴾ وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١١﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٢﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لِكُلِّ الْأَرْضِ بِسَاطًا ﴿١٣﴾ لِنَسْلُكُوهَا مِنهَا سَبِيلًا فَيَجْعَلُ لَكُمْ نُوحٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَمْسًا وَغَمْسًا وَاصْتَبَا مِنْ زُرْقَةٍ مَا لَهُ وُلْدٌ وَلَا نَذْرٌ ﴿١٤﴾ الْأَخْسَارُ ﴿١٥﴾ وَمَكْرًا وَأَمْرًا كَبِيرًا ﴿١٦﴾ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَاقُوتَ وَيَعْقُوبَ وَنَسْرًا ﴿١٧﴾ وَقَدْ أَضَلُّوا كَبِيرًا وَلَا تَذَرُوا الْفَلَاحِينَ إِنْ أَضَلُّوا فَلَا يَسْتَحِيطُ عَلَيْهِمْ أَغْرَفُوا فَأَدْخَلُوا تَارًا فَتَرَى بَعْدَ ذَلِكَ يَنْزِيلًا ﴿١٨﴾ اللَّهُ أَنْبَأَكُمْ أَنَّكُمْ لَا تَذَرُونَ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكُفْرِينَ دِيَارًا ﴿١٩﴾ إِنَّكُمْ إِذْ تَدْرَهُمْ بِضُلُومٍ عَسَاوَكُ وَلَا تَلِدُونَ إِلَّا فِجَارًا كَعَفَّارًا ﴿٢٠﴾ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِي مُؤْمِنًا وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ﴿٢١﴾

٥٧١

يغفر لكم من ذنوبكم، وقال بعض المفسرين: أراد: يغفر لكم من ذنوبكم المهم الموبق الكبير؛ لأنه أهم عليهم، وبه ربما كان اليأس عن الله تعالى قد وقع لهم، وهذا قول مُضْمَنَةٌ أن [من] للتبعض، والله تعالى الموفق. وقرأ أبو عمرو: ﴿يَغْفِرُ لَكُمْ﴾ بالإدغام، ولا يجيز ذلك الخليل وسيبويه؛ لأن الراء حرف مكرر فإذا أدمغ في اللام ذهب التكرير واحتل المسموع.

وقوله تعالى: ﴿يُؤَخِّرُكُمْ إِلَيْكَ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مما تَعَلَّتْ المعتزلة به في قولهم: «إن للإنسان أجلين»، وذلك أنهم قالوا: لو كان واحداً مُّحَدَّدًا لما صحَّ التأخير إن كان الحد قد بلغ، ولا المعالجة إن كان الحد لم يبلغ. قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس لهم في الآية تعلق؛ لأن

المصدر، والتقدير: فَنَبِّئُكُمْ نباتاً، و«الإعادة فيها» هي بالدفن فيها الذي هو عُرف البشر، و«الإخراج» هو بالبعث يوم القيامة لموقف العرض والجزاء.

وقوله تعالى: ﴿بِسَاطِئِ﴾ يقتضي ظاهره أن الأرض بسيطة وغير كروية، واعتقاد أحد الأمرين غير قادح في الشرع بنفسه اللهم إلا أن يتركب على القول بالكروية نظر فاسد، وأما اعتقاد كونها بسيطة فهو ظاهر كتاب الله تعالى، وهو الذي لا يلحق عنه فساد البتة، واستدل ابن مجاهد على صحة ذلك بماء البحر المحيط بالمعمور فقال: لو كانت الأرض كروية لما استقر الماء عليها. و«السُّبُلُ»: الطُّرُق، و«الفجاجُ»: الواسعة.

﴿٢١﴾ - ﴿٢٥﴾ تفسير قوله عز وجل: المعنى: فلما لم يطيعوا ويش نوح عليه السلام من إيمانهم قال نوح: رب إنهم عصوني وأتبعوا أشرفهم وغواتهم، فعبر عنهم بأن أموالهم وأولادهم زادتهم خساراً، أي: خسراً.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، ونافع - في رواية خارجة عنه -: ﴿وَوَلَدَهُ﴾ بضم الواو وسكون اللام، وهي قراءة ابن الزبير، والحسن، والأعرج، والنخعي، ومجاهد. وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر: ﴿وَوَلَدَهُ﴾ بفتح الواو واللام وهما بمعنى واحد كبُخِلَ وَيَخُلُ، وهي قراءة أبي عبدالرحمن، والحسن، وأبي رجاء، وابن وثاب، وأبي جعفر، وشيبة، وقرأ: ﴿وَوَلَدَهُ﴾ بكسر الواو الجحدري،

في اختلاف ألوان الناس وخلقهم وخلقهم ومثلهم، و«الأطوار»: الأحوال المختلفة، ومنه قول النابغة:

فَإِنْ أَفَاقَ فَقَدْ طَارَتْ عَمَائِشُهُ
وَالْمَرْءُ يُخْلِقُ طَوْرًا بَعْدَ أَطْوَارِ
وقرأ الجمهور: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ بالتاء، وقرأت فرقة بالياء على فعل الغائب، و﴿طِبَاقًا﴾ قيل: هو مصدر، أي: مطابقة، جعل كل واحدة طبقاً للأخرى، ونحوه قول امرئ القيس:

طَبَّقَ الْأَرْضَ تَحَرَّى وَتَسَدَّى
وقيل: هو جمع «طبق»، وهو نعت لـ ﴿سَجَّ﴾، وقرأ ابن أبي عبلة: ﴿طَبَاقٍ﴾ بالخفض على النعت لـ ﴿سَمَوَاتٍ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا﴾ ساغ ذلك لأن القمر من حيث هو في إحداها فهو في الجميع، ويروى أن القمر في السماء الدنيا، وقال عبدالله بن عباس، وعبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم: إن الشمس والقمر أفقاؤهما إلى الأرض وإقبال نورهما وارتفاعه في السماء، وهذا الذي تقتضيه لفظة السراج، وقيل: إن الشمس في السماء الخامسة، وقيل: في الرابعة، وقال عبدالله بن عمرو: هي في الشتاء في الرابعة، وفي الصيف في السابعة.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْتَكُرَ بَيْنَ الْأَرْضِ بَنَاتًا﴾ استعارة، من حيث أخذ آدم عليه السلام من الأرض ثم صار الجميع نابتاً منه، وقوله: ﴿بَنَاتًا﴾ مصدر جار على غير

وروي أن قوم نوح عليه السلام كان قد أصابتهم قحوط وأزمة فلذلك بدأهم في وعده بأمر المطر ثم نثى بالأموال والبنين، قال قتادة: لأنهم كانوا أهل حب للدنيا وتعظيم لأمرها، فاستدعاهم الله تعالى إلى الآخرة من الطريق التي يحبونها. و«مِذْرَارٍ» مفعال من «الذَّرُّ» كمدكار وميقات، وهذا البناء لا تلحقه هاء التأنيث.

﴿١٣﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: وعدهم بالأموال والبنين والجنات والأنهار لمكان حبهم للدنيا، واختلف الناس في معنى قوله تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ - فقال أبو عبيدة وغيره: معناه: تخافون، ومنه قول الهذلي:

إِذَا لَسَعَتْهُ النَّحْلُ لَمْ يَرْجُ لَسَعَهَا
وَخَالَفَهَا فِي بَيْتِ ثُوبٍ عَوَامِلِ
قالوا: و«الوقارُ» بمعنى العظمة والسلطان، فكأن الكلام - على هذا - وعيدٌ وتخويفٌ. وقال بعض العلماء: ﴿تَرْجُونَ﴾ على بابها في الرجاء، وكأنه قال: ما لكم لا تجعلون رجاءكم لله تعالى وللقاته، و﴿وَقَارًا﴾ يكون - على هذا التأويل - منهم، كأنه يقول: تؤذون وتمكنون في النظر؛ لأن الكفر مُضْمَنُ الخفة والطيش وركوب الرأس.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، قال ابن عباس، ومجاهد: هي إشارة إلى التدرج الذي للإنسان في بطن أمه من النطفة والعلقة والمضغة، وقال جماعة من أهل التأويل: هي إشارة إلى العبرة

وزرًا، والحسن، وابن أبي إسحق، وطلدنة، قال أبو عمرو: «وُلِدَ» بضم الواو، وسكون اللام: العشيرة والقوم، وقال أبو حاتم: يمكن أن يكون «الوُلِد» بضم الواو جمع «الوُلِد» وذلك كخُشِب وخَشَب، وقال حسان بن ثابت:

يَا بِكَرَّ أَمِيَّةَ الْمُبَارِكِ ذَكَرُهُ
مِنْ وُلْدٍ مُخَصَّصَةٍ بِسَعْدِ الْأَسْعِدِ
وقرأ جمهور الناس: ﴿كِبَارًا﴾
بشد الباء، وهو بناء مبالغة نحو
حسان، قال عيسى: هي لغة يمانية،
وعليها قول الشاعر:

وَالْمَرْءُ يُلْجِئُهُ بِفِثْيَانِ التُّدَى
خُلُقِ الْكُتَيْبِمْ وَيَلْسَسُ بِالْوَضَاءِ
بضم الواو، وقرأ ابن مُحَيِّصِينَ،
وعيسى بن عمر: ﴿كِبَارًا﴾ بتخفيف
الباء، وهو بناء مبالغة إلا أنه دون
الأول، وقرأ ابن مُحَيِّصِينَ - فيما روى
عنه أبو الإخريط وهب بن واضح -:
﴿كِبَارًا﴾ بكسر الكاف، قال ابن
الأنباري: هو جمع كبير، فكأنه
جعل ﴿مَكْرًا﴾ مكان دُنُوبِ وَأَفَاعِيلِ
ونحوه.

وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ
الْهَيْكَلَ﴾ إخبار عن توأسيهم
بأصنامهم على العموم، ما كان منها
مشهور المكانة، وما كان منها
يختص بواحد من الناس، ثم أخذوا
يُتَّصُونَ على المشهور من الأصنام،
وهذه الأصنام زوي أنها أسماء رجال
صالحين كانوا في صدر الدنيا، فلما
ماتوا صورهم أهل ذلك العصر من
حجر وقالوا: ننظر إليها فنذكر
أفعالهم، فهلك ذلك الجيل وكثر
تعظيم الآخر لتلك الحجارة ثم

كذلك حتى عُبدت ثم انتقلت تلك
الأصنام بأعيانها - وقيل: بل بالأسماء
فقط - إلى قبائل من العرب، فكانت
«وَدَّ» في كلب بدومة الجندل،
وكانت «سُوَاع» في هذيل، وكانت
«يَعْرُوث» في مُرَاد، وكانت «يَعْرُوق»
في هَمْدَان، وكانت «نَسْر» في ذي
الكلأخ من جَمَيْر.

وقرأ نافع وحده - وزويت عن
عاصم -: ﴿وَدَّ﴾ بضم الواو، وقرأ
الباقون، والأعمش، والحسن،
وطلحة، وشيبة، وأبو جعفر -
بخلاف عن الثلاثة -: ﴿وَدَّ﴾ بفتح
الواو، قال الشاعر:

حَيْبَاكَ وَدَّ فَمِلْنَا لَا يَجِلُّ لَنَا
لَهُوَ النِّسَاءِ وَإِنَّ الدِّينَ قَدْ عَزَمَا
فيقال: إنه أراد ذلك الصنم،
ويروى بضم الواو وفتحها.

وقرأ الأعمش: ﴿وَلَا يَغْشَا
وَيَعْرُوقًا﴾ بالصرف، وذلك وهم لأن
التعريف لازم ووزن الفعل. وقوله:
﴿وَقَدْ أَضَلُّوا كَبِيرًا﴾ هو إخبار نوح
عليه السلام عنهم، وهو منقطع مما
حكاه عنهم، والمعنى: وقد أضل
هؤلاء القائلون كثيراً من الناس
والأتباع والعموم، ثم دعا عليهم
إلى الله تعالى بالأل يزيدهم إلا
ضلالاً، وذكر الظالمين لتعمُّ الدعوة
كل من جرى مجراهم. وقال الحسن
- في كتاب النقاش -: أراد بقوله:
﴿وَقَدْ أَضَلُّوا﴾ الأصنام المذكورة،
وعبر عنها بضمير من يعقل من حيث
يعاملها جمهور أهلها معاملة من
يعقل ويسند إليها أفعال العقل.

وقوله تعالى: ﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ﴾
ابتداء إخبار من الله تعالى

لمحمد ﷺ، أي: إن دعوة نوح
عليه السلام أُجيبَت قَالَ أَمْرُهُمْ إِلَى
هذا، و [ما] في قوله تعالى: ﴿مِمَّا﴾
زائدة، فكأنه تعالى قال: من
خطبائهم أغرقتوا، هي لابتداء الغاية،
وقرأ: ﴿مِمَّا خَطَبْتِهِمْ﴾ على الأفراد
الجاحدرئي والحسن، وقرأ أبو عمرو
وحده، والحسن، وعيسى،
والأعرج، وقتادة - بخلاف عنهم -:
﴿مِمَّا خَطَبَايَاهُمْ﴾ على تكسير
الجمع، وقوله تعالى: ﴿فَأَذِنُوا نَارًا﴾
يعني جهنم، وعبر عن ذلك بفعل
المضي من حيث الأمر متحقق،
وقيل: أراد عرضهم على النار عُذُوا
وعشيياً عبر عنه بالإدخال، وقوله
تعالى: ﴿فَلَمْ يَجِدُوا﴾ أي: لم يجد
المغفرون أحداً سوى الله تعالى
يصرهم ويصرف عنهم بأس الله.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:
رُوي عن محمد بن كعب،
ومقاتل، والربيع، وابن زيد أن نوحاً
عليه السلام لم يدع بهذه الدعوة إلا
بعد أن أخرج الله تعالى كل مؤمن
من أصلابهم، وأعقم أرحام النساء
قبل العذاب بسبعين سنة، قال قتادة
وبعد أن أوحى إليه أنه لن يؤمن من
قومك إلا من آمن، وقد كان قبل
ذلك طامعاً فيهم جداً عليهم، وفي
حديث النبي ﷺ أنه ربما ضربه ناسٌ
منهم أحياناً حتى يُغشى عليه فإذا
أفاق قال: اللهم أغفر لقومي فإنهم
لا يعلمون. و«دِيَار» أصله دِيَوَارٌ،
وهو قِيَعَال من الدوران، أي: من
يجيء ويذهب، يقال منه: دَوَّارٌ
ووزنه قَعَالٌ، ودِيَارٌ ووزنه قِيَعَالٌ
وأصله دِيَوَارٌ، وهذا كالتَّوَارِيقِ وَالْقِيَامِ.

سُورَةُ الْجِنِّ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قُلْ أُوْحِيٓ اِلَيْكَ اِنَّهُنَّ اَسْمَعُ نَقْرَمِنْ اَلْحَيِّ فَمَا لَوْ اِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا مَّجْمُوعًا ۙ يَهْدِيٓ اِلَى الرُّشْدِ فَمَا مَنَابِهٖ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا اَحَدًا ۙ وَاِنَّهٗ كَانَ كَاتِبًا يَقُوْلُ سَفِيهًا عَلٰٓى اَللّٰهِ سَطَطًا ۙ وَاَنَا طَنَنَّا اَنْ لَّنْ نَقُوْلَ اِلَّا مِمَّا وَاَلْحَيُّ عَلٰٓى اَللّٰهِ كَذٰبًا ۙ وَاِنَّهٗ كَانَ يَجَالُ مِنْ اِلٰنِيسٍ يَبُوْدُوْنَ رِجَالٍ مِّنَ اَلْحَيِّ نَزَادُوْهُمْ رَهَقًا ۙ وَاَنْتُمْ طَنَرْتُمْ كَمَا طَنَنْتُمْ اَنْ لَّنْ يَبْعَثَ اَللّٰهُ اَحَدًا ۙ وَاَنَا لِنَسْنَسُ السَّمَاۗءَ فَوَجَدْنَهَا مَلِيْمًا حَرَسًا شَدِيْدًا وُشْبَهًا ۙ وَاَنَا كَا كَفَعْدُمِنَهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ اِلَّا اَنْ يَّحْدِثَ اَللّٰهُ شَهَابًا رَّسَدًا ۙ وَاَنَا لَا تَدْرِيۡ اَشْرًا رَّيْدَ يَمْنٰ فِى الْاَرْضِ اَمْ اَرَادَ بِهٖمْ رَشْدًا ۙ وَاَنَا بِنَاۗءِ الصّٰلِحِيْنَ وِعَادًا وُوْنَ ذٰلِكَ كَا طَرِيقٍ قَدَدًا ۙ وَاَنَا طَنَنَّا اَنْ لَّنْ نَعْجِزَ اَللّٰهُ فِى الْاَرْضِ وَلَنْ نَعْجِزَهُ هَرَبًا ۙ وَاَنَا لَمَّا سَمِعْنَا اَلْمُدْحِ اَمَامَنَا بِهٖ فَمَنْ يُّؤْمِنُ بِرَبِّهٖ فَلَا يَحْتَفِ بِحَسَا وَلَا رَهَقًا ۙ ﴿١٧﴾

٥٧٢

وكذلك حفص عن عاصم، فترتب إجماع القراء على فتح الألف من ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ و﴿رَأَى اسْتَقَمُوا عَلَى﴾ و﴿رَأَى اسْتَجِدَّ﴾ وذكر الزهراوي عن علقمة أنه كان يفتح الألف في السورة كلها.

واختلف الناس في الفتح من هذه الألفات وفي الكسر اختلافاً كبيراً يطول حصره وتقضي معانيه - قال أبو حاتم: أما الفتح فعلى «أوجي» فهو كله في موضع رفع على ما لم يسم فاعله، وأما الكسر فحكاية وابتداء وبعد القول.

وهؤلاء النفر من الجن هم الذين صادفوا رسول الله ﷺ يقرأ ببطن نخلة في صلاة الصبح وهو يريد عكاظ، وقد تقدم قصصهم في سورة «الأحقاف» في قوله تعالى: ﴿وَأَذْ صَرَفًا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ﴾، وكان

«أَوْحَى يُوجِي»، وقرأ أبو إياس جَوْئَةً بن عائد: ﴿قُلْ وَجِي﴾ من «وَحَى» و«أَوْحَى» بمعنى واحد، وقال العجاج:

وَحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاسْتَقَرَّتْ

وقرأ أيضاً جَوْئَةً فيما روى عنه الكسائي :- ﴿قُلْ أُحِي﴾، أبدلت الواو همزة كما أبدلوا في وسادة وإسادة، وغير ذلك، وكذلك قرأ ابن أبي عبة، وحكى الطبري عن عاصم أنه كان يكسر كل ألف في السورة من «أَنْ» و«أَنَّهُ» إلا قوله

تعالى: ﴿رَأَى اَلْمَسْجِدَ لِلّٰهِ﴾، وحكى عن أبي عمرو أنه كان يكسر من أولها إلى قوله تعالى: ﴿رَأَى اسْتَقَمُوا﴾ فإنه كان يفتح هذه وما بعدها إلى آخر السورة، فعلى ما حكى يلزم أن تكون الألف مكسورة في قوله تعالى: ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، وليس ما ذكر بثابت. وذكر أبو عليّ الفارسي أن ابن كثير، وأبا عمرو فتَحَا أربعة أحرف من السورة وكَسَرَا غير ذلك - ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾ و﴿رَأَى اسْتَقَمُوا﴾ و﴿رَأَى اَلْمَسْجِدَ لِلّٰهِ﴾ و﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ﴾ - وأن نافعاً وعاصماً - في رواية أبي بكر والمفضل - وافقاً في الثلاثة الأولى وكَسَرَا و﴿رَأَى لَمَّا قَامَ﴾ مع سائر ما في السورة، وذكر أن ابن عامر وحمزة والكسائي كانوا يقرؤون كل ما في السورة بالفتح إلا ما جاء بعد قول أو فاء جزاء،

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَلَوْلَدَيْ﴾ وقرأ أبي بن كعب: ﴿وَلَأَبْوَيْ﴾، وقرأ سعيد بن جبير: ﴿وَلَوْلَا لِدِي﴾ بكسر الدال، يخص أباه بالدعوة، قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم يكفر لنوح أب ما بينه وبين آدم عليهما السلام، وقرأ يحيى بن يعمر، والجحدري: ﴿وَلَوْلَا لِدِي﴾ بفتح اللام والدال وشد الياء مفتوحة، وهي قراءة النخعي، يخص بالدعاء ابنيه، ويثبه هو المسجد فيما قال ابن عباس وجمهور المفسرين، وقال ابن عباس أيضاً: بيثبه شريعته ودينه، استعار لهما بيتاً، كما يقال: قُبَّه الإسلام وفُسطاط الدين، وقيل: أراد سفينته، وقيل: أراد داره، وقوله: ﴿وَاللَّزِيْبِيْنَ وَالْمُؤْمِنِيْنَ﴾ تعميم بالدعاء لمؤمني كل ملّة، وقال بعض العلماء: إن الذي استجاب لنوح عليه السلام فأغرق بدعوته أهل الأرض الكفار لجدير أن يستجيب له فيرحم بدعوته المؤمنين. و«الثَّبَارُ» الهلاك وَهَابِ الرسم، وقرأ حفص عن عاصم، وهشام وأبو قرة عن نافع: ﴿بِيْتِكَ﴾ بتحريك الياء، وقرأ الباقون بسكونها.

تم تفسير سورة نوح والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الجن

وهي مكيّة بإجماع من المفسرين .
 (١) - (٥) تفسير قوله عز وجل :
 قرأ جمهور الناس : ﴿ قُلْ أُوْحِيٓ مِنْ

سبب ذلك حراسة السماء من استراق السمع.

وقول الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾ الآيات هو خطاب منهم لقومهم الذين تولوا إليهم منذرين، و﴿قَوْمًا عَجَبًا﴾ معناه: ذو عجب؛ لأن العجب يقع من سامع القرآن لبراعته وفصاحته ومُضْمَنَاتِهِ، وليس نفس القرآن هو العجب، وقرأ جمهور الناس: ﴿إِلَى الرَّشِيدِ﴾ بضم الراء وسكون الشين، وقرأ عيسى الثقفي: ﴿إِلَى الرَّشِيدِ﴾ بفتح الراء والشين، ومن كسر الهمزة من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَى﴾ فعلى القطع، وتعطف الجملة على قولهم: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا﴾، ومن فتح الألف من قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَى﴾ فقد اختلفوا في تأويل ذلك، فقال بعضهم: هي عطف على ﴿أَنَّهُ اسْتَمَعَ﴾، فيجيء على هذا قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ تَعَالَى﴾ ممّا أمر أن يقول إنه أوحى إليه، وليس يكون من كلام الجن، وفي هذا قلق، وقال بعضهم: بل هي عطف على الضمير في ﴿بِيَدِهِ﴾، كأنهم يقولون: فأمنأ به ويأنه تعالى جد ربنا، وهذا القول أبتين في المعنى لكن فيه من جهة النحو العطف على الضمير المخفوض دون إعادة الخافض، وذلك لا يحسن.

وقرأ جمهور الناس: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ بفتح الجيم وإضافته إلى «الرَّبِّ» تعالى، وقال جمهور المفسرين: معناه: عظمته، وروي عن أنس أنه قال: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا، أي: عظم، وقال أنس بن مالك، والحسن: جدُّ

رَبِّنَا: غناه، فهذا هو الجد الذي قال فيه رسول الله ﷺ: «وَلَا يَنْفَعُ ذَا الْجَدِّ مِنْكَ الْجَدُّ» وقال مجاهد: ذكروه، وقال بعضهم: جلاله، وقال ابن عباس: قَدْرُهُ وَأَمْرُهُ، وهذا كله مُتَّجِهٌ لِأَنَّ الْجَدَّ هُوَ حَظُّ الْمَجْدُودِ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَالْأَوْصَافِ الْجَمِيلَةِ، وَجَدُّ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الْحَظُّ الْأَكْمَلُ مِنَ السُّلْطَانِ الْقَاهِرِ وَالطَّبَقَاتِ الْعَلِيَّةِ وَالْعِظْمَةِ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُ الْيَهُودِيِّ حِينَ قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ: «يَا بَنِي قَيْلَةَ هَذَا جَدُّكُمْ الَّذِي تَنْتَظِرُونَ» أَي: حَظُّكُمْ مِنَ الْخَيْرَاتِ وَبِخْتِكُمْ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ، وَأَبُو جَعْفَرِ الْبَاقِرِ، وَابْنُهُ جَعْفَرُ الرَّبِيعِ بْنِ أَنَسٍ: لَيْسَ اللَّهُ تَعَالَى جَدًّا، وَهَذِهِ مَقَالَةٌ قَوْمٌ جَهْلَةٌ مِنَ الْجِنِّ جَعَلُوا اللَّهَ تَعَالَى جَدًّا، أَي: أَبَا أَبٍ، قَالَ كَثِيرٌ مِنَ الْمَفْسُرِينَ: هَذَا قَوْلٌ ضَعِيفٌ، وَقَوْلُهُمْ: ﴿وَلَنْ نُشْرَكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾ يدفعه، وكونهم على شريعة متقدمة - فيما روي - وفهمهم القرآن، وقرأ محمد بن السميع اليماني: ﴿جَدِّي رَبِّنَا﴾ وهو الجدوى والتفجع، وقرأ عكرمة: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ بفتح الجيم وضم الدال وتنوينها ورفع الرب، كأنهم يقولون: تعالى عظيم هو ربنا، و«رَبِّنَا» بدل، والجد: العظيم في اللغة، وقرأ حميد بن قيس: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ بضم الجيم، ومعناه: العظيم، حكاه سيبويه وأضافه إلى «الرَّبِّ» فكأنه قال: «عَظِيمُ رَبِّنَا»، وهذه إضافة تجريد، يرفع النحاة هذا الاسم إذا أضيفت الصفة إلى الموصوف، كما تقول: «جاءني

كريمٌ زُئِدٌ» تريد: زيدٌ الكريم، ويجري مجرى هذا عند بعضهم قول المتنبي:

عَظِيمُ الْمُلْكِ فِي الْمُقَلِّ
أراد: المُلْكُ الْعَظِيمُ، قَالَ بَعْضُ النَّحَاةِ: وَهَذَا الْمِثَالُ مَعْتَرِضٌ لِأَنَّهُ أَضَافَ إِلَى جِنْسٍ فِيهِ الْعَظِيمُ وَالْحَقِيرُ، وَقَرَأَ عِكْرَمَةُ أَيْضًا: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ بفتح الجيم والدال وتنوينها ورفع «الرَّبِّ»، نصب [جدًا] على التمييز كما تقول: «تَفَقَّأْتُ شُخْمًا وَتَصَبَّيْتُ عِرْقًا»، وَقَرَأَ قَتَادَةُ: ﴿جَدُّ رَبِّنَا﴾ بكسر الجيم وشد الدال ورفع الرَّبِّ، فنصب [جدًا] على الحال، ومعناه: حقيقة وامتكنأ، وهذا معنى غير الأول، وقرأ أبو الدرداء: ﴿تَعَالَى ذِكْرُ رَبِّنَا﴾، وروي عنه: ﴿جَلَالُ رَبِّنَا﴾.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ كَانَ يُقُولُ﴾، لا خلاف أن هذا قول الجن، وكسُر الألف فيه أبتين، وفتحها لا وجه له إلا اتباع العطف على الضمير، كأنهم قالوا: وأمنا الآن بأن سفيها كان قوله على الله شططاً، والسففيه المذكور قال جمهور من المفسرين: هو إبليس لعنه الله، وقال آخرون: هو اسم جنس لكل سفیه منهم، ولا محالة أن إبليس صدر في السفهاء، وهذا القول أحسن، و«الشَطَطُ»: التَّعْدِي وَتَجَاوَزَ الْحَدَّ بِقَوْلٍ أَوْ بِفِعْلٍ، وَمِنْهُ قَوْلُ الْأَعْمَشِيِّ:

أَتَنْتَهُونَ؟ وَلَا يَنْتَهُي ذَوِي شَطَطٍ
كَالطَّنِّينِ يَذْهَبُ فِيهِ الرَّيْتُ وَالْفُتْلُ
وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّا لَنَنَّا﴾ هو كلام

كان اللّمس غاية غرضهم، ونحو هذا قول المتنبي:

تَعَدُّ الْقُرَى وَالْمُسْنَ بِنَا الْجَيْشِ لَمَسَةً
نُبَارٍ إِلَى مَا تَشْتَهِي يَدُكَ الْيُمْنِي
فَعَبَّرَ عَنْ صَدَمِ الْجَيْشِ بِالْجَيْشِ
وَحَرَبِهِ بِاللَّمْسِ، وَهَذَا كَمَا تَقُولُ:
«الْمَسُ فَلَانَا فِي أَمْرٍ كَذَا» أَي: جَرِبَ
مَذْهَبِهِ فِيهِ، وَ«مُئْتَتٌ» إِذَا أُنْ تَكُونُ
فِي مَوْضِعِ الْمَفْعُولِ الثَّانِي لِـ
«وَجَدْنَا»، وَإِذَا أُنْ يَقْصُرُ الْفِعْلُ عَلَى
مَفْعُولٍ وَاحِدٍ وَتَكُونُ «مُئْتَتٌ» فِي
مَوْضِعِ الْحَالِ، وَكَانَ الْأَعْرَجُ يَقْرَأُ:
«مُئْتَتٌ» بِغَيْرِ هَمْزٍ، وَ«الشُّهْبُ»
كَوَاكِبُ الرَّجْمِ، وَ«الْحَرَسُ» يَحْتَمَلُ
أَنْ يَرِيدَ الرَّمِيَّ بِالشُّهْبِ وَكَرَّرَ الْمَعْنَى
بِلَفْظٍ مُخْتَلَفٍ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ
الملائكة.

و «مَقْلَعِدٌ» جَمْعُ مَقْعَدٍ، وَقَدْ فَسَّرَ
رَسُولُ اللَّهِ ﷺ صُورَةَ قَعُودِ الْجِنِّ
أَنَّهُمْ كَانُوا وَاحِدًا فَوْقَ وَاحِدٍ، فَتَمَّتِ
أُخْرَقَ الْأَعْلَى طَلَعَ الَّذِي تَحْتَهُ
مَكَانِهِ، فَكَانُوا يَسْتَرْقُونَ الْكَلِمَةَ
فِيَلْفُونَهَا إِلَى الْكِهَانِ وَيَزِيدُونَ مَعَهَا،
وَيَزِيدُ الْكِهَانُ لِلْكَلِمَةِ مَائَةَ كَذِبَةٍ.
وَقَوْلُهُ تَعَالَى: «فَمَنْ يَسْتَعِجِ الْآنَ»
الآيَةُ... قَطَعَ عَلَى أَنَّهُ كُلٌّ مِنْ اسْتَمَعَ
الآنَ أَحْرَقَهُ شَهَابٌ، فَلَيْسَ هُنَا بَعْدُ
سَمْعٌ، إِنَّمَا الْإِحْرَاقُ عِنْدَ الاسْتِمَاعِ،
وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّ الرَّجْمَ كَانَ فِي
الْجَاهِلِيَّةِ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِمَسْتَأْصِلٍ،
وَكَانَ الْحَرَسُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَدِيدًا،
فَلَمَّا جَاءَ الْإِسْلَامُ اشْتَدَّ الْأَمْرُ حَتَّى لَمْ
يَكُنْ فِيهِ يُسْرٌ وَلَا سَمَاحَةٌ، وَيَدُلُّ
عَلَى هَذَا قَوْلُ النَّبِيِّ ﷺ لِأَصْحَابِهِ
وَقَدْ رَأَوْا كَوَكِبًا رَاجِمًا: «مَاذَا كُنْتُمْ
تَقُولُونَ لِهَذَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ؟»، قَالُوا:

جهلهم، فكانوا يزيدونهم مخافة،
ويتعرضون للتخيل لهم بمنتهم
طاقتهم، ويغفونهم في إرادتهم لما
رأوا رقة أحلامهم، فهذا هو الرهق
الذي زادته الجنُّ بني آدم، وقال
مجاهد، والشُّعبي، وعبيد بن
عمير: بنو آدم زادوا الجن رهقاً
وهو الجرأة والانتحاء عليهم
والطغيان وغشيان المحارم
والإعجاب لأنهم قالوا: سدنا
الجن والإنس، وقد فسّر قوم
الرهق بالإثم، وأنشد الطبري في
ذلك بيت الأعشى:

لَا شَيْءَ يَنْفَعُنِي مِنْ دُونِ رُوَيْتِهَا
هَلْ يَشْتَفِي وَابِقٌ مَا لَمْ يُصِبْ رَهَقًا؟
وقال: معناه: ما لم يغش محرماً،
فالمعنى: زادت الجنُّ الإنس إثمًا
لأنهم عظموهم فزادوهم استحلالاً
لمحارم الله تعالى.

وقوله تعالى: «وَأَنْتُمْ ظَنُّوا» يريد
بني آدم الكفار، «كَمَا ظَنَنْتُمْ» مخاطبة
لقومهم من الجن، وقولهم: «أَنْ لَنْ
يَبْعَثَ اللَّهُ أَحَدًا» يَحْتَمَلُ مَعْنِيَيْنِ:
أَحَدُهُمَا بَعَثَ الْحَشْرَ مِنَ الْقُبُورِ،
وَالْآخَرُ بَعَثَ آدَمِيًّا رَسُولًا، وَ«أَنْ»
فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: «أَنْ لَنْ يَبْعَثَ»
مُخَفَّفَةٌ مِنَ الثَّقِيلَةِ، وَهِيَ تَسُدُّ مَسَدًا
الْمَفْعُولِينَ، وَذَكَرَ الْمَهْدَوِيُّ تَأْوِيلًا أَنَّ
الْمَعْنَى: وَأَنَّ الْجِنَّ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنْتُمْ
أَيُّهَا الْإِنْسُ، فَهِيَ مُخَاطَبَةٌ مِنَ اللَّهِ
تَعَالَى.

وقولهم: «وَأَنَّا لَسْنَا السَّمَاءَ»
معناه: التَّمَسُّنَا، وَيُظْهِرُ بِمَقْضَى كَلَامِ
العرب أنها استعارة لتجربتهم أمرها
وتعرضهم لها، فَسَمَّى ذَلِكَ لَمَسًا إِذْ

أولئك النفر من الجن، لا يحتمل
غير ذلك، وكسر الألف فيه أُبِين،
والمعنى: إِنَّا كُنَّا نَنْظُرُ قَبْلَ إِيمَانِنَا أَنَّ
الْأَقْوَالَ الَّتِي كُنَّا نَسْمَعُ مِنْ إِبْلِيسَ
وَعُوقَاةِ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي جِهَةِ الْأَلْهَةِ
وَمَا يَتَعَلَّقُ بِذَلِكَ حَقٌّ وَلَيْسَتْ
بِكَذِبٍ؛ لِأَنَّا كُنَّا نَنْظُرُ بِهِمْ أَنَّهُمْ لَا
يَكْذِبُونَ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى وَلَا يَرْضُونَ
ذَلِكَ، وَقَرَأَ جَمْهُورُ النَّاسِ: «نَقُولُ»
بِالتَّاءِ وَضَمُّ الْقَافِ مُخَفَّفَةٌ، وَقَرَأَ
الْحَسَنُ، وَالْجَحْدَرِيُّ، وَابْنُ أَبِي
بَكْرَةَ، وَيَعْقُوبُ: «تَقُولُ» بِفَتْحِ التَّاءِ
وَالْقَافِ وَالْوَاوُ مُشَدَّدَةٌ، وَالتَّقْوُولُ
خَاصٌّ بِالكَذِبِ، وَالْقَوْلُ عَامٌّ لَهُ
وَاللصِّدْقُ وَلَكِنْ قَوْلُهُمْ: «كَذِبًا» يَرُدُّ
الْقَوْلُ هُنَا إِلَى مَعْنَى التَّقْوُولِ.

٦ - ١٠ تفسير قوله عز وجل:

هذه الألف من «أَنَّهُ» اختلف
في فتحها وكسرها والكسر أوجه،
والمعنى في الآية ما كانت العرب
تفعله في أسفارها وتغريبها في
الرعي وغيره، فإن جمهور
المفسرين رَوَوْا أَنَّ الرَّجُلَ كَانَ إِذَا
أَرَادَ الْمَيْتَ وَالْحُلُولَ فِي وَادٍ صَاحَ
بِأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا عَزِيزُ هَذَا الْوَادِي
إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ السَّفَهَاءِ الَّذِينَ
فِي طَاعَتِكَ، فَيَعْتَقِدُ بِذَلِكَ أَنَّ
الْجِنِّيَّ الَّذِي بِالْوَادِي يَمْنَعُهُ
وِيَحْمِيهِ، فَرَوَى أَنَّ الْجِنَّ كَانَتْ
تَقُولُ عِنْدَ ذَلِكَ: مَا نَمْلِكُ لَكُمْ
وَلَا لَأَنْفُسِنَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا، قَالَ
مِقَاتِلُ: أَوَّلُ مَنْ تَعَوَّذَ بِالْجِنِّ قَوْمٌ
مِنْ أَهْلِ الْيَمَنِ ثُمَّ بَنُو حَنِيفَةَ ثُمَّ
فُنَّاءُ ذَلِكَ فِي الْعَرَبِ، وَرَوَى عَنْ
قَتَادَةَ أَنَّ الْجِنَّ كَانَتْ لِذَلِكَ تَحْتَقِرُ
بَنِي آدَمَ وَتَزْدَرِيهِمْ لَمَّا يَرُونَ مِنْ

وَيَمَّا الْقَتِيلُونَ ﴿١١﴾، و«القاسيطة»: الظالم، قاله مجاهد، وقتادة، والناس، ومنه قول الشاعر:
قَوْمٌ هُمْ قَتَلُوا ابْنَ هِنْدَ عَثْوَةَ
عَمْرًا وَهُمْ قَسَطُوا عَلَى الثُّغْمَانِ
والمُقْسِط: العادل، وإنما هذا التقسيم ليذكر حال الفريقين من النجاة والهلكة، ويُرْعَب في الإسلام من لم يدخل فيه، فالوجه أن يكون ﴿فَمَنْ أَسْلَمَ﴾ مخاطبة من الله تعالى لمحمد ﷺ، ويؤيده ما بعده من الآيات، و«تَحْرَزُوا» معناه: طلبوا باجتهدهم، ومنه قول النبي ﷺ: لا تَحْرَزُوا بِصَلَاتِكُمْ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَلَا غُرُوبِهَا، وقوله تعالى: ﴿لِيَجْهَرَنَّ حَتَابًا﴾ نظير قوله تعالى: ﴿وَفُودَهَا النَّاسُ وَالْحِجَابَةَ﴾.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في قوله تعالى: ﴿أَسْتَقْتُمُوا﴾. قال أبو مجلز، والفراء، والربيع بن أنس، وزيد بن أسلم، والضحاك - بخلاف عنه - هو عائد على قوله سبحانه: ﴿مَنْ أَسْلَمَ﴾، و«الطريقة» طريقة الكفر، أي: لو كفر من أسلم من الناس لأسقيناهم ماء إملاء لهم، واستدرجاً، وقال ابن عباس، وقتادة، وابن جبير، ومجاهد: الضمير عائد على «القاسطين»، والمعنى: على طريقة الإسلام والحق، وهذا المعنى نحو قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُ أَهْلُ الْكِتَابِ مَأْمُونًا وَأَقْتَبُوا لَكَفَرْنَا عَنْهُمْ سِقَاتِيهِمْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آتَمُوا الثَّوَابَةَ وَالْإِحْسَانَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ

لِيَجْهَرَنَّ حَتَابًا ﴿١١﴾، وقوله تعالى: ﴿وَيَمَّا دُونَ ذَلِكَ﴾ أي: غير الصالحين، كأنهم قالوا: ومنا قوم أو فرقة دون صالحين، وهي لفظة تقع أحياناً موقع «غير»، و«الطرائق»: السبب المختلفة، و«القدوة» كذلك هي الأشياء المختلفة كأنه قد قد بعضها من بعض وفصل، قال ابن عباس: وعكرمة، وقتادة: «طرائق» وقد: أهواء مختلفة، وقال غيرهم: فرق مختلفون، قال الكميت:

جَمَعَتْ بِالرَّأْيِ مِنْهُمْ كُلَّ رَافِضَةٍ
إِذْ هُمْ طَرَائِقُ فِي أَهْوَائِهِمْ قَدُودٌ
قَوْلِهِمْ: ﴿وَأَنَا طَلَبْنَا أَنْ لَنْ نُجْعَرَ
أَنْتَ﴾، الظن هنا بمعنى العلم، وهذا إخبار منهم عن حالهم بعد إيمانهم كما سمعوا من محمد ﷺ، و«الهدى» يريدون به القرآن، سمّوه هدى من حيث هو سبب الهدى، و«البخس»: النقص، و«الرّهق»: تحميل ما لا يطاق وما يثقل من الأنكاد ويفدح، وقال ابن عباس: البخس نقص الحسنات، والرّهق الزيادة في السيئات، وقرأ الأعمش ويحيى بن وثاب: ﴿فَلَا يَخْفُفُ﴾ بالجزم دون ألف.

وقسم الله تعالى بعد ذلك حال الناس في الآخرة على نحو ما قسم قائل الجن بقوله: ﴿وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ

وَأَنَا مِمَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِمَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحْرَزُوا رَشْدًا ﴿١١﴾ وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا ﴿١٢﴾ وَالْوَالِاسْتَقْتُمُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَهُمْ مَاءً غَدَقًا ﴿١٣﴾ لَنَقْبِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا ﴿١٤﴾ وَأَنَّ الْمَسْجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴿١٥﴾ وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا ﴿١٦﴾ قُلْ إِنَّمَا أَدْعُوا رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿١٧﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿١٨﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَ بِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿١٩﴾ لَئِن لَبِغْتُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَنْ يُبِغْ مِنَ اللَّهِ فَإِنَّ لَهُ شَارِكًا هَهُنَا خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ فَيَسْمِعُونَهُمْ مِنْ أَصْفَافٍ نَاصِرًا وَقُلْ عَدَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنْ أَدْرَيْتُمْ أَقْرَبُ مَا تُوَعَدُونَ أَمْ يَجْعَلُ لَهُ رَبِّي أَمَدًا ﴿٢٢﴾ عَلِيمٌ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٣﴾ إِنْ أَلَمِنَ مِنْ رِضْوَانٍ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ اسْتَلَمَ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا ﴿٢٤﴾ لِيَحْلُقَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتٍ رِبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا ﴿٢٥﴾

٥٧٣

كنا نقول: وُلد ملك مات ملك، فقال عليه الصلاة والسلام: ليس الأمر كذلك، ثم وصف صعود الجن.

وقد قال عزف بن الحرّج - وهو جاهلي -:

فَأَنْقَضَ كَالدُّرِيِّ يَنْشَبُهُ
نَفْعٌ يَشُورُ تَخَالَهُ طُشْبًا
وهذا في أشعارهم كثير. و﴿رَصَدًا﴾ نعت للشهاب، ووصفه بالمصدر.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَا لَا نَدْرِي أَشَرُّ أَرِيدُ يَمَنَ فِي الْأَرْضِ﴾ الآية... معناه: لا ندري، أيؤمن الناس بهذا النبي فيرشدوا أم يكفرون به فينزل بهم الشر؟

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

هذا كله من قول الجن إلى آخر قوله تعالى: ﴿وَأَنَا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا

وَمِنْ تَحْتِ أَيْبُهُمْ ﴿١١﴾، وهذا القول أُبَيِّنُ، لأن استعارة الاستقامة للكفر قلفة.

وقرأ الأعمش، وابن وثاب: ﴿وَأَنْ لَوْ اسْتَقَامُوا﴾ بضم الواو، وقال أبو الفتح: هذا تشبيه بواو الجماعة ﴿أَشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى﴾، والماء العَذُّ هو الماء الكثير، وقرأ جمهور الناس: ﴿عَذَا﴾ بفتح الدال، وقرأ عاصم - في رواية الأعمش عنه - بكسرها.

وقوله تعالى: ﴿لَنَنْتَهِمَنَّ بِئِهِ﴾ إن كان المسلمون فمعناه: لنختبرهم، وإن كان القاسطون فمعناه: لمنتحنهم ونستدرجهم، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «حيث يكون الماء فَتَمَّ المال، وحيث المال فَتَمَّ الفتنة»، ونزع بهذه الآية، وقال الحسن، وابن المسيب، وجماعة من التابعين: كانت الصحابة مطيعين سامعين، فلما فتحت كنوز كسرى وقصر وثب بعثمان رضي الله عنه فقتل وثار الفتن. و﴿سَلَكُهُ﴾ معناه: يُدْخِلُهُ، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿يَسْلُكُهُ﴾ بفتح الياء، أي: يسلكه الله، وقرأ بعض التابعين: ﴿يُسْلِكُهُ﴾ بضم الياء، من أسلك، وهما بمعنى، وقرأ باقي السبعة: ﴿نَسْلِكُهُ﴾ بنون العظمة، وقرأ ابن جبير: ﴿نَسْلِكُهُ﴾ بنون مضمومة ولام مكسورة، و﴿صَعَدَا﴾ معناه: شاقا، تقول: «فلان في صَعَدٍ من أمره» أي: في مشقة، و«هذا أمر يتصعدني»، قال عسر رضي الله عنه: «ما تصعدني شيء كما تصعدني خطبة النكاح»، وقال

ابن عباس، وأبو سعيد الخدري: صعد: جبل في النار، وقرأ قوم: ﴿صُعْدَا﴾ بضم الصاد والعين، وقرأ الجمهور بفتح الصاد والعين، وقرأ ابن عباس، والحسن بضم الصاد وفتح العين، قال الحسن: معناه: لا راحة فيه.

وَمَنْ فَتَحَ الْأَلْفَ مِنْ ﴿وَأَنَّ السَّجِدَ لِلَّهِ﴾ جعلها عطفاً على قوله تعالى: ﴿قُلْ أَوْحَى إِلَيَّ أَنَّهُ﴾، ذَكَرَهُ سيبويه، و«المساجد» قيل: أراد بها البيوت التي للعبادة والصلاة في كل ملة، وقال الحسن: أراد كل موضع سُجِدَ فيه، كان مخصوصاً لذلك أو لم يكن؛ إذا الأرض كلها مسجد لهذه الأمة، ورُوي أن هذه الآية نزلت بسبب تغلب قريش على الكعبة حينئذ، فقيل لمحمد ﷺ: المواضيع كلها لله تعالى فاعبده حيث كان، وقال ابن عطاء: المساجد: الأراب التي يُسجد عليها، واحداً مَسْجِدٌ - بفتح الجيم -، وقال سعيد بن جبير: نزلت الآية لأن الجن قالت: يا رسول الله كيف نشهد الصلاة معك على نأينا عنك؟ فنزلت الآية ليخاطبهم بها على معنى: إن عبادتكم حيث كنتم مقبولة، وقال الخليل بن أحمد: معنى الآية: ولأن المساجد لله فلا تدعوا - أي: لهذا السبب -، وكذلك عنده ﴿لِإِيَابِ فَرِيثٍ﴾ ﴿لِإِيَابِهِمْ رَحَلَةَ الشَّيْءِ﴾ وَالصَّيْفِ ﴿لِيَعْبُدُوا﴾، وكذلك عنده ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، والمساجد المخصوصة بيّنة التمكن في كونها لله تعالى، فيصح أن تفرد للصلاة والدعاء وقراءة العلم وكل ما

هو خالص لله تعالى، وألاً يتحدث فيها من أمور الدنيا، ولا يتجر، ولا تتخذ طريقاً، ولا يجعل فيها لغير الله تعالى نصيب، ولقد قعدت للفضاء بين المسلمين في المسجد الجامع بالمرية ثم رأيت فيه من سوء خلق المتخاصمين وصياحهم وأيمانهم وفجور الخصام وغائلته ودخول النسوان ما رأيت تنزيه البيت عنه فقطعت القعود للأحكام فيه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ لِمَا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ يحتمل أن يكون خطاباً من الله تعالى، ويحتمل أن يكون إخباراً عن الجن، وقرأ بعض القراء - على ما تقدم -: ﴿وَأَنَّ﴾ بفتح الألف، وهذا عطف على قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ أَسْتَعِجَّ﴾، و«العبد» على هذه القراءة، قال قوم: هو نوح عليه السلام، والضمير في ﴿كَادُوا﴾ لِكُفَّارِ قومه، وقال آخرون هو محمد ﷺ، والضمير في ﴿كَادُوا﴾ للجن، والمعنى أنهم كادوا يتفصقون عليه لاستماع القرآن، وقرأ آخرون: ﴿وَأَنَّ﴾ بكسر الهمزة، و«العبد» محمد ﷺ، والضمير في ﴿كَادُوا﴾ يحتمل أن يكون للجن على المعنى الذي ذكرناه، ويحتمل أن يكون لكفار قومه وللعرب في اجتماعهم على رد أمره، ولا يتجه أن يكون «العبد» نوحاً عليه السلام إلا على تحامل في تأويل نسق الآية، وقال ابن جبير: معنى الآية أنها قول الجن لقومهم يحكون، و«العبد» محمد ﷺ، والضمير في ﴿كَادُوا﴾ لأصحابه الذين يطوعون له ويقعدون به في الصلاة، فهم عليه لَبِّدٌ، وهي

الجماعات، شُبِّهت بالشيء المتلبد بعضه فوق بعض، ومنه قول عبد مناف بن ربح:

صَابُوا بِسَيْتَةِ أَبْيَاتٍ وَأَرْزَعَةٍ
حَتَّى كَأَنَّ عَلَيْهِمْ جَانِيًا لَبْدًا
يريد الجراد، سماه جانيًا لأنه يَخْنِي
الأشياء بأكله، [ويروى جانيًا بالباء
لأنه يجبي الأشياء بأكله].

وقرأ ابن عباس وجمهور السبعة:
﴿لَبْدًا﴾ بكسر اللام، جمع لبدة،
وقال ابن عباس: أعوانًا، وقرأ ابن
عامر - بخلاف عنه - ومجاهد، وابن
محيصن: ﴿لَبْدًا﴾ بضم اللام
وتخفيف الباء المفتوحة، وهو جمع
أيضًا، وزوي عن الجحدري:
﴿لَبْدًا﴾ بضم اللام والياء، وقرأ أبو
رجاء: ﴿لَبْدًا﴾ بكسر اللام وشد الباء
المفتوحة، وقرأ الجحدري والحسن
- بخلاف عنهما -: ﴿لَبْدًا﴾ بضم
اللام وشد الباء، وهو جمع «لأبيد»،
فإن قدرنا الضمير للجن فَيَنْقُضُهُمْ
عليه لاستماع الذكر، وهذا تأويل ابن
عباس والضحاك، وإن قدرناه للكفار
فبتمالئهم عليه وإقبالهم على أمره
بالتكذيب والرّد، وهذا تأويل الحسن
وقتادة. و﴿بَدْعُوهُ﴾ معناه: يعبدوه.

وقرأ علي بن أبي طالب
رضي الله عنه: ﴿قَالَ إِنَّمَا أَذْعُو
رَبِّي﴾، وهي قراءة جمهور السبعة،
وهذه قراءة تؤيد أن «العَبْدُ» هو نوح
عليه السلام، وقرأ عاصم، وحزمة،
وأبيوب، وأبو عمرو - بخلاف عنه -:
﴿قَالَ إِنَّمَا أَذْعُوهُ﴾ وهذه تؤيد أنه
محمد ﷺ، وإن كان الاحتمال باقياً
من كليهما، واختلف القراء في فتح
الياء من [رَبِّي] وفي سكنونها.

ثم أمر تعالى محمد ﷺ بالتبري من
القدرة، وأنه لا يملك لأحد ضراً ولا
رشدًا، بل الأمر كله لله تعالى، وقرأ
الأعرج: ﴿رُشْدًا﴾ بضم الراء
والشين، وقرأ أبي بن كعب: ﴿لَا
أَمْلِكُ لَكُمْ غِيًّا وَلَا رُشْدًا﴾، وقوله
تعالى: ﴿وَمِن دُونِهِ﴾ أي: من عند
سواه، و«المُلْتَحَذُ»: الملجأ الذي
يُمال إليه ويُزكن، ومنه الإلحادُ
والميل، ومنه اللُحْذُ الذي يُمال به
إلى أحد شِقَي القبر.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في قوله تعالى: ﴿إِلَّا
بَلَاغًا﴾ - فقال الحسن ما معناه: إنه
استثناء منقطع، والمعنى: لن يُجيرني
من الله أحدٌ إلا بلاغًا، فإني إن
بلغتُ رحماني بذلك، والإجارة
للبلّاغ مستعارة إذ هو سبب
إجارة الله تعالى ورحمته، وقال
بعض النحاة: على هذا المعنى هو
استثناء مُتَّصِل، والمعنى: لن أجد
مُلْتَحَذًا إلا بلاغًا، أي: شيئًا أميل
إليه وأعتصم به إلا أن أبلغ وأطع
فيجيرني الله. وقال قتادة: التقدير:
لا أملك إلا بلاغًا فأما الإيمان
والكفر فلا أملكه، قال بعض
المتاولين: (إِلَّا) بتقدير الانفصال، و
[لَنْ] شرط، و [لَا] نافية، كأنه
يقول: ولن أجد مُلتَحَذًا إن لم أبلغ
من الله ورسالاته، و [مَنْ] في قوله:
﴿مَنْ يَقِصُّ اللَّهَ﴾ لابتداء الغاية، وقوله:
﴿وَمَنْ يَقِصُّ اللَّهَ﴾ يريد الكفر
بدليل الخلود المذكور، وقرأ
طلحة بن مصرف: ﴿فَأَن لَّهُ﴾ على
معنى: فجزاؤه أن له.

قوله تعالى: ﴿حَقَّ إِذَا رَأَوْا﴾، ساق

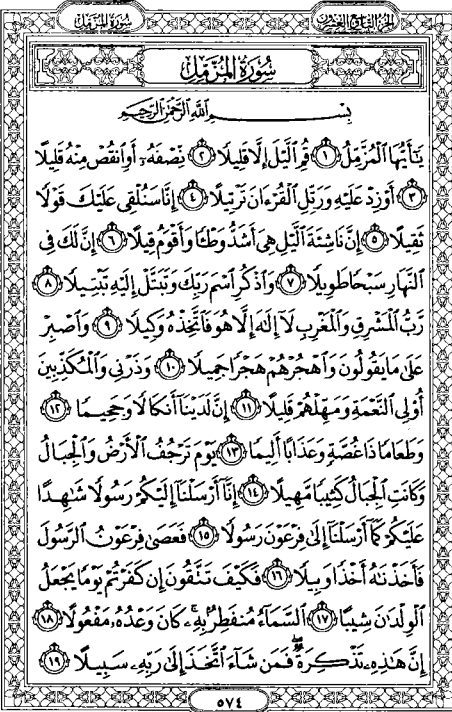
الفعل في صيغة الماضي تحقيقاً
لوقوعه، وقوله سبحانه: ﴿مَنْ
أَضَعَفَ﴾ يحتمل أن تكون ﴿مَنْ﴾ في
موضع رفع على الاستفهام
والابتداء، و﴿أَضَعَفَ﴾ خبرها،
ويحتمل أن تكون ﴿مَنْ﴾ في موضع
نصب بقوله: ﴿فَسَيَعْلَمُونَ﴾،
و﴿أَضَعَفَ﴾ خبر ابتداءٍ مضمّر.

ثم أمره الله تعالى بالتَّبَرِّي من معرفة
الغيب في وقت عذابهم الذي وعدوا
به، و«الأمْدُ»: المُدَّة والغاية،
و﴿عَلِمَ﴾ يحتمل أن يكون بدلاً من
﴿رَبِّي﴾، ويحتمل أن يكون خبر
ابتداءٍ مضمّر على القطع، وقرأ
السدي: ﴿عَلِمَ﴾ على الفعل ونصب
الباء، وقرأ الحسن: ﴿فَلَا يَظْهَرُ﴾
بفتح الباء والهاء ﴿أَحَدٌ﴾ بالرفع،
وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَن أَرَضَىٰ بِن
رَسُولٍ﴾ معناه: فإنه يَظْهَرُ على ما
شاء مما هو قليل من كثير، ثم
يبثُ الله تعالى حول ذلك الملك
الرسول حَفَظَةً رصداً لإبليس وحزبه
من الجن والإنس.

وقوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ﴾، قال قتادة:
معناه: ليعلم محمد أن الرسل قد
أبلغوا رسالات ربهم وحفظوا ومنع
منهم، وقال سعيد بن جبیر: معناه:
ليعلم محمد أن الملائكة الحفظة
الرصد النازلين بين يدي جبريل -
عليه السلام - وحلّفه قد أبلغوا
رسالات ربهم، وقال مجاهد:
معناه: ليعلم من كذب أو أنكّر أن
الرسل قد بلغت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وهذا العلم لا يقع إلا في الآخرة.

وقيل: المعنى: لِيَعْلَمَ الله رُسُلَهُ



كَأَنَّ أَبَانًا فِي أَفَانِينَ وَذَقِهِ
كَبِيرُ أَنَاسٍ فِي بَجَادِ مَزْمَلٍ
وحفض «مَزْمَل» في هذا
البيت هو على الجوار،
وإنما هو نعت لـ «كَبِير»،
فهو عليه الصلاة والسلام -
على قول هؤلاء - إنما
دُعي بهيئة في لباسه، وقال
قتادة: كان تَزْمَلُ في ثيابه
للصلاة واستعد فنودي
على معنى: يَا أَيُّهَا الْمُسْتَعِد
للعادة المتزمل لها، وهذا
القول أمدح له ﷺ، وقال
عكرمة: معناه: يَا أَيُّهَا
المتزمل للنبوة وأعبائها،
أي: الْمُشْتَمِرُ الْمَجْدُ،
وقال جمهور المفسرين

مبلغين خارجين إلى الوجود، لأن
علمه سبحانه بكل شيء قد تقدم،
وقرأ الجمهور: ﴿يَعْلَمُ﴾ بفتح اللام،
أي: ليعلم الله تعالى، وقرأ ابن
عباس رضي الله عنهما: ﴿لِيَعْلَمُ﴾
بضم الباء، وقرأ أبو حنيفة: ﴿رِسَالَةً
رَبِّهِمْ﴾ على التوحيد، وقرأ ابن أبي
عبلة: ﴿وَأَحِيطُ﴾ على ما لم يَسْمُ
فاعله، وقوله تعالى: ﴿وَأَحْصَى كُلَّ
شَيْءٍ عَدْدًا﴾ معناه: كل شيء معدود،
وقوله تعالى: ﴿يَعْلَمُ أَنْ قَدْ﴾ الآية
مُضْمَنَةٌ أنه تعالى قد علم ذلك، فعلى
هذا الفعل المضمن انعطف (أحاط -
أحصى)، والله تعالى المُرْشِدُ بِمَنْه
كامل تفسير سورة الجن والحمد لله
رب العالمين

تفسير سورة المزمل

وهي مكية كلها في قول المهدي
وجماعة، وقال الجمهور: هي مكية
إلا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ بِمَا
فَعَلْتَ مِنَ الْأَعْمَالِ﴾، فإن ذلك نزل
بالمدينة.

﴿١﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمُولُ﴾
نداء للنبي ﷺ، واختلف الناس، لم
نودي بها؟ فقالت عائشة، والتخعي،
وجماعة: لأنه كان في وقت نزول
الآية مُتَزْمِلًا بكساء، والمَزْمَلُ:
الالتفاف في الثياب بِضَمِّمْ وتشمير،
ومنه قول امرئ القيس:

كان لم يفرض قط، ويؤيد هذا
الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ
قام ليلة في رمضان خلف حصير
الحجرة، فصلّى وصلّى بصلاته
ناس، ثم كثروا من الليلة القابلة، ثم
غص المسجد بهم في الثالثة أو
الرابعة فلم يخرج رسول الله ﷺ،
فحصبوا بابه فخرج مغضباً وقال:
«إِنِّي إِنَّمَا تَرَكْتُ الْخُرُوجَ لِأَنِّي خِفْتُ
أَنْ نَفْرَضَ عَلَيْكُمْ»، وقيل: إنه عليه
الصلاة والسلام لم يكلمهم إلا بعد
أن أصبح وقال آخرون: كان فرضاً
في وقت نزول هذه الآية، واختلف
هؤلاء - فقال بعضهم: كان فرضاً
على النبي ﷺ خاصة وبقي كذلك
حتى توفي ﷺ، وقيل: بل نُسخ عنه
ولم يمت إلا والقيام تطوع، وقال
بعضهم: كان فرضاً على الجميع،
ودام الأمر - على ما قال سعيد بن

والزهري بما في البخاري من أنه
عليه الصلاة والسلام لما جاءه المَلَكُ
في غار حراء وحاوره بما حاوره
رجع رسول الله ﷺ إلى خديجة
رضي الله عنها فقال: «زَمَّلُونِي
الَّذِينَ زَمَّلُونِي»، فنزلت: ﴿يَا أَيُّهَا
الْمَزْمُولُ﴾، وفي مصحف ابن
مسعود، وأبى بن كعب: ﴿يَا أَيُّهَا
الْمُتَزْمَلُ﴾، وقرأ بعض الناس:
﴿يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ﴾ بفتح الزاي
وتخفيفها وفتح الميم وشدها،
والمعنى: الذي زَمَّلَهُ أهله أو زَمَّلَ
للسيرة، وقرأ عكرمة: ﴿يَا أَيُّهَا
الْمُزْمَلُ﴾ بكسر الميم وشدها
وتخفيف الزاي، أي: المَزْمَلُ نفسه.
واختلف الناس في هذا الأمر بقيام
الليل كيف كان؟ فقال جمهور أهل
العلم: هو أمر على جهة التندب قد

جبير - عشر سنين، وقالت عائشة، وابن عباس رضي الله عنهما: دام عاماً، ورؤي عنها أيضاً أنه دام ثمانية أشهر ثم رحمهم الله تعالى فنزلت: ﴿إِنَّ رَيْبَكُمْ بَعْدَ أَنْ تَأْتُمُّ﴾ فخفف عنهم، وقال قتادة: بقي عاماً أو عامين، وقرأ أبو السمال: ﴿قُمُ اللَّيْلُ﴾ بضم الميم لاجتماع الساكنين، والكسر في كلام العرب أكثر كما قرأ الناس.

وقوله تعالى: ﴿بِئْسَ مَا يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ بَدَلًا مِنْ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ﴾: ويحتمل أن يكون بدلاً من ﴿قِيلَ﴾، وكيف تقلب المعنى فإنه أمر بقيام نصف الليل أو أكثر شيئاً أو أقل شيئاً، فالأكثر عند العلماء لا يزيد على الثلثين، والأقل لا ينقص عن الثلث، ويقوي هذا حديث ابن عباس رضي الله عنهما في بيت ميمونة رضي الله عنها، قال: فلما انتصف الليل أو قبله بقليل قام رسول الله ﷺ، ويلزم على هذا البدل الذي ذكرناه أن يكون الليل قد وقع عليه الوصف بـ «قليل»، وقد يحتمل عندي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِيكَ﴾ أن يكون استثناء من القيام، فيجعل الليل اسم جنس، ثم قال تعالى: ﴿وَلَا يَلِيكَ﴾، أي: الليالي التي تُخل بقيامها عند العُذر ونحوه، وهذا النظر يحسن مع التندب جداً، وقد تكلم الجرجاني في نظمه في هذه الآية بتطويل وتدقيق غير مفيد، أكثره غير صحيح، وقرأ الجمهور: ﴿أَوْ أَنْقَضَ﴾ بضم الواو، وقرأ الحسن، وعاصم، وحمزة بكسر الواو، وقرأ عيسى بالوجهين،

والضميران في ﴿مِنَهُ﴾، ﴿عَلَيْهِ﴾ عائدان على «النصف».

وقوله تعالى: ﴿وَرَوَّيْلٌ﴾ معناه في اللغة: تمهل وفرق بين الحروف لتيين، والمقصد أن يجد الفكر فسحة للنظر وفهم المعاني، وبذلك يرق القلب ويفيض عليه النور والرحمة، قال ابن كيسان: المراد تفهّمه تالياً له، ومنه: «الثَّغْرُ الرُّبْلُ» أي: الذي بينه فُسْحٌ وفُتُوحٌ، ورؤي أن قراءة رسول الله ﷺ كانت بئنة مُتْرَسَلَةً لو شاء أحد أن يعد الحروف لعدّها.

و «القول الثقيل» هو القرآن، واختلف الناس، لم سمّاه ثقيلاً؟ فقال جماعة من المفسرين: لما كان يحل في رسول الله ﷺ من ثقل الجسم حتّى أنه كان إذا أوحى إليه وهو على ناقته بركت به، وحتى كادت فخذها أن تُرَضَّ فخذ زيد بن ثابت رضي الله عنه، وقال أبو العالية والقرظي: بل سمّاه ثقيلاً لثقله على الكفار والمنافقين بإعجازه ووعيده ونحو ذلك، وقال حذاق العلماء: معناه: ثقل المعاني من الأمر بالطاعات والتكاليف الشرعية من الجهاد ونحوه ومزاولة الأعمال الصالحة دائماً، قال الحسن: «إن الهدّ خفيف ولكن العمل ثقيل».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ نَائِيَةَ آلِي لَيْلٍ﴾ قال ابن جبير، وابن زيد: هي لفظة حبشية، تَنَشَأُ الرجل إذا قام من الليل، ف «ناشئة» - على هذا - جمع «ناشيء» أي: قائم، و﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ معناه: ثبوتاً واستقلالاً بالقيام، و﴿وَأَوَّامٌ قِيلاً﴾ أي: بخلوا أفكارهم وإقبالهم على ما يقرؤونه، قال ابن

عباس وأنس بن مالك، وعلي بن الحسين: ناشئة الليل هي ما بين المغرب والعشاء، وقالت عائشة، ومجاهد: الناشئة القيام بعد النوم، ومن قام أول الليل قبل النوم فلم يقم ناشئة الليل، وقال ابن جبير، وابن زيد، وجماعة: ناشئة الليل ساعاته كلها، لأنها تنشأ شيئاً بعد شيء، وقال ابن عباس، وابن الزبير، وأبو مجلز، والحسن: ما كان بعد العشاء فهو ناشئة الليل وما كان قبلها فليس بناشئة، قال ابن عباس: كانت صلاتهم أول الليل فهي أشدُّ وطْأً، أي: أجدر أن تخصوا ما فرض الله عليكم من القيام؛ لأن الإنسان متى نام لم يدر متى يستيقظ، وقال الكسائي: ناشئة الليل أوله، وقال ابن عباس، وابن الزبير أيضاً: الليل كله ناشئة، و﴿أَشَدُّ وَطْأً﴾ - على هذا - يحتمل أن يكون: أشد ثبوتاً، فيكون نسب الثبوت إليها من حيث هو للقائم فيها، ويحتمل أن يريد أنها صعبة القيام لمنعها النوم، كما قال: «اللَّهُمَّ اشدد وطأتك على مضر»، فذكرها تعالى بالصعوبة لِيُعَلِّمَ عِظَمَ الأجر فيها، كما قد وعد عليه الصلاة والسلام على الوضوء على المكاره والمشى في الظلام إلى المساجد ونحوه، وقرأ الجمهور: ﴿وَطْأً﴾ بفتح الواو وسكون الطاء، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، ومجاهد، وابن الزبير، وابن عباس: ﴿وَوَطْأً﴾ على وزن فعَالٍ، والمعنى: مُوَافَقَةٌ، لأنه بخلوا بالمال من أشغال النهار يوافق قلب المرء لسانه وفكره عبارته، فهذه مواطأةٌ صحيحة، وبهذا

المعنى فسّر اللفظ مجاهد وغيره،
وقرأ قتادة - في رواية حسين - :
﴿وَطَأٌ﴾ بكسر الواو وسكون الطاء
والهمزة مقصورة، وقرأ أنس بن
مالك: ﴿وَأَضُوبٌ قِيْلًا﴾، فقيل له:
إنما هو ﴿أَقَوْمٌ﴾ فقال: أَقَوْمٌ وَأَضُوبٌ
وَأَهْيَأٌ وَاحِدٌ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ
سَيِّئًا طَوِيلًا﴾، أي: تصرفاً
وتردداً في أمورك كما يتردد السابح
في الماء، ومنه سُمي القَرَسُ
سابقاً لِتَثْبِيهِ واضطرابه، وقال قومٌ
من أهل العلم: إنما معنى الآية
التثبئة على أنه إن فات حزب
الليل بنوم أو عذر فليخلف بالنهار
فإن فيه سبباً طويلاً، وقرأ
يحيى بن يعمر: ﴿سَبِيحًا طَوِيلًا﴾
بالخاء المعجمة، ومعناه: حِفْظٌ لَكَ
من التكليف، والتسبيح:
التخفيف، ومنه قول النبي ﷺ
لعائشة رضي الله عنها في السارق
الذي سرقها فكانت تدعو عليه:
(لا تُسَبِّحِي عنهُ)، فمعناه: لا
تُخَفِّفِي عنهُ، قال أبو حاتم: فسّر
يحيى السَّبْحُ بالنوم.

وقال سهل: ﴿وَأَذْكُرُكُمْ أَنْتُمْ رَبِّكُمْ﴾ يُرَادُ
به: بسم الله الرحمن الرحيم في
ابتداء صلواتك. و﴿تَبْتَلُ﴾ معناه:
انقطع من كل شيء إلا منه، وافرغ
إليه، وقال زيد بن أسلم: التَّبْتُلُ:
رفض الدنيا، ومنه: تَبْتَلُ الحَبْلُ،
وقولهم في المطلقة: بَتَلَتْ، ومنه:
البتول، و﴿تَبْيِيلًا﴾ مصدر على غير
الصنن.

وقرأ حمزة، والكسائي، وابن
عامر، وعاصم - في رواية أبي

بكر - : ﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾
بالخفض على البدل من ﴿رَبِّكَ﴾،
وقرأ الباقون، وحفص عن عاصم:
﴿رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ بالرفع
على القطع، أي: هو ربُّ، أو على
الابتداء والخبر ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾،
وقرأ ابن عباس، وأصحاب عبدالله:
﴿رَبُّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾
بالجمع، و«الوكيل»: القائم بالأمور
الذي تُوكَلُ إليه الأشياء.

قوله تعالى: ﴿وَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا
يَأْتُونَكَ﴾ الآية، قيل: هي مُؤَادعة
منسوخة بآية السيف، والمراد بالآية
قريش. وقال بعض العلماء: قوله
تعالى: ﴿وَأَقْبِرْهُمْ هَجْرًا جَبَلًا﴾
منسوخ، وأما الصبر على ما يقولون
فقد يتوجه أحياناً ويبقى حكمه فيما
يتوجه من الهجر الجميل بين
المسلمين، قال أبو الدرداء: إنا
لنكشر في وجوه قوم وإن قلوبنا
لتلعنهم، والقول الأول أظهر؛ لأن
الآية إنما هي في كفار قريش وردهم
رسالته وإعلامهم بذلك، ولا يمكن
أن يكون الحكم في هذا المقام
باقياً.

﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:
قوله تعالى: ﴿وَرَدَّيْنِي وَالْكَذِبِينَ﴾
وعيد لهم، ولم يتعرض أحدٌ
لمنعه منهم لكنه إبلاغ بمعنى: لا
تشغل بهم فكراً وكلهم إليّ.
و«التعمّة»: غضارة العيش وكثرة
المال، والمُشار إليهم كفار قريش
أصحاب القلب بيدر، ويروى أنه
لم يكن بين نزول هذه الآية وبين
بدر إلا مدة يسيرة نحو عام،
وليس الأمر كذلك، والتقدير الذي

يُعَصِّدُهُ الدليل من أخبار
رسول الله ﷺ يقتضي أن بين
الأميرين نحو عشر سنين، ولكن
ذلك قليل أمهلوه.

و﴿لَدَيْنَا﴾ بمنزلة: عندنا،
و«الآنكأ» جمع نكأ وهو القيد
من الحديد، ويروى أنها قيود سوّد
من نار، و«الطعام ذو الغصّة»:
شجرة الزقوم، قاله مجاهد وغيره،
وقيل: شوك من نار يعترض في
حلقوهم لا يخرج ولا ينزل، قاله
ابن عباس رضي الله عنهما، وكل
مطعم هناك فهو ذو غصّة، وروي
أن النبي ﷺ قرأ هذه الآية
فصعق. والعامل في قوله تعالى:
﴿يَوْمَ﴾ الفعل الذي تضمنه قوله
سبحانه: ﴿إِنَّ لَدَيْنَا﴾، وهو
استقرار أو ثبوت. و«الرجفان»:
الاهتزاز والاضطراب من فزع
وهول، و«المهيل»: اللين الرخو
الذي يذهب بالريح ويحيى، ففي
تهيله، والأصل مَهْيُول، استثقلت
الضمة على الياء فسكنت، واجتمع
ساكنان فحذفت الواو، وكسرت
الهاء بسبب الياء.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا﴾
الآية... خطاب للعالم لكن
المواجهون قريش، وقوله تعالى:
﴿شَهِدًا عَلَيْكُمْ﴾ نحو قوله عز
وجل: ﴿وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءِ
شَهِيدًا﴾، وتمثيله لهم أمرهم
بفرعون وعيد، كأنه تعالى يقول:
فحالهم من العذاب والعقاب إن
كفروا سائرة إلى مثل حال
فرعون. وقوله تعالى: ﴿فَمَعَنَ
فِرْعَوْنُ أَلَّا يَمُوتَ﴾ يريد تعالى موسى

وسُلْطانه، والضمير في قوله تعالى: ﴿وَعَدَهُ﴾ ظاهر أنه الله تعالى، ويحتمل أن يكون لليوم لأنه يضاف إليه من حيث هو فيه.

١٩ - ٢٠ تفسير قوله عز وجل:

الإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ يحتمل أن تكون لما ذكر من الأتكال والجحيم والأخذ الوبيل ونحوه، ويحتمل أن تكون إلى السورة بأجمعها، ويحتمل أن تكون إلى القرآن بمعنى أن الأقوال المنصوبة فيه تذكرة، والتذكرة مصدر كالذكر، وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾ الآية ليس معناه إباحة الأمر وضده، بل يتضمن معنى الوعيد والوعد، و«السبيل» هنا سبيل الخير والطاعة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ﴾ الآية، نزلت تخفيفاً لما كان استمر استعماله من أمر قيام الليل إما على الوجوب أو على الندب حسب الخلاف الذي ذكرناه، ومعنى الآية: إن الله يعلم أنك تقوم أنت وغيرك من أمتك قياماً مختلفاً، مرةً يكثُر ومرةً يقل، ومرةً أدنى من الثلثين ومرةً أدنى من الثلث، وذلك لعدم تحصيل البشر لمقادير الزمان مع عذر النوم، وتقدير الزمان حقيقة إنما هو لله تعالى، وأما البشر فلا يحصي ذلك، فتاب الله عليهم، أي: رجع بهم من الثقل إلى الخفة، وأمرهم بقراءة ما تيسر منه، ونحو هذا تعطي عبارة القراء ومنذر، فإنهما قالا: ﴿مُحْضَوْهُ﴾: تحفظوه، وهذا التأويل هو على قراءة من قرأ: ﴿وَيُضْفِيهِ وَتَلْوِيهِ﴾ بالخفض عطفاً على «الثلاثين»، وهي قراءة أبي عمرو، ونافع، وابن عامر، وأما من قرأ:

من شدة الهول، كما يرى الشيب في الدنيا من الهَمِّ المفرط كهول البحر ونحوه، وقال آخرون من المتأولين: هو تجوز وإبلاغ في وصف هول ذلك اليوم، وواحد الولدان: وليد، وواحد الشيب أشيب.

قوله تعالى: ﴿السَّمَاءُ مُنْقَطِرَةٌ بِدِيكَ﴾، قيل: هذا على النسب، أي: ذات انفطار، كامرأة حائض وطالق، وقيل: السماء تُذَكَّر وتؤنث، وينشد في التذكير:

قَلَوُ زَفَعِ السَّمَاءِ إِلَيْهِ قَوْمًا
لَجِحْنَا بِالسَّمَاءِ مَعَ السَّحَابِ
وقيل: من حيث لم يكن تأنيثها حقيقةً جاز أن تسقط علامة التأنيث لها، وقيل: لم يُرَدُّ باللفظة قصد السماء بعينها، وإنما أراد ما علا من مخلوقات الله تعالى، كأنه قصد قَصْدَ السَّقْفِ فذكر على هذا المعنى، قاله منذر بن سعيد، وأبو عبيدة مَعْمَر، والكسائي، و«الانْفِطَارُ»: التصدُّع والانشقاق على غير نظام يُقصد، والضمير في ﴿بِدِيكَ﴾ قال مُنْذِرٌ وغيره: هو عائد على اليوم، وقال مجاهد: هو عائد على الله تعالى، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَقُ السَّمَاءُ بِالنَّوْمِ﴾ أي: بالغمم الذي هو ظَلُّلٌ يأتي الله تعالى فيها، والمعنى: يأتي أمره وقدرته، وكذلك مُنْقَطِرَةٌ بِدِيكَ﴾ أي: بأمره

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَأْتِيهَا الْمَلَأَتْهُنَّ ﴿١﴾ فَرَأَيْنَهُ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ كَذِبًا ﴿٣﴾ تَوْبًا لَكَ فَطَفَّرَ ﴿٤﴾
وَالرُّجْرُ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمَنَّيَنَّ سَنَتَكَ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾
فَإِذَا تَفَرَّقَ السَّاعُونَ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمٌ غَيْرٌ عَسِيرٍ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ
غَيْرِيسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرَفِي وَمَنْ حَلَقَتْ وَجِدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلَتْ لَهُ مَا لَا
مَعْدُودًا ﴿١٢﴾ وَيَبِينُ شَهُودًا ﴿١٣﴾ وَمَهَّدَتْ لَهُ نَهْجِيْدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ
أَنْ أَرْبِدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عِيدًا ﴿١٦﴾ سَاءَ رُفُوقَهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾

سُورَةُ الْمَزْمَلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

٥٧٥

عليه السلام، والألف واللام للعهد، و«الوبيل»: الشديد الرديء الغمقي، يقال: كلاً وبيل ومستربل إذا كان ضاراً لمن يرهاه.

وقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ﴾ معناه: كيف تجعلون واقياً لأنفسكم، و﴿يَوْمًا﴾ مفعول بـ ﴿تَتَّقُونَ﴾، وقيل: هو مفعول بـ ﴿كَفَرْتُمْ﴾ على أن تجعله بمنزلة «جحدتم»، فـ ﴿تَتَّقُونَ﴾ - على هذا - من التقوى، أي: تَتَّقُونَ عقاب الله، ويجوز أن يكون ﴿يَوْمًا﴾ ظرفاً، والمعنى: تَتَّقُونَ عقاب الله يوماً، و﴿بِجَعَلٍ﴾ يصح أن يكون مُسْتَدًّا إلى اسم الله تعالى، ويصح أن يكون مستنداً إلى اليوم، وقوله تعالى: ﴿الْوَالِدَانَ﴾ يريد به صغار الأطفال، وقال قوم: هذه حقيقة، فتشيب رؤوسهم

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وعهدت أبي رحمه الله تعالى يستغفر إثر كل مكتوبة ثلاثاً بعقب السلام وَيَأْتِي فِي ذَلِكَ حَدِيثًا، فَكَأَنَّ هَذَا الاستغفار من النقص وتقلب الفكر أثناء الصلاة، وكان السلف الصالح يصلون إلى طلوع الفجر ثم يجلسون للاستغفار إلى صلاة الصبح.

كامل تفسير سورة المزمّل والحمد لله ربّ العالمين

تفسير سورة المدثر

هي مكية بإجماع من أهل التأويل. (١) - (١٢) تفسير قوله عزّ وجلّ: اختلقت القراءة في «الْمُدَّثِّرِ» على نحو ما ذكرناه في «الْمُرْسَلِ»، وفي حرف أبيّ بن كعب: «الْمُدَّثِّرُ» ومعناه: المُتَدَثِّرُ بثيابه، والدُّثَارُ: ما يغطّي الإنسان به من الثياب.

واختلف الناس، لم ناداه بالمدثر؟ فقال جمهور المفسرين بما ورد في البخاري من أنه ﷺ لَمَّا فرغ من رؤية جبريل عليه السلام على كرسيّ بين السماء والأرض فرُعب منه ورجع إلى خديجة، قال: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي»، فنزلت «يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ» ، وقالت عائشة، والتَّحَعِّي، وقناة: نُودِي وهو في حال تدثّر فدعي بحال من أحواله، وروي أنه كان تدثّر في قطيفة، وقال آخرون: معناه: يأبؤها النائم، وقال عكرمة: معناه: يأبؤها المدثر للنبوة، وأثقالها.

و «الضَّرْبُ فِي الْأَرْضِ» هو السفر للتجارة، وضرب الأرض هو المشي للثَبْرُز والغائط، فذكر الله تعالى أعذار بني آدم التي هي حائلة بينهم وبين قيام الليل، وهي المرض والسفر في تجارة أو غزو، فخفف عنهم القيام لهذا، وفي هذه الآية فضيلة الضرب في الأرض للتجارة وسوق لها مع سفر الجهاد، وقال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أحبّ الموت إليّ بعد القتل في سبيل الله أن أموت بين شعبي رَحْلي أضرب في الأرض أبتغي من فضل الله.

ثم كرر الله تعالى الأمر بقراءة ما تيسر منه تأكيداً، والصلاة والزكاة هنا المفروضتان، فمن قال إن القيام بالليل غير واجب قال: معنى الآية: خذوا من هذا الثقل ما تيسر وحافظوا على فرائضكم، ومن قال إن شيئاً من القيام واجب قال: قد قرّنه الله تعالى بالفرائض لأنه فرض.

وإقراض الله تعالى هو استلاف العمل الصالح عنده، وقرأ جمهور الناس: «هُوَ خَيْرٌ» على أن يكون «هُوَ» فضلاً، وقرأ محمد بن السميع، وأبو السّمال: «هُوَ خَيْرٌ» على أن يكون «هُوَ» ابتداءً و«خَيْرٌ» خبره والجملة تُسَدُّ مَسَدَ المفعول الثاني لـ «جِئِدُوهُ».

ثم أمر الله تعالى بالاستغفار، وأوجب لنفسه صفة الغفران، لا إله غيره، قال بعض العلماء: فالاستغفار بعد الصلاة مستتب من هذه الآية ومن قوله تعالى: «كَادُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجُونَ» وَيَأْتِيهِمْ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِمْ سَمَةٌ. ﴿١٠﴾

«وَصَفَّهُ وَتَلَّه» بالنصب عطفًا على «أَذْفَ» - وهي قراءة باقي السبعة - فالمعنى عنده آخر، وذلك أن الله تعالى قد قدر أنهم يُقدِّرون الزمان على نحو ما أمر به في قوله سبحانه: «يَضْمَهُ أَوْ أَنْصَرَ مِنْهُ قَلِيلًا» أَوْ رَدَّ عَلَيْهِ، فلم يبق إلا أن يكون قوله تعالى: «غَيْرَ أَنْ لَنْ نُخْضِرَهُ» [بمعنى]: لَنْ نُطَيِّقُوا قيامه لكثرة وشدته، فخفف الله تعالى عنهم فضلاً منه لا ليعلة جهلهم بالتقدير وإحصاء الأوقات، ونحو هذا تغطي عبارة الحسن وابن جبير، فإنهما قالا: «نُخْضِرُهُ»: نُطَيِّقُوهُ، وقرأ جمهور القراء والناس: «وَتَلَّه» بضم اللام، وقرأ ابن كثير في رواية شبل عنه: «وَتَلَّه» بسكون اللام.

وقوله تعالى: «فَأَقْرَهُوْا مَا يَتَسَّرُ مِنَ الْقُرْآنِ» إباحة، هذا قول الجمهور، وقال ابن جبير وجماعة: هو فرض لا بُدَّ منه ولو خمسين آية، وقال الحسن وابن سيرين: قيام الليل فرض، ولو قدر حلب شاة، إلا أن الحسن قال: من قرأ مائة آية لم يحاجّه القرآن، واستحسن هذا جماعة من العلماء، قال بعضهم: والركعتان بعد العتمة مع الوتر تدخلان في حكم هذا الأمر وامثاله، ومن زاد زاده الله تعالى ثواباً.

و «أَنْ» في قوله تعالى: «عَلِمَ أَنْ» مخففة من الثقيلة، والتقدير أنه يكون، فجاءت السين عوضاً من المحذوف، وكذلك جاءت في قول أبي مخنف:

وَلَا تَدْفِنْتَنِي بِالْقَلَاةِ فَلَإِنِّي أَخَافُ إِذَا مَا مِتُّ أَنْ لَا أَدْفِنَهَا

واختلف الناس في أول ما نزل من كتاب الله تعالى، فقال جابر بن عبدالله، وأبو سلمة، والثَّخَعِي، وجماعة: هو ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ الآيات، وقال الزهري والجمهور: هو ﴿أَفْرَأَ يَأْسِرُ رَبِّكَ الَّذِي عَلَّقَ﴾، وهذا هو الأصح، وحديث صدر البخاري نص في ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَرَأَى النَّذِيرَ﴾ يَغْثَةُ إلى جميع الخلق، قال قتادة: المعنى: أنذر عذاب الله ووقائعه بالألم، وقوله تعالى: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبَّرَ﴾ معناه: عَظَّمَهُ بِالْعِبَادَةِ وَبَثَّ شَرْعَهُ، وَرَوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ بَعْضَ الْمُؤْمِنِينَ قَالَ: بِمَ نَفْتَحُ صَلَاتِنَا؟ فَتَلَتْ: ﴿وَرَبِّكَ فَكَبَّرَ﴾.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿وَيَا بَكَ فَطَفَّرَ﴾ - قال ابن سيرين، وابن زيد بن أسلم، والشافعي، وجماعة: هو أمرٌ بتطهير الثياب حقيقة، وذهب الشافعي وغيره من هذه الآية إلى وجوب غسل النجاسات من الثياب، وقال الجمهور: هذه الألفاظ استعارة في تنقية الأفعال والنفس والعرض، وهذا كما تقول: فلان طاهر الثوب، ويقال للفاجر: دنس الثوب، منه قول الشاعر:

وَإِنِّي بِحَمْدِ اللَّهِ لَا تُؤَبِّبُ فَاجِرٍ
لَيْسَتْ وَلَا مِنْ عَذْرَةَ أَتَقَسُّعُ
وقال الآخر:

لَأَهْمُ إِنْ عَامِرَ بْنَ جَهْمٍ
أَوْ ذَمَّ حَجًّا فِي ثِيَابِ دُسْمٍ
أي: دَنَسَةٍ، وقال ابن عباس، والضحاك، وغيرهما: المعنى: ولا تلبسها على غدر ولا فجور، وقال

ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: المعنى: لا تلبسها من مكسب خبيث، وقال الثَّخَعِي: المعنى: طَهَّرَهَا مِنَ الذَّنُوبِ، وَهَذَا كُلُّهُ مَعْنَى قَرِيبٌ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ، وَقَالَ طَاوُسُ: الْمَعْنَى: قَصَّرَهَا وَشَمَّرَهَا فَذَلِكَ طَهْرَةٌ لِلثِّيَابِ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَالرُّجُزَ فَاهْجُزَ﴾ بكسر الراء، وقرأ حفص عن عاصم، والحسن، ومجاهد، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو عبدالرحمن والثَّخَعِي، وابن وثاب، وقاتدة، وابن أبي إسحق، والأعرج: ﴿وَالرُّجُزَ فَاهْجُزَ﴾ بضم الراء، فقيل: هما بمعنى واحد يراد بهما الأصنام والأوثان، وقيل: للأصنام عموماً، قاله عكرمة، ومجاهد، والزهري، وقال ابن عباس: الرُّجُزُ: السُّخْطُ، فَالْمَعْنَى: أَهْجَرَ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ وَيُوجِبُهُ، وَقَالَ الْحَسَنُ: كُلُّ مَعْصِيَةٍ رَجُزٌ، وَرَوَى جَابِرٌ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ فَسَّرَ هَذِهِ الْآيَةَ بِالْأَوْثَانِ.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُنَّ بِتَنَكُّرِكُمْ﴾ - فقال ابن عباس وجماعة: معناه: لا تُعْطِي عَطَاءً لِنُعْطَى أَكْثَرَ مِنْهُ، فَكَأَنَّهُ مِنْ قَوْلِهِمْ: «مَنْ إِذَا أُعْطِيَ»، وَقَالَ الضَّحَّاكُ: وَهَذَا خَاصٌّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَمَبَاحٌ لِأُمَّتِهِ لَكِنْ لَا أَجْرَ لَهُمْ فِيهِ، قَالَ مَكِّيٌّ: وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْنَاهُ مِنْ رَبِّكَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذا معنى أجنبي من معنى هذه السورة.

وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿وَلَا تَمُنَّ بِتَنَكُّرِكُمْ﴾ لا تقل: دعوت فلم أجب، ورؤي عن قتادة أن المعنى: لا تُدِيلُ بِعَمَلِكَ، فِيهِ هَذَا التَّأْوِيلُ تَحْرِيزٌ عَلَى الْجِدِّ وَتَخْوِيفٌ، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ: وَلَا تَمُنَّ عَلَى النَّاسِ بِتَبَيُّوتِكَ تَسْتَكْبِرُ بِأَجْرٍ أَوْ كَسْبِ الْحَسَنِ مِنْهُمْ، وَقَالَ الْحَسَنُ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى بِجِدِّكَ تَسْتَكْبِرُ أَعْمَالِكَ وَيَقَعُ لَكَ بِهَا إِعْجَابٌ، فَهَذِهِ كُلُّهَا مِنَ الْعَمَلِ الَّذِي هُوَ تَعْدِيدُ الْيَدِ وَذِكْرُهَا، وَقَالَ مُجَاهِدٌ: مَعْنَاهُ: وَلَا تَضَعُفُ تَسْتَكْبِرُ مَا حَمَلْنَاكَ مِنْ أَعْيَابِ الرِّسَالَةِ أَوْ تَسْتَكْبِرُ مِنَ الْخَيْرِ، فَهَذَا مِنْ قَوْلِهِمْ: «حَبْلٌ مَنِينٌ» أَي: ضَعِيفٌ. وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿وَلَا تَمُنَّ أَنْ تَسْتَكْبِرَ﴾، وَقَرَأَ الْأَعْمَشُ: ﴿تَسْتَكْبِرُ﴾ بِنَسْبِ الرَّاءِ عَلَى تَقْدِيرِ «أَنْ» مُضْمَرَةٌ، وَضَعَّفَ أَبُو حَاتِمٍ الْجَزْمَ، وَقَرَأَ ابْنُ أَبِي عِبِلَةَ: ﴿وَلَا تَمُنَّ فَتَسْتَكْبِرَ﴾ بِالْفَاءِ الْعَاطِفَةِ وَالْجَزْمَ، وَقَرَأَ أَبُو السَّمَّالِ: ﴿وَلَا تَمُنَّ﴾ بِنُونٍ وَاحِدَةٍ مُشَدَّدَةٍ.

﴿وَرَبِّكَ فَاسْتَكْبَرَ﴾، أَي: لَوَجْهِ رِبِكِ وَطَلَبِ رِضَاهِ، كَمَا تَقُولُ: فَعَلْتُ كَذَا لِلَّهِ تَعَالَى، وَالْمَعْنَى: عَلَى الْأَدَى مِنَ الْكُفَّارِ، وَعَلَى الْعِبَادَةِ، وَعَنِ الشَّهَوَاتِ، وَعَلَى تَكَالِيفِ النَّبِيَّةِ، قَالَ ابْنُ زَيْدٍ: وَعَلَى حَرْبِ الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ، لَقَدْ حَمَلَ ﷺ أَمْرًا عَظِيمًا.

و «التَّاقور»: الذي ينفخ فيه، وهو الصور، قاله ابن عباس وعكرمة، وقال خفاف بن نذبة:

سحر يُؤثر، هو قول البشر، أي: ليس مُتَزَلًّا من عند الله تعالى، قال أكثر المفسرين: فقوله تعالى: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ ثُمَّ قِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿دَعَاءٌ عَلَيْهِ وَتَفْصِيحٌ لِحَالِهِ، أَي: أَنَّهُ مِمَّنْ يَسْتَحِقُّ ذَلِكَ. وَرُويَ عَنِ الزَّهْرِيِّ وَجَمَاعَةٍ غَيْرِهِ أَنَّ الْوَلِيدَ حَاجًّا أَبَا جَهْلٍ وَجَمَاعَةً مِنْ قُرَيْشٍ فِي أَمْرِ الْقُرْآنِ، وَقَالَ: إِنَّ لَهُ وَاللَّهِ لِحَلَاوَةَ، وَإِنْ أَصْلُهُ لَعَدِيقٌ، وَإِنَّ فِرْعَانَ لَجَبَّاتًا، وَإِنَّهُ لِيَحْكُمُ مَا تَحْتَهُ، وَإِنَّهُ لَيَعْلُو مِنَ الْكَلَامِ، فَخَالَفُوهُ فَقَالُوا لَهُ: هُوَ شِعْرٌ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا هُوَ بِشِعْرٍ، وَلَقَدْ عَرَفْنَا الشُّعْرَ هَزَجًا وَبَسِيطَةً، قَالُوا: فَهُوَ كَاهِنٌ، فَقَالَ: وَاللَّهِ مَا هُوَ بِكَاهِنٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْكُهَانَ وَزَمَرْتَهُمْ، قَالُوا: فَهُوَ مَجْنُونٌ، قَالَ: وَاللَّهِ مَا هُوَ بِمَجْنُونٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ الْجِنُونَ وَخَنَقَهُ، قَالُوا: هُوَ سِخْرٌ، قَالَ: أَمَّا هَذَا فَيَشْبَهُ أَنَّهُ سِخْرٌ، وَيَقُولُ أَقْوَالُ نَفْسِهِ.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فيحتمل قوله تعالى: ﴿فَقِيلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أن يكون دعاء عليه على معنى تقبيح حاله، ويحتمل أن يكون دعاء مقتضاه استحسان منزعه الأول في مدحه القرآن، وفي نفيه الشعر والكهانة والجنون عنه، فيجري هذا مجرى قول النبي ﷺ لأبي جندل بن سهيل: ﴿وَقِيلَ أَمِّهِ مِسْمَرٌ حَرْبٌ﴾، ومجرى قول عبد الملك بن مروان: قاتل الله كثيراً، كأنه رآنا حين قال كذا، وهذا معنى مشهور في كلام العرب.

ثم وصف تعالى إذباره واستكباره وأنه ضلَّ عند ذلك وكفر، وإذا قلنا إن ذلك دعاء على مُسْتَحْسَنٍ فعله

فيجيء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ﴿فِيْمَا احْتَجَّ بِهِ لِلْقُرْآنِ فَرَأَى مَا فِيهِ مِنْ عُلُوِّ مَرْتَبَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَعَسَى لَذَلِكَ وَيَسَّرَ، أَي: قَطَّبَ وَقَبَضَ مَا بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَازْبَدَ وَجْهَهُ حَسَدًا لَهُ، فَأَذْبَرَ، أَي: ازْتَكَسَ فِي ضَلَالِهِ، وَزَالَ إِقْبَالُهُ أَوْ لَا لِيَهْتَدِيَ وَلَجَقَّتْهُ الْكِبْرِيَاءُ، وَقَالَ: هَذَا سِخْرٌ يُؤَثِّرُ، وَمَعْنَاهُ: يُزَوِي وَيُخَمِّلُ، أَي: يَحْمِلُهُ مُحَمَّدٌ عَنْ غَيْرِهِ، وَعَلَى التَّأْوِيلِ الْأَوَّلِ أَنَّ الدَّعَاءَ عَلَيْهِ دَعَاءٌ عَلَى مُسْتَفْصِحٍ فَعَلَهُ يَجِيءُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ ﴿مَعْنَى مَعَادًا بَعِيْنِهِ؛ لِأَنَّ ﴿فَكَرَّرَ وَكَرَّرَ﴾ يَقْتَضِيهِ، لَكِنَّهُ إِخْبَارٌ بِتَرْيِدِهِ النَّظْرَ فِي الْأَمْرِ، وَقَدْ رُويَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دَعَا الْوَلِيدَ، فَقَالَ لَهُ: أَنْظُرْ وَأَفْكُرْ، فَلَمَّا فَكَّرَ قَالَ مَا تَقْدِمُ.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿سَقَرٌ﴾ هو الدرك السادس من جهنم على ما روي، و«أضليه» معناه: أجعله فيها مباشراً لنارها، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ﴾ هو على معنى التعجب من عظم أمرها وعذابها، ثم بيّن تعالى ذلك بقوله: ﴿لَا يَبْقَى وَلَا تَذَرُ﴾، والمعنى: لا تَبْقَى عَلَى مَنْ أَلْقَى فِيهَا وَلَا تَذَرُ غَايَةَ مِنَ الْعَذَابِ إِلَّا أَوْصَلَتْ إِلَيْهَا.

قوله تعالى: ﴿لَوَاقِعٌ بَسْرٌ﴾، قال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وأبو رزين، وجمهور الناس: معناه: مُغَيَّرَةٌ لِلْبَشَرَاتِ، مُحْرَقَةٌ لِلْجُلُودِ، مُسَوْدَةٌ لَهَا، وَ«الْبَسْرُ» جَمْعُ بَشْرَةٍ، وَقَوْلُ الْعَرَبِ: لَاحَتْ النَّارُ الشَّيْءَ إِذَا أَحْرَقَتْهُ وَسَوَّدَتْهُ، وَقَالَ الشَّاعِرُ:

لَا حُةَ الصَّيْفِ وَالْغِيَارِ وَإِشْفَا قِي عَلَى سَقْبَةِ كَقَرَسِ الضَّالِّ

وأشد أبو عبيدة:

يَا بِنْتَهُ عَمِّي لِأَحْنِي الْهَوَاجِرُ
وقال الحسن، وابن كيسان: ﴿لَوَاقِعٌ﴾ بناء مبالغة من «لَاخ يَلُوح» إذا ظهر، فالمعنى أنها تظهر للناس وهم البشر من مسيرة خمسمائة عام، وذلك لعظمتها وهولها وزفيرها، وقرأ عطية العوفي: ﴿لَوَاقِعَةٌ﴾ بالنصب.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهَا يَتَمَتَّعُونَ﴾ ابتداء وخبره مقدم في المجرور، ولا خلاف بين العلماء أنهم خزنة جهنم المحيطون بأمرها، الذين إليهم جماع أمر زبانياتها، وقد قال بعض الناس: إنهم على عدد حروف «يسم الله الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ» لأن بها تقووا، وروي أن قريشاً لما سمعت هذا كثر إغناطهم فيه وقالوا: لو كان هذا حقاً فإن العدد قليل، فقال أبو جهل: هؤلاء تسعة عشر وأنتم الدهم، أفيعجز عشرة منا عن رجل منهم؟ وقال أبو الأشد بن الجمحي: أنا أجهدهم عن النار، إلى غير هذا من أقوالهم السخيفة، فنزلت في أبي جهل: ﴿أَوَّلَ لَكَ فَأَوَّلَهُ﴾ الآية. وقرأ أبو جعفر بن القعقاع، وطلحة بن سليمان: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ بسكون العين من «عَشَرَ» لتوالي الحركات، وقرأ أنس بن مالك، وأبو حيوة: ﴿تِسْعَةَ عَشَرَ﴾ برفع التاء، وروي عن أنس بن مالك أنه قرأ: ﴿تِسْعَةَ أَعْشَرَ﴾ وضعفاً أبو حاتم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا أَحْسَبَ أَكْثَرٍ إِلَّا مَلَائِكَةً﴾ تبيين لفساد أقوال قريش، أي: إنا جعلناهم خلقاً لا يقبل لأحد من الناس بهم، وجعلنا عدتهم هذا القدر فتنة للكفار، ليقع

منهم من التعاطي والطمع في المغالبة ما وقع، ويستيقن أهل الكتاب - التوراة والإنجيل - أن هذا القرآن من عند الله تعالى؛ إذ يجدون هذه العدة في كتبهم المنزلة التي لم يقرأها محمد ﷺ ولا هو من أهلها، ولكن كتابه يصدق ما بين يديه من كتب الأنبياء صلى الله عليه وعليهم وسلم؛ إذ جميع تلك حق يتعاضد، مُنزَل من عند الله تعالى، قال هذا المعنى ابن عباس، ومجاهد، وغيرهما، وبورود الحقائق من عند الله عز وجل يزداد كل من آمن إيماناً، ويزول الريب عن المصدقين من أهل الكتاب ومن المؤمنين.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيَقُولَنَّ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَسٌ﴾ الآية... نوع من الفتنة لهذا الصنف المنافق أو الكافر، أي: جاروا وضلوا ولم يهتدوا لمقصد الحق، فجعلوا يستفهم بعضهم بعضاً عن مراد الله تعالى بهذا المثل استبعاداً أن يكون هذا من عند الله تعالى، قال الحسن بن الفضل: السورة مكيّة ولم يكن بمكة نفاق، وإنما المرض في هذه الآية الاضطراب وضعف الإيمان.

٣٦ - ٣٧ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ﴾، أي: بهذه الصفة وهذا الرزين على القلوب يضل، ثم أخبر تعالى أنه يهدي من يشاء من المسلمين المؤمنين لما ورد، وذلك لعلمهم بالقدرة، ووقوف عقولهم على كنه سلطان الله تعالى، فهم موقنون متصورون صحة ما أخبرت به الأنبياء عليهم السلام وكتب الله تعالى.

ثم قال تعالى: ﴿وَمَا يَكْفُرُ جُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ إعلاماً بأن الأمر كله لله سبحانه، وأنه فوق ما يتوهم، وأن الخبر إنما هو عن بعض القدرة لا عن كلها، والسماة عامرة بأنواع من الملائكة، كلهم في عبادة متصلة، وخشوع دائم وطاعة، لا فترة في شيء من ذلك ولا دقيقة واحدة.

قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾، قال مجاهد: الضمير في قوله تعالى: ﴿ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ﴾ للنار المذكورة، أي: يُذَكَّرُ بها البشر فيخافونها فيطيعون الله تعالى، وقال بعض الحدائق: قوله تعالى: ﴿وَمَا هِيَ﴾ يراد بها الحال والمخاطبة والتذارة، قال الثعلبي: وقيل: ﴿وَمَا هِيَ﴾ يراد ناز الدنيا، أي: إن هذه تذكرة للبشر بنار الآخرة.

وقوله تعالى وجل: ﴿كَلَّا﴾ رد على الكافرين وأنواع الطاعنين على الحق، ثم أقسم تعالى بالقمر، تخصيص تشريف وتنبية على النظر في عجائبه، وقدرة الله تعالى في حركاته المختلفة التي هي مع كثرتها واختلافها على نظام واحد لا يختل، وكذلك هو القسم بالليل والصبح، فيعود التعظيم في آخر الفكرة وتحصيل المعرفة إلى الله تعالى، مالك الكل، وقوام الوجود، وثور السموات والأرض، لا إله إلا هو العزيز الغفار.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿إِذَا دَبَّرَ﴾ بفتح الدال والباء، وهي قراءة ابن عباس، وابن الزبير، وابن المسيب، ومجاهد، وعطاء، ويحيى بن يعمر، وأبي جعفر،

وشيبة، وأبي الزناد، وقاتدة وعمر بن عبدالعزيز، والحسن، وطلحة. وقرأ نافع، وحزمة، وحفص عن عاصم: ﴿إِذَا دَبَّرَ﴾ بتسكين الدال وفعل رباعي، وهي قراءة سعيد بن جبير، وأبي عبدالرحمن، والحسن - بخلاف عنهم - والأعرج، وأبي شيخ، وابن محيصن، وابن سيرين. قال يونس بن حبيب: «دَبَّرَ» معناه: انقضى، و«أَدَبَرَ» معناه: تولّى، وفي مصحف ابن مسعود، وأبي بن كعب: ﴿إِذَا أَدَبَرَ﴾ بالألف في «أَدَبَرَ» والفعل رباعي، وهي قراءة الحسن، وأبي رزّين، وأبي رجاء، ويحيى بن يعمر، وسأل مجاهد ابن عباس رضي الله عنهما عن «دَبَّرَ اللَّيْلُ»، فتركه حتى إذا سمع المنادي الأول للصبح قال له: يا مجاهد هذا حين دَبَّرَ الليل، وقال قاتدة: «دَبَّرَ اللَّيْلُ»: ولّى، وقال الشاعر:

وَأَبِي الَّذِي تَرَكَ الْمُلُوكَ وَجَمَعَهُمْ
بِهَضَامِ هَامِدَةَ كَأَمْسِ الدَّابِرِ
العرب تقول في كلامها: «كَأَمْسِ المُدْبِرِ»: قال أبو علي: فالقراءتان جميعاً حستان.

وأشفر الصبح: أضاء وانتشر ضوءه قبل طلوع الشمس بكثير، والإشفاؤ رُتِبَ: أوّل ووسط وآخر، ومن هذه اللفظة السُّفَرُ والسُّفْرُ والسُّفِيرُ، وسفرت المرأة عن وجهها، وكلها ترجع إلى معنى الظهور والانجلاء، وقرأ عيسى بن الفضل، وابن السميع: ﴿إِذَا سَفَرُ﴾، فكأن المعنى: طرح الظلمة عن وجهه، وضعفها أبو حاتم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا كُنَّ لَيْلَى الْكَافِرِ﴾، قال قاتدة، وأبو رزّين، وغيرهما الضمير لجهنم، ويحتمل أن

هذه الرتبة لغفلته وسوء نظره.

ثم قوى تعالى هذا المعنى بقوله سبحانه: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾؛ إذ لزم بهذا القول أن المقصّر مرتهن بسوء عمله، وقال الضحاك: المعنى: كل نفس حقت عليها كلمة العذاب، ولا يرتهن الله تعالى أحداً من أهل الجنة إن شاء الله تعالى. والهاء في ﴿رَهِينَةٌ﴾ للمبالغة، أو على تأنيث اللفظ لا على معنى الإنسان.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ﴾ استثناء ظاهر الانفصال، وتقديره: لكن أصحاب اليمين؛ وذلك لأنهم لم يكتسبوا ما هم به مرتهنون، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أصحاب اليمين في هذه الآية أطفال المسلمین، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة عليهم السلام، وقال الضحاك: هم الذين سبقت لهم من الله الحسنی، وقال الحسن، وابن كيسان: هم المسلمون المخلصون، ليسوا بمُرتَهَنين. ثم ذكر تعالى حال أصحاب اليمين، وأنهم في جنات يسأل بعضهم بعضاً عمن غاب من معارفهم، فإذا علموا أنهم مجرمون في النار قالوا لهم - أو قالت الملائكة -: ﴿هَذَا سَلَكَ فِي سَعْرٍ﴾، و«سَلَكَ» معناه: أدخل، ومنه قول أبي وجزة السعدي:

حَتَّى سَلَكَنَ الشَّوَى وَنَهْنُ فِي مَسَكٍ
مَنْ نَسَلِ جَوَابَةَ الْآفَاقِ يَهْدِجُ
(٤٢) - (٥٦) تفسير قوله عز وجل:

هذا هو اعتراف الكفار على أنفسهم، وفي نفی الصلاة يدخل

الحسن بن أبي الحسن لا نذير أدهى من النار، فهذا القول يقتضي أن ﴿نَذِيرًا﴾ حال من الضمير في ﴿إِنَّمَا﴾، أو من قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا﴾، وكذلك أيضاً على

الاحتمال في أن تكون ﴿إِنَّمَا﴾ يراد بها قصة الآخرة وحال المعاد. وقال أبو زرين: الله جل ذكره هو النذير، فهذا القول يقتضي أن ﴿نَذِيرًا﴾ مفعول لفعل تقديره: اعبدوا نذيراً للبشر، أو ادعوا نذيراً للبشر، وقال ابن زيد: النذير محمد ﷺ، فهذا

القول يقتضي أن ﴿نَذِيرًا﴾ معمول لفعل تقديره، نادٍ نذيراً، أو بلغ نذيراً، ونحو هذا، ويحتمل أن يكون ﴿نَذِيرًا﴾ مصدرًا مثل قوله تعالى: ﴿كَذَبَتْ كَأَن تَكْبِيرٍ﴾؟ وهو اختيار الخليل في هذه الآية، ذكره الشعلي، قال: ولذلك يوصف به المؤنث. وقرأ ابن أبي عمير: ﴿نَذِيرٌ﴾ بالرفع على إضمار «هو».

قوله تعالى: ﴿لَمَن كَانَ يَنذُرُ أَن يَدَعُكُمْ أَوْ يَنْتَهَرُ﴾، قال الحسن: هو وعيد نحو قوله تعالى: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِرْ وَمَن شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ مِنكُمُ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْبِرِينَ﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: هو بيان في النذارة، وإعلام بأن كل أحد يسلك طريق الهدى والحق إذا حقق النظر، أو هو بعينه يتأخر عن

سورة المدثر

سورة المدثر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا أُقْسِمُ بِبُورِ الْبَيْتِ ۖ وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّارِ ۖ إِنَّهَا لَمَكِينَةٌ ۖ أَلْمَسَتْ ۖ الْإِنْسَانَ ۖ لَمَّ يَجْمَعُ عَظْمَهُ ۖ بَلْ نَذِيرٌ ۖ عَلَّمَ نَسْوَى بَابَهُ ۖ بَلْ يُرِيدُ ۖ بِهَذَا ۖ الْإِنْسَانَ ۖ لِيَفْجُرَ ۖ أَمَامَهُ ۖ يَسْتَعِزُّ ۖ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ۖ فَإِنَّا بِرَأْيِ الْبَصَرِ ۖ وَخَشَفِ الْقَمَرِ ۖ وَجَمِجَمِ الشَّمْسِ ۖ وَالْقَمَرِ ۖ يَقُولُ ۖ الْإِنْسَانُ ۖ يُؤْمِرُ ۖ بِوَيْدِ ۖ أَيْنَ الْقَرَارِ ۖ كَلَّا ۖ لَا وَدَّ ۖ إِنْ رَكَ بِوَيْدِ الْمُسْتَقْبِرِ ۖ يَتَّبِعُ ۖ الْإِنْسَانَ ۖ يَوْمَ يَأْتِ ۖ بِمَا قَدَّمَ ۖ وَخَرَّ ۖ بِلِ ۖ الْإِنْسَانِ ۖ عَلَى نَفْسِهِ ۖ بَصِيرَةً ۖ وَلَوْ أَنَّ ۖ الْعَالَمِينَ ۖ مَعَاذِرَهُ ۖ لَا تَحْرُكَ بِهِ ۖ لِسَانَكَ ۖ لِتَعَجَّلَ ۖ بِهِ ۖ وَإِن عَلَيْنَا ۖ جَمْعَهُ ۖ وَقَوْلَهُ ۖ أَنَّهُ ۖ فَإِنَّا ۖ أَفْرَأْنَهُ ۖ فَاتَّبِعْ ۖ قَوْلَهُ ۖ أَنَّهُ ۖ ثُمَّ ۖ إِن عَلَيْنَا ۖ بِيَابَهُ ۖ

٥٧٧

يكون الضمير للنذارة وأمر الآخرة، فهو للحال والقصة، وتكون هذه الآية مثل قوله عز وجل: ﴿مَثَلُ هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ ۖ أَنَّمَا عَنَتُ مَعْرُضُونَ﴾، و«الكبير» جمع كبيرة، وقرأ جمهور القراء: ﴿إِنَّمَا﴾ بهمزة في ألف «إخدي»، ورؤي عن ابن كثير أنه قرأ: ﴿لَاخْدِي﴾ دون همزة، وهي قراءة نصر بن عاصم، قال أبو علي: التخفيف في «إخدي الكبير» أن تجعل الهمزة فيها بين بين، فأما حذف الهمزة فليس بقياس، وقد جاء حذفها، قال أبو الأسود الدؤلي لزياد:

يَا أَبَا الْمُغْبِرَةِ رُبَّ أَمْرٍ مُّغْضَلٍ
فَرَجَّحْتُهُ بِالسُّكْرِ مِثِّي وَالِدَهَا
وَأُنشِد ثعلب:

إِنَّ لَمْ أَتَابِلْ فَالْبِسُونِي بِرُفْعَا
وَفَتَحَاتِ فِي الْيَدَيْنِ أَرْبَعَا
قوله تعالى: ﴿نَذِيرًا لِلْبَشَرِ﴾، قال

الإيمان بالله تعالى، والمعرفة به، والخشوع له والعبادة. والصلاة تنتظم مُعْظَمَ الدين وأوامر الله تعالى وواجبات العقائد. وإطعام المساكين ينتظم الصدقة فرضاً وطواعيةً وكل احتمال تندب إليه الشريعة بقول أو فعل. والخَوْضُ مع الخائضين عُرْفُهُ في الباطل، قال قتادة: المعنى: كُلُّمَا غَوَى غَاوٍ غَوَوْا معه، والتكذيبُ بيوم الدين كُفْرٌ صِرَاحٌ بالله تعالى.

و «اليقين» معناه عندي: صحة ما كانوا يكذبون به من الرجوع إلى الله تعالى والدار الآخرة، وقال المفسرون: «اليقين»: الموت، وذلك عندي - هنا - مُتَعَقَّبٌ؛ لأن نفس الموت يقين عند الكافر وهو حي، فإنما اليقين الذي عنوا في الآية فهو الشيء الذي كانوا يكذبون به وهم أحياء في الدنيا فتيقنوه بعد الموت، وإنما يُقَسَّرُ اليقين بالموت في قوله تعالى: ﴿وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾.

ثم أخبر تعالى أن شفاعة الشافعين لا تنفعهم، فتقرر من ذلك أن تَمُّ شافعين، وفي صحة هذا المعنى أحاديث، قال ﷺ: «تشفع الملائكة ثم النبيون ثم العلماء ثم الشهداء ثم الصالحون، فيُشْفَعُونَ، ثم يقول الله تعالى: شفَع عبادي وبقيت شفاعة أرحم الراحمين، فلا يبقى في النار من كان له إيمان». وروى الحسن أن الله يُدخل بشفاعة رجل من هذه الأمة إلى الجنة مثل ربيعة ومضر، وفي رواية أبي قلابة: أكثر من بني تميم. وقال الحسن: كنا نحدث أن

الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته.

ثم قال تعالى وجل: ﴿فَمَا لَمْ يَن آتِ الْتَّكْوِيْنُ مُرْسِيْنَ﴾، أي: والحال المنتظرة هي هذه الموصوفة؟ وقوله تعالى في صفة الكفار المعرضين في تَوَلَّوْا واجتهاد في نفور: ﴿كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ﴾، إثبات لجهالتهم، لأن الحُمْر من جاهل الحيوان جداً، وقرأ الأعمش: ﴿حُمْرٌ﴾ بإسكان الميم، وفي حرف ابن مسعود: ﴿حُمُرٌ نَافِرَةٌ﴾، وقرأ نافع، وابن عامر، والمفضل عن عاصم: ﴿مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ بفتح الفاء، وقرأ الباقون بكسر الفاء، واختلف عن نافع، وعن الحسن، والأعرج، ومجاهد، فأما فتح الفاء فمعناه: استنفرها فزَعَمَها من القَسُورَة، وأما كسر الفاء فعلى أن «نَفَرٌ» و«اسْتَنْفَرٌ» بمعنى واحد، بمنزلة «عَجِبٌ» و«اسْتَعْجَبٌ» و«سَجَرَ» و«اسْتَسْحَرَ»، فكأنها نفرت هي، ويُقَوَّى ذلك قوله تعالى: ﴿فَرَزَّتْ»، وبذلك رجح أبو علي قراءة الكسر.

واختلف المفسرون في معنى «القَسُورَة» - فقال ابن عباس، وأبو موسى الأشعري، وكتادة، وعكرمة: القَسُورَة: الرُماة، وقال ابن عباس أيضاً، وأبو هريرة، وجمهور من اللغويين: القَسُورَة: الأسد، وقال الشاعر:

مُضْمِرٌ تَحْذَرُهُ الْأَبْطَالُ
كَأَنَّهُ الْقَسُورَةُ الرَّبِيَابُ
وقال ابن جبير: القَسُورَة: رجال القنص، وقاله ابن عباس أيضاً، وقيل: القَسُورَة: رِكْزُ الناس، وقيل: القَسُورَة: الرجال الشداد، قال لبيد:

إِذَا مَا هَتَفْنَا هَتْفَةً فِي نَدِيْنَا
أَتَانَا الرُّجَالُ الْعَائِدُونَ الْقَسَاوِرُ
وقال ثعلب: القَسُورَة: سواد أول الليل خاصة لا آخره. واللفظة مأخوذة من القَسْر الذي هو الغلبة والقهر.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ أَنْ يُؤَيِّقَ صُحُفًا مُّثَنَّرَةً﴾، معناه: من هؤلاء المعرضين، أي: يريد كل إنسان منهم أن ينزل عليه كتاب من الله تعالى، وكان هذا من قول عبدالله بن أبي أمية وغيره، وروي أن بعضهم قال: إن كان يُكتب في صحفٍ ما يُعمل فلتعرض تلك الصحف علينا، فنزلت هذه الآية: ﴿مُثَنَّرَةً﴾ معناه: غير مطوية، منشورة، وقرأ سعيد بن جبيرة: ﴿صُحُفًا﴾ بسكون الحاء، وهي لغة تميمية، وقرأ: ﴿مُثَنَّرَةً﴾ بسكون النون وتخفيف الشين، وهذا على أن يشبه «نَشَرَ الثوب» ب «أَنشَرَ الله الميت»؛ إذ الطي كالصوت، وقد عكس التيمي التشبيه في قوله:

رَدَّتْ صَنَائِعُهُ عَلَيَّ حَيَاتَهُ
فَكَأَنَّهُ مِنْ نَشْرِهَا مَنَشُورُ
ولا يقال في الميت يخيا: مَنَشُورُ إلا على التشبيه بالثوب، وأما محفوظ اللغة فهو «نَشَرْتُ الصحيفة» و«أَنشَرَ الله الميت»، وقد جاء عنهم «نَشَرَ الله الميت».

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رد على إرادتهم، أي: ليس الأمر كذلك، ثم قال تعالى: ﴿بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾، المعنى: هذه العلة والسبب في إعراضهم، فكأن جهلهم بالآخرة سبب امتناعهم من الهدى

تفسير سورة القيامة

وهي مكية بإجماع من أهل التأويل، وروي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: من سأل عن القيامة أو أراد أن يعرف حقيقة وقوعها فليقرأ هذه السورة، وقال المغيرة بن شعبه: يقول الناس: القيامة القيامة، وإنما قيامه المرء موته، وروي أيضاً عن ابن جبير أنه حضر جنازة رجل فقال: أما هذا فقد قامت قيامته، وروي مثله عن علقمة، ذكره الثعلبي.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وقيامه الرجل في خاصته ليست بالقيامه الجامعة لجميع الخلق بعد البعث، لكن المغيرة بن شعبه رضي الله عنه كأنه قال هذا لمن يستبعد قيام الآخرة، ويظن طول الأمد بينه وبينها، فتوعدّه بقيامه نفسه.

﴿١٥﴾ - تفسير قوله عزّ وجلّ: ﴿لَا أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ وقرأ ابن كثير، والحسن - بخلاف عنه - والأعرج: ﴿لَأَقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ، ولَأَقْسِمُ﴾ فأما القراءة الأولى فاختلف في تأويلها - فقال ابن جبير: [لَا] استفتاح كلام بمنزلة «ألا»، وأنشدوا على ذلك:

فَلَا وَأَبِيكَ ابْنَةُ الْعَامِرِيِّ لَا
يَدْعِي الْقَوْمُ أَنْسِي أَفْسُرُ
وقال أبو علي: [لَا] صلة زائدة كما زيدت في قوله تعالى: ﴿لَيْلًا مَعَلَّكَ أَهْلَ الْكِنَانِ﴾، ويُعترض هذا بأنّ هذه في ابتداء كلام، ولا تُزاد «لا»

حتى هلكوا. وقرأ أبو حيوة: ﴿تَخَافُونَ﴾ بالتاء من فوق، وروي عن ابن عامر. ثم أعادَ تعالى الرّدّ والزجر بقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، وأخبر أن هذا القول والبيان وهذه المحاوره بجملتها تذكره، فمن شاء وفقه لذكر معاده، ثم أخبر أن ذكر الإنسان معاده، وجزّيته إلى فلاحه إنما هو كله بمشيئة الله تعالى، وليس يكون شيء إلا بها.

وقرأ نافع، وأهل المدينة، وسلام، ويعقوب: ﴿تَذَكَّرُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ أبو جعفر، وعاصم، وأبو عمرو، والأعمش، وطلحة، وابن كثير، وعيسى، والأعرج: ﴿يَذَكَّرُونَ﴾ بالياء من تحت، وروي عن أبي جعفر بالتاء من فوق وشدّ الدال، كأنه «تَذَكَّرُونَ» فأذغم.

وقوله تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ النَّفْيِ وَأَهْلُ النَّفْيِ﴾ خبر جزم، معناه أن الله تعالى أهل بصفاته العُلَى، ونعمه التي لا تحصى، ونقمه التي لا تدفع، لأن يَنْفَى ويُنْفَى، ويُنْفَى عَصِيَانَهُ وخلاف أمره، وأنه تعالى بفضله وكرمه أهل لأن يغفر لعباده إذا اتَّقَوْهُ. وروي أنس بن مالك أن النبي ﷺ فسّر هذه الآية فقال عليه الصلاة والسلام: «يقول ربكم جلّت عظمتهم: أنا أهل أن أتقى فلا يجعل معي إله غيري، ومن أتقى أن يجمل معي إلهاً غيري فأنا أغفر له»، وقال قتادة: هو أهل لأن تُنْفَى محارمُه، وأن يغفر الذنوب.

كامل تفسير سورة المدثر والحمد لله رب العالمين

و«ما» ونحوهما من الحروف إلا في تضاعيف كلام، فينصل عن هذا بأن القرآن كله كالسورة الواحدة وهو في معنى الاتصال فجاز فيه هذا. وقال الفراء: [لَا] نفي لكلام الكفار ورجز لهم وردّ عليهم. ثم استأنف تعالى - على هذه الأقوال الثلاثة - قوله تعالى: ﴿أَقِيمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، وأقسم الله تعالى بيوم القيامة تنبيهاً منه لعظمته وهوله.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ﴾، القول في [لَا] على نحو ما تقدم.

وأما القراءة الثانية ففتحتمل أحد أمرين: إما أن تكون اللام دخلت على فعل الحال، والتقدير: لأننا أقسم، فلا تلحق النون لأن النون إنما تدخل في الأكثر لتفرق بين فعل الحال والفعل المستقبل، ففي تلزم المستقبل في الأكثر، وإما أن يكون الفعل خالصاً للاستقبال، فكان الوجه والأكثر أن تلحق النون، إما الخفيفة وإما الثقيلة، لكن قد ذكر سيبويه أن النون قد تسقط مع إرادة الاستقبال وتُغني اللام عنها، كما قد تسقط اللام وتُغني النون عنها، وذلك في قول الشاعر:

وَقَسِيلٌ مَرَّةً أَثَارُنُ قَسِيلُهُ
فَنَزَعُ وَإِنْ قَسِيلُهُمْ لَمْ يَثَارِ
المراد: لأنثَارُنُ.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِاللُّؤَامَةِ﴾ فقول: [لَا] نافية، وإن الله تعالى أقسم بيوم القيامة ونفى أن يقسم بالفسس اللؤامة، نصّ عليه الحسن، وقد ذهب هذا المذهب قوم ممن قرأ: ﴿لَا أَقْسِمُ﴾ وذلك قلق، وهو في القراءة الثانية أمكن، وجمهور المتأولين على

فهو يريد شهواته ليفجر في تكذيبه بالبعث وغير ذلك بين يدي يوم القيامة، وهو لا يعرف قدر الضرر الذي هو فيه، ونظير قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ﴾ قول قنيس بن سغد:

أَزْدْتُ لِكَيْمًا يَغْلَمَ النَّاسُ أَنَّهَا
سَرَاوِيلُ قَيْسٍ وَالْوُفُودُ شُهُودُ
و ﴿بَلَّ﴾ في أول الآية إضراب على معنى الترك لا على إبطال الكلام الأول، وقد تجيء «بَلَّ» لإبطال الكلام الذي قبلها.

وسؤال الكافر ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَتَيْتُمْ؟﴾ هو على معنى التكذيب والهُزء، كما تقول لِمُحَدِّثٍ بِأَمْرٍ تُكْذِبُهُ: متى يكون هذا؟ و«أَيَّانَ» لفظة بمعنى «متى»، وهي مبنية لتضمنها معنى الاستفهام، فأشبهت الحروف المُضَمَّنَةُ المعاني، وكان حَقُّها أن تُبْنَى على السكون، ولكن فتحت النون لالتقاء الساكنين: الألف وهي.

وقرأ أبو عمرو، والحسن، ومجاهد، وقتادة، والجحدري، وعاصم، والأعمش، وأبو جعفر، وشيبة: ﴿بَرَقَ﴾ بكسر الراء بمعنى: شَخَّصَ وشقَّ وحار، وقرأ نافع، وعاصم - بخلاف - وعبدالله بن أبي إسحق، وزيد بن ثابت ونصر بن عاصم: ﴿بَرَقَ﴾ بفتح الراء بمعنى: لَمَعَ وصار له بَرَقٌ عند الموت، والمعنى متقارب في القراءتين، وقال أبو عبيدة: بَرَقَ بالفتح: شَقَّ، وقال مجاهد: هذا عند الموت، وقال الحسن: هذا في يوم القيامة.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَنَحَفَ﴾ الْقَمَرُ ﴿﴾ على أنه فاعل، وقرأ أبو حيوة: ﴿وَحَسِفَ﴾ بضم الحاء وكسر

ابن أبي عبلة: ﴿قَادِرُونَ﴾ بالرفع، وقال القتيبي: ﴿سَوَى بَنَاتٍ﴾ معناه: نُقِطُهَا سَوِيَّةً، والبنان: الأصابع، وكأن الكفار لما استبعدوا جمع العظام بعد الفناء والإرمام قيل لهم: إنها تجمع وَيُسَوَّى أَكْثَرُهَا تَفَرُّقًا وَأَذَقَهَا أَجْزَاءً وهي عظام الأنامل ومفاصلها، وهذا كله عند البعث. وقال ابن عباس وجمهور المفسرين: ﴿سَوَى بَنَاتٍ﴾: نجعلها في حياته هذه بضعة أو عظماً واحداً كَحُفِّ البعير لا تفارق فيه، فكأن المعنى: قادرين الآن في الدنيا على أن نجعلها دون تفرُّق فتقل منفته بيده، فكأن التقدير: بَلَى نحن أهل أن نجمعها قادرين الآن على إزالة منفته بيده، ففي هذا توعُّدٌ مآل. والقول الأول أجري مع رصف الكلام، ولكن على هذا القول الآخر جمهور من العلماء.

قوله تعالى: ﴿بَلَّ يُرِيدُ الْإِنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَانَةً﴾. قال بعض المتأولين: الضمير في «أَمَانَةً» عائد على الإنسان، ومعنى الآية أن الإنسان إنما يريد شهواته ومعاصيه ليمنضي فيها أبداً قدماً ركباً رأسه ومطيعاً أملة ومُسَوِّفاً بتوبته. قاله مجاهد، والحسن، وعكرمة، وابن جبير، والضحاك والسدي، وقال السدي: المعنى: ليظلم على قدر طاقته، وقال الضحاك: المعنى: يركب رأسه في طلب الدنيا دائماً، وقوله تعالى: ﴿لِيَفْجُرَ﴾ تقديره: لكي يفجر.

وقال ابن عباس رضي الله عنهما ما يقتضي أن الضمير في «أَمَانَةً» عائد على «يوم القيامة»، والمعنى أن الإنسان هو في زمان وجوده أمام يوم القيامة وبين يديه، ويوم القيامة خلفه،

أن الله تعالى أقسم بالأمرين. واختلف في «النَّفْسِ اللُّؤَامَةِ»، ما معناه؟ فقال الحسن: هي اللُّؤَامَةُ لصاحبها في ترك الطاعة ونحوه، فهي - على هذا - ممدوحة، ولذلك أقسم الله تعالى بها، وقال ابن عباس، وقتادة: هي الفاجرة الجشعة اللُّؤَامَةُ لصاحبها على ما فاتته من سعي الدنيا وأغراضها، فهي - على هذا - ذميمة، وعلى هذا التأويل يحسن نَفْيُ القسم بها، والنفس في الآية اسم جنس لنفوس البشر، وقال ابن جبير ما معناه: إِنَّ الْقَسَمَ بها من اسم الجنس لأنها تلوم على الخير والشَّرِّ، وقيل: المراد نفس آدم عليه السلام لأنها لم تزل لائمة له على فعله الذي أخرجه من الجنة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكل نفس متوسطة ليست بالمطمئنة ولا بالأمامة بالسوء فإنها لؤامة في الطرفين، مرة تلوم على ترك الطاعة، ومرة تلوم على فوت ما تشتهي، فإذا اطمأنت خلصت وصفت.

وقوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ﴾ وتوبيخ، و«الإنسان» اسم الجنس، وهذه أقوال كانت لكفار قريش، فعليها الرُّدُّ. وقرأ جمهور الناس: ﴿يَجْعَلُ عَظْمَهُ﴾ بالنون ونصب الميم من العظام، وقرأ قتادة بالتاء ورفع الميم من العظام، ومعنى ذلك: في القيامة وبعد البعث من القبور، وقرأ أبو عمرو بإدغام العين في العين.

ثم قال تعالى: ﴿بَلَّ﴾، وهي إيجابٌ ما نُفِي، وبأيها أن تأتي بعد النفي، والمعنى: بل نجمعها قادرين، فنصب «تَدِيرِينَ» على الحال، وقرأ

ريك يومئذ، والمستقر موضع الاستقرار.

وقوله تعالى: ﴿يَمَّا قَدَّمْ وَأَخَّرْ﴾ قسمة تستوفي كل عمل، أي: يُعلم بكل ما فعل، ويجده محصلاً، وقال ابن عباس، وابن مسعود: المعنى: بما قدم في حياته وأخر من شئ يعمل بها بعده، وقال ابن عباس أيضاً: بما قدم من المعاصي وأخر من الطاعات، وقال زيد بن أسلم: بما قدم من ماله نفسه وبما أخر منه للوارث.

وقوله تعالى: ﴿بَلْ إِضْرَابٌ بِمَعْنَى الشَّرْكَ، لا على معنى إبطال القول الأول، و﴿بَصِيرَةٌ﴾ يحتمل أن يكون خبراً عن «الإنسان» ولحقته هاء التانيث كما لحقت «علامة»، ونسابة»، والمعنى: إنه فيه وفي عقله وفطرته حجة وشاهد مبصر على نفسه، ولو اعتذر عن قبيح أفعاله فهو يعلم قبحها، وكذلك لو استتر بسئوره واختفى بأفعاله - على التأويلين في المعاذير -، ويحتمل ﴿بَصِيرَةٌ﴾ أن يكون ابتداءً وخبره في قوله تعالى: ﴿عَلَى نَفْسِهِ﴾، والهاء للتأنيث، ويراد بالبصيرة جوارحه، والملائكة الحفظة، وهذا هو تأويل ابن عباس رضي الله عنهما. و«المعاذير» هنا، قال الجمهور: هي الأعدار، جمع «مغذرة»، وقال السدي، والضحاك: هي الشُّورُ بلغة اليمن، يقولون للسُّور: المعذار، وقال الحسن: المعنى: بل الإنسان على نفسه بليَّةٌ ومحنة، كأنه ذهب إلى البصيرة التي هي طريقة الدَّمِ وداعية طلب الثَّار، وفي هذا نظر.

﴿١٦﴾ - ﴿١٧﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿يَوْمَ﴾ عائد على كتاب الله تعالى، ولم يجر له ذكر

المتأولون في معنى الجمع بينهما - وقال عطاء بن يسار: يُجمعان فيقذفان في النار، وقيل: في البحر فيصير نار الله العظمى، وقيل: يُجمع الضَّوَّان فيذهب بهما.

وقرأ جمهور الناس: ﴿أَبْنِ الْكَرِّ﴾ بفتح الميم والفاء على المصدر، أي: أين الفرار؟ وقرأ ابن عباس، والحسن، وعكرمة، وأيوب السخيتاني، وكلثوم بن عياض، ومجاهد، ويحيى بن يعمر، وحُمَّاد بن سلمة، وأبو رجاء، وعيسى، وابن

أبي إسحق: ﴿أَبْنِ الْمَفْزُورِ﴾ بفتح الميم وكسر الفاء، على معنى: أين موضع الفرار؟ وقرأ الزهري: ﴿أَبْنِ الْمَفْزُورِ﴾ بكسر الميم وفتح الفاء. بمعنى: أين الجَيْدِ الفرار.

و﴿كَلَّا﴾ زَجْرٌ يقال للإنسان يومئذ، ثم يعلم أنه لا وَزَرَ له، أي: لا ملجأ ولا معين، وعبر المفسرون عن «الوزر» بالجبل، قال مطرف بن الشخير وغيره: «وهو كان وزر فُرَّارِ العرب في بلادهم فلذلك استعمل» والحقيقة أن الملجأ جبالاً كان أو حصناً أو سلاحاً أو رجلاً أو غيره.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْهِيذُ أَتَقَرَّرُ﴾ معناه: إلى حُكْمِ رَبِّكَ ونحوه من التقدير، و«المُسْتَقَرُّ» رفع بالابتداء، وخبره في المقدر الذي يتعلق به المجرور المتقدم، وتقدير الكلام: المُسْتَقَرُّ ثابتٌ أو كائنٌ إلى

سورة القيامة

كَلَّا بَلْ يَحْسَبُونَ الْمَاجِلَ ﴿١٦﴾ وَيَذُرُونَ الْأَجْرَةَ ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُونَ تَأْسِرُوا ﴿١٨﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُؤْمَرُونَ بِالسَّيْرِ ﴿٢٠﴾ فَسَارُوا ﴿٢١﴾ فَكُلُّهَا فَاوْرَةٌ ﴿٢٢﴾ كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ الْأَرْفَاقَ ﴿٢٣﴾ وَبَلَغَتِ الْقُرُونَ وَمَنْ أَرْحَبَ الْغَابِغَاتِ ﴿٢٤﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَذَا نَارُ اللَّهِ الَّتِي كُتِبَ عَلَيْكُمُ اللَّاحِقَةُ ﴿٢٥﴾ إِنَّهَا سَاءُ مُوَدِّعًا لِّلصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾ وَلَكِنَّ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ﴿٢٧﴾ بِطُغْيَانِهِمْ بِأَصْحَابِ الْكَلْبِ ﴿٢٨﴾ فَأَوَّلُ لَكُ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ أَوَّلُ لَكُ فَأَوَّلُ ﴿٣٠﴾ أَحْسَبُ أَن لَّنْ نَّجِدَكَ سَأْدِي ﴿٣١﴾ أَتُرِيدُ نَعْمَةً مِنَّا يَوْمَئِذٍ ﴿٣٢﴾ ثُمَّ كَانَتْ غَلْفَةً فغلق فسوى ﴿٣٣﴾ فجعل منه الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٤﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَمَقَدَرًا لِّمَنْ يُحْسِنُ الْعُقُودَ ﴿٣٥﴾

سورة الأنشيل

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن حِينَئِذٍ مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ مِمَّنْ نُطْفِئُهُ أَمْشَاجَ نَبَاتِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا ﴿٢﴾ بَصِيرًا ﴿٣﴾ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا ﴿٤﴾ وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٥﴾ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلَاسِلًا وَأَغْلَالًا وَسُمْرًا ﴿٦﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ ﴿٧﴾ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٨﴾

٥٧٨

السين (القَمَرُ) مفعول لم يُسمِّ فاعله، يقال: حَسَفَ القَمَرُ وحَسَفَهُ اللهُ، وكذلك الشمس، وقال أبو عبيدة وجماعة من اللغويين: الخسوف والكسوف بمعنى واحد، وقال ابن أبي أونس: الكسوف: ذهاب بعض النور، والخسوف: ذهاب جميعه، وروى عمرو وسفيان أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولوا كسفت الشمس ولكن قولوا خسفت».

وقوله تعالى: ﴿وَجِئَ الْجَنَّتِشُ وَالْقَرَّرُ﴾، غلب التذكير على التأنيث وقيل: ذلك لأن تأنيث الشمس غير حقيقي، وقيل: المراد: وجمع بين الشمس والقمر، وكذلك قرأ ابن أبي عبلة، ولذلك أسقط علامة التأنيث، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: ﴿وَجُمِعَ بَيْنِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ﴾. واختلف

ولكن القرائن تُبَيِّنُه، فهذا كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ﴾، وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِذَا بَلَغَتِ﴾، يعني النفس.

واختلف المتأولون في السبب الموجب أن يُؤمَّر رسول الله ﷺ هذا الأمر - فقال الشعبي: كان رسول الله ﷺ لحرصه على أداء الرسالة والاجتهاد في ذات الله تعالى، ربما أراد النطق ببعض ما أوحى إليه قبل كمال أداء الوحي، فأمر ألا يعجل بالقرآن من قبل أن يُقضى إليه وحيه، وجاءت هذه الآية في هذا المعنى، وقال الضحاك: كان سببها أن رسول الله ﷺ كان يخاف أن ينسى القرآن فكان يدرسه حتى غلب عليه ذلك وشق، فنزلت الآية في ذلك، وقال كثير من المفسرين - وهو في صحيح البخاري عن ابن عباس: كان رسول الله ﷺ يُعالج من التنزيل شديدة، وكان مما يحرك شفتيه مخافة أن يذهب عنه ما يوحى إليه لحينه، فنزلت الآية بسبب ذلك، وأعلمه الله تعالى أنه يجمعه في صدره.

وقوله تعالى: ﴿وَقَرَأَنَّهُ﴾ يحتمل أن يريد به: وقراءته، أي: تقرأه أنت يا محمد، والقرآن مصدر كالقراءة، ومنه قول الشاعر في عثمان رضي الله عنه:

ضَحُوا بِأَسْمَطَ عَنَوَانَ السُّجُودِ بِهِ
يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحًا وَقُرْآنًا
ويحتمل أن يريد: علينا جمعه وتأليفه في صدرك، فهو مصدر من قولك: ﴿قَرَأْتُ﴾ أي: جَمَعْتُ، ومنه قولهم في المرأة التي لم تلد: «ما

قَرَأْتُ تَسْلًا قَطًا، ومنه قول الشاعر: ذِرَاعِي بَكْرَةَ أَدْمَاءٍ بِكْرٍ هِجَانِ اللَّوْنِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينًا وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا قَرَأْنَاهُ﴾، أي: قرأه الملك الرسول عنا، وقوله سبحانه: ﴿فَاتَّبَعْ﴾ يحتمل أن يريد: بذهنك وفكرك، أي: فاستمع قراءته، وقاله ابن عباس رضي الله عنهما، ويحتمل أن يريد: فاتبع في الأوامر والنواهي، قاله ابن عباس أيضاً، وقتادة، والضحاك. وقرأ أبو العالية: ﴿وَقَرَّتْهُ فَإِذَا قَرَّتْهُ فَاتَّبَعْ قَرَّتْهُ﴾ بفتح القاف والراء والتاء من غير همز ولا ألف في الثلاثة.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيِّنَاتٍ﴾، قال قتادة وجماعة معه: معناه: أن تُبَيِّنَه لك وتُحَفِّظُكَ، وقال كثير من المتأولين: معناه: أن تُبَيِّنَه أنت، وقال قتادة أيضاً: معناه: أن تُبَيِّنَه حلاله وحرامه ومُجْمَلِه ومُفَسَّرِه.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ يُحِيزُونَ آلَآئِلَةَ﴾ رجوع إلى مخاطبة قريش، يردُّ عليهم وعلى أقوالهم في ردِّ الشريعة بقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾، أي: ليس ذلك كما تقولون، وإنما أنتم قوم قد غلبتكم الدنيا بشهواتها، فأنتم تحبونها حباً تتركون معه الآخرة والتَّظَنُّرَ في أمرها، وقرأ الجمهور: ﴿يُحِيزُونَ﴾ بالتاء على المخاطبة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر والحسن، ومجاهد، والجدري، وقتادة: ﴿يُحِيزُونَ﴾ بالياء على ذكر الغائب، وكذلك ﴿وَيَذَرُونَ﴾.

ولما ذكر تعالى الآخرة أخبر بشيء من حال أهلها، فقوله تعالى:

﴿رُجُومٌ﴾ رفع بالابتداء، والابتداء بالكرة لأنها تخصصت بقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ و﴿نَاصِرَةٌ﴾ خبر ﴿رُجُومٌ﴾ - وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ جملة هي في موضع خبر بعد خبر، وقال بعض النحويين: ﴿نَاصِرَةٌ﴾ نعت لـ ﴿رُجُومٌ﴾، و﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾ خبر عن ﴿رُجُومٌ﴾، فعلى هذا كثر تخصيص «الرُّجُوم» فَحَسُنَ الابتداء بها، و﴿نَاصِرَةٌ﴾ معناه: ناعمة، والثمرة: النعمة وجمال البشارة، قال الحسن: وحق لها أن تنضر وهي تنظر إلى المخلوق جل وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّهَا نَاطِرَةٌ﴾، حمل هذه الآية جميع أهل السنة على أنها متضمنة رؤية المؤمنين لله تعالى، وهي رؤية دون محاذاة ولا تكييف ولا تحديد، كما هو تعالى معلوم موجود لا يُشبه الموجودات، كذلك هو مَرْتَبِي لا يشبه المراتب في شيء، فإنه ليس كمثله شيء، لا إله إلا هو. وروي عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: «حَدَّثْتُكُمْ عَنِ الدُّجَالِ أَنَّهُ أَعُورٌ، وَإِنْ رِيَكُمْ لَيْسَ بِأَعُورٍ، وَإِنْكُمْ لَنْ تَرَوْا رِيَكُمْ حَتَّى تَمُوتُوا».

وقال ﷺ: «إِنْكُمْ تَرُونَ رِيَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا تَرُونَ الْقَمَرَ لَيْلَةَ الْبَدْرِ لَا تَضَامُونَ فِي رُؤْيَيْهِ»، وقال الحسن: تنظرون إلى الله تعالى بلا إحاطة، وأما المعتزلة الذين ينفون رؤية الله تعالى فذهبوا في هذه الآية إلى أن المعنى: إلى رحمة ربها ناظرة، أو إلى ثوابه أو ملكه، فقدروا مضافاً محذوفاً، وهذا وجه سائغ في العربية، كما تقول: «فلان ناظر إليك في كذا» أي: إلى صنْعك في كذا،

والرؤية إنما يشبها بأدلة قطعية غَيْرُ هذه الآية، فإذا ثبت حسن تأويل أهل السنة في هذه الآية وَقَوِي، وذهب بعض المعتزلة في هذه الآية إلى أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ﴾ ليست بحرف الجزؤ، وإنما هي «إلى» واحدة الآلاء، فكأنه تعالى قال: نَعْمَةٌ رُبُّهَا منتظرة أو ناظرة، من النظر بالعين، ويقال: «نظرتك» بمعنى «انتظرتك»، ومنه قول الحطيئة:

وَقَدْ نَظَرْتُكُمْ إِيتَاءَ صَادِرَةٍ

لِلْجُمُوسِ طَالَ بِهَا حَوْزِي وَتَبَسَّاسِي
وَالْتَبَسَّاسُ أَنْ يُقَالَ لِلنَّاقَةِ: «بُسْ
بُسْ» لتدثر على الحالب، وفسر أبو عبيدة في غريبه هذا البيت على رواية أخرى وهي:

... طَارَ بِهَا حَوْزِي وَتَبَسَّاسِي

بالتون وهو السَّير الشديد، فتأمله. و«الباسرة»: العابسة المغمومة النفوس، والبُسُور أشد العيوس، وإنما ذكر تعالى الوجوه لأنه فيها يظهر ما في النفوس من سرور أو غم، والمراد أصحاب الوجوه.

وقوله تعالى: ﴿تَنْزُّ﴾ إن جعلناه بمعنى «توقن» فهو لم يقع بعد على ما قد بيناه، وإن جعلنا الظن هنا على غَلَبَتِهِ فذلك محتمل، و«الفاقرة»: المصيبة التي تكسر فقار الإنسان، قال ابن المسيب: هي قاصمة الظهر، وقال أبو عبيدة: هي من «فقرت البعير» إذا وسمت أنفه بالنار.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ زَجَرَ لقريش وتوكيد لهم بموطن من مواطن الهول وأمر الله تعالى الذي لا محيد لبشر

عنه، وهي حالة الموت والمنازعة التي كتبها على كل حيوان، و﴿بَلَّغْتَ﴾ يريد النفس، و«التراقي» جَمْعُ «تَرْقُوة»، وهي عظام أعلى الصدر، ولكل أحد ترقوتان لكن من حيث هذه الأفراد في كثيرين جُمع؛ إذ النفس المرادة اسم جنس، والتراقي موازية للحلاقيم، فالأمر كله كناية عن حال الحشرجة ونزاع الموت، يَسَّرَهُ اللهُ عَلَيْنَا.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿مَنْ رَاقٍ﴾ - فقال ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وأبو قلابة: معناه: مَنْ يَرَقِي وَيُطَبِّبُ وَيَشْفِي ونحو هذا مما يتمناه أهل المريض، وقال ابن عباس أيضاً، وسليمان التيمي، ومقاتل بن سليمان: هذا القول للملائكة، والمعنى: مَنْ يَرَقِي بروحه - أي: يصعد - إلى السماء؟ أملائكة الرحمة أم ملائكة العذاب؟ وقرأ حفص عن عاصم بالوقف على [مَنْ رَاقٍ]، وبيبتديء ﴿رَاقٍ﴾، وأدغم الجمهور، قال أبو علي: لا أعرف وجه قراءة عاصم، وكذلك قرأ: ﴿بَلِّ رَانَ﴾.

قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا اللَّهُ الْفَرَّاقُ﴾، يريد: وتيقن المريض أنه فراق الأجابة والأهل والمال والحياة، وهذا اليقين فيما لم يقع بعد، ولذلك استعملت فيه لفظة الظن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أيقن أنه الفراق، وقال في تفسيره: ذهب الظن.

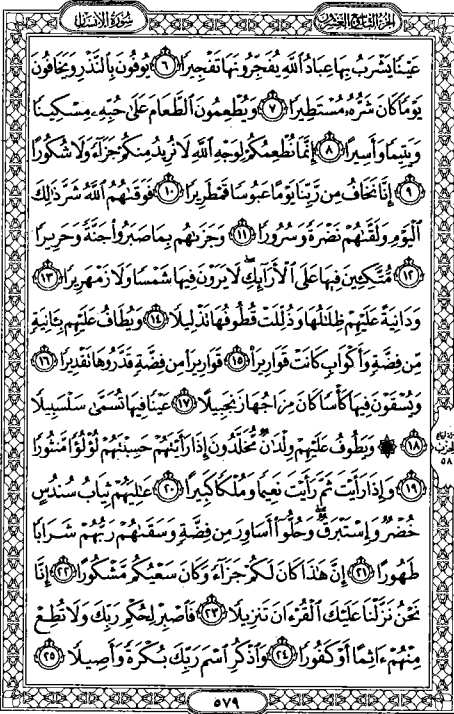
واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ أَسَاؤُا بِأَتَايِ﴾ - فقال ابن عباس، والحسن، والربيع بن أنس، وإسماعيل بن أبي خالد: هذه

استعارة لشدة كرب الدنيا في آخر يوم منها وشدة كرب الآخرة في أول يوم منها، لأنه بين الحاليتين قد اختلطتا له، وهذا كما يقولون: «شمرت الحرب عن ساق»، وعلى بعض التأويلات في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَكْتَفُ عَنْ سَاقٍ﴾. وقال ابن المسيب، والحسن: هي حقيقة، والمراد ساقا الميت عند تكفينه، أي: لِقَهُمَا الكفن، وقال الشعبي، وأبو مالك، وقتادة: هو التفافهما بشدة المرض لأنه يقبض ويبسط ويركب هذا على هذا وقال الضحاك: المراد سوق حاضريه من الإنس والملائكة؛ لأن هؤلاء يجهزون روحه إلى السماء، وهؤلاء يجهزون بدنه إلى القبر. وقوله تعالى: ﴿إِلَّا رَيْكٌ﴾ معناه: إلى حكم ربك وعدله، فإمّا إلى جنة وإمّا إلى نار، و«المساق» مصدر من السرق.

﴿٣١﴾ - ﴿٣٢﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه الآيات كلها إنما نزلت في أبي جهل بن هشام، ثم كادت هذه الآية أن تصرح به في قوله تعالى: ﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾ فإنها كانت مشية بني مخزوم، وكان أبو جهل يكثر منها، وقوله تعالى: ﴿فَلَا مَسَدَ وَلَا مَكْرَهَ﴾ تقديره: فلم يصدق ولم يضل، وهذا نحو قول الشاعر:

فَأَيُّ حَمِيسٍ لَا أَبَانَا نَهَايُهُ
وَأَسِيْفَانَا يَفْطُرُنَ مِنْ كَبِيْهِ دَمَا؟
وقول الآخر:

إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا
وَأَيُّ عَبِيدٍ لَكَ لَا أَلْمَا؟
ف «فلا» في الآية نافية لأعاطفة و«يصدق» معناه: برسالة الله تعالى



ويعقوب: ﴿تَنِي﴾ بالياء، يريد بذلك المني، ويحتمل أن يكون ﴿تَنِي﴾ من قولك: «أمتى الرجل»، ويحتمل أن يكون من قولك: «مَنِ الله الخلق»، فكأنه تعالى قال: من مني يُخلق، وقرأ جمهور السبعة، والناس: ﴿تَمَنِي﴾ بالياء، يراد بذلك النطفة، و﴿تَنِي﴾ تحتمل الوجهين اللذين ذكرنا. و«العلق» القطعة من الدم؛ لأن الدم هو العلق.

وقوله تعالى: ﴿نَطَلَقَ سَوَاءًا﴾ معناه: فخلق الله تعالى منه بشراً مركباً من أشياء مختلفة، فسواء شخصاً مستقلاً، وفي مصحف ابن مسعود رضي الله عنه: ﴿يخلق﴾ بالياء فعلاً مستقبلاً. و«الزَّوْجَيْنِ»: النوعين. ويحتمل أن يريد المزوجين من البشر.

ثم وقف تعالى توقيف توييح وإقامة حجة بقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَدِيرٍ عَلَيَّ أَنْ بُحِّثَ لَكُمْ﴾، وقرأ الجمهور بفتح الياء الأخيرة من ﴿بُحِّثَ﴾ وقرأ طلحة بن سليمان، والفياض بن غزوان بسكونها، وهي تحذف من اللفظ لسكون اللام من [المؤتّى]. ويروى أن رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سبحانك اللهم وبحمدك، وبلى»، ويروى أنه كان يقول: «بلى» فقط.

كامل تفسير سورة القيامة والحمد لله رب العالمين

ودينه، وذهب قوم إلى أنه من الصدقة والأول أصوب. و﴿يَسْتَلِقُ﴾ معناه: يمشي المُطَيِّطاً، وهي مشية بتبخر، قال زيد بن أسلم: كانت مشية بني مخزوم، وهي مأخوذة من المَطَا وهو الظهر، لأنه يشني فيها، وقال النبي ﷺ: «إِذَا مَشَتْ أُمَّتِي الْمُطَيِّطُ، وَخَدَمَتَهُمُ الرُّومُ وَفَارِسُ، سَلَطَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ»، وقال مجاهد: نزلت هذه الآيات في أبي جهل بن هشام.

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ لَكْ فَاوَكُورٌ﴾ وعيد ثان، ثم كرر ذلك تأكيداً، والمعنى: أولى لك الازدجار والانتها، وهو مأخوذ من «ولي»، والعرب تستعمل هذه الكلمة زجراً، ومنه قوله تعالى: ﴿فَاوَكُورٌ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ﴾، ويروى أن رسول الله ﷺ لبَّبَ أبا جهل يوماً في البطحاء وقال له: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لَكَ: ﴿أَوَلَمْ لَكْ فَاوَكُورٌ﴾»، فنزل القرآن على نحوها، وفي شعر الخنساء:

هَمَمْتُ بِتَنْفِيسِي كُلِّ الْهَمُومِ
فَأَوْلَى لِنَفْسِي أَوْلَى لَهَا
وقوله تعالى: ﴿أَتَحْسَبُ﴾ توييح وتوقيف، و﴿سُنِّي﴾ معناه: مهملاً لا يُؤمر ولا يُنهى، ثم قرَّر تعالى على أحوال ابن آدم في يد الله التي إذا تُوملت لم يُنكر معها جواز البعث عاقل. وقرأ الجمهور: ﴿أَلَمْ يَكْ﴾ بالياء، وقرأ الحسن: ﴿أَلَمْ تَكْ﴾ بالناء من فوق، و«الطُّفَّةُ» القطعة من الماء، يقال ذلك للقليل والكثير. والمَنِيُّ معروف. وقرأ ابن عامر، وحفص عن عاصم، وأبو عمرو - بخلاف - وابن محيصن، والجحدري، وسلام،

تفسير سورة الإنسان

قال بعض العلماء: هي مكية كلها، وحكى النقاش، والثعلبي عن مجاهد وقتادة أنها مدنية، وقال الحسن وعكرمة: منها آية مكية، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطَّعَ يَتْمُهُمُ إِنَّمَا أَزْكَوْرًا﴾، والباقي مدني، وأنها نزلت في صنيع علي بن أبي طالب رضي الله عنه في إطعامه عشاءه وعشاء أهله وولده لمسكين ليلة، ثم ليتم ليلة، ثم لأسير ليلة ثالثة، متواليات، وقيل: نزلت في صنيع أبي الدرداح رضي الله عنه، الله تعالى أعلم.

١ - ٢ - تفسير قوله عز وجل:

«هَلْ فِي كَلَامِ الْعَرَبِ قَدَرٌ تَجِيءُ

أبو عمرو الداني: وقرأ أبو العجاج: ﴿أَمَّا شَاكِرًا وَأَمَّا كَفُورًا﴾ وأبو العجاج هو كثير بن عبدالله السلمي، شامي، ولَّى البصرة لهشام بن عبدالملك.

و ﴿أَعْتَدْنَا﴾ معناه: أعددنا، وقرأ نافع، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: ﴿سَلَايَلًا﴾ بالصرف، وهذا على ما حكاه الأخفش من لغة من يصرف كل ما لا ينصرف إلا أُنْعِلَ، وهي لغة الشعراء، ثم كثر حتى جرى في كلامهم، وقد غُلِّلَ بَعْلَةٌ، وهي أنه لما كان هذا الضرب من الجموع يُجمع أشبه الأحاد فصرف، وذلك من شبه الأحاد موجود في قولهم: «صواحب وصواحيبات»، وفي قول الشاعر:

.....
... نَوَاكِسِي الْأَبْصَارِ

بالياءِ جَمْعُ «نَوَاكِسٍ»، وهذا الإجراء في «سَلَايَلًا» و «نَوَاكِسًا» ثبت في مصحف ابن مسعود ومصحف أبي بن كعب ومصحف المدينة ومكة والكوفة والبصرة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة: ﴿سَلَايَلًا﴾ على ترك الصرف في الوصل والوقف، وهي قراءة عمرو بن عبيد. وقرأ أبو عمرو، وحمزة - فيما روي عنهما -: ﴿سَلَايَلًا﴾ في الوصل، و «سَلَايَلًا» بألفٍ دون تنوين في الوقف، ورواه هشام عن ابن عامر؛ لأن من العرب من يقول: «رَأَيْتُ عُمَرَ»، يقف بألفٍ، وأيضاً فالوقف بالألف في [سَلَايَلًا] أتباع لخطِّ المصحف.

و «الْأَبْرَارُ» جمع «بَارٌّ»، كشاهدٍ وأشهاد، قال الحسن: هم الذين لا

- فقيل: هو أمشاج ماء الرجل بماء المرأة، وأسند الطبري حديثاً - وهو أيضاً في بعض المصنفات - أن عظام ابن آدم وَعَصَبُهُ من ماء الرجل، ولحمه وشحمه من ماء المرأة، وقيل: هو اختلاط أمر الجنين بالنطفة من النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى غير ذلك، فهو أمر مختلط، وقيل: هو اختلاط الدم والبلغم والسوادِ والصفراء فيه. و «تَبْتَلِيهِ» معناه: نختيره بالإيجاد والكون في الدنيا، وهو حال من الضمير في «خَلَقْنَا»، كأنه قال: مختبرين له بذلك.

وقوله تعالى: ﴿تَجَمَّلَتْهُ عَطْفَةٌ جَمَلَةٌ نَعَمٌ عَلَى جَمَلَةٍ نَعَمٌ، قَالَ بَعْضُ النَّحْوِيِّينَ: إِنَّمَا الْمَعْنَى: فَلْيَبْتَلِيهِ جَعَلْنَاهُ سَمِيحاً بَصِيراً، ثُمَّ تَرْتَبِ الْفَلِظُ مُؤَخَّرًا مُتَدَاخِلًا كَأَنَّهُ قَالَ: نَحْنُ تَبْتَلِيهِ فَلِذَلِكَ جَعَلْنَاهُ وَالْإِبْتِلَاءُ - عَلَى هَذَا التَّأْوِيلِ - هُوَ بِالْأَسْمَاعِ وَالْأَبْصَارِ لَا بِالْإِيجَادِ، وَلَيْسَ «تَبْتَلِيهِ» حَالًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ﴾ يحتمل أن يريد السبيل العامة للمؤمن والكافر، وذلك بخلق الحواسِّ وموهبة الفطرة ونصب الصنعة الدالة على الصانع، و «هَدَيْنَاهُ» - على هذا - بمعنى أرشده، كما يرشد الإنسان إلى طريقٍ ويوقف عليه. ويحتمل أن يريد بالسبيل اسم الجنس، أي: هدى المؤمن لإيمانه والكافر لكفره، ف «هَدَيْنَاهُ» - على هذا - كأنه بمعنى أريناه فقط، وليس الهدى في هذه الآية بمعنى خلق الهدى والإيمان، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا شَاكِرًا وَإِنَّا كَفُورًا﴾ حالان وقسمتها «إِنَّا» قال

بمعنى «قَدْ»، حكاه سيويه، لكنها لا تخلو من تقرير، وبابها المشهور الاستفهام المحض، والتقرير أحياناً، فقال ابن عباس: هي هنا بمعنى «قد»، و«الإنسان» يراد به آدم عليه السلام، و«الجنين» هو المدَّة التي بقي فيها طيناً قبل أن تنفخ فيه الروح، أي: أنه شيء لم يكن مذكوراً مُتَوَّهاً به في العالم، وفي حالة العدم المحض قبل أن لم يكن شيئاً ولا مذكوراً. وقال أكثر المتأولين: «هَلْ» تقرير، و«الإنسان» اسم الجنس، أي: إذا تأمل كل إنسان نفسه علم بأنه قد مرَّ حين من الدهر عظيم لم يكن هو فيه شيئاً مذكوراً، أي: لم يكن موجوداً، وقد يُسمى الموجود شيئاً فهو مذكور بهذا الوجه. و«الحين» هنا: المدَّة من الزمن غير محدودة تقع على القليل والكثير، وإنما يحتاج إلى تحديد الجنين في الإيمان، فيمن حلف ألا يكلم أخاه حيناً، فذهب بعض العلماء إلى أن الحين سنة، وقال بعضهم: ستة أشهر، والقوي في هذا أن «الإنسان» اسم الجنس، وأن الآية جعلت عبرة لكل أحد من الناس ليعلم أن الصانع له قادر على إعادته.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ﴾ هو هنا اسم الجنس بلا خلاف لأن آدم عليه السلام لم يخلق من نطفة، و«أَمَشَاجٌ» معناه: أخلاط، واحدها «مَشْجٌ» بفتح الميم والشين، قاله ابن السكيت وغيره، وقيل: «مَشْجٌ» مثل عَدَلٌ وأَعْدَالٌ، وقيل: «مَشْجٌ» مثل شريف وأشراف.

واختلف في المقصود من «الْخَلْطُ»

يؤذون الذُّرُّ ولا يرضون بالشُّرِّ، و«الْكَأْسُ»: ما فيه نبيذ أو نحوه مما يُشرب به، قال ابن كيسان: لا يقال «كأس» إلا لما فيه نبيذ ونحوه، ولا يقال «ظعينة» إلا إذا كان عليها امرأة، ولا يقال «مائدة» إلا وعليها طعام، وإلا فهو «خوان». و«المِرْزَاجُ»: ما تمزج به الخمر ونحوها، وهي أيضاً مِرْزَاجٌ له لأنهما تمازجاً مِرْزَاجاً، قال بعض الناس: المِرْزَاجُ نَفْسُ الكافور، وقال قتادة: قوم تُمزج لهم بالكافور وتُختم بالمسك، وقال الفراء: يقال: إن في الجنة عيناً تُسَمَّى كافوراً، وقال بعض المتأولين: إنما أراد كافوراً في النكهة والعرف كما تقول إذا مدحت طعاماً: هذا الطعام مسك.

وقوله تعالى: ﴿عَيْتًا﴾ قيل: هو بدل من قوله تعالى: ﴿كَأْفُورًا﴾، وقيل: هو مفعول بقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُونَ﴾ أي: يشربون ماء هذه العين من كأس عطرة كالكافور، وقيل: نصب ﴿عَيْتًا﴾ على المدح أو بإضمار «أعني»، وقوله تعالى: ﴿يَشْرَبُهَا﴾ بمنزلة «يَشْرَبُهَا»، فالباء زائدة، قال الهذلي:

شَرِبْنِ بِمَاءِ الْبَحْرِ...

أي: شربنا ماء البحر، وقرأ ابن أبي عبيدة: ﴿يَشْرَبُهَا عِبَادُ اللَّهِ﴾، و«عِبَادُ اللَّهِ» هنا خصوص في المؤمنين الناعمين؛ لأن جميع الخلق عباده. و«يَشْرَبُهَا» معناه: يشقونها بعود قصب ونحوه حيث شاؤوا، فهي تجري عند كل أحد منهم، هكذا ورد الأثر، قال الشعلي:

وقيل: عين في دار النبي عليه الصلاة والسلام تُفَجَّرُ إلى دور الأنبياء عليهم السلام ودور المؤمنين. وهذا قول حسن.

٧ - ١٣ تفسير قوله عز وجل: وصف الله تعالى حال الأبرار بأنهم كانوا يوفون بالذُّرِّ، أي: كل ما نذروه وأعطوا به عهداً، يقال: وثى الرجل وأوفى، واليومُ المشار إليه يومُ القيامة، و«مُسْتَطِيراً» معناه: متصلاً شائعاً كاستطارة الفجر والصُّدُغ في الزجاج، وبه شُبّه في القلب، ومن ذلك قول الأعشى: فَبَاتَتْ وَقَدْ أَوْرَثَتْ فِي الْفُؤَا دِ صَدْعاً - عَلَى نَائِبِهَا - مُسْتَطِيراً وقول ذي الرُّمَّة:

أَرَادَ الطَّاعِنُونَ لِيَحْزُنُونِي فَهَاجُوا صَدْعَ قَلْبِي فَاسْتَطَارَا وقوله تعالى: ﴿عَلَّ حَيْبٌ﴾ يحتمل أن يعود الضمير على «الطعام»، أي: وهو محبوب للفاقة والحاجة، وهو قول ابن عباس ومجاهد، ويحتمل أن يعود على الله تعالى، أي: لوجهه وابتغاء مرضاته، قاله أبو سليمان الداراني، والأول أمدح لهم لأن فيه الإيثار على النفس، وعلى الاحتمال الثاني قد يفعله الأغنياء أكثر، وقال الحسن بن الفضل: الضمير عائد على الإطعام، أي: مُحَقِّقِينَ في فعلهم ذلك، لا رياء فيه ولا تكلف. و«المِسْكِينُ»: الطُّوْفُ المنكشف في السؤال، و«الْيَتِيمُ»: الصبي الذي لا أب له من الناس، والذي لا أم له من البهائم، وهي صفة قبل البلوغ، وقد قال النبي ﷺ: «لَا يُثْمُ بَعْدَ حُلْمٍ»، و«الْأَسِيرُ» معروف، فقال

قتادة: أراد أسرى الكفار وإن كانوا على غير الإسلام، قال الحسن: ما كان أسراهم إلا مشركين؛ لأن في كل كبد رطبة أجزراً، وقال بعض العلماء: هذا مما تُسَخُّ بآية السيف، وإما أنه محكم ليحفظ حياة الأسير إلى أن يرى الإمام فيه رأيه، وقال مجاهد، وابن جبير، وعطاء: أراد المسجونين من الناس، ولهذا يُحْض على صدقة السجن، فهذا تشبيه، ومنه قول عمر الخطاب رضي الله عنه: «لَا يُؤْسَرُ أَحَدٌ فِي الإِسْلَامِ بِغَيْرِ الْعَدُولِ» وروى الخديري أن النبي ﷺ فسّر الأسير هنا بالملك المسجون، وقال: أراد أسرى المسلمين الذين تركوا في بلاد الحرب رهائن وخرجوا لطلب الفداء، وقال أبو حمزة الثمالي: الأسير هنا المرأة، ودليله قول النبي ﷺ: «اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا فَإِنَّهُنَّ حَوَانٍ عِنْدَكُمْ».

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا تُطْمِئِنُّ بِرَبِّهِ﴾، المعنى: يقولون لهم عند الإطعام، وهذا إما أن يكون الْمُطْعِمُ يقول ذلك نصّاً، فحكى ذلك، وإما أن يكون ذلك مما يقال في الأنفس وباللثية، فمدح بذلك، وهذا تأويل مجاهد وابن جبير. وقرأ أبو عمرو في رواية ابن عباس بجزم الميم من ﴿طْمِئِنُّوا﴾ قال أبو علي: سكن تخفيفاً، و«الشُّكُورُ» مصدر كالتشكُّر، ووصف اليوم بالعُبُوس هو على التجوز، كما تقول: «ليلٌ نائمٌ» أي: فيه نوم، و«الْقَمَطَرِيُّ» والقَمَطَرُ هو في معنى العُبُوس والازدياد، يقال: اقمطر الرجلُ إذا جمع ما بين عينيه

غضباً، ومنه قول الشاعر:

بَنِي عَمَّنَا هَلْ تَذْكُرُونَ بِلَاءَنَا
عَلَيْكُمْ إِذَا مَا كَانَ يَوْمَ قُمَاظِرُ
وقال الآخر:

فَقِرُّوا إِذَا مَا الْحَزْبُ ثَارَ غِبَارُهَا
وَلَجَّ بِهَا الْيَوْمَ الْعَبْسُ الْقَمَاطِرُ
وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
يعبس الكافر يومئذ حتى يسيل من
عينيه مثل القطران، وعبر ابن عباس
عن القمطرير بالطويل، وعبر عنه ابن
الكلبي بالشديد، وذلك كله قريب
في المعنى.

وقرأ الجمهور: ﴿وَوَدَّعْتُمْ﴾ بتخفيف
القاف، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع:
﴿فَوَقَّاهُمْ﴾ بتشديد القاف،
و«النُّضْرَةُ» حال البشرية، وذلك لا
يكون إلا مع فرح النفس وقررة
العين، وقرأ علي بن أبي طالب
رضي الله عنه: ﴿وَجَارَاهُمْ﴾ بألف،
وقوله تعالى: ﴿يَمَّا صَبْرًا﴾ عام،
عن الشهوات وعلى الطاعات
والشدائد، ففي هذا يدخل كل ما
خصص الناس من صوم ونحوه،
و﴿مُنْكَيْنِ﴾ حال من الضمير
المنصوب في [جَزَاهُمْ] وهو الهاء
والميم، وقرأ أبو جعفر وشيبة:
﴿مُنْكَيْنِ﴾ بغير همز، و«الأرائك»:
السُّرر المستورة بالحجال، وهذا
شرط لبعض اللغويين، وقال بعض
اللغويين: كل ما يَتَوَسَّدُ ويفترش مما
له حشو فهو أريكة وإن لم يكن في
حَجَلَةٍ. وقوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ﴾
الآية عبارة عن اعتدال مس هوائها،
وذهاب ضرورتها الحر والقر عنها،
وكون هوائها سَجَسَجاً كما في
الحديث المأثور، ومسُّ الشمس هو

أشدُّ الحرِّ، والزمهير أشدُّ البرد،
وقال ثعلب: الزمهير بلغة طيء:
القمر.

﴿١٤﴾ - ﴿٢٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

اختلف النحويون في إعراب قوله
تعالى: ﴿وَدَّاعِيَةً﴾ - فقال الزجاج
وغيره: هو حال عطفاً على
﴿مُنْكَيْنِ﴾، وقال أيضاً: يجوز أن
يكون صفةً للجنة، فالمعنى:
وجزاهم جنةً دائيةً، وقرأ جمهور
الناس: ﴿وَدَّاعِيَةً﴾ وقرأ الأعمش:
﴿وَدَّاعِيَةً عَلَيَّهِمْ﴾، وقرأ أبو حيو:
﴿وَدَّاعِيَةً﴾ بالرفع، وقرأ أبي بن
كعب: ﴿وَدَّانٍ﴾، فهو مفردٌ مرفوع
في الإعراب، ودنُوُ الظلال بتوسط
أنعم لها لأن الشيء المظل إذا بعد
فتر ظله لا سيمًا من الشجر.
و«التَّذليلُ» أن تطيب الثمرة فتتدلى
وتنعكس نحو الأرض، والتذليل في
الجنة هو بحسب إرادة ساكنها، قال
قتادة، وسفيان، ومجاهد: إن كان
الإنسان قائماً تناول الثمر دون كلفة،
وإن كان قاعداً فكذلك، وإن كان
مضطجعاً فكذلك، فهذا تذليلها، لا
يردُّ اليد عنها بعد ولا شوك، ومن
اللفظة قول امرئ القيس:

.....
... كَأَنْبُوبِ السَّقِيِّ الْمُدَّلِّ

ومنه قول الأنصاري: «والنخل قد
ذُلَّتْ فهي مطوقة بشمرها»،
و«القطوف» جمع قطف وهو العنقود
من النخل والعنب ونحوهما.

و«الآيئة» جمع إناء، و«الكوب» ما
لا عروة له ولا أذن من الأواني،
وهي معروفة الشكل في تلك البلاد،
وهو الذي تقول له العامة «القب»،

لكنها تسمى ذلك ماله عروة، وذلك
خطأً أيضاً، وقال قتادة: الكوب
القَدَحُ، و«القوارير» الزجاج.
واختلف القراء، فقرأ نافع،
والكسائي، وأبو بكر عن عاصم:
﴿قَوَارِيرًا، قَوَارِيرًا﴾ بالإجراء فيهما
على ما تقدم في «سلايلاً»، وقرأ
ابن عامر، وحمزة: ﴿قَوَارِيرَ،
قَوَارِيرَ﴾ بترك الإجراء فيهما، وقرأ
ابن كثير بالإجراء في الأول وتركه
في الثاني، وقرأ أبو عمرو إذا وقف
في الأول بألف دون تنوين، وبترَك
الإجراء في الثاني. وقوله تعالى:
﴿مِنْ فَضْلِهِ﴾ يقتضي أنها من زجاج
ومن فضة، وذلك متمكن لكونه من
زجاج في شفوئه ومن فضة في
جوهره، وكذلك فضة الجنة شفاقة،
وقال أبو علي: جعلها من فضة
لصفائها وملازمتها لتلك الصفة،
وليست من فضة في حقيق أمرها،
وإنما هذا كقول الشاعر:

أَلَا أَضِيحَتْ أَسْمَاءُ جَائِمَةَ الْوَضِلِ

وَصُنَّتْ عَلَيْنَا وَالضُّنَيْنِ مِنَ الْبُخْلِ
وقوله تعالى: ﴿مَذْرُوءًا﴾ يحتمل أن
يكون الضمير للملائكة، ويحتمل أن
يكون للطائفتين، ويحتمل أن يكون
للمنعمين، والتقدير إما أن يكون
على قدر الأَكْفُ، قاله الربيع، أو
على قدر الري، قاله مجاهد، وهذا
كله على قراءة من قرأ: ﴿مَذْرُوءًا﴾
بفتح القاف، وقرأ ابن أبيزى، وعلي،
والجحدري، وابن عباس،
والشعبي، وقتادة: ﴿قُدْرُوها﴾ بضم
القاف وكسر الدال، قال أبو علي:
كأن اللفظ «قُدْرُوا عليها»، وفي
المعنى قلب لأن حقيقة المعنى أن



معناه: باقون، من الخلود، وجعلهم ولداناً لأنهم في هيئة الولدان في السن، لا يتغيرون عن تلك الحال، وقال أبو عبيدة وغيره: ﴿مُخَلَّدُونَ﴾، معناه: مُقَرَّطُونَ، والمخلدات خلئ تعلق في الأذان، ومنه قول الشاعر:

وَمُخَلَّدَاتٍ بِاللُّجَيْنِ كَأَمَّا
أَعْجَازُهُنَّ أَقَاوِرُ الْكُتُبَانِ
وشهرة هذه اللغة في جفیر.

وشبههم تعالى باللؤلؤ المنشور في بياضهم وانتشارهم في المساكن يجيئون ويذهبون، وفي جمالهم،

ومنه سميت المرأة ذرة وجوهرة، ثم كرر تعالى ذكر الرؤية مبالغة، و﴿نَمَّ﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿رَأَيْتَ﴾ أو معناه، وقال الفراء: التقدير: إذا رأيت ما ثم رأيت، وحذفت «ما». وقرأ حميد الأعرج: ﴿نَمَّ﴾ بضم الثاء، و«التَّعِيمُ» ما هم فيه من حسن عيش. و«المُلْكُ الكبيرُ» قال سفيان: هو استئذان الملائكة وتسلمتهم عليهم وتعظيمهم لهم في ذلك كالمملوك، وقال أكثر المفسرين: «المُلْكُ الكبيرُ» اتساع مواضعهم، روي عن عبدالله بن عمر أنه قال: ما من أهل الجنة من أحد إلا يسعى عليه ألف غلام، كلهم مختلف شغله من شغل أصحابه، وأدنى أهل الجنة منزلة من ينظر في ملكه مسيرة ألف عام، يرى أقصاه كما يرى أدناه.

يقال: قُدِّرْتُ عليهم، فهي مثل قوله تعالى: ﴿مَا إِنَّ مَقَاصِعَهُ لَنُتَوُّرًا بِالْمُصْبَكَةِ﴾، ومثل قول العرب: إذا طلعت الجوزاء ألقى العود على الحرباء، حكاه أبو علي.

وكون الزنجبيل مزاجاً هو على ما ذكرناه في العرب ولذع اللسان، وذلك من لذات المشروب، والزنجبيل طيب حار، وقال الشاعر:

كَأَنَّ جَنِيْبًا مِنَ الزَّنْجَبِيلِ
لِ بَاتَ بِفَيْهَآ وَأَزْيَا حَشُورَا

وقال المسيب بن علس:

وَكَأَنَّ طَعْمَ الزَّنْجَبِيلِ بِهِ
إِذْ ذُقْتَهُ وَسُلَاقَةَ الْخَمْرِ
وقال قتادة: الزنجبيل اسم لعين يشرب منها المقربون صرفاً، ويُمزج لسائر أهل الجنة. و﴿عَيْتًا﴾ بدل من ﴿كَأَسًا﴾، أو من ﴿زَنْجِيلاً﴾ على القول الثاني.

و﴿سَتِيلاً﴾ قيل: اسم بمعنى السُّلْسُ المُتَّقَادِ الْجَزِيَّةِ، وقال مجاهد: حديد الجرية، وقيل: هي عبارة عن اتساعها، وقال ابن الأعرابي: لم أسمع هذه اللفظة إلا في القرآن، وقال آخرون: ﴿سَتِيلاً﴾ صفة لقوله تعالى: ﴿عَيْتًا﴾، و﴿سَمَّ﴾ بمعنى: تُوصَفُ وتشتهر، وكونه مصروفاً مما يؤكد كونه صفة لا اسماً، وقال بعض المفسرين: ﴿سَتِيلاً﴾ أمر للنسبي ﷺ ولأتمته بسؤال السبيل إليها، وهذا قول ضعيف لأن براعة القرآن وفصاحته لا تجيء هكذا، واللفظة معروفة في اللسان، وأن «السُّلْسُ والسُّلْسِيلُ»، بمعنى واحد ومتقارب.

و﴿مُخَلَّدُونَ﴾ قال جمهور الناس:

﴿٢١﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ نافع، وحمزة، وأبان عن عاصم: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالرفع للابتداء، وهي قراءة الأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، وابن محيصن، وابن عباس بخلاف عنه، وقرأ الباقون وعاصم: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بالنصب على الحال، والعامل في ﴿وَلَقَدْ نَمَّ﴾ أو ﴿يَتَّبِعُهُمْ﴾، وهي قراءة عمر بن الخطاب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، والجحدري، وأهل مكة. وقرأ الأعمش، وطلحة: ﴿عَالِيَتْهُمْ﴾، وكذلك هي في مصحف عبدالله، وقرأ أيضاً الأعمش: ﴿عَالِيَتْهُمْ﴾ بالنصب على الحال، وقد يجوز في النصب في القراءتين أن تكون على الظرف؛ لأنه بمعنى: فوقهم، وقرأت عائشة رضي الله عنها: ﴿عَلَتْهُمْ﴾ بناءً فعل

ماض، وقرأ مجاهد، وقتادة، وابن سيرين، وأبو حيوه: ﴿عَلَيْهِمْ﴾ بآلياته.

و «السُّنْدُسُ» رقيق الديداج والمرتفع منه، وقيل: السندس هو الحرير الأخضر، و«الإِسْتَبْرَقُ» والدَّمَقْسُ هما الأبيض، والأرجوان هو الأحمر. وقرأ حمزة والكسائي: «خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ» بالخفض فيهما، وهي قراءة الأعمش، وطلحة، ورويت عن الحسن، وأبي عمرو - بخلاف عنهما -، على أن «خُضْرًا» نعت للسندس، وجائز جمع صفة اسم الجنس إذا كان اسماً مفرداً، كما قالوا: «أهلك الناس الدينار الصُفْرَ والدُّرْهَمَ البَيْضَ»، وفي هذا قُبْح، والعرب تفرد صفة اسم الجنس وهو جمع أحياناً فيقولون: «هو حصى أبيض»، وفي القرآن: ﴿يَنْ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ﴾، و﴿تَقَلَّى تُقَعِرٌ﴾ فكيف بأن لا يفرد هذا الذي هو صفة لواحد في معنى جمع. و﴿إِسْتَبْرَقٌ﴾ في هذه القراءة عطف على «سُنْدُسٍ»، وقرأ نافع، وحفص عن عاصم، والحسن، وعيسى: «خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ» بالرفع فيهما، «خُضْرٌ» نعت لـ «يَابِ»، و«إِسْتَبْرَقٌ» عطف على «يَابِ»، وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، ونافع أيضاً: «خُضْرٌ» رفعاً و«إِسْتَبْرَقٌ» خفضاً، «خُضْرٌ» صفة لـ «يَابِ» و«إِسْتَبْرَقٌ» عطف على «سُنْدُسٍ»، وقرأ ابن كثير، وعاصم - في رواية أبي بكر - : «خُضْرٌ» خفضاً و«إِسْتَبْرَقٌ» زفعاً، فخفض «خُضْرٌ» على ما تقدم أولاً،

و«إِسْتَبْرَقٌ» عطف على «يَابِ»، و«الإِسْتَبْرَقُ» غليظ الديداج، وقرأ ابن محيصن: «وَإِسْتَبْرَقٌ» موصولة الألف مفتوحة القاف، كأنه مثال الماضي من بَرِقَ وإِسْتَبْرَقَ كَعَجِبَ وإِسْتَعْجَبَ، قال أبو حاتم: لا يجوز، والصواب أنه اسم جنس لا ينبغي أن يحمل ضميراً، ويؤيد ذلك دخول لام المعرفة عليه، والصواب فيه قطع الألف وإجراؤه على قراءة الجماعة. وقرأ أبو حيوه: «عَلَيْهِمْ يِيَابٌ» بالرفع «سُنْدُسٌ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ» رفعاً في الثلاثة، وقوله تعالى: ﴿يَطَّوُّهُ﴾ أي: جعل لهم حلي، و«أَسْوَرَةٌ» جمع أسورة، وأسورة جمع سوار، وهو من حلي الذراع.

قوله تعالى: ﴿شَرَّابًا طَهُورًا﴾، قال أبو قلابة، والثخعي: معناه لا يصير بولاً بل يكون رشحاً من الأبدان أطيب من المسك، وهنا محذوف يقتضيه القول بتقديره: يقول الله تعالى لهم والملائكة عنه: ﴿إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً﴾ الآية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ﴾ الآية... تشبيث لمحمد ﷺ، وتقوية لنفسه على أفعال قريش وأحوالهم، و«حُكْمَ رَبِّهِ» تعالى أن يبلغ ويكافح ويتحمل المشقة ويصبر على الأذى ليعذر الله تعالى إليهم. وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَوْكُرُونَ﴾ هو تخيير في أن يعرف الذي ينبغي ألا يطيعه بأي وصف كان من هذين؛ لأن كل واحد منهم فهو آثم وهو كفور، ولم تكن الأمة حيثئذ من الكثرة بحيث يقع الإثم على

العاصي، واللفظ أيضاً يقتضي نهي الإمام عن طاعة آثم من العصاة أو كفور من المشركين، وقال أبو عبيدة: (أَوْ) بمعنى «الواو» وليس في هذا تخيير.

ثم أمره تعالى بذكر ربّه عزّ وجلّ دأباً بُكْرَةً وَأَصِيلاً، ومن الليل بالسجود والتسبيح الذي هو الصلاة، ويحتمل أن يريد قول: «سبحان الله»، وذهب قوم من أهل العلم إلى أن هذه الآية إشارة إلى الصلوات الخمس، منهم ابن حبيب وغيره، فالْبُكْرَةُ: صلاة الصبح، والأصيل الظهر والعصر، ومن الليل: المغرب والعشاء، وقال ابن زيد وغيره: كان هذا فرضاً ونسخ، فلا فرض إلا الخمسة، وقال قوم، هو محكم على جهة الندب.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

الإشارة بـ «هَؤُلَاءِ» إلى كفار قريش، و«العاجلة»: الدنيا، وحُبهم لها أنهم لا يعتقدون غيرها، و﴿وَيَذَرُونَ وراءَهُم﴾ معناه: فيما يأتي من الزمان بعد موتهم، وقال لبيد:

أَلَيْسَ وَرَائِي إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي
لُزُومُ الْقَصَا تُحْتَى عَلَيْهَا الْأَصَابِعُ
ووصف اليوم بالثقل على جهة الثسب، أي: ذا ثقل من حيث الثقل فيه على الكفار، وهو كليل نائم.

ثم عدد تعالى النعمة على عباده في خلقهم وإيجادهم وإتقان بنيتهم وشد خلقتهم، و«الأُسْرُ»: الخلفة وأتساق الأعضاء والمفاصل، وقد قال أبو هريرة، والحسن، والربيع: الأُسْرُ: المفاصل والأروصال، وقد قال

بعضهم: الأَسْرُ: القوة، ومنه قول الشاعر:

فَأَنْجَاةُ غَدَاةِ الْمَوْتِ مِنِّي
شَدِيدُ الْأَسْرِ عَضُّ عَلَى اللَّجَامِ
وقول الآخر:

مِنْ كُلِّ مُجْتَنَبٍ شَدِيدِ أَسْرِهِ
سَلِسِ الْقِيَادِ تَخَالُهُ مُخْتَالًا
قال الطبري: ومنه قول العامة:
«خذه بأسره» يريدون: خذه كله.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
وأصل هذا فيما له شدٌّ ورباط
كالعظم ونحوه، وليس هذا مما
يختص بالعامة، بل هو في فصيح
كلام العرب، اللهم إلا أن يريد
العامة: جمهور العرب. ومن اللفظة
«الإسار» وهو القيد الذي يشدُّ به
الأسير.

ثم توعد تعالى بالتبديل، واجتمع
من القولين - تعديد النعمة والوعيد
والتبديل - احتجاج على منكري
البعث، أي: مَنْ هذا الإيجاد
والتبديل - إذا شاء - في قدرته فكيف
تتعذر عليه الإعادة؟

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ تَذَكُّرَةٌ﴾
يُحْتَمَلُ أَنْ يُشِيرَ إِلَى هَذِهِ الْآيَةِ، أَوْ
إِلَى السُّورَةِ بِأَسْرِهَا، أَوْ إِلَى الشَّرِيعَةِ
بِجَمَلَتِهَا، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَنْ شَاءَ﴾
لَيْسَ عَلَى جِهَةِ التَّخْيِيرِ، بَلْ فِيهِ قَرِينَةٌ
التَّحْذِيرِ وَالْحُضُّ عَلَى اتِّخَاذِ السَّبِيلِ،
وَالسَّبِيلُ هُنَا سَبِيلُ النِّجَاةِ.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ
يَشَاءَ اللَّهُ﴾ تُفِي لِقَدْرَتِهِمْ عَلَى
الِاخْتِرَاعِ وَإِجَادِ الْمَعَانِي فِي
نَفْسِهِمْ، وَلَا يَرُدُّ هَذَا مَا لَهُمْ مِنْ
الِاِكْتِسَابِ وَالْمِيلِ إِلَى الْكُفْرِ، وَقَرَأَ
عَبْدُ اللَّهِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا مَا

شَاءَ اللَّهُ﴾، وَقَرَأَ يَحْيَى بْنُ وَثَابٍ:
﴿تَشَاءُونَ﴾ بِكَسْرِ التَّاءِ، وَقَوْلُهُ
تَعَالَى: ﴿عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ مَعْنَاهُ: يَعْلَمُ مَا
يَنْبَغِي أَنْ يُسَّرَ عَلَيْهِ إِلَيْهِ، وَفِي ذَلِكَ
حِكْمَةٌ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ.

و ﴿الظَّالِمِينَ﴾ نَصَبَ بِإِضْمَارِ فِعْلِ
تَقْدِيرِهِ: وَيُعَذِّبُ الظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ،
وَفِي قِرَاءَةِ ابْنِ مَسْعُودٍ: ﴿وَاللِّظَالِمِينَ
أَعَدَّ لَهُمْ﴾، بِتَكَرِيرِ اللَّامِ، وَقَرَأَ
جُمْهُورُ السُّعَةِ: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ بِالتَّاءِ
عَلَى الْمُخَاطَبَةِ، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو
عَمْرٍو: ﴿تَشَاءُونَ﴾ بِالياءِ، وَقَرَأَ
الزُّبَيْرِيُّ، وَأَبَانُ بْنُ عُمَانَ، وَابْنُ أَبِي
عَبْلَةَ: ﴿وَالظَّالِمُونَ﴾ بِالرَّفْعِ، قَالَ أَبُو
الْفَتْحِ: ذَلِكَ عَلَى ارْتِجَالِ جُمْلَةٍ
مُسْتَأَنَفَةٍ.

ثم تفسير سورة الإنسان والحمد لله
رب العالمين

تفسير سورة المرسلات

وهي مكية في قول جمهور
المفسرين، وحكى النقاش أنه قيل:
إن فيها من المدني قوله تعالى:
﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّقُوا اللَّهَ لَا يُرْكَوْنَ بِهِ﴾،
عَلَى تَأْوِيلٍ مِنْ قَالَ إِنَّهَا حِكَايَةٌ عَنْ
حَالِ الْمُنَافِقِينَ، وَإِنَّمَا بِمَعْنَى قَوْلِهِ
تَعَالَى: ﴿وَيُنْعَوْنَ إِلَى الشُّجُورِ فَلَا
يَسْتَظِلُّونَ﴾، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: نَزَلَتْ
هَذِهِ السُّورَةُ وَنَحْنُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
بِخَيْرٍ... الحديث بطوله.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قال كثير من المفسرين:

«الْمُرْسَلَاتُ»: الرُّسُلُ إِلَى النَّاسِ مِنْ
الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، كَأَنَّهُ تَعَالَى
قَالَ: وَالْجَمَاعَاتُ الْمُرْسَلَاتُ، وَقَالَ
أَبُو صَالِحٍ، وَمِقَاتِلُ، وَابْنُ مَسْعُودٍ:
الْمُرْسَلَاتُ: الْمَلَائِكَةُ الْمُرْسَلَةُ
بِالْوَحْيِ وَبِالتَّعَاقُبِ عَلَى الْعِبَادِ طَرَفِي
النَّهَارِ، وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ أَيْضًا، وَابْنُ
عَبَّاسٍ وَمُجَاهِدٌ، وَقَتَادَةُ:
الْمُرْسَلَاتُ: الرِّيَاحُ، وَقَالَ
الْحَسَنُ بْنُ أَبِي الْحَسَنِ: الْمُرْسَلَاتُ:
السَّحَابُ. وَ﴿عُرْفًا﴾ مَعْنَاهُ عَلَى الْقَوْلِ
الْأَوَّلِ: عُرْفًا مِنْ اللَّهِ وَإِفْضَالًا عَلَى
عِبَادِهِ بِيَعْتَهُ الرُّسُلَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ،
وَمِنْهُ قَوْلُ الشَّاعِرِ:

مَنْ يَفْعَلِ الْخَيْرَ لَا يَنْدُمُ جَوَازِيَهُ
لَا يَذْهَبُ الْعُرْفُ بَيْنَ اللَّهِ وَالثَّانِسِ
وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ بِقَوْلِهِ ﴿عُرْفًا﴾
مُتَّاعَةً، عَلَى التَّشْبِيهِ بِتَتَابُعِ عُرْفِ
الْفَرَسِ وَأَعْرَافِ الْجِبَالِ وَنَحْوِ ذَلِكَ،
وَالْعَرَبُ تَقُولُ: «النَّاسُ إِلَى فُلَانٍ
عُرْفٌ وَاحِدٌ إِذَا تَوَجَّهُوا إِلَيْهِ،
وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ: بِالْعُرْفِ، أَي:
بِالْحَقِّ وَالْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَهَذِهِ
الْأَقْوَالُ فِي ﴿عُرْفًا﴾ تَتَّجِهُ فِي قَوْلٍ مِنْ
قَالَ: الْمُرْسَلَاتُ هِيَ الْمَلَائِكَةُ، وَمِنْ
قَالَ إِنَّ الْمُرْسَلَاتُ هِيَ الرِّيَاحُ اتَّجِهَ
فِي «الْعُرْفِ» أَنْ يَقَالَ: التَّأْوِيلُ عَلَى
تَخْصِيصِ الرِّيَاحِ الَّتِي هِيَ نِعَمٌ بِهَا
الْأَرْزَاقِ وَالنِّجَاةِ فِي الْبَحْرِ وَغَيْرِ ذَلِكَ
مِمَّا لَا نِقْمَةَ فِيهِ، وَيَكُونُ الصَّنْفُ
الْآخِرُ مِنَ الرِّيْحِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿فَالْمُهَيَّبَتِ عَصَا﴾، وَيَحْتَمَلُ أَنْ
يَكُونَ ﴿عُرْفًا﴾ بِمَعْنَى: وَالْمُرْسَلَاتُ
الرِّيَاحُ الَّتِي يَعْرِفُهَا النَّاسُ وَيَعْبُدُونَهَا،
ثُمَّ عَقَّبَ بِذِكْرِ الصَّنْفِ الْمُسْتَنْكَرِ
الضَّارِّ وَهِيَ الْعَاصِفَاتُ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ

يريد بالعرف مع الرياح التتابع كعرف
الفرس ونحوه، وتقول العرب: «هب
عُرف من ربح»، والقول في
العُرف مع أن المرسلات هي الرياح
يُطرد على أن المرسلات هي
السحاب، وقرأ عيسى: «عُرْفًا»
بضم الراء. و«العاصف» من الرياح:
الشديدة العاصفة للشجر وغيره.

واختلف الناس في قوله تعالى:
«وَالنَّشْرِيتِ» - فقال مقاتل، والسدي:
هي الملائكة تنشر صحف العباد
بالأعمال، وقال ابن مسعود،
والحسن، ومجاهد، وقتادة: هي
الرياح تنشر رحمة الله تعالى ومطره،
وقال بعض المتأولين: الناشرات
طوائف الملائكة التي تبشر إخراج
الموتى من قبورهم للبعث، فكأنهم
يحيونهم، وقال قوم: الناشرات
الرمم في بعث يوم القيامة، يقال:
نشر الميت، ومنه قول الأعشى:

يَا عَجَبًا لِلْمَيْتِ النَّاشِرِ
وقيل: الناشرات البقاع التي تحيا
بالأمطار، شبهت بالميت يُنشر،
وقال أبو صالح: الناشرات الأمطار
تحيا الأرض.

«فَالْمُغْلِقَاتِ»، قال ابن عباس، وابن
مسعود، وأبو صالح، ومجاهد،
والضحاك: هي الملائكة تفرق بين
الحق والباطل والحلال والحرام،
وقال قتادة، والحسن، وابن كيسان:
الفارقات آيات القرآن.

وَأَمَّا الْمُلْقِيَاتِ ذِكْرًا» فهي في قول
الجمهور: الملائكة، قال مقاتل:
جبريل عليه السلام ونحوه، وقال
آخرون: هي الرسل عليهم السلام،

وقرأ جمهور الناس: «فَالْمُلْقِيَاتِ»
بسكون اللام، أي: تُلقيه من عند الله
تعالى وبأمره إلى الرسل عليهم
السلام، وقرأ ابن عباس
رضي الله عنهما - فيما ذكر
المهدوي -: «فَالْمُلْقِيَاتِ» بفتح
اللام وفتح القاف وشدها، أي: تَلْقَاهُ
من قبل الله تعالى: وقرأ ابن عباس
أيضاً: «فَالْمُلْقِيَاتِ» بفتح اللام وشُدَّ
القاف وكسرهما، أي: تُلقيه هي
للرسل عليهم السلام، و«الذُّكْرُ»
الكتب والشرائع ومُصَنَّنَاتُهَا.

واختلف القراء في قوله تعالى:
«عُدْرًا أَوْ نُدْرًا»، فقرأ ابن كثير،
ونافع، وابن عامر، وعاصم - في
رواية أبي بكر - وأبو جعفر، وشيبة
بسكون الذال في «عُدْرًا» وضمها في
«نُدْرًا» وقرأ أبو عمرو، وحمزة،
والكسائي، وحفص عن عاصم،
وإبراهيم التيمي بسكون الذال فيهما،
وقرأ طلحة، وعيسى، والحسن -
بخلاف - وزيد بن ثابت، وأبو جعفر
وأبو حيوة، والأعمش عن ابن كثير
عن عاصم بضمها فيهما. وإسكانُ
الذال على أنهما مصدران، يقال:
عُدَّرَ وعُدِّرَ، ونُدِّرَ ونُدِرَ، ككنكبر
ونُكِرَ، وضم الذال يصحُّ معه
المصدر ويصح أن يكون جمعاً لنذير
وعاذر واللذين هما اسما فاعل،
والمعنى أن الذُّكْرَ يُلْقَى بِإِعْذَارٍ
وإنذارٍ، أَوْ يُلْقِيهِ مُعْذِرُونَ وَمُنْذِرُونَ،
وأما النصب في قوله تعالى: «عُدْرًا
أَوْ نُدْرًا» فيصح إذا كانا مصدرين
أن يكون ذلك على البدل من
«الذُّكْرُ»، ويصح أن يكون على
المفعول للذُّكْرُ، كأنه تعالى قال:

فَالْمُلْقِيَاتِ أَنْ نَذُرَ عُدْرًا، ويصح أن
يكون «عُدْرًا» مفعولاً من أجله،
أي: تُلقى الذُّكْرُ من أجل الإعذار
والإنذار، وأما إذا كان «عُدْرًا أَوْ
نُدْرًا» جمعاً فالنصب على الحال،
وقرأ إبراهيم التيمي: «عُدْرًا وَنُدْرًا»
بواو بدل «أو».

قوله تعالى: «إِنَّمَا تُوعَدُونَ
لَوَعْنٍ»، هذا الذي وقع عليه
القسم، والإشارة إلى البعث،
و«طَفَسُ النجوم» إزالة أضوائها
واستواؤها مع سائر جرم السماء،
و«فَرْجُ السماء» هو بانفطارها حتى
تحدث فيها فروج، و«نَسْفُ الجِبَالِ»
هو بعد التسيير، وقيل: كونها هباءً
وهو تفريقها بالريح، وقرأ الجمهور:
«أَفْتِنَتْ» بالهمزة وشُدَّ القاف، وقرأ
بتخفيف القاف مع الهمز عيسى،
وخالد، وقرأ أبو عمرو وحده:
«وَوَقَّتْ» بالواو، وقرأ بها أبو
الأشهب، وعيسى، وعمرو بن
عبيد، قال عيسى: هي لغة سُفْلَى
مضر، وقرأ أبو جعفر بواو واحدة
خفيفة القاف، وهي قراءة ابن
مسعود، والحسن، وقرأ الحسن بن
أبي الحسن: «وَوَقَّتْ» بواوَيْنِ،
على وزن فُوعِلت، والمعنى: جُعِلَ
لها وقت مُسَطَّرٌ فجاءَ وحانَ، والواو
في هذا كله هي الأصل، والهمزة
بدل.

وقوله تعالى: «لَآئِي يَوْمٍ أُتِنَتْ»
تعجيب وتوقيف على عظم ذلك
اليوم وهوله، ثم فسّر تعالى ذلك
الذي عَجِبَ منه بقوله: «يَوْمٍ
أُنْصَلِّ» يعني تعالى: بَيْنَ الخلق
في منازلهم وحسابهم ومنازلهم من

هذه السورة: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾ فقول: ذلك بمعنى التأكيد فقط، وقيل: بل في كل آية منها ما يقتضي التصديق، فجاء الوعيد على التكذيب يؤكد الذي في الآية.

ثم وقف تعالى على أصل الخلقة التي يقتضي النظر فيها تجويز البعث، و«الْمَاءُ الْمُهَيَّبُ» معنا: الضعيف، وهو المنئي من الرجل والمرأة، و«الْقَرَارُ الْمَكِينُ» الرُّجْمُ ويطن المرأة، و«الْقَدْرُ الْمَغْلُومُ» وقت الولادة ومعناه: معلوم عند الله تعالى في شخص شخص، وأما عند الأدبيين فيختلف، فليس بمعلوم قَدْرُ شخص بعينه، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ونافع، والكسائي: ﴿فَقَدَّرْنَا﴾ بتشديد الدال، وقرأ الباقون بتخفيفها، وهما بمعنى، من القُدرة والقدر، ومن التقدير والتوقيف، وقوله تعالى: ﴿الْقَدِيرُونَ﴾ يَرْجُحُ قراءة الجماعة، أما إن ابن مسعود روى عن النبي ﷺ أنه فسّر «القادرين» بالمُقَدِّرِينَ، وقرأ ابن أبي عمير: ﴿فَقَدَّرْنَا﴾ بتشديد الدال ﴿فَقَمَّ الْقَدِيرُونَ﴾ و «الْكِفَاةُ» الستر والوعاء الجامع للشيء بإجماع، تقول: كَفَتَ الرجل شعره، إذا جمعه بخرقه، والأرض تَكْفَتُ الأحياء على ظهرها، وتَكْفَتُ الأمواتُ في بطنها، و«أَحْيَاءٌ» - على

أَنْ تَخْلُقَ كُرْمًا مِنْ مَاءٍ وَتُهَيِّبَ ۝ جَعَلْتَهُ فِي قَرَارٍ رَكِينٍ ۝ إِلَاقِدْرٍ مَعْلُومٍ ۝ قَدَّرْنَا فَعَمَّ الْقَدِيرُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَنْ تَجْعَلَ الْأَرْضَ كِنَانًا ۝ أَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتًا ۝ وَجَعَلْنَا بَارِئًا رُوسِي سَمِيحَتٍ وَأَسْفَيْنَا مَاءَهُ قَرَارًا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ أَنْظِلْنَا إِلَى مَا كُنْتُمْ بِهِ مُكْذِبُونَ ۝ أَنْظِلْنَا إِلَى الْوَالِدِ الَّذِي كُنْتُمْ تُشْعِبُونَ ۝ لِأَطْلِيلٍ وَلَا يُعْنَى مِنْ اللَّهَبِ ۝ إِنَّمَا تَزْبِي بِشَكْرٍ كَالْقَصْرِ ۝ كَأَنَّهُ هَمَلَتْ صُفْرًا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ ۝ وَلَا يُؤَدُّنَ لَهُمْ فِعْدُونَهُمْ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمْعُكُمْ وَالْأَوَّلِينَ ۝ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُوا ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ إِنْ أَلْمَنِينَ فِي ظُلْمٍ وَعَمْرُونَ ۝ وَفَوَكَهْتُمْ مَسَاءِئِهِمْ ۝ كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ۝ إِنَّا كَذَّبْنَا نَجْمِي الْحَسِينِ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ كَلُوا وَتَسْمَعُوا قَلِيلًا أَنْ كَرَّ جُرْمُونَ ۝ وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ ۝

هذا التأويل - معمول لقوله سبحانه: ﴿كِنَانًا﴾؛ لأنه مصدر، وقال بعض المتأولين: ﴿أَحْيَاءٌ وَأَمْوَاتًا﴾ إنما هو بمعنى أن الأرض فيها أقطارُ أحياء وأقطارُ أموات، يراد: ما بُنيت وما لا بُنيت، فنصب «أَحْيَاءٌ» - على هذا - إنما هو على الحال من «الأرض»، والتأويل الأول أقوى، وقال بئان: خرجنا مع الشعبي إلى جنازة فنظر إلى الجبانة فقال: هذه كِفَاتُ الموتى، ثم نظر إلى البيوت فقال: هذه كِفَاتُ الأحياء، وكانت العرب تُسَمِّي «بقيع الغرقدة» كَفْتَهُ لأنه مقبرة يضم الموتى، وفي الحديث: «خَمَرُوا آيَاتِكُمْ، وَأَوَكُوا أَسْفِينَتِكُمْ، وَكَفَتُوا صِنْيَانَكُمْ، وَأَغْلَقُوا أَبْوَابَكُمْ، وَأَطْفَنُوا مَصَابِيحَكُمْ»، ودفن ابن مسعود قملة في المسجد ثم قرأ: ﴿أَنْ تَجْعَلَ الْأَرْضَ كِنَانًا﴾، ولما

جنة أو نار، ومن هذه الآية انتزع القضاء الآجال في الحكومات ليقع فصل القضاء عند تمامها، ثم عظم سبحانه يوم الفصل بقوله: ﴿وَمَا أَذْرَبْكَ مَا يَوْمُ الْفَصْلِ﴾، على نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا أَذْرَبْكَ مَا لَوَاقَةُ﴾ وغير ذلك، ثم أثبت تعالى الويل للمكذبين في ذلك اليوم، والمعنى: للمكذبين به في الدنيا ويسائر فصول الشرع، و«الْوَيْلُ» هو الحرب والحزن على نوائب تحدث بالمرء، ويروى عن النعمان بن بشير، وابن مسعود، وعمار بن ياسر أن وادياً في جهنم اسمه الوَيْلُ.

١٦ - ١٧ تفسير قوله عز وجل: ﴿قَرَأَ جَمْهُورُ الْقُرْآنِ﴾: ﴿ثُمَّ تُنْفِخُهُمْ﴾ بضم العين على استثناء الخبر، وقرأ أبو عمرو - فيما زوي عنه -: ﴿ثُمَّ تُنْفِخُهُمْ﴾ بجزم العين عطفاً على «تَهْلِكُ»، وهي قراءة الأعرج، وعلى حسب هاتين القراءتين يجيء التأويل في «الْأَوَّلِينَ» فَمَنْ قرأ الأولى جعل «الْأَوَّلِينَ» الأمم التي تقدمت قريباً بأجمعها، ثم أخبر تعالى أنه يُنْفِخُ «الْآخِرِينَ» مِنْ قَرِيشٍ يَسِيرَ أَوْلَئِكَ إِذَا كَفَرُوا وَسَلَكُوا سَبِيلَهُمْ، وَمَنْ قرأ الثانية جعل «الْأَوَّلِينَ» قوم نوح وإبراهيم ومن كان معهم، و«الْآخِرِينَ» قوم فرعون وكل من تأخذ وقرب من مُدَّة محمد ﷺ، وفي حرف عبدالله: ﴿وَسُنْفِخُهُمْ﴾، ثم قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ نَعْمَلُ بِالْمُجْرِمِينَ﴾، أي: في المستقبل، فتدخل هنا قريش وغيرها من الكفار.

وأما تكرار قوله تعالى في

وأما تكرار قوله تعالى في

كان القبر كِفَاتًا كَالْبَيْتِ قُطِعَ مِنْ سَرَقٍ مِنْهُ .

و «الرَّوَّاسِي» الجبال؛ لأنها رَسَتْ، أي: ثبَتَتْ، و«الشَّايخُ» المرتفع، ومنه: شَمَخَ بِأَنْفِهِ، أي: ارتفع واستعلى، شبه المعنى بالشخص. و«أَسْقَى» جعله سقياً للغلات والمنافع، و«سَقَى» معناه: للشفة خاصة، هذا قول لجماعة من أهل اللغة، وقال آخرون: هما بمعنى واحد، و«الْفَرَاتُ» الصَّافِي، ولا يقال لِلْمَلْحِ فَرَاتٌ، وهي لفظة تجمع ماء المطر ومياه الأنهار، وخص النهر المشهور هذا تشريراً له، وهو نهر الكوفة، وسيحان هو نهر بلخ، وجيحان هو نهر دجلة، والنيل نهر مصر، وحكي عن عكرمة أن كل ماء في الأرض فهو من هذه، وفي هذا بُعد، والله تعالى أعلم.

﴿٢٩﴾ - ﴿٣٠﴾ تفسير قوله عز وجل:

الضمير في قوله تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ هو للمكذابين الذين لهم الويل، يقال لهم: انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون من عذاب الآخرة، ولا خلاف في كسر اللام من قول تعالى: ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ في هذا الأمر الأول، وقرأ يعقوب - في رواية رويس -: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظُلٍّ﴾ بفتح اللام، على معنى الخبر، وقرأ جمهور الناس: ﴿أَنْطَلِقُوا﴾ بكسر اللام، على معنى تكرير الأمر الأول، وبيان المُنْطَلَقِ إليه، وقال عطاء: الظلُّ الذي له ثلاث شعب هو دخان جهنم، رُوي أنه يعلو من ثلاثة مواضع فيراه الكفار فيظنون أنه مُثَنٌّ فيهرعون إليه فيجدونه على

أسوأ وصف، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذه المخاطبة إنما تقال يومئذ لِمَبْدَةِ الصَّلِيبِ إِذَا اتَّبَعَ كُلُّ أَحَدٍ مَا كَانَ يَعْبُدُ، فيكون المؤمنون في ظل الله تعالى، ولا ظِلٌّ إِلَّا ظِلُّهُ، ويقال لَعَبْدَةِ الصَّلِيبِ: انطلقوا إلى ظِلِّ مَعْبُودِكُمْ وهو الصليب له ثلاث شعب، والشعب تفرق الجسم الواحد فرقاً، ثم نفى تعالى عنه محاسن الظلِّ.

والضمير في ﴿إِنَّمَا﴾ لجهنم، وقرأ عيسى بن عمر: ﴿بِشَرَارٍ﴾ بآلف، جمع شرارة، وهي لغة تميم، و«القَصْر» في قول ابن عباس وجماعة من المفسرين: اسم نوع القصور، وهي الأُدُورُ الكبار مُشَيِّدَةٌ، وقد شبهت العرب بها الثوق، ومن المعنى قول الأخطل:

كَأَنَّهَا بُزْجٌ رُومِيٌّ يُشَيِّدُهُ
لُزْبِجِصٌّ وَأَجْرٌ وَأَخْجَارٍ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: القصر أيضاً خشب كان في الجاهلية يُقَطَّعُ مِنْ جَزَلِ الحطب من النخل وغيره، على قدر الذراع وفوقه ودونه، يُسْتَعَدُّ بِهِ للشَّاءِ، يُسَمَّى القَصْرَ، واحده قَصْرَةٌ، وهو المراد في الآية، وإنما سُمِّيَ بالقصر لأنه يحيط بالقصر. وقال مجاهد: القَصْرُ حَزْمُ الحطب، وهذه قراءة الجمهور. وقرأ ابن عباس أيضاً وابن جبير: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ بفتح الصاد، جمع قَصْرَةٌ، وهي أعناق الخيل والإبل، وكذلك هي أيضاً في الناس، وقال ابن عباس: جذور النخل، وقرأ ابن جبير أيضاً والحسن: ﴿كَالْقَصْرِ﴾ بكسر القاف

وفتح الصاد، وهي جمع قَصْرَةٌ كَحَلَقَةٍ وَجَلَّتْ مِنَ الحديد.

واختلف الناس في «الجمالات»، فقال جمهور المفسرين: هي جمع «جمال» على صحيح البناء كرجال ورجالات، وقال آخرون: أراد بالصفَر: السود، وأنشدوا على ذلك بيت الأعشى:

تَلَّكَ حَيْلِي مِنْهُ وَتَلَّكَ رِكَابِي
هُنَّ صَفَرٌ أَوْلَادُهَا كَالزَّبِيبِ

وقال جمهور الناس: بل «الصفَر»: الفاقعة لأنها أشبه بلون الشَّرَرِ، وشبهه الشَّرَرُ بالجمالات، وقرأ الحسن: ﴿صَفْرٌ﴾ بضم الصاد والفاء، وقال ابن عباس، وابن جبير: الجمالات قُلُوسُ السفن، وهي جمالاتها العظام إذا جمعت مستديرة بعضها إلى بعض جاء منها أجرام عظام، وقال ابن عباس: الجمالات قطع النحاس الكبار، وكان اشتقاق هذه اللفظة من اسم الجملة.

وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم: ﴿جَمَلَةٌ﴾ بكسر الجيم، لحقت التاء جمالاً لتأنيث الجمع فهي كَحَجَرٍ وَحِجَارَةٍ، وقرأ ابن عباس، وأبو عبد الرحمن، والأعمش: ﴿جَمَالَةٌ﴾ بضم الجيم، وقرأ باقي السبعة والجمهور وعمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿جَمَالَاتٌ﴾ على ما تفسر بكسر الجيم، وقرأ ابن عباس أيضاً، وقتادة، وابن جبير، والحسن، وأبو رجاء - بخلاف عنهما -: ﴿جَمَالَاتٌ﴾ بضم الجيم، واختلف عن نافع، وأبي جعفر، وشيبة، وكان ضم الجيم فيها من الجملة لا من الجمل، وكسرها من الجمل لا من الجملة.

ولما ذكر تعالى المكذبين قال مخاطباً لمحمد ﷺ: ﴿هَذَا يَوْمٌ لَا يَنْطِقُونَ﴾، أي: في يوم القيامة أسكتهم الهيبة وذُلُّ الكفر، وهذا في موطن خاص فإنهم لا ينطقون فيه؛ إذ قد نطق القرآن بنطقهم: ﴿رَبَّنَا أَنْتَنَا﴾، فهي مواطن، ﴿أَنْتَجَنَا﴾ ﴿رَبَّنَا أَنْتَنَا﴾، فهي مواطن، و﴿يَوْمٌ﴾ مضاف إلى قوله تعالى: ﴿لَا يَنْطِقُونَ﴾، وقرأ الأعرج، والأعمش، وأبو حنيفة: ﴿هَذَا يَوْمٌ﴾، لما أضاف إلى غير متمكن بناه، فهي فتحة بناء، وهي في موضع رفع، ويحتمل أن يكون ظرفاً وتكون الإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ إلى رَمِيهَا بِشَرِّر كَالْقَصْرِ. وقوله تعالى: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ معطوف على ﴿يُؤذَنُ﴾، ولم ينصب في وجوب النفي لتشابه رؤوس الآي، والوجهان جائزان.

وقوله تعالى: ﴿هَذَا يَوْمُ الْقَضَاءِ جَمَعًا﴾ مخاطبة للكفار يومئذ، و«الأولون» المشار إليهم قوم نوح وغيرهم ممن جاء في صدر الدنيا وعلى وجه الدهر. ثم وقف تعالى عبيده الكفار المستوجبين عقابه بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فُكُورٌ﴾، أي: إن كان لكم حيلة أو مكيدة تُنجيكم فافعلوها.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

ذَكَرَ تَعَالَى حَالَةَ الْمُتَّقِينَ عَقِبَ ذِكْرِ حَالَةِ أَهْلِ النَّارِ لِبَيِّنِ الْفَرْقِ، وَ«الظَّلَالُ» فِي الْجَنَّةِ عِبَارَةٌ عَنْ تَكَاثُرِ الْأَشْجَارِ وَجُودَةِ الْمَبَانِي، وَإِلَّا فَلَا شَمْسَ تُؤْذِي هُنَالِكَ حَتَّى يَكُونَ ظِلٌّ يَجِيرُ مِنْ حَرِّهَا، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ وَقَرَأَ الْأَعْرَجُ، وَالْأَعْمَشُ: ﴿فِي ظِلِّلٍ﴾ بِضَمِّ الظَّاءِ، وَ«العيون» الماءُ

النايع، وقوله تعالى: ﴿مِمَّا يَشْتَبُونَ﴾ إِيْلَامٌ بِأَنَّ الْمَأْكُلَ وَالْمَشْرَبَ هُنَالِكَ بِرَسْمِ شَهَوَاتِهِمْ، بِخِلَافِ مَا هِيَ الدُّنْيَا عَلَيْهِ، فَإِنَّ فِيهَا شَاذٌ نَادِرٌ، وَالْعُرْفُ أَنْ الْمَرْءَ يَرُدُّ شَهْوَتَهُ إِلَى مَا يَقْتَضِيهِ وَجَدُهُ، وَهُنَا مَحْذُوفٌ يَدُلُّ عَلَيْهِ اللَّفْظُ، تَقْدِيرُهُ: يُقَالُ لَهُمْ: كُلُوا. وَ«هَيِّئَا» نَصَبٌ عَلَى الْحَالِ، وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ نَصَبُهُ عَلَى جِهَةِ الدَّعَاءِ. وَالْكَافُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كَذَّابٌ﴾ كَافٌ تَشْبِيهِ، وَالْإِشَارَةُ بِذَلِكَ إِلَى مَا ذَكَرَهُ مِنْ نَعِيمِ أَهْلِ الْجَنَّةِ.

وقوله تعالى: ﴿كُلُوا وَشَبِّهُوا﴾ مخاطبة لقريش، على معنى: قل لهم يا محمد، وهذه صيغة أمر معناها التهديد والوعيد، وقد بيّن ذلك قوله تعالى: ﴿فَيَلَا﴾، ثم بيّن تعالى لهم الإِجْرَامَ الْمَوْجِبَ لَتَعَذِّبِهِمْ، وَقَالَ مَنْ جَعَلَ السُّورَةَ كُلَّهَا مَكِيَّةً: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ فِي كِفَارِ قَرِيشٍ، وَقَالَ مَنْ جَعَلَ هَذِهِ الْآيَةَ مِنْهَا مَدَنِيَّةً: إِنَّ هَذِهِ الْآيَةَ نَزَلَتْ فِي الْمُنَافِقِينَ، وَقَالَ مِقَاتِلٌ: نَزَلَتْ فِي ثَقِيفٍ لِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: حُطِّ عَنَا الصَّلَاةَ فَإِنَّا لَا نَنْحَنِي لِأَنَّهَا مَسَّبَةٌ، فَأَبَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَالَ: «لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا صَلَاةَ فِيهِ».

قوله تعالى: ﴿وَلِإِنَّا لَمُرُّكُمْ أَكْفَرًا لَا يَرْكَبُونَ﴾، قيل: هي حكاية حال المنافقين في الآخرة إذا سجد الناس فأرادوا هم السجود فأنصرفت أصلابهم إلى الأرض وصارت فقاراتهم كصياصي البقر، قاله ابن عباس رضي الله عنهما وغيره، وقال قتادة في آخرين: هذه حال كفار قريش في الدنيا، كان رسول الله ﷺ يدعوهم وهم لا يجيبون، وذكُر

الركوع عبارة عن جميع الصلاة، هذا قول الجمهور، وقال بعض المتأولين: عنى بالركوع التواضع، كما قال الشاعر:

تَرَى الْأَكْمَمَ فِيهِ سُجْدًا لِلْحَوَافِرِ
أَيُّ: مُتَذَلِّلَةٌ، وَتَأْوُلُ قِتَادَةَ الْآيَةِ قَاصِدَةً الرَّكُوعَ نَفْسَهُ، وَقَالَ: عَلَيْكُمْ بِحَسَنِ الرَّكُوعِ، وَالَّذِي أَقُولُ: إِنْ ذَكَرَ الرَّكُوعَ هُنَا وَتَخْصِيصَهُ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ أَحْوَالِ الْعِبَادَةِ إِنَّمَا كَانَ لِأَنَّ كَثِيرًا مِنَ الْعَرَبِ كَانَ يَأْتِي مِنَ الرَّكُوعِ وَالسُّجُودِ، وَيَرَاهَا هَيْئَةً مُنْكَرَةً، لِمَا كَانَ فِي أَخْلَاقِهِمْ مِنَ الْعَجْرَفَةِ، أَلَا تَرَى أَنَّ بَعْضَهُمْ قَدْ سَتَلَ فَقِيلَ لَهُ: كَيْفَ تَقُولُ: اسْتَحْذَأْتُ أَوْ اسْتَحْذَيْتُ؟ فَقَالَ: كُلُّ لَا أَقُولُ، قِيلَ لَهُ: لِمَ؟ قَالَ: لِأَنَّ الْعَرَبَ لَا تَسْتَحْذِيءُ، فَظَنَّ أَنَّهُ سَتَلَ عَنِ الْمَعْنَى، وَلَمْ يَفْهَمْ أَنَّهُ سَتَلَ عَنِ اللَّفْظَةِ، وَفِي كِتَابِ السُّبْرِ عَنْ بَعْضِ الْعَرَبِ أَنَّهُ اسْتَعْفَى مُتَكَلِّمًا عَنْ قَوْمِهِ وَنَفْسِهِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ، فَلَمْ يُجِبْهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، قِيلَ: قَالَ لَهُ: لَا بُدَّ مِنَ الصَّلَاةِ، فَقَالَ عِنْدَ ذَلِكَ: سَيُؤْتِيكَهَا وَإِنْ كَانَتْ دِنَاءَةً.

وقوله تعالى: ﴿فِي أَيِّ حَدِيثٍ بَدَّدُ يَوْمُونَ﴾ يُؤَيَّدُ أَنَّ الْآيَةَ كُلَّهَا فِي قَرِيشٍ، وَالْحَدِيثُ الَّذِي يَقْتَضِيهِ الضَّمِيرُ فِي «بَدَّدُ» هُوَ الْقُرْآنُ، وَهَذَا تَوْقِيفٌ وَتَوْبِيخٌ، وَرَوَى عَنْ يَعْقُوبَ أَنَّهُ قَرَأَ: «تَوْمِنُونَ» بِالتَّاءِ مِنْ فَوْقِ، عَلَى الْمَوَاجِهةِ، وَرَوَيْتُ عَنْ ابْنِ عَامِرٍ.

كَمَلْتُ تَفْسِيرَ سُورَةِ الْمُرْسَلَاتِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ

وقرأ السبعة، والحسن، وأبو جعفر، وشيبة، والأعمش: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ بالياء في الموضعين، على ذكر الغائب، فظاهر الكلام أنه رد على الكفار في

تكذيبهم، ووعد لهم في المستقبل، وكرر الزجر تأكيداً، وقال الضحاك: المعنى: كلاً سيعلمون، يعني الكفار على جهة الوعيد، ثم كلاً سيعلمون، يعني المؤمنين على جهة الوعد، وقرأ ابن عامر - فيما زوي عنه -

ومالك بن دينار، والحسن - بخلاف - ﴿كَلَّا سَتَعْلَمُونَ﴾ بالتاء في

الموضعين، على مخاطبة الحاضر، كأنه تعالى يقول: قل لهم يا محمد، وكرر عليهم الزجر والوعد تأكيداً، وكل تأويل في هذه القراءة غير هذا متعسف، وقرأ قوم: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ بالياء على جهة الرد والوعيد للكفار، ثم ﴿كَلَّا سَتَعْلَمُونَ﴾ بالتاء من فوق على جهة الرد على الكفار والوعد للمؤمنين، فالعلم في هذه الآية بمعنى «ستعرفون»، فلذلك لم يتعد.

ثم وقفهم تعالى على آياته وغرائب مخلوقاته وقدرته التي يوجب النظر فيها الإقرار بالبعث والإيمان بالله تعالى، و«المهادة الفِراش الممهّد الوطيء»، وكذلك الأرض لبنيتها، وقرأ مجاهد، وعيسى، وبعض الكوفيين: ﴿مَهْدَأٌ﴾، والمعنى نحو الأول، وشبه سبحانه الجبال بالأوتاد لأنها تمسك وتثقل وتمنع الأرض أن تميد، و﴿أَزْوَاجًا﴾ معناه: أنواعاً في ألوانكم وصوركم وألستكم، وقال قوم: معناه مزدوجين ذكراً وأنثى.

وابن مسعود وعكرمة، وعيسى: ﴿عَمَّا﴾ بالألف، وقرأ الضحاك: ﴿عَمَّهُ﴾ بهاء، وهذا إنما يكون عند الوقف.

و «النبأ العظيم» قال قوم: هو الشرع الذي جاء به محمد ﷺ، وقال مجاهد وقتادة: هو القرآن خاصة، وقال قتادة أيضاً: هو البعث من القبور.

ويحتمل الضمير في ﴿يَسْأَلُونَ﴾ أن يريد به جميع العالم، فيكون «الاختلاف» حينئذ يراد به تصديق المؤمنين وتكذيب الكافرين ونزغات

الملحدين، ويحتمل أن يريد بالضمير الكفار من قريش، فيكون «الاختلاف» شك بعض وتكذيب بعض، وقولهم شُغر وسُخر وكهانة وجنون وغير ذلك، وقوله تعالى:

﴿عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ﴾ متعلق بـ ﴿يَسْأَلُونَ﴾ الظاهر، كأنه تعالى قال: لم يتساءلون عن هذا النبأ؟ وقال الزجاج: الكلام تام في قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَسْأَلُونَ﴾، ثم كان مقتضى القول أن يُجيب مجيباً، فيقول: يتساءلون عن النبأ العظيم، فاقضى إيجاز القرآن وبلاغته أن

يبادر المحتجّ بالجواب الذي تقتضيه الحال والمجاورة، اقتضاباً للْحُجَّة وإسراعاً إلى موضع قطعهم، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿قُلْ أُنْتُمْ أَكْثَرُ شُهَدَاءَ قُلُوبِكُمْ شَاهِدُونَ﴾، وله أمثلة كثيرة، وقد وقع التنبيه عليها في مواضعها.

سُورَةُ النَّبِئِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

عَمَّ يَسْأَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبِئِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾ الَّذِي هُوَ فِيهِ مَخْلُقُونَ ﴿٣﴾ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٤﴾ وَكَلَّا سَيَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهْدًا ﴿٦﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا ﴿٧﴾ وَخَلَقْنَا نُجُومًا ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا نُجُومًا ﴿٩﴾ وَجَعَلْنَا لَيْلًا لِيَاسًا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاسًا ﴿١١﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَمَاوَاتٍ ثَلَاثًا ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا ﴿١٣﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَمَرًا ﴿١٤﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلْنَا اللَّفَافَ ﴿١٦﴾ إِنْ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُفْعَفُ فِي الصُّورِ ﴿١٨﴾ فَأَنْتُمْ أَقْوَامًا ﴿١٩﴾ وَفِي حَيْثُ السَّمَاءِ فَكَانَتْ أَبْوَابًا ﴿٢٠﴾ وَسُيِّرَتِ الْمِبَالُ ﴿٢١﴾ فَمَا كَانَتْ سِرَابًا ﴿٢٢﴾ إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢٣﴾ لِلطَّاغِيَةِ ﴿٢٤﴾ مَنَابًا ﴿٢٥﴾ لِيُنَبِّئَنَّ فِيهَا أَحْقَابًا ﴿٢٦﴾ لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٧﴾ إِلَّا جِيعًا وَمِعْسًا ﴿٢٨﴾ جَزَاءً وَفَاءً ﴿٢٩﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٣٠﴾ وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كِذَابًا ﴿٣١﴾ وَكُلُّ شَيْءٍ أَمْصِيئَةٌ كَعْتَابٍ ﴿٣٢﴾ فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا ﴿٣٣﴾

٥٨٢

تفسير

سورة النبأ

وهي مكية بإجماع، وليس فيها نسخ ولا حكم إلا ما قاله بعض الناس في قوله تعالى: ﴿لِيُنَبِّئَنَّ فِيهَا أَحْقَابًا﴾ من أنه منسوخ، وهو قول خلف، لأن الأخبار لا تُنسخ، وإنما ذكرنا هذا القول تنبيهاً على فساده.

١ - ﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل:

أصل ﴿عَمَّ﴾ عن ما، ثم أدغمت النون بعد قلبها فبقي «عَمَّا» في الخبر وفي الاستفهام، ثم حذفوا الألف في الاستفهام فرقاً بينه وبين الخبر، ثم من العرب من يخفف الميم تخفيفاً فيقول: «عم»، وهذا الاستفهام بـ «عَمَّ» هو استفهام توقيف وتعجيب منهم، وقرأ أبي بن كعب،

و «الشبَّاتُ» السُّكُونُ، وَسَبَّتَ الرجلُ معناه: استراح وأتدخَّرَ وترك الشغل، ومنه السُّبَّاتُ وهي علَّةٌ معروفة؛ سُمِّيَتْ بذلك لأنَّ السكون أو السكوت أفرط على الإنسان حتى صار ضاراً قاتلاً، والنوم شبيه به إلا في الضرر، وقال أبو عبيدة: ﴿سَبَّاتًا﴾: قَطْعًا للأعمال والتصرف، والسَّبْتُ: القَطْعُ، ومنه «سَبَّتَ الرجلُ شَعْرَهُ» إذا قطع شَعْرَهُ، ومنه النَّعَالُ السَّبِيئَةُ وهي التي قطع عنها الشعر.

و ﴿لِبَاسًا﴾ مصدر، وكان الليل كذلك من حيث يغشى الأشخاص فهي تلبسه وتتدرَّعُه، ويقال: جعله لباساً لأنه يطمس نور الأبصار ويُلْبَسُ عليها الأشياء، والتصريفُ يضعف هذا القول لأنه كان يجب أن يكون «مُلْبِيسًا»، ولا يقال: «لباس» إلا من لبس الثياب. و﴿وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَنَاقًا﴾ على حذف مضاف، أو على النسب، وهذا كما تقول: «لَيْلٌ نائِمٌ»، و«السَّيْحُ الشَّدَادَةُ»: السموات، والأفصح في لفظة السماء التأنيث، ووصفها بالشدَّة لأنه لا يسرع إليها فساد لَوْنَاتِهَا، و«السَّرَاجُ»: الشمس، و«الوَهَّاجُ»: الحارُّ المضطرمُّ الأتقاد، المتعالي اللهب، وقال عبدالله بن عمرو بن العاص: إن الشمس في السماء الرابعة إلينا ظهرها، ولَهَبُهَا مضطرمٌ علواً.

واختلف الناس في ﴿الْمُعْصِرَاتِ﴾ فقال الحسن بن أبي الحسن، وأبي بن كعب، وابن جُبَيْر، وزيد بن أسلم، ومقاتل، وقتادة: هي السموات، وقال ابن عباس، وأبو العالية، والربيع، والضحاك:

المعصراتُ هي السحابُ القاطرة، وهو مأخوذ من العصر؛ لأنَّ السحاب ينعصر فيخرج منه الماء، وهذا قول الجمهور، وبه فسَّر الحسن بن محمد العنبري القاضي بيت حسان:

كَلْتَاهُمَا حَلَبُ الْعَصِيرِ...

وقال بعض مَنْ سَمَّيْتُ: هي السحاب التي فيها الماء ولَمَّا تُمطر، كالمرأة المُعْصِر، وهي التي دنا حيضها ولم تحض بعد، وقال ابن كيسان: قيل للسحاب مُعْصِرَاتٌ من حيث تُغِيث، فهي من «العُصْرَةِ»، ومنه قوله تعالى: ﴿رَفِيهِ يَمُورُونَ﴾، وقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد: المعصرات: الرياح لأنها تعصر السحاب، وقرأ ابن الزبير، وابن عباس والفضل بن عباس، وقتادة، وعكرمة: ﴿وَأَنْزَلْنَا بِالْمُعْصِرَاتِ﴾، فهذا يقوي أنه أراد الرياح. و«السُّجَّاجُ»: السريعُ الاندفاع كما يندفع الدَّمُ من عروق الذبيحة، ومنه قول النبي ﷺ وقد قيل له: ما أفضل الحج؟ فقال: «المعجُ والسُّجَّاجُ»، أراد: التضرعُ بالدعاء الجهير وذبح الهدى. و«الحَبُّ»: جنس الحبوب الذي ينتفع به الحيوان، و«النباتُ»: العُشْبُ الذي يستعمل رطباً لإنسان أو بهيمة، فذكر الله تعالى موضع المنفعتين. و«الْأَنَابَا» جمع «أَفْ» بضم اللام و«أَفْ» جمع «أَفَاء»، والمعنى مُلْتَمَّاتُ الأَغْصَانِ والأوراق، وذلك أبداً موجود مع النضرة والريِّ، وقال قوم: «الْأَنَابَا» جمع «إِفْ» بكسر اللام، و«الْفُ»: الجنةُ المُلْتَمَّةُ الأَغْصَانِ، وقال الكسائي:

«أَلْفَافٌ» جمع «لَفِيفٌ»، وقد قال الشاعر:

أَحَابِيشُ أَلْفَافٍ تَبَايِنَ فَرْعُهُمْ
وَجَذْمُهُمْ عَنِ نِسْبَةِ الْمُتَقَرَّبِ

«يَوْمَ الْفَصْلِ» هو يوم القيامة؛ لأنَّ الله تعالى يفصل فيه بين المؤمنين والكافرين، وبين الحق والباطل، و«الْمِيقَاتُ» مَفْعَالٌ من الوقت، كميعةٍ من الودع. وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُفْخَخُ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ﴾ الأول، و«الصُّورُ»: القَزْنُ الذي يُفْخَخُ فيه لبعث الناس، هذا قول الجمهور، ويحتمل هذا الموضع أن يكون «الصُّور» فيه جمع «صورة»، أي: يوم يردُّ الله تعالى الأرواح إلى الأبدان، هذا قول بعضهم في «الصُّور»، وجوزَه أبو حاتم، والأول أشهر، وبه تظاهرت الآثار، وهو ظاهر كتاب الله تعالى في قوله سبحانه: ﴿ثُمَّ يُفْخَخُ فِيهِ لُحْرَيْنِ﴾، وقرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فِي الصُّورِ﴾ بفتح الواو. و«الأفواجُ»: الجماعاتُ يتلو بعضها بعضاً، واحداً فوجاً.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وأبو جعفر، وشيبة، والحسن: ﴿وَفُتِحَتْ﴾ بشد التاء على المبالغة، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿وَوُيْحَتْ﴾ دون شدِّ. وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ أَوْكَا﴾ معناه: تنظرت وتشققت حتى يكون فيها فتوح كالأبواب في الجدران، وقال آخرون: فيما حكى مكي بن أبي طالب -: الأبواب هنا فُلُقُ الخشب التي تجعل أبواباً لفتوح الجدران، أي: تتقطع

النار، ومن الناس من ظن لذكر الأحقاب أن مدة العذاب تنحصر وتتم، فطلبوا التأويل لذلك، فقال مقاتل بن حيان: الحُقْبُ سبعة عشر ألف سنة، وهي منسوخة بقوله تعالى: ﴿فَدُورُوا فَلَ تَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، وقد ذكرنا فساد هذا القول. وقال آخرون: الموصوف باللبث أحقاباً هم عصاة المؤمنين. وهذا أيضاً ضعيف، ما بغه في السورة يرده عليه، وقال آخرون: إنما المعنى: لاثنين فيها أحقاباً غير ذائقين بزداً ولا شراباً، فبهذه الحال يلبثون أحقاباً، ثم يبقى العذاب سرمداً وهم يشربون أشربة جهنم.

وقرأ الجمهور: ﴿لَبِيبِينَ﴾ وقرأ حمزة وحده، وابن مسعود، وعلقمة، وابن وثاب، وعمرو بن ميمون، وعمرو بن شرحبيل: ﴿لَبِيبِينَ﴾ جمع «لَبِيبٌ»، وهي قراءة معترضة، لأن فعلاً إنما يكون لما صار خُلُقاً كخَذِرٍ وفِرْقٍ، وقد جاء شاذاً فيما ليس بخلق، وأنشد الطبري وغيره في ذلك بيت لبيد:

أَوْ يَسْحَلُ عَيْلٍ عِضَادَةٌ سَمْحَجٍ
بِسَرَاتِهَا تَسْدُبُ لَهُ وَكُلُومٍ
قال المعترض في القراءة: لا حجة في البيت لأن «عملاً» قد صار كالخلق الذي يواظب على العمل به حتى إنه ليُسَمَّى به في وقت لا يعمل فيه، كما تقول: «كاتب» لمن كانت له صناعة وإن لم يكتب أكثر أحيانه، قال المحتج لها: شبه «لبث» لدوامه بالخلق لما صار اللبث من شأنه.

(٢٤) - (٢٧) تفسير قوله عز وجل:

قال أبو عبيدة، والكسائي،

الصراف جسرٌ ينصب على مثن جهنم، ثم يجوز عليه الناس، فجاج ومكدوس، وقال بعض المتأولين: «مرصاد» مفعال بمعنى راصد، وقرأ أبو مغمز المنقري: ﴿أَنْ جَهَنَّمَ﴾ بفتح الألف، والجمهور على كسرها، و«الطاعون»: الكافرون، و«المآب»: المرجع، و«الأحقاب»: جمع حُقْب - بضم الحاء وفتح القاف، وحُقْب بكسر الحاء، وحُقْب بضمها وضم القاف، وهو جمع حِقْبَة، ومنه

قول متمم:

وَكُنَّا كَنَدَمَانِي جَدِيمَةً حِقْبَةً
مَنْ الدَّهْرُ حَتَّى قِيلَ لَنْ يَتَّصِدَعَا
وهي المدة الطويلة من الدهر غير محدودة، ويقال للسنة أيضاً: حِقْبَة، وقال بشر بن كعب: حُدَّهَا عَلَى مَا ورد في الكتب المنزلة ثلاثمائة سنة، وقال هلال الهجري: ثمانون سنة، قالوا: في كل سنة ثلاثمائة وستون يوماً، وقال ابن عباس، وابن عمر رضي الله عنهم: ثمانون ألف سنة، وقال الحسن: سبعون ألف سنة، وقيل: خمسون ألف سنة، وقال أبو أمامة عن النبي ﷺ: «إِنَّهُ ثَلَاثُونَ أَلْفَ سَنَةٍ»، وأكثر الناس في هذا، واللازم أن الله تعالى أخير عن الكفار أنهم يلبثون أحقاباً، كلما مرَّ حُقْبُ جاء غيره، إلى غير نهاية، قال الحسن: ليس لها عدة إلا الخلود في

سُورَةُ النَّبَاِ اَنْبَاِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

اِنَّ الْمُنْتَفِعِينَ مَفَارًا ﴿٢٤﴾ عَذَابٍ وَاَعْتَابًا ﴿٢٥﴾ وَكَوَاعِبَ اَنْزَالٍ ﴿٢٦﴾ وَكَوَاَسَا دِهَانًا ﴿٢٧﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لِقَاءًا وَلَا كِتَابًا ﴿٢٨﴾ جَزَاءَهُمْ مِنْ رَبِّكَ عَطَاةٌ جَسَابًا ﴿٢٩﴾ رَبِّ السَّمَوٰتِ وَالْاَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا ﴿٣٠﴾ يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلٰٓئِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ اِلَّا مَنْ اٰذَنَ لَهُ الرَّحْمٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣١﴾ ذَلِكَ الْيَوْمَ الْتَقَى الْقَوْمُ لِسَانَ اَسَآءٍ اَتَّخَذُوا لِي رِيْبَةً مَّآبًا ﴿٣٢﴾ اِنَّا اَنْزَلْنٰكُمْ عَذَابًا قَرِیْبًا يَوْمَ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاۗءُ وَيَقُوْلُ الْكَافِرُ يَلْبِثُنِي كَيْتُ رَبِّيَ اَبَدًا ﴿٣٣﴾

سُورَةُ النَّبَاِ اَنْبَاِ

بِسْمِ اللّٰهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِیْمِ

وَالنَّارِ عَذِبَ غَرَابًا ﴿٣٤﴾ وَالنَّاسِطِ نَسِطًا ﴿٣٥﴾ وَالسَّجِدِ سَجَسًا ﴿٣٦﴾ فَالسَّجِدَاتِ سَجًّا ﴿٣٧﴾ فَالْمُدْبِرَاتِ اَمْرًا ﴿٣٨﴾ يَوْمَ يَرْجُفُ الرَّجِفَةُ ﴿٣٩﴾ تَنْجِعُهَا الرَّاٰدَةُ ﴿٤٠﴾ قُلُوْبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِدَةٌ ﴿٤١﴾ اَبْصَرُهَا خَشِيعَةٌ ﴿٤٢﴾ يَقُوْلُوْنَ اَوْءَا لَمْ نَرْوُدْ فِي الْغٰفِرَةِ ﴿٤٣﴾ اَوْءَا كُنَّا عِظْمًا تَحْتَرَةً ﴿٤٤﴾ قَالُوْا اِنَّكَ اِذَا كُرَّۗءُ حٰسِرَةٌ ﴿٤٥﴾ فَاِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ ﴿٤٦﴾ اِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ ﴿٤٧﴾ هَلْ اَنْتُمْ حٰدِثٌ مُّؤْمِنٌ ﴿٤٨﴾

٥٨٣

السماء قطعاً صغاراً حتى تكون كألواح الأبواب، والقول الأول أحسن، وقال بعض أهل العلم: تفتح في السماء أبواب للملائكة من حيث ينزلون ويصعدون، وقوله تعالى: ﴿فَكَانَتْ سَرَابًا﴾ عبارة عن تلاشيها وفنائها بعد كونها هباء منبثاً، ولم يرُد تعالى أن الجبال تعود تشبه الماء على بُعد من الناظر إليها.

و«مرصاداً» موضع الرصد، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَيْدَكَ لَإِلْيَرٰسَادٍ﴾، ويروى عن الحسن بن أبي الحسن أنه قال: لا يدخل أحد حتى يجوز على جهنم، فمن كانت له أسباب نجاة نجا وإلا هلك، وقال قتادة: تعلموا أنه لا سبيل إلى الجنة حتى تقطع النار، وفي الحديث الصحيح: «إِنْ

والفضل بن خالد، ومعاذ النحوي: البرذ في هذه الآية النوم، والعرب تسميه بذلك لأنه يُبرد سورة العطش، ومن كلامهم: «منع البرذ البرذ»، وقال جمهور الناس: البرذ في هذه الآية من الهواء البارد، وهو القرء، أي: لا يمسه منه ما يُستلذ ويكسر عذاب الحر، فالذوق - على هذين القولين - مستعار، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البرذ الشراب البارد المُستلذ، ومنه قول حسان بن ثابت:

يَسْقُونَ مِنْ وَرْدِ الْبَرِيصِ عَلَيْهِمْ
بَرْدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيْقِ السَّلْسَلِ
ومنه قول الآخر:

أَمَانِي مِنْ سُعْدَى جِسَانٍ كَأَنَّمَا
سَقَّتْكَ بِهَا سُعْدَى عَلَى ظَمَأٍ بَرْدَا
ثم قال تعالى: ﴿وَلَا شَرَابًا إِلَّا حَمِيمًا﴾، فالاستثناء متصل، و«الحميم»: الحارّ الذائب، وأكثر استعماله في الماء السخن والعرق، ومنه الحُمَامُ، وقال ابن دُرَيْدٍ: الحميمُ دموعُ أعينهم، وقال النقاش: الحميمُ الصُّفْرُ المذائب المتناهي الحر، واختلف الناس في «العَسَاقِ» - فقال قتادة، والتَّخَمِي، وجماعة: هو ما يسيل من أجسام أهل النار من صديد ونحوه، يقال: غسق الجرحُ إذا سأل منه قيح ودم، وغسقت العين إذا دمعت وخرج قذاها، وقال ابن عباس ومجاهد: العَسَاقُ مشروب لهم مفرط الزمهرير كأنه في الطرف الثاني من الحميم، يشوي الوجه بيزده، وقال عبدالله بن بريدة: العَسَاقُ المُثَن.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، وابن عامر، وعاصم، وجماعة من

الجمهور: «عَسَاقًا» مخففة السين، وهو اسمٌ على ما قدمناه، وقرأ حمزة، والكسائي، وحفص عن عاصم، وابن أبي إسحق، والشعبي، والحكم بن عُبَيْنَةَ، وقتادة، وابن وثاب: «عَسَاقًا» مشددة السين، وهي صفةٌ أُقيمت مقام الموصوف، كأنه تعالى قال: ومشروباً عساقاً، أي: كأنه سائل من أبدانهم.

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءً وَبَأًا﴾ معناه: لأعمالهم وكفرهم، أي: هو جزاؤهم الجدير بهم، الموافق مع التحذير لأعمالهم، ففي كُفْرٍ والجزاء نازٍ. و«يَرْجُونَ» قال أبو عبيدة وغيره: معناه: يخافون، وقال غيره:

الرجاء هنا على باب، ولا رجاء إلا وهو مُفْتَرَنٌ بخوف، ولا خوف إلا وهو مُفْتَرَنٌ برجاء، فذكر أحد القسمين لأن المقصد العبارة عن تكذيبهم، كأنه تعالى قال: إنهم كانوا لا يصدقون بالحساب، فهم لذلك لا يرجونه ولا يخافونه. وقرأ جمهور الناس: ﴿كَيْدَابًا﴾ بشد الذال وكسر الكاف، وهو مصدر بلغة بعض العرب، وهي يمانية، ومنه قول أحدهم وهو يستغني: «أَلْخَلَقُ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ الْقِصَازُ؟» ومنه قول الشاعر:

لَقَدْ طَالَمَا تَبَطَّنِي عَنْ صَحَابَتِي
وَعَنْ جَوْجِ قِصَازِهَا مِنْ شِفَائِنَا
وهذا عندهم مصدر من فَعَّلَ، وقال الطبري: لم يختلف القراءة في هذا الموضع في «كَيْدَابٍ»، وأراه أراد السبعة، وأما في الشاذ فقرأ علي ابن أبي طالب، وعوف الأعرابي، وعيسى - بخلاف - والأعمش، وأبو رجاء: «كَيْدَابًا» بكسر الكاف

وقوله تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ﴾ يريد: كل شيء شأنه أن يُحصى، وفي هذا الخبر زَيْطٌ لأجزاء القصة بأولها، أي: هم مُكذَّبون كافرون ونحن قد أحصينا بالقول لهم في الآخرة: «ذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا»، وكان عبدالله بن عمر رضي الله عنهما يقول: ما نزلت في أهل النار آية أشد من قوله تعالى: ﴿ذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾، رواه أبو هريرة عن النبي ﷺ.

ولما ذكر تعالى أمر أهل النار عَقِبَ بذكر أهل الجنة ليعين الفرق، و«المفاز» موضع الفوز؛ لأنهم زحزحوا عن النار، وأدخلوا الجنة و«الحدائق» البساتين التي عليها جدران أو حِظَائِرُ، و«أَرْبَابًا» معناه: على سنٍّ واحدة، والأَرْبَابُ هما اللذان سُمِّيَا التراب في وقت واحد، و«الذهاق» المُشْرَعَة فيما قال الجمهور، وقال ابن جبير ومجاهد: معناه: المتابعة، وهي من الذهق، وقال عكرمة: هي الصافية، وفي البخاري، قال ابن عباس: سمعتُ أبي في الجاهلية يقول للساقى: اسقني كأساً دهاقاً. و«اللغو» سقط الكلام، وهو ضروب، وقد تقدم القول في [كَيْدَابًا] إلا أن الكسائي من السبعة قرأ في هذا الموضع: «كَيْدَابًا» بالتخفيف، وهو مصدر، ومنه قول الأعشى:

فَصَدَّقْتُهَا وَكَذَّبْتُهَا
وَالْمَرْءُ يَنْتَفِعُ بِكَذَابَةِ
واختلف المتأولون في قوله
تعالى: ﴿حِسَابًا﴾ - فقال جمهور
المفسرين واللغويين: معناه:
مُحِسِبًا، أي: كافيًا، من قولهم:
أحسبني هذا الأمر، أي: كفاني،
ومنه، حسبي الله، وقال مجاهد ما
معناه: إن ﴿حِسَابًا﴾ معناه: مُقَسِّطًا
على الأعمال؛ لأن نفس دخول
الجنة هو برحمة الله تعالى وتفضله
لا بعمل، والدرجات فيها والنعم
على قدر الأعمال، فإذا
ضاعف الله تعالى لقوم حسناتهم
بسبعمائة مثلاً ومنهم الكثير من
الأعمال والمُقْبَلُ أخذ كل واحد
سبعمائة بحسب عمله، وكذلك في
كل تضعيف، فالحساب هنا هو
بموازنة أعمال القوم، وقرأ
الجمهور: ﴿حِسَابًا﴾ بكسر الحاء
وتخفيف السين مفتوحة، وقرأ ابن
قطيب: ﴿حِسَابًا﴾ بفتح الحاء وشد
السين، قال أبو الفتح: جاء
بالاسم من أفعل على فَعَّال كما
قالوا: أدرك فهو دَرَاك، وقرأ ابن
عباس، وسراج: ﴿عَطَاءَ حَسَنًا﴾
بالنون من الحسن، وحكى عنه
المهدوي أنه قرأ: ﴿حِسَابًا﴾ بفتح
الحاء وسكون السين وبالياء، وقرأ
شريح بن يزيد الحمصي:
﴿حِسَابًا﴾ بكسر الحاء وشد السين
المفتوحة، وقرأ نافع، وأبو عمرو،
والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة،
وأهل الحرميين: ﴿زَبُّ﴾ بالرفع،
وكذلك ﴿الرَّحْمَنُ﴾، وقرأ ابن
عامر، وعاصم، وابن مسعود،

وابن أبي إسحق وابن محيصن،
والأعمش: ﴿زَبُّ﴾ بالخفض،
وكذلك ﴿الرَّحْمَنُ﴾ وقرأ حمزة،
والكسائي: ﴿زَبُّ﴾ بالخفض، و
﴿الرَّحْمَنُ﴾ بالرفع، وهي قراءة
الحسن، وابن وثاب، والأعمش،
وابن محيصن - بخلاف عنهما،
ووجوه هذه القراءة بينة، وقوله
تعالى: ﴿لَا يَلْكُوكَ يَتَّخِطُّونَ﴾
الضمير للكفار، أي: لا يملكون
من أفضاله وإجماله أن يخاطبوه
بمعذرة ولا غيرها، وهذا في
موطن خاص.

(٣٨) - (٤٠) تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في «الروح»
المذكور في هذا الموضع - فقال
الشعبي والضحاك: هو جبريل عليه
السلام، ذكره خاصة من بين
الملائكة تشريفًا، وقال ابن
مسعود: هو ملك عظيم، أكبر
الملائكة خلقة يسمى بالروح،
وقال ابن زيد: كان أبي يقول:
هو القرآن، وقد قال الله تعالى:
﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا﴾.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:
فالقيام فيه مستعار يراد به بيأته
وظهوره وشدته آثاره، والأشياء الكائنة
عن تصديقه وتكذيبه، ومع هذا في
القول قُلْتُ، وقال مجاهد: الروح
خَلَقْتُ على صورة بني آدم يأكلون
ويشربون، وقال ابن عباس عن
النبي ﷺ: «الروح خلق غير
الملائكة، وحفظة للملائكة كما
الملائكة حفظة للأنبياء ولنا»، وقال
ابن عباس، والحسن، وقتادة: الروح
هنا اسم جنس يراد به أرواح بني

آدم، والمعنى: يوم تقوم الأرواح في
أجسادها إثر البعث والنشأة الآخرة،
ويكون الجمع من الإنس والملائكة
صفاً، ولا يتكلم أحد هيبه وفزعاً،
إلا من أذن له الرحمن من ملك أو
نبي، وكان أهلاً أن يقول صواباً في
ذلك الموطن، قال ابن عباس
رضي الله عنهما: الضمير في
﴿يَتَكَلَّمُونَ﴾ عائد إلى الناس خاصة،
و«الصواب» المشار إليه هو «لا إله
إلا الله»، قال عكرمة: أي: قالها في
الدنيا.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ﴾
أي: الحق كونه وجوده، وفي
قوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ لِكُلِّ
رَبِّهِ مَتَابًا﴾ وعد ووعيد وتحريض،
و«الْمَتَابُ» المرجع وموضع الأوبة،
والضمير الذي هو الكاف والميم
في ﴿أَنْذَرْتَكُمْ﴾ هو لجميع العالم
وإن كانت المخاطبة لمن حضر
النبي ﷺ من الكفار، و«العذاب»
القريب» عذاب الآخرة، ووصفه
بالقرب لِتَحَقُّقِ وقوعه، وأنه أت
وكل أت قريب، والجميع داخل
في الندارة منه، و«نظر المرء» إلى
ما قدمت يده من عمل» قيام
للحجة عليه، وقال ابن عباس
رضي الله عنهما: «المرء» هنا
المؤمن، وقرأ ابن أبي إسحق:
﴿الْمَرْءُ﴾ بضم الميم، وضَعَفَهَا أبو
حاتم.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يُبَلِّغُنِي
كُتُّ رَبِّي﴾، قيل: إن هذا تمن أن
يكون شيئاً حقيقياً لا يحاسب
ولا يُلتفت إليه، وهذا قد تجده
في الخائفين من المؤمنين، فقد

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «ليتني كنت بعرة»، وقال أبو هريرة، وعبدالله بن عمر رضي الله عنهما: إن الله تعالى يحضر البهائم يوم القيامة فيقتص من بعضها لبعض، ثم يقول لها بعد ذلك: كوني تراباً، فيعود جميعها تراباً، فإذا رأى الكفار ذلك تمثّلوا مثله. قال أبو القاسم بن حبيب: رأيت في بعض التفاسير أن الكافر هنا إبليس، إذا رأى ما حصل للمؤمنين من بني آدم من الثواب قال: يا ليتني كنت تراباً، أي: كآدم الذي خلق من تراب واحترقه هو أولاً.

كامل تفسير سورة النبأ والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة النزاعات

هي مكية بإجماع من المتأولين.

﴿١﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عزّ وجلّ:

قال ابن مسعود وابن عباس: «النّازعات»: الملائكة تنزع نفوس بني آدم، ﴿عَرَفًا﴾ - على هذا القول - إما أن يكون مصدرًا بمعنى الإغراق والمبالغة في الفعل، وإما أن يكون كما قال علي وابن عباس رضي الله عنهم: تغرق نفوس الكفرة في نار جهنم، وقال السّدي وجماعة: النّازعات: النفوس تنزع بالموت إلى ربها،

﴿عَرَفًا﴾ هنا بمعنى الإغراق أي: تغرق في الصدور، وقال عطاء - فيما روي عنه -: النّازعات: الجماعات النّازعات بالقيسي، ﴿عَرَفًا﴾ بمعنى الإغراق، وقال الحسن، وقتادة، وأبو عبيدة، وابن كيسان، والأخفش: النّازعات: النجوم لأنها تنزع من أفق إلى أفق، وقال قتادة: النّازعات: النفوس التي تحنّ إلى أوطانها وتنزع إلى مذهبها، ولها نزع عند الموت، وقال مجاهد: النّازعات: المنايا لأنها تنزع نفوس الحيوان، وقال عطاء وعكرمة: النّازعات: القيبي أنفسها لأنها تنزع بالسّهام.

واختلف في «النّاشطات» - فقال ابن عباس ومجاهد: هي الملائكة لأنها تنشط النفوس عند الموت، أي: تحلّها كحلّ العقال، وتنشط بأمر الله تعالى إلى حيث كان، وقال مجاهد: النّاشطات: المنايا، وقال ابن عباس أيضاً، وقتادة، والأخفش، والحسن: النّاشطات: النجوم لأنها تنشط من أفق إلى أفق، أي: تذهب وتسير بسرعة، ومن ذلك قيل لبقر الوحش: النّواشط؛ لأنهن يذهبن بسرعة من موضع إلى آخر، وقال عطاء: النّاشطات في الآية: البقر الوحشية وما جرى مجراها من الحيوان الذي ينشط من قُطر إلى قُطر، ومن هذا المعنى قول الشاعر:

أَمَسَّتْ هُمُومِي تَنْشِطُ الْمَنَاشِطَا
السَّامَ بِسِي طَوْرًا وَطَوْرًا وَاسِطَا
وكأن هذه اللفظة في هذا التأويل

مأخوذة من النشاط، وقال عطاء أيضاً وعكرمة: النّاشطات: الأَوْهَاق، تقول: نَشَطْتُ البعير والإنسان إذا رَبَطْتَهُ، وأنشَطْتُهُ إذا حَلَلْتَهُ، حكاه الفراء وخولف فيه، ومنه الحديث «كَأَنَّمَا أَنْشَطَ مِنْ عِقَالٍ»، وقال ابن عباس أيضاً: النّاشطات: النفوس المؤمنة تنشط عند الموت للخروج.

والسُّنْحُ: العوم في الماء، وقد يستعمل مجازاً في خرق الهواء واختلاف فيه، واختلف في «السّابحات» في الآية، ما هي؟ فقال قتادة والحسن: هي النجوم لأنها تسبح في فلك، وقال عليّ ومجاهد رضي الله عنهما: هي الملائكة لأنها تتصرّف في الآفاق بأمر الله تعالى، تجيء وتذهب، وقال أبو زؤق: السّابحات: الشمس والقمر والليل والنهار، وقال بعض المتأولين: السّابحات: السحاب لأنها كالعائمة في الهواء، وقال عطاء وجماعة: السّابحات: الخيل، ويقال للفرس: سابع، وقال آخرون السّابحات: الحيتان دواب البحر فما دونها، وذلك من عظيم المخلوقات، فيروى أن الله تعالى بتّ في الدنيا ألف نوع من الحيوان، منها أربعمائة في البرّ وستمائة في البحر، وقال عطاء أيضاً: السّابحات: السفن، وقال مجاهد أيضاً: السّابحات: المنايا تسبح في نفوس الحيوان.

واختلف في «السّابحات»، فقال مجاهد: هي الملائكة، وقيل: هي الرياح، وقال عطاء: هي الخيل،

وقيل: النجوم، وقيل: المنايا تسبق الآمال، وقال الشاعر:

لَأَرَى الْمَوْتَ يَسْبِقُ الْمَوْتَ شَيْءٌ
وَأَمَّا «الْمُدْبِرَاتُ» فلا أحفظ خلافاً
أنها الملائكة، ومعناها أنها تدبّر
الأمر التي يسخرها الله تعالى لها
وصرفها فيها كالرياح والسحاب
وسائر المخلوقات.

وقال ابن زيد: «الرَّاجِفَةُ»: الأرض
بأهلها، تهتز بنفخة الصور الأولى،
وقيل: الرَّاجِفَةُ النفخة نفسها،
و«الرَّادِفَةُ» النفخة الأخرى، ويروى
أن بينهما أربعين سنة، وقال عطاء:
الرَّاجِفَةُ الْقِيَامَةُ، والرَّادِفَةُ الْبُعْثُ،
وقال ابن زيد: الرَّاجِفَةُ الْمَوْتُ،
وَالرَّادِفَةُ السَّاعَةُ، وقال أبي بن
كعب: كان النبي ﷺ إذا ذهب ربح
الليل قام وقال: «يَأْتِيهَا النَّاسُ
اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ، تَتَّبِعُهَا
الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ».

ثم أخبر تعالى عن قلوب تجف
ذلك اليوم، أي: ترتعد خوفاً
وقرّاً من العذاب، ووجيف القلب
يكون من الفزع، ويكون من
الإشفاق، ومنه قول الشاعر قيس بن
الخطيم:

إِنَّ بَنِي جَحْجَبِي وَأَسْرَتَهُمْ
أَكْبَادُنَا مِنْ وَرَائِهِمْ تَجِفُّ
وَرُفِعَ «قُلُوبٌ» بِالْإِبْتِدَاءِ، وَجَازَ
ذَلِكَ وَهُوَ نَكْرَةٌ لِأَنَّهَا قَدْ تَخَصَّصَتْ
بِقَوْلِهِ تَعَالَى: «يَوْمَئِذٍ».

واختلف الناس في جواب
القسم، أين هو؟ فقال الفراء
والزجاج: هو محذوف دلّ الظاهر
عليه، تقديره: لَتُبْعَثُنَّ أَوْ لَتُعَاقَبُنَّ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وقال بعض النحاة:

هو في قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَةً لِّمَن يَتَّقِي» ❀، وهذا ضعيف
ليُتَّعَدَ القول، ولأن المعنى هنالك
يستحق «أَنَّ»، وقال آخرون: هو
في قوله تعالى: «يَوْمَ» على تقدير
حذف اللام، كأنه تعالى قال:
لَيَوْمَ، وقال آخرون: هو موجود
في جملة قوله تعالى: «يَوْمَ تَجُثُّ
الرَّاجِفَةُ ❀ تَتَّبِعُهَا الرَّادِفَةُ ❀ قُلُوبٌ
يَوْمَئِذٍ رَاجِفَةٌ ❀»، كأنه تعالى
قال: لَتَجْفَنَّ قُلُوبٌ يَوْمَ كَذَا، ولما
دلت القلوب على أصحابها ذكر
بعد ذلك أبصارها وخشوعها، دلّها
وما يظهر منها من الهم بالحال.

وقوله تعالى: «يَقُولُونَ» هي حكاية
حالهم في الدنيا، معناه: هم الذين
يقولون، وقولهم: «أَيْنَا» هو على
جهة الاستخفاف والعجب
والتكذيب، وقرأ ابن أبي إسحق،
وابن يغمّر: «أَيْنَا» بهمزتين ومدّة،
على الاستفهام، وقرأ جمهور القراء:
«أَيْنَا» باستفهام وهمزة واحدة.

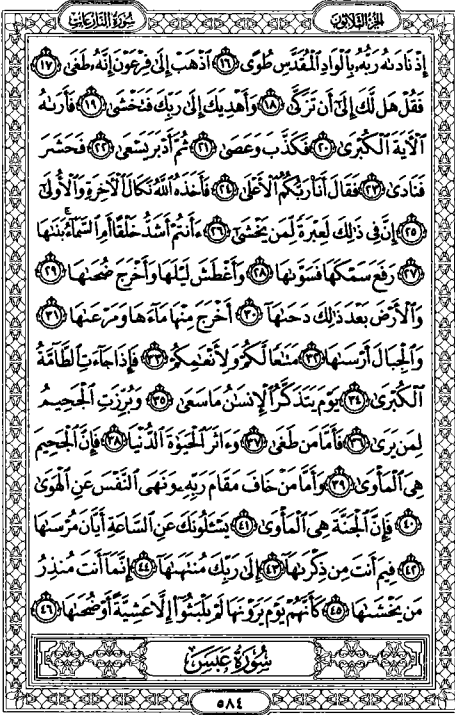
و«الحافِرة» لفظة توقعها العرب
على أول أمر رُجِعَ إليه من آخره،
يقال: عاد فلان في الحافرة إذا
ارتكس في حالٍ من الأحوال، ومنه
قول الشاعر:

أَحَافِرَةٌ عَلَى صَلَحٍ وَشَيْبٍ؟
مَعَادُ اللَّهِ مِنْ سَفَهٍ وَعَارٍ
والمعنى: أيننا لمرودودن إلى الحياة
بعد مفارقتها بالموت؟ وقال مجاهد
والخليل: الحافرة الأرض، فاعلة
بمعنى مفعولة، وقيل: بل هو على
النسب، أي: ذات حفر، والمراد
القبور لأنها حُفرت للموتى،
فالمعنى: أيننا لمرودودون أحياء في

قبورنا؟ وقال زيد بن أسلم: الحافرة
الناز، وقرأ أبو حيوة: «فِي الْحَفِيرَةِ»
بغير ألف، فقيل: هو بمعنى
الحافرة، وقيل: هي الأرض المُثَنَّنَةُ
المتغيرة بأجساد موتاها، من قولهم:
حُفِرَتْ أَسْنَانُهُ إِذَا تَأَكَلَتْ وَتَغَيَّرَ
رِيحُهَا.

و«السَّاجِرَةُ»: المَصْوُوتَةُ بِالرِّيحِ
المُجَوَّفَةُ، ومنه قول الشاعر:

وَأَخْلَيْتُهَا مِنْ مَخُهَا فَكُنَّا هَا
قَوَارِيرُ فِي أَجْوَاهِهَا الرِّيحُ تَتَخَرُّ
وروي: تَضْفِرُ. و«نَجْرَةٌ» هي
قراءة حمزة، وعاصم، في رواية
أبي بكر - وعمر بن الخطاب،
وابن مسعود، وأبي بن كعب،
وابن عباس، وابن الزبير،
ومسروق، ومجاهد، وجماعة
سواهم، وقرأ الباقون، وحفص
عن عاصم، وعمر بن الخطاب،
وعلي بن أبي طالب، وابن
مسعود، والحسن، والأعرج، وأبو
رجاء، وأبو جعفر، وشيبة، وأبو
عبدالرحمن، وابن جبير، وأهل
مكة، وشبل، وقتادة، وأيوب،
والتخعي، وابن وثاب: «نَجْرَةٌ»
دون ألف بعد النون، ومعناه: بالية
متعفنة قد صارت رميمًا، يقال:
نخر العود والعظم إذا بليت وصار
يتفتت، وحكي عن أبي عبيدة،
وأبي حاتم، والفراء، وغيرهم أن
السَّاجِرَةَ والسَّاجِرَةَ بمعنى واحد،
كطامع وطامع، وحافر وحذير،
والأكثر من الناس على ما قدمناه،
قال أبو عمرو بن العلاء: السَّاجِرَةُ
التي لم تنخر بغير، والسَّاجِرَةُ التي
قد بليت.



الطاء مُتَوَنِّة، ورويت عن عاصم، وقرأ الجمهور: ﴿طوى﴾ بضم الطاء، وأجرى بعض القراء ﴿طوى﴾، وترك إجراءه ابن كثير، وأبو عمرو، ونافع، والحسن، وجماعة وقد تقدم شرح هذه اللفظة في سورة طه.

وقوله تعالى: ﴿أَذْهَبَ﴾ تفسير النداء الذي ناداه ربُّه، ويحتمل أن يكون المعنى: قال له اذهب، وفي هذه الألفاظ استدعاء حسن، وذلك أنه أمر أن يقول له: ﴿هَلْ لَكَ إِلَهٌ إِلَّا أَنْ تَرَكْنَا﴾، وهذا قولٌ جوابٌ

﴿١٧﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل: ذكر الله تعالى عنهم قولهم: ﴿بَلَّكَ إِذَا كَرَّةٌ خَائِرَةٌ﴾، وذلك أنهم لتكذيبهم بالبعث وإنكارهم قالوا: لو كان هذا حقاً لكانت كرتنا ورَجَعْتَنَا خاسرة؛ إذ هي إلى النار، وقال الحسن: ﴿خَائِرَةٌ﴾ معناه: كاذبة، أي: ليست بكافية، وروي أن بعض صناديد قريش قال ذلك.

ثم أخبر الله تعالى عن حال القيامة فقال: ﴿فَأَنبَأَ هِيَ زَجْرَةٌ وَجِدَةٌ﴾، أي: نفخة في الصور، فإذا الناس قد نشروا وصاروا أحياء على وجه الأرض، وفي قراءة عبدالله: ﴿فَأِنَّمَا هِيَ وَقْعَةٌ وَاحِدَةٌ﴾، «والساهرة» وجه الأرض، ومنه قول أمية بن أبي الصلت:

وَفِيهَا لَخُمٌ سَاهِرَةٌ وَبَخِيرٍ
وَمَافَاهُ رَإِبِهِ لَهُمْ مُقِيمٌ
وقال وهب بن مئنه: الساهرة جبل بالشام يمدُّه الله تعالى لحشر الناس يوم القيامة كيف شاء، وقال أبو العالية وسفيان: الساهرة أرضٌ قريبة من بيت المقدس، وقال قتادة: الساهرة جهنم لأنه لا نوم لمن فيها، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الساهرة أرض مكة، وقال الزهري: الساهرة الأرض كلها.

ثم وقف تعالى نبئ محمد ﷺ على جهة جمع النفس لتلقي الحديث، فقال تعالى: ﴿هَلْ أُنذِرُكَ حَيْثُ مُوسَى﴾ الآية. «الوادي المقدس» وإد بالشام، قال منذر بن سعيد: هو بين المدينة ومصر، وقرأ الحسن بن أبي الحسن، والأعمش، وابن أبي إسحق، وقعناب: ﴿طوى﴾ بكسر

المعارضة في الواحدة، وانقلب فيها فريق الباطل. وقال بعض المفسرين: ﴿أَذْبَرَ سِنِينَ﴾ حقيقة، قام من موضعه مولياً فازاً بنفسه من مجالسة موسى عليه السلام، وقال الجمهور: ﴿أَذْبَرَ﴾ كناية عن إعراضه عن الإيمان، و﴿سِنِينَ﴾ معناه: يجتهد على أمر موسى عليه السلام والرَّد في وجه شرعه.

وقوله تعالى: ﴿فَحَشَرَ﴾ معناه: جمع أهل مملكته، ثم ناداهم بقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، وروي عن ابن عباس أنه قال: المعنى: فننادى فحشر، وقوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾ نهاية في المخارقة، ونحوها باق في مملوك مصر وأتباعهم.

﴿٢٣﴾ - ﴿٢٤﴾ تفسير قوله عز وجل: ﴿كَلَّا﴾ منصوبٌ على المصدر، وقال قوم: «الآخرة» قوله: ﴿مَا

كُلُّ عَاقِلٍ عِنْدَهُ: نَعَمْ أُرِيدُ أَنْ أَتَزَكَّى، وَالتَّزَكَّى هُوَ الشُّطْهُرُ مِنَ النِّقَاتِصِ وَالتَّلْبِيسِ بِالْفَضَائِلِ، وَفَسَّرَ بَعْضُهُمْ ﴿تَزَكَّى﴾ بِ«تَسْلِيمٍ»، وَفَسَّرَهَا بَعْضُهُمْ بِقَوْلِ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، وَهَذَا تَخْصِيسٌ، وَمَا ذَكَرْنَاهُ يَعْمُ كُلُّ هَذَا، وَقَرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَنَافِعٌ، وَأَبُو عَمْرٍو - بِخِلَافِ عَنِّهِ -: «تَزَكَّى» بِشَدِّ الزَّيِّ، وَقَرَأَ الْبَاقُونَ: ﴿تَزَكَّى﴾ بِتَخْفِيفِ الزَّيِّ.

ثم أمر [الله تعالى] موسى عليه السلام بأن يفسر له التزكي الذي دعاه إليه بقوله: ﴿وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَذَخْنِي﴾، والعلم تابع للهدى، والخشية تابعة للعلم، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾.

و «الآية الكبرى» العَصَا وَالْيَدُ، قَالَه مَجَاهِدٌ وَغَيْرُهُ، وَهَمَا قَصَبٌ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلتَّحْدِيدِ، فَوَقَعَتْ

عَلِمْتُ لَكُمْ يَوْمَ يَوْمِ،
و«الأولى» قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَخْلَى﴾،
وروي أنه مكث بعد قوله: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ
الْأَخْلَى﴾ أربعين سنة، وقيل: كانت
هذه المدة بين الكلمتين، وقال ابن
عباس رضي الله عنهما: «الأولى»
قوله: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ يَوْمَ يَوْمِ
غَيْرِي﴾، و«الآخرة»: قوله: ﴿أَنَا
رَبُّكُمْ الْأَخْلَى﴾، قال ابن رُزَيْن: الأولى
كُفْرِهِ وَعَصِيَانِهِ، وَالْآخِرَةُ قَوْلُهُ: ﴿أَنَا
رَبُّكُمْ الْأَخْلَى﴾ وقال ابن زيد: الأولى
الدنيا، والآخرة الدار الآخرة، أي:
أخذ الله تعالى بعذاب جهنم
وبالغرق في الدنيا، وقال مجاهد:
هذه عبارة عن أول معاصيه وكُفْرِهِ
وآخرها، أي: نكل بالجميع،
و«نكال» نصب على المصدر،
والعامل فيه على رأي سيبويه
﴿أَنْكَأَ﴾؛ لأنه في معناه، وعلى رأي
أبي العباس المبرد فَعَلُ مَضْمَرٍ مِنْ
لفظ «نكال»، كأنه قال: نكله نكالاً.

ثم وقف تعالى على موضع العبرة
بحال فرعون، وتعذيبه، وفي الكلام
وعيد للكفار المخاطبين برسالة
محمد ﷺ، ثم وقفهم مخاطبة منه
تعالى لجميع العالم، والمقصد
الكفار، ويحتمل أن يكون المعنى:
قل لهم يا محمد: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا﴾
الآية. وفي هذه الآية دليل على أن
بعث الأجساد من القبور لا يتعدَّر
على قدرة الله تعالى، و«السُنْكَ»
الارتفاع الذي بين سطح السماء
الأسفل الذي يليها وبين سطحها
الأعلى الذي يلي ما فوقها، وقوله
تعالى: ﴿فَسَوِّفُهَا﴾ يحتمل أن يريد:
خلقها ملساء مستوية ليس فيها مرتفع

ومنخفض، ويحتمل أن يكون عبارة
عن إتقان خلقها، ولا يقصد معنى
املاس سطحها، والله تعالى أعلم
كيف هي.

و«أَقَطَّشُ» معناه: أَظْلَمُ،
و«الْأَغْطَشُ»: الأعمى، ومنه قول
الشاعر:

نَحَرْتُ لَهُمْ مَوْهِنًا نَاقَتِي
وَلَيْلُهُمْ مُنْذَلُهُمْ غَطَّشُ
ونسب الليل والضحي إليها من
حيث هما ظاهران منها وفيها.

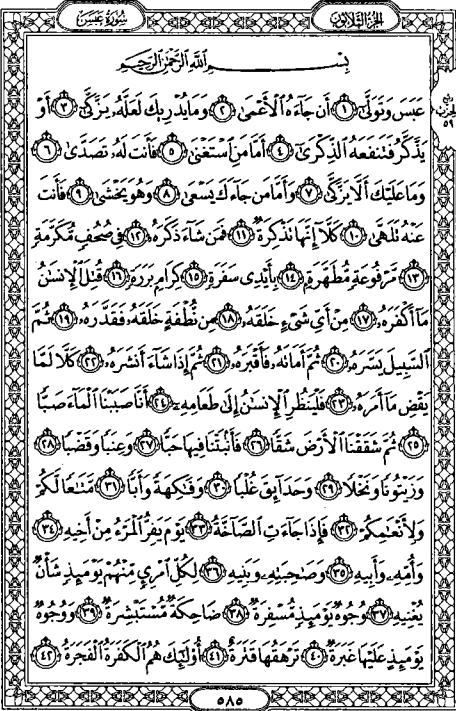
وقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ
دَحَاهَا﴾ متوجهة إلى أن الله تعالى
خلق الأرض ولم يذُحها، ثم استوى
إلى السماء وهي دخان فخلقها
وبناها، ثم دحا الأرض بعد ذلك،
وقرأ مجاهد: ﴿وَالْأَرْضُ مَعَ ذَلِكَ﴾،
وقال قوم: إن ﴿بَعْدَ ذَلِكَ﴾ معناه:
مع ذلك، والذي قلناه مترتب عليه
آيات القرآن كلها، ونسب الماء
والمرعى إلى الأرض من حيث هما
منها يظهران، ودُخِرَ الْأَرْضُ:
بَسَطُهَا، ومنه قول أمية بن أبي
الصلت:

دَارَ دَحَاهَا ثُمَّ أَسْكَنَّا بِهَا
وَأَقَامَ بِالْأُخْرَى الشَّيْءُ هِيَ أَمْجَدُ
وقرأ الجمهور: ﴿وَالْأَرْضُ﴾ نصباً،
وقرأ الحسن، وعيسى: ﴿وَالْأَرْضُ﴾
بالرفع، وقرأ الجمهور: ﴿وَالْجِبَالُ﴾
رُتْسَهَا ﴿نصباً﴾، وقرأ الحسن،
وعمر بن عبيد: ﴿وَالْجِبَالُ﴾ رفعاً.
و«رُتْسَهَا» معناه: أثبتها، وجميع
هذه النعم إذا تَدُبِّرَتْ فهي متاعٌ
للناس والأنعام، يتمتعون فيها وبها.
وقرأ الجمهور: ﴿سُنْكَ﴾ بالنصب،
وقرأ ابن أبي عبله: ﴿متاع﴾ بالرفع.

و«الطَّامَةُ الْكُبْرَى» هي القيامة، قاله
ابن عباس، والضحاك، وقال
الحسن، وابن عباس أيضاً: النفخة
الثانية، وقوله تعالى: ﴿مَا سَأَلَ﴾
معناه: ما عجل من سائر عمله،
ويتذكر ذلك بما يرى من جزائه.
وقرأ جمهور الناس: ﴿وَيُرِيدُ﴾ بضم
الباء وشد الراء المكسورة، وقرأ
عكرمة، ومالك بن دينار، وعائشة
رضي الله عنها: ﴿وَيَبْرُتُ﴾ بفتح
الباء والراء، وقرأ جمهور الناس:
﴿لَيْسَ يَرَى﴾ بالياء، أي: لمن يُبصر
ويُحْصَلُ، وقرأ عكرمة، ومالك بن
دينار، وعائشة رضي الله عنها:
﴿لَيْسَ تَرَى﴾ بالياء، أي: تراه أنت يا
محمد، فالإشارة إلى كُفْرِ مَكَّةَ، أو
إشارة إلى الناس والقصد كُفْرَ مَكَّةَ،
ويحتمل أن يكون المعنى: لمن تراه
الجحيم، كما قال تعالى: ﴿إِذَا رَأَوْهُمْ
مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ﴾، وقرأ ابن مسعود:
﴿لَيْسَ رَأَى﴾ على فعل ماض.

﴿٣٧﴾ - ﴿٣٨﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿طَلَقَ﴾ معناه: تجاوز الحدود التي
ينبغي للإنسان أن يقف عندها،
و«وَأَنْزَلَ لِكَلِمَةٍ دَلِيلًا» على الآخرة
لتكذيبه بالآخرة، و«المأوى» المنزل
والمسكن حيث يأوي المرء ويلازم.
و«مقام ربه» هو يوم القيامة وإنما
المراد: مَقَامٌ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، فأضاف
المقام إلى الله تعالى من حيث هو
بين يديه، وفي ذلك تفخيمٌ للمقام
وتعظيم لهوله وموقعه من النفوس،
قال ابن عباس رضي الله عنهما:
المعنى: خافه عند المعصية فانتهى
عنها. و«الهُوَى» هو شهوات النفس
وما جرى مجراها، وأكثر استعماله



طرفان للنهار، وقد بدأ
بذكر أحدهما فأضاف
الآخر إليه تجوّزاً وإيجازاً.

كامل تفسير سورة
النازعات والحمد لله رب
العالمين

تفسير سورة عبس

وهي مكية كلها بإجماع
من المفسرين.

وقصص هذه السورة التي
لا تفهم الآية إلا به أن

رسول الله ﷺ كان شديد الحرص
على إسلام قريش وأشرفهم، وكان
يتحقى بدعائهم إلى الله تعالى، فيبنا
هو يوماً مع رجل من عظمائهم - قيل:
هو الوليد بن المغيرة المخزومي،
وقيل: عتبة بن ربيعة، وقيل: شيبة،
وقيل: العباس، وقيل: أمية بن
خلف، وقيل: أبي بن خلف وقال ابن
عباس: كان في جمع منهم، فيهم عتبة
والعباس وأبو جهل - إذ أقبل
عبدالله بن أم مكتوم القرشي الفهري
من بني عامر بن لؤي، وهو رجل
أعمى، يقوده رجل آخر، فأوماً
رسول الله ﷺ إلى قائده أن يؤخره
عنه، ففعل، فدفعه عبدالله وأقبل نحو
رسول الله ﷺ وقال: استذنني يا
محمد، علمني مما علمك الله، فكان
في ذلك كله قطع لحديث
رسول الله ﷺ مع الرجل المذكور من

إنما هو في غير المحدود، قال سهل
الثستري: لا يسلم من الهوى إلا
الأنبياء عليهم السلام وبعض
الصدّيقين، وقال بعض الحكماء: إذا
أردت الصواب فانظر هواك فخالفه،
وقال الفضل بن عياض: أفضل
الأعمال خلاف الهوى.

قوله تعالى: ﴿يَسْتَأْذِنُكَ عَنِ السَّاعَةِ﴾
الآية... نزلت بسبب أن قريشاً
كانت تُلح في البحث عن وقت
الساعة التي كان رسول الله ﷺ
يخبرهم بها ويتوعدهم بأمرها ويكثر
من ذلك، و﴿إِنَّا نُرْسِلُهَا﴾ معناه:
متى ثبوتها ووقت رسوها، أي:
ثبوتها، كأنه شيء يسير إلى غاية ما
ثم يقف كما تفعل السفينة التي
ترسو، وقرأ أبو عبدالرحمن
السلمي: ﴿إِنَّا﴾ بكسر الألف.

ثم قال تعالى لنبيه عليه السلام -
علي جهة التوقيف -: ﴿فِيمَ أَنْتَ مِنْ
ذِكْرِنَا﴾، أي: من ذكر تحديدها
ووقتها، أي: لست من ذلك في
شيء، ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾، وقالت
عائشة رضي الله عنها: كان
النبي ﷺ يسأل عن الساعة كثيراً،
فلما نزلت هذه الآية انتهى. وقرأ أبو
جعفر، وعمر بن عبدالعزيز، وأبو
عمرو - بخلاف - وابن محيصن،
والأعرج، وطلحة، وعيسى:
﴿مُنذِرٌ﴾ بالرفع بتنوين «مُنذِر»، وقرأ
جمهور القراء: ﴿مُنذِرٌ مَنْ يَحْشُرُهَا﴾
بإضافة «مُنذِرٌ» إلى «مَنْ».

ثم قرّب تعالى أمر الساعة بإخياره أن
الإنسان عند رؤيته إيّاها يظن أنه لم
يلبث إلا عشية يوم أو بكرة، فأضاف
«الضحى» إلى «العشيّة» من حيث هما

قريش، وكان رسول الله ﷺ قد قرأ
عليه القرآن وقال له: أترى بما أقول
بأساً؟ فكان ذلك الرجل يقول: لا
والدمى - يعني الأصنام - وىروى: ولا
والدما - يعني الذبائح التي للأصنام -،
فلما شغب عليه أمر عبدالله بن أم
مكتوم عبس وأعرض عنه، وذهب
ذلك الرجل، فيروى أن النبي ﷺ
انصرف إلى بيته فلوي رأسه وشخص
بصره وأنزلت عليه السورة. قال سفيان
الثوري: فكان بعد ذلك إذا رأى ابن أم
مكتوم قال: مرحباً بمن عاتبني فيه ربي
عز وجل، وبسط له رداءه، قال
أنس بن مالك: رأيت يوم القادسية
وعليه دزخ ومعه راية سوداء،
واستخلفه النبي ﷺ على المدينة
مرتين.

١ - ٧ - تفسير قوله عز وجل:

العُبُوس: تقطيب الوجه وازبداه

عند كراهية أمر، وفي مخاطبته ﷺ بلفظ ذكر الغائب مبالغة في العتب، لأن في ذلك بعض الإعراض، وقال كثير من العلماء، وابن زيد، وعائشة وغيرهما من الصحابة: لو كان رسول الله ﷺ كاتباً شيئاً من الوحي لَكُتِمَ هذه الآيات وآيات قصة زيد وزينب بنت جحش. و«التَّوَلَّى» هنا الإعراض، و«أَنْ» مفعول من أجله. وقرأ الحسن: «أَنْ جَاءَهُ» بِمَدَّةٍ تقرير وتوقيف، والوقف - على هذه القراءة - على «تَوَلَّى»، وهي قراءة عيسى. وذكر الله تعالى ابن أم مكتوم بصفة العمى الذي شأن البشر احتقاره ويَبِينُ أمره بِذِكْرِ ضده من عَتُوِّ ذلك الكافر، وفي هذا دليل على أن ذكر هذه العاهات - متى كانت لمنفعة، أو أن شهرتها تعرّف السامع صاحبها دون لبس - جائز، ومنه قول المحدثين سليمان الأعمش، وعبدالرحمن الأعرج، وسالم الأقطس، ونحو هذا، ومتى ذكرت هذه الأشياء على جهة التفتُّص فتلك الغيبة، وقد سمع رسول الله ﷺ عائشة رضي الله عنها تذكّر امرأة، فقالت: إنها لقصيرة، فقال عليه الصلاة والسلام: «لقد قلت كلمة لو مزجت بالبحر لمزجته».

ثم خاطب تعالى نبيه ﷺ بالعتب فقال: «وَمَا يَذُرُّكَ لَعَلَّ يَذُرُّكَ» أَوْ يَذُرُّكَ فَتَنَعَمَ الذِّكْرَكَ. أي: وما يطلعك على أمره وعقبى حاله؟ ثم ابتداء القول: «لَعَلَّ يَذُرُّكَ»، أي: تنمو بركته ويتطهر لله تعالى وينفع إيمانه. وأصل «يَذُرُّكَ»: يَتَرَكُ، فأدغم التاء في الزاي، وكذلك «يَذُكُّرُ». وقرأ

الأعرج: «يَذُكُّرُ» بسكون الذال وضم الكاف، ورويت عن عاصم، وقرأ جمهور السبعة: «فَتَنَعَمَهُ» بضم العين على العطف، وقرأ عاصم وحده، والأعرج: «فَتَنَعَمَهُ» بالنصب في جواب الثمني؛ لأن قوله تعالى: «أَزْ يَذُكُّرُ» في حكم قوله سبحانه: «لَعَلَّ يَذُرُّكَ».

ثم أكد تعالى عتب نبيه ﷺ بقوله: «أَنَا مَنِ اسْتَعْتَيْتُ»، أي: بِمَالِهِ، و«سَدَّكَ» معناه: تتعرض بنفسك، وقرأ ابن كثير، ونافع: «تَضُدِّي» بشد الصاد، على إدغام التاء، وقرأ الباقون، والأعرج، والحسن، وأبو رجاء، وقتادة، وعيسى، والأعمش «سَدَّكَ» بتخفيف الصاد، على حذف التاء، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «تَضُدِّي» بضم التاء وتخفيف الصاد، على بناء الفعل للمفعول، أي: يُضَدِّدُكَ حِرْصُكَ على هؤلاء الكفار أن يسلموا، تقول: تَضُدِّي الرجلُ وضُدِّيته، كما تقول: تَكْسِبُ وَكَسْبُتهُ، ثم قال تعالى تحقيراً لشأن الكفار: «وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزُرُّكَ»، أي: وما يضرك ألا يفلح؟ فهذا حُضٌّ على الإعراض عن أمرهم، وترك الاكتراث بهم.

ثم قال تعالى مبالغاً في العتب: «وَأَنَا مَنِ جَاءَكَ يَسْرًا»، أي: يمسي، وقيل: المعنى: يسعى في شئونه وأمر دينه وتقرُّبه منك، وهو يخشى الله تعالى، «فَأَنْتَ عَنْتَهُ» أي: تشتغل، تقول: لَيْسَتْ عَنْتَهُ الشَّيْءُ أَلْهَى إِذَا اشْتَغَلْتَ، وليس من اللَّهْوِ الذي هو من ذوات الواو، أما إنَّ المعنى يتداخل. وقرأ

الجمهور من القراءة: «لَعَلَّ» بفتح التاء، على حذف التاء الواحدة، وقرأ ابن كثير - فيما رُوِيَ عنه -: «تَلَّهَى» بالإدغام، وقرأ طلحة بن مصرف: «تَلَّهَى» بتأني، وروي عنه «تَلَّهَى» بفتح التاء وسكون اللام وتخفيف الهاء المفتوحة، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «تَلَّهَى» بضم التاء، أي: يُلهيك حرصك على أولئك الكفار، وفي حديث النبي ﷺ: «وَمَا اسْتَأْذَرَ اللَّهُ بَعْلَهُ قَالَهُ عَنْهُ» وقوله تعالى في هاتين: «أَنَا مَنْ»، «وَأَنَا مَنْ» فالسبب ما ذكر من كفار قريش وعبدالله بن أم مكتوم، ثم هي بَعْدُ تتناول من شَرِكْهُمْ في هذه الأوصاف، فحملة الشرع والعلم والحكام مخاطبون في تقريب الضعيف من أهل الخير، وتقديمه على الشريف العاري من الخير، بِمِثْلِ ما خوطب النبي ﷺ في هذه السورة.

ثم قال تعالى: «كَلَّا» يا محمد، أي: ليس الأمر في حقِّه كما فعلت، إن هذه السورة والقراءة التي كنت فيها مع ذلك الكافر تذكراً لجميع العالم، لا يُؤثِّرُ فيها أحد دون أحد، وقيل: المعنى: إن هذه المَغْتَبَّةُ تَذَكُّرَةٌ لك يا محمد، ففي هذا التأويل إجلالٌ لمحمد ﷺ وتأنيسٌ له. وقوله تعالى: «فِي سُبْحٍ» متعلق بقوله سبحانه: «إِنَّمَا تَذَكُّرُ»، وهذا يؤيد أن التذكيرة يراد بها جميع القرآن، وقال بعض المتأولين: الصحف هنا اللوح المحفوظ، وقيل: صحف الأنبياء عليهم السلام المُنَزَّلَةُ، وقيل: مصاحف المسلمين.

واختلف الناس في «السفرة» - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: هم الملائكة لأنهم كتبت، يقال: سفرت أي كتبت، ومنه السفُر، وقال ابن عباس أيضاً رضي الله عنهما: الملائكة سفرة لأنهم يسفرون بين الله تعالى وبين أنبيائه، وقال قتادة: هم القراء، وواحد السفرة: سافر، وقال وهب بن منبه: هم الصحابة؛ لأن بعضهم يسفر إلى بعض في الخير والتعليم والتعلم، والقول الأول أرجح، ومن اللفظة قول الشاعر:

فَمَا أَدْعُ السَّفَرَةَ بَيْنَ قَوْمِي
وَلَا أُنْشِي بِخَيْشٍ إِنْ مَسَّيْتُ
و «الصُّحُفُ» - على هذا - صحفٌ عند الملائكة أو اللوح، وعلى القول الآخر هي المصاحف.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ﴾ دعاء على اسم الجنس، وهو عموم يراد به الخصوص، والمعنى: قتل الإنسان الكافر، ومعنى ﴿قُلْ﴾: هو أهل أن يُدعى عليه بهذا، وقال مجاهد: ﴿قُلْ﴾ معناه: لمن، وهذا تحكُّم، وقوله تعالى: ﴿مَا أَكْفَرُوا﴾ يحتمل معنى التعجب، ويحتمل معنى الاستفهام توقيفاً، أي: أي شيء أكفروا؟ أي: جعله كافراً.

وقيل: إن هذه الآية نزلت في عتبة بن أبي لهب، وذلك أنه غاضب أباه فأتى النبي ﷺ، ثم إن أباه استصلحه وأعطاه مالا وجهزه إلى الشام، فبعث عتبة إلى النبي ﷺ وقال: إني كافر برَبِّ النجم إذا هَوَى، فيروى أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم ابعث إليه كلبك حتى يأكله»، ويروى أنه قال: «أما يخاف

أن يُرسل الله عليه كلبه فيأكله»، ثم إن عتبة خرج في سفر فجاء الأسد فأكله من بين رفاقه.

﴿١٧﴾ - ﴿١٨﴾ تفسير قوله عز وجل: قوله تعالى: ﴿يَنْ أَيُّ نَجْمٍ خَلَقَهُ﴾ استفهام على معنى التقرير على تفاهة الشيء الذي خَلَقَ الإنسان منه، وهي عبارة تصلح للتحقير وللتعظيم، والقرينة تبين الغرض، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿لَأَيُّ يَوْمٍ أُخِّلَتْ لِيَوْمِ الْقَوْلِ﴾، و«الثطفة» المشار إليها هي ماء الرجل وماء المرأة. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَقَدَرُوا﴾ بشد الدال، وقرأ بعض القراء: ﴿فَقَدَرُوا﴾ بتخفيفها، والمعنى: جعله بقدرٍ وحدٍّ معلوم من الأعضاء والخُلُق والأجل وغير ذلك من إنجابه حسب إرادته تعالى في إنسانٍ إنسانٍ.

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ - فقال ابن عباس، وقتادة، وأبو صالح، والسدي: هي سبيل الخروج من بطن المرأة ورحمها، وقال الحسن ما معناه: إن السبيل هي سبيل النظر القويم المؤدي إلى الإيمان، وتيسيره له هو هيئة العقل، وقال مجاهد: أراد السبيل عامة، اسم الجنس في «هدى وضلال»، أي: يَسَّرَ قوماً لهذا وقوماً لهذا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَا السَّبِيلَ إِنَّمَا شَاكَرُوا وَإِنَّمَا كَفَرُوا﴾.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنَا إِلَهُكَ الْكَافِرُ﴾ معناه: أمر أن يُجعل له قبر، وفي ذلك تكريم لثلاثا يطرح كسائر الحيوان، والقابِز هو الذي يتناول جعل الميت في القبر، والمُقبِر هو الذي يأمر بقبر الميت ويقرره.

﴿أَنْشَرَهُ﴾ معناه: أحياه، يقال: نَشَرَ الميِّتَ وَأَنْشَرَهُ اللهُ، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ يريد: إذا بلغ الوقت الذي قد شاءه، وهو يوم القيامة، وقرأ بعض القراء: ﴿سَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ بتحقيق الهمزتين، وقرأ جمهور الناس: ﴿إِنَّمَا سَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ بمدَّة ويتسهل الهمزة الأولى، وقرأ شعيب بن أبي حمزة: ﴿إِنَّمَا سَاءَ نَشَرَهُ﴾، وقرأ الأعمش: ﴿إِنَّمَا سَاءَ أَنْشَرَهُ﴾ بهمزة واحدة.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَنَأْتِيَنَّكَ آتَاؤُنَا وَنَحْنُ نَعْلَمُ الْغَيْبَ﴾ ردُّ لما عسى أن يكون للكفار من الاعتراضات في هذه الأقوال المسرودة، ونفي مؤكد لطاعة الإنسان لربه، وإثبات أنه ترك حق الله تعالى ولم يقض أمره، قال مجاهد: لا يقضي أحد أبداً ما افترض عليه. ثم أمر تعالى الإنسان بالعبرة والنظر إلى طعامه والدليل فيه، وذهب أبي بن كعب، وابن عباس، والحسن، ومجاهد، وغيرهم إلى أن المراد: إلى طعامه إذا صار رجيعاً ليتأمل حيث تصير عاقبة الدنيا، وعلى أي شيء يتفاني أهلها، وتستدير رحاها، وهذا نظير ما روي عن ابن عمر أن الإنسان إذا أحدث فإن ملكاً يأخذ بناصيته عند فراغه فيردُّ بصره إلى نحوه مُوقفاً له ومُعجِباً، فينفع ذلك من له عقل، وذهب الجمهور إلى أن معنى الآية: فلينظر الإنسان إلى مطعماته وكيف يسرها الله تعالى له بهذه الوسائط المذكورة من صبِّ الماءِ وشق الأرض، ويروى أن رجلاً أضافه عابد، فقدم إليه رغيفاً فقاراً فكان الرجل استخشنه، فقال له: كُلْهُ

فإن الله تعالى لم يُنعم به ويكمله حتى سخر فيه ثلاثمائة وستين عاملاً، الماء والريح والشمس ثلاثة من ذلك.

وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: ﴿أَنَا مَيِّتًا﴾ بفتح الألف على البدل، وهي قراءة الأعرج، وابن وثاب، والأعمش، وردّ على هذا الإعراب قومٌ بأن الثاني ليس من الأول، وليس كما ردوا؛ لأن المعنى: فلينظر الإنسان إلى إنعامنا في طعامه، فترتب البدل وصح، و﴿أَنَا﴾ في موضع خفض، وقرأ الجمهور: ﴿إِنَّا صَبَبْنَا﴾ بكسر الألف على استئناف تفسير الطعام، وقرأ بعض الناس: ﴿أَنْتَى﴾ بمعنى كيف، ذكرها أبو حاتم، وصب الماء هو المطر، وشق الأرض هو بالثبات.

و«الحب»: جمع حَبَّة - بفتح الحاء - وهو كل ما يتخذ الناس ويؤثرونه كالقمح والشعير ونحوه، والحبَّة - بكسر الحاء - كل ما ينبت من البذور ولا يُحتفل به ولا هو بمُتَّخِذٍ، و«القضب» قال بعض اللغويين هو الفصافص، وهذا عندي ضعيف لأن الفصافص هي للبهائم، فهي داخلة في «الأب»، وقال أبو عبيدة: القضب: الرطبة، وقال الحسن: هو العلف، وأهل مكة يسمون القتب القضب، قال ثعلب: لأنه يُقضب كل يوم، والذي أقول: إن القضب هنا هو كل ما يُقضب ليأكله ابن آدم غصّاً من النبات كالبقول والهلين ونحوه، فإنه من المَطْعوم جزء عظيم، ولا دكر له في الآية إلا في هذه اللفظة.

و«الغلب»: الغلاط الناعمة القوية، و«الحديقة»: الشجر الذي قد أحدق بجدار ونحوه، و«الأب»: المرعى، قاله ابن عباس وابن زيد، ومجاهد، وقتادة، وقال الضحاك: الأب: الثين، وفي اللفظة غرابية، وقد توقف في تفسيرها أبو بكر وعمر رضي الله عنهما. و«متنماً» نصب على المصدر، والمعنى: تتمعون به أنتم وأنعامكم، فابن آدم في السبعة المذكورة، والأنعام في الأب.

﴿٣٣﴾ - ﴿٤٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

«الصَّاحَّة»: اسم من أسماء يوم القيامة، واللفظة في حقيقتها إنما هي لنفخة الصور التي تصخ الأذان أي: تُصيها، ويستعمل هذا اللفظ في الداهية التي يُصم نبؤها الأذان لصعوبتها، وهذا استعارة، وكذلك في الصيحة المفردة التي يصعب وقفها على الأذن.

ثم ذكر تعالى فرار المرء من القوم الذين معهودهم ألا يفر عنهم في الشدائد، ثم رتبهم تعالى الأول فالأول محبةً وخوفاً، وقرأ أبو إياس جوية: «مِنْ أَحْيِهِ، وَأُمَّهُ وَأَبِيهِ» بضم الهاء في كلها، قال منذر بن سعيد وغيره: هذا الفرار هو خوف من أن يتبع بعضهم بعضاً بتبعات، إذ الملائسة تعلق المطالبة، وقال جمهور الناس: إنما ذلك لشدّة الهول، على نحو ما روي أن الرُّسل تقول يومئذ: نفسي نفسي، لا أسألك غيري. و«الشأن الذي يُغنيه» هو فكره في سيئاته، وخوفه

على نفسه من التخليد في النار، والمعنى: يُغنيه عن اللقاء مع غيره، والفكرة في أمره، قال قتادة: أفضى كل إنسان إلى ما يشغله عن غيره، وقال النبي ﷺ لعائشة رضي الله عنها: «لا يضرُّك في القيامة كان عليك ثياب أم لا»، وقرأ هذه الآية. وقال عليه الصلاة والسلام نحوه لسودة رضي الله عنها وقد قالت: وأسواتاه، ينظر بعض الناس إلى بعض يوم القيامة، وقرأ جمهور الناس: «يُنْبِئُ» بالغيين منقوطة وضم الياء على ما فسّرناه، وقرأ ابن محيصن والزهري، وابن السميع: «يُنغِيهِ» بفتح الياء وعين غير منقوطة، من قولك: عناني الأمر، أي: قصدني وأرادني.

ثم ذكر تعالى اختلاف الوجوه من المؤمنين الوائقين برحمة الله تعالى حين بدت لهم تباشيرها، ومن الكفار، و«تسيرة» معناه: نيرةً بإد ضوؤها وسرورها. و«تقفها» معناه: تُلج عليها، و«القترة»: الغبار، والغبرة الأولى إنما هي من العبوس والهَم، كما يرى على وجه المهموم والميت والمريض شبه الغبار، وأما القترة فغبار الأرض، ويقال: إن ذلك يغشاهم من التراب الذي تعود إليه البهائم، ثم فسّر تعالى أصحاب هذه الوجوه المغبرة بأنهم الكفرة، قريش يومئذ ومن جرى مجراها قديماً وحديثاً.

كامل تفسير سورة عبس والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة التكوير

وهي مكية بإجماع من المتأولين .
 ﴿١﴾ - ﴿١٤﴾ تفسير قوله عز وجل :
 هذه كلها أوصاف يوم القيامة ،
 و«تكوير الشمس» هو أن تدار
 ويُذهب بها إلى حيث شاء الله
 تعالى، كما يدار كؤز العمامة، وعبر
 المفسرون عن ذلك بعبارات، فمنهم
 من قال: ذهب نورها، ومنهم من
 قال: رمي بها، قاله الربيع بن
 خيثم، وغير ذلك مما هو أشياء تابعة
 لتكويرها . و«انكدار النجوم» هو
 انقضاضها وهبوطها من مواضعها،
 ومنه قول الراجز:

أَبْصُرْ خِزْبَانَ قِضَاءٍ فَانْكَدِرْ
 تَقْضِي الْبَازِي إِذَا الْبَازِي كَسَرَ
 وقال ابن عباس رضي الله عنهما:
 ﴿انْكَدَرَتْ﴾: تَغَيَّرَتْ، من قولهم:
 مَاءٌ كَثِيرٌ، أَي: مَتَغَيَّرَ اللَّوْنُ. و«تَسْبِيرُ
 الْجِبَالِ» قِيلَ: هُوَ نَسْفُهَا، وَإِنَّمَا ذَلِكَ
 فِي صَدْرِ هَوْلٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

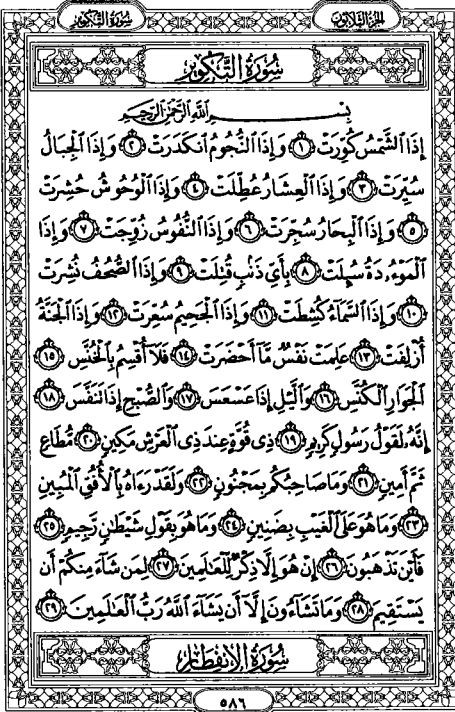
و«العشار» جمع عَشْرَاءَ، وَهِيَ
 النَّاقَةُ الَّتِي قَدِمَ لِحْمَلُهَا عَشْرَةٌ
 أَشْهُرٌ، وَهِيَ أَنْفَسُ مَا عِنْدَ الْعَرَبِ،
 وَتَهْتَمُّهُمْ بِهَا عَظِيمٌ لِلرَّغْبَةِ فِي
 نَسْلِهَا، فَإِنَّمَا تُعْطَلُ عِنْدَ شِدَّةِ
 الْأَهْوَالِ، وَقُرَأَ مُضَرَّ عَنِ الْبِزْيَدِيِّ:
 ﴿عُطِّلَتْ﴾ بِتَخْفِيفِ الطَّاءِ.

و«خَشُرُ الْوُحُوشِ» هُوَ جَمْعُهَا،
 وَاخْتَلَفَ النَّاسُ فِي هَذَا الْجَمْعِ، مَا
 هُوَ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ
 رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: هُوَ خَشْرُهَا
 بِالْمَوْتِ؛ لِأَنَّهَا لَا تَبْعَثُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ،

ولا يحضر القيامة غير
 الثقلين، وقال قتادة
 وجماعة: حشرت للجمع
 يوم القيامة، ويقصد
 للجماع من القُرْآنِ،
 فجعلوا ألفاظ الحديث
 حقيقة لا مجازاً، مثلاً في
 العدل، وقال أبي بن
 كعب: حشرت في الدنيا
 في أول هول يوم القيامة،
 فإنها تفر في الأرض،
 وتجتمع إلى بني آدم تأسأ
 بهم. وقرأ الحسن:
 ﴿حُشِرَتْ﴾ بشد الشين
 على المبالغة.

و«تَسْجِيرُ الْبَحَارِ» قَالَ
 قَتَادَةُ، وَالضَّحَّاكُ: مَعْنَاهُ:

فَرَعَتْ مِنْ مَائِهَا وَذَهَبَتْ حَيْثُ
 شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَقَالَ الْحَسَنُ:
 يَبْسَتْ، وَقَالَ الرَّبِيعُ ابْنُ خَيْثَمٍ:
 مَعْنَاهُ: مُلِثَتْ وَفَاضَتْ وَفُجِّرَتْ مِنْ
 أَعَالِيهَا، وَقَالَ أَبِي بِنِ كَعْبٍ:
 وَسُفِيَانُ، وَوَهْبٌ، وَابْنُ زَيْدٍ: مَعْنَاهُ:
 أَضْرَمَتْ نَاراً كَمَا يَسْجُرُ الثُّورُ، وَقَالَ
 ابْنُ عَبَّاسٍ: جَهَنَّمُ فِي الْبَحْرِ
 الْأَخْضَرِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمَعْنَى:
 مُلِكَتُ وَقَيْدُ اضْطِرَابِهَا حَتَّى لَا تَخْرُجَ
 عَلَى الْأَرْضِ بِسَبَبِ الْهَوْلِ، فَتَكُونُ
 اللَّفْظَةُ مَأْخُودَةً مِنْ «سَاجُورِ الْكَلْبِ»،
 وَقِيلَ: هَذِهِ بَحَارُ نَارٍ فِي جَهَنَّمَ تَسْجُرُ
 يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَقَدْ تَقَدَّمَ نَظِيرُ هَذِهِ
 الْأَقْوَالِ مَنْصُوصَةٌ لِأَهْلِ الْعِلْمِ فِي
 قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ﴾،
 وَقُرَأَ ابْنُ كَثِيرٍ، وَأَبُو عَمْرٍو:
 ﴿سُجِّرَتْ﴾ بِتَخْفِيفِ الْجِيمِ، وَقُرَأَ
 الْبَاقُونَ بِشِدْهَا، وَهِيَ مُتَرَجِّحَةٌ بِكَوْنِ



البحار جمعاً، كما قال تعالى:
 ﴿كَتَبْنَا بَلْقَعَهُ مَشْرِقًا﴾، وكما قال
 سبحانه: ﴿سُحُفًا مَشْرِقَةً﴾، ومثله:
 ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ و﴿وَبِجِّ مَسِينَةٍ﴾
 لأنها جماعة، وذهب قوم من
 الملحدين إلى أن هذه الأشياء
 المذكورة استعارات في كل ابن آدم
 وأحوال له عند موته، فالشمس
 نفسه، والنجوم عيناه وحواشيه،
 والعشار ساقاه، وهذا قول سوء
 وخيم غث ذاهب إلى إثبات الرموز
 في كتاب الله تعالى.

و«تَرْوِجُ الثُّفُوسِ» هُوَ تَنْوِيعُهَا؛
 لِأَنَّ الْأَرْوَاجَ هِيَ الْأَنْوَاعُ، وَالْمَعْنَى:
 جُعِلَ الْكَافِرُ مَعَ الْكَافِرِ، وَالْمُؤْمِنُ
 مَعَ الْمُؤْمِنِ، وَكُلُّ شَكْلٍ مَعَ شَكْلِهِ،
 رَوَاهُ النَّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ عَنِ
 النَّبِيِّ ﷺ، وَقَالَ عَمْرُ بْنُ الْخَطَّابِ
 وَابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وَقَالَ:

و«الكَشْطُ»: التقشير، وذلك كما يكشط جلد الشاة حين تسلخ، وكَشَطَ السماءَ هو طيها كَطَى السَّجَل، وفي مصحف عبدالله بن مسعود: «فَقِطَّتْ» بالقاف، وهما بمعنى واحد.

و«سَيَّرَتْ» معناه: أضرمت نارها، وقرأ نافع، وابن عامر، وحفص عن عاصم: «سَيَّرَتْ» بشد العين، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم بتخفيفها، وهي قراءة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقال قتادة: سَعَرَهَا غضب الله عزَّ وجلَّ وذنوب بني آدم.

و«أَزَلَّتْ» معناه: قُرِبَتْ ليدخلها المؤمنون، وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجماعة من المفسرين: إلى هذين ما انتهى الحديث، وذلك أن الغرض المقصود بقوله تعالى: «وَإِذَا» في جميع ما ذكرنا إنما تمَّ بقوله تعالى: «عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا أَحْضَرَتْ ﴿١٥﴾»، أي: ما أحضرت من شرٍّ فدخلت به جهنم، أو من خير فدخلت به الجنة، و«نَفْسٌ» هنا اسم جنس، أي: علمت النفوس، ووقع الإفراد لئِنَّه الذَّهْن على حقايرة المرء الواحد وقِلَّة دفاعه عن نفسه.

﴿١٥﴾ - ﴿١٦﴾ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

قوله تعالى: «فَلَا أُنَبِّئُ»، إما أن تكون [لَا] زائدة، وإما أن يكون ردًّا لقول قريش في تكذيبهم بنبوَّة محمد ﷺ وقولهم: إنه ساحر وكاهن ونحو ذلك، ثم أقسم الله

المشدَّة، جعل البنت مَوْدَّةً، وقرأ جمهور الناس: «سُيِّرَتْ» وهذا على وجه التوبيخ للعرب الفاعلين ذلك؛ لأنها تُسأل ليصير الأمر إلى سؤال الفاعلين، ويحتمل أن تكون: مَسْؤُولاً عنها مطلوباً الجواب منهم، كما قال تعالى: «إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً»، وكما سُئِلَ التُّرَاث والحقوق. وقرأ ابن عباس، وأبي بن كعب، وجابر بن زيد، وأبو الضحى، ومجاهد، وجماعة كبيرة منهم ابن مسعود، والربيع بن خيثم «سَأَلَتْ»، ثم اختلف هؤلاء، فقرأ أكثرهم: «فُتِلَتْ» بفتح اللام وسكون التاء [الثانية]، وقرأ أبو جعفر: «فُتِلَتْ» بشد التاء على المبالغة، وقرأ ابن عباس، وجابر، وأبو الضحى، ومجاهد: «فُتِلَتْ» بسكون اللام وضم التاء [الثانية]، وقرأ الأعرج: «سَيَّلَتْ» بكسر السين وفتح اللام دون همز. واستدل ابن عباس رضي الله عنهما بهذه الآية في أن أولاد المشركين في الجنة لأن الله تعالى قد انتصر لهم ممن ظلمهم.

و«الصحف المنشورة» قيل: هي صحف الأعمال تنشر ليقراً كل امرئ كتابه، وقيل: هي الصحف التي تتطاير بالأيمان والشمال للجزاء، وقرأ نافع، وابن عامر، وعاصم، وأبو جعفر، والأعرج، وشيبة، والحسن، وأبو رجاء، وقاتادة: «نُشِرَتْ» بتخفيف الشين المكسورة، وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي: «نُشِرَتْ» بشد الشين على المبالغة.

هذا نظير قوله تعالى: «وَكُنْتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿١٦﴾»، وفي الآية - على هذا - حُضٌّ على دليل الخير، فقد قال ﷺ: «المرء مع من أحب»، وقال عليه الصلاة والسلام: «فليظنر أحدكم من يخاليل» وقال الله عزَّ وجلَّ: «الْأَجَلَاءُ يَوْمَئِذٍ بِمَنْحِهِمْ لِيَمِيزَ عَدُوًّا إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾»، وقال مقاتل بن سليمان: زُوِّجَتْ نفوس المؤمنين بزواجهم من الحور العين وغيرهن، وقال عكرمة، والضحاك، والشعبي: زُوِّجَتْ الأرواح بالأجساد. وقرأ عاصم: «زُوِّجَتْ» غير مدغم.

و«الْمَوْوَدَّةُ»: اسم معناه: الممثل عليه، ومنه: «وَلَا يَزِدُّهُ»، ومنه: «اتَّيِدُّ»، أي: تَوَقَّرَ واثقل، وعُرف هذا الاسم في البنات اللواتي كان قوم من العرب يدفنونهن أحياء، يحفر الرجل شبه البئر أو القبر ثم يسوق ابنته فيلقبها فيها، وإذا كانت صغيرة جداً خُد لها في الأرض ودفنها، وبعضهم كان يفعل ذلك خشية الإملاق وعدم المال، وبعضهم غيراً وكراميةً للبنات وجاهلية، وقرأ الجمهور: «الْمَوْوَدَّةُ» بهمزة من «وَأَدَّ»، وفي حرف ابن مسعود: «وَإِذَا الْمَاوُودَةُ»، وقرأ البزري: «الْمَوْوَدَّةُ» بهمزة مضمومة على الواو مثل «المعوذة»، وقرأ بعض القراء: «الْمَوْوَدَّةُ» بضم الواو الأولى وتسهيل الهمزة، وقرأ الأعمش: «الْمَوْوَدَّةُ» بسكون الواو على وزن «الْفَعْلَةُ»، وقرأ بعض السلف: «الْمَوْوَدَّةُ» بفتح الواو والبدال

تعالى نفسه بالإضافة إلى عرشه تنبيهاً على عظم ملكوته.

وأجمع المفسرون على أن قوله تعالى: ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ يُرَادُ بِهِ مُحَمَّدٌ ﷺ﴾، والضمير في ﴿رَأَاهُ﴾ لجبريل عليه السلام، وهذه الرؤية التي كانت بعد أمر غار حراء حين رآه على كرسي بين السماء والأرض، وقيل: هي الرؤية التي رآه عند سدره المنتهى في الإسراء، وسمى ذلك الموضوع أفقاً مجازاً، وقد كانت لرسول الله ﷺ رؤية ثانية بالمدينة، وليست هذه. ووصف تعالى الأفق بالمُبِين لأنه كان في الشرق من حيث تطلع الشمس، قاله قتادة، وأيضاً فكلُّ أفق فهو في غاية البيان.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ عَلَىٰ آيَاتٍ يَبَصِّرِينَ ﷻ﴾ بالضاد بمعنى: بخيل، أي: يشخُّ به ولا يُبلِّغ ما قيل له ويبخل كما يفعل الكاهن حتى يُعطى حلوانه. وبالضاد هي في خطوط المصاحف كلها فيما قال الطبري، وهي قراءة نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمزة، وعثمان بن عفان، وابن عباس، والحسن، وأبي رجاء، والأعرج، وأبي جعفر، وشيبة، وجماعة وافرة. وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، والكسائي، وابن مسعود، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وابن عمر، وابن الزبير، وعائشة، وعمر بن عبدالعزيز، وابن جبير، وعروة بن الزبير، ومسلم بن جندب، ومجاهد، وغيرهم: ﴿بِظَنِينِ﴾ بالطاء، أي: بِمُتَّهَمٍ، وهذا في

ومجاهد، وقاتدة: ذلك عند إداره وبه وقع القَسَم، ويرجح هذا قوله تعالى بَعْدُ: ﴿وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ﴾، فكانهما حالان متصّلان، ويشهد لذلك قول علقمة بن قُرْظ:

حَتَّىٰ إِذَا الصُّبْحُ لَهَا تَنَفَّسًا
وَأَنجَابَ عَنْهَا لَيْلُهَا وَعَسَّسَا
وقال أبو العباس المبرد: أقسم تعالى بإقباله وإدباره معاً، قال الخليل يقال: عَسَسَ الليل وسَغَسَعَ إذا أقبل وأدبر.

و «تَنَفَّسَ الصُّبْحُ»: استطار واتسع ضوءه، وقال علوان بن قيس: وَلَيْلٌ دَجِيٌّ قَدْ تَنَفَّسَ فَجَرُهُ لَهُمْ بَعْدَ أَنْ خَالَوهُ لَنْ يَتَنَفَّسَا والضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ للقرآن، و«الرسول الكريم» في قول جمهور الناس: جبريل عليه السلام، وقال آخرون: هو محمد عليه الصلاة والسلام في الآيات كلها، والقول الأول أصحُّ، و«رَسُولٌ» في هذه الآية صفة تقتضي زرع المذاق، ثم وصفه تعالى بقوة منحه الله تعالى إيَّاهَا.

واختلف الناس في تعلُّق قوله تعالى: ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ﴾، فذهب بعض المتأولين إلى تعلُّقه بقوله سبحانه: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، وذهب آخرون إلى أن الكلام تمَّ في قوله: ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾، وتعلُّق الظرف بقوله: ﴿تَكِينٍ﴾، ومعناه: له مكانة ورفعة.

وقوله تعالى: ﴿مُتَلَّعٍ نَّمَّ آمِينَ ﷻ﴾ معناه: مقبول القول مصدق فيما يقوله مؤتمن على ما يرسل به ويؤديه من وحي وامتثال أمر، وقرأ أبو جعفر: ﴿نَمَّ﴾ بضم الشاء، وذكر الله

تعالى بالخُئْس الجوارِي الكُئْس، فقال جمهور المفسرين: إن ذلك الدَّراري السبعة، الشَّمْسُ و القَمَرُ و زُحَلُ و عَطَارِدُ و المَرِيخُ و الزُّهُرَةُ و المُشْتَرِي. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: المراد الخمسة دون الشمس والقمر، وذلك أن هذه الكواكب تُخَيَسُ في جريها، أي: تنقهق فيما ترى العين، وهي جوارٍ في السماء، وأثبت يعقوب الياء في ﴿الجواري﴾ في الوقف، وحذفها الباقون، وهي تَكْنِسُ في أبراجها، أي: تَسْتَبِرُ، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وقاتدة: المراد النجوم كلها، لأنها تُخَيَسُ وتَكْنِسُ بالنهار حين تختفي، وقال عبدالله بن مسعود، والثَّعْبِيُّ، وجابر بن زيد، وجماعة من المفسرين: المراد «بالخُئْس الجواري الكُئْس» بقر الوحش لأنها تفعل هذه الأفعال في كناسها، وهي المواضع التي تأتي إليها من الشجر والغيران ونحوه، وقال ابن عباس، وابن جبير والضحاك: هي الظباء، وذهب هؤلاء في ﴿بِالْخُئْسِ﴾ إلى أنه من صفة الأنوف لأنها يلزمها الخئس، وكذلك هي بقر الوحش أيضاً، ومن ذلك قول الشاعر:

سَوَىٰ بَارِ بِبِضٍ أَوْ عَزَالَ صَرِيْمَةٍ
أَعَنَّ مِنَ الْخُئْسِ الْمَنَاخِرِ تَوَامٍ
و «عَسَسَ اللَّيْلُ» في اللغة إذا كان غير مستحكماً الإظلام، فقال الحسن بن أبي الحسن: ذلك في وقت إقباله، وبه وقع القَسَم، وقال علي، وابن عباس، وزيد بن أسلم،

على ما يليها، ويحتمل أن يكون تفجير تفرغ من قيعانها فيذهب الله تعالى ماءها حيث شاء، وقيل: يفجر بعضها إلى بعض فيختلط العذب بالمِلْح وتصير واحداً، وهذا نحو الاختلاف في ﴿سَجَرَت﴾ في السورة التي قبل. وقرأ مجاهد والربيع بن خيشم: ﴿فَجَرَّت﴾ بتخفيف الجيم. و«بغشرة القبور» نبشها عن الموتى الذين فيها.

وقوله تعالى: ﴿عَلَيْتَ نَفْسٍ﴾ هو جواب [إِذَا]، و«نَفْسٍ» هنا اسم الجنس، وإفراؤها ليبين لذهن السامع حقارتها وقلتها وضعفها عن منفعة ذاتها إلا من رحم الله تعالى، وقال كثير من المفسرين في معنى قوله تعالى: ﴿مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ﴾: إنها عبارة عن جميع الأعمال؛ لأن هذا التقسيم يعم الطاعات المعلومة والمتروكة، وكذلك المعاصي. وقال ابن عباس ومحمد بن كعب القرظي: معناه: ما قدمت في حياتها وما أخرت مما سُنَّتهُ فعمل به بعد موتها.

ثم خاطب تعالى جنس ابن آدم فوقَّه - على جهة التوبيخ والتنبيه - على أي شيء أوجب أن يغتَرَّ بربه الكريم فيعصيه ويجعل له نداً، وغير ذلك من أنواع الكفر، وهو الخالق المٌوجد بعد العدم. وروى أن النبي ﷺ قرأ: ﴿مَا عَزَاكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ﴾ فقال: جهله، وقاله عمر رضي الله عنه وقرأ: ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ وقال قتادة: غرَّه عدوه المسلط عليه، وقال بعض العلماء: غرَّه ستر الله تعالى عليه، وقال

ثم بيّن تعالى أن تكسب المرء على العموم في استقامة وغيرها إنما يكون مع خلق الله تعالى واختراعه الإيمان في صدر المرء، وروى أنه نزل قوله تعالى: ﴿لَمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ﴾ فقال أبو جهل: هذا أمر قد وكَّل إنيّنا، فإن شئنا استقمنا وإن لم نشأ لم نستقم، فنزلت: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾، وفي الحديث: «يقول الله: يا ابن آدم، تريد وأريد، فتتعب فيما تريد، ولا يكون إلا ما أريد».

كامل تفسير سورة التكويد والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة الانفطار

وهي مكية كلها بإجماع من المفسرين.

﴿١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه أوصاف يوم القيامة. و«انفطارُ السماء» انشقاقها على غير نظام مقصود، إنما هو انشقاق لتزول زينتها. و«انشطارُ الكواكب» سقوطها من مواضعها التي هي فيها كالنظام. و«تفجير البحار» يحتمل أن يكون من امتلائها فتفجر من أعاليها وتفيض

المعنى نظير وصفة بأمين، وقيل: معناه: بضعيف القوة، من قولهم: يثر ظنون إذا كانت قليلة الماء، ورجح أبو عبيدة قراءة الظاء مشالة لأن قريشاً لم تبخل محمداً ﷺ فيما يأتي به وإنما كذبه فقيل: ما هو بمُتهم.

ثم نفى تعالى عن القرآن أن يكون كلام شيطان، على ما قالت قريش إن محمداً كاهن، و«يَجِرُّ» معناه مُبَعْدُ مَرْجُومٌ بالكواكب واللعنة وغير ذلك.

وقوله تعالى: ﴿فَأَن تَدَّهُونَ﴾ توقيف وتقرير، على معنى: أين المذهب لأحد عن هذه الحقائق، و«الدُّكْرُ» هنا مصدرٌ بمعنى التذكرة. ثم خصص تعالى من شاء الاستقامة بالذكر تشريفاً وتنبهاً وذكراً لتكسبهم أفعال الاستقامة.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴿١﴾ وَإِذَا الْكُوكُوبُ أُنزِلَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِرَتْ ﴿٣﴾ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعِثَتْ ﴿٤﴾ عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴿٥﴾ كَاتِبُهَا الْإِنْسَانُ مَا عَرَاكَ بِرَبِّكَ الْكَبِيرِ ﴿٦﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ نَّشَاءُ رَبِّكَ ﴿٨﴾ كَلَّا لَئِنْ تَكْذَبُونَ بِالَّذِينَ ﴿٩﴾ وَإِنْ عَلَيَّ كُفُوفِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَنِينِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ إِنْ أَلْبَسْتُمْ لِي كِبِيرًا ﴿١٣﴾ وَإِنَّ أَفْعَالَ لِي حَسِيرًا ﴿١٤﴾ يَصَلُّونَهَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا مِمَّا عَنِهَا يَعْلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١٨﴾ يَوْمَ لَا تَمَلِكُ نَفْسٌ لِنَفْسٍ سَعِيًّا ﴿١٩﴾ وَالْأَمْرُ يَوْمَ لِلَّهِ ﴿٢٠﴾

سُورَةُ الْإِنْفِطَارِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَبَلِّغْ لِلْمُطَفِّينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا كَالُوا عَمَلِ النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ أَلَا يَظُنُّ أُولَئِكَ أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ﴿٤﴾ يَوْمَ عَظِيمٍ ﴿٥﴾ يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٦﴾

٥٨٧

مقاعدهم من النار عُذوة وَعَشِيَّة، فهم مشاهدون لها. ثم عَظُم تعالي قدر هول يوم الدِّين بقوله سبحانه: ﴿وَمَا آذَنَكَ﴾، ﴿ثُمَّ مَا آذَنَكَ﴾.

وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن أبي إسحق، وعيسى، وابن جندب ﴿يَوْمٌ﴾ برفع الميم على معنى: هو، يومٌ وقرأ الباقون، والحسن، وأبو جعفر وشيبة، والأعرج: ﴿يَوْمٌ﴾ بالنصب على الظرف، والمعنى: الجزء يومٌ، فهو ظرف في معنى خبر الابتداء.

ثم أخبر تعالي بضغف الناس يومئذ، وأنه لا يغني بعضهم عن بعض، وأن الأمر له تبارك وتعالى، قال قتادة: كذلك هو اليوم، والله تعالي هنالك لا يُنازعه أحد، ولا يُمكن أحداً من شيء كما مكَّنه في الدنيا.

كامل تفسير سورة الانفطار
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة المطففين

وهي مكية في قول جماعة من المفسرين، واحتجوا بذكر الأساطير، وهذا على أن تطفيف الكيل والوزن كان بمكة حسب ما هو في كل أمّة، لا سيّما مع كفرهم، وقال ابن عباس، والسدي، والنقاش، وغيرهم: السورة مدنية، قال السدي: كان بالمدينة رجل يُكنى أبا جهينة، له مكيالان، يأخذ بالأوفى

في الكفار، وقرأ جمهور الناس: ﴿تَكْذِبُونَ﴾ بالتاء من فوق، وقرأ الحسن وأبو جعفر: ﴿يُكْذِبُونَ﴾ بالياء، والدِّين هنا يحتمل أن يريد به الشرع، ويحتمل أن يريد الجزاء والحساب.

و«الخافِظُونَ» هم الملائكة الذين يكتبون أعمال ابن آدم، ووصفهم تعالي بالكرم الذي هو نفي المُدَام، ﴿يَعْلَمُونَ مَا تَعْلَمُونَ﴾ لمشاهدتهم حال بني آدم، وقد روي حديث ذكره سفيان يقتضي أن العبد إذا عمل سيئة مما لا يرى ولا يُسمع مثل الخواطر المستضحبة ونحوها أن الملك يجد ريح تلك الخطيئة بإدراك قد خلقه الله تعالي لهم.

﴿١٣﴾ - ﴿١٩﴾ تفسير قوله عز وجل: «الأبرار» جمع برّ، وهو الذي قد اطّرد برّه عموماً، فَبَرَّ رَبَّهُ في طاعته، إياه، وَبَرَّ أبويه، وَبَرَّ النَّاسَ في رفع ضره عنهم، وجلب ما استطاع من الخير لهم، وَبَرَّ الحيوان وغير ذلك في أن لم يفسد منها شيئاً عبثاً وغير منفعة مباحة، و«الفُجَّارُ» الكُفَّارُ، و﴿يَصَلُّونَهَا﴾ معناه: يباشرون حرها بأبدانهم، و﴿يَوْمَ الدِّينِ﴾ هو يوم الجزاء.

قوله تعالي: ﴿وَمَا مُمْ عَنَّا بِقَائِينَ﴾، قال بعض المتأولين: هذا تأكيد في الإخبار عن أنهم يَصَلُّونَهَا، وأنهم لا يمكنهم المغيب عنها يومئذ، وقال آخرون: المعنى: وما هم عنها بغائبين في البرزخ، كأنه تعالي لمّا أخبر عن صَلِّيهِم إياها يوم الدِّين أخبر بعد ذلك عن المدة التي قُبِل يوم الدِّين، وذلك أنهم يرون

غيره: غرّه كرم الله تعالي، ولفظة «الكريم» تُلَقِّن هذا الجواب، فهذا من لطف الله عز وجل بعباده العصاة المؤمنين. وقرأ ابن جبير، والأعمش: ﴿مَا أَغْرَكَ﴾ على وزن أَفَعَلَك، والمعنى: ما دعاك إلى الاغترار؟ ويكون المعنى تعجباً محضاً. وقرأ الجمهور: ﴿فَعَدَلَك﴾ بشد الدال، وقرأ الكوفيون، والحسن، وأبو جعفر، وطلحة، والأعمش، وأبو رجاء، وعيسى، وعمرو بن عبيد: ﴿فَعَدَلَك﴾ بتخفيف الدال، والمعنى: عدل أعضائك بعضها ببعض، أي: وازن بينها.

قوله تعالي: ﴿فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، ذهب الجمهور إلى أن ﴿فِي﴾ متعلقة بـ ﴿رَكَّبَكَ﴾ أي: في صورة قبيحة أو حسنة أو مشوهة أو سليمة أو نحو ذلك، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى: فعذلك في أي صورة، بمعنى: إلى أي صورة، حتى قال بعضهم: المعنى: لم يجعلك في صورة خنزير ولا حمار، وذهب بعض المتأولين إلى أن المعنى الوعيد والتهديد، أي: الذي إن شاء ركبك في صورة حمار أو خنزير أو غيره، و﴿وَمَا﴾ في قوله تعالي: ﴿مَا شَاءَ﴾ زائدة، فيها معنى التأكيد والتركيب والتأليف وجمع شيء إلى شيء، وروى خارجة عن نافع: ﴿رَكَّبَكَ كَلًّا﴾ بإدغام الكاف في الكاف.

ثم ردّ تعالي على سائر أقوالهم ورَدَّعَ عنها بقوله سبحانه: ﴿كَلًّا﴾، ثم أثبت تعالي لهم تكذيبهم بالدِّين، وهذا الخطاب عام ومعناه الخصوص

ويعطي بالأنقص، فنزلت السورة، ويقال إنها أول سورة أنزلت بالمدينة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً - فيما روي عنه -: نزل بعضها بمكة، ونزل أمر التطفيف بالمدينة؛ لأنهم كانوا أشد الناس فساداً في هذا المعنى، فأصلحهم الله تعالى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأمر الكيل والوزن وكيد جدأ، وتصرفه في المدن ضروري في الأموال التي هي حرام بغير حق، والإفساد فيه كبيرة لا ينعف فيها دافع إلا التوبة، ولا يخلص إلا رد المظلمة إلى صاحبها. قال مالك بن دينار: احتضر جاز لي، فعمل يقول: جيلان من نار، فقلت له: ما هذا؟ فقال: يا أبا يحيى، كان لي مكيالان، أخذ بالوافي وأعطي بالناقص، وقال عكرمة: أشهد على كل كيال أو وزن أنه في النار، وقال بعض العرب: لا تلتمسوا المرؤة ممن مرؤته في رءوس المكاييل وألسنة الموازين.

١ - ٦ تفسير قوله عز وجل:

قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ﴾ معناه: الشؤر والحزن والشقاء الأذوم، وقد روي عن ابن مسعود وغيره أن وادياً في جهنم يسمى وَيْلاً، ورفع ﴿وَيْلٌ﴾ على الابتداء، ورفع على معنى: ثبت لهم واستقر، وما كان في حيز الدعاء والترقب فهو منصوب نحو قولهم: رغباً وسفياً. و«المُطَفَّفُ»: الذي ينقص الناس حقوقهم، والتطفيف: النقصان، أصله من الشيء الطفيف وهو التزر، والمُطَفَّفُ إنما يأخذ

بالميزان شيئاً طفيفاً. وقال سلمان: الصلاة مكيال، فمن أوفى أوفى له، ومن طُفّف فقد علمتم ما قال الله تعالى في المطففين، وقال بعض العلماء: يدخل التطفيف في كل عمل وقول، ومنه قول عمر رضي الله عنه: طُفِّفْت معناه: نقصت الأجر أو العمل، ولذلك قال مالك رحمه الله: يقال لكل شيء وفاء وتطفيف، فجاء بالتقيض. وقد ذهب بعض الناس إلى أن التطفيف هو تجاوز الحد في وفاء أو نقصان، والمعنى والقرائن بحسب قول قول تبيين المراد، وهذا عندي حد صحيح، وقد بين الله تعالى أن التطفيف ها هنا إنما أراد به أمر الوزن والكيل.

﴿أَكَاوُوا عَلَ النَّاسِ﴾ معناه: قبضوا منهم، و﴿كَاوَهُمْ﴾ معناه: أقبضوهم، يقال: كَلْتُ منك وَاكْتَلْتُ عليك، ويقال: كَيْلُكَ وِكَيْلُكَ لك، فلما حذف اللام تعدى الفعل، قاله الفراء والأخفش وأشد أبو زيد:

وَلَقَدْ جَيْتَيْتُكَ أَكْمَوْا وَعَسَا قِلًا
وَلَقَدْ نَهَيْتُكَ عَنِ بَنَاتِ الْأَوْتِيرِ

وعلى هذا المعنى هي قراءة الجمهور، وكان عيسى بن عمر يجعلها حرفين، ويقف على [كأولاً] [أو وزئوا] ويستدئهم هم يخسرون، أي: إذا كالأوا أو وزنوا، ورويت عن حمزة، فقوله تعالى: ﴿هم﴾ تأكيد للضمير، وظاهر هذه الآية يقتضي أن الكيل والوزن على البائع، وليس ذلك بالجلبي، وصدر الآية هو في المشتريين، قدمهم بأنهم يستوفون ويشأخون في ذلك، إذ لا تمكنهم

الزيادة على الاستيفاء لأن البائع يحفظ نفسه، فهذا مبلغ قدرتهم في ترك الفضيلة والسماحة والمندوب إليه، ثم ذكر تعالى أنهم إذا باعوا أمكنهم من الظلم والتطفيف أن يخسروا لأنهم يتولون الكيل للمشتري منهم، وكذلك هم بحالة من يخسر البائع إن قدر. و﴿بِحَيْرُونَ﴾ تعدى بالهمزة، يقال: حَير الرجل وأخسره غيره، والمفعول به [كأولاً] محذوف.

ثم وقفهم تعالى على أمر القيامة وذكرهم بها، وهذا يؤيد أنها نزلت بالمدينة في قوم مؤمنين، وأريد بها - مع ذلك - من غير هذه الأمة. و﴿يَبْنَون﴾ هنا بمعنى يتحقق ويعلم. و«اليوم العظيم» يوم القيامة، و﴿يَوْمِ﴾ ظرف عمل فيه فعل مقدر، «تبعثون» ونحوه، وقال الفراء: هو بدل من «يوم عظيم» لكنه مبني، ويأبى ذلك البصريون لأنه مضاف إلى مغرب.

و«قيام الناس لرب العالمين» يختلف الناس فيه بحسب منازلهم، فروي عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ أنه يقام فيه خمسين ألف سنة، وهذا بتقدير شدته، وقيل: ثلاثمائة سنة، قاله النبي عليه الصلاة والسلام، وقال ابن عمر: مائة سنة، وقيل: ثمانون سنة، وقال ابن مسعود: أربعون سنة رافعي رؤوسهم إلى السماء لا يؤمرون ولا يكلمون، وقيل غير هذا، وفي هذا كله آثار مروية، ومعناها أن كل مُدَّة لقوم ما تقتضي حالهم وشدة أمرهم ذلك، وزوي أن القيام فيه على المؤمن هو على ما بين الظهر إلى العصر،

السفلى، وقاله البراء عن النبي ﷺ، وقال عكرمة: «سجّين» عبارة عن الخسار والهوان، كما تقول: بلغ فلان الحضيض، إذا صار في غاية الخمول، وقال قوم من اللغويين: «سجّين» ثبوته بدل من لام، وهو من السجّيل، وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ﴾ تعظيم لأمر هذا السجين وتعجب منه، ويحتمل أن يكون تقرير استفهام، أي: هذا مما لم تكن تعلمه قبل الوحي.

قوله تعالى: ﴿كَيْتٌ تَرْتُومٌ﴾، من قال بالقول الأول فسي ﴿سَجِّينٌ﴾ فـ ﴿كَيْتٌ﴾ مرتفع عنده على خبر ﴿إِنَّ﴾، والظرف الذي هو ﴿لَيْئِ سَجِّينٌ﴾ ملفى، ومن قال في ﴿سَجِّينٌ﴾ بالقول الثاني فـ ﴿كَيْتٌ﴾ مرتفع عنده على خبر ابتداءٍ مضمّر، والتقدير: هو كتاب مرقوم، ويكون هذا الكلام مُفسّراً لـ ﴿سَجِّينٌ﴾، ما هو. و﴿تَرْتُومٌ﴾ معناه: مكتوبٌ رُقم لهم بشرٌ، ثم أثبت تعالى للمكذّبين بيوم الحساب والدين الويل.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ إشارة إلى ما يتضمّنه المعنى في قوله تعالى: ﴿كَيْتٌ تَرْتُومٌ﴾، وذلك أنه يتضمّن أنه يُرفع ليوم عَرْضٍ وجزاء، وبهذا يتم الوعيد ويتّجه معناه، و﴿الْمُتَعَدِّي﴾ الذي يتجاوز حدود الأشياء، و﴿أَيْمٌ﴾ مبالغة في «أَيْم»، وقرأ الجمهور: ﴿تَلَلٌ﴾ بالتاء، وقرأ

وزوي أنه على بعض الناس على قدر صلاة مكتوبة، وفي هذا القيام هو إلجام العرق للناس، وهو أيضاً مُخْتَلِفٌ، فيروى عن النبي ﷺ من طريق عقبه بن عامر أنه يلجم الكافر إلجاماً، ويروى أن بعض الناس يكون فيه إلى أنصاف ساقيه، وبعضهم إلى فوق، وبعضهم إلى أسفل.

٧٧ - ٧٨ تفسير قوله عز وجل:

هذه الآية وما بعدها يظهر أنها من نمط المكّي، وهو أحد الأقوال التي ذكرناها قبل. و﴿كَلَّا﴾ يجوز أن تكون ردّاً لأقوال قريش، ويحتمل أن تكون استفتاحاً بمنزلة «ألا»، وهذا قول أبي حاتم واختياره، و«الفجّار»: الكفار، و«كتابهم» يراد به الذي فيه تحصيل أمرهم وأفعالهم، ويحتمل عندي أن يكون المعنى: وعدّاهم وكتاب كونهم هو في سجّين، أي: هنالك كُتِبوا في الأزل. وقرأ أبو عمرو، والأعرج وعيسى: ﴿الْفَجَّارُ﴾ بالإمالة، و«الأبرار» بالفتح، قاله أبو حاتم.

واختلف الناس في ﴿سَجِّينٌ﴾ ما هو؟ فقال الجمهور: هو قَعِيلٌ من السجّين، كسكّير وشريّب، أي: في موقع ساجنٍ وساكرٍ وشاربٍ، فجاء «سجّين» بناءً مبالغة، قال مجاهد: وذلك في صخرة تحت الأرض السابعة، وقال كعبٌ حاكياً عن التوراة، وأبيّ بن كعب: هو في شجرة سوداء هنالك، وقيل - عن النبي عليه الصلاة والسلام - في بئر هنالك، وقيل تحت خدّ إبليس، وقال عطاء الخراساني: هي الأرض

لأن كُتِبَ الفُجَّارُ لَيْئِ سَجِّينٍ ﴿٧﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَجِّينٌ ﴿٨﴾ كَيْتٌ تَرْتُومٌ ﴿٩﴾ وَيَلَّ يَوْمَئِذٍ السَّكَارِينِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ يَوْمَ الَّذِينَ ﴿١١﴾ وَمَا كَذَّبَ بِهِيَ لَأَكْلَ مَعْتَدٍ أَشِيرِ ﴿١٢﴾ إِذَا نُفِثَ عَلَيْهِ يَأْتِنَا قَالَ أَسْطِيرِ الْأُولَى ﴿١٣﴾ كَلَّا لَئِنْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ مَحْجُورُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَادُوا الْمَحْجَمِ ﴿١٦﴾ ثُمَّ هَالُ هَذَا الَّذِي كُتِبَ لَهُمْ يَكْفُرُونَ ﴿١٧﴾ كَلَّا إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي عَلَيَاتِ ﴿١٨﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا عَلَيَاتُونَ ﴿١٩﴾ كَيْتٌ تَرْتُومٌ ﴿٢٠﴾ وَيَسْهَدُ الْمَقْرُورُونَ ﴿٢١﴾ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ ﴿٢٢﴾ عَلِ الْأَبْرَارِكَ يَنْظُرُونَ ﴿٢٣﴾ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ ﴿٢٤﴾ يُسْفُونَ مِنْ رَجَعِهِمْ مَحْجُورٍ ﴿٢٥﴾ حَسْبُهُمْ سَمَكٌ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُنْتَفِسُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَرِجُهُمْ مِنْ تَسْنِيمٍ ﴿٢٧﴾ عَيْنَا يَشْرَبُ بِهَا الْمَقْرُورُونَ ﴿٢٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامِرُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ لَضَالُونَ ﴿٣٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَفَظِينَ ﴿٣٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ فَكُنُوا مُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

٥٨٨

أبو حية: ﴿يُنْفِئُ﴾ بالياء من تحت. و«الأساطير» جمع أسطورة وهي الحكايات التي سَطُرَت قديماً، وقيل: هو جمع أسطارٍ، وأسطاژ جمع سَطُر، ويروى أن هذه الآية نزلت بمكة في النضر بن الحارث بن كِلْدَةَ، وهو الذي كان يقول: أساطير الأولين، وكان هو قد كتب بالجيرة أحاديث رُستم واسفنديار، وكان يُحدِّثُ بها بمكة ويقول: أنا أحسن حديثاً من محمد، فإنما يحدثكم بأساطير الأولين.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ زَجَزَ وَرَدُّ لقولهم «أساطير الأولين»، ثم أوجب تعالى أن ما كَسَبُوا مِنَ الْكُفْرِ والطغيان والعتو قد رَانَ عَلَى قلوبهم، أي: غَطَّى عَلَيْهَا وَغَلَبَ، فهم مع ذلك لا يبصرون رشداً، ولا يخلص إلى قلوبهم خير، يقال:

رانت الخمر على عقل شاربها، وران العُشْيُ على قلب المريض، وكذلك الموت، ومنه قول الشاعر:

ثُمَّ لَمَّا رَأَتْ رَائِثَ بِهِ الْخَمْرِ
رُزْ وَأَلَا تَرِيئَهُ بِاتَّقَاءِ
والبيت لأبي زُبَيْد، قال الحسن، وقتادة: الرُّئِينُ: الذُّنْبُ عَلَى الذُّنْبِ حتى يموت القلب، وَيُرْوَى عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الرَّجُلَ إِذَا أَذْنَبَ صَارَتْ نُكْتَةٌ سَوْدَاءَ فِي قَلْبِهِ، ثُمَّ كَذَلِكَ حَتَّى يَتَغَطَّى، فَلِذَلِكَ الرَّانُ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْفُرُونَ﴾». وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وابن عامر بإدغام اللام في الراء، وقرأ نافع أيضاً بالإدغام والإمالة، قال أبو حاتم: القراءة بالفتح والإدغام، وعلتُ تعالى اللوم بهم فيما كسبوه - وإن كان ذلك بخلقٍ منه سبحانه واختراع - لأن الثواب والعقاب متعلق بكسب العبد، و﴿كَلَّا﴾ في قوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ يَصِلْحَ فِيهَا الْوَجْهَانَ الَّذَانِ تَقْدَمَ ذِكْرَهُمَا، وَالضَّمِيرُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ﴾ وَفِي «رَبِّهِمْ» هُوَ لِلْكَفَّارِ، فَمَنْ قَالَ بِالرُّوْيَةِ - وَهُمْ أَهْلُ السَّنَةِ - قَالَ: إِنَّ هَوْلَاءِ لَا يَرُونَ رَبَّهُمْ، فَهَمْ مَحْجُوبُونَ عَنْهُ، وَاحْتَجَّ بِهَذِهِ الْآيَةِ مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ عَنْ مَسْأَلَةِ الرُّوْيَةِ مِنْ جِهَةِ دَلِيلِ الْخُطَابِ، وَإِلَّا فَلَوْ حَجَبَ الرُّوْيَةَ عَنِ الْكُلِّ لَمَا أَعْنَى هَذَا التَّخْصِيصَ، وَقَالَ الشَّافِعِيُّ: فَلَمَّا حَجَبَ قَوْمًا بِالسُّخْطِ دَلَّ أَنْ قَوْمًا يَرُونَهُ بِالرُّوْيَةِ. وَمَنْ قَالَ بِالْأَلَا رُوْيَةَ - وَهُوَ قَوْلُ الْمُعْتَزَلَةِ - قَالَ فِي هَذِهِ الْآيَةِ: إِنَّهُمْ مَحْجُوبُونَ عَنِ

رحمة ربهم وُغْفِرَانَهُ. وَصَلَّى الْجَحِيمِ» هُوَ مَبَاشِرَةٌ حُرِّ النَّارِ دُونَ حَاطِلٍ.

وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ بَلَّأْنَا﴾ هُوَ عَلَى مَعْنَى التَّوْبِيخِ لَهُمْ وَالتَّقْرِيعِ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهٖ تُكْفِرُونَ﴾ مَفْعُولٌ لَمْ يَسْمَ فاعله؛ لِأَنَّهُ قَوْلُ بَنِي لِهِ الْفِعْلِ الَّذِي هُوَ [يُقَالُ]، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿هَذَا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى تَعْذِيبِهِمْ وَكَوْنِهِمْ فِي الْجَحِيمِ.

(١٨) - (٢٩) تفسير قوله عز وجل:

لما ذكر تعالى أمر كتاب الفجار عقب ذلك بذكر كتاب ضدهم لبيان الفرق، و«الأبرار» جمع برّ، وقرأ ابن عامر بكسر الراء، وقرأ ابن كثير، ونافع بفتحها، وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي بإمالتها. و«عليون» هو جمع علي، على وزن فَعِيلٍ بِنَاءِ مَبَالِغَةٍ، يَرِيدُ بِذَلِكَ الْمَلَائِكَةَ فَلِذَلِكَ أَعْرَبَ بِالْوَاوِ وَالنُّونِ، وَقِيلَ: يَرِيدُ الْمَوَاضِعَ الْعَلِيَّةَ لِأَنَّهُ عُلُوٌّ فَوْقَ عُلُوٍّ، فَلَمَّا كَانَ هَذَا الْاسْمُ عَلَى هَذَا الْوِزْنِ لَا وَاحِدَ لَهُ أَشْبَهَ «عَشْرِينَ» فَأَعْرَبَ إِعْرَابَ الْجُمُوعِ إِذْ أَشْبَهَهَا، وَهُوَ أَيْضًا مِثْلُ «قُسْرِينَ»، فَإِنَّكَ تَقُولُ: طَابَتْ قُسْرُونَ وَدَخَلَتْ قُسْرِينَ.

واختلف الناس في الموضوع المعروف بعليين، ما هو؟ فقال قتادة: قائمة العرش اليمنى، وقال ابن عباس: السماء السابعة تحت العرش، وروي ذلك عن النبي عليه الصلاة والسلام، وقال الضحاك: هو عند سيدة المنتهى، وقال ابن عباس: العليون: الجنة، وقال مكي: وقيل هو في السماء الرابعة،

وقال الفراء عن بعض العلماء: هو في السماء الدنيا، والمعنى أن كتابهم الذي فيه أعمالهم هنالك تهتمأ بها وترفعاً لها، وأعمال الفجار في سجين في أسفل سافلين؛ لأنه روى عن أبي بن كعب، وابن عباس أن أعمالهم يصعد بها إلى السماء فتأبأها، ثم تُرَدُّ إِلَى الْأَرْضِ فَتَأْبَاهَا أَرْضٌ بَعْدَ أَرْضٍ حَتَّى تَنْتَهِيَ فِي سَجِينٍ تَحْتَ الْأَرْضِ السَّابِعَةِ.

و﴿كِتَابٌ رَزَقُوا﴾ فِي هَذِهِ الْآيَةِ خَبَرٌ فِي هَذَا الْمَوْضِعِ الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ وَغَيْرُهُ.

و«الأرائك» جمع أريكة، وهي السُرُرُ فِي الْحِجَالِ، وَ﴿يَنْظُرُونَ﴾ مَعْنَاهُ: إِلَى مَا عِنْدَهُمْ مِنَ النِّعَمِ، وَيَحْتَمَلُ أَنْ يَرِيدَ: بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ، وَقِيلَ - عَنِ النَّبِيِّ ﷺ -: يَنْظُرُونَ إِلَى أَعْدَائِهِمْ فِي النَّارِ كَيْفَ يُعَذِّبُونَ.

وقرأ جمهور الناس: ﴿تَعْرِفُ﴾ عَلَى مَخَاطَبَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ، بِفَتْحِ التَّاءِ وَكسْرِ الرَّاءِ ﴿نَضْرَةً﴾ نَصَبًا، وَقَرَأَ أَبُو جَعْفَرٍ، وَابْنُ أَبِي إِسْحَاقَ، وَطَلْحَةُ، وَيَعْقُوبُ: ﴿تُعْرِفُ﴾ بِضَمِّ التَّاءِ وَفَتْحِ الرَّاءِ ﴿نَضْرَةً﴾ رَفْعًا، وَقَرَأَ قَوْمٌ: ﴿يُعْرِفُ﴾ بِالْيَاءِ لِأَنَّ تَأْنِيثَ «النَّضْرَةِ» لَيْسَ بِحَقِيقِيٍّ، وَ«النَّضْرَةُ»: النِّعْمَةُ وَالرُّوْنَقُ، وَ«الرَّحِيقُ»: الْخَمْرُ الصَّافِيَةُ، وَمِنْهُ قَوْلُ حَسَّانَ:

يَسْفُونَ مَنْ رَزَدَ النَّبْرِيصَ عَلَيْهِمْ
بِرَدَى يُصَفَّقُ بِالرَّحِيقِ السَّلْسَلِ
و﴿تَخْتَوِرُ﴾ يَحْتَمَلُ أَنْ يُخْتَمَ عَلَى كَوْوَسِهِ الَّتِي يَشْرَبُ بِهَا تَهْمُمًا

و «المِزَاج»: الخلط، والضمير عائد على «الرحيق»، واختلف الناس في «تَسْنِيمٍ» - فقال ابن عباس، وابن مسعود رضي الله عنهم: التَّسْنِيمُ أشرف تراب في الجنة، وهو اسم مذكر لماء عَيْن في الجنة، وهي عين يشربها المقربون صرفاً، ويمزج رحيق الأبرار بها، قاله ابن مسعود، وابن عباس، والحسن، وأبو صالح، وغيرهم. وقال مجاهد ما معناه: إن «تَسْنِيمًا» مصدر من «سَمِت» إذا علوت، ومنه

وتَنَطَّفَأَ، والأظهر أنه محتوم شُرْبُهُ بالرائحة المسكِيَّة حسب ما فسره قوله تعالى: ﴿حَتَّمَهُ مِسْكَ﴾. واختلف المفسرون في قوله تعالى: ﴿حَتَّمَهُ مِسْكَ﴾ - فقال ابن مسعود وعلقمة: معناه: جَلَطُهُ وَمِزَاجُهُ، وقال ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير: معناه: خاتمته، أي: تجد الرائحة عند خاتمة الشرب رائحة المسك، وقال أبو علي: المراد لذاعة المقطع وذكاء الرائحة مع طيب المطعم، وكذلك هو قوله تعالى: ﴿كَانَ مِزْجَهَا كَأَوْرَاقٍ﴾. وقوله تعالى: ﴿نَجِيلاً﴾، أي: تجد في اللسان، وقد قال ابن مقبل:

مِمَّا يُعْتَقُّ فِي الْحَانُوتِ بَاطِنُهَا
بِالْفُلْفُلِ الْجَوْنِ وَالرُّمَانِ مَحْتَمٌ
وقال مجاهد: معناه: طيبته الذي يُخْتَمُ بِهِ مِسْكَ بَدَلِ الطَّيْنِ الَّذِي فِي الدُّنْيَا، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ فِي الكُورُوسِ، لِأَنَّ خَمْرَ الآخِرَةِ لَيْسَتْ فِي دَنَانٍ، إِنَّمَا هِيَ فِي أَنْهَارٍ، وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ: ﴿حَتَّمَهُ﴾ وَقَرَأَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَالكَسَائِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَالتَّخَمِيُّ: ﴿خَاتَمَهُ﴾ وَهَذِهِ بَيِّنَةٌ، الْمَعْنَى: أَنَّهُ يَرَادُ بِهِ الطَّبِيعُ عَلَى الرَّحِيقِ، وَرَوَى عَنْهُمْ أَنَّهُمْ كَسَرُ التَّاءِ.

ثم حُرِّضَ تَعَالَى عَلَى الْجَنَّةِ بِقَوْلِهِ: ﴿وَقِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَفَّسْ أَلْسِنُوكُونَ﴾، وَالتَّنَافُسُ فِي الشَّيْءِ الْمُغَالَاثُ فِيهِ، وَأَنْ يَتْبَعَهُ كُلُّ وَاحِدٍ نَفْسَهُ، فَكَأَنَّ نَفْسَيْهِمَا تَتَبَارِيانِ فِيهِ، وَقِيلَ: هُوَ مِنْ قَوْلِكَ: شَيْءٌ نَفِيسٌ، فَكَأَنَّ هَذَا يَعْظُمُهُ، وَيَعْظُمُهُ الآخَرُ، وَيَسْتَبْقَانِ إِلَيْهِ.

عَلَى الْأَرْبَابِكِ يَطْرُقُونَ ﴿٣٠﴾ هَلْ نُوبُ الْكُفَّارِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣١﴾

سُورَةُ الْأَنْعَامِ قُلْ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ ﴿٣٢﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٣٣﴾ وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ ﴿٣٤﴾ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ ﴿٣٥﴾ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴿٣٦﴾ وَيَأْتِيهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَارِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَذًا فَمَقْبِتُهُ ﴿٣٧﴾ فَمَا مَأْمُونٌ أَوْقَى كِتَابَهُ بِبَصِيرَتِهِ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ يُحَاسِبُ حِسَابًا أَلِيمًا ﴿٣٩﴾ وَيُنْقَلَبُ إِلَى آهَابِهِ مَسْرُورًا ﴿٤٠﴾ وَأَمَّا مَنْ أَوْقَى كِتَابَهُ وَرَأَى ظَهْرَهُ ﴿٤١﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا ﴿٤٢﴾ وَيَصِلُ سَعِيرًا ﴿٤٣﴾ إِنَّهُ كَانَ فِي آهَالِهِ مَسْرُورًا ﴿٤٤﴾ إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ يَحُورَ ﴿٤٥﴾ بَلَى إِنَّ رَبَّهُ كَانَ بِهِ بَصِيرًا ﴿٤٦﴾ فَخَلَا أَقْسِمُ بِاللَّغْوِيِّ ﴿٤٧﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿٤٨﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ ﴿٤٩﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنِّي ﴿٥٠﴾ فَهَلْ لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ وَإِذْ أَوْقَى عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٥٢﴾ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا يَكْذِبُونَ ﴿٥٣﴾ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُوعُونَ ﴿٥٤﴾ فَبَيَّرْتَهُمْ بَعْدَ آيَاتِهِ ﴿٥٥﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴿٥٦﴾

٥٨٩

بالكفر - أي: اكتسبوه - كانوا في دنياهم يضحكون من المؤمنين، وَيَسْتَحْفَتُونَ بِهِمْ، وَيَتَخَذُونَهُمْ هَزْؤًا. ويروى أن هذه القصة نزلت في صناديد قريش وضعفة المؤمنين، وروى أنها نزلت بسبب أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وجماعة معه من المؤمنين مرؤا بجمع من الكفار في مكة، فضحكوا منهم، واستحَفُّوا بهم عبثًا ونقصان عقل، فنزلت الآية في ذلك.

﴿٣٠﴾ - ﴿٣١﴾ تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿مَرُؤًا﴾ للمؤمنين، ويحتمل أن يكون للكفار، وأما الضمير في ﴿يَتَمَارَّوْنَ﴾ فهو للكفار لا يحتمل غير ذلك، وكذلك في قوله تعالى: ﴿أَنْفَلِبَا﴾. و﴿فَكَيْهِنَ﴾ معناه: أصحاب فاكهة ومرح ونشاط وسرور باستخفافهم بالمؤمنين، يقال:

السنام، فكأنها عين قد علَّت على أهل الجنة فهي تنحدر، وقاله مقاتل ابن سليمان، وذهب قوم إلى أن الأبرار والمقربين في هذه الآية بمعنى واحد يقع لكل من نعم في الجنة، وذهب الجمهور من المتأولين إلى أن منزلة الأبرار دون منزلة المقربين، وأن الأبرار هم أصحاب اليمين، وأن المقربين هم السابقون.

و «عَيْنًا» منصوب إما على المدح، وإما أن يعمل فيه «تَسْنِيمٍ» على رأي من رآه مصدرًا، وينتصب على الحال من «تَسْنِيمٍ»، أو «يَسْقُوتُ»، قاله الأخفش: وفيه بُعد، وقوله تعالى: ﴿يَتَرَّبَّ بِهَا﴾ معناه: يشربها، كقول الشاعر:

شَرِبْنَا بَمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَعَتْ
مَتَى لَجَجَ خُضْرٍ لَهُنَّ تَسْنِيحٌ
ثم ذكر تعالى أن الذين أجرموا

رجل فاكهة كلابين وتامير، وهكذا بألف هي قراءة الجمهور، ويقال: رجل فاكهة، من هذا المعنى، وقرأ حفص عن عاصم: ﴿فَكَيْهٍ﴾ بغير ألف، وهي قراءة أبي جعفر، وأبي رجاء، والحسن، وعكرمة.

وأما الضمير في «رأوا» وفي «قالوا» فقال الطبري وغيره: هو للكفار، والمعنى أنهم يرمون المؤمنين بالضلال، والكفار لم يُرسلوا على المؤمنين حفظة لهم، وقال قوم: بل المعنى بالعكس، وإنما معنى الآية: وإذا رأى المؤمنون الكفار قالوا: إنهم ضالون، وهو الحق فيهم، ولكن ذلك يثير الكلام بينهم، فكان في الآية حياءً على الموادعة، أي: إن المؤمنين لم يُرسلوا حافظين على الكفار، وهذا كله منسوخ - على هذا التأويل - بآية السيف.

ولما كانت الآية المتقدمة قد نطقت بيوم القيامة وأن الويل يومئذ للمكذبين، ساغ أن يقول: ﴿فَالْيَوْمِ﴾ على حكاية ما يقال يومئذ وما يكون. و﴿الَّذِينَ﴾ رُفِعَ عَلَى الْإِبْتِدَاءِ، وقوله تعالى: ﴿عَلَى الْأَعْيُنِ يُنظَرُونَ﴾ معناه: إلى أعدائهم في النار، قال كعب: لأهل الجنة كوى ينظرون منها، وقال غيره: بينهم جسم عظيم شفاف يرون منه حالهم.

و﴿هَلْ يُؤْتِي﴾ تقرير وتوقيف لمحمد ﷺ وأتمته، ويحتمل أن يريد: «يُنظرون هل يُؤْتِي»، فالنظر واقع على ﴿هَلْ يُؤْتِي﴾، والمعنى: هل جُوزي، ويحتمل أن يكون المعنى: يقول بعضهم لبعض. وقرأ

ابن محيصة، وأبو عمرو، وحمة، والكسائي: ﴿هَثُوبٌ﴾ بإدغام اللام في التاء لتقاربهما في المخرج، وقرأ الباقون: ﴿هَلْ يُؤْتِي﴾ لا يُدغمون، وفي قوله تعالى: ﴿مَّا كَانُوا﴾ حذف تقديره: جزء ما كانوا، أو عذاب ما كانوا يفعلون.

كامل تفسير سورة المطففين والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الانشقاق

وهي مكية بلا خلاف بين المتأولين.

﴿١﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: هذه أوصاف يوم القيامة، وانشقاق السماء، هو تفتورها لهول يوم القيامة، كما قال تعالى: ﴿وَأَنشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ سُيُوفٌ مَّوْجِيَّةٌ﴾، وقال الفراء: والزجاج، وغيرهما: هو تشققها بالغمام، وقال قوم: تشققها هو تفتحها أبواباً لنزول الملائكة وصعودهم في هول يوم القيامة. وقرأ أبو عمرو: ﴿أَنشَقَّتْ﴾ يقف على التاء كأنه يُشِمُّها شيئاً من الجِرِّ، وكذلك في أخواتها. قال أبو حاتم: سمعت أعرابياً فصيحاً في بلاد قيس يكسر هذه التاءات، وهي لغة.

و﴿أَذِنَتْ﴾ معناه: استمعت وسمعت أمره ونهيه، ومنه قول النبي ﷺ: «ما أذن الله لشيءٍ إذنُهُ لنبيٍّ يتغنى بالقرآن»، ومنه قول الشاعر:

صُمُّ إِذَا سَمِعُوا خَيْرًا ذُكِرَتْ بِهِ
وَإِذَا ذُكِرَتْ بِسَوْءٍ عِنْدَهُمْ أَذِنُوا
وقوله تعالى: ﴿وَحَقَّتْ﴾، قال ابن عباس، وابن جبير: معناه: وحق لها أن تسمع وتطيع، ويحتمل أن يريد: وحق لها أن تشقق لشدة الهول وخوف الله تعالى.

و«مَدُّ الْأَرْضِ» هو إزالة جبالها حتى لا يبقى فيها عوج ولا أمت، فذلك مَدُّها، وفي الحديث: «إن الله تعالى يمدُّ الأرض يوم القيامة مَدُّ الْأَدِيمِ الْمُكَاطِي».

﴿وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا﴾، يريد: من الموتى، قاله الجمهور، وقال الزجاج: من الكنوز، وهذا ضعيف لأن ذلك يكون وقت خروج الدجال، وإنما تُلقَى يوم القيامة الموتى. و﴿وَحَلَّتْ﴾ معناه: حَلَّتْ عما كان فيها، أي: لم تمسك منهم بشيء.

وقوله تعالى: ﴿يَكَلِّمُ الْإِنْسَانَ﴾ مخاطبة للجنس، و«الكادح»: العامل بشدة وسرعة واجتهاد مؤثر، ومنه قول النبي ﷺ: «من سأل وله ما يُغنيه جاءت مسأله حدثاً أو كدوحاً في وجهه يوم القيامة»، والمعنى: إنك عامل خيراً أو شراً، وأنت لا محالة في ذلك سائر إلى حيث ربك لأن الزمن يطير بعمر الإنسان، وإنما هو في مدة عمره في سير حيث إلى ربه. وهذه آية وعظ وتذكير، أي: فكن على حذر من هذه الحال، واعمل عملاً صالحاً تجده، وقرأ طلحة بإدغام كاف ﴿إِنَّكَ﴾ في كاف ﴿كادحٍ﴾ ومن هذه اللفظة قول الشاعر:

وَمَا الْإِنْسَانُ إِلَّا ذُو غُبِرٍ
طَوَالَ الدُّفْرِ يَكْدُخُ فِي سَفَالٍ
وقال قتادة: من استطاع أن يكون
كده في طاعة الله تعالى فليفعل،
وقوله تعالى: ﴿فَلْيَتَّخِذْ﴾ معناه:
فملاق عذابه أو تنعيمه.

واختلف النحاة في العامل في
﴿إِذَا﴾ - فقال بعض النحاة: العامل
﴿انْشَقَّتْ﴾، وأبى ذلك كثير من
أئمتهم؛ لأن ﴿إِذَا﴾ مضافة إلى
﴿انْشَقَّتْ﴾، ومن يُجيز ذلك تضعيف
عنده الإضافة ويقوى معنى الجزاء
وقال آخرون منهم: العامل
﴿فَلْيَتَّخِذْ﴾، وقال بعض خُذَّاقهم:
العامل فعلٌ مضمَر. وكذلك اختلفوا
في جواب ﴿إِذَا﴾ - فقال كثير من
النحاة: هو محذوف لعلم السامع
به، وقال أبو العباس المبرد،
والأخفش: هو في قوله تعالى:
﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ
كَدًّا فَلْيَتَّخِذْ﴾، أي: إذا انشقت
السماء فأنت ملاقي الله تعالى،
وقيل: التقدير: فيأيها الإنسان،
وجواب [إذا] في الفاء المقدرة.
وقال الفراء عن بعض النحاة: هو
﴿أَذِنَتْ﴾ على تقدير زيادة الواو. فأما
الضمير في ﴿فَلْيَتَّخِذْ﴾ فقال جمهور
المتأولين؛ هو عائد على الربِّ
تعالى، فالفاء - على هذا - عاطفة
﴿فَلْيَتَّخِذْ﴾ على ﴿كَادِحٌ﴾، وقال
بعض الناس: هو عائد على الكدح
فالفاء - على هذا - هي عاطفة جملة
الكلام على التي قبلها، والتقدير:
فأنت ملاقيه، والمعنى: ملاق جزاءه
خيراً كان أو شراً.

ثم قسم تعالى الناس إلى المؤمن

والكافر، فالمؤمنون يُعطون كُتُبهم
بأيمانهم، ومن ينفذ عليه الوعيد من
عصاتهم فإنه يُعطى كتابه عند
خروجه من النار، وقد جوز قوم أن
يُعطاه أولاً قبل دخول النار، وهذه
الآية تردُّ إلى هذا القول.
و«الحسابُ اليسيرُ» هو العرض،
وأما من نوقش الحساب فإنه يهلك
ويعذب، كذلك قال رسول الله ﷺ
لعائشة رضي الله عنها، وذلك أن
رسول الله ﷺ قال: «من حوسب
عُذِبَ»، فقالت عائشة
رضي الله عنها: ألم يقل الله
تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حِسَابًا يَبِيرًا﴾
الآية؟ فقال عليه الصلاة والسلام:
«إنما ذلك العرض، وأما من نوقش
الحساب فإنه يهلك»، وفي الحديث
من طريق ابن عمر رضي الله عنه،
قال: «يدني الله تعالى العبد حتى
يضع عليه كنفه، فيقول: ألم أفل
بك كذا وكذا؟ - يُعَدُّ عليه نعمه -،
ثم يقول له: فلم فعلت كذا وكذا؟
- لمعاصيه - فيقف العبد خزياناً،
فيقول الله تعالى: سترتها عليك في
الدنيا وأنا أضفرها لك اليوم».
وقالت عائشة رضي الله عنها:
سمعتُ رسول الله ﷺ عليه وسلم
يقول: «اللهم حاسبني حساباً
يسيراً»، فقلت: يا رسول الله وما
هو؟ فقال: «أن يتجاوز عن
السيئات»، وروى ابن عمر أن
النبي ﷺ قال: «من حاسب نفسه
في الدنيا هوّن الله حسابه يوم
القيامة». وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ
أَهْلِيَةٌ﴾ أي: الذين أعدَّ الله تعالى
له في الجنة، إمّا من نساء الدنيا

وإما من الحور العين وإما من
الجميع.

والكافر يُؤتي كتابه من ورائه لأن
يديه مغلولتان، وروي أن يده تدخل
من صدره حتى تخرج من وراء ظهره
فياخذ كتابه بها.

ويقال إن هاتين الآيتين نزلتا في أبي
سلمة بن عبد الأسد وفي أخيه
الأسود، وكان أبو سلمة من أفضل
المسلمين وأخوه من عتاة الكافرين.
﴿يَدْعُوا بُرًّا﴾ معناه: يصيح متجأً:
وإُبُوراه واحزرتاه ونحو هذا مما
معناه: هذا وقتك وأوانك، أي:
احضرنى، والثبور اسم جامع
للمكاره كالويل.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر،
والكسائي، وعمر بن عبد العزيز،
والجحدرى، وأبو الشعثاء،
والأعرج: ﴿وَيُصَلِّي﴾ بشد اللام
وضم الياء على المبالغة. وقرأ نافع
أيضاً، وعاصم - في رواية أبان -
بضم الياء وتخفيف اللام، وهي
قراءة أبي الأشهب، وعيسى،
هارون عن أبي عمرو. وقرأ
عاصم، وأبو عمرو، وحزمة، وأبو
جعفر، وقاتدة، وعيسى، وطلحة،
والأعمش بفتح الياء على بناء الفعل
للفاعل، وفي مصحف ابن مسعود:
﴿وَيُصَلِّي﴾. وقوله تعالى: ﴿فِي
أَهْلِيَةٍ﴾ يريد في الدنيا، أي: تملكه
ذلك لا يدري إلا السرور بأهله دون
معرفة الله تعالى، والمؤمن إن سرَّ
بأهله لا حرج عليه.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ ظَنَّ أَنْ لَنْ
يُجُوزَ﴾ معناه: أن لن يرجع
إلى الله تعالى مبعوثاً محشوراً، قال

ابن عباس رضي الله عنهما: لم أعلم ما معنى ﴿يُجْرُ﴾ حتى سمعتُ أعرابية تقول لِبَيْتِهَا: حوري، أي: ارجعي. والظن هنا على بابهِ، و [أَنْ] وما بعدها تسدُّ مسدَّ مفعولي ﴿ظَنَّ﴾، وهي «أَنْ» المخففة من الثقيلة، و«الْحَوْرُ»: الرجوع على الأدرج، ومنه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْحَوْرِ بَعْدَ الْكَوْرِ».

ثم ردَّ الله تعالى على ظن هذا الكافر بقوله سبحانه: ﴿بَكَرٌ﴾، أي: يحور ويرجع، ثم أعلمهم أَنَّ الله تعالى لم يزل بصيراً بهم، لا تخفى عليه أفعال أحد منهم، وفي هذا وعيد.

⑩ - ⑪ تفسير قوله عزَّ وجلَّ:

[لا] زائدة، والتقدير: فأقسم، وقيل: [لا] ردُّ على أقوال الكفار، وابتدأ القول: أقسِمُ، وقَسَمَ الله تعالى بمخلوقاته هو على جهة التشريف لها وتعريضها للعبرة، إذا القسم بها منبه منها. و«الشفق» الحمرة التي تعقب غيبوبة الشمس مع البياض التابع لها في الأغلب، وقيل: الشفق هنا النهار كله، قاله مجاهد، وهو قول ضعيف، وقال أبو هريرة وعمر بن عبدالعزيز: الشفق البياض الذي يتلو الحمرة.

و «وَسَقٌ» معناه: جَمَعٌ وضَمٌّ، ومنه الوسق، أي: الأصوع المجموعة، والليل يسبق الحيوان جملة، أي: يجمعها في نفسه ويضمها، وكذلك جميع المخلوقات التي في الأرض والهواء من البحار والجبال والرياح وغير ذلك.

و «أَسَاقُ الْقَمَرِ» كماله وتمامه

بدرًا، فالمعنى: امتلاً من النور. وقرأ نافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم، وعمر، وابن عباس - بخلاف عنهما - وأبو جعفر، والحسن، والأعمش، وقتادة، وابن جبير ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بضم الباء، على مخاطبة الناس، والمعنى: لتركبن الشدائد، الموت والبعث والحساب حالاً بعد حال، أو تكون الأحوال من النطفة إلى الهرم، كما تقول: طبقة بعد طبقة، و«عَرَنَ» تجيء بمعنى «بَعُدَ»، كما تقول: «ورث المجد كإبراً عن كإبر»، وقيل: المعنى: لتركبنَّ هذه الأحوال أمة بعد أمة، ومنه قول العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه في النبي ﷺ:

وَأَنْتَ لَمَّا بُعِثْتَ أَشْرَقَتْ الْأَرْضُ
ضَوْسَاءً بِسُورِكَ الطَّرْفِ
ثِقَلٌ مِنْ صَالِبٍ إِلَى رِجْمٍ
إِذَا مَضَى عَالَمٌ بَدَأَ طَبَقٌ
أَي: قَرَنَ مِنَ النَّاسِ؛ لِأَنَّهُ طَبَقِ
الْأَرْضِ، قَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ:

إِنِّي امْرُؤٌ قَدْ حَلَبْتُ الذَّهْرَ أَشْطَرَهُ
وَسَاقِنِي طَبَقٌ مِنْهُ إِلَى طَبَقِي
أَي: حَالٌ إِلَى حَالٍ، وَقِيلَ:
المعنى: لتركبنَّ الآخرة بعد الأولى، وقرأ عمر بن الخطاب رضي الله عنه: ﴿لَتَيْرَكَبُنَّ﴾ على أنهم غُيِّبَ، وقال أبو عبيدة: المعنى: لتركبنَّ سَنَنَ من قبلكم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: كما في الحديث: «شِبْرًا بِشِبْرٍ، وذراعاً بذراع»، فهو طبق عن طبق، ويلتئم هذا المعنى مع هذه القراءة التي ذكرنا عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وَيَحْسُنُ مع القراءة

الأولى، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، وعمرو بن مسعود، وابن عباس، ومجاهد، والأسود، وطلحة، وابن جُبَيْر، ومعروف، والشَّعْبِي، وأبو العالية، وابن وثاب، وعيسى: ﴿لَتَرْكَبُنَّ﴾ بفتح الباء، على معنى: أنت يا محمد، فقييل: المعنى: حالاً بعد حال من معالجة الكفار، وقال ابن عباس: سماء بعد سماء في الإسراء، وقيل: هي عِدَّةٌ بالنصر، أي: لتركبنَّ أمر العرب قبيلاً بعد قبيل وفتحاً بعد فتح كما كان ووجد بعد ذلك، وقال ابن مسعود: المعنى: لتركبنَّ السماء في أهوال يوم القيامة حالاً بعد حال، تكون كالمهل وكالدهان وتنفطر وتشقق، فالسماة هي الفاعلة، وقرأ ابن عباس أيضاً، وعمر رضي الله عنه: ﴿لَتَيْرَكَبُنَّ﴾ على ذكر الغائب، فإِذَا أن يراد محمد ﷺ على المعاني المتقدمة، وقاله ابن عباس يعني نبيكم ﷺ إماماً، قال بعض الناس في كتاب النقاش من أن المراد القمر لأنه يتغير أحوالاً وأسراً واستهلالاً.

ثم وقف تعالى نبيّه ﷺ - والمراد أولئك الكفار - بقوله سبحانه: ﴿فَمَا لَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: ما حُجَّتْهُمْ مع هذه البراهين الساطعة؟ وقرأ الجمهور: ﴿يَكْفُرُونَ﴾ بضم الياء وشد الذال، وقرأ الضحَّاك بفتح الياء وتخفيف الذال وإسكان الكاف. و﴿يُؤْعَوْنَ﴾ معناه: يجمعون من الأعمال والتكذيب والكفر، كأنهم يحملونها في أوعية، تقول: وعيت العلم وأوعيت المتاع، وجعل تعالى



وهي اثنا عشر على ما قسّمته، وهي التي تقطعها الشمس في سنة والقمر في ثمانية وعشرين يوماً، وقال قتادة: معناه: ذات الرمل والماء، يريد أنها مبنية في السماء، وهذا قول ضعيف.

و «اليوم المرعود» هو يوم القيامة باتفاق، قال النبي ﷺ، ومعناه: الموعود به.

وقوله تعالى: ﴿وَمَشْهُورٌ﴾ معناه: عليه، أو به، أو فيه، وهذا يترتب بحسب الخلاف في تعيين المراد بـ

البشارة في العذاب لما صرح به، وإذا جاءت مُطلقة فإنما هي في الخير.

ثم استثنى تعالى من كفار قريش القوم الذين كانوا سبق لهم الإيمان في قضاة. و﴿مَتَّوْنٌ﴾ معناه: مقطوع، من قولهم: حبلٌ متينٌ، أي: مقطوع، ومنه قول الحارث بن جِلزَةَ الشُّكْرِيُّ:

فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرَّجْعِ وَالْوَفِّحِ مَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «مَتَّوْنٌ» مُعَدَّدٌ عَلَيْهِمْ مُحَسَّبٌ مُنْعَصٌ بِالْمَنْ. كمل تفسير سورة الانشقاق والحمد لله رب العالمين

﴿وَشَاهِدٌ وَمَشْهُورٌ﴾، فقد

اختلف الناس في المشار إليه بهما - فقال ابن عباس رضي الله عنهما: الشاهد: الله تعالى، والمشهود، يوم القيامة، وقال ابن عباس أيضاً، والحسن بن علي، وعكرمة: الشاهد: محمد ﷺ، والمشهود: يوم القيامة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾، وقال تعالى في يوم القيامة: ﴿وَذَلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾. وقال مجاهد وعكرمة أيضاً: الشاهد: آدم عليه السلام وجميع ذريته، والمشهود: يوم القيامة. و«شاهد» اسم جنس على هذا، وقال بعض من بسط قول مجاهد وعكرمة «شاهد» يراد به رجل فرد أو نَسَمَة من النُسم، ففي هذا تذكير لحقارة المسكين ابن آدم، و«المشهود» يوم القيامة، وقال الحسن بن أبي الحسن وابن عباس أيضاً: الشاهد: يوم عرفة

ويوم الجمعة، والمشهود: يوم القيامة، وقال علي، وابن عباس، وأبو هريرة، والحسن، وابن المسيب وقاتدة: «شاهد» يوم الجمعة، و«مشهود» يوم عرفة، وقال ابن عمر: «شاهد» يوم الجمعة، و«مشهود» يوم النحر، وقال جابر: «شاهد» يوم القيامة، و«مشهود» الناس، وقال محمد بن كعب: الشاهد: أنت يا ابن آدم، والمشهود: الله تعالى، وقال ابن جبير بالعكس، وتلا: ﴿وَكُنْ بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾، وقال أبو مالك: الشاهد: عيسى عليه السلام، والمشهود: أمته، قال الله تعالى: ﴿وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾، وقال ابن المسيب: «شاهد»: يوم التروية، و«مشهود»: يوم عرفة، وقال بعض الناس في كتاب النقاش: الشاهد يوم الاثنين،

تفسير

سورة البروج

وهي مكية بإجماع من المتأولين، لا خلاف في ذلك.

① - ③ تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في «البروج» - فقال الضحاك وقاتدة: هي القصور، ومنه قول الأخطل:

كَأَنَّهَا بُرُجٌ رُومِيٌّ يُشِيدُهُ
 بَسَانٍ بِجِصٍّ وَأَجْرٌ وَأَخْجَارٍ

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: البروج: النجوم لأنها تتبرج بنورها، والتبرج: التظاهر والتبدي، وقال الجمهور وابن عباس أيضاً: البروج هي المنازل التي عرفتها العرب،

والمشهدود يوم الجمعة، وذكره الثعلبي. وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: الشاهد: يوم عرفة، والمشهدود: يوم النحر، وعنه أيضاً: «شاهد»: يوم القيامة، و«مشهدود» يوم عرفة، وقال أبو هريرة عن النبي ﷺ: «شاهد»: يوم الجمعة، و«مشهدود»: يوم عرفة، قاله علي وأبو بكر والحسن. وقال إبراهيم النخعي: الشاهد: يوم الأضحى، والمشهدود: يوم عرفة.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ووصف هذه الأيام بشاهد لأنها تشهد لحاضريها بالأعمال، والمشهدود فيما مضى من الأقوال بمعنى المشاهد - بفتح الهاء -، وقال الترمذي الشاهد: الملائكة الحفظة، والمشهدود عليهم: الناس، وقال عبدالعزيز بن يحيى - عند الثعلبي -: الشاهد محمد عليه الصلاة والسلام، والمشهدود عليهم أمته، نحو قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَاءَ شَهِيدًا﴾، أي: شاهدًا، وقيل: الشاهد الأنبياء عليهم السلام، والمشهدود عليهم أممهم، وقال الحسن بن الفضل، الشاهد أمة محمد ﷺ، والمشهدود عليهم قوم نوح عليه السلام وسائر الأمم حسب الحديث المنصوص في ذلك. وقال ابن جبیر أيضاً: الشاهد الجوارح التي تنطق يوم القيامة فتشهد على أصحابها، والمشهدود عليهم أصحابها، وقال بعض العلماء: الشاهد الملائكة المتعاقبون في الأمة، والمشهدود قرآن الفجر، وتفسيره ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ

شَهُودًا﴾ وقال بعض العلماء: الشاهد النجم، والمشهدود عليه الليل والنهار، أي: يشهد النجم بإقبال هذا وإدبار هذا، ومنه قول النبي ﷺ: «حَتَّىٰ يَطْلُعَ الشَّاهِدُ»، «الشاهد النجم» وقال بعض العلماء: الشاهد هو الله تعالى والملائكة وأولوا العلم، والمشهدود به الوجدانية وأن الدين عند الله الإسلام، وقيل: الشاهد مخلوقات الله تعالى، والمشهدود به وحدانيته، وأنشد الثعلبي في هذا المعنى قول الشاعر:

وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ
تَسْأَلُ عَلَىٰ أَنَّهُ الْوَاحِدُ
و ﴿يُنِيلُ﴾ معناه: فعل الله تعالى بهم ذلك لأنهم أهل له، فهو على جهة الدعاء بحسب البشر، لا أن الله تعالى يدعو على أحد، وقيل - عن ابن عباس -: معناه: لعن، وهذا تفسير بالمعنى، وقيل: هو إخبار بأن النار قتلتهم، قاله الربيع بن أنس، وسيأتي بيانه.

واختلف الناس في أصحاب الأخدود - فقيل: هم قوم كانوا على دين، وكان لهم ملك، فزنى بأخته، ثم حمله بعض الناس على أن يسكن في الناس نكاح الأخوات والبنات، فحمل الناس على ذلك، فأطاعه كثير وعصته فرق، فخذ لهم أخاديد - وهي حفائر طويلة كالخنادق - وأضرم لهم ناراً وطرحهم فيها، ثم استمرت المجوسية في مطيعه، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: صاحب الأخدود ملك من حمير، كان بمزارع من اليمن، اقتتل هو والكفار مع المؤمنين، ثم غلب في آخر

الأمر، فحرقهم على دينه إذ أبوا دينه، ومنهم كانت المرأة ذات الطفل التي تلتكت فقال لها الطفل: امضي في النار فإنك على الحق. وحكى النقاش عن علي رضي الله عنه أن نبي أصحاب الأخدود كان حبشياً، وأن الحبشة بقية أصحاب الأخدود، وقيل: صاحب الأخدود ذو نواس في قصة عبدالله بن الثامر التي وقعت في السير، وقيل: كان صاحب الأخدود في بني إسرائيل.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ورأيت في بعض الكتب أن صاحب الأخدود هو محرق، وأنه الذي حرق من بني تميم المائة، ويعترض هذا القول بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَلَىٰ مَا يَبْعَثُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ﴾، فينفض عن هذا الاعتراض بأن هذا الكلام منقطع من قصة أصحاب الأخدود، وأن المراد بقوله تعالى: ﴿وَمَنْ﴾ قريش الذين كانوا يفتنون الناس المؤمنين والمؤمنات.

واختلف الناس في جواب القسم - فقال بعض النحاة: هو محذوف ليعلم السامع به، وقال آخرون: هو قوله تعالى: ﴿يُنِيلُ﴾، والتقدير: لقتل، وقال قتادة: هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾، وقال آخرون: هو في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا الْمُؤْمِنِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿النَّارَ﴾ بدل من ﴿الْأَخْدُودِ﴾، وهو بدل اشتمال، وهذه قراءة الجمهور ﴿النَّارَ﴾ بخفض الراء، وقرأ قوم: ﴿النَّارُ﴾ بالرفع، على معنى: قتلهم النار. و«الوقود» - بالضم - مصدر من: وقدت النار

إذا اضطرمت، و«الْوُقُودُ» - بفتح الواو - ما توقد به، وقرأ الجمهور بفتح الواو، وقرأ الحسن، وأبو رجاء، وأبو حنيفة بضمها.

وكان من قصة هؤلاء أن الكفار قَعَدُوا، وضم المؤمنون فعرض عليهم الدخول في الكفر، فمن أبي زُي في أخذود النار فاحترق، فروي أنه احترق عشرون ألفاً. قال الربيع بن أنس، وابن إسحق، وأبو العالية: بعث الله تعالى على المؤمنين ريحاً فقبضت أرواحهم، أو نحو هذا، فخرجت النار وأحترقت الكافرين الذين كانوا على حافتي الأخدود، وعلى هذا يحيى ﴿قِيلَ﴾ خبراً لا دعاء، وقال قتادة: ﴿إِذَا هُرِّعَ عَلَيْهِمْ نُورٌ﴾ يعني المؤمنين.

و ﴿نَقَمُوا﴾ معناه: اعتدوا وتعدوا، وقرأ جمهور الناس: ﴿نَقَمُوا﴾ بفتح القاف، وقرأ أبو حنيفة، وابن أبي عمير: ﴿نَقَمُوا﴾ بكسر الفاء.

(١٧) - (١٨) تفسير قوله عز وجل:

﴿فُتِنُوا﴾ معناه: أخرجوا، وفتنت الذهب والفضة في النار: أحرقتها، والفتين: حجارة الحرّة السود لأن الشمس كأنها أحرقتها. ومن قال إن هذه الآيات الأواخر في قريش جعل الفتنة الامتحان والتعذيب، ويقوي هذا التأويل بغض التقوية قوله تعالى: ﴿لَمْ يَزُولُ فِيهِمْ﴾ لأن هذا اللفظ في قريش أحكم منه في أولئك الذين قد علم أنهم ماتوا على كفرهم، وأما قريش فكان فيهم وقت نزول الآية من تاب بعد ذلك وآمن بمحمد ﷺ. و«جَهَنَّمُ والحريق»

طبقتان من النار، ومن قال إن النار خرجت فأحترقت الكفار القعود جعل الحريق في الدنيا. و«البطش» الأخذ بقوة وسرعة، و«بَيِّئٌ وَيُبْدِي» قال الضحاك، وابن زيد: معناه: ﴿بَيِّئٌ﴾ الخلق بالإنشاء و«بَيِّئٌ» بالحشر، وقال ابن عباس ما معناه: إن ذلك عام في جميع الأشياء، فهي عبارة عن أنه يفعل كل شيء، أي: يُبْدِي كل ما يبدي ويُعيد كل ما يُعاد، وهذان قسمان يستوفيان جميع الأشياء، وقال الطبري: معناه: يبدي العذاب ويعيده على الكفار.

و «الْعَفُورُ الْوُدُودُ» صفتا فعل، الأولى ستر على عباده، والثانية لطف بهم وإحسان إليهم، وخصص العرش بإضافة نفسه إليه تشريفاً للعرش وتسيهاً على أنه أعظم المخلوقات. وقرأ حمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم، والحسن، وابن وثاب، والأعمش، وعمرو بن عبيد «المجيد» بخفض الدال صفة للعرش، وهذا على أن المجد والتمجد قد يوصف به كثير من الموجودات، وقد قالوا: مَجَّدت الدابة إذا سمت، وأمجدتها إذا أحسنت عليها، وقالوا: «في كل شجر نار واستمجد المرخ والعقاز»، أي: كثرت نارهما، وقرأ الباقون والجمهور: «الْمَجِيدُ» بالرفع صفة لله تعالى. وقرأ الجمهور: «ذُرِّ الْعَرْشِ» وروي عن ابن عامر: «ذي العرش» نعتاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ﴾.

(١٩) - (٢٠) تفسير قوله عز وجل:

هذا توقيف للنبي ﷺ وتقرير،

بمعنى: فاجعل هؤلاء الكفرة الذين يخالفونك وراء ظهرهم ولا تهتم، فقد انتقم الله تعالى من أولئك الأقوياء الأشداء فكيف هؤلاء؟ و«الجنود»: الجموع المعدّة للقتال والجري نحو غرض واحد، وناب فرعون بالذكر مناب قومه وآله إذ كان رأسهم، و«رَبِّعُونَ وَنُودٌ» في موضع خفض على البدل من «الجنود».

ثم ترك القول بحاله، وأضرب عنه إلى الإخبار بأن هؤلاء الكفار بمحمد ﷺ لا حجة لهم عليه ولا برهان، بل هو تكذيب مجرد سببه الحسد، ثم توعدهم بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَنْزِلُ فِي آيَاتِهِ الْكُذُوبَ﴾، أي: وعذاب الله تعالى ونقمته، وقوله تعالى: ﴿يَنْزِلُ فِي آيَاتِهِ﴾ معناه يأتي من بعد كفرهم وعصيانهم.

ثم أضرب تعالى عن تكذيبهم مُبْتَلًى له وراداً عليه، وأخبر أنه قرآن مجيد، أي: لا مدمة فيه، وهذا مما تقدم من وصف غير الله تعالى بالمجد والتمجد. وقرأ ابن السميع اليماني: «قُرْآنٌ مَجِيدٌ» على الإضافة وأن يكون الله تعالى هو المجد. و«اللُّوْحُ» هو اللوح المحفوظ الذي فيه جميع الأشياء، وقرأ جمهور القراء: «فِي لَوْحٍ مَّخْفُوظٍ» بالخفض صفة للوح المشهور بهذه الصفة، وقرأ نافع وحده - بخلاف عنه - وابن محيصن، والأعرج: «مَخْفُوظٌ» بالرفع صفة للقرآن، على نحو قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَهُ لَمَحْفُوظُونَ﴾، أي: هو محفوظ في القلوب لا يدركه الخطأ والتبديل. وقال أنس: إن اللوح المحفوظ هو

أراد نجماً مخصوصاً وهو زُحل، ووصفه بالشقوب لأنه مُبَرِّز على الكواكب في ذلك، وقال ابن عباس: أراد الجدي، وقال بعض هؤلاء: ثَقَبَ النَجْمُ إِذَا ارْتَفَعَ، فإنما وصف زُحلاً بالشقوب لأنه أرفع الكواكب مكاناً، وقال ابن زيد أيضاً وغيره: النجم الثاقب: الثُرَيَّا، وهو الذي تطلق عليه العرب اسم الجنس مرفقاً.

وجواب القسم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ كُرَّ نَفْسٍ﴾، وقرأ جمهور الناس: ﴿لَمَّا﴾ مخففة الميم، قال الحدائق من النحويين وهم البصريون: ﴿إِنْ﴾ مخففة من الثقيلة، واللام لام التأكيد الداخلة على الخبر، وقال الكوفيون: ﴿إِنْ﴾ بمعنى «ما» النافية، واللام بمعنى «إلا»، فالتقدير: ما كل نفس إلا عليها حافظ، وقرأ عاصم، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، والأعرج، وأبو عمرو، ونافع - بخلاف عنهما - وقتادة: ﴿لَمَّا﴾ بتشديد الميم، وقال أبو الحسن الأخفش: ﴿لَمَّا﴾ بمعنى «إلا»، لغة مشهورة في هذيل وغيرهم، تقول: أقسمتُ عليك لَمَّا فعلت كذا، أي: إلا فعلت كذا.

ومعنى هذه الآية - فيما قال قتادة وابن سيرين وغيرهما - إن كل نفس مكلفةٌ فعلياً حافظٌ يحصي أعمالها ويُعدها للجزاء عليها، وبهذا الوجه تدخل الآية في الوعيد الزاجر. وقال الفراء: المعنى: عليها حافظ يحفظها حتى يسلمها إلى القدر، وهذا قول فاسد المعنى لأن مدة الحفظ إنما هي بقدر، وقال أبو أمامة: قال

تُسَمَّى سماءَ لِمَا كَانَ مِنَ السَّمَاءِ، وَتُسَمَّى السَّحَابَ سماءَ، قَالَ الشَّاعِرُ:

إِذَا نَزَلَ السَّمَاءُ بِأَرْضِ قَوْمٍ
رَعَيْنَاهُ وَإِنْ كَانُوا غَضَابًا

وقال النابغة:

كَأَلْفَحْوَانٍ غَدَاةً غِيبَ سَمَائِهِ

و «الطارق»: الذي يأتي ليلاً، وهو اسم الجنس لكل ما يظهر أو يأتي ليلاً، ومنه نهي النبي ﷺ الناس في أسفارهم أن يأتي الرجل أهله طروقاً، ومنه طروق الخيال، وقال الشاعر:

يَا نَائِمَ اللَّيْلِ مُغْتَرًّا بِأَوَّلِهِ
إِنَّ الْحَوَادِثَ قَدْ يَطْرُقُنْ أَسْحَارًا
ثُمَّ بَيَّنَّ تَعَالَى الطَّارِقَ الَّذِي قَصَدَ
مِنْ هَذَا الْجِنْسِ الْمَذْكُورِ وَهُوَ ﴿النَّجْمُ
الْقَائِمُ﴾، وقيل: بل معنى الآية: والسماءُ وجميع ما يطرق فيها من الأمور والمخلوقات، ثم ذكر تعالى بعد ذلك - على جهة التنبية - أجلَّ الطارقات قدراً وهو النجم الثاقب.

فكأنه تعالى قال: وما أدراك ما الطارق حقَّ الطارق.

واختلف المتأولون في «النجم الثاقب» - فقال الحسن بن أبي الحسن ما معناه أنه اسم الجنس، لأنها كلها باقية أي: ظاهرة الضوء، يقال: ثَقَبَ النَجْمُ إِذَا أَضَاءَ، وَثَقَبَتِ النَّارُ كَذَلِكَ، وَثَقَبَتِ الرَّائِحَةُ إِذَا سَطَعَتْ، وَيُقَالُ لِلْمَوْقِدِ: أَثَقَبَ نَارًا، أَي: أَضْطَهَّهَا، وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سورة الطارق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَأَسْمَاءُ الطَّارِقِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٢﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ ﴿٣﴾ إِنْ كُلُّ نَفْسٍ لَمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴿٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ رِمْتَهُ خُلِقَ مِنْ مَلَوٍ دَافِقٍ ﴿٥﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِ وَالرَّأْسِ ﴿٦﴾ إِنَّهُ عَلَى رَجِيمٍ يَلْقَاوَهُ يَوْمَ تَكُونُ السَّرَابِرُ ﴿٧﴾ قَالَهُمْ مِنْ قَوْمٍ وَلَا نَاصِرَ ﴿٨﴾ وَالسَّاءُ ذَاتُ الرَّجَمِ ﴿٩﴾ وَالْأَرْضُ ذَاتُ الصَّالِعِ ﴿١٠﴾ إِنَّهُ لَقَوْلُ فَصْلٍ ﴿١١﴾ وَمَا هُوَ بِالْمَرَلِ ﴿١٢﴾ بِهِمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٣﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٤﴾ فَمَهْلِكُ الْكَافِرِينَ أَهْلَهُمْ يَوْمَ رُوبَا ﴿١٥﴾

سُورَةُ الطَّارِقِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سَبَّحَ اسْمُ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى ﴿٣﴾ وَالَّذِي أُنزِلَ أَتْرَافَ التَّرْمِيذِ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى ﴿٥﴾ سَتَرْنَاكَ فَلَاشْفَى ﴿٦﴾ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى ﴿٧﴾ وَيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى ﴿٨﴾ فَذَكَرْ إِنْ نَقَعَتِ الذُّكُرَى ﴿٩﴾ سَبِّدْكُمْ مِنْ يَحْتَفَى ﴿١٠﴾ وَبِنَجْوَى الْأَنْفَى ﴿١١﴾ الَّذِي يَصِلُ النَّارَ الْكَثْرَى ﴿١٢﴾ ثُمَّ لَمْ يَمُوتْ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿١٣﴾ غَدَاةً قَالِحٍ مِنْ نَزَى ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى ﴿١٥﴾

٥٩١

في جهة إسرائيل عليه السلام، وقيل: هو من دُرَّة بيضاء، قاله ابن عباس، وهذا كله مما قصرت به الأسانيد، وقرأ ابن السميع: ﴿فِي لَوْحٍ﴾ بضم اللام.

كامل تفسير سورة البروج والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الطارق

وهي مكية، لا خلاف بين المفسرين في ذلك.

﴿١﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل: أقسم الله تعالى بالسماء المعروفة في قول جمهور المفسرين، وقال قوم: السماء هنا المطر، والعرب

النبي ﷺ في تفسير هذه الآية: (إن لكل نفس حَفَظَةً من الله تعالى يَدُبُّون عنها كما يَدُبُّ عن العسل، ولو وُكِل المرءُ إلى نفسه طرفة عين لا تخطفته الغَيْرُ والشَّيَاطِينُ).

وقوله تعالى: ﴿يَنْظُرُ الْإِنْسَانُ يَمَّ حُقُوقَ﴾، توقيف لمنكري البعث على أصل الخَلْقَةَ الدالَّةُ على أن البعث جائز ممكن، ثم بادر اللفظة إلى الجواب اقتضاباً وإسراعاً إلى إقامة الحججة؛ إذ لا جواب لأحد إلا هذا. ﴿دَائِي﴾ قال كثير من المفسرين: هو بمعنى مدفوق، وقال الخليل وسيبويه: هو على النسب، أي: ذا دَفَقٍ، والدَّفَقُ: دَفَع الماءُ بعضه ببعض كدفع الوادي والسييل إذا جاء يركب بعضه بعضاً، ويصح أن يكون الماء دافقاً لأن بعضه يدفع بعضاً، فمنه دافقٌ ومدفوقٌ.

قوله تعالى: ﴿يَجْزِي رَبِّ يَبِّ الْأَنْثَبِ وَالْكَرْبِ﴾، قال قتادة والحسن وغيرهما: معناه: من بين صُلْب كل واحد من الرجل والمرأة وتراثيه، وقال سفيان وقتادة أيضاً وجماعة: من بين صُلْب الرجل وتراثب المرأة، والضمير في ﴿يَجْزِي﴾ يحتمل أن يكون للإنسان، ويحتمل أن يكون للماء، وقرأ الجمهور: ﴿أَنْثَبِ﴾ بسكون اللام، وقرأ أهل مكة وعيسى: ﴿الصُّلْبِ﴾ بضم اللام على الجمع. و«التَّريْبَةُ» من الإنسان: ما بين التَّرْقُوتِ إلى الثدي، قال أبو عبيدة: مُعَلَّقُ الحلبي على الصدر، وجمع ذلك «تَريْبٌ»، قال المثقَّب العبدِيُّ:

وَمِنْ ذَهَبٍ يُسَنُّ عَلَى تَريْبٍ
كَلُونِ العَاجِ لَيْسَ بِذِي عُضُونِ
وقال امرؤ القيس:

تَرَائِبُهَا مَضْقُولَةٌ كَالسَّجْنَجَلِ
فجمع التَّريْبَةُ وما حولها فجعل ذلك ترائب. وقال مكِّي عن ابن عباس: إن «التَّرائب» أطراف المرء، رجلاه ويداه وعيناه، وقال معمر: التَّرائب جمع تَريْبَةٍ وهي عُصَارَةُ القلب، ومنها يكون الولد، وفي هذه الأقوال تحكُّم على اللغة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: التَّرائب موضع القلادة، وقال أيضاً: هي ما بين تَذيي المرأة، وقال ابن جبير: هي أضلاع الرجل التي أسفل الصلب، وقال مجاهد: هي الصدر، وقال: هي التراقي، وقال: هي ما بين المنكبين والصدر.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ عَلَّ رَبِّي﴾ الضمير في ﴿إِنَّهُ﴾ لله تعالى، واختلف المفسرون في الضمير في ﴿رَبِّي﴾ فقال ابن عباس، وقتادة: هو عائد على الإنسان، أي: على رُؤْهِ حَيًّا بعد موته، وقال الضحَّاك: هو عائد على الإنسان، لكن المعنى: يُرجعه ماءً كما كان أولاً، وقال الضحَّاك أيضاً: يُرجعه من الكِبَرِ إلى الشباب، وقال عكرمة، ومجاهد: هو عائد على الماء، أي: يردُّه في الإحليل، وقيل: في الصُّلْبِ، والعامل في ﴿يَوْمَ﴾ - على هذين القولين الأخيرين - فعلٌ مضمَر تقديره: اذكر يومَ تُبلى السرائر، وعلى القول الأول - وهو أظهر الأقوال وأبينها - اختلفوا في العامل

في ﴿يَوْمَ﴾ - فقال بعضهم: العامل «ناصرٌ» من قوله تعالى: ﴿وَلَا نَأْمُرُ﴾، وقيل: العامل «الرَّجْعُ» من قوله تعالى: ﴿عَلَّ رَبِّي﴾، قالوا: وفي المصدر من القوة بحيث يعمل وإن حال خَبِرَانِ بينه وبين معموله، وقيل: العامل فعلٌ مضمَر تقديره: «إنَّه على رجعه لقادِرٌ» يُرْجعه يوم تُبلى السرائر، وكلُّ هذه الفرق فُوت من أن يكون العامل «قادِرٌ»؛ لأن ذلك يظهر منه تخصيص القدرة في ذلك اليوم وحده، وإذا تَوَمَّل المعنى وما يقتضيه فصيح كلام العرب جاز أن يكون العامل «قادِرٌ»، وذلك أنه على رجعه لقادِرٌ، أي: على الإطلاق أولاً وآخراً وفي كل وقت، ثم ذكر تعالى وحْصَن من الأوقات الوقت الأهم على الكفار؛ لأنه وقت الجزاء والوصول إلى العذاب، فتجتمع النفوس إلى حذره والخوف منه.

و ﴿تُبلى السرائر﴾ معناه: تُختبر وتُكتشف بواطنها، وروى أبو الدرداء عن النبي ﷺ أن السرائر التي يتبليها الله تعالى من العباد: التوحيد والصلاة والزكاة والغسل من الجنابة، وصوم رمضان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه عَظَم الأمر. وقال أبو قتادة: الوجه في الآية العموم في جميع السرائر، وليس يمتنع في الدنيا من المكاره إلا بأحد وجهين: إما بقوة في ذات الإنسان وإما بناصر خارج عن ذاته، فأخبر الله تعالى عن الإنسان أنه يعدمهما يوم القيامة فلا يعصمه من أمر الله تعالى شيء.

قوله ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ تِسْعَةٌ وَتِسْعِينَ اسْمًا» وغير ذلك، ومتى أريد به المسمى فإنما هو صلة كالتائد، كأنه تعالى قال في هذه الآية: سُبْحَ رَبِّكَ، أي: نَزَّهُ، وإذا كان الاسم واحداً من الأسماء كزَيْد وعمرُو فيجىء في الكلام على ما قُلْتُ، تقول: «زيد قائم» تريد المسمى، وتقول: «زيد ثلاثة أحرف» تريد التسمية، وهذه الآية تحتمل الوجه الأول، وتحتمل أن يراد بالاسم التسمية نفسها على معنى: نَزَّهُ اسم رَبِّكَ عن أن يُسَمَّى به صنم أو وثن فيقال له: إِلاة وربِّ ونحو ذلك.

و«الأعلى» يصح أن يكون صفة للاسم، ويصح أن يكون صفة للرب تعالى، وذكر الطبري أن ابن عمر وعليا رضي الله عنهما قرأ هذه السورة: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى، الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى» قال: وهي في مصحف أبي بن كعب كذلك، وهي قراءة أبي موسى الأشعري وابن الزبير، ومالك بن دينار، وروى ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى»، وكان ابن مسعود، وابن عمر، وابن الزبير يفعلون ذلك، ولما نزلت هذه السورة قال النبي ﷺ: «اجملوها في سجودكم»، وقال قوم: معنى «سُبْحَانَ رَبِّكَ» نَزَّهُ اسم الله تعالى عن أن تذكره إلا وأنت خاشع، وقال ابن عباس: معنى الآية: صلِّ باسم ربك الأعلى، كما تقول: ابدأ باسم الله تعالى، وحذف حرف الجر.

تعالى: «تَهَيَّلَ الكَثِيرِينَ» أن عقابه الذي سمَّاه كينداً متأخر حتى ظهر بندير وغيره، وقرأ جمهور الناس: «أَمْهَلَهُمْ»، وقرأ ابن عباس: «أَنْهَلَهُمْ» وفي هذه الآية مُوَادعة نسختها آية السيف.

وقوله تعالى: «رُؤِيدًا» معناه: قليلاً، قاله قتادة، وهو حال، وهذه اللفظة إذا تقدمها شيء تصفه، كقولك: سَيِّراً رُؤِيداً، أو تقدمها فِعْلٌ فيها كهذه الآية، وأما إذا ابتدأت بها فقلت: «رُؤِيداً يا فلان» فهي بمعنى الأمر بالتَمْهَل، تجري مجرى قولهم: صبراً يا زيد وقليلًا يا عمرو.

كامل تفسير سورة الطارق والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الأعلى

وهي مكية في قول الجمهور، وحكى النقاش عن الضحاک أنها مدنية، وذلك ضعيف، وإنما دعاه إليه قول من قال: إن ذكر صلاة العيد فيها.

١٢ - ١٣ تفسير قوله عز وجل: «سُبْحَانَ رَبِّيَ الأَعْلَى» في هذه الآية بمعنى: نَزَّهُ وقُدِّسَ وقل: سبحانه عن النقائص والغير جميعاً وما يقول المشركون، و«الاسم» الذي هو «ألف، سين، ميم» يأتي في مواضع من الكلام الفصيح يُراد به المسمى، ويأتي في مواضع يُراد به التسمية، نحو

١١ - ١٢ تفسير قوله عز وجل: «السَّمَاءُ» في هذا القَسَمِ يحتمل أن تكون المعروفة، ويحتمل أن تكون السحاب، و«الرُّجْعُ»: المطر وماؤه، ومنه قول الهذلي:

أَبْيَضُ كَالرُّجْعِ رَسُوبٌ إِذَا مَا شَاحَ فِي مُخْتَفَلٍ يَخْتَلِي
وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الرُّجْعُ: السحاب والمطر، قال الحسن: لأنه يرجع بالرزق كل عام، وقال غيره: لأنه يرجع إلى الأرض، وقال ابن زيد: الرجع مصدر رجوع الشمس والقمر والكواكب من حال إلى حال، ومن منزلة إلى منزلة، تذهب وترجع.

و«الصَّدْعُ»: النبات؛ لأن الأرض تتصدع عنه، وهذا قول يناسب قول من قال: إن الرُّجْعُ هو المطر، وقال مجاهد؛ الصَّدْعُ: ما في الأرض من شعاب ولصاب وخذق وتشقق بحزب وغيره، وفيها أمور فيها معتبر، وهذا قول يناسب القول الثاني في «الرُّجْع».

والضمير في «إِنَّهُ» للقرآن - ولم يتقدم له ذكر - من حيث القول في جزء منه والحال تقتضيه. و«فَصَلِّ» معناه: جَزِّمْ، فصل الحقائق من الأباطيل، و«الْهَزْلُ»: اللَّعِبُ الباطل. ثم أخبر تعالى عن قريش أنهم يكيّدون في أفعالهم وأقوالهم وتمرسهم بالنبي عليه الصلاة والسلام وتدبيرهم رد أمره، ثم قوى الله تعالى ذلك بالمصدر وأكده، وأخبر سبحانه عن أنه يفعل بهم عقاباً سمَّاه كينداً، على العرف في تسمية العقوبة باسم الذنب، ثم ظهر من قوله

و «سَوَى» معناه: عدل وأتقن حتى صارت الأمور مستوية دالة على قدرته ووجدانيته، وقرأ جمهور الفراء: ﴿قَدَّرَ﴾ بشد الدال، فيحتمل أن تكون من القَدَر والقضاء، ويحتمل أن تكون من التقدير والموازنة بين الأشياء، وقرأ الكسائي وحده: ﴿قَدَّرَ﴾ بتخفيف الدال، فيحتمل أن تكون من القُدرة، ويحتمل أن تكون من التقدير والموازنة، وقوله تعالى: ﴿فَهْدَى﴾ عام لجميع الهدايات في الإنسان والحيوان، وقد خصص بعض المفسرين أشياء من الهدايات - فقال الفراء: معناه: هدى وأصل، واكتفى بالواحدة لدلالاتها على الأخرى، وقال مقاتل والكلبي: هدى الحيوان إلى وَطْءِ الذكور الإناث، وقيل: هدى المولود عند وضعه إلى مص الثدي، وقال مجاهد: هدى الناس إلى الخير والشر والبهائم للمراتع.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه الأقوال مثالات، والعموم في الآية أصوب في كل تقدير وفي كل هداية.

و «الْمَرْعَى»: النبات، وهو أصل في قوام العيش، إذ هو غذاء الأنعام، ومنه ما ينتفع به الناس في ذواتهم، و«الْعُثَاء»: ما يبس وجف وتحطم من النبات، وهو الذي يحمله السيل، وبه شبه الناس الذين لا قدر لهم، و«الأحوى» قيل: هو الأخضر الذي عليه سواد من شدة الخضرة والغضارة، وقيل: هو الأسود سواداً يضرب إلى الخضرة، ومنه قول ذي الرمة:

لَمَيَاءٌ فِي شَفَتَيْهَا حُوَّةٌ لَحَسَنٌ
وَفِي الثَّأْبِ وَفِي أَنْيَابِهَا شَتَبٌ
وتقدير هذه الآية: أخرج المرعى أحوى، أي: أسود من خضرته ونضارته، فجعله عُثَاءً عند يئسه، ف «أَحْوَى» حال، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فجعله عُثَاءً أحوى، أي: أسود؛ لَأَنَّ الْعُثَاءَ إِذَا قَدَّمَ وَأَصَابَتْهُ الْأَمْطَارُ اسْوَدَّ وَنَقَبُصٌ فَصَارَ أَحْوَى، فهذا صفة.

قوله تعالى: ﴿سَتَّرْتُكَ فَلَا تَنَسَى﴾، قال الحسن، وقتادة، ومالك بن أنس: هذه الآية في معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْرُكْ يَوْمَ لَسَانَكَ﴾ الآية وعده الله تعالى أن يُفْرَسَهُ، وأخبره أنه لا ينسى نسياناً لا يكون بعده تذکرٌ فيذهب الآية، وذلك أن النبي ﷺ كان يحرك شفتيه مبادرة خوفاً منه أن ينسى، وفي هذا التأويل آية للنبي ﷺ في أنه أُمِّيٌّ وحفظ الله تعالى عليه الوحي وأمنه من نسيانه، وقال آخرون: ليست الآية في معنى تلك، وإنما هذه وغد بإقراء الشرع والسور، وأمر بالأل ينسى، على معنى التثبيت والتأكيد، وقد علم تعالى أن ترك النسيان ليس في قدرته، فهو نهى عن إغفال التعاهد، وأثبت الية في ﴿تَنَسَّى﴾ لتعديل رؤوس الآي، وقال الجنيد: معنى ﴿فَلَا تَنَسَى﴾: لا تترك العمل بما تضمن من أمر ونهي.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ قال الحسن وقتادة وغيرهما: معناه: مما قضى الله سبحانه ينسخه وأن تُرْفَع تِلَاوَتُهُ وَحُكْمُهُ، وقال الفراء وجماعة من أهل المعاني: هو

استثناء صلة في الكلام، على سنة الله تعالى في الاستثناء، وليس ثم شيء أبيع نسيانه، وقال ابن عباس: إلا ما شاء الله أن ينسيكه لتسن به، على نحو قوله ﷺ: ﴿إِنِّي لِأَنْسَى، وَأَنْسَى لِأَسْنٍ﴾. وقال بعض المتأولين: إلا ما شاء الله أن يغلبك النسيان عليه ثم يذكرك به بعد، ومن هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام حين سمع قراءة عباد بن بشر: «رحمه الله تعالى، لقد أذكرني كذا وكذا آية في سورة كذا».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ونسيان النبي ﷺ ممتنع فيما أير بتبليغه؛ إذ هو معصوم، فإذا بلغه ووعى عنه فالنسيان جائز على أن يتذكر بعد ذلك، أو على أن يسن، أو على النسخ.

ثم أخبره تعالى أنه يعلم الجهر من الأشياء وما يخفى منها، وذلك لإحاطته بكل شيء علماً، وبهذا يصح الخبر أنه لا ينسى شيئاً إلا ذكره الله تعالى به. وقوله تعالى: ﴿وَيُنَسِّئُكَ لِلْيَسْرِ﴾ معناه: نذهب بك نحو الأمور المُسْتَحْسَنَةِ في دنياك وأخراك، من النَّصْر والظَّفَرِ وَعَلُو الرِسَالَةِ والمنزلة يوم القيامة والرفعة في الجنة.

ثم أمره تعالى بالتذكير، واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿إِنْ نَعَمَ الذِّكْرُ﴾ فقال الفراء، والنحاس، والزهراوي: معناه: وإن لم تنفع فاقصر على القسم الواحد لدلالته على الثاني، وقال بعض الحنّاق: إنما قوله تعالى: ﴿إِنْ نَعَمَ الذِّكْرُ﴾ اعتراض بين الكلامين على

المتأولين: ﴿تَزَكَّى﴾ معناه: أدى زكاة ماله، و﴿سَلَى﴾ معناه: صلى الخمس.

ثم أخبر الله تعالى الناس أنهم يؤثرون الحياة الدنيا، فالكافر يؤثرها إيثار كُفْر يَرَى الأخرى، والمؤمن يؤثرها إيثار معصية وغلبة نفس إلا من عصم الله تعالى. وقرأ أبو عمرو وحده: ﴿يُؤْثِرُونَ﴾ بالياء، وقال: يعني الأشقين، وهي قراءة ابن مسعود، والحسن، وأبي رجاء، والجحدري. وقرأ الباقون والناس: ﴿تُؤْثِرُونَ﴾ بالثاء على المخاطبة، وفي حرف أبي بن كعب: ﴿بَلْ أَنْتُمْ تُؤْثِرُونَ﴾، وسبب الإيثار حب العاجل، والجهل ببقاء الآخرة، وقال عمر رضي الله عنه: ما الدنيا في الآخرة إلا كنفخة أرنب.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا﴾ قال الضحاك: أراد القرآن، وروي أن القرآن انتسخ من الصحف الأولى، وقال سعيد بن جبيرة عن ابن عباس: الإشارة إلى معاني السورة، وقال ابن زيد: الإشارة إلى هذين الخبرين: إفلاح من تزكى، وإيثار الناس للدنيا مع فضل الآخرة عليها. وهذا هو الأرجح لقرب المشار إليه بـ ﴿هَذَا﴾.

وقوله تعالى: ﴿لَيْسَ أَصْحَفِ الْأُولَى﴾، أي: لم ينسخ هذا قط في شرع من الشرائع، فهو في الأولى وفي الأخيرات، ونظير هذا قول النبي ﷺ: ﴿إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ الْأُولَى إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ﴾، أي: إنه مما جاءت به الأولى واستمر في الغير.

الشغلى من أطباق النار. وقوله تعالى: ﴿لَا يَبُوتُ فِيهَا وَلَا يَخِينُ﴾ معناه: لا يموت فيها موتاً مريحاً ولا يحيا حياة هنيئة، فهو لا محالة حي، وقد ورد في خبر أن العصاة في النار موتى.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وأراد على التشبيه لأنه كالسبات والركود والهمود، فجعله موتاً. ﴿١٤﴾ - ﴿١٥﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿أَفَلَمْ﴾ في هذه الآية معناه: فاز ببغيتته، و﴿تَزَكَّى﴾ معناه: طهر نفسه ونمائها بالخير، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «من قال لا إله إلا الله تطهر من الشرك»، وقال الحسن: من كان عمله زاكياً، وقال أبو الأحوص: من رَضَخَ من ماله وزكاه.

وقوله تعالى: ﴿وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ معناه: وحده وصى له الصلوات التي فرض عليه، وتَنَقَّلَ أيضاً بما أمكنه من صلاة وبر، وقال أبو سعيد الخدري، وابن عمر، وابن المسيب: هذه الآية في صبيحة يوم الفطر فـ ﴿تَزَكَّى﴾ هو أدى زكاة الفطر، و﴿ذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ﴾ هو ذكر الله تعالى في طريق المصلى إلى أن يخرج الإمام، و«الصلاة» هي صلاة العيد، وقد روي هذا التفسير عن النبي ﷺ. وقال قتادة وكثير من

سُورَةُ الْاَعْلَى

سُورَةُ الْاَعْلَى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴿١﴾ وَجُوهُ يُومِنُونَ خَلْقَةً ﴿٢﴾
عَالِمَةٌ تَأْتِيهَا النَّصِيحَةُ ﴿٣﴾ تَصَلَّى نَارًا كَامِيَةً ﴿٤﴾ تَشْفَى مِنْ عَيْنٍ أَدِيمَةٍ ﴿٥﴾
لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ صَرْحٍ ﴿٦﴾ لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ ﴿٧﴾
وَجُوهُ يُومِنُونَ تَأْمَعَةً ﴿٨﴾ لَيْسَ بِهَا رَاضِيَةٌ ﴿٩﴾ فِي جَهَنَّمَ عَالِيَةً ﴿١٠﴾
لَا تَسْمَعُ فِيهَا لَغِيَةً ﴿١١﴾ فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ ﴿١٢﴾ فِيهَا سُرُورٌ مَرْمُوعَةٌ ﴿١٣﴾
وَأَكْرَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴿١٤﴾ وَنَارٌ كَامِيَةٌ مَصْفُوفَةٌ ﴿١٥﴾ وَرِزْقَانِ يُتَمَنَّنُونَ ﴿١٦﴾
أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خَلَقْتَ ﴿١٧﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾ فَذَكَرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ ﴿٢١﴾ أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ ﴿٢٢﴾ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فِعْدَبَهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ ﴿٢٦﴾

٥٩٢

جهة التوبيخ لقريش، أي: إن نعمت الذكري في هؤلاء الطغاة العتاة، وهذا كنعو قول الشاعر:

لَقَدْ أَسْمَعْتَ - لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا -
وَلَكِنْ لَا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي
وهذا كله كما تقول لرجل: قُلْ لفلان وأعد له إن سمعك، إنما هو توبيخ للمشار إليه.

ثم أخبر الله تعالى أنه سيدكّر من يخشى الله تعالى والدار الآخرة، وهم العلماء والمؤمنون، كل يقدر ما وُفق، ويتجنب الذكري ونفعها من سبقت له الشقاوة فكفر، ووجب له صلي النار، وقال الحسن: «النار الكبرى» نار الآخرة، والصغرى نار الدنيا، وقال بعض المفسرين: إن جميع نار الآخرة وإن كانت شديدة فهي تفاضل، ففيها شيء أكبر من شيء، وقال الفراء: الكبرى هي

نحو هذا، وقرأ الستة وحفص عن عاصم، والأعرج، وطلحة، وأبو جعفر والحسن: ﴿تَضَلَّى﴾ بفتح التاء وسكون الصاد، على بناء الفعل للفاعل، أي: الوجوه، وقرأ أبو بكر عن عاصم، وأبو عمرو - بخلاف عنه - وأبو رجاء، وأبو عبدالرحمن، وابن محيصن - واختلف عن نافع وعن الأعرج -: ﴿تَضَلَّى﴾ بضم التاء وسكون الصاد، وذلك يحتمل أن يكون من صَلَيْتَهُ النار» بمعنى أصليته فيكون كَتَضَرَّبَ، ويحتمل أن يكون من أصليته فيكون كَتَكْرَمَ، قرأ بعض الناس: ﴿تَضَلَّى﴾ بضم التاء وفتح الصاد وشُدَّ اللام، على التعدية بالتضعيف، حكاهما أبو عمرو بن العلاء. «والحامية»: المسفرة التوقد المتوهجة. «والآنيئة»: التي قد انتهى حرُّها، كما قال تعالى: ﴿وَيَنْبَغِي جَبِيرٌ آئِنٌ﴾، قاله ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وقال ابن زيد: معنى «آنية»: حاضرة لهم، من قولهم: آتى الشيء إذا حضر.

واختلف الناس في «الضريع» - فقال الحسن وجماعة من المفسرين هو الزقوم؛ لأن الله تعالى قد أخبر في هذه الآية أن الكفار لا طعام لهم إلا من ضريع، وقد أخبر أن الزقوم طعام الأثيم، فذلك يقتضي أن الضريع هو الزقوم. وقال سعيد بن جبيرة: الضريع حجارة في النار. وقال ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة: الضريع شينرُق النار، وقال أبو

جبيرة ومحمد بن كعب: الغاشية: النار، وقد قال تعالى: ﴿وَتَقَنَّيْ وَجُوهَهُمْ النَّارُ﴾، وقال: ﴿وَيَنْبَغِي تَغَشَى سَكَانَهَا، والقول الأول يؤيده قوله تعالى: ﴿وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ﴾، والوجوه الخاشعة هي وجوه الكفار، وخشوعها ذلُّها وتغيُّرها بالعذاب.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾، فقال ابن عباس، والحسن، وابن جبيرة، وقتادة: معناه: عاملةٌ في النار ناصبةٌ فيها، والتَّصَبُّبُ: التَّعَبُّبُ، لأنها تكبرت عن العمل لله تعالى في الدنيا فأعملها في الآخرة في نارها، وقال عكرمة والسُّدِّيُّ: المعنى: عاملةٌ في الدنيا ناصبةٌ يوم القيامة، فالعمل - على هذا - هو مساعي الدنيا، وقال ابن عباس، وزيد بن أسلم، وابن جبيرة: المعنى: هي عاملة في الدنيا ناصبة فيها. لأنها على غير هدى، فلا ثمرة لعاملها إلا النصب، وخاتمته النار، وقالوا: الآية في القيسيين وعُبَاد الأوثان وكل مجتهد في كفر، وقد ذهب إلى هذا المذهب عمر بن الخطاب رضي الله عنه في تأويل الآية، ويكفي رحمةً لراهب نصراني رآه مجتهداً، وفي الحديث أن النبي ﷺ ذكر القدرية فيكفي وقال: إن فيهم المجتهد.

وقرأ ابن كثير - في رواية شبل - وابن محيصن: ﴿عَامِلَةٌ نَاصِبَةٌ﴾ بالنصب على اللِّمِّ، والنَّاصِبُ فعل مضمر تقديره: أذمُّ أو أعني أو

وقرأ الجمهور: ﴿الضَّحِيفُ﴾ مضمومة الحاء، وروى هارون عن أبي عمرو سكون الحاء، وهي قراءة الأعمش، وقرأ أبو رجاء: ﴿إِبْرَاهِمَ﴾ بغير ياء ولا ألف، وقرأ ابن الزبير: ﴿إِبْرَاهِمَ﴾، وكذلك أبو موسى الأشعري في كل القرآن، وقرأ عبدالرحمن بن أبي بكر: ﴿إِبْرَاهِمَ﴾ بكسر الهاء وبغير ياء في جميع القرآن. وروى أن ضحيف إبراهيم عليه السلام نزلت في أول ليلة من رمضان، والتوراة في السادسة من رمضان، والزبور في اثنتي عشرة منه، والإنجيل في ثماني عشرة منه، والقرآن في أربع عشرة منه.

كامل تفسير سورة الأعلى والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الغاشية

وهي مكية بلا خلاف في ذلك بين أهل التأويل.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل: قال بعض المفسرين: ﴿حَلْ﴾ بمعنى «قد»، وقال الحدائق: هي على بابها توقيفٌ فائدته تحريك نفس السامع إلى تلقى الخبر، وقيل: المعنى: هل كان هذا من علمك لولا أن علمناك؟ ففي هذا التأويل تقرير النعمة. «والغاشية»: القيامة لأنها تغشى العالم كله بهولها وتغييرها لِبَنِيَّتِهِ، قاله سفيان وجمهور من المتأولين، وقال ابن

حنيفة: الضريع الشُّرْبِق، وهو مرعى سوء لا تعقد السائمة عليه شحماً ولا لحماً، ومنه قول ابن عَزَّازَةَ الْهَدَلِيّ:

وَحَيْسَنَ فِي هَزْمِ الضَّرِيْعِ فَكَلَّهَا
حَذْبَاءُ دَابِيَّةِ الْيَدَيْنِ حَرُودُ
وقال أبو ذؤيب:

رَعَى الشُّبْرِيقَ الرَّيَّانَ حَتَّى إِذَا ذَوَى
وَعَادَ ضَرِيْعاً بَانَ مِنْهُ التَّحَايِضُ
وقيل: الضريع: العِشْرُق، وقال النبي ﷺ: «الضريع شوك في النار»، وقال بعض اللغويين: الضريع يَبْسُ العَرْفَجُ إِذَا تَحَطَّم، وقال آخرون: هو رَطْبُ العَرْفَجِ، وقال الزجاج: هو نَبْتُ كَالعَرَسُوجِ، وقال بعض المفسرين: الضريع نبت في البحر أخضر مُتَيْنِ مُجَوَّفٍ مستطيل، له نور فيه كبير، وقال ابن عباس أيضاً: الضريع شجر من نار. وكلُّ من ذكر شيئاً مما قدمناه فإنما يعني أن ذلك من نار ولا بُدَّ، وكلُّ ما في النار فهو نَارٌ، وقال قوم: ضريع: وادٍ في جهنم، وقال جماعة من المتأولين: الضريع طعام أهل النار، ولم يرد أن يخص شيئاً مما ذكر، قال بعض اللغويين: وهذا مما لا تعرفه العرب، وقيل: الضريع: الجلدَةُ التي على العظم تحت اللحم، ولا أعرف من تأول الآية بهذا، وأهل هذه الأقاويل يقولون: الرُّقُومُ لطائفة، والضريع لطائفة، والغسلين لطائفة.

واختلف في المعنى الذي سُمِّي به ضريعاً - فقيل: هو ضريع بمعنى مَضْرَع، أي: مضعف للبدن مُهْزِلٌ،

ومنه قول النبي ﷺ في وَلَدَيْ جَعْفَرِ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنهم: «مالي أراهما ضارعتين؟» يريد هزيلتين، ومن فقيل بمعنى مُفْعَل قول عمرو بن معد يكرب:

أَمِنَ زَنْحَانَةَ الدَّاعِي السَّمِيْعِ
يُؤْزِرُنِي وَأُضْحَابِي مُجُوعٌ
يريد: المُسْمِع. وقيل: ضريع: فقيل من المضارعة، أي لأنه يشبه المرعى الجيد ويضارعه في الظاهر، وليس به.

ولما ذكر تعالى وجوه أهل النار عَقِبَ ذلك بذكر وجوه أهل الجنة لبيان الفرق، وقوله تعالى: ﴿لَسْتَيْهَا﴾ يريد به: لعملها في الدنيا وطاعتها، والمعنى: لثواب سعيها والتنعيم عليه، ووصف تعالى الجنة بالعلو، وذلك يصح من جهة المسافة والمكان، ومن جهة المكانة والمنزلة أيضاً.

وقرأ نافع وحده، وابن كثير، وأبو عمرو - بخلاف عنهما - والأعرج، وأهل مكة والمدينة: ﴿لَا تُسْمَعُ فِيهَا لِأَغِيَّةٍ﴾ بضم التاء من فوق، ورفع ﴿لِأَغِيَّةٍ﴾، ففسره بعضهم: لا تُسْمَعُ فيها كلمة لاغية، أي: ذات لغو، فهي على النسب، وفسره بعضهم على معنى: لا تُسْمَعُ فيها فئة أو جماعة لاغية ناطقة بسوء، وقال أبو عبيدة: «لِأَغِيَّةٍ» مصدر كالعاقبة والجاتية، وقرأ الجحدري: ﴿لَا تُسْمَعُ﴾ بضم التاء ﴿لِأَغِيَّةٍ﴾ بالنصب، وقرأ ابن كثير، وأبو

عمرو: ﴿لَا يُسْمَعُ﴾ بالياء من تحت مضمومة ﴿لِأَغِيَّةٍ﴾ بالرفع، وهي قراءة ابن محيصن، وعيسى، والجحدري أيضاً، إلا أنه قرأ: ﴿لِغِيَّةٍ﴾ بالنصب، على معنى: لا يُسْمَعُ أَحَدٌ كلمة لاغية، من قولك: أَسْمَعْتُ زَيْدًا، وقرأ الباقون، ونافع - في رواية خارجة - والحسن، وأبو رجاء، وأبو جعفر، وقتادة وابن سيرين، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿لَا تُسْمَعُ﴾ بفتح التاء ﴿لِغِيَّةٍ﴾ بالنصب، والمعنى: إما على الكلمة وإما على الفته، والفاعل بـ [تُسْمَعُ] إما اللجوء، وإما محمد ﷺ - قاله الحسن - وإما أنت أيها المخاطب عموماً. و«اللغو» سَقَطُ القول، فذلك يجمع الفُحْشَ وسائر الكلام السفاسف الناقص، وليس في الجنة نقصان ولا عيب فعل ولا قول، والحمد لله وَلِيُّ النعمة.

﴿٢٦﴾ - ﴿٢٧﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿عَيْنٌ﴾ في هذه الآية اسم جنس، ويحتمل أن تكون عيناً مخصوصة ذكرت على جهة التشريف لها. ورفع السرر أشرف لها، و«الأثواب» أوان كالأباريق لا عَرَى لها ولا أذان ولا خراطيم، وشكلها عند العرب معروف، و«مَوْضُوعَةٌ» معناها: بِأَشْرَبَتِهَا مَعْدَةٌ، و«السُّمْرُقَةُ»: الوسادة، ويقال: يَمْرُقَةُ بكسر النون والراء، قال زهير:

كُهُولاً وَشُبَّاناً جِسَاناً وَجُوهُهُمْ
عَلَى سُرُرٍ مَضْفُوقَةٍ وَنَمَارِقٍ

والرَّابِي» واحدها «رَبِيَّة»، ويقال بفتح الزاي، وهي كالطنافس لها حَمَلٌ، قاله الفراء، وهي ملونات و«بَيُوتَةٌ» معناه: كثيرة متفرقة.

ثم أقام تعالى الحجة على منكري قدرته على بعث الأجساد بأن وقَّعهم على مواضع العبرة في مخلوقاته، و«الإبل» في هذه الآية هي الجمال المعروفة، هذا قول الجمهور من المتأولين، وفي الجمل آيات وعبر لمن تأمل، ليس في الحيوان ما يقوم من البروك بحمله سواه، وهو على قوته غاية في الانقياد، قال الثعلبي في بعض التفاسير: إن فأرة جرت بزمام ناقة فتبعتها حتى دخلت الجحر فبركت الناقة وأدنت رأسها من فم الجحر، وكان شريح القاضي يقول لأصحابه: اخرجوا بنا إلى الكُنَاسَة حتى ننظر إلى الإبل كيف خلقت، وقال أبو العباس المبرد: الإبل هنا: السحاب لأن العرب قد تسميها بذلك إذ تأتي أرسالاً كالإبل، وتزجى كما تزجى الإبل، وهي في هيئتها أحياناً تشبه الإبل والنعام، ومنه قول الشاعر:

كَأَنَّ السُّحَابَ دُوْرَنَ السَّمَاءِ
وَ نَعَامٌ تَعَلَّقَ بِالْأَرْجُلِ
وقرأ أبو عمرو - بخلاف - وعيسى: «الإبل» بشد اللام، وهي السحاب كما ذكر قوم من اللغويين والنقاش، وقرأ الجمهور: «خُلِقَتْ» بفتح القاف وضم الخاء،

وقرأ علي بن أبي طالب: «خُلِقَتْ» بفتح الخاء وسكون القاف، على فعل المتكلم، وكذلك «رَفَعَتْ»، و«نَصَبَتْ»، و«سَطَّحَتْ»، وقرأ أبو حيوة: «رَفَعَتْ»، و«نَصَبَتْ»، و«سَطَّحَتْ» بالتشديد فيها. و«نَصَبَتْ» معناه: أثبتت قائمة في الهواء لا تنبطح، وقرأ الجمهور: «سَطَّحَتْ» بتخفيف الطاء، وقرأ هارون الرشيد: «سَطَّحَتْ» بشد الطاء على المبالغة، وهي قراءة الحسن. وظاهر هذه الآية أن الأرض سَطَّحَ لا كُرَّة، وهو الذي عليه أهل العلم، والقول بكريتها - وإن كان لا ينقض ركناً من أركان الشرع - فهو قول لا يُثبت علماء الشرع.

ثم أمر الله تعالى نبيه ﷺ بالتذكير بهذه الآيات ونحوها. ثم نفى تعالى أن يكون مسيطراً على الناس، أي: قاهراً مُخْبِراً لهم مع تكبر متسلطاً عليهم، يقال: تسيطر علينا فلان، وقرأ بعض الناس: «بِمُسَيِّطِرٍ» بالسين، وبعضهم «بِمُصَيِّطِرٍ» بالصاد، وقرأ هارون: «بِمُسَيِّطِرٍ» بفتح الطاء، وهي لغة تميم، وليس في كلام العرب على هذا البناء غير «مُسَيِّطِرٍ» ومُصَيِّطِرٍ، ومُبَيِّقِرٍ، ومُهَيِّمِنٍ»، وفي الأسماء «مُدَيِّبِرٍ» ومُجَيِّمِرٍ»، وهو اسم واد، ويحتمل أن يكون هذان مُصَفَّرَيْنِ.

قوله تعالى: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ»، قال بعض المتأولين:

الاستثناء مُتَّصِلٌ، والمعنى: إلا من تولى وكفر فأنت مسيطر عليه، فالآية - على هذا - لا نسخ فيها، وقال آخرون منهم: الاستثناء منفصل، والمعنى: «لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّطِرٍ» وتم الكلام، وهي آية مُؤَادعة منسوخة بالسيف، ثم قال تعالى: «إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ» وهذا هو القول الصحيح؛ لأن السورة مكئية، والقتال إنما نزل بالمدينة، و«مَنْ» بمعنى «الذي». وقرأ ابن عباس، وزيد بن أسلم، وقتادة، وزيد بن علي: «أَلَا مَنْ تَوَلَّى»، بفتح الهمزة، على معنى استفتاح الكلام، و«مَنْ» - على هذه القراءة - شرطية. و«العذاب الأكبر» عذاب الآخرة؛ لأنهم قد عُذِّبُوا في الدنيا بالجوع والقتل وغيرهما، وقرأ ابن مسعود: «فَلِإِنَّهُ يُعَذِّبُهُ اللهُ».

وقرأ الجمهور: «إِيَابَهُمْ» مصدر من «أَبَ يَأُوبُ» إذا رجع، وهو الحشر والرُّدُّ إلى الله تعالى، وقرأ أبو جعفر بن القعقاع: «إِيَابَهُمْ» بشد الياء، على وزن «يُقَالُ» بكسر الفاء، أصله «فيعال»، من «أَيَّبَ»، أصله «فَيَعَلَّ»، ويصح أن يكون من «أَوَّبَ» فيجيء «إيواباً» وسهلت الهمزة، وكان السلازم في الإدغام ردها «إؤاباً»، لكن استحسنت فيه الياء على غير قياس.

كمل تفسير سورة الغاشية والحمد لله رب العالمين

الحِجَّة، وقال مقاتل: المراد فجر ليلة جمع، وقال ابن عباس أيضاً: المراد فجر أول يوم المحرم لأنه فجر السنة، وقيل: المراد فجر العيون من الصخور وغيرها، وقال عكرمة: المراد فجر يوم الجمعة.

واختلف الناس في «الليالي العشر» - فقال بعض الرواة: هي العشر الأول من رمضان، وقال ابن عباس والضحاك: هي العشر الأواخر من رمضان، وقال يمان وجماعة من المتأولين:

هي العشر الأول من المحرم، وفيها يوم عاشوراء، وقال ابن الزبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، والسدي، وعطية العوفي: هي عشر ذي الحجة، وقال مجاهد: هي عشر موسى عليه السلام التي أتمها الله تعالى له. وقرأ الجمهور: ﴿وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ وقرأ بعض القراء: ﴿وَلَيَالِي عَشْرٍ﴾ بالإضافة، وكان هذا على أن «العشر» مشارٌ إليه معيّن بالعلم به، ثم وقع القسم بلياليه، فكان «العشر» اسمٌ لزمه، وهذا نحو قولهم: «فعلتُ كذا في العشر الأوسط»، فإنما هذا على أن «العشر» اسمٌ لزم حتى عومل معاملة الفرد ثم وُصف به، ومن راعى فيه الليالي قال: «العشر الوسط».

واختلف الناس في «الشُّع والفجر» فقال جابر عن النبي ﷺ: «الشُّع

يوم النحر، والوتر يوم عرفة»، وروى أبو أيوب عنه ﷺ أنه قال: «الشُّع يوم عرفة ويوم الأضحى، والوتر ليلة النحر»، وروى عمران بن حصين عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «هي الصلوات منها الشُّع ومنها الوتر»، وقال ابن الزبير وغيره: الشُّع اليومان من أيام التشريق، والوتر اليوم الثالث، وقال آخرون: الشُّع العالم، والوتر الله سبحانه؛ إذ هو تعالى الواحد محضاً، وسواه ليس كذلك، وقال بعض المتأولين: الشُّع آدمٌ وحواءٌ عليهما السلام، والوتر الله سبحانه وتعالى، وقال ابن سيرين، ومسروق، وأبو صالح: الشُّع والوتر شائعان في الخلق كله: الإيمان والكفر، والإنس والجن، وما أطرد نحو هذا، فهي أضدادٌ أو كالأضداد، وترها الله تعالى فردٌ واحدٌ، وقيل: الشُّع الصفا والمروة، والوتر البيث، وقال الحسين بن الفضل: الشُّع أبواب الجنة لأنها ثمانية، والوتر أبواب النار لأنها سبعة، وقال مقاتل: الشُّع الأيام والليالي، والوتر يوم القيامة لأنه لا ليل بعده، وقال أبو بكر السُّدَاق: الشُّع تضادٌ أوصاف المخلوقين كالعز والذل ونحوه، والوتر اتحاد صفات الله تعالى، عزٌ محض وكبرٌ محض، ونحوه، وقيل: الشُّع قرآن الحج والعمرة، والوتر الإفراؤ بالحج، وقال الحسن: أقسم الله تعالى بالعدد لأنه إما شفع وإما وتر، وقال بعض المفسرين: الشُّع حواءٌ والوتر آدمٌ عليهما السلام، وقال ابن عباس ومجاهد:



تفسير سورة الفجر

وهي مكية عند جمهور المفسرين، وحكى أبو عمرو الداني في كتابه المؤلف في تنزيل القرآن عن بعض العلماء أنه قال: إنها مدنية، والأول أشهر وأصح.

١- ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال جمهور المفسرين: «الفجر» هنا هو المشهور الطالع في كل يوم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: الفجر: النهار كله، وقال ابن عباس أيضاً وزيد بن أسلم: الفجر الذي أقسم الله تعالى به: صلاة الصبح، وقرأ: ﴿إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ﴾، وقال مجاهد: إنما أراد فجر يوم النحر، وقال الضحاك: المراد فجر ذي

الوتر صلاة المغرب، والشفع صلاة الصبح، وقال أبو العالية: الشفع الركعتان من المغرب، والوتر الركعة الأخيرة، وقال بعض العلماء: الشفع تنقل الليل مثنى مثنى، والوتر الركعة الأخيرة المعروفة.

وقرأ جمهور القراء والناس: ﴿وَالْوَتْرُ﴾ بفتح الواو، وهي لغة قريش وأهل الحجاز، وقرأ حمزة، والكسائي: والحسن - بخلاف - وأبو رجاء، وابن وثاب، وطلحة، والأعمش، وقاتدة: ﴿وَالْوَتْرُ﴾ بكسر الواو، وهي لغة تميم وبكر، وذكر الزهراوي أن الأعرابي رواها عن ابن عباس، وهما لغتان في الفرد، وأما في الدحل فإنما هو «وتر» بالكسر لا غير، وقد ذكر الزهراوي أن الأصمعي حكى فيه اللغتين، الفتح والكسر.

و «سرى الليل» ذهابه وانقراضه، هذا قول الجمهور، وقال ابن قتيبة، والأخفش، وغيرهما: المعنى: إذا يُسْرَى فيه، فيخرج هذا الكلام مخرج «ليل نائم ونهار صائم»، وقال مجاهد، وعكرمة، والكلبي: أراد بهذا ليلة جمع لأنها يُسْرَى فيها، وقرأ الجمهور: ﴿يَسْرَى﴾ دون ياء في وصل ووقف، وقرأ ابن كثير: ﴿يَسْرِي﴾ بالياء في وصل ووقف، وقرأ نافع، وأبو عمرو - بخلاف عنه -: ﴿يَسْرِي﴾ بياء في الوصل ودونه في الوقف، وحذفها تخفيف لاعتدال رؤوس الآي إذ هي فواصل كالقوافي، قال الزبيدي: الوصل في هذا وما أشبهه بالياء، والوقف بغير ياء على خط المصحف، ووقف

تعالى على هذه الأقسام العظام هل فيها مقنع وحسب لذي عقل. و«الحجر»: العقل والنهي، والمعنى: فيزدجر ذو الحجر وينظر في آيات الله تعالى.

ثم وقف تعالى على مصارع الأمم الخالية الكافرة، وما فعل بها من التعذيب والإهلاك، والمراد بذلك توعد قريش ونصب المثل لها. و«عاد» قبيلة، لا خلاف في ذلك، واختلف الناس في «إزم» - فقال مجاهد وقاتدة: هي القبيلة بعينها، وعلى هذا قال ابن قيس الرقيات: مَجْدًا تَلِيدًا بِنَاءِ أَوْلَهُ أَذْرَكَ عَادًا وَقَبِلَهَا إِزْمًا وقال زهير:

وَأَخْرَيْنَ تَرَى الْمَازِي عُدَّتْهُنَّ
مِنْ نَسِجِ ذَوَادٍ أَوْ مَا أَوْرَثَتْ إِزْمُ
وقال ابن إسحق: إزم هو أبو عاد كلها، وهو عاد بن عوص بن إزم بن سام بن نوح عليه السلام، وقال غير ابن إسحق: هو أحد أجدادها، وقال جمهور المفسرين: إزم مدينة لهم عظيمة كانت على وجه الدهر باليمن، وقال محمد بن كعب، هي الإسكندرية، وقال سعيد بن المسيب والمقبري: هي دمشق، وهذان القولان ضعيفان، وقال مجاهد: «إزم» معناه: قديمة. وقرأ الجمهور: ﴿يَمَادٍ﴾ فصرفوا «عاداً» على إرادة الحي، ونعتوا بـ «إزم» بكسر الهمزة على أنها القبيلة بعينها، ويؤيد هذا قول اليهود للعرب سيخرج فينا نبي نثبعه، نقلكم معه قتل عاد إزم، فهذا يقتضي أنها قبيلة، وعلى هذه القراءة يتجه أن

يكون «إزم» أباً لعاد أو جداً غلب اسمه على القبيل. وقرأ الحسن بن أبي الحسن: «بعاد»، «إزم» على ترك الصرف في «عاد» وإضافتها إلى «إزم»، وهذا يتجه على أن يكون «إزم» أباً أو جداً، وعلى أن تكون مدينة. وقرأ الضحاك: «بعاد إزم» بفتح الدال والهمزة من «إزم» وفتح الراء والميم، على ترك الصرف في «عاد» والإضافة، وقرأ ابن عباس والضحاك: «بعاد إزم» بشد الميم على الفعل الماضي بمعنى: يلي وصار ريمماً، يقال: أرم العظم ورم وأزمه الله، تُعَدِّي «رم» بالهمزة. وقرأ ابن عباس أيضاً: «أرم ذات» بالنصب في التاء، على إيقاع الإزماء عليها، أي: أبلاها ريك وجعلها ريمماً، وقرأ ابن الزبير: «أرم» بفتح الهمزة وكسر الراء، وهي لغة في المدينة، وقرأ الضحاك بن مزاحم: «أزم» بسكون الراء وفتح الهمزة وهي تخفيف في «أرم» كَفَخَذَ وَتَخَذَ.

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿ذَاتِ أَيْمَادٍ﴾ فمن قال: «إزم مدينة» قال: العِمَادُ هي أعمدة الحجارة التي بُنيت بها، وقيل: القصور العالية والأبراج، يقال لها: عماد، ومن قال: «إزم» قبيلة قال: العِمَادُ إمَّا أعمدة أَيْمَاتِهِمْ وإمَّا أعمدة بيوتهم التي يرحلون بها، لأنهم كانوا أهل عمود ينتجعون البلاد، قاله مقاتل وجماعة، وقال ابن عباس: هي كناية عن طول أبدانهم.

وقرأ الجمهور: ﴿لَمْ يَخْلُقْ﴾ بضم الياء وفتح اللام ﴿يُنْثَلُهَا﴾ رفعا، وقرأ

﴿١٥﴾ - ﴿٢٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

ذكر الله تعالى في هذه الآية ما كانت قریش تقوله وتستدل به على إكرام الله تعالى وإهانتة لعبد، وذلك أنهم كانوا يرون أن من عنده الغنى والثروة والأولاد فهو المكرم، وبضده المهان، ومن حيث كان هذا المقطع غالباً على كثير من الكفار جاء التوبيخ في هذه الآية لاسم الجنس؛ إذ قد يقع بعض المؤمنين في شيء من هذا المنزع، ومن ذلك حديث الأعراب الذين كانوا يقصدون المدينة على النبي ﷺ، فمن نال خيراً قال: هذا دين حسن، ومن ناله شراً قال: هذا دين سوء.

و ﴿أَبْتَلَهُ﴾ معناه: اختبره، و ﴿يَعْمَهُ﴾ معناه: جعله ذا نعمة، وقرأ ابن كثير: ﴿أَكْرَمَنِي﴾ بالياء في وُضِلَ ووقف، وحذفها عاصم، وابن عامر وحمزة، والكسائي في الوجهين، وقرأ نافع بالياء في الوصل وحذفها في الوقف، وكذلك ﴿أَمْتَنَ﴾، وخير في الوجهين أبو عمرو. وقرأ جمهور الناس: ﴿فَقَدَّرَ﴾ بتخفيف الدال، بمعنى: ضيق، وقرأ الحسن - بخلاف - وأبو جعفر، وعيسى، وخالد: ﴿فَقَدَّرَ﴾ «بشد الدال»، بمعنى: جعله على قدر، وقيل: هما بمعنى واحد في معنى التضييق؛ لأنه ضَعَفَ [قَدَّرَ] مبالغة لا تعدية، ويقضي ذلك قول الإنسان: «أماين»، لأن «قَدَّرَ» مُعْدِي إنما معناه: أعطاه ما يكفيه، ولا إهانة مع ذلك.

ثم قال تعالى: ﴿كَلَّا﴾ رداً على قولهم ومعتقدهم، أي: ليس

يضربها في أبدانهم حتى تنفذ إلى الأرض، وقيل: إنما فعل ذلك بزوجه آسية، وقيل: فعل ذلك بماشطة بنته لأنها كانت آمنت بموسى عليه السلام.

و «الطغیان»: تجاوز الحدود، و «الصَّبُّ» مستعمل في السُّوط لأنه يقتضي سرعة في النزول، ومنه قول الشاعر في المحدودين في الإفك: قُضِبَتْ عَلَيْهِمْ مُخَصَّدَاتٌ كَأَنَّهَا شَائِبٌ لَيْسَتْ مِنْ سَحَابٍ وَلَا قَطْرِ الخيل:

صَبَبْنَا عَلَيْهَا ظَالِمِينَ سَيَاطِنَا
فَطَارَتْ بِهَا أَيْدٍ سِرَاعٍ وَأَرْجُلُ
وإنما حُصَّ السُّوط بأن يستعار للعذاب لأنه يقتضي من التكرار والترداد ما لا يقتضيه السيف ولا غيره، وقال بعض اللغويين: السُّوط هنا مصدر، من: ساطَ يَسُوطُ، فكأنه تعالى قال: خِلَطَ عذاب.

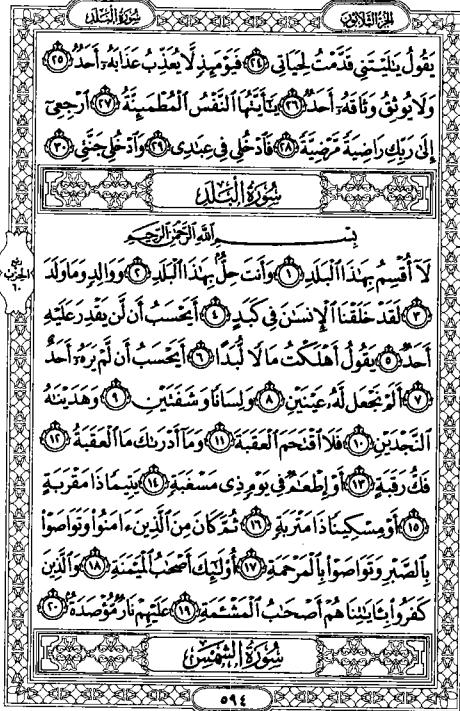
و «المِرْصَادُ» و «المَرْصَدُ»: موضع الرصد، قاله اللغويون، أي: أنه عند لسانِ كُلِّ قاتل، ومرصد لكل فاعل، وعلى هذا التأويل في المرصاد جاء جواب عامر بن قيس لعثمان رضي الله عنه حين قال له: أين ربك يا أعرابي؟ قال: بالمرصاد، ويحتمل أن يكون «المرصاد» في الآية اسم فاعل، كأنه تعالى قال: لِبَلِ الرَّاصِدِ، فعبر ببناء مبالغة، وروي في بعض الحديث «إن على جسر جهنم ثلاث قناطر، على إحداها الأمانة، وعلى الأخرى الدم، وعلى الأخيرة الربُّ تعالى، فذلك قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ﴾».

ابن الزبير: ﴿لَمْ يَخْلُقْ﴾ بفتح الياء وضم اللام ﴿مِثْلَهَا﴾ نصباً، وذكر أبو عمرو الداني عنه أنه قرأ: ﴿لَمْ تَخْلُقْ﴾ بالنون وضم اللام ﴿مِثْلَهَا﴾ نصباً، وذكر التي قبل هذه عن عكرمة، والضمير في [مِثْلَهَا] يعود إما على المدينة وإما على القبيلة.

وقرأ يحيى بن وثاب: ﴿وَمُمُودًا﴾ بتنون الدال، و ﴿جَاوُوا الصَّخْرَ﴾ معناه: خرقوه ونحتوه، وكانوا في وديهم قد نحتوا بيوتهم في حجارة، و «الوادي» ما بين الجبلين وإن لم يكن فيه ماء، هذا قول كثير من المفسرين في معنى ﴿جَاوُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِي﴾، وقال الثعلبي: يريد: بوادي القرى، وقال قوم: المعنى: جابوا واديهم وجلبوا ماءهم في صخر شقوه، وهذا فعل ذي القوة والآمال، وقرأ ابن كثير: ﴿بالوادي﴾ بالياء، وقرأ أكثر السبعة: ﴿بالوادي﴾ بدون ياء، واختلف في ذلك عن نافع وقد تقدم هذا.

و «فرعون» هو فرعون موسى عليه السلام، واختلف الناس في أوتاده - فقيل: أبنيتة العالبة العظيمة، قاله محمد بن كعب، وقيل: جنوده الذين بهم ثبت ملكه، وقيل: المراد أوتاد أخبية عساكره وذكرت لكثرتها ودلالاتها على غزواته وطوافه في البلاد، قاله ابن عباس، ومنه قول الأسود بن يعفر:

.....
فِي ظِلِّ مُلْكِكَ ثَابِتِ الْأَوْتَادِ
وقال قتادة: كانت له أوتاد يلعب عليها الرجال بين يديه وهو مشرف عليهم، وقال مجاهد: كان يوتد الناس بأوتاد الحديد، يقتلهم بذلك،



وقد تقدم القول في سورة براءة في المسكين والفقير بما يعني عن إعادته.

وعدّد تعالى عليهم جدّهم في أكل التراث؛ لأنهم كانوا لا يؤرثون النساء ولا صغار الأولاد، وإنما كان يأخذ المال من يقايل ويحمي الحوزة و«اللّم»: الجمع واللف، قال الحسن: هو أن يأخذ في الميراث حظّه وحظّ غيره، وقال أبو عبيدة: «لمنّت ما على الخوان» إذا أكلت جميع ما عليه بأسره، ومنه قول الشاعر:

وَلَسْتُ بِمُسْتَبْتِي أَخَا لَا تَلْمُهُ
عَلَى شَعَبِ أَيِّ الرِّجَالِ الْمُهَذَّبِ؟
و «الجّم»: الكثير الشديد، ومنه قول الشاعر:
إِنْ تَغْفِرِ اللَّهُمَّ تَغْفِرْ جَمًّا
وَأَيُّ عَنبِدِكَ لَا أَلْمَا؟
ومنه: الجّم من الناس.

ثم قال تعالى: «كَلَّا» ردّاً على أفعالهم هذه، وتوطئة للوعيد، أي: سترون أن أفعالكم ليست على قوام إذا دُكّت الأرض، ودكّها هو تسويتها بذهاب جبالها، والناقة الدكّاء هي التي لا سنام لها.

وقوله تعالى: «وَبِمَا رَزَاكَ» معناه: وجاء قدره وسلطانه وقضاؤه، وقال منذر بن سعيد: معناه ظهوره للخلق هنالك، ليس مجيء نُقْلَة، وكذلك مجيء الصاخّة ومجيء الطامة. و«المَلَك» اسم جنس، يريد جميع

إكرام الله تعالى وإهانته كذلك، وإنما ذلك ابتلاء، فحقّ من ابتلي بالغنى أن يشكر ويطيع، ومن ابتلي بالفقر أن يشكر ويصبر، وأما إكرام الله تعالى فهو بالتقوى، وإهانته فبالمعصية. ثم أخبرهم تعالى بأعمالهم من أنهم لا يكرمون البيت، وهو - من بني آدم - الذي فقد أباه وكان غير بالغ، ومن البهائم ما فقد أمه، وقال النبي ﷺ: «أحبّ البيوت إلى الله تعالى بيتّ فيه يتيمٌ مكرم».

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر: «تَحْضُونَ» بمعنى: يَحْضُ بعضكم بعضاً، أو تَحْضُونَ أنفسكم، وقرأ عاصم، وحمزة، والكسائي: «تَحْضُونَ» بفتح التاء، بمعنى: يتحاضون، أي: يحضّ قومٌ قوماً، وقرأ أبو عمرو: «يَحْضُونَ» بياء من تحت مفتوحة وبغير ألف، وقرأ عبدالله بن المبارك: «تَحْضُونَ» بضم التاء - على وزن تقاتلون -، أي: أنفسكم، أي: بعضكم بعضاً، ورواه الشَّيْزِيُّ عن الكسائي، وقد يجيء «فَاعَلَتْ» بمعنى «فَعَلَتْ»، وهذا منه، وإلى هذا ذهب أبو علي، وأشد:

تَحَاسَنَتْ بِو.....

أي: حَسُنَتْ، وأشد أيضاً:

إِذَا تَخَازَرَتْ وَمَا بِي مِنْ حَزْرٍ
ويحتمل أن يكون مفاعلة، ويتجه ذلك على رجف، فتأمله. وقرأ الأعمش: «تَحْضُونَ» بياءين. و«طعام» في هذه الآية بمعنى: إطعام، وقال قوم: أراد نفس طعامه الذي يأكل، ففي الكلام حذف تقديره: على بذلك طعام المسكين،

الملائكة، وزوي أن ملائكة كل سماء يكونون صفّاً حول الأرض في يوم القيامة، وذكر الطبري في ذلك حديثاً طويلاً اخترسته، وبهذا المعنى يتفسر قوله تعالى: «يَوْمَ النَّارِ» على قراءة من شدّ الدال، وقوله تعالى في سورة الرحمن: «إِنْ أَنْتَلَقْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا» الآية.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وابن عامر، وحمزة، والكسائي في هذه الآية: «تَكْرُمُونَ» بالتاء، وكذلك سائر الأفعال بعدها على الخطاب، وقرأ أبو عمرو، والحسن، ومجاهد، وأبو رجاء، وقتادة، والجحدري: «يُكْرِمُونَ» بالياء في جميعها، على ذكر الغائب؛ إذ قد تقدم اسم جنس الإنسان.

٢٣ - ٢٤ تفسير قوله عز وجل:

رُوي في قوله تعالى: «يَأْتِي»

يَوْمَئِذٍ يَجْمَعُهُمْ ﴿٢٣﴾ أنها تُساق إلى الحشر بسبعين ألف زمام، يُمسك كلُّ زمام منها سبعون ألف ملك، فيخرج منه عُقٌّ فتنتقي الجابرة من الكفار... في حديث طويل مختلف الألفاظ و«جهنم» هنا هي النار بجملتها، ورُوي أنه لما نزلت ﴿وَجَاءَهُ يَوْمَئِذٍ يَجْمَعُهُمْ﴾ تغير لون النبي ﷺ.

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَذَّكَّرُ الَّذِينَ﴾، معناه: يتذكر عصيانه وطغيانه، وينظر ما فاته من العمل الصالح، ثم قال تعالى: ﴿وَأَنَّ لَهُ الذِّكْرَى﴾، أي: وأتسى له نفع الذكرى؟ ثم ذكر تعالى عنه أن يقول: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْحَيَاةُ﴾، واختلف في معنى قوله: ﴿الْحَيَاةُ﴾، فقال جمهور من المتأولين: معناه: لحياتي الباقية، يريد الآخرة، وقال قوم من المتأولين: المعنى: لحياتي في قبري عند بعثي الذي كنت أكذب به وأعتقد أنني لن أعود حياً، وقال «الحياتي» هنا مجازاً، أي: ليعتني قدمت عملاً صالحاً لأنعم به اليوم وأحيا حياة طيبة، فهذا كما يقول الإنسان: أخيني في هذا الأمر، وقال بعض المتأولين: المعنى: لوقت أو لمدة حياتي الماضية في الدنيا، وهذا كما تقول: جئت لطلوع الشمس، ولتاريخ كذا، ونحوه.

وقرأ جمهور القراء، وعلي بن أبي طالب، وابن عباس، وأبو عبد الرحمن: ﴿يَعْبُدُ﴾ و﴿يُؤْتِي﴾ بكسر الذال والشاء، وعلى هذه القراءة فالضمير في ﴿عَذَابُهُ﴾ و﴿وَنَاقَهُ﴾ لله تعالى، والمصدر مضاف إلى الفاعل، ولذلك معنيان:

أحدهما أن الله تعالى لا يكُلُّ عذاب الكفار يومئذ إلى أحد، والآخر أن عذابه من الشدة في حيز لم يعذب قطُّ أحدٌ بمثله في الدنيا، ويحتمل أن يكون الضمير للكفار، والمصدر مضاف إلى المفعول. وقرأ الكسائي، وابن سيرين، وابن أبي إسحق، وسواد القاضي: ﴿يُعَذَّبُ﴾ و﴿يُؤْتِي﴾ بفتح الذال والشاء، ورويت كثيراً عن النبي ﷺ، فالضميران - على هذا - للكافر الذي هو بمنزلة جنسه كله، والمصدر مضاف إلى المفعول، ووضع «عذاب» موضع «تعذيب»، كما قال:

وَتَعَذُّ عَطَائِكَ الْمَاءَةَ الرَّتَاعَا؟

ويحتمل أن يكون الضميران في هذه القراءة لله تعالى، كأنه سبحانه قال: لا يُعَذَّبُ أحدٌ قطُّ في الدنيا عذاب الله تعالى للكفار، فالمصدر مضاف إلى الفاعل، وفي هذا التأويل تحامل. وقرأ الخليل بن أحمد:

﴿وَنَاقَهُ﴾ بكسر الواو.

ولما فرغ ذكر هؤلاء المعديين عذب تعالى بذكر نفوس المؤمنين وحالهم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ﴾ الآية. و«الْمُطْمَئِنَّةُ» معناه: الموقنة غاية اليقين، ألا ترى أن إبراهيم عليه السلام قال: ﴿وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾؟ فهي درجة زائدة على الإيمان، وهي ألا يبقى على النفس في يقينها مطلب يُحرِّكها إلى تحصيله.

واختلف الناس في هذا النداء، متى يقع؟ فقال ابن زيد وغيره: هو عند خروج نفس المؤمن من جسده في الدنيا، ورُوي أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه سأل عن ذلك

رسول الله ﷺ فقال له: «إِنَّ الْمَلَكَ سيقولها لك يا أبا بكر عند موتك»، ومعنى ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ - على هذا التأويل -: ارجعي بالموت، وقوله تعالى: ﴿فِي عِبَادِي﴾ معناه: في عباد عبادي الصالحين، وهذه قراءة الجمهور، بجمع ﴿عِبَادِي﴾. وقيل: النداء عند قيام الأجساد من القبور، فقوله تعالى: ﴿أَرْجِعْ إِلَيَّ رَبِّكَ﴾ معناه: بالبعث من موتك ارجعي إلى الله تعالى، وقيل: «الرُّبُّ» هنا: الإنسان ذو النفس، أي: ادخلي في الأجساد، و«النفس» اسم جنس، وقال بعض العلماء: هذا النداء هو الآن للمؤمنين، كما ذكر الله تعالى حال الكافرين قال: يا مؤمنون دُومُوا وجرِّدُوا حتى ترجعوا راضين مَرْضِيَيْنَ، فالنفس - على هذا - اسم الجنس. وقرأ ابن عباس، وعكرمة، وأبو شيخ، والضحاك، واليماني، ومجاهد، وأبو جعفر: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي﴾، فالنفس - على هذا - ليست باسم الجنس، وإنما خاطب مفردة، قال أبو شيخ: الروح تدخل في البدن، وفي مصحف أبي بن كعب: ﴿يَا أَيُّهَا الْآيَةُ الْمُطْمَئِنَّةُ، الَّتِي إِلَى رَبِّكَ راضية مَرْضِيَّة، فازجمعي في عبادي﴾، وقرأ سالم بن عبدالله: ﴿فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَلِيَجِي جَنَّتِي﴾. وتحتمل قراءة «عبدي» أن يكون «العبد» اسم جنس، جعل عباده كالمشيء الواحد دلالة على الالتحام، كما قال عليه الصلاة والسلام: «وَهُمْ يَدُّ عَلَى مَنْ سِوَاهُمْ». وقال آخرون: هذا النداء إنما هو في الموقف عندما يُنطلق

بأهل النار إلى النار، فنداء النفوس - على هذا - إنما هو نداء أرباب النفوس مع النفوس. ومعنى ﴿أَرْجِيهِ﴾ إِيَّاكَ رَبِّكَ - على هذا -: إلى رحمة ربك، و«العبادة» هنا: الصالحون المتقون.

كامل تفسير سورة الفجر والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة البلد

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال قوم: هي مدنية. ﴿١﴾ - ﴿١١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿لَأُقْسِمُ﴾، وقرأ الجمهور: ﴿لَا أُقْسِمُ﴾ واختلفوا - فقال الزجاج وغيره: ﴿لَا﴾ صلة زائدة مؤكدة، واستأنف قوله تعالى: ﴿أُقْسِمُ﴾، وقال مجاهد: ﴿لَا﴾ ردٌ للكلام متقدم للكفار، ثم استأنف قوله تعالى: ﴿أُقْسِمُ﴾، وقال بعض المتأولين: ﴿لَا﴾ نفيٌ لِلْقَسَمِ بالبلد، أخبر الله تعالى أنه لا يُقْسِمُ به.

ولا خلاف بين المفسرين أن البلد المذكور هو مكة. واختلف في معنى قوله تعالى: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ - فقال ابن عباس وجماعة: معناه: وأنت حلال بهذا البلد يحلُّ لك فيه قتل من شئت، وكان هذا يوم فتح مكة، وعلى هذا يترتب قول من قال: السورة مدنية نزلت عام الفتح، ويتركب على هذا التأويل قول من

قال: ﴿لَا﴾ نافية، أي: إن هذا البلد لا يُقْسِمُ الله تعالى به، وقد جاء أهله بأعمال توجب إحلال حرمة، ويتجه أيضاً أن تكون ﴿لَا﴾ غير نافية. وقال بعض المتأولين: ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾ معناه: ساكِنٌ بهذا البلد، وعلى هذا يجيء قول من قال: هي مكية، والمعنى على إيجاب القسم بين، وعلى نفيه أيضاً يتجه على معنى: لا أقسم ببلد أنت ساكنه على أذى هؤلاء القوم وكفرهم. وذكر الثعلبي عن شرحبيل بن سعد أن معنى ﴿وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ﴾، أي: قد جعلوك حلالاً مُسْتَحْلَ الأذى والإخراج والقتل لك لو قدروا، وإعراب ﴿أَلْبَدُ﴾ عطف بيان.

وقوله تعالى: ﴿وَوَالِئِذَا مَا وَكَلَّدَ﴾ قسم مستأنف على قوله من قال: ﴿لَا﴾ نافية، ومعطوف على قول من قال: ﴿لَا﴾ نافية، واختلف الناس في معنى قوله سبحانه: ﴿وَوَالِئِذَا مَا وَكَلَّدَ﴾ - فقال مجاهد: هو آدم عليه السلام وجميع ولده، وقال بعض رواة التفسير: هو نوح عليه السلام وجميع ولده، وقال أبو عمران الجوني: هو إبراهيم عليه السلام وجميع ولده، وقال ابن عباس ما معناه: إن الوالد والولد هنا على العموم، فهي أسماء جنس يدخل فيها جميع الحيوان، وقال ابن عباس، وابن جببير، وعكرمة: ﴿وَوَالِئِذَا﴾ معناه: كلُّ من وُلِدَ وأنسل، وقوله: ﴿وَمَا وَكَلَّدَ﴾ لم يَبْقَ تحته إلا العاقر الذي ليس بوالد البتة. والقسم واقع على قوله تعالى:

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾، واختلف الناس في «الكبد» - فقال جمهور الناس: «الإنسان» اسم الجنس كُلُّه، والكبد: المشقة والمكابدة، أي: يكابد أمر الدنيا وأمر الآخرة، ومن ذلك قول لبيد: يا عينُ هلا بكينيت أزيد إذ قُمنَا وقام الخُصومُ في كَبَدٍ وقول ذي الإصبع:

لِي ابْنُ عَمٍّ لَوْ أَنَّ النَّاسَ فِي كَبَدٍ لَطَلَّ مُخْتَجِرًا بِالنَّبْلِ يَزْمِينِي وبالمشقة في أنواع أحوال الناس فسره الجمهور، وقال الحسن: لم يخلق الله تعالى خلقاً يكابد ما يكابد ابنُ آدم، وقال ابن عباس، وابن شداد، وأبو صالح، والضحاك، ومجاهد: ﴿فِي كَبَدٍ﴾ معناه: منتصب القامة واقفاً، وقال ابن زيد: «الإنسان» آدم عليه السلام، و«في كبد» معناه: في السماء، سَمَاهَا كَبَدًا، وهذان القولان قد ضَعُفَا، والقول الأول هو الصحيح.

ووزي أن سبب هذه الآية وما بعدها هو أبو الأَسْدَيْن، رجل من قريش شديد القوة، واسمه أسيد بن كلدة الجُمحي، كان يحسب أن أحداً لا يقدر عليه، ويقال: بل نزلت في عمرو بن عبد ود، ذكره النقاش، وهو الذي اقتحم الخندق بالمدينة، وقتله علي بن أبي طالب رضي الله عنه خلف الخندق، وقال مقاتل: نزلت في الحارث بن عامر بن نوفل، أذنب فاستفتى النبي عليه الصلاة والسلام فأمره بالكفارة، فقال: لقد أهلكت مالا في الكفارات والنفقات منذ تبعت محمداً، وكان

هو تَحْضِيضٌ بمعنى «فَأَلَا»، وقال آخرون: هو دعاءٌ بمعنى أنه يستحق أن يُدْعَى عليه بالألأ يفعل خيراً، وقيل: هو نفي، أي: فما اقتحم، وقاله أبو عبيدة، والزجاج، وهذا نحو قوله تعالى: ﴿فَلَا مَسَدَ لَكَ مَلَكٌ﴾، فهو نفي محض، كأنه تعالى قال: وهبنا له الجوارح وكذلك على السبيل فما فعل خيراً.

ثم عَظَّمَ تعالى أمر العقبة في النفوس بقوله سبحانه: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ﴾، ثم فسّر تعالى اقتحام العقبة بقوله عز وجل: ﴿فَلَكُ رَقَبَةٌ﴾، وذلك أن التقدير: وما أدراك ما اقتحام العقبة؟ هذا على قراءة من قرأ: ﴿فَمِ رَقَبَةٌ﴾ بالرفع على المصدر، وأما من قرأ: ﴿فَلَكُ﴾ على الفعل، ونُصِبَ «الرقبة» فليس يحتاج أن يُقَدَّر: «وما أدراك ما اقتحام» بل يكون التعظيم للعقبة نفسها، ويجيء ﴿فَلَكُ﴾ بدلاً من ﴿أَفْتَنَمَ﴾ ومِثْلُهُ له.

وقرأ نافع، وعاصم، وابن عامر، وحمرزة: ﴿فَلَكُ رَقَبَةٌ أَوْ إِبْطَامٌ﴾، وقرأ أبو عمرو: ﴿فَلَكُ رَقَبَةٌ أَوْ أَطْقَمَ﴾، وقرأ بعض التابعين: ﴿فَلَكُ رَقَبَةٌ﴾ بالخفض، وقرأ ابن كثير، والكسائي، وأبو عمرو أيضاً: ﴿فَلَكُ رَقَبَةٌ﴾ بالنصب ﴿أَوْ إِبْطَامٌ﴾، وترتيب هذه القراءات، ووجوهها بيّنة. و﴿فَلَكُ الرقبة﴾ معناه: باليعتق من رقبة الأُسْر والرق، وفي الحديث عن النبي ﷺ: «من أعتق نسمة مؤمنة أعتق الله بكل عضو منها عضواً من النار»، وقال أعرابي للنبي ﷺ: ذلني على عمل أنجوبه، فقال: «لئن

ثم عدّد تعالى على الإنسان نعمه التي بها تقوم الحجة، وهو جوارحه، وقرن تعالى الشفقتين باللسان لأن نعمة العبارة والكلام لا تصحُّ إلا بالجميع، وفي الحديث: «يقول الله تعالى: ابن آدم، إن نازعك لسانك إلى ما لا يحلُّ لك فقد أعتك عليه بشفتين فأطبق»، واختلف الناس في «التَّجْدِين» - فقال ابن مسعود، وابن عباس، والناس: طريق الخير وطريق الشر، أي: عرضنا عليه طريقهما، وليست الهداية هنا بمعنى الإرشاد، وقال ابن عباس أيضاً، والضحاك: التَّجْدَان: تَذْيَا الأُم، وهذا مثال، والتَّجْد: الطريق المرتفع، وأشدُّ الأصمعي: كَمَيْشُ الإزَارِ خارجٌ يَضْفُ ساقِهِ صَبُورٌ عَلَى الأَزْرَاءِ طَلَاغٌ أَن تُجُدَ ﴿١١﴾ - ﴿١٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

«العَقَبَةُ» في هذه الآية - على عُرف كلام العرب - استعارة لهذا العمل الشاق على النفس من حيث هو بذل مال، تشبيه بالعقبة من الجبل، وهي ما صعب منه وكان صعوداً، و﴿أَفْتَنَمَ﴾ معناه: دخلها وجاوزها بسرعة وضغط وشدة، وأما المفسرون فرأوا أن «العقبة» يراد بها جبل في جهنم لا يتنجس منه إلا هذه الأعمال ونحوها، قاله ابن عباس، وقتادة، وكعب. قال الحسن: العقبة جهنم، قال هو وقتادة: فاقْتَجَمُوهَا بطاعة الله تعالى، وفي الحديث: «إن اقتحامها للمؤمن كما بين صلاة العصر إلى العشاء».

واختلف الناس في قوله تعالى: ﴿فَلَا﴾ - فقال جمهور المفسرين:

كل واحد منهم قد ادّعى أنه أفنق مالا كثيراً على إفساد أمر النبي ﷺ، أو في الكفارات على ما تقدم، فوقف القرآن على جهة التوبيخ للمذكور، وعلى جهة التوبيخ لاسم الجنس كله.

و﴿يَقْدَرُ﴾ نُصِبَ بِهِ «لَنْ»، و﴿أَنْ﴾ مخففة من الثقيلة، وكان قول هذا الكافر ﴿أَهْلَكْتُ مَالاً لُبِداً﴾ كذباً منه؛ فلذلك قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾؟ أي: أنه زئبي وأخصي فعله، فما له يكذب، ومن قال: «إن المراد اسم الجنس غير معيّن مفرد» جعل قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدَرُ عَلَيْهِ أَحَدٌ﴾ بمعنى: أيطنُّ الإنسان أن ليس عليه حفظة يرون أعماله ويحصونها إلى يوم الجزاء؟ وقال النبي ﷺ: «لا تزول قدمها عبد يوم القيامة حتى يسأل عن هُمُرِهِ فيمَّ أفناه؟ وجسمه فيمَّ أبلاه؟ وعن ماله، من أين اكتسبه؟ وأين أنفقه».

واختلف القراء في قوله: ﴿لُبِداً﴾ - فقرأ جمهور الناس: ﴿لُبِداً﴾ بضم اللام وفتح الباء، وقرأ مجاهد: ﴿لُبِداً﴾ بضمهما، وذلك جمع «لُبْدَة» أو جمع «لبود» بفتح اللام، وقرأ أبو جعفر يزيد: ﴿لُبِداً﴾ بضم اللام وفتح الباء وشدها، فيكون مفرداً نحو «رُئِلَ»، ويكون جمع «لابد»، وقد روي عن أبي جعفر: ﴿لُبِداً﴾ بسكون الباء، والمعنى في هذه القراءات كلها: مالا كثيراً ملتبداً بعضه فوق بعض من التكاثر والكثرة، وقرأ الحسن: ﴿لَمْ يَزِدْ﴾ بسكون الراء لتوالي الحركات.

قصرت القول لقد عرضت المسألة، فُكُ الرقبة وأغيتي النسمة، فقال الأعرابي: أليس هذا واحداً؟ فقال النبي ﷺ: «لا، جئت النسمة أن تنفرد بعثتها، وفكُ الرقبة أن تُعين في ثمنها».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وكذلك فك الأسير إن شاء الله تعالى وفداؤه أن ينفرد الفادي. ثم قال النبي ﷺ للأعرابي: «وأنت علي ذي الرِّجْمِ الظالم، فإن لم تُطق هذا كله فكف لسانك إلا من خير».

و «المسغبة»: المجاعة، والساغب: الجائع، وقرأ جمهور الناس: «ذِي مَسْغَبَةٍ» على نعت «يَوْمٍ»، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه، والحسن، وأبو رجاء: «ذَا مَسْغَبَةٍ» على أن يعمل في [أطعم] أو [إطعام] على القراءتين المذكورتين، وفي هذا حذف الموصوف وإقامة الصفة مقامه؛ لأن التقدير: إنساناً ذا مسغبة، و«يَمِينًا» بدل على هذه القراءة، ويصح أن يكون صفة لقوله تعالى: «ذِي مَسْغَبَةٍ»، ووصفت الصفة لما قامت مقام موصوفها المحذوف فأشبهت الأسماء، و«المسغبة» الجوع العام، وقد يقال في الخاص: سَغِبَ الرَّجُلُ إذا جاع.

وقوله تعالى: «ذَا مَرَّةٍ» معناه: ذا قرابة، لتجتمع الصدقة والصلة، وهذا نحو ما قال رسول الله ﷺ: لزینب امرأة عبدالله بن مسعود: «تصدقي على زوجك فهي لك صدقة وصلة»، و«أَذٍ» في قوله تعالى: «أَذٍ مَشْكِيكًا» فيها معنى الإباحة

ومعنى التخيير؛ لأن الكلام يتضمن معنى الحفض والأمر، وفيها أيضاً معنى التفصيل المجرد؛ لأن الكلام يجري مجرى الخبر الذي لا تكون «أو» فيه إلا مفضلة، وأما معنى الشك والإبهام فلا مدخل لهما في هذه الآية، والإبهام نحو قوله تعالى: «وَرِثًا أَوْ يَبَاكُمُ»، وقول أبي الأسود:

أَجِبْ مُحَمَّدًا حُبًّا شَدِيدًا
وَعَبَّاسًا وَحِمَزَةً أَوْ عَلِيًّا
و«ذَا مَرَّةٍ» معناه: مدقماً قد لصق بالتراب، وهذا مما ينحو إلى أن المسكين أشد فاقة من الفقير، قال سفيان: هم المطرحون على ظهر الطريق قعوداً على التراب لا بيوت لهم، وقال ابن عباس: هو الذي يخرج من بيته ثم يقبل وجهه إلى بيته مستيقناً أنه ليس فيه إلا التراب.

وقوله تعالى: «ثُرٌّ كَانٌ» معطوف على قوله تعالى: «أَفْتَنَهُمُ»، ويتوجه فيه معاني «فَلَا أَفْتَنَهُمُ» المذكورة من النفي والتحضيض والدعاء، ورجح أبو عمرو بن العلاء قراءة: «فَكُ رَقَبَةٌ» بقوله تعالى: «ثُرٌّ كَانٌ»، ومعنى «ثُرٌّ كَانٌ» أي: كان وقت اقتحامه للمعقبة من الذين آمنوا، وليس المعنى أنه يقتحم ثم يكون بعد ذلك؛ لأن الاقتحام كان يقع من غير مؤمن، وذلك غير نافع.

وقوله تعالى: «وَتَوَّاصُوا بِالصِّرَاطِ» معناه: على طاعة الله تعالى وبلائه وقضائه، عن الشهوات والمعاصي. و«الْمَرْحَمَةُ» قال ابن عباس رضي الله عنهما: كل ما يؤدي إلى

رحمة الله تعالى، وقال آخرون: هو التراحم وعطف بعض الناس على بعض، وفي ذلك قوام الناس، ولو لم يتراحموا هلكوا.

و «الْمُنْمِنَةُ» مفعلة، وهي - فيما روي - عن يمين العرش، وهو موضع الجنة ومكان المحرومين من الناس، و«الْمُشَامَةُ» الجانب الأمام، وهو الأيسر، وفيه جهنم، وهو طريق المعذبين، يؤخذ بهم ذات الشمال، وهذا مأخوذ من اليمن والشام للواقف بباب الكعبة متوجهاً إلى مطلع الشمس، واليد الشؤمي هي اليسرى، وذهب الزجاج وقوم إلى أن ذلك مأخوذ من اليمن والشؤم.

وقرأ ابن كثير، وابن عامر، ونافع، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم: «مُوصِدَةٌ»، على وزن «مُوعِدَةٌ»، وكذلك في سورة (الهمزة) وقرأ أبو عمرو، وحمزة، وحفص عن عاصم بالهمز في السورتين، ومعناهما جميعاً: مُطَبَّقَةٌ مغلقة، يقال: «أَوْصَدْتُ وَأَوْصَدْتُ» بمعنى: أطبقت وأغلقت، فمُوصِدَةٌ - دون همز - من «أَوْصَدْتُ»، وقد يحتمل أن يهمز من يراها من «أَوْصَدْتُ» من حيث قيل: الروا حرف مضموم على لغة من قرأ: «بِالسُّوقِ»، ومنه قول الشاعر:

لَحَبِّ السُّوقِ قَدَانِ إِلَيَّ مُؤَسَّى

بالهمز فيهما. و«مُوصِدَةٌ» من «أَوْصَدْتُ»، ويحتمل أن يسهل الهمزة فيجزيء «مُوصِدَةٌ» من «أَوْصَدْتُ»، ومن اللفظة «الوصيد»، وقال الشاعر:

يقتضيه، قاله الزجاج، وجلى معناه: كشف وضوًا، والفاعل لـ «جلى» - على هذه التأويلات - النهار، ويحتمل أن يكون الفاعل الله تعالى، كأنه قال: والنهار إذا جلى الله الشمس، فأقسم بالنهار في أكمل حالاته. و«نغشى» معناه: يغطي، والضمير للشمس على تجوُّز في المعنى، أو للأرض.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا بَنَّا﴾ وكل ما بعده من نظائره في السورة يحتمل أن تكون [ما] فيه بمعنى «الذي»، قاله أبو عبيدة، أي: ومن بناها، وهو قول الحسن ومجاهد؛ لأن «ما» تقع عامة لمن يعقل ولما لا يعقل، فيجئ القسم بنفسه تعالى، ويحتمل أن تكون [ما] في جميع ذلك مصدرية، قاله قتادة، والمبرد، والزجاج، كأنه تعالى قال: والسماء وبنيانها.

و«طحا» بمعنى «دحا»، و«طحا» أيضاً في اللغة بمعنى: ذهب كل مذهب، ومنه قول علقمة بن عبدة:

طحا بك قلب في الجسان طرُوب
بُعَيْدُ الشَّبَابِ عَضْرَ حَانَ مَشِيْبِ
و«النفس» التي أقسم الله بها اسم الجنس، و«تسويتها» إكمال عقلها ونظرها، ولذلك ربط الكلام بقوله تعالى: ﴿فَأَلَمْنَا جُورَهَا﴾... الآية، فالفاء تعطي أن التسوية هي هذا الإلهام، ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَلَمْنَا جُورَهَا﴾ أي: عرَّفها طُرُق ذلك، وجعل لها قوة يصحُّ معها

تعالى في «طه»: ﴿وَلَا تَصْنَعُ﴾، و«الضحاء» -

بفتح الضاد والمد: ما فوق ذلك إلى الزوال.

والقمر يتلو الشمس من أول الشهر إلى نصفه في الغروب، تغرب هي ثم يغرب هو، ويتلوها في النصف الآخر بنحو آخر، وهو أن تغرب هي فيطلع هو.

وقال الحسن بن أبي الحسن: ﴿لنَّهَا﴾: تبعها دأباً في كل وقت؛ لأنه يستضئ منها فهو يتلوها لذلك.

قال القاضي أبو محمد

رحمه الله: فهذا اتباع لا يختص بنصف أول من الشهر ولا بأخر، وقاله الفراء أيضاً: وقال الزجاج وغيره: ﴿لنَّهَا﴾ معناه: امتلاً واستدار فكان لها تابعاً في المنزلة من الضياء والقدر؛ لأنه ليس في الكواكب شيء يتلو الشمس في هذا المعنى غير القمر، قال قتادة: إنما ذلك ليلة البدر، تغيب هي فيطلع هو.

و«النَّهَارُ» في ظاهر هذه السورة والتي بعدها أنه من طلوع الشمس، وكذلك قال الزجاج في كتاب الأنواء وغيره. واليوم من طلوع الفجر، ولا يختلف أن نهايتهما مغيب الشمس، والضمير في ﴿جَلَّىهَا﴾ يحتمل أن يعود على الشمس، ويحتمل أن يعود على الأرض وعلى الظلمة، وإن كان لم يجيء لذلك ذكر فالمعنى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا ۝ وَالْقَمَرِ إِذَا لِلَّهِ ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّى ۝ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالسَّمَاءَ وَمَا بَنَّا ۝ وَالْأَرْضَ وَمَا طَحَّا ۝ وَالنَّفْسَ وَمَا سَوَّيْنَا ۝ فَأَلَمْنَا جُورَهَا وَتَقَوَّيْنَا ۝ قَدْ أَفْلَحَ مَنْ رَكَّبَهَا ۝ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّهَا ۝ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَيْهَا ۝ إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَبَوْهُ فَغَوَّوْهُمَا فَكُفِّرُوا بَعَدُهَا ۝ وَكَلِمَاتُ اللَّهِ يَتْلُوهَا بَدْرَ حَمِيمٍ ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا ۝

سُورَةُ الشُّمُسِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ۝ وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّى ۝ وَمَا خَلَقَ الذُّكْرَ وَالْأُنثَى ۝ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَى ۝ فَأَمَّا مَنْ أَطْعَمَ وَأَقْرَبَ ۝ وَرَصَدَ بِالْحَسَنِ ۝ فَسْتَبْرَأَ لِلْغَيْبِ ۝ وَأَمَّا مَنْ يَحْتَلِ وَأَسْتَفَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحَسَنِ ۝ فَسْتَبْرَأَ لِلْغَيْبِ ۝ وَمَا يَنْصُرُهُ عِنْدَ مَا لَهُ إِذْ تَرَدَّى ۝ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى ۝ وَإِنَّ لَنَا الْآخِرَةَ وَالْأُولَى ۝ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ۝

٥٩٥

قَرَأَ مَا يُعَالِجُ قَمَلًا أَبْنَاءُؤُهُمْ
وَسَلَايَلًا حَلْفًا وَبَابًا مُؤْصَدًا
كامل تفسير سورة البلد والحمد لله
رب العالمين

تفسير سورة الشمس

وهي مكية.

١ - ١٥ تفسير قوله عز وجل:

أقسم الله تعالى بالشمس، إما على التنبيه منها وإما على تقدير: ورب الشمس، و«الضحى» - بضم الضاد والقصر -: ارتفاع الضوء وكماله، وبهذا فسر مجاهد، وقال قتادة: هو النهار كله، وقال مقاتل: ضحاها: حرُّها، كقوله

اكتساب الفجور واكتساب التقوى، وجواب القَسَم في قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ﴾، والتقدير: لقد أفلح، والفاعل بـ «زكّي» يحتمل أن يكون هو الله تعالى، وقاله ابن عباس وغيره، كأنه تعالى قال: قد أفلحت الفرقة أو الطائفة التي زكاها الله تعالى، و﴿مَنْ﴾ تقع على جمع أو أفراد، ويحتمل أن يكون الفاعل بـ «زكّي» الإنسان وعليه تقع ﴿مَنْ﴾، وقاله الحسن وغيره، كأنه تعالى قال: قد أفلح من زكّي نفسه، أي: اكتسب الزكاة التي قد خلقها الله تعالى له، و﴿زَكَّيْنَهَا﴾ معناه: طهرها ونمّأها بالخيرات، و﴿دَسَّيْنَهَا﴾ معناه: أخفاها وحقّرها، أي: حقّرها بالمعاصي والبخل بما يحب، يقال: دَسَا يَدْسُرُ ودَسًا - بشد السّين - يُدْسِي، وأصله دَسَسَ، ومنه قول الشاعر:

وَدَسَسْتُ عَمْرًا فِي الثَّرَابِ فَأَصْبَحَتْ
حَلَابِلُهُ يَبْكِينَ لِلْفَقْدِ ضَعْفًا
وروي أن النبي ﷺ كان إذا قرأ هذه الآية قال: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكّها أنت وليها ومولاها»، وهذا الحديث يُقَوِّي أن المزكّي هو الله تعالى، وقال ثعلب: معنى الآية: وقد خاب من دسّاه في أهل الخير بالرياء وليس منهم في حقيقته.

ولما ذكر الله تعالى صفة من دسّى نفسه ذكر فرقة فعلت ذلك ليُعتبر بهم ويُتَّهَى عن مثل فعلهم، و«الطّفوي» مصدر، وقرأ الحسن،

وحمّاد بن سلمة: ﴿يَطْفُوَاهَا﴾ بضم الطاء، مصدر كالعُقْبَى والرُّجْعَى، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «الطّفوي» هنا: العذاب، كذبوا به حتى نزل بهم، ويؤيد هذا التأويل قوله تعالى: ﴿فَأَنَّا نُمُوذُ فَمَلَكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾، وقال جمهور المتأولين: الباء سيئة، والمعنى: كذبت نموذُ نبيّها بسبب طغيانها وكفرها. و﴿أَبَعَتْ﴾ عبارة عن خروجه إلى عقر الناقة بنشاط وحرص، و﴿أَشْفَنَهَا﴾ هو قُدار بن سالف، وهو أحد التسعة الرهط المفسدين، ويحتمل أن يقع ﴿أَشْفَنَهَا﴾ على جماعة حاولت العقر، ويروى أنه لم يفعل فعله بالناقة حتى ملأه على ذلك جميع الحي، فلذلك قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ لكونهم متفقين على ذلك.

و«رسول الله»: صالح عليه السلام، وقوله تعالى: ﴿نَاقَةُ اللَّهِ وَسَيِّئَهَا﴾ نُصِبَ بفعل مضمر تقديره: احفظوا أو ذرّوا أو اخذروا، على معنى: اخذروا الإخلال بحق ذلك، وقد تقدم أمر الناقة والسقيّا في غير هذه السورة بما أغنى عن إعادته، وقد تقدّم التّكذيب على العقر لأنه كان سبب العقر، ويروى أنهم كانوا قد أسلموا قبل ذلك وتابَعوا صالحاً عليه السلام مدة ثم كذبوا وعقروا، والجمهور من المفسرين على أنهم كانوا على كفرهم. و﴿فَدَمَمَكُمْ﴾ معناه: أنزل العذاب مُفْلِقاً لهم مُكْرَراً ذلك، وهي

الدّمّمة، وفي بعض المصاحف ﴿فَدَهَمَكُمْ﴾، وهي قراءة ابن الزبير بالهاء بين الدالين، وفي بعضها ﴿فَدَمَّرَكُمْ﴾، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿فَدَمَمَهَا عَلَيْهِمْ﴾. وقوله تعالى: ﴿يَذُرِّيهِمْ﴾ أي: بسبب ذنبهم، وقوله تعالى: ﴿نَسَوْنَهَا﴾ معناه: نسوّى القبيلة في الهلاك، لم يُنَجَّ منهم أحداً.

وقرأ نافع، وابن عامر، والأعرج، وأهل الحجاز، وأبي بن كعب ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالفاء، وكذلك في مصاحف أهل المدينة والشام، وقرأ الباقون: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالسوا، وكذلك في مصاحفهم، وروي عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿وَلَمْ يَخَفْ عُقْبَاهَا﴾، والفاعل بـ [يخاف] على من قرأ: ﴿فَلَا يَخَافُ﴾ بالفاء يحتمل أن يكون الله تعالى، والمعنى: فلا ذرّك على الله تعالى في فعله بهم، ولا يُسأل عما يفعل، وهذا قول ابن عباس والحسن، وفي هذا المعنى احتقار للقوم وتعفية لأثرهم، ويحتمل أن يكون صالحاً عليه السلام، أي: لا يخاف عقبي الله تعالى بهذه الفعله بهم؛ إذ قد كان أنذرهم وحذّهم، ومن قرأ: ﴿وَلَا يَخَافُ﴾ بالواو فيحتمل الوجهين اللذين ذكرنا، ويحتمل زائداً أن يكون الفاعل بـ [يخاف] أشقاها المُتَّبِعُ، قاله الزجاج وأبو علي، وهو قول السّدي والضحاك ومقاتل، وتكون الواو واو الحال، كأنه تعالى قال: انبعث لعقرها وهو لا يخاف عقبي فعله لكفره

على أن التقدير: وما خلق الله، وقراءة علي رضي الله عنه: ﴿وَمِنْ ذِكْرٍ﴾ تشهد لهذه، وقال الحسن: المراد هنا بالذكر والأنثى آدم وحواء عليهما السلام، وقال غيره: هو عام.

و «السَّغْيُ»: العمل، فأخبر تعالى مقسماً أن أعمال العباد شئى، أي: مفترقة جداً، وبعضها في رضي الله تعالى، وبعضها في سخطه. ثم قسم تعالى الساعين، فذكر أن من أعطى - وظاهر ذلك إعطاء المال، وهي أيضاً تناول إعطاء الحق في كل شيء، قول أو فعل، وكذلك البخل المذكور بعد - يكون الإيمان وغيره من الأقوال التي حق الشريعة ألا يُبخل بها.

ويروى أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وذلك أنه كان يعتق ضعفة العبيد الذين أسلموا، وكان ينفق في رضي رسول الله ﷺ ماله، وكان الكفار يخذ ذلك، وهذا قول من قال إن السورة كلها مكية، قال عبدالله بن أبي أوفى: هذه السورة في أبي بكر الصديق رضي الله عنه وأبي سفيان بن حرب، وقال مقاتل: مر أبو بكر رضي الله عنه على أبي سفيان وهو يعدب بلالاً، فاشتراه منه، وقال السدي: نزلت هذه الآية بسبب أبي الدُّخْداح الأنصاري رضي الله عنه، وذلك أن نخلة لبعض المنافقين كانت مُطلَّة على دار امرأة من المسلمين لها أيتام، فكان الثمر يسقط عليهم فأكلونه فمنعهم المنافق من ذلك، واشتد عليهم،

تفسير سورة الليل

وهي مكية في قول الجمهور، وقال المهدي: وقيل: هي مدنية، وقيل: فيها مدني، وعددها عشرون آية بإجماع. ﴿١﴾ - ﴿٢١﴾ تفسير قوله عز وجل:

أقسم الله تعالى بالليل إذا غشى الأرض وجميع ما فيها، وبالنهار إذا تجلَّى أي: ظهر وضواً الأفاق، ومنه قول الشاعر:

تجلَّى السرى من وجهه عن صبيحة
على السَّيرِ مشراقٍ كريمٍ شجُونها
وقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ ﴿١﴾ يحتمل أن تكون [ما] بمعنى «الذي» كما قالت العرب: «سبحان ما سبَّح الرعد بحمده»، وقال أبو عمرو وأهل مكة: يقولون للرعد: «سبحان ما سبَّحت له»، ويحتمل أن تكون [ما] مصدرية، وهو مذهب الزجاج. وقرأ جمهور الصحابة: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ﴾ وقرأ علي بن أبي طالب، وابن عباس، وعبدالله بن مسعود، وأبو الدُّرداء - وسمعا من النبي ﷺ - وعلقمة، وأصحاب عبدالله: ﴿وَالذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾، وسقط عندهم ﴿وَمَا خَلَقَ﴾، وذكر الثعلبي أن من السلف من قرأ: ﴿وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى﴾ بخفض [الذَّكَرَ] على البدل من [ما]،

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

لَا يَصْلَعْنَهَا إِلَّا الْأُنثَى ﴿١﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿٢﴾ وَسَيَّجَنَّبَهَا
الْأُنثَى ﴿٣﴾ الَّذِي يُوقِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿٤﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ
تَعْمُرٍ تَجْرَى ﴿٥﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٦﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٧﴾

سُورَةُ اللَّيْلِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّشْحَ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعْنَا عَنكَ وَرَدَكَ ﴿٢﴾ الَّذِي
أَنْقَضَ ظَهْرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴿٤﴾ إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ ﴿٥﴾ إِنْ
مَعَ الْعُسْرِ يُسْرٌ ﴿٦﴾ فَإِذَا فُرْغَتْ فَأُنْصَبُ ﴿٧﴾ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَب ﴿٨﴾

٥٩٦

وطغيانه، و«العُغْبَى»: جزاء الشيء وخاتمته وما يجيء من الأمور بعقبه.

واختلف القراءة في أَلْفَاتِ هذه السورة والألَّتَيْن بعدها، ففتحها ابن كثير، وعاصم، وابن عامر، وقرأ الكسائي ذلك كله بالإضجاع، وقرأ نافع الكل بين الفتح والإمالة، وقرأ حمزة: ﴿وَضَحَّهَا﴾ مكسورة، و﴿لَلَّهَا﴾ و﴿لَحَّهَا﴾ مفتوحتين، وكسر ما عدا ذلك، واختلف عن أبي عمرو، فمرة كسر الجميع، ومرة كقراءة نافع، قال الزجاج: سمى الناس الإمالة كسراً وليس بكسر صحيح، والخليل وأبو عمرو يقولان: إمالة.

كامل تفسير سورة الشمس والحمد لله رب العالمين

فقال رسول الله ﷺ: بغنيها بنخلة في الجنة، فقال: لا أفعل، فبلغ ذلك أبا الدحداح، فذهب إليه واشترى منه النخلة بحائط له، وجاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أنا أشترى النخلة التي في الجنة بهذه، ففعل ذلك رسول الله ﷺ، فكان رسول الله ﷺ يمرُّ على ذلك الحائط الذي أعطى أبو الدحداح، وقد تعلقت أفتاؤه ويقول: وكم قفو تعلق لأبي الدحداح في الجنة، وفي البخاري أن هذا اللفظ كان رسول الله ﷺ يقول في الأفتاء التي كان أبو الدحداح يُعلقها في المسجد صدقة، وهذا كله قول من يقول: بعض السورة مدني.

واختلف الناس في «الحسنى» في هذه السورة - فقال أبو عبد الرحمن السلمي وغيره: هي لا إله إلا الله، وقال ابن عباس، وعكرمة، وجماعة هي الخلف الذي وعد الله به، وذلك نص في حديث الملكين، إذ يقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً. وقال مجاهد، والحسن، وجماعة: الحسنى: الجنة، وقال كثير من المتأولين: الحسنى: الأجر والثواب مجملًا.

وقوله تعالى: ﴿مَسِيرًا لَيْسَرًا﴾ ﴿١٠﴾
معناه: سيظهر تيسرنا بما يتدرج فيه من أعمال الخير، وحتم تيسيره قد كان في علم الله تعالى أزلاً، و«اليسرى»: الحال الحسنة المرضية في الدنيا والآخرة، و«العسرى»: الحال السيئة في الدنيا والآخرة ولا بُد، ومن جعل ﴿يَجَلَّ﴾ في المال

خاصة جعل ﴿رَأْسَتَيْ﴾ في المال أيضاً لتعظم المذمة، ومن جعل ﴿يَجَلَّ﴾ عائماً في جميع ما ينبغي أن نبذل من قول وفعل قال: «استغنى» عن الله تعالى ورحمته بزعمه. ثم وقف تعالى على موضع غناء ماله عنه وقت تزديه، وهذا يدل على أن الإعطاء والبخل المذكورين إنما هما في المال.

واختلف الناس في معنى ﴿رَدَى﴾ - فقال قتادة وأبو صالح: معناه: تردى في جهنم، أي: سقط من حافاتهما، وقال مجاهد: ﴿رَدَى﴾ معناه: هلك من الردى، وقال قوم: معناه: تردى بأكفانه من الرداء، ومنه قول مالك بن الريب:

وخطاً بأطراف الأسيئة مضجعي
ورداً على عيني فضل ردايتيا
ومنه قول الآخر:

نصيبك مما تخمخم الدهر كده
رداء إن تلوى فيهما وحنوط
ثم أخبر تعالى أن عليه هدى الناس جميعاً، أي: تعريفهم بالسبل كلها، ومنحهم الإدراك، كما قال تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَصَدُّ الْكَسْبِ﴾، ثم كل أحد بعد ذلك يتكسب ما قدر له، وليست هذه الهداية بالإرشاد إلى الإيمان، ولو كان ذلك لم يوجد كافر. ثم أخبر تعالى أن له الآخرة والأولى أي: الدارين.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنْذَرْنَاكَ نَارًا تَلْقَى﴾ ﴿١١﴾
إمّا مخاطبة منه سبحانه، وإمّا على معنى: قل لهم يا محمد، وقرأ جمهور السبعة: ﴿نُورًا﴾ بتخفيف التاء، وقرأ الزبي عن ابن كثير بشد التاء وإدغام الراء فيها، وقرأها كذلك

عبيد بن عمير، وزوي عنه أيضاً: ﴿تَلْقَى﴾ بناءً، وكذلك قرأ ابن الزبير وطلحة.

قوله تعالى: ﴿لَا يَسَلَهَا إِلَّا الْآتِقَى﴾ ﴿١٢﴾، أي: لا يضلها ضليخ خلود، ومن هنا ضلّت المرجئة لأنها أخذت نفي الضلي مطلقاً في قلبه وكثيره. و«الآتقى» هنا: الكافر؛ بدليل قوله تعالى: ﴿الَّذِي كَذَّبَ﴾، والعرب تجعل «أفعل» في موضع «فاعل» مبالغة، كما قال طرفة:

تمتئى رجالاً أن أموت وإن أمت
فتلك سبيل لست فيها بأزحد
ولم يختلف أهل التأويل أن المراد بـ «الآتقى» إلى آخر السورة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ثم هي تتناول كل من دخل في هذه الصفات. وقوله تعالى: ﴿يَتَزَكَّى﴾ معناه: يتطهر ويتنمى، وظاهر هذا الإتيان أنه في المندوبات، وقوله تعالى: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدُكَ﴾ الآية... معناه: وليس إعطاؤه ليجزى نعماً قد أنزلت إليه، بل هو مبتدئ ابتغاء وجه الله تعالى.

وزوي في سبب هذا أن قريشاً قالوا - لما أعتق أبو بكر رضي الله عنه - بلالاً: كانت لبلال يدٌ عنده، وذهب الطبري إلى أن المعنى: وليس يُعطي لئيباً نعماً يُجزى بها يوماً وينتظر ثوابها، وحوّم في هذا المعنى وحلّق بتطويل غير مُغن، ويتّجه المعنى الذي أراد بأنيسر من قوله، وذلك أن يكون التقدير: وما لأحد عنده إعطاء ليقع عليه من ذلك الأحد جزاءً بعد، بل هو لمجرد ثواب الله تعالى وجزائه.

وقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَيْتَاكَ﴾ نصب بالاستثناء المنقطع، وفيه نظر، والابتغاء: الطلب، ثم وعده تعالى بالرُّضَا في الآخرة، وهذه عدَّةٌ لأبي بكر رضي الله عنه. وقرئ: ﴿يُؤْرَضِي﴾ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول، وهذه الآية تشبه الرُّضَا في قوله تعالى: ﴿أَرْجِيْ لَكَ رَبِّكَ رَاضِيَةً رَّهِيَّةً﴾.

كامل تفسير سورة الليل والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الضحى

وهي مكية، لا خلاف في الرواة. (١) - (٢) تفسير قوله عز وجل: تقدم تفسير «الضحى» بأنه سطوع الضوء وعظمه، وقال قتادة: الضحى هنا النهار كله، و«سجى» معناه: سكن واستقر ليلاً تاماً، وقال بعض المفسرين: «سجى» معناه: أقبل، وقال آخرون: معناه: أدير، والأول أصح، ومنه قول الشاعر:

يا حَبِذَا الْقَمْرَاءُ وَاللَّيْلُ السَّاجِ
وَطَرْقٌ مِّثْلُ مَلَاءِ السُّسَاغِ
ويقال: «بحر ساج» أي ساكن، ومنه قول الأعشى:

وما ذُبُنَا أَنْ جَاشَ بَحْرُ ابْنِ عَمِّكُمْ
وَبَحْرُكَ سَاجٌ لَا يُوَارِي الدُّعَامِصَا
و«طرّف ساج» إذا كان ساكناً غير مضطرب النظر.

وقرأ جمهور الناس: ﴿وَدَعَاكَ﴾ بشد الدال، من التوديع، وقرأ عروة بن الزبير وابنه هشام: ﴿وَدَعَكَ﴾ بتخفيف الدال، بمعنى تركك. و«قن» معناه: أبغض.

واختلف في سبب هذه الآية - فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أبطأ الوحي مُدَّةً عن رسول الله ﷺ وهو بمكة اختلفت في حدها الروايات حتى شق ذلك عليه، فجاءت امرأة من الكفار - وهي أم جميل امرأة أبي لهب - فقالت: يا محمد، ما أرى شيطانك إلا قد تركك، فنزلت الآية بسبب ذلك.

وقال ابن وهب عن رجاله عن عروة بن الزبير أن خديجة رضي الله عنها قالت: ما أرى الله إلا قد خلاك لإفراط جزعك ليُطِءَ الوحي عنك، فنزلت الآية بسبب ذلك، وقال زيد بن أسلم: إنما احتبس عنه جبريل لجزو كان في بيته.

وقوله تعالى: ﴿وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى﴾ يحتمل أن يريد الدارين: الدنيا والآخرة، وهذا تأويل ابن إسحق وغيره، ويحتمل أن يريد حاله في الدنيا قبل نزول السورة وبعدها، فوعده الله تعالى - على هذا التأويل - بالنصر والظهور، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَكَسَوْفَ يَمْطِئُكَ رَبُّكَ فَرَجًا﴾، قال جمهور الناس: ذلك في الآخرة، وقال بعض أهل البيت: هذه أزرى آية في القرآن؛ لأن رسول الله ﷺ لا يرضى وواحد من أمته في النار، وقال ابن عباس: رضاه ألا يدخل أحد من أهل بيته

النار، وقال ابن عباس أيضاً: رضاه أن الله تعالى وعده بألف قصر في الجنة بما تحتاج إليه من النعم والخدم، وقال بعض العلماء: رضاه في الدنيا بفتح مكة وغيره، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَلَسَيُنْغِطُكَ﴾.

ثم وقفه تعالى على المراتب التي درج فيها بإنعامه عليه فقال: ﴿أَلَمْ يَجِدَكَ يَتِيماً فَتَرَوَى﴾، والمعنى: ألم يجدك تحفياً الله وإنعامه، ويثمه كان فقد أبيه وكونه في كف عمه أبي طالب، وقيل لجعفر بن محمد الصادق: لم يتم النبي ﷺ من أبويه؟ قال: لئلا يكون عليه حقٌ لمخلوق. وقرأ الأشهب العقيلي: ﴿فَأَوَى﴾ بالقصر بمعنى: رحم، يقال: أوى فلان، أي: رحمته. وقوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾ أي: وجدك إنعامه بالثبوة والرّسالة على غير الطريق التي أنت عليها في نبوتك، فهدى، هذا قول الحسن والضحاك وفرقة.

و«الضلال» مختلف، فمنه البعيد ومنه القريب، فالبعيد ضلال الكفار الذين يعبدون الأصنام، ويحتجون لذلك ويغتبطون به، وكان هذا الضلال الذي ذكره الله تعالى لنبية ﷺ أقرب ضلال، وهو الكون واقعاً لا يُمَيِّزُ المَنَهِجَ، لا لأنه تمسك بطريق آخر، بل كان يرتاد وينظر. وقال السدي: أقام على أمر قومه أربعين سنة، وقيل: معنى ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا﴾: تُنسب إلى الضلال، وقال الكلبي: وجدك في قوم ضلال، فكانك واحد منهم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله:

ورسول الله ﷺ لم يعبد صنماً قط، ولكنه أكل ذبائحهم حسب حديث زيد بن عمرو في أسفل بلدح، وجرى على من يسير من أمرهم، وهو مع ذلك ينظر خطأ ما هم عليه، ودفع من عرفات وخالفهم في أشياء، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو ضلاله وهو صغير في شعاب مكة، ثم رده الله تعالى إلى جده عبدالمطلب، وقيل: هو ضلاله من حليلة مرضعته، وقال الترمذي، وعبدالعزیز بن يحيى: ﴿صَالًا﴾: خامل الذكر لا يعرفك الناس، فهداهم إليك ربك، والصواب أنه ضلال من توقف لا يدري، كما قال عز وجل: ﴿مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكُتُبُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾. وقال ثعلب: هو تزويجه عليه السلام بنته في الجاهلية، ونحو ذلك.

و «العائل»: الفقير، وقرأ اليماني: ﴿عَيْلًا﴾ بشد الياء المكسورة، ومنه قول الشاعر:

وما يذري الفقير متى غناه
وما يذري الغني متى يعيل
وأعال: كثر عياله، وعال: افتقر، ومنه قول الله عز وجل: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَكُمُ﴾، وقوله تعالى: ﴿فَأَغْنِي﴾، قال مقاتل: معناه: رزأك بما أعطاك من الرزق، وقيل: فقيراً إليه فأغناك به، والجمهور على أنه فقر المال وغناه، والمعنى في النبي ﷺ أنه أغنى الأغنياء بالصبر والقناعة، وقد حُبباً إليه، وقيل: أغني بالكفاف لتصرفه في مال خديجة رضي الله عنها، ولم يكن النبي ﷺ قط كثير المال، رفعه الله

عن ذلك، وقال: «ليس الغنى عن كثرة العرض، ولكن الغنى غنى النفس».

ولما عدد الله تعالى عليه هذه النعم الثلاث وصاه بثلاث وصايا، في كل نعمة وصية مناسبة لها، فإزاء قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى﴾ وقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾، وإزاء قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾، هذا على قول من قال: إن السائل هنا هو السائل عن العلم والدين، وليس بسائل المال، وهو قول الحسن وأبي الدرداء وغيرهما، وإزاء قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾ وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَتِيمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾، وأما من قال إن السائل سائل المال المحتاج، وهو قول الفراء وجماعة فقد جعلها إياها قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى﴾، وجعل قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا يَتِيمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ إياها قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى﴾.

وقال إبراهيم بن أدهم: نعم القوم السؤال، يحملون زادنا إلى الآخرة. وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَنْهَرْ﴾ معناه: رُدْ رداً جميلاً، إما بعبطاء أو بقول حسن. وفي مصحف ابن مسعود: ﴿وَوَجَدَكَ عَدِيمًا فَأَغْنَى﴾، وقرأ ابن مسعود، والشعبي، وإبراهيم التيمي: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَكْهَرْ﴾ بالكاف، قال الأخفش: وهي بمعنى القهر، ومنه قول الأعرابي: «وقاكم الله سطوة القادر وملكة الكاهن» وقال أبو حاتم: لا أظنها بمعنى القهر؛ لأنه

قد قال الأعرابي الذي بال في المسجد: «فما كهرني النبي ﷺ»، فإنما هي بمعنى الانتهار.

وأمره الله تعالى بالتحدث بنعمته، فقال مجاهد، والكلبي: معناه: بُت القرآن ويبلغ ما أرسلت به، وقال آخرون: بل هو عموم في جميع النعم، وكان بعض الصالحين يقول: لقد أعطاني الله كذا وكذا، ولقد صليت البارحة كذا وكذا، وذكرت الله تعالى كذا، فقيل له: إن مثلك لا يقول هذا، فقال: إن الله تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا يَتِيمَ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ وأنتم تقولون لا تحدث، وقال النبي ﷺ: «التحدث بالنعم شكر»، ومنه قول النبي ﷺ: «من أسديت إليه يد فذكرها فقد شكرها، ومن سترها فقد كفرها»، ونصب ﴿الْيَتِيمَ﴾ بـ ﴿تَقْهَرْ﴾، والتقدير: مهما يكن من شيء فلا تقهر اليتيم.

كامل تفسير سورة الضحى
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الشرح

وهي مكية بإجماع من المفسرين، لا خلاف بينهم في ذلك.

① - ② تفسير قوله عز وجل: عدد الله تعالى على نبيه ﷺ نعمه في أن شرح له صدره للنبوة وهياً لها، وذهب الجمهور إلى أن شرح الصدر المذكور هو: تنويره بالحكمة وتوسيعه لتلقي ما يوحي إليه. وقال

ابن عباس رضي الله عنه، وجماعة: هذه إشارة إلى شرحه بشق جبريل عليه السلام عنه في وقت صغره، وفي وقت الإسراء؛ إذ التشریح شق اللحم. وقرأ أبو جعفر المنصور: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ بنصب الحاء، على نحو قول الشاعر:

اضْرِبْ عَنْكَ الِهُمُومَ طَارِقَهَا
ضَرْبَكَ بِالسَّيْفِ قَوْنَسَ الْفَرْسِ
ومثله مما في نوادر أبي زيد:

مِنْ أَيِّ يَوْمِي مِنَ الْمَوْتِ أَفْرُ
أَيُّومٌ لَمْ يُقَدِّرْ أَمْ يَوْمٌ قُدِّرَ
كأنه تعالى قال: «أَلَمْ نَشْرَحْ»، ثم أبدل من النون ألفاً، ثم حذفها تخفيفاً. وهي قراءة مردودة.

و «الْوَزْرُ» الذي وضعه الله تعالى عنه هو عند بعض المتأولين الشقل الذي كان على رسول الله ﷺ، وحيرته قبل المبعث؛ إذ كان يرى سوء ما قريش فيه من عبادة الأصنام، وكان لم يتجه له من الله أمر واضح، فوضع الله تعالى عنه ذلك الشقل بنبيوته وإرساله. وقال أبو عبيدة وغيره: المعنى: خففنا عليك أثقال الثبوة، وأعناك على الناس، وقال قتادة، وابن زيد، والحسن، وجمهور من المفسرين: الوزر - هنا: الذنوب، وأصله الشقل، فشبهت الذنوب به، وهذه الآية نظير قوله تعالى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾، وكسان رسول الله ﷺ في الجاهلية قبل الثبوة وزره ضجة قومه، وأكله من ذبائحهم، ونحو هذا، وقال الضحاك، وفي كتاب النقاش:

حضوره مع قومه المشاهد التي لا يجها الله تعالى.

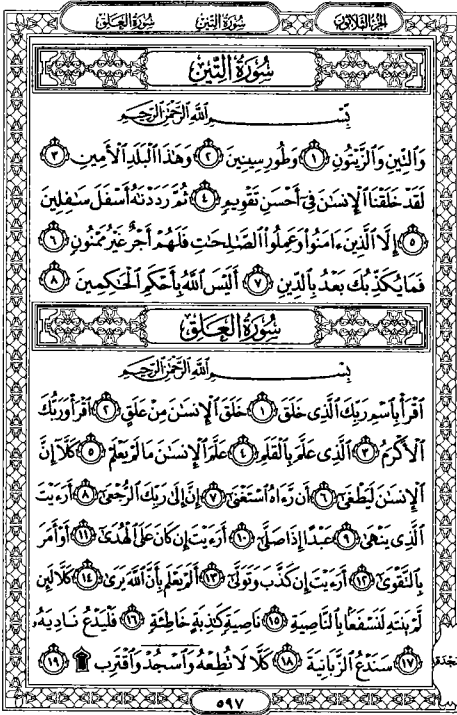
قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وهذه كلها جزؤها المنشأ، كشهوده حرب الفجار، يُنْبَلُ على أعمامه وقلبه في ذلك منيب إلى الصواب، وأما عبادة الأصنام فلم يتلبس بها قط. وقرأ أنس بن مالك: ﴿وَحَطَطْنَا عَنْكَ وَزْرَكَ﴾، وفي حرف ابن مسعود: ﴿وَحَلَلْنَا عَنْكَ وَفَزَكَ﴾، وفي حرف أبي: ﴿وَحَطَطْنَا عَنْكَ وَفَزَكَ﴾، وذكر أبو عمرو أن النبي ﷺ صوّب جمعيتها. وقال المحاسبي: إنما وصفت ذنوب الأنبياء عليهم السلام بالثقل وهي صغائر مغفورة لهمهم بها وتحشرهم عليها.

و «أَنْقَضَ» معناه: جعله نقضاً، أي: هزيراً معيباً من الشقل، وقيل: معناه: أسمع له نقيضاً وهو الصوت، وهو مثل نقيض الشفن، وكل ما حملته ثقلاً فإنه يُنْقَضُ تحته، وقال عباس بن مرداس:

وَأَنْقَضَ ظَهْرِي مَا تَطَوَّقْتُ مِنْهُمْ
وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ مُشْفِقاً مُتَحَنِّناً
وقوله تعالى: ﴿رَوَقْنَا لَكَ دِكْرَكَ﴾ معناه: نوهنا باسمك، وذهبنا به كل مذهب في الأرض، هذا ورسول الله بمكة، وقال أبو سعيد الخدري، والحسن، ومجاهد، وقاتدة: معنى قوله تعالى: ﴿رَوَقْنَا لَكَ دِكْرَكَ﴾، أي: قرناً اسمك باسمنا في الأذان

والخطب، وروي في هذا حديث «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: إِذَا ذُكِرَتْ ذُكِرَتْ مَعِي»، وهذا مُتَّجِهٌ إِلَّا أَنْ الآية نزلت بمكة قديماً والأذان شرع بالمدينة، ورفَعُ الذكر نعمة على الرسول ﷺ، وكذلك هو جميل حَسَنٌ للقائمين بأمر الناس، وخمَوُ الذِّكْرُ والاسم حَسَنٌ للمنفردين للعبادة، وقد جعل الله تعالى التَّعْمَ أقساماً بحسب ما يصلح لشخص شخص، وفي الحديث «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُوَقِّفُ عَبْدًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَقُولُ: أَلَمْ أَفْعَلْ بِكَ كَذَا وَكَذَا - يُعَدِّدُ عَلَيْهِ نِعْمَهُ -» ويقول في جملتها: أَلَمْ أُخْمَلْ ذَكَرَكَ فِي النَّاسِ؟ والمعنى في هذا التعديد الذي على النبي ﷺ: أي: يا محمد فقد جعلنا جميع هذا فلا تكثر بأذى قريش، فإن الذي فعل بك هذه النعم سيظفرك بهم ويتضررك عليهم.

ثم قَوَى تعالى رجاءه بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾، أي: مع ما تراه من الأذى فرج يأتيك، وكرر الله تعالى ذلك بمبالغة وتبييناً للخير، فقال بعض الناس: المعنى: إن مع العسر يسراً في الدنيا، وإن مع العسر يسراً في الآخرة، وذهب كثير من العلماء إلى أن مع كل عسر يُسْرَيْنِ بهذه الآية، من حيث «العسر» مُعْرِفٌ للعهد، و«اليسر» منكر، فالأول غير الثاني، وقد رُوِيَ في هذا التأويل حديث عن النبي ﷺ أنه قال: «لَنْ يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسْرِينَ»، وأما قول عمر به فنص في الموطأ



شاذة ضعيفة المعنى لم تثبت عن عالم، ومُرّ شريح على رجلين يصطرعان فقال: ليس بهذا أمر الفراغ، وتلا هذه الآية.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْكَ رَبِّكَ فَارْتَبْ﴾ أمرٌ بالتوكل على الله عز وجل، وصرف وجه الرغبات إليه لا إلى سواه، وقرأ ابن أبي عملة: ﴿فَرْتَبْ﴾ بفتح الراء وشد العين مكسورة.

كامل تفسير سورة الشرح والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة التين

وهي مكية، لا أعرف في ذلك خلافاً بين المفسرين.

١ - تفسير قوله عز وجل:

اختلف الناس في معنى «التين» والزيتون» الذين أقسم الله تعالى بهما - فقال ابن عباس، والحسن، ومجاهد، وعكرمة، وإبراهيم، وعطاء، وجابر بن زيد، ومقاتل: هو التين الذي يؤكل والزيتون الذي يعتصر، وأكل النبي ﷺ مع أصحابه رضي الله عنهم تيناً أهدي إليه فقال: «لو قلت إن فاكهة نزلت من الجنة قلت هذه؛ لأن فاكهة الجنة بلا عجم، فكلوا فإنه يقطع البواسير،

في رسالته إلى أبي عبيدة بن الجراح رضي الله عنهما. وقرأ عيسى، ويحيى بن وثاب، وأبو جعفر: «المُسْر»، و«الْيُسْر» بضميتين، وقرأ ابن مسعود: «إِنَّ عَاقِبَةَ الْأُمَّمِ مُرٌّ» واحدة غير مكررة.

ثم أمر نبيه عليه الصلاة والسلام إذا فرغ من شغل من أشغال الثبوة والعبادة أن ينصب في آخر، والنصب: التعب، فالمعنى أن يدأب على ما أمر به ولا يفتر، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: المعنى: فإذا فرغت من فرضك فانصب في التثقل عبادة لربك، وقال ابن مسعود: فانصب في قيام الليل، وعن مجاهد: فإذا فرغت من شغل دنياك فانصب في عبادة ربك، وقيل: المعنى: فإذا فرغت من الركعات فاجلس في التشهد وانصب في الدعاء، وقال ابن عباس، وقاتدة: معنى الكلام: فإذا فرغت من العبادة فانصب في الدعاء، وقال الحسن بن أبي الحسن: فإذا فرغت من الجهاد فانصب في العبادة، ويعترض هذا التأويل أن الجهاد فرض بالمدينة. وقرأ أبو السمال: ﴿فَرُغْتَ﴾ بكسر الراء، وهي لغة، وقرأ قوم: ﴿فَانصَبْ﴾ بشد الباء وفتحها، ومعناها: إذا فرغت من الجهاد فانصب إلى المدينة، ذكرها النقاش منبهاً على أنها خطأ، وقرأ آخرون من الإمامية: ﴿فَانصَبْ﴾ بكسر الصاد، بمعنى إذا فرغت من أمر الثبوة فانصب خليفة، وهي قراءة

وينفع من القرمس» وقال عليه الصلاة والسلام: «نعم السواك الزيتون من الشجرة المباركة، هي سواكي وسواك الأنبياء من قبلي». وقال كعب وعكرمة: القسم بمنابتهما، وذلك أن التين ينبت كثيراً بدمشق، والزيتون ينبت بإيلاء، فأقسم الله تعالى بالأرضين، وقال قتادة: هما جبلان بالشام، على أحدهما دمشق، وعلى الآخر بيت المقدس، وقال ابن زيد: التين مسجد دمشق، والزيتون مسجد إيلياء، وقال ابن عباس وغيره: التين مسجد نوح عليه السلام على الجودي، والزيتون مسجد بيت المقدس، وقيل: التين مسجد نوح، والزيتون مسجد إبراهيم عليهما السلام، وقيل: التين والزيتون وطور سينين ثلاث مساجد بالشام، وقال محمد بن كعب

القرظي: التين مسجد أصحاب الكهف، والزيتون مسجد إيلياء، وأما طور سينين فلم يُختلف أنه جبل بالشام كَلَّمَ اللهُ تعالى عليه موسى عليه السلام.

واختلف في معنى ﴿بَيْنِينَ﴾ - فقال عكرمة، ومجاهد: معناه: حَسَنٌ مبارك، وقيل: معناه: ذو الشجر، وقرأ الجمهور: ﴿بَيْنِينَ﴾ وقرأ ابن إسحاق، وأبو رجاء: ﴿سَيْنِينَ﴾ بفتح السين، وهي لغة بكر وتميم وقرأ عمر بن الخطاب، وطلحة، والحسن وابن مسعود: ﴿سَيْنَانًا﴾ بسين مكسورة وألف، وقرأ أيضاً عمر رضي الله عنه بفتحها.

و «الْبَلْدُ الْأَمِينُ» مَكَّةُ بلا خلاف، وقيل: معنى ﴿بَيْنِينَ﴾: المبارك، وقيل: معناه: شجر، وإحدها سَيْنِينَةٌ، قاله الأخفش، وسعيد بن مسعدة. و«أَمِينٌ» فِعِيلٌ مِنَ الْأَمْنِ، بمعنى: آمِنٌ، أَي: آمِنٌ مِنْ فِيهِ وَمَنْ دَخَلَهُ وَمَا فِيهِ مِنْ طَيْرٍ وَحَيَوَانٍ.

والقسم واقع على قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلَّمْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، ولا يدفع هذا أن يكون غيره من المخلوقات - كالشمس وغيرها - أحسن تقويماً منه بالمناسبة، وقال بعض العلماء بالعموم، أي: أن الإنسان أحسن المخلوقات تقويماً، ولم ير قوم الحنث على من حلف بالطلاق أن زوجته أحسن من الشمس، واحتجوا بهذه الآية.

واختلف الناس في تقويم الإنسان ما هو؟ فقال النخعي، ومجاهد، وقتادة: حُسْنُ صورته وحواسه، وقال بعضهم: هو انتصاب قامته،

وقال أبو بكر بن طاهر - في كتاب الثعلبي -: هو عقله وإدراكه اللذنان زَيْنَاهُ بِالْتَّمِيزِ، وقال عكرمة: هو الشباب والقوة، والصواب أن جميع هذا هو حُسْنُ التقويم، إلا قول عكرمة إذ قد يفضل فيه بعض الحيوان، و«الإنسان» هنا اسم الجنس، وتقدير الكلام: في تقويم أحسن تقويم؛ لأن «أحسن» صفة لا بد أن تجري على موصوف.

واختلف الناس في معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ رَدَدْتَهُ أَنْفَكَلٍ سَوِيلِينَ﴾ - فقال عكرمة، وقتادة، والضحاك، والنخعي: معناه: بالهرم وذهول العقل وتغلب الكبر حتى يصير لا يعلم شيئاً، أما إن المؤمن مرفوع عنه القلم، والاستثناء - على هذا - منقطع. وهذا قول حَسَنٌ، وليس المعنى أن كل إنسان يعتره هذا، بل في الجنس من يعتره ذلك، وهذه عِبْرَةٌ منصوبة. وقرأ ابن مسعود: ﴿السَّافِلِينَ﴾ بالألف واللام.

ثم أخبر تعالى أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات - وإن نال بعضهم هذا في الدنيا - فلهم في الآخرة أجر عظيم غير ممنون، وقال الحسن: ومجاهد، وقتادة، وابن زيد، وأبو العالية: المعنى: رددناه أسفل سافلين في النار على كفره، ثم استثنى تعالى الذين آمنوا استثناءً متصلاً، فهم - على هذا - ليس فيهم من يُرَدُّ أسفل سافلين، وفي حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا بَلَغَ الْمُؤْمِنُ خَمْسِينَ سَنَةً خَفَّفَ اللهُ حِسَابَهُ، وَإِذَا بَلَغَ السُّتَيْنِ رَزَقَهُ اللهُ الْإِنَابَةَ إِلَيْهِ، فَإِذَا بَلَغَ السَّبْعِينَ أَحَبَّهُ

أهل السماء، فإذا بلغ ثمانين كُتِبَ حسناته، وتجاوز الله عن سيئاته، فإذا بلغ تسعين غُفِرَتْ ذنوبه، وشفع في أهل بيته، وكان أسير الله في أرضه، فإذا بلغ مائة - ولم يعمل شيئاً - كُتِبَ له مثل ما كان يعمل في صحته، ولم تكتب عليه سيئة»، وفي حديث: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا رُدَّ إِلَى أَرْدَلِ الْعَمْرِ، كُتِبَ لَهُ خَيْرٌ مَا كَانَ يَعْمَلُ فِي قَوْمِهِ، وَذَلِكَ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ»، و«مَمْنُونٌ» معناه: محسوب مُصْرَدٌ يُمْنُ عَلَيْهِمْ به، قاله مجاهد وغيره، وقال كثير من المفسرين: معناه: مقطوع، من قولهم: «حَبْلٌ مَمْنُونٌ» أي: ضعيف منقطع.

واختلف في المخاطب بقوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْآيَاتِينَ﴾ - فقال قتادة، والفراء، والأخفش: هو محمد ﷺ، قال الله تعالى له: فما الذي يكذبك فيما تُخبر به من الجزاء والبعث - وهو الدين - بعد هذه العبرة التي توجب النظر فيها صححة ما قلت؟ ويحتمل أن يكون «الدين» - على هذا التأويل - جميع دينه وشريعته، وقال جمهور من المتأولين: المخاطب الإنسان الكافر، أي: ما الذي يجعلك كذاباً بالدين، تجعل الله تعالى أنداداً، وتزعم ألا بعث بعد هذه الدلائل؟ قال منصور: قلت لمجاهد: قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْآيَاتِينَ﴾ يراد به النبي عليه الصلاة والسلام؟ فقال: معاذ الله، يعني به الشاك.

ثم وقف تعالى جميع خلقه على أنه سبحانه أحكم الحاكمين، على جهة التقرير، ورؤي عن قتادة أن

رسول الله ﷺ كان إذا قرأ هذه السورة قال: «بلى، وأنا على ذلكم من الشاهدين».

تم تفسير سورة التين والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة العلق

وهي مكية بإجماع، وهي أول ما نزل من كتاب الله تعالى، نزل صدرها في غار حراء حسب ما ثبت في صحيح البخاري، وغيره، وروى من طريق جابر بن عبد الله أن أول ما نزل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وقال أبو ميسرة عمرو بن شرجيل: إن أول ما نزل فاتحة الكتاب والقول الأول أصح، والترتيب في إخبار النبي ﷺ يقتضي ذلك.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

في صحيح البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: (أول ما بدى به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه التَّحَنُّثُ في غار حراء، فكان يخلو فيه فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ثم ينصرف، حتى جاءه الملك وهو في غار حراء فقال له: اقرأ، قال: «ما أنا بقارئ»، قال: «فأخذني فغطوني»، ثم كذلك ثلاث مرات، فقال له في الثالثة: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿١﴾... إلى قوله تعالى: ﴿مَا زِلْمٌ﴾، قالت: فرجع بها رسول الله ﷺ ترجف بوادره الحديث بطوله.

ومعنى هذه الآية: اقرأ هذا القرآن باسم ربك، أي: ابدأ فعلك بذكر اسم الله، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ﴾... هذا وجه، ووجه آخر في «كتاب الثعلبي» أن المعنى: اقرأ في أول كل سورة وقراءة: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾، ووجه آخر أن يكون المقروء الذي أمر بقراءته هو «باسم ربك الذي خلق»، كأنه قال له: اقرأ هذه اللفظة.

ولما ذكر تعالى «الرَّبُّ»، وكانت العرب في الجاهلية تسمي الأصنام أرباباً، جاء بالصفة التي لا شركة للأصنام فيها، وهي قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم مثل لهم من المخلوقات ما لا مدافعة فيه، وما يجده كل مفلطح في نفسه، فقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾، وخالق الإنسان من أعظم العبر حتى أنه ليس في المخلوقات التي لدينا أكثر عبراً منه، في عقله وإداركه ورباطات بدنه وعظمه. و«العلق» جمع علقه، وهي القطعة البسيرة من الدم. و«الإنسان» - هنا - اسم الجنس، ويمشي الذهن معه إلى جميع الحيوان، وليست الإشارة إلى آدم عليه السلام لأنه مخلوق من طين، ولم يكن ذلك مقرراً عند المخاطبين بهذه الآية، فلذلك ترك أصل الخلقه وسبق لهم الفرغ الذي هم مفقرون تقريباً لأفهامهم.

ثم قال تعالى له: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ﴾ على جهة التأنيس، كأنه تعالى يقول: امض لما أمرت به، وربك ليس كهذه الأرباب، بل هو الأكرم الذي لا يلحقه نقص، فهو ينصرك ويظهرك.

ثم عدت تعالى نعمة الكتاب بالقلم على الناس، وهي موضع عبرة وأعظم منفعة في المخاطبات وتخليد المعارف، وقوله تعالى: ﴿عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَكُنَّ يَعْلَمُ﴾، قيل: المراد محمد عليه الصلاة والسلام، وقيل: اسم الجنس، وهو الأظهر، وعدت تعالى نعمة اكتساب المعارف للإنسان بعد جهله بها.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُفٌ﴾ الآية... نزل بعد مدة في شأن أبي جهل بن هشام، وذلك أنه طفى لغناه، ولكثرة من يغشى ناديه من الناس، فناسب رسول الله ﷺ العداوة، ونهاه عن الصلاة في المسجد، ويروى أنه قال: لئن رأيت محمداً يسجد عند الكعبة لأطأن على عنقه، فيروى أن رسول الله ﷺ رد عليه القول وانتهره، فقال أبو جهل: أتوعدي محمد ووالله ما بالوادي أعظم ندياً مني؟ وروى أيضاً أنه جاء والنبي ﷺ يصلّي، وهم بأن يصل إليه ويمنعه من الصلاة، ثم كع عنه وانصرف، فقيل له: ما هذا؟ فقال: لقد اعترض بيني وبينه خندق من نار وهول وأجنيحة ويروى أن رسول الله ﷺ قال: «لَوْ دَنَا مِنِّي لِأَخَذْتَهُ الْمَلَائِكَةُ عِيَانًا»، فهذه السورة من قوله تعالى: ﴿كَلَّا﴾ إلى آخرها نزلت في أبي

جهل. و﴿كَلَّا﴾ هي ردُّ على أقوال أبي جهل وأفعاله، ويتَّجه أن تكون بمعنى «حقاً»، فهي تثبت لما بعدها من القول. و«الطُّغْيَان» تجاوز الحدود الجميلة، و«الغنى» مُطغٍ إلا من عصم الله تعالى، والضمير في ﴿رِيَاءُ﴾ للإنسان المذكور، كأنه قال: أن رأى نفسه غنياً، وهي رؤية قلب تقرب من العلم، وكذلك جاز أن يعمل فيها فعل الفاعل في نفسه، كما تقول: وجدنتي وطننتني، ولا يجوز أن تقول: ضربتني. وقرأ الجمهور: ﴿أَنْ رَأَى﴾ بالمدِّ على وزن «رعا»، واختلَفوا في الإمالة وتركها، وقرأ ابن كثير - من طريق قنبل -: ﴿أَنْ رَأَى﴾ دون مدِّ، على وزن «رَعَه»، على حذف لام الفعل، وذلك تخفيف.

ثم حفرَّ تعالى غنى هذا الإنسان وحاله بقوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَهَ رَبِّكَ آزِيزٌ﴾، أي: الحشر والبعث يوم القيامة، و«الرُّجْعَى» مصدر كالرجوع، وهو على وزن العُقْبَى ونحوه، وفي هذا الخبر وعيد للطاغين من الناس الناهي أبو جهل، وأن العبد المصلي محمد ﷺ. وقوله تعالى: ﴿أَرْهَيْتَ﴾ توقيف، وهو فعل لا يتعدى إلى مفعولين على حدِّ الرؤية من العلم، بل يقتصر به. وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَمَلِكْ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، إكمالاً للتوبيخ والوعيد بحسب التوقيفات الثلاثة يصلح مع كل واحد منها، فجاء بها في نسق، ثم جاء بالوعيد الكافي لجميعها اختصاراً واقتضاباً، ومع كل تقرير من الثلاثة تكملة مقدرة تتسع العبارات فيها،

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَمَلِكْ﴾ دالٌّ عليها مُعْنٍ، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَانُ﴾ يعني العبد المصلي، وقوله تعالى: ﴿إِنْ كَذَّبَ رُؤُوكَ﴾ يعني الإنسان الذي ينهى، ونسب تعالى الرؤية إلى الله تعالى بمعنى: يدرك أعمال الجميع بإدراك سمِّه رؤية، والله تعالى مُنَزَّه عن الجارحة وغير ذلك من مماثلة المحدثات، ثم توعدته تعالى - إن لم يَنْتَه - بأن يُؤخِّذ بناصيته فيُجِرُّ إلى جهنم ذليلاً، تقول العرب: «سَفَعْتُ بيدي ناصية الفرس والرجل» إذا جذبتها مُذَلِّلاً له، قال عمرو بن معد يكرب:

قَوْمٌ إِذَا سَمِعُوا الصِّيَاحَ رَأَيْتَهُمْ
مِنْ بَيْنِ مَلْجَمٍ مُهْرِهِ أَوْ سَافِعٍ
فَالآيَةُ عَلَى نَحْوِ قَوْلِهِ تَعَالَى:

﴿فِيؤَخِّذُ بِالرَّيِّ وَالْأَنْدَامِ﴾. وقال بعض العلماء: (لنَسْفَعَن) معناه: لنُجْرِقَن، من قولهم: «سَفَعْتُهُ النَّارُ» إذا أحرقته، واكتفى بذكر الناصية لدلالاتها على الوجه والرأس، وجاء ﴿نَسْفَعْنَا﴾ في خط المصحف بألف بدل النون، وقرأ أبو عمرو - في رواية هارون -: ﴿لِنَسْفَعَنَ﴾ مُثَقَّلَةً النون، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿لَأَسْفَعَنَ﴾ بالناصية، ناصية كاذبة فاجرة، وقرأ أبو حيوة: ﴿نَاصِيَةً كَازِبَةً خَاطِئَةً﴾ بالنصب في الثلاثة، وروي عن الكسائي أنه قرأ بالرفع فيها كلها. و«النَّاصِيَةُ» مقدم شعر الرأس، ثم أبدل تعالى النكرة من المعرفة في قوله تعالى: ﴿نَاصِيَةٍ كَذِبَةٍ﴾، ووصفها بالكذب والخطأ من حيث هي صفات لصاحبها، كما تقول: يَدُّ سَارِقَةٍ.

وقوله تعالى: ﴿فَلْيَنْزِلْ رَايِدَهُ﴾ إشارة إلى قول أبي جهل: «وما بالوادي أعظم ندياً مني»، والنادي والندي: المجلس، ومنه: دار الندوة، ومنه قول زهير:

وَفِيهِمْ مَقَامَاتٌ حِسَانٌ وَجُوهُهُمْ
وَأَنْدِيَةٌ يَنْتَابُهَا الْقَوْلُ وَالْفِعْلُ

ومنه قول الأعرابية: «سَيِّدِ نَادِيهِ، وَتَمَالِ عَافِيهِ».

و «الرَّبَّانِيَّةُ» ملائكة العذاب، واحدهم «رَبَّانِيَّةٌ»، وقال الكسائي: «زني»، وقال عيسى بن عمرو الأَخْفَش: «زَابِنٌ»، وهم الذين يدفعون الناس في النار، و الرَّبَّانِيُّ: الدَّفْع، ومنه «حَرْبُ زَبُونٍ»، أي: تدفع الناس في نفسها، ومنه قول الشاعر:

وَمُسْتَعْجِبٌ مِمَّا يَزِي مِنْ أَنْاتِنَا
وَلَوْ رَبَّنَا حَزْبٌ لَمْ يَسْرُ مَرْمٍ

ومنه قول عتبة بن أبي سفيان: «وقد زبنتنا الحربُ وزبنتأها، فنحن بثوها وهي أئنا»، ومنه قول الشاعر:

عَدَّتْني عَن زِيَارَتِكَ الْعَوَادِي
وَخَالَتْ بَيْنَنَا حَزْبُ زَبُونٍ

وحذفت الواو من ﴿سَنَنْغُ﴾ في خط المصحف اختصاراً وتخفيفاً، والمعنى: سندعو الزبانية لعذاب هذا الذي يدعو ناديه، وقرأ ابن مسعود: ﴿فَلْيَنْزِلْ إِلَى نَادِيهِ﴾.

ثم قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿كَلَّا﴾ رداً على قول هذا الكافر وأفعاله، ﴿لَا تُطْمِئُنُّ﴾، أي: لا تلتفت إلى نهيهِ وكلامه، ﴿وَأَنْتَ لِرَبِّكَ﴾ وبالطاعة وبالأعمال الصالحة، وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ



نزول الملك كان من الرابع عشر من رمضان، فلا يستقيم هذا التأويل إلا على قول من يقول: إن ليلة القدر تستدير الشهر كله ولا تختص بالعشر الأواخر من رمضان، وقال قوم: معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا هَذِهِ السُّورَةَ فِي شَأْنِ لَيْلَةِ الْقَدْرِ وَفِي فَصْلِهَا، وَلَمَا كَانَتِ السُّورَةُ مِنَ الْقُرْآنِ جَاءَ الضَّمِيرُ لِلْقُرْآنِ تَفْخِيمًا وَتَحْسِينًا.

وقوله تعالى: ﴿فِي لَيْلَةٍ﴾ هو على نحو قول

عمر بن الخطاب رضي الله عنه: لقد خشيت أن ينزل في قرآن ليلة نزول سورة الفتح، ونحو قول عائشة رضي الله عنها في حديث الإفك: لأننا أحقر في نفسي من أن ينزل في قرآن، وليلة القدر هي ليلة خضها الله تعالى بفضل عظيم، وجعلها أفضل من ألف شهر لا ليلة قدر فيها، قاله مجاهد وغيره، وخضت هذه الأمة بهذه الفضيلة لما رأى محمد ﷺ أعمار أمته فتقاصرها.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ﴾ عبارة تفخيم لها، ثم أدراه تعالى بغد بقوله: ﴿لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾، قال ابن عبيّنة في صحيح البخاري: ما كان في القرآن ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ فقد أعلمه الله تعالى، وما كان فيه ﴿وَمَا يَدْرِيكَ﴾

العبد من الله إذا سجد، فأكثرُوا من الدعاء في السجود، فَمَجْمَعٌ أَنْ يُسْتَجَابَ لَكُمْ.

وقاله مجاهد، قال: ألم تسمعوا ﴿وَأَسْبِغْ وَأَقْرَبْ﴾، وروى ابن وهب عن جماعة من أهل العلم أن قوله تعالى: ﴿وَأَسْبِغْ﴾ خطاب لمحمد ﷺ، وأن ﴿وَأَقْرَبْ﴾ خطاب لأبي جهل، أي: إن كنت تجتريء حتى ترى كيف تهلك.

وهذه السورة فيها سجدة عند جماعة من أهل العلم منهم ابن وهب من أصحاب مالك.

كامل تفسير سورة العلق والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة القدر

اختلف الناس في موضع نزول هذه السورة، فقال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكية.

١ - ٥ - تفسير قوله عز وجل: الضمير في ﴿أَنْزَلْنَاهُ﴾ للقرآن وإن لم يتقدم ذكره لدلالة المعنى عليه، فقال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: أنزل الله تعالى ليلة القدر إلى السماء الدنيا جملة، ثم نَجَّمه على محمد ﷺ في عشرين سنة، وقال الشعبي وغيره: المعنى: إننا ابتدأنا إنزال هذا القرآن إليك ليلة القدر، وقد روي أن نزول الملك في حراء كان في العشر الأواخر من رمضان، فيستقيم هذا التأويل، وقد روي أن

فإنه لم يُعلم. وذكر ابن عباس وقاتدة وغيرهما أنها سُميت ليلة القدر لأن الله تعالى يقدر فيها الآجال والأرزاق وحوادث العام كلها ويدفع ذلك إلى الملائكة لتمثله، وقد روي هذا في ليلة النصف من شعبان، ولهذا ظواهر من كتاب الله عز وجل، نحو قوله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ كَبِيرٍ﴾، وأما الصحة المقطوع بها فغير موجودة، وقال الزهري: معناها: ليلة القدر العظيم والشرف وعظم الشأن، من قولك: رجل له قدرٌ، وقال أبو بكر الوراق: سُميت ليلة القدر لأنها تُكسب من أحيائها قدرًا عظيمًا لم يكن له قبل، وترده عظيمًا عند الله تعالى، وقيل: سُميت بذلك لأن كل العمل فيها له قدر خطير.

وليلة القدر مستديرة في أوتار،

العشر الأواخر من رمضان، هذا هو الصحيح المعول عليه، وهي في الأوتار بحسب الكمال والنقصان في الشهر، فينبغي لمرتقبها أن يرتقبها من ليلة عشرين في كل ليلة إلى آخر الشهر؛ لأن الأوتار مع كمال الشهر ليست الأوتار مع نقصانه، وقد قال رسول الله ﷺ: «الثالثة تبقى، لخامسة تبقى، لسابعة تبقى»، وقال عليه الصلاة والسلام: «التسوها في الثالثة والخامسة والسابعة والتاسعة»، وقال مالك: بالتاسعة ليلة إحدى وعشرين، وقال ابن حبيب: يريد مالك: إذا كان الشهر ناقصاً فظاهر هذا أنه عليه السلام احتاط في كمال الشهر ونقصانه، وهذا لا تتحصل معه الليلة إلا بعمارة العشر كله، وزوي عن أبي حنيفة وقوم أن ليلة القدر رُفعت، وهذا قول مردود، وإنما رُفع تعيينها، وقال ابن مسعود: من يقم السنة كلها يصعبها، وقال أبو رزين: هي أول ليلة من شهر رمضان، وقال الحسن: هي ليلة سبع عشرة، وهي التي كانت في صبيحتها وقعة بدر، وقال كثير من العلماء: هي ليلة ثلاث وعشرين، وهي ليلة عبدالله بن أنيس الجهني، وقال ابن عباس، وقال أيضاً هو وجماعة من الصحابة: هي ليلة سبع وعشرين، واستدل ابن عباس على قوله بأن الإنسان خلق من سبع، وجعل رزقه في سبع، واستحسن ذلك عمر رضي الله عنهم أجمعين، وقال زيد بن ثابت، وبلال: هي ليلة أربع وعشرين، وقال بعض العلماء: أخفاها الله تعالى عن عباده ليجدوا

في العمل ولا يتكلموا على فضلها ويقصروا في غيرها.

ثم عظم الله تعالى أمر ليلة القدر، على نحو قوله تعالى: ﴿وَمَا آذَيْنَاكَ مَا لَهَا﴾، وغير ذلك. ثم أخبر تعالى أنها أفضل لمن عمل فيها عملاً من ألف شهر، وهي ثمانون سنة وثلاثة أعوام وثلاث عام. وزوي عن الحسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما أنه قال حين عوتب في تسليمه الأمر لمعاوية رضي الله عنه: إن الله تعالى أرى نبيه ﷺ في المنام بني أمية ينزون على منبره نزواً القردة، فاهتم لذلك، فأعطاه الله تعالى ليلة القدر، وهي خير من مدة ملك بني أمية، وأعلمه أنهم يملكون هذا القدر من الزمان.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: ثم كشف الغيب أن كان من سنة الجماعة إلى قتل مروان الجعدي هذا القدر من الزمان بعينه، ثم إن القول يعارضه أنه قد ملك بنو أمية في غرب الأرض مدة غير هذه، وفي الصحيح عن النبي ﷺ: «من قام ليلة القدر إيماناً واحتساباً غفر له من ذنبه ما تقدم من ذنبه».

و «الروح» هو جبريل عليه السلام، وقيل: هو صنف حفظة للملائكة عليهم السلام، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحْسَبُوا أَنَّ الْقُرْآنَ يَنْزَلُ عَلَى سَجْوَةٍ أَوْ يَنْزَلُ عَلَى سَهْوَةٍ إِنَّهُ نَزَّلَهُ بِالرُّوحِ الْقُدُّوسِ وَسَخَّرَ لَكُم مِّنْ قِبَلِهِ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَكُونَ﴾، فممن قال: «إن في هذه الليلة تقدّر الأمور للملائكة» قال: إننا هذا الترتل لذلك، و«ين» لابتداء الغاية، أي: نزولهم من أجل هذه الأمور المقدرة وبسببها، و«يجيء» «سلكم» خبر ابتداءً مشتاقاً، أي: سلام هي

هذه الليلة إلى أول يومها، وهذا قول نافع المقبري والفراء وأبي العالية، وقال بعضهم: «ين» بمعنى «الباء»، أي: بكل أمر، ومن لم يقل: «تقدّر الأمور في تلك الليلة» قال: معنى الآية: تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم بالرحمة والغفران والفواضل، ثم جعل قوله تعالى: ﴿يَنزِلُ فِيهَا بِأَمْرِ رَبِّكَ بِكُلِّ آيَةٍ تُنزَّلُ فِيهَا مِن لَّدُن رَبِّكَ خَلْقًا نَّجِيًّا لَا يَشْعُرُ﴾ متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿يَنزِلُ فِيهَا بِأَمْرِ رَبِّكَ بِكُلِّ آيَةٍ تُنزَّلُ فِيهَا مِن لَّدُن رَبِّكَ خَلْقًا نَّجِيًّا لَا يَشْعُرُ﴾، أي: من كل أمر مخوف ينبغي أن يسلم منه فيه سلاماً، وقال مجاهد: لا يُصيب أحداً فيها داء، وقال الشعبي ومنصور: ﴿سَلَّمَ﴾ بمعنى التحية، أي: تسلم الملائكة على المؤمنين، وقرأ ابن عباس، وعكرمة، والكلبي: ﴿مِنْ كُلِّ أَمْرٍ﴾، أي: يسلم فيها من كل امرئ سوء، فهذا على أن ﴿سَلَّمَ﴾ بمعنى «سلامة»، وروي عنه أن «سلاماً» بمعنى «تحية»، و«كل امرئ» يراد بهم الملائكة، أي: من كل ملك تحية على المؤمنين، وهذا للعاملين بالعبادة فيها، وذهب من يقول بانتهاج الكلام في قوله تعالى: ﴿سَلَّمَ﴾ إلى أن قوله تعالى: ﴿يَنزِلُ فِيهَا بِأَمْرِ رَبِّكَ بِكُلِّ آيَةٍ تُنزَّلُ فِيهَا مِن لَّدُن رَبِّكَ خَلْقًا نَّجِيًّا لَا يَشْعُرُ﴾ إنما هو إشارة إلى أنها ليلة سبع وعشرين من الشهر؛ إذ هي الكلمة هي السابعة والعشرون من كلمات السورة، وذكر هذا الغرض ابن بكير، وأبو بكر الوراق، والنقاش عن ابن عباس.

وقرأ جمهور السبعة: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ﴾ بفتح اللام، وقرأ الكسائي، والأعمش، وأبو رجاء، وابن محيصن، وطلحة: ﴿حَتَّىٰ مَطْلَعِ﴾ بكسر اللام، فقيل: هما مصدران

قِيَمَةٌ، و﴿قِيَمَةٌ﴾ معناه: قائمة معتدلة أخذة للناس بالعدل، وهو بناء مبالغة، فالقِيَمَةُ هو ذكر من آمن من الطائفتين، ثم ذكر تعالى مذمة من لم يؤمن من أهل الكتاب من بني إسرائيل، من أنهم لم يتفرقوا في أمر محمد ﷺ إلا من بعد ما رأوا الآيات الواضحة، وكانوا من قبل مُضْفِقِينَ على بُؤْتِهِ وصفته، فلما جاء من العرب حسدوه.

وقرأ جمهور الناس: ﴿مُخَيِّصِينَ﴾ بكسر اللام، وقرأ الحسن بن أبي الحسن: ﴿مُخْلِصِينَ﴾ بفتح اللام، وكان ﴿الذَّيْنِ﴾ - على هذه القراءة - منصوب ب﴿لِيَعْبُدُوا﴾، أو بمعنى يدل عليه، على أنه كالظرف أو الحال، وفي هذا نظر، وقيل لعيسى عليه السلام: من المخلص لله تعالى؟ قال: الذي يعمل العمل لله تعالى ولا يُحِبُّ أن يحمده الناس عليه. و﴿حُنَفَاءَ﴾ جمع «حنيف»، وهو المستقيم المائل إلى طريق الخير، قال ابن جبير: لا تسمى العرب حنيفاً إلا من حجّ واختنن، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿حُنَفَاءَ﴾: حجّاجاً مسلمين، و﴿حُنَفَاءَ﴾ نصب على الحال، وكون الزكاة مع الصلاة في هذه الآية مع ذكر بني إسرائيل فيها يقوّي قول من قال: السورة مدنية؛ لأن الزكاة إنما فرضت بالمدينة، ولأن النبي ﷺ إنما دفع إلى مناقضة أهل الكتاب بالمدينة.

وقرأ الجمهور: ﴿وَرَدَّكَ وَيُنُّ الْقِيَمَةَ﴾ على معنى: الجماعة القيمة، أو الفرقة القيمة، وقال

واختلف الناس، عن ماذا؟ فقال مجاهد وغيره: لم يكونوا منفكّين عن الكفر والضلال حتى جاءتهم البينة، وأوقع المستقبل موقع الماضي في ﴿تَأْيِيدِهِمْ﴾ لأن باقي الشريعة وعظمتها لم يرد بعد. وقال الفراء وغيره: لم يكونوا منفكّين عن معرفة صحة نبوة محمد ﷺ والتوكّف لأمره، حتى جاءتم البينة فتفرقوا عند ذلك. وذهب بعض النحويين إلى أن هذا النفي المتقدم مع ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ يجعلها تلك التي هي مع «كان»، ويرى التقدير في خبرها: عارفين لأمر محمد ﷺ أو نحو هذا، ويتجه في معنى الآية قول ثالث بارع المعنى، وذلك أن يكون المراد: لم يكن هؤلاء القوم منفكّين من أمر الله تعالى وقدرته ونظره لهم حتى يبعث إليهم رسولا منذراً، تقوم عليهم به الحجة، وتتمّ على من آمن النعمة، فكأنه تعالى قال: ما كانوا ليُشْرَكُوا سدى، ولهذا نظائر في كتاب الله تعالى. وقرأ بعض الناس: ﴿وَالْمُشْرِكُونَ﴾ بالرفع، وقرأ الجمهور: ﴿وَالْمُشْرِكِينَ﴾ بالخفض، ومعناها بين.

و﴿أَلْيَنَةَ﴾ معناه: القصة البينة والجلية، والمراد محمد ﷺ، وقرأ الجمهور: ﴿رَسُولٌ﴾ بالرفع، وقرأ أبي بن كعب: ﴿رسولا﴾ بالنصب على الحال. و﴿الصُّحُفَ الْمُطَهَّرَةَ﴾: القرآن في صحفه، قاله الضحاك وقتادة، وقال الحسن: الصحف المطهّرة في السماء. وقوله تعالى: ﴿فِيهَا كُتِبَ قِيَمَةٌ﴾ فيه حذف مضاف، تقديره: فيها أحكام كُتِبَ

بمعنى واحد في لغة بني تميم، وقيل: بالفتح مصدر وبالكسر موضع الطلوع عند أهل الحجاز، والقراءة بالفتح أوجه على هذا القول، والأخرى تتخرج على تجوّز، كأن الوقت ينحصر في ذلك الموضع ويتمّ فيه، ويتجه الكسر على وجه آخر، وهو أنه قد شدّ من هذه المصادر ما كسر، كالمعجزة وقولهم: علاه المَكْبَرُ - بفتح الميم وكسر الباء - ومنه المَجْضُ، فيجري «المَطْلَعُ» مصدراً مجرى ما شدّ. وفي حرف أبي بن كعب: ﴿سَلَامٌ هِيَ إِلَى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾.

كمل تفسير سورة القدر والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة البينة

وهي مكية في قول جمهور المفسرين، وقال ابن الزبير، وعطاء: هي مدنية، والأول أشهر.

① - ② تفسير قوله عزّ وجلّ:

في حرف أبي: ﴿مَا كَانَ الَّذِينَ﴾، وفي حرف ابن مسعود: ﴿لَمْ يَكُنِ الْمُشْرِكُونَ وَأَهْلُ الْكِتَابِ مُنْفَكِّينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿مُنْفَكِّينَ﴾ معناه: منفصلين متفرقين، تقول: انفكّ الشيء عن الشيء، إذا انفصل عنه، و«ما انفكّ» التي هي من أخوات «كان» لا مدخل لها في هذه الآية، ونفى في هذه الآية أن تكون هذه الصيغة منفكة.

همزُهُ كَالنَّبِيِّ وَالذُّرِّيَّةِ،
وقال بعض النحويين:
الْبَرِيَّةُ مأخوذ من الْبَرِّي
وهو التراب، وهذا
الاشتقاق يجعل الهمز
خطأً وغلطاً، وهو اشتقاق
غير مرضي.

و «الذين آمنوا وعملوا
الصالحات» شروط تُعْم
جميع أمة محمد ﷺ،
وَمَنْ آمَنَ بِنَبِيِّهِ مِنَ الْأُمَمِ
الماضية. وقرأ جمهور
الناس: «حَيْرٌ» وقرأ
بعض قراء مكة: «خيارٌ»
بألف، وروي حديث عن
النسبي ﷺ أنه قرأ هذه
الآية: «أُولَئِكَ هُمُ حَيْرٌ

الْبَرِّيَّةُ»، ثم قال لعلي بن أبي طالب
رضي الله عنه: «أنت يا علي
وشيعتك»، ذكره الطبري، وفي
الحديث أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا
خير البرية، فقال له: «ذلك إبراهيم
عليه السلام».

وقوله تعالى: ﴿جَزَاءُ هُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ
جَنَّتٌ﴾ فيه حذف مضاف تقديره:
سُكْنَى جَنَاتٍ، أو دخول جَنَاتٍ،
و«العَدْنُ»: الإقامة والدوام، عَدَنَ
بالموضع: أقام، ومنه المعدن لأنه
راس ثابت، قال ابن مسعود: جَنَاتٌ
عَدْنٌ: بُطنان الجنة، أي: وَسَطُهَا.

وقوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا
عَنْهُ﴾ قيل: ذلك في الدنيا، فرضاه
عنهم هو ما أظهر عليهم من أمارات
رحمته وغفرانه، ورضاهم عنه هو
رضاهم بجميع ما قَسَمَ لهم من
جميع الأرزاق والأقذار، وقال بعض

الصالحين: رَضَا العباد عن الله تعالى
رضاهم بما يَرُدُّ من أحكامه، ورضاهُ
عنهم توفيقهم للرضا عنه، وقال أبو
بكر بن طاهر: الرضا عن الله تعالى
خروج الكراهية من القلب حتى لا
يكون إلا فرح وسرور، وقال سري
السقطي: إذا كنت لا ترضى عن الله
فكيف تطلب منه أن يرضى عنك؟
وقيل: ذلك في الآخرة، فرضاهم
عنه هو رضاهم بما مَنَّ عليهم به من
النعم، ورضاه عنهم هو ما روي من
أن الله تعالى يقول لأهل الجنة: «هل
رضيتم بما أعطيتكم؟» فيقولون: نعم
يا ربنا، وكيف لا نرضى وقد أعطيتنا
ما لم نُعط أحدًا من العالمين؟
فيقول: «أفلا أعطيتكم أفضل من كل
ما أعطيتكم؟ رضواني فلا أسخط
عليكم أبداً»، وخصَّ تعالى بالذكر
أهل الخشية لأنها رأس كل بركة،
الناهية عن المعاصي، الأمرة
بالمعروف.

كامل تفسير سورة «لم يكن»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الزلزلة

وهي مكية، قاله ابن عباس وغيره،
وقال قتادة ومقاتل: هي مدنية لأن
آخرها نزل بسبب رجلين كانا
بالمدينة.

١ - ٨ تفسير قوله عز وجل:
العامل في «إِذَا» على قول
جمهور النحاة - وهو الذي يقتضيه

سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ① وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَفْقَالَهَا ②
 ③ وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا ④ يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُ أَخْبَارَهَا ⑤
 بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا ⑥ يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسُ أَسْتَأْذِنًا
 ⑦ لِيُرَوْا أَعْمَلَهُمْ ⑧ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا
 يَرَهُ ⑨ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ⑩

سُورَةُ الْعَنَّاكِيبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَنَّاكِيبِ ضَبَّحًا ① وَالْمُورِيَّتِ قَدْحًا ② وَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا
 ③ فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا ④ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا ⑤ إِنَّ الْإِنْسَانَ
 لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥ وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُ لِحُبِّ
 الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧ أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ⑨

٥٩٩

محمد بن الأشعث الطالقاني:
﴿الْقَيْمَةُ﴾ هنا: الكتب التي جرى
ذكرها، وقرأ بعض الناس: ﴿وَذَٰلِكَ
الَّذِينَ الْقَيْمَةُ﴾، والهاء في «الْقَيْمَةُ» -
على هذه القراءة - بناء مبالغة كعلامة
ونسابة، ويتجه ذلك أيضاً على أن
تجعل ﴿الَّذِينَ﴾ بمنزلة الملة.

١ - ٨ تفسير قوله عز وجل:

حكم الله تعالى في هذه الآية
بتخليد الكافرين من أهل الكتاب
والمشركين - وهم عبدة الأوثان - في
النار، وبأنهم شرُّ البرية، و«الْبَرِّيَّةُ»:
جميع الخلق؛ لأن الله تعالى برأهم،
أي: أوجدهم بعد العدم. وقرأ
نافع، وابن عامر، والأعرج:
«الْبَرِّيَّةُ» بالهمزة، من «بَرَأَ»، وقرأ
الباقون والجمهور: «الْبَرِّيَّةُ» بشد
الياء بغير همز، على التسهيل،
والقياس الهمز إلا أن هذا مما ترك

القياس - فعلٌ مضمَرٌ يقتضيه المعنى وتقديره: يُحشرون إذا، أو يُجازون، ونحو هذا، ويمتنع أن يعمل فيه ﴿زَلَّيْنَا﴾ لأن معنى الشرط لا يفارقها، وقد تقدمت نظائرها في غير سورة.

و ﴿زَلَّيْنَا﴾ معناه: حُرِّكَتْ بعنف، ومنه الزلزال، وقوله تعالى: ﴿زَلَّيْنَا﴾ أبلغ من قوله: «زلزالاً» دون إضافة إليها، وذلك أن المصدر غير مضاف يقع على كل قدر من الزلزال وإن قل، وإذا أضيف إليها وجب أن يكون على قدر ما يَسْتَحِقُّهُ وَيَسْتَوْحِيهِ جِزْمُهَا وَعِظْمُهَا، وهذا كما تقول: «أكرمت زيداً كرامةً»، فلذلك يقع على كل كرامة وإن قلت بحسب «زيد» فإذا قلت: «كِرَامَتُهُ» أوجبت أنك قد وقَّيْتَهُ حَقَّهُ، وقرأ الجمهور: ﴿زَلَّيْنَا﴾ بكسر الزاي الأولى، وقرأ بفتحها عاصم الجحدري، وهو أيضاً مصدر كالوَسْوَاسِ ونحوه.

و «الْأَقْقَالُ»: الموتى الذين في بطنها، قاله ابن عباس، وهذه إشارة إلى البعث، وقال قوم من المفسرين - منهم منذر بن سعيد والزجاج والنقاش -: أخرجت موادها وكنوزها.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليست القيامة بموطن لإخراج الكنوز، وإنما تخرج كنوزها وقت الدجال. وقول الإنسان: «مَالَهَا» هو قول على معنى التَّعْجِبِ من هول ما يرى، قال جمهور المفسرين: الإنسان هنا يراد به الكافر، وهذا متمكَّن

لأنه يرى ما لم يظن به قط ولا صدَّقه، وقال بعض المتأولين: هو عامٌّ في المؤمن والكافر، فالكافر على ما قدمناه، والمؤمن - وإن كان قد آمن بالبعث - فإنه استهول المرأى، وقد قال عليه الصلاة والسلام: «ليس الخبر كالمعاينة».

و «إِخْبَارُ الْأَرْضِ» قال ابن مسعود والثوري وغيرهما: هو شهادتها بما عمل عليها من عمل صالح وفاسد، فالتحديث - على هذا - حقيقة وكلام بإدراك وحياة يخلقها الله تعالى، وأضاف تعالى الأخبار إليها من حيث وَعَثَهَا وَحَصَلَتْهَا، وانتزع بعض العلماء من قوله تعالى: ﴿تُخَبِّرُ أَخْبَارَهَا﴾ أن قول المحدث: «حدَّثنا وأخبرنا» سواة، وقال الطبري وقوم: التحديث في الآية مجاز، والمعنى أن ما تفعله بأمر الله تعالى من إخراج أثقالها، وتَفَقَّتْ أَجْزَائِهَا، وسائر أحوالها، هو بمنزلة التحديث بأنباتها وأخبارها، ويؤيد القول الأول قول النبي ﷺ: «فإنه لا يسمع مدى صوت المؤذن جرُّ ولا إنس ولا شيء إلا شهد له يوم القيامة» وقرأ عبدالله بن مسعود: ﴿تُنَبِّئُ أَخْبَارَهَا﴾، وقرأ سعيد بن جبير: ﴿نُبِّئُ﴾.

قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾، الباء باء السبب. وقال ابن عباس، وابن زيد، والقرطبي: المعنى: أَوْحَى إليها، وهذا الوحي - على هذا التأويل - يحتمل أن يكون وحي إلهام، ويحتمل أن يكون وحيًا

برسول من الملائكة، وقد قال الشاعر:

أَوْحَى لَهَا الْقَرَارَ فَاَسْتَقَرَّتْ
وَسَدَّهَا بِالرَّاسِيَّاتِ الثُّبَيْتِ
والوحي في كلام العرب: إلقاء المعنى إلقاء خفياً. وقال بعض المتأولين: ﴿أَوْحَى لَهَا﴾ معناه: أوحى إلى ملائكته المقربين أن تفعل في الأرض تلك الأفعال وقوله تعالى: ﴿لَهَا﴾ بمعنى: من أجلها، ومن حيث الأفعال فيها فهي لها.

وقوله تعالى: ﴿بَصَدْرُ النَّاسِ أَشْتَاتًا﴾ بمعنى: ينصرفون من موضع وردهم مختلفي الأحوال. وواحد «الأشتات» شتٌ، فقال جمهور الناس: الوزد هو الكون في الأرض بالموت والدفن، والصدْر هو القيام للبعث، و«أَشْتَاتًا» معناه: قومٌ مؤمنون وقوم كافرون وقوم عُصاة مؤمنون، والكلُّ سائر إلى العَرْضِ ليرى عمله ويقف عليه، وقال النقاش: الوزد هو المحشر، والصدْر أشتاتاً هو صدر قوم إلى الجنة وقوم إلى النار.

وقوله تعالى: ﴿يَسْرَرًا أَعْمَلْتَهُمْ﴾ إما أن يكون معناه: جزاء أعمالهم، يراه أهل الجنة بالنعيم وأهل النار بالعذاب، وإما أن يكون قوله تعالى: ﴿يَسْرَرًا أَعْمَلْتَهُمْ﴾ متعلقاً بقوله سبحانه: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾، ويكون قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ بَصَدْرُ النَّاسِ أَشْتَاتًا﴾ اعتراضاً بين أثناء الكلام. وقرأ جمهور الناس:

﴿لِيَرَوْا﴾ بضم الياء على بناء الفعل للمفعول، وقرأ الحسن، والأعرج، وقتادة، وحماد بن سلمة، والزهري، وأبو حنيفة: ﴿لِيَرَوْا﴾ بفتح الياء على بنائه للفاعل.

ثم أخبر تعالى أنه من عمل عملاً رآه، قليلاً كان أو كثيراً، فخرجت العبارة عن ذلك بمثال التقليل، وهذا هو الذي يُسميه أهل الكلام مفهوم الخطاب، وهو أن يكون المذكور والمسكوت عنه في حكم واحد، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُلْ لَمَّا أَتَى﴾، وهذا كثير. وقال بعض الناس وبعض المفسرين: رؤية هذه الأعمال هي في الآخرة، وذلك لازم من لفظ السورة وسردها، فيرى الخير كله من كان مؤمناً، والكافر لا يرى في الآخرة خيراً لأن خيره قد عُجِّلَ له في دنياه، وكذلك المؤمن أيضاً تُعَجَّلَ له سيئاته الصغار في دنياه في المصائب والأمراض ونحوها، فيجئ من مجموع هذا أن من عمل من المؤمنين مثقال ذرة من خير أو شر رآه، فيخرج من ذلك ألا يرى الكافر خيراً في الآخرة، ومنه حديث عائشة رضي الله عنها: (قالت: قلت: يا رسول الله، أ رأيت ما كان يفعل عبدالله بن جُدعان من البرِّ وصلة الرحم وإطعام الطعام، أله في ذلك أجر؟) فقال: «لا، إنه لم يقل قط: رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين») وكان رسول الله ﷺ يسمي هذه الآية... (الجماعة الفأدة)، وقد نص على ذلك حين

سئل عن الحُمْر... الحديث، وأعطى سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه سائلاً تمرتين، فقبض السائل يده، فقال له سعد: ما هذا؟ إن الله تعالى قَبِلَ مَثاقيل الذُّرِّ، وَقَعَلَتْ نحو هذا عائشة رضي الله عنها في حبة عنب، وسمع هذه الآية صعصعة بن عقال التميمي عند النبي ﷺ فقال: حَسْبِي، لا أبالي أن أسمع غيرها، وسمعها رجلٌ عند الحسن فقال: انتهت الموعظة، فقال الحسن: فَفَهَ الرَّجُلُ.

وقرأ هشام عن ابن عامر، وأبو بكر عن عاصم: ﴿يَرَى﴾ بسكون الهاء في الأولى والآخرة، وقرأ ابن كثير، وحمزة، والكسائي، ونافع - فيما رَوَى عنه ورش - والحلواني عن قالون عنه في الأولى: ﴿يَرَى﴾ وأما الآخرة فهو سكون وقف، وأما من أسكن الأولى فهي على لغة من يخفف، ومنه قول الشاعر:

وَمَطْوَايَ مُشْتَاقَانِ لَهُ أَرْقَانِ
وهذه لغة لم يحكها سيبويه لكن حكاها الأَخْفَشُ، وقرأ أبو عمرو حده بضم الهاء فيهما مُشْبَعَتَانِ، وقرأ أبان عن عاصم، وابن عباس، وأبو حنيفة، وحميد بن الربيع عن الكسائي: ﴿يَرَى﴾ بضم الياء، وهي رؤية بصر، بمعنى: يجعله يدركه بصره، والمعنى: يَرَى ثوابه وجزائه لأن الأعمال الماضية لا تُرى بعين أبدأ، وهذا الفعل كله من «رأيت» بمعنى

أَدْرَكْتُ ببصري، فتعديه إنما هو إلى مفعول واحد، وقرأ عكرمة: ﴿خَيْراً يَرَاهُ﴾ و﴿شَرّاً يَرَاهُ﴾، وقال النقاش: ليست برؤية بصر؛ وإنما المعنى: يُصَيِّه ويناله.

ويروى أن هذه السورة نزلت وأبو بكر رضي الله عنه يأكل مع رسول الله ﷺ، فترك أبو بكر رضي الله عنه الأكل ويكي، فقال له رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ما يُبكيك؟» قال: يا رسول الله، أو أسأل عن مَثاقيل الذُّرِّ؟ فقال رسول الله ﷺ: «يا أبا بكر، ما رأيت في الدنيا ممَّا تكره فمَثاقيل ذرِّ الشَّرِّ، ويدخر الله لك مَثاقيل ذرِّ الخير».

و «الذُّرَّة» نملة صغيرة حمراء رقيقة لا يرجح بها ميزان، ويقال: إنها تجري إذا مضى لها حول، وقد تُؤوَّل ذلك في قول امرئ القيس:

مِنَ الْقَاصِرَاتِ الطُّرْفِ لَوْ دَبَّ مَحْوُولٌ
مِنَ الذُّرِّ فَنَوَّقَ الْإِنْبِ مِنْهَا لِأَثْرَا
وحكى النقاش أنهم قالوا: كان بالمدينة رجلان أحدهما لا يبالي عن الصغائر يرتكبها، كان الآخر يريد أن يتصدَّق فلا يجد إلا اليسير فيستحي من الصدقة، فنزلت الآية فيهما، كأنه يقال لأحدهما: تصدَّق باليسير فإن مثقال ذرة الخير تُرى، وقيل للآخر: كُفِّ عن الصغائر فإن مقادير ذرِّ الشَّرِّ تُرى.

كامل تفسير سورة «الزلزلة»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة العاديات

وهي مكية في قول جماعة من أهل العلم، وقال المهدي عن أنس بن مالك: هي مدنية.

١ - ١١ تفسير قوله عز وجل: اختلف الناس في المراد بالعاديات - فقال ابن عباس، وقتادة، ومجاهد، وعكرمة: أراد الخيل لأنها تعدو بالفرسان وتضبح بأصواته، قال بعضهم: وسببها أن رسول الله ﷺ بعث خليلاً إلى بني كنانة سرية، فأبطأ أمرها عليه حتى أرجف بعض المنافقين، فنزلت الآية معلمة أن

خيله عليه الصلاة والسلام قد فعلت جميع ما في الآيات. وقال آخرون: القسم هو بالخيال جملة لأنها تعدو ضابحة قديماً وحديثاً، وهي حاصرة البلاد وهادمة الممالك وفي نواصيها الخير إلى يوم القيامة، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وابن مسعود، وإبراهيم، وعبيد بن عمير: العاديات في هذه الآية الإبل لأنها تَضْبِحُ في عَدْوِهَا، وقال علي: والقسم بالإبل العاديات من عرفة ومن المزدلفة إذا دفع الحاج، وإبل غزوة بدر، فإنه لم يكن في الغزوة غير فرسين، فرس المقداد وفرس الزبير.

و «الضَّبْحُ» تصويت جهير عند العدو الشديد، ليس بصهيل ولا رُغَاءٍ ولا نُباح، بل هو غير المعتاد من صوت الحيوان الذي يضح، وحكى ابن عباس رضي الله عنهما أنه ليس

يضح من الحيوان غير الخيل والكلاب، وهذا عندي لا يصح عن ابن عباس، وذلك أن الإبل تضبح، والأسود من الحيات، واليوم والصدى والأرنب والشعلب والفرس، هذه كلها قد استعملت العرب لها الضبح، أنشد أبو حنيفة في صفة قوس:

حَثَانَةٌ مِنْ نَسَمٍ أَوْ تَأَلَّبُ
نَضْبِحُ فِي الْكَفِّ ضَبَاحَ الْغُلْبِ
والظاهر في الآية أن القسم بالخيال أو بالإبل أو بهما.

قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَّتِ﴾
فَدَمًا ﴿١﴾، قال علي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما: هي الإبل، وذلك أنها في عَدْوِهَا تَرْجُمُ الحصى بالحصى فتطير منه النار، فذلك القَدْحُ، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هي الخيل، وذلك بحوافرها في الحجارة، وذلك معروف، وقال عكرمة: الموريات قدحاً هي الألسن، فهذا على الاستعارة، أي: أنها تقدح الحَجَجِ وتظهرها، وقال مجاهد: الموريات قدحاً يراد به مكْرُ الرجال، وقال قتادة: الموريات الخيل تشعل الحرب، فهي أيضاً على الاستعارة البَيِّنَةُ، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من العلماء: الكلام عام يُدْخِلُ في القسم كل من يظهر بقدحه ناراً، وذلك شائع في الأمم طوال الدهر، وهو نفع عظيم من الله تعالى في



عباده، وقد وقف عليه في قوله سبحانه: ﴿أَوَّلَ بَيْتٍ تَقَّسَمُ بِهِ﴾، ومعناه: تُظْهِرُونَ بالقدح، قال عدي بن زيد:

فَقَدَحْنَا زِنَادَنَا وَوَرَيْنَا
فَوْقَ جُرْثُومَةٍ مِنَ الْأَرْضِ نَارًا
قوله تعالى: ﴿فَالْمُورِيَّتِ ضَبَّاحًا﴾، قال علي بن أبي طالب وابن مسعود رضي الله عنهما: هي الإبل من مزدلفة إلى منى، أو في بدر، والعرب تقول: «أغار» إذا عَدَا حرباً، ونحوه، وقال ابن عباس وجماعة كثيرة: هي الخيل، واللفظة من الغارة في سبيل الله وغير ذلك من سير الأمم، وعُزِفَ الغارات أنها مع الصباح لأنها تسري ليلة الغارة.

و «النُّفْعُ»: الثُّبَارُ الساطع المثار. وقرأ أبو حيو: ﴿فَالْمُورِيَّتِ﴾ بشد الشاء،

لا يعرفون غير ذلك، فأما المحب في خير الآخرة فمدوح مرجو له الفوز.

وقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ﴾ توقيف على المال والمصير، أي: أفلاً يعلم ما له ومصيره فيستعد له؟ و﴿بَعَثَ مَا فِي الْقُبُورِ﴾: نقضه مما يستره والبحث عنه، وهي عبارة عن البعث، وفي مصحف ابن مسعود: ﴿بُحْتُ مَا فِي الْقُبُورِ﴾، وفي حرف أبي ﴿وَبُحِثِرَتِ الْقُبُورُ﴾، و﴿تَخْصِيلُ مَا فِي الصُّدُورِ﴾: تَمَيُّزُهُ وَكَشْفُهُ ليقع الجزاء عليه من إيمان وكفر وتبئة، ويفسره قوله عليه الصلاة والسلام: «فَيُبْعَثُونَ عَلَى نِيَّاتِهِمْ»، وقرأ يحيى بن يعمر، ونصر بن عاصم بفتح الحاء والصاد. ثم استأنف الخبر الصادق الجزم بأن الله تعالى خبير بهم يومئذ، وهو تعالى خبير دائماً، لكن خصص يومئذ لأنه يؤمُّ المُجَازَاةَ فإليه طمحت النفوس، وفي هذا وعيد موضح.

كامل تفسير سورة «العاديات»
والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة القارعة

وهي مكية بلا خلاف.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قرأ: «القَارِعَةَ، مَا الْقَارِعَةُ» بالنصب عيسى، قال جمهور المفسرين: القارعة: القيامة نفسها؛ لأنها تفرع القلوب بهولها، وقال قوم

الكفور بالنعمة، فتقدير الآية: إن الإنسان لنعمة ربّه لكونه، و﴿أَرْضُ كِنُودٍ﴾: لا تنبت شيئاً، وقال الحسن بن أبي الحسن: الكنود: اللائم لربّه سبحانه، يعدّ السيئات وينسى الحسنات، والكنود: العاصي بلغة كندة، ويقال للبخيل: كنودٌ، قال أبو زبيد:

إِنْ تَفْتَنِي فَلَمْ أَطِبْ عَنْكَ نَفْساً
غَيْرَ أَنِّي أَمْسَى بِدَهْرٍ كَنُودٍ
وقال الفضيل: الكنود هو الذي تنسيه سيئة واحدة حسنات كثيرة، ويعامل الله على عقد عوض.

وقوله تعالى: ﴿وَلَيْئَكَ عَنَّ ذَلِكَ لَشَيْبٌ﴾: يحتمل الضمير أن يعود على الله تعالى، وقاله قتادة، أي: ورثه شاهد عليه، ونفس هذا الخير يقتضي الشهادة بذلك، ويحتمل أن يعود على الإنسان، أي: أفعاله وأقواله وحاله المعلومة من هذه الأخلاق تشهد عليه، فهو شاهد على نفسه بذلك، وهذا قول الحسن ومجاهد.

والضمير في قوله تعالى: ﴿وَلَيْئَكَ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾: عائد على الإنسان لا غير، والمعنى: من أجل حب الخير لشديد، أي: بخيل بالمال ضابط له، ومنه قول الشاعر:

أَرَى الْمَوْتَ يَغْتَامُ الْكِرَامَ وَيَضْطَفِي

عَقِيلَةَ مَالِ الْفَاجِحِ الْمُتَشَدِّدِ
و «الْمَخِيْرُ»: المال على عرف ذلك في كتاب الله تعالى، قال عكرمة: الخير حيث وقع في القرآن فهو المال. ويحتمل أن يريد هنا الخير الدنيوي من مالٍ وصحةٍ وجاهٍ عند الملوك ونحوه؛ لأن الكفار والجهال

والضمير في ﴿يَوْمٍ﴾ ظاهره أنه للصبح المذكور، ويحتمل أن يكون للمكان والموضع الذي يقتضيه المعنى وإن كان لم يجر له ذكر، ولهذا أمثلة كثيرة، ومشهور «إِنَارَةُ النَّعْقِ» هو للخيل، ومنه قول الشاعر:

يُخْرِجُنْ مِنْ فُرْجَاتِ النَّعْقِ دَائِمَةً
كَأَنَّ أَذَانَهَا أَطْرَافُ أَثْلَامٍ
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: هو هنا للإبل تشير النَّعْقُ بِأَخْفَافِهَا.

قوله تعالى: ﴿فَوْسَطَنَ يَوْمَ جَمَاعَةٍ﴾، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه وابن مسعود رضي الله عنه: هي الإبل، و«جَمْعٌ» هي المزدلفة، وقال ابن عباس وجماعة: هي الخيل، والمراد جَمْعُ من الناس هم المغزؤون، وقرأ علي وابن مسعود وقتادة: ﴿فَوْسَطُنْ﴾ بشد السين، وقال بشر بن أبي خازم:

فَوْسَطُنْ جَمْعُهُمْ وَأَقَلَّتْ حَاجِبُ
تَحْتِ الْعَجَاجَةِ فِي الْعُبَارِ الْأَقْتَمِ
وذكر الطبري عن زيد بن أسلم أنه كان يكره تفسيره هذه الألفاظ ويقول: هو قَسَمَ أَقْسَمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ، وجمهور العلماء والأمة مفسرون لها كما ذكرنا.

والقَسَمَ واقع على قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ﴾، وروي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «أتدرون ما الكنود؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: «الكنود الذي يأكل وحده، ويمنع رفده، ويضرب عبده»، وقد يكون في المؤمنين

من المتأولين: القارعة: صيحة النفخة في الصور؛ لأنها تفرغ الأسماع وفي ضمن ذلك القلوب. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ﴾ تعظيم لأمرها، وقد تقدم مثله.

﴿يَوْمَ﴾ ظرف، والعامل فيه ﴿الْقَارِعَةُ﴾، وأمال أبو عمرو ﴿الْقَارِعَةُ﴾. و﴿الْفَرَّاشُ﴾ طير دقيق يتساقط في النار ويقصدها ولا يزال يتقحم على المصباح ونحوه حتى يحترق، ومنه قول النبي ﷺ: «وأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تتقحمون فيها تقاحم الفرائش والجنادب»، وقال الفراء: الفرائش في الآية غوغاء الجراد، وهو صغيره الذي ينتشر في الأرض والهواء، و«المبثوث» معناه: المتفرق جمعه وجملته موجودة متصلة، وقال بعض العلماء: الناس أول قيامهم من القبور كالفرائش المبثوث؛ لأنهم يجيئون ويذهبون على غير نظام، ثم يدعوهم الداعي فيتوجهون إلى ناحية المحشر، فهم حينئذ كالجراد المنتشر؛ لأن الجراد إنما توجهه أبداً إلى ناحية مقصودة.

واختلف اللغويون في «العَيْن» - فقيل: هو الصوف عاماً، وقيل: هو الصوف الأحمر، وقيل: هو الصوف المُلُون ألواناً، واحتج هؤلاء بقول زهير:

كَأَنَّ فُتَاتَ الْعَيْنِ فِي كُلِّ مَنزِلٍ
نَزَلْنَ بِهِ حَبَّ الْقَنَا لَمْ يَحْطَمْ
وَالْقَنَا: عنب الثعلب، وحبّه قبل التحطيم منه الأخضر والأحمر والأصفر، وكذلك الجبال جُدُد بيض وحمز وصرز وسود، فجاء التشبيه

ملائماً، وكَوْنُ الجبال كالعَيْنِ إنما هو قبل وقت التفتيت وقبل النسف ومصيرها هنا، وهي درجات. و«الثَّفَشُ»: خلخلة الأجزاء وتفريقها عن تراصها، وفي قراءة ابن مسعود، وابن جبير: «كَالصُّوفِ الْمُتَفْشِي».

و «الموازن» هي التي في القيامة، قال جمهور العلماء والفقهاء والمحدثين: ميزان القيامة بعمود وكفتين ليبيّن الله تعالى أمر العباد بما عهدوه وتيقنوه، وقال مجاهد: ليس ثَمَّ ميزان، إنما هو العدلُ مَثَلُ ذَكَرَهُ بالميزان؛ إذ هو أعدل ما يدري الناس، وجمعت الموازين للإنسان لما كانت له موزونات كثيرة متغايرة، وثقل هذا الميزان هو بالإيمان والأعمال، وخفّته بعدمها وقتلتها، ولن يخفّ خفة موبقة ميزان مؤمن.

و «عَيْشَةٌ رَاضِيَةٌ» معناه: ذات رضى، على النسب، هذا قول الخليل وسيبويه، وقوله تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ حَاوِيَةً﴾، قال كثير من المفسرين: المراد بالأَمِّ نفس الهاوية، وهي ذك من أذراك النار، وهذا كما يقال للأرض: «أُمُّ النَّاسِ» لأنها تُؤويهم، وكما قال عتبة بن أبي سفيان في الحرب: «فنحن بنوها وهي أُمنا» فجعل الله تعالى الهاوية أُمُّ الكافر لما كانت مأواه، وقال آخرون: هذا تفاؤلٌ بشرّ فيه تجوز، كما قالوا: «أُمُّه ناكلٌ» و«هوى نَجْمُه»، وقال أبو صالح وغيره: المراد أُمُّ رأسه لأنهم يهونون على رؤوسهم. وقرأ طلحة: ﴿فِي أُمَّه﴾ بكسر الهمزة وضم الميم مشددة.

ثم قرّر تعالى نبيّه ﷺ على دراية

أمرها وتعظيمه، ثم أخبره أنها ناز حامية، وقرأ: ﴿مَا هِيَ﴾ بطرح الهاء في الوصل ابنُ أبي إسحق والأعمش، وروى المبرّد أن النبي ﷺ قال لرجل: «لَا أُمُّ لَكَ»، فقال: يا رسول الله، تدعوني إلى الهدى وتقول: لَا أُمُّ لَكَ؟ فقال: «إِنَّمَا أُرِيدُ: لَا نَارَ لَكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿قَاتِلُوهُمْ حَاوِيَةً﴾».

كامل تفسير سورة القارعة والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة التكاثر

وهي مكية لا أعلم فيها خلافاً.

١ - ٨ - تفسير قوله عز وجل: ﴿الْهَنَآءُ﴾ معناه: شغلكم بلذاته، ومنه «الهُوُ الحديث والأصوات» واللهو بالنساء، وهذا خبر فيه تفرّيع وتوبيخ وتحسر. وقرأ ابن عباس وأبو عمران الجوني، وأبو صالح: ﴿الْهَآءُ﴾ على الاستفهام.

و «التكاثر» هو المفاخرة بالأموال والأولاد والعدد جملة، وهذا هجيزى أهل الدنيا وأبنائها العرب وغيرهم، لا يتخلّص منه إلا العلماء المتقون، وقد قال الأعشى:

وَلَسْتُ بِالْأَكْثَرِ مِنْهُمْ حَصَى
وَإِنَّمَا الْعِزَّةُ لِلْكَآئِرِ

وقال النبي ﷺ: «يقول ابن آدم: مالي مالي، وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأنتيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت؟»

واختلف المتأولون في معنى قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ - فقال بعضهم: حتى ذكرتم الموتى في تفاخركم بالآباء والسلف، وتكثرتكم بالعظام الرميم، وقال آخرون: المعنى: حتى مُتُّم وزرتم المقابر بأجسادكم مقابركم، أي: قطعتم بالتكاثر أعمارهم، وعلى هذا التأويل زوي أن أعرابياً سمع هذه الآية فقال: بعث القوم لقيامه ورب الكعبة، فإن الزائر منصرف لا يقيم، وحكى النقاش هذه النزعة عن عمر بن عبدالعزيز، وقال آخرون: هذا تأنيب على الإكثار من زيارة القبور، أي: جعلتم أشغالكم القاطعة لكم عن العلم والتعلم زيارة القبور تكثراً بمن سلف وإشادة بذكره، وقال: ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها ولا تقولوا هجرها»، فكان نهي عليه الصلاة والسلام في معنى الآية، ثم أباح بَعْدُ لمعنى الاعتنا لا لمعنى المباحات والافتخار كما يفعل الناس في ملازمتها وتسنيمها بالرخام والحجارة، وتلويها سرفاً، وبنیان النواويس عليها.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ زجر ووعيد، ثم كرر تعالى ﴿كَلَّا﴾ تأكيداً، ويأخذ الناس من هذا الزجر والوعيد المكروزين كل أحد على قدر حظه من التوغل فيما يكره، هذا تأويل جمهور الناس، وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: كَلَّا

ستعلمون في القبور، كَلَّا ستعلمون في البعث، وقال الضحاك: الزجر الأول ووعيده للكفار والثاني للمؤمنين. وقرأ مالك بن دينار: ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ فيها.

وقوله تعالى: ﴿كَلَّا لَوْ تَصَلُّونَ﴾ جواب «لَوْ» محذوف مقدر في القول، أي: لآزدرجتم وبادرتم إنقاذ أنفسكم من الهلكة، واليقين أعلى مراتب العلم. ثم أخبر تعالى الناس أنهم يرون الحميم. وقرأ ابن عباس، والكسائي: ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ بضم التاء، وقرأ الباقون بفتحها، وهي الأرجح، وكذلك في الثانية، وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بفتح التاء في الأولى وضمها في الثانية، وروي ضمها عن ابن كثير وعاصم.

و «لَتَرَوُنَّ» أصله: تَرَوِيُونَ، نقلت حركة الهمزة إلى الراء، وقلبت الياء ألفاً لحركتها بعد مفتوح ثم حذفت الألف لسكونها وسكون الواو بعدها، ثم جلبت النون المشددة فحركت الواو بالضم لسكونها وسكون النون الأولى من المشددة؛ إذ قد حذفت نون الإعراب للبناء. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هذا خطاب للمشركين، فالمعنى - على هذا - أنها رؤية دخول وصلي، وهو عين اليقين، وقال آخرون: الخطاب للناس كلهم، فهي كقوله تعالى: ﴿وَإِن يَنْكُرُوا إِلَّا وَارِدُهَا﴾، فالمعنى أن الجميع يراها، ويجوز الناجي ويتكردس فيها الكافر. وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّ عَنِ الْبَاقِينَ﴾ تأكيد في الخبر، و«عَيْنُ اليقين» حقيقته وغايته. وروي عن

الحسن وأبي عمرو أنهما همزاً ﴿لَتَرَوُنَّ﴾ و﴿لَتَرَوُنَّ﴾ بخلاف عنهما، وروي عن ابن كثير: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّ﴾ بضم التاء.

ثم أخبر تعالى أن الناس مسؤلون يومئذ عن نعيمهم في الدنيا، كيف نالوه؟ ولم آثروه؟ ويتوجه في هذا أسئلة كثيرة بحسب شخص شخص، هي منقادة لمن أعطي فهما في كتاب الله تعالى، وقال ابن مسعود، والشعبي، وسفيان، ومجاهد: النعيم هو الأمن والصحة، وقال ابن عباس: هو البَدَن والحواس، يسأل المرء فيما استعملهما؟ وقال ابن جبير: هو كل ما يتلذذ به من طعام وشراب، وأكل رسول الله ﷺ هو وبعض أصحابه رطباً، وشربوا عليه ماء فقال لهم: هذا من النعيم الذي تُسألون عنه، ومضى عليه الصلاة والسلام يوماً هو وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما - وقد جاعوا - إلى منزل أبي الهيثم بن التيهان، فذبح لهم شاة، وأطعمهم خبزاً ورطباً، واستعذب لهم ماء، وكانوا في ظِلِّ، فقال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لتسألن عن نعيم هذا اليوم»، وروي عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: «النعيم المسؤول عنه كسرة تقوته، وماء يرويه، وثوب يواريه». وروي أبو هريرة عن النبي ﷺ: «أن النعيم المسؤول عنه الماء البارد في الصيف»، وقال عليه الصلاة والسلام: «من أكل خبز البُرِّ، وشرب الماء البارد في ظِلِّ، فذلك النعيم الذي يسأل عنه»، وقال عليه الصلاة والسلام: «بيت يكفك،

سُورَةُ الْعَصْرِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُ خَسِرٌ ﴿٢﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالعَقْرِ ﴿٣﴾ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ﴿٤﴾

سُورَةُ الْهَمِزَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ﴿١﴾ الَّذِي جَمَعَ مَا لَا وَعَدَّدَهُ ﴿٢﴾ يُحَسِّبُ أَنَّ مَا لَهُ أَخْلَدَهُ ﴿٣﴾ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي النَّطْمَةِ ﴿٤﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا لَمْ يُخَطِّمِ ﴿٥﴾ نَارَ اللَّهِ الْمُوقَدَةَ ﴿٦﴾ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴿٧﴾ إِنَّا عَلَّمْنَاهُمْ تَوْصِيَةً ﴿٨﴾ فِي عَمْرِئِ مُسْتَدِيمٍ ﴿٩﴾

سُورَةُ الْفَيْتَنِكَ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْفَيْتَنِكَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْبَيْتِ ﴿١﴾ الَّذِينَ جَعَلَ كِيْدَهُمْ فِي تَضَلُّلٍ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَغْرًا أَبْيَسَ ﴿٣﴾ لِيَتَّبِعَهُمْ فِي جَهَنَّمَ رِجْزًا رِجْزًا ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴿٥﴾

تفسير سورة الهمزة

وهي مكية بلا خلاف.

١ - ﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل:

﴿وَيْلٌ﴾ يجمع الشر والخزي، وقيل: ونيل واد في جهنم، و«الهمزة»: الذي يهزم الناس بلسانه، أي: يعيهم ويغتابهم، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: هو المشاء بالميم.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: وليس به، لكنهما صفتان بتلازم، قال تعالى: ﴿هَازِجٌ مَّشَاءً بَيِّيرٌ﴾ وقال مجاهد: الهمزة: الذي يأكل لحوم الناس، وقيل لأعرابي: أتهمز إسرائيل؟ قال: إني إذا لرجل سوء، حسب أنه يقال له: أنتع في سيئه؟

وخزفة تواريك، وكسرة تشد قلبك، وما سوى ذلك فهو نعيم»، وقال النبي عليه الصلاة والسلام: «كل نعيم فهو مسؤول عنه، إلا نعيماً في سبيل الله عز وجل».

كامل تفسير سورة «التكاثر» والحمد لله رب العالمين

تفسير
سورة العصر

وهي مكية.

١ - ﴿١﴾ تفسير قوله عز وجل:

قال ابن عباس رضي الله عنهما: العَصْرُ: الدهر، يقال فيه: عَصُرَ وَعَصُرَ - بضم العين والصاد - قال امرؤ القيس:

وَهَلْ يَعْمَرُ مَنْ كَانَ فِي الْعَصْرِ الْخَالِي؟
وقال قتادة: العَصْرُ: العشي، وقال أبي بن كعب: سألت النبي ﷺ عن العَصْر فقال: «أَقْسَمُ رَبُّكَ بِأَخْرِ النَّهَارِ»، وقال بعض العلماء - وذكره أبو علي - العَصْرُ: اليوم، والعَصْرُ: الليلة، ومنه قول حنيد:

وَلَكِنْ يَلْبَثُ الْعَصْرَانِ يَوْمٌ وَلَيْلَةٌ
إِذَا طَلَبَا أَنْ يُدْرِكَا مَا تَيَمَّمَا

وقال بعض العلماء: العَصْرُ بكرة، والعَصْرُ عشية، وهما الأبردان، وقال مقاتل: العَصْرُ هي الصلاة الوسطى، أقسم الله تعالى بها.

و«الإنسان» اسم جنس، و«الخُسْرُ»: النقصان وسوء الحال، وذلك بين غاية البيان في الكافر، إنه

وقرأ علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

﴿والعصر، ونوابس الدهر، إن الإنسان﴾، وفي مصحف عبدالله: ﴿والعصر، لقد خلقنا الإنسان في خسر﴾، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قرأ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ، وَإِنَّ فِيهِ إِلَى آخِرِ الدَّهْرِ، إِلَّا الَّذِينَ﴾، وقرأ عاصم، والأعرج: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ بضم السين، وقرأ سلام أبو المنذر: ﴿وَالْمَصِيرُ﴾ بكسر الباء، وهذا لا يجوز إلا في الوقف، على نقل الحركة، وروي عن أبي عمرو: ﴿بِالصَّبْرِ﴾ بكسر الباء إشماماً، وهذا أيضاً لا يكون إلا في الوقف.

كامل تفسير سورة العصر والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الفيل

وهي مكية إجماعاً من الرواة.

① - ⑤ تفسير قوله عز وجل:

﴿كَيْفَ﴾ نصب بـ ﴿فَعَلَ﴾،

والجمهور على أنه فيل واحد، وقال الضحاك: ثمانية، فهو اسم الجنس، وقوله مردود، وحكى النقاش ثلاثة عشر.

وهذه السورة تنبيه على اعتبار في أخذ الله عز وجل لأبرهة ملك الحبشة ولجيشه حين أم به الكعبة ليهدمها، وكان صاحب فيل يركبه. وقصته مشهورة في السيرة طويلة، واختصارها أنه بنى في اليمن بيتاً، وأراد أن يرد إليه حج العرب، فذهب عربي فأحدث في البيت الذي بناه أبرهة، فغضب لذلك واحتفل في جموعه، وركب الفيل وقصد مكة، وغلب من تعرضه في طريقه من قبائل العرب، فلما وصل ظاهر مكة، وفرَّ عبدالمطلب وقريش إلى الجبال والشعاب، وأسلموا له البلد، وغلب طغيانه، ولم يكن للبيت من البشر من يعصمه، جاءت قدرة الواحد القهار، وأخذ العزيز المقتر الجبار، فأصبح أبرهة ليدخل مكة ويهدم الكعبة، فبرك فيله بذئ المغمس ولم يتوجه قبيل مكة، فبضعوه بالحديد فلم يمش إلى ناحية مكة، وكان إذا وجهه إلى غيرها هرول، فبينما هم كذلك في أمر الفيل بعث الله تعالى عليهم طيراً جماعات سوداً من البحر - وقيل خضراً - عند كل طير ثلاثة أحجار

محيصن، والحسن - بخلاف عنه - : ﴿لَيْفِيذَانُ﴾ بنون مكسورة مُشَدَّدة قبلها ألف، يعني: هو وماله، وزوي عنه ضم اللذال على نبد جماعة، هو وماله وعدده، أو يريد جماعة الهُمزات.

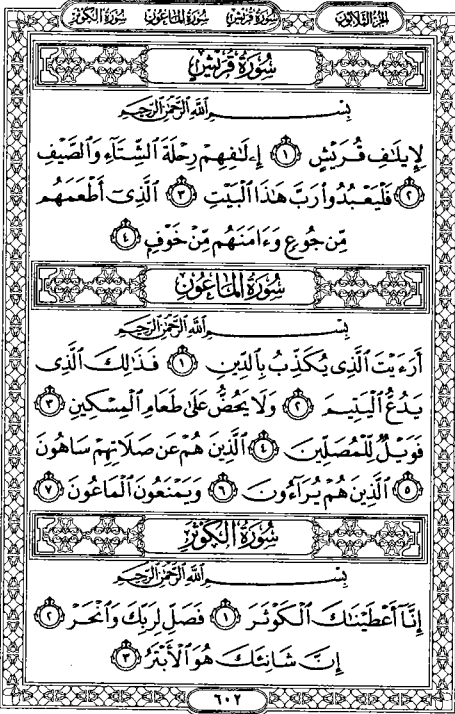
ثم عظم الله تعالى شأنها، وأخبر أنها نار الله الموقدة التي يبلغ إحراقها القلوب ولا تخمد، و«الفؤاد» القلب، ويحتمل أن يكون المعنى: إنها لا يتجاوزها أحد حتى تأخذه بواجب عقيدة قلبه ونيته، فكأنها مطلة على القلوب باطلاع الله تعالى إيَّاهما، ثم أخبر تعالى أنها عليهم مؤصدة، ومعناه: مطبقة أو مغلقة، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: أبواب النار بعضها فوق بعض. وقوله تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ عَدُوَّ﴾ جمع «عمود» مثل أديم وأدم، وهي عند سيبويه أسماء جمع لا جموع جارية على الفعل. وقرأ ابن مسعود: ﴿مُؤَصَّدَةٌ بِعُمُدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ وقال ابن زيد: المعنى: في عمد حديد مغلولين لها، والكل من نار، وقال أبو صالح: هذه النار هي في قبورهم. وقرأ عاصم - في رواية أبي بكر - وحمزة، والكسائي: ﴿عُمُدٍ﴾ بضم العين والميم، وقرأ الباقون وحفص عن عاصم بفتحهما. وقرأ الجمهور: ﴿مُمَدَّدَةٍ﴾ بالخفض، على نعت «العُمُد»، وقرأ عاصم: ﴿مُمَدَّدَةٍ﴾ بالرفع على اتباع ﴿مُؤَصَّدَةٍ﴾.

كامل تفسير سورة «الهمزة»
والحمد لله رب العالمين

و«اللُّمَزَةُ» قريب من المعنى في «الهُمَزَةُ»، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ﴾، وقرأ ابن مسعود، والأعمش: ﴿وَيُنذِرُ لِلهُمَزَةِ اللَّمَزَةَ﴾، وهذا البناء الذي هو «فَعْلَةٌ» يقتضي المبالغة في معناه، وقال أبو العالية، والحسن: الهمزُ بالحضور واللَّمزُ بالمغيب، وقال مقاتل ضد هذا، وقال ابن أبي نُجَيْج: الهمزُ باليد والعين واللَّمزُ باللسان، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَئِذٍ مَنْ يُلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ﴾.

وقيل: نزلت هذه الآية في الأخنس بن شريق، وقيل: في جميل بن عامر الجمحي، ثم هي تناول كل من اتصف بهذه الصفات. وقرأ ابن عامر، وحمزة، والكسائي، والحسن: ﴿جَمَعَ﴾ بشد الميم، والباقون بالتخفيف، وقوله تعالى: ﴿وَعَدَدَهُمْ﴾ معناه: أحصاه وحافظ على عدده ألا يُتَقَصَّ، فمنعه من الخيرات ونفقة البر، وقال مقاتل: المعنى استعدّه وأذخره، وقرأ الحسن: ﴿وَعَدَدَهُ﴾ بتخفيف الدالين، فقيل: المعنى: جمع مالا وعدداً من عشيرة، وقيل: أراد «عدده» مشدداً فحلَّ التضعيف. وهذا قَبِيحٌ.

وقوله تعالى: ﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُمْ﴾ معناه: يحسب أن ماله هو معنى حياته وقوامها، وأنه حفظه مدة عمره ويحفظه، ثم ردَّ تعالى على هذه المحسبة، وأخبر إخباراً مؤكداً أنه يُنذِرُ في الحطمة، أي: التي تحطم ما فيها وتلتهمه. وقرأ: ﴿يَحْسَبُ﴾ - بفتح السين - الأعرج، وأبو جعفر، وشيبة، وقرأ ابن



أبو المليح الهذلي: «فتركهم كعصف»، وقال أبو حاتم: وقرأ بعضهم: «فجعلتهم». يعنون الطير - بفتح اللام وتاء ساكنة، وقال عكرمة: العصف: حبُّ البُرِّ إذا أكل فصار أجوف، وقال الفراء: هو أطراف الزرع قبل أن يُسْتَبَل. وهذه السورة متصلة في مصحف أبي بن كعب بسورة «إيلاف قريش»، لا فصل بينهما، وقال سفيان بن عيينة، كان لنا إمام يقرأ بهما متصلة سورة واحدة.

في منقاره ورجليه، كلُّ حجر فوق العدسة ودون الحُمْصَة، فرمتهم بتلك الحجارة، وكان الحجر منها يقتل المرمي، وتتهراً لحومهم جرباً وأسقاماً، وانصرف أبرهة بمن معه يريد اليمن، فماتوا في طريقهم متفرقين في كل مرحلة، وتقطع أبرهة أنملة أنملة حتى مات، وحى الله تعالى بيته المرفُوع، فنزلت هذه السورة مُنْبِهة على الاعتبار بهذه القصة، ليعلم الكلُّ أن الأمر كله لله تعالى، ويستسلموا للإله الذي ظهرت في ذلك قدرته حين لم تغن الأصنام شيئاً. فأصحاب الفيل هم أبرهة المليك ورجاله. وقرأ أبو عبد الرحمن: «ألم تر» بسكون الراء، و«التضليل»: الحَسَار والتلف. و«الأبابل»: الجماعاتُ تجيء شيئاً بعد شيء، وقال أبو عبيدة: لا واحد له من لفظه، وهذا هو الصحيح، لا ما تكلفه بعض النحاة وقال كعب:

كَادَتْ تُهْدِي مِنَ الْأَصْوَاتِ رَاحِلَتِي
إِذْ سَأَلْتُ الْأَرْضَ بِالْجُزْدِ الْأَبَابِيلِ
وَقَدْ تَقَدَّمَ تَفْسِيرُ «حِجَارَةِ السُّجَيْلِ»
غَيْرَ مَرَّةٍ، وَهُوَ مِنْ «سَنْجٍ وَكَيْلٍ»،
أَي: مَاءٍ وَطِينٍ، كَأَنَّهَا الْأَجْرُ وَنَحْوَهُ
مِمَّا طُبِخَ، وَهِيَ الْمَسْمُومَةُ عِنْدَ اللَّهِ
تَعَالَى لِلْكَفَّارِ وَالظَّالِمِينَ.

و«العصف»: ورق الحنطة وتبينه، ومنه قول علقمة بن عبدة:

تَسْقِي مَذَابِحَ قَدْ زَالَتْ عَصِيفَتُهَا
حَدُودَهَا مِنْ آتِي الْمَاءِ مَطْمُومٌ
والمعنى: صاروا طحيناً ذاهباً كورق الحنطة أكلته الدوابُّ وراثته فجمع المهانة والخسة والتلف. وقرأ

كامل تفسير سورة «الفيل» والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة قريش

وهي مكية بلا خلاف.

١ - ٢ تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وحفص عن عاصم، وحمزة، والكسائي: «إيلاف قريش» إيلاف، على «إفعال» والهمزة الثانية ياء. وقرأ ابن عامر: «إيلاف»، على «إفعال» «إيلافهم»، على إفعال ياء في الثانية، وقرأ أبو بكر عن عاصم بهمزتين فيهما، الثانية ساكنة

قال أبو علي: وتحقيق عاصم هاتين الهمزتين لا وجه له، وقرأ أبو جعفر «إلفهم» بلام ساكنة.

وقريش: ولد النضر بن كنانة، والتقريش: التكبسب، تقول العرب: «ألف الرجل الأمر وألفه غيره إياه»، فالله تعالى ألف قريشاً، أي: جعلهم يألفون رحلتين في العام، واحدة في الشتاء وأخرى في الصيف، ويقال أيضاً: «ألف» بمعنى «ألف»، وأنشد أبو زيد:

مِنَ الْمُؤَلِّفَاتِ الرُّمْلُ أَدْمَاءُ حُرَّةٍ
شُعَاعُ الضُّحَى فِي جِيدِهَا يَتَوَضَّحُ
فإلف وإلاف مصدر «ألف»، وإيلاف مصدر «ألف»، قال بعض الناس: كانت الرحلتان إلى الشام في التجارة ونبل الأرباح، ومنه قول الشاعر:

سَفَرَيْنِ سَنَّهُمَا لَهُ وَلِغَيْرِهِ
سَفَرُ الشِّتَاءِ وَرِحْلَةُ الْأَصْيَافِ

السامع كل من تعرفه بهذه الصفة، وهَمَزَ أبو عمرو ﴿أَزَّيَّتْ﴾ - بخلاف عنه -، ولم يهَمْزها نافع وغيره. و«الدَّيْنُ»: الجزاء ثواباً وعقاباً، والحساب هنا قريب من الجزاء.

ثم قال تعالى: ﴿فَذَلِكِ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾، أي: راقب فيه هذه الخلال السيئة تجدها، و«دَعَى الْيَتِيمَ»: دَفَعَهُ بعنف، وذلك إما أن يكون المعنى: عن إطعامه والإحسان إليه، وإما أن يكون: عن حَقِّه وماله، فهذا أشد، وقرأ أبو رجاء: ﴿يَدْعُ﴾ بفتح الدال خفيفة، بمعنى: لا يُحَسِّنُ إليه، وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْضُرْ عَلَى طَعْمِ الْيَتِيمِ﴾، أي: لا يأمر بِصَدَقَةٍ، ولا يرى ذلك صواباً.

ويروى أن هذه السورة نزلت في بعض المضطربين في الإسلام بمكة الذين لم يُحَقِّقُوا فيه، وفَتِنُوا فافتتنوا، وكانوا على هذا الخُلُقِ من الغشم وغَلَطَ العشرة والفظاظة على المساكين، وربما كان بعضهم يصلي أحياناً مع المسلمين مدافعةً وحيرة، فقال الله تعالى فيهم: ﴿تَوْبِيلٌ لِّلصَّالِّينَ﴾ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ، وقال ابن جريج: كان أبو سفيان ينحر كل أسبوع جزوراً، فجاءه یتيم فقرعه بعضاً، فنزلت السورة فيه، قال سعد أبي وقاص رضي الله عنه: سألت النبي ﷺ عن الذين هم عن صلاتهم ساهون، قال: هم الذين يُؤَخِّرُونَهَا عن وقتها، يريد ﷺ - والله تعالى أعلم - تأخير تَرْكُ

هاتين الرحلتين لديناهم فليعبدوا ربَّ هذا البيت لأخترتهم، وقال قتادة: إِنَّمَا عُدَّتْ عليهم الرحلتان لأنهم كانوا يأمنون من الناس في سفرهم، والناس يُغَيِّرُ بعضهم على بعض، ولا تُمَكِّنُ قبيلاً من العرب أن يرحل آمناً كما تفعل قريش، فالمعنى: فليعبدوا الذي خصَّهم بهذه الحال فأطعمهم وآمنهم.

وقوله تعالى: ﴿مِن جُرُوعٍ﴾ معناه أن أهل مكة قاطنون بؤادٍ غير ذي زرع عُرْضَةٌ للجوع والجذب لولا لُطْفَ الله تعالى وأن جعله بدعوة إبراهيم عليه السلام تُجسبي إليه ثمرات كل شيء. وقوله تعالى: ﴿مِن حَوْبٍ﴾، أي: جعلهم - لِحِرْمَةِ البيت - مفضلين عند العرب، يأمنون والناس خائفون، ولولا فضل الله تعالى في ذلك لكانوا بمدرج المخاوف. وقال ابن عباس، والضحاك: ﴿وَأَمَّنَّهُم مِّن حَوْبٍ﴾ معناه: من الجُذَامِ، فلا ترى بمكة مجذوماً.

كامل تفسير سورة «قريش»
والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة الماعون

وهي مكية بلا خلاف علمته، وقال الثعلبي: هي مدنية.

① - ⑦ - تفسير قوله عز وجل:

هذا توقيف وتنبيه لتذكر نفس

وقال ابن عباس: كانت رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى بصرى من أرض الشام، وقال أبو صالح: كانت جميعاً إلى الشام، وقال ابن عباس أيضاً: كانوا يرحلون في الصيف إلى الطائف حيث الماء والظل، ويرحلون في الشتاء إلى مكة للتجارة وسائر أغراضهم، فهاتان رحلتا الشتاء والصيف، وقال الخليل بن أحمد: فمعنى الآية: لأن الله تعالى فعل بقريش هذا ومكنهم من إلتفيم هذه النعمة فليعبدوا ربَّ هذا البيت.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: و«ذَكَرُ الْبَيْتِ» هنا متمكن لتقدم حمايته في السورة التي قبلها.

وقال الأخفش وغيره: قوله تعالى: ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ متعلق بقوله سبحانه: ﴿فَمَكَّلَهُمْ كَعَصْبٍ مَّا كُورٍ﴾. أي: لِيَفْعَلَ بقريش هذه الأفاعيل الجميلة، وقال بعض المفسرين: معنى الآية: اعجبوا لإيلاف قريش هذه الأسفار وإعراضهم عن عبادة الله تعالى، ثم أمرهم تعالى بالعبادة بَعْدُ، وأعلمهم أن الله هو الذي أطعمهم وآمنهم لا سفرهم، والمعنى: فليعبدوا الذي أطعمهم بدعوة إبراهيم عليه السلام حيث قال: ﴿وَأَرْزَقَهُم مِّنَ الشَّرَائِبِ﴾، وآمنهم بدعوته حيث قال: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا﴾، ولا تشتغلوا بالأسفار فإنها طلب كسبٍ وعرضٌ دُنْيَا. وقال النقاش: كانت لهم أربع رحل، وهذا قول مردود، وقال عكرمة: معنى الآية كما أُلْفُوا

إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْحِطَّ الْأَعْظَمَ، قال سعيد بن جبیر: النهر الذي في الجنة هو من الخير الذي أعطاه الله تعالى إِيَّاهُ، فنعم ما ذهب إليه ابن عباس، ونعم ما تَمَّ ابن جبیر رضي الله عنهما، وأمر النهر ثابت في الآثار في حديث الإسراء وغيره، صلى الله على محمد وسلم، ونفعنا بما منحنا من الهداية به. وقال الحسن: الكوثر: القرآن، وقال أبو بكر بن عياش: هو كثرة الأصحاب والأشياء، وقال جعفر الصادق: نوز في قلبه دلُّه على الله تعالى وقطعه عما سواه، وقال أيضاً: هو الشفاعة، وقال هلال بن يساف: هو التوحيد.

وقوله تعالى: ﴿نَصَلَّ لِرَبِّكَ﴾ أمر بالصلاة على العموم، ففيه المكتوبات بشروطها، والنوافل على أثرها، والنَّحْر نحر الهدي والنسك في الضحايا في قول جمهور الناس، فكأنه تعالى قال: ليكن شغلك هذين، ولم يكن في ذلك الوقت جهاد، وقال أنس بن مالك: كان رسول الله ﷺ ينحر يوم الأضحى قبل الصلاة فأمر أن يصلي ثم ينحر، وقال قتادة، وقال القرطبي وغيره: في الآية طعن على كفار مكة، أي: أنهم يصلون لغير الله تعالى مُكَايَةً وَتَضَدِيَةً، وينحرون للأصنام، ونحوه، فافعل هذا أنت لربك تكن على صراط مستقيم.

وقال ابن جبیر: نزلت هذه الآية يوم الحُدَيْبِيَّةِ وقت صلح قريش، قيل لمحمد ﷺ: صلِّ وانحر الهدي،

العرب أن الماعونَ الماء، وقال ابن مسعود: كُنَّا نَعُدُّ الماعونَ على عهد رسول الله ﷺ عارية القِدْرِ والدلو ونحوها.

كامل تفسير سورة «الماعون»
والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الكوثر

وهي مكة.

① - ② - تفسير قوله عز وجل:
قرأ الحسن: ﴿إِنَّا أَنْطَيْنَاكَ﴾، وهي لغة في «أعطى»، قال النبي عليه الصلاة والسلام: «وَالْبَيْدُ الْمُنْتَبِئَةُ خَيْرٌ مِنَ السُّفْلَى»، وقال الأعشى:

جِيَادُكَ خَيْرُ جِيَادِ الْمَمْلُوكِ
تُصَانُ الْجِلَالُ وَتُنْطَى الشَّعِيرَا
قال أنس، وابن عباس، وابن عمر - رضي الله عنهم - وجماعة من الصحابة والتابعين: الكوثر نهر في الجنة، حافته قباب من دُرٍّ مجوف، وطينه مسك، وحصباؤه ياقوت، ونحو هذا من صفاته وإن اختلفت ألفاظ الرواة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما أيضاً: الكوثر: الخير الكثير.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: «كوثر» بناء مبالغة من الكثرة، ولا محالة أن الذي أعطى الله تعالى محمداً ﷺ من النبوة والحكمة والعلم بربه تعالى والفوز برضوانه والشرف على عباده هو أكثر الأشياء وأعظمها، فكأنه يقال في هذه الآية:

وإهمال، وإلى هذا نَحَا مجاهد، وقال قتادة: ﴿سَاهُونَ﴾ هم التاركون لها، أو هم الغافلون الذين لا يبالي أحدهم صلى أم لم يُصَلِّ، وقال عطاء بن يسار: الحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ﴾، ولم يقل: «في صلاتهم»، وفي قراءة ابن مسعود: ﴿لَاهُونَ﴾ بدل «سَاهُونَ».

وفي قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ هُمْ يُرْآؤُونَ﴾ بيان أن صلاة هؤلاء ليست لله تعالى بِنِيَّةِ إيمان، وإنما هي رياء للبشر، فلا يقول لها، وقرأ ابن أبي إسحق، وأبو الأشهب: ﴿يُرْؤُونَ﴾ مهموزة مقصورة مشددة الهمزة، وروى ابن أبي إسحق: ﴿يُرْؤُونَ﴾ بغير شد في الهمزة.

وقوله تعالى: ﴿وَيَتَعَوَّنَ الْمَاعُونَ﴾ وصف لهم بقلّة النفع لعباد الله، وتلك شرّ خلة، وقال علي بن أبي طالب وابن عمر رضي الله عنهم: الماعون: الزكاة، قال الراعي:

قَوْمٌ عَلَى الْإِسْلَامِ لَمَّا يَمْتَنِعُوا
مَاعُونَهُمْ وَيُضَيِّعُوا التَّهْلِيلَا
وقال ابن مسعود رضي الله عنه: هو ما يتعاطاه الناس بينهم كالفأس والدلو والآنية والمقصّ ونحوه، وقاله الحسن، وقتادة، وابن الحنفية، وابن زيد، والضحاك، وابن عباس، وقال ابن المسيّب: الماعون - بلغة قريش - المال، وسئيل النبي ﷺ: ما الشيء الذي لا يجلُّ منعه؟ فقال: «الماء والتار والملح»، روته عائشة رضي الله عنها، وفي بعض الطرق زيادة «والإبرة والخمير»، وحكى الفراء عن بعض

المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن المطلب، وأمّية بن خلف، وأبي بن خلف، وأبو جهل، وابنا الحجاج، ونظراؤهم ممن لم يُسلم بعد، ولرسول الله ﷺ معهم في هذه المعاني مقامات نزلت السورة في إحداها بسبب قولهم: هلّم نشترك في عبادة إلهك وإلهتنا، وزوي أنهم قالوا: اعبد إلهنا عاماً ونعبد إلهك عاماً، فأخبرهم عن أمره عزّ وجلّ أنّه لا يعبد ما يعبدون، وأنهم غير عابدين ما يعبد، فلما كان قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾

محتملاً أن يُراد به «الآن» ويبقى المستأنف منتظراً ما يكون فيه من عبادته جاء البيان بقوله: ﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ﴾ أي: أبداً وما حيث، ثم جاء قوله: ﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَّا أَعْبُدُ﴾ حتماً عليهم أنهم لا يؤمنون به أبداً كالذي كشف الغيب، فهذا كما قيل لنوح عليه السلام: ﴿أَنْتَ لَنْ يُؤْمِرَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ مَنَّ﴾، أما إن هذا في مُعَيَّنِينَ، وقوم نوح عموا بذلك، فهذا معنى التردد الذي في السورة، وهو بارع الفصاحة وليس بتكرار فقط، بل فيه ما ذكرته مع التأكيد والإبلاغ، وزاد الأمر بياناً وتبريراً منهم بقوله: ﴿لَكَرَّ دِينَكُمْ وَلِيَ دِينٍ﴾، وفي هذا المعنى الذي عرضت قريش نزل أيضاً: ﴿قُلْ أَغْبِرَ اللَّهُ تَأْمُرُونَ أَغْبُدُ أَبْنَاءَ الْجَاهِلُونَ﴾.

وقرأ أبو عمرو: ﴿وَلِيَ دِينٍ﴾ ساكنة الياء من [لي]، ونصبها الباقون - بخلاف عن كل واحد منهم - والقراءتان حسنتان، وأمال قوم ﴿عَابِدٌ﴾ و﴿عَبِيدُونَ﴾، وفتحها قوم، وهما حسنتان أيضاً، ولم يختلف

فهم غير نافع فيه. و«الشأنى»: المُبْغِضُ. وقال قتادة: الأبتَر يراد به هنا الحقير الذليل، وقال عكرمة: مات ابن النبي ﷺ فخرج أبو جهل يقول «بُتِرَ محمد»، فنزلت السورة، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: نزلت في العاص بن وائل، سُمي النبي ﷺ حين مات ابنه عبدالله: أبتَر.

كامل تفسير سورة «الكوثر» والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الكافرون

وهي مكية إجماعاً. (١) - (٦) تفسير قوله عزّ وجلّ: قرأ أبي بن كعب وابن مسعود: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾.

وزوي في سبب هذه السورة عن ابن عباس وغيره أن جماعة من عتاة قريش ورجالها قالوا للنبي ﷺ: دع ما أنت فيه ونحن نَمُوْلُكَ ونَرْوُجُكَ من شئت من كرائمنا، ونَمَلُكَ عَلَيْنَا، وإن لم تفعل فلتعبد إلهتنا ونعبد إلهك حتى نشترك، فحيث كان الخير نلناه جميعاً، هذا معنى قولهم ولفظهم، لكن للرواة زيادة ونقص. وزوي أن هذه الجماعة المذكورة هم: الوليد بن

وعلى هذا تكون الآية من المدني، وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: معنى الآية: صلّ لِزَيْكُ، وضع يمينك على شمالك عند تحرك في الصلاة، فالنحر - على هذا - ليس بمصدر نَحَرَ، بل هو الصدر، وقال آخرون: المعنى: ارفع يديك في استفتاح صلاتك عند تحرك.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ شَيْئَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ردّ على مقالة كان كثير من سفهاء قريش يقولها لئما لم يكن لرسول الله ﷺ ولد، فكانوا يقولون: هو أبتَر، يموت فنستريح منه، ويموت أمره يموت، فقال الله تعالى - وقوله الحق -: ﴿إِنَّكَ شَيْئَانِكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، أي: المقطوع المبتور من رحمة الله تعالى، ولو كان له بنون



الجمهور: المراد جميع وفود العرب؛ لأنهم قالوا: إذ فتح الحرم لمحمد، وقد حماه الله تعالى من الحيشة وغيرهم، فليس لكم به يدان. وذكر جابر بن عبد الله فُرقة الصحابة فبكى، وقال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «دخل الناس في الدين أفواجاً وسيخرجون منه أفواجاً».

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ قَوَّامًا﴾ بِعَقَبٍ ﴿وَأَسْتَفْرَهُ﴾ تَرْجِيَةً عظيمة للمستغفرين، جعلنا الله تعالى منهم، وحكى النقاش عن ابن عباس رضي الله عنهما أن التَّضَرُّ هو صلح الحُدَيْبِيَّة، وأن الفتح هو فتح مكة، وقال ابن عمر: نزلت هذه السورة على النبي ﷺ بمنى في وسط أيام التشريق، في حجة الوداع، وعاش بعدها ثمانين يوماً أو نحوها، ﷺ.

كامل تفسير سورة «النصر»
والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة المسد

وهي مكية بإجماع.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

رُوي في الحديث أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ قال: «يا صفية بنت عبدالمطلب،

عائشة رضي الله عنها عن النبي عليه الصلاة والسلام، وأنه ﷺ لما فتحت مكة وأسلم العرب جعل يكثر أن يقول: «سبحان الله وبحمده، اللهم إِنِّي أَسْتَغْفِرُكَ»، يتأول القرآن في هذه السورة وقال لها مرة: ما أراه إلا حضور أجلي، وتأوله عمر والعباس رضي الله عنهما بحضرة النبي ﷺ فصدقهما.

و «التَّضَرُّ» الذي رآه رسول الله ﷺ غلبته لقريش وهوازن وغير ذلك، و«الْفَتْحُ» هو فتح مكة والطائف ومدن الحجاز وكثير من اليمن، و«دخول الناس في دين الله أفواجاً»؛ كان من فتح مكة إلى موت رسول الله ﷺ. قال أبو عمر بن عبد البر رحمه الله في كتابه «الاستيعاب في الصحابة»، في باب أبي خراش الهذلي: لم يمت رسول الله ﷺ وفي العرب رجل كافر، بل دخل الكل في الإسلام بعد حُتَيْن والطائف، منهم من قديم، ومنهم من قدم وافده، ثم كان بعده ﷺ من الرُّدَّة ما كان، ورجعوا كلهم إلى الدين.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: والمراد - والله أعلم - العرب عبدة الأوثان، وأما نصارى بني تغلب فما أراهم أسلموا قط في حياة رسول الله ﷺ، لكن أعطوا الجزية.

و «الأفواج»: الجماعة إثر الجماعة، وكما قال تعالى: ﴿كَلَّمَآ أَلْتَقَى فِيهَا فَوْجٌ﴾. قال مقاتل: المراد به «النَّاسُ» أهل اليمن، وقد منهم سبعمائة رجل، وقاله عكرمة، وقال

السبعة في حذف الياء من (دين)، وأثبتها سلام، ويعقوب في الوصل والوقف، وقال بعض العلماء: في هذه الألفاظ مُهَادَنَةٌ مَّا، وهي منسوخة بآية القتال.

كامل تفسير سورة «الكافرون»
والحمد لله رب العالمين

تفسير

سورة النصر

وهي مدنية إجماعاً.

① - ② تفسير قوله عز وجل:

قرأ ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿إِذَا جَاءَ التَّضَرُّ وَالْفَتْحُ﴾، وسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه جمعاً من الصحابة والأشياخ وبالْحَضْرَةِ ابْنِ عَبَّاسٍ، رضي الله عنهم، عن معنى هذه السورة وسببها، فقالوا كلهم: مقتضى ظاهر ألفاظها أن رسول الله ﷺ أمر عند الفتح التي فتحت عليه - مكة وغيرها - بأن يسبح ربه ويحمده ويستغفره، فقال لابن عباس: فما تقول أنت يا ابن عباس؟ فقال: هو أجل رسول الله ﷺ، أعلمه الله تعالى بِقُرْبِهِ إِذَا رَأَى هَذِهِ الْأَشْيَاءَ، فقال عمر رضي الله عنه: ما أعلم منها إلا ما ذكرت. وهذا المنزع الذي ذكره ابن عباس ذكره ابن مسعود وأصحابه، ومجاهد وأصحابه، وقتادة، والضحاك، وروت معناه

أي: عذاب ذلك المكلف، لقصة أبي لهب. وقرأ الجمهور: ﴿سَيَصْلَى﴾ بفتح الباء، وقرأ ابن كثير، والحسن، وابن مسعود بضمها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾، هي أم جميل، أخت أبي سفيان بن حرب، عمة معاوية بن أبي سفيان. وعطف قوله تعالى: ﴿وَأَمْرَأَتُهُ﴾ على الضمير المرفوع دون أن يؤكد الضمير بسبب الحائل الذي ناب مناب التأكيد، وكانت أم جميل هذه مؤذبة لرسول الله ﷺ وللمؤمنين بلسانها وغاية قدرتها، وقال ابن عباس: كانت تجيء بالشوك فتطرحه في طريق النبي ﷺ وطريق أصحابه ليعقرهم، فبذلك سُميت حمالة الحطب، وعلى هذا التأويل ف ﴿حَمَّالَةٌ﴾ معرفة يرادُ به الماضي. وقيل: إن قوله تعالى: ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ استعارة لذنوبها التي تحطبها على نفسها لأخرتها، ف ﴿حَمَّالَةٌ﴾ - على هذا - نكرة يرادُ به الاستقبال، وقيل: هي استعارة لسعيها على الدين والمؤمنين، كما تقول: «فلان يحطب على فلان»، فكانت هي تحطب على المؤمنين، وفي حبل المشركين، وقال الشاعر:

إِنَّ بَنِي الْأَدْرَمِ حَمَّلُوا الْحَطَبَ
هُمُ الْوُشَاةُ فِي الرُّضَا فِي الْعُضْبِ
وقرأ ابن مسعود: ﴿وَمُرْتَضَتْهُ﴾.
وقرأ الجمهور: ﴿حَمَّالَةٌ﴾ بالرفع،

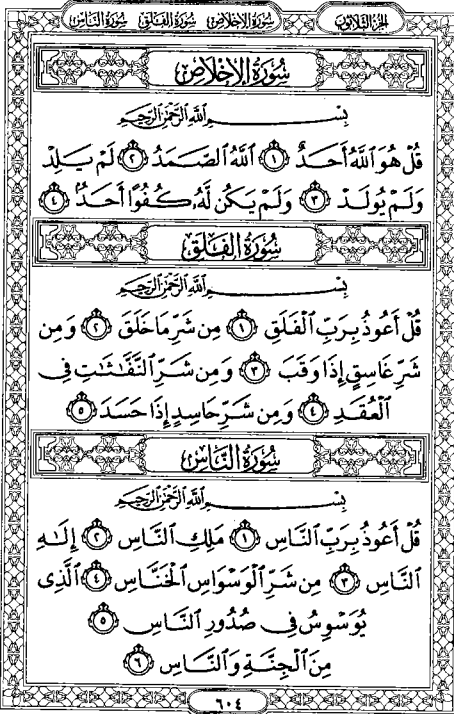
لم تُغن عنه شيئاً حين حُتم عذابه بعد موته، ويحتمل أن تكون [ما] استفهاماً على وجه التقرير، أي: أين الغناء الذي لِمَالِهِ وَلِكُشْيِهِ؟ و﴿وَمَا كَسَبَ﴾ يُرادُ به عرض الدنيا من عقار ونحوه، أو ليكون الكلام دالاً على أنه تعب في تكشبه، لم يجنّه عفواً بميراث وهبة ونحوه. وقال كثير من المفسرين: المراد بـ ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ بنوه، فكأنه تعالى قال: ما أغنى عنه ماله وولده، وقد قال رسول الله ﷺ: «خير ما كسب الرجل من عمل يده، وإن ولد الرجل من كسبه». وروى أن أولاد أبي لهب اختصموا عند ابن عباس رضي الله عنهما فتنازعوا وتدافعوا، فقام ابن عباس يحجز بينهم فدفعه أحدهم فوق علي فراشه، وكان قد كُفَّ بصره، فغضب وصاح: أخرجوا عني الكسب الخبيث، وقرأ أبي بن كعب، والأعمش: ﴿وَمَا اكْتَسَبَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ حُتم عليه بالنار، وإعلامٌ بأنه يوافي على كفره، وانتزع أهل العلم بالأصول من هذه الآية جواز تكليف ما لا يطاق، وأنه موجود في قصة أبي لهب، وذلك أنه مخاطب مكلف أن يؤمن بمحمد ﷺ، ومكلف أن يؤمن بهذه السورة وصحتها، فكأنه قد كلف أن يؤمن، وأن يؤمن بأنه لا يؤمن، قال الأصوليون: ومتى ورد تكليف ما لا يطاق فهي أمارة من الله تعالى أنه قد حُتم عذابه،

يا فاطمة بنت محمد، لا أملك لكما من الله شيئاً، سلاني من مالي ما شئتما، ثم صعد الصفا ونادى بطون قريش: «يا بني فلان، يا بني فلان»، وروي أنه صاح بأعلى صوته: «يا صباحاه»، فاجتمعوا إليه من كل وجه، فقال لهم: «أرأيتم لو قلت لكم: إني أنذركم خيلاً بسفح هذا الجبل، أكنتم مصدقني؟» قالوا: نعم، فقال: «إني لكم نذير بين يدي عذاب شديد»، فقال أبو لهب: تباً لك اليوم: ألهذا جمعنا؟ فافترقوا عنه، ونزلت هذه السورة.

﴿تَبَّتْ﴾ معناه: خسرث، والتَّبَابُ: الخُسران والدمار، وأسند ذلك إلى اليدين من حيث اليد موضع الكسب والريح وضَمَّ ما يملك، ثم أوجب تعالى عليه أنه قد تبَّ، أي: حُتم ذلك عليه، وفي قراءة عبدالله بن مسعود: ﴿تَبَّتْ يدا أبي لهبٍ، وقد تبَّ﴾. وأبو لهب هو عبدالعزى بن عبدالمطلب، وهو عم النبي ﷺ، ولكن سبقت له الشقاوة. وقرأ ابن كثير، وابن محيصن: ﴿أبي لهبٍ﴾ بسكون الهاء، وقرأ الباقون بتحريك الهاء، ولم يختلفوا في فتحها في ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾.

وقوله تعالى: ﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ يحتمل أن تكون [ما] نافية، ويكون الكلام خيراً عن أن جميع أحواله الدنيوية



في المسجد، فقالت: يا أبا بكر، بلغني أن صاحبك هجاني، ولأفعلن ولأفعلن، وإني لشاعرة، وقد قلت فيه:

مُذْمُومًا قَلَيْنَا
وَدَيْئَةً أَبَيْنَا
فسكت أبو بكر، ومضت هي، فقال رسول الله ﷺ: «لقد حجبتني عنها ملائكة فما رأتنني، وكفى الله شرها».

كمل تفسير سورة «المسد»
والحمد لله رب العالمين

وقرأ عاصم: ﴿حَمَّالَةٌ﴾ بالنصب على الذم، وهي قراءة الحسن والأعرج وابن محيصن، وقرأ ابن مسعود: ﴿حَمَّالَةٌ لِلْحَطْبِ﴾ بالرفع ولام الجر وقرأ أبو قلابة: ﴿حَامِلَةٌ﴾ بكسر الميم بعد الألف.

قوله تعالى: ﴿فِي جِدِّهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾، قال ابن عباس، والضحاك، والسدي، وابن زيد: الإشارة إلى الحبل حقيقة، وهو الذي ربطت به الشوك وخطبه، قال السدي: والمسد: اللئيف، وقيل: لئيف المفل، ذكره أبو الفتح، وقال ابن زيد: هو شجر باليمن يُسَمَّى المسد، تصنع منه الحبال، وقال النابغة:

مقدوفةٌ بدخيس النُّحُضِ بازَلِهَا
لَهُ صَرِيْفٌ صَرِيْفٌ الْقَعْوِ بِالْمَسَدِ
القعو: البكرة، والمسد: الحبل. وقال عروة بن الزبير، ومجاهد، وغيرهما: هذا الكلام استعارة، والمراد: سلسلة من حديد في جهنم، ذزعها سبعون ذراعاً، ونحو هذا من العبارات، وقال قتادة: ﴿حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾: قلادة من ودع، قال ابن المسيب: كانت لها قلادة فاخرة فقالت: لأتفقنّها على عداوة محمد.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: فإنما عبّر عن قلادتها بحبل من مسدٍ على جهة التفاؤل لها، وذكر تبرجها في هذا السعي الخبيث، وزوي في الحديث أن هذه السورة لما نزلت وقرئت بلغت أم جميل، فجاءت أبا بكر رضي الله عنه وهو مع النبي ﷺ

تفسير سورة الإخلاص

هذه السورة مكية، قاله مجاهد - بخلاف عنه - وعطاء وقتادة، وقال ابن عباس، والقرطبي، وأبو العالية: هي مدنية.

﴿١﴾ - ﴿٢﴾ تفسير قوله عز وجل:

قرأ عمر بن الخطاب، وابن مسعود، والربيع بن خيثم: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ﴾، وروى أبي بن كعب أن المشركين سألوا رسول الله ﷺ عن نسب ربه - تعالى عما يقول الجاهلون - فنزلت هذه السورة، وروى ابن عباس أن اليهود دخلوا على النبي ﷺ فقالوا له: يا محمد، صف لنا ربك وانسبه، فإنه

وصف نفسه في التوراة ونسبها، فارتعد رسول الله ﷺ حتى خر مغشياً عليه، ونزل عليه جبريل عليهما السلام بهذه السورة، وقال أبو العالية وقال قتادة: قالت الأحزاب لرسول الله ﷺ: انسب لنا ربك، فأناه الوحي بهذه السورة.

﴿١﴾ معنى: واحد فرد من جميع جهات الوجدانية ليس كمثل شيء، ﴿٢﴾ هو ابتداء، ﴿٣﴾ ابتداء ثان، ﴿٤﴾ خبره، والجملة خبر الأول، وقيل: ﴿هو﴾ ابتداء، ﴿الله﴾ خبره، ﴿أحد﴾ بدل منه، وحذف أبو عمرو التنوين من [أحد] لالتقاء الساكنين فقرأ: ﴿الله أحد الله﴾، وأثبته الباقون مكسوراً للالتقاء، وأما وقفهم كلهم فبسكون الدال، وقد روي عن أبي عمرو الوصل بسكون

تفسير سورة الفلق

هذه السورة قال ابن عباس: هي مدينة، وقال قتادة: هي مكة.

١ - ٥ تفسير قوله عز وجل: الخطاب للنبي ﷺ، والمراد هو وآحاد أمته.

وقال ابن عباس، وابن جبير، والحسن، والقرطبي، ومجاهد، وقتادة، وابن زيد: «الْفَلَقُ»: الصبح، كقوله تعالى: «فَالِقُ الْإِصْبَاحِ»، وقال ابن عباس أيضاً وجماعة من الصحابة والتابعين: «الْفَلَقُ: جُبُّ فِي جَهَنَّمَ»، ورواه أبو هريرة عن النبي ﷺ.

وقوله تعالى: «مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ» يعلم كل موجود له شرٌّ. وقرأ عمرو بن عبيد وبعض المعتزلة القائلين بأن الله تعالى لم يخلق الشرَّ: «مِنْ شَرِّ» بالتنوين «مَا خَلَقَ» على النفي، وهذه قراءة مردودة، مبنية على مذهب باطل، فالله تعالى خالق كل شيء.

واختلف الناس في «الغاسِقِ» إذا وقب - فقال ابن عباس، ومجاهد والحسن: الغاسق: الليل، ووقب: أظلم ودخل على الناس، وقال الشاعر:

إِنْ هَذَا اللَّيْلُ قَدْ غَسَقَا
وَشَكَّوْثُ الْهَمِّ وَالْأَرْقَا
وقال محمد بن كعب: [غاسق]: النهارُ إِذَا وَقَبَ أَي: دخل في الليل، وقال ابن زيد عن العرب: الغاسق: سقوط الثرى، وكانت

وقوله تعالى: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» معناه: ليس له ضد ولا ند ولا شبيه، والكفؤ والكفؤ والكفؤ والكفؤ: النظير، وقرأ: «كُفُوًا» - بضم الكاف وهمز مسهل - نافع، والأعرج، وأبو جعفر، وشيبة. وقرأ بالهمز عاصم، وأبو عمرو - بخلاف عنه -، وقرأ حمزة، وأبو عمرو: «كُفُوًا» بالهمز وإسكان الفاء، وروي عن نافع: «كُفُوفًا» بفتح الفاء وبغير همز، وقرأ سليمان بن علي بن عبدالله بن عباس: «وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كِفَاءٌ» بكسر الكاف وفتح الفاء والمد، و«كُفُوًا» خبر «كَانَ»، واسمها «أَحْيَى»، والظرف ملغى، وسيبويه رحمه الله تعالى يستحسن أن يكون الظرف - إذا تقدم - خبراً، ولكن قد يجيء ملغى في أماكن يقتضيها المعنى كهذه الآية، وكما قال الشاعر - أشده سيبويه -:

مَادَامَ فِيهِنَّ فَصِيلٌ حَيًّا
ويحتمل أن يكون «كُفُوًا» حال لما تقدم من كونه وصفاً للنكرة، كما قال:

لِعَسْرَةَ مُوجِشًا طَلَّلَ

قال سيبويه: هذا يقل في الكلام، وبابه الشعر، وقال رسول الله ﷺ: «إِنْ قُلَّ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ» تعدل ثلث القرآن.

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لما فيها من التوحيد.

كامل تفسير سورة «الإخلاص»
والحمد لله رب العالمين

الدال، وزوي عنه أيضاً تنوينها. و«الصَّمَدُ» في كلام العرب: السيد الذي يَصْمَدُ إليه في الأمور ويستقل بها، وأنشدوا:

أَلَا بَكَرَ النَّاعِي بِخَيْرِي بَنِي أَسَدٍ
بِعَمْرٍو بْنِ مَسْعُودٍ وَبِالسَّيِّدِ الصَّمَدِ
وبهذا تتفسر هذه الآية؛ لأن الله تعالى جلَّت قدرته هو مُوجِد الموجودات، وإليه تصمد، وبه قوامها، ولا عَيْتُ بنفسه إلا هو سبحانه تبارك وتعالى. وقال كثير من المفسرين: الصَّمَدُ: الذي لا جوف له، كأنه بمعنى: المصمت، وقال الشعبي: هو الذي لا يأكل ولا يشرب. وفي هذا التفسير كله نظر؛ لأن الجسم في غاية البعد عن الله تعالى وعن صفاته، فما الذي يُعطينا هذه العبارات؟ و«اللَّهُ الصَّمَدُ» ابتداءً وخبر وقيل: «الصَّمَدُ» نعت والخبر فيما بعد.

وقوله تعالى: «لَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ» ردُّ على إشارة الكفار في النسب الذي سألوه، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في ذات الله عز وجل».

قال القاضي أبو محمد رحمه الله: لأن الألفهام تقف دون ذلك حسيرة، والمؤمنون يعرفون الله تعالى بواجب وجوده، وافتقار كل شيء إليه، واستغنائه عن كل شيء، وينفي العقل عنه كل ما لا يليق به عز وجل، وأن ليس كمثل شيء، وكل ما ذكرته فهو في ضمن هذه السورة الوجيزة البليغة.

شهووات النفس وتَسْوَلُه، وذلك هو الهوى الذي نُهي المرءُ عن أتباعه، وأمر بمعصيته، والغضب الذي وصى رسولُ الله ﷺ بطرحه وتزكته حين قال له رجلٌ: أوصني، فقال: «لا تغضب»، قال: زدني، قال: «لا تغضب».

وقوله تعالى: ﴿الْحَنَافِئُ﴾ معناه: الراجع على عقبيه، المستتر أحياناً، وذلك في الشيطان متمكن إذا ذكّر العبدُ الله تعالى وتَعَوَّذَ، وتَذَكَّرَ فأبصر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّكَ الْبَصِيرُ﴾ أَتَقَوَّأُ إِذَا مَسَّهْمُ عَلَيَّ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ﴿١٠﴾، وإذا فرضنا ذلك في الشهوات والغضب ونحوهما فهو يَخِينُ بتذكُّر النفس اللُّؤَامَةِ، ويَلْمَعُ المَلَكُ، ويَأْنُ الحَيَاءُ يردُّعُ والإيمان يردع بقوة، فَتَخِينُ تلك العوارض المتحركة، وتقمع عند من أعين بتوفيق الله، وقد اندرج هذان المعنيان من الوسواس في قوله تعالى: ﴿مِنَ اللَّيْتِ وَالنَّاسِ﴾، أي: من الشياطين ونفس الإنسان.

ويظهر أيضاً أن يكون قوله تعالى: ﴿وَالنَّاسِ﴾ يُراد به من يوسوس بخدعة من البشر، ويدعو إلى الباطل، فهو في ذلك كالشيطان.

وكلهم قرأ: ﴿النَّاسِ﴾ غير مُمَالَةٍ، وروى الدوري عن الكسائي أنه أمال النون من [الناس] في حال الخفض، ولا يُميل في الرفع والنصب.

وقالت عائشة رضي الله عنها: (كان رسول الله ﷺ إذا أوى إلى فراشه جمع كفيه ونفت فيهما، وقرأ: «قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، وَالْمَعُودِيَّتَيْنِ»، ثم مسح بهما ما

كيف قدر؛ لأنه عدوٌ مجدٌ ممتحن، وقال الشاعر:

كُلُّ الْعَدَاوَةِ قَدْ تَزَجَّى إِمَاتِئِهَا
إِلَّا عَدَاوَةَ مَنْ عَادَاكَ مِنْ حَسَدِ
وعين الحاسد في الغالب لاقفةٌ،
نعوذ بالله عزَّ وجلَّ من شرِّها، قال
الشاعر:

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ
طَوَيْتَ أُنَاحَ لَهَا لِسَانَ حُسُودِ
الحَسَدُ في الاثنين اللَّئِينِ قال
رسول الله ﷺ حَسَدٌ مُسْتَحْسَنٌ غير
ضار، وإنما هو باعث على خير.

وهذه السورة خمس آيات، فقال بعض الحدائق هي مرادُ الناس بقولهم للحاسد إذا نظر إليهم: الخمس على عينيك وقد غلظت العامة في هذا فيشيرون بالأصابع لكونها خمسة. وأمال أبو عمرو «حاسد»، والباقون يفتحون الحاء، وقال الحسن بن الفضل: ذكر الله تعالى الشرور في هذه السورة ثم ختمها بالحسد ليظهر أنه أخسُّ طبع.

كامل تفسير سورة «الفلق» والحمد لله رب العالمين

تفسير سورة الناس

قال ابن عباس وغيره: هي مدنية، وقال قتادة: هي مكية.

١ - ٦ تفسير قوله عزَّ وجلَّ: «الْوَسْوَاسَ» اسم من أسماء الشيطان، وهو أيضاً ما تُوسوس به

الأسقام والطاعون تهيج عنده، وقال عليه الصلاة والسلام: «النجم هو الغاسق»، فيحتمل أن يريد الثريا، وقال عليه السلام لعائشة رضي الله عنها - وقد نظر إلى القمر -: «تعوذني بالله من شرِّ غاسق إذا وقب، فهذا هو»، وقال القتيبي وغيره: هو البدرُ إذا دخل في ساهوره فخسف، وقال الزهري: الغاسق إذا وقب: الشمس إذا غربت، و«وقب» في كلام العرب: دخل (.....).

و «الْفَأَنَاتُ فِي الْعُقَدِ»: السواحر، ويقال: إن الإشارة أولاً إلى بنات لبيد بن الأعصم اليهودي، كُنَّ ساحرات، وهنَّ اللواتي سحرن النبي ﷺ، وعقدن له إحدى عشرة عقدة، فأنزل الله تعالى إحدى عشرة آية بعدد العقد هي المعوذتان، فشفي النبي ﷺ، و«الثَّفَثُ»: شبه النفخ دون تفل ريق، وهذا الثَّفَثُ هو على عُقْدٍ تُعْقَدُ في خيوط ونحوها على اسم المسحور فيؤذَى بذلك، وهذا الشأن في زماننا موجود شائع في صحراء المغرب، وحدثني ثقة أنه رأى عند بعضهم خيطاً أحمر قد عُقِدَتْ فيه عقد على فُضْلَانِ، فمَنَعَتْ بذلك رضاعَ أمهاتها، فكان إذا حلَّ عُقْدَةٌ جرى ذلك الفصيل إلى أمه في الحين فوضع، أعادنا الله تعالى من شرِّ السحر بقدرته. وقرأ عبد الله بن القاسم، والحسن، وابن عمر: «النافثات».

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾، قال قتادة: من شرِّ عينه ونفسه، يريد السعي الخبيث والإذابة

كامل تفسير سورة «الناس»
والحمد لله رب العالمين

تعالى: إِنَّ من الناس شياطين، ومن
الجن شياطين، فتعوذوا بالله عزَّ
وجلَّ من شياطين الإنس والجن.

استطاع من جسده، يبدأ برأسه
ووجهه وما أقبل من جسده، يفعل
ذلك ثلاثاً). وقال قتادة رحمه الله

فهرس

الصفحة	السورة
١	مقدمة مجد مكى
١٣	مقدمة المؤلف
٣٤	القول في تفسير بسم الله الرحمن الرحيم
٣٩	تفسير سورة الفاتحة
٤٩	تفسير سورة البقرة
٢٧١	تفسير سورة آل عمران
٣٩٦	تفسير سورة النساء
٥٠٤	تفسير سورة المائدة
٦٠٠	تفسير سورة الأنعام
٦٨٢	تفسير سورة الأعراف
٧٧٤	تفسير سورة الأنفال
٨٢٢	تفسير سورة التوبة
٨٩٥	تفسير سورة يونس
٩٢٩	تفسير سورة هود
٩٧٧	تفسير سورة يوسف
١٠٢٦	تفسير سورة الرعد
١٠٤٥	تفسير سورة إبراهيم
١٠٦٣	تفسير سورة الحجر
١٠٨٢	تفسير سورة النحل
١١٢٥	تفسير سورة الإسراء
١١٧٣	تفسير سورة الكهف

الصفحة	السورة
١٢١٧	تفسير سورة مريم
١٢٤٤	تفسير سورة طه
١٢٧٣	تفسير سورة الأنبياء
١٢٩٨	تفسير سورة الحج
١٣٢٤	تفسير سورة المؤمنون
١٣٤٢	تفسير سورة النور
١٣٧٤	تفسير سورة الفرقان
١٣٩٤	تفسير سورة الشعراء
١٤١٢	تفسير سورة النمل
١٤٣٢	تفسير سورة القصص
١٤٥٤	تفسير سورة العنكبوت
١٤٧٠	تفسير سورة الروم
١٤٨٣	تفسير سورة لقمان
١٤٩٢	تفسير سورة السجدة
١٤٩٩	تفسير سورة الأحزاب
١٥٢٧	تفسير سورة سبأ
١٥٤٤	تفسير سورة فاطر
١٥٥٦	تفسير سورة يس
١٥٧١	تفسير سورة الصافات
١٥٨٩	تفسير سورة ص
١٦٠٨	تفسير سورة الزمر
١٦٢٧	تفسير سورة غافر
١٦٤٥	تفسير سورة فصلت
١٦٦٠	تفسير سورة الشورى
١٦٧٤	تفسير سورة الزخرف
١٦٩٠	تفسير سورة الدخان
١٦٩٧	تفسير سورة الجاثية
١٧٠٥	تفسير سورة الأحقاف
١٧١٧	تفسير سورة محمد ﷺ
١٧٢٨	تفسير سورة الفتح

الصفحة	السورة
١٧٤٠	تفسير سورة الحجرات
١٧٤٨	تفسير سورة ق
١٧٦٠	تفسير سورة الذاريات
١٧٦٩	تفسير سورة الطور
١٧٧٧	تفسير سورة النجم
١٧٨٩	تفسير سورة القمر
١٧٩٧	تفسير سورة الرحمن
١٨٠٧	تفسير سورة الواقعة
١٨١٩	تفسير سورة الحديد
١٨٣٠	تفسير سورة المجادلة
١٨٣٨	تفسير سورة الحشر
١٨٤٥	تفسير سورة الممتحنة
١٨٥٢	تفسير سورة الصف
١٨٥٥	تفسير سورة الجمعة
١٨٥٨	تفسير سورة المنافقون
١٨٦٢	تفسير سورة التغابن
١٨٦٦	تفسير سورة الطلاق
١٨٧١	تفسير سورة التحريم
١٨٧٦	تفسير سورة الملك
١٨٨١	تفسير سورة القلم
١٨٨٩	تفسير سورة الحاقة
١٨٩٥	تفسير سورة المعارج
١٩٠١	تفسير سورة نوح
١٩٠٥	تفسير سورة الجن
١٩١١	تفسير سورة المزمل
١٩١٥	تفسير سورة المدثر
١٩٢٢	تفسير سورة القيامة
١٩٢٧	تفسير سورة الإنسان
١٩٣٣	تفسير سورة المرسلات
١٩٣٨	تفسير سورة النبأ

الصفحة	السورة
١٩٤٣	تفسير سورة النازعات
١٩٤٧	تفسير سورة عبس
١٩٥١	تفسير سورة التكوير
١٩٥٤	تفسير سورة الانفطار
١٩٥٥	تفسير سورة المطففين
١٩٦٠	تفسير سورة الانشقاق
١٩٦٣	تفسير سورة البروج
١٩٦٦	تفسير سورة الطارق
١٩٦٨	تفسير سورة الأعلى
١٩٧١	تفسير سورة الغاشية
١٩٧٤	تفسير سورة الفجر
١٩٧٩	تفسير سورة البلد
١٩٨٢	تفسير سورة الشمس
١٩٨٤	تفسير سورة الليل
١٩٨٦	تفسير سورة الضحى
١٩٨٧	تفسير سورة الشرح
١٩٨٩	تفسير سورة التين
١٩٩١	تفسير سورة العلق
١٩٩٣	تفسير سورة القدر
١٩٩٥	تفسير سورة البينة
١٩٩٦	تفسير سورة الزلزلة
١٩٩٩	تفسير سورة العاديات
٢٠٠٠	تفسير سورة القارعة
٢٠٠١	تفسير سورة التكاثر
٢٠٠٣	تفسير سورة العصر
٢٠٠٣	تفسير سورة الهمزة
٢٠٠٤	تفسير سورة الفيل
٢٠٠٥	تفسير سورة قريش
٢٠٠٦	تفسير سورة الماعون
٢٠٠٧	تفسير سورة الكوثر

الصفحة	السورة
٢٠٠٨	تفسير سورة الكافرون
٢٠٠٩	تفسير سورة النصر
٢٠٠٩	تفسير سورة المسد
٢٠١١	تفسير سورة الإخلاص
٢٠١٢	تفسير سورة الفلق
٢٠١٣	تفسير سورة الناس
٢٠١٥	الفهرس

